الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد التاسع عشر

الاجزاء من ٣٥٧ الى ٣٧٥

ٱلْحَاوِي فِي ٱلتَّقْسِيمِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
357	سورة يونس	الآية 3 الى الآية 5	2
358	=	الآية 6 الى الآية 15	294
359	=	الآية 16 الى الآية 23	738
360	=	الآية 24 الى الآية 30	1179
361	=	الآية 31 الى الآية 41	1656
362	=	الآية 42 الى الآية 49	2046
363	=	الآية 50 الى الآية 52	2251
364	=	الآية 53 الى الآية 61	2630
365	=	الآية 62 الى الآية 65	2998
366	=	الآية 66 الى الآية 70	3343
367	=	الآية 71 الى الآية 82	3562
368	=	الآية 83 الى الآية 92	3868
369	=	الآية 93 الى الآية 101	4375
370	=	الآية 102 الى الآية 109	4671
371	سورة هود	فصول مهمة	5179
372	=	فصل في الوقف والابتداء	5558
373	=	الآية 1 الى الآية 8	5901
374	=	الآية 9 الى الآية 16	6331
375	=	الآية 17 الى الآية 22	6666

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والخمسون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/357)

الجزء السابع والخمسون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 3 ﴾ من سورة يونس عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 5 ﴾ من نفس السورة

(4/357)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

شرع سبحانه يقيم الدليل على بطلان قولهم من أنه – مع ما تضمنه من البعث – سحر ، وعلى حقيقة أنه من عنده من غير شبهة ، وعلى أن الرسالة لا عجب فيها ، لأنه سبحانه خلق الوجود كله وهو نافذ الأمر فيه وقد ابتلى من فيه من العقلاء ليردهم إليه ويحاسبهم فإنه لم يخلقهم سدى لأنه حكيم ، فلا بد من رسول يخبرهم بما يرضيه وما يغضبه لتقوم بذلك الحجة فقال : ﴿ إن ربكم ﴾ أي الموجد لكم والمربي والمحسن ﴿ الله ﴾ أي من ربى شيئاً

ينبغي أن يكون حكيماً وقادراً على أسباب صلاحه ، فأيقظوا أنفسكم من سنة غفلتها تعلموا أن هذا الكتاب من عند الذي له العظمة كلها قطعاً ، وأنه قادر على بعثكم لأنه ربكم ﴿ الذي ﴾ بدأ الخلق بأن ﴿ خلق ﴾ أي قدر وأوجد ﴿ السماوات والأرض ﴾ على اتساعهما وكثرة ما فيهما من المنافع ﴿ في ستة أيام ﴾ لحكمة أرادها على أن ذلك وقت يسير لا يفعل مثل ذلك في مثله إلا من لا يعجزه شيء .

ولما أوجد سبحانه هذا الخلق الكثير المتباعد الأقطار الواسع الانتشار المفتقر إلى عظيم التدبير ولطيف التصريف والتقدير ، عبر سبحانه عن عمله فيه عمل الملوك في ممالكهم بقوله مشيراً إلى عظمته بأداة التراخي : ﴿ ثم استوى ﴾ أي عمل في تدبيره وإتقان ما فيه وإحكامه عمل المعتني بذلك ﴿ على العرش ﴾ المتقدم وصفه بالعظمة ، وليست " ثم " للترتيب بل كناية عن علو الرتبة وبعد منالها ؛ ثم بين ذلك الاستواء بقوله : ﴿ يدبر ﴾ لأن التدبير أعدل أحوال الملك فالاستواء كناية عنه ﴿ الأمر ﴾ كله فلا يخفي عليه عاقبة أمر من الأمور ، فحصل الأمن بهذا من أن يفعل شيء بغير علمه ، لأن التدبير تنزيل الأمور في مراتبها على إحكام عواقبها ، وهو مع ذلك منزه عما تعرفونه من أحوال الملوك من أنه يكون في ممالكهم من يقضي بعض الأمور بغير إذن منهم وإن علموا به لعجزهم عن المجاهرة بإدامة دفعه ، بل هو متصف بأنه ﴿ ما من شفيع ﴾ أي وإن كان بليغ الاتصاف بذلك .

ولما كان تمام قهره وعظيم سلطانه لا يفيد أحداً عند إذنه له إذناً عاماً لجميع الأزمان والأماكن ، أتى بالجار فقال : ﴿ إلا من بعد إذنه ﴾ فإذا لم يقدر شفيع على الكلام في الشفاعة إلا بإذنه فكيف يقدر أحد أن يأتي بشيء من الأشياء بغير إذنه فكيف يأتي بكتاب حكيم ليس من عنده يعجز الخلق عن معارضته ، فحصل الأمن أن يكون غيره قاله أو شفع فيمن أبلغه فأبلغه من غير إرادة منه سبحانه ، فتحرر أنه ليس إلا من عنده وأنه أمر بإبلاغه ، وقد عرف من هذا أن ﴿ ما من شفيع ﴾ في موضع الدلالة على أنه لا يخرج عن تدبيره أمر من الأمور ولا يغلبه شيء اصلاً فبطل ما كانوا يقولون في الأصنام من الشفاعة وغيرها والشفيع : السائل في غيره بتبليغ منزلته من عفو أو زيادة منزلة ، وقد وقع ذكر الكتاب والرسول والعرش مرتباً في أول هذه على ما رتب آخر تلك ؛ فلما تقرر ما وصف به من العظمة التي لا يشاركه فيها أحد ، وجب أن يعبد عبادة لا يشاركه فيها شيء ، فنبه على ذلك بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ أي العظيم الشأن العالي المراتب ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ ربكم ﴾ الذي تقرر له من العظمة والإحسان بالإيجاد والتربية ما لا يبلغه وصف ﴿ فاعبدوه ﴾ أي فخصُّوه بالعبادة فإن عبادتكم مع الإشراك ليست عبادة ، ولولا فضله لم يكن لمن زل أدنى زلة طاعة .

(6/357)

ولما سبب سبحانه عن أوصافه العلى ما وجب له من الأمر بالعبادة ، تسبب عن ذلك الإنكار عليهم في التوقف عنها والاحتياج فيها إلى بروز الأمر بها قام على استحقاقه للأفراد بها من الأدلة التي فيهم شواهدها فقال : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي ولو بأدنى أنواع التذكر بما أشار إليه الإدغام ، ما أخبركم سبحانه به ونبهكم عليه بما يعلمه كل أحد من نفسه من أنه لا يقدر أحد أن يعمل كل ما يريد ، ويعمل كثيراً مما لا غرض له فيه ويعلم أنه يضره إلى غير ذلك من الأمور ليعلم قطعاً أن الفاعل الحقيقي غيره وأنه لا بد لهذا الوجود من مؤثر فيه هو في غاية العظمة لا يصح بوجه أن يشاركه شيء ولو كان أعظم ما يعرف من الأشياء فكيف بجماد لا يضر ولا ينفع ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 416.414 ﴾

(7/357)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحي والبعثة والرسالة ، ثم إنه تعالى أزال ذلك التعجب بأنه لا يبعد ألبتة في أن يبعث خالق الخلق إليهم رسولاً يبشرهم على الأعمال الصالحة بالثواب ، وعلى الأعمال الباطلة الفاسدة بالعقاب ، كان هذا الجواب إنما يتم ويكمل بإثبات أمرين : أحدهما : إثبات أن لهذا العالم إلهاً قاهراً قادراً نافذاً الحكم بالأمر والنهي والتكليف .

والثاني : إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة ، حتى يحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر الأنبياء عن حصولهما ، فلا جرم أنه سبحانه ذكر في هذا الموضع ما يدل على تحقيق هذين المطلوبين .

أما الأول : وهو إثبات الإلهية ، فبقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ .

وأما الثاني : وهو إثبات المعاد والحشر والنشر .

فبقوله : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ الله حَقّاً ﴾ [يونس : 4] فثبت أن هذا الترتيب في غاية الحسن ، ونهاية الكمال .

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قد ذكرنا في هذا الكتاب ، وفي الكتب العقلية أن الدليل الدال على وجود الصانع تعالى ، إما الامكان وإما الحدوث وكلاهما إما في الذوات وإما في الصفات ، فيكون مجموع الطرق الدالة على وجود الصانع أربعة ، وهي إمكان الذوات ، وإمكان الصفات ، وحدوث الذوات ، وحدوث الصفات .

(8/357)

وهذه الأربعة معتبرة تارة في العالم العلوي وهو عالم السموات والكواكب ، وتارة في العالم السفلي ، والأغلب من الدلائل المذكورة في الكتب الإلهية التمسك بإمكان الصفات وحدوثها تارة في أحوال العالم العلوي ، وتارة في أحوال العالم السفلي ، والمذكور في هذا الموضع هو التمسك بإمكان الأجرام العلوية في مقاديرها وصفاتها ، وتقريره من وجوه :

الأول : أن أجرام الأفلاك لا شك أنها مركبة من الأجزاء التي لا تتجزى ، ومتى كان الأمر كذلك كانت لا محالة محتاجة إلى الخالق والمقدر .

أما بيان المقام الأول : فهو أن أجرام الأفلاك لا شك أنها قابلة للقسمة الوهمية ، وقد دللنا في

الكتب العقلية على أن كل ما كان قابلاً للقسمة الوهمية ، فإنه يكون مركباً من الأجزاء والأبعاض .

ودللنا على أن الذي تقوله الفلاسفة من أن الجسم قابل للقسمة ، ولكنه يكون في نفسه شيئاً واحداً كلام فاسد باطل .

فثبت بما ذكرنا أن أجرام الأفلاك مركبة من الأجزاء التي لا تتجزى ، وإذا ثبت هذا وجب افتقارها إلى خالق ومقدر ، وذلك لأنها لما تركبت فقد وقع بعض تلك الأجزاء في داخل ذلك الجرم ، وبعضها حصلت على سطحها ، وتلك الأجزاء متساوية في الطبع والماهية والحقيقة ، والفلاسفة أقروا لنا بصحة هذه المقدمة حيث قالوا إنها بسائط ، ويمتنع كونها مركبة من أجزاء مختلفة الطبائع .

وإذا ثبت هذا فنقول : حصول بعضها في الداخل ، وحصول بعضها في الخارج ، أمر ممكن الحصول جائز الثبوت ، يجوز أن ينقلب الظاهر باطناً ، والباطن ظاهراً .

وإذا كان الأمر كذلك وجب افتقار هذه الأجزاء حال تركيبها إلى مدبر وقاهر ، يخصص بعضها بالداخل وبعضها بالخارج فدل هذا على أن الأفلاك مفتقرة في تركيبها وأشكالها وصفاتها إلى مدبر قدير عليم حكيم .

(9/357)

الوجه الثاني : في الاستدلال بصفات الأفلاك على وجود الإله القادر أن نقول : حركات هذه الأفلاك لها بداية ، ومتى كان الأمر كذلك افتقرت هذه الأفلاك في حركاتها إلى محرك ومدبر قاهر .

أما المقام الأول : فالدليل على صحته أن الحركة عبارة عن التغير من حال إلى حال ، وهذه الماهية تقتضي المسبوقية بالحالة المنتقل عنها ، والأزل ينافي المسبوقية بالغير ، فكان الجمع بين الحركة وبين الأزل محالاً ، فثبت أن لحركات الأفلاك أولاً ، وإذا ثبت هذا وجب أن يقال : هذه الأجرام الفلكية كانت معدومة في الأزل وإن كانت موجودة ، لكنها كانت واقفة وساكنة .

وما كانت متحركة ، وعلى التقديرين : فلحركاتها أول وبداية .

وأما المقام الثاني : وهو أنه لما كان الأمر كذلك وجب افتقارها إلى مدبر قاهر ، فالدليل عليه أن ابتداء هذه الأجرام بالحركة ذلك الوقت المعين دون ما قبله ودون ما بعده ، لا بد وأن يكون لتخصيص مخصص ، وترجيح مرجح .

وذلك المرجح يمتنع أن يكون موجباً بالذات ، وإلا لحصلت تلك الحركة قبل ذلك الوقت لأجل أن موجب تلك الحركة كان حاصلاً قبل ذلك الوقت ، ولما بطل هذا ، ثبت أن ذلك المرجح قادر مختار وهو المطلوب .

الوجه الثالث : في الاستدلال بصفات الأفلاك على وجود الإله المختار ، وهو أن أجزاء الفلك حاصلة فيه لا في الفلك الآخر ، وأجزاء الفلك الآخر حاصلة فيه لا في الفلك الأول . فاختصاص كل واحد منها بتلك الأجزاء أمر ممكن ، ولا بد له من مرجح ، ويعود التقرير الأول فيه .

فهذا تقرير هذا الدليل الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية ، وفي الآية سؤالات :

(10/357)

السؤال الأول : أن كلمة ﴿ الذى ﴾ كلمة وضعت للإشارة إلى شيء مفرد عند محاولة تعريفه بقضية معلومة ، كما إذا قيل لك من زيد ؟ فتقول : الذي أبوه منطلق ، فهذا التعريف إنما يحسن لو كان كون أبيه منطلقاً ، أمراً معلوماً عند السامع ، فهنا لما قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ فهذا إنما يحسن لو كان كونه سبحانه وتعالى خالقاً للسموات والأرض في ستة أيام ، أمراً معلوماً عند السامع ، والعرب ما كانوا عالمين بذلك ، فكيف يحسن هذا التعريف ؟

وجوابه أن يقال : هذا الكلام مشهور عند اليهود والنصارى ، لأنه مذكور في أول ما يزعمون أنه هو التوراة .

ولما كان ذلك مشهوراً عندهم والعرب كانوا يخالطونهم ، فالظاهر أنهم أيضاً سمعوه منهم ، فلهذا السبب حسن هذا التعريف .

السؤال الثاني : ما الفائدة في بيان الأيام التي خلقها الله فيها ؟

والجواب : أنه تعالى قادر على خلق جميع العالم في أقل من لمح البصر .

والدليل عليه أن العالم مركب من الأجزاء التي لا تتجزى ، والجزء الذي لا يتجزى لا يمكن إيجاده إلا دفعة ، لأنا لو فرضنا أن إيجاده إنما يحصل في زمان ، فذلك الزمان منقسم لا محالة من آنات متعاقبة ، فهل حصل شيء من ذلك الإيجاد في الآن الأول أو لم يحصل ، فإن لم يحصل منه شيء في الآن الأول فهو خارج عن مدة الإيجاد ، وإن حصل في ذلك الآن إيجاد شيء وحصل في الآن الثاني إيجاد شيء آخر ، فهما إن كانا جزأين من ذلك الجزء الذي لا يتجزى ، فحينئذ يكون الجزء الذي لا يتجزى متجزئاً .

وهو محال .

وإن كان شيئاً آخر ، فحينئذ يكون إيجاد الجزء الذي لا يتجزى لا يمكن إلا في آن واحد دفعة واحدة ، وكذا القول في إيجاد جميع الأجزاء .

فثبت أنه تعالى قادر على إيجاد جميع العالم دفعة واحدة ، ولا شك أيضاً أنه تعالى قادر على إيجاده وتكوينه على التدريج .

وإذا ثبت هذا فنقول ههنا مذهبان : الأول : قول أصحابنا وهو أنه يحسن منه كلما أراد ، ولا يعلل شيء من أفعاله بشيء من الحكمة والمصالح ، وعلى هذا القول يسقط قول من يقول : لم خلق العالم في ستة أيام وما خلقه في لحظة واحدة ؟ لأنا نقول كل شيء صنعه ولا علة لصنعه فلا يعلل شيء من أحكامه ولا شيء من أفعاله بعلة ، فسقط هذا السؤال .

الثاني : قول المعتزلة وهو أنهم يقولون يجب أن تكون أفعاله تعالى مشتملة على المصلحة والحكمة .

فعند هذا قال القاضي : لا يبعد أن يكون خلق الله تعالى السموات والأرض في هذه المدة المخصوصة ، أدخل في الاعتبار في حق بعض المكلفين .

ثم قال القاضي :

فإن قيل : فمن المعتبر وما وجه الاعتبار ؟ ثم أجاب وقال : أما المعتبر فهو أنه لا بد من مكلف أو غير مكلف من الحيوان خلقه الله تعالى قبل خلقه للسموات والأرضين ، أو معهما ، وإلا لكان خلقهما عبثاً .

فإن قيل : فهلا جاز أن يخلقهما لأجل حيوان يخلقه من بعد ؟ !

قلنا : إنه تعالى لا يخاف الفوت ، فلا يجوز أن يقدم خلق ما لا ينتفع به أحد ، لأجل حيوان سيحدث بعد ذلك ، وإنما يصح منا ذلك في مقدمات الأمور لأنا نخشى الفوت ، ونخاف

العجز والقصور .

قال : وإذا ثبت هذا فقد صح ما روي في الخبر أن خلق الملائكة كان سابقاً على خلق السموات والأرض .

فإن قيل : أولئك الملائكة لا بد لهم من مكان ، فقبل خلق السموات والأرض لا مكان ، فكيف يمكن وجودهم بلا مكان ؟

قلنا : الذي يقدر على تسكين العرش والسموات والأرض في أمكنتها كيف يعجز عن تسكين أولئك الملائكة في أحيازها بقدرته وحكمته ؟ وأما وجه الاعتبار في ذلك فهو أنه لما حصل هناك معتبر ، لم يمتنع أن يكون اعتباره بما يشاهده حالاً بعد حال أقوى .

والدليل عليه : أن ما يحدث على هذا الوجه ، فإنه يدل على أنه صادر من فاعل حكيم .

وأما المخلوق دفعة واحدة فإنه لا يدل على ذلك .

(12/357)

والسؤال الثالث : فهل هذه الأيام كأيام الدنيا أو كما روي عن ابن عباس أنه قال : إنها ستة أيام من أيام الآخرة كل يوم منها ألف سنة مما تعدون ؟

والجواب : قال القاضي : الظاهر في ذلك أنه تعريف لعباده مدة خلقه لهما ، ولا يجوز أن

يكون ذلك تعريفاً ، إلا والمدة هذه الأيام المعلومة .

ولقائل أن يقول : لما وقع التعريف بالأيام المذكورة في التوراة والإنجيل ، وكان المذكور هناك أيام الآخرة لا أيام الدنيا ، لم يكن ذلك قادحاً في صحة التعريف .

السؤال الرابع : هذه الأيام إنما تتقدر بحسب طلوع الشمس وغروبها ، وهذا المعنى مفقود قبل خلقها ، فكيف يعقل هذا التعريف ؟

والجواب التعريف يحصل بما أنه لو وقع حدوث السموات والأرض في مدة ، لو حصل هناك أفلاك دائرة وشمس وقمر ، لكانت تلك المدة مساوية لستة أيام :

ولقائل أن يقول : فهذا يقتضي حصول مدة قبل خلق العالم ، يحصل فيها حدوث العالم ، وذلك يوجب قدم المدة .

وجوابه : أن تلك المدة غير موجودة بل هي مفروضة موهومة ، والدليل عليه أن تلك المدة المعينة حادثة ، وحدوثها لا يحتاج إلى مدة أخرى ، وإلا لزم إثبات أزمنة لا نهاية لها وذلك محال ، فكل ما يقولون في حدوث المدة فنحن نقوله في حدوث العالم .

السؤال الخامس : أن اليوم قد يراد به اليوم مع ليلته ، وقد يراد به النهار وحده .

فالمراد بهذه الآية أيهما .

والجواب : الغالب في اللغة أنه يراد باليوم .

اليوم بليلته .

المسألة الثانية :

أما قوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ففيه مباحث : الأول : أن هذا يوهم كونه تعالى مستقراً على العرش والكلام المستقصى فيه مذكور في أول سورة طه ، ولكنا نكتفي ههنا بعبارة وجيزة .

فنقول : هذه الآية لا يمكن حملها على ظاهرها ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن الاستواء على العرش معناه كونه معتمداً عليه مستقراً عليه ، بحيث لولا العرش لسقط ونزل ، كما أنا إذا قلنا إن فلاناً مستو على سريره .

فإنه يفهم منه هذا هذا المعنى .

(13/357)

إلا أن إثبات هذا المعنى يقتضي كونه محتاجاً إلى العرش ، وإنه لولا العرش لسقط ونزل ، وذلك محال ، لأن المسلمين أطبقوا على أن الله تعالى هو الممسك للعرش والحافظ له ، ولا يقول أحد أن العرش هو الممسك لله تعالى والحافظ له .

والثاني : أن قوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ يدل على أنه قبل ذلك ما كان مستوياً عليه ، وذلك يدل على أنه تعالى يتغير من حال إلى حال ، وكل من كان متغيراً كان محدثاً ، وذلك

بالاتفاق باطل .

الثالث : أنه لما حدث الاستواء في هذا الوقت ، فهذا يقتضي أنه تعالى كان قبل هذا الوقت مضطرباً متحركاً ، وكل ذلك من صفات المحدثات .

الرابع : أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى إنما استوى على العرش بعد أن خلق السموات والأرض لأن كلمة (ثُمَّ) تقتضي التراخي وذلك يدل على أنه تعالى كان قبل خلق العرش غنياً عن العرش ، فإذا خلق العرش امتنع أن تنقلب حقيقته وذاته من الاستغناء إلى الحاجة .

فوجب أن يبقى بعد خلق العرش غنياً عن العرش ، ومن كان كذلك امتنع أن يكون مستقراً على العرش .

فثبت بهذه الوجوه أن هذه الآية لا يمكن حملها على ظاهرها بالاتفاق ، وإذا كان كذلك امتنع الاستدلال بها في إثبات المكان والجهة لله تعالى .

المسألة الثالثة :

اتفق المسلمون على أن فوق السموات جسماً عظيماً هو العرش .

إذا ثبت هذا فنقول : العرش المذكور في هذه الآية هل المراد منه ذلك العرش أو غيره ؟ فيه قولان :

القول الأول : وهو الذي اختاره أبو مسلم الإصفهاني ، أنه ليس المراد منه ذلك ، بل المراد من قوله : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ أنه لما خلق السموات والأرض سطحها ورفع سمكها ، فإن كل بناء فإنه يسمى عرشاً ، وبانيه يسمى عارشاً ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الشجر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل : 68] أي يبنون ، وقال في صفة القرية ﴿ فَهِىَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ [الحج : 45] والمراد أن تلك القرية خلت منهم مع سلامة بنائها وقيام سقوفها ، وقال : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء ﴾ [هود : 7] أي بناؤه ، وإنما ذكر الله تعالى ذلك لأنه أعجب في القدرة ، فالباني يبني البناء متباعداً عن الماء على الأرض الصلبة لئلا ينهدم ، والله تعالى بنى السموات والأرض على الماء ليعرف العقلاء قدرته وكمال جلالته ، والاستواء على العرش هو الاستعلاء عليه بالقهر ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف : 12 ، 13] قال أبو مسلم : فثبت أن اللفظ يحتمل هذا الذي ذكرناه .

فنقول : وجب حمل اللفظ عليه ، ولا يجوز حمله على العرش الذي في السماء ، والدليل عليه هو أن الاستدلال على وجود الصانع تعالى ، يجب أن يحصل بشيء معلوم مشاهد ، والعرش الذي في السماء ليس كذلك ، وأما أجرام السموات والأرضين فهي مشاهدة

محسوسة ، فكان الاستدلال بأحوالها على وجود الصانع الحكيم جائزاً صواباً حسناً .

ثم قال : ومما يؤكد ذلك أن قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ إشارة إلى تخليق ذواتها ، وقوله : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ يكون إشارة إلى تسطيحها وتشكيلها بالأشكال الموافقة لمصالحها ، وعلى هذا الوجه تصير هذه الآية موافقة لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَأَنتم أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السماء بناها رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾

(15/357)

[النازعات : 27 ، 28] فذكر أولاً أنه بناها ، ثم ذكر ثانياً أنه رفع سمكها فسواها .

وكذلك ههنا .

ذكر بقوله : ﴿ خَلَقَ * السموات والأرض ﴾ أنه خلق ذواتها ثم ذكر بقوله : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ أنه قصد إلى تعريشها وتسطيحها وتشكيلها بالأشكال الموافقة لها .

والقول الثاني : وهو القول المشهور لجمهور المفسرين : أن المراد من العرش المذكور في هذه الآية : الجسم العظيم الذي في السماء ، وهؤلاء قالوا إن قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ لا يمكن أن يكون معناه أنه تعالى خلق العرش بعد خلق السموات والأرضين بدليل أنه تعالى قال في آية أخرى ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء ﴾ [هود : 7] وذلك يدل على

أن تكوين العرش سابق على تخليق السموات والأرضين .

بل يجب تفسير هذه الآية بوجوه أخر .

وهو أن يكون المراد : ثم يدبر الأمر وهو مستو على العرش .

والقول الثالث : أن المراد من العرش الملك ، يقال فلان ولي عرشه أي ملكه فقوله : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ المراد أنه تعالى لما خلق السموات والأرض واستدارت الأفلاك والكواكب ، وجعل بسبب دورانها الفصول الأربعة والأحوال المختلفة من المعادن والنبات والحيوانات ، ففي هذا الوقت قد حصل وجود هذه المخلوقات والكائنات .

والحاصل أن العرش عبارة عن الملك ، وملك الله تعالى عبارة عن وجود مخلوقاته ، ووجود مخلوقاته إنما حصل بعد تخليق السموات والأرض ، لا جرم صح إدخال حرف ﴿ ثُمَّ ﴾ الذي يفيد التراخي على الاستواء على العرش والله أعلم بمراده .

المسألة الرابعة :

أما قوله : ﴿ يُدبّرُ الأمر ﴾ معناه أنه يقضي ويقدر على حسب مقتضى الحكمة ويفعل ما يفعله المصيب في أفعاله ، الناظر في أدبار الأمور وعواقبها ، كي لا يدخل في الوجود ما لا ينبغي .

والمراد من ﴿ الأمر ﴾ الشأن يعني يدبر أحوال الخلق وأحوال ملكوت السموات والأرض .

فإن قيل : ما موقع هذه الجملة ؟

قلنا : قد دل بكونه خالقاً للسموات والأرض في ستة أيام وبكونه مستوياً على العرش ، على نهاية العظمة وغاية الجلالة .

ثم أتبعها بهذه الجملة ليدل على أنه لا يحدث في العالم العلوي ولا في العالم السفلي أمر من الأمور ولا حادث من الحوادث ، إلا بتقديره وتدبيره وقضائه وحكمه ، فيصير ذلك دليلاً على نهاية القدرة والحكمة والعلم والإحاطة التدبير ، وأنه سبحانه مبدع جميع الممكنات ، وإليه تنتهي الحاجات .

وأما قوله تعالى : ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ ففيه قولان :

القول الأول : وهو المشهور أن المراد منه أن تدبيره للأشياء وصنعه لها ، لا يكون بشفاعة شفيع وتدبير مدبر .

ولا يستجرىء أحد أن يشفع إليه في شيء إلا بعد إذنه ، لأنه تعالى أعلم بموضع الحكمة والصواب ، فلا يجوز لهم أن يسألوه ما لا يعلمون أنه صواب وصلاح .

فإن قيل : كيف يليق ذكر الشفيع بصفة مبدئية الخلق ، وإنما يليق ذكره بأحوال القيامة ؟

والجواب من وجوه :

الوجه الأول : ما ذكره الزجاج : وهو أن الكفار الذين كانوا مخاطبين بهذه الآية كانوا يقولون : إن الأصنام شفعاؤنا عند الله ، فالمراد منه الرد عليهم في هذا القول وهو كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ [النبأ : 38] .

والوجه الثاني : وهو يمكن أن يقال إنه تعالى لما بين كونه إلهاً للعالم مستقلاً بالتصرف فيه من غير شريك ولا منازع ، بين أمر المبدأ بقوله : ﴿ يُدبّرُ الأمر ﴾ وبين حال المعاد بقوله : ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ .

(17/357)

والوجه الثالث : يمكن أيضاً أن يقال إنه تعالى وضع تدبير الأمور في أول خلق العالم على أحسن الوجوه وأقربها من رعاية المصالح ، مع أنه ما كان هناك شفيع يشفع في طلب تحصيل المصالح ، فدل هذا على أن إله العالم ناظر لعباده محسن إليهم مريد للخير والرأفة بهم ، ولا حاجة في كونه سبحانه كذلك إلى حضور شفيع يشفع فيه .

والقول الثاني : في تفسير هذا الشفيع ما ذكره أبو مسلم الأصفهاني ، فقال : الشفيع ههنا هو الثاني ، وهو مأخوذ من الشفع الذي يخالف الوتر ، كما يقال الزوج والفرد ، فمعنى الآية خلق السموات والأرض وحده ولا حي معه ولا شريك يعينه ، ثم خلق الملائكة والجن

والبشر ، وهو المراد من قوله : ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ أي لم يحدث أحد ولم يدخل في الوجود ، إلا من بعد أن قال له : كن ، حتى كان وحصل .

واعلم أنه تعالى لما بين هذه الدلائل وشرح هذه الأحوال ، ختمها بعد ذلك بقوله : ﴿ ذلكم الله رَبُّكُمْ فاعبدوه ﴾ مبيناً بذلك أن العبادة لا تصلح إلا له ، ومنبهاً على أنه سبحانه هو المستحق لجميع العبادات لأجل أنه هو المنعم بجميع النعم التي ذكرها ووصفها .

ثم قال بعده : ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ دالاً بذلك على وجوب التفكر في تلك الدلائل القاهرة الباهرة ، وذلك يدل على أن التفكر في مخلوقات الله تعالى والاستدلال بها على جلالته وعزته وعظمته ، أعلى المراتب وأكمل الدرجات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 14.8 ﴾

(18/357)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾

وقد ذكرناه ثم قال : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ ، يعني : يقضي القضاء وينظر في تدبير الخلق .

وروى الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن ابن سابق قال : يدبر أمر الدنيا أربعة : جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل .

أما جبريل ، فعلى الرياح والوحي والجنود ، وأما ميكائيل ، فعلى النبات والمطر ، وأما ملك الموت ، فعلى الأنفس ؛ وأما إسرافيل ، فينزل إليهم بما يؤمرون .

﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ ، لأن الكفار كانوا يعبدون الأصنام ويقولون : هم شفعاؤنا عند الله ، وبعضهم كانوا يعبدون الملائكة فأخبر الله تعالى أنه لا شفاعة لأحد إلاَّ بإذن الله تعالى ؛ ويقال : ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ يعني : لا يشفع أحد لأحد يوم القيامة من الملائكة ولا من المرسلين ، إلا من بعد إذنه في الشفاعة لهم .

﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ﴾ ، يعني : الذي يفعل هذا من خلق السموات والأرض وتدبير الخلق هو ربكم وخالقكم ، ﴿ فاعبدوه ﴾ ؛ فدل أولاً على وحدانيته وتدبيره ، ثم أمرهم بالتوحيد والطاعة فقال : ﴿ فاعبدوه ﴾ ، يعني : وحدوه وأطيعوه .

﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، يعني : أفلا تتعظون بالقرآن ؟ ويقال : أفلا تتعظون بأن لا تعبدوا من لا يملك شيئاً ، وتعبدون من يملك الدنيا وما فيها ؟ قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم في رواية حفص ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد ، لأن أصله تتذكرون فأدغم إحدى التاءين في الذال وأقيم التشديد مقامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : يقضيه وحده ، قاله مجاهد .

الثاني : يأمر به ويمضيه .

﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ما من شفيع يشفع إلا من بعد أن يأذن الله تعالى له في الشفاعة .

الثاني : ما من أحد يتكلم عنده إلا بإذنه ، قاله سعيد بن جبير .

الثالث : لا ثاني معه ، مأخوذ من الشفع الذي هو الزوج لأنه خلق السموات والأرض وهو واحد فرد لا حي معه ، ثم خلق الملائكة والبشر .

وقوله ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ يعني من بعد أمره أن يكون الخلق فكان ، قاله ابن بحر . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

هذا ابتداء دعاء إلى عبادة الله عز وجل وإعلام بصفاته ، والخطاب بها لجميع الناس ، و﴿ خلق السماوات والأرض ﴾ هو على ما تقرر أن الله عز وجل خلق الأرض ﴿ ثم استوى ﴾ إلى السماء وهي دخان فخلقها ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وقوله ﴿ في ستة أيام ﴾ قيل هي من أيام الآخرة ، وقال الجمهور ، وهو الصواب : بل من أيام الدنيا .

قال القاضي أبو محمد : وذلك في التقدير لأن الشمس وجريها لم يتقدم حينئذ وقول النبي صلى الله عليه وسلم في خلق الله المخلوقات إن الله ابتدأ يوم الأحد كذا ويوم كذا كذا إنما هو على أن نقدر ذلك الزمان ونعكس إليه التجربة من حين ابتدأ ترتيب اليوم والليلة والمشهور أن الله ابتدأ بالخلق يوم الأحد ، ووقع في بعض الأحاديث في كتاب مسلم وفي الدلائل أن البداءة وقعت يوم السبت وذكر بعض الناس أن الحكمة في خلق الله تعالى هذه الأشياء في مدة محدودة ممتدة وفي القدرة أن يقول كن فيكون إنما هو ليعلم عباده التؤدة والتماهل في الأمور .

(21/357)

قال القاضي أبو محمد : وهذا مما لا يوصل تعليله وعلى هذا هي الأجنة في البطون وخلق الثمار وغير ذلك والله عز وجل قد جعل لكل شيء قدراً وهو أعلم بوجه الحكمة وقوله ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ قد تقدم القول فيه في ﴿ المص ﴾ [الأعراف : 1] وقوله ﴿ يدبر الأمر ﴾ يصح أن يريد ب ﴿ الأمر ﴾ اسم الجنس من الأمور ويحتمل أن يريد ﴿ الأمر ﴾ الذي هو مصدر أمر يأمر ، وتدبيره لا إله إلا هو إنما هو الإنفاذ لأنه قد أحاط بكل شيء علماً ، وقال مجاهد : ﴿ يدبر الأمر ﴾ معناه يقضيه وحده ، وقوله ﴿ ما من شفيع الا من بعد إذنه ﴾ رد على العرب في اعتقادها أن الأصنام تشفع لها ، وقوله ﴿ ذلكم ﴾ إشارة الى الله تعالى أي هذا الذي هذه صفاته فاعبدوه ، ثم قررهم على هذه الآيات والعبر فقال ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي فيكون التذكر سبباً للاهتداء ، واختصار القول في قوله ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ [إما] أن يكون ﴿ استوى ﴾ بقهره وغلبته وإما أن يكون ﴿ استوى ﴾ بمعنى استولى إن صحت اللفظة في اللسان ، فقد قيل في قول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق . . . من غير سيف ودم مهراق

إنه بيت مصنوع . وإما أن يكون فعل فعلاً في العرش سماه ﴿ استوى ﴾ واستعياب القول قد تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قال الزجاج : لما أنذرهم بالبعث والنشور ، فقالوا : هذا سحر ، أخبرهم أن الذي خلق السموات والأرض قادر على بعثهم بقوله : ﴿ إن ربكم الله ﴾ وقد سبق تفسيره في [الأعراف : 54] .

قوله تعالى : ﴿ يدبِّر الأمر ﴾ قال مجاهد : يقضيه .

وقال غيره : يأمر به ويمضيه .

قوله تعالى : ﴿ ما من شفيعٍ إلا من بعد إذنه ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لا يشفع أحد إلا أن يأذن له ، قاله ابن عباس .

قال الزجاج : لم يَجْرِ للشفيع ذِكر قبل هذا ، ولكنَّ الذين خوطبوا كانوا يقولون : الأصنام شفعاؤنا .

والثاني : أن المعنى : لا ثانيَ معه ، مأخوذ من الشَّفْع ، لأنه لم يكن معه أحد ، ثم خلق الأشياء .

فقوله : ﴿ إلا من بعد إذنه ﴾ أي : من بعد أمره أن يكون الخلق فكان ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ فاعبدوه ﴾ قال مقاتل : وحِّدوه .

وقال الزجاج : المعنى : فاعبدوه وحده .

وقوله : ﴿ تذكَّرون ﴾ معناه : تتَّعظون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(23/357)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ تقدّم في الأعراف .

﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ قال مجاهد : يقضيه ويقدّره وحْدَه .

ابن عباس : لا يَشركه في تدبير خلقه أحد .

وقيل : يبعث بالأمر .

وقيل : ينزل به .

وقيل : يأمر به ويمضيه ؛ والمعنى متقارب .

فجبريل للوحي ، وميكائيل للقَطْر ، وإسرافيل للصُّور ، وعزرائيل للقبض .

وحقيقته تنزيل الأُمور في مراتبها على أحكام عواقبها ، واشتقاقه من الدُّبُر .

والأمر اسم لجنس الأُمور .

﴿ مَا مِن شَفِيعٍ ﴾ في موضع رفع ، والمعنى ما شفيع ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ وقد تقدم في "البقرة" معنى الشفاعة .

فلا يشفع أحدٌ نبيٌّ ولا غيره إلا بإذنه سبحانه ، وهذا ردّ على الكفار في قولهم فيما عبدوه من دون الله : ﴿ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله ﴾ [يونس : 18] فأعلمهم الله أن أحداً لا يشفع لأحد إلا بإذنه ، فكيف بشفاعة أصنام لا تعقل .

قوله تعالى : ﴿ ذلكم الله رَبُّكُمْ فاعبدوه ﴾ أي ذلكم الذي فعل هذه الأشياء من خلق السموات والأرض هو ربكم لا رب لكم غيره .

﴿ فاعبدوه ﴾ أي وحدوه وأخلصوا له العبادة .

﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أنها مخلوقاته فتستدلوا بها عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(24/357)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش

﴾

تقدم تفسير هذا في سورة الأعراف بما فيه كفاية .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ يدبر الأمر ﴾ قال مجاهد : يقضيه وحده .

وقيل : معنى التدبير ، تنزيل الأمور في مراتبها وعلى أحكام عواقبها .

وقيل : إنه سبحانه وتعالى يقضي ويقدر على حسب مقتضى الحكمة وهو النظر في أدبار الأمور وعواقبها لئلا يدخل في الوجود ما لا ينبغي .

وقيل : معناه إنه سبحانه وتعالى يدبر أحوال الخلق وأحوال ملكوت السموات والأرض فلا يحدث حدث في العالم العلوي ولا في العالم السفلي إلا بإرادته وتدبيره وقضائه وحكمته ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ يعني : لا يشفع عنده شافع يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن له في الشفاعة لأنه عالم بمصالح عباده وبموضع الصواب والحكمة في تدبيرهم فلا يجوز لأحد أن يسأله ما ليس له به علم فإذا أذن له في الشفاعة كان له أن يشفع فيمن يأذن له فيه وفيه رد على كفار قريش في قولهم : إن الأصنام تشفع لهم عند الله يوم القيامة فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه لأن له التصرف المطلق في جميع العالم ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ يعني الذي خلق هذه الأشياء ودبرها هو ربكم وسيدكم لا رب لكم سواه ﴿ فاعبدوه ﴾ أي فاجعلوا عبادتكم له لا لغيره لأنه المستحق للعبادة بما أنعم عليكم من النعم

العظيمة ﴿ أفلا تذكرون ﴾ يعني أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الدلائل والآيات التي تدل على وحدانيته سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(25/357)

وقال أبو حيان :

﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾

تقدم تفسير مثل هذه الجملة في سورة الأعراف وجاءتا عقب ذكر القرآن والتنبيه على المعاد .

ففي الأعراف : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه ﴾ وقوله : ﴿ يوم يأتي تأويله ﴾ وهنا تلك آيات الكتاب .

وذكر الإنذار والتبشير وثمرتهما لا تظهر إلا في المعاد .

ومناسبة هذه لما قبلها أنّ من كان قادراً على إيجاد هذا الخلق العلوي والسفلي العظيمين وهو ربكم الناظر في مصالحكم ، فلا يتعجب أن يبعث إلى خلقه من يحذر من مخالفته ويبشر على طاعته ، إذ ليس خلقهم عبثاً بل على ما اقتضته حكمته وسبقت به إرادته ، إذ القادر العظيم قادر على ما دونه بطريق الأولى .

﴿ يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ : قال مجاهد : أي يقضيه وحده .

والتدبير تنزيل الأمور في مراتبها والنظر في أدبارها وعواقبها ، والأمر قيل : الخلق كله علويه وسفليه .

وقيل : يبعث بالأمر ملائكة ، فجبريل للوحي ، وميكائيل للقطر ، وعزرائيل للقبض ، وإسرافيل للصور .

وهذه الجملة بيان لعظيم شأنه وملكه .

ولما ذكر الإيجاد ذكر ما يكون فيه من الأمور ، وأنه لمنفرد به إيجاداً وتدبيراً لا يشركه أحد في ذلك ، وأنه لا يجترىء أحد على الشفاعة عنده إلا بإذنه ، إذ هو تعالى أعلم بموضع الحكمة والصواب .

وفي هذه دليل على عظم عزته وكبريائه كما قال : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ الآية .

ولما كان الخطاب عاماً وكان الكفار يقولون عن أصنامهم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، ردّ ذلك تعالى عليهم ، وناسب ذكر الشفاعة التي تكون في القيامة بعد ذكر المبدأ ليجمع بين الطرفين : الابتداء والانتهاء .

وقال أبو مسلم الأصبهاني : الشفيع هنا من الشفع الذي يخالف الوتر ، فمعنى الآية : أنه أوجد العالم وحده لا شريك يعينه ، ولم يحدث شيء في الوجود إلا من بعد أن قال له : كن .

(26/357)

وقال أبو البقاء : يدبر الأمر ، يجوز أن يكون مستأنفاً وخبراً ثانياً وحالاً .

﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه ﴾ : أي المتصف بالإيجاد والتدبير والكبرياء هو ربكم الناظر في مصالحكم ، فهو المستحق للعبادة ، إذ لا يصلح لأن يعبد إلا هو تعالى ، فلا تشركوا به بعض خلقه .

﴿ أفلا تذكرون ﴾ : حض على التدبير والتفكر في الدلائل الدالة على ربوبيته وإمحاض العبادة له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(27/357)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ﴾

كلامٌ مستأنفٌ سيق لإظهار بطلانِ تعجُّبهم المذكورِ وما بنَوا عليه من المقالة الباطلةِ غِبَّ الإشارةِ إليه بالإنكار والتعجيبِ وحُقّق فيه حقيةُ ما تعجبوا منه وصِحّةُ ما أنكروه بالتنبيه

الإجمالي على بعض ما يدل عليها من شؤون الخلقِ والتقديرِ وأحوالِ التكوينِ والتدبيرِ ، ويُرشدهم إلى معرفتها بأدنى تذكيرٍ لاعترافهم به من غير نكيرٍ لقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السموات السبع وَرَبُّ العرش العظيم سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السماء والأرض ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ الله ﴾ أي إن ربكم ومالكَ أمرِكم الذي تتعجبون من أن يرسِل إليكم رجلاً منكم بالإنذار والتبشيرِ وتُعدّون ما أوحيَ إليه من الكتاب الحكيم سحراً هو ﴿ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ وما فيهما من أصول الكائنات ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أي في ستة أوقاتٍ أو في مقدار ستةِ أيام معهودةٍ فإن نفسَ اليوم الذي هو عبارةٌ عن زمان كونِ الشمس فوق الأرض مما لا يتصور تحققُه حين لا أرضَ ولا سماء ، وفي خلقها مدرّجاً مع القدرة التامةِ على إبداعها دفعةً دليلٌ على الاختيار واعتبارٌ للنظّار وحثٌّ لهم على التأنيّ في الأحوال والأطوار ، وأما تخصيصُ ذلك بالعدد المعينِ فأمرٌ قد استأثر بعلم ما يستدعيه علامُ الغيوب جلت قدرتُه ودقتْ حكمتُه وإيثارُ صيغةِ الجمعِ في السموات لما هو المشهورُ من الإيذان بأنها أجرامٌ مختلفةُ الطباعِ متباينةُ الآثارِ والأحكام ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ العرشُ هو الجسمُ المحيطُ بسائر الأجسامِ سمّي به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير المِلك فإن الأوامرَ والتدابير منه تنزل ، وقيل : هو المُلك ومعنى استوائِه سبحانه عليه استيلاؤُه عليه أو استواءُ أمرِه . وعن

أصحابنا أن الاستواءَ على العرش صفةٌ له سبحانه بلا كيف . والمعنى أنه سبحانه استوى على العرش على

(28/357)

الوجه الذي عناه منزَّهاً عن التمكن والاستقرار ، وهذا بيانٌ لجلالة مُلكه وسلطانِه بعد زمان عظمةِ شأنِه وسَعة قدرتِه بما مر من خلق هاتيك الأجرامِ العظام .

﴿ يُدبّرُ الأمر ﴾ التدبيرُ النظرُ في أدبار الأمورِ وعواقبِها لتقعَ على الوجه المحمودِ والمرادُ هاهنا التقديرُ على الوجه الأتمِّ الأكملِ والمرادُ بالأمر أمرُ ملكوتِ السمواتِ والأرضِ والعرشِ وغيرُ ذلك من الجزئيات الحادثةِ شيئاً فشيئاً على أطوار شتى وأنحاء لا تكاد تحصى من المناسبات والمباينات في الذوات والصفاتِ والأزمنةِ والأوقاتِ أي يقدّر ما ذُكر من أمر الكائناتِ الذي ما تعجبوا منه من أمر البعث والوحي فردٌ من جملته وشُعبةٌ من دوحته ، ويهيىء أسبابَ كل منها حدوثاً وبقاءً في أوقاتها المعينةِ ويرتب مصالحَها على الوجه الفائقِ والنمطِ اللائقِ حسبما تقتضيه الحكمةُ وتستدعيه المصلحةُ ، والجملةُ في محل النصبِ على أنها حالٌ من ضمير استوى وقد جوز كونُها خبراً ثانياً لإن أو مستأنفةٌ لا محل

لها من الإعراب مبنيةٌ على سؤال نشأ من ذكر الاستواءِ على العرش المنبىءِ عن إجراء أحكامِ المُلك .

(29/357)

وعلى كل حال فإيثارُ صيغةِ المضارعِ للدلالة على تجدد التدبيرِ واستمرارِه وقوله عز وجل : ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ ﴾ بيانٌ لاستبداده سبحانه في التقدير والتدبيرِ ونفيٌ للشفاعة على أبلغ الوجوهِ فإن نفيَ جميعِ أفرادِ الشفيعِ بمن الاستغراقية يستلزم نفيَ الشفاعةِ على أتم الوجوه كما في قوله تعالى : ﴿ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله ﴾ وهذا بعد قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ جارٍ مجرى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ عقيب قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ وقوله تعالى ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ استثناءٌ مفرغٌ من أعم الأوقاتِ أي ما من شفيع يشفع لأحد في وقت من الأوقات إلا بعد إذنِه المبنيِّ على الحكمة الباهرة ، وذلك عند كون الشفيع من المصطَفَيْن الأخيارِ والمشفوعُ له ممن يليق بالشفاعة كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً ﴾ وفيه من الدِلالة على عظمة جلالِه سبحانه ما لا يخفى ﴿ ذلكم ﴾ إشارةٌ إلى المعلوم بتلك العظمةِ أي ذلكم العظيمُ الشأنِ المنعوتُ بما ذكر من نعوت الكمالِ التي عليها يدور

استحقاقُ الألوحية ﴿ الله ﴾ وقوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ بيانٌ له أو بدلٌ منه أو خبرٌ ثانٍ لاسم الإشارةِ ، وهذا بعد بيانِ أن ربَّهم الله الذي خلق السمواتِ والأرضَ الخ ، لزيادة التقريرِ والمبالغةِ في التذكير ولتفريع الأمرِ بالعبادة عليه بقوله تعالى : ﴿ فاعبدوه ﴾ أي وحّدوه من غير أن تشركوا به شيئاً من ملَك أو نبيَ فضلاً عن جماد لا يُبصر ولا يَسمع ولا يضر ولا ينفع وآمِنوا بما أنزله إليكم ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي تعلمون أن الأمرَ كما فُصل فلا تتذكرون ذلك حتى تقِفوا على فساد ما أنتم عليه فترتدوا عنه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(30/357)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ﴾

استئناف سيق لإظهار بطلان تعجبهم المذكور وما تبعه من تلك المقالة الباطلة غب الإشارة إليه بالإنكار والتعجيب وحقق فيه حقية ما تعجبوا منه وصحة ما أنكروه بالتنبيه الإجمال على بعض ما يدل عليها من شؤون الخلق والتقدير وأحوال التكوين والتدبير ويرشدهم إلى معرفتها بأدنى تذكير لاعترافهم به من غير نكير كما يعرب عنه غير ما آية في

الكتاب الكريم ، والتأكيد لمزيد الاعتناء بمضمون الجملة على ما هو الظاهر أي أن ربكم ومالك أمركم الذي تعجبون من أن يرسل إليكم رجلاً منكم بالإنذار والتبشير وتعدون ما أوحى إليه من الكتاب سحراً هو ﴿ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أي أوقات فالمراد من اليوم معناه اللغوي وهو مطلق الوقت .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن تلك الأيام من أيام الآخرة التي يوم منها كألف سنة مما تعدون ، وقيل : هي مقدار ستة أيام من أيام الدنيا وهو الأنسب بالمقام لما فيه من الدلالة على القدرة الباهرة بخلق هذه الأجرام العظيمة في مثل تلك المدة اليسيرة ولأنه تعريف لنا بما نعرفه ، ولا يمكن أن يراد باليوم اليوم المعروف لأنه كما قيل عبارة عن كون الشمس فوق الأرض وهو مما لا يتصور تحققه حين لا أرض ولا سماء ، واليوم بهذا المعنى يسمى النهار المفرد ، ويطلق اليوم أيضاً على مجموع ذلك النهار وليلته ومقدار ذلك حينئذٍ ممكن الإرادة هنا أيضاً .

(31/357)

وقد صرح بعض الأكابر بأن المراد بالسموات ما عدا المحدد وأن اليوم هنا عبارة عن مدة دورة تامة له ، ولا يخفى أن اليوم اللغوي يتناول هذا أيضاً إلا أن إرادته كإرادة مقدار مجموع

النهار وليلته يحتاج إلى نقل وليس ذلك أمراً معروفاً عند المخاطبين ليستغني عن النقل على أن القول به يدور على كون المحدد متحركاً بالحركة الوضعية ويحتاج ذلك إلى النقل أيضاً ، وكذا يدور على كون المحدد خارجاً عن السموات المخلوقة في الأيام الست لكن ذلك لا يضر إذ الآيات والأخبار شاهدة بالخروج كما لا يخفى ، وفي خلقها مدرجاً مع القدرة التامة على إبداعها في طرفة عين اعتبار للنظار وحث لهم على التأني في الأحوال والأطوار ، وفيه أيضاً على ما صرح به بعض المحققين دليل على الاختيار ، وأما تخصيص ذلك بالعدد المعين فقد قيل : إنه أمر قد استأثر بعلم ما يستدعيه علام الغيوب جلت قدرته ودقت حكمته .

وقيل : إنه سبحانه جعل لكل من خلق مواد السموات وصورها وربط بعضها ببعض وخلق مادة الأرض وصورتها وربط إحداهما بالأخرى وقتاً فلذا صارت الأوقات ستاً وفيه تأمل ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في الدخان تحقيق هذا المطلب على وجه ينكشف به الغبار عن بصائر الناظرين .

(32/357)

وإيثار جمع السموات لما هو المشهور من الإيذان بأنها اجرام مختلفة الطباع متباينة الآثار والأحكام ، وتقديمها على الأرض إما لأنها أعظم منها خلقاً أو لأنها جارية مجرى الماعل والأرض جارية مجرى القابل على ما بين في موضعه ، وتقديم الأرض عليها في آية طه لكونها أقرب إلى الحس وأظهر عنده وسيأتي أيضاً تحقيقه هناك إن شاء الله تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ على المعنى الذي أراده سبحانه وكف الكيف مشلولة ، وقيل : الاستواء على العرش مجاز عن الملك والسلطان متفرع عن الكناية فيمن يجوز عليه القعود على السرير يقال : استوى فلان على سرير الملك ويراد منه ملك وإن لم يقعد على السرير أصلاً ؛ وقيل : إن الاستواء بمعنى الاستيلاء وأرجعوه إلى صفة القدرة .

وأنت تعلم أن هذا وأمثاله من المتشابه وللناس فيه مذاهب وما أشرنا إليه هو الذي عليه أكثر سلفة الأمة رضي الله تعالى عنهم ، وقد صرح بعض أن الاستواء صفة غير الثمانية لا يعلم ما هي إلا من هي له والعجز عن درك الإدراك إدارك ، واختار كثير من الخلف أن المراد بذلك الملك والسلطان وذكره لبيان جلالة ملكه وسلطانه سبحانه بعد بيان عظمة شأنه وسعة قدرته بما مر من خلق هاتيك الإجرام العظيمة ، وقوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ استئناف لبيان حكمة استوائه جل وعلا على العرش وتقرير عظمته ، والتدبير في اللغة النظر في أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المحمود والمراد به هنا التقدير الجاري على وفق الحكمة والوجه الأتم الأكمل .

وأخرج أبو الشيخ وغيره عن مجاهد أن المعنى يقضي الأمر والمراد بالأمر أمر الكائنات علويها وسفليها حتى العرش فأل فيه للعهد أي يقدر أمر ذلك كله على الوجه الفائق ، والنمط اللائق حسبما تقتضيه المصلحة وتستدعيه الحكمة ويدخل فيما ذكر ما تعجبوا منه دخولاً ظاهراً ، وزعم بعضهم أن المعنى يدبر ذلك على ما اقتضته حكمته ويهيء أسبابه بسبب تحريك العرش وهو فلك الإفلاك عندهم وبحركته يحرك غيره من الأفلاك الممثلة وغيرها لقوة نفسه ، وقيل : لأن الكل في جوفه فيلزم من حركته حركته لزوم حركة المظروف لحركة الظرف وهو مبني على أن الظرف مكان طبيعي للمظروف وإلا ففيه نظر . وأنت تعلم أن مثل هذا الزعم على ما فيه مما لا يقبله الحدثون وسلف الأمة إذ لا يشهد له الكتاب ولا السنة وحينئذ فلا يفتى به وإن حكم القاضي ، وجوز في الجملة أن تكون في محل النصب على أنها حال من ضمير ﴿ استوى ﴾ وأن تكون في محل الرفع على أنها خبر ثان لأن ، وعلى كل حال فايثار صيغة المضارع للدلالة على تجدد التدبير واستمراره منه تاعلى ، وقوله سبحانه : ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ بيان لاستبداده تعالى في التدبير والتقدير ونفي للشفاعة على أبلغ وجه فإن نفي جميع أفراد الشفيع بمن الاستغراقية

يستلزم نفي الشفاعة على أتم الوجوه ، فلا حاجة إلى أن يقال : التقدير ما من شفاعة لشفيع ، وفي ذلك أيضاً تقرير لعظمته سبحانه إثر تقرير ، والاستثناء مفرغ من أعم الأوقات أي ما من شفيع يشفع لأحد في وقت من الأوقات إلا بعد إذنه تعالى المبني على الحكمة الباهرة وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الأخيار والمشفوع له ممن يليق بالشفاعة .

وذهب القاضي إلى أن فيه رداً على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله تعالى .

(34/357)

وتعقب بأنه غير تام لأنهم لما ادعوا شفاعتها فقد يدعون الإذن لها فكيف يتم هذا الرد ولا دلالة في الآية على أنهم لا يؤذن لهم ، وما قيل : إنها دعوى غير مسلمة واحتمالها غير مجد لا فائدة فيه إلا أن يقال : مراده أن الأصنام لا تدلاك ولا تنطق فكونها ليس من شأنها أن يؤذن لها بديعي ، وقوله عز شأنه : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ استئناف لزيادة التقرير والمبالغة في التذكير ولتفريع الأمر بالعبادة بقوله سبحانه : ﴿ فاعبدوه ﴾ والإشارة إلى الذات الموصوف بتلك الصفات المقتضية لاستحقاق ما أخب به عنه وهو الله وربكم فانهما خبران لذلكم ، وحيث كان وجه ثبوت ذلك له ما ذكر مما لا يوجد في غيره اقتضى انحصاره فيه وأفاد أن لا رب غيره ولا معبود سواه ، ويجوز أن يكون الاسم الجليل نعتاً لاسم الإشارة

و﴿ رَبُّكُمْ ﴾ خبره وان يكون هو الخبر و﴿ رَبُّكُمْ ﴾ بيان له أو بدل منه ولا يخلو الكلام من إفادة الانحصار ، وإذا فرع الأمر المذكور على ذلك أفاد الأمر بعبادته سبحانه وحده ، أي فاعبدوه سبحانه من غير أن تشركوا به شيئاً من ملك أو نبي فضلاً عن جماد لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع ، وليس الداعي لهذا الحمل أن أصل العبادة ثابت لهم فيحمل الأمر بها على ذلك ليفيد لما قيل : من أن الخطاب للمشركين ولا عبادة مع الشرك ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أتعلمون أن الأمر كل فصل فلا تتذكرون ذلك حتى تقفوا على فساد ما أنتم عليه فترتدعوا عنه وتعبدوا الله تعالى وحده ، وإيثار ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ على تفكرون للإيذان بظهور الأمر وأنه كالمعلوم الذي لا يفتقر إلى فكر تام ونظر كامل بل إلى مجرد التفات وإخطار بالبال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(35/357)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾

استئناف ابتدائي للاستدلال على تفرد الله تعالى بالإلهية .

وإنما أوقع هنا لأن أقوى شيء بَعثَ المشركين على ادعاء أن ما جاء به النبي سحر هو أنه

أبطل الشركاء لله في الإلهية ونفاها عن آلهتهم التي أشركوا بها فقالوا : ﴿ أجعل الآلهةَ إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ [ص : 5] فلا جرم أن أعقب إنكار إحالتهم ذلك بإقامة الدليل على ثبوته .

والخطاب للمشركين ، ولذلك أكد الخبر بحرف التوكيد ، وأوقع عقبه ﴿ أفلا تذكرون ﴾ [يونس : 2] ، فهو التفات من الغيبة في قوله : ﴿ أكَانَ للناس عجباً وقوله قال الكافرون ﴾ .

وقد مضى القول في نظير صدر هذه الآية في سورة الأعراف إلى قوله : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ .

وقوله : ﴿ الله ﴾ خبر ﴿ إن ﴾ ، كما دل عليه قوله بعده : ﴿ ذالكم الله ربكم فاعبدوه ﴾ .

وجملة ﴿ يدبر الأمر ﴾ في موضع الحال من اسم الجلالة ، أو خبر ثان عن ﴿ ربكم ﴾ .

والتدبير : النظر في عواقب المقدرات وعوائقها لقصد إيقاعها تامة فيما تقصد له محمودةَ العاقبة .

والغاية من التدبير الإيجاد والعملُ على وفق ما دُبر .

وتدبير الله الأمور عبارة عن تمام العلم بما يخلقها عليه ، لأن لفظ التدبير هو أوفى الألفاظ اللغوية بتقريب إتقان الخلق .

والأمر : جنس يعم جميع الشؤون والأحوال في العالم .

وتقدم في قوله ﴿ وقلَّبوا لك الأمور ﴾ في سورة [براءة : 48] .

وفي إجراء هذه الصفات على الله تعالى تعريض بالرد على المشركين إذ جعلوا لأنفسهم آلهة لا تخلق ولا تعلم ؛ كما قال تعالى : ﴿ لا يخلُقون شيئاً وهم يخلقون ﴾ [النحل : 20] .

(36/357)

ولذلك حسن وقع جملة ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ عقب جملة : ﴿ الذي خلق ﴾ بتمامها ، لأن المشركين جعلوا آلهتهم شفعاء فإذا أنذروا بغضب الله يقولون : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : 18] ، أي حُماتنا من غضبه .

فبعد أن وُصف الإله الحق بما هو منتف عن آلهتهم نُفِي عن آلهتهم وصْف الشفاعة عند الله وحماية المغضوب عليهم منه .

وأكد النفي بـ ﴿ من ﴾ التي تقع بعد حرف النفي لتأكيد النفي وانتفاء الوصف عن جميع أفراد الجنس الذي دخلت (من) على اسمه بحيث لم تبق لآلهتهم خصوصية .

وزيادة ﴿ إلاّ مِنْ بعد إذنه ﴾ احتراس لإثبات شفاعة محمَّد صلى الله عليه وسلم بإذن الله ، قال تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] .

والمقصود من ذلك نفي الشفاعة لآلهتهم من حيث إنهم شركاء لله في الإلهية ، فشفاعتهم عنده نافذة كشفاعة الند عند نده .

والشفاعة تقدمت عند قوله تعالى : ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ﴾ في سورة [البقرة : 48] .

وكذلك الشفيع تقدم عند قوله : ﴿ فهل لنا من شفعاء ﴾ في سورة [الأعراف : 53] .

وموقع جملة : ما من شفيع ﴾ مثل موقع جمله : ﴿ يدبر الأمر ﴾ .

وجملة : ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ ابتدائية فذلكة للجمل التي قبلها ونتيجة لها ، وهي معترضة بين تلك الجمل وبين الجملة المفرعَة عليها ، وهي جملة : ﴿ فاعبدوه ﴾ ، وتأكيد لمضمون الجملة الأصلية وهي جملة : ﴿ إن ربكم الله ﴾ .

(37/357)

والإتيان في صدرها باسم الإشارة لتمييزه أكمل تمييز ، لأنهم امتروا في صفة الإلهية وضلوا فيها ضلالاً مبيناً ، فكانوا أحرياء بالإيقاظ بطريق اسم الإشارة ، وللتنبيه على أن المشار إليه حقيق بما سيذكر بعد اسم الإشارة من حيث إنه اتصف بتلك الأوصاف التي أشير إليه من أجلها ، فإن خالق العوالم بغاية الإتقان والمقدرة ومالك أمرها ومدبر شؤونها

والمتصرفَ المطلق مستحقٌ للعبادة نظير الإشارة في قوله : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة : 5] بعد قوله : ﴿ للمتقين الذين يؤمنون بالغيب إلى قوله : هم يوقنون ﴾ [البقرة : 42] .

وفُرّع على كونه ربهم أن أمروا بعبادته ، والمفرَّعُ هو المقصود من الجملة وما قبله مؤكد لجملة : ﴿ إن ربكم الله ﴾ تأكيداً بفذلكة وتحصيل .

والتقديرُ : إن ربكم الله إلى قوله : ﴿ فاعبدوه ﴾ ، كقوله : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحُوا ﴾ [يونس : 58] إذ وقع قوله (فبذلك) تأكيداً لجملة بفضل الله وبرحمته .

وأوقع بعده الفرع وهو (فليفرحوا) .

والتقدير : قل بفضل الله وبرحمته فليفرحوا بذلك .

والمقصود من العبادة العبادة الحق التي لا يشرك معه فيها غيره ، بقرينة تفريع الأمر بها على الصفات المنفرد بها الله دون معبوداتهم .

وجملة : ﴿ أفلا تذَّكَّرون ﴾ ابتدائية للتفريع .

وهو غرض جديد ، فلذلك لم تعطف ، فالاستفهام إنكار لانتفاء تذكرهم إذْ أشركوا معه غيره ولم يتذكروا في أنه المنفرد بخلق العوالم وبملكها وبتدبير أحوالها .

والتذكُّر : التأمل .

وهو بهذه الصيغة لا يطلق إلا على ذكر العقل لمعقولاته ، أي حركته في معلوماته ، فهو قريب من التفكر ؛ إلا أن التذكر لما كان مشتقاً من مادة الذكر التي هي في الأصل جريَان اللفظ على اللسان ، والتي يعبر بها أيضاً عن خطور المعلوم في الذهن بعد سهوه وغيبته عنه كان مشعراً بأنه حركة الذهن في معلومات متقررة فيه من قبل .

(38/357)

فلذلك أوثر هنا دون ﴿ لعلكم تتفكرون ﴾ [البقرة : 219] للإشارة إلى أن الاستدلال على وحدانية الله تعالى قد تقررَ في النفوس بالفطرة ، وبما تقدم لهم من الدعوة والأدلة فيكفي في الاستدلال مجرد إخطار هذه الأدلة في البال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(39/357)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

ومن بعد ذلك يرد الحق على حكاية العجب من أن الله أوحى لرسوله ، وكذلك مسألة اتهام الرسول بالسحر ، فيلفتهم إلى قضية فوق هذه القضية ، وأنهم كان عليهم أن يروا العجب في غير مسألة الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

أي : كان عليكم ان تروا هذه المسألة العجيبة ، وهي خلق السموات والأرض وتتأملوا صنعها ، وكيف حدثت ؟

وإذا كان الله هو الذي خلق السموات والأرض ، وجعلك أيها الإنسان تطرأ على عالم ، وعلى كون معدّ لك إعداداً دقيقاً ، فكان يجب أن تلتفت إلى هذه المسألة قبل أي شيء آخر .

وضربنا من قبل المثل ، وقلنا : هَبْ أن إنساناً ركب طائرة ، ثم نفد وقودها وسقطت في الصحراء ، وكُتبت له النجاة وتلفَّت حوله فلم يجد ماء أو طعاماً أو أي دليل من أدلة الحياة ، ثم غلبه النوم ، فلما استيقظ من نومه ، وجد مائدة عليها من أطايب الطعام ، وأطايب الشراب ، أما كان يسأل نفسه قبل أن يأكل ويشرب : من الذي صنع وأحضر كل هذا الطعام ، وكل هذا الشراب ؟

وهذا الكون قد أعدَّ لك أيها الإنسان ، أما كان يصح أن تفكر فيمن أعدَّ لك هذا الكون ، وخلق لك كل ما ليس في متناول قدرتك ، وسخّر كل ذلك لك ؟ وقد أبلغك الحق : أنا خلقت السماء ، وخلقت الأرض ، والشمس ، والنجوم ، وحين وصلك هذا البلاغ ، فإما

أن يكون صدقاً ، فلتنفذ ما أمر به الخالق . وإن لم يكن هذا الكلام صدقاً ، فمن الذي خلق إذن ؟ إن كان هناك إله غيره قد خلق الكون ، وسمع مثل هذا البلاغ ، ولم يتحرك لبيان صدق المسألة ، لما كان هذا الآخر يستحق أن يكون إلها .

وما دام لم يظهر معارض له سبحانه ، فهو الخالق ؛ لأن الدعوى إذا ما صدرت من واحد ، ولم يظهر لها معارض ، فصاحبها هو من أصدرها إلى أن يوجد له معارض .

(40/357)

وقد ضربنا مثلاً ؛ فقلنا : هَبْ أن جماعة من أصدقائك جاءوا لزيارتك ، ثم خرجوا من عندك ، ووجدت أنت حافظة نقود ، ولم تعرف لمن هي ، ثم بعثت بخادمك ؛ ليسأل من كانوا في زيارتك ، وقال كل واحد منهم : إن حافظة نقوده لم تضع منه ، إلا واحداً قال : نعم ، هي حافظة نقودي . وهكذا تثبت ملكية هذا القائل لحافظة النقود ، إلى أن يثبت العكس .

والحال هنا هكذا ، فحين أبلغنا الحق أنه خلق السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وجعل في الأرض رزق البشر ، ولم يعارضه أحد ، إذن : يجب أن نصدق أنه الخالق .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق لكم كل هذا الكون مُسخَّراً أفلا تتركون له حرية أن

يختار رسولاً منكم إليكم ؟ فما وجه الاعتراض إذن ؟

يكشف الحق منطقهم حين قالوا :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31]

إذن : هم قد اعترفوا أن القرآن لا غبار عليه ، لكنهم ساخطون ويعيشون في ضيق ؛ لأن هذا القرآن قد جاء على يد يتيم أبي طالب .

ويكشفهم الحق أيضاً فيأتي بما جاء على ألسنتهم : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء . . . ﴾ [الأنفال : 32]

ولم يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا .

فالعداوة هي لرسول الله ، وهي عداوة حاقدة غير منطقية ؛ لأن كل واحد منكم كان إذا ملك شيئاً نفيساً عزيزاً عليه ، فهو لا يجد أميناً عليه إلا محمداً .

إذن : فلماذا لا تغشون أنفسكم في مسألة استئمان محمد على الأشياء النفيسة ، ولو كنتم غير مؤمنين بصدقه . فلماذا استأمنتموه على نفائسكم ؟ أليس هو محمد بن عبد الله الذي هاجر وترك عليَّ بن أبي طالب ؛ ليرد الأمانات لأصحابها ؟

إذن : فلا محمد دون مستوى الرسالة والأمانة ، ولا القرآن دون المستوى ، بشهادتكم أنتم ؛ بشهادتي القول والفعل .

وهنا يقول الحق : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . . . ﴾ [يونس : 3] .

وفي موقع آخر بالقرآن يقول سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : 57]

وما دام هذا الخلق العجيب قد صدر منه ، فالتصرفات التي دون ذلك لا بد أن تكون مقبولة منه سبحانه وتعالى ، وأن تكون لحكمة ما . وتعالوا نتحاكم إلى أنفسكم ، أنتم تقولون : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31]

إذن : لا شك عندكم في القرآن لا طَعْنَ فيه ، بل تطعنون في مسألة أنه جاء على يد محمد صلى الله عليه وسلم ، وتمنيتم لو أن القرآن قد جاء على يد واحد آخر تقبلونه . وأنتم في هذه المسألة غير منطقيين ؛ لأنكم تريدون أن تتدخلوا في قسمة الله ورحمته في أن يُنزِل الوحي على من تشاءون ، لا من يشاء هو سبحانه .

وأنتم بذلك تريدون أن تتحكموا في الرحمة العليا من الله في أن يختار رسولاً ؛ ليبلغكم عنه . وتتناسون أنكم في هذه الدنيا لا تقسمون الأرزاق ؛ لذلك يقول الحق : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ . . . ﴾ [الزخرف : 32]

فإذا كنتم تريدون أن تقسموا رحمة الله ، فاعلموا هذا القول من الله : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ

مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا . . . ﴾ [الزخرف : 32]

وهذا الأمر السهل ؛ تقسيم المعيشة في الحياة الدنيا تصرف فيه الحق سبحانه ، فكيف لكم - إذن - أن تطمعوا في تقسيم الأمر العلوي وهو رحمة الله العليا في أن يرسل رسولاً .

والحق سبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله ﴾ .

(42/357)

وساعة تسمع كلمة " رب " ينصرف الذهن إلى الخلق وإلى التربية ، ولذلك نحن نستعمل هذه الكلمة ونقول : " فلان رب هذه الأسرة " أي : أنه المتولي تربيتها ، وكلمة " الرب " بمعناها المطلق تنصرف إلى الله ، فهو الخالق الذي خلق من عَدَم وأمدَّ من عُدْمٍ ، وهو بهذا الوصف ربّ كل خلقه : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي .

وما دام الله سبحانه ربّاً لكل الخلق ، فهو الرازق لكل خلقه ، فهو الذي استدعى خلقه إلى هذه الدنيا ، وهو الذي يعطي كل مخلوق الرزق الذي كتبه الله له ، وهو سبحانه يأمر نواميس الكون وأسبابه أن تعطي له أو لا تعطي ، فإن زرع الأرض وأحسن زراعتها ؛ أعطى سبحانه الأمر للأرض أن تعطي هذا المخلوق الرزق .

وكل مخلوق يأخذ بالأسباب ، ويوفر له الحق النجاح في الأسباب .

وأقول دائماً لمن يرون تقدم الكفار في أمور الدنيا ، ويتساءلون : لماذا يتقدم الكفار في أمور الدنيا ونتأخر نحن ؟ أقول لهم : لقد أخذوا من عطاء الربوبية في الأسباب ، وأنتم لم تاخذوا من عطاء الربوبية ؛ حتى لا يسبقكم الكافرون إليها ، ولا تجلسوا في موقع المتفرج ، بل المفروض فيكم أن تسبقوا الكفار إلى عطاء الربوبية .

أما عطاء الألوهية ، وهو أن يُقِرَّ الإنسان بأن الله هو المعبود بحق ، وهو المطاع في " افعل " و " لا تفعل " ، فهذا العطاء لا يناله إلا مَنْ آمن به .

إذن : فالله رب الجميع ، ولكنه إله مَنْ آمكن به . إذن : هناك فارق بين عطاء الإله ، وهو المنهج المتمثل في " افعل " و " لا تفعل " ، وعطاء الربوبية المتمثل في الأمور المادية وهي شركة بين كل الناس : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي . وحين يُحسن الكافرُ الأخذ بالأسباب ؛ فهو يأخذ نتائجها .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20]

(43/357)

إذن : فواجب على المؤمنين أن يستقبلوا عطاء الربوبية بحسن الأخذ بالأسباب ؛ ليأخذوا النتيجة ، ولا يتقدم أهل الكفر عليهم ؛ لأن الكافر حين يسبقك في الأخذ بالأسباب ، ربما استغل هذه المسألة في ان يفرض عليك ما يخالف دينك .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ . . . ﴾ [يونس : 3]

أي : أن الذي ربَّي ، هو الذي كلَّف ، ويجب أن تستمعوا إلى منهجه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ الذي خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . . . ﴾ [يونس : 3]

وكلمة ﴿ سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ هذه وردت في كل آيات القرآن التي تحدثت عن زمن مدة الخلق للأرض والسموات ، لكن هناك آية جاءت بتفصيل ويظهر من أسلوبها أن الخلق قد استغرق ثمانية أيام ، وهي في سورة فصلت : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت : 9-10]

وهذه ستة أيام .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات فِي يَوْمَيْنِ وأوحى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السمآء الدنيا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾

[فصلت : 11-12]

وهكذا يكون المجموع ثمانية أيام ، وهذا هو الفهم السطحي ؛ لأن آيات الإجمال جاءت كلها بخبر الخلق في ستة أيام . وتعلم أن كل مُجمل يفسره مُفصَّلة إلا العدد ؛ فإن مفصَّله محمول على مجمله ، فالأرض خلقها الله في يومين ، وجعل فيها رواسي ، وبارك فيها ، وكل مخلوق ثان هو تَتمَّة للأول ، فاليومان الأولان إنما يدخلان في الأربعة الأيام ، وأخذت بقية الخلق اليومين الأخيرين ، فصار المجموع ستة أيام .

إذن : فالزمن تتمة الزمن ، ولذلك تجد أن اليوم على كوكب الزهرة أطول من عامها ؛ لأن عامها بتوقيت الأرض هو مائتان وخمسة وعشرون يوماً ، أما طول اليوم فيها فهو بتوقيت الأرض مائتان وأربعة وأربعون يوماً .

إذن : فاليوم على كوكب الزهرة أطول من العام فيها . والسر في ذلك أن كوكب الزهرة يخضع لدورة تختلف في سرعتها عن سرعة الدورة التي تخضع لها الأرض ، فدورة كوكب الزهرة حول نفسه بطيئة ، ودورته حول الشمس سريعة .

إذن : فكل كائن له نظام .

وما هو اليوم إذن ؟ اليوم في اعتبارنا هو دورة الأرض حول نفسها دورة يتحقق فيها الليل

والنهار . ولكننا نجد القرآن الكريم يطلق كلمة اليوم ويفصلها عن الليل ، فيقول سبحانه :

﴿ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً . . . ﴾ [سبأ : 18]

وهنا جعل الحق اليوم للضوء والكدح ، والليل للظُّلمة والراحة . والحساب الفلكي يسمى الليل والنهار يوماً .

ويبين القرآن لنا أن هناك يوماً للدنيا ، ويوماً للأخرة ، ويوم الدنيا هو ما نحسبه نحن من شروق إلى شروق آخر ، وكذلك هناك يوم عند الله هو بحساب الدنيا يقدر بألف سنة مما يحسبه البشر : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : 47]

ويقول الحق في موضع آخر : ﴿ تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : 4]

(45/357)

إذن : فالأزمنة متعددة ، ومنوعة ، وتختلف من قياس إلى آخر ، ومن كوكب إلى آخر . وما أظهره الله لنا في القرآن من الأزمنة إنما يدل على اختلافها ، لا على التعارض والتناقض .

ثم يقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ ووقف العلماء عند كلمة " اسْتَوَى " طويلاً ، واستعرضوا القرآن كله ؛ ليحصروها في

كتاب الله ؛ فوجدوها قد جاءت في اثنتي عشرة سورة : البقرة والأعراف ويونس والرعد وطه والفرقان والقصص والسجدة وفصلت والفتح والنجم والحديد .

وأول سورة جاء فيها ذكر استواء الله على العرش هي " الأعراف " يقول الحق : ﴿ الذي خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش يُغْشِي اليل النهار يَطْلُبُهُ حَثِيثاً والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين ﴾ [الأعراف : 54]

وما دام الله سبحانه هو الذي خلق فلا تعترض أن يكون الأمر له ، وأن يبعث سبحانه من شاء ؛ ليكون رسولاً ؛ لذلك فلا عجب أن أرسل لكم رجلاً منكم ؛ لأنه لو كان هناك غيره سبحانه هو الذي خلق ، ثم جاء ليفتئت فيأمر فيما خلق ، لكان للخلق شأن آخر ، لكن الله هو الذي خلق ، وهو سبحانه الذي أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم .

والآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول فيها الحق : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذي خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ ، أي : استتب له الأمر .

ثم تأتي آية سورة الرعد : ﴿ الله الذي رَفَعَ السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ استوى عَلَى العرش وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأمر يُفَصِّلُ الآيات لَعَلَّكُمْ بِلقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد : 2]

أما الصفات التي توجد في البشر ، ووصف الله نفسه بها ، هذه الصفات لا تؤخذ على مقتضى ما هي في البشر ، فكل إنسان هو ممكن الوجود . ولكن الحق سبحانه وتعالى هو واجب الوجود ؛ لذلك تؤخذ تلك الصفات في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . ﴾ [الشورى : 11]

ومثال هذا : أن الحق سبحانه وتعالى له عِلْم بأنك تقرأ الآن في التفسير ، وفي أي مكان تقرأه ، والذين من حولك يعلمون ذلك ، ولكنْ أعلْمُ الله يساوي علمَك وعلمَ مَنْ حولك ؟ لا ، فعلمه سبحانه وتعالى هو عِلْم أزليّ ، عِلْم قبل أن توجد أنت أو يوجد غيرك ؛ لذلك فأنت إذا عَلمت شيئاً ، وعَلمَ الله شيئاً ، فعِلْم الله يناسبه ، وعلْم البشر يناسبك . وأيُّ صفة من صفات الله مطلقة ، وأيُّ صفة من صفاتك نسبية ؛ لأن الحق سبحانه هو واجب الوجود الأزلي ، وأنت في هذه الحياة مجرد حدثٍ محدود العمر بين قوى الميلاد والموت . فالله غني ، وقد تكون أنت غنيّاً ، لكن غناك لا يمكن أن يتساوى مع غنى الله . وأنت موجود والله موجود ، ولكن وجودك لا يمكن أن يُقَاس بوجود الله . فذاتُ الله ليست كذواتنا ، وكذلك صفات الله ليست كصفاتنا ، وفعْله ليس كفعْلنا ، واستواؤه سبحانه ليس كاستوائنا ، بل في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ لأن الذي يُفْسد الفهم أن يقال : " استوى " بمعنى : قعد . أو فلنأخذ الاستواء كتمثيل للسيطرة ، وسبحانه مسيطر على

كل شيء ، والاستواء : يعني التمكن . وسبحانه القائل : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واستوى . . . ﴾ [القصص : 14]

إذن : فاستوى : تعني بلوغ تكوين الكمال في الذات . والإنسان منا وهو صغير – قبل البلوغ – إنما تنقصه بعض من درجات النضج في الجهاز العصبي ، وكذلك في الجهاز التناسلي ، فإذا ما بلغ اكتمل النضج ، ويقال : (اَسْتَوَى) أي : صار قادراً على إنجاب مثله ، وتمت له رجولته . ويقال عن الثمرة : إنها استوت ﴿ فاستوى على سُوقِهِ ﴾ [الفتح : 29]

(47/357)

أي : نضجت نُضْجاً يبلغها أن تعطي من ثمرتها مثل ذاتها ، وبذلك تضمن بقاء نوعها .

وحين بلغ الطوفان تمامه استوت مركب سيدنا نوح ومعه المؤمنون من قومه ، وقال الحق :

﴿ واستوت عَلَى الجودي . . . ﴾ [هود : 44]

أي : استقرت على الجبل واستتب الأمر .

إذن : فكل استواء لله يجب أن يؤخذ على أنه استواء يليق بذاته ، وصفاته ، التي قد يوجد في البشر مثلها ، لكنها صفات مطلقة في إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . ﴾ [الشورى : 11]

وفعْل الله لا يمكن أن يتساوى مع فعل البشر ؛ ولذلك قلنا في حديث الإسرَاء : إن الكفار المعاصرين للإسراء حينما كذَّبوا النبي صلى الله عليه وسلم في أنه قد أسرى به ، قالوا : أتدَّعي أنك أتيتَ بيت المقدس في ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ وهذا القول المستنكر يؤكد أنهم قد فهموا أن الإسراء قد حدث حقيقة .

ورغم ذلك تجد بعض المعاصرين – الذين يدعون المعاصرة والفهم – يتساءلون : ولماذا لا تقولون : إن الإسراء قد تَمَّ بالروح ؟ ونقول لهم : إن كفار قريش أنفسهم الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقولوا ذلك ، وفهموا أن الإسراء قد تمَّ بالجسد ؛ لذلك قالوا : " أنضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، وتدَّعي أنك أتيتها في ليلة ؟ " بل ، ولم يقولوا له : إنه رأى بيت المقدس في رؤيا أو حُلْم ؛ لأنه لا أحد يُكذِّب رؤيا أو حُلْماً ، وهكذا كان تكذيبهم دليلاً على التصديق للإسراء إلى أن تقوم الساعة .

ونقول لمن يدَّعي أن الإسراء إنما تَمَّ بالروح : افهم جيّداً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أسري بي " .

إذن : فعْل الإسراء منسوب لله ، لا لمحمد صلى الله عليه وسلم . والقرآن يقول : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً . . . ﴾ [الإسراء : 1]

وما دام الحق قد قال : (سُبْحَانَ) أي : أن الله مُنَزَّهٌ عَمَّا في بال البشر من المسافات والقوة وغيرها .

ولقد ضربنا مثلاً لهذا – ولله المثل الأعلى – برجل يصعد بابنه الرضيع قمة جبل " إفرست " ، فلا يقال : وهل يصعد الرضيع قمة الجبل ؟ فالصعود منسوب هنا للرجل ، ولقدرة الرجل وقوته ، لا إلى الطفل .

وهكذا – ولله المثل الأعلى – فالزمن والقدرة على الإسراء منسوبان لله سبحانه ، لا إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

ونحن في مجالنا البشرى تختلف قدراتنا في قطع المسافات وأزمانها ، فمن يركب عربة يجرُّها حصان فقد يصل من القاهرة إلى الإسكندرية في أيام ، ومَنْ يركب سيارة فقد يصلها في ساعتين . ومَنْ يركب طائرة فقد يصلها في نصف ساعة .

إذن : فكلما زادت القوة تجد الزمن يقل ، فما بالنا بقوة القويّ ؛ أيكون معها زمن ؟ طبعاً لا .

وقال الحق سبحانه لسيدنا نوح : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ . . . ﴾ [المؤمنون : 28]

أي : بعد أن ركب معك يا نوح مَنْ آمن من قومك ، واطمأننت على نجاتهم ، ستسير السفينة بإذن ربها .

إذن : فقول الحق عن ذاته : ﴿ استوى عَلَى العرش .

. . ﴾ [يونس : 3]

يعني أن الأمور قد استتبت وتمت . وهكذا نفهم أن كل شيء يتعلق بالحق سبحانه وتعالى

نأخذه في إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . ﴾ [الشورى : 11]

وأن كل صفة من صفاته يأتي تمثيلها ليقرب المعنى فقط ولا يعطي حقيقة المعنى ؛ لأنه

سبحانه ليس كمثله شيء . وهكذا فسبحانه له استواء يليق بذاته ، لا كاستواء البشر .

والشاعر أبو تمام حين جاء ليمدح الخليفة المعتصم ، نظر إلى الصفات التي اشتهر بها بعض

القوم ، " فحاتم " على سبيل المثال كان قمة الكرم . و " عنترة " هو قمة الشجاعة ، "

والأحنف بن قيس " قمة الحكمة ، فقال الشاعر أبو تمام عن الخليفة :

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ . . . فِي حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذَكَاءِ أِيَاسِ

(49/357)

وهكذا صار الخليفة مَجْمع فضائل ؛ لأنه أخذ إقدام عمرو ، وكرم حاتم ، وحلم الأحنف ،

وذكاء إياس . ولكن حاسد الشاعر قال : إن الأمير فوق كل من وَصَفْتَ ، فهؤلاء جميعاً

بالنسبة للخليفة صغار . وقال أحد الشعراء :

وشبهه المدّاح في البأس والنّدى . . . بمَنْ لو رآهُ كان أصغرَ خادِمِ

ففي جَيْشِه خَمسُون ألْفاً كَعنْترٍ . . . وَفي خزَائنه ألفِ حاتمِ

وحين سمع الشاعر الأول ذلك ، وكانت قصيدته الأولى " سينية " ، أي : أن آخر حرف في كل أبياتها هو حرف السين ، فجاء بأبيات أخرى من نفس بحر القصيدة الأولى : وقال :

لا تُنْكِروا ضَرْبي له مَنْ دُونهُ . . . مَثلاً شَروداً في النّدَى والباسِ

فالله قَدْ ضَرَبَ الأقَلَّ لنورِه . . . مثلاً من المِشْكَاةِ والنّبراسِ

إذن : فهناك فَرْق بين تمثيل الشيء ، وبين حقيقة الشيء ، فحين قال الحق : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المصباح فِي زُجَاجَةٍ . . . ﴾ [النور : 35]

فهذا مثل توضيحي للبشر . وشاء الحق ذلك ليعطينا مجرد صورة ؛ لأنه يتكلم عن أشياء لا وجود لها عندك . ولذلك نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول عن الجنة : " فيها ما لا عَينٌ رأت ، ولا أُذُنٌ سمعتْ ، ولا خَطَر على قلبِ بَشَر " .

وأنت حين ترى ؛ فللرؤية حدود . وحين تسمع فأنت تسمع مرائي غيرك ، وما لا يخطر على البال هو القمة ، فقد ارتقى الرسول في وصفه للجنة من حدود ما تراه العين إلى آفاق ما تسمعه الأذن ، ثم ارتقى من حدود السمع إلى ما لا يخطر على البال ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم علم أن اللغة هي ألفاظ تعبر عن معان ، والمعاني تزجد أولاً ثم نأتي لها بالألفاظ ؛ ولذلك فالأمثال لمجرد التوضيح باللغة .

وهكذا نطون قد استوفينا فهم قوله الحق : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ بما يليق بذات الله ، فلا نأخذ الاستواء على المعنى الذي يدل على مكان محيّز ؛ لأنه سبحانه مُنَزَّه عن أن يكون متحيزاً في مكان ؛ فذاته سبحانه ليست كالذوات ، وفعله ليس كالأفعال ، وصفاته ليست كالصفات .

ثم يقول بعد ذلك : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ أي : أنه يرتب الوجود ترتيباً يجعل كل شيء موضوعاً في مكانه بحكمة .

والحق سبحانه وتعالى له صفة علم ، وصفة إرادة ، وصفة قدرة ، وصفة العلم هي التي تخضع كل شيء في مكانه بحكمة . وصفة الإرادة هي التي تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه . وصفة القدرة تبرز المراد لله .

إذن : فهناك علم ، وهناك إرادة ، وهناك قدرة تبرز المراد على وفق العلم . ومن المنطقي أن يدبر الله كل أمر ؛ لأنه سبحانه هو الذي خلق السموات وخلق الأرض . واستوت له الأمور بحيث لم يعد هناك خلق جديد إلا ما يبرزه ب "كن" . وهو سبحانه بعد أن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وسخَّر له السموات والأرض ؛ لذلك لا بد أن يدبر

سبحانه للإنسان أمور مادياته ، وأمور قيمه .

أما أمور الماديات فد ظهرت في خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والماء والهواء . وما في الأرض من عناصر تنبت للإنسان ما يحتاج إليه في قوام حياته ، وهو سبحانه الذي خلق كل ذلك قبل أن يخلق الإنسان ، ثم جاء بالإنسان ليكون الخليفة والسيد .

إذن : فالإنسان هو الذي طرأ على هذه الأمور المادية ، وكان لا بد أن يُنزِلَ الحق سبحانه قيماً يحيا بها الإنسان كخليفة في هذه الأمور المادية .

وهكذا خلق الله القيم المعنوية ، فلا تقولوا : لماذا أرسل رسولاً لا يُحسب في نظر بعض الناس من عظماء أقوامهم ، ولا تقولوا لماذا أرسل محمداً بالتحديد ؛ لأن هذا الإرسال هو من ضمن تدبير الأمور ، و ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . . . ﴾ [الأنعام : 124]

(51/357)

إذن : فقوله : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ جاء ليؤكد نَفْي التعجب من أن يكون الوحي لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ . . . ﴾ [يونس : 2]

وعلتها أن الله هو ربكم وهو الذي خلق ، ولا يجادل أحدٌ الله فيما خلق ، وفيمن خلق .

وإذا كان هو سبحانه الذي خلق الإنسان والكون ، فلا بد أن ينظم حركة الوجود بين الإنسان والكون ؛ لذلك اختار الرسول المناسب ؛ ليحمل منهج القيم للإنسان في " افعل كذا " و " لا تفعل كذا " . ثم ترك الحق للإنسان أموراً لا يقول له فيها : افعلها أو لا تفعلها ، فهي من المباحات .

وإذا استقرأت الأفعال والأحداث ، ستجد أن الذي قال الله فيه " افعل " قليل ، والذي قال الله فيه " لا تفعل " قليل . وبذلك تجد المباحات أكثر من " افعل " وأكثر من " لا تفعل " .

وما دام سبحانه هو الذي شاء ذلك ، وترك لك أيها الإنسانُ الكثير من الأمور المباحة ، فاترك القيم لله ؛ لأن الكون المادي المخلوق لله في غاية الدقة وفي غاية النظام ، ولم تمتنع الشمس أن تشرق أو تعطي ضوءها وحرارتها للناس ، وما امتنع القمر أن يعطي نوره ، وما امتنع السحاب أن يسقط مطراً مدراراً ، وما امتنعت الأرض أن تتفاعل مع أي غَرْس تغرسه فتعطيك الغذاء ، وكل شيء داخل في نطاق القدرة في النواميس العليا ؛ مُحكم ؛ ولا خلل فيه .

وإذا نظرتم إلى غير ذلك وجدتم الخلل قد حدث ؛ لأن الشيء الذي لا تدخل فيه قدرة الإنسان وإرادته هو على أتم ما يكون من النظام ، ولا يفسد إلا الشيء الذي للإنسان فيه عمل واختيار ، ولا يعني ذلك أن كل أعمال الإنسان تعاني من الخلل ، لكن الأعمال التي

تعاني من الخلل هي الأعمال التي يُقبل عليها الإنسان دون منهج الله . ولو اخترنا البدائل على ضوء منهج الله ، لاستقامت القيم كلها ، كما استقامت لنا نواميس الكون العليا .

(52/357)

فإذا رأيتم فساداً فلوموا أنفسكم ؛ لأن الأمر الذي لا تتناولونه بأيديكم ولا دخل لكم فيه ، يعمل غاية في الدقة ، فإن أردتم أن تعمل أموركم الاختيارية بغاية الدقة ؛ فخذوا منهج الله في الأفعال ، ولا تفسدوها أنتم بأن تختاروا البدائل على غير مرادات الله .

ولذلك أقول دائماً : إنك إذا ما رأيت عورةً في الوجود ، يتعب منها المجتمع ، فاعلم أن حدّاً من حدود الله قد عُطِّل . وإن وجدت أمة متخلفة ، فاعلم أنها عطلت حدود الله ، وإن وجدت أمة تعاني من أمراض اجتماعية جسيمة ، فاعلم أنها لا تطبق منهج الله .

ويخطئ مَنْ يقصر فَهْمَ عبادة الله على أنها الانقطاع في المسجد ، أو الصوم ، أو إخراج الزكاة في ميعادها ، أو الذهاب إلى الحج ، فكل هذه هي رؤوس الإسلام تشحن العبد ليعمل وَفْق منهج الله ، فالصلاة هي إعلان الولاء لله خمس مرات في اليوم ، ومدة الصيام شهر كل عام ، والزكاة إنما هي من فائض المال ، والحج هو تَرْكٌ للمال والأهل والولد .

كل ذلك من أجل شحن الطاقة ، فإذا ما شحنت الطاقة ، فوجِّه الطاقة إلى عمل آخر .

ولنأخذ الصلاة مثلاً : فأنت تحتاج إلى طاقة تُقيمك وتُقعدك وتستبقي حياتك ؛ وقوة حركتك تحتاج كل ذلك لتصلي !

إذن : فأنت تحتاج إلى طعام ، ولن تُطْعم ما لمْ يَكُنْ لك عمل يتيح لك شراء الطعام ، وحتى يبيع لك التاجر الخضر واللحم ، والفاكهة والخبز ، هو يحتاج إلى مَنْ ينتج ذلك ، ومَنْ ينتج الأطعمة يحتاج إلى مَنْ يدرس طبيعة الأرض والبذور ومعرفة الأوقات ، وكل هذه الأمور تحتاج إلى أجهزة منظمة لإنتاج الطعام . فمن يزرع يحتاج إلى محاريث تحرث ، وهذا يستلزم وجود الحديد وآخرين ليصهروه ويستخرجوا منه ما يصلح لصناعة المحاريث .

(53/357)

إذن : فقيامك إلى الصلاة يحتاج إلى كل هذه الأعمال . وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وهكذا تجد أن كل الأعمال التي تُسهِّل لك العبادة هي أعمال واجبة . والمثال : أنك حين تصلي تحتاج إلى سَتْر عورتك ؛ لذلك تشتري القماش ليُفصِّل لك الخائط ما ترتديه من ملابس ، وكل هذه الأعمال التي تنتج القماش وتصنع الثياب هي أعمال واجبة ، بدءاً من زراعة القطن أو الكتان أو التيل وغيرها إلى المغازل ومصانع النسيج ، وغير ذلك .

وهكذا تجد أن كل الأعمال التي يتم الواجب بها هي أعمال واجبة ، فَسَتْر العورة أمر

شرعي ، وهكذا يتسع مفهوم العبادة ليكون معناها : كل حركة تؤدي إلى إبقاء الصالح على صلاحه وزيادة الصالح إلى ما هو أصلح .

والمثال الذي أضربه دائماً : هو حاجة الإنسان إلى الماء للشرب ، والغُسْل من الجنابة وطهو الطعام وغير ذلك ، وكان الإنسان قديماً يشرب من الآبار ، ثم تطور التفكير إلى إقامة شبكات لتوزيع المياه بعد تنقيتها ، كل هذه أعمال تُزيد الأمر الصالح صلاحاً ؛ لأنك أخذت الماء من المطر الذي ملأ النهر ، وأعليْتَ الماء في خزانات لتنقيته ، ثم اكتشفت قوانين الاستطراق ومضخات المياه ؛ ليصل الماء الطاهر إلى كل من يحتاجه . وهكذا تزيد الصالح صلاحاً بالتفكير واستخدام العلم بما يفيد الإنسان ، إذن : فهذا عمل عبادي ما دامت النية فيه لله .

وانظر إلى يوم السوق في أي قرية ، تجد من يدخله ومعه الماشية والأنعام التي يرغب في بيعها ، وتجد مَنْ يدخل بالفواكه والأطعمة ، ومَنْ يدخل ومعه الثياب أو أدوات المنزل ، وتجد من يدخل ليس معه شيء ، وبعد انتهاء السوق تجد كل إنسان قد خرج بما يحتاج ، لا بما دخل لبيعه . وهكذا ألقى الله الخواطر في قلب وتفكير إنسان ما ليبيع ما لا يحتاجه ، وآخر ليشتري ما يحتاجه من إنتاج غيره .

وأنت إذا نظرت إلى قرية ما ، ستجد واحداً من أعيانها يرغب في بيع أرضه وقصره ، ويرغب في الرحيل إلى بلدة أخرى ، وهكذا ترى الميزان الاقتصادي الإلهي ، الذي يوزع العباد في الأماكن التي تليق بكل واحد منهم ، فإذا ما زاد واحد عن الحاجة في مكان ، فهو يرحل إلى مكان آخر يحتاجه . وهذا هو التدبير الإلهي على أحسن ما يكون .

وقد تجد – مثلاً – الطفل يكتب بيده اليسرى ، على عكس أقرانه ، وقد تضربه على ذلك ، فيعجز عن الكتابة باليمنى وباليسرى ، وحين يقول لك الطبيب : لقد شاء الله أن يجعل ابنك موهوباً في الخط الجميل ، وهو يكتب بيده اليسرى ، فأنت تتعجب ، وتكتشف بالفعل أن خط الطفل باليد اليسرى جميل .

وأقول دائماً لمن يشكون أن بعضاً من أولادهم يكتبون باليد اليسرى أو يأكلون باليد اليسرى ، أقول لهم : إن هذه المسألة تتعلق بالجهاز العصبي للإنسان ، فهناك من خلقه الله ليَعْملَ باليد اليمنى ، وهناك من خلقه الله ليعمل باليد اليسرى ، وهناك من خلقه الله ليعمل بيديه الاثنتين ، مثل سيدنا عمر – رضي الله عنه – وكان " أضبط " أي : يعمل بيديه الاثنتين .

وعلينا أن نحترم أقدار الله فيما خلق ومَنْ خلق . فسبحانه يخلق ما يريد ، لا وَفْق قوالب ، بل يخلق ما يشاء ، ومع كل خَلْق مراد معين . وكما أحسن الحق تدبير ما ليس لكم دَخْلٌ فيه ، فاعلموا أنه قد أنزل المنهج ليُحسّن مما لكم فيه دَخْلٌ ، ويجعل أموركم منتظمة ، وكل

ذلك يدخل ضِمْنَ تدبير الأمر .

وأنت إذا نظرت إلى معنى كلمة " أمر " تجد أنها كل شيء ينشأ ، ولماذا عدل سبحانه عن قول : " شيء " إلى قول : " أمر " ؛ لأن كل شيء لا يوجد في الوجود إلا ب " كن " وهي أمر . وسبحانه القائل : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82]

(55/357)

وسبحانه يدبر الأمر في السنن المادية التي لا تتناولها يد الإنسان ، فإن أراد الإنسان أن يضبط أمور حياته ، فليأخذ بالمنهج الذي أنزله الله ب " افعل " و " لا تفعل " ، وأما المباحات فهي كثيرة ، والإنسان حرٌّ فيها .

وإذا ما سأل سائل : ولماذا اتَّبِع المنهج ؟ أقول : إن الحق شاء أن يخلق الإنسان على هيئتين : هيئة إرغامية قهرية ، وهيئة اختيارية ، فأنت أيها الإنسان مقهور في أشياء ، ومُختار في أشياء أخرى ؛ أنت مقهور في التنفس ، وتتنفس آلياً دون تدخُّل منك ، تتنفس مستيقظاً أو نائماً ، ولو كان التنفس باختيارك ، لاحتجْتَ إلى مَنْ يدير حركة تنفسك وأنت نائم ؟ إذن : فمن رحمته سبحانه أن جعلك مقهوراً في مثل هذه المسألة وكذلك نبضات قلبك ، أنت مقهور فيها ، وكذلك أنت مقهور في الحركة الدودية للأمعاء ، وللحركة الانبساطية

والانقباضية في المعدة ، وإفراز العصارات الهضمية ، كل ذلك أنت مقهور فيه ، وأنت مُختار في أشياء أخرى ، كأن تشتري من البائع الفلاني ، أو بائعٍ غيره ، وأنت مُخيَّر في أن تختار أصناف الطعام التي تهواها .

والمباحات في الوجود كثيرة ، وما أكثر ميادين الحرية في الحياة ، وما حدده لك الحق سبحانه وتعالى ب " افعل " و " لا تفعل " ، لا يخرج عن أمور محصورة تصونك وتصون مجتمعك ، وكذلك الكون الذي تحيا فيه . وإنْ مارسْتَ أيها الإنسان حريتك في الأمور المباحة على أي لون شئت ، فذلك لا يفسد الكون .

وقد شاء الحق سبحانه – أيضاً – أن تكون مقهوراً في بعض الأمور حتى لا يفسد الكون ، فإن أكلت ما شئت من المأكولات غير المحرمة ؛ فأنت حرٌّ ، وإن سلك كل إنسان كما يهوى في الأمور المباحة ؛ فلا مانع لذلك . وكل البشر يختلفون .

وأراد سبحانه أن يحمي الإنسان والكون ؛ لأنه علم أزلاً أن أهواء البشر تتضارب ، وهو القائل : ﴿ وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض . . . ﴾ [المؤمنون : 71]

ولهذا نرى أن تدبير الله فيما لا دخل لنا فيه ، تدبير مُحْكَم ، وما يسير بدون تَدَخُّل من البشر إنما يتبع نظاماً مستقيماً ، وشاء الحق أن يجعل نواميس الكون تعمل بدقة يندهش لها المؤمنون بالله والكافرون به ، فسبحانه يحكم في مُلْكه بدقة متناهية ؛ حتى إن بعض العلماء ممن لا يؤمنون بمنهج الله قد حددوا مواعيد الكسوف الكلي أو الجزئي للشمس أو القمر بدقة متناهية وذلك باستقرائهم لمعطيات الكون .

وما دُمْتم أنتم تتميزون على الكافرين بالإيمان بالله ، فخذوا منهج الله في حياتكم ؛ لتستقيم أموركم بمثل استقامة الكون .

ولذلك قال سبحانه : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر . . . ﴾ [يونس : 3]

ويضيف : ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ وجاء الحق بمسألة الشفاعة بعد مسألة تدبير الأمر ؛ لأن هؤلاء الكافرين الذين تعجبوا من إرسال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، كانوا يعبدون ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : إن تلك الأصنام تشفع لهم عند الله ، مصداقاً لقوله الحق : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله . . . ﴾ [يونس : 18]

ولذلك يُفصِّل الحق سبحانه مسألة الشفاعة . فالإنسان لا يحتاج إلى شفاعة عند مَنْ يملك الأمر إلا إذا ارتكب جُرْماً أو حدث منه تقصير في أمر ما . والآية أوضحت أنهم يعبدون ما لا يضرهم إن لم يعبدوه ، وما لا ينفعهم إن عبدوه . واقرأوا أن مثل هذه الأصنام إنما

تشفع لهم ، والشفاعة من الشفع ، والشفع ضد الوتر . والوتر هو ما لا يقبل القسمة على اثنين ، فيكون الوتر رقماً فرديّاً .

والعبد من هؤلاء له موقف من الإله الذي يعبده ، وهو غير قادر على مواجهته ؛ لأنه مقصر ، فبدلاً من أن يقابله فرداً يأتي بآخر معه ؛ ليشفع له ، وهكذا يكون معنى الشفع هو تعضيد الفرد بواحد آخر ؛ فينتقل من كونه وتراً إلى كونه شفعاً .

(57/357)

وكان الكفار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون عن تلك الأصنام : إنهم شفعاء لهم عند الله ، فيقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ . . . ﴾ [يونس : 3]

لأن الشفاعة تقتضي شافعاً ومشفوعاً عنده ، ومشفوعاً له ، ومشفوعاً فيه ، هذه هي الأربعة العناصر في الشفاعة . والذي يستشفع هو المقصِّر ، وهؤلاء الكفار قالوا عن الأصنام : إنها شفعاء لهم عند الله ، وهذا إقرار منهم بالتقصير ، وأقروا بأن المشفوع عنده هو الله ، وأما المشفوع فيه ؛ فهو تخفيف العذاب أو إنهاء العذاب .

إذن : فالمشفوع فيه أمر مشترك ، والمشفوع عنده أمر مشترك ، أما الأمر في الشافع ، والأمر

في المشفوع له ، فهما مختلفان . وأنت – على سبيل المثال ، لا تأتي بإنسان يسير في الطريق وترسله ليشفع لك (مثلاً) عند المحافظ أو عند الوزير ؛ إن كانت لك حاجة عند أي منهما ، بل تأتي بإنسان تعلم رضا المحافظ عنه أو رضا الوزير عنه ، وله منزلة ومكانة ، وهذه المنزلة والمكانة تسمحان له بالإذن في أن يكلّم المحافظ أو الوزير في أمور الناس .

وإذا كان هذا هو الحال في الشفاعة من البشر لدى البشر ، فما بالنا بالشفاعة للإنسان لدى الله ؟ لذلك بيَّن الحق هنا أن الشفيع لا بد أن يكون بإذن منه سبحانه ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ [يونس : 3]

وفي سورة البقرة يقول سبحانه :

﴿ مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ . . . ﴾ [يونس : 3]

وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشفاعة إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ [طه : 109]

إذن : فالشفيع لا بد له من إذن ورضاً من الله .

أما المشفوع له فقد قال الحق : ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى . . . ﴾ [الأنبياء : 28]

هكذا بيَّن لنا الحق عناصر الشفاعة : الشافع ، والمشفوع له ، والمشفوع عنده وهو الله سبحانه ، والمشفوع فيه هو الذنوب وهي معروفة .

ولقائل أن يتساءل : ما دام الحق سبحانه قد رضي عن عبد ، فلماذا يحتاج العبد إلى الشفاعة ؟

وأقول : لننتبه إلى أن الإنسان يتعرض لأعمال كثيرة ، وله نقاط ضعف في حياته ؛ قد تكون كثيرة ، وقد تكون قليلة ، فإذا جاء في نقطة الضعف وأذنب ذنباً ، فعليه أن يزيد من فعل النقاط القوية التي تُكتب له بها الحسنات ؛ لأن المعيار هو : ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ [هود : 114]

فالعبد حين يزيد من الحسنات فالحق سبحانه قد يمحو السيئات ، وليعلم كل إنسان أنه إن اختلس من الله حكماً فهو لن يستطيع أن يهرب من العقاب ، وعليه أن يزيد من الحسنات ، ويرجو المغفرة من الله ؛ وقبول التكفير بالحسنات عن السيئات ، ولن يُفلت أحد من ملكوت الله .

وهَبْ أن إنساناً فيه نقطة ضعف ، وأذنب ذنباً ، وعنده نقطة قوة يطيع فيها الله بسهولة ويُسْر ، هذا الإنسان له أن يعلم أن الله يحبه لأجل نقطة قوته هذه ، وقد يرحمه الله سبحانه فيما أذنب من الذنوب ، ويجعل المأذون له في الشفاعة يشفع له عنده سبحانه .

فلماذا أراد الحق ذلك ؟

شاء الحق ذلك حتى لا يُحرَمُ العالم من الحسنات التي يجيدها ذلك الإنسان . ويحكي لنا الحديث النبوي الشريف عن الرجل الذي لقي كلباً يلهث من العطش ، ولم يجد الرجل إناء يملأه ماء من البئر ليسقي الكلب ، فنزل البئر وملأ خفه ، وعاد إلى الكلب ليسقيه . وبطبيعة الحال لم يكن هذا الرجل لينافق الكلب ، بل منتهى الرحمة بهذا الحيوان ، كذات خلقها الله ؛ لذلك غفر الحق سبحانه لهذا الرجل .

(59/357)

وهكذا نفهم أن الحق يغفر ويمحو السيئات . وقد جعل الحق سبحانه الشفاعة لرسول الله تكريماً له صلى الله عليه وسلم ، وكذلك في المأذون له في الشفاعة ، حتى يعلم المسلم أن الرسول قد يشفع له ، وأن المؤمن قد يشفع لأخيه ، وأن الأب قد يشفع لابنه ، وحين يعلم المسلم ذلك ، فهو يحسن إلى كل هؤلاء ؛ لعله يحصل على الشفاعة منهم ، ويحسن اتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويحسن معاملة المؤمنين ، ويحسن الابن معاملة والديه ، وهكذا يعيش المجتمع في كرامة الشفاعة بعمل الخير وإخلاص النية .

وإذا رأيت إنساناً محسناً في دينه ، فلا بد لك أن تحترمه ؛ لأن إحسانه في دينه قد ينفعك

أنت ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة يقول :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : 5]

وكان الحق سبحانه قادراً أن ينزلها " إياك أعبد وإياك أستعين " ولكنه شاء أن تنزل على صورتها تلك ؛ حتى يأذن سبحانه بقبول الصفقة من كل قائليها ، فيتقبل من عباده أعمالهم بما يغفر لبعضهم الأشياء المعيبة .

ولذلك أقول : إن رأيت إنساناً مستغرقاً في العبادة فلا تسخر منه ولا تهزأ به ؛ لأن حرصه على الطاعة وانشغاله بالعبادة قد تنفعك أنت .

وساعة تتلقى آمراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجده شاقّاً ، فعليك أن تتذكر أنه المرجع الذي قد يشفع لك في الأمور التي لم تقدر عليها .

ولا بد أن يرضى الحق عن المشفوع له ؛ لأنه قد أجاد فعل حسنات . وإن كانت له سيئات ، وقد رأى رجل سيدنا عمر في رؤيا ، فسأل الرائي سيدنا عمر بن الخطاب : ماذا افعل الله بك يا ابن الخطاب ؟ فقال سيدنا عمر : غفر الله لي . فسأل الرائي : بماذا ؟ أجاب سيدنا عمر : لأني رأيت غلاماً يعبث بعصفور فاشتريته حتى لا أفجعه في عصفور يملكه ، وأخذت العصفور وأطلقته .

واعترض أحد السامعين للرؤيا متسائلاً : ألم يفعل ابن الخطاب أعمالاً تؤهله لمغفرة الله إلا مسألة العصفور هذه ؟ فقال له قائل : أحسن الفهم يا رجل ؛ فمسألة إطلاق العصفور إنما تخص غفر الخطايا ، وأما أعمال عمر بن الخطاب الجليلة فهي لرفع الدرجات .

وفي القرآن آيتان جاءتا بنص متقارب ، فالحق يقول : ﴿ واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ . . . ﴾ [البقرة : 48]

والآية الثانية تقول : ﴿ واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ . . . ﴾ [البقرة : 123]

ومن حاولوا المقارنة بين الآيتين بغرض الطعن في القرآن ، هم من الغرباء عن اللغة ولا يملكون ملكة البيان التي يمكن أن يستقبلوا الأساليب بها ، ولو امتلكوا هذه الملكة لعلموا أن الصدر في الآيتين محتمل لوجهين ، فهناك نفس جازية هي التي تتشفع ونفس مجزيٌّ عنها هي التي يُتشفع لها .

والضمير الذي يأتي في قوله الحق : ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا ﴾ و ﴿ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا ﴾ و ﴿ وَلاَ تَنفَعُهَا ﴾ ، هذا الضمير يصح أن يرجع إلى النفس الشافعة ، ويصح أن يرجع إلى النفس المشفوع لها . والإنسان منا إذا ما كان عليه شيء لإنسان آخر ، وغير قادر على أن يستبرئ ذمته منه ، فهو يلجأ إلى صديق لهذا الآخر ، له مكانة عنده ليستشفع له . وفور أن

يذهب صاحب المكانة إلى هذا الاخر فهو يقول له : هل تقبل شفاعتي لفلان ؟ فإن قال صاحب الأمر : لن أقبل الشفاعة ، فالمستشفع عنده يقول له : إذن : سأدفع العدل ، أي : ما يساوي قيمة ما كنت سأتشفع له فيه .

وهكذا نجد أنفسنا أمام نفسين : شافعة ، ومشفوع لها . والضمير يعود على أي من النفسين .

وهكذا نجد أن صدر كل آية من الآيتين اللتين يقال عنهما : إنهما متشابهتان ، صدر كل منهما منسجم مع عجزها .

(61/357)

وينهي الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بعد أن أوجزت الآية فكرة عن خلق الله تعالى للكون ، وأنه يشفع لمن شاء ويختار من يقدم له الشفاعة ، فيقول : ﴿ ذلكم اللهُ رَبُّكُمْ فاعبدوه أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس : 3]

فسبحانه خلق الكون ، واستتبَّت بيده مقاليد الأمور ، وخلق الإنسان ليعمر هذا الكون ، ونعلم أنه سبحانه قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ، وحين يشهد الحق لنفسه ، فسبحانه على ثقة تامة بأن أوامره في كونه نافذة .

وقوله سبحانه : ﴿ ذلكم ﴾ أي : إشارة إلى ما تقدم من خلق السموات والأرض ، والاستواء على العرش ، وتدبير الأمر كله ، ولا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ، هذا هو الله ربكم ، وما دام هو ربكم فاعبدوه ؛ لأنه هو الذي خلق من عدم ، وأمد من عُدْم ، وله كل صفات الكمال المطلق .

وهذه العبادة لا تعود عليه سبحانه بأي فائدة ، فسبحانه منزَّه عن فائدة تعود عليه ؛ لأنكم إن عبدتموه فلن تزيدوا في ملكه شيئاً ، وإن لم تعبدوه فلن تنقصوا من ملكه شيئاً . والعبادة يعود نفعها عليكم ؛ لأنكم ستأخذون بها منهجاً يخرج كل الخلق عن أهوائهم ، ويصير هوى الموجِّه واحداً ، فلا تصطدم إرادة بإرادة ، بل تتساند الإرادات ؛ فيتكامل العالم .

إذن : فالعبادة توحّد أهواء الخلق إلى مراد واحد ، لا يأنف الإنسان منا أن يخضع له ؛ لأن هذا ليس خضوعاً من بشر لبشر ، بل خضوعاً من مخلوق لخالق ، وبذلك تستقيم أموركم الاختيارية ، كما استقامت أموركم غير الاختيارية .

وهكذا لا تنحصر العبادة في أركان الإسلام الخمسة فقط ، بل تكون هذه الأركان الخمسة هي الدعائم التي تقوم عليها عمارة الإسلام ، وكل الإسلام هو كل أمر لله وكل نهي له سبحانه ؛ ولذلك حين نتابع تسلسل الأمور ، سنجد أن أركان الإسلام الواجبة تعتمد على حركة الحياة كلها ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ويقول الحق في آخر الآية : ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ والذهن أو المخ – كما نسميه – فيه ملكات متعددة مثل : ملكة التخيُّل ، وملكة الحفْظ والاختزان ، وكثير من الملكات الأخرى منها مَلَكَةُ التذكُّر . ومعنى التذكُّر أن شيئاً سبق لك إلْفٌ به ، فطرأ عليك ما أنساك ، وحين تنسى أمراً يخصُّ أحد أقرانك ، فهو يقول لك : تذكر يا أخي الأمر الفلاني ، وهو لا يأتي لك بأمرٍ مجهول لم تعرفه أولاً ، بل يأتي لك بأمر كان معلوماً لك ، ولكنك نسيته .

والإنسان حين ينظر إلى الكون نظرة غير متحيزة لا بد أن يؤمن بأن لهذا الكون إلهاً ، وهذا الأمر لا نأخذه من الفلاسفة ، بل من رجل الشارع ، وراعي الشاة ؛ فقد جاء في الأثر أن راعياً كان يسير في الصحراء فرأى بَعْراً في الطريق ، فقال : إذا كان البعر يدل على البعير ، والسير يدل على المسير ، أفلا يدل كل هذا الكون على وجود اللطيف الخبير ؟ !

والمثال من حياتنا اليومية : أن غسَّالة الملابس الكهربية – وهي لا تدل على شيء ضروري في الحياة ، بدليل أن السابقين علينا كانوا يغسلون ملابسهم بدونها ، فهي تمثل ترفاً ، لا ضرورة – نجد الناس يعرفون من الذي ابتكرها ، ومن أوصلها بالكهرباء ومَنْ صنع لها توقيتات دورات الغسيل ، ومثلها مثل المصباح الكهربي ومَنْ صنع لها توقيتات دورات الغسيل ، ومثلها مثل المصباح الكهربي الذي يفسد بعد عدد معيّن من الساعات ، ونجد

التلاميذ يدرسون تاريخ من صنعه ، فهل يمكن أن ننسى من خلق الشمس التي تضيء الكون ؟

(63/357)

بل ونجد في زماننا العالم والكافر وهو يمدُّنا بأدلة الإيمان ، فكل اختراع نجد مَنْ يسجله ؛ حتى لا يسرقه غيره ، فما بالنا بالشمس التي تضيء وتُدْفئ ، والقمر الذي يحدد الشهور ، والنجوم التي تدل الناس على الاتجاهات ولا شيء في كون الله يحتاج إل قطع غيار ، ألا نعترف بمن خلق كل ذلك ، ها هو ذا سبحانه يدلنا على مَنْ خلق ويبلغنا ما يسجل له ملكية ما خلق ، فأنزل القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم ليدلنا على أنه سبحانه الذي خلق ، وأبقى الله الكافرين ليتحدى مَنْ يناقض قضية الخلق .

وسجل الحق سبحانه ما خلقه لنفسه ، ولم يقدر أحد من الكافرين على إنكار ذلك .

ولن نأخذ الأدلة على وجود الله من الفلاسفة الذين يرتبون النتائج على المقدمات ، ومطابقة قياس الشكل على الموضوع ، بل سوف نأخذ الدليل من كلمة " الكفر " نفسها ، هذه الكلمة (كفر) تعني : (ستر) ، فهل يُسْتَرُ إلا موجودٌ ؟

إذن : فالكفر بالله دليل على وجود الله ، وما دام الكفر سَتْراً ، فالكفر أمر طارئ ، نتيجة

للغفلة ، والغفلة إنما تأتي لأن مقتضيات الإيمان تقيد النفس في حركتها ؛ لذلك قد يغفل الإنسان متناسياً أن قيود المنهج لا تطبق عليه وحده ، بل تطبق على كل الناس .

فحين يُحرِّم الله السرقة ، فهو لم يحرمها على إنسان واحد ، بل حرمها على كل إنسان ، فقيَّد الآخرين ومنعهم من أن يسرقوا منك .

وحين يأمرك بغضِّ بصرك عن محارم جارك ، فهو يحمي محارمك أن ينظر إليها غيرك .

إذن : فالإيمان جاء بالنفعية لكل إنسان . وما دام الأمر كذلك ، نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ اذكروا . . . ﴾ [فاطر : 3]

وحين يجلس الإنسان بمفرده ولا تُحركه شهواته فهو يهتدي إلى الإيمان بأن هذا الكون لم يَأتِ صدفة .

(64/357)

واسم الخالق للكون لا يمكن أن يعرفه الإنسان بعقله ؛ لأن التصورات تختلف من إنسان لآخر . وتجد الفلاسفة حين أقروا بأن هذا الكون لا بُدَّ له من خالق لم يتعرفوا على الاسم ، بل أخطأ بعضهم التصور وظنوا أن من خلق الكون ترك النواميس لتعمل ، وتناسوا أن الخالق لا يباشر سلطانه في الكون مرة واحدة .

لذلك جاء الرسل بالمعجزات التي تخرق النواميس ؛ ليدلنا سبحانه على أنه هو الذي خلق ، وله قيومية على ما خلق ، فليست المسألة مسألة نواميس تعمل بذاتها ، بل شاء سبحانه أن يدلنا على عدم الآلية في الكون .

ونحن نعلم أن الآلية التي يصممها البشر في بعض المعدات تتسبب في إحداث جمود ، فالعقل الإلكتروني ليست له قيومية على المعلومات المختزنة فيه ، فلا يستطيع أن يخفي منها شيئاً إذا طلبت منه .

أما عقل الإنسان فله سيطرة على معلوماته ويستطيع أن يخفي ما شاء منها ، ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ تَلْبِسُواْ الحق بالباطل وَتَكْتُمُواْ الحق وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 42]

فما دام قيل للإنسان : لا تكتم الحق . إذن : فله قدرة على الإخفاء .

والوردة الطبيعية – على سبيل المثال – حيويتها في ذبولها على عكس الوردة الصناعية التي تظل على جمودها ليس فيها حياة .

والحق حين يقول : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ . . . ﴾ [المؤمنون : 80]

أو ﴿ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ . . . ﴾ [السجدة : 4]

فهو يحرّض الإنسان على أن يتذكر ، ويتفكر ، ويعتبر . ولو كان القرآن يريد أن يخدع الإنسان ، لما أثار انتباهه إلى ضرورة التذكر والتفكر والتدبر والاعتبار .

وأضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى : هب أنك ذهبت إلى محل للصوف لتشتري قماشاً متميزاً ، فتجد البائع يفرد أمامك القماش ، ويشده بيديه ليبين لك متانته ، ثم يأخذ منه خيطاً ويحرقه ليبين لك أنه صوف خالص نقي ، إن هذا البائع يحاول أن يشرح لك خبايا صناعة الصوف ؛ لأنه واثق من جودة ما يبيع .

(65/357)

هذا ما يحدث فيما بين البشر ، فما بالنا حين يعرض خالق الكون على مخلوقاته أسرار الكون ويدعوهم عبر منهجه إلى التذكُّر والتعقُّل والتفكُّر والتدبُّر والاعتبار .

والحق سبحانه يطلب منا ذلك ثقة منه في أن الإنسان منا ، إن فعل ذلك ؛ فسيصل إلى مراد الحق من الخلق .

وإياكم أن تظنوا أن الله خَلَق لكم ، ثم خلق لكم ، ثم أنزل لكم المنهج ليسعد حياتكم في الدنيا والآخرة ، ثم اعتزلكم . لا ، بل هو قيُّوم حياتكم ولا تأخذه سنةٌ ولا نوم ، ولا يفلت منه شيء ، ولا أحد بقادر على أن يختلس منه شيئًا .

وفي الحديث القدسي : " يا عبادي إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم فالخلل في إيمانكم . وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فَلِم جعلتموني أهون الناظرين إليكم " .

وأنت في الحياة اليومية تعرف أن أحداً لا يقترب من إنسان قوي منتبه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(66/357)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ فيه ثلاثة أوجهٍ ، أحدها : أنه في محلِّ رفعٍ خبراً ثانياً ل " إنَّ " . الثاني : أنه حالٌ . الثالث : أنه مستأنفٌ لا محلَّ له من الإِعراب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 147 ﴾

(67/357)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ لا يحتاج فِعْله إلى مُدّةٍ ، وكيف ذلك ومن جملة أفعاله الزمان والمدة ؟ فَخَلَقَ السموات والأرضَ في ستة أيام ، وتلك الأيام أيضاً من جملة ما خَلَق الله سبحانه وتعالى .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أي تَوَحَّدَ بجلال الكبرياء بوصف الملكوت . وملوكنا إذا أرادوا التجلّي والظهورَ للحَشَم والرعية برزوا لهم على سرير مُلْكِهم في ألوان مشاهدهم . فأخبر الحقُّ – سبحانَه – بما يَقْرُب من فَهْم الخَلْقِ ما ألقى إليهم من هذه الجملة : استوى على العرش ، ومعناه اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية ، وانفراده بنعت الجبروت وعلاء الربوبية ، تقدَّس الجبَّارُ عن الأقطار ، والمعبودُ عن الحدود .

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ : أي الحادثاتُ صادرةٌ عن تقديره ، وحاصلةٌ بتدبيره ، فلا شريكَ يعضده ، وما قضى فلا أحد يردُّه . ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ : هو الذي يُنْطِقُ مَنْ يخاطبه ، وهو الذي يخلق ما يشاء على من يشاء إذا التمس يُطالِبهُ .

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ : تعريف وقوله : ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ : تكليف ؛ فحصولُ التعريف بتحقيقه ، والوصولُ إلى ما وَرَدَ به التكليف بتوفيقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 78 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

فلما تقرر أنه هو الذي بدأ الخلق ، تقرر بذلك أنه قادر على إعادته فقال : ﴿ إليه ﴾ أي خاصة ﴿ مرجعكم ﴾ أي رجوعكم وموضع رجوعكم ووقته حال كونكم ﴿ جميعاً ﴾ لا يتخلف منكم أحد ، تقدم وعده لكم بذلك ﴿ وعد الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ حقاً ﴾ فهو تعليل لعبادته لوحدانيته ، فيحيون بعد الموت ويحشرون إلى موضع جزاء الله تعالى لهم زمانه الذي قدره له ، ويرفع ما كان لهم من المكنة في الدنيا ، فعلم قطعاً أنه لا بد من الرسول ، فاستعدوا للقاء هذا الملك الأعظم بكل ما أمركم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؛ ثم أوضح التنبيه على قدرته مضمناً له بيان حكمته فقال معللاً لوجوب المرجع إليه مؤكداً عداً لهم في عداد المنكر للابتداء لأجل إنكارهم ما يلزم عنه من تمام

القدرة على البعث وغيره : ﴿ إنه يبدأ الخلق ﴾ أي ينشئه النشأة الأولى ، له هذه الصفة متجددة التعلق على سبيل الاستمرار ﴿ ثم يعيده ﴾ ليقيم العدل في خلقه بأن ينجز لمن عبده ، وعده بأن يعزه ويذل عدوه وذلك معنى قوله : ﴿ ليجزي ﴾ .

(69/357)

ولما كان في سياق البعث ، قدم أهل الجزاء وبدأ بأشرافهم فقال : ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا هذا الوصف الذي هو الأساس المتقن لكل عمل صالح ﴿ وعملوا ﴾ أي وصدقوا إيمانهم بأن عملوا ﴿ الصالحات ﴾ جزاء كائناً ﴿ بالقسط ﴾ ، واقتصر على العدل دون الفضل ليفهم أن ترك الحشو مخل بالعمل الذي هو محط الحكمة التي هي أعظم مصالح السورة ، والجزاء : الإعطاء بالعمل ما يقتضيه من خير أو شر ، فلو كان الإعطاء ابتداء لم يكن جزاء ، ولو كان ما لا يقتضيه العمل لم يكن جزاء مطلقاً والقسط : العدل ﴿ والذين كفروا ﴾ أي أوجدوا هذا الوصف ﴿ لهم ﴾ أي في الجزاء على جهة الاستحقاق ﴿ شراب من حميم ﴾ أي مسخن بالنار أشد الإسخان ﴿ وعذاب أليم ﴾ أي بالغ الإيلام ﴿ بما كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ يكفرون ﴾ فإن عذابهم من أعظم نعيم المؤمنين الذين عادوهم فيه سبحانه ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على

الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ [سورة المطففين : 34-36] وكأنه قال : ﴿ يبدأ ﴾ مضارعاً لا كما قال في آية أخرى ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ [الأنفال : 29] حكاية للحال وتصويراً لها تنبيهاً على تأمل ما يتجدد إنشاءه ليكون أدعى لهم إلى تصور القدرة على الإعادة ؛ قال الرماني : وقد تضمنت الآية البيان عما يوجبه التمكين في الدنيا من تجديد النشأة للجزاء لأنه لا بد - مع التمكين من الحسن والقبيح - من ترغيب وترهيب لا يؤمن معه العذاب على الخلود ليخرج المكلف بالزجر عن القبيح عن حال الإباحة له برفع التبعة عليه - انتهى .

(70/357)

فقد لاح بما ذكر ما تعين في أثناء السورة بتكريره لتوضيحه وتقريره - أن مقصودها وصف الكتاب بما يدل قطعاً على أنه من عنده سبحانه وبإذنه ، لأنه لا غائب عن علمه ولا مداني لقدرته ولا مجترىء على عظمته ، وأنه تام القدرة متفرد بالخلق والأمر فهو قادر على الإعادة كما قدر على الابتداء ، وأن المراد بالكتاب البشارة والنذارة للفوز عند البعث والنجاة من غوائل يوم الحشر مع أنه سبحانه نافذ القضاء ، فلا تغني الآيات والدلالات

البينات عمن حكم بشقاوته وقضى بغوايته ، وأن ذلك من حكمته وعدله فيجب التسليم لأمره وقطع الهمم عن سواه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 416.417 ﴾

(71/357)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الدلائل الدالة على إثبات المبدأ ، أردفه بما يدل على صحة القول بالمعاد .

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في بيان أن إنكار الحشر والنشر ليس من العلوم البديهية ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن العقلاء اختلفوا في وقوعه وعدم وقوعه .

وقال بإمكانه عالم من الناس ، وهم جمهور أرباب الملل والأديان .

وما كان معلوم الامتناع بالبديهة امتنع وقوع الاختلاف فيه .

الثاني : أنا إذا رجعنا إلى عقولنا السليمة ، وعرضنا عليها أن الواحد ضعف الاثنين ، وعرضنا عليها أيضاً هذه القضية ، لم نجد هذه القضية في قوة الامتناع مثل القضية الأولى .

الثالث : أنا إما أن نقول بثبوت النفس الناطقة أولا نقول به .

فإن قلنا به فقد زال الإشكال بالكلية ، فإنه كما لا يمتنع تعلق هذه النفس بالبدن في المرة الأولى ، لم يمتنع تعلقها بالبدن مرة أخرى .

وإن أنكرنا القول بالنفس فالاحتمال أيضاً قائم ، لأنه لا يبعد أن يقال إنه سبحانه يركب تلك الأجزاء المفرقة تركيباً ثانياً ، ويخلق الإنسان الأول مرة أخرى .

والرابع : أنه سبحانه ذكر أمثلة كثيرة دالة على إمكان الحشر والنشر ونحن نجمعها ههنا .

فالمثال الأول : أنا نرى الأرض خاشعة وقت الخريف ، ونرى اليبس مستولياً عليها بسبب شدة الحر في الصيف .

(72/357)

ثم إنه تعالى ينزل المطر عليها وقت الشتاء والربيع ، فتصير بعد ذلك متحلية بالأزهار العجيبة والأنوار الغريبة كما قال تعالى : ﴿ والله الذى أَرْسَلَ الرياح فَتُثِيرُ سحابا فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النشور ﴾ [فاطر : 9] وثانيها : قوله

تعالى : ﴿ وَتَرَى الأَرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ ﴾ [الحج : 5] إلى قوله : ﴿ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق وَأَنَّهُ يُحْيِ الموتى ﴾ [الحج : 6] وثالثها : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الأرض ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاما إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾ [الزمر : 21] والمراد كونه منبهاً على أمر المعاد .

ورابعها : قوله : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ ﴾ [عبس : 21 24] وقال عليه السلام : " إذا رأيتم الربيع فأكثروا ذكر النشور " ولم تحصل المشابهة بين الربيع وبين النشور إلا من الوجه الذي ذكرناه .

المثال الثاني : ما يجده كل واحد منا من نفسه من الزيادة والنمو بسبب السمن ، ومن النقصان والذبول بسبب الهزال ، ثم إنه قد يعود إلى حالته الأولى بالسمن .

وإذا ثبت هذا فنقول : ما جاز تكون بعضه لم يمتنع أيضاً تكون كله ، ولما ثبت ذلك ظهر أن الإعادة غير ممتنعة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة : 61] يعني أنه سبحانه لما كان قادراً على إنشاء ذواتكم أولاً ثم على إنشاء أجزائكم حال حياتكم ثانياً شيئاً فشيئاً من غير أن تكونوا عالمين بوقت حدوثه وبوقت نقصانه .

فوجب القطع أيضاً بأنه لا يمتنع عليه سبحانه إعادتكم بعد البلى في القبور لحشر يوم القيامة.

المثال الثالث: أنه تعالى لما كان قادراً على أن يخلقنا ابتداء من غير مثال سبق، فلأن يكون قادراً على إيجادنا مرة أخرى مع سبق الإيجاد الأول كان أولى، وهذا الكلام قرره تعالى في آيات كثيرة، منها في هذه الآية وهو قوله: ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ وثانيها: قوله تعالى في سورة يس: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس: 79] وثالثها: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الأولى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الواقعة: 62] ورابعها: قوله تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: 15] وخامسها: قوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يمنى ﴾ [القيامة: 36، 37] إلى قوله: ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بقادر على أَن يُحْيِىَ الموتى ﴾ [القيامة: 40] وسادسها: قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خلقناكم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج: 5] إلى قوله: ﴿ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق وَأَنَّهُ يُحْىِ الموتى وَأَنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ الساعة ءَاتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَن فِى القبور ﴾ [الحج: 6، 7] فاستشهد تعالى في هذه الآية على صحة الحشر بأمور: الأول: أنه استدل بالخلق الأول على إمكان الخلق الثاني وهو قوله: ﴿ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خلقناكم مِّن تُرَابٍ ﴾ كأنه تعالى

يقول : لما حصل الخلق الأول بانتقال هذه الأجسام من أحوال إلى أحوال أخرى فلم لا يجوز أن يحصل الخلق الثاني بعد تغيرات كثيرة ، واختلافات متعاقبة ؟ والثاني : أنه تعالى شبهها بإحياء الأرض الميتة .

(74/357)

والثالث : أنه تعالى هو الحق وإنما يكون كذلك لو كان كامل القدرة تام العلم والحكمة .

فهذه هي الوجوه المستنبطة من هذه الآية على إمكان صحة الحشر والنشر .

والآية السابعة : في هذا الباب قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء : 50 ، 51] .

المثال الرابع : أنه تعالى لما قدر على تخليق ما هو أعظم من أبدان الناس فكيف يقال : إنه لا يقدر على إعادتها ؟ فإن من كان الفعل الأصعب عليه سهلاً ، فلأن يكون الفعل السهل الحقير عليه سهلاً كان أولى وهذا المعنى مذكور في آيات كثيرة : منها : قوله تعالى :

﴿ أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السموات والأرض بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس : 81]

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذى خَلَقَ السموات والارض وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ على أَن يُحْىِ الموتى ﴾

[الأحقاف : 33] وثالثها : ﴿ أَأَنتُم أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السماء بناها ﴾ [النازعات : 27].

المثال الخامس : الاستدلال بحصول اليقظة شبيهة بالحياة بعد النوم على جواز الحشر والنشر ، فإن النوم أخو الموت ، واليقظة شبيهة بالحياة بعد الموت .

(75/357)

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى يتوفاكم بالليل وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بالنهار ﴾ [الأنعام : 60] ثم ذكر عقيبه أمر الموت والبعث ، فقال : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حتى إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الموت تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّواْ إلى الله مولاهم الحق ﴾ [الأنعام : 61 ، 62] وقال في آية أخرى ﴿ الله يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا والتى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : 42] والمراد منه الاستدلال بحصول هذه الأحوال على صحة البعث والحشر والنشر .

المثال السادس : أن الإحياء بعد الموت لا يستنكر إلا من حيث إنه يحصل الضد بعد حصول الضد ، إلا أن ذلك غير مستنكر في قدرة الله تعالى ، لأنه لما جاز حصول الموت عقيب الحياة فكيف يستبعد حصول الحياة مرة أخرى بعد الموت ؟ فإن حكم الضدين

واحد .

قال تعالى مقرراً لهذا المعنى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [الواقعة : 60] وأيضاً نجد النار مع حرها ويبسها تتولد من الشجر الأخضر مع برده ورطوبته فقال : ﴿ الذى جَعَلَ لَكُم مّنَ الشجر الأخضر نَاراً فَإِذَا أَنتُم مّنْه تُوقِدُونَ ﴾ [يس : 80] فكذا ههنا ، فهذا جملة الكلام في بيان أن القول بالمعاد ، وحصول الحشر والنشر غير مستبعد في العقول .

المسألة الثانية :

في إقامة الدلالة على أن المعاد حق واجب .

اعلم أن الأمة فريقان منهم من يقول : يجب عقلاً أن يكون إله العالم رحيماً عادلاً منزهاً عن الإيلام والإضرار ، إلا لمنافع أجل وأعظم منها ، ومنهم من ينكر هذه القاعدة ويقول : لا يجب على الله تعالى شيء أصلاً ، بل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

أما الفريق الأول : فقد احتجوا على وجود المعاد من وجوه .

الحجة الأولى : أنه تعالى خلق الخلق وأعطاهم عقولاً بها يميزون بين الحسن والقبيح ، وأعطاهم قدراً بها يقدرون على الخير والشر .

وإذا ثبت هذا فمن الواجب في حكمة الله تعالى وعدله أن يمنع الخلق عن شتم الله وذكره بالسوء ، وأن يمنعهم عن الجهل والكذب وإيذاء أنبيائه وأوليائه ، والصالحين من خلقه .

ومن الواجب في حكمته أن يرغبهم في الطاعات والخيرات والحسنات ، فإنه لو لم يمنع عن تلك القبائح ، ولم يرغب في هذه الخيرات ، قدح ذلك في كونه محسناً عادلاً ناظراً لعباده .

ومن المعلوم أن الترغيب في الطاعات لا يمكن إلا بربط الثواب بفعلها ، والزجر عن القبائح لا يمكن إلا بربط العقاب بفعلها ، وذلك الثواب المرغب فيه ، والعقاب المهدد به غير حاصل في دار الدنيا .

فلا بد من دار أخرى يحصل فيها هذا الثواب ، وهذا العقاب ، وهو المطلوب ، وإلا لزم كونه كاذباً ، وأنه باطل .

وهذا هو المراد من الآية التي نحن فيها وهي قوله تعالى : ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ .

(77/357)

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال : إنه يكفي في الترغيب في فعل الخيرات ، وفي الردع عن المنكرات ما أودع الله في العقول من تحسين الخيرات وتقبيح المنكرات ولا حاجة مع ذلك إلى الوعد والوعيد ؟ سلمنا أنه لا بد من الوعد والوعيد ، فلم لا يجوز أن يقال : الغرض منه مجرد الترغيب والترهيب ليحصل به نظام العالم كما قال تعالى : ﴿ ذلك يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يا عباد فاتقون ﴾ [الزمر : 16] فإما أن يفعل تعالى ذلك فما الدليل عليه ؟ قوله لو لم يفعل ما أخبر عنه من الوعد والوعيد لصار كلامه كذباً فنقول : ألستم تخصصون أكثر عمومات القرآن لقيام الدلالة على وجوب ذلك التخصيص فإن كان هذا كذباً وجب فيما تحكمون به من تلك التخصيصات أن يكون كذباً ؟ سلمنا أنه لا بد وأن يفعل الله تعالى ذلك لكن لم لا يجوز أن يقال : إن ذلك الثواب والعقاب عبارة عما يصل إلى الإنسان من أنواع الراحات واللذات ومن أنواع الآلام والأسقام ، وأقسام الهموم والغموم ؟

والجواب عن السؤال الأول : أن العقل وإن كان يدعوه إلى فعل الخير وترك الشر إلا أن الهوى والنفس يدعوانه إلى الانهماك في الشهوات الجسمانية واللذات الجسدانية ، وإذا حصل هذا التعارض فلا بد من مرجح قوي ومعاضد كامل ، وما ذاك إلا ترتيب الوعد والوعيد والثواب والعقاب على الفعل والترك .

والجواب عن السؤال الثاني : أنه إذا جوز الإنسان حصول الكذب على الله تعالى فحينئذ لا يحصل من الوعد رغبة ، ولا من الوعيد رهبة ، لأن السامع يجوز كونه كذباً .

والجواب عن السؤال الثالث : أن العبد ما دامت حياته في الدنيا فهو كالأجير المشتغل بالعمل .

والأجير حال اشتغاله بالعمل لا يجوز دفع الأجرة بكمالها إليه ، لأنه إذا أخذها فإنه لا يجتهد في العمل .

(78/357)

وأما إذا كان محل أخذ الأجرة هو الدار الآخرة كان الاجتهاد في العمل أشد وأكمل ، وأيضاً نرى في هذه الدنيا أن أزهد الناس وأعلمهم مبتلى بأنواع الغموم والهموم والأحزان ، وأجهلهم وأفسقهم في اللذات والمسرات ، فعلمنا أن دار الجزاء يمتنع أن تكون هذه الدار فلا بد من دار أخرى ، ومن حياة أخرى ، ليحصل فيها الجزاء .

الحجة الثانية : أن صريح العقل يوجب في حكمة الحكيم أن يفرق بين المحسن وبين المسيء ، وأن لا يجعل من كفر به ، أو جحده بمنزلة من أطاعه ، ولما وجب إظهار هذه التفرقة فحصول هذه التفرقة إما أن يكون في دار الدنيا ، أو في دار الآخرة ، والأول باطل .

لأنا نرى الكفار والفساق في الدنيا في أعظم الراحات ، ونرى العلماء والزهاد بالضد منه ، ولهذا المعنى قال تعالى :

﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً واحدة لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ ﴾ [الزخرف : 33] فثبت أنه لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى ، وهو المراد من الآية التي نحن في تفسيرها وهي قوله : ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ وهو المراد أيضاً بقوله تعالى في سورة طه : ﴿ إِنَّ الساعة ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تسعى ﴾ [طه : 15] وبقوله تعالى في سورة ص : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِى الأرض أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ [ص : 28] .

فإن قيل : أما أنكرتم أن يقال إنه تعالى لا يفصل بين المحسن وبين المسيء في الثواب والعقاب كما لم يفصل بينهما في حسن الصورة وفي كثرة المال ؟

والجواب : أن هذا الذي ذكرته مما يقوي دليلنا ، فإنه ثبت في صريح العقل وجوب التفرقة ، ودل الحس على أنه لم تحصل هذه التفرقة في الدنيا ، بل كان الأمر على الضد منه ، فإنا نرى العالم والزاهد في أشد البلاء ، ونرى الكافر والفاسق في أعظم النعم .

(79/357)

فعلمنا أنه لا بد من دار أخرى يظهر فيها هذا التفاوت ، وأيضاً لا يبعد أن يقال إنه تعالى علم أن هذا الزاهد العابد لو أعطاه ما دفع إلى الكافر الفاسق لطغى وبغى وآثر الحياة الدنيا ،

وأن ذلك الكافر الفاسق لو زاد عليه في التضييق لزاد في الشر وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرزقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الارض ﴾ [الشورى : 27] .

الحجة الثالثة : أنه تعالى كلف عبيده بالعبودية فقال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] والحكيم إذا أمر عبده بشيء ، فلا بد وأن يجعله فارغ الباب منتظم الأحوال حتى يمكنه الاشتغال بأداء تلك التكاليف ، والناس جبلوا على طلب اللذات وتحصيل الراحات لأنفسهم ، فلو لم يكن لهم زاجر من خوف المعاد لكثر الهرج والمرج ولعظمت الفتن ، وحينئذ لا يتفرغ المكلف للاشتغال بأداء العبادات .

فوجب القطع بحصول دار الثواب والعقاب لتنتظم أحوال العالم حتى يقدر المكلف على الاشتغال بأداء العبودية .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال إنه يكفي في بقاء نظام العالم مهابة الملوك وسياساتهم ؟ وأيضاً فالأوباش يعلمون أنهم لو حكموا بحسن الهرج والمرج .

لانقلب الأمر عليهم ولقدر غيرهم على قتلهم ، وأخذ أموالهم ، فلهذا المعنى يحترزون عن إثارة الفتن .

والجواب : أن مجرد مهابة السلاطين لا تكفي في ذلك ، وذلك لأن السلطان إما أن يكون قد بلغ في القدرة والقوة إلى حيث لا يخاف من الرعية ، وإما أن يكون خائفاً منهم ، فإن كان لا يخاف الرعية مع أنه لا خوف له من المعاد ، فحينئذ يقدم على الظلم والإيذاء على أقبح

الوجوه ، لأن الداعية النفسانية قائمة ، ولا رادع له في الدنيا ولا في الآخرة ، وأما إن كان يخاف الرعية فحينئذ الرعية لا يخافون منه خوفاً شديداً ، فلا يصير ذلك رادعاً لهم عن القبائح والظلم .

فثبت أن نظام العالم لا يتم ولا يكمل إلا بالرغبة في المعاد والرهبة عنه .

(80/357)

الحجة الرابعة : أن السلطان القاهر إذا كان له جمع من العبيد ، وكان بعضهم أقوياء وبعضهم ضعفاء ، وجب على ذلك السلطان إن كان رحيماً ناظراً مشفقاً عليهم أن ينتصف للمظلوم الضعيف من الظالم القادر القوي ، فإن لم يفعل ذلك كان راضياً بذلك الظلم ، والرضا بالظلم لا يليق بالرحيم الناظر المحسن .

إذا ثبت هذا فنقول : إنه سبحانه سلطان قاهر قادر حكيم منزه عن الظلم والعبث .

فوجب أن ينتصف لعبيده المظلومين من عبيده الظالمين ، وهذا الانتصاف لم يحصل في هذه الدار ، لأن المظلوم قد يبقى في غاية الذلة والمهانة ، والظالم يبقى في غاية العزة والقدرة ، فلا بد من دار أخرى يظهر فيها هذا العدل وهذا الإنصاف ، وهذه الحجة يصلح جعلها تفسيراً لهذه الآية التي نحن في تفسيرها .

فإن قالوا : إنه تعالى لما أقدر الظالم على الظلم في هذه الدار ، وما أعجزه عنه ، دل على كونه راضياً بذلك الظلم .

قلنا : الإقدار على الظلم عين الإقدار على العدل والطاعة ، فلو لم يقدره تعالى على الظلم لكان قد أعجزه عن فعل الخيرات والطاعات ، وذلك لا يليق بالحكيم ، فوجب في العقل إقداره على الظلم والعدل ، ثم إنه تعالى ينتقم للمظلوم من الظالم .

الحجة الخامسة : أنه تعالى خلق هذا العالم وخلق كل من فيه من الناس فإما أن يقال : إنه تعالى خلقهم لا لمنفعة ولا لمصلحة ، أو يقال : إنه تعالى خلقهم لمصلحة ومنفعة .

والأول : يليق بالرحيم الكريم .

والثاني : وهو أن يقال : إنه خلقهم لمقصود ومصلحة وخير ، فذلك الخير والمصلحة إما أن يحصل في هذه الدنيا أو في دار أخرى ، والأول باطل من وجهين : الأول : أن لذات هذا العالم جسمانية ، واللذات الجسمانية لا حقيقية لها إلا إزالة الألم ، وإزالة الألم أمر عدمي ، وهذا العدم كان حاصلاً حال كون كل واحد من الخلائق معدوماً ، وحينئذ لا يبقى للتخليق فائدة .

(81/357)

والثاني : أن لذات هذا العالم ممزوجة بالآلام والمحن ، بل الدنيا طافحة بالشرور والآفات والمحن والبليات ، واللذة فيها كالقطرة في البحر .

فعلمنا أن الدار التي يصل فيها الخلق إلى تلك الراحات المقصودة دار أخرى سوى دار الدنيا .

فإن قالوا : أليس أنه تعالى يؤلم أهل النار بأشد العذاب لا لأجل مصلحة وحكمة ؟ فلم لا يجوز أن يقال : إنه تعالى يخلق الخلق في هذا العالم لا لمصلحة ولا لحكمة .

قلنا : الفرق أن ذلك الضرر ضرر مستحق على أعمالهم الخبيثة .

وأما الضرر الحاصل في الدنيا فغير مستحق ، فوجب أن يعقبه خيرات عظيمة ومنافع جابرة لتلك المضار السالفة ، وإلا لزم أن يكون الفاعل شريراً مؤذياً ، وذلك ينافي كونه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين .

الحجة السادسة : لو لم يحصل للإنسان معاد لكان الإنسان أخس من جميع الحيوانات في المنزلة والشرف .

واللازم باطل ، فالملزوم مثله .

بيان الملازمة أن مضار الإنسان في الدنيا أكثر من مضار جميع الحيوانات ، فإن سائر الحيوانات قبل وقوعها في الآلام والأسقام تكون فارغة البال طيبة النفس ، لأنه ليس لها فكر وتأمل .

أما الإنسان فإنه بسبب ما يحصل له من العقل يتفكر أبداً في الأحوال الماضية والأحوال المستقبلة ، فيحصل له بسبب أكثر الأحوال الماضية أنواع من الحزن والأسف ، ويحصل له بسبب أكثر الأحوال الآتية أنواع من الخوف ، لأنه لا يدري أنه كيف تحدث الأحوال .

فثبت أن حصول العقل للإنسان سبب لحصول المضار العظيمة في الدنيا والآلام النفسانية الشديدة القوية .

وأما اللذات الجسمانية فهي مشتركة بين الناس وبين سائر الحيوانات ، لأن السرقين في مذاق الجعل طيب ، كما أن اللوزينج في مذاق الإنسان طيب .

(82/357)

إذا ثبت هذا فنقول : لو لم يحصل للإنسان معاد به تكمل حالته وتظهر سعادته ، لوجب أن يكون كمال العقل ، سبباً لمزيد الهموم والغموم والأحزان من غير جابر يجبر ، ومعلوم أن كل ما كان كذلك فإنه يكون سبباً لمزيد الخسة والدناءة والشقاء والتعب الخالية عن المنفعة .

فثبت أنه لولا حصول السعادة الأخروية لكان الإنسان أخس الحيوانات حتى الخنافس والديدان ، ولما كان ذلك باطلاً قطعاً ، علمنا أنه لا بد من الدار الآخرة ، وأن الإنسان خلق للآخرة لا للدنيا ، وأنه بعقله يكتسب موجبات السعادات الأخروية .

فلهذا السبب كان العقل شريفاً .

الحجة السابعة : أنه تعالى قادر على إيصال النعم إلى عبيده على وجهين : أحدهما : أن تكون النعم مشوبة بالآفات والأحزان .

والثاني : أن تكون خالصة عنها ، فلما أنعم الله تعالى في الدنيا بالمرتبة الأولى وجب أن ينعم علينا بالمرتبة الثانية في دار أخرى ، إظهاراً لكمال القدرة والرحمة والحكمة ، فهناك ينعم على المطيعين ويعفو عن المذنبين ، ويزيل الغموم والهموم والشهوات والشبهات .

والذي يقوي ذلك ، ويقرر هذا الكلام أن الإنسان حين كان جنيناً في بطن أمه ، كان في أضيق المواضع وأشدها عفونة وفساداً ، ثم إذا خرج من بطن أمه كانت الحالة الثانية أطيب وأشرف من الحالة الأولى ، ثم إنه عند ذلك يوضع في المهد ويشد شداً وثيقاً ، ثم بعد حين يخرج من المهد ويعد ويميناً وشمالاً ، وينتقل من تناول اللبن إلى تناول الأطعمة الطيبة ، وهذه الحالة الثالثة لا شك أنها أطيب من الحالة الثانية ، ثم إنه بعد حين يصير أميراً نافذ الحكم على الخلق ، أو عالماً مشرفاً على حقائق الأشياء ، ولا شك أن هذه الحالة الرابعة أطيب وأشرف من الحالة الثالثة .

وإذا ثبت هذا وجب بحكم هذا الاستقراء أن يقال : الحالة الحاصلة بعد الموت تكون أشرف وأعلى وأبهج من اللذات الجسدانية والخيرات الجسمانية .

الحجة الثامنة : طريقة الاحتياط ، فإنا إذا آمنا بالمعاد وتأهبنا له ، فإن كان هذا المذهب حقاً ، فقد نجونا وهلك المنكر ، وإن كان باطلاً ، لم يضرنا هذا الاعتقاد .

غاية ما في الباب أن يقال إنه تفوتنا هذه اللذات الجسمانية إلا أنا نقول يجب على العاقل أن لا يبالي بفوتها لأمرين أحدهما : أنها في غاية الخساسة لأنها مشترك فيها بين الخنافس والديدان والكلاب .

والثاني : أنها منقطعة سريعة الزوال .

فثبت أن الاحتياط ليس إلا في الإيمان بالمعاد ، ولهذا قال الشاعر :

قال المنجم والطبيب كلاهما . . لا تحشر الأموات قلت إليكما

إن صح لكما فلست بخاسر . . أو صح قولي فالخسار عليكما

الحجة التاسعة : اعلم أن الحيوان ما دام يكون حيواناً ، فإنه إن قطع منه شيء مثل ظفر أو ظلف أو شعر ، فإنه يعود ذلك الشيء ، وإن جرح اندمل ، ويكون الدم جارياً في عروقه وأعضائه جريان الماء في عروق الشجر وأغصانه ، ثم إذا مات انقلبت هذه الأحوال ، فإن قطع منه شيء من شعره أو ظفره لم ينبت ، وإن جرح لم يندمل ولم يلتحم ، ورأيت الدم يتجمد في عروقه ، ثم بالآخرة يؤول حاله إلى الفساد والانحلال .

ثم إنا لما نظرنا إلى الأرض وجدناها شبيهة بهذه الصفة ، فإنا نراها في زمان الربيع تفور

عيونها وتربو تلالها وينجذب الماء إلى أغصان الأشجار وعروقها ، والماء في الأرض بمنزلة الدم الجاري في بدن الحيوان ، ثم تخرج أزهارها وأنوارها وثمارها كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : 5] وإن جذ من نباتها شيء أخلف ونبت مكانه آخر مثله ، وإن قطع غصن من أغصان الأشجار أخلف ، وإن جرح التأم ، وهذه الأحوال شبيهة بالأحوال التي ذكرناها للحيوان .

ثم إذا جاء الشتاء واشتد البرد غارت عيونها وجفت رطوبتها وفسدت بقولها ، ولو قطعنا غصناً من شجرة ما أخلف ، فكانت هذه الأحوال شبيهة بالموت بعد الحياة .

(84/357)

ثم إنا نرى الأرض في الربيع الثاني تعود إلى تلك الحياة ، فإذا عقلنا هذه المعاني في إحدى الصورتين ، فلم لا نعقل مثله في الصورة الثانية ، بل نقول لا شك أن الإنسان أشرف من سائر الحيوانات ، والحيوان أشرف من النبات ، وهو أشرف من الجمادات .

فإذا حصلت هذه الأحوال في الأرض ، فلم لا يجوز حصولها في الإنسان ؟

فإن قالوا : إن أجساد الحيوان تتفرق وتتمزق بالموت ، وأما الأرض فليست كذلك .

فالجواب : أن الإنسان عبارة عن النفس الناطقة ، وهو جوهر باق ، أو إن لم نقل بهذا

المذهب فهو عبارة عن أجزاء أصلية باقية من أول وقت تكون الجنين إلى آخر العمر ، وهي جارية في البدن ، وتلك الأجزاء باقية ، فزال هذا السؤال .

الحجة العاشرة : لا شك أن بدن الحيوان إنما تولد من النطفة ، وهذه النطفة إنما اجتمعت من جميع البدن ، بدليل أن عند انفصال النطفة يحصل الضعف والفتور في جميع البدن ، ثم إن مادة تلك النطفة إنما تولدت من الأغذية المأكولة ، وتلك الأغذية إنما تولدت من الأجزاء العنصرية وتلك الأجزاء كانت متفرقة في مشارق الأرض ومغاربها ، واتفق لها أن اجتمعت ، فتولد منها حيوان أو نبات فأكله إنسان ، فتولد منه دم فتوزع ذلك الدم على أعضائه ، فتولد منها أجزاء لطيفة .

ثم عند استيلاء الشهوة سال من تلك الرطوبات مقدار معين ، وهو النطفة ، فانصب إلى فم الرحم ، فتولد منه هذا الإنسان ، فثبت أن الأجزاء التي منها تولد بدن الإنسان كانت متفرقة في البحار والجبال وأوج الهواء ، ثم إنها اجتمعت بالطريق المذكور ، فتولد منها هذا البدن ، فإذا مات تفرقت تلك الأجزاء على مثال التفرق الأول .

(85/357)

وإذا ثبت هذا فنقول وجب القطع أيضاً بأنه لا يمتنع أن يجتمع مرة أخرى على مثال الاجتماع الأول ، وأيضاً ، فذلك المني لما وقع في رحم الأم ، فقد كان قطرة صغيرة ثم تولد منه بدن الإنسان وتعلقت الروح به حال ما كان ذلك البدن في غاية الصغر ، ثم إن ذلك البدن لا شك أنه في غاية الرطوبة ، ولا شك أنه يتحلل منه أجزاء كثيرة بسبب عمل الحرارة الغريزية فيها ، وأيضاً فتلك الأجزاء البدنية الباقية أبداً في طول العمر تكون في التحلل ، ولولا ذلك لما حصل الجوع ، ولما حصلت الحاجة إلى الغذاء ، مع أنا نقطع بأن هذا الإنسان الشيخ ، هو عين ذلك الإنسان الذي كان في بطن أمه .

ثم انفصل ، وكان طفلاً ثم شاباً ، فثبت أن الأجزاء البدنية دائمة التحلل ، وأن الإنسان هو هو بعينه .

فوجب القطع بأن الإنسان ، إما أن يكون جوهراً مفارقاً مجرداً ، وإما أن يكون جسماً نورانياً لطيفاً باقياً مع تحلل هذا البدن ، فإذا كان الأمر كذلك فعلى التقديرين لا يمتنع عوده إلى الجثة مرة أخرى ، ويكون هذا الإنسان العائد عين الإنسان الأول ، فثبت أن القول بالمعاد صدق .

الحجة الحادية عشر : ما ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خلقناه مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس : 77] واعلم أن قوله سبحانه : ﴿ خلقناه مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [يس : 77] إشارة إلى ما ذكرناه في الحجة العاشرة من أن تلك الأجزاء كانت متفرقة في

مشارق الأرض ومغاربها ، فجمعها الله تعالى وخلق من تركيبها هذا الحيوان ، والذي يقويه قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ * ثُمَّ جعلناه نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون : 12 ، 13] فإن تفسيره هذه الآية إنما يصح بالوجه الذي ذكرناه ، وهو أن السلالة من الطين يتكون منها نبات ، ثم إن ذلك النبات يأكله الإنسان فيتولد منه الدم ، ثم الدم ينقلب نطفة ، فبهذا الطريق ينتظم ظاهر هذه الآية .

(86/357)

ثم إنه سبحانه بعد أن ذكر هذا المعنى حكى كلام المنكر ، وهو قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَن يُحيِ العظام وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : 78] ثم إنه تعالى بين إمكان هذا المذهب .

واعلم أن إثبات إمكان الشيء لا يعقل إلا بطريقين : أحدهما : أن يقال : إن مثله ممكن ، فوجب أن يكون هذا أيضاً ممكناً .

والثاني : أن يقال : إن ما هو أعظم منه وأعلى حالاً منه ، فهو أيضاً ممكن .

ثم إنه تعالى ذكر الطريق الأول أولاً فقال : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 79] ثم فيه دقيقة وهي أن قوله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ﴾ إشارة إلى كمال القدرة ، وقوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ إشارة إلى كمال العلم .

ومنكرو الحشر والنشر لا ينكرونه إلا لجهلهم بهذين الأصلين ، لأنهم تارة يقولون : إنه تعالى موجب بالذات ، والموجب بالذات لا يصح منه القصد إلى التكوين ، وتارة يقولون إنه يمتنع كونه عالماً بالجزئيات ، فيمتنع منه تمييز أجزاء بدن زيد عن أجزاء بدن عمرو ، ولما كانت شبه الفلاسفة مستخرجة من هذين الأصلين ، لا جرم كلما ذكر الله تعالى مسألة المعاد أردفه بتقرير هذين الأصلين ثم إنه تعالى ذكر بعده الطريق الثاني ، وهو الاستدلال بالأعلى على الأدنى ، وتقريره من وجهين : الأول : أن الحياة لا تحصل إلا بالحرارة والرطوبة ، والتراب بارد يابس ، فحصلت المضادة بينهما .

(87/357)

إلا أنا نقول : الحرارة النارية أقوى في صفة الحرارة من الحرارة الغريزية ، فلما لم يمتنع تولد الحرارة النارية عن الشجر الأخضر مع كمال ما بينهما من المضادة ، فكيف يمتنع حدوث الحرارة الغريزية في جرم التراب ؟ الثاني : قوله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السموات والأرض بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس : 81] بمعنى أنه لما سلمتم أنه تعالى هو الخالق لأجرام الأفلاك والكواكب ، فكيف يمكنكم الامتناع عن كونه قادراً على الحشر والنشر ؟ ثم إنه تعالى حسم مادة الشبهات بقوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُه إذا أراد شيئاً أن يقول لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ﴾ [يس : 82] والمراد أن تخليقه وتكوينه لا يتوقف على حصول الآلات والأدوات ونطفة الأب ورحم الأم ، والدليل عليه أنه خلق الأب الأول ، لا عن أب سابق عليه ، فدل ذلك على كونه سبحانه غنياً في الخلق والإيجاد والتكوين عن الوسائط والآلات .

ثم قال سبحانه : ﴿ فسبحان الذى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : 83] أي سبحانه من أن لا يعيدهم ويهمل أمر المظلومين ، ولا ينتصف للعاجزين من الظالمين ، وهو المعنى المذكور في هذه الآية التي نحن في تفسيرها ، وهي قوله سبحانه : ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ .

(88/357)

الحجة الثانية عشر : دلت الدلائل على أن العالم محدث ولا بد له من محدث قادر ، ويجب أن يكون عالماً ، لأن الفعل المحكم المتقن لا يصدر إلا من العالم ، ويجب أن يكون غنياً عنها وإلا لكان قد خلقها في الأزل وهو محال ، فثبت أن لهذا العالم إلهاً قادراً عالماً غنياً ، ثم لما تأملنا فقلنا : هل يجوز في حق هذا الحكيم الغني عن الكل أن يهمل عبيده ويتركهم سدى ، ويجوز لهم أن يكذبوا عليه ويبيح لهم أن يشتموه ويجحدوا ربوبيته ، ويأكلوا نعمته ، ويعبدوا

الجبت والطاغوت ، ويجعلوا له أنداداً وينكروا أمره ونهيه ووعده ووعيده ؟ فههنا حكمت بديهة العقل بأن هذه المعاني لا تليق إلا بالسفيه الجاهل البعيد من الحكمة .

القريب من العبث ، فحكمنا لأجل هذه المقدمة أن له أمراً ونهياً ، ثم تأملنا فقلنا : هل يجوز أن يكون له أمر ونهي مع أنه لا يكون له وعد ووعيد ؟ فحكم صريح العقل بأن ذلك غير جائز لأنه إن لم يقرن الأمر بالوعد بالثواب ، ولم يقرن النهي بالوعيد بالعقاب لم يتأكد الأمر والنهي ، ولم يحصل المقصود .

فثبت أنه لا بد من وعد ووعيد ، ثم تأملنا فقلنا : هل يجوز أن يكون له وعد ووعيد ثم إنه لا يفي بوعده لأهل الثواب ، ولا بوعيده لأهل العقاب : فقلنا : إن ذلك لا يجوز ، لأنه لو جاز ذلك لما حصل الوثوق بوعده ولا بوعيده ، وهذا يوجب أن لا يبقى فائدة في الوعد والوعيد ، فعلمنا أنه لا بد من تحقيق الثواب والعقاب ، ومعلوم أن ذلك لا يتم إلا بالحشر والبعث ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

فهذه مقدمات يتعلق بعضها ببعض كالسلسلة متى صح بعضها صح كلها ، ومتى فسد بعضها فسد كلها ، فدل مشاهدة أبصارنا لهذه التغيرات على حدوث العالم ، ودل حدوث العالم على وجود الصانع الحكيم الغني ، ودل ذلك على وجود الأمر والنهي ، ودل ذلك على وجود الثواب والعقاب ، ودل ذلك على وجوب الحشر .

فإن لم يثبت الحشر أدى ذلك إلى بطلان جميع المقدمات المذكورة ولزم إنكار العلوم البديهية وإنكار العلوم النظرية القطعية .

فثبت أنه لا بد لهذه الأجساد البالية والعظام النخرة والأجزاء المتفرقة المتمزقة من البعث بعد الموت ، ليصل المحسن إلى ثوابه والمسيء إلى عقابه ، فإن لم تحصل هذه الحالة لم يحصل الوعد والوعيد ، وإن لم يحصلا لم يحصل الأمر والنهي ، وإن لم يحصلا لم تحصل الإلهية ، وإن لم تحصل الإلهية لم تحصل هذه التغيرات في العالم .

وهذه الحجة هي المراد من الآية التي نحن في تفسيرها وهي قوله : ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ هذا كله تقرير إثبات المعاد بناء على أن لهذا العالم إلهاً رحيماً ناظراً محسناً إلى العباد .

أما الفريق الثاني : وهم الذين لا يعللون أفعال الله تعالى برعاية المصالح ، فطريقهم إلى إثبات المعاد أن قالوا : المعاد أمر جائز الوجود ، والأنبياء عليهم السلام أخبروا عنه ، فوجب القطع بصحته ، أما إثبات الإمكان فهو مبني على مقدمات ثلاثة :

المقدمة الأولى : البحث عن حال القابل فنقول : الإنسان إما أن يكون عبارة عن النفس أو عن البدن ، فإن كان عبارة عن النفس وهو القول الحق ، فنقول : لما كان تعلق النفس بالبدن في المرة الأولى ، جائزاً كان تعلقها بالبدن في المرة الثانية يجب أن يكون جائزاً .

وهذا الكلام لا يختلف ، سواء قلنا النفس عبارة عن جوهر مجرد ، أو قلنا : إنه جسم لطيف مشاكل لهذا البدن باق في جميع أحوال البدن مصون عن التحلل والتبدل ، وأما إن كان الإنسان عبارة عن البدن ، وهذا القول أبعد الأقاويل فنقول : إن تألف تلك الأجزاء على الوجه المخصوص في المرة الأولى كان ممكناً ، فوجب أيضاً أن يكون في المرة الثانية ممكناً ، فثبت أن عود الحياة إلى هذا البدن مرة أخرى أمره ممكن في نفسه .

وأما المقدمة الثانية : فهي في بيان أن إله العالم قادر مختار .

(90/357)

لا علة موجبة ، وأن هذا القادر قادر على كل الممكنات .

وأما المقدمة الثالثة : فهي في بيان أن إله العالم عالم بجميع الجزئيات ، فلا جرم أجزاء بدن زيد وإن اختلطت بأجزاء التراب ، والبحار إلا أنه تعالى لما كان عالماً بالجزئيات أمكنه تمييز بعضها عن بعض .

ومتى ثبتت هذه المقدمات الثلاثة ، لزم القطع بأن الحشر والنشر أمر ممكن في نفسه .

وإذا ثبت هذا الإمكان فنقول : دل الدليل على صدق الأنبياء وهم قطعوا بوقوع هذا الممكن ، فوجب القطع بوقوعه ، وإلا لزمنا تكذيبهم ، وذلك باطل بالدلائل الدالة على

صدقهم ، فهذا خلاصة ما وصل إليه عقلنا في تقرير أمر المعاد .

المسألة الثالثة :

في الجواب عن شبهات المنكرين للحشر والنشر .

الشبهة الأولى : قالوا : لو بدلت هذه الدار بدار أخرى لكانت تلك الدار إما أن تكون مثل هذه الدار أو شراً منها أو خيراً منها ، فإن كان الأول كان التبديل عبثاً ، وإن كان شراً منها كان هذا التبديل سفهاً ، وإن كان خيراً منها ففي أول الأمر هل كان قادراً على خلق ذلك الأجود أو ما كان قادراً عليه ؟ فإن قدر عليه ثم تركه وفعل الأردأ كان ذلك سفهاً ، وإن قلنا : إنه ما كان قادراً ثم صار قادراً عليه فقد انتقل من العجز إلى القدرة ، أو من الجهل إلى الحكمة ، وأن ذلك على خالق العالم محال .

والجواب : لم لا يجوز أن يقال تقديم هذه الدار على تلك الدار هو المصلحة ، لأن الكمالات النفسانية الموجبة للسعادة الأخروية لا يمكن تحصيلها إلا في هذه الدار ، ثم عند حصول هذه الكمالات كان البقاء في هذه الدار سبباً للفساد والحرمان عن الخيرات .

الشبهة الثانية : قالوا : حركات الأفلاك مستديرة ، والمستدير لا ضد له ، وما لا ضد له لا يقبل الفساد .

والجواب : أنا أبطلنا هذه الشبهة في الكتب الفلسفية ، فلا حاجة إلى الإعادة .

والأصل في إبطال أمثال هذه الشبهات أن نقيم الدليل على أن أجرام الأفلاك مخلوقة ، ومتى ثبت ذلك ثبت كونها قابلة للعدم والتفرق والتمزق .

ولهذا السر ، فإنه تعالى في هذه السورة بدأ بالدلائل الدالة على حدوث الأفلاك ، ثم أردفها بما يدل على صحة القول بالمعاد .

الشبهة الثالثة : الإنسان عبارة عن هذا البدن ، وهو ليس عبارة عن هذه الأجزاء كيف كانت ، لأن هذه الأجزاء كانت موجودة قبل حدوث هذا الإنسان ، مع أنا نعلم بالضرورة أن هذا الإنسان ما كان موجوداً ، وأيضاً أنه إذا أحرق هذا الجسد ، فإنه تبقى تلك الأجزاء البسيطة ، ومعلوم أن مجموع تلك الأجزاء البسيطة من الأرض والماء والهواء والنار ، ما كان عبارة عن هذا الإنسان العاقل الناطق ، فثبت أن تلك الأجزاء إنما تكون هذا الإنسان بشرط وقوعها على تأليف مخصوص ، ومزاج مخصوص ، وصورة مخصوصة ، فإذا مات الإنسان وتفرقت أجزاؤه فقد عدمت تلك الصور والأعراض ، وعود المعدوم محال .

وعلى هذا التقدير فإنه يمتنع عود بعض الأجزاء المعتبرة في حصول هذا الإنسان فوجب أن يمتنع عوده بعينه مرة أخرى .

والجواب : لا نسلم أن هذا الإنسان المعين عبارة عن هذا الجسد المشاهد ، بل هو عبارة

عن النفس .

سواء فسرنا النفس بأنه جوهر مفارق مجرد ، أو قلنا إنه جسم لطيف مخصوص مشاكل لهذا الجسد مصون عن التغير ، والله أعلم به .

الشبهة الرابعة : إذا قتل إنسان واغتذى به إنسان آخر .

فيلزم أن يقال تلك الأجزاء في بدن كل واحد من الشخصين وذلك محال .

والجواب : هذه الشبهة أيضاً مبنية على أن الإنسان المعين عبارة عن مجموع هذا البدن ، وقد بينا أنه باطل .

بل الحق أنه عبارة عن النفس سواء .

قلنا : النفس جوهر مجرد وأجسام لطيفة باقية مشاكلة للجسد ، وهي التي سمتها المتكلمون بالأجزاء الأصلية .

وهذا آخر البحث العقلي عن مسألة المعاد .

المسألة الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ فيه أبحاث :

البحث الأول : أن كلمة "إلى" لانتهاء الغاية ، وظاهره يقتضي أن يكون الله سبحانه مختصاً بحيز وجهة ، حتى يصح أن يقال : إليه مرجع الخلق .

والجواب عنه من وجوه : الأول : أنا إذا قلنا .

النفس جوهر مجرد ، فالسؤال زائل .

الثاني : أن يكون المراد منه : أن مرجعهم إلى حيث لا حاكم سواه .

الثالث : أن يكون المراد : أن مرجعهم إلى حيث حصل الوعد فيه بالمجازاة .

البحث الثاني : ظاهر الآيات الكثيرة يدل على أن الإنسان عبارة عن النفس ، لا عن البدن ، ويدل أيضاً على أن النفس كانت موجودة قبل البدن .

أما أن الإنسان شيء غير هذا البدن فلقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ الله أمواتا بَلْ أَحْيَاء ﴾ [آل عمران : 169] فالعلم الضروري حاصل بأن بدن المقتول ميت ، والنص دال على أنه حي ، فوجب أن تكون حقيقته شيئاً مغايراً لهذا البدن الميت ، وأيضاً قال الله تعالى في صفة نزع روح الكفار

﴿ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام : 93] وأما إن النفس كانت موجودة قبل البدن ، فلأن قوله تعالى في هذه الآية : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ يدل على ما قلنا ، لأن الرجوع إلى الموضع إنما يحصل لو كان ذلك الشيء قد كان هناك قبل ذلك ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربّكِ رَاضِيَةً ﴾ [الفجر : 27 ، 28] وقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّواْ إلى الله

مولاهم الحق ﴾ [الأنعام : 62] .

البحث الثالث ؛ المرجع بمعنى الرجوع و ﴿ جَمِيعاً ﴾ نصب على الحال أي ذلك الرجوع يحصل حال الاجتماع ، وهذا يدل على أنه ليس المراد من هذا المرجع الموت ، وإنما المراد منه القيامة .

البحث الرابع : قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ يفيد الحصر ، وأنه لا رجوع إلا إلى الله تعالى ، ولا حكم إلا حكمه ولا نافذ إلا أمره ، وأما قوله : ﴿ وَعْدَ اللهِ حَقّاً ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ وَعَدَ اللهِ ﴾ منصوب على معنى : وعدكم الله وعداً ، لأن قوله : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ معناه : الوعد بالرجوع ، فعلى هذا التقدير يكون قوله : ﴿ وَعَدَ اللهِ ﴾ مصدراً مؤكداً لقوله : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ حَقّاً ﴾ مصدراً مؤكداً لقوله : ﴿ وَعَدَ اللهِ ﴾ فهذه التأكيدات قد اجتمعت في هذا الحكم .

المسألة الثانية :

قرىء ﴿ وَعَدَ اللهُ ﴾ على لفظ الفعل .

واعلم أنه تعالى لما أخبر عن وقوع الحشر والنشر ، ذكر بعده ما يدل على كونه في نفسه ممكن الوجود .

ثم ذكر بعده ما يدل على وقوعه .

أما ما يدل على إمكانه في نفسه فهو قوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

تقرير هذا الدليل أنه تعالى بين بالدليل كونه خالقاً للأفلاك والأرضين ، ويدخل فيه أيضاً كونه خالقاً لكل ما في هذا العالم من الجمادات والمعادن والنبات والحيوان والإنسان ، وقد ثبت في العقل أن كل من كان قادراً على شيء ، وكانت قدرته باقية ممتنعة الزوال ، وكان عالماً بجميع المعلومات فإنه يمكنه إعادته بعينه ، فدل هذا الدليل على أنه تعالى قادر على إعادة الإنسان بعد موته .

المسألة الثانية :

اتفق المسلمون على أنه تعالى قادر على إعدام أجسام العالم ، واختلفوا في أنه تعالى هل يعدمها أم لا ؟ فقال قوم إنه تعالى يعدمها ، واحتجوا بهذه الآية وذلك لأنه تعالى حكم على جميع المخلوقات بأنه يعيدها ، فوجب أن يعيد الأجسام أيضاً ، وإعادتها لا تمكن إلا بعد

إعدامها ، وإلا لزم إيجاد الموجود وهو محال .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السماء كَطَيِّ السجل لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ [الأنبياء : 104] فحكم بأن الإعادة تكون مثل الابتداء ، ثم ثبت بالدليل أنه تعالى إنما يخلقها في الابتداء من العدم ، فوجب أن يقال إنه تعالى يعيدها أيضاً من العدم .

المسألة الثالثة :

(94/357)

في هذه الآية إضمار ، كأنه قيل : إنه يبدأ الخلق ليأمرهم بالعبادة ، ثم يميتهم ثم يعيدهم ، كما قال في سورة البقرة : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنتُمْ أمواتا فأحياكم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يحييكم ﴾ [البقرة : 28] إلا أنه تعالى حذف ذكر الأمر بالعبادة ههنا ، لأجل أنه تعالى قال قبل هذه الآية : ﴿ ذلكم الله رَبُّكُمْ فاعبدوه ﴾ [يونس : 3] وحذف ذكر الإماتة لأن ذكر الأعادة يدل عليها .

المسألة الرابعة :

قرأ بعضهم ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بالكسر وبعضهم بالفتح .

قال الزجاج : من كسر الهمزة من "أن" فعلى الاستئناف ، وفي الفتح وجهان : الأول : أن

يكون التقدير : إليه مرجعكم جميعاً لأنه يبدأ الخلق ثم يعيده .

والثاني : أن يكون التقدير : وعد الله وعداً بدأ الخلق ثم إعادته ، وقرىء ﴿ يُبْدِىءُ ﴾ من أبدأ وقرىء ﴿ حَقّ إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ﴾ كقولك : حق إن زيداً منطلق .

أما قوله تعالى : ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ فاعلم أن المقصود منه إقامة الدلالة على أنه لا بد من حصول الحشر والنشر ، حتى يحصل الفرق بين المحسن والمسيء ، وحتى يصل الثواب إلى المطيع والعقاب إلى العاصي ، وقد سبق الاستقصاء في تقرير هذا الدليل ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الكعبي : اللام في قوله تعالى : ﴿ ليجزي الذين آمنوا ﴾ يدل على أنه تعالى خلق العباد للثواب والرحمة .

وأيضاً فإنه أدخل لام التعليل على الثواب .

وأما العقاب فما أدخل فيه لام التعليل ، بل قال : ﴿ والذين كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ وذلك يدل على أنه خلق الخلق للرحمة لا للعذاب ، وذلك يدل على أنه ما أراد منهم الكفر ، وما خلق فيهم الكفر ألبتة .

والجواب : أن لام التعليل في أفعال الله تعالى محال ، لأنه تعالى لو فعل فعلاً لعلة لكانت تلك

العلة ، إن كانت قديمة لزم قدم الفعل ، وإن كانت حادثة لزم التسلسل وهو محال .

المسألة الثانية :

(95/357)

قال الكعبي أيضاً : هذه الآية تدل على أنه لا يجوز من الله تعالى أن يبدأ خلقهم في الجنة ، لأنه لو حسن إيصال تلك النعم إليهم من غير واسطة خلقهم في هذا العالم ومن غير واسطة تكليفهم ، لما كان خلقهم وتكليفهم معللاً بإيصال تلك النعم إليهم ، وظاهر الآية يدل على ذلك .

والجواب : هذا بناء على صحة تعليل أحكام الله تعالى وهو باطل ، سلمنا صحته .

إلا أن كلامه إنما يصح لو عللنا بدء الخلق وإعادته بهذا المعنى وذلك ممنوع .

فلم لا يجوز أن يقال : إنه يبدأ الخلق لمحض التفضل ، ثم إنه تعالى يعيدهم لغرض إيصال نعم الجنة إليهم ؟ وعلى هذا التقدير : سقط كلامه .

أما قوله تعالى : ﴿ بالقسط ﴾ ففيه وجهان :

الوجه الأول : ﴿ بالقسط ﴾ بالعدل ، وهو يتعلق بقوله : ﴿لِيَجْزِيَ﴾ والمعنى : ليجزيهم بقسطه ، وفيه سؤالان .

السؤال الأول : أن القسط إذا كان مفسراً بالعدل ، فالعدل هو الذي يكون لا زائداً ولا ناقصاً ، وذلك يقتضي أنه تعالى لا يزيدهم على ما يستحقونه بأعمالهم ، ولا يعطيهم شيئاً على سبيل التفضل ابتداء .

والجواب : عندنا أن الثواب أيضاً محض التفضل .

وأيضاً فبتقدير أن يساعد على حصول الاستحقاق ، إلا أن لفظ (القسط) يدل على توفية الأجر ، فأما المنع من الزيادة فلفظ (القسط) لا يدل عليه .

السؤال الثاني : لم خص المؤمنين بالقسط مع أنه تعالى يجازي الكافرين أيضاً بالقسط ؟

والجواب : أن تخصيص المؤمنين بذلك يدل على مزيد العناية في حقهم ، وعلى كونهم مخصوصين بمزيد هذا الاحتياط .

الوجه الثاني : في تفسير الآية أن يكون المعنى : ليجزي الذين آمنوا بقسطهم ، وبما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا أنفسهم حيث آمنوا وعملوا الصالحات ، لأن الشرك ظلم .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] والعصاة أيضاً قد ظلموا أنفسهم .

قال الله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ [فاطر : 32] وهذا الوجه أقوى ، لأنه في مقابلة قوله : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ .

وأما قوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الواحدي : الحميم : الذي سخن بالنار حتى انتهى حره .

يقال : حممت الماء أي سخنته ، فهو حميم .

ومنه الحمام .

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه لا واسطة بين أن يكون المكلف مؤمناً وبين أن يكون كافراً ، لأنه تعالى اقتصر في هذه الآية على ذكر هذين القسمين .

وأجاب القاضي عنه : بأن ذكر هذين القسمين لا يدل على نفي القسم الثالث .

والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ والله خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِي على رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي أربع ﴾ [النور : 45] ولم يدل ذلك على نفي القسم الرابع ، بل نقول : إن في مثل ذلك ربما يذكر المقصود أو الأكثر ، ويترك ذكر ما عداه ، إذا كان قد بين في موضع آخر .

وقد بين الله تعالى القسم الثالث في سائر الآيات .

والجواب أن نقول : إنما يترك القسم الثالث الذي يجري مجرى النادر ، ومعلوم أن الفساق أكثر من أهل الطاعات ، وكيف يجوز ترك ذكرهم في هذا الباب ؟ وأما قوله تعالى : ﴿ والله خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّاء ﴾ فإنما ترك ذكر القسم الرابع والخامس ، لأن أقسام ذوات الأرجل كثيرة .

فكان ذكرها بأسرها يوجب الإطناب بخلاف هذه المسألة .

فإنه ليس ههنا إلا القسم الثالث ، وهو الفاسق الذي يزعم الخصم أنه لا مؤمن ولا كافر .

فظهر الفرق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 14 . 27 ﴾

(97/357)

وقال السمرقندى :

ثم خوفهم فقال : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ ، يعني : مرجع الخلائق كلهم يوم القيامة .

﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً ﴾ ، يعني : البعث كائناً وصدقاً .

وقال الزجاج : ﴿ وَعَدَ الله ﴾ صار نصباً على معنى وعدكم الله وعداً ، لأن قوله ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ معناه الوعد بالرجوع .

﴿ أَنَّهُ الله الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ؛ قال أهل اللغة : الياء صلة ومعناه إنه بدأ الخلق ثم يعيده ، يعني : خلق الخلق في الدنيا ثم يحييهم بعد الموت يوم القيامة ، ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ ؛ يعني : لكي يثبت الذين آمنوا بالبعث بعد الموت ، ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات بالقسط ﴾ ؛ يعني : عملوا الطاعات بالعدل وقال الضحاك : يعني : الذين قاموا بالعدل وأقاموا على توحيده ، يعطيهم من رياض الجنة حتى يرضوا .

﴿ والذين كَفَرُواْ ﴾ ، يعني : ويجزي الذين كفروا .

ثم بيّن جزاءهم ، فقال : ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ ، يعني : ماءً حاراً قد انتهى حره ، ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ ؛ يعني : يجحدون الرسالة والكتاب . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(98/357)

وقال الثعلبى :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾

معادكم ﴿ جَمِيعاً ﴾ نصب على الحال ﴿ وَعْدَ الله حَقّاً ﴾ صدقاً لا خُلف فيه ، وهو نصب على المصدر ، أي وعد الله وعداً حقّاً فجاء به حقّاً ، وقيل : على القطع ، وقرأ ابن

أبي عبلة : وعد الله حق على الاستئناف ، ثم قال : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أي يحميهم ابتداءً ثم يميتهم ثم يحييهم ، وقرأ العامة : إنّه ، [بكسر الألف على الاستئناف .

وقرأ أبو جعفر : أنه ، بالفتح على معنى : لأنه وبأنه ، كقول الشاعر :

أحقاً عباد الله أن لست زائراً . . . بثينة أو يلقى الثريا رقيبها

﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ ليثيب ﴿ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات بالقسط ﴾ بالعدل ثم قال : مبتدئاً ﴿ والذين كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ ﴾ ماء حار قد انتهى حرّه ﴿ حَمِيمٍ ﴾ وهو بمعنى محموم فعيل بمعنى مفعول ، وكل مسخن مُغلي عند العرب فهو حميم . قال المرقش :

وكل يوم لها مقطرة . . . فيها كباء معدّ وحميم

﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(99/357)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ إليه مرجعكم جميعاً ﴾ الآية

آية إنباء بالبعث من القبور وهي من الأمور التي جوزها العقل وأثبت وقوعها الشرع ، وقوله

﴿ جميعاً ﴾ الآية ، حال من الضمير في ﴿ مرجعكم ﴾ ، ﴿ وعد الله ﴾ نصب على المصدر ، وكذلك قوله ﴿ حقاً ﴾ وقال أبو الفتح ﴿ حقاً ﴾ نعت ، وقرأ الجمهور " إنه " بكسر الألف على القطع والاستئناف ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع والأعمش وسهل بن شعيب وعبد الله " أنه " بفتح الألف ، وموضعها النصب على تقدير أحق أنه ، وقال الفراء : موضعها رفع على تقدير يحق أنه .

قال القاضي أبو محمد : يجوز عندي أن يكون ﴿ أنه ﴾ بدلاً من قوله ﴿ وعد الله ﴾ ، قال أبو الفتح : إن شئت قدرت لأنه يبدأ الخلق أي فمن في قدرته هذا فهو غني عن إخلاف الوعد . وإن شئت قدرته " وعد الله حقاً أنه " ولا يعمل فيه المصدر الذي هو ﴿ وعد الله ﴾ لأنه قد وصف فإذن ذلك بتمامه وقطع عمله ، وقرأ ابن أبي عبلة " حقٌّ " بالرفع فهو ابتداء وخبره " أنه " وقوله ﴿ يبدأ الخلق ﴾ يريد النشأة الأولى ، والإعادة هي البعث من القبور ، وقرأ طلحة "يُبدِىء الخلق " بضم الياء وكسر الدال ، وقوله ﴿ ليجزي ﴾ هي لام كي والمعنى أن الإعادة إنما هي ليقع الجزاء على الأعمال ، وقوله ﴿ بالقسط ﴾ أي بالعدل في رحمتهم وحسن جزائهم ، وقوله ﴿ والذين كفروا ﴾ ابتداء و" الحميم " الحار المسخن وهو فعيل بمعنى مفعول ومنه الحمام والحمة ومنه قول المرقش :

في كل يوم لها مقطرة وكباء معدة وحميم . . . وحميم النار فيما ذكر عن رسول الله صلى الله

عليه سلم إذا أدناه الكافر من فيه تساقطت فروة رأسه ، وهو كما وصفه تعالى ﴿ يشوي الوجوه ﴾ [الكهف : 29] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(100/357)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إليه مرجعكم جميعاً ﴾

أي : مصيركم يوم القيامة ﴿ وعْدَ الله حقاً ﴾ قال الزجاج : "وَعْدَ الله" منصوب على معنى : وعدكم الله وعداً ، لأن قوله : ﴿ إِليه مرجعكم ﴾ معناه : الوعد بالرجوع ، و "حقاً" منصوب على : أحق ذلك حقاً .

قوله تعالى : ﴿ إِنه يبدأ الخلق ﴾ قرأه الأكثرون بكسر الألف .

وقرأت عائشة ، وأبو رزين ، وعكرمة ، وأبو العالية ، والأعمش : بفتحها .

قال الزجاج : من كسر ، فعلى الاستئناف ، ومن فتح ، فالمعنى : إِليه مرجعكم ، لأنه يبدأ الخلق .

قال مقاتل : يبدأ الخلق ولم يكن شيئاً ، ثم يعيده بعد الموت .

وأما القسط ، فهو العدل .

فإن قيل : كيف خصَّ جزاء المؤمنين بالعدل ، وهو في جزاء الكافرين عادل أيضاً ؟

فالجواب : أنه لو جمع الفريقين في القسط ، لم يتبيَّن في حال اجتماعهما ما يقع بالكافرين من العذاب الأليم والشرب من الحميم ، ففصلهم من المؤمنين ليبيِّن ما يجزيهم به مما هو عدل أيضاً ، ذكره ابن الأنباري .

فأما الحميم ، فهو الماء الحارُّ .

وقال أبو عبيدة : كل حار فهو حميم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(101/357)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾

رفع بالابتداء .

﴿ جَمِيعاً ﴾ نصب على الحال .

ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى جزائه .

﴿ وَعْدَ اللهِ حَقّاً ﴾ مصدران ؛ أي وعد الله ذلك وعداً وحققه "حقاً" صدقاً لا خلف فيه .

وقرأ إبراهيم بن أبي عَبْلَة "وَعْدُ اللَّه حَقّ" على الاستئناف .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ﴾ أي من التراب .

﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ إليه .

مجاهد : ينشئه ثم يميته ثم يحييه للبعث ؛ أو ينشئه من الماء ثم يعيده من حال إلى حال .

وقرأ يزيد بن القَعْقَاع "أَنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ" تكون "أن" في موضع نصب ؛ أي وعدكم أنه يبدأ الخلق .

ويجوز أن يكون التقدير لأنه يبدأ الخلق ؛ كما يقال : لَبَّيْكَ أنّ الحمد والنعمة لك ؛ والكسر أجود .

وأجاز الفرّاء أن تكون "أن" في موضع رفع فتكون اسما .

قال أحمد بن يحيى : يكون التقدير حقاً إبداؤه الخلق .

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات بالقسط ﴾ أي بالعدل .

﴿ والذين كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ أي ماء حار قد انتهى حرّه ، والحَمِيمة مثله .

يقال : حَمَمْت الماء أحُمّه فهو حميم ، أي محموم ؛ فعيل بمعنى مفعول .

وكلُّ مُسَخَّن عند العرب فهو حميم .

﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي موجِع ، يخلص وجعه إلى قلوبهم .

﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ أي بكفرهم ، وكان معظم قريش يعترفون بأن الله خالقهم ؛

فاحتج عليهم بهذا فقال : من قدر على الابتداء قدر على الإعادة بعد الإفناء أو بعد تفريق الأجزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(102/357)

وقال الخازن :

﴿ إليه مرجعكم جميعاً ﴾

يعني إلى ربكم الذي خلق جميع المخلوقات مصيركم جميعاً أيها الناس يوم القيامة والمرجع بمعنى الرجوع ﴿ وعد الله حقاً ﴾ يعني وعدكم الله ذلك وعداً حقاً ﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أي يحييهم ابتداء ثم يميتهم ثم يحييهم وهذا معنى قول مجاهد فإنه قاله يحييه ثم يميته ثم يحييه .

وفي هذه الآية دليل على إمكان الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه ورد على منكري البعث ووقوعه ، لأن القادر على خلق هذه الأجسام المؤلفة والأعضاء المركبة على غير مثال سبق ، قادر على إعادتها بعد تفرقها بالموت والبلى ، فيركب تلك الأجزاء المتفرقة تركيباً ثانياً ويخلق الإنسان الأول مرة أخرى وكما لم يمتنع تعلق هذه النفس بالبدن في المرة الأولى لم يمتنع تعلقها بالبدن مرة أخرى وإذا ثبت القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت كان

المقصود منها إيصال الثواب للمطيع والعقاب للعاصي وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ يعني بالعدل لا ينقص من أجورهم شيئاً ﴿ والذين كفروا لهم شراب من حميم ﴾ هو ماء حار قد انتهى حره ﴿ وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(103/357)

وقال أبو حيان :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾

ذكر ما يقتضي التذكير وهو كون مرجع الجميع إليه ، وأكد هذا الإخبار بأنه وعد الله الذي لا شك في صدقه ثم استأنف الإخبار وفيه معنى التعليل بابتداء الخلق وإعادته وأن مقتضى الحكمة بذلك هو جزاء المكلفين على أعمالهم .

وانتصب وعد الله وحقاً على أنهما مصدران مؤكدان لمضمون الجملة والتقدير : وعد الله وعداً ، فلما حذف الناصب أضاف المصدر إلى الفاعل وذلك كقوله : ﴿ صبغة الله ﴾ ﴿ وصنع الله ﴾ والتقدير : في حقاً حق ذلك حقاً .

وقيل : انتصب حقاً بوعد على تقدير في أي وعد الله في حق .

وقال علي بن سليمان التقدير : وقت حق وأنشد :

أحقاً عباد الله أن لست خارجاً . . .

ولا والجاً إلا عليّ رقيب

وقرأ عبد الله ، وأبو جعفر ، والأعمش ، وسهل بن شعيب : أنه يبدأ بفتح الهمزة .

قال الزمخشري : هو منصوب بالفعل ، أي : وعد الله تعالى بدء الخلق ثم إعادته ، والمعنى : إعادة الخلق بعد بدئه .

وعد الله على لفظ الفعل ، ويجوز أن يكون مرفوعاً بما نصب حقاً أي : حق حقاً بدءُ الخلق كقوله :

أحقاً عباد الله أن لست جائياً . . .

ولا ذاهباً إلا عليّ رقيب

انتهى .

وقال ابن عطية : وموضعها النصب على تقدير أحق أنه .

وقال الفراء : موضعها رفع على تقدير لحق أنه .

قال ابن عطية : ويجوز عندي أن يكون أنه بدلاً من قوله : وعد الله .

قال أبو الفتح : إن شئت قدرت لأنه يبدأ ، فمن في قدرته هذا فهو غني عن إخلاف الوعد ، وإن شئت قدرت وعد الله حقاً أنه يبدأ ولا يعمل فيه المصدر الذي هو وعد الله ، لأنه قد

وصف ذلك بتمامه وقطع عمله .

وقرأ ابن أبي عبلة : حق بالرفع ، فهذا ابتداء وخبره أنه انتهى .

وكون حق خبر مبتدأ ، وأنه هو المبتدأ هو الوجه في الإعراب كما تقول : صحيح إنك تخرج ، لأنّ اسم أنّ معرفة ، والذي تقدمها في نحو هذا المثال نكرة .

(104/357)

والظاهر أنّ بدء الخلق هو النشأة الأولى ، وإعادته هو البعث من القبور ، وليجزي متعلق بيعيده أي : ليقع الجزاء على الأعمال .

وقيل : البدء من التراب ، ثم يعيده إلى التراب ، ثم يعيده إلى البعث .

وقيل : البدء نشأته من الماء ، ثم يعيده من حال إلى حال .

وقيل : يبدؤه من العدم ، ثم يعيده إليه ، ثم يوجده .

وقيل : يبدؤه في زمرة الأشقياء ، ثم يعيده عند الموت إلى زمرة الأولياء ، وبعكس ذلك .

وقرأ طلحة : يبدىء من أبدأ رباعياً ، وبدأ وأبدأ بمعنى ، وبالقسط معناه بالعدل ، وهو متعلق بقوله : ليجزي أي : ليثيب المؤمنين بالعدل والإنصاف في جزائهم ، فيوصل كلاًّ إلى جزائه وثوابه على حسب تفاضلهم في الأعمال ، فينصف بينهم ويعدل ، إذ ليسوا كلهم

مساوين في مقادير الثواب ، وعلى هذا يكون بالقسط منه تعالى .

قال الزمخشري : أو يقسطهم بما أقسطوا أو عدلوا ولم يظلموا حين آمنوا وعملوا الصالحات ، لأنّ الشرك ظلم قال الله تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ والعصاة ظلام لأنفسهم ، وهذا أوجه لمقابلة قوله : بما كانوا يكفرون انتهى ، فجعل القسط من فعل الذين آمنوا وهو على طريقة الاعتزال ، والظاهر أنّ والذين كفروا مبتدأ ، ويحتمل أن يكون معطوفاً على قوله : الذين آمنوا ، فيكون الجزاء بالعدل قد شمل الفريقين .

ولما كان الحديث مع الكفار مفتتح السورة معهم ، ذكر شيئاً من أنواع عذابهم فقال : ﴿ لهم شارب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ وتقدم شرح هذا في سورة الأنعام .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(105/357)

وقال أبو السعود :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾

﴿ إِلَيْهِ ﴾ لا إلى أحد سواه استقلالاً أو اشتراكاً ﴿ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي بالبعث كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ جَمِيعاً ﴾ فإنه حالٍ من الضمير المجرورِ لكونه فاعلاً في المعنى أي إليه

رجوعُكم مجتمعين والجملةُ كالتعليل لوجوب العبادة ﴿ وَعَدَ الله ﴾ مصدرٌ مؤكدٌ لنفسه لأن قوله عز وجل : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ وعد منه سبحانه بالبعث أو لفعل مقدر أي وعَدَ الله وعداً ، وأياً ما كان فهو دليلٌ على أن المرادَ بالمرجعِ هو الرجوعُ بالبعث لأن ما بالموت بمعزل من الوعد كما أنه بمعزل من الاجتماع وقرىء بصيغة الفعل ﴿ حَقّاً ﴾ مصدرٌ آخرُ مؤكدٌ لما دل عليه الأول ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ﴾ وقرىء يُبدِىء ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ وهو استئنافٌ عُلّل به وجوبُ المرجعِ إليه سبحانه وتعالى فإن غايةَ البدءِ والإعادةِ وهو جزاءُ المكلّفين بأعمالهم حسنةً أو سيئةً ، وقرىء بالفتح أي لأنه ، ويجوز كونُه منصوباً بما نصب وعدَ الله أي وعَد الله وعداً بدءَ الخلقِ الخلق ثم إعادتَه ، ومرفوعاً بما نصب حقاً أي حق بدءُ الخلقِ الخ ﴿ ليجزى الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل وهو حالٌ من فاعل يجزي أي ملتبساً بالعدل أو متعلق بيجزي أي ليجزيَهم بقسطه ويوفيَهم أجورَهم ، وإنما أُجمل ذلك إيذاناً بأنه لا يفي به الحصرُ أو بقسطهم وعدلِهم عند إيمانِهم ومباشرتِهم للأعمال الصالحة وهو الأنسبُ بقوله عز وجل : ﴿ والذين كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ فإن معناه ويجزي الذين كفروا بسبب كفرِهم ، وتكريرُ الإسناد بجعل الجملةِ الظرفية خبراً للموصول لتقوية الحكمِ والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبلِ للدلالة على مواظبتهم على الكفر ، وتغييرُ النظمِ للإيذان بكمال استحقاقِهم للعقاب وأن التعذيبَ بمعزل عن الانتظام في سلك العلةِ الغائيّة للخلق بدءاً

وإعادةً وإنما يحيقُ ذلك بالكفرة

على موجَبِ سوءِ اختيارِهم ، وأما المقصودُ الأصليُّ من ذلك فهو الإثابة . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(106/357)

وقال الآلوسى :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾

كالتعليل لوجوب العبادة ، والجار والمجرور خبر مقدم و ﴿ مَرْجِعُكُمْ ﴾ مبتدأ مؤخر وهو مصدر ميمي لا اسم مكان خلافاً لمن وهم فيه ، و ﴿ جَمِيعاً ﴾ حال من الضمير المجرور لكونه فاعلاً في المعنى أي إليه تعالى رجوعكم مجتمعين لا إلى غيره سبحانه بالبعث ﴿ وَعَدَ اللهِ ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة لأنها وعد منه تعالى بالبعث وحيث كانت لا تحتمل غير الوعد كان ذلك من أفراد المصدر المؤكد لنفسه عندهم كما في قولك : له على ألف عرفاً ، ويجوز أن يكون نصباً على المصدرية لفعل محذوف أي وعد الله وعداً ، وأيا ما كان فهو دليل على أن المراد بالمرجوع الرجوع بالبعث لأن ما بالموت بمعزل عن الوعد كما أنه بمعزل عن الاجتماع فما وقع في بعض نسخ القاضي بالموت أو النشور ليس

على ما ينبغي .

وقرىء ﴿ وَعَدَ الله ﴾ بصيغة الفعل ورفع الاسم الجليل على الفاعلية ﴿ حَقّاً ﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه الأول وهو من قسم المؤكد لغيره لأن الأول ليس نصاً فيه فإن الوعد يحتمل الحقية والتخلف .

وقيل : إنه منصوب بوعد على تقدير في وتشبيه بالظرف كقوله

: أفي الحق أني هائم بك مغرم . . .

والأول أظهر ، وقوله سبحانه : ﴿ أَنَّهُ الله الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ كالتعليل لما أفاده ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ فإن غاية البدء والإعادة هو الجزاء بما يليقب .

وقرأ أبو جعفر .

والأعمش ﴿ أَنَّهُ ﴾ بفتح الهمزة على تقدير لأنه ، وجوز أن يكون منصوباً بمثل ما نصب ﴿ وَعْدُ ﴾ أي وعد الله سبحانه بدء الخلق ثم إعادته أي إعادته بعد بدئه ، ويكون الوعد واقعاً على المجموع لكن باعتبار الجزء الأخير لأن البدء ليس موعوداً ، وأن يكوم مرفوعاً بمثل ما نصب حقاً أي حق بدء الخلق ثم إعادته ويكون نظير قول الحماسي

: أحقا عباد الله أن لست رائيا . . .

رفاعة طول الدهر إلا توهما

وعن المرزوقي أنه خرجه على النصب على الظرفية وهو اما خبر مقدم أو ظرف معتمد وزعم أن ذلك مذهب سيبويه ، وجوز أن يكون النصب بوعد الله على أنه مفعول له ، والرفع بحقاً على أنه فاعل له ، وظاهر كلام الكشاف يدل على أن الفعلين العاملين في المصدرين المذكورين هما اللذان يعملان فيما ذكر لا فعلان آخران مثلهما وحينئذ يفوت أمر التأكيد الذي ذكرناه لأن فاعل العامل بالمصدر المؤكد لا بد أن يكون عائداً على ما تقدمه مما أكده ، وقرىء ﴿ حَقّ إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ﴾ وهو كقولك : حق أن زيداً منطلق .

(108/357)

وقرىء ﴿ يُبْدِىء ﴾ من أبدأ ، ولعل المراد من الخلق نحو المكلفين لا ما يعم ذلك والجمادات ، ويؤيد ذلك ما أخرجه غير واحد عن مجاهد أن معنى الآية يحيي الخلق ثم يميته ثم يحييه ﴿ لِيَجْزِىَ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات بالقسط ﴾ أي بالعدل وهو حال من فاعل ﴿ يَجْزِى ﴾ أي ملتبساً بالعدل أو متعلق بيجزي أي ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم ، وإنما أجمل ذلك إيذاناً بأنه لا يفي به الحصر ، ويرشح ذلك جعل ذاته الكريمة هي المجازية أو بقسطهم وعدلهم في أمورهم أو بإيمانهم ؛ ورجح هذا بأنه أوفق بقوله تعالى : ﴿

والذين كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ فإن معناه ويجزي الذين كفروا بشراب من ماء جار وقد انتهى حره وعذاب أليم بسبب كفرهم فيظهر التقابل بين سببي جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين ، مع أنه لا وجه لتخصيص العدل بجزاء المؤمنين بل جزاء الآخرين أولى به كما لا يخفى ، وتكرير الإسناد بجعل الجملة الطرفية خبراً للموصول لتقوية الحكم ، والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع للدلالة على مواظبتهم على الكفر ، وتغيير النظم الكريم للمبالغة في استحقاقهم العقاب بجعله حقاً مقرراً لهم والإيذان بأن التعذيب بمعزل عن الانتظام في سلك العلة الغائية للإعادة بناء على تعلق ليجزي بها أولها وللبدى بناء على تعلقه بهما على التنازع ، وإنما المنتظم في ذلك السلك هو الاثابة فهي المقصود بالذات والعقاب واقع بالعرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(109/357)

وقال صاحب المنار فى الآيتين :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) .

افْتَتَحَ السُّورَةَ بِذِكْرِ آيَاتِ الْكِتَابِ ، النَّاطِقِ بِالْحِكْمَةِ وَفَصْلِ الْخِطَابِ وَأَنْكَرَ عَلَى النَّاسِ عَجَبَهُمْ أَنْ يُوحِيَ رَبُّهُمْ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ يُعَلِّمَهُمْ بِهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ مِنَ الدِّينِ الَّذِي فِيهِ سَعَادَتُهُمْ

، مُنْذِرًا مَنْ كَفَرَ بِالْعِقَابِ ، وَمُبَشِّرًا مَنْ آمَنَ بِالثَّوَابِ وَحَكَى عَنِ الْكَافِرِينَ وَصْفَهُمْ لِهَذَا الْكِتَابِ الْحَكِيمِ وَلِلرَّسُولِ الَّذِي جَاءَ بِهِ بِالسِّحْرِ ؛ إِذْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْبَشَرِ مُشَعْوِذُونَ وَدَجَّالُونَ يَأْتُونَ بَعْضَ الْخَوَارِقِ الَّتِي لَا يَعْرِفُ الْجَمَاهِيرُ أَسْبَابَهَا ، فَرَأَوْا أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ الْمُعْجِزَ لِلْبَشَرِ بِأُسْلُوبِهِ وَبَلَاغَتِهِ ، وَبِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَبِتَأْثِيرِهِ فِي الْعُقُولِ وَالْقُلُوبِ ، يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ أَوْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ مِنْ هَذَا السِّحْرِ الْمَعْهُودِ وَجُودُهُ ، الْمَجْهُولِ سَبَبُهُ وَأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي جَاءَ بِهِ لَمْ يُعْرَفْ عَنْهُ قَبْلَهُ شَيْءٌ مِنْ بَلَاغَةِ الْقَوْلِ ، وَلَا مِنْ حِكْمَةِ التَّشْرِيعِ ، وَالْعِلْمُ ، يَصِحُّ أَنْ يُعَدَّ مُنْتَحَلًا لِلسِّحْرِ ، وَلَكِنَّ السِّحْرَ لَمْ يَكُنْ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ حَقَائِقَ عِلْمِيَّةً وَلَا هِدَايَةً نَافِعَةً كَمَا تَقَدَّمَ ، وَالسَّحَرَةُ لَمْ يَكُونُوا إِلَّا أُنَاسًا مِنَ الْمُتَكَسِّبِينَ بِإِطْلَاعِ النَّاسِ عَلَى غَرَائِبِهِمُ الْمَجْهُولَةِ لَهُمْ ، فَأَيْنَ هَذَا وَذَاكَ مِنَ الْقُرْآنِ وَمَنْ جَاءَ بِهِ ، مِنْ حَقَائِقَ سَاطِعَةٍ ، وَهُوَ لَا يَسْأَلُ عَلَيْهَا أَجْرًا وَلَا يَبْتَغِي بِهَا لِنَفْسِهِ نَفْعًا إِذْ هِيَ بَاقِيَةٌ بِنَفْسِهَا وَبِآثَارِهَا

(110/357)

النَّافِعَةِ ، وَالسِّحْرُ بَاطِلٌ لَا بَقَاءَ لَهُ ؟ فَالْمُتَعَيِّنُ عِنْدَ الْعَقْلِ أَنْ يَكُونَ مَا فِيهَا مِنَ الْعُلُوِّ عَلَى كَلَامِ الْبَشَرِ ، وَالْإِعْجَازِ الَّذِي قَامَتْ بِهِ الْحُجَّةُ بِالتَّحَدِّي ، وَحْيًا مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَنِعْمَةً مِنْهُ

عَلَيْهِمْ بِهِدَايَةِ الدِّينِ ، الَّذِي هُوَ لِجُمْلَتِهِمْ ، كَالْعَقْلِ لِأَفْرَادِهِمْ ، وَوَجَبَ عَلَى كُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهَذَا الرَّبِّ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ ، الْبَرِّ الرَّحِيمِ ، أَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّ هَذَا مِنْ حِكْمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِالْعَالَمِينَ ، وَإِلَّا كَانَتْ صِفَاتُهُ نَاقِصَةً بِحِرْمَانِ هَذَا الْإِنْسَانِ مِنْ هَذَا النَّوْعِ الْأَعْلَى مِنَ الْعِرْفَانِ ، وَالْبَيِّنَاتِ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، وَلِذَلِكَ قَفَّى حِكَايَةَ عَجَبِهِمْ وَمَا عَلَّلُوهُ بِهِ ، مِنَ التَّذْكِيرِ بِالْحُجَّةِ الَّتِي تَنْقُضُهُ مِنْ أَسَاسِهِ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) هَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى تَفْنِيدِهِمْ فِي عَجَبِهِمْ مِنْ وَحْيِ الْقُرْآنِ ، وَبَيَانٌ لِلرُّبُوبِيَّةِ الَّتِي يَقْتَضِي كَمَالُهَا ثُبُوتَهُ وَبُطْلَانَ الشِّرْكِ ، وَالْخِطَابُ فِيهَا لِلنَّاسِ الَّذِينَ عَجِبُوا أَنْ يُوحَى إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ مَا فِيهِ هِدَايَتُهُمْ بِأُسْلُوبِ الِالْتِفَاتِ الْمُنَبِّهِ لِلذِّهْنِ ، يَقُولُ لَهُمْ : إِنَّ رَبَّكُمْ هُوَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ الْعَوَالِمَ السَّمَاوِيَّةَ الَّتِي

(111/357)

فَوْقَكُمْ ، وَهَذِهِ الْأَرْضَ الَّتِي يَعِيشُونَ عَلَيْهَا فِي سِتَّةِ أَزْمِنَةٍ ثُمَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْهَا طَوْرٌ مِنْ أَطْوَارِهَا ، فَإِنَّ الْيَوْمَ فِي اللُّغَةِ هُوَ الْوَقْتُ الَّذِي يَحُدُّهُ حَدَثٌ يَحْدُثُ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ أُلُوفَ السِّنِينَ مِنْ أَيَّامِ هَذِهِ الْأَرْضِ الْفَلَكِيَّةِ الَّتِي وُجِدَتْ بَعْدَ خَلْقِهَا ، أَيْ أَوْجَدَهَا كُلَّهَا بِمَقَادِيرَ

قَدَّرَهَا فَإِنَّ الْخَلْقَ فِي اللُّغَةِ التَّقْدِيرُ ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ الَّذِي جَعَلَهُ مَرْكَزَ التَّدْبِيرِ ، لِهَذَا الْمُلْكِ الْكَبِيرِ ، اسْتِوَاءً يَلِيقُ بِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ ، وَتَنْزِيهِهِ وَكَمَالِهِ ، يُدَبِّرُ أَمْرَ مُلْكِهِ ، بِمَا اقْتَضَاهُ عِلْمُهُ مِنَ النِّظَامِ ، وَحِكْمَتُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ ، فَالِاسْتِوَاءُ عَلَى الْعَرْشِ بَعْدَ خَلْقِهِمَا ، وَهُوَ مَخْلُوقٌ لَهُ مِنْ قَبْلِهِمَا ، شَأْنٌ مِنْ شُئُونِهِ فِيمَا لَا نَعْلَمُ كُنْهَهُ وَلَا صِفَتَهُ مِنْ تَدْبِيرِ هَذَا الْمُلْكِ ، وَكُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ، لَا يُدْرِكُ كُنْهَ شُئُونِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ .

(112/357)

وَالتَّدْبِيرُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ التَّوْفِيقُ بَيْنَ أَوَائِلِ الْأُمُورِ وَمَبَادِئِهَا ، وَأَدْبَارِهَا وَعَوَاقِبِهَا ، بِحَيْثُ تَكُونُ الْمَبَادِئُ مُؤَدِّيَةً إِلَى مَا يُرِيدُ مِنْ غَايَاتِهَا ، كَمَا أَنَّ تَدَبُّرَ الْأَمْرِ أَوِ الْقَوْلِ هُوَ التَّفَكُّرُ فِي دُبُرِهِ وَهُوَ مَا وَرَاءَهُ وَمَا يُرَادُ مِنْهُ وَيَنْتَهِي إِلَيْهِ . وَوَجْهُ دَلَالَةِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ عَلَى مَا ذُكِرَ أَنَّ الرَّبَّ الْخَالِقَ الْمُدَبِّرَ لِجَمِيعِ أُمُورِ الْخَلْقِ ، لَا يَسْتَنْكِرُ مِنْ تَرْبِيَتِهِ لِعِبَادِهِ وَتَدْبِيرِهِ لِأُمُورِهِمْ ، أَنْ يَفِيضَ مَا شَاءَ مِنْ عِلْمِهِ عَلَى مَنِ اصْطَفَى مِنْ خَلْقِهِ ، مَا يَهْدِيهِمْ بِهِ لِمَا فِيهِ كَمَالُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ مِنْ عِبَادَتِهِ وَشُكْرِهِ وَصَلَاحِ أَنْفُسِهِمْ ، بَلْ يَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ الْعَالِمِ بِهَذَا التَّدْبِيرِ وَالتَّقْدِيرِ الَّذِي تَشْهَدُ بِهِ آيَاتُهُ تَعَالَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّ هَذَا الْوَحْيَ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ ، إِذْ هُوَ مِنْ كَمَالِ تَقْدِيرِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ . وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْأَعْرَافِ الَّتِي

بِمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ (7 : 54) الِاخْتِلَافَ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ الْمُبْتَدَعِ ، وَأَئِمَّةِ السَّلَفِ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَثَرِ فِي مَسْأَلَةِ الِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ وَأَشْبَاهِهَا مِنْ آيَاتِ عُلُوِّ الْخَالِقِ تَعَالَى فَوْقَ خَلْقِهِ وَسَائِرِ صِفَاتِهِ ، وَحَقَّقْنَا أَنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ هُوَ الْحَقُّ الْجَامِعُ بَيْنَ النَّقْلِ وَالْعَقْلِ .

(113/357)

ثُمَّ قَالَ : (مَا مِنْ شَفِيعٍ إلَّا مِنْ بَعْدِ إذْنِهِ وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ حُجَّةٌ ثَانِيَةٌ عَلَى مُنْكِرِي الْوَحْيِ ، فِي ضِمْنِ حَقِيقَةٍ نَاقِضَةٍ لِعَقِيدَةِ الشِّرْكِ ، ذَلِكَ أَنَّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ وَمُقَلِّدَتَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ مَعْبُودَاتِهِمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَعِبَادِهِ الْمُقَرَّبِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْبَشَرِ يَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا يَدْفَعُ عَنْهُمُ الضُّرَّ وَيَجْلِبُ لَهُمُ النَّفْعَ فِي الدُّنْيَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ يُثْبِتُونَ لَهُمُ الشَّفَاعَةَ فِي الْآخِرَةِ بِالْأَوْلَى ، وَيُسَمُّونَ الْأَصْنَامَ الَّتِي وُضِعَتْ لِذِكْرَى أُولَئِكَ الْأَوْلِيَاءِ شُفَعَاءَ أَيْضًا بِالتَّبَعِ ، وَسَيَأْتِي فِي (الْآيَةِ 18) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ حِكَايَةُ مَا يَقُولُونَهُ فِي هَذِهِ الشَّفَاعَةِ . وَيُقَالُ فِي بَيَانِ وَجْهِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ فِيهَا : إنَّكُمْ إذَا كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِأَنَّ لِلَّهِ شُفَعَاءَ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَعِبَادِهِ الْمُقَرَّبِينَ يَشْفَعُونَ لَكُمْ عِنْدَهُ بِمَا يُقَرِّبُكُمْ إلَيْهِ زُلْفَى وَيَدْفَعُ عَنْكُمُ الضُّرَّ وَيَجْلِبُ لَكُمُ النَّفْعَ - وَهُوَ قَوْلٌ مِنْكُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِغَيْرِ عِلْمٍ - فَمَا لَكُمْ تُنْكِرُونَ وَتَعْجَبُونَ أَنْ يُوحِيَ تَعَالَى إلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَيَصْطَفِيَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْعِبَادِ مَنْ

يُعَلِّمُكُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَا يَهْدِيكُمْ إِلَى الْعَمَلِ

الْمُوَصِّلِ إِلَى كُلِّ مَا تَطْلُبُونَهُ مِنْ هَؤُلَاءِ الشُّفَعَاءِ بِاسْتِحْقَاقٍ بِدُونِ عَمَلٍ مِنْكُمْ وَلَا اسْتِحْقَاقٍ لِمَا تَطْلُبُونَ مِنْهُمْ ؟ .

(114/357)

وَأَمَّا الْحَقِيقَةُ النَّاقِضَةُ لِعَقِيدَةِ الشِّرْكِ فِي الشَّفَاعَةِ ، فَهِيَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ شَفِيعٌ يَشْفَعُ لِأَحَدٍ عِنْدَهُ تَعَالَى إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) (2 : 255) وَلَيْسَ لِأَحَدٍ حَقٌّ فِي الْإِخْبَارِ عَنْهُ تَعَالَى بِمَنْ يَشْفَعُ عِنْدَهُ وَمَنْ يَقْبَلُ شَفَاعَتَهُ إِلَّا بِإِعْلَامٍ مِنْهُ ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِوَحْيٍ مِنْهُ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي وَحْيِ هَذَا الْقُرْآنِ أَنَّهُ لَا يَشْفَعُ أَحَدٌ عِنْدَهُ بِإِذْنِهِ إِلَّا مَنِ ارْتَضَاهُ لِلشَّفَاعَةِ (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) (20 : 109) وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْمَأْذُونَ لَهُمْ بِالشَّفَاعَةِ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى رَاضِيًا عَنْهُ بِإِيمَانِهِ وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ كَمَا قَالَ : (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) (21 : 28) مِصْدَاقًا لِقَوْلِهِ : (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا) (39 : 44) .

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ) احْتِجَاجٌ بِمَا يُؤْمِنُونَ بِهِ مِنْ وَحْدَانِيَّةِ الرُّبُوبِيَّةِ ، عَلَى شِرْكِهِمْ فِي وَحْدَانِيَّةِ الْأُلُوهِيَّةِ ، أَيْ ذَلِكَ الْمَوْصُوفِ بِالْخَلْقِ وَالتَّقْدِيرِ ، وَالْحِكْمَةِ وَالتَّدْبِيرِ ، وَالتَّصَرُّفِ

فِي أَمْرِ الشَّفَاعَةِ يَأْذَنُ بِهَا لِمَنْ شَاءَ فِيمَا شَاءَ هُوَ اللهُ رَبُّكُمْ وَمُتَوَلِّي أُمُورِ الْعَالَمِ وَمِنْهَا أُمُورُكُمْ ، فَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَلَا مَعَهُ

(115/357)

أَحَدًا ، لَا لِأَجْلِ الشَّفَاعَةِ ، وَلَا لِأَجْلِ مَطْلَبٍ آخَرَ مِنْ مَطَالِبِكُمْ ، فَالشُّفَعَاءُ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، وَإِنَّمَا يَمْلِكُ ذَلِكَ رَبُّكُمْ وَحْدَهُ ، وَقَدْ هَدَاكُمْ إِلَى أَسْبَابِ الضُّرِّ وَالنَّفْعِ الْكَسْبِيَّةِ بِعُقُولِكُمْ وَمَشَاعِرِكُمْ وَسَخَّرَهَا لَكُمْ ، وَهَدَاكُمْ إِلَى أَسْبَابِ النَّفْعِ وَالضُّرِّ الْغَيْبِيَّةِ بِوَحْيِهِ وَأَقْدَرَكُمْ عَلَيْهَا ، وَكُلُّ مَا يُطْلَبُ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ فَإِنَّمَا يُطْلَبُ مِنْ أَسْبَابِهِ الَّتِي سَخَّرَهَا تَعَالَى وَبَيَّنَهَا لَكُمْ ، وَمَا عَجَزَ عَنْهُ الْعَبْدُ أَوْ جَهِلَهُ مِنْ ذَلِكَ فَالْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَدْعُوَ اللهَ تَعَالَى وَحْدَهُ فِيهِ ، وَهَذَا هُوَ الرُّكْنُ الْأَوَّلُ لِلدِّينِ الْإِلَهِيِّ . أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أَيْ أَتَجْهَلُونَ هَذَا الْحَقَّ الْمُبِينَ ، فَلَا تَتَذَكَّرُونَ أَنَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَحْدَهُ ، وَاسْتَوَى عَلَى عَرْشِ الْمُلْكِ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ وَحْدَهُ ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَشْفَعَ أَحَدٌ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، هُوَ رَبُّكُمُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَأَلَّا تَعْبُدُوا غَيْرَهُ ؟ وَهُوَ مُقْتَضَى الْفِطْرَةِ ، وَمَا إِنْكَارُهُ إِلَّا ضَرْبٌ مِنَ الْغَفْلَةِ عِلَاجُهَا التَّذْكِيرُ .

(116/357)

هَذَا الِاسْتِفْهَامُ التَّعْجِيبِيُّ مِنْ غَفْلَةِ الْمُشْرِكِينَ مُنْكِرِي الْوَحْيِ عَنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ ، وَهِيَ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ مِنَ الْخَلْقِ أَحَدٌ إِلَّا رَبُّهُمْ وَخَالِقُهُمْ وَمُدَبِّرُ أُمُورِهِمْ ، يُوَجَّهُ بِالْأَوْلَى إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْقُرْآنِ مِنَ الْقُبُورِيِّينَ وَعُبَّادِ الصَّالِحِينَ ، كَيْفَ لَا يَتَذَكَّرُونَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَأَمْثَالَهَا كُلَّمَا شَعَرُوا بِالْحَاجَةِ إِلَى مَا عَجَزُوا عَنْهُ بِكَسْبِهِمْ مِنْ دَفْعِ ضُرٍّ أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ ؟ إِذْ نَرَاهُمْ يُوَجِّهُونَ وُجُوهَهُمْ إِلَى قُبُورِ الْمَشْهُورِينَ مِنَ الصَّالِحِينَ فِي بِلَادِهِمْ ، وَيَشُدُّونَ الرِّحَالَ إِلَى مَا بَعُدَ مِنْهَا عَنْهُمْ ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهَا بِالنُّذُورِ وَيَطُوفُونَ بِهَا كَمَا يَطُوفُ الْحُجَّاجُ بِبَيْتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، دَاعِينَ مُتَضَرِّعِينَ

(117/357)

مُسْتَغِيثِينَ خَاشِعِينَ ، وَهَذَا مُخُّ الْعِبَادَةِ وَرُوحُهَا وَأَجْلَى مَظَاهِرِهَا ، وَلَا تَرَى مِثْلَهُ مِنْ أَحَدٍ مِمَّنْ يُصَلِّي مِنْهُمْ فِي صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ وَلَا صَلَاتِهِ مُنْفَرِدًا فِي بَيْتِهِ ، عَلَى أَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يُصَلُّونَ وَلَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الصَّلَاةَ تَنْفَعُهُمْ كَهَذِهِ الْقُبُورِ ، ذَلِكَ بِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَأَمْثَالَهَا مِنَ الْقُرْآنِ ، وَإِنَّمَا يَتَلَقَّوْنَ عَقَائِدَ دِينِهِمْ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ مِنْ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ وَمُعَاشِرِيهِمْ ، وَهُمْ قُبُورِيُّونَ لَا يَعْرِفُونَ مَلْجَأً وَلَا مُلْتَحَدًا عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالشُّعُورِ بِالْحَاجَةِ إِلَى السُّلْطَانِ الرَّبَّانِيِّ

الْغَيْبِيِّ إِلَّا هَذِهِ الْقُبُورَ ، وَأَقَلُّهُمْ يَتَلَقَّوْنَ بَعْضَ كُتُبِ الْعَقَائِدِ الْكَلَامِيَّةِ الْجَافَّةِ مِمَّنْ أَلِفُوا عِبَادَةَ الْقُبُورِ قَبْلَ أَنْ يَقْرَءُوهَا ، وَأَكْثَرُهُمْ يَتَأَوَّلُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِلْعَوَّامِ تِلْكَ الْعِبَادَةَ وَيُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا كَالتَّوَسُّلِ وَالِاسْتِشْفَاعِ ، وَحُجَّتُهُمْ عَلَيْهَا نَفْسُ حُجَّةِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ، لَا فَرْقَ إِلَّا فِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ وَأَسْمَاءِ الْأَشْخَاصِ .

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) .

هَذِهِ الْآيَةُ بَيَانٌ لِلرُّكْنِ الثَّانِي مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ وَهُوَ الْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْجَزَاءُ عَلَى الْأَعْمَالِ .

(118/357)

يَقُولُ تَعَالَى : (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا) أَيْ إِلَى رَبِّكُمْ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ مَعْبُودَاتِكُمْ وَشُفَعَائِكُمْ وَأَوْلِيَائِكُمْ تَرْجِعُونَ جَمِيعًا بَعْدَ الْمَوْتِ وَفَنَاءِ هَذَا الْعَالَمِ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ ، لَا يَتَخَلَّفُ مِنْكُمْ أَحَدٌ (وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا) أَيْ وَعَدَ اللَّهُ هَذَا وَعْدًا حَقًّا لَا يُخْلِفُ (إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) هَذَا بَيَانٌ لِمُتَعَلِّقِ الْوَعْدِ الْمُؤَكَّدِ مَرَّتَيْنِ بِدَلِيلِهِ ، أَيْ إِنَّ شَأْنَهُ تَعَالَى أَنْ يَبْدَأَ الْخَلْقَ وَيُنْشِئَهُ عِنْدَ التَّكْوِينِ ، ثُمَّ يُعِيدُهُ فِي نَشْأَةٍ أُخْرَى بَعْدَ انْحِلَالِهِ وَفَنَائِهِ ، فَالتَّعْبِيرُ بِفِعْلِ الْمُسْتَقْبَلِ (يَبْدَأُ) لِتَصْوِيرِ الشَّأْنِ ، وَهُوَ يَشْمَلُ الْمَاضِيَ وَالْمُسْتَقْبَلَ ، وَلَفْظُ الْخَلْقِ عَامٌّ يُرَادُ بِهِ الْخَاصُّ أَوَّلًا

وَبِالذَّاتِ ، بِدَلِيلِ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ السِّيَاقِ ، وَقَدْ أَجْمَعَ عُلَمَاءُ الْكَوْنِ الْمَادِّيُّونَ مِنْهُمْ وَالرُّوحِيُّونَ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ وَجَمِيعَ الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ ، مَا يُرَى مِنْهَا بِالْأَبْصَارِ وَالْآلَاتِ الْمُقَرِّبَةِ لِلْأَبْعَادِ وَمَا لَا يُرَى ، كُلُّهَا قَدْ وُجِدَتْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ . وَإِنْ كَانُوا لَا يَزَالُونَ يَبْحَثُونَ فِي نَشْأَةِ تَكْوِينِهَا وَالْقُوَّةِ الْأَزَلِيَّةِ الْمُتَصَرِّفَةِ فِي أَصْلِ مَادَّتِهَا ، كَمَا أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى تَوَقُّعِ خَرَابِ هَذِهِ الْأَرْضِ وَالْكَوَاكِبِ الْمُرْتَبِطَةِ مَعَهَا فِي هَذَا النِّظَامِ الشَّمْسِيِّ الْجَامِعِ لَهَا ، عَلَى أَنَّ أَقْرَبَ الْأَسْبَابِ الْمُوَافِقَةِ لِأُصُولِ الْعِلْمِ الثَّابِتَةِ أَنْ تُصِيبَ الْأَرْضَ قَارِعَةٌ مِنَ الْأَجْرَامِ

(119/357)

السَّمَاوِيَّةِ فَتَبُسُّهَا بَسًّا ، حَتَّى تَكُونَ هَبَاءً مُنْبَثًّا ، كَمَا تُشِيرُ إِلَيْهِ سُورَةُ الْقَارِعَةِ وَالْوَاقِعَةِ وَغَيْرُهُمَا .

فَأَمَّا بَدْؤُهُ فَقَدْ حَصَلَ بِالْفِعْلِ ، وَأَمَّا إِعَادَتُهُ فَدَلِيلُهَا أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى الْبَدْءِ يَكُونُ قَادِرًا عَلَى الْإِعَادَةِ بِالطَّرِيقِ الْأُولَى ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الرُّومِ : (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) (30 : 27) الْآيَةَ . وَمِنَ الْمَسَائِلِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا عِنْدَ عُلَمَاءِ الْكَوْنِ فِي هَذَا الْعَصْرِ – وَهِيَ تُقَرِّبُ إِلَى الْعُقُولِ عَقِيدَةَ الْبَعْثِ – أَنَّ هَذِهِ الْأَجْسَادَ الْحَيَّةَ

(120/357)

يُنْحَلُ مِنْهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ مَا يَتَبَخَّرُ فِي الْهَوَاءِ وَمَا يَمُوتُ فِي دَاخِلِ الْجِسْمِ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهُ ، وَيَحِلُّ مَحَلَّ كُلِّ مَا يَزُولُ وَيَنْدَثِرُ مَوَادُّ حَيَّةٌ جَدِيدَةٌ حَتَّى يَفْنَى جَسَدُ كُلِّ حَيَوَانٍ ، فَهُوَ يَزُولُ فِي سِنِينَ قَلِيلَةٍ وَيَتَجَدَّدُ غَيْرُهُ ، فَالْبَدْءُ وَالْإِعَادَةُ فِي كُلِّ جَسَدٍ دَائِمَانِ مَا دَامَ حَيًّا ، وَقَدْ فَصَّلْنَا مَسْأَلَةَ الْبَعْثِ بِالْبَيَانِ الْعِلْمِيِّ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (ص 417 - 427 ج 8 ط الْهَيْئَةِ) (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ (هَذَا تَعْلِيلٌ لِلْإِعَادَةِ ، أَيْ يُعِيدُهُ لِأَجْلِ جَزَائِهِمْ ، وَالْقِسْطُ : الْعَدْلُ ، وَقَالَ الرَّاغِبُ : النَّصِيبُ مِنَ الْعَدْلِ ، أَيْ لِيَجْزِيَهُمْ بِعَدْلِهِ وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ إِعْطَاءِ كُلِّ عَامِلٍ حَقَّهُ مِنَ الثَّوَابِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لِعَمَلِهِ ، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُظْلَمُ مِنْهُ شَيْئًا كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ : (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) (21 : 47) الْآيَةَ . وَلَا يَمْنَعُ ذَلِكَ أَنْ يَزِيدَهُمْ وَيُضَاعِفَ لَهُمْ كَمَا وَعَدَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى مِنْهَا قَوْلُهُ : (فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) (4 : 173) وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) (26) فَالْحُسْنَى هِيَ الْجَزَاءُ بِالْقِسْطِ الْمُضَادِّ لِلْجَوْرِ وَالظُّلْمِ . وَالزِّيَادَةُ فَضْلٌ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ . وَسَيَأْتِي فِيهَا أَيْضًا قَوْلُهُ : (قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ) (10 : 47 ، 54) وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ يَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ

الْقِيَامِ بِالْقِسْطِ وَهُوَ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا ، الَّذِي هُوَ مُقْتَضَى الْإِيمَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) (57 : 25) وَقَوْلِهِ : (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ) (7 : 29) عَلَى أَنَّ الْقِسْطَ فِي الْآيَتَيْنِ عَامٌّ شَامِلٌ لِأُمُورِ الدِّينِ كُلِّهَا ، وَقِيلَ : بَلِ الْمُرَادُ مِنْهُ الْإِيمَانُ أَوِ التَّوْحِيدُ الْمُقَابِلُ لِظُلْمِ الشِّرْكِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (31 : 13) وَالْمُتَبَادَرُ الْمُوَافِقُ لِسَائِرِ الْآيَاتِ الصَّرِيحَةِ هُوَ الْأَوَّلُ ، وَلَا يَصِحُّ إِرَادَةُ الثَّانِي إِلَّا بِالتَّبَعِ لِلْأَوَّلِ ، أَوِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْمَعْنَيَيْنِ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ كُلَّ مَا يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ مِنَ الْمَعَانِي الْمُشْتَرَكَةِ فِيهِ أَوْ حَقِيقَتِهِ وَمَجَازِهِ بِمُقْتَضَى اللُّغَةِ مِنْ غَيْرِ مَانِعٍ مِنَ الشَّرْعِ يَكُونُ مُرَادًا مِنْهُ .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) الْحَمِيمُ : الْمَاءُ الْحَارُّ أَوِ الشَّدِيدُ الْحَرَارَةِ الَّذِي يُسْتَحَمُّ بِهِ ، وَالْعَرَقُ ، يُقَالُ : اسْتَحَمَّ الْفَرَسُ إِذَا عَرِقَ ، وَالْحَمَّامُ الَّذِي هُوَ مَكَانُ الِاسْتِحْمَامِ مِنَ الْأَوَّلِ أَوْ مِنَ الثَّانِي . وَالْجُمْلَةُ بَيَانٌ لِجَزَاءِ الْكَافِرِينَ فِي مُقَابَلَةِ جَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ عَلَى مَنْهَجِ الْقُرْآنِ فِي الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا . وَالْمَعْنَى : أَنَّ الْكَافِرِينَ لَهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ شَرَابٌ مِنْ مَاءٍ حَمِيمٍ يُقَطِّعُ أَمْعَاءَهُمْ

وَعَذَابٌ شَدِيدُ الْأَلَمِ (وَهَذَا مِنْ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ) وَنُكْتَةُ هَذَا الْخَاصِّ أَنَّ الْعَرَبَ الَّذِينَ خُوطِبُوا بِهِ أَوَّلًا وَنَزَلَ بِلُغَتِهِمْ - وَلَا سِيَّمَا عَرَبُ الْحِجَازِ - يَشْعُرُونَ بِمَا لَا يَشْعُرُ غَيْرُهُمْ مِنَ الْوَعِيدِ بِشُرْبِ الْمَاءِ الْحَمِيمِ وَالْحِرْمَانِ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ - وَإِنَّمَا كَانَ لَهُمْ هَذَا الْجَزَاءُ بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ أَعْمَالِ الْكُفْرِ الْمُسْتَمِرَّةِ إِلَى الْمَوْتِ ، كَدُعَاءِ غَيْرِ اللهِ تَعَالَى وَالنَّذْرِ لِغَيْرِهِ وَذَبْحِ الْقَرَابِينِ لِغَيْرِهِ ، وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الَّتِي يُزَيِّنُهَا لَهُمُ الْكُفْرُ وَيَصُدُّ عَنْهَا الْإِيمَانُ ، فَقَوْلُهُ : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا) مُقَابِلٌ لِقَوْلِهِ : الَّذِينَ آمَنُوا وَقَوْلُهُ : (بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) مُقَابِلٌ لِقَوْلِهِ : (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) لِأَنَّ الَّذِي يَتَجَدَّدُ مِنَ الْكُفْرِ أَعْمَالُهُ لَا عَقِيدَتُهُ . عَلَى أَنَّ الْعَمَلَ بِمُقْتَضَى الْعَقِيدَةِ هُوَ أَثَرُهَا ، يَزِيدُهَا قُوَّةً وَرُسُوخًا وَاسْتِمْرَارًا ، وَسَيُعَادُ ذِكْرُ جَزَاءِ الْفَرِيقَيْنِ بَعْدَ آيَتَيْنِ بِتَفْصِيلٍ آخَرَ لِعَمَلِهِمَا .

(123/357)

وَلَعَلَّ نُكْتَةَ اخْتِلَافِ النَّظْمِ أَوِ الْأُسْلُوبِ - فِي جَزَاءِ الْفَرِيقَيْنِ وَتَعْلِيلِ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ تَعَالَى هُنَا - هِيَ إِفَادَةُ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالذَّاتِ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَى اللهِ تَعَالَى هُوَ جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ مُنْتَهَى كَمَالِ الِارْتِقَاءِ الْبَشَرِيِّ لِلَّذِينَ زَكَّوْا أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِمَا يَكُونُ لَهُمْ

فِي الْجَنَّةِ مِنْ غَلَبَةِ سُلْطَانِ الْأَرْوَاحِ عَلَى الْأَجْسَادِ ، وَجَعْلِهَا تَابِعَةً لَهَا فِي الْجَمْعِ بَيْنَ خَصَائِصِ الْمَادَّةِ وَالرُّوحِ الَّذِي هُوَ حَقِيقَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ ، فَيَلْقَى الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ هُنَالِكَ مِنَ النَّعِيمِ الْمَادِّيِّ الْخَالِي مِنَ الشَّوَائِبِ وَالتَّنْغِيصِ الَّذِي عَهِدَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَمِنَ النَّعِيمِ الرُّوحَانِيِّ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِرِضْوَانِ اللهِ الْأَكْبَرِ – كَمَا تَقَدَّمَ فِي آيَةِ سُورَةِ التَّوْبَةِ : 72 – مَا يَتَحَقَّقُ بِهِ فَضْلُ الْإِنْسَانِيَّةِ الْجَامِعَةِ ، عَلَى الرُّوحَانِيَّةِ الْخَالِصَةِ ، وَمَا أَعَدَّهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهَا مِمَّا لَا يَعْلَمُ كُنْهَهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ أَحَدٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الم السَّجْدَةِ (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) (32 : 17) وَمَا فُسِّرَتْ بِهِ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ : (أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ ، وَأَعْلَاهُ مَقَامُ رُؤْيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا شَرَحْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (7 : 143) وَأَدْنَاهُ مَا سَيَأْتِي قَرِيبًا فِي الْآيَةِ التَّاسِعَةِ .

(124/357)

وَأَمَّا جَزَاءُ الْكَافِرِينَ الْمُفْسِدِينَ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِلنَّاسِ ، عَلَى تَدْسِيَتِهِمْ وَتَدْنِيسِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ وَالْخَطَايَا – وَهِيَ لَهَا كَأَعْرَاضِ الْأَمْرَاضِ الَّتِي سَبَبُهَا مُخَالَفَةُ سُنَّةِ اللهِ فِي حِفْظِ الْأَبْدَانِ وَصِحَّتِهَا – فَلَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الَّتِي اقْتَضَتْهَا الْحِكْمَةُ

الْإِلَهِيَّةُ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ ، وَلَكِنَّهَا مُقْتَضَى الْعَدْلِ فِي الْمَظَالِمِ وَالْحُقُوقِ ، وَمُقْتَضَى اطِّرَادِ السُّنَنِ الْحَكِيمَةِ فِي ارْتِبَاطِ الْأَسْبَابِ بِالْمُسَبَّبَاتِ ، وَالْعِلَلِ بِالْمَعْلُولَاتِ ، فَهُوَ جَزَاءٌ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي آيَاتٍ أُخْرَى ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ الْمَقْصُودَ بِالذَّاتِ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَقَدْ سَأَلَنِي رَجُلٌ مِنْ أَذْكِيَاءِ الْإِنْكِلِيزِ : هَلْ يَلِيقُ بِعَظَمَةِ اللهِ أَنْ يُعَذِّبَ هَذَا الْإِنْسَانَ الضَّعِيفَ عَلَى ذُنُوبِهِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى ضَعْفِهِ ؟ قُلْتُ إِنَّ الشِّرْكَ بِاللهِ وَالْكُفْرَ بِنِعَمِهِ ، وَاقْتِرَافَ الْخَطَايَا الْمُخَالِفَةِ لِشَرَائِعِهِ وَلِلْوِجْدَانِ الْفِطْرِيِّ فِي الْإِنْسَانِ ، تُدَنِّسُ نَفْسَ فَاعِلِهَا وَتُفْسِدُهَا بِمَا يَجْعَلُهَا غَيْرَ أَهْلٍ لِلنَّعِيمِ الرُّوحَانِيِّ الْخَاصِّ بِالْأَنْفُسِ الزَّكِيَّةِ ، فَيَكُونُ الْعِقَابُ فِي الْآخِرَةِ أَثَرًا طَبِيعِيًّا

لِهَذَا الْفَسَادِ ، كَمَا يَكُونُ الْمَرَضُ أَثَرًا طَبِيعِيًّا لِمُخَالَفَةِ قَوَانِينِ الصِّحَّةِ وَوَصَايَا الطَّبِيبِ .

فَقَالَ : إِذَا كَانَ سَبَبُ الْعَذَابِ مِنَ الدَّاخِلِ لَا مِنَ الْخَارِجِ فَهُوَ مَعْقُولٌ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المنار جـ 11 صـ 241. 247 ﴾

(125/357)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾

وقع أمرهم بعبادته عقب ذكر الجزاء إنذاراً وتبشيراً ، فالجملة كالدليل على وجوب عبادته ، وهي بمنزلة النتيجة الناشئة عن إثبات خلقه السماوات والأرض لأن الذي خلق مثل تلك العوالم من غير سابق وجود لا يعجزه أن يعيد بعض الموجودات الكائنة في تلك العوالم خلقاً ثانياً .

ومما يشير إلى هذا قوله : ﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ ، فبَدء الخلق هو ما سبق ذكره ، وإعادتُه هي ما أفاده قوله : ﴿ إليه مرجعكم جميعاً ﴾ ولذلك فصلت عن التي قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، على أنها يجوز كونها خبراً آخر عن قوله : ﴿ إن ربكم ﴾ [يونس : 3] ، أو عن قوله : ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ [يونس : 3] .

وقد تضمنت هذه الجملة إثبات الحشر الذي أنكروه وكذبوا النبيءَ صلى الله عليه وسلم لأجله .

وفي تقديم المجرور في قوله : ﴿ إليه مرجعكم ﴾ إفادة القصر ، أي لا إلى غيره ، قطعاً لمطامع بعضهم القائلين في آلهتهم ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : 18] يريدون أنهم شفعاء على تسليم وقوع البعث للجزاء ، فإذا كان الرجوع إليه لا إلى غيره كان حقيقاً بالعبادة وكانت عبادة غيره باطلاً .

والمرجع : مصدر ميمي بمعنى الرجوع .

وقد تقدم في قوله : ﴿ إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ في سورة [

العقود : 105] .

و﴿ جميعاً ﴾ حال من ضمير المخاطبين المضاف إليه المصدر العامل فيه .

وانتصب ﴿ وعدَ الله ﴾ على المفعولية المطلقة توكيداً لمضمون الجملة المساوية له ، ويسمى موكِّداً لنفسه في اصطلاح النحاة ، لأن مضمون ﴿ إليه مرجعكم ﴾ الوعد بإرجاعهم إليه وهو مفاد وعد الله ، ويقدر له عامل محذوف لأن الجملة المؤكدة لا تصلح للعمل فيه .

والتقدير : وعدَكم اللّهُ وعداً حقاً .

وانتصب ﴿ حقاً ﴾ على المفعولية المطلقة المؤكدة لمضمون جملة ﴿ وعد الله ﴾ باعتبار الفعل المحذوف .

(126/357)

ويسمى في اصطلاح النحاة مؤكداً لغيره ، أي موكداً لأحد معنيين تحتملهما الجملة المؤكدة .

وجملة : ﴿ إنه يبدأ الخلق ﴾ واقعة موقع الدليل على وقوع البعث وإمكانه بأنه قد ابتدأ خلق الناس ، وابتداء خلقهم يدل على إمكان إعادة خلقهم بعد العدم ، وثبوت إمكانه يدفع تكذيب المشركين به ، فكان إمكانه دليلاً لقوله : ﴿ إليه مرجعكم جميعاً ﴾ ، وكان

الاستدلال على إمكانه حاصلاً من تقديم التذكير ببدء خلق السماوات والأرض كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ [الروم : 27] .

وموقع (إن] تأكيد الخبر نظراً لإنكارهم البعث ، فحصل التأكيد من قوله : ﴿ ثم يعيده ﴾ أما كونه بدأ الخلق فلا ينكرونه .

وقرأ الجمهور ﴿ إنه يبدأ الخلق ﴾ بكسر همزة (إنه) .

وقرأه أبو جعفر بفتح الهمزة على تقدير لام التعليل محذوفة ، أي حق وعده بالبعث لأنه يبدأ الخلق ثم يعيده فلا تعجزه الإعادة بعد الخلق الأول ، أو المصدر مفعول مطلق منصوب بما نصب به ﴿ وعْدَ الله ﴾ أي وَعَدَ الله وعداً بَدْءَ الخلق ثم إعادته فيكون بدلاً من ﴿ وعْد الله ﴾ بدلاً مطابقاً أو عطف بيان .

ويجوز أن يكون المصدر المنسبك من (أنَّ) وما بعدها مرفوعاً بالفعل المقدر الذي انتصب (حقاً) بإضماره .

فالتقدير : حَقَّ حقاً أنه يبدأ الخلق ، أي حق بدؤه الخلق ثم إعادته .

والتعليل بقوله : ﴿ ليجزى الذين آمنوا ﴾ الخ إبداءٌ لحكمة البعث وهي الجزاء على الأعمال المقترفة في الحياة الدنيا ، إذ لو أرسل الناس على أعمالهم بغير جزاء على الحسن والقبيح لاستوى المُحسن والمسيء ، وربما كان بعضُ المسيئين في هذه الدنيا أحسن فيها

حالاً من المحسنين .

فكان من الحكمة أن يلقَى كل عامل جزاء عمله .

(127/357)

ولم يكن هذا العالم صالحاً لإظهار ذلك لأنه وُضع نظامه على قاعدة الكون والفساد ، قابلاً لوقوع ما يخالف الحق ولصرف الخيرات عن الصالحين وانهيالِها على المفسدين والعكس لأسباب وآثار هي أوفق بالحياة المقررة في هذا العالم ، فكانت الحكمة قاضية بوجود عالم آخر متمحض للكون والبقاء وموضوعاً فيه كل صنف فيما يليق به لا يعدوه إلى غيره إذ لا قبل فيه لتصرفات وتسببات تخالف الحق والاستحقاق .

وقدم جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات لشرفه ولياقته بذلك العالم ، ولأنهم قد سلكوا في عالم الحياة الدنيا ما خلق الله الناس لأجله ولم يتصرفوا فيه بتغليب الفساد على الصلاح .

والباء في ﴿ بالقسط ﴾ صالحة لإفادة معنى التعدية لفعل الجزاء ومعنى العِوض .

والقسط : العدل .

وهو التسوية بين شيئين في صفة والجزاء بما يساوي المجْزي عليه .

وتقدم في قوله : ﴿ قائماً بالقسط ﴾ في أول [آل عمران : 18] .

فتفيد الباء أنهم يُجزون بما يعادل أعمالهم الصالحة فيكون جزاؤهم صلاحاً هنالك وهو غاية النعيم ، وأن ذلك الجزاء مكافاة على قسطهم في أعمالهم في عَدلهم فيها بأن عملوا ما يساوي الصلاح المقصود من نظام هذا العالم .

والإجمال هنا بين معنيي الباء مفيد لتعظيم شأن جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات مع الإشارة إلى أنه جزاء مماثل لصلاح أعمالهم .

وإنما خص بذلك جزاء المؤمنين مع أن الجزاء كله عدل ، بل ربما كانت الزيادة في ثواب المؤمنين فضلاً زائداً على العدل لأمرين : أحدهما : ﴿ تأنيس المؤمنين وإكرامهم بأن جزاءهم قد استحقوه بما عملوا ، كقوله : ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ [النحل : 32] .

ومن أعظم الكرم أن يُوهم الكريم أن ما تفضل به على المكرَم هو حقه وأن لا فضل له فيه .

(128/357)

الأمر الثاني : الإشارة إلى أن جزاء الكافرين دون ما يقتضيه العدل ، ففيه تفضل بضرب من التخفيف لأنهم لو جُوزوا على قدر جُرمهم لكان عذابهم أشد ، ولأجل هذا خولف الأسلوب في ذكر جزاء الذين كفروا فجاء صريحاً بما يعم أحوال العذاب بقوله : ﴿ لهم

شراب من حميم وعذاب أليم ﴾ [الأنعام : 70] .

وخص الشراب من الحميم بالذكر من بين أنواع العذاب الأليم لأنه أكره أنواع العذاب في مألوف النفوس .

﴿ أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ في سورة [الأنعام : 70] .

والباء في قوله:

وشراب الحميم تقدم في قوله تعالى : ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾ للعِوض .

وجملة : ﴿ والذين كفروا ﴾ إلى آخرها استئناف بياني لأنه لما ورد ذكر جزاء المؤمنين على أنه العلة لرجوع الجميع إليه ولم يذكر في العلة ما هو جزاء الجميع لا جرم يتشوف السامع إلى معرفة جزاء الكافرين فجاء الاستئناف للإعلام بذلك .

ونكتة تغيير الأسلوب حيث لم يعطف جزاء الكافرين على جزاء المؤمنين فيقال : ويَجزي الذين كفروا بعذاب الخ كما في قوله : ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ويُبشر المؤمنين ﴾ [الكهف : 2] هو الإشارة إلى الاهتمام بجزاء المؤمنين الصالحين وأنه الذي يبادر بالإعلام به وأن جزاء الكافرين جدير بالإعراض عن ذكره لولا سؤال السامعين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾

وحين يقول سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ فهذا إعلام لكل الخلق أن كل الأمور معلومة له سبحانه ، فقد أنزل التكليف الذي قد يُطاع ؛ وقد يُعصى . فمن أطاع يفرح بقوله سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ ، ومن عصى يحزن ؛ لأنه سيلقى عقاب العصاة حين يرجع إلى الله .

ونجد القرآن يقول مرة : "يُرْجَعُون " ومرة يقول : "يَرْجِعون " ، فمن عمل صالحاً ؛ فهو يفرح بالرجوع إلى الله ، ومن عصى وكفر ؛ فهو يحزن ويخاف ويتردد ويحاول ألا يرجع ، لكنه يُرجَع رغم أنفه ، والحق سبحانه يقول : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور : 13]

وقوله سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً . . . ﴾ [يونس : 4]

وسُمِّي هذا المرجع في نفس الآية : ﴿ وَعْدَ اللهِ حَقّاً . . . ﴾ [يونس : 4]

ولقائل أن يقول : ولكن الوعد يطلق على الأمر الذي سيأتي بخير ، فإن كان المرجع للطائع فهذا هو الخير ، ولكن العاصي لن يرى في الرجوع خيراً ، فلماذا لم يقل الله : إن المرجع

للعاصي وعيد ؟

وأقول : إن الحق سبحانه إنما ينبه الإنسان لما ينتظره في المستقبل ، ويعظه ، وترك له الاختيار ، وهذا تقديم للخير ، وهكذا تصبح المسألة كلها وعْداً . والصيغة التي يتقدم فيها المجرور رغم أن من حقه التأخير ، فهي تعني تفرُّد المرجع ، فكلنا نرجع إليه سبحانه ، مثل قوله سبحانه : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ . . . ﴾ [الفاتحة : 5]

(130/357)

إذن : فالطائع يفرح بجزاء الله له ، وعلى العاصي أن يراجع نفسه قبل أن يرجع إلى الله .

وأضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى – أنت تنبه التلاميذ إلى أن يذاكر طوال العام ، فالذي يذاكر فعلاً ، يفرح بالامتحان ؛ لأنه سوف ينجح فيه ، والذي لا يذاكر قد يراجع نفسه ويقبل على المذاكرة خوفاً من الرسوب ، والتذكير لون من ألوان الإنذار ؛ ليتهيب الموقف ويرتدع ، وهكذا يصير التذكير وعداً لا وعيداً .

ويضيف الحق سبحانه لوصف وعده بأنه حق ، فيقول : ﴿ وَعْدَ اللهِ حَقّاً ﴾ ولقائل أن يقول : أليس كل وعد من الله حقّاً ؟ ونقول : نعم . كل وعد من الله هو حق ، وشاء الحق سبحانه هنا أن يَصِفَ وعده بأنه حق ليذكرنا بان الحق هو الشيء الثابت ؛ فإن خُيِّل إليك

في بعض الأوقات أن الباطل هو السائد والسيد ، فلتعلم أن الباطل لا ثبات له ولا سيادة .

وسبحانه يقول : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال ﴾ [الرعد : 17]

فحين ينزل المطر نجد كل وادٍ يأخذ من الماء على قَدْر حاجته ، وساعة ينزل المطر ويتجمع ، نجد القشّ يطفو ومعه الحشائش والأشياء التي لا فائدة منها ؛ لأن الماء في لحظة النزول إنما يُنظف المكان الذي ينزل عليه ؛ لذلك تطفو الأشياء الخفيفة وغير المفيدة .

كذلك الباطل إنما يطفو على السطح لكنه لا يفيد ولا يزعزع الحق الذي يستقر وينفع الأرض والناس ، وطفو الباطل إنما هو تنبيه لجنود الحق ، والباطل مَثَلُه مَثَلُ الألم الذي ينبه للمرض ، وأخطر الأمراض هو الذي لا ألم فيه ، فيستفحل إلى الدرجة التي يصبح علاجه صعباً ومستحيلاً .

(131/357)

إذن : فالألم كالباطل ينبه جنود الحق ؛ ولذلك أنت تلحظ أنه إذا ما أهيج الإسلام من أي عدو ، تجد الحماسة وقد دبَّتْ في الناس جميعاً ، حركة وتعاوناً ، ونسياناً للأحقاد ؛ للدفاع عن الإسلام .

وفي الأمراض التي تنتقل ببعض الفيروسات ، نجد الأطباء وهم يُطَعِّمون الناس من نفس ميكروبات أو فيروسات المرض بجرعات ضعيفة لتستثير مقاومة الجسم ، إذن : فالباطل جندي من جنود الحق ، كما أن الألم جندي من جنود العافية .

وإذا كان الحق هو القائل : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ فلا بد أنه الوعد الحق ؛ لأنه سبحانه يملك ما يعد به ، وسبحانه منزه عن الكذب وعن الخديعة ؛ لأنه القائل : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً ﴾ [النساء : 122]

ولأنه أقوى مما خلق ؛ ومَمَّنْ خلق . ولا تخونه إمكاناته ؛ لأنه يملك الكون كله .

وكلمة " الرجوع " في قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ تفيد أن تكون على شيء ثم تفارق هذا الشيء وبعد ذلك ترجع له ، فهي وجود أولاً ، ثم خروج عن الوجود ، ثم عودة إلى الوجود الأول . فإذا كانت في مكان ، ثم ذهبت إلى مكان آخر ، وترجع إلى المكان الأول ، فهذا هو الرجوع .

والقول هنا يفيد أننا سنموت جميعاً ، مصداقاً لقوله الحق : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : 26-27]

وقد قال الكافرون ما ذكره القرآن : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق : 3]

.

كأنهم قد استبعدوا فكرة البعث ، وقالوا أيضاً : ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . . . ﴾ [السجدة : 10]

أي : أنهم تساءلوا : هل بعد الموت والدفن وتحلُّل الجثمان إلى عناصر تمتزج بعناصر الأرض ، أبعد كل ذلك بعث ونشور ؟

(132/357)

وجاء هنا قوله سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ ليفيد أن الخروج إلى الوجود بالميلاد إلى الحياة ، ثم بعد ذلك خروج على الحياة إلى مقابلها وهو الموت ، ومن بعد ذلك البعث .

وقد وقف الكافرون عند هذه النقطة واستبعدوها ، فأراد الله أن يبيّن لنا هذه المسألة ؛ لأنها تتمة التمسك بالمنهج ، وكأنه يقول لنا : إياكم أن تظنوا أنكم أخذتم الحياة ، وأفلتم بها وتمتعتم ، ثم ينتهي الأمر ؟ لا ، إن هناك بعثاً وحساباً . لذلك قال : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً ﴾ [يونس : 4]

فإن قال قائل : كيف يكون ذلك . يأتي القول الحق : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ فالذي قدر على أن يخلق من عدم ؛ أيعجز أن يعيد من موجود ؟ إنه الحق القائل :

﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم : 9]

فإذا شاء أن يعيدكم فلا تتساءلوا كيف ؟ لأن ذراتكم موجودة ، والحق سبحانه يقول : ﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق : 15]

هكذا يستدل الحق سبحانه بالخلق الأول على إمكان الخلق الثاني ، فإن كنتم تتعجبون من أنكم تعودون بعد أن أوجد الحق أجزاءكم وذراتكم ومواصفاتكم ؛ فانظروا إلى الخلق الأول ؛ فقد خلقكم من لا شيء ؛ أفيعجز أن يعيدكم من شيء ؟ ﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول ﴾ .

وجاء الفلاسفة وأقاموا ضجة ، فجاء الحق سبحانه وتعالى من الكون بالأدلة ، وقال : ﴿ وَتَرَى الأرض هَامِدَةً . . . ﴾ [الحج : 5]

أي : أرضاً ميتة وليس فيها أي حياة . ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : 5]

إذن : فلا عجب أن تصدر حياة عن موت ، وأنتم ترون ذلك كل ساعة . والحياة التي تراها أمامك ليست إلا دورة ؛ لأن الله حين خلق الكون ، خلق عناصره ، ولا زيادة على هذه العناصر .

وخذ مادة واحدة وهي المياه ، فمنذ أن خلق الحق سبحانه المياه لم تزد ولم تنقص ، ويشرب منها الإنسان والحيوان ، ولو أخذ كل واحد في حياته أيّ قدر من المياه ، تظل المياه كما هي ؛ لأن هذا الإنسان يفرز ما شربه على هيئة عرق وإفرازات مختلفة ، وكل ذلك يخرج منه ، ويبقى ما يمثل وزنه .

إذن : فما أخذته من المياه إنما يخرج منك مختلطاً بأشياء نتيجة التفاعل الذي يعطيك طاقة الحياة ، وبعد ذلك يتبخر الماء ، وعملية التبخير هي تقطير للماء ، فأنت إذا أردت تقطير المياه تسخنها إلى درجة الغليان فتتحول بعد ذلك إلى بخار ، ثم تكثفها لتعود مياهاً من جديد .

إذن : فالماء له دورة ، نروي منه الزرع ؛ فيأخذ المائية ويصير أخضر اللون ، ويخرج منه الماء الزائد عن حاجته في عملية النتح ، ثم يجف ، بعد أن تخرج منه المياه بالتبخر ، وكل ذلك دون أن يشعر أحد بحكاية التبخير هذه .

وأنت حين تُحضِّر كوباً من الماء المقطر في الصيدلية ، تتكلف كثيراً ، وتحتاج موقداً وإناءً وأنابيب ، ثم إلى مياه أخرى باردة لتكثف البخار ، ولكن هذه مسألة تحدث في الكون

ملايين المرات ، ولا يدري بها أحد .

وبعد أن تتبخر المياه تصير سحاباً ، ثم ينهمر المطر وهو مياه مقطّرة . ولذلك تجد أن مساحة رقعة الماء ثلاثة أرباع الأرض لتخدم الربع الباقي (اليابسة) ؛ لأن الله يريد اتساع سطح الأرض ، وهذا الاتساع هو الذي يساعد على التقطير والتبخير والتكثيف .

مثلما تجيء أنت بكوب ماء ، وتضعه في حجرة ، ثم تغيب شهراً عن الحجرة ، فعند عودتك إيها قد تجد الكوب نقص ما مقداره نصف سنتيمتر تقريباً ، لكنك إن أخذت كوب الماء نفسه وألقيت ما فيه من ماء ليسيح على أرض الغرفة ، فستجد أن الأرض جفت خلال ساعات قليلة ، وهكذا نجد ان اتساع الرقعة إنما يساعد على سرعة البخر .

(134/357)

إذن : الكمية التي خلقها الله من المياه كما هي ، لم تَزدْ ولم تنقص ، تدور الدورة التي شاءها الحق ، وهكذا نرى أن الشيء يعود إلى أصله مرة أخرى ، ويمكن أن نرى ذلك في كل أوجه الحياة ، والحق سبحانه يقول : ﴿ والذاريات ذَرْواً * فالحاملات وِقْراً * فالجاريات يُسْراً * فالمقسمات أَمْراً * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ [الذاريات : 1-5]

يقسم الحق سبحانه هنا بالرياح التي تحمل السحاب ، وتمطر كل سحابة على الموقع المحدَّد

لها بأمر من الله ، ويلفتنا الحق سبحانه هنا إلى دورة الماء ، الذي هو قوام الحياة ، بان الوعد منه سبحانه يتحقق حتماً .

تأمّل الوردة ، تجد لها نعومة ونضارة ؛ لأن فيها شيئاً كثيراً من المائية ، ولها لون جميل ورائحة ذكية تفوح ، فإذا قطفتها تتساقط أوراقها وتجف ؛ لأن ما فيها من المائية يتبخر ؛ فما أخذته الوردة من الماء عاد إلى مخزنه مرة أخرى ، وكذلك الرائحة تظل في أرواقها الذابلة إلى أن تنتهي ، وكذلك اللون ، ثم تخرج وردة جديدة .

إذن : حياة كل كائن في الوجود والعالم في حركته ناشئة عن هذه الدورة ، فإذا كانت مائية حياتكم تدور ؛ أتستبعد أن تدور أنت بمكنوناتك ؟ هَبْ أن إنساناً وُجد ومات ؛ بخروج الروح من الجسد ويُواري الجثمان ويتبخر ما فيه من ماء ، وتتحلل مواد الجثمان مع عناصر الأرض لتصير تراباً ، فهل يعجز الحق أن يعيد إلى الوجود أبعاض هذا الإنسان ؟ طبعاً لا يمكن أن يعجز .

الحياة – إذن – احتكاك هذه الدورات لتلك العناصر ، فلم يزد شيء عليها ، ولم ينقص منها شيء .

واقرأ القرآن بتبصر تجد قوله الحق : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق : 4]

وهكذا يبيّن لنا الحق أن العناصر كلها موجودة في الكون ، قد تزيد في مخلوق عن الآخر ، لكن المجموع الكلي لكل العناصر ثابت ، وإذا كان العلم قد توصل إلى أن هناك ستة عشر عنصراً تكوّن الكائنات ، فهذه العناصر ثابتة الكمية ، وإن اكتشفوا زيادة في عددها ، فالزيادة في عدد العناصر ستكون أيضاً ثابتة الكَمّ لكل عنصر .

وقال العلماء : إن الستة عشر عنصراً هي : الأوكسوجين ، والكربون ، والهيدروجين ، والنتروجين ، والمغنيسيوم ، والبوتاسيوم ، والصوديوم ، وغيرها .

كل هذه العناصر تعود إلى أصلها بعد أن تموت الكائنات وتتحلل .

هكذا يصدق قول الحق : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق : 4]

وقد حاول بعض الفلاسفة أن يعترضوا اعتراضاً ثانياً وقالوا : هي أن إنساناً مات ، ثم تحللت عناصره في الأرض . ألا تذهب عناصره إلى كائنات أخرى ، مثل شجرة أنتجت ثمرة أو غير ذلك ، ثم أكلها إنسان آخر ، فدخلت في أجزائه ، إذن : فمن مات ونشأت على أنقاضه ثمرة ، أو غير ذلك ، ودخلت المكونات في إنسان آخر ، فكيف يبعث الله كلَّ إنسان من جديد ؟

ونقول : أنت عرفت شيئاً ، وغابت عنك أشياء .

انظر مثلاً إلى السِّمنة والنحافة كظاهرة موجودة في الناس وتراها كل يوم ، ومعنى السمنة أن كمية من مادة معينة تزيد في الإنسان السمين أكثر من مادة الإنسان الآخر النحيف . وقد يطرأ على السمين ما يجعله نحيفاً أو العكس .

فهل هذا يغيِّر من شخصيته ؟ طبعاً لا ، وهكذا نجد فارقاً بين المشخصات وبين تكوين المشخصات من العناصر .

وما دام الحق سبحانه قد أعلمنا أنه لا شيء ينقص من الأرض إلا بمقدار مكونات الكائنات الموجودة عليها ، فالعناصر التي في الأرض تكفي كل الكائنات ، ويوزعها سبحانه بالنسب اللازمة ، وأنت إن جمعت هذه العناصر فستجدها ثابتة الكم وإن اختلفت في كيفية تكوين الكائنات .

(136/357)

مثال ذلك : أنك تجد إنساناً وزنه مائة كيلو جرام ، ويمرض ؛ فيهزل وينقص وزنه إلى سبعين كيلو جراما ، ومعنى ذلك أن الثلاثين كيلو جراما الأخرى ذهبت إلى الأرض ، فلكل جسم قاعدة يقف عندها الوزن إلى سن معينة ، وتُعتبر هذه هي القاعدة التي يزيد فوقها الوزن ، أو يقل عنها حسب ظروف التغذية والصحة .

وأنت ترى الطفل يفرز أقل مما يتناول من الغذاء ؛ حتى ينمو ، ولو كان يُخرج إفرازات تساوي – في الكمية – ما يأكل ويشرب لَمَا كبر . ومن بعد ذلك يكبر إلى أن يصل إلى وزن ثابت تقريباً ، فتخرج منه إفرازات تساوي ما يدخل إليه ، ثم تأتي الشيخوخة فيخف الوزن ، وهذا يعني أن ما يخرج منه أكثر مما يدخل إليه ؛ فتنشأ النحافة .

وهَبْ أن طبيباً حاذقاً استطاع أن يعلم الداء الذي يسبب إصابة مريض ما بالهزال ، وأعطاه من الدواء ما جعله يسترد عافيته ، ومعها ما فُقد من الوزن ، وتتحسن تغذية هذا المريض أثناء فترة العلاج ، فهل تتغير شخصية هذا المريض ؟ طبعاً لا ؛ لأن ما خرج منه أثناء الهزال ذهب إلى الأرض ، ثم استرد مثله من الأغذية أثناء الشفاء .

إذن : فلا تقل : إن هناك شيئاً نقص ، فعند الله كتاب حفيظ فيه مكونات كل الكون ، ويأتي بعناصر معينة ، ويأمرها ب "كن " فتكون إنساناً ، أو تكون كائناً آخر حسب مشيئة الله سبحانه .

وإذا كنا نتحدث الآن كيميائياً فنحن نتكلم بذلك ؛ ليثبت عقديّياً وعقليّاً ؛ لأننا آمنا بأن هناك منهجاً من المكلِّف ، والمنهج عُرْضة لأن يطاع أو يعصى ، ومَنْ يُطع الله في المنهج ، فهو يحدد حريته ، والذي لم يُطع الله واستسلم للضياع فهو الخاسر ؛ لأن منطق العقل يؤكد أن من يأخذ المنهج ويلتزم به ويكبح شهواته ؛ لا يمكن أن يستوي مع من عبث ، ولا بد أن يفترض

منطق العقل أن يوجد بعث يجازي بالطيبات مَنْ سار على المنهج ، ويعاقب مَنْ خرج على المنهج .

(137/357)

وما دام قد وجد إله ، ووجد بلاغ عن الله بواسطة الرسل ، ووجد تكليف ب " افعل " و " لا تفعل " ، ووجدت طاعة للتكليف ، ومعصية للتكليف ، إذن : لا بد بعد هذه الحياة من بعث ، ويأخذ من أحسَنَ جزاءه ، وينال مَنْ أساء عقابه ؛ ولذلك قال الحق :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات بالقسط .

. . ﴾ [يونس : 4]

جاء هذا القول مطمئناً الملتزمين بالمنهج بأن هناك بعثاً وحساباً ؛ لأن المؤمن المطيع لا بد أن ينال حسن الثواب ، وأن ينال العاصي الشرير الذي شقيت الدنيا كلها بعصيانه العقاب ، ولذلك لا بد من الإعادة ؛ ليجزي الله كل واحد بعمله بالقسط . والقسط – كما أوضحنا من قبل – معناه العدل ، والمادة هي القاف والسين والطاء . ننطقها مرة " القسط " بكسر القاف . وننطقها مرة أخرى " القسط " بفتح القاف والقسط " بالكسر " هو العدل ؛

والقسط " بالفتح " هو الظلم ، ولذلك نجد قوله الحق : ﴿ وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ [الجن : 15]

والمقصود بالقاسطين : الجائرون على حقوق غيرهم .

ونجد قوله الحق : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فاحكم بَيْنَهُمْ بالقسط إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ﴾ [المائدة : 42]

والمقْسِطون : هم العادلون بين الناس .

إذن : فهناك " قِسْط " و " قَسْط " ، وهناك شيء اسمه " قَسَط " بالفتحتين وهو الانحراف في الرِّجلين . إلا أن المستعمل في كلمة " قِسْط " هنا مقصود به العدل ، واسم الفاعل منها " قاسط " واستعملت في الجوْر . وهي مأخوذة من القَسْط لا من القِسْط ، وتجد من أسماء الله " المُقْسِط " ، ولم يصف نفسه بالقاسط بمعنى العادل ، أي : ابتدأ بالعدل أولاً ، وشاء سبحانه فوصف نفسه بالمُقْسِط ، لأنه هو الذي يرفع الجور فيحقق العدل .

(138/357)

وفي الآية التي نحن بصددها يقول الحق سبحانه : ﴿ لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات بالقسط ﴾ أي : جزاء منه بالعدل ، وأيضاً يمكن أن نقول : إنه سبحانه يجزيهم ؛ لأنهم

عدلوا في العقيدة ؛ لأن القرآن الحكيم – كما نعلم – جاء حاكماً وفيصلاً بين قضايا العقائد وقضايا الاختيار في الأفعال وقضايا الأخلاق ، وهؤلاء قد أخذوا المنهج بدون ظلم لله فلك يشركوا به أحداً ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13]

إذن : فهم بعدلهم وبقسطهم في أمر العقيدة وأنهم لم يرتكبوا إثم الشرك الذي هو ظلم عظيم ؛ وبذلك لم يظلموا أنفسهم أيضاً ، ولم يأخذ واحد منهم لنفسه متعة عاجلة ؛ لذلك أنقذهم الله من الشقاء الأبدي الطويل ، وهم لم يظلموا الناس . ولكل ما تقدم لا بد أن يجزيهم الله على العمل الصالح بسبب عدلهم وقسطهم .

وقد يقال : إن الجزاء بالقسط لا زيادة فيه ولا نقصان ، فإذا كان الجزاء من الله ، فالعدل على مقتضى التشريع أن تكون الحسنة بعشر أمثالها ، ويضاعف سبحانه لمن شاء ، هذا هو عدل الله بالتشريع . أو أن الجزاء يُعطى بلا زيادة ولا نقصان جزاء العدل ، ولكن ذلك لم يحدد الفضل في هذه الآية .

ولذلك حدث إشكال بين علماء الكلام في قول الله سبحانه : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ [النجم : 39]

فقال بعضهم : إذا كان الإنسان لا يأخذ إلا جزاء ما سعى ، فكيف يُجزى جزاء على الحسنة بعشر أمثالها ؟ وكذلك ماذا عن صلاة الجنازة ؟ وهل ينتفع بها الميت حين ندعو له

بالمغفرة؟ وإن كان الإنسان لا يأخذ إلا ما سعى فلن ينتفع بها الميت ، فلماذا كلفنا الحق سبحانه بصلاة الجنازة كفرض كفاية ، لا فرض عين ؟

(139/357)

ونقول : إن وجود اللام في قوله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ ﴾ يفيد الملْك ، أي : الحق ، والآية تعطي الحق ولكنها لم تمنع الفضل ، أو نقول : هل نصلي على كل ميت ؟ نحن نصلي على الميت المؤمن ، والإيمان من عمله ، وهو يُجَازي بصلاتنا عليه ، أي : جزاء عمله .

ويقول سبحانه : ﴿ والذين كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ وهكذا نعرف أن العذاب الأليم قد جاء لهم بسبب الكفر ، مثلما يجيء الجزاء على الأعمال الصالحة للمقابل لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح .

إذن : فالقسط هنا تعود على قسط الله ، وهو العدل ، وكذلك قسطهم هم ؛ لأنهم حكموا في الربوبية بالعدل . أما الكافرون ، فالعدل معهم أن يذيقهم الله شراباً من حميم بما كانوا يكفرون ، وهذا ما يرجح أن القسط هنا هو قسطهم هم .

وكلمة ﴿ حَمِيمٍ ﴾ مأخوذة من مادة " الحاء " و " الميم " و " الميم " وهي مادة كل موارد معانيها فيها الحرارة والسخونة .

والحق سبحانه يقول في آية أخرى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الوجوه . . . ﴾ [الكهف : 29]

و﴿ كالمهل ﴾ أي : أنه يغلي ، وحين تكون المادة من غير الماء ، فدرجة حرارتها أثناء الغليان تكون أعلى من درجة حرارة غليان الماء ؛ فالنحاس مثلاً حين يغلي تكون درجته أعلى من درجة غليان الماء ، وكذلك الحديد والذهب وغيرها ، وسبحانه يقول : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم * طَعَامُ الأثيم * كالمهل يَغْلِي فِي البطون * كَغَلْيِ الحميم ﴾ [الدخان : 43-46]

إذن : فدرجة غليان المهل أعلى من درجة غليان الماء ، والمادة كلها تفيد الحرارة .

(140/357)

وإن نظرنا إلى كلمة " حمّام " و " استحم " ، فهي تعني أن الماء حين ينزل على البدن يكون له ثلاث صور : الصورة الأولى مسح ، والصورة الثانية غسل ، والصورة الثالثة استحمام .

والمسح أن تبل الشيء بالماء بدون أن يقطر منه شيء ، والغسل أن تُسَيِّل الماء من الجسد المغسول ، والاستحمام أيضاً فيه سيولة للماء . والغسل للتطهير ، لكن الاستحمام للتنظيف ، فإن أحدثت فأنت تقوم لتتوضأ . ﴿ فاغسلوا وُجُوهَكُمْ . . . ﴾ [المائدة

[6 :

تنفيذاً لأمر الله وهو غسل التطهير ، ويقوم مقامه التراب في حالة عدم وجود الماء وهو التيمم . أما إذا كانت المسألة تنظيفاً فهي تحتاج إلى الاستحمام ؛ لأن مسام الإنسان لها إفرازات قد تكون دهنية ، وبعد ذلك تطرأ عليها أتربة تسدها ، وهذه المسام أبعاض من الإنسان وأبعاض من تراب طاهر جاء على الجسم ، وهي لا تنسجه ، فإن اغتسلت فيكفي أن تصب الماء على الجسم ، ولو بقي بعض من ذرات التراب على البدن فهذا لا يمنع الطهارة ، لكن حين يستحم الإنسان فهو يأتي بماء حار ؛ ليذيب القذارة وينقّي المسام ، وتخرج بعض الأتربة ومعها الخلايا الجلدية الميتة وكأنها خيوط رفيعة .

إذن : هناك فرق بين الغَسْل وهو للتطهير ؛ وبين الاستحمام الذي هو للنظافة . ونأخذ منه الحمام ، إذن : مادة الحاء والميم والميم فيها الحرارة وفيها السخونة .

ويقول الحق هنا : ﴿ والذين كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ ، وكلمة ﴿ شَرَابٌ ﴾ تفيد الارتواء ، فلماذا جاء بها الله هنا ؟ إنها تصعيد للعذاب ؛ لأن الإنسان يرغب في الشراب ليرطّب جوفه ، فإذا ألهبه ما يشرب ، فهذا أكثر إيلاماً مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه بِئْسَ الشراب . . . ﴾ [الكهف : 29]

وحين تسمع هذه الآية تجد انبساط الأمل في صدر الآية ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ ﴾ وهم يستشرفون للنجاة ، ثم يأتيهم غوث من لون يناسب ما اقترفوه من ذنوب ﴿ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل ﴾ .

إذن : ف ﴿ والذين كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ أي : بسبب كفرهم . وعرفنا أنهم كفروا بالقضايا العقدية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(142/357)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعْدَ الله ﴾ : منصوبٌ على المصدر المؤكِّدِ ، لأنَّ معنى " إليه مَرْجِعُكُمْ " : وَعَدَكم بذلك .

وقوله : ﴿ حَقّاً ﴾ مصدرٌ آخرُ مؤكِّدٌ لمعنى هذا الوعد ، وناصبُه مضمر ، أي : أَحُقُّ

ذلك حقاً . وقيل : انتصب " حقاً " ب " وَعْدَ " على تقدير " في " ، أي : وَعْدَ الله في حق ، يعني على التشبيه بالظرف . وقال الأخفش الصغير : " التقدير : وقتَ حق " وأنشد :

2566 أحقاً عبادَ الله أنْ لَسْتُ ذاهباً . . . ولا واِلجاً إلا عليَّ رقيبُ

قوله : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ ﴾ الجمهورُ على كسر الهمزة للاستئناف . وقرأ عبد الله وابن القعقاع والأعمش وسهل بن شعيب بفتحها . وفيها تأويلاتٌ ، أحدها : أن تكونَ فاعلاً بما نصب " حقاً " ، أي : حَقَّ حَقّاً بَدْءُ الخلق ، ثم إعادتُه ، كقوله :

2567 أحقاً عبادَ الله أَنْ لستُ جائِياً . . . . . .

. . . . . .

البيت . وهو مذهبُ الفراء فإنه قال : " والتقدير : يحقُّ أنه يبدأ الخلق . الثاني : أنه منصوبٌ بالفعل الذي نَصَبَ " وعد الله " أي : وَعَدَ الله تعالى بَدْءَ الخلق ثم إعادتَه ، والمعنى إعادة الخلق بعد بَدْئه . الثالث : أنه على حَذْف لام الجر أي : لأنه ، ذكر هذا الأوجهَ الثلاثة الزمخشري وغيره . الرابع : أنه بدلٌ من " وَعْدَ الله " قاله ابن عطية . الخامس : أنه مرفوعٌ بنفس " حقاً " أي : بالمصدر المنون ، وهذا إنما يتأتى على جَعْل " حقاً " غيرَ مؤكدٍ ؛ لأنَّ المصدر المؤكدَ لا عملَ له إلا إذا ناب عن فعلِه ، وفيه بحثٌ . السادس : أن يكونَ " حقاً " مشبهاً بالظرف خبراً مقدماً و " أنَّه " في محلِّ رفعٍ مبتدأً مؤخراً كقولهم : أحقاً أنك ذاهب قالوا : تقديره : أفي حقٍ ذهابك .

وقرأ ابن أبي عبلة : " حَقٌّ أنه " برفع [حق] وفتح " أنَّ " على الابتداء والخبر . قال الشيخ : " وكونُ " حق " خبرَ مبتدأ ، و " أنه " هو المبتدأ هو الوجه في الإعراب ، كما تقول : " صحيحٌ أنك تخرج " لأن [اسم] " أنَّ " / معرفة ، والذي تقدَّمها في هذا المثال نكرة " .

قلت : فظاهرُ هذه العبارةِ يُشعر بجواز العكس ، وهذا قد ورد في باب " إنَّ " كقوله :

2568 وإن حراماً أن أَسُبَّ مُجاشعاً . . . بآبائيَ الشُّمِّ الكرامِ الخَضَارِمِ

وقوله :

2569 وإن شفاءً عَبْرَةٌ أَنْ سَفَحْتُها وهل عند رسمٍ دارسٍ مِنْ مُعَوَّل . . . على جَعْل " أنْ سفحتُها " بدلاً من " عبرة " . وقد أخبر في " كان " عن نكرةٍ بمعرفةٍ كقوله :

2570 . . . . . ولا يكُ موقفٌ منكِ الوَدَاعا

وقوله :

2571 . . . . . يكون مزاجَها عَسَلٌ وماءُ

وقال مكي : " وأجاز الفراء رفع " وعد " ، يجعله خبراً ل " مرجعكم " .

وأجاز رفعَ "وعد" و "حق" على الابتداء والخبر، وهو حسنٌ، ولم يقرأ به أحد".

قلت: نعم لم يرفع وعد وحق معاً أحد، وأمَّا رفعُ "حق" وحده فقد تقدم أن ابن أبي عبلة قرأه، وتقدَّم توجيهُه. ولا يجوز أن يكون "وعدَ الله" عاملاً في "أنه" لأنه قد وُصِف بقوله "حقاً" قاله أبو الفتح.

وقرىء "وَعَدَ اللَّهُ" بلفظ الفعل الماضي ورفعِ الجلالة فاعلةً، وعلى هذه يكون "أنه يَبْدَأ" معمولاً له إنْ كان هذا القارىءُ يفتح "أنه".

والجمهور على "يَبْدأُ" بفتح الياء مِنْ بدأ، وابن أبي طلحة "يُبْدِىء" مِنْ أَبْدأ، وبَدَأ وأبدأ بمعنى.

قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلق بقوله "ثم يُعيده"، و "بالقسطِ" متعلقٌ ب "يَجْزي".

ويجوز أن يكونَ حالاً: إمَّا من الفاعلِ أو المفعول أي: يَجْزيهم ملتبساً بالقسط أو ملتبسين به. والقِسْط: العدل.

(144/357)

قوله: ﴿والذين كَفَرُواْ﴾ يحتمل وجهين، أحدهما: أن يكون مرفوعاً بالابتداء، والجملةُ بعده [خبره]. الثاني: أن يكون منصوباً عطفاً على الموصول قبلَه، وتكونُ الجملةُ بعده

مبيّنَةً لجزائهم . و " شراب " [يجوز أَنْ] يكونَ فاعلاً ، وأن يكون مبتدأ ، [والأول أُولى] .

قوله : ﴿ بِمَا كَانُواْ ﴾ الظاهرُ تعلُّقُه بالاستقرار المضمر في الجارِّ الواقع خبراً ، والتقدير : استقر لهم شراب من جهنم وعذاب أليم بما كانوا . وجَوَّز أبو البقاء فيه وجهين ولم يذكر غيرهما الأول : أن يكونَ صفةً أخرى ل " عذاب " . والثاني : أن يكونَ خبر مبتدأ محذوف ، وهذا لا معنى له ولا حاجةَ إلى العُدول عن الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 148 . 151 ﴾

(145/357)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ﴾

الرجوع يقتضي ابتداء الأرواح قبل حصولها في الأشباح ، فإن لها في مواطن التسبيح والتقديس إقامة ، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقدومه أثر عند مُحبِّيه وذويه ، كما قيل :

أيا قداماً من سَفْرةِ الهجر مرحباً . . . أناديك لا أنساك ما هبَّت الصِّبا

ويقال المطيع إذا رجع إلى الله فله الزُّلفى ، والثواب والحسنى ، والعاصي إذا رجع إلى ربِّه فَبَنَعْتِ الإفلاس وخسران الطريق ؛ فيتلقى لباس الغفران ، وحُلَةَ الصفح والأمان ، فرحمةُ مولاه خيرٌ له من نُسْكِه وتقواه .

قوله : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ : موعودُ المطيع الفرادِيسُ العَلَى ، وموعودُ العاصي الرحمة والرِّضى . والجنَّةُ لُطْفُ الحقِّ والرَّحمةُ وصفُ الحق ؛ فاللُّطفُ فِعْلٌ لم يكن ثم حصل ، والنَّعْتُ لم يزل .

قوله : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ : مَنْ كان له في جميع عمره نَفَسٌ على وصفِ ما ابتدأَ الحقُّ سبحانه به ففي الإشارة : تكون لذلك إعادة ، وأنشدوا :

كلُّ نَهْرٍ فيه ماءٌ قد جَرَى . . . فإليه الماءُ يوماً سيعودُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 79 ﴾

(146/357)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

قوله : ﴿ الر ﴾ قد تقدّم الكلام مستوفى على هذه الحروف الواقعة في أوائل السور في أوّل سورة البقرة ، فلا نعيده .

ففيه ما يغني عن الإعادة .

وقد قرأ بالإمالة أبو عمرو ، وحمزة ، وخلف ، وغيرهم .

وقرأ جماعة من غير إمالة .

وقد قيل : إن معنى ﴿ الر ﴾ أنا الله أرى .

قال النحاس : ورأيت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول ، لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب ، وأنشد :

بالخير خيرات وإن شرا فا . . . أي : وإن شرّاً فشرّ .

وقال الحسن وعكرمة : ﴿ الر ﴾ قسم ، وقال سعيد عن قتادة : ﴿ الر ﴾ اسم للسورة .

وقيل : غير ذلك مما فيه تكلف لعلم ما استأثر الله بعلمه ، وقد اتفق القراء على أن ﴿ الر ﴾ ليس بآية .

وعلى أن ﴿ طه ﴾ آية ، وفي مقنع أبي عمرو الداني ، أن العادّين لطه آية هم : الكوفيون فقط ، قيل : ولعل الفرق أن ﴿ الرا ﴾ لا يشاكل مقاطع الآي التي بعده .

والإشارة بقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ إلى ما تضمنته السورة من الآيات ، والتبعيد للتعظيم ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره ما بعده .

وقال مجاهد وقتادة : أراد التوراة والإنجيل وسائر الكتب المتقدمة ، فإن تلك إشارة إلى غائب مؤنث ، وقيل : ﴿ تِلْكَ ﴾ بمعنى هذه : أي هذه آيات الكتاب الحكيم ، وهو القرآن ، ويؤيد كون الإشارة إلى القرآن أنه لم يجر للكتب المتقدمة ذكر ، وأن الحكيم من صفات القرآن لا من صفات غيره ، و ﴿ الحكيم ﴾ المحكم بالحلال والحرام ، والحدود والأحكام ، قاله أبو عبيدة وغيره .

وقيل : الحكيم معناه : الحاكم ، فهو فعيل بمعنى : فاعل ، كقوله : ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكتاب بالحق لِيَحْكُمَ بَيْنَ الناس فِيمَا اختلفوا فِيهِ ﴾ [البقرة : 213] .

وقيل : الحكيم بمعنى المحكوم فيه ، فهو فعيل بمعنى مفعول ، أي حكم الله فيه بالعدل والإحسان ، قاله الحسن وغيره .

وقيل : الحكيم ذو الحكمة ، لاشتماله عليها .

(147/357)

والاستفهام في قوله : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ لإنكار العجب مع ما يفيده من التقريع والتوبيخ ، واسم كان ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾ وخبرها ﴿ عَجَبًا ﴾ أي : أكان إيحاؤنا عجباً للناس .

وقرأ ابن مسعود "عجب" على أنه اسم كان ، على أن كان تامة ، و ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾ بدل من عجب .

وقرىء بإسكان الجيم من ﴿ رجل ﴾ في قوله : ﴿ إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ أي : من جنسهم ، وليس في هذا الإيحاء إلى رجل من جنسهم ما يقتضى العجب ، فإنه لا يلابس الجنس ويرشده ويخبره عن الله سبحانه ، إلا من كان من جنسه ، ولو كان من غير جنسهم لكان من الملائكة ، أو من الجنّ ، ويتعذر المقصود حينئذ من الإرسال ؛ لأنهم لا يأنسون إليه ، ولا يشاهدونه .

ولو فرضنا تشكله لهم وظهوره ، فإما أن يظهر في غير شكل النوع الإنساني ، وذلك أوحش لقلوبهم وأبعد من أنسهم ، أو في الشكل الإنساني ، فلا بدّ من إنكارهم لكونه في الأصل غير إنسان ، هذا إن كان العجب منهم لكونه من جنسهم ، وإن كان لكونه يتيماً أو فقيراً .

فذلك لا يمنع من أن يكون من كان كذلك جامعاً من خصال الخير والشرف ما لا يجمعه غيره ، وبالغاً في كمال الصفات إلى حدّ يقصّر عنه من كان غنياً ، أو كان غير يتيم .

وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يصطفيه الله بإرساله من خصال الكمال

عند قريش ما هو أشهر من الشمس ، وأظهر من النهار ، حتى كانوا يسمونه الأمين .

قوله : ﴿ أَنْ أَنذِرِ الناس ﴾ في موضع نصب بنزع الخافض ، أي بأن أنذر الناس .

وقيل : هي المفسرة لأن في الإيحاء معنى القول ، وقيل : هي المخففة من الثقيلة ، قوله : ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ أي : منزل صدق ، وقال الزجاج : درجة عالية ، ومنه قول ذي الرمة :

لكم قدم لا ينكر الناس أنها . . . مع الحسب العالي طمت على البحر

وقال ابن الأعرابي : القدم المتقدّم في الشرف .

(148/357)

وقال أبو عبيدة والكسائي : كل سابق من خير أو شر ، فهو عند العرب قدم ، يقال : لفلان قدم في الإسلام ، وله عندي قدم صدق ، وقدم خير ، وقدم شرّ ، ومنه قول العجاج :

زلّ بنو العوام عند آل الحكم . . . وتركوا الملك لملك ذي قدم

وقال ثعلب : القدم كل ما قدمت من خير ، وقال ابن الأنباري : القدم كناية عن العمل الذي لا يقع فيه تأخير ، ولا إبطاء .

وقال قتادة : سلف صدق .

وقال الربيع : ثواب صدق ، وقال الحسن : هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال الحكيم

الترمذي : قدمه صلى الله عليه وسلم في المقام المحمود ، وقال مقاتل : أعمالاً قدّموها واختاره ابن جرير ، ومنه قول الوضاح :

صلِّ لذي العرش واتخذ قوما . . . ينجيك يوم الخصام والزلل

وقيل : غير ما تقدّم مما لا حاجة إلى التطويل بإيراده .

قوله : ﴿ قَالَ الكافرون إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف ، والأعمش ، وابن محيصن : ﴿ لساحر ﴾ على أنهم أرادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم الإشارة .

وقرأ الباقون "لسحر" على أنهم أرادوا القرآن ، وقد تقدّم معنى السحر في البقرة .

وجملة : ﴿ قَالَ الكافرون ﴾ مستأنفة كأنه قيل : ماذا صنعوا بعد التعجب ؛ وقال القفال : فيه إضمار .

والتقدير : فلما أنذرهم قال الكافرون ذلك .

ثم إن الله سبحانه جاء بكلام يبطل به العجب الذي حصل للكفار من الإيحاء إلى رجل منهم ، فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أي : من كان له هذا الاقتدار العظيم الذي تضيق العقول عن تصوّره ، كيف يكون إرساله لرسول إلى الناس من جنسهم محلاً للتعجب مع كون الكفار يعترفون بذلك ، فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة بهذا الرسول ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية في الأعراف في قوله :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذى خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ [الأعراف : 54] فلا نعيده هنا ، ثم ذكر ما يدل على مزيد قدرته وعظيم شأنه فقال : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ وترك العاطف ، لأن جملة ﴿ يدبر ﴾ كالتفسير والتفصيل ، لما قبلها ، وقيل : هي في محل نصب على الحال من ضمير استوى .

وقيل : مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، وأصل التدبير النظر في أدبار الأمور وعواقبها ؛ لتقع على الوجه المقبول .

وقال مجاهد : يقضيه ويقدّره وحده ، وقيل : يبعث الأمر ، وقيل : ينزل الأمر ، وقيل : يأمر به ويمضيه ، والمعنى متقارب ، واشتقاقه من الدبر ، والأمر الشأن ، وهو أحوال ملكوت السموات والأرض ، والعرش ، وسائر الخلق .

قال الزجاج : إن الكفار الذين خوطبوا بهذه الآية كانوا يقولون إن الأصنام شفعاؤنا عند الله ، فردّ الله عليهم بأنه ليس لأحد أن يشفع إليه في شيء إلا بعد إذنه ، لأنه أعلم بموضع الحكمة والصواب .

وقد تقدّم معنى الشفاعة في البقرة ، وفي هذا بيان لاستبداده بالأمور في كل شيء سبحانه

وتعالى ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ إلى فاعل هذه الأشياء من الخلق والتدبير : أي الذي فعل هذه الأشياء العظيمة ﴿ اللهُ رَبُّكُمُ ﴾ واسم الإشارة مبتدأ ، وخبره : الاسم الشريف ، و ﴿ ربكم ﴾ : بدل منه ، أو بيان له ، أو خبر ثان ، وفي هذه الجملة زيادة تأكيد لقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ ثم أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن بين لهم أنه الحقيق بها دون غيره لبديع صنعه وعظيم اقتداره .

فكيف يعبدون الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر ، ولا تنفع ولا تضر ؟ والاستفهام في قوله : ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ للإنكار ، والتوبيخ ، والتقريع ؛ لأن من له أدنى تذكر ، وأقلّ اعتبار ، يعلم بهذا ولا يخفى عليه .

(150/357)

ثم بيّن لهم ما يكون آخر أمرهم بعد الحياة الدنيا ، فقال : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ وفي هذا من التهديد والتخويف ما لا يخفى ، وانتصاب : ﴿ وَعَدَ اللهِ ﴾ على المصدر ؛ لأن في قوله : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ معنى الوعد أو هو منصوب بفعل مقدر ، والمراد بالمرجع الرجوع إليه سبحانه : إما بالموت ، أو بالبعث ، أو بكل واحد منهما ، ثم أكد ذلك الوعد بقوله : ﴿ حَقّاً ﴾ فهو تأكيد لتأكيد ، فيكون في الكلام من الوكادة ما هو الغاية في

ذلك .

وقرأ ابن أبي عبلة " وَعْدَ اللهِ حَقٌّ " على الاستئناف ، ثم علل سبحانه ما تقدّم بقوله : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أي : إن هذا شأنه يبتدىء خلقه من التراب ثم يعيده إلى التراب ، أو معنى الإعادة الجزاء يوم القيامة .

قال مجاهد : ينشئه ثم يميته ، ثم يحييه للبعث ؛ وقيل ينشئه من الماء ثم يعيده من حال إلى حال .

وقرأ يزيد بن القعقاع : أنه يبدأ الخلق بفتح الهمزة ، فتكون الجملة في وضع نصب بما نصب به وعد الله : أي وعدكم أنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، ويجوز أن يكون التقدير لأنه يبدأ الخلق ، وأجاز الفراء أن تكون "أن" في موضع رفع ، فتكون اسماً .

(151/357)

قال أحمد بن يحيى بن ثعلب يكون التقدير حقاً إبداؤه الخلق ، ثم ذكر غاية ما يترتب على الإعادة فقال : ﴿ لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات بالقسط ﴾ أي : بالعدل الذي لا جور فيه ﴿ والذين كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ يحتمل أن يكون الموصول الآخر معطوفاً على الموصول الأوّل : أي ليجزي الذين آمنوا ، ويجزي

الذين كفروا ، وتكون جملة : ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ في محل نصب على الحال ، هي وما عطف عليها : أي وعذاب أليم ، ويكون التقدير هكذا ، ويجزي الذين كفروا حال كون لهم هذا الشراب وهذا العذاب ، ولكن يشكل على ذلك أن هذا الشراب وهذا العذاب الأليم هما من الجزاء ، ويمكن أن يقال : إن الموصول في ﴿ والذين كَفَرُواْ ﴾ مبتدأ وما بعده خبره ، فلا يكون معطوفاً على الموصول الأوّل ، والباء في ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ للسببية : أي بسبب كفرهم ، والحميم : الماء الحار ، وكل مسخن عند العرب ، فهو حميم .

وقد أخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ الر ﴾ قال : فواتح [السور] أسماء من أسماء الله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، وابن النجار في تاريخه ، عنه ، قال : في قوله : ﴿ الر ﴾ أنا الله أرى .

وأخرج ابن المنذر ، عن سعيد بن جبير ، مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الضحاك ، مثله أيضاً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي مالك ، في قوله : ﴿ تِلْكَ ءايات الكتاب ﴾ قال : يعني هذه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ تِلْكَ ءايات الكتاب ﴾ قال : الكتب التي خلت قبل القرآن .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، قال : لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد ، فأنزل الله : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ الآية ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ الآية [النحل : 43] ، فلما كرّر الله سبحانه عليهم الحجج قالوا : وإذا كان بشراً ، فغير محمد كان أحق بالرسالة .

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] يقول : أشرف من محمد ، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة ، ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف ، فأنزل الله ردّاً عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : 32] الآية .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عنه ، في قوله : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ قال : ما سبق لهم من السعادة في الذكر الأوّل .

وأخرج ابن جرير ، عنه ، أيضاً قال : أجراً حسناً بما قدّموا من أعمالهم .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن مسعود ، قال : القدم هو العمل الذي قدموا .

قال الله سبحانه : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَارَهُمْ ﴾ [ياس : 12] .

والآثار : ممشاهم .

قال : مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أسطوانتين من مسجدهم ثم قال : هذا أثر مكتوب .

وأخرج ابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري ، في قوله : ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم يشفع لهم .

وأخرج ابن مردويه ، عن عليّ بن أبي طالب مثله .

وأخرج الحاكم ، وصححه ، عن أبيّ بن كعب ، قال : سلف صدق .

والروايات عن التابعين وغيرهم في هذا كثيرة ، وقد قدّمنا أكثرها .

(153/357)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ قال : يقضيه وحده ، وفي قوله : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ قال : يحييه ثم يميته ثم يحييه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم شرع سبحانه يقرر أمر بدئه للخلق وإعادته في سياق مذكر بالنعم التي يجب شكرها ، ويسمى المعرض عن شكره كافراً فقال : ﴿ هو ﴾ أي غيره ﴿ الذي جعل ﴾ أي بما هيأ من الأسباب ﴿ الشمس ﴾ .

ولما كان النور كيفية قابلة للشدة والضعف ، خالف سبحانه في الأسماء مما يدل على ذلك فقال نور الشمس : ﴿ ضياء ﴾ أي ذات نور قوي ساطع وقدرها منازل ، هكذا التقدير ، لكن لما كانت في تقلبها بطيئة بالنسبة إلى القمر ذكره دونها فقال : ﴿ والقمر ﴾ أي وجعل القمر ﴿ نوراً ﴾ أي ذا نور من نورها ﴿ وقدره ﴾ أي وزاده عليها بأن قدره مسيرة ﴿ منازل ﴾ سريعاً يقلبه فيها ، وباختلاف حاله في زيادة نوره ونقصانه تختلف أحوال الرطوبات والحرارات التي دبر الله بها هذا الوجود – إلى غير ذلك من الأسرار التي هي فرع

وجود الليل والنهار ﴿ لتعلموا ﴾ بذلك علماً سهلاً ﴿ عدد السنين ﴾ أي المنقسمة إلى الفصول الأربعة وما يتصل بذلك من الشهور وغيرها ليمكن لكم تدبير المعاش في أحوال الفصول وغيرها ﴿ والحساب ﴾ أي غير ذلك مما يدل على بعض تدبيره سبحانه .

ولما كان ذلك مشاهداً لا مرية فيه ، وصل به قوله : ﴿ ما خلق الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العظيم جداً ﴿ إلا بالحق ﴾ أي خلقاً ملتبساً بالحق الكامل في الحقية لا مرية فيه ، فعلم أنه قادر على إيجاد الساعة كذلك إذ لا فرق ، وإذا كان خلقه كذلك فكيف يكون أمره الناشىء عنه الخلق غير الخلق بأن يكون من السحر الذي مبناه على التمويه والتخييل الذي هو عين الباطل ، أو ما خلقه إلا بسبب إظهار الحق من العدل بين العباد بإعزاز الطائع وإذلال العاصي ، فإنه لا نعيم كالانتصار على المعادي والانتقام من المشانىء ، والجعل : وجود ما به يكون الشيء على صفة لم يكن عليها ، والشمس : جسم عظيم النور فإنه يكون ضياء النهار ؛ والقمر : جسم نير يبسط نوره على جميع الظاهر من الأرض ويكسفه نور الشمس ؛ والنور : شعاع فيه ما ينافي الظلام ؛ والحساب : عدد يحصل به مقدار الشيء من غيره .

(155/357)

ولما كان النظر في هذه الآيات من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى كثير من الاتصاف بقابلية العلم ، ختم الآية بقوله : ﴿ يفصل ﴾ أي الله في قراءة ابن كثير وأبي عمرو وحفص عن عاصم بالياء التحتية ، وبالالتفات إلى أسلوب العظمة تعظيماً للبيان في قراءة الباقين بالنون ﴿ الآيات ﴾ أي يبين الدلائل الباهرة واحدة في إثر واحدة متفاصلة بياناً شافياً .

ولما كان البيان لمن لا علم له كالعدم ، قال : ﴿ لقوم ﴾ أي لهم قوة المحاولة لما يريدون ﴿ يعلمون ﴾ أي لهم هذا الوصف على سبيل التجدد والاستمرار ؛ ولما كانت لهم المعرفة التامة والنظر الثاقب في منازل القمر عدت من الجلي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 417.418 ﴾

(156/357)

فصل

قال الفخر :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل الدالة على الإلهية ، ثم فرع عليها صحة القول بالحشر والنشر ، عاد مرة أخرى إلى ذكر الدلائل الدالة على الإلهية .

واعلم أن الدلائل المتقدمة في إثبات التوحيد والإلهية هي التمسك بخلق السموات والأرض ، وهذا النوع إشارة إلى التمسك بأحوال الشمس والقمر ، وهذا النوع الأخير إشارة إلى ما يؤكد الدليل الدال على صحة الحشر والنشر ، وذلك لأنه تعالى أثبت القول بصحة الحشر والنشر ، بناء على أنه لا بد من إيصال الثواب إلى أهل الطاعة ، وإيصال العقاب إلى أهل الكفر ، وأنه يجب في الحكمة تمييز المحسن عن المسيء ، ثم إنه تعالى ذكر في هذه الآية أنه جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل ليتوصل المكلف بذلك إلى معرفة السنين والحساب ، فيمكنه ترتيب مهمات معاشه من الزراعة والحراثة ، وإعداد مهمات الشتاء والصيف ، فكأنه تعالى يقول : تمييز المحسن عن المسيء والمطيع عن العاصي ، أوجب في الحكمة من تعليم أحوال السنين والشهور .

فلما اقتضت الحكمة والرحمة خلق الشمس والقمر لهذا المهم الذي لا نفع له إلا في الدنيا . فبأن تقتضي الحكمة والرحمة تمييز المحسن عن المسيء بعد الموت ، مع أنه يقتضي النفع الأبدي والسعادة السرمدية ، كان ذلك أولى .

فلما كان الاستدلال بأحوال الشمس والقمر من الوجه المذكور في هذه الآية مما يدل على التوحيد من وجه ، وعلى صحة القول بالمعاد من الوجه الذي ذكرناه ، لا جرم ذكر الله هذا

الدليل بعد ذكر الدليل على صحة المعاد .

المسألة الثانية :

(157/357)

الاستدلال بأحوال الشمس والقمر على وجود الصانع المقدر هو أن يقال : الأجسام في ذواتها متماثلة ، وفي ماهياتها متساوية ، ومتى كان الأمر كذلك كان اختصاص جسم الشمس بضوئه الباهر وشعاعه القاهر ، واختصاص جسم القمر بنوره المخصوص لأجل الفاعل الحكيم المختار ، أما بيان أن الأجسام متماثلة في ذواتها وماهياتها ، فالدليل عليه أن الأجسام لا شك أنها متساوية في الحجمية والتحيز والجرمية ، فلو خالف بعضها بعضاً لكانت تلك المخالفة في أمر وراء الحجمية والجرمية ضرورة أن ما به المخالفة غير ما به المشاركة ، وإذا كان كذلك فنقول أن ما به حصلت المخالفة من الأجسام إما أن يكون صفة لها أو موصوفاً بها أو لا صفة لها ولا موصوفاً بها والكل باطل .

أما القسم الأول : فلأن ما به حصلت المخالفة لو كانت صفات قائمة بتلك الذوات ، فتكون الذوات في أنفسها ، مع قطع النظر عن تلك الصفات ، متساوية في تمام الماهية ، وإذا كان الأمر كذلك ، فكل ما يصح على جسم ، وجب أن يصح على كل جسم ، وذلك هو

المطلوب .

وأما القسم الثاني : وهو أن يقال : إن الذي به خالف بعض الأجسام بعضاً ، أمور موصوفة بالجسمية والتحيز والمقدار .

فنقول : هذا أيضاً باطل .

لأن ذلك الموصوف ، إما أن يكون حجماً ومتحيزاً أو لا يكون ، والأول باطل ، وإلا لزم افتقاره إلى محل آخر ، ويستمر ذلك إلى غير النهاية .

وأيضاً فعلى هذا التقدير يكون المحل مثلاً للحال ، ولم يكن كون أحدهما محلاً والآخر حالاً ، أولى من العكس ، فيلزم كون كل واحد منهما محلاً للآخر وحالاً فيه ، وذلك محال ، وأما إن كان ذلك المحل غير متحيز ، وله حجم .

فنقول : مثل هذا الشيء لا يكون له اختصاص بحيز ولا تعلق بجهة والجسم مختص بالحيز ، وحاصل في الجهة ، والشيء الذي يكون واجب الحصول في الحيز والجهة ، يمتنع أن يكون حالاً في الشيء الذي يمتنع حصوله في الحيز والجهة .

(158/357)

وأما القسم الثالث : وهو أن يقال : ما به خالف جسم جسماً ، لا حال في الجسم ولا محل له ، فهذا أيضاً باطل ، لأن على هذا التقدير يكون ذلك الشيء شيئاً مبايناً عن الجسم لا تعلق له به ، فحينئذ تكون ذوات الأجسام من حيث ذواتها متساوية في تمام الماهية ، وذلك هو المطلوب ، فثبت أن الأجسام بأسرها متساوية في تمام الماهية .

وإذا ثبت هذا فنقول : الأشياء المتساوية في تمام الماهية تكون متساوية في جميع لوازم الماهية ، فكل ما صح على بعضها وجب أن يصح على الباقي ، فلما صح على جرم الشمس اختصاصه بالضوء القاهر الباهر ، وجب أن يصح مثل ذلك الضوء القاهر على جرم القمر أيضاً ، وبالعكس .

وإذا كان كذلك ، وجب أن يكون اختصاص جرم الشمس بضوئه القاهر ، واختصاص القمر بنوره الضعيف بتخصيص مخصص وإيجاد موجد .

وتقدير مقدر وذلك هو المطلوب ، فثبت أن اختصاص الشمس بذلك الضوء بجعل جاعل ، وأن اختصاص القمر بذلك النوع من النور بجعل جاعل ، فثبت بالدليل القاطع صحة قوله سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ الشمس ضِيَاء والقمر نُوراً ﴾ وهو المطلوب .

المسألة الثالثة :

قال أبو علي الفارسي : الضياء لا يخلو من أحد أمرين إما أن يكون جمع ضوء كسوط وسياط وحوض وحياض ، أو مصدر ضاء يضوء ضياء كقولك قام قياماً ، وصام صياماً

، وعلى أي الوجهين حملته ، فالمضاف محذوف ، والمعنى جعل الشمس ذات ضياء ، والقمر ذا نور ، ويجوز أن يكون من غير ذلك لأنه لما عظم الضوء والنور فيهما جعلا نفس الضياء والنور كما يقال للرجل الكريم أنه كرم وجود .

المسألة الرابعة :

قال الواحدي : روي عن ابن كثير من طريق قنبل ﴿ ضئاء ﴾ بهمزتين وأكثر الناس على تغليطه فيه ، لأن ياء ضياء منقلبة من واو مثل ياء قيام وصيام ، فلا وجه للهمزة فيها .

(159/357)

ثم قال : وعلى البعد يجوز أن يقال قدم اللام التي هي الهمزة إلى موضع العين ، وأخر العين التي هي واو ، إلى موضع اللام ، فلما وقعت طرفاً بعد ألف زائدة انقلبت همزة ، كما انقلبت في سقاء وبابه .

والله أعلم .

المسألة الخامسة :

اعلم أن النور كيفية قابلة للأشد والأضعف ، فإن نور الصباح أضعف من النور الحاصل في أول النهار قبل طلوع الشمس ، وهو أضعف من النور الحاصل في أفنية الجدران عند طلوع

الشمس ، وهو أضعف من النور الساطع من الشمس على الجدران ، وهو أضعف من الضوء القائم بجرم الشمس ، فكمال هذه الكيفية المسماة بالضوء على ما يحس به في جرم الشمس ، وهو في الإمكان وجود مرتبة في الضوء أقوى من الكيفية القائمة بالشمس ، فهو من مواقف العقول .

واختلف الناس في أن الشعاع الفائض من الشمس هل هو جسم أو عرض ؟ والحق أنه عرض ، وهو كيفية مخصوصة ، وإذا ثبت أنه عرض فهل حدوثه في هذا العالم بتأثير قرص الشمس أو لأجل أن الله تعالى أجرى عادته بخلق هذه الكيفية في الأجرام المقابلة لقرص الشمس على سبيل العادة ، فهي مباحث عميقة ، وإنما يليق الاستقصاء فيها بعلوم المعقولات .

وإذا عرفت هذا فنقول : النور اسم لأصل هذه الكيفية ، وأما الضوء ، فهو اسم لهذه الكيفية إذا كانت كاملة تامة قوية ، والدليل عليه أنه تعالى سمى الكيفية القائمة بالشمس ﴿ الشمس ضِيَاء ﴾ والكيفية القائمة بالقمر ﴿ نُوراً ﴾ ولا شك أن الكيفية القائمة بالشمس أقوى وأكمل من الكيفية القائمة بالقمر ، وقال في موضع آخر : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ [الفرقان : 61] وقال في آية أخرى : ﴿ وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ [نوح : 16] وفي آية أخرى ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ [النبأ : 13]

المسألة السادسة :

قوله : ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ نظيره .

قوله تعالى في سورة يس : ﴿ والقمر قدرناه مَنَازِلَ ﴾ [يس : 39] وفيه وجهان :

أحدهما : أن يكون المعنى وقدر مسيره منازل .

(160/357)

والثاني : أن يكون المعنى وقدره ذا منازل .

المسألة السابعة :

الضمير في قوله : ﴿ وَقَدَّرَهُ ﴾ فيه وجهان : الأول : أنه لهما ، وإنما وحد الضمير للإيجاز ، وإلا فهو في معنى التثنية اكتفاء بالمعلوم ، لأن عدد السنين والحساب إنما يعرف بسير الشمس والقمر ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62]

والثاني : أن يكون هذا الضمير راجعاً إلى القمر وحده ، لأن بسير القمر تعرف الشهور ، وذلك لأن الشهور المعتبرة في الشريعة مبنية على رؤية الأهلة ، والسنة المعتبرة في الشريعة هي السنة القمرية ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً فِي كتاب الله ﴾ [التوبة : 36] .

المسألة الثامنة :

اعلم أن انتفاع الخلق بضوء الشمس وبنور القمر عظيم ، فالشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل .

وبحركة الشمس تنفصل السنة إلى الفصول الأربعة ، وبالفصول الأربعة تنتظم مصالح هذا العالم .

وبحركة القمر تحصل الشهور ، وباختلاف حاله في زيادة الضوء ونقصانه تختلف أحوال رطوبات هذا العالم .

وبسبب الحركة اليومية يحصل النهار والليل ، فالنهار يكون زماناً للتكسب والطلب ، والليل يكون زماناً للراحة ، وقد استقصينا في منافع الشمس والقمر في تفسير الآيات اللائقة بها فيما سلف ، وكل ذلك يدل على كثرة رحمة الله على الخلق وعظم عنايته بهم ، فإنا قد دللنا على أن الأجسام متساوية .

ومتى كان كذلك كان اختصاص كل جسم بشكله المعين ووضعه المعين ، وحيزه المعين ، وصفته المعينة ، ليس إلا بتدبير مدبر حكيم رحيم قادر قاهر .

وذلك يدل على أن جميع المنافع الحاصلة في هذا العالم بسبب حركات الأفلاك ومسير الشمس والقمر والكواكب ، ما حصل إلا بتدبير المدبر المقدر الرحيم الحكيم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

ثم إنه تعالى لما قرر هذه الدلائل ختمها بقوله : ﴿ مَا خَلَقَ اللهُ ذلك إِلاَّ بالحق ﴾ ومعناه أنه تعالى خلقه على وفق الحكمة ومطابقة المصلحة ، ونظيره قوله تعالى في آل عمران : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السموات والأرض رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا باطلا سبحانك ﴾ [آل عمران : 191] وقال في سورة آخرى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا باطلا ذلك ظَنُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ [ص : 27] وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال القاضي : هذه الآية تدل على بطلان الجبر ، لأنه تعالى لو كان مريداً لكل ظلم ، وخالقاً لكل قبيح ، ومريداً لإضلال من ضل ، لما صح أن يصف نفسه بأنه ما خلق ذلك إلا بالحق .

المسألة الثانية :

قال حكماء الإسلام : هذا يدل على أنه سبحانه أودع في أجرام الأفلاك والكواكب خواص معينة وقوى مخصوصة ، باعتبارها تنتظم مصالح هذا العالم السفلي .

إذ لو لم يكن لها آثار وفوائد في هذا العالم ، لكان خلقها عبثاً وباطلاً وغير مفيد ، وهذه النصوص تنافي ذلك ، والله أعلم .

ثم بين تعالى أنه يفصل الآيات ، ومعنى التفصيل هو ذكر هذه الدلائل الباهرة ، واحداً عقيب الآخر ، فصلاً فصلاً مع الشرع والبيان .

وفي قوله : ﴿ نُفَصّلُ ﴾ قراءتان : قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم ﴿ يُفَصّلُ ﴾ بالياء ، وقرأ الباقون بالنون .

ثم قال : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ وفيه قولان : الأول : أن المراد منه العقل الذي يعم الكل .

والثاني : أن المراد منه من تفكر وعلم فوائد مخلوقاته وآثار إحسانه ، وحجة القول الأول : عموم اللفظ ، وحجة القول الثاني : أنه لا يمتنع أن يخص الله سبحانه وتعالى العلماء بهذا الذكر ، لأنهم هم الذين انتفعوا بهذه الدلائل ، فجاء كما في قوله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يخشاها ﴾ [النازعات : 45] مع أنه عليه السلام كان منذراً للكل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 27 . 31 ﴾

(162/357)

وقال السمرقندى :

ثم ذكَّرهم النعم ، لكي يستحيوا منه ولا يعبدوا غيره ، فقال تعالى : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ الشمس ضِيَاء ﴾ بالنهار ﴿ والقمر نُوراً ﴾ بالليل ، ويقال : جعل الشمس ضياء مع الحر والقمر نوراً بلا حر ، ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ ؛ يعني : جعل الليل والنهار منازل يزيد أحدهما وينقص الآخر ، ولا يجاوزان المقدار الذي قدره ؛ ويقال ﴿ قَدْرِهِ ﴾ يعني : القمر منازل

كل ليلة بمنزلة من النجوم ، وهي ثمانية وعشرون منزلاً في كل شهر .

وهذا كقوله ﴿ والقمر قدرناه مَنَازِلَ حتى عَادَ كالعرجون القديم ﴾ [يس : 39] ﴿ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ ؛ يعني : لتعلموا بالقمر حساب السنين والشهور ، كقوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج وَلَيْسَ البر بِأَن تَأْتُواْ البيوت مِن ظُهُورِهَا ولكن البر مَنِ اتقى وَأْتُواْ البيوت مِنْ أبوابها واتقوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة : 189] .

ثم قال : ﴿ مَا خَلَقَ الله ذلك إِلاَّ بالحق ﴾ ، يعني : لتعلموا عدد السنين والحساب ، وتعتبروا وتعلموا أن له خالقاً ومدبراً وهو قادر على أن يحيي الموتى .

ثم قال : ﴿ يُفَصِّلُ الآيات ﴾ ، يعني : يبيّن العلامات ، يعني : علامة وحدانيته ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ، يعني : لمن كان له عقل وذهن وتمييز .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم في رواية حفص ﴿ يُفَصِّلُ الآيات ﴾ بالياء ، وقرأ الباقون بالنون ؛ ومعناهما قريب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(163/357)

وقال الثعلبي :

﴿ هُوَالذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً ﴾ بالنهار ﴿ والقمر نُوراً ﴾ بالليل . قال الكلبي : تضي وجوههما لأهل السموات السبع وظهورهما لأهل الأرضين السبع .

[قرأ الأكثرون : ضياءً بهمزة واحدة]

وروي عن ابن كثير : ضياء بهمزت الياء ، ولا وجه لها لأن ياءه كانت واواً مفتوحة ، وهي عين الفعل أصله ضواء فسكنت وجعلت ياءً كما جعلت في الصيام والقيام ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ أي قدر له بمعنى هيأ له وسوى له منازل لا يجاوزها ولا يقصر دونها .

وقيل : جعل قدر مما يتعدى لمفعولين ولم يقل قدرهما ، وقد ذكر الشمس والقمر وفيه وجهان : أحدهما أن يكون الهاء للقمر خاصة بالأهلة يعرف انقضاء الشهور والسنين لا بالشمس ، والآخر أن يكون قد اكتفى بذكر أحدهما من الآخر ، كما قال : ﴿ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62] وقد مضت هذه المسألة ﴿ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين ﴾ دخولها وانقضائها ﴿ والحساب ﴾ يعني وحساب الشهور والأيام والساعات ﴿ مَا خَلَقَ الله ذلك ﴾ مثل ما في الفصل والخلق والتقدير ، ولولا [وجود] الأعيان المذكور لقال : تلك ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ لم يخلقه باطلا بل إظهاراً لصنعه ودلالة على قدرته وحكمته ، ولتجزى كل نفس بما كسبت فهذا الحق ﴿ يُفَصِّلُ الآيات ﴾ يبيّنها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال ابن كثير وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : ﴿ يُفَصِّلُ ﴾ بالياء ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله قبله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(164/357)

وقال ابن عطية :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾

هذا استمرار على وصف آيات الله والتنبيه على صنعته الدالة على الصانع ، وهذه الآية تقتضي أن " الضياء " أعظم من " النور " وأبهى بحسب ﴿ الشمس ﴾ و ﴿ القمر ﴾ ، ويلحق ها هنا اعتراض وهو أنّا وجدنا الله تعالى شبه هداه ولطفه بخلقه بالنور فقال ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ [النور : 35] ، وهذا يقتضي أن النور أعظم هذه الأشياء وأبلغها في الشروق وإلا فلم ترك التشبيه إلا على الذي هو " الضياء " وعدل إلى الأقل الذي هو " النور " فالجواب عن هذا والانفصال : أن تقول إن لفظة النور أحكم وأبلغ في قوله ﴿ الله نور السموات والارض ﴾ [النور : 35] ، وذلك أنه تعالى شبه هداه ولطفه الذي نصبه لقوم يهتدون وآخرين يضلون مع النور الذي هو أبداً موجود في الليل وأثناء الظلام ، ولو شبهه بالضياء لوجب أن لا يضل أحد إذ كان الهدى يكون مثل الشمس التي لا تبقى

معها ظلمة ، فمعنى الآية أن الله تعالى قد جعل هداه في الكفر كالنور في الظلام فيهتدي قوم ويضل آخرين ، ولو جعله كالضياء لوجب أن لا يضل أحد وبقي الضياء على هذا الانفصال أبلغ في الشروق كما اقتضت آيتنا هذه والله عز وجل هو ضياء السماوات والأرض ونورها وقيومها ، ويحتمل أن يعترض هذا الانفصال والله المستعان ، وقوله : ﴿ وقدره منازل ﴾ يريد البروج المذكورة في غير هذه الآية ، وأما الضمير الذي رده على ﴿ القمر ﴾ وقد تقدم ذكر ﴿ الشمس ﴾ معه فيحتمل أن يريد بالضمير "القمر" وحده لأنه هو المراعى في معرفة ﴿ عدد السنين والحساب ﴾ عند العرب ويحتمل أن يريد هما معاً بحسب أنهما يتصرفان في معرفة عدد السنين والحساب عند العرب . لكنه اجتزأ بذكر الواحد كما قال ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ [التوبة : 62] وكما قال الشاعر [أبو حيان] : [الطويل]

رماني بذنب كنت منه ووالدي . . . بريّاً ومن أجل الطويّ رماني

(165/357)

قال الزجّاج وكما قال الآخر : [المنسرح]

نحن بما عندنا وأنت بما عن . . . دك راضٍ والرأي مختلفُ

وقوله ﴿ لتعلموا ﴾ المعنى قدر هذين النيرين ، ﴿ منازل ﴾ لكي ﴿ تعلموا ﴾ بها ، ﴿ عدد السنين والحساب ﴾ رفقاً بكم ورفعاً للالتباس في معاشكم وتجركم وإجاراتكم وغير ذلك مما يضطر فيه إلى معرفة التواريخ ، وقوله ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ أي للفائدة : لا للعب والإهمال فهي إذاً يحق أن تكون كما هي ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص " يفصل الآيات " ، وقرأ ابن كثير أيضاً وعاصم والباقون والأعرج وأبو جعفر وشيبة وأهل مكة والحسن والأعمش " نفصل " بنون العظمة ، وقوله ﴿ لقوم يعلمون ﴾ إنما خصهم لأن نفع التفصيل فيهم ظهر وعليهم أضاء وإن كان التفصيل إنما وقع مجملاً للكل معداً ليحصله الجميع ، وقرأ جمهور السبعة وقد رويت عن ابن كثير " ضياء " ، وقرأ ابن كثير وحده فيما روي أيضاً عنه " ضئاء " بهمزتين ، وأصله ضياء فقلبت فجاءت ضئائاً ، فقلبت الياء همزة لوقوعها بين ألفين ، وقال أبو علي : وهي غلط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(166/357)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياءً ﴾

قرأ الأكثرون : "ضياءً" بهمزة واحدة .

وقرأ ابن كثير : "ضئاءً" بهمزتين في كل القرآن ، أي : ذات ضياء .

﴿ والقمر نوراً ﴾ أي : ذات نور .

﴿ وقدَّره منازلَ ﴾ أي : قدَّر له ، فحذف الجار ، والمعنى : هيَّأ ويسَّر له منازل .

قال الزجاج : الهاء ترجع إلى "القمر" لأنه المقدّر لعلم السنين والحساب .

وقد يجوز أن يعود إلى الشمس والقمر ، فحذف أحدهما اختصاراً .

وقال الفراء : إن شئتَ جعلت تقدير المنازل للقمر خاصة ، لأن به تُعلمَ الشهور .

وإن شئت جعلت التقدير لهما ، فاكتفي بذكر أحدهما من صاحبه ، كقوله : ﴿ واللهُ ورسولُه أحقُّ أن يُرْضُوه ﴾ [التوبة 62] .

قال ابن قتيبة : منازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً من أول الشهر إلى ثماني وعشرين ليلة ، ثم يستسرُّ .

وهذه المنازل ، هي النجوم التي كانت العرب تنسب إليها الأنواء ، وأسماؤها عندهم : الشِّرَطان ، والبُطَيْن ، والثُّرَيَّا ، والدَّبَرَان ، والهَقْعة ، والهَنْعة ، والذِّراع ، والنَّثْرة ، والطَّرْفُ ، والجبهة ، والزُّبْرة ، والصَّرْفة ، والعَوَّاء ، والسِّماك ، والغَفْر ، والزُّبَانَى ، والإِكليل ، والقلب ، والشَّوْلَة ، والنعائم ، والبلدة ، وسعد الذَّابح ، وسعد بُلَعْ ، وسعد السُّعود ، وسعد الأخبية ، وفَرْغ الدَّلو المقدَّم ، وفرغ الدلو المؤخَّر ، والرِّشاء وهو الحوت .

قوله تعالى : ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ أي : للحق ، من إظهار صنعه وقدرته والدليل على وحدانيته .

﴿ يفصِّل الآيات ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : "يفصِّل" بالياء .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : "نفصِّل الآيات" بالنون ، والمعنى : نُبَيِّنُها .

﴿ لقوم يعلمون ﴾ يستدلُّون بالأمارات على قدرته .

قوله تعالى : ﴿ لآيات لقوم يتقون ﴾ فيه قولان : أحدهما : يتقون الشرك .

والثاني : عقوبةَ الله .

فيكون المعنى : إن الآيات لمن لم يحمله هواه على خلاف ما وضح له من الحق . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(167/357)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً ﴾

مفعولان ، أي مضيئة ، ولم يؤنّث لأنه مصدر ؛ أو ذات ضياء ﴿ والقمر نُوراً ﴾ عطف ،

أي منيراً ، أو ذا نور ، فالضياء ما يضيء الأشياء ، والنور ما يبين فيخفى ، لأنه من النار من أصل واحد .

والضياء جمع ضوء ؛ كالسياط والحياض جمع سَوط وحَوض .

وقرأ قُنْبُل عن ابن كثير "ضِئَاءً" بهمز الياء ولا وجه له ؛ لأن ياءه كانت واواً مفتوحة وهي عين الفعل ، أصلها ضواء فقلبت وجعلت ياء كما جعلت في الصيام والقيام .

قال المهدويّ : ومن قرأ ضِئَاء بالهمز فهو مقلوب ، قدّمت الهمزة التي بعد الألف فصارت قبل الألف فصار ضئايا ، ثم قلبت الياء همزة لوقوعها بعد ألف زائدة .

وكذلك إن قدّرت أن الياء حين تأخرت رجعت إلى الواو التي انقلبت عنها فإنها تقلب همزة أيضاً فوزنه فلاع مقلوب من فعال .

ويقال : إن الشمس والقمر تضيء وجوههما لأهل السموات السبع وظهورهما لأهل الأرضين السبع .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ أي ذا منازل ، أو قدر له منازل .

ثم قيل : المعنى وقدّرهما ، فوحّد إيجازاً واختصاراً ؛ كما قال : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا ﴾ [الجمعة : 11] .

وكما قال :

نحن بما عندنا وأنت بما . . .

عندك راضٍ والرأي مختلِفُ

وقيل : إن الإخبار عن القمر وحده ؛ إذ به تحصى الشهور التي عليها العمل في المعاملات ونحوها ، كما تقدّم في "البقرة" .

وفي سورة يس .

﴿ والقمر قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ [يس : 39] أي على عدد الشهر ، وهو ثمانية وعشرون منزلاً .

ويومان للنقصان والمحاق ، وهناك يأتي بيانه .

قوله تعالى : ﴿ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ قال ابن عباس : لو جعل شمسين ، شمساً بالنهار وشمساً بالليل ليس فيهما ظلمة ولا ليل ، لم يُعلم عدد السنين وحسابُ الشهور .

وواحد "السِّنين" سنة ، ومن العرب من يقول : سنوات في الجمع .

ومنهم من يقول : سنهات .

(168/357)

والتصغير سُنَيّة وسُنَيْهة .

قوله تعالى : ﴿ مَا خَلَقَ اللهُ ذلك إِلاَّ بالحق ﴾ أي ما أراد الله عز وجل بخلق ذلك إلا الحكمةَ والصواب ، وإظهاراً لصنعته وحكمته ، ودلالةً على قدرته وعلمه ، ولتجزى كل نفس بما كسبت ؛ فهذا هو الحق .

قوله تعالى : ﴿ يُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ تفصيل الآيات تبيينها ليُستدلّ بها على قدرته تعالى ، لاختصاص الليل بظلامه والنهار بضيائه من غير استحقاق لهما ولا إيجاب ؛ فيكون هذا لهم دليلاً على أن ذلك بإرادة مريد .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب "يفصل" بالياء ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لقوله من قبله : ﴿ مَا خَلَقَ اللهُ ذلك إِلاَّ بالحق ﴾ وبعده "وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ" فيكون متبعاً له .

وقرأ ابن السَّمَيْقع "تفصل" بضم التاء وفتح الصاد على الفعل المجهول ، و "الآيات" رفعاً .

الباقون "نفصل" بالنون على التعظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(169/357)

وقال الخازن :

﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء ﴾

يعني ذات ضياء ﴿ والقمر نوراً ﴾ يعني ذا نور .

واختلف العلماء أصحاب الكلام في أن الشعاع الفائض من الشمس هل هو جسم أو عرض ، والحق أنه عرض وهو كيفية مخصوصة فالنور اسم لأصل هذه الكيفية والضوء اسم لهذه الكيفية إذا كانت كاملة تامة قوية فلهذا خص الشمس بالضياء لأنها أقوى وأكمل من النور وخص القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء ولأنهما لو تساوياً لم يعرف الليل من النهار فدل ذلك على أن الضياء المختص بالشمس أكمل وأقوى من النور المختص بالقمر ﴿ وقدَّره منازل ﴾ قيل : الضمير في وقدَّره يرجع إلى الشمس والقمر والمعنى قدر لهما منازل أو قدر لسيرهما منازل لا يجاوزانهما في السير ولا يقصران عنهما وإنما وحد الضمير في وقدره للإيجاز أو اكتفى بذكر أحدهما دون الآخر فهو كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ وقيل : الضمير في وقدره يرجع إلى القمر وحده لأن سير القمر في المنازل أسرع وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين وذلك لأن الشهور المعتبرة في الشرع مبنية على رؤية الأهلة والسنة المعتبرة في الشرع هي السنة القمرية لا الشمسية .

(170/357)

ومنازل القمر ثمان وعشرون منزلة : وهي الشرطين ، والبطين ، والثرايا ، والدبران ، والهقعة ، والهنعة ، والذراع ، والنثرة ، والطرف والجبهة ، والزبرة ، والصفرة ، والعواء ، والسماك ، والغفر ، والزباني ، والإكليل ، والقلب ، والشولة ، والنعائم ، والبلدة ، وسعد الذابح ، وسعد بلع ، وسعد السعود ، وسعد الأخبية ، وفرغ الدلو المقدم ، وفرغ الدلو المؤخر ، وبطن الحوت ، فهذه منازل القمر وهي مقسومة على اثني عشر برجاً وهي : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت ، لكل برج منزلان وثلث منزل وينزل القمر كل ليلة منزلاً منهما إلى انقضاء ثمانية وعشرين ليلة ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين وإن كان تسعاً وعشرين اختفى ليلة واحدة ﴿ لتعلموا عدد السنين ﴾ يعني قدر هذه المنازل لتعلموا بها عدد السنين ووقت دخولها وانقضائها ﴿ والحساب ﴾ يعني : ولتعلموا حساب الشهور والإيام والساعات ونقصانها وزيادتها ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ يعني للحق وإظهار قدرته ودلائل وحدانيته ولم يخلق ذلك باطلاً ولا عبثاً ﴿ يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ يعني يبين دلائل التوحيد بالبراهين القاطعة لقوم يستدلون بها على قدرة الله ووحدانيته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾

لما ذكر تعالى الدلائل على ربوبيته من إيجاد هذا العالم العلوي والسفلي ، ذكر ما أودع في العالم العلوي من هذين الجوهرين النيرين المشرقين ، فجعل الشمس ضياءً أي : ذات ضياء أو مضيئة ، أو نفس الضياء مبالغة .

وجعل يحتمل أن تكون بمعنى صير ، فيكون ضياء مفعولاً ثانياً .

ويحتمل أنْ تكون بمعنى خلق فيكون حالاً ، والقمر نوراً أي : ذا نور ، أو منور ، أو نفس النور مبالغة ، أو هما مصدران .

وقيل : يجوز أنْ يكون ضياء جمع كحوض وحياض ، وهذا فيه بعد .

ولما كانت الشمسُ أعظم جرماً خصت بالضياء لأنه هو الذي له سطوع ولمعان ، وهو أعظم من النور .

قال أرباب علم الهيئة : الشمس قدر الأرض مائة مرة وأربعاً وستين مرة ، والقمر ليس كذلك ، فخص الأعظم بالأعظم .

وقد تقدم الفرق بين الضياء والنور في قوله : ﴿ فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ يقتضي أنّ النور أعظم وأبلغ في الشروق ، وإلا فلم عدل إلى الأقل الذي هو النور .

فقال ابن عطية : لفظة النور أحكم أبلغ ، وذلك أنه شبه هداه ولطفه الذي يصيبه لقوم يهتدون ، وآخرين يضلون معه بالنور الذي هو أبداً موجود في الليل وأثناء الظلام .

ولو شبهه بالضياء لوجب أنْ لا يضل أحداً ، إذ كان الهدى يكون كالشمس التي لا تبقى معها ظلمة .

فمعنى الآية : أنه تعالى جعل هداه في الكفر كالنور في الظلام ، فيهتدي قوم ويضل قوم آخرون .

ولو جعله كالضياء لوجب أن لا يضل أحد ، وبقي الضياء على هذا أبلغ في الشروق كما اقضت هذه الآية .

وقرأ قنبل : ضياء هنا ، وفي الأنبياء والقصص بهمزة قبل الألف بدل الياء .

ووجهت على أنه من المقلوب جعلت لأمه عيناً ، فكانت همزة .

(172/357)

وتطرفت الواو التي كانت عيناً بعد ألف زائدة فانقلبت همزة ، وضعف ذلك بأنّ القياس الفرار من اجتماع همزتين إلى تخفيف إحداهما ، فكيف يتخيل إلى تقديم وتأخير يؤدي إلى اجتماعهما ولم يكونا في الأصل ، والظاهر عود الضمير على القمر أي : مسيره منازل ، أو قدره ذا منازل ، أو قدر له منازل ، فحذف وأوصل الفعل ، فانتصب بحسب هذه التقادير على الظرف أو الحال أو المفعول كقوله : ﴿ والقمر قدرناه منازل ﴾ وعاد الضمير عليه وحده لأنه هو المراعى في معرفة عدد السنين والحساب عند العرب .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يريدهما معاً بحسب أنهما مصرفان في معرفة عدد السنين والحساب ، لكنه اجتزىء بذكر أحدهما كما قال : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ وكما قال الشاعر :

رماني بأمر كنت منه ووالدي . . .

بريئاً ومن أجل الطوى رماني

والمنازل هي البروج ، وكانت العرب تنسب إليها الأنواء ، وهي ثمانية وعشرون منزلة : الشرطين ، والبطين ، والثريا ، والدبران ، والهقعة ، والهنعة ، والذراع ، والنثرة ، والطرف ، والجبهة ، والدبرة ، والصرفة ، والعواء ، والسماك ، والغفر ، والزبانان ، والإكليل ، والقلب ، والشولة ، والنعائم ، والبلدة ، وسعد الذابح ، وسعد بلغ ، وسعد السعود ، وسعد الأخبية ، والفرع المؤخر ، والرشاء وهو الحوت .

واللام متعلقة بقوله : وقدره منازل .

قال الأصمعي : سئل أبو عمرو عن الحساب ، أفبنصبه أو بجره ؟ فقال : ومن يدري ما عدد الحساب ؟ انتهى .

يريد أنّ الجر إنما يكون مقتضياً أنّ الحساب يكون يعلم عدده ، والحساب لا يمكن أن يعلم منتهى عدده والحساب حساب الأوقات من الأشهر والأيام والليالي مما ينتفع به في المعاش والإجارات وغير ذلك مما يضطر فيه إلى معرفة التواريخ .

وقيل : اكتفى بذكر عدد السنين من عدد الشهور ، وكنى بالحساب عن المعاملات ، والإشارة بذلك إلى مخلوقه .

وذلك يشار بها إلى الواحد ، وقد يشار بها إلى الجمع .

(173/357)

ومعنى بالحق متلبساً بالحق الذي هو الحكمة البالغة ، ولم يخلقه عبثاً كما جاء ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ وقال ابن جرير : الحق هنا هو الله تعالى ، والمعنى : ما خلق الله ذلك إلا بالله وحده لا شريك معه انتهى .

وما قاله تركيب قلق ، إذ يصير ما ضرب زيد عمراً إلا بزيد .

وقيل : الباء بمعنى اللام ، أي للحق ، وهو إظهار صنعته وبيان قدرته ودلالة على وحدانيته .

وقرأ ابن مصرف : والحساب بفتح الحاء ، ورواه أبو توبة عن العرب .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص : يفصل بالياء جرياً على لفظة الله ، وباقي السبعة بالنون على سبيل الالتفات والإخبار بنون العظمة ، وخص من يعلم بتفصيل الآيات لهم ، لأنهم الذين ينتفعون بتفصيل الآيات ، ويتدبرون بها في الاستدلال والنظر الصحيح .

والآيات العلامات الدالة أو آيات القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(174/357)

وقال أبو السعود :

﴿ هُوَ الذى جَعَلَ الشمس ضِيَاء ﴾

تنبيهٌ على الاستدلال على وجوده تعالى ووحدتِه وعلمِه وقدرتِه وحكمتِه بآثار صُنعِه في النّيِّرَيْن بعد التنبيه على الاستدلال بما مر من إبداع السمواتِ والأرضِ والاستواءِ على العرش وغيرِ ذلك وبيانٌ لبعض أفرادِ التدبيرِ الذي أشير إليه إشارةً إجمالية وإرشادٌ إلى أنه

حيث دبّرت أمورُهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبيَر البديعَ فلأن يدبّرَ مصالحَهم المتعلقةَ بالمعاد بإرسال الرسولِ وإنزالِ الكتابِ وتبيينِ طرائقِ الهدى وتعيينِ مهاوي الردى أولى وأحرى ، والجعلُ إن جُعل بمعنى الإنشاءِ والإبداعِ فضياءً حالٌ من مفعوله أي خلقها حالَ كونِها ذاتَ ضياءٍ على حذف المضافِ أو ضياءً محضاً للمبالغة ، وإن جُعل بمعنى التصييرِ فهو مفعولُه الثاني أي جعلها ضياءً على أحد الوجهين المذكورين لكن لا بعد أن كانت خاليةً عن تلك الحالةِ بل أبدعها كذلك كما في قولهم : ضيّقْ فم الركية ووسّعْ أسفلها ، والضياءُ مصدرٌ كقيام أو جمعُ ضوءٍ كسياط وسَوْط وياؤه منقلبة من الواو لانكسار ما قبلها وقرىء ضِئاء بهمزتين بينهما ألفٌ بتقديم اللام على العين .

(175/357)

﴿ والقمر نُوراً ﴾ الكلامُ فيه كالكلام في الشمس والضياءُ أقوى من النور وقيل : ما بالذات ضوءٌ وما بالعرَض نور ، ففيه إشعارٌ بأن نورَه مستفادٌ من الشمس ﴿ وَقَدَّرَهُ ﴾ أي قدّر له وهيأ ﴿ مَنَازِلَ ﴾ أو قدّر مسيرَه في منازلَ أو قدره ذا منازلَ على تضمين التقديرِ معنى التصييرِ ، وتخصيصُ القمر بهذا التقديرِ لسرعة سيرِه ومعاينةِ منازِله وتعلقِ أحكامِ الشريعة به وكونِه عمدةً في تواريخ العرب ، وقد جُعل الضميرُ لكل منهما وهي ثمانيةٌ

وعشرون منزلاً ، ينزل القمرُ كل ليلةٍ في واحد منها لا يتخطّاه ولا يتقاصر عنه على تقدير مستوٍ لا يتفاوت ، يسير فيها من ليلة المستهلِّ إلى الثامنة والعشرين فإذا كان في آخر منازِله دقّ واستقوس ثم يستسرّ ليلتين أو ليلةً إذا نقص الشهرُ ويكون مقامُ الشمس في كل منزلةٍ منها ثلاثةَ عشرَ يوماً ، وهذه المنازلُ هي مواقعُ النجومِ التي نسَبت إليها العربُ الأنواءَ المستمطَرةَ وهي السرطانُ والبطينُ والثريا الدبَرانُ الهقعةُ الهنعةُ الذراعُ النثرةُ الطرفُ الجبهةُ الزبرةُ الصّرفةُ العواءُ السّماك الغفرُ الزبانى الإكليلُ القلبُ الشوْلةُ النعائمُ البلدةُ سعدُ الذابحُ سعدُ بلَع سعدُ السعودِ سعدُ الأخبيةِ فرغُ الدلوِ المقدّم فرغُ الدلو المؤخّرُ الرّشا وهو بطن الحوت ﴿ لِّتَعْلَمُواْ ﴾ إما بتعاقب الليلِ والنهارِ المنوطَين بطلوع الشمسِ وغروبِها أو باعتبار نزولِ كلَ منهما في تلك المنازل ﴿ عَدَدَ السنين ﴾ التي يتعلق بها غرضٌ علميٌّ لإقامة مصالحِكم الدينية والدنيوية ﴿ والحساب ﴾ أي حسابَ الأوقاتِ من الأشهر والأيام والليالي وغيرِ ذلك مما نيط به شيءٌ من المصالح المذكورةِ ، وتخصيصُ العدد بالسنين والحسابِ بالأوقات لما أنه لم يُعتبرْ في السنينَ المعدودةِ معنى مغايرٌ لمراتب الأعداد كما اعتُبر في الأوقات المحسوبةِ ، وتحقيقُه أن الحسابَ إحصاءُ ما له كميةٌ انفصاليةٌ بتكرير أمثالِه من حيث يتحصل

بطائفة معيّنةٍ منها حدٌّ معيَّنٌ له اسمٌ خاصٌّ وحكمٌ مستقلٌّ كالسنة المتحصّلةِ من اثنى عشرَ شهراً قد تحصل كلٌّ من ذلك من ثلاثين يوماً قد تحصّل كلٌّ من ذلك من أربع وعشرين ساعةً مثلاً ، والعدُّ مجردُ إحصائِه بتكريرِ أمثالِه من غير اعتبارِ أن يتحصل بذلك شيءٌ كذلك ، ولما لم يُعتبر في السنين المعدودةِ تحصُّلُ حدَ معيَّنٍ له اسمٌ خاصٌّ غيرُ أسامي مراتبِ الأعدادِ وحكم مستقلٌّ أضيف إليها العدد وتحصّلُ مراتبِ الأعدادِ من العشرات والمئاتِ والألوفِ اعتباريٌّ لا يُجدي في تحصل المعدودِ نفعاً وحيث اعتُبر في الأوقات المحسوبةِ وتحصلَ ما ذُكر من المراتب التي لها أسامٍ خاصةٌ وأحكامٌ مستقلةٌ علّق بها الحسابُ المنبىءُ عن ذلك والسنةُ من حيث تحقّقُها في نفسها مما يتعلق به الحسابُ وإنما الذي يتعلق به العدُّ طائفةٌ منها وتعلقُه في ضمن ذلك بكل واحدةٍ من تلك الطائفةِ ليس من الحيثية المذكورةِ أعني حيثيةَ تحصّلِها من عدة أشهرٍ قد تحصل كلُّ واحدٍ منها من عدة أيامٍ قد حصل كلٌّ منها بطائفة من الساعات فإن ذلك وظيفةُ الحسابِ بل من حيث إنها فردٌ من تلك الطائفةِ المعدودةِ من غير أن يُعتبرَ معها شيءٌ غيرُ ذلك ، وتقديمُ العددِ على الحساب مع أن الترتيبَ بين متعلّقيهما وجوداً وعلماً على العكس لأن العلمَ المتعلّقَ بعدد السنين علمٌ إجماليٌّ بما تعلق به الحسابُ تفصيلاً وإن لم تتّحِد الجهةُ ، أو لأن العددَ من حيث إنه لم يعتبر فيه تحصُّلُ أمرٍ آخرَ حسبما حُقق آنفاً نازلٍ من الحساب الذي اعتُبر فيه ذلك منزلةَ البسيطِ من المركب ﴿ مَا خَلَقَ اللهُ ذلك ﴾ أي ما ذكر من الشمس والقمر على ما حُكي من الأحوال وفيه إيذانٌ بأن معنى

جعلِهما على تلك الأحوالِ والهيئاتِ ليس إلا خلقَهما كذلك كما أشير إليه ، ولا يقدح في ذلك أن استفادةَ القمرِ النورَ من الشمس أمرٌ حادثٌ فإن المرادَ بجعله نوراً إنما هو جعلُه بحيث يتصف بالنور عند وجودِ

(177/357)

شرائطِ الاتصافِ به بالفعل ﴿ إلاَّ بالحق ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم أحوالِ الفاعل أو المفعول أي ما خلق ذلك ملتبساً بشيء من الأشياء إلا ملتبساً بالحق مراعياً لمقتضى الحِكمة البالغةِ أو مراعىً فيه ذلك ، وهو ما أشير إليه إجمالاً من العلم بأحوال السنينَ والأوقاتِ المنوطِ به أمورُ معاملاتِهم وعباداتِهم ﴿ يُفَصّلُ الآيات ﴾ أي الآياتِ التكوينيةَ المذكورةَ أو جميعَ الآياتِ فيدخلُ فيها الآياتُ المذكورةُ دخولاً أولياً أو يفصل الآياتِ التنزيليةَ المنبِّهة على ذلك ، وقرىء بنون العظمة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ الحكمةَ في إبداع الكائناتِ فيستدلون بذلك على شؤون مُبدعِها جل وعلا أو يعلمون ما في تضاعيف الآياتِ المنزلةِ فتؤمنون بها ، وتخصيصُ التفصيلِ بهم لأنهم المنتفِعون به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(178/357)

وقال الآلوسى :

﴿ هُوَ الذى جَعَلَ الشمس ضِيَاء ﴾

تنبيه على الاستدلال على وجوده تعالى ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته بآثار صنيعه في النيرين بعد التنبيه على الاستدلال بما مر وبيان لبعض أفراد التدبير الذي أشير إليه إشارة إجمالية وإرشاد إلى أنه سبحانه حين دبر أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبر البديع فلأن يدبر مصالحهم المتعلقة بمعادهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب أولى وأحرى ، أو جعل إما بمعنى أنشأ وأبدع فضياء حال من مفعوله وإما بمعنى صير فهو مفهوله الثاني ، والكلام على حد ضيق فم القربة إذ لم تكن الشمس خالية عن تلك الحالة وهي على ما قيل مأخوذة من شمسة القلادة للخرزة الكبيرة وسطها وسميت بذلك لأنها أعظم الكواكب كما تدل عليه الآثار ويشهد له الحس وإليه ذهب جمهور أهل الهيئة ، ومنهم من قال : سميت بذلك لأنها في الفلك الأوسط بين أفلاك العلوية وبين أفلاك الثلاثة الأخر وهو أمر ظني لم تشهد له الأخبار النبوية كما ستعلمه قريباً إن شاء الله تعالى .

والضياء مصدر كقيام ، وقال أبو علي في الحجة : كونه جمعاً كحوض وحياض وسوط وسياط أقيس من كونه مصدراً .

وتعقب بأن إفراد النور فيما بعد يرجح الأول ، وياؤه منقلبة عن واو لإنكسار ما قبلها .

وأصل الكلام جعل الشمس ذات ضياء .

ويجوز أن يجعل المصدر بمعنى اسم الفاعل أي مضيئة وأن يبقى على ظاهره من غير مضاف فيفيد المبالغة بجعلها نفس الضياء .

وقرأ ابن كثير ﴿ ضئاء ﴾ بهمزتين بينهما ألف .

(179/357)

والوجه فيه كما قال أبو البقاء : أن يكون أخر الياء وقدم الهمزة فلما وقعت الياء طرفا بعد ألف زائدة قلبت همزة عند قوم وعند آخرين قلبت ألفا ثم قلبت الألف همزة لئلا يجتمع ألفان ﴿ والقمر نُوراً ﴾ أي ذا نور أو منيراً أو نفس النور على حد ما تقدم آنفاً والنور قيل أعم من الضوء بناء على أنه ما قوى من النور والنور شامل للقوى والضعيف ، والمقصود من قوله سبحانه : ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ [النور : 35] تشبيه هداه الذي نصبه للناس بالنور الموجود في الليل أثناء الظلام والمعنى أنه تعالى جعل هداه كالنور في الظلام فيهدي قوم ويضل آخرون ولو جعله كالضياء الذي لا يبقى معه ظلام لم يضل أحد .

وهو مناف للحكمة وفيه نظر ، وقيل : هما متباينان فما كان بالذات فهو ضياء وما كان بالعرض فهو نور ، ولكون الشمس نيرة بنفسها نسب إليها الضياء ولكون نور القمر مستفاداً

منها نسب إليه النور .

وتعقبه العلامة الثاني بأن ذلك قول الحكماء وليس من اللغة في شيء فإنه شاع نور الشمس ونور النار ونحن قد بسطنا الكلام على ذلك فيما تقدم وفي كتابنا الطراز المذهب وأتينا بما فيه هدى للناظرين .

بقي أن حديث الاستفادة المذكورة سواء كانت على سبيل الانعكاس من غير أن يصير جوهر القمر مستنيراً كما في المرآة أو بأن يستنير جوهره على ما هو الأشبه عند الإمام قد ذكرها كثير من الناس حتى القاضي في تفسيره وهو مما لم يجيء من حديث من عرج إلى السماء صلى الله عليه وسلم وإنما جاء عن الفلاسفة .

وقد زعموا أن الأفلاك الكلية تسعة أعلاها فلك الأفلاك ثم فلك الثوابت ثم فلك كيوان ثم فلك برجيس .

(180/357)

ثم فلك بهرام ثم فلك الشمس ثم فلك الزهرة ثم فلك الكاتب ثم فلك القمر ، وزعم صاحب التحفة أن فلك الشمس تحت فلك الزهرة وما عليه الجمهور هو الأول ، واستدل كثير منهم على هذا الترتيب بما يبقى معه الاشتباه بين الشمس وبين الزهرة والكاتب

كالكسف والانكساف واختلاف المنظر الذي يتوصل إلى معرفته بذات الشعبتين لأن الأول لا يتصور هناك لأن الزهرة والكاتب يحترقان عند الاقتران في معظم المعمورة والثاني أيضاً مما لا يستطاع علمه بتلك الآلة لأنها تنصب في سطح نصف النهار وهذان الكوكبان لا يظهران هناك لكونهما حوالي الشمس بأقل من برجين فإذا بلغا نصف النهار كانت الشمس فوق الأرض شرقية أو غربية فلا يريان أصلاً ، وجعل الشمس في الفلك الأوسط لما في ذلك من حسن الترتيب كأنها شمسة القلادة أو لأنها بمنزلة الملك في العالم فكما ينبغي للملك أن يكون في وسط العسكر ينبغي لها أن تكون في وسط كرات العالم أمر إقناعي بل هو من قبيل التمسك بحبال القمر ، ومثل ذلك تمسكهم في عدم الزيادة على هذه الأفلاك بأنه لا فضل في الفلكيات مع أنه لزم عليه أن يكون ثخن الفلك الأعظم أقل ما يمكن أن يكون للأجسام من الثخانة إذ لا كوكب فيه حتى يكون ثخنه مساوياً لقطره فالزائد على أقل ما يمكن فضل . وقد بين في رسالة الأبعاد والإجرام أنه بلغ الغاية في الثخن .

(181/357)

وقد قدمنا لك ذلك وحينئذ يمكن أن يكون لكل من الثوابت فلك على حدة وأن تكون تلك الأفلاك متوافقة في حركاتها جهة وقطباً ومنطقة وسرعة بل لو قيل بتخالف بعضها لم يكن

هناك دليل ينفيه لأن المرصود منها أقل قليل فيمكن أن يكون بعض ما لم يرصد متخالفاً على أن من الناس من أثبت كرة فوق كرة الثوابت وتحت الفلك الأعظم واستدل على ذلك بما استدل ، ومن علم أن أرباب الارصاد منذ زمان يسير وجدوا كوكباً سياراً أبطأ سيراً من زحل وسموه هرشلا وقد رصده لالنت فوجده يقطع البرج في ست سنين شمسية وأحد عشر شهراً وسبعة وعشرين يوماً وهو ويوم تحريرنا هذا المبحث وهو اليوم الرابع والعشرون من جمادي الآخرة سنة الألف والمائتين والست والخمسين حيث الشمس في السنبلة قد قطع من الحوت درجة واحدة وثلاث عشرة دقيقة راجعاً لا يبقى له اعتماد على ما قاله المتقدمون ، ويجوز أمثال ما ظفر به هؤلاء المتأخرون ، وأيضاً من الجائز أن تكون الأفلاك ثمانية لإمكان كون جميع الثوابت مركوز في محدب ممثل زحل أي في متممه الحاوي على أنه يتحرك بالحركة البطيئة والفلك الثامن يتحرك بالحركة السريعة وحينئذ تكون دائرة البروج المارة بأوائل البروج منتقلة بحركة الثامن غير منتقلة بحركة الممثل ليحصل انتقال الثوابت بحركة الممثل من برج إلى برج كما هو الواقع .

(182/357)

وقد صرح البرجندي أن القدماء لم يثبتوا الفلك الأعظم وإنما أثبته المتأخرون ، وأيضاً يجوز أن تكون سبعة بأن يفرض الثوابت ودائرة البروج على ما محدب ممثل زحل ويكون هناك نفسان تتصل إحداهما بمجموع السبعة وتحركها إحدى الحركتين الأوليين والأخرى بالكرة السابعة وتحكرها الأخرى ولكن بشرط أن تفرض دوائر البروج متحركة بالسريعة دون البطيئة كتحركها متوهمة على سطوح الممثلات بالسريعة دون البطيئة لينقل الثوابت بالبطيئة من برج إلى برج كما هو الواقع ونحن من وراء المنع فيما يرد على هذا الاحتمال ، وأيضاً ذكر الإمام أنه لم لا يجوز أن تكون الثوابت تحت فلك القمر فتكون تحت كرات السيارة لا فوقها .

وما يقال : من أنا نرى أن هذه السيارة تكسف الثوابت والكاسف تحت المكسوف لا محالة مدفوع بأن هذه السيارات إنما تكسف الثوابت القريبة من المنطقة دون القريبة من القطبين فلم لا يجوز أن يقال : هذه الثوابت القريبة من المنطقة مركوز في الفلك الثامن والقريبة من القطبين مركوز في كرة أخرى تحت كرة القمر .

على أنه لم لا يجوز أن يقال : الكواكب تتحرك بأنفسها من غير أن تكون مركوزة في جسم آخر ودون إثبات الامتناع خرط القتاد .

وذكروا في استفادة نور القمر من ضوء الشمس إنه من الحدسيات لاختلاف أشكاله بحسب قربه وبعده منها وذلك كما قال ابن الهيثم لا يفيد الجزم بالاستفادة لاحتمال أن

يكون القمر كرة نصفها مضيء ونصفها مظلم ويتحرك على نفسه فيرى هلالا ثم بدراً ثم ينمحق وهكذا دائماً ، ومقصوده أنه لا بد من ضم شيء آخر إلى اختلاف الأشكال حسب القرب والبعد ليدل على المدعى وهو حصول الخسوف عند توسط الأرض بينه وبين الشمس .

(183/357)

وبعض المحققين كصاحب حكمة العين وصاحب المواقف نقلوا ما نقلوا عن ابن الهيثم ولم يقفوا على مقصوده منه فقالوا : إنه ضعيف وإلا لما انخسف القمر في شيء من الاستقبالات أصلاً وذلك كما قال العاملي عجيب منهم ، وأنت تعلم أن لا جزم أيضاً وأن ضم ما ضم لجواز أن يكون سبب آخر لاختلاف تلك الأشكال النورية لكنا لا نعلمه كأن يكون كوكب كمد تحت فلك القمر ينخسف به في بعض استقبالاته .

وإن طعن في ذلك بأنه لو كان لرؤي .

قلنا : لم لا يجوز أن يكون ذلك الاختلاف والخسوف من آثار إرادة الفاعل المختار من دون توسط القرب والبعد من الشمس وحيلولة الأرض بينها وبينه بل ليس هناك إلا توسط الكاف والنون وهو كاف عند من سلمت عينه من الغين .

وللمتشرعين من المحدثين وكذا لساداتنا الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم كلمات شهيرة في هذا الشأن ، ولعلك قد وقفت عليها وإلا فستقف بعد إن شاء الله تعالى .

وقد استندوا فيما يقولون إلى أخبار نبوية وأرصاد قلبية وغالب الأخبار في ذلك لم تبلغ درجة الصحيح وما بلغ منها آحاد ومع هذا قابل للتأويل بما لا ينافي مذهب الفلاسفة والحق أنه لا جزم بما يقولونه في ترتيب الأجرام العلوية وما يلتحق بذلك وأن القول به مما لا يضر بالدين إلا إذا صادم ما علم مجيئه عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ هذا ﴾ وسمي القمر قميراً لبياضه كما قال الجوهري ، واعتبر هو وغيره كونه قمراً بعد ثلاث .

(184/357)

﴿ وَقَدَّرَهُ ﴾ أي قدر له وهيأ ﴿ مَنَازِلَ ﴾ أو قدر مسيره في منازل فمنازل على الأول مفعول به وعلى الثاني نصب على الظرفية ، وجوز أن يكون قدر بمعنى جعل المتعدي لواحد و ﴿ مَنَازِلَ ﴾ حال من مفعوله أي جعله وخلقه متنقلاً وإن يكون بمعنى جعل المتعدي لاثنين أي صيره ذا منازل ، وإياماً كان فالضمير للقمر وتخصيصه بهذا التقدير لسرعة سيره بالنسبة إلى الشمس ولأن منازله معلومة محسوسة ولكونه عمدة في تواريخ العرب ولأن أحكام الشرع منوطة به في الأكثر ، وجوز أن يكون الضمير له وللشمس بتأويل

كل منهما ، والمنازل ثمانية وعشرون وهي الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء .

والسماك الاعزل والعفرة والزباني والأكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية وفرغ الدلو المقدم والفرغ المؤخر وبطن الحوت ، وهي مقسمة على البروج الاثنى عشر المهشورة فيكون لكل برج منزلان وثلث ، والبرج عندهم ثلاثون درجة حاصلة من قسمة ثلثمائة وستين أجزاء دائرة البروج على اثنى عشر ، والدرجة عندهم منقسمة بستين دقيقة وهي منقسمة بستين ثانية وهي منقسمة بستين ثالثة وهكذا إلى الروابع والخوامس والسوادس وغيرها ، ويقطع القمر بحركته الخاصة في كل يوم بليلته ثلاث عشرة درجة وثلاث دقائق وثلاثاً وخمسين ثانية وستا وخمسين ثالثة ، وتسمية ما ذكرنا منازل مجاز لأنه عبارة عن كواكب مخصوصة من الثوابت قريبة من المنطقة ، والمنزلة الحقيقية للقمر الفراغ الذي يشغله جرم القمر على أحد الأقوال في المكان ، فمعنى نزول القمر في هاتيك المنازل مسامتته إياها ، وكذا تعتبر المسامتة في نزوله في البروج لأنها مفروضة أولا في الفلك الأعظم .

وأما تسمية نحو الحمل والثور والجوزة بذلك فباعتبار المسامتة أيضاً .

(185/357)

وكان أول المنازل الشرطين ويقال له النطح وهو لأول الحمل ثم تحركت حتى صار أولها على ما حرره المحققون من المتأخرين الفرغ المؤخر ولا يثبت على ذلك لأن للثوابت حركة على التوالي على الصحيح وإن كانت بطيئة وهي حركة فلكها ، ومثبتو ذلك اختلفوا في مقدار المدة التي يقطع بها جزأ واحداً من درجات منطقته فقيل هي ست وستون سنة شمسية أو ثمان وستون سنة قمرية ، وذهب ابن الاعلم إلى أنها سبعون سنة شمسية أو ثمان وستون سنة قمرية ، وذهب ابن الاعلم إلى أنها سبعون سنة شمسية وطابقه الرصد الجديد الذي تولاه نصير الطوسي بمراغة ، وزعم محيي الدين أحد أصحابه أنه تولى رصد عدة من الثوابت كعين الثور وقلب العقرب بذلك الرصد فوجدها تتحرك في كل ست وستين سنة شمسية درجة واحدة ، وادعى بطليموس أنه وجد الثوابت القريبة إلى المنطقة متحركة في كل مائة سنة شمسية درجة والله تعالى أعلم بحقائق الأحوال وهو المتصرف في ملكه وملكوته حسبما يشاء ﴿ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين ﴾ التي يتعلق بها غرض علمي لإقامة مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿ والحساب ﴾ أي ولتعلموا الحساب بالأوقات من الأشهر والأيام وغير ذلك مما نيط به شيء من المصالح المذكورة ، واللام على ما يفهم من أمالي عز الدين بن عبد السلام متعلقة بقدر .

واستشكل هو ذلك بأن علم العدد والحساب لا يفتقر لكون القمر مقدراً بالمنازل بل طلوعه

وغروبه كاف .

وذكر بعضهم أن كمة ذلك صلاح الثمار بوقوع شعاع القمر عليها وقوعاً تدريجياً ، وكونه أدل على وجوده سبحانه وتعالى إذ كثرة اختلاف أحوال الممكن وزيادة تفاوت أوصافه أدعى إلى احتياجه إلى صانع حكيم واجب بالذات وغير ذلك مما يعرفه الواقفون على الاسرار ؛ وأجاب مولانا سرى الدين بأن المراد من الحساب حساب الأوقات بمعرفة الماضي من الشهر والباقي منه وكذا من الليل ثم قال : وهذا إذا علقت اللام بقدره منازل منازل فإن علقته بجعل الشمس والقمر لم يرد السؤال .

(186/357)

ولعل الأولى على هذا أن يحمل ﴿ السنين ﴾ على ما يعم السنين الشمسية والقمرية وان كان المعتبر في التاريخ العربي الإسلامي السنة القمرية ، والتفاوت بين السنتين عشرة أيام وإحدى عشرة ساعة ودقيقة واحدة ، فإن السنة الأولى عبارة عن ثلثمائة وخمسة وستين يوماً وخمس ساعات وتسع وأربعين دقيقة على مقتضى الرصد الايلخاني والسنة الثانية عبارة عن ثلثمائة وأربعة وخمسين يوماً وثماني ساعات وثمان وأربعين دقيقة ، وينقسم كل منهما إلى بسيطة وكبيسة وبيان ذلك في محله ، وتخصيص العدد بالسنين والحساب

بالأوقات لما أنه لم يعتبر في السنين المعدودة معنى مغاير لمراتب الأعداد كما اعتبر في الأوقات المحسوبة ، وتحقيقه أن الحساب إحصاء ما له كمية انفصالية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها عدد معين له اسم خاص وحكم مستقل كالسنة المتحصلة من اثنى عشر شهراً قد تحصل كل من ذلك من أيام معلومة قد تحصل كل منها من ساعات كذلك والعد مجرد إحصائه بتكرير أمثاله من غير اعتبار أن يتحصل بذلك شيء كذلك ، ولما لم يعتبر في السنين المعدودة تحصيل حد معين له اسم خاص غير أسامي مراتب الأعداد وحكم مستقل أضيف إليها العدد ، وتحصل مراتب الأعداد من العشرات والمئات والألوف اعتباري لا يجدي في تحصيل المعدود نفعاً ، وحيث اعتبر في الأوقات المحسوبة تحصيل ما ذكر من المراتب التي لها أسام خاصة وأحكام مستقلة علق بها الحساب المنبىء عن ذلك ، والسنة من حيث تحققها في نفسها مما يتعلق به الحساب وإنما الذي يتعلق به العد طائفة منها ، وتعلقه في ضمن ذلك بكل واحدة من تلك الطائفة ليس من تلك الحيثية المذكورة أعني حيثية تحصلها من عدة أشهر قد تحصل كل واحد منها من عدة أيام قد حصل كل منها من عدة ساعات فإن ذلك وظيفة الحساب بل من حيث أنها فرد من تلك الطائفة المعدودة من غير أن يعتبر معها شيء غير ذلك .

(187/357)

وتقديم العدد على الحساب مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجوداً وعلماً على العكس لأن العلم المتعلق بعدد السنين له علم إجمالي بما تعلق به الحساب تفصيلا وإن لم تتحد الجهة أو لأن العدد من حيث أنه لم يعتبر فيه تحصيل أمر آخر حسبما حقق آنفا نازل من الحساب الذي اعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب قاله شيخ الإسلام .

﴿ مَا خَلَقَ اللهُ ذلك ﴾ أي ما ذكر من الشمس والقمر على ما حكى سبحانه من الأحوال ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ استثناء من أعم أحوال الفاعل والمفعول ، والباء للملابسة أي ما خلق ذلك ملتبساً بشيء من الأشياء إلا ملتبساً بالحق مراعياً فيه الحكمة والمصلحة أو مراعى فيه ذلك فالمراد بالحق هنا خلاف الباطل والعبث ﴿ يُفَصّلُ الآيات ﴾ أي الآيات التكوينية المذكورة أو الأعم منها ويدخل المذكور دخولاً أولياً أو نفصل الآيات التنزيلية المنبهة على ذلك .

وقرىء ﴿ نُفَصّلُ ﴾ بنون العظمة وفيه التفات ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ الحكمة في إبداع الكائنات فيستدلون بذلك على شؤون مبدعها جل وعلا أو يعلمون ما في تضاعيف الآيات المنزلة فيؤمنون بها .

وتخصيص التفصيل بهم على الاحتمالين لأنهم المنتفعون به ، والمراد لقوم عقلاء من ذوي العلم فيعم من ذكرنا وغيرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾

هذا استئناف ابتدائي أيضاً ، فضمير (هو) عائد إلى اسم الجلالة في قوله : ﴿ إن ربكم الله ﴾ [يونس : 3] .

وهذا استدلال آخر على انفراده تعالى بالتصرف في المخلوقات ، وهذا لون آخر من الاستدلال على الإلهية ممزوج بالامتنان على المحجوجين به لأن الدليل السابق كان متضمناً لِعظيم أمر الخلق وسعة العلم والقدرة بذكر أشياء ليس للمخاطبين حظ في التمتع بها .

وهذا الدليل قد تضمن أشياء يأخذ المخاطبون بحظ عظيم من التمتع بها وهو خلق الشمس والقمر على صورتهما وتقدير تنقلاتهما تقديراً مضبوطاً ألهم الله البشر للانتفاع به في شؤون كثيرة من شؤون حياتهم .

فجَعْلُ الشمسسِ ضياء لانتفاع الناس بضيائها في مشاهدة ما تهمهم مشاهدته بما به قوام أعمال حياتهم في أوقات أشغالهم .

وجَعْل القمر نوراً للانتفاع بنوره انتفاعاً مناسباً للحاجة التي قد تعرض إلى طلب رؤية

الأشياء في وقت الظلمة وهو الليل .

ولذلك جُعل نوره أضعف ليُنتفع به بقدر ضرورة المنتفع ، فمن لم يضطرَّ إلى الانتفاع به لا يشعرُ بنوره ولا يصرفه ذلك عن سكونه الذي جُعل ظلام الليل لحصوله ، ولو جعلت الشمس دائمة الظهور للناس لاستووا في استدامة الانتفاع بضيائها فيشغلهم ذلك عن السكون الذي يستجدون به ما فتر من قواهم العصبية التي بها نشاطُهم وكمالُ حياتهم .

والضياء : النور الساطع القوي ، لأنه يضيء للرائي .

وهو اسم مشتق من الضوء ، وهو النور الذي يوضح الأشياء ، فالضياء أقوى من الضوء .

ويَاء (ضياء) منقلبة عن الواو لوقوع الواو إثر كَسرة الضاد فقلبت ياء للتخفيف .

والنور : الشعاع ، وهو مشتق من اسم النار ، وهو أعم من الضياء ، يصدق على الشعاع الضعيف والشعاع القوي ، فضياء الشمس نور ، ونور القمر ليس بضياء .

(189/357)

هذا هو الأصل في إطلاق هذه الأسماء ، ولكن يكثر في كلام العرب إطلاق بعض هذه الكلمات في موضع بعض آخر بحيث يَعسر انضباطه .

ولما جعل النور في مقابلة الضياء تعين أن المراد به نورٌ مَّا .

وقوله : ﴿ ضياء ﴾ و ﴿ نوراً ﴾ حالان مشيران إلى الحكمة والنعمة في خلقهما .

والتقدير : جعل الأشياء على مِقدار عنْد صُنعها .

والضمير المنصوب في (قَدَّره) : إما عائد إلى النور فتكون المنازل بمعنى المراتب ، وهي مراتب نور القمر في القوة والضعف التابعة لما يظهر للناس نيراً من كُرة القمر ، كما في قوله تعالى : ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعُرجون القديم ﴾ [يس : 39] .

أي حتى نقص نوره ليلةً بعد ليلة فعاد كالعرجون البالي .

ويكون ﴿ منازل ﴾ في موضع الحال من الضمير المنصوب في ﴿ قدَّره ﴾ فهو ظرف مستقر ، أي تقديراً على حسب المنازل ، فالنور في كل منزلة لَه قدَر غير قدره الذي في منزلة أخرى .

وإما عائد إلى (القمر) على تقدير مضاف ، أي وقدر سيره ، فتكون ﴿ منازل ﴾ منصوباً على الظرفية .

والمنازل : جمع منزل ؛ وهو مكان النزول .

والمراد بها هنا المواقع التي يظهر القمر في جهتها كل ليلة من الشهر .

وهي ثمان وعشرون منزلة على عدد ليَالي الشهر القمري .

وإطلاق اسم المنازل عليها مجاز بالمشابهة وإنما هي سُمُوت يلوح للناس القمرُ كل ليلة في سَمْت منها ، كأنه ينزل بها .

وقد رَصدها البشر فوجدوها لا تختلف .

وعلم المهتدون منهم أنها ما وجدت على ذلك النظام إلا بصنع الخالق الحكيم .

وهذه المنازل أماراتها أنجم مجتمعة على شكل لا يختلف ، فوضع العلماء السابقون لها أسماء .

وهذه أسماؤها في العربية على ترتيبها في الطلوع عند الفجر في فصُول السنة .

والعرب يبْتدئون ذِكرها بالشَرَطَانِ وهكذا ، وذلك باعتبار حلول القمر كل ليلة في سمت منزلة من هذه المنازل ، فأول ليلة من ليالي الهلال للشَّرَطان وهكذا .

وهذه أسماؤها مرتبة على حسب تقسيمها على فصول السنة الشمسية .

(190/357)

وهي : العَوَّاء ، السِّمَاك الاعْزل ، الغَفْر ، الزُّبَاني ، الإكليل ، القَلْب ، الشَّوْلَة ، النَعَائم ، البَلْدَة ، سَعْد الذَّابحِ ، سَعْدُ بَلَع ، سَعْد السُّعود ، سَعْد الأَخْبِيَة ، الفَرْغ الأعلى ، الفَرْغ الأسفل ، الحُوت ، الشَّرَطَانِ ، البُطَيْن ، الثُّرَيَّا ، الدَّبَران ، الهَقْعَة ، الهَنْعَة ، ذِرَاع الأَسَد ، النَّثْرَة ، الطَّرْف ، الجَبْهَة ، الزُّبْرَة ، الصَّرْفَة .

وهذه المنازل منقسمة على البروج الاثني عشر التي تحل فيها الشمس في فصول السنة ،

فلكل برج من الاثني عشر بُرجاً مَنزلتان وثُلُث ، وهذا ضابط لمعرفة نجومها ولا علاقة له باعتبارها مَنازل للقمر .

وقد أنبأنا الله بعلة تقديره القمر منازل بأنها معرفة الناس عدد السنين والحساب ، أي عدد السنين بحصول كل سنة باجتماع اثني عشر .

والحساب : مصدر حسب بمعنى عد .

وهو معطوف على ﴿ عدد ﴾ ، أي ولتعلموا الحساب .

وتعريفه للعهد ، أي والحساب المعروف .

والمراد به حساب الأيام والأشهر لأن حساب السنين قد ذكر بخصوصه .

ولما اقتصر في هذه الآية على معرفة عدد السنين تعين أن المراد بالحساب حساب القمر ، لأن السنة الشرعية قمرية ، ولأن ضمير ﴿ قدره ﴾ عائد على ﴿ القمر ﴾ وإن كان للشمس حساب آخر وهو حساب الفصول .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر حسبانا ﴾ [الأنعام : 96] .

فمن معرفة الليالي تعرف الأشهر ، ومن معرفة الأشهر تعرف السنة .

وفي ذلك رفق بالناس في ضبط أمورهم وأسفارهم ومعاملات أموالهم وهو أصل الحضارة .

وفي هذه الآية إشارة إلى أن معرفة ضبط التاريخ نعمة أنعم الله بها على البشر .

وجملة : ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ مستأنفة كالنتيجة للجملة السابقة كلها لأنه لما أخبر بأنه الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وذكر حكمة بعض ذلك أفضى إلى الغرض من ذكره وهو التنبيه إلى ما فيها من الحكمة ليستدل بذلك على أن خالقهما فاعل مختار حكيم ليستفيق المشركون من غفلتهم عن تلك الحكم ، كما قال تعالى في هذه السورة [7] ﴿ والذين هم عن آياتنا غافلون .

﴿ والباء للملابسة .

و(الحق) هنا مقابل للباطل .

فهو بمعنى الحكمة والفائدة ، لأن الباطل من إطلاقاته أن يطلق على العبث وانتفاء الحكمة فكذلك الحق يطلق على مقابل ذلك .

وفي هذا رد على المشركين الذين لم يَهتدوا لما في ذلك من الحكمة الدالة على الوحدانية وأن الخالق لها ليس آلهتَهم .

قال تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا ﴾ [ص : 27] .

وقال : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين مَا خلقناهما إلا بالحق ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ [الدخان : 38 39] .

ولذلك أعقب هذا التنبيه بجملة ﴿ نُفصّل الآيات لقوم يعلمون ﴾ ، فهذه الجملة مستأنفة ابتدائية مسوقة للامتنان بالنعمة ، ولتسجيل المؤاخذة على الذين لم يهتدوا بهذه الدلائل إلى ما تحتوي عليه من البيان .

ويجوز أن تكون الجملة في موضع الحال من اسم الجلالة في قوله : ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ .

فعلى قراءة نفصل بالنون وهي لنافع والجمهور ورواية عن ابن كثير ففي ضمير صاحب الحال التفات ، وعلى قراءة ﴿ يفصل ﴾ بالتحتية وهي لابن كثير في المشهور عنه وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب أمرها ظاهر .

والتفصيل : التبيين ، لأن التبيين يأتي على فصول الشيء كلها .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ في سورة [الأنعام : 55] .

والإتيان بالفعل المضارع لإفادة التكرار .

وجعل التفصيل لأجل قوم يعلمون ، أي الذين من شأنهم العلم لما يؤذن به المضارع من تجدد العِلم ، وإنما يتجدد لمن هو ديدنه ودأبه ، فإن العلماء أهل العقول الراجحة هم أهل الانتفاع بالأدلة والبراهين .

وذكر لفظ (قوم) إيماء إلى أنهم رسخ فيهم وصف العلم ، فكان من مقومات قوميتهم كما تقدم في قوله : ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة [البقرة : 164] .

وفي هذا تعريض بأن الذين لم ينتفعوا بتفصيل الآيات ليسوا من الذين يعلمون ولا ممن رسخ فيهم العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(193/357)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾

وبعد أن بيَّن الحق أنه خلق السماء والأرض وخلق الكون كله وسخره للإنسان جاء لنا بنعم من آياته التي خلقها لنا ، والتي جعلها الله سبحانه وتعالى سبباً لقوام الحياة ؛ فالشمس هي التي تُنضج لنا كل شيء في الوجود ، وتعطي لكل كائن الإشعاع الخاص به ، كما أن

الشمس تبخر المياه – كما قلنا من قبل – لينزل الماء بعد ذلك عذباً فراتاً ، يرتوي منه الإنسان وتشرب منه الأنعام ونروي به الزرع .

والشمس هي الأم لمجموعة من الكواكب التي تدور حولها ، فدورة الأرض حول الشمس تمثل السنة ، ودورة الأرض حول نفسها تمثل اليوم . فيقول الحق سبحانه هنا :

﴿ هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً ﴾ ولو نظرت إلى المعنى السطحي في الشمس والقمر لقلت : إن الشمس تعطي نوراً وكذلك القمر ، ولكن النظرة الأعمق تتطلب منك أن تفرِّق بين الاثنين ؛ فالشمس تعطي ضياء ، والقمر يعطي نوراً . والفرق بين الضياء والنور يتمثل في أن الضياء تصحبه الحرارة والدفء ، والنور إنارة حليمة ، ولذلك يسمى نور القمر النور الحليم ؛ فلا تحتاج إلى الظل لتستظل من حرارته ، لكن الشمس تحتاج إلى مظلة لتقيك حرارتها .

إذن : فالنور هو ضوء ليس فيه حرارة ، والحرارة لا تنشأ إلا حين يكون الضوء ذاتيّاً من المضيء مثل الشمس . أما القمر فضوؤه غير ذاتي ويكتسب ضوءه من أشعة الشمس حين تنعكس عليه ، فهو مثل المرآة حين تسلط عليها بعضاً من الضوء فهي تعكسه .

إذن : القمر مضيء بغيره ، أما الشمس فهي تضيء بذاتها . لذلك قال الحق هنا : ﴿ جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً ﴾ .

وكلمة ﴿ ضِيَآءً ﴾ إما أن تعتبرها مفرداً مثل صام صياماً ، وقام قياماً ، وضاء ضياءً .

وإما أن تعتبرها جمعاً ، مثلها مثل حوض جمعه : حياض ، ومثل روض جمعه رياض ، وكذلك جمع ضوء هو ضياء .

(194/357)

إذن كلمة ﴿ ضِيَآءً ﴾ تصلح أن تكون جمعاً وتصلح أن تكون مفرداً ، وحين يجيء اللفظ صالحاً للجمع وللإفراد ، لا بد أن يكون له عند البليغ ملحظ ؛ لأنه يحتمل هذه المعاني كلها ، وقبل معرفتنا أسرار ضوء الشمس وقبل تحليله ، كنا نقول : إنه ضوء ، لكن بعد أن حللنا ضوء الشمس ، وجدنا أن ألوان الطيف سبعة منها ضوء أحمر ، وضوء أخضر ، وضوء أصفر ، وغيرها .

إذن : ف " ضياء " تعبر عن تعدد الألوان المخزونة في ضياء الشمس ، فإن قلت : ضياء جمع ضوء ، فهذا بتحليل الضوء إلى عناصره كلها ، وإن قلت : ضياء مثل قيام ، ومثل صيام ، فهذا يصلح في المعنى العام .

ولذلك كان القرآن ينزل بما تحتمله العقول المعاصرة لنزوله التي لا تعرف المعاني العلمية للظواهر . ولو قال القرآن هذه الحقائق ، لقال واحد : إنني أرى الشمس حمراء لحظة الغروب ، وأراها صفراء لحظة الظهيرة ، وهو لا يعلم أن الحمرة وقت الغروب هي حمرة في

الرؤية لطول الأشعة الحمراء ، وهي لا تظهر إلى حين الغروب حيث تكون الشمس في أبعد نقطة ، فلا يصل إلينا إلا الضوء الأحمر ، أما بقية الأضواء فهي تشع في الكون ولا تصل إلينا .

إذن : كلمة ﴿ ضِيَآءً ﴾ ، إما أن تعتبرها جمع ضوء ، مثل سوط وسياط ، وحوض وحياض ، وروض ورياض ، وإما أن تعتبرها مفردة . هذه صالحة للمعنى لعام ، وتلك صالحة للمعنى التحليلي ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى : ﴿ تَبَارَكَ الذي جَعَلَ فِي السمآء بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ [الفرقان : 61]

والسراج هو ما يعطي الضوء والحرارة ، وهو وصف مناسب للشمس .

وهنا يقول الحق : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ ، وكلمة ﴿ وَقَدَّرَهُ ﴾ تعود في ظاهر الأمر إلى القمر . لكن في الواقع أن الشمس لها منازل أيضاً ، وقال الحق : ﴿ وَقَدَّرَهُ ﴾ لأن هناك شيئاً اسمه " الجعل " ، فهو سبحانه جعل الشمس ضياء ، وجعل القمر نوراً .

(195/357)

إذن : فالجَعْل جاء بأمرين اثنين ؛ جعل للشمس ضياء وجعل للقمر نوراً ، هذا الجعل نفسه جعله الله لنقدر به الزمن ، فهو صالح للاثنين ؛ للشمس وللقمر ؛ لنعلم عدد السنين والحساب .

وفي العبادات نحتاج إلى تحديد بداية شهر رمضان ؛ لنمارس عبادة الصوم ، ونحتاج إلى تحديد أشهر الحج ، وكذلك تحتاج المرأة مثلاً إلى حساب شهور العدة ، وكل هذه التقديرات تخضع للهلال ، فهو علامة واضحة للكل ، فهو يبدأ صغيراً ويكبر ثم يصغر . ﴿ والقمر قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حتى عَادَ كالعرجون القديم ﴾ [يس : 39]

و" العرجون " هو ما نسميه " السباطة " التي تحمل " شماريخ " البلح ، وكانوا يصنعون منها قديماً المكانس التي يكنسون بها بيوت البادية والريف ، وهكذا أعطانا الله تشبيهاً من البيئة التي عاش فيها العربي القديم .

وفي أول شهر كلنا نرى الهلال كعلامة مخبرة عن ميلاد الشهر ، وهكذا تعلَّم الإنسان أن يحسب الشهور بتقدير منازل القمر ، وبالنسبة للسنة ؛ فالحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ الله يَوْمَ خَلَقَ السماوات والأرض . . . ﴾ [التوبة : 36]

والتقدير هنا اثنا عشر شهراً هلاليّاً . أما اليوم فيقدر بالشمس ؛ لذلك فهي تدخل في تقدير المنازل . وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد شاء أن يجعل " الجعل " لأمرين ؛ مجعول

الشمس ، ومجعول القمر ، مصداقاً لقوله : ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب مَا خَلَقَ الله ذلك إِلاَّ بالحق ﴾ .

والحق – كما أوضحنا – هو الشيء الثابت الذي لا يتغير . وحين نتأمل مسار الأفلاك ، ومسار الشمس ، ومسار القمر ، لا نجد فيها خلافاً ، بل نجد مراصد الكفار تعلن مواعيد تواجد القمر بين الأرض والشمس ، وقد توجد الأرض بين القمر والشمس ، ويتسبب هذا في ظاهرتي الكسوف للشمس ، والخسوف للقمر ، وكل هذه الأمور تجدها عندهم غاية في الدقة .

(196/357)

﴿ وَلاَ الليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 40]

وهذا القول الحكيم قد أثبت للعرب حكماً يعتقدونه ، ونفى حكماً آخر يعتقدونه ، فالعرب كانت تعتقد أن الليل قبل النهار ، بدليل أن تحديد الليلة الأولى في رمضان هو الميعاد الذي يبدأ فيه شهر الصوم ، وما داموا قد حكموا بأن الليل هو الذي يسبق النهار ، فلا بد من حكم مقابل ؛ وهو أن النهار لا يسبق الليل .

وجاء القرآن إلى القضية المتفق عليها وتركها ، وهي أن النهار لا يسبق الليل مثلما اعتقد

العرب ، ونفي القرآن أن يسبق الليل النهار . وكان المخاطب – إذن – يعتقد أن الليل يسبق النهار ، ويصحح الله المفاهيم فلا الليل يسبق النهار ولا النهار يسبق الليل .

وهكذا عرض الحق سبحانه للكونيات عرضاً رمزيّاً في القرآن ؛ لأنه لو جاء بالتوضيح العلمي لذلك لكَذَّب العرب القرآن ، فلو قال القرآن بصريح العبارة : إن الأرض كروية ، لعارض الناس ذلك وقت نزول القرآن ، وما زلنا نجد من يعارض تلك الحقيقة في أواخر القرن العشرين ؛ لذلك لم يكشف الحق كل الحقائق الكونية ، بل أشار إليها بما يحتمل قبول العربي البسيط لها .

وما دام لا يسبق النهار ، والنهار لا يسبق الليل ، فكيف جاء هذا الأمر – إذن ؟

ونقول : هل خلق الله الشمسَ مواجهة لسطح الأرض أولاً ، ثم الشمس فجاء الليل ؟ كان الأمر يصح لو أن الأرض كانت مسطوحة ، ولكن الحق سبحانه خلق الأرض كروية ، وذلك دليل على أن الحق سبحانه خلق الشمس والأرض على هيئة يوجد فيها الليل والنهار معاً ، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية ، فالنصف المواجه للشمس يكون الوقت فيه نهاراً ، وغير المواجه لها يكون الوقت فيه ليلاً ، ثم تدور الأرض ؛ فيأتي النهار إلى القسم الذي كان ليلاً ، ويأتي الليل للقسم الذي كان نهاراً .

إذن : فالحق سبحانه حكى في القرآن الكريم عن الأمور الكونية – التي سوف تستكشفها العقول بعد نزول القرآن – وعالجها بحكمة ودقة ، وعلى سبيل المثال نجد قوله الحق : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً . . . ﴾ [الفرقان : 62] .

ثم يأتي التعليل : ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ [الفرقان : 62] .

فالليل خلْفة النهار ، ومعنى خلفه أي : يخلف غيره . والمثال من حياتنا نجده في دوريات الحراسة ، نجد إنساناً يحرس موقعاً ما – مدّة ست ساعات مثلاً – وبعد انتهاء فترة الحراسة يسلم المهمة لحارس ثان ، وبذلك يخلف واحدٌ الآخر ، لكن من الذي بدأ المهمة الأولى في الحراسة قبل أن يأتي إنسان ليتسلم منه دورية الحراسة ؟

وكذلك الأمر في الليل والنهار ، فبيّن الحق سبحانه أن الليل والنهار خلْفة ، ومعنى ذلك أن كلا منهما كان موجوداً من البدء ولأن الأرض تدور جَاء النهار في البلاد التي تشرق فيها الشمس ، وجاء الليل في البلاد التي تغيب عنها الشمس ، وتتابع الليل والنهار . هكذا فَصَّل الحق سبحانه آياته لنا ، وقال سبحانه :

﴿ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾

أخرج ابن مردويه " عن ابن مسعود قال " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تكلم ربنا بكلمتين فصارت إحداهما شمساً والأخرى قمراً وكانا من النور جميعاً ، ويعودان إلى الجنة يوم القيامة " " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ﴾ قال : لم يجعل الشمس كهيئة القمر كي يعرف الليل من النهار ، وهو قوله ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ [الاسراء : 12] الآية .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ هو الذي جعل لكم الشمس ضياء والقمر نوراً ﴾ قال : وجوههما إلى السموات وأقفيتهما إلى الأرض .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر قال : الشمس والقمر وجوههما إلى العرش وأقفيتهما إلى الأرض .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمر . أنه كان بين يديه نار إذ شهقت فقال : والذي

نفسي بيده إنها لتعوذ بالله من النار الكبرى ، ورأى القمر حين جنح للغروب فقال ، والله إنه ليبكي الآن .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن المسيب قال : لا تطلع الشمس حتى يصبحها ثلاثمائة ملك وسبعون ملكاً ، أما سمعت أمية بن أبي الصلت يقول :

ليست بطالعة لنا في رسلنا . . . إلا معذبة وإلا تجلد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(199/357)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ ضِيَآءً ﴾ : إمَّا مفعولٌ ثانٍ على أَنَّ الجَعْلَ للتصيير ، وإمَّا حالٌ على أنه بمعنى الإِنشاء . والجمهور على " ضياء " بصريح الياء قبل الألف ، وأصلُها واو لأنه من الضوء . وقرأ قنبل عن ابن كثير هنا وفي الأنبياء والقصص " ضِئَاءً " بقلب الياء همزة ، فتصير ألف بين همزتين . وأُوِّلت على أنه مقلوبٌ قُدِّمت لامُه وأُخِّرت عينه فوقعت الياء

طرفاً بعد ألف زائدة فقلبت همزة على حَدِّ " رداء " . وإن شئت قلتَ : لَمَّا قُلِبت الكلمة صار " ضياواً " بالواو ، عادت العين إلى أصلها مِن الواو لعدم موجِب قَلْبها ياءً وهو الكسرُ السابقُها ، ثم أُبْدلت الواوُ همزةً على حَدِّ كساء . وقال أبو البقاء : " إنها قُلبت ألفاً ثم قُلِبت الألفُ همزةً لئلا تجتمعَ ألفان " .

واستُبْعِدت هذه القراءة من حيث إن اللغةَ مبنيَّة على تسهيلِ الهمزِ فكيف يَتَخَيَّلون في قَلْب الحرفِ الخفيف إلى أثقلَ منه ؟ قلت : لا غَرْو في ذلك ، فقد قلبوا حرف العلةِ الألف والواو والياء همزة في مواضع لا تُحصرُ إلا بعُسْرٍ ، إلا أنه هنا ثقيلٌ لاجتماع همزتين . قال أبو شامة : " وهذه قراءة ضعيفةٌ ، فإن قياسَ اللغة الفِرارُ من اجتماع همزتين إلى تخفيف إحداهما ، فكيف يُتَخَيَّل بتقديم وتأخيرٍ يؤدي إلى اجتماع همزتين لم يكونا في الأصل ؟ هذا خلافُ حكم اللغة . " .

(200/357)

وقال أبو بكر ابن مجاهد وهو ممَّن على قنبل : " ابنُ كثير وحدَه " ضِئَاء " بهمزتين في كل القرآن : الهمزة الأولى قبل الألف ، والثانية بعدها ، كذلك قَرَأْتُ على قنبل وهو غلط ، وكان أصحاب البزي وابن فليح يُنْكرون هذا ويَقْرؤون " ضياء " مثلَ الناس " . قلت :

كثيراً ما يتجرأ أبو بكر على شيخه ويُغَلِّطه ، وسيمُرُّ بك مواضعُ من ذلك ، وهذا لا ينبغي أن يكون ، فإنَّ قُنْبُلاً بالمكان الذي يَمنع أن يتكلَّمَ فيه أحد .

وقوله في جانب الشمس " ضياء " لأن الضوء أقوى من النور ، وقد تقدَّم ذلك في أول البقرة . و " ضياء ونوراً " يُحْتمل أن يكونا مصدرين ، وجُعِلا نفسَ الكوكبين مبالغةً ، أو على حَذْف مضاف أي : ذات ضياء وذا نور . وضياء يحتمل أن يكونَ جمع " ضوء " كسَوْط وسِياط ، وحَوْض حياض .

و " منازل " نُصِب على ظرف المكان ، وجعله الزمخشري على حذف مضاف : إمَّا من الأول أي : قَدَّره مَسيره ، وإمَّا من الثاني أي : قدَّره ذا منازل ، فعلى التقدير الأول يكون " منازل " ظرفاً كما مر ، وعلى الثاني يكون مفعولاً ثانياً على تضمين " قَدَّر " معنى : صَيَّره ذا منازل بالتقدير . وقال الشيخ بعد أن ذكرَ التقديرين ، ولم يَعْزُهما للزمخشري : " أو قدَّر له منازل ، فحذفَ ، وأوصل الفعل إليه فانتصب بحسب هذه التقاديرِ عل الظرف أو الحال أو المفعول كقوله : ﴿ والقمر / قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ [يس : 39] وقد سبقَه إلى ذلك أبو البقاء أيضاً .

والضمير في " قَدَّرناه " يعود على القمر وحده ؛ لأنه هو عمدةُ العربِ في تواريخهم . وقال ابن عطية : " ويُحتمل أن يريدهما معاً بحسب أنهما يتصرَّفان في معرفة عدد السنين والحساب ، لكنه اجتُزِىءَ بذِكْر أحدهما كقوله تعالى : ﴿ واللهُ ورَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة :

62] وكما قال الشاعر :

2572 رماني بأمرٍ كنتُ منه ووالدي . . . بريئاً ومِنْ أجل الطَّوِيِّ رماني .

(201/357)

قوله تعالى : ﴿ لِتَعْلَمُواْ ﴾ : متعلق ب " قَدَّره " . وسُئل أبو عمرو عن الحساب : " أتنصِبُه أم تجرُّه ؟ فقال : " ومَنْ يدري ما عدد الحساب ؟ يعني أنه سُئل : هل تعطفه على " عَددَ " فتنصبَه أم على " السنين " فتجرَّه ؟ فكأنه قال : لا يمكنُ جَرُّه ؛ إذ يقتضي ذلك أن يُعلم عدد الحساب ، ولا يقدر أحد أَنْ يعلمَ عددَه . و " ذلك " إشارةٌ إلى ما تقدم أي : ما خلق الله ذلك المذكور إلا ملتبساً بالحق فيكون حالاً : إمَّا من الفاعل وإما من المفعول .

وقيل : الباء بمعنى اللام أي : للحق ، ولا حاجة إليه .

وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو " يُفَصّل " بياء الغيبة جَرْياً على اسم الله تعالى ، والباقون بنون العظمة التفاتاً من الغَيْبة إلى التكلُّم للتعظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 154.151 ﴾

(202/357)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) ﴾

أنوار العقول نجومٌ وهي للشياطين رجوم ، وللعلوم أقمار وهي أنوار واستبصار ، وللمعارف شموس ولها على أسرار العارفين طلوع ، كما قيل :

إنَّ شمسَ النهار تغْرُبُ بالليل . . . وشمسُ القلوب ليست تَغِيبُ

وكما أَنّ في السماء كوكبين شمساً وقمراً ؛ الشمسُ أبداً بضيائها ، والقمرُ في الزيادة والنقصان ؛ يُسْتَرُ بمحاقه ثم يكمل حتى يصير بدراً بنعت إشراقه ، ثم يأخذ في النقص إلا أَنْ لا يبقى شيءٌ منه لتمام امتحاقه ، ثم يعود جديداً ، وكل ليلة يجد مزيداً ، فإذا صار بدراً تماماً ، لم يَجِدْ أكثر من ليلةٍ لكَمَالِه مقاماً ، ثم يأخذ في النقصان إلى أن يَخْفَى شَخْصُه ويتمَّ نَقْصُه .

كذلك مِنَ النَّاسِ مَنْ هو مُتَرَدِّدٌ بين قَبْضِه وبَسْطِه ، وصَحْوِه ومَحْوِه ، وذهابه وإيابه ؛ لا فَنَاءَ فيستريح ، ولا بقاءَ له دوامٌ صحيحٌ ، وقيل :

كلَّما قُلْتُ قد دنا حَلُّ قيدي . . . كَبَّلوني فأوثقوا المِسْمَارا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 80 ﴾

(203/357)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القران

الإشارات الكونية في القران الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(62) ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هذه الاية الكريمة جاءت في بدايات سورة يونس , وهي سورة مكية , اياتها 109 بدون البسملة , وقد سميت باسم نبي الله يونس (علي نبينا وعليه من الله السلام) وذلك لورود ذكره , وذكر قومه , وقبول الله لتوبتهم , ورفعه العذاب عنهم بعد ان كاد يقع بهم , وفي ذلك

دعوة للعاصين ان يتداركوا انفسهم بتوبة نصوح الي رب العالمين قبل فوات الاوان . . . ! !

والمحور الرئيسي للسورة يدور حول قضية الايمان بالله ربا , واحدا , احدا , بغير شريك ولا شبيه ولا مناهع , وبالاسلام دينا واحدا , انهله الله تعالي علي فترة من الرسل , واتمه واكمله في بعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله (صلي الله عليه وسلم) , والذي لا يكمل ايمان العبد بالله الا ان يؤمن بنبوة هذا الرسول الخاتم وبرسالته , وبالكتاب الذي انهل اليه , وبكافة كتب الله السابقة ورسله وانبيائه السابقين , وبالبعث , والحساب , والجنة والنار , وكلها من ركائه العقيدة الاسلامية .

وتخص سورة يونس الايمان ب القران الحكيم علي انه ركيهة الركائه في قضية الدين , وذلك بصفته اخر الكتب السماوية , واتمها , واكملها , والكتاب الوحيد من بينها الذي تعهد ربنا (تبارك وتعالي) بحفظه فحفظ كلمة كلمة , وحرفا حرفا بنفس لغة وحيه (اللغة العربية) علي مدي اربعة عشر قرنا او يهيد , والي ان يرث الله (تعالي) الارض ومن عليها , ليبقي معجهة هذه الرسالة الخاتمة الي قيام الساعة . . ! ! !

واستهلت سورة يونس بالحروف

(204/357)

المقطعة الثلاث (الر) , والحروف المقطعة التي جاءت في مطلع تسع وعشرين سورة من سور القران الكريم وتضم اسماء نصف عدد حروف الهجاء العربية الثمانية والعشرين , تعتبر من اسرار القران الكريم التي لم تكتشف بعد , وان كانت هناك محاولات عديدة بذلت من اجل ذلك , وان اكتفي البعض بتفويض الامر فيها الي الله .

وبعد هذا الاستهلال تشير سورة يونس الي القران الكريم بقول الحق تبارك وتعالي :

الر تلك ايات الكتاب الحكيم *

(يونس : 1)

ثم تتعجب الايات من استنكار كفار مكة لاختيار الله (تعالي) لرجل منهم كي يحمل رسالة الله الخاتمة الي العالمين , فاتهموه (شرفه الله تعالي) بالسحر (تماما كما يتهمه كفار اليوم وملاحدته ومشركوه) . . !

وتؤكد سورة يونس في سياقها ان ارسال الرسل وانهال الرسالات سنة من سنن الله في خلقه , كما قال (سبحانه) في سورة فاطر مخاطبا خاتم انبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) . انا ارسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وان من امة الا خلا فيها نذير * (فاطر :24)

وتؤكد السورة الكريمة ان الله (تعالي) هو خالق السماوات والارض , وخالق كل شيء , ومن ثم فهو سبحانه المستحق للخضوع له بالعبادة والطاعة وحده لانه (سبحانه) هو الخالق , الراهق , المحيي , المميت , وهو الذي اليه مرجع كل الخلائق , ثم يوفيهم حسابهم

كل بحسب عمله في هذه الحياة .

وتستشهد سورة يونس بعدد من ايات الله في الافاق وفي الانفس علي الوهيته , وربوبيته , ووحدانيته , وعلي طلاقة قدرته في ابداعه لخلقه , وكمال حكمته في تدبير كل امر من امور هذا الخلق . وتعرض السورة الكريمة في اكثر من موقع منها الي الفوارق الهائلة بين كل من المؤمنين والكافرين , وبين مصائرهم في يوم الدين . وتصف جانبا من جوانب النفس البشرية في حالات الرخاء والشدة , وتحذرهم من باس الله الذي ياتي بغتة , وتذكر بهلاك اقوام من القرون البائدة لما

(205/357)

ظلموا وتجاوهوا حدود ما شرع الله , وتشير الي تلقي كفار قريش للقران الكريم بشيء من الصلف , والكبر , والرفض , والمناواة (تماما كما يفعل كفار اليوم وملاحدته ومشركوه) والي اصرارهم علي الشرك بالله (تماما كما يفعل مشركو اليوم) , وتذكرهم بيوم القيامة , وبحتمية الرجوع الي الله (تعالي) , وبالوقوف بين يديه للحساب , وتهون من امر الدنيا وتحذر من اهوال الاخرة , وتذكر بان الله (تعالي) هو رب هذا الكون ومليكه ومدبر امره , وانه (سبحانه) هو الرهاق ذو القوة المتين .

وتعرض السورة الكريمة لموقف مشركي الجهيرة العربية وهو نفسه موقف مشركي اليوم , من رسالة خاتم الانبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) , وترد علي الذين ادعوا والذين لايهالون يدعون كذبا ونفاقا وهورا ان الرسول الخاتم هو الذي كتب القران الكريم , مؤكدة ان هذا الذكر الحكيم لا يمكن ان يفتري , اي لا يمكن ان يكون صناعة بشرية , وانه جاء مصدقا لما انهل قبله من كتب سماوية , ومهيمنا عليها بكماله وتمامه وحفظه , وانه يحوي تفاصيل الدين كما انهله رب العالمين , وفي ذلك يرد القران الكريم علي هؤلاء الافاكين باستفهام استنكاري تقريعي يقول فيه ربنا (تبارك وتعالي) :

ام يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين * (يونس :38)

وتؤكد هذه السورة الكريمة ان من الناس من يؤمن بان القران الكريم هو كلام الله الخالق , وان منهم من لا يؤمن بذلك , وان الله (تعالي) الذي انهله هو اعلم بالمفسدين . كذلك تعرض سورة يونس لمواقف الكافرين من مشاهد الاخرة

, وتلوم الذين يتجراون علي الله تعالي) بالتحليل والتحريم دون اذن منه (سبحانه وتعالي) , كما ترد علي الذين يدعون علي الله (تعالي) انه قد اتخذ ولدا (تعالي الله عن ذلك علوا كبيرا) بهذا الرد الالهي القاطع :

قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه

هو الغني له ما في السماوات وما في الارض ان عندكم من سلطان بهذا اتقولون علي الله ما لا تعلمون * قل ان الذين يفترون علي الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون *

(يونس :68 70)

ولبيان سنة الله في نصرة المؤمنين واهلاك الكافرين , اوردت سورة يونس جوانب من قصص عدد من انبياء الله وتفاعل اقوامهم معهم من مثل نوح , وموسي , وهارون , ويونس (علي نبينا وعليهم من الله السلام) .

وتختتم السورة الكريمة بتوصية رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بالتمسك بشريعة الله , والصبر علي ما يمكن ان يلقي من اذي في سبيل ذلك , والخطاب موجه الي كل مسلم سائر علي خطي رسول الله , والي كل مسلمة الي يوم الدين , لان هذا الطريق ما سلكه احد الا ولقي من العنت ما لقيه رسول الله (صلي الله عليه وسلم) وصحابته الكرام , ويلقاه الدعاة الي يوم الدين , ولذلك ياتي ختام السورة بهذه الدعوة المباركة :

قل يا ايها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدي فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما

يضل عليها وما انا عليكم بوكيل * واتبع مايوحي اليك واصبر حتي يحكم الله وهو خير الحاكمين *

(يونس :109,108)

والايات الكونية التي استشهدت بها سورة يونس عديدة نوجهها فيما يلي :

(1) خلق السماوات والارض في ستة ايام (اي في ست مراحل متتالية) .

(2) ان الله تعالي هو الذي يبدا الخلق ثم يعيده .

(3) هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره مناهل لتعلموا عدد السنين والحساب .

(4) له اختلاف الليل والنهار .

(5) هو الذي وهب السمع والبصر وقدم خلق الاول علي الاخر ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويدبر الامر .

(6) وصف الليل بانه للسكن ووصف النهار بانه مبصر .

(7) الاشارة الي مثقال الذرة والي ان هناك ماهو اصغر وماهو اكبر منه .

(8) الاشارة الي نجاة فرعون

ببدنه ليكون لمن خلفه اية .

(9) التحدي بالقران الكريم وبعجه الخلق اجمعين عن ان يا توا بسورة من مثله .

وسوف نقتصر هنا علي مناقشة النقطة الثالثة فقط من هذه القائمة الطويلة , وقبل الدخول في ذلك لابد من استعراض سريع لاقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الاية الكريمة .

من اقوال المفسرين

في تفسير قوله تعالي :

هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره مناهل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك الا بالحق يفصل الايات لقوم يعلمون * (يونس :5) .

* ذكر ابن كثير (يرحمه الله) ما نصه : يخبر تعالي عما خلق من الايات الدالة علي كمال قدرته وعظيم سلطانه , وانه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء , وجعل شعاع القمر نورا , هذا فن وهذا فن اخر , ففاوت بينهما لئلا يشتبها , وجعل سلطان الشمس بالنهار , وسلطان القمر بالليل , وقدر القمر مناهل , فاول مايبدو صغيرا , ثم يتهايد نوره وجرمه حتي يستوسق ويكمل ابداره , ثم يشرع في النقص حتي يرجع الي حالته الاولي في تمام شهر , كقوله تعالي : (والقمر قدرناه مناهل حتي عاد كالعرجون القديم) وقوله تعالي : (. . والشمس والقمر حسبانا . .) , (وقدره) اي القمر (مناهل لتعلموا عدد السنين والحساب) فبالشمس تعرف الايام , وبسير القمر تعرف الشهور والاعوام , (ماخلق الله

ذلك الا بالحق . .) اي لم يخلقه عبثا بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة , كقوله تعالي (وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما باطلا) , وقال تعالي : (افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون) , وقوله : ونفصل الايات اي نبين الحجج والادلة , (لقوم يعلمون) . .

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه برحمته الواسعة) مانصه : (هو الذي جعل الشمس

ضياء) ذات ضياء . . . (والقمر نورا وقدره) من حيث سيره (مناهل) ثمانية وعشرين منهلا في ثمان وعشرين ليلة من كل شهر , ويستتر

(208/357)

ليلتين ان كان الشهر ثلاثين يوما , او : ليلة ان كان تسعة وعشرين يوما (لتعلموا) بذلك (عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك . .) المذكور (الا بالحق) لاعبثا , تعالي عن ذلك (يفصل) بالياء والنون : يبين (الايات لقوم يعلمون) يتدبرون .

* وذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) ما نصه :

(هو الذي جعل الشمس ضياء) فيها اشتعال . (والقمر نورا) . . فيه انارة . (وقدره

مناهل) ينهل في كل ليلة منهلا يكون فيه علي هيئة خاصة , كما هو مشهود في القمر . . . (لتعلموا عدد السنين والحساب) . . ولاتهال المواقيت والمواعيد تضبط بالشمس والقمر لكافة الناس . هل هذا كله عبث ؟ هل هذا كله باطل ؟ هل هذا كله مصادفة ؟ كلا لايكون كل هذا النظام , وكل هذا التناسق , وكل هذه الدقة التي لاتتخلف معها حركة , لايكون هذا كله عبثا ولا باطلا ولا مصادفة عابرة : (ماخلق الله ذلك الا بالحق) . . الحق قوامه , والحق اداته , والحق غايته , والحق ثابت راجح راسخ , وهذه الدلائل التي تشهد به واضحة قائمة دائمة : (يفصل الايات لقوم يعلمون) . . فالمشاهد التي تعرض هنا في حاجة الي العلم لادراك التدبير الكامن وراء المشاهد والمناظر .

وجاء في صفوة البيان لمعاني القران (رحم الله كاتبه برحمته الواسعة) مانصه : (جعل الشمس ضياء . .) شروع في بيان ادلة كمال قدرته تعالي وعظيم حكمته وتدبيره , ردا علي منكري البعث . اي هو الذي جعل الشمس ذات ضياء في النهار , والقمر ذا نور في الليل , وقدر سير القمر في مناهله الثمانية والعشرين في كل شهر , تقديرا بديعا محكما , ليعرف بذلك ابتداء الشهور والسنين وانتهاءها وعددها والحساب بالاوقات من الاشهر والايام . وبذلك تنتظم مصالح في العبادات والمعاملات وسائر الشئون المعاشية . . وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة

يتعاقبان دائما بحسب طلوع الشمس وغروبها , ويتفاوتان بحسب الامكنة

طولا وقصرا . (قدره مناهل) صير القمر ذا مناهل يسير فيها .

* وذكر اصحاب المنتخب في تفسير القران الكريم (جهاهم الله خير الجهاء) مانصه :

وربكم الذي خلق السماوات والارض والذي جعل الشمس تشع الضياء , والقمر يرسل النور , وجعل للقمر مناهل ينتقل فيها , فيختلف نوره تبعا لهذه المناهل , لتستعينوا بهذا في تقدير مواقيتكم , وتعلموا عدد السنين والحساب , وماخلق الله ذلك الا بالحكمة , وهو سبحانه يبسط في كتابه الايات الدالة علي الوهيته وكمال قدرته لكي تتدبروها بعقولكم وتستجيبوا لما يقتضيه العلم .

وجاء في تعليق الخبراء بالهامش مايلي : . . . الشمس جرم سماوي ملتهب مضيء بذاته , وهو مصدر الطاقات علي الارض ومنها الضوء والحرارة بينما القمر جرم غير مضيء بذاته بل يعكس او يرد مايقع عليه من ضوء الشمس فيبدو منيرا .

وذكر صاحب صفوة التفسير (جهاه الله خيرا) ما نصه :

(هو الذي جعل الشمس ضياء) الاية للتنبيه علي دلائل القدرة والوحدانية اي هو تعالي بقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهاج (والقمر نورا) اي وجعل

القمر منيرا بالليل وهذا من كمال رحمته بالعباد , ولما كانت الشمس اعظم جرما خصت بالضياء , لانه هو الذي له سطوع ولمعان قال الطبري : المعني اضاء الشمس وانار القمر (وقدره مناهل) اي قدر سيره في مناهل وهي البروج (لتعلموا عدد السنين والحساب) اي لتعلموا ايها الناس حساب الاوقات , فبالشمس تعرف الايام , وبسير القمر تعرف الشهور والاعوام (ماخلق الله ذلك الا بالحق) اي ماخلق تعالي ذلك عبثا بل لحكمة عظيمة , وفائدة جليلة (يفصل الايات لقوم يعلمون) اي يبين الايات الكونية ويوضحها لقوم يعلمون قدرة الله , ويتدبرون حكمته , قال ابو السعود : اي يعلمون الحكمة في ابداع الكائنات , فيستدلون بذلك علي شئون مبدعها جل وعلا .

الدلالة العلمية للآية

الكريمة

اولا : في

التفريق بين كل من الضياء والنور :

الضوء (الضياء) هو الجهء المرئي من الطاقة الكهرومغناطيسية (الكهربية / المغناطيسية) والتي تتكون من سلسلة متصلة من موجات الفوتونات التي لاتختلف عن بعضها البعض الا في طول موجة كل منها , وفي معدل ترددها .

وتتفاوت موجات الطيف الكهرومغناطيسي في اطوالها بين جهء من مليون مليون جهء من المتر بالنسبة الي اقصرها وهي اشعة جاما , وبين عدة كيلومترات بالنسبة الي اطولها وهي موجات الراديو (المذياع او الموجات اللاسلكية) , وياتي بين هذين الحدين عدد من الموجات التي تترتب حسب تهايد طول الموجة من اقصرها الي اطولها : الاشعة السينية , والاشعة فوق البنفسجية , والضوء المرئي , والاشعة تحت الحمراء .

وعين الانسان لا تستطيع ان تلتقط من هذه الموجات سوي الضوء المرئي اطوال تتراوح بين 7000,4000 انجستروم (والانجستروم يساوي جهءا من عشرة بلايين جهء من المتر) وطول الموجة يتناسب تناسبا عكسيا مع ترددها (اي عدد مرات ارتفاع الموجة وانخفاضها في الثانية الواحدة) , وحاصل ضرب هاتين الكميتين يساوي سرعة الضوء (حوالي 300,000 كيلو متر في الثانية) وموجات الضوء المرئي اسرع من موجات الراديو بحوالي بليون مرة , وبالتالي فان اطوال موجاتها اقصر ببليون مرة من اطوال موجات الراديو .

والضوء الابيض هو عبارة عن خليط من موجات ذات اطوال محددة عديدة متراكبة علي

بعضها البعض , ويمكن تحليلها بامرارها في منشور هجاجي او غير ذلك من اجهة التحليل الطيفي , وقد امكن التعرف علي سبع من تلك الموجات اقصرها هو الطيف البنفسجي (ويقترب طول موجته من 4000 انجستروم) , واطولها هو الطيف الاحمر (ويقترب طول موجته من 7000 انجستروم) , وبينهما البرتقالي , والاصفر , والاخضر , والاهرق . وغير ذلك من الالوان المتدرجة في التغير فيما بين تلك الالوان السبع , وان كانت عين الانسان لا

تستطيع ان تميه منها سوي هذه الالوان السبعة .

(211/357)

وتنتج طاقة الشمس من عملية الاندماج النووي والتي يتم فيها اتحاد اربعة من نوي ذرات الايدروجين لتنتج نواة واحدة من نوي ذرات الهيليوم , وينطلق الفرق بين مجموع كتلة الاربع نوي لذرات الايدروجين وكتلة نواة الهيليوم علي هيئة طاقة (تساوي 0,0282 وحدة ذرية لكل تفاعل) وهذه الطاقة الناتجة عن تلك العملية يكون اغلبها علي هيئة اشعة جاما (حوالي 96٪) وجهء قليل علي هيئة النيوترينوات

Neutrinos

(في حدود 4%) , وسرعان ما تتحول اشعة جاما الي حرارة بينما تهرب النيوترينوات في الحال وتفقد .

وتشير الدراسات الشمسية الي ان هذا النجم المتواضع قد بدا بتركيب كيميائي يغلب عليه عنصرا الايدروجين (حوالي 90%) , والهيليوم (حوالي 9%) مع اثار طفيفة من عناصر اخري مثل الكربون , النتروجين والاوكسجين (في حدود 1%) .

وبالتركيه التجاذبي لتلك الكتلة الغاهية بدات درجة حرارتها في الارتفاع , وعند وصول الحرارة الي المليون درجة مئوية بدات عملية الاندماج النووي في التفاعل وانطلقت الطاقة النووية للشمس التي رفعت درجة حرارة لبها الي اكثر من 15 مليون درجة مئوية , ورفعت درجة حرارة سطحها الي ستة الاف درجة مئوية .

وعملية الاندماج النووي في داخل الشمس عملية معقدة للغاية ولا داعي للدخول في تفاصيلها هنا حتي لا يغيب عنا الهدف من هذا المقال , ولكن محصلة هذه العملية هي الارتفاع بنسبة الهيليوم في قلب الشمس من 9% الي حوالي 30%, وانتاج طاقة الشمس المتمثلة في الطيف الكهرومغناطيسي , الذي هود الارض وغيرها من اجرام المجموعة الشمسية باغلب الطاقة التي تحتاجها .

والطيف المرئي من مجموعة اطياف الطاقة الكهرومغناطيسية المنطلقة من الشمس هو

المعروف باسم ضوء الشمس , وعلي ذلك فالضوء عبارة عن تيار من الفوتونات المنطلقة من جسم مشتعل , ملتهب , متوقد بذاته سواء كان ذلك بفعل عملية

(212/357)

الاندماج النووي كما هو حادث في داخل الشمس , وفي داخل غيرها من نجوم السماء , او من جسم مادي يستثار فيه الاليكترونات بعملية التسخين الكهربائي او الحراري , فيقفه الاليكترون من مستوي عال في الطاقة الي مستوي اقل , والفارق بين المستويين هو كمية الطاقة المنبعثة

(QuantumEnergy)

علي هيئة ضوء وحرارة , وتكون سرعة تردد موجات الضوء الناشيء مساوية لسرعة تحرك الشحنات المتذبذبة بين مستويات الذرة المختلفة من مثل الاليكترونات .

وعلي ذلك فان مصادر الضوء هي اجسام مادية لها حشد هائل من الجسيمات الاولية المستثارة بواسطة رفع درجة الحرارة من مثل الاليكترونات وغيرها من اللبنات الاولية للمادة , واهم مصادر الضوء بالنسبة لنا (اهل الارض) هي الشمس ووقودها هو عملية الاندماج النووي .

والمصابيح الكهربائية تنتج الضوء عن طريق تسخين سلك من معادن الاشعاع , وكلما ارتفعت درجة الحرارة هادت كمية الضوء المشع وارتفعت معدلات تردد موجاته .

وبنفس الطريقة يحترق فتيل السراج باشعاله بواسطة احتراق الهيت (من مثل هيت الهيتون) او النفط (الكيروسين) او الكحول فيشع بواسطة الترددات التي يمتصها , وكلما ارتفعت درجة حرارته هادت قدرته علي اشعاع الضوء , وذلك بهيادة كمية الضوء الصادر منه , وارتفاع معدلات تردده .

وعلي ذلك فان الجسم المادي عندما يسخن فانه يشع بمقدار الطاقة التي يمتصها برفع درجة حرارته باية واسطة متاحة .

وتختلف الصفات البصرية للمواد في درجات الحرارة الفائقة , وذلك لان ذبذبة اي من الفوتونات او الاليكترونات تتم بعنف شديد فتتداخل موجات الطيف الكهرومغناطيسي (ومنها موجات الضوء المرئي) مع بعضها البعض تداخلا كبيرا مما يؤدي الي حدوث الكثير من الظواهر غير المتوقعة , وذلك لان الموجات الكهرومغناطيسية مرتبطة ارتباطا وثيقا بمصادرها وكواشفها .

وضوء الشمس عند مروره في الطبقات الدنيا من الغلاف

الغاهي للارض يتعرض للعديد من عمليات الامتصاص والتشتت والانعكاس علي كل من هباءات الغبار , وقطيرات الماء وبخاره , وجهيئات الهواء الموجودة بتركيه عال نسبيا في هذا الجهء من الغلاف الغاهي للارض فيظهر بهذا اللون الابيض المبهج الذي يميه فترة النهار .

كذلك يتعرض ضوء الشمس للعديد من عمليات التشتت والانعكاس عندما يسقط علي سطح القمر المكسو بالعديد من الطبقات الهجاجية الرقيقة والناتجة عن ارتطام النياهك بهذا السطح , والانصهار الجهئي للصخور علي سطح القمر بفعل ذلك الارتطام . فالقمر (وغيره من اجرام مجموعتنا الشمسية) هي اجسام معتمة باردة لا ضوء لها ولكنها يمكن ان تري لقدرتها علي عكس اشعة الشمس فيبدو منيرا , وهذا هوالفرق بين ضوء الشمس ونور القمر . فنور القمر ناتج عن تشتيت ضوء الشمس علي سطحه بواسطة القوي التي يبذلها الحقل الكهرومغناطيسي علي الشحنات الكهربية التي تحتويها كل صور المادة . فالحقل الكهرومغناطيسي المتذبذب لضوء الشمس الساقط يحدث قوة دورية ضاغطة علي كل شحنة اليكترونية مما يجعلها تقوم بحركة متناسقة مع تردد موجات الطيف الابيض .

ومن الثابت علميا ان شحنة متذبذبة تشع في جميع الاتجاهات (فيما عدا اتجاه حركتها)

مما يبرر عمليات تشتت الضوء , وهي عمليات تعتمد علي عدد وحجم , وبنية , وهيئة واتجاهات , وتفاعل كل من الجسيمات القائمة بمثل هذه العمليات من التشتت مع بعضها البعض , والصفات الحرارية / الديناميكية للوسط الذي تتشتت فيه . ومن المعروف ان تردد الضوء الساقط يتفق تماما مع تردد الشعاع الساقط مع تباعد قليل بين خطوط الاطياف المختلفة بسبب حركة الجسم المشتت للضوء الساقط عليه , ولذلك تاتي خطوط اطياف الشعاع المشتت بشكل اضعف من خطوط اطياف الشعاع الساقط من اشعة الشمس .

القران الكريم يفرق بين الضياء والنور

انطلاقا من هذه الحقائق العلمية التي تمايه بين الضوء الصادر من جسم

(214/357)

مشتعل , ملتهب , مضي بذاته . في درجات حرارة عالية (قد تصل الي ملايين الدرجات المئوية كما هو الحال في قلب الشمس) وبين الشعاع المنعكس من جسم بارد يتلقي شعاع الضوء فيعكسه نورا , ركه القران الكريم علي التمييه الدقيق بين ضياء الشمس ونور القمر , وبين كون الشمس سراجا وكون القمر نورا فقال (عه من قائل) :

* هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره مناهل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الايات لقوم يعلمون

(يونس :5)

* وقال (تبارك اسمه) :

الم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا , وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . (نوح:16,15) .

* وقال (سبحانه) :

تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا

(الفرقان :61)

* وقابل الظلمات بالنور وليس بالضياء في ايات كثيرة من مثل قوله (تعالي) : الحمد لله الذي خلق السماوات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون .

(الانعام :1)

* ووصف الشمس بانها سراج وبانها سراج وهاج فقال (سبحانه وتعالي) :

وجعلنا سراجا وهاجا .

(النبا :13)

* وحينما وصف خاتم انبيائه (صلي الله عليه وسلم) بانه سراج (بمعني انه مضيء

بذاته) واضاف الي وصف السراج انه منير فقال (عه سلطانه) :

يا ايها النبي انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا , وداعيا الي الله باذنه وسراجا منيرا .

(الأحزاب :46,45)

* وحينما وصف النار وصفها بالضياء ووصف اشعتها الساقطة علي من حولها بالنور فقال (عه من قائل) : مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون .

(البقرة :17)

* ووصف اشعة البرق بانها ضوء فقال (وهو أصدق القائلين) : يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا اظلم عليهم قاموا . . . .

(البقرة :20)

* ووصف (سبحانه وتعالي)

(215/357)

الهيت بانه يضئ ووصف سقوط ضوئه علي ما حوله بالنور فقال (تعالي) : . . . المصباح في هجاجة الهجاجة كانها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة هيتونة لا شرقية ولا غربية

يكاد هيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور علي نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم .

(النور :35)

* وقال عن غيبة الشمس :

قل ارايتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الي يوم القيامة من اله غير الله يا تيكم بضياء افلا تسمعون . (القصص :71)

هذه الدقة البالغة في التفريق بين الضوء المنبعث من جسم ملتهب , مشتعل , مضئ بذاته , وبين سقوط هذا الضوء علي جسم مظلم بارد وانعكاسه نورا من سطحه لا يمكن ان يكون لها مصدر من قبل الف واربعمائة سنة الا الله الخالق , فهذا الفرق الدقيق لم يدركه العلماء الا في القرنين الماضيين , ولا يهال في همماننا كثير من الناس لا يدركونه .

فسبحان الذي انهل القران الكريم , انهله بعلمه , علي خاتم انبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) , وتعهد بحفظه فحفظ علي مدي اربعة عشر قرنا او يهيد بنفس لغة الوحي (اللغة العربية) دون هيادة حرف واحد , او نقص حرف واحد , وابقي فيه تلك الومضات النورانية من حقائق الكون وسنن الله فيه شاهدة علي صدقه , وحجة علي اهل عصرنا واهل كل عصر ياتي من بعده الي قيام الساعة , فاعتبروا يا اولي الالباب ! ! والحمد لله علي نعمة الاسلام , والحمد له علي نعمة القران , والحمد لله علي ارسال النبي الخاتم

والرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الي الله باذنه وسراجا منيرا فصلي الله وسلم وبارك عليه وعلي اله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته الي يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(216/357)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والخمسون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/358)

الجزء الثامن والخمسون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 6 ﴾ من سورة يونس عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 15 ﴾ من نفس السورة

(4/358)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أشار سبحانه إلى الاستدلال على فناء العالم بتغيره وإلى القدرة على البعث بإيجاد كل من الملوين بعد إعدامه في قوله – مؤكداً له لإنكارهم أن يكون في ذلك دلالة : ﴿ إن في اختلاف الليل ﴾ أي على تباين أوصافه ﴿ والنهار ﴾ أي كذلك ﴿ وما ﴾ أي وفيما ﴿ خلق الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ في السماوات والأرض ﴾ من أحوال السحاب والأمطار وما يحدث من ذلك الخسف والزلازل والمعادن والنبات والحيونات وغير ذلك من أحوال الكل التي لا يحيط البشر بإحصائها ؛ لما أشار إلى ذلك ختمها بقوله : ﴿ لآيات ﴾ أي دلالات بينة جداً ﴿ لقوم يتقون ﴾ أي أن من نظر في هذا الاختلاف وتأمل تغير الأجرام الكبار كان جديراً بأن يخاف من أن تغير أحواله وتضطرب أموره فيتقي الله لعلمه قطعاً بأن أهل هذه الدار غير مهملين ، فلا بد لهم من أمر ونهي وثواب وعقاب ؛ والاختلاف : ذهاب كل من الشيئين في غير جهة الآخر ، فاختلاف الملوين : ذهاب هذا في جهة الضياء وذاك في جهة الظلام ؛ والليل : ظلام من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني ، هو جمع ليلة كتمر وتمرة ؛ والنهار : اتساع الضياء من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس ؛ والخلق : فعل الشيء على ما تقتضيه الحكمة ، وأصله التقدير ؛ ونبه بما خلق في السماوات والأرض على وجوه الدلالات .

لأن الدلالة في الشيء قد تكون من جهة خلقه أو اختلاف صورته أو حسن منظره أو كثرة نفعه أو عظم أمره أو غير ذلك .

ولما أُشير بالآية إلى انقراض الدنيا بأن الحادث لا ثبات له ، وقام الدليل القطعي على المعاد ، ناسب تعقيبها بعيب من اطمأن إليها في سياق مبين أن سبب الطمأنينة إنكار الطمأنينة اعتقاداً أو حالاً ؛ ولما كانت ختم تلك ب ﴿ يتقون ﴾ لاح أن ثمّ من يتقي ومن لا يتقي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 418.419 ﴾

(5/358)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6) ﴾

اعلم أنه تعالى استدل على التوحيد والإلهيات أولاً : بتخليق السموات والأرض ، وثانياً : بأحوال الشمس والقمر ، وثالثاً : في هذه الآية بالمنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار ، وقد تقدم تفسيره في سورة البقرة في تفسير قوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السموات والأرض ﴾ [البقرة : 164] ورابعاً : بكل ما خلق الله في السموات والأرض ، وهي أقسام الحوادث الحادثة في هذا العالم ، وهي محصورة في أربعة أقسام : أحدها : الأحوال الحادثة في

العناصر الأربعة ، ويدخل فيها أحوال الرعد والبرق والسحاب والأمطار والثلوج .

ويدخل فيها أيضاً أحوال البحار ، وأحوال المد والجزر ، وأحوال الصواعق والزلازل والخسف .

وثانيها : أحوال المعادن وهي عجيبة كثيرة .

وثالثها : اختلاف أحوال النبات .

ورابعها : اختلاف أحوال الحيوانات ، وجملة هذه الأقسام الأربعة داخلة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السموات والأرض ﴾ والاستقصاء في شرح هذه الأحوال مما لا يمكن في ألف مجلد ، بل كل ما ذكره العقلاء في أحوال أقسام هذا العالم فهو جزء مختصر من هذا الباب .

ثم إنه تعالى بعد ذكر هذه الدلائل قال : ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ فخصها بالمتقين ، لأنهم يحذرون العاقبة فيدعوهم الحذر إلى التدبر والنظر .

قال القفال : من تدبر في هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لشقاء الناس فيها ، وأن خالقها وخالقهم ما أهملهم ، بل جعلها لهم دار عمل .

وإذا كان كذلك فلا بد من أمر ونهي ، ثم من ثواب وعقاب ، ليتميز المحسن عن المسيء ، فهذه الأحوال في الحقيقة دالة على صحة القول بإثبات المبدأ وإثبات المعاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 31 ﴾

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى اختلاف الليل والنهار ﴾

وذلك أن أهل مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ائتنا بعلامة كما أتت بها الأنبياء قومهم ، فنزل : ﴿ إِنَّ فِى اختلاف الليل والنهار ﴾ يعني : في مجيء الليل وذهاب النهار ، ومجيء النهار وذهاب الليل ، ما يأخذ النهار من الليل وما يأخذ الليل من النهار ، ﴿ وَمَا خَلَقَ الله فِى السموات والأرض ﴾ ، من العجائب ، يعني : فيما خلق الله ﴿ ءايات ﴾ ، يعني : لعلامات ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ الله تعالى ويخشون عقوبته ؛ ويقال : لقوم يتقون الشرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى ﴿ إن في اختلاف الليل والنهار ﴾ الآية

آية اعتبار وتنبيه ، ولفظه الاختلاف تعم تعاقب الليل والنهار وكونهما خلفه وما يتعاورانه من الزيادة والنقص وغير ذلك من لواحق سير الشمس وبحسب أقطار الأرض ، قوله ﴿ وما خلق الله في السماوات والأرض ﴾ لفظ عام لجميع المخلوقات ، و" الآيات " العلامات

والدلائل ، وخصص " القوم المتقين " تشريفاً لهم إذ الاعتبار فيهم يقع ونسبتهم إلى هذه الأشياء المنظور فيها أفضل من نسبة من لم يهتد ولا اتقى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(7/358)

وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6) ﴾

والاختلاف تعاقب الليل والنهار ، وكون أحدهما يخلف الآخر .

وما خلق الله في السموات من الأجرام النيرة التي فيها ، والملائكة المقيمين بها وغير ذلك مما يعلمه الله تعالى .

والأرض من الجوامد والمعادن والنبات والحيوان ، وخص المتقين لأنهم الذين يخافون العواقب فيحملهم الخوف على تدبرهم ونظرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(8/358)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ فِى اختلاف الليل والنهار ﴾

تنبيهٌ آخرُ إجماليٌّ على ما ذكر أي في تعاقبهما وكونِ كلَ منهما خِلْفةً للآخر بحسب طلوعِ الشمسِ وغروبِها التابعين لحركات السموات وسكونِ الأرضِ أو في تفاوتهما في أنفسهما بازدياد كلَ منهما بانتقاص الآخرِ وانتقاصِه بازدياده باختلاف حالِ الشمسِ بالنسبة إلينا قُرباً وبعداً بحسب الأزمنة ، أو في اختلافهما وتفاوتِهما بحسب الأمكنةِ إما في الطول والقِصَر فإن البلادَ القريبةَ من القُطب الشماليّ أيامُها الصيفيةُ أطولُ ولياليها الصيفية أقصرُ من أيام البلاد البعيدةِ منه ولياليها ، وإما في أنفسها فإن كروية الأرضِ تقضي أن يكون بعضُ الأماكن ليلاً وفي مقابله نهاراً ﴿ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِى السماوات والأرض ﴾ من أصناف المصنوعات ﴿ لآيَاتٍ ﴾ عظيمةً أو كثيرةً دالةً على وجود الصانعِ تعالى ووحدتِه وكمالِ علمِه وقدرتِه وبالغِ حكمتِه التي من جملة مقتضياتِها ما أنكروه من إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم وإنزالِ الكتابِ والبعثِ والجزاء ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ خصّهم بذلك لأن الداعيَ إلى النظر والتدبر إنما هو تقوى الله تعالى والحذرُ من العاقبة فهم الوافقون على أن جميعَ المخلوقاتِ آياتٌ دون غيرِهم ﴿ وَكَأَيِّن مِن ءايَةٍ فِى السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾

تنبيه آخر اجمالي على ما ذكر أي في تعاقبهما وكون كل منهما خلفة للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها التابعين عند أكثر الفلاسفة لحركة الفلك الأعظم حول مركزه على خلاف التوالي فإنه يلزمها حركة سائر الأفلاك وما فيها من الكواكب على ما تقدم مع سكون الأرض وهذا في أكثر المواضع وأما في عرض تسعين فلا يطلع شيء ولا يغرب بتلك الحركة أصلاً بل بحركات أخرى وكذا فيما يقرب منه قد يقع طلوع وغروب بغير ذلك وتسمى تلك الحركة الحركة اليومية وجعلها بعضهم بتمامها للأرض وجعل آخرون بعضها للأرض وبعضها للفلك الأعظم ، والمشهور عند كثير من المحدثين أن الشمس نفسها تجري مسخرة بإذن الله تعالى في بحر مكفوف فتطلع وتغرب حيث شاء الله تعالى ولا حركة للسماء وإلى مثل ذلك ذهب الشيخ الأكبر قدس سره .

ويجوز أن يراد باختلاف الليل والنهار تفاوتهما في أنفسهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر وانتقاصه بازدياده وهو ناشىء عنده من اختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا قرباً وبعداً

بسبب حركتها الثانية التي بها تختلف الأزمنة ، وتنقسم السنة إلى فصول وقد يتساوى الليل والنهار في بعض الأزمان عند بعض وذلك إنما يكون إذا اتفق حلول الشمس نقطة الاعتدال عند الطلوع أو الغروب وكان الأوج في احد الاعتدالين فإنه إذا تحقق الأول كان قوس النهار كقوس الليل وإذا تحقق الثاني كان الأمر بالعكس وهذا نادر جداً ، ولا يمكن على ما ذهب إليه بطليموس من عدم حركة الأوج فلا يتساوى الليل والنهار عنده أصلاً ، وقد يراد اختلافهما بحسب الأمكنة أما في الطول والقصر فإن البلاد القريبة من القطب الشمالي أيامها الصيفية أطول ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها ، وأما في أنفسهما فإن كرية الأرض على ما قالوا تقتضي أن تكون بعض الأوقات في بعض الأماكن ليلاً وفي مقابله نهاراً .

(10/358)

﴿ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِى السموات والأرض ﴾ من المصنوعات المتقنة والآثار المحكمة ﴿ لآيات ﴾ عظيمة كثيرة دالة على وجود الصانع تعالى ووحدته وكمال قدرته وبالغ حكمته التي من جملة مقتضياته ما أنكروا من إرسال الرسول وإنزال الكتاب وتبيين طرائق الهدى وتعيين مهاوي الرد ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ الله تعالى ويحذرون من العاقبة ، وخصصهم سبحانه

بالذكر لأن التقوى هي الداعية للنظر والتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(11/358)

وقال الشوكانى فى الآيتين :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾

ذكرها هنا بعض نعمه على المكلفين ، وهي مما يستدل به على وجوده ووحدته ، وقدرته وعلمه ، وحكمته بإتقان صنعه في هذين النيرين المتعاقبين على الدوام ، بعد ما ذكر قبل هذا إبداعه للسموات والأرض ، واستواءه على العرش ، وغير ذلك .

والضياء قيل : جمع ضوء ، كالسياط والحياض .

وقرأ قنبل عن ابن كثير "ضئاء" بجعل الياء همزة مع الهمزة .

ولا وجه له ، لأن ياءه كانت واواً مفتوحة ، وأصله : "ضواء" فقلبت ياء لكسر ما قبلها .

قال المهدوي : ومن قرأ " ضئاء " بالهمزة فهو مقلوب قدّمت الهمزة التي بعد الألف ، فصارت قبل الألف ، ثم قلبت الياء همزة ، والأولى : أن يكون ﴿ ضياء ﴾ مصدراً لا

جمعاً ، مثل قام يقوم قياماً ، وصام يصوم صياماً ، ولا بدّ من تقدير مضاف : أي : جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور إلا أن يحمل على المبالغة ، وكأنهما جعلا نفس الضياء والنور .

قيل : الضياء أقوى من النور ، وقيل الضياء هو ما كان بالذات ، والنور ما كان بالعرض ، ومن هنا قال الحكماء : إن نور القمر مستفاد من ضوء الشمس .

قوله : ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ أي : قدر مسيره في منازل ، أو قدره ذا منازل ، والضمير راجع إلى القمر ، ومنازل القمر : هي المسافة التي يقطعها في يوم وليلة بحركته الخاصة به ، وجملتها ثمانية وعشرون وهي معروفة ، ينزل القمر في كل ليلة منها منزلاً لا يتخطاه ، فيبدو صغيراً في أول منازله ، ثم يكبر قليلاً قليلاً حتى يبدو كاملاً ، وإذا كان في آخر منازله رقّ واستقوس ، ثم يستتر ليلتين إذا كان الشهر كاملاً ، أو ليلة إذا كان ناقصاً ، والكلام في هذا يطول ، وقد جمعنا فيه رسالة مستقلة جواباً عن سؤال أورده علينا بعض الأعلام .

(12/358)

وقيل : إن الضمير راجع إلى كل واحد من الشمس والقمر ، كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تجارة أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا ﴾ [الجمعة : 11] .

وفي قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما . . . عندك راض والرأي مختلف

وقد قدّمنا تحقيق هذا فيما سبق من هذا التفسير ، والأولى رجوع الضمير إلى القمر وحده ، كما في قوله تعالى : ﴿ والقمر قدرناه مَنَازِلَ ﴾ [ياس : 39] ، ثم ذكر بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدير ، فقال : ﴿ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ فإن في العلم بعدد السنين من المصالح الدينية والدنيوية ما لا يحصى ، وفي العلم بحساب الأشهر والأيام والليالي من ذلك ما لا يخفى ، ولولا هذا التقدير الذي قدّره الله سبحانه ، لم يعلم الناس بذلك ولا عرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم .

والسنة تتحصل من اثني عشر شهراً ، والشهر يتحصل من ثلاثين يوماً إن كان كاملاً ، واليوم يتحصل من ساعات معلومة هي : أربع وعشرون ساعة لليل والنهار ، قد يكون لكل واحد منهما اثنتا عشرة ساعة في أيام الاستواء ، ويزيد أحدهما على الآخر في أيام الزيادة وأيام النقصان ، والاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية معروف ؛ ثم بيّن سبحانه أنه ما خلق الشمس والقمر ، واختلاف تلك الأحوال إلا بالحق والصواب ، دون الباطل والعبث ، فالإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى المذكور قبله ، واستثناء مفرّغ من أعم الأحوال ، ومعنى تفصيل الآيات تبينها ، والمراد بالآيات التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما ، وتدخل هذه الآيات التكوينية المذكورة هنا دخولاً أوّلياً في ذلك .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص ، ويعقوب : ﴿ يفصل ﴾ بالتحتية .

وقرأ ابن السميفع "تفصل" بالفوقية على البناء للمفعول .

وقرأ الباقون بالنون .

(13/358)

واختار أبو عبيد ، وأبو حاتم ، القراءة الأولى ، ولعل وجه هذا الاختيار أن قبل هذا الفعل ﴿ مَا خَلَقَ اللهُ ذلك إِلاَّ بالحق ﴾ وبعده ﴿ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِى السموات والارض ﴾ .

ثم ذكر سبحانه المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار ، وما خلق في السموات والأرض من تلك المخلوقات ، فقال : ﴿ إِنَّ فِى اختلاف اليل والنهار وَمَا خَلَقَ اللهُ فِى السموات والأرض لآيات لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ أي : الذين يتقون الله سبحانه ، ويجتنبون معاصيه ، وخصهم بهذه الآيات لأنهم الذين يمعنون النظر والتفكر في مخلوقات الله سبحانه حذراً منهم عن الوقوع في شيء مما يخالف مراد الله سبحانه ، ونظراً لعاقبة أمرهم ، وما يصلحهم في معادهم .

قال القفال : من تدبر في هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لبقاء الناس فيها ، وأن خالقها وخالقهم ما أهملهم ، بل جعلها لهم دار عمل ، وإذا كان كذلك فلا بدّ من أمر ونهي .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السديّ ، في قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ الشمس ضِيَاء والقمر نُوراً ﴾ قال : لم يجعل الشمس كهيئة القمر لكي يعرف الليل من النهار ، وهو قوله : ﴿ فَمَحَوْنَا ءايَةَ اليل ﴾ [الإسراء : 12] .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، في الآية قال : وجوههما إلى السموات ، وأقفيتهما إلى الأرض .

وأخرج ابن مردويه ، عن عبد الله بن عمرو ، مثله .

وأخرج أبو الشيخ ، عن خليفة العبدي ، قال : لو أن الله تبارك وتعالى لم يعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد ، ولكن المؤمنون تفكروا في مجيء هذا الليل إذا جاء فملأ كل شيء وغطى كل شيء ، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء فمحا سلطان الليل ، وفي السحاب المسخر بين السماء والأرض ، وفي النجوم ، وفي الشتاء والصيف ، فوالله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم تبارك وتعالى حتى أيقنت قلوبهم بربهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(14/358)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6) ﴾

استدلال آخر على انفراد الله تعالى بالخلق والتقدير .

وهو استدلال بأحوال الضوء والظلمة وتعاقب الليل والنهار وفي ذلك عبرة عظيمة .

وهو بما فيه من عطف قوله : ﴿ وما خلق الله في السماوات والأرض ﴾ أعم من الدليل الأول لشموله ما هو أكثر من خلق الشمس والقمر ومن خلق الليل والنهار ومن كل ما في الأرض والسماء مما تبلغ إليه معرفة الناس في مختلف العصور وعلى تفاوت مقادير الاستدلال من عقولهم .

وتأكيد هذا الاستدلال بحرف ﴿ إنَّ ﴾ لأجل تنزيل المخاطبين به الذين لم يهتدوا بتلك الدلائل إلى التوحيد منزلة من ينكر أن في ذلك آيات على الوحدانية بعدم جريهم على موجب العلم .

وتقدم القول في شبيهة هذه الآية وهو قوله : ﴿ إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر ﴾ الآية في سورة البقرة (164) وفي خواتم سورة آل عمران .

وشمل قوله : ﴿ وما خلق الله ﴾ الأجسام والأحوال كلها .

وجعلت الآيات هنا لقوم يتقون وفي آية البقرة (164) ﴿ لقوم يعقلون ﴾ وفي آية آل عمران (190) لأولي الألباب لأن السياق هنا تعريض بالمشركين الذين لم يهتدوا بالآيات ليعلموا أن بعدهم عن التقوى هو سبب حرمَانهم من الانتفاع بالآيات ، وأن نفعها حاصل للذين يتقون ، أي يحذرون الضلال .

فالمتقون هم المتصفون باتقاء ما يوقع في الخسران فيبعثهم على تطلب أسباب النجاح فيتوجه الفكر إلى النظر والاسْتدلال بالدلائل .

وقد مر تعليل ذلك عند قوله تعالى : ﴿ هُدى للمتقين ﴾ في أول البقرة (2) على أنه قد سبق قوله في الآية قبلها ﴿ نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ [يونس : 5] ، وأما آية البقرة وآية آل عمران فهما واردتان في سياق شامل للناس على السواء .

وذكر لفظ (قوم) تقدم في الآية قبل هذه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(15/358)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ

وهكذا بيّن الحق اختلاف الليل عن النهار مما يؤكد أنهما وجدا معاً ، وعطف عليها ﴿ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السماوات والأرض ﴾ ؛ لأنه سبحانه خلق الكون بما فيه من مقومات حياة من مأكل ومشرب وهواء ، وغير ذلك ، ثم سخَّر الكون كله ؛ لخدمة السيد وهو الإنسان .

ولو نظرتَ إلى مقومات الحياة لوجدت فيها احتياجات أساسية تتمثل في نفس هواء ، وشراب ماء ، وطعام ؛ هذه أهم احتياجات الإنسان من مقومات الحياة . ويصبر الإنسان على المأكل أكثر مما يصبر على المشرب ، ويصبر على المشرب أكثر مما يصبر على نَفَس الهواء ، بل ولا يملك الإنسان الصبر على نَفَس الهواء مقدار شهيق وزفير .

لذلك شاء الحق أن يملك قومٌ طعام غيرهم ، لأن الجسم يمكنه أن يصبر على الطعام لمدة قد تصل إلى الشهر ويعتمد في ذلك على إذابة الدهن المتراكم بداخله ، عكس ما اخترع البشر من آلات ، فالسيارة لا يمكن أن تسير لمتر واحد دون وقود ، أما الجسم فيتحمل لعل مَنْ يملك الطعام يخفف من القيود ، أو لعل الإنسان الجائع يجد طريقه لينال ما يقتات به .

أما الماء فقد شاء الحق أن يقلل من احتكار البشر له ؛ لأن الإنسان أكثر احتياجاً للماء من الطعام .

أما الهواء فسبحانه وتعالى لم يُملِّك الهواء لأحد ؛ لأن الهواء هو العنصر الأساسي للحياة ؛

ولذلك اشتق منه لفظ النّفس ، ونَفْس ونَفَس .

ولو نظرتَ إلى الهواء في الوجود كله لوجدته عامل صيانة لكل الوجود من ثبات الأرض ، إلى ثبات المباني التي عليها ، إلى ثبات الأبراج ، إلى ثبات الجبال ، كل ذلك بفعل الهواء ؛ لأن تياراته التي تحيط بجوانب كل الأشياء هي التي تثبّتها ، وإنْ تخلخل الهواء في أي ناحية حول تلك المباني والجبال فهي تنهدم على الفور .

(16/358)

إذن : الهواء هو الذي يحفظ التوازن في الكون كله . ولذلك قلنا : إنك لو استعرضتَ ألفاظ القرآن لوجدت أن الحق سبحانه حينما يتكلم عن تصريف الرياح ، فهو سبحانه يتكلم بدقَّةِ خالقٍ ، بدقة إله حكيمٍ ، فهو يرسل من الرياح ما فيه الرحمة ، مثل قوله الحق : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ . . . ﴾ [الحجر : 22] .

لكن إذا جاء بذكر ريح ففي ذلك العقاب ، مثل قوله : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 6] .

ومثل قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأُصْبَحُواْ لاَ يرى إِلاَّ

مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي القوم المجرمين ﴾ [الأحقاف : 25] .

لأن الرياح تأتي من كل ناحية ، فتوازن الكائنات ، أما الريح فهي تأتي من ناحية واحدة فتدهم ما في طريقها .

وهنا يقول سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السماوات والأرض ﴾ أي : أنه جاء بالمخلوقات الأخرى مجملة بعد أن جاء بذكر الشمس والقمر كآيتين منفصلتين ، ثم ذكر السماوات والأرض وما فيهما من آيات أخرى : من رعد ، وبرق ، وسحاب ، ونجوم وعناصر في الكون ، كل ذلك مجمل في قوله : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السماوات والأرض ﴾ ؛ لأنه لو أراد أن يفصّل لَذَكَرَ كثيراً من الآيات والنعم ، وهو القائل :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا . . . ﴾ [إبراهيم : 34] .

(17/358)

والقرآن ليس كتاباً لبسط المسائل كلها ، بل هو كتاب منهج ، ومن العجيب أنه جاء ب " إن " وهي التي تفيد الشك في قوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا ﴾ ؛ لأن أحداً مهما أوتي من العلم ليس بقادر أن يُحصي نعمَ الله في الكون ؛ ولأن الإقبال على العَدّ فرض

إمكان الحصر ، ولا يوجد إمكان لذلك الحصر ؛ لذلك لم يأت ب " إذا " ، بل جاء ب " إنْ " وهي في مقام الشك .

والأعجب من هذا أنك تجد أن العَدَّ يقتضي التكرار ، ولم يقل الله سبحانه : وإن تعدوا نعم الله ، بل جاء ب " نعمة " واحدة ، وإذا استقصيتَ ما في النعمة لوجدتَ فيها آلاف النعم التي لا تُحصَى .

ويُنهي الحق الآية بقوله : ﴿ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ ، والآيات تطلق ثلاث إطلاقات : الإطلاق الأول آيات القرآن ، والإطلاق الثاني على المعجزة الدالة على صدق الرسول ، والإطلاق الثالث للآية أنها تحمل عجيبة من عجائب الكون الواضحة في الوجود الدالة على عظمة الله سبحانه .

وهذه الآيات خلقها الله لتُلْفت إلى مُكَوِّن هذه الآيات ، واللفتة إلى مُكوِّن هذه الآيات ضرورة لينشأ الإنسان في انسجام مع الكون الذي أنشيء من أجله ، بحيث لا يأتي له بعد ذلك ما ينغّص هذا الانسجام ، فهبْ أن إنساناً ارتاح في حياته الدنيا ثم استقبل الآخرة بشقاء وجحيم ، فما الذي استفاده من ذلك ؟

إذن : كل المسائل التي تنتهي إلى زوال لا يمكن أن تُعتبر نعمة دائمة ؛ لأن النعمة تعني أن تتنعم بها تنعُّماً يعطيك يقيناً أنها لا تفارقك وأنت لا تفارقها ، والدنيا في أطول أعمارها ؛ إما أن تفوت النعمةُ فيها الإنسان ، وإما أن يفوت هو النعمة .

(18/358)

والحق – سبحانه وتعالى – يبقى الذين يريدون أن يتقوا الله ؛ ليصلوا إلى نعيم لا يفوت ولا يُفَات ، ويجب أن ينظروا في آيات الكون ؛ لأنهم حين ينظرون في آيات الكون بإمعان يكونون قد أفادو فائدتين : الفائدة الأولى أن يفيدوا مما خلق الله ، والفائدة الثانية أن يعتبروا بأن هذا الكون الذي خلقه الله إنما جعله وسيلة ومَعْبراً إلى غيره ، فقد خلق فيه الخلق ليعيش بالأسباب ، لكنه يريد أن يُسْلمه بعد ذلك إلى حياة يعيش فيها بالمسبِّب وهو الله . فالذين يتقون هم الذين يلتفتون ، والذين لا يتقون لا يعتبرون بالنظر في الكون وتمر على الإنسان منهم الأشياء فلا يعتبرون بها ، كما قال الله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105] .

إذن : فهم لا يلتفتون إلى ما في آيات الحق من الآيات الدالة على عظمة قدرة الله سبحانه ؛ فهم غير حريصين على أن يَقُوا أنفسهم عذاب الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(19/358)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن خليفة العبدي قال : لو أن الله تبارك وتعالى لم يعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد ، ولكن المؤمنين تفكروا في مجيء هذا الليل إذا جاء فملأ كل شيء وغطى كل شيء ، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء فمحا سلطان الليل ، وفي السحاب المسخر بين السماء والأرض ، وفي النجوم ، وفي الشتاء والصيف ، فوالله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم تبارك وتعالى حتى أيقنت قلوبهم بربهم عز وجل ، وكأنما عبدوا الله عن رؤية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(20/358)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ

(6) ﴾

اخْتُصَّ النهارُ بضيائه ، وانفرد الليلُ بظلماته ، من غير استيجاب لذلك ، ومن غير استحقاق عقاب لهذا ، وفي هذا دليلٌ على أَنَّ الردَّ والقبولَ ، والمَنْعَ والوصولَ ، ليست معلولةً ولا حاصلةً بأمرٍ مُكْتَسب ؛ كلاَّ . . . إنها إرادةٌ ومَشِيئَةٌ ، وحُكْمٌ وقضية .

النهارُ وقتُ حضور أهلِ الغفلة في أوطان كَسْبِهم ، ووقتُ أربابِ القربة والوصلة لانفرادهم بشهود ربِّهم ، قال قائلهم :

هو الشمس ، إلا أنَّ للشمس غَيبةً . . . وهذا الذي نعنيه ليس يغيبُ

والليلُ لأحدِ شخصين : أمَّا للمُحِبِّ فَوقْتُ النَّجوى ، وأَمَّا للعاصي فَبَثُّ الشكوى . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات جـ 2 صـ 80 ﴾

(21/358)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الغرور أكثر ، بدأ به تنفيراً عن حاله ، لأن درء المفاسد أولى من جلب المصالح ، فقال مؤكداً لأجل إنكارهم : ﴿ إن الذين ﴾ ولما كان الخوف والرجاء معدن السعادة ، وكان الرجاء أقرب إلى الحث على الإقبال ، قال مصرحاً بالرجاء ملوحاً إلى الخوف : ﴿ لا يرجون لقاءنا ﴾ بالبعث بعد الموت ولا يخافون ما لنا من العظمة ﴿ ورضوا ﴾ أي عوضاً عن الاخرة ﴿ بالحياة الدنيا ﴾ أي فعملوا لها عمل المقيم فيها مع ما اشتملت عليه مما يدل على حقارتها ﴿ واطمأنوا ﴾ إليها مع الرضى ﴿ بها ﴾ طمأنينة من لا يزعج عنها مع ما يشاهدونه مع سرعة زوالها ﴿ والذين هم ﴾ أي خاصة ﴿ عن آياتنا ﴾ أي على ما لها من العظمة لا عن غيرها من الأحوال الدنيّة الفانية ﴿ غافلون ﴾ أي غريقون في الغفلة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 419 ﴾

(22/358)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ﴾

اعلم أنه تعالى لما أقام الدلائل القاهرة على صحة القول بإثبات الإله الرحيم الحكيم ، وعلى

صحة القول بالمعاد والحشر والنشر ، شرع بعده في شرح أحوال من يكفر بها ، وفي شرح أحوال من يؤمن بها .

فأما شرح أحوال الكافرين فهو المذكور في هذه الآية .

واعلم أنه تعالى وصفهم بصفات أربعة :

الصفة الأولى : قوله : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في تفسير هذا الرجاء قولان :

القول الأول : وهو قول ابن عباس ومقاتل والكلبي : معناه : لا يخافون البعث ، والمعنى : أنهم لا يخافون ذلك لأنهم لا يؤمنون بها .

والدليل على تفسير الرجاء ههنا بالخوف قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يخشاها ﴾ [النازعات : 45] وقوله : ﴿ وَهُمْ مّنَ الساعة مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : 49] وتفسير الرجاء بالخوف جائز كما قال تعالى : ﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ [نوح : 13] قال الهذلي :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها . . والقول الثاني : تفسير الرجاء بالطمع ، فقوله : ﴿ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ أي لا يطمعون في ثوابنا ، فيكون هذا الرجاء هو الذي ضده اليأس ، كما قال : ﴿ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ الاخرة كَمَا يَئِسَ الكفار ﴾ [الممتحنة : 13] واعلم أن حمل

الرجاء على الخوف بعيد ، لأن تفسير الضد بالضد غير جائز ، ولا مانع ههنا من حمل الرجاء على ظاهره ألبتة ، والدليل عليه أن لقاء الله إما أن يكون المراد منه تجلي جلال الله تعالى للعبد وإشراق نور كبريائه في روحه ، وإما أن يكون المراد منه الوصول إلى ثواب الله تعالى وإلى رحمته .

(23/358)

فإن كان الأول فهو أعظم الدرجات وأشرف السعادات وأكمل الخيرات ، فالعاقل كيف لا يرجوه ، وكيف لا يتمناه ؟ وإن كان الثاني فكذلك ، لأن كل أحد يرجو من الله تعالى أن يوصله إلى ثوابه ومقامات رحمته ، وإذا كان كذلك فكل من آمن بالله فهو يرجو ثوابه ، وكل من لم يؤمن بالله ولا بالمعاد فقد أبطل على نفسه هذا الرجاء ، فلا جرم حسن جعل عدم هذا الرجاء كناية عن عدم الإيمان بالله واليوم الآخر .

المسألة الثانية :

اللقاء هو الوصول إلى الشيء ، وهذا في حق الله تعالى محال ، لكونه منزهاً عن الحد والنهاية ، فوجب أن يجعل مجازاً عن الرؤية ، وهذا مجاز ظاهر .

فإنه يقال : لقيت فلاناً إذا رأيته ، وحمله على لقاء ثواب الله يقتضي زيادة في الإضمار وهو

خلاف الدليل .

واعلم أنه ثبت بالدلائل اليقينية أن سعادة النفس بعد الموت في أن تتجلى فيها معرفة الله تعالى ويكمل إشراقها ويقوى لمعانها ، وذلك هو الرؤية ، وهي من أعظم السعادات .

فمن كان غافلاً عن طلبها معرضاً عنها مكتفياً بعد الموت بوجدان اللذات الحسية من الأكل والشرب والوقاع كان من الضالين .

الصفة الثانية : من صفات هؤلاء الكفار قوله تعالى : ﴿ وَرَضُواْ بالحياة الدنيا ﴾ .

واعلم أن الصفة الأولى إشارة إلى خلو قلبه عن طلب اللذات الروحانية ، وفراغه عن طلب السعادات الحاصلة بالمعارف الربا نية ، وأما هذه الصفة الثانية فهي إشارة إلى استغراقه في طلب اللذات الجسمانية واكتفائه بها ، واستغراقه في طلبها .

والصفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ واطمأنوا بِهَا ﴾

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

صفة السعداء أن يحصل لهم عند ذكر الله نوع من الوجل والخوف كما قال تعالى : ﴿ الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج : 35] ثم إذا قويت هذه الحالة حصلت الطمأنينة في ذكر الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [الرعد : 28] وصفة الأشقياء أن تحصل لهم الطمأنينة في حب الدنيا ، وفي الاشتغال بطلب لذاتها كما قال في هذه الآية : ﴿ واطمأنوا بِهَا ﴾ فحقيقة الطمأنينة أن يزول عن قلوبهم الوجل ، فإذا سمعوا الإنذار والتخويف لم توجل قلوبهم وصارت كالميتة عند ذكر الله تعالى .

المسألة الثانية :

مقتضى اللغة أن يقال : واطمأنوا إليها ، إلا أن حروف الجر يحسن إقامة بعضها مقام البعض ، فلهذا السبب قال : ﴿ واطمأنوا بِهَا ﴾ .

والصفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ والذين هُمْ عَنْ ءاياتنا غافلون ﴾ والمراد أنهم صاروا في الإعراض عن طلب لقاء الله تعالى .

بمنزلة الغافل عن الشيء الذي لا يخطر بباله طول عمره ذكر ذلك الشيء ، وبالجملة فهذه الصفات الأربعة دالة على شدة بعده عن طلب الاستسعاد بالسعادات الأخروية الروحانية ، وعلى شدة استغراقه في طلب هذه الخيرات الجسمانية والسعادات الدنيوية .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 31 . 33 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ إِنَّ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾

يعني : لا يخافون البعث بعد الموت ؛ ويقال : لا يرجون ثوابنا بعد الموت .

﴿ وَرَضُواْ بالحياة الدنيا ﴾ ، يعني : اختاروا ما في الحياة الدنيا ، يعني : على ثواب الآخرة

﴿ واطمأنوا بِهَا ﴾ ، يقول : ورضوا بها وسكنوا إليها وآثروها وفرحوا بها .

﴿ والذين هُمْ عَنْ ءاياتنا غافلون ﴾ ، يعني : عن محمد والقرآن معرضون فلا يؤمنون ؛ ويقال : تاركين لها ومكذبين بها ، ويقال : لم يتفكروا فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ إِنَّ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾

يعني لا يخافون عقابنا ولا يرجون ثوابنا ، والرجاء يكون بمعنى الهلع والخوف ﴿ وَرَضُواْ بالحياة الدنيا ﴾ فاختاروها داراً لهم ﴿ واطمأنوا بِهَا ﴾ وسكنوا إليها .

قال قتادة في هذه الآية : إذا شئت رأيت صاحب دنيا لها يفرح ولها يحزن ولها يرضى ولها

يسخط .

﴿ والذين هُمْ عَنْ آيَاتِنَا ﴾ أدلتنا ﴿ غَافِلُونَ ﴾ لا يعتبرون . قال ابن عباس ﴿ عَنْ آيَاتِنَا ﴾ محمد والقرآن غافلون معرضون تاركون مكذبون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(26/358)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾

فيه تأويلان :

أحدهما : لا يخافون عقابنا . ومنه قول الشاعر :

إِذَا لَسَعَتْهُ النّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا . . . وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نَوْبٍ عَوَامِلُ

الثاني : لا يطمعون في ثوابنا ، ومنه قول الشاعر :

أَيَرْجُوا بَنُوا مَرْوَانَ سَمْعِي وَطَاعَتِي . . . وَقَوْمِي تَمِيمٌ وَالْفَلاَةُ وَرَائِيَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ لا يرجون لقاءَنا ﴾

قال ابن عباس : لا يخافون البعث .

﴿ ورضُوا بالحياة الدنيا ﴾ اختاروا ما فيها على الآخرة .

﴿ واطمأَنُّوا بها ﴾ آثروها .

وقال غيره : ركنوا إليها ، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة .

﴿ والذين هم عن آياتنا غافلون ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنها آيات القرآن ومحمد ، قاله ابن عباس .

والثاني : ما ذكره في أول السورة من صنعه ، قاله مقاتل .

فأما قوله : ﴿ غافلون ﴾ فقال ابن عباس : مكذِّبون .

وقال غيره : مُعْرِضون .

قال ابن زيد : وهؤلاء هم الكفار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(27/358)

وقال الخازن :

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ﴾

يعني لا يخافون لقاءنا يوم القيامة فهم مكذبون بالثواب والعقاب والرجاء يكون بمعنى الخوف تقول العرب : فلان لا يرجو فلاناً بمعنى : لا يخافه ، ومنه قوله سبحانه وتعالى ما لكم لا ترجون الله وقاراً ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها . . .

أي لم يخفه .

والرجاء يكون بمعنى الطمع ، فيكون المعنى : لا يطمعون في ثوابنا ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا ﴾ يعني : اختاروها وعملوا في طلبها فهم راضون بزينة الدنيا وزخرفها ﴿ واطمأنوا بها ﴾ يعني وسكنوا إليها مطمئنين فيها وهذه الطمأنينة التي حصلت في قلوب الكفار من الميل إلى الدنيا ولذاتها أزالت عن قلوبهم الوجل والخوف فإذا سمعوا الإنذار والتخويف لم يصل ذلك إلى قلوبهم ﴿ والذين هم عن آياتنا غافلون ﴾ قيل المراد بالآيات أدلة التوحيد .

وقال ابن عباس : عن آياتنا يعني عن محمد (صلى الله عليه وسلم) والقرآن ؛ غافلون : أي معرضون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(28/358)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾

بيانٌ لمآلِ أمرِ مَنْ كفر بالبعث وأعرضَ عن البينات الدالةِ عليه بعد تحقيقِ أن مرجعَ الكلِّ إليه تعالى وأنه يعيدهم بعد بدئِهم للجزاء ثواباً وعقاباً وتفصيلِ بعض الآياتِ الشاهدة بذلك ، والمرادُ بلقائه إما الرجوعُ إليه تعالى بالبعث أو لقاءُ الحساب كما في قوله عز وعلا : ﴿ إِنّى ظَنَنتُ أَنّى ملاق حِسَابِيَهْ ﴾ وأياً ما كان ففيه مع الالتفات إلى ضمير الجلالةِ من تهويل الأمر ما لا يخفى والمرادُ بعدم الرجاءِ عدمُ التوقعِ مطلقاً المنتظمِ لعدم الأملِ وعدمِ الخوف فإن عدمَهما لا يستدعي عدمَ اعتقادِ وقوعِ المأمولِ والخوف أي لا يتوقعون الرجوعَ إلينا أو لقاءَ حسابِنا المؤدّي إما إلى حسن الثوابِ أو إلى سوء العذابِ فلا يأمُلون الأولَ وإليه أشير بقوله عز وجل : ﴿ وَرَضُواْ بالحياة الدنيا ﴾ فإنه منبئٌ عن إيثار الأدنى الخسيسِ على الأعلى النفيسِ كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ مَا لَكُمْ ﴾ ولا يخافون الثانيَ وإليه أشير بقوله تعالى : ﴿ واطمأنوا بِهَا ﴾ أي سكَنوا فيها سكونَ مَنْ لا بَراحَ له منها آمنين مِن اعتراء المزعجاتِ غيرَ مُخطرين ببالهم ما يسوؤهم من عذابنا ، وقيل : المرادُ بالرجاء معناه الحقيقيُّ وباللقاء حسنُ اللقاءِ أي لا يأمُلون حسنَ لقائِنا بالبعث والإحياءِ بالحياة الأبدية ورضُوا بدلاً منها ومما فيها من فنون الكراماتِ السنيةِ بالحياة الدنيا الدنيةِ الفانيةِ واطمأنوا بها أي سكَنوا إليها مُكِبّين عليها قاصرين مجامعَ هِممِهم على لذائذها وزخارفِها من غير

صارفٍ يَلويهم ولا عاطفٍ يَثنيهم ، وإيثارُ الباءِ على كلمة إلى المنبئة عن مجرد الوصولِ والانتهاء للإيذان بتمام الملابسةِ ودوام المصاحبةِ والمؤانسة ، وحملُ الرجاءِ على الخوف فقط يأباه كلمةُ الرضا بالحياة الدنيا فإنها مُنبئةٌ عما ذُكر من ترك الأعلى وأخذِ الأدنى ، واختيارُ صيغةِ الماضي في الصلتين الأخيرتين للدِلالة على التحقق والتّقررِ

(29/358)

كما أن اختيارَ صيغةِ المستقبلِ في الأولى للإيذان باستمرارِ عدم الرجاء .

﴿ والذين هُمْ عَنْ ءاياتنا ﴾ المفصلةِ في صحائف الأكوانِ حسبما أشير إلى بعضها أو آياتِنا المنزلة المنبّهةِ على الاستشهاد بها المتفقةِ معها في الدلالة على حقية ما لا يرجونه من اللقاء المترتبِ على البعث وعلى بطلان ما رضُوا به واطمأنوا إليه من الحياة الدنيا ﴿ غافلون ﴾ يتفكرون فيها أصلاً وإن نُبّهوا على ذلك وذُكّروا بأنواع القوارعِ لانهماكهم فيما يصُدهم عنها من الأحوال المعدودةِ ، وتكريرُ الموصولِ للتوسل به إلى جعل صلتِه جملةً اسميةً منبئةً عما هم عليه من استمرار الغفلةِ ودوامِها ، وتنزيلُ التغايرِ الوصفيِّ منزلةَ التغايرِ الذاتي إيذاناً بمغايرة الوصفِ الأخير للأوصاف الأُوَل واستقلالِه باستتباع العذابِ .

هذا وأما ما قيل من أن العطفَ إما لتغاير الوصفين والتنبيهِ على أن الوعيدَ على الجمع بين

الذهولِ عن الآيات رأساً والانهماكِ في الشهوات بحيث لا يخطُر ببالهم الآخرةُ أصلاً وإما لتغاير الفريقين والمرادُ بالأولين من أنكر البعثَ ولم يُرد إلا الحياةَ الدنيا وبالآخِرين مَنْ ألهاه حبُّ العاجل عن التأمل في الآجل فكلامٌ ناءٍ عن السداد فليُتأمل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(30/358)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾

بيان لمآل أمر من كفر بالبعث المشار إليه فيما سبق ، وأعرض عن البينات الدالة عليه ، والمراد بلقائه تعالى شأنه إما الرجوع إليه بالبعث أو لقاء الحساب ، وأياماً كان ففيه مع الالتفات إلى ضمير الجلالة من تهويل الأمر ما لا يخفى .

والرجاء يطلق على توقع الخير كالأمل وعلى الخوف وتوقع الشر وعلى مطلق التوقع وهو في الأول حقيقة وفي الأخيرين مجاز ، واختار بعض المحققين المعنى المجازي الأخير المنتظم للأمل والخوف ، فالمعنى لا يتوقعون الرجوع إلينا أو لقاء حسابنا المؤدي إلى حسن الثواب أو إلى سوء العقاب فلا يأملون الأول ولا يخافون الثاني ويشير إلى عدم أملهم قوله سبحانه : ﴿

وَرَضُواْ بالحياة الدنيا ﴾ فإنه منبىء عن إيثار الأدنى الخسيس على الأعلى النفيس وإلى عدم خوفهم قوله عز وجل ﴿ واطمأنوا بِهَا ﴾ فإن المراد أنهم سكنوا فيها سكون من لا براح له آمنين من اعتراء المزعجات غير مخطرين ببالهم ما يسوءهم من العذاب ، وجوز أن يراد بالرجاء المعنى الأول والكلام على حذف مضاف أي لا يؤملون حسن لقائنا بالبعث والاحياء بالحياة الأبدية ورضوا بدلاً منها ومما فيها من الكرامات السنية بالحياة الدنيا الفانية الدنية وسكنوا إليها مكبين عليها قاصرين مجامع هممهم على لذائذها وزخارفها من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم ، وجوز أن يراد به المعنى الثاني والكلام على حذف المضاف أيضاً أي لا يخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يخاف ، وتعقب بأن كلمة الرضا بالحياة الدنيا تأبى ذلك فإنها منبئة عما تقدم من ترك الأعلى وأخذ الأدنى ، وقال الآمام : إن حمل الرجاء على الخوف بعيد لأن تفسير الضد بالضد غير جائز ولا يخفى أنه في حيز المنع فقد ورد ذلك في استعمالهم وذكره الراغب والإمام المرزوقي وأنشدوا شاهداً له قول أبي ذؤيب

: إذا لسعته النحل لم يرج لسعها . . .

وحالفها في بيت نوب عوامل

(31/358)

ووجه ذلك الراغب بأن الرجاء والخوف يتلازمان ، وأما الاعتراض على الإمام بأن استعمال الضد في الضد جائز في الاستعارة التهكمية فليس بشيء لأن مقصوده رحمه الله تعالى أن ذلك غير جائز في غير الاستعارة المذكورة كما يشعر به قوله تفسير دون استعارة ثم إنه لا يجوز اعتبار هذه الاستعارة هنا لأن التهكم غير مراد كما لا يخفى ، ويعلم مما ذكرنا في تفسير الآية أن الباء للظرفية ، وجوز أن تكون للسببية على معنى سكنوا بسبب زينتها وزخارفها ، واختيار صيغة الماضي في الخصلتين الأخيرتين للدلالة على التحقق والتقرر كما أن اختيار صيغة المستقبل في الأولى للإيذان بالاستمرار ﴿ والذين هُمْ عَنْ ءاياتنا ﴾ المفصلة في صحائف الأكوان حسبما أشير إلى بعضها أو آياتنا المنزلة المنبهة على الاستدلال بها المتفقة معها في الدلالة على حقية ما لا يرجونه من اللقاء المترتب على البعث وعلى بطلان ما رضوا به واطمأنوا فيه من الحياة الدنيا ﴿ غافلون ﴾ لا يتفكرون فيها أصلاً وإن نبهوا بما نبهوا لانهماكهم بما يصدهم عنها من الأحوال المعدودة ، وتكرير الموصول للتوصل به إلى هذه الصلة المؤذنة بدوام غفلتهم واستمرارها والعطف لمغايرة الوصف المذكور لما قبله من الأوصاف وفي ذلك تنبيه على أنهم جامعون لهذا وتلك وأن كل واحد منهما متميز مستقل صالح لأن يكون منشأ للذم والوعيد ، والقول بأن ذلك لتغاير الوصفين والتنبيه على أن الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأساً والانهماك في الشهوات

بحيث لا يخطر ببالهم الآخرة أصلاً ليس بشيء إذ يفهم من ظاهره أن كلاً منهما غير موجب للوعيد بالاستقلال بل الموجب له المجموع وهو كما ترى ، وكونه لتغاير الفريقين بأن يراد من الأولين من أنكر البعث ولم يرد إلا الحياة الدنيا وبالآخرين من ألهاه حب العاجل عن التأمل في الآجل والإعداد له كأهل الكتاب الذين ألهاهم حب الدنيا والرياسة عن الإيمان والاستعداد للآخرة بعيد غاية البعد في هذا المقام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(32/358)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾

هذا استئناف وعيد للذين لم يؤمنوا بالبعث ولا فكروا في الحياة الآخرة ولم ينظروا في الآيات نشأ عن الاستدلال على ما كفروا به من ذلك جمعاً بين الاستدلال المناسب لأهل العقول وبين الوعيد المناسب للمعرضين عن الحق إشارة إلى أن هؤلاء لا تنفعهم الأدلة وإنما ينتفع بها الذين يعلمون ويتقون وأما هؤلاء فهم سادرون في غُلوائهم حتى يلاقوا العذاب .

وإذ قد تقرر الرجوع إليه للجزاء تأَتَّى الوعيد لمنكري البعث الذين لا يرجون لقاء ربهم

وَالمصيرَ إليه .

ولوقوع هذه الجملة موقع الوعيد الصالح لأن يعلمه الناس كلهم مؤمنهم وكافرهم عدل فيها عن طريقة الخطاب بالضمير إلى طريقة الإظهار ، وجيء بالموصولية للإيماء إلى أن الصلة علة في حُصول الخبر .

وقد جُعل عنوان الذين لا يرجون لقاءنا علامة عليهم فقد تكرر وقوعه في القرآن .

ومن المواقع ما لا يستقيم فيه اعتبار الموصولية إلا للاشتهار بالصلة كما سنذكر عند قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا ﴾ في هذه السورة [15] .

والرجاء : ظن وقوع الشيء من غير تقييد كون المظنون محبوباً وإن كان ذلك كثيراً في كلامهم لكنه ليس بمتعيّن .

فمعنى : ﴿ لا يرجون لقاءنا ﴾ لا يظنونه ولا يتوقعونه .

ومعنى : ﴿ رضوا بالحياة الدنيا ﴾ أنهم لم يعملوا النظر في حياة أخرى أرقى وأبقى لأن الرضا بالحياة الدنيا والاقتناع بأنها كافية يصرف النظر عن أدلة الحياة الآخرة ، وأهل الهدى يرون الحياة الدنيا حياةً ناقصة فيشعرون بتطلب حياة تكون أصفى من أكدارها فلا يلبثون أن تطلع لهم أدلة وجودها ، وناهيك بإخبار الصادق بها ونصب الأدلة على تعيّن حصولها ، فلهذا جعل الرضى بالحياة الدنيا مذمة ومُلقياً في مهواة الخسران .

وفي الآية إشارة إلى أن البهجة بالحياة الدنيا والرضى بها يكون مقدارُ التوغل فيهما بمقدار ما يصرف عن الاستعداد إلى الحياة الآخرة .

وليس ذلك بمقتض الإعراض عن الحياة الدنيا فإن الله أنعم على عباده بنعم كثيرة فيها وجب الاعتراف بفضله بها وشكره عليها والتعرف بها إلى مراتب أعلى هي مراتب حياة أخرى والتزود لها .

وفي ذلك مقامات ودرجات بمقدار ما تهيأت له النفوس العالية من لذات الكمالات الروحية ، وأعلاها مقام قول النبي صلى الله عليه وسلم " فقلتُ ما لي وللدنيا " والاطمئنان : السكون يكون في الجسد وفي النفس وهو الأكثر ، قال تعالى : ﴿ يأيتها النفس المطئنة ﴾ [الفجر : 27] .

وقد تقدم تصريف هذا الفعل عند قوله تعالى : ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾ في سورة [البقرة : 260] .

ومعنى اطمئنوا بها ﴾ سكنت أنفسهم وصرفوا هممهم في تحصيل منافعها ولم يسعوا لتحصيل ما ينفع في الحياة الآخرة ، لأن السكون عند الشيء يقتضي عدم التحرك لغيره .

وعن قتادة : إذا شئت رأيت هذا الموصوفَ صاحب دنيا ، لها يرضى ، ولها يغضب ، ولها يفرح ، ولها يهتم ويحزن .

والذين هم غافلون هم عين الذين لا يرجون اللقاء ، ولكن أعيد الموصول للاهتمام بالصلة والإيماء إلى أنها وحدها كافية في استحقاق ما سيذكر بعدها من الخبر .

وإنما لم يعد الموصول في قوله : ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا ﴾ لأن الرضى بالحياة الدنيا من تكملة معنى الصلة التي في قوله : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ .

(34/358)

والمراد بالغفلة : إهمال النظر في الآيات أصلاً ، بقرينة المقام والسياق وبما تومىء إليه الصلة بالجملة الاسمية ﴿ هم عن آياتنا غافلون ﴾ الدالة على الدوام ، وبتقديم المجرور في قوله ﴿ عن آياتنا غافلون ﴾ من كون غفلتهم غفلة عن آيات الله خاصة دون غيرها من الأشياء فليسوا من أهل الغفلة عنها مما يدل مجموعه على أن غفلتهم عن آيات الله دأب لهم وسجية ، وأنهم يعتمدونها فتؤول إلى معنى الإعراض عن آيات الله وإباء النظر فيها عناداً ومكابرة .

وليس المراد مَن تعرِض له الغفلة عن بعض الآيات في بعض الأوقات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(35/358)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾

والرجاء هو طلب شيء محبوب متوقع ، والتمنى طلب شيء محبوب إلا أنه غير ممكن الحدوث ، ولكن تعلن بتمنّيك أنه أمر تحبه ، مثل من قال :

ألا ليتَ الشبابَ يعودُ يوماً . . . فأخبرَهُ بما فَعَلَ المَشِيبُ

هو بهذا القول يبين أن الشباب أمر محبوب ومرغوب . لكن هل يتأتى هذا ؟ طبعاً لا . إذن : التمني هو طلب شيء محبوب لا يمكن أن يقع ؛ ومثل قول الشاعر :

ليتَ الكواكبَ تَدْنُو لي فَأَنْظِمَها . . . عُقُودَ مَدْحٍ فما أرضَي لكُم كَلِمِي

وهذا غير ممكن .

أما الرجاء فهو أن تطلب شيئاً محبوباً من الممكن أن يقع .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ ، فلماذا لا يرجون لقاء الله ؟

لأن الذي يرجو لقاء الله هو من أعد نفسه لهذا اللقاء ؛ ليستقبل ثواب الله ، لكن الذي لم يفعل أشياء تؤهله إلى ثواب الله ، وعمل أشياء تؤهله إلى عقاب الله ؛ فكيف له أن يرجو لقاء الله ؟ إنه لا يرجو ذلك .

وعلى سبيل المثال : إن الرجل الذي يستشهد ويقدم نفسه للشهادة ، ونفسه هي أعز شيء عنده ، إنما يفعل ذلك لوثوقه بأن ما يستقبله بالاستشهاد خير مما يتركه من الحياة .

إذن : فالذي يرجو لقاء الله هو الذي يُعدُّ نفسه لهذا اللقاء ؛ بأن يتقي الله في أوامره ، ويتقي الله في نواهيه ؛ ولذلك تمر على الإنسان أحداث شَتّى ؛ وهي في مقاييس اليقين بين أمرين اثنين : حسنات وسيئات ، وكل واحد يعلم أية حسنات قد فعل ، وأية سيئات قد اقترف ، ولا يغشُّ أحد نفسه ، فإذا ما كان حيّاً فقد يجعله الأمل يكذّب نفسه ، ولا يرى إلا ما فات من المغريات .

(36/358)

أما إذا جاء لحظة الغرغرة في الموت ، فهو يستعرض كل صفحته . فإن كانت حسنة استبشر وجهه ، وإن كانت سيئة اكفهرَّ وجهه ، ولذلك يقال : " فلان كانت خاتمته سيئة ، وفلان كانت خاتمته متهللة " . وهذا كلام صحيح ؛ لأن الروح ساعة أن تُقبض فهي تترك

الجسم على ما هو عليه ساعة فراقها ، فإن كان ضاحكاً ومستبشراً ، فقد رأى بعضاً مما ينتظره من خير .

والإنسان وقت الغرغرة لا يكذب على نفسه ، فهو ساعة يمرض بمرض فهو يأمل في العافية ، فإذا أتى وقت انتهاء تُعْرَضُ عليه أعماله عَرْضاً سريعاً ، فإن كانت الأعمال حسنة تنفرج أساريره ؛ لأنه يستشرف ما سوف يلقاه من جزاء .

وهذا مثل التلميذ حين يكون مُجِدّاً ومجتهداً ثم يقولون له : هناك من جاء لك بالنتيجة ؛ فيجري عليه مطمئناً . وإن كان غير مُجِدٍّ ؛ لم يجب ، ويخاف من لقاء مَنْ يحمل النتيجة .

كذلك الذين يرجون لقاء الله ؛ عملوا استعداداً لهذا اللقاء وينتظرون الجزاء من الله ، أما من لم يعملوا فهم يخافون من لقاء الله ولا يرجونه وسبب ذلك أنهم لم يعملوا للآخرة ﴿ وَرَضُواْ بالحياة الدنيا واطمأنوا بِهَا ﴾ وكأنهم قد اكتفوا بها ولم يرغبوا في الآخرة .

وقد سمى الله هذه الدار اسماً كان يجب بمجرد أن نسمعه ننصرف عنها ، فقال : ﴿ بالحياة الدنيا ﴾ ولا يوجد اسم أقل من ذلك ، والمقابل للحياة الدنيا هي الحياة العليا .

والإنسان قد يبحث في عُمْر الدنيا ويقول : إنها تستمر عشرة ملايين من السنين ، أو مائة مليون سنة ، وقد لا يلتفت إلى أن عمره هو موقوت في هذه الدنيا .

إذن : فالدنيا بالنسبة لك هي مقدار عمرك فيها ، لا مقدار عمرها الحقيقي إلى أن تقوم الساعة ، وماذا تستفيد منها وهي تطول لغيرك ؟ إن عمر الدنيا بالنسبة للإنسان هو مقدار

مُكْث الإنسان فيها ، وهو مظنون وغير متيقن ، وقد يمت وهو في بطن أمه أو يموت وهو ابن شهر ، أو ابن سنة ، أو بعد أن يبلغ المائة . فالذي يرضي بغير المتيقن قصير النظر .

(37/358)

ولذلك انظر إلى القرآن وهو يقول : ﴿ أَرَضِيتُمْ بالحياة الدنيا مِنَ الآخرة فَمَا مَتَاعُ الحياة الدنيا فِي الآخرة إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [التوبة : 38] .

وحتى إن قسْت عُمْر الدنيا من بدء الخلق إلى أن تقوم الساعة ، فه إلى فناء ، وما دامت إلى فناء ، فهي متاع قليل ، ومن يطمئن إلى هذا المتاع القليل فهو غافل ؛ لذلك يُنهي الحق الآية : ﴿ والذين هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴾ عكس ما قال في الذين يعرفونَ قيمة العمل للآخرة . حين يقول الحق : ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : 6] .

والغفلة : هي ذهاب المعنى عن النفس ، فما دام المعنى موجوداً في النفس ، فاليقظة توجد ، والغفلة تذهب . إذن : الغفلة ذهاب المعنى عن النفس ، واليقظة هي استقرار المعنى في النفس .

ونحن نعرف أن المعلومات التي يستقبلها الذهن البشري إنما تلتقطها بؤرة الشعور ، مثلما تلتقط آلة التصوير الفوتوغرافية أية صورة .

وإياك أن تظن أن الإنسان يعرف المعلومة من تكرارها مرتين مثلاً أو أكثر ؛ لأن كل الأذهان تتفق في أنها تلتقط المعلومة من مرة واحدة ، ويتميز إنسان عن آخر في قدرته على أن يستقبل المعلومة بذهن مستعد لها ؛ لأن بورة الشعور لا تلتقط إلا معنى واحداً ، ثم يتزحزح المعنى إلى حاشية الشعور ؛ لتأتي المعلومة الثانية ، فإن استقبلت المعلومة وفي بؤرة شعورك معنى آخر ؛ لا تثبت المعلومة ؛ لذلك تكرر القراءة مرة واثنتين وثلاث مرات ، حتى تصادف المعلومة خُلُوَّ بؤرة الشعور .

ومثال هذا : الطالب حين يحاول حفظ قصيدة ، فلو كان ذهنه مستعداً لاستقبال القصيدة فهو يحفظها من مرة واحدة .

لاستقبال القصيدة فهو يحفظها من مرة واحدة .

إذن : الذهن كآلة الغوتوغرافيا ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ . . . ﴾ [الأحزاب : 4] .

(38/358)

فإن كنت تريد أن تستقبل معلومة ما ، فكُن حريصاً على أن تُفرِّغ ذهنك ، من أي معلومة ؛ لتأتي المعلومة الجديدة ، فتصادف خلاء لبؤرة الشعور ؛ فتستقر فيها .

والمدرس الناجح هو الذي يلفت أذهان كل التلاميذ لما يقول ، وما دامت الأذهان قد التفتت إليه ؛ فلن تمر كلمة دون أن يستوعبها التلاميذ ، عكس المدرس غير الناجح الذي يؤدي عمله برتابة وركاكة تَصْرف عنه التلاميذ . ونجد المدرس الناجح ، وهو يُلفت انتباه تلاميذه ويقطع الدرس ؛ ليسأل أي واحد منهم عمَّا قال ؛ فيستمع إليه التلاميذ من بعد ذلك بانتباه ؛ لأن كل واحد منهم يتوقع أن يُسأل عن المعلومة التي قِيلتْ من قبل .

والتلميذ المجتهد هو الذي يقرأ الدرس بعقلية قادرة على مناقشة ما فيه من أساليب ومعلومات ، وهو يستصحب حضور الذهن أثناء القراءة ، أما التلميذ الفاشل فهو يقرأ دون يقظة أو انتباه .

مثال آخر : إن الفلاح الذي ينام على حافة بئر الساقية لا يقع في بئرها ؛ لأنه ينام وهو مستصحب لفكرة أنه إن تقلَّب على جنبٍ ما فسوف يقع في البئر . وكذلك الإخوة حين ينام اثنان منهم على سرير واحد ، يقوم كل واحد منهما في الصباح وهو مستصحب أن هناك آخر بجانبه ، ولكن إذا نام كل منهما في سرير منفصل ، فهو يستيقظ ليجد رأسه في ناحية وساقيه في ناحية أخرى ، وتسمى هذه عملية الاستصحاب واليقظة ، ويقال " فلان يقظ " ، وكلمة " يقظ " ضد " نائم " ؛ لأن اليقظان يحتفظ بالوعي والانتباه .

إذن : فالغفلة هي ذهاب المعنى من النفس وانطماسه ، والذين يمرون بالآيات وهم غافلون

عنها لن ينتفعوا بشيء من هذه الآيات ، ثم تأتي لهم محصلة غفلتهم في الآخرة . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(39/358)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) ﴾

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا ﴾ الآية . قال : هؤلاء أهل الكفر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴾ قال : مثل قوله ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها ﴾ [هود : 15] الآية .

وأخرج أبو الشيخ عن يوسف بن أسباط قال : الدنيا دار نعيم الظالمين قال : وقال علي بن

أبي طالب : الدنيا جيفة فمن أرادها فليصبر على مخالطة الكلاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(40/358)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) ﴾

قوله تعالى : ﴿ واطمأنوا ﴾ : يجوز أن يكون عطفاً على الصلة ، وهو الظاهرُ ، وأن تكونَ الواوُ للحال ، والتقدير : وقد اطمأنُّوا . وقوله : " والذين هم " يحتمل أن يكون من باب عطف الصفات ، بمعنى أنَّهم جامعون بين عدم رجال لقاءِ الله وبين الغَفْلة عن الآيات ، وأن يكون هذا الموصولُ غيرَ الأول ، فيكونَ عطفاً على اسم " إن " أي : إن الذين لا يَرْجُون ، وإن الذين هم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 154 ﴾

(41/358)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) ﴾

أنكروا جواز الروّية فَلَمْ يرجوها ، والمؤمنون آمنوا بِجَوَازِ الرؤية فأملوها .

ويقال : لا يرجون لقاءَه لأنهم لم يشتاقوا إليه ، ولم يشتاقوا إليه لأنهم لم يُحبُّوه لأنهم لم يعرفوه ، ولم يعرفوه لأنهم لم يطلبوه لأنه أراد ألاَّ يطلبوه ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ [النجم : 42] .

ويقال لو أراد أن يطلبوه لطلبوه ، ولو طلبوا لعرفوا ، ولو عرفوا لأحبُّوا ، ولو أحبُّوا لاشتاقوا ، ولو اشتاقوا لرجوا ، ولو رجعوا لأمَّلوا لقاءَه ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة : 31] .

قوله تعالى : ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ﴾ : أصحابُ الدنيا رضوا بالحياة الدنيا فَحُرِمُوا الجنةَ ، والزُّهَّادُ والعُبَّاد ركَنُوا إلى الجنة ورضوا بها فبقوا عن الوصلة ، وقد عَلِمَ كلُّ أناسٍ معشْرَبهم ، ولكلٍّ أحدٍ مقامٌ .

ويقال إذا كانوا لا يرجون لقاءَه فمأواهم العذابُ والفرقة ، فدليلُ الخطاب أن الذي يرجو

لقاءَه رآه ، ومآله ومنتهاه الوصلةُ واللقاء والزُّلْفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 81 ﴾

(42/358)

قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (8) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

وتضمن قوله تعالى استئنافاً : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ مأواهم النار بما ﴾ أي بسبب ما ﴿ كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ يكسبون ﴾ فإن كسبهم كله ضلال - أنه لا يعاجلهم بالعقاب على تأخير المتاب ، وجعلت ملاقاة ما لا يقدر إلا الله ملاقاة الله تفخيماً لشأنها كما جعل إتيان جلائل آيات الله في قوله :

﴿ إلا أن يأتيهم الله في ظِلل من الغمام ﴾ [البقرة : 210] ونحوه ، والاطمئنان : الركون إلى الشيء على تمكن فيه ، فهؤلاء مكنوا الأحوال للدنيا فصار فرحهم وسخطهم لها ؛ والغفلة : ذهاب المعنى عن القلب بما يضاد حضوره إياه ، واليقظة نقيضها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 419.420 ﴾

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما وصفهم بهذه الصفات الأربعة قال : ﴿ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النار بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

النيران على أقسام : النار التي هي جسم محسوس مضيء محرق ، صاعداً بالطبع ، والإقرار به واجب ، لأجل أنه ثبت بالدلائل المذكورة أن الإقرار بالجنة والنار حق .

القسم الثاني : النار الروحانية العقلية ، وتقريره أن من أحب شيئاً حباً شديداً ثم ضاع عنه ذلك الشيء بحيث لا يمكنه الوصول إليه ، فإنه يحترق قلبه وباطنه ، وكل عاقل يقول : إن فلاناً محترق القلب محترق الباطن بسبب فراق ذلك المحبوب .

وألم هذه النار أقوى بكثير من ألم النار المحسوسة .

إذا عرفت هذا فنقول : إن الأرواح التي كانت مستغرقة في حب الجسمانيات وكانت غافلة

عن حب عالم الروحانيات ، فإذا مات ذلك الإنسان وقعت الفرقة بين ذلك الروح وبين معشوقاته ومحبوباته ، وهي أحوال هذا العالم ، وليس له معرفة بذلك العالم ولا إلف مع أهل ذلك العالم ، فيكون مثاله مثال من أخرج من مجالسة معشوقه وألقي في بئر ظلمانية لا إلف له بها ، ولا معرفة له بأحوالها ، فهذا الإنسان يكون في غاية الوحشة ، وتألم الروح فكذا هنا ، أما لو كان نفوراً عن هذه الجسمانيات عارفاً بمقابحها ومعايبها وكان شديد الرغبة في اعتلاق العروة الوثقى ، عظيم الحب لله ، كان مثاله مثال من كان محبوساً في سجن مظلم عفن مملوء من الحشرات المؤذية والآفات المهلكة ، ثم اتفق أن فتح باب السجن وأخرج منه وأحضر في مجلس السلطان الأعظم مع الأحباب والأصدقاء ، كما قال تعالى ﴿ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مّنَ النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾ [النساء : 69] فهذا هو الإشارة إلى تعريف النار الروحانية والجنة الروحانية .

المسألة الثانية :

الباء في قوله : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ مشعر بأن الأعمال السابقة هي المؤثرة في حصول هذا العذاب ونظيره قوله تعالى : ﴿ ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ الله لَيْسَ بظلام للعَبِيدِ . ﴾ [الحج : 10] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 33 ﴾

وقال ابن عطية فى الآيتين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

قال أبو عبيدة وتابعه القتبي وغيره ، ﴿ يرجون ﴾ في هذه الآية بمعنى يخافون واحتجوا

ببيت أبي ذؤيب : [الطويل]

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها . . . وخالفها في بيت نوب عواسل

(45/358)

وحكى المهدوي عن بعض أهل اللغة وقال ابن سيده والفراء : إن لفظة الرجاء إذا جاءت منفية فإنها تكون بمعنى الخوف ، وحكي عن بعضهم أنها تكون بمعناها في كل موضع تدل عليه قرائن ما قبله وما بعده ، فعلى هذا التأويل معنى الآية : إن الذين لا يخافون لقاءنا ، وقال ابن زيد : هذه الآية في الكفار ، وقال بعض أهل العلم : " الرجاء " في هذه الآية على بابه ، وذلك أن الكافر المكذب بالبعث ليس يرجو رحمة في الآخرة ولا يحسن ظناً بأنه يلقى الله ولا له في الآخرة أمل ، فإنه لو كان له فيها أمل لقارنه لا محالة خوف ، وهذه الحال من الخوف المقارن هي الفائدة إلى النجاة ، والذي أقول : إن الرجاء في كل موضع على بابه وإن

بيت الهذلي معناه لم يرج فقد لسعها فهو يبني عليه ويصبر إذ يعلم أنه لا بد منه ، وقوله ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا ﴾ يريد كانت آخر همهم ومنتهى غرضهم ، وأسند الطبري عن قتادة أنه قال في تفسير هذه الآية : إذا شئت رأيت هذا الموصوف ، صاحب دنيا لها يغضب ولها يرضى ولها يفرح ولها يهتم ويحزن ، فكأن قتادة صورها في العصاة ولا يترتب ذلك إلا مع تأول الرجاء على بابه ، إذ قد يكون العاصي المجلح مستوحشاً من آخرته ، فأما على التأويل الأول فمن لا يخاف لقاء الله فهو كافر ، وقوله ﴿ واطمأنوا بها ﴾ تكميل في معنى القناعة بها والرفض لغيرها وأن الطمأنينة بالشيء هي زوال التحرّك إلى غيره ، وقوله ﴿ والذين هم عن آياتنا غافلون ﴾ يحتمل أن يكون ابتداء إشارة إلى فرقة أخرى من الكفار وهؤلاء على هذا التأويل أضل صفقة لأنهم ليسوا أهل دنيا بل غفلة فقط ، ثم حتم عليهم بالنار وجعلها ﴿ مأواهم ﴾ ، وهو حيث يأوي الإنسان ويستقر ، ثم جعل ذلك بسبب كسبهم واجتراحهم ، وفي هذه اللفظة رد على الجبرية ونص على تعلّق العقاب بالتكسب الذي للإنسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(46/358)

وقال القرطبى فى الآيتين :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾

"يرجون" يخافون ؛ ومنه قول الشاعر :

إذا لسعتْه النحل لم يَرْجُ لَسْعَها . . .

وخالفها في بَيْت نُوبٍ عواسل

وقيل يرجون يطمعون ؛ ومنه قول الآخر :

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي . . .

وقومي تميمٌ والفلاةُ ورائيا

فالرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع ؛ أي لا يخافون عقاباً ولا يرجون ثواباً .

وجعل لقاء العذاب والثواب لقاء لله تفخيماً لهما .

وقيل : يجري اللقاء على ظاهره ، وهو الرؤية ؛ أي لا يطمعون في رؤيتنا .

وقال بعض العلماء : لا يقع الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجَحْد ؛ كقوله تعالى : ﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ [نوح : 13] .

وقال بعضهم : بل يقع بمعناه في كل موضع دلّ عليه المعنى .

قوله تعالى : ﴿ وَرَضُواْ بالحياة الدنيا ﴾ أي رَضُوا بها عوضاً من الآخرة فعملوا لها .

﴿ واطمأنوا بِهَا ﴾ أي فرحوا بها وسكنوا إليها ، وأصل اطمأن طأمن طُمأنينة ، فقدّمت

ميمه وزيدت نون وألف وصل ، ذكره الغَزْنَوِيّ .

﴿ والذين هُمْ عَنْ آيَاتِنَا ﴾ أي عن أدلتنا ﴿ غَافِلُونَ ﴾ لا يعتبرون ولا يتفكرون .

﴿ أولئك مَأْوَاهُمُ ﴾ أي مثواهم ومقامهم .

﴿ النار بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي من الكفر والتكذيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(47/358)

وقال أبو حيان فى الآيتين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

الظاهر أن الرجاء هو التأميل والطمع أي : لا يؤملون لقاء ثوابنا وعقابنا .

وقيل : معناه لا يخافون .

قال ابن زيد : وهذه الآية في الكفار ، والمعنى أنّ المكذب بالبعث ليس يرجو رحمة في الآخرة ، ولا يحسن ظناً بأنه يلقى الله .

وفي الكلام محذوف أي : ورضوا بالحياة الدنيا من الآخرة كقوله : ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ والمعنى أنّ منتهى غرضهم وقصارى آمالهم إنما هو مقصور على ما يصلون

إليه في الدنيا .

واطمأنوا أي سكنوا إليها ، وقنعوا بها ، ورفضوا ما سواها .

والظاهر أنّ قوله : والذين هم ، هو قسم من الكفار غير القسم الأول ، وذلك التكرير الموصول ، فيدل على المغايرة ، ويكون معطوفاً على اسم إنّ ويكون أولئك إشارة إلى صنفي الكفار ذي الدنيا المتوسع فيها الناظر في الآيات ، فلم يؤثر عنده رجاء لقاء الله ، بل رضي بالحياة الدنيا لتكذيبه بالبعث والجزاء ، والعادم التوسع الغافل عن آيات الله الدالة على الهداية .

ويحتمل أن يكون من عطف الصفات ، فيكون الذين هم عن آياتنا غافلون ، هم الذين لا يرجون لقاء الله .

والظاهر أنّ واطمأنوا بها عطف على الصلة ، ويحتمل أن يكون واو الحال أي : وقد اطمأنوا بها .

والآيات قيل : آيات القرآن .

وقيل : العلامات الدالة على الوحدانية والقدرة .

وقال ابن زيد : ما أنزلناه من حلال وحرام وفرض من حدود وشرائع أحكام ، وبما كانوا يكسبون إشعاراً بأنّ الأعمال السابقة يكون عنها العذاب ، وفي ذلك ردّ على الجبرية ، ونص على تعلق العقاب بالكسب .

ومجيئه بالمضارع دليل على أنهم لم يزالوا مستمرين على ذلك ماضي زمانهم ومستقبله .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(48/358)

وقال أبو السعود :

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من صفات السوء ﴿ مَأْوَاهُمُ ﴾ أي مسكنُهم ومقرُّهم الذي لا بَراحَ لهم منه ﴿ النار ﴾ لا ما اطمأنوا بها من الحياة الدنيا ونعيمُها ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من الأعمال القلبيةِ المعهودةِ وما يستتبعه من أصناف المعاصي والسيئاتِ أو بكسبهم إياها ، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل للدِلالة على الاستمرار التجددي والباء متعلقةٌ بمضمون الجملةِ الأخيرةِ الواقعةِ خبراً عن اسم الإشارةِ وهو مع خبرِه خبرٌ لإن في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ الخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (8) ﴾

﴿ أولئك ﴾ أي الموصوفن بما ذكر ﴿ مَأْوَاهُمُ ﴾ أي مسكنهم ومقرهم الذي لا براح لهم

منه ﴿ النار ﴾ لا ما اطمأنوا به من الحياة الدنيا ونعيمها ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الأعمال القلبية المعدودة وما يستتبعه من المعاصي أو يكسبهم ذلك ، والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع للدلالة على الاستمرار ، والباء متعلقة بما دل عليه الجملة الأخيرة الواقعة خبراً عن اسم الإشارة وقدره أبو البقاء جوزوا ، وجملة ﴿ أولئك ﴾ الخ خبر إن في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يَرْجُونَ ﴾ [يونس : 7] الخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(49/358)

وقال ابن عاشور :

وأعقب ذلك باسم الإشارة لزيادة إحضاء صفاتهم في أذهان السامعين ، ولما يؤذن به مجيء اسم الإشارة مبتدأ عقب أوصاف من التنبيه على أن المشار إليه جدير بالخبر من أجْل تلك الأوصاف كقوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ في سورة [البقرة : 5] .

والمأوى : اسم مكان الإيواء ، أي الرجوع إلى مصيرهم ومرجعهم .

والباء للسببية .

والإتيان بـ (ما) الموصولة في قوله : بما كسبوا ﴾ للإيماء إلى علة الحكم ، أي أن مكسوبهم سَبب في مصيرهم إلى النار ، فأفاد تأكيد السببية المفادة بالباء .

والإتيان بـ (كان) للدلالة على أن هذا المكسوب ديدنهم .

والإتيان بالمضارع للدلالة على التكرير ، فيكون ديدنهم تكرير ذلك الذي كسبوه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(50/358)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (8) ﴾

وأنت تقول : " أويت إلى كذا " ، إذا كان هذا هو المكان الذي يعصمك من شيء ، وهنا يقول الحق : ﴿ مَأْوَاهُمُ النار ﴾ فإذا كان ذلك هو المأوى ، فلا بد أن ما خارجها بالنسبة لهم أشد عذاباً . وهم يأوون إلى النار ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي : بسبب ما كانوا يعملون من ذنوب وسيئات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(51/358)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (8) ﴾

و: ﴿ أولئك ﴾ : مبتدأ و " مَأْواهم " مبتدأ ثانٍ ، و " النار " خبرُ هذا الثاني ، والثاني وخبره خبر " أولئك " و " أولئك " وخبره خبر " إن الذين " . و " بما كانوا " متعلقٌ بما تضمَّنته الجملة من قوله : " مَأْواهم النار " والباءُ سببيةٌ ، و " ما " مصدريةٌ ، وجيء بالفعل بعدها مضارعاً دلالةً على استمرارِ ذلك في كل زمان . وقال أبو البقاء : " إن الباء تتعلَّق بمحذوف أي : جُوزوا بما كانوا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 154 ﴾

(52/358)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انقضى هذا القسم حالاً ومآلاً ، أتبعه سبحانه القسم الآخر بقوله مؤكداً لإنكار الكفار هدايتهم : ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا هذا الوصف بما لهم من القوة النظرية التي كمالها معرفة الأشياء وسلطانها معرفة الله تعالى ﴿ وعملوا ﴾ أي وصدقوا دعواهم الإيمان بأن عملوا ﴿ الصالحات ﴾ بالقوة العملية التي سلطانها عبودية الله تعالى ، والصالح : ما جاء بالحث عليه الأنبياء عليهم السلام ﴿ يهديهم ﴾ أي على سبيل التجدد والاستمرار ﴿ ربهم ﴾ أي المحسن إليهم ﴿ بإيمانهم ﴾ أي بسبب تصديقهم وإذعانهم لمعرفة الآيات التي غفل عنها الذين يأملون البقاء ولا يرجون اللقاء ، فقادتهم إلى دار السلام ، وهذا كما كان كثير من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ م بعد إسلامهم يشتد تعجبهم مما كان من تباطئهم عن الإسلام ، وكما ترى أنك تحنق على بعض الكملة فلا يدعك حظ النفس ترى له حسنة ، ثم أنك قد ترضى عنه فتراه كله محاسن .

ولما ذكر أن مآل القسم الأول النار ، ذكر مآل هذا القسم في معرض سؤال من يقول : ماذا تورثهم هدايتهم ؟ فقيل له : ﴿ تجري ﴾ وأشار إلى قرب منال المياه وانكشافها عن كل ما ينتفع به في غير ذلك بإثبات الجار فقال : ﴿ من تحتهم ﴾ أي تحت غرفهم وأسرّتهم وغير ذلك من مشتهياتهم كقوله تعالى ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ [مريم : 14] وكذا قول فرعون ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ [الزخرف : 51] ﴿ الأنهار ﴾ كائنين ﴿ في

جنّات النعيم ﴾ أي التي ليس فيها من غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 420 ﴾

(53/358)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال المنكرين والجاحدين في الآية المتقدمة ، ذكر في هذه الآية أحوال المؤمنين المحقين ، واعلم أنه تعالى ذكر صفاتهم أولاً ، ثم ذكر مالهم من الأحوال السنية والدرجات الرفيعة ثانياً ، أما أحوالهم وصفاتهم فهي قوله : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ وفي تفسيره وجوه :

الوجه الأول : أن النفس الإنسانية لها قوتان :

القوة النظرية : وكمالها في معرفة الأشياء ، ورئيس المعارف وسلطانها معرفة الله .

والقوة العملية : وكمالها في فعل الخيرات والطاعات ، ورئيس الأعمال الصالحة وسلطانها خدمة الله .

فقوله : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ إشارة إلى كمال القوة النظرية بمعرفة الله تعالى وقوله : ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ إشارة إلى كمال القوة العملية بخدمة الله تعالى ، ولما كانت القوة النظرية مقدمة على القوة العملية بالشرف والرتبة ، لا جرم وجب تقديمها في الذكر .

الوجه الثاني : في تفسير هذه الآية قال القفال : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي صدقوا بقلوبهم ، ثم حققوا التصديق بالعمل الصالح الذي جاءت به الأنبياء والكتب من عند الله تعالى .

الوجه الثالث : ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي شغلوا قلوبهم وأرواحهم بتحصيل المعرفة ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي شغلوا جوارحهم بالخدمة ، فعينهم مشغولة بالاعتبار كما قال : ﴿ فاعتبروا ياأولى الابصار ﴾ [الحشر : 2] وأذنهم مشغولة بسماع كلام الله تعالى كما قال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرسول ﴾ [المائدة : 83] ولسانهم مشغول بذكر الله كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ اذكروا الله ﴾ [الأحزاب : 41] وجوارحهم مشغولة بنور طاعة الله كما قال : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُواْ للَّهِ الذى يُخْرِجُ الخبء فِى السموات والارض ﴾ [النمل : 25] .

(54/358)

واعلم أنه تعالى لما وصفهم بالإيمان والأعمال الصالحة ذكر بعد ذلك درجات كراماتهم ومراتب سعاداتهم وهي أربعة .

المرتبة الأولى : قوله : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الانهار فِي جنات النعيم ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في تفسير قوله : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ وجوه : الأول : أنه تعالى يهديهم إلى الجنة ثواباً لهم على إيمانهم وأعمالهم الصالحة ، والذي يدل على صحة هذا التأويل وجوه : أحدها : قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم ﴾ [الحديد : 12] وثانيها : ما روي أنه عليه السلام قال : " إن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة حسنة فيقول له أنا عملك فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة والكافر إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة سيئة فيقول له أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار " وثالثها : قال مجاهد : المؤمنون يكون لهم نور يمشي بهم إلى الجنة .

ورابعها : وهو الوجه العقلي أن الإيمان عبارة عن نور اتصل به من عالم القدس ، وذلك النور كالخيط المتصل بين قلب المؤمن وبين ذلك العالم المقدس ، فإن حصل هذا الخط النوراني قدر العبد على أن يقتدي بذلك النور ويرجع إلى عالم القدس ، فأما إذا لم يوجد هذا الحبل النوراني تاه في ظلمات عالم الضلالات نعوذ بالله منه .

والتأويل الثاني : قال ابن الأنباري : إن إيمانهم يهديهم إلى خصائص في المعرفة ومزايا في الألفاظ ولوامع من النور تستنير بها قلوبهم ، وتزول بواسطتها الشكوك والشبهات عنهم ، كقوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد : 17] وهذه الزوائد والفوائد والمزايا يجوز حصولها في الدنيا قبل الموت ، ويجوز حصولها في الآخرة بعد الموت ، قال القفال : وإذا حملنا الآية على هذا الوجه .

(55/358)

كان المعنى يهديهم ربهم بإيمانهم وتجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم ، إلا أن حذف الواو وجعل قوله : ﴿ تَجْرِى ﴾ خبراً مستأنفاً منقطعاً عما قبله :

والتأويل الثالث : أن الكلام في تفسير هذه الآية يجب أن يكون مسبوقاً بمقدمات .

المقدمة الأولى : أن العلم نور والجهل ظلمة .

وصريح العقل يشهد بأن الأمر كذلك ، ومما يقرره أنك إذا ألقيت مسألة جليلة شريفة على شخصين ، فاتفق أن فهمها أحدهما وما فهمها الآخر ، فإنك ترى وجه الفاهم متهللاً مشرقاً مضيئاً ، ووجه من لم يفهم عبوساً مظلماً منقبضاً ، ولهذا السبب جرت عادة القرآن بالتعبير عن العلم والإيمان والنور ، وعن الجهل والكفر بالظلمات .

والمقدمة الثانية : أن الروح كاللوح ، والعلوم والمعارف كالنقوش المنقوشة في ذلك اللوح .

ثم ههنا دقيقة ، وهي أن اللوح الجسماني إذا رسمت فيه نقوش جسمانية فحصول بعض النقوش في ذلك اللوح مانع من حصول سائر النقوش فيه ، فأما لوح الروح فخاصيته على الضد من ذلك ، فإن الروح إذا كانت خالية عن نقوش المعارف والعلوم فإنه يصعب عليه تحصيل المعارف والعلوم ، فإذا احتال وحصل شيء منها ، كان حصول ما حصل منها معيناً له على سهولة تحصيل الباقي ، وكلما كان الحاصل أكثر كان تحصيل البقية أسهل ، فالنقوش الجسمانية يكون بعضها مانعاً من حصول الباقي ، والنقوش الروحانية يكون بعضها معيناً على حصول البقية ، وذلك يدل على أن أحوال العالم الروحاني بالضد من أحوال العالم الجسماني .

المقدمة الثالثة : أن الأعمال الصالحة عبارة عن الأعمال التي تحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة ، والأعمال المذمومة ما تكون بالضد من ذلك .

(56/358)

إذا عرفت هذه المقدمات فنقول : الإنسان إذا آمن بالله فقد أشرق روحه بنور هذه المعرفة ، ثم إذا واظب على الأعمال الصالحة حصلت له ملكة مستقرة في التوجه إلى

الآخرة وفي الإعراض عن الدنيا ، وكلما كانت هذه الأحوال أكمل كان استعداد النفس لتحصيل سائر المعارف أشد ، وكلما كان الاستعداد أقوى وأكمل .

كانت معارج المعارف أكثر وإشراقها ولمعانها أقوى ، ولما كان لا نهاية لمراتب المعارف والأنوار العقلية ، لا جرم لا نهاية لمراتب هذه الهداية المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنهار ﴾ المراد منه أنهم يكونون جالسين على سرر مرفوعة في البساتين والأنهار تجري من بين أيديهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ [مريم : 24] وهي ما كانت قاعدة عليها ، ولكن المعنى بين يديك ، وكذا قوله : ﴿ وهذه الأنهار تَجْرِى مِن تَحْتِي ﴾ [الزخرف : 51] المعنى بين يدي فكذا ههنا .

المسألة الثالثة :

الإيمان هو المعرفة والهداية المترتبة عليها أيضاً من جنس المعارف ، ثم إنه تعالى لم يقل يهديهم ربهم إيمانهم .

بل قال : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ وذلك يدل على أن العلم بالمقدمتين لا يوجب العلم بالنتيجة ، بل العلم بالمقدمتين سبب لحصول الاستعداد التام لقبول النفس للنتيجة .

ثم إذا حصل هذا الاستعداد ، كان التكوين من الحق سبحانه وتعالى ، وهذا معنى قول الحكماء أن الفياض المطلق والجواد الحق ، ليس إلا الله سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 34.36 ﴾

(57/358)

وقال السمرقندى :

ثم أنزل فيما أعدّ للمؤمنين ، فقال : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾

وقال مقاتل : يهديهم على الصراط إلى الجنة بالنور بإيمانهم ، يعني : بتوحيدهم الله تعالى في الدنيا ؛ وقال الضحاك : يدعوهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة ؛ وقال الكلبي نحو هذا .

ويقال هذا على معنى التقديم ، ومعناه إن الذين يهديهم ربهم بإيمانهم حتى آمنوا وعملوا الصالحات ، ويقال : يهديهم ربهم في الدنيا ، يعني : يثبتهم على الإيمان ويدخلهم في الآخرة الجنة بإيمانهم ؛ ويقال : ينجيهم ربهم بإيمانهم ؛ وقال الحسن : يرحمهم ربهم بإيمانهم .

ثم قال : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأنهار فِي جنات النعيم ﴾ يتنعمون فيها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾

فيه إضمار واختصار أي يهديهم ربهم بإيمانهم إلى مكان ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾

قال أبو روق : يهديهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة ، قال عطية : يهديهم ويثيبهم ويجزيهم ، وقيل ينجيهم .

مجاهد ومقاتل : يهديهم بالنور على الصراط إلى الجنة يجعل لهم نوراً يمشون به . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة [حسنة وبشارة حسنة] فيقول له . من أنت فوالله أني لأراك أمرء صدق ؟ فيقول له : أنا عملك ، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة ، والكافر إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة سيئة وريح منتنة فيقول : من أنت فوالله إني لأراك امرء سوء ؟ فيقول : أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار . "

وقيل : معنى الآية : بإيمانهم يهديهم ربهم لدينه أي بتصديقهم هداهم تجري من تحتهم الأنهار لم يرد أنها تجري تحتهم وهم فوقها ، لأن أنهار الجنة تجري من غير أخاديد . وإنما معناه أنها

تجري من دونهم وبين أيديهم وتحت أمرهم كقوله تعالى : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ [مريم : 24] ومعلوم أنه لم يجعل السري تحتها وهي عليه قاعدة وإنما أراد به بين يديها ، وكقوله تعالى مخبراً عن فرعون : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهار تَجْرِي مِن تحتي ﴾ [الزخرف : 51] ، أو من دوني وتحت أمري ﴿ فِي جَنَّاتِ النعيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(59/358)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ﴾

فيه أربعة أوجه :

أحدها : يجعل لهم نوراً يمشون به ، قاله مجاهد .

الثاني : يجعل عملهم هادياً لهم إلى الجنة ، وهذا معنى قول ابن جريج .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يَتَلَقَّى الْمُؤْمِنَ عَمَلُهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَيُؤْنِسُهُ وَيَهْدِيهِ ، وَيَتَلَقَّى الْكَافِرَ عَمَلُهُ فِي أَقْبَحِ صُورَةٍ فَيُوحِشُهُ وَيُضِلُّهُ" . الثالث : أن الله يهديهم إلى طريق الجنة .

الرابع : أنه وصفهم بالهداية على طريق المدح لهم .

﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من تحت منازلهم قاله أبو مالك .

الثاني : تجري بين أيديهم وهم يرونها من علو لقوله تعالى ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ [الزخرف : 51] يعني بين يدي .

وحكى أبو عبيدة عن مسروق أن أنهار الجنة تجري في غير أخدود . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(60/358)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ الآية

لما قرر تبارك وتعالى حالة الفرقة الهالكة عقب ذلك بذكر حالة الفرقة الناجية ليتضح الطريقان ويرى الناظر فرق ما بين الهدى والضلال ، وهذا كله لطف منه بعباده ، وقوله ﴿ يهديهم ﴾ لا يترتب أن يكون معناه يرشدهم إلى الإيمان لأنه قد قررهم مؤمنين فإنما الهدى في هذه الآية على أحد وجهين : إما أن يريد أنه يديمهم ويثبتهم ، كما قال

﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا ﴾ [النساء : 136] فإنما معناه اثبتوا ، وإما أن يريد يرشدهم إلى طرق الجنان في الآخرة ، وقوله : ﴿ بإيمانهم ﴾ يحتمل أن يريد بسبب إيمانهم ويكون مقابلاً لقوله قبل ﴿ مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ ، ويحتمل أن يكون الإيمان هو نفس الهدى ، أي يهديهم إلى طرق الجنة بنور إيمانهم ، قال مجاهد : يكون لهم إيمانهم نوراً يمشون به ويتركب هذا التأويل على ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن العبد المؤمن إذا قام من قبره للحشر تمثل له رجل جميل الوجه طيب الرائحة فيقول : من أنت ؟ فيقول أنا عملك الصالح فيقوده إلى الجنة ، وبعكس هذا في الكافر " ، ونحو هذا مما أسنده الطبري وغيره وقوله ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ يريد من تحت علياتهم وغرفهم وليس التحت الذي هو بالمماسة بل يكون إلى الناحية من الإنسان كما قال تعالى : ﴿ جعل ربك تحتك سرياً ﴾ [مريم : 24] وكما قال حكاية عن فرعون ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ [الزخرف : 51] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(61/358)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يهديهم ربهم بأيمانهم ﴾

فيه أربعة أقوال : أحدها : يهديهم إلى الجنة ثواباً بإيمانهم .

والثاني : يجعل لهم نوراً يمشون به بإيمانهم .

والثالث : يزيدهم هدى بإيمانهم .

والرابع : يثيبهم بإيمانهم .

فأما الهداية ، فقد سبقت لهم .

قوله تعالى : ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ أي : تجري بين أيديهم وهم يرونها من علو .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ ﴾ أي صدّقوا .

﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ أي يزيدهم هداية ؛ كقوله : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد : 17] .

وقيل : "يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بإيمانِهِمْ" إلى مكان تجري من تحتهم الأنهار .

وقال أبو رَوْق : يهديهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة .

وقال عطية : "يَهْدِيهِمْ" يثيبهم ويجزيهم .

وقال مجاهد : "يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ" بالنور على الصراط إلى الجنة ، يجعل لهم نوراً يمشون به .

ويُروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ما يقوّي هذا أنه قال : " يتلقى المؤمن عملهُ في أحسن

صورة فيؤنسه ويهديه ويتلقى الكافر عملهُ في أقبح صورة فيوحشه ويضله " هذا معنى الحديث .

وقال ابن جريج : يجعل عملهم هادياً لهم .

الحسن : "يهديهم" يرحمهم .

قوله تعالى : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾ قيل : في الكلام واو محذوفة ، أي وتجري من تحتهم ، أي من تحت بساتينهم .

وقيل : من تحت أسِرتهم ؛ وهذا أحسن في النزهة والفرجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(62/358)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾

يعني يهديهم ربهم إلى الجنان ثواباً لهم بإيمانهم وإعمالهم الصالحة وقال مجاهد : يهديهم على الصراط إلى الجنة : يجعل لهم نوراً يمشون به .

وقال قتادة : بلغنا أن المؤمن إذا خرج من قبره يصور له عمله في صورة حسنة فيقول له : من

أنت فيقول : أنا عملك .

فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة ، والكافر بالضد ، فلا يزال به عمله حتى يدخله النار وقال ابن الأنباري : يجوز أن يكون المعنى أن الله يزيدهم هداية بخصائص ولطائف وبصائر ينور بها قلوبهم ويزيل بها الشكوك عنهم ويجوز أن يكون المعنى ويثبتهم على الهداية وقيل معناه بإيمانهم يهديهم ربهم لدينه أي بتصديقهم هداهم ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ يعني بين أيديهم ينظرون إليها من أعالي أسرتهم وقصورهم فهو كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ لم يرد به أنه تحتها وهي قاعدة عليه بل أراد بين يديها .

وقيل : تجري بأمرهم ﴿ في جنات النعيم ﴾ يعني ذلك لهم جنات النعيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(63/358)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾

أي فعلوا الإيمانَ أو آمنوا بما يشهَد به الآياتُ التي غفَل عنها الغافلون أو بكل ما يجب أن يؤمَنَ به فيندرجُ فيه ذلك اندراجاً أولياً ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي الأعمالَ الصالحةَ في

أنفسها اللائقةَ بالإيمان ، وإنما تُرك ذكرُ الموصوف لجريانها مَجرى الأسماءِ ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ أُوثر الالتفاتُ تشريفاً لهم بإضافة الربِّ وإشعاراً بعلة الهِداية ﴿ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ أي يهديهم بسبب إيمانِهم إلى مأواهم ومقصِدِهم وهي الجنةُ ، وإنما لم تُذكر تعويلاً على ظهورها وانسياقِ النفسِ إليها لا سيما بملاحظة ما سبق من بيان مأوى الكفَرة وما آواهم إليه من أعمالهم السيئةِ ومشاهدةِ ما لحق من التلويح والتصريحِ ، وفي النظم الكريم إشعارٌ بأن مجردَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ لا يكفي في الوصول إلى الجنةَ بل لا بد بعد ذلك من الهداية الربانية وأن الكفرَ والمعاصيَ كافيةٌ في دخول النارِ ثم إنه لا نزاعَ في أن المرادَ بالإيمان الذي جعل سبباً لتلك الهداية هو إيمانُهم الخاصُّ المشفوعُ بالأعمال الصالحةِ لا الإيمانُ المجردُ عنها ولا ما هو أعمُّ منهما ، إلا أن ذلك بمعزل عن الدِلالة على خلاف ما عليه أهلُ السنةِ والجماعة من أن الإيمانَ الخاليَ عن العمل الصالحِ يُفضي إلى الجنة في الجملة ولا يخلّد صاحبُه في النار فإن منطوقَ الآيةِ الكريمةِ أن الإيمانَ المقرونَ بالعمل الصالحِ سببٌ للهداية إلى الجنة ، وأما أن كلَّ ما هو سببٌ لها يجب أن يكون كذلك فلا دلالةَ لها ولا لغيرها عليه قطعاً ، كيف لا وقولُه عز وجل : ﴿ الذين ءامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إيمانهم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الامن وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ منادٍ بخلافه فإن المرادَ بالظلم هو الشركُ كما أطبق عليه المفسرون والمعنى لم يخلِطوا إيمانَهم بشرك ، ولئن حُمل على ظاهره أيضاً يدخُل في الاهتداء من آمن ولم يعمل صالحاً ثم مات قبل أن يظلم بفعل حرامٍ أو بترك واجب ﴾

(64/358)

تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾ أي بين أيديهم كقوله سبحانه : ﴿ وهذه الأنهار تَجْرِى مِن تَحْتِى ﴾ وهم على سرر مرفوعةٍ وأرائِكَ مصفوفةٍ ، والجملةُ مستأنفةٌ أو خبرٌ ثانٍ لإن أو حالٌ من مفعول يهديهم على تقدير كون المهديّ إليه ما يريدونه في الجنة كما قيل ، وقيل : يهديهم ويسدّدهم للاستقامة على سلوك السبيلِ المؤدي إلى الثواب والجنة ، وقوله : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾ جارٍ مجرى التفسيرِ والبيان فإن التمسكَ بحبل السعادةِ في حكم الوصولِ إليها وقيل : يهديهم إلي إدراك الحقائقِ البديعةِ بحسب القوةِ العملية كما قال عليه الصلاة والسلام : " من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم " ﴿ فِي جنات النعيم ﴾ خبر آخر أو حال أخرى منه أو من الأنهار أو متعلق بتجري أو بيهدي فالمراد بالمهدى إليه إما منازلهم في الجنة أو ما يريدونه فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(65/358)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾

بما يجب الإيمان به ويندرج فيه الإيمان بالآيات التي غفل عنها الغافلون اندراجاً أولياً وقد يخص المتعلق بذلك نظراً للمقام ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي الأعمال الصالحة في أنفسها اللائقة بالإيمان وترك ذكر الموصوف لجريان الصفة مجرى الأسماء ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ أي يهديهم بسبب إيمانهم إلى مأواهم ومقصدهم وهي الجنة وإنما لم تذكر تعويلاً على ظهورها وانسياق النفس إليها لا سيما مع ملاحظة ما سبق من بيان مأوى الكفرة وما أداهم إليه من الأعمال السيئة ومشاهدة ما لحق من التلويح والتصريح .

والمراد بهذا الإيمان الذي جعل سبباً لما ذكر الإيمان الخاص المشفوع بالأعمال الصالحة لا المجرد عنها ولا ما هو الأعم ولا ينبغي أن ينتطح في ذلك كبشان ، والآية عليه بمعزل عن الدلالة على خلاف ما عليه الجماعة من أن الإيمان الخالي عن العمل الصالح يفضي إلى الجنة في الجملة ولا يخلد صاحبه في النار فإن منطوقها أن الإيمان المقرون بالعمل الصالح سبب للهداية إلى الجنة ، وأما إن كل ما هو سبب لها يجب أن يكون كذلك فلا دلالة لها ولا لغيرها عليه كيف لا وقوله سبحانه : ﴿ الذين ءامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إيمانهم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأمن وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : 82] مناد بخلافه بناءً على ما أطبقوا عليه من تفسير الظلم بالشرك ولئن حمل على ظاهره أيضاً يدخل في الاهتداء من آمن ولم يعمل صالحاً ثم مات قبل

أن يظلم بفعل حرام أو بترك واجب ، وإلى حمل الإيمان على ما قلنا ذهب الزمخشري وقال : إن الآية تدل على أن الإيمان المعتبر في الهداية إلى الجنة هو الإيمان المقيد بالعمل الصالح ، ووجه ذلك بأنه جعل فيها الصلة مجموع الأمرين فكأنه قيل : إن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ثم قيل : بإيمانهم أي هذا المضموم إليه العمل الصالح .

(66/358)

وزعم بعضهم أن ذلك منه مبني على الاعتزال وخلود غير الصالح في النار ، ثم قال إنه لا دلالة في الآية على ما ذكره لأنه جعل سبب الهداية إلى الجنة مطلق الإيمان ، وأما إن إضافته إلى ضمير الصالحين يقتضي أخذ الصلاح قيداً في التسبب فممنوع فإن الضمير يعود على الذوات بقطع النظر عن الصفات ، وأيضاً فإن كون الصلة علة للخبر بطريق المفهوم فلا يعارض السبب الصريح المنطوق على أنه ليس كل خبر عن الموصول يلزم فيه ذلك ، ألا ترى أن نحو الذي كان معنا بالأمس فعل كذا خال عما يذكرونه في نحو الذي يؤمن يدخل الجنة ، وانتصر للزمخشري بأن الجمع بين الإيمان والعمل الصالح .

ظاهر في أنهما السبب والتصريح بسببية الإيمان المضاف إلى ضمير الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالتنصيص على أنه ذلك الإيمان المقرون بما معه لا المطلق لكنه ذكر لأصالته

وزيادة شرفه ، ولا يلزم على هذا استدراك ذكره ولا استقلاله بالسببية .

وفيه رد على القاضي البيضاوي حيث ادعى أن مفهوم الترتيب وإن دل على أن سبب الهداية الإيمان والعمل الصالح لكن منطوق قوله سبحانه : ﴿ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ دل على استقلال الإيمان .

(67/358)

ومنع في "الكشف" أيضاً كون المنطوق ذلك وفرعه على كون الاستدلال من جعل الإيمان والعمل الصالح واقعين في الصلة ليجريا مجرى العلة ثم لما أعيد الإيمان مضافاً كان إشارة إلى الإيمان المقرون لما ثبت أن استعمال ذلك إنما يكون حيث معهود والمعهود السابق هو هذا والأصل عدم غيره ، ثم قال : ولو سلم أن المنطوق ذلك لم يضر الزمخشري لأن العمل يعد شرطاً حينئذٍ جمعاً بين المنطوق والمفهوم بقدر الإمكان فلم يلغ اقتران العمل ولا دلالة السببية ، وهذا فائدة إفراده بالذكر ثانياً مع ما فيه من الأصالة وزيادة الشرف ، ولا مخالف له من الجماعة لأن العصاة غير مهديين ، وأما أن كل من ليس مهتدياً فهو خالد في النار فهو ممنوع غاية المنع انتهى وفي القلب : من هذا المنع شيء والأولى التعويل على ما قدمناه في تقرير كون الآية بمعزل عن الدلالة على خلاف ما عليه الجماعة ، والهداية على هذا الوجه

يحتمل أن تفسر بالدلالة الموصلة إلى البغية وبمجرد الدلالة والمختار الأول ، واختار الثاني من قال : إن المعنى يهديهم طريق الجنة بنور إيمانهم ، وذلك أما على تقدير المضاف أو على أن إيمانهم يظهر نوراً بين أيديهم ، وقيل : إن المعنى يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدي إلى الثواب والهداية عليه بالمعنى الأول ، وقيل : المراد يهديهم إلى إدراك حقائق الأمور فتنكشف لهم بسبب ذلك ، وأياً ما كان فالالتفات في قوله سبحان : ﴿ رَبُّهُمْ ﴾ لتشريفهم بإضافة الرب إليهم مع الإشعار بعلة الهداية وقوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾ أي من تحت منازلهم أو من بين أيديهم ، استئناف نحوي أو بياني فلا محل له من الإعراب أو خبر ثان لأن فمحله الرفع .

(68/358)

وجوز أن يكون في محل النصب على الحال من مفعول ﴿ يَهْدِيهِمُ ﴾ على تقدير كون المهدي إليه ما يريدون في الجنة كما قال أبو البقاء ، وإن جعل حالاً منتظرة لم يحتج إلى القول بهذا التقدير لكنه خلاف الظاهر ، والزمخشري لما فسر ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ بيسددهم الخ جعل هذه الجملة بياناً له وتفسيراً لأن التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها ، ولا يخفى أن سبيل هذا البيان سبيل البدل وبذلك صرح الطيبي وحينئذٍ فمحلها الرفع لأنه محل الجملة

المبدل منها وقوله سبحانه : ﴿ فِي جنات النعيم ﴾ خبر آخر أو حال أخرى من مفعول ﴿ يَهْدِيهِمُ ﴾ فتكون حالاً مترادفة أو من ﴿ الأنهار ﴾ فتكون متداخلة أو متعلق بتجري أو بيهدي والمراد على ما قيل بالمهدي إليه إما منازلهم في الجنة أو ما يريدونه فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(69/358)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾

جاءت هذه الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لتكون أحوال المؤمنين مستقلة بالذكر غير تابعة في اللفظ لأحوال الكافرين ، وهذا من طرق الاهتمام بالخبر .

ومناسبة ذكرها مقابلة أحوال الذين يكذبون بلقاء الله بأضدادها تنويهاً بأهلها وإغاضة للكافرين .

وتعريف المسند إليه بالموصولية هنا دون اللام للإيماء بالموصول إلى علة بناء الخبر وهي أن إيمانهم وعملهم هو سبب حصول مضمون الخبر لهم .

والهداية : الإرشاد على المقصد النافع والدلالة عليه .

فمعنى ﴿ يهديهم ربهم ﴾ يرشدهم إلى ما فيه خيرهم .

والمقصود الإرشاد التكويني ، أي يخلق في نفوسهم المعرفة بالأعمال النافعة وتسهيل الإكثار منها .

وأما الإرشاد الذي هو الدلالة بالقول والتعليم فالله يخاطب به المؤمنين والكافرين .

والباء في ﴿ بإيمانهم ﴾ للسببية ، بحيث إن الإيمان يكون سبباً في مضمون الخبر وهو الهداية فتكون الباء لتأكيد السببية المستفادة من التعريف بالموصولية نظير قوله : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا إلى بما كانوا يكسبون ﴾ [يونس : 7 ، 8] في تكوين هدايتهم إلى الخيرات بجعل الله تعالى ، بأن يجعل الله للإيمان نُوراً يوضع في عقل المؤمن ولذلك النور أشعة نورانية تتصل بين نفس المؤمن وبين عوالم القدس فتكون سبباً مغناطيسياً لانفعال النفس بالتوجه إلى الخير والكمالِ لا يزال يزداد يوماً فيوماً ، ولذلك يقترب من الإدراك الصحيح المحفوظ من الضلال بمقدار مراتب الإيمان والعمل الصالح .

(70/358)

وفي الحديث : " قد يكون في الأمم محدَّثون فإن يك في أمتي أحدٌ فعمر بن الخطاب " قال ابن وهب : تفسير محدَّثون ملهمون الصواب ، وفي الحديث : " اتقوا فراسة المؤمن فإنه يَنظر

بنور الله " ولأجل هذا النور كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أكمل الناس إيماناً لأنهم لما تلقوا الإيمان عن النبي صلى الله عليه وسلم كانت أنواره السارية في نفوسهم أقوى وأوسع .

وفي العدول عن اسم الجلالة العَلَم إلى وصف الربوبية مضافاً إلى ضمير ﴿ الذين آمنوا ﴾ تنويه بشأن المؤمنين وشأن هدايتهم بأنها جعل مولًى لأوليائه فشأنها أن تكون عطية كاملة مشوبة برحمة وكرامة .

والإتيان بالمضارع للدلالة على أن هذه الهداية لا تزال متكررة متجددة .

وفي هذه الجملة ذكر تهيؤ نفوسهم في الدنيا لعُروج مراتب الكمال .

وجملة : ﴿ تجري من تحتها الأنهار في جنات النعيم ﴾ خبر ثانٍ لذكر ما يحصل لهم من النعيم في الآخرة بسبب هدايتهم الحاصلة لهم في الدنيا .

وتقدم القول في نظير ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ في سورة [البقرة : 25] .

والمراد من تحت منازلهم .

والجنات تقدم .

والنعيم تقدم في قوله تعالى : ﴿ لهم فيها نعيم مقيم ﴾ في سورة [براءة : 21] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾

هنا يتحدث الحق سبحانه عن المقابل ، وهم الذين آمنوا ، ويعُلِّمنا أنه سبحانه : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ .

والهداية – كما قلنا من قبل – معناها الدلالة على الخير ، بالمنهج الذي أرسله الحق سبحانه لنا ، وبه بيَّن الحق السُّبُل أمام المؤمن والكافر ، أما الذي يُقبل على الله بإيمان فيعطيه الحق سبحانه وتعالى هداية أخرى ؛ بأن يخفف أعباء الطاعة على نفسه ، ويزيده سبحانه هدى بالمعروف ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاوة وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين ﴾ [البقرة : 45] .

وهكذا يتلقى المؤمن مشقات الطاعة بحب ؛ فيهوِّنها الحق سبحانه عليه ويجعله يدرك لذة هذه الطاعة ؛ لتهون عليه مشقتها ، ويمده سبحانه أيضاً بالمعونة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ .

وما داموا قد آمنوا ؛ فسبحانه يُنزِل لهم الأحكام التي تفيدهم في حياتهم وتنفعهم في آخرتهم ، أو أن الهداية لا تكون في الدنيا بل في الآخرة ، فما داموا قد آمنوا ، فهم قد أخذوا المنهج من

الله سبحانه وتعالى وعملوا الأعمال الصالحة ، يهديهم الحق سبحانه إلى طريق الجنة .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم . . . ﴾ [الحديد : 12] .

ويقول سبحانه : ﴿ والذين آمَنُواْ مَعَهُ نُورُهُمْ يسعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ . . . ﴾ [التحريم : 8] .

أي : أن نورهم يضيء أمامهم . أما المنافقون فيقولون للذين آمنوا : ﴿ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارجعوا وَرَآءَكُمْ فالتمسوا . . . ﴾ [الحديد : 13] .

(72/358)

أي : أن هذا ليس وقتَ التماس النور ، فالوقت – لالتماس النور – كان في الدنيا ؛ باتباع المنهج والقيام بالصالح من الأعمال .

إذن : فالحق سبحانه يهدي للمؤمنين نوراً فوق نورهم في الآخرة .

والآية تحتمل الهداية في الدنيا ، وتحتمل الهداية في الآخرة .

ويصف الحق سبحانه حال المؤمنين في الآخرة فيقول : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأنهار فِي جَنَّاتِ النعيم ﴾ [يونس : 9] .

وقلنا : إن الجنة على حوافِّ الأنهار ؛ لأن الخضرة أصلها من الماء . وكلما رأيتَ مجرى للماء لا بد أن تجد خضرة ، والجنات ليست هي البيوت ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ . . . ﴾ [التوبة : 72] .

ونجد الحق سبحانه يقول مرة : ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنهار . . . ﴾ [التوبة : 100] .

ويقول سبحانه في مواضع أخرى : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنهار . . . ﴾ [البقرة : 25]

.

والحق سبحانه يعطينا صوراً متعددة عن الماء الذي لا ينقطع ، فهي مياه ذاتية الوجود في الجنة لا تنقطع أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(73/358)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ يهديهم

ربهم بإيمانهم ﴾ قال : يكون لهم نوراً يمشون به .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة مثله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ قال : حدثنا الحسن قال : بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة حسنة وريح طيبة فيقول له : ما أنت . فوالله إني لأراك عين امرىء صدق . فيقول له : أنا عملك . فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة ، وأما الكافر فإذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة سيئة وريح منتنة ، فيقول له : ما أنت فوالله إني لأراك عين امرىء سوء ، فيقول : أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ قال : يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة يعارض صاحبه ويبشره بكل خير ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح ، فيجعل له نوراً من بين يديه حتى يدخله الجنة ، والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة ، فيلازم صاحبه حتى يقذفه في النار .

(74/358)

وأخرج أبو الشيخ عن الربيع في قوله ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ قال : حتى يدخلهم الجنة . فحدث أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : لأحدهم يومئذ أعلم بمنزله منكم اليوم بمنزلنا ، ثم ذكر عن العلماء أنه أنزلهم الجنة سبعة منازل ، لكل منزل من تلك المنازل أهل في سبع فضائل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم يسعى عليهم بما سألوا وبما خطر على أنفسهم حتى إذا امتلأوا كان طعامهم ذلك جشاء وريح المسك ليس فيها حدث ، ثم ألهموا الحمد والتسبيح كما ألهموا النفس ، ثم يجتني فاكهتها قائماً وقاعداً ومتكئاً على أي حال كان عليه ، ثم لا تصل إلى فيه حتى تعود كما كانت أنها بركة الرحمة ، وبركة الرحمن لا تفنى وهي الخزائن التي لا تنقطع أبداً ما أخذ منها لم ينقص وما ترك منها لم يفسد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(75/358)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾ : يجوز أن يكونَ حالاً من مفعول "يَهْديهم" ،

وأن يكونَ مستأنفاً ، وأن يكونَ معطوفاً على ما قبله ، حُذِف منه حرفُ العطف . قوله " في جنات " يجوز أن يتعلَّق ب " تَجْري " وأن يكون حالاً من " الأنهار " ، وأن يكونَ خبراً بعد خبر ل " إنَّ " ، وأن يكون متعلِّقاً ب "يَهْدي " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 154.155 ﴾

(76/358)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9) ﴾

كما هداهم اليومَ إلى معرفته من غير ذريعة يهديهم غداً إلى جنته ومثوبته من غير نصيرٍ من المخلوقين ولا وسيلة .

ويقال أَمَّا المطيعون فنورهم يسعى بن أيديهم وهم على مراكب طاعاتهم ، والملائكةُ تتلقَّاهم والحقُّ ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً ﴾ [مريم : 85] نحشرهم ، والعاصون يَبْقَوْن منفردين متفرقين ، لا يقف لهم العابدون ، ويتطوحون في

مطاحات القيامة .

والحقُّ – سبحانه – يقول لهم : عِبَادي ، إنَّ أصحابَ الجنة – اليومَ – في شُغلٍ عنكم ، إنهم في الثواب لا يتفرَّغون إليكم ، وأصحابُ النار من شدة العذابِ لا يرقبون لكم معاشِرَ المساكين .

كيف أنتم إنْ كان أشكالكم وأصحابكم سبقوكم ؟ وواحدٌ متهم لا يهديكم فأنا أهديكم . لأني إنْ عاملتكم بما تستوجبون . . . فأين الكرمُ بحقنا إذا كنا في الجفاء مِثلهم وهجرناكم كما هجروكم ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 82.81 ﴾

(77/358)

قوله تعالى ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الواجب على العباد أولاً تنزيهه تعالى عن النقائض التي أعظمها الإشراك .

وكان من فعل ذلك سلم من غوائل الضلال فربح نفسه فعرف ربه وفاز في شهود حضرته

بمشاهدة أوصاف الكمال ، أشار التسليك في ذلك بقوله : ﴿ دعواهم ﴾ أي دعاؤهم العظيم الثابت الكثير الذي يقولونه فيها لا على وجه التكليف ، بل يلهمونه إلهام النفس في الدنيا ﴿ فيها ﴾ وأشار إلى مجامع التنزيه عن كل شائبة نقص فقال : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ إشارة إلى الأمر الأول هو الأساس وهو المعراج في الآخرة ﴿ وتحيتهم ﴾ أي لله وفيما بينهم ﴿ فيها سلام ﴾ إشارة إلى أول نتائج الأساس بأنه لا عطب معه بوجه وهو نزول عن المعراج بالنظر في أحوال الخلق ﴿ وآخر دعواهم ﴾ أي دعائهم العظيم وهو المعراج الكمالي ﴿ أن الحمد ﴾ أي الكمال ﴿ لله ﴾ أي المحيط بجميع أوصاف الجلال والجمال يعني أن التنزيه عن النقص أوجب لهم السلامة ؛ ولما سلموا من كل نقص وصلوا إلى الحضرة فغرقوا في بحار الجلال وانكشفت لهم سمات الكمال ؛ والدعوى : قول يدعى به إلى أمر ؛ والتحية : التكرمة بالحال الجليلة ، وأصله من قولهم : أحياك الله حياة طيبة ، وأشار بقوله : ﴿ رب العالمين ﴾ إلى نعمة الإيجاد إرشاداً بذلك إلى القدرة على المعاد ، وفيه هبوط عن المعراج الكمالي إلى الخلق ، وذلك إشارة إلى أن الإنسان لا ينفك عن الحاجة والنقصان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 420 . 421 ﴾

(78/358)

فصل

قال الفخر :

المرتبة الثانية : من مراتب سعاداتهم ودرجات كمالاتهم قوله سبحانه وتعالى : ﴿ دعواهم فِيهَا سبحانك اللهم ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في ﴿ دعواهم ﴾ وجوه : الأول : أن الدعوى ههنا بمعنى الدعاء ، يقال : دعا يدعو دعاء ودعوى ، كما يقال : شكى يشكو شكاية وشكوى .

قال بعض المفسرين : ﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ أي دعاؤهم .

وقال تعالى في أهل الجنة : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فاكهة وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ [يس : 57] وقال في آية أخرى ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكلّ فاكهة ءامِنِينَ ﴾ [الدخان : 55] ومما يقوى أن المراد من الدعوى ههنا الدعاء .

هو أنهم قالوا : اللهم .

وهذا نداء لله سبحانه وتعالى ، ومعنى قولهم : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ إنا نسبحك ، كقول القانت في دعاء القنوت : "اللهم إياك نعبد" الثاني : أن يراد بالدعاء العبادة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ [مريم : 48] أي وما تعبدون .

فيكون معنى الآية أنه لا عبادة لأهل الجنة إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه ، ويكون اشتغالهم

بذلك الذكر لا على سبيل التكليف ، بل على سبيل الابتهاج بذكر الله تعالى .

الثالث : قال بعضهم : لا يبعد أن يكون المراد من الدعوى نفس الدعوى التي تكون للخصم على الخصم .

والمعنى : أن أهل الجنة يدعون في الدنيا وفي الآخرة تنزيه الله تعالى عن كل المعايب والإقرار له بالإلهية .

قال القفال : أصل ذلك أيضاً من الدعاء ، لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما .

الرابع : قال مسلم : ﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ أي قولهم وإقرارهم ونداؤهم ، وذلك هو قولهم : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ الخامس : قال القاضي : المراد من قوله : ﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ أي طريقتهم في تمجيد الله تعالى وتقديسه وشأنهم وسنتهم .

والدليل على أن المراد ذلك أن قوله : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ ليس بدعاء ولا بدعوى ، إلا أن المدعي للشيء يكون مواظباً على ذكره ، لا جرم جعل لفظ الدعوى كناية عن تلك المواظبة والملازمة .

(79/358)

فأهل الجنة لما كانوا مواظبين على هذا الذكر ، لا جرم أطلق لفظ الدعوى عليها .

السادس : قال القفال : قيل في قوله : ﴿ لَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ [يس : 57] أي ما يتمنونه ، والعرب تقول : ادع ما شئت علي ، أي تمن .

وقال ابن جريج : أخبرت أن قوله : ﴿ دعواهم فِيهَا سبحانك اللهم ﴾ هو أنه إذا مر بهم طير يشتهونه قالوا ﴿ سبحانك اللهم ﴾ فيأتيهم الملك بذلك المشتهى ، فقد خرج تأويل الآية من هذا الوجه ، على أنهم إذا اشتهوا الشيء قالوا سبحانك اللهم ، فكان المراد من دعواهم ما حصل في قلوبهم من التمني ، وفي هذا التفسير وجه آخر هو أفضل وأشرف مما تقدم ، وهو أن يكون المعنى أن تمنيهم في الجنة أن يسبحوا الله تعالى ، أي تمنيهم لما يتمنونه ، ليس إلا في تسبيح الله تعالى وتقديسه وتنزيهه .

السابع : قال القفال أيضاً : ويحتمل أن يكون المعنى في الدعوى ما كانوا يتداعونه في الدنيا في أوقات حروبهم ممن يسكنون إليه ويستنصرونه ، كقولهم : يا آل فلان ، فأخبر الله تعالى أن أنسهم في الجنة بذكرهم الله تعالى ، وسكونهم بتحميدهم الله .

ولذتهم بتمجيدهم الله تعالى .

المسألة الثانية :

أن قوله : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ فيه وجهان :

الوجه الأول : قول من يقول : إن أهل الجنة جعلوا هذا الذكر علامة على طلب المشتهيات

قال ابن جريج : إذا مر بهم طيراً اشتهوه ؛ قالوا ﴿ سبحانك اللهم ﴾ فيؤتون به ، فإذا نالوا منه شهوتهم قالوا : ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ وقال الكلبي : قوله : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ علم بين أهل الجنة والخدام ، فإذا سمعوا ذلك من قولهم أتوهم بما يشتهون .

واعلم أن هذا القول عندي ضعيف جداً ، وبيانه من وجوه : أحدها : أن حاصل هذا الكلام يرجع إلى أن أهل الجنة جعلوا هذا الذكر العالي المقدس علامة على طلب المأكول والمشروب والمنكوح ، وهذا في غاية الخساسة .

(80/358)

وثانيها : أنه تعالى قال في صفة أهل الجنة : ﴿ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ فإذا اشتهوا أكل ذلك الطير ، فلا حاجة بهم إلى الطلب ، وإذا لم يكن بهم حاجة إلى الطلب ، فقد سقط هذا الكلام .

وثالثها : أن هذا يقتضي صرف الكلام عن ظاهره الشريف العالي إلى محمل خسيس لا إشعار للفظ به ، وهذا باطل .

الوجه الثاني : في تأويل هذه الآية أن نقول : المراد اشتغال أهل الجنة بتقديس الله سبحانه وتمجيده والثناء عليه ، لأجل أن سعادتهم في هذا الذكر وابتهاجهم به وسرورهم به ،

وكمال حالهم لا يحصل إلا منه ، وهذا القول هو الصحيح الذي لا محيد عنه .

ثم على هذا التقدير ففي الآية وجوه : أحدها : قال القاضي : إنه تعالى وعد المتقين بالثواب العظيم ، كما ذكر في أول هذه السورة من قوله : ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ [يونس : 4] فإذا دخل أهل الجنة الجنة ، ووجدوا تلك النعم العظيمة ، عرفوا أن الله تعالى كان صادقاً في وعده إياهم بتلك النعم ، فعند هذا قالوا : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ أي نسبحك عن الخلف في الوعد والكذب في القول .

وثانيها : أن نقول : غاية سعادة السعداء ، ونهاية درجات الأنبياء والأولياء استسعادهم بمراتب معارف الجلال .

واعلم أن معرفة ذات الله تعالى والاطلاع على كنه حقيقته مما لا سبيل للخلق إليه ، بل الغاية القصوى معرفة صفاته السلبية أو صفاته الإضافية .

إما الصفات السلبية فهي المسماة بصفات الجلال ، وأما الصفات الإضافية فهي المسماة بصفات الإكرام ، فلذلك كان كمال الذكر العالي مقصوراً عليها ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ تبارك اسم ربّكَ ذِى الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : 78] وكان صلى الله عليه وسلم يقول : " ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام " ولما كانت السلوب متقدمة بالرتبة على الإضافات ، لا جرم كان ذكر الجلال متقدماً على ذكر الإكرام في اللفظ .

وإذا ثبت أن غاية سعادة السعداء ليس إلا في هذين المقامين ، لا جرم ذكر الله سبحانه وتعالى كونهم مواظبين على هذا الذكر العالي المقدس ، ولما كان لا نهاية لمعارج جلال الله ولا غاية لمدارج إلهيته وإكرامه وإحسانه ، فكذلك لا نهاية لدرجات ترقي الأرواح المقدسة في هذه المقامات العلية الإلهية .

وثالثها : أن الملائكة المقربين كانوا قبل تخليق آدم عليه السلام مشتغلين بهذا الذكر ، ألا ترى أنهم قالوا : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : 30] فالحق سبحانه ألهم السعداء من أولاد آدم ، حتى أتوا بهذا التسبيح والتحميد ، ليدل ذلك على أن الذي أتى به الملائكة المقربون قبل خلق العالم من الذكر العالي ، فهو بعينه أتى به السعداء من أولاد آدم عليه السلام ، بعد انقراض العالم ، ولما كان هذا الذكر مشتملاً على هذا الشرف العالي ، لا جرم جاءت الرواية بقراءته في أول الصلاة ، فإن المصلي إذا كبر قال : "سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك" .

المرتبة الثالثة : من مراتب سعادات أهل الجنة قوله تعالى : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ قال المفسرون : تحية بعضهم لبعض تكون بالسلام ، وتحية الملائكة لهم بالسلام ، كما قال تعالى : ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سلام عَلَيْكُمْ ﴾ [الرعد : 23] وتحية الله تعالى لهم أيضاً بالسلام كما قال تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : 58] قال

الواحدي : وعلى هذا التقدير يكون هذا من إضافة المصدر إلى المفعول ، وعندي فيه وجه آخر : وهو أن مواظبتهم على ذكر هذه الكلمة ، مشعرة بأنهم كانوا في الدنيا في منزل الآفات وفي معرض المخافات ، فإذا أخرجوا من الدنيا ووصلوا إلى كرامة الله تعالى ، فقد صاروا سالمين من الآفات ، آمنين من المخافات والنقصانات .

(82/358)

وقد أخبر الله تعالى عنهم بأنهم يذكرون هذا المعنى في قوله : ﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحزن إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الذى أَحَلَّنَا دَارَ المقامة مِن فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر : 34 ، 35] .

المرتبة الرابعة : من مراتب سعاداتهم قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قد ذكرنا أن جماعة من المفسرين حملوا هذه الكلمات العالية المقدسة على أحوال أهل الجنة بسبب الأكل والشرب .

فقالوا : إن أهل الجنة إذا اشتهوا شيئاً قالوا : سبحانك اللهم وبحمدك ، وإذا أكلوا وفرغوا .

قالوا : الحمد لله رب العالمين ، وهذا القائل ما ترقى نظره في دنياه وأخراه عن المأكول والمشروب ، وحقيق لمثل هذا الإنسان أن يعد في زمرة البهائم .

وأما المحقون المحققون ، فقد تركوا ذلك ، ولهم فيه أقوال .

روى الحسن البصري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن أهل الجنة يلهمون الحمد والتسبيح كما تلهمون أنفاسكم " وقال الزجاج : أعلم الله تعالى أن أهل الجنة يفتتحون بتعظيم الله تعالى وتنزيهه .

ويختتمون بشكره والثناء عليه ، وأقول : عندي في هذا الباب وجوه أخر : فأحدها : أن أهل الجنة لما استسعدوا بذكر سبحانك اللهم وبحمدك ، وعاينوا ما هم فيه من السلامة عن الآفات والمخافات ، علموا أن كل هذه الأحوال السنية والمقامات القدسية ، إنما تيسرت بإحسان الحق سبحانه وإفضاله وإنعامه ، فلا جرم اشتغلوا بالحمد والثناء .

فقالوا : ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ وإنما وقع الختم على هذا الكلام لأن اشتغالهم بتسبيح الله تعالى وتمجيده من أعظم نعم الله تعالى عليهم .

(83/358)

والاشتغال بشكر النعمة متأخر عن رؤية تلك النعمة ، فلهذا السبب وقع الختم على هذه الكلمة ، وثانيها : أن لكل إنسان بحسب قوته معراجاً ، فتارة ينزل عن ذلك المعراج ، وتارة يصعد إليه .

ومعراج العارفين الصادقين ، معرفة الله تعالى وتسبيح الله وتحميد الله ، فإذا قالوا : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ فهم في عين المعراج ، وإذا نزلوا منه إلى عالم المخلوقات .

كان الحاصل عند ذلك النزول إفاضة الخير على جميع المحتاجين وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ ثم أنه مرة أخرى يصعد إلى معراجه ، وعند الصعود يقول : ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ فهذه الكلمات العالية إشارة إلى اختلاف أحوال العبد بسبب النزول والعروج .

وثالثها : أن نقول : إن قولنا الله اسم لذات الحق سبحانه ، فتارة ينظر العبد إلى صفات الجلال ، وهي المشار إليها بقوله : ﴿ سبحانك ﴾ ثم يحاول الترقي منها إلى حضرة جلال الذات ، ترقياً يليق بالطاقة البشرية ، وهي المشار إليها بقوله : ﴿ اللهم ﴾ فإذا عرج عن ذلك المكان .

واخترق في أوائل تلك الأنوار رجع إلى عالم الإكرام ، وهو المشار إليه بقوله : ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ فهذه كلمات خطرت بالبال ودارت في الخيال ، فإن حقت فالتوفيق من الله تعالى ، وإن لم يكن كذلك فالتكلان على رحمة الله تعالى .

المسألة الثانية :

قال الواحدي : ﴿ أن ﴾ في قوله : ﴿ أَنِ الحمد للَّهِ ﴾ هي المخففة من الشديدة ، فلذلك لم تعمل لخروجها بالتخفيف عن شبه الفعل كقوله :

أن هالك كل من يحفى وينتعل . . على معنى أنه هالك .

وقال صاحب "النظم" ﴿ أن ﴾ ههنا زائدة ، والتقدير : وآخر دعواهم الحمد لله رب العالمين ، وهذا القول ليس بشيء ، وقرأ بعضهم ﴿ أن ﴾ الحمد لله بالتشديد ، ونصب الحمد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 36 . 39 ﴾

(84/358)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَك اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : تَفْسِيرُ التَّحِيَّةِ : وَفِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهَا الْمُلْكُ .

الثَّانِي : أَنَّهَا الْبَقَاءُ قَالَ الْمُعَمَّرُ : أَبَنِيَّ إنْ أَهْلَكَ فَإِنِّي قَدْ تَرَكْتُ لَكُمْ بَنِيَّهْ وَتَرَكْتُكُمْ أَوْلَادَ

سَادَاتٍ زِنَادُكُمْ وَرِيَّهُ وَلَكُلُّ مَا نَالَ الْفَتَى قَدْ نِلْتُهُ إِلَّا التَّحِيَّهْ يَعْنِي الْبَقَاءَ .

الثَّالِثُ : [أَنَّهَا] السَّلَامُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي تَفْسِيرِهَا قَوْلَانِ : الْأَوَّلُ : أَنَّ الْمَلَكَ يَأْتِيهِمْ بِمَا يَشْتَهُونَ فَيَقُولُ لَهُمْ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَيْ سَلِمْتُمْ ، فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ ، فَإِذَا أَكَلُوهُ قَالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

الثَّانِي : أَنَّ مَعْنَى تَحِيَّتِهِمْ تَحِيَّةُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا ، فَقَدْ ثَبَتَ فِي الْخَبَرِ كَمَا بَيَّنَّا : ﴿ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : اذْهَبْ إِلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ ، فَجَاءَهُمْ فَقَالَ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، فَقَالُوا لَهُ : وَعَلَيْك السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، فَقَالَ لَهُ : هَذِهِ تَحِيَّتُك وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِك إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وَبَيَّنَ فِي الْقُرْآنِ هَاهُنَا أَنَّهَا تَحِيَّتُهُمْ فِي الْجَنَّةِ ، فَهِيَ تَحِيَّةٌ مَوْضُوعَةٌ مِنْ ابْتِدَاءِ الْخِلْقَةِ إِلَى غَيْرِ غَايَةٍ .

(85/358)

وَقَدْ رَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ ؛ أَيْ هَذَا السَّلَامُ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ تَتَقَابَلُونَ بِهِ .

وَالْقَوْلَانِ مُحْتَمَلَانِ ، وَهَذَا أَظْهَرُ ؛ لِأَنَّهُ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ دعواهم فِيهَا ﴾

يعني : قولهم في الجنة : ﴿ سبحانك اللهم وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ ، يعني : فهذه علامة بينهم وبين خدمهم في الجنة ، فإذا قالوا هذه المقالة جاءهم الخدام بالموائد بين أيديهم وأوتوا بما يشتهون ، فإذا فرغوا من الطعام قالوا الحمد لله رب العالمين ، فذلك قوله تعالى : ﴿ دعواهم فِيهَا سبحانك اللهم وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ ؛ يعني : وآخر قولهم بعد ما فرغوا من الطعام أن يقولوا الحمد لله رب العالمين ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ على معنى التقديم ، وقال الضحاك : في قوله عز وجل : ﴿ دعواهم فِيهَا ﴾ وذلك أن أهل الجنة إذا دخلوا القيامة وصاروا إلى الجنة يكون فاتحة كلامهم سبحانك اللهم على ما مننت به علينا ، وتحيتهم فيها سلام ؛ يقول : يسلم عليهم الملائكة من الله تعالى ؛ ويقال : يسلم بعضهم على بعض ؛ ويقال : يسلمون على الله تعالى ، ويقال : تحيتهم لله تعالى بالسلام ، كقوله ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سلام وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً ﴾ [الأحزاب : 44] ﴿ دعواهم فِيهَا ﴾ ، يعني : بعدما رأوا من

الكرامات وبعد ما أكلوا من الطعام ، حمدوا الله تعالى على ما أعطاهم من الخير . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(87/358)

وقال الثعلبى :

﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ قولهم وكلامهم ﴿ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهم ﴾ .

قال طلحة بن عبد الله سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبحان الله ، فقال : هو تنزيه الله من كل سوء ، وسأل ابن الكوّا علياً عن ذلك فقال : كلمة رضيها الله لنفسه .

قال المفسرون : [هذه نعمة علم بين له وعين الخدام في] الطعام فإذا اشتهوا شيئاً من الطعام والشراب قالوا : سبحانك اللهم . فيأتوهم في الوقت بما يشتهون على مائدة ، فإذا فرغوا من الطعام والشراب حمدوا الله على ما أعطاهم فذلك قوله تعالى : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ ﴾ قولهم ﴿ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ وما يريد آخر كلام يتكلّمون به ولكن أراد ما قبله .

قال الحسن : بلغني بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين قرأ هذه الآية : " إن أهل الجنة يلهمون الحمد والتسبيح كما يلهمون النفس " وذلك قوله تعالى : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهم وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا ﴾ في الجنة ﴿ سَلاَمٌ ﴾ يحيّي بعضهم بعضاً بالسلام وتأتيهم

الملائكة من عند ربهم بالسلام .

قال ابن كيسان : يفتحون كلامهم بالتوحيد ويختمون بالتحميد .

وقرأ العامة : ﴿ أَنِ الحمد للَّهِ ﴾ بالتخفيف والرفع ، وقرأ بلال بن أبي بردة وابن محيصن أنّ مثقلا الحمد نصباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(88/358)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : أن أهل الجنة إذا اشتهوا الشيء أو أرادوا أن يدعوا بالشيء قالوا سبحانك اللهم فيأتيهم ، ذلك الشيء ، قاله الربيع وسفيان .

الثاني : أنهم إذا أرادوا الرغبة إلى الله في دعاء يدعونه كان دعاؤهم له : سبحانك اللهم : قاله قتادة .

﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : معناه وملكهم فيها سالم . والتحية الملك ، ومنه قول زهير بن جنان الكلبي :

ولكلٍّ ما نال الفتى . . . قد نِلتُه إلا التحية

الثاني : أن تحية بعضهم لبعض فيها سلام . أي : سلمت وأمنت مما بلي به أهل النار ، قاله ابن جرير الطبري .

﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن آخر دعائهم : الحمد لله رب العالمين ، كما كان أول دعائهم : سبحانك اللهم ، ويشبه أن يكون هذا قول قتادة .

الثاني : أنهم إذا أجابهم فيما دعوه وآتاهم ما اشتهوا حين طلبوه بالتسبيح قالوا بعده : شكراً لله والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(89/358)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ دعواهم ﴾ الآية

الدعوى بمعنى الدعاء يقال دعا الرجل وادعى بمعنى واحد ، قاله سيبويه ، ﴿ وسبحانك اللهم ﴾ تقديس وتسبيح وتنزيه لجلاله عن كل ما لا يليق به ، وقال علي بن أبي طالب في ذلك : هي كلمات رضيها الله تعالى لنفسه ، وقال طلحة بن عبيد الله : قلت يا

رسول الله ، ما معنى سبحان الله ؟ فقال : معناها تنزيه الله من السوء ، وقد تقدم ذكر خلاف النحاة في ﴿ اللهم ﴾ ، وحكي عن بعض المفسرين أنهم رأوا أن هذه الكلمة إنما يقولها المؤمن في الجنة عندما يشتهي الطعام فإنه إذا رأى طائراً أو غير ذلك قال : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ فنزلت تلك الإرادة بين يديه فوق ما اشتهى ، رواه ابن جريج وسفيان بن عيينة ، وقوله ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ يريد تسليم بعضهم على بعض ، و" التحية " مأخوذة من تمني الحياة للإنسان والدعاء بها ، يقال حياه يحييه ، ومنه قول زهير بن جناب :

[مجزوء الكامل]

من كل ما نال الفتى . . . قد نلته إلا التحية

يريد دعاء الناس للملوك بالحياة ، وقد سمي الملك تحية بهذا التدريج ومنه قول عمرو بن معديكرب :

أزور أبا قابوس حتى . . . أنيخ على تحيته بجندي

أراد علي مملكته وقال بعض العلماء ﴿ وتحيتهم ﴾ يريد أن تسليم الله عز وجل عليهم ، و" السلام " مأخوذ من السلامة ، وقوله ﴿ وآخر دعواهم ﴾ يريد وخاتمة دعواهم في كل موطن وكلامهم شكر الله تعالى وحمده على سابغ نعمه ، وكانت بدأتهم بالتنزيه والتعظيم ، وقرأ جمهور الناس " أن الحمد لله " وهي عند سيبويه " أن " المخففة من الثقيلة ، وقرأ ابن محيصن وبلال بن أبي بردة ويعقوب وأبو حيوة " أنّ الحمد لله " ، وهي على الوجهين رفع

على خبر الابتداء ، قال أبو الفتح : هذه القراءة تدل على أن قراءة الجماعة هي أن المخففة من الثقيلة بمنزلة الأعشى : [البسيط]

في فتية كسيوف الهند قد علموا . . . أنْ هالك كلُّ من يحفى وينتعل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(90/358)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ دعواهم فيها ﴾

أي : دعاؤهم .

وقد شرحنا ذلك في أول [الأعراف : 5] .

وفي المراد بهذا الدعاء قولان :

أحدهما : أنه استدعاؤهم ما يشتهون .

قال ابن عباس : كلما اشتهى أهل الجنة شيئاً ، قالوا : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ فيأتيهم ما يشتهون ؛ فإذا طعموا ، قالوا : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ فذلك آخر دعواهم .

وقال ابن جريج : إِذا مرَّ بهم الطير يشتهونه ، قالوا : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ فيأتيهم المَلَكُ بما

اشتَهَوْا ، فيسلِّم عليهم ، فيردُّون عليه : فذلك قوله : ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ .

فإذا أكلوا ، حمِدوا ربهم ؛ فذلك قوله : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .

والثاني : أنهم إذا أرادوا الرغبة إلى الله تعالى في دعاءٍ يدعونه به ، قالوا : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أنها تحية بعضهم لبعض ، وتحيَّة الملائكة لهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن الله تعالى يُحَيِّيهم بالسلام .

والثالث : أن التحية : المُلْك ، فالمعنى : مُلكهم فيها سالم ، ذكرهما الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ وآخر دعواهم ﴾ أي : دعاؤهم وقولهم : ﴿ أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾ قرأ أبو مجلز ، وعكرمة ، ومجاهد ، وابن يعمر ، وقتادة ، ويعقوب : "أنَّ الحمدَ لله" بتشديد النون ونصب الدال .

قال الزجاج : أعلم الله أنهم يبتدؤون بتعظيم الله وتنزيهه ، ويختمون بشكره والثناء عليه .

وقال ابن كيسان : يفتتحون كلامهم بالتوحيد ، ويختمونه بالتوحيد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(91/358)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهم ﴾

دعواهم : أي دعاؤهم ؛ والدعوى مصدر دعا يدعو ، كالشكوى مصدر شكا يشكو ؛ أي دعاؤهم في الجنة أن يقولوا سبحانك اللهم وقيل : إذا أرادوا أن يسألوا شيئاً أخرجوا السؤال بلفظ التسبيح ويختمون بالحمد .

وقيل : نداؤهم الخدم ليأتوهم بما شاؤوا ثم سبحوا .

وقيل : إن الدعاء هنا بمعنى التمني قال الله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت : 31] أي ما تتمنون .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ أي تحية الله لهم أو تحية الملك أو تحية بعضهم لبعض : سلام .

وقد مضى في "النساء" معنى التحية مستوفى .

والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى قيل : إن أهل الجنة إذا مرّ بهم الطير واشتهوه قالوا : سبحانك اللهم .

فيأتيهم الملك بما اشتهوا ، فإذا أكلوا حمدوا الله فسؤالهم بلفظ التسبيح والختم بلفظ الحمد .

ولم يحكِ أبو عبيد إلا تخفيف "أن" ورفع ما بعدها ؛ قال : وإنما نراهم اختاروا هذا وفرقوا بينها وبين قوله عز وجل : "أن لعنة الله" و"أنّ غضب الله" لأنهم أرادوا الحكاية حين يقال الحمد لله .

قال النحاس : مذهب الخليل وسيبويه أن "أنْ" هذه مخففة من الثقيلة ، والمعنى أنه الحمد لله .

قال محمد بن يزيد : ويجوز "أن الحمد لله" يعملها خفيفة عملها ثقيلة ؛ والرفع أقيس .

قال النحاس : وحكى أبو حاتم أن بلال بن أبي بردة قرأ "وآخر دعواهم أنّ الحمد لله رب العالمين" .

قلت : وهي قراءة ابن مُحَيْصن ، حكاها الغَزْنَويّ لأنه يحكي عنه .

الثانية التسبيح والحمد والتهليل قد يسمى دعاء ؛ روى مسلم والبخاري عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب : " لا إله إلا الله العظيم الحليم . لا إله إلا اللَّهُ ربُّ العرش العظيم .

(92/358)

لا إله إلا الله ربّ السموات وربُّ الأرض وربّ العرش الكريم " قال الطبريّ : كان السلف يدعون بهذا الدعاء ويسمُّونه دعاء الكرب .

وقال ابن عيينة وقد سئل عن هذا فقال : أما علمت أن الله تعالى يقول " إذا شغل عبدي ثناؤه عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين " والذي يقطع النزاع وأن هذا يسمى دعاء وإن لم يكن فيه من معنى الدعاء شيء وإنما هو تعظيم لله تعالى وثناءٌ عليه ما رواه النّسائي عن سعد بن أبي وقاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دعوة ذي النُّون إذ دعا بها في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فإنه لن يدعو بها مسلم في شيء إلا استجيب له " .

الثالثة من السُّنَّة لمن بدأ بالأكل أن يسمّي الله عند أكله وشربه ويحمده عند فراغه اقتداء بأهل الجنة ؛ وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشَّربة فيحمَده عليها " .

الرابعة يستحبّ للداعي أن يقول في آخر دعائه كما قال أهل الجنة : وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ؛ وحَسُن أن يقرأ آخر "والصافات" فإنها جمعت تنزيه البارىء تعالى

عما نسب إليه ، والتسليم على المرسلين ، والختم بالحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(93/358)

وقال الخازن :

﴿ دعواهم فيها ﴾

أي قولهم وكلامهم فيها .

وقيل : الدعوى بمعنى الدعاء أي دعاؤهم فيها ﴿ سبحانك اللهم ﴾ وهي كلمة تنزيه لله تعالى من كل سوء ونقيصة .

قال أهل التفسير : هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام فإذا أرادوا الطعام قالوا : سبحانك اللهم فيأتونهم في الوقت بما يشتهون على الموائد كل مائدة ميل في ميل على كل مائدة سبعون ألف صحفة في كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضها بعضاً فإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله على ما أعطاهم فذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ وقيل : إن المراد بقوله سبحانك اللهم اشتغال أهل الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله والثناء عليه بما هو أهله وفي هذا الذكر والتحميد

سرورهم وابتهاجهم وكمال لذتهم ويدل عليه ما روي عن جابر قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون قالوا فما بال الطعام قال جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس وفي رواية التسبيح والحمد " أخرجه مسلم .

قوله جشاء أي يخرج ذلك الطعام جشاء وعرقاً .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ يعني يحيي بعضهم بعضاً بالسلام .

وقيل : تحييهم الملائكة بالسلام وقيل تأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ قد ذكرنا أن جماعة من المفسرين حملوا التسبيح والتحميد على أحوال أهل الجنة بسبب المأكول والمشروب وأنهم إذا اشتهوا شيئاً قالوا : سبحانك الله فيحضر ذلك الشيء وإذا فرغوا منه .

قالوا : الحمد لله رب العالمين فترفع الموائد عند ذلك وقال الزجاج : أعلم الله أهل الجنة يبتدئون بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بشكره والثناء عليه .

وقيل : إنهم يفتتحون كلامهم بالتسبيح ويختمونه بالتحميد .

وقيل : إنهم يلهمون ذلك كما ذكر في الحديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(94/358)

وقال أبو حيان فى الآيتين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾

أي يزيد في هواهم بسبب إيمانهم السابق وتثبتهم ، فأما الذين آمنوا فزادتهم أو يهديهم إلى طريق الجنة بنور إيمانهم كما قال : ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم ﴾ قال مجاهد : يكون لهم إيمانهم نوراً يمشون به .

وفي الحديث : " إذا قام من قبره يمثل له رجل جميل الوجه طيب الرائحة فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقوده إلى الجنة " وبعكس هذا في الكافر .

وقال ابن الأنباري : إيمانهم يهديهم إلى خصائص المعرفة ، ومزايا في الألطاف تسر بها قلوبهم وتزول بها الشكوك والشبهات عنهم كقوله : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ وهذه الزوائد والفوائد يجوز حصولها في الدنيا قبل الموت ، ويجوز حصولها بعد الموت .

قال القفال : وإذا حملنا الآية على هذا كان المعنى يهديهم ربهم بإيمانهم ، وتجري من تحتهم الأنهار ، إلا أنه حذف الواو .

وقيل : معناه تقدّمهم إلى الثواب من قول العرب : القدم تهدي الساق .

وقال الحسن : يرحمهم .

وقال الكلبي : يدعوهم .

والظاهر أنّ تجري مستأنفاً فيكون قد أخبر عنهم بخبرين عظيمين : أحدهما هداية الله لهم وذلك في الدنيا والآخر بجريان الأنهار ، وذلك في الآخرة .

كما تضمنت الآية في الكفار شيئين : أحدهما : اتصافهم بانتفاء رجاء لقاء الله وما عطف عليه ، والثاني : مقرهم ومأواهم وذلك النار ، فصار تقسيماً للفريقين في المعنى .

وتقدّم قول القفال : أن يكون تجري معطوفاً حذف منه الحرف ، وأن يكون حالاً ومعنى من تحتهم أي : من تحت منازلهم .

وقيل : من بين أيديهم ، وليس التحت الذي هو بالمسافة ، بل يكون إلى ناحية من الإنسان .

ومنه : ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ وقال : وهذه الأنهار تجري من تحتي .

(95/358)

قال الزمخشري : (فإن قلت) : دلت هذه الآية على أنّ الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية والتوفيق والنور يوم القيامة هو الإيمان المقيد ، وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح ، والإيمان الذي لم يقترن بالعمل الصالح فصاحبه لا توفيق له ولا نور .

(قلت) : الأمر كذلك ، ألا ترى كيف أوقع الصلة مجموعاً فيها بين الإيمان والعمل كأنه قال : إنّ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ثم قال : بإيمانهم ، أي بإيمانهم المضموم إليه هذا

العمل الصالح ، وهو بين واضح لا شبهة فيه انتهى .

وهو على طريقة الاعتزال .

وجوزوا في جنات النعيم أن يتعلق بتجري ، وأن يكون حالاً من الأنهار ، وأن يكون خبراً بعد خبر ، لأنّ ومعنى دعواهم : دعاؤهم ونداؤهم ، لأنّ اللهم نداء الله ، والمعنى : اللهم إنا نسبحك كقول القانت في دعاء القنوت : اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد .

وقيل : عبادتهم كقوله : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ﴾ ولا تكليف في الجنة ، فيكون ذلك على سبيل الابتهاج والالتذاذ ، وأطلق عليه العبادة مجازاً .

وقال أبو مسلم : فعلهم وإقرارهم .

وقال القاضي : طريقهم في تقديس الله وتحميده .

وتحيتهم أي ما يحيي به بعضهم بعضاً ، فيكون مصدراً مضافاً للمجموع لا على سبيل العمل ، بل يكون كقوله : ﴿ وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ وقيل : يكون مضافاً إلى المفعول ، والفاعل الله تعالى أو الملائكة أي : تحية الله إياهم ، أو تحية الملائكة إياهم .

وآخر دعواهم أي : خاتمة دعائهم وذكرهم .

قال الزجاج : أعلم تعالى أنهم يبتدئون بتنزيهه وتعظيمه ، ويختمون بشكره والثناء عليه .

وقال ابن كيسان : يفتتحون بالتوحيد ، ويختمون بالتحميد .

وعن الحسن البصري : يعزوه إلى الرسول أنّ أهل الجنة يلهمون التحميد والتسبيح .

وأن المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن لازم الحذف ، والجملة بعدها خبر إنْ ، وأن وصلتها خبر قوله : وآخر .

(96/358)

وقرأ عكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن يعمر ، وبلال بن أبي بردة ، وأبو مجلز ، وأبو حيوة ، وابن محيصن ، ويعقوب : أن الحمد بالتشديد ونصب الحمد .

قال ابن جني : ودلت على أنّ قراءة الجمهور بالتخفيف ، ورفع الحمد هي على أنّ هي المخففة كقول الأعشى :

في فتية كسيوف الهند قد علموا . . .

أن هالك كل من يحفى وينتعل

يريد أنه هالك إذا خففت لم تعمل في غير ضمير أمر محذوف .

وأجاز المبرد إعمالها كحالها مشددة ، وزعم صاحب النظم أنّ أنْ هنا زائدة ، والحمد لله خبر ، وآخر دعواهم .

وهو مخالف لنص سيبويه والنحويين ، وليس هذا من محال زيادتها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ أي دعاؤُهم وهو مبتدأٌ وقوله عز وجل : ﴿ فِيهَا ﴾ متعلقٌ به وقوله تعالى : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ خبرُه أي دعاؤهم هذا الكلامُ وهو معمولٌ لمقدر لا يجوز إظهارُه والمعنى اللهم إنا نسبّحك تسبيحاً ، ولعلهم يقولونه عند ما عاينوا فيها من تعاجيبِ آثارِ قدرتِه تعالى ونتائجِ رحمتِه ورأفتِه ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعت ولا خطرَ على قلب بشر تقديساً لمقامه تعالى عن شوائب العجز والنقصانِ وتنزيهاً لوعده الكريمِ عن سمات الخُلف ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا ﴾ التحيةُ التكرمةُ بالحالة الجليلة أصلُها أحياك الله حياةً طيبة ، أي ما يحيي به بعضُهم بعضاً أو تحيةُ الملائكةِ إياهم كما في قوله تعالى : ﴿ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سلام ﴾ أو تحيةُ الله عز وجل لهم كما في قوله تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ ﴿ سلام ﴾ أي سلامةٌ من كل مكروه ﴿ دعواهم فِيهَا ﴾ أي خاتمةُ دعائِهم ﴿ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ أي أن يقولوا ذلك نعتاً له عز وجل بصفات الإكرام إثرَ نعتِه تعالى بصفات الجلال ، أي دعاؤهم منحصرٌ فيما ذُكر إذ ليس لهم مطلبٌ مترقّبٌ حتى

ينتظموا في سلك الدعاء ، وأن هي المخففةُ من أنّ المثقلة أصلُه أنه الحمدُ لله فحُذف ضميرُ الشأنِ كما في قوله :

(98/358)

أنْ هالكٌ كلُّ من يحفى وينتعلُ . . . وقرىء أنّ الحمدَ لله بالتشديد ونصبِ الحمدُ ولعل توسيط ذكرِ تحيتِهم عند الحكايةِ بين دعائِهم وخاتمتِه للتوسل إلى ختم الحكايةِ بالتحميد تبرّكاً مع أن التحيةَ ليست بأجنبية على الإطلاق ، ودعوى كونِ ترتيبِ الوقوعِ أيضاً كذاك بأن كانوا حين دخلوا الجنةَ وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءَه مجدّوه ونعتوه بنعوت الجلالِ ثم حياهم الملائكةُ بالسلامة من الآفات والفوزِ بأصناف الكراماتِ أو حياهم بذلك ربُّ العزةِ فحمِدوه تعالى وأثنَوا عليه بأباها إضافةُ الآخرِ إلى دعواهم وقد جوز أن يكون المرادُ بالدعاء العبادةَ كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ ﴾ الخ ، إيذاناً بأنْ لا تكليفَ في الجنة أي ما عبادتُهم إلا أن يسبحوه ويحمَدوه وليس ذلك بعبادة إنما يُلْهمونه وينطِقونه تلذذاً ولا يساعده تعيينُ الخاتمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(99/358)

وقال الآلوسى :

﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾

﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ أي دعاؤهم وهو مبتدأ ، وقوله تعالى شأنه : ﴿ فِيهَا ﴾ متعلق به ، وقوله سبحانه : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ خبره أي دعاؤهم هذا الكلام ، والدعوى وإن اشتهرت بمعنى الادعاء لكنها وردت بما ذكرنا أيضاً ، وكون الخبر من جنس الدعاء يشهد له قوله صلى الله عليه وسلم : " أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفات لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير " والظاهر أن إطلاق الدعاء على ذلك مجاز وهو الذي يفهمه كلام ابن الأثير حيث قال : إنما سمى التهليل والتحميد والتمجيد دعاء لأنه بمنزلته في استيجاب ثواب الله تعالى وجزائه .

وفي الحديث " إذا شغل عبدي ثناؤه على من مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين " وجاءت بمعنى العبادة كما في قوله سبحانه : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ [مريم : 48] وجوز إرادته هنا والمراد نفي التكليف أي لا عبادة لهم غير هذا القول وليس ذلك بعبادة وإنما يلهمونه وينطقون به تلذذاً لا تكليفاً .

ونظير ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ البيت إِلَّا مُكَاء وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال : 35] وفيه خفاء كما لا يخفى وقد يقال : يأتي نظير هذا في الآية على احتمال أن يراد

بالدعوى الدعاء حقيقة فيكون المعنى على طرز ما قرر أنه لا سؤال لهم من الله تعالى سوى ذلك ، ومن المعلوم أن ذلك ليس بسؤال فيفيد أنه لا سؤال لهم أصلاً .

والغرض من ذلك الإشارة إلى حصول جميع مقاصدهم بالفعل فليس بهم حاجة إلى سؤال شيء إلا أن فيه ما فيه ونصب سبحان على المصدرية لفعل محذوف وجوباً وهو بمعنى التسبيح .

(100/358)

وقدرت الجملة اسمية أي أنا نسبحك تسبيحاً لأنها أبلغ والجمل التي بعدها كذلك ، و ﴿ اللهم ﴾ بتقدير يا ألله حذف حرف النداء وعوض عنه الميم وتمام الكلام فيه وفيما قبله قد تقدم لك فتذكر ، وكان القياس تقديم الاسم الجليل لأن النداء يقدم على الدعاء لكنه استعمل في التسبيح كذلك قيل : لأنه تنزيه عن جميع النقائص وفي النداء ربما يتوهم ترك الأدب .

﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ ﴾ أي ما يحيون به ﴿ فِيهَا سلام ﴾ أي سلامتهم من كل مكروه ، وهو خبر ﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ و ﴿ فِيهَا ﴾ متعلق بها ، والتحية والتكرمة بالحال الجليلة وأصلها أحياك الله تعالى حياة طيبة ، وإضافتها هنا إلى المفعول ، والفاعل أما الله سبحانه أي تحية الله

تعالى إياهم ذلك ويرشد إليه قوله عز وجل : ﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [ياس : 58] أو الملائكة عليهم السلام ويرشد إليه قوله سبحانه : ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سلام ﴾ [الرعد : 23] .

(وجوز أن تكون الإضافة إلى الفاعل بتقدير مضاف أي تحية بعضهم بعضاً آخر ذلك .

(101/358)

وقد يعتبر البعض المقدر مفعولاً فالإضافة إلى المفعول والفعل محذوف ، وقيل : يجوز أن يكون مما أضيف فيه المصدر لفاعله ومفعوله معاً إذا كان المعنى يحيي بعضهم بعضاً ، ونظيره في الإضافة إلى الفاعل والمفعول قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهدين ﴾ [الأنبياء : 87] حيث أضيف حكم إلى ضمير داود وسليمان عليهما السلام وهما حاكمان وغيرهما وهم المحكوم عليهم ، وليس ذلك من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز المختلف فيه حيث أن إضافة المصدر لفاعله حقيقة ولمفعوله مجاز لأنه لا خلاف في جواز الجمع إذا كان المجاز عقلياً إنما الخلاف فيه إذا كان لغوياً ﴿ دعواهم فِيهَا ﴾ أي خاتمة دعائهم ﴿ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ أي أنه الحمد لله فأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن محذوف والجملة الاسمية خبرها وأن ومعمولاها خبر آخر ، وليست مفسرة

لفقد شرطها ، ولا زائدة لأن الزيادة خلاف الأصل ولا داعي إليها ، على أنه قد قرأ ابن محيصن .

ومجاهد .

وقتادة .

ويعقوب بتشديدها ونصب ﴿ الحمد ﴾ وفي ذلك دليل لما قلنا ، والظاهر أن تحقق مضمون هذه الجمل لكونها اسمية على سبيل الدوام والاستمرار وفي الإخبار ما يؤيده ، فلعل القوم لما دخلوا الجنة حصل لهم من العلم بالله تعالى ما لم يحصل لهم قبله على اختلاف مراتبهم .

(102/358)

وقد صرح مولانا شهاب الدين السهروردي في بعض رسائله في الكلام بتفاوت أهل الجنة في المعرفة فقال : أن عوام المؤمنين في الجنة يكونون في العلم كالعلماء في الدنيا والعلماء فيها يكونون كالأنبياء عليهم السلام في الدنيا والأنبياء عليهم السلام يكونون في ذلك كنبينا صلى الله عليه وسلم ويكون لنبينا عليه الصلاة والسلام من العلم بربه سبحانه الغاية القصوى التي لا تكون لملك مقرب ولا لنبي مرسل ، ويمكن أن يكون ذلك المقام المحمود ، ولا يبعد

عندي أنهم مع تفاوتهم في المعرفة لا يزالون يترقبون فيها على حسب مراتبهم ، والسير في الله سبحانه غير متناه والوقوف على الكنه غير ممكن ، وحينئذٍ التفاوت في معرفة الصفات وهي كما قيل إما سلبية وتسمى بصفات الجلال لأنها يقال فيها : جل عن كذا جل عن كذا وإما غيرها وتسمى بصفات الإكرام وبذلك فسر قوله تعالى : ﴿ تبارك اسم ربّكَ ذِى الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : 78] فلا يزالون يدعون الله تعالى بالتسبيح الذي هو إشارة إلى نعته بنعوت الجلال وبالتحميد الذي هو إشارة إلى وصفه بصفات الإكرام ، والدوام عرفي وهو أكثر من أن يحصى ، وقوله عليه الصلاة والسلام في وصف أهل الجنة كما في "صحيح مسلم" : " يسبحون الله تعالى بكرة وعشياً " يؤيد بظاهره ذلك ، والمراد بالبكر والعشية كما قال النووي قدرهما ، وظاهر الآية أنهم يقدمون نعته تعالى بنعوت الجلال ويختمون دعاءهم بوصفه بصفات الإكرام لأن الأولى متقدمة على الثانية لتقدم التخلية على التحلية ، ويرشد إلى ذلك قوله سبحانه :

(103/358)

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [الشورى : 11] والمختار عندي كون فاعل التحية هو الله تعالى أو الملائكة عليهم السلام وحينئذٍ لا يبعد أن يكون الترتيب

الذكرى حسب الترتيب الوقوعي وذلك بأن يقال : إنهم حين يشرعون بالدعاء سبحون الله تعالى وينزهونه فيقابلون بالسلام وهو دعاء بالسلامة عن كل مكروه فإن كان من الله سبحانه فهو مجاز لا محالة لاستحالة حقيقة الدعاء عليه تعالى وإن كان من الملائكة عليهم السلام فلا مانع من بقائه على حقيقته لكن يوجه الطلب فيه إلى الدوام لأن أصل السلامة حاصل لهم وإن قلنا : إنها تقبل الزيادة فلا بعد في أن يوجه إلى طلبها ، وما ألطف مقابلة التسبيح والتنزيه بالسلامة عن المكروه لقربها من ذلك معنى كما لا يخفى على المنصف ثم يختمون دعاءهم بالحمد لله رب العالمين .

وهكذا لا يزال دأبهم بكرة وعشياً كما يشير إليه خبر الصحيح ، ولعل عدم ذكر التحميد فيه اكتفاء بما في الآية وهذا ما عندي فيها .

وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وأبو الشيخ عن ابن جريج قال : أخبرت أن أهل الجنة إذا مر بهم الطائر يشتهونه قالوا : سبحانك اللهم وذلك دعاؤهم به فيأتيهم الملك بما اشتهوا فإذا جاء الملك به يسلم عليهم فيردون عليه وذلك قوله تعالى : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ فإذا أكلوا قدر حاجتهم قالوا : الحمد لله رب العالمين وذلك قوله سبحانه : ﴿ دعواهم فِيهَا سبحانك اللهم وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ وهو ظاهر في أن الترتيب الذكرى حسب الترتيب الوقوعي أيضاً لكن يدل على

أن الدعوى بمعنى الدعاء ، ومعنى كون سبحانك اللهم دعاء وطلباً لما يشتهون حينئذٍ أنه علامة للطلب ، ونظير ذلك تسبيح المصلى إذا نابه شيء في صلاته وفي بعض الآثار أن هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام فإذا قالوها أتوهم بما يشتهون .

(104/358)

وأخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب مرفوعاً أنهم إذا قالوا ذلك أتاهم ما اشتهوا من الجنة من ربهم ولا بأس في ذلك .

نعم في كون الحمد بعد أكل قدر حاجتهم مدلول قوله سبحانه : ﴿ دعواهم فِيهَا سبحانك اللهم وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ خفاء .

وقال القاضي بيض الله تعالى غرة أحواله : لعل المعنى أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله سبحانه وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات أو الله تعالى فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الإكرام وهو أيضاً ظاهر في كون الترتيب الذكري كما قلنا إلا أنه تعقب بأن إضافة ﴿ ءاخَرَ ﴾ إلى ﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ يأباه ، وكأن وجه الإباء على ما قيل : إن ذلك على هذا آخر الحال وبأن اعتبار الفوز بالكرامات في مفهوم السلام غير ظاهر ، ولعل الأمر فدي ذلك سهل .

وقال شيخ الإسلام : لعلهم يقولون : سبحانك اللهم عند ما يعاينون من تعاجيب آثار قدرته تعالى ونتائج رحمته ورأفته ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر تقديساً لمقامه تعالى عن شوائب العجز والنقصان وتنزيهاً لوعده الكريم عن سمات الخلف ويكون خاتمة دعائهم أن يقولوا : الحمد لله رب العالمين نعتاً له تعالى شأنه بصفات الإكرام إثر نعته بصفات الجلال ، والمعنى دعاؤهم منحصر فيما ذكر إذ ليس لهم مطلب مترقب حتى ينظموه في سلك الدعاء ، ولعل توسيط ذكر تحيتهم عند الحكاية بين دعائهم وخاتمته للتوسل إلى ختم الحكاية بالتحميد تبركاً مع أن التحية ليست بأجنبية على الإطلاق انتهى . وكأنه أراد بعدم كون التحية أجنبية على الإطلاق كونها دعاء معنى ، وكلامه نص في أن الترتيب الوقوعي مخالف للترتيب الذكري ، ولا يخفى أن توجيه توسيذ ذكر التحية بما ذكره مما لا يكاد يرتضيه منصف على أنه غفل هو وسائر من وقفنا على كلامه من المفسرين عن توجيه اسمية الجمل فافهم ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(105/358)

فصل

قال الزمخشرى فى الآيات السابقة :

سورة يونس

(مكية ، [إلا الآيات 40 و94 و95 و96 فمدنية] وهي مائة وتسع آيات [نزلت بعد الإسراء]) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة يونس (10) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (1) أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ (2)

الر تعديد للحروف على طريق التحدي . وتِلْكَ آياتُ الْكِتابِ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة . والْحَكِيمِ ذو الحكمة لاشتماله عليها ونطقه بها .

أو وصف بصفة محدثة . قال الأعشى :

وَغَرِيبَةٍ تَأْتِى الْمُلُوكَ حَكِيمَةٍ قَدْ قُلْتُهَا لِيُقَالَ مَنْ ذَا قَالَهَا «1»

الهمزة لإنكار التعجب والتعجيب منه . وأَنْ أَوْحَيْنا اسم كان ، وعجباً : خبرها . وقرأ ابن مسعود : عجب ، فجعله اسماء وهو نكرة وأَنْ أَوْحَيْنا خبراً وهو معرفة ، كقوله :

يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاء «2»

---

(1) . للأعشى . أى : ورب قصيدة غريبة حكيمة ناطقة بالحكمة دالة عليها ، أو حكيم قائلها ، فهو من الاسناد للسبب ، لأنها سبب في وصف قائلها بالحكمة . قد قلتها ليتعجب الناس ويقولوا من هذا الشاعر البليغ الذي قالها . وذا : اسم إشارة في لغة الحجاز ، واسم موصول في لغة طيئ ، وهي أقرب هنا ، فجملة «قالها» صلة الموصول . [. . . . .]

(2) كأن سلافة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء

على أنيابها أو طعم غصن من التفاح هصره اجتناء

لحسان بن ثابت قبل تحريم الخمر . والسلافة : أول ما يسيل من ماء العنب . ويروى «سبيئة» أى مشتراة . يقال :

سبأ الخمر كنصر ، إذا اشتراها . ويروى خبيئة : أى مصونة في الخابية . وبيت رأس : قرية بالشام . وقيل :

المراد بالرأس الرئيس ، وشرابها أطيب من غيره ، و«مزاجها» خبر يكون مع أنه معرفة . و«عسل» اسمها مع أنه نكرة ، وكان القياس العكس فقلب للضرورة . وجوزه ابن مالك في معمول «كان» و«إن» فلا قلب . وقال الفارسي :

إن انتصاب مزاجها على الظرفية المجازية . وروى برفع الكلمات الثلاث ، على أن اسم كان ضمير الشأن . وقول ابن السيد : بزيادة «كان» هنا : غير مرضى ، لأن زيادة المضارع لا

ترتكب إلا عند الضرورة ، ويروى بنصب العسل فقط ، فهو خبر ورفع ماء . بتقدير : وخالطها ماء . وجملة الكون صفة سلافة . وعلى أنيابها : خبر «كأن» الشدة . والمزاج : ما يمزج به غيره . والمراد بالأنياب : الثغر كله . والغض : الطري الرطب . والهصر : عطف الغصن وإمالته إليك من غير إبانة لتجنى ثمره . والتهصير : مبالغة فيه . وروى «الجناء» بدل «الاجتناء» .

وهو بالقصر مصدر . لكن مد هنا ضرورة . وإسناد التهصير إلى ذلك مجاز عقلى ، من باب الاسناد للسبب .

وإيقاعه على التفاح على تقدير مضاف ، أى : هصر غصنه . ويروى : أو طعم غصن ، فلا تجوز في تهصيره . لكن إضافة طعم إليه على تقدير مضاف . أى طعم ثمر غصن ، شبه ريقها بالخمر الجيدة وطعمه بطعم تفاح ميل غصته الجاني ليجتنيه ، إشارة إلى أنه مجنى الآن لم يمض عليه شيء من الزمان ، وتلويحا لتشبيه محبوبته بالأغصان في الرفة واللين والميلان .

(106/358)

والأجود أن تكون «كان» تامّة ، وأن أوحينا بدلا من عجب . فإن قلت : فما معنى اللام في قوله أَكانَ لِلنّاسِ عَجَباً ؟ وما هو الفرق بينه وبين قولك : أكان عند الناس عجباً ؟ قلت :

معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها ، ونصبوه علماً لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم ، وليس في عند الناس هذا المعنى ، والذي تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر ، وأن يكون رجلا من أفناء رجالهم «1» دون عظيم من عظمائهم ، فقد كانوا يقولون : العجب أنّ اللّه لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبى طالب ، وأن يذكر لهم البعث وينذر بالنار ويبشر بالجنة ، وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب ، لأنّ الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشر مثلهم . وقال اللّه تعالى قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب أيضاً ، لأنّ اللّه تعالى إنما يختار من استحق الاختيار ، لجمعه أسباب الاستقلال بما اختير له من النبوّة . والغنى والتقدّم في الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى والبعث للجزاء على الخير والشر هو الحكمة العظمى ، فكيف يكون عجباً ؟ إنما العجب العجيب والمنكر في العقول تعطيل الجزاء أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ أن هي المفسرة ، لأنّ الإيحاء فيه معنى القول . ويجوز أن تكون المخففة من الثقيلة ، وأصله : أنه أنذر الناس ، على معنى : أن الشأن قولنا أنذر الناس . وأَنَّ لَهُمْ الباء معه محذوف قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ أى سابقة وفضلا ومنزلة رفيعة «2» . فإن قلت : لم سميت السابقة

---

(1) . قوله «من أفناء رجالهم» في الصحاح : يقال هو من أفناء الناس ، إذا لم يعلم ممن هو .

(ع)

(2) . قال محمود : «أى سابقة وفضلا ومنزلة رفيعة . . . الخ» قال أحمد : ولم يرد في سابقة السوء تسميتها قدما ، إما لأن المجاز لا يطرد ، وإما أن يكون مطردا ولكن غلب العرف على قصرها كما يغلب في الحقيقة ، والله أعلم .

(107/358)

قدما ؟ قلت : لما كان السعى والسبق بالقدم ، سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدما ، كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد ، وباعاً لأنّ صاحبها يبوع بها ، فقيل : لفلان قدم في الخير . وإضافته إلى صدق دلالة على زيادة فضل ، وأنه من السوابق العظيمة وقيل : مقام صدق إِنَّ هذا إن هذا الكتاب وما جاء به محمد لَساحِرٌ ومن قرأ : لساحر ، فهذا إشارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو دليل عجزهم واعترافهم به وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً . وفي قراءة أبىّ : ما هذا إلا سحر .

[سورة يونس (10) : الآيات 3 إلى 4]

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ

بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (4)

يُدَبِّرُ يقضى ويقدر على حسب مقتضى الحكمة ويفعل ما يفعل المتحرى للصواب الناظر في أدبار الأمور وعواقبها ، لئلا يلقاه ما يكره آخراً . والْأَمْرَ أمر الخلق كله وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش . فإن قلت : ما موقع هذه الجملة ؟ قلت :

قد دل بالجملة قبلها على عظمة شأنه وملكه بخلق السموات والأرض ، مع بسطتها واتساعها في وقت يسير ، وبالاستواء على العرش ، وأتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة وأنه لا يخرج أمر من الأمور من قضائه وتقديره ، وكذلك قوله ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ دليل على العزة والكبرياء ، كقوله يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وذِلِكُمُ إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة ، أى ذلك العظيم « 1 » الموصوف بما وصف به هو ربكم ، وهو الذي يستحق منكم العبادة فَاعْبُدُوهُ وحده ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان ، فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع أَفَلا تَذَكَّرُونَ فإن أدنى التفكر والنظر ينبهكم على الخطأ فيما أنتم عليه إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً أى لا ترجعون في العاقبة إلا إليه فاستعدوا للقائه وَعْدَ اللَّهِ مصدر مؤكد لقوله إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ وحَقًّا مصدر مؤكد لقوله وَعْدَ اللَّهِ . إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ استئناف معناه التعليل لوجوب المرجع إليه ، وهو أنّ الغرض ومقتضى الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو جزاء المكلفين على أعمالهم . وقرئ : أنه يبدؤ

(1) . قوله «ذلك العظيم» لعله ذلكم . (ع)

(108/358)

الخلق ، بمعنى لأنه . أو هو منصوب بالفعل الذي نصب وعد اللّه : أى وعد اللّه وعداً بدأ الخلق ثم إعادته . والمعنى : إعادة الخلق بعد بدئه . وقرئ : وعد اللّه ، على لفظ الفعل . ويبدئ ، من أبدأ . ويجوز أن يكون مرفوعاً بما نصب حقا ، أى حقّ حقا بدأ الخلق ، كقوله :

أَحَقًّا عِبَادَ اللهِ أَنْ لَسْتُ جَائِياً وَلَا ذَاهِباً إِلّا عَلَيَّ رَقِيبُ «1»

وقرئ : حق أنه يبدؤ الخلق ، كقولك : حق أنّ زيداً منطلق بِالْقِسْطِ بالعدل ، وهو متعلق بيجزى . والمعنى : ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم . أو بقسطهم وبما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا حين آمنوا وعملوا صالحاً ، لأنّ الشرك ظلم . قال اللّه تعالى إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ والعصاة ظلام أنفسهم ، وهذا أوجه ، لمقابلة قوله بِما كانُوا يَكْفُرُونَ .

[سورة يونس (10) : آية 5]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5)

الياء في ضِياءً منقلبة عن واو ضوء لكسرة ما قبلها . وقرئ : ضئاء بهمزتين بينهما ألف على القلب ، بتقديم اللام على العين ، كما قيل في عاق : عقا . والضياء أقوى من النور وَقَدَّرَهُ وقدّر القمر . والمعنى وقدّر مسيره مَنازِلَ أو قدّره ذا منازل ، كقوله تعالى وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ . وَالْحِسابَ وحساب الأوقات من الشهور والأيام والليالي ذِلكَ إشارة إلى المذكور أى ما خلقه إلا ملتبساً بالحق الذي هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثاً . وقرئ : يفصل ، بالياء .

[سورة يونس (10) : آية 6]

إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6)

خصّ المتقين لأنهم يحذرون العاقبة فيدعوهم الحذر إلى النظر والتدبر .

---

(1) أحقا عباد اللّه أن لست جائياً ولا ذاهبا إلا على رقيب

ولا زائراً فرداً ولا في جماعة من الناس إلا قيل أنت مريب

لعبد اللّه بن الدمينة الخثعمي . وقيل : لقيس بن الملوح . قال المرزوقي : أحقاً انتصب عند سيبويه على الظرفية ، كأنه قال : أفى الحق ذلك ، لأنهم كثيراً ما يقولون : أفى الحق كذا . وعند المبرد على المفعولية المطلقة ، أى أحق ذلك حقاً ، لأنه مصدر . وعباد اللّه : منادى . وروى : أن لست وارداً ولا صادراً . والمعنى واحد . والرقيب : المانع من لقاء الحبيب . ويجوز أن يراد به ما في قوله تعالى : ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ

عَتِيدٌ أى مناظر حاضر .

أو قوله تعالى إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ .

(109/358)

[سورة يونس (10) : الآيات 7 إلى 8]

إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ (7) أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (8)

لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لا يتوقعونه أصلا ، ولا يخطرونه ببالهم لغفلتهم المستولية عليهم ، المذهلة باللذات وحب العاجل عن التفطن للحقائق . أو لا يأملون حسن لقائنا كما يأمله السعداء أو لا يخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يخاف وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا من الآخرة ، وآثروا القليل الفاني على الكثير الباقي ، كقوله تعالى أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ . وَاطْمَأَنُّوا بِها وسكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها ، فبنوا شديداً وأمّلوا بعيداً .

[سورة يونس (10) : الآيات 9 إلى 10]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9) دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ

رَبِّ الْعالَمِينَ (10)

يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ يسدّدهم بسبب إيمانهم للاستقامة «1» على سلوك السبيل المؤدّى إلى الثواب ، ولذلك جعل تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ بيانا له وتفسيرا ، لأنّ التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها . ويجوز أن يريد : يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة ، كقوله تعالى يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ ومنه الحديث : «إنّ المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة حسنة ، فيقول له : أنا عملك ، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة . والكافر إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة سيئة فيقول له : أنا عملك ، فينطلق به حتى يدخله النار «2»» فإن قلت : فلقد دلت هذه الآية على أنّ الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية والتوفيق والنور يوم القيامة ، هو إيمان مقيد ، وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح .

---

(1) . قال محمود : «معناه يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة . . . الخ» قال أحمد : هو يقرر بذلك زعمه في أن شرط دخول الجنة العمل الصالح ، وأن من لم يعمل مخلد في النار كالكافر ، وأنى له ذلك وقد جعل اللّه سبب الهداية إلى الجنة مطلق الايمان ، فقال يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ وقول الزمخشري «أن المراد إضافة العمل» لا ينتهض عن حيز الدعوى ، فان اللّه لم يعلل بغير الايمان وإن جرى لغيره ذكر أولا فلا يلزم إجراؤه ثانياً ولا محوج إليه . وشبهته أن الايمان المجهول سبباً مضاف إلى ضمير الصالحين ، فيلزم أخذ الصلاح قيداً في التسبب ،

وهو ممنوع ، فان الضمير إنما يعود على الذوات لا باعتبار الصفات وقد تقدمت لهذه المباحثة أمثال وأشكال ، والله الموفق .

(2) . أخرجه الطبري من طريق سعيد عن قتادة قال : بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن المؤمن إذا خرج من قبره – فذكره» وروى ابن أبى شيبة من طريق عمرو بن قيس عن عطية عن ابن عمر قال «يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره عمله في أحسن صورة . فذكر نحوه بتمامه .

(110/358)

والإيمان الذي لم يقرن بالعمل الصالح فصاحبه لا توفيق له ولا نور . قلت : الأمر كذلك . ألا ترى كيف أوقع الصلة مجموعا فيها بين الإيمان والعمل ، كأنه قال : إنّ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، ثم قال : بإيمانهم ، أى بإيمانهم هذا المضموم إليه العمل الصالح ، وهو بين واضح لا شبهة فيه دَعْواهُمْ دعاؤهم ، لأن «اللهمّ» نداء لله ومعناه : اللهمّ إنا نسبحك ، كقول القانت في دعاء القنوت : اللهمّ إياك نعبد ولك نصلى ونسجد . ويجوز أن يراد بالدعاء : العبادة وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ على معنى أن لا تكليف في الجنة ولا عبادة ، وما عبادتهم إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه ، وذلك ليس بعبادة ، إنما يلهمونه

فينطقون به تلذذاً بلا كلفة ، كقوله تعالى وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَتَصْدِيَةً .

وَآخِرُ دَعْواهُمْ وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح أَنِ يقولوا الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ . ومعنى وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ أنّ بعضهم يحيى بعضا بالسلام . وقيل : هي تحية الملائكة إياهم ، إضافة للمصدر إلى المفعول . وقيل : تحية اللّه لهم . وأن هي المخففة من الثقيلة ، وأصله : أنه الحمد للّه ، على أن الضمير للشأن ، كقوله :

أَنْ هالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ «1»

وقرئ : أنّ الحمد للّه ، بالتشديد ونصب الحمد . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 331.326﴾

---

(1) وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاو مشل شلول شلشل شول

في فتية كسيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يحفى وينتعل

للأعشى ميمون بن قيس . والحانوت : محل البيع والشراء . والمراد : محل بيع الطعام والشراب . يتبعني شاو :

أى غلام يشوى اللحم . مشل : أى مسرع . شلول : خفيف في العمل : شلشل : بالضم ، أى ماض في الخدمة وقضاء الحوائج : شول - ككتف - خفيف في العمل . وقيل : مخرج للحم من القدر . في فتية : أى حال كوني مع فتيان كسيوف الهند في إنفاذ العزائم في المكارم . أو في بياض الوجوه وتهللها . والأول أنسب بقوله : قد علموا أنه ، أى الحال والشأن . هالك

وفان كل حاف : غير لابس للنعل ، ومنتعل : لابس له ، وهما كناية عن الفقير والغنى ، وإذا استويا في الغنى فلا معنى للبخل الذي لا يوجب البقاء . ويجوز أنهما كناية عن جميع الناس مبالغة في التعميم .

(111/358)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا) .

فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْمُنَزَّلَتَيْنِ إِرْشَادٌ إِلَى أَنْوَاعٍ كَثِيرَةٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ الْكَوْنِيَّةِ ، الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَكَوْنِهِ مِنْ مُقْتَضَى حِكْمَتِهِ ، وَاطِّرَادِ النِّظَامِ التَّامِّ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ تَفْصِيلٌ لِمَا أُجْمِلَ فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاسْتِوَاءِ الْخَالِقِ عَلَى عَرْشِهِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، وَيُقِيمُ النِّظَامَ فِي الْخَلْقِ ، الَّتِي سِيقَتْ لِلِاسْتِدْلَالِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَحَقِّيَّةِ الْوَحْيِ .

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا)

الضِّيَاءُ : اسْمُ مَصْدَرٍ مِنْ أَضَاءَ يُضِيءُ وَجَمْعُ ضَوْءٍ ، كَسِيَاطٍ وَسَوْطٍ وَحِيَاضٍ وَحَوْضٍ ، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ : (ضِئَاءً) عَلَى الْقَلْبِ بِتَقْدِيمِ لَامِ الْكَلِمَةِ عَلَى عَيْنِهَا . قَالَ فِي الْقَامُوسِ

وَشَرْحِهِ : (الضَّوْءُ) هُوَ النُّورُ (وَيُضَمُّ) وَهُمَا مُتَرَادِفَانِ عِنْدَ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ ، وَقِيلَ : الضَّوْءُ أَقْوَى مِنَ النُّورِ قَالَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ ، وَلِذَا شَبَّهَ اللهُ هُدَاهُ بِالنُّورِ دُونَ الضَّوْءِ وَإِلَّا لَمَا ضَلَّ أَحَدٌ ، وَتَبِعَهُ

(112/358)

الطِّيبِيُّ وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَأَنْكَرَهُ صَاحِبُ الْفَلَكِ الدَّائِرِ ، وَسَوَّى بَيْنَهُمَا ابْنُ السِّكِّيتِ ، وَحَقَّقَ فِي الْكَشْفِ أَنَّ الضَّوْءَ فَرْعُ النُّورِ وَهُوَ الشُّعَاعُ الْمُنْتَشِرُ ، وَجَزَمَ الْقَاضِي زَكَرِيَّا بِتَرَادُفِهِمَا لُغَةً بِحَسْبِ الْوَضْعِ ، وَأَنَّ الضَّوْءَ أَبْلَغُ بِحَسْبِ الِاسْتِعْمَالِ ، وَقِيلَ : الضَّوْءُ لِمَا بِالذَّاتِ كَالشَّمْسِ وَالنَّارِ ، وَالنُّورُ لِمَا بِالْعَرَضِ وَالِاكْتِسَابِ مِنَ الْغَيْرِ ، هَذَا حَاصِلُ مَا قَالَهُ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، وَجَمْعُهُ أَضْوَاءٌ (كَالضِّوَاءِ وَالضِّيَاءِ بِكَسْرِهِمَا) لَكِنْ فِي نُسْخَةٍ لِسَانِ الْعَرَبِ ضَبْطُ الْأَوَّلِ بِالْفَتْحِ وَالثَّانِي بِالْكَسْرِ ، وَفِي التَّهْذِيبِ عَنِ اللَّيْثِ : الضَّوْءُ وَالضِّيَاءُ مَا أَضَاءَ لَكَ ، وَنَقَلَ شَيْخُنَا عَنِ الْمُحْكَمِ أَنَّ الضِّيَاءَ يَكُونُ جَمْعًا أَيْضًا ، قُلْتُ : هُوَ قَوْلُ الزَّجَّاجِ فِي تَفْسِيرِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : (كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ) (2 : 20) اهـ .

وَأَقُولُ : يَدُلُّ عَلَى التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فِي نُورِهِمَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) (71 : 16) وَقَوْلُهُ : (وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا)

(25 : 61) وَالسِّرَاجُ مَا كَانَ نُورُهُ مِنْ ذَاتِهِ . وَاسْتَبْعَدَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ قَوْلَ الزَّجَّاجِ : إِنَّ الضِّيَاءَ فِي الْآيَةِ جَمْعُ ضَوْءٍ ؛ لِأَنَّ الْمُنَاسِبَ لِكَوْنِ الْقَمَرِ نُورًا أَنْ يَكُونَ الضِّيَاءُ مُفْرَدًا مِثْلُهُ .

(113/358)

وَجَهِلَ هَذَا الْمُسْتَبْعِدُ وَأَمْثَالُهُ مَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَنَّ شُعَاعَ الشَّمْسِ مُرَكَّبٌ مِنْ أَلْوَانِ النُّورِ السَّبْعَةِ ، الَّتِي يَرَاهَا النَّاسُ فِي قَوْسِ السَّحَابِ فَهُوَ سَبْعَةُ أَضْوَاءٍ لَا ضَوْءٌ وَاحِدٌ ، فَهَذَا التَّعْبِيرُ مِنْ مُفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي كَشَفَ لَنَا تَرَقِّي الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالْفَلَكِيَّةِ مِنَ الْمَعْنَى فِيهَا مَا كَانَ النَّاسُ أَوِ الْعَرَبُ يَجْهَلُونَهُ فِي عَصْرِ التَّنْزِيلِ ، كَتَعْبِيرِهِ عَنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ النَّبَاتِ بِأَنَّهُ مَوْزُونٌ ، وَتَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي مَبَاحِثِ الْوَحْيِ .

وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ، التَّقْدِيرُ جَعَلَ الشَّيْءَ أَوِ الْأَشْيَاءَ عَلَى مَقَادِيرَ مَخْصُوصَةٍ فِي الزَّمَانِ أَوِ الْمَكَانِ أَوِ الذَّوَاتِ أَوِ الصِّفَاتِ ، قَالَ تَعَالَى : (وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) (73 : 20) وَقَالَ فِي الْقُرَى الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ سَبَأٍ وَالشَّامِ : (وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ) (34 : 18) وَقَالَ فِي الْمَقَادِيرِ الْعَامَّةِ : (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) (25 : 2) وَالْمَنَازِلُ أَمَاكِنُ النُّزُولِ جَمْعُ مَنْزِلٍ وَالضَّمِيرُ لِلْقَمَرِ كَمَا فِي سُورَةِ يس : وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (36 : 39) أَيْ قَدَّرَ لَهُ أَوْ قَدَّرَ سَيْرَهُ فِي فَلَكِهِ فِي مَنَازِلَ يَنْزِلُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا

لَا يُخْطِئُهُ وَلَا يَتَخَطَّاهُ ، وَهِيَ ثَمَانِيَةٌ

وَعِشْرُونَ مَنْزِلًا مَعْرُوفَةٌ تُسَمِّيهَا الْعَرَبُ بِأَسْمَاءِ نُجُومِهَا الْمُحَاذِيَةِ لَهَا وَهِيَ .

(114/358)

الشَّرَطَانِ . الْبَطِينُ . الثُّرَيَّا . الدَّبَرَانِ . الْهَقْعَةُ . الْهَنْعَةُ . الذِّرَاعُ . النَّثْرَةُ . الطَّرْفُ . الْجَبْهَةُ . الزُّبْرَةُ ، الصَّرْفَةُ . الْعَوَّاءُ . السِّمَاكُ الْأَعْزَلُ . الْغَفْرُ . الزُّبَانَى . الْإِكْلِيلُ . الْقَلْبُ . الشَّوْلَةُ . النَّعَائِمُ . الْبَلْدَةُ . سَعْدُ الذَّابِحِ . سَعْدُ بُلَع . سَعْدُ السُّعُودِ . سَعْدُ الْأَخْبِيَةِ . فَرْغُ الدَّلْوِ الْمُقَدَّمِ . فَرْغُ الدَّلْوِ الْمُؤَخَّرِ (وَيُسَمَّيَانِ الْفَرْغَ الْأَوَّلَ وَالْفَرْغَ الثَّانِيَ) . الرِّشَاءُ . وَيُرَاجِعْ مُسَمَّيَاتِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ فِي مَعَاجِمِ اللُّغَةِ وَكُتُبِ الْفَلَكِ مَنْ شَاءَ . فَهَذِهِ الْمَنَازِلُ هِيَ الَّتِي يُرَى فِيهَا الْقَمَرُ بِالْأَبْصَارِ ، وَيَبْقَى مِنَ الشَّهْرِ لَيْلَةٌ إِنْ كَانَ 29 وَلَيْلَتَانِ إِنْ كَانَ 30 يَوْمًا يَحْتَجِبُ فِيهِمَا فَلَا يُرَى . (لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) أَيْ لِأَجْلِ أَنْ تَعْلَمُوا بِمَا ذُكِرَ مِنْ صِفَةِ النَّيِّرَيْنِ وَتَقْدِيرِ الْمَنَازِلِ حِسَابَ الْأَوْقَاتِ مِنَ الْأَشْهُرِ وَالْأَيَّامِ ؛ لِضَبْطِ عِبَادَاتِكُمْ وَمُعَامَلَاتِكُمُ الدِّينِيَّةِ وَالْمَالِيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ ، فَلَوْلَا هَذَا النِّظَامُ الْمُشَاهَدُ لَتَعَذَّرَ عَلَى الْأُمِّيِّينَ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ الْعِلْمُ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّ حِسَابَ السِّنِينَ وَالشُّهُورِ الشَّمْسِيَّةِ فَنٌّ لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِالدِّرَاسَةِ ، وَلِذَلِكَ جَعَلَ الشَّرْعُ الْإِسْلَامِيُّ الْعَامُّ لِلْبَدْوِ وَالْحَضَرِ شَهْرَ الصِّيَامِ وَأَشْهُرَ الْحَجِّ

وَعِدَّةَ الطَّلَاقِ وَمُدَّةَ الْإِيلَاءِ وَغَيْرَ ذَلِكَ بِالْحِسَابِ الْقَمَرِيِّ الَّذِي يَعْرِفُهُ كُلُّ أَحَدٍ بِالْمُشَاهَدَةِ ، فَلَا يَتَوَقَّفُ عَلَى

(115/358)

عِلْمٍ فَنِّيٍّ لَا يَكَادُ يُوجَدُ إلَّا فِي بِلَادِ الْحَضَارَةِ . وَلِعِبَادَتَيِ الصِّيَامِ وَالْحَجِّ حِكْمَةٌ أُخْرَى وَهِيَ دَوَرَانُهُمَا فِي جَمِيعِ الْفُصُولِ ، فَيَعْبُدُ الْمُسْلِمُونَ رَبَّهُمْ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ مِنْ حَارَّةٍ وَبَارِدَةٍ وَمُعْتَدِلَةٍ . وَهَذَا لَا يَمْنَعُ أَهْلَ الْعِلْمِ مِنَ الِانْتِفَاعِ بِالْحِسَابِ الشَّمْسِيِّ وَلَهُ فَوَائِدُ أُخْرَى ، وَقَدْ أَرْشَدَهُمْ إلَيْهِ فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) (55 : 5) وَفِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ : (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ (17 : 12) وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَرْغِيبٌ فِي عِلْمِ الْهَيْئَةِ وَالْجُغْرَافِيَّةِ الْفَلَكِيَّةِ وَقَدْ بَرَعَ فِيهِمَا أَجْدَادُنَا بِإِرْشَادِهَا .

ثُمَّ قَالَ : (مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إلَّا بِالْحَقِّ) أَيْ مَا خَلَقَ اللَّهُ الشَّمْسَ ذَاتَ ضِيَاءٍ

(116/358)

تُفِيضُ أَشِعَّتَهَا عَلَى كَوَاكِبِهَا التَّابِعَةِ لِنِظَامِهَا ، فَتَبُثُّ الْحَرَارَةَ وَالْحَيَاةَ فِي جَمِيعِ الْأَحْيَاءِ فِيهِنَّ ، وَجَعَلَ لِكُلِّ ضَوْءٍ مِنْهَا مِنَ الْخَوَاصِّ مَا لَيْسَ لِلْآخَرِ ، وَيُبْصِرُ النَّاسُ فِيهَا جَمِيعَ الْمُبْصَرَاتِ فَيَقُومُونَ بِأُمُورِ مَعَايِشِهِمْ وَسَائِرِ شُئُونِهِمْ ، وَمَا خَلَقَ الْقَمَرَ ذَا نُورٍ مُسْتَمَدٍّ مِنَ الشَّمْسِ تَنْتَفِعُ بِهِ السَّيَّارَةُ فِي سَرَاهُمْ وَغَيْرُهُمْ ، وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ يَعْرِفُ بِهَا جَمِيعُ النَّاسِ السِّنِينَ وَالشُّهُورَ – مَا خَلَقَ ذَلِكَ إِلَّا مُتَلَبِّسًا وَمُقْتَرِنًا بِالْحَقِّ ، الَّذِي تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ الْعَامَّةُ لِحَيَاةِ الْخَلْقِ ، وَنِظَامِ مَعَايِشِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ ، فَلَيْسَ فِيهِ عَبَثٌ وَلَا خَلَلٌ ، بَلْ ظَهَرَ لِلْبَشَرِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ أَسْرَارِ الضَّوْءِ وَحِكَمِهِ مَا صَارَ بِهِ عِلْمًا وَاسِعًا تَحَارُ الْعُقُولُ فِي نَظْمِهِ وَحِكَمِهِ ، مِنْ أَصْغَرِ ذَرَّاتِهِ إِلَى أَعْظَمِ مَجَامِعِ نَيِّرَاتِهِ فَكَيْفَ يُعْقَلُ مِنْ هَذَا الْخَالِقِ الْحَكِيمِ ، أَنْ يَخْلُقَ هَذَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، وَيُعَلِّمَهُ الْبَيَانَ ، وَيُعْطِيَهُ مَا لَمْ يُعْطِ غَيْرَهُ فِي عَالَمِهِ ، مِنَ الِاسْتِعْدَادِ لِإِظْهَارِ مَا لَا يُحْصَى مِنْ حِكَمِهِ وَخَوَاصِّ خَلْقِهِ ، وَسُنَنِهِ فِي عِبَادِهِ ، وَيَجْعَلَ مَدَارَ سَعَادَتِهِ وَشَقَائِهِ عَلَى مَا أَعْطَاهُ مِنْ عِلْمٍ وَإِرَادَةٍ ، ثُمَّ يَتْرُكَهُ بَعْدَ ذَلِكَ سُدًى ، يَمُوتُ وَيَفْنَى ، ثُمَّ لَا يُبْعَثُ وَلَا يَعُودُ ؛ لِيُجْزَى الْمُرْتَقُونَ مِنْهُ فِي مَعَارِجِ الْكَمَالِ مِنَ الْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْفَضَائِلِ النَّفْسِيَّةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ

بِإِيمَانِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، وَلِيُجْزَى الْمُشْرِكُونَ الْخُرَافِيُّونَ ، وَالظَّالِمُونَ الْمُجْرِمُونَ بِكُفْرِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ وَمَفَاسِدِهِمْ وَإِنَّنَا نَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ أَنْعَمَ فِي الدُّنْيَا مَعِيشَةً مِنَ الصَّالِحِينَ الْمُصْلِحِينَ ؟ (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) (68 : 35 و36) وَ (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) (38 : 28) ؟ .

(يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) اسْتِئْنَافٌ لِبَيَانِ الْمُنْتَفِعِينَ بِهَذِهِ الْحُجَجِ أَيْ نُبَيِّنُ الدَّلَائِلَ مِنْ حِكَمِ خَلْقِنَا ، عَلَى مَا أَوْحَيْنَاهُ إِلَى رَسُولِنَا مِنْ أُصُولِ الْعَقَائِدِ وَأَحْكَامِ الشَّرَائِعِ ، مُفَصَّلَةً مُنَوَّعَةً مِنْ كَوْنِيَّةٍ وَعَقْلِيَّةٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وُجُوهَ دَلَالَةِ الدَّلَائِلِ ، وَالْفَرْقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، بِاسْتِعْمَالِ عُقُولِهِمْ فِي فَهْمِ هَذِهِ الْآيَاتِ ، فَيَجْزِمُونَ بِأَنَّ مَنْ خَلَقَ هَذَيْنِ النَّيِّرَيْنِ وَمَا فِيهِمَا مِنَ النِّظَامِ بِالْحَقِّ ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ خَلَقَهُ لِهَذَا الْإِنْسَانِ الْعَجِيبِ عَبَثًا ، وَلَا أَنْ يَتْرُكَهُ سُدًى وَفِي الْآيَةِ تَنْوِيهٌ بِفَضْلِ الْعِلْمِ وَكَوْنِ

الْإِسْلَامِ دِينًا عِلْمِيًّا لَا تَقْلِيدِيًّا ، وَلِذَلِكَ قَفَّى عَلَى هَذِهِ الْآيَاتِ السَّمَاوِيَّةِ فِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ بِآيَةٍ مُذَكِّرَةٍ بِسَائِرِ الْآيَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ فَقَالَ :

إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي حُدُوثِهِمَا وَتَعَاقُبِهِمَا فِي طُولِهِمَا وَقِصَرِهِمَا ؛ بِحَسْبِ اخْتِلَافِ مَوَاقِعِ الْأَرْضِ مِنَ الشَّمْسِ وَالنِّظَامِ الدَّقِيقِ لَهُمَا بِحَرَكَتَيْهَا الْيَوْمِيَّةِ وَالسَّنَوِيَّةِ ، وَطَبِيعَةِ كُلٍّ مِنْهُمَا وَمَا يَصْلُحُ فِيهِ مِنْ نَوْمٍ وَسُكُونٍ وَعَمَلٍ دِينِيٍّ وَدُنْيَوِيٍّ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ أَنْوَاعِ الْجَمَادِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ أَيْ أَنْوَاعًا مِنَ الدَّلَائِلِ وَالْبَيِّنَاتِ عَلَى سُنَنِهِ فِي النِّظَامِ ، وَحِكَمِهِ فِي الْإِبْدَاعِ وَالْإِتْقَانِ ، وَفِي تَشْرِيعِ الْعَقَائِدِ وَالْأَحْكَامِ ، لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ عَوَاقِبَ مُخَالَفَةِ سُنَنِهِ فِي التَّكْوِينِ ، وَسُنَنِهِ فِي التَّشْرِيعِ ، فَالْأَفْرَادُ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ سُنَنَ الصِّحَّةِ الْبَدَنِيَّةِ يَمْرَضُونَ ، وَالشُّعُوبُ الَّتِي تُخَالِفُ سُنَنَ الِاجْتِمَاعِ وَالْعُمْرَانِ تَخْرَبُ بِلَادُهَا ، وَتَضْعُفُ دُوَلُهَا ، وَيُغَيِّرُ اللَّهُ تَعَالَى مَا بِهَا بِتَغْيِيرِهَا مَا فِي أَنْفُسِهَا ، وَكَذَلِكَ الْأَفْرَادُ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ هِدَايَتَهُ الشَّرْعِيَّةَ فِي تَزْكِيَةِ الْأَنْفُسِ فَيُدَنِّسُونَهَا بِالشِّرْكِ وَالْخُرَافَاتِ ، وَيُفْسِدُونَهَا بِالْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ ، يُجْزَوْنَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَيُجْزَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضِهَا فِي الدُّنْيَا (كَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى) .

(119/358)

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

هَذِهِ الْآيَاتُ بَيَانٌ لِحَالِ مُنْكِرِي الْبَعْثِ وَالْغَافِلِينَ ، وَحَالِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ فِي الدُّنْيَا وَجَزَائِهِمَا فِي الْآخِرَةِ ، فِيهِ تَفْصِيلٌ لِمَا سَبَقَ فِي الْآيَةِ الرَّابِعَةِ . قَالَ :

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) قَالَ الْفَيُّومِيُّ فِي الْمِصْبَاحِ : رَجَوْتُهُ أَرْجُوهُ رُجُوًّا - عَلَى فُعُولٍ - أَمَّلْتُهُ أَوْ أَرَدْتُهُ ، قَالَ تَعَالَى : (لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا) (24 : 60) أَيْ يُرِيدُونَهُ ، وَالِاسْمُ

(120/358)

رَجَاءٌ بِالْمَدِّ ، وَرَجَيْتُهُ أَرْجِيهِ مِنْ بَابِ رَمَى لُغَةً ، وَيُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الْخَوْفِ ؛ لِأَنَّ الرَّاجِيَ يَخَافُ أَنَّهُ لَا يُدْرِكُ مَا يَتَرَجَّاهُ اهـ . وَقَالَ الرَّاغِبُ : الرَّجَاءُ ظَنٌّ يَقْتَضِي حُصُولَ مَا فِيهِ مَسَرَّةٌ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) (71 : 13) ؟ قِيلَ : مَا لَكُمْ لَا تَخَافُونَ ؟ وَمَثَّلَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْأَسَاسِ لِحَقِيقَةِ الرَّجَاءِ بِالْمَغْفِرَةِ مِنَ اللَّهِ ، وَالرُّشْدِ فِي الْوَلَدِ وَالْإِحْسَانِ مِنْ أَهْلِ الْإِحْسَانِ ، ثُمَّ قَالَ : وَمِنَ الْمَجَازِ اسْتِعْمَالُ الرَّجَاءِ فِي مَعْنَى الْخَوْفِ

وَالِاكْتِرَاثِ ، يُقَالُ : لَقِيتُ هَوْلًا مَا رَجَوْتُهُ وَمَا ارْتَجَيْتُهُ .

وَمَثَّلَ لَهُ بِشِعْرٍ . وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الرَّجَاءَ : الْأَمَلُ وَالتَّوَقُّعُ لِمَا فِيهِ خَيْرٌ وَنَفْعٌ ، وَأَنَّ الْخَوْفَ تَوَقُّعُ مَا فِيهِ شَرٌّ وَضُرٌّ ، فَهُمَا مُتَقَابِلَانِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) (17 : 57) وَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَالْآيَتَيْنِ 11 و15 مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَالْآيَةِ 21 مِنْ سُورَةِ الْفُرْقَانِ مِنْ رَجَاءِ لِقَاءِ اللَّهِ مَنْفِيًّا يَحْتَمِلُ الرَّجَاءَ وَالْخَوْفَ جَمِيعًا ؛ لِأَنَّ لِقَاءَ اللَّهِ تَعَالَى فِي يَوْمِ الْحِسَابِ مَظِنَّةُ الْخَوْفِ لِقَوْمٍ وَالرَّجَاءِ لِآخَرِينَ ، وَلِذَلِكَ قَالَ فِي الْكَافِرِينَ : (إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا) (78 : 27) .

وَفَسَّرَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ الرَّجَاءَ هُنَا بِمُجَرَّدِ التَّوَقُّعِ الَّذِي يَشْمَلُ مَا يَسُرُّ وَمَا يَسُوءُ . وَاللِّقَاءُ الِاسْتِقْبَالُ وَالْمُوَاجَهَةُ .

(121/358)

وَالْمَعْنَى : أَنَّ الَّذِينَ لَا يَتَوَقَّعُونَ لِقَاءَنَا فِي الْآخِرَةِ لِلْحِسَابِ ، وَمَا يَتْلُوهُ مِنَ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ ، لِإِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ ، وَيَلْزَمُهُ أَنَّهُمْ لَا يُؤَمِّلُونَ لِقَاءَهُ الْخَاصَّ بِالْمُتَّقِينَ فِي دَارِ الْكَرَامَةِ ، وَخَصَّهُ بَعْضُهُمْ بِلِقَاءِ الرُّؤْيَةِ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا بَدَلًا مِنَ الْآخِرَةِ ، فَصَارَ كُلُّ هَمِّهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ مَحْصُورًا فِيهَا ، وَكُلُّ عَمَلِهِمْ لَهَا ، كَمَا قَالَ فِي الْمُتَثَاقِلِينَ عَنِ النَّفِيرِ لِلْجِهَادِ : (أَرَضِيتُمْ

بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ) (9 : 38) ؟ الْآيَةَ وَاطْمَأَنُّوا بِهَا بِسُكُونِ نُفُوسِهِمْ وَارْتِيَاحِ قُلُوبِهِمْ بِشَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا وَزِينَتِهَا لِيَأْسِهِمْ مِنْ غَيْرِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ فَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْمُنَزَّلَةَ مِنْهَا عَلَى رَسُولِنَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالْعِبَرِ ، وَالْمَعَارِفِ وَالْحِكَمِ ، وَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِي الْكَوْنِيَّةِ وَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ

(122/358)

مِنْ حِكْمَتِهِ وَسُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ ، وَمَا يَقْتَضِيهِ كُلٌّ مِنْهُمَا مِنَ الْجِهَادِ وَصَالِحِ الْأَعْمَالِ ، فَكَانُوا بِهَذِهِ الْغَفْلَةِ كَالْفَرِيقِ الْأَوَّلِ الَّذِي لَا يَرْجُو لِقَاءَنَا ، فِي أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا تَشْغَلُهُ دُنْيَاهُ عَنْ آخِرَتِهِ فَلَا يَسْتَعِدُّ لِحِسَابِنَا لَهُ وَمَا يَتْلُوهُ مِنْ نَعِيمٍ مُقِيمٍ أَوْ عَذَابٍ أَلِيمٍ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، الْإِشَارَةُ بِأُولَئِكَ إِلَى الْفَرِيقَيْنِ ، أَيْ مَأْوَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ دَارُ الْعَذَابِ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مُدَّةَ حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا مِنَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ الْمُدَنِّسَةِ لِأَنْفُسِهِمْ بِخُرَافَاتِ الْوَثَنِيَّةِ ، وَأَعْمَالِ الشَّهَوَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ ، وَظُلُمَاتِ الْمَظَالِمِ الْوَحْشِيَّةِ ، وَاسْتِمْرَارِهِمْ عَلَيْهَا الَّذِي دَنَّسَ أَنْفُسَهُمْ وَأَحَاطَ بِهَا ، فَلَمْ يَعُدْ لِنُورِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ مَكَانٌ فِيهَا . وَالْمَأْوَى فِي أَصْلِ اللُّغَةِ : الْمَلْجَأُ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ الْمُتْعَبُ أَوِ الْخَائِفُ أَوِ الْمُحْتَاجُ مِنْ مَكَانٍ آمِنٍ أَوْ إِنْسَانٍ نَافِعٍ ، كَمَا تَرَى فِي اسْتِعْمَالِ أَفْعَالِهِ فِي جَمِيعِ الْآيَاتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى) (93 : 6)

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ) (18 : 10) (وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا) (8 : 72) (آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ) (12 : 69)

(123/358)

(أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) (11 : 80) إِلَخْ ، إِلَّا لَفْظَ الْمَأْوَى فَإِنَّهُ أُطْلِقَ عَلَى الْجَنَّةِ فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ وَعَلَى النَّارِ فِي بِضْعَ عَشْرَةَ آيَةً مِنْهَا آيَةُ يُونُسَ هَذِهِ ، وَفِي تَسْمِيَةِ دَارِ الْعَذَابِ مَأْوًى مَعْنًى دَقِيقٌ فِي الْبَلَاغَةِ دَخِيلٌ فِي أَعْمَاقِهَا ، فَائِضٌ مِنْ جَمِيعِ أَرْجَائِهَا ، يُشْعِرُكَ بِأَنَّ أُولَئِكَ الْمُطْمَئِنِّينَ بِالشَّهَوَاتِ ، وَالْغَافِلِينَ عَنِ الْآيَاتِ ، لَيْسَ لَهُمْ مَصِيرٌ يَلْجَئُونَ إِلَيْهِ بَعْدَ هَوْلِ الْحِسَابِ ، إِلَّا جَهَنَّمَ دَارَ الْعَذَابِ ، فَوَيْلٌ لِمَنْ كَانَتْ هَذِهِ الدَّارُ لَهُ كَالْمَلْجَأِ وَالْمَوْئِلِ ؛ إِذْ لَا مَأْوَى لَهُ يَلْجَأُ إِلَيْهِ بَعْدَهَا .

(124/358)

هَذَا بَيَانٌ لِجَزَاءِ الْفَرِيقِ الْأَوَّلِ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ بِقَسَمَيْهِ ، وَالْقَارِئُ وَالسَّامِعُ لَهُ تَسْتَشْرِفُ نَفْسُهُ لِجَزَاءِ الْفَرِيقِ الْآخَرِ وَالْعِلْمِ بِسَبَبِهِ ، وَقَدْ بَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ) أَيْ يَهْدِيهِمْ بِسَبَبِ إِيمَانِهِمْ بِهِ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ فِي كُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي تُزَكِّي أَنْفُسَهُمْ وَتُهَذِّبُ أَخْلَاقَهُمْ ، وَصَفَهُمْ أَوَّلًا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي هُوَ لَازِمُ الْإِيمَانِ وَمُغَذِّيهِ وَمُكَمِّلُهُ بِصِيغَةِ الْمَاضِي ؛ لِبَيَانِ صِنْفِهِمْ وَفَرِيقِهِمُ الْمُقَابِلِ لِلْفَرِيقِ الَّذِي ذُكِرَ قَبْلَهُمْ ، وَأَخْبَرَ بِهِدَايَةِ إِيمَانِهِمْ لَهُمْ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ الدَّالَّةِ عَلَى الِاسْتِمْرَارِ وَالتَّجَدُّدِ ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْ كَسْبِ الْكُفَّارِ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ ، وَجَعَلَ الْإِيمَانَ وَحْدَهُ سَبَبَ هَذِهِ الْهِدَايَةِ لِأَنَّهُ هُوَ الْبَاعِثُ النَّفْسِيُّ لَهَا ، وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ يَهْدِيهِمُ الصِّرَاطَ

(125/358)

الْمُسْتَقِيمَ الَّذِي يَنْتَهِي بِهِمْ إِلَى دَارِ الْجَزَاءِ الَّتِي قَالَ فِي بَيَانِ حَالِهِمْ فِيهَا : (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) أَيْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ مَقَاعِدِهِمْ مِنْ غُرُفَاتِ تِلْكَ الْجَنَّاتِ وَمِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا ، وَتَقَدَّمَ لَفْظُ : جَنَّاتِ النَّعِيمِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ (5 : 65) وَلَفْظُ : (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ) فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ (7 : 43) وَأَمَّا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَعْنِي الْجَنَّةَ ، فَقَدْ تَقَدَّمَ مُكَرَّرًا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَالنِّسَاءِ وَالْمَائِدَةِ وَالتَّوْبَةِ .

وَالْآيَةُ صَرِيحَةٌ فِي مَعْنَى الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ النَّاطِقَةِ بِأَنَّ دُخُولَ الْجَنَّةِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مَعًا ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ بِدُونِ الْإِسْلَامِ - وَهُوَ الْعَمَلُ - لَا يُوجَدُ إِلَّا فِي حَالِ مَنْ يَمُوتُ عَقِبَ

إِيمَانِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنَ الْعَمَلِ ، وَدُخُولُ مِثْلِ هَذَا الْجَنَّةِ لَا يُعَارِضُ هَذِهِ النُّصُوصَ الْعَامَّةَ لِلْأَحْوَالِ الْعَادِيَّةِ الْغَالِبَةِ .

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(126/358)

فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بَيَانٌ لِكَلِمَاتٍ ثَلَاثٍ ، تُمَثِّلُ حَيَاةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ الرُّوحَانِيَّةِ فِي عَامَّةِ أَحْوَالِهِمْ مِنْ مَبَادِئِ دُعَاءِ رَبِّهِمْ وَتَنْزِيهِهِ ، وَمَا يَدْعُونَهُ أَيْ يَطْلُبُونَهُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَامَتِهِ ، وَمِنْ تَحِيَّتِهِ تَعَالَى وَتَحِيَّةِ مَلَائِكَتِهِ لَهُمْ ، وَمِنْ تَحِيَّتِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ عِنْدَ تَزَاوُرِهِمْ أَوْ تَلَاقِيهِمْ ، وَمِنْ حَمْدِهِمْ لَهُ فِي خَوَاتِيمِ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ، وَهِيَ خَيْرُ الْكَلِمِ وَأَخْصَرُهُ وَأَعْذَبُهُ . الدَّعْوَى فِي اللُّغَةِ الدُّعَاءُ بِمَعَانِيهِ وَالدَّعَاوَةُ فِي الشَّيْءِ وَالِادِّعَاءُ لِلشَّيْءِ ، فَالدُّعَاءُ لِلنَّاسِ هُوَ النِّدَاءُ وَالطَّلَبُ الْمُعْتَادُ بَيْنَهُمْ فِي دَائِرَةِ الْأَسْبَابِ الْمُسَخَّرَةِ لَهُمْ ، وَالدُّعَاءُ التَّعَبُّدِيُّ لِلَّهِ نِدَاؤُهُ وَسُؤَالُهُ وَالرَّغْبَةُ فِيمَا عِنْدَهُ ، الصَّادِرُ عَنِ الشُّعُورِ بِالْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَالضَّرَاعَةِ لَهُ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ ، وَلَا سِيَّمَا دَفْعِ الضُّرِّ وَجَلْبِ النَّفْعِ

(127/358)

مِمَّا يَعْجِزُ عَنْهُ الْعَبْدُ مِنْ طَرِيقِ الْأَسْبَابِ ، لِلْإِيمَانِ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُسَخِّرُ لَهَا وَالْهَادِي إِلَيْهَا ، وَالْقَادِرُ عَلَى تَصْرِيفِهَا ، وَعَلَى الْمَنِّ بِهَا مِنْ غَيْرِ طَرِيقِهَا ، وَالدَّعْوَى لِلشَّيْءِ تَشْمَلُ فِي اللُّغَةِ تَمَنِّيَهُ وَقَوْلَهُ وَطَلَبَهُ مِنْ مَالِكِهِ ، وَادِّعَاءَ مَلَكِيَّتِهِ ، وَهَذِهِ الْمَعَانِي كُلُّهَا لِلَفْظِ الدَّعْوَى تَصِحُّ إِرَادَتُهَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَّا الْأَخِيرَ مِنْهَا . وَقَوْلُ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ وَغَيْرِهِمْ : إِنَّ مِنْ مَعَانِي الدُّعَاءِ الْعِبَادَةَ لَا يَصِحُّ عَلَى إِطْلَاقِهِ فِي الْعِبَادَةِ الشَّرْعِيَّةِ التَّكْلِيفِيَّةِ ، فَإِنَّ الصِّيَامَ لَا يُسَمَّى دُعَاءً لُغَةً وَلَا شَرْعًا ، وَإِنَّمَا الدُّعَاءُ هُوَ مُخُّ الْعِبَادَةِ الْفِطْرِيَّةِ ، وَأَعْظَمُ أَرْكَانِ التَّكْلِيفِيَّةِ مِنْهَا ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ ، فَكُلُّ دُعَاءٍ شَرْعِيٍّ عِبَادَةٌ ، وَمَا كُلُّ عِبَادَةٍ شَرْعِيَّةٍ دُعَاءٌ . وَالتَّسْبِيحُ تَنْزِيهُ اللَّهِ تَعَالَى وَتَقْدِيسُهُ ، وَكَلِمَةُ (اللَّهُمَّ) نِدَاءٌ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ أَصْلُهُ يَا أَللَّهُ .

(128/358)

وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ يَبْدَءُونَ كُلَّ دُعَاءٍ وَثَنَاءٍ يُنَاجُونَ بِهِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ النَّعِيمُ الرُّوحَانِيُّ ، وَكُلَّ طَلَبٍ لِكَرَامَةٍ أَوْ لَذَّةٍ مِنْ لَذَّاتِ الْجَنَّةِ وَهُوَ النَّعِيمُ الْجُسْمَانِيُّ ، بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ، أَيْ تَنْزِيهًا وَتَقْدِيسًا لَكَ يَا أَللَّهُ ، قِيلَ : أَوْ بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ بِلَفْظٍ آخَرَ ، وَأَنَّ تَحِيَّتَهُمْ فِيهَا كَلِمَةُ : سَلَامٍ الدَّالَّةُ عَلَى السَّلَامَةِ مِنَ النَّقْصِ وَالْآثَامِ ، وَهِيَ تَحِيَّةُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا ،

وَهَذِهِ التَّحِيَّةُ تَكُونُ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ : (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ (33 : 44) وَفِي سُورَةِ يس : (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) (36 : 58) وَتَكُونُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ عِنْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ : (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) (9 : 73) وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ النَّحْلِ : (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (16 : 32) وَفِي كُلِّ وَقْتٍ يَدْخُلُونَ فِيهِ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ : (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) (13 : 23 و24) وَتَكُونُ مِنْهُمْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ، وَهُوَ الْمُتَبَادَرُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا) (19 : 62) وَفِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا

(129/358)

إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) (56 : 25 و26) فَإِنَّ اللَّغْوَ وَالتَّأْثِيمَ مِنْ شَأْنِ كَلَامِ الْبَشَرِ ، فَلَمَّا نَفَى وُقُوعَهُمَا مِنْهُمْ فِي الْجَنَّةِ ، وَاسْتَدْرَكَ عَلَى نَفْيِهِ بِاسْتِثْنَاءِ كَلِمَةِ سَلَامٍ مُنْقَطِعًا ، تَرَجَّحَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ سَلَامَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ أَوْ عَامًّا يَشْمَلُهُ . وَالْجُمْلَةُ فِي آيَتِنَا : وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ تَشْمَلُ الْأَنْوَاعَ كُلَّهَا ، وَإِنَّهُ لَإِيجَازٌ بَلِيغٌ غَفَلَ عَنْهُ مَنْ نَعْرِفُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ لِغَفْلَتِهِمْ عَنْ هَذِهِ

الْأَنْوَاعِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فَمَعْنَاهُ أَنَّ الْحَمْدَ لَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ هُوَ آخِرُ كُلِّ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ دُعَاءٍ يُنَاجُونَ بِهِ اللهَ تَعَالَى ، وَمَطْلَبٍ يَطْلُبُونَهُ مِنْ إِحْسَانِهِ وَإِكْرَامِهِ ، كَمَا أَنَّهُ أَوَّلُ ثَنَائِهِمْ عَلَيْهِ عِنْدَ دُخُولِهَا . كَمَا قَالَ فِي آخِرِ سُورَةِ الزُّمَرِ بَعْدَ آيَةِ السَّلَامِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ : (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) (39 : 74)

وَآخِرُ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ

أَيْضًا وَهُوَ قَوْلُهُ بَعْدَهُ : (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (39 : 75) .

(130/358)

فَعَلَى كُلِّ قَارِئٍ لِهَذِهِ الْآيَةِ الْجَامِعَةِ – وَقَدْ فَسَّرْنَاهَا لَهُ هُنَا بِمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْآيَاتِ فِي السُّوَرِ الْأُخْرَى – أَنْ يُمَثِّلَ لِنَفْسِهِ حَالَةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الثَّلَاثِ ، الْمُبَيِّنَةِ لِنَعِيمِهِمُ الرُّوحَانِيِّ بِلِقَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُنَاجَاتِهِ فِي جَمِيعِ أَطْوَارِهِمْ ، وَلِمَا يَكُونُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَلَائِكَتِهِ وَبَيْنَ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ ، وَمِنْهُ يَعْلَمُونَ أَنَّ مُعْظَمَ نَعِيمِ الْجَنَّةِ رُوحَانِيٌّ ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ

يَسْتَعِدُّوا لَهَا بِتَزْكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ ، وَتَرْقِيَةِ أَرْوَاحِهِمْ ، وَأَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَنْ يَكُونُوا أَهْلًا لَهَا بِالِاتِّكَالِ عَلَى التَّوَسُّلَاتِ بِأَشْخَاصِ الْأَوْلِيَاءِ وَالتَّمَنِّي لِشَفَاعَاتِهِمْ (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) (4 : 123 و124) وَ(وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا) (17 : 72) .

(131/358)

وَمِنَ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ فِي الْآيَةِ مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ مَرْفُوعًا عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ : (إِذَا قَالُوا : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ - أَتَاهُمْ مَا اشْتَهَوْا مِنَ الْجَنَّةِ) وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ . فَالْكَلِمَةُ عَلَامَةٌ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَخَدَمِهِمْ فِي إِحْضَارِ الطَّعَامِ وَغَيْرِهِ ، فَإِذَا أَكَلُوا حَمِدُوا اللَّهَ تَعَالَى . وَهَذَا مِمَّا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ مَا تَقَدَّمَ سَوَاءٌ أَصَحَّتِ الرِّوَايَةُ أَمْ لَا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار جـ 11 صـ 247.254 ﴾

(132/358)

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم ﴾

وما عطف عليها أحوال من ضمير ﴿ الذين آمنوا ﴾ .

والدعوى : هنا الدعاء .

يقال : دعوة بالهاء ، ودعوَى بألف التأنيث .

وسبحان : مصدر بمعنى التسبيح ، أي التنزيه .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا ﴾ في سورة [البقرة : 32] .

﴿ اللهم ﴾ نداء لله تعالى ، فيكون إطلاق الدعاء على هذا التسبيح من أجل أنه أريد به خطاب الله لإنشاء تنزيهه ، فالدعاء فيه بالمعنى اللغوي .

ويجوز أن تكون تسمية هذا التسبيح دعاء من حيث إنه ثناء مسوق للتعرض إلى إفاضة الرحمات والنعيم ، كما قال أمية بن أبي الصلت :

إذَا أثنى عليك المرءُ يوماً

كَفَاه عن تَعَرضِه الثناء . . .

واعلم أن الاقتصار على كون دعواهم فيها كلمة ﴿ سبحانك اللهم ﴾ يشعر بأنهم لا دعوى لهم في الجنة غير ذلك القول ، لأن الاقتصار في مقام البيان يشعر بالقصر ، (وإن لم يكن

هو من طرق القصر لكنه يستفاد من المقام) ولكن قوله : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ يفيد أن هذا التحميد من دعواهم ، فتحصل من ذلك أن لهم دعوى وخاتمة دعوى .

ووجه ذكر هذا في عدد أحوالهم أنها تدل على أن ما هم فيه من النعيم هو غايات الراغبين بحيث إن أرادوا أن ينعَموا بمقام دعاء ربهم الذي هو مقام القرب لم يجدوا أنفسهم مشتاقين لشيء يسألونه فاعتاضوا عن السؤال بالثناء على ربهم فألهموا إلى التزام التسبيح لأنه أدل لفظ على التمجيد والتنزيه ، فهو جامع للعبارة عن الكمالات .

والتحية : اسم جنس لما يُفاتح به عند اللقاء من كلمات التكرمة .

وأصلها مشتقة من مصدر حيَّاهُ إذا قال له عند اللقاء أحياك الله .

ثم غلبت في كل لفظ يقال عند اللقاء ، كما غلب لفظ السلام ، فيشمل : نحو حيَّاك الله ، وعِم صباحاً ، وعِمْ مساء وصبّحك الله بخير ، وبتّ بخير .

وتقدم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها ﴾ في سورة [النساء : 86] .

(133/358)

ولهذا أخبر عن تحيتهم بأنها سلام ، أي لفظ سلام ، إخباراً عن الجنس بفرد من أفراده ، أي جعل الله لهم لفظ السلام تحية لهم .

والظاهر أن التحية بينهم هي كلمة (سلام) ، وأنها محكية هنا بلفظها دون لفظ السلام عليكم أو سلام عليكم ، لأنه لو أريد ذلك لقيل وتحيتهم فيها السلام بالتعريف ليتبادر من التعريف أنه السلام المعروف في الإسلام ، وهو كلمة السلام عليكم .

وكذلك سلام الله عليهم بهذا اللفظ قال تعالى : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ [يس : 58] وأما قوله : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم ﴾ [الرعد : 23 ، 24] فهو تلطف معهم بتحيتهم التي جاءهم بها الإسلام .

ونكتة حذف كلمة (عليكم) في سلام أهل الجنة بعضهم على بعض أن التحيّة بينهم مجرد إيناس وتكرمة فكانت أشبه بالخبر والشكر منها بالدعاء والتأمين كأنهم يغتبطون بالسلامة الكاملة التي هم فيها في الجنة فتنطلق ألسنتهم عند اللقاء معبرة عما في ضمائرهم ، بخلاف تحيّة أهل الدنيا فإنها تقع كثيراً بين المتلاقين الذين لا يعرِف بعضهم بعضاً فكانت فيها بقية من المعنى الذي أحدَث البشر لأجله السلامَ ، وهو معنى تأمين الملاقِي من الشر المتوقَّع من بين كثير من المتناكرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(134/358)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾

دعواهم : أي دعاؤهم .

وهل الآخرة دار تكليف ؛ حتى يواصلوا عبادة الله ؟ لا ، ولكنها عبادة الالتذاذ ، وهم كُلَّما رأوا شيئاً يقولون : لقد أكلنا ذلك من قبل ، ولكنهم يعرفون حين يأكلون ثمار الجنة أن ما في الأرض كان يشبه تلك الثمار ، لكنه ليس مثلها . ﴿ قَالُواْ هذا الذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً . . . ﴾ [البقرة : 25] .

أو يقولون : ﴿ سُبْحَانَكَ اللهم ﴾ اعترافاً بالنعمة ، وأنت حين ترى شيئاً يعجبك تقول : سبحانك يا رب . وبعد أن تأتي لك النعمة وتقول : سبحان الله ، وتُفاجَأ بأشياء لم تكن في الحسبان – من فرط جمالها ؛ فتقول : الحمد لله .

إذن : فأنت تستقبل النعمة " بسبحان الله " ، وينتهي من النعمة " بالحمد لله " . ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ والذي يجعل للحياة الدنيا معنى ، ويجعل لها طعماً ويجعل لها استقراراً ، أن يكون الإنسان في سلام ، ومعنى السلام : الاطمئنان والرضا ؛ فلا مُهيّجات ، ولا مُعكِّرات ، ولا يأتي ذلك إلا بعدم اصطدام في ملكات النفس ؛ فيتحقق سلام الإنسان مع نفسه ، وسلام الإنسان مع أهله ،

وهذا هو المحيط الثاني ، وسلام الإنسان مع قومه ، وسلام الإنسان مع العالم كله ، كل ذلك اسمه سلام ، لا مُنغِّص ، لا من نفسه ، ولا من أهله ، ولا من قومه ، ولا من العالم . وكلما اتسعت رقعة السلام زاد الإحساس الإنسان بالاطمئنان .

(135/358)

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ ، فالسلام وارد في أشياء متعددة ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الجنة اليوم فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأرآئك مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ * سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : 55-58] .

وهذا هو السلام الذي له معنى ؛ فهو سلام من الله . ولم يقل سبحانه : " سلام يورثك اطمئناناً ونفساً راضية " فقط ، بل هو سلام بالقول من الله ، وانظر أي سعادة حين يخاطبك الحق سبحانه وتعالى مباشرة . وهناك فرق بين أن يشيع الله فيك السلام وبين أن يحييك كلامه بالسلام . وهذا هو السبب في قوله : ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : 58] .

وهذا سلام الله ، ثم من بعده هذه المنزلة يأتي سلام الملائكة :

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم . . . ﴾ [الرعد : 23-24] .

إذن : فقول الحق هنا : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ نجد فيه كلمة السلام رمز الرضا والاستقرار في الجنة ؛ فالسلام هو أول الأحاسيس التي تحبها في نفسك ، ولو كانت الناس كلها ضدك . لكنك ساعة تستقر ، فأنت تسائل نفسك : ماذا فعلت ليكون البعضُ ضدي ؟ وحين تجيب نفسك : " إنني لم أفعل إلا الخير " ؛ فأنت تحس السلام في نفسك ، وإذا ما رحَّب الآخرون بما تفعل ، فالحياة تسير ، بلا ضدّ ولا حقد ، وهذا ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة " فيدخل رجل عرفه القوم فلما انصرف ؛ قام واحد من الصحابة ، وذهب إلى الرجل ؛ ليعلم ماذا يصنع ، وسأله : ماذا تفعل حتى يبشّرك الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنة ؟ فوجد سلوك الرجل مستقيماً ومتبعاً للمنهج دون زيادة ، فسأله الصحابي : لماذا – إذن – بشّرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ؟

(136/358)

قال الرجل : والله إني لأصلّي كما تصلّون ، وأصوم كما تصومون ، وأزكّى كما تزكون ، ولكني أبيت وما في قلبي غلٌّ لأحد .

هذا هو السلام النفسي ، وإذا ما وصل الإنسان إلى السلام مع النفس ؛ فلا تضيره الدنيا إن قامت ، وبعد ذلك يضمن أن يوجد سلامه مع الله تعالى ، ومن عنده سلام مع نفسه ، ومع بيئته ، ومع مجتمعه ؛ فهو ينال سلاماً من الله سبحانه . ويقول لنا القرآن عن الذين يعانون من مأزق في الآخرة : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : 105] .

هؤلاء هم الذين شقوا في النار ، أما الذين سُعدوا ففي الجنة ، فماذا عن حال الذين لا هم شقوا ولا هم سعدوا – وهم أهل الأعراف ؛ لأن الموقف يوم القيامة ينقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام ؛ فقد قال الله سبحانه : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة : 6-9] .

ولم يقل الحق سبحانه لنا أمر الذين تساوت الكفتان لهم أثناء الحساب ؛ لأنه سبحانه قال في حديث قدسي :

" إن رحمتي غلبت غضبي " .

ويبين لنا الحق سبحانه رحمته فيقول : ﴿ ونادى أَصْحَابُ الجنة أَصْحَابَ النار أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن

لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظالمين ﴾ [الأعراف : 44] .

ويأتي أمر رجال الأعراف فيقول سبحانه : ﴿ وَعَلَى الأعراف رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 46]

لقد عرفوا المؤمنين بسيماهم ، وعرفوا الكفار بسيماهم ، وجليس البعض على الأعراف ؛ ينتظرون وينظرون لأهل الجنة قائلين : ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ [الأعراف : 46] .

(137/358)

ثم يعطينا الحق سبحانه صورة ثانية فيقول : ﴿ ونادى أَصْحَابُ النار أَصْحَابَ الجنة أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ المآء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله قالوا إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى الكافرين ﴾ [الأعراف : 50] .

أهل الأعراف – إذن – يسعدون بعطاء الله لأهل الجنة ، ويطمعون أن يغفر الله – سبحانه وتعالى – لهم .

ونحن في حياتنا نسمع المشرفين على المساجين أو المحكوم عليهم بالإعدام يقولون : قبل أن يحكم على المجرم بالإعدام ينخفض وزنه ، ثم يزيد بعد الحكم ؛ لأن الأمر قد استقر .

والذين يُشغلون بأن يعرفوا مكانهم في الآخرة ، أهو في الجنة أو في النار ، لا ينسون أن يقولوا للمؤمنين . ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 46] .

وهنا يقول الحق سبحانه عن أهل الجنة : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ وقد تكون آخر دعواهم ، أي : آخر كلمة .

فالواحد منهم يقول : أنا حمدت ربنا على الشيء الفلاني والشيء الفلاني . وآخر حَمْد هو قمة الحمد ؛ لأنهم حمدوا الله على النعمة في الدنيا التي تزول ، ويحمدونه في الآخرة على النعمة التي لا تزول ، فلِئَنْ يوجد حَمْد على النعمة التي لا تزول فهو قمة الحمد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(138/358)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10) ﴾

أخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم " إذا قالوا سبحانك اللهم أتاهم ما اشتهوا من الجنة من ربهم " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع قال : أهل الجنة إذا اشتهوا شيئاً قالوا : سبحانك اللهمَّ وبحمدك . فإذا هو عندهم فذلك قوله ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهمَّ ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل رضي الله عنه قال : إن أهل الجنة إذا دعوا بالطعام قالوا : سبحانك اللهمَّ . فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم ، مع كل خادم صحفة من ذهب فيها طعام ليس في الأخرى ، فيأكل منهن كلهن .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهمَّ ﴾ قال : يكون ذلك قولهم فيها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج قال : أخبرت أن قوله ﴿ سبحانك اللهمَّ ﴾ إذا مر بهم الطائر يشتهونه قالوا : سبحانك اللهمَّ ، ذلك دعاؤهم به فيأتيهم بما اشتهوا ، فإذا جاء الملك بما يشتهون فيسلم عليهم فيردون عليه ، فذلك قوله ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ فإذا أكلوا قدر حاجتهم قالوا : الحمد لله رب العالمين . فذلك قوله ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن أبي الهذيل قال : الحمد أول الكلام وآخر الكلام ، ثم تلا ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾

قوله تعالى : ﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ : مبتدأٌ و " سبحانَك " معمول لفعلٍ مقدر لا يجوز إظهارُه هو الخبر ، والخبرُ هنا هو نفس المبتدأ ، والمعنى : أن دعاءَهم هذا اللفظُ ، ف " دعوى " يجوز أن يكون بمعنى الدعاء ، ويدلُّ عليه " اللهم " لأنه نداء في معنى يا الله ، ويجوز أن يكون هذا الدعاءُ هنا بمعنى العبادة ، ف " دَعْوى " مصدرٌ مضاف للفاعل ، ثم إنْ شِئْتَ أن تجعلَ هذا من باب الإِسناد اللفظي أي : دعاؤهم في الجنة هذا اللفظُ ، فيكون نفسُ " سبحانك " هو الخبرَ ، وجاء به مَحْكياً على نصبه بذلك الفعل ، وإن شِئْتَ جَعَلْتَه من باب الإِسناد المعنوي فلا يلزمُ أن يقولوا هذا اللفظَ فقط ، بل يقولونه وما يؤدّي معناه من جميع صفات التنزيهِ والتقديس ، وقد تقدم لك نظيرُ هذا عند قولِه تعالى : ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ [البقرة : 58] ، فعليك بالالتفات إليه .

و "تحيَّتُهم" مبتدأٌ ، و "سَلامٌ" خبرُها ، وهو كالذي قبله ، والمصدرُ هنا يحتمل أن يكونَ مضافاً لفاعله أي : تحيتهم التي يُحَيُّون بها بعضَهم سلامٌ ، ويُحتمل أن يكونَ مضافاً لمفعوله أي : تحيتهم التي تُحَيِّيهم بها الملائكةُ سلام ، ويدلُّ له ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُم ﴾ [الرعد : 23] . و "فيها" في الموضعين متعلقٌ بالمصدرِ قبله ، و "قبل" يجوز أن يكون حالاً مِمَّا بعده فيتعلَّقَ بمحذوف ، وليس بذاك . وقال بعضُهم : "يجوز أن يكون "تحيتهم" مِمَّا أضيف فيه المصدرُ لفاعله ومفعوله معاً ؛ لأنَّ المعنى : يُحَيِّي بعضُهم بعضاً ، ويكون كقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 78] حيث أضافَه لداود وسليمان وهما الحاكمان ، وإلى المحكوم عليه ، وهذا مبنيٌّ على مسألةٍ أخرى وهو أنه : هل يجوز الجمعُ بين الحقيقةِ والمجازِ أم لا ؟ فإن قلنا : نعم ، جاز ذلك لأن إضافةَ المصدرِ لفاعله حقيقةٌ ولمفعوله مجاز ، ومَنْ منع ذلك أجاب بأن أَقَلَّ الجمعِ اثنان فلذلك قال : / "لحكمهم" .

قوله : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ ﴾ مبتدأ ، و "أَنْ" هي المخففة من الثقيلة ، واسمُها ضميرُ الأمر والشأن حُذِف ، والجملةُ الاسميةُ بعدَها في محلِّ الرفع خبراً لها كقول الشاعر :

2573 في فتية كسيوفِ الهند قد علموا . . . أَنْ هالِكٌ كلُّ مَنْ يحفى ويَنْتَعِلُ

و "أنْ" واسمُها وخبرها في محلِّ رفعٍ خبراً للمبتدأ الأول . وزعم الجرجانيُّ أن "أَنْ" هنا

زائدة والتقدير : وآخر دعواهم الحمد لله ، وهي دعوى لا دليلَ عليها مخالفةٌ لنص سيبويه والنحويين . وزعم المبرد أيضاً أن " أَنْ " المخففة يجوز إعمالُها مخففةً كهي مشددةً ، وقد تقدم ذلك .

(141/358)

وتخفيفُ " أَنْ " ورفعُ " الحمد " هو قراءةُ العامة . وقرأ عكرمة وأبو مجلز وأبو حيوة وقتادة ومجاهد وابنُ يعمر وبلال بن أبي بردة وابن محيصن ويعقوب بتشديدها ونصبِ دال " الحمد " على أنه اسمُها . وهذه تؤيدُ أنها المخففةُ في قراءة العامةِ ، وتردُّ على الجرجاني . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 155.157 ﴾

(142/358)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ (10) ﴾

قالتُهم الثناءُ على الله ، وذلك في حال لقائهم . وتحيتهم في تلك الحالة من الله : « سلام عليكم » ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ : والحمد ها هنا بمعنى المدح والثناء ، فيثنون عليه ويحمدونه بحمدِ أبديٍّ سرمديٍّ ، والحقُّ - سبحانه - يُحَيِّيهم بسلامٍ أزليٍّ وكلام أبدي ، وهو عزيزٌ صمديٌّ ومجيدٌ أحديٌّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 82 ﴾

(143/358)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10) ﴾

(144/358)

التفسير : اتفقوا على أن قوله ﴿ الر ﴾ ليس بآية وعلى أن ﴿ طه ﴾ آية . ولعل الفرق أن ﴿ الر ﴾ لا يشاكل مقاطع الآية التي بعده ، عن ابن عباس ﴿ آلر ﴾ معناه انا الله أرى . وقيل : لا رب غيري . وقيل : آلر وحم ون اسم الرحمن ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات ، والتبعيد للتعظيم ، والكتاب السورة ، والحكيم ذو الحكمة لاشتماله عليها أو وصف بصفة من تكلم به ومنه قولهم للقصيدة حكيمة . وقيل : " فعيل " بمعنى " فاعل " لأنه يحكم بين الحق والباطل ، أو يحكم بأن محمداً صادق لأن القرآن أظهر معجزاته وأبقاها . وقيل : بمعنى مفعول أي حكم فيه بجميع المأمورات والمنهيات وقيل : بمعنى المحكم والإحكام المنع من الفساد وذلك أنه لا يمحوه الماء ولا يحرقه النار ولا يغيره الدهور . ويحتمل أن يقال : الكتاب الحكيم هو القرآن أو اللوح المحفوظ أو التوراة والإنجيل ، لأن جميع الكتب الإلهية متوافقة في الأصول ، ويجوز أن يكون ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم هذه السورة من آيات القرآن . واعلم أنه سبحانه لما ختم السورة المتقدمة بقوله : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ [التوبة : 127] صدر هذه السورة بتعديد بعض الحروف على طريق التحدي ، وذلك أن حروف القرآن من جنس الحروف التي يتلفظون بها فلولا أنه معجز لعارضوه وناقضوه . ولما بين بهذا الطريق أن محمداً رسول حق من عند الله أنكر على كفار قريش تعجبهم من كونه رسولاً فقال : ﴿ أكان للناس عجباً ﴾ نصب على أنه

خبر كان واسمه ﴿ أن أوحينا ﴾ وفائدة اللام في قوله : ﴿ للناس ﴾ مع تقديمه هي أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتحدثون بها ، ثم إن تعجبهم إما أن يكون من جعل البشر رسولا أو من تخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بالوحي والنبوة فقد روي أنهم كانوا يقولون العجب أن الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب ، وكلا الأمرين ليس بعجب ، أما الأول فلأن الجنس إلى الجنس أميل

(145/358)

﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ﴾ [الأنعام : 9] ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ [الاسراء : 95] . وأما الثاني فلأن الفقر واليتم لا يوجب في النبوة قدحاً لأن الله غني عن العالمين ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ﴾ [سبأ : 37] وإنما المعتبر في الاستنباء كونه متصفاً بالصدق والأمانة والتقوى ، وكان لمحمد صلى الله عليه وسلم في ذلك قبل بعثه اليد الطولى إذ كان يدعى محمداً الأمين . و " أن " في قوله : ﴿ أن أنذر الناس ﴾ هي المفسرة لأن الإيحاء فيه معنى القول ، أو مخففة من الثقيلة وقد عملت في ضمير شأن مقدر معناه إنه أي إن الشأن قولنا أنذر النس . وقوله : ﴿ وبشر الذين آمنوا أن لهم ﴾ أي بأن لهم ، والإنذار

إخبار مع تخويف وإنه عام للناس كلهم ، ولكن البشارة خاصة بالمؤمنين . ويحتمل أن يراد بالناس الكفار فقط ويمكن أن يكون تعجبهم عائداً إلى الإنذار والتبشير وليس ذلك بعجب بل المنكر في العقول تعطيل الأعمال وأن يترك الإنسان سدىً ، وإرسال الرسل أمر ما أخلى الله تعالى المكلفين عنه شيئاً من الأزمنة ، وبه تتم المالكية والأمر والنهي والإذن والمنع والثواب والجزاء . وإنما قدم الإنذار على التبشير لأن الإنذار تحذير عن فعل ما لا ينبغي ، والتبشير ترغيب في فعل ما ينبغي والتخلية مقدمة على التحلية . ومعنى ﴿ قدم صدق ﴾ سابقة فضل ومنزلة رفيعة أي سبق لهم عند الله خير . قال أحمد بن يحيى : القدم كل ما قدمت من خير . وقال ابن الأنباري : كناية عن العمل الذي لا يقع فيه تأخير ولا إبطاء . والسبب في إطلاق القدم على السابقة أن السعي والسبق لا يحصل إلا بالقدم فسمي المسبب باسم السبب كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد ، وإضافة القدم إلى صدق لأجل المبالغة وللتنبيه على أنها من السوابق العظيمة أي القدم التي يصدق ويحق أن تسمى قدماً . وأما عبارات المفسرين فمنهم من قال :

قدم صدق هي الأعمال الصالحة ، ومنهم من قال الثواب ، ومنها من قال شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم . أما قوله : ﴿ قال الكافرون ﴾ فقال القفال : فيه إضمار والتقدير : فلما أنذرهم قالوا ذلك . ثم من قرأ لساحر بالألف فقوله هذا إشارة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن قرأ السحر إشارة إلى القرآن وفيه دليل على عجزهم واعترافهم بأنهم قاصرون عن معارضته كالسحر ، ومن هنا جوز بعضهم أن يكونوا أرادوا به المدح أي إنه لكمال فصاحته وتعذر الإتيان بمثله جارٍ مجرى السحر .

ثم لما أنكر عليهم تعجبهم من الأمور المذكورة وهي الواسطة أراد أن يقيم البرهان عليها بإثبات المبدأ ويبين غايتها بإثبات المعاد وذلك في آيتين متواليتين . وقد مر في الأعراف تفسير قوله : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ فلا حاجة إلى الإعادة .

(147/358)

ثم ذكر ما يدل على مزيد عظمته وجلاله وأنه لا يخرج أمر من الأمور من قضائه وتقديره فقال : ﴿ يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ وإنما فقد العاطف لأنهما كالتفسير والتفصيل لما دل عليه قوله : ﴿ إن ربكم الله ﴾ الخ . والأمر الشأن أراد به أحوال الخلق

وأحوال ملكوت المسوات والأرض والعرش . والمعنى أنه يقضي ويقدر بمقتضى الحكمة ويفعل ما يفعله المصيب في أفعاله الناظر في أدبار الأمور وعواقبها لئلا يدخل في الوجود ما لا ينبغي . قال الزجاج : إن الكفار الذين خوطبوا بهذه الآية كانوا يقولون إن الأصنام شفعاؤنا عند الله فرد الله عليهم بأنه ليس لأحد أن يشفع إليه في شيء إلا بعد إذنه لأنه أعلم بموضع الحكمة والصواب فلا يجوز لهم أن يسألوه ما لا يعلمون أنه صواب وصلاح . ففي قوله : ﴿ يدبر الأمر ﴾ إشارة إلى استقلاله في التصرف جانب المبدإ ، وفي قوله ﴿ ما من شفيع ﴾ إشارة إلى استقلاله في طرف المعاد . ويمكن أن يقال : المراد أنه خلق العالم على أحسن الوجوه وأقربها من الأصلح مع أنه ما كان هناك شفيع يشفع في تحصيل المصالح فدل ذلك على أنه محسن إلى عباده مريد للخير والرأفة بهم كامل العناية بأحوالهم . قال أبو مسلم : الشفيع معناه الثاني من الشفع الذي يخالف الوتر أي خلق السموات والأرض وحده ولا حي معه ولا شريك يعينه ثم خلق الملائكة والثقلين ، والمراد أنه لم يدخل في الوجود أحد إلا من بعد أن قال له : "كن " حتى كان وحصل . ثم أشار إلى المعلوم بالأوصاف المذكورة فقال : ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ الذي يستأهل منكم العبادة بإزاء النعم الجسام من خلق السموات والأرض بما فيهما وعليهما ﴿ فاعبدوه ﴾ وحده ﴿ أفلا تذكرون ﴾ فيه تنبيه على وجوب الاعتبار والنظر في الدلائل الدالة على عظمته وجلاله . ثم شرع في

إثبات المعاد فقال : ﴿ إليه مرجعكم ﴾ أي رجوعكم ﴿ جميعاً ﴾ مجموعين . وتقديم الجار والمجرور للاختصاص والمعنى لا ترجعون في العاقبة إلا إلى جزائه وحكمه

(148/358)

فاستعدوا للقائه ، ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ وعد الله حقاً ﴾ وفيه تأكيدان كما مر . ثم قال : ﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ وهو استئناف فيه معنى التعليل كأنه قال إن الذي قدر على الإبداء يقدر على الإعادة بالطريق الأولى كقوله :

﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ [الواقعة : 61] يعني أنه سبحانه لما كان قادراً على إنشاء ذواتكم أوّلاً ثم على إنشاء أجزائكم حال حياتكم ثانياً شيئاً فشيئاً من غير أن تكونوا عالمين بوقت حدوثه وبوقت نموّه ، وجب القطع بأنه لا يمتنع عليه إعادة تلك الأجزاء بعد البلى والتفرق . ومن قرأ ﴿ أنه ﴾ بالفتح فعلى حذف لام التعليل أي لأنه ، أو على أنه منصوب بالفعل الذي نصب وعد الله أي وعد الله وعداً بدء الخلق ثم إعادته ، ويجوز أن يكون مرفوعاً بما نصب حقاً أي حق حقاً بدء الخلق .

(149/358)

ثم ذكر غاية الإعادة وحكمتها فقال : ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال المفسرون : في الآية إضمار والتقدير أنه يبدأ الخلق ليأمرهم بالعبادة ثم يميتهم ثم يعيدهم ليجزي . وإنما حسن هذا الحذف لتقدم قوله : ﴿ فاعبدوه ﴾ ولأن الإعادة لا تكون إلا بعد الإماتة والإعدام . وقوله : ﴿ بالقسط ﴾ أي بالعدل متعلق ب ﴿ يجزي ﴾ أي ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجرهم أو ليجزيهم بقسطهم وبما لم يظلموا أنفسهم حين آمنوا وعملوا صالحاً وهذا وجه حسن لطباق قوله : ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾ وفي قوله : ﴿ والذين كفروا ﴾ من غير أن يدخل لام العاقبة في الجملة كما أدخلها في الأولى دليل على أنه خلق الخلق للرحمة لا للعذاب ، وإنما جاء التعذيب لغرض وقوعهم في طريق القهر . والحميم الماء الذي أسخن بالنار حتى انتهى حره . قالت الأشاعرة : في الآية دلالة على عدم منزلة بين المنزلتين على ما يقول بها المعتزلة . وأجيب بأن عدم الذكر لا يدل على العدم ورُدَّ بأن الفساق أكثر من أهل الطاعة فكيف يجوز طي ذكرهم ؟ واعلم أن للعلماء في إثبات المعاد طريقين : الأول طريق القائلين بالحسن والقبح العقليين ، والثاني طريق من يقول لا يجب على الله شيء أصلاً يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . أما الفريق الأول فلهم على وجوب المعاد حجج عقلية منها : أنه تعالى خلق الخلق وأعطاهم عقولاً وقدراً فيجب في حكمته أن يرغبهم في الخيرات ويزجرهم عن السيئات ، وهذا الترغيب والزجر لا يمكن إلا بربط

الثواب على الفعل والعقاب على الترك . هذا في المأمورات وبالعكس في المنهيات ، وذلك الثواب المرغب والعقاب المرهب غير حاصل في الدنيا فلا بد من دار أخرى هي دار الآخرة ليحصل فيها ذلك وإلا لزم أن يكون الله تعالى كاذباً في قوله : ﴿ ليجزي ﴾ الخ . فإن قيل : لم لا يكفي في الترغيب والردع ما أودع الله في العقول من تحسين الخيرات وتقبيح المنكرات فلا يحتاج إلى الوعد والوعيد ؟ ولئن سلم فلم لا يجوز أن يكون الغرض من

(150/358)

الترغيب والترهيب نظام العالم لا أنه يفعل ذلك ولا يلزم منه الكذب على الله ، ألستم تخصصون أكثر عمومات القرآن ثم تزعمون أنه لا كذب ؟ سلمنا أنه يفعل لكن لم لا يجوز أن يكون الثواب والعقاب هو ما يصل إلى الإنسان في دار الدنيا من الراحات والآلام ؟ فالجواب أن العقل وإن كان يدعو إلى فعل الخير وترك الشر إلا أن الهوى والنفس يدعوان إلى الانهماك في الشهوات الجسمانية ، وإذا حصل هذا التعارض فلا بد من مرجح وما ذاك إلا ترتيب الوعد والوعيد على الأعمال ، وتجويز الخلف في ذلك مناف للغرض ، وأخذ الأجرة إنما يكون بعد الفراغ من العمل والعبد ما دام في الدنيا فهو في العمل ، وقد ترى أزهد الناس وأعلمهم مبتلى بالآفات والبليات ، وأفسقهم وأجهلهم في أتم اللذات والمسرات .

ومنها أن صريح العقل يوجب في حكمة الحكيم أن يفرق بين المحسن والمسيء والمظلوم والظالم وأن لا يجعل من كفر به وعصاه كمن آمن به وأطاعه وليس هذه التفرقة في الدنيا كما قيل :

كم عالم عالم أعيت مذاهبه . . . وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

(151/358)

فلا بد من دار أخرى يظهر فيها التفاوت . ومنها أنه كلف عبيده بأن يعبدوه ، والحكيم إذا أمر عبده بشيء فلا بد أن يجعله فارغ البال منتظم الأحوال حتى يمكنه الاشتغال بأداء تكليفه ، والناس جبلوا على طلب اللذات والتبادر إلى تحصيل أسباب الراحات فلو لم يكن زاجر من خوف المعاد لوقع الهرج والمرج والفتن وحينئذٍ لا يتفرغ المكلف لأداء ما أمر به . فإن قيل : لم لا يكفي في نظام العالم مهابة الملوك وسياستهم ؟ قلنا : إن لم يكن السلطان قاهراً قادراً على الرعية فلا فائدة فيه ، وإن كان قاهراً غالباً ولا خوف له من المعاد فحينئذٍ يقدم على أنواع الظلم والإيذاء لأن الداعية النفسانية قائمة ولا وازع له في الدنيا ولا في الآخرة . ومنها أنه تعالى خلق هذا العالم وخلق فيه الناس ، والعبث لا يليق بالحكيم الرحيم فوجب أن يقال : إنه خلقهم لمقصود ومصلحة وخير وليس ذلك في الدنيا لأن لذات هذا العالم

جسمانية لا حقيقة لها إلا إزالة الألم ، وإزالة الألم أمر عدمي وكان هذا حاصلاً قبل الوجود فلا يبقى للتخليق فائدة . وأيضاً إن لذات الدنيا مشوبة بالآلام بل اللذة في الدنيا كالقطرة من البحر فعلمنا أن للرحة دار أخرى . فإن قيل : ليس أنه يعذب أهل النار لا لمصلحة وفائدة لهم ؟ قلنا : الفرق أن لذلك الألم استحقوه على أعمالهم وهذا الألم الحاصل في الدنيا غير مستحق فوجب أن يعقبه خيرات عظيمة وإلا فينافي كونه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين . ومنها أنه لو لم يحصل للإنسان معاد لكان أحسن من جميع الحيوانات لأنها تشاركه في اللذات الحسية لأن الروث في مذاق الجعل كاللوز في فم الإنسان ، والإنسان يزيد عليها بعقل هو سبب تألمه وتأذيه في أغلب الأحوال ، يتفكر في الأحوال الماضية فيتأسف ، ويتأمل في الأحوال الآتية فيخاف ، فلو لم يكن للإنسان معاد به يكمل حاله ويظهر سعادته كان عقله سبباً لشقائه وخسته دون شرفه ومزيته .

(152/358)

ومنها أن إيصال النعم إما أن يكون مشوباً بالآفات أو خالصاً عنها ، فلما أنعم الله تعالى علينا في الدنيا بالمرتبة الأولى وجب أن ينعم علينا بالمرتبة الثانية في دار أخرى إظهاراً لكمال القدرة والرأفة والحكمة ، فهناك ينعم على المطيعين ويعفو عن المذنبين ويزيل الغموم

والهموم والآفات والمخافات . ومما يقوّي هذا الكلام أن الإنسان دائماً في الترقي من حين كونه جنيناً في بطن أمه إلى أن يخلص من ذلك السجن ويخرج إلى قضاء الدنيا ، وإلى أن ينتقل من تناول اللبن والشد الوثيق في المهد إلى تناول الأطعمة اللذيذة والمشي والعدو إلى أن يصير أميراً نافذ الحكم على الخلق أو عالماً مشرفاً على حقائق الأشياء ، فوجب بحكم هذا الاستقراء أن يكون حاله بعد الموت أشرف وأبهى من اللذات العاجلة المشوبة بالآلام .

ومنها طريقة الاحتياط فإنا إذا آمنا بالمعاد وتأهبنا له فإن كان هذا المذهب حقاً فقد نجونا وهلك المنكر ، وإن كان باطلاً لم يضرنا هذا الاعتقاد ، غاية ذلك فوات بعض اللذات الزائلة المشوبة بالمنغصات . ومنها أن أحوال الإنسان من صباه إلى هرمه تضاهي حال الأرض من الربيع إلى الشتاء . ثم إنا نرى الأرض في الربيع الثاني تعود إلى تلك الحياة فلم لا يعقل مثل ذلك في الإنسان ؟ ومنها أن الإنسان إنما يتولد من نطفة تولدت من الأغذية الكائنة من الأجزاء العنصرية المتفرقة في مشارق الأرض ومغاربها ، فإذا مات وتفرقت تلك الأجزاء فكيف يمتنع أن تجتمع مرة أخرى على مثال الاجتماع الأول ؟ ومنها أن النظر في تغيرات العالم أدى إلى إثبات صانع حكيم قادر قاهر ، والعقل يحكم بأن هذا الحكيم لا يليق به أن يترك عبيده هملاً يكذبون عليه ويجورون ، فلا بد من أن يكون له أمر ونهي ووعد ووعيد من غير تجويز خلف فيهما كما مر ، ولا يتحقق جميع ذلك إلا في دار الجزاء .

وأما الفريق الآخر الذين لا يعللون أفعال الله تعالى برعاية المصالح فإنهم يقولون : المعاد أمر جائز الوجود لأن تعلق النفس بالبدن لما كان في المرة الأولى جائزاً فالمرة الثانية أيضاً جائزة . ثم إن إله العالم قادر مختار عالم بجميع المعلومات الكليات والجزئيات فلا يعجز تمييز أجزاء بدن زيد – وإن اختلطت بأجزاء التراب والبحار – عن أجزاء بدن عمرو ، وإذا ثبت هذا الإمكان وقد دل الدليل على صدق الأنبياء عليهم السلام وعلى أن القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ثم إنهم قطعوا بوقوع هذا الممكن والقرآن مشحون بآيات البعث والجزاء فوجب علينا القطع بالمعاد الجسماني . وأما شبهة المنكرين فمن ذلك أنهم قالوا الدار الآخرة إن كانت شراً من هذه فالتبديل سفه ، وإن كانت مثلها فعبث ، وإن كانت خيراً منها فإما أن يقال إنه قادر على خلق ذلك الأجود أولاً ثم تركه وفعل الأرذل فذلك سفه ، أو يقال إنه ما كان قادراً ثم حدثت له القدرة فذلك انتقال من العجز إلى القدرة ومن الجهل إلى الحكمة فهو محال على القديم .

(154/358)

والجواب أن كلاً من الدارين خير في وقتها فالأولى لتحصيل الكمالات النفسانية الممكنة للنوع الإنساني من قبيل العلم والعمل ، والأخرى للراحة والجزاء ، ومن ذلك أنهم قالوا : حركات الأفلاك مستديرة والمستدير لا ضد له وما لا ضد له لا يقبل الفساد . والجواب ما ذكرنا في كتبنا الحكمية من أن كل جسم مركب وكل مركب ينحل لا محالة . ولئن سلمنا أنها أزلية فحركاتها غير أزلية لأن الحركة عبارة عن الانتقال من حال إلى حال ، وهذه الماهية تقتضي المسبوقية بالحالة المنتقل عنها والأزلية تنافي المسبوقية بالغير فكان الجمع بين الأزل والحركة محالاً . ولئن سلم أن الحركة أزلية فلم لا يجوز أن يكون بعض أوضاع الأفلاك مقتضياً لإعادة المعدومات من الأشخاص الإنسانية ؟ ومن ذلك أنهم قالوا : الإنسان عبارة عن هذا البدن ذي الأجزاء لا كيف كانت بل بشرط وقوعها على تأليف مخصوص ، لأن أجزاء البدن كانت موجودة قبل هذا الإنسان والموجود مغاير للمعدوم . فإذا مات الإنسان وتفرقت أجزاؤه فقد عدمت تلك الصورة والأعراض وعود المعدوم محال .

وأجيب بأن الإنسان ليس عبارة عن هذا الجسد وإنما هو النفس سواء كانت جوهراً مجرداً مفارقاً أو جسماً مخصوصاً لطيفاً باقياً في جميع أحوال البدن من الصبا إلى الهرم مصوناً عن التحلل والتبدل وهو الذي يسميه المتكلمون بالأجزاء الأصلية . ومن ذلك أنهم قالوا : إذا قتل الإنسان واغتذى به إنسان آخر لزم أن تعاد تلك الأجزاء في بدن كل واحد من الشخصين وذلك محال . وأجيب بعين ما مر وهي أن الأجزاء الأصلية لا تصير جزءاً

من إنسان آخر . فهذه خلاصة وما وصل إليه العقول من أمر المعاد والله تعالى أعلم بحقائق الأمور .

(155/358)

ثم عدد بعض نعمه على المكلفين فقال : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء ﴾ وهو أجوف واوي مهموز اللام قلبت واوه ياء لكسرة ما قبلها ، ومن قرأ بهمزتين بينهما ألف فمحمول على القلب لأن إذا قدم اللام على العين وقع حرف العلة على الطرف فانقلب همزة وكان في "كساء " . وهو إما أن يكون جمع ضوء كحوض وحياض ، أو مصدر ضاء يضوء مثل قام قياماً وصام صياماً ، ولا بد من تقدير مضاف أي جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور إلا أن يحمل على المبالغة فجعلا نفس الضياء والنور كما يقال للرجل الكريم إنه كرم وجود . والضياء أقوى من النور .

(156/358)

ولا خلاف بين العقلاء أن ضوء الشمس كيفية قائمة بها لذاتها ، أما نور القمر فقد ذهب جمهور الحكماء إلى أنه مستفاد من الشمس وبذلك يقع اختلاف أحواله من الهلالية إلى البدرية كما بينا في تفسير قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة ﴾ [البقرة : 189] ﴿ وقدره منازل ﴾ قال في الكشاف : أي قدّر مسيره منازل أو قدره ذا منازل . ومنزلة القمر المسافة التي يقطعها في يوم وليلة بحركته الخاصة به وجملتها ثمانية وعشرون وأساميها مشهورة : الشرطين الثريا البطين الخ . وهي كواكب ثابتة معروفة عندهم جعلوها علامات المنازلة ، فنرى القمر كل ليلة نازلاً بقرب أحدها وذلك أنهم قسموا دور الفلك وهو اثنا عشر برجاً على ثمانية وعشرين – عدد أيام القمر – فأصاب كل برج منزلان وثلث فسموا كل منزل بالعلامة التي وقعت وقت التسمية بحذائه . ثم ذكر بعض منافعهما العائدة على المكلفين فقال : ﴿ لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ حساب الأوقات من الأشهر والأيام والليالي . وقد ذكرنا السنة الشمسية والسنة القمرية وكيفية دوران إحداهما على الأخرى في تفسير قوله تعالى : ﴿ إن عدة الشهور ﴾ [التوبة : 36] الآية فلا حاجة إلى التكرار ، ثم أشار إلى سائر منافعهما وخواصهما بقوله : ﴿ ما خلق الله ذلك ﴾ المذكور ﴿ إلا ﴾ ملتبساً ﴿ بالحق ﴾ والصواب دون الباطل والعبث ، فالشمس سلطان النهار والقمر خليفتها بالليل ، وبحركة الشمس تنفصل السنة إلى فصولها الأربعة ، وبالفصول تنظم مصالح هذا العالم ويتحصل معايش الخلائق ، وبحركة القمر يحصل الشهور ، وباختلاف

حاله في زيادة النور ونقصانه تختلف أحوال الرطوبات إلى غير ذلك من الخواص التي يرشد إليها التأمل والتدبر ولهذا قال : ﴿ يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ لأنهم هم الذين ينتفعون بهذه الدلائل . وقيل : المراد بالعلم ههنا العقل الذي يعم الكل . ثم ذكر المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار وقد مر تفسيره في سورة " البقرة " في قوله : ﴿ إن في خلق

(157/358)

السموات والأرض ﴾ [الآية : 164] . ومعنى قوله : ﴿ وما خلق الله في السموات والأرض ﴾ كقوله : ﴿ وما خلق الله من شيء ﴾ [الآية : 185] وقد مر في آخر " الأعراف " . وإنما خص كونها آيات بالمتقين لأنهم يحذرون العاقبة فيدعوهم الحذر إلى التدبر والنظر . قال القفال : من تدبر في هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لشقاء الناس وأن خالقها وخالقهم ما أهملهم بل جعلها لهم دار عمل ، وإذا كان كذلك فلا بد من أمر ونهي ثم من ثواب وعقاب ليتميز المحسن عن المسيء ، فهذه الأحوال في الحقيقة دالة على صحة القول بالمبدإ والمعاد .

(158/358)

ثم شرع في شرح أحوال من لا يؤمن بالمعاد ومن يؤمن به فقال : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ عن ابن عباس ومقاتل والكلبي : معناه لا يخافون البعث كقوله تعالى : ﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ [الأنبياء : 49] واستبعد الأكثرون تفسير الرجاء بالخوف وقالوا : إنه بمعنى الطمع أي لا يطمعون في حسن لقائه كما يأمله السعداء ، أو لا يتوقعونه أصلاً لأنهم لا يؤمنون بالمعاد فهم ذاهلون عن طلب اللذات الحقيقية فارغون عن التوجه نحو السعادات الباقية ﴿ ورضوا ﴾ مع ذلك ﴿ بالحياة الدنيا ﴾ الحسية الخسيسة ﴿ واطمأنوا بها ﴾ سكنوا إليها سكون العاشق إلى معشوقه وهذه غاية الانهماك الاستغراق في اللذات الجسمانية ﴿ والذين هم عن آياتنا غافلون ﴾ فال يعتبرون بالآيات ولا ينظرون في الدلائل الموصلة إلى حقيقة المبدإ والمعاد ، فلم يقبلوها بالتقليد ولم ينظروا إليها بعين الاجتهاد ﴿ أولئك مأواهم النار ﴾ فيه معنى الجزاء ولذلك تعلق به قوله : ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ وفيه أن الأعمال السابقة هي المؤثرة في حصول العذاب الجسماني وهو النار المحسوسة ، والعذاب الروحاني وهو نار البعد من المألوفات والقطيعة من السعادات الباقيات فيكون مثاله مثال من أخرج عن مجالسة معشوقه فألقي في بئر ظلمانية لا إلف بها ولا مؤنس بل يكون فيها أنواع المؤذيات وأصناف الموحشات نعوذ بالله من تلك الحالات .

وهذا حال من لا يؤمن بالمعاد فلا يعمل له ، وأما حال الذي يؤمن به فذلك قوله : ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ استكملوا من جهة القوة النظرية ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ استكملوا من قبل القوة العملية أو صدقوا بقوله ثم حققوا التصديق بالعمل الصالح الذي جاءت به الأنبياء والكتب من عند الله ، أو أشغلوا قلوبهم وأرواحهم بتحصيل المعرفة ثم جوارحهم بالخدمة حتى تكون عيونهم مشغولة بالاعتبار ، وآذانهم باستماع كلام الله ، وألسنتهم بذكر الله وسائر أعضائهم بطاعة الله تعالى : ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ قال أكثر المفسرين : معناه يهديهم إلى الجنة ثواباً لهم على إيمانهم وأعمالهم الصالحة . ومعنى قوله : ﴿ بإيمانهم ﴾ أي بإيمانهم هذا المضموم إليه العمل الصالح ، وهذا التفسير يوافق قوله تعالى : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ [الحديد : 12] وقوله صلى الله عليه وسلم : " إن المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله الصالح في صورة حسنة فيقول له : أنا عملك فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة . والكافر إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة سيئة فيقول : أنا عملك فينطلق به إلى النار " وقيل : معنى الآية إن إيمانهم يهديهم إلى مزايا من الألطاف ولوامع من الأنوار بحيث تزول بواسطتها عنهم الشكوك والشبهات فتؤدي إلى

حصول المثوبات ولذلك جعل ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ بياناً له وتفسيراً لأن التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها . فهذه الهداية عبارة عن الفوائد الزوائد الحاصلة في الدنيا بعد الإيمان . قال القفال : فعلى هذا الوجه كان المعنى يهديهم ربهم بإيمانهم وتجري من تحتهم الأنهار إلا أنه حذف الواو وجعل قوله : ﴿ تجري ﴾ خبراً مستأنفاً منقطعاً عما قبله . والتحقيق في تقرير هذا الوجه أن العلم نور والجهل ظلمة والروح كاللوح والعلوم والعارف كالنقوش ولكن حالهم بالضد من النقوش الجسمانية ، فإن تزاحم النقوش الجسمانية يكدر اللوح وتوارد النقوش

(160/358)

المعنوية وتكاثرها يزيد لوح الروح لمعاناً وإشراقاً حتى إنه يقوى بها على تحصيل المعارف الباقية بسهولة ، فليس فهم الرجل المنتهي للعلوم والحقائق كفهم المبتدىء ، فإن الإنسان إذا آمن بالله فقد أشرق روحه بنور المعرفة ، وإذا واظب على الأعمال الصالحة حصلت له ملكة التوجه إلى الآخرة والإعراض عن الدنيا ، ولا تزال تتزايد إشراقات هذه المعارف والملكات فيرتقي في معارجها لحظة فلحظة ، ولما كان لا نهاية لمراتب المعارف والأنوار العقلية فلا نهاية لمراتب هذه الهداية .

وفي قوله : ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ دليل لمن قال إن العلم بالمقدمتين لا يوجب العلم بالنتيجة ولكنهما يعدّان الذهن لحصول الفيض من الجواد المطلق . ومعنى ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ أنهم يكونون في البساتين على مواضع مرتفعة كالسرر والأرائك والأنهار تجري من بين أيديهم . ﴿ دعواهم فيها ﴾ قال بعض المفسرين : أي دعاؤهم ونداؤهم كما يدعو القانت بقوله : اللهم إياك نعبد : وقيل : الدعاء العبادة كقوله : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ﴾ [مريم : 48] وإنما تكون هذه عبادتهم لا على سبيل التكليف بل على سبيل الإلهام والعادة ابتهاجاً بذكر الله . وقيل : الادعاء بين المتخاصمين والمعنى أن أهل الجنة يدعون في الدنيا والآخرة تنزيه الله من المعايب والإقرار له بالإلهية . قال القفال : أصله من الدعاء لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما . وقيل : أي طريقتهم وسيرتهم وذلك لأن المدعي للشيء مواظب عليه فيمكن أن يجعل الدعوى كناية عن الملازمة وإن لم يكن في قولهم سبحانك اللهم دعاء ولا دعوى . وقيل : أي تمنيهم كقوله : ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ [يس : 57] أي ما يتمنونه . وتقول العرب : ادّع عليّ ما شئت أي تمن فكان تمنيهم في الجنة ليس إلا تسبيح الله وتقديسه ، ولقد كانوا في الدنيا يدعون في الحروب

من يسكنون إليه ويستنصرونه فيقولون : يا آل فلان فأخبر الله تعالى عنهم أن أنسهم في الجنة بذكر الله وسكونهم بتحميده ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ أي بعضهم يحيي بعضاً بالسلام . وقيل : هي تحية الله أو الملائكة إياهم إضافة للمصدر إلى المفعول ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد ﴾ هي " أن " المخففة من الثقيلة وأصله أنه الحمد ﴿ لله ﴾ على أن الضمير للشأن . قال أهل الظاهر من المفسرين : في سبب تخصيص هذه الأذكار بأهل الجنة أن قوله : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ علم بين أهل الجنة وخدامهم إذا سمعوا ذلك منهم أتوهم بما يشتهونه . قال ابن جريج : ورد في الأخبار أنه إذا مرّ بهم طير يشتهونه قالوا

(162/358)

: ﴿ سبحانك اللهم ﴾ فيأتيهم الملك بذلك المشتهى ، فإذا نالوا منه شهوتهم قالوا : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ وقال القاضي : إنه وعد المتقين بالثواب العظيم فإذا دخل أهل الجنة الجنة ووجدوا تلك المواعيد قالوا سبحانك اللهم أي نسبحك عن الخلف في الوعد . وقيل : ألهم الله بني آدم في الجنة بعد انقراض الدنيا ما افتخر به الملائكة قبلهم في قولهم : ﴿ ونحن نسبح بحمدك ﴾ [البقرة : 30] ويمكن أن يقال : إن لكل إنسان معراجاً بحسب قوته فإذا وصل العارف الصادق إلى صفات جلال الله تعالى قال سبحانك ، وإذا

ارتقى منها إلى الذات قال اللهم ، فإذا عجز عن ذلك المضمار واحترق في أوائل تلك الأنوار رجع من عالم الجلال إلى عالم الإكرام فأفاض الخير على جميع المحتاجين ويدفع المخافات والمكاره عنهم بكل ما أمكنه وذلك قوله : ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ ثم إذا شاهدوا أثر نعمة الله عليهم بالاستفاضة والإفاضة اختتموا الكلام بقولهم : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ . وعلى هذا يدور أمرهم في العروج والنزول ما داموا في الدنيا فيكون كذلك حالهم في العقبى لقوله : "كما تعيشون تموتون وكما تموتون تبعثون" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 554.564 ﴾

(163/358)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

سورة يونس

عليه السلام مكية

إلا فإن كنت في شك الآيتين أو الثلاث أو ﴿ ومنهم من يؤمن به ﴾ الآية مائة وتسع أو عشر آيات وعدد كلماتها ألف وثمانمائة واثنتان وثلاثون كلمة ، وحروفها سبعة آلاف وخمسمائة وسبعة وستون حرفاً ، وهي أوّل المئين ، إن جعلنا براءة مع الأنفال من الطوال ، وإلا فبراءة

أولاهن .

﴿ بسم الله ﴾ جامع العباد بعد تفريقهم بما له من العظمة والامتنان . ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمهم بالإيجاد وخص منهم من شاء بالإيمان . ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أولياءه بالرضوان المبيح للجنان .

﴿ الر ﴾ قال ابن عباس والضحاك و ﴿ الر ﴾ أنا الله أرى ، ﴿ والمر ﴾ أنا الله أعلم وأرى . وقيل : أنا الرب لا رب غيري . وقال سعيد بن جبير : الر وحم ونون حروف اسم الرحمن . وقد سبق الكلام على حروف الهجاء أوّل البقرة ، واتفقوا على أنّ ﴿ الر ﴾ وحده ليس آية ، واتفقوا على أنّ قوله طه وحده آية ، والفرق أنّ قوله تعالى : الر لا يشاكل كل مقاطع الآي التي بعده بخلاف قوله تعالى طه ؛ فإنه يشاكل مقاطع الآي التي بعده ، وقرأ قالون وابن كثير وحفص بفتح الراء والألف بعدها ، وورش بين اللفظين ، والباقون بالإمالة المحضة . ﴿ تلك ﴾ أي : الآيات العظيمة جدًّا التي اشتملت عليها هذه السورة أو السورة ، التي تقدّمت هذه السورة أو هذه الحروف المقطعة المشيرة إلى أنَّ القرآن كلام الله تعالى قد أعجز القادرين على التلفظ بهذه الأحرف . ﴿ آيات الكتاب ﴾ أي : الذكر الجامع لكل خير وهو هذا القرآن الذي وافق كل ما فيه من القصص كلّ ما في التوراة والإنجيل من ذلك فدل ذلك على صدق الآتي به قطعاً ؛ لأنه لم يكن يعرف شيئاً من الكتابين ولا جالس أحداً يعلمه . ﴿ الحكيم ﴾ أي : المحكم . وقوله تعالى:

﴿ أكان للناس ﴾ أي : أهل مكة ، استفهام إنكار للتعجب . وقوله تعالى : ﴿ عجباً ﴾ خبر كان ، والعجب تغير النفس بما لا تعرف سببه مما خرج عن العادة ، ثم ذكر الحامل على العجب ؛ وهو اسم كان بقوله تعالى : ﴿ أن أوحينا ﴾ أي : إيحاؤنا ﴿ إلى رجل منهم ﴾ أي : من أهل مكة ومن قريش ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم يعرفون صدقه ونسبه وأمانته ، قيل : كانوا يقولون : العجب أنّ الله تعالى لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب ، وهو من فرط حماقتهم وقصور نظرهم على الأمور العاجلة ، وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوّة ، وهو لم يكن صلى الله عليه وسلم يقصر عن عظمائهم فيما يعتبر فيه إلا في المال ، وخفة المال أهون شيءٍ في هذا الباب ، ولذلك كان أكثر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله كذلك ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى ﴾ (سبأ)

﴿ أن أنذر الناس ﴾ عامّة ، أي : أعلمهم مع الخوف ما أمامهم من البعث وغيره ، وأن هي المفسرة ؛ لأنّ الإيحاء فيه معنى القول . ﴿ وبشر الذين آمنوا ﴾ إنما عمم في الإنذار لأنه قل أن يسلم أحد من كبيرة أو صغيرة أو هفوة جليلة أو حقيرة على اختلاف الرتب وتباين

المقامات ، وخصص البشارة إذ ليس للكافر ما يصح أن يبشر به . ﴿ أنَّ ﴾ أي : بأنَّ . ﴿ لهم قدم ﴾ أي : سلف ﴿ صدق عند ربهم ﴾ اختلفت عبارات المفسرين وأهل اللغة في معنى قدم صدق ، فقال ابن عباس : أجراً حسناً مما قدّموا من أعمالهم . وقال مجاهد : الأعمال الصالحة : صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم . وقال الحسن : عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه . وقال عطاء : مقام صدق لا زوال له ولا بؤس فيه . وقال زيد بن أسلم : هو شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وأضيف القدم إلى الصدق وهو نعته كقولهم : مسجد الجامع ، وصلاة الأولى ، وحب الحصيد . وقال أبو عبيدة : كل سابق في خير أو شرّ فهو عند العرب قدم . قال الشاعر :

*صل لذي العرش واتخذ قدما ** ينجيك يوم العثار والندم

(165/358)

وهو مؤنث فيقال : قدم حسنة وقدم صالحة . وقوله تعالى : ﴿ قال الكافرون إنَّ هذا لسحر مبين ﴾ قرأه نافع وأبو عمرو وابن عامر بكسر السين وسكون الحاء على أنَّ الإشارة للقرآن المشتمل على ذلك ، والباقون بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء على أنّ الإشارة للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

﴿ إنّ ربكم ﴾ الموجد لكم والمربي والمحسن هو ﴿ الله الذي خلق ﴾ أي : قدّر وأوجد ﴿ السموات والأرض ﴾ على اتساعهما ، وكثرة ما فيهما من المنافع ﴿ في ستة أيام ﴾ من أيام الدنيا ، أي : في قدرها ؛ لأنه لم يكن ثمّ شمس ، ولو شاء لخلقهما في لمحة ، والعدول عنه لتعليم خلقه التثبت . فإن قيل : إنّ اليوم قد يراد به اليوم مع ليلته ، وقد يراد به النهار وحده . فما المراد ؟

(166/358)

أجيب : بأنّ الغالب في اللغة أنه مراد باليوم اليومَ بليلته ، ولما أوجد سبحانه وتعالى هذا الخلق الكبير المتباعد الأقطار ، الواسع الانتشار ، المفتقر إلى عظيم التدبير ، ولطيف التصريف والتقدير ؛ عبّر سبحانه وتعالى عن عمله فيه عمل الملوك في ممالكهم بقوله مشيراً إلى عظمته بأداة التراخي : ﴿ ثم استوى ﴾ أي : عمل في تدبيره وإتقان ما فيه وإحكامه عمل المعتني بذلك . ﴿ على العرش ﴾ المتقدّم وصفه في الأعراف بالعظمة ، وليست ثم للترتيب ، بل كناية عن علوِّ الرتبة ، وبعد منازلها ، ثم بيّن ذلك الاستواء بقوله : ﴿ يدبر الأمر ﴾ كله فلا يخفى عليه عاقبة أمر من الأمور ؛ لأنَّ التدبير أعدل أحوال الملك ، فالاستواء كناية عنه . وقوله تعالى : ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ تقرير لعظمته جل

وعلا ، وردّ على من زعم أنَّ آلهتهم تشفع لهم عند الله . وفيه إثبات الشفاعة لمن أذن له ﴿ ذلكم الله ﴾ أي : الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية والربوبية ﴿ ربكم ﴾ أي : الذي يستحق العبادة منكم . ﴿ فاعبدوه ﴾ أي : وحّدوه ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان ، فضلاً عن جماد لا يضرّ ولا ينفع ، فإنَّ عبادتكم مع التشريك ليست عبادة ، ولولا فضله لم يكن لمن زلّ أدنى زلة طاعة ، وقوله

تعالى: ﴿ أفلا تذكرون ﴾ قرأه حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال ، والباقون بالتشديد بإدغام التاء في الأصل في الذال ، أي : أفلا تتفكرون أدنى تفكر فينبئكم عن أنه المستحق للربوبية ، والعبادة لا ما تعبدونه .

(167/358)

﴿ إليه ﴾ تعالى ﴿ مرجعكم ﴾ أي : رجوعكم بالموت والنشور حالة كونكم ﴿ جميعاً ﴾ لا يتخلف منكم أحد ، فاستعدّوا للقائه . وقوله تعالى : ﴿ وعد الله ﴾ مصدر منصوب بفعله المقدّر مؤكد لنفسه ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ إليه مرجعكم ﴾ وعد من الله ، وقوله تعالى : ﴿ حقاً ﴾ أي : صدقاً لا خلف فيه مصدر آخر منصوب بفعله المقدّر مؤكد لغيره ، وهو ما دل عليه وعد الله . ﴿ إنه يبدأ الخلق ﴾ أي : يحييهم ابتداءً . ﴿ ثم

يعيده ﴾ أي : ثم يميتهم ثم يحييهم . وفي هذا دليل على الحشر والنشر والمعاد ، وصحة وقوعه ، وردّ على منكري البعث ووقوعه ؛ لأنّ القادر على خلق هذه الأجسام المؤلفة ، والأعضاء المركبة على غير مثال سبق ، قادر على إعادتها بعد تفريقها بالموت والبلى ، فيركب تلك الأجزاء المتفرقة تركيباً ثانياً ، ويخلق الإنسان الأوّل مرّة أخرى ، فإذا ثبت القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت ؛ كان المقصود منه إيصال الثواب للمطيع ، والعقاب للعاصي ، وهو قوله تعالى : ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ أي : بالعدل ، لا ينقص من أجورهم شيئاً . ﴿ والذين كفروا لهم شراب من حميم ﴾ وهو ماء حار قد انتهى حرّه ﴿ وعذاب أليم ﴾ أي : بالغ في الإيلام . ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾ أي : بسبب كفرهم .

(168/358)

﴿ هو الذي جعل الشمس ضياءً ﴾ أي : ذات ضياء ﴿ والقمر نوراً ﴾ أي : ذا نور ، وخص الشمس بالضياء ؛ لأنها أقوى وآكد من النور ، وخص القمر بالنور ؛ لأنه أضعف من الضياء ، لأنّ الشمس نيرة في ذاتها ، والقمر نير بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها . وقرأ قنبل بهمزة مفتوحة ممدودة بعد الضاد ، والباقون بياء مفتوحة ، والضمير في

قوله تعالى : ﴿ وقدّره منازل ﴾ يرجع إلى الشمس والقمر ؛ ، أي : قدّر مسير كل واحد منهما منازل ، أو قدّره ذا منازل ، أو يرجع إلى القمر فقط ، وتخصيصه بالذكر لسرعة مسيره ومعاينة منازله ، وإناطة أحكام الشرع به ، ولذلك علله بقوله تعالى : ﴿ لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ أي : حساب الأوقات من الأشهر والأيام في معاملاتكم وتصرّفاتكم ؛ لأنّ الشهور المعتبرة في الشريعة مبنية على رؤية الأهلة ، والسنة المعتبرة في الشريعة هي السنة القمرية ، كما قال تعالى : ﴿ إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ﴾ (التوبة :)

(169/358)

فائدة : منازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً ، وأسماؤها : السرطان ، والبطين ، والثريا ، والدبران ، والهقعة ، والهنعة ، والذراع ، والنثرة ، والطرف ، والجبهة ، والزبرة ، والصرفة ، والعوّا ، والسماك ، والغفر ، والزباني ، والإكليل ، والقلب ، والشولة ، والنعائم ، والبلدة ، وسعد الذابح ، وسعد بلع ، وسعد السعود ، وسعد الأخبية ، وفرغ الدلو المقدّم ، وفرغ الدلو المؤخر ، وبطن الحوت . وهذه المنازل مقسومة على البروج وهي اثنا عشر برجاً : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ،

والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت . فلكل برجٍ منزلان وثلث ، فينزل القمر في كل ليلة منها منزلاً ، فيستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين ، وإن كان تسعاً وعشرين فليلة واحدة ، فيكون انقضاء الشهر مع نزوله تلك المنازل ويكون مقام الشمس في كل منزلة ثلاثة عشر يوماً ، فيكون انقضاء السنة مع انقضائها ، أو انتفاع الخلق بضوء الشمس ، وبنور القمر عظيم ، فالشمس سلطان النهار ، والقمر سلطان الليل ، وبحركة الشمس تنفصل السنة إلى هذه الفصول الأربعة ، وبالفصول الأربعة تنتظم مصالح هذا العالم ، وبسبب الحركة اليومية يحصل النهار والليل ، والنهار يكون زماناً للتكسب وللطلب ، والليل يكون زماناً للراحة .

﴿ ما خلق الله ذلك ﴾ المذكور . ﴿ إلا بالحق ﴾ أي : لم يخلق ذلك باطلاً ولا عبثاً ـ تعالى الله عن ذلك ـ إظهاراً لقدرته ، ودلائل وحدانيته .

ونظيره قوله تعالى في آل عمران : ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ (آل عمران :)

. وقال تعالى في سورة أخرى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا ﴾ (ص ،)

. ﴿ يفصل ﴾ أي : يبين ﴿ الآيات ﴾ أي : الدلائل الباهرة واحدة في إثر واحدة بياناً شافياً . ﴿ لقوم يعلمون ﴾ فإنهم المنتفعون بالتأمّل فيها . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بالياء ، والباقون بالنون .

ولما استدل سبحانه وتعالى على إثبات الإلهية والتوحيد بقوله تعالى : ﴿ إنّ ربكم الله الذي خلق السموات والأرض ﴾ (الأعراف :) ، وثانياً بأحوال الشمس والقمر ، استدل ثالثاً بقوله تعالى:

﴿ إن في اختلاف الليل والنهار ﴾ أي : بالمجيء والذهاب ، والزيادة والنقصان ، ورابعاً بقوله تعالى : ﴿ وما خلق الله في السموات ﴾ من ملائكة وشمس وقمر ونجوم وغير ذلك . ﴿ و ﴾ ما خلق الله في ﴿ الأرض ﴾ من حيوان وجبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك .

فائدة : أقسام الحوادث في هذا العالم محصورة في أربعة أقسام ، أحدها : الأحوال الحادثة في العناصر الأربعة ، ويدخل فيها أحوال الرعد والبرق والسحاب والأمطار ، ويدخل فيها أيضاً أحوال البحار والصواعق والزلازل والخسف ، وثانيها : أحوال المعادن وهي عجيبة كثيرة ، وثالثها : اختلاف أحوال النبات ، ورابعها : اختلاف أحوال الحيوانات ، وجملة هذه الأقسام الأربعة داخلة في قوله تعالى : ﴿ وما خلق الله في السموات ﴾ (يونس :) . والاستقصاء في شرح هذه الأحوال لا يدخل تحت الحصر ، بل كل ما ذكر العقلاء في

أحوال أقسام هذا العالم فهو جزء مختصر من هذا الباب .

﴿ لآيات ﴾ أي : دلالات على قدرته تعالى . ﴿ لقوم يتقون ﴾ الله فإنه يحملهم على التفكر والتذكر ، وخصهم بالذكر ؛ لأنهم المنتفعون بها . قال القفال : من تدبر في هذه الأحوال علم أنّ الدنيا مخلوقة لشقاء الناس فيها ، وأن خالقها وخالقهم ما أهملهم ، بل جعلها لهم دار عمل ، وإذا كان كذلك فلا بدّ من أمر ونهي ثم من ثواب وعقاب ليتميز المحسن عن المسيء ، فهذه الأحوال في الحقيقة دالة على صحة القول بإثبات المبدأ وإثبات المعاد .

(171/358)

ولما أقام الله سبحانه وتعالى الدلائل القاهرة على صحة القول بإثبات الإله الرحمن ، وعلى صحة القول بإثبات الإله الرحيم الحكيم ، وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر ؛ شرع في شرح أحوال من يكفر بها ، وشرح أحوال من يؤمن بها ، وقد ابتدأ بأوّلها ووصفه بأربع صفات مبتدئاً بأوّلها بقوله تعالى:

﴿ إنّ الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ أي : لا يخافونه لإنكارهم البعث ، وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها ، فهم مكذّبون بالثواب والعقاب والرجاء ، يكون بمعنى الخوف ، وبمعنى الطمع ، فمن الأوّل قول العرب : فلان لا يرجو فلاناً ، بمعنى لا يخافه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ما

لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ (نوح:) ، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

إذ لسعته النحل لم يرج لسعها .

أي: لم يخفها . ومن الثاني قولهم: فلان يرجو فلاناً ، ، أي: يطمع فيه ، والمعنى: لا يطمعون في ثوابنا ، والصفة الثانية والثالثة: قوله تعالى: ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴾ فيعملون لها عمل المقيم فيها مع ما يشاهدونه من سرعة زوالها منهمكين في لذاتها وزخارفها ، وسكنوا فيها سكون من لا ينزع عنها ، والصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ والذين هم عن آياتنا ﴾ أي: دلائل وحدانيتنا ﴿ غافلون ﴾ تاركون النظر فيها ، بمنزلة الغافل عن الشيء الذي لا يخطر بباله طول عمره ذكر ذلك الشيء ، وبالجملة فهذه الصفات الأربعة دالة على شدّة بعدهم عن طلب الاستعداد بالسعادات الأخروية ، ويحتمل أنَّ الصفة الأخيرة لفريق آخر ، ويكون المراد بالأوّلين: من أنكر البعث ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، وبالآخر: من ألهاه حب العاجل عن التأمل في الآجل والإعداد له ، ولما وصفهم الله تعالى بتلك الصفات قال:

﴿ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ من الشرك والمعاصي ، ولما شرح أحوال المنكرين الجاحدين ذكر تعالى شرح من يؤمن بها فقال:

﴿ إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ والأعمال الصالحة عبارة عن الأعمال التي تحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة ، والأعمال المذمومة مما يكون بالضدّ من ذلك .

﴿ يهديهم ﴾ أي : يرشدهم . ﴿ ربهم بإيمانهم ﴾ أي : بسبب إيمانهم إلى سلوك سبيل يؤدي إلى الجنة ، أو لما يريدونه في الجنة ، أو لإدراك الحقائق ، كما قال صلى الله عليه وسلم "من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم" . وقال مجاهد : المؤمنون يكون لهم نور يمشي بهم إلى الجنة . وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "إنَّ المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة حسنة ، فيقول : أنا عملك . فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة ، والكافر إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة سيئة ، فيقول : أنا عملك ، فينطلق به حتى يدخله النار" .

ومفهوم ترتبِ الهداية على الإيمان ، والعمل الصالح قد دلّ على أنّ سبب الهداية هو الإيمان والعمل الصالح ، لكن دل منطوق قوله جل وعلا : ﴿ بإيمانهم ﴾ (يونس :)

. على استقلال الإيمان بالسببية ، وأن العمل الصالح كالتتمة والرديف ، ثم إنه تعالى لما وصفهم بالإيمان والأعمال الصالحة ذكر بعد ذلك درجات كراماتهم ومراتب سعاداتهم ، وهي أربعة الأولى : قوله تعالى : ﴿ تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم ﴾ أي : يكونون جالسين على سرر مرفوعة في البساتين ، والأنهار تجري من بين أيديهم ، ينظرون إليها من أعالي أسرتهم وقصورهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ (مريم :)

فهي ما كانت قاعدة عليه ، ولكن المعنى : بين يديك ، وكذا قوله : ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ (الزخرف ،) ، أي : بين يدي فكذا هنا . الثانية قوله تعالى:

(173/358)

﴿ دعواهم فيها ﴾ قال بعض المفسرين: ، أي : طلبهم لما يشتهون في الجنة أن يقولوا : ﴿ سبحانك ﴾ أي : ننزهك من كل سوء ونقيصة . ﴿ اللهمّ ﴾ أي : يا الله ، فإذا ما طلبوا بين أيديهم على موائد ، كل مائدة ميل في ميل ، على كل مائدة سبعون ألف صحفة ، في كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضها بعضاً ، فإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله تعالى ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ . وأن المراد بقوله ﴿ سبحانك اللهم ﴾ اشتغال أهل الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله تعالى ، والثناء عليه بما هو أهله ، وفي هذا الذكر سرورهم وابتهاجهم وكمال لذاتهم وهذا أولى ، ويدل عليه ما روي عن جابر رضي الله تعالى عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ، ولا يبولون ولا يتغوّطون ولا يتمخطون . قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء ورشح كرشح المسك ، يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس" ، أي : يخرج ذلك الطعام جشاء وعرقاً .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وتحيتهم ﴾ فيما بينهم وتحية الملائكة لهم ﴿ فيها ﴾ أي : الجنة ﴿ سلام ﴾ وتأتيهم الملائكة أيضاً من عند ربهم بالسلام . قال تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ﴾ (الرعد : ،)

. وقال تعالى : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ (يس :)

. الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وآخر دعواهم ﴾ أي : وآخر دعائهم . ﴿ أن الحمد لله رب العالمين ﴾ أي : أن يقولوا ذلك ، وأن هي المخففة من الثقيلة ، وقد ذكرنا أنَّ بعض المفسرين حمل التسبيح والتحميد على أحوال أهل الجنة بسبب المأكول والمشروب ، فإنهم إذا اشتهوا شيئاً قالوا : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ (يونس ،)

فيحصل ذلك الشيء ، فإذا فرغوا منه قالوا : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ (الفاتحة ،)

فترتفع الموائد عند ذلك .

(174/358)

قال الرازي : وهذا القائل ما رقى نظره في دنياه وأخراه عن المأكول والمشروب ، وحقيق بمثل هذا الإنسان أن يعدّ في زمرة البهائم ، وأما المحققون فقد تركوا ذلك . اه . ولا تنبغي هذه المبالغة ، فقد قاله البغوي ، وتبعه جماعة من المفسرين . وقال الزجاج : أعلمَ اللهُ أنّ

أهل الجنة يفتتحون بتعظيم الله تعالى وتنزيهه ، ويختمون بشكره والثناء عليه . قال البيضاوي : المعنى أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءه مجّدوه ونعتوه بنعوت الجلال ، ثم حياهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات ، أو الله تعالى ، فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الإكرام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 12.5 ﴾

(175/358)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴾

شرع الله سبحانه في شرح أحوال من لا يؤمن بالمعاد ، ومن يؤمن به ، وقدّم الطائفة التي لم تؤمن ، لأن الكلام في هذه السورة مع الكفار الذين يعجبون مما لا عجب فيه ، ويهملون النظر والتفكر فيما لا ينبغي إهماله مما هو مشاهد لكل حيّ طول حياته ، فيتسبب عن إهمال النظر ، والتفكر الصادق : عدم الإيمان بالمعاد ، ومعنى الرجاء هنا الخوف ، ومنه قول الشاعر :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها . . . وخالفها في بيت نوبٍ عواسلِ

وقيل ﴿ يرجون ﴾ : يطمعون .

ومنه قول الشاعر :

أترجو بني مروان سمعي وطاعتي . . . وقومي تميم والفلاة ورائيا

فالمعنى على الأوّل : لا يخافون عقاباً .

وعلى الثاني : لا يطمعون في ثواب إذا لم يكن المراد باللقاء حقيقته ، فإن كان المراد به حقيقته كان المعنى : لا يخافون رؤيتنا ، أو لا يطمعون في رؤيتنا .

وقيل : المراد بالرجاء هنا : التوقع ، فيدخل تحته الخوف والطمع ، فيكون المعنى : ﴿ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ لا يتوقعون لقاءنا ، فهم لا يخافونه ، ولا يطمعون فيه ﴿ وَرَضُواْ بالحياة الدنيا ﴾ أي : رضوا بها عرضاً عن الآخرة ، فعملوا لها ﴿ واطمأنوا بِهَا ﴾ أي : سكنت أنفسهم إليها ، وفرحوا بها ﴿ والذين هُمْ عَنْ ءاياتنا غافلون ﴾ لا يعتبرون بها ، ولا يتفكرون فيها ﴿ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ ﴾ أي : مثواهم ، ومكان إقامتهم النار ، والإشارة إلى المتصفين بالصفات السابقة من عدم الرجاء ، وحصول الرضا والاطمئنان ، والغفلة ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أي : بسبب ما كانوا يكسبون من الكفر والتكذيب بالمعاد فهذا حال الذين لا يؤمنون بالمعاد .

وأما حال الذين يؤمنون به ، فقد بيّنه سبحانه بقوله : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ أي : فعلوا الإيمان الذي طلبه الله منهم بسبب ما وقع منهم من التفكر والاعتبار ، فيما تقدّم ذكره من الآيات ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ التي يقتضيها الإيمان .

وهي ما شرعه الله لعباده المؤمنين ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ أي : يرزقهم الهداية بسبب هذا الإيمان المضموم إليه العمل الصالح ، فيصلون بذلك إلى الجنة ، وجملة : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ﴾ مستأنفة ، أو خبر ثان ، أو في محل نصب على الحال .

ومعنى ﴿ من تحتهم ﴾ : من تحت بساتينهم ، أو من بين أيديهم ؛ لأنهم على سرر مرفوعة .

وقوله : ﴿ فِي جنات النعيم ﴾ متعلق بتجري أو ب ﴿ يهديهم ﴾ ، أو خبر آخر أو حال من ﴿ الأنهار ﴾ .

قوله : ﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ أي : دعاؤهم ونداؤهم ، وقيل : الدعاء العبادة ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ [مريم : 48] وقيل معنى ﴿ دعواهم ﴾ هنا : الادّعاء الكائن بين المتخاصمين ، والمعنى : أن أهل الجنة يدعون في الدنيا والآخرة تنزيه الله سبحانه من المعايب والإقرار له بالإلهية .

قال القفال : أصله من الدعاء لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما ، وقيل معناه :

طريقتهم وسيرتهم ، وذلك أن المدّعي للشيء مواظب عليه ، فيمكن أن تجعل الدعوى كناية عن الملازمة ، وإن لم يكن في قوله : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ دعوى ولا دعاء ؛ وقيل معناه : تمنيهم كقوله :

﴿ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ [ياس : 57] وكأن تمنيهم في الجنة ليس إلا تسبيح الله وتقديسه ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ سبحانك اللهم ﴾ ، و ﴿ فِيهَا ﴾ أي : في الجنة .

والمعنى على القول الأوّل : أن دعاءهم الذي يدعون به في الجنة هو تسبيح الله وتقديسه ، والمعنى : نسبحك يا الله تسبيحاً .

قوله : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ أي : تحية بعضهم للبعض .

(177/358)

فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل ، أو تحية الله أو الملائكة لهم ، فيكون من إضافة المصدر إلى المفعول .

وقد مضى تفسير هذا في سورة النساء ، قوله : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ أي : وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح أن يقولوا : الحمد لله رب العالمين .

قال النحاس : مذهب الخليل أن "أن" هذه مخففة من الثقيلة .

والمعنى : أنه الحمد لله .

وقال محمد بن يزيد المبرد : ويجوز أن تعملها خفيفة عملها ثقيلة .

والرفع أقيس ، ولم يحك أبو عبيد إلا التخفيف .

وقرأ ابن محيصن بتشديد أنّ ونصب الحمد .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ وَرَضُواْ بالحياة الدنيا ﴾ قال : مثل قوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ [هود : 15] الآية .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، أيضاً في قوله : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ قال : يكون لهم نور يمشون به .

وأخرج أبو الشيخ ، عن قتادة ، مثله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ قال : حدّثنا الحسن قال : بلغنا أن رسول الله قال : " إن المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة حسنة وريح طيبة ، فيقول له : ما أنت ؟ فوالله إني لأراك عين امرىء صدق ، فيقول له : أنا عملك ، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة ؛ وأما الكافر ، فإذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة سيئة وريح منتنة ، فيقول له : ما أنت ؟ فوالله إني

لأراك عين امرىء سوء ، فيقول له : أنا عملك ، فينطلق به حتى يدخله النار " ، وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن ابن جريج ، نحوه .

(178/358)

وأخرج ابن مردويه ، عن أبيّ بن كعب ، قال : قال رسول الله : " إذا قالوا سبحانك اللهم أتاهم ما اشتهوا من الجنة من ربهم " وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن أبي الهذيل ، قال : الحمد أوّل الكلام وآخر الكلام ، ثم تلا : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(179/358)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ الر ﴾ فيه إشارتان : إحداهما من الحق المحق إلى حبيبه محمد صلى الله عليه

وسلم كأنه قال : بآلائي عليك في الأزل وأنت في العدم وبلطفي عليك في الوجود وبرحمتي ورأفتي لك من الأزل إلى الأبد . والثانية من الحق لنبيه عليه السلام إليه يقول بإنسك معي حين خلقت روحي ولم يكن ثالث ، وبلبيك الذي أجبتني به حين دعوتك للخروج من العدم فقلت : ياسين أي يا سيد فقلت : لبيك وسعديك والخير كله بيديك . وبرجوعك منك إلى حين قلت لنفسك بجذبه ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ [الفجر : 28] ﴿ تلك ﴾ أي هذه الآيات المنزلة عليك ﴿ آيات الكتاب الحكيم ﴾ الذي وعدتك في الأزل وراثته لك ولأمتك . والحكيم الحاكم على الكتب كلها فلا ينسخه كتاب وهو ينسخ الشرائع والأحكام والكتب كلها ﴿ إلى رجل منهم ﴾ لما رأى فيه رجولية قبول الوحي دون غيره ، ويحتمل أن يكون معنى للناس الناسي عهد الله ﴿ قدم صدق ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أول من خرج من العدم إلى الوجود ، أو هو العناية الأزلية " سبقت رحمتي غضبي " ﴿ لساحر مبين ﴾ صدقوا في أنهم مسحورون إلا أنه سحرهم سحرة صفات فرعون النفس . إن الذي يربيكم هو الذي خلق السموات سموات أرواحكم وأرض نفوسكم من ستة أنواع هي : الروح والقلب والعقل ﴿ يدبر ﴾ أمر السعادة والشقاوة بقلبه كيف يشاء . ﴿ إليه مرجعكم جميعاً ﴾ فرجعوا مقبولين بجذبات العناية التي صورتها خطاب ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ [الفجر : 28] وحقيقتها انجذاب القلب إلى الله ونتيجتها عزوف النفس عن الدنيا واستواء الذهب والمدر عندها ورجوع المردودين بغير الاختيار

بالسلاسل والأغلال . ومن نتائجه تعلقات الدنيا واستيلاء صفات النفس ﴿ بالقسط ﴾ أي لكل بحسب كماله ونقصانه . جعل شمس الروح ضياء يستنير بها قمر القلب إذا وقع في مواجهتها ، وإذا وقع في مقابلة أرض النفس انكسف ولهذا سمي قلباً لتقلب أحواله بين الروح والنفس . وتلك الأحوال هي منازله ومقاماته لتعلموا عدد سنين المقامات وحساب

(180/358)

الكشوف والمشاهدات ﴿ إن في اختلاف ﴾ ليل صفات البشرية ونهار صفات الروحانية ﴿ وما خلق الله ﴾ في سموات الروحانية وأرض البشرية من الأوصاف والأخلاق وتبدل الأحوال ﴿ لآيات ﴾ دالة على التوحيد ﴿ لقوم يتقون ﴾ الأخلاق الذميمة ﴿ والذين هم عن آياتنا غافلون ﴾ وإن لم يركنوا إلى الدنيا وتمتعاتها كالرهابين والبراهمة وبعض الفلاسفة والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 565.564 ﴾

(181/358)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أشير في هذه الآية إلى تنزهه تعالى وعلوه وتفرده بنعوت الكمال ، ودل بختمها بالحمدِ على إحاطته وبرب العالمين على تمام قدرته وحسن تدبيره في ابتدائه وإعادته ، اتبعت بما يدل على ذلك من لطفه في معاملته من أنه لا يفعل شيئاً قبل أوانه لأن الاستعجال من سمات الاحتياج.

بل وروى أبو يعلى وأحمد بن منيع عن أنس ـ رضى الله عنهم ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال " التأني من الله والعجلة من الشيطان " قال شيخنا ابن حجر : وفي الباب عن سهل وسعد ـ رضى الله عنهما ـ فقال تعالى عاطفاً على قوله ﴿ يدبر الأمر ﴾ ما معناه أنه تعالى يفعل فعل من ينظر في ادبار الأمور فلا يفعل إلاّ ما هو في غاية الإحكام ، فهو لا يعاجل العصاة بل يمهلهم ويسبغ عليهم النعم وهم في حال عصيانهم له أضل من النِعم يطلبون خيراته ويستعجلونه بها : ﴿ ولو يعجل الله ﴾ أي المحيط بصفات الكمال ﴿ للناس ﴾ أي الذين اتخذوا القرآن عجباً لما لهم من صفة الاضطراب ﴿ الشر استعجالهم ﴾ أي عاملاً في

إرادته لإيقاع الشر بهم مثل عملهم في إرادتهم وطلبهم العجلة ﴿ بالخير لقضي ﴾ أي حُتم وبت وأدى ، بناه للمفعول في قراءة الجماعة دلالة على هوانه عنده ، ولأن المحذور مجرد فراغه لا كونه من معين .

وبناه ابن عامر للفاعل ونصب الأجل ﴿ إليهم ﴾ أي الناس خاصة ﴿ أجلهم ﴾ أي عمرهم أو آخر لحظة تكون منه ، فأهلك من في الأرض فاختل النظام الذي دبره ، ولكنه لا يفعل إلاّ ما تقدم من إمهاله لهم إلى ما سمي من الآجال المتفاوتة .

وذلك سبب إضلال من يريد ضلاله .

ولعل التعبير بنون العظمة في ﴿ فنذر ﴾ إشارة إلى أن الأمر في غاية الظهور ؛ فكان القياس هداهم لكثرة ما عليه من الدلائل الظاهرة ولكنه تعالى أراد ضلالهم وهو من العظمة بحيث لا يعجزه شيء .

ويجوز أن يكون معطوفاً على قوله ﴿ أولئك مأواهم النار ﴾ لأن معناه : أولئك يمهلهم الله إلى انقضاء ما ضرب لهم من الآجال مع مبالغتهم في الإعراض .

ثم يكون مأواهم النار ولا يعجل لهم ما يستحقونه من الشر ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ﴾ أي ولو يريد عجلة الشر للناس إذا خالفوه أو إذا استعجلوه به في نحو قولهم ﴿ فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ [الأنفال : 32] ودعاء الإنسان على ولده وعبده ، مثل استعجالهم أي مثل إرادتهم تعجيل الخير .

وعدل عن أن يقال : ولو يستعجل الله للناس الشر ﴿ استعجالهم بالخير ﴾ أي يعجل ، دفعاً لإيهام النقص بأن من يستعجل الشيء ربما يكون طالباً عجلته من غير لعدم قدرته ، وتنبيهاً على أن الأمر ليس إلاّ بيده ﴿ لقضي إليهم أجلهم ﴾ فإنه إذا أراد شيئاً كان ولم يتخلف أصلاً .

ولما كان التقدير لأن " لو " امتناعية : ولكنه سبحانه لا يفعل ذلك لأنه لا يفوته شيء بل يمهل الظالمين ويدر لهم النعم ويضربهم بشيء من النقم حتى يقولوا : هذه عادة الدهر ، قد مس آباءنا الضراء والسراء ، سبب عن قوله : ﴿ فنذر ﴾ أي على أيّ حالة كانت ، ووضع موضع الضمير تخصيصاً وتنبيهاً على ما أوجب لهم الإعراض والجرأة قوله : ﴿ الذين ﴾ وأشار بنفي الرجاء إلى نفي الخوف على الوجه الأبلغ فقال : ﴿ لا يرجون لقآءنا ﴾ أي بعد الموت بهذا الاستدراج على ما لنا من العظمة التي من أمنها كان أضل من الأنعام ﴿ في طغيانهم ﴾ أي تجاوزهم للحدود تجاوزاً لا يفعله من له أدنى روية ﴿ يعمهون ﴾ أي يحكم مشيئتنا السابقة في الأزل عمياً عن رؤية الآيات صماً عن سماع البينات ؛ والتعجيل : تقديم الشيء على وقته الذي هو أولى به ؛ والشر : ظهور ما فيه الضر ، وأصله الإظهار من قولهم

: شررت الثوب – إذا أظهرته للشمس ، ومنه شرر النار – لظهوره بانتشاره ؛ والطغيان : الغلو في ظلم العباد ؛ والعمه ، شدةُ الحيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 422.421 ﴾

(183/358)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ لقضي إليهم ﴾ مبنياً للفاعل ﴿ أجلهم ﴾ بالنصب : ابن عامر ويعقوب . الآخرون مبنياً للمفعول ورفع ﴿ أجلهم ﴾ أو بدله بضم اللام وسكون الهاء : روى خلف عن الكسائي والاختبار عنه وعن غيره الإشمام ﴿ لي أن ﴾ بفتح الياء وكذلك ﴿ إني أخاف ﴾ : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو . ﴿ نفسي أن ﴾ بفتح الياء : أبو عمرو وأبو جعفر ونافع . ﴿ ولأدراكم ﴾ بلام الابتداء فعلاً مثبتاً : روى أبو ربيعة عن البزي وحمزة . وقرأ حمزة وعلي وأبو عمرو وخلف وورش من طريق النجاري والخزاز عن جبيرة وهبيرة وابن مجاهد والنقاش عن ابن ذكوان ، وحماد ويحيى من طريق أبي حمدون بالإمالة فعلاً ماضياً منفياً بلا . الباقون : مثله ولكن بالتفخيم . ﴿ تشركون ﴾ بتاء الخطاب

وكذلك في "النحل" و "الروم": حمزة وعلي وخلف. الباقون بالياء.

الوقوف: ﴿ أجلهم ﴾ ط لأن ما بعده مستقبل فنحن نذر ﴿ يعمهون ﴾ ه ﴿ أو قائماً ﴾ ط ﴿ مسه ﴾ ط ﴿ يعملون ﴾ ه ﴿ ظلموا ﴾ لا لأن الواو للحال ﴿ ليؤمنوا ﴾ ط ﴿ المجرمين ﴾ ه ﴿ تعملون ﴾ ه ﴿ بينات ﴾ لا لأن ما بعده جواب "إذا" ﴿ أو بدله ﴾ ط. ﴿ نفسي ﴾ ج ط لأن "ان" النافية لها صدر الكلام ولكن القائل متحد ﴿ إليّ ﴾ ط ج لمثل ما قلنا ﴿ عظيم ﴾ ه ﴿ به ﴾ ط والوصل أولى للفاء أو لشدة اتصال المعنى ﴿ من قبله ﴾ ط ﴿ تعقلون ﴾ ه ﴿ بآياته ﴾ ط ﴿ المجرمون ﴾ ه ﴿ عند الله ﴾ ط ﴿ في الأرض ﴾ ط ﴿ يشركون ﴾ ه ﴿ فاختلفوا ﴾ ط ﴿ يختلفون ﴾ ه ﴿ من ربه ﴾ ج ط للابتداء بالأمر مع الفاء ﴿ فانتظروا ﴾ ج لاحتمال الابتداء أو التعليل ﴿ المنتظرين ﴾ ه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 565.

﴿ 566

(184/358)

فصل

قال الفخر:

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أن الذي يغلب على ظني أن ابتداء هذه السورة في ذكر شبهات المنكرين للنبوة مع الجواب عنها .

فالشبهة الأولى : أن القوم تعجبوا من تخصيص الله تعالى محمداً عليه السلام بالنبوة فأزال الله تعالى ذلك التعجب بقوله : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ [يونس : 2] ثم ذكر دلائل التوحيد ودلائل صحة المعاد ، وحاصل الجواب أنه يقول : إني ما جئتكم إلا بالتوحيد والإقرار بالمعاد ، وقد دللت على صحتها ، فلم يبق للتعجب من نبوتي معنى .

والشبهة الثانية : للقوم أنهم كانوا أبداً يقولون : اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً في ادعاء الرسالة فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب إليم .

فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بما ذكره في هذه الآية .

فهذا هو الكلام في كيفية النظم .

ومن الناس من ذكر فيه وجوهاً أخرى : فالأول : قال القاضي : لما بين تعالى فيما تقدم الوعد والوعيد أتبعه بما دل على أن من حقهما أن يتأخرا عن هذه الحياة الدنيوية لأن حصولهما في الدنيا كالمانع من بقاء التكليف .

والثاني : ما ذكره القفال : وهو أنه تعالى لما وصف الكفار بأنهم لا يرجون لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، وكانوا عن آيات الله غافلين ؛ بين أن من غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب جهلاً منهم وسفهاً .

المسألة الثانية :

أنه تعالى أخبر في آيات كثيرة أن هؤلاء المشركين متى خوفوا بنزول العذاب في الدنيا استعجلوا ذلك العذاب كما قالوا : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] وقال تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [المعارج : 1] الآية .

(185/358)

ثم إنهم لما توعدوا بعذاب الآخرة في هذه الآية وهو قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النار بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس : 8] استعجلوا ذلك العذاب ، وقالوا : متى يحصل ذلك كما قال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى : 18] وقال في هذه السورة بعد هذه الآية : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ [يونس : 48] إلى قوله : ﴿ الآن وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [يونس : 51] وقال في سورة الرعد :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات ﴾ [الرعد : 6] فبين تعالى أنهم لا مصلحة لهم في تعجيل إيصال الشر إليهم ، لأنه تعالى لو أوصل ذلك العقاب إليهم لماتوا وهلكوا ، لأن تركيبهم في الدنيا لا يحتمل ذلك ولا صلاح في إماتتهم ، فربما آمنوا بعد ذلك ، وربما خرج من صلبهم من كان مؤمناً ، وذلك يقتضي أن لا يعاجلهم بإيصال ذلك الشر .

المسألة الثالثة :

في لفظ الآية إشكال ، وهو أن يقال : كيف قابل التعجل بالاستعجال ، وكان الواجب أن يقابل التعجيل بالتعجيل ، والاستعجال بالاستعجال .

والجواب عنه من وجوه : الأول : قال صاحب "الكشاف" : أصل هذا الكلام ، ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم الخير إلا أنه وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير إشعاراً بسرعة إجابته وإسعافه بطلبهم ، حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم .

الثاني : قال بعضهم حقيقة قولك عجلت فلاناً طلبت عجلته ، وكذلك عجلت الأمر إذا أتيت به عاجلاً ، كأنك طلبت فيه العجلة والاستعجال أشهر وأظهر في هذا المعنى ، وعلى هذا الوجه يصير معنى الآية لو أراد الله عجلة الشر للناس كما أرادوا عجلة الخير لهم لقضى إليهم أجلهم ، قال صاحب هذا الوجه ، وعلى هذا التقدير : فلا حاجة إلى العدول عن ظاهر الآية .

الثالث : أن كل من عجل شيئاً فقد طلب تعجيله ، وإذا كان كذلك ، فكل من كان معجلاً كان مستعجلاً ، فيصير التقدير ، ولو استعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير إلا أنه تعالى وصف نفسه بتكوين العجلة ووصفهم بطلبها ، لأن اللائق به تعالى هو التكوين واللائق بهم هو الطلب .

المسألة الرابعة :

أنه تعالى سمى العذاب شراً في هذه الآية ، لأنه أذى في حق المعاقب ومكروه عنده كما أنه سماه سيئة في قوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة ﴾ [الرعد : 6] وفي قوله : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] .

المسألة الخامسة :

قرأ ابن عامر ﴿ لَقُضِيَ ﴾ بفتح اللام والقاف ﴿ أَجَلُهُمْ ﴾ بالنصب ، يعني لقضى الله ، وينصره قراءة عبد الله ﴿ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ وقرأ الباقون بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء ﴿ أَجَلُهُمْ ﴾ بالرفع على ما لم يسم فاعله .

المسألة السادسة :

المراد من استعجال هؤلاء المشركين الخير هو أنهم كانوا عند نزول الشدائد يدعون الله تعالى بكشفها ، وقد حكى الله تعالى عنهم ذلك في آيات كثيرة كقوله : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ ﴾ [النمل : 53] وقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا ﴾ [يونس : 12] .

المسألة السابعة :

لسائل أن يسأل فيقول : كيف اتصل قوله : ﴿ فَنَذَرُ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ بما قبله وما معناه ؟

وجوابه أن قوله : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهِ لِلنَّاسِ ﴾ متضمن معنى نفي التعجيل ، كأنه قيل : ولا يعجل لهم الشر ، ولا يقضي إليهم أجلهم فيذرهم في طغيانهم أي فيمهلهم مع طغيانهم إلزاماً للحجة .

المسألة الثامنة :

قال أصحابنا : إنه تعالى لما حكم عليهم بالطغيان والعمه امتنع أن لا يكونوا كذلك .

(187/358)

وإلا لزم أن ينقلب خبر الله الصدق كذباً وعلمه جهله وحكمه باطلاً ، وكل ذلك محال ، ثم إنه مع هذا كلفهم وذلك يكون جارياً مجرى التكليف بالجمع بين الضدين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 39. 41 ﴾

(188/358)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهِ لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير ﴾

قال مقاتل : وذلك حين تمنى النضر بن الحارث العذاب ، فنزل قوله : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشر ﴾ يقول : لو استجيب لهم في الشر استعجالهم بالخير ، كما يحبون أن يستجاب لهم في الخير .

﴿ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ في الدنيا بالهلاك ؛ وقال مجاهد والضحاك والكلبي : ولو يعجل الله للناس الشر ، يعني : العقوبة ، إذا دعا على نفسه وولده وعلى صاحبته ، مثل : أخزاك الله ، ولعنك الله ؛ كما يعجل لهم الخير إذا دعوه بالرحمة والرزق والعافية ؛ لماتوا وهلكوا .

وقال القتبي : هذا من الإضمار ومعناه ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهِ لِلنَّاسِ الشر ﴾ ، يعني : إجابتهم بالشر ﴿ استعجالهم بالخير ﴾ ، يعني : كإجابتهم بالخير .

وإنَّما صار ﴿ استعجالهم ﴾ نصباً على معنى مثل استعجالهم .

قرأ ابن عامر ﴿ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ بالنصب ، يعني : لقضى الله أجلهم ، لأنه اتصل بقوله : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ ﴾ ، وقرأ الباقون ﴿ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ بالضم على معنى فعل ما لم يسم فاعله .

ثم قال : ﴿ فَنَذَرُ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ ، يعني : نترك الذين لا يخافون البعث بعد الموت .

﴿ فِي طغيانهم يَعْمَهُونَ ﴾ ، يعني : في ضلالهم يعمهون ، يعني : يتحيرون ويترددون .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(189/358)

وقال الثعلبى :

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهِ لِلنَّاسِ الشر ﴾

فيه اختصار ومعناه : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهِ لِلنَّاسِ ﴾ الآية ذهابهم في الشرك استعجالهم بالإجابة في الخير ﴿ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ أي لفرض من هلاكهم ولماتوا جميعاً . قال مجاهد : هو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب : [اللهم أهلكه ، اللهم لا تبارك له فيه

والعنه] يتخذها الرجل على نفسه وولده وأهله وماله بما يكره أن يُستجاب له .

شهر بن حوشب . قرأت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول للملكين الموكلين : لا تكتبا على عبدي في حال ضجره شيئاً .

وقرأ العامة : لقضي إليهم آجالهم برفع القاف واللام على خبر تسمية الفاعل ، وقرأ عوف وعيسى وابن عامر ويعقوب : بفتح القاف واللام ، وقرأ الأعمش : لقضينا ، وكذلك هو في مصحف عبد الله ، وقيل : أنها نزلت في النضر بن الحرث حين قال :

﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء ﴾ [الأنفال : 32] الآية يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَنَذَرُ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ لا يخافون البعث والحساب ولا يأملون الثواب ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(190/358)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : ولو يعجل الله للكافر العذاب على كفره كما عجل له خير الدنيا من المال والولد لعجل له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة ، قاله ابن إسحاق .

الثاني : معناه أن الرجل إذا غضب على نفسه أو ماله أو ولده فيدعو بالشر فيقول : لا بارك الله فيه وأهلكه الله ، فلو استجيب ذلك منه كما يستجاب منه الخير لقضي إليهم أجلهم أي لهلكوا .

فيكون تأويلاً على الوجه الأول خاصاً في الكافر ، وعلى الوجه الثاني عاماً في المسلم والكافر .

﴿ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ قال قتادة : يعني مشركي أهل مكة .

﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : في شركهم ، قاله ابن عباس .

الثاني : في ضلالهم ، قاله الربيع بن أنس .

الثالث : في ظلمهم ، قاله عليّ بن عيسى .

﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يترددون ، قاله ابن عباس وأبو مالك وأبو العالية .

الثاني : يتمادون ، قاله السدي .

الثالث : يلعبون ، قاله الأعمش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾

هذه الآية قال مجاهد نزلت في دعاء الرجل على نفسه أو ماله أو ولده ونحو هذا ، فأخبر الله تعالى أنه لو فعل مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابته إلى الخير لأهلكهم ، ثم حذف بعد ذلك من القول جملة يتضمنها الظاهر ، تقديرها ولا يفعل ذلك ولكن يذر الذين لا يرجون فاقتضب القول وتوصّل إلى هذا المعنى بقوله ﴿ فنذر الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ فتأمل هذا التقدير تجده صحيحاً ، و﴿ استعجالهم ﴾ نصب على المصدر ، والتقدير مثل استعجالهم ، وقيل : التقدير تعجيلاً مثل استعجالهم ، وهذا قريب من الأول ، وقيل إن هذه الآية نزلت في قوله ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ [الأنفال : 32] وقيل نزلت في قوله ﴿ آتنا بما تعدنا ﴾ [الأعراف : 77] وما جرى مجراه ، وقرأ جمهور القراء " لقُضي " على بناء الفعل للفاعل ورفع " الأجلُ " وقرأ ابن عامر وحده وعوف وعيسى بن عمر ويعقوب ، " لقضى " على بناء الفعل للفاعل ونصب " الأجلَ " ، وقرأ الأعمش : " لقضينا " ، و" الأجل " في

هذا الموضع أجل الموت ، ومعنى قضى في هذه الآية أكمل وفرغ ، ومنه قول أبي ذؤيب : [الكامل]

وعليهما مسرودتان قضاهما . . . داودُ أوْ صَنَعُ السوابغِ تبع

وأنشد أبو علي في هذا المعنى : [الطويل]

قضيت أموراً ثم غادرت بعدها . . . فوائح في أكمامها لم تفتق

وتعدّى " قضى " في هذه الآية ب " إلى " لما كان بمعنى فرغ ، وفرغ يتعدى بإلى ويتعدى باللام ، فمن ذلك قول جرير :

ألانَ فقد فرغت إلى نُمَير . . . فصرت على جماعتها عذابا

(192/358)

ومن الآخر قوله عز وجل ﴿ سنفرغ لكم أيه الثقلان ﴾ [الرحمن : 31] وقرأ الأعمش : " فنذر الذين لا يرجون لقاءنا " ، و ﴿ يرجون ﴾ في هذا الموضع على بابها والمراد الذين لا يؤمنون بالبعث فهم لا يرجون لقاء الله ، والرجاء مقترن أبداً بخوف ، " والطغيان " الغلو في الأمر وتجاوز الحد ، و " العمه " الخبط في ضلال ، فهذه الآية نزلت ذامة لخلق ذميم هو في

الناس ، يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة فيحملهم أحياناً سوء الخلق على الدعاء في الشر ، فلو عجل لهم لهلكوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(193/358)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولو يعجِّلُ اللهُ للنَّاسِ الشرَّ ﴾

ذكر بعضهم أنها نزلت في النضر بن الحارث حيث قال : ﴿ اللهم إِن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ [الأنفال : 8] .

والتعجيل : تقديم الشيء قبل وقته .

وفي المراد بالآية قولان :

أحدهما : ولو يعجِّل الله للنَّاسِ الشرَّ إذا دَعَواْ على أنفسهم عند الغضب وعلى أهليهم ، واستعجلوا به ، كما يعجِّل لهم الخير ، لهلكوا ، هذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة .

والثاني : ولو يعجل الله للكافرين العذاب على كفرهم كما عجَّل لهم خير الدنيا من المال والولد ، لعُجِّل لهم قضاء آجالهم ليتعجَّلوا عذاب الآخرة ، حكاه الماوردي .

ويقوِّي هذا تمامُ الآية وسببُ نزولها .

وقد قرأ الجمهور : "لقُضيَ إِليهم" بضم القاف "أجلُهم" بضم اللام .

وقرأ ابن عامر : "لقَضَى" بفتح القاف "أجلَهم" بنصب اللام .

وقد ذكرنا في أول [سورة البقرة : 15] معنى الطغيان والعمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(194/358)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهِ لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهِ لِلنَّاسِ الشر ﴾ قيل : معناه ولو عجل الله للناس العقوبة كما يستعجلون الثواب والخير لماتوا ، لأنهم خلقوا في الدنيا خلقاً ضعيفاً ، وليس هم كذا يوم القيامة ؛ لأنهم يوم القيامة يخلقون للبقاء .

وقيل : المعنى لو فعل الله مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابته إلى الخير لأهلكهم ؛ وهو معنى "لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ" .

وقيل : إنه خاص بالكافر ؛ أي ولو يعجل الله للكافر العذاب على كفره كما عجل له خير

الدنيا من المال والولد لعجّل له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة ؛ قاله ابن إسحاق .

مقاتل : هو قول النضّر بن الحارث : اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ؛ فلو عجل لهم هذا لهلكوا .

وقال مجاهد : نزلت في الرجل يدعو على نفسه أو ماله أو ولده إذا غضب : اللهم أهلكه ، اللهم لا تبارك له فيه والعنه ، أو نحو هذا ؛ فلو استجيب ذلك منه كما يستجاب الخير لقضي إليهم أجلهم .

فالآية نزلت ذامّة لخُلق ذميم هو في بعض الناس يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة ثم يحملهم أحياناً سوء الخلق على الدعاء في الشر ؛ فلو عجّل لهم لهلكوا .

الثانية واختلف في إجابة هذا الدعاء ؛ فروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إني سألت الله عز وجل ألا يستجب دعاء حبيب على حبيبه " وقال شَهْرُ ابن حَوْشَب : قرأت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول للملائكة الموكَّلين بالعبد : لا تكتبوا على عبدي في حال ضجره شيئاً ؛ لطفاً من الله تعالى عليه .

(195/358)

قال بعضهم : وقد يستجاب ذلك الدعاء ؛ واحتج بحديث جابر الذي رواه مسلم في صحيحه آخر الكتاب ، " قال جابر : سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غَزْوَةِ بَطْنِ بُواطٍ وهو يطلب المجدِي بن عمرو الجُهَنيّ وكان الناضح يَعْتَقبه منا الخمسة والستة والسبعة ، فدارت عُقبة رجلٍ من الأنصار على ناضح له فأناخه فركب ، ثم بعثه فتلدّن عليه بعض التلدن ؛ فقال له : شَأ ؛ لعنك اللها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن هذا اللاعنُ بعيره" ؟ قال : أنا يا رسول الله ؛ قال : "انزل عنه فلا تصحبنا بملعون لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم ولا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعةً يُسأل فيها عطاءٌ فيستجيب لكم" " .

في غير كتاب مسلم أن " النبيّ صلى الله عليه وسلم كان في سفر فلعن رجل ناقته فقال : "أين الذي لعن ناقته" ؟ فقال الرجل : أنا هذا يا رسول الله ؛ فقال : "أخرها عنك فقد أُجِبت فيها" "

ذكره الحُليميّ في منهاج الدين .

"شأ" يروى بالسين والشين ، وهو زجر للبعير بمعنى سِر .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ الله ﴾ قال العلماء : التعجيل من الله ، والاستعجال من العبد .

وقال أبو عليّ : هما من الله ؛ وفي الكلام حذف ؛ أي ولو يعجل الله للناس الشر تعجيلاً مثل

استعجالهم بالخير ، ثم حذف تعجيلاً وأقام صفته مقامه ، ثم حذف صفته وأقام المضاف إليه مقامه ؛ هذا مذهب الخليل وسيبويه .

وعلى قول الأخفش والفراء كاستعجالهم ، ثم حذف الكاف ونصب .

قال الفراء : كما تقول ضربت زيداً ضربك ، أي كضربك .

وقرأ ابن عامر "لقضى إليهم أجلهم" .

وهي قراءة حسنة ؛ لأنه متصل بقوله ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهِ لِلنَّاسِ الشر ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَنَذَرُ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ أي لا يعجل لهم الشر فربما يتوب منهم تائب ، أو يخرج من أصلابهم مؤمن .

﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يتحيرون .

(196/358)

والطغيان : العلوّ والارتفاع ؛ وقد تقدّم في "البقرة" .

وقد قيل : إن المراد بهذه الآية أهل مكة ، وإنها نزلت حين قالوا : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ ﴾ [الأنفال : 32] الآية ، على ما تقدّم والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ﴾

يعني ولو يعجل الله للناس إجابة دعائهم في الشر بما لهم فيه مضرة ومكروه في نفس أو مال .

قال ابن عباس : هذا في قول الرجل لأهله وولده عند الغضب لعنكم الله لا بارك الله فيكم .

وقال قتادة : هو دعاء الرجل على نفسه وماله وأهله وولده بما يكره أن يستجاب له فيه ﴿ استعجالهم بالخير ﴾ يعني كاستعجالهم بالخير وكما يحبون أن يعجل لهم إجابة دعائهم بالخير ﴿ لقضي إليهم أجلهم ﴾ يعني لفرغ من هلاكهم وماتوا جميعاً والتعجيل تقديم الشيء قبل وقته والاستعجال طلب العجلة .

وقال ابن قتيبة : إن الناس عند الغضب والضجر قد يدعون على أنفسهم وأهلهم وأولادهم بالموت وتعجيل البلاء كما يدعون بالرزق والرحمة وإعطاء السؤال يقال لو أجابهم الله إذا دعوه بالشر الذي يستعجلون به استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم يعني : لفرغ من هلاكهم ولكن الله بفضله وكرمه يستجيب للداعي بالخير ولا يستجيب له في

الشر .

وقيل : إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث حين قال إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فعلى هذا يكون المعنى ولو يعجل الله للكافرين العذاب كما عجل لهم خير الدنيا من المال والولد لعجل قضاء آجالهم ولهلكوا جميعاً ويدل على صحة هذا القول قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فنذر الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ يعني فندع الذين لا يخافون عقابنا ولا يؤمنون بالبعث بعد الموت ﴿ في طغيانهم ﴾ يعني في تمردهم وعتوهم ﴿ يعمهون ﴾ يعني يترددون (ق) .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " اللهم إني اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه فإنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة واجعل ذلك كفارة له يوم القيامة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(198/358)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾

قال مجاهد : نزلت في دعاء الرجل على نفسه وماله أو ولده ونحو هذا .

فأخبر تعالى لو فعل مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله منهم في إجابته إلى الخير لأهلكهم ، ثم حذف بعد ذلك من القول جملة يتضمنها الظاهر تقديره : فلا يفعل ذلك ، ولكن نذر الذين لا يرجون فاقتضب القول ، ووصل إلى هذا المعنى بقوله : فنذر الذين لا يرجون ، فتأمل هذا التقدير تجده صحيحاً قاله ابن عطية .

وقيل : نزلت في قولهم : إئتنا بما تعدنا ، وما جرى مجراه .

وقال الزمخشري : والمراد أهل مكة .

وقولهم : ﴿ فأمطر علينا حجارة ﴾ يعني : ولو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير لأميتوا وأهلكوا .

قال : (فإن قلت) : كيف اتصل به فنذر الذين لا يرجون لقاءنا ، وما معناه ؟ (قلت) : قوله : ولو يعجل الله متضمن معنى نفي التعجيل كأنه قال : ولا نعجل لهم الشر ولا نقضي إليهم أجلهم ، فنذرهم في طغيانهم ، أو فنمهلهم ، ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم إلزاماً للحجة عليهم .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنّه تعالى لما ذكر عجب الناس من إيحاء الله إلى رجل منهم ، وكان فيما أوحي إليه الإنذار والتبشير ، وكانوا يستهزؤون بذلك ولا يعتقدون حلولَ ما أنذروه بهم فقالوا : ﴿ فأمطر علينا حجارة ﴾ وقال إخباراً عنهم : ﴿ ويستعجلونك

بالعذاب ﴾ وقالوا : ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ ثم استطرد من ذلك إلى وحدانيته تعالى ، وذكر إيجاده العالم ، ثم إلى تقسيم الناس إلى مؤمن وكافر ، وذكر منازل الفريقين ثم رجع إلى أن ذلك المنذر به الذي طلبوا وقوعه عجلاً لو وقع لهلكوا ، فلم يكن في إهلاكهم رجاء إيمان بعضهم ، وإخراج مؤمن من صلهم بل اقتضت حكمته أنْ لا يعجل لهم ما طلبوه ، لما ترتب على ذلك .

وانتصب استعجالهم على أنه مصدر مشبه به .

(199/358)

فقال الزمخشري : أصله ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم الخير ، فوضع استعجاله لهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم ، كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم .

وقال الحوفي وابن عطية : التقدير مثل استعجالهم ، وكذا قدره أبو البقاء .

ومدلول عجل غير مدلول استعجل ، لأنّ عجل يدل على الوقوع ، واستعجل يدل على طلب التعجيل ، وذاك واقع من الله ، وهذا مضاف إليهم فلا يكون التقدير على ما قاله الزمخشري ، فيحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون التقدير تعجيلاً مثل استعجالهم بالخير ،

فشبه التعجيل بالاستعجال ، لأنّ طلبهم للخير ووقوع تعجيله مقدم عندهم على كل شيء .

والثاني : أن يكون ثم محذوف يدل عليه المصدر تقديره : ولو يعجل الله للناس الشر إذا استعجلوا به استعجالهم بالخير ، لأنّهم كانوا يستعجلون بالشر ووقوعه على سبيل التهكم ، كما كانوا يستعجلون بالخير .

وقرأ ابن عامر : لقضى مبنياً للفاعل أجلهم بالنصب ، والأعمش لقضينا ، وباقي السبعة مبنياً للمفعول ، وأجلهم بالرفع .

وقضى أكمل ، والفاء في فنذر جواب ما أخبر به عنهم على طريق الاستئناف تقديره : فنحن نذر قاله الحوفي .

وقال أبو البقاء : فنذر معطوف على فعل محذوف تقديره : ولكن نمهلهم فنذر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(200/358)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهِ لِلنَّاسِ ﴾

هم الذين لا يرجون لقاءَ الله تعالى لإنكارهم البعثَ وما يترتب عليه من الحساب والجزاءِ ، أشير إلى بعض من عظائمِ معاصيهم المتفرّعةِ على ذلك وهو استعجالُهم بما أُوعدوا به من العذاب تكذيباً واستهزاءً وإيرادُهم باسم الجنسِ لما أن تعجيلَ الخيرِ لهم ليس دائراً على وصفهم المذكور إذ ليس كلُّ ذلك بطريق الاستدراجِ أي لو يعجل الله لهم ﴿ الشر ﴾ الذي كانوا يستعجلون به فإنهم كانوا يقولون : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ونحو ذلك وقوله تعالى ﴿ استعجالهم بالخير ﴾ نصبَ على أنه مصدرٌ تشبيهيٌّ وُضع موضِعَ مصدرٍ ناصبِه دلالةً على اعتبار الاستعجالِ في جانب المشبّهِ كاعتبار التعجيلِ في جانب المشبه به وإشعاراً بسرعة إجابتِه تعالى لهم حتى كان استعجالُهم بالخير نفسَ تعجيلِه لهم ، والتقديرُ ولو يعجل الله لهم الشرَّ عند استعجالِهم به تعجيلاً مثلَ تعجيلِه لهم الخيرَ عند استعجالِهم به فحُذف ما حذف تعويلاً على دلالة الباقي عليه ﴿ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ لأدى إليهم الأجلَ الذي عيّن لعذابهم وأُميتوا وأهلِكوا بالمرة وما أُمهلوا طرفةَ عينٍ ، وفي إيثار صيغةِ المبنيِّ للمفعول جريٌ على سنن الكبرياءِ مع الإيذان بتعيين الفاعلِ ، وقرىء على البناء للفاعل كما قرىء لقضينا ، واختيارُ صيغةِ الاستقبال في الشرط وإن كان المعنى على المضيِّ لإفادة أن عدم قضاءِ الأجلِ لاستمرار عدمِ التعجيل ، فإن المضارعَ المنفيَّ الواقعَ موقعَ الماضي ليس بنص في إفادة انتفاءِ استمرارِ الفعل بل قد يفيد استمرارَ انتفائِه أيضاً بحسب المقامِ كما حقق في موضعه ،

واعلم أن مدارَ الإفادةِ في الشرطية أن يكون التالي أمراً مغايراً للمقدّم في نفسه مترتباً عليه في الوجود كما في قوله عز وجل :

(201/358)

﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الأمر لَعَنِتُّمْ ﴾ فإن العنَتَ أي الوقوعَ في المشقة والهلاكِ أمرٌ مغايرٌ لطاعته عليه الصلاة والسلام لهم مترتبٌ عليها في الوجود أو يكون فرداً كاملاً من أفراده ممتازاً عن البقية بأمر يخصّه كما في الأجزية المحذوفة في مثل قولِه تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ على رَبِّهِمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النار ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون ﴾ ونظائرِها أي لرأيت أمراً هائلاً فظيعاً أو نحوَ ذلك وكما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ إذا فسر الجوابُ بالاستئصال فإنه فردٌ كاملٌ من أفراد مطلقِ المؤاخذة قد عبّر عنه بما لا مزيدَ عليه في الدلالة على الشدة والفظاعةِ ، فحسنُ موقعِه في معرض التالي للمؤاخذة المطلقةِ وأما ما نحن فيه من القضاء فليس بأمر مغايرٍ لتعجيل الشرّ في نفسه ، وهو ظاهرٌ بل هو إما نفسُه أو جزئيٌّ منه كسائر جزئياتِه من غير مزيّةٍ له على البقية إذا لم يُعتبر في مفهومه ما ليس مفهوم تعجيلِ الشرّ من الشدة والهولِ فلا يكونُ في ترتّبه عليه وجوداً أو عدماً مزيدُ فائدةٍ مصحّحة لجعله

تالياً له فالحقُّ أن المقدمَ ليس نفسَ التعجيلِ المذكورِ بل هو إرادتُه المستتبعةِ للقضاء المذكورِ وجوداً وعدماً كما في قوله تعالى : ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ العذاب ﴾ أي لو يريد مؤاخذتهم ، فإن تعجيلَ العذاب لهم نفسُ المؤاخذةِ أو جزئيٌّ من جزئياتها غيرُ ممتازٍ عن البقية فليس في بيان ترتبِه عليها وجوداً أو عدماً مزيدُ وإنما الفائدة في ترتبه على إرادتها حسبما ذكر ، وأيضاً في ترتب التالي على إرادة المقدمِ ما ليس في ترتبه على نفسه من الدِلالة على المبالغة وتهويلِ الأمر والدلالةِ على أن الأمور منوطةٌ بإرادته تعالى المبنيّة على الحِكم البالغة

(202/358)

﴿ فَنَذَرُ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ بنون العظمة الدالة على التشديد في الوعيد وهو عطفٌ على مقدر تنبىء عنه الشرطيةُ كأنه قيل : لكن لا نفعل ذلك لما تقتضيه الحكمةُ فنتركهم إمهالاً واستدراجاً ﴿ فِي طغيانهم ﴾ الذي هو عدمُ رجاءِ اللقاء ، وإنكارُ البعثِ والجزاءِ وما يتفرع على ذلك من أعمالهم السيئةِ ومقالاتهم الشنيعة ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يترددون ويتحيرون ففي وضع الموصولِ موضعَ الضمير نوعٌ بيانٍ للطغيان بما في حيز

الصلةِ وإشعارٌ بعليّته للترك والاستدارج. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(203/358)

وقال الآلوسي :

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهِ لِلنَّاسِ ﴾

هم الذين لا يرجون لقاء الله تعالى المذكورون في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ [يونس : 7] الخ ، والآية متصلة بذلك دالة على استحقاقهم للعذاب وأنه سبحانه إنما يمهلهم استدراجاً وذكر المؤمنين وقع في البين تتميماً ومقابلة ، وجيء بالناس بدل ضميرهم تفظيعاً للأمر .

وفي إرشاد العقل السليم إنما أوردوا باسم الجنس لما أن تعجيل الخير لهم ليس دائراً على وصفهم المذكور إذ ليس كل ذلك بطريق الاستدراج ، والمراد لو يعجل الله تعالى لهم ﴿ الشر ﴾ الذي كانوا يستعجلون به تكذيباً واستهزاءاً فإنهم كانوا يقولون : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : 32] ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [يونس : 48] ونحو ذلك .

وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال : هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له ، وأخرجا عن مجاهد أنه قال : هو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب اللهم لا تبارك فيه . اللهم العنه ، وفيه حمل الناس على العموم والمختار الأول ، ويؤيده ما قيل : من أن الآية نزلت في النضر بن الحرث حين قال : اللهم إن كان هذا هو الحق الخ ، وقوله سبحانه : ﴿ استعجالهم بالخير ﴾ نصب على المصدرية ، والأصل على ما قال أبو البقاء تعجيلاً مثل استعجالهم فحذف تعجيلاً وصفته المضافة وأقيم المضاف إليه مقامها .

(204/358)

وفي "الكشاف" وضع ﴿ استعجالهم بالخير ﴾ موضع تعجيله لهم إشعاراً بسرعة إجابته سبحانه لهم وإسعافه بطلبتهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل له وهو كلام رصين يدل على دقة نظر صاحبه كما قال ابن المنير ، إذ لا يكاد يوضع مصدر مؤكد مقارناً لغيير فعله في الكتاب العزيز بدون مثل هذه الفائدة الجليلة ، والنحاة يقولون في ذلك : أجري المصدر على فعل مقدر دل عليه المذكور ولا يزيدون عليه ، وإذا راجع اللفطن قريحته وناجى فكرته علم أنه إنما قرن بغير فعله لفائدة وهي في قوله تعالى : ﴿ والله أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرضِ نَبَاتاً

﴿ [نوح : 17] التنبيه على نفوذ القدرة في المقدور وسرعة إمضاء حكمها حتى كأن إنبات الله تعالى لهم نفس نباتهم أي إذا وجد الإنبات وجد النبات حتماً حتى كأن أحدهما عين الآخر فقرن به .

وقال الطيبي : كان أصل الكلام ولو يجعل الله للناس الشر تعجيله ثم وضع موضعه الاستعجال ثم نسب إليهم فقيل استعجالهم بالخير لأن المراد أن رحمته سبقت غضبه فأريد مزيد المبالغة وذلك أن استعجالهم الخير أسرع من تعجيل الله تعالى لهم ذلك فإن الإنسان خلق عجولاً والله تعالى صبور حليم يؤخر للمصالح الجمة التي لا يهتدي إليها عقل الإنسان ومع ذلك يسعفهم بطلبتهم ويسرع إجابتهم .

(205/358)

وأوجب أبو حيان كون التقدير تعجيلاً مثل استعجالهم أو أن ثم محذوفاً يدل عليه المصدر أي لو يعجل الله للناس الشر إذا استعجلوه استعجالهم بالخير قال : لأن مدلول عجل غير مدلول استعجل لأن عجل يدل على الوقوع واستعجل يدل على طلب التعجيل وذلك واقع من الله تعالى وهذا مضاف إليهم فلا يجوز ما قرره الزمخشري وأتباعه : وأجاب السفاقسي بأن استفعل هنا للدلالة على وقوع الفعل لا على طلبه كاستقر بمعنى أقر ، وقوله : وهذا

مضاف إليهم مبني على أن المصدر مضاف للفاعل ويحتمل أن يكون مضافاً للمفعول ولا يخفى أن كل ذلك ناش من قلة التدبر ، ومعنى قوله سبحانه : ﴿ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ لأميتوا وأهلكوا بالمرة يقال : قضى إليه أجله أي أنهى إليه مدته التي قدر فيها موته فهلك ، وفي إيثار صيغة المبنى للمفعول جرى على سنن الكبرياء مع الإيذان بتعين الفاعل .

وقرأ ابن عامر .

ويعقوب ﴿ لَقَضِيَ ﴾ على البناء للفاعل ، وقرأ عبد الله ﴿ لقضينا ﴾ وفيه التفات ، واختيار صيغة الاستقبال في الشرط وإن كان المعنى على المضي لإفادة أن عدم قضاء الأجل لاستمرار عدم التعجيل فإن المضارع المنفي الواقع موقع الماضي لي بنص في إفادة انتفاء استمرار الفعل بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضاً بحسب المقام كما حقق في موضعه .

(206/358)

وذكر بعض المحققين أن المقدم ههنا ليس نفس التعجيل المذكور بل هو إرادته المستتبعة للقضاء المذكور وجوداً وعدماً لأن القضاء ليس أمراً مغايراً لتعجيل الشر في نفسه بل هو إما نفسه أو جزئي منه كسائر جزئياته من غير مزية له على البقية إذ لم يعتبر في مفهومه ما ليس في مفهوم تعجيل الشر من الشدة والهول فلا يكون في ترتبه عليه وجوداً أو عدماً مزيد

فائدة مصححة لجعله تالياً له فليس كقوله تعالى : ﴿ اللهَ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الأمر لَعَنِتُّمْ ﴾ [الحجرات : 7] ولا كقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ على رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام : 30] وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ الناس بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر : 45] إذا فسر الجواب بالاستئصال ، وأيضاً في ترتيب التالي على إرادة المقدم ما ليس في ترتيبه على المقدم نفسه من الدلالة على المبالغة وتهويل الأمر والدلالة على أن الأمور منوطة بإرادته تعالى المبنية على الحكم البالغة .

(207/358)

وقوله سبحانه : ﴿ فَنَذَرُ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ أي نتركهم إمهالاً واستدراجاً ﴿ فِي طغيانهم ﴾ الذي هو عدم رجاء اللقاء وإنكار البعث والجزاء وما يتفرع على ذلك من الأعمال السيئة والمقالات الشنيعة ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يترددون ويتحيرون ، لا يصح عطفه على شرط ﴿ لَوْ ﴾ ولا على جوابها لانتفائه وهو مقصود إثباته وليست ﴿ لَوْ ﴾ بمعنى أن كما قيل فهو إما معطوف على مجموع الشرطية لأنها في معنى لا يعجل لهم وفي قوته فكأنه قيل : لا يعجل بل يذرهم أو معطوف على مقدر تدل عليه الشرطية أي ولكن يمهلهم أو ولكن لا يعجل ولا يقضي فيذرهم وبكل قال بعض ، وقيل : الجملة مستأنفة والتقدير فنحن

نذرهم ، وقيل : إن الفاء واقعة في جواب شرط مقدر والمعنى لو يعجل الله تعالى ما استعجلوه لأبادهم ولكن يمهلهم ليزيدوا في طغيانهم ثم يستأصلهم وإذا كان كذلك فنحن نذر هؤلاء الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يترددون ثم نقطع دابرهم .

وصاحب الكشف بعد ما قرر أن اتصال ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ﴾ الخ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ [يونس : 7] الخ وأن ذكر المؤمنين إنما وقع في البين تتميماً ومقابلة وليس بأجنبي قال : إنه لا حاجة إلى جعل هذا جواب شرط مقدر ، وفي وضع الموصول موضع الضمير نوع بيان للطغيان بما في حيز الصلة وإشعار بعليته للترك والاستدراج . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(208/358)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾

مجيء حرف العطف في صدر هذه الآية يقتضي في علم البلاغة خصوصية لعطفها على ما قبلها ومزيد اتصالها بما قبلها فتعين إيضاح مناسبة موقعها .

والظاهر أن المشركين كانوا من غرورهم يحسبون تصرفات الله كتصرفات الناس من

الاندفاع إلى الانتقام عند الغضب اندفاعاً سريعاً ، ويحسبون الرسل مبعوثين لإظهار الخوارق ونكاية المعارضين لهم ، ويسوون بينهم وبين المشعوذين والمتحدّين بالبطولة والعجائب ، فكانوا لما كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم وركبوا رؤوسهم ولم تصبهم بأثر ذلك مصائب من عذاب شامل أو موتان عام ازدادوا غروراً بباطلهم وإحالة لكون الرسول صلى الله عليه وسلم مرسلاً من قبل الله تعالى .

وقد دلت آيات كثيرة من القرآن على هذا كقوله : ﴿ وإذْ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : 32] وقوله : ﴿ يستعجلونك بالعذاب ﴾ [الحج : 47] وقوله : ﴿ فإن للذين ظلموا ذَنوباً مثلَ ذَنوب أصحابهم فلا يستعجلون ﴾ [الذاريات : 59] وقد بينا ذلك في سورة الأنعام وفي سورة الأنفال .

وكان المؤمنون ربما تمنوا نزول العذاب بالمشركين واستبطأوا مجيء النصر للنبيء عليه الصلاة والسلام وأصحابه كما جاء في الحديث : أنَّ المسلمين قالوا : ألا تستنصر .

وربما عجب بعضهم من أن يرزق الله المشركين وهم يكفُرون به .

فلما جاءت آيات هذه السورة بقوارع التهديد للمشركين أعقبت بما يزيل شبهاتهم ويطمئن نفوس المؤمنين بما يجمَعه قوله : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليْهم أجلهم ﴾ .

وهو إجمال ينبىء بأن الله جعل نظام هذا العالم على الرفق بالمخلوقات واستبقاء الأنواع إلى آجال أرادها ، وجعل لهذا البقاء وسائل الإمداد بالنعم التي بها دوام الحياة ، فالخيرات المُفاضة على المخلوقات في هذا العالم كثيرة ، والشرور العارضة نادرة ومعظمها مسبب عن أسباب مجعولة في نظام الكون وتصرفات أهله ، ومنها ما يأتي على خلاف العادة عند محل آجاله التي قدرها الله تعالى بقوله : ﴿ لكل أمة أجل ﴾ [يونس : 49] وقوله : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ [الرعد : 38] .

فهذه الجملة معطوفة على جملة ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ [يونس : 7] الآية ، فحيث ذكر عذابهم الذي هم آيلون إليه ناسب أن يبين لهم سبب تأخير العذاب عنهم في الدنيا لتكشف شبهة غرورهم وليعلم الذين آمنوا حكمةً من حكم تصرف الله في هذا الكون .

والقرينة على اتصال هذه الجملة بجملة ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ [يونس : 7] قولُه في آخر هذه ﴿ فنذَر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ﴾ .

فبينت هذه الآية أن الرفق جعله الله مستمراً على عباده غير منقطع عنهم لأنه أقام عليه

نظام العالم إذْ أراد ثَبات بنائِه ، وأنه لم يقدّر توازيَ الشر في هذا العالم بالخير لطفاً منه ورفقاً ، فالله لطيف بعباده ، وفي ذلك منة عظيمة عليهم ، وأن الذين يستحقون الشر لو عُجل لهم ما استحقوه لبطل النظام الذي وضع عليه العالم .

والناس : اسم عام لجميع الناس ، ولكن لما كان الكلام على إبطال شبهة المشركين وكانوا المستحقين للشرّ كانوا أولَ من يتبادر من عموم الناس ، كما زاده تصريحاً قوله : ﴿ فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ﴾ .

(210/358)

وقد جاء نظم الآية على إيجاز محكم بديع ، فذُكر في جانب الشر ﴿ يُعَجل ﴾ الدال على أصل جنس التعجيل ولو بأقل ما يتحقق فيه معناه ، وعبر عن تعجيل الله الخيرَ لهم بلفظ ﴿ استعجالهم ﴾ الدال على المبالغة في التعجيل بما تفيده زياد السين والتاء لغير الطلب إذ لا يظهر الطلب هنا ، وهو نحو قولهم : استأخر واستقدم واستجلَب واستقام واستبان واستجاب واستمتع واستكبر واستخفى وقوله تعالى : ﴿ واستغشوا ثيابهم ﴾ [نوح : 7] .

ومعناه : تعجّلهم الخيرَ ، كما حمله عليه في "الكشاف" للإشارة إلى أن تعجيل الخير من

لدُنه .

فليس الاستعجال هنا بمعنى طلب التعجيل لأن المشركين لم يسألوا تعجيل الخير ولا سألوه فحصل ، بل هو بمعنى التعجل الكثير ، كما في قول سُلْمِيّ بن رَبيعة :

وإذا العذارَى بالدخان تقنَّعت

واستعجلتْ نصب القدور فملت . . .

)

أي تعجلت) ، وهو في هذا الاستعمال مثله في الاستعمال الآخر يتعدى إلى مفعول ، كما في البيت وكما في الحديث " فاستعجلَ الموتَ " .

وانتصب ﴿ استعجالهم ﴾ على المفعولية المطلقة المفيدة للتشبيه ، والعامل فيه ﴿ يُعجل ﴾ .

والمعنى : ولو يعجل الله للناس الشر كما يجعل لهم الخير كثيراً ، فقوله : ﴿ استعجالهم ﴾ مصدر مضاف إلى مفعوله لا إلى فاعله ، وفاعل الاستعجال هو الله تعالى كما دل عليه قوله : ﴿ ولو يعجل الله ﴾ .

والباء في قوله : ﴿ بالخير ﴾ لتأكيد اللصوق ، كالتي في قوله تعالى : ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6] .

وأصله : استعجالهم الخير ، فدلَّت المبالغة بالسين والتاء وتأكيد اللصوق على الامتنان بأن

الخير لهم كثير ومكين .

وقد كثر اقتران مفعول فعل الاستعجال بهذه الباء ولم ينبهوا عليه في مواقعه المتعددة .

وسيجيء في النحل .

(211/358)

وقد جعل جواب (لو) قوله : ﴿ لقضي إليهم أجلهم ﴾ ، وشأن جواب (لو) أن يكون في حيز الامتناع ، أي وذلك ممتنع لأن الله قدَّر لآجال انقراضهم ميقاتاً معيَّناً ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ [الحجر : 5] .

والقضاء : التقدير .

والأجل : المدة المعينة لبقاء قوم .

والمعنى : لقضي إليهم حلول أجلهم .

ولما ضمن (قضي) معنى بَلَغ ووصل عدي بـ (إلى) .

فهذا وجه تفسير الآية وسر نظمها ، ولا يلتفت إلى غيره في فهمها .

وهذا المعنى مثل معنى ﴿ قُل لو أن عندي ما تستعجلون به لقُضي الأمر بيني وبينكم ﴾ في سورة [الأنعام : 58] .

وجملة : ﴿ فنذر الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ الخ مفرعة على جملة ﴿ ولو يعجل الله للناس ﴾ إلى آخرها .

وقرأ الجمهور ﴿ لقضي ﴾ بالبناء للنائب ورفعِ ﴿ أجلهم ﴾ على أنه نائب الفاعل .

وقرأه ابن عامر ويعقوب بفتح القاف والضاد ونصب ﴿ أجلهم ﴾ على أن في (قضي) ضميراً عائداً إلى اسم الجلالة في قوله : ﴿ ولو يجعل الله للناس الشر ﴾ الخ .

وجملة : ﴿ فنذر الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ مفرعة على جملة (لو) وجوابها المفيدة انتفاء أن يعجل الله للناس الشر بانتفاء لازمه وهو بلوغ أجلهم إليهم ، أي فإذا انتفى التعجيل فنحن نذر الذين لا يرجون لقاءنا يعمهون ، أي نتركهم في مدة تأخير العذاب عنهم متلبسين بطغيانهم ، أي فرطِ تكبرهم وتعاظمهم .

والعمه : عدم البصر .

وإنما لم ينصب الفعل بعد الفاء لأن النصب يكون في جواب النفي المحْض ، وأما النفي المستفاد من (لو) فحاصل بالتضمن ، ولأن شأن جواب النفي أن يكون مسبباً على المنفي لا على النفي ، والتفريع هنا على مستفاد من النفي .

وأما المنفي فهو تعجيل الشر فهو لا يُسبب أن يترك الكافرين يعمهون ، وبذلك تعرف أن قوله : ﴿ فنذر ﴾ ليس معطوفاً على كلام مقدر وإنما التقديرُ تقدير معنى لا تقدير إعراب ، أي فنترك المنكرين للبعث في ضلالهم استدراجاً لهم .

(212/358)

وقوله : ﴿ في طغيانهم يعمهون ﴾ تقدم نظيره في قوله : ﴿ ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾ في سورة [البقرة : 15] .

والطغيان : الكفر .

والإتيان بالموصولية في تعريف الكافرين للدلالة على أن الطغيان أشده إنكارهم البعث ، ولأنه صار كالعلامة عليهم كما تقدم آنفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(213/358)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾

وهذه الآية تتناول قضية عقدية قد تكون شُغُل الناس الشاغل في الدعاء لله تعالى ، وقد لا يُجاب دعاؤهم مع كثرة الدعاء ، ويُحزنهم على أنفسهم ويقول الواحد منهم : لماذا لا يقبل

الله دعائي ؟ أو يقع بعضهم في اليأس .

ونقول لكل إنسان من هذا الفريق : لا ، أنت تدعو ، مرة تدعو بالشر ومرة تدعو بالخير ، فلو أن الله سبحانه وتعالى قد أجابك في جميع الدعاء ، فسوف يجيب دعاءك في الشر ودعاءك في الخير ، ولو أن الله سبحانه وتعالى عجَّل لك دعاء الشر ، كما تحب أن يُعجَّل لك دعاء الخير ، لَقُضِي إليك أجلك وانتهت المسألة ، وهناك من قالوا : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] .

ولو استجاب الحق لمثل هذا الدعاء ، لكان وبالاً على مَنْ دعوا ذلك الدعاء .

إذن : فمن مصلحتك حين تدعو على نفسك أو تدعو بأي وبال ألا يجيبك الله تعالى ، وافهم أن لله تعالى حكمة في الإجابة ؛ لأنه سبحانه وتعالى مُنزَّه عن أن يكون موظفاً عند الخلق ، ومَن يدعُهُ بشيء يجبه عليه ، بل لا بد من مشيئته سبحانه في تقرير لون الإجابة ؛ لأنه لو كان الأمر عكس ذلك لانتقلت الألوهية للعبد .

لقد صان الحق سبحانه عباده بوضع رقابة على الدعاء ؛ وأنت تعتقد أن دعاءك بالخير ، ولكن رقابة الحق سبحانه التي تعلم كل شيء أزلاً تكاد أن تقول لك : لا ، ليس خيراً .

وانتظر الخير بعدم استجابة دعائك ؛ لأنه القائل سبحانه : ﴿ وعسى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وعسى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ . . . ﴾ [البقرة : 216] .

إذن : فمعرفتك ليست نهائية في تقرير الخير والشر ؛ لذلك دَعِ الإلهَ الأعلى – وهو المأمون عليك – أن يستجيب أو لا يستجيب لما تدعوه وأنت في ظنك أنه الخير ، فالمعرفة العليا هي التي تفرق بين الخير والشر ، وفي المنع – أحياناً – عين العطاء ؛ ولذلك يقول الحق : ﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ [الإسراء : 11] .

وقد تلحّ في دعاء لو استجيب لك ؛ لكان شرّاً . والله سبحانه يعلم ما هو الخير لك ، وهو سبحانه يجيب أحياناً بعض خلقه في أشياء كان الإنسان منهم يتمنى أن توجد ، ثم يكتشف الإنسان أنها لم تكن خيراً ، وأحياناً يأتي لك بأشياء كنت تظن أنها شر لك ، فتجد فيها الخير . وهكذا يصحّح لك الحق سبحانه بحكمته تصرفاتك الاختيارية .

وقد قال الكافرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] .

ومن قالوا هذا القول هم : العاص بن وائل السهمي ، والوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد المطلب والأسود بن عبد يهود ، وكانوا قد وصلوا إلى قمة الاضطراب ؛ فهم قد اضطربوا أولاً حين اتهموه بأنه ساحر ، ولم ينتبهوا إلى غباء ما يقولون ؛ لأنه إن كان لرسول الله صلى

الله عليه وسلم قدرة السحر ؛ فلماذا لم يسحرهم هم ليؤمنوا أيضاً ؟

واضطربوا مرة ثانية ، وحاولوا أن يقولوا : إن القرآن شعر ، أو له طبيعة الشعر والكلام المسجوع ، والقرآن ليس كذلك .

(215/358)

ولو أن جماعة غيرهم قالت مثل هذا القول لكان لهم عذرهم لأنهم ليسوا أهل لغة ، أما هؤلاء فهم قوم أهل دُرْبة على الفصاحة والبلاغة ، وكانوا يعقدون أسواق الشعر والخطابة ، ثم اضطربوا مرة ثالثة ، وحاولوا الطعن في مكانه محمد صلى الله عليه وسلم وهم يُقرّون بعظمة القرآن ؛ فقالوا : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] .

والحق سبحانه وتعالى حينما يتعرض لحادثة وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم مع الكافرين ؛ لا يقتصر في الحدث على ما وقع ، ولكنه يعالج قضية عامة كونية إلى أن تقوم الساعة ، ويجعل الحدث الحاصل في زمنه سبباً فقط ؛ ليعطي عموم الحكم في كل زمان وفي كل مكان . وإلا اقتصر الأمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد جاء القرآن للناس كافة ، وجاء للزمان عامة ، فلا بد أن تكون القضية المعروضة – أيّ قضية – أمام

رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوم عاصروه لها سبب خاص ، ولكن العبرة بعموم الموضوع لا بخصوص السبب .

ويعالج الله سبحانه وتعالى في هذه المسألة الشخصية من هؤلاء الذين قالوا ذلك قضيةً كونيةً ستظل إلى أن تقوم الساعة .

فقد دَعَوْا على أنفسهم : ﴿ إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] .

كما قال قوم عاد لهود : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ الله وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الأعراف : 70] .

إذن : هم قد دعوا بشرٍّ على أنفسهم .

(216/358)

ويعالج الله قضية الدعاء بالخير أو الدعاء بالشرّ ، لأن الإنسان قد يضيق ذَرْعاً بأمور تحيط بذاته أو بالمحيط به ؛ فإذا ضاق ذرعاً بأمور تحيط به في ذاته من ألم كمرض – مثلاً ، أو عاهة لا يقوى على الصبر عليها ، أو لا يقوى على تحمّلها ؛ فيقول : " يا رب ، أرحني يا رب " ، وهو هنا يدعو على نفسه بالموت . فلو أن الله سبحانه وتعالى استجاب دعاءه

لَقُضيت المسألة .

ولكن الله هو الحكيم العزيز ، لا يأتمر بأمر أحد من خلقه ، ولا يعجل بعَجَلة العباد ، وكما يؤجل لك استجابته لدعوة الخير منك ، فهو يؤجل أيضاً إجابتك لدعوة الشرّ منك على نفسك ؛ وفي ذلك رحمة منه سبحانه .

وإذا كنت تقول : أنا أدعو بالخير ، والله سبحانه وتعالى لا يعطيني ، فخذ مقابلها : أنك تدعو بالشرّ على نفسك ، ولا يجيبك الله .

ثم ألا يضيق الأب أحياناً ذَرْعاً بمن حوله ، فيقول : فليأخذني الله ؛ لأستريح من وجوهكم ؟ هَبْ أن الله سبحانه أجابه إلى هذه الدعوة ، فماذا يكون الموقف ؟ وقد تجد من يقول : يا رب أصبني بالعمى فلا أراهم ، أو تدعو المرأة على نفسها أو على أولادها .

وأنتم تحبون أن يجيب الله تعالى دعاءكم ، فلو كان يجيبكم على دعاء الشرّ لانتهت حياتكم إلى الفزع ، مثل هذه الأم التي تدعو بالمتناقضات فتقول لولدها – مثلاً : " ربنا يسقيني نارك " فتطلب السُّقيا بالنار ، رغم أن السُّقيا للرِّي ، والنار للحرارة .

إذن : قد يضيق الإنسان ذرعاً بنفسه ، أو يضيق ذرعاً بمن حوله ؛ فيدعو على نفسه بالشرّ ، وحين يدعو الإنسان فيجب عليه أن ينزّه الحق سبحانه تعالى عن أن ينفذ ما يدعو العبد به دون أن يمر الدعاء على حكمته سبحانه وتعالى .

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ ، فكما قبلتم أن يؤجل الله تعالى لكم دعاء الشر على أنفسكم ؛ فاقبلوا منه تأجيل دعائكم بالخير ؛ لأن الخير فيما تطلبون غير الخير فيما يعلم الله ؛ فهو العليم الخبير . وقد تطلب خيراً تعلمه ولكن الله يعلم فيه شراً ؛ فمن مصلحتك ألا يجيبك . وكما تحترم عدم إجابته لك في الشر على نفسك ، أو على من تحب ، فاحترم عدم إجابته لك فيما تظنه خيراً لك ، أو لمن تحب ؛ لأن الله لا يعجل بعجله عباده ؛ لأنه سبحانه هو الذي خلقهم ، وهو أعلم بهم ، فهو القائل : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ . . . ﴾ [الأنبياء : 37] .

وهو سبحانه القائل : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء : 37] .

والحق سبحانه لو استجاب لهؤلاء الذين دعوا : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً . . . ﴾ [الأنفال : 32] .

لكانت نهايتهم بجنس ما دعوا به ، وقُضي عليهم ، ثم انتهوا بعد ذلك إلى عذاب الجحيم . ولكن الحق سبحانه شاء لهم البقاء ؛ ليؤمن من يختار الإيمان ، أما من اختار الكفر ؛ فعليه أن يتحمّل تبعة الطغيان التي تتمثل في أن الواحد منهم لا يختار الكفر فقط ، بل يتجاوز الحد ، ويطلب ممن آمن أن يرتد عن إيمانه ، وفي ذلك مجاوزة للحد ؛ ولذلك فهم يعمهون في هذا الطغيان ، أي : تتكاثر عليهم الظروف ، ويثبت – لهم ولمن بعدهم – عجز الكفر عن

مواجهة قدرة الحق .

وفي الحياة أمثلة – ولله المثل الأعلى – فهناك من يملك عدوه ، فيضربه ؛ لكنه لا يقتله ، ثم يتكرر من هذا الخصم الإساءة ، فيضربه من جديد ، ثم تتكرر الإساءة فيضربه ، وهو لا يقتله أبداً ليداوم على إذلاله ، والقويّ لا يقتل خصمه ، بل يؤلمه ؛ فلا يرفع الخصم رأسه .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَنَذَرُ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

(218/358)

أي : أن الحق سبحانه يترك أهل الباطل ؛ لتتجمع عليهم سيئاتهم ، ويذوقون ويل خصومة الإسلام فلا يرفعون رءوسهم ؛ لأن أهل الإسلام يردّون لهم الإساءة مضاعفة ، ولسوف ييأس أهل الباطل من أنهم سينتصرون على الحق بأي شكل وبأي لون .

وهم مهما تحايلوا في أساليب النكاية في الإسلام ، تجد الحق سبحانه وتعالى ينصر المسلمين .

والمثل أمامنا من سيرته حين أمره الحق سبحانه بأنه يهاجر ، وكان الكفار يحاصرون بيته بشباب من القبائل ، فخرج صلى الله عليه وسلم ولم يشعروا ، وقال صلى الله عليه وسلم :

" شاهت الوجوه " .

وشاء سبحانه ذلك ؛ ليعلموا أنهم لن يستطيعوا الانتصار على محمد صلى الله عليه وسلم ، لا بالمواجهة ، ولا بتبييت المكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(219/358)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير ﴾ قال : هو قول إنسان لولده وماله إذا غضب عليه : اللهمَّ لا تبارك فيه والعنه ﴿ لقضي إليهم أجلهم ﴾ قال : لأهلك من دعا عليه ولأماته .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير ﴾ قال : قول الرجل للرجل : اللهمَّ اخزه اللهمَّ العنه ، قال : وهو يحب أن يستجاب له كما يحب

اللهمَّ اغفر له اللهمَّ ارحمه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(220/358)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ﴾ : هذا الامتناعُ نفي في المعنى تقديره : لا يُعَجِّلُ لهم الشرَّ .

قال الزمخشري : " فإن قلت : كيفَ اتَّصل به قولُه : " فَنَذَرُ الذين لا يَرْجُون لقاءَنا وما معناه ؟ قلت : قولُه : " ولو يُعَجِّل " متضمِّنٌ معنى نفي التعجيل كأنه قيل : ولا نُعَجِّل لهم بالشرِّ ولا نَقْضي إليهم أجلَهم " .

قوله : ﴿ استعجالهم ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه منصوبٌ على المصدرِ التشبيهيِّ تقديرُه : استعجالاً مثلَ استعجالِهم ، ثم حَذَفَ الموصوفَ وهو " استعجال " وأقامَ صفتَه مُقامه وهي " مثل " فبقي : ولو يعجل اللَّهُ مثل استعجالِهم ، ثم حَذَفَ المضافَ وأقام

المُضاف إليه مُقامه . قال مكي : " وهذا مذهبُ سيبويه " قلت : وقد تقدَّم غيرَ مرةٍ أن مذهبَ سيبويه في مثل هذا أنه منصوبٌ على الحالِ من ذلك المصدرِ المقدَّرِ ، وإن كان مشهورُ أقوالِ المُعْرِبين غيرَه ، ففي نسبةِ ما ذكرته أولاً لسيبويه نظرٌ .

الثاني : أن تقديرَه : تعجيلاً مثلَ استعجالهم ، ثم فُعِل به ما تقدَّم قبلَه . وهذا تقديرُ أبي البقاء ، فقدَّر المحذوف مطابقاً للفعل الذي قبلَه ، فإنَّ " تعجيلاً " مصدر ل " عَجَّل " وما ذكره مكي موافقٌ للمصدر الذي بعده ، والذي يظهر ما قدَّره أو البقاء لأن موافقةَ الفعلِ أولى ، ويكون قد شبَّه تعجيلَه تعالى باستعجالهم ، بخلاف ما قدَّره مكي فإنه لا يظهر ، إذ ليس " استعجال " مصدراً ل " عجَّل " .

(221/358)

وقال الزمخشري : أصلُه : ولو يُعَجِّل اللهُ للناسِ الشرَّ تعجيلَه لهم الخير ، فوضع " استعجالهم بالخير " موضعَ " تعجيله لهم الخيرَ " إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافِه بطلبهم ، كأنَّ استعجالَهم بالخير تعجيلٌ لهم " . قال الشيخ : " ومدلولُ " عَجَّل " غيرُ مدلولِ " استعجل " لأنَّ " عَجَّل " يدلُّ على الوقوع ، و " استعجل " يدلُّ على طلب التعجيل ، وذلك واقعٌ من الله ، وهذا مضافٌ إليهم ، فلا يكون التقدير على ما قاله الزمخشري ،

فيحتمل وجهين ، أحدهما : أن يكون التقدير : تعجيلاً مثل استعجالهم بالخير ، فشبَّه التعجيلَ بالاستعجال ؛ لأن طلبَهم [للخير] ووقوعَ تعجيله مقدَّمٌ عندهم على كل شيء .

والثاني : أن يكون ثَمَّ محذوفٌ يدلُّ عليه المصدرُ تقديرُه : ولو يعجِّل اللَّهُ للناسِ الشرَّ إذا استعجلوا به استعجالَهم بالخير ، لأنهم كانوا يستعجلون بالشرِّ ووقوعِه على سبيل التهكم كما كانوا يستعجلون بالخير " . الثالث : أنه منصوبٌ على إسقاط كافِ التشبيهِ ، والتقدير : كاستعجالهم . قال أبو البقاء . " وهو بعيدٌ ، إذ لو جاز ذلك لجاز " زيد غلامَ عمرو " أي : كغلام عمرو " وبهذا ضَعَّفه جماعةٌ وليس بتضعيفٍ صحيحٍ ، إذ ليس في المثال الذي ذكر فعلٌ يتعدى بنفسه عند حذف الجار ، وفي الآيةِ فعلٌ يَصِحُّ فيه ذلك وهو قوله "يُعَجِّل " .

وقال مكي : " وَيَلْزَمُ مَنْ يُجَوِّز حَذْفَ حرفِ الجر منه أن يجيز " زيدُ الأسدُ " أي : كالأسدِ " قلت : قوله " ويلزم إلى آخره " لا ردَّ فيه على هذا القائل إذ يلتزمه ، وهو التزام صحيح سائغ ، إذ لا ينكر أحد " زيد الأسدُ " على معنى "كالأسد " ، وعلى تقدير التسليمِ فالفرقُ ما ذكره أبو البقاء أي : إن الفعل يطلب مصدراً مشبَّهاً فصار مدلولاً عليه . وقال بعضهم : تقديره : في استعجالهم ، نقله مكي ، فلمَّا حُذِفت " في " انتصبَ ، وهذا لا معنى له .

(222/358)

قوله : ﴿ لَقُضِيَ ﴾ / قرأ ابن عامر " لقضى " بفتح الفاء والعين مبنياً للفاعل وهو الله تعالى ، " أجلهم " نصباً . والباقون " لقُضِيَ " بالضم والكسر مبنياً للمفعول ، " أَجَلُهم " رفعاً لقيامِه مقامَ الفاعل . وقرأ الأعمش " لقَضَيْنا " مسنداً لضمير المعظِّم نفسَه ، وهي مؤيدةٌ لقراءةِ ابن عامر .

قوله : ﴿ فَنَذَرُ ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه معطوفٌ على قوله ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ الله ﴾ على معنى أنه في قوة النفي ، وقد تقدَّم تحقيقُ ذلك في سؤال الزمخشري وجوابِه فيه . إلا أن أبا البقاء ردَّ عطفه على "يُعَجِّل " فقال : " ولا يجوز أن يكونَ معطوفاً على "يُعَجِّل " إذ لو كان كذلك لدَخَلَ في الامتناع الذي تقتضيه " لو " وليس كذلك ، لأنَّ التعجيلَ لم يقع ، وتَرْكَهم في طغيانهم وقع " . قلت : إنما يَتمُّ هذا الردُّ لو كان معطوفاً على "يُعَجِّل " فقط باقياً على معناه ، وقد تقدَّم أن الكلامَ صار في قوةِ ﴿ لا نعجِّل لهم الشرَّ فَنَذَرُهم ﴾ فيكون " فَنَذَرُهم " معطوفاً على جملة النفي لا على الفعلِ الممتنع وحدَه حتى يلزمَ ما قال . والثاني : أنه معطوفٌ على جملةٍ مقدرة : " ولكن نُمْهِلُهم فَنَذَرُ " قاله أبو البقاء . والثالث : أن تكون جملةً مستأنفةً ، أي : فنحن نَذَرُ الذين . قاله الحوفي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 157.159 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11) ﴾

أي لو أَجبناهم إذا دعوا على أنفسهم عند غيظهم وضَجَرِهم لعَجلَّنا إهلاَكهم ، ولكن تَحَمَّلْنَا ألا نُجيبَهم ، وبرحمتنا عليهم لا نسمع منهم دعاءَهم ، وربما يشكو العبدُ بأنّ الربَّ لا يجيب دُعاءه ، ولو عَلِمَ أنه تَرَكَ إجابَتَهُ لُطْفاً منه وأَنَّ في ذلك بلاءً لو أجابه ، كما قيل :

أُناسٌ أعرضوا عنَّا . . . بلا جُرْمٍ ولا معنى

أساءوا ظنَّهم فينا . . . فهلاَّ أحسنوا الظنَّا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 82.83 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين تعالى أن دأبهم استعجالهم بالخير ، وكان منه استكشاف الضر ، بينَ أن حالهم عنده الاعتراف ، وشكرهم على النجاة منه الإنكار فدأبهم الطغيان والعمه ، وذلك في غاية المنافاة لما يدعونه من رجاحة العقول وإصالة الآراء وسلامة الطباع ، فالحاصل أن الانسان عند البلاء غير صابر ، وعند الرجاء غير شاكر ، فكأنه قيل : فإذا مس الإنسان منهم الخير كان في غفلة بالفرح والأشر والمرح ﴿ وإذا مسَّ الإنسان ﴾ منهم ﴿ الضر ﴾ وإن كان من جهة يتوقعها لطغيان هو فيه ولا ينزع عنه خوفاً مما يتوقعه من حلول الضر لشدة طغيانه وجهله ﴿ دعانا ﴾ مخلصاً معترفاً بحقنا عالماً بما لنا من كمال العظمة عاملاً بذلك معرضاً عما ادعاه شريكاً لنا كائناً ﴿ لجنبه ﴾ أي مضطجعاً حال إرادته للراحة ، وكأنه عبر باللام إشارة إلى أن ذلك أسر أحواله إليه ﴿ أو قاعداً ﴾ أي متوسطاً في أحواله ﴿ أو قائماً ﴾ أي في غاية السعي في مهماته ، لا يشغله عن ذلك شيء في حال من الأحوال ، بل يكون ظرف المس بالضر ظرف الدعاء بالكشف ، ويجوز أن يكون عبر بالأحوال الثلاثة عن مراتب الضر ، وقال : لجنبه ، إشارة إلى استحكام الضر وغلبته بحيث لا يستطيع

جلوساً كما يقال : فلان لما به ، وأشار بالفاء إلى قرب زمن الكشف فقال : ﴿ فلما كشفنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ عنه ضره ﴾ أي الذي دعانا لأجله ﴿ مرّ ﴾ أي في كل ما يريده لاهياً عنا بكل اعتبار ﴿ كأن ﴾ أي كأنه ﴿ لم يدعنا ﴾ أي على ما كان يعترف به وقت الدعاء من عظمتنا ؛ ولما كان المدعو يأتي إلى الداعي فيعمل ما دعاه لأجله قال : ﴿ إلى ﴾ أي كشف ﴿ ضر مسه ﴾ أي كأن لم يكن له بنا معرفة أصلاً فضلاً عن أن يعترف بأنا نحن كشفنا عنه ضره ، فهذه الآية في بيان ضعف الإنسان وسوء عبوديته ، والتي قبلها في بيان قدرة الله وحسن ربوبيته ؛ والمسُ : لقاء من غير فصل ؛ والدعاء : طلب الفعل من القادر عليه ؛ والضر : إيجاب الألم بفعله أو السبب المؤدي إليه .

(225/358)

ولما كان هذا من فعل الإنسان من أعجب العجب .

كان كأنه قيل : لم يفعل ذلك ؟ فقيل : لما يزين له من الأمور التي يقع بها الاستدراج لإسرافه . وهذا دأبنا أبداً ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا التزيين العظيم الرتبة ؛ ولما كان الضار مطلق التزيين ، بنى للمفعول قوله : ﴿ زين للمسرفين ﴾ أي كلهم العريقين في هذا الوصف ﴿ ما كانوا ﴾ أي بجبلاتهم ﴿ يعملون ﴾ أي يقبلون عليه على سبيل التجديد والاستمرار من

المعصية بالكفر وغيره مع ظهور فساده ووضوح ضرره ؛ والإسراف : الإكثار من الخروج عن العدل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 423 ﴾

(226/358)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في كيفية النظم وجهان : الأول : أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أنه لو أنزل العذاب على العبد في الدنيا لهلك ولقضى عليه ، فبين في هذه الآية ما يدل على غاية ضعفه ونهاية عجزه ، ليكون ذلك مؤكداً لما ذكره من أنه لو أنزل عليه العذاب لمات .

الثاني : أنه تعالى حكى عنهم أنهم يستعجلون في نزول العذاب ، ثم بين في هذه الآية أنهم كاذبون في ذلك الطلب والاستعجال ، لأنه لو نزل بالإنسان أدنى شيء يكرهه ويؤذيه ، فإنه يتضرع إلى الله تعالى في إزالته عنه وفي دفعه عنه وذلك يدل على أنه ليس صادقاً في هذا

الطلب .

المسألة الثانية :

المقصود من هذه الآية ، بيان أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء ، قليل الشكر عند وجدان النعماء والآلاء ، فإذا مسه الضر أقبل على التضرع والدعاء مضطجعاً أو قائماً أو قاعداً مجتهداً في ذلك الدعاء طالباً من الله تعالى إزالة تلك المحنة ، وتبديلها بالنعمة والمنحة ، فإذا كشف تعالى عنه ذلك بالعافية أعرض عن الشكر ، ولم يتذكر ذلك الضر ولم يعرف قدر الإنعام ، وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالى لكشف ضره ، وذلك يدل على ضعف طبيعة الإنسان وشدة استيلاء الغفلة والشهوة عليه ، وإنما ذكر الله تعالى ذلك تنبيهاً على أن هذه الطريقة مذمومة ، بل الواجب على الإنسان العاقل أن يكون صابراً عند نزول البلاء شاكراً عند الفوز بالنعماء ، ومن شأنه أن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية .

حتى يكون مجاب الدعوة في وقت المحنة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من سره أن يستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء عند الرخاء "

واعلم أن المؤمن إذا ابتلي ببلية ومحنة ، وجب عليه رعاية أمور : فأولها : أن يكون راضياً بقضاء الله تعالى غير معترض بالقلب واللسان عليه .

وإنما وجب عليه ذلك لأنه تعالى مالك على الإطلاق وملك بالاستحقاق .

فله أن يفعل في ملكه وملكه ما شاء كما يشاء ، ولأنه تعالى حكيم على الإطلاق وهو منزه عن فعل الباطل والعبث ، فكل ما فعله فهو حكمة وصواب ، وإذا كان كذلك فحينئذ يعلم أنه تعالى إن أبقى عليه تلك المحنة فهو عدل ، وإن أزالها عنه فهو فضل ، وحينئذ يجب عليه الصبر والسكوت وترك القلق والاضطراب .

وثانيها : أنه في ذلك الوقت إن اشتغل بذكر الله تعالى والثناء عليه بدلاً عن الدعاء كان أفضل ، لقوله عليه السلام حكاية عن رب العزة " من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين " ولأن الاشتغال بالذكر اشتغال بالحق ، والاشتغال بالدعاء اشتغال بطلب حظ النفس ، ولا شك أن الأول أفضل ، ثم إن اشتغل بالدعاء وجب أن يشترط فيه أن يكون إزالته صلاحاً في الدين ، وبالجملة فإنه يجب أن يكون الدين راجحاً عنده على الدنيا .

وثالثها : أنه سبحانه إذا أزال عنه تلك البلية فإنه يجب عليه أن يبالغ في الشكر وأن لا يخلو عن ذلك الشكر في السراء والضراء ، وأحوال الشدة والرخاء ، فهذا هو الطريق الصحيح عند نزول البلاء .

وههنا مقام آخر أعلى وأفضل مما ذكرناه ، وهو أن أهل التحقيق قالوا : إن من كان في وقت

وجدان النعمة مشغولاً بالنعمة لا بالمنعم كان عند البلية مشغولاً بالبلاء لا بالمبلي ، ومثل هذا الشخص يكون أبداً في البلاء ، أما في وقت البلاء فلا شك أنه يكون في البلاء ، وأما في وقت حصول النعماء فإن خوفه من زوالها يكون أشد أنواع البلاء ، فإن النعمة كلما كانت أكمل وألذ وأقوى وأفضل ، كان خوف زوالها أشد إيذاء وأقوى إيحاشاً ، فثبت أن من كان مشغولاً بالنعمة كان أبداً في لجة البلية .

أما من كان في وقت النعمة مشغولاً بالمنعم ، لزم أن يكون في وقت البلاء مشغولاً بالمبلي .

(228/358)

وإذا كان المنعم والمبلي واحداً ، كان نظره أبداً على مطلوب واحد ، وكان مطلوبه منزهاً عن التغير مقدساً عن التبدل ومن كان كذلك كان في وقت البلاء وفي وقت النعماء ، غرقاً في بحر السعادات ، واصلاً إلى أقصى الكمالات ، وهذا النوع من البيان بحر لا ساحل له ، ومن أراد أن يصل إليه فليكن من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر .

المسألة الثالثة :

اختلفوا في ﴿ الإنسان ﴾ في قوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر ﴾ فقال بعضهم : إنه الكافر ، ومنهم من بالغ وقال : كل موضع في القرآن ورد فيه ذكر الإنسان ، فالمراد هو الكافر ،

وهذا باطل ، لأن قوله : ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابه بِيَمِينِهِ ﴾ [الانشقاق : 6 ، 7] لا شبهة في أن المؤمن داخل فيه ، وكذلك قوله : ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان حِينٌ مّنَ الدهر ﴾ [الدهر : 1] وقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون : 12] وقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق : 16] فالذي قالوه بعيد ، بل الحق أن نقول : اللفظ المفرد المحلى بالألف واللام حكمه أنه إذا حصل هناك معهود سابق انصرف إليه ، وإن لم يحصل هناك معهود سابق وجب حمله على الاستغراق صوناً له عن الإجمال والتعطيل .

ولفظ ﴿ الإنسان ﴾ ههنا لائق بالكافر ، لأن العمل المذكور لا يليق بالمسلم ألبتة .

المسألة الرابعة :

في قوله : ﴿ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ وجهان :

الوجه الأول : أن المراد منه ذكر أحوال الدعاء فقوله : ﴿ لِجَنبِهِ ﴾ في موضع الحال بدليل عطف الحالين عليه ، والتقدير : دعانا مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً .

فإن قالوا : فما فائدة ذكر هذه الأحوال ؟

قلنا : معناه : إن المضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء إلى أن يزول عنه الضر ، سواء كان مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً .

والوجه الثاني : أن تكون هذه الأحوال الثلاثة تعديداً لأحوال الضر ، والتقدير : وإذا مس الإنسان الضر لجنبه أو قاعداً أو قائماً دعانا وهو قول الزجاج .

والأول : أصح ، لأن ذكر الدعاء أقرب إلى هذه الأحوال من ذكر الضر ، ولأن القول بأن هذه الأحوال أحوال للدعاء يقتضي مبالغة الإنسان في الدعاء ، ثم إذا ترك الدعاء بالكلية وأعرض عنه كان ذلك أعجب .

المسألة الخامسة :

في قوله : ﴿ مَرَّ ﴾ وجوه : الأول : المراد منه أنه مضى على طريقته الأولى / قبل مس الضر ونسي حال الجهد .

الثاني : مر عن موقف الابتهال والتضرع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به .

المسألة السادسة :

قوله تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ تقديره : كأنه لم يدعنا ، ثم أسقط الضمير عنه على سبيل التخفيف ونظيره قوله تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ ﴾ [يونس : 45] قال الحسن : نسي ما دعا الله فيه ، وما صنع الله به في إزالة ذلك البلاء عنه :

المسألة السابعة :

قال صاحب "النظم" : قوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان ﴾ ﴿ إِذَا ﴾ موضوعة للمستقبل .

ثم قال : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا ﴾ وهذا للماضي ، فهذا النظم يدل على أن معنى الآية أنه هكذا كان فيما مضى وهكذا يكون في المستقبل .

فدل ما في الآية من الفعل المستقبل على ما فيه من المعنى المستقبل ، وما فيه من الفعل الماضي على ما فيه من المعنى الماضي ، وأقول البرهان العقلي مساعد على هذا المعنى وذلك لأن الإنسان جبل على الضعف والعجز وقلة الصبر ، وجبل أيضاً على الغرور والبطر والنسيان والتمرد والعتو ، فإذا نزل به البلاء حمله ضعفه وعجزه على كثرة الدعاء والتضرع ، وإظهار الخضوع والانقياد ، وإذا زال البلاء ووقع في الراحة استولى عليه النسيان فنسي إحسان الله تعالى إليه ، ووقع في البغي والطغيان والجحود والكفران . فهذه الأحوال من نتائج طبيعته ولوازم خلقته ، وبالجملة فهؤلاء المساكين معذورون ولا عذر لهم .

المسألة الثامنة :

(230/358)

في قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أبحاث :

البحث الأول : أن هذا المزين هو الله تعالى أو النفس أو الشيطان ، فرع على مسألة الجبر

والقدر وهو معلوم .

البحث الثاني : في بيان السبب الذي لأجله سمى الله سبحانه الكافر مسرفاً .

وفيه وجوه :

الوجه الأول : قال أبو بكر الأصم : الكافر مسرف في نفسه وفي ماله ومضيع لهما ، أما في النفس فلأنه جعلها عبداً للوثن ، وأما في المال فلأنهم كانوا يضيعون أموالهم في البحيرة والسائبة والوصيلة والحام .

الوجه الثاني : قال القاضي : إن من كانت عادته أن يكون عند نزول البلاء كثير التضرع والدعاء ، وعند زوال البلاء ونزول الآلاء معرضاً عن ذكر الله متغافلاً عنه غير مشتغل بشكره ، كان مسرفاً في أمر دينه متجاوزاً للحد في الغفلة عنه ، ولا شبهة في أن المرء كما يكون مسرفاً في الإنفاق فكذلك يكون مسرفاً فيما يتركه من واجب أو يقدم عليه من قبيح ، إذا تجاوز الحد فيه .

الوجه الثالث : وهو الذي خطر بالبال في هذا الوقت ، أن المسرف هو الذي ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس ، ومعلوم أن لذات الدنيا وطيباتها خسيسة جداً في مقابلة سعادات الدار الآخرة .

والله تعالى أعطاه الحواس والعقل والفهم والقدرة لاكتساب تلك السعادات العظيمة ، فمن بذل هذه الآلات الشريفة لأجل أن يفوز بهذه السعادات الجسمانية الخسيسة ، كان قد أنفق

أشياء عظيمة كثيرة ، لأجل أن يفوز بأشياء حقيرة خسيسة ، فوجب أن يكون من المسرفين .

البحث الثالث : الكاف في قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ للتشبيه .

والمعنى : كما زين لهذا الكافر هذا العمل القبيح المنكر زُيِّن للمسرفين ما كانوا يعملون من الإعراض عن الذكر ومتابعة الشهوات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 43.41 ﴾

(231/358)

وقال السمرقندى :

قوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر ﴾

يقول إذا مس الكافر ما يكره من المرض والفقر والبلاء ، ﴿ دَعَانَا ﴾ ؛ يقول أخلص في الدعاء إلينا ﴿ لِجَنبِهِ ﴾ ، يعني : وهو مطروح على جنبه إذا اشتد به المرض ، ﴿ أَوْ قَاعِدًا ﴾ إذا كانت العلة أهون ، ﴿ أَوْ قَائِمًا ﴾ إذا بقي فيه أثر العلة ؛ ويقال دعانا في الأحوال كلها مضطجعاً كان أَوْ قَائِماً أَوْ قَاعِداً .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ ﴾ ، رفعنا عنه بلاءه ، ﴿ مَرَّ ﴾ ؛ يقول : استمر على ترك

الدعاء ونسي الدعاء ؛ ويقال : مرّ في العافية على ما كان عليه قبل أن يبتلى ولم يتعظ بما ناله .

﴿ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ ، يعني : إلى بلاء أصابه قبل ذلك فلم يشكره ؛ ويقال : معناه أَمِنَ من أن يصيبه مثل الضر الذي دعا فيه حين مسّه ﴿ كذلك زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ، يعني : المشركين ﴿ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ، يعني : بالدعاء عند الشدة وترك الدعاء عند الرخاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(232/358)

وقال الثعلبى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ﴾

أصاب ﴿ الإنسان الضر ﴾ الشدة والجهد ﴿ دَعَانَا لِجَنبِهِ ﴾ على جنبه مضطجعاً ﴿ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً ﴾ فإنما يريد جميع حالاته لأن الإنسان لا يعدو أحد هذه الخلال ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا ﴾ رفعنا وفرجنا ﴿ عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ أي استمر على طريقته الأولى ، قيل : أن يصيبه الضرّ ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء وترك الشكر والدعاء ، قال الأخفش : كأن لم يدعُنا وكأن لم يلبثوا وأمثالها ، كأن الثقيلة والشديدة كأنه لم

يدعنا ﴿ كذلك ﴾ أي كما زيّن لهذا الإنسان الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء كذلك ﴿ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ الآية زين الجد في الكفر والمعصية ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر والمعصية والإسراف يكون في النفس ، وفي قراءة : ضيّع نفسه وجعلها عابد وثن وضيع ماله إذ جعله [سائباً بلا خير] ، ومعنى الكلام أسرفوا في عبادتهم وأسرفوا في نفقاتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : أنه إذا مسه الضر دعا ربه في هذه الأحوال .

الثاني : دعا ربه فيكون محمولاً على الدعاء في جميع أحواله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(233/358)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وإذا مسّ الإنسان الضر ﴾ الآية

هذه الآية أيضاً عتاب على سوء الخلق من بعض الناس ، ومضمنه النهي عن مثل هذا والأمر بالتسليم إلى اللع تعالى والضراعة إليه في كل حال والعلم بأن الخير والشر منه لا رب غيره ، وقوله ﴿ لجنبه ﴾ في موضع حال كأنه قال : مضطجعاً ، ويجوز أن يكون حالاً من الإنسان والعامل فيه ﴿ مس ﴾ ، ويجوز أن يكون حالاً من ضمير الفاعل في ﴿ دعانا ﴾ والعامل فيه دعا وهما معنيان متباينان ، و ﴿ الضر ﴾ لفظ لجميع الأمراض ، والرزايا في النفس والمال والأحبة هذا قول اللغويين ، وقيل هو مختص برازيا البدن ، الهزال والمرض ، وقوله ﴿ مر ﴾ يقتضي أن نزولها في الكفار ثم هي بعد تتناول كل من دخل تحت معناها من كافر أو عاص ، فمعنى الآية ﴿ مر ﴾ في إشراكه بالله وقلة توكله عليه ، وقوله ﴿ زين ﴾ إن قدرناه من الله تعالى فهو خلقه الكفر لهم واختراعه في نفوسهم صحبة أعمالهم الفاسدة ومثابرتهم عليها ، وإن قدرنا ذلك من الشيطان فهو بمعنى الوسوسة والمخادعة ، ولفظة التزيين قد جاءت في القرآن بهذين المعنيين من فعل الله تعالى ومرة من فعل الشياطين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(234/358)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإِذا مسَّ الإِنسان الضرُّ ﴾

اختلفوا فيمن نزلت على قولين : أحدهما : أنها نزلت في أبي حذيفة ، واسمه هاشم بن المغيرة بن عبد الله المخزومي ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : أنها نزلت في عتبة بن ربيعة ، والوليد بن المغيرة ، قاله عطاء .

و"الضر" الجهد والشّدة .

واللام في قوله : ﴿ لجنبه ﴾ بمعنى "على" .

وفي معنى الآية قولان : أحدهما : إِذا مسه الضر دعا على جنبه ، أو دعا قاعداً ، أو دعا قائماً ، قاله ابن عباس .

والثاني : إِذا مسه الضر في هذه الأحوال ، دعا ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ فلما كشفنا عنه ضُرَّه مَرَّ ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أعرض عن الدعاء ، قاله مقاتل .

والثاني : مَرَّ في العافية على ما كان عليه قبل أن يُبتلى ، ولم يتَّعظ بما يناله ، قاله الزجاج .

والثالث : مَرَّ طاغياً على ترك الشكر .

قوله تعالى : ﴿ كأن لم يَدْعُنَا ﴾ قال الزجاج : "كأن" هذه مخففة من الثقيلة ، المعنى : كأنه لم يدعنا ، قالت الخنساء :

كَأَنْ لم يكونوا حِمىً يُتَّقَى . . .

إذ النَّاسُ إذْ ذَاكَ مَنْ عَزَّ بَزَّا

قوله تعالى : ﴿ كذلك زُيِّنَ للمسرفين ﴾ المعنى : كما زُيِّن لهذا الكافر الدعاء عند البلاء ، والإعراض عند الرَّخاء ، كذلك زُيِّن للمسرفين ، وهم المجاوزون الحدَّ في الكفر والمعصية ، عملُهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(235/358)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ ﴾

قيل : المراد بالإنسان هنا الكافر ، قيل : هو أبو حذيفة ابن المغيرة المشرك ، تصيبه البأساء والشدّة والجهد .

﴿ دَعَانَا لِجَنبِهِ ﴾ أي على جنبه مضطجعاً .

﴿ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً ﴾ وإنما أراد جميع حالاته ؛ لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات الثلاثة .

قال بعضهم : إنما بدأ بالمضطجع لأنه بالضر أشدّ في غالب الأمر ، فهو يدعو أكثر ،

واجتهاده أشدّ ، ثم القاعد ثم القائم .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ ﴾ أي استمر على كفره ولم يشكر ولم يتّعظ .

قلت : وهذه صفة كثير من المخلطين الموحدين ، إذا أصابته العافية مرّ على ما كان عليه من المعاصي ؛ فالآية تعمّ الكافر وغيره .

﴿ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ ﴾ قال الأخفش : هي "كأنّ" الثقيلة خُفّفت ، والمعنى كأنه ؛ وأنشد :

وَيْ كَأَنْ من يكن له نَشَبٌ يُحْ . . .

بَبْ ومن يفتقر يَعشْ عيش ضُرّ

﴿ كذلك زُيِّنَ ﴾ أي كما زين لهذا الدعاءُ عند البلاء والإعراض عند الرخاء .

﴿ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي للمشركين أعمالهم من الكفر والمعاصي .

وهذا التزيين يجوز أن يكون من الله ، ويجوز أن يكون من الشيطان ، وإضلاله دعاؤه إلى الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(236/358)

وقال الخازن :

﴿ وإذا مس الإنسان الضر ﴾

أي الشدة والجهد والمراد بالإنسان في هذه الآية الكافر ﴿ دعانا لجنبه ﴾ أي على جنبه مضطجعاً ﴿ أو قاعداً أو قائماً ﴾ يريد جميع حالاته لأن الإنسان لا ينفك عن إحدى هذه الحالات الثلاث والمعنى أن المضرور لا يزال داعياً في جميع حالاته إلى أن ينكشف ضره سواء كان مضطجاً أو قائماً أو قاعداً وهذا القول فيه بعد لأن ذكر الدعاء إلى هذه الأحوال أقرب من ذكر الضر ﴿ فلما كشفنا عنه ضره ﴾ يعني فلما أزلنا عنه ما نزل به من الضر ودفعنا عنه ﴿ مر ﴾ يعني على طريقته الأولى قبل مس الضر ﴿ كأن لم يدعنا ﴾ فيه حذف تقديره كأنه لم يدعنا وإنما أسقط الضمير على سبيل التخفيف ﴿ إلى ضر مسه ﴾ والمعنى أنه استمر على حالته الأولى قبل أن يمسه الضر ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء والضيق والفقر ﴿ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ يعني مثل ما زين لهذا الكافر هذا العمل القبيح كذلك زين للمسرفين والمزين هو الله سبحانه وتعالى لأنه مالك الملك والخلق كلهم عبيده يتصرف فيهم كيف يشاء وقيل المزين هو الشيطان وذلك بأقدار الله إياه على ذلك والمسرف هو المجاوز الحد في كل شيء وإنما سمي الكافر مسرفاً لأنه أتلف نفسه ويضعها في عبادة الأصنام وأتلف ماله وضيعه في البحائر والسوائب وما كانوا ينفقونه على الأصنام وسدنتها يعني خدامها .

وقال ابن جريج : في قوله كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون يعني من الدعاء عند المصيبة

وترك الشكر عند الرخاء .

وقيل : كما زين لكم أعمالكم كذلك زين للمسرفين الذين كانوا من قبلكم أعمالهم .

(237/358)

وبيان مقصود الآية أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء قليل الشكر عند حصول النعماء والرخاء فإذا مسه الضر أقبل على الدعاء والتضرع في جميع حالاته مجتهداً في الدعاء طالباً من الله إزالة ما نزل به من المحنة والبلاء فإذا كشف الله ذلك عنه أعرض عن الشكر ورجع إلى ما كان عليه أولاً وهذه حالة الغافل الضعيف اليقين فأما المؤمن العاقل فإنه بخلاف ذلك فيكون صابراً عند البلاء شاكر الله عند الرخاء والنعماء كثير التضرع والدعاء في جميع أوقات الراحة والرفاهية وها هنا مقام أعلى من هذا وهو أن المؤمن إذا ابتلي ببلية أو نزل به مكروه يكون مع صبره على ذلك راضياً بقضاء الله غير معرض بالقلب عنه بل يكونه شاكراً لله في جميع أحواله وليعلم العبد المؤمن أن الله تبارك وتعالى مالك الملك على الإطلاق حكيم في جميع أفعاله وله التصرف في خلقه بما يشاء ويعلم أنه إن أبقاه على تلك المحنة فهو عدل وإن أزالها عنه فهو فضل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ ﴾

المرور : مجاوزة الشيء والعبور عليه ، تقول : مررت بزيد جاوزته .

والمرة : القوة ، ومنه ذو مرة .

ومرر الحبل قواه ، ومنه : "لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي"

﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ : ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما استدعوا حلول الشر بهم ، وأنه تعالى لا يفعل ذلك بطلبهم بل يترك من يرجو لقاءه يعمه في طغيانه ، بيّن شدة افتقار الناس إليه واضطرارهم إلى استمطار إحسانه مسيئهم ومحسنهم ، وأنّ من لا يرجو لقاءه مضطر إليه حاله مس الضر له ، فكل يلجأ إليه حينئذ ويفرده بأنه القادر على كشف الضر .

والظاهر أنه لا يراد بالإنسان هنا شخص معين كما قيل : إنه أبو حذيفة هاشم بن المغيرة بن عبد الله المخزومي قاله : ابن عباس ومقاتل .

وقيل : عقبة بن ربيعة .

وقيل : الوليد بن المغيرة .

وقيل : هما قاله عطاء .

وقيل : النضر بن الحرث ، وأنه لا يراد به الكافر ، بل ، المراد الإنسان من حيث هو ، سواء كان كافراً أم عاصياً بغير الكفر .

واحتملت هذه الأقوال الثلاثة أن تكون لشخص واحد ، واحتملت أن تكون لأشخاص ، إذ الإنسان جنس .

والمعنى : أنّ الذي أصابه الضر لا يزال داعياً ملتجئاً راغباً إلى الله في جميع حالاته كلها .

وابتدأ بالحالة الشاقة وهي اضطجاعه وعجزه عن النهوض ، وهي أعظم في الدعاء وآكد ثم بما يليها ، وهي حالة القعود ، وهي حالة العجز عن القيام ، ثم بما يليها وهي حالة القيام وهي حالة العجز عن المشي ، فتراه يضطرب ولا ينهض للمشي كحالة الشيخ الهرم .

ولجنبه حال أي : مضطجعاً ، ولذلك عطف عليه الحالان ، واللام على بابها عند البصريين والتقدير : ملقياً لجنبه ، لا بمعنى على خلافاً لزاعمه .

(239/358)

وذو الحال الضمير في دعانا ، والعامل فيه دعانا أي : دعانا ملتبساً بأحد هذه الأحوال .

وقال ابن عطية : ويجوز أن يكون حالاً من الإنسان ، والعامل فيه مس .

ويجوز أن يكون حالاً من الفاعل في دعانا ، والعامل فيه دعا وهما معنيان متباينان .

والضر : لفظ عام لجميع الأمراض .

والرزايا في النفس والمال والأحبة ، هذا قول اللغويين .

وقيل : هو مختص برزايا البدن الهزال والمرض انتهى .

والقول الأول قول الزجاج .

وضعف أبو البقاء أن يكون لجنبه فما بعده أحوالاً من الإنسان والعامل فيها مس ، قال : لأمرين : أحدهما : أنّ الحال على هذا واقع بعد جواب إذا وليس بالوجه .

والثاني : أنّ المعنى كثرة دعائه في كل أحواله ، لا على الضر يصيبه في كل أحواله ، وعليه آيات كثيرة في القرآن انتهى .

وهذه الثاني يلزم فيه من مسه الضر في هذه الأحوال دعاؤه في هذه الأحوال ، لأنه جواب ما ذكرت فيه هذه الأحوال ، فالقيد في حيز الشرط قيد في الجواب كما تقول : إذا جاءنا زيد فقيراً أحسنا إليه ، فالمعنى : أحسنا إليه في حال فقره ، فالقيد في الشرط قيد في الجزاء .

ومعنى كشف الضر : رفعه وإزالته ، كأنه كان غطاء على الإنسان ساتراً له .

وقال صاحب النظم : وإذا مس الإنسان وصفه للمستقبل ، وفلما كشفنا للماضي فهذا

النظم يدل على أن معنى الآية : أنه هكذا كان فيما مضى وهكذا يكون في المستقبل ، فدل ما في الآية من الفعل المستقبل على ما فيه من المعنى المستقبل ، وما فيه من الفعل الماضي على ما فيه من المعنى الماضي انتهى .

والمرور هنا مجاز عن المضي على طريقته الأول من غير ذكر لما كان عليه من البلاء والضر .

وقال مقاتل : أعرض عن الدعاء .

وقيل : مرّ عن موقف الابتهال والتضرع لا يرجع إليه ، كأنه لا عهد له به ، وهذا قريب من القول الذي قبله .

والجملة من قوله : كان لم يدعنا إلى ضر مسه في موضع الحال ، أي إلى كشف ضر مسه .

(240/358)

قال ابن عطية : وقوله مر ، يقتضي أنّ نزولها في الكفار ، ثم هي بعد تتناول كل من دخل تحت معناها من كافر وعاص يعني الآية مر في إشراكه بالله وقلة توكله عليه انتهى .

والكاف من كذلك في موضع نصب أي : مثل ذلك .

وذلك إشارة إلى تزيين الإعراض عن الابتهال إلى الله تعالى عند كشف الضر وعدم شكره وذكره على ذلك ، وزين مبني للمفعول ، فاحتمل أن يكون الفاعل الله إمّا على سبيل خلق

ذلك واختراعه في قلوبهم كما يقول أهل السنة ، وإما بتخليته وخذلانه كما تقول المعتزلة ، أو الشيطان بوسوسته ومخادعته .

قيل : أو النفس .

وفسر المسرفون بالكافرين والكافر مسرف لتضييعه السعادة الأبدية بالشهوة الخسيسة المنقضية ، كما يضيع المنفق ماله متجاوزاً فيه الحدَّ ما كانوا يعملون من الإعراض عن جناب الله وعن اتباع الشهوات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(241/358)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر ﴾

أي أصابه جنسُ الضرِّ من مرض وفقرٍ وغيرِهما من الشدائد إصابةً يسيرة ﴿ دَعَانَا ﴾ لكشفه وإزالتِه ﴿ لِجَنبِهِ ﴾ حالٌ من فاعل دعا بشهادة ما عُطف عليه من الحالين واللام بمعنى على كما في قوله تعالى : ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ ﴾ أي دعانا كائناً على جنبه أي مضطجعاً ﴿ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ أي في جميع الأحوالِ مما ذُكر وما لم يذكر ، وتخصيصُ المعدوداتِ بالذكر لعدم خلوِّ الإنسانِ عنها عادةً أو دعانا في جميع أحوالِ مرضِه على أنه

المرادُ بالضر خاصة مُضجَعاً عاجزاً عن القعود وقاعداً غيرَ قادرٍ على النهوض وقائماً لا يستطيع الحَراك ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ ﴾ الذي مسه غِبَّ ما دعانا حسبما ينبىء عنه الفاء ﴿ مَرَّ ﴾ أي مضى واستمرَّ على طريقته التي كان ينتحيها قبل مساسِ الضرِّ ونسيَ حالةَ الجَهْدِ والبلاءِ ، أو مر عن موقف الضراعةِ والابتهالِ ونأى بجانبه ﴿ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا ﴾ أي كأنه لم يدعُنا فخُفف وحُذف ضميرُ الشأن كما في قوله :

(242/358)

كأنْ لم يكن بين الحَجون إلى الصفا . . . والجملةُ التشبيهيةُ في محل النصبِ على الحالية من فاعل مرّ أي مرّ مشبَّهاً بمن لم يدْعنا ﴿ إِلَىٰ ضُرٍّ ﴾ أي إلى كشف ضرَ ﴿ مَسَّهُ ﴾ وهذا وصفٌ للجنس باعتبار حال بعضِ أفرادِه ممن هو متصفٌ بهذه الصفات ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ نصبٌ على المصدرية وذلك إشارةٌ إلى مصدر الفعلِ الآتي ، وما فيه من معنى البعدِ للتفخيم والكافُ مقحَمةٌ للدلالة على زيادة فخامةِ المشارِ إليه إقحاماً لا يكاد يُترَك في لغة العرب ولا في غيرها ومن ذلك قولهم : مثلُك لا يَبخلُ مكان أنت لا تبخل أي مثلَ ذلك التزيينِ العجيب ﴿ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي للموصوفين بما ذكر من الصفات الذميمةِ وإسرافُهم لما إن الله تعالى إنما أعطاهم القُوى والمشاعرَ ليصرِفوها إلى مصارفها ويستعملوها فيما

خُلقت له من العلوم والأعمالِ الصالحة ، فلما صرفوها إلى ما لا ينبغي وهي رأسُ مالِهم فقد أتلفوها وأسرفوا إسرافاً ظاهراً ، والتزيينُ إما من جهة الله سبحانه على طريقه التخليةِ والخِذلانِ أو من الشيطان بالوسوسة والتسويل ﴿ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من الاعراض عن الذكر والدعاءِ والانهماكِ في الشهوات ، وتعلقُ الآيةِ الكريمة بما قبلها من حيث إن في كل منهما إملاءً للكفرة على طريقة الاستدراجِ بعد الأنقاذِ من الشر المقدّرِ في الأولى ومن الضرِّ المقررِ في الأخرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(243/358)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ ﴾

أي إذا أصابه جنس الضر من مرض وفقر وغيرهما من الشدائد إصابة يسيرة ، وقيل : مطلقاً ﴿ دَعَانَا ﴾ لكشفه وإزالته ﴿ لِجَنبِهِ ﴾ في موضع الحال ولذا عطف عليه الحال الصريحة أعني قوله سبحانه : ﴿ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ أي دعانا مضطجعاً أو ملقى لجنبه ، واللام على ظاهرها ، وقيل : إنها بمعنى على كما في قوله تعالى : ﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ [الإسراء : 107] ولا حاجة إليه وقد يعبر بعلى وهي تفيد استعلاءه عليه واللام تفيد

اختصاص كينونته واستقراره بالجنب إذ لا يمكنه الاستقرار على غير تلك الهيئة ففيه مبالغة زائدة .

واختلف في ذي الحال فقيل : إنه فاعل ﴿ دَعَانَا ﴾ وقييل : هو مفعول ﴿ مَسَّ ﴾ واستضعف بأمرين : أحدهما تأخر الحال عن محلها من غير داع .

(244/358)

الثاني أن المعنى على أنه يدعو كثيراً في كل أحواله إلا أنه خص المعدودات بالذكر لعدم خلو الإنسان عنها عادة لا أن الضر يصيبه في كل أحواله : وأجيب عن هذا بأنه لا بأس به فإنه يلزم من مسه الضر في هذه الأحوال دعاؤه فيها أيضاً لأن القيد في الشرط قيد في الجواب فإذا قلت إذا جاء زيد فقيراً أحسنا إليه فالمعنى أحسنا إليه في حال فقره وأنت تعلم أن الأظهر هو الأول ، واعتبر بعضهم توزيع هذه الأحوال على أفراد الإنسان على معنى أن من الإنسان من يدعو على هذه الحالة ومنه من يدعو على تلك ، وذكر غير واحد أنه يجوز أن يكون المراد بهذه الأحوال تعميم أصناف المضار لأنها إما خفيفة لا تمنع الشخص القيام أو متوسطة تمنعه القييام دون القعود أو شديدة تمنعه منها وانفهام ذلك منها بمعونة السياق و﴿ إِذَا ﴾ قيل إنها على أصلها وقيل إنها للمضي ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ ﴾ الذي

مسه غب ما دعانا كما ينبىء عنه الفاء ﴿ مَرَّ ﴾ أي مضى واستمر على ما كان عليه قبل ونسي حالة الجهد والبلاء أو مر عن موقف الدعاء والابتهال ونأى بجانبه ، والمرور على الأول مجاز وعلى الثاني باق على حقيقته ويكون كناية عن عدم الدعاء ﴿ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا ﴾ أي كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن ، ومثل ذلك قوله

: ووجه مشرق النحر . . .

كأن ثدياه حقان

(245/358)

فإن الأصل فيه كأنه فخفف كأن وحذف ضمير الشأن ، لكن صرح ابن هشام في شواهده أن ذلك غير متعين إذ يجوز كون الضمير للوجه أو للصدر على رواية وصدر وروي كأن ثدييه على إعمال كأن في اسم مذكور ولا يبعد أن يجوز ذلك في الرواية الأولى على بعض اللغات ، والجملة التشبيهية في موضع الحال من فاعل ﴿ مَرَّ ﴾ أي مر مشبهاً بمن لم يدعنا ﴿ إِلَى ضُرٍّ ﴾ أي إلى كشفه لأنه المدعو إليه ، وقيل : لا حاجة إلى التقدير ، وإلى بمعنى اللام أي لضر ﴿ مَسَّهُ ﴾ والظاهر أن هذا وصف لجنس الإنسان مطلقاً أو الكافر منه باعتبار حال بعض الأفراد ممن هو متصف بهذه الصفات .

وذكر الشهاب أن للمفسرين في المراد بالإنسان هنا ثلاثة أقوال فقيل : الجنس وقيل : الكافر وقيل : شخص معين وعليه لا حاجة إلى الاعتبار لكن لا اعتبار له ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك التزيين العجيب ﴿ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي للموصوفين بما ذكر من الصفات الذميمة ﴿ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من الإعراض عن الذكر والدعاء والانهماك في الشهوات ، والإسراف مجاوزة الحد وسموا أولئك مسرفين لما أن الله تعالى إنما أعطاهم القوى والمشاعر ليصرفوها إلى مصارفها ويستعملوها فيما خلقت له من العلوم والأعمال الصالحة وهم قد صرفوها إلى ما لا ينبغي مع أنها رأس مالهم ، وفاعل التزيين إما مالك الملك جل شأنه وإما الشيطان عليه اللعنة وقد مر تحقيق ذلك وكذلك فتذكر .

وتعلق الآية الكريمة بما قبلها قيل من حيث أن في كل منهما إملاء للكفرة على طريقة الاستدراج بعد الإنقاذ من الشر المقرر في الأولى ومن الضر المقرر في الأخرى .

وذكر الإمام في وجه الانتظام مع الآية الأولى وجهين .

الأول : أنه تعالى بين في الأولى أنه لو أنزل العذاب على العبد في الدنيا لهلك وأكد ذلك في هذه الآية حيث دلت على غاية ضعفه ونهاية عجزه .

والثاني : أنه سبحانه أشار في الأولى إلى أن الكفرة يستعجلون نزول العذاب وبين جل شأنه في هذه أنهم كاذبون في ذلك الطلب حيث أفادت أنه لو نزل بالإنسان أدنى شيء يكرهه فإنه يتضرع إلى الله تعالى في إزالته عنه انتهى .

ولكل وجهة .

وفي الآية ذم لمن يترك الدعاء في الرخاء ويهرع إليه في الشدة واللائق بحال الكامل التضرع إلى مولاه في السراء والضراء فإن ذلك أرجى للإجابة ففي الحديث " تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة "

وأخرج أبو الشيخ عن أبي الدرداء قال : ادع الله تعالى يوم سرائك يستجب لك يوم ضرائك ، وفي حديث للترمذي عن أبي هريرة ، ورواه الحاكم عن سلمان وقال صحيح الإسناد " من سره أن يستجيب الله تعالى له عند الشدائد والكروب فليكثر الدعاء في الرخاء " والآثار في ذلك كثيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(247/358)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾

عطف على جملة ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ﴾ [يونس : 11] الآية ، لأن الغرض الأهم من كلتيهما هو الاعتبار بذميم أحوال المشركين تفظيعاً لحالهم وتحذيراً من الوقوع في أمثالها بقرينة تنهية هذه الآية بجملة ﴿ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ .

فلما بُين في الآية السابقة وجه تأخير عذابِ الاستئصال عنهم وإرجاء جزائهم إلى الآخرة بُين في هذه الآية حالهم عندما يمسهم شيء من الضر وعندما يُكشف الضر عنهم .

فالإنسان مراد به الجنس ، والتعريف باللام يفيد الاستغراق العرفي ، أي الإنسان الكافر ، لأن جمهور الناس حينئذٍ كافرون ، إذ كان المسلمون قبل الهجرة لا يعْدُون بضعة وسبعين رجلاً مع نسائهم وأبنائهم الذين هم تبع لهم .

وبهذا الاعتبار يكون المنظور إليهم في هذا الحكم هم الكافرون ، كما في قوله تعالى : ﴿ ويقول الإنسان أئذا ما مِت لسَوف أخرج حيا ﴾ [مريم : 66] وقوله : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسوّاك ﴾ [الانفطار : 6 ، 7] .

ويأخذ المسلمون من هذا الحكم ما يناسب مقدار ما في آحادهم من بقايا هذه الحال الجاهلية فيفيق كلٌّ من غفلته .

وعدل عن الإتيان بالضمير الراجع إلى (الناس) من قوله : ﴿ ولو يجعل الله للناس الشر ﴾ [يونس : 11] لأن في ذكر لفظ الإنسان إيماء إلى التذكير بنعمة الله عليهم إذ جعلهم ، من أشرف الأنواع الموجودة على الأرض .

ومن المفسرين من جعل اللام في الإنسان للعهد وجعل المراد به أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي ، واسمه مُهَشِّم ، وكان مشركاً ، وكان أصابه مرض .

والضر تقدم في قوله : ﴿ وإن يمسسك الله بضر ﴾ في سورة ﴿ الأنعام : 17] .

والدعاء : هنا الطلب والسؤال بتضرع .

(248/358)

واللام في قوله : لجنبه ﴾ بمعنى (على) كقوله تعالى : ﴿ يخرون للأذقان ﴾ [الإسراء : 109] وقوله : ﴿ وتلَّه للجبين ﴾ [الصافات : 103] .

ألا ترى أنه جاء في موضع اللام حرف (على) في قوله تعالى : ﴿ فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جُنوبكم ﴾ [النساء : 103] وقوله : ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ [آل عمران : 190] ونحوه قول جابر بن جني التغلبي :

تناولَه بالرمح ثم انثنى به

فخرَّ صريعاً لليدين وللفم . . .

أي على اليدين وعلى الفم ، وهو متولد من معنى الاختصاص الذي هو أعم معاني اللام ، لأن الاختصاص بالشيء يقع بكيفيات كثيرة منها استعلاؤه عليه .

وإنما سلك هنا حرف الاختصاص للإشارة إلى أن الجنب مختص بالدعاء عند الضر ومتصل به فبالأولى غيره .

وهذا الاستعمال منظور إليه في بيت جابر والآيتين الأخريين كما يظهر بالتأمل ، فهذا وجه الفرق بين الاستعمالين .

وموضع المجرور في موضع الحال ، ولذلك عطف ﴿ أو قاعداً أو قائماً ﴾ بالنصب .

وإنما جعل الجنب مجروراً باللام ولم ينصب فيقال مثلاً مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً لتمثيل التمكن من حالة الراحة بذكر شق من جسده لأن ذلك أظهر في تمكنه ، كما كان ذكر الإعطاء في الآيتين الأخريين وبيت جابر أظهر في تمثيل الحالة بحيث جمع فيها بين ذكر الأعضاء وذكر الأفعال الدالة على أصل المعنى للدلالة على أنه يدعو الله في أندر الأحوال ملابَسَةً للدعاء ، وهي حالة تطلب الراحة وملازمة السكون .

ولذلك ابتدىء بذكر الجنب ، وأما زيادة قوله : ﴿ أو قاعداً أو قائماً ﴾ فلقصد تعميم الأحوال وتكميلها ، لأن المقام مقام الإطناب لزيادة تمثيل الأحوال ، أي دعانا في سائر الأحوال لا يلهيه عن دعائنا شيء .

والجنب : واحد الجنوب .

وتقدم في قوله : ﴿ فتكوى بها جباههم وجنوبهم ﴾ في سورة [براءة : 35] .

والقعود : الجلوس .

والقيام : الانتصاب .

(249/358)

وتقدم في قوله : ﴿ وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ في سورة [البقرة : 20] .

و(إذا) هٌّا لمجرد الظرفية وتوقيتِ جوابها بشرطها ، وليست للاستقبال كما هو غالب أحوالها لأن المقصود هنا حكاية حال المشركين في دعائهم الله عند الاضطرار وإعراضهم عنه إلى عبادة آلهتهم عند الرخاء ، بقرينة قوله : كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ إذ جعلها حالاً للمسرفين .

وإذ عبر عن عملهم بلفظ ﴿ كانوا ﴾ الدال على أنه عملهم في ماضي أزمانهم ، ولذلك جيء في شرطها وجوابها وما عطف عليهما بأفعال المضي لأن كون ذلك حالهم فيما مضى أدخلُ في تسجيله عليهم مما لو فرض ذلك من حالهم في المستقبل إذ لعل فيهم من يتعظ بهذه الآية فيقطع عن عمله هذا أو يساق إلى النظر في الحقيقة .

ولهذا فرع عليه جملة : ﴿ فلما كشفنا عنه ضره مرَّ ﴾ لأن هذا التفريع هو المقصود من الكلام إذ الحالة الأولى وهي المفرع عليها حالة محمودة لولا ما يعقبها .

والكشف : حقيقته إظهار شيء عليه ساتر أو غطاء .

وشاع إطلاقه على مطلق الإزالة .

إما على طريقة المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق ، وإما على طريقة الاستعارة بتشبيه المزال بشيء ساتر لشيء .

والمرور : هنا مجازي بمعنى استبدال حالة بغيرها .

شُبه الاستبدال بالانتقال من مكان إلى آخر لأن الانتقال استبدال ، أي انتقل إلى حال كحَال من لم يسبق له دعاؤُنا ، أي نسي حالة اضطراره واحتياجه إلينا فصار كأنه لم يقع في ذلك الاحتياج .

و(كأنْ) مخففة كأنَّ ، واسمها ضمير الشأن حذف على ما هو الغالب .

وعدي الدعاء بحرف (إلى) في قوله : ﴿ إلى ضر ﴾ دون اللام كما هو الغالب في نحو قوله :

دعوت لما نابني مسورا

على طريقة الاستعارة التبعية بتشبيه الضر بالعدو المفاجىء الذي يدعو إلى من فاجأه ناصراً إلى دفعه .

وجَعْل (إلى) بمعنى اللام بُعد عن بلاغة هذا النظم وخلط للاعتبارات البلاغية .

وجملة : ﴿ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ تذييل يعم ما تقدم وغيره ، أي هكذا التزيين الشيطاني زين لهم ما كانوا يعملون من أعمالهم في ماضي أزمانهم في الدعاء وغيره من ضلالاتهم .

وتقدم القول في معنى مَوقع (كذلك) في أمثال هذه الآية عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ في سورة [البقرة : 143] وقوله:

﴿ كذلك زينا لكل أمة عملهم ﴾ في سورة [الأنعام : 108] ، فالإشارة إلى التزيين المستفاد هنا وهو تزيين إعراضهم عن دعاء الله في حالة الرخاء ، أي مثلَ هذا التزيين العجيب زين لكل مُسرف عمله .

والإسراف : الإفراط والإكثار في شيء غير محمود .

فالمراد بالمسرفين هنا الكافرون .

واختير لفظ المسرفين ﴾ لدلالته على مبالغتهم في كفرهم ، فالتعريف في المسرفين للاستغراق ليشمل المتحدث عنهم وغيرهم .

وأسند فعل التزيين إلى المجهول لأن المسلمين يعلمون أن المزين للمسرفين خواطرهم الشيطانية ، فقد أسند فعل التزيين إلى الشيطان غيرَ مرة ، أو لأن معرفة المزين لهم غيرُ مهمة ههنا وإنما المهم الاعتبار والاتعاظ باستحسانهم أعمالهم الذميمة استحساناً شنيطاً .

والمعنى أن شأن الأعمال الذميمة القبيحة إذا تكررت من أصحابها أن تصير لهم دُربة تُحسن عندهم قبائحها فلا يكادون يشعرون بقبحها فكيف يقلعون عنها كما قيل:

يقضى على المرء في أيام محنته

حتى يَرى حسناً ما ليس بالحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(251/358)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾

يصور الحق سبحانه حال البشر ؛ الذين لم يرتبطوا دائماً بالإله ، وبمنهج الإله ؛ هؤلاء الذين يتجهون إلى الله في لحظات الأزمات ، ثم ينسون الإيمان وتكاليفه من بعد ذلك . وحياتنا مليئة بهذا الصنف من البشر .

وفي قريتنا – على سبيل المثال – كان الذي يشرف على رعاية صحة الناس حلاّق الصحة ، إلى أن تخرَّج أحد أبناء القرية في كلية الطب ، فأخذ حلاق الصحة يشيع عنه ما لا يليق ، وفي أحد الأيام لاحظ الفلاحون خروج حلاق الصحة مبكراً وهو يحمل لفافة كبيرة ، فأرادوا أن يعرفوا ما بها ، واكتشفوا أن ابن حلاق الصحة مريض وهو يريد أن يذهب به إلى

الطبيب ، هو – إذن – لا يخدع نفسه ، رغم محاولته خداع أهل القرية بالشائعات الكاذبة عن الطبيب .

وكذلك الإنسان مع منهج الله ، قد يخدع الآخرين في لحظة اليسر ، لكنه لا ينسى الله لحظة العسر . وساعة يأتيه الضر ، وحين تعزُّ الأسباب عليه فهو لا يجد إلا كلمة " يا رب " .

وأنت تجدها من أعتى الفُجَّار ، ومن أقسى العُتاة ، تجد الواحد من هؤلاء وهو يدعو الله ساعة الضرّ .

وهذا ما يقوله الحق سبحانه هنا : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ ﴾ .

والمثل من حياة هؤلاء الكافرين الذين دعوا على أنفسهم ، ولو كانوا يرغبون في إنهاء الحياة ، فلماذا يدعون الله وهم قد كفروا به ؟ إنه كذب مفضوح ، والإنسان حين يضيق بنفسه قد يدعوا على نفسه بالضُّر ؛ مثلما قال المتنبي :

كَفَى بِكَ دَاءً أن تَرَى الموتَ شَافياً . . . وحَسْبُ المنايا أن يكُنَّ أمَانِيَا

أي : يكفي أن يصل الإنسان إلى الدرجة التي يتمنى فيها الموت .

ونلحظ أن الحق سبحانه قد جاء بموقف الإنسان من الضر في أكثر من موضع ، فنجد آية تفرد الإنسان بمعنى ؛ وآية ثانية تفرده بمعنى آخر ، وآية ثالثة تصور وضع الإنسان بشكل آخر .

يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يدعوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ . . . ﴾ [الزمر : 8] .

ويقول الحق في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا ﴾

.

ويقول سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ الله ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضر عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 53-54] .

إذن : فالحق سبحانه يأتي بها مفردةً مرّة ، ومرة يأتي بها جمعاً . ومرة يأتي بها مفردة على ألوان شتّى ، ومرة ثاني بها جمعاً بألوان شتّى ، ومرة يذكرها في البر ، ومرة يذكرها في البحر : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ . . . ﴾ [الإسراء : 67]

إذن : فالآيات تستوعب حالات الإنسان المختلفة ؛ إذا ما أصابه ضرّ ، ولم يجد مَفْزعاً له لا من ذاته ولا من البيئة المحيطة به ، فلا يجد من يلجأ إليه إلا ربه .

ومن الأسف أن هذا الإنسان يكون كافراً بالله .

والآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها تعطينا صوراً متعددة ؛ فالحق سبحانه يقول : ﴿ دَعَانَا لِجَنبِهِ ﴾ أي : وهو مضطجع ، ﴿ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً ﴾ . وهكذا تتناول الآية

الإنسان في تصرفاته في الكون . والآية متمشية مع أطوار تكوين الإنسان ؛ فالطفل الصغير لا يستطيع أن يتقلّب ، بل يقلّبه أهله ؛ لينام على جنبه ، يكبر قليلاً فهو يتقلب بمفرده ثم تأتي حركة القوة الثانية ؛ فيقعد الطفل ، ثم يقف دون أن يمشي ، ثم يمشي من بعد ذلك .

(253/358)

والآية هنا تعطينا التصوير الدقيق لثلاث حالات : ﴿ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً ﴾ ، ولم تَأت حركة المشي ؛ لأن المتحرك للمشي لا يقعده الضر ، لكن من يمر بالمراحل الأخرى قائماً أو قاعداً أو راقداً على الجنب ، فقد يناله الضر .

وتلك هي مراحل النقض لمظاهر الحياة ، فالإنسان يعيش الطفولة ، ثم فُتوَّة الشباب ، ثم يأتيه الضعف والشيب ، فلا يستطيع أن يمشي بقوة الشاب ، وإن كان يستطيع الوقوف ، ثم تدخل عليه الشيخوخة ؛ فيقعد ، ولا يستطيع أن يقف ، ثم تتقدم به الشيخوخة ؛ فلا يمشي ، ولا يقف ، ولا يقعد ، ويظل راقداً على جنبه ، وقد يقلّبه أهله .

إذن : نقض كل شيء إنما يأتي على عكس بنائه ؛ فكما بنيت مراحل الإنسان هكذا جنباً ، فقعوداً فقياماً ، فسعياً وحركة ، فهي تنتهي بالعكس ؛ لأن النقض دائماً على عكس البناء .

ومن هذا خرجنا بالاستدلال على صدق الله في إخباره لخلقه بكيفية الخلق ؛ لأننا لم نشاهد عملية الخلق ، مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السموات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51] .

ولأن الحق لم يُشْهِدْ أحداً على كيفية خَلْق السماء والأرض وخلق الإنسان ، فنحن لا نأخذ معلومات عن كيفية الخلق بعيداً عن القرآن ؛ لذلك لا نصدق الافتراضات القائلة بأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها ثم انخفضت درجة حرارتها ؛ فكل هذه افتراضات لم تثبت صحتها ، والحق سبحانه قد قال : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ . . . ﴾ [الكهف : 51] .

(254/358)

وهذا القول يدل على أن العقل البشري لا يمكن أن يصل إلى معرفة كيفية خلق السماوات والأرض ، وخلق الإنسان ، وهو معزول عن منهج السماء . فإن حُدِّثْتُمْ كيف خُلقتم بصورة تختلف عما جاء في القرآن فقولوا : كذبتم ، وإن حُدِّثتم كيف خُلقت السماوات والأرض بغير ما جاء في كتاب الله ؛ فقولوا : كذبتم ؛ لأن الله هو الذي خلق السماوات والأرض والإنسان وحده ، ولا أحد معه ، وما شهد أحد من هؤلاء مشهداً ليخبركم به .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51] .

والمضلون : هم الذين يقولون لكم افتراضات غير صحيحة عن تطور القرد حتى صار إنساناً ، وأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها ؛ كل هذه افتراضات قالها من سمّاهم الحقُّ سبحانه : ﴿ المضلين ﴾ .

ولو لم يقل الله تعالى هذه الآية ، ثم جاء قوم ليقولوا : الإنسان كان في الأصل قرداً ، لقلنا : إن القرآن لم يتعرض لذلك ، وكان من الممكن أن نصدقهم ، لكن الله سبحانه شاء لنا أن تكون لدينا المناعة ضد هذا الإضلال .

وعملية الخلق غيب عنا ، أخبرنا عنها من خلقنا سبحانه ، فلم يكن معه شاهدٌ رأي هذا المشهد ؛ ليقول لنا . والخلق الذي به الحياة ينقضه الموتُ ، ولكن الموت مشهد نشهده ، وأي نقض لشيء – كما عرفنا – إنما يأتي على عكس بنائه ، فإن بنينا عمارة من عشرين طابقاً ، وأردنا أن نهدمها لسبب أو لآخر ؛ فنحن نهدم الطابق العشرين أولاً ، ثم نوالي الهدم بعد ذلك ، فما بُني أولاً يهدم أخيراً ؛ لأن نَقْض كل شيء يأتي على عكس بنائه .

وبما أن الموت نَقْضٌ للحياة ؛ فالروح إذا ما خرجت من الجسم ، وتُرك الجثمان بلا دفن ، فالجثمان يتصلَّب ، ثم يصير جيفَةً ، ثم يتبخر منه الماء ، ويتحلل الجسد إلى العناصر الأولى في التراب ، هذه مراحل الموت .

وقد أخبرنا الحق عن كيفية الخلق ، فبيَّن أنه سبحانه خلق الإنسان من التراب والماء فصار طيناً ، ثم استوى الطين ، فصوَّره الحق صورة الإنسان ونفخ فيه الروح ، وآخر مراحله في الإيجاد هي الروح ؛ لذلك فخروج الروح هو أول مرحلة في الموت .

والله سبحانه وتعالى في هذه الآية جاء بوضع الإنسان على الجنب وقائماً وقاعداً ، ولم يأت بالمشي ؛ لأن الماشي عنده قدرة فلا ضرّ في ذاته ، إن أصابه ضرّ فمن غيره ، والضرّ مقابل النفع ، والنافع هو مَنْ يُبقِي الشيء على صلاحه الممتع المريح ، في الذات أو في الخارج .

فساعة تكون ذاتك مستقيمة وملكاتها وأعضاؤها كلها سليمة ؛ فليس عندك ضرّ ، لكن إذا حدث خلل في أي عضو من الأعضاء ؛ فالمتاعب تبدأ ، ولذلك يقال عن السلامة العامة : هي ألا تشعر بأن لك أعضاء ؛ لأنك حين تشعر أن لك عَيْناً – مثلاً – فاعرف أنها تؤلمك ، وإذا شعرت بأذنك فاعرف أنها تؤلمك . وأنت تطحن الطعام بضروسك وتأكل ولا تدري بها . ويوم أن تدري بها فهذا المعنى أن ألماً قد بدأ .

وهكذا لا يشعر الإنسان بفقد السلامة إلا إذا عرف وانتبه إلى أن له عضواً من أعضائه ، فيقول : "آه يا عيني" ، و "آه يا أذني" .

ونقول : إن وجع العين مؤلم ألماً مخصوصاً ، وكذلك نقول : على أي عضو من الأعضاء ، أما من لا يشكو بأعضائه فهو لا يشعر بها ؛ لأنها تؤدي أعمالها على الوجه المناسب .

والسلامة فيمن حولك تتمثل في أن يحققوا لك المتعة والصفاء بدون كدر . وبذلك تظهر منفعتهم لك .

وكل إنسان له كبرياء ذاتي ، يبيّنها قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ الإِنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى ﴾

[العلق : 6-7] .

(256/358)

ولا يذل الإنسان إلا حين يعاني من آفة ما ، ولا يأتي طغيانه إلا عند استكمال النعمة في الخارج والنعمة في الداخل ، وإن بدأت النعمة في الانقباض عن الإنسان ، فكبرياؤه تتطاير .

ومن كان يستعرض قوته على الناس ، قد يرجو القيام من الوقود ؛ ليخطو بضع خطوات فلا يستطيع .

والإنسان لا يستغني إلا بما هو ذاتي فيه ؛ لا بما هو موهوب له ؛ لذلك فعليه ألا يغتر ؛ لأن الواهب الأعلى قد يقبض هبتَه ، فقد يأخذ منك العافية ، وكثيراً ما رأينا أصحّاء قد مرضوا ، ورأينا أغنياء قد افتقروا ، وأصحاب جاه قد خرجوا من جاههم .

إذن : فلا داعي للغرور ؛ لأن الله قد وهبك كل شيء ، وليس لك شيء ذاتيٌّ فيك أبداً ؛

لذلك يجب أن ينعدم الغرور ، فما دام كل ما فيك موهوباً من الواهب الأعلى سبحانه ، فالواهب قد يسلب ما وهب ، وما إن تُسلب من الإنسان نعمة فهو ينتبه . فلا داعي – إذن – لأن يغتر أحد ؛ حتى لا يسلم نفسه رخيصة للضياع .

والمثال : قد تكون عاديْتَ طبيباً ، وهو الوحيد في المكان الذي تقطنه ، وقد يحاول البعض الإصلاح بينك وبين هذا الطبيب ، فتتأبَّى أنت ، ثم يأتي لك مرض ؛ فتلجأ إليه ؛ لأن الله قد وهبه القدر السليم من التشخيص بالعلم ، فلا يجب – إذن – أن تغتر أو تتعالى على أحد .

لكن الإنسان هو الإنسان ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر . . . ﴾ [يونس : 12] .

والكافر ما إن يمسّه الضرّ ؛ حتى يقع في بئر الهوان . أما المؤمن فهو مع ربه دائماً ، وإذا مسّه الضرّ فهو يدعو الله تعالى دائماً ولا ينساه ؛ لذلك يتلطف به سبحانه ، عكس الكافر الذي يدعو الله ساعة الضرّ فقط . وأين كان ذلك الكافر ساعة أن دعاه الله سبحانه بالرسل إلى الإيمان ؟

(257/358)

ونسيان الإنسان أمر وارد في تكوينه الفطري الأول ؛ لأن الإنسان حين يعيش في محيط ما . فهو يحب النفع من خارجه ، وإذا امتنع عنه هذا النفع الخارجي ، فهو يأخذ النفع من ذاته ؛ من تحرُّك أبعاضه وخدمتها لبعضها البعض . ثم لا يجد له مفزعاً إلا أن يؤمن بمن خلقه أولاً . وانظر إلى التعبير القرآني : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ . . ﴾ [الإسراء : 67] .

إذن : فمن يَعْبُد غيرَ الله – سبحانه وتعالى – يضل عنه معبوده ، ولا يعرف كيف ينقذ من يعبده ؛ لذلك يعود المشرك إلى الله ، ولا يجد سواه سبحانه ، فهو الذي ينقذ الإنسان لحظة الخطر ؛ لأنه الرب الخالق هو أرحم بصنعته ، وهذه الرحمة تنقذ الإنسان حتى لو كان كافراً ، وهذا كلام منطقي ؛ لأننا شهدنا بوحدانية الله تعالى في عالم الذر ؛ حينما أخذ الله سبحانه علينا العهد الأول ، وقال لنا : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 172] .

قلنا : ﴿ بلى . . . ﴾ [الأعراف : 172] .

وهذا إيمان الفطرة قبل أن توجد الغفلة أو التقليد ؛ لذلك حين تتفرق الآلهة الباطلة من حول الكافر فهو يرجع إلى نفسه ويدعو الله ، بل ويوسِّط من يسأله أن يدعو له الله سبحانه . وقد يدعو الإنسان من يواسيه لحظة المرض فلا يجد ولداً من أبنائه ، أو قريباً من أقربائه ، ولكنه فور أن يدعو الله تعالى ؛ تلمسه رحمته سبحانه ، وقد تجد إنساناً حين يستجيب

الحق سبحانه لدعائه قد تركبه حماقة الغرور من جديد ، ويقول ما جاء به الحق على لسان قارون : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي . . . ﴾ [القصص : 78] .

ويقول : كنت محتاطاً وقد رتبت أموري ، ثم يأخذه الحق سبحانه وتعالى أخْذَ عزيز مقتدر .

(258/358)

فإذا مسكم الضر ؛ فلن تجدوا من البيئات الخارجة عنكم ، ولا من ذوات نفوسكم ، ما يغنيكم عن خالقكم ، وفي لحظة الخطر لا تستطيعون الكذب على أنفسكم ؛ فلا تسألون حينئذ أحداً إلا الله سبحانه ، وتتذكرون في تلك اللحظة عهد الذَّر الأول ، وتعودون إليه سبحانه .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً ﴾ .

وقوله الحق : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ ﴾ يصوّر الضرّ وكأنه يغطي الإنسان ويلفّه ، فلا منقذ له أبداً ؛ لأن الكشف هو رفع لغطاء يغطي كل الإنسان ، وهكذا يعطينا الله تعالى صورة لاستيعاب الضرّ للجسم كله ؛ حتى وإن كان بأداة من أدوات الإدراك مثل قوله

سبحانه : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوعِ والخوفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : 112] .

فكأن الجوع والخوف قد لفّ القرية كلها ، فلم تعُد البطون وحدها هي الجائعة ، بل كل ما في الأجسام جائع وخائف .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ .

وكلمة ﴿ مَرَّ ﴾ تفيد أن هنا وقفة ، فحين يقال : إن فلاناً مرّ عليَّ ؛ مقابلها : وقف عندي .

ونفهم من قوله الحق : إن هذا الذي مسهّ الضرّ كان له وقفة عند الله سبحانه ؛ حين لفّه الضرّ ولم يجد معيناً له غير الله تعالى ، أما قبل ذلك فقد كان يأخذ الخير من الله ولا يتذكر الإيمان به سبحانه ، وبعد أن يذهب عنه الضرّ وينسى الإيمان ؛ ﴿ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ وكأنه قد نسي تذلّله إلى الله ، فهو يمر من مرحلة الذلة والخضوع والدعاء إلى الله إلى مرحلة الاستكبار ، فلم يقف عند من أنقذه من ضره ، وهذه هي الصفاقة .

(259/358)

ويُنهي الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله : ﴿ كذلك زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وهنا يأتي قضية ثانية ؛ فالحادثة حادثة خاصة وينقلها الحق سبحانه إلى عمومية تأتي في الكون

كله ؛ فالمسرفون قديماً حصل لهم هذا ، والذي زيّن لهم المرور إما أن يكون الشيطان ، وإما أن يكون الحمل من الحق على صفات موجودة فيه ، فالحق سبحانه هو القائل : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً . . . ﴾ [البقرة : 10] .

وقوله تعالى هنا :

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ . . . ﴾ [يونس : 12] .

وهذا ما حدث للمسرفين سابقاً ، وما سوف يحدث من المسرفين لاحقاً . والإنسان له عمل مكوّن من القول والفعل ، والعمل هو كل حادثة متفرعة عن جوارح الإنسان ، وإن كان القول مقابله الفعل ؛ فالاثنان عمل .

وبعد أن يعرض الحق سبحانه هذه القضية في عمومها ، وفي خصوصها ، وفي انسحابها على الكون كله ، يبيّن لنا ضرورة الانتباه للكافرين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويحذر الكافرين : أأسلمنا رسولاً إلى خصومه أم نصرنا كل رسول جاء على خصومه ؟ إن السوابق تدل على أن كلّاً أخذناه بذنبه ، فاحذروا أن تكونوا كذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ دعانا لجنبه ﴾ قال : مضطجعاً .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ﴾ قال : على كل حال .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي الدرداء قال : ادع الله يوم سرائك يستجب لك يوم ضرائك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(261/358)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِجَنبِهِ ﴾ : في محلِّ نصب على الحال ، ولذلك عَطَفَ الحالَ الصريحة ، والتقدير : دعانا مضطجعاً لجنبه ، أو مُلْقِياً لجَنْبه . واللامُ على بابها عند البصريين ، وزعم بعضهم أنها بمعنى " على " ، ولا حاجةَ إليه . واختُلف في ذي الحال ، فقيل : الإِنسان ، والعامل فيها " مَسَّ " قاله ابن عطية . ونَقَله أبو البقاء عن غيره ، واستضعفه من جهين ، أحدهما : أن الحالَ على هذا واقعةٌ بعد جواب " إذا " وليس بالوجهِ . قلت : كأنه يعني أنه ينبغي ألاَّ يجابَ الشرطُ إلا إذا استوفى معمولاتِه ، وهذه الحالُ معمولة للشرط وهو " مَسَّ " ، وقد أُجيب قبل أن يَسْتوفي معموله . ثم قال : " والثاني : أن المعنى : كثرةُ دعائِه في كل أحواله لا على أن الضرَّ يصيبه في كل أحوالِه ، وعليه جاءَتْ آياتٌ كثيرةٌ في القرآن " .

قال الشيخ : " وهذا الثاني يلزم فيه مِنْ مَسِّه الضرُّ في هذه الأحوالِ دعاؤه في هذه الأحوال ، لأنه جوابُ ما ذُكِرت فيه هذه الأحوال [فالقيد في الشرط قيدٌ في الجواب كما تقول : " إذا جاءنا زيدٌ فقيراً فقد أَحْسَنَّا إليه " فالمعنى :] أَحْسَنَّا إليه في حال فقرِه " .

وقيل : صاحبُ الحال هو الضمير الفاعل في " دعانا " وهو واضحٌ ، أي : دعانا في جميع أحواله لأن هذه الأحوال الثلاثة لا يخلو الإِنسان عن واحدة منها . ثم قيل : المراد بالإِنسان الجنسُ ، وهذه الأحوالُ بالنسبة إلى المجموع ، أي : منهم مَنْ يدعو مُسْتلقياً ، ومنهم مَنْ يدعو قائماً ، أو يُراد به شخصٌ واحد جَمَع بين هذه الأحوال الثلاثة بحسبِ الأوقاتِ ، فيدعو في وقتٍ على هذه الحال ، وفي وقت على أخرى .

قوله : ﴿ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ ﴾ قد تقدَّم الكلامُ على مثل هذا عند قوله : ﴿ كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ ﴾ قال الزمخشري : " فَحَذفَ ضميرَ الشأن كقوله :

2574 . . . . . كأنْ ثَدْياه حُقَّانِ "

يعني على روايةِ مَنْ رواه " ثَدْيان " بالألف ، ويُروى " كأنْ ثَدْيُيْه " بالياءِ على أنها أُعملت في الظاهر وهو شاذٌّ ، وصدر هذا البيت :

وصَدْرٍ مُشْرِقِ النَّحْرِ . . . . . .

وهذه الجملةُ التشبيهيةُ في محلِّ نصبٍ على الحال مِنْ فاعل " مرَّ " ، أي : مضى على طريقته مشبهاً مَنْ لم يَدْعُ إلى كشف ضر . و " مَسَّه " صفةٌ لـ " ضُرّ " ، قال صاحب النظم : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان ﴾ وَصْفُه للمستقبل ، و " فلمَّا كشفنا " للماضي ، فهذا النَّظْم يدلُّ على معنى الآية أنه كان هكذا فيما مضى ، وهكذا يكون مما يُستقبل ، فدل ما في الآية من الفعل المستقبل على ما فيه من المعنى المستقبل " .

والكافُ مِنْ " كذلك زُيِّن " في موضع نصب على المصدر ، أي : مثلَ ذلك التزيين

والإعراض عن الابتهال . وفاعل " زُيِّن " المحذوف : إمَّا الله تعالى وإمَّا الشيطان . و ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في محل رفع لقيامه مقام الفاعل . و " ما " يجوز أن تكون مصدرية ، وأن تكونَ بمعنى الذي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 160 . 161 ﴾

(263/358)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾

إذا امتُحِنَ العبدُ وأصابه الضُّرُّ أزعجته الحالُ إلى أَنْ يرومَ التخلُّصَ مما ناله ، فيعلمَ أنَّ غيْر الله لا يُنْجيه ، فتحمله الضرورةَ على صِدْق الالتجاءِ إلى الله ، فإذا كَشَفَ اللَّهُ عنه ما يدعو لأَجْلِهِ شَغَلَتْه راحةُ الخلاصِ عن تلك الحالة ، وزايَلَه ذلك الالتياع ، وصار كأنه لم يكن في بلاءِ قط :

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذا اكتسى . . . ولم يكُ صُعلوكاً إذا ما تَموَّلاَّ

ويقال بلاءُ يُلْجِئُك إلى الانتصاب بين يَدَيْ معبودِك أجدى من عطاءٍ ينْسِيك ويكفيك عنه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 83 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان محط نظرهم الدنيا ، وكان هذا صريحاً في الإمهال للظالمين والإحسان إلى المجرمين ، أتبعه بقوله تعالى مهدداً لهم رادعاً عما هم فيه من اتباع الزينة مؤكداً لأنهم ينكرون أن هلاكهم لأجل ظلمهم : ﴿ ولقد أهلكنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ القرون ﴾ أي على ما لهم من الشدة والقوة ؛ ولما كان المهلكون هلاك العذاب المستأصل بعض من تقدم ، أثبت الجار فقال : ﴿ من قبلكم لما ظلموا ﴾ أي تكامل ظلمهم إهلاكاً عم آخرهم وأولهم كنفس واحدة دفعاً لتوهم أنه سبحانه لا يعم بالهلاك ، وقال تعالى عطفاً على ﴿ أهلكنا ﴾ : ﴿ وجآءتهم رسلهم ﴾ أي إلى كل أمة رسولها ﴿ بالبينات ﴾ أي التي بينت بمثلها الرسالة ﴿ وما ﴾ أي والحال أنهم ما ﴿ كانوا ﴾ أي بجبلاتهم ، وأكد النفي بمن ينكر أن يتأخر إيمانهم عن البيان فقال : ﴿ ليؤمنوا ﴾ ولو جاءتهم كل آية ، تنبيهاً لمن قد يطلب أنه سبحانه

يريهم بوادر العذاب أو ما اقترحوه من الآيات ليؤمنوا ، فبين سبحانه أن ذلك لا يكون سبباً لإيمان من قضى بكفره ، بل يستوي في التكذيب حاله قبل مجيء الآيات وبعدها ليكون سبباً لهلاكه .

فكأنه قيل : هل يختص ذلك بالأمم الماضية ؟ فقيل : بل ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الجزاء العظيم ﴿ نجزي القوم ﴾ أي الذين لهم قوة على محاولة ما يريدونه ﴿ المجرمين ﴾ لأن السبب هو العراقة الإجرام وهو قطع ما ينبغي وصله ، فحيث ما وجد جزاؤه ؛ والإهلاك : الإيقاع فيما لا يتخلص منه من العذاب ؛ والقرن : أهل العصر لمقارنة بعضهم لبعض .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 423.424 ﴾

(265/358)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في بيان كيفية النظم .

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم كانوا يقولون : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] ثم إنه أجاب عنه بأن ذكر أنه لا صلاح في إجابة دعائهم ، ثم بين أنهم كاذبون في هذا الطلب لأنه لو نزلت بهم آفة أخذوا في التضرع إلى الله تعالى في إزالتها والكشف لها ، بين في هذه الآية ما يجري مجرى التهديد ، وهو أنه تعالى قد ينزل بهم عذاب الاستئصال ولا يزيله عنهم ، والغرض منه أن يكون ذلك رادعاً لهم عن قولهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، لأنهم متى سمعوا أن الله تعالى قد يجيب دعاءهم وينزل عليهم عذاب الاستئصال ، ثم سمعوا من اليهود والنصارى أن ذلك قد وقع مراراً كثيرة .

صار ذلك رادعاً لهم وزاجراً عن ذكر ذلك الكلام ، فهذا وجه حسن مقبول في كيفية النظم .

المسألة الثانية :

قال صاحب "الكشاف" ﴿ لَّمّاً ﴾ ظرف لأهلكنا ، والواو في قوله : ﴿ وَجَاءتْهُمْ ﴾ للحال ، أي ظلموا بالتكذيب .

وقد جاءتهم رسلهم بالدلائل والشواهد على صدقهم وهي المعجزات ، وقوله : ﴿ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ يجوز أن يكون عطفاً على ظلموا ، وأن يكون اعتراضاً ، واللام لتأكيد النفي

، وأن الله قد علم منهم أنهم يصرون على الكفر وهذا يدل على أنه تعالى إنما أهلكهم لأجل تكذيبهم الرسل ، فكذلك يجزى كل مجرم ، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم رسول الله ، وقرىء ﴿ يَجْزِى ﴾ بالياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 44 ﴾

(266/358)

وقال السمرقندى :

قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القرون مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾

يعني : أهلكناهم بالعذاب لما كذبوا الرسل وأقاموا على كفرهم ، خوّف أهل مكة بمثل عذاب الأمم الخالية لكيلا يكذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ ، يعني : بالآيات بالأمر والنهي .

﴿ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ ، لم يصدقوا الرسل ولم يرغبوا في الإيمان ؛ ويقال : وما كانوا ليصدقوا بنزول العذاب بما كذبوا من قبل يوم الميثاق .

﴿ كذلك نَجْزِى ﴾ ، يعني : نعاقب ﴿ القوم المجرمين ﴾ ، أي الكافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القرون مِن قَبْلِكُمْ ﴾

يعني الأمم الماضية . قال ابن عباس : بين القرنين ثمان وعشرون سنة .

﴿ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ أشركوا ﴿ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كذلك ﴾ أي كما أهلكناهم بكفرهم وتكذيبهم رسلهم ﴿ نَجْزِي ﴾ نهلك ﴿ القوم المجرمين ﴾ المشركين تكذيبهم محمد صلى الله عليه وسلم يخوّف كفّار مكة عذاب الأمم الخالية المكذبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾

هذه الآية وعيد للكفار وضرب أمثال لهم ، أي كما فعل هؤلاء فعلكم فكذلك يفعل بكم ما فعل بهم ، وقوله ، ﴿ وما كانوا ليؤمنوا ﴾ إخبار عن قسوة قلوبهم وشدّة كفرهم ، وقرأ جمهور السبعة وغيرهم : " نجزي " بنون الجماعة ، وفرقة " يجزي " بالياء على معنى يجزي الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(267/358)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم ﴾

قال مقاتل : هذا تخويف لكفار مكة .

والظلم ها هنا بمعنى الشرك .

وفي قوله : ﴿ وما كانوا ليؤمنوا ﴾ قولان : أحدهما : أنه عائد على أهل مكة ، قاله مقاتل .

والثاني : على القرون المتقدمة ، قاله أبو سليمان .

قال ابن الأنباري : ألزمهم الله ترك الإِيمان لمعاندتهم الحق وإِيثارهم الباطل .

وقال الزجاج : جائز أن يكون جعل جزاءهم الطبع على قلوبهم ، وجائز أن يكون أعلم ما قد علم منهم .

قوله تعالى : ﴿ كذلك نجزي ﴾ أي : نعاقب ونهلك ﴿ القوم المجرمين ﴾ يعني المشركين من قومك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(268/358)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القرون مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾

يعني الأمم الماضية من قبل أهل مكة أهلكناهم .

﴿ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ أي كفروا وأشركوا .

﴿ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ أي بالمعجزات الواضحات والبراهين النيرات .

﴿ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ أي أهلكناهم لعلمنا أنهم لا يؤمنون .

يخوف كفار مكة عذاب الأمم الماضية ؛ أي نحن قادرون على إهلاك هؤلاء بتكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، ولكن نمهلهم لعلمنا بأن فيهم من يؤمن ، أو يخرج من أصلابهم من يؤمن .

وهذه الآية تردّ على أهل الضلال القائلين بخلق الهدى والإيمان .

وقيل : معنى "ما كانوا ليؤمنوا" أي جازاهم على كفرهم بأن طبع على قلوبهم ؛ ويدلّ على هذا أنه قال : ﴿ كذلك نَجْزِي القوم المجرمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(269/358)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعال : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم ﴾

يعني أهلكنا الأمم الماضية من قبلكم يخوف بذلك كفارة مكة ﴿ لما ظلموا ﴾ يعني لما أشركوا ﴿ وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ يعني فكذبوهم ﴿ وما كانوا ليؤمنوا ﴾ يعني : هذه الأمم برسلهم ويصدقوهم بما جاؤوا به من عند الله ﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ يعني : كما أهلكنا الأمم الخالية لما كذبوا رسلهم كذلك نهلككم أيها المشركون بتكذيبكم محمداً (صلى الله عليه وسلم) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(270/358)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القرون ﴾

أي القرونَ الخاليةَ مثلَ قومِ نوحٍ وعادٍ وأضرابِهم و (من) في قوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ متعلقةٌ بأهلكنا أي أهلكناهم من قبل زمانِكم والخطابُ لأهل مكةَ على طريقة الالتفاتِ للمبالغة في تشديد التهديدِ بعد تأييدِه بالتوكيد القسمي ﴿ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ ظرفٌ للإهلاك أي أهلكناهم حين فعلوا الظلمَ بالتكذيب والتمادي في الغي والضلالِ من غير تأخير ، وقوله

تعالى : ﴿ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم ﴾ حالٌ من ضمير ظلموا بإضمار قد ، وقوله تعالى : ﴿ بالبينات ﴾ متعلقٌ بجاءتهم على أن الباءَ للتعدية أو بمحذوف وقع حالاً من رسلهم ، دالةٌ على إفراطهم في الظلم وتناهيهم في المكابرة ، أي ظلموا بالتكذيب وقد جائتهم رسلُهم بالآيات البينةِ الدالةِ على صدقهم أو ملتبسين بها حين لا مجالَ للتكذيب ، وقد جُوّز أن يكون قولُه تعالى : ﴿ وَجَاءتْهُمْ ﴾ عطفاً على ظلموا فلا محلَّ له من الإعراب عند سيبويه ، وعند غيره محلُّه الجرُّ لأنه معطوفٌ على ما هو مجرورٌ بإضافة الظرفِ إليه ، وليس الظلمُ منحصراً في التكذيب حتى يُحتاج إلى الاعتذار بأن الترتيبَ للذكرى لا يجب كونُه على وفق الترتيبِ الوقوعيّ كما في قوله تعالى :

(271/358)

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش وَخَرُّواْ لَهُ ﴾ الخ ، بل هو محمولٌ على سائر أنواعِ الظلم والتكذيبُ مستفادٌ من قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ على أبلغ وجهٍ وآكده فإن اللامَ لتأكيد النفي أي وما صح وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادِهم وخذلانِ الله تعالى إياهم لعلمه بأن الألطافَ لا تنجع فيهم ، والجملةُ على الأول عطفٌ على ظلموا لأنه إخبارٌ بإحداث التكذيب ، وهذا بالإصرار عليه ، وعلى الثاني عطفٌ على ما عطف عليه ،

وقيل : اعتراضٌ بين الفعلِ وما يجري مَجرى مصدرِه التشبيهيِّ أعني قولَه تعالى : ﴿ كذلك ﴾ فإن الجزاءَ المشارَ إليه عبارةٌ عن مصدره أي مثلَ ذلك الجزاءِ الفظيعِ أي الإهلاكِ الشديدِ الذي هو الاستئصالُ بالمرة ﴿ نَجْزِي القوم المجرمين ﴾ أي كلَّ طائفةٍ مجرمة ، وفيه وعيدٌ شديدٌ وتهديدٌ أكيدٌ لأهل مكةَ لاشتراكهم لأولئك المهلَكين في الجرائم والجرائر التي هي تكذيبُ الرسولِ والإصرارُ عليه وتقريرٌ لمضمون ما سبق من قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهِ للنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير ﴾ وقرىء بالياء على الالتفات إلى الغَيبة وقد جُوِّز أن يكون المرادُ بالقوم المجرمين أهلَ مكةَ على طريقة وضع الظاهرِ موضعَ ضميرِ الخطابِ إيذاناً بأنهم أعلامٌ في الإجرام ويأباه كلَّ الإباء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(272/358)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ ﴾

مثل قوم نوح . وعاد .

وثمود ، وهو جمع قرن بفتح القاف أهل كل زمان مأخوذ من الاقتران كأن أهل ذلك الزمان

اقترنوا في أعمالهم وأحوالهم ، وقيل : القرن أربعون سنة وقيل : ثمانون وقيل مائة وقيل هو مطلق الزمان ، والمراد هنا المعنى الأول وكذا في قوله صلى الله عليه وسلم : " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم " وقوله :

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم . . .

وخلفت في قرن فأنت غريب ﴾

مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي من قبل زمانكم ، والخطاب لأهل مكة على طريقة الالتفات للمبالغة في تشديد التهديد بعد تأييده بالتوكيد القسمي ، والجار والمجرور متعلق بأهلكنا ، ومنع أبو البقاء كونه حالا من القرون ﴿ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ أي حين فعلوا الظلم بالتكذيب والتمادي في الغي والضلال ، والظرف متعلق بأهلكنا وجعل لما شرطية بتقدير جواب هو أهلكناهم بقرينة ما قبله تكلف لا حاجة إليه وقوله سبحانه : ﴿ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم ﴾ حال من ضمير ﴿ ظَلَمُواْ ﴾ باضمار قد وقوله تعالى : ﴿ بالبينات ﴾ متعلق بجاءتهم على أن الباء للتعدية أو بمحذوف وقع حال من ﴿ رُسُلُهُمْ ﴾ دالة على إفراطهم في الظلم وتناهيهم في المكابرة أي ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينة الدالة على صدقهم أو متلبسين بها حين لا مجال للتكذيب ، وجوز أبو البقاء وغيره عطفه على ﴿ ظَلَمُواْ ﴾ فلا محل له من الاعراب أو محله الجر وذلك عند من يرى إضافة الظرف إلى المعطوف عليه ، والترتيب الذكرى لا يجب أن يكون حسب الترتيب الوقوعي كما في قوله

تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ [يوسف : 100] ولا حاجة إلى هذا الاعتذار بناء على أن الظلم ليس منحصراً في التكذيب بل هو محمول على سائر أنواع الظلم ، والتكذيب مستفاد من قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ على أبلغ وجه وآكده لأن اللام لتؤكيد النفي .

(273/358)

وهذه الجملة على الأول عطف على ﴿ ظَلَمُوا ﴾ وليس من العطف التفسيري في شيء على ما قاله صاحب الكشف خلافاً للطيبي لأن الأولى أخبار باحداق التكذيب وهذه أخبار بالإصرار عليه ، وعلى الثاني عطف على ما عطف عليه ، وقيل : اعتراض للتأكيد بين الفعل وما يجري مجرى مصدره التشبيهي أعني قوله سبحانه : ﴿ كذلك ﴾ فإن الجزاء المشار إليه عبارة عن مصدره أي مثل ذلك الجزاء الفظيع أي الاهلاك الشديد الذي هو الاستئصال بالمرة ﴿ نَجْزِي القوم المجرمين ﴾ أي كل طائفة مجرمة فيشمل القرون ، وجعل ذلك عبارة عنهم غير مناسب للسياق .

وقرىء ﴿ يَجْزِى ﴾ بياء الغيبة التفاتاً من التكلم في ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾ إليها .

وحاصل المعنى على تقدير العطف أن السبب في إهلاكهم تكذيبهم الرسل وأنهم ما صح

وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله تعالى إياهم ، ويقتصر على الأمر الأول في بيان الحاصل على تقدير الاعتراض ، وذكر الزمخشري بدل الأمر الثاني علم الله تعالى أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل عليهم السلام وجعل بياناً على التقديرين وفيه ما يحتاج إلى الكشف فتدبره .

وتعليل عدم الإيمان بالخذلان ونحوه ظاهر ، وكلام القاضي صريح في تعليله أيضاً بعلم الله تعالى أنهم يموتون على الكفر .

واعترض بأنه مناف لقولهم : إن العلم تابع للمعلوم ، وتكلف بعض الفضلاء في تصحيحه ما تكلف ولم يأت بشيء .

(274/358)

وقال بعض المحققين : معنى كون العلم تابعاً للمعلوم أن علمه تعالى في الازل بالمعلوم المعين الحادث تابع لماهيته بمعنى أن خصوصية العلم وامتيازه عن سائر العلوم إنما هو باعتبار أنه علم بهذه الماهية ، وأما وجود الماهية وفعليتها فيما لا يزال فتابع لعلمه الأزلي التابع لماهيته بمعنى أنه تعالى لما علمها في الأزل على هذه الخصوصية لزم أن تتحقق وتوجد فيما لا يزال على هذه الخصوصية فنفس موتهم على الكفر وعدم إيمانهم متبوع لعلمه تعالى الأزلي

ووقوعه تابع له وهذا مما لا شبهة فيه وهو مذهب أهل السنة رحمهم الله تعالى وبه ينحل إشكالات كثيرة فليحفظ .

وذكر مولانا الشيخ إبراهيم الكوراني أن معنى كون العلم تابعاً للمعلوم أنه متعلق به كاشف له على ما هو عليه وبني على ذلك كون الماهيات ثابتة غير مجعولة في ثبوتها ، والقول بالتبعية المذكورة مما ذهب إليه الشيخ الأكبر قدس سره ونازع في ذلك عبد الكريم الجيلي .

وقال الشيخ محمد عمر البغدادي عليه الرحمة : إن كون العلم تابعاً للمعلوم بالنظر إلى حضرة الأعيان القديمة التي أعطت الحق العلم التفصيلي بها وأما بالنظر إلى العلم الإجمالي الكلي فالمعلوم تابع للعلم لأن الحق تعالى لما تجلى من ذاته لذاته بالفيض الأقدس حصلت الأعيان واستعداداتها فلم تحصل عن جهل تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وحينئذ فلا مخالفة بين الشيخ الأكبر قدس سره والجيلي ، على أنه إن بقيت هناك مخالفة فالحق مع الشيخ لأن الجيلي بالنسبة إليه نحلت تدندن حول الحمى ، والدليل أيضاً مع الشيخ كنار على علم لكنه قد أبعد رضي الله تعالى عنه الشوط بقوله : العلم تابع للمعلوم والمعلوم أنت وأنت هو والبحث وعر المسلك صعب المرتقى وتمام الكلام فيه يطلب من محله .

(275/358)

واستفادة معنى العلم هنا على ما قيل من التأكيد الذي أفادته اللام ، وفي الآية وعيد شديد وتهديد أكيد لأهل مكة لأنهم وؤولئك المهلكين مشتركون فيما يقتضي الإهلاك ، ويعلم مما تقرر أن ضمير ﴿ كَانُواْ ﴾ للقرون وهو ظاهر ، وجوز مقاتل أن يكون الضمير لأهل مكة وهو خلاف الظاهر ، وكذا جوز كون المراد بالقوم المجرمين أهل مكة على طريقة وضع الظاهر موضع ضمير الخطاب إيذاناً بأنهم أعلام في الإجرام وذكر ﴿ القوم ﴾ إشارة إلى أن العذاب عذاب استئصال .

والتشبيه على هذا ظاهر إذ المعنى يجزيكم مثل جزاء من قلبكم ، وأما على الأول فهو على منوال ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : 143] وأضرا به وفيه بعد أيضاً بل قال بعض المحققين : يأباه كل الإباء قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14) ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(276/358)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾

عاد الخطاب إلى المشركين عودا على بدئه في قوله : ﴿ إن ربكم الله إلى قوله لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ [يونس : 53] بمناسبة التماثل بينهم وبين الأمم قبلهم في الغرور بتأخير العذاب عنهم حتى حل بهم الهلاك فجأة .

وهذه الآية تهديد وموعظة بما حل بأمثالهم .

والجملة معطوفة على جملة : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ﴾ [يونس : 11] بما تضمنته من الإنذار بأن الشر قد ينزل بهم ولكن عذاب الله غير معجل ، فضرب لهم مثلاً بما نزل بالأمم من قبلهم فقضَى إليهم بالعذاب أجلُهم وقد كانوا يعرفون أمما منهم أصابهم الاستيصال مثل عاد وثمود وقوم نوح .

ولتوكيد التهديد والوعيد أكدت الجملة بلام القسم وقد التي للتحْقيق .

والإهلاك : الاستيصال والإفناء .

والقرون : جمع قرن وأصله مدة طويلة من الزمان ، والمراد به هنا أهل القرون .

وتقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ في سورة [الأنعام : 6] .

وقوله : من قبلكم ﴾ حال من القرون .

و ﴿ لمّا ﴾ اسم زمان بمعنى حين على التحقيق ، وتضاف إلى الجملة .

والعرب أكثروا في كلامهم تقديم (لما) في صدر جملتها فأشِمَّت بذلك التقديم رائحة

الشرطية فأشبهت الشروط لأنها تضاف إلى جملة فتشبه جملةَ الشرط ، ولأن عاملها فعل مُضي فبذلك اقتضت جملتين فأشبهت حروفَ الشرط .

والمعنى : أهلكناهم حينما ظلموا ، أي أشركوا وجاءتهم رسلهم بالبينات مثل هود وصالح ولم يؤمنوا .

وجملة : ﴿ وجاءتهم ﴾ معطوفة على جملة ﴿ ظلموا ﴾ .

والبينات : جمع بينة ، وهي الحجة على الصدق ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فقد جاءكم بينة من ربكم ﴾ في سورة [الأنعام : 157] .

وجملة : وما كانوا ليؤمنوا ﴾ معطوفة عليها .

ومجموع الجمل الثلاث هو ما وُقِّت به الإهلاك ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا ﴾ [القصص : 59] .

(277/358)

وعبر عن انتفاء إيمانهم بصيغة لام الجحود مبالغة في انتفائه إشارة إلى اليأس من إيمانهم .

وجملة : ﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ تذييل .

والتعريف في ﴿ القوم المجرمين ﴾ للاستغراق فلذلك عم القرون الماضية وعم المخاطبين ،

وبذلك كان إنذاراً لقريش بأن ينالهم ما نال أولئك .

والمُراد بالإجرام أقصاه ، وهو الشرك .

والقول في ﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ كالقول في نظيره آنفاً .

وكذلك ذكر لفظ (القوم) فهو كما في نظيره في هذه السورة وفي البقرة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(278/358)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾

فإياكم أن تسوّل لكم أنفسكم أن تظلوا على عداوتكم لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنكم لن تنالوا منه شيئاً ، وسيتم الله نوره ، فلستم بدعاً عن سابق الخلق .

و﴿ القرون ﴾ : جمع قرن ، والقرن من المقارنة ، وكل جماعة اقترنوا في شيء نسميهم " قرنا " . وقد يكون القرن في الزمنية ، ولذلك حسبوا القرن مائة سنة ، والبشر الذين يجتمعون في مائة سنة يسمونهم قرناً .

أو القرن جماعة يقترنون في شيء يجمعهم ، مهما طال بهم الأمد .

وقوله الحق : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القرون مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ فهل لو أمهلهم الله – تعالى – كانوا سيؤمنون ؟ لا ، فلله علمٌ أزليٌّ ، يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه اضطراراً أو اختياراً .

والمثل من حياتنا وأعرافنا – ولله المثل الأعلى – نجد الإنسان حين يريد بناء بيت ، فالأمر يختلف حسب مقدرته ؛ الفقير مثلاً يطلب بناء حجرتين ؛ فيخطط رجل البناء لبناء حجرتين ، وإذا كان الإنسان متوسط الحال ؛ فهو يتجه إلى مهندس يصمِّم له بناء على قدر سعته ، وإن كان الإنسان ثرياً ؛ فهو يستدعي المهندس الذي يبني له بيتاً حسب إمكانات ورغبات هذا الثرى ، ويصمم المهندس نموذجاً للبناء قبل أن يبدأ فيه ، وتظهر فيه كل التفاصيل ، حتى ألوان النوافذ والأبواب والحجرات .

والعالم قبل أن يخلقه الله سبحانه وتعالى كانت هيئته مقدرة أزلاً عنده سبحانه ، وهذا هو مطلق القدرة من الحق تعالى ، ويأتي واقع الكون على وفق ما قدره الخالق سبحانه أزلاً ؛ حتى ولو كان هناك اختيار للمخلوق الكافر ، فالله سبحانه يعلمه .

(279/358)

وقد صحَّ أن القلم جفَّ حتى في الأمور الاختيارية ، وسبحانه يعلم ما تجري به الأمور القهرية وما يقضيه على خلقه بدون اختيار منهم ، أما في الأمور الاختيارية فقد أعطى لخلقه الاختيار . وقد علم ما سوف يفعلونه غيباً ؛ فصمم المسألة على وفق ما علم . وإياك أن تظن أنه أراد بذلك أن يُلزمك ، لا ، فقد علم أنك ستختار . وهكذا علم الحق سبحانه من سيظلم نفسه – أزلاً – وسبق في علمه أن أهل القرون السابقة الذين أهلكهم لا يؤمنون .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القرون مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ والظلم معناه نقل الحق من صاحبه إلى غيره ، والحقوق الموهوبة من الخالق للبشر قد يظلمون فيها بعضهم البعض ، لكن أعلى درجات الظلم حين يظلم أحدٌ حقَّ الإله الأعلى في أن يكون إلهاً واحداً ، وأن ينقل ذلك لغيره . تلك هي قمة الظلم ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] .

وهم قد ظلموا في قضية العقيدة الأولى ، أو ظلموا في الحقوق بينهم وبين أنفسهم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس : 44] .

والواحد منهم ظالم ومظلوم في آن واحد ؛ لأن الإنسان ملكاته متعددة ، ومن هذه الملكات ملكة الإيمان الفطري ، وملكة النفع العاجل الذاتي .

فإذا تغلبت ملكة النفع العاجل ؛ تخرج النفس اللوَّامة ؛ لتعيد الأمر إلى صوابه ، أما إن كانت

نفس تأمر بالسوء فهي تطلب تحقيق الشهوات فقط ؛ لأنها نفس أمَّارة بالسوء . أما إن اطمأنت النفس إلى حكم الله تعالى ورضيت به ونفذت ما قاله الله سبحانه ، فهي نفس مطمئنة . ومن يظلم نفسه فهو الذي يتبع شهوات نفسه ، وهو قد أعطاها متعة عاجلة ؛ ليستقبل بعد ذلك شقاءً آجلاً ؛ فيكون قد ظلم نفسه .

(280/358)

والحق سبحانه لم يتركهم ، بل أرسل الرسل مُؤَيَّدين بالمعجزات ؛ ليبصّروهم . لكن الله تعالى يعلم أنهم لا يؤمنون ؛ لذلك قال : ﴿ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ أي : أنه سبحانه لو تركهم أحياء فلن يؤمنوا ، فهو الذي خلقهم وقد علم أزلاً لن يختاروا الإيمان .

والحق سبحانه هو العالم الأعلى الذي يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه ، لا على وفق ما يقهر خلقه عليه ، فلو كان علمه – سبحانه – على وفق ما يَقْهر الخلق عليه لكانت المسألة منتهية .

والمثال – ولله المثل الأعلى – أنت في البيت وتريد أن تقوم وزوجتك برحلة ، فإن كان الأولاد صغاراً ؛ فأنت تغلق عليهم الباب بعد أن تقول لهم : إن طعامكم في الثلاجة ؛ لحماً وسمكاً وجبناً وزيتوناً . وبعد أن تخرج أنت وزوجتك تقول لها : إن أبناءنا لن يأكلوا إلا

جبناً وزيتوناً ؛ لأنهم سوف يستسهلون هذا الطعام . ولو لم يكن في الثلاجة إلا الجبن ، لما قلت ذلك ؛ لأن هذا هو لون الطعام القهري .

لكن ما دام في الأمر اختيار ؛ فأنت تستشف من سابق سلوك الأبناء . وعندما ترجع تجد أبناءك قد تصرفوا وفق ما حكمت به ، رغم أنك تركت لهم الاختيار . ومثال هذا في القرآن قوله الحق : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد : 1-3] .

وفي هذا حكم من الله تعالى بان أبا لهب سيموت كافراً ، وهذا حكم مُعْلَن ويُردَّد في الصلاة ، ونحفظه ، وأبو لهب هو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان كافراً مثل غيره من الكفار . وقد آمن من الكفار الكثير . ألم يسلم عمر ؟ ألم يسلم عكرمة بن أبي جهل ؟ ألم يسلم عمرو بن العاص ؟ ألم يسلم خالد بن الوليد ؟ فما المانع أن يسلم أبو لهب هو الآخر ؟ لا ، لم يسلم وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه أن ذلك لن يكون منه . وما كان من الممكن أن يمكر أبو لهب ويعلن إسلامه تكذيباً للقرآن ؛ لأن الحق علم أزلاً سلوك أبي لهب .

(281/358)

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القرون مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كذلك نَجْزِي القوم المجرمين ﴾ .

وقوله : ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل هذا الجزاء الذي كان للأمم السابقة التي أهلكت في القرون الماضية تجري ممن يحدّد كل شيء ؛ لأن القضايا في الكون واحدة . فالقضية الإيمانية موجودة من أول ما أرسلت الرسل إلى أن تنتهي الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(282/358)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ : متعلقٌ ب " أَهْلكنا " ، ولا يجوز أن يكونَ حالاً من " القرون " لأنه ظرف زمان فلا يقع حالاً عن الجثة كما لا يقع خبراً عنها . وقد تقدَّم تحقيق هذا في أول البقرة ، وقد تقدَّم الكلامُ على " لمَّا " أيضاً .

قوله : ﴿ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على " ظلموا " فلا محلَّ له عند

سيبويه ، ومحله الجر عند غيره ، لأنه عطف على ما هو في محلِّ جرٍ بإضافة الظرف إليه ، ويجوز أن يكونَ في محلِّ نصبٍ على الحال ، أي : ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلُهم بالحُجَجِ والشواهد على صدقهم و " بالبينات " يجوز أن يتعلَّق ب " جاءتهم " ، ويجوز أن يتعلَّق بمحذوفٍ على أنه حالٌ من " رسلهم " [أي :] جاؤوا ملتبسين بالبينات مصاحبين لها .

قوله : ﴿ وَمَا كَانُواْ ﴾ الظاهرُ عَطْفه على " ظلموا " . وجَوَّز الزمخشري أن يكونَ/ اعتراضاً قال : " واللامُ لتأكيد فني إيمانهم ، ويعني بالاعتراض كونَه وقع بين الفعل ومصدرِه التشبيهي في قوله "كذلك نَجزي " . والضميرُ في "كانوا " عائد على " القرون " . وجَوَّز مقاتل أن يكونَ ضميرَ أهل مكة ، وعلى هذا يكونُ التفاتاً إذ فيه خروجٌ من ضمير الخطاب في قوله " قبلكم " إلى الغَيْبة ، والمعنى : وما كنتم لتؤمنوا ، و "كذلك " نعتٌ لمصدرٍ محذوف ، أي مثلَ ذلك الجزاء نجزي . وقُرِىء "يَجْزي " بياء الغيبة ، وهو التفاتٌ من التكلم في قوله " أَهْلكنا " إلى الغَيْبة . انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 162 ﴾

(283/358)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾

أخبر الحقُّ سبحانه بإهلاك الظالمين ، كما في الخبر : « لو كان الظلم بيتاً في الجنَّة لسلّط اللَّهُ عليه الخراب » . والظلمُ وَضْعُ الشيء في غير موضعه ، فإذا وَضَعَ العبدُ قَصْدَه – عند حوائجه – في المخلوقين ، وتعلَّق قلبُه بهم في الاستعانة ، وطَلَبَ المأمول فقد وَضَعَ الشيءَ في غير موضعه ، وهو ظلم ؛ فعقوبة هذا الظلم خرابُ القلب ، وهو انسداد طريق رجوع ذلك القلب إلى الله ؛ لأنه لو رجع إلى الله لأعانه وكفاه ، ولكنه يُصِرُّ على تعليق قلبه بالمخلوق فيبقى عن الله ، ولا ترتفع حاجتُه من غيره ، وكان من فقره وحاجته في مَضَرَّة . فإنْ صار إلى مضرة المذلة والحاجة إلى اللئيم فتلك محنةٌ عظيمةٌ .

وعلى هذا القياس إذا أحبَّ مخلوقاً فقد وَضَعَ محبته في غير موضعها ، وهذا ظلم ، وعقوبته خراب روحه لعدم صفاء ودّه ومحبته لله ، وذهاب ما كان يجده من الأُنس بالله ، إذا بقي عن الله يُذيقه الحَقُّ طعمَ المخلوقين ، فلا له مع الخَلْقِ سَلْوة ، ولا من الحق إلا الجفوة ، وعدم الصفوة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 83.84 ﴾

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما صرح بأن ذلك عام لكل مجرم ، أتبعه قوله : ﴿ ثم جعلناكم ﴾ أي أيها المرسل إليهم أشرف رسلنا ﴿ خلائف في الأرض ﴾ أي لا في خصوص ما كانوا فيه : ولما كان زماننا لم يستغرق ما بعد زمان المهلكين أدخل الجار فقال : ﴿ من بعدهم ﴾ أي القرون المهلكة إهلاك الاستئصال ﴿ لننظر ﴾ ونحن - بما لنا من العظمة - أعلم بكم من أنفسكم ، وإنما ذلك لنراه في عالم الشهادة لإقامة الحجة ﴿ كيف تعملون ﴾ فيتعلق نظرنا بأعمالكم موجودة تخويفاً للمخاطبين من أن يجرموا فيصيبهم ما أصاب من قبلهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 424 ﴾

(285/358)

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ ثُمَّ جعلناكم خلائف ﴾

الخطاب للذين بعث إليهم محمد عليه الصلاة والسلام ، أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكناهم ، لننظر كيف تعملون ، خيراً أو شراً ، فنعاملكم على حسب عملكم .

بقي في الآية سؤالان :

السؤال الأول : كيف جاز النظر إلى الله تعالى وفيه معنى المقابلة ؟

والجواب : أنه استعير لفظ النظر للعلم الحقيقي الذي لا يتطرق الشك إليه ، وشبه هذا العلم بنظر الناظر وعيان المعاين .

السؤال الثاني : قوله : ﴿ ثُمَّ جعلناكم خلائف فِى الأرض مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ مشعر بأن الله تعالى ما كان عالماً بأحوالهم قبل وجودهم .

والجواب : المراد منه أنه تعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم ، ليجازيهم بحسبه كقوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود : 7] وقد مر نظائر هذا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الدنيا خضرة حلوة وأن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون " وقال قتادة : صدق الله ربنا ما جعلنا خلفاء إلا لينظر إلى أعمالنا ، فأروا الله من أعمالكم خيراً ، بالليل والنهار .

المسألة الثالثة :

قال الزجاج: موضع ﴿كَيْفَ﴾ نصب بقوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لأنها حرف، لاستفهام والاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، ولو قلت: لننظر خيراً تعملون أم شراً، كان العالم في خير وشر تعملون. انتهى انتهى. ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 44. 45﴾

(286/358)

وقال الثعلبى:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم ﴾

أي من بعد القرون التي أهلكناهم ﴿لِنَنظُرَ﴾ لنرى ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وهو أعلم بهم . قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الدنيا خضرة حلوة وأن الله استخلفكم فيها فانظر كيف تعملون".

قتادة: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: صدق الله ربنا ما جعلنا خلفاء إلاّ لينظر إلى أعمالنا فأروا الله من أعمالكم خيراً بالليل والنهار والسرّ والعلانية.

وروى ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن عوف بن مالك قال لأبي بكر: رأيت فيما يرى النائم كأنّ شيئاً دُلّي من السماء فانتشط رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أُعيد فانتشط أبو بكر (رضي الله عنه) ثم ذرع الناس حول المنبر ففضّل عمر بثلاثة أذرع إلى

المنبر ، فقال عمر : دعنا من رؤياك لا أرب لنا فيها ، فلما استخلف عمر قال : قل يا عوف رؤياك ، قال : هل لك في رؤياي من حاجة ؟ أو لم تنهوني ؟ فقال : ويحك إني كرهت أن تنعى لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه . فقصّ عليه الرؤيا حتى إذا بلغ ذرع الناس المنبر بهذه الثلاثة الأذرع . قال : أما إحداهن فأنّه كائن خليفة وأما الثانية فإنه لا يخاف في الله لومة لائم ، وأما الثالثة فإنّه شهيد ، ثم قال : يقول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأرض ﴾ إلى قوله ﴿ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ فقد استخلفت يا ابن أم عمر فانظر كيف تعمل ، وأما قوله : فإني لا أخاف في الله لومة لائم فيما شاء الله ، وأما قوله : إني شهيد فأنّى لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به ، ثم قال : إن الله على ما يشاء لقدير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(287/358)

وقال ابن عطية :

و ﴿ خلائف ﴾ جمع خليفة

وقوله ﴿ لننظر ﴾ معناه لنبين في الوجود ما علمناه أزلاً ، لكن جرى القول على طريق الإيجاز والفصاحة والمجاز ، وقرأ يحيى بن الحارث وقال : رأيتها في الإمام مصحف عثمان

، " لنظر " بإدغام النون في الظاء ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن الله تعالى إنما جعلنا خلفاء لينظر كيف عملنا فأروا الله حسن أعمالكم في السر والعلانية ، وكان أيضاً يقول : قد استخلفت يا ابن الخطاب فانظر كيف تعمل ؟ وأحيانا كان يقول قد استخلفت يا ابن أم عمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ثم جعلناكم خلائف ﴾

قال ابن عباس : جعلناكم يا أُمة محمد خلائف ، أي : استخلفناكم في الأرض .

وقال قتادة : ما جَعَلَنا اللهُ خلائفَ إلا لينظر إلى أعمالنا ، فأرُوا الله من أعمالكم خيراً بالليل والنهار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ ﴾

مفعولان .

والخلائف جمع خليفة ، وقد تقدّم آخر "الأنعام" أي جعلناكم سكاناً في الأرض .

﴿ مِن بَعْدِهِم ﴾ أي من بعد القرون المهلكة .

"لِنَنْظُرَ" نصب بلام كي ، وقد تقدّم نظائره وأمثاله ؛ أي ليقع منكم ما تستحقون به الثواب والعقاب ، ولم يزل يعلمه غيباً .

وقيل : يعاملكم معاملة المختبر إظهاراً للعدل .

وقيل : النظر راجع إلى الرسل ؛ أي لينظر رسلنا وأولياؤنا كيف أعمالكم .

و"كيف" نصب بقوله : تعملون : لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(288/358)

وقال الخازن :

﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم ﴾

الخطاب لأهل مكة الذين أرسل فيهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمعنى ثم جعلناكم أيها الناس خلفاء في الأرض من بعد القرون الماضية الذين أهلكناهم ﴿ لننظر كيف تعملون ﴾ يعني خيراً أو شراً فنعاملكم على حسب أعمالكم والنظر هنا بمعنى العلم يريد لنختبر أعمالكم وهو يعلم ما يكون قبل أن يكون .

قال أهل المعاني : معنى النظر ، هو طلب العلم وجاز في وصف الله سبحانه وتعالى إظهاراً للعدل لأنه سبحانه وتعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم ليجازيهم بحسبه كقوله تبارك وتعالى : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ ذكره الواحدي

والرازي (م) عن سعيد الخدري أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إن الدنيا حلوة خصرة وأن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واحذروا فتنة النساء " أخرجه مسلم قوله فاتقوا الدنيا معناه احذروا فتنة الدنيا واحذروا فتنة النساء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(289/358)

وقال أبو حيان فى الآيتين :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾

هذا إخبار لمعاصري الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخطاب لهم بإهلاك من سلف قبلهم من الأمم بسبب ظلمهم وهو الكفر ، على سبيل الردع لهم والتذكير بحال من سبق من الكفار ، والوعيد لهم ، وضرب الأمثال ، فكما فعل بهؤلاء ، يفعل بكم .

ولفظة لما مشعرة بالعلية ، وهي حرف تعليق في الماضي .

ومن ذهب إلى أنها ظرف معمول لأهلكنا كالزمخشري متبعاً لغيره ، فإنما يدل إذْ ذاك على وقوع الفعل في حين الظلم ، فلا يكون لها إشعار إذ ذاك بالعلية .

لو قلت : جئت حين قام زيد ، لم يكن مجيئك مستبباً عن قيام زيد ، وأنت ترى حيثما

جاءت لما كان جوابها أو ما قام مقامه متسبباً عما بعدها ، فدل ذلك على صحة مذهب سيبويه من أنها حرف وجوب لوجوب .

وجاءتهم ظاهره أنه معطوف على ظلموا أي : لما حصل هذان الأمران : مجيء الرسل بالبينات ، وظلمهم أهلكوا .

وقال الزمخشري : والواو في وجاءتهم للحال أي : ظلموا بالتكذيب ، وقد جاءتهم رسلهم بالحجج والشواهد على صدقهم وهي المعجزات انتهى .

وقال مقاتل : البينات مخوفات العذاب ، والظاهر أنّ الضمير في قوله وما كانوا عائداً على القرون ، وأنه معطوف على قوله : ظلموا .

وجوّز الزمخشري أن يكون اعتراضاً لا معطوفاً قال : واللام لتأكيد النفي بمعنى : وما كانوا يؤمنون حقاً تأكيداً لنفي إيمانهم ، وأن الله تعالى قد علم أنهم مصرون على كفرهم ، وأنّ الإيمان مستبعد منهم والمعنى : أنّ السبب في إهلاكهم تعذيبهم الرسل ، وعلم الله أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل انتهى .

وقال مقاتل : الضمير في قوله : وما كانوا ليؤمنوا ، عائد على أهل مكة ، فعلى قوله يكون التفاتاً ، لأنه خرج من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة ، ويكون متسقاً مع قوله : وإذا تتلى عليهم .

والكاف في كذلك في موضع نصب أي : مثل ذلك الجزاء ، وهو الإهلاك .

نجزي القوم المجرمين فهذا وعيد شديد لمن أجرم ، يدخل فيه أهل مكة وغيرهم .

وقرأت فرقة : يجزي بالياء ، أي يجزى الله ، وهو التفات .

والخطاب في جعلناكم لمن بعث إليهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل : خطاب لمشركي مكة ، والمعنى : استخلفناكم في الأرض بعد القرون المهلكة لننظر أتعملون خيراً أم شراً فنعاملكم على حسب عملكم .

ومعنى لننظر : لنتبين في الوجود ما عملناه أولاً ، فالنظر مجاز عن هذا .

قال الزمخشري : فإنْ قلت : كيف جاز النظر على الله تعالى وفيه معنى المقابلة ؟ (قلت) : هو مستعار للعلم المحقق الذي هو علم بالشيء موجود ، أشبه بنظر الناظر وعيان المعاين في حقيقته انتهى .

وفيه دسيسة الاعتزال ، وأنه يلزم من النظر المقابلة ، وفيه إنكار وصفه تعالى بالبصير ورده إلى معنى العلم .

وقيل : لننظر ، هو على حذف مضاف أي : لينظر رسلنا وأولياؤنا .

وأسند النظر إلى الله مجازاً ، وهو لغيره .

وقرأ يحيى بن الحرث الزماري : لنظر ، بنون واحدة وتشديد الظاء وقال : هكذا رأيته في مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ويعني : أنه رآها بنون واحدة ، لأن النقط والشكل بالحركات والتشديدات إنما حدث بعد عثمان ، ولا يدل كتبه بنون واحدة على حذف النون من اللفظ ، ولا على إدغامها في الظاء ، لأن أدغام النون في الظاء لا يجوز ، ومسوغ حذفها أنه لا أثر لها في الأنف ، فينبغي أن تحمل قراءة يحيى على أنه بالغ في إخفاء الغنة ، فتوهم السامع أنه إدغام ، فنسب ذلك إليه .

وكيف معموله لتعملون ، والجملة في موضع نصب لننظر ، لأنها معلقة .

وجاز التعليق في نظر وإن لم يكن من أفعال القلوب ، لأنها وصلة فعل القلب الذي هو العلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(291/358)

وقال أبو السعود :

قولُه عز وجل : ﴿ ثُمَّ جعلناكم خلائف فِى الأرض مِن بَعْدِهِم ﴾

فإنه صريحٌ في أنه ابتداءٌ تعرّضَ لأمورهم وأن ما بينّ فيه إنما هو مبادي أحوالِهم لاختبار كيفياتِ أعمالِهم على وجه يُشعر باستمالتهم نحوَ الإيمان والطاعةِ فمُحالٌ أن يكون ذلك إثرَ

بيانِ منتهى أمرِهم وخطابِهم ببتّ القولِ بإهلاكهم لكمال إجرامِهم والمعنى ثم استخلفناكم في الأرض من بعد إهلاكِ أولئك القرونِ التي تسمعون أخبارَها وتشاهدون آثارَها استخلافَ من يَختبر ﴿ لِنَنظُرَ ﴾ أي لنعاملَ معاملةَ من ينظُر ﴿ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ فهي استعارةٌ تمثيلية ، وكيف منصوبٌ على المصدرية بتعملون لا بننظر فإن ما فيه من معنى الاستفهام مانعٌ من تقدم عامِله عليه أي أيَّ عملٍ أو على الحالية أي على أيّ حالٍ تعملون الأعمالَ اللائقةَ بالاستخلاف من أوصاف الحُسن كقوله عز وعلا : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ ففيه إشعارٌ بأن المرادَ بالذات والمقصودَ الأصليَّ من الاستخلاف إنما هو ظهورُ الكيفياتِ الحسنةِ للأعمال الصالحةِ ، وأما الأعمالُ السيئةُ فبمعزل من أن تصدُرَ عنهم لا سيما بعد ما سمِعوا أخبارَ القرونِ المهلَكه وشاهَدوا آثارَ بعضِها فضلاً عن أن يُنظمَ ظهورُها في سلك العلة الغائيةِ للاستخلاف ، وقيل : منصوبٌ على أنه مفعولٌ به أي أيَّ عملٍ تعملون أخيراً أم شراً فنعاملَكم بحسبه فلا يكون في كلمة كيف حينئذ دلالةٌ على أن المعتبرَ في الجزاء جهاتُ الأعمالِ وكيفياتُها لا ذواتُها كما هو رأيُ القائل بل تكون حينئذ مستعارةً لمعنى أيّ شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(292/358)

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ جعلناكم خلائف فِى الأرض مِن بَعْدِهِم ﴾

فإنه صريح في أنه ابتداء تعرض لأمورهم وإن ما بين فيه مبادي أحوالهم لاختبار كيفية أعمالهم على وجه يشعر باستمالتهم نحو الإيمان والطاعة فمحال أن يكون ذلك إثر بيان منتهى أمرهم وحطابهم ببت القول باهلاكهم لكمال إجرامهم والعطف على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ﴾ [يونس : 13] لا على مَا قَبْلِهِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كذلك نَجْزِي القوم المجرمين ثُمَّ جعلناكم خلائف فِى الأرض مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ أي لنعلم أي عمل تعملون فكيف مفعول مطلق لتعلمون ، وقد صرح في المغنى بأن كيف تأتي كذلك وأن منه ﴿ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر : 6] وليست معمولة ﴿ لِنَنظُرَ ﴾ لأن الاستفهام له الصدارة فيمنع ما قبله من العمل فيه ، ولذا لزم تقديمه على عامله هنا .

وقيل : محلها النصب على الحال من ضمير ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ كما هو المشهور فيها إذا كان بعدها فعل نحو كيف ضرب زيد أي على أي حال تعملون الأفعال اللائقة بالاستخلاف من أوصاف الحسن ، وفيه من المبالغة في الزجر عن الأعمال السيئة ما فيه ، وقيل : محلها النصب على أنها مفعول به لتعملون أي أي عمل تعملون خيراً أو شراً ، وقد صرحوا بمجيئها كذلك أيضاً ، وجعلوا من ذلك نحو كيف ظننت زيداً ، وبما ذكر فسر الزمخشري

الآية ، وتعقبه القطب بما تعقبه ثم قال : ولعله جعل كيف ههنا مجازاً بمعنى أي شيء لدلالة المقام عليه .

(293/358)

وذكر بعض المحققين أن التحقيق أن معنى كيف السؤال عن الأحوال والصفات لا عن الذوات وغيرها فالسؤال هنا عن أحوالهم وأعمالهم ولا معنى للسؤال عن العمل إلا عن كونه حسناً أو قبيحاً وخيراً أو شراً فكيف ليست مجازاً بل هي على حقيقتها ، ثم إن استعمال النظر بمعنى العلم مجاز حيث شبه بنظر الناظر وعيان المعاين في تحققه ، والكلام استعارة تمثيلية مرتبة على استعارة تصريحية تبعية ، والمراد يعاملكم معاملة من يطلب العلم بأعمالكم ليجازيكم بحسبها كقوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [المُلك : 2] وقيل يمكن أن يقال : المراد بالعلم المعلوم فحينئذ يكون هذا مجازاً مرتباً على استعارة ، وأيا ما كان فلا يلزم أن لا يكون الله سبحانه وتعالى عالماً بأعمالهم قبل استخلافهم ، وليس مبني تفسير النظر بالعلم على نفي الرؤية كما هو مذهب بعض القدرية القائلين بأنه جل شأنه لا يرى ولا يرى فأنا ولله تعالى الحمد ممن يقول : إنه تبارك وتعالى يرى ويري والشروط في الشاهد ليست شروطاً عقلية كما حقق في موضعه ، وان الرؤية صفة مغايرة

للعلم وكذا السمع أيضاً ، وممن يقول أيضاً : إن صور الماهيات الحادثة مشهودة لله تعالى أزلا في حال عدمها في أنفسها في مرايا الماهيات الثابتة عنده جل شأنه بل هو مبني على اقتضاء المعنى له فإنك إذا قلت : أكرمتك لأرى ما تصنع فمعناه أكرمتك لأختبرك وأعلم صنعك فأجازيك عليه ، ومن هنا يعلم أن حمل النظر على الانتظار والتربص كما هو أحد معانيه ليس بشيء ، وبعض الناس حمل كلام بعض الأفاضل عليه وارتكاب شططاً وتكلم غلطاً .

﴿ هذا ﴾ وقرىء ﴿ لنظر ﴾ بنون واحدة وتشديد الظاء ووجه ذلك أن النون الثانية قلبت ظاءاً وأدغمت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(294/358)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) .

هَاتَانِ الْآيَتَانِ فِي بَيَانِ شَأْنٍ مِنْ شُئُونِ الْبَشَرِ وَغَرَائِزِهِمْ فِيمَا يَعْرِضُ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَنَفْعٍ وَضُرٍّ ، وَشُعُورِهِمْ فِيهِ بِالْحَاجَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَاللُّجُوءِ إِلَى دُعَائِهِ

لِأَنْفُسِهِمْ وَعَلَيْهَا ، وَاسْتِعْجَالِهِمُ الْأُمُورَ قَبْلَ أَوَانِهَا ، وَهُوَ تَعْرِيضٌ بِالْمُشْرِكِينَ وَحُجَّةٌ عَلَى مَا يَأْتُونَ مِنْ شِرْكٍ ، وَمَا يُنْكِرُونَ مِنْ أَمْرِ الْبَعْثِ ، مُتَمِّمٌ لِمَا قَبْلَهُ وَلِذَلِكَ عَطَفَهُ عَلَيْهِ .

(295/358)

تَعْجِيلُ الشَّيْءِ تَقْدِيمُهُ عَلَى أَوَانِهِ الْمَضْرُوبِ أَوِ الْمُقَدَّرِ لَهُ أَوِ الْمَوْعُودِ بِهِ ، وَالِاسْتِعْجَالُ بِهِ طَلَبُ التَّعْجِيلِ ، وَالْعَجَلُ مِنْ غَرَائِزِ الْإِنْسَانِ الْقَابِلَةِ لِلتَّأْدِيبِ وَالتَّثْقِيفِ ، كَيْ لَا تَطْغَى بِهِ فَتُورِدَهُ الْمَوَارِدَ . قَالَ تَعَالَى : (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) (17 : 11) وَقَالَ تَعَالَى : (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ) (21 : 37) فَأَمَّا اسْتِعْجَالُهُ بِالْخَيْرِ وَالْحَسَنَةِ فَلِشِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَى مَنَافِعِهِ وَقِلَّةِ صَبْرِهِ عَنْهَا ، وَأَمَّا اسْتِعْجَالُهُ بِالضُّرِّ وَالسَّيِّئَةِ فَلَا يَكُونُ لِذَاتِهِ ، بَلْ لِسَبَبٍ عَارِضٍ كَالْغَضَبِ وَالْجَهْلِ وَالْعِنَادِ وَالِاسْتِهْزَاءِ وَالتَّعْجِيزِ ، وَقَلَّمَا يَكُونُ مَقْصُودًا بِنَفْسِهِ إِلَّا لِلنَّجَاةِ مِمَّا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ ، كَمَا يَفْعَلُ الْيَائِسُونَ مِنَ الْحَيَاةِ ، أَوِ النَّجَاةِ مِنْ ذُلٍّ وَخِزْيٍ أَوْ أَلَمٍ لَا يُطَاقُ ، إِذْ يَتَقَحَّمُونَ الْمَهَالِكَ أَوْ يَبْخَعُونَ أَنْفُسَهُمُ انْتِحَارًا .

(296/358)

قَالَ تَعَالَى : وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ الَّذِي يَسْتَعْجِلُونَهُ بِهِ ، كَاسْتِعْجَالِ مُشْرِكِي مَكَّةَ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْعَذَابِ الَّذِي أَنْذَرَهُمْ نُزُولَهُ بِهِمْ إِجْمَالًا ، بِمَا قَصَّهُ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ سُنَّةِ اللهِ تَعَالَى فِي أَقْوَامِ الرُّسُلِ الْمُعَانِدِينَ وَهُوَ عَذَابُ الِاسْتِئْصَالِ وَفِيمَا دُونَهُ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا كَخِزْيِهِمْ وَالتَّنْكِيلِ بِهِمْ وَنَصْرِهِ عَلَيْهِمْ ، أَوْ قِيَامِ السَّاعَةِ ، وَعَذَابِ الْآخِرَةِ . وَقَدْ حَكَى اللهُ تَعَالَى كُلَّ ذَلِكَ عَنْهُمْ كَقَوْلِهِ : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ) (13 : 6) الْآيَةَ (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً) (29 : 53) وَتَقَدَّمَ قَوْلُهُ : (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (8 : 32) وَقَالَ فِي السَّاعَةِ : (يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ) (42 : 18) وَفِي الْعَذَابِ : (يَسْتَعْجِلُونَكَ

(297/358)

بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) (29 : 54) وَكُلُّ هَذِهِ الضُّرُوبِ مِنَ الِاسْتِعْجَالِ كَانُوا يَقْصِدُونَ بِهَا تَعْجِيزَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُبَالَغَةً فِي التَّكْذِيبِ ،

وَاسْتِهْزَاءً بِالْوَعِيدِ ، وَقَوْلُهُ : (اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ) مَعْنَاهُ كَاسْتِعْجَالِهِمْ بِالْخَيْرِ الَّذِي يَطْلُبُونَهُ لِذَاتِهِ بِدُعَاءِ اللهِ تَعَالَى أَوْ بِمُحَاوَلَةِ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَظُنُّونَ أَنَّهَا قَدْ تَأْتِي بِهِ قَبْلَ أَوَانِهِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ، قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَيَعْقُوبُ الْجُمْلَةَ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ أَيْ لَقَضَى اللهُ إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ ، وَقَرَأَهَا الْجُمْهُورُ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ لِلْعِلْمِ بِالْفَاعِلِ وَقَضَاءُ الْأَجَلِ إِلَيْهِمُ انْتِهَاؤُهُ إِلَيْهِمْ بِإِهْلَاكِهِمْ قَبْلَ وَقْتِهِ الطَّبِيعِيِّ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ وَاسْتَعْجَلُوهُمْ بِالْعَذَابِ مِنْ قَبْلِهِمْ . وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى

(298/358)

أَرْحَمُ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَقَدْ بَعَثَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، بِالْهِدَايَةِ الدَّائِمَةِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، وَقَضَى بِأَنْ يُؤْمِنَ بِهِ قَوْمُهُ مِنَ الْعَرَبِ ، وَيَحْمِلُوا دِينَهُ إِلَى جَمِيعِ أُمَمِ الْعَجَمِ وَأَنْ يُعَاقِبَ الْمُعَانِدِينَ مِنْ قَوْمِهِ فِي الدُّنْيَا بِمَا يَكُونُ تَأْدِيبًا لِسَائِرِهِمْ ، بِمَا بَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ : (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ) (9 : 14) الْآيَةَ ، وَيُؤَخِّرُ سَائِرَ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَهُوَ لَا يَقْضِي إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ بِإِهْلَاكِهِمْ وَاسْتِئْصَالِهِمْ ؛ لِأَنَّ هَذَا الْعَذَابَ إِذَا نَزَلَ يَكُونُ عَامًّا ، بَلْ يَذَرُهُمْ وَمَا هُمْ فِيهِ إِلَى نِهَايَةِ آجَالِهِمْ وَذَلِكَ قَوْلُهُ : (فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) الطُّغْيَانُ : مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ فِي الشَّرِّ مِنْ

كُفْرٍ وَظُلْمٍ وَعُدْوَانٍ ، هَذَا هُوَ الْأَصْلُ ، وَطُغْيَانُ السَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَالدَّمِ مُسْتَعَارٌ مِنْهُ ، وَالْعَمَهُ (كَالتَّعَبِ) : التَّرَدُّدُ وَالتَّحَيُّرُ فِي الْأَمْرِ أَوْ فِي الشَّرِّ ، وَالْمَعْنَى : فَنَتْرُكُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا مِمَّنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنْ طُغْيَانٍ فِي الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ ، يَتَرَدَّدُونَ فِيهِ مُتَحَيِّرِينَ لَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا لِلْخُرُوجِ مِنْهُ ، لَا نُعَجِّلُ لَهُمُ الْعَذَابَ فِي الدُّنْيَا بِاسْتِئْصَالِهِمْ ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى فِي جَمَاعَتِهِمْ بِنَصْرِ رَسُولِهِ عَلَيْهِمْ ، وَفِي أَفْرَادِهِمْ بِقَتْلِ بَعْضِهِمْ وَمَوْتِ

(299/358)

بَعْضٍ ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ مِنْهُمْ ، أَيْ هَذِهِ سُنَّتُنَا فِيهِمْ لَا نُعَجِّلُ شَيْئًا قَبْلَ أَوَانِهِ الْمُقَدَّرِ لَهُ بِمُقْتَضَى عِلْمِنَا وَحِكْمَتِنَا .

وَفِي الْآيَةِ وَجْهٌ عَامٌّ غَيْرُ خَاصٍّ بِالْكَافِرِينَ تَقْدِيرُهُ : وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ الَّذِي يَسْتَعْجِلُونَهُ بِذُنُوبِهِمُ الْمُقْتَضِيَةِ لَهُ مِنْ ظُلْمٍ وَفَسَادٍ فِي الْأَرْضِ وَفُسُوقٍ لَأَهْلَكَهُمْ ، كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) (35 : 45) الْآيَةَ . وَيَدْخُلُ فِي الْمَعْنَى هُنَا دُعَاؤُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عِنْدَ الْيَأْسِ وَدُعَاءُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ عِنْدَ الْغَضَبِ ، لَوْ يُعَجِّلُهُ اللَّهُ لَهُمْ لَأَهْلَكَهُمْ أَيْضًا (وَمَا دُعَاءُ

الْكَافِرِينَ) (13 : 14) بِرَبِّهِمْ أَوْ بِنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ فِيمَا يُخَالِفُ شَرْعَهُ وَسُنَنَهُ فِي خَلْقِهِ إلَّا فِي ضَلَالٍ (13 : 14) أَيْ ضَيَاعٍ لَا يَسْتَجِيبُهُ اللَّهُ لَهُمْ ، لِحِلْمِهِ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ .

(300/358)

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ، هَذَا بَيَانٌ لِغَرِيزَةِ الْإِنْسَانِ الْعَامَّةِ وَشَأْنِهِ فِيمَا يَمَسُّهُ مِنَ الضُّرِّ ، يُعْلَمُ مِنْهُ أَنَّ اسْتِعْجَالَ أُولَئِكَ النَّاسِ بِالشَّرِّ ، تَعْجِيزًا لِنَبِيِّهِمْ وَمُبَالَغَةً فِي تَكْذِيبِهِ ، إنَّمَا هُوَ مِنْ طُغْيَانِهِمُ الَّذِي خَرَجُوا فِيهِ عَنْ مُقْتَضَى طَبِيعَتِهِمْ ، فَهُوَ يَقُولُ : إنَّ الْإِنْسَانَ إذَا أَصَابَهُ مِنَ الضُّرِّ مَا يَشْعُرُ بِشِدَّةِ أَلَمِهِ أَوْ خَطَرِهِ مِنْ إشْرَافٍ عَلَى غَرَقٍ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ التَّهْلُكَةِ ، أَوْ شِدَّةِ مَسْغَبَةٍ ، أَوْ إعْضَالِ دَاءٍ دَعَانَا مُلِحًّا فِي كَشْفِهِ عَنْهُ فِي كُلِّ حَالٍ يَكُونُ عَلَيْهِ : دَعَانَا مُضْطَجِعًا لِجَنْبِهِ ، أَوْ قَاعِدًا فِي كَسْرِ بَيْتِهِ ، أَوْ قَائِمًا عَلَى قَدَمَيْهِ حَائِرًا فِي أَمْرِهِ ، فَهُوَ لَا يَنْسَى حَاجَتَهُ إلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ ، مَا دَامَ يَشْعُرُ بِمَسِّ الضُّرِّ وَلَذْعِهِ لَهُ ، يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ الْعَجْزَ عَنِ النَّجَاةِ مِنْهُ ، قَدَّمَ مِنْ هَذِهِ الْحَالَاتِ الثَّلَاثِ مَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ فِيهَا أَشَدَّ عَجْزًا وَأَقْوَى شُعُورًا بِالْحَاجَةِ إلَى رَبِّهِ فَالَّتِي تَلِيهَا فَالَّتِي تَلِيهَا ، وَثَمَّ حَالَةٌ رَابِعَةٌ هِيَ سَعْيُهُ لِدَفْعِ الضُّرِّ مِنْ طَرِيقِ الْأَسْبَابِ ، فَلَمْ تُذْكَرْ

(301/358)

لِأَنَّ الْإِنْسَانَ غَيْرَ الْمُؤْمِنِ قَلَّمَا يَتَذَكَّرُ مَا أُودِعَ فِي فِطْرَتِهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِرَبِّهِ ذِي السُّلْطَانِ الْغَيْبِيِّ الَّذِي هُوَ فَوْقَ جَمِيعِ الْأَسْبَابِ ، وَيَشْعُرُ بِحَاجَتِهِ إِلَى اللُّجُوءِ إِلَيْهِ ، وَدُعَائِهِ وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِ ، إِلَّا عِنْدَ عَجْزِهِ عَنِ الْأَسْبَابِ الْمُسَخَّرَةِ لَهُ وَالْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ تَعَالَى أَقَلُّ النَّاسِ تَذَكُّرًا لِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ عِنْدَ عَجْزِهِمْ عَنِ الْأَسْبَابِ الْعَامَّةِ الْمَعْلُومَةِ يَلْجَئُونَ إِلَى مَظِنَّةِ الْأَسْبَابِ الْمَوْهُومَةِ ، وَهِيَ الْمَخْلُوقَاتُ الْمَعْبُودَةُ الَّتِي يَعْتَقِدُونَ أَنَّ لَهَا سُلْطَانًا غَيْبِيًّا فَوْقَ الْأَسْبَابِ ، مِنْ جِنْسِ سُلْطَانِ الرَّبِّ الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ إِمَّا لِذَاتِهَا وَإِمَّا بِمَا لَهَا مِنَ الْمَكَانَةِ عِنْدَ اللَّهِ ، وَالْمَثَلُ مَضْرُوبٌ هُنَا لِهَؤُلَاءِ .

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ، كَانَ الظَّاهِرُ أَنْ

(302/358)

يُقَالَ : (فَإِذَا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ) ؛ إِذْ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِلشَّرْطِ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ ، وَهُوَ فِي جِنْسِ الْإِنْسَانِ وَمُقْتَضَى طَبْعِهِ لَا فِي فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِ ، وَنُكْتَةُ هَذَا التَّعْبِيرِ أَنْ يَتَصَوَّرَ الْقَارِئُ وَالسَّامِعُ لِلْآيَةِ كَشْفَ الضُّرِّ بَعْدَ الدُّعَاءِ وَاقِعًا مُشَاهَدًا مِنْ شَخْصٍ مُعَيَّنٍ ، وَيَرَى مَا يَفْعَلُ بَعْدَهُ لِأَنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْعِبْرَةِ . أَيْ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ الَّذِي دَعَانَا لَهُ فِي حَالِ شُعُورِهِ بِعَجْزِهِ عَنْ كَشْفِهِ

بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ مِنَ الْأَسْبَابِ ، مَرَّ وَمَضَى فِي شُئُونِهِ عَلَى مَا كَانَ مِنْ طَرِيقَتِهِ فِي الْغَفْلَةِ عَنْ رَبِّهِ وَالْكُفْرِ بِهِ ، كَأَنَّ الْحَالَ لَمْ تَتَغَيَّرْ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ، وَلَمْ نَكْشِفْ عَنْهُ ضُرَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أَيْ كَهَذَا النَّحْوِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ وَالْإِخْلَاصِ فِي دُعَائِهِ وَحْدَهُ فِي الشِّدَّةِ ، وَنِسْيَانِهِ وَالْكُفْرِ بِهِ بَعْدَ كَشْفِهَا ، زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مِنْ طُغَاةِ مَكَّةَ وَغَيْرِهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ أَعْمَالِ الشِّرْكِ ، حَتَّى بَلَغَ مِنْ عِنَادِهِمْ لِلرَّسُولِ وَاسْتِهْزَائِهِمْ بِمَا أَنْذَرَهُمْ مِنْ عَذَابٍ أَنِ اسْتَعْجَلُوهُ بِالْعَذَابِ ؛ وَالْإِسْرَافُ رَدِيفُ الطُّغْيَانِ وَأَخُوهُ ، وَسَيَأْتِي مِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ عَشْرِ آيَاتٍ بِبَيَانٍ أَبْلَغَ .

(303/358)

وَقَدْ أُسْنِدَ التَّزْيِينُ هُنَا إِلَى الْمَفْعُولِ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ بِالْعِبْرَةِ دُونَ فَاعِلِهِ ، وَسَبَقَ مِثْلُهُ فِي آلِ عِمْرَانَ 3 : 14 وَالْأَنْعَامِ 6 : 43 وَالتَّوْبَةِ 9 : 37 وَقَدْ أُسْنِدَ إِلَى الشَّيْطَانِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَالْأَنْفَالِ ، وَأُسْنِدَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي الْأَنْعَامِ أَيْضًا بِقَوْلِهِ : (زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ) (108) وَبَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ نُكْتَةَ اخْتِلَافِ الْإِسْنَادِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ رَاجِعْ ص 557 وَمَا بَعْدَهَا ج 7 ط الْهَيْئَةِ .

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا

كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) .

بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ شَأْنَهُ فِي النَّاسِ وَشَأْنَهُمْ مَعَهُ بِمُقْتَضَى الطَّبْعِ الْبَشَرِيِّ وَطُغْيَانِ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ ؛ لِيَعْتَبِرَ بِهِ مُشْرِكُو مَكَّةَ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ يَعْقِلُهُ ؛ إذْ هُوَ مِنَ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ الْمُسْتَمَدِّ مِنْ طَبْعِ الْإِنْسَانِ وَسِيرَتِهِ ، وَقَفَّى عَلَيْهِ فِي هَاتَيْنِ

(304/358)

الْآيَتَيْنِ بِمِصْدَاقِهِ مِنْ سِيرَةِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَسُنَّتِهِ تَعَالَى فِيهِمْ فَقَالَ عَاطِفًا لَهُ عَلَى مَا قَبْلَهُ : (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا) الْخِطَابُ لِأُمَّةِ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، وُجِّهَ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ إلَى قَوْمِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَهْلِ وَطَنِهِ مَكَّةَ إذْ أُنْزِلَتِ السُّورَةُ فِيهَا ، فَهُوَ الْتِفَاتٌ يُفِيدُ مَزِيدَ التَّنْبِيهِ وَتَوْجِيهَ أَذْهَانِ الْمُخَاطَبِينَ لِمَوْضُوعِهِ ، وَالْقُرُونُ : الْأُمَمُ ، وَهُوَ جَمْعُ قَرْنٍ بِالْفَتْحِ ، وَمَعْنَاهُ الْقَوْمُ الْمُقْتَرِنُونَ فِي زَمَنٍ وَاحِدٍ ، وَقَدْ ذَكَرَ إهْلَاكَ الْقُرُونِ فِي آيَاتٍ عَدِيدَةٍ مِنَ السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ ، وَبَدَأَ هَذِهِ بِتَأْكِيدِ الْقَسَمِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ بِاللَّامِ " وَلَقَدْ " وَصَرَّحَ بِأَنَّ سَبَبَ هَلَاكِهِمْ وُقُوعُ الظُّلْمِ مِنْهُمْ ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ : (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) (18 : 59) وَلَمَّا ظَرْفٌ يَدُلُّ عَلَى وُقُوعِ فِعْلٍ لِوُقُوعِ غَيْرِهِ

مِمَّا هُوَ سَبَبٌ لَهُ ، وَالْمُرَادُ بِالْقُرَى الْأُمَمُ وَالْقُرُونُ كَمَا تَقَدَّمَ مِرَارًا ، وَقَالَ فِي سُورَةِ هُودٍ : (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (11 : 102) وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ الرُّسُلَ فِي أَهْلِ الْحَضَارَةِ دُونَ الْهَمَجِ .

وَإِهْلَاكُ اللَّهِ الْأُمَمَ بِالظُّلْمِ نَوْعَانِ :

(305/358)

(أَحَدُهُمَا) هُوَ مُقْتَضَى سُنَّتِهِ فِي نِظَامِ الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ ، وَهِيَ أَنَّ الظُّلْمَ سَبَبٌ لِفَسَادِ الْعُمْرَانِ وَضَعْفِ الْأُمَمِ ، وَلِاسْتِيلَاءِ الْقَوِيَّةِ مِنْهَا عَلَى الضَّعِيفَةِ اسْتِيلَاءً مُوَقَّتًا ، إِنْ كَانَ إِفْسَادُ الظُّلْمِ لَهَا عَارِضًا لَمْ يُجْهِزْ عَلَى اسْتِعْدَادِهَا لِلْحَيَاةِ وَاسْتِعَادَتِهَا لِلِاسْتِقْلَالِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ : (فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) (2 : 243) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، أَوْ دَائِمًا إِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ لِلْحَيَاةِ حَتَّى تَنْقَرِضَ أَوْ تُدْغَمَ فِي الْغَالِبَةِ . كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ : (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ) (21 : 11) الْآيَاتِ – وَهَذَا النَّوْعُ أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ لِلظُّلْمِ بِحَسْبِ سُنَنِ اللَّهِ فِي الْبَشَرِ ، وَهُوَ قِسْمَانِ : ظُلْمُ الْأَفْرَادِ لِأَنْفُسِهِمْ بِالْفُسُوقِ وَالْإِسْرَافِ فِي الشَّهَوَاتِ الْمُضْعِفَةِ لِلْأَبْدَانِ الْمُفْسِدَةِ لِلْأَخْلَاقِ ، وَظُلْمُ الْحُكَّامِ الَّذِي يُفْسِدُ بَأْسَ الْأُمَّةِ فِي جُمْلَتِهَا وَهَذِهِ السُّنَّةُ دَائِمَةٌ فِي الْأُمَمِ ، وَلَهَا حُدُودٌ وَمَوَاقِيتُ

تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِهَا وَأَحْوَالِ أَعْدَائِهَا ، هِيَ آجَالُهَا الْمُشَارُ إِلَيْهَا فِي الْآيَةِ (49) الْآتِيَةِ وَأَمْثَالِهَا .

(ثَانِيهِمَا) عَذَابُ الِاسْتِئْصَالِ لِلْأَقْوَامِ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا رُسُلًا لِهِدَايَتِهَا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَأَعْظَمُ أَرْكَانِهِ الْعَدْلُ ، فَعَانَدُوا الرُّسُلَ ، فَأُنْذِرُوهُمْ عَاقِبَةَ

(306/358)

الْجُحُودِ وَالْعِنَادِ بَعْدَ مَجِيءِ الْآيَاتِ ، وَهُوَ مَا بَيَّنَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : (وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ، أَيْ وَمَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَلَا مُقْتَضَى اسْتِعْدَادِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا ؛ لِأَنَّهُمْ مُرِّنُوا عَلَى الْكُفْرِ ، وَاطْمَأَنُّوا بِهِ ، وَصَارَتْ لَذَّاتُهُمْ وَمَصَالِحُهُمُ الْقَوْمِيَّةُ مِنَ الْجَاهِ وَالرِّيَاسَةِ وَالسِّيَاسَةِ مُقْتَرِنَةً بِأَعْمَالِهِ الْإِجْرَامِيَّةِ مِنْ ظُلْمٍ وَفِسْقٍ وَفُجُورٍ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ : تَذْيِيلٌ لِإِنْذَارِ مُشْرِكِي مَكَّةَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ، وَتَقْدِيرُهُ كَالَّذِي مَرَّ قَبْلَهُ فِي الْمُسْرِفِينَ ، وَرَاجِعْ تَفْسِيرَ : (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) (7 : 40) وَتَفْسِيرَ : (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) (7 : 84) مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ . م

(307/358)

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ) الْخِطَابُ مَعْطُوفٌ عَلَى الَّذِي قَبْلَهُ ، أَيْ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ أُولَئِكَ الْأَقْوَامِ كُلِّهِمْ بِمَا آتَيْنَاكُمْ فِي هَذَا الدِّينِ مِنْ أَسْبَابِ الْمُلْكِ وَالْحُكْمِ وَقَدَّرْنَاهُ لَكُمْ بِاتِّبَاعِهِ ، إِذْ كَانَ الرَّسُولُ الَّذِي بِهِ جَاءَكُمْ هُوَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، فَلَا يُوجَدُ بَعْدَ أُمَّتِهِ أُمَّةٌ أُخْرَى لِنَبِيٍّ آخَرَ ، وَالْخَلَائِفُ جَمْعُ خَلِيفَةٍ وَهُوَ مَنْ يَخْلُفُ غَيْرَهُ فِي الشَّيْءِ أَيْ يَكُونُ خَلَفَهُ فِيهِ ، وَلَقَدْ كَانَ لِتِلْكَ الْأُمَمِ دُوَلٌ وَحُكْمٌ فِي الْأَرْضِ ، كَمُلْكِ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ وَالْمَجُوسِ ، وَالْوَثَنِيِّينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَالْفَرَاعِنَةِ وَالْهُنُودِ ، فَاللَّهُ يُبَشِّرُ قَوْمَ مُحَمَّدٍ وَأُمَّةَ مُحَمَّدٍ بِأَنَّهَا سَتَخْلُفُهُمْ فِي الْأَرْضِ ، إِذَا آمَنَتْ بِهِ وَاتَّبَعَتِ النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ، كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) (24 : 55) الْآيَةَ ، وَقَدْ عَلَّلَ هَذَا الِاسْتِخْلَافَ عِنْدَ الْإِخْبَارِ الْأَوَّلِ بِهِ هُنَا بِقَوْلِهِ : (لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) أَيْ لِنَرَى وَنُشَاهِدَ أَيَّ عَمَلٍ تَعْمَلُونَ فِي خِلَافَتِكُمْ ، فَنُجَازِيَكُمْ بِهِ بِمُقْتَضَى سُنَّتِنَا فِيمَنْ قَبْلَكُمْ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْخِلَافَةَ إِنَّمَا جَعَلَهَا لَكُمْ لِإِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ فِي الْأَرْضِ وَتَطْهِيرِهَا مِنْ رِجْسِ الشِّرْكِ وَالْفِسْقِ ، لَا لِمُجَرَّدِ التَّمَتُّعِ بِلَذَّةِ الْمُلْكِ ، كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ

آيَاتِ الْإِذْنِ لَهُمْ بِالْقِتَالِ : (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ) (22 : 41) فَأَعْلَمَهُمْ سُبْحَانَهُ بِأَنَّ أَمْرَ بَقَاءِ خِلَافَتِهِمْ مَنُوطٌ بِأَعْمَالِهِمْ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى يَكُونُ نَاظِرًا إِلَى هَذِهِ الْأَعْمَالِ لَا يَغْفُلُ عَنْهُمْ فِيهَا ، حَتَّى لَا يَغْتَرُّوا بِمَا سَيَنَالُونَهُ ، وَيَظُنُّوا أَنَّهُ

بَاقٍ لَهُمْ لِذَاتِهِمْ أَوْ لِنِسْبَتِهِمْ إِلَى نَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَأَنَّهُمْ يَتَفَلَّتُونَ مِنْ سُنَّتِهِ فِي الظَّالِمِينَ وَقَدْ بَيَّنَهَا لَهُمْ آنِفًا ، وَقَالَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ : (أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ) (7 : 100) الْآيَةَ ، وَقَدْ قَصَّ عَلَيْنَا فِيهَا مَا حَذَّرَ بِهِ قَوْمَ مُوسَى عِنْدَمَا وَعَدَهُمْ عَلَى لِسَانِهِ بِإِرْثِ الْأَرْضِ الَّتِي وَعَدَ بِهَا آبَاءَهُمْ ، فِي إِثْرِ مَا شَكَوْا إِلَيْهِ مِنْ إِيذَاءِ قَوْمِ فِرْعَوْنَ لَهُمْ قَبْلَ مَجِيئِهِ وَبَعْدَهُ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُ : (قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (7 : 129)

.

(309/358)

وَلْيُرَاجِعِ الْقَارِئُ تَفْسِيرَ آيَةِ الْأَعْرَافِ فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ ، وَتَفْسِيرَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي اسْتِخْلَافِ الْأُمَمِ الْعَامِّ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ) الْآيَةَ رَقْمَ 165 ص 220 ج 8 ط الْهَيْئَةِ وَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ لِلْمُسْلِمِينَ كَغَيْرِهِمْ ، بِمَا تَبَيَّنَ بِهِ إِعْجَازُ كِتَابِهِ وَصَدَقَ رَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

(310/358)

وَكَوْنُهُ رَبَّى أُمَّتَهُ بِمَا عَلَّمَهُ رَبُّهُ مِنْ هِدَايَةِ الدِّينِ وَطَبَائِعِ الْعُمْرَانِ وَسُنَنِ الِاجْتِمَاعِ ، الَّتِي لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهَا هُوَ وَلَا قَوْمُهُ الْأُمِّيُّونَ ، بَلْ لَمْ تَصِرْ عِلْمًا مُدَوَّنًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ نُزُولِ الْقُرْآنِ بِعِدَّةِ قُرُونٍ ؛ لِغَفْلَةِ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَمَّا فِيهِ مِنْ أُصُولِهَا وَقَوَاعِدِهَا الصَّرِيحَةِ كَهَذِهِ الْآيَاتِ . وَقَدْ كَانَ أَوَّلَ مَنْ دَوَّنَهَا الْمُؤَرِّخُ الْفَقِيهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَلْدُونَ فِي مُقَدِّمَةِ تَارِيخِهِ ؛ مُؤَمِّلًا أَنْ يُعْنَى بِهَا مَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ فَيَأْتُوا بِتَوْسِيعِ مَا بَدَأَ بِهِ مِنْ مَبَاحِثِهَا ، وَلَكِنَّ الْعِلْمَ وَالْحُكْمَ فِي دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ ، كَانَ دَاخِلًا فِي طَوْرِ الِانْحِطَاطِ وَالِاضْمِحْلَالِ ، ثُمَّ ارْتَقَى الْإِفْرِنْجُ فِيهِمَا فَتَرْجَمُوا تِلْكَ الْمُقَدِّمَةَ بِلُغَتِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ كُلِّهَا ، وَأَخَذُوا مِنْهَا عِدَّةَ عُلُومٍ فِي سُنَنِ الْعُمْرَانِ ، وَنَحْنُ نَأْخُذُهَا الْيَوْمَ عَنْهُمْ غَافِلِينَ عَنْ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ ؛ لِأَنَّ عُلَمَاءَ السُّوءِ الْمُقَلِّدِينَ حَجَبُونَا عَنْ هِدَايَتِهِ ، بَلْ

حَرَّمُوهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ اسْتِغْنَاءً عَنْهُ بِكُتُبِ مَذَاهِبِهِمْ ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَلَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمُ انْتِقَامَهُ حَتَّى يَعُودُوا إِلَى هِدَايَتِهِ الَّتِي اسْتَخْلَفَ بِهَا سَلَفَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَلَئِنْ عَادُوا إِلَيْهَا بِإِقَامَةِ سُنَنِ الْقُرْآنِ ، لَيُتَمَّنَّ لَهُمْ وَعْدُهُ بِخِلَافَةِ الْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ ، فَبِقَدْرِ إِقَامَةِ هَذِهِ السُّنَنِ يَكُونُ الْمُلْكُ وَالسُّلْطَانُ . فَمَنْ ذَا الَّذِي يُقِيمُهَا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 254.260 ﴾

(311/358)

وقال ابن عاشور :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14) ﴾

عطف على ﴿ أهلكنا ﴾ [يونس : 13] وحرف (ثم) مؤذن ببعد ما بين الزمنين ، أي ثم جعلناكم تخلفونهم في الأرض .

وكون حرف (ثم) هنا عاطفاً جملة على جملة تقتضي التراخي الرتبي لأن جعلهم خلائف أهم من إهلاك القرون قبلهم لما فيه من المنة عليهم ، ولأنه عوضهم بهم .

والخلائف : جمع خليفة .

وتقدم في قوله : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ في سورة [الأنعام : 165] .

والمراد بالأرض ﴾ بلاد العرب ، فالتعريف فيه للعهد ؛ لأن المخاطبين خلفوا عاداً وثموداً وطسماً وجديساً وجُرهماً في منازلهم على الجملة .

والنظر : مستعمل في العلم المحقق ، لأن النظر أقوى طرق المعرفة ، فمعنى ﴿ لننظر ﴾ لنتعلم ، أي لنعلم علماً متعلقاً بأعمالكم .

فالمراد بالعلم تعلقه التنجيزي .

و﴿ كيف ﴾ اسم استفهام معلق لفعل العلم عن العمل ، وهو منصوب بـ ﴿ ننظر ﴾ ، والمعنى في مثله : لنعلم جواب كيف تعملون ، قال إياس بن قبيصة :

وأقبلت والخطى يخطر بيننا

لا علم مَن جبانها من شجاعها . . .

أي (لا علم) جَواب مَن (جبانها) .

وإنما جعل استخلافهم في الأرض علة لعلم الله بأعمالهم كناية عن ظهور أعمالهم في الواقع إن كانت مما يرضي الله أو ممَّا لا يرضيه فإذا ظهرت أعمالهم علمها الله علم الأشياء النافعة وإن كان يعلم أن ذلك سيقع علماً أزلياً ، كما أن بيت إياس بن قبيصة معناه ليَظهر الجبانُ من الشجاع .

وليس المقصود بتعليل الإقْدام حصول علمه بالجبان والشجاع ولكنه كنّى بذلك عن ظهور الجبان والشجاع .

وقد تقدم نظير هذا في قوله تعالى : ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ﴾ في سورة [آل عمران : 140] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(312/358)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14) ﴾

و ﴿ خَلَائِفَ ﴾ : جمع خليفة ، وهو من يَخْلُف غيره . والحق سبحانه وتعالى حينما وصف الإنسان أصدر أول بيان عن الإنسان قال للملائكة : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً . . . ﴾ [البقرة : 30] .

والله سبحانه وتعالى قادر ، وسميع ، وعليم ، وله من كل صفات الكمال المطلق ، وأنت قد تكون لك قدرة وقد تُعَدِّى أثر قدرتك إلى غيرك ، ولكنك لن تستطيع أن تُعدِّي قدرتك إلى سواك ، فإن كنت قوياً ؛ فلن تستطيع أن تَهَبَ ضعيفاً قدراً على قوتك . بل كل الذي تستطيعه هو أن تهبه أثر قدرتك ، فإن كان غير قادر على أن يحمل شيئاً ؛ فأنت قد تحمله عنه ، وإن كان غير قادر على المشي ؛ فأنت تأخذ بيده ، لكنك لا تستطيع أن تهبه جزءاً من قوتك الذاتية ، فيظل هو عاجزاً ، وتظل أنت قادراً – كما أنت .

هذا هو حال الخلق : تجد غنياً وآخر فقيراً ، ويُعطي الغني للفقير من غناه ، ويُعطي العالمُ للجاهل بعضَ العلم ، لكنه لا يهبه مَلَكَة العلم ؛ ليعلم .

أما الحق الأعلى سبحانه فهو وحده القادر على أن يهب من قدرته المطلقة للخلق قدرة موهوبة محدودة ، وقد أعطاهم سبحانه أثر القدرة العالية في الأفلاك التي صنعها ولا دخل للإنسان فيها ؛ من شمس ، وقمر ، ونجوم ، ورياح ، ومطر .

وأعطى الحق سبحانه للإنسان طاقة من قدرته في الأمور التي حوله ؛ فأصبح قادراً على أن يفعل بعض الأفعال التي تتناسب مع هذه الطاقة الموهوبة . وبذلك عدَّي له الحق سبحانه من قدرته ؛ ليقدر على الفعل ، ومن غناه ؛ ليعطي الفقير ، ومن علمه ؛ ليعطي الجاهل ، ومن حلمه ؛ ليحْلِم على الذي يؤذيه .

(313/358)

إذن : فالخلق لا يعدّون صفاتهم إلى غيرهم ولكنهم يعدون آثار صفاتهم إلى غيرهم ، وتظل الصفة هنا قوة ، والصفة هناك ضعفاً . أما الواحد الأحد فهو الذي يستطيع أن يهب من قدرته للعاجز قدرة ؛ فيفعل . فهل كل الكون هكذا ؟

إن الكون قسمان : قسم وهبة الله سبحانه وتعالى للإنسان بدون مجال له فيه . وقد أقامه

الحق بقدرته ، وهذا القسم من الكون مستقيم في أمره استقامة لا يتأتّى لها أي خَلَل ، مثل : نظام الأفلاك والسماء ودوران الشمس والقمر والريح وغيرها ، ولا تعاني من أي عطب أو خلل ، ولا يتأتى لهذا القسم فساد إلا بتدخُّل الإنسان .

وقسم آخر في الكون تركه الحق سبحانه للإنسان ؛ حتى يقيمه القوة الموهوبة له من الله .

وأنت لا تجد فساداً في كون الله تعالى إلا وجدت فيه للإنسان يداً ، أما الأمور التي ليس للإنسان فيها يد فهي مستقيمة ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 5] .

والمراصد تحدِّد موقع الأرض بين الشمس والقمر ، وموقع القمر بين الأرض والشمس بدقة تتناسب مع قوله الحق : ﴿ بِحُسْبَانٍ ﴾ ؛ لأن الإنسان ليس له دخل في هذه الأمور .

وفيما لنا فيه اختيار علينا أن نتدخل بمنهج الله تعالى ؛ لتستقيم حركتنا مثل استقامة الحركة في الأكوان العليا التي لا دخل لنا فيها .

إذن : فالذي يُفْسد الأكوان هو تدخُّل الإنسان – فيما يحيط به ، وفيما ينفعل له وينفعل به – على غير منهج الله ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ الرحمن * عَلَّمَ القرآن * خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ البيان * الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 1-5] .

(314/358)

أي : هذه الأكوان مخلوقة بحساب ، وتستطيعون أن تُقَدِّروا أوقاتكم وحساباتكم على أساسها . ويقول سبحانه : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ * والنجم والشجر يَسْجُدَانِ * والسماء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان * أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الميزان * وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ [الرحمن : 5-9] .

وحتى تستقيم لكم الأمور الدنيا في حركتكم في الكون – كما استقامت لكم الأمور العليا ؛ وازنوا كل الأمور بالعدل ؛ فلا يختل لكم ميزان ؛ لأن الذي يُفسد الكون أنكم تتدخلون فيما أعطي لكم من مواهب الله قدرة وعلماً وحَركة على غير منهج الله . فادخلوا على أمور حياتكم بمنهج الله في " افعل " و " لا تفعل " ؛ ليستقيم لكم الكون الأدنى كما استقام لكم الكون الأعلى .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأرض ﴾ وقد خلف الإنسان الله تعالى في الأرض ، في أنه – مثلاً – يحرث الأرض ويسقيها ؛ فيخرج له الزرع ، وحين يأخذ الإنسان أسباب الله فهو ينال نتيجة الأخذ بالأسباب . ولكن آفة الإنسان بغروره ، حين تستجيب له الأشياء ، فهو يظن أنه قادر بذاته ، لا بأسباب الله .

والحق سبحانه وتعالى يُعطي بعطاء ربوبيته للمؤمن ، وللكافر ؛ لأنه سبحانه هو الذي استدعى الإنسان إلى الوجود ، لكنه جلّ وعلا ميَّز المؤمن ، لا بعطاء الأسباب فقط ،

ولكن بالمنهج ، والتكليف المتمثل في " افعل كذا " و " لا تفعل كذا " ، فإن أخذ العطاءين من الله يبقَ له حسن الجزاء في الدنيا والآخرة ، وإن أخذ العطاء الثاني في " افعل " و " لا تفعل " ، فهو يأخذ الآخرة ، أما دنياه فتظل متخلّفة .

ومن يُردْ أن يأخذ حُسْن الدنيا والآخرة ، فليأخذ عطاء ربوبية الله تعالى بالأخذ بالأسباب ، وعطاء الألوهية باتّباع المنهج .

(315/358)

إلا أن آفة الخليفة في الأرض أنه لا يرى بعض الأمور مستجيبة له ؛ فيطغي ، ويظن أنه أصيل في الكون ، ونقول له : ما دمت تظن أنك أصيل في الكون فحافظ على روحك ، وعلى قوتك ، وعلى غناك ، وأنت لن تستطيع ذلك . فأنت إنْ تمردت على أوامر الله بالكفر – مثلاً ، فلماذا لا تتمرد على المرض أو الموت ؟

إذن : أنت مقهور للأعلى غصباً عنك ، ويجب أن تأخذ من الأمور التي تنزل عليك بالأقدار ؛ لتلجمك ، وتقهرك ، إلى أن تأخذ الأمور التي لك فيها اختيار بمنهج الله سبحانه .

ولو ظن الخليفة في الأرض أنه أصيل في الكون ، فعليه أن يتعلّم مما يراه في الكون ، فأنت قد توكّل محامياً في العقود والتصرفات ؛ فيتصرف في الأمور كلها دون الرجوع إليك ولا يعرض

عليك بياناً بما فعل ، فتقوم أنت بإلغاء التوكيل .

فيلتفت مثل هذا المحامي إلى أن كل تصرف له دون التوكيل قد صار غير مقبول . فماذا عن توكيل الله للإنسان بالخلافة ؟ يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأرض ﴾ فاذا كنتم قد خَلَفْتُم من هلكوا ، فمن اللازم أن تأخذوا العظة والعبرة في أن الله تعالى غالب على أمره ، ولا ترهقوا الرسل ، بل تأخذوا المنهج ، أو على الأقل ، لا تعارضوهم إن لم تؤمنوا بالمنهج الذي جاءوا به من الله .

واتركوهم يعلنون كلمة الله ، وليعيدوا صياغة حركة المؤمنين برسالاتهم في هذا الكون على وفق ما يريده الله سبحانه ، وأنتم أحرار في أن تؤمنوا أو لا تؤمنوا . ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . . ﴾ [الكهف : 29] .

والدليل على ذلك أن الإسلام حينما فتح كثيراً من البلاد ترك لهم حرية اعتناق الإسلام أو البقاء على أديانهم ، مع أنه قد دخل بلادهم بالدعوة أو الغلبة ، ولكنه لم يقهر أحداً على الدين ، وأخذ المسلمون منهم الجزية مقابل حماية المسلمين لهم .

(316/358)

ولو كان الإسلام قد انتشر بالسيف لما أبقي أحداً على دينه ، ولكن الإسلام لم يُكْره أحداً ، وحمى حرية الاختيار بالسيف . ولأن الذين لم يؤمنوا بالإسلام عاشوا في مجتمع تتكفّل الدولة الإسلامية فيه بكل متطلبات حياتهم ، والمسلم يدفع زكاة لبيت المال ، فعلى من لم يؤمن – وينتفع بالخدمات التي يقدمها المجتمع المسلم – أن يدفع الجزية مقابل تلك الخدمات . وإذا اعتقد الإنسان أنه خليفة ، وظل متذكراً لذلك ، فهو يتذكر أن سطوة من استخلفه قادرة على أن تمنع عنه هذه الخلافة .

إذن : فخذوا الأمر بالتسليم ، وساعدوا النبي صلى الله عليه وسلم على دعوته ، وآمنوا به أولاً ، وإن لم يؤمنوا به فاتركوه ؛ ليعلن دعوته ، ولا تعاندوه ، ولا تصرفوا الناس عنه ؛ لأن الحق هو القائل : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : 14] .

وساعة تأتي لأمر يعلله الله بكلمة ﴿ لِيَعْلَمَ . . . ﴾ [المائدة : 94] .

أو ﴿ لِنَنظُرَ . . . ﴾ [يونس : 14] .

فاعلم أن الله عالم وعليم ، علم كل الأمور قبل أن توجد ، وعلم الأشياء التي للناس فيها اختيار ، وهو القائل : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغيب . . . ﴾ [الحديد : 25] .

وقد علم الحق سبحانه أزلاً كل شيء ، وإذا قال الله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ﴾ فليس معنى ذلك أن هناك علماً جديداً لم يكن يعلمه سوف ينشأ له ، لكنه يعلم علم مشهد وإقرار منك ؛ حتى لا يقول قائل : لماذا يحاسبنا الله على ما عَلِمَ أزلاً ؟ بل يأتي سبحانه بالاختيار الذي يحدّد للعبد المعايير التي تتيح للمؤمن أن يدخل الجنة ، وللعاصي أن يُحاسَب ويُجازَى .

(317/358)

وبذلك يعلم الإنسان أن الحق سبحانه شاء ذلك ؛ ليعرف كل عبد عِلم الواقع ، لا عِلْم الحصول .

إذن : فذكر كلمة ﴿ وَلِيَعْلَمَ ﴾ وكلمة ﴿ لِنَنظُرَ ﴾ في القرآن معناها علم واقع ، وعلم مشهد ، وعلم حُجّة على العبد ؛ فلا يستطيع أن ينكر ما حدث ، وقوله الحق : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغيب ﴾ [الحديد : 25] .

هذه الآية تبين لنا أدوات انتظام الحكم الإلهي : رسل جاءوا بالبرهان والبينة ، وأنزل الحديد للقهر ، قال الحق سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد : 25] .

وقرن ذلك بالرسل ، فقال : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ والنصرة لا تكون إلا بقوة ، والقوة

تأتي بالحديد الذي يظل حديداً إلى أن تقوم الساعة ، وهو المعدن ذو البأس ، والذي لن يخترعوا ما هو أقوى منه ، وعلْم الله سبحانه هنا عِلْم وقوع منكم ، لا تستطيعون إنكاره ؛ لأنه سبحانه لو أخبر خبراً دون واقع منكم ؛ فقد تكذبون ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغيب ﴾ وفي هذا لون من الاحتياط الجميل .

وقوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ كأن الله يطلب منكم أن تنصروه ، لكن إياكم أن تفهموا المعنى أنه سبحانه ضعيف ، معاذ الله ، بل هو قوي وعزيز . فهو القائل : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [التوبة : 14] .

بل يريد سبحانه أن يكون أعداء الإيمان أذلاء أمامكم ؛ لأنه سبحانه يقدر عليهم .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ إنما يعني : أن يكون علم الله بمن ينصر منهجه أمراً غيبيّاً ؛ حتى لا يقول أحدٌ إن انتصار المنهج جاء صدفة ، بل يريد الحق سبحانه أن يجعل نُصْرة منهجه بالمؤمنين ، حتى ولو قَلَّت عدَّتُهم ، وقلّ عددهم .

(318/358)

إذن : قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ ﴾ [يونس : 14] .

أي : نظر واقع ، لا نظر علم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(319/358)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية فقال : صدق ربنا ، ما جعلنا خلائف في الأرض إلا لينظر إلى أعمالنا ، فأروا الله خير أعمالكم بالليل والنهار والسر والعلانية .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ ثم جعلناكم خلائف ﴾ لأمة محمد صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(320/358)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِنَنظُرَ ﴾ : متعلق بالجَعْل . وقرأ يحيى الذماري بنون واحدة وتشديد الظاء . وقال يحيى : " هكذا رأيته في مصحف عثمان " يعني أنه رآها بنون واحدة ، ولا يعني أنه رآها مشددة ؛ لأنَّ هذا الشكل الخاص إنما حَدَث بعد عثمان . وخرَّجوها على إدغامِ النون الثانية في الظاء وهو رديءٌ جداً ، وأحسنُ ما يقال فيه : إنه بالغ في إخفاءِ غُنَّة النون الساكنة فظنَّه السامع إدغاماً ، ورؤيتُه له بنونٍ واحدة لا يدلُّ على قراءته إياه مشددَ الظاء ولا مخففَها . قال الشيخ : " ولا يدلُّ " على حَذْفَ النون من اللفظ " . وفيه نظرٌ لأنه كيف يقرأ ما لم يكن مكتوباً في المصحف الذي رآه ؟

وقوله : ﴿ كَيْفَ ﴾ منصوبٌ ب " تعملون " على المصدر ، أي : أيَّ عملٍ تعملون ، وهي معلِّقة للنظر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 163 ﴾

(321/358)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14) ﴾

عرَّفناكم بِسِرِّ مَنْ قَبْلَكُم ، وما أصابهم بسبب ذنوبهم ، فإذا اعتبرتم بهم نَجْوتُم ، ومن لم يعتبرْ بما سمعه اعتبر به من تبعه .

ويقال أحللنا بهم من العقوبة ما يعتريكم ، ومَنْ لم يعتبرُ بِمَنْ سَبَقَه اعتبرْ به مَنْ لَحِقه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 84 ﴾

(322/358)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تقدم أن من قضى بشقاوته لا يتأتى إيمانه بآية من الآيات حتى تنزل به سطوته وتذيقه

بأسه ونقمته .

وكان القرآن أعظم آية أنزلت إلى الناس لما لا يخفى .

أتبع ذلك عطفاً على قوله ﴿ قال الكافرون إن هذا لسحر مبين ﴾ بقوله بياناً لذلك :

﴿ وإذا تتلى ﴾ بناه للمفعول إيذاناً بتكذيبهم عند تلاوة أي تالٍ كان .

وأبداه مضارعاً إشارة إلى أنهم يقولون ذلك ولو تكررت التلاوة ﴿ عليهم ﴾ أي على هؤلاء الناس ﴿ آياتنا ﴾ أي على ما لها من العظمة بإسنادها إلينا ﴿ بينات ﴾ فإنه مع ما اشتمل عليه مما لزمهم به الإقرار بحقيقته قالوا فيه ما لا معنى له إلا التلاعب والعناد ، ويجوز عطفه على ﴿ ثم جعلناكم خلائف ﴾ - الآية - والالتفات إلى مقام الغيبة للإيذان بأنهم للإعراض لإساءتهم الخلافة ، والموصول بصلته في قوله : ﴿ قال الذين لا يرجون لقآءنا ﴾ في موضع الضمير تنبيهاً على أن هذا الوصف علة قولهم ، ولعله عبر بالرجاء ترغيباً لهم لأن الرجاء محط أمرهم في طلب تعجيله للخير ودفعه للضمير .

فكان من حقهم أن يرجوا لقاءه تعالى رغبة في مثل ما أعده لمن أجابه ، ولوح إلى الخوف بنون العظمة ليكون ذلك أدعى لهم إلى الإقبال ﴿ ائت ﴾ أي من عندك ﴿ بقرآن ﴾ أي كلام مجموع جامع لما تريد ﴿ غير هذا ﴾ في نظمه ومعناه ﴿ أو بدله ﴾ أي بألفاظ أخرى والمعاني باقية وقد كانوا عالمين - صلى الله عليه وسلم - مثلهم في العجز عن ذلك ولكنهم قصدوا أنه يأخذ في التعبير حرصاً على إجابة مطلوبهم فيبطل مدعاه أو يهلك .

ولما كان كأنه قيل : فماذا أقول لهم ؟ قال : ﴿ قل ما يكون ﴾ أي يصح ويتصور بوجه من الوجوه ﴿ لي ﴾ ولما كان التبديل يعم القسمين الماضيين قال : ﴿ أن أبدله ﴾ وقال : ﴿ من تلقاء ﴾ أي عند وقِبَل ﴿ نفسي ﴾ إشارة إلى الرد عليهم في إنكار تبديل الذي أنزله بالنسخ بحسب المصالح كما أنزل أصله لمصلحة العباد مع نسخ الشرائع الماضية به ، فأنتج ذلك قطعاً قوله : ﴿ إن أتبع ﴾ أي بغاية جهدي ﴿ إلاّ ما ﴾ ولما كان قد علم أن الموحي إليه الله قال ﴿ يوحى إلي ﴾ أي سواء كان بدلاً أو أصلاً ؛ ثم علل ذلك بقوله مؤكداً لإنكارهم مضمونه : ﴿ إني أخاف ﴾ أي على سبيل التجدد والاستمرار ﴿ إن عصيت ربي ﴾ أي المحسن إليّ والموجد لي والمربي والمدبر بفعل غير ما شرع لي ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ فإني مؤمن به غير مكذب ولا شاك كغيري ممن يتكلم من الهذيان بما لا يخاف عاقبته في ذلك اليوم ، وإذا خفته – مع استحضار صفة الإحسان – هذا الخوف فكيف يكون خوفي مع استحضار صفة الجلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 425 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن هذا الكلام هو النوع الثالث من شبهاتهم وكلماتهم التي ذكروها في الطعن في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، حكاها الله تعالى في كتابه وأجاب عنها .

واعلم أن من وقف على هذا الترتيب الذي نذكره ، علم أن القرآن مرتب على أحسن الوجوه .

المسألة الثانية :

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن خمسة من الكفار كانوا يستهزئون بالرسول عليه الصلاة والسلام وبالقرآن .

الوليد بن المغيرة المخزومي ، والعاص بن وائل السهمي ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن حنظلة ، فقتل الله كل رجل منهم بطريق آخر ، كما قال : ﴿ إِنَّا كفيناك المستهزءين ﴾ [الحجر : 95] فذكر الله تعالى أنهم كلما تلي عليهم آيات : ﴿ قَالَ

الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائت بِقُرْءانٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : أن وصفهم بأنهم لا يرجون لقاء الله أريد به كونهم مكذبين بالحشر والنشر ، منكرين للبعث والقيامة ، ثم في تقرير حسن هذه الاستعارة وجوه : الأول : قال الأصم : ﴿ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ أي لا يرجون في لقائنا خيراً على طاعة ، فهم من السيئات أبعد أن يخافوها .

الثاني : قال القاضي : الرجاء لا يستعمل إلا في المنافع ، لكنه قد يدل على المضار من بعض الوجوه ، لأن من لا يرجو لقاء ما وعد ربه من الثواب ، وهو القصد بالتكليف ، لا يخاف أيضاً ما يوعده به من العقاب ، فصار ذلك كناية عن جحدهم للبعث والنشور .

(325/358)

واعلم أن كلام القاضي قريب من كلام الأصم ، إلا أن البيان التام أن يقال : كل من كان مؤمناً بالبعث والنشور فإنه لا بد وأن يكون راجياً ثواب الله وخائفاً من عقابه ، وعدم اللازم يدل على عدم الملزوم ، فلزم من نفي الرجاء نفي الإيمان بالبعث .

فهذا هو الوجه في حسن هذه الاستعارة .

البحث الثاني : أنهم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أمرين على البدل :

فالأول : أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن .

والثاني : أن يبدل هذا القرآن وفيه إشكال ، لأنه إذا بدل هذا القرآن بغيره ، فقد أتى بقرآن غير هذا القرآن ، وإذا كان كذلك كان كل واحد منهما شيئاً واحداً .

وأيضاً مما يدل على أن كل واحد منهما هو عين الآخر أنه عليه الصلاة والسلام اقتصر في الجواب على نفي أحدهما ، وهو قوله : ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ وإذا ثبت أن كل واحد من هذين الأمرين هو نفس الآخر ، كان إلقاء اللفظ على الترديد والتخيير فيه باطلاً .

والجواب : أن أحد الأمرين غير الآخر ، فالإتيان بكتاب آخر ، لا على ترتيب هذا القرآن ولا على نظمه ، يكون إتياناً بقرآن آخر ، وأما إذا أتى بهذا القرآن إلا أنه وضع مكان ذم بعض الأشياء مدحها ، ومكان آية رحمة آية عذاب ، كان هذا تبديلاً ، أو نقول : الإتيان بقرآن غير هذا هو أن يأتيهم بكتاب آخر سوى هذا الكتاب .

مع كون هذا الكتاب باقياً بحاله ، والتبديل هو أن يغير هذا الكتاب .

وأما قوله : إنه اكتفى في الجواب على نفي أحد القسمين .

قلنا : الجواب المذكور عن أحد القسمين هو عين الجواب عن القسم الثاني .

وإذا كان كذلك وقع الاكتفاء بذكر أحدهما عن ذكر الثاني .

وإنما قلنا : الجواب عن أحد القسمين عين الجواب عن الثاني لوجهين : الأول : أنه عليه الصلاة والسلام لما بين أنه لا يجوز أن يبدله من تلقاء نفسه ، لأنه وارد من الله تعالى ولا يقدر على مثله ، كما لا يقدر سائر العرب على مثله ، فكان ذلك متقرراً في نفوسهم بسبب ما تقدم من تحديه لهم بمثل هذا القرآن ، فقد دلهم بذلك على أنه لا يتمكن من قرآن غير هذا .

والثاني : أن التبديل أقرب إلى الإمكان من المجيء بقرآن غير هذا القرآن ، فجوابه عن الأسهل يكون جواباً عن الأصعب ، ومن الناس من قال : لا فرق بين الإتيان بقرآن غير هذا القرآن وبين تبديل هذا القرآن ، وجعل قوله : ﴿ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ ﴾ جواباً عن الأمرين ، إلا أنه ضعيف على ما بيناه .

المسألة الثالثة :

اعلم أن إقدام الكفار على هذا الالتماس يحتمل وجهين : أحدهما : أنهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء ، مثل أن يقولوا : إنك لو جئتنا بقرآن آخر غير هذا القرآن أو بدلته لآمنا بك ، وغرضهم من هذا الكلام السخرية والتطير .

والثاني : أن يكونوا قالوه على سبيل الجد ، وذلك أيضاً يحتمل وجوهاً : أحدها : أن يكونوا قالوا ذلك على سبيل التجربة والامتحان ، حتى إنه إن فعل ذلك ، علموا أنه كان كذاباً في قوله : إن هذا القرآن نزل عليه من عند الله .

وثانيها : أن يكون المقصود من هذا الالتماس أن هذا القرآن مشتمل على ذم آلهتهم والطعن في طرائقهم ، وهم كانوا يتأذون منها ، فالتمسوا كتابا آخر ليس فيه ذلك .

وثالثها : أن بتقدير أن يكونوا قد جوزوا كون هذا القرآن من عند الله ، التمسوا منه أن يلتمس من الله نسخ هذا القرآن وتبديله بقرآن آخر .

وهذا الوجه أبعد الوجوه .

واعلم أن القوم لما ذكروا ذلك أمره الله تعالى أن يقول : إن هذا التبديل غير جائز مني ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَىَّ ﴾ ثم بين تعالى أنه بمنزلة غيره في أنه متوعد بالعذاب العظيم إن عصى .

(327/358)

ويتفرع على هذه الآية فروع :

الفرع الأول : أن قوله : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَىَّ ﴾ معناه : لا أتبع إلا ما يوحى إلي ، فهذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام ما حكم إلا بالوحي ، وهذا يدل على أنه لم يحكم قط بالاجتهاد .

الفرع الثاني : تمسك نفاة القياس بهذه الآية فقالوا : دل هذا النص على أنه عليه الصلاة

والسلام ما حكم إلا بالنص .

فوجب أن يجب على جميع الأمة أن لا يحكموا إلا بمقتضى النص لقوله تعالى : ﴿ واتبعوه ﴾ [الأعراف : 158] الفرع الثالث : نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إن ذلك منسوخ بقوله : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] وهذا بعيد لأن النسخ إنما يدخل في الأحكام والتعبدات لا في ترتيب العقاب على المعصية .

الفرع الرابع : قالت المعتزلة : إن قوله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ مشروط بما يكون واقعاً بلا توبة ولا طاعة أعظم منها ، ونحن نقول فيه تخصيص ثالث . وهو أن لا يعفو عنه ابتداء ، لأن عندنا يجوز من الله تعالى أن يعفو عن أصحاب الكبائر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 45.47 ﴾

(328/358)

وقال الجصاص :

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا ، أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾

قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : لَا يَخَافُونَ عِقَابَنَا ؛ لِأَنَّ

الرَّجَاءُ يُقَامُ مَقَامَ الْخَوْفِ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ لَا تَخَافُونَ لِلَّهِ عَظَمَةً .

وَالْوَجْهُ الْآخَرُ : لَا تَطْمَعُونَ فِي ثَوَابِنَا كَقَوْلِهِمْ : تَابَ رَجَاءً لِثَوَابِ اللَّهِ ، وَخَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ .

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْإِتْيَانِ بِغَيْرِهِ وَبَيْنَ تَبْدِيلِهِ أَنَّ الْإِتْيَانَ بِغَيْرِهِ لَا يَقْتَضِي رَفْعَهُ بَلْ يَجُوزُ بَقَاؤُهُ مَعَهُ ، وَتَبْدِيلُهُ لَا يَكُونُ إلَّا بِرَفْعِهِ وَوَضْعِ آخَرَ مَكَانَهُ ، أَوْ شَيْءٍ مِنْهُ .

وَكَانَ سُؤَالُهُمْ لِذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالتَّحَكُّمِ ؛ إذْ لَمْ يَجِدُوا سَبَبًا آخَرَ يَتَعَلَّقُونَ بِهِ ، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ مَوْقُوفًا عَلَى اخْتِيَارِهِمْ وَتَحَكُّمِهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ عَالِمِينَ بِالْمَصَالِحِ ، وَلَوْ جَازَ أَنْ يَأْتِيَ بِغَيْرِهِ ، أَوْ يُبَدِّلَهُ بِقَوْلِهِمْ لَقَالُوا فِي الثَّانِي مِثْلَهُ فِي الْأَوَّلِ وَفِي الثَّالِثِ مِثْلَهُ فِي الثَّانِي فَكَانَ يَصِيرُ دَلَائِلُ اللَّهِ تَعَالَى تَابِعَةً لِمَقَاصِدِ السُّفَهَاءِ ، وَقَدْ قَامَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يُقْنِعُهُمْ ذَلِكَ مَعَ عَجْزِهِمْ فَالثَّانِي وَالثَّالِثُ مِثْلُهُ .

(329/358)

وَرُبَّمَا احْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ بَعْضُ مَنْ يَأْبَى جَوَازَ نَسْخِ الْقُرْآنِ بِالسُّنَّةِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ وَمُجِيزُ نَسْخِ الْقُرْآنِ بِالسُّنَّةِ مُجِيزٌ لِتَبْدِيلِهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ .

وَلَيْسَ هَذَا كَمَا ظَنُّوا ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي وُسْعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبْدِيلُ الْقُرْآنِ

بِقُرْآنٍ مِثْلِهِ وَلَا الْإِتْيَانِ بِقُرْآنٍ غَيْرِهِ ، وَهَذَا الَّذِي سَأَلَهُ الْمُشْرِكُونَ وَلَمْ يَسْأَلُوهُ تَبْدِيلَ الْحُكْمِ دُونَ اللَّفْظِ ، وَالْمُسْتَدِلُّ بِمِثْلِهِ فِي هَذَا الْبَابِ مُغَفَّلٌ .

وَأَيْضًا ، فَإِنَّ نَسْخَ الْقُرْآنِ لَا يَجُوزُ عِنْدَنَا إلَّا بِسُنَّةٍ هِيَ وَحْيٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى إنْ هُوَ إلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ فَنَسْخُ حُكْمِ الْقُرْآنِ بِالسُّنَّةِ إنَّمَا هُوَ نَسْخٌ بِوَحْيِ اللَّهِ لَا مِنْ قِبَلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(330/358)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءايا تنا بَيِّنَاتٍ ﴾

يعني : القرآن ، ﴿ قَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ ؛ يعني : كفار قريش لما سمعوا القرآن قالوا : ﴿ ائت بِقُرْءانٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ ، يعني : امحه وانسخه ، فإنا نجد فيه تحريم عبادة الأوثان وما نحن عليه .

وهذا قول الضحاك ؛ وقال الكلبي : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : المستهزئين ، وكانوا

خمسة رهط ﴿ قَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ يعني : لا يخافون البعث بعد الموت ﴿ ائت بِقُرْءانٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ ائت يا محمد أو اجعل مكان آية الرحمة آية العذاب ومكان آية العذاب آية الرحمة ؛ وقال الزجاج : معناه بقرآن ليس فيه ذكر البعث والنشور وليس فيه عيب آلهتنا ، أو بدل منه ذكر البعث والنشور .

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِى ﴾ ، يعني : قل : ما يجوز لي ﴿ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِى ﴾ ؛ يقول من قبل نفسي .

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَىَّ ﴾ ، يعني : لا أعمل إلا ما أومر به وأنزل عليّ من القرآن .

﴿ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى ﴾ ، يعني : أعلم أني لو فعلت ما لم أؤمر به أصابني ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، يعني : يوم القيامة .

قال مقاتل والكلبي : نسختها ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صراطا مُّسْتَقِيماً ﴾ [الفتح : 2] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(331/358)

وقال الثعلبى :

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾

قتادة : يعني مشركي مكة ، مقاتل : هم خمسة نفر : عبد الله بن أُمية المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص ، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري ، والعاص بن عامر بن هاشم . قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ائت بِقُرْآنٍ ﴾ ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وهبل وليس فيه عنهما أي ﴿ بَدِّلْهُ ﴾ تكلم به من تلقاء نفسك .

وقال الكلبي : نزلت في المستهزئين ، قالوا : يا محمد ائت بقرآن غيره [ليس فيه ما يغيظنا ، أو بدّله] فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة أو آية رحمة آية عذاب أو حرام حلالا أو حلال حراماً ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نَفْسِي ﴾ من قبل نفسي ومن عندي ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ ﴾ ما أطيع فيما آمركم وأنهاكم ﴿ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ إِنِي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(332/358)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيهِمْ ءَآيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾

يعني آيات القرآن التي هي تبيان كل شيء .

﴿ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ يعني مشركي أهل مكة .

﴿ ائتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ والفرق بين تبديله والإتيان بغيره أن تبديله لا يجوز أن يكون معه ، والإتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه .

وفي قولهم ذلك ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم سألوه الوعد وعيداً ، والوعيد وعداً ، والحلال حراماً ، والحرام حلالاً ، قاله ابن جرير الطبري .

الثاني : أنهم سألوه أن يسقط ما في القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ، قاله ابن عيسى .

الثالث : أنه سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور ، قاله الزجاج .

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نَفْسِي ﴾ أي ليس لي أن أتلقاه بالتبديل والتغيير كما ليس لي أَن أتلقاه بالرد والتكذيب .

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ فيما أتلوه عليكم من وعد ووعيد وتحليل وتحريم أو أمر أو نهي .

﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ في تبديله وتغييره .

﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ الآية

هذه الآية نزلت في قريش لأن بعض كفارهم قال هذه المقالة على معنى ساهلنا يا محمد واجعل هذا الكلام الذي هو من قبلك على اختيارنا وأحل ما حرمته وحرم ما حللته ليكون أمرنا حينئذ واحداً وكلمتنا متصلة ، فذم الله هذه الصنعة وذكرهم بأنهم يقولون هذا للآيات البيّنات ، ووصفهم لأنهم لا يؤمنون بالبعث ، ثم أمر الله نبيه عليه السلام أن يرد عليهم بالحق الواضح وأن يستسلم ويتبع حكم الله تعالى ويعلم بخوفه ربه ، و" اليوم العظيم " يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(333/358)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾

اختلفوا فيمن نزلت على قولين : أحدهما : أنها نزلت في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنها نزلت في مشركي مكة ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والمراد بالآيات : القرآن .

و"يرجون" بمعنى : يخافون .

وفي علَّة طلبهم سوى هذا القرآن أو تبديله قولان : أحدهما : أنهم أرادوا تغيير آية العذاب بالرحمة ، وآية الرحمة بالعذاب ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم كرهوا منه ذكر البعث والنشور ، لأنهم لا يؤمنون به ، وكرهوا عيب آلهتهم ، فطلبوا ما يخلوا من ذلك ، قاله الزجاج .

والفرق بين تبديله والإِتيان بغيره ، أن تبديله لا يجوز أن يكون معه ، والإِتيانُ بغيره قد يجوز أن يكون معه .

قوله تعالى : ﴿ ما يكون لي ﴾ حرّك هذه الياء ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وأسكنها الباقون .

﴿ من تلقاءِ نفسي ﴾ حرّكها نافع ، وأبو عمرو ؛ وأسكنها الباقون ، والمعنى : من عند نفسي ، فالمعنى : أن الذي أتيتُ به ، من عند الله ، لا من عندي فأبدّله .

﴿ إِني أخاف ﴾ فتح هذه الياء ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو .

﴿ إِن عَصَيْتُ ربي ﴾ أي : في تبديله أو تغييره ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ يعني في القيامة .

فصل

وقد تكلم علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على ما بيّنّا في نظيرتها في [الأنعام : 15] .

ومقصود الآيتين تهديد المخالفين ؛ وأُضيف ذلك إلى الرسول ليصعب الأمر فيه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(334/358)

وقال القرطبى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ "تتلى" تقرأ ، و ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ نصب على الحال ؛ أي واضحات لا لبس فيها ولا إشكال .

﴿ قَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ يعني لا يخافون يوم البعث والحساب ولا يرجون الثواب .

قال قتادة : يعني مشركي أهل مكة .

﴿ ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هاذآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ والفرق بين تبديله والإتيان بغيره أنّ تبديله لا يجوز أن يكون معه ، والإتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه ؛ وفي قولهم ذلك ثلاثة أوجه :

أحدها أنهم سألوه أن يحول الوعد وعيداً والوعيد وعداً ، والحلال حراماً والحرام حلالاً ؛ قاله ابن جرير الطبريّ .

الثاني سألوه أن يسقط ما في القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ؛ قاله ابن عيسى .

الثالث أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور ؛ قاله الزجاج .

الثانية قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي ﴾ أي قل يا محمد ما كان لي .

﴿ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي ﴾ ومن عندي ، كما ليس لي أن ألقاه بالردّ والتكذيب .

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ ﴾ أي لا أتبع إلا ما أتلوه عليكم من وعد ووعيد ، وتحريم وتحليل ، وأمر ونهي .

وقد يستدل بهذا من يمنع نسخ الكتاب بالسنة ؛ لأنه تعالى قال : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي ﴾ وهذا فيه بعد ؛ فإن الآية وردت في طلب المشركين مثل القرآن نظماً ، ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم قادراً على ذلك ، ولم يسألوه تبديل الحكم دون اللفظ ؛ ولأن الذي يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم إذا كان وحياً لم يكن من تلقاء نفسه ، بل كان من عند الله تعالى .

(335/358)

الثالثة قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ أي إن خالفت في تبديله وتغييره أو في ترك العمل به .

﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(336/358)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾

يعني وإذا قرئ على هؤلاء المشركين آيات كتابنا الذي أنزلناه إليك يا محمد بينات يعني واضحات تدل على وحدانيتنا وصحة نبوتك ﴿ قال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ يعني قال هؤلاء المشركون الذين لا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا لأنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت وكل من كان منكراً للبعث فإنه لا يرجوا ثواباً ولا يخاف عقاباً ﴿ ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴾ قال قتادة : قال ذلك مشركو مكة ، وقال مقاتل : هم خمسة نفر عبد الله بن أمية المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري والعاص بن عامر بن هشام ، قال هؤلاء للنبي (صلى الله عليه وسلم) : إن كنت تريد أن نؤمن بك فأت بقرآن غير هذا ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وليس فيه عيبها وإن لم ينزله الله عليك فقل أنت من عند نفسك أو بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة

ومكان حرام حلالاً ومكان حلال حراماً .

قال الإمام فخر الدين الرازي : اعلم أن إقدام الكفار على هذا الالتماس يحتمل وجهين :

أحدهما : أنهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء وهو قولهم لو جئتنا بقرآن غير هذا القرآن أو بدلته لآمنا بك وغرضهم السخرية والاستهزاء .

الثاني : أن يكونوا قالوا ذلك على سبيل التجربة والامتحان حتى أنه لو فعل ذلك علموا أنه كان كاذباً في قوله : إن هذا القرآن ينزل عليه من عند الله .

(337/358)

ومعنى قوله : ائت بقرآن غير هذا أو بدله يحتمل أن يأتي بقرآن آخر مع وجود هذه القرآن ولتبديل لا يكون إلا مع وجوده وهو أن يبدل بعض آياته بغيرها كما طلبوه ولما سألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمره الله أن يجيبهم بقوله ﴿ قل ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء ﴿ ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ﴾ يعني أن هذا الذي طلبتموه من التبديل ليس إليّ وما ينبغي لي أن أغيره من قبل نفسي ولم أومر به ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ﴾ يعني فيما آمركم به أو أنهاكم عنه وما أخبركم إلا ما يخبرني الله به وإن الذي أتيتكم به هو من عند الله لا من عندي ﴿ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ أي : قل لهم يا محمد إني

أخشى من الله إن خالفت أمره أو غيرت أحكام كتابه أو بدلته فعصيته بذلك أن يعذبني بعذاب عظيم في يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(338/358)

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾

قال ابن عباس والكلبي : نزلت في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة قالوا : يا محمد ائت بقرآن غير هذا فيه ما نسألك .

وقال مجاهد وقتادة : نزلت في جماعة من مشركي مكة .

وقال مقاتل : في خمسة نفر : عبد الله بن أمية المخزومي ، والوليد بن المغيرة ، ومكرز بن حفص ، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري ، والعاص بن وائل .

وقيل : الخمسة الوليد ، والعاصي ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، والحرث بن حنظلة ، وروي هذا عن ابن عباس .

قال الزمخشري : غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد للمشركين فقالوا : ائت

بقرآن آخر ليس فيه ما يغيظنا من ذلك نتبعك .

وقال ابن عطية : نزلت في قريش لأن بعض كفار قريش قال هذه المقالة على معنى : ساهلنا يا محمد ، واجعل هذا الكلام الذي من قبلك هو باختيارنا ، وأحل ما حرمته ، وحرم ما أحللته ، ليكون أمرنا حينئذ واحداً وكلمتنا متصلة انتهى .

ونبه تعالى على الوصف الحامل لهم على هذه المقالة ، وهو كونهم لا يؤمنون بالبعث والجزاء على ما اقترفوه ، والمعنى : وإذا تسرد عليهم آيات القرآن واضحات نيرات لا لبس فيها قالوا كيت وكيت ، وأضيفت الآيات إليه تعالى لأنها كلامه جل وعز ، والتبديل يكون في الذات بأن يجعل بدل ذات ذات أخرى ، ويكون في الصفة .

والتبديل هنا هو في الصفة ، وهو أن يزال بعض نظمه بأن يجعل مكان آية العذاب آية الرحمة ، ولا يراد بالتبديل هنا أن يكون في الذات ، لأنه يلزم جعل الشيء المقتضي للتغاير هو الشيء بعينه ، لأن التبديل في الذات هو الإتيان بقرآن غير هذا .

ولما كان الآيتان بقرآن غير هذا غير مقدور للإنسان ، لم يحتج إلى نفيه ونفي ما هو مقدور للإنسان ، وإن كان مستحيلاً ذلك في حقه (صلى الله عليه وسلم) فقيل له : قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي .

(339/358)

وانتفاء الكون هنا هو كقوله تعالى : ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ أي يستحيل ذلك .

ويحتمل أن يكون التبديل في الذات على أن يلحظ في قوله : ائت بقرآن غير هذا ، إبقاء هذا القرآن ويؤتى بقرآن غيره ، فيكون أو بدله بمعنى أزله بالكلية وائت ببدله ، فيكون المطلوب أحد أمرين : إما إزالته بالكلية وهو التبديل في الذات ، أو الإتيان بغيره مع بقائه فيحصل التغاير بين المطلوبين .

وتلقاء مصدر البنيان ، ولم يجيء مصدر على تفعال غيرهما ، ويستعمل ظرفاً للمقابلة تقول : زيد تلقاءك .

وقرىء بفتح التاء ، وهو قياس المصادر التي للمبالغة كالتطواف والتجوال والترداد والمعنى : من قبل نفسي أن أتبع فيما آمركم به وما أنهاكم عنه من غير زيادة ولا نقصان ، ولا تبديل إلا ما يجيئني خبره من السماء .

واستدل بقوله : إنْ أتبع إلا ما يوحى إليّ على نفي الحكم بالاجتهاد ، وعلى نفي القياس ، وإنما قالوا : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، لأنهم كانوا لا يعترفون بأنّ القرآن معجز ، أو إن كانوا عاجزين عن الإتيان بمثله .

ألا ترى إلى قولهم : لو نشاء لقلنا مثل هذا وقولهم : ﴿ افترى على الله كذباً ﴾ ولا يمكن

أن يريدوا إئت بقرآن غير هذا أو بدله من جهة الوحي لقوله : إني أخاف .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : فما كان غرضهم وهم أدهى الناس وأمكرهم في هذا الاقتراح ؟ (قلت) : المكر والكيد .

أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ففيه إنه من عندك ، وإنك لقادر على مثله ، فأبدل مكانه آخر .

وأما اقتراح التبديل والتغيير فللطمع ولاختبار الحال ، وأنه إن وجد منه تبديل فإما أن يهلكه الله فننجو منه ، أو لا يهلكه فيسخروا منه ، ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحاً لافترائه على الله تعالى انتهى .

وإن عصيت بالتبديل من تلقاء نفسي ، وتقدم اتباع الوحي ، وتركي العمل به ، وهو شرط جوابه محذوف دل عليه ما قبله .

واليوم العظيم : هو يوم القيامة ، ووصف بالعظم لطوله ، أو لكثرة شدائده ، أو للمجموع .

(340/358)

وانظر إلى حسن هذا الجواب لما كان أحد المطلوبين التبديل بدأ به في الجواب ، ثم أتبع بأمر عام يشمل انتفاء التبديل وغيره ، ثم أتى بالسبب الحامل على ذلك وهو الخوف ، وعلقه

بمطلق العصيان ، فبأدنى عصيان ترتب الخوف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(341/358)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ﴾

التفاتٌ من خطابهم إلى الغَيبة إعراضاً عنهم وتوجيهاً للخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعديد جناياتِهم المضادةِ لما أريد منهم بالاستخلاف ، من تكذيب الرسولِ والكفر بالآيات البيناتِ وغيرِ ذلك كدأب مَنْ قبلهم من القرون المهلَكة ، وصيغةُ المضارعِ للدِلالة على تجدد جوابِهم الآتي حسبَ تجددِ التلاوة ﴿ ءاياتنا ﴾ الدالةُ على حقية التوحيدِ وبُطلانِ الشركِ ، والإضافةُ لتشريف المضافِ والترغيبِ في الإيمان به والترهيبِ عن تكذيبه ﴿ بينات ﴾ حالَ كونِها واضحاتِ الدِلالةِ على ذلك ، وإيرادُ فعل التلاوةِ مبنياً للمفعول مسنداً إلى الآيات دون رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ببنائه للفاعل للإشعار بعدمِ الحاجةِ لتعيّن التالي وللإيذان بأن كلامَهم في نفس المتلوّدون التالي ﴿ قَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ وضعَ الموصولُ موضعَ الضميرِ إشعاراً بعلّية ما في حيز الصلةِ

العظيمةِ المحكيةِ عنهم وأنهم إنما اجترءوا عليها لعدم خوفِهم من عقابه تعالى يوم اللقاءِ لإنكارهم له ولما هو من مباديه من البعث وذماً لهم بذلك أي قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وإنما لم يذكر إيذاناً بتعينه ﴿ ائتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا ﴾ أشاروا بهذا إلى القرآنِ المشتملِ على تلك الآياتِ لا إلى نفسها فقط قصداً إلى إخراج الكلِّ من البين أي ائت بكتاب آخرَ نقرؤه ليس فيه ما نستبعده من البعث والحسابِ والجزاءِ وما نكرهه من ذم آلهتِنا ومعايبِها والوعيدِ على عبادتها ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ بتغيير ترتيبه بأن تجعلَ مكانَ الآيةِ المشتملةِ على ذلك آيةً أخرى خاليةً عنها وإنما قالوه كيداً وطمعاً في المساعدة ليتوسلوا به إلى الإلزام والاستهزاء به ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ مَا يَكُونُ لِى ﴾ أي ما يصح وما يستقيم لي ولا يمكنني أصلاً ﴿ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِى ﴾ أي من قبل نفسي وهو مصدرٌ استعمل ظرفاً ، وقرىء بفتح التاءِ وقصر الجواب

(342/358)

ببيان امتناعِ ما اقترحوه على اقتراحهم الثاني للإيذان بأن استحالةَ ما اقترحوه أولاً من الظهور بحيث لا حاجة إلى بيانها وأن التصدّيَ لذلك مع كونه ضائعاً ربما يُعد من قبيل المجاراةِ مع السفهاء إذ لا يصدُر مثلُ ذلك الاقتراحِ عن العقلاء ، ولأن ما يدل على استحالة

الثاني يدل على استحالة الأولِ بالطريق الأولى .

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ ﴾ أي ما أتبع في شيء مما آتي وأذَرُ ﴿ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَىَّ ﴾ من غير تغيير له في شيء أصلاً على معنى قصرِ حالِه عليه السلام على اتباع ما يوحى إليه لا قصرِ اتباعِه على ما يوحى إليه كما هو المتبادرُ من ظاهر العبارةِ كأنه قيل : ما أفعل إلا اتباعَ ما يوحى إلي وقد مر تحقيقُ المقامِ في سورة الأنعام ، وهو تعليلٌ لصدر الكلامِ ، فإن مَنْ شأنُه اتباعُ الوحي على ما هو عليه لا يستبد بشيء دونه قطعاً ، وفيه جوابٌ للنقض بنسخ بعضِ الآياتِ ببعض وردٌّ لما عرّضوا به عليه الصلاة والسلام بهذا السؤال من أن القرآنَ كلامُه عليه الصلاة والسلام ولذلك قيّد التبديلُ في الجواب بقوله : ﴿ مِن تِلْقَاء نَفْسِى ﴾ وسماه عصياناً عظيماً مستتبِعاً لعذاب عظيم بقوله تعالى : ﴿ إِنّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فإنه تعليلٌ لمضمون ما قبله من امتناع التبديلِ واقتصارِ أمرِه عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحي ، أي أخاف إن عصيتُه تعالى بتعاطي ما ليس لي من التبديل من تلقاء نفسي والإعراضِ عن اتباع الوحي عذابَ يوم عظيم هو يومُ القيامة أو يومُ اللقاءِ الذي لا يرجونه ، وفيه إشعارٌ بأنهم استوجبوه بهذا الاقتراحِ .

(343/358)

والتعرضُ لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لتهويل أمرِ العصيان وإظهارِ كمالِ نزاهتِه عليه السلام عنه ، وإيرادُ اليوم بالتنوين التفخيميّ ووصفُه بالعظم لتهويل ما فيه من العذاب وتفظيعِه ، ولا مساغَ لحمل مُقترَحِهم على التبديل والإتيانِ بقرآن آخرَ من جهة الوحي بتفسير قوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ بأنه لا يتسهّل لي أن أبدلَه بالاستدعاء من جهة الوحي ، ما أتبع إلا ما يوحى إليّ من غير صنعٍ ما من الاستدعاء وغيرِه من قِبلي ، لأنه يرده التعليلُ المذكورُ لا لأن المقترَحَ حينئذٍ ليس فيه معصيةٌ أصلاً كما تُوهم ، فإن استدعاءَ تبديلِ الآياتِ النازلة حسبما تقتضيه الحكمةُ التشريعيةُ بعضِها ببعض ، لا سيما بموجب اقترحِ الكفرة مما لا ريبَ في كونه معصيةً بل لأنه ليس فيه معصيةُ الافتراءِ مع أنها المقصودةُ بما ذُكر في التعليل ، ألا يُرى إلى ما بعده من الآيتين الكريمتين فإنه صريحٌ في أن مقترحَهم الإتيانُ بغير القرآنِ وتبديلُه بطريق الافتراءِ وأن زعمَهم في الأصل أيضاً كذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(344/358)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾

التفات من خطابهم إلى الغيبة إعراضاً عنهم وتوجيهاً للخطاب إلى سيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم بتعديد جناياتهم المضادة لما أريد منهم بالاستخلاف من التكذيب والكفر بالآيات البينات وغير ذلك كدأب من قبلهم من القرون المهلكة ، وصيغة المضارع للدلالة على تجدد جوابهم الآتي حسب تجدد التلاوة ، والمراد بالآيات الآيات الدالة على التوحيد وبطلان الشرك .

وقيل : ما هو أعم من ذلك .

(345/358)

والإضافة لتشريف المضاف والترغيب في الإيمان به والترهيب عن تكذيبه ونصب ﴿ بينات ﴾ على الحال أي حال كونها واضحات الدلالة على ما تضمنته ، وإيراد فعل التلاوة مبنياً للمفعول مسنداً إلى الآيات دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ببنائه للفاعل للاشعار بعدم الحاجة لتعيين التالي وللإيذان بأن كلامهم في نفس المتلو ولو تلاه رجل من إحدى القريتين عظيم ﴿ قَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ وضع الموصول موضع الضمير إشعاراً بعلية ما حيز الصلة المعظمة المحكية عنهم وذماً لهم بذلك أي قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا ﴾ أشاروا بهذا إلى القرآن

المشتمل على تلك الآيات لا إلى أنفسها فقط قصدا إلى إخراج الكل من البين أي ائت بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه ما نستبعده من البعث وتوابعه أو ما نكرهه من ذم آلهتنا والوعيد على عبادتها ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى ، ولعلهم إنما سألوا ذلك كيداً وطمعاً في إجابته عليه الصلاة والسلام ليتوسلوا إلى الإلزام والاستهزاء وليس مرادهم أنه عليه الصلاة والسلام لو أجابهم آمنوا ﴿ قُلْ ﴾ أيها الرسول لهم ﴿ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ ﴾ المصدر فاعل يكون وهي من كان التامة وتفسر بوجد ونفي الوجود قد يراد به نفي الصحة فإن وجود ما ليس بصحيح كلا وجود ، فالمعنى هنا ما يصح لي أصلاً تبديله دمنْ تلْقَاء نَفْسي ﴾ أي من جهتي ومن عندي .

وأصل تلقاء مصدر على تفعال التاء ولم يجيء مصدر بكسرها غيره وغير تبيان في المشهور .

وقرىء شاذا بالفتح وهو القياس في المصادر الدالة على التكرار كالتطواف والتجوال ، وقد خرج هنا من ذلك إلى الظرفية المجازية ، والجر بمن لا يخرج الظرف عن ظرفيته ولذا اختصت الظروف الغير المتصرفة كعند بدخولها عليها .

(346/358)

ومن الناس من وهم في ذلك وقصر الجواب ببيان امتناع ما اقترحوه على اقتراحهم الثاني للإيذان بأن استحالة ما اقترحوه أولاً من الظهور بحيث لا حاجة إلى بيانها ولأن ما يدل على استحالة الثاني يدل على استحالة الأول بالطريق الأولى فهو بحسب المآل والحقيقة جواب عن الأمرين ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ ﴾ أي ما اتبع فيما آتى وأذر ﴿ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ من غير تغيير له في شيء أصلا على معنى قصر حاله عليه الصلاة والسلام على أتباع ما يوحى لا قصر اتباعه على ما يوحي إليه كما هو المتبادر من ظاهر العبارة فكأنه قيل : ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إلي ، والجملة مستأنفة بياناً لما يكون فإن من شأنه اتباع الوحي على ما هو عليه لا يستقل بشيء دونه أصلاً ، وفي ذلك على ما قيل جواب لنقض مقدر وهو أنه كيف هذا وقد نسخ بعض الآيات ببعض ، ورد لما عرضوا له بهذا السؤال من أن القرآن كلامه صلى الله عليه وسلم ، وكذا تقييد التبديل في الجواب بقوله : ﴿ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ لرد تعريضهم بأنه من عنده عليه الصلاة والسلام ولذلك أيضاً سماه عصياناً عظيماً مستتبعاً لعذاب عظيم بقوله عز وجل : ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو تعليل لمضمون ما قبله من امتناع التبديل واقتصار أمره صلى الله عليه وسلم على أتباع الوحي أي إني أخاف إن عصيته تعالى بتعاطي التبديل والإعراض عن الوحي عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة ويوم اللقاء الذي لا يرجونه ، وفيه إيماء بأنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح لأن اقتراح ما يوجبه يستوجبه أيضاً وإن لم يكن كفعله ، والتعرض لعنوان الربوبية مع

الإضافة لضميره عليه الصلاة والسلام لتهويل أمر العصيان وإظهار كمال نزاهته صلى الله عليه وسلم ، وفي إيراد اليوم بالتنوين التفخيمي ووصفه بعظيم ما لا يخفى ما فيه من العذاب وتفظيعه ، وجوز العلامة الطيبي كون الجواب المذكور جواباً عن الاقتراحين من غير حاجة إلى شيء

(347/358)

وذلك بحمل التبديل فيه على ما يعم تبديل ذات بذات أخرى كبدلت الدنانير دراهم وهو الذي أشاروا إليه بقولهم : ﴿ ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا ﴾ وتبديل صفة بصفة أخرى كبدلت الخاتم حلقة وهو الذي أشاروا إليه بقولهم : ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ .

وأورد عليه بأن تقييد التبديل بقوله سبحانه : ﴿ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ يمنع حمله على الأعم لأنه يشعر بأن ذلك مقدور له صلى الله عليه وسلم ولكن لا يفعله بغير إذنه تعالى والتبديل الذي أشاروا إليه أولاً غير مقدور له عليه الصلاة والسلام حتى أن المقترحين يعلمون استحالة ذلك لكن اقترحوه لما مر وقالوا : لو شئنا لقلنا مثل هذا مكابرة وعناداً ، ثم أن الظاهر أنهم اقترحوا التبديل والإتيان بطريق الافتراء قيل : لا مساغ للقول بأنهم اقترحوا ذلك من جهة الوحي فكأنهم قالوا : ائت بقرآن غير هذا أو بدله من جهة الوحي كما أتيت

بالقرآن من جهته ويكون معنى قوله : ﴿ مَا يَكُونُ لِى ﴾ الخ ما يتسهل لي ولا يمكنني أن أبدله لما في الكشاف من أن قوله : ﴿ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى ﴾ يرد ذلك ، ووجه بأنهم لم يطلبوا ما هو عصيان على هذا التقدير حتى يقول في جوابهم ما ذكر ، ونظر فيه بأن الطلب من غير اذن عصيان فإن لم يحمل ما يتسهل لي على أن ذلك لكونه غير مأذون كان الجواب غير مطابق لسؤالهم لأن السؤال عن تبديل من الله تعالى وهو عليه الصلاة والسلام قال : لا يمكنني التبديل من تلقاء نفسي في الجواب وإن حمل عليه فالعصيان أيضاً منزل عليه ، وأجيب بأن صاحب الكشاف حمل ﴿ مَّا يَكُونُ ﴾ على أنه لا يمكن ولا يتسهل والعصيان يقع على الممكن المقدور لا أنهم طلبوا ما هو عصيان أو ليس والمطابقة حاصلة بل أشدها لأن الحاصل أما التبديل من تلقاء نفسي فغير ممكن وأما من قبل الوحي فأنا تابع غير متبوع .

نعم لا ينكر أنه يمكن أن يأتي وجه آخر بأن يحمل على أنه لا يحل لي ذلك دون إذن وصاحب الكشاف لم ينفه .

(348/358)

وذكر بعض المحققين أنه لا مساغ لحمل مقترحهم على ما هو من جهة الوحي لمكان التعليل بأني أخاف الخ إذ المقصود بما ذكر فيه معصية الافتراء كما يرشد إلى ذلك صريح ما بعده من الآيتين الكريمتين وحينئذ لا يتحقق فيه تلك المعصية ، ومعصية استدعاء تبديل ما اقتضته الحكمة التشريعية لا سيما بموجب اقتراح الكفرة ليست مقصودة فلا ينفع تحققها ، وهو كلام وجيه يعلم منه ما في الكلام السابق من النظر .

بقي أنه يفهم من بعض الآثار أنهم طلبوا الإتيان من جهة الوحي فعن مقاتل أن الآية نزلت في خمسة نفر عبد الله بن أمية المخزومي .

والوليد بن المغيرة .

ومكرز بن حفص .

وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري .

والعاص بن عامر بن هشام قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إن كنت تريد أن نؤمن من لك فائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومنات وليس فيه عيبها وإن لم ينزل الله تعالى عليك فقل أنت من نفسك أو بدله فاجعل مكان آية عذاب رحمة ومكان حرام حلالاً ومكان حلالا حراماً ، وربما يقال : إن هذا على تقدير صحته لا يأبى أن يكون ما في الأية ما أشار إليه تالى الشرطية الثانية من كلامهم فتدبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾

عطف على جملة : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ﴾ [يونس : 11] الخ لأن ذلك ناشىء عن قولهم : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ايتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : 32] كما تقدم فذلك أسلوب من أساليب التكذيب .

ثم حُكي في هذه الآية أسلوب آخر من أساليب تكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون القرآن موحى إليه من الله تعالى فهم يتوهمون أن القرآن وضَعه النبي صلى الله عليه وسلم من تلقاء نفسه ، ولذلك جعلوا من تكذيبهم أن يقولوا له ﴿ ايت بقرآنٍ غير هذا أو بَدّله ﴾ إطماعاً له بأن يؤمنوا به مغايراً أو مبدّلاً إذا وافق هواهم .

ومعنى ﴿ غير هذا ﴾ مخالفهُ .

والمراد المخالفة للقرآن كله بالإعراض عنه وابتداء كتاب آخر بأساليب أخرى ، كمثل كتب قصص الفرس وملاحمهم إذ لا يحتمل كلامهم غير ذلك ، إذ ليس مرادهم أن يأتي بسُورَ أخرى غير التي نزلتْ من قبل لأن ذلك حاصل ، ولا غَرض لهم فيه إذا كان معناها من

نوع ما سبقها .

ووصف الآيات بـ ﴿ بينات ﴾ لزيادة التعجيب من طلبهم تبديلها لا بطلب تبديله إذ لا طمع في خير منه .

والتبديل : التغيير .

وقد يكون في الذوات ، كما تقول : بدلت الدنانير دراهم .

ويكون في الأوصاف ، كما تقول : بدلت الحلقة خاتماً .

فلما ذكر الإتيان بغيره من قبل تعيَّن أن المراد بالتبديل المعنى الآخر وهو تبديل الوصف ، فكان المراد بالغير في قولهم : ﴿ غير هذا ﴾ كلاماً غير الذي جاء به من قبل لا يكون فيه ما يكرهونه ويغيظهم .

والمراد بالتبديل أن يعمد إلى القرآن الموجود فيغير الآيات المشتملة على عبارات ذم الشرك بمدحه ، وعبارات ذم أصنامهم بالثناء عليها ، وعبارات البعث والنشر بضدها ، وعبارات الوعيد لهم بعبارات بشارة .

(350/358)

وسموا ما طلبوا الإتيان به قُرآناً لأنهُ عوض عن المسمى بالقرآن ، فإن القرآن علَم على الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أي ائت بغير هذا مما تُسميه قرآناً .

والضمير في ﴿ بدله ﴾ عائد إلى اسم الإشارة ، أي أو بدل هذا .

وأجمل المراد بالتبديل في الآية لأنه معلوم عند السامعين .

ثم إن قولهم يحتمل أن يكون جداً ، ويحتمل أن يريدوا به الاستهزاء ، وعلى الاحتمالين فقد أمر الله نبيئه صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم بما يقلع شبهتهم من نفوسهم إن كانوا جادين ، أو من نفوس من يسمعونهم من دهمائهم فيحسبوا كلامهم جِداً فيترقبوا تبديل القرآن .

وضمير الغيبة في قوله : ﴿ وإذا تتلى عليهم ﴾ راجع إلى الناس المراد منهم المشركون أو راجع إلى ﴿ الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ في قوله : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ [يونس : 7] .

وتقديم الظرف في قوله : ﴿ إذا تتلى ﴾ على عامله وهو ﴿ قَال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ للاهتمام بذكر ذلك الوقت الذي تتلى فيه الآيات عليهم فيقولون فيه هذا القول تعجيباً من كلامهم ووهن أحلامهم .

ولكون العامل في الظرف فعلاً ماضياً عُلم أن قولهم هذا واقع في الزمن الماضي ، فكانت إضافة الظرف المتعلق به إلى جملة فعلها مضارع وهو ﴿ تتلى ﴾ دالة على أن ذلك المضارع لم يرد به الحال أو الاستقبال إذ لا يتصور أن يكون الماضي واقعاً في الحال أو

الاستقبال فتعين أن اجْتلاب الفعل المضارع لمجرد الدلالة على التكرر والتجدد ، أي ذلك قولهم كُلما تتلى عليهم الآيات .

وماصْدق ﴿ الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ هو ما صدق الضمير في قوله : (عليهم) ، فكان المقام للإضمار ، فما كان الإظهار بالموصولية إلا لأن الذين لا يرجون لقاء الله اشتهر به المشركون فصارت هذه الصلة كالعلَم عليهم .

(351/358)

كما أشرنا إليه عند قوله آنفاً ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضُوا بالحياة الدنيا ﴾ [يونس : 7] ، وليس بين الصلة وبين الخبر هنا علاقةُ تعليل فلا يكون الموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر .

ولما كان لاقتراحهم معنى صريح ، وهو الإتيان بقرآن آخر أو تبديل آيات القرآن الموجودِ ، ومعنى التزامي كنائي ، وهو أنه غير منزل من عند الله وأن الذي جاء به غير مرسل من الله ، كان الجواب عن قولهم جوابين ، أحدهما : ما لقنه الله بقوله : ﴿ قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ﴾ وهو جواب عن صريح اقتراحهم ، وثانيهما : ما لَقنه بقوله : ﴿ قُل لو شاء الله ما تلوته عليكم ﴾ [يونس : 16] وهو جواب عن لازم كلامهم .

وعن مجاهد تسمية أناس ممن قال هذه المقالة وهم خمسة : عبد الله بن أمية ، والوليدُ بن المغيرة ، ومكرز بن حفص ، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس ، والعاص بن عامر ، قالوا للنبيء صلى الله عليه وسلم ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة الأصنام واللاتِ والعزى ومناةَ وهُبل ، وليس فيه عَيبها .

وقد جاء الجواب عن اقتراحهم كلاماً جامعاً قضاء لحق الإيجاز البديع ، وتعويلاً على أن السؤال يبين المراد من الجواب ، فأحسوا بامتناع تبديل القرآن من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا جواب كاف ، لأن التبديل يشمل الإتيان بغيره وتبديل بعض تراكيبه . على أنه إذا كان التبديل الذي هو تغيير كلمات منه وأغراض ممتنعاً كان إبطال جميعه والإتيان بغيره أجدر بالامتناع .

وقد جاء الجواب بأبلغ صيغ النفي وهو ﴿ ما يكون لي أن أبدله ﴾ أي ما يكون التبديل مِلكاً بيدي .

و﴿ تِلقاء ﴾ صيغة مصدر على وزن التفعال .

وقياس وزن التفعال الشائع هو فتح التاء وقد شذ عن ذلك تلقاء ، وتبيان ، وتمثال ، بمعنى اللقاء والبيان والمُثول فجاءت بكسر التاء لا رابع لها ، ثم أطلق التلقاء على جهة التلاقي ثم أطلق على الجهة والمكان مطلقاً كقوله تعالى : ﴿ ولما توجه تلقاء مدين ﴾ [القصص : 22] .

فمعنى ﴿ من تلقاء نفسي ﴾ من جهة نفسي .

وهذا المجرور في موضع الحال المؤكدة لجملة : ﴿ ما يكون لي أن أبدله ﴾ وهي المسماة مؤكدة لغيرها إذ التبديل لا يكون إلا من فعل المبدل فليست تلك الحال للتقييد إذ لا يجوز فرض أن يبدّل من تلقاء الله تعالى التبديلَ الذي يرومونه ، فالمعنى أنه مبلغ لا متصرف .

وجملة : ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ تعليل لجملة : ﴿ ما يكون لي أن أبدله ﴾ أي ما أتبع إلا الوحي وليس لي تصرف بتغيير .

و﴿ ما ﴾ مصدرية .

واتباع الوحي : تبليغ الحاصل به ، وهو الموصى به .

والاتباع مجاز في عدم التصرف ، بجامع مشابهة ذلك للاتباع الذي هو عدم تجاوز الاقتفاء في المشي .

واقتضت (إنْ) النافية وأداةُ الاستثناء قصرَ تعلق الاتباع على ما أوحى الله وهو قصر إضافي ، أي لا أبلغ إلا ما أوحي إلي دون أن يكون المتَّبَع شيئاً مخترعاً حتى أتصرف فيه بالتغيير والتبديل ، وقرينة كونه إضافياً وقوعه جواباً لرد اقتراحهم .

فمن رام أن يحتج بهذا القصر على عدم جواز الاجتهاد للنبيء صلى الله عليه وسلم فقد خرج بالكلام عن مهيعه .

وجملة : ﴿ إني أخاف إن عصيت ربي ﴾ الخ في موضع التعليل لجملة : ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ ولذلك فصلت عنها .

واقترنت بحرف (إن) للاهتمام ، و (إنَّ) تؤذن بالتعليل .

وقوله : ﴿ إن عصيت ربي ﴾ ، أي عصيته بالإتيان بقرآن آخر وتبديله من تلقاء نفسي .

ودل سياق الكلام على أن الإتيان بقرآن آخر غير هذا بمعنى إبطال هذا القرآن وتعويضه بغيره ، وأن تبديله بمعنى تغيير معاني وحقائق ما اشتمل عليه ممتنع .

ولذلك لم يلقن الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول هنا : إلا ما شاء الله ، أو نحو ذلك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(353/358)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾

نحن نعرف أن الآيات ثلاثة أنواع : آيات كونية ، وهي العجائب التي في الكون ويسميها الله

سبحانه آيات ، فالآية هي عجيبة من العجائب ، سواء في الذكاء أو الجمال أو الخُلُق ، وقد سَمَّى الحق سبحانه الظواهر الكونية آيات ؛ فقال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اليل والنهار والشمس والقمر ﴾ [فصلت : 37] وقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ [الروم : 21] وهذه من الآيات الكونية .

وهناك آيات هي الدليل على صدق الرسل عليهم السلام في البلاغ عن الله ، وهي المعجزات ؛ لأنها خالفت ناموس الكون المألوف للناس . فكل شيء له طبيعة ، فإذا خرج عن طبيعته ؛ فهذا يستدعى الانتباه .

مثلما يحكي القرآن عن سيدنا إبراهيم عليه السلام أن أعداءه أخذوه ورموه في النار فنجّاه الحق سبحانه من النار ؛ فخرج منها سالماً ، ولم يكن المقصود من ذلك أن ينجو إبراهيم من النار ، فلو كان المقصود أن ينجو إبراهيم عليه السلام من النار ؛ لحدثت أمور أخرى ، كألا يمكِّنهم الحق عزَّ وجلّ من أن يمسكوه ، لكنهم أمسكوا به وأشعلوا النار ورموه فيها ، ولو شاء الله تعالى أن يطفئها لفعل ذلك بلقليل من المطر ، لكن ذلك لم يحدث ؛ فقد تركهم الله في غيّهم ، ولأنه واهب النار للإحراق قال سبحانه وتعالى لها :

﴿ يانار كُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : 69] وهكذا تتجلّى أمامهم خيبتهم .

إذن : الآيات تُطلَق على الآيات الكونية ، وتطلق على الآيات المعجزات ، وتطلق أيضا على آيات القرآن ما دامت الآيات القرآنية من الله والمعجزات من الله ، وخلق الكون من الله ، فهل هناك آية تصادم آية ؟ لا ؛ لأن الذي خلق الكون وأرسل الرسل بالمعجزات وأنزل القرآن هو إله واحد ، ولو كان الأمر غير ذلك لحدث التصادم بين الآيات ، والحق سبحانه هو القائل :

(354/358)

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ﴾ [النساء : 82] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ [يونس : 15] أي : آيات واضحة . ثم يقول الحق سبحانه ﴿ قَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ وعرفنا أن الرجاء طلب أمر محبوب ومن الممكن أن يكون واقعاً ، مثلما يرجو إنسان أن يدخل ابنه كلية الطب أو كلية الهندسة . ومقابل الرجاء شيء آخر محبوب ، لكن الإنسان يعلم استحالته ، وهو التمنِّي ، فالمحبوبات إذن قسمان : أمور مُتمنَّاه وهي في الأمور المستحيلة ، لكن الإنسان يعلن أنه يحبها ، والقسم الثاني أمور نحبها ، ومن الممكن أن تقع ، وتسمى رجاء .

﴿ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ هم مَن لا يؤمنون ، لا بإلهٍ ، ولا ببعثٍ ؛ فقد قالوا :

﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدهر ﴾ [الجاثية : 24] وقالوا : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [المؤمنون : 82] وإذا كان الإنسان لا يؤمن بالبعث ؛ فهو لا يؤمن بلقاء الله سبحانه ؛ لأن الذي يؤمن بالبعث يؤمن بلقاء الله ، ويُعدّ نفسه لهذا اللقاء بالعبادة والعمل الصالح ، ولكن الكافرين الذين لا يؤمنون بالبعث سيُفاجَأون بالإله الذي أنكروه ، وسوف تكون المفاجأة صعبة عليهم ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ [النور : 39]

السراب : هو أن يمشي الإنسان في خلاء الصحراء ، ويخيل إليه أن هناك ماءً أمامه ، وكلّما مشى ظن أن الماء أمامه ، وما إن يصل إلى المكان يجد أن الماء قد تباعد . وهذه العملية لها علاقة بقضية انعكاس الضوء ، فالضوء ينعكس ؛ ليصور الماء وهو ليس بماء :

(355/358)

﴿ حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ ﴾ [النور : 39] إنه يُفاجَأ بوجود الله سبحانه الذي لم يكن في باله ، فهو واحد من الذين لا يرجون لقاء الله ، وهو ممن جاء فيهم

القول :

﴿ وقالوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرض أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ [السجدة : 10]

رغم أن الكون الذي نراه يُحتِّم قضية البعث ؛ لأننا نرى أن لكل شيء دورة ، فالوردة الجميلة الممتلئة بالنضارة تذبل بعد أن تفقد مائيَّتها ، ويضيع منها اللون ، ثم تصير تراباً . وأنت حين تشم الوردة فهذا يعني أن ما فيها من عطر إنما يتبخر مع المياه التي تخرج منها بخاراً ، ثم تذبل وتتحلل بعد ذلك .

إذن : فللوردة دورة حياة . وأنت إن نظرت إلى أي عنصر من عناصر الحياة مثل المياه سوف تجد أن الكمية الموجودة من الماء ساعة خلق الله السموات والأرض هي بعينها ؛ لم تَزِدْ ولم تنقص . وقد شرحنا ذلك من قبل . وكل شيء تنتفع به له دورة ، والدورة تُسلم لدورة أخرى ، وأنت مستفيد بين هذه الدورات ؛ هدماً وبناءً .

والذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يؤمنون بالبعث ، ولا بثواب أو عقاب لا يلتفتون إلى الكون الذي يعيشون فيه ؛ لأن النظر في الكون وتأمُّل أحواله يُوجِب عليهم أن يؤمنوا بأنها دورة من الممكن أن تعود .

وسبحانه القائل :

﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ [الأنبياء : 104] وهؤلاء الذين لا يرجون لقاء الله يأتي

القرآن بما جاء على ألسنتهم : ﴿

ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هاذآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ [يونس : 15]

هم هنا يطلبون طلبين : ﴿ ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هاذآ ﴾ ، ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ .

أي : يطلبون غير القرآن . ولنلحظ أن المتكلم هو الله سبحانه ؛ لذلك فلا تفهم أن القولين متساويان .

(356/358)

﴿ ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هاذآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ هما طلبان : الطلب الأول : أنهم يطلبون قرآناً غير الذي نزل . والطلب الثاني : أنهم يريدون تبديل آية مكان آية ، وهم قد طلبوا حذف الآيات التي تهزأ بالأصنام ، وكذلك الآيات التي تتوعدهم بسوء المصير .

ويأتي جواب من الله سبحانه على شق واحد مما طلبوه وهو المطلب الثاني ، ويقول سبحانه : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي ﴾ ولم يرد الحق سبحانه على قولهم : ﴿ ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هاذآ ﴾ .

وكان مقياس الجواب أن يقول : " ما يكون لي أن آتي بقرآن غير هذا أو أبدله " ؛ لكنه اكتفى بالرد على المطلب الثاني ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ ؛ لأن الإتيان بقرآن يتطلب تغييراً للكل . ولكن

التبديل هو الأمر السهل . وقد نفى الأسهل ؛ ليسلّموا أن طلب الأصعب منفي بطبيعته .

وأمر الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي ﴾

أي : أن أمر التبديل وارد ، لكنه ليس من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . بل بأمر من الله سبحانه وتعالى ، إنما أمر الإتيان بقرآن غير هذا ليس وارداً .

إذن : فالتبديل وارد شرط ألا يكون من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ [النحل : 101] وهو ما تذكره هذه الآية : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي ﴾ و ﴿ تِلْقَآءِ ﴾ من " لقاء " ؛ فتقول : " لقيت فلاناً " ، ويأتي المصدر من جنس الفعل أو حروفه ، ويسمون " التلقاء " هنا : الجهة .

والحق سبحانه يقول في آية أخرى :

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ [القصص : 22] .

(357/358)

و ﴿ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ أي : جهة مدين . و " التلقاء " قد تأتي بمعنى اللقاء ؛ لأنك حين تقول : " لقيته " أي : أنا وفلان التقينا في مكان واحد ، وحين نتوجّه إلى مكان معيّن فنحن نُوجَد فيه . ويظن بعض الناس أن كل لفظ يأتي لمعنيين يحمل تناقضاً ، ونقول : لا ، ليس هناك تناقض ، بل انفكاك جهة ، مثلما قال الحق سبحانه :

﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 144]

والشطر معناه : الجهة ؛ ومعناه أيضاً : النصف ، فيقال : " أخذ فلان شطر ماله " ، أي : نصفه ، و " اتجهت شطر كذا " ، أي : إلى جهة كذا .

وهذه معان غير متناقضة ؛ فالإنسان منا ساعة يقف في أي مكان ؛ يصبح هذا المكان مركزاً لمرائيه ، وما حوله كله محيطاً ينتهي بالأفق .

ويختلف محيط كل إنسان حسب قوة بصره ، ومحيط الرؤية ينتهي حين يُخيَّل لك أن السماء انطبقت على الأرض ، هذا هو الأفق الذي يخصُّك ، فإن كان بصرُك قويّاً فأفقك يتَّسع ، وإن كان البصر ضعيفاً يضيف الأفق .

ويقال : " فلان ضَيِّق الأفق " أي : أن رؤيته محدودة ، وكل إنسان منا إذا وقف في مكان يصير مركزاً لما يحيطه من مَرَاء ؛ ولذلك يوجد أكثر من مركز ، فالمقابل لك نصف الكون المرئي ، وخلفك نصف الكون المرئي الآخر ، فإذا قيل : إن " الشطر " هو " النصف " ، فالشطر أيضاً هو " الجهة " .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ ﴾ .

أي : أنه صلى الله عليه وسلم لا يأتي بالقرآن من عند نفسه صلى الله عليه وسلم ، بل يُوحَى إليه .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ إِنِي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : 15]

(358/358)

أي : أنه صلى الله عليه وسلم لو جاء بشيء من عنده ، ففي هذا معصية لله تعالى ، ونعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُعرف عنه أنه كان شاعراً ، ولا كان كاتباً ، ولا كان خطيباً . وبعد أن نزل الوحي عليه من الله جاء القرآن في منتهى البلاغة .

وقد نزل الوحي ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الأربعين من عمره ولا توجد عبقرية يتأجَّل ظهورها إلى هذه المرحلة من العمر ، ولا يمكن أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد أجَّل عبقريته إلى هذه السِّن ؛ لأنه لم يكن يضمن أن يمتد به العمر .

ويأتي لنا الحق سبحانه بالدليل القاطع على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتَّبِع إلا ما

يُوحَى إليه فيقول :

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ إِني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : 15]

ويأتي الأمر بالرَّدِّ من الحق سبحانه على الكافرين : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ . . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(359/358)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ : يحتمل التبديلُ في الذات والتبديلُ في الصفات ، يعني اجعل آيةَ عذاب مكانَ آية رحمة . فإن قيل : يلزمُ على الأولِ التكرار في قوله : ﴿ ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هاذآ ﴾ ، فالجوابُ أن معنى الأول : ائت بقرآن غيره مع بقائه ، أو بَدِّله بأنْ تُزيل ذاتَه بالكلية ، فيتغاير المطلوبان .

و " تِلْقاء " مصدرٌ على تِفْعال ، ولم يجيء مصدر بكسر التاء إلا هذا والتِّبْيان . وقرىء

شاذاً بفتح التاء ، وهو قياسُ المصادر الدالة على التكرار كالتَّطْواف والتَّجوال . وقد يُسْتعمل التِّلقاء بمعنى قبالتك ، فينتصبُ انتصابَ الظروف المكانية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 163.164 ﴾

(360/358)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ إذا اقترحوا عليك بأَنْ تأتيهم بما لم نأمرك به ، أو تُرِيَهُم ما لم نُظْهِرْ عليك من الآياتِ . . فأَخْبِرْهم أَنَّكَ غير مُسْتَقِلٍّ بك ، ولا موكولٍ إليكَ ؛ فنحن القائمُ عليكَ ، المصَّرفُ لكَ ، وأنتَ المتَّبعُ لما نُجريه عليك مُبْتَدِعٍ لما يَحصُل منك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 84 ﴾

(361/358)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والخمسون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/359)

الجزء التاسع والخمسون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 16 ﴾ من سورة يونس عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 23 ﴾ من نفس السورة

(4/359)

قوله تعالى ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تم ما دفع به مكرهم في طعنهم ، اتبعه بعذره ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الإبلاغ على وجه يدل قطعاً على أنه كلام الله وما تلاه إلاّ بإذنه فيجتث طعنهم من أصله ويزيله بجذافيره فقال : ﴿ قل ﴾ أي لهم معلماً أنه سبحانه إما أن يشاء الفعل وإما أن يشاء عدمه وليست ثَمّ حالة سكوت أصلاً ﴿ لو شآء الله ﴾ أي الذي له العظمة كلها أن لا أتلوه عليكم ﴿ ما تلوته ﴾ أي تابعت قراءته ﴿ عليكم ولآ أدراكم ﴾ أي أعلمكم على وجه المعالجة هو سبحانه ﴿ به ﴾ على لساني ؛ ولما كان ذكر ذلك أتبعه السبب المعرف به فقال : ﴿ فقد

لبثت فيكم عمراً ﴾ ولما كان عمره لم يستغرق زمان القبل قال : ﴿ من قبله ﴾ مقدار أربعين سنة بغير واحد من الأمرين لكون الله لم يشأ واحداً منهما إذ ذاك ، ثم أتيتكم بهذا الكتاب الأحكم المشتمل على حقائق علم الأصول ودقائق علم الفروع ولطائف علم الأخلاق وأسرار قصص الأولين في عبارة قد عجزتم - وأنتم أفصح الناس وأبلغهم - عن معارضة آية منها ، فوقع بذلك العلم القطعي الظاهر جداً أنه من عند الله فلذلك سبب عنه إنكار العقل فقال : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ إشارة إلى أنه يكفي - في معرفة أن القرآن من عند الله وأن غيره عاجز عنه - كون الناظر في أمره وأمري من أهل العقل ، أي أفلا يكون لكم عقل فتعرفوا به حقيقة القرآن بما أرشدكم إليه في هذه الآية من هذا البرهان الظاهر والسلطان القاهر القائم على أنه ما يصح لي بوجه أن أبدله من قبل نفسي لأني مثلكم وقد عرفتم أنكم عاجزون عن ذلك مع التظاهر ، فأنا وحدي - مع كوني أمياً - أعجز ، ومن أنه تعالى لو شاء ما بلغكم ، ومن أني مكثت فيكم إتياني به زمناً طويلاً لا أتلو عليكم شيئاً ولا أدعي فيكم علماً ولا أتردد إلى عالم ؛ وتعرفوا أن قائل ما قلتم مكذب بآيات الله ، وفاعل ما طلبتم كاذب على الله ، وكل من ذلك أظلم الظلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 425 . 426 ﴾

(5/359)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنا بينا فيما سلف ، أن القوم إنما التمسوا منه ذلك الالتماس ، لأجل أنهم اتهموه بأنه هو الذي يأتي بهذا الكتاب من عند نفسه ، على سبيل الاختلاق والافتعال ، لا على سبيل كونه وحياً من عند الله .

فلهذا المعنى احتج النبي عليه الصلاة والسلام على فساد هذا الوهم بما ذكره الله تعالى في هذه الآية .

وتقريره أن أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول عمره إلى ذلك الوقت ، وكانوا عالمين بأحواله وأنه ما طالع كتاباً ولا تلمذ لأستاذ ولا تعلم من أحد ، ثم بعد انقراض أربعين سنة على هذا الوجه جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس علم الأصول ، ودقائق علم الأحكام ، ولطائف علم الأخلاق ، وأسرار قصص الأولين .

وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء ، وكل من له عقل سليم فإنه يعرف أن مثل هذا لا يحصل إلا بالوحي والإلهام من الله تعالى ، فقوله : ﴿ لَّوْ شَاء اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ حكم منه عليه الصلاة والسلام بأن هذا القرآن وحي من عند الله تعالى ، لا من اختلاقي ولا من افتعالي .

وقوله : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ ﴾ إشارة إلى الدليل الذي قررناه ، وقوله : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ يعني أن مثل هذا الكتاب العظيم إذا جاء على يد من لم يتعلم ولم يتلمذ ولم يطالع كتاباً ولم يمارس مجادلة ، يعلم بالضرورة أنه لا يكون إلا على سبيل الوحي والتنزيل .

وإنكار العلوم الضرورية يقدح في صحة العقل .

فلهذا السبب قال : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ هو من الدراية بمعنى العلم .

قال سيبويه : يقال دريته ودريت به ، والأكثر هو الاستعمال بالباء .

(6/359)

والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ ولو كان على اللغة الأخرى لقال ولا أدراكموه .

إذا عرفت هذا فنقول : معنى ﴿ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ أي ولا أعلمكم الله به ولا أخبركم به .

قال صاحب "الكشاف" : قرأ الحسن ﴿ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ على لغة من يقول أعطأته وأرضأته في معنى أعطيته وأرضيته ويعضده قراءة ابن عباس ﴿ وَلاَ أَنذَرْتُكُمْ بِهِ ﴾ ورواه الفراء ﴿ وَلاَ أدرأتكم ﴾ به بالهمز ، والوجه فيه أن يكون من أدرأته إذا دفعته ، وأدرأته إذا جعلته دارياً ، والمعنى : ولا أجعلكم بتلاوته خصماء تدرؤنني بالجدال وتكذبونني ، وعن ابن كثير ﴿ ولأدرأكم ﴾ بلام الابتداء لإثبات الإدراء .

وأما قوله تعالى : ﴿ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ ﴾ فالقراءة المشهورة بضم الميم ، وقرىء ﴿ عُمُراً ﴾ بسكون الميم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 47 . 48 ﴾

(7/359)

وقال الثعلبى :

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ ﴾

أعلمكم ﴿ بِهِ ﴾ وقرأ الحسن : ولا أدراتكم به ، وهي لغة بني عقيل يحولون الياء ألفاً فيقولون : أعطأت بمعنى أعطيت ، ولبأت بمعنى لبّيت وجاراة وناصاة للجارية والناصية . فأنشد المفضل :

لقد أذنت أهل اليمامة طيّ . . . بجرب كناصاة الأغر المشهر

وقال زيد الخيل :

لعمرك ما أخشى التصعلك ما بقا . . . على الأرض قيسيّ يسوق الأباعرا

أي ما بقي ، وقال آخر :

زجرت فقلنا لا نريع لزاجر . . . إن الغويّ إذا نَها لم يعتب

أي نهى .

وروى البري عن ابن كثير ولادراكم بالقصر على الإيجاب يريد : ولا عملكم به من غير قراءتي عليكم . وقرأ ابن عباس : ولا أدراتكم من الإنذار ، وهي قراءة الحسن ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً ﴾ حيناً وهو أربعون سنة ﴿ مِّن قَبْلِهِ ﴾ من قبل نزول القرآن ولم آتكم بشيء ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ انه ليس من قبلي .

قال ابن عباس : نبّيء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعون سنة وأقام بمكة ثلاثة عشرة وبالمدينة عشرة وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ﴾

يعني القرآن :

﴿ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ولا أعلمكم به ، قاله ابن عباس .

الثاني : ولا أنذركم به ، قاله شهر بن حوشب .

الثالث : ولا أشعركم به ، قاله قتادة .

﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه أراد ما تقدم من عمره قبل الوحي إليه لأن عمر الإنسان مدة حياته طالت أو قصرت .

الثاني : أنه أربعون سنة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث بعد الأربعين وهو المطلق من عمر الإنسان ، قاله قتادة .

﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أني لم أدَّع ذلك بعد أن لبثت فيكم عمراً حتى أُوحِي إليّ ، ولو كنت افتريته لقدمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(9/359)

وقال ابن عطية :

﴿ قُل لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾

هذه من كمال الحجة أي هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي وإنما هو من عند الله ، ولو شاء ما بعثني به ولا تلوته عليكم ولا أعلمتكم به ، و ﴿ أدراكم ﴾ بمعنى أعلمكم يقال دريت بالأمر وأدريت غيري ، وهذه قراءة الجمهور ، وقرأ ابن كثير في بعض ما روي عنه : " ولا دراكم به " وهي لام تأكيد دخلت على أدرى ، والمعنى على هذا ولا علمكم به من غير طريقي وقرأ ابن عباس وابن سيرين وأبو رجاء والحسن " ولا أدرأتكم به " ، وقرأ ابن عباس أيضاً وشهر بن حوشب ، " ولا أنذرتكم به " ، وخرج الفراء قراءة ابن عباس والحسن على لغة لبعض العرب منها قولهم : لبأت بمعنى لبيت ، ومنها قول امرأة منهم : رثأت زوجي بأبيات أي رثيت ، وقال أبو الفتح إنما هي " أدريتكم " قلبت الياء ألفاً لانفتاح ما قبلها ، وروينا عن قطرب : أن لغة عقيل في أعطيتك أعطأتك ، قال أبو حاتم : قلبت

الياء ألفاً كما في لغة بني الحارث بن كعب : السلام علاك ، ثم قال ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ﴾ أي الأربعين سنة قبل بعثته عليه السلام ، ويريد لم تجربوني في كذب ولا تكلمت في شيء من هذا ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أن من كان على هذه الصفة لا يصح منه كذب بعد أن كلا عمره وتقاصر أمله واشتدت حنكته وخوفه لربه ، وقرأ الجمهور بالبيان في " لبثت " وقرأ أبو عمرو : " لبت " بإدغام الثاء في التاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(10/359)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ﴾

يعني القرآن ؛ وذلك أنه كان لا يُنزله عليّ ، فيأمرني بتلاوته عليكم .

﴿ ولا أدراكم به ﴾ أي : ولا أعلمكم الله به .

قرأ ابن كثير : "وَلَأَدْرَاكم" بلام التوكيد من غير ألف بعدها ، يجعلها لاماً دخلت على "أدراكم" .

وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : "أدريكم" بالإِمالة .

وقرأ الحسن ، وابن أبي عبلة ، وشيبة بن نصاح : "ولا أدرأتُكم" بتاء بين الألف والكاف .

﴿ فقد لبثْتُ فيكم عُمُراً ﴾ وقرأ الحسن ، والأعمش : "عُمْراً" بسكون الميم .

قال أبو عبيدة : وفي العمر ثلاث لغات : عُمْر ، وعُمُر ، وعَمْر .

قال ابن عباس : أقمت فيكم أربعين سنة لا أحدِّثكم بشيء من القرآن ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أنه ليس من قِبَلي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(11/359)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾

أي لو شاء الله ما أرسلني إليكم فتلوت عليكم القرآن ، ولا أعلمكم الله ولا أخبركم به ؛

يقال : دَرَيْتُ الشيء وأدراني الله به ، ودرَيته ودريت به .

وفي الدارية معنى الختل ؛ ومنه دريت الرجل أي ختلته ، ولهذا لا يطلق الداري في حق الله تعالى وأيضاً عدم فيه التوقيف .

وقرأ ابن كثير : "ولأدراكم به" بغير ألف بين اللام والهمزة ؛ والمعنى : لو شاء لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليكم ؛ فهي لام التأكيد دخلت على ألف أفعل .

وقرأ ابن عباس والحسن "ولا أدراتكم به" بتحويل الياء ألفاً ، على لغة بني عقيل ؛ قال الشاعر :

لعمرك ما أخشى التصّعلك ما بقيَ . . .

على الأرض قَيْسِيّ يسوق الأباعرا

وقال آخر :

ألا آذنتْ أهلَ اليمامة طيءٌ . . .

بحرب كناصات الأغرّ المشهر

قال أبو حاتم : سمعت الأصمعيّ يقول سألت أبا عمرو بن العلاء : هل لقراءة الحسن "ولا أدراتكم به" وجه ؟ فقال لا .

وقال أبو عبيد : لا وجه لقراءة الحسن "ولا أدراتكم به" إلا الغلط .

قال النحاس : معنى قول أبي عبيد : لا وجه ، إن شاء الله على الغلط ؛ لأنه يقال : دريت أي علمت ، وأدريت غيري ، ويقال : درأت أي دفعت ؛ فيقع الغلط بين دريت ودرأت .

قال أبو حاتم : يريد الحسن فيما أحسِب "ولا أدريتكم به" فأبدل من الياء ألفاً على لغة بني الحارث بن كعب ، يبدلون من الياء ألفاً إذا انفتح ما قبلها ؛ مثل ، ﴿ إِنْ هذان لَسَاحِرَانِ ﴾ [طه : 63] .

قال المهدويّ : ومن قرأ "أدرأتكم" فوجهه أن أصل الهمزة ياء ، فأصله "أدريتكم" فقلبت

الياء ألفاً وإن كانت ساكنة ؛ كما قال : يايس في يّيس وطايىء في طيء ، ثم قلبت الألف همزة على لغة من قال في العالم العألم وفي الخاتم الخأتم .

(12/359)

قال النحاس : وهذا غلط ، والرواية عن الحسن "ولا أدرأتكم" بالهمزة ، وأبو حاتم وغيره تكلم أنه بغير همز ، ويجوز أن يكون من درأت أي دفعت ؛ أي ولا أمرتكم أن تدفعوا فتتركوا الكفر بالقرآن .

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً ﴾ ظرف ، أي مقداراً من الزمان وهو أربعون سنة .

﴿ مِّن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل القرآن ، تعرفونني بالصدق والأمانة ، لا أقرأ ولا أكتب ، ثم جئتكم بالمعجزات .

﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أن هذا لا يكون إلا من عند الله لا من قِبلي .

وقيل : معنى "لَبِثْت فِيكُمْ عُمُراً" أي لبثت فيكم مدّة شبابي لم أعص الله ، أفتريدون مني الآن وقد بلغت أربعين سنة أن أُخالف أمر الله ، وأُغيّر ما ينزله عليّ .

قال قتادة : لبث فيهم أربعين سنة ، وأقام سنتين يرى رؤيا الأنبياء ، وتُوفّيَ صلى الله عليه وسلم وهو ابن اثنتين وستين سنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(13/359)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قل ﴾

أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين طلبوا منك تغيير القرآن وتبديله ﴿ لو شاء الله ما تلوته عليكم ﴾ يعني لو شاء الله لم ينزل علي هذا القرآن ولم يأمرني بقراءته عليكم ﴿ ولا أدراكم به ﴾ قال ابن عباس : ولا أدراكم الله به ولا أعلمكم به ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ﴾ يعني فقد مكثت فيكم قبل أن يوحى إلي هذا القرآن مدة أربعين سنة لم آتكم بشيء ووجه هذا الاحتجاج أن كفار مكة كانوا قد شاهدوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل مبعثه وعلموا أحواله وأنه كان أمياً لم يطالع كتاباً ولا تعلم من أحد مدة عمره قبل الوحي وذلك أربعون سنة ثم بعد الأربعين جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس العلوم وأخبار الماضين وفيه من الأحكام والآداب ومكارم الأخلاق والفصاحة والبلاغة ما أعجز البلغاء والفصحاء عن معارضته فكل من له عقل سليم وفكر ثاقب

يعلم أن هذا لم يحصل إلا بوحي من الله تعالى لا من عند نفسه وهو قوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ يعني أن هذا القرآن من عند الله أوحاه إليّ لا من قبل نفسي (ق) عن ابن عباس قال : أنزل على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو ابن أربعين سنة فمكث ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ثم أمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة فمكث بها عشر سنين ثم توفي (صلى الله عليه وسلم) : في رواية أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أقام بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وفي رواية أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أقام بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وفي رواية أن النبي أقام بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيئاً وثمان سنين يوحى إليه وأقام بالمدينة عشراً أو توفي وهو ابن خمس وستين سنة أخرجاه في الصحيحين (ق) عن عائشة قالت : توفي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو ابن ثلاث وستين سنة .

(14/359)

أخرجاه في الصحيحين (م) عن أنس قال : قبض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو ابن ثلاث وستين سنة وأبو بكر وهو ابن ثلاث وستين وعمر وهو ابن ثلاث وستين أخرجه

مسلم (ق) .

عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال سمعت أنس بن مالك يصف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : كان ربعة من القوم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير أزهر اللون ليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم ليس بجعد قطط ولا سبط رجل أنزل عليه الوحي وهو ابن أربعين سنة فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه الوحي وبالمدينة عشراً وتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس في رأسه ولحيته عشرون شعره بيضاء .

أخرجاه في الصحيحن قال الشيخ محيي الدين النووي : ورد في عمره (صلى الله عليه وسلم) ثلاث روايات إحداها أنه (صلى الله عليه وسلم) توفي وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهو أصحها وأشهرها رواها مسلم من حديث أنس وعائشة وابن عباس واتفق العلماء على أن أصحها ثلاث وستون سنة وتأولوا الباقي عليه فرواية ستين سنة اقتصر فيها على العقود وترك الكسر ورواية الخمس متأولة أيضاً بأنها حصل فيها اشتباه .

قوله : يسمع الصوت ، يعني صوت الهاتف من الملائكة ويرى الضوء يعني شوء الملائكة أو نور آيات الله حتى رأى الملك بعينه وشافه بالوحي من الله وقوله ليس بالأبيض الأمهق المراد به الشديد البياض كلون الجص وهو كريه المنظر وربما توهم الناظر أنه برص .

والمراد : أنه كان أزهر اللون البياض والحمرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(15/359)

وقال أبو حيان :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾

هذه مبالغة في التبرئة مما طلبوا منه أي : إنّ تلاوته عليهم هذا القرآن إنما هو بمشيئة الله تعالى وإحداثه أمراً عجيباً خارجاً عن العادات ، وهو أن يخرج رجل أمي لم يتعلم ولم يستمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره ، ولا نشأ في بلدة فيها علماء فيقرأ عليكم كتاباً فصيحاً يبهر كلام كل فصيح ، ويعلو على كل منثور ومنظوم ، مشحوناً بعلوم من علوم الأصول والفروع ، وإخبار ما كان وما يكون ، ناطقاً بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله تعالى ، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تطلعون على أحواله ولا يخفي عليكم شيء من أسراره ، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك ، ولا عرّفه به أحد من أقرب الناس إليه وألصقتم به .

ومفعول شاء محذوف أي ؛ قل لو شاء الله أن لا أتلوه ، وجاء جواب لو على الفصيح من عدم إتيان اللام ، لكونه منفياً بما ، ويقال : دريت به ، وأدريت زيداً به ، والمعنى : ولا

أعلمكم به على لساني .

وقرأ قنبل والبزي من طريق النقاش عن أبي ربيعة عنه : ولأدراكم بلام دخلت على فعل مثبت معطوف على منفي ، والمعنى : ولأعلمكم به من غير طريقي وعلى لسان غيري ، ولكنه يمن على من يشاء من عباده ، فخصني بهذه الكرامة ورآني لها أهلاً دون الناس .

وقراءة الجمهور : ولا أدراكم به فلا مؤكدة ، وموضحة أنّ الفعل منفي لكونه معطوفاً على منفي ، وليست لا هي التي نفي الفعل بها ، لأنه لا يصح نفي الفعل بلا إذا وقع جواباً ، والمعطوف على الجواب جواب .

وأنت لا تقول : لو كان كذا لا كان كذا ، إنما يكون ما كان كذا .

وقرأ ابن عباس ، وابن سيرين ، والحسن ، وأبو رجاء : ولا ادرأتكم به بهمزة ساكنة ، وخرجت هذه القراءة على وجهين : أحدهما : أن الأصل أدريتكم بالياء فقلبها همزة على لغة من قال : لبأت بالحج ، ورثأت زوجي بأبيات ، يريد : لبيت ورثيت .

(16/359)

وجاز هذا البدل لأنّ الألف والهمزة من واد واحد ، ولذلك إذا حركت الألف انقلبت همزة كما قالوا في العالم العأم ، وفي المشتاق المشتأق .

والوجه الثاني : أن الهمزة أصل وهو من الدرء ، وهو الدفع يقال : درأته دفعته ، كما قال : ﴿ ويدرأ عنها العذاب ﴾ ودرأته جعلته دارئاً ، والمعنى : ولأجعلنكم بتلاوته خصماء تدرؤونني بالجدال وتكذبونني .

وزعم أبو الفتح إنما هي أدريتكم ، فقلب الياء ألفاً لانفتاح ما قبلها ، وهي لغة لعقيل حكاها قطرب يقولون في أعطيتك : أعطأتك .

وقال أبو حاتم : قلب الحسن الياء ألفاً كما في لغة بني الحرث بن كعب السلام علاك ، قيل : ثم همز على لغة من قال في العالم العألم .

وقرأ شهر بن خوشب والأعمش ، ولا أنذرتكم به بالنون والذال من الإنذار ، وكذا هي في حرف ابن مسعود ، ونبّه على أنّ ذلك وحي من الله تعالى بإقامته فيهم عمراً وهو أربعون سنة من قبل ظهور القرآن على لساني يافعاً وكهلاً ، لم تجربوني في كذب ، ولا تعاطيت شيئاً من هذا ، ولا عانيت اشتغالاً ، فكيف أتهم باختلاقه ؟ أفلا تعقلون أنّ من كان بهذه الطريقة من مكثه الأزمان الطويلة من غير تعلم ، ولا تتلمذ ، ولا مطالعة كتاب ، ولا مراس جدال ، ثم أتى بما ليس يمكن أن يأتي به أحد ، ولا يكون إلا محقاً فيما أتى به مبلغاً عن ربه ما أوحى إليه وما اختصه به ؟ كما جاء في حديث هرقل : " هل جربتم عليه كذباً ؟ قال : لا فقال : لم يكن ليدع الكذب على الخلق ويكذب على الله " .

وأدغم ثاء لبثت أبو عمرو ، وأظهرها باقي السبعة .

وقرأ الأعمش : عمراً بإسكان الميم ، والظاهر وعود الضمير في من قبله على القرآن .

وأجاز الكرماني أنْ يعود على التلاوة ، وعلى النزول ، وعلى الوقت يعني : وقت نزوله .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(17/359)

وقال أبو السعود :

قوله عز وجل : ﴿ قُل لَّوْ شَاء اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ﴾

تحقيقٌ لحقية القرآنِ وكونِه من عند الله تعالى إثرَ بيانِ بطلانِ ما اقترحوا الإتيانَ به

واستحالتِه عبارةً ودلالةً ، وإنما صدر بالأمر المستقلِّ مع كونه داخلاً تحت الأمر السابقِ

إظهاراً لكمال الاعتناءِ بشأنه وإيذاناً باستقلاله مفهوماً وأسلوباً ، فإنه برهانٌ دالٌّ على كونه

بأمر الله تعالى ومشيئتِه كما سيأتي ، وما سبق مجردُ إخبارٍ باستحالة ما اقترحوه ،

ومفعولُ شاء محذوفٌ ينبىء عنه الجزاءُ لا غيرُ ذلك كما قيل فإن مفعولَ المشيئةِ إنما يحذف

إذا وقعت شرطاً وكان مفعولُها مضمونَ الجزاءِ ولم يكن في تعلقها به غرابةٌ كما في قوله :

(18/359)

لو شئتُ أن أبكي دماً لبكَيتُه . . . حيث لم يُحذف لفقدان الشرطِ الأخيرِ ولأن المستلزِمَ للجزاء أعني عدمَ تلاوتِه عليه الصلاة والسلام للقرآن عليهم إنما هو مشيئتُه تعالى له لا مشيئتُه لغير القرآن ، والمعنى أن الأمرَ كلَّه منوطٌ بمشيئته تعالى وليس لي منه شيء قط ، ولو شاء عدمَ تلاوتي له عليكم لا بأن شاء عدمَ تلاوتي له من تلقاء نفسي بل بأن يُنزِلْه عليّ ولم يأمُرْني بتلاوته كما ينبىء عنه إيثارُ التلاوة على القراءة ما تلوتُه عليكم ﴿ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ أي ولا أعلمَكم به بواسطتي ، والتالي وهو عدمُ التلاوةِ والإدراءِ منتفٍ فينتفي المقدّم أعني مشيئتَه عدمَ التلاوة ، ولا يخفى أنها مستلزمةٌ لعدم مشيئتِه التلاوة قطعاً ، فانتفاؤُها مستلزِمٌ لانتفائه حتماً وانتفاءُ عدمِ مشيئتِه التلاوةَ إنما يكون بتحقق مشيئةِ التلاوةِ فثبت أن تلاوتَه عليه الصلاة والسلام للقرآن بمشيئته تعالى وأمرِه ، وإنما قيدنا الإدراءَ بكونه بواسطته عليه الصلاة والسلام لأن عدمَ الإعلامِ مطلقاً ليس من لوازم الشرطِ الذي هو مشيئةُ عدمِ تلاوتِه عليه السلام فلا يجوز نظمُه في سلك الجزاءِ ، وفي إسناد عدمِ الإدراءِ إليه تعالى المنبىءِ عن استناد الإدراءِ إليه تعالى إيذانٌ بأنْ لا دخلَ له عليه السلام في ذلك حسبما يقتضيه المقامُ ، وقرىء ولا أدرأْكم ولا أدرأَكم بالهمزة فيهما على لغة من يقول : أعطأتُ وأرضأتُ في أعطيت وأرضيتُ أو على أنه من الدرء بمعنى الدفعِ أي ولا جعلتُكم بتلاوته عليكم خصَماءَ تدرَؤُني بالجِدال ، وقرىء ولا أنذرتُكم به وقرىء لأدْرَاكم بلام الجوابِ ،

أي لو شاء الله ما تلوتُه عليكم أنا ولأَعلَمكم به على لسان غيري ، على معنى أنه الحقُّ الذي لا محيصَ عنه ، لو لم أُرسل به أنا لأُرسل به غيري البتة ، أو على معنى أنه تعالى يُمُنّ على من يشاء فخصّني بهذه الكرامة .

(19/359)

﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً ﴾ تعليلٌ للملازمة المستلزِمةِ لكون تلاوتِه بمشيئة الله تعالى وأمره حسبما بيّن آنفاً ، لكن لا بطريق الاستدلالِ عليها بعدم تلاوتِه عليه الصلاة والسلام فيما سبق بسبب مشيئتِه تعالى إياه بل بطريق الاستشهادِ عليها بما شاهدوا منه عليه الصلاة والسلام في تلك المدةِ الطويلةِ من الأمور الدالةِ على استحالة كونِ التلاوةِ من جهته عليه الصلاة والسلام بلا وحيٍ ، وعمراً نُصب على التشبيه بظرف الزمانِ ، والمعنى قد أقمتُ فيما بينكم دهراً مديداً مقدارَ أربعين سنةً تحفظون تفاصيلَ أحوالي طرّاً وتحيطون بما لديّ خبراً ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل نزولِ القرآن لا أتعاطى شيئاً مما يتعلق به لا من حيث نظمه المعجز ولا من حيث معناه الكاشفُ عن أسرار الحقائقِ وأحكامِ الشرائع ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أي ألا تلاحِظون ذلك فلا تعقلون امتناعَ صدوره عن مثلي ، ووجوبَ كونِه منزلاً من عند الله العزيز الحكيم فإنه غيرُ خافٍ على من له عقلٌ سليمٌ .

والحق الذي لا محيدَ عنه أن مَنْ له أدنى مَسَكةٍ من العقل إذا تأمل في أمره عليه الصلاة والسلام وأنه نشأ فيما بينهم هذا الدهرَ الطويلَ من غير مصاحبةِ العلماء في شأن من الشؤون ولا مراجعةٍ إليهم في فن من الفنون ولا مخالطةِ البلغاءِ في المفاوضة والحِوار ولا خوضٍ معهم في إنشاء الخُطبِ والأشعار ثم أتى بكتاب بهَرتْ فصاحتُه كلَّ فصيح فائقٍ وبزّت بلاغتُه كلَّ بليغٍ رائقٍ أو علا نظمُه كلَّ منثور ومنظومٍ وحوى فحواه بدائعَ أصنافِ العلومِ ، كاشفٌ أسرارَ الغيبِ من وراء أستارِ الكمُون ناطقٌ بأخبار ما قد كان وما سيكون ، مصدقٌ لما بين يديه من الكتب المنزلةِ مهيمنٌ عليها في أحكامها المُجْملة والمفصّلة لا يبقى عنده شائبةُ اشتباهٍ في أنه وحيٌ منزلٌ من عند الله ، هذا هو الذي اتفقت عليه كلمةُ الجمهور ، ولكن الأنسبَ ببناء الجوابِ فيما سلف على مجرد امتناعِ صدورِ التغيير والتبديلِ عنه عليه الصلاة والسلام لكونه معصيةً موجبةً للعذاب العظيم واقتصارِ حالِه عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحي وامتناعِ الاستبدادِ بالرأي من غير تعرضٍ هناك ولا ها هنا لكون القرآنِ في نفسه أمراً خارجاً عن طَوْق البشرِ ولا لكونه عليه الصلاة والسلام غيرَ قادرٍ على الإتيان بمثله أن يُستشهدَ ها هنا على المطلب بما يلائم ذلك من أحواله

المستمرةِ في تلك المدةِ المتطاولةِ من كمال نزاهتِه عليه الصلاة والسلام عما يوهم شائبةَ صدورِ الكذبِ والافتراءِ عنه في حق أحدٍ كائناً مَنْ كان كما ينبىء عنه تعقيبُه بتظليم المفتري على الله تعالى ، والمعنى قد لبثتُ فيما بين ظَهْرانيكم قبل الوحي لا أتعرض لأحد قط بتحكم ولا جدالٍ ولا أحوم حولَ مقالٍ فيه شائبةُ شبهةٍ فضلاً عما فيه كذبٌ أو افتراءٌ ، ألا تلاحظون فلا تعقِلون أن مَنْ هذا شأنُه المطردُ في هذا العهد البعيدِ مستحيلٌ أن يفتريَ على الله عز وجل ويتحكم على كافة الخلقِ بالأوامر والنواهي الموجبةِ لسلب الأموالِ وسفكِ الدماءِ ونحو ذلك ، وأن ما أتى به وحيٌ مبينٌ تنزيلٌ من رب العالمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(21/359)

وقال الآلوسى :

﴿ قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ﴾

تحقيق لحقية القرآن وأنه من عنده سبحانه أثر بيان بطلان ما اقترحوه على أتم وجه ، وصدر بالأمر المستقل إظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه وإيذاناً باستقلاله مفهوماً وأسلوباً فإنه برهان دال على كونه بأمر الله تعالى ومشيئته كما ستعلمه إن شاء الله تعالى وما سبق مجرد

إخبار باستحالة ما اقترحوه ، ومفعول المشيئة محذوف ينبىء عنه الجزاء كما هو المطرد في أمثاله ، ويفهم من ظاهر كلام بعضهم أنه غير ذلك وليس بذلك وهو ظاهر ، والمعنى أن الأمر كله منوط بمشيئته تعالى وليس لي منه شيء أصلاً ولو شاء سبحانه عدم تلاوتي له عليكم وعدم إدرائكم به بواسطتي بأن لم ينزله جل شأنه علي ولم يأمرني بتلاوته ما تلوته عليكم ﴿ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ أي ولا أعلمكم به بواسطتي والتالي وهو عدم التلاوة والإدراء منتف فينتفي المقدم وهو مشيئته العدم وهي مستلزمة لعدم مشيئته الوجود فانتفاؤه مستلزم لانتفائه وهو إنما يكون بتحقق مشيئة الوجود فثبت أن تلاوته عليه الصلاة والسلام للقرآن وإدراءه تعالى بواسطته بمشيئته تعالى .

وتقييد الإدراء بذلك هو الذي يقتضيه المقام وحيث اقتصر بعضهم في تقدير المفعول في الشرط على عدم التلاوة علل التقييد بأن عدم الاعلام مطلقاً ليس من لوازم الشرط الذي هو عدم مشيئة تلاوته عليه الصلاة والسلام فلا يجوز نظمه في سلك الجزاء ، ولم يظهر وجه الاقتصار على ذلك وعدم ضم عدم الإدراء إليه مع أن العطف ظاهر فيه ، وفي إسناد عدم الإدراء إليه تعالى المنبىء عن استناد الإدراء إليه سبحانه أعلام بأنه لا دخل عليه الصلاة والسلام في ذلك حسبما يقتضيه المقام أيضاً .

وفي رواية أبي ربيعة عن ابن كثير ﴿ ولأدراكم ﴾ بلام التوكيد وهي الواقعة في جواب ﴿ عَلَيْهِمْ لَوْ ﴾ أب لو شاء الله ما تلوته عليكم ولأعلمكم به على لسان غيري على معنى أنه الحق الذي لا محيص عنه لو لم أرسل به لأرسل به غيري ، وجيء باللام هنا للإيذان بأن إعلامهم به على لسان غيره صلى الله عليه وسلم أشد انتفاء وأقوى ، ولعل ﴿ لا ﴾ في القراءة الأولى لأنه يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع وإلا فهي لا تقع في جواب ﴿ لَوْ ﴾ فلا يقال : لو قام زيد لا قام عمرو بل ما قام ، ومن هنا نص السمين على أنها زائدة مؤكدة للنفي .

وروي عن ابن عباس .

والحسن .

وابن سيرين أنهم قرأوا ﴿ وَلاَ ﴾ بإسناد الفعل إلى ضميره صلى الله عليه وسلم كالفعل السابق ، والأصل ولا أدريتكم فقلت الياء ألفا على لغة من يقلب الياء الساكنة المفتوح ما قبلها ألفا وهي لغة بلحرث بن كعب وقبائل من اليمن حتى قلبوا ياء التثنية ألفا وجعلوا المثنى في جميع الأحوال على لفظ واحد وحكى ذلك قطرب عن عقيل .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر .

وغيرهما عن الحسن أنه قرأ ﴿ وَلاَ ﴾ بهمزة ساكنة فقيل : إنها مبدلة من الألف المنقلبة عن الياء كما سمعت وقيل : إنها مبدلة من الياء ابتداء كما يقال في لبيت لبئت وعلى

القولين هي غير أصلية ، وجاء ذلك في بعض اللغات كما نص عليه غير واحد ، وجوز أن تكون أصلية على أن الفعل من الدرء وهو الدفع والمنع ويقال أدرأته أي جعلته دارئاً أي دافعاً ، والمعنى ولا جعلتكم بتلاوته خصماء تدرءونني بالجدال .

وقرىء ﴿ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ ﴾ بالهمز وتركه أيضاً مع إسناد الفعل إلى ضمير الله تعالى .

وأخرج سعيد بن منصور .

(23/359)

وابن جرير أن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كان يقرأ دولا أنذرتكم به ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً ﴾ نوع تعليل للملازمة المستلزمة لكون ذلك بمشيئة الله عز وجل حسبما مر آنفاً واللبث الإقامة ، ونصب ﴿ عُمُراً ﴾ على التشبيه بظرف الزمان والمراد منه مدة ، وقيل : هو على تقدير مضاف أي مقدار عمر ، وهو بضم الميم وقرأ الأعمش بسكونها للتخفيف ، والمعنى قد أقمت فيما بينكم مدة مديدة وهي مقدار أربعين سنة تحفظون تفاصيل أحوالي وتحيطون خبراً بأقوالي وأفعالي ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل نزول القرآن أو من قبل وقت نزوله ، ورجوع المضير للتلاوة ليس بشيء لا أتعاطى شيئاً مما يتعلق بذاك لا من حيث نظمه المعجز ولا من حيث معناه الكاشف عن أسرار الحقائق وأحكام

الشرائع ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أي ألا تلاحظون ذلك فلا تعقلون امتناع صدوره عن مثلي ووجوب كونه منزلاً من عند الله العزيز الحكيم فإن ذلك غير خاف على من لهعقل سليم وذهن مستقيم بل لعمري أن من كان له أدنى مسكة من عقل إذا تأمل في أمره صلى الله عليه وسلم وأنه نشأ فيما بينهم هذا الدهر الطويل من غير مصاحبة العلماء في شأن من الشؤون ولا مراجعة إليهم في فن من الفنون ولا مخالطة للبلغاء في المحاورة والمفاوضة ولا خوض معهم في إنشاء الخطب والمعارضة ثم أتى بكتاب بهرت فصاحته كل ذي أدب وحيرت بلاغته مصاقع العرب واحتوى على بدائع أصناف العلوم ودقائق حقائق المنطوق والمفهوم وغدا كاشفاً عن أسرار الغيب التي لا تنالها الظنون ومعرباً عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين من القرون ومصدقاً لما بين يديه من الكتب المنزلة ومهيمناً عليها في أحكامه المجملة والمفصلة لا يبقى عنده اشتباه في أنه وحي منزل من عند الله جل جلاله وعم أفضاله ، هذا هو الذي اتفقت عليه كلمة الجمهور وهو أوفق بالرد عليهم كما لا يخفى على المتأمل .

(24/359)

وقيل : إن الأنسب ببناء الجواب فيما سلف على امتناع صدور التغيير والتبديل عنه عليه الصلاة والسلام لكونه معصية موجبة للعذاب العظيم واقتصاره صلى الله عليه وسلم على

اتباع الوحي وامتناع الاستبداد بالرأي من غير تعرض هناك ولا هنا لكون القرآن في نفسه أمراً خراجاً عن طوق البشر ولا بكونه عليه الصلاة والسلام غير قادر على الإتيان بمثله أن يستشهد ههنا بما يلائم ذلك من أحواله صلى الله عليه وسلم المستمرة في تلك المدة المتطاولة من كمال نزاهته عليه الصلاة والسلام عما يوهم شائبة صدور الكذب والافتراء عنه في حق أحد كائنا من كان كما ينبىء عنه تعقيبه بتظليم المفتري على الله تعالى ، والمعنى قد لبثت فيما بين ظهرانيكم قبل الوحي لا أترض لأحد قط بتحكم ولا جدال ولا أحوم حول مقال فيه شائبة شبهة فضلاً عما فيه كذب وافتراء ألا تلاحظونه فلا تعقلون أن من هذا شأنه المطرد في هذا العهد البعيد يستحيل أن يفتري على الله عز وجل ويتحكم على كافة الخلق بالأوامر والنواهي الموجبة لسلب الأموال وسفك الدماء وغير ذلك وإن ما أتى به وحي مبين تنزيل من رب العالمين انتهى .

وأنت تعلم أن هذا غير منساق إلى الذهن وأن الكلام الأول مشير في الجملة إلى كون القرآن أمراً خارجاً عن طوق البشر وأنه صلى الله عليه وسلم غير قادر على الإتيان بمثله على أنه بعد لا يخلو عن مقال فتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(25/359)

وقال القاسمي :

﴿ قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ﴾ .

قال الزمخشري : يعني أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمراً عجيباً خارجاً عن العادات ، وهو أن يخرج رجل أمي لم يتعلم ولم يستمع ، ولم يشهد العلماء ساعة من عمره ، ولا نشأ في بلد فيه علماء ، فيقرأ عليكم كتاباً فصيحاً ، يبهر كل كلام فصيح ، ويعلو على كل منثور ومنظوم ، مشحوناً بعلوم من علوم الأصول والفروع ، وأخبار مما كان ، ويكون ناطقاً بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله ، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تطلعون على أحواله ، ولا يخفى عليكم شيء من أسراره ، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك ، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه ، وألصقهم به .

﴿ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ ﴾ أي : ولا أعلمكم به على لساني : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ ﴾ أي : من قبل نزوله ، لا أتعاطى شيئاً مما يتعلق بنحوه ، ولا كنت متواصفاً بعلم وبيان ، فتتهموني باختراعه ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : فتعلموا أنه ليس إلا من الله ، لا من مثلي .

قال الزمخشري : وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم : ﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا ﴾ من إضافة الافتراء إليه .

تنبيه :

رأى أبو السعود أن الأنسب ببناء الجواب فيما سلف على مجرد امتناع صدور التغيير والتبديل عنه عليه الصلاة والسلام ؛ لكونه معصية موجبة للعذاب العظيم ، واقتصار حاله عليه الصلاة والسلام على إتباع الوحي ، وامتناع الاستبداد بالرأي ، من غير تعرض هناك ولا هاهنا ؛ لكون القرآن في نفسه أمراً خارجاً عن طوق البشر ، ولا لكونه عليه السلام غير قادر على الإتيان بمثله ، أن يستشهد هاهنا على المطلوب مما يلائم ذلك من أحواله المستمرة في تلك المدة المتطاولة ، من كمال نزاهته عما يوهم شائبة صدور الكذب والافتراء عنه في حق أحد كائناً من كان . كما ينبئ عن تعقيبه بتظليم المفتري على الله تعالى .

والمعنى : قد لبثت فيما بين ظهرانيكم قبل الوحي ، لا أتعرض لأحد قط بتحكم ولا جدال ، ولا أحوم حول مقال فيه شائبة شبهة . فضلاً عما فيه كذب أو افتراء ، أفلا تعقلون أن من هذا شأنه المطرد في هذا العهد البعيد ، مستحيل أن يفتري على الله ، ويتحكم على الخلق كافة ، بالأوامر والنواهي الموجبة لسفك الدماء ، وسلب الأموال ، ونحو ذلك ، وأن ما أتي به وحي مبين ، تنزيل من رب العالمين – انتهى – .

وما استنسبه رحمه الله ، اقتصر عليه ابن كثير ، ثم استشهد بقول هرقل ملك الروم لأبي سفيان ، فيما سأله من صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، قال هرقل له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان : فقلت لا ! وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس

الكفرة ، وزعيم المشركين ، ومع هذا اعترف بالحق .

~والفضل ما شهدت به الأعداء

فقال له هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ثم يكذب على الله .

وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة : بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة .

وعن ابن المسيب : ثلاثاً وأربعين سنة ، والصحيح المشهور الأول . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 14.15 ﴾

(27/359)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾

هذا جواب عن لازم اقتراحهم وكنايتِهِ عن رميهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالكذب عن الله فيما ادعى من إرساله وإنزال القرآن عليه كما تقدم في الجواب قبله .

ولكونه جواباً مستقلاً عن معنى قصدوه من كلامهم جاء الأمر به مفصولاً عن الأول غير معطوف عليه تنبيهاً على استقلاله وأنه ليس بتكملة للجواب الأول .

وفي هذا الجواب استدلال على أنه مرسل من الله تعالى ، وأنه لم يختلق القرآن من عنده بدليلٍ التفَّتْ في مطاويه أدلة ، وقد نظم فيه الدليل بانتفاء نقيض المطلوب على إثبات المطلوب ، إذ قوله : ﴿ لو شاء الله ما تلوته ﴾ تقديره لو شاء الله أن لا أتلوه عليكم ما تلوتُه .

فإن فعل المشيئة يكثر حذف مفعوله في جملة الشرط لدلالة الجزاء عليه ، وإنما بني الاستدلال على عدم مشيئة الله نفي تلاوته لأن ذلك مدَّعى الكفار لزعمهم أنه ليس من عند الله ، فكان الاستدلال إبطالاً لدعواهم ابتداء وإثباتاً لدعواه مآلا .

وهذا الجمع بين الأمرين من بديع الاستدلال ، أي لو شاء الله أن لا آتيكم بهذا القرآن لما أرسلني به ولبقيت على الحالة التي كنت عليها من أول عمري .

والدليل الثاني مطوي هو مقتضى جواب (لو) ، فإن جواب (لو) يقتضي استدراكاً مطرداً في المعنى بأن يثبت نقيض الجواب ، فقد يُستغنى عن ذكره وقد يذكر ، كقول أَبي بن سُلْمِي بن ربيعة :

فلو طَار ذو حافر قبلها

لطارت ولكنه لم يطر . . .

فتقديره هنا : لو شاء الله ما تلوته لكنني تلوته عليكم .

وتلاوته هي دليل الرسالة لأن تلاوته تتضمن إعجازه علمياً إذ جاء به من لم يكن من أهل العلم والحكمة ، وبلاغياً إذ جاء كلاماً أعجز أهل اللغة كلهم مع تضافرهم في بلاغتهم

وتفاوت مراتبهم ، وليس من شأن أحد من الخلق أن يكون فائقاً على جميعهم ولا من شأن كلامه أن لا يستطيع مثلَه أحد منهم .

(28/359)

ولذلك فُرعت على الاستدلال جملةُ : ﴿ فقد لبثت فيكم عُمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ تذكيراً لهم بقديم حاله المعروفة بينهم وهي حال الأمية ، أي قد كنت بين ظهرانيكم مدة طويلة ، وهي أربعون سنة ، تشاهدون أطوار نشأتي فلا ترون فيها حالة تشبه حالة العظمةِ ، والكمال المتناهي الذي صار إليه لما أوحَى الله إليه بالرسالة ، ولا بلاغة قول واشتهاراً بمقاولة أهل البلاغة والخطابة والشعر تشبه بلاغة القول الذي نطق به عن وحي القرآن ، إذ لو كانت حالته بعد الوحي حالاً معتاداً وكانت بلاغة الكلام الذي جاء به كذلك لكان له من المقدمات من حين نشأته ما هو تهيئة لهذه الغاية وكان التخلق بذلك أطواراً وتدرجاً .

فلا جرم دل عدم تشابه الحالين على أن هذا الحال الأخير حال رَباني محض ، وأن هذا الكلام موحًى إليه من عند الله ليس له بذاته عمل فيه .

فما كان هذا الكلام دليلاً على المشركين وإبطالاً لادعائهم إلا لَما بني على تلاوة القرآن

فكان ذكر القرآن في الاستدلال هو مناطه ، ثم لما فرع عليه جملة : ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ إذ كان تذكيراً لهم بحاله قبل أن يتلو عليهم القرآن ولولا ذانك الأمران لعاد الاستدلال مصادرة ، أي استدلالاً بعين الدعوى لأنهم ينهَض لهم أن يقولوا حينئذٍ : ما أرسلك الله إلينا وقد شاء أن لا يرسلك إلينا ولكنك تقولت على الله ما لم يقله .

فهذا بيان انتظام هذا الدليل من هذه الآية .

وقد آل الدليل بهذا الوجه إلى الاستدلال عليهم بمعجزة القرآن والأمية .

ولكلمة ﴿ تلوته ﴾ هنا من الوقع ما ليس لغيرها لأنها تتضمن تالياً كلاماً ، ومتلواً ، وباعثاً بذلك المتلو .

فبالأول : تشير إلى معجزة المقدرة على تلاوة الكتاب مع تحقق الأمية لأن أسلوب الكتب الدينية غير الأسلوب الذي عرفه العرب من شعرائهم وخطبائهم .

(29/359)

وبالثاني : تشير إلى القرآن الذي هو معجزة دالة على صدق الآتي به لما فيه من الحقائق والإرشاد الديني الذي هو من شأن أنبياء الأديان وعلمائها ، كما قال تعالى : ﴿ وما كنت

تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ [العنكبوت : 48 ، 49] .

وبالثالث : تشير إلى أنه كلام من عند الله تعالى ، فانتظمت بهذا الاستدلال دلالة صدق النبي صلى الله عليه وسلم في رسالته عن الله تعالى .

والتلاوة : قراءة المكتوب أو استعراض المحفوظ ، فهي مشعرة بإبلاغ كلام من غير المبلِّغ .

وقد تقدمت عند قوله تعالى : ﴿ واتَّبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ﴾ في سورة [البقرة : 102] ، وعند قوله : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ في سورة [الأنفال : 2] .

و﴿ أدراكم ﴾ عَرَّفكم .

وفعل الدراية إذا تعلق بذات يتعدى إليها بنفسه تارة وبالباء أيضاً ، يقال : دَريته ودريت به .

وقد جاء في هذه الآية على الاستعمال الثاني وهو الأكثر في حكاية سيبويه .

قرأ الجمهور ﴿ ولا أدراكم به ﴾ بحرف النفي عطفاً على ﴿ ما تلوته عليكم ﴾ أي لو شاء الله ما أمرني بتلاوة القرآن عليكم ولا أعلمكم الله به .

وقرأه البزي عن ابن كثير في إحدى روايتين عنه بلام ابتداء في موضع لا النافية ، أي بدون أِلف بعد اللام فتكون عطفاً على جواب (لو) فتكون اللام لاماً زائدة للتوكيد كشأنها في

جواب (لو) .

والمعنى عليه : لو شاء الله ما تلوته عليكم ولو شاء لجعلكم تدرون معانيه فلا تكذِبوا .

وتفريع جملة : ﴿ فقد لبثت فيكم ﴾ تفريع دليلِ الجملة الشرطية وملازمتها لطَرَفَيها .

والعُمُر : الحياة .

اشتق من العُمران لأن مدة الحياة يَعْمُر بها الحي العالم الدنيوي .

ويطلق العُمر على المدة الطويلة التي لو عاش المرء مقدارها لكان قد أخذ حظه من البقاء .

(30/359)

وهذا هو المراد هنا بدليل تنكير ﴿ عُمرا ﴾ وليس المراد لبثت مدة عُمري ، لأن عمره لم ينته بل المراد مدة قدْرها قدْر عُمُرٍ متعارَف ، أي بقدر مدة عُمر أحد من الناس .

والمعنى لبثت فيكم أربعين سنة قبل نزول القرآن .

وانتصب ﴿ عمراً ﴾ على النيابة عن ظرف الزمان ، لأنه أريد به مقدار من الزمان .

واللبث : الإقامة في المكان مدة .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ قال كم لبثتَ ﴾ في سورة [البقرة : 259] .

والظرفية في قوله فيكم ﴾ على معنى في جماعتكم ، أي بيْنكم .

و(قبل) و (بعد) إذا أضيفاً للذوات كان المراد بعض أحوال الذات مما يدل عليه المقام ، أي من قبللِ نزوله .

وضمير (قبله) عائد إلى القرآن .

وتفريع جملة : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ على جملة الشرط وما تفرع عليها تفريع للإنكار والتعجب على نهوض الدليل عليهم ، إذ قد ظهر من حالهم ما يجعلهم كمن لا يعقل .

ولذلك اختير لفظ ﴿ تعقلون ﴾ لأن العقل هو أول درجات الإدراك .

ومفعول ﴿ تعقلون ﴾ إما محذوف لدلالة الكلام السابق عليه .

والتقدير أفلا تعقلون أنَّ مثل هذا الحال من الجمع بين الأمية والإتيان بهذا الكتاب البديع في بلاغته ومعانيه لا يكون إلا حال من أفاض الله عليه رسالته إذ لا يتأتى مثله في العادة لأحد ولا يتأتى ما يقاربه إلا بعد مدارسة العلماء ومطالعة الكتب السالفة ومناظرة العلماء ومحاورة أهل البلاغة من الخطباء والشعراء زمناً طويلاً وعُمراً مديداً ، فكيف تأَّتى ما هو أعظم من ذلك المعتادِ دَفعةً لمن قضى عمره بينهم في بلاده يرقبون أحواله صباح مساءَ ، وما عُرف بلدهم بمزاولة العلوم ولا كان فيهم من أهل الكتاب إلا من عَكف على العبادة وانقطع عن معاشرة الناس .

وإما أن ينزل ﴿ تعقلون ﴾ منزلة اللازم فلا يقدّر له مفعول ، أي أفلا تكونون عاقلين ، أي

فتعرفوا أن مثل هذا الحال لا يكون إلا من وحي الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(31/359)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ﴾

وهنا يبلِّغ محمدٌ صلى الله عليه وسلم هؤلاء الذين طلبوا تغيير القرآن أو تبديله : لقد عشت طوال عمري معكم ، ولم تكن لي قوة بلاغة أو قوة شعر ، أو قوة أدب . فمن له موهبة لا يكتمها إلى أن يبلغ الأربعين ، ورأيتم أنه صلى الله عليه وسلم لم يجلس إلى معلِّم ، بل عندما اتهمتموه وقلتم :

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل : 103]

وفضحكم الحق سبحانه بأن أنزل في القرآن قوله تعالى :

﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 103]

ولم يخرج النبي صلى الله عليه وسلم من شبه الجزيرة العربية ، ولم يقرأ مؤلَّفات أحد . فمن أين جاء القرآن إذن ؟

لقد جاء من الله سبحانه ، وعليكم أن تعقلوا ذلك ، ولا داعي للاتهام بأن القرآن من عند محمد ؛ لأنكم لم تجرّبوه خطيباً أو شاعراً ، بل كل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن نزلت عليه الرسالة ، هو بلاغ من عند الله .

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يُنسَب الكمال إلى إنسان فينفيه ، فالعادة أن يسرق شاعر مثلاً قصيدة من شاعر آخر ، أو أن ينتحل كاتب مقالة من آخر . لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبلِّغكم أن كمال القرآن ليس من عنده ، بل هو مجرد مبلِّغ له ، وكان يجب أن يتعقَّلوا تلك القضية بمقدّماتها ونتائجها ؛ فلا يلقوا لأفكارهم العنان ؛ ليكذبوا ويعاندوا ، فالأمر بسيط جداً .

يقول الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : 16]

إذن : فالمقدمة التي يريد الحق سبحانه وتعالى أن يقنع بها الكافرين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسله الله رسولاً من أنفسهم ، فإن قلت :

﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران : 164]

أي : أنه صلى الله عليه وسلم من جنس الناس ، لا من جنس الملائكة ، أو ﴿ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي : من أمة العرب ، لا من أمة العَجَم ، أو ﴿ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي : من قبيلتهم التي يكذِّب أصحابُها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .

إذن : فحياته صلى الله عليه وسلم معروفة معلومة لكم ، لم يَغِبْ عنكم فترة ؛ لتقولوا بُعِثَ بعثةً ؛ ليتعلَّم علماً من مكان آخر ، ولم يجلس إلى معلِّم عندكم ولا إلى معلِّم خارجكم ، ولم يَتْلُ كتاباً ، فإذا كان الأمر كذلك ، فيجب أن تأخذوا من هذا مقدِّمة وتقولوا : فمن أين جاءت له هذه الحكمة فجأة ؟

أنتم تعلمون أن المواهب والعبقريات لا تنشأ في الأربعينات ، ولكن مخايل العبقرية إنما ينشأ في نهاية العقد الثاني وأوائل العقد الثالث ، فمن الذي آخّر العبقرية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقول هذا القول البليغ الذي أعجزكم ، وأنتم أمّة البلاغة وأمة الفصاحة المرتاضون عليها من قديم ، وعجزتم أمام ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ؟

كان يجب أن تقولوا : لم نعرف عنه أنه يعلم شيئاً من هذا ، فإذا حَلّ لكم اللغز وأوضح لكم : أن القرآن ليس من عندي ؛ كان يجب أن تصدقوه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم يعزوه إلى خالقه وربه سبحانه .

والدليل على أنكم مضطربون في الحكم أنكم ساعة يقول لكم : القرآن بلاغ عن الله ،

تكذّبونه ، وتقولون : لا ، بل هو من عندك ، فإذا فَتَرَ عنه الوحي مرّةً قلتم : قلاه ربُّه .

لماذا اقتنعتم بأن له ربّاً يَصِلُه بالوحي ويهجره بلا وحي ؟

أنتم إذن أنكرتم حالة الوصل بالوحي ، واعترفتم بالإله الخالق عندما غاب عنه الوحي ، وكان يجب أن تنتبهوا وتعودوا إلى عقولكم ؛ لتحكموا على هذه الأشياء ، وقد ذكر الحق سبحانه ذلك الأمر في كثير من آياته ، يقول سبحانه :

(33/359)

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران : 44]

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إِلى مُوسَى الأمر ﴾ [القصص : 44]

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ [القصص : 45]

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ المبطلون ﴾ [العنكبوت : 48]

فمن أين جاءت تلك البلاغة ؟ كان يجب أن تأخذوا هذه المقدّمات ؛ لتحكموا بأنه صادق في البلاغ عن الله ؛ لذلك يُنهى الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ .

وحين ينبهك الحق سبحانه وتعالى إلى أن تستعمل عقلك ، فهذا دليل على الثقة في أنك إذا استعملت عقلك ؛ وصلت إلى القضية المرادة . والله سبحانه وتعالى مُنزَّه عن خديعة عباده ، فمن يخدع الإنسان هو من يحاول أن يصيب عقله بالغفلة ، لكن الذي ينّبه العقل هو من يعلم أن دليل الحقيقة المناسبة لما يقول ، يمكن الوصول إليه بالعقل .

وقول الحق سبحانه في آخر الآية : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ يدلنا على أن القضية التي كذَّبوا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم نشأت من عدم استعمال عقولهم ، فلو أنهم استعملوا عقولهم في استخدام المقدمات المُحسَّة التي يؤمنون بها ويسلمون ؛ لانتهوا إلى القضية الإيمانية التي يقولها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولو أنهم فكّروا وقالوا : محمد نشأ بيننا ولم نعرف له قراءة ، ولا تلاوة كتاب ولا جلوساً إلى معلِّم ، ولم يَغبْ عنا فترة ليتعلَّم ، وظل مدة طويلة إلى سِنِّ الأربعين ولم يرتض على قول ولا على بلاغة ولا على بيان ؛ فمن أين جاءته هذه الدفعة القوية ؟

كان يجب أن يسألوه هو عنها : من أين جاءتك هذه ؟ وما دام قد قال لهم : إنها جاءته من عند الله ، فكان يجب أن يصدِّقوه .

ومهمة العقل دائما مأخوذة من اشتقاقه ، " فالعقل " مأخوذ من " عقال " البعير .

وعقال البعير هو الحبل الذي يربط به ساقي الجمل ؛ حتى لا ينهض ويقوم ؛ لنوفِّر له حركته فيما نحب أن يتحرك فيه ، فبدلاً من أن يسير هكذا بدون غرض ، وبدون قصد ، فنحن نربط ساقيه ؛ ليرتاح ولا يتحرك ، إلى أن نحتاجه في حركة .

إذن : فالعقل إنما جاء ؛ ليحكم المَلَكَات ؛ لأن كل مَلَكَة لها نزوع إلى شيء ، فالعين لها مَلَكَة أن ترى كل شيء ، فيقول لها العقل : لا داعي أن تشاهدي ذلك ؛ لأنه منظر سيؤذيك ، والأذن تحب أن تسمع كل قول ، فيقول لها العقل : لا تسمعي إلى ذلك ؛ حتى لا يضرك .

إذن : فالعقل هو الضابط على بقية الجوارح . وكذلك كلمة " الحِكْمة " ، مأخوذة من " الحَكَمة " هي في " اللِّجام " الذي يوضع في فم الفرس ؛ حتى لا يجمح ، وتظل حركته محسوبة ؛ فلا يتحرك إلا إلى الاتجاه الذي تريده .

إذن : شاء الحق سبحانه أن يميّز الإنسان بالعقل والحكمة ؛ ليقيم الموازين لملكات النفس ؛ فخذوا المقدمات المُحَسَّة التي تؤمنون بها وتشهدونها وتسلمونها لرسول الله صلى الله

عليه سلم لتستنبطوا أنه جاء بكلامه من عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(35/359)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (16) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ ولا أدراكم به ﴾ يقول : أعلمكم به .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ ولا أدراكم به ﴾ يقول : ولا أشعركم به .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن ، أنه قال " ولا أدرأتكم به " يعني بالهمز قال الفراء : لا أعلم هذا يجوز من دريت ولا أدريت إلا أن يكون الحسن همزها على طبيعته ، فإن العرب ربما غلطت فهمزت ما لم يهمز .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما . أنه كان يقرأ " قل لو

شاء الله ما تلوته عليكم ولا أنذرتكم به " .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ولا أنذرتكم به ﴾ قال : ما حذرتكم به .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ﴾ قال : لم أتل عليكم ولم أذكر .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ﴾ قال : لبث أربعين سنة قبل أن يوحى إليه ، ورأى الرؤيا سنتين ، وأوحى الله إليه عشر سنين بمكة وعشراً بالمدينة ، وتوفي وهو ابن اثنتين وستين سنة .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري والترمذي عن ابن عباس قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاث عشرة يوحى إليه ، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين .

وأخرج أحمد والبيهقي في الدلائل عن أنس رضي الله عنه . أنه سئل بسن أي الرجال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذ بعث ؟ قال : كان ابن أربعين سنة .

(36/359)

وأخرج البيهقي في الدلائل عن الشعبي قال : نزلت النبوة على النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة ، فقرن بنبوته إسرافيل عليه السلام ثلاث سنين ، فكان يعلمه الحكمة والشيء لم ينزل القرآن ، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل عليه السلام ، فنزل القرآن على لسانه عشرين ، عشراً بمكة وعشراً بالمدينة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أنس بن مالك قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس أربعين ، فأقام بمكة عشراً وبالمدينة عشراً ، وتوفي على رأس ستين سنة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(37/359)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ : أي : ولا أَعْلمكم الله به ، مِنْ دَرَيْتُ ، أي : علمتُ . ويقال : دَرَيْتُ بكذا وأَدْرَيْتك بكذا ، أي : أحطت به بطريق الدِّراية ، وكذلك في " علمت به " فَتَضَمَّن العلمُ معنى الإِحاطة فتعَدَّى تَعْدِيَتَها .

وقرأ ابنُ كثير بخلاف عن البزي " ولأَدْراكم " بلام داخلة على " أَدْراكم " مثبتاً . والمعنى : ولأُعْلِمَكم به من غير وساطتي : إمَّا بوساطة مَلَكٍ أو رسولٍ غيري من البشر ، ولكنه خَصَّني بهذه الفضيلة . وقراءةُ الجمهور " لا " فيها مؤكدةٌ ؛ لأنَّ المعطوفَ على المنفيّ منفيّ ، وليست " لا " هذه هي التي يُنْفَى بها الفعل ، لأنه لا يَصِحُّ نفيُ الفعل بها إذا وقع جواباً ، والمعطوفُ على الجواب جواب ، ولو قلت : " لو كان كذا لا كان كذا " لم يَجُزْ ، بل تقول : " ما كان كذا " . وقرأ ابن عباس والحسن وابن سيرين وأبو رجاء : ﴿ ولا أَدْرَأْتُكم به ﴾ بهمزةٍ ساكنةٍ بعد الراء . وفي هذه القراءةِ تخريجان ، أحدهما : أنها مُبْدَلَةٌ من ألف ، والألف منقلبةٌ عن ياءٍ لانفتاحِ ما قبلها وهي لغةٌ لعُقَيْلٍ حكاها قطرب ، يقولون في أعطيتك : أعطأتك . وقال أبو حاتم : " قَلَبَ الحسنُ الياءَ ألفاً ، كما في لغة بني الحرث يقولون : عَلاَك وإلاك ، ثم هَمَزَ على لغة من قال في العالم : العَأْلَم ، وقيل : بل أُبدلت الهمزة من نفس الياء نحو : " لَبَأْتُ بالحج " و " رثَأْت فلاناً " ، أي : لَبَّيْتُ ورَثَيْتُ . والثاني : أن الهمزة أصلية وأن اشتقاقه مِنَ الدَّرْء وهو الدّفْع كقوله : ﴿ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا العذاب ﴾ [النور : 8] ، ويقال : أَدْرأته ، أي : جَعَلْته دارِئاً ، والمعنى : ولأَجْعَلَنّكم بتلاوته خُصَماء تَدْرَؤُونني بالجدال .

قال أبو البقاء : " وقيل : هو غلط " ، لأنَّ قارِئَها ظَنَّ أنها من الدَّرْءِ وهو الدَّفْعُ . وقيل : ليس بغلطٍ والمعنى : لو شاء اللَّه لدَفَعَكم عن الإيمان به " .

وقرأ شهر بن حوشب والأعمش : " ولا أَنْذَرْتُكم " من الإِنذار ، وكذلك/ هي في حرف عبد الله .

(39/359)

والضمير في " قبله " عائد على القرآن . وقيل : على النزول . وقيل : على وقت النزول . و " عُمُراً " مشبهٌ بظرف الزمان فانتصبَ انتصابَه ، أي : مدة متطاولة . وقيل : هو على حَذْف مضاف ، أي : مقدار عُمُر . وقرأ الأعمش " عُمْراً " بسكون الميم كقولهم : " عَضْد " في " عَضُد " . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ6 صـ164.165﴾

(40/359)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (16) ﴾

قد عِشْتُ فيكم زماناً ، وعرفتم أحوالي فيما تطلبون مني عليه برهاناً ، فما ألفيتموني (. . .) بل وجدتموني في السداد مستقيماً ، وللرشاد مستديماً ، فلولا أَنَّ الله تعالى أرسلني ، ولِمَا حَمَّلني مِنْ تكليفه أَهَّلَني لَما كنتُ بهذا الشرع آتياً ولا لهذا الكتاب تالياً .

﴿ اَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ مالكم تعترضون ؟ ولا لأنفسكم تنظرون ؟ .

أهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 85 ﴾

(41/359)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾

لما ذكر الله سبحانه الوعيد على عدم الإيمان بالمعاد ، ذكر أن هذا العذاب من حقه أن يتأخر عن هذه الحياة الدنيا .

قال القفال : لما وصفهم بالغفلة أكد ذلك بأن من غاية غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم

استعجلوا العذاب ، فبيّن الله سبحانه أنه لا مصلحة في إيصال الشرّ إليهم ، فلعلهم يتوبون ويخرج من أصلابهم من يؤمن ، قيل : معنى ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهِ لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير ﴾ لو عجل الله للناس العقوبة كما يتعجلون بالثواب والخير ﴿ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ أي : ماتوا .

وقيل المعنى : لو فعل الله مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابته إلى الخير لأهلكهم .

وقيل : الآية خاصة بالكفار الذين أنكروا البعث ، وما يترتب عليه .

قال في الكشاف : وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير ، إشعاراً بسرعة إجابته وإسعافه بطلبتهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل له .

والمراد : أهل مكة ، وقولهم : ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السماء ﴾ [الأنفال : 32] الآية .

قيل : والتقدير : ولو يعجل الله لهم الشرّ عند استعجالهم به تعجيلاً مثل تعجيله لهم بالخير عند استعجالهم به ، فحذف ما حذف لدلالة الباقي عليه .

قال أبو عليّ الفارسي : في الكلام حذف ، والتقدير : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهِ لِلنَّاسِ الشر ﴾ تعجيلاً مثل ﴿ استعجالهم بالخير ﴾ ثم حذف تعجيلاً وأقام صفته مقامه ، ثم حذف صفته وأقام المضاف إليه مقامه قال : هذا مذهب الخليل وسيبويه ، وهو قول الأخفش

والفرّاء ، قالوا : وأصله كاستعجالهم ، ثم حذف الكاف ونصب .

قال الفراء : كما تقول : ضربت زيداً ضربك ، أي كضربك ، ومعنى ﴿ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ لأهلكوا ، ولكنه سبحانه لم يعجل لهم الشرّ فأمهلوا .

(42/359)

وقيل معناه : أميتوا .

وقرأ ابن عامر "لقضى" على البناء للفاعل ، وهي قراءة حسنة لمناسبة ذلك لقوله : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ ﴾ قوله : ﴿ فَنَذَرُ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ الفاء للعطف على مقدّر يدلّ عليه الكلام ، لأن قوله : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ ﴾ يتضمن نفي التعجيل ، فكأنه قيل : لكن لا يعجل لهم الشرّ ، ولا يقضي إليهم أجلهم ، فنذرهم الخ : أي فنتركهم ونمهلهم ، والطغيان : التطاول ، وهو العلوّ والارتفاع ، ومعنى ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون ، أي نتركهم يتحيرون في تطاولهم وتكبرهم ، وعدم قبولهم للحق استدراجاً لهم منه سبحانه وخذلاناً .

ثم بيّن الله سبحانه أنهم كاذبون في استعجال الشرّ ، ولو أصابهم ما طلبوه لأظهروا العجز والجزع ، فقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر ﴾ أي : هذا الجنس الصادق على كل ما

يحصل التضرر به ﴿ دَعَانَا لِجَنبِهِ ﴾ اللام للوقت ، كقوله : جئته لشهر كذا ، أو في محل نصب على الحال بدلالة عطف قاعداً أو قائماً عليه ، وتكون اللام بمعنى على : أي دعانا مضطجعاً ﴿ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ وكأنه قال : دعانا في جميع الأحوال المذكورة وغيرها ، وخصّ المذكورة بالذكر ؛ لأنها الغالب على الإنسان ، وما عداها نادر كالركوع والسجود ، ويجوز أن يراد أنه يدعو الله حال كونه مضطجعاً غير قادر على القعود ، وقاعداً غير قادر على القيام ، وقائماً غير قادر على المشي ، والأوّل : أولى .

قال الزجاج : إن تعديل أحوال الدعاء أبلغ من تعديد أحوال المضرّة ، لأنه إذا كان داعياً على الدوام ، ثم نسي في وقت الرخاء كان أعجب .

(43/359)

قوله : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ أي : فلما كشفنا عنه ضرّه الذي مسه ، كما تفيده الفاء ، مضى على طريقته التي كان عليها قبل أن يمسه الضرّ ، ونسي حالة الجهد والبلاء ، أو مضى عن موقف الدعاء والتضرّع ، لا يرجع إليه ؛ كأنه لا عهد له به ، كأنه لم يدعنا عند أن مسه الضرّ إلى كشف ذلك الضرّ الذي مسه .

وقيل معنى ﴿ مَرَّ ﴾ استمرّ على كفره ، ولم يشكر ، ولم يتعظ .

قال الأخفش : "أن" في ﴿ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا ﴾ هي المخففة من الثقيلة ، والمعنى : كأنه انتهى .

والجملة التشبيهية في محل نصب على الحال ، وهذه الحالة التي ذكرها الله سبحانه للداعي لا تختص بأهل الكفر ، بل تتفق لكثير من المسلمين ، تلين ألسنهم بالدعاء وقلبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم .

فإذا كشفه الله عنهم غفلوا عن الدعاء والتضرّع ، وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم الله بها عليهم ، من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من الضرّ ، ودفع ما أصابهم من المكروه .

وهذا مما يدلّ على أن الآية تعمّ المسلم والكافر ، كما يشعر به لفظ الناس ، ولفظ الإنسان ، اللهم أوزعنا شكر نعمك ، وأذكرنا الأحوال التي مننت علينا فيها بإجابة الدعاء ، حتى نستكثر من الشكر الذي لا نطيق سواه ، ولا نقدر على غيره ، وما أغناك عنه وأحوجنا إليه ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : 7] .

والإشارة بقوله : ﴿ كذلك زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ إلى مصدر الفعل المذكور بعده كما مرّ غير مرة ، أي : مثل ذلك التزيين العجيب زين للمسرفين عملهم .

والمسرف في اللغة : هو الذي ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس ، ومحل ﴿ كذلك ﴾ النصب على المصدرية .

والتزيين هو : إما من جهة الله تعالى على طريقة التحلية وعدم اللطف بهم ، أو من طريق الشيطان بالوسوسة ، أو من طريق النفس الأمارة بالسوء .

(44/359)

والمعنى : أنه زين لهم الإعراض عن الدعاء ، والغفلة عن الشكر ، والاشتغال بالشهوات .

ثم ذكر سبحانه ما يجري مجرى الردع والزجر ، عما صنعه هؤلاء ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القرون مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ يعني : الأمم الماضية من قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم : أي أهلكناهم من قبل زمانكم .

وقيل : الخطاب لأهل مكة على طريق الالتفات للمبالغة في الزجر ، و " لما " ظرف ل ﴿ أهلكنا ﴾ : أي أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب ، والتجاري على الرسل ، والتطاول في المعاصي من غير تأخير لإهلاكهم ، كما أخرنا إهلاككم ، والواو في ﴿ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ للحال بإضمار قد ، أي وقد جاءتهم رسلهم الذين أرسلناهم إليهم بالبينات ، أي بالآيات البينات الواضحات الدلالة على صدق الرسل ، وقيل الواو للعطف على ﴿ ظَلَمُواْ ﴾ والأوّل أولى ، وقيل : المراد بالظلم هنا : هو الشرك .

والواو في ﴿ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ للعطف على ظلموا ، أو الجملة اعتراضية .

واللام لتأكيد النفي : أي وما صح لهم وما استقام أن يؤمنوا لعدم استعدادهم لذلك ، وسلب الألطاف عنهم ﴿ كذلك نَجْزِي القوم المجرمين ﴾ أي : مثل ذلك الجزاء نجزي القوم المجرمين .

وهو الاستئصال الكلي لكل مجرم ، وهذا وعيد شديد لمن كان في عصره من الكفار ، أو لكفار مكة على الخصوص .

(45/359)

ثم خاطب سبحانه الذين بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ ثُمَّ جعلناكم خلائف ﴾ أي : استخلفناكم في الأرض بعد تلك القرون التي تسمعون أخبارها وتنظرون آثارها ، والخلائف جمع خليفة ، وقد تقدّم الكلام عليه في آخر سورة الأنعام ، واللام في ﴿ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ لام كي : أي : لكي ننظر كيف تعملون من أعمال الخير أو الشرّ ، و ﴿ كَيْفَ ﴾ في محل نصب بالفعل الذي بعده : أي لننظر أيّ عمل تعملونه ، أو في محل نصب على الحالية ، أي على أيّ حالة تعملون الأعمال اللائقة بالاستخلاف .

ثم حكى الله سبحانه نوعاً ثالثاً من تعنتهم وتلاعبهم بآيات الله ، فقال : ﴿ وَإِذَا تتلى

عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيِّنَاتٍ ﴾ وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضاً عنهم ، والمراد بالآيات : الآيات التي في الكتاب العزيز : أي وإذا تلا التالي عليهم آياتنا الدالة على إثبات التوحيد ، وإبطال الشرك ، حال كونها بينات : أي واضحات الدلالة على المطلوب ﴿ قَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ وهم المنكرون للمعاد ، وقد تقدّم تفسيره قريباً : أي قالوا لمن يتلوها عليهم ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ائت بِقُرْءانٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمعوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذمّ عبادة الأوثان ، والوعيد الشديد لمن عبدها أحد أمرين : إما الإتيان بقرآن غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله ، وإما تبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته ، أو كلها ، ووضع أخرى مكانها مما يطابق إرادتهم ويلائم غرضهم ، فأمره الله أن يقول في جوابهم : ﴿ مَا يَكُونُ لِى ﴾ أي : ما ينبغي لي ، ولا يحلّ لي ، أن أبدّله من تلقاء نفسي ؛ فنفى عن نفسه أحد القسمين ، وهو التبديل ؛ لأنه الذي يمكنه لو كان ذلك جائزاً ، بخلاف القسم الآخر وهو الإتيان بقرآن آخر ، فإن ذلك ليس في وسعه ولا يقدر عليه .

(46/359)

وقيل : إنه صلى الله عليه وسلم نفى عن نفسه أسهل القسمين ليكون دليلاً على نفي أصعبهما بالطريق الأولى ، وهذا منه من باب مجاراة السفهاء ، إذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد أن أمره الله سبحانه بذلك .

وهو أعلم بمصالح عباده وبما يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساقطة والسؤالات الباردة ، و ﴿ تِلْقَاء ﴾ مصدر استعمل ظرفاً ، من قبل ﴿ من تلقاء نفسي ﴾ .

قال الزجاج : سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور .

وقيل : سألوه أن يسقط ما فيه من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ؛ وقيل : سألوه أن يحوّل الوعد وعيداً والحرام حلالاً والحلال حراماً ، ثم أمره أن يؤكد ما أجاب به عليهم من أنه ما صح له ، ولا استقام أن يبدّله من تلقاء نفسه بقوله : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحِى إِلَىَّ ﴾ أي : ما أتبع شيئاً من الأشياء إلا ما يوحى إليّ من عند الله سبحانه من غير تبديل ولا تحويل ، ولا تحريف ولا تصحيف ، فقصر حاله صلى الله عليه وسلم على اتباع ما يوحى إليه ، وربما كان مقصد الكفار بهذا السؤال التعريض للنبي صلى الله عليه وسلم بأن القرآن كلامه ، وأنه يقدر على الإتيان بغيره والتبديل له ، ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم تكميلاً للجواب عليهم : ﴿ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فإن هذه الجملة كالتعليل لما قدّمه من الجواب قبلها ، واليوم العظيم هو يوم القيامة : أي ﴿ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى ﴾ بفعل ما تطلبون على تقدير إمكانه عذاب يوم القيامة .

ثم أكد سبحانه كون هذا القرآن من عند الله ، وأنه صلى الله عليه وسلم إنما يبلغ إليهم منه ما أمره الله بتبليغه لا يقدر على غير ذلك ، فقال : ﴿ قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : أن هذا القرآن المتلوّ عليكم هو بمشيئة الله وإرادته ، ولو شاء الله أن لا أتلوه عليكم ولا أبلغكم إياه ما تلوته ، فالأمر كله منوط بمشيئة الله ، ليس لي في ذلك شيء قوله : ﴿ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ معطوف على ما تلوته ، ولو شاء الله ما أداركم بالقرآن : أي ما أعلمكم به على لساني يقال : دريت الشيء وأدراني الله به .

هكذا قرأ الجمهور بالألف من أدراه يدريه أعلمه يعلمه .

وقرأ ابن كثير : " ولأدراكم به " بغير ألف بين اللام والهمزة ، والمعنى : ولو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليكم .

فتكون اللام لام التأكيد دخلت على ألف أفعل .

وقد قرىء "أدرؤكم" بالهمزة ، فقيل : هي منقلبة عن الألف ، لكونهما من واد واحد ، ويحتمل أن يكون من درأته إذا دفعته ، وأدرأته إذا جعلته دارياً .

والمعنى : لأجعلكم بتلاوته خصماء تدرءونني بالجدال وتكذبونني .

وقرأ ابن عباس ، والحسن " ولا أدراتكم به " قال أبو حاتم : أصله : ولا أدريتكم به ، فأبدل من الياء ألفاً ، قال النحاس : وهذا غلط .

والرواية عن الحسن "ولا أدرأتكم" بالهمزة .

قوله : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ ﴾ تعليل لكون ذلك بمشيئة الله ، ولم يكن من النبي إلا التبليغ ، أي قد أقمت فيما بينكم عمراً من قبله ، أي زماناً طويلاً .

وهو أربعون سنة من قبل القرآن تعرفونني بالصدق والأمانة ، لست ممن يقرأ ولا ممن يكتب ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ الهمزة للتقريع والتوبيخ ، أي أفلا تجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبي لما عرفتم من العادة المستمرة إلى المدّة الطويلة بالصدق والأمانة .

(48/359)

وعدم قراءتي للكتب المنزلة على الرسل وتعلمي لما عند أهلها من العلم ، ولا طلبي لشيء من هذا الشأن ، ولا حرصي عليه ، ثم جئتكم بهذا الكتاب الذي عجزتم عن الإتيان بسورة منه ، وقصرتم عن معارضته وأنتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة ، المعترف لهم بأنهم البالغون فيها إلى مبلغ لا يتعلق به غيركم ؟

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن

مجاهد ، في قوله : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ الناس الشر ﴾ الآية ، قال : هو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليهم : اللهم لا تبارك فيه والعنه .

﴿ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ قال : لأهلك من دعا عليه وأماته .

وأخرج أبو الشيخ ، عن سعيد بن جبير ، في الآية قال : قول الرجل للرجل : اللهم العنه ، اللهم اخزه ، وهو يحب أن يستجاب له .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة ، في الآية قال : هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له .

وحكى القرطبي في تفسيره عن ابن إسحاق ، ومقاتل ، في الآية قالا : هو قول النضر بن الحارث : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السماء ﴾ [الأنفال : 32] .

فلو عجل لهم هذا لهلكوا .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن ابن جريج ، في قوله : ﴿ دَعَانَا لِجَنبِهِ ﴾ قال : مضطجعاً .

وأخرج أبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ قال : على كل حال .

وأخرج أبو الشيخ ، عن أبي الدرداء ، قال : ادع الله يوم سرّائك يستجاب لك يوم ضرّائك .

وأقول أنا : أكثر من شكر الله على السرّاء يدفع عنك الضرّاء .

فإن وعده للشاكرين بزيادة النعم مؤذن بدفعه عنهم النقم ، لذهاب حلاوة النعمة عند وجود مرارة النقمة ، اللهم اجمع لنا بين جلب النعم وسلب النقم ، فإنا نشكرك عدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان .

(49/359)

ونحمدك عدد ما حمدك الحامدون بكل لسان في كل زمان .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ ثُمَّ جعلناكم خلائف فِى الأرض ﴾ الآية ، قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية فقال : صدق ربنا ما جعلنا خلائف في الأرض إلا لينظر إلى أعمالنا .

فأروا الله خير أعمالكم بالليل والنهار ، والسرّ والعلانية .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن جريج ، قال : ﴿ خلائف فِى الأرض ﴾ لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ ائت بِقُرْءانٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ قال : هذا قول مشركي أهل مكة للنبي صلى الله عليه

وسلم.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ أعلمكم به.

وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، قال: ﴿ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ ولا أشعركم به.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، عن ابن عباس، أنه كان يقرأ "ولا أنذرتكم به".

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ، في قوله: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ﴾ قال: لم أتل عليكم ولم أذكر.

وأخرجا عنه قال: لبث أربعين سنة قبل أن يوحى إليه ورأى الرؤيا سنتين، وأوحى الله إليه عشر سنين بمكة، وعشراً بالمدينة، وتوفي وهو ابن اثنتين وستين سنة.

وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، والترمذي، عن ابن عباس، قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاثة عشر يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ فتح القدير حـ2 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ فمن ﴾ أي فهو سبب لأن يقال : من ﴿ أظلم ممن افترى ﴾ أي تعمد ﴿ على الله ﴾ أي الذي حاز جميع العظمة ﴿ كذباً ﴾ أي أيّ كذب كان ، وكان الأصل : مني ، على تقدير أن لا يكون هذا القرآن من عند الله كما زعمتم ، ولكنه وضع هذا الظاهر مكانه تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف ﴿ أو كذب بآياته ﴾ كما فعلتم أنتم ، وذلك من أعظم الكذب . ولما كان التقدير : لا أحد أظلم منه فهو لا يفلح لأنه مجرم ، علله بقوله مؤكداً لأجل إنكارهم : ﴿ إنه لا يفلح ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ المجرمون ﴾ فد وضح أن المقصود نفي الكذب عن نفسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإلحاق الوعيد حيث كذبوا بالآيات بعد ثبوت أنها من عند الله والإعلام بأنه لا أحد أظلم منهم لأنهم كذبوا على الله في كل ما ينسبونه إليه مما نهى عنه وكذبوا بآياته ، والإتيان بالغير قد يكون مع وجود الأول والتبديل لا يكون إلاّ برفع الأول ووضع غيره مكانه ؛ والتلقاء : جهة مقابلة الشيء ، أتبعه بمجيئه بعده ؛ والمشيئة خاصة تكون سبباً مؤدياً إلى وقوع الشيء ، ومرتباً له على وجه قد يمكن أن يقع خلافه ، والإرادة

نظيرها ؛ والعقل : العلم الغريزي الذي يمكن به الاستدلال بالشاهد على الغائب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 126 ﴾

(51/359)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾

واعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها ظاهر ، وذلك لأنهم التمسوا منه قرآناً يذكره من عند نفسه ، ونسبوه إلى أنه إنما يأتي بهذا القرآن من عند نفسه ، ثم إنه أقام البرهان القاهر الظاهر على أن ذلك باطل ، وأن هذا القرآن ليس إلا بوحي الله تعالى وتنزيله ، فعند هذا قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا ﴾ والمراد أن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله ، لما كان في الدنيا أحد أظلم على نفسه مني ، حيث افتريته على الله ، ولما أقمت الدلالة على أنه ليس الأمر كذلك ، بل هو بوحي من الله تعالى وجب أن يقال إنه ليس في الدنيا أحد أجهل ولا أظلم على نفسه منكم ، لأنه لما ظهر بالبرهان المذكور كونه من عند الله ، فإذا أنكرتموه كنتم قد كذبتم بآيات الله .

فوجب أن تكونوا أظلم الناس .

والحاصل أن قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ المقصود منه نفي الكذب عن نفسه وقوله : ﴿ أوكذَّب بآياته ﴾ المقصود منه إلحاق الوعيد الشديد بهم حيث أنكروا دلائل الله ، وكذبوا بآيات الله تعالى .

وأما قوله : ﴿ إِنَّهُ لاَيُفْلِحُ المجرمون ﴾ فهو تأكيد لما سبق من هذين الكلامين ، والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 48 ﴾

(52/359)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ فمن أظلم ﴾ الآية

جاء في هذه الآية التوقيف على عظم جرم المفتري على الله بعد تقدم التنصل من ذلك قبل ، فاتسق القول واطردت فصاحته ، وقوله ﴿ فمن أظلم ﴾ استفهام وتقرير أي لا أحد أظلم ﴿ ممن افترى على الله كذباً ﴾ ، أوممن ﴿ كذب بآياته ﴾ بعد بيانها ، وذلك أعظم جرم على الله وأكثر استشراف إلى عذابه ، ثم قرر ﴿ إنه لا يفلح ﴾ أهل الجرم ، و﴿ يفلح ﴾ معناه يظفر ببغيته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾

يريد : إني لم أفْتَرِ على الله ولم أكذب عليه ، وأنتم فعلتم ذلك حيث زعمتم أن معه شريكاً .

والمجرمون هاهنا : المشركون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآَيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17) ﴾

هذا استفهام بمعنى الجَحْد ؛ أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب ، وبدّل كلامه وأضاف شيئاً إليه مما لم ينزله .

وكذلك لا أحد أظلمُ منكم إذا أنكرتم القرآن وافتريتم على الله الكذب ، وقلتم ليس هذا كلامه .

وهذا مما أمِر به الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم .

وقيل : هو من قول الله ابتداء .

وقيل : المُفْتَري المشركُ ، والمكذِّب بالآيات أهلُ الكتاب .

﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ المجرمون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(53/359)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾

يعني فزعم أن له شريكاً وولداً والمعنى : أني لم أفتر على الله كذباً ولم أكذب عليه في قولي إن هذا القرآن من عند الله وأنتم قد افترتيم على الله الكذب فزعمتم أن له شريكاً وولداً والله تعالى منزه عن الشريك والولد وقيل : معناه إن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله لما كان أحد في الدنيا أظلم على نفسه مني من حيث إني أفتريته على الله ولما كان هذا القرآن من عند الله أوحاه إليّ وجب أن يقال ليس أحد في الدنيا أجهل ولا أظلم على نفسه منكم من حيث إنكم أنكرتم أن يكون هذا القرآن من عند الله فقد كذبتم بآياته وهو قوله تعالى : ﴿ أو كذب بآياته ﴾ يعني جحد بكون القرآن من عند الله وأنكر دلائل التوحيد ﴿ إنه لا يفلح المجرمون ﴾ يعني المشركون وهذا وعيد وتأكيد لما سبق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17) ﴾

تقدم تفسير مثل هذا الكلام ، ومساقه هنا باعتبارين : أحدهما : أنه لما قالوا : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، كان في ضمنه أنهم ينسبونه إلى أنه ليس من عند الله وإنما هو اختلاق ،

فبولغ في ظلم من افترى على الله كذباً كما قال : فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو قال : أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ، ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله وقد قام الدليل القاطع على أنّ هذا القرآن هو من عند الله ، وقد كذبتم بآياته ، فلا أحد أظلم منكم .

والاعتبار الثاني : أنّ ذلك توطئة لما يأتي بعده من عبادة الأوثان أي : لا أحد أظلم منكم في افترائكم على الله أنّ له شريكاً ، وأن له ولداً ، وفيما نسبتم إليه من التحليل والتحريم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(54/359)

وقال أبو السعود :

قوله عز وجل : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا ﴾

استفهامٌ إنكاريٌّ معناه الجحدُ أي لا أحدَ أظلمُ منه على معنى أنه أظلم من كل ظالم ، وإن كان سبكُ التركيب مفيداً لإنكار أن يكون أحدٌ أظلم منه من غير تعرض لإنكار المساواةِ ونفيها ، فإنه إذا قيل : مَنْ أفضلُ من فلان أو لا أعلمَ منه يُفهم منه حتماً أنه أفضلُ من كل فاضل وأعلمُ من كل عالم ، وزيادةُ قوله تعالى : ﴿ كَذِبًا ﴾ مع أن الافتراءَ لا يكون إلا كذلك للإيذان بأن ما أضافوه إليه ضِمْناً وحملوه عليه الصلاة والسلام صريحاً مع كونه افتراءً على

الله تعالى كذبٌ في نفسه ، فربّ افتراءٍ يكون كذبُه في الإسناد فقط كما إذا أسند ذنبُ زيدٍ إلى عمرو ، وهذا للمبالغة منه عليه الصلاة والسلام في التفادي عما ذُكر من الافتراء على الله سبحانه ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ فكفر بها ، وهذا تظليمٌ للمشركين بتكذيبهم للقرآن وحملِهم على أنه من جهته عليه الصلاة والسلام ، والفاءُ لترتيب الكلامِ على ما سبق من بيان كونِ القرآنِ بمشيئته تعالى وأمرِه ، فلا مجال لحمل الافتراءِ باتخاذ الولدِ والشريك ، أي وإذا كان الأمرُ كذلك فمن افترى عليه تعالى بأن يختلقَ كلاماً فيقول : هذا من عند الله أو يبدل بعضَ آياتِه تعالى ببعض كما تجوّزون ذلك في شأني ، وكذلك مَن كذب بآياته تعالى كما تفعلونه أظلمُ من كل ظالم ﴿ إِنَّهُ ﴾ الضمير للشأن وقع اسماً لإن والخبرُ ما يعقُبه من الجملة ، ومدارُ وضعِه موضعَه ادعاءُ شهرته المغنيةِ عن ذكره ، وفائدةُ تصديرِها به الإيذانُ بفخامة مضمونِها مع ما فيه من زيادة تقريرِه في الذهن فإن الضميرَ لا يُفهم منه من أول الأمرِ إلا شأنٌ مبْهمٌ له خطرٌ فيبقى الذهنُ مترقباً لما يعقُبه فيتمكن عند ورودِه عليه فضلُ تمكنٍ ، فكأنه قيل : إن الشأنَ هذا أي ﴿ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي لا ينجُون من محذور ولا يظفَرون بمطلوب ، والمرادُ جنسُ المجرمين فيندرج فيه المفتري والمكذب اندراجاً أولياً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(55/359)

وقال الآلوسى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾

استفهام انكاري معناه النفي أي لا أحد أظلم من ذلك ، ونفى الأظلمية كما هو المشهور كناية عن نفس المساواة فالمراد أنه أظلم من كل ظالم وقد مر تحقيق ذلك .

والآية مرتبطة بما قبلها على أن المقصود منها تفاديه صلى الله عليه وسلم مما لوحوا به من نسبة الافتراء على الله سبحانه إليه عليه الصلاة والسلام وحاشاه وتظليم للمشركين بتكذيبهم للقرآن وكفرهم به ، وزيادة ﴿ كَذِبًا ﴾ مع أن الافتراء لا يكون إلا كذلك للإيذان بأن ما لوحوا به ضمناً وحملوه عليه الصلاة والسلام عليه صريحاً مع كونه افتراء على الله سبحانه كذب في نفسه فرب افتراء يكون كذبه في الإسناد فقط كما إذا أسندت ذنب زيد إلى عمرو وهذا للمبالغة منه صلى الله عليه وسلم في التفادي مما ذكر ، والفاء لترتيب الكلام على ما سبق من بيان كون القرآن بمشيئته تعالى وأمره أي وإذا كان الأمر كذلك فمن افترى عليه سبحانه بأن يخلق كلاماً فيقول : هذا من عند الله تعالى أو يبدل بعض آياته ببعض كما تجوزون ذلك في شأني ، وكذلك من كذب بآياته جل شأنه كما تفعلونه أنتم أظلم من كل ظالم ، وقيل : المقصود من الآية تظليم المشركين بافترائهم على الله تعالى في قولهم : إنه

تعالى عما يقولون ذو شريك وذو ولد وتكذيبهم بآياته سبحانه ، وهي مرتبطة أما بما قلبها أيضاً على معنى أني لم أفتر على الله تعالى ولم

(56/359)

أكذب عليه وقد قام الدليل على ذلك وأنتم قد فعلتم ذلك حيث زعمتم أن لله تعالى شريكاً وان له ولدا وكذبتم نبيه صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عنده سبحانه وأما بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القرون مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ [يونس : 13] الخ على أن يكون قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جعلناكم خلائف ﴾ [يونس : 14] وقوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيّنَاتٍ ﴾ [يونس : 15] إلى هنا اعلاماً بأن المشركين الذين بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنوا بسنن من قبلهم في تكذيب آيات الله تعالى والرسل عليهم الصلاة والسلام ويكون هذا عودا إلى الأول بعد الفراغ من قصة المشركين ، وقيل : وجه تعلقها بمت تقدم أنهم إنما سألوه صلى الله عليه وسلم تبديل القرآن لما فيه من ذم آلهتهم الذين افتروا في جعلها آلهة ، وقيل : إن الآية توطئة لما بعدها ولا يخفى أن الأول هو الأنسب بالمقام وأوفق بالفاء وأبعد عن التكلف وأقرب انسياقاً إلى الذهن السليم ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي الشأن ﴿ لاَ يُفْلِحُ المجرمون ﴾ أي لا ينجون من محذور ولا يفوزون بمطلوب ، والمراد

جنس المجرمين فيندرج فيه المفتري والمكذب اندراجاً أولياً ، ولا يخفى ما في اختيار ضمير الشأن من الاعتناء بشأن ما يذكر بعده من أول الأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(57/359)

وقال القاسمى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾

استفهام إنكاري معناه الجحد . أي : لا أحد أظلم ممن تقوّل على الله تعالى ، وزعم أنه تعالى أرسله وأوحى إليه ، أو كفر بآياته ، كما فعل المشركون بتكذيبهم للقرآن ، وحملهم على أنه من جهته عليه الصلاة والسلام .

﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي : لا ينجون من محذور ، ولا يظفرون بمطلوب ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام : من الآية 93] ، وترتيب عدم الفلاح على من افترى الوحي ، وعدّه صادق بلا مرية ، فإن مفتريه يبوء بالخزي والنكال ، ولا يشتبه أمره على أحد بحال .

وقد ذكر أن عَمْرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب – وكان صديقاً له في الجاهلية ، وكان عَمْرو لم يسلم بعد – فقال له مسيلمة : ويحك يا عَمْرو ! وماذا أنزل على صاحبكم – يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم – في هذه المدة ؟ فقال : لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة . فقال : وما هي ؟ فقال : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ ﴾ الخ [العصر : 1 – 3] ، ففكر مسيلمة ساعة ثم قال : وأنا قد أنزل عليَّ مثله ! فقال : وما هو ؟ فقال : يا وبر يا وبر . . إنما أنت أذنان وصدر ، وسائرك حقر نقر . كيف ترى يا عَمْرو ؟ فقال له عَمْرو : والله ! إنك لتعلم أني أعلم أنك لكذاب .

(58/359)

وقال عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس ، فكنت فيمن انجفل منه ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . قال : فكان أول ما سمعته يقول : < أيها الناس ! أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام > قال حسان :

~ لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 15.16 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾

لما قامت الحجة عليها بما لا قبل لهم بالتنصل منه أعقبت بالتفريع على افترائهم الكذب وذلك مما عرف من أحوالهم من اتخاذهم الشركاء له كما أشار إليه قوله : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾ أي أشركوا إلى قوله : ﴿ لننظر كيف تعملون ﴾ [يونس : 13 ، 14] وتكذيبهم بآيات الله في قولهم : ﴿ ائت بقرآن غير هذا أو بدّله ﴾ [يونس : 15] .

وفي ذلك أيضاً توجيه الكلام بصلاحيته لأن يكون إنصافاً بينه وبينهم إذ هم قد عرضوا بنسبته إلى الافتراء على الله حين قالوا : ﴿ ائت بقرآن غير هذا ﴾ [يونس : 15] ، وصرحوا بنفي أن يكون القرآن من عند الله ، فلما أقام الحجة عليهم بأن ذلك من عند الله وأنه ما يكون له أن يأتي به من تلقاء نفسه فُرِع عليه أن المفتري على الله كذباً والمكذبين بآياته كلاهما أظلم الناس لا أحد أظلم منهما ، وذلك من مجاراة الخصم ليعثر ، يخيل إليه من الكلام أنه إنصاف بينهما فإذا حصحص المعنى وُجد انصبابه على الخصم وحده .

والتفريع صالح للمعنيين ، وهو تفريع على ما تقدم قبله مما تضمن أنهم أشركوا بالله وكذبوا بالقرآن .

ومحل (أو) على الوجهين هو التقسيم ، وهو إما تقسم أحوال ، وإما تقسم أنواع .

والاستفهام إنكاري .

والظلم : هنا بمعنى الاعتداء .

وإنما كان أحد الأمرين أشد الظلم لأنه اعتداء على الخالق بالكذب عليه وبتكذيب آياته .

وجملة : ﴿ إنه لا يفلح المجرمون ﴾ تذييل ، وموقعه يقتضي شمول عمومه للمذكورين في الكلام المذيَّل (بفتح التحتية) فيقتضي أن أولئك مجرمون ، وأنهم لا يفلحون .

والفلاح تقدم في قوله تعالى : ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ في سورة [البقرة : 5] .

وتأكيد الجملة بحرف التأكيد ناظر إلى شمول عموم المجرمين للمخاطبين لأنهم ينكرون أن يكونوا من المجرمين .

وافتتاح الجملة بضمير الشأن لقصد الاهتمام بمضمونها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(60/359)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾

وهنا يوضح القرآن على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم : أأكذب على الله ؟ إذا كنت لم أكذب عليكم أنتم في أموري معكم وفي الأمور التي جرَّبتموها ، أفأكذب على الله ؟ ! إن الذي يكذب في أول حياته من المعقول أن يكذب في الكِبَر ، وإذا لم أكذب علكيم أنتم ، فهل أكذب على الله ؟

وإذَا لم أكن قد كذبت وأنا غير ناضج التفكير ، في طفولتي قبل أن أصل إلى الرجولة ، فأنا الآن لا أستطيع الكذب . فإذا كنتم أنتم تتهمونني بذلك ، فأنا لا أظلم نفسي وأتهمها بالكذب ، فتصبحون أنتم المكذبين ؛ لأنكم كذبتموني في أن القرآن مبلغ عن الله ، ولو أنني قلت : إنه من عند نفسي لكان من المنطق أن تُكذِّبوا ذلك ؛ لأنه شرف يُدَّعى . ولكن أرفعه إلى غيري ؛ إلى من هو أعلى مني ومنكم .

وقوله الحق : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي : لا أحد أظلم ممن افترى على الله سبحانه كذباً ؛ لأن الكاذب إنما يكذب ليدلِّس على من أمامه ، فهل يكذب أحد على من يعلم الأمور على حقيقتها ؟ لا أحد بقادر على ذلك . ومن يكذب على البشر المساوين له يظلمهم ، لكن الأظلم منه هو من يكذب على الله سبحانه .

والافتراء كذب متعمد ، فمن الجائز أن يقول الإنسان قضية يعتقدها ، لكنها ليست واقعاً ،

لكنه اعتقد أنها واقعة بإخبار من يثق به ، ثم تبين بعد ذلك أنها غير واقعة ، وهذا كذب صحيح ، لكنه غير متعمد ، أما الافتراء فهو كذب متعمد .

ولذلك حينما قسم علماء اللغة الكلام الخبري ؛ قسموه إلى : خبر وإنشاء ، والخبر يقال لقائله : صدقت أو كذبت ، فإن كان الكلام يناسب الواقع فهو صدق ، وإن كان الكلام لا يناسب الواقع فهو كذب .

(61/359)

وقوله الحق : ﴿ افترى عَلَى اللهِ كَذِبا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن قلتم إنني ادعيت أن الكلام من عن الله ، وهو ليس من عند الله . فهذا يعني أن الكلام كذب وهو من عندي أنا ، فما موقف من يكَذب بآيات الله ؟

إن الكذب من عندكم أنتم ، فإن كنتم تكذبونني وتدَّعون أني أقول إن هذا من الله ، وهو ليس من الله ، وتتمادون وتُكذِّبون بالآيات وتقولون هي من عندك ، وهي ليست من عندي ، بل من عند الله ؛ فالإثم عليكم .

والكذب إما أن يأتي من ناحية القائل ، وإما من ناحية المستمع ، وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم عدالة التوزيع في أكثر من موقع ، مثلما يأتي القول الحق مبيِّناً أدب النبوة :

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24] وليس هناك أدب في العرض أكثر من هذا ، فيبين أن قضيته صلى الله عليه وسلم وقضيتهم لا تلتقيان أبداً ، واحدة منهما صادقة والأخرى كاذبة ، ولكن من الذي يحدد القضية الصادقة من الكاذبة ؟ إنه الحق سبحانه .

وتجده سبحانه يقول على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ وفي ذلك طلب لأن يعرضوا الأمر على عقولهم ؛ ليعرفوا أي القضيتين هي الهدى ، وأيهما هي الضلال .

وفي ذلك ارتقاء للمجادلة بالتي هي أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ : 25]

أي : كل واحدة سيُسأل عن عمله ، فجريمتك لن أسأل أنا عنها ، وجريمتي لا تُسأل أنت عنها . ونسب الإجرام لجهته ولم يقل : " قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نُسأل عما تجرمون " وشاء ذلك ليرتقي في الجدل ، فاختار الأسلوب الذي يُهذِّب ، لا ليهيِّج الخصم ؛ فيعاند ، وهذا من الحكمة ؛ حتى لا يقول للخصم ما يسبب توتره وعناده فيستمر الجدل بلا طائل .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ فإذا كان الظلم من جهتي ؛ فسوف يحاسبني الله عليه ، وإن كان من جهتكم ؛ فاعلموا قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ المجرمون ﴾ ولم يحدد من المجرم ، وترك الحكم للسامع .

كما تقول لإنسان له معك خلاف : سأعرض عليك القضية واحكم أنت ، وساعة تفوضه في الحكم ؛ فلن يصل إلا إلى ما تريد . ولو لم يكن الأمر كذلك لما عرضت الأمر عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(63/359)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17) ﴾

الْكَذِبُ فِي الشرع قبيحٌ ، وإذا كان على الله فهو أقبح .

ومِنَ الْمفتَرين على الله : الذين يُظْهِرون من الأحوال ما ليسوا فيه صادقين ، وجزاؤهُم أَنْ

يُحْرَمُوا ذلك أبداً ، فلا يَصِلون إلى شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 85 ﴾

(64/359)

قوله تعالى ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (18) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

ويجوز أن يكون ﴿ ويعبدون ﴾ حالاً من ﴿ الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ أي قالوا ذلك عابدين ﴿ من دون الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له جميع صفات الكمال الذي ثبت عندهم أن هذا القرآن كلامه لعجزهم عن معارضة شيء منه وهو ينهاهم عن عبادة غيره وهم يعلمون قدرته على الضر والنفع .

(65/359)

ولما كان السياق للتهديد والتخويف ، قدم الضر لذلك وتنبيهاً لهم على أنهم مغمورون في نعمه التي لا قدرة لغيره على منع شيء منها ، فعليهم أن يقيدوها بالشكر فقال : ﴿ ما لا يضرهم ﴾ أي أصلاً من الأصنام وغيرها ﴿ ولا ينفعهم ﴾ في معارضة القرآن بتبديل أو غيره ولا في شيء من الأشياء ، ومن حق المعبود أن يكون مثيباً على الطاعة معاقباً على المعصية وإلا كانت عبادته عبثاً ، معرضين عما جاءهم من الآيات البينات من عند من يعلمون أنه يضرهم وينفعهم ولا يملك شيئاً من ذلك أحد سواه ، وقد أقام الأدلة على ذلك غير مرة ، وفي هذا غاية التبكيت لهم بمنابذة العقل مع ادعائهم رسوخ الأقدام فيه وتمكن المجال منه ؛ والعبادة : خضوع بالقلب في أعلى مراتب الخضوع ؛ ثم عجب منهم تعجيباً آخر فقال : ﴿ ويقولون ﴾ أي لم يكفهم قوله ذلك مرة من الدهر حتى يجددوا قوله مستمرين عليه : ﴿ هؤلاء ﴾ أي الأصنام أو غيرهم ﴿ شفعاؤنا ﴾ أي ثابته شفاعتهم لنا ﴿ عند الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا يمكن الدنو من شيء من حضرته إلا بإذنه ، وقد مضى إبطال ما تضمنته هذه المقالة في قوله تعالى ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ وفيه تخجيلهم في العجز عن تبديل القرآن أو الإتيان بشيء من مثله حيث لم تنفعهم في ذلك فصاحتهم ولا أغنت عنهم شيئاً بلاغتهم ، وأعوزهم في شأنه فصحاءهم ، وضل عنهم شفعاءهم ، فدل ذلك قطعاً على أنه ما من شفيع إلا بإذنه من بعد ، فكأنه قال : بماذا أجيبهم ؟ فقال :

﴿ قل ﴾ منكراً عليهم هذا العلم ﴿ أتنبئون ﴾ أي تخبرون إخباراً عظيماً ﴿ الله ﴾ وهو العالم بكل شيء المحيط بكل كمال ﴿ بما لا يعلم ﴾ أي لا يوجد له به علم في وقت من الأوقات ﴿ في السماوات ﴾ ولما كان الحال مقتضياً لغاية الإيضاح، كرر النافي تصريحاً فقال: ﴿ ولا في الأرض ﴾ وفي ذلك من الاستخفاف بعقولهم مما لا يقدرون على الطعن فيه بوجه ما يخجل الجماد، فإن ما لا يكون معلوماً لله لا يكون له وجود أصلاً، فلا نفي أبلغ من هذا كما أنك

(66/359)

إذا بالغت في نفي شيء عن نفسك تقول: هذا شيء ما عمله الله مني.

ولما بين تعالى هنا ما هم عليه من سخافة العقول وركاكة الآراء، ختم ذلك بتنزيه نفسه بقوله: ﴿ سبحانه ﴾ أي تنزه عن كل شائبة نقص تنزهاً لا يحاط به ﴿ وتعالى ﴾ أي وفعل بما له من الإحاطة بأوصاف الكمال فعل المبالغ في التنزه ﴿ عما يشركون ﴾ أي يوجدون الإشراك به. انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 126. 127 ﴾

(67/359)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾

اعلم أنا ذكرنا أن القوم إنما التمسوا من الرسول صلى الله عليه وسلم قرآناً غير هذا القرآن أو تبديل هذا القرآن ل ، أن هذا القرآن مشتمل على شتم الأصنام التي جعلوها آلهة لأنفسهم ، فلهذا السبب ذكر الله تعالى في هذا الموضع ما يدل على قبح عبادة الأصنام ، ليبين أن تحقيرها والاستخفاف بها أمر حق وطريق متيقن .

واعلم أنه تعالى حكى عنهم أمرين : أحدهما : أنهم كانوا يعبدون الأصنام .

والثاني : أنهم كانوا يقولون : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ .

أما الأول فقد نبه الله تعالى على فساده بقوله : ﴿ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ وتقريره من وجوه : الأول : قال الزجاج : لا يضرهم إن لم يعبدوه ولا ينفعهم إن عبدوه .

الثاني : أن المعبود لا بد وأن يكون أكمل قدرة من العابد ، وهذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ألبتة ، وأما هؤلاء الكفار فهم قادرون على التصرف في هذه الأصنام تارة بالإصلاح وأخرى بالإفساد ، وإذا كان العابد أكمل حالاً من المعبود كانت العبادة باطلة .

الثالث : أن العبادة أعظم أنواع التعظيم ، فهي لا تليق إلا بمن صدر عنه أعظم أنواع الأنعام ،

وذلك ليس إلا الحياة والعقل والقدرة ومصالح المعاش والمعاد ، فإذا كانت المنافع والمضار كلها من الله سبحانه وتعالى ، وجب أن لا تليق العبادة إلا بالله سبحانه .

وأما النوع الثاني : ما حكاه الله تعالى عنهم في هذه الآية ، وهو قولهم : ﴿ هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله ﴾ فاعلم أن من الناس من قال إن أولئك الكفار توهموا أن عبادة الأصنام أشد في تعظيم الله من عبادة الله سبحانه وتعالى .

فقالوا ليست لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى بل نحن نشتغل بعبادة هذه الأصنام ، وأنها تكون شفعاء لنا عند الله تعالى .

(68/359)

ثم اختلفوا في أنهم كيف قالوا في الأصنام إنها شفعاؤنا عند الله ؟ وذكروا فيه أقوالاً كثيرة :

فأحدها : أنهم اعتقدوا أن المتولي لكل أقليم من أقاليم العالم ، روح معين من أرواح عالم الأفلاك ، فعينوا لذلك الروح صنماً معيناً واشتغلوا بعبادة ذلك الصنم ، ومقصودهم عبادة ذلك الروح ، ثم اعتقدوا أن ذلك الروح يكون عبداً للإله الأعظم ومشتغلاً بعبوديته .

وثانيها : أنهم كانوا يعبدون الكواكب وزعموا أن الكواكب هي التي لها أهلية عبودية الله تعالى ، ثم لما رأوا أن الكواكب تطلع وتغرب وضعوا لها أصناماً معينة واشتغلوا بعبادتها ،

ومقصودهم توجيه العبادة إلى الكواكب .

وثالثها : أنهم وضعوا طلسمات معينة على تلك الأصنام والأوثان ، ثم تقربوا إليها كما يفعله أصحاب الطلسمات .

ورابعها : أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم ، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل ، فإن أولئك الأكابر تكون شفعاء لهم عند الله تعالى ، ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر ، على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله .

وخامسها : أنهم اعتقدوا أن الإله نور عظيم ، وأن الملائكة أنوار فوضعوا على صورة الإله الأكبر الصنم الأكبر ، وعلى صورة الملائكة صوراً أخرى .

وسادسها : لعل القوم حلولية ، وجوزوا حلول الإله في بعض الأجسام العالية الشريفة .

واعلم أن كل هذه الوجوه باطلة بالدليل الذي ذكره الله تعالى وهو قوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ وتقريره ما ذكرناه من الوجوه الثلاثة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السموات وَلاَ فِي الأَرض سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

اعلم أن المفسرين قرروا وجهاً واحداً ، وهو أن المراد من نفي علم الله تعالى بذلك تقرير نفيه في نفسه ، وبيان أنه لا وجود له ألبتة ، وذلك لأنه لو كان موجوداً لكان معلوماً لله تعالى ، وحيث لم يكن معلوماً لله تعالى وجب أن لا يكون موجوداً ، ومثل هذا الكلام مشهور في العرف ، فإن الإنسان إذا أراد نفي شيء عن نفسه يقول : ما علم الله هذا مني ، ومقصوده أنه ما حصل ذلك قط ، وقرىء ﴿ أَتُنَبِّئُونَ ﴾ بالتخفيف أما قوله : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فالمقصود تنزيه الله تعالى نفسه عن ذلك الشرك ، قرأ حمزة والكسائي ﴿ تُشْرِكُونَ ﴾ بالتاء ، ومثله في أول النحل في موضعين ، وفي الروم كلها بالتاء على الخطاب ، قال صاحب "الكشاف" "ما" موصولة أو مصدرية أي عن الشركاء الذين يشركونهم به أو عن إشراكهم ، قال الواحدي : من قرأ بالتاء فلقوله : ﴿ أَتُنَبِّئُونَ الله ﴾ ومن قرأ بالياء فكأنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم أنت ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ويجوز أن يكون الله سبحانه هو الذي نزه نفسه عما قالوه فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 48.50 ﴾

(70/359)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾

يعني : الأصنام ، ﴿ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ ﴾ إن لم يعبدوها ﴿ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ إن عبدوها ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء ﴾ يعني : الأصنام ﴿ شفعاؤنا عِندَ اللهِ ﴾ يشفعون لنا في الآخرة .

﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ ﴾ ، أتخبرون الله ﴿ بِمَا لاَ يَعْلَمُ ﴾ من الآلهة .

﴿ فِي السموات وَلاَ فِى الأرض ﴾ ، يعني : الأصنام بأنها تشفع لأحد يوم القيامة ، ويقال : معناه أتخبرون الله بشفاعة آلهتكم أما علموا أنها لا تكون أبداً ؟ ويقال : معناه أتشركون مع الله بجاهل لا يعلم ما في السموات ولا ما في الأرض .

ثم نزّه نفسه عن الولد والشريك ، فقال تعالى : ﴿ سبحانه ﴾ ، يعني : تنزيهاً له ، ﴿ وتعالى ﴾ ، يعني : ارتفع ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ من الآلهة ؛ ويقال : معناه هو أعلى وأجل من أن يوصف له شريك قرأ عاصم وأبو عمرو وابن عامر ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾ بالياء على معنى المغايبة ، وقرأ الباقون بالتاء على وجه المخاطبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(71/359)

وقال الثعلبى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ ﴾

إن عصوه ﴿ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ أن أطاعوه يعني الأصنام ﴿ وَيَقُولُونَ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ﴾ تخبرون ﴿ اللهَ ﴾ قرأه العامة : بالتشديد ، وقرأ أبو الشمال العدوي : أتُنبئون بالتخفيف وهما لغتان . نبأ ينبئ بنية ، وأنبأني إنباءً بمعنى فاعل جمعها .

﴿ بِمَا لاَ يَعْلَمُ ﴾ بما لا يعلم الله تعالى صحته وحقيقته ولا يكون ﴿ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض ﴾ ومعنى الآية : أتخبرون الله أنّ له شريكاً أو عنده شفيعاً بغير إذنه ولا يعلم الله أنّ له شريكاً في السماوات ﴿ وَلاَ فِي الأرض ﴾ لأنه لا شريك له فلذلك لا يعلمه نظيره قوله عزّ وجلّ :

﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأرض ﴾ [الرعد : 33] .

ثم نزّه نفسه فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ قرأ يحيى بن ثابت والأعمش وأبو حمزة والكسائي وخلف : تشركون بالتاء ها هنا وفي سورة النحل والروم ، وهو اختيار أبي عبيد للمخاطبة التي قبلها ، وقرأ الباقون كلها بالياء ، واختارها أبو حاتم ، وقال : كذلك تعلمناها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ ﴾

فيه وجهان : أحدهما : أتخبرونه بعبادة من لا يعلم ما في السموات ولا ما في الأرض .

الثاني : أتخبرونه بعبادة غيره وليس يعلم له شريكاً في السموات ولا في الأرض . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(72/359)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ﴾ الآية

الضمير في ﴿ يعبدون ﴾ عائد على الكفار من قريش الذين تقدّمت محاورتهم ، و ﴿ ما لا يضرهم ولا ينفعهم ﴾ هي الأصنام ، وقولهم ﴿ هؤلاء شفعاؤنا ﴾ هو مذهب النبلاء منهم ، فأمر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يقررهم ويوبخهم أهم يعلمون الله بأنباء من السماوات والأرض لا يعلمها هو ؟ وذكر ﴿ السماوات ﴾ لأن العرب من يعبد الملائكة والشعرى ، وبحسب هذا حسن أن يقول ﴿ هؤلاء ﴾ وقيل ذلك على تجوز في الأصنام التي لا تعقل ، وفي التوقيف على هذا أعظم غلبة لهم ، ولا يمكنهم ألا أن يقولوا : لا نفعل ولا نقدر ، وذلك لهم لازم من قولهم : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا ﴾ ، و ﴿ سبحانه ﴾ استئناف تنزيه لله عز وجل ، وقرأ أبو عمرو وعاصم وابن عامر هنا : " عما يشركون " بالياء على

الغيبة ، وفي حرفين في النحل وحرف في الروم وحرف في النمل ، وذكر أبو حاتم أنه قرأها كذلك نافع والحسن والأعرج وابن القعقاع وشيبة وحميد وطلحة والأعمش ، وقرأ ابن كثير ونافع هنا وفي النمل فقط " تشركون " بالتاء على مخاطبة الحاضر ، وقرأ حمزة والكسائي الخمسة الأحرف بالتاء وهي قراءة أبي عبد الرحمن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(73/359)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ﴾

أي : لا يضرهم إِن لم يعبدوه ، ولا ينفعهم إِن عبدوه ، قاله مقاتل ، والزجاج .

قوله تعالى : ﴿ ويقولون ﴾ يعني المشركين .

﴿ هؤلاء ﴾ يعنون الأصنام .

قال أبو عبيدة : خرجت كنايتها على لفظ كناية الآدميين .

وقد ذكرنا هذا المعنى في [الأعراف : 191] عند قوله : ﴿ وهم يُخْلَقُون ﴾ .

وفي قوله : ﴿ شفعاؤنا عند الله ﴾ قولان : أحدهما : شفعاؤنا في الآخرة ، قاله أبو صالح

عن ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : شفعاؤنا في إصلاح معايشنا في الدنيا ، لأنهم لا يُقِرُّون بالبعث ، قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم ﴾ قال الضحاك : أتخبرون الله أنَّ له شريكاً ، ولا يعلم الله لنفسه شريكاً في السموات ولا في الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(74/359)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ﴾

يريد الأصنام .

﴿ وَيَقُولُونَ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ ﴾ وهذه غاية الجهالة منهم ؛ حيث ينتظرون الشفاعة في المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر في الحال .

وقيل : "شُفَعَاؤُنَا" أي تشفع لنا عند الله في إصلاح معائشنا في الدنيا .

﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض ﴾ قراءة العامة "تنبئون" بالتشديد .

وقرأ أبو السَّمَّال العَدَوِيّ "أتنبِئون الله" مخففاً ، من أنبأ ينبىء .

وقراءة العامة من نبّأ ينبىء تنبئة ؛ وهما بمعنًى واحد ، جمَعهما قوله تعالى : ﴿ مَنْ أَنبَأَكَ هذا قَالَ نَبَّأَنِيَ العليم الخبير ﴾ [التحريم : 3] أي أتخبرون الله أن له شريكاً في ملكه أو شفيعاً بغير إذنه ، والله لا يعلم لنفسه شريكاً في السموات ولا في الأرض ؛ لأنه لا شريك له فلذلك لا يعلمه .

نظيره قوله : ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأرض ﴾ [الرعد : 33] ثم نزّه نفسه وقدّسها عن الشرك فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي هو أعظم من أن يكون له شريك .

وقيل : المعنى أي يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يميّز "وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ" فيكذبون ؛ وهل يتهيأ لكم أن تنبئوه بما لا يعلم ، سبحانه وتعالى عما يشركون ! .

وقرأ حمزة والكسائي "تشركون" بالتاء ، وهو اختيار أبي عبيد .

الباقون بالياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(75/359)

وقال الخازن :

﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ﴾

يعني : ويعبد هؤلاء المشركون الأصنام التي لا تضرهم إن عصوها وتركوا عبادتها ولا تنفعهم إن عبدوها لأنها حجارة وجماد لا تضر ولا تنفع وإن العبادة أعظم أنواع التعظيم فلا تليق إلا بمن يضر وينفع ويحيي ويميت وهذه الأصنام جماد وحجارة لا تضر ولا تنفع ﴿ ويقولون هؤلاء ﴾ يعني الأصنام التي يعبدونها ﴿ شفعاؤنا عند الله ﴾ قال أهل المعاني : توهموا أن عبادتها أشد من تعظيم الله من عبادتهم إياه وقالوا لسنا بأهل أن نعبد الله ولكن نشتغل بعبادة هذه الأصنام فإنها تكون شافعة لنا عند الله ومنه قوله سبحانه وتعالى إخبار عنهم ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ وفي هذه الشفاعة قولان :

أحدهما : أنهم يزعمون أنها تشفع لهم في الآخرة قاله ابن جريج عن ابن عباس .

والثاني : أنها تشفع لهم في الدنيا في إصلاح معايشهم قاله الحسن لأنهم كانوا لا يعتقدون بعثاً بعد الموت ﴿ قل ﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿ أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ﴾ يعني : أتخبرون الله أن له شريكاً ولا يعلم الله لنفسه شريكاً في السموات ولا في الأرض .

وهذا على طريق الإلزام .

المقصود : نفي علم الله بذلك الشفيع وأنه لا وجود له البتة لأنه لو كان موجوداً لعلمه الله

وحيث لم يكن معلوماً لله وجب أن لا يكون موجوداً ومثل هذا مشهور في العرف فإن الإنسان إذا أراد نفي شيء حصل في نفسه يقول : ما علم الله ذلك مني مقصوده أنه ما حصل ذلك الشيء منه قط ولا وقع ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن الشركاء والأضداد والأنداد وتعالى أن يكون له شريك في السموات والأرض ولا يعلمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(76/359)

وقال أبو حيان :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾

الضمير في ويعبدون عائد على كفار قريش الذين تقدمت محاورتهم .

وما لا يضرهم ولا ينفعهم هو الأصنام ، جماد لا تقدر على نفع ولا ضر .

قيل : إنْ عبدوها لم تنفعهم ، وإن تركوا عبادتها لم تضرهم .

ومن حق المعبود أن يكون مثيباً على الطاعة معاقباً على المعصية ، وكان أهل الطائف يعبدون اللات ، وأهل مكة العزى ومناة وأسافاً ونائلة وهبل ، والأخبار بهذا عن الكفار هو على سبيل التجهيل والتحقير لهم ولمعبوداتهم ، والتنبيه على أنهم عبدوا من لا يستحق

العبادة .

وفي قوله : من دون الله ، دلالة على أنهم كانوا يعبدون الأصنام ولا يعبدون الله .

قال ابن عباس : يعنون في الآخرة .

وقال النضر بن الحرث : إذا كان يوم القيامة شفعت في اللات والعزى .

وقال الحسن : شفعاؤنا في إصلاح معايشنا في الدنيا لأنهم لا يقرون بالبعث .

وأتنبئون استفهام على سبيل التهكم بما ادّعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام ، وإعلام بأنّ الذي أنبأوا به باطل غير منطو تحت الصحة ، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق به علمه ، وما موصولة بمعنى الذي .

قال الزمخشري : بكونهم شفعاء عنده ، وهو إنباء ما ليس بمعلوم لله تعالى ، وإذا لم يكن معلوماً له وهو العالم الذات المحيط بجميع المعلومات لم يكن شيئاً لأنّ الشيء ما يعلم ويخبر عنه فكان خبراً ليس له مخبر عنه انتهى .

فتكون ما واقعة على الشفاعة ، والفاعل بيعلم هو الله ، والمفعول الضمير المحذوف العائد على ما .

وقوله : في السموات ولا في الأرض تأكيد لنفيه ، لأن ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم قاله الزمخشري .

وفي التحرير : أتنبئون ، معناه التهكم والتقريع والتوبيخ والإنكار ، والمعنى على هذا : أتخبرون الله بما يعلم خلافه في السموات والأرض ، فإن صفات الذات لا يجري فيها النفي .

(77/359)

وقيل : أتخبرون الله بما لا يعلمه موجوداً في السموات والأرض ، فكيف يصح وجود ما لا يعلمه الله ، وهو كما يقال للرجل : قد قلت كذا ، فيقول : ما علم الله هذا مني ، أي ما كان هذا قط ، إذ لو كان لعلمه الله انتهى .

والذي يظهر أنّ ما موصول يراد به الأصنام لا الشفاعة التي ادعوها ، والفاعل بيعلم ضمير يعود على ما لا على الله ، وذلك على حذف مضاف والمعنى : قل أتعلمون الله بشفاعة الأصنام التي انتفي علمها في السموات والأرض أي : ليست متصفة بعلم البتة ، فيكون ذلك رداً عليهم في دعواهم أنها تشفع عند الله ، لأنّ من كان منتفياً عنه العلم فكيف يشفع وهو لا يعلم من يشفع فيه ، ولا ما يشفع فيه ، ولا من تشفع عنده ؟ كما رد عليهم في العبادة بقوله : ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، فانتفاء الضر والنفع قادح في العبادة ، وانتفاء العلم قادح في الشفاعة ، فتبطل العبادة ودعوى الشفاعة ، ويكون قوله : في السموات والأرض على هذا تنبيهاً على محال المعبودات المدعي شفاعتهم ، إذ من المعبودات السماوية الكواكب

كالشمس والشعرى .

وقرىء : أتنبئون بالتخفيف من أنبأ .

ولما ذكر تعالى عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع ، وكان ذلك إشراكاً ، استأنف تنزيهاً بقوله سبحانه وتعالى .

وما يحتمل أن تكون بمعنى الذي ومصدرية أي : شركائهم الذين يشركونهم به ، أو عن إشراكهم .

وقرأ العربيان والحرميان وعاصم : يشركون بالياء على الغيبة هنا ، وفي حرفي النحل ، وحرف في الروم .

وذكر أبو حاتم أنه قرأها كذلك الحسن والأعرج وابن القعقاع وشيبة وحميد وطلحة والأعمش .

وقرأ ابن كثير ونافع ، وابن عامر ، في النمل فقط بالياء على الخطاب ، وعاصم وأبو عمرو بالياء على الغيبة .

وقرأ حمزة والكسائي الخمسة بالتاء على الخطاب ، وأتى بالمضارع ولم يأت عن ما أشركوا للدلالة على استمرار حالهم ، كما جاءوا يعبدون وأنهم على الشرك في المستقبل ، كما كانوا عليه في الماضي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾

حكايةٌ لجناية أخرى لهم نشأتْ عنها جنايتُهم الأولى معطوفةٌ على قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ﴾ الآية ، عطفَ قصةٍ على قصة ، ومن دون متعلقٌ بيعبدون ومحلُّه النصبُ على الحالية من فاعله أي متجاوزين الله سبحانه لا بمعنى تركِ عبادتِه بالكلية بل بمعنى عدم الاكتفاءِ بها وجعلها قريناً لعبادة الأصنامِ كما يُفصح عنه سياقُ النظمِ الكريم ﴿ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ أي ما ليس من شأنه الضرُّ والنفعُ من الأصنام التي هي جمادات ، وما موصولةٌ أو موصوفةٌ ، وتقديمُ نفي الضررِ لأن أدنى أحكامِ العبادةِ دفعُ الضررِ الذي هو أولُ المنافع ، والعبادةُ أمرٌ حادث مسبوقٌ بالعدم الذي هو مظِنّةُ الضرر فحيث لم تقدِر الأصنامُ على الضرر لم يوجد لإحداث العبادة سببٌ ، وقيل : لا يضرّهم إن تركوا عبادتَها ولا ينفعهم إن عبدوها .

كان أهلُ الطائفِ يعبُدون اللاتَ وأهلُ مكةَ عزى ومَناةَ وهُبَل وإسافاً ونائلةً ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله ﴾ عن النضْر بن الحارثِ إذا كان يوم القيامة يشفع لى اللاتُ . قيل : إنهم كانوا يعتقدون أن المتوليَ لكل إقليمٍ روحٌ معينٌ من أرواح الأفلاكِ فعيّنوا لذلك الروحِ صنماً معيناً من الأصنام واشتغلوا بعبادته ومقصودُهم ذلك الروحُ ثم اعتقدوا أن ذلك

الروحَ يكون عند الإله الأعظمِ مشتغلاً بعبوديته وقيل : إنهم كانوا يعبدون الكواكبَ فوضعوا لها أصناماً معينة واشتغلوا بعبادتها قصداً إلى عبادة الكواكبِ ، وقيل : إنهم وضعوا طلسماتٍ معينةً على تلك الأصنام ثم تقربوا إليها ، وقيل : إنهم وضعوا هذه الأصنامَ على صور أنبيائِهم وأكابرِهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيلِ فإن أولئك الأكابرَ يشفعون لهم عند الله تعالى .

(79/359)

﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم ﴿ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ ﴾ أي أتخبرونه بما لا وجودَ له أصلاً وهو كونُ الأصنامِ شفعاءَهم عند الله تعالى إذ لولاه لعلمه علامُ الغيوبِ ، وفيه تقريعٌ لهم وتهكّمٌ بهم وبما يدعونه من المُحال الذي لا يكاد يدخُل تحت الصحة والإمكانِ ، وقرىء أتنبّيون بالتخفيف وقوله تعالى : ﴿ فِي السموات وَلاَ فِى الأرض ﴾ حالٌ من العائد المحذوفِ في يعلم مؤكدةٌ للنفي ، لأن ما لا يوجد فيهما فهو منتفٍ عادة ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ عن إشراكهم المستلزمِ لتلك المقالةِ الباطلةِ أو عن شركائهم الذين يعتقدونهم شفعاءَهم عند الله تعالى وقرىء تُشركون بتاء الخطاب على أنه من جملة القولِ المأمورِ به ، وعلى

الأول هو اعتراضٌ تذييليٌّ من جهته سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(80/359)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾

حكاية لجناية أخرى لهم وهي عطف على قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ﴾ [يونس : 15] الآية عطف قصة على قصة ، و ﴿ مِن دُونِ ﴾ في موضع الحال من فاعل ﴿ يَعْبُدُونَ ﴾ أي متجاوزين الله تعالى إما بمعنى ترك عبادته سبحانه بالكلية لأنها لا تصح ولا تقع عبادة مع الشركة أو بمعنى عدم الاكتفاء بها وجعلها قريباً لعبادة غيره سبحانه كما اختاره البعض ، و ﴿ مَا ﴾ إما موصولة أو موصوفة ، والمراد بها الأصنام ، ومعنى كونها لا تضر ولا تنفع أنها لا تقدر على ذلك لأنها جمادات ، والمقصود من هذا الوصف نفي صحة معبوديتها لأن من شأن المعبود القدرة على ما ذكر ، وقيل : المعنى لا تضرهم إن تركوا عبادتها ولا تنفعهم إن عبدوها والمقصود أيضاً نفي صحة معبوديتها لأن من شأن المعبود أن يثبت عابده ويعاقب من لم يعبده ، والفرق بين التفسيرين على ما قاله القطب

اطلاق النفع والضر في الأول والتقييد بالعبادة وتركها في الثاني ، وقيل : المقصود على الأول من الموصول الأصنام بعينها وعلى الثاني فاقد أوصاف المعبودية ، ويجوز أن يدخل فيه غير الأصنام من الملائكة والمسيح عليهم السلام ، والظاهر أن المراد هنا الأصنام لأن العرب إنما كانوا يعبدونها وكان أهل الطائف يعبدون اللات وأهل مكة العزى ومناة وهبل وأسافا ونائلة ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : كان النضر بن الحرث يقول : إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى وفيه نزلت الآية .

(81/359)

والظاهر أن سائر المشركين كانوا يقولون هذا القول ، ولعل ذلك منهم على سبيل الفرض والتقدير أي إن كان بعث كما زعمتم فهؤلاء يشفعون لنا ، فلا يقال : إن المتبادر من الشفاعة عند الله تعالى أنه في الآخرة وهو مستلزم للبعث وهم ينكرونه كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيمانهم لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل : 38] وكذا ما تقدم آنفاً من قوله سبحانه : ﴿ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ [يونس : 15] فيلزم المنافاة بين مفاهيم الآيات ، وكأنه لذلك قال الحسن عليه الرحمة : إنهم أرادوا من هذه الشفاعة الشفاعة في الدنيا لإصلاح المعاش ، وحينئذٍ لا منافاة والجمهور على الأول ، ومن سبر حال القوم رآهم

مترددين ولذلك اختلفت كلماتهم ، ونسبة الشفاعة للأصنام قيل باعتبار السببية وذلك لأنهم كما هو المشهور وضعوها على صور رجال صالحين ذوي خطر عندهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادتها فإن أولئك الرجال يشفعون لهم ، وقيل : إنهم كانوا يعتقدون أن المتولي لكل إقليم روح معين من أرواح الأفلام فعينوا لذلك الروح صنماً من الأصنام واشتغلوا بعبادتها قصداً إلى عبادة الكواكب وقيل : غير ذلك ، والحق أن من الأصنام ما وضع على الوجه الأول ومنها ما وضع لكونها كالهياكل للروحانيات ﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم ﴿ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ ﴾ أي أتخبرونه سبحانه بما لا وجود له ولا تحقق أصلاً وهو كون الأصنام شفعاءهم عنده جل شأنه فإن ما لا يعلمه علام الغيوب المحيط علمه بالكليات والجزئيات لا يكون له تحقق بالكلية ، وذكروا أن مثل ذلك لا يسمى شيئاً بناءً على أنه كما قال سيبويه ما يصح أن يعلم ويخبر عنه وهو يشمل الموجود والمعدوم كما حققه بعض أصحابنا كالمعتزلة وسموا ما لا يعلم بالمنفي كالشريك وكاجتماع الضدين ، وحقق ذلك الشيخ إبراهيم الكورابي في رسالة مستقلة أتى فيها بالعجب العجاب ، ويجوز أن يراد بالموصول أن له

سبحانه شريكاً والمقصود على الوجهين من ذكر إنباء الله تعالى بما لا تحقق له ولم يتعلق به علمه التهكم والهزء بهم وإلا فلا إنباء ، وقوله سبحانه : ﴿ فِي السموات وَلاَ فِى الأرض ﴾ في موضع الحال من العائد المحذوف أي بما لا يعلمه كائناً في ذلك ، والمقصود منه تأكيد النفي المدلول عليه بما قبله فإنه قد جرى في العرف أن يقال عند تأكيد النفي للشيء ليس هذا في السماء ولا في الأرض لاعتقاد العامة أن كل ما يوجد إما في السماء وإما في الأرض كما هو رأى المتكلمين في كل ما سوى الله تعالى إذ هو سبحانه المعبود المنزه عن الحلول في المكان ، والآيات التي ظاهرها ذلك من المتشابه والمذاهب فيه شهيرة ، وهذا إذا أريد بالسماء والأرض جهتا العلو والسفل ، وقيل : الكلام إلزامي لزعم المخاطبين الكافرين أن الأمر كذلك ، وقيل : إن معنى الآية أتخبرونه تعالى بشريك أو شفيع لا يعلم شيئاً في السموات ولا في الأرض كما في قوله تعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مّنَ السموات والأرض ﴾ [النحل : 73] وليس بشيء ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي عن إشراكهم المستلزم لتلك المقالة الباطلة أو عن شركائهم الذين يعتقدونهم شركاء ، وقرىء ﴿ أَتُنَبّئُونَ ﴾ بالتخفيف ، وقرأ حمزة .

والكسائي ﴿ تُشْرِكُونَ ﴾ بتاء الخطاب على أنه من جملة القول المأمور به ، وعلى الأول

هو اعتراض تذييلي من جهته سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(83/359)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ) .

بُدِئَتِ السُّورَةُ بِالْكِتَابِ الْحَكِيمِ (الْقُرْآنِ) وَإِنْكَارِ الْمُشْرِكِينَ لِلْوَحْيِ بِشُبْهَتِهِمُ الْمَعْرُوفَةِ ، وَسِيقَتْ بَعْدَهَا الْآيَاتُ فِي إِقَامَةِ الْحُجَجِ عَلَيْهِمْ مِنْ خَلْقِ الْعَالَمِ عُلْوِيِّهِ وَسُفْلِيِّهِ ، وَمِنْ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ وَتَارِيخِهِ ،

مُتَضَمِّنَةً لِإِثْبَاتِ أَهَمِّ أَرْكَانِ الدِّينِ وَهُوَ الْوَحْيُ وَالتَّوْحِيدُ وَالْبَعْثُ ، وَجَاءَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي شَأْنِ الْكِتَابِ نَفْسِهِ وَتَفْنِيدِ مَا اقْتَرَحَهُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الرَّسُولِ فِيهِ ، وَحُجَّتِهِ الْبَالِغَةِ عَلَيْهِمْ فِي كَوْنِهِ وَحْيًا مِنَ اللهِ تَعَالَى .

(84/359)

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ) فِي الْآيَةِ الْتِفَاتٌ عَنْ خِطَابِ هَؤُلَاءِ الْمَوْعُوظِينَ إِلَى الْغَيْبَةِ عَنْهُمْ ، وَتَوْجِيهٌ لَهُ إِلَى الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأُسْلُوبُ الِالْتِفَاتِ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ جِدًّا ، وَفَائِدَتُهُ الْعَامَّةُ تَلْوِينُ الْكَلَامِ بِمَا يُجَدِّدُ الِانْتِبَاهَ لَهُ وَالتَّأَمُّلَ فِيهِ ، وَفِي كُلِّ الْتِفَاتٍ فَائِدَةٌ خَاصَّةٌ ، لَوْ أَرَدْنَا بَيَانَ مَا نَفْهَمُهُ مِنْهَا لَطَالَ بِنَا بَحْثُ الْبَلَاغَةِ الْكَلَامِيَّةِ ، بِمَا يَشْغَلُ الْقُرَّاءَ عَنِ الْهِدَايَةِ الْمَقْصُودَةِ بِالذَّاتِ مِنْ تَفْسِيرِنَا . وَيَظْهَرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ نُكْتَةَ حِكَايَةِ هَذَا الِاقْتِرَاحِ السَّخِيفِ بِأُسْلُوبِ الْإِخْبَارِ عَنْ قَوْمٍ غَائِبِينَ إِفَادَةُ أَمْرَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) إِظْهَارُ الْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ كَأَنَّهُمْ غَيْرُ حَاضِرِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ الْخِطَابَ بِهِ مِنَ اللهِ تَعَالَى : (ثَانِيهِمَا) تَلْقِينُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْجَوَابَ عَنْهُ بِمَا تَرَى مِنَ الْعِبَارَةِ الْبَلِيغَةِ التَّأْثِيرِ ، وَالْمَعْنَى : وَإِذَا تُتْلَى عَلَى أُولَئِكَ الْقَوْمِ آيَاتُنَا الْمُنَزَّلَةُ حَالَةَ كَوْنِهَا بَارِزَةً فِي أَعْلَى مَعَارِضِ الْبَيَانِ ، وَأَظْهَرِ مُقَدِّمَاتِ الْوَحْيِ وَالْبُرْهَانِ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا

(85/359)

وَهُمْ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ قَرِيبًا - وَأَعَادَهُ وَاضِعًا إِيَّاهُ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ لِلْإِشْعَارِ بِعِلَّةِ الْقَوْلِ - أَيْ قَالُوا لِمَنْ يَتْلُوهَا عَلَيْهِمْ وَهُوَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ، الْأَظْهَرُ فِي سَبَبِ قَوْلِهِمْ هَذَا أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَلَّغَهُمْ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ

اللهِ أَوْحَاهُ إِلَيْهِ لِيُنْذِرَهُمْ بِهِ ، وَتَحَدَّاهُمْ بِالْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ أَوْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ فَعَجَزُوا ، وَكَانُوا فِي رَيْبٍ مِنْ كَوْنِهِ وَحْيًا مِنَ اللهِ لِبَشَرٍ مِثْلِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ، وَفِي رَيْبٍ مَنْ كَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَهُوَ لَمْ يَكُنْ يَفُوقُهُمْ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ ، وَلَا فِي شَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ ، بَلْ كَانُوا يَرَوْنَهُ دُونَ كِبَارِ فُصَحَائِهِمْ مِنْ بُلَغَاءِ الشُّعَرَاءِ وَمَصَاقِعِ الْخُطَبَاءِ ، فَأَرَادُوا أَنْ يَمْتَحِنُوهُ بِمُطَالَبَتِهِ بِالْإِتْيَانِ بِقُرْآنٍ غَيْرِهِ فِي جُمْلَةِ مَا بَلَغَهُمْ مِنْ سُورَةٍ فِي أُسْلُوبِهَا وَنَظْمِهَا وَدَعْوَتِهَا ، أَوْ بِالتَّصَرُّفِ فِيهِ بِالتَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ لِمَا يَكْرَهُونَهُ مِنْهُ ، كَتَحْقِيرِ آلِهَتِهِمْ وَتَكْفِيرِ آبَائِهِمْ ، حَتَّى إِذَا فَعَلَ هَذَا أَوْ ذَاكَ كَانَتْ دَعْوَاهُ أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ أَوْحَاهُ إِلَيْهِ مَنْقُوضَةً مِنْ أَسَاسِهَا ، وَكَانَ قُصَارَى أَمْرِهِ أَنَّهُ امْتَازَ عَلَيْهِمْ بِهَذَا النَّوْعِ مِنَ الْبَيَانِ ، بِقُوَّةٍ نَفْسِيَّةٍ فِيهِ كَانَتْ خَفِيَّةً عَنْهُمْ كَأَسْبَابِ السِّحْرِ لَا بِوَحْيِ اللهِ إِلَيْهِ ، وَهُمَا مَا يَزْعُمُهُ بَعْضُ

(86/359)

الْإِفْرِنْجِ وَمُقَلِّدَتُهُمْ فِي عَصْرِنَا ، وَقَدْ فَنَّدْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ .

قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي أَيْ قُلْ لَهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِي وَلَا مِمَّا تُبِيحُهُ لِي رِسَالَتِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، أَيْ بِمَحْضِ رَأْيِي وَمُقْتَضَى اجْتِهَادِي ، وَكَلِمَةُ (تِلْقَاءِ) بِكَسْرِ التَّاءِ مَصْدَرٌ مِنَ اللِّقَاءِ كَتِبْيَانٍ مِنَ الْبَيَانِ ، وَكَسْرُ التَّاءِ فِيهِمَا سَمَاعِيٌّ

وَالْقِيَاسُ فِي هَذَا الْمَصْدَرِ فَتْحُهَا كَالتَّكْرَارِ وَالتَّطْوَافِ وَالتَّجْوَالِ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ أَيْ مَا أَتَّبِعُ فِيهِ إِلَّا تَبْلِيغَ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَالِاهْتِدَاءَ بِهِ فَإِنْ بَدَّلَ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ شَيْئًا بِنَسْخِهِ بَلَّغْتُهُ عَنْهُ ، وَمَا

عَلَيَّ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمَحْضُ ، وَأَقُولُ : إِذَا كَانَ اللهُ لَمْ يُعْطِ رَسُولَهُ الْحَقَّ فِي تَبْدِيلِ الْقُرْآنِ ، فَمَا حُكْمُهُ تَعَالَى فِيمَنْ يُبَدِّلُونَهُ بِأَعْمَالِهِمُ الْمُنَافِيَةِ لِصِدْقِ وَعْدِهِ لِأَهْلِهِ وَهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُهُ ، كَالَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ : (يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ) (48 : 15) أَوْ بِتَرْكِ أَحْكَامِهِ لِمَذَاهِبِهِمْ ، كَالَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ : (فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ) (2 : 181) إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ : هَذَا تَعْلِيلٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهُ ، الَّذِي هُوَ بَيَانٌ لِنَفْيِ الشَّأْنِ الَّذِي قَبْلَهُ ، أَيْ إِنِّي أَخَافُ

(87/359)

إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي أَيَّ عِصْيَانٍ كَانَ ، عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمِ الشَّأْنِ ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، فَكَيْفَ إِذَا عَصَيْتُهُ بِتَبْدِيلِ كَلَامِهِ اتِّبَاعًا لِأَهْوَائِكُمْ ؟ وَقَوْلُهُ : إِنْ عَصَيْتُ مِنْ بَابِ الْفَرْضِ ، إِذِ الشَّرْطِيَّةُ الْمَبْدُوءَةُ بِـ (إِنْ) يُعَبَّرُ بِهَا عَمَّا شَأْنُهُ أَلَّا يَقَعَ . وَهَذَا جَوَابٌ عَنِ الشِّقِّ الثَّانِي مِنِ اقْتِرَاحِهِمْ .

(88/359)

ثُمَّ لَقَّنَهُ الْجَوَابَ عَنِ الشِّقِّ الْأَوَّلِ مَفْصُولًا لِأَهَمِّيَّتِهِ بِقَوْلِهِ : (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ) أَيْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَلَّا أَتْلُوَ عَلَيْكُمْ هَذَا الْقُرْآنَ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّمَا أَتْلُوهُ بِأَمْرِهِ تَنْفِيذًا لِمَشِيئَتِهِ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ أَيْ وَلَوْ شَاءَ أَلَّا يُدْرِيَكُمْ وَيُعْلِمَكُمْ بِهِ بِإِرْسَالِي إِلَيْكُمْ لَمَا أَرْسَلَنِي وَلَمَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ، وَلَكِنَّهُ شَاءَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْعِلْمِ الْأَعْلَى ؛ لِتَدْرُوهُ فَتَهْتَدُوا بِهِ وَتَكُونُوا بِهِدَايَتِهِ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ، وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ هَذَا إِنَّمَا يَكُونُ بِهِ لَا بِقُرْآنٍ آخَرَ ، كَمَا قَالَ : (لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ) (4 : 166) وَقَالَ : (وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (7 : 52) (رَاجِعْ تَفْسِيرَ هَذِهِ وَمَا بَعْدَهَا فِي ج 8 تَفْسِيرٍ) فَهُوَ قَدْ أَنْزَلَهُ عَالِمًا بِأَنَّ فِيهِ كُلَّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْهِدَايَةِ وَأَسْبَابِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَرَنِي بِتَبْلِيغِهِ إِلَيْكُمْ وَلَمْ يَكُنْ لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَهُ (فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ) أَيْ فَقَدْ مَكَثْتُ فِيمَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْكُمْ عُمُرًا طَوِيلًا مِنْ قَبْلِهِ وَهُوَ أَرْبَعُونَ سَنَةً ، لَمْ أَتْلُ عَلَيْكُمْ فِيهِ سُورَةً مِنْ مِثْلِهِ وَلَا آيَةً تُشْبِهُ آيَاتِهِ ، لَا فِي الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ ، وَلَا فِي الْبَلَاغَةِ وَرَوْعَةِ الْبَيَانِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ إِنَّ مَنْ عَاشَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا كِتَابًا ، وَلَمْ يُلَقَّنْ مِنْ أَحَدٍ

عِلْمًا ، وَلَمْ يَتَقَلَّدْ دِينًا ، وَلَمْ يَعْرِفْ تَشْرِيعًا ، وَلَمْ يُمَارِسْ أَسَالِيبَ الْبَيَانِ ، فِي أَفَانِينِ الْكَلَامِ ، مِنْ شِعْرٍ وَنَثْرٍ ، وَلَا خَطَابَةٍ وَفَخْرٍ ، وَلَا عِلْمٍ وَحِكَمٍ ، لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَأْتِيَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ الْمُعْجِزِ لَكُمْ ، بَلْ هُوَ يُعْجِزُ جَمِيعَ الْخَلْقِ حَتَّى الدَّارِسِينَ لِكُتُبِ الْأَدْيَانِ وَالْحِكْمَةِ وَالتَّارِيخِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ ؟ فَكَيْفَ تَقْتَرِحُونَ عَلَيَّ إِذًا أَنْ آتِيَ بِقُرْآنٍ غَيْرِهِ ؟ وَسَيَتَحَدَّاهُمْ فِي الْآيَةِ 38 بِسُورَةٍ مِثْلِهِ .

وَمِمَّا يَمْتَازُ بِهِ الْوَحْيُ الْمُحَمَّدِيُّ عَلَى مَا كَانَ قَبْلَهُ ، أَنَّ أَكْثَرَ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا قَبْلَ نُبُوَّتِهِمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ الْكَسْبِيِّ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَبَاحِثِ الْوَحْيِ الْقَرِيبَةِ ، وَفَاتَنَا فِيهَا التَّذْكِيرُ بِمَا أُوتِيَ بَعْضُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحُكْمِ الْوَهْبِيِّ قَبْلَهَا أَيْضًا . قَالَ تَعَالَى فِي مُوسَى : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) (28 : 14) وَبُلُوغُ الْأَشُدِّ يَكُونُ فِي اسْتِكْمَالِ الثَّلَاثِينَ وَذَكَرَ بَعْدَ هَذَا

(90/359)

خُرُوجَهُ إِلَى مَدْيَنَ وَنُزُولَ الْوَحْيِ عَلَيْهِ فِي أَثْنَاءِ عَوْدَتِهِ مِنْهَا . وَكَانَ مُوسَى عَلَى عِلْمٍ بِشَرَائِعِ الْمِصْرِيِّينَ وَمَعَارِفِهِمْ أَيْضًا ، قَالَ تَعَالَى فِي يُوسُفَ : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) (12 : 22) وَلَمْ يَقُلْ : (وَاسْتَوَى) فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ أَيْضًا ، وَكَانَ الْعِلْمُ الَّذِي

امْتَازَ بِهِ يُوسُفُ تَأْوِيلَ الْأَحَادِيثِ وَالرُّؤَى أَيِ الْإِخْبَارَ بِمَآلِهَا . وَقَالَ فِي يَحْيَى (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) (19 : 12) وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَبْلَ النُّبُوَّةِ عِلْمٌ وَلَا حُكْمٌ فِي الْأُمُورِ ، اللَّهُمَّ إلَّا حُكْمُهُ فِي تَنَازُعِ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ عِنْدَ بِنَائِهِمُ الْكَعْبَةَ ، أَيُّهُمْ يَضَعُ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ فِي مَكَانِهِ مِنَ الرُّكْنِ ، وَكَادُوا يَقْتَتِلُونَ فَطَلَعَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا : هَذَا الْأَمِينُ نُحَكِّمُهُ وَنَرْضَى بِحُكْمِهِ ؛ أَيْ لِأَنَّهُ أَمِينٌ صَادِقٌ لَا يُحَابِي ، فَحَكَمَ بِوَضْعِهِ فِي ثَوْبٍ يَأْخُذُ سَيِّدُ كُلِّ قَبِيلَةٍ نَاحِيَةً مِنْهُ ، ثُمَّ ارْتَقَى هُوَ إلَى مَوْضِعِهِ مِنَ الرُّكْنِ فَرَفَعُوهُ إلَيْهِ فَوَضَعَهُ فِيهِ . وَالْخَبَرُ مِنْ مَرَاسِيلِ السِّيَرِ لَمْ يَرِدْ مَرْفُوعًا وَأَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ وَقَدْ عَبَّرَ عَنْهُ بِكَلِمَةِ (غُلَامٍ) وَفِي السِّيرَةِ الْحَلَبِيَّةِ أَنَّ سِنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَتْ عِنْدَ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً .

(91/359)

هَذِهِ حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ نَاهِضَةٌ ، عَلَى بُطْلَانِ شُبُهَاتِهِمُ الدَّاحِضَةِ ، الَّتِي بَنَوْا عَلَيْهَا مُطَالَبَةَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْإِتْيَانِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا الْقُرْآنِ ، وَقَدْ ظَهَرَ لِعُلَمَاءِ هَذَا الْعَصْرِ مَا أَيَّدَ دَلَالَتَهَا الْعِلْمِيَّةَ فَإِنَّهُمْ بِمَا حَذَقُوا عِلْمَ النَّفْسِ وَأَخْلَاقَ الْبَشَرِ وَطِبَاعَهُمْ ، وَمَا عَرَفُوا مِنْ دَرَجَاتِ اسْتِعْدَادِهِمُ الْعِلْمِيِّ وَالْعَقْلِيِّ بِاسْتِقْرَاءِ تَارِيخِهِمْ ، قَدْ حَقَّقُوا أَنَّ اسْتِعْدَادَ الْإِنْسَانِ

الْعَقْلِيِّ لِلْعُلُومِ ، وَاسْتِعْدَادُهُ النَّفْسِيِّ لِلنُّهُوضِ بِالْأَعْمَالِ الْقَوْمِيَّةِ أَوِ الْعَالَمِيَّةِ ، يَظْهَرُ كُلٌّ مِنَ الِاسْتِعْدَادَيْنِ فِيهِ مَنْ أَوَائِلِ نَشْأَتِهِ ، وَيَكُونُ فِي مُنْتَهَى الْقُوَّةِ وَالظُّهُورِ بِالْفِعْلِ عِنْدَ اسْتِكْمَالِ نُمُوِّهِ فِي الْعَقْدَيْنِ الثَّانِي وَالثَّالِثِ مِنْ عُمْرِهِ ، فَإِذَا بَلَغَ الْخَامِسَةَ وَالثَّلَاثِينَ وَلَمْ يَظْهَرْ نُبُوغُهُ فِي عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي سَبَقَ اشْتِغَالُهُ بِهَا ، وَلَا النُّهُوضُ بِعَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الْعَامَّةِ الَّتِي كَانَ اسْتَشْرَفَ لَهَا ، فَإِنَّ مِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَظْهَرَ مِنْهُ

(92/359)

شَيْءٌ مِنْ هَذَا أَوْ ذَاكَ مِنْ بَعْدِهَا جَدِيدًا أَنِفًا وَيَكُونُ فِيهِ نَابِغًا نَاجِحًا ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي مَبَاحِثِ إِثْبَاتِ (الْوَحْيِ الْمُحَمَّدِيِّ) أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مُشْتَمِلٌ عَلَى تَمْحِيصِ الْحَقَائِقِ فِي جَمِيعِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ الدِّينِيَّةِ وَالتَّشْرِيعِيَّةِ الَّتِي يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا صَلَاحُ جَمِيعِ الْبَشَرِ ، وَأَنَّ الرَّسُولَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ قَامَ بِتَنْفِيذِ هَذَا الْإِصْلَاحِ بِمَا غَيَّرَ وَجْهَ الْأَرْضِ ، وَقَلَبَ أَحْوَالَ أَكْثَرِ أُمَمِهَا فَحَوَّلَهَا إِلَى خَيْرٍ مِنْهَا ، وَأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَانَ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَضَاهَا فِي الْأُمِّيَّةِ . فَهَذَا الْعِلْمُ الْجَدِيدُ الَّذِي أَيَّدَ حُجَّةَ الْقُرْآنِ الْعَقْلِيَّةَ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، لَهُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ نَظَائِرُ أَشَرْنَا إِلَى بَعْضِهَا آنِفًا ، وَبَيَّنَّا كَثِيرًا مِنْهَا فِي تَفْسِيرِنَا هَذَا ، وَهُوَ مِمَّا يَمْتَازُ بِهِ عَلَى جَمِيعِ التَّفَاسِيرِ بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى ، وَإِنْ كَانَ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ غَافِلِينَ عَنْهُ تَبَعًا لِغَفْلَتِهِمْ عَنِ الْقُرْآنِ

نَفْسِهِ ، وَعَدَمِ شُعُورِهِمْ بِالْحَاجَةِ إِلَى هِدَايَتِهِ ، بِصَدِّ دُعَاةِ التَّقْلِيدِ الْمُعَمَّمِينَ إِيَّاهُمْ عَنْهُ ، وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنْ تَرَى أَسَاطِينَ الْمُفَسِّرِينَ لَمْ يَفْهَمُوا مِنَ الْآيَةِ أَنَّ فِيهَا جَوَابًا عَنِ الشِّقِّ الْأَوَّلِ مِنِ اقْتِرَاحِ الْمُشْرِكِينَ ، وَهُوَ الْإِتْيَانُ بِقُرْآنٍ آخَرَ ، وَقَدْ هَدَانَا اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ مَعَ بُرْهَانِهِ بِفَضْلِهِ ، وَكَمْ تَرَكَ الْأَوَّلُ لِلْآخَرِ ! !

(93/359)

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ) هَذِهِ تَتِمَّةُ الرَّدِّ عَلَى اقْتِرَاحِ الْمُشْرِكِينَ ، فَإِنَّهُ رَدَّ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا بِبَيَانِ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ الْوَاقِعِ ، وَهُوَ أَنَّ تَبْدِيلَ الْقُرْآنِ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ الرَّسُولِ فِي نَفْسِهِ ، وَلَا مِمَّا أَذِنَ اللهُ لَهُ بِهِ ، بَلْ يُعَاقِبُهُ عَلَيْهِ أَشَدَّ الْعِقَابِ فِي الْآخِرَةِ إِنْ فُرِضَ وُقُوعُهُ مِنْهُ - لِأَنَّهُ كَلَامُهُ الْخَاصُّ بِهِ - وَثَانِيًا بِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي اسْتِطَاعَتِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْإِتْيَانُ بِمِثْلِهِ ، ثُمَّ عَزَّزَ هَاتَيْنِ الْحُجَّتَيْنِ بِثَالِثَةٍ أَدَبِيَّةٍ ، وَهِيَ أَنَّ شَرَّ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ وَالْإِجْرَامِ فِي الْبَشَرِ شَيْئَانِ : أَحَدُهُمَا افْتِرَاءُ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ ، وَهُوَ مَا اقْتَرَحُوهُ عَلَيْهِ بِجُحُودِهِمْ ، وَثَانِيهِمَا التَّكْذِيبُ بِآيَاتِ اللهِ ، وَهُوَ مَا اجْتَرَحُوهُ بِإِجْرَامِهِمْ . وَقَدْ بَيَّنَ هَذَا بِصِيغَةِ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ ، أَيْ لَا أَحَدَ أَظْلَمُ عِنْدَ اللهِ وَأَجْدَرُ بِغَضَبِهِ وَعِقَابِهِ مِنْ هَذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ

مِنَ الظَّالِمِينَ ، وَأَنَا أَنْعِي عَلَيْكُمُ الثَّانِيَ مِنْهُمَا ، فَكَيْفَ أَرْضَى لِنَفْسِي بِالْأَوَّلِ وَهُوَ شَرٌّ مِنْهُ ؟ وَأَيُّ فَائِدَةٍ لِي مِنْ هَذَا الْإِجْرَامِ الْعَظِيمِ وَأَنَا أُرِيدُ الْإِصْلَاحَ وَأَدْعُو إِلَيْهِ وَأَحْتَمِلُ الْمَشَاقَّ فِي سَبِيلِهِ ، وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ أَيْ لَا يَفُوزُونَ بِمَطْلُوبِهِمُ الَّذِي يَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ بِالْكَذِبِ وَالزُّورِ .

(94/359)

وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذَا الِاسْتِفْهَامِ فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ (6 : 21 و93 و144) وَفِي آيَةٍ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (7 : 37) فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهُنَّ فِي ج 8 تَفْسِيرِ) .

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

هَذِهِ الْآيَةُ فِي دَحْضِ شُبْهَتِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ تَعَالَى وَهِيَ الشَّفَاعَةُ ، وَتَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ بُطْلَانُهَا وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى وُجُوبِ عِبَادَةِ الرَّبِّ الْخَالِقِ الْمُدَبِّرِ وَحْدَهُ ، وَصَرَّحَ هُنَا بِإِسْنَادِ هَذَا الشِّرْكِ إِلَيْهِمْ وَبِاحْتِجَاجِهِمْ عَلَيْهِ بِالشَّفَاعَةِ . ثُمَّ لَقَّنَ رَسُولَهُ الْحُجَّةَ عَلَى بُطْلَانِ هَذَا الِاحْتِجَاجِ فَقَالَ :

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ) الْكَلَامُ مَعْطُوفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنْ بَيَانِ

شِرْكِهِمْ وَسَخَافَتِهِمْ فِيهِ ، وَمُكَابَرَتِهِمْ فِي جُحُودِ الْحَقِّ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَيْهِ الْوَحْيُ ، أَيْ وَيَعْبُدُونَ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا مِنَ الْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا مِنْ دُونِ اللهِ أَيْ غَيْرِ اللهِ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَهَا حَالَ كَوْنِهِمْ مُتَجَاوِزِينَ مَا يَجِبُ مِنْ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ ، لَا أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَهَا وَحْدَهَا ، فَمَا مَعْنَى كَوْنِهِمْ مُشْرِكِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَهُ وَيَعْبُدُونَ غَيْرَهُ (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (12 : 106) وَفِي وَصْفِهَا بِأَنَّهَا لَا تَضُرُّهُمْ وَلَا تَنْفَعُهُمْ إِيذَانٌ بِسَبَبِ عِبَادَتِهَا وَضَلَالِهِمْ فِيهِ ، وَتَذْكِيرٌ بِأَنَّهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى نَفْعِ مَنْ يَعْبُدُهُ ، وَضُرِّ مَنْ يَكْفُرُهُ ، وَيُشْرِكُ بِعِبَادَتِهِ غَيْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَأَصْلُ غَرِيزَةِ الْعِبَادَةِ الْفِطْرِيَّةِ فِي الْبَشَرِ ، فِي سَذَاجَتِهِمُ الَّتِي لَا تَلْقِينَ فِيهَا لِحَقٍّ وَلَا

بَاطِلٍ ، هِيَ الشُّعُورُ الْبَاطِنُ بِأَنَّ فِي الْوُجُودِ قُوَّةً غَيْبِيَّةً وَسُلْطَانًا عُلْوِيًّا عَلَى التَّصَرُّفِ فِي الْخَلْقِ بِالنَّفْعِ لِمَنْ شَاءَ ، وَإِيقَاعِ الضُّرِّ عَلَى مَنْ شَاءَ وَكَشْفِهِ بَعْدَ وُقُوعِهِ عَمَّنْ شَاءَ ، غَيْرَ

مُقَيَّدٍ فِي ذَلِكَ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُسَخَّرَةِ لِلنَّاسِ ، فَمَنِ اطَّلَعَ عَلَى تَوَارِيخِ الْبَشَرِ فِي كُلِّ طَوْرٍ مِنْ أَطْوَارِ حَيَاتِهِمُ الْبَدَوِيَّةِ وَالْحَضَرِيَّةِ ، يَظْهَرُ لَهُ أَنَّ هَذَا هُوَ أَصْلُ التَّدَيُّنِ الْغَرِيزِيِّ فِيهِمْ ، وَأَمَّا صُوَرُ التَّعَبُّدِ وَتَسْمِيَةُ الْمَعْبُودَاتِ فَمِنْهَا مَا هُوَ مِنِ اجْتِهَادِهِمْ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مِنْ تَلْقِينِ دُعَاةِ الدِّينِ فِيهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ . فَكُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ بِالرَّأْيِ وَالِاجْتِهَادِ ، فَإِنَّمَا عَبَدَهُ مَنْ عَبَدَهُ لِشُبْهَةٍ فَهِمَ مِنْهَا قُدْرَتَهُ عَلَى النَّفْعِ وَالضُّرِّ بِسُلْطَانٍ لَهُ فَوْقَ الْأَسْبَابِ وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى أَوَّلُهَا تَفْسِيرُ الْعِبَادَةِ مِنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ ، وَأَوْسَطُهَا وَأَبْسَطُهَا تَفْسِيرُ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَعَ أَبِيهِ آزَرَ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، وَمِنْ آخِرِهَا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ مَا جَاءَ فِي بَيَانِ الرُّكْنِ الْأَوَّلِ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ ، وَفِي الْكَلَامِ عَلَى الْخَوَارِقِ مِنْ بَحْثِ الْوَحْيِ الِاسْتِطْرَادِيِّ .

(97/359)

فَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ كَوْنِ هَذِهِ الْمَعْبُودَاتِ لَا تَضُرُّهُمْ وَلَا تَنْفَعُهُمْ – هُوَ بَيَانَ عَجْزِهَا عَنِ النَّفْعِ وَالضُّرِّ ؛ لِأَنَّهَا إِمَّا جَمَادَاتٌ مَصْنُوعَةٌ كَالْأَوْثَانِ الْمُتَّخَذَةِ مِنَ الْحِجَارَةِ أَوِ الْخَشَبِ ، وَالْأَصْنَامِ الْمُتَّخَذَةِ مِنَ الْمَعَادِنِ وَكَذَا الْحِجَارَةِ ، أَوْ غَيْرُ مَصْنُوعَةٍ كَاللَّاتِ وَهِيَ صَخْرَةٌ كَانَتْ بِالطَّائِفِ يُلَتُّ عَلَيْهَا السَّوِيقُ ثُمَّ عُظِّمَتْ حَتَّى عُبِدَتْ ، وَإِمَّا أَشْجَارٌ كَالْعُزَّى مَعْبُودَةِ

قُرَيْشٍ ، وَالشَّجَرَةِ الَّتِي قَطَعَهَا الشَّيْخُ مُحَمَّدُ عَبْدِ الْوَهَّابِ فِي نَجْدٍ ، وَشَجَرَةِ الْمَنْصُورَةِ الَّتِي يَقْصِدُهَا النِّسَاءُ فِي مِصْرَ لأَجْلِ الْحَبَلِ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الأَوْثَانِ وَالأَصْنَامِ قَدْ وُضِعَتْ ذِكْرَى لِبَعْضِ الصَّالِحِينَ مِنَ الْبَشَرِ كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – فِي أَصْنَامِ قَوْمِ نُوحٍ ، ثُمَّ انْتَقَلَتْ عِبَادَتُهُمْ إِلَى الْعَرَبِ ، وَكَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ فِيهَا أَرْوَاحًا مِنَ الْجِنِّ كَمَا رُوِيَ فِي حَدِيثِ قَطْعِ شَجَرَةِ الْعُزَّى أَوْ شَجَرَاتِهَا الثَّلاثِ ، إِذْ ظَهَرَتْ عِنْدَ قَطْعِهَا لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ امْرَأَةٌ سَوْدَاءُ عُرْيَانَةٌ نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا ، كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهَا جِنِّيَّةٌ ، فَأَرَادَتْ أَنْ تُوَاثِبَهُ وَتُخِيفَهُ فَقَتَلَهَا ، فَهِيَ كَالْقُبُورِ الَّتِي تُشَرَّفُ وَتُجَصَّصُ وَيُوضَعُ عَلَيْهَا السُّتُورُ وَتُبْنَى عَلَيْهَا الْقِبَابُ ، لِمِثْلِ السَّبَبِ الَّذِي وَضَعُوا لَهُ تَمَاثِيلَ الأَوْثَانِ ، وَعَبَدَةُ

(98/359)

هَذِهِ الْقُبُورِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْمَدْفُونِينَ فِيهَا أَحْيَاءٌ يَقْضُونَ حَاجَاتِ مَنْ يَدْعُونَهُمْ وَيَسْتَغِيثُونَهُمْ ، وَعُلَمَاءُ الْخُرَافَاتِ يَقُولُونَ لَهُمْ إِنَّ عَمَلَهُمْ هَذَا شَرْعِيٌّ .

(99/359)

نَعَمْ لَيْسَ الْمُرَادُ هُنَا مِنْ نَفْيِ ضَرِّهَا وَنَفْعِهَا أَنَّهَا جَمَادَاتٌ لَا عَمَلَ لَهَا فَقَطْ كَمَا قِيلَ ، وَإِنْ كَانَتِ الْحُجَّةُ عَلَى عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ أَظْهَرَ مِنَ الْحُجَّةِ عَلَى عِبَادَةِ الثَّعَابِينِ وَالْبَقَرِ وَالْقُرُودِ - وَلَا يَزَالُ لَهَا بَقِيَّةٌ فِي الْهِنْدِ - وَعَلَى عِبَادَةِ الْبَشَرِ الَّتِي هِيَ أَسَاسُ النَّصْرَانِيَّةِ الْآرِيَّةِ الَّتِي وَضَعَهَا الْإِمْبِرَاطُورُ قُسْطَنْطِينُ ، وَمَنِ اتَّبَعَ سَنَنَ النَّصَارَى وَالْهُنُودِ مِنْ جَهَلَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ بَيَانُ بُطْلَانِ الشِّرْكِ بِالْأُلُوهِيَّةِ ، وَهُوَ عِبَادَةُ غَيْرِ اللهِ مَهْمَا يَكُنِ الْمَعْبُودُ ، وَبُطْلَانِ الشِّرْكِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَهُوَ قِسْمَانِ : ادِّعَاءُ وَسَاطَتِهِمْ فِي الْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ ، وَاحْتِجَاجِهِمْ عَلَيْهِمْ بِشَفَاعَتِهِمْ عِنْدَ اللهِ . وَهُوَ كَذِبٌ فِي التَّشْرِيعِ الَّذِي هُوَ حَقُّ الرَّبِّ وَحْدَهُ وَلَا يُعْلَمُ إِلَّا بِوَحْيِهِ . بَيَانُ الْأَوَّلِ : أَنَّ كُلَّ مَا عُبِدَ وَمَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ حَتَّى الْجِنَّ وَالْمَلَائِكَةَ لَا يَمْلِكُونَ لِعَابِدِيهِمُ النَّفْعَ وَالضُّرَّ بِالْقُدْرَةِ الذَّاتِيَّةِ الْغَيْبِيَّةِ ، الَّتِي هِيَ فَوْقَ الْأَسْبَابِ الَّتِي مَنَحَهَا الْخَالِقُ لِلْمَخْلُوقَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا ، لَا بِذَوَاتِهِمْ وَكَرَامَاتِهِمْ ، وَلَا بِتَأْثِيرٍ خَاصٍّ لَهُمْ عِنْدَ الْخَالِقِ يَحْمِلُونَهُ بِهِ عَلَى نَفْعِ مَنْ شَاءُوا أَوْ ضُرِّ مَا شَاءُوا أَوْ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْهُ ، كَمَا يَعْتَقِدُ عُبَّادُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ مِنَ الْبَشَرِ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنْ

(100/359)

يَحْتَجَّ عَلَى النَّصَارَى فِي عِبَادَتِهِمْ لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ : (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (5 : 76) وَهَذِهِ حُجَّةٌ عَلَى عَبَدَةِ الْقُبُورِ وَعَلَى أَصْحَابِ الْعَمَائِمِ الَّذِينَ يَتَأَوَّلُونَ لَهُمْ عِبَادَتَهُمْ بِمَا يَظُنُّونَ أَنَّهُ يُبْعِدُهُمْ عَنْ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ ، بِقَوْلِهِمْ إنَّ هَؤُلَاءِ الْأَوْلِيَاءَ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ كَالشُّهَدَاءِ فَهُمْ يَضُرُّونَ وَيَنْفَعُونَ لَا كَالْأَصْنَامِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلنَّصَارَى : إنَّ الْمَسِيحَ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا بِعِبَادَتِهِمْ لَهُ عَلَى مَا آتَاهُ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ ، وَإِنَّ هَؤُلَاءِ الدَّجَّالِينَ مِنَ الشُّيُوخِ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الْمَسِيحَ أَفْضَلُ مِنَ الْبَدَوِيِّ وَالْحُسَيْنِ وَالسَّيِّدَةِ زَيْنَبَ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ الضُّرَّ وَالنَّفْعَ لِمَنْ يَطْلُبُهُ مِنْهُمْ ، وَحَيَاتُهُ لَا تَزَالُ فِي اعْتِقَادِهِمْ حَيَاةً عُنْصُرِيَّةً وَحَيَاتُهُمْ بَرْزَخِيَّةٌ وَمُعْجِزَاتُهُ قَطْعِيَّةٌ وَكَرَامَاتُهُمْ غَيْرُ قَطْعِيَّةٍ .

كَذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَأَفْضَلَهُمْ أَنْ يُخْبِرَ النَّاسَ بِنَفْيِ مِلْكِهِ لِضُرِّ النَّاسِ وَنَفْعِهِمْ وَهُوَ حَيٌّ كَمَا يَأْتِي فِي الْآيَةِ (49) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ . وَسَبَقَ مِثْلُهَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ (7 : 188) .

(101/359)

(وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ) أَيْ يَقُولُونَ فِي سَبَبِ عِبَادَتِهِمْ لَهُمْ ، مَعَ اعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ الضُّرَّ وَالنَّفْعَ بِأَنْفُسِهِمْ لِإِيمَانِهِمْ بِأَنَّ الرَّبَّ الْخَالِقَ هُوَ اللهُ تَعَالَى : هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ فَنَحْنُ نَعْبُدُهُمْ بِتَعْظِيمِ هَيَاكِلِهِمْ وَتَطْيِيبِهَا بِالْعِطْرِ وَالطَّوَافِ بِهَا وَبِتَقْدِيمِ النُّذُورِ لَهُمْ ، وَالْإِهْلَالِ عِنْدَ ذَبْحِ الْقَرَابِينِ بِأَسْمَائِهِمْ ، وَبِدُعَائِهِمْ وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ يُقَرِّبُونَنَا إِلَيْهِ زُلْفَى فَيَدْفَعُ بِجَاهِهِمْ عَنَّا الْبَلَاءَ ، وَيُعْطِينَا مَا نَطْلُبُ مِنَ النَّعْمَاءِ ، هَذَا مَا يَقُولُهُ مُنْكِرُو الْبَعْثِ مِنْهُمْ

(102/359)

وَهُمُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ اللهِ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ . عَلَى أَنَّهُمْ إِذَا فَرَضُوا وُجُودَهَا ، زَعَمَ مُجْرِمُوهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ فِيهَا كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا ، كَمَا حَكَى اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ : (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) (34 : 35) وَقَوْلِهِ فِي الْإِنْسَانِ الْكَافِرِ : (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى) (41 : 50) وَرُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّ النَّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ مِنْ كِبَارِ مُجْرِمِيهِمْ قَالَ : إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ شَفَعَتْ لِيَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى . وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللهِ ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّ مَعْبُودِيهِمْ يَشْفَعُونَ لَهُمْ فِيهَا كَمَا يَشْفَعُونَ لَهُمْ فِي

الدُّنْيَا ، فَإِنَّ أَسَاسَ عَقِيدَةِ الشِّرْكِ أَنَّ جَمِيعَ مَا يَطْلُبُونَهُ مِنَ اللهِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِوَسَاطَةِ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدَهُ لِأَنَّهُمْ لَا يُمْكِنُهُمُ الْقُرْبُ مِنَ اللهِ وَالْحُظْوَةُ عِنْدَهُ بِأَنْفُسِهِمْ لِأَنَّهُمْ مُدَنَّسَةٌ بِالْمَعَاصِي ، بِخِلَافِ دِينِ التَّوْحِيدِ ، فَإِنَّهُ يُوجِبُ عَلَى الْعَاصِي أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ تَائِبًا إِلَيْهِ طَالِبًا مَغْفِرَتَهُ وَرَحْمَتَهُ .

(103/359)

(قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) أَيْ قُلْ لَهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ جَهَالَتَهُمْ وَافْتِرَاءَهُمْ عَلَى رَبِّهِمْ : أَتُخَبِّرُونَ اللهَ تَعَالَى وَتُعْلِمُونَهُ بِشَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ مِنْ أَمْرِ هَؤُلَاءِ الشُّفَعَاءِ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ مَلَائِكَتِهِ وَلَا فِي الْأَرْضِ مِنْ خَوَاصِّ خَلْقِهِ ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ فِيهِمَا شُفَعَاءُ يَشْفَعُونَ لَكُمْ عِنْدَهُ لَكَانَ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْكُمْ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، فَكَيْفَ يَخْفَى عَلَيْهِ مَنْ لَهُمْ مِنَ الْمَكَانَةِ عِنْدَهُ أَنْ جَعَلَهُمْ وُسَطَاءَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي قَضَاءِ حَاجِهِمْ مِنْ نَفْعٍ وَضُرٍّ ، وَفِي تَقْرِيبِهِمْ إِلَيْهِ زُلْفَى كَالْوُسَطَاءِ عِنْدَ مُلُوكِ الْبَشَرِ ، الْجَاهِلِينَ بِأُمُورِ رَعِيَّتِهِمْ وَالْعَاجِزِينَ

(104/359)

عَنْ تَنْفِيذِ مَشِيئَتِهِمْ فِيهِمْ بِدُونِ وَسَاطَةِ الْوُزَرَاءِ وَالْحُجَّابِ وَالْقُوَّادِ ، (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) أَيْ تَنْزِيهًا لَهُ وَتَعَالَى عُلُوًّا كَبِيرًا عَمَّا يُشْرِكُونَ بِهِ مِنَ الشُّفَعَاءِ وَالْوُسَطَاءِ . وَمَا يَفْتَرُونَهُ عَلَيْهِ بِجَعْلِهِمْ هَذَا دِينًا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ . فَهَذَا تَذْيِيلٌ لِلْجَوَابِ مُبَيِّنٌ لِمَا فِي هَذَا الشِّرْكِ مِنْ إِهَانَةِ مَقَامِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ ، وَتَشْبِيهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، بِعَبِيدِهِ مِنَ الْمُلُوكِ الْجَاهِلِينَ الْعَاجِزِينَ ، وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ (تُشْرِكُونَ) بِتَاءِ الْخِطَابِ ، عَلَى أَنَّهُ تَتِمَّةٌ لِلْجَوَابِ . وَحِكْمَةُ الْقِرَاءَتَيْنِ تَنْزِيهُهُ تَعَالَى عَنْ شِرْكِ الْجَمِيعِ مِنْ غَائِبٍ مَحْكِيٍّ عَنْهُ وَحَاضِرٍ مُخَاطَبٍ .

(105/359)

وَفِي هَذَا الْجَوَابِ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ أَنَّ شُئُونَ الرَّبِّ وَسَائِرَ مَا فِي عَالَمِ الْغَيْبِ تَوْقِيفِيٌّ لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِخَبَرِ الْوَحْيِ ، وَمِنْهُ اتِّخَاذُ الْوُسَطَاءِ عِنْدَ اللَّهِ مِمَّا ذُكِرَ وَأَنَّهُ عَيْنُ الشِّرْكِ . وَلَكِنَّ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَزْهَرِ مَنْ يُثْبِتُونَ هَذِهِ الْوَسَاطَةَ بِالرَّأْيِ . وَيُحَرِّفُونَ مَا يَنْقُضُهَا مِنَ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا كَأَنَّهَا هِيَ الْأَصْلُ ، حَتَّى إِنَّهُمْ يُبِيحُونَ دُعَاءَ الْمَوْتَى وَاسْتِغَاثَتَهُمْ عِنْدَ قُبُورِهِمْ . وَيَحْتَجُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَحْيَاءٌ فِيهِمْ ، وَبِأَنَّ الْإِفْرِنْجَ أَثْبَتُوا

وُجُودَ الْأَرْوَاحِ وَعَلَاقَتَهَا بِالنَّاسِ ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ قَالُوا بِهَذَا مِنْ عُلَمَائِهِمْ وَهُمْ أَقَلُّهُمْ ، لَمْ يَقُولُوا إِنَّهَا تَنْفَعُهُمْ وَتَضُرُّهُمْ ، أَوْ تَشْفَعُ عِنْدَ اللهِ لَهُمْ ، وَلَوْ قَالُوا هَذَا لَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ قَوْلَهُمْ حُجَّةً نُعَارِضُ بِهَا نُصُوصَ دِينِنَا أَوْ نَتَأَوَّلُهَا لِتُوَافِقَهَا ،

وَلِمَشْيَخَةِ الْأَزْهَرِ الرَّسْمِيَّةِ مَجَلَّةٌ تَنْشُرُ بِاسْمِهَا هَذِهِ الْبِدَعُ وَالْخُرَافَاتُ فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَطْعَنُ عَلَى الْمُعْتَصِمِينَ بِالسُّنَّةِ وَسِيرَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ وَعَلَى الْمُعْتَصِمِينَ بِالْقُرْآنِ أَيْضًا وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ ، لِزَعْمِهِمْ أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْهِمْ هُوَ أَخْذُ الدِّينِ كُلِّهِ عَنْ كُتُبِ مُقَلِّدَةِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ ، حَتَّى الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ دُونَ الْأَئِمَّةِ الْمُجْتَهِدِينَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 260 . 268 ﴾

(106/359)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾

على جملة : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ [يونس : 15] عطفَ القصة على القصة .

فهذه قصة أخرى من قصص أحوال كفرهم أن قالوا : ﴿ ائت بقرآن غير هذا ﴾ [يونس :

15] حين تتلى عليهم آيات القرآن ، ومن كفرهم أنهم يعبدون الأصنام ويقولون : ﴿ هم شفعاؤنا عند الله ﴾ .

والمناسبة بين القصتين أن في كلتيهما كفراً أظهروه في صورة السخرية والاستهزاء وإيهام أن العذر لهم في الاسترسال على الكفر ، فلعلهم (كما أوهموا أنه إنْ أتاهم قرآن غيرُ المتلو عليهم أو بُدل ما يرومون تبديلَه آمنوا) كانوا إذا أنذرهم النبي صلى الله عليه وسلم بعذاب الله قالوا : تشفع لنا آلهتنا عند الله .

وقد روى أنه قاله النضر بن الحارث (على معنى فرض ما لا يقع واقعاً) "إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعُزّى" .

وهذا كقول العاص بن وائل ، وكان مشركاً ، لخبّاب بن الأرت ، وهو مسلم ، وقد تقاضاه أجراً له على سيف صنعه "إذا كان يوم القيامة الذي يُخبر به صاحبك (يعني النبي صلى الله عليه وسلم فسيكون لي مال فأقضيك منه" .

(وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأُوتَيَنَّ مالاً وولداً ﴾ [مريم : 77] الآية .

ويجوز أن تكون جملة : ﴿ ويعبدون ﴾ الخ عطفاً على جملة : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ [يونس : 17] فإن عبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم من الافتراء .

وإيثار اسم الموصول في قوله : ﴿ ما لا يضرهم ولا ينفعهم ﴾ لما تؤذن به صلة الموصول من

التنبيه على أنهم مُخطئون في عبادة ما لا يضر ولا ينفع ، وفيه تمهيد لعطف ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ لتحقير رأيهم من رجاء الشفاعة من تلك الأصنام ، فإنها لا تقدر على ضر ولا نفع في الدنيا فهي أضعف مقدرة في الآخرة .

(107/359)

واختيار صيغة المضارع في ﴿ يعبدون ﴾ و ﴿ يقولون ﴾ لاستحضار الحالة العجيبة من استمرارهم على عبادتها ، أي عبدوا الأصنام ويعبدونها تعجيباً من تصميمهم على ضلالهم ومن قولهم : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ فاعترفوا بأن المتصرف هو الله .

وقُدم ذكر نفي الضر على نفي النفع لأن المطلوب من المشركين الإقلاع عن عبادة الأصنام وقد كان سدنتها يخوفون عبدَتها بأنها تُلحق بهم وبصبيانهم الضر ، كما قالت امرأة طفيل بن عمرو الدوسي حين أخبرها أنه أسلم ودعاها إلى أن تُسلم فقالت : "أما تخشى على الصبية من ذي الشَّرى" .

فأريد الابتداء بنفي الضر لإزالة أوهام المشركين في ذلك الصَّادَّة لكثير منهم عن نبذ عبادة الأصنام .

وقد أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يرد عليهم بتهكم بهم بأنهم قد أخبروا الله بأن لَهم

شفعاء لهم عنده .

ومعنى ذلك أن هذا لما كان شيئاً اخترعوه وهو غير واقع جعل اختراعه بمنزلة أنهم أعلموا الله به وكان لا يعلمه فصار ذلك كناية عن بطلانه لأن ما لم يعلم الله وقوعه فهو منتف .

ومن هذا قول من يريد نفي شيء عن نفسه : ما علم الله هذا مني .

وفي ضده قولهم في تأكيد وقوع الشيء : يعلم الله كذا ، حتى صار عند العرب من صيغ اليمين .

و﴿ في السماوات ولا في الأرض ﴾ حال من الضمير المحذوف بعد ﴿ يعلم ﴾ العائد على (ما) ، إذْ التقدير : بما لا يعلمه ، أي كائناً في السماوات ولا في الأرض .

والمقصود من ذكرهما تعميم الأمكنة ، كما هو استعمال الجمع بين المتقابلات مثل المشرق والمغرب .

وأعيد حرف النفي بعد العاطف لزيادة التنصيص على النفي .

والاستفهامُ في ﴿ أتنبئون ﴾ للإنكار والتوبيخ .

والإنباء : الإعلام .

وجملة : ﴿ سبحانه وتعالى ﴾ إنشاء تنزيه ، فهي منقطعة عن التي قبلها فلذلك فصلت .

وتقدم الكلام على نظيره عند قوله : ﴿ وخرّقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ في سورة [الأنعام : 100] .

(108/359)

(و (ما) في قوله : عما يشركون ﴾ مصدرية ، أي عن إشراكهم ، أي تعالى عن أن يكون ذلك ثابتاً له .

وقرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ تشركون ﴾ بالمثناة الفوقية على أنه من جملة المقول .

وقرأه الباقون بالتحتية على أنها تعقيب للخطاب بجملة ﴿ قُل ﴾ .

وعلى الوجهين فهي مستحقة للفصل لكمال الانقطاع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(109/359)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾

وكلمة ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ تقتضي وجود عابد ؛ ووجود معبود ؛ ووجود معنى للعبادة .

والعابد أدنى حالاً من المعبود ، ومظهر العبادة والعبودية كله طاعة للأمر والانصراف عن

المنهي عنه .

هذا هو أصل العبادة ، ووسيلة القرب من الله .

وحتى تكون العبادة في محلها الصحيح لا بد أن يقر العابد أن المعبود أعلى مرتبة في الحكم على الأشياء ، أما إن كان الأمر بين متساويين فيسمونه التماساً .

إذن : فهناك آمر ومأمور ، فإن تساويا ؛ فالمأمور يحتاج إلى إقناع ، وأما إن كان في المسألة حكم سابق بأن الآمر أعلى من المأمور ؛ كالأستاذ بالنسبة للتلميذ ، أو الطبيب بالنسبة للمريض ، ففي هذا الوضع يطيع المأمور الآمر لأنه يفهم الموضوع الذي يأمر فيه .

وكذلك المؤمن ؛ لأن معنى الإيمان أنه آمن بوجود إله قادر له كل صفات الكمال المطلق ؛ فإذا اعتقدت هذا ؛ فالإنسان ينفذ ما يأمر به الله ؛ ليأخذ الرضاء والحب والثواب . وإن لم ينفذ ؛ فسوف ينال غضب المعبود وعقابه .

إذن : فأنت إن فعلت أمره واجتنبت نهيه ؛ نلت الثواب منه ، وإن خالفت ؛ تأخذ عقاباً ؛ لذلك لا بد أن يكون أعلى منك قدرة ، ويكون قادراً على إنفاذ الثواب والعقاب ، والقادر هو الله جل علاه .

أما الأصنام التي كانوا يعبدونها ، فبأي شيء أمرتهم ؟ إنها لم تأمر بشيء ؛ لذلك لا يصلح أن تكون لها عبادة ؛ لأن معنى العبادة يتطلب أمراً ونهياً ، ولم تأمر الأصنام بشيء ولم تنه عن شيء ، بل كان المشركون هم الذين يقترحون الأوامر والنواهي ، وهو أمر لا يليق ؛ لأن

المعبود هو الذي عليه أن يحدد أوجه الأوامر والنواهي .

إذن : فمن الحمق أن يعبد أحدٌ الأصنم ؛ لأنها لا تضر من خالفها ، ولا تنفع من عبدها ، فليس لها أمر ولا نهي .

(110/359)

ومن أوقفوا أنفسهم هذا الموقف نسوا أن في قدرة كل منهم أن ينفع الصنم وأن يضره ، فالواحد منهم يستطيع أن يصنع الصنم ، وأن يصلحه إذا انكسر ، أو يستطيع أن يكسره بأن يلقيه على الأرض . وفي هذه لحالة يكون العابد أقدر من المعبود على الضر وعلى النفع ، وهذا عين التخلف العقلي .

إذن : فمثل هذه العبادة لون من الحمق ، ولو عُرِضَتْ هذه المسألة على العقل ؛ فسوف يرفضها العقل السليم .

وعندما تجادلهم ، وتثبت لهم أن تلك الأصنام لا تضر ولا تنفع ، تجد من يكابر قائلاً : ﴿ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله ﴾ وهم بهذا القول يعترفون أن الله هو الذي ينفع ويضر ، ولكن أما كان يجب أن يتخذوا شفيعاً لهم عند الله ، وأن يكون الشفيع متمتعاً بمكانة ومحبة عند من يشفع عنده ؟

ثم ماذا يقولون في أن من تُقدم له شفاعة هو الذي ينهى عن اتخاذ الأصنام آلهة وينهي عن عبادتها ؟

وهل هناك شفاعة دون إذن من المشفوع عنده ؟ من أجل ذلك جاء الأمر من الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض ﴾ [يونس : 18]

إذن : فمن أين جئتم بهذه القضية ؛ قضية شفاعة الأصنام لكم عند الله ؟ إنها قضية لا وجود لها ، وسبحانه لم يبلغكم أن هناك أصناماً تشفع ، وليس هذا وارداً ، فقولكم هذا فيه كذب متعمد وافتراء .

فهو سبحانه الذي خلق السموات وخلق الأرض ، ويعلم كل ما في الكون ، وقضية شفاعة الأصنام عنده ليست في علمه ، ولا وجود لها ، بل هي قضية مفتراة ، مُدَّعاة .

وقوله الحق هنا : ﴿ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ ﴾ مثلها مثل قوله الحق :

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ ﴾ [الحجرات : 16]

(111/359)

ويعني هذا القول بالرد على من قالوا ويقولون : إن المطلوب هو تشريعات تناسب العصر ، وكلما فسد العصر طالبوا بتشريعات جديدة ، وما داموا هم الذين يشرِّعون ، فكأنهم يرغبون في تعليم خالقهم كيف يكون الدين ، وفي هذا اجتراء وجهل بقدرة وحكمة مَنْ خلق الكون ، فأحكمه بنظام .

وقوله الحق : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فيه تنزيه له سبحانه ، فهو الخالق لكل شيء ، خالق الملك والملكوت ويعلم كل شيء ، وقضية شفاعة الأصنام إنما هي قضية مفتراة لا وجود لها ؛ لذلك فهي ليست في علم الله ، والحق سبحانه مُنزَّه أن توجد في ملكه قضية لها مدلول يقيني ولا يعلمها ، ومُنزَّه جل وعلا عن أن يُشرَك به ؛ لأن الشريك إنما يكون ليساعد من يشركه ، ونحن نرى على سبيل المثال صاحب مال يديره في تجارة ما ، ولكن ماله لا ينهض بكل مسئوليات التجارة ، فيبحث عن شريك له .

وسبحانه وتعالى قوي وقادر ، ولا يحتاج إلى أحد في ملكية الكون وإدارته ، ثم ماذا يفعل هؤلاء الشركاء المدَّعون كذباً على الله ؟

إن الحق سبحانه يقول :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْاْ إِلَى ذِي العرش سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 42]

وهذا القول الحكيم ينبه المشركين إلى أنه بافتراض جدلي أن لهؤلاء الشركاء قوة وقدرة على

التصرف ، فهم لن يفعلوا أي شيء إلا بابتغاء ذي العرش ، أي : بأمره سبحانه وتعالى .

وهم حين ظنوا خطأً أن لكل فلك من الأفلاك سيطرة على مجال في الوجود ، وأن النجوم لها سيطرة على الوجود ، وأن كل برج من الأبراج له سيطرة على الوجود ، فلا بد في النهاية من الاستئذان من مالك الملك والملكوت .

(112/359)

ومن خيبة من ظنوا مثل هذه الظنون ، ومعهم الفلاسفة الذين أقروا بأن هناك أشياء في الكون لا يمكن أن يخلقها إنسان ، أو أن يدَّعي لنفسه صناعتها ؛ لأن الجنس البشري قد طرأ على هذه المخلوقات ، فقد طرأ الإنسان على الشمس والقمر والنجوم والأرض ، ولا بد إذن أن تكون هناك قوة أعلى من الإنسان هي التي خلقت هذه الكائنات .

كل هذه الكائنات تحتاج إلى مُوجِد ، ولم نجد معامل لصناعة الشمس أو القمر أو الأرض أو وجدنا من ادعى صناعتها أو خلقها .

ولكن الفلاسفة الذين قبلوا وجود خالق للكون لم يصلوا إلى اسمه ولا إلى منهجه ، وقوة الحق سبحانه مطلقة ، ولا يحتاج إلى شريك له ، وإذا أردنا أن نتأمل ولو جزءاً بسيطاً من أثر قوة الله التي وهبها للإنسان ، فلنتأمل صناعة المصباح الكهربي .

وكل منا يعلم أنه لا توجد بذرة نضعها في الأرض ، فتنبت أشجاراً من المصابيح ، بل استدعت صناعة مصباح الكهرباء جهد العلماء الذين درسوا علما الطاقة ، و استنبطوا من المعادلات إمكان تصور صناعة المصباح الكهربي ، وعملوا على تفريغ الهواء من الزجاجة التي يوضع فيها السلك الذي يضيء داخل المصباح ، وهكذا وجدنا أن صناعة مصباح كهربي واحد تحتاج إلى جهد علماء وعمل مصانع ، كل ذلك من أجل إنارة غرفة واحدة لفترة من الزمن . فما بالنا بالشمس التي تضيء الكون كله ، وإذا كان أتفه الأشياء يتطلب كمية هائلة من العلم والبحث والإمكانات الفنية والتطبيقية ، وتطوير للصناعات ، فما بالنا بالشمس التي تضيء نصف الكرة الأرضية كل نصف يوم ، ولا أحد يقدر على إطفائها ، ولا تحتاج إلى صيانة من البشر ، وإذا أردت أن تنسبها فلن تجد إلا الله سبحانه . وأنت بما تبتكره وتصنعه لا يمكن أن يصرفك عن الله ، والذكي حقاً هو من يجعل ابتكاراته وصناعاته دليلاً على صدق الله فيما أخبر .

(113/359)

وإذا كان الحق سبحانه قد خلق الشمس ضمن ما خلق وإذا أشرقت أطفأ الكل مصابيحهم ؛ لأنها هي المصباح الذي يهدي الجميع ، وإذا كان ذلك هو فعل مخلوق واحد

لله ، فما بالنا بكل نعمة من سائر مخلوقاته . ونور الشمس إنما يمثل الهداية الحسية التي تحمينا من أن نصطدم بالأشياء فلا تحطمنا ولا نحطمها ، فكذلك يضيء لنا الحق سبحانه المعاني والحقائق .

وإياك أن تقول : إن الفيلسوف الفلاني جاء بنظرية كذا ؛ فخذوا بها ، بل دع عقلك يعمل ويقيس ما جاء بهذه النظرية على ضوء ما نزل في كتاب الحق سبحانه ، وإن دخلت النظرية مجال التطبيق ، وثبت أن لها تصديقاً من الكتاب ، فقل : إن الحق سبحانه قد هدى فلاناً إلى اكتشاف سر جديد من أسرار القرآن ؛ لأن الحق يريد منا أن نتعقل الأشياء وأن ندرسها دراسة دقيقة ، بحيث نأخذ طموحات العقل ؛ لتقربنا إلى الله ، لا لتبعدنا عنه ، والعياذ بالله .

وإذا قال الحق سبحانه : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فذلك لأن الشركة تقتضي طلب المعونة ، وطلب المعونة يكون إما من المساوي وإما من الأعلى ، ولا يوجد مساوٍ لله تعالى ، ولا أعلى من الله سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(114/359)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم "

وقال فى الأنبياء : "قال أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم " وقال فى سورة الفرقان : "ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم " فقدم فى سورة يونس ما أخر فى سورة الأنبياء والفرقان فيسأل عن ذلك ؟

والجواب عنه – والله أعلم – ان الموجب لتأخير "ولا ينفعهم " فى سورة يونس ما وصل به من قولهم : "ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله " فكأن قد قيل : ويعدبون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويزعمون أن ذلك ينفعهم لوم يكن ليناسب لو قيل : "ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله " تناسب الوارد من متصل قوله : "ولا ينفعهم " بقوله : "ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله " فلما كان الاتصال فيما ذكر أنسب وردت الآية بحسب ذلك .

أما آية الفرقان فإن قبلها ذكر دلائل وشواهد من مصنوعاته تعالى يهتدى المعتبر بالنظر فيها تخلصه من ورطات الشكوك ويستقيم له دينه وذلم أعظم النفع وأجله وقال تعالى : "ألم تر إلى ربك كيف مد الظل " إلى قوله : "وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان بك قديرا " فلما تقدم التنبيه بهذه الآيات الواضحات الموقظات من سنات الغفلات

والمحصلات أعظم النفع فى امتثال الواجبات والنجاة من الضلالات ناسبها تقديم ما قدم فى الآية من قوله : "ويعبدون من دون الله ما لا يتفعهم ولا يضرهم " وصار الكلام بقوته مجاوبا لقوله : "أفمن يخلق كمن لا يخلق " وورد كل على ما يجب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 240 ﴾

(115/359)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا لاَيَضُرُّهُمْ ﴾ : " ما " موصولة ، أو نكرةٌ موصوفةٌ وهي واقعةٌ على الأصنام ، ولذلك راعى لفظها ، فأفرد في قوله : ﴿ مَا لاَيَضُرُّهُمْ وَلاَيَنفَعُهُمْ ﴾ ومعناها فجمع في قوله " هؤلاء شفعاؤنا " .

قوله : ﴿ أَتُنَبِّئُونَ ﴾ قرأ بعضهم : " أَتُنْبِئون " مخففاً مِنْ أنبأ ، يقال : أنبأ ونبّأ كأخبرَ وخبَّر . وقوله : ﴿ بِمَا لاَيَعْلَمُ ﴾ " ما " موصولةٌ بمعنى الذي أو نكرة موصوفة كالتي تقدمت . وعلى كلا التقديرين فالعائد محذوف ، أي : يعلمه . والفاعل هو ضمير الباري تعالى ،

والمعنى : أتنبِّئون الله بالذي لا يعلمه الله ، وإذا لم يعلم الله شيئاً استحال وجودُ ذلك الشيء ، لأنه تعالى لا يَعْزُب عن علمه شيء ، وذلك الشيء هو الشفاعة ، ف " ما " عبارة عن الشفاعة .

والمعنى : أن الشفاعةَ لو كانَتْ لَعَلِمَهَا الباري تعالى . وقوله : ﴿ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض ﴾ تأكيدٌ لنفيه ، لأنّ كل موجود لا يَخْرج عنهما . ويجوز أن تكونَ " ما " عبارةً عن الأصنام . وفاعل " يعلمُ " ضميرٌ عائد عليها . والمعنى : أَتُعَلِّمون اللَّهَ بالأصنامِ التي لا تَعْلَم شيئاً في السموات ولا في الأرض ، وإذا ثَبَتَ أنها لا تعلم فكيف تشفع ؟ والشافع لا بد وأن يعرفَ المشفوعَ عنده ، والمشفوعَ له ، هكذا أعربه الشيخ ، فجعل " ما " عبارة عن الأصنام لا عن الشفاعة ، والأول أظهر . و " ما " في " عَمَّا يشركون " يُحتمل أن تكونَ بمعنى الذي ، أي : عن شركائهم الذي يُشْركونهم به في العبادة . أو مصدريةٌ ، أي : عن إشراكهم به غيره .

(116/359)

وقرأ الأخَوان هنا " عَمَّا يُشْركون " ، وفي النحل موضعين ، الأول : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ يُنَزِّلُ الملائكة ﴾ [الآية : 1] ، والثاني : ﴿ بالحق تعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الآية

: 3] . وفي الروم : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُمْ مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الآية : 40] بالخطاب . والباقون بالغَيْبة في الجميع . والخطاب والغيبة واضحتان .

وأتى هنا ب "يُشْرِكون" مضارعاً دون الماضي تنبيهاً على استمرار حالِهم كما جاؤوا يعبدون ، وتنبيهاً أيضاً على أنَّهم على الشرك في المستقبل ، كما كانوا عليه في الماضي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 165 . 166 ﴾

(117/359)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾

ذَمَّهُم على عبادة ما ليس منه ضَرٌّ ولا نَفْعٌ .

فدليلُ الخطاب يقتضي أَنْ يكونَ المعبودُ منه الضَّرُ والنفع ، ومِنْ فَرْطِ غباوتهم أنهم انتظروا في المآلِ الشفاعةَ ممن لا يوجَدُ منه الضَّرُّ والنَّفْعُ في الحال ، ثم أخبر أنهم يخبرون عما ليس على الوجه الذي قالوا معلوماً ، ولو كان كما قالوا لَعلِموا أنه سبحانه لا يَعْزُبُ عن علمه

معلومُ.

ومعنى قوله: ﴿ لاَيَعْلَمُ ﴾ : خلافه. ومَنْ تَعَلَّقَ قلبُه بالمخلوقين في استدفاع المضَارِّ واستجلاب المسَارِّ فكالسالِك سبيلَ مَنْ عَبَدَ الأصنام؛ إذ المنْشِئُ والموجِدُ للشيءِ مِنَ العَدم هو الله- سبحانه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 85. 86 ﴾

(118/359)

قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي:

ولما بين شرارتهم بعبادة غير الله وختم بتنزيهه وكماله، بين أن هذا الدين الباطل حادث، وبين نزاهته وكماله ببيان أن الناس كانوا أولاً مجتمعين على طاعته ثم خالفوا أمره فلم يقطع إحسانه إليهم بل استمر في إمهالهم مع تماديهم في سوء أعمالهم ما سبق في عمله ومضى به قضاءه فقال تعالى: ﴿ وما كان الناس ﴾ أي كلهم مع ما لهم من الاضطراب ﴿ إلا أُمة ﴾ ولما أفهم ذلك وحدتهم في القصد حققه وأكده فقال: ﴿ واحدة ﴾ أي حنفاء متفقين

على طاعة الله ﴿ فاختلفوا ﴾ في ذلك على عهد نوح عليه السلام – كما روي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ – عقب وحدتهم بسبب ما لهم من النوس فاستحق كافرهم تنجيز العقاب ﴿ ولولا كلمة ﴾ أي عظيمة ﴿ سبقت ﴾ أي في الأزل ﴿ من ربك ﴾ أي المحسن إليك برحمة أمتك بإمهالهم ، وبين التأكيد بما دل على القسم لأجل إنكارهم أن يكون تأخيرهم لأجل ذلك فقال : ﴿ لقضي بينهم ﴾ أي عاجلاً بأيسر أمر ﴿ فيما ﴾ ولما لم يبين الكلام على الاتخاذ الذي محط أمره معالجة بالباطن ، لم يذكر الضمير بخلاف الزمر فقال : ﴿ فيه ﴾ أي لا في غيره بأن يعجل جزاءهم عليه : ﴿ يختلفون ﴾ وأشار ذلك إلى أن هذا الأمر الذي دعوا إليه ليس أمراً طارئاً حادثاً فيكون بحيث يتوقف فيه للنظر في عواقبه والتأمل في مصادره وموارده ، بل هو – مع ظهور دلائله واستقامة مناهجه وصحة مذاهبه وإلقاء الفطر أزمة الانقياد إليه – أصل ما كان العباد عليه ، وما هم فيه الآن هو الطارىء الحادث مع ظهور فساده ووضوح سقمه ، وهو ناظر إلى قوله تعالى ﴿ أكان للناس عجباً ﴾ لأن قوله ﴿ قال الكافرون إن هذا لسحر مبين ﴾ دال على أنهم قسمان : كافر ومؤمن ؛ والأمة : الجماعة على معنى واحد في خلق واحد كأنها تؤم – أي تقصد – شيئاً واحداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 428 ﴾

(119/359)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾

اعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة القاهرة على فساد القول بعبادة الأصنام ، بين السبب في كيفية حدوث هذا المذهب الفاسد ، والمقالة الباطلة ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ الناس إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ واعلم أن ظاهر قوله : ﴿ وَمَا كَانَ الناس إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ لا يدل على أنهم أمة واحدة فيماذا ؟ وفيه ثلاثة أقوال :

القول الأول : أنهم كانوا جميعاً على الدين الحق ، وهو دين الإسلام ، واحتجوا عليه بأمور :

الأول : أن المقصود من هذه الآيات بيان كون الكفر باطلاً ، وتزييف طريق عبادة الأصنام ، وتقرير أن الإسلام هو الدين الفاضل ، فوجب أن يكون المراد من قوله : ﴿ كَانَ الناس أُمَّةً واحدة ﴾ هو أنهم كانوا أمة واحدة ، إما في الإسلام وإما في الكفر ، ولا يجوز أن يقال إنهم كانوا أمة واحدة في الكفر .

فبقي أنهم كانوا أمة واحدة في الإسلام ، إنما قلنا إنه لا يجوز أن يقال إنهم كانوا أمة واحدة في الكفر لوجوه : الأول : قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ [النساء : 41] وشهيد الله لا بد وأن يكون مؤمناً عدلاً .

فثبت أنه ما خلت أمة من الأمم إلا وفيهم مؤمن .

الثاني : أن الأحاديث وردت بأن الأرض لا تخلو عمن يعبد الله تعالى ، وعن أقوام بهم يمطر أهل الأرض وبهم يرزقون .

الثالث : أنه لما كانت الحكمة الأصلية في الخلق هو العبودية ، فيبعد خلو أهل الأرض بالكلية عن هذا المقصود .

(120/359)

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقية من أهل الكتاب " وهذا يدل على قوم تمسكوا بالإيمان قبل مجيء الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكيف يقال إنهم كانوا أمة واحدة في الكفر ؟ وإذا ثبت أن الناس كانوا أمة واحدة إما في الكفر وإما في الإيمان ، وأنهم ما كانوا أمة واحدة في الكفر ، ثبت أنهم كانوا أمة واحدة في الإيمان ، ثم اختلف القائلون بهذا القول أنهم متى كانوا كذلك ؟ فقال ابن عباس ومجاهد كانوا على دين الإسلام في عهد آدم وفي عهد ولده ، واختلفوا عند قتل أحد ابنيه الابن الثاني ، وقال قوم : إنهم بقوا على دين الإسلام إلى زمن نوح ، وكانوا عشرة قرون .

ثم اختلفوا على عهد نوح.

فبعث الله تعالى إليهم نوحاً .

وقال آخرون : كانوا على دين الإسلام في زمن نوح بعد الغرق ، إلى أن ظهر الكفر فيهم .

وقال آخرون : كانوا على دين الإسلام من عهد إبراهيم عليه السلام إلى أن غيره عمرو بن لحي ، وهذا القائل قال : المراد من الناس في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ فاختلفوا العرب خاصة .

إذا عرفت تفصيل هذا القول فنقول : إنه تعالى لما بين فيما قبل فساد القول بعبادة الأصنام بالدليل الذي قررناه ، بين في هذه الآية أن هذا المذهب ليس مذهباً للعرب من أول الأمر ، بل كانوا على دين الإسلام ، ونفي عبادة الأصنام .

ثم حذف هذا المذهب الفاسد فيهم ، والغرض منه أن العرب إذا علموا أن هذا المذهب ما كان أصلياً فيهم ، وأنه إنما حدث بعد أن لم يكن ، لم يتعصبوا لنصرته ، ولم يتأذوا من تزييف هذا المذهب ، ولم تنفر طباعهم من إبطاله .

ومما يقوي هذا القول وجهان : الأول : أنه تعالى قال : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [يونس : 18] ثم بالغ في إبطاله بالدليل .

ثم قال عقيبه : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ فلو كان المراد منه بيان أن هذا الكفر كان حاصلاً فيهم من الزمان القديم ، لم يصح جعل هذا الكلام دليلاً على إبطال تلك المقالة .

أما لو حملناه على أن الناس في أول الأمر كانوا مسلمين ، وهذا الكفر إنما حدث فيهم من زمان ، أمكن التوسل به إلى تزييف اعتقاد الكفار في هذه المقالة ، وفي تقبيح صورتها عندهم ، فوجب حمل اللفظ عليه تحصيلاً لهذا الغرض .

الثاني : أنه تعالى قال : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ ولا شك أن هذا وعيد ، وصرف هذا الوعيد إلى أقرب الأشياء المذكورة أولى ، والأقرب هو ذكر الاختلاف ، فوجب صرف هذا الوعيد إلى هذا الاختلاف ، لا إلى ما سبق من كون الناس أمة واحدة ، وإذا كان كذلك ، وجب أن يقال : كانوا أمة واحدة في الإسلام لا في الكفر ، لأنهم لو كانوا أمة واحدة في الكفر لكان اختلافهم بسبب الإيمان ، ولا يجوز أن يكون الاختلاف الحاصل بسبب الإيمان سبباً لحصول الوعيد .

أما لو كانوا أمة واحدة في الإيمان لكان اختلافهم بسبب الكفر ، وحينئذ يصح جعل ذلك الاختلاف سبباً للوعيد .

القول الثاني : قول من يقول المراد كانوا أمة واحدة في الكفر ، وهذا القول منقول عن طائفة من المفسرين .

قالوا : وعلى هذا التقدير ففائدة هذا الكلام في هذا المقام هي أنه تعالى بين للرسول عليه الصلاة والسلام ، أنه لا تطمع في أن يصير كل من تدعوه إلى الدين مجيباً لك ، قابلاً لدينك . فإن الناس كلهم كانوا على الكفر ، وإنما حدث الإسلام في بعضهم بعد ذلك ، فكيف تطمع في اتفاق الكل على الإيمان ؟

القول الثالث : قول من يقول : المراد إنهم كانوا أمة واحدة في أنهم خلقوا على فطرة الإسلام ، ثم اختلفوا في الأديان .

(122/359)

وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه "

ومنهم من يقول المراد كانوا أمة واحدة في الشرائع العقلية ، وحاصلها يرجع إلى أمرين : التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله .

وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً

وبالوالدين إِحْسَاناً ﴾ [الأنعام : 151] واعلم أن هذه المسألة قد استقصينا فيها في سورة البقرة ، فلنكتف بهذا القدر ههنا .

أما قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فاعلم أنه ليس في الآية ما يدل على أن تلك الكلمة ما هي ؟ وذكروا فيه وجوهاً : الأول : أن يقال لولا أنه تعالى أخبر بأنه يبقى التكليف على عباده ، وإن كانوا به كافرين ، لقضى بينهم بتعجيل الحساب والعقاب لكفرهم ، لكن لما كان ذلك سبباً لزوال التكليف ، ويوجب الإلجاء ، وكان إبقاء التكليف أصوب وأصلح ، لا جرم أنه تعالى أخر هذا العقاب إلى الآخرة .

ثم قال هذا القائل ، وفي ذلك تصبير للمؤمنين على احتمال المكاره من قبل الكافرين والظالمين .

الثاني : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ في أنه لا يعاجل العصاة بالعقوبة إنعاماً عليهم ، لقضى بينهم في اختلافهم ، بما يمتاز المحق من المبطل والمصيب من المخطىء الثالث : أن تلك الكلمة هي قوله : "سبقت رحمتي غضبي" فلما كانت رحمته غالبة اقتضت تلك الرحمة الغالبة إسبال الستر على الجاهل الضال وإمهاله إلى وقت الوجدان . انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 50.51 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

قال مقاتل : وما كان الناس إلاّ على ملة واحدة ، يعني : على عهد آدم وعلى عهد نوح من بعد الغرق كانوا كلهم مسلمين .

﴿ فاختلفوا ﴾ في الدين بعد ذلك .

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ على عهداً آدم فاختلفوا حين قتل أحد بني آدم أخاه فتفرقوا مؤمناً وكافراً .

وقال الكلبي : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ كافرة على عهد إبراهيم فتفرقوا مؤمناً وكافراً .

وقال الزجاج ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ ﴾ يعني العرب .

كانوا على الشرك قبل مجيء النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فاختلفوا بعده ، فآمن بعضهم وكفر بعضهم .

وقال الزجاج : وقيل أيضاً : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ يعني : ولدوا على الفطرة واختلفوا بعد الفطرة .

﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ ، لولا أنَّ الله جعل لهم أجلاً للقضاء بينهم ﴿ لَقُضِيَ

بَيْنَهُمْ ﴾ في وقت اختلافهم ، ويقال : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ في اللوح المحفوظ بأن لا يعجل بعقوبة العاصين ويتركهم لكي يتوبوا ، ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ .

وقال مقاتل : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ في الدنيا .

وقال الكلبي : لولا أن الله تعالى أخبر هذه الأمة أن لا يهلكهم كما أهلك الذين من قبلهم لقضى بينهم في الدنيا ﴿ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(124/359)

وقال الثعلبى :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

على ملة واحدة الإسلام دين آدم (عليه السلام) إلى أن قتل أحد ابني آدم أخاه فاختلفوا .

قاله مجاهد والسدي .

قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا على عهد نوح فبعث الله إليهم نوحاً ، وقيل : كانوا أمة واحدة مجتمعة على التوحيد يوم الميثاق .

وقيل : أهل سفينة نوح ، وقال أبو روق : كانوا أمة واحدة على ملّة الإسلام زمن نوح (عليه السلام) بعد الغرق ، وقال عطاء : كانوا على دين واحد الإسلام من لدن إبراهيم (عليه السلام) إلى أن غيّره عمرو بن يحيى ، عطاء : يدلّ على صحة هذه التأويلات قراءة عبد الله : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسِ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فاختلفوا ﴾ ، وقال الكلبي : وما كان الناس إلاّ أمة واحدة كافرة على عهد إبراهيم فاختلفوا فتفرقوا ، مؤمن وكافر .

﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ بأن جعل للدنيا مدة لكل أمة أجلا لا تتعدى ذلك ، قال أبو روق وقال الكلبي : هي أن الله أخّر هذه الأمة ولا يهلكهم بالعذاب في الدنيا ، وقيل : هي أنه لا يأخذ إلاّ بعد إقامة الحجة .

وقال الحسن ، ولولا كلمة سبقت من ربك مضت في حكمه أنه لا يقضي فيهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة .

﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ في الدنيا فأدخل المؤمنين الجنة بأعمالهم والكافرين في النار بكفرهم ولكنه سبق من الله الأجل فجعل موعدهم يوم القيامة .

وقال أبو روق : لقضي بينهم ، لأقام عليهم الساعة ، وقيل : الفزع من هلاكهم ، وقال عيسى ابن عمر : لقضى بينهم بالفتح لقوله : ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ ﴿ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدً ﴾

في الناس ها هنا أربعة أقاويل :

أحدها : أنه آدم عليه السلام ، قاله مجاهد والسدي .

الثاني : أنهم أهل السفينة ، قاله الضحاك .

الثالث : أنهم من كان على عهد إبراهيم عليه السلام ، قاله الكلبي .

الرابع : أنه بنو آدم ، قاله أُبي بن كعب .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : على الإسلام حتى اختلفوا ، قاله ابن عباس وأُبي بن كعب .

الثاني : على الكفر حتى بعث الله تعالى الرسل ، وهذا قول قد روي عن ابن عباس أيضاً .

الثالث : على دين واحد ، قاله الضحاك .

﴿ فَاخْتَلَفُواْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فاختلفوا في الدين فمؤمن وكافر ، قاله أبي بن كعب . الثاني : هو اختلاف بني بن آدم حين قَتل قابيل أخاه هابيل ، قاله مجاهد .

﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ولولا كلمة سبقت من ربك في تأجيلهم إلى يوم القيامة لقضي بينهم من تعجيل العذاب في الدنيا ، قاله السدي .

الثاني : ولولا كلمة سبقت من ربك في أن لا يعاجل العصاة إنعاماً منه يبتليهم به لقضى بينهم فيما فيه يختلفون بأن يضطرهم إلى معرفة المحق من المبطل ، قاله عليّ بن عيسى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(126/359)

وقال ابن عطية :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾

قالت فرقة : المراد آدم كان أمة واحدة ثم اختلف الناس بعد في أمر ابنيه وقالت فرقة : المراد نسم بنيه إذ استخرجهم الله من ظهره وأشهدهم على أنفسهم وقالت فرقة : المراد آدم وبنوه من لدن نزوله إلى قتل أحد ابنيه الآخر ، وقالت فرقة : المراد ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة ﴾ في الضلالة والجهل بالله فاختلفوا فرقاً في ذلك بحسب الجهالة ، ويحتمل أن يكون المعنى كان الناس صنفاً واحداً معداً للاهتداء ، واستيفاء القول في هذا متقدم في سورة البقرة في قوله ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ [البقرة : 213] . وقرأ الحسن بن أبي

الحسن وأبو جعفر ونافع وشيبة وأبو عمرو " لقُضِي بينهم " بضم القاف وكسر الضاد ، وقرأ عيسى بن عمر " لقَضى " بفتحهما على الفعل الماضي ، وقوله ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ يريد قضاءه وتقديره لبني آدم بالآجال الموقتة ، ويحتمل أن يريد الكلمة ، في أمر القيامة وأن العقاب والثواب إنما كان حينئذ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(127/359)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وما كان الناس إلا أُمةً واحدةً فاختلفوا ﴾

قد شرحنا هذا في سورة [البقرة : 213] وأحسن الأقوال أنهم كانوا على دين واحد موحِّدين ، فاختلفوا وعبدوا الأصنام ، فكان أول من بعث إليهم نوح عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : ولولا كلمة سبقت بتأخير هذه الأمة أنه لا يهلكهم بالعذاب كما أهلك الذين من قبلهم ، لقُضي بينهم بنزول العذاب ، فكان ذلك فصلاً بينهم فيما فيه يختلفون من الدِّين .

والثاني : أن الكلمة : أن لكل أُمة أجلاً ، وللدنيا مدة لا يتقدم ذلك على وقته .

والثالث : أن الكلمة : أنه لا يأخذ أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه .

وفي قوله : ﴿ لقضي بينهم ﴾ قولان : أحدهما : لقضي بينهم بإقامة الساعة .

والثاني : بنزول العذاب على المكذبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(128/359)

وقال القرطبى :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾

تقدّم في "البقرة" معناه فلا معنى للإعادة .

وقال الزجاج : هم العرب كانوا على الشرك .

وقيل : كل مولود يولد على الفطرة ، فاختلفوا عند البلوغ .

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ إشارة إلى القضاء والقدر ؛ أي لولا ما سبق في حكمه أنه لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة لقضى بينهم في الدنيا ، فأدخل المؤمنين الجنة بأعمالهم والكافرين النار بكفرهم ، ولكنه سبق من الله الأجل مع علمه بصنيعهم فجعل موعدهم القيامة ؛ قاله الحسن .

وقال أبو رَوْق : "لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ" لأقام عليهم الساعة .

وقيل : لفرغ من هلاكهم .

وقال الكلبي : "الكلمة" أن الله أخّر هذه الأُمة فلا يهلكهم بالعذاب في الدنيا إلى يوم القيامة ، فلولا هذا التأخير لقضى بينهم بنزول العذاب أو بإقامة الساعة .

والآية تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم في تأخير العذاب عمن كفر به .

وقيل : الكلمة السابقة أنه لا يأخذ أحداً إلا بحجة وهو إرسال الرسل ؛ كما قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] وقيل : الكلمة قوله : " سبقت رحمتي غضبي " ولولا ذلك لما أخر العصاة إلى التوبة .

وقرأ عيسى "لقضى" بالفتح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(129/359)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾

يعني : فتفرقوا إلى مؤمن وكافر يعني كانوا جميعاً الدين الحق وهو دين الإسلام ويدل على ذلك أن آدم عليه السلام وذريته كانوا على دين الإسلام إلى أن قتل قابيل هابيل ثم اختلفوا .

وقيل : بقوا على ذلك إلى زمن نوح عليه السلام ثم اختلفوا فبعث الله نوحاً .

وقيل : إنهم كانوا على دين الإسلام وقت خروج نوح ومن معه من السفينة ثم اختلفوا بعد ذلك وقيل كانوا على دين الإسلام من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام إلى أن غيره عمرو بن لحي .

فعلى هذا القول ، يكون المراد من الناس في قوله ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة ﴾ العرب خاصة .

وقيل : كان الناس أمة واحدة في الكفر .

وهذا لقول منقول عن جماعة من المفسرين ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة : ﴿ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ﴾ وتقديره : أنه لا مطمع في أن يصير الناس على دين واحد فإنهم كانوا أولاً على الكفر وإنما أسلم بعضهم ففيه تسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل : كان الناس أمة واحدة .

وليس في الآية ما يدل على أي دين كانوا من إيمان أو كفر فهو موقوف على دليل من خارج .

وقيل : معناه أنهم كانوا في أول الخلق على الفطرة السليمة الصحيحة ثم اختلفوا في الأديان وإليه الإشارة بقوله (صلى الله عليه وسلم) : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " والمراد بالفطرة في الحديث ، فطرة الإسلام .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى جعل لكل أمة أجلاً وقضى بذلك في سابق الأزل ، وقال الكلبي : هي إمهال هذه الأمة وأنه لا يهلكهم بالعذاب ﴿ لقضي بينهم ﴾ يعني بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين وكان ذلك فصلاً بينهم ﴿ فيما فيه يختلفون ﴾ وقال الحسن : ولولا كلمة سبقت من ربك يعني مضت في حكمة الله أنه لا يقضي عليهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة لقضى بينهم في الدنيا فأدخل المؤمنين الجنة بإيمانهم وأدخل الكافرين النار بكفرهم ولكن سبق من الله الأجل فجعل موعدهم يوم القيامة وقيل سبق من الله أنه لا يؤاخذ أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه .

وقيل : الكلمة التي سبقت من الله هي قوله : " إن رحمتي سبقت غضبي " ولولا رحمته ، لعجل لهم العقوبة في الدنيا ولكن أخرهم برحمته إلى يوم القيامة ثم يقضي بينهم فيما كانوا فيه يختلفون يعني في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(131/359)

وقال أبو حيان :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾

لما ذكر تعالى الدلالة على فساد عبادة الأصنام ، ذكر الحامل على ذلك وهو الاختلاف الحادث بين الناس ، والظاهر عموم الناس .

ويتصور في آدم وبينه إلى أنْ وقع الاختلاف بعد قتل أحد ابنيه الآخر ، وقاله : أبي بن كعب .

وقال الضحاك : المراد أصحاب سفينة نوح ، اتفقوا على الحنيفية ودين الإسلام .

وعن ابن عباس : من كان من ولد آدم إلى زمان إبراهيم ورد بأنه عبد في زمان نوح عليه السلام الأصنام كود ، وسواع .

وحكى ابن القشيري أنّ الناس قوم إبراهيم إلى أنْ غيّر الدين عمرو بن لحي .

وقال ابن زيد : هم الذين أخذ عليهم الميثاق يوم : ﴿ ألست بربكم ﴾ لم يكونوا أمة واحدة غير ذلك اليوم .

وقال الأصم : هم الأطفال المولودون كانوا على الفطرة فاختلفوا بعد البلوغ ، وأبعد من ذهب إلى أنّ المراد بالناس هنا آدم وحده ، وهو مروي عن : مجاهد ، والسدّي ، وعبر عنه بالأمة لأنه جامع لأنواع الخير .

وهذه الأقوال هي على أنّ المراد بأمة واحدة في الإسلام والإيمان .

وقيل : في الشرك .

وأريد قوم إبراهيم كانوا مجتمعين على الكفر ، فآمن بعضهم ، واستمر بعضهم على الكفر .

أو من كان قبل البعث من العرب وأهل الكتاب كانوا على الكفر والتبديل والتحريف ، حتى بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فآمن بعضهم ، أو العرب خاصة ، أقوال ثالثها للزجاج .

والظاهر أنّ المراد بقوله : أمة واحدة في الإسلام ، لأنّ هذا الكلام جاء عقيب إبطال عبادة الأصنام ، فلا يناسب أنْ يقوي عباد الأصنام .

فإنّ الناس كانوا على ملة الكفر ، إنما المناسب أن يقال : إنهم كانوا على الإسلام حتى تحصل النفرة من اتباع غير ما كان الناس عليه .

(132/359)

وأيضاً فقوله : ولولا كلمة ، هو وعيد ، فصرفه إلى أقرب مذكور وهو الاختلاف ، هو الوجه والاختلاف بسبب الكفر ، هو المقتضى للوعيد ، لا الاختلاف الذي هو بسبب الإيمان ، إذ لا يصلح أن يكون سبباً للوعيد ، وقد تقدم الكلام على نحو هذا في البقرة في قوله : ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ ولكنْ أعدنا الكلام فيه لبعده .

والكلمة هنا هو القضاء ، والتقدير : لبني آدم بالآجال المؤقتة .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يريد الكلمة في أمر القيامة ، وأنّ العقاب والثواب إنما يكون حينئذ .

وقال الزمخشري : هو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة يقضي بينهم عاجلاً فيما اختلفوا فيه ، وتمييز المحق من المبطل .

وسبقت كلمة الله بالتأخير لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف ، وتلك دار ثواب وعقاب .

وقال الكلبي : الكلمة أنّ الله أخبر هذه الأمة لا يهلكهم بالعذاب في الدنيا إلى يوم القيامة ، فلولا هذا التأخير لقضى بينهم بنزول العذاب ، أو بإقامة الساعة .

وقيل : الكلمة السابقة أنْ لا يأخذ أحداً إلا بحجة وهو إرسال الرسل .

وقيل : الكلمة قوله : ﴿ سبقت رحمتي غضبي ﴾ ولولا ذلك ما أخر العصاة إلى التوبة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(133/359)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

بيانٌ لأن التوحيدَ والإسلامَ ملةٌ قديمةٌ أجمعت عليها الناسُ قاطبة فطرةً وتشريعاً وأن الشركَ وفروعَه جهالاتٌ ابتدعها الغواةُ خلافاً للجمهور وشقاً لعصا الجماعةِ ، وأما حملُ اتحادِهم على الاتفاق على الضلال عند الفترةِ واختلافُهم على ما كان منهم من الاتباع والإصرارِ فمما لا احتمالَ له ، أي وما كان الناسُ كافةً من أول الأمرِ إلا متفقين على الحق والتوحيد من غير اختلافٍ ، وذلك من عهد آدمَ عليه الصلاة والسلام إلى أن قتل قابيلُ هابيلَ ، وقيل : إلى زمن إدريسَ عليه السلام وقيل : إلى زمن نوحٍ عليه السلام وقيل : من حينِ الطوفانِ حينَ لم يذر الله من الكافرين دياراً إلى أن ظهر فيما بينهم الكفرُ ، وقيل : من لدُنْ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام إلى أن أظهر عمْرُو بنُ لحيَ عبادةَ الأصنام ، فالمرادُ بالناس العربُ خاصةً وهو الأنسب بإيراد الآيةِ الكريمة إثرَ حكايةِ ما حُكي عنهم من الهَنات وتنزيهِ ساحةِ الكبرياء عن ذلك ﴿ فاختلفوا ﴾ بأن كفرَ بعضُهم وثبت آخرون على ما هم عليه فخالف كلٌّ من الفريقين الآخرَ لا أن كلاًّ منهما أحدث ملةً على حدة من ملل الكفرِ مخالفةً لملة الآخر ، فإن الكلامَ ليس في ذلك الاختلافِ إذ كلٌّ منهما مبطِلٌ حينئذ فلا يُتصوَّر أن يقضى بينهما بإبقاء المُحقّ وإهلاكِ المبطل ، والفاء التعقيبيةُ لا تنافي امتدادَ زمانِ الاتفاقِ إذ المرادُ بيانُ وقوعِ الاختلاف عقيبَ انصرامِ مدةِ الاتفاقِ لا عقيبَ حدوثِ

الاتفاق ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ بتأخير القضاءِ بينهم أو بتأخير العذابِ الفاصل بينهم إلى يوم القيامة فإنه يومُ الفصل ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ عاجلاً ﴿ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ بتمييز الحقِّ من الباطل بإبقاء الحقِّ وإهلاكِ المبطل . وصيغةُ الاستقبال لحكاية الحالِ الماضيةِ وللدلالة على الاستمرار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(134/359)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

أي وما كان الناس كافة من أول الأمر إلا متفقين على الحق والتوحيد من غير اختلاف ،

وروي هذا عن ابن عباس .

والسدي .

ومجاهد .

والجبائي .

وأبي مسلم ، ويؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً على هُدًى ﴾ وذلك من عهد آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن قتل قابيل هابيل ،

وقيل : إلى زمن إدريس عليه الصلاة والسلام ، وقيل : إلى زمن نوح عليه الصلاة والسلام ، وكانوا عشرة قرون ، وقيل : كانوا كذلك في زمنه عليه الصلاة والسلام بعد أن لم يبق على الأرض من الكافرين ديار إلى أن ظهر بينهم الكفر ، وقيل : من لدن إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى أن أظهر عمرو بن لحى عبادة الأصنام وهو المروي عن عطاء ، وعليه فالمراد من ﴿ الناس ﴾ العرب خاصة وهو الأنسب بإيراد الآية الكريمة إثر حكاية ما حكى منهم من الهنات وتنزيه ساحة الكبرياء عن ذلك .

(135/359)

﴿ فاختلفوا ﴾ بأن كفر بعضهم وثبت الآخرون على ما هم عليه فخالف كل من الفريقين الآخر ، والفاء للتعقيب وهي لا تنافي امتداد زمان الاتفاق إذ المراد بيان وقوع الاختلاف عقيب انصرام مدة الاتفاق لا عقيب حدوثه ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ بتأخير القضاء بينهم أو العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة فإنه يوم الفصل والجزء ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ عاجلاً ﴿ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ بأن ينزل عليهم آيات ملجئة إلى اتباع الحق ورفع الاختلاف أو بأن يهلك المبطل ويبقى المحق ، وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية والدلالة على الاستمرار ، ووجه ارتباط الآية بما قبلها أنها كالتأكيد لما أشار إليه من أن

التوحيد هو الدين الحق حيث أفادت أنه ملة قديمة اجتمعت عليها الأمم قاطبة وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة خلافاً للجمهور وشقاً لعصا الجماعة ، وقيل : وجه ذلك أنه سبحانه بين فيما قبل فساد القوم بعبادة الأصنام وبين في هذه أن هذا المذهب ليس مذهباً للعرب من أول الأمر بل كانوا على الدين الحق الخالي عن عبادة الأصنام وإنما حدثت فيهم عبادتها بتسويل الشياطين .

قيل : والغرض من ذلك أن العرب إذا علموا أن ما هم عليه اليوم لم يكن من قبل فيهم وإنما حدث بعد أن لم يكن لم يتعصبوا لنصرته ولم يتأذوا من تزييفه وإبطاله .

وعن الكلبي أن معنى كونهم أمة واحدة اتفاقهم على الكفر وذلك في زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وروى مثله عن الحسن إلا أنه قال : كانوا كذلك من لدن وفاة آدم إلى زمن نوح عليهما السلام ثم آمن من آمن وبقي من بقي على الكفر .

وفائدة إيراد هذا الكلام في هذا المقام تسليته صلى الله عليه وسلم كأنه قيل : لا تطمع في أن يصير كل من تدعوه إلى الإيمان والتوحيد مجيباً لك قابلاً لدينك فإن الناس كلهم كانوا على الكفر وإنما حدث الإيمان في بعضهم بعد ذلك فكيف تطمع في اتفاق الكل عليه .

(136/359)

واعترض بأنه يلزم على هذا خلو الأرض في عصر عن مؤمن بالله تعالى عارف به وقد قالوا : إن الأرض في كل وقت لا تخلو عن ذلك .

وأجيب بأن عدم الخلو في حيز المنع فقد ورد في بعض الآثار أن الناس قبل يوم القيامة ليس فيهم من يقول الله الله ، وعلى تقدير التسليم المراد بالاتفاق على الكفر اتفاق الأكثر .

والحق أن هذا القول في حد ذاته ضعيف فلا ينبغي التزام دفع ما يرد عليه ، وأضعف منه بل لا يكاد يصح كون المراد أنهم كانوا أمة واحدة فاختلفوا بأن أحدث كل منهم ملة على حدة من ملل الكفر مخالفة لملة الآخر لأن الكلام ليس في ذلك الاختلاف إذ كل من الفريقين مبطل حينئذٍ فلا يتصوران يقضي بينهما بإبقاء المحق وإهلاك المبطل أو بإلجاء أحدهما إلى اتباع الحق ليرتفع الاختلاف كما لا يخفى هذا .

(137/359)

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ الر ﴾ [يونس : 1] إشارة إلى الذات الذي هو أول الوجود و ﴿ ل ﴾ إشارة إلى العقل المسمى جبريل عليه السلام وهو أوسط الوجود الذي يستفيض من المبدأ ويفيض إلى المنتهى ، و ﴿ ر ﴾ إشارة إلى الرحمة التي هي الذات المحمدية وهي في الحقيقة أول ووسط آخر لكن الاعتبارات مختلفة ، وكأن ذلك قسم منه

تعالى بالحقيقة المحمدية على أن ما تضمنته السورة أو القرآن من الآي آيات الكتاب المتقن وقيل : المعنى ما أشير إليه بهذه الأحرف أركان كتاب الكل ذي الحكمة أو المحكم ومعظم تفاصيله ﴿ الحكيم أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ أنكار لتعجبهم من سنة الله الجارية وهي الإيحاء إلى رجل ، وكان ذلك لبعدهم عن مقامهم وعدم مناسبة حالهم لحاله ومنافاة ما جاء به لما اعتقدوه ﴿ أَنْ أَنذِرِ الناس ﴾ أي خوفهم من أن يشركوا بي شيئاً ﴿ وَبَشِّرِ الذين ءامَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ سابقة عظيمة وقربة ليس لأحد مثلها ، وقيل : سابقة رحمة أودعها في محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قَالَ الكافرون ﴾ أي المحجوبون عن الله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس : 2] لما رأوه خارجاً عن قدرهم واحتجبوا بالشيطنة عن الوقوف على حقيقة الحال قالوا ذلك ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أي أوقات مقدار كل يوم منها دورة الفلك الأعظم مرة واحدة كما نص عليه الشيخ الأكبر والستة عدد تام واختاره الله تعالى لما فيه من الأسرار ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ أي الملك ﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ على وفق حكمته بيد قدرته ، وقد يفسر العرش بقلب الكامل فالكلام إشارة إلى خلق الإنسان الذي انطوى فيه العالم بأسره ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ ﴾ يشفع لأحد بدفع ما يضره أو جلب ما ينفعه ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ بموهبة الاست

(138/359)

، داد ثم بتوفيق الأسباب ﴿ ذلكم ﴾ الموصوف بهذه الصفات الجليلة ﴿ اللهُ رَبُّكُمُ ﴾ الذي يربكم ويدبر أمركم فاعبدوه فخصوه بالعبادة واعرفوه بهذه الصفات ولا تعبدوا الشيطان ولا تحتجبوا عنه تعالى فتنسبوا قوله وفعله إلى الشيطان

(139/359)

﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس : 3] آياته التي خطها بيد قدرته في صحائف الآفاق والأنفس فتتفكروا فيها وتنزجروا عن الشرك به سبحانه ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ بالعود إلى عين الجمع المطلق في القيامة الصغرى أو إلى عين جمع الذات بالفناء فيه تعالى عند القيامة الكبرى كذا قيل ، وقال بعض العارفين : إن مرجع العاشقين جماله ومرجع العارفين جلاله ومرجع الموحدين كبرياؤه ومرجع الخائفين عظمته ومرجع المشتاقين وصاله ومرجع المحبين دنوه ومرجع أهل العناية ذاته ، وقال الجنيد قدس سره في الآية : إنه تعالى منه الابتداء وإليه الانتهاء وما بين ذلك مرابع فضله وتواتر نعمه ﴿ وَعْدَ اللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ

﴿ أي يبدؤه في النشأة الأولى ثم يعيده في النشأة الثانية أو يبدأ الخلق باختفائه وإظهارهم ثم يعيده بإفنائهم وظهوره ﴿ لِيَجْزِيَ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات بالقسط ﴾ [يونس : 5] أي يفعل ذلك ليجزي المؤمن والكافر على حسب ما يقتضيه عمل كل ، ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ الشمس ضِيَاء ﴾ أي جعل شمس الروح ضياء الوجود ﴿ والقمر ﴾ أي قمر القلب ﴿ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ أي مقامات ﴿ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين ﴾ أي سني مراتبكم وأطواركم في المسير إليه وفيه تعالى : ﴿ والحساب ﴾ [يونس : 5] أي حساب درجاتكم ومواقع أقدامكم في كل مقام ومرتبة ، ويقال : جعل شمس الذات ضياء للأرواح العارفة وجعل قمر الصفات نوراً للقلوب العاشقة ففنيت الأرواح بصولة الذات في عين الذات وبقيت القلوب بمشاهدة الصفات في عين الصفات وهذه الشمس المشار إليها لا تغيب أصلاً عن بصائر الأرواح ومن هنا قال قائلهم

: هي الشمس إلا أن للشمس غيبة . . .

وهذا الذي نعنيه ليس يغيب

(140/359)

إِنَّ فِى اختلاف الليل ﴾ أي غلبة ظلمة النفس على القلب ﴿ والنهار ﴾ أي نهار إشراق ضوء الروح عليه ﴿ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِى السموات ﴾ أي سموات الأرواح ﴿ والأرض ﴾ أي أرض الأجساد ﴿ لآيات لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : 6] حجب صفات النفس الأمارة ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ أي يوصلهم إلى الجنات الثلاث بحسب نور إيمانهم فقوله سبحانه :

﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأنهار فِي جنات النعيم ﴾ [يونس : 9] كالبيان لذلك ﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ الاستعدادي ﴿ فِيهَا ﴾ أي في تلك الجنات ﴿ سبحانك اللهم ﴾ إشارة إلى تنزيهه تعالى والتنزيه في الأولى عن الشرك في الأفعال بالبراءة عن حولهم وقوتهم وفي الثانية عن الشرك في الصفات بالانسلاخ عن صفاتهم وفي الثالثة عن الشرك في الوجود بفنائهم ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ ﴾ أي تحية بعضهم لبعض أو تحية لله تعالى ﴿ فِيهَا سلام ﴾ أي إفاضة أنوار التزكية وإمداد التصفية أو إشراق أنوار التجليات وإمداد التجريد وإزالة الآفات ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ [يونس : 10] أي آخر ما يقتضيه استعدادهم قيامهم بالله تعالى في ظهور كمالاته وصفات جلاله وجماله عليهم وهو الحمد الحقيقي منه وله سبحانه ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ أو استغرق أوقاته في الدعاء ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ [يونس : 12] هذا وصف الذين لم يدركوا حقائق العبودية في مشاهد الربوبية فإنهم إذا أظلم

عليهم ليل البلاء قاموا إلى إيقاد مصباح التضرع فإذا انجلت عنهم الغياهب بسطوع أنوار فجر الفرج نسوا ما كانوا فيه ومروا كأن لم يدعوا مولاهم إلى كشف ما عناهم .

كأن الفتى لم يعر يوماً إذا اكتسى . . .

ولم يك صعلوكاً إذا ما تمولا

(141/359)

ولو كانوا عارفين لم يبرحوا دارة التضرع وإظهار العبودية بين يديه تعالى في كل حين ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ على الفطرة التي فطر الله الناس عليها متوجهين إلى التوحيد متنورين بنور الهداية الأصلية ﴿ فَاخْتَلَفُوا ﴾ بمقتضيات النشأة واختلاف الأمزجة والأهوية والعادات والمخالطات ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ وهو قضاؤه سبحانه الأزلي بتقدير الآجال والأرزاق ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس : 19] بإهلاك المبطل وإبقاء المحق ، والمراد أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يبلغ كل منهم وجهته التي ولى وجهه إليها بأعماله التي يزاولها هو وإظهار ما خفي في نفسه وسبحان الحكيم العليم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(142/359)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾

جملة معترضة بين جملة : ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ [يونس : 18] وجملة : ﴿ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ [يونس : 20] .

ومناسبة الاعتراض قوله : ﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم ﴾ لأن عبادة الأصنام واختراع صفة الشفاعة لها هو من الاختلاف الذي أحدثه ضلال البشر في العقيدة السليمة التي فطر الله الناس عليها في أول النشأة ، فهي مما يشمله التوبيخ الذي في قوله : ﴿ أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض ﴾ [يونس : 18] .

وصيغة القصر للمبالغة في تأكيد الخبر لأنه خبر مهم عجيب هو من الحِكم العُمرانية والحقائق التاريخية بالمكان الأسمى ، إذ القصر تأكيد على تأكيد باعتبار اشتماله على صيغتي إثبات للمثبَت ونفي عما عداه ، فهو أقوى من تأكيد رد الإنكار ، ولذلك يؤذن برد إنكار شديد .

وحسَّن القصر هنا وقوعه عقب الجدال مع الذين غيروا الدين الحق وروجوا نحلتهم بالمعاذير الباطلة كقولهم : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : 18] ، وقوله : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3] ، بخلاف آية سورة [البقرة : 213] ﴿

كان الناس أمة واحدة ﴾ فإنها وقعت في سياق المجادلة مع أهل الكتاب لقوله : ﴿ سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ﴾ [البقرة : 211] وأهل الكتاب لا ينكرون أن الناس كانوا أمة واحدة .

(143/359)

فآية هذه السورة تشير إلى الوحدة الاعتقادية ولذلك عبر عن التفرق الطارىء عليها باعتبار الاختلاف المشعر بالمذمة والمعقب بالتخويف في قوله : ﴿ ولولا كلمة سبقت ﴾ إلى آخره ، وآية سورة البقرة تشير إلى الوحدة الشرعية التي تجمعها الحنيفية الفطرية ، ولذلك عبر عن التفرق الذي طرأ عليها بأن الله بعث النبيئين مبشرين ومنذرين ، ثم جاء ذكر الاختلاف عرضاً عقب ذلك بقوله : ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ [البقرة : 213] .

وأريد به الاختلاف بين أتباع الشرائع لقوله : ﴿ وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه ﴾ [البقرة : 213] .

وتقدم القول في ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ في سورة [البقرة : 213] .

والناس : اسم جمع للبشر .

وتعريفه للاستغراق .

والأمة : الجماعة العظيمة التي لها حال واحد في شيء مَّا .

والمراد هنا أمة واحدة في الدين .

والسياق يدل على أن المراد أنها واحدة في الدين الحق وهو التوحيد لأن الحق هو الذي يمكن اتفاق البشر عليه لأنه ناشيء عن سلامة الاعتقاد من الضلال والتحْريف .

والإنسان لما أنشىء على فطرة كاملة بعيدة عن التكلف .

وإنما يتصور ذلك في معرفة الله تعالى دون الأعمال ، لأنها قد تختلف باختلاف الحاجات ، فإذا جاز أن يحدث في البشر الضلال والخطأ فلا يكون الضلال عاماً على عقولهم ، فتعين أن الناس في معرفة الله تعالى كانوا أمة واحدة متفقين على التوحيد لأن الله لما فطر الإنسان فطره على عقل سليم موافق للواقع ، ووَضَعَ في عقله الشعور بخالق وبأنه واحد وضعاً جِبِلّياً كما وضَعَ الإلهامات في أصناف الحيوان .

وتأيد ذلك بالوحي لأبي البشر وهو آدم عليه السلام .

ثم إن البشر أدخلوا على عقولهم الاختلاف البعيد عن الحق بسبب الاختلاق الباطل والتخيل والأوهام بالأقيسة الفاسدة .

وهذا مما يدخل في معنى قوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [التين : 4 6] ، فتعين أن المراد في هذه الآية بكون الناس أمةً واحدة الوحدة في الحق ، وأن المقصود مدح تلك الحالة لأن المقصود من هذه الآية بيان فساد الشرك وإثبات خطأ منتحليه بأن سلفهم الأول لم يكن مثلهم في فساد العقول ، وقد كان للمخاطبين تعظيم لما كان عليه أسلافهم ، ولأن صيغة القصر تؤذن بأن المراد إبطال زعم من يزعم غير ذلك .

ووقوعُه عقب ذكر من يعبدون من دون الله أصناماً لا تضرهم ولا تنفعهم يدل على أنهم المقصود بالإبطال ، فإنهم كانوا يحسبون أن ما هم عليه من الضلال هو دين الحق ، ولذلك صوروا إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام في الكعبة .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح "كَذبوا والله إنْ استقسما بها قَطِ ، وقرأ : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ [آل عمران : 67] " وبهذا الوجه يجعل التعريف في ﴿ الناس ﴾ للاستغراق .

ويجوز أن يراد بالناس العربُ خاصة بقرينة الخطاب ويكون المراد تذكيرهم بعهد أبيهم إبراهيم عليه السلام إذ كان هو وأبناؤه وذريتهم على الحنيفية والتوحيدِ كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني بَراء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها كلمةً

باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ [الزخرف : 26 28] ، أي في عقبه من العرب ، فيكون التعريف للعهد .

وجملة : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ إخبار بأن الحق واحد ، وأن ذلك الاختلاف مذموم ، وأنه لولا أن الله أراد إمهال البشر إلى يوم الجزاء لأراهم وجه الفصل في اختلافهم باستيصال المُبطل وإبقاءِ المحق .

وهذه الكلمة أجملت هنا وأشير إليها في سورة [الشورى : 14] بقوله : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مُسمى لقضي بينهم ﴾ .

(145/359)

والأجل : هو أجل بقاء الأمم ، وذلك عند انقراض العالم ، فالقضاء بينهم إذن مؤخر إلى يوم الحساب .

وأصرح من ذلك في بيان معنى (الكلمة) قولُه في سورة [هود : 118] ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمةُ ربك لأملأنَّ جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ وسيأتي بيانها .

وتقديم المجرور في قوله : فيما فيه يختلفون ﴾ للرعاية على الفاصلة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(146/359)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾

وقد جاءت آية في سورة البقرة متشابهة مع هذه الآية وإن اختلف الأسلوب ، فقد قال الحق سبحانه في سورة البقرة : ﴿ كَانَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النبيين ﴾ [البقرة : 213] والذين يقرأون القرآن بسطحية وعدم تعمق قد لا يلتفتون إلى الآيات المشابهة لها في المعنى العام ، وهذه الآيات توازن بين المعاني فلا تضارب بين آية وأخرى .

ولذلك نجد بين المفكرين العصريين من يقول : إن الناس كانوا كلهم كفاراً ، ثم ارتقى العقل محاولاً اكتشاف أكثر الكائنات قوة ؛ ليعبدوه ، فوجدوا أن الجبل هو الكائن العالي الصلب ؛ فعبدوه . وأناس آخرون قالوا : إن الشمس أقوى الكائنات فعبدوها ، وآخرون عبدوا القمر ، وعبد قوم غيرهم النجوم ، واتخذ بعض آخر آلهة من الشجر ، وكل جماعة نظرت إلى جهة مختلفة تتلمس فيها القوة .

وهم يأخذون من هذا أن الإنسان قد اهتدى إلى ضرورة الدين بعقله ، ثم ظل هذا العقل في ارتقاء إلى أن وصل إلى التوحيد .

ونرد على أصحاب هذا القول : أنتم بذلك تريدون أن تعزلوا الخلق عن خالقهم ، وكأن الله الذي خلق الخلق وأمدهم بقوام حياتهم المادية قد ضَنَّ عليهم بقوام حياتهم المعنوية ، وليس هذا من المقبول أو المعقول ، فكيف يضمن لهم الحياة المادية ، ولا يضمن لهذه المادية قيماً تحرسها من الشراسة وتحميها من الفساد والإفساد ؟

وقوله الحق :

﴿ كَانَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النبيين مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكتاب بالحق لِيَحْكُمَ بَيْنَ الناس فِيمَا اختلفوا فِيهِ وَمَا اختلف فِيهِ إِلاَّ الذين أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينات بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى الله الذين آمَنُواْ لِمَا اختلفوا فِيهِ مِنَ الحق بِإِذْنِهِ والله يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : 213]

(147/359)

لذلك فَهِمَ البعض أن الناس كانوا أمة واحدة في الكفر ، وحين جاء النبيون ، اختلف الناس ؛ لأن منهم من آمن ومنهم من ظل على الكفر ، ولكن لو أحسن الذين قالوا مثل هذا القول

الاستنباط وحسن الفهم عن الله لوجدوا أن مقصود الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها الآن إنما هو : ما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ؛ فبعث الله النبيين ؛ ليخرجوهم عن الخلاف ويعيدوهم إلى الاتفاق على عهد الإيمان الأول الذي شهدوا فيه بربوبية الحق سبحانه وتعالى ؛ لأن الأصل في المسألة هو الإيمان لا الكفر .

ومن أخذ آية سورة البقرة كدليل على كفر الناس أولاً ، نقول له : اقرأ الآية بأكملها ؛ لتجد قوله الحق : ﴿ كَانَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النبيين مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكتاب بالحق لِيَحْكُمَ بَيْنَ الناس فِيمَا اختلفوا فِيهِ ﴾ [البقرة : 213]

وهكذا نرى أن الاختلاف الذي حدث بين الناس جاء في آية البقرة في المؤخرة ، بينما جاء الاختلاف في هذه الآية في المقدمة ، وهذا دليل على أن الناس كانوا أمة واحدة على الإيمان ، فليس هناك أناس أوْلَى من أناس عند الخالق سبحانه وتعالى ، ولم يكن عدل الله ليترك أناساً متخبطين في أمورهم على الكفر ، ويرسل الرسل لأناس آخرين بالهداية ؛ فالناس بالنسبة لله سواء .

وما دام الحق سبحانه قد أوجد الخلق من البشر فلا بد أن يُنزل لهم منهجاً ؛ ولذلك حين نقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : 96]

نجد فيه الرد على من يقول إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى الكعبة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يترك الخلق من آدم إلى إبراهيم دون بيت يحجون إليه ، ولكن الحق سبحانه وضع البيت ؛ ليحج إليه الناس من أول آدم إلى أن تقوم الساعة ، والذي وضع البيت ليس من الناس ، بل شاء وضع البيت خالق الناس ، وما فعله سيدنا إبراهيم عليه السلام هو رفع القواعد من البيت الحرام .

أي : أنه أقام ارتفاع البيت بعد أن عرف مكان البيت طولاً وعرضاً ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت ﴾ [الحج : 26]

وهكذا يَصْدُق قول الحق سبحانه بأن البيت قد وُجد للناس قبل آدم ، وهو الناس إلى أن تقوم الساعة ، وهكذا نعلم أن الحق سبحانه خلق الخلق وأنزل لهم المنهج ، والأصل في الناس هو الإيمان ، لكن الكفر هو الذي طرأ على البشر من بابين : باب الغفلة ، وباب تقليد الآباء .

والدليل على ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلَّم عن ميثاق الذر ، قال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ * أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن

قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف : 172173]

إذن : فالتعصّي عن الحكم الإيماني مدخله بابان : الأول باب الغفلة ، أي : أن تكون قد عملتَ شيئاً ، ولم تجعله دائماً في بؤرة شعورك ؛ لأن عقلك يستقبل المعلومات ، ويستوعبها من مرة واحدة ، إن لم تكن مُشتَّتَ الفكر في أكثر من أمر ، فإن كنت صافي الفكر ومنتبهاً إلى المعلومة التي تَصِلُكَ ؛ فإن عقلك يستوعبها من مرة واحدة ، ومن المهم أن يكون الذهن خالياً لحظة أن تستقبل المعلومة الجديدة .

(149/359)

ولذلك نجد فارقاً بين إنسان وإنسان آخر في حفظ المعلومات ، فواحد يستقبل المعلومة وذهنه خالٍ من أي معلومة غيرها ، فتثبت في بؤرة الشعور ، بينما يضطر الآخر إلى تكرار قراءة المعلومة إلى أن يخلو ذهنه من غيرها ؛ فتستقر المعلومة في بؤرة الشعور ، وحين تأتي معلومة أخرى ، فالمعلومة الأولى تنتقل إلى حاشية الشعور إلى حين أن يستدعيها مرة أخرى .

وإذا أراد طالب على سبيل المثال أن يستوعب ما يقرأ من معلومات جديدة ، فعلية أن ينفض عن ذهنه كل المشاغل الأخرى ؛ ليركِّز فيما يدرس ؛ لأنه إن جلس إلى المذاكرة وباله

مشغول بما سوف يأكل في الغداء ، أو بما حدث بينه وبين أصدقائه ، أو بما سوف يرتدي من ملابس عند الخروج من البيت ، أو بغير ذلك من المشاغل ، هنا سوف يُضطر الطالب أن يعيد قراءة الدرس أكثر من مرة ؛ حتى يصادف الدرسُ جزئية خالية من بؤرة الشعور ؛ فتستقر فيها .

وقد نجد طالباً في صباح يوم الامتحان وهو يسمع من زملائه أن الامتحان قد يأتي في الجزء الفلاني من المقرر ؛ فيفتح الكتاب المقرر على هذا الجزء ويقرأه مرة واحدة ؛ فيستقر في بؤرة الشعور ، ويدخل الامتحان ، ليجد السؤال في الجزء الذي قرأه مرة واحدة قبل دخوله إلى اللجنة ؛ فيجيب عن السؤال بدقة .

ولذلك فالتلميذ الذكي هو من يقوم بما يسمِّيه علم النفس " عملية الاستصحاب " ، أي : أن يقرأ الدرس ثم يغلق الكتاب ؛ ليسأل نفسه : " ما الجديد من المعلومات في تلك الصفحة ؟ " ويحاول أن يتذكر ذلك ، ويحاول أن يتعرف حتى على الألفاظ الجديدة التي في تلك الصفحة ، وما هي الأفكار الجديدة التي صحَّحَتْ له معلومات أو أفكاراً خاطئة كانت موجودة لديه .

وهكذا يستصحب الطالب معلومات بتركيز وانتباه .

وكذلك الأستاذ المتميز هو من يشرح الدرس ثم يتوقف ؛ ليسأل التلاميذ ؛ ليشير انتباههم ؛ حتى لا ينشغل أحدهم بما هو خارج الدرس ، والأستاذ المتميز هو الذي يلقي درسه بما يستميل التلاميذ ، كما تستميلهم القصة المروية ، وحتى لا تظل المعلومات الدراسية مجرد معلومات جافة .

وبهذا يستمر الذهن بلا غفلة ، والغفلة تأتي إلى القضايا الدينية ؛ لأن في الإنسان شهوات تصادم الأوامر والنواهي ؛ فيتناسى الإنسان بعض الأوامر وبعض النواهي إلى أن يأتي الران الذي قال عنه الحق سبحانه :

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : 14]

ويبين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بالحديث الشريف : " نزلت الأمانة في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السُّنَّة " . ثم يحدثنا صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة فيقول : " ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ؛ فيظل أثرها مثل أثر الوكْت " أي : مثل لسعة النار وهكذا تتوالى ؛ حتى يأتي الرَّانُ على القلب .

إذن : فالغفلة تتلصص على النفس الإنسانية ، وكلما غفل الإنسان في نقطة ، ثم يغفل عن أخرى وهكذا . ولكن من لا يغفل فهو من يتذكر الحكم ، ويطبقه ، ويذوق حلاوته .

ومثال هذا : المسلم الذي يشرح الله تعالى قلبه للصلاة ، فإن لم يُصَلِّ يظل مُرْهقاً وفي ضيق .

ولذلك جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأيّ قلب أشْرِبها نكت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه " .

(151/359)

إذن : فالغفلة هي أول باب يدخل منه الشيطان ؛ فيبعد الإنسان عن أحكام الله . وإذا ما غفل الأب ، فالأبناء يُقلِّدون الآباء ، فتأتيهم غفلة ذاتية . وهكذا يكون الغافل أسوة لمن بعده .

ولذلك قال الحق سبحانه عن الأبناء الذين يتعبون غفلة الآباء : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ ﴾ [البقرة : 170]

وإلْف تقليد الآباء قضية كاذبة ؛ لأننا سلسنا مسألة الإيمان إلى آدم عليه السلام ، وهو الأب الأول لكل البشر ؛ لوجدنا أن آدم عليه السلام قد طبّق كل مطلوب لله ، فإن قلت : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ ﴾ فهذا القول يحتم عليك ألا تنحرف عن الإيمان الفطري ، وإلا

كنت من الكاذبين غير المدققين فيما دخل على الإيمان الفطري من غفلة أو غفلات ، تبعها تقليد دون تمحيص .

والحق سبحانه قد شاء أن تكون كل كلمة في القرآن لها معنى دقيق مقصود ، فالحق سبحانه يقول على ألسنة الكافرين في القرآن : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 23]

ولم يقل : " مهتدون " بل قال : " مقتدون " ، والمقتدي من هؤلاء هو من اتخذ أباه قدوة ، لكن المهتدي هو مَنْ ظن أن أباه على حق .

إذن : فالمقتدي هو من لا يهتم بصدق إيمان أبيه ، بل يقلده فقط ، وتقليد الآباء نوعان : تقليد على أنه اقتداء مطلق لا صلة له بالهدى أو الضلال ، وتقليد على أنه هدى صحيح لشرع الله تعالى . وقد حدث خلاف حول آدم عليه السلام أهو رسول أم نبي فقط ؟ فهناك مَنْ قال : إن أول الرسل هو نوح عليه السلام ونقول : وهل من المعقول أن يترك الله الخلق السابقين على نوح عليه السلام دون رسول ؟

إن الحق سبحانه وهو القائل : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 24]

(152/359)

والذي أشكل على هؤلاء المفسرين الذين قالوا : إن أول رسول هو نوح عليه السلام أنهم قد فكروا تفكيراً سطحياً ، وفهموا أن الرسول يطرأ على المرسل إليهم ، وما دام لم يكن هناك بشر قبل آدم فكيف يكون آدم مبعوثاً برسالة ، ولمن تكون تلك الرسالة ؟

ولم يفطن هؤلاء المفسرون إلى أن آدم عليه السلام كان رسولاً وأسوة إلى أبنائه ، فالحق سبحانه قد قال له : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 38]

وسبحانه قد قال لآدم عليه السلام : ﴿ فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ﴾ [طه : 123]

وما دام الحق سبحانه قد ذكر الهدى ، فهذا ذكر للمنهج ، وهو الذي طبقه سلوكاً يقلده فيه الأبناء .

وغفل هؤلاء المفسرون أيضاً عن استقراء قوله الحق : ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابني ءَادَمَ بالحق إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً ﴾ [المائدة : 27]

وابْنَا آدم عليه السلام قد قدَّمنا القربان إلى الله تعالى . إذن : فهما قد عرفا أن هناك إلهاً .

وحين قال قابيل لأخيه : ﴿ لأَقْتُلَنَّكَ ﴾ [المائدة : 27]

بعد ما تقبل الله قربان أخيه ولم يتقبل منه . قال هابيل : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ الله مِنَ المتقين ﴾ [المائدة : 27]

ثم في قول هابيل : ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العالمين ﴾ [المائدة : 28]

إذن : لو لم يكن آدم عليه السلام رسولاً فمن بلَّغ أبناءه بأن الله يثيب ويعاقب ؟

والحق سبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن الله سبحانه قبل رسالة محمد عليه الصلاة والسلام كان يعاقب مَن يكذِّب البلاغ عنه وما جاء به السابقون من الرسل ، يقول سبحانه :

(153/359)

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 40]

إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : 33]

أي : أنه سبحانه قد أجَّل الجزاء والعقوبة عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى الآخرة .

وهذه الكلمة التي سبقت ، أنه سبحانه لا يؤاخذ أمة محمد صلى الله عليه وسلم بذنوبهم في الدنيا ، ولكنه يؤخِّر ذلك إلى يوم الجزاء . ويقضي سبحانه في ذلك اليوم بين من اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ومن عاندوه ، وبطبيعة الحال يكون الحق سبحانه في جانب من أرسله ، لا من عاند رسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(154/359)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة ﴾ قال : على الإسلام .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في قوله ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾ في قراءة ابن مسعود قال : كانوا على هدى .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة ﴾ قال : آدم عليه السلام ﴿ واحدة فاختلفوا ﴾ قال : حين قتل أحد ابني آدم أخاه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وما كان الناس ﴾ الآية . قال : كان الناس أهل دين واحد على دين آدم فكفروا ، فلولا أن ربك أجلهم إلى يوم القيامة لقضى بينهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(155/359)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19) ﴾

وذلك مِنْ زمان آدم عليه السلام إلى أن تحاربوا ، والحق – سبحانه – سَبَق قضاؤه بتأخير حسابهم إلى الآخرة ، ولذلك لا يُجيبُهم إلى ما يستعجلونه من قيام القيامة .

وإنما اختلفوا لأنَّ الله خَصَّ قوماً بعنايته وقبوله ، وآخرين بإهانته وإبعاده ، ولولا ذلك لَمَا كانت بينهم هذه المخالفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 86 ﴾

(156/359)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

قوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ استفهام فيه معنى الجحد ، أي لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنِ افترى عَلَى الله ﴾ الكذب ، وزيادة ﴿ كَذِبًا ﴾ مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً لبيان أن هذا مع كونه افتراء على الله هو كذب في نفسه ، فربما يكون الافتراء كذباً في الإسناد فقط ، كما إذا أسند ذنب زيد إلى عمرو ، ذكر معنى هذا أبو السعود في تفسيره ، قيل : وهذا من جملة رده صلى الله عليه وسلم على المشركين لما طلبوا منه أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن ، أو يبدّله ، فبين لهم أنه لو فعل ذلك لكان من الافتراء على الله ، ولا ظلم يماثل ذلك ، وقيل : المفتري على الله الكذب هم : المشركون ، والمكذب بآيات الله هم أهل الكتاب ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ المجرمون ﴾ تعليل لكونه لا أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ، أي لا

يظفرون بمطلوب ، ولا يفوزون بخير ، والضمير في ﴿ إنه ﴾ للشأن ، أي إن الشأن هذا .

ثم نعى الله سبحانه عليهم عبادة الأصنام ، وبين أنها لا تنفع من عبدها ولا تضرّ من لم يعبدها ، فقال : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ أي : متجاوزين الله سبحانه إلى عبادة غيره ، لا بمعنى ترك عبادته بالكلية ﴿ مَالاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ أي : ما ليس من شأنه الضرّ ولا النفع ، ومن حق المعبود أن يكون مثيباً لمن أطاعه معاقباً لمن عصاه ، والواو لعطف هذه الجملة على جملة ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ و " ما " في ﴿ مَالاَ يَضُرُّهُمْ ﴾ موصولة أو موصوفة ، والواو في ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله ﴾ للعطف على ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ زعموا أنهم يشفعون لهم عند الله ، فلا يعذبهم بذنوبهم .

(157/359)

وهذا غاية الجهالة منهم ، حيث ينتظرون الشفاعة في المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضرّ في الحال .

وقيل : أرادوا بهذه الشفاعة إصلاح أحوال دنياهم ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عنهم ، فقال : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ الله بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى السموات وَلاَ فِى الأرض ﴾ قرأ أبو السمال العدوي " تنبئون " بالتخفيف من أنبأنا ينبىء .

وقرأ من عداه بالتشديد من نبأ ينبىء .

والمعنى : أتخبرون الله أن له شركاء في ملكه يعبدون كما يعبد ، أو أتخبرونه أن لكم شفعاء بغير إذنه ، والله سبحانه لا يعلم لنفسه شريكاً ولا شفيعاً بغير إذنه من جميع مخلوقاته الذين هم في سمواته وفي أرضه ؟ وهذا الكلام حاصله : عدم وجود من هو كذلك أصلاً ، وفي هذا من التهكم بالكفار ما لا يخفى ، ثم نزّه الله سبحانه نفسه عن إشراكهم ، وهو يحتمل أن يكون ابتداء كلام غير ادخل في الكلام الذي أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب به عليهم ، ويحتمل أن يكون من تمام ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم جواباً عليهم .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ بالتحتية .

وقرأ الباقون بالفوقية ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد .

قوله : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾ قد تقدّم تفسيره في البقرة .

والمعنى : أن الناس ما كانوا جميعاً إلا أمة واحدة موحدة لله سبحانه ، مؤمنة به ، فصار البعض كافراً وبقي البعض الآخر مؤمناً ، فخالف بعضهم بعضاً .

وقال الزجاج : هم العرب كانوا على الشرك .

وقال : كل مولود يولد على الفطرة ، فاختلفوا عند البلوغ ، والأوّل أظهر .

وليس المراد أن كل طائفة أحدثت ملة من ملل الكفر مخالفة للأخرى ، بل المراد : كفر البعض وبقي البعض على التوحيد ، كما قدّمنا : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ وهي : أنه سبحانه لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه إلا يوم القيامة ﴿ لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ فِيمَا ﴾ هم ﴿ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ لكنه قد امتنع ذلك بالكلمة التي لا تتخلف ، وقيل معنى : ﴿ لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ بإقامة الساعة عليهم ، وقيل : لفرغ من هلاكهم .

وقيل : الكلمة : إن الله أمهل هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب في الدنيا .

وقيل : الكلمة : أنه لا يأخذ أحداً إلا بحجة ، وهي إرسال الرسل كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] .

وقيل : الكلمة : قوله "سبقت رحمتي غضبي" .

وقرأ عيسى بن عمر : "لقضى" بالبناء للفاعل .

وقرأ من عداه بالبناء للمفعول .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن عكرمة ، قال : قال النضر : إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزّى ، فأنزل الله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ الآية .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا

﴿ قال ابن مسعود : كانوا على هدى .

وروى أنه قرأ هكذا .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ قال : آدم وحده ﴿ فاختلفوا ﴾ قال : حين قتل أحد ابني آدم أخاه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السديّ ، في الآية قال : كان الناس أهل دين واحد على دين آدم ، فكفروا ، فلولا أن ربك أجلهم إلى يوم القيامة لقضى بينهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(159/359)

قوله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ثم قال تعالى عطفاً على قوله ﴿ ويعبدون ﴾ : ﴿ ويقولون ﴾ أي أنهم لما أتتهم البينات

قالوا : ائت بقرآن غير هذا ، كافرين بمنزلها عابدين من دونه ما لا يرضى عاقل بتسويته بنفسه فكيف بعبادته قائلين بفرط عنادهم وتماديهم في التمرد ﴿ لولا ﴾ أي هلا ولم لا ﴿ أنزل ﴾ أي بأيّ وجه كان ﴿ عليه آية ﴾ أي واحدة كائنة وآتية ﴿ من ربه ﴾ أي المحسن إليه غير ما جاء به وذلك إما لطلبهم آية ملجئة لهم إلى الإيمان أو لكونهم لم يعدوا ما أنزل عليه عداد الآيات فضلاً عن كونها بينات ، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة في الآيات دقيقة المسلك بين المعجزات مع عجزهم عن معارضته بتبديل أو غيره ، فأيّ عناد أعظم من هذا .

ولما كان في ذلك شوب من الاستفهام ، قال مسبباً عن قولهم : ﴿ فقل ﴾ قاصراً قصراً حقيقياً ﴿ إنما الغيب ﴾ أي الذي عناه عيسى عليه السلام بقوله

﴿ ولا أعلم ما في نفسك ﴾ [المائدة : 116] وهو ما لم يطلع عليه مخلوق أصلاً ﴿ لله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة وحده ، لا علم لي بعلة عدم إنزال ما تريدون ، وهل تجابون إليه أو لا .

ولما خصه سبحانه بالعلم .

وكان إنزال الآيات من الممكنات .

سبب عنه قوله : ﴿ فانتظروا ﴾ ثم أجاب من كأنه يقول له : فما تعمل أنت ؟ بقوله :

﴿ إني معكم ﴾ أي في هذا الأمر غير مخالف لكم في التشوف إلى آية تحصل بها هدايتكم ،

ثم حقق المعنى وأكده فقال : ﴿ من المنتظرين ﴾ أي لما يرد علي من آية وغيرها . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 428 . 429 ﴾

(160/359)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾

اعلم أن هذا الكلام هو النوع الرابع من شبهات القوم في إنكارهم نبوته ، وذلك أنهم .

قالوا : إن القرآن الذي جئتنا به كتاب مشتمل على أنواع من الكلمات ، والكتاب لا يكون معجزاً ، ألا ترى أن كتاب موسى وعيسى ما كان معجزة لهما ، بل كان لهما أنواع من المعجزات دلت على نبوتهما سوى الكتاب .

وأيضاً فقد كان فيهم من يدعي إمكان المعارضة ، كما أخبر الله تعالى أنهم قالوا : ﴿ لَوْ شِئْنَا لَقُلْنَا مِثْلَ هذا ﴾ [الأنفال : 31] وإذا كان الأمر كذلك لا جرم طلبوا منه شيئاً آخر سوى القرآن ، ليكون معجزة له ، فحكى الله تعالى عنهم ذلك بقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ فأمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يقول عند هذا السؤال ﴿ إِنَّمَا

الغيب للَّهِ فانتظروا إِنّى مَعَكُمْ مّنَ المنتظرين ﴾ .

واعلم أن الوجه في تقرير هذا الجواب أن يقال : أقام الدلالة القاهرة على أن ظهور القرآن عليه معجزة قاهرة ظاهرة .

لأنه عليه الصلاة والسلام بين أنه نشأ فيما بينهم وتربى عندهم ، وهم علموا أنه لم يطالع كتاباً ، ولم يتلمذ لأستاذ .

بل كان مدة أربعين سنة معهم ومخالطاً لهم ، وما كان مشتغلاً بالفكر والتعلم قط ، ثم إنه دفعة واحدة ظهر هذا القرآن العظيم عليه ، وظهور مثل هذا الكتاب الشريف العالي ، على مثل ذلك الإنسان الذي لم يتفق له شيء من أسباب التعلم ، لا يكون إلا بالوحي .

(161/359)

فهذا برهان قاهر على أن القرآن معجز قاهر ظاهر ، وإذا ثبت هذا كان طلب آية أخرى سوى القرآن من الاقتراحات التي لا حاجة إليها في إثبات نبوته عليه الصلاة والسلام ، وتقرير رسالته ، ومثل هذا يكون مفوضاً إلى مشيئة الله تعالى ، فإن شاء أظهرها ، وإن شاء لم يظهرها ، فكان ذلك من باب الغيب ، فوجب على كل أحد أن ينتظر أنه هل يفعله الله أم لا ؟ ولكن سواء فعل أو لم يفعل ، فقد ثبتت النبوة ، وظهر صدقه في ادعاء الرسالة ،

ولا يختلف هذا المقصود بحصول تلك الزيادة وبعدمها ، فظهر أن هذا الوجه جواب ظاهر في تقرير هذا المطلوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 52 ﴾

(162/359)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾

وذلك حين قال عبد الله بن أمية : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرض يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء : 90] وسألته قريش أن يأتيهم بآية ، فقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الغيب للَّهِ ﴾ ، نزول الآية من عند الله تعالى : ﴿ فانتظروا ﴾ نزولها .

﴿ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ المنتظرين ﴾ لنزولها ، ويقال : فانتظروا بي الموت إني معكم من المنتظرين لهلاككم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ يعني أهل مكة ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ﴾ أي على محمد ﴿ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ ﴾ لهم يا محمد ما سألتموني الغيب ﴿ إِنَّمَا الغيب للَّهِ ﴾ ما يعلم أحدكم بفعل ذلك إلاّ هو ، وقيل

: الغيب ، نزول الآية متى تنزل نزل ﴿ فانتظروا ﴾ نزول الآية ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المنتظرين ﴾ لنزولها ، وقيل : فانتظروا قضاء الله بيننا بإظهار الحق على الباطل . وقال الحسن : فانتظروا مواعيد الشيطان وكانوا مع إبليس على موعد فيما يعدهم ويمنيهم أني معكم من المنتظرين . فأنجز الله وعده ونصر عبده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى ﴿ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ الآية

يريدون بقولهم ﴿ آية من ربه ﴾ آية تضطر الناس إلى الإيمان وهذا النوع من الآيات لم يأت بها نبي قط ولا هي المعجزات اضطرارية وإنما هي معرضة للنظر ليهتدي قوم ويضل آخرون ، وقوله ﴿ فقل إنما الغيب لله ﴾ إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل لا يطلع على غيبه أحد ، وقوله ﴿ فانتظروا ﴾ وعيد ما قد صدقه الله تعالى بنصرته محمداً صلى الله عليه وسلم ، قال الطبري : في بدر وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(163/359)

وقال ابن الجوزى :

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ويقولون ﴾ يعني المشركين ﴿ لولا ﴾ أي : هلاَّ ﴿ أنزل عليه آية من ربه ﴾ مثل العصا واليد وآيات الأنبياء .

﴿ فقل إنما الغيب لله ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أن سؤالكم : لِمَ لم تنزل الآية ؟ غيب ، ولا يعلم علَّة امتناعها إلا الله .

والثاني : أن نزول الآية متى يكون ؟ غيب ، ولا يعلمه إلا الله .

قوله تعالى : ﴿ فانتظروا ﴾ فيه قولان : أحدهما : انتظروا نزول الآية .

والثاني : قضاء الله بيننا بإظهار الحقّ على المبطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾

يريد أهل مكة ؛ أي هلاّ أنزل عليه آية ، أي معجزة غير هذه المعجزة ، فيجعل لنا الجبال ذهباً ويكون له بيت من زُخْرف ، ويُحيي لنا من مات من آبائنا .

وقال الضحاك : عصا كعصا موسى .

﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الغيب للَّهِ ﴾ أي قل يا محمد إن نزول الآية غيب .

﴿ فانتظروا ﴾ أي تربصوا .

﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المنتظرين ﴾ لنزولها .

وقيل : انتظروا قضاء الله بيننا بإظهار الحق على المبطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ ويقولون ﴾ يعني كفار مكة ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ يعني هلا نزل على محمد ما نقترحه عليه من الآيات ﴿ فقل ﴾ أي : فقل لهم يا محمد ﴿ إنما الغيب لله ﴾ يعني إن الذي سألتمونيه هو من الغيب وإنما الغيب لله لا يعلم أحد ذلك إلا هو والمعنى لا يعلم أحد متى نزول الآية إلا هو ﴿ فانتظروا ﴾ يعني نزولها ﴿ إني معكم من المنتظرين ﴾ وقيل معناه فانتظروا قضاء الله بيننا بإظهار الحق على المبطل إني معكم من المنتظرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(164/359)

وقال أبو حيان :

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾

هذا من اقتراحهم .

قال الزمخشري : وكانوا لا يعتدون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها ، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات ، دقيقة المسلك من بين المعجزات .

وجعلوا نزولها كلا نزول ، فكأنه لم ينزل عليه قط حتى قالوا : لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه ، وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في التمرد وإنهماكهم في الغي فقل : إنما الغيب لله أي : هو المختص بعلم الغيب المستأثر به ، لا علم لي ولا لأحدٍ به .

يعني : أنّ الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو سبحانه ، فانتظروا نزول ما اقترحتموه إني معكم من المنتظرين بما يفعل الله تعالى بكم لعنادكم وجحدكم الآيات .

وقال ابن عطية : آية من ربه ، آية تضطر الناس إلى الإيمان ، وهذا النوع من الآيات لم يأت بها نبي قط ، ولا من المعجزات اضطرارية ، وإنما هي معرضة النظر ليهتدي قوم ويضل آخرون ، فقل : إنما الغيب لله إن شاء فعل ، وإن شاء لم يفعل ، لا يطلع على غيبه في ذلك أحد .

وقوله : فانتظروا ، وعيد وقد صدقه الله تعالى بنصرته محمداً (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل : الآية التي اقترحوا أن ينزل ما تضمنه قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر

لنا ﴿ الآية وقيل : آية كآية موسى وعيسى كالعصا واليد البيضاء ، وإحياء الموتى ، طلبوا ذلك على سبيل التعنت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(165/359)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ حكاية لجناية أخرى لهم معطوفةٌ على قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ وصيغةُ المضارعِ لاستحضار صورةِ مقالتهم الشنعاءِ والدلالةِ على الاستمرار والقائلون أهلُ مكة ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ أرادوا آيةً من الآيات التي اقترحوها كأنهم لفرط العتوِّ والفساد ونهايةِ التمادي في المكابرة والعِناد لم يعدّوا البيناتِ النازلةَ عليه عليه الصلاة والسلام من جنس الآياتِ واقترحوا غيرَها مع أنه قد أُنزل عليه من الآيات الباهرةِ والمعجزاتِ المتكاثرةِ ما يضطرهم إلى الانقياد والقبولِ لو كانوا من أرباب العقولِ ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم في الجواب ﴿ إِنَّمَا الغيب للَّهِ ﴾ اللامُ للاختصاص العلميِّ دون التكوينيِّ فإن الغيبَ والشهادةَ في ذلك الاختصاصِ سيان والمعنى أن ما اقترحتموه زعمتم أنه من لوازمِ النبوة وعلّقتم إيمانَكم بنزوله من الغيوب المختصّة بالله تعالى لا وقوف لي عليه ﴿ فانتظروا ﴾ نزولَه ﴿ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ المنتظرين ﴾ أي لما يفعل الله بكم لاجترائكم على مثل هذه

العظيمةِ من جحود الآياتِ واقتراحِ غيرِها وجعلُ الغيبِ عبارةً عن الصارف عن إنزال الآياتِ المقترحةِ يأباه ترتيبُ الأمرِ بالانتظار على اختصاص الغيبِ به تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(166/359)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ حكاية لجناية أخرى لهم ، وفي "الكشاف" تفسير المضارع بالماضي أي وقالوا وجعل ذلك إشارة إلى أن العطف ليس على ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شفعاؤنا ﴾ [يونس : 18] كما يقتضيه ظاهر اللفظ وإنما هو على قوله سبحانه : ﴿ قَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائت بِقُرْءانٍ غَيْرِ هذا ﴾ [يونس : 15] وما بينهما اعتراض وأوثر المضارع على الماضي ليؤذن باستمرار هذه المقالة وأنها من دأبهم وعادتهم مع ما في ذلك من استحضار صورتها الشنيعة .

وجوز العطف على ﴿ يَعْبُدُونَ ﴾ [يونس : 18] وهو الذي اقتصر عليه بعض المحققين

، وأبقى بعضهم الفعل على ظاهره وله وجه ، والقائل كفار مكة ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مّن رَّبِهِ ﴾ أرادوا آيةٍ من الآيات التي اقترحوها كآية موسى .

(167/359)

وعيسى عليهما السلام ، ومعنى إنزالها عليه إظهار الله تعالى لها على يده صلى الله عليه وسلم ، وطلبوا ذلك تعنتاً وعناداً وإلا فقد أتى صلى الله عليه وسلم بآيات ظاهرة ومعجزات باهرة تعلو على جميع الآيات وتفوق سائر المعجزات لا سيما القرآن العظيم الباقي إعجازه على وجه الدهر إلى يوم القيامة ، ولعمري لو أنصفوا لاستغنوا عن كل آية غيره عليه الصلاة والسلام فإنه الآية الكبرى ومن رآه وسبر أحواله لم يكد يشك في أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم في الجواب ﴿ إِنَّمَا الغيب للَّهِ فانتظروا إِنّى مَعَكُمْ مّنَ المنتظرين ﴾ وهو جواب على ما قرره الطيبي على الأسلوب الحكيم فإنهم حين طلبوا ما طلبوا مع وجود الآيات المتكاثرة دل على أن سؤالهم للتعنت كما علمت آنفاً فأجيبوا بما أجيبوا ليؤذن بأن سؤالهم سؤال المقترحين يستحقون به نقمة الله تعالى وحلول عقابه ، يعني أنه لا بد أن يستأصل شأفتكم لكن لا أعلم متى يكون وأنتم كذلك لأن ذلك من الغيب وهو مختص به تعالى لا يعلمه أحد غيره جل شأنه وإذا كان كذلك فانتظروا ما يوجبه اقتراحكم

إني معكم من المنتظرين إياه ، وقيل : إن المراد أنه تعالى هو المختص بعلم الغيب والصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب فلا يعلمه إلا هو ، واعترض عليه بأنه معين وهو عنادهم قال تعالى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : 109] .

(وأجيب بأنا لا نسلم أن عنادهم هو الصارف وقد يجاب المعاند والآية وإن دلت على بقائهم على العناد وإن جاءت لم تدل على أن العناد هو الصارف .

(168/359)

واختار بعض المحققين أن ما اقترحتموه وزعمتم أنه من لوازم النبوة وعلقتم إيمانكم بنزوله من الغيوب المختصة به سبحانه لا وقوف لي عليه فانتظروا نزوله إني معكم من المنتظرين لما يفعل الله تعالى بكم لاجترائكم على مثل هذه العظيمة من جحود الآيات ، واقتراح غيرها ، واعترض على ما قيل بأنه يأباه ترتيب الأمر بالانتظار على اختصاص الغيب به تعالى ، والذي يخطر بالبال أن سؤال القوم قاتلهم الله تعالى متضمن لدعوى أن الصلاح في إنزال آية مما اقترحوا حيث لم يعتبروا ما نزل ولم يلتفتوا إليه فكأنهم قالوا : لا صلاح في نزول ما نزل وإنما الصلاح في إنزال آية مما نقترح فلولا نزلت وفي ذلك دعوى الغيب بلا ريب فأجيبوا بأن الغيب مختص بالله فهو الذي يعلم ما به الصلاح لا أنتم ولا غيركم ثم قال سبحانه : ﴿ فانتظروا ﴾

الخ على معنى وإذا كان علم الغيب مختصاً بالله تعالى وقد ادعيتم من ذلك ما ادعيتم وطعنتم فيما طعنتم فانتظروا نزول العذاب بكم إني معكم من المنتظرين إياه ، ولا يرد على هذا ما أورد على غيره ولا ما عسى أن يورد أيضاً فتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(169/359)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾

عطف على جملة : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ﴾ [يونس : 18] ، فبعد أن ذكر افتراءهم في جانب الإلهية نفى بهتانهم في جانب النبوءة .

والضمير في ﴿ عليه ﴾ عائد للنبيء صلى الله عليه وسلم وإن لم يجر له ذكر قبل ذلك في الآية ، فإن معرفة المراد من الضمير مغنية عن ذكر المعاد .

وقد كان ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بينهم في نواديهم ومناجاتهم في أيام مُقامه بينهم بعد البعثة هو شغلهم الشاغل لهم ، قد أجرى في كلامهم ضمير الغيبة بدون سبق معاد ، علم المتخاطبون أنه المقصود .

ونظير هذا كثير في القرآن .

و(لولا) في قوله : ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ حرف تَحْضيض ، وشأن التحْضيض أن يواجه به المحضض لأن التحضيضَ من الطلب وشأنُ الطلب أن يواجَه به المطلوب ، ولذلك كان تعلق فعل الإنزال بضمير الغائب في هذه الآية مُؤولاً بأحد وجهين:

إما أن يكون التفاتاً ، وأصل الكلام : لولا أنزل عليكَ ، وهو من حكاية القول بالمعنى كقوله تعالى : ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يُقيموا الصلاة ﴾ [إبراهيم : 31] أي قل لهم أقيموا ، ونكتة ذلك نكتة الالتفات لتجديد نشاط السامع .

وإما أن يكون هذا القول صدر منهم فيما بينهم ليبين بعضُهم لبعض شبهة على انتفاء رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أو صدر منهم للمسلمين طمعاً في أن يردوهم إلى الكفر .

والآيةُ : علامة الصدق .

(170/359)

وأرادوا خارقاً للعادة على حسب اقتراحهم مثل قولهم : ﴿ أو ترقى في السماء ﴾ [الإسراء : 93] وقولهم : ﴿ لولا أوتي مثلَ ما أوتي موسى ﴾ [القصص : 48] وهذا من جهلهم بحقائق الأشياء وتحكيمهم الخيال والوهَم في حقائق الأشياء ، فهم يفرضون أن

الله حريص على إظهار صدق رسوله صلى الله عليه وسلم وأنه يستفزّه تكذيبهم إياه فيغضب ويسرع في مجاراة عنادهم ليكفوا عنه ، فإن لم يفعل فقد أفحموه وأعجزوه وهو القادر ، فتوهموا أن مدعي الرسالة عنه غير صادق في دعواه وما دَرَوا أن الله قَدر نظام الأمور تقديراً ، ووضع الحقائق وأسبابها ، وأجرى الحوادث على النظام الذي قدره ، وجعل الأمور بالغة مواقيتها التي حدد لها ، ولا يضره أن يُكذّب المكذّبون أو يعاند الجاهلون وقد وضع لهم ما يليق بهم من الزواجر في الآخرة لا محالة ، وفي الدنيا تارات ، كل ذلك يجري على نُظم اقتضتها الحكمةُ لا يحمله على تبديلها سُؤال سائل ولا تسفيه سفيه . وهو الحكيم العليم .

فهم جعلوا استمرار الرسول صلى الله عليه وسلم على دعوتهم بالأدلة التي أمره الله أن يدعوهم بها وعدم تبديله ذلك بآيات أخرى على حسب رغبتهم جعلوا كل ذلك دليلاً على أنه غير مؤيد من الله فاستدلوا بذلك على انتفاء أن يكون الله أرسله ، لأنه لو أرسله لأيده بما يوجب له القبول عند المرسَل إليهم .

وما درى المساكين أن الله إنما أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة بهم وطلباً لصلاحهم ، وأنه لا يضره عدم قبولهم رحمته وهدايته .

(171/359)

ولذلك أَتَى في حكاية كلامهم العدولُ عن اسم الجلالة إلى لفظ الرب المضاف إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ من ربه ﴾ إيماء إلى الربوبية الخاصة بالتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم وهي ربوبية المصطفي (بصيغة اسم الفاعل) للمصطفى (بصيغة المفعول) من بين بقية الخلق المقتضية الغضب لغضبه لتوهمهم أن غضب الله مثل غضب الخلائق يستدعي الإسراع إلى الانتقام وما علموا أسرار الحكمة الإلهية والحكم الإلهي والعلم الأعلى .

وقد أمر الله رسوله بأن يجيب عن اقتراحهم بما هو الحقيقة المرشدة وإن كانت أعلى من مداركهم جواباً فيه تعريض بالتهديد لهم وهو قوله : ﴿ فقل إنما الغيبُ لله ﴾ ، فجاء بفاء التفريع هنا دون بعض نظائره للإشارة إلى تعقيب كلامهم بالجواب شأن المتمكن من حاله المتثبت في أمره .

والغيب : ما غاب عن حواس الناس من الأشياء ، والمراد به هنا ما يتكون من مخلوقات غير معتادة في العالم الدنيوي من المعجزات .

وتفسير هذا قوله : ﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾ [الأنعام : 109] .

واللام للملك ، أي الأمور المغيبة لا يقدر عليها إلا الله .

وجاء الكلام بصيغة القصر للرد عليهم في اعتقادهم أن في مكنة الرسول الحق أن يأتي بما

يسأله قومُه من الخوارق ، فجعلوا عدم وقوع مقترحهم علامة على أنه ليس برسول من الله ، فلذلك رد عليهم بصيغة القصر الدالة على أن الرسول ليس له تصرف في إيقاع ما سألوه ليعلموا أنهم يرمون بسُؤالهم إلى الجراءة على الله تعالى بالإفحام .

وجملة : ﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ تفريع على جملة : ﴿ إنما الغيب لله ﴾ أي ليس دأبي ودأبكم إلاّ انتظار ما يأتي به الله إن شاء ، كقول نوح لقومه : ﴿ إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ﴾ [هود : 33] .

(172/359)

وهذا تعريض بالتهديد لهم أن ما يأتي به الله لا يترقبون منه إلا شراً لهم ، كقوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقُضي الأمر ثم لا ينظرون ﴾ [الأنعام : 8] .

والمعية في قوله : ﴿ معكم ﴾ مجازية مستعملة في الإشراك في مطلق الانتظار . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(173/359)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾

والآية كما عرفنا هي الشيء العجيب ، وإما أن تكون آية كونية ، أو آية إعجاز ، أو آية قرآن تشتمل على الأحكام .

ولماذا لم يصدقوا آيات القرآن ، وهي معجزة بالنسبة إليهم ؟

نقول : إن استقبال القرآن فَرْع تصديق للرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد حدث اللبس عندهم ؛ لأنهم ظنوا أن الآية هي الآيات الحسّة الكونية المشهودة ، وما علموا أن الآيات التي سبق بها الرسل إنما جاءت لتناسب أزمان رسالاتم ، ولتناسب مواقعهم من المرسل إليهم

.

فقد كان الرسل السابقون لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الرسل السلام قد بُعث كل منهم لأمة محدودة زماناً ومكاناً ؛ ولذلك كانت الآيات التي اصطحبوها آيات حسية ، وكل آية كانت من جنس ما نبغ فيه القوم المبعوث إليهم .

أما رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فهي لعامة الزمان وعامة المكان . فلو جعل الله سبحانه له آية حسية لآمن بها مَنْ شاهدها ، ولَصارَتْ خبراً لمن يشاهدها .

ونحن على سبيل المثال كمسلمين لم نصدِّق أن موسى عليه السلام قد ضرب البحر فانشق له البحر ؛ إلا لأن القرآن قال ذلك ؛ لأن كل أمر حسي يقع مرة واحدة فمن شاهده آمن به ،

ومن لم يره إن حُدِّث به له أن يكذِّب ، وله أن يصدِّق ، ولكنّا صدقنا ؛ لأن القائل هو الحق سبحانه وقد أبلغنا ذلك في القرآن . وثقتنا فيمن قال هي التي جعلتنا نصدق معجزات الرسل السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(174/359)

وقد يتساءل البعض عن السر في عدم إرسال معجزات حسية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنقول : لقد شاء الله سبحانه أن يرسل الرسول صلى الله عليه وسلم بمعجزة باقية إلى أن تقوم الساعة وهي معجزة القرآن . وتتحدث كتب السيرة أن الماء نبع من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ، فمن صدَّق صدَّق ، وإن قرأت ولم تصدِّق ذلك ، فاعلم أنك لست المقصود بها ، فقد كان المقصود بها هم المعاصرون لها ، وقد جاءت لتربيب الإيمان في القوم المعاصرين ؛ لأنهم كانوا في حاجة إلى شَدِّ أزْرِهم الإيماني ، وحدَّثتنا كتب السيرة أيضاً عن حفنة الطعام التي أكل منها عدد كبير من الرجال ، ومن صدَّق الرواية ؛ فليصدِّقها ، ومَن لم يصدِّقها ، فهذه الآية لم تأتِ له ، لكنها جاءت للمعاصرين له صلى الله عليه وسلام .

وهذا لا يمنع أن يكون للرسول صلى الله عليه وسلم معجزات حسية كباقي إخوانه من

الرسل علينا أن نؤمن بها بالثقة فيمن أخبر بها .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ وإن دخلت " لولا " على جملة اسمية ، فالمقصود بها عدم شيء لوجود شيء ، كقول إنسان لآخر : لولا زيد عندك لأتيتك ، وبذلك ينعدم ذهابه إلى فلان لوجود زيد عنده .

وهكذا تكون " لولا " حرف امتناع لوجود ، وكذلك كلمة " لوما " إن وجدتها تدخل على جملة اسمية فاعرف أنها امتناع شيء ، لوجود شيء وإن دخلت " لولا " على جملة فعلية فاعلم أنها حثٌّ وتحضيض .

وهم هنا قد قالوا : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ ﴾ وكأنهم لا يعترفون بالقرآن ، وطلبوا آية حسية ؛ لذلك نجد الحق سبحانه يقول في موقع آخر بالقرآن الكريم : ﴿ لولا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ موسى ﴾ [القصص : 48]

(175/359)

وهذا تأكيد أنهم طلبوا الآية الحسية ؛ لأنهم علموا بالآيات الحسية للرسل السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن قولهم هذا كان تشبثاً بالكفر رغم أنهم شهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل أحواله ، وقد حدثت الآيات الحسية ورآها مَنْ آمن

به ، وزاد تمسكهم بالإيمان .

والذين طلبوا أن يأتي لهم محمد صلى الله عليه وسلم بمعجزة حسية ، كمعجزة موسى عليه السلام ، نسوا أن موسى عليه السلام قد بُعث إلى قوم محدودين هم بنو إسرائيل . أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد بُعث إلى الناس كافة ؛ لذلك كان لا بد أن تكون معجزته متجّدة العطاءات ، وتحمل المنهج المناسب لكل زمان ومكان . أما المعجزة الحسية فهي تنقضي بانقضاء زمانها ومكانها .

أو هم طلبوا الآيات التي اقترحوها مثل قولهم : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ [الإسراء : 9093]

إذن : فهم قد طلبوا آيات اقترحوها بأنفسهم ، والآيات لا تكون باقتراح المرسل إليهم ، بل بتفضُّل المُرْسِل .

ولقائلٍ أن يقول : ولماذا لم يُرسِل الحق سبحانه لهم آية حسية معجزة كما قالوا ؟

فنقول : إن الحق سبحانه قد قال : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء : 59]

وعلى ذلك يكون قولهم بطلب الآيات مدحوضاً ؛ لأن الحق سبحانه قد أرسل الآيات من قبل وكذَّب بها الأولون ، أو هم طلبوا آيات اقترحوها ، ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ وفي هذا إقرار منهم بأن لمحمد صلى الله عليه وسلم ربّاً ، وهو صلى الله عليه وسلم يُبلِّغ عنه ، فكيف إذن يُنكرون أنه رسول ؟ !

ونعلم أنهم قالوا من قبل : " إن رب محمد قد قلاه " حين فتر الوحي عنه صلى الله عليه وسلم ، ولكن الحق سبحانه ردّ عليهم :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ [الضحى : 3]

إذن : هم قد ناقضوا أنفسهم ، ففي الوصل منعوا وأنكروا أن يكون له ربٌّ ، وفي الهجر سلّموا بأن له ربّاً ، وهذا تناقض في الشيء الواحد ، وهو لون من التناقض يؤدي إلى اضطراب الحكم ، واضطراب الحكم يدل على يقظة الهوى .

ثم يقول الحق سبحانه رداً على طلبهم للآية الحسية : ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الغيب للَّهِ ﴾ وهكذا يُعلِّم الحق سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم جواباً احتياطياً ، فمن الممكن أن يُنزل الحق سبحانه الآية الحسية ، ومن الممكن ألا ينزلها ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحكم على ربه ؛ لأن الغيب أمر يخصه سبحانه ، إن شاء جعل ما في الغيب مشهداً ، وإن شاء جعل الغيب غيباً مطلقاً ، وليس عليكم إلا الانتظار ، ويعلن رسول الله صلى الله

عليه وسلم أنه معهم من المنتظرين ﴿ فانتظروا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المنتظرين ﴾ [يونس : 20] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(177/359)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (20) ﴾

أخبر أنه – عليه السلام – في سَتْرِ الغَيْبَة وخفاء الأمر عليه في الجملة لتقاصُرِ علمه عما سيحدث ، فهو في ذلك بمنزلتهم ، إلا في مواطن التخصيص بأنوار التعريف ، فكما أنهم في الانتظار لما يحدث في المستأنف فهو أيضاً في انتظار ما يوجِدُ – سبحانه – من المقادير .

والفَرْقُ بينه – عليه السلام – وبينهم أنه يشهد ما يحصل به – سبحانه – ومنه ، وهم مُتَطَوِّحون في أودية الجهالة ؛ يُحيلُون الأمرَ مرةً على الدَّهْرِ ، ومرةً على النجم ، ومرةٌ على الطبع . . . وكلُّ ذلك حَيْرَةٌ وعَمى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 86 ﴾

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (20) ﴾

التفسير : إنه سبحانه ابتدأ في هذه السورة بذكر شبهات القوم ؛ فالأولى أنهم تعجبوا من تخصيص الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالنبوة فأزال ذلك التعجب بالإنكار وبالدلائل الدالة على صحة المبدا والمعاد فكأنه قيل : إنه ما جاء إلا بدليل التوحيد والإقرار بالمعاد فليس للتعجب معنى . ثم شرع في شبهة أخرى وهي أنهم كانوا يقولون أبداً اللهم إن كان محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء فأجابهم بقوله : ﴿ ولو يعجل الله ﴾ الآية .

وقال القاضي : لما ذكر الوعيد على عدم الإيمان بالمبدإ والمعاد ذكر أن ذلك العذاب من

حقه أن يتأخر عن هذه الحياة الدنيا وإلا نافى التكليف . وقال القفال : لما وصفهم فيما مر بالغفلة أكد ذلك بأن من غاية غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب فبيّن الله تعالى أنه لا مصلحة في تعجيل إيصال الشر إليهم فلعلهم يؤمنون ، أو يخرج من أصلابهم من يؤمن . كانوا عند نزول الشدائد يدعون الله بكشفها كما يجيء في الآية التالية ، وفي الرخاء كانوا يستعجلون النبي بالعذاب فقال ما معناه : ولو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما يعجل لهم الخير ونجيبهم إليه لأميتوا وأهلكوا .

(179/359)

قال في الكشاف : أصل الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم الخير . فوضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل منه لهم . وقيل : التعجيل معناه طلب العجلة إلا أن الاستعجال أشهر وأظهر . فمعنى الآية لو أراد الله عجلة الشر للناس كما أرادوا عجلة الخير لهم . وقيل : هما متلازمان فكل معجل يلزمه الاستعجال إلا أنه تعالى وصف نفسه بتكوين العجلة ووصفهم بطلبها لأن اللائق به التكوين واللائق بهم الطلب . وسمي العذاب في الآية شراً لأنه أذى وألم في حق المعاقب به . ثم إن قوله ﴿ لو يعجل ﴾ كان متضمناً لمعنى نفي التعجيل

فيمكن أن يكون قوله ﴿ فنذرهم ﴾ معطوفاً على منوي كأنه قيل : ولكن لا يعجل فيذرهم إلزاماً للحجة أو لمصالح أخرى . ثم بين أنهم كاذبون في استعجال الشر ولو أصابهم ما طلبوه أظهروا العجل والطيش فقال : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر ﴾ أي هذا الجنس ﴿ دعانا لجنبه ﴾ اللام في معنى الوقت كقولك : جئته لشهر كذا . وإن شئت قلت في موضع الحال لأن الظرف والحال متآخيان فيصح عطف أحدهما على الآخر وتأويل أحدهما بالآخر أي دعانا مضطجعاً ﴿ أو قاعداً أو قائماً ﴾ أو وقت اضطجاعه وقعوده وقيامه . والمراد أنه يدعو الله في جميع أحواله لا يفتر عن الدعاء . ثم إن خص الضر بالمرض احتمل أن يراد أنه يدعو الله حين كان مضطجعاً غير قادر على القعود أو قاعداً غير قادر على القيام ، أو قائماً لا يطيق المشي إلى أن يخف كل الخفة ويرزق الصحة بكمالها . أو يراد أن من المضرورين من هو أسوأ حالاً وهو صاحب الفراش ، ومنهم من هو أخف وهو القادر على القعود ، ومنهم المستطيع للقيام وكلهم لا يصبرون على الضراء . قال بعض المفسرين : الإنسان ههنا هو الكافر . ومنهم من بالغ فقال : كل موضع في القرآن ورد فيه ذكر الإنسان فالمراد به الكافر . وهذا شبه تحكم لورود مثل قوله تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ [الدهر : 1] إلا

أن يساعده نقل صحيح . والأصح عند العلماء العموم لأن الإنسان خلق ضعيفاً لا يصبر على اللأواء ولا يشكر عند النعماء إلا من عصمه الله وقليل ما هم ، وهم الذين نظرهم في جميع الأحوال على المقدر المؤجل للأمور حسب إرادته ومشيئته فلا جرم إن أصابهم السراء شكروا وإن أصابهم الضراء صبروا فأفنوا إرادتهم في إرادته ورضوا بقضائه . قال الزجاج : في الآية تقديم وتأخير والتقدير : وإذا مس الإنسان الضر لجنبه أو قاعداً أو قائماً : وضعف بأن تعديد أحوال الدعاء أبلغ من تعديد أحوال الضر لأنه إذا كان داعياً على الدوام ثم نسي ذلك في وقت الرخاء كان أعجب . ومعنى ﴿ مرّ ﴾ مضى على طريقته التي له قبل مس الضراء ومرّ عن موقف الدعاء والتضرع لا يرجع إليه .

ومعنى ﴿ كأن لم يدعنا ﴾ كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك التزيين ﴿ زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ من تتبع الشهوات . والمزين هو الله تعالى أو النفس أو الشيطان مفرع عن مسألة الجبر والقدر وقد مر مراراً . قال العلماء : سمي الكافر مسرفاً لأنه أنفق ماله من الاستعداد الشريف من القوى البدنية والأموال النفيسة في الأمور الخسيسة الزائلة من الأصنام التي هي أحقر من لا شيء ، ومن الشهوات الفانية التي لا أصل لها ولا دوام . والمسرف في اللغة هو الذي ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس فصح ما قلنا .

ثم ذكر ما يجري مجرى الردع والزجر لهم عن إلقاء الشبه والأغاليط فقال : ﴿ ولقد أهلكنا القرون ﴾ وقد مضى تفسير القرن في أول الأنعام ﴿ ولما ﴾ ظرف لأهلكنا والواو في ﴿ وجاءتهم ﴾ للحال أي ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم ﴿ رسلهم ﴾ بالدلائل ، والحجج على صدقهم وهي المعجزات . وقوله : ﴿ وما كانوا ليؤمنوا ﴾ إما أن يكون عطفاً على ﴿ ظلموا ﴾ أو يكون اعتراضاً واللام لتأكيد النفي ، وإن الله قد علم منهم أنهم يصرون على الكفر والسبب في إهلاكهم تكذيب الرسل وعلم الله بإصرارهم ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الجزاء وهو الاستئصال الكلي نجزي كل مجرم ، وفيه وعيد لأهل مكة على تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم خاطب الذين بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ ثم جعلناكم خلائف ﴾ أي استخلفناكم ﴿ في الأرض ﴾ بعد تلك القرون ﴿ لننظر كيف تعملون ﴾ خيراً أو شراً . استعير النظر للعمل الحقيقي الذي لا يتطرق إليه شك ، ويعني به العلم الذي يتعلق به الجزاء كما مر في " الأعراف " . قال قتادة : صدق الله ربنا ما جعلنا خلفاء إلا لينظر إلى أعمالنا فأروا الله من أعمالكم خيراً بالليل والنهار . ثم حكى نوعاً ثالثاً من شبهاتهم فقال : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين

لا يرجون لقاءنا ﴾ أي لا يؤمنون بالمعاد لأن كل من كان مؤمناً بالنشور فإنه يرجو ثواب الله ويخاف عقابه ، وانتفاء اللازم دليل انتفاء الملزوم . طلبوا من الرسول أحد أمرين : إما الإتيان بقرآن غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله ، إما تبديل هذا القرآن بنسخ بعض الآيات ووضع أخرى في مكانها . فأمره الله تعالى أن يقول في جوابهم ﴿ ما يكون لي ﴾ أي ما ينبغي وما يحل ﴿ أن أبدله من تلقاء نفسي ﴾ من قبل نفسي فنفى عن نفسه أحد القسمين الذي هو أسهل وأقل ليلزم منه نفي الأصعب الأكثر بالطريق الأولى . ثم أكد الجواب بقوله : ﴿ إن أتبع ﴾ أي ما أتبع ﴿ إلا ما يوحى إلي ﴾ إن نسخت آية تبعت النسخ

(182/359)

وإن بدلت آية مكان آية تبعت التبديل .

(183/359)

وقد تمسك بهذا نفاة القياس ونفاة جواز الاجتهاد وأجيب بأن رجوعهما أيضاً إلى الوحي . ونقل عن ابن عباس أن قوله : ﴿ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ منسوخ بقوله : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : 2] وضعف بأن النسخ إنما يكون في الأحكام والتعبدات لا في ترتيب العقاب على المعصية . قال المفسرون : هذا الالتماس منهم يحتمل أن يكون على سبيل السخرية . فقد روى مقاتل والكلبي أنهم خمسة نفر من مشركي مكة وهم المستهزؤون في قوله : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ [الحجر : 95] . ويحتمل أن يكون على سبيل التجربة والامتحان حتى إنه إن فعل ذلك علموا أنه كاذب ، أو أرادوا أن هذا القرآن مشتمل على ذم آلهتهم فطلبوا قرآناً آخر لا يكون كذلك . ثم أكد كون هذا القرآن من عند الله سبحانه وأنه غير مستبد في إيراده فقال : ﴿ لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم ﴾ ولا أعلمكم الله ﴿ به ﴾ على لساني . ومن قرأ بلام الابتداء . فمعناه ما تلوته أنا عليكم ولأخبركم الله به على لسان غيري ، ولكنه يمنّ على من يشاء من عباده فرآني أهلاً لذلك دون غيري . وقرىء ﴿ لا أدرأكم به ﴾ بالهمزة . ووجهه أن تكون الهمزة مقلوبة من الألف ، أو يكون من الدرء الدفع . ومعنى ادرأته جعلته دارئاً أي لم أجعلكم بتلاوته خصماً تدرؤنني بالجدال وتكذبونني ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً ﴾ أي بعضاً معتبراً من العمر وهو أربعون سنة ﴿ من قبله ﴾ أي من قبل نزول القرآن ﴿ أفلا تعقلون ﴾ فيه قدح في صحة عقولهم لأن ظهور

مثل هذا الكتاب العظيم المشتمل على علوم الأوّلين والآخرين المعجز للثقلين عن معارضته على من عرفوا حاله من عدم التعلم والمدارسة ومخالطة العلماء إذا شك فيه أنه من قبيل الوحي والمدد السماوي ، كان ذلك إنكاراً للضروريات وافتراء على الله فلهذا قال ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ الآية . وفيه أن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله ثم نسبه الرسول صلى الله عليه

(184/359)

وسلم إلى الله لم يكن أحد أظلم منه . ثم قبح الله أصنامهم معارضة لهم بنقيض مقصودهم من الالتماس فقال ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ﴾ إن لم يعبدوه ﴿ ولا ينفعهم ﴾ إن عبدوه ومن حق المعبود أن يكون مثيباً معاقباً . وفيه إشعار بأنها جماد ، والمعبود لا بد أن يكون أكمل من العابد ، وإذا كانت المنافع والمضار كلها من الله فلا تليق العبادة إلا له ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ قد ذكرنا وجه ذلك في أوائل سورة البقرة في قوله : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ [الآية : 22] ثم أنكر عليهم معتقدهم بقوله : ﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم ﴾ والمراد أنه لا وجود لكونهم شفعاء إذ لو كان موجوداً لكان معلوماً للعالم بالذات المحيط بجميع المعلومات وهذا مجاز مشهور .

تقول : ما علم الله ذلك مني . والمقصود أنه ما وجد منك ذلك قط . وفي قوله : ﴿ في السموات ولا في الأرض ﴾ تأكيد آخر لنفيه لأن ما لم يوجد فيهما فهو منتفٍ معدوم . قوله : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ إما أن يكون من تمام ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ، أو ابتداء كلام من الله تعالى تنزيهاً لنفسه عن إشراكهم أو عن الشركاء الذين يشركونهم به . ثم بيّن أن عبادة الأصنام بدعة وأن الناس – يعني العرب أو البشر كلهم – كانوا على الدين الحق فاختلفوا . وقد مر تفسير مثله في سورة البقرة في قوله : ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ [الآية : 213] والمقصود ههنا تقبيح صورة الشرك وعبادة الأصنام من دون الله في أعينهم ، وتنفير طباعهم عن مثل هذا الأمر المستحدث الفظيع ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ من بناء أمر الثواب والعقاب على التكليف لا على الإلجاء والقسر ، أو من تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة ، أو من قوله : " سبقت رحمتي غضبي " ﴿ لقضى بينهم ﴾ عاجلاً ولميز المحق من المبطل . ثم ذكر نوعاً رابعاً من أغاليطهم فقال : ﴿ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ وقد مر تفسيره في " الأنعام " في قوله : ﴿ لولا نزل عليه آية من ربه ﴾ [الأنعام : 37] كأنهم لم يعتدّوا بالقرآن آية فاقترحوا غيره تعنتاً . ﴿ فقال إنما

الغيب لله ﴿ هو المختص بعلمه ﴿ فانتظروا ﴾ نزول ما اقترحتموه وهذا أمر فيه تهديد ووعيد والله ورسوله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 566 .

570 ﴾

(186/359)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (21) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان طلبهم محركاً لنفوس الخيّرين إلى ترجي إجابة سؤالهم ، أتبعه سبحانه بما يبين أن ذلك غير نافع لهم لأنه محض تعنت .

فقال تعالى عاطفاً على قوله ﴿ قال الكافرون إن هذا لسحر مبين ﴾ أو ﴿ وإذا مسَّ الإنسان الضر ﴾ مبيناً أن رحمته محققة الوجود كثيرة الورود إليهم مبيناً أن لهم آية عظمى من أنفسهم لا يحتاجون معها إلى التعنت بطلب آية وهي دالة على نتيجة مقصود السورة الذي هو الوحدانية وأن إشراكهم إنما هو بما لهم من نقص الغرائز الموجب لكفران الإحسان

، وذلك أنهم عامة إذا أكرموا بنعمة قابلوها بكفر جعلوا ظرفه على مقدار ظرف تلك النعمة بما أشار إليه التعبير ب " إذا " ثم إذا مسهم الضر ألجأهم إلى الحق فأخلصوا ، لم يختلف حالهم في هذا قط ، وهذا الإجماع من الجانبين دليل واضح على كلا الأمرين ؛ الكفر ظلماً بما جر إليه من البطر .

والتوحيد حقاً بما دعا إليه من الفطرة القويمة الكائنة في أحسن تقويم بما زال عنها إلحاق الضرر من الحظوظ والشهوات والفتور ، وهذا كما وقع في سورة الروم المافقة لهذه في الدلالة على الوحدانية فلذا عبر في كل منهما بالناس ليكون إجماعهم دليلاً كافياً عليها وسلطاناً جليلاً مضطراً إليها – والله الهادي : ﴿ وإذا أذقنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ الناس ﴾ أي الذين لهم وصف الاضطراب ﴿ رحمة ﴾ أي نعمة رحمناهم بها من غير استحقاق .

(187/359)

ولما كان كان وجود النعمة لا يستغرق الزمان الذي يتعقب النقمة ، أدخل الجار فقال : ﴿ من بعد ضراء ﴾ أي قحط وغيره ﴿ مستهم ﴾ فاجأوا المكر وهو معنى ﴿ إذا لهم مكر ﴾ أي عظيم بالمعاصي التي يفعلون في الاستخفاء بأغلبها فعل الماكر ﴿ في آياتنا ﴾

إشارة إلى أنهم لا ينفكون عن آياته العظام ، فلو كانوا منتفعين بالآيات اهتدوا بها ، فإذا أتتهم رحمة من بعد نقمة لم يعدوها آية دالة على من أرسلها لهم لخرقها لما كانوا فيه من عادة النقمة مع أنهم يعترفون بأنه لا يقدر على إرسالها وصرف الشدة إلا هو سبحانه ، بل يعملون فيها عمل الماكرين بأن يصرفوها عن ذلك بأنواع الصوارف كأن ينسبوها إلى الأسباب كنسبة المطر للأنواء ونحو ذلك غير خائفين من إعادة مثل تلك الضراء أو ما هو أشد منها .

(188/359)

ولما كانت هذه الجملة دالة على إسراعهم بالمكر من ثلاثة أوجه : التعبير بالذوق الذي هو أول المخالطة ولفظ " من " التي هي للابتداء و " إذا " الفجائية ، كان كأنه قيل : أسرعوا جهدهم في المكر ، فقيل : ﴿ قل الله ﴾ أي الذي له له الإحاطة الكاملة بكل شيء ﴿ أسرع مكراً ﴾ ومعنى اوصف بالأسرعية أنه قضى بعقابهم قبل تدبيرهم مكايدهم - نبه عليه أبو حيان ولما كان المكر إخفاء الكيد ، بين لهم سبحانه أنهم غير قادرين على مطلق المكر في جهته عز شأنه وتعالى كبرياءه وسلطانه ، لأنه عالم بالسر وأخفى ، بل لا يمكرون مكراً إلا ورسله سبحانه مطلعون عليه فكيف به سبحانه ! فقال تعالى مؤكداً لأجل إنكارهم : ﴿ إن رسلنا ﴾ أي على ما لهم من العظمة بإضافتهم إلينا ﴿ يكتبون ﴾

أي كتابة متجددة على سبيل الاستمرار باستمرار المكتوب ﴿ ما تمكرون ﴾ لأنهم قد وكلوا بكم قبل كونكم نطفاً ولم يوكلوا بكم إلا بعد علم موكلهم بكل ما يفعلونه ولا يكتبون مكركم إلا بعد اطلاعهم عليه ، وأما هو سبحانه فإذا قضى لا يمكن أن يطلع عليه رسله إلا باطلاعه فكيف بغيرهم ! وإذا تبين أنه عالم بأمورهم وهم جاهلون بأموره ، علمَ أنه لا يدعهم يدبرون كيداً إلا وقد سبب له ما يجعله في نحورهم ؛ والمكر : فتل الشيء إلى غير وجهه على طريق الحيلة فيه ؛ والسرعة ؛ الشيء في وقته الذي هو أحق به ، وقد تضمنت الآية البيان عما يوجبه حال الجاهل من تضييع حق النعمة والمكر فيها وإن جلت منزلتها وأتت على فاقة إليها وشدة حاجة إلى نزولها مع الوعيد بعائد الوبال على الماكر فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 429 . 430 ﴾

(189/359)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القرآات : ﴿ يمكرون ﴾ بياء الغيبة : سهل وروح . الباقون : بالتاء الفوقانية . ﴿ ينشركم ﴾ النون : ابن عامر ويزيد . الباقون ﴿ يسيركم ﴾ من التسيير ﴿ متاع ﴾

بالنصب : حفص والمفضل . الباقون بالرفع ﴿ قطعاً ﴾ بسكون الطاء : ابن كثير وعلي وسهل ويعقوب . والآخرون بفتحها ﴿ تتلو ﴾ بتاءين من التلاوة : حمزة وعلي وخلف وروح ، وروي عن عاصم ﴿ نبلو ﴾ بالنون ثم الباء الموحدة . ﴿ كل نفس ﴾ بالنصب الباقون : بتاء التأنيث ﴿ كل ﴾ بالرفع .

الوقوف : ﴿ آياتنا ﴾ ط ﴿ مكراً ﴾ ط ، ﴿ تمكرون ﴾ ه ﴿ والبحر ﴾ ط ﴿ في الفلك ﴾ ج ط للعدول مع أن جواب " إذا " منتظر ، ﴿ أحيط بهم ﴾ لا لأن قوله : ﴿ دعوا ﴾ بدل من ﴿ ظنوا ﴾ لأن دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك فهو متلبس به ، وإن جعل ﴿ دعوا ﴾ جواباً عن سؤال سائل فما صنعوا كان للوقف وجه . ﴿ الدين ﴾ ج لاحتمال إضمار القول وجعل الدعاء في معنى القول ﴿ الشاكرين ﴾ ه ﴿ بغير الحق ﴾ ط . ﴿ على أنفسكم ﴾ ط ، إلا لمن جعله متعلقاً ب ﴿ بغيكم ﴾ ﴿ تعملون ﴾ ه ﴿ الأنعام ﴾ ط ﴿ عليها ﴾ لا لأن ما بعده جواب " إذا " . ﴿ بالأمس ﴾ ط ﴿ يتفكرون ﴾ ه ﴿ السلام ﴾ ط ﴿ مستقيم ﴾ ه ﴿ وزيادة ﴾ ط ﴿ ولا ذلة ﴾ ط ، ﴿ الجنة ﴾ ج ط ﴿ خالدون ﴾ ه ﴿ بمثلها ﴾ لا لأن قوله ﴿ وترهقهم ﴾ معطوف على محذوف أي يلزمهم جزاء سيئة وترهقهم ذلة . ﴿ عاصم ﴾ ج ط لأن الكاف لا يتعلق ب ﴿ عاصم ﴾ مع تعلقها بذلة قبله معنىً ، لأن رهق الذلة سواد الوجه المعبر عنه بقوله كأنما ﴿ مظلماً ﴾ ط ﴿ أصحاب النار ﴾ ج ط ﴿ خالدون ﴾ ه ﴿

وشركاؤكم ﴾ ج للعدول مع فاء التعقيب ﴿ تعبدون ﴾ ه ﴿ لغافلين ﴾ ه ﴿ يفترون ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 571 ﴾

(190/359)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن القوم لما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم آية أخرى سوى القرآن ، وأجاب الجواب الذي قررناه وهو قوله : ﴿ إِنَّمَا الغيب للَّهِ ﴾ [يونس : 20] ذكر جوابا آخر وهو المذكور في هذه الآية ، وتقريره من وجهين :

الوجه الأول : أنه تعالى بين في هذه الآية أن عادة هؤلاء الأقوام المكر واللجاج والعناد وعدم الإنصاف ، وإذا كانوا كذلك فبتقدير أن يعطوا ما سألوه من إنزال معجزات أخرى ، فإنهم لا يؤمنون بل يبقون على كفرهم وجهلهم ، فنفتقر ههنا إلى بيان أمرين : إلى بيان أن عادة هؤلاء

الأقوام المكر واللجاج والعناد ، ثم إلى بيان أنه متى كان الأمر كذلك لم يكن في إظهار سائر المعجزات فائدة .

أما المقام الأول : فتقريره أنه روي أن الله تعالى سلط القحط على أهل مكة سبع سنين ثم رحمهم ، وأنزل الأمطار النافعة على أراضيهم ، ثم إنهم أضافوا تلك المنافع الجليلة إلى الأصنام وإلى الأنواء ، وعلى التقديرين فهو مقابلة للنعمة بالكفران .

فقوله : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً ﴾ المراد منه تلك الأمطار النافعة .

وقوله : ﴿ مّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ ﴾ المراد منه ذلك القحط الشديد .

وقوله : ﴿ إِذَا لهم مكر في آياتنا ﴾ المراد منه إضافتهم تلك المنافع الجليلة إلى الأنواء والكواكب أو إلى الأصنام .

(191/359)

واعلم أنه تعالى ذكر هذا المعنى بعينه فيما تقدم من هذه السورة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضرّ مسها ﴾ [يونس : 12] إلا أنه تعالى زاد في هذه الآية التي نحن في تفسيرها دقيقة أخرى ما ذكرها في تلك الآية ، وتلك الدقيقة هي أنهم يمكرون عند وجدان الرحمة ،

ويطلبون الغوائل ، وفي الآية المتقدمة ما كانت هذه الدقيقة مذكورة ، فثبت بما ذكرنا أن عادة هؤلاء الأقوام اللجاج والعناد والمكر وطلب الغوائل .

وأما المقام الثاني : وهو بيان أنه متى كان الأمر كذلك فلا فائدة في إظهار سائر الآيات ، لأنه تعالى لو أظهر لهم جميع ما طلبوه من المعجزات الظاهرة فإنهم لا يقبلونها ، لأنه ليس غرضهم من هذه الاقتراحات التشدد في طلب الدين ، وإنما غرضهم الدفع والمنع والمبالغة في صون مناصبهم الدنيوية ، والامتناع من المتابعة للغير ، والدليل عليه أنه تعالى لما شدد الأمر عليهم وسلط البلاء عليهم ، ثم أزالها عنهم وأبدل تلك البليات بالخيرات ، فهم مع ذلك استمروا على التكذيب والجحود ، فدل ذلك على أنه تعالى لو أنزل عليهم الآيات التي طلبوها لم يلتفتوا إليها ، فظهر بما ذكرنا أن هذا الكلام جواب قاطع عن السؤال المتقدم .

الوجه الثاني : في تقرير هذا الجواب : أن أهل مكة قد حصل لهم أسباب الرفاهية وطيب العيش ، ومن كان كذلك تمرد وتكبر كما قال تعالى :

(192/359)

﴿ إِنَّ الإنسان ليطغى أَن رَّءاهُ استغنى ﴾ [العلق : 6 ، 7] وقرر تعالى هذا المعنى بالمثال المذكور ، فإقدامهم على طلب الآيات الزائدة والاقتراحات الفاسدة ، إنما كان لأجل ما هم

فيه من النعم الكثيرة والخيرات المتوالية ، وقوله : ﴿ قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ كالتنبيه على أنه تعالى يزيل عنهم تلك النعم ، ويجعلهم منقادين للرسول مطيعين له ، تاركين لهذه الاعتراضات الفاسدة ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً ﴾ كلام ورد على سبيل المبالغة ، والمراد منه إيصال الرحمة إليهم .

واعلم أن رحمة الله تعالى لا تذاق بالفم ، وإنما تذاق بالعقل ، وذلك يدل على أن القول بوجود السعادات الروحانية حق .

المسألة الثالثة :

قال الزجاج ﴿ إِذَا ﴾ في قوله : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً ﴾ للشرط و ﴿ إِذَا ﴾ في قوله ﴿ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ ﴾ جواب الشرط وهو كقوله : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم : 36] والمعنى : إذا أذقنا الناس رحمة مكروا وإن تصبهم سيئة قنطوا .

واعلم أن ﴿ إِذَا ﴾ في قوله : ﴿ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ ﴾ تفيد المفاجأة ، معناه أنهم في الحال أقدموا على المكر وسارعوا إليه .

المسألة الرابعة :

سمي تكذيبهم بآيات الله مكراً ، لأن المكر عبارة عن صرف الشيء عن وجهه الظاهر بطريق الحيلة ، وهؤلاء يحتالون لدفع آيات الله بكل ما يقدرون عليه من إلقاء شبهة أو تخليط في مناظرة أو غير ذلك من الأمور الفاسدة .

قال مقاتل : المراد من هذا المكر هو أن هؤلاء لا يقولون هذا رزق الله ، بل يقولون سقينا بنوء كذا .

(193/359)

أما قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ فالمعنى أن هؤلاء الكفار لما قابلوا نعمة الله بالمكر ، فالله سبحانه وتعالى قابل مكرهم بمكر أشد من ذلك ، وهو من وجهين : الأول : ما أعد لهم يوم القيامة من العذاب الشديد ، وفي الدنيا من الفضيحة والخزي والنكال .

والثاني : أن رسل الله يكتبون مكرهم ويحفظونه ، وتعرض عليهم ما في بواطنهم الخبيثة يوم القيامة ، ويكون ذلك سبباً للفضيحة التامة والخزي والنكال نعوذ بالله تعالى منه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 53.54 ﴾

(194/359)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الناس ﴾

يعني : أصبنا الناس ﴿ رَحْمَةً ﴾ ، يعني : المطر ، ويقال : العافية ، ﴿ مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ ﴾ ، من بعد القحط ومن بعد الشدة والبلاء .

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً مِّن ﴾ ، يعني : تكذيباً بالقرآن ، ويقال : تكذيباً بنعمة الله تعالى ، ويقولون : سقينا بنوء كذا ولا يقولون : هذا من رزق الله تعالى ، وقال القتبي : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً مِّن ﴾ يعني : قولهم بالطعن والحيلة ليجعلوا لتلك الرحمة سبباً آخر ﴿ قُلِ الله أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ ، يعني : أشد عذاباً وأشد أخذاً .

﴿ إِنَّ رُسُلَنَا ﴾ الحفظة ﴿ يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ ، يعني : الحفظة يكتبون ما تقولون من التكذيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا الناس ﴾

يعني الكفار ﴿ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ ﴾ أي راحة ورخاء بعد شدة وبلاء ، وقيل : عنى به القطر بعد القحط ﴿ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾ قال مجاهد : استهزاء وتكذيب . مقاتل بن حسان : لا يقولون هذا رزق الله فإنما يقولون : سقينا بنوء كذا وهو قوله : ﴿

وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: 82] ﴿ قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً ﴾ أعجل عقوبة وأشد أخذاً وأقدر على الجزاء، وقال مقاتل صنيعاً. ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا ﴾ حفظتنا ﴿ يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ قرأ العامة بالتاء لقوله، وقراءة الحسن ومجاهد وقتادة ويعقوب: يمكرون بالياء لقوله: ﴿ إِذَا لَهُمْ ﴾ وهي رواية هارون عن أبي عمرو. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(195/359)

وقال الماوردى:

قوله عز وجل: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ ﴾

فيه أربعة أوجه:

أحدها: رخاء بعد شدة.

الثاني: عافية بعد سقم.

الثالث: خصباً بعد جدب، وهذا قول الضحاك.

الرابع: إسلاماً بعد كفر وهو المنافق، قاله الحسن.

﴿ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا ﴾ فيه وجهان:

أحدهما : أن المكر ها هنا الكفر والجحود ، قاله ابن بحر .

الثاني : أنه الاستهزاء والتكذيب ، قاله مجاهد .

ويحتمل ثالثاً : أن يكون المكر ها هنا النفاق لأنه يظهر الإيمان ويبطن الكفر . ﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً ﴾ يعني أسرع جزاء على المكر . وقيل إن سبب نزولها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعا على أهل مكة بالجدب فقحطوا سبع سنين كسني يوسف إجابة لدعوته ، أتاه أبو سفيان فقال يا محمد قد كنت دعوت بالجدب فأجدبنا فادع الله لنا بالخصب فإن أجابك وأخصبنا صدقناك وآمنا بك ، فدعا لهم واستسقى فسقوا وأخصبوا ، فنقضوا ما قالوه وأقاموا على كفرهم ، وهو معنى قوله ﴿ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(196/359)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وإذا أذقنا الناس ﴾ الآية

المراد ب ﴿ الناس ﴾ في هذه الآية الكفار وهي بعد تتناول من العاصين من لا يؤدي شكر الله تعالى عند زوال المكروه عنه ولا يرتدع بذلك عن معاصيه ، وذلك في الناس كثير ، و"

الرحمة " هنا بعد الضراء ، كالمطر بعد القحط والأمن بعد الخوف والصحة بعد المرض ونحو هذا مما لا ينحصر ، و" المكر " الاستهزاء والطعن عليها من الكفار واطراح الشكر والخوف من العصاة ، ووصف مكر الله بالسرعة وإن كان الاستدراج بمهلهم لأنه متيقن به واقع لا محالة ، وكل آت قريب ، قال أبو حاتم : قرأ الناس " أن رسُلنا " بضم السين ، وخفف السين الحسن وابن أبي إسحاق وأبو عمرو ، وقال أبو علي ﴿ أسرع ﴾ من سرع ولا يكون من أسرع يسرع ، قال ولو كان من أسرع لكان شاذاً .

قال القاضي أبو محمد : وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في نار جهنم " لهي أسود من القار " وما حفظ للنبي صلى الله عليه وسلم فليس بشاذ . وقرأ الحسن والأعرج ونافع وقتادة ومجاهد " تمكرون " بتاء على المخاطبة وهي قراءة أهل مكة وشبل وأبي عمرو وعيسى وطلحة وعاصم والأعمش والجحدري وأيوب بن المتوكل ، ورويت أيضر عن نافع والأعرج ، قال أبو حاتم : قال أيوب بن المتوكل : في مصحف أبيّ " يا أيها الناس إن الله أسرع مكراً وإن رسله لديكم يكتبون ما تمكرون " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(197/359)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإِذا أذقنا الناس رحمة ﴾

سبب نزولها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دعا على أهل مكة بالجدب فقحطوا سبع سنين ، أتاه أبو سفيان ، فقال : ادع لنا بالخصب ، فإن أخصبنا صدَّقناك ، فدعا لهم ، فسُقوا ولم يؤمنوا ، ذكره الماوردي .

قال المفسرون : المراد بالناس هاهنا : الكفار .

وفي المراد بالرحمة والضراء ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الرحمة : العافية والسرور ، والضراء : الفقر والبلاء ، قاله ابن عباس .

والثاني : الرحمة : الإِسلام ، والضراء : الكفر ، وهذا في حق المنافقين ، قاله الحسن .

والثالث : الرحمة : الخصب ، والضراء : الجدب ، قاله الضحاك .

وفي المراد بالمكر هاهنا أربعة أقوال :

أحدها : أنه الاستهزاء والتكذيب ، قاله مجاهد ، ومقاتل .

والثاني : أنه الجحود والرد ، قاله أبو عبيدة .

والثالث : أنه إِضافة النعم إِلى غير الله ، فيقولون : سُقينا بنوء كذا ، قاله مقاتل بن حيان .

والرابع : أن المكر : النفاق ، لأنه إِظهار الإِيمان وإِبطان الكفر ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ قل الله أسرع مكراً ﴾ أي : جزاءً على المكر .

﴿ إنَّ رسلنا ﴾ يعني الحفظة ﴿ يكتبون ما تمكرون ﴾ أي : يحفظون ذلك لمجازاتكم عليه .

وقرأ يعقوب إلا رويساً وأبا حاتم ، وأبان عن عاصم : "يمكرون" بالياء . انتهى انتهى . اهـ

﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(198/359)

وقال القرطبى :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾

يريد كفار مكة .

﴿ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ ﴾ قيل : رخاء بعد شدّة ، وخِصب بعد جَدْب .

﴿ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾ أي استهزاء وتكذيب .

وجواب قوله : "وَإِذَا أَذَقْنَا" : "إِذَا لَهُمْ" على قول الخليل وسيبويه .

﴿ قُلِ اللهُ أَسْرَعُ ﴾ ابتداء وخبر .

﴿ مَكْراً ﴾ على البيان ، أي أعجل عقوبة على جزاء مكرهم ، أي أن ما يأتيهم من العذاب أسرع في إهلاكهم مما أتوه من المكر .

﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ يعني بالرسل الحفظة .

وقراءة العامة "تمكرون" بالتاء خطاباً .

وقرأ يعقوب في رواية رُوَيْس وأبو عمرو في رواية هارون العَتَكي "يمكرون" بالياء ؛ لقوله : ﴿ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾ قيل : قال أبو سفيان قُحِطنا بدعائك فإن سقيتنا صدقناك ؛ فسُقُوا باستسقائه صلى الله عليه وسلم فلم يؤمنوا ، فهذا مكرهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(199/359)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة ﴾

يعني رخاء ونعمة ﴿ من بعد ضراء مستهم ﴾ يعني من بعد شدة وبلاء وضيق في العيش أصابهم والمراد بالناس هنا : كفار مكة ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى حبس عنهم المطر سبع سنين حتى هلكوا من الجوع والقحط ، ثم إن الله سبحانه وتعالى رحمهم ، فأنزل عليهم المطر الكثير حتى أخصبت البلاد وعاش الناس بعد ذلك الضر فلم يتعظوا بذلك بل رجعوا إلى الفساد والكفر والمكر وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إذا لهم مكر في آياتنا ﴾

قال مجاهد : أي تكذيب واستهزاء وقال مقاتل وابن حيان : لا يقولون هذا رزق الله إنما يقولون سقينا بنوء كذا وكذا .

ويدل على صحة هذا القول ما روي عن زيد بن خالد الجهني قال : صلى بنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف ، أقبل على الناس فقال : " هل تدرون ماذا قال ربكم " ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : قال " أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب " أخرجاه في الصحيحين .

قوله : على أثر سماء كانت من الليل أي مطر كان قد وقع في الليل وسمي المطر سماء لأنه يقطر من السماء .

والأنواء عند العرب : هي منازل القمر إذا طلع نجم سقط نظيره وكانوا يعتقدون في الجاهلية أنه لا بد عند ذلك من وجود مطر أو ريح كما يزعم المنجمون أيضاً فمن العرب من يجعل ذلك التأثير للطالع لأنه ناء أي ظهر وطلع ومنهم من ينسبه للغارب فنفى النبي عليه السلام صحة ذلك ونهى عنه وكفَّر معتقده إذا اعتقد أن النجم فاعل ذلك التأثير وأما من يجعله دليلاً ، فهو جاهل بمعنى الدلالة .

وأما من أسند ذلك إلى العادة التي يجوز انخرامها فقد كرهه قوم وحرمه قوم ومنهم من تأول الكفر بكفر نعمة الله والله أعلم وسمى تكذيبهم بآيات الله مكراً لأن المكر عبارة عن صرف الشيء عن وجهه الظاهر بنوع من الحيلة وكان كفار مكة يحتالون في دفع آيات الله بكل ما يقدرون عليه من المفاسد : ﴿ قل الله أسرع مكراً ﴾ أي : قل لهم يا محمد الله أعجل عقوبة وأشد أخذاً وأقدر على الجزاء وإن عذابه في هلاكهم أسرع إليكم مما يأتي منكم في دفع الحق ولما قابلوا نعمة الله بالمكر ، قابل مكروهم بمكر أشد منه وهو أمهلهم إلى يوم القيامة ﴿ إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ يعني الحفظة الكرام الكاتبين يكتبون ويحفظون عليهم الأعمال القبيحة السيئة إلى يوم القيامة حتى يفتضحوا بها ويجزون على مكرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(201/359)

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾

لما ذكر تعالى قوله : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون ﴾ الآية ثم ذكر

قوله : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آية ﴾ وذلك على سبيل التعنت أخبر أنّ هؤلاء إنما يصيرون لهذه المقالات عندما يكونون في رخاء من العيش وخلو بال ، وأنّ إحسان الله تعالى قابلوه بما لا يجوز من ابتغاء المكر لآياته ، وكان خليقاً بهم أن يكونوا أول من صدق بآياته .

وإعراضهم عن الآيات نظير قوله : ﴿ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ .

وسبب نزولها أنه لما دعا على أهل مكة الرسول بالجدب قحطوا سبع سنين ، فأتاه أبو سفيان فقال : إدع لنا بالخصب ، فإنّ أخصبنا صدقنا ، فسأل الله لهم فسقوا ولم يؤمنوا ، وهذه وإن كانت في الكفار فهي تتناول من العاصين من لا يؤدّي شكر الله عند زوال المكروه عنه ، ولا يرتدع بذلك عن معاصيه ، وذلك في الناس كثير .

تجد الإنسان يعقد عند مس الضر التوبة والتنصل من سائر المعاصي ، فإذا زال عنه رجع إلى أقبح عاداته .

والرحمة هنا الغيث بعد القحط ، والأمن بعد الخوف ، والصحة بعد المرض ، والغنى بعد الفقر ، وما أشبه ذلك .

ومعنى مستهم خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم ، ومعنى مكر في آياتنا التكذيب بالقرآن ، والشك فيه قاله الجماعة .

وقال مجاهد ومقاتل : الاستهزاء والتكذيب .

وقال أبو عبيدة : الرد والجحود .

وحكى الماوردي النفاق لأنه إظهار الإيمان وإبطان الكفر ، وهو شبيه بما قال الزمخشري : إنّ المكر أخفى الكيد .

وقال ابن عطية : والمكر الاستهزاء والطعن عليها من الكفار ، واطراح الشكر والخوف من العصاة انتهى .

(202/359)

والإذاقة والمس هنا مجازان ، وفي هذه الجملة دليل على سرعة تقلب ابن آدم من حالة الخير إلى حالة الشر ، وذلك بلفظ أذقنا ، كأنه قيل : أول ذوقه الرحمة قبل أن يدوام استطعامها مكروه بلفظ من المشعرة بابتداء الغاية أي : ينشىء المكر إثر كشف الضراء لا يمهل ذلك .

وبلفظ إذا الفجائية الواقعة جواباً لإذا الشرطية ، أي في وقت إذاقة الرحمة فاجأوا بالمكر .

ولما كانت هذه الجملة كما قلنا تتضمن سرعة المكر منهم قيل : قل الله أسرع مكراً فجاءت أفعل التفضيل .

ومعنى وصف المكر بالأسرعية : أنه تعالى قبل أن يدبروا مكائدهم قضى بعقابكم ، وهو موقعه بكم ، واستدرجكم بإمهاله .

قال ابن عطية : أسرع من سرع ، ولا يكون من أسرع يسرع ، حكى ذلك أبو علي .

ولو كان من أسرع لكان شاذاً وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " في نار جهنم لهي أسود من القار " وما حفظ من النبي (صلى الله عليه وسلم) فليس بشاذ انتهى .

وقيل : أسرع هنا ليست للتفضيل ، وحكاية ذلك عن أبيّ على هو مذهب .

وفي بناء التعجب وأفعل التفضيل من أفعل ثلاثة مذاهب : المنع مطلقاً وما ورد من ذلك فهو شاذ ، والجواز مطلقاً ، والتفصيل بين أن تكون الهمزة فيه للنقل فيمنع ، أو لغير النقل فيجوز ، نحو : أشكل الأمر وأظلم الليل ، وتقرير الصحيح من ذلك هو في علم النحو وأما تنظير أسود من القار بأسرع ففاسد ، لأن أسود ليس فعله على وزن أفعل ، وإنما هو على وزن فعل نحو سود فهو أسود ، ولم يمتنع التعجب ولا بناء أفعل التفضيل عند البصريين من نحو : سود وحمر وأدم إلاّ لكونه لوناً ، وقد أجاز ذلك بعض الكوفيين في الألوان مطلقاً ، وبعضهم في السواد والبياض فقط .

والرسل هنا الحفظة بلا خلاف .

والمعنى : أن ما تظنونه خافياً مطوياً عن الله لا يخفى عليه ، وهو منتقم منكم .

وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق ، وأبو عمر : رسلنا بالتخفيف .

وقرأ الحسن ، وقتادة ، ومجاهد ، والأعرج ، ورويت عن نافع : يمكرون على الغيبة جرياً على ما سبق .

وقرأ أبو رجاء ، وشيبة ، وأبو جعفر ، وابن أبي إسحاق ، وعيسى ، وطلحة ، والأعمش ، والجحدري ، وأيوب بن المتوكل ، وابن محيصن ، وشبل ، وأهل مكة ، والسبعة : بالتاء على الخطاب مبالغة لهم في الإعلام بحال مكرهم ، والتفاتاً لقوله : قل الله أي : قل لهم ، فناسب الخطاب .

وفي قوله : إنّ رسلنا التفات أيضاً ، إذ لم يأت أنّ رسله .

وقال أيوب بن المتوكل في مصحف أبي : يا أيها الناس إنّ الله أسرع مكراً ، وإن رسله لديكم يكتبون ما تمكرون ، وينبغي أن يحمل هذا على التفسير ، لأنه مخالف لما أجمع عليه المسلمون من سواد المصحف ، والمحفوظ عن أبي القراءة والإقراء بسواد المصحف .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(204/359)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً ﴾

صِحةً وسَعةً ﴿ مّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ ﴾ أي خالطتْهم حتى أحسوا بسوء أثرِها فيهم ، وإسنادُ المساسِ إلى الضراء بعد إسنادِ الإذاقةِ إلى ضمير الجلالِة من الآداب القرآنيةِ كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ونظائرِه . وقيل : سلط الله تعالى على أهل مكةَ القحطَ سبع سنينَ حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم بالحَيا فطفقوا يطعنون في آياته تعالى ويعادون رسولَه عليه الصلاة والسلام ويكيدونه وذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِى آيَاتِنَا ﴾ أي بالطعن فيها وعدمِ الاعتداد بها والاحتيالِ في دفعها ، وإذا الأولى شرطيةٌ والثانيةُ جوابُها كأنه قيل : فاجأوا وقوعَ المكرِ منهم وتنكيرُ مكرٌ للتفخيم ، وفي متعلقةٌ بالاستقرار الذي يتعلق به اللام ﴿ قُلِ الله أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ أي أعجلُ عقوبةً أي عذابُه أسرعُ وصولاً إليكم مما يأتي منكم في دفع الحقِّ ، وتسميةُ العقوبةِ بالمكر لوقوعها في مقابلة مكرِهم وجوداً أو ذكراً ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا ﴾ الذين يحفظون أعمالَكم والإضافةُ للتشريف ﴿ يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ أي مكرَكم أو ما تمكُرونه وهو تحقيقٌ للانتقام منهم وتنبيهٌ على أن ما دبروا في إخفائه غيرُ خافٍ على الحفَظة فضلاً عن العليم الخبير ، وصيغةِ الاستقبال في الفعلين للدِلالة على الاستمرار التجدّدي والجملةُ تعليلٌ من جهته تعالى لأسرعية مكرِه سبحانه غيرُ داخل في الكلام الملقن كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ فإن كتابةَ الرسلِ لما

يمكرون من مبادىء بطلانِ مكرِهم وتخلف أثرِه عنه بالكلية وفيه من المبالغة ما لا يوصف ، وتلوينُ الخطاب بصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم للتشديد في التوبيخ ، وقرىء على لفظ الغَيبة فيكون حينئذٍ تعليلاً لما ذُكر أو للأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(205/359)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً ﴾

كالصحة والسعة ﴿ مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ ﴾ أي خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم ، وإسناد المساس إلى الضراء بعد إسناد الإذاقة إلى ضمير الجلالة من الآداب القرآنية كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : 80] ونظائره وينبغي التأدب في ذلك ففي الخبر "اللهم إن الخير بيديك والشر ليس إليك" والمراد بالناس كفار مكة على ما قيل لما روي أن الله تعالى سلط عليهم القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون فطلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن يدعو لهم بالخصب ووعدوه بالإيمان فلما دعا لهم ورحمهم الله تعالى بالحياء طفقوا يطعنون في آياته تعالى ويعاندونه عليه الصلاة والسلام

ويكيدونه وذلك قوله سبحانه : ﴿ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِى آيَاتِنَا ﴾ أي بالطعن فيها وعدم الاعتداد بها والاحتيال في دفعها ، والظاهر أن المراد بالآيات الآيات القرآنية ، وقيل : المراد بها الآيات التكوينية كإنزال الحياء ، ومكرهم فيها إضافتها إلى الأصنام والكواكب .

وقيل : إن ﴿ الناس ﴾ عام لجميع الكفار ، ولا يجوز حمله على ما يشمل العصاة كما لا يخفى ، وكانت العرب تضيف الأمطار وكذا الرياح والحر والبرد إلى الأنواء ، وهو جميع نوء مصدر ناء ينوء إذا نهض بجهد ومشقة ويقال ذلك أيضاً إذا سقط فهو من الأضداد ، ويطلق على النجم الذي هو أحد المنازل الثمانية والعشرين التي ذكرناها فيما سبق وهو المراد في كلامهم إلا أن الإضافة إليه باعتبار سقوطه مع الفجر وغروبه كما هو المشهور أو باعتبار طلوعه ذلك الوقت كما قال الأصمعي .

وقد عد القائل بتأثير الأنواء كافراً فقد روى الشيخان .

وأبو داود .

(206/359)

والنسائي عن زيد بن خالد قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله تعالى أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بالكوكب وكافر بي ومؤمن بالكوكب فأما من قال مطرنا

بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب " ولعل كون ذلك من الكفر بالله تعالى مبني على زعم أن للكواكب تأثيراً اختيارياً ذاتياً في ذلك وإلا فاعتقاد أن التأثير عندها لا بها كما هو المشهور من مذهب الأشاعرة في سائر الأسباب ليس بكفر كما نص عليه العلامة ابن حجر ، وكذا اعتقاد أن التأثير بها على معنى أن الله تعالى أودع فيها قوة مؤثرة بإذنه فمتى شاء سبحانه أثرت ومتى لم يشأ لم تؤثر كما هو مذهب السلف في الأسباب على ما قرره الشيخ إبراهيم الكورابي في مسلك السداد ، ولو كان نسبة التأثير مطلقاً إلى الأنواء ونحوها من العلويات كفراً لاتسع الخرق ولزم إكفار كثير من الناس حتى أفاضلهم لقولهم بنسبة الكثير من عالم الكون والفساد إلى العلويات ويسمونها بالآباء العلوية ، وقد صرح الشيخ الأكبر قدس سره بأن للكواكب السيارات وغيرها تأثيراً في هذا العالم إلا أن الوقوف على تعيين جزئياته مما لا يطلع عليه إلا أرباب الكشف والأرصاد القلبية ، وليس مراده قدس سره وكذا مراد من أطلق التأثير إلا ما ذهب إليه أحد الفريقين في الأسباب وحاشا ثم حاشا أن يكون أولئك الأفاضل ممن يعتقد أن في الوجود مؤثراً غير الله تعالى بل من وقف على حقيقة كلام الحكماء الذين هم بمعزل عن الشريعة الغراء وجدهم متفقين على أن الوجود معلول له تعالى على الإطلاق ، قال بهمنيار في التحصيل : فإن سئلت الحق فلا يصح أن يكون علة الوجود إلا ما هو بريء من كل وجه من معنى ما بالقوة وهذا هو المبدأ الأول لا غير ، وما نقل عن

أفلاطون من قوله : إن العالم كرة والأرض مركز والإنسان هدف والأفلاك قسي والحوادث سهام والله تعالى هو الرامي فأين المفر يشعر بذلك

(207/359)

أيضاً ﴿ نِعْمَ ﴾ أنهم قالوا بالشرائط العقلية وهي المراد بالوسائط في كلام بعضهم وهو خلاف المذهب الحق ، وبالجملة لا يكفر من قال : إن الكواكب مؤثرة على معنى أن التأثير عندها أو بها بإذن الله تعالى بل حكمه حكم من قال : إن النار محرقة والماء مرو مثلاً ، ولا فرق بين القولين إلا بما عسى أن يقال : إن التأثير في نحو النار والماء أمر محسوس مشاهد والتأثير في الكواكب ليس كذلك والقول به رجم بالغيب لكن ذلك بعد تسليمه لا يوجب كون أحد القولين كفراً دون الآخر كما لا يخفى على المنصف ، ومع هذا الأحوط عدم إطلاق نسبة التأثير إلى الكواكب والتجنب عن التلفظ بنحو ما أكفر الله سبحانه المتلفظ به هذا ﴿ وَإِذَا ﴾ الأولى شرطية والثانية فجائية رابطة للجواب ، وتنكير ﴿ مَكَرَ ﴾ للتفخيم ، و﴿ فِى ﴾ متعلقة بالاستقرار الذي تتعلق به اللام .

(208/359)

﴿ قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ أي منكم فأسرع أفعل تفضيل وهو مأخوذ إما من سرع الثلاثي كما حكاه الفارسي أو من أسرع المزيد إلا أن في أخذ أفعل من المزيد خلافاً فمنهم من منعه مطلقاً ومنهم من جوزه مطلقاً ومنهم من قال : إن كانت الهمزة للتعدية امتنع وإلا جاز ومثله في ذلك بناء التعجب ، ووصف المفضل عليه بالسرعة دل عليه المفاجأة على أن صحة استعمال أسرع في ذلك لا يتوقف على دلالة الكلام على ما ذكر خلافاً لما يقتضيه ظاهر كلام الزمخشري ، وأصل المكر إخفاء الكيد والمضرة ، والمراد به الجزاء والعقوبة على المكر مجازاً مرسلاً أو مشاكلة وهي لا تنافيه كما في "شرح المفتاح" ، وقد شاع أنه لا يستعمل فيه تعالى إلا على سبيل المشاكلة وليس بذاك كما حقق في موضعه ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا ﴾ الحفظة من قبلنا على أعمالكم ﴿ يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ أي مكركم أو ما تمكرونه ، وكيفية كتابة ذلك مما لا يلزم العلم به ولا حاجة إلى جعل ذلك مجازاً عن العلم ، وهذا تحقيق للانتقام منهم وتنبيه على أن ما دبروا في إخفائه غير خاف على الكتبة فضلاً عن منزل الكتاب الذي لا تخفى عليه خافية .

وفي ذلك تجهيل لهم كما لا يخفى ، والظاهر أن الجملة ليست داخلة في الكلام الملقن كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ [الكهف : 109] وهي تعليل لأسرعية مكره سبحانه وتعالى ، وجوز أن تكون داخلة في ذلك وفي ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا ﴾ التفاتاً إذ لو أجرى

على قوله سبحانه : ﴿ قُلِ اللهُ ﴾ لقيل إن رسله فلا إشكال فيه من حيث أنه لا وجه لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم إن رسلنا إذ الضمير لله تعالى لا له عليه الصلاة والسلام بتقدير مضاف أي رسل ربنا أو بالإضافة لأدنى ملابسة كما قيل .

وقال بعضهم في الجواب : إنه حكاية ما قال الله تعالى على كون المراد أداء هذا المعنى لا بهذه العبارة .

وقرأ الحسن .

(209/359)

ومجاهد ﴿ يَمْكُرُونَ ﴾ على لفظ الغيبة ، وروي ذلك أيضاً عن نافع .

ويعقوب وفيه الجري على ماس بق من قوله سبحانه : ﴿ مَسَّتْهُمْ ﴾ و ﴿ لَهُمْ ﴾ والمناسب الخطاب كما قرأ الباقون إذا كانت الجملة داخلة في حيز القول إذ المعنى قل لهم ، ومناسبة الخطاب حينئذٍ ظاهرة وفيه أيضاً مبالغة في الإعلام بمكرهم ، وجعلها بعض المحققين على تلك القراءة وعدم دخولها في حيز القول تعليلاً للأسرعية أو للأمر المذكور .

وصيغة الاستقبال في الفعلين للدلالة على الاستمرار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾

لما حكى تمرد المشركين بيّن هنا أنهم في ذلك لاهون ببطرهم وازدهائهم بالنعمة والدَّعة فأنساهم ما هم فيه من النعمة أن يتوقعوا حدوث ضده فتفننوا في التكذيب بوعيد الله أفانين الاستهزاء ، كما قال تعالى : ﴿ وذرني والمكذبين أولي النّعمة ومهّلهم قليلاً ﴾ [المزمل : 11] .

وجاء الكلام على طريقة الحكاية عن حالهم ، والمُلقَى إليه الكلام هو النبي صلى الله عليه وسلم والمُؤمنون .

وفيه تعريض بتذكير الكفار بحال حلول المصائب بهم لعلهم يتذكرون ، فيعدوا عدة الخوف من حلول النقمة التي أنذرهم بها في قوله ﴿ فانتظروا ﴾ [يونس : 20] كما في الحديث : " تَعَرَّف إلى الله في الرخاء يَعْرِفْك في الشدة " فالمراد بـ ﴿ الناس ﴾ الناس المعهودون المتحدث عنهم بقرينة السياق على الوجهين المتقدمين في قوله تعالى : ﴿ وإذا مَس الإنسان الضر دعانا لجنبه ﴾ [يونس : 12] .

وقد قيل : إن الآية تشير إلى ما أصاب قريشاً من القحط سبعَ سنين بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم ثم كَشف الله عنهم القحط وأنزل عليهم المطر ، فلما حيوا طفقوا يطعنون في آيات الله ويعادون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكيدون له .

والقحط الذي أصاب قريشاً هو المذكور في سورة الدخان .

وقد أنذروا فيها بالبطشة الكبرى .

وقال ابن عباس : هي بطشة يوم بدر .

فتكون هذه الآية قد نزلت بعد انقراض السبع السنين التي هي كسني يوسف وبعد أن حيُوا ، فتكون قد نزلت بعد سنة عشر من البعثة أو سنة إحدى عشرة .

والإذاقة : مستعملة في مطلق الإدراك استعارةً أو مجازاً ، كما تقدم في قوله : ﴿ ليذوق وبال أمره ﴾ في سورة [العقود : 95] .

والرحمة : هنا مطلقة على أثر الرحمة ، وهو النعمة والنفع ، كقوله : ﴿ وينشر رحمته ﴾ [الشورى : 28] .

والضراء : الضر .

والمس : مستعمل في الإصابة .

والمعنى إذا نالت الناس نعمة بعد الضر ، كالمطر بعد القحط ، والأمن بعد الخوف ، والصحة بعد المرض .

و(إذا) في قوله : ﴿ إذا لهم مكرٌ ﴾ للمفاجأة ، وهي رابطة لجواب (إذا) الشرطية لوقوعه جملة اسمية وهي لا تصلح للاتصال بإذا الشرطية التي تلازمها الأفعال إن وقعت ظرفاً ثم إن وقعت شرطاً فلا تصلح لأن تكون جواباً لها ، فلذلك أدخل على جملة الجواب حرف (إذا) الفجائية ، لأن حرف المفاجأة يدل على البِدار والإسراع بمضمون الجملة ، فيُفيد مُفاد فاء التعقيب التي يؤتى بها الربط جواب الشرط بشرطه ، فإذا جاء حرف المفاجأة أغنى عنها .

والمكرُ : حقيقته إخفاء الإضرار وإبرَازه في صورة المسألة ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ في سورة [آل عمران : 54] .

و(في) من قوله : في آياتنا ﴾ للظرفية المجازية المرادُ منها الملابسة ، أي مكرهم المصاحب لآياتنا .

ومعنى مكرهم في الآيات أنهم يمكرون مكراً يتعلق بها ، وذلك أنهم يوهمون أن آيات القرآن غير دالة على صدق الرسول ويزعمون أنه لو أنزلت عليه آية أخرى لآمنوا بها وهم كاذبون في ذلك وإنما هم يكذبونه عناداً ومكابرة وحفاظاً على دينهم في الشرك .

ولما كان الكلام متضمناً التعريض بإنذارهم ، أمر الرسول أن يعظهم بأن الله أسرع مكراً ، أي منكم ، فجعل مكر الله بهم أسرع من مكرهم بآيات الله .

ودل اسم التفضيل على أن مكر الكافرين سريع أيضاً ، وذلك لما دل عليه حرف المفاجأة من المبادرة وهي إسراع .

والمعنى أن الله أعجل مكراً بكم منكم بمكركم بآيات الله .

وأسرعُ : مأخوذ من أسرع المزيدِ على غير قياس ، أو من سَرَع المجرد بناء على وجوده في الكلام فيما حكاه الفارسي .

وأطلق على تأجيل الله عذابهم اسم المكر على وجه الاستعارة التمثيلية لأن هيئة ذلك التأجيل في خفائه عنهم كهيئة فعل الماكر ، وحسنته المشاكلة كما تقدم في آية آل عمران .

(212/359)

وجملة : ﴿ إنّ رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ استئناف خطاب للمشركين مباشرة تهديداً من الله ، فلذلك فصلت على التي قبلها لاختلاف المخاطب .

وتأكيد الجملة لكون المخاطبين يعتقدون خلاف ذلك ، إذ كانوا يحسبون أنهم يمكرون بالنبي صلى الله عليه وسلم وأن مكرهم يتمشى عليه ولا يشعر به فأعلمهم الله بأن الملائكة

الموكلين بإحصاء الأعمال يكتبون ذلك .

والمقصود من هذا أن ذلك محصي معدود عليهم لا يهمل ، وهو إنذار بالعذاب عليه ، وهذا يستلزم علم الله تعالى بذلك .

وعبر بالمضارع في ﴿ يكتبون ﴾ و ﴿ يمكرون ﴾ للدلالة على التكرر ، أي تتكرر كتابتهم كلما يتكرر مكرهم ، فليس في قوله : ﴿ ما تمكرون ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب لاختلاف معادي الضميرين .

وقرأه الجمهور ﴿ ما تمكرون ﴾ بتاء الخطاب .

وقرأه روح عن يعقوب ﴿ ما يمكرون ﴾ بياء الغائب ، والضمير ل ﴿ الناس ﴾ في قوله : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة ﴾ .

وعلى هذه القراءة فالكلام موجه للنبيء صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(213/359)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾

والرسول صلى الله عليه وسلم حين ضاق ذرعاً بالكافرين من صناديد قريش دعا عليهم أن يهديهم الحق بسنين الجدب كالسنين التي أصابت مصر واستطاع سيدنا يوسف عليه السلام أن يدبر أمرها ، فلسط الحق سبحانه على قريش الجدب والقحط ، ثم جاء لهم بالرحمة من بعد ذلك . وكان من المفروض أن يرجعوا إلى الله ، وأن يؤمنوا برسالة رسوله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن علموا أن ما مسَّهم من القحط ومن الجدب كان بسبب دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم : " اللهم اجعلها عليهم سنين كَسِنِيِّ يوسف " .

وانتهت السنوات السبع وجاء لهم الرحمة ممثلة في المطر ، ولم يلتفتوا إلى ضرورة شكر الله والإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم ظلوا يبحثون عن أسباب المطر ، فمنهم من قال : لقد جاء مطرنا نتيجةِ لنوْءِ كذا ، ولأن الرياح هبَّت على مناطق كذا ، وفعلوا ذلك دون التفات لانتهاء دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثلهم مَثَل مَنْ جلس يبحث في أسباب النصر في الحرب ، وجعلوا أسبابها مادية في العُدَّة والعتاد ، ولا أحد ينكر أهمية الاستعداد للقتال وجدواه ، ولكن يبقى توفيق الله سبحانه وتعالى فوق كل اعتبار ؛ لأن المؤمنين بالله الذين استعدوا للقتال ودخلوا المعارك وجدوا المعجزات تتجلى بنصر الله ؛ لأن الحق سبحانه ينصر مَنْ ينصره .

أما الذين يحصرون أسباب النصر في الاستعداد القتالي فقط ، فالمقاتلون الذين خاضوا

الحرب بعد التدريب الجاد ، يعلمون أن التدريب وحده لا يصنع روح المقاتل ، بل تصقل روحه رغبته في القتال ونَيْل الشهادة ودخول الجنة .

(214/359)

إذن : فلمدد السماء مدخل ، ومَن رأى من المقاتلين آية مخالفة لنواميس الكون ، فليعلم علم اليقين أن يد الله كانت فوق أيدي المؤمنين المقاتلين . ومن يدعي أن أي نصر هو نتيجة للحضارة ، يجد الرد عليه من المقاتلين أنفسهم بأن الحضارة بلا إيمان هي مجرد تقدم مادة هش لا يصنع نصراً ، والنصر لا يكون بالمادة وحدها ، وقد أمرنا الله بحسن الاستعداد المادي ، ولكن النصر يكون بالإيمان فوق المادة .

ولذلك نجد مَنْ خاضوا حربنا المنتصرة في العاشر من رمضان 1393هـ يعلمون أن مدد الله كان معهم بعد أن أحسنوا الاستعداد ، ولا أحد من المقاتلين يصدق أن الاستعداد المادي وحده يمكن أن يكفي للنصر ، إنه ضرورة ، ولكن بالإيمان وحسن استخدام السلاح يكون النصر ؛ ولذلك لا يصدق المقاتلون من ينسب النصر للمادة وحدها ، وينسحب عدم التصديق على كل ما يقوله من ينكر دور الإيمان في الانتصار .

وهكذا نجد أن مَنْ يجرد النصر من قيمة الإيمان إنما يخدم الإيمان ؛ لأن إنكار الإيمان يقلل من

قيمة الرأي المادى . وهكذا ينصر الله دينه حتى يثبته في قلوب جنده ، ويقلل من قيمة ومكانة مَنْ ينكرون قيمة الإيمان .

ومثال هذا في تاريخ الإسلام أن اليهود الذين كانوا يستفتحون على أهل المدينة من الأوس والخزرج بأن رسولاً سوف يظهر ، وأنهم أي : اليهود سيتبعونه ، وسوف يقتلون العرب من الأوس والخزرج قَتْل عادٍ وإرم .

ولما جاء وقت ظهور محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، أسرعت الأوس والخزرج إلى الإيمان به ، وقالوا : إنه النبي الذي تهددنا به يهود ، فَلْنسبق إليه حتى لا يسبقونا .

هكذا كانت كلمة اليهود هي دافع الأوس والخزرج إلى الإيمان .

إذن : فالله ينصر دينه بالفاجر ، رغم ظن الفاجر أنه يكيد للدين .

وكذلك حين جاءت لهم الرحمة بعد القحط أرجفوا وظلوا يحللون سبب سقوط المطر بأسباب علمية محدودة بالمادة ، لا بالإيمان الذي فوق المادة .

(215/359)

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ الله أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [يونس : 21]

والمكر : هو الكلام الملتوي الذي لا يريد أن يعترف برحمة الله ، والادعاء بأن نوء كذا هو السبب في سقوط المطر ، وبرج كذا هو السبب في سقوط المطر .

وقوله الحق : ﴿ مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾ والمكر هو الكيد الخفي ، والمقصود به هنا محاولة الالتفاف ؛ لتجريد العجائب من صنع الله لها ، وحتى العلم وقوانينه فهو هبة من الله ، والحق هو القادر على أن يوقف الأسباب وأن يفعل ما يريد وأن يخرق القوانين ، فهو سبحانه رب القوانين ، فلا تنسبوا أي خبر إلا له سبحانه ؛ حتى لا نضل ضلال الفلاسفة الذين قالوا بأن الله موجود ، وهو الذي خلق الكون وخلق النواميس ؛ لتحكم الكون بقوانين .

ونقول : لو خلق الحق سبحانه القوانين والنواميس وتركها تتحكم لما شَذَّ شيء عن تلك القوانين ، فالمعجزات مع الرسل على سبيل المثال كانت خروجاً عن القوانين . وأبقى الله في يده التحكُّم في القوانين ، صحيح أنه سبحانه قد أطلقها ، ولكنه ظل قيُّوماً عليها ، فيعطل القانون متى شاء ويبرزه متى شاء ويُوجِّه كيفما شاء .

والمكر كما نعلم مأخوذ من التفاف أغصان الشجرة كالضفيرة ، فلا تتعرف على منبت ورقة الشجر ومن أي غصن خرجت ، فقد اختلطت منابت الأوراق ؛ حتى صارت

خفية عليك ، وأخذ من ذلك الكيد الخفيّ ، وأنت قد تكيد لمساويك ، لكنك لن تقدر على أن تكيد لمن هو أعلى منك ، فإن كنتم تمكرون فإن الله أسرع مكراً ، والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً ﴾ ، وهذه أسمها " مشاكلة التعبير " .

(216/359)

أي : عليك أن تأخذ ذلك في مقابله في ذات الفاعل والفعل ، ولكن لا تأخذ من هذا القول اسماً لله ، فإياك أن تقول : إن الله سبحانه وتعالى ماكر ؛ لأن المكر كيد خفيٌّ تفعله أنت مع مساويك ، ولكنك لن تستطيع ذلك مع من هو مُطَّلع على كيدك ، ولا تطّلع أنت على ما يشاء لك .

وانظر إلى أي جماعة تكيد لأي أمر ، وستجد من بينهم من يبلغ عنهم السلطات ، وأجهزة الأمن ، فإذا كان كيد البشر للبشر مفضوحاً بمن يشي منه بالآخرين ، بل هناك من البشر غير الكائدين من يستطيع بنظرته أن يستنبط ويستكشف من يكيدون له .

وهناك من الأجهزة المعاصرة ما تستطيع تسجيل مكالمات الناس والتنصُّت عليهم ؛ وكل ذلك مكر من البشر للبشر ، فما بالنا إن كاد الله لأحد ، وليس هناك أحد مع الله سبحانه وتعالى ليبلغنا بكيده ، ولا أحد يستطيع أن يتجسَّس عليه ؟ !

مكر الله سبحانه إذن أقوى من أي مكرٍ بشري ؛ لأن مكر البشر قد يُهدَم من بعض الماكرين أو من التجسس عليهم ، لكن إذا كاد الله لهم ، أيعلمون من كيده شيئاً ؟ طبعاً لا يعملون .

وكلمة ﴿ أَسْرَعُ مَكْراً ﴾ تلفتك إلى أن هناك اثنين يتنافسان في سباق ، وحين تقول : فلان أسرع من فلان ، فمعنى ذلك : أن كلاّ منهما يحاول الوصول إلى نفس الغاية ، لكن هناك واحداً أسرع من الآخر في الوصول إلى الغاية .

ومكركم البشري هو أمر حادث ، لكن الله سبحانه أزلي الوجود ، يعلم كل شيء قبل أن يقع ، ويرتِّب كل أمر قبل أن يحدث ؛ لذلك فهو الأسرع في الرد على مكركم ، إن مكرتم .

وهناك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾ و " إذا " الأولى ظرف ، أما إذا الثانية فهي " إذا الفجائية " مثلما تقول : خرجت فإذا الأسد بالباب .

(217/359)

وهم حين أنزل الحق لهم الأمطار رحمة منه ، فهم لا يهدأون ويستمتعون ويذوقون رحمة الله تعالى بهم من الماء الذي جاءهم من بعد الجدب ، بل دبروا المكر فجأة ، فيأتي قول الحق سبحانه : ﴿ قُلِ الله أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ .

وهكذا ترى أن ما يبطل كيد الماكرين من البشر ، يكون بإحدى تالك الوسائل : إما أن يكون بوشاية من أحد الماكرين ، وإما أن يكون بقوة التخابر من الغير ، وإما أن يكون من رسل العليّ القدير وهم الملائكة الذين يكتبون كل ما يفعله البشر ، فسبحانه القائل : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار : 1012]

واقرأ أيضاً قول الحق سبحانه : ﴿ اقرأ كتابك كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 14] .

وجاء الحق سبحانه بكل ما سبق ؛ لأنه سبحانه قد شاء أن يعطي لقريش فرصة التراجع في عنادها للرسول صلى الله عليه وسلم ، هذا العناد الذي قالوا فيه : إنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ، وهذا قول مغلوط ؛ لأن الآباء في الأصل كانوا مؤمنين ، ولكن جاءهم الضلال كأمر طارىء ، والأصنام التي عبدوها طارئة عليهم من الروم ، جاء بها إنسان ممن ساحوا في بلاد الروم هو " عمرو بن لحيّ " ، فإن رجعتُم إلى الإيمان بعد عنادكم ؛ فهذا هو الطريق المستقيم الذي كان عليه آباؤكم بالفطرة والميثاق الأول . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(218/359)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (21) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا ﴾ قال : استهزاء وتكذيب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان قال : كل مكر في القرآن فهو عمل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(219/359)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ﴾ : شرطيةٌ جوابُها " إذا الفجائية " في قوله : ﴿ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ

﴾ ، والعاملُ في " إذا " الفجائيةِ الاستقرارُ الذي في " لهم " . وقد تقدَّم لك خلافٌ في " إذا " هذه : هل هي حرفٌ أو ظرفُ زمان على بابها أو ظرفُ مكان ؟ وقال أبو البقاء : " وقيل : " إذا " الثانية زمانيةٌ أيضاً ، والثانية وما بعدها جواب الأولى " . وهذا الذي حكاه قولٌ ساقط لا يُفهم معناه .

(220/359)

وقوله : ﴿ فِي آيَاتِنَا ﴾ متعلقٌ ب " مَكْر " جعل الآيات مَحَلاًّ للمكر والمبالغة ، ويَضْعف أن يكون الجارُّ صفةً ل " مكر " . وقوله : " مكراً " نصبٌ على التمييز . وهو واجبُ النصبِ ، لأنك لو صُغْتَ مِنْ " أَفْعل " فعلاً وأَسْنَدْتَه إلى تمييزِه فاعلاً لصَحَّ أن يُقال : " سَرُع مَكْرُه " وأيضاً فإنَّ شرطَ جوازِ الخفضِ صِدْقُ التمييز على موصوفِ أفعل التفضيل نحو : " زيدٌ أحسنُ فقيه " . و " أَسْرَعُ " مأخوذٌ مِنْ سَرُع ثلاثياً ، حكاه الفارسي . وقيل : بل مِنْ أسرع ، وفي بناء أفعل وفعلي التعجب مِنْ أفعل ثلاثةُ مذاهب : الجوازُ مطلقاً ، المنعُ مطلقاً ، التفضيلُ : بين أن تكونَ الهمزةُ للتعدية فيمتنعَ ، أو لا فيجوزَ ، وتحريرُها في كتب النحاة . وقال بعضُهم : " أَسْرع هنا ليست للتفضيل " وهذا ليس بشيءٍ إذ السياق يردُّه . وجعله ابن عطية : أعني كونَ أسرع للتفضيل نظيرَ قوله : " لهي أسودُ مِنَ القار " . قال الشيخ : "

وأما تنظيره " أسود من القار " ب " أسرع " ففاسد / لأن " أسود " ليس فعلُه على وزنِ أَفْعَل ، وإنما هو على وزن فَعِل نحو : سَوِدَ فهو أسود ، ولم يمتنع التعجب ولا بناء أفعل التفضيل عند البصريين مِنْ نحو سَوِدَ وحَمِرَ وأَدِمَ إلا لكونه لوناً . وقد أجاز ذلك بعض الكوفيين في الألوان مطلقاً ، وبعضهم في السواد ، والبياض فقط " ، قلت : تنظيره به ليس بفاسد ، لأنَّ مرادَه بناءُ أفعل مما زاد على ثلاثة أحرف وإن لم يكن على وزن أَفْعَل ، وسَوِد وإن كان على ثلاثةٍ لكنه في معنى الزائد على ثلاثة ، إذ هو في معنى أسود ، وحَمِرَ في معنى أحمر ، نصَّ على ذلك النحويون ، وجعلوه هو العلةَ المانعةَ من التعجب في الألوان .

(221/359)

وقرأ الحسنُ وقتادة ومجاهد والأعرج ونافعٌ في روايةٍ : "يَمْكرون " بياء الغيبة جَرْياً على ما سَبَق . والباقون بالخطابِ مبالغةً في الإعلام بمكرهم والتفاتاً لقوله : " قل الله " ، إذ التقديرُ : قل لهم ، فناسَبَ الخطابَ . وفي قوله : " إنْ رسلَنا " التفاتٌ أيضاً ، إذ لو جرى على قوله : " قل الله " ، لقيل : إنَّ رسله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 166 .

168 ﴾

(222/359)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾

يعني إذا أصابهم ضُرٌّ ومحنة فرحمناهم وكَشَفْنا عنهم ، أحالوا الأمر على غيرنا ، وتوهموه ما هو سوانا مثل قولهم : « مُطِرْنَا بنوء كذا » ، ومثل قولهم إن هذه سعادة نجْمٍ أو مساعدةُ دولة أو تأثيرُ فَلَكٍ أو خيراتُ دهر .

فهذا كان مكرُهم أما مكر الله – سبحانه – بهم فهو جزاؤهم على مكرهم . والإشارة في هذا أنه ربما يكون للمريد أو للطالب حجبة أو فترة . . . فإذا جاء الحقُّ بكشفٍ أو تجلٍّ أو إقبال فَمِنْ حقِّهم ألا يلاحظوها فضلاً عن أن يساكنوها ، لأنهم إذا لم يرتقوا عن ملاحظة أحوالهم إلى الغيبة بشهود الحقِّ مَكَرَ الله بهم بأَنْ شتَّتهم في تلك الأحوال من غير تَرَقٍّ عنها أو وجود زيادة عليها ، وهذا مَكْرُهُ بخَوَاصِّهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 87 ﴾

(223/359)

قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم أخذ سبحانه يبين ما يتضح به أسرعية مكره في مثال دال على ما في الاية قبلها من نقله سبحانه لعباده من الضر إلى النعمة ومن سرعة تقلبهم فقال : ﴿ هو ﴾ أي لا غيره ﴿ الذي يسيركم ﴾ أي في كل وقت تسيرون فيه سيراً عظيماً لا تقدرون على الانفكاك عنه ﴿ في البر والبحر ﴾ أي يسبب لكم أسباباً توجب سيركم فيهما ويقدركم على ذلك ويهديكم من بين سائر الحيونات إلى ما فيه من أصناف المنافع مع قدرته على إصابتكم في البر بالخسف وما بالخسف وما دونه وفي البحر بالغرق وما أشبهه .

ولما كان العطب بأحوال البحر أظهر مع أن السير فيه من أكبر الآيات وأوضح البينات ، بينه معرضاً عن ذكر البر فقال : ﴿ حتى إذا كنتم ﴾ أي كوناً لا براح لكم منه ﴿ في الفلك ﴾ أي السفن ، يكون واحداً وجمعاً ؛ وأعرض عنهم بعد الإقبال لما سيأتي فقال :

﴿ وجرين ﴾ أي الفلك ؛ ﴿ بهم ﴾ ولما ذكر جريها وهم فيها ، ذكر سببه فقال : ﴿ بريح طيبة ﴾ ثم أوضح لهم عدم علمهم بالعواقب بقوله : ﴿ وفرحوا بها ﴾ أي بتلك الريح

وبالفلك الجارية بها ﴿ جاءتها ريح عاصف ﴾ فأزعجت سفنهم وساءتهم ﴿ وجاءهم الموج ﴾ أي المعروف لكل أحد بالرؤية أو الوصف ﴿ من كل مكان ﴾ أي يعتاد الإتيان منه فأرجف قلوبهم ﴿ وظنوا أنهم ﴾ ولما كان المخوف الهلاك ، لا كونه من معين ، بني للمفعول ما هو كناية عنه لأن العدو إذا أحاط بعدوه أيقن بالهلاك فقال : ﴿ أحيط بهم ﴾ .

(224/359)

ولما كان ما تقدم من حالهم الغريبة التي تجب لها القلوب وتضعف عندها القوى – مقتضياً لأن يسأل عما يكون منهم عند ذلك ، أتى المقال على مقتضى هذا السؤال مخبراً عن تركهم العناد وإخلاصهم الدال على جزعهم عند سطواته وانحلال عزائمهم في مشاهدة ضرباته ، وعبارة لرماني : اتصال دعوى الأجوبة ، كأنه قيل : لما ظنوا أنهم أحيط بهم ﴿ دعوا الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال بالرغبة إليه في الخلاص والعبادة له بالإخلاص ﴿ مخلصين ﴾ أي عن كل شرك ﴿ له الدين ﴾ أي التوحيد والتصديق بالظاهر والباطن ، وقد تضمنت الآية البيان عما يوجبه بديهة العقل من الفزع عند الشدة إلى واهب السلامة ومسبغ النعمة في كشف تلك البلية ؛ ثم أتبع سبحانه ذلك حكاية حالهم في وعدهم الشكر

على النجاة ثم كذبهم في ذلك مع ادعائهم أنهم أطهر الناس ذيولاً عن الكذب وأشدهم استقباحاً له وأبعد الناس من كفران الإحسان ، فقال تعالى حاكياً قولهم الذي دلُّوا بتأكيدهم له أنهم قالوه بغاية الرغبة نافين ما يظن بهم من الرجوع إلى ما كانوا فيه قبل تلك الحال من الكفر : ﴿ لئن أنجيتنا ﴾ أي أيها الملك الذي لا سلطان لغيره ﴿ من هذه ﴾ أي الفادحه ﴿ لنكونن ﴾ أي كوناً لا ننفك عنه ﴿ من الشاكرين ﴾ أي المديمين لشكرك العريقين في الاتصاف به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 430 . 431 ﴾

(225/359)

فصل

قال الفخر :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِى ءاياتنا ﴾ [يونس : 21] كان هذا الكلام كلاماً كلياً لا ينكشف معناه تمام الانكشاف .

إلا بذكر مثال كامل ، فذكر الله تعالى لنقل الإنسان من الضر الشديد إلى الرحمة مثالاً ، ولمكر الإنسان مثالاً ، حتى تكون هذه الآية كالمفسرة للآية التي قبلها ، وذلك لأن المعنى الكلي لا يصل إلى أفهام السامعين إلا بذكر مثال جلي واضح يكشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلي .

واعلم أن الإنسان إذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود ، حصل له الفرح التام والمسرة القوية ، ثم قد تظهر علامات الهلاك دفعة واحدة .

فأولها : أن تجيئهم الرياح العاصفة الشديدة .

وثانيها : أن تأتيهم الأمواج العظيمة من كل جانب .

وثالثها : أن يغلب على ظنونهم أن الهلاك واقع ، وأن النجاة ليست متوقعة ، ولا شك أن الانتقال من تلك الأحوال الطيبة الموافقة إلى هذه الأحوال القاهرة الشديدة يوجب الخوف العظيم ، والرعب الشديد ، وأيضاً مشاهدة هذه الأحوال والأهوال في البحر مختصة بإيجاب مزيد الرعب ، والخوف ثم إن الإنسان في هذه الحالة لا يطمع إلا في فضل الله ورحمته ، ويصير منقطع الطمع عن جميع الخلق ، ويصير بقلبه وروحه وجميع أجزائه متضرعاً إلى الله تعالى ، ثم إذا نجاه الله تعالى من هذه البلية العظيمة ، ونقله من هذه المضرة القوية إلى الخلاص والنجاة ، ففي الحال ينسى تلك النعمة ويرجع إلى ما ألفه واعتاده من العقائد

الباطلة والأخلاق الذميمة ، فظهر أنه لا يمكن تقرير ذلك المعنى الكلي المذكور في الآية المتقدمة بمثال أحسن وأكمل من المثال المذكور في هذه الآية .

(226/359)

المسألة الثانية :

يحكى أن واحداً قال لجعفر الصادق : اذكر لي دليلاً على إثبات الصانع فقال : أخبرني عن حرفتك : فقال : أنا رجل أتجر في البحر ، فقال : صف لي كيفية حالك .

فقال : ركبت البحر فانكسرت السفينة وبقيت على لوح واحد من ألواحها ، وجاءت الرياح العاصفة ، فقال جعفر : هل وجدت في قلبك تضرعاً ودعاء .

فقال نعم .

فقال جعفر : فإلهك هو الذي تضرعت إليه في ذلك الوقت .

المسألة الثالثة :

قرأ ابن عامر ﴿ ينشركم ﴾ من النشر الذي هو خلاف الطي كأنه أخذه من قوله تعالى : ﴿ فانتشروا فِى الارض ﴾ [الجمعة : 10] والباقون قرؤا ﴿ يُسَيِّرُكُمْ ﴾ من التسيير .

المسألة الرابعة :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد يجب أن يكون خلقاً لله تعالى .

قالوا : دلت هذه الآية على أن سير العباد من الله تعالى ، ودل قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الارض ﴾ [الأنعام : 11] على أن سيرهم منهم ، وهذا يدل على أن سيرهم منهم ومن الله ، فيكون كسبياً لهم وخلقاً لله ونظيره .

قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بالحق ﴾ [الأنفال : 5] وقال في آية أخرى : ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ [التوبة : 40] وقال في آية أخرى : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾ [التوبة : 82] ثم قال في آية أخرى ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى ﴾ [النجم : 43] وقال في آية أخرى ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذَا رَمَيْتَ ولكن الله رمى ﴾ [الأنفال : 7] قال الجبائي : أما كونه تعالى مسيراً لهم في البحر على الحقيقة فالأمر كذلك .

وأما سيرهم في البر فإنما أضيف إلى الله تعالى على التوسع .

فما كان منه طاعة فبأمره وتسهيله ، وما كان منه معصية فلأنه تعالى هو الذي أقدره عليه .

وزاد القاضي فيه يجوز أن يضاف ذلك إليه تعالى من حيث إنه تعالى سخر لهم المركب في البر ، وسخر لهم الأرض التي يتصرفون عليها بإمساكه لها ، لأنه تعالى لو لم يفعل ذلك لتعذر عليهم السير .

وقال القفال : ﴿ هُوَ الذى يُسَيِّرُكُمْ فِى البر والبحر ﴾ أي هو الله الهادي لكم إلى السير في البر والبحر طلباً للمعاش لكم ، وهو المسير لكم ، لأجل أنه هيأ لكم أسباب ذلك السير .

هذا جملة ما قيل في الجواب عنه .

ونحن نقول : لا شك أن المسير في البحر هو الله تعالى ، لأن الله تعالى هو المحدث لتلك الحركات في أجزاء السفينة ، ولا شك أن إضافة الفعل إلى الفاعل هو الحقيقة .

فنقول : وجب أيضاً أن يكون مسيراً لهم في البر بهذا التفسير ، إذ لو كان مسيراً لهم في البر بمعنى إعطاء الآلات والأدوات لكان مجازاً بهذا الوجه ، فيلزم كون اللفظ الواحد حقيقة ومجازاً دفعة واحدة ، وذلك باطل .

واعلم أن مذهب الجبائي أنه لامتناع في كون اللفظ حقيقة ومجازاً بالنسبة إلى المعنى الواحد .

وأما أبو هاشم فإنه يقول : إن ذلك ممتنع ، إلا أنه يقول : لا يبعد أن يقال إنه تعالى تكلم به مرتين .

واعلم أن قول الجبائي : قد أبطلناه في أصول الفقه ، وقول أبي هاشم أنه تعالى تكلم به مرتين أيضاً بعيد .

لأن هذا قول لم يقل به أحد من الأمة ممن كانوا قبله ، فكان هذا على خلاف الإجماع فيكون

باطلاً .

واعلم أنه بقي في هذه الآية سؤالات :

السؤال الأول : كيف جعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر ، مع أن الكون في الفلك متقدم لا محالة على التسيير في البحر ؟

والجواب : لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير ، بل تقدير الكلام كأنه قيل هو الذي يسيركم حتى إذا وقع في جملة تلك التسييرات الحصول في الفلك كان كذا وكذا .

السؤال الثاني : ما جواب ﴿ إِذَا ﴾ في قوله : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِى الفلك ﴾ .

الجواب : هو أن جوابها هو قوله : ﴿ جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ ثم قال صاحب "الكشاف" :

وأما قوله : ﴿ دَّعَوَا الله ﴾ فهو بدل من ﴿ ظنوا ﴾ لأن دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك .

وقال بعض الأفاضل لو حمل قوله : ﴿ دَّعَوَا الله ﴾ على الاستئناف .

(228/359)

كان أوضح ، كأنه لما قيل : ﴿ جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ قال قائل فما صنعوا ؟ فقيل : ﴿ دَّعَوَا الله ﴾ .

السؤال الثالث : ما الفائدة في صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة ؟

الجواب فيه وجوه : الأول : قال صاحب "الكشاف" : المقصود هو المبالغة كأنه تعالى يذكر حالهم لغيرهم لتعجيبهم منها ، ويستدعى منهم مزيد الإنكار والتقبيح .

الثاني : قال أبو علي الجبائي : إن مخاطبته تعالى لعباده ، هي على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهي بمنزلة الخبر عن الغائب .

وكل من أقام الغائب مقام المخاطب ، حسن منه أن يرده مرة أخرى إلى الغائب .

الثالث : وهو الذي خطر بالبال في الحال ، أن الانتقال في الكلام من لفظ الغيبة إلى لفظ الحضور فإنه يدل على مزيد التقرب والإكرام .

وأما ضده وهو الانتقال من لفظ الحضور إلى لفظ الغيبة ، يدل على المقت والتبعيد .

أما الأول : فكما في سورة الفاتحة ، فإن قوله : ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين الرحمن الرحيم ﴾ [الفاتحة : 2 ، 3] كله مقام الغيبة ، ثم انتقل منها إلى قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : 5] وهذا يدل على أن العبد كأنه انتقل من مقام الغيبة إلى مقام الحضور ، وهو يوجب علو الدرجة ، وكمال القرب من خدمة رب العالمين .

وأما الثاني : فكما في هذه الآية ، لأن قوله : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِى الفلك ﴾ خطاب الحضور ، وقوله : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ مقام الغيبة ، فههنا انتقل من مقام الحضور إلى مقام الغيبة ، وذلك يدل على المقت والتبعيد والطرد ، وهو اللائق بحال هؤلاء ، لأن من كان

صفته أنه يقابل إحسان الله تعالى إليه بالكفران ، كان اللائق به ما ذكرناه .

السؤال الرابع : كم القيود المعتبرة في الشرط والقيود المعتبرة في الجزاء ؟

(229/359)

الجواب : أما القيود المعتبرة في الشرط فثلاثة : أولها : الكون في الفلك ، وثانيها : جَرْيُ الفلك بالريح الطيبة ، وثالثها : فرحهم بها .

وأما القيود المعتبرة في الجزاء فثلاثة أيضاً : أولها : قوله : ﴿ جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ وفيه سؤالان :

السؤال الأول : الضمير في قوله : ﴿ جَاءتْهَا ﴾ عائد إلى الفلك وهو ضمير الواحد ، والضمير في قوله : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ عائد إلى الفلك وهو الضمير الجمع ، فما السبب فيه ؟

الجواب عنه من وجهين : الأول : أنا لا نسلم أن الضمير في قوله : ﴿ جَاءتْهَا ﴾ عائد إلى الفلك ، بل نقول إنه عائد إلى الريح الطيبة المذكورة في قوله : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾

الثاني : لو سلمنا ما ذكرتم إلا أن لفظ ﴿ الفلك ﴾ يصلح للواحد والجمع ، فحسن الضميران .

السؤال الثاني : ما العاطف .

الجواب : قال الفراء والزجاج : يقال ريح عاصف وعاصفة ، وقد عصفت عصوفاً وأعصفت ، فهي معصف ومعصفة .

قال الفراء : والألف لغة بني أسد ، ومعنى عصفت الريح اشتدت ، وأصل العصف السرعة ، يقال : ناقة عاصف وعصوف سريعة ، وإنما قيل ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ لأنه يراد ذات عصوف كما قيل : لابن وتامر أو لأجل أن لفظ الريح مذكر .

أما القيد الثاني : فهو قوله : ﴿ وَجَاءهُمُ الموجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ والموج ما ارتفع من الماء فوق البحر .

أما القيد الثالث : فهو قوله : ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ والمراد أنهم ظنوا القرب من الهلاك ، وأصله أن العدو إذا أحاط بقوم أو بلد ، فقد دنوا من الهلاك .

السؤال الخامس : ما المراد من الإخلاص في قوله : ﴿ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ .

والجواب : قال ابن عباس : يريد تركوا الشرك ، ولم يشركوا به من آلهتهم شيئاً ، وأقروا لله بالربوبية والوحدانية .

قال الحسن : ﴿ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ ﴾ الإخلاص الإيمان ، لكن لأجل العلم بأنه لا ينجيهم من ذلك إلا الله تعالى ، فيكون جارياً مجرى الإيمان الاضطراري .

وقال ابن زيد : هؤلاء المشركون يدعون مع الله ما يدعون ، فإذا جاء الضر والبلاء لم يدعوا إلا الله .

وعن أبي عبيدة أن المراد من ذلك الدعاء قولهم أهيا شراهيا تفسيره يا حي يا قيوم .

السؤال السادس : ما الشيء المشار إليه بقوله ﴿ هذه ﴾ في قوله : ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هذه ﴾ ؟

والجواب المراد لئن أنجيتنا من هذه الريح العاصفة ، وقيل المراد لئن أنجيتنا من هذه الأمواج أو من هذه الشدائد ، وهذه الألفاظ وإن لم يسبق ذكرها ، إلا أنه سبق ذكر ما يدل عليها .

السؤال السابع : هل يحتاج في هذه الآية إلى إضمار ؟

الجواب : نعم ، والتقدير : دعوا الله مخلصين له الدين مريدين أن يقولوا لئن أنجيتنا ، ويمكن أن يقال : لا حاجة إلا الإضمار ، لأن قوله : ﴿ دَّعَوَا الله ﴾ يصير مفسراً بقوله : ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ فهم في الحقيقة ما قالوا إلا هذا القول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 58.54 ﴾

(231/359)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ فِي تَفْسِيرِهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْبَرَّ هُوَ الْأَرْضُ الْيَابِسَةُ ، وَالْبَحْرَ هُوَ الْمَاءُ .

الثَّانِي : أَنَّ الْبَرَّ الْفَيَافِي ، وَالْبَحْرَ الْأَمْصَارُ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ تَفْسِيرُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِحَسَبِ مَا يَرْتَبِطُ بِهِ مِنْ قَوْلٍ مُقَدَّمٍ لَهُ أَوْ بَعْدَهُ ، كَقَوْلِهِ هَاهُنَا : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ .

فَهَذَا نَصٌّ بَيِّنٌ فِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالْبَحْرِ غَمْرَةُ الْمَاءِ ، وَقَرِينَتُهَا الْمُبَيِّنَةُ لَهَا قَوْلُهُ : حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ ، فَقَوْلُهُ : ﴿ مِنْ الْفُلْكِ ﴾ هُوَ لِلْبَحْرِ ، وَقَوْلُهُ : (" الْأَنْعَامِ ") هُوَ لِلْبَرِّ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قُرِئَ ﴿ يُسَيِّرُكُمْ ﴾ بِالْيَاءِ وَالسِّينِ الْمُهْمَلَةِ ، وَنَنْشُرُكُمْ بِالنُّونِ وَالشِّينِ الْمُعْجَمَةِ ، وَأَرَادَ الْيَحْصُبِيُّ يَبْسُطُكُمْ بَرًّا وَبَحْرًا ، وَأَرَادَ غَيْرُهُ مِنْ السَّيْرِ ، وَهُوَ الَّذِي أَخْتَارُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فِي هَذِهِ الْآيَةِ جَوَازُ رُكُوبِ الْبَحْرِ ، وَقَدْ وَرَدَ ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ مِنْ طَرِيقَيْنِ : رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ ﴿ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ فَقِيلَ لَهُ : إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنْ الْمَاءِ ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا ، أَفَنَتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ ؟ قَالَ : هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ ﴾ .

وَرَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ ﴿ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى أُمِّ حَرَامٍ بِنْتِ مِلْحَانَ ، فَنَامَ عِنْدَهَا ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ ، فَقَالَتْ لَهُ : مَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ مُلُوكًا عَلَى الْأَسِرَّةِ ، أَوْ مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ .

قَالَتْ : فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ .

فَدَعَا لَهَا ، ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ يَضْحَكُ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا يُضْحِكُكَ ؟ قَالَ : نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُلُوكًا عَلَى الْأَسِرَّةِ ، أَوْ مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ كَمَا قَالَ فِي الْأُولَى .

قَالَتْ ، فَقُلْت : ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ .

قَالَ : أَنْتِ مِنْ الْأَوَّلِينَ ﴾ الْحَدِيثَ .

فَفِي هَذَا كُلِّهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ رُكُوبِ الْبَحْرِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِ الْمَعْنَى أَنَّ الضَّرُورَةَ تَدْعُو إلَيْهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ بِهِ وَسَطَ الْأَرْضِ ، فَانْفَلَقَتْ ، وَجَعَلَ الْخَلْقَ فِي الْعُدْوَتَيْنِ ، وَقَسَّمَ الْمَنَافِعَ بَيْنَ الْجِهَتَيْنِ ، وَلَا يُوصَلُ إلَى جَلْبِهَا إلَّا بِشَقِّ الْبَحْرِ [لَهَا] ، فَسَهَّلَ اللَّهُ سَبِيلَهُ بِالْفُلْكِ ، وَعَلَّمَهَا نُوحًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وِرَاثَةً فِي الْعَالَمِينَ بِمَا أَرَاهُ جِبْرِيلُ ، وَقَالَ لَهُ : صَوِّرْهَا عَلَى جُؤْجُؤِ الطَّائِرِ ، فَالسَّفِينَةُ طَائِرٌ مَقْلُوبٌ ، وَالْمَاءُ فِي اسْتِفَالِهِ لِلسَّفِينَةِ نَظِيرُ الْهَوَاءِ فِي

اعْتِلَائِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : أَمَّا الْقُرْآنُ فَيَدُلُّ عَلَى جَوَازِ رُكُوبِ الْبَحْرِ مُطْلَقًا ، وَأَمَّا الْحَدِيثَانِ [اللَّذَانِ جَلَبْنَاهُمَا فَيَدُلُّ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ عَلَى جَوَازِ رُكُوبِ الْبَحْرِ مُطْلَقًا .

وَأَمَّا حَدِيثُ أَنَسٍ فَيَدُلُّ عَلَى جَوَازِ كَوْنِهِ فِي الْغَزْوِ ، وَهِيَ رُخْصَةٌ مِنْ اللَّهِ أَجَازَهَا مَعَ] مَا فِيهِ مِنْ الْغَرَرِ ، وَلَكِنَّ الْغَالِبَ مِنْهُ السَّلَامَةُ ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ يَرْكَبُونَهُ لَا حَاصِرَ لَهُمْ ، وَالَّذِينَ يَهْلِكُونَ فِيهِ مَحْصُورُونَ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مُلُوكًا عَلَى الْأَسِرَّةِ ﴾ : فِيهِ قَوْلَانِ :

أَحَدُهَا : يَرْكَبُونَ ظَهْرَهُ عَلَى الْفُلْكِ رُكُوبَ الْمُلُوكِ الْأَسِرَّةَ عَلَى الْأَرْضِ .

الثَّانِي : يَرْكَبُونَ الْفُلْكَ لِسَعَةِ الْحَالِ وَالْمِلْكِ كَأَنَّهُمْ أَهْلُ الْمُلْكِ .

(234/359)

وَيُعَارِضُ هَذَا قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفَ هَؤُلَاءِ بِالْمُلْكِ وَوَصَفَ اللَّهُ هَؤُلَاءِ بِالْمَسْكَنَةِ .

وَمِنْ هَذِهِ الْمُعَارَضَةِ فَرَّ قَوْمٌ فَقَالُوا : إنَّ الْقِرَاءَةَ فِيهَا : أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَّاكِينَ بِتَشْدِيدِ السِّينِ .

وَقَالَ قَوْمٌ إنَّمَا وَصَفَهُمْ بِالْمَسْكَنَةِ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ فِي الْبَحْرِ وَضَعْفِ الْحِيلَةِ فِيهِ أَيْضًا ؛ فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْحَوْلَ وَالْقُوَّةَ لِلَّهِ عِيَانًا فَلْيَرْكَبْ الْبَحْرَ .

وَحَقِيقَةُ الْمَعْنَى فِيهِ أَنَّ مَسْكَنَتَهُمْ كَانَتْ لِوَجْهَيْنِ : : أَحَدُهُمَا : لِدُخُولِهِمْ الْبَحْرَ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَالٌ وَلَا مِلْكٌ إلَّا السَّفِينَةُ ، وَهُمْ لَا يَرْكَبُونَ الْبَحْرَ بِالْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ ، وَالْعَزْمِ وَالشِّدَّةِ ، يَقْصِدُونَ الْغَلَبَةَ ، وَهَذِهِ حَالَةٌ لِلْمُلْكِ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ كَانَ يَتَوَقَّفُ فِي رُكُوبِ الْبَحْرِ لِلْمُسْلِمِينَ ، لِمَا كَانَ يُتَوَهَّمُ فِيهِ مِنْ الْغَرَرِ ، إذْ لَمْ يَرَهُ إلَّا

لِضَرُورَةٍ كَمَا رَكِبَهُ الْمُهَاجِرُونَ إلَى الْحَبَشَةِ لِلضَّرُورَةِ أَوَّلًا وَآخِرًا ، أَمَّا الْأَوَّلُ فَفِي الْفِرَارِ مِنْ نِكَايَةِ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَمَّا الْآخِرُ فَلِنَصْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْكَوْنِ مَعَهُ .

(235/359)

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : إذَا حَصَلَ الْمَرْءُ فِي ارْتِجَاجِ الْبَحْرِ وَغَلَبَتِهِ وَعَصْفِهِ وَتَعَابُسِ أَمْوَاجِهِ فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي حُكْمِهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(236/359)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى يُسَيِّرُكُمْ فِى البر والبحر ﴾

يعني : يحملكم في البر على الدواب وفي البحر في السفن ، ويقال : هو الذي يحفظكم إذا سافرتم في بر أو بحر .

قرأ ابن عامر ﴿ يَنْشُرُكُمْ ﴾ بالنون والشين من النشر ، يعني : يبثكم ، والقراءة المعروفة

﴿ الذى يُسَيِّرُكُمْ ﴾ من التسيير يعني : يسهل لكم السير ، ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِى الفلك ﴾ ، يعني : في السفن ، ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ ﴾ ؛ يقال للسفينة الواحدة جَرَتْ وللجماعة جَرَيْنَ .

واسم الفلك يقع على الواحد وعلى الجماعة ، ويكون مذكراً إذا أريد به الواحد ومؤنثاً إذا أريد به الجماعة ، كقوله : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الفلك المشحون ﴾ [يس : 41] وقال : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تَجْرِى فِى البحر بِمَا يَنفَعُ الناس وَمَآ أَنزَلَ الله مِنَ السمآء مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرياح والسحاب المسخر بَيْنَ السمآء والأرض لآيات لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : 164] ذكرا بلفظ التأنيث مرة وبلفظ التذكير مرة .

وفيه الدليل أن الكلام يكون بعضه على وجه المخاطبة وبعضه على وجه المغايبة ، كما قال هاهنا ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِى الفلك ﴾ بلفظ المخاطبة ثم قال : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ بلفظ المغايبة بِرِيحٍ ﴿ طَيِّبَةٍ ﴾ ، يعني : لينة ساكنة ، ﴿ وَفَرِحُواْ بِهَا وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا ﴾ يعني : السفينة ، ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ ؛ يعني : شديدة ، ﴿ وَجَاءهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ ؛ يعني : من كل النواحي ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ ، يعني : علموا وأيقنوا أنه قد دنا هلاكهم .

وقال القتبي : وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بالقرية ، يقال : دنا القوم من الهلكة ، قال الله تعالى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف : 42] فصار ذلك كناية عن الهلاك ؛ ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ، يعني : أخلصوا لله تعالى ، يعني : الدعاء وقالوا : ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ ﴾ ، يعني : من هذه الريح العاصف ، ويقال : من هذه الأهوال ، ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ؛ يعني : الموحدين المطيعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(238/359)

وقال الثعلبي :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

يبحر بكم ويحملكم على التسيير ، وقرأ أبو جعفر وابن عامر : ينشركم بالنون من النشر ، وهو [البسط] في البر على الظهر وفي البحر على الفلك ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ ﴾ أي في السفن يكون واحد أو جمعاً ، وقرأ عيسى الفلك بضم اللام .

﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ يعني جرت السفن بالناس وهذا خطاب تكوين رجع من الخطاب إلى الخبر ﴿ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا ﴾ أي الريح ﴿ جَآءَتْهَا ﴾ يعني الفلك وهو جواب لقوله حتى إذا جاءتها ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ شديد يقال : عصفت الريح وأعصفت والريح ، مذكر ومؤنث ، وقيل : لم يقل : عاصفة لاختصاص الريح بالعصوف ، وقيل : للنسب أي ذات صوف ﴿ وَجَآءَهُمُ ﴾ يعني سكان السفينة ﴿ الموج ﴾ وهو حركة الماء وأخلاطه ﴿ مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا ﴾ وأيقنوا ﴿ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ إذا أحاط بهم الهلاك ﴿ دَعَوُاْ الله ﴾ هنالك ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ للدعاء دون أوثانهم وكان مفزعهم إلى الله دونها .

روى [الثوري] عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيد في قوله تعالى : ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ قال : قالوا في دعائهم : أهيا شراهيا وتفسيره : يا حيُّ يا قيوم ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا ﴾ خلصتنا يا ربنا ﴿ مِنْ هذه ﴾ الريح العاصف ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ لك بالإيمان والطاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(239/359)

وقال ابن عطية :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

هذه الآية تتضمن تعديد النعمة فيما هي الحال بسبيله من ركوب البحر ، وركوبه وقت حسن الظن به للجهاد والحج متفق على جوازه ، وكذلك لضروة المعاش بالصيد فيه أو لتصرف التجر ، وأما ركوبه لطلب الغنى والاستكثار فمكروه عند الأكثر ، وغاية مبيحة أن يقول وتركه أحسن ، وأما ركوبه في ارتجاجه فمكروه ممنوع وفي الحديث : " من ركب البحر في ارتجاجه فقد برئت منه الذمة " وقال النبي صلى الله عليه وسلم " البحر لا أركبه أبداً " وقرأ جمهور القراء من السبعة وغيرهم " يسيركم " قال أبو علي وهو تضعيف مبالغة لا تضعيف تعدية ، لأن العرب تقول : سرت الرجل وسيّرته ومنه قول الهذلي : [الطويل]

فلا تجزعنْ من سُنة أنت سرتها . . . وأول راض سنة من يسيرها

(240/359)

قال القاضي أبو محمد : وعلى هذا البيت اعتراض حتى لا يكون شاهداً في هذا . وهو أن يجعل الضمير كالظرف كما تقول سرت الطريق وهذه قراءة الجمهور من سير ، وكذلك هي في مصحف ابن مسعود وفي مصحف أبي شيخ وقال عوف بن أبي جميلة قد : كان يقرأ "

ينشركم " فغيرها الحجاج بن يوسف " يسيركم " ، قال سفيان بن أبي الزعل : كانوا يقرأون " ينشركم " فنظروا في مصحف ابن عفان فوجدوها " يسيركم " فأول من كتبها كذلك الحجاج ، وقرأ ابن كثير في بعض طرقه " يسيركم " من أسار ، وقرأ ابن عامر وحده من السبعة " يَنْشُركم " بفتح الياء وضم الشين من النشر والبث ، وهي قراءة زيد بن ثابت والحسن وأبي العالية وأبي جعفر وعبيد الله بن جبير بن الفصيح وأبي عبد الرحمن وشيبة ، وروي عن الحسن أنه قرأ " يُنشِركم " بضم الياء وكسر الشين وقال : هي قراءة عبد الله ، قال أبو حاتم : أظنه غلط ، و ﴿ الفلك ﴾ جمع فلك وليس باسم واحد للجميع والفرد ولكنه فعل جمع على فُعل ، ومما يدل على ذلك قولهم فلكان في التثنية وقراءة أبي الدرداء وأم الدرداء " في الفلكي " على وزن فعليّ بياء نسب وذلك كقولهم أشقري وكدواري في دور الدهر وكقول الصلتان انا الصلتاني ، وقوله ﴿ وجرين ﴾ علامة قليل العدد ، وقوله ﴿ بهم ﴾ خروج من الحضور إلى الغيبة ، وحسن ذلك لأن قولهم : ﴿ كنتم في الفلك ﴾ هو بالمعنى المعقول حتى إذا حصل بعضهم في السفن ، و" الريح " إذا أفردت فعرفها أن تستعمل في العذاب والمكروه ، لكنها لا يحسن في البحر أن تكونه إلا واحدة متصلة لا نشراً ، فقيدت المفردة " بالطيب " فخرجت عن ذلك العرف وبرع المعنى ، وقرأ ابن أبي عبلة " جاءتهم ريح عاصف " ، والعاصف الشديدة من الريح ، يقال : عصفت الريح ، وقوله ﴿ وظنوا ﴾ على بابه في الظن لكنه ظن غالب مفزع بحسب أنه في محذور ، وقوله ﴿ دعوا

الله ﴾ أي نسوا الأصنام والشركاء وجردوا الدعاء لله ، وذكر الطبري في ذلك عن بعض العلماء حكاية قول العجم :

(241/359)

هيا شراهيا ومعناه يا حي يا قيوم ، قال الطبري : جواب قوله ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين ﴾ : ﴿ جاءتها ريح عاصف ﴾ وجواب قوله : ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ : ﴿ دعوا الله مخلصين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(242/359)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ هو الذي يسيّركم ﴾

أي : الله الذي هو أسرع مكراً ، هو الذي يسيِّركم ﴿ في البرِّ ﴾ على الدواب ، وفي البحر على السفن ، فلو شاء انتقم منكم في البر أو في البحر .

وقرأ ابن عامر ، وأبو جعفر : "ينشركم" بالنون والشين من النشر ، وهو في المعنى مثل قوله :

﴿ وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ﴾ [النساء : 2] .

والفلك : السفن .

قال الفراء : الفلك تذكّر وتؤنث ، وتكون واحدة وتكون جمعاً ، قال تعالى هاهنا : ﴿ جاءتها ﴾ فأَنَّثَ ، وقال في [يس : 41] ﴿ في الفلك المشحون ﴾ فذكّر .

قوله تعالى : ﴿ وجرين بهم ﴾ عاد بعد المخاطبة لهم إلى الإخبار عنهم .

قال الزجاج : كل من أقام الغائب مقام مَن يخاطبه جاز أن يردَّه إلى الغائب ، قال الشاعر :

شَطَّتْ مَزارُ العاشقين فأصبحتْ . . .

عَسِراً علي طلابُكِ ابنةَ مَخْرَمِ

قوله تعالى : ﴿ بريح طيبة ﴾ أي : ليِّنةٍ .

﴿ وفرحوا بها ﴾ للينها .

﴿ جاءتها ﴾ يعني الفلك .

قال الفراء : وإن شئتَ جعلتَها للريح ، كأنك قلت : جاءت الريحَ الطيبةَ ريحٌ عاصف ، والعرب تقول : عاصف وعاصفة ، وقد عصفت الريح وأعصفت ، والألف لغة لبني أسد .

قال ابن عباس : الريح العاصف : الشديدة .

قال الزجاج : يقال : عصفت الريح ، فهي عاصف وعاصفة ، وأعصفت ، فهي معصف

ومعصفة.

﴿ وجاءهم الموج من كل مكان ﴾ أي: من كل أمكنة الموج.

قوله تعالى: ﴿ وظنوا ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه بمعنى اليقين.

والثاني: أنه التوهُّم.

وفي قوله: ﴿ أحيط بهم ﴾ قولان:

أحدهما: دَنوا من الهلكة.

قال ابن قتيبة: وأصل هذا أن العدوَّ إذا أحاط ببلد، فقد دنا أهله من الهلكة.

وقال الزجاج: يقال لكل من وقع في بلاء: قد أحيط بفلان، أي: أحاط به البلاء.

والثاني: أحاطت بهم الملائكة، ذكره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿ دَعَوُا اللهَ مخلصين له الدِّين ﴾ دون أوثانهم.

قال ابن عباس: تركوا الشرك، وأخلصوا لله الربوبية، وقالوا: ﴿ لئن أنجيتنا من هذه ﴾ الريح العاصف ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ أي: الموحِّدين. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(243/359)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ فِي البر والبحر حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾

أي يحملكم في البر على الدواب وفي البحر على الفُلْك .

وقال الكلبي : يحفظكم في السير .

والآية تتضمن تعديد النّعم فيما هي الحال بسبيله من ركوب الناس الدوابَ والبحر .

وقد مضى الكلام في ركوب البحر في "البقرة" .

وَ﴿ يُسَيِّرُكُمْ ﴾ قراءة العامة .

ابن عامر "ينشركم" بالنون والشين ، أي يبثّكم ويفرّقكم .

والفُلْك يقع على الواحد والجمع ، ويذكر ويؤنث ، وقد تقدّم القول فيه .

وقوله : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ خروج من الخطاب إلى الغيبة ، وهو في القرآن وأشعار العرب كثير ؛ قال النابغة :

يا دار ميّة بالعَلْياء فالسَّند . . .

أَقْوَت وطال عليها سالف الأَمَد

قال ابن الأنباري : وجائز في اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً إِنَّ هذا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ [الإنسان : 22] فأبدل الكاف من الهاء .

قوله تعالى : ﴿ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا ﴾ تقدّم الكلام فيها في البقرة .

﴿ جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ الضمير في "جاءتها" للسفينة .

وقيل للريح الطيبة .

والعاصف الشديدة ؛ يقال : عصفت الريح وأعصفت ، فهي عاصف ومُعْصِف ومُعْصِفة أي شديدة ، قال الشاعر :

حتى إذا أعصفت ريح مُزَعزِعة . . .

فيها قطار ورعد صوته زَجِل

وقال "عاصف" بالتذكير لأن لفظ الريح مذكر ، وهي القاصف أيضاً .

والطيبة غير عاصف ولا بطيئة .

﴿ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ والموج ما ارتفع من الماء ﴿ وظنوا ﴾ أي أيقنوا ﴿ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أي أحاط بهم البلاء ؛ يقال لمن وقع في بِلية : قد أحيط به ، كأن البلاء قد أحاط به ؛ وأصل هذا أن العدوّ إذا أحاط بموضع فقد هلك أهله .

﴿ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي دعوه وحده وتركوا ما كانوا يعبدون .

وفي هذا دليل على أن الخلق جُبِلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد ، وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً ؛ لانقطاع الأسباب ورجوعه إلى الواحد رب الأرباب ؛ على ما يأتي بيانه في "النمل" إن شاء الله تعالى .

وقال بعض المفسرين : إنهم قالوا في دعائهم أهيا شراهياً ؛ أي يا حي يا قيوم .

وهي لغة العجم .

مسألة هذه الآية تدلّ على ركوب البحر مطلقاً ، ومن السّنة حديثُ أبي هريرة وفيه : إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء . . .

الحديث .

وحديث أنس في قصة أُمّ حرام يدلّ على جواز ركوبه في الغَزوِ ، وقد مضى هذا المعنى في "البقرة" مستوفى والحمد لله .

وقد تقدّم في آخر "الأعراف" حكم راكب البحر في حال ارتجاجه وغليانه ، هل حكمه حكم الصحيح أو المريض المحجور عليه ؛ فتأمله هناك .

قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هذه ﴾ أي من هذه الشدائد والأهوال .

وقال الكلبي : من هذه الريح .

﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ أي من العاملين بطاعتك على نعمة الخلاص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(245/359)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر ﴾

يعني : هو الله الذي يسيركم يعني يحملكم في البر على ظهور الدواب وفي البحر على الفلك .

وقيل : معناه هو الله الهادي لكم في السير في البر والبحر طلباً للمعاش أو هو المهيء لكم أسباب السير في البر والبحر ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك ﴾ يعني : السفن .

ولفظة الفلك : تطلق على الواحد والجمع وتقديراهما مختلفان فإن أريد بهما الواحد كان كبناء قفل ، وإن أريد بها الجمع كان كبناء أسد والمراد بها هنا الجمع لقوله تعالى : ﴿ وجرين بهم ﴾ يعني : وجرت السفن بركابها .

فإن قلت : ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة ؟ قلت : قال صاحب الكشاف : المقصود منه المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم مزيد الإنكار والتقبيح وقال غيره إن مخاطبة الله لعباده على لسان نبيه (صلى الله عليه وسلم) بمنزلة

الخبر عن الغائب وكل من أقام الغائب مقام المخاطب حسن منه أن يرده إلى الغائب .

وقيل : إن الالتفات في الكلام من الغيبة إلى الحضور وبالعكس من فصيح كلام العرب ﴿ بريح طيبة ﴾ يعني وجرت السفن بريح طيبة ساكنة ﴿ وفرحوا بها ﴾ يعني وفرح ركبان تلك الفلك بتلك الريح الطيبة ، لأن الإنسان إذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود حصل له النفع التام والمسرة العظيمة بذلك ﴿ جاءتها ريح عاصف ﴾ قيل : إن الضمير في جاءتها يرجع إلى الريح فيكون المعنى : جاءت الريح الطيبة ريح عاصف فأقلبتها .

وقيل : الضمير في جاءتها يرجع إلى الفلك .

يعني : جاءت الفلك .

ريح عاصم .

يقال : ريح عاصف وعاصفة ، ومعنى عصفت الريح : اشتدت .

(246/359)

وأصل العصف : السرعة وإنما قال : عاصف ، لأنه أراد به ذات عصوف أو لأجل أن لفظ الريح قد يذكر ﴿ وجاءهم الموج من كل مكان ﴾ يعني : وجاء ركبان السفينة الموج وهو

ما ارتفع وعلا من غوارب الماء في البحر وقيل : هو شدة حركة الماء واختلاطه ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ يعني : وظنوا أن الهلاك قد أحاط بهم وأحدق .

وقيل : المراد من الظن اليقين أي وأيقنوا أنه الهلاك .

وقيل : بل المراد منه المقاربة من الهلاك والدنو منه والإشراف عليه ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ يعني أنهم أخلصوا في الدعاء لله ولم يدعو أحداً سواه من آلهتهم وقيل في معنى هذا الإخلاص العلم الحقيقي لا إخلاص الإيمان لأنهم كانوا يعلمون حقيقة أنه لا ينجيهم من جميع الشدائد والبلايا إلا الله تعالى فكانوا إذا وقعوا في شدة وضر وبلاء أخلصوا لله الدعاء ﴿ لئن أنجيتنا ﴾ أي قائلين لئن أنجيتنا يا ربنا ﴿ من هذه ﴾ يعني من هذه الشدائد التي نحن فيها وهي الريح العاصفة والأمواج الشديدة ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ يعني من الشاكرين لك على إنعامك علينا بخلاصنا مما نحن فيه من هذه الشدة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(247/359)

وقال أبو حيان :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

العاصف الشديدة يقال : عصفت الريح .

قال الشاعر :

حتى إذا عصفت ريح مزعزعة . . .

فيها قطار ورعد صوته زجل

وأعصف الريح .

قال الشاعر :

ولهت عليه كل معصفة . . .

هوجاء ليس للبهاريز

وقال أبو تمام :

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت . . .

عيدان نجد ولا يعبأن بالرتم

الموج : ما ارتفع من الماء عند هبوب الهواء ، سمى موجاً لاضطرابه .

﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك جرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كلّ مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكون من الشاكرين ﴾ : مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما ذكر تعالى أنّ الناس إذا أصابهم الضر لجأوا إلى الله تعالى فإذا أذاقهم الرحمة ، عادوا إلى

عادتهم من إهمال جانب الله والمكر في آياته .

وكان قبل ذلك قد ذكر نحواً من هذا في قوله : ﴿ وإذا مس الإنسان الضرّ ﴾ الآية .

وكان المذكور في الآيتين أمراً كلياً ، أوضح تعالى ذلك الأمر الكلي بمثال جلي كاشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلي ينقطع فيه رجاء الإنسان عن كل متعلق به إلا الله تعالى ، فيخلص له الدعاء وحده في كشف هذه النازلة التي لا يكشفها إلا هو تعالى ، ويتبين بطلان عبادته ما لا يضر ولا ينفع ، ودعواه أنه شفيعه عند الله ، ثم بعد كشف هذه النازلة عاد إلى عادته من بغيه في الأرض ، فإنجاؤه تعالى إياهم هو مثال من أذاقه الرحمة وما كانوا فيه قبل من إشرافهم على الهلاك هو مثال من الضر الذي مسهم .

وقرأ زيد بن ثابت ، والحسن ، وأبو العالية ، وزيد بن علي ، وأبو جعفر ، وعبد الله بن جبير ، وأبو عبد الرحمن ، وشيبة ، وابن عامر : ينشركم من النشر والبث .

وقرأ الحسن أيضاً : ينشركم من الإنشار وهو الإحياء ، وهي قراءة عبد الله .

وقرأ بعض الشاميين ينشركم بالتشديد للتكثير من النشر الذي هو مطاوعة الانتشار .

وقرأ باقي السبعة والجمهور : يسيركم من التسيير .

قال أبو علي : هو تضعيف مبالغة ، لا تضعيف تعدية ، لأن العرب تقول : سرت الرجل وسيرته ، ومنه قول الهذلي :

فلا تجزعن من سنة أنت سرتها . . .

فأول راض سنة من يسيرها

قال ابن عطية : وعلى هذا البيت اعتراض حتى لا يكون شاهداً في هذا ، وهو أن يكون الضمير كالظرف كما تقول : سرت الطريق انتهى .

وما ذكره أبو علي لا يتعين ، بل الظاهر أنّ التضعيف فيه للتعدية ، لأنّ سار الرجل لازماً ما أكثر من سرت الرجل متعدياً فجعله ناشئاً عن الأكثر أحسن من جعله ناشئاً عن الأقل .

وأما جعل ابن عطية الضمير كالظرف قال كما تقول : سرت الطريق ، فهذا لا يجوز عند الجمهور ، لأن الطريق عندهم ظرف مختص كالدار والمسجد ، فلا يصل إليه الفعل غيره . دخلت عند سيبويه ، وانطلقت ، وذهبت عند الفراء إلا بوساطة في إلا في ضرورة ، وإذا كان كذلك فضميره أحرى أنْ لا يتعدى إليه الفعل .

وإذا كان ضمير الظرف الذي يصل إليه الفعل بنفسه يصل إليه بوساطة في إلا إن اتسع فيه فلأن يكون الضمير الذي يصل الفعل إلى ظاهره بفي أولى أن يصل إليه الفعل بوساطة في .

وزعم أبن الطراوة أن الطريق ظرف غير مختص ، فيصل إليه الفعل بغير وساطة في ، وهو زعم مردود في النحو .

ومعنى يسيركم : يجعلكم تسيرون ، والسير معروف ، وفي قوله : والبحر دلالة على جواز ركوب البحر .

ولما كان الخوف في البحر أغلب على الإنسان منه في البر وقع المثال به لذلك المعنى الكلي به من التجاء العبد لربه تعالى حالة الشدة والإهمال لجانبه حالة الرخاء .

(249/359)

قال الزمخشري : (فإن قلت) : كيف جعل الكون في الفلك غاية التسيير في البحر ، والتسيير في البحر إنما هو بالكون في الفلك ؟ (قلت) : لم يجعل الكون في الفلك غاية التسيير ، ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتى بما في خبرها كأنه قال : يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة فكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف ، وتراكم الأمواج ، والظن للهلاك ، والدعاء للانجاء انتهى .

وهو حسن ، وقرأ أبو الدرداء وأم الدرداء : في الفلكي بزيادة ياء النسب ، وخرج ذلك على زيادتها ، كما زادوها في الصفة في نحو : أحمريّ وزواريّ ، وفي العلم كقول الصلتان : أنا الصلتاني الذي قد علمتم .

وعلى إرادة النسب مراداً به اللج كأنه قيل في اللج الفلكي وهو الماء الغمر الذي لا تجري

الفلك إلا فيه ، والضمير في وجرين عائد على الفلك على معنى الجمع ، إذ الفلك كما تقدم في سورة البقرة يكون مفرداً وجمعاً ، والضمير في بهم عائد على الكائنين في الفلك .

وهو التفات ، إذ هو خروج من خطاب إلى غيبة .

وفائدة صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة قال الزمخشري : المبالغة ، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ، ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح انتهى .

والذي يظهر والله أعلم أنّ حكمة الالتفات هنا هي أنّ قوله : هو الذي يسيركم في البر والبحر ، خطاب فيه امتنان وإظهار نعمة للمخاطبين ، والمسيرون في البر والبحر مؤمنون وكفار ، والخطاب شامل ، فحسن خطابهم بذلك ليستديم الصالح على الشكر .

ولعل الطالح يتذكر هذه النعمة فيرجع ، فلما ذكرت حالة آل الأمر في آخرها إلى أنْ الملتبس بها هو باغ في الأرض بغير الحق ، عدل عن الخطاب إلى الغيبة حتى لا يكون المؤمنون يخاطبون بصدور مثل هذه الحالة التي آخرها البغي .

وقال ابن عطية : بهم خروج من الحضور إلى الغيبة ، وحسن ذلك لأن قوله : كنتم في الفلك ، هو بالمعنى المعقول ، حتى إذا حصل بعضكم في السفن انتهى .

(250/359)

فكأنه قدر مفرداً غائباً يعاد الضمير عليه فيصير كقوله تعالى : ﴿ أو كظلمات في بحر لجيّ يغشاه ﴾ أي ، أو كذي ظلمات ، فعاد الضمير غائباً على اسم غائب ، فلا يكون ذلك من باب الالتفات .

والباء في بهم وبريح قال العكبري : تتعلق الباءان بجرين انتهى .

والذي يظهر أن الباء في بهم متعلقة بجرين تعلقها بالمفعول نحو : مررت بزيد .

وأنّ الباء في بريح يجوز أن تكون للمسبب ، فاختلف المدلول في الباءين ، فجاز أن يتعلقا بفعل واحد ، ويجوز أن تكون الباء للحال أي : وجرين بهم ملتبسة بريح طيبة ، فتتعلق بمحذوف كما تقول : جاء زيد بثيابه أي ملتبساً بها .

وفرحوا بها يحتمل أن يكون معطوفاً على قوله : وجرين بهم ، ويحتمل أن يكون حالاً أي : وقد فرحوا بها .

كما احتمل قوله : وجرين أن يكون معطوفاً على كنتم ، وأن يكون حالاً .

والظاهر أنّ قوله : جاءتها ريح عاصف ، هو جواب إذا .

والظاهر عود الضمير في جاءتها على الفلك ، لأنه هو المحدث عنه في قوله : وجرين بهم ، وقاله مقاتل .

وجوزوا أن يعود على الريح الطيبة وقاله الفراء ، وبدأ به الزمخشري .

ومعنى طيب الريح لين هبوبها وكونها موافقة .

وقرأ ابن أبي عبلة : جاءتهم ، ومعنى من كل من مكان من أمكنة الموج .

والظن هنا على بابه الأصلي من ترجيح أحد الجائزين .

وقيل : معناها التيقن ، ومعنى أحيط بهم أي للهلاك ، كما يحيط العدو بمن يريد إهلاكه ، وهي كناية عن استيلاء أسباب الهلاك .

وقرأ زيد بن علي : حيط بهم ثلاثياً والجملة من قوله : دعوا الله قال أبو البقاء : هي جواب ما اشتمل عليه المعنى من معنى الشرط تقديره : لما ظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله انتهى ، وهو كلام لا يتحصل منه شيء .

وقال الطبري : جواب حتى إذا كنتم في الفلك جاءتها ريح عاصف ، وجواب قوله : وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله انتهى .

وهو مخالف للظاهر ، لأنّ قوله : وظنوا ظاهره العطف على جواب إذا ، لأنه معطوف على كنتم ، لكنه محتمل .

(251/359)

كما تقول : إذا زارك فلان فأكرمه ، وجاءك خالد فأحسن إليه ، وكأن أداة الشرط مذكورة .

وقال الزمخشري : هي بدل من ظنوا لادعائهم من لوازم ظنهم الهلاك ، فهو ملتبس به انتهى .

وكان أستاذنا أبو جعفر بن الزبير يخّرج هذه الآية على غير ما ذكروا ويقول : هو جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فما كان حالهم إذ ذاك ؟ فقيل : دعوا الله مخلصين له الدين انتهى .

ومعنى الإخلاص إفراده بالدعاء من غير إشراك أصنام ولا غيرها ، قال معناه : ابن عباس وابن زيد .

وقال الحسن : مخلصين لا إخلاص إيمان ، لكنْ لأجل العلم بأنه لا ينجيهم من ذلك إلا الله ، فيكون ذلك جارياً مجرى الإيمان الاضطراري انتهى .

والاعتراف بالله مركوز في طبائع العالم ، وهم مجبولون على أنه المتصرف في الأشياء ، ولذلك إذا حقت الحقائق رجعوا إليه كلهم مؤمنهم وكافرهم ، لئن أنجيتنا ثم قسم محذوف ، وذلك القسم وما بعده محكيّ بقول أي : قائلين .

أو أجرى دعوا مجرى قالوا ، لأنه نوع من القول ، والإشارة بهذه إلى الشدائد التي هم فيها .

وقال الكلبي : إلى الريح العاصف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(252/359)

وقال أبو السعود :

﴿ هُوَ الذى يُسَيِّرُكُمْ ﴾

كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيان جنايةٍ أخرى لهم مبنيةٍ على ما مر آنفاً من اختلاف حالِهم حسب اختلافِ ما يعتريهم من السراء والضراءِ ، أي يمكّنكم من السير تمكيناً مستمراً عند الملابسة به وقبلها ﴿ فِى البر ﴾ مشاةً وركباناً وقرىء ينشُركم من النشر ومنه قوله عز وجل : ﴿ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ ﴿ والبحر حتى إِذَا كُنتُمْ فِى الفلك ﴾ أي السفن فإنه جمعُ فَلك على زنة أُسْد جمعُ أسَد لا على وزن قفل ، وغايةُ التسييرِ ليست ابتداءَ ركوبِهم فيها بل مضمونُ الشرطيةِ بتمامه كما ينبىء عنه إيثارُ الكونِ المؤذنِ بالدوام على الركوب المُشعِرِ بالحدوث ﴿ وَجَرَيْنَ ﴾ أي السفن ﴿ بِهِمُ ﴾ بالذين فيها ، والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان مما لهم من سوء الحالِ الموجبِ للإعراض عنهم كأنه يُذكر لغيرهم مساوىءُ أحوالِهم ليعجّبهم منها ويستدعيَ منه الإنكارَ والتقبيحَ ، وقيل : ليس فيه التفاتٌ بل معنى قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِى الفلك ﴾ إذا كان بعضُكم فيها إذ الخطابُ للكل ومنهم المسيَّرون في البر ، فالضميرُ الغائبُ عائدٌ إلى ذلك المضافِ المقدر كما في قوله تعالى : ﴿ أَوْ كظلمات فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يغشاه ﴾ أي أو كذى ظلماتٍ يغشاه موجٌ ﴿ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ ليّنةِ الهُبوب موافقةٍ لمقصدهم ﴿ وَفَرِحُواْ بِهَا ﴾ بتلك الريحِ لطيبها وموافقتها ﴿ جَاءتْهَا ﴾ جوابُ إذا والضميرُ المنصوبُ للريح الطيبةِ أي تلقتْها واستولتْ عليها من طرف مخالِفٍ لها فإن

الهبوبَ على وفقها لا يسمى مجيئاً لريح أخرى عادةً بل هو اشتدادٌ للريح الأولى وقيل : للفُلك والأول أظهرُ لاستلزامه للثاني من غير عكس لأن الهبوبَ على طريقة الريح اللينةِ يعد مجيئاً بالنسبة إلى الفُلك دون الريح اللينة مع أنه لا يستتبع تلاطمَ الأمواجِ الموجبِ لمجيئها من كل مكان ، ولأن التهويلَ في بيان استيلائِها على ما فرحوا به وعلَّقوا به حبالَ رجائِهم أكثرُ ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ أي ذاتُ

(253/359)

عصْفٍ وقيل : العصُوفُ مختصٌّ بالريح فلا حاجة إلى الفارق وقيل : الريحُ قد يذكّر ﴿ وَجَاءهُمُ الموج ﴾ في الفلك ﴿ مّن كُلّ مَكَانٍ ﴾ أي من أمكنة مجيءِ الموجِ عادةً ولا بُعدَ في مجيئه من جميع الجوانبِ أيضاً إذ لا يجب أن يكون مجيئُه من جهة هبوبِ الريح فقط بل قد يكون من غيرها بحسب أسبابٍ تتفق له ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أي هلَكوا فإن ذلك مثلٌ في الهلاك أصلُه إحاطةُ العدو بالحيّ أو سدّت عليهم مسالكُ الخلاص ﴿ دَّعَوَا الله ﴾ بدلٌ من ظنوا بدل اشتمال لما بينهما من الملابسة والتلازم أو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال ينساقُ إليه الأذهانُ كأنه قيل : فماذا صنعوا ؟ فقيل : دعوُا الله ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ من غير أن يشركوا به شيئاً من آلهتهم لا مخصّصين لدعاء به تعالى فقط بل للعبادة أيضاً

فإنهم بمجرد تخصيصِ الدعاء به تعالى لا يكونون مخلِصين له الدين .

﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا ﴾ اللامُ موطئةٌ للقسم على إرادة القولِ أي قائلين : والله لئن أنجيتنا ﴿ مِنْ هذه ﴾ الورطة ﴿ لَنَكُونَنَّ ﴾ ألبتةَ بعد ذلك أبداً ﴿ مِنَ الشاكرين ﴾ لنعمك التي من جملتها هذه النعمةُ المسؤولةُ وقيل : الجملةُ مفعولُ دعَوا لأن الدعاءَ من قبيل القولِ والأولُ هو الأَولى لاستدعاء الثاني لاقتصار دعائِهم على ذلك فقط وفي قوله : ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ من المبالغة في الدِلالة على كونهم ثابتين في الشكر مثابرين عليه منتظِمين في سلك المنعوتين بالشكر الراسخين فيه ما ليس في أن يقال لنشكُرن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(254/359)

وقال الآلوسى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

وهو على ما قيل كلام مستأنف مسوق لبيان جناية أخرى لهم مبنية على ما مر آنفاً من اختلاف حالهم بحسب اختلاف ما يعتريهم من الضراء .

وعن أبي مسلم أنه تفسير لبعض ما أجمل في قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الناس ﴾ [

يونس : 21] الخ ، وهو قريب من قول الإمام أنه تعالى لما قال : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا ﴾ الآية وهو كلام كلي ضرب لهم مثلاً بهذا ليتضح ويظهر ما هم عليه .

وزعم بعضهم أنه متصل بما تقدم من دلائل التوحيد فكأنه قيل : إلهكم الذي جعل الشمس ضياءاً والقمر نوراً و ﴿ هُوَ الذى يُسَيِّرُكُمْ ﴾ الخ ، وأول التيسير بالحمل على السير والتمكين منه ، والداعي لذلك قيل : عدم صحة جعل قوله سبحانه : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِى الفلك ﴾ غاية للتسيير في البحر مع أنه مقدم عليه وغاية الشيء لا بد أن تكون متأخرة عنه ، وبعد التأويل لا إشكال في جعل ما ذكر غاية لما قبله .

وقيل : هو دفع لزوم الجمع بين الحقيقة والمجاز وذلك لأن المسير في البحر هو الله تعالى إذ هو سبحانه المحدث لتلك الحركات في الفلك بالريح ولا دخل للعبد فيه بل في مقدماته ، وأما سير البر فمن الأفعال الاختيارية الصادرة من المخاطبين أنفسهم إن كانوا مشاة أو من دوابهم إن كانوا ركباناً وتسيير الله تعالى فيه إعطاء الآلات والأدوات ولزوم الجمع عليه ظاهر .

ووجه الدفع أن المراد من التسيير ما ذكر وهو معنى مجازي شامل للحقيقة والمجاز .

وادعى بعضهم اتحاد التسيير في البر والبحر واستدل بالآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى .

وتعقب بأنه تكلف .

والزمخشري لم يؤول التسيير بما ذكرنا وجعل الغاية مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتى بما في حيزها كأنه قيل : يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة وكانت كيت وكيت من مجيء الريح العاصف وتراكم الأمواج والظن للهلاك والدعاء بالإنجاء دون الكون في البحر ، وتعقب ذلك القطب بأنه لو جعل الكون في الفلك مع ما عطف عليه من قوله تعالى : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا ﴾ كفى ولم يحتج إلى اعتبار مجموع الشرط والجزاء ، ثم قال : والتحقيق أن الغاية إن فسرت بما ينتهي إليه الشيء بالذات فهي ليس إلا ما وقع شرطاً في مثل ذلك وإن فسرت بما ينتهي إليه الشيء مطلقاً سواء كان بالذات أو بالواسطة فهي مجموع الشرط والجزاء ، واستوضح ذلك من قولك : مشيت حتى إذا بلغت البلد اتجرت فإن ما انتهى إليه المشي بالذات الوصول إلى البلد وأما الاتجار فأمر مترتب على ذلك فيكون مما انتهى إليه المشي بالواسطة والتضعيف في ﴿ يَسِيرُ ﴾ للتعدية تقول سار الرجل وسيرته ، وقال الفارسي : إن سار متعد كسير لأن العرب تقول سرت الرجل وسيرته بمعنى ، ومنه قول الهذلي :

فلا تجزعي من سنة أنت سرتها . . .

فأول راض سنة من يسيرها

(256/359)

وقال في "الصحاح" : سارت الدابة وسارها صاحبها يتعدى ولا يتعدى وأنشد له هذا البيت ، وأوله النحويون حيث لم يرتضوا ذلك ، و ﴿ الفلك ﴾ السفن ومفرده وجمعه واحد وتغاير الحركات بينهما اعتباري ، وفي "الصحاح" أنه واحد وجمع يذكر ويؤنث وكأن ذلك باعتبار المركب والسفينة ، وكان سيبويه يقول : الفلك التي هي جمع تكسير للفلك الذي هو واحد وليست مثل الجنب الذي هو واحد وجمع والطفل وما أشبههما من الأسماء لأن فعلاً وفعلاً يشتركان في الشيء الواحد مثل العرب والعرب والعجم والعجم والرهب والرهب فحيث جاز أن يجمع فعل على فعل مثل أسد وأسد لم يمتنع أن يجمع فعل على فعل ، وضمير ﴿ جرين ﴾ للفلك وضمير ﴿ نَخْسِفْ بِهِمُ ﴾ لمن فيها وهو التفات للمبالغة في تقبيح حالهم كأنه أعرض عن خطابهم وحكى لغيرهم سوء صنيعهم ، وقيل : لا التفات بل معنى قوله سبحانه : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِى الفلك ﴾ حتى إذا كان بعضكم فيها إذ الخطاب للكل ومنهم المسيرون في البر فالضمير الغائب عائد إلى ذلك المضاف المقدر

كما في قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ ﴾ [النور : 40] فإنه في تقدير أو كذي ظلمات يغشاه موج ، والباء الأولى للتعدية والثانية وكذا الثالثة للسببية فلذا تعلق الحرفان بمتعلق واحد ، وإلا فقد منعوا تعلق حرفين بمعنى بمتعلق واحد ، واعتبار تعلق الثاني بعد تعلق الأول به وملاحظته معه يزيل اتحاد المتعلق .

وجوز أن تكون الثانية للحال أي جرين بهم ملتبسة بريح فتتعلق بمحذوف كما في البحر ، وقد تجعل الأولى للملابسة أيضاً ﴿ وَفَرِحُواْ ﴾ عطف على ﴿ جرين ﴾ هو عطف على ﴿ إِن كُنتُمْ ﴾ وقد تجعل حالاً بتقدير قد وضمير ﴿ بِهَا ﴾ للريح ونقل الطبرسي القول برجوعه للفلك ولا يكاد يجري به القلم ، والمراد بطيبة حسبما يقتضيه المقام لينة الهبوب موافقة المقصد .

(257/359)

وظاهر الآية على ما نقل عن الإما يقتضي أن راكب السفينة متحرك بحركتها خلافاً لمن قال : إنه ساكن ، ولا وجه كما قال بعض المحققين لهذا الخلاف فإنه ساكن بالذات سائر بالواسطة .

وقرأ ابن عامر ﴿ ينشركم ﴾ بالنون والشين المعجمة والراء المهملة من النشر ضد الطي

أي يفرقكم ويبثكم ، وقرأ الحسن ﴿ ينشركم ﴾ من أنسر بمعنى أحيا .

وقرأ بعض الشاميين ﴿ ينشركم ﴾ بالتشديد للتكثير من النشر أيضاً ، وعن أم الدرداء أنها قرأت ﴿ فِى ﴾ بزيادة ياءي النسب ، ووجه ذلك بأنهما زائدتان كما في الخارجي والأحمري ولا اختصاص لذلك في الصفات لمجيء دودوي وأنا الصلتاني في قول الصلتان ، ويجوز أن يراد به اللج والماء الغمر الذي لا تجري الفلك إلا فيه ، وقوله سبحانه : ﴿ بِهَا جَاءتْهَا ﴾ جواب ﴿ إِذَا ﴾ والضمير المنصوب للفلك أو للريح الطيبة على معنى تلقتها واستولت عليها من طرف مخالف لها فإن الهبوب على وفقها لا يسمى على ما قيل مجيئاً لريح أخرى عادة بل هو اشتداد للريح الأولى ، ورجح الثاني بأنه الأظهر لاستلزامه للأول من غير عكس لأن الهبوب على طريقة الريح اللينة يعد مجيئاً بالنسبة إلى الفلك دون الريح اللينة مع أنه لا يستتبع تلاطم لأمواج الموجب لمجيئها من كل مكان ولأن التهويل في بيان استيلائها على ما فرحوا به وعلقوا به حبال رجائهم أكثر وفيه تأمل ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ أي ذات عصف فهو من باب النسب كلابن وتامر ، ويستوي فيه المذكر والمؤنث كما صرحوا به فلذا لم يقل عاصفة مع أن الريح مؤنثة لا تذكر بدون تأويل .

وقيل : لم يقل عاصفة لأن العصوف مختص بالريح كحائض فلا حاجة إلى الفارق أو أنه اعتبر التذكير في الريح كما اعتبر فيها التأنيث والأولى ما قدمناه ، وأصل العصف الكسر والنبات المتكسر والمراد شديدة الهبوب ﴿ وَجَاءهُمُ الموج ﴾ وهو ما علا وارتفع من اضطراب الماء ، وقيل : هو اضطراب البحر والأول هو المشهور ﴿ مّن كُلّ مَكَانٍ ﴾ أي من أمكنة مجيء الموج عادة وقد يتفق مجيئه من جهات حسب أسباب تتفق لذلك ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أي أهلكوا كما رواه ابن المنذر عن ابن جريج ، ففي الكلام استعارة تبعية ، وقيل : إن الإحاطة استعارة لسد مسالك الخلاص تشبيهاً له بإحاطة العدو بإنسان ثم كنى بتلك الاستعارة عن الهلاك لكونها من روادفها ولوازمها .

وقيل : إن ذلك مثل في الهلاك ، والظن على ما يتبادر منه ، وجوز أن يكون بمعنى اليقين بناءً على تحقق وقوعه في اعتقادهم أو كون الكناية عن القرب من الهلاك ﴿ دَّعَوَا الله ﴾ جعله غير واحد بدل اشتمال من ظنوا لأن دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك فبينهما ملابسة تصحح البدلية ، وقيل : هو جواب ما اشتمل عليه المعنى من معنى الشرط أي لما ظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله الخ .

وجعله أبو حيان استئنافاً بيانياً كأنه قيل : فماذا كان حالهم إذ ذاك ؟ فقيل : دعوا الخ ، ورجح القول بالبدل عليه بأنه أدخل في اتصال الكلام .

والدلالة عن كونه المقصود مع إفادته ما يستفاد من الاستئناف مع الاستغناء عن تقدير السؤال .

(259/359)

وأنت تعلم أن تقدير السؤال ليس تقديراً حقيقياً بل أمر اعتباري وفيه من الإيجاز ما فيه وليس بأبعد مما تكلف للبدلية ، ويشعر كلام بعضهم جواز كونه جواب الشرط و ﴿ جَاءتْهَا ﴾ في موضع الحال كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى الفلك دَعَوُاْ الله ﴾ [العنكبوت : 65] الآية ، وتعقب بأن الاحتياج إلى الجواب يقتضي صرف ما يصلح له إليه لا إلى الحال الفضلة المفتقرة إلى تقدير قد مع أن عطف ﴿ وَظَنُّواْ ﴾ على ﴿ جَاءتْهَا ﴾ يأبى الحالية والفرح بالريح الطيبة لا يكون حال مجيء العاصفة والمعنى على تحقق المجيء لا على تقديره ليجعل حالاً مقدرة ولا يخلو عن حسن ، والظاهر أن ما عده مانعاً من الحالية غير مشترك بينه وبين كونه جواب ﴿ إِذَا ﴾ لأنه يقتضي أنهما في زمان واحد كما لا يخفى على من له أدنى معرفة بأساليب الكلام ، وقوله سبحانه : ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ حال من ضمير ﴿ دَّعَوَا ﴾ و ﴿ لَهُ ﴾ متعلق بمخلصين و ﴿ الدين ﴾ مفعوله أي دعوه تعالى من غير إشراك لرجوعهم من شدة الخوف إلى الفطرة التي جبل عليها كل أحد من التوحيد وأنه لا متصرف

إلا الله سبحانه المركوز في طبائع العالم وروي ذلك عن ابن عباس .

ومن حديث أخرجه أبو داود .

والنسائي .

وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص قال : "لما كان يوم الفتح فر عكرمة بن أبي جهل فركب البحر فأصابتهم عاصف فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً فقال عكرمة : لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص ما ينجيني في البر غيره اللهم أن لك عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفواً كريماً قال فجاء فأسلم" .

وفي رواية ابن سعد عن أبي مليكة "أن عكرمة لما ركب السفينة وأخذتهم الريح فجعلوا يدعون الله تعالى ويوحدونه قال : ما هذا ؟ فقالوا : هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله تعالى قال : فهذا له محمد صلى الله عليه وسلم الذي يدعونا إليه فارجعوا بنا فرجع .

(260/359)

وأسلم" .

وظاهر الآية أنه ليس المراد تخصيص الدعاء فقط به سبحانه بل تخصيص العبادة به تعالى

أيضاً لأنهم بمجرد ذلك لا يكونون مخلصين له الدين .

وأياً ما كان فالآية دالة على أن المشركين لا يدعون غيره تعالى في تلك الحال ، وأنت خبير بأن الناس اليوم إذا اعتراهم أمر خطير وخطب جسيم في بر أو بحر دعوا من لا يضر ولا ينفع ولا يرى ولا يسمع فمنهم من يدعو الخضر والياس ومنهم من ينادي أبا الخميس والعباس ومنهم من يستغيث بأحد الأئمة ومنهم من يضرع إلى شيخ من مشايخ الأمة ولا ترى فيهم أحداً يخص مولاه بتضرعه ودعاه ولا يكاد يمر له ببال أنه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال فبالله تعالى عليك قل لي أي الفريقين من هذه الحيثية أهدى سبيلاً وأي الداعيين أقوم قيلاً ؟ وإلى الله تعالى المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة وتلاطمت أمواج الضلالة وخرقت سفينة الشريعة واتخذت الاستغاثة بغير الله تعالى للنجاة ذريعة وتعذر على العارفين الأمر بالمعروف وحالت دون النهي عن المنكر صنوف الحتوف ، هذا وقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ في محل نصب بقول مقدر عند البصريين وهو حال من الضمير السابق ، ومذهب الكوفيين إجراء الدعاء مجرى القول لأنه من أنواعه وجعل الجملة محكية به والأول هو الأولى هنا ، واللام موطئة لقسم مقدر و ﴿ لَنَكُونَنَّ ﴾ جوابه .

والمشار إليه بهذه الحال التي هم فيها أي والله لئن أنجيتنا مما نحن فيه من الشدة لنكونن البتة بعد ذلك أبداً شاكرين لنعمك التي من جملتها هذه النعمة المسؤولة ، والعدول عن لنشكرن

إلى ما فيي النظم الجليل للمبالغة في الدلالة على الثبوت في الشكر والمثابرة عليه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(261/359)

وقال ابن عاشور :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

هذه الجملة بدل اشتمال من جملة ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة ﴾ [يونس : 21] إلى آخرها لأن البغي في الأرض اشتمل عليه المكر في آيات الله .

والمقصود من هذه الجملة هو قوله : ﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض ﴾ وما سواه تمهيد وإدماج للامتنان .

أعقب التهديد على كفران النعمة بذكر بعض نعم الله عليهم ثم ضَراء تعقب النعمة للابتلاء والتذكير بخالقهم ، ثم كيف تُفرج عنهم رحمةً بهم فيكفر فريق منهم كلتا النعمتين ولا يتذكر ، فكان المقصود أنَّ في ذلك أعظم الآيات على الوحدانية فكيف يقولون : ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ [يونس : 20] وفي كل شيء له آية ، وفي كل ذلك امتنان عليهم بالنعمة وتسجيل لكفرانها ولتوارد الآيات عليهم ولكيلا يغتروا بالإمهال فيحسبوه رضى بكفرهم

أو عجزاً عن أخذهم ، وهذا موقع رشيق جد الرشاقة لهذه الآية القرآنية .

وإسناد التسْيير إلى الله تعالى باعتبار أنه سببه لأنه خالق إلهام التفكير وقوى الحركة العقلية والجسدية ، فالإسناد مجاز عقلي ، فالقصر المفاد من جملة : ﴿ هو الذي يسيركم ﴾ قصر ادعائي .

والكلام مستعمل في الامتنان والتعريض بإخلالهم بواجب الشكر .

و﴿ حتى ﴾ ابتدائية ، وهي غاية للتسيير في البحار خاصة .

وإنما كانت غاية باعتبار ما عطف على مدخولها من قوله : ﴿ دَعَوا الله ﴾ إلى قوله ﴿ بغير الحق ﴾ ، والمغيَّا هو ما في قوله ﴿ يسيركم ﴾ من المنة المؤذنة بأنه تسيير رفق ملائم للناس ، فكان ما بعد (حتى) ومعطوفاتها نهايةَ ذلك الرفق ، لأن تلك الحالة التي بعد (حتى) ينتهي عندها السير المنعَم به ويدخلون في حالة البأساء والضراء ، وهذا النظم نسج بديع في أفانين الكلام .

(262/359)

ومن بديع الأسلوب في الآية أنها لما كانت بصدد ذكر النعمة جاءت بضمائر الخطاب الصالحة لجميع السامعين ، فلما تهيأت للانتقال إلى ذكر الضراء وقع الانتقال من ضمائر

الخطاب إلى ضمير الغيبة لتلوين الأسلوب بما يخلصه إلى الإفضاء إلى ما يخص المشركين فقال : ﴿ وجَرين بهم ﴾ على طريقة الالتفات ، أي وجرين بكم .

وهكذا أجريت الضمائر جامعة للفريقين إلى أن قال : ﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ﴾ فإن هذا ليس من شيم المؤمنين فتمحض ضمير الغيبة هذا للمشركين ، فقد أخرج من الخبر مَن عدا الذين يبغون في الأرض بغير الحق تعويلاً على القرينة لأن الذين يبغون في الأرض بغير الحق لا يشمل المسلمين .

وهذا ضرب من الالتفات لم ينبه عليه أهل المعاني وهو كالتخصيص بطريق الرمز .

وقد عدت هذه الآية من أمثلة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في ضمائر الغيبة كلها تبعاً "للكشاف" بناء على جعل ضمائر الخطاب للمشركين وجعل ضمائر الغيبة لهم أيضاً ، وما نحوتُه أنا أليق .

وابتدىء الإتيان بضمير الغيبة من آخر ذكر النعمة عند قوله : ﴿ وجرين بهم بريح طيبة ﴾ للتصريح بأن النعمة شملتهم ، وللإشارة إلى أن مجيء العاصفة فجأة في حال الفرح مراد منه ابتلاؤهم وتخويفهم .

فهو تمهيد لقوله : ﴿ وجاءهم الموج من كل مكان ﴾ .

والسير في البر معروف للعرب .

وكذلك السير في البحر .

كانوا يركبون البحر إلى اليمن وإلى بلاد الحبشة .

وكانت لقريش رحلة الشتاء إلى اليمن وقد يركبون البحر لذلك .

وقد وصف طرفة بن العبد السفن وسيرها ، وذكرها عمرو بن كلثوم في معلقته ، والنابغة في داليته .

وقرأ الجمهور ﴿ يُسيّركم ﴾ بتحتية في أوله مضمومة فسين مهملة بعدها تحتية بعدها راء من السير ، أي يجعلكم تسيرون .

(263/359)

وقرأه ابن عامر وأبو جعفر ﴿ ينشركم ﴾ بتحتية مفتوحة في أوله بعدها نون ثم شين معجمة ثم راء من النّشر ، وهو التفريق على نحو قوله تعالى : ﴿ إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ [الروم : 20] وقوله : ﴿ فانتشروا في الأرض ﴾ [الجمعة : 10] .

قال ابن عطية عن عوف بن أبي جميلة وأبي الزغل : كانوا (أي أهل الكوفة) يقرأون ﴿ ينشركم ﴾ فنظروا في مصحف عثمان بن عفان فوجدوها ﴿ يسيركم ﴾ (أي بتحتية فسين مهملة فتحتية) فأوّل من كتبها كذلك الحجاج بن يوسف ، أي أمر بكتبها في مصاحب أهل الكوفة .

و﴿ حتى ﴾ غاية للتسيير .

وهي هنا ابتدائية أعقبت بحرف المفاجأة وجوابِه ، والجملة والغايةُ هي مفاد جواب ﴿ إذا ﴾ وهو قوله : ﴿ جاءتها ريح عاصف ﴾ ، فمجيء الريح العاصف هو غاية التسيير الهنيء المنعم به ، إذ حينئذٍ ينقلب التسيير كارثة ومصيبة .

والفلك : اسم لمَركَب البحر ، واسم جمع له بصيغة واحدة .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ في سورة [البقرة : 164] .

وهو هنا مراد به الجمع .

والجري : السير السريع في الأرض أو في البحر ، قال تعالى : ﴿ باسم الله مجراها ﴾ [هود : 41] والظاهر أنه حقيقة فيهما .

والريح مؤنثة في كلام العرب .

وتقدم في قوله : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح نشراً بين يَدي رحمته ﴾ في سورة [الأعراف : 57] .

والطيبة : الملائمة الرفيقة بالراكبين .

والطيب : الموصوف بالطِيب الشديد .

وأصل معنى الطيب الملاءمة فيما يراد من الشيء ، كقوله تعالى : ﴿ فلنحيينه حياةً طيبة

﴾ [النحل : 97] ، ويقال : طاب له المقام في مكان كذا .

ومنه سمي الشيء الذي له ريح وعرف طِيباً .

وجملة : ﴿ جاءتها ريح عاصف ﴾ جواب ﴿ إذَا ﴾ .

وفي ذكر جَريهن بريح طيبة وفرحهم بها إيماء إلى أن مجيء العاصفة حدث فجأة دون توقع من دلالة علامات النوتية كما هو الغالب .

وفيه إيماء إلى أن ذلك بتقديرٍ مرادٍ لله تعالى ليخوفهم ويذكرهم بوحدانيته .

(264/359)

وضمير ﴿ جاءتها ﴾ عائد إلى ﴿ الفُلك ﴾ لأن جمع غير العاقل يعامل معاملة المفرد المؤنث .

والعاصف : وصف خاص بالريح ، أي شديدة السرعة .

وإنما لم تلحقه علامة التأنيث لأنه مختص بوصف الريح فاستغنى عن التأنيث ، مثل : نافس وحائض ومرضع ، فشاع استعماله كذلك ، وذكر وصفاً للريح فبقي لا تلحقه التاء .

وقالوا : إنما لم تلحقه التاء لأنه في معنى النسب ، مثل : لابن ، وتامر .

وفيه نظر .

ومعنى ﴿ من كل مكان ﴾ من كل جهة من جهات الفُلك ، فالابتداء الذي تفيده (من) ابتداء الأمكنة المتجهة إلى الفلك .

ومعنى ﴿ أحيط بهم ﴾ أخذوا وأهلكوا ، فالعرب يقولون : أحاط العَدو بالقبيلة إذا تمكن منها وغلبها ، لأن الإحاطة بها تدل على الإحداق بها وتطويقها .

ولما كان ذلك هزيمة وامتلاكاً لها صار ترتيب ﴿ أحيط بهم ﴾ استعارة تمثيلية للهلاك كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ والله محيط بالكافرين ﴾ [البقرة : 19] وقوله تعالى : ﴿ لتأتنني به إلا أن يُحاط بكم ﴾ [يوسف : 66] وقوله : ﴿ وأحيط بثمره ﴾ [الكهف : 42] أي هلكت .

فمعنى ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ ظنوا الهلاك .

وجملة : ﴿ دعَوا الله مخلصين ﴾ جواب ﴿ إذا ﴾ .

ومعنى مخلصين له الدين ممحضين له العبادة في دعائهم ، أي دعوه ولم يدعوا معه أصنامهم .

وليس المراد أنهم أقلعوا عن الإشراك في جميع أحوالهم بل تلك حالتهم في الدعاء عند الشدائد .

وهذا إقامة حجة عليهم ببعض أحوالهم ، مثل قوله تعالى : ﴿ أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون ﴾ [الأنعام : 40 ، 41] .

وجملة : ﴿ لئن أنجيتنا ﴾ بيان لجملة ﴿ دَعوا ﴾ لأن مضمونها هو الدعاء .

والإشارة بـ ﴿ هذه ﴾ إلى حالة حاضرة لهم ، وهي حالة إشرافهم على الغرق ، فالمشار إليه هو الحالة المشاهدة لهم .

(265/359)

وقد أكد وعدهم بالشكر بثلاث مؤكدات : لامِ توطئة القسم ، ونونِ التوكيد ، والتعبير بصيغة ﴿ من الشاكرين ﴾ دون لنكونن شاكرين ، لما يفيده من كونهم من هذه الزمرة التي ديدنها الشكر ، كما تقدم بيان خصوصية مثل هذا التركيب عند قوله تعالى : ﴿ قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ﴾ في سورة [الأنعام : 56] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(266/359)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

وهذه الآية الكريمة جاءت مرحلة من مراحل إخبار الله سبحانه وتعالى عن المعاندين

لدعوة الإسلام ، التي بدأها الحق سبحانه بأنه قد رحمهم فأجّل لهم استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر ، ولو أنه أجابهم إلى ما دَعَوْا به على أنفسهم من الشر في قولهم : ﴿ إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32]

لقضي أمرهم : فمن رحمة الله تعالى أنه لم يُجِبْهم إلى دعائهم .

وإذا كان الله سبحانه قد أجَّل استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر رحمة بهم ، فيجب أن يعرفوا أن تأجيل استجابتهم بدعاء الخير رحمة بهم أيضاً ؛ لأنهم قد يدعون بالشر وهم يظنون أنهم يدعون بالخير ، وبعد ذلك دلّل على كذبهم في دعائهم على أنفسهم بالشر بأنهم إذا مسّهم ضرٌّ دعوا الله تعالى مضطجعين وقاعدين وقائمين .

فلو كانوا يحبون الشر لأنفسهم ؛ لظلوا على ما هم فيه من البلاء إلى أن يقضي الله تعالى فيهم أمراً .

ثم عرض سبحانه قضية أخرى ، وهي أنه سبحانه إذا مسهم بضر ؛ ليعتبروا ، جاء الله سبحانه برحمته ؛ لينقذهم من هذا الضر . فياليتهم شركوا نعمة الله تعالى في الرحمة من بعد الضر ، ولكنهم مرُّوا كأن لم يدعوا الله سبحانه إلى ضر مسَّهم .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، يصور لنا الحق سبحانه وضعاً آخر ، هو وضع السير في البر والبحر ، فيقول : ﴿ هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ فِي البر والبحر ﴾ [يونس :

22] .

وكلمة ﴿ يُسَيِّرُكُمْ ﴾ تدل على أن الذي يسيّر هو الله ، ولكن في القرآن آيات تثبت أن السير يُنسب إلى البشر حين يقول : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ﴾ [النمل : 69]

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ [القصص : 29] .

(267/359)

وهو سبحانه يقول : ﴿ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاما آمِنِينَ ﴾ [سبأ : 18]

فكأن هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قد نسبت التسيير إلى الله سبحانه ، وبعض الآيات الأخرى نسبت التسيير إلى النفس الإنسانية ، ونقول لمن توهموا أن في ذلك تعارضاً : لو أنكم فطنتم إلى تعريف الفاعل عند النحاة وكيف يرفعونه ؛ لعرفتم أن تحقق أي فعل إنما يعود إلى مشيئة الله سبحانه ، فحين نقول : " نجح فلان " فهل هو الذي نجح ، أم أن الذي سمح له بالنجاح غيره ؟ إن الممتحن والمصحّح هما من سمحا له بالنجاح ؛ تقديراً لإجاباته التي تدل على بذل المجهود في الاستذكار .

وكذلك نقول : " مات فلان " ، فهل فلان فعل الموت بنفسه ؟ خصوصاً ونحن نعرب " مات

"كفعل ماضٍ ، ونعرب كلمة (فلان) " فاعل " أو نقول : إن الموت قد وقع عليه واتَّصف به ؛ لأن تعريف الفاعل : هو الذي يفعل الفعل ، أو يتّصف به .

وإذا أردنا أن ننسب الأشياء إلى مباشرتها السببية ؛ قلنا : " سار الإنسان " .

وإذا أردنا أن نؤرِّخ لسير الإنسان بالأسباب ، وترحَّلنا به إلى الماضي ؛ لوجدنا أن الذي سيَّره هو الله تعالى .

وكل أسباب الوجود إنْ نظرتَ إليها مباشرة ؛ وجدتها منسوبة إلى من هو فاعل لها ؛ لكنك إذا تتبَّعتها أسباباً ؛ وجدتّها تنتسب إلى الله سبحانه .

فمثلاً : إذا سُئلت : مَنْ صنع الكرسي ؟ تجيب : النجار . وإنْ سألت النجار : من أين أتيت بالخشب ؟ سيجيبك : مِن التاجر . وسيقول لك التاجر أنه استورده من بلاد الغابات ، وهكذا .

إذن : إذا أردت أن تسلسل كل حركة في الوجود ؛ لا بد أن تنتهي إلى الله تعالى .

وحين قال الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ [القصص : 29]

نفهم من ذلك أن موسى عليه السلام قد سُيِّر بأهله ؛ لأن التسيير في كل مقوماته من الله تعالى .

والمثال الآخر : نحن نقرأ في القرآن قوله الحق : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ [النجم : 43]

(268/359)

فهو سبحانه الذي خلق الضحك ، وخلق البكاء .

فنجد من يقول : كيف يقول الله سبحانه إنه خلق الضحك والبكاء وهو الذي يقول في القرآن : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ [التوبة : 82]

ونقول : أنت إن نظرت إلى القائم بالضحك ، فهو الإنسان الذي ضحك ، وإن نظرت إلى من خلق غريزة الضحك في الإنسان ؛ تجده الله سبحانه .

وغريزة الضحك موجودة باتفاق شامل لكل أجناس الوجود ، وكذلك البكاء فلا يوجد ضحك عربي ، وضحك انجليزي ، ولا يوجد بكاء فرنسي ، أو بكاء روسي .

إذن : فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الضحك والبكاء .

وقد صدق قوله الحق : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ [النجم : 43]

لكن الضاحك والباكي يقوم به الوصف . وكذلك قوله الحق : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى ﴾ [الأنفال : 17]

فقد شاء الحق سبحانه أن يمكن رسوله صلى الله عليه وسلم بالبشرية أن يرمي الحصى ، ولكن إيصال الحصى لكل فرد في الجيش المقابل له ، فتلك إرادة الله .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿ هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ فِي البر والبحر ﴾ . لا يتعارض مع أنهم هم الذين يسيرون ، وأنت إذا علّلت السير في الأرض أو في البحر ؛ ستجد أن السير هو انتقال السائر من مكان إلى مكان ، وهو يحدّد غاية السير بعقله ، والأرض أو البحر الذي يسير في أي منهما بأقدامه أو بالسيارة أو بالمركب ، هذا العقل خلقه الله تعالى ، والأرض كذلك ، والبحر أيضاً ، كلها مخلوقات خلقها الله سبحانه وتعالى . وأنت حين تحرّك ساقيك ؛ لتسير ، لا تعرف كيف بدأت السير ولا كَمْ عضلة تحركت في جسدك ، فالذي أخضع كل طاقات جسمك لمراد عقلك هو الله تعالى .

إذن : فكل أمر مرجعه إلى الله سبحانه .

(269/359)

وهنا ملحظ في السير في البر والبحر ، فكلاهما مختلف ، فالإنسان ساعة يسير في الأرض على اليابسة ، قد تنقطع به السبل ، ويمكنه أن يستصرخ أحداً من المارة ، أو ينتظر إلى أن يمر عليه بعض المارة ؛ ليعاونه .

أما المرور في البحر ؛ فلا توجد به سابلة أو سالكة كثيرة ؛ حتى يمكن للإنسان أن يستصرخهم .

إذن : فالمرور في البحر أدق من المرور في البر ؛ ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول عن السير في البحر : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ [يونس : 22]

وهكذا لا نجد أن في الآية نفسها حديثاً عن السير في البر ؛ لأن الحق سبحانه ما دام قد تكلم عن إزالة الخطر للمضطر في البحر ، فهذا يتضمن إزالته عمن يسير في البر من باب أولى . وإذا ما جاء الدليل الأقوى ، فهو لا بد أن ينضوي فيه الدليل الأقل .

ومثال هذا قول الحق سبحانه :

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً ﴾ [الأحقاف : 15] .

وجاءت كل الحيثيات بعد ذلك للأم ، ولم يأت بأي حيثية للأب ، فيقول : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ [الأحقاف : 15]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن حيثية الأم مبنية على الضعف ، فيريد أن يرقق قلب ابنها عليها ، فالأب رجل ، قد يقدر على الكدح في الدنيا ، كما أن فضل الأب على الولد يدركه

الولد ، لكن فضل أمه عليه وهو في بطنها ؛ لا يعيه ، وفي طفولته الأولى لا يعي أيضاً هذا الفضل .

ولكنه يعي من بعد ذلك أن والده يحضر له كل مستلزمات حياته ، من مأكل وملبس ، ويبقى دور الأم في نظر الطفل ماضياً خافتاً .

(270/359)

إذن : فحيثية الأم هي المطلوبة ؛ لأن تعبها في الحمل والإرضاع لم يكن مُدْرَكاً من الطفل .

وكذلك هنا في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، ترك الحق سبحانه حيثية البر وأبان بالتفصيل حيثية البحر :

﴿ هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ فِي البر والبحر حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك ﴾ [يونس : 22]

وكلمة (الفلك) تأتي مرة مفردة ، وتأتي مرة جمعاً ، والوزن واحد في الحالتين ومثال هذا أنه حين أراد الله سبحانه أن ينجي نوحاً عليه السلام ، وأن يغرق الكافرين به ، قال لسيدنا نوح : ﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا ﴾ [هود : 37] .

إذن هي تطلق على المفرد ، وعلى الجمع ، ولها نظائر في اللغة في كلتا الحالتين ، فهي في الإفراد تكون مثل : قُفْل ، وقُرْط . وعند الجمع تكون مثل : أسْد .

والحق سبحانه وتعالى يصف الريح هنا بأنها طيبة ، والقرآن الكريم طبيعة أسلوبه حين يتكلم عن الريح بلفظ الإفراد يكون المقصود بها هو العذاب ، مثل قوله الحق : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾

[الأحقاف : 2425] .

وإن تكلم عنها بلفظ الجمع فهي للرحمة ، وسبحانه القائل :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر : 22] .

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ المآء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثمرات ﴾ [الأعراف : 57] .

(271/359)

والرياح هنا جاءت في صيغة الجمع ، وعلّة وجود ريح الشر ، ورياح للخير ، يمكنك أن تستشفها من النظر إلى الوجود كله ؛ هذا النظر يوضح لك أن الهواء له مراحل ، فهواء الرُّخَاء هو الذي يمر خفيفاً ، مثل النسيم العليل ، وأحياناً يتوقف الهواء فلا تمر نسمة

واحدة ، ولكننا نتنفس الهواء الساكن الساخن أثناء حرارة الجو ، ثم يشتد الهواء أحياناً ؛ فيصير رياحاً قوية بعض الشيء ، ثم يتحول إلى أعاصير .

والهواء كما نعلم هو المقوِّم الأساسي لكل كائن حي ، ولكل كائن ثابت غير حي ، فإذا كان الهواء هو المقوم الأساسي للنفس الإنسانية ، فالعمارات الضخمة مثل ناطحات السحاب لا تثبت بمكانها إلا نتيجة توازن تيارات الهواء حولها ، وإن حدث تفريغ للهواء تجاه جانب من جوانبها ؛ فالعمارة تنهار .

إذن : فالذي يحقق التوازن في الكون كله هو الهواء .

ولذلك نجد القرآن الكريم قد فصّل أمر الرياح وأوضح مهمتها ، وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وكأنه سبحانه يتكلم هنا عن السفن الشراعية التي تسير بالهواء المتجمّع في أشرعتها . وإذا كان التقدم في صناعة السفن قد تعدَّى الشراع ، وانتقل إلى البخار ، ثم الكهرباء ، فإن كلمة الحق سبحانه : ﴿ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ تستوعب كل مراحل الارتقاء ، خصوصاً وأن كلمة " الريح " قد وردت في القرآن الكريم بمعنى القوة أيا كانت : من هواء ، أو محرك يسير بأية طاقة . وسبحانه القائل : ﴿ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال : 46] .

وهكذا نفهم أن معنى الريح ينصرف إلى القوة . وأيضاً كلمة " الريح " تنسجم مع كل تيسيرات البحر .

وقوله الحق : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا ﴾ هذا القول الكريم يضم ثلاثة وقائع : الوجود في الفُلْك ، وجرى الفُلْك بريح طيبة ، ثم فرحهم بذلك ؛ هذه ثلاثة أشياء جاءت في فعل الشرط ، ثم يأتي جواب الشرط وفيه ثلاثة أشياء أيضاً : أولها : ﴿ جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ وثانيها : ﴿ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ وثالثها : ﴿ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ .

أما الريح العاصف : فهي المدمرة ، ويقال : فلان يعصف بكذا ، وفي القرآن : ﴿ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل : 5] .

إذن : ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ هي الريح المدمّرة والمغرقة . وقوله الحق : ﴿ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ .

فالموج يأتي من أسفل ، والريح تأتي من أعلى ، وترفع الريح الموج فيدخل الموج إلى المركب ، ونعلم أنهم يقيسون ارتفاع الموج كل يوم حسب قوة الريح : فحين تكون الريح خفيفة ؛ يظهر سطح مياه البحر مجعّداً ، وحين تكون الريح ساكنة ؛ فأنت لا تجد صفحة المياه مجعدة ، بل مبسوطة ، وقد جاءتهم الريح عاصفاً فيزداد عنف الموج ، ويتحقق نتيجة لذلك الظن

بأنهم قد أحيط بهم .

ومعنى الإحاطة هو عدم وجود منفذ للفرار ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يتكلم عن الكافرين بقوله : ﴿ واللهُ مُحِيطٌ بالكافرين ﴾ [البقرة : 19] .

أي : ليس هناك منفذ يفلتون منه .

ولحظة ظنهم أنه قد أحيط بهم ؛ لا يسلمون أنفسهم لهذه الحالة ؛ بدعوى الاعتزاز بأنفسهم غريزياً ، بل يتجهون إلى الله بالدعاء ، هذا الإله الذي أنكروه ، لكنهم لحظة الخطر لا يكذب أحد على نفسه أو يخدعها .

(273/359)

ولذلك نجد سيدنا جعفر الصادق يجيب على سائل سأله : أهناك دليل على وجود الصانع الأعلى ؟ فيقول سيدنا جعفر : ما عملك ؟ فيجيب السائل : تاجر أبحر في البحر . فسأله سيدنا جعفر : أوَلم يحدث لك فيه حال ؟ قال الرجل : بل حدث . فسأل سيدنا جعفر : ما هو ؟ قال : حملت بضائعي في سفينة ، فهبت الريح وعلا الموج وغرقت السفينة وتعلقت بلوح من الخشب . قال سيدنا جعفر : الم يخطر على بالك أن تفزع إلى شيء ؟ قال الرجل : نعم . قال سيدنا جعفر : هذا الصانع الأعلى .

وكذلك لجأ هؤلاء الذين كفروا بالله إلى الله تعالى حين عصفت بهم الريح ، وعلا عليهم الموج ، وظنوا أنهم قد أحيط بهم ويقول الحق سبحانه وتعالى وهم في مثل هذه الحالة : ﴿ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ وهذا يعني أنهم لم يدعوه فقط ، بل دَعَوْه بإخلاص وأقروا بوحدانيته ، وألاّ شريك له أبداً ؛ لأنهم يعلمون أن مثل هذا الشريك لن ينفعهم أبداً .

ثم يجيء الحق سبحانه بصيغة دعائهم : ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ فهل وَفَّوْا بالعهد ؟ لا ؛ لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ فَلَمَّآ أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأرض ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(274/359)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يُسَيِّرُكُمْ ﴾ : قراءةُ ابنِ عامر مِن النَّشْر ضد الطيّ ، والمعنى : يُفَرِّقكم ويَبُثُّكم . وقرأ الحسن : "يُنْشِركم " مِنْ أَنْشَر ، أي : أَحْيا وهي قراءةُ ابنِ مسعود أيضاً . وقرأ بعض الشاميين "يُنْشِّركم " بالتشديد للتكثير مِن النَّشْر الذي هو مطاوع الانتشار .

وقرأ الباقون "يُسَيِّركم" من التَّسْيير، والتضعيفُ فيه للتعديةِ تقول: سار الرجل وسَيَّرْتُه أنا. وقال الفارسي: "هو تضعيفُ مبالغةٍ لا تضعيفُ تعديةٍ، لأنَّ العربَ تقول: "سِرْتُ الرجلَ وسيَّرته"، ومنه قول الهذلي:

2575 فلا تجزعَنْ مِنْ سُنَّةٍ أنت سِرْتَها . . . فأولُ راضٍ سنةً مَنْ يَسِيْرُها

وهذا الذي قاله أبو علي غير ظاهر؛ لأن الأكثر في لسان العرب أنَّ "سار" قاصرٌ، فَجَعْلُ المضعفِ مأخوذاً من الكثير أَوْلَى. وقال ابنُ عطية: "وعلى هذا البيتِ اعتراضٌ حتى لا يكونَ شاهداً في هذا، وهو أن يكون الضميرُ كالظرفُ، كما تقول: "سِرْتُ الطريق". قال الشيخ: "وأمَّا جَعْلُ ابن عطية الضميرَ كالظرفِ كما تقول: "سِرْتَ الطريقَ" فهذا لا يجوزُ عند الجمهور، لأنَّ "الطريقَ" عندهم ظرفٌ مختصٌّ كالدار فلا يَصِلُ إليها الفعلُ غيرَ "دخلت" عند سيبويه، و "انطلقت" و "ذهبت" عند الفراء إلا بوساطة "في" إلا في ضرورة، وإذا كان كذلك فضميرُه أَحْرى أَنْ لا يتعدى إليه الفعل". وزعم ابن الطراوة أنَّ "الطريق" ظرفٌ غيرُ مختصٍ فيصلُ إليه الفعلُ بنفسه، وأباه النحاة.

(275/359)

قوله : ﴿ حتى إذَا ﴾ "حتى" متعلقةٌ ب "يُسَيِّركم" . وقد تقدَّم الكلامُ على "حتى" هذه الداخلةِ على "إذا" وما قيل فيها . قال الزمخشري : "كيف جَعَلَ الكونَ في الفلك غايةَ التسييرِ في البحر ، والتسيُير في البحر إنما هو بالكون في الفُلْك ؟ قلت : لم يجعلِ الكونَ في الفلك غايةَ التسيير ، ولكنَّ مضمونَ الجملةِ الشرطيةِ الواقعةِ بعد "حتى" بما في حيِّزها كأنه قال : يُسَيِّركم حتى إذا وقعت هذه الحادثةُ فكان كيت وكيتَ مِنْ مجيء الريحِ العاصفةِ وتراكُمِ الأمواج والظن للهلاك والدعاء بالإنجاء " .

وقرأ أبو الدَّرْدَاء وأمُّ الدرداء "في الفُلْكيّ" بياء النسب . وتخريجُها يَحْتمل وجهين ، أحدهما : أن يُراد به الماءُ الغَمْرُ الكثيرُ الذي لا يَجْري الفُلْكُ إلا فيه ، كأنه قيل : كنتم في اللُّججِ الفُلْكِيِّ ، ويكونُ الضمير في "جَرَيْنَ" عائداً على الفلك لدلالةِ "الفلكي" عليه لفظاً ولزوماً . والثاني : أن يكونَ من باب النسبةِ إلى الصفة لقولهم : "أَحْمَريّ" كقوله :

2576 أَطَرَباً وأنت قِنَّسْرِيُّ . . . والدهرُ بالإنسان دوّارِيُّ

وكِنسْبَتهم إلى العَلَم في قولهم : "الصَّلَتَانيّ" كقوله :

2577 أَنَا الصَّلَتَانِيُّ الذي قد عَلِمْتُمُ . . . . . .

. . .

فزاد ياءَي النسبِ في اسمه .

قوله : ﴿ وَجَرَيْنَ ﴾ يجوز أن يكونَ نسقاً على "كنتم" ، وأن يكونَ حالاً على إضمار "

قد " . والضميرُ عائدٌ على " الفلك " ، والمرادُ به هنا الجُمع ، وقد تقدَّم أنه مكسرٌ ، وأن تغييره تقديريٌّ ، فضمَّتُه كضمةِ "بُدْن " ، وأنه ليس باسم جمع ، كما زعم الأخفش .

(276/359)

وقوله : ﴿ بِهِم ﴾ فيه التفاتٌ من الخطابِ إلى الغَيْبة . قال الزمخشري : / " فإن قلت : ما فائدةُ صَرْفِ الكلامِ عن الخطابِ إلى الغَيْبة ؟ قلت : المبالغةُ كأنه يَذْكُرُ لغيرهم حالَه لِيُعْجِبَهم منها ويَسْتدعي منهم الإنكارَ والتقبيح " . وقال ابن عطية : " بهم " خروجٌ من الخطاب إلى الغَيْبة وحَسُنَ ذلك لأن قوله : ﴿ كُنتُمْ فِي الفلك ﴾ هو بالمعنى المعقول ، حتى إذا حَصَلَ بعضُكم في السفن " انتهى . فقدَّر اسماً غائباً وهو ذلك المضافُ المحذوف ، فالضميرُ الغائب يعود عليه . ومثلُه ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ ﴾ [النور : 40] تقديره : أو كذي ظلمات " وعلى هذا فليس من الالتفات في شيءٍ . وقال الشيخ : " والذي يَظْهر أنَّ حكمةَ الالتفاتِ هنا هي أن قولَه ﴿ هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ ﴾ خطابٌ فيه امتنانٌ وإظهارُ نعمةٍ للمخاطبين ، والمسيَّرون في البر والبحر مؤمنون وكفَّار ، والخطابُ شاملٌ ، فَحَسُن خطابُهم بذلك ليستديمَ الصالحُ الشكرَ ، ولعلَّ الطالحَ يتذكر هذه النعمةَ ، ولَمَّا كان في آخر الآية ما يقتضي أنهم إذا نَجَوا بَغَوا في الأرضِ عَدَلَ عن خطابهم بذلك إلى

الغَيْبة لئلا يخاطب المؤمنين بما لا يليق صُدورُه منهم وهو البغيُ بغير الحق "

قوله : ﴿ بِرِيحٍ ﴾ متعلقٌ ب " جَرَيْنَ " ، فيقال : كيف يتعدى فعلٌ واحدٌ إلى معمولَيْن بحرفِ جرٍ متحدٍ لفظاً ومعنى ؟ . فالجوابُ أن الباءَ الأولى للتعدية كهي في " مررت بزيد " والثانية للسبب فاختلف المعنيان ، فلذلك تعلَّقا بعاملٍ واحدٍ . يجوز أن تكونَ الباءُ الثانيةُ للحالِ فتتعلقَ بمحذوف ، والتقدير : جَرَيْنَ بهم ملتبسةً بريح ، فتكونُ الحالُ من ضمير الفلك .

قوله : ﴿ وَفَرِحُواْ بِهَا ﴾ ، يجوز أن تكون هذه الجملةُ نَسَقاً على " جَرَيْنَ " ، وأن تكونَ حالاً ، و " قد " معها مضمرةٌ عند بعضهم ، أي : وقد فَرِحوا ، وصاحبُ الحال الضمير في " بهم " .

(277/359)

قوله : ﴿ جَآءَتْهَا ﴾ الظاهرُ أن هذه الجملةَ الفعلية جواب " إذا " ، وأن الضميرَ في " جاءَتْها " ضميرُ الريح الطيبة ، أي : جاءَتِ الريحَ الطيبةَ ريحٌ عاصفٌ ، أي : خَلَفَتْها . وبهذا بدأ الزمخشري ، وسبقه إليه الفراء وجَوَّز أن يكونَ الضميرُ للفلك ، ورجَّح هذا بأن الفُلْكَ هو المُحَدَّث عنه .

قوله : ﴿ وظنوا ﴾ يجوز أن يكونَ معطوفاً على " جاءتها " الذي هو جوابُ " إذا " ، ويجوز أن يكونَ معطوفاً على " كنتم " وهو قولُ الطبريّ ولذلك قال : " وظنُّوا " جوابُه " دَعَوا الله " .

قال الشيخ : " ظاهره العطف على جواب " إذا " لا أنَّه معطوفٌ على " كنتم " لكنه محتمل كما تقول : " إذا زارك فلانٌ فأكرمه ، وجاءك خالد فأحسِنْ إليه " وأنَّ أداةَ الشرط مذكورة " . وقرأ زيد ابن عليّ " حِيط " ثلاثياً .

قوله : ﴿ دَعَوُا الله ﴾ ، قال أبو البقاء : " هو جواب ما اشتمل عليه المعنى مِنْ معنى الشرط ، تقديره : لما ظَنُّوا أنهم أُحيط بهم دَعَوُا الله " ، وهذا كلامٌ فارغ . وقال الزمخشري : " هي بدلٌ مِنْ " ظنُّوا " لأنَّ دعاءهم مِنْ لوازم ظنِّهم الهلاكَ فهو متلبسٌ به " . ونقل الشيخ عن شيخه أبي جعفر أنه جوابٌ لسؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا كان حالُهم إذ ذاك ؟ فقيل : دَعَوُا الله " . و " مخلصين " حال . و " له " متعلقٌ به . و " الدين " مفعوله .

قوله : ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا ﴾ اللامُ موطِّئةٌ للقسم المحذوف ، و " لنكونَنَّ " جوابه ، والقسمُ وجوابهُ في محل نصب بقول مقدر ، وذلك القولُ المقدرُ في محلِّ نصبٍ على الحال ، والتقدير : دَعَوا قائلين : لئن أَنجَيْتنا من هذه لنكونَنَّ . ويجوزُ أن يجرى " دَعَوا " مجرى " قالوا " ، لأن الدعاء بمعنى القول ، إذ هو نوعٌ مِنْ أنواعه ، وهو مذهب كوفي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 168 . 173 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

يريد أنهم يُصْبحون في النّعم يجرُّون أذيالَهُم ، ثم يُمْسُون يبكون لَيَالِيَهُم . وقد يَبِيتُون والبهجةُ مَلَكَتْهُم ثم يصبحون وخفايا التقدير أهلكتْهُم ، وأنشدوا :

أقمتَ زماناً والعيونُ قريرةٌ . . . وأصبحتَ يوماً والجفونُ سوافِكُ

فإذا رجعوا إلى الله بإخلاص الدعاء يجود عليهم بكَشْفِ البلاء .

فلمَّا أنجاهم بالإجابة لدعائهم إذا هم إلى غيره يرجِعون ، وعلى مناهجهم - في تمردهم يسلكون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 87 . 88 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (23) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أعلم سبحانه أنهم اكدوا هذا الوعد هذا التأكيد ، أتبعه بيان أنهم أسرعوا في نقضه غاية الإسراع فقال : ﴿ فلما أنجاهم ﴾ ولما أبانت الفاء عن الإسراع في النقض ، أكد مناجاتهم لذلك بقوله : ﴿ إذا هم يبغون ﴾ أي يتجاوزون الحدود ﴿ في الأرض ﴾ أي جنسها ﴿ بغير الحق ﴾ أي الكامل ، فلا يزال الباغي مذموماً حتى يكون على الحق الكامل الذي لا باطل فيه بوجه ، وجاء الخطاب أولاً في ﴿ يسيركم ﴾ ليعم المؤمنين لأن التسيير يصلح للامتنان ، ثم التفت إلى الغيبة عند صدور ما لا يليق بهم – نبه على ذلك أبو حيان ، وأحسن منه أن يقال : إنه سبحانه أقبل عليهم تنبيهاً على أنه جعلهم – بما هيأ فيهم من القوى – أهلاً لخطابه ثم أعرض عنهم إشارة إلى أنهم استحقوا الإعراض لإعراضهم اغتراراً بما أتاحهم من الريح الطيبة في محل يجب فيه الإقبال عليه والغنى عن كل ما سواه لعظم الخطر وشدة الأمر ، وكأنه يذكر لغيرهم من حالهم ما يعجبه منه لينكر عليهم ويقبح حالهم ؛ والتسيير : التحريك في جهة تمتد كالسير ؛ والبر : الأرض الواسعة التي تقطع من بلد ، ومنه البر لاتساع الخير به ؛ والبحر : مستقر الماء الواسع حتى لا يرى من وسطه

حافتاه ؛ والفلك : السفن التي تدور في الماء ، وأصله الدور ، فمنه فلكة المغزل ، والفلك الذي يدور فيه النجوم ؛ والنجاة : التخليص من الهلاك ؛ والبغي : قصد الاستعلاء بالظلم ، وأصله الطلب ؛ والحق : وضع الشيء في موضعه على ما يدعو إليه العقل ؛ ثم بين أن ما هم فيه من الإمهال إنما هو متاع الدنيا وأنها دار زوال فقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس ﴾ أي الذي غلب عليهم وصف الاضطراب ﴿ إنما بغيكم ﴾ أي كل بغي يكون منكم ﴿ على أنفسكم ﴾ لعود الوبال عليها خاصة وهو على تقدير انتفاعكم به عرض زائل ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ ثم يبقى عاره وخزيه بعد الموت ﴿ ثم إلينا ﴾ أي خاصة ﴿ مرجعكم ﴾ بعد البعث ﴿ فننبئكم ﴾ على ما لنا من العظمة إنباء عظيماً ﴿ بما كنتم ﴾ أي كوناً هو كالجبلة ﴿ تعملون ﴾ ونجازيكم عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 431. 432 ﴾

(280/359)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذا التضرع الكامل بين أنهم بعد الخلاص من تلك البلية

والمحنة أقدموا في الحال على البغي في الأرض بغير الحق .

قال ابن عباس : يريد به الفساد والتكذيب والجراءة على الله تعالى ، ومعنى البغي قصد الاستعلاء بالظلم .

قال الزجاج : البغي الترقي في الفساد قال الأصمعي : يقال بغى الجرح يبغي بغياً إذا ترقى إلى الفساد ، وبغت المرأة إذا فجرت ، قال الواحدي : أصل هذا اللفظ من الطلب .

فإن قيل : فما معنى قوله : ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ والبغي لا يكون بحق ؟

قلنا : البغي قد يكون بالحق ، وهو استيلاء المسلمين عل أرض الكفرة وهدم دورهم وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني قريظة .

ثم إنه تعالى بين أن هذا البغي أمر باطل يجب على العاقل أن يحترز منه فقال : ﴿ يا أيها الناس إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ مَّتَاعَ الحياة الدنيا ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ الأكثرون ﴿ متاع ﴾ برفع العين ، وقرأ حفص عن عاصم ﴿ متاع ﴾ بنصب العين ، أما الرفع ففيه وجهان : الأول : أن يكون قوله : ﴿ بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ مبتدأ ، وقوله : ﴿ مَّتَاعَ الحياة الدنيا ﴾ خبراً .

والمراد من قوله : ﴿ بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ بغي بعضكم على بعض كما في قوله : ﴿ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : 54] ومعنى الكلام أن بغي بعضكم عن بعض منفعة الحياة الدنيا ولا بقاء لها .

والثاني : أن قوله ﴿ بَغْيُكُمْ ﴾ مبتدأ ، وقوله : ﴿ على أَنفُسِكُمْ ﴾ خبره ، وقوله : ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير : هو متاع الحياة الدنيا .

وأما القراءة بالنصب فوجهها أن نقول : إن قوله : ﴿ بَغْيُكُمْ ﴾ مبتدأ ، وقوله : ﴿ على أَنفُسِكُمْ ﴾ خبره ، وقوله : ﴿ مَّتَاعَ الحياة الدنيا ﴾ في موضع المصدر المؤكد ، والتقدير : تتمتعون متاع الحياة الدنيا .

المسألة الثانية :

البغي من منكرات المعاصي .

(281/359)

قال عليه الصلاة والسلام : " أسرع الخير ثواباً صلة الرحم ، وأعجل الشر عقاباً البغي واليمين الفاجرة " وروى " ثنتان يعجلهما الله في الدنيا البغي وعقوق الوالدين " وعن ابن عباس رضي الله عنهما : لو بغى جبل على جبل لاندك الباغي .

وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين في أخيه :

يا صاحب البغي إن البغي مصرعة . . فأربع فخير فعال المرء أعدله

فلو بغى جبل يوماً على جبل . . لاندك منه أعاليه وأسفله

وعن محمد بن كعب القرظي : ثلاث من كن فيه كن عليه ، البغي والنكث والمكر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ .

المسألة الثالثة :

حاصل الكلام في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ أي لا يتهيأ لكم بغي بعضكم على بعض إلا أياماً قليلة ، وهي مدة حياتكم مع قصرها وسرعة انقضائها ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أي ما وعدنا من المجازاة على أعمالكم ﴿ مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا ، والإنباء هو الإخبار ، وهو في هذا الموضع وعيد بالعذاب كقول الرجل لغيره سأخبرك بما فعلت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 58 ﴾

(282/359)

وقال السمرقندى :

﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ ﴾

يعني : يعصون ﴿ فِى الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ ، يعني : الدعاء إلى غير عبادة الله تعالى والعمل بالمعاصي والفساد .

قوله تعالى : ﴿ الحق يا أيها الناس إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ ، يعني : إثم معصيتكم عليكم .

وهذا كقوله : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بظلام لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] ويقال : مظالمكم فيما بينكم ، يعني : على أنفسكم أي جنايتكم عليكم ، وهذا كما يقال في المثل : المحسن سيجزى بإحسانه والمسيء يكفيه مساويه .

يعني : وباله يرجع إليه .

ثم قال : ﴿ مَّتَاعَ الحياة الدنيا ﴾ ، يعني : تمتعون فيها أيام حياتكم .

﴿ ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ .

ويقال : عيشكم في الدنيا قليل ، ويقال : عمر الدنيا في حياة الآخرة قليل ﴿ ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي بعد الموت في الآخرة ، ﴿ فَنُنَبِّئُكُمْ ﴾ ؛ يعني : نخبركم ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قرأ عاصم في رواية حفص ﴿ متاع ﴾ بالنصب ويكون نصباً على المصدر ، ومعناه تمتعون متاع الحياة الدنيا ، وقرأ الباقون ﴿ متاع ﴾ بالضم ومعناه هو متاع الحياة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ فَلَمَّآ أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ ﴾

يظلمون ويتجاوزون إلى غير أمر الله ﴿ فِي الأَرض بِغَيْرِ الحق يا أيها الناس إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ الآن وباله راجع إليها وجزاؤه لاحق ، وأتم الكلام ها هنا كقوله تعالى : ﴿ لَمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ ﴾ [الأحقاف : 35] أي هذا بلاغ وقيل هو كلام متصل ، والبغي ابتداء ومتاع خبره ، وقوله على أنفسكم صلة المتاع ومعناه ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ مَّتَاعَ الحياة الدنيا ﴾ ولا يصلح لزاد المعاد لأنّكم استوجبتم غضب الله .

وقرأ ابن اسحاق وحفص : متاعاً بالنصب على الحال ﴿ ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾

﴿ يبغون ﴾ : أي يفسدون ويكفرون ، والبغي : التعدي والأعمال الفاسدة ، ووكد ذلك بقوله : ﴿ بغير الحق ﴾ ثم ابتدأ بالرجز وذم البغي في أوجز لفظ ، وقوله " متاعُ الحياة " رفع ، وهذه قراءة الجمهور وذلك على خبر الابتداء ، والمبتدأ ﴿ بغيكم ﴾ ، ويصح أن يرتفع ﴿ متاع ﴾ على خبر ابتداء مضمر تقديره ذلك متاع أو هو متاع ، وخبر " البغي " قوله ﴿ على أنفسكم ﴾ ، وقرأ حفص عن عاصم وهارون عن أبي كثير وابن أبي إسحاق : " متاعَ " بالنصب وهو مصدر في موضع الحال من " البغي " وخبر البغي على هذا محذوف تقديره : مذموم أو مكروه ونحو هذا ، ولا يجوز أن يكون الخبر قوله ﴿ على أنفسكم ﴾ لأنه كان يحول بين المصدر وما عمل فيه بأجنبي ، ويصح أن ينتصب ﴿ متاع ﴾ بفعل مضمر تقديره : تمتعون متاع الحياة الدنيا ، وقرأ ابن أبي إسحاق . " متاعاً الحياةَ الدنيا " بالنصب فيهما ، ومعنى الآية إنما بغيكم وإفسادكم مضر لكم وهو في حالة الدنيا ثم تلقون عقابه في الآخرة ، قال سفيان بن عيينة : ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ﴾ أي تعجل لكم عقوبته في الحياة الدنيا ، وعلى هذا قالوا : البغي يصرع أهله .

قال القاضي أبو محمد : وقالوا : الباغي مصروع ، قال الله تعالى ﴿ ثم بغي عليه لينصرنه الله ﴾ [الحج : 60] وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما من ذنب أسرع عقوبة من

بغي " وقرأت فرقة " فننبئكم " على ضمير المعظم المتكلم وقرأت فرقة : " فينبئكم " ، على ضمير الغائب ، والمراد الله عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(285/359)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يبغون في الأرض ﴾

البغي : الترامي في الفساد .

قال الأصمعي : يقال : بغى الجرح : إذا ترامى إلى فساد .

قال ابن عباس : يبغون في الأرض بالدعاء إلى عبادة غير الله والعمل بالمعاصي والفساد .

﴿ يا أيها الناس ﴾ يعني أهل مكة .

﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ أي : جناية مظالمكم بينكم على أنفسكم .

وقال الزجاج : عملكم بالظلم عليكم يرجع .

قوله تعالى : ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ قرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، وحفص ، وأبان عن عاصم : "متاعَ الحياة الدنيا" بنصب المتاع .

قال الزجاج : مَن رفع المتاع ، فالمعنى أن ما تنالونه بهذا البغي إنما تنتفعون به في الدنيا ، ومن نصب المتاع ، فعلى المصدر .

فالمعنى : تمتَّعون متاع الحياة الدنيا .

وقرأ أبو المتوكل ، واليزيدي في اختياره ، وهارون العتكي عن عاصم : "متاعِ الحياة" بكسر العين .

قال ابن عباس : ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ أي : منفعة في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(286/359)

وقال القرطبى :

﴿ فَلَمَّآ أَنجَاهُمْ ﴾

أي خلّصهم وأنقذهم .

﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرض بِغَيْرِ الحق ﴾ أي يعملون في الأرض بالفساد وبالمعاصي .

والبغي : الفساد والشرك ؛ من بَغَى الجرحُ إذا فسد ؛ وأصله الطلب ، أي يطلبون الاستعلاء بالفساد .

"بِغَيْرِ الْحَقِّ" أي بالتكذيب ؛ ومنه بَغَت المرأةُ طلبت غير زوجها .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ أي وَبَالهُ عائد عليكم ؛ وتمّ الكلام ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ مَّتَاعَ الحياة الدنيا ﴾ أي هو متاع الحياة الدنيا ؛ ولا بقاء له .

قال النحاس : "بَغْيُكُمْ" رفع بالابتداء وخبره "مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" .

و"على أنفسِكم" مفعول معنى فعل البَغْي .

ويجوز أن يكون خبره "عَلَى أَنْفُسِكُمْ" وتضمر مبتدأ ، أي ذلك متاع الحياة الدنيا ، أو هو متاع الحياة الدنيا ؛ وبين المعنيين حرف لطيف ، إذا رفعت متاعاً على أنه خبر "بغيكم" فالمعنى إنما بغى بعضكم على بعض ؛ مثل : "فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ" وكذا "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ" .

وإذا كان الخبر "عَلَى أَنْفُسِكُم" فالمعنى إنما فسادكم راجع عليكم ؛ مثل "وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا" .

وروي عن سفيان بن عيينة أنه قال : أراد أن البغي متاع الحياة الدنيا ، أي عقوبته تعجل لصاحبه في الدنيا ؛ كما يقال : البَغْيُ مَصْرعةٌ .

وقرأ ابن أبي إسحاق "مَتَاعَ" بالنصب على أنه مصدر ؛ أي تتمتعون متاعَ الحياة الدنيا .

أو بنزع الخافض ، أي لمتاع ، أو مصدر ، بمعنى المفعول على الحال ، أي متمتعين .

أو هو نصب على الظرف ، أي في متاع الحياة الدنيا ، ومتعلق الظرف والجار والحال معنى

الفعل في البغي .

و"عَلَى أَنْفُسِكُمْ" مفعول ذلك المعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(287/359)

وقال الخازن :

﴿ فلما أنجاهم ﴾

يعني : فلما أنجى الله هؤلاء الذين ظنوا أنهم أحيط بهم من الشدة التي كانوا فيها ﴿ إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ﴾ يعني أنهم أخلفوا الله ما وعدوه وبغوا في الأرض فتجاوزوا فيها إلى غير ما أمر الله به من الكفر والعمل بالمعاصي على ظهرها وأصل البغي مجاوزة الحد .

قال صاحب المفردات : البغي على ضربين ، أحدهما محمود وهو مجاوزة العدل إلى الإحسان والفرض إلى التطوع .

والثاني مذموم وهو مجاوزة الحق إلى الباطل أو إلى الشبهة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى قوله بغير الحق والبغي لا يكون بحق قلت بلى قد يكون بحق وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم وإحراق زروعهم

وقلع أشجارهم كما فعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ببني قريظة ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ يعني : إن وبال بغيكم راجع عليكم ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ قيل هو كلام مبتدأ ، والمعنى : أن بغي بعضكم على بعض هو متاع الحياة الدنيا لا يصلح لزاد الآخرة وقيل هو كلام متصل بما قبله والمعنى يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم لا يتهيأ أن يبغي بعضكم على بعض إلا أياماً قليلة وهي مدة حياتكم مع قصرها في سرعة انقضائها .

والبغي : من منكرات الذنوب العظام .

قال بعضهم : لو بغى جبل على جبل لاندك الباغي .

وقد نظم بعضهم هذا المعنى شعراً وكان المأمون يتمثل به فقال :

يا صاحب البغي إن البغي مصرعة . . .

فارجع فخير مقال المرء أعدله

فلو بغى جبل يوماً على جبل . . .

لاندك منه أعاليه وأسفله

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثم إلينا مرجعكم ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ فننبئكم ﴾ أي فنخبركم ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ يعني في الدنيا من البغي والمعاصي فنجازيكم عليها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾

قال ابن عباس : يبغون بالدعاء إلى عبادة غير الله والعمل بالمعاصي والفساد .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : ما معنى قوله بغير الحق ، والبغي لا يكون بحق ؟ (قلت) : بلى وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة ، وهدم دورهم ، وإحراق زروعهم ، وقطع أشجارهم كما فعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ببني قريظة انتهى .

وكأنه قد شرح قوله : يبغون بأنهم يفسدون ، ويبعثون مترقين في ذلك ممعنين فيه من بغي الجرح إذا ترقى للفساد انتهى .

قال الزجاج : البغي الترقي في الفساد .

وقال الأصمعي : بغي الجرح ترقي إلى الفساد ، وبغت المرأة فجرت انتهى .

ولا يصح أن يقال في المسلمين إنهم باغون على الكفرة ، إلا إن ذكر أنّ أصل البغي هو الطلب مطلقاً ولا يتضمن الفساد ، فحينئذ ينقسم إلى طلب بحق ، وطلب بغير حق .

ولما حمل ابن عطية البغي هنا على الفساد قال : أكد ذلك بقوله بغير الحق .

وجواب لما إذا الفجائية وما بعدها ، ومجيء إذا وما بعدها جواباً لها دليل على أنها حرف يترتب ما بعدها من الجواب على ما قبله من الفعل الذي بعد لمّا ، وأنها تفيد الترتب

والتعليق في المضي ، وأنها كما قال سيبويه : حرف .

ومذهب غيره أنها ظرف ، وقد أوضحنا ذلك فيما كتبناه في علم النحو .

والجواب بإذا الفجائية دليل على أنه لم يتأخر بغيهم عن إنجائهم ، بل بنفس ما وقع الإنجاء وقع البغي ، والخطاب بيا أيها الناس ، قال الجمهور : لأهل مكة .

والذي يظهر أنه خطاب لأولئك الذين أنجاهم الله وبغوا ، ويحتمل كما قالوا : العموم ، فيندرج أولئك فيهم ، وهذا ذمّ للبغي في أوجز لفظ .

ومعنى على أنفسكم .

وبال البغي عليكم ، ولا يجني ثمرته إلا أنتم .

فقوله : على أنفسكم ، خبر للمبتدأ الذي هو بغيكم ، فيتعلق بمحذوف .

(289/359)

وعلى هذا التوجيه انتصب متاع في قراءة زيد بن علي وحفص ، وابن أبي إسحاق ، وهارون ، عن ابن كثير : على أنه مصدر في موضع الحال أي : متمتعين ، أو باقياً على المصدرية أي : يتمتعون به متاع ، أو نصباً على الظرف نحو : مقدم الحاج أي وقت متاع الحياة الدنيا .

وكل هذه التوجيهات منقولة .

والعامل في متاع إذا كان حالاً أو ظرفاً ما تعلق به خبر بعيكم أي : كائن على أنفسكم ، ولا ينتصبان ببغيكم ، لأنه مصدر قد فصل بينه وبين معموله بالخبر ، وهو غير جائز .

وارتفع متاع في قراءة الجمهور على أنه خبر مبتدأ محذوف .

وأجاز النحاس ، وتبعه الزمخشري ، أن يكون على أنفسكم متعلقاً بقوله : بغيكم ، كما تعلق في قوله ، فبغى عليهم ، ويكون الخبر متاع إذا رفعته .

ومعنى على أنفسكم : على أمثالكم .

والذين جنسكم جنسهم يعني بغى بعضكم على بعض منفعة الحياة الدنيا .

وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً : متاعاً الحياة الدنيا بنصب متاع وتنوينه ، ونصب الحياة .

وقال سفيان بن عيينة : في هذه الجملة تعجل لكم عقوبته في الحياة الدنيا .

وقرأ فرقة : فينبئكم بالياء على الغيبة ، والمراد الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(290/359)

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ ﴾

مما غشِيَهم من الكُربة والفاءُ للدِلالة على سرعة الإجابة ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الأرض ﴾ أي فاجئوا الفسادَ فيها وسارعوا إليه متراقين في ذلك متجاوزين عما كانوا عليه من حدود العيثِ ، من قولهم : بغى الجرحُ إذا ترامى في الفساد ، وزيادةُ في الأرض للدِلالة على التجدد والاستمرارِ وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ تأكيدٌ لما يفيده البغيُ أو معناه أنه بغير الحقِّ عندهم أيضاً بأن يكون ذلك ظلماً ظاهراً لا يخفى قبحُه على أحد كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق ﴾ وأما ما قيل من أنه للاحتراز عن البغي بحق كتخريب الغزاةِ ديارَ الكفرة وقطعِ أشجارِهم وإحراق زرعِهم فلا يساعده النظمُ الكريم لابتنائه على كون البغي بمعنى إفسادِ صورةِ الشيء وإبطالِ منفعتِه دون ما ذكر من المعنى اللائق بحال المفسدين .

(291/359)

﴿ يَا أَيُّهَا الناس ﴾ توجيهٌ للخطاب إلى أولئك الباغين للتشديد في التهديد والمبالغةِ في الوعيد ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ ﴾ الذي تتعاطَوْنه وهو مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ على أَنفُسِكُمْ ﴾

خبرُه أي عليكم في الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم وإن ظُنّ كذلك وقوله تعالى : ﴿ مَّتَاعَ الحياة الدنيا ﴾ بيانٌ لكون ما فيه من المنفعة العاجلةِ شيئاً غيرَ معتدَ به سريعَ الزوال دائمَ الوبال ، وهو نصبٌ على أنه مصدرٌ مؤكدٌ لفعل مقدر بطريق الاستئنافِ أي تتمتعون متاعَ الحياةِ الدنيا وقيل : على أنه مصدرٌ وقع موقِعَ الحال أي متمتعين بالحياة الدنيا والعاملُ هو الاستقرارُ الذي في الخبر لا نفسُ البغي لأنه يؤدي إلى الفصل بين المصدرِ ومعمولِه بالخبر ولا يخبر عن الموصولِ إلا بعد تمامِ صلتِه وأنت خبيرٌ بأنه ليس في تقييد كونِ بغيهم على أنفسهم بحال تمتعِهم بالحياة الدنيا معنىً يعتدّ به ، وقيل : على أنه ظرفُ زمانٍ نحو مقدمَ الحاجِّ أي زمنَ متاعِ الحياةِ الدنيا وفيه ما مر بعينه ، وقيل : على أنه مفعولٌ لفعل دل عليه المصدرُ أي تبغون متاعَ الحياة الدنيا ولا يخفى أنه لا يدل على البغي بمعنى الطلَب وجعلُ المصدر أيضاً بمعناه مما يُخلُّ بجزالة النظمِ الكريم لأن الاستئنافَ لبيان سوءِ عاقبةِ ما حُكيَ عنهم من البغي المفسّر بالإفساد المفْرطِ اللائقِ بحالهم فأيُّ مناسبةٍ بينه وبين البغي بمعنى الطلب ؟ وجعلُ الأول أيضاً بمعناه مما يجب تنزيهُ ساحةِ التنزيلِ عنه وقيل : على أنه مفعولٌ له أي لأجل متاعِ الحياة الدنيا والعاملُ ما ذكر من الاستقرار ، وفيه أن المعلّلَ بما ذُكر نفسُ البغي لا كونُه على أنفسهم ، وقيل : العاملُ فيه فعلٌ مدلولٌ عليه بالمصدر أي تبغون لأجل متاعِ الحياةِ الدنيا على أن الجملةَ مستأنفةٌ ، وقيل : على أنه مفعولٌ صريحٌ للمصدر وعلى أنفسكم ظرفٌ لغوٌ متعلقٌ به ، والمرادُ بالأنفس الجنسُ والخبرُ محذوفٌ لطول الكلامِ

والتقديرُ إنما بغيُكم على أبناء جنسِكم متاعَ الحياة الدنيا محذورٌ أو ظاهرُ الفساد أو نحوُ ذلك ، وفيه ما مر من ابتنائه على ما يليق بالمقام من كون البغي بمعنى الطلب .

نعم لو جُعل نصبُه على العلة أي إنما بغيُكم على أبناء جنسِكم لأجل متاعِ الحياةِ الدنيا محذورٌ كما اختاره بعضُهم لكان له وجهٌ في الجملة لكن الحقَّ الذي تقتضيه جزالةُ التنزيلِ إنما هو الأولُ وقرىء متاعُ بالرفع على أنه الخبرُ والظرفُ صلةٌ للمصدر أو خبرٌ ثانٍ لمبتدإٍ محذوفٍ أي هو متاعُ الخ ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ ﴾ أي هذا بلاغٌ فالمرادُ بأنفسهم على الوجه الأول أبناءُ جنسِهم وإنما عبّر عنهم بذلك هزاً لشفقتهم عليهم وحثاً لهم على ترك إيثارِ التمتعِ المذكورِ على حقوقهم ولا مجال للحمل على الحقيقة لأن كونَ بغيهم وَبالاً عليهم ليس بثابت عندهم حسبما يقتضيه ما حُكي عنهم ولم يُخبَر به بعدُ حتى يُجعلَ من تتمة الكلام ويجعل كونُه متاعاً مقصودَ الإفادةِ ، على أن عنوانَ كونِه وبالاً عليهم قادحٌ في كونه متاعاً فضلاً عن كونه من مبادي ثبوتِه للمبتدأ كما هو المتبادرُ من السَّوْق .

وأما كونُ البغي على أبناء الجنسِ فمعلومُ الثبوتِ عندهم ومتضمنٌ لمبادىء التمتعِ من أخذ المالِ والاستيلاءِ على الناس وغيرِ ذلك ، وأما على الوجهين الأخيرين فلا موجبَ للعدول عن الحقيقة فإن المبتدأَ إما نفسُ البغي أو الضميرُ العائدُ إليه من حيث هو هو لا من حيث كونُه وبالاً عليهم كما في صورة كونِ الظرفِ صلةً للمصدر فتدبر . وقرىء متاعاً الحياةَ الدنيا ، أما نصبُ متاعاً فعلى ما مر وأما نصبُ الحياةَ فعلى أنه بدلٌ من متاعاً بدلَ اشتمالٍ ، وقيل : على أنه مفعولٌ به لمتاعاً إذا لم يكن انتصابُه على المصدرية لأن المصدرَ المؤكدَ لا يعمل . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تمكُرْ ولا تعِن ماكراً ولا تبغِ ولا تعن باغياً ولا تنكُث ولا تعِن ناكثاً " وكان يتلوها وقال محمد بن كعب : ثلاثٌ من كنّ فيه كنّ عليه : البغيَ والنكثَ والمكر قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ ﴾ ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ على نَفْسِهِ ﴾ وعنه عليه الصلاة والسلام : " وأسرعُ الخير ثواباً صلةُ الرحم وأعجلُ الشر عقاباً البغيُ واليمينُ الفاجرة " وروي (ثنتان يعجّلهما الله تعالى في الدنيا البغيُ وعقوقُ الوالدين) وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما (لو بغى جبلٌ على جبل لدُكّ الباغي) ﴿ ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ عطفٌ على ما مر من الجملة المستأنفةِ المقدرةِ كأنه قيل : تتمتعون متاعَ الحياة الدنيا ثم ترجعون إلينا وإنما غُيّر السبكُ إلى الجملة الاسمية مع تقديم الجارّ والمجرور للدِلالة على الثبات والقصرِ ﴿ فَنُنَبِّئُكُمْ

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا على الاستمرار من البغي وهو وعيدٌ بالجزاء والعذابِ كقول الرجل لمن يتوعّده : سأخبرك بما فعلت ، وفيه نكتةٌ خفيةٌ مبنيةٌ على حِكمة أبيةٍ وهي أن كلَّ ما يظهر في هذه النشأةِ من الأعيان والأعراضِ فإنما يظهر

(294/359)

بصورة مغايرةٍ لصورته الحقيقيةِ التي بها يظهر في النشأة الآخرة فإن المعاصيَ مثلاً سمومٌ قاتلةٌ قد برزت في الدنيا بصورة تستحسنها نفوسُ العصاةِ وكذا الطاعاتُ مع كونها أحسنَ الأحاسن قد ظهرت عندهم بصور مكروهةٍ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : " حُفت الجنةُ بالمكارة وحفّت النارُ بالشهوات " فالبغي في هذه النشأة وإن برز بصورة تشتهيها البغاةُ وتستحسنها الغواةُ لتمتعهم به من حيث أخذُ المالِ والتشفّي من الأعداء ونحوُ ذلك لكن ذلك ليس بتمتع في الحقيقة بل هو تضرّر من حيث لا يحتسبون وإنما يظهرُ لهم ذلك عند إبرازِ ما كانوا يعملونه من البغي بصورته الحقيقيةِ المضادّةِ لما كانوا يشاهدونه على ذلك من الصورة وهو المرادُ بالتنبئة المذكورةِ والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(295/359)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ ﴾

مما نزل بهم من الشدة والكربة ، والفاء للدلالة على سرعة الإجابة ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الأَرض ﴾ أي فاجأوا الفساد فيها وسارعوا إليه مترامين في ذلك ممعنين فيه من قولهم : بغى الجرح إذا ترامى في الفساد ، وزيادة ﴿ فِى الأَرض ﴾ للدلالة على شمول بغيهم لأقطارها ، وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ تأكيداً لما يفيده البغي إذ معناه أنه بغير الحق عندهم أيضاً بأن يكون ظلماً ظاهراً لا يخفى قبحه على كل أحد كما قيل نحو ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق ﴾ [البقرة : 61]

وقد فسر البغي بإفساد صورة الشيء وإتلاف منفعته وجعل ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ للاحتراز مما يكون من ذلك بحق كتخريب الغزاة ديار الكفرة وقطع أشجارهم وحرق زروعهم كما فعل صلى الله عليه وسلم ببني قريظة .

وتعقب بأنه مما لا يساعده النظم الكريم لأن البغي بالمعنى الأول هو اللائق بحال المفسدين فينبغي بناء الكلام عليه .

والزمخشري اختار كون ذلك للاحتراز عما ذكر .

وذكر في "الكشف" أنه أشار بذلك إلى أن الفساد اللغوي خروج الشيء من الانتفاع فلا كل بغى أي فساد في الأرض واستطالة فيها كذلك كما علمت وإن كان موضوعه العرفي للاستطالة بغير حق لكن النظر إلى موضوعه الأصلي ، وقيل : إن البغي الذي يتعدى بفي بمعنى الإتلاف والإفساد وهو يكون حقاً وغيره والذي يتعدى بعلى بمعنى الظلم ، وتقييد الأول بغير الحق للاحتراز وتقييد الثاني به للتأكيد ، ولعل من يجعل البغي هنا بمعنى الظلم يقول : إن المعنى يبغون على المسلمين مثلاً فافهم ﴿ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا الناس ﴾ توجيه الخطاب إلى أولئك الباغين للتشديد في التهديد والمبالغة في الوعيد ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ ﴾ الذي تتعاطونه وهو مبتدأ خبره قوله سبحانه : ﴿ على أَنفُسِكُمْ ﴾ أي عليكم في الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم وإن ظن كذلك ، وقوله تعالى : ﴿ مَّتَاعَ الحياة الدنيا ﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر بطريق الاستئناف أي تتمتعون متاع الحياة الدنيا ، والمراد من ذلك بيان كون ما في البغي من المنفعة العاجلة شيئاً غير معتد به سريع الزوال دائم الوبال ، وقيل : إنه منصوب على أنه مصدر واقع موقع الحال أي متمتعين ، والعامل هو الاستقرار الذي في الخبر ولا يجوز أن يكون نفس البغي لأنه لا يجوز الفصل بين المصدر ومعموله بالخبر ، وأيضاً لا

يخبر عن المصدر إلا بعد تمام صلاته ومعمولاته .

وتعقب بأنه ليس في تقييد كون بغيهم على أنفسهم بحال تمتعهم بالحياة الدنيا معنى يعتد به .

وقيل : على أنه ظرف زمان كمقدم الحاج أي زمان متاع الحياة الدنيا والعامل فيه الاستقرار أيضاً وفيه ما في سابقه ، وقيل : على أنه مفعول لفعل دل عليه المصدر أي تبغون متاع الحياة الدنيا .

(297/359)

واعترض بأن هذا يستدعي أن يكون البغي بمعنى الطلب لأنه الذي يتعدى بنفسه والمصدر لا يدل عليه ، وجعل المصدر أيضاً بمعناه مما يخل بجزالة النظم الكريم لأن الاستئناف لبيان سوء عاقبة ما حكى عنهم من البغي المفسر على المختار بالفساد المفرط اللائق بحالهم وحينئذٍ تنتفي المناسبة ويفوت الانتظام ، وجعل الأول أيضاً بمعناه مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عنه .

وقيل : على أنه مفعول له أي لأجل متاع الحياة الدنيا والعامل فيه الاستقرار .

وتعقب بأن المعلل بما ذكر نفس البغي لا كونه على أنفسهم ، وقيل : العامل فيه فعل مدلول عليه بالمصدر أي تبغون لأجل متاع الحياة الدنيا على أن الجملة مستأنفة ، وقيل : على أنه

مفعول صريح للمصدر وعليكم متعلق به لا خبر لما مر ، والمراد بالأنفس الجنس ، والخبر محذوف لطول الكلام ، والتقدير إنما بغيكم على أبناء جنسكم متاع الحياة الدنيا مذموم أو منهي عنه أو ضلال أو ظاهر الفساد أو نحو ذلك .

وفيه الابتناء على أن البغي بمعنى الطلب وقد علمت ما فيه .

نعم لو جعل نصبه على العلة أي إنما بغيكم على أبناء جنسكم لأجل متاع الحياة الدنيا مذموم كما اختاره بعضهم لكان له وجه في الجملة لكن الحق الذي يقتضيه جزالة النظم هو الأول .

وقرأ الجمهور ﴿ متاع ﴾ بالرفع .

قال صاحب المرشد : وفيه وجهان ، أحدهما : كونه الخبر والظرف صلة المصدر .

والثاني : كونه خبر مبتدأ محذوف أي هو أو ذلك متاع ، وزيد وجه آخر وهو كونه خبراً بعد خبر لبغيكم ، والمختار بل المتعين على الوجه الأول كون المراد بأنفسكم أبناء جنسكم أو أمثالكم على سبيل الاستعارة ، والتعبير عنهم بذلك للتشفيق والحث على ترك إيثار التمتع المذكور على ما ينبغي من الحقوق ، ولا مانع على الوجهين الأخيرين من الحمل على الحقيقة كما بين ذلك مولانا شيخ الإسلام .

وقرىء بنصب المتاع ﴿ والحياة ﴾ وخرج نصب الأول على ما مر ونصب الثاني على أنه بدل اشتمال من الأول .

وقيل : على أنه مفعول به له إذا لم يكن انتصابه على المصدرية لأن المصدر المؤكد لا يعمل ، وذكر أبو البقاء أنه قرىء بجرهما على أن الثاني مضاف إليه والأول نعت للأنفس أي ذات متاع ، وجوز أن يكون المصدر بمعنى اسم الفاعل أي متمتعات ، وضعف كونه بدلاً إذ قد أمكن كونه صفة هذا وفي الآية من الزجر عن البغي ما لا يخفى .

وقد أخرج أبو الشيخ .

وأبو نعيم .

والخطيب .

والديلمي .

وغيرهم عن أنس قال ؛ " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث هن رواجع على أهلها المكر والنكث والبغي ثم تلا عليه الصلاة والسلام ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ " .

وأخرج البيهقي الشعب عن أبي بكرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من ذنب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة من البغي وقطيعة الرحم " وأخرج أيضاً من طريق

بلال بن أبي بردة عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يبغي على الناس إلا ولد بغى أو فيه عرق منه "

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس .

وابن عمر رضي الله تعالى عنهم قالا : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو بغى جبل على جبل لدك الباغي منهما " وكأن المأمون يتمثل بهذين البيتين لأخيه .

يا صاحب البغي إن البغي مصرعة . . .

فاربع فخير فعال المرء أعدله

فلو بغى جبل يوماً على جبل . . .

لاندك منه أعاليه وأسفله

وعقد ذلك الشهاب فقال :

إن يعد ذو بغي عليك فخله . . .

وارقب زماناً لانتقام باغي

واحذر من البغي الوخيم فلو بغى . . .

جبل على جبل لدك الباغي

﴿ ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ عطف على ما مر من الجملة المستأنفة المقدرة كأنه قيل : تتمتعون

متاع الحياة الدنيا ثم ترجعون إلينا ، وإنما غير السبك إلى ما في النظم الكريم للدلالة على الثبات والقصر .

(299/359)

﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا على الاستمرار من البغي فهو وعيد وتهديد بالجزاء والعذاب وقد تقدم الكلام في نظيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(300/359)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) تَقَدَّمَ فِي هَذِهِ السِّيَاقِ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هُنَا ، أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ لَمْ يَكُنْ دَأْبُهُمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ لِلْوَحْيِ الْمُحَمَّدِيِّ إِلَّا كَدَأْبِ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ ، وَلَمْ يَكُونُوا فِي اسْتِعْجَالِ نَبِيِّهِمُ الْعَذَابَ إِلَّا كَالَّذِينَ اسْتَعْجَلُوا رُسُلَهُمُ الْعَذَابَ أَيْضًا ، وَتَقَدَّمَ

فِيهِ بَيَانُ بَعْضِ طِبَاعِ الْبَشَرِ وَلَا سِيَّمَا الْكُفَّارِ فِي الرُّعُونَةِ وَالْعَجَلَةِ ، وَفِي الضَّرَاعَةِ إلَى اللَّهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ عِنْدَ الشِّدَّةِ وَنِسْيَانِهِ عِنْدَ الرَّخَاءِ ، وَفِي الْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ بِدَعْوَى أَنَّ لَهُمْ شُفَعَاءَ عِنْدَ اللَّهِ يَدْفَعُونَ عَنْهُمُ الضُّرَّ وَيَجْلِبُونَ لَهُمُ النَّفْعَ بِوَجَاهَتِهِمْ عِنْدَهُ ، ثُمَّ جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي بَيَانِ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنَ الْوَحْدَةِ ، وَمَا صَارُوا عَلَيْهِ مِنَ الِاخْتِلَافِ وَالْفُرْقَةِ ، فَالتَّنَاسُبُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا قَبْلَهَا فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ .

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا) قِيلَ : إنَّ الْمُرَادَ بِالنَّاسِ هُنَا الْعَرَبُ ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا حُنَفَاءَ عَلَى مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ إلَى أَنْ ظَهَرَ فِيهِمْ عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ الَّذِي ابْتَدَعَ لَهُمْ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ وَصَنَعَ لَهُمُ الْأَصْنَامَ - كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ - فَاخْتَلَفُوا بِأَنْ أَشْرَكَ بَعْضُهُمْ وَثَبَتَ عَلَى الْحَنِيفِيَّةِ آخَرُونَ .

(301/359)

وَقِيلَ : وَهُوَ الْمُخْتَارُ ، إنَّ الْمُرَادَ الْجِنْسُ الْبَشَرِيُّ فِي جُمْلَتِهِ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى الْفِطْرَةِ ، إذْ كَانُوا يَعِيشُونَ عِيشَةَ السَّذَاجَةِ وَالْوَحْدَةِ كَأُسْرَةٍ وَاحِدَةٍ ، حَتَّى كَثُرُوا وَتَفَرَّقُوا فَصَارُوا عَشَائِرَ فَقَبَائِلَ فَشُعُوبًا تَخْتَلِفُ حَاجَاتُهَا وَتَتَعَارَضُ مَنَافِعُهَا ، فَتَتَعَادَى وَتَتَقَاتَلُ فِي التَّنَازُعِ فِيهَا ، فَبَعَثَ اللَّهُ فِيهِمُ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ لِهِدَايَتِهِمْ ، وَإِزَالَةِ الِاخْتِلَافِ بِكِتَابِ اللَّهِ

وَوَحْيِهِ ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ نَفْسِهِ أَيْضًا بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَاتِّبَاعًا لِأَهْوَائِهِمْ ، وَتَقَدَّمَ تَفْصِيلُ هَذَا فِي تَفْسِيرِ (2 : 213) وَأَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ فِي الْمَسْأَلَةِ وَالتَّرْجِيحِ بَيْنَهَا .

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) أَيْ وَلَوْلَا كَلِمَةُ حَقٍّ فَاصِلَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ فِي جَعْلِ جَزَاءِ النَّاسِ الْعَامِّ فِي الْآخِرَةِ ، لَعَجَّلَهُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِإِهْلَاكِ الْمُبْطِلِينَ الْبَاغِينَ مِنْهُمْ ، فَالْمُرَادُ مِنَ الْكَلِمَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ : (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (93) وَمِثْلُهُ فِي سُوَرٍ أُخْرَى .

وَالْآيَةُ تَتَضَمَّنُ الْوَعِيدَ عَلَى اخْتِلَافِ النَّاسِ الْمُفْضِي إِلَى الشِّقَاقِ وَالْعُدْوَانِ ، وَلَا سِيَّمَا الِاخْتِلَافِ فِي كِتَابِ اللهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ لِإِزَالَةِ الشِّقَاقِ بِحُكْمِهِ ، وَإِدَالَةِ الْوَحْدَةِ

(302/359)

وَالْوِفَاقِ مِنْهُ ، وَتَقَدَّمَ بَيَانُهُ وَحِكْمَتُهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْبَقَرَةِ (213) وَفِي غَيْرِهَا ، وَسَنَعُودُ إِلَى بَيَانِ حِكْمَتِهِ وَحِكْمَةِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مُسْتَعِدًّا لِلِاخْتِلَافِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ سُورَةِ هُودٍ (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً) (11 : 118) إِلَخْ .

(وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) .

(303/359)

الْكَلَامُ فِي مُنْكِرِي الْوَحْيِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْمُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ ، حَكَى عَنْهُمْ عَجَبَهُمْ مِنَ الْوَحْيِ إِلَى بَشَرٍ مِثْلِهِمْ ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ بِأَنْوَاعِ الْحُجَجِ الْمُتَقَدِّمَةِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِبُطْلَانِ شِرْكِهِمْ وَإِنْكَارِهِمْ لِلْبَعْثِ ، ثُمَّ حَكَى عَنْهُمْ مُطَالَبَةَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْإِتْيَانِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا الْقُرْآنِ ، الدَّالِّ بِأُسْلُوبِهِ وَنَظْمِهِ وَعُلُومِهِ وَهِدَايَتِهِ عَلَى أَنَّهُ وَحْيٌ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، أَوْ تَبْدِيلِهِ ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ بِمَا عَلِمْتَ . ثُمَّ حَكَى عَنْهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الِاحْتِجَاجَ عَلَى إِنْكَارِ نُبُوَّتِهِ بِعَدَمِ إِنْزَالِ رَبِّهِ عَلَيْهِ آيَةً كَوْنِيَّةً غَيْرَ هَذَا الْقُرْآنِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ عَلَى النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ مَعَ الرَّدِّ عَلَيْهَا . وَالْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةِ مَا قَبْلَهَا مِنْ حِكَايَاتِ أَقْوَالِ الْمُشْرِكِينَ وَأَعْمَالِهِمْ فِي جُحُودِ الرِّسَالَةِ ، وَمِنْ دَعْوَةِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ ، لَا عَلَى آخَرَ مَا حَكَاهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا) (18) خَاصَّةً لِقُرْبِهِ وَكَوْنِ كُلٍّ مِنْهُمَا بِلَفْظِ الْمُضَارِعِ ؛ فَإِنَّ الْمَحْكِيَّ هُنَا غَيْرُ مُشَارِكٍ لِلْمَحْكِيِّ قَبْلَهُ فِي خَاصَّةِ مَوْضُوعِهِ أَوْ مَا يُنَاسِبُهُ ، وَلَا عَلَى مَا حَكَاهُ عَنْهُمْ مِنْ طَلَبِ الْإِتْيَانِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ تَبْدِيلِهِ خَاصَّةً وَإِنْ كَانَ فِي مَوْضُوعٍ

وَاحِدٍ ، لِبُعْدِهِ وَلِلِاخْتِلَافِ بَيْنَهُمَا فِي حِكَايَةِ ذَاكَ بِالْمَاضِي وَهُوَ : (قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) (15) وَحِكَايَةِ هَذَا بِالْمُضَارِعِ إلَخْ .

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (20)

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَّافِ فِي تَرْجِيحِهِ : إنَّ الْمُضَارِعَ هُنَا بِمَعْنَى الْمَاضِي هُنَاكَ ، وَإِنَّمَا آثَرَ الْمُضَارِعَ عَلَى الْمَاضِي لِيَدُلَّ عَلَى اسْتِمْرَارِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ أَنَّهَا مِنْ دَأْبِهِمْ وَعَادَتِهِمْ ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنِ اسْتِحْضَارِ صُورَتِهَا الشَّنِيعَةِ اهـ . وَقَدْ أَخْطَأَ فِي التَّرْجِيحِ وَبَاعَدَ ، وَإِنْ سَدَّدَ فِي التَّعْلِيلِ وَقَارَبَ ، وَالتَّحْقِيقُ : أَنَّ الْمَعْنَى الْجَامِعَ بَيْنَ الْجُمَلِ الْمُتَعَاطِفَةِ فِي هَذَا السِّيَاقِ حِكَايَةُ أَنْوَاعِ جُحُودِهِمْ فِي جُمْلَتِهَا ، وَأَنَّ التَّعْبِيرَ بِالْمُضَارِعِ فِي هَذِهِ وَمَا قَبْلَهَا وَفِيمَا سَيَأْتِي مِنْ قَوْلِهِ : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) (38) وَقَوْلِهِ : (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (48) إِنَّمَا هُوَ لِمَا يَتَكَرَّرُ مِنْ أَقْوَالِهِمْ فِي الْجُحُودِ ؛ فَإِنَّ اقْتِرَاحَ نُزُولِ آيَةٍ كَوْنِيَّةٍ عَلَيْهِ قَدْ تَكَرَّرَ مِنْهُمْ ، وَذُكِرَ فِي سُوَرٍ مِنْهَا مَا نَزَلَ قَبْلَ هَذِهِ السُّورَةِ (يُونُسَ) وَمِنْهَا مَا نَزَلَ بَعْدَهَا كَمَا سَنُوَضِّحُهُ بِشَوَاهِدِهِ ، فَمَعْنَى الْآيَةِ هَكَذَا .

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ أَيْ قَدْ قَالُوا وَلَا يَزَالُونَ يَقُولُونَ : هَلَّا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - آيَةٌ كَوْنِيَّةٌ كَآيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يُحَدِّثُنَا عَنْهُمْ ، حَكَى سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ هَذَا الِاقْتِرَاحَ هُنَا مُجْمَلًا وَأَجَابَ عَنْهُ جَوَابًا مُجْمَلًا ؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا قَدْ سَبَقَ مُفَصَّلًا فِي سُوَرٍ أُخْرَى ، وَقَدْ جَهِلَ هَذَا كُفَّارُ الْإِفْرِنْجِ وَتَلَامِيذُهُمْ مِنْ مَلَاحِدَةِ مِصْرَ ، فَقَالُوا فِي مِثْلِهِ : إنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ فِي مَكَّةَ يَفِرُّ مِنْ مُنَاظَرَةِ الْمُشْرِكِينَ (فَقُلْ إنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ) وَالْآيَاتُ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَبِيَدِهِ وَحْدَهُ ؛ لِأَنَّهَا خَوَارِقُ فَوْقَ قُدْرَةِ الْبَشَرِ ، وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَالْغَيْبُ لِلَّهِ لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ ، فَإِنْ كَانَ قَدَّرَ إنْزَالَ آيَةٍ عَلَيَّ فَهُوَ يَعْلَمُ وَقْتَهَا وَيُنَزِّلُهَا فِيهِ ، وَأَنَا لَا أَعْلَمُ إلَّا مَا أَوْحَاهُ إلَيَّ فَانْتَظِرُوا إنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ لِمَا يَفْعَلُهُ بِي وَبِكُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ حِكَايَةِ رَمْيِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِافْتِرَاءِ الْقُرْآنِ : (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إنْ أَتَّبِعُ إلَّا مَا يُوحَى إلَيَّ وَمَا أَنَا إلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ) (46 : 9) وَيُفَسِّرُ مَا يَنْتَظِرُهُ وَيَنْتَظِرُونَهُ مِنْهُ قَوْلُهُ فِي أَوَاخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ : (فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إنِّي مَعَكُمْ

(306/359)

مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) (102) وَفِيهِ إِنْذَارٌ لَهُمْ بِالْعَذَابِ وَهُوَ قِسْمَانِ : عَذَابُ الِاسْتِئْصَالِ لِمَنْ أُوتُوا مَا اقْتَرَحُوا عَلَى رُسُلِهِمْ مِنَ الْآيَاتِ فَأَصَرُّوا عَلَى الْجُحُودِ وَالْعِنَادِ ، وَعَذَابُ مَنْ لَمْ يُؤْتَوْا ذَلِكَ وَهُوَ خِذْلَانُهُمْ وَنَصْرُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَمَا وَرَاءَهُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ .

حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمُ اقْتِرَاحَ آيَةٍ أَوْ آيَاتٍ مُبْهَمَةٍ فِي بَعْضِ السُّوَرِ ، وَاقْتِرَاحَ آيَاتٍ مُعَيَّنَةٍ فِي سُوَرٍ أُخْرَى ، مِنْهَا مَا نَزَلَ بَعْدَ هَذِهِ السُّورَةِ وَهِيَ الْحِجْرُ (15 : 6 – 8) فَالْأَنْعَامُ (6 : 8 و39 – 41 و109 و111) فَالْأَنْبِيَاءُ (21 : 5) فَالْعَنْكَبُوتُ (29 : 50) فَالرَّعْدُ (13 : 7 و27) وَفِيهَا أَجْوِبَةٌ أُخْرَى ، فَأَمَّا الْأَنْعَامُ فَفِيهَا تَفْصِيلٌ لِكَوْنِ الْآيَاتِ لَا تَزِيدُهُمْ إِلَّا عِنَادًا وَإِصْرَارًا عَلَى الْجُحُودِ فَتَحِقُّ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ عَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ ، وَتَنَافِي مُرَادَ

اللَّهِ تَعَالَى مِنْ بَعْثَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي الْجُزْءَيْنِ 7 و8 مِنْ تَفْسِيرِنَا هَذَا فَيُرَاجَعْ ، ثُمَّ أَجْمَلَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ فَقَالَ : (مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) (21 : 6) ثُمَّ أَجَابَ عَنْهَا فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ بِقَوْلِهِ : (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ) (29 : 51) ؟

لَكِنَّهُ كَانَ قَدْ فَصَّلَ مُقْتَرَحَاتِهِمْ مَعَ الرَّدِّ عَلَيْهَا فِي السُّوَرِ الَّتِي أُنْزِلَتْ قَبْلَ ذَلِكَ كُلِّهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ : (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا (25 : 7 و8) ؟ ثُمَّ حَكَى عَنْهُمْ فِي سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ (17) أَنَّهُمْ طَالَبُوهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِوَاحِدَةٍ مِنْ بِضْعِ آيَاتٍ وَعَلَّقُوا إِيمَانَهُمْ عَلَى إِجَابَةِ طَلَبِهِمْ ، فَقَالَ بَعْدَ بَيَانِ عَجْزِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ، وَمَا صَرَّفَهُ فِيهِ لِلنَّاسِ مِنْ جَمِيعِ ضُرُوبِ الْأَمْثَالِ : (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا) (17 : 90) إلَخْ . الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ ، ثُمَّ لَقَّنَ رَسُولَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الرَّدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا) (17 : 93 و95) أَيْ سَبِّحْ رَبَّكَ فِي جَوَابِهِمْ ، تَسْبِيحَ التَّعَجُّبِ مِنْ قَوْلِهِمْ ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَنَّكَ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ ، وَلَيْسَ فِي قُدْرَةِ الْبَشَرِ أَنْ يَأْتُوا بِالْآيَاتِ الْخَارِقَةِ لِسُنَنِ الْكَوْنِ ، وَأَنَّ آفَتَهُمْ هِيَ آفَةُ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ لَمْ

يَعْقِلُوا مَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الْهُدَى ، وَأَنَّهُ مَتَى تَبَيَّنَ وَجَبَ عَلَى الْعَاقِلِ اتِّبَاعُهُ لِذَاتِهِ ، فَاحْتَقَرُوا الرُّسُلَ الَّذِينَ جَاءُوهُمْ بِهِ لِأَنَّهُمْ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ ، وَاقْتَرَحُوا أَنْ تَجِيئَهُمْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ فِيهَا كَالْبَشَرِ يُمْكِنُهُمُ التَّلَقِّي عَنْهُمْ لَنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مَلَكًا ، ثُمَّ بَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ إذَا نَزَّلَ الْمَلَكَ فَهُوَ لَا يَنْزِلُ إلَّا بِالْعَذَابِ ، إلَّا أَنْ يُجْعَلَ بَشَرًا ، وَإِذَا لَاحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ مِثْلُهُمْ ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْحِجْرِ حِكَايَةً لِخِطَابِهِمْ لِلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ : (مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ) (15 : 7 و8) وَقَالَ فِي الْأَنْعَامِ : (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) (6 : 8 و9) .

(309/359)

وَلَقَّنَهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ (بَنِي إِسْرَائِيلَ) حُجَّةً أُخْرَى فِي حِكْمَةِ عَدَمِ نُزُولِ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ عَلَيْهِ أَوْ سَبَبَهُ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) (17 : 59) أَيْ وَمَا صَرَفَنَا عَنْ إِرْسَالِ الْآيَاتِ اللَّاتِي اقْتَرَحَتْهَا قُرَيْشٌ ، إِلَّا تَكْذِيبُ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ هُمْ أَمْثَالُهُمْ فِي الطَّبْعِ وَالْعَادَةِ كَعَادٍ وَثَمُودَ ، وَأَنَّهَا لَوْ أُرْسِلَتْ لَكَذَّبُوا بِهَا تَكْذِيبَ أُولَئِكَ

وَاسْتَوْجَبُوا

عَذَابُ الِاسْتِئْصَالِ عَلَى مَا مَضَتْ بِهِ سُنَّتُنَا ، وَقَدْ قَضَيْنَا أَلَّا نَسْتَأْصِلَهُمْ لِأَنَّهُمْ أُمَّةُ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ الْبَاقِيَةُ ، وَأَنَّهُ هُوَ رَحْمَتُهُ الْعَامَّةُ الشَّامِلَةُ ؛ وَلِأَنَّ فِيهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ أَوْ يُولَدُ لَهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ ، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْضَ الْأُمَمِ الْمُهْلَكَةِ بِتَكْذِيبِ الْآيَاتِ الْمُقْتَرَحَةِ ، فَنَذْكُرُهُ مَعَ عِبَارَةِ الْبَيْضَاوِيِّ الْوَجِيزَةِ فِي تَفْسِيرِهِ وَهُوَ :

(وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ) لِسُؤَالِهِمْ : مُبْصِرَةً بَيِّنَةً ذَاتَ إبْصَارٍ أَوْ بَصَائِرَ أَوْ جَاعِلَتَهُمْ ذَوِي بَصَائِرَ فَظَلَمُوا بِهَا أَيْ فَكَفَرُوا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِسَبَبِ عَقْرِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ أَيِ الْمُقْتَرَحَةِ إلَّا تَخْوِيفًا (17 : 59) مِنْ نُزُولِ الْعَذَابِ الْمُسْتَأْصِلِ ، فَإِنْ لَمْ يَخَافُوا نَزَلَ اهـ .

(310/359)

وَفِي سُورَةِ الْقَصَصِ وَقَدْ نَزَلَتْ بَعْدَ الْفُرْقَانِ وَقَبْلَ بَنِي إسْرَائِيلَ ، تَفْصِيلٌ لِقِصَّةِ مُوسَى فِي مَوْلِدِهِ وَنَشْأَتِهِ وَفِرَارِهِ مِنْ فِرْعَوْنَ إلَى مَدْيَنَ وَبَعْثَتِهِ فِي طُورِ سَيْنَاءَ إلَخْ . وَقَدْ صَرَّحَ فِي آخِرِهَا أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى رِسَالَتِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مِنْ أَمْرِهَا شَيْئًا ، فَهِيَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ كَمَا تَرَاهُ فِي الْآيَاتِ (28 : 44 – 46) مِنْهَا وَقَدْ تَقَدَّمَ نَصُّهَا فِي (مَبَاحِثِ الْوَحْيِ ج 11 تَفْسِيرٍ) ثُمَّ قَالَ : (وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ

فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ) (28 : 47 و48) إِلَخْ .

فَجُمْلَةُ مَا وَرَدَ فِي اقْتِرَاحِ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ مِنْ مُجْمَلٍ وَمُفَصَّلٍ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَهُوَ مُقَرَّرٌ ؛ لِمَا عُلِمَ بِالْقَطْعِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ حُجَّتَهُ عَلَى رِسَالَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ هَذَا الْقُرْآنَ ، الْمُشْتَمِلَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ وَالْإِصْلَاحِيَّةِ

(311/359)

وَأَخْبَارِ الْغَيْبِ وَإِعْجَازِ الْأُسْلُوبِ وَالنَّظْمِ وَالتَّأْثِيرِ فِي الْهِدَايَةِ إِلَى آخِرِ مَا فَصَّلْنَاهُ فِي الْفَصْلِ الِاسْتِطْرَادِيِّ الَّذِي عَقَدْنَاهُ لِإِثْبَاتِ الْوَحْيِ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ السُّورَةِ (ج 11 تَفْسِيرٍ) وَقَدْ آتَى اللهُ رَسُولَهُ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ آيَاتٍ أُخْرَى عِلْمِيَّةً وَكَوْنِيَّةً ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجْعَلْهَا حُجَّةً عَلَى رِسَالَتِهِ وَلَا أَمَرَهُ بِالتَّحَدِّي بِهَا ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَكُونُ لِضَرُورَاتٍ اشْتَدَّتْ حَاجَةُ الْأُمَّةِ إِلَيْهَا كَاسْتِجَابَةِ بَعْضِ أَدْعِيَتِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَتَقَدَّمَ بَيَانُهُ سَابِقًا .

وَيُؤَيِّدُ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ الْمَأْخُوذَةَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ كُلِّهَا مَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا : (مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ،

وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وَقَدْ يُعَارِضُهُ آيَةُ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ مَعَ مَا وَرَدَ فِي أَحَادِيثِ الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا ، مِنْ أَنَّ قُرَيْشًا سَأَلُوا النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – آيَةً عَلَى نُبُوَّتِهِ فَانْشَقَّ الْقَمَرُ فَكَانَ فِرْقَتَيْنِ ، وَلَكِنَّ فِي الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي انْشِقَاقِهِ عِلَلًا فِي مَتْنِهَا وَأَسَانِيدِهَا ، وَإِشْكَالَاتٍ عِلْمِيَّةً وَعَقْلِيَّةً وَتَارِيخِيَّةً فَصَّلْنَاهَا فِي الْمُجَلَّدِ

(312/359)

الثَّالِثِينَ مِنَ الْمَنَارِ ، وَبَيَّنَّا أَنَّ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الْمُؤَيِّدَةُ بِحَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ الصَّرِيحِ فِي حَصْرِ مُعْجِزَةِ نُبُوَّتِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الْقُرْآنِ ، وَكَوْنَ الْآيَاتِ الْمُقْتَرَحَةِ تَقْتَضِي إِجَابَةُ مُقْتَرِحِيهَا عَذَابَ الِاسْتِئْصَالِ ، هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَنْهَضُ لِمُعَارَضَتِهِ شَيْءٌ ، وَسَنَعُودُ إِلَيْهَا فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقَمَرِ إِنْ أَحْيَانَا اللهُ تَعَالَى وَوَفَّقَنَا لِإِتْمَامِ التَّفْسِيرِ بِفَضْلِهِ .

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ

عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

(313/359)

لَمَّا كَانَ الْجَوَابُ عَنِ اقْتِرَاحِهِمُ الْآيَةَ الْكَوْنِيَّةَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى النُّبُوَّةِ يَتَضَمَّنُ – بِمَعُونَةِ مَا يُفَصِّلُهُ مِنَ الْآيَاتِ – أَنَّ أُولَئِكَ الْمُشْرِكِينَ الْمُعَانِدِينَ لَا يَقْتَنِعُونَ بِالْآيَاتِ ، وَأَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْهَا بِأَعْيُنِهِمْ يُكَابِرُونَ حِسَّهُمْ وَلَا يُؤْمِنُونَ ، ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى مَثَلًا لَهُ فِي آيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ فِي أَفْعَالِهِ وَحِكَمِهِ فِيهَا ، وَمَا لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُعَانِدِينَ مِنَ الْمَكْرِ فِيهَا وَكَوْنِهَا لَا تَزِيدُهُمْ إِلَّا ضَلَالًا فَقَالَ :

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ هَذِهِ الشَّرْطِيَّةُ مُنْتَظِمَةٌ مَعَ أُخْتَيْهَا فِي الْآيَتَيْنِ 12 و15 فِي نَسَقٍ وَاحِدٍ ، وَالذَّوْقُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ : إِدْرَاكُ الطَّعْمِ بِالْفَمِ ، وَالْمُدْرِكُ لَهُ

(314/359)

عَصَبٌ خَاصٌّ فِي اللِّسَانِ ، وَاسْتُعْمِلَ مَجَازًا فِي إِدْرَاكِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُلَائِمَاتِ كَالرَّحْمَةِ وَالنِّعْمَةِ ، وَالْمُؤْلِمَاتِ كَالْعَذَابِ وَالنِّقْمَةِ ، وَالضَّرَّاءُ الْحَالَةُ مِنَ الضُّرِّ الْمُقَابِلِ لِلنَّفْعِ ، وَيُقَابِلُهَا السَّرَّاءُ مِنَ السُّرُورِ ، أَيْ وَإِذَا كَشَفْنَا ضَرَّاءَ مَسَّ النَّاسَ أَلَمُهَا ، بِرَحْمَةٍ مِنَّا أَذَقْنَاهُمْ لَذَّتَهَا عَلَى أَتَمِّهَا ؛ لِأَنَّ الشُّعُورَ بِهَا عَقِبَ زَوَالِ ضِدِّهَا يَكُونُ أَتَمَّ وَأَكْمَلَ _ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا (إِذَا) هَذِهِ تُسَمَّى الْفُجَائِيَّةُ ، وَالْجُمْلَةُ جَوَابٌ لِلشَّرْطِ ، أَيْ مَا كَانَ مِنْهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ بَادَرُوا إِلَى الْمَكْرِ ، وَأَسْرَعُوا بِالْمُفَاجَأَةِ بِهِ فِي مَقَامِ الشُّكْرِ ، فَإِذَا كَانَتِ الرَّحْمَةُ مَطَرًا أَحْيَا الْأَرْضَ ، وَأَنْبَتَ الزَّرْعَ ، وَدَرَّ بِهِ الضَّرْعُ بَعْدَ جَدْبٍ وَقَحْطٍ أَهْلَكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ، قَالُوا : مُطِرْنَا بِالْأَنْوَاءِ ، وَإِذَا كَانَتْ نَجَاةً مِنْ هَلَكَةٍ وَأَعْوَزَتْهُمْ أَسْبَابُهَا ، عَلَّلُوهَا بِالْمُصَادَفَاتِ ، وَإِذَا كَانَ سَبَبَهَا دُعَاءُ نَبِيِّهِمْ أَنْكَرُوا

إِكْرَامَ اللهِ لَهُ وَتَأْيِيدَهُ بِهَا ، كَمَا فَعَلَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ عَقِبَ آيَاتِ مُوسَى ، وَكَمَا فَعَلَ مُشْرِكُو مَكَّةَ إِثْرَ الْقَحْطِ الَّذِي أَصَابَهُمْ بِدُعَاءِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ رُفِعَ عَنْهُمْ بِدُعَائِهِ ، فَمَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا كُفْرًا وَجُحُودًا وَمَكْرًا وَكُنُودًا .

(315/359)

أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا اسْتَعْصَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – دَعَا عَلَيْهِمْ بِسِنِينَ كَسِنِيِّ يُوسُفَ ، فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجُهْدٌ حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ وَالْمَيْتَةَ مِنَ الْجَهْدِ ، حَتَّى جَعَلَ أَحَدُهُمْ يَرَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الْجُوعِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) (44 : 10 و11) فَأَتَى رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ اسْتَقِ لِمُضَرَ فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ . فَقَالَ : (مُضَرُ ؟) مُتَعَجِّبًا . ؟ وَفِي رِوَايَةٍ فَجَاءَهُ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ جِئْتَ تَأْمُرُنَا بِصِلَةِ الرَّحِمِ وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا فَادْعُ اللهَ ، فَدَعَا لَهُمْ فَكَشَفَ اللهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ وَمُطِرُوا ، فَعَادُوا إِلَى حَالِهِمْ وَمَكْرِهِمُ الْأَوَّلِ الَّذِي تَقَدَّمَ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا) (8 : 30) الْآيَةَ ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِهَا وَتَفْسِيرِ آيَةِ 7 : 99 وَآيَةِ (3 : 54) مَعْنَى الْمَكْرِ فِي اللُّغَةِ وَكَوْنِهِ حَسَنًا وَسَيِّئًا وَمَعْنَى إِسْنَادِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى : وَخُلَاصَتُهُ : أَنَّ الْمَكْرَ عِبَارَةٌ عَنِ التَّدْبِيرِ الْخَفِيِّ الَّذِي يُفْضِي بِالْمَمْكُورِ بِهِ إِلَى مَا لَا يَحْتَسِبُهُ وَلَا يَتَوَقَّعُهُ ، وَأَنَّ مَكْرَهُ تَعَالَى وَهُوَ تَدْبِيرُهُ الَّذِي يَخْفَى عَلَى النَّاسِ ، إِنَّمَا يَكُونُ بِإِقَامَةِ سُنَنِهِ وَإِتْمَامِ حُكْمِهِ فِي نِظَامِ

الْعَالَمِ وَكُلُّهُ حَقٌّ وَعَدْلٌ وَحُسْنٌ ، وَلَكِنْ مَا يَسُوءُ النَّاسَ مِنْهُ يُسَمُّونَهُ شَرًّا وَسُوءًا ، وَإِنْ كَانَ جَزَاءً عَدْلًا ، وَيُرَاجَعُ تَحْقِيقُهُ فِي الْجُزْءِ 3 و9 مِنَ التَّفْسِيرِ (قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا) أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْمَكْرِ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْمُفَاجَأَةُ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَسْرَعُ مَكْرًا مِنْكُمْ ؛ إِذْ سَبَقَ فِي تَدْبِيرِهِ لِأُمُورِ الْعَالَمِ وَتَقْدِيرِهِ لِلْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ قَبْلَ وُقُوعِهَا ، أَنْ يُعَاقِبَكُمْ عَلَى مَكْرِكُمْ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ، وَهُوَ عَالِمٌ بِهِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ ، وَأَكَّدَ هَذَا بِقَوْلِهِ : (إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ) يَعْنِي الْحَفَظَةَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ وَكَّلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِإِحْصَاءِ

أَعْمَالِ النَّاسِ وَكَتْبِهَا لِلْحِسَابِ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ . وَكِتَابَةُ الْمَكْرِ عِبَارَةٌ عَنْ كِتَابَةِ مُتَعَلِّقِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي كَانَ هُوَ الْبَاعِثَ عَلَيْهَا ، وَيَجُوزُ أَنْ تُكْتَبَ نِيَّتُهَا وَهِيَ الْمَعْنَى الْمَصْدَرِيُّ لِلْمَكْرِ .

(317/359)

وَالْجُمْلَةُ تَتِمَّةُ الْجَوَابِ الَّذِي لَقَّنَهُ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ يُبَلِّغُهُ عَنْهُ عَزَّ وَجَلَّ بِلَفْظِهِ الْمُوحَى إِلَيْهِ لَا بِمَعْنَاهُ ، وَلِذَلِكَ يَدْخُلُ فِي التَّبْلِيغِ لَفْظُ " قُلْ " وَهُوَ خِطَابُ اللَّهِ لَهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَعَ مَقُولِهِ الْخَاصِّ بِهِمْ كَقَوْلِهِ : (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) (109

: 1) وَأَمْثَالُهُ الْكَثِيرَةُ فِي الْقُرْآنِ ، بَلْ أَقُولُ : إِنَّهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَلَّغَهُمُ الْآيَةَ بِرُمَّتِهَا : مَا حَكَاهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ، وَمَا أَمَرَهُ أَنْ يُجِيبَهُمْ بِهِ ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ فِي ضِمْنِ السُّورَةِ كُلِّهَا لَا وَحْدَهُ ، وَمِثْلُ هَذَا يُقَالُ فِي أَمْثَالِهِ .

(318/359)

فَعُلِمَ بِهَذَا أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ يَقُولَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَهُمْ كَلِمَةَ : (اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا) مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ ؛ فَيَسْتَشْكِلَ الِالْتِفَاتُ فِيهَا عَنِ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ فِي : (إِنَّ رُسُلَنَا) بَلْ هُوَ جَارٍ عَلَى سُنَّةِ الْقُرْآنِ فِيهِ ، وَهُوَ أَبْلَغُ فِي تَصْوِيرِ تَسْخِيرِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ فِي كِتَابَةِ الْأَعْمَالِ مِنَ التَّعْبِيرِ بِضَمِيرِ الْغَيْبَةِ (إِنَّ رُسُلَهُ يَكْتُبُونَ) إِلَخْ ؛ لِأَنَّ فِي ضَمِيرَ الْجَمْعِ مِنْ تَصْوِيرِ الْعَظْمَةِ فِي هَذَا التَّدْبِيرِ الْعَظِيمِ ، وَالنِّظَامِ الدَّقِيقِ ، مَا يَشْعُرُ بِهِ كُلُّ مَنْ لَهُ ذَوْقٌ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ سَيِّدَةِ اللُّغَاتِ ، الَّتِي اعْتَرَفَ عُلَمَاءُ اللُّغَاتِ مِنَ الْإِفْرِنْجِ بِأَنَّهَا تَفُوقُ جَمِيعَ لُغَاتِهِمْ ، فِي التَّعْبِيرِ عَنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَمَالِهِ وَعَظَمَتِهِ . وَمِثْلُ هَذَا الِالْتِفَاتِ فِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ الْكَهْفِ : (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) (18 : 109) وَقَرَأَ نَافِعٌ وَيَعْقُوبُ (يَمْكُرُونَ) بِالْمُثَنَّاةِ التَّحْتِيَّةِ ، وَفَائِدَتُهُ الْإِعْلَامُ بِأَنَّ ذَلِكَ شَامِلٌ لِلْغَائِبِينَ كَالْحَاضِرِينَ .

وَقَدْ فَصَّلْنَا الْقَوْلَ فِي كِتَابَةِ الْمَلَائِكَةِ الْحَفَظَةِ لِأَعْمَالِ النَّاسِ وَحِكْمَتِهَا فِي تَفْسِيرِ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً (6 : 61) مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، وَشَرَحْنَا قَبْلَهَا مَسْأَلَةَ كِتَابَةِ مَقَادِيرِ الْخَلْقِ كُلِّهَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) (6 : 59) مِنْهَا فَيُرَاجِعُ الْمَوْضُوعُ كُلُّهُ فِي جُزْءِ التَّفْسِيرِ السَّابِعِ مَنْ شَاءَ ، وَمَنِ اكْتَفَى بِالْإِجْمَالِ فَحَسْبُهُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَكْتُبُ الْأَعْمَالَ كِتَابَةً غَيْبِيَّةً لَمْ يُكَلِّفْنَا اللَّهُ تَعَالَى مَعْرِفَةَ صِفَتِهَا ، وَإِنَّمَا كَلَّفَنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِأَنَّ لَهُ نِظَامًا حَكِيمًا فِي إِحْصَائِهَا ؛ لِأَجْلِ مُرَاقَبَتِنَا لَهُ فِيهَا ؛ لِنَلْتَزِمَ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ وَالْخَيْرَ وَنَجْتَنِبَ أَضْدَادَهَا .

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ فِي الْآيَةِ أَنَّ اسْمَ التَّفْضِيلِ : (أَسْرَعُ) فِيهَا عَلَى أَصْلِهِ مِنَ الْفِعْلِ الثُّلَاثِيِّ : سَرُعَ كَضَخُمَ وَحَسُنَ سَرْعًا وَسُرْعَةً فَهُوَ سَرِعٌ وَسَرِيعٌ وَسَرَاعٌ وَالْمُسْتَعْمَلُ بِكَثْرَةٍ الرُّبَاعِيُّ أَسْرَعَ ، وَفِي اللِّسَانِ أَنَّ سِيبَوَيْهِ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا فَقَالَ : أَسْرَعَ طَلَبُ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ وَتَكَلُّفُهُ كَأَنَّهُ أَسْرَعَ

الْمَشْيَ أَيْ عَجَّلَهُ ، وَأَمَّا سَرُعَ فَكَأَنَّهَا غَرِيزَةٌ ، وَأَنَّ ابْنَ جِنِّيٍّ اسْتَعْمَلَ أَسْرَعَ مُتَعَدِّيًا ، انْتَهَى .

وَجَوَّزَ بَعْضُ النُّحَاةِ كَوْنَ اسْمِ التَّفْضِيلِ مِثْلِ (أَسْرَعُ) مُطْلَقًا ، أَوْ إِذَا لَمْ تَكُنْ هَمْزَتُهُ لِلتَّعْدِيَةِ .

ثُمَّ ضَرَبَ اللهُ تَعَالَى مَثَلًا لِهَؤُلَاءِ النَّاسِ هُوَ مِنْ أَبْلَغِ أَمْثَالِ الْقُرْآنِ فَقَالَ : (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) السَّيْرُ الْمُضِيُّ وَالِانْتِقَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ وَالتَّسْيِيرُ جَعْلُ الشَّيْءِ أَوِ الشَّخْصِ يَسِيرُ بِتَسْخِيرِهِ أَوْ إِعْطَائِهِ مَا يَسِيرُ عَلَيْهِ مِنْ دَابَّةٍ أَوْ مَرْكَبَةٍ أَوْ سَفِينَةٍ ، أَيْ إِنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا وَهَبَكُمْ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى السَّيْرِ ، وَمَا سَخَّرَ لَكُمْ مِنَ الْإِبِلِ وَالدَّوَابِّ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ (وَزَادَنَا فِي هَذَا الْعَصْرِ الْقِطَارَاتِ وَالسَّيَّارَاتِ الْبُخَارِيَّةَ وَالطَّيَّارَاتِ الَّتِي تَسِيرُ فِي الْجَوَاءِ) (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ) أَيْ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي إِحْدَى حَوَادِثِ سَيْرِكُمُ الْبَحْرِيِّ رَاكِبِينَ فِي الْفُلْكِ الَّتِي سَخَّرَهَا لَكُمْ ، وَالْفُلْكُ بِالضَّمِّ اسْمٌ لِلسَّفِينَةِ الْمُفْرَدَةِ وَلِجَمْعِهَا وَهُوَ السُّفُنُ وَالسَّفَائِنُ (مُفْرَدُهُ وَجَمْعُهُ وَاحِدٌ) وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا الْجَمْعُ إِذْ قَالَ : (وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) أَيْ وَجَرَتْ هَذِهِ الْفُلْكُ بِمَنْ فِيهَا بِسَبَبِ رِيحٍ طَيِّبَةٍ ، أَيْ رُخَاءٍ مُوَاتِيَةٍ لَهُمْ فِي جِهَةِ سَيْرِهِمْ ، وَالطَّيِّبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَا يُوَافِقُ الْغَرَضَ وَالْمَنْفَعَةَ ؛ يُقَالُ : رِزْقٌ طَيِّبٌ ، وَنَفْسٌ طَيِّبَةٌ ، وَبَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ، وَشَجَرَةٌ طَيِّبَةٌ ، وَفِي قَوْلِهِ : (بِهِمْ) الْتِفَاتٌ عَنِ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ فَائِدَتُهُ _ كَمَا قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ _ الْمُبَالَغَةُ ، كَأَنَّهُ يَذْكُرُ لِغَيْرِهِمْ حَالَهُمْ

(321/359)

لِيُعْجِبَهُمْ مِنْهَا وَيَسْتَدْعِيَ مِنْهُمُ الْإِنْكَارَ وَالتَّقْبِيحَ لَهَا لِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ كُفْرِ النِّعْمَةِ وَفَرِحُوا بِهَا لِمَا يَكُونُ لَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ مِنَ الرَّاحَةِ وَالِانْتِعَاشِ وَالْأَمْنِ مِنْ دُوَارِ الْبَحْرِ وَالتَّمَتُّعِ بِمَنْظَرِهِ الْجَمِيلِ ، فِي ذَلِكَ الْهَوَاءِ الْعَلِيلِ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ أَيْ جَاءَتِ الْفُلْكَ أَوِ الرِّيحَ الطَّيِّبَةَ ، أَيْ لَاقَتْهَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ قَوِيَّةٌ .

(322/359)

يُقَالُ : عَصَفَتِ الرِّيحُ فَهِيَ عَاصِفٌ وَعَاصِفَةٌ أَيْ تَعْصِفُ الْأَشْيَاءَ فَتَكُونُ كَعَصْفِ النَّبَاتِ وَهُوَ الْحُطَامُ الْمُتَكَسِّرُ مِنْهُ : (وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ أَيْ وَاضْطَرَبَ الْبَحْرُ وَتَمَوَّجَ سَطْحُهُ كُلُّهُ ، فَتَلَقَّاهُمْ مَوْجُهُ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ وَالنَّوَاحِي بِتَأْثِيرِ الرِّيحِ ، فَهِيَ أَنْوَاعٌ مِنْهَا مَا يَهُبُّ مِنْ نَاحِيَةٍ وَاحِدَةٍ كَالرِّيَاحِ الْأَرْبَعِ ، وَمِنْهَا النَّكْبَاءُ وَهِيَ الْمُنْحَرِفَةُ الَّتِي تَقَعُ بَيْنَ رِيحَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ ، وَمِنْهَا الْمُتَنَاوِحَةُ الَّتِي تَهُبُّ مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي ، وَمِنْهَا الْإِعْصَارُ وَهِيَ الرِّيحُ الَّتِي تَدُورُ فَتَكُونُ عَمُودِيَّةً فَيَرْتَفِعُ بِهَا مَا تَدُورُ عَلَيْهِ مِنَ التُّرَابِ وَالْحَصَى مِنَ الْأَرْضِ ، وَالْمَاءِ

مِنْ سَطْحِ الْبَحْرِ بِمَا عَلَيْهِ وَمَا فِيهِ مِنْ سَمَكٍ وَغَيْرِهِ ثُمَّ يُلْقَى فِي مَكَانٍ آخَرَ (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ) أَيِ اعْتَقَدُوا اعْتِقَادًا رَاجِحًا أَنَّهُمْ هَلَكُوا بِإِحَاطَةِ الْمَوْجِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، كَمَا يُحِيطُ الْعَدُوُّ الْمُحَارِبُ بِعَدُوِّهِ إِذْ يُطَوِّقُهُ بِمَا يَقْطَعُ عَلَيْهِ سُبُلَ النَّجَاةِ . ذَلِكَ بِأَنَّ فِعْلَ الْعَاصِفِ يَهْبِطُ بِهِمْ فِي لُجَجِ الْبَحْرِ تَارَةً كَأَنَّهُمْ سَقَطُوا فِي هَاوِيَةٍ سَحِيقَةٍ ، وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَثِبَ بِهِمْ إِلَى أَعْلَى غَوَارِبِ الْمَوْجِ كَأَنَّهُمْ فِي قُنَّةِ جَبَلٍ شَاهِقٍ أَصَابَهُ رَجْفَةُ زَلْزَلَةٍ شَدِيدَةٍ (دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) هَذَا جَوَابٌ لِمَا تَضَمَّنَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ) إِلَخْ ، أَيْ حَتَّى إِذَا مَا نَزَلَ بِهِمْ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ

(323/359)

نُذُرِ الْعَذَابِ ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمْ دُونَ النَّجَاةِ جَمِيعُ الْأَسْبَابِ ، دَعَوُا اللَّهَ فِي كَشْفِهِ عَنْهُمْ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، لَا يَتَوَجَّهُونَ مَعَهُ إِلَى وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ، وَلَا نِدٍّ وَلَا شَرِيكٍ ، مِمَّنْ كَانُوا يَتَوَسَّلُونَ بِهِمْ إِلَيْهِ فِي حَالِ الرَّخَاءِ ، عَازِمِينَ عَلَى طَاعَتِهِ قَائِلِينَ : (لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) أَيْ نُقْسِمُ لَكَ يَا رَبَّنَا لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ التَّهْلُكَةِ أَوِ الْعَاصِفَةِ لَنَكُونَنَّ لَكَ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّاكِرِينَ لِنَعْمَائِكَ لَا نَكْفُرُ مِنْهَا شَيْئًا ، وَلَا نُشْرِكُ بِكَ أَحَدًا ، وَلَا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ وَلِيًّا وَلَا شَفِيعًا ، وَلَا نَتَوَجَّهُ فِي تَفْرِيجِ كُرُوبِنَا وَقَضَاءِ حَاجَتِنَا إِلَى وَثَنٍ وَلَا

صَنَمٍ ، وَلَا إِلَى وَلِيٍّ وَلَا نَبِيٍّ ، وَلَا مَلِكٍ ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا بَيَانٌ صَرِيحٌ لِكَوْنِ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا لَا يَدْعُونَ فِي أَوْقَاتِ الشَّدَائِدِ وَتَقَطُّعِ الْأَسْبَابِ بِهِمْ إِلَّا اللَّهَ رَبَّهُمْ ، وَلَكِنْ مَنْ لَا يُحْصَى عَدَدُهُمْ مِنْ مُسْلِمِي هَذَا الزَّمَانِ بِزَعْمِهِمْ لَا يَدْعُونَ عِنْدَ أَشَدِّ الضِّيقِ إِلَّا مَعْبُودِيهِمْ مِنَ الْمَيِّتِينَ ، كَالْبَدَوِيِّ وَالرِّفَاعِيِّ وَالدُّسُوقِيِّ

(324/359)

وَالْجِيلَانِيِّ وَالْمَتْبُولِيِّ وَأَبِي سَرِيعٍ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَا يُحْصَى عَدَدُهُمْ ، وَتَجِدُ مِنْ حَمَلَةِ الْعَمَائِمِ الْأَزْهَرِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ وَلَا سِيَّمَا سَدَنَةِ الْمَشَاهِدِ الْمَعْبُودَةِ الَّذِينَ يَتَمَتَّعُونَ بِأَوْقَافِهَا وَنُذُورِهَا ، مَنْ يُغْرِيهِمْ بِشِرْكِهِمْ وَيَتَأَوَّلُهُ لَهُمْ بِتَسْمِيَتِهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَالتَّوَسُّلِ وَغَيْرِهِ .

وَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فِي مِصْرَ وَسُورِيَةَ حِكَايَةً يَتَنَاقَلُونَهَا رُبَّمَا تَكَرَّرَتْ فِي الْقُطْرَيْنِ لِتَشَابُهِ أَهْلِهِمَا وَأَكْثَرِ مُسْلِمِي هَذَا الْعَصْرِ فِي خُرَافَاتِهِمْ ، وَمُلَخَّصُهَا أَنَّ جَمَاعَةً رَكِبُوا الْبَحْرَ فَهَاجَ بِهِمْ حَتَّى أَشْرَفُوا عَلَى الْغَرَقِ فَصَارُوا يَسْتَغِيثُونَ مُعْتَقَدِيهِمْ ، فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : يَا سَيِّدُ يَا بَدَوِيُّ ، وَبَعْضُهُمْ يَصِيحُ يَا رِفَاعِيُّ ، وَآخَرُ يَهْتِفُ : يَا عَبْدَ الْقَادِرِ يَا جِيلَانِيُّ . . . . إِلَخْ وَكَانَ فِيهِمْ رَجُلٌ مُوَحِّدٌ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا فَقَالَ : يَا رَبِّ أَغْرِقْ أَغْرِقْ ، مَا بَقِيَ أَحَدٌ يَعْرِفُكَ .

وَفِي هَذَا الْمَعْنَى قَالَ السَّيِّدُ حَسَنُ صِدِّيقٍ الْهِنْدِيُّ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْآيَةِ مِنْ تَفْسِيرِهِ فَتْحِ الرَّحْمَنِ : وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْخَلْقَ جُبِلُوا عَلَى الرُّجُوعِ إِلَى اللهِ فِي الشَّدَائِدِ ، وَأَنَّ الْمُضْطَرَّ يُجَابُ دُعَاؤُهُ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيَانُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى أَصْنَامِهِمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ وَمَا شَابَهَهَا . فَيَا عَجَبًا لِمَا حَدَثَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ طَوَائِفَ يَعْتَقِدُونَ فِي الْأَمْوَاتِ ، فَإِذَا عَرَضَتْ لَهُمْ فِي الْبَحْرِ مِثْلُ هَذِهِ الْحَالَةِ ، دَعَوُا الْأَمْوَاتَ وَلَمْ يُخْلِصُوا الدُّعَاءَ لِلَّهِ كَمَا فَعَلَهُ الْمُشْرِكُونَ ، كَمَا تَوَاتَرَ ذَلِكَ إِلَيْنَا تَوَاتُرًا يَحْصُلُ بِهِ الْقَطْعُ ، فَانْظُرْ هَدَاكَ اللهُ مَا فَعَلَتْ هَذِهِ الِاعْتِقَادَاتُ الشَّيْطَانِيَّةُ ؟ وَأَيْنَ وَصَلَ أَهْلُهَا ؟ وَإِلَى أَيْنَ رَمَى بِهِمُ الشَّيْطَانُ ؟ وَكَيْفَ اقْتَادَهُمْ وَتَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ حَتَّى انْقَادُوا لَهُ انْقِيَادًا مَا كَانَ يَطْمَعُ فِي مِثْلِهِ وَلَا فِي بَعْضِهِ مِنْ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) .

وَقَالَ السَّيِّدُ مَحْمُودٌ الْآلُوسِيُّ الْعِرَاقِيُّ فِي تَفْسِيرِهَا مِنْ رُوحِ الْمَعَانِي مَا نَصُّهُ :

(أَيْ دَعَوْهُ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ إِشْرَاكٍ لِرُجُوعِهِمْ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ إِلَى الْفِطْرَةِ الَّتِي جُبِلَ عَلَيْهَا كُلُّ أَحَدٍ مِنَ التَّوْحِيدِ ، وَأَنَّهُ لَا مُتَصَرِّفَ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ الْمَرْكُوزُ فِي طَبَائِعِ الْعَالَمِ . وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَمِنْ حَدِيثٍ أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ

وَغَيْرُهُمَا عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ : قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ فَرَّ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ فَرَكِبَ الْبَحْرَ فَأَصَابَتْهُمْ عَاصِفٌ فَقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ لِأَهْلِ السَّفِينَةِ : أَخْلِصُوا فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ لَا تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا ، فَقَالَ عِكْرِمَةُ : لَئِنْ لَمْ يُنْجِنِي فِي الْبَحْرِ إِلَّا الْإِخْلَاصُ مَا يُنْجِينِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ ، اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَهْدًا إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنْ آتِيَ مُحَمَّدًا حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ فَلَأَجِدَنَّهُ عَفُوًّا كَرِيمًا ، قَالَ : فَجَاءَ فَأَسْلَمَ ، وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّ عِكْرِمَةَ لَمَّا رَكِبَ السَّفِينَةَ وَأَخَذَتْهُمُ الرِّيحُ فَجَعَلُوا يَدْعُونَ اللَّهَ تَعَالَى وَيُوَحِّدُونَهُ قَالَ : مَا هَذَا ؟ فَقَالُوا : هَذَا مَكَانٌ لَا يَنْفَعُ فِيهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، قَالَ : فَهَذَا إِلَهُ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الَّذِي يَدْعُونَا إِلَيْهِ فَارْجِعُوا بِنَا ، فَرَجَعَ وَأَسْلَمَ ، ظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ تَخْصِيصَ الدُّعَاءِ فَقَطْ بِهِ سُبْحَانَهُ ، بَلْ تَخْصِيصَ الْعِبَادَةِ بِهِ تَعَالَى أَيْضًا ، لِأَنَّهُمْ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ لَا يَكُونُونَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، وَأَيًّا مَا كَانَ فَالْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَا يَدْعُونَ غَيْرَهُ تَعَالَى فِي تِلْكَ الْحَالِ ، وَأَنْتَ خَبِيرٌ بِأَنَّ النَّاسَ الْيَوْمَ إِذَا اعْتَرَاهُمْ أَمْرٌ خَطِيرٌ ، وَخَطْبٌ جَسِيمٌ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ ، دَعَوْا مَنْ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ ، وَلَا يَرَى وَلَا يَسْمَعُ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْخِضْرَ وَإِلْيَاسَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُنَادِي أَبَا

الْخَمِيسِ وَالْعَبَّاسَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَغِيثُ بِأَحَدِ الْأَئِمَّةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَضْرَعُ إِلَى شَيْخٍ مِنْ مَشَايِخِ الْأُمَّةِ ، وَلَا تَرَى فِيهِمْ أَحَدًا يَخُصُّ مَوْلَاهُ ، بِتَضَرُّعِهِ وَدُعَاهُ ، وَلَا يَكَادُ يَمُرُّ لَهُ بِبَالٍ ، أَنَّهُ لَوْ دَعَا اللهَ تَعَالَى وَحْدَهُ يَنْجُو مِنْ هَاتِيكَ الْأَهْوَالِ ، فَبِاللهِ تَعَالَى عَلَيْكَ قُلْ لِي أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ أَهْدَى سَبِيلًا ، وَأَيُّ الدَّاعِيَيْنِ أَقْوَمُ قِيلًا ! وَإِلَى اللهِ تَعَالَى الْمُشْتَكَى مِنْ زَمَانٍ عَصَفَتْ فِيهِ رِيحُ الْجَهَالَةِ وَتَلَاطَمَتْ أَمْوَاجُ الضَّلَالَةِ ، وَخُرِّقَتْ سَفِينَةُ الشَّرِيعَةِ ، وَاتُّخِذَتِ الِاسْتِغَاثَةُ بِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى لِلنَّجَاةِ ذَرِيعَةً ، وَتَعَذَّرَ عَلَى الْعَارِفِينَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَحَالَتْ دُونَ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ صُنُوفُ الْحُتُوفِ اهـ .

أَقُولُ – يَعْنِي الشِّهَابُ الْأَلُوسِيُّ رَحِمَهُ اللهُ – إِنَّ فُشُوَّ هَذَا الشِّرْكِ فِي النَّاسِ عَامَّتِهِمْ ، وَشُيُوخِ الْبِدَعِ مِنْ عُلَمَائِهِمْ ، وَالْمُنَافِقِينَ مِنْ حُكَّامِهِمْ ، جَعَلَ نَهْيَ الْعَارِفِينَ عَنْهُ ، وَأَمْرَهُمْ بِالتَّوْحِيدِ الْمَحْضِ ، مِنَ الْأُمُورِ الْمُتَعَذِّرَةِ ، الَّتِي يُخْشَى عَلَى الْمُجَاهِرِ بِهَا الْحُتُوفُ

وَالْهَلَكَةُ . وَنَحْنُ مَا أَمْكَنَنَا هَذِهِ الْمُجَاهَرَةُ فِي مِصْرَ إِلَّا بِمَا رَسَخَ فِيهَا مِنَ الْحُرِّيَّةِ الْمُطْلَقَةِ بِتَفَرْنُجِ الْحُكُومَةِ . وَلَمَّا جَهَرْتُ بِهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي دَرْسٍ عَامٍّ بِالْمَسْجِدِ الْحُسَيْنِيِّ سَنَةَ 1316 هَاجَ عَلَيَّ النَّاسُ هَيْجَةً شُؤْمَى ، وَحَاوَلَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَقْتُلَنِي جَهْرًا ، فَمَا يَقُولُ شَيْخُ الْأَزْهَرِ وَمُحَرِّرُو مَجَلَّةِ الْمَشْيَخَةِ (نُورِ الْإِسْلَامِ) فِي السَّيِّدِ الْأُلُوسِيِّ وَفِي السَّيِّدِ حَسَنَ صِدِّيقٍ ؟ لَا يَبْعُدُ أَنْ تَطْعَنَ هَذِهِ الْمَجَلَّةُ فِي دِينِهِمَا وَعَقِيدَتِهِمَا كَمَا طَعَنَتْ عَلَى دِينِ الْإِمَامِ الشَّوْكَانِيِّ فِي جُزْئِهَا الَّذِي صَدَرَ أَثْنَاءَ كِتَابَتِنَا لِتَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ .

(اهْتِدَاءُ بَارِجٍ إِنْكِلِيزِيٍّ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا)

(329/359)

سَاقَ اللهُ تَعَالَى نُسْخَةً مِنْ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ بِاللُّغَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ إِلَى بَارِجٍ مِنْ رَبَّا بِينِ الْبَوَاخِرِ الْكُبْرَى الَّتِي تَمْخُرُ الْبِحَارَ بَيْنَ إِنْكِلْتِرَةَ وَالْهِنْدِ ، فَرَأَى فِيهَا تَرْجَمَةَ هَذِهِ الْآيَةِ فَرَاعَتْهُ بَلَاغَةُ وَصْفِهَا لِطُغْيَانِ الْبَحْرِ وَاصْطِخَابِهِ ، وَمَا تَفْعَلُهُ الرِّيَاحُ الْمَوْسِمِيَّةُ الْعَاتِيَةُ بِالْبَوَاخِرِ وَالْبَوَارِجِ الْعَظِيمَةِ فِي الْمُحِيطِ الْهِنْدِيِّ فِي فَصْلِ الصَّيْفِ ، فَطَفِقَ يَتَأَمَّلُ سَائِرَ الْآيَاتِ فِي وَصْفِ الْبَحْرِ ، وَالسَّفَائِنِ الْكُبْرَى فِيهِ الَّتِي وُجِدَتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا نَظِيرٌ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ وَلَهُ الْجَوَارِي الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) (55 : 19 - 24) وَرَأَى أَنَّ الْمُتَرْجِمَ الْإِنْكِلِيزِيَّ يَنْقُلُ عَنْ أَشْهَرِ تَفَاسِيرِ الْقُرْآنِ لِبَعْضِ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، الَّتِي أُلِّفَتْ بَعْدَ افْتِتَاحِ الْعَرَبِ لِلْمَمَالِكِ وَاسْتِيلَائِهِمْ عَلَى الْبِحَارِ وَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ مَا عَرَفَهُ الْإِنْكِلِيزُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ ، أَنَّ اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ يَخْرُجُ مِنَ الْبِحَارِ الْحُلْوَةِ كَمَا يَخْرُجُ مِنَ الْبِحَارِ الْمَالِحَةِ ، فَتَأَوَّلُوا قَوْلَهُ تَعَالَى : (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) بِأَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ مُجْتَمَعِهِمَا الصَّادِقِ بِأَحَدِهِمَا ؛ لِأَنَّهُ

(330/359)

بِزَعْمِهِمْ يَخْرُجُ مِنَ الْبَحْرِ الْمِلْحُ فَقَطْ ، غَافِلِينَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) (35 : 12) وَنَبَّهَ نَظَرَهُ تَشْبِيهُ الْجَوَارِي الْمُنْشَآتِ بِالْأَعْلَامِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ) (42 : 32 ، 33) وَالْعَلَمُ الْجَبَلُ ، وَأَصْلُهَا أَعْلَامُ الطَّرِيقِ الْعَالِيَةُ الَّتِي تُعْرَفُ بِهَا الْمَسَالِكُ ، أَطَالَ الْفِكْرَ هَذَا

(331/359)

الرُّبَّانُ الْإِنْكِلِيزِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ فَتَعَمَّدَ أَنْ يَعْرِفَ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ فِي بَعْضِ ثُغُورِ الْهِنْدِ ، فَسَأَلَهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ نَبِيَّكُمْ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَافَرَ فِي الْبِحَارِ ؟ قَالُوا : لَا إِنَّهُ لَمْ يُرْوَ عَنْهُ أَنَّهُ سَافَرَ فِي الْبَحْرِ قَطُّ ، فَاعْتَقَدَ أَنَّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِمَّا ذُكِرَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِهَذَا النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ، وَأَعْظَمُ مِنْهُ مَا فِيهِ مِنْ آيَاتِ التَّوْحِيدِ وَالتَّشْرِيعِ وَالتَّهْذِيبِ ، الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ وَأَقْرَبُ إِلَى الْعَقْلِ وَالْفِكْرَةِ مِنْ كُلِّ مَا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ، فَأَسْلَمَ عَنْ عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ ، وَظَلَّ زَمَنًا طَوِيلًا يَتَعَبَّدُ بِمَا يَفْهَمُهُ مِنْ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ ، حَتَّى أُتِيحَ لَهُ تَرْكُ عَمَلِهِ فِي الْبِحَارِ فَأَقَامَ فِي مِصْرَ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ وَعَاشَرَ فُضَلَاءَ الْمِصْرِيِّينَ ، وَهُوَ مِسْتَرْ عَبْدُ اللهِ بِرَاوِنْ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، وَأَنَا قَدْ أَدْرَكْتُهُ وَعَرَفْتُهُ ، وَلَا يَزَالُ فِي مِصْرَ مَنْ يَعْرِفُهُ وَقَدْ ضَرَبَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ بِهِ الْمَثَلَ فِي صَلَاتِهِ الَّتِي كَانَ يُصَلِّيهَا فِي الْبَحْرِ بِقَدْرِ مَا يَفْهَمُ مِنَ الْقُرْآنِ بِكُلِّ خُشُوعٍ وَتَوَجُّهٍ إِلَى اللهِ تَعَالَى ، فِي كَلَامٍ لَهُ فِي رُوحِ الصَّلَاةِ وَمَغْزَاهَا ، وَصُورَتِهَا وَأَرْكَانِهَا ، قَالَ : قَدْ كَانَتْ تِلْكَ الصَّلَاةُ أَقْرَبَ إِلَى مَرْضَاةِ اللهِ تَعَالَى وَقَبُولِهِ مِنَ الصَّلَاةِ الصُّورِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ ، الَّتِي يُمَثِّلُهَا مَنْ لَا يَخْطُرُ فِي قُلُوبِهِمْ فِيهَا أَنَّهُمْ مُتَوَجِّهُونَ إِلَى اللهِ وَمُنَاجُونَ لَهُ ،

(332/359)

مَعَ اسْتِشْعَارِ عَظَمَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ إلَخْ .

قَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ أُولَئِكَ الْقَوْمِ : (فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ) أَيْ إِذَا هُمْ يُفَاجِئُونَ النَّاسَ فِي الْأَرْضِ الَّتِي يَهْبِطُونَ إلَيْهَا بِالْبَغْيِ عَلَيْهِمْ ، وَهُوَ الظُّلْمُ وَالْعُدْوَانُ وَالْإِفْسَادُ ، يَمْنَعُونَ فِي ذَلِكَ وَيُصِرُّونَ عَلَيْهِ ، وَأَصْلُ الْبَغْيِ طَلَبُ مَا زَادَ عَلَى الْقَصْدِ وَالِاعْتِدَالِ ، إلَى الْإِفْرَاطِ الْمُفْضِي إلَى الْفَسَادِ وَالِاخْتِلَالِ ، مِنْ بَغَى الْجُرْحُ إذَا زَادَ حَتَّى تَرَامَى إلَى الْفَسَادِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : بَغَتِ السَّمَاءُ ، إذَا تَجَاوَزَتْ فِي الْمَطَرِ الْحَدَّ الْمُحْتَاجَ إلَيْهِ لِلزَّرْعِ وَالشَّجَرِ وَإِمْدَادِ الْيَنَابِيعِ ، وَبَغَتِ الْمَرْأَةُ إذَا تَجَاوَزَتْ فِي بُضْعِهَا الْحَقَّ الْخَاصَّ بِالزَّوْجِ إلَى الْفُجُورِ ، وَالْأَصْلُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ كَمَا وَصَفَهُ بِغَيْرِ الْحَقِّ فَتَكُونُ الصِّفَةُ كَاشِفَةً لِلْوَاقِعِ لِلتَّذْكِيرِ بِقُبْحِهِ وَسُوءِ حَالِ أَهْلِهِ ، وَقَدْ يَكُونُ الْبَغْيُ – وَهُوَ تَجَاوُزُ حَدِّ الِاعْتِدَالِ – بِحَقٍّ إذَا كَانَ عِقَابًا عَلَى مِثْلِهِ أَوْ مَا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ ، كَمَا يَقَعُ فِي الْحُرُوبِ وَقِتَالِ الْبُغَاةِ مِنْ اضْطِرَارِ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْمُعْتَدَى عَلَيْهِمْ ، إلَى تَجَاوُزِ الْحُدُودِ فِي أَثْنَاءِ الدِّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ

(333/359)

الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) إلَى قَوْلِهِ : (إنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) (42 : 39 - 42) وَقَالَ فِي بَيَانِ أُصُولِ الْجَرَائِمِ : (قُلْ إنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ) (7 : 33) إلَخْ .

(334/359)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ) هَذَا الْتِفَاتٌ عَنْ حِكَايَةِ الْمَثَلِ إلَى مُخَاطَبَةِ الْبُغَاةِ أَيْنَمَا كَانُوا ، وَفِي أَيِّ زَمَانٍ وُجِدُوا ، مَبْدُوءًا بِالنِّدَاءِ الَّذِي يَصِيحُ بِهِ الْوَاعِظُ الْمُنْذِرُ بِالْبَعِيدِ فِي مَكَانِهِ ، أَوِ الْغَافِلِ الَّذِي يُشْبِهُ الْغَائِبَ فِي حَاجَتِهِ إلَى مَنْ يَصِيحُ بِهِ لِيُنَبِّهَهُ ، يَقُولُ : يَا أَيُّهَا الضَّالُّونَ عَنْ رُشْدِهِمْ ، الْغَافِلُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، حَسْبُكُمْ بَغْيًا عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْكُمْ ، وَغُرُورًا بِكِبْرِيَائِكُمْ وَقُوَّتِكُمْ ، إنَّمَا بَغْيُكُمْ فِي الْحَقِيقَةِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ؛ لِأَنَّ عَاقِبَةَ وَبَالِهِ عَائِدَةٌ عَلَيْكُمْ ، أَوْ لِأَنَّ مَنْ تَبْغُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَوْمِكُمْ أَوْ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِكُمْ ، كَقَوْلِهِ : (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) (4 : 29) الْمُرَادُ بِهِ : وَلَا يَقْتُلْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وَالشَّرُّ دَاعِيَةُ الشَّرِّ ، مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا : أَيْ حَالَ كَوْنِ بَغْيِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ ، فَهُوَ يَنْقَضِي وَعَقَابِيلُهُ بَاقِيَةٌ ، وَأَقَلُّهَا تَوْبِيخُ الْوِجْدَانِ ، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ (مَتَاعَ) بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ لِمَا قَبْلَهُ وَفِيهِ وَجْهَانِ ، أَوْ عَلَى تَقْدِيرِ هُوَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ أَيْ ثُمَّ إنَّكُمْ بَعْدَ هَذَا التَّمَتُّعِ الْقَلِيلِ

تَرْجِعُونَ إِلَيْنَا وَحْدَنَا فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ دَائِمًا مِنَ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَالتَّمَتُّعِ بِالْبَاطِلِ مُصِرِّينَ فَنُجَازِيكُمْ بِهِ .

(335/359)

دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْبَغْيَ يُجَازَى أَصْحَابُهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ إِنْذَارُ أَهْلِهِ الرُّجُوعَ إِلَى اللهِ ، وَإِنْبَاؤُهُ إِيَّاهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ ، إِذِ الْمُرَادُ بِهِ لَازِمُهُ وَهُوَ الْجَزَاءُ بِهِ ، وَقَدْ تَكَرَّرَ مِثْلُهُ فِي التَّنْزِيلِ . وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ) وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (مَا مِنْ ذَنْبٍ يُعَجِّلُ اللهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَالْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وَأَخْرَجَ ابْنُ عَدِيٍّ وَابْنُ النَّجَّارِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - مَرْفُوعًا : (احْذَرُوا الْبَغْيَ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عُقُوبَةٍ هِيَ أَحْضَرُ مِنْ عُقُوبَةِ الْبَغْيِ) ! ! وَالتِّرْمِذِيُّ

(336/359)

وَابْنُ مَاجَهْ عَنْ عَائِشَةَ : (أَسْرَعُ الْخَيْرِ ثَوَابًا الْبِرُّ وَصِلَةُ الرَّحِمِ ، وَأَسْرَعُ الشَّرِّ عُقُوبَةً الْبَغْيُ وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ) وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْقُوفًا : (لَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ لَدُكَّ الْبَاغِي) وَرَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا ، وَالْمَوْقُوفُ أَصَحُّ كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَفِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِزِيَادَةِ : (لَدُكَّ الْبَاغِي مِنْهُمَا) أَخْرَجَهُ ابْنُ لَالٍ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ . وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَأَبُو نُعَيْمٍ وَالْخَطِيبُ فِي تَارِيخِهِ وَالدَّيْلَمِيُّ فِي مُسْنَدِ الْفِرْدَوْسِ عَنْ أَنَسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (ثَلَاثٌ هُنَّ رَوَاجِعُ عَلَى أَهْلِهَا . الْمَكْرُ وَالنَّكْثُ وَالْبَغْيُ) ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ) (10 : 23) ، (وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) (35 : 43) ، (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ) (48 : 10) وَالْمُرَادُ نَكْثُ الْعُهُودِ مَعَ اللَّهِ أَوْ مَعَ النَّاسِ .

وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (لَا تَبْغِ وَلَا تَكُنْ بَاغِيًا) فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : (إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ) وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِثْلَهُ عَنِ الزُّهْرِيِّ .

(337/359)

وَأَقُولُ : إِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَرْجِعَ فِي تَحْقِيقِ الْحَقِّ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ ، إِلَى سُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي الْعُمْرَانِ وَطَبَائِعِ الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ الَّتِي تُثْبِتُهَا وَقَائِعُ التَّارِيخِ ، فَهِيَ الَّتِي تُفَسِّرُ لَنَا أَنَّ الْبَغْيَ - وَهُوَ مِنْ أَخَصِّ ضُرُوبِ الظُّلْمِ لِلنَّاسِ - يَرْجِعُ عَلَى فَاعِلِهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُ سَبَبٌ مِنْ أَقْوَى أَسْبَابِ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ ، وَإِيقَادِ نِيرَانِ الْفِتَنِ وَالثَّوْرَاتِ فِي الْأَقْوَامِ ، فَالْفَرْدُ الَّذِي يَبْغِي عَلَى مِثْلِهِ يَخْلُقُ لَهُ بَغْيُهُ عَدُوًّا أَوْ أَعْدَاءً مِمَّنْ يَبْغِي عَلَيْهِمْ ، وَمِمَّنْ يَكْرَهُونَ الْبَغْيَ وَأَهْلَهُ ، فَوُجُودُ الْأَعْدَاءِ وَالْمُبْغِضِينَ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الْعُقُوبَةِ وَإِنْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا إِيذَاءَ الْبَاغِي لِعَجْزِهِمْ ، فَكَيْفَ إِذَا قَدَرُوا وَفَعَلُوا وَهُوَ الْغَالِبُ ؟ وَأَمَّا بَغْيُ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ عَلَى الْأَقْوَامِ وَالشُّعُوبِ فَأَهْوَنُ عَاقِبَتِهِ عَدَاوَتُهُمْ وَالطَّعْنُ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ تُفْضِي إِلَى اغْتِيَالِ أَشْخَاصِهِمْ ، أَوْ إِلَى ثَلِّ عُرُوشِهِمْ وَالْقَضَاءِ عَلَى حُكْمِهِمْ ، إِمَّا بِثَوْرَةٍ مِنَ الشَّعْبِ تَسْتَبْدِلُ بِهَا عَرْشًا بِعَرْشٍ ، أَوْ نَوْعًا مِنَ الْحُكْمِ بِنَوْعٍ آخَرَ ، وَإِمَّا بِإِغَارَةِ دَوْلَةٍ قَوِيَّةٍ عَلَى الدَّوْلَةِ الَّتِي يُضْعِفُهَا الْبَغْيُ تَسْلُبُهَا اسْتِقْلَالَهَا ، وَتَسْتَوْلِي عَلَى بِلَادِهَا ، وَلَا تَنْسَ مَا تَكَرَّرَ عَلَيْكَ فِي هَذَا التَّفْسِيرِ مِنْ أَنَّ ذُنُوبَ الْأَفْرَادِ مِنْ بَغْيٍ وَظُلْمٍ وَغَيْرِهِمَا لَا يَطَّرِدُ الْعِقَابُ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا بِخِلَافِ ذُنُوبِ الْأُمَمِ

(338/359)

وَالدُّوَلِ ، فَإِنَّ عِقَابَهَا أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ لِظُلْمِهَا وَفَسَادِهَا ، وَإِنَّمَا يُوَفَّى كُلُّ أَحَدٍ جَزَاءَهُ فِي الْآخِرَةِ .

(فَإِنْ قِيلَ) إِنَّ الْأَرْضَ كُلَّهَا تَسْتَغِيثُ رَبَّهَا مِنْ بَغْيِ دُوَلٍ أُورُبِّيَّةٍ وَظُلْمِهَا ، فَمَا لَنَا لَا نَرَى بَغْيَهَا يَعُودُ وَبَالُهُ عَلَيْهَا ، وَمَا لَنَا لَا نَرَى وَعِيدَهُ تَعَالَى لِلظَّالِمِينَ نَازِلًا بِهَا ، وَمُدِيلًا لِلشُّعُوبِ الشَّرْقِيَّةِ الْمَظْلُومَةِ مِنْهَا وَمِنْ شُعُوبِهَا الْمُؤَيِّدَةِ لَهَا ؟ .

(قُلْنَا) : إِنَّ هَذَا السُّؤَالَ مَا جَاءَ إِلَّا مِنَ الْغَفْلَةِ عَنِ الْأَمْرِ الْوَاقِعِ ، وَالْجَهْلِ بِسُنَنِ اللهِ فِي الْعُمْرَانِ ، فَإِنَّ فِي بِلَادِ هَذِهِ الدُّوَلِ مِنَ الْمَصَائِبِ وَالنَّوَائِبِ وَالْجَوَائِحِ وَالْفَقْرِ مَا هُوَ أَشَدُّ مِمَّا فِي بَعْضِ بِلَادِ الشَّرْقِ ، وَإِنَّهَا قَدْ قَتَلَتْ مِنْ رِجَالِهَا فِي الْحَرْبِ الْأَخِيرَةِ الْعَامَّةِ ، أَضْعَافَ مَنْ قَتَلَتْهُمْ بَغْيًا وَعُدْوَانًا مَنْ أَهْلِ الشَّرْقِ مُنْذُ اعْتَدَتْ عَلَيْهِمْ إِلَى الْيَوْمِ ، وَإِنَّهَا قَدْ خَرَّبَتْ مِنْ عُمْرَانِهَا أَكْثَرَ مِمَّا خَرَّبَتْ فِي الشَّرْقِ ، وَإِنَّهَا قَدْ خَسِرَتْ مِنْ أَمْوَالِهَا فِي أَرْبَعِ سِنِينَ أَضْعَافَ مَا رَبِحَتْ مِنَ الشَّرْقِ فِي مِائَةِ سَنَةٍ ، وَإِنَّ مَا بَيْنَ شُعُوبِهَا بَعْضِهَا لِبَعْضٍ مِنَ الْأَحْقَادِ وَالْأَضْغَانِ ، وَتَرَبُّصِ الدَّوَائِرِ لِلْوَثَبَانِ ، وَالْفَتْكِ بِالْأَرْوَاحِ وَتَدْمِيرِ الْعُمْرَانِ ، لَأَشَدُّ مِمَّا فِي قُلُوبِ شُعُوبِ الشَّرْقِ لِظَالِمِيهِمْ وَمُسْتَذِلِّيهِمْ مِنْهُمْ – فَهَذَا بَعْضُ انْتِقَامِ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ الْمُشَاهَدِ .

فَأَمَّا الْجَوَائِحُ السَّمَاوِيَّةُ فَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا ؛ لِأَنَّهُمْ يُسْنِدُونَهَا إلَى أَسْبَابِهَا مَا صَحَّ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَصِحَّ ، فَمَكْرُهُمْ فِي آيَاتِهِ أَشَدُّ مِنْ مَكْرِ مَنْ قَبْلَهُمْ . وَأَمَّا الْمَصَائِبُ الْكَسْبِيَّةُ فَيَتَوَخَّوْنَ تَخْفِيفَهَا ، وَتَلَافِيَ شُرُورِهَا ، بِالْمُفَاوَضَاتِ وَالْمُؤْتَمَرَاتِ ، وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ .

وَأَمَّا مَا نَتَمَنَّاهُ مِنَ الْإِدَالَةِ لِشُعُوبِنَا مِنْهُمْ فَلَا نَزَالُ غَيْرَ أَهْلٍ لَهُ لِمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ الْجَهْلِ وَفَسَادِ الْأَخْلَاقِ ، وَالتَّقَاطُعِ وَالتَّخَاذُلِ ، وَتَرْكِ كُلِّ مَا هَدَاهَا اللهُ إلَيْهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَسْبَابِ السِّيَادَةِ وَالِاسْتِخْلَافِ فِي الْأَرْضِ كَمَا نَبَّهْنَا إلَيْهِ آنِفًا ، وَشَرَحْنَاهُ فِي تَفْسِيرِنَا هَذَا لِآيَاتِ كِتَابِهِ مِرَارًا ، وَمِنَ الْمُكَابَرَةِ لِلْحِسِّ أَنْ نُنْكِرَ أَنَّ أَكْثَرَ مَا فِي بِلَادِنَا مِنْ عُمْرَانٍ فَهُوَ مِنْ عَمَلِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ جُلُّهُ لِمَصْلَحَتِهِمْ ، وَأَنَّ مَنْ يُسْتَخْدَمُونَ مِنْ مُلُوكِنَا وَأُمَرَائِنَا وَحُكَّامِنَا هُمْ شَرٌّ عَلَيْنَا مِنْهُمْ ، بَلْ لَمْ يَسُودُونَا وَيَغْلِبُونَا فِي قُطْرٍ مِنْ أَقْطَارِنَا ، إلَّا بِمُسَاعَدَةِ سَادَتِنَا وَكُبَرَائِنَا إيَّاهُمْ عَلَيْنَا (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (8 : 53) فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهُ (فِي ص 32 - 41 ج 10 ط الْهَيْئَةِ) . تَعْلَمُ أَنَّنَا إذَا غَيَّرْنَا مَا بِأَنْفُسِنَا الْآنَ ، بِمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُنَا مِنْ إيمَانٍ وَأَخْلَاقٍ

تَتْبَعُهَا الْأَعْمَالُ ، وَأَوَّلُهَا الْجِهَادُ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ ، فَإِنَّ كُلَّ مَا سُلِبَ مِنَّا يَرْجِعُ إِلَيْنَا ، وَنُزَادُ عَلَيْهِ بِالسِّيَادَةِ عَلَى غَيْرِنَا ، وَلَوِ اتَّبَعُوا هُمْ كِتَابَنَا كُلَّهُ لَأَصْلَحُوا الْأَرْضَ كُلَّهَا .

ضَرَبَ اللهُ هَذَا الْمَثَلَ هُنَا لِلْكَافِرِينَ بِنِعَمِهِ مِنَ الْبَاغِينَ فِي الْأَرْضِ وَالظَّالِمِينَ لِلنَّاسِ ، فَذَكَرَ مِنْ إِخْلَاصِهِمْ فِي دُعَائِهِ عِنْدَ الشِّدَّةِ أَنَّهُمْ يُقْسِمُونَ لَهُ لَئِنْ أَنْجَاهُمْ مِنْهَا ، لَيَكُونُنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ لَهُ عَلَيْهَا ، وَضَرَبَهُ فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ لِلْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِ ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِرُبُوبِيَّتِهِ ، فَقَالَ : (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) (29 : 65)

وَضَرَبَهُ فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ لُقْمَانَ لِجَمِيعِ أَصْنَافِ النَّاسِ فَقَالَ : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ) (31 : 31 و32) الْخَتَّارُ الْكَفُورُ هُنَا : ضِدٌّ مُقَابِلٌ : لِلصَّبَّارِ الشَّكُورِ فِيمَا قَبْلَهُ ، وَالْخَتْرُ : الْغَدْرُ الَّذِي يُحْمَلُ عَلَيْهِ ضَعْفُ الْإِرَادَةِ .

(341/359)

وَالْعِبْرَةُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ كُلِّهَا أَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ ، وَعَنِ الْكَافِرِينَ بِنِعَمِهِ ، وَعَنِ الْخَتَّارِينَ الْفَاقِدِينَ لِفَضِيلَتَيِ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ ، أَنَّهُمْ كُلَّهُمْ يَدْعُونَهُ فِي شِدَّةِ الضِّيقِ وَمُسَاوَرَةِ خَطَرِ الْبَحْرِ لَهُمْ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، لَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّنِ اتَّخَذُوهُمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ تَعَالَى بِعِبَادَتِهِمْ لَهُمْ ، وَتَوَسُّلِهِمْ بِهِمْ وَاتِّخَاذِهِمْ وُسَطَاءَ عِنْدَهُ ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَقْتَرِفُونَ هَذَا الشِّرْكَ وَمَا يُنَاسِبُهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالظُّلْمِ وَكُفْرِ النِّعْمَةِ بِعَدَمِ إِسْنَادِهَا إِلَى الْمُنْعِمِ الْحَقِيقِيِّ فِي أَوْقَاتِ التَّمَتُّعِ بِهَا وَالسَّلَامَةِ مِنْ مُنَغِّصَاتِهَا ، وَأَنَّ الَّذِينَ يَثْبُتُونَ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَشُكْرِهِ هُمُ الْمُقْتَصِدُونَ ، أَيِ الْمُعْتَدِلُونَ فِي عَقَائِدِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ فَلَا تُقَنِّطُهُمُ الشِّدَّةُ ، وَلَا تُبَطِّرُهُمُ النِّعْمَةُ .

وَلَكِنْ يُوجَدُ فِي زَمَانِنَا مَنْ هُمْ أَشَدُّ شِرْكًا وَكُفْرًا بِالنِّعَمِ وَالْمُنْعِمِ ، وَهُمْ قَوْمٌ يَدْعُونَ غَيْرَهُ مِنْ دُونِهِ فِي أَشَدِّ أَوْقَاتِ الضِّيقِ وَالْخَطَرِ ، وَيَدَّعُونَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ مُوَحِّدُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ يَنْطِقُونَ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ الْمَوْرُوثَةِ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ مَعْنَاهَا ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) (47 : 19) وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير المنار جـ 11 صـ 268. 283 ﴾

(342/359)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ ﴾

وأتى بحرف (إذا) الفجائية في جواب (لما) للدلالة على تعجيلهم بالبغي في الأرض عقب النجاة .

والبغي : الاعتداء .

وتقدم في قوله : ﴿ والإثم والبغي بغير الحق ﴾ في سورة [الأعراف : 33] .

والمراد به هنا الإشراك كما صُرح به في نظيرها ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ [العنكبوت : 65] .

وسمي الشرك بغياً لأنه اعتداء على حق الخالق وهو أعظم اعتداء ، كما يسمى ظلماً في آيات كثيرة منها قوله : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] .

ولا يحسن تفسير البغي هنا بالظلم والفساد في الأرض ، إذ ليس ذلك شأن جميعهم فإن منهم حلماء قومهم ، ولأنه لا يناسب قولَه بعد ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ .

ولمعنى هذه الآية في القرآن نظائر ، كقوله : ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربّه منيباً إليه ثم إذا خَوَّله نعمة منه نسي ما كَان يدعُو إليه من قبل وجَعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ﴾ [الزمر : 8] الآية .

وزيادة ﴿ في الأرض ﴾ لمجرد تأكيد تمكنهم من النجاة .

وهو كقوله تعالى : ﴿ فلما نجّاهم إلى البر فمنهم مقتصد ﴾ [لقمان : 32] أي جعلوا مكان أثر النعمة بالنجاة مكاناً للبغي .

وكذلك قوله : ﴿ بغير الحق ﴾ هو قيد كاشف لمعنى البغي ، إذ البغي لا يكون بحق ، فهو كالتقييد في قوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن أتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ [القصص : 50] .

استئناف خطاب للمشركين وهم الذين يبغون في الأرض بغير الحق .

وافتُتح الخطاب بـ ﴿ يا أيها الناس لاستصغاء أسماعهم .

والمقصود من هذا تحذير المشركين ثم تهديدهم .

وصيغة قصر البغي على الكون مُضراً بهم كما هو مفاد حرف الاستعلاء تنبيه على حقيقة واقعية وموعظة لهم ليعلموا أن التحذير من الشرك والتهديد عليه لرعي صلاحهم لا لأنهم يضرونه كقوله : ﴿ ولا تضروه شيئاً ﴾ [التوبة : 39] .

(343/359)

فمعنى (على) الاستعلاء المجازي المكنّى به عن الإضرار لأن المستعلي الغالب يضر بالمغلوب المستعلَى عليه ، ولذلك يكثر أن يقولوا : هذا الشيء عليك ، وفي ضده : هذا

الشيء لك ، كقوله : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ [فصلت : 46] .

ويقول المقر : لك عليّ كذا .

وقال توبة بن الحمير:

وقد زعمت ليلى بأني فاجر . . .

لنفسي تُقاها أو عليها فجورها

وقال السموأل اليهودي:

أليَ الفضل أمْ عليّ إذا حُو . . .

سِبْتُ أني على الحساب مُقيت

وذلك أن (على) تدل على الإلزام والإيجاب ، واللام تدل على الاستحقاق .

وفي الحديث : " القرآنُ حجة لك أو عليك " .

فالمراد بالأنفس أنفس الباغين باعتبار التوْزيع بين أفراد معاد ضمير الجماعة المخاطبين في قوله : ﴿ بغيكُم ﴾ وبين أفراد الأنفس ، كما في قولهم : "ركب القوم دوابَّهم" أي ، ركب كل واحد دابته .

فالمعنى إنما بغي كل أحد على نفسه ، لأن الشرك لا يُضر إلا بنفس المشرك باختلال تفكيره وعمله ثم بوقوعه في العذاب .

و ﴿ متاع ﴾ مرفوع في قراءة الجمهور على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أي هو متاعُ الحياة

الدنيا .

وقَرأه حفص عن عاصم بالنصب على الحال من (بغيكم) .

ويجوز أن يكون انتصابه على الظرفية للبغي ، لأن البغي مصدر مشتق فهو كالفعل فناب المصدر عن الظرف بإضافته إلى ما فيه معنى المدة .

وتوقيت البغي بهذه المدة باعتبار أنه ذكر في معرض الغضب عليهم ، فالمعنى أنه أمهلكم إمهالاً طويلاً فهلاّ تتذكرون ؟ فلا تحسبون الإمهال رضى بفعلكم ولا عجزاً وسيُؤاخذكم به في الآخرة .

وفي كلتا القراءتين وجوهٌ غير ما ذكرنا .

والمتاع : ما ينتفع به انتفاعاً غير دائم .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ في سورة [الأعراف : 24] .

والمعنى على كلتا القراءتين واحد ، أي أمهلناكم على إشراككم مدة الحياة لا غير ثم نؤاخذكم على بغيكم عند مرجعكم إلينا .

(344/359)

وجملة : ثم إلينا مرجعكم ﴾ عطفت بـ (ثم) لإفادة التراخي الرتبي لأن مضمون هذه الجملة أصرح تهديداً من مضمون جملة ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ .

وتقديم المجرور في قوله : ﴿ إلينا مرجعكم ﴾ لإفادة الاختصاص ، أي ترجعون إلينا لا إلى غيرنا تنزيلاً للمخاطبين منزلة من يظن أنه يرجع إلى غير الله لأن حالهم في التكذيب بآياته والإعراض عن عبادته إلى عبادة الأصنام كحال من يظن أنه يحشر إلى الأصنام وإن كان المشركون ينكرون البعث من أصله .

وتفريع ﴿ فننبئكم ﴾ على جملة : ﴿ إلينا مرجعكم ﴾ تفريع وعيد على تهديد .

واستعمل الإنباء كناية عن الجزاء لأن الإنباء يستلزم العلم بأعمالهم السيئة ، والقادر إذا علم بسوء صنيع عبده لا يمنعه من عقابه مانع .

وفي ذكر ﴿ كنتم ﴾ والفعل المضارع دلالة على تكرر عملهم وتمكنه منهم .

والوعيد الذي جاءت به هذه الآية وإن كان في شأن أعظم البغي فكان لكل آت من البغي بنصيب حظاً من هذا الوعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(345/359)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾

وبعد أن أنجاهم الحق سبحانه مباشرة تأتي " إذا " الفجائية لتوضح لنا أنهم لم ينتظروا إلى أن يستردوا أنفاسهم ، أو تمر فترة زمنية بينهم وبين الدعاء ، وتحقق نتيجة الضراعة ، لا ، بل بغوا على الفور في الأرض ﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ .

والبغي : هو تجاوز الحدّ في الظلم وهو إفساد ؛ لأن الإنسان إذا ما أخرج أي شيء عن صلاحه ، يقال : " بغى عليه " ، فإن حفرت طريقاً مُمهّداً ؛ فهذا إفساد ، وإنْ ألقيت بنفاية في بئر يشر منه الناس ؛ فهذا إفساد وبغي ، وأي شيء قائم على الصلاح فتخرجه عن مهمته وتطرأ عليه بما يفسده ؛ فهذا بغي .

والبغي : أعلى مراتب الظلم ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ موسى فبغى عَلَيْهِمْ ﴾ [القصص : 76] .

ويعطينا رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة البغي الممثَّلة في الاعتداء بالفساد على الأمر الصالح ، فيقول صلى الله عليه وسلم : " أسرع الخير ثواباً : البِرّ وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة : البغي وقطيعة الرحم " .

والحق سبحانه لا يؤخر عقاب البغي وقطعية الرحم إلى الآخرة ، بل يعاقب عليهما في الدنيا ؛ حتى يتوازن المجتمع ؛ لأنك رأيت ظالماً يحيا في رضاً ورخاء ثم يموت بخير ، فكل مَنْ يراه

ويعلم ظلمه ولم يجد له عقاباً في الدنيا ، سوف يستشري في الظلم .

ولذلك تجد أن عقاب الله تعالى لمثل هذا الظالم في الدنيا وأن يُرِي الناس نهايته السيئة ، وحين يرى الناس ذلك يتعظون ؛ فلا يظلمون ، وهذا ما يحقق التوازن في المجتمع .

وإلا فلو ترك الله سبحانه الأمر لجزاء الآخرة ؛ لشقي المجتمع بمن لا يؤمن بالآخرة ويحترفون البغي ؛ ولذلك يرى الناس عذابهم في الدنيا ، ثم يكون لهم موقعهم من النار في الآخرة .

(346/359)

ويقول صلى الله عليه وسلم محذراً : " لا تَبْغِ ، ولا تَكُنْ باغياً " .

فالباغي إنما يصنع خللاً في توازن المجتمع . والذي يبغي إنما يأخذ حق الغير ، ليستمتع بنتائج من غير كدّه وعمله ، ويتحوّل إلى إنسان يحترف فرض الإتاوات على الناس ، ويكسل عن أي عمل غير ذلك . وأنت ترى ذلك في أبسط المواقع والأحياء ، حين يحترف بعض ممن يغترون بقوتهم الجسدية ، وقد تحولوا إلى (فتوات) يستأجرهم البعض لإيذاء الآخرين ، والواحد من هؤلاء إنما احترف الأكل من غير بذل جهد في عمل شريف .

والبغي إذن هو عمل مَنْ يفسد الناس حركة الحياة ؛ لأن من يقع عليهم ظلم البغي ، إنما يزهدون في الكَدِّ والعمل الشريف الطاهر . وإذا ما زهد الناس الكَدِّ والعمل الشريف ؛

تعطلت حركة الحياة ، وتعطلت مصالح البشر ، بل إن مصالح الظالم نفسها تتعطل ؛ ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحق ﴾ [يونس : 23] .

ولقائل أن يسأل : وهل هناك بَغْي بحق ؟

أقول : نعم ؛ لأن البغي اعتداء على الصالح بإفساد . وأنت ساعة ترى إنساناً يفسد الشيء الصالح ، فتسأله : لماذا تفعل ذلك ؛ وقد يجيبك بأن غرضه هو الإصلاح ، ويُعدِّد لك أسباباً لهذا البغي ، فهذا بغي بحق ، أما إن كان بغياً دون سبب شرعي فهذا هو البغي ، بل قمته .

ومثال البغي بحق ، أقول : ألم يَسْتول النبي صلى الله عليه وسلم على أرض " بني قريظة " ، وأحرق زرعهم وقطع الأشجار في أَراضيهم ، وهدم دورهم ؟ أليس في ذلك اعتداء على الصالح ؟

لقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ؛ لأنه ردّ على عدوان أقسى من ذلك .

وهكذا نرى أن هناك بغياً بحق ، وبغياً بغير حق . ولذلك يسمى الله جزاء السيئة سيئة مثلها ، ويقول سبحانه : ﴿ فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 194] .

ويسميه الحق سبحانه " اعتداء " رغم أنه ليس اعتداء ، بل ردّ الاعتداء .

ويطلقها الحق سبحانه وتعالى قضية تظل إلى الأبد بعد ما تقدم ، فيقول : ﴿ يا أَيُّهَا الناس إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ مَّتَاعَ الحياة الدنيا ﴾ [يونس : 23] .

وهنا يبين الله سبحانه وتعالى وكأنه يخاطب الباغي : يا مَنْ تريد أن تأخذ حق غيرك ، اعلم أن قصارى ما يعطيك أخذ هذا الحق هو بعض من متاع الدنيا ، ثم تجازى من بعد ذلك بنار أبدية .

وأنت إن قارنت زمن المتعة المغتصبة الناتجة عن البغي بزمن العقاب عليها ؛ لوجدت أن المتعة رخيصة هينة بالنسبة إلى العقاب الذي سوف تناله عليها ولا تأخذ عمرك في الدنيا قياساً على عمر الدنيا نفسها ؛ لأن الحق سبحانه قد يشاء أن يجعل عمر الدنيا عشرين مليوناً من السنوات ، لكن عمرك فيها محدود .

فاربأوا على أنفسكم وافهموا أن متاع الدنيا قليل ، إن كان هذا المتاع نتيجة ظلمكم لأنفسكم ؛ لأن نتيجة هذا الظلم إنما تقع عليكم ؛ لأن مقتضى ما يعطيكم هذا الظلم من المتعة والنعمة هو أمر محدود بحياتكم في الدنيا ، وحياتكم فيها محدودة ، ولا يظن الواحد أن عمره هو عمر البشرية في الدنيا ، ولكن ليقسْ كل واحد منكم عمره في الدنيا وهو محدود .

ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدنيا قَلِيلٌ ﴾ [النساء : 77] .

وهنا يؤكد الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ [يونس : 23] .

وقد يتمثل جزاء البغي في أن يشاء الحق سبحانه ألا يموت الظالم إلا بعد أن يرى مظلومه في خير مما أخذ منه ؛ ولذلك أقول دائماً : لو علم الظالم ما ادخره الله للمظلوم من الخير ؛ لضنَّ عليه بالظلم .

وعلى فرض أن الظالم يتمتع بظلمه وهو من متاع الدنيا القليل ، نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ [يونس : 23]

وحين نرجع إلى الله تعالى فلا ظلم أبداً ؛ لأن أحدكم لن يظلم أو يُظلم فكل منكم سوف يَلْقى ما ينبئه به الله سبحانه إنْ ثواباً أو عقاباً ؛ مصداقاً لقوله الحق : ﴿ ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : 23] .

وقد جاء الخبر عن نبأ الجزاء من قبل أن يقع ؛ ليعلم الجميع أن لكل فعلٍ مقابلاً من ثواب أو عقاب ، كما أن في ذكر النبأ مقدَّماً تقريعاً لمن يظلمون أنفسهم بالبغي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

أخرج البيهقي في سننه عن ابن عمر . أن تميماً الداري سأل عمر بن الخطاب عن ركوب البحر فأمره بتقصير الصلاة قال : يقول الله : ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ﴾ قال : ذكر هذا ثم عد الحديث في حديث آخر عنه لغيرهم قال ﴿ وجرين بهم ﴾ قال : فعزا الحديث عنهم فأوّل شيء كنتم في الفلك وجرين بهؤلاء لا يستطيع يقول : جرين بكم وهو يحدث قوماً آخرين ، ثم ذكر هذا ليجمعهم وغيرهم ﴿ وجرين بهم ﴾ هؤلاء وغيرهم من الخلق .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ قال : أهلكوا .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن عروة قال : فر عكرمة بن أبي جهل يوم الفتح ، فركب البحر فأخذته الريح ، فنادى باللات والعزى . فقال أصحاب السفينة : لا يجوز ههنا أحد أن يدعو شيئاً إلا الله وحده مخلصاً . فقال عكرمة : والله لئن كان في البحر وحده إنه لفي البر وحده . فأسلم .

وأخرج ابن سعد عن ابن أبي مليكة قال : لما كان يوم الفتح ركب عكرمة بن أبي جهل البحر هارباً ، فخب بهم البحر فجعلت الصراري أي الملاح يدعون الله ويوحدونه . فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله ، قال : فهذا إله محمد الذي يدعونا إليه فارجعوا بنا ، فرجع فاسلم .

(350/359)

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال : " لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين ، وقال " اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة ، عكرمة بن أبي جهل ، وعبد الله بن خطل ، ومقيس بن ضبابة ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فأما عبد الله بن خطل فأدرك وهو متعلق بأستار الكعبة فاستبق إليه سعيد بن حريث وعمار ، فسبق سعيد عماراً وكان أشب الرجلين فقتله ، وأما مقيس بن ضبابه فأدركه الناس في السوق فقتلوه ، وأما عكرمة فركب البحر فاصابتهم عاصفة فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة : اخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً . فقال عكرمة : لئن لم ينجني في البحر إلا الاخلاص ما ينجني في البر غيره ، اللهم إن لك عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه إن آتى محمداً

صلى الله عليه وسلم حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفوّاً كريماً . قال : فجاء فأسلم ، وأما عبد الله بن سعد بن أبي سرح فإنه اختبأ عند عثمان رضي الله عنه ، فلما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم للبيعة جاء به حتى أوقفه على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله بايع عبد الله . قال : فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك يأبى فبايعه بعد الثلاث . ثم أقبل على أصحابه فقال : اما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله . قالوا : وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك ، ألا أومأت إلينا بعينك ؟ قال : إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة أعين " " .

(351/359)

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم والخطيب في تاريخه والديلمي في مسند الفردوس عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثلاث هن رواجع على أهلها ، المكر ، والنكث ، والبغي ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ ﴿ ولا يحيق المكر السيّىء إلا بأهله ﴾ [فاطر : 43] ﴿ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ [الفتح : 10] " .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن نفيل الكناني رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم ثلاث " قد فرغ الله من القضاء فيهن لا يبغين أحدكم ، فإن الله تعالى يقول ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ ولا يمكرن أحد فإن الله تعالى يقول ﴿ ولا يحيق المكر السيِّىء إلا بأهله ﴾ [فاطر : 43] ولا ينكث أحد فإن الله يقول ﴿ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ [الفتح : 10] " .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإِيمان عن أبي بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تبغ ولا تكن باغياً ، فإن الله يقول ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الزهري قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لا تبغ ولا تكن باغياً فإن الله يقول ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يؤخر الله عقوبة البغي فإن الله قال ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ " .

وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من ذنب أجدر من أن يعجل الله لصاحبه العقوبة من البغي وقطيعة الرحم " .

وأخرج أبو داود والبيهقي في الشعب عن عياض بن جابر . أن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ، ولا يفخر أحد على أحد .

وأخرج البيهقي في الشعب من طريق بلال بن أبي بردة عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يبغي على الناس إلا ولد بغي أو فيه عرق منه " .

وأخرج ابن المنذر والبيهقي عن رجاء بن حيوة .

أنه سمع قاصاً في مسجد مِنى يقول : ثلاث خلال هن على من عمل بهن البغي ، والمكر ، والنكث ، قال الله ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ [فاطر : 43] ﴿ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ [الفتح : 10] ثم قال : ثلاث خلال لا يعذبكم الله ما عملتم بهن : الشكر ، والدعاء ، والاستغفار ، ثم قرأ ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ [فاطر : 43] ﴿ قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾ [الفتح : 10] و ﴿ ما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ [الأنفال : 33] .

وأخرج أبو الشيخ عن مكحول قال : ثلاث من كن فيه كن عليه : المكر والبغي والنكث . قال الله ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لو بغى جبل على جبل لدك الباغي منهما " .

وأخرج ابن مردويه من حديث ابن عمر رضي الله عنه . مثله .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي جعفر محمد بن علي رضي الله عنه قال : " ما من عبادة أفضل من أن يسأل ، وما يدفع القضاء إلا الدعاء ، وإن أسرع الخير ثواباً البر ، وأسرع الشر عقوبة البغي ، وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه ، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع التحوّل عنه ، وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(353/359)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ ﴾ : جوابُ " لَمَّا " ، وهي " إذا " الفجائية . وقوله : " بغير الحق " حالٌ ، أي : ملتبسين بغير الحق . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : ما معنى قوله : " بغير الحق " والبغيُ لا يكونُ بحق ؟ قلت : بلى وهو استيلاء المسلمين على أرضِ الكفار وهَدْمُ دورِهم وإحراقُ زروعِهم وقَطْعُ أشجارهم ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني قريظة " ، وكان قد فَسَّر البغيَ بالفسادِ والإمعان فيه ، مِنْ " بغى الجرحُ : إذا

ترامى للفساد " . ولذلك قال الزجاج : " إنه الترقّي في الفساد " ، وقال الأصمعيُّ أيضاً : " بغى الجرحُ : ترقى إلى الفساد ، وبَغَت المرأة : فَجَرَت " ، قال الشيخ/ " ولا يَصِحُّ أن يُقال في المسلمين إنهم باغُون على الكفرة ، إلا إنْ ذُكر أنَّ صلَ البغيِ هو الطلبُ مطلقاً ، ولا يتضمَّن الفسادَ ، فحينئذ ينقسم إلى طلبٍ بحق وطلب بغير حق " ، قلت : وقد تقدَّم أنَّ هذه الآيةَ تَرُدُّ على الفارسي أنَّ " لمَّا " ظرف بمعنى حين ؛ لأن ما بعد " إذا " الفجائية لا يَعْمل فيما قبلها ، وإذ قد فَرَضَ كونَ " لمَّا " ظرفاً لزمَ أن يكونَ لها عاملٌ .

(354/359)

قوله : ﴿ مَّتَاعَ الحياة ﴾ قرأ حفص " متاعَ " نصباً ، ونصبُه على خمسة أوجه ، أحدُها : أنه منصوب على الظرف الزماني نحو " مَقْدَمَ الحاج " ، أي : زمَن متاع الحياة . والثاني : أنه منصوبٌ على المصدر الواقع موقع الحال ، أي : مُتَمتعين . والعاملُ في هذا الظرف وهذه الحالِ الاستقرار الذي في الخبر ، وهو " عليكم " . ولا يجوزُ أن يكونا منصوبين بالمصدر لأنه يلزم منه الفصلُ بين المصدرِ ومعمولِه بالخبر ، وقد تقدَّم أنه لا يُخْبَرُ عن الموصول إلا بعد تمامِ صلته . والثالث : نصبُه على المصدرِ المؤكّد بفعل مقدر ، أي : يتمتعون متاع الحياة . الرابع : أنه منصوبٌ على المفعول به بفعلٍ مقدر يدلُّ عليه المصدر ، أي : يبغون متاعَ الحياة .

ولا جائزٌ أن ينتصِبَ بالمصدرِ لما تقدم . الخامس : أن ينتصب على المفعولِ مِنْ أجله ، أي : لأجلِ متاع والعامل فيه : إمَّا الاستقرارُ المقدَّرُ في " عليكم " ، وإمَّا فعلٌ مقدر . ويجوز أن يكونَ الناصبُ له حالَ جعله ظرفاً أو حالاً او مفعولاً من أجله نفسَ البغي لا على جَعْل " على أنفسكم " خبراً بل على جَعْله متعلقاً بنفس البغي ، والخبرُ محذوفٌ لطول الكلام ، والتقدير : إنما بَغْيُكم على أنفسكم متاعَ الحياة مذومٌ أو مكروهٌ أو منهيٌّ عنه .

وقرأ باقي السبعة " متاعُ " بالرفع . وفيه أوجه ، أحدُها : وهو الأظهر أنه خبرُ " بَغْيكم " و " على أنفسِكم " متعلقٌ بالبغي .

(355/359)

ويجوز أن [يكونَ] " عليكم " خبراً ، و " متاع " خبراً ثانياً ، ويجوز أن يكونَ خبرَ مبتدأ محذوفٍ ، أي : هو متاع . ومعنى " على أنفسكم " ، أي : على بعضِكم وجنسِكم كقوله ﴿ وَلاَ تقتلوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النساء : 29] ﴿ وَلاَ تلمزوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [الحجرات : 11] ، أو يكونُ المعنى : إنَّ وبالَ البغي راجعٌ عليكم لا يتعدّاكم كقوله : ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : 7] ﴿ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : 46] .

وقرأ ابنُ أبي إسحاق " متاعاً الحياة " بنصب " متاعاً " و " الحياةَ " . ف " متاعاً " على ما

تقدَّم . وأما " الحياة " فيجوز أن تكونَ مفعولاً بها ، والناصب لها المصدر ، ولا يجوز والحالةُ هذه أن يكونَ " متاعاً " مصدراً مؤكداً لأنَّ المؤكّد لا يعمل . ويجوزُ أَنْ تنتصبَ " الحياة " على البدل من " متاعاً " لأنها مشتملةٌ عليه .

وقُرِىء أيضاً " متاعِ الحياة " بجرِّ " متاع " ، وخُرِّجت على النعت لأنفسكم ، ولا بُدَّ مِنْ حَذْفِ مضافٍ حينئذ تقديرُه : على أنفسكم ذواتِ متاع الحياة ، كذا خرَّجه بعضهم . ويجوز أن يكونَ مِمَّا حُذِف منه حرفُ الجر وبقي عملُه ، أي : إنما بَغْيُكم على أنفسِكم لأجلِ متاع ، ويدلُّ على ذلك قراءةُ النصب في وجه مَنْ يجعله مفعولاً من أجله ، وحَذْفُ حرفِ الجر وإبقاءُ عملِه قليلٌ ، وهذه القراءةُ لا تتباعَدُ عنه . وقال أبو البقاء : " ويجوزُ أن يكونَ المصدرُ بمعنى اسم الفاعل ، أي : متمتعات " يعني أنه يَجْعل المصدرَ نعتاً ل " أنفسكم " من غيرِ حَذْفِ مضافٍ بل على المبالغة أو على جَعْلِ المصدر بمعنى اسم الفاعل . ثم قال : " ويَضْعُفُ أن يكونَ بدلاً إذ أمكن أن يُجْعَلَ صفةً " ، قلت : وإذا جُعِل بدلاً على ضعفه فمِنْ أيِّ قبيل البدلِ يُجعل ؟ والظاهر أنه مِنْ بدل الاشتمال ، ولا بد من ضميرٍ محذوفٍ حينئذ ، أي : متاع الحياة الدنيا لها .

وقرىء " فيُنَبِّئُكُم " بياءِ الغَيْبة ، والفاعلُ ضميرُ الباري تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 173.176 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾

معناه : تُمَتِّعكم أياماً قلائل ، ثم تَلْقَوْن غِبَّ ذلك وتبدأون تقاسون عذاباً طويلاً . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 88 ﴾

(357/359)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾

قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ ذكر سبحانه هاهنا نوعاً رابعاً من مخازيهم ، وهو معطوف على قوله

: ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ ، وجاء بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه .

قيل : والقائلون هم : أهل مكة ، كأنهم لم يعتدّوا بما قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات الباهرة ، والمعجزات القاهرة التي لو لم يكن منها إلا القرآن لكفي به دليلاً بيناً ومصدّقاً قاطعاً : أي هلا أنزلت عليه آية من الآيات التي نقترحها عليه ، ونطلبها منه ، كإحياء الأموات ، وجعل الجبال ذهباً ، ونحو ذلك ؟ ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال : ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الغيب للَّهِ ﴾ أي : أن نزول الآية غيب ، والله هو المختص بعلمه ، المستأثر به ، لا علم لي ولا لكم ، ولا لسائر مخلوقاته ﴿ فانتظروا ﴾ نزول ما اقترحتموه من الآيات ﴿ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ المنتظرين ﴾ لنزولها ، وقيل : المعنى : انتظروا قضاء الله بيني وبينكم بإظهار الحق على الباطل .

قوله : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِى ءاياتنا ﴾ لما بين سبحانه في الآية المتقدمة أنهم طلبوا آية عناداً ومكراً ولجاجاً ، وأكد ذلك بما ذكره هنا من أنه سبحانه إذا أذاقهم رحمة منه من بعد أن مستهم الضرّاء ، فعلوا مقابل هذه النعمة العظيمة المكر منهم في آيات الله ؛ والمراد بإذاقتهم رحمته سبحانه : أنه وسع عليهم في الأرزاق ، وأدرّ عليهم النعم بالمطر وصلاح الثمار ، بعد أن مستهم الضرّاء بالجدب وضيق المعايش ، فما شكروا نعمته ولا قدروها حق قدرها ، بل أضافوها إلى أصنامهم التي لا تنفع ولا تضرّ ، وطعنوا في آيات الله ، واحتالوا في دفعها بكل حيلة ، وهو معنى المكر فيها .

و "إذا " الأولى شرطية ، وجوابها ﴿ إذا لهم مكر ﴾ ، وهي فجائية ، ذكر معنى ذلك الخليل وسيبويه .

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عنهم فقال : ﴿ قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ أي : أعجل عقوبة ، وقد دلّ أفعل التفضيل على أن مكرهم كان سريعاً ، ولكن مكر الله أسرع منه .

وإذا الفجائية يستفاد منها السرعة ، لأن المعنى أنهم فاجئوا المكر : أي أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة ، وتسمية عقوبة الله سبحانه مكراً من باب المشاكلة ، كما قرّر في مواطن من عبارات الكتاب العزيز ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ قرأ يعقوب في رواية ، وأبو عمرو في رواية "يمكرون" بالتحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية .

والمعنى : أن رسل الله وهم الملائكة يكتبون مكر الكفار ، لا يخفى ذلك على الملائكة الذين هم الحفظة ، فكيف يخفى على العليم الخبير ؟ وفي هذا وعيد لهم شديد ، وهذه الجملة تعليلية للجملة التي قبلها ، فإن مكرهم إذا كان ظاهراً لا يخفى ، فعقوبة الله كائنة لا محالة ، ومعنى هذه الآية قريب من معنى الآية المتقدّمة وهي :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر ﴾ [يونس : 12] وفي هذه زيادة ، وهي أنهم لا يقتصرون

على مجرد الإعراض ، بل يطلبون الغوائل لآيات الله بما يدبرونه من المكر .

﴿ هُوَ الذى يُسَيِّرُكُمْ فِى البر والبحر ﴾ ضرب سبحانه لهؤلاء مثلاً حتى ينكشف المراد انكشافاً تاماً .

ومعنى تسييرهم في البر : أنهم يمشون على أقدامهم التي خلقها لهم ، لينتفعوا بها ، ويركبون ما خلقه الله لركوبهم من الدواب ، ومعنى تسييرهم في البحر : أنه ألهمهم لعمل السفائن التي يركبون فيها في لجج البحر ، ويسر ذلك لهم ، ودفع عنهم أسباب الهلاك .

(359/359)

وقد قرأ ابن عامر : " وهو الذي ينشركم في البحر " بالنون والشين المعجمة من النشر كما في قوله : ﴿ فانتشروا فِى الأرض ﴾ [الجمعة : 10] أي ينشرهم سبحانه في البحر ، فينجي من يشاء ويغرق من يشاء ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِى الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ الفلك يقع على الواحد والجمع ويذكر ويؤنث ، وقد تقدّم تحقيقه ﴿ وَجَرَيْنَ ﴾ أي السفن بهم ، أي بالراكبين عليها ، و ﴿ حتى ﴾ لانتهاء الغاية ، والغاية مضمون الجملة الشرطية بكمالها ، فالقيود المعتبرة في الشرط ثلاثة : أوّلها : الكون في الفلك ، والثاني : جريها بهم بالريح الطيبة التي ليست بعاصفة ، وثالثها : فرحهم .

والقيود المعتبرة في الجزاء ثلاثة : الأوّل ﴿ جَاءتْهَا ﴾ أي : جاءت الفلك ريح عاصف ، أو جاءت الريح الطيبة : أي تلقتها ريح عاصف ، والعصوف : شدّة هبوب الريح ، والثاني : ﴿ وَجَاءهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أي : من جميع الجوانب للفلك ، والمراد : جاء الراكبين فيها ، والموج ما ارتفع من الماء فوق البحر ، والثالث : ﴿ ظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أي : غلب على ظنونهم الهلاك ، وأصله من إحاطة العدوّ بقوم أو ببلد .

فجعل هذه الإحاطة مثلاً في الهلاك وإن كان بغير العدو كما هنا .

وجواب إذا في قوله : ﴿ إِذَا كُنتُمْ فِى الفلك ﴾ قوله : ﴿ جَاءتْهَا ﴾ إلى آخره ، ويكون قوله : ﴿ دَّعَوَا الله ﴾ بدلاً من ظنوا ، لكون هذا الدعاء الواقع منهم إنما كان عند ظنّ الهلاك وهو الباعث عليه ، فكان بدلاً منه بدل اشتمال لاشتماله عليه ، ويمكن أن يكون جملة دعوا مستأنفة كأنه قيل : ماذا صنعوا ؟ فقيل : دعوا الله ، وفي قوله : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة ، جعل الفائدة فيه صاحب الكشاف المبالغة .

(360/359)

وقال الرازي : الانتقال من مقام الخطاب إلى مقام الغيبة في هذا المقام دليل المقت والتبعيد ، كما أن عكس ذلك في قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة : 5] دليل الرضا والتقريب ،

وانتصاب ﴿ مخلصين ﴾ على الحال : أي لم يشوبوا دعاءهم بشيء من الشوائب ، كما جرت عادتهم في غير هذا الموطن أنهم يشركون أصنامهم في الدعاء ، وليس هذا لأجل الإيمان بالله وحده ، بل لأجل أن ينجيهم مما شارفوه من الهلاك ، لعلمهم أنه لا ينجيهم سوى الله سبحانه .

وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد ، وأن المضطرّ يجاب دعاؤه وإن كان كافراً .

وفي هذه الآية بيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون إلى أصنامهم في هذه الحالة ، وما يشابهها ، فياعجباً لما حدث في الإسلام من طوائف يعتقدون في الأموات ؟ فإذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات ، ولم يخلصوا الدعاء لله ، كما فعله المشركون ، كما تواتر ذلك إلينا تواتراً يحصل به القطع ، فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية ، وأين وصل بها أهلها ، وإلى أين رمى بهم الشيطان ، وكيف اقتادهم وتسلط عليهم ؟ حتى انقادوا له انقياداً ما كان يطمع في مثله ، ولا في بعضه ، من عباد الأوثان ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، واللام في : ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هذه ﴾ هي اللام الموطئة للقسم ، أي قائلين ذلك ، والإشارة : ﴿ مِنْ هذه ﴾ إلى ما وقعوا فيه من مشارفة الهلاك في البحر ، واللام في ﴿ لَنَكُونَنَّ ﴾ جواب القسم ، أي لنكونن في كل حال ممن يشكر نعمك التي أنعمت بها علينا ، منها هذه النعمة التي نحن بصدد سؤالك أن تفرجها عنا ، وتنجينا منها ؛ وقيل :

إنَّ هذه الجملة مفعول ﴿ دعوا ﴾ .

﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ ﴾ الله من هذه المحنة التي وقعوا فيها ، وأجاب دعاءهم ، لم يفوا بما وعدوا من أنفسهم .

بل فعلوا فعل الجاحدين لا فعل الشاكرين ، وجعلوا البغي في الأرض بغير الحق مكان الشكر .

(361/359)

وإذا في ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ ﴾ هي الفجائية ، أي فاجؤوا البغي في الأرض بغير الحق .

والبغي : هو الفساد ، من قولهم بغى الجرح : إذا ترامى في الفساد ، وزيادة في الأرض للدلالة على أن فسادهم هذا شامل لأقطار الأرض ، والبغي وإن كان ينافي أن يكون بحق ، بل لا يكون إلا بالباطل ، لكن زيادة بغير الحق إشارة إلى أنهم فعلوا ذلك بغير شبهة عندهم ، بل تمرّداً وعناداً ؛ لأنهم قد يفعلون ذلك لشبهة يعتقدونها مع كونها باطلة .

قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الناس إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ مَّتَاعَ الحياة الدنيا ﴾ لما ذكر سبحانه أن هؤلاء المتقدّم ذكرهم يبغون في الأرض بغير الحق ، ذكر عاقبة البغي وسوء مغبته .

قرأ ابن إسحاق ، وحفص ، والمفضل بنصب ﴿ متاع ﴾ ، وقرأ الباقون بالرفع .

فمن قرأ بالنصب جعل ما قبله جملة تامة : أي بغيكم وبال على أنفسكم ، فيكون بغيكم مبتدأ وعلى أنفسكم خبره ، ويكون ﴿ متاع ﴾ في موضع المصدر المؤكد ، كأنه قيل : تتمتعون متاع الحياة الدنيا ، ويكون المصدر مع الفعل المقدّر استئنافاً ، وقيل : إن ﴿ متاع ﴾ على قراءة النصب ظرف زمان نحو مقدم الحاج : أي زمن متاع الحياة الدنيا ، وقيل : هو مفعول له : أي لأجل متاع الحياة الدنيا ، وقيل منصوب بنزع الخافض : أي كمتاع ؛ وقيل على الحال على أنه مصدر بمعنى المفعول : أي ممتعين ، وقد نوقش غالب هذه الأقوال في توجيه النصب .

وأما من قرأ برفع ﴿ متاع ﴾ فجعله خبر المبتدأ : أي بغيكم متاع الحياة الدنيا ، ويكون ﴿ على أنفسكم ﴾ متعلق بالمصدر ، والتقدير : إنما بغيكم على أمثالكم ، والذين جنسهم جنسكم ، متاع الحياة الدنيا ومنفعتها التي لا بقاء لها ، فيكون المراد بأنفسكم على هذا الوجه : أبناء جنسهم ، وعبر عنهم بالأنفس لما يدركه الجنس على جنسه من الشفقة ؛ وقيل : ارتفاع متاع على أنه خبر ثان ؛ وقيل : على أنه خبر لمبتدأ محذوف : أي هو متاع .

(362/359)

قال النحاس : على قراءة الرفع يكون ﴿ بغيكم ﴾ مرتفعاً بالابتداء ، وخبره ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ و ﴿ على أنفسكم ﴾ مفعول البغي ، ويجوز أن يكون ﴿ خبره على أنفسكم ﴾ ، ويضمر مبتدأ ، أي ذلك متاع الحياة الدنيا ، أو هو متاع الحياة الدنيا .

انتهى .

وقد نوقش أيضاً بعض هذه الوجوه المذكورة في توجيه الرفع ، بما يطول به البحث في غير طائل .

والحاصل أنه إذا جعل خبر ﴿ المبتدأ على أنفسكم ﴾ ، فالمعنى ؛ أن ما يقع من البغي على الغير هو بغي على نفس الباغي ، باعتبار ما يؤول إليه الأمر من الانتقام منه مجازاة على بغيه ، وإن جعل الخبر ﴿ متاع ﴾ ، فالمراد : أن بغي هذا الجنس الإنساني على بعضه بعضاً هو سريع الزوال ، قريب الاضمحلال ، كسائر أمتعة الحياة الدنيا ، فإنها ذاهبة عن قرب ، متلاشية بسرعة ، ليس لذلك كثيرة فائدة ولا عظيم جدوى .

ثم ذكر سبحانه ما يكون على ذلك البغي من المجازاة يوم القيامة ، مع وعيد شديد فقال : ﴿ ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ وتقديم الخبر للدلالة على القصر ، والمعنى : أنكم بعد هذه الحياة الدنيا ومتاعها ترجعون إلى الله ، فيجازي المسيء بإساءته ، والمحسن بإحسانه ﴿ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا ، أي فنخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من خير وشرّ ، والمراد بذلك : المجازاة ، كما تقول لمن أساء : سأخبرك بما صنعت ، وفيه أشد وعيد

وأفظع تهديد .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن الربيع ، في قوله : ﴿ فانتظروا إِنّى مَعَكُم مّنَ المنتظرين ﴾ قال : خوفهم عذابه وعقوبته .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً مّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مّكْرٌ فِى ءاياتنا ﴾ قال : استهزاء وتكذيب .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج ، في قوله : ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ قال : هلكوا .

(363/359)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن مردويه ، عن سعد بن أبي وقاص ، ما حاصله : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أهدر يوم الفتح دم جماعة ، منهم عكرمة بن أبي جهل ، هرب من مكة وركب البحر فأصابهم عاصف ، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً ، فقال عكرمة : لئن لم ينجني في البحر الإخلاص ، ما ينجيني في البرّ غيره .

اللهم إن لك عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه ، أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده ،

فلأجدنه عفواً كريماً ، فجاء فأسلم .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والخطيب في تاريخه ، والديلمي في مسند الفردوس ، عن أنس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث هنّ رواجع على أهلها : المكر ، والنكث ، والبغي " ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يا أَيُّهَا الناس إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : 43] ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ على نَفْسِهِ ﴾ [الفتح : 10] .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي بكرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تبغ ولا تكن باغياً ، فإن الله يقول : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ " وأخرج أبو الشيخ عن مكحول قال : ثلاث من كنّ فيه كنّ عليه : المكر ، والبغي ، والنكث ، قال الله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ .

أقول أنا : وينبغي أن يلحق بهذه الثلاث التي دلّ القرآن على أنها تعود على فاعلها : الخدع ، فإن الله يقول : ﴿ يخادعون الله والذين ءامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ ﴾ [البقرة : 9] .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو بغى جبل على جبل لدك الباغي منهما " وأخرج ابن مردويه من حديث ابن عمر مثله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الستون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الستون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 24 ﴾ من سورة يونس عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 30 ﴾ من نفس السورة

(4/360)

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان السياق لإثبات البعث وتخويفهم به وكانوا ينكرونه ويعتقدون بقاء الدنيا وأنها إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع دائماً بلا انقضاء فهي دار يرضى بها فيطمئن إليها ، وللتنفير من البغي والتعزز بغير الحق ، وكانت الأمثال أجلى لمحال الأشكال ، قال تعالى ممثلاً لمتاعها قاصراً أمرها على الفناء رداً عليهم في اعتقاد دوامها من غير بعث : ﴿ إنما ﴾ فهو قصر

قلب ﴿ مثل الحياة الدنيا ﴾ التي تتنافسون فيها في سرعة انقضائها وانقراض نعيمها بعد عظيم إقباله ﴿ كماء أنزلناه ﴾ أي بما لنا من العظمة وحقق أمره وبينه بقوله : ﴿ من السماء ﴾ فشبهه بأمر النبات وأنه قليل يبلغ منتهاه فتصبح الأرض منه بلاقع بعد ذلك الاخضرار والينوع ، وفي ذلك إشارة إلى البعث وإلى أنه تعالى قادر على ضربة قبل نهايته أو بعدها ببعض الآفات كما يوجد في بعض السنين ، فيقفرون منه ويفتقرون إليه ، وفي ذلك تحذير عظيم ﴿ فاختلط ﴾ أي بسبب إنزالنا له ﴿ به ﴾ أي بسبب تليينه ولطافته ﴿ نبات الأرض ﴾ عموماً في بطنها ﴿ مما يأكل الناس ﴾ أي كافة ﴿ والأنعام ﴾ من الحبوب والثمار والبقول فظهر على وجهها ﴿ حتى ﴾ ولم يزل كذلك ينمو ويزيد في الحسن والجرم ؛ ولما كان الخصب هو الأصل ، عبر عنه بأداة التحقيق فقال : ﴿ إذا ﴾ ولما كانت بهجة النبات تابعة للخصب ، فكان الماء كأنه يعطيها إياها فتأخذه ، قال : ﴿ أخذت الأرض ﴾ أي التي لها أهلية النبات ﴿ زخرفها وازينت ﴾ بأنواع ذلك النبات زينة منها الجلي ومنها الخفي - بما يفهمه الإدغام ﴿ وظن أهلها ﴾ أي ظناً مؤكداً جداً بما أفاده العدول عن " قدرتهم " إلى ﴿ أنهم قادرون ﴾ أي ثابته قدرتهم ﴿ عليها ﴾ باجتناء الثمرة من ذلك النبات وغاب عنهم لجهلهم علم العاقبة ، فلما كان ذلك ﴿ أتاها أمرنا ﴾ أي الذي لا يرد من البرد أو الحر المفرطين ﴿ ليلاً أو نهاراً فجعلناها ﴾ أي زرعها وزينتها

بعظمتها بسبب ذلك الأمر وتعقيبه بالإهلاك ﴿ حصيداً ﴾ وعبر بما فهمه فعيل من المبالغة والثبات بقوله : ﴿ كأن ﴾ أي

(5/360)

كأنها ﴿ لم تغن ﴾ أي لم تكن غانية أي ساكنة حسنة غنية ذات وفر مطلوبة مرغوباً فيها أي زرعها وزينتها ﴿ بالأمس ﴾ فكان حال الدنيا في سرعة انقضائها وانقراض نعيمها بعد عظيم إقباله كحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التف وزين الأرض بخضرته وألوانه وبهجته .

ولما كان هذا المثل في غاية المطابقة للساعة ، هز السامع له فازداد عجبه من حسن تفصيله بعد تأصيله فقيل جواباً له : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا التفصيل الباهر ﴿ نفصل ﴾ أي تفصيلاً عظيماً ﴿ الآيات لقوم ﴾ أي ناس أقوياء فيهم قوة المحاولة لما يريدون ﴿ يتفكرون ﴾ أي يجددون الفكر على وجه الاستمرار والمبالغة ؛ والمثل : قول سائر يشبه فيه الحال الثاني بالأول ؛ والاختلاط : تداخل الأشياء بعضها في بعض ؛ والزخرف : حسن الألوان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 432 . 433 ﴾

(6/360)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ يا أيها الناس إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ مَّتَاعَ الحياة الدنيا ﴾ [يونس : 23] أتبعه بهذا المثل العجيب الذي ضربه لمن يبغي في الأرض ويغتر بالدنيا ، ويشتد تمسكه بها ، ويقوي إعراضه عن أمر الآخرة والتأهب لها ، فقال : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحياة الدنيا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السماء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الارض ﴾ وهذا الكلام يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون المعنى فاختلط به نبات الأرض بسبب هذا الماء النازل من السماء ، وذلك لأنه إذا نزل المطر ينبت بسببه أنواع كثيرة من النبات ، وتكون تلك الأنواع مختلطة ، وهذا فيما لم يكن نابتاً قبل نزول المطر .

والثاني : أن يكون المراد منه الذي نبت ، ولكنه لم يترعرع ، ولم يهتز .

وإنما هو في أول بروزه من الأرض ومبدأ حدوثه ، فإذا نزل المطر عليه ، واختلط بذلك

المطر ، أي اتصل كل واحد منهما بالآخر اهتز ذلك النبات وربا وحسن ، وكمل واكتسى كمال الرونق والزينة ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت ﴾ وذلك لأن التزخرف عبارة عن كمال حسن الشيء .

فجعلت الأرض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس إذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون ، وتزينت بجميع الألوان الممكنة في الزينة من حمرة وخضرة وصفرة وذهبية وبياض ، ولا شك أنه متى صار البستان على هذا الوجه ، وبهذه الصفة ، فإنه يفرح به المالك ويعظم رجاؤه في الانتفاع به ، ويصير قلبه مستغرقاً فيه ، ثم إنه تعالى يرسل على هذا البستان العجيب آفة عظيمة دفعة واحدة في ليل أو نهار من برد ، أو ريح أو سيل ، فصارت تلك الأشجار والزروع باطلة هالكة كأنها ما حصلت ألبتة .

(7/360)

فلا شك أنه تعظم حسرة مالك ذلك البستان ويشتد حزنه ، فكذلك من وضع قلبه على لذات الدنيا وطيباتها ، فإذا فاتته تلك الأشياء يعظم حزنه وتلهفه عليها .

واعلم أن تشبيه الحياة الدنيا بهذا النبات يحتمل وجوهاً لخصها القاضي رحمه الله تعالى .

الوجه الأول : أن عاقبة هذه الحياة الدنيا التي ينفقها المرء في باب الدنيا كعاقبة هذا النبات

الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه ، لأن الغالب أن المتمسك بالدنيا إذا وضع عليها قلبه وعظمت رغبته فيها يأتيه الموت .

وهو معنى قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أخذناهم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : 44] خاسرون الدنيا ، وقد أنفقوا أعمارهم فيها ، وخاسرون من الآخرة ، مع أنهم متوجهون إليها .

والوجه الثاني : في التشبيه أنه تعالى بين أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة تحمد ، فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل له عاقبة تحمد .

والوجه الثالث : أن يكون وجه التشبيه مثل قوله سبحانه :

﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] فلما صار سعي هذا الزراع باطلاً بسبب حدوث الأسباب المهلكة ، فكذلك سعي المغتر بالدنيا .

والوجه الرابع : أن مالك ذلك البستان لما عمره بأتعاب النفس وكد الروح ، وعلق قلبه على الانتفاع به ، فإذا حدث ذلك السبب المهلك ، وصار العناء الشديد الذي تحمله في الماضي سبباً لحصول الشقاء الشديد له في المستقبل ، وهو ما يحصل له في قلبه من الحسرات .

فكذلك حال من وضع قلبه على الدنيا وأتعب نفسه في تحصيلها ، فإذا مات ، وفاته كل ما نال ، صار العناء الذي تحمله في تحصيل أسباب الدنيا ، سبباً لحصول الشقاء العظيم له في الآخرة .

والوجه الخامس : لعله تعالى إنما ضرب هذا المثل لمن لا يؤمن بالمعاد ، وذلك لأنا نرى الزرع الذي قد انتهى إلى الغاية القصوى في التربية ، قد بلغ الغاية في الزينة والحسن .

(8/360)

ثم يعرض للأرض المتزينة به آفة ، فيزول ذلك الحسن بالكلية ، ثم تصير تلك الأرض موصوفة بتلك الزينة مرة أخرى .

فذكر هذا المثال ليدل عل أن من قدر على ذلك ، كان قادراً على إعادة الأحياء في الآخرة ليجازيهم على أعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

المسألة الثانية :

المثل : قول يشبه به حال الثاني بالأول ، ويجوز أن يكون المراد من المثل الصفة .

والتقدير : إنما صفة الحياة الدنيا .

وأما قوله : ﴿ وازينت ﴾ فقال الزجاج : يعني تزينت فأدغمت التاء في الزاي وسكنت الزاي فاجتلب لها ألف الوصل ، وهذا مثل ما ذكرنا في قوله : ﴿ ادارأتم ﴾ [البقرة : 72] ﴿ ادارکوا ﴾ [الأعراف : 38] .

وأما قوله : ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد

أن أهل تلك الأرض قادرون على حصادها وتحصيل ثمراتها .

والتحقيق أن الضمير وإن كان في الظاهر عائداً إلى الأرض ، إلا أنه عائد إلى النبات الموجود في الأرض .

وأما قوله : ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا ﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد عذابنا .

والتحقيق أن المعنى أتاها أمرنا بهلاكها .

وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ﴾ قال ابن عباس : لا شيء فيها ، وقال الضحاك : يعني المحصود .

وعلى هذا ، المراد بالحصيد الأرض التي حصد نبتها ، ويجوز أن يكون المراد بالحصيد النبات ، قال أبو عبيدة : الحصيد المستأصل ، وقال غيره : الحصيد المقطوع والمقلوع .

وقوله : ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالامس ﴾ قال الليث : يقال للشيء إذا فنى : كأن لم يغن بالأمس .

أي كأن لم يكن من قولهم غني القوم في دارهم ، إذا أقاموا بها ، وعلى هذا الوجه يكون هذا صفة للنبات .

وقال الزجاج : معناه : كأن لم تعمر بالأمس ، وعلى هذا الوجه فالمراد هو الأرض ، وقوله : ﴿ كذلك نُفَصِّلُ الآيات ﴾ أي نذكر واحدة منها بعد الأخرى ، على الترتيب .

ليكون تواليها وكثرتها سبباً لقوة اليقين ، وموجباً لزوال الشك والشبهة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 59. 60 ﴾

وقال السمرقندى :

ثم ضرب للحياة الدنيا مثلاً فقال : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحياة الدنيا ﴾ ، يعني : في فنائها وبقائها ، ﴿ كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السماء ﴾ ، يعني : المطر ، ﴿ فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض ﴾ ، يعني : يدخل الماء في الأرض فينبت به النبات ، فاتصل كل واحد بالآخر فاختلط .

﴿ مِمَّا يَأْكُلُ الناس والانعام ﴾ ، يعني : مما يأكل الناس من الحبوب والثمار ، ومما تأكل الأنعام والدواب من العشب والكلأ .

﴿ حتى إِذَا أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا ﴾ ، يعني : زينتها ، ﴿ وازينت ﴾ ، يعني : حسنت بألوان النبات ؛ وأصله تزينت فحذفت التاء وأقيم التشديد مقامها .

وهذا كقوله ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الحاقة ﴾ [الحاقة : 3] وأصله تدارك .

﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا ﴾ ، يعني : وحسب أهل الزرع ﴿ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ ، يعني : على غلاتها وأنها ستتم لهم الآن .

﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا ﴾ ، يعني : عذابنا ﴿ لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ﴾ ؛ قال أبو عبيدة : الحصيد المستأصل ، ويقال : الحصيد كحصيد السيف .

﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالامس ﴾ ، يعني : صار كأن لم يكن بالأمس ، فكذلك الدنيا والإنسان يجمع المال ويشتري الضياع ويبني البنيان ، فيظن أنه قد نال مقصده ، فيأتيه الموت فيصير كأنه لم يكن أو رجل ولد له مولود .

فإذا بلغ فظن أنه قد نال مقصوده ، فيموت ويصير كأنه لم يكن .

﴿ كذلك نُفَصّلُ الآيات ﴾ ، يعني : نبين علامات غرور الدنيا وزوالها ، لكيلا يغتروا ونبيّن بقاء الآخرة ليطلبوها ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ بأمثال القرآن ويعتبرون بها . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(10/360)

وقال الثعلبى :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحياة الدنيا ﴾

في فنائها وزوالها ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السمآء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض مِمَّا يَأْكُلُ الناس ﴾

من الحبوب والبقول والثمار ﴿ والأنعام ﴾ من الحشيش والمراعي .

﴿ حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا ﴾ حسنها وبهجتها ﴿ وازينت ﴾ هذا قراءة العامة ، وتصديقها قراءة عبد الله بن مسعود : وتزينت ، وقرأ أبو عثمان النهدي والضحاك

: وأزّانت على وزن اجّازت قال عوف بن أبي جميلة : كان أشياخنا يقرأونها كذلك وازيانت نحو اسوادّت ، وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والشعبي والحسن والأعرج : وأزينت على وزن أفعلت مقطوعة الألف [بالتخفيف] ، قال قطرب : معناه : أتت بالزينة عليها ، كقولهم : أحبّ فأذمّ واذكرت المرأة فأنثت ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾ أخبر عن الأرض ويعني للنبات إذ كان مفهوماً وقيل : ردّه إلى الغلّة وقيل : إلى الزينة ﴿ أَتَاهَآ أَمْرُنَا ﴾ قضاؤنا بهلاكها ﴿ لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً ﴾ مقطوعة مقلوعة وهي محصورة صرفت إلى حصيد ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ ﴾ تكن ، وأصلة من غني المكان إذا أقام فيه وعمّره ، وقال مقاتل : تغم ، وقرأها العامة : تغن بالتاء لتأنيث الأرض ، وقرأها قتادة بالياء يذهب به إلى الزخرف ﴿ كذلك نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(11/360)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : ذاهباً .

الثاني : يابساً . ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾ فيه أربعه تأويلات :

أحدها : كأن لم تعمر بالأمس ، قاله الكلبي .

الثاني : كأنه لم تعش بالأمس ، قاله قتادة ، ومنه قول لبيد :

وغنيت سبتاً بعد مجرى داحس . . . لو كان للنفس اللجوج خلود

الثالث : كأن لم تقم بالأمس ، ومن قولهم غنى فلان بالمكان إذا أقام فيه ، قاله عليّ بن عيسى .

الرابع كأن لم تنعم بالأمس ، قاله قتادة أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(12/360)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ﴾

المعنى : ﴿ إنما مثل ﴾ تفاخر الحياة الدنيا وزينتها بالمال والبنين إذ يصير ذلك إلى الفناء

كمطر نزل من السماء ﴿ فاختلط ﴾ ووقف هنا بعض القراء على معنى ، فاختلط الماء بالأرض ثم استأنف به ﴿ نبات الأرض ﴾ على الابتداء والخبر المقدم ، ويحتمل على هذا أن يعود الضمير في ﴿ به ﴾ على " الماء " أو على " الاختلاط " الذي يتضمنه القول .

ووصلت فرقة فرفع " النباتُ " على ذلك بقوله ﴿ اختلط ﴾ أي اختلط النبات بعضه ببعض بسبب الماء ، وقوله ﴿ مما يأكل الناس ﴾ ، يريد الزروع والأشجار ونحو ذلك ، وقوله ﴿ والأنعام ﴾ يريد سائر العشب المرعي ، و﴿ أخذت الأرض ﴾ ، لفظة كثرت في مثل هذا كقوله ﴿ خذوا زينتكم ﴾ [الأعراف : 31] و" الزخرف " التزين بالألوان ، وقد يجيء الزخرف بمعنى الذهب إذ الذهب منه ، وقرأ مروان بن الحكم وأبو جعفر والسبعة وشيبة ومجاهد والجمهور : ﴿ وازينت ﴾ أصله : تزينت سكنت التاء لتدغم فاحتيج إلى ألف الوصل وقرأ ابن مسعود والأعمش وأبيّ بن كعب " وتزينت " وهذه أصل قراءة الجمهور ، وقرأ الحسن وأبو العالية والشعبي وقتادة ونصر بن عاصم وعيسى " وأزينت " على معنى حضرت زينتها كما تقول أحصد الزرع ، " وأزينت " على مثال أفعلت وقال عوف بن أبي جميلة : كان أشياخنا يقرؤونها " وازيانت " النون شديدة والألف ساكنة قبلها ، وهي قراءة أبي عثمان النهدي ، وقرأت فرقة " وأزيأنت " وهي لغة منها قول الشاعر [ابن كثير] : [الطويل]

إذا ما الهوادي بالغبيطِ احْمأرَّتِ . . . وقرأت فرقة " وازاينت " والمعنى في هذا كله ظهرت زينتها ، وقوله ﴿ وظن أهلها ﴾ على بابها . والضمير في ﴿ عليها ﴾ عائد على ﴿ الأرض ﴾ ، والمراد ما فيها من نعمة ونبات ، وهذا الكلام فيه تشبيه جملة أمر الحياة الدنيا بهذه الجملة الموصوفة أحوالها ، و ﴿ حتى ﴾ غاية وهي حرف ابتداء لدخولها على ﴿ إذا ﴾ ومعناها متصل إلى قوله ﴿ قادرون عليها ﴾ ، ومن بعد ذلك بدأ الجواب ، والأمر الآتي واحد الأمور كالريح والصر والسموم ونحو ذلك ، وتقسيمه ﴿ ليلاً أو نهاراً ﴾ تنبيه على الخوف وارتفاع الأمن في كل وقت ، و ﴿ حصيداً ﴾ : فعيل بمعنى مفول وعبر ب " حصيد " عن التالف الهالك من النبات وإن لم يهلك بحصاد إذ الحكم فيهما وكأن الآفة حصدته قبل أوانه ، وقوله ﴿ كأن لم تغن ﴾ أي كأن لم تنعم ولم تنضر ولم تغر بغضارتها وقرأ قتادة " " يغن " بالياء من تحت يعني الحصيد وقرأ مروان " كأن لم تتغن " بتاءين مثل تتفعل والمغاني المنازل المعمورة ومنه قول الشاعر : [الوافر]

وقد نغنى بها ونرى عصوراً . . . بها يقتدننا الخرد الخذالا

وفي مصحف أبي بن كعب " كأن لم تغن بالأمس وما كنا لنهلكها إلا بذنوب أهلها كذلك نفصل الآيات " ، رواها عنه ابن عباس ، وقيل : إن فيه " وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها " ، وقرأ أبو الدرداء " لقوم يتذكرون " ومعنى الآية التحذير من الاغترار بالدنيا ، إذ

هي معرضة للتلف وأن يصيبها ما أصاب هذه الأرض المذكورة بموت أو غيره من رزايا الدنيا ، وخص " المتفكرين " بالذكر تشريفاً للمنزلة وليقع التسابق إلى هذه الرتبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(14/360)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ﴾

هذا مثل ضربه الله للدنيا الفانية ، فشبهها بمطر نزل من السماء ﴿ فاختلط به نبات الأرض ﴾ يعني التفّ النبات بالمطر ، وكثر ﴿ مما يأكل الناس ﴾ من الحبوب وغيرها ﴿ والأنعام ﴾ من المرعى .

﴿ حتى إِذا أخذت الأرض زخرفها ﴾ قال ابن قتيبة : زينتها بالنبات .

وأصل الزخرف : الذهب ، ثم يقال للنقش والنَّوْر والزَّهر وكل شيء زُيِّن : زخرف .

وقال الزجاج : الزخرف : كمال حسن الشيء .

قوله تعالى : ﴿ وازَّيَّنَتْ ﴾ قرأه الجمهور "وازينت" بالتشديد .

وقرأ سعد ابن أبي وقاص ، وأبو عبد الرحمن ، والحسن ، وابن يعمر : بفتح الهمزة وقطعها

ساكنة الزاي ، على وزن : وَأَفْعَلَتْ .

قال الزجاج : من قرأ "وازَّيَّنَتْ" بالتشديد ، فالمعنى : وتزينت ، فأدغمت التاء في الزاي ، وأسكنت الزاي فاجتلبت لها ألف الوصل ؛ ومن قرأ "وأزْيَنت" بالتخفيف على أفعلت ، فالمعنى : جاءت بالزينة .

وقرأ أُبَيٌّ ، وابن مسعود : "وتزَيَّنَتْ"

قوله تعالى : ﴿ وظن أهلها ﴾ أي : أيقن أهل الأرض ﴿ أنهم قادرون عليها ﴾ أي : على ما أنبتته ، فأخبر عن الأرض ، والمراد النبات ، لأن المعنى مفهوم .

﴿ أتاها أمرنا ﴾ أي : قضاؤنا بإهلاكها ﴿ فجعلناها حصيداً ﴾ أي : محصوداً لا شيء فيها .

والحصيد : المقطوع المستأصَل .

﴿ كأن لم تَغْنَ بالأمس ﴾ قال الزجاج : لم تعمر .

والمغاني : المنازل التي يعمُرها الناس بالنزول فيها .

يقال : غَنينا بالمكان : إذا نزلوا به .

وقرأ الحسن : "كأن لم يَغْنَ" بالياء ، يعني الحصيد .

قال بعض المفسرين : تأويل الآية : أن الحياة في الدنيا سبب لاجتماع المال وما يروق من زهرة الدنيا ويعجب ، حتى إذا استتم ذلك عند صاحبه ، وظن أنه ممتَّع بذلك ، سلب عنه بموته ، أو بحادثة تهلكه ، كما أن الماء سبب لالتفاف النبات وكثرته ، فإذا تزيَّنت به الأرض ، وظن الناس أنهم مستمتعون بذلك ، أهلكه الله ، فعاد ما كان فيها كأن لم يكن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(16/360)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحياة الدنيا كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السمآء ﴾

معنى الآية التشبيه والتمثيل ، أي صفة الحياة الدنيا في فنائها وزوالها وقلة خطرها والملاذ بها كماء ؛ أي مثل ماء ، فالكاف في موضع رفع .

وسيأتي لهذا التشبيه مزيد بيان في "الكهف" إن شاء الله تعالى .

"أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ" نعت ل "ماء" .

﴿ فاختلط ﴾ روي عن نافع أنه وقف على "فاختلط" أي فاختلط الماء بالأرض ، ثم

ابتدأ "بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ" أي بالماء نبات الأرض ؛ فأخرجت ألواناً من النبات ، فنبات على هذا ابتداء ، وعلى مذهب من لم يقف على "فَاخْتَلَطَ" مرفوع باختلط ؛ أي اختلط النبات بالمطر ، أي شرب منه فتندّى وحَسُن واخضر .

والاختلاط تداخل الشيء بعضه في بعض .

قوله تعالى : ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ الناس ﴾ من الحبوب والثمار والبقول .

﴿ والأنعام ﴾ من الكلإ والتبن والشعير .

﴿ حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا ﴾ أي حسنها وزينتها .

والزخرف كمال حسن الشيء ؛ ومنه قيل للذهب : زخرف .

﴿ وازينت ﴾ أي بالحبوب والثمار والأزهار ؛ والأصل تزينت أدغمت التاء في الزاي وجيء بألف الوصل ؛ لأن الحرف المدغم مقام حرفين الأوّل منهما ساكن والساكن لا يمكن الابتداء به .

وقرأ ابن مسعود وأُبيّ بن كعب "وتزينت" على الأصل .

وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية "وأَزْيَنَت" أي أتت بالزينة عليها ، أي الغَلّة والزرع ؛ وجاء بالفعل على أصله ولو أعلّه لقال وازانت .

وقال عوف بن أبي جميلة الأعرابي : قرأ أشياخنا "وازيانت" وزنه اسوادت .

وفي رواية المُقَدّمي "وازاينت" والأصل فيه تزاينت ، وزنه تقاعست ثم أدغم .

وقرأ الشعبيّ وقتادة "وأزْينت" مثل أفعلت .

وقرأ أبو عثمان النّهدِيّ "وازينت" مثل افعلت ، وعنه أيضاً "وازيانت" مثل افعالت ،

وروي عنه "ازيأنت" بالهمزة ؛ ثلاث قراءات .

قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَآ ﴾ أي أيقن .

(17/360)

﴿ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾ أي على حصادها والانتفاع بها ؛ أخبر عن الأرض والمعنِيّ النبات إذا كان مفهوماً وهو منها .

وقيل : ردّ إلى الغلة ، وقيل : إلى الزينة .

﴿ أَتَاهَآ أَمْرُنَا ﴾ أي عذابنا ، أو أمرنا بهلاكها .

﴿ لَيْلاً أَوْ نَهَاراً ﴾ ظرفان .

﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً ﴾ مفعولان ، أي محصودة مقطوعة لا شيء فيها .

وقال "حَصيداً" ولم يؤنّث لأنه فعيل بمعنى مفعول .

قال أبو عبيد : الحصيد المستأصَل .

﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأمس ﴾ أي لم تكن عامرة ؛ من غَنِي إذا أقام فيهِ وعمرَه .

والمغاني في اللغة : المنازل التي يعمرها الناس .

وقال قتادة : كأن لم تنعم .

قال لبيد :

وغَنِيتُ سَبْتاً قبل مَجْرَى داحسٍ . . .

لو كان للنفس اللَّجُوج خلودُ

وقراءة العامة "تَغْنَ" بالتاء لتأنيث الأرض .

وقرأ قتادة "يغن" بالياء ، يذهب به إلى الزخرف ؛ يعني فكما يهلك هذا الزرع هكذا كذلك الدنيا .

﴿ نُفَصِّلُ الآيات ﴾ أي نبيّنُها .

﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في آيات الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(18/360)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا ﴾

يعني في فنائها وزوالها ﴿ كماء أنزلناه من السماء ﴾ يعني المطر ﴿ فاختلط به ﴾ أي

بالمطر ﴿ نبات الأرض ﴾ قال ابن عباس : نبت بالماء من كل لون ﴿ مما يأكل الناس ﴾ يعني من الحبوب والثمار ﴿ والأنعام ﴾ يعني ومما يأكل الأنعام من الحشيش ونحوه ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ﴾ يعني حسنها ونضارتها وبهجتها وأظهرت ألوان زهرها من أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من الزهور ﴿ وازينت ﴾ أي وتزينت ﴿ وظن أهلها ﴾ يعني أهل تلك الأرض ﴿ أنهم قادرون عليها ﴾ يعني على جذاذها وقطافها وحصادها ، رد الكناية إلى الأرض والمراد النبات إذ كان مفهوماً .

وقيل : رده إلى الثمرة والغلة وقيل : إلى الزينة ﴿ أتاها أمرنا ﴾ أي قضاؤنا بهلاكها ﴿ ليلاً أو نهاراً ﴾ يعني في الليل أو النهار ﴿ فجعلناها حصيداً ﴾ يعني محصودة مقطوعة ﴿ كأن لم تغن بالأمس ﴾ يعني : كأن لم تكن تلك الأشجار والنبات الزروع نابتة قائمة على ظهر الأرض وأصله من غنى فلان بالمكان إذا أقام به وهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى للمتشبثين بالدنيا الراغبين في زهرتها وحسنها .

(19/360)

وذلك أنه تعالى لما قال : يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ، أتبعه بهذا المثل لمن بغى في الأرض وتجبر فيها وركن إلى الدنيا وأعرض عن الآخرة لأن النبات في أول

بروزه من الأرض ومبدأ خروجه يكون ضعيفاً فإذا نزل عليه المطر واختلط به قوي وحسن واكتسى كمال الرونق والزينة وهو المراد من قوله حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت يعني بالنبات والزخرف عبارة عن كمال حسن الشيء وجعلت الأرض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس إذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون حسن من حمرة وخضرة وصفرة وبياض ولا شك أن الأرض متى كانت على هذه الصفة فإنه يفرح بها صاحبها ويعظم رجاؤه في الانتفاع بها وبما فيها ثم إن الله سبحانه وتعالى أرسل على هذه الأرض صاعقة أو برداً أو ريحاً فجعلها حصيداً كأن لم تكن من قبل .

قال قتادة : إن المتشبث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون .

ووجه التمثيل ، أن غاية هذه الحياة الدنيا التي ينتفع بها المرء كناية عن هذا النبات الذي لما عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه ، ولأن المتمسك بالدنيا إذا نال منها بغيته أتاه الموت بغتة فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذاتها .

وقيل : يحتمل أن يكون ضرب هذا المثل لمن ينكر المعاد والبعث بعد الموت وذلك ، لأن الزرع إذا انتهى وتكامل في الحسن إلى الغاية القصوى أتته آفة فتلف بالكلية .

ثم إن الله سبحانه وتعالى قادر على إعادته كما كان أول مرة فضرب الله سبحانه وتعالى هذا المثل ليدل على أن من قدر على إعادة ذلك النبات بعد التلف كان قادراً على إعادة الأموات أحياء في الآخرة ليجازيهم على أعمالهم فيثيب الطائع ويعاقب العاصي .

﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ يعني : كما بينا لكم مثل الحياة الدنيا وعرفنا كم حكمها ، كذلك نبين حججنا وأدلتنا لمن تفكر واعتبر ليكون ذلك سبباً موجباً لزوال الشك والشبهة من القلوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(20/360)

وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما قال : ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ﴾ ضرب مثلاً عجيباً غريباً للحياة الدنيا تذكر من يبغي فيها على سرعة زوالها وانقضائها ، وأنها بحال ما تعز وتسر ، تضمحل ويؤول أمرها إلى الفناء .

وقال الزمخشري : هذا من التشبيه المركب ، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه انتهى .

وإنما هنا ليست للحصر لا وضعاً ولا استعمالاً ، لأنه تعالى ضرب للحياة الدنيا أمثالاً غير هذا ، والمثل هنا يحتمل أن يراد به الصفة ، وأن يراد به القول السائر المشبه به حال الثاني

بالأول .

والظاهر تشبيه صفة الحياة الدنيا بماء فيما يكون به ، ويترتب عليه من الانتفاع ثم الانقطاع .

وقيل : شبهت الحياة الدنيا بالنبات على تلك الأوصاف ، فيكون التقدير : كنبات ماء ، فحذف المضاف .

وقيل : شبهت الحياة بحياة مقدرة على هذه الأوصاف ، فيكون التقدير : كحياة قوم بماء أنزلناه من السماء .

قيل : ويقوي هذا قوله : وظن أهلها أنهم قادرون عليها .

والسماء إما أن يراد من السحاب ، وإما أن يراد من جهة السماء ، والظاهر أن النبات اختلط بالماء .

ومعنى الاختلاط : تشبثه به ، وتلقفه إياه ، وقبوله له ، لأنه يجري له مجرى الغذاء ، فتكون الباء للمصاحبة .

وكل مختلطين يصح في كل منهما أن يقال : اختلط بصاحبه ، فلذلك فسره بعضهم بقوله : خالطه الماء وداخله ، فغذّى كل جزء منه .

وقال الكرماني : فاختلط به اختلاط مجاورة ، لأنّ الاختلاط تداخل الأشياء بعضها في

بعض انتهى .

ولا يمتنع اختلاط النبات بالماء على سبيل التداخل ، فلا تقول : إنه اختلاط مجاورة .

(21/360)

وقيل : اختلط اختلف وتنوع بالماء ، وينبو لفظ اختلط عن هذا التفسير .

وقيل : معنى اختلط تركب .

وقيل : امتد وطال .

وقال الزمخشري : فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً .

وقال ابن عطية : وصلت فرقة النبات بقوله فاختلط أي : اختلط النبات بعضه ببعض بسبب الماء انتهى .

وعلى هذه الأقوال الباء في بماء للسببية ، وأبعد من ذهب إلى أن الفاعل في قوله : فاختلط ، هو ضمير يعود على الماء أي : فاختلط الماء بالأرض .

ويقف هذا الذاهب على قوله : فاختلط ، ويستأنف به نبات على الابتداء ، والخبر المقدم .

قال ابن عطية : يحتمل على هذا أن يعود الضمير في به على الماء وعلى الاختلاط الذي

تضمنه الفعل انتهى .

والوقف على قوله : فاختلط ، لا يجوز وخاصة في القرآن لأنه تفكيك للكلام المتصل الصحيح المعنى ، الفصيح اللفظ ، وذهاب إلى اللغز والتعقيد ، والمعنى الضعيف .

ألا ترى أنه لو صرح بإظهار الاسم الذي الضمير في كناية عنه فقيل بالاختلاط نبات الأرض ، أو بالماء نبات الأرض ، لم يكد ينعقد كلاماً من مبتدأ وخبر لضعف هذا الإسناد وقربه من عدم الإفادة ، ولولا أنّ ابن عطية ذكره وخرّجه على ما ذكرناه عنه لم نذكره في كتابنا .

ولما كان النبات ينقسم إلى مأكول وغيره ، بيّن أنّ المراد أحد القسمين بمن فقال : مما يأكل الناس ، كالحبوب والثمار والبقول والأنعام ، كالحشيش وسائر ما يرعى .

قال الحوفي : مِن متعلقه باختلط .

وقال أبو البقاء : مما يأكل حال من النبات ، فاقتضى قول أبي البقاء أن يكون العامل في الحال محذوفاً لأنّ المجرور والظرف إذا وقعا حالين كان العامل محذوفاً .

وقول أبي البقاء : هو الظاهر ، وتقديره : كائناً مما يأكل ، وحتى غاية ، فيحتاج أن يكون الفعل الذي قبلها متطاولاً حتى تصحّ الغاية .

فأما أن يقدر قبلها محذوف أي : فما زال ينمو حتى إذا ، أو يتجوز في فاختلط ، ويكون معناه فدام اختلاط النبات بالماء حتى إذا .

وقوله : أخذت الأرض زخرفها وازينت ، جملة بديعة اللفظ جعلت الأرض آخذة زخرفها متزينة ، وذلك على جهة التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون ، فاكتست وتزينت بأنواع الحلى ، فاستعير الأخذ وهو التناول باليد لاشتمال نبات الأرض على بهجة ونضارة وأثواب مختلفة ، واستعير لتلك البهجة والنضارة والألوان المختلفة لفظة الزخرف وهو الذهب ، لما كان من الأشياء البهجة المنظر السارة للنفوس .

وازينت أي : بنباتها وما أودع فيه من الحبوب والثمار والأزهار ، ويحتمل أن يكون قوله : وازينت تأكيداً لقوله : أخذت الأرض زخرفها .

واحتمل أن لا يكون تأكيداً ، إذ قد يكون أخذ الزخرف لا لقصد التزيين ، فقيل : وازينت ليفيد أنها قصدت التزيين .

ونسبة الأخذ إلى الأرض والتزيين من بديع الاستعارة .

وقرأ الجمهور : وازينت وأصله وتزينت ، فأدغمت التاء في الزاي فاجتلبت همزة الوصل لضرورة تسكين الزاي عند الإدغام .

وقرأ أبي وعبد الله ، وزيد بن علي ، والأعمش : وتزينت على وزن تفعلت .

وقرأ سعد بن أبي وقاص ، وأبو عبد الرحمن ، وابن يعمر ، والحسن ، والشعبي ، وأبو العالية ، وقتادة ، ونصر بن عاصم ، وابن هرمز ، وعيسى الثقفي : وأزينت على وزن أفعلت ،

كأحصد الزرع أي حضرت زينتها وحانت .

وصحت الياء فيه على جهة الندور ، كأعبلت المرأة .

والقياس : وأزانت ، كقولك وأبانت .

وقرأ أبو عثمان النهدي بهمزة مفتوحة بوزن افعألت ، قاله عنه صاحب اللوامح قال : كأنه كانت في الوزن بوزن احمأرَّت ، لكنهم كرهوا الجمع بين ساكنين ، فحركت الألف فانقلبت همزة مفتوحة .

ونسب ابن عطية هذه القراءة لفرقة فقال : وقرأت فرقة وازيأنت وهي لغة منها قال الشاعر :

إذا ما الهوادي بالعبيط احمأرَّت . . .

وقرأ أشياخ عوف ابن أبي جميلة : وازيانت بنون مشدّدة وألف ساكنة قبلها .

قال ابن عطية : وهي قراءة أبي عثمان النهدي .

(23/360)

وقرأت فرقة : وازّاينت ، والأصل وتزاينت فأدغم ، والظن هنا على بابه من ترجيح أحد الجائزين .

وقيل : بمعنى أيقنوا وليس بسديد ، ومعنى القدرة عليها التمكن من تحصيلها ومنفعتها ورفع غلتها ، وذلك لحسن نموها وسلامتها من العاهات .

والضمير في أهلها عائد على الأرض ، وهو على حذف مضاف أي : أهل نباتها .

وقيل : الضمير عائد على الغلة .

وقيل : على الزينة ، وهو ضعيف .

وجواب إذا قوله : أتاها أمرنا كالريح والصر والسموم وغير ذلك من الآفات كالفار والجراد .

وقيل : أتاها أمرنا بإهلاكها ، وأبهم في قوله : ليلاً أو نهاراً ، وقد علم تعالى متى يأتيها أمره ، أو تكون أو للتنويع ، لأنّ بعض الأرض يأتيها أمره تعالى ليلاً وبعضها نهاراً ، ولا يخرج كائن عن وقوعه فيهما .

والحصيد : فعيل بمعنى مفعول أي : المحصود ، ولم يؤنث كما لم تؤنث امرأة جريح .

وقال أبو عبيدة : الحصيد المستأصل انتهى .

وعبر بحصيد عن التألف استعارة ، جعل ما هلك من الزرع بالآفة قبل أوانه حصيداً علاقة ما بينهما من الطرح على الأرض .

وقيل : يجوز أن تكون تشبيهاً بغير الأداة والتقدير : فجعلناها كالحصيد .

وقوله : كأن لم تغن بالأمس ، مبالغة في التلف والهلاك حتى كأنها لم توجد قبل ، ولم يقم بالأرض بهجة خضرة نضرة تسر أهلها .

وقرأ الحسن وقتادة : كأن لم يغن بالياء على التذكير .

فقيل : عائد على المضاف المحذوف الذي هو الزرع ، حذف وقامت هاء التأنيث مقامه في قوله : عليها ، وفي قوله : أتاها فجعلناها .

وقيل : عائد على الزخرف ، والأولى عوده على الحصيد أي : كأن لم يغن الحصيد .

وكان مروان بن الحكم يقرأ على المنبر : كأن لم تتغن بتائين مثل تتفعل .

وقال الأعشى : طويل الثواء طويل التغني ، وهو من غنى بكذا أقام به .

قال الزمخشري : والأمس مثل في الوقت .

كأنه قيل : كأن لم تغن آنفاً انتهى .

(24/360)

وليس الأمس عبارة عن مطلق الوقت ، ولا هو مرادف كقوله : آنفاً ، لأنّ آنفاً معناه الساعة ، والمعنى : كأن لم يكن لها وجود فيما مضى من الزمان .

ولولا أنّ قائلاً قال في غير القرآن كأن لم يكن لها وجود الساعة لم يصح هذا المعنى ، لأنه لا وجود لها الساعة ، فكيف تشبه وهي لا وجود لها حقيقة بما لا وجود لها حقيقة ؟ إنما يشبه ما انتفى وجوده الآن بما قدر انتفاء وجوده في الزمان الماضي ، لسرعة انتقاله من

حالة الوجود إلى حالة العدم ، فكان حالة الوجود ما سبقت له .

وفي مصحف أبي : كأن لم تغن بالأمس ، وما كنا لنهلكها إلا بذنوب أهلها .

وفي التحرير نفصل الآيات ، رواه عنه ابن عباس .

وقيل في مصحفه : وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها .

وفي التحرير : وكان أبو سلمة بن عبد الرحمن يقرأ في قراءة أبيّ كأن لم تغن بالأمس ، وما أهلكناها إلا بذنوب أهلها ، ولا يحسن أن يقرأ أحد بهذه القراءة لأنها مخالفة لخط المصحف الذي أجمع عليه الصحابة والتابعون انتهى .

كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون أي : مثل هذا التفصيل الذي فصلناه في الماضي ، نفصل في المستقبل .

وقرأ أبو الدرداء : لقوم يتذكرون بالذال بدل الفاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(25/360)

وقال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل

الناس والأنعام ﴾

شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغترارا منه بها حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر فيغتر به ويظن أنه قادر عليها مالك لها فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة فتصبح كأن لم تكن قبل فيخيب ظنه وتصبح يداه صفرا منها فكذا حال الدنيا والواثق بها سواء وهذا من أبلغ التشبيه والقياس ولما كانت الدنيا عرضة لهذه الآفات والجنة سليمة منها قال والله يدعو إلى دار السلام فسماها هنا دار السلام لسلامتها من هذه الآفات التي ذكرها في الدنيا فعم بالدعوة إليها وخص بالهداية من يشاء فذاك عدله وهذا فضله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعلام الموقعين حـ 1 صـ 153 ﴾

(26/360)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحياة الدنيا ﴾

كلامٌ مستأنف مسوقٌ لبيان شأنِ الحياةِ الدنيا وقصرِ مدة التمتعِ بها وقربِ زمانِ الرجوع

الموعودِ ، وقد شبّه حالُها العجيبة الشأنِ البديعةُ المثالِ المنتظمةُ لغرابتها في سلك الأمثالِ في سرعة تقضّيها وانصرامِ نعيمها غِبَّ إقبالِها واغترارِ الناسِ بها بحال ما على الأرض من أنواع النباتِ في زوال رونقِها ونضارتِها فجأةً وذهابِها حُطاماً لم يبق لها أثرٌ أصلاً بعد ما كانت غضّةً طرية قد التف بعضُها ببعض وزُيِّنت الأرضُ بألوانها وتقوّت بعد ضعفِها بحيث طمِع الناسُ وظنوا أنها سلِمت من الجوائح ، وليس المشبَّهُ به ما دخله الكافُ في قوله عز وجل : ﴿ كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السماء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض ﴾ بل ما يفهم من الكلام فإنه من التشبيه المركب ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ الناس والانعام ﴾ من البقول والزروعِ والحشيش ﴿ حتى إِذَا أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا ﴾ جُعلت الأرضُ في تزينها بما عليها من أصناف النباتاتِ وأشكالِها وألوانِها المختلفة المونقةِ آخذةً زخْرُفَها على طريقة التمثيلِ بالعروس التي قد أخذت من ألوان الثيابِ والزِّين فتزيّنت بها ﴿ وازينت ﴾ أصله تزينت فأدغم ، وقرىء على الأصل وقرىء وأزْينت كأغيلت من غير إعلالٍ والمعنى صارت ذاتَ زينةٍ وازْيانَّت كابياضّت ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ متمكنون من حصدها ورفعِ غَلّتها ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا ﴾ جوابُ إذا أي ضرب زرعَها ما يجتاحه من الآفات والعاهات ﴿ لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا ﴾ أي زرعَها وسائرَ ما عليها ﴿ حَصِيداً ﴾ أي شبيهاً بما حُصد من أصله ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ ﴾ كأن لم يغنَ زرعُها والمضافُ محذوفٌ للمبالغة وقرىء بتذكير الفعل ﴿ بالامس ﴾ أي فيما قبلُ بزمان قريبٍ فإن الأمسَ مثلٌ في ذلك كأنه قيل : لم تغنَ آنفاً ﴿

كذلك ﴾ أي مثلَ ذلك التفصيلِ البديعِ ﴿ نُفَصّلُ الآيات ﴾ أي الآيات القرآنيةَ التي من جملتها هذه الآيةُ

(27/360)

المنبهةُ على أحوال الحياةِ الدنيا أي نوضّحها ونبيّنها ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في تضاعيفها ويقفون على معانيها ، وتخصيصُ تفصيلِها بهم لأنهم المنتفعون بها ، ويجوز أن يرادَ بالآيات ما ذُكر في أثناء التمثيلِ من الكائنات والفاسداتِ وبتفصيلها تصريفُها على الترتيب المحكيِّ إيجاداً وإعداماً فإنها آياتٌ وعلاماتٌ يستدل بها من يتفكر فيها على أحوال الحياةِ الدنيا حالاً ومآلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(28/360)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

كلام مستأنف لبيان شأن الحياة الدنيا وقصر مدة التمتع فيها ، وأصل المثل ما شبه مضربه

بمورده ويستعار للأمر العجيب المستغرب ، أي إنما حالها في سرعة تقضيها وانصرام نعيمها بعد إقبالها واغترار الناس بها ﴿ كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السماء فاختلط بِهِ ﴾ أي فكثر بسببه ﴿ نَبَاتُ الأرض ﴾ حتى التف بعضه ببعض ، فالباء للسببية ومنهم من أبقاها على المصاحبة ، وجعل الاختلاط بالماء نفسه فإنه كالغذاء للنبات فيجري فيه ويخالطه والأول هو الذي يقتضيه كلام ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ الناس والأنعام ﴾ كالبقول والزروع .

والحشيش والمراعي ، والجار والمجرور في موضع الحال من النبات ﴿ حتى إِذَا أَخَذَتِ الأرض ﴾ أي استوفت واستكملت ﴿ زُخْرُفَهَا ﴾ أي حسنها وبهجتها ﴿ وازينت ﴾ بأصناف النبات وأشكالها وألوانها المختلفة .

كأذيال خود أقبلت في غلائل . . .

مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقد ذكر غير واحد أن في الكلام استعارة بالكناية حيث شبهت الأرض بالعروس وحذف المشبه به وأقيم المشبه مقامه وإثبات أخذ الزخرف لها تخييل وما بعده ترشيح ، وقيل : الزخرف الذهب استعير للنضارة والمنظر الشار ، وأصل ازينت تزينت فأدغمت التاء في الزاي وسكنت فاجتلبت همزة وصل للتوصل للابتداء بالساكن ، وبالأصل قرأ عبد الله ، وقرأ الأعرج .

والشعبي .

وأبو العالية .

ونصر بن عاصم .

والحسن بخلاف ﴿ وازينت ﴾ بوزن أفعلت كأكرمت ، وكان قياسه أن يعل فيقلب ياؤه ألفاً فيقال أزانت لأنه المطرد في باب الأفعال المعتل العين لكنه ورد على خلافه كأغيلت المرأة إذا سقت ولدها الغيل وهو لبن حملها عليه وقد جاء أغالت على القياس .

(29/360)

ومعنى الأفعال هناك هنا الصيرورة أي صارت ذات زينة أو صيرت نفسها كذلك ، وقرأ أبو عثمان النهدي ﴿ أزيأنت ﴾ بهمزة وصل بعدها زاي ساكنة وياء مفتوحة وهمزة كذلك ونون مشددة وتاء تأنيث ، وأصله ازيانت بوزن احمارت بألف صريحة فكرهوا اجتماع ساكنين فقلبوا الألف همزة مفتوحة كما قرىء ﴿ الضأّلين ﴾ [الفاتحة : 7] وجاء أيضاً احمأرت بالهمزة كقوله :

إذا ما الهوادي بالعبيط حمأرت . . .

وقرأ عوف بن جميل ﴿ ازيانت ﴾ بألف من غير إبدال ، وقرىء ﴿ ازاينت ﴾ لقصد

المبالغة ﴿ وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي على الأرض ، والمراد ظنوا أنهم متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها رافعون لغلتها ، وقيل : الكناية للزروع ، وقيل : للثمرة ، وقيل : للزينة لانفهام ذلك من الكلام ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا ﴾ جواب ﴿ إِذَا ﴾ أي نزل بها ما قدرناه من العذاب وهو ضرب زرعها ما يجتاحه من الآفات والعاهات كالبرد .

والجراد .

والفأر .

والصرصر .

والسموم .

وغير ذلك ﴿ لَيْلاً أَوْ نَهَارًا ﴾ أي في ليل أو في نهار ، ولعل المراد الإشارة إلى أنه لا فرق في إتيان العذاب بين زمن غفلتهم وزمن يقظتهم إذ لا يمنع منه مانع ولا يدفع عنه دافع ﴿ فَجَعَلْنَاهَا ﴾ أي فجعلنا نباتها ﴿ حَصِيداً ﴾ أي شبيهاً بما حصد من أصله ، والظاهر أن هذا من التشبيه لذكر الطرفين فيه فإن المحذوف في قوة المذكور ، وجوز أن يكون هناك استعارة مصرحة والأصل جعلنا نباتها هالكاً فشبه الهالك بالحصيد وأقيم اسم المشبه به مقامه ، ولا ينافيه تقدير المضاف كما توهم لأنه لم يشبه الزرع بالحصيد بل الهالك به .

وذهب السكاكي إلى أن في الكلام استعارة بالكناية حيث شبهت الأرض المزخرفة والمزينة بالنبات الناضر المونق الذي ورد عليه ما يزيله ويفنيه وجعل الحصيد تخيلاً ولا يخفى بعده ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ ﴾ أي كان لم يغن نباتها أي لم يمكث ولم يقم ، فتغن من غنى بالمكان إذا أقام ومكث فيه ومنه قيل للمنزل مغني ، وقد حذف المضاف في هذا وفيما قبله فانقلب الضمير المجرور منصوباً في أولهما ومرفوعاً مستتراً في الثاني ، واختير الحذف للمبالغة حيث أفاد ظاهر الكلام جعل الأرض نفسها حصيداً وكأنها نفسها لم تكن لتغيرها بتغير ما فيها ، وقد عطف بعضهم عليهما ﴿ عَلَيْهَا ﴾ لما أن التقدير فيه على نباتها فحذف المضاف وجر الضمير بعلى وليس بالبعيد خلا أن في كون الحذف للمبالغة أيضاً تردداً ، وقيل : ضمير ﴿ تَغْنَ ﴾ وما قبله يعودان على الزرع كما قيل في ضمير ﴿ عَلَيْهَا ﴾ وقيل : يعودان على الأرض ولا حذف بل يجعل التجوز في الإسناد .

وأنت تعلم أن إرجاع الضمائر كلها للأرض ولو مع ارتكاب التجوز في الإسناد أولى من إرجاعها لغيرها كائناً ما كان .

(31/360)

نعم إنه لا يمكن إرجاع الضمير إليها في قراءة الحسن ﴿ يُغْنِى ﴾ بالياء التحتية وجعل ذلك من قبيل ولا أرض أبقل أبقالها كما ترى فينبغي أن يرجع للنبات أو للزرع مثلاً ومآل المعنى كأن لم يكن نابتاً ﴿ بالامس ﴾ أي فيما قبل إتيان أمرنا بزمان قريب فإن الأمس مثل في ذلك ، والجملة التشبيهية جوز أن تكون في محل النصب على أنها حال وأن تكون مستأنفة لا محل لها من الإعراب جواباً لسؤال مقدر ، والممثل به في الآية ما يفهم من الكلام وهو زوال خضرة النبات فجأة وذهابه حطاماً لم يبق له أثر بعد ما كان غضاً طريقاً قد التف بعضه ببعض وازينت الأرض بأوالنه حتى طمع الناس وظنوا أنه قد سلم من الجوائح لا الماء وإن دخلته كاف التشبيه فإنه من التشبيه المركب مع اشتمال الكلام نفسه على أمور حقيقية وأمور مجازية فيها من اللطافة ما لا يخفى .

وعن أبي أنه قرأ ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالامس وَمَا أهلكناها إِلا بذنُوبِ أَهْلِهَا ﴾ ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك التفصيل البديع ﴿ نُفَصّلُ الآيات ﴾ أي القرآنية التي من جملتها هذه الآية الجليلة الشأن المنبهة على أحوال الحياة الدنيا أي نوضحها ونبينها ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في معانيها ويقفون على حقائقها ، وتخصيصهم بالذكر لأنهم المنتفعون ، وجوز أن يراد بالآيات ما ذكر في أثناء التمثيل من الكائنات والفاسدات وبتفصيلها تصريفها على الترتيب المحكي إيجاداً وإعداماً فإنها آيات ما ذكر في أثناء التمثيل من الكائنات والفاسدات وبتفصيلها

تصريفها على الترتيب المحكي إيجاداً وإعداماً فإنها آيات وعلامات يستدل بها المتفكر فيها على أحوال الحياة الدنيا حالاً ومآلاً والأول هو الظاهر .

(32/360)

وعن أبي مجلز أنه قال : كان مكتوباً إلى جنب هذه الآية فمحى ﴿ وَلَوْ أَنَّ عَلَيْهِمْ ءايات الرحمن خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصلاة واتبعوا الشهوات فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً إِلاَّ مَن تَابَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(33/360)

وقال القاسمى :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ ﴾

أي : امتزج به لسريانه فيه ، فالباء للمصاحبة ، أو هي للسببية ، أي : اختلط بسببه حتى خالط بعضه بعضاً ، أي : التف بعضه ببعض ، والأول أظهر : ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ ﴾ من الزروع والثمار والكلأ والحشيش : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أي :

حسنها وبهجتها : ﴿ وَازَّيَّنَتْ ﴾ أي : بأصناف النبات : ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾ أي : متمكنون من تحصيل حبوبها وثمرها وحصدها : ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا ﴾ أي : عذابنا : ﴿ لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً ﴾ أي : كالمحصود من أصله : ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ ﴾ أي : لم تنبت : ﴿ بِالأَمْسِ ﴾ أي : قبيل ذلك الوقت . و (الأمس) مَثَلٌ في الوقت القريب : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ أي : بالأمثلة تقريباً : ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : في معانيها .

تنبيه :

(34/360)

قال القاشاني : البغي ضد العدل ، فكما أن العدل فضيلة شاملة لجميع الفضائل ، وهيئة وحدانية لها ، فائضة من نور الوحدة على النفس ، فالبغي لا يكون إلا عن غاية الانهماك في الرذائل بحيث يستلزمها جميعاً ، فصاحبها في غاية البعد عن الحق ، ونهاية الظلمة ، كما قال : الظلم ظلمات يوم القيامة . فلهذا قال : ﴿ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ لا على المظلوم ؛ لأن المظلوم سعد به ، وشقي الظالم غاية الشقاء ، وهو ليس إلا متاع الحياة الدنيا ؛ إذ جميع الإفراطات والتفريطات المقابلة للعدالة تمتعات طبيعية ، ولذات حيوانية ، تنقضي بانقضاء الحياة

الحسية التي مثلها في سرعة الزوال ، وقلة البقاء ، هذا المثل الذي مثل به ، من تزين الأرض بزخرفها من ماء المطر ، ثم فسادها ببعض الآفات سريعاً قبل الانتفاع بنباتها ، ثم تتبعها الشقاوة الأبدية والعذاب الأليم الدائم .

وفي الحديث : < أسرع الخير ثواباً صلة الرحم ، وأعجل الشر عقاباً البغي واليمين الفاجرة > ؛ لأن صاحبه تتراكم عليه حقوق الناس ، فلا تحتمل عقوبته المهل الطويل الذي يحتمله حق الله تعالى . انتهى .

وسمعت بعض المشايخ يقول : قلما يبلغ الظالم والفاسق أوان الشيخوخة ، وذلك لمبارزتهما الله تعالى في هدم النظام المصروف عنايته تعالى إلى ضبطه ، ومخالفتهما إياه في حكمته وعدله . انتهى . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 20 . 21 ﴾

(35/360)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾

هذه الآية تتنزل منزلة البيان لجملة ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ [يونس : 23] المؤذنة بأن تمتعهم بالدنيا ما هو إلا لمدة قصيرة ، فبينت هذه الآية أن التمتع صائر إلى زوال ، وأطنبت

فشبهت هيئة التمتع بالدنيا لأصحابها بهيئة الزرع في نضارته ثم في مصيره إلى الحصد .

والمثَل : الحال الماثلة على هيئة خاصة ، كان التشبيه هنا تشبيه حالة مركبة بحالة مركبة .

عبر عن ذلك بلفظ المثل الذي شاع في التشبيه المركب كما تقدم في أول سورة البقرة .

وصيغة القصر لتأكيد المقصُود من التشبيه وهو سرعة الانقضاء .

ولتنزيل السامعين منزلة من يحسب دوام بهجة الحياة الدنيا لأن حالهم في الانكباب على نعيم الدنيا كحال من يحسب دوامه وينكر أن يكون له انقضاء سريع ومفاجىء .

والمعنى : قصرُ حالة الحياة الدنيا على مشابهة حالة النبات الموصوف ، فالقصر قصر قلب ، بني على تنزيل المخاطبين منزلة من يعتقد عكس تلك الحالة .

شبهت حالة الحياة في سرعة تقضيها وزوال نعيمها بعد البهجة به وتزايد نضارتها بحال نبات الأرض في ذهابه حطاماً ومصيره حصيداً .

ومن بديع هذا التشبيه تضمنه لتشبيهات مفرقة من أطوار الحالين المتشابهين بحيث يصلح كل جزء من هذا التشبيه المركب لتشبيه جزءٍ من الحالَيْن المتشابهين ، ولذلك أطنب وصف الحالين من ابتدائه .

فقوله : ﴿ كماء أنزلناه من السماء ﴾ شُبه به ابتداء أطوار الحياة من وقت الصبا إذ ليس ثمة سوى الأمل في نعيم العيش ونضارته ، فذلك الأمل يشبه حال نزول المطر من السماء في كونه سبب ما يؤمَّل منه مِن زخرف الأرض ونضارتها .

وقوله : ﴿ فاختلط به نبات الأرض ﴾ شُبه به طور ابتداء نضارة العيش وإقبال زهرة الحياة ، فذلك يشبه خروج الزرع بعيد المطر فيما يشاهد من بوارق المأمول ، ولذلك عطف بفاء التعقيب للإيذان بسرعة ظهور النبات عقب المطر فيؤذن بسرعة نماء الحياة في أول أطوارها .

وعبر عنه بالاختلاط بالماء بحيث ظهر قبل جفاف الماء ، أي فاختلط النبات بالماء أي جاوره وقارنه .

وقوله : ﴿ مما يأكل الناس والأنعام ﴾ وصف لنبات الأرض الذي منه أصناف يأكلها الناس من الخضروات والبقول ، وأصنافٌ تأكلها الأنعام من العشب والكلأ ، وذلك يشبَّه به ما ينعَم به الناس في الحياة من اللذات وما ينعم به الحيوان ، فإن له حظاً في نعيم الحياة بمقدار نطاق حياته .

ولما كان ذلك قد تضمن المأكول والآكل صح أن تُشبه به رغَبات الناس في تناول لذائذ الحياة على حسب اختلاف مراتب الهمم ، وذلك يتضمن تشبيه معالي الأمور من نعم الدنيا التي تسمو إليها الهمم العوالي بالنبات الذي يقتاته الناس ، وتشبيهَ سفاسف الأمور بالنبات

الذي يأكله الأنعام ، ويتضمن تشبيه الذين يجنحون إلى تلك السفاسف بالأنعام ، كقوله تعالى : ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ﴾ [محمد : 12] .

والقول في ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ﴾ كالقول في قوله : ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك ﴾ [يونس : 22] ، وهو غاية شبه بها بلوغ الانتفاع بخيرات الدنيا إلى أقصاه ونضوجه وتمامه وتكاثر أصنافه وانهماك الناس في تناولها ونسيانهم المصير إلى الفناء .

وأمر الله : تقديره وتكوينه .

وإتيانه : إصابة تلك الأرض بالجوائح المعجلة لها باليبس والفناء .

وفي معنى الغاية المستفادِ من (حتى) ما يؤذن بأن بين مبدأ ظهور لذات الحياة وبين منتهاها مراتب جمة وأطواراً كثيرة ، فذلك طوي في معنى (حتى) .

(37/360)

وقوله : ﴿ ليلاً أو نهاراً ﴾ ترديد في الوقت لإثارة التوقع من إمكان زوال نضارة الحياة في جميع الأزمنة لأن الشيء الموقت بمعين من التوقيت يكون الناس في أمن من حلوله في غير ذلك الوقت .

والزخرف : اسم الذهب .

وأطلق على ما يتزين به مما فيه ذهب وتلوين من الثياب والحلي .

وإطلاق أخذ الأرض زخرفها على حصول الزينة فيها استعارةٌ مكنية .

شبهت الأرض بالمرأة حين تريد التزين فتُحضر فاخر ثيابها من حلي وألوان .

والعرب يطلقون على ذلك التناول اسم الأخذ ، قال تعالى : ﴿ يا بني آدم خُذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ [الأعراف : 31] ، وقال بشار بن برد

وخُذي ملابس زينة . . .

ومُصَبَّغات وهي أفخر

وذكر ﴿ ازينت ﴾ عقب ﴿ زخرفها ﴾ ترشيح للاستعارة ، لأن المرأة تأخذ زخرفها للتزين .

و ﴿ ازّينت ﴾ أصله تزينت فقلبت التاء زَاياً ؛ لتدغم في الزاي فسكنت وأدغمت واجتلبت همزة الوصل لأجل النطق بالساكن .

واعلم أن في قوله تعالى : ﴿ أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً ﴾ إشارة لإرادة الاستئصال فهو ينذر بالتهديد للكافرين ويجعل التمثيل أعلق بحياتهم ، كقوله تعالى : ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ [الأنعام : 44] لا سيما وقد ضرب هذا المثل لتمتع الكافرين ببغيهم وإمهالهم عليه ، ويزيد تلك الإشارة وضوحاً قوله :

﴿ وظن أهلها أنهم قادرون عليها ﴾ المؤذنُ بأن أهلها مقصودون بتلك الإصابة .

ومعنى : ﴿ أنهم قادرون عليها ﴾ أنهم مستمرون على الانتفاع بها محصلون لثمراتها ، فأطلق على التمكن من الانتفاع ودوامه لفظ القدرة على وجه الاستعارة .

والحصيد : المحصود ، وهو الزرع المقطوع من منابته .

والإخبار عن الأرض بحصيد على طريقة المجاز العقلي وإنما المحصود نباتها .

ومعنى ﴿ لم تغْنَ ﴾ لم تَعْمُر ، أي لم تعمر بالزرع .

يقال : غَنِي المكان إذا عَمَر .

ومنه المغنَى للمكان المأهول .

وضد أغنى أقفر المكان .

والباء في ﴿ بالأمس ﴾ للظرفية .

(38/360)

والأمس : اليوم الذي قبل يومك .

واللام فيه مزيدة لتملية اللفظ مثل التي في كلمة الآن .

والمراد بالأمس في الآية مطلق الزمن الذي مضى لأن أمس يستعمل بمعنى ما مضى من

الزمان ، كما يستعمل الغد في معنى المستقبل واليوم في معنى الحال .

وجمَعَها قولُ زهير :

وأعلم عِلم اليوم والأمسسِ قبلَه

ولكنني عن عِلم ما في غد عَمِ . . .

وجملة : ﴿ كذلك نفصل الآيات ﴾ إلى آخرها تذييل جامع ، أي مثل هذا التفصيل نفصل أي نبين الدلالات كلها الدالة على عموم العلم والقدرة وإتقان الصنع .

فهذه آية من الآيات المبينة وهي واحدة من عموم الآيات .

وتقدم نظيره في قوله تعالى : ﴿ وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيلَ المجرمين ﴾ في سورة [الأنعام : 55] .

واللام في لقوم يتفكرون ﴾ لام الأجْل .

والتفكر : التأمل والنظر ، وهو تفعل مشتق من الفكر ، وقد مر عند قوله تعالى : ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ في سورة [الأنعام : 50] .

وفيه تعريض بأن الذين لم ينتفعوا بالآيات ليسوا من أهل التفكر ولا كان تفصيل الآيات لأجلهم .

وتقدم ذكر لفظ القوم غير مرة في هذه السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾

والماء الذي ينزل من السماء ، هو الماء الصالح للري وللسقي ؛ لأن المياه الموجودة في الوجود ، هي مخازن للحياة ، وغالباً ما تكون مالحة ، كمياه البحار والمحيطات ، وشاء الحق سبحانه ذلك ، لحمايتها من العفن والفساد ، ثم تتم عملية تقطير المياه بأشعة الشمس التي تحوّل الماء إلى بخار ، ويتجمع البخار كسحاب ، ثم يسقط ماء عَذْباً مقطراً صالحاً للشرب والرّي .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السمآء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض ﴾ [يونس : 24]

والاختلاط : اجتماع شيئين أو أشياء على هيئة الانفصال بحيث يمكن أن تعزل هذا عن ذاك ، فإن خلطت بعضاً من حبات الفول مع بعض من حبّات الترمس ؛ فأنت تستطيع أن تفصل أيا منهما عن الآخر ، ولكن هناك لوناً آخر من جمع الأشياء على هيئة المزج ، مثلما تعصر ليمونة على ماء محلّى بالسكر ، وهذا ينتج عنه ذوبان كل جزىء من الليمون

والسكر في جزيئات الماء .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السمآء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض ﴾ وقد يُفهم من ذلك أن الماء والنبات قد اختلطا معاً ، لكن النبات كما نعلم ككائن حي مخلوق من الماء مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء : 30] .

(40/360)

وهنا لا بد أن نلتفت إلى الفارق بين " باء " الخلط ، و " باء " السببية فالباء هنا في هذه الآية هي باء السببية ، وبذلك يكون المعنى : فاختلط بسببه نبات الأرض . وأنت ترى بعد سقوط المطر على الأرض أن المياه تغطي الأرض ، ثم تجد بعد ذلك بأيام أو أسابيع ، أن سطح الأرض مغطى بالزروع ، وكلها مختلطة متشابكة ، وكلما تشابكت الزروع مع بعضها فهذا دليل على أن الري موجود والخصوبة في هذه الأرض عالية ، وهذا نتيجة تفاعل الماء مع التربة .

أما إن كانت الأرض غير خصبة ، فأنت تجد نَبْتة في منطقة من الأرض ، وأخرى متباعدة عنها ، وهذا ما يطلق عليه أهل الريف المصري أثناء زراعة الذرة على سبيل المثال : "

الذرة تفلس " أي : أن كل عود من أعواد الذرة يتباعد عن الآخر نتيجة عدم خصوبة الأرض .

إذن : فخصوبة الأرض لها أساس هام في الإنبات والماء موجود لإذابة عناصر الغذاء للنبات ، فتنتشر بها جذور النبات .

وإن سمحتْ لك الظروف بزيارة المراكز العلمية للزراعة في " طوكيو " أو " كاليفورنيا " ؛ فلسوف ترى أنهم يزرعون النباتات على خيوط رفيعة ؛ تُسقى بالماء الذي يحتوي على عناصر الغذاء اللازمة للإنبات ؛ لأنهم وجدوا أن أي نبات يأخذ من الأرض المواد اللازمة لإنباته بما لا يتجاوز خمسة في المائة من وزنه ، ويأخذ من الهواء خمسة وتسعين في المائة من وزنه .

إذن : فالمطر النازل من السماء خلال الهواء هو الذي يذيب عناصر الأرض ؛ ليمتصها النبات .

والحق سبحانه وتعالى هنا أراد أن يضرب لنا المثل ، والمثل : هو قول شُبِّه مَضْرِبُهُ بِمَوْلِدِه ، أي : شيء نريد أن نمثله بشيء ، ولا بد أن يكون الشيء الممثل به معلوماً ، والشيءُ المأخوذ كمثلٍ هو الذي نريد أن نوضح صورته ؛ ولذلك لا يصح أن نمثل مجهولاً بمجهول ، وإنما نمثل مجهولاً بمعلوم .

وتجد من يقول لك : ألا تعرف فلاناً ؟ فتقول : لا أعرفه ، فيرد عليك صاحبك : إنه مثل فلان في الشكل . وهكذا عرَّفْتَ المجهول بمعلوم .

وبعض من الذين يحاولون الاعتراض على القرآن ، دخلوا من هذه الناحية ، وقالوا : إذا كان الشيء مجهولاً ونريد أن نعرِّف به ، ألا نعرِّفه بمعلوم ؟ فما بال الله سبحانه وتعالى يقول في شجرة الزقوم : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجحيم * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشياطين ﴾ [الصافات : 6465] .

ما بال الله سبحانه يبين شجرة الزقوم ، وهي شجرة في النار لا نعرفها ، فيعرِّفها للمؤمنين به بأن طلعها يشبه رءوس الشياطين ، وبذلك يكون سبحانه قد مثَّل مجهولاً بمجهول . والذين قالوا ذلك فاتهم أن الذي يتكلم هو الله تعالى . وقد أراد الحق سبحانه أن يُمثِّل لنا شجرة الزقوم بشيء بشع معلوم لنا ، والبشع المعلوم هو الشيطان .

وشاء الحق سبحانه ألا يحدد البشاعة ؛ حتى لا ينقضي التشبيه ؛ لأن الشيء قد يكون بشعاً في نظرك ، وغير بشع في نظر غيرك . ويريد الله سبحانه أن يبشع طلع شجرة الزقوم ؛ فاختار الشيء المتفق على بشاعته ، وهو رءوس الشياطين ، وليتصور كل إنسان صورة الشيطان ، بما ينفر منه ويقبِّحه ، وهكذا تتجلَّى عظمة الحق سبحانه في أن جعل شكل الشيطان مبهماً .

وأما المثل الذي نحن بصدده هنا وهو تشبيه الحياة الدنيا بأنها كالماء الذي أنزله الحق سبحانه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، والحياة الدنيا نحن ندرك بعضها ، وكلٌّ منا يدرك فترة منها ، ولم يدرك أولها ، وقد لا يدرك آخرها ، فجاء الحق سبحانه بمثل يراه كل واحد منا ، وهو الزرع الذي يرتوي بالمطر ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع لنا صورة الدنيا في مثلٍ معروف لنا جميعاً ، وندركه جميعاً ؛ فندرك ما سبق ، وما يلحق ، فكل شيء يأخذ حظه في الازدهار ، والجمال ، ثم ينتهي ، كذلك الدنيا .

يقول الحق سبحانه :

(42/360)

﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السمآء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض مِمَّا يَأْكُلُ الناس والأنعام حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأمس ﴾ [يونس : 24]

والزخرف : هو الشيء الجميل المستميل للنفس وتُسرُّ به حينما تراه ، وتتزين الدنيا بالألوان المتنوعة في تنسيق بديع ، ثم يصبح كل ذلك حصيداً وهذا ما نراه في حياتنا ، وهكذا جمع الله سبحانه وتعالى مثل الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها بالصورة المرئية لكل إنسان ، حتى

لايخدع إنسان بزخرف الدنيا ولا بزينتها .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا المآء صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَآئِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ * فَإِذَا جَآءَتِ الصآخة * يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وصاحبته وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : 2437] .

إذن : فالدنيا بكل جمالها الذي تراه إنما تذوي ، وما تراه من بديع ألوانها إنما يذبل ، ومهما ازدانت الدنيا فهي إلى زوال ، فإياك أن تبغي ؛ لأن البغي فيه متاع الدنيا ، والدنيا كلها إلى زوال ؛ كزوال الروض التي ينزل عليها المطر ؛ فتنبت الأرض الأزهار ، ثم يذوي كل ذلك .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الجنة إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلاَ يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كالصريم ﴾ [القلم : 1720]

.

إذن : فالدنيا بهذا الشكل وعلى هذا الحال .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت ﴾ [يونس : 24] .

والأرض تتزين بأمر ربها ، والحق سبحانه ينسب الإدراكات إلى ما لا نعرف أن له عقلاً أو إرادة . ألم يقل الحق سبحانه في قصة العبد الصالح : ﴿ فانطلقا حتى إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ استطعما أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ [الكهف : 77] .

فهل يملك الجدار إرادة أن ينقضّ ؟ ولو حققنا الأمر جيداً ؛ لوجدنا أن الحق سبحانه جعل لكل كائن في الوجود حياة تناسبه ، وله إرادة تناسبه ، وله انفعال يناسبه . وقد ضرب الحق سبحانه لنا في ذلك صوراً شتّى ، فنجد أن الشيء الذي يعزُّ على عقولنا أن تفهمه يبرز لنا ببيان من الله تعالى .

ومثال هذا : معرفة الهدهد في قصة سليمان عليه السلام بالتوحيد ، وكيف أخبر هذا الهدهد سيدنا سليمان عليه السلام بحكاية مملكة سبأ حيث يسجد الناس هناك للشمس من دون الله ، فكأن الهدهد قد علم مَنْ يستحق السجود له إذ قال : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُواْ للَّهِ الذي يُخْرِجُ الخبء فِي السماوات والأرض ﴾ [النمل : 25] .

ومن كان يظن أن الهدهد ، وهو طائر ، يكون على هذه البصيرة بالعقائد على أصفى ما

تكون ؟ لأن الحق سبحانه أراد أن يبيّن لنا أن هذا الطائر لا هوى له يفسد عقيدته ، وأن أهواءنا هي التي تفسد العقائد ، ومَنْ أعطاه الله سبحانه البدائل هو الذي يفسد الاختيار ما دام لا يحرس الاختيار بالإيمان ، وأن يختار في ضوء منهج الله تعالى .

ونحن نرى أن ما دون الإنسان من طائر أو حيوان لا يفسد شيئاً ؛ لأن غريزته تقوده ، فلا نجد حيواناً يأكل فوق طاقته ، لكننا نجد إنساناً يصيب نفسه بالتخمة ، ولا نجد حماراً يقفز فوق قناة من الماء لا يقدر عليها ، بل نراه وهو يتراجع عنها ، وكلنا نجد إنساناً يشمر عن ساعديه ؛ ليقفز فوق قناة مياه ؛ فيقع فيها .

(44/360)

إذن : فنحن بأهوائنا التي تسيطر على غرائزنا نوقع أنفسنا فيما يضرنا ، ما لم نحرس أنفسنا بمنهج الله سبحانه وتعالى . ونجد في مثال الهدهد صفاءً عقدياً في التوحيد كأصفى ما يكون المتصوّفة ، ويأتي بما يهمه ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُواْ للَّهِ الذي يُخْرِجُ الخبء فِي السماوات والأرض ﴾ لأن الخبء هو رزق الهدهد ، فهو لا يأكل من الشيء الظاهر على سطح الأرض ، بل يضرب بمنقاره الأرض ؛ ليأتي لنفسه بما يطعمه .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً آخر بالنملة التي قالت : ﴿ يا أَيُّهَا النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ

يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : 18] .

وهذه دقة عدالة من هذه النملة ، فإنها لم تقل : إن سليمان وجنوده سيحطمون أخواتها من النمل ظلماً لهم ، بل قالت : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ لأنكم لا تظهرون تحت أرجلهم .

إذن : كل كائن في الوجود له حياة تناسبه ، ولكن الآفة أننا نريد أن نتصور الحياة في كل كائن ، كتصورها في الكائن الأعلى وهو الإنسان .

ولا بد لنا أن نعلم أن النبات له حياة تناسبه ، والحيوان له حياة تناسبه ، والجماد له حياة تناسبه ، وكل شيء في الحياة له لون من الحياة المناسبة له .

وقد أوضحنا من قبل أن الحق سبحانه قد قال : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال : 42] .

والهلاك مقابل للحياة ، والحياة مقابلة للموت ، والهلاك يساوي الموت . والحق سبحانه يصور الحالة يوم القيامة فيقول : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] .

إذن : فالجماد هالك ، ولكنه يتمتع بلون من الحياة لا نعرفه ، وكذلك كل كائن له حياة تناسبه ، والآفة أن الإنسان يريد أن يعرِّف الحياة التي في الجماد كالحياة في الإنسان .

(45/360)

وانظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله الحق : ﴿ حتى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً ﴾ [يونس : 24] .

وقد جاء هذا القول من قبل أن يتقدم العلم ويثبت أن الأرض تشبه الكرة ، وأنها تدور ، وأن كل ليل يقابله نهار ، وكذلك جاء قول الحق سبحانه : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى ﴾ [الأعراف : 9798] .

إذن : فأمر الله سبحانه يتحقق حين يشاء ، وهو أمر واحد عند من يكونون في ضحى أو في ليل .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأمس ﴾ [يونس : 24] .

أي : كأنها لم يكن لها وجود .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ كذلك نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : 24]

.

فإذا كانت الدنيا كلها مثل عملية الزرع في الأرض الذي ينمو ويزدهر ويزدان ، ثم ينتهي ، ألا يجب أن ننتبه إلى أن كل زخرف إلى زوال ؛ وعلينا ألا نفتتن بزينة الدنيا ومتاعها في شيء ، وأن نحرص على ألا نبغي في الأرض ؛ لأن البغي متاع الحياة الدنيا ، وهي إلى زوال .

ونجد القرآن يأتي بذكر التفصيل للآيات ، ويتبع ذلك بأن هذا التفصيل لقوم " يتفكرون " ، أو

" يتذكرون " ، أو " يعقلون " ، أو " يتدبرون " .

وكل هذه عمليات تتناول المعلوم الواحد في مراحل متعددة ، فالتعقُّل : هو أن تأتي بالمقدمات ؛ لتستنبط ولترى إلى أي نتائج تصل . والتذكُّر يعني : ألا تنسى وألا تغفل عن الأمر الهام . والتفكُّر : هو أن تُعْمل الفكر . والفارق بين الفكر والعقل هو أن العقل أداة التفكُّر . والتدبُّر : هو ألا تنظر إلى ظواهر الأشياء ، بل إلى المعطيات الخفية في أي أمر . والحق سبحانه يقول : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن ﴾ [النساء : 82] .

(46/360)

أي : اجعل بصيرتك تمحّص البدايات والنهايات ؛ لتعرف أن المرجع والمصير إلى الله تعالى . والعاقل هو مَنْ يعدّ نفسه للقاء الله سبحانه ، وقد يرهق نفسه في الدنيا الفانية ؛ ليستريح في الآخرة .

وإذا نظرنا إلى الدنيا والآخرة من خلال معادلة تجارية ، سنجد أن الآخرة لا بد وأن ترجح كفتها ؛ لأن عمر الإنسان في الدنيا مظنون ، ولا يعرف فرد هل يحيا في الدنيا عاماً أو عشرة أو سبعين أو مائة عام .

ومهما طالت الدنيا مع كل الخَلْق فهي منتهية ، والنعيم فيها على قدر : إمكاناتك البشرية

وعلى قدر تصورك للنعيم ، أما الآخرة فهي بلا نهاية ، وأمر الإنسان فيها متيقَّن ، والنعيم فيها على قدر عطاءات الله تعالى ومراده سبحانه للنعيم . فإن قارنت هذا بذاك وقارنت الدنيا بالآخرة لرجحتْ كفّة الآخرة .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 64] .

وفي قوله سبحانه : ﴿ لَهِيَ الحيوان ﴾ . مبالغة في كونها حياة لا فناء فيها . فاتبع منهج الله سبحانه ؛ ليأخذك هذا المنهج إلى دار السلام والسلامة من الآفات . واضمن لنفسك الخروج من دار الفناء والأغيار ، وَضَعْ يدك في يد من يدعوك إلى دار السلام .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ والله يدعوا إلى دَارِ السلام ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(47/360)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ

وَالْأَنْعَامُ ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فاختلط به نبات الأرض ﴾ قال : اختلط فنبت بالماء كل لون ﴿ مما يأكل الناس ﴾ كالحنطة والشعير وسائر حبوب الأرض والبقول والثمار ، وما تأكله الأنعام والبهائم من الحشيش والمراعي .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وازينت ﴾ قال : أنبتت وحسنت ، وفي قوله ﴿ كأن لم تغن بالأمس ﴾ قال : كأن لم تعش كأن لم تنعم .

وأخرج ابن جرير عن أبي بن كعب وابن عباس ومروان بن الحكم أنهم كانوا يقرأون ﴿ وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ﴾ وما كان الله ليهلكم إلا بذنوب أهلها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال في قراءة أبي "كأن لم تغن بالأمس وما أهلكناها إلا بذنوب أهلها كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون" .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن أبي مجلز رضي الله عنه قال : مكتوب في سورة يونس عليه السلام إلى جنب هذه الآية ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ﴾ إلى ﴿ يتفكرون ﴾ ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى وادياً ثالثاً ، ولا يشبع نفس ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب فمحيت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ﴾ : هذه الجملةُ سِيْقَتْ لتشبيهِ الدنيا بنباتِ الأرض ، وقد شَرَحَ الله تعالى وجهَ التشبيه بما ذكر . قال الزمخشري : " وهذا مِنْ/ التشبيهِ المركب ، شُبِّهَتْ حالُ الدنيا في سرعةِ تَقَضِّيها وانقراضِ نعيمِها بعد الإقبال بحالِ نبات الأرض في جَفَافه وذهابه حُطاماً بعدما التفَّ وتكاثَف وزيَّن الأرض بخضرته ورفيفه " ، قلت : التشبيهُ المركب في اصطلاح البيانيين : إمَّا أن يكون طرفاه مركبين ، أي : تشبيه مركب بمركب كقول بشار بن برد :

2578 كان مُثَارَ النَّقْعِ فوقَ رؤوسنا . . . وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبُهْ

وذلك أنه يُشَبِّه الهيئةَ الحاصلةَ من هُوِيِّ أجرامٍ مشرقة مستطيلةٍ متناسبةِ المقدارِ متفرقةٍ في جوانبِ شيءٍ مظلم بليلٍ سقطت كواكبُه ، وإمَّا أن يكونَ طرفاه مختلفَيْن بالإفراد والتركيب . وتقسيماتُه في غير هذا الموضوع .

وقوله : ﴿ كَمَآءٍ ﴾ هو خبرُ المبتدأ ، و " أنزلناه " صفةٌ لـ " ماء " ، و " من السماء " متعلقٌ ب " أَنْزلناه " ويَضْعُفُ جَعْلُه حالاً من الضمير المنصوب . وقوله : " فاختلطَ به " في هذه الباءِ وجهان ، أحدهما : أنها سببيَّةٌ . قال الزمخشري : " فاشتبك بسببه حتى خالط بعضُه بعضاً " ، وقال ابن عطية : " وَصَلَتْ فِرْقَةٌ " النباتَ " بقوله : " فاختلط " ، أي : اختلط النباتُ بعضُه ببعض بسبب الماء " . والثاني : أنها للمصاحبة بمعنى أنَّ الماءَ يجري مجرى الغذاء له فهو مصاحبه . وزعم بعضُهم أن الوقفَ على قولِه : " فاختلط " على أن الفعلَ ضميرٌ عائد على الماء ، وتَبْتَدىء ﴿ بِهِ نَبَاتُ الأَرض ﴾ على الابتداء والخبر . والضمير في " به " على هذا يجوز عَوْدُه على الماء ، وأن يعود على الاختلاط الذي تضمنَّه الفعل ، قاله ابن عطية . قال الشيخ : " الوقف على قوله : " فاختلط " لا يجوزُ ، وخاصةً في القرآن لأنه تفكيكٌ للكلام المتصلِ الصحيح والمعنى الفصيحِ ، وذهابٌ إلى اللُّغْز والتعقيد " .

قوله : ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أنه متعلقٌ ب " اختلط " وبه قال الحوفي . والثاني : أنه حالٌ من " النبات " وبه قال أبو البقاء ، وهو الظاهرُ ، والعاملُ فيه محذوفٌ

على القاعدة المستقرة ، أي : كائناً أو مستقراً مِمَّا يأكل . ولو قيل " مِنْ " لبيان الجنس لجاز .

وقوله : " حتى " غايةٌ فلا بد لها من شيءٍ مُغيَّا ، والفعلُ الذي قبلها وهو " اختلط " لا يصلح أن يكون مُغيَّا لقصرِ زمنهِ .

فقيل : ثَمَّ فعل محذوف ، أي : لم يزلِ النباتُ ينمو حتى كان كيت وكيت . وقيل : يُتَجَوَّزُ في " فاختلط " بمعنى : فدامَ اختلاطُه حتى كان كيت وكيت . و " إذا " بعد " حتى " هذه تقدَّم التنبيهُ عليها .

(50/360)

قوله : ﴿ وازينت ﴾ قرأ الجمهور " ازَّيَّنَتْ " بوصل الهمزة وتشديد الزاي والياء ، والأصلُ " وتَزَيَّنت " فلمَّا أريد إدغامُ التاء في الزاي بعدها قُلبت زاياً وسَكَنَتْ فاجتلبت همزة الوصل لتعذُّر الابتداء بالساكن فصار " ازَّيَّنت " كما ترى ، وقد تقدَّم تحريرُ هذا عند قولِه تعالى : ﴿ فادارأتم فِيهَا ﴾ [البقرة : 72] . وقرأ أُبَيّ بن كعب وعبد الله وزيدُ بن علي والأعمش " وتَزَيَّنَتْ " على تَفَعَّلَتْ ، وهو الأصلُ المشار إليه . وقرأ سعد ابن أبي وقاص والسلمي وابن يعمر والحسن والشعبي وأبو العالية ونصر بن عاصم وابن هرمز وعيسى الثقفي : " وأَزْيَنَتْ على وزن أَفْعلَتْ وأَفْعَل هنا بمعنى صار ذا كذا كأَحْصَدَ

الزرعُ وأَغَدَّ البعيرُ ، والمعنى : صارت ذا زينة ، أي : حَضَرت زينتها وحانَتْ وكان مِنْ حَقِّ الياءِ على هذه القراءة أن تُقْلَبَ ألفاً فيقال : أَزَانَتْ ، كأَنَابت فَتُعَلُّ بنقلِ حركتِها إلى الساكن قبلها فتتحرك حينئذ ، وينفتح ما قبلَها فتقلب ألفاً كما تقدَّم ذلك في نحو : أقام وأناب ، إلا أنها صَحَّتْ شذوذاً كقولِه : " أَغْيَمت السماء ، وأَغْيَلَت المرأة " ، وقد وَرَدَ ذلك في القرآن نحو : ﴿ استحوذ ﴾ [المجادلة : 19] وقياسُه استحاذَ كاستقام .

وقرأ أبو عثمان النهدي وعزاه ابن عطية لفرقةٍ غيرِ معينة " وازْيَأَّنتْ " بهمزة وصل بعدها زايٌ ساكنة ، / بعدها ياءٌ مفتوحة خفيفة ، بعدها همزةٌ مفتوحة ، بعدها نون مشددة .

قالوا : وأصلها : وازيانَّتْ بوزن احمَارَّت بألف صريحة ، ولكنهم كَرِهُوا الجمعَ بين الساكنين فقلبت الألفُ همزةً كقراءة " الضأَّلين " و " جَأَنْ " . وعليه قولهم : " احمأرَّت " بالهمز وأنشد :

2579 . . . . . إذا ما الهَوادِيْ بالعَبيطِ احمأرَّتِ

(51/360)

وقد تقدم لك هذا مشبعاً في أواخر الفاتحة . وقرأ أشياخ عوف ابن أبي جميلة : " وازْيأَّنتْ " بالأصل المشار إليه ، وعزاها ابن عطية لأبي عثمان النهدي . وقرىء " وازَّاينَتْ " والأصلُ : تزاينت فأدغم .

وقوله : ﴿ أَهْلُهَآ ﴾ ، أي : أهل نباتها . و " أتاها " هو جوابُ " إذا " فهو العاملُ فيها . وقيل : الضميرُ عائد على الزينة . وقيل : على الغَلَّة ، أي : القُوت فلا حَذْفَ حينئذ . و " ليلاً ونهاراً " ظرفان للإتيان أو للأمر . والجَعْل هنا تصيير . وحصيد : فعيل بمعنى مفعول ؛ ولذلك لم يؤنَّثْ بالتاء وإن كان عبارة عن مؤنث كقولهم : امرأة جريح .

قوله : ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ ﴾ هذه الجملةُ يجوز أن تكون حالاً مِنْ مفعول " جَعَلْناها " الأول ، وأن تكون مستأنفةً جواباً لسؤال مقدر . وقرأ مروان ابن الحكم " تتغَنَّ " بتاءين بزنة تتفعَّل ، ومثله قول الأعشى :

2580 . . . . . طويلَ الثَّواءِ طويلَ التَّغَنّ

وهو بمعنى الإقامة ، وقد تقدَّم تحقيقُه في الأعراف . وقرأ الحسن وقتادة ﴿ كأن لم يَغْنَ ﴾ بياء الغيبة ، وفي هذا الضميرِ ثلاثةُ أوجهٍ ، أجودُها : أن يعودَ على الحصيد لأنه أقرب مذكور . وقيل : يعودُ على الزخرف ، أي : كأن لم يَقُم الزخرف . وقيل : يعود على النبات أو الزرع الذي قدَّرته مضافاً ، أي : كأن لم يَغْنَ زَرْعُها ونباتها .

و" بالأمس " المرادُ به الزمن الماضي لا اليوم الذي قبل يومك ، فهو كقول زهير :

2581 وأعلمُ علمَ اليومِ والأمسِ قبلَه . . . ولكنني عن عِلْمِ ما في غدٍ عَمِ

لم يَقْصد بها حقائقَها ، والفرقُ بين الأَمْسَيْن أن الذي يراد به قبل يومِك مبنيٌّ لتضمُّنه معنى الألف واللام ، وهذا مُعْرب تدخل عليه أل ويضاف .

وقوله : ﴿ كذلك نُفَصِّلُ ﴾ نعت مصدر محذوف ، أي : مثل هذا التفصيل الذي فَصَّلْناه في الماضي نُفَصِّل في المستقبل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 176 . 180 ﴾

(52/360)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ﴾

شَبّهَ الحياةَ الدنيا بالماء المُنَزَّلِ من السماء يَنْبُتُ به النباتُ وتَخْضَرُّ الأرضُ وتَظْهَرُ الثمار ، ويوطِّن أربابُها عليها نفوسَهم فتصيبهم جائحةٌ سماوية بغتةً ، وتصير كأن لم تكن .

كذلك الإنسانُ بعد كمال سنِّه وتمام قُوَّته واستجماع الخصال المحمودة فيه تخْتَرِمُه المَنِيَّة ، وكذلك أموره المنتظمةُ تبطل وتختلُّ لوفاته ، كما قيل :

فَقَدْنَاه لمَّا تمَّ واختمَّ بالعُلَى . . . كذاك كسوفُ البدرِ عند تمامه

ومن وجوه تشبيه الأحوال الدنيوية بالماء المُنَزَّلِ من السماء أن المطرَ لا ينزل بالحيلة ، كذلك الدنيا لا تساعدها إلا القسمة .

ثم إن المطر إن كان لا يجئ إلا بالتقدير فقد يُسْتَسْقَى . . . كذلك الرزق – وإنْ كان بالقسمة – فقد يُلْتَمَسُ من الله ويُسْتَعْطى .

ومنها أن الماء في موضعه سببُ حياة الناس ، وفي غير موضعه سببُ خراب الموضع ، كذلك المال لمستحقه سببُ سلامته ، وانتفاع المتصلين به ، وعند مَنْ لا يستحقه سبب طغيانِه ، وسببُ بلاءِ مَنْ هو متصل به ، كما قيل : يعمُ الله لا تُعاب ولكنه ربما استعجم على إنسان ، وكما قيل :

يا دولةً ليس فيها من المعالي شظيَّةْ . . . زولي فما أنتِ ألا على الكرام بَلِيَّةْ

(53/360)

ومنها أن الماء إذا كان بمقدارٍ كان سببَ الصلاح، وإذا جاوز الحدّ كان سببَ الخراب. . . كذلك المال إذا كان بقَدْرِ الكفاية والكفاف فصاحبه مُنَعَّمٌ، وإذا زاد وجاوز الحدَّ أوجب الكُفران والطغيان.

ومنها أن الماءَ ما دام جارياً كان طيباً، فإذا طال مكثه تغيَّر. . كذلك المال إذا أنفقه صاحبُه كان محموداً، فإذا ادَّخَره وأمسكه كان معلولاً مذموماً.

ومنها أن الماءً إذا كان طاهراً كان حلالاً يصلح للشرب ويصلح للطهور ولإزالة الأذى، وإذا كان غيرَ طاهرٍ فالبعكس. . . كذلك المال إذا كان حلالاً، وبعكسه لو كان حراماً.

ويقال كما أن الربيعَ تتورد أشجارُه، وتظهر أنوارُه، وتخضرُّ رباعُه، وتتزين بالنبات وهاده وتلاعه لا يُؤْمَن أَنْ تصيبه آفة من غير ارتقاب، وينقلب الحال بما لم يكن في الحساب. كذلك مِنَ الناسِ مَنْ تكون له أحوالٌ صافية، وأعمالٌ بشرط الخلوص زاكية؛ غصونُ أُنسِه مُتَدَلِّية، ورياضُ قربِه مونقةٌ. . . ثم تصيبه عَيْنٌ فيذبل عودُ وِصاله، وأتنسدُّ أبوابُ عوائد إقباله، كما قيل:

عينٌ أصابَتْكَ إنّ العينَ صائبةٌ. . . والعينُ تُسْرِعُ أحياناً إلى الحَسَدِ. انتهى انتهى. اهـ

﴿لطائف الإشارات حـ2 صـ88-89﴾

(54/360)

قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (25) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قرر سبحانه هذه الآيات التي حذر فيها من أنواع الآفات ، بين أن الدار التي رضوا بها وأطمأنوا إليها دار المصائب ومعدن الهلكات والمعاطب وأنها ظل زائل تحذيراً منها وتنفيراً عنها ، بين تعالى أن الدار التي دعا إليها سالمة من كل نصب وهم ووصب ، ثابته بلا زوال ، فقال تعالى عاطفاً على قوله ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض ﴾ ترغيباً في الآخرة وحثاً عيها : ﴿ والله ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام ﴿ يدعوا ﴾ أي يعلق دعاءه على سبيل التجدد والاستمرار بالمدعوين ﴿ إلى دار السلام ﴾ عن قتادة أنه سبحانه أضافها إلى اسمه تعظيماً لها وترغيباً فيها ، يعني بأنه لا عطب فيها أصلاً ، والسلامة فيها دائمة ، والسلام فيها فاش من بعضهم على بعض ومن الملائكة وغيرهم ؛ والدعاء : طلب الفعل بما يقع لأجله ، والدواعي إلى الفعل خلاف الصوارف عنه .

ولما أعلم – بالدعوة بالهداية بالبيان وأفهم ختم الآية بقوله : ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ أي بما يخلق في قلبه من الهداية ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ أن من الناس من يهديه ومنهم من يضله . وأن الكل فاعلون لما يشاء – كان موضع أن يقال : هل هم واحد في جزائه كما هم واحد

في الانقياد لمراده؟ فقيل: لا، بل هم فريقان: ﴿للذين أحسنوا﴾. انتهى انتهى. اهـ

﴿نظم الدرر حـ 3 صـ 434﴾

(55/360)

فصل

قال الفخر:

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾

المسألة الأولى:

في كيفية النظم.

اعلم أنه تعالى لما نفر الغافلين عن الميل إلى الدنيا بالمثل السابق، رغبهم في الآخرة بهذه الآية.

ووجه الترغيب في الآخرة ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مثلي ومثلكم شبه سيد بنى داراً ووضع مائدة وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة ورضي عنه السيد.

ومن لم يجب لم يدخل ولم يأكل ولم يرض عنه السيد فالله السيد، والدار دار الإسلام،

والمائدة الجنة ، والداعي محمد عليه السلام " وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من يوم تطلع فيه الشمس إلا وبجنبيها ملكان يناديان بحيث يسمع كل الخلائق إلا الثقلين . أيها الناس ؛ هلموا إلى ربكم والله يدعوا إلى دار السلام "

المسألة الثانية :

لا شبهة أن المراد من دار السلام الجنة ، إلا أنهم اختلفوا في السبب الذي لأجله حصل هذا الاسم على وجوه : الأول : أن السلام هو الله تعالى ، والجنة داره .

ويجب علينا ههنا بيان فائدة تسمية الله تعالى بالسلام ، وفيه وجوه : أحدها : أنه لما كان واجب الوجود لذاته فقد سلم من الفناء والتغير ، وسلم من احتياجه في ذاته وصفاته إلى الافتقار إلى الغير ، وهذه الصفة ليست إلا له سبحانه كما قال : ﴿ والله الغنى وَأَنتُمُ الفقراء ﴾ [محمد : 38] وقال : ﴿ يا أيها الناس أَنتُمُ الفقراء إِلَى الله ﴾ [فاطر : 15] وثانيها : أنه تعالى يوصف بالسلام بمعنى أن الخلق سلموا من ظلمه ، قال : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بظلام لّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] ولأن كل ما سواه فهو ملكه وملكه ، وتصرف الفاعل في ملك نفسه لا يكون ظلماً .

ولأن الظلم إنما يصدر إما عن العاجز أو الجاهل أو المحتاج ، ولما كان الكل محالاً على الله تعالى ، كان الظلم محالاً في حقه .

وثالثها : قال المبرد : إنه تعالى يوصف بالسلام بمعنى أنه ذو السلام ، أي الذي لا يقدر على السلام إلا هو ، والسلام عبارة عن تخليص العاجزين عن المكاره والآفات .

فالحق تعالى هو الساتر لعيوب المعيوبين ، وهو المجيب لدعوة المضطرين ، وهو المنتصف للمظلومين من الظالمين .

قال المبرد : وعلى هذا التقدير : السلام مصدر سلم .

القول الثاني : السلام جمع سلامة ، ومعنى دار السلام : الدار التي من دخلها سلم من الآفات .

فالسلام ههنا بمعنى السلامة ، كالرضاع بمعنى الرضاعة .

فإن الإنسان هناك سلم من كل الآفات ، كالموت والمرض والألم والمصائب ونزعات الشيطان والكفر والبدعة والكد والتعب .

والقول الثالث : أنه سميت الجنة بدار السلام لأنه تعالى يسلم على أهلها قال تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : 58] والملائكة يسلمون عليهم أيضاً ، قال تعالى : ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سلام عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد : 23 ، 24] وهم أيضاً يحيي بعضهم بعضاً بالسلام قال تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سلام ﴾ [يونس : 10] وأيضاً فسلامهم يصل إلى السعداء من أهل الدنيا ، قال تعالى :

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصحاب اليمين فسلام لَّكَ مِنْ أَصحاب اليمين ﴾ [الواقعة : 90 ، 91] .

المسألة الثالثة :

اعلم أن كمال جود الله تعالى وكمال قدرته وكمال رحمته بعباده معلوم ، فدعوته عبيده إلى دار السلام ، تدل على أن دار السلام قد حصل فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، لأن العظيم إذا استعظم شيئاً ورغب فيه وبالغ في ذلك الترغيب ، دل ذلك على كمال حال ذلك الشيء ، لا سيما وقد ملأ الله هذا الكتاب المقدس من وصف الجنة مثل قوله : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة : 89] ونحن نذكر ههنا كلاماً كلياً في تقرير هذا المطلوب ، فنقول : الإنسان إنما يسعى في يومه لغده .

(57/360)

ولكل إنسان غدان ، غد في الدنيا وغد في الآخرة .

فنقول : غد الآخرة خير من غد الدنيا من وجوه أربعة : أولها : أن الإنسان قد لا يدرك غد الدنيا وبالضرورة يدرك غد الآخرة .

وثانيها : أن بتقدير أن يدرك غد الدنيا فلعله لا يمكنه أن ينتفع بما جمعه ، إما لأنه يضيع منه

ذلك المال أو لأنه يحصل في بدنه مرض يمنعه من الانتفاع به .

أما غد الآخرة فكلما اكتسبه الإنسان لأجل هذا اليوم ، فإنه لا بد وأن ينتفع به .

وثالثها : أن بتقدير أن يجد غد الدنيا ويقدر على أن ينتفع بماله ، إلا أن تلك المنافع مخلوطة بالمضار والمتاعب ، لأن سعادات الدنيا غير خالصة عن الآفات ، بل هي ممزوجة بالبليات ، والاستقراء يدل عليه .

ولذلك قال عليه السلام : " من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق " فقيل يا رسول الله وما هو ؟ قال : " سرور يوم بتمامه " وأما منافع عز الآخرة فهي خالصة عن الغموم والهموم والأحزان سالمة عن كل المنفرات .

ورابعها : أن بتقدير أن يصل الإنسان إلى عز الدنيا وينتفع بسببه ، وكان ذلك الانتفاع خالياً عن خلط الآفات ، إلا أنه لا بد وأن يكون منقطعاً .

ومنافع الآخرة دائمة مبرأة عن الانقطاع ، فثبت أن سعادات الدنيا مشوبة بهذه العيوب الأربعة ، وأن سعادات الآخرة سالمة عنها .

فلهذا السبب كانت الجنة دار السلام .

المسألة الرابعة :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الكفر والإيمان بقضاء الله تعالى قالوا : إنه تعالى بين في هذه الآية أنه دعا جميع الخلق إلى دار السلام ، ثم بين أنه ما هدى إلا بعضهم فهذه الهداية

الخاصة يجب أن تكون مغايرة لتلك الدعوة العامة ، ولا شك أيضاً أن الأقدار والتمكين وإرسال الرسل وإنزال الكتب أمور عامة ، فوجب أن تكون هذه الهداية الخاصة مغايرة لكل هذه الأشياء ، وما ذاك إلا ما ذكرناه من أنه تعالى خصه بالعلم والمعرفة دون غيره .

(58/360)

واعلم أن هذه الآية مشكلة على المعتزلة وما قدروا على إيراد الأسئلة الكثيرة ، وحاصل ما ذكره القاضي في وجهين : الأول : أن يكون المراد ويهدي الله من يشاء إلى إجابة تلك الدعوة ، بمعنى أن من أجاب الدعاء وأطاع واتقى فإن الله يهديه إليها .

والثاني : أن المراد من هذه الآية الألطاف .

وأجاب أصحابنا عن هذين الوجهين بحرف واحد ، وهو أن عندهم أنه يجب على الله فعل هذه الهداية ، وما كان واجباً لا يكون معلقاً بالمشيئة ، وهذا معلق بالمشيئة ، فامتنع حمله على ما ذكروه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 61.62 ﴾

(59/360)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ واللهُ يَدْعُو إلى دَارِ السلام ﴾

يعني : يدعو إلى عمل الجنة ، ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَاء إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، وهو الدين القيم ، ويقال : إن عطاءه على قسمين خاص وعام ، فأما العطاء الخاص فالتوفيق والعصمة واليقين ، وأما العطاء العام فالصحة والنعمة والأمن .

والدعوة هنا عامة والهداية خاصة ، فقد دعا جميع الناس بقوله : ﴿ واللهُ يَدْعُو إلى دَارِ السلام ﴾ ثم قال : ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَاء إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فجعل الهداية خاصة لأنها فضله وفضل الله يؤتيه من يشاء .

وقال قتادة : ﴿ واللهُ يَدْعُو إلى دَارِ السلام ﴾ والله هو السلام وداره الجنة .

ويقال : السلام هو السلامة .

وإنما سميت الجنة دار السلام ، لأنها سالمة من الآفات والأمراض وغير ذلك .

روى أبو أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " نَامَتْ عَيْنِي وَعَقَلَ قَلْبِي وَسَمِعَتْ أُذُنِي ، ثُمَّ قِيلَ لِي : إِنَّ سَيِّداً بَنَى دَاراً وَصَنَعَ مَائِدَةً وَأَرْسَلَ دَاعِياً ، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ المَائِدَةِ وَرَضِيَ عَنْهُ السَّيِّدُ " فالله تعالى هو السيد ، والدار الإسلام ، والمائدة الجنة ، والداعي محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَهْدِى مَن

يَشَاء ﴾ يكرم من يشاء بالمعرفة من كان أهلاً لذلك ﴿ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ إلى دين الإسلام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(60/360)

وقال الثعلبى :

﴿ والله يدعوا إلى دَارِ السلام ﴾

قال قتادة : السلام الله وداره الجنة ، وقيل : السلام والسلامة واحد كاللذاذ واللذاذة والرضاع والرضاعة .

قال الشاعر :

تُحيّى بالسلامة أم بكر . . . وهل لك بعد رهطك من سلام

فسميت الجنة دار السلام لأن من دخلها سلم من الآفات . قال الله تعالى : ﴿ ادخلوها بِسَلامٍ آمِنِينَ ﴾ [الحجر : 46] ، وقال ذو النون المصري : سميت بذلك لأن من دخلها سلم من القطيعة والفراق ، وقيل : أراد به التحية يقال : سلم تسليماً وسلاماً كما يقال : كلم تكليماً وكلاماً فسميت الجنة دار السلام لأن أهلها يحيي بعضهم بعضاً والملائكة يسلمون عليهم ، وقال الحسن : السلام لا ينقطع عن أهل الجنة وهو تحيتهم .

وقال أبو بكر الوراق : سميت بذلك لأن من دخلها سلم عليه المولى وذلك أن الله يعلم ما فيه أهل الجنة من ذكر الذنوب والهيبة لعلاّم الغيوب فيبدأهم بالسلام والتحية لهم تقريباً وإيناساً وترحيباً .

قال جابر بن عبد الله خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : " إني رأيت في المنام كأن جبرائيل عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلا فقال : اسمع سمعت اذنك واعقل عقل قلبك إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولا يدعوهم إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه ، فالله هو الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة وأنت يا محمد الرسول ، من أجابك دخل الإسلام ومن دخل الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل مما فيها " .

(61/360)

قال يحيى بن معاذ : يا ابن آدم دعاك الله إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه فإن أجبته من دنياك دخلتها وإن أجبته من قبرك منعتها ثم قال : ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ عمّ بالدعوة إظهاراً لحجته وخصّ بالهداية استغناءً عن خلقه ، وقيل : الدعوة إلى

الدار عامة لأنها الطريق إلى النعمة وهداية الصراط خاصة لأنها الطريق إلى المنعم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(62/360)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾

يعني الجنة . وفي تسميتها دار السلام وجهان :

أحدهما : لأن السلام هو الله ، والجنة داره .

الثاني : لأنها دار السلامة من كل آفة ، قاله الزجاج .

﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

في هدايته وجهان :

أحدهما : بالتوفيق والمعونة .

الثاني : بإظهار الأدلة وإقامة البراهين .

وفي الصراط المستقيم أربعة تأويلات :

أحدها : أنه كتاب الله تعالى ، روى علي بن أبي طالب قال : سمعت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول : " الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى " . الثاني : أنه الإسلام ، رواه النواس بن سمعان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثالث : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده أبو بكر وعمر ، قاله الحسن وأبو العالية . الرابع : أنه الحق ، قاله مجاهد وقتادة .

(63/360)

روى جابر بن عبد الله قال : خرج علينا رسول الله يوماً فقال : " رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ جِبْرِيلَ عِندَ رَأْسِي وَمِيكَائِيلَ عِندَ رِجْلَيّ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَضْرِبْ لَهُ مَثَلاً ، فَقَالَ : اسْمَعْ سَمِعَتْ أُذُنُكَ ، وَاعْقِلْ ، عَقَلَ قَلْبُكَ ، إِنَّمَا مَثَلُكَ وَمَثَلُ أُمَّتِكَ كَمَثَلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ دَاراً ثُمَّ بَنَى فِيهَا بَيتاً ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَائِدَةً ثُمَّ بَعَثَ رَسُولاً يَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ فَمِنهُم مَّنْ أَجَابَ الرَّسُولَ وَمِنهُم مَّن تَرَكَهُ ، فَاللَّهُ الْمَلِكُ ، وَالدَّارُ الإِسْلاَمُ ، وَالْبَيْتُ الْجَنَّةُ ، وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ الرَّسُولُ فَمَنْ أَجَابَكَ دَخَلَ فِي الإِسْلاَمِ ، وَمَنْ دَخَلَ فِي الإِسْلاَمِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَن دَخَلَ الْجَنَّةَ أَكَلَ مِمَّا فِيهَا " ثم تلا قتادة ومجاهد . ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلاَمِ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(64/360)

وقال ابن عطية :

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾

نصت هذه الآية أن الدعاء إلى الشرع عام في كل بشر ، والهداية التي هي الإرشاد مختصة بمن قدر إيمانه ، و﴿ السلام ﴾ قيل : هو اسم الله عز وجل ، فالمعنى يدعو إلى داره التي هي الجنة ، وإضافتها إليه إضافة ملك الى مالك ، وقيل : ﴿ السلام ﴾ بمعنى السلامة ، أي من دخلها ظفر بالسلامة وأمن الفناء والآفات ، وهذه الآية رادة على المعتزلة ، وقد وردت في دعوة الله تعالى عباده أحاديث منها رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم إذ رأى في نومه جبريل وميكائيل ومثلا دعوة الله ومحمداً الداعي والملة المدعو إليها والجنة التي هي ثمرة الغفران بالمادية يدعو إليها ملك إلى منزله . وقال قتادة في كلامه على هذه الآية ذكر لنا أت في التوراة مكتوباً "يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر انته" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ والله يدعو إِلى دار السلام ﴾

يعني الجنة .

وقد ذكرنا معنى تسميتها بذلك عند قوله : ﴿ لهم دار السلام عند ربهم ﴾ [الأنعام :

127] .

واعلم أن الله عمَّ بالدعوة ، وخصَّ بالهداية من شاء ، لأن الحكم له في خلقه .

وفي المراد بالصراط المستقيم أربعة أقوال :

أحدها : كتاب الله ، رواه عليٌّ عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والثاني : الإِسلام ، رواه النَّوَّاس بن سمعان عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والثالث : الحق ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والرابع : المُخرِج من الضلالات والشُّبَه ، قاله أبو العالية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(65/360)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والله يدعوا إلى دَارِ السلام ﴾

لما ذكر وصف هذه الدار وهي دار الدنيا وصف الآخرة فقال : إن الله لا يدعوكم إلى جمع الدنيا بل يدعوكم إلى الطاعة لتصيروا إلى دار السلام ، أي إلى الجنة .

قال قتادة والحسن : السلام هو الله ، وداره الجنة ؛ وسميت الجنة دار السلام لأن من دخلها

سلم من الآفات .

ومن أسمائه سبحانه "السلام" ، وقد بيناه في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) .

ويأتي في سورة "الحشر" إن شاء الله .

وقيل : المعنى والله يدعو إلى دار السلامة .

والسلام والسلامة بمعنًى كالرضاع والرّضاعة ؛ قاله الزجاج .

قال الشاعر :

تُحَيي بالسلامة أُمُّ بكرٍ . . .

وهل لكِ بعد قومِك من سلام

وقيل : أراد والله يدعو إلى دار التحية ؛ لأن أهلها ينالون من الله التحية والسلام ، وكذلك من الملائكة .

قال الحسن : إن السلام لا ينقطع عن أهل الجنة ، وهو تحيتهم ؛ كما قال : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ .

وقال يحيى بن معاذ : يا بن آدم ، دعاك الله إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه ، فإن أجبته من دنياك دخلتها ، وإن أجبته من قبرك مُنِعتَها .

وقال ابن عباس : الجِنان سبع : دار الجلال ، ودار السلام ، وجنة عدن ، وجنة المأوى ،

وجنة الخلد ، وجنة الفردوس ، وجنة النعيم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ عمّ بالدعوة إظهاراً لحجته ، وخصّ بالهداية استغناء عن خلقه .

والصراط المستقيم ، قيل : كتاب الله ؛ رواه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الصراط المستقيم كتاب الله تعالى " وقيل : الإسلام ؛ رواه النوّاس بن سمعان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل : الحق ؛ قاله قتادة ومجاهد .

وقيل : رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده أبو بكر وعمر رضي الله عنهما .

(66/360)

وروى جابر بن عبد الله قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال " رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه اضرب له مثلاً فقال له اسمع سمعتْ أذناك واعقل عَقَل قلبك إنما مثلُك ومَثَل أُمتك كمثل مِلك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مأدَبة ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه فمنهم من أجاب

الرسول ومنهم من تركه فاللَّهُ المِلكُ والدارُ الإسلامُ والبيتُ الجنةُ وأنت يا محمد الرسول فمن أجابك دخل في الإسلام ومن دخل في الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل مما فيها " ثم تلا يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم "وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" .

ثم تلا قتادة ومجاهد : "وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ" .

وهذه الآية بينة الحجة في الردِّ على القدرية ؛ لأنهم قالوا : هدى الله الخلق كلَّهم إلى صراط مستقيم ، والله قال : "وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" فردّوا على الله نصوص القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(67/360)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾

لما ذكر الله زهرة الحياة الدنيا وأنها فانية زائلة لا محالة دعا إلى داره والله يدعو إلى دار السلام .

قال قتادة : الله هو السلام وداره الجنة فعلى هذا السلام اسم من أسماء الله ومعناه أنه سبحانه وتعالى سلم من جميع النقائص والعيوب والفناء والتغيير .

وقيل : إنه سبحانه وتعالى يوصف بالسلام لأن الخلق سلموا من ظلمه .

وقيل : إنه تعالى يوصف بالسلام بمعنى ذي السلام أي لا يقدر على تخليص العاجزين من المكاره والآفات إلا هو .

وقيل : دار السلام اسم للجنة وهو جمع سلامة .

والمعنى : أن من دخلها فقد سلم من جميع الآفات ، كالموت والمرض والمصائب والحزن والغم والتعب والنكد .

وقيل : سميت الجنة دار السلام لأن الله سبحانه وتعالى يسلم على أهلها أو تسلم الملائكة عليهم .

قيل : إن من كمال رحمة الله وجوده وكرمه على عباده ، أن دعاهم إلى جنته التي هي دار السلام .

وفيه دليل على أن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، لأن العظيم لا يدعو إلا إلى عظيم ولا يصف إلا عظيماً ، وقد وصف الله سبحانه وتعالى الجنة في آيات كثيرة من كتابه : ﴿ ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ يعني : والله يهدي من يشاء من خلقه إلى صراطه المستقيم وهو دين الإسلام عم بالدعوة أولاً إظهاراً للحجة وخص بالدعوة ثانياً استغناء عن الخلق وإظهاراً للقدرة فحصلت المغايرة بين الدعوتين (خ) .

عن جابر قال : " جاءت ملائكة إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو نائم فقال بعضهم : إنه نائم وقال بعضهم : العين نائمة والقلب يقظان فقالوا : إن لصاحبكم مثلاً فاضربوا له مثلاً فقالوا مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة " ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا أولوها يفقهها فإن العين نائمة والقلب يقظان فقال بعضهم الدار الجنة والداعي محمد فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ومن عصى محمداً فقد عصى الله ومحمد فرق بين الناس وفي رواية : " خرج علينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال إني رأيت في المنام كأن جبريل عليه السلام عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلاً " وعن النواس بن سمعان قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً على كتفي الصراط داران لهما أبواب مفتحة على الأبواب ستور وداع يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوقه والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والأبواب التي على كتفي الصراط حدود الله فلا يقع أحد في حدود الله

حتى يكشف الستر والذي يدعو من فوقه واعظ ربه " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(69/360)

وقال أبو حيان :

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾

لما ذكر مثل الحياة الدنيا وما يؤول إليه من الفناء والاضمحلال ، وما تضمنه من الآفات والعاهات ، ذكر تعالى أنه داع إلى دار السلامة والصحة والأمن ، وهي الجنة ، إذ أهلها سالمون من كل مكروه .

ويجوز أن يكون تعالى أضافها إلى اسمه الشريف على سبيل التعظيم لها والتشريف كما قيل : بيت الله ، وناقة الله ، ويجوز أن تكون مضافة إلى السلامة بمعنى التسليم لفشوّ ذلك بينهم ، ولتسليم الملائكة عليهم كما قال : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ قال الحسن : إن السلام لا ينقطع عن أهل الجنة وهو تحيتهم كما قال تعالى : ﴿ تحيتهم فيها سلاماً ﴾ وقد وردت في دعوة الله عباده أحاديث .

وقال قتادة : ذكر لنا أنّ في التوراة مكتوباً يا باغي الخير هلم ، ويا باغي الشرّ انته .

ولما كان الدعاء عامًّا لم تتقيد بالمشيئة ، ولما كانت الهداية خاصة تقيدت بالمشيئة فقال :

ويهدي من يشاء .

وقال الزمخشري : ويهدي يوفق من يشاء ، وهم الذين علم أنّ اللطف يجدي عليهم ، لأن مشيئته تابعة لحكمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(70/360)

وقال أبو السعود :

﴿ واللهُ يَدْعُو إلى دَارِ السلام ﴾

ترغيبٌ للناس في الحياة الأخرويةِ الباقيةِ إثرَ ترغيبهم عن الحياة الدنيوية الفانية أي يدعو الناسَ جميعاً إلى دار السلامةِ عن كل مكروهٍ وآفةٍ وهي الجنةُ ، وإنما ذُكرت بهذا الاسم لذكر الدنيا بما يقابله من كونها معَرْضاً للآفات أو إلى دار الله تعالى وتخصيصُ الإضافةِ التشريفية بهذا الاسم الكريمِ للتنبيه على ذلك أو إلى دار يسلّم الله أو الملائكةُ فيها على من يدخلها أو يسلم بعضُهم علي بعض ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ هدايتَه منهم ﴿ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ موصلٍ إليها وهو الإسلامُ والتزودُ بالتقوى ، وفي تعميم الدعوة وتخصيصِ

الهدايةِ بالمشيئة دليلٌ على أن الأمرَ غيرُ الإرادة وإن من أصر على الضلالة لم يُرِد الله رشده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(71/360)

وقال الآلوسى :

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾

ترغيب للناس في الحياة الأخروية الباقية إثر ترغيبهم عن الحياة الدنيوية الفانية أي يدعو الناس جميعاً إلى الجنة حيث يأمرهم بما يفضي إليها ، وسميت الجنة بذلك لسلامة أهلها عن كل ألم وآفة أو لأن الله تعالى يسلم عليهم أو لأن خزنتها يقولون لهم سلام عليكم طبتم أو لأن بعضهم يسلم فيها على بعض .

فالسلام إما بمعنى السلامة أو بمعنى التسليم ، أو لأن السلام من أسمائه تعالى ومعناه هو الذي منه وبه السلامة أو ذو السلامة عن جميع النقائص فأضيفت إليه سبحانه للتشريف كما في بيت الله تعالى للكعبة ولأنه لا ملك لغيره جل شأنه فيها ظاهراً وباطناً وللتنبيه على أن من فيها سالم عما مر للنظر إلى معنى السلامة في أصله ، ويدل على قصده تخصيصه بالإضافة إليه دون غيره من أسمائه تعالى ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ هدايته ﴿ إلى صراط

مُّسْتَقِيمٍ ﴾ موصل إلى تلك الدار وهو الدين الحق ، وفي الآية دلالة على أن الهداية غير الدعوة إلى ذلك وعلى أن الأمر مغاير للإرادة حيث عمم سبحانه الدعوة إذ حذف مفعولها وخص الهداية بالمشيئة المساوية للإرادة على المشهور إذ قيدها بها وهو الذي ذهب إليه الجماعة ، وقال المعتزلة : إن المراد بالهداية التوفيق والإلطاف ومغايرة الدعوة والأمر لذلك ظاهرة فإن الكافر مأمور وليس بموفق وأن من يشاء هو من علم سبحانه أن اللطف ينفع فيه لأن مشيئته تعالى شأنه تابعة للحكمة فمن علم أنه لا ينفع فيه اللطف لم يوفقه ولم يلطف به إذ التوفيق لمن علم الله تعالى أنه لا ينفعه عبث والحكمة منافية للعبث فهو جل وعلا يهدي من ينفعه اللطف وإن أراد اهتداء الكل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(72/360)

وقال صاحب المنار فى الآيتين :

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ) .

لَمَّا كَانَ سَبَبُ مَا ذُكِرَ مِنَ الْبَغْيِ فِي الْأَرْضِ وَإِفْسَادِ الْعُمْرَانِ ، هُوَ الْإِفْرَاطُ فِي حُبِّ التَّمَتُّعِ بِمَا فِي الدُّنْيَا مِنَ الزِّينَةِ وَاللَّذَّاتِ ، ضَرَبَ لَهَا مَثَلًا بَلِيغًا يَصْرِفُ الْعَاقِلَ عَنِ الْغُرُورِ بِهَا ، وَيَهْدِيهِ إِلَى الْقَصْدِ وَالِاعْتِدَالِ فِيهَا ، وَاجْتِنَابِ التَّوَسُّلِ إِلَيْهَا بِالْبَغْيِ وَالظُّلْمِ ، وَحُبِّ الْعُلُوِّ

وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَشْبِيهِ زِينَتِهَا وَنَعِيمِهَا فِي افْتِتَانِ النَّاسِ بِهِمَا وَسُرْعَةِ زَوَالِهِمَا بَعْدَ تَمَكُّنِهِمْ مِنَ الِاسْتِمْتَاعِ بِهَا ، بِحَالِ الْأَرْضِ يَسُوقُ اللَّهُ إِلَيْهَا الْمَطَرَ فَتُنْبِتُ أَنْوَاعَ النَّبَاتِ الَّذِي يَسُرُّ النَّاظِرِينَ بِبَهْجَتِهِ ، فَلَا يَلْبَثُ أَنْ تَنْزِلَ بِهِ جَائِحَةٌ تَحُسُّهُ وَتَسْتَأْصِلُهُ قُبَيْلَ بُدُوِّ صَلَاحِهِ وَالِانْتِفَاعِ بِهِ ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(73/360)

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ) أَيْ لَا شَبَهَ لَهَا فِي صُورَتِهَا وَمَآلِهَا إِلَّا مَاءُ الْمَطَرِ فِي جُمْلَةِ حَالِهِ الْآتِيَةِ (فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ) أَيْ فَأَنْبَتَتِ الْأَرْضُ أَزْوَاجًا شَتَّى مِنَ النَّبَاتِ تَشَابَكَتْ بِسَبَبِهِ وَاخْتَلَطَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ فِي تَجَاوُرِهَا وَتَقَارُبِهَا ، عَلَى كَثْرَتِهَا وَاخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا (مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ) بَيَانٌ لِأَزْوَاجِ النَّبَاتِ وَكَوْنِهَا شَتَّى كَافِيَةً لِلنَّاسِ فِي أَقْوَاتِهِمْ وَمَرَاعِي أَنْعَامِهِمْ ، وَكُلِّ مَرَامِي آمَالِهِمْ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ) أَيْ حَتَّى كَانَتِ الْأَرْضُ بِهَا فِي خُضْرَةِ زُرُوعِهَا السُّنْدُسِيَّةِ ، وَأَلْوَانِ أَزْهَارِهَا الرَّبِيعِيَّةِ ، كَالْعَرُوسِ إِذَا أَخَذَتْ حُلِيَّهَا مِنَ الذَّهَبِ وَالْجَوَاهِرِ ، وَحُلَلَهَا مِنَ الْحَرِيرِ الْمُلَوَّنِ بِالْأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ ذَاتِ الْبَهْجَةِ ، فَتَحَلَّتْ وَازَّيَّنَتْ بِهَا اسْتِعْدَادًا لِلِقَاءِ الزَّوْجِ – وَلَا تَغْفُلْ عَنْ حُسْنِ

(74/360)

الِاسْتِعَارَةِ فِي أَخْذِ الْأَرْضِ زِينَتَهَا ، حَتَّى كَانَ اسْتِكْمَالُ جَمَالِهَا ، كَأَنَّهُ فِعْلُ عَاقِلٍ حَرِيصٍ عَلَى مُنْتَهَى الْإِبْدَاعِ وَالْإِتْقَانِ فِيهَا (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) (27 : 88) وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا مُتَمَكِّنُونَ مِنَ التَّمَتُّعِ بِثَمَرَاتِهَا ، وَادِّخَارِ غَلَّاتِهَا ، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا أَيْ نَزَلَ بِهَا فِي هَذَا الْحَالِ أَمْرُنَا الْمُقَدَّرُ لِإِهْلَاكِهَا ؛ بِجَائِحَةٍ سَمَاوِيَّةٍ لَيْلًا وَهُمْ نَائِمُونَ ، أَوْ نَهَارًا وَهُمْ غَافِلُونَ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا أَيْ كَالْأَرْضِ الْمَحْصُودَةِ الَّتِي قُطِعَتْ وَاسْتُؤْصِلَ زَرْعُهَا ، فَالْحَصِيدُ يُشَبَّهُ بِهِ الْهَالِكُ مِنَ الْأَحْيَاءِ ، كَمَا قَالَ فِي أَهْلِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمَةِ الْمُهْلَكَةِ : (جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ) (21 : 15) وَيُشْبِهُ هَذَا الْهَلَاكُ فِي نُزُولِهِ فِي وَقْتٍ لَا يَتَوَقَّعُهُ فِيهِ أَهْلُهُ قَوْلُهُ : (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ) (7 : 97 و98) (كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ) أَيْ هَلَكَتْ فَجْأَةً فَلَمْ يَبْقَ مِنْ زُرُوعِهَا شَيْءٌ ، حَتَّى كَأَنَّهَا لَمْ تُنْبِتْ وَلَمْ تَمْكُثْ قَائِمَةً نَضِرَةً بِالْأَمْسِ ، يُقَالُ : غَنِيَ فِي الْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ بِهِ

(75/360)

طَوِيلًا كَأَنَّهُ اسْتَغْنَى بِهِ عَنْ غَيْرِهِ ، قَالَ تَعَالَى فِي الْأَقْوَامِ الْهَالِكِينَ فِي أَرْضِهِمْ : (كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا) (7 : 92) وَالْأَمْسُ : الْوَقْتُ الْمَاضِي . وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَّافِ : وَالْأَمْسُ مَثَلٌ فِي الْوَقْتِ الْقَرِيبِ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : كَأَنْ لَمْ تَغْنَ آنِفًا انْتَهَى . وَأَمَّا أَمْسُ غَيْرُ مُعَرَّفٍ فَهُوَ اسْمٌ لِلْيَوْمِ الَّذِي قَبْلَ يَوْمِكَ (كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) أَيْ كَهَذَا الْمَثَلِ فِي جَلَائِهِ وَتَمْثِيلِهِ لِحَقِيقَةِ حَالِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَغُرُورِ النَّاسِ فِيهَا وَسُرْعَةِ زَوَالِهَا ، عِنْدَ تَعَلُّقِ الْآمَالِ بِنَوَالِهَا ، نُفَصِّلُ الْآيَاتِ فِي حَقَائِقِ التَّوْحِيدِ ، وَأُصُولِ التَّشْرِيعِ ، وَأَمْثَالِ الْوَعْظِ وَالتَّهْذِيبِ ، وَكُلِّ مَا فِيهِ صَلَاحُ النَّاسِ فِي عَقَائِدِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ ، وَاسْتِعْدَادِهِمْ لِمَعَادِهِمْ ، لِقَوْمٍ يَسْتَعْمِلُونَ عُقُولَهُمْ وَأَفْكَارَهُمْ فِيهَا ، وَيَزِنُونَ أَعْمَالَهُمْ بِمَوَازِينِهَا ، فَيَتَبَيَّنُونَ رِبْحَهَا وَخُسْرَانَهَا .

وَالْعِبْرَةُ لِمُسْلِمِي عَصْرِنَا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الْمُنَزَّلَةِ وَأَمْثَالِهَا ، الَّتِي اهْتَدَى بِهَا الشَّعْبُ الْعَرَبِيُّ فَخَرَجَ مِنْ شِرْكِهِ وَخُرَافَاتِهِ وَأُمِّيَّتِهِ وَبَدَاوَتِهِ إِلَى نُورِ التَّوْحِيدِ وَالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَالْحَضَارَةِ ، ثُمَّ اهْتَدَى بِدَعْوَتِهِ إِلَيْهَا الْمَلَايِينُ مِنْ شُعُوبِ الْعَجَمِ ، فَشَارَكَتْهُ فِي هَذِهِ السَّعَادَةِ وَالنِّعَمِ _ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ حَظٌّ مِنْهَا إِلَّا تَرْتِيلَهَا بِالنَّغَمَاتِ فِي بَعْضِ الْمَوَاسِمِ

(76/360)

وَالْمَآتِمِ ، وَلَا يَخْطُرُ لَهُمْ بِبَالٍ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِمُ التَّفَكُّرُ لِلِاهْتِدَاءِ بِهَا ، وَلَوْ تَفَكَّرُوا لَاهْتَدَوْا ، وَإِذًا لَعَلِمُوا أَنَّ كُلَّ مَا يَشْكُو مِنْهُ الْبَشَرُ مِنَ الشَّقَاءِ بِالْأَمْرَاضِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ ، وَالرَّذَائِلِ النَّفْسِيَّةِ ، وَالْعَدَاوَاتِ الْقَوْمِيَّةِ ، وَالْحُرُوبِ الدَّوْلِيَّةِ ، فَإِنَّمَا سَبَبُهُ التَّنَافُسُ فِي مَتَاعِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَأَنَّ مَنْ تَفَكَّرَ فِي هَذَا وَكَانَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْهُ ، فَهُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يَلْتَزِمَ الْقَصْدَ وَالِاعْتِدَالَ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ الْمَادِّيَّةِ ، وَيَصْرِفَ جُلَّ مَالِهِ وَهِمَّتِهِ فِي إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ وَعِزَّةِ أَهْلِ مِلَّتِهِ ، وَقُوَّةِ دَوْلَتِهِ ، وَالِاسْتِعْدَادِ لِآخِرَتِهِ ، فَيَكُونَ مِنْ أَهْلِ سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ .

(77/360)

وَمَا صَرَفَ النَّاسَ عَنْ هَذَا الِاهْتِدَاءِ بِكِتَابِ اللهِ ، وَهُوَ أَعْلَى وَأَكْمَلُ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ ، إِلَّا عُلَمَاءُ السُّوءِ الْمُقَلِّدُونَ الْجَامِدُونَ ، وَزَعْمُهُمُ الْبَاطِلُ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي الْبَشَرِ أَحَدٌ أَهْلًا لِلِاهْتِدَاءِ بِهِ وَبِبَيَانِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَهُ ؛ لِأَنَّ هَذَا يَتَوَقَّفُ عَلَى مَا يُسَمُّونَهُ الِاجْتِهَادَ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ أَصْبَحَ ضَرْبًا مِنَ الْمُحَالِ ، وَقَدْ أَنْشَأَتْ مَشْيَخَةُ الْأَزْهَرِ فِي هَذَا الْعَهْدِ – وَهِيَ أَكْبَرُ الْمَعَاهِدِ الدِّينِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ – مَجَلَّةً رَسْمِيَّةً شَهْرِيَّةً بِاسْمِ (نُورِ الْإِسْلَامِ) تُصَرِّحُ بِهَذِهِ الْجَهَالَةِ ، وَتَطْعَنُ عَلَى الدُّعَاةِ إِلَى هَذِهِ الْهِدَايَةِ ، وَإِلَى تَرْكِ الْبِدَعِ ، وَاتِّبَاعِ السُّنَنِ ، وَإِنَّهَا لَدَرَكَةٌ مِنْ عَدَاوَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَبْلُغُوا قَعْرَهَا إِلَّا بِخِذْلَانٍ مِنَ اللهِ .

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

لَمَّا بَيَّنَ عَزَّ وَجَلَّ غُرُورَ الْمُشْرِكِينَ الْجَاهِلِينَ بِمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، قَفَّى عَلَيْهِ بِبَيَانِ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ سَعَادَةِ الْآخِرَةِ وَوَصْفِ حَالِ الْمُحْسِنِينَ وَالْمُسِيئِينَ فِيهَا فَقَالَ :

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ) الْجُمْلَةُ عَطْفٌ عَلَى مَحْذُوفٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ

(78/360)

وَقَرِينَةُ الْمُقَابَلَةِ أَيْ ذَاكَ الْإِيثَارُ لِمَتَاعِ الدُّنْيَا وَالْإِسْرَافُ وَالْبَغْيُ فِيهِ ، هُوَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ، فَيَسُوقُ مُتَّبِعِيهِ إِلَى النَّارِ ، دَارِ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ ، وَاللَّهُ يَدْعُو عِبَادَهُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَهِيَ الْجَنَّةُ ، وَفِي الْمُرَادِ بِـ (السَّلَامِ) الَّذِي أُضِيفَتْ إِلَيْهِ (الدَّارُ) وُجُوهٌ يَصِحُّ أَنْ تُرَادَ كُلُّهَا (أَوَّلُهَا) أَنَّهُ السَّلَامَةُ مِنْ جَمِيعِ الشَّوَائِبِ وَالْمَصَائِبِ وَالْمَعَايِبِ ، وَالنَّقَائِصِ وَالْأَكْدَارِ ، وَالْعَدَاوَةِ ، وَالْخِصَامِ ، (الثَّانِي) أَنَّهُ تَحِيَّةُ اللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ لِأَهْلِهَا ، وَتَحِيَّةُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ الدَّالَّةُ عَلَى تَحَابِّهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُهُ قَرِيبًا . (ثَالِثُهَا) أَنَّ (السَّلَامَ) مِنْ أَسْمَائِهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأُضِيفَتْ دَارُ النَّعِيمِ إِلَيْهِ تَعْظِيمًا لِشَأْنِهَا ، وَهُوَ مَصْدَرٌ وُصِفَ بِهِ لِلْمُبَالَغَةِ كَالْعَدْلِ ، وَيَدُلُّ عَلَى كَمَالِ التَّنْزِيهِ وَالسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ إِضَافَةُ هَذِهِ الدَّارِ إِلَى ضَمِيرِ الذَّاتِ (دَارِي) .

(79/360)

(وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) عَطْفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، أَيْ يَدْعُو كُلَّ أَحَدٍ إِلَى دُخُولِ (دَارِ السَّلَامِ) وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُوَصِّلِ إِلَيْهَا مِنْ غَيْرِ تَعْوِيقٍ ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَقِيمٌ لَا عِوَجَ فِيهِ وَلَا الْتِوَاءَ ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ عَقَائِدُهُ وَفَضَائِلُهُ وَعِبَادَاتُهُ وَأَحْكَامُهُ ، وَالْهِدَايَةُ فِي الْأَصْلِ الدَّلَالَةُ بِلُطْفٍ ، وَتَكُونُ بِالتَّشْرِيعِ وَهُوَ بَيَانُهُ ، وَهِيَ عَامَّةٌ ، وَبِالتَّوْفِيقِ لِلسَّيْرِ عَلَيْهِ وَالِاسْتِقَامَةِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَى الْغَايَةِ ، وَهِيَ خَاصَّةٌ بِالْمُسْتَعِدِّينَ لِذَلِكَ كَمَا فَصَّلْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ ، وَهِيَ الْمُرَادَةُ هُنَا وَلِذَلِكَ قَيَّدَهَا بِالْمَشِيئَةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 283.287 ﴾

(80/360)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾

الجملة معطوفة على جملة ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ [يونس : 24] ، أي

نفصل الآيات التي منها آية حالة الدنيا وتقضيها ، وندعو إلى دار السلام دارِ الخلد .

ولما كانت جملة ﴿ كذلك نفصل الآيات ﴾ [يونس : 24] تذييلاً وكان شأن التذييل أن يكون كاملاً جامعاً مستقلاً جعلت الجملة المعطوفة عليها مثلها في الاستقلال فعُدل فيها عن الإضمار إلى الإظهار إذْ وضع قوله : ﴿ والله يدعو ﴾ موضع ندعو لأن الإضمار في الجملة يجعلها محتاجة إلى الجملة التي فيها المعاد .

وحُذف مفعول ﴿ يدعو ﴾ لقصد التعميم ، أي يدعو كل أحد .

والدعوة هي : الطلب والتحريض .

وهي هنا أوامر التكليف ونواهيه .

ودار السلام : الجنة ، قال تعالى : ﴿ لهم دار السلام عند ربهم ﴾ ، وقد تقدم وجه تسميتها بذلك في سورة [الأنعام : 127] .

والهداية : الدلالة على المقصود النافع ، والمراد بها هنا خَلْق الاهتداء إلى المقصود بقرينة قوله : مَن يشاء ﴾ بعد قوله : ﴿ والله يدعُو ﴾ المفيد التعميمَ فإن الدعوة إلى الجنة دلالة عليها فهي هداية بالمعنى الأصلي فتعين أنَّ ﴿ يهدي ﴾ هنا معناه إيجاد الهداية بمعنى آخر ، وهي حصول الاهتداء بالفعل ، أي خلق حصوله بأمر التكوين ، كقوله : ﴿ فريقاً هدَى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ [الأعراف : 30] وهذا التكوين يقع إما في كل جزئية من جزئيات الاهتداء على طريقة الأشاعرة ، وإما بخلق الاستعداد له بحيث يقدر على

الاهتداء عند حصول الأدلة على طريقة المعتزلة وهما متقاربان في الحال ، وشؤون الغيب خَفية .

وقد تقدم شيء من ذلك عند قوله تعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] .

والصراط المستقيم : الطريق الموصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(81/360)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾

ودار السلام : هي الآخرة التي تختلف عن دار الدنيا المليئة بالمتاعب ، هذه الدنيا التي تزهو وتتزخرف ، وتنتهي إلى حطيم ؛ لذلك يدعو الله تعالى إلى دار أخرى ، هي دار السلام ؛ لأن من المنغِّصات على أهل الدنيا ، أن الواحد منهم قد يأخذ حظه جاهاً ، ومالاً ، وصحة ، وعافية ، ولكن في ظل أرق من أمرين : الأول هو الخوف من أن يفوته هذا النعيم وهو حي ، والثاني أن يفوت هو النعيم .

أما الآخرة فالإنسان يحيا فيها في نعيم مقيم ؛ ولذلك يقول الله سبحانه : ﴿ والله يدعوا إلى دَارِ السلام ﴾ .

وهذه الآخرة لن يشاغب فيها أحدٌ الآخر ، ولن تجد من يأكل عرق غيره مثلما يحدث في الدنيا ، وإذا كنا نعيش في الدنيا بأسباب الله ، فنحن في الآخرة نعيش بالله سبحانه وتعالى ، فكل ما يخطر على بالك تجده .

فإذا كانت الأسباب تتنوع في الدنيا وتختلف قدرات الناس فيها مع أخذهم بالأسباب ، فإنهم في الآخرة يعيشون مع عطاء الله سبحانه دون جهد أو أسباب ؛ لأن دار السلام هي دار الله تعالى ، فالله تعالى هو السلام .

ولله المثل الأعلى ، فأنت إذا دعاك ولي أمرك إلى داره ، فهو يُعدّ لدعوتك على قدره هو ، وبما يناسب مقامه ، فما بالك حين يدعوك خالقك سبحانه وقد اتبعت منهجه . إنه سبحانه هو القائل :

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الجنة اليوم فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأرآئك مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ * سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : 5558] .

وهذا السلام ليس من البشر ؛ لأن من البشر من يعطيك السلام وهو يُكِنُّ لك غير السلام ، أو قد يعطيك السلام وهو يريد بك السلام ، ولكنه من الأغيار ؛ فيتغير فلا يقدر أن يعطيك هذا السلام ، لكن إذا ما جاء السلام من الله تعالى ، فهو سلام من رب لا يعجزه شيء ، ولا يُعوزه شيء ، ولا تلحقه أغيار ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم ﴾ [الرعد : 2324] .

والملائكة حين يقولون ذلك إنما أخذوا سلامهم من باطن سلام الله تعالى ، وحتى أصحاب الأعراف الذين لم يدخلوا الجنة ، ويرون أهل الجنة وأهل النار ، هؤلاء يلقون السلام على أهل الجنة . وهكذا يحيا أهل الجنة في سلام شامل ومحيط ومطمئن ؛ لأن الداعي هو الله سبحانه ، ولا أحد يجبره على أن ينقض سلامه .

ودعوة الله سبحانه هي منهجه الذي أرسل به الرسل ؛ ليحكم به حركة الحياة حركة إيمانية ، يتعايش فيها الناس تعايشاً على وَفْق منهج الله تعالى ، بما يجعل هذه الدنيا مثل الجنة ، ولكن الذي يرهق الناس في الدنيا أن بعض الناس يعطلون جزئية أو جزئيات من منهج الله سبحانه .

وأنت إذا رأيت مجتمعاً فيه لون من الشقاء في أي جهة ؛ فاعلمْ أن جزءاً من منهج الله تعالى قد عُطِّل .

ولو أن الناس قد ساروا على منهج الله سبحانه وتعالى ؛ لما كان بالوجود عورة واحدة ؛

فالذي يُظهر عورات الوجود غفلة بعض الناس عن منهج الله سبحانه .

وأنت إنْ رأيت فقراء لا يجدون ما يأكلونه ؛ فاعلمْ أن هناك مَنْ عطَّل منهج الله تعالى ، إما من الفقراء أنفسهم ، الذين استمرأ بعضهم الكسل ، وإما أن الأغنياء قد ضنوا برعاية حق الله تعالى في هؤلاء الفقراء ؛ وبذلك يتعطل منهج الله سبحانه .

أما إذا سيطر منهج الله تعالى على الحياة ؛ لصارت الحياة مثل الجنة .

(83/360)

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ونعلم أن الهداية نوعان : هداية الدلالة بالمنهج ، فمن أخذ المنهج سهَّل الله تعالى له طريق الصراط المستقيم ؛

وبذلك انتقل العبد من مرحلة الهداية بالدلالة إلى الهداية بالمعونة ، وحين تقوم القيامة يهديهم الله سبحانه بالنور إلى الجنة : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ [يونس : 9] .

إذن : فمن أخذ هداية الله بالدلالة وهي المنهج ، واتبع هذا المنهج ؛ فالحق سبحانه يجعل له نوراً يسعى بين يديه : ﴿ نُورُهُمْ يسعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ [التحريم : 8] .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [يونس : 25] .

لأن كل شيء في هذا الكون لا يخرج عن مشيئته سبحانه ، فالقوانين لا تحكمه ، بل هو الذي يحكم كل شيء .

وإذا كان الله قد بيّن من شاء هدايته ، فهو أيضاً قد بيّن لنا من شاء إضلاله بقوله سبحانه : ﴿ والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين ﴾ [التوبة : 37] .

وقوله سبحانه : ﴿ والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ﴾ [التوبة : 24] .

إذن : فقد بيّن الحق سبحانه لنا من الذين يهديهم إلى الجنة ومن الذين لا يهديهم ، فلا يقولن أحد : وما ذنب الكافرين والفاسقين ؟ لأن الحق سبحانه قد بين منهجه ، فمن أخذ به ؛ جعل له نوراً يسعى بين يديه ، ويدخله الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(84/360)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ والله يدعوا إلى دَارِ السلام وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [25

] قال : الدعوة عامة والهداية خاصة ، فإنه رد الهداية إلى المشيئة وهي سابقة القدر من الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 76 ﴾

(85/360)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (25) ﴾

أخرج أبو نعيم والدمياطي في معجمه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ والله يدعوا إلى دار السلام ﴾ يقول يدعو إلى عمل الجنة ، والله السلام والجنة داره .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية رضي الله عنه في قوله ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ قال : يهديهم للمخرج من الشبهات والفتن والضلالات .

وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من يوم طلعت شمسه إلا وكل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله

كلهم إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، ولا آبت شمسه إلا وكل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً تلفاً . فأنزل الله في ذلك كله قرآناً في قول الملكين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿ والله يدعوا إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ وأنزل في قولهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً تلفاً ﴿ والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ﴾ [الليل : 1 - 2] إلى قوله ﴿ للعسرى ﴾ [الليل : 10] " .

(86/360)

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن سعيد بن أبي هلال رضي الله عنه . سمعت أبا جعفر محمد بن علي رضي الله عنه وتلا ﴿ والله يدعوا إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ فقال : " حدثني جابر رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال " إني رأيت في المنام كان جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه : ضرب له مثلاً فقال : اسمع سمعت أذناك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ، ثم بنى فيها بيتاً ، ثم جعل فيها مأدبة ، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من

أجاب الرسول ومنهم فيها مأدبة ، فالله هو الملك ، والدار الإِسلام ، والبيت الجنة وأنت يا محمد رسول ، فمن أجابك دخل الإِسلام ، ومن دخل الإِسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل منها " " .

(87/360)

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال " استتبعني النبي صلى الله عليه وسلم فانطلقنا حتى أتينا موضعاً لا ندري ما هو ؟ فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه في حجري ، ثم إن نفراً أتوا عليهم ثياب بيض طوال وقد أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عبد الله رضي الله عنه : فارعبت منهم . فقالوا : لقد أعطى هذا العبد خيراً إن عينه نائمة والقلب يقظان ، ثم قال بعضهم لبعض : اضربوا له ونَتَأَوَّلَ نحن أو نضرب نحن ونَتَأَوَّلون أنتم . فقال بعضهم : مثله كمثل سيد اتخذ مأدبة ، ثم ابتنى بيتاً حصيناً ، ثم أرسل إلى الناس فمن لم يأت طعامه عذبه عذاباً شديداً . قال الآخرون : أما السيد فهو رب العالمين ، وأما البنيان فهو الإِسلام ، والطعام الجنة ، وهذا الداعي فمن اتبعه كان في الجنة ومن لم يتبعه عذب عذاباً أليماً ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استيقظ فقال : ما رأيت يا ابن أم عبد ؟ فقلت : رأيت كذا وكذا ! فقال : أُخفِيَ علي مما

قالوا شيء ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم نفر من الملائكة " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن سيداً بنى داراً واتخذ مأدبة وبعث داعياً ، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد ، ألا وإن السيد الله ، والدار الإِسلام ، والمأدبة الجنة ، والداعي محمد صلى الله عليه وسلم " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قال : ما من ليلة إلا ينادي منادياً يا صاحب الخير هلم ويا صاحب الشر اقصر . فقال رجل للحسن رضي الله عنه : أتجدها في كتاب الله ؟ قال : نعم ﴿ والله يدعوا إلى دار السلام ﴾ قال : ذكر لنا أن في التوراة مكتوباً : يا باغي الخير هلم ، ويا باغي الشر انته .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه . أنه كان إذا قرأ ﴿ والله يدعوا إلى دار السلام ﴾ قال : لبيك ربنا وسعديك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(88/360)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (25) ﴾

دعاهم إلى دار السلام ، وفي الحقيقة دعاهم إلى ما يوجب لهم الوصول إلى دار السلام ؛ وهو اعتناق أوامره والانتهاء عن زواجره . والدعاء من حيث التكليف ، وتخصيص الهداية لأهلها من حيث التشريف .

ويقال الدعاء تكليف والهداية تعريف ؛ فالتكليف على العموم والتعريف على الخصوص .

ويقال التكليف بحقّ سلطانه ، والتعريف بِحُكْمِ إحسانه .

ويقال الدعاء قوْلُه والهداية طَوْلُه ؛ دَخَلَ الكلُّ تحت قوله ، وانفرد الأولياءُ بتخصيص طَوْلِه . دار السلام دار الله لأن السلام اسم مِنْ أسمائه .

ويكون السلام بمعنى السلامة فهي دار السلامة أي أهلها سالمون فيها ؛ سالمون من الحُرقَة وسالمون من الفُرقة ؛ سَلِموا من الحرقة فحصلوا على لذة عطائه ، وسَلِموا من الفُرْقَة فوصلوا إلى عزيز لقائه .

ويقال لا يصل إلى دار السلام إلا من سَلِمَتْ نَفْسُه عن السجود لِلصَنَم ، وسَلِم قلبُه عن الشِّرْكِ والظُلم .

ويقال تلك الدار درجات ؛ والذي سَلِمَ قلبُه عن محبة الأغيار درجتُه أعلى من درجة مَنْ سَلِمَتْ نَفْسُه من الذنوب والأوضار .

ويقال قوم سلمت صدورُهم من الغِلّ والحسد والحقد ؛ وسَلِمَ الخَلْقُ منهم ، فليس بينهم

وبين أحدٍ محاسبة ، وليس لهم على أحد شيء ؛ « فالمسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده ، والمحسنُ من سَلِمَ الخْلقُ بأجمعهم من قلبه » .

﴿ الْصِرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ : طريق المسلمين ، فهذا للعوام بشرط علم اليقين ، ثم طريق المؤمنين وهو طريق الخواص بشرط عين اليقين ، ثم طريق المحسنين وهو طريق خاص الخاص بشرط حق اليقين ؛ فهؤلاء بنور العقل أصحاب البرهان ، وهؤلاء بكشف العلم أصحاب البيان ، وهؤلاء بضياء المعرفة بالوصف كالعيان ، وهم الذين قال صلى الله عليه وسلم فيهم : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 90. 91 ﴾

(89/360)

فصل

قال الزمخشرى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾

أصله وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ تعجيله لهم الخير ، فوضع اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ موضع تعجيله لهم الخير « 1 » إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم ، حتى كأنّ

استعجالهم بالخير

---

(1) . قال محمود : «فوضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير . . . الخ» قال أحمد : وهذا أيضاً من تنبيهات الزمخشري الحسنة التي تقوم على دقة نظره شاهدة وبينة ، ولا يكاد وضع المصدر مؤكداً أو مقارنا لغير فعله في الكتاب العزيز يخلو من مثل هذه الفائدة الجليلة . والنحاة غايتهم أن يقولوا في قوله تعالى وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً أنه اجرى المصدر على الفعل مقدراً عدم الزيادة . أو هذا المصدر لفعل دل عليه المذكور تقديره : نبتم نباتا ، ولا يزيدون على ذلك ، وإذا راجع الفطن قريحته وناجى فسكرته ، هل قرن المصدر في كتاب اللّه بغير فعله لفائدة أو لا – تسور بلطف النظر على مثل هذه الفوائد العلية مراتبها ، فالفائدة – واللّه أعلم – في اقتران قوله نَباتاً بقوله أَنْبَتَكُمْ التنبيه على تحتم نفوذ القدرة في المقدور ، وسرعة إمضاء حكمها حتى كان إنبات اللّه لهم نفس نباتهم أى إذا وجد من اللّه الانبات وجد لهم النبات حتما فكان أحد الأمرين عين الآخر فقرن به واللّه أعلم .

(90/360)

تعجيل لهم ، والمراد أهل مكة . وقولهم : فأمطر علينا حجارة من السماء ، يعنى : ولو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ لأميتوا وأهلكوا . وقرئ :

لقضى إليهم أجلهم ، على البناء للفاعل ، وهو اللّه عز وجل ، وتنصره قراءة عبد اللّه : لقضينا إليهم أجلهم فإن قلت ، فكيف اتصل به قوله فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وما معناه ؟

قلت : قوله وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ متضمن معنى نفى التعجيل ، كأنه قيل : ولا نعجل لهم الشر ، ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم فِي طُغْيانِهِمْ أى فنمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم ، إلزاما للحجة عليهم .

[سورة يونس (10) : آية 12]

وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (12)

لِجَنْبِهِ في موضع الحال ، بدليل عطف الحالين عليه أى دعانا مضطجعا أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً .

فإن قلت : فما فائدة ذكر هذه الأحوال ؟ قلت معناه أنّ المضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر ، فهو يدعونا في حالاته كلها - إن كان منبطحاً عاجز النهض «1» متخاذل النوء «2» أو كان قاعداً لا يقدر على القيام ، أو كان قائماً لا يطيق المشي

والمضطرب - إلى أن يخف كل الخفة ويرزق الصحة بكمالها والمسحة «3» بتمامها .

ويجوز أن يراد أن من المضرورين من هو أشدّ حالا وهو صاحب الفراش . ومنهم من هو أخف وهو القادر على القعود . ومنهم المستطيع للقيام ، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء ، لأنّ الإنسان للجنس مَرَّ أى مضى على طريقته الأولى قبل مس الضر ، ونسى حال الجهد . أو مرّ عن موقف الابتهال والتضرع لا يرجع إليه ، كأنه لا عهد له به كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا ، كأنه لم يدعنا ، فخفف وحذف ضمير الشأن قال :

---

(1) . قوله «عاجز النهض» نهض نهضاً ونهوضاً : قام . (ع)

(2) . قوله «متخاذل النوء» في الصحاح : ناء ينوء نوآ إذا نهض بجهد ومشقة . (ع)

(3) . قوله «و المسحة» في الصحاح : وعلى فلان مسحة من جمال . (ع)

(91/360)

كَأَنْ ثَدْيَاهُ حُقّانِ «1»

كَذلِكَ مثل ذلك التزيين زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ زين الشيطان بوسوسته أو اللّه بخذلانه وتخليته ما كانُوا يَعْمَلُونَ من الإعراض عن الذكر واتباع الشهوات .

[سورة يونس (10) : الآيات 13 إلى 14]

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13) ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14)

لَمَّا ظرف لأهلكنا : والواو في وَجاءَتْهُمْ للحال ، أى ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالحجج والشواهد على صدقهم وهي المعجزات . وقوله : وَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا يجوز أن يكون عطفاً على ظلموا ، وأن يكون اعتراضاً واللام لتأكيد النفي ، يعنى : وما كانوا يؤمنون حقاً ، تأكيداً لنفى إيمانهم ، وأن اللّه قد علم منهم أنهم يصرون على كفرهم ، وأن الإيمان مستبعد منهم . والمعنى : أن السبب في إهلاكهم تكذيب الرسل ، وعلم اللّه أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثه الرسل كَذلِكَ مثل ذلك الجزاء يعنى الإهلاك نَجْزِي كل مجرم ، وهو وعيد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وقرئ . يجزى ، بالياء ثُمَّ جَعَلْناكُمْ الخطاب للذين بعث إليهم محمد صلى اللّه عليه وسلم ، أى استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكنا لِنَنْظُرَ أتعملون خيراً أم شراً فنعاملكم على حسب عملكم . وكَيْفَ في محل النصب بتعملون لا ينتظر ، لأنّ معنى الاستفهام فيه يحجب أن يتقدّم عليه عامله . فإن قلت : كيف جاز النظر على اللّه تعالى وفيه معنى المقابلة «2»

---

(1) ونحر مشرق اللون كأن ثدياه حقان

أى : ورب نحر ويروى بالرفع عطفا على شيء تقدم ، أى ولها . والنحر : موضع القلادة من الصدر . ويروى :

وصدر مشرق ، أى أبيض مضيء . ويروى : وصدر مشرق النحر . ويروى : ووجه مشرق اللون ، وكأن مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن . وقال أبو حيان : لا حاجة للاضمار عند الإهمال . وروى : كأن ثدييه بالأعمال مع التخفيف وهو قليل . وإضافة الثديين لضمير النحر للملابسة ولضمير الوجه على تقدير مضاف ، أى : ثديا صاحبته . والحقان : تثنية حق وهو ما يعمل من العاج ونحوه ، يوضع فيه أعز الأشياء . وقيل تثنية حقة ، وحذفت منه التاء .

(2) . قال محمود : «إن قلت كيف جاز النظر على اللّه تعالى . . . الخ» قال أحمد : وكنت أحسب أن الزمخشري يقتصر على إنكار رؤية العبد للّه تعالى ، فضم إلى ذلك إنكار رؤية اللّه ، والجمع بين هذين النزغتين عقيدة طائفة من القدرية ، يقولون : إن اللّه لا يرى ولا يرى ، تعالى اللّه عما يقول الظالمون علواً كبيرا . وتقدم إبطال دعواهم أن النظر يستلزم المقابلة والجسمية فلا نعيده ، واللّه الموفق . [. . . . .]

(92/360)

قلت : هو مستعار للعلم المحقق الذي هو العلم بالشيء موجوداً شبه بنظر الناظر وعيان المعاين في تحققه .

[سورة يونس (10) : آية 15]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15)

غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد للمشركين ، فقالوا ائْتِ بِقُرْآنٍ آخر ليس فيه ما يغيظنا من ذلك تتبعك أَوْ بَدِّلْهُ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، وتسقط ذكر الآلهة وذمّ عبادتها ، فأمر بأن يجيب عن التبديل ، لأنه داخل تحت قدرة الإنسان ، وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة مما أنزل ، وأن يسقط ذكر الآلهة . وأما الإتيان بقرآن آخر ، فغير مقدور عليه للإنسان ما يَكُونُ لِي ما ينبغي لي وما يحل ، كقوله تعالى ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ . أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي من قبل نفسي . وقرئ بفتح التاء : من غير «1» أن يأمرني بذلك ربي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ لا آتي ولا أذر شيئاً من نحو ذلك ، إلا متبعاً لوحي الله وأوامره ، إن نسخت آية تبعت النسخ ، وإن بدّلت آية مكان آية تبعت التبديل ، وليس إليّ تبديل ولا نسخ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي بالتبديل والنسخ من عند نفسي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . فإن قلت : أما ظهر وتبين لهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن حتى

قالوا : ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا ؟ قلت : بلى ، ولكنهم كانوا لا يعترفون بالعجز ، وكانوا يقولون : لو نشاء لقلنا مثل هذا . ويقولون : افترى على اللّه كذبا ، فينسبونه إلى الرسول ويزعمونه قادراً عليه وعلى مثله . مع علمهم بأنّ العرب مع كثرة فصحائها وبلغائها إذا عجزوا عنه ، كان الواحد منهم أعجز . فإن قلت : لعلهم أرادوا : ائت بقرآن غير هذا أو بدّله ، من جهة الوحى كما أتيت بالقرآن من جهته . وأراد بقوله : ما يَكُونُ لِي ما يتسهل لي وما يمكنني أن أُبدّله . قلت :

يردّه قوله إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي . فإن قلت : فما كان غرضهم وهم أدهى الناس وأنكرهم في هذا الاقتراح؟ قلت : الكيد والمكر . أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ، ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله ، فأبدل مكانه آخر ، وأما اقتراح التبديل والتغيير ، فللطمع ولاختبار الحال . وأنه إن وجد منه تبديل ، فإمّا أن يهلكه اللّه فينجو منه ، أو لا يهلكه فيسخروا منه ، ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحاً لافترائه على اللّه .

---

(1) . قوله «من غير» لعله «أى من غير» . (ع)

[سورة يونس (10) : آية 16]

قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (16)

لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ يعنى أن تلاوته ليست إلا بمشيئة اللّه وإحداثه أمراً عجيباً خارجا عن العادات ، وهو أن يخرج رجل أُمىّ لم يتعلم ولم يستمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره ، ولا نشأ في بلد فيه علماء فيقرأ عليهم كتاباً فصيحاً ، يبهر كل كلام فصيح ، ويعلو على كل منثور ومنظوم ، مشحوناً بعلوم من علوم الأصول والفروع ، وأخبار مما كان وما يكون ، ناطقاً بالغيوب التي لا يعلمها إلا اللّه ، وقد بلغ بين ظهرانيكم «1» أربعين سنة تطلعون على أحواله ، ولا يخفى عليكم شيء من أسراره ، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك ، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه وألصقهم به وَلا أَدْراكُمْ بِهِ ولا أعلمكم به على لساني . وقرأ الحسن : ولا أدراتكم به ، على لغة من يقول : أعطاته وأرضاته ، في معنى أعطيته وأرضيته . وتعضده قراءة ابن عباس :

ولا أنذرتكم به . ورواه الفراء : ولا أدرأتكم به ، وبالهمز . وفيه وجهان ، أحدهما : أن تقلب الألف همزة ، كما قيل : لبأت بالحج . ورثأت الميت وحلأت «2» السويق ، وذلك لأنّ الألف والهمزة من واد واحد . ألا ترى أنّ الألف إذا مستها الحركة انقلبت همزة . والثاني : أن يكون من درأته إذا دفعته ، وأدرأته إذا جعلته دارئا . والمعنى : ولا جعلتكم

بتلاوته خصماء تدرؤوننى بالجدال وتكذبونني . وعن ابن كثير : ولأدراكم به ، بلام الابتداء لإثبات الإدراء ومعناه : لو شاء اللّه ما تلوته أنا عليكم ولأعلمكم به على لسان غيرى ، ولكنه يمنّ على من يشاء من عباده ، فخصني بهذه الكرامة ورآني لها أهلا دون سائر الناس فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً وقرئ عُمُراً بالسكون . يعنى : فقد أقمت فيما بينكم يافعا وكهلا ، فلم تعرفوني متعاطياً شيئاً من نحوه ولا قدرت عليه ، ولا كنت متواصفاً بعلم وبيان فتتهموني باختراعه أَفَلا تَعْقِلُونَ فتعلموا أنه ليس إلا من اللّه لا من مثلي . وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم ائت بقرآن غير هذا من إضافة الافتراء إليه .

[سورة يونس (10) : آية 17]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17)

---

(1) . قوله «ظهرانيكم» في الصحاح : ظهرانيهم - بفتح النون . (ع)

(2) . قوله «و حلأت» أى جعلته حلوا . (ع)

مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً يحتمل أن يريد افتراء المشركين على اللّه في قولهم : إنه ذو شريك وذو ولد ، وأن يكون تفاديا مما أضافوه إليه من الافتراء .

[سورة يونس (10) : آية 18]

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (18)

ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ الأوثان التي هي جماد لا تقدر على نفع ولا ضر . وقيل : إن عبدوها لم تنفعهم ، وإن تركوا عبادتها لم تضرهم ، ومن حق المعبود أن يكون مثيباً على الطاعة معاقباً على المعصية . وكان أهل الطائف يعبدون اللات ، وأهل مكة العزى ومناة وهبل وأسافا ونائلة وكانوا يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ وعن النضر بن الحرث : إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده ، وهو إنباء بما ليس بالمعلوم لله ، وإذا لم يكن معلوما له وهو العالم الذات المحيط بجميع المعلومات ، لم يكن شيأ لأن الشيء ما يعلم ويخبر عنه ، فكان خبراً ليس له مخبر عنه . فإن قلت : كيف أنبأوا الله بذلك ؟ قلت : هو تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام ، وإعلام بأنّ الذي أنبؤا به باطل غير منطو تحت الصحة ، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق به علمه كما يخبر الرجل الرجل بما لا يعلمه . وقرئ : أتنبئون ، بالتخفيف . وقوله فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ تأكيد لنفيه ، لأنّ ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم يُشْرِكُونَ قرئ بالتاء والياء وما موصولة أو مصدرية ، أى عن الشركاء الذين يشركونهم به أو عن إشراكهم .

[سورة يونس (10) : الآيات 19 إلى 20]

وَما كانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19) وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (20)

وَما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم ، وذلك في عهد آدم إلى أن قتل قابيل هابيل . وقيل : بعد الطوفان حين لم يذر اللّه من الكافرين ديارا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ وهو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ عاجلا فيما اختلفوا فيه ، ولميز المحق من المبطل ، وسبق كلمته بالتأخير لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف ، وتلك دار ثواب وعقاب . وقالوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ

(95/360)

أرادوا آية من الآيات التي كانوا يقترحونها وكانوا لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها ، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات ، دقيقة المسلك من بين المعجزات ، وجعلوا نزولها كلا نزول ، وكأنه لم ينزل عليه آية قط ، حتى قالوا : لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه ، وذلك لفرط

عنادهم وتماديهم في التمرّد وانهماكهم في الغىّ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ أى هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحد به ، يعنى أنّ الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو فَانْتَظِرُوا نزول ما اقترحتموه إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ لما يفعل اللّه بكم لعنادكم وجحودكم الآيات .

[سورة يونس (10) : آية 21]

وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ (21)

سلط اللّه القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون ، ثم رحمهم بالحيا ، فلما رحمهم طفقوا يطعنون في آيات اللّه ويعادون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ويكيدونه ، و«إذا» الأولى للشرط ، والآخرة جوابها وهي للمفاجأة ، والمكر : إخفاء الكيد وطيه ، من الجارية الممكورة المطوية الخلق . ومعنى مَسَّتْهُمْ خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم . فإن قلت : ما وصفهم بسرعة المكر ، فكيف صح قوله أَسْرَعُ مَكْراً ؟ قلت : بلى دلت على ذلك كلمة المفاجأة ، كأنه قال : وإذا رحمناهم من بعد ضراء فاجئوا وقوع المكر منهم ، وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا رؤسهم من مس الضراء ، ولم يتلبثوا ريثما يسيغون غصتهم . والمعنى : أنّ اللّه تعالى دبر عقابكم وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ إعلام بأنّ ما تظنونه خافيا مطويا لا يخفى على اللّه ،

وهو منتقم منكم. وقرئ: يمكرون، بالتاء والياء. وقيل: مكرهم قولهم سقينا بنوء كذا. وعن أبى هريرة: إنّ اللّه ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها، فتصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون: مطرنا بنوء كذا «1».

[سورة يونس (10): الآيات 22 إلى 23]

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23)

---

(1). أخرجه إسحاق والطبري: والثعلبي من طريق ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم اليمنى عن أبى سلمة عن أبى هريرة «أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال «إن اللّه تعالى ليصبح عباده بالنعمة أو ليمسيهم بها فيصبح بها قوم كافرون، يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا» قال محمد فذكرت الحديث لسعيد بن المسيب فقال: ونحن سمعناه من أبى هريرة. ولمسلم من وجه آخر عن أبى هريرة مرفوعا «قال اللّه تعالى: ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق بها كافرين، يقولون: الكوكب وبالكوكب مطرنا».

قرأ زيد بن ثابت : ينشركم . ومثله قوله فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ .

فإن قلت : كيف جعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر»

، والتسيير في البحر إنما هو بالكون في الفلك ؟ قلت : لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر ، ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد «حتى» بما في حيزها ، كأنه قيل : يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف وتراكم الأمواج والظنّ للهلاك «2» والدعاء بالإنجاء . فإن قلت :

ما جواب «إذا» ؟ قلت : جاءتها . فإن قلت : فدعوا ؟ قلت : بدل من ظنوا ، لأنّ دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك فهو ملتبس به . فإن قلت : ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة ؟

قلت : المبالغة ، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم الإنكار والتقبيح .

فإن قلت : ما وجه قراءة أمّ الدرداء : في الفلكي ، بزيادة ياء النسب ؟ قلت : قيل هما زائدتان كما في الخارجي والأحمرى . ويجوز أن يراد به اللجّ والماء الغمر الذي لا تجرى الفلك إلا فيه .

(1) . قال محمود : «إن قلت كيف جعل الكون في الفلك غاية . . . الخ» قال أحمد : وهذه أيضا من نكتة التي لا يكتنه حسنها ، وقد مر لي قبل الوقوف عليها مثل هذا النظر بعينه في توأمتها ، وذلك عند قوله تعالى وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وقد استدل الزمخشري بها لأبي حنيفة في أن الصغير يبتلى قبل البلوغ بأن يسلم إليه قدر من المال يمتحن فيه ، خلافا لمالك ، فانه لا يرى الابتلاء قبل البلوغ قال الزمخشري : ووجه الاستدلال أن اللّه تعالى جعل البلوغ غاية الابتلاء ، فيلزم وقوع الابتلاء قبله ضرورة كونه مغيا به . واعترضت هذا الاستدلال فيما سلف بأن المجعول غاية هو حمله ما في حيز «حتى» من البلوغ مقرونا بإيناس الرشد ، وهذا المجموع هو الذي يلزم وقوعه بعد الابتلاء ، ولا يلزم من ذلك أن يقع كل واحد من مفرديه بعد الابتلاء ، بل من الممكن أن يقع أحدهما قبل والآخر بعد ، فلا يحصل المجموع إلا بعد الابتلاء . ويوضح ذلك هذه الآية ، فانه تعالى جعل غاية تسييرهم في الفلك كونهم فيها ، مضافا إلى ما ذكر معه . ونحن نعلم أن كونهم في الفلك - وذلك أحد ما جعل غاية - متقدم على التسيير وإن كان المجموع واقعا ، كوقوع الحادثة بجملتها بعد الكون في الفلك واللّه أعلم . وإنما بسطت القول هاهنا لفواته ثم ، فجدد بما مضى عهدا .

(2) . قوله «و الظن للهلاك» عبارة النسفي : بالهلاك . (ع)

والضمير في جَرَيْنَ للفلك ، لأنه جمع فلك كالأسد ، في فعل أخى فعل «1» . وفي قراءة أمّ الدرداء : للفلك ، أيضاً ، لأنّ الفلكي يدلّ عليه جاءَتْها جاءت الريح الطيبة ، أى تلقتها .

وقيل : الضمير للفلك مِنْ كُلِّ مَكانٍ من جميع أمكنة الموج أُحِيطَ بِهِمْ أى أهلكوا جعل إحاطة العدوّ بالحي مثلا في الهلاك مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ من غير إشراك به ، لأنهم لا يدعون حينئذ غيره معه لَئِنْ أَنْجَيْتَنا على إرادة القول . أو لأن دَعَوُا من جملة القول يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ يفسدون فيها ويعبثون متراقين في ذلك ، ممعنين فيه ، من قولك :

بغى الجرح إذا ترامى إلى الفساد . فإن قلت : فما معنى قوله بِغَيْرِ الْحَقِّ والبغي لا يكون بحق ؟ قلت :

بلى ، وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة ، وهدم دورهم ، وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم «2» كما فعل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ببني قريظة . قرئ : متاع الحياة الدنيا ، بالنصب . فإن قلت :

ما الفرق بين القراءتين ؟ قلت : إذا رفعت كان المتاع خبراً للمبتدإ الذي هو بَغْيُكُمْ وعَلى أَنْفُسِكُمْ صلته ، كقوله فَبَغى عَلَيْهِمْ ومعناه : إنما بغيكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم ، يعنى : بغى بعضكم على بعض منفعة الحياة الدنيا لا بقاء لها . وإذا نصبت عَلى أَنْفُسِكُمْ خبر غير صلة ، معناه . إنما بغيكم وبال على أنفسكم ، ومَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا

في موضع المصدر المؤكد ، كأنه قيل : تتمتعون متاع الحياة الدنيا . ويجوز أن يكون الرفع على : هو متاع الحياة الدنيا بعد تمام الكلام . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال «لا تمكر ولا تعن ماكرا ، ولا تبغ ولا تعن باغياً ، ولا تنكث ولا تعن ناكثاً» «3» وكان يتلوها . وعنه عليه الصلاة والسلام «أسرع الخير ثواباً صلة الرحم ، وأعجل الشر عقاباً البغي واليمين الفاجرة» «4» وروى : «ثنتان يعجلهما اللّه

---

(1) . قوله «كالأسد في فعل» أى كما جاء «فعل» بالضم في «فعل» بفتحتين ، كأسد في أسد ، جاز مجيء «فعل» بالضم في فعل «بالضم» كفلك في فلك ، وذلك لأن «فعلا» بفتحتين و«فعلا» بالضم أخوان ، لأنهما يشتركان في الشيء الواحد ، كالعرب والعرب والعجم والعجم ، والرهب والرهب . فما جاز في أحدهما لا يمنع في الآخر ، وقد جاز «فعل» بالضم في «فعل» بالفتح ، فليجز «فعل» بالضم في «فعل» بالضم ، لأنهما أخوات . كذا في الصحاح ، فتأمله . (ع)

(2) . متفق على معناه من حديث ابن عمر رضى اللّه عنهما .

(3) . أخرجه ابن المبارك في الزهد : أخبرنا يونس بن يزيد عن الزهري : قال «بلغنا أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : لا تمكر ولا تعن ماكرا ، فان اللّه تعالى يقول وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ولا تبغ ولا تعن باغيا ، فان اللّه تعالى يقول إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ «ولا تنكث ولا تعن ناكثا» فان اللّه تعالى يقول فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وفي

مستدرك الحاكم بعضه من حديث أبي بكرة مرفوعا «لا تبغ ولا تعن باغيا فان اللّه تعالى يقول إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ.

(4) . أخرجه إسحاق في مسنده عن جرير عن برد بن يسار عن مكحول رفعه «أعجل الخير ثوابا صلة الرحم وأعجل الشر عقابا البغي واليمين الفاجرة، تدع الديار بلاقع» ولأبي يعلى من حديث عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين رفعته «أسرع الخير ثوابا صلة الرحم. وأسرع الشر عقوبة البغي».

(98/360)

تعالى في الدنيا: البغي وعقوق الوالدين» «1» وعن ابن عباس رضى اللّه عنه: لو بغى جبل على جبل لدك الباغي «2». وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين في أخيه:

يَا صَاحِبَ الْبَغْيِ إِنَّ الْبَغْيَ مَصْرَعَةٌ فَارْبَعْ فَخَيْرُ فِعَالِ الْمَرْءِ أَعْسَلُهُ

فَلَوْ بَغَى جَبَلٌ يَوْماً عَلَى جَبَلٍ لَانْدَكَّ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ «3»

وعن محمد بن كعب: ثلاث من كنّ فيه كنّ عليه: البغي والنكث والمكر. قال اللّه تعالى: إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ.

[سورة يونس (10): آية 24]

إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24)

هذا من التشبيه المركب ، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال ، بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التف ونكاثف ، وزين الأرض بخضرته ورفيفه «4» فَاخْتَلَطَ بِهِ فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ كلام فصيح : جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس ، إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون ، فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين . وأصل ازَّيَّنَتْ تزينت ،

---

(1) . أخرجه إسحاق في مسنده والطبراني من حديث عبد اللّه بن أبى بكرة عن أبيه . والبخاري في الأدب المفرد من رواية بكار بن عبد العزيز عن أبيه عن جده رفعه «كل الذنوب يؤخر اللّه منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا البغي وعقوق الوالدين ، فانه يعجل لصاحبه في الدنيا قبل الموت» .

(2) . أخرجه البخاري في الأدب حدثنا أبو نعيم حدثنا قطر بن خليفة عن أبى يحيى القتات سمعت مجاهدا عن ابن عباس رضى اللّه عنهما موقوفا . ورواه ابن المبارك في

الزهد عن قطر عن يحيى عن مجاهد مرسلا . ورواه البيهقي في الشعب من طريق الأعمش عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس . ورواه ابن مردويه عن أنس رضى اللّه عنه أخرجه ابن حبان في الضعفاء في ترجمة أحمد بن الفضل . وقال : إنه كان يضع الحديث .

(3) . كان المأمون بن الرشيد يتمثل بهما في بغى أخيه عليه ، وكرر لفظ البغي تنفيرا عنه ، وشبهه بالمصرعة لأن صاحبه يرتبك فيه في العاقبة وربما هلك . وربع يربع ، إذا لم يتجاوز قدر نفسه . فاربع : أى الزم قدرك واعدل في فعلك . والفعال - بالفتح - : غالب في فعل الخير . والمراد هنا مطلق الفعل ، أى : فخير عمل المرء أقومه ، فلو بغى جبل على جبل يوما من الأيام لعوقب واندك منه أعاليه . ويلزم منه اندكاك أسافله . وهذا عقد قول ابن عباس رضى اللّه عنهما : لو بغى جبل على جبل لدك الباغي .

(4) . قوله «ورفيفه» أى يرفقه وتلألؤه . وشجر رفيف : إذا تندت أوراقه ، كذا في الصحاح . (ع) [. . . . .]

فأدغم. وبالأصل قرأ عبد اللّه. وقرئ: وأزينت، أى أفعلت، من غير إعلال الفعل كأغيلت أى صارت ذات زينة. وازيانت، بوزن ابياضت قادِرُونَ عَلَيْها متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها، رافعون لغلتها أَتاها أَمْرُنا وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم فَجَعَلْناها فجعلنا زرعها حَصِيداً شبيهاً بما يحصد من الزرع في قطعه واستئصاله كَأَنْ لَمْ تَغْنَ كأن لم يغن زرعها، أى لم ينبت «1» على حذف المضاف في هذه المواضع لا بدّ منه، وإلا لم يستقم المعنى. وقرأ الحسن: كأن لم يغن، بالياء على أنّ الضمير للمضاف المحذوف، الذي هو الزرع. وعن مروان أنه قرأ على المنبر: كأن لم تتغن بالأمس، من قول الأعشى:

طَوِيلُ الثَّوَاءِ طَوِيلُ التَّغَنِّى «2»

والأمس مثل في الوقت القريب «كأنه قيل: كأن لم تغن آنفاً.

[سورة يونس (10): آية 25]

وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (25)

دارِ السَّلامِ الجنة، أضافها إلى اسمه تعظيما لها. وقيل السلام السلامة، لأنّ أهلها سالمون من كل مكروه. وقيل: لفشوّ السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً وَيَهْدِي ويوفق مَنْ يَشاءُ وهم الذين علم أنّ اللطف يجدى عليهم، لأنّ مشيئته تابعة لحكمته ومعناه: يدعو العباد كلهم إلى دار السلام، ولا يدخلها إلا المهديون. انتهى انتهى. اهـ

---

(1) . قوله «أى لم ينبت» لعله لم يثبت . وفي الصحاح : غنى بالمكان أى أقام ، وغنى أى عاش . (ع)

(2) وكنت امرأ زمنا بالعراق طويل الثواء طويل التغن

فأثبت قيسا ولم آته على نأيه ساد أهل اليمن

فجئتك مرتاد ما أخبروا ولولا الذي خبروا لم ترن

للأعشى ، يستمنح قيس بن معديكرب ويقول : وكنت رجلا طويل الثواء في العراق ، طويل التغني فيه دهراً طويلا ، فزمنا : ظرف . ويجوز قراءته : زمنا ، كحذر : أى هرم ، والثواء : الاقامة . وغنى بالمكان يغنى ، كرضى يرضى :

أقام ومكث . وقد يقال : تغنى تغنيا كترضى ترضيا ، إذا تمكث وتلبث . فالتغنى - بالتشديد - : مصدر حذفت لامه عند الوقف وإن كان حذفها قليلا ، فأنبئت قيسا والحال أنى لم أجئه : مع أنه ناء أى بعيد عنى» أى مع بعده ساد أهل اليمن بجوده وكرمه على أهل الأرض ، فجملة «ساد» في محل المفعول الثاني ، ثم بعد ما قدم المدح التفت إلى خطابه بقوله : فجئتك مرتادا ومتعرفا ومتطلبا لما أخبروا به من كرمك وجودك ، وإضافة مرتاد للموصول لا تفيده التعريف ، لأنها إضافة الوصف لمعموله لفظيا ، فصح وقوعه حالا ، ولولا الذي خبروني به لم تنظرني عندك ولم أجئ إليك . وروى : ولم أبله ، من بلاه يبلوه إذا

اختبره . وروى خبر أهل اليمن أى أنبئته والحال أنى لو أختبره أفضل أهل اليمن ، فجئتك مختبراً لحالك .

(100/360)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (25) ﴾

السورة كلها – كما أسلفنا في تقديمها – لحمة واحدة ، يصعب تقسيمها إلى مقاطع : شأنها في هذه الخاصية شأن سورة الأنعام التي سبق الحديث عنها في الجزء السابع – مع تميز كل سورة بشخصيتها وطابعها الخاص – فهي تتدفق في هيئة موجات متوالية ؛ تنصب بمؤثراتها الموحية على القلب البشري ، وتخاطبه بإيقاعات منوعة . . من التعجيب من أمر المشركين في استقبالهم للوحي والقرآن . إلى عرض المشاهد الكونية التي تتجلى فيها ألوهية الله سبحانه . . إلى عرض مشاهد القيامة . إلى عرض أحوال البشر في مواجهة الأحداث التي تمر بهم . إلى عرض مصارع الغابرين . . إلى آخر ما سبقت الإشارة إليه من

الموضوعات والمؤثرات التي تحتويها السورة .

وإذا جاز تقسيم السورة إلى مقاطع مميزة . فإن أكثر من نصفها الأول يعد مقطعاً واحداً يتدفق بهذه الموجات المتتابعة . ثم تجيء قصة نوح – ومن بعده في اختصار – وقصة موسى والإشارة إلى قصة يونس ؛ فتؤلف مقطعاً آخر . ثم تجيء الإيقاعات الأخيرة في السورة فتؤلف المقطع الأخير .

ونظراً لطبيعة السورة هذه فسنحاول عرضها موجة موجة – أو مجموعة من الموجات المتناسقة – كما هي طبيعتها المتميزة . .

أما هذا الدرس الأول منها فيبدأ بحروف ثلاثة . ﴿ ألف . لام . را ﴾ كما بدأت سورة البقرة وسورة آل عمران وسورة الأعراف بحروف ذكرنا الرأي الذي اخترناه في تفسيرها هناك . يبدأ بهذه الأحرف مبتدأ خبره : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ . .

(101/360)

ثم يأخذ السياق في عرض عدة أمور تبدو فيها الحكمة التي أشير إليها في وصف الكتاب . من الوحي إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لينذر الناس ويبشر المؤمنين ، والرد على المعترضين أن يوحي الله إلى بشر . . إلى خلق السماوات والأرض وتدبير الأمر فيهما . .

إلى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وتقدير منازل القمر ليعلموا عدد السنين والحساب . . إلى اختلاف الليل والنهار وما فيه من حكمة وتدبير . .

ويتطرق من عرض هذه الآيات الكونية إلى الغافلين عنها ، الذين لا يرتقبون لقاء الله مدبر كل شيء ، وما ينتظر هؤلاء الغافلين من سوء المصير ؛ وما ينتظر المؤمنين في الجانب الآخر من نعيم مقيم . ويسجل حكمة تأجيل المصير إلى يومه الموعود ، وعدم تعجيل الشر للناس كما يستعجلون هم الخير في هذه الدنيا ولو عجل لهم بالشر كما يستعجلون بالخير لانتهى الأجل وأخذوا بذنوبهم دون إمهال .

ومن ثم وصف لطبيعة البشر في تلقيهم للشر والخير . وضراعتهم إلى الله عند مس الأذى ، ونسيانهم له عند كشف الضر . ولجاجهم فيما كانوا من قبل فيه ، دون اعتبار بالقرون الخالية التي سارت في الطريق ذاته ، ولقيت مصارعها في ذلك الطريق !

ومع أن مصارع الغابرين كانت واضحة للعرب الذين يدعوهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - فإن المكذبين كانوا يطلبون إلى الرسول أن يأتي لهم بقرآن غير هذا القرآن أو يبدل بعضه .

غير متدبرين ولا مدركين أن القرآن من عند الله ، وأن له حكمة ثابتة فهو لا يقبل التبديل .

وهم يعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم دون استناد إلى شيء ، ويتركون عبادة

الله وحده وهي تستند إلى وحي من الله . ثم يطلبون خارقة من الخوارق غير ناظرين إلى آية الله الواضحة في القرآن ، غافلين عن آياته المعجزة في تضاعيف الكون .

(102/360)

ثم عودة إلى طبيعة البشر في تلقي الرحمة والضر ، وعرض نموذج حي من هذه الطبيعة ، في مشهد من المشاهد النابضة المتحركة المؤثرة . في ركوب البحر عندما تسير الفلك في أول الأمر رخاء ، ثم تعصف بها الريح ويأتيها الموج من كل مكان .

ومشهد آخر يمثل غرور هذه الحياة الدنيا ، وبريقها ولألاءها الذي ينطفئ في لحظة ، وأهلها مأخوذون بزخرفها غافلون عن المصير الخاطف المرهوب . . ذلك والله يدعو إلى دار السلام . دار الأمن والاطمئنان . الدار التي لا خوف من أخذها على حين غرة . . ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ . . ويدركون حكمة الله في الخلق والتدبير .

﴿ ألر تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ . .

من هذه الحروف وأمثالها ، تتألف آيات الكتاب الحكيم ، الذي ينكرون أن يكون الله قد أوحى به إلى الرسول . وهذه الحروف في متناول أيديهم ، ثم لا يبلغون أن يؤلفوا منها آية واحدة من مثل آيات الكتاب – كما يتحداهم في هذه السورة – ولا يقودهم هذا إلى التدبر

، وإدراك أن الوحي هو مفرق الطريق بينهم وبين الرسول ، وأنه لولا هذا الوحي لوقف وقفتهم عاجزاً عن تأليف آية واحدة ، من هذه الحروف المبذولة للجميع .

﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ . .

الحكيم الذي يخاطب البشر بما يناسب طبائع البشر ، ويعرض في هذه السورة جوانب منها صادقة باقية ، نجد مصداقها في كل جيل .

والحكيم الذي ينبه الغافلين إلى تدبر آيات الله في صفحة الكون وتضاعيفه . في السماء والأرض . وفي الشمس والقمر ، وفي الليل والنهار . . وفي مصارع القرون الأولى ، وفي قصص الرسل فيهم . . وفي دلائل القدرة الكامنة والظاهرة في هذا الوجود . .

﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ؟ قال الكافرون . إن هذا لساحر مبين ﴾ . .

سؤال استنكاري . يستنكر هذا العجب الذي تلقى به الناس حقيقة الوحي منذ كانت الرسل .

لقد كان السؤال الدائم الذي قوبل به كل رسول : أبعث الله بشراً رسولاً ؟ ومبعث هذا السؤال هو عدم إدراك قيمة " الإنسان " . عدم إدراك الناس أنفسهم لقيمة " الإنسان " الذي يتمثل فيهم . فهم يستكثرون على بشر أن يكون رسول الله ، وأن يتصل الله به – عن طريق الوحي – فيكلفه هداية الناس .

إنهم ينتظرون أن يرسل الله ملكاً أو خلقاً آخر أعلى رتبة من الإنسان عند الله . غير ناظرين إلى تكريم الله لهذا المخلوق ؛ ومن تكريمه أن يكون أهلاً لحمل رسالته ؛ وأن يختار من بين أفراده من يتصل بالله هذا الاتصال الخاص :

هذه كانت شبهة الكفار المكذبين على عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وشبهة أمثالهم في القرون الأولى . فأما في هذا العصر الحديث فيقيم بعض الناس من أنفسهم لأنفسهم شبهة أخرى لا تقل تهافتاً عن تلك !

إنهم يسألون : كيف يتم الاتصال بين بشر ذي طبيعة مادية وبين الله المخالف لطبيعة كل شيء مما خلق .

والذي ليس كمثله شيء ؟

وهو سؤال لا يحق لأحد أن يسأله إلا أن يكون قد أحاط علماً بحقيقة الله سبحانه وطبيعة ذاته الإلهية ، كما أحاط علماً بكل خصائص الإنسان التي أودعها الله إياه . وهو ما لا يدعيه أحد يحترم عقله ، ويعرف حدود هذا العقل . بل يعرف أن خصائص الإنسان

القابلة للكشف ما يزال يكشف منها جديد بعد جديد ، ولم يقف العلم بعد حتى يقال : إنه أدرك كل الخصائص الإنسانية القابلة للإدراك . فضلاً على أنه ستبقى وراء إدراك العلم والعقل دائماً آفاق من المجهول بعد آفاق !

ففي الإنسان إذن طاقات مجهولة لا يعلمها إلا الله . والله أعلم حيث يجعل رسالته في الإنسان ذي الطاقة التي تحمل هذه الرسالة . وقد تكون هذه الطاقة مجهولة للناس ، ومجهولة لصاحبها نفسه قبل الرسالة . ولكن الله الذي نفخ في هذا الإنسان من روحه عليم بما تنطوي عليه كل خلية ، وكل بنية ، وكل مخلوق ؛ وقادر على أن يطوع لإنسان هذا الاتصال الخاص بكيفية لا يدركها إلا من ذاقها وأوتيها .

(104/360)

ولقد جهد ناس من المفسرين المحدثين في إثبات الوحي عن طريق العلم للتقريب . ونحن لا نقر هذا المنهج من أساسه . فللعلم ميدان . هو الميدان الذي يملك أدواته . وللعلم آفاق هي الآفاق التي يملك أدوات كشفها ومراقبتها . والعلم لم يدع أنه يعرف شيئاً حقيقياً عن الروح . فهي ليست داخلة في نطاق عمله ، لأنها ليست شيئاً قابلاً للاختبار المادي الذي يملك العلم وسائله . لذلك تجنب العلم الملتزم للأصول العلمية أن يدخل في ميدان الروح .

أما ما يسمى " بالعلوم الروحانية " فهي محاولات وراءها الريب والشكوك في حقيقتها وفي أهدافها كذلك ! ولا سبيل إلى معرفة شيء يقيني في هذا الميدان إلا ما جاء من مصدر يقيني كالقرآن والحديث وفي الحدود التي جاء فيها بلا زيادة ولا تصرف ولا قياس . إذ أن الزيادة والتصرف والقياس عمليات عقلية . والعقل هنا في غير ميدانه . وليس معه أدواته . لأنه لم يزود بأدوات العمل في هذا الميدان .

﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ؟ ﴾ .

فهذه خلاصة الوحي : إنذار الناس بعاقبة المخالفة ، وتبشير المؤمنين بعقبى الطاعة . وهذا يتضمن بيان التكاليف الواجبة الاتباع وبيان النواهي الواجبة الاجتناب . فهذا هو الإنذار والتبشير ومقتضياتهما على وجه الإجمال .

والإنذار للناس جميعاً . فكل الناس في حاجة إلى التبليغ والبيان والتحذير : والبشرى للذين آمنوا وحدهم . وهو يبشرهم هنا بالطمأنينة والثبات والاستقرار . . تلك المعاني التي توحي بها كلمة (صدق) مضافة إلى القدم . في جو الإنذار والتخويف . ﴿ قدم صدق ﴾ . . قدم ثابتة راسخة موقنة لا تتزعزع ولا تضطرب ولا تتزلزل ولا تتردد ، في جو الإنذار وفي ظلال الخوف ، وفي ساعات الحرج . . ﴿ قدم صدق عند ربهم ﴾ . . في الحضرة التي تطمئن فيها النفوس المؤمنة . حينما تتزلزل القلوب والأقدام .

وحكمة الله واضحة في الإيحاء إلى رجل منهم . رجل يعرفهم ويعرفونه ، يطمئنون إليه ويأخذون منه ويعطونه ، بلا تكلف ولا جفوة ولا تحرج . أما حكمته في إرسال الرسل فهي أوضح ، والإنسان مهيأ بطبعه للخير والشر ، وعقله هو أداته للتمييز . ولكن هذا العقل في حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائماً كلما غم عليه الأمر ، وأحاطت به الشبهات ، وجذبته التيارات والشهوات ، وأثرت فيه المؤثرات العارضة التي تصيب البدن والأعصاب والمزاج ، فتتغير وتتبدل تقديرات العقل أحياناً من النقيض إلى النقيض . هو في حاجة إلى ميزان مضبوط لا يتأثر بهذه المؤثرات ليعود إليه ، وينزل على إرشاده ، ويرجع إلى الصواب على هداه . وهذا الميزان الثابت العادل هو هدى الله وشريعة الله .

وهذا يقتضي أن تكون لدين الله حقيقة ثابتة يرجع إليها العقل البشري بمفهوماته كلها ؛ فيعرضها على هذا الميزان الثابت ، وهناك يعرف صحيحها من خاطئها . . والقول بأن دين الله هو دائماً " مفهوم البشر لدين الله " وأنه من ثم " متطور في أصوله " يعرّض هذه القاعدة الأساسية في دين الله – وهي ثبات حقيقته وميزانه – لخطر التميع والتأرجح والدوران المستمر مع المفهومات البشرية . بحيث لا يبقى هنالك ميزان ثابت تعرض عليه

المفهومات البشرية . .

والمسافة قصيرة بين هذا القول ، والقول بأن الدين من صنع البشر . . فالنتيجة النهائية واحدة ، والمزلق خطر وخطير للغاية ، والمنهج بجملته يستوجب الحذر الشديد . . منه ومن نتائجة القريبة والبعيدة . .

ومع وضوح قضية الوحي على هذا النحو ، فإن الكافرين يستقبلونها كما لو كانت أمراً عجيباً :

﴿ قال الكافرون : إن هذا لساحر مبين ﴾ . .

ساحر لأن ما ينطق به معجز . وأولى لهم – لو كانوا يتدبرون – أن يقولوا : نبي يوحى إليه لأن ما ينطق به معجز . فالسحر لا يتضمن من الحقائق الكونية الكبرى ومن منهج الحياة والحركة ، ومن التوجيه والتشريع ما يقوم به مجتمع راقٍ ، وما يرتكز عليه نظام متفرد .

(106/360)

ولقد كان يختلط عندهم الوحي بالسحر ، لاختلاط الدين بالسحر في الوثنيات كلها ؛ ولم يكن قد وضح لهم ما يتضح للمسلم حين يدرك حقيقة دين الله ؛ فينجو من هذه الوثنيات وأوهامها وأساطيرها .

﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه . ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ؟ إليه مرجعكم جميعاً ، وعد الله حقاً ، إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون . هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون ، إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ . .

وهذه هي القضية الأساسية الكبرى في العقيدة . قضية الربوبية . . فقضية الألوهية لم تكن محل إنكار جدي من المشركين . فهم كانوا يعتقدون بوجود الله – لأن الفطرة البشرية لا تستطيع التخلي عن الاعتقاد بوجود إله لهذا الكون إلا في حالات نادرة منحرفة شديدة الانحراف – ولكنهم كانوا يشركون مع الله أرباباً يتوجهون إليهم بالعبادة . إما ليقربوهم إلى الله زلفى ويكونوا لهم شفعاء عنده كما كانوا يزاولون خصائص الربوبية فيشرعون لأنفسهم ما لم يأذن به الله .

والقرآن الكريم لا يدخل في جدل ذهني جاف بصدد قضية الألوهية والربوبية – كالذي جدَّ فيما بعد بتأثير المنطق اليوناني والفلسفة الإغريقية – إنما يلمس المنطق الفطري الواضح البسيط المباشر :

إن الله هو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهن . وجعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل . وقدر اختلاف الليل والنهار . . هذه الظواهر البارزة التي تلمس الحس ، وتوقظ القلب لو تفتح وتدبرها تدبر الواعي المدرك . . إن الله الذي خلق هذا ودبره هو الذي يليق أن يكون رباً يدين له البشر بالعبودية ولا يشركون به شيئاً من خلقه . . أليست قضية منطقية حية واقعية ، لا تحتاج إلى كد ذهن ، ولا إلى بحث وراء الأقيسة الجدلية التي يعلكها الذهن باردة جافة ، ولا تدفئ القلب مرة ولا تستجيش الوجدان ؟ !

إن هذا الكون الهائل . سماواته وأرضه . شمسه وقمره . ليله ونهاره . وما في السماوات والأرض من خلق ، ومن أمم ومن سنن ، ومن نبات ومن طير ومن حيوان ، كلها تجري على تلك السنن . .

إن هذا الليل الطامي السادل الشامل ، الساكن إلا من دبيب الرؤى والأشباح . وهذا الفجر المتفتح في سدف الليل كابتسامة الوليد الراضي . وهذه الحركة يتنفس بها الصبح فيدب النشاط في الحياة والأحياء . وهذه الظلال السارية يحسبها الرائي ساكنة وهي تدب في لطف . وهذا الطير الرائح الغادي القافز الواثب الذي لا يستقر على حال . وهذا

النبت النامي المتطلع أبداً إلى النمو والحياة . وهذه الخلائق الذاهبة الآيبة في تدافع وانطلاق .

وهذه الأرحام التي تدفع والقبور التي تبلع ، والحياة ماضية في طريقها كما شاء الله . . .

إن هذا الحشد من الصور والضلال ، والأنماط والأشكال ، والحركات والأحوال ، والرواح والذهاب ، والبلى والتجدد ، والذبول والنماء ، والميلاد والممات ، والحركة الدائبة في هذا الكون الهائل التي لا تني ولا تتوقف لحظة من ليل أو نهار . .

إن هذا كله ليستجيش كل خالجة في كيان الإنسان للتأمل والتدبر والتأثر ، حين يستيقظ القلب ، ويتفتح لمشاهدة الآيات المبثوثة في ظواهر الكون وحناياه . . والقرآن الكريم يعمد مباشرة إلى إيقاظ القلب والعقل لتدبر هذا الحشد من الصور والآيات .

(108/360)

﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ﴾ . .

إن ربكم الذي يستحق الربوبية والعبادة هو هذا الخالق ، الذي خلق السماوات والأرض .

خلقها في تقدير وحكمة وتدبير :

﴿ في ستة أيام ﴾ . .

حسب ما اقتضت حكمته أن يتم تركيبها وتنسيقها وتهيئتها لما أراده الله .

ولا ندخل في تحديد هذه الأيام الستة . فهي لم تذكر هنا لنتجه إلى تحديد مداها ونوعها .

وإنما ذكرت لبيان حكمة التقدير والتدبير في الخلق حسب مقتضيات الغاية من هذا الخلق ، وتهيئته لبلوغ هذه الغاية . .

وعلى أية حال فالأيام الستة غيب من غيب الله ، الذي لا مصدر لإدراكه إلا هذا المصدر . فعلينا أن نقف عنده ولا نتعداه . والمقصود بذكرها هو الإشارة إلى حكمة التقدير والتدبير والنظام ، الذي يسير به الكون من بدئه إلى منتهاه .

﴿ ثم استوى على العرش ﴾ . .

والاستواء على العرش . كناية عن مقام السيطرة العلوية الثابتة الراسخة ، باللغة التي يفهمها البشر ويتمثلون بها المعاني ، على طريقة القرآن القرآن في التصور (كما فصلنا هذه في فصل التخييل الحسي والتجسيم من كتاب التصوير الفني في القرآن) .

و ﴿ ثم ﴾ هنا ليست للتراخي الزماني ، إنما هي للبعد المعنوي ، فالزمان في هذا المقام لا ظل له . وليست هناك حالة ولا هيئة لم تكن لله – سبحانه – ثم كانت . فهو – سبحانه – منزه عن الحدوث وما يتعلق به من الزمان والمكان . لذلك نجزم بأن ﴿ ثم ﴾ هنا للبعد المعنوي ، ونحن آمنون من أننا لم نتجاوز المنطقة المأمونة التي يحق فيها للعقل البشري أن يحكم ويجزم . لأننا نستند إلى قاعدة كلية في تنزيه الله سبحانه عن تعاقب الهيئات

والحالات ، وعن مقتضيات الزمان والمكان .

﴿ يدبر الأمر ﴾ . .

ويقدر أوائله وأواخره ، وينسق أحواله ومقتضياته ، ويرتب مقدماته ونتائجه ، ويختار الناموس الذي يحكم خطواته وأطواره ومصائره .

﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ . .

(109/360)

فالأمر كله له ، والحكم كله إليه . وما من شفعاء يقربون إلى الله زلفى . وما من شفيع من خلقه إلا حيث يأذن له بالشفاعة ، وفقاً لتدبيره وتقديره ، واستحقاق الشفاعة بالإيمان والعمل الصالح ، لا بمجرد التوسل بالشفعاء . . وهذا يواجه ما كانوا يعتقدونه من أن للملائكة التي يعبدون تماثيلها شفاعة لا ترد عند الله !

ذلكم الله الخالق المدبر الحاكم الذي لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه .

. ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ . . الخليق بالربوبية ﴿ فاعبدوه ﴾ فهو الذي يستحق الدينونة له دون سواه . . ﴿ أفلا تذكرون ﴾ ؟ . . فالأمر من الثبوت والوضوح بحيث لا يحتاج إلا لمجرد التذكر لهذه الحقيقة المعروفة . .

ونقف لحظة أمام قوله تعالى بعد عرض دلائل الألوهية في السماوات والأرض :

﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه ﴾ . .

وقد قلنا : إن قضية الألوهية لم تكن محل إنكار جدي من المشركين ، فقد كانوا يعترفون بأن الله – سبحانه – هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر المتصرف القادر على كل شيء . . ولكن هذا الاعتراف لم تكن تتبعه مقتضياته . فلقد كان من مقتضى هذا الاعتراف بألوهية الله على هذا المستوى أن تكون الربوبية له وحده في حياتهم . . والربوبية تتمثل في الدينونة له وحده ؛ فلا يتقدمون بالشعائر التعبدية إلا له ؛ ولا يحكمون في أمرهم كله غيره . . وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه ﴾ . .

فالعبادة هي العبودية ، وهي الدينونة ، وهي الاتباع والطاعة ، مع إفراد الله سبحانه بهذه الخصائص كلها ، لأنها من مقتضيات الاعتراف بالألوهية .

وفي الجاهليات كلها ينحسر مجال الألوهية . ويظن الناس أن الاعتراف بالألوهية في ذاته هو الإيمان ؛ وأنه متى اعترف الناس بأن الله إلههم فقد بلغوا الغاية ؛ دون أن يرتبوا على الألوهية مقتضاها وهو الربوبية . . أي الدينونة لله وحده ليكون هو ربهم الذي لا رب غيره ، وحاكمهم الذي لا سلطان لأحد إلا بسلطانه . .

كذلك ينحسر معنى " العبادة " في الجاهلية ، حتى يقتصر على مجرد تقديم الشعائر . ويحسب الناس أنهم متى قدموا الشعائر لله وحده ، فقد عبدوا الله وحده . . بينما كلمة العبادة ابتداء مشتقة من عبد . و " عبد " تفيد ابتداء " دان وخضع " . وما الشعائر إلا مظهر واحد من مظاهر الدينونة والخضوع لا يستغرق كل حقيقة الدينونة ولا كل مظاهرها .

والجاهلية ليست فترة من الزمان ، ولا مرحلة من المراحل . إنما هي انحسار معنى الألوهية على هذا النحو ، معنى العبادة . هذا الانحسار الذي يؤدي بالناس إلى الشرك وهم يحسبون أنهم في دين الله ! كما هو الحال اليوم في كل بلاد الأرض ، بما فيها البلاد التي يتسمى أهلها بأسماء المسلمين ، ويؤدون الشعائر لله ، بينما أربابهم غير الله ، لأن ربهم هو الذي يحكمهم بسلطانه وشريعته ، وهو الذي يدينون له ويخضعون لأمره ونهيه ، ويتبعون ما يشرعه لهم ، وبذلك يعبدونه كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " . . فاتبعوهم . فذلك عبادتهم إياهم " في حديث عدي بن حاتم الذي أخرجه الترمذي .

ولتوكيد معنى العبادة المقصود جاء في السورة ذاتها قوله تعالى : ﴿ قل : أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً . قل : آلله أذن لكم أم على الله تفترون ؟ ﴾

وما نحن فيه اليوم لا يفترق في شيء عما كان عليه أهل الجاهلية هؤلاء الذين يناديهم الله

بقوله :

﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه . أفلا تذكرون ! ﴾ . .

اعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . فإن مرجعكم إليه ، وحسابكم عنده ، وهو يجزي المؤمنين والكافرين :

﴿ إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً ﴾ . .

إليه وحده لا للشركاء والشفعاء .

وقد وعد فلا خلف ولا تخلف ، فالبعث هو تتمة الخلق :

﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ . .

فالعدل في الجزاء غاية من غايات الخلق والإعادة :

(111/360)

﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط . . . ﴾ .

والنعيم بلا منغصات وبدون عقابيل تعقب اللذة غاية من غايات الخلق والإعادة . إنها قمة الكمال البشري الذي يمكن أن تصل إليه البشرية لا تصل إلى شيء من هذا في هذه الأرض

وفي هذه الحياة الدنيا المشوبة بالقلق والكدر ، والتي لا تخلو فيها لذة من غصة ، أو من عقابيل تعقبها – إلا لذائذ الروح الخاصلة وهذه قلما تخلص لبشر – ولو لم يكن في هذه الحياة الدنيا إلا الشعور بنهاية نعيمها لكان هذا وحده ناقصاً منها وحائلاً دون كمالها . فالبشرية لا تصل في هذه الأرض إلى أعلى الدرجات المقدرة لها ، وهي التخلص من النقص والضعف ومعقباتهما ، والاستمتاع بلا كدر ولا خوف من الفوت ولا قلق من الانتهاء . . وهذا كله تبلغه في الجنة كما وصف القرآن نعيمها الكامل الشامل . فلا جرم يكون من غاية الخلق والإعادة إبلاغ المهتدين من البشرية ، الذين اتبعوا سنة الحياة الصحيحة وناموس الحياة القويم ، إلى أعلى مراتب البشرية .

فأما الذين كفروا فقد خالفوا عن الناموس ، فلم يسيروا في طريق الكمال البشري ، بل جانبوه ، وهذا يقتضي – حسب السنة التي لا تتخلف – ألا يصلوا إلى مرتبة الكامل ، لأنهم جانبوا قانون الكمال ؛ وأن يلقوا عاقبة انحرافهم كما يلقى المريض عاقبة انحرافه عن قوانين الصحة الجسدية . هذا يلقاه مرضاً وضعفاً ، وأولئك يلقونه تردياً وانتكاساً ، وغصصاً بلا لذائذ – في مقابل اللذائذ بلا غصص .

﴿ والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ . .

وبعد هذه اللفتة من آيات الله في خلق السماوات والأرض إلى عبادة الله وحده ، الذي إليه المرجع وعنده الجزاء . . يعود السياق إلى الآيات الكونية التالية في وجودها وضخامتها

للسماوات والأرض :

﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق . يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ . .

(112/360)

فهذان مشهدان بارزان من مشاهد الكون ، ننساهما لطول الألفة ، ونفقد وقعهما في القلب بطول التكرار ، وإلا فكيف وهلة الإنسان وهو يشاهد أول مرة أول شروق شمس وأول غروب ، وأول مطلع قمر وأول مغيب ؟

هذان مشهدان مألوفان مكروران يردنا القرآن إليهما ، ليثير في مشاعرنا وهلة الجدة ، وليحيي في قلوبنا إحساس التطلع الحي ، والتأمل الذي لم يبلده التكرار ، والتيقظ لما في خلقهما وطبيعة تكوينهما من التدبير المحكم :

﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء ﴾ .

.

فيها اشتعال .

﴿ والقمر نوراً ﴾ . .

فيه إنارة .

﴿ وقدره منازل ﴾ . .

ينزل في كل ليلة منزلاً يكون فيه على هيئة خاصة ، كما هو مشهود في القمر ، بدون حاجة إلى علوم فلكية لا يدركها إلا المتخصصون .

﴿ لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ . .

وما تزال المواقيت والمواعيد تضبط بالشمس والقمر لكافة الناس .

هل هذا كله عبث ؟ هل هذا كله باطل ؟ هل هذا كله مصادفة ؟

كلا ما يكون كل هذا النظام ، وكل هذا التناسق ، وكل هذه الدقة التي لا تتخلف معها حركة . ما يكون هذا كله عبثاً ولا باطلاً ولا مصادفة عابرة :

﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ . .

الحق قوامه . الحق أداته . والحق غايته . والحق ثابت راجح راسخ . وهذه الدلائل التي تشهد به واضحة قائمة دائمة :

﴿ يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ . .

فالمشاهد التي تعرض هنا في حاجة إلى العلم لإدراك التدبير الكامن وراء المشاهد والمناظر .

ومن خلق السماوات والأرض ، ومن جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وتقديره منازل تنشأ

ظاهرة الليل والنهار ، وهي ظاهرة موحية لمن يفتح قلبه لإيحاء المشاهد والظواهر في هذا الكون العجيب :

﴿ إن في اختلاف الليل والنهار ، وما خلق الله في السماوات والأرض . . لآيات لقوم يتقون ﴾ . .

(113/360)

واختلاف الليل والنهار تعاقبهما . ويشمل كذلك اختلافهما طولاً وقصراً ، وكلتاهما ظاهرتان مشهودتان تذهب ألفة المشاهدة بجدة وقعهما في الحس . إلا في اللحظات التي تستيقظ فيها النفس ، وينتفض فيها الوجدان للمطالع والمغارب ، فيقف في الشروق وفي الغروب وقفة الإنسان الجديد في هذا الكون ، يتطلع إلى كل ظاهرة جديدة فيه بعين مفتوحة وحس مستجيب . وهي هي اللحظات التي يحياها الإنسان حياة كاملة حقيقية ، وينفض فيها التيبس الذي خلفته الألفة في أجهزة الأستقبال والاستجابة . .

﴿ وما خلق الله في السماوات والأرض ﴾ . .

ولو وقف الإنسان لحظة واحدة يرقب ﴿ وما خلق الله في السماوات والأرض ﴾ ويستعرض هذا الحشد الذي لا يحصى من الأنواع والأجناس ، والهيئات والأحوال ،

والأوضاع والأشكال . لو وقف لحظة واحدة لامتلأ وطابه وفاض بما يغنيه حياته كلها ، ويشغله بالتدبر والتفكر والتأثر ما عاش . . ودع خلق السماوات والأرض وإنشاءهما وتكوينهما على هذا النحو العجيب ، فذلك ما يوجه إليه القلب بالإشارة السريعة ، ثم يتركه ليتملاه . . إن في ذلك كله :

﴿ لآيات لقوم يتقون ﴾ . .

تستشعر قلوبهم هذا الوجدان الخاص . وجدان التقوى . الذي يدع هذه القلوب مستجاشة حساسة ، سريعة التأثر والاستجابة لمجالي القدرة ومظاهر الإبداع ومعجزات الخلق المعروضة للأنظار والأسماع .

هذا هو منهج القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية بآيات الله الكونية ، المبثوثة حول الإنسان في هذا الكون ؛ والتي يعلم الله سبحانه أن بينها وبين فطرة الكائن البشري لغة مفهومة ، وإيحاءات مسموعة !

ولم يلجأ المنهج القرآني إلى الأسلوب الجدلي الذي جد فيما بعد عند المتكلمين والفلاسفة ؛ لأن الله يعلم أن هذا الأسلوب لا يصل إلى القلوب ولا يتجاوز منطقة الذهن الباردة التي لا تدفع إلى حركة ؛ ولا تؤدي إلى بناء حياة ؛ وقصارى ما تنتهي إليه حركة في الذهن البارد تتلاشى في الهواء !

ولكن الأدلة التي يقدمها المنهج القرآني – بأسلوبه هذا – هي أقوى الأدلة المقنعة للقلب والعقل جميعاً – وهذه ميزتها – فإن وجود هذا الكون ذاته أولاً .

ثم حركته المنتظمة المتسقة المضبوطة ؛ وما يقع فيه من تحولات وتغيرات تضبطها قوانين واضحة الأثر – حتى قبل أن يعرفها البشر – ثانياً . . إن هذا كله لا يمكن تفسيره بغير تصور قوة مدبرة . .

والذين يمارون في هذه الحقيقة لا يقدمون في مكانها دليلاً معقولاً . ولا يزيدون على أن يقولوا : إن الكون وجد هكذا بقوانينه ؛ وأن وجوده لا يحتاج إلى تعليل ؛ ووجوده يتضمن قوانينه ! فإن كان هذا كلاماً مفهوماً – أو معقولاً – فذاك !

ولقد كان هذا الكلام يقال للهروب من الله في أوربا ؛ لأن الهروب من الكنيسة اقتضاهم هنالك الهروب من الله ! ثم أصبح يقال هنا وهناك ، لأنه الوسيلة إلى التخلص من مقتضى الاعتراف بألوهية الله . ذلك أن مشركي الجاهليات القديمة كان معظمهم يعترف بوجود الله ، ثم يماري في ربوبيته ، على نحو ما رأينا في الجاهلية العربية التي واجهها هذا القرآن أول مرة . فلقد كان البرهان القرآني يحاصرهم بمنطقهم هم وعقيدتهم في وجود الله سبحانه وصفاته . ويطالبهم بمقتضى هذا المنطق ذاته أن يجعلوا الله وحده ربهم ؛ فيدينوا له وحده بالاتباع والطاعة في الشعائر والشرائع . . فأما جاهلية القرن العشرين فتريد أن تخلص من

ثقل هذا المنطق بالهروب من الألوهية ذاتها ابتداء !

ومن العجيب أنه في البلاد التي تسمى " إسلامية " يروَّج بكل وسيلة ظاهرة أو خفية لهذا الهروب الفاضح باسم " العلم " و " العلمية " ! فيقال : إن " الغيبية " لا مكان لها في الأنظمة " العلمية " . . ومن الغيب كل ما يتعلق بالألوهية . . ! ومن هذا المنفذ الخلفي يحاول الآبقون من الله الهروب . لا يخشون الله إنما يخشون الناس ، فيحتالون عليهم هذا الاحتيال !

(115/360)

وما تزال دلالة وجود الكون ذاته ، ثم حركته المنتظمة المتسقة المضبوطة . تحاصر الهاربين من الله هنا وهناك . والفطرة البشرية بجملتها – قلباً وعقلاً وحساً ووجداناً – تواجه هذه الدلالة ، وتستجيب لها . وما يزال المنهج القرآني هذا يخاطب الفطرة بجملتها . يخاطبها من أقصر طريق ، ومن أوسع طريق وأعمق طريق ! ! !

والذين يرون كل هذا ، ثم لا يتوقعون لقاء الله ؛ ولا يدركون أن من مقتضيات هذا النظام المحكم أن تكون هناك آخرة ، وأن الدنيا ليست النهاية ، لأن البشرية لم تبلغ فيها كمالها المنشود ؛ والذين يمرون بهذه الآيات كلها غافلين ، لا تحرك فيهم قلباً يتدبر ، ولا عقلاً

يتفكر .

. هؤلاء لن يسلكوا طريق الكمال البشري ، ولن يصلوا إلى الجنة التي وعد المتقون . إنما الجنة للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، حيث يفرغون من نصب الدنيا وصغارها إلى تسبيح الله وحمده في رضاء مقيم :

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ، تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم . وتحيتهم فيها سلام . وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ . .

(116/360)

إن الذين لا يتدبرون النظام الكوني الموحي بأن لهذا الكون خالقاً مدبراً ، لا يدركون أن الآخرة ضرورة من ضرورات هذا النظام ، يتم فيها تحقيق القسط والعدل ؛ كما يتم فيها إبلاغ البشرية إلى آفاقها العليا ، ومن ثم فهم لا يتوقعون لقاء الله ، ونتيجة لهذا القصور يقفون عند الحياة الدنيا ، بما فيها من نقص وهبوط ، ويرضونها ويستغرقون فيها ، فلا ينكرون فيها نقصاً ، ولا يدركون أنها لا تصلح أن تكون نهاية للبشر ؛ وهم يغادرونها لم يستوفوا كل

جزائهم على ما عملوا من خير أو اجترحوا من شر ، ولم يبلغوا الكمال الذي تهيئهم له بشريتهم . والوقوف عند حدود الدنيا وارتضاؤها يظل يهبط بأصحابه ثم يهبط ، لأنهم لا يرفعون رؤوسهم إلى قمة ، ولا يتطلعون بأبصارهم إلى أفق . إنما يخفضون رؤوسهم وأبصارهم دائماً إلى هذه الأرض وما عليها ! غافلين عن آيات الله الكونية التي توقظ القلب ، وترفع الحس ، وتحفز إلى التطلع والكمال . .

﴿ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ . .

وبئس المأوى وبئس المصير !

وفي الضفة الأخرى الذين آمنوا وعملوا الصالحات . الذين آمنوا فأدركوا أن هناك ما هو أعلى من هذه الحياة الدنيا ، وعملوا الصالحات بمقتضى هذا الإيمان ، تحقيقاً لأمر الله بعمل الصالحات ، وانتظاراً للآخرة الطيبة . . وطريقها هو الصالحات . . هؤلاء .

﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ . .

يهديهم إلى الصالحات بسبب هذا الإيمان الذي يصل ما بينهم وبين الله ، ويفتح بصائرهم على استقامة الطريق ، ويهديهم إلى الخير بوحي من حساسية الضمير وتقواه . . هؤلاء يدخلون الجنة .

﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ . .

وما يزال الماء ولن يزال يوحي بالخصب والري والنماء والحياة . .

فما همومهم في هذه الجنة وما هي شواغلهم ، وما هي دعواهم التي يحبون تحقيقها ؟ إن همومهم ليست مالاً ولا جاهاً ، وإن شواغلهم ليست دفع أذى ولا تحصيل مصلحة . لقد كفو شر ذلك كله ، ولقد اكتفوا فما لهم من حاجة من تلك الحاجات ، ولقد استغنوا بما وهبهم الله ، ولقد ارتفعوا عن مثل هذه الشواغل والهموم ، إن أقصى ما يشغلهم حتى ليوصف بأنه ﴿ دعواهم ﴾ هو تسبيح الله أولاً وحمده أخيراً .

يتخلل هذا وذاك تحيات بينهم وبين أنفسهم وبينهم وبين ملائكة الرحمن :

﴿ دعواهم فيها : سبحانك اللهم . وتحيتهم فيها سلام . وآخر دعواهم : أن الحمد لله رب العالمين ﴾ . .

إنه الانطلاق من هموم الحياة الدنيا وشواغلها ، والارتفاع عن ضروراتها وحاجاتها ، والرفرفة في آفاق الرضى والتسبيح والحمد والسلام . تلك الآفاق اللائقة بكمال الإنسان .

بعد ذلك يواجه السياق القرآني تحديهم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطلبهم تعجيل العذاب الذي يتوعدهم به ؛ ببيان أن تأجيله إلى أجل مسمى هو حكمة من الله ورحمة .

ويرسم لهم مشهدهم حين يصيبهم الضر فعلاً ، فتتعرى فطرتهم من الركام وتتجه إلى

خالقها . فإذا ارتفع الضر عاد المسرفون إلى ما كانوا فيه من غفلة . ويذكرهم مصارع الغابرين الذين استخلفوا هم من بعدهم ؛ ويلوح لهم بمثل هذا المصير ؛ ويبين لهم أن الحياة الدنيا إنما هي للابتلاء وبعدها الجزاء . .

﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم ، فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون . وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون . ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزي القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ .

(118/360)

ولقد كان المشركون العرب يتحدون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعجل لهم العذاب . . ومما حكاه الله تعالى عنهم في هذه السورة : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ وورد في غيرها : ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ﴾ كما حكى القرآن الكريم قولهم : ﴿ وإذ قالوا : اللهم إن كان هذا هو

الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ وكل هذا يصور حالة العناد التي كانوا يواجهون بها هدى الله . . وقد شاءت حكمته أن يؤجلهم ، فلا يوقع بهم عذاب الاستئصال والهلاك كما أوقعه بالمكذبين قبلهم . فقد علم الله أن كثرتهم ستدخل في هذا الدين ، فيقوم عليها ، وينطلق في الأرض بها . وكان ذلك بعد فتح مكة ، مما كانوا يجهلونه وهم يتحدون في جهالة ! غير عالمين بما يريده الله بهم من الخير الحقيقي . لا الخير الذي يستعجلونه استعجالهم بالشر !

والله سبحانه يقول لهم في الآية الأولى : إنه لو عجل لهم بالشر الذي يتحدون باستعجاله ، استعجالهم بالخير الذي يطلبونه . . لو استجاب الله لهم في استعجالهم كله لقضى عليهم ، وعجل بأجلهم ! ولكنه يستبقيهم لما أجلهم له . . ثم يحذرهم من هذا الإمهال أن يغفلوا عما رواءه . فالذين لا يرجون لقاءه سيظلون في عمايتهم يتخبطون ، حتى يأتيهم الأجل المرسوم .

وبمناسبة الحديث عن استعجال الشر يعرض صورة بشرية للإنسان عندما يمسه الضر ، تكشف عن التناقض في طبيعة هذا الإنسان الذي يستعجل الشر وهو يشفق من مس الضر ، فإذا كشف عنه عاد إلى ما كان فيه :

﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ؛ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن

لم يدعنا إلى ضر مسه .

كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ . .

(119/360)

إنها صورة مبدعة لنموذج بشري مكرور . . وإن الإنسان ليظل مدفوعاً مع تيار الحياة ، يخطئ ويذنب ويطغى ويسرف ، والصحة موفورة ، والظروف مواتية . وليس – إلا من عصم الله ورحم – من يتذكر في إبان قوته وقدرته أن هناك ضعفاً وأن هناك عجزاً . وساعات الرخاء تُنسي . والإحساس بالغنى يُطغي . . ثم يمسه الضر فإذا هو جزوع هلوع ، وإذا هو كثير الدعاء ، عريض الرجاء ، ضيق بالشدة مستعجل للرخاء . فإذا استجيب الدعاء وكشف الضر انطلق لا يعقب ولا يفكر ولا يتدبر . انطلق إلى ما كان فيه من قبل من اندفاع واستهتار .

والسياق ينسق خطوات التعبير وإيقاعه مع الحالة النفسية التي يصورها ، والنموذج البشري الذي يعرضه . فيصور منظر الضر في بطء وتلبث وتطويل :

﴿ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ﴾ . .

يعرض كل حالة وكل وضع وكل منظر ، ليصور وقفة هذا الإنسان وقد توقف التيار الدافع

في جسمه أو في ماله أو في قوته كما يتوقف التيار أمام السد ، فيقف أو يرتد . حتى إذا رفع الحاجز " مر " كلمة واحدة تصور الاندفاع والمروق والانطلاق . " مر " لا يتوقف .

ليشكر ، ولا يلتفت ليتدبر ، ولا يتأمل ليعتبر :

﴿ مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ . .

واندفع مع تيار الحياة دون كابح ولا زاجر ولا مبالاة !

وبمثل هذه الطبيعة . طبيعة التذكر فقط عند الضر ، حتى إذا ارتفع انطلق ومر . بمثل هذه الطبيعة استمر المسرفون في إسرافهم ، لا يحسون ما فيه من تجاوز للحدود :

﴿ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ . .

فماذا كانت نهاية الإسراف في القرون الأولى ؟

﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ . .

لقد انتهى بهم الإسراف وتجاوز الحد والظلم – وهو الشرك – إلى الهلاك . وهذه مصارعهم كانوا يرون بقيتها في الجزيرة العربية في مساكن عاد وثمود وقرى قوم لوط . .

وتلك القرون . جاءتهم رسلهم بالبينات كما جاءكم رسولكم :

﴿ وما كانوا ليؤمنوا ﴾ . .

لأنهم لم يسلكوا طريق الإيمان ، وسلكوا طريق الطغيان فأبعدوا فيها ، فلم يعودوا مهيئين للإيمان . فلقوا جزاء المجرمين . .

﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ . .

وإذ يعرض عليهم نهاية المجرمين ، الذين جاءتهم رسلهم بالبينات فلم يؤمنوا ، فحق عليهم العذاب ، يذكرهم أنهم مستخلفون في مكان هؤلاء الغابرين ، وأنهم مبتلون بهذا الاستخلاف ممتحنون فيما استخلفوا فيه :

﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ . .

وهي لمسة قوية للقلب البشري ؛ إذ يدرك أنه مستخلف في ملك أديل من مالكيه الأوائل ، وأجلي عنه أهله الذين سبق لهم أن مكنوا فيه ، وأنه هو بدوره زائل عن هذا الملك ، وإنما هي أيام يقضيها فيه ، ممتحناً بما يكون منه ، مبتلى بهذا الملك ، محاسباً على ما يكسب ، بعد بقاء فيه قليل !

إن هذا التصور الذي ينشئه الإسلام في القلب البشري .

. فوق أنه يريه الحقيقة فلا تخدعه عنها الخدع . . يظل يثير فيه يقظة وحساسية وتقوى ، هي صمام الأمن له ، وصمام الأمن للمجتمع الذي يعيش فيه .

إن شعور الإنسان بأنه مبتلى وممتحن بأيامه التي يقضيها على الأرض ، وبكل شيء يملكه ،

وبكل متاع يتاح له ، يمنحه مناعة ضد الاغترار والانخداع والغفلة ؛ ويعطيه وقاية من الاستغراق في متاع الحياة الدنيا ، ومن التكالب على هذا المتاع الذي هو مسؤول عنه وممتحن فيه .

وإن شعوره بالرقابة التي تحيط به ، والتي يصورها قول الله سبحانه :

﴿ لننظر كيف تعملون ﴾ . .

ليجعله شديد التوقي ، شديد الحذر ، شديد الرغبة في الإحسان ، وفي النجاة أيضاً من هذا الامتحان !

(121/360)

وهذا مفرق الطريق بين التصور الذي ينشئه الإسلام في القلب البشري بمثل هذه اللمسات القوية ؛ والتصورات التي تخرج الرقابة الإلهية والحساب الأخروي من حسابها ! . . فإنه لا يمكن أن يلتقي اثنان أحدهما يعيش بالتصور الإسلامي والآخر يعيش بتلك التصورات القاصرة . . لا يمكن أن يلتقيا في تصور للحياة ، ولا في خلق ، ولا في حركة ؛ كما لا يمكن أن يلتقي نظامان إنسانيان يقوم كل منهما على قاعدة من هاتين القاعدتين اللتين لا تلتقيان ! والحياة في الإسلام حياة متكاملة القواعد والأركان . ويكفي أن نذكر فقط مثل هذه

الحقيقة الأساسية في التصور الإسلامي ؛ وما ينشأ عنها من آثار في حركة الفرد والجماعة . وهي من ثم لا يمكن خلطها بحياة تقوم على غير هذه الحقيقة ، ولا بمنتجات هذه الحياة أيضاً !

والذين يتصورون أنه من الممكن تطعيم الحياة الإسلامية ، والنظام الإسلامي ، بمنتجات حياة أخرى ونظام آخر ، لا يدركون طبيعة الفوارق الجذرية العميقة بين الأسس التي تقوم عليها الحياة في الإسلام والتي تقوم عليها الحياة في كل نظام بشري من صنع الإنسان !

وهنا يتحول السياق من خطابهم إلى عرض نماذج من أعمالهم بعد استخلافهم .

لقد استخلفوا بعد القوم المجرمين . فماذا فعلوا ؟

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بيِّنات قال الذين لا يرجون لقاءنا : ائت بقرآن غير هذا أو بدّله . قل : ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ، إن أتبع إلا ما يوحى إلي ، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل : لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله . أفلا تعقلون ؟ فمن أظلم من افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ؟ إنه لا يفلح المجرمون ﴾ . .

﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ؛ ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

قل : أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون .

وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون . ويقولون : لولا أنزل عليه آية من ربه ، فقل : إنما الغيب لله ، فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ . .

هكذا كان عملهم بعد الاستخلاف ، وهكذا كان سلوكهم مع الرسول ! ! !

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بيِّنات قال الذين لا يرجون لقاءنا : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴾ . .

وهو طلب عجيب لا يصدر عن جد ، إنما يصدر عن عبث وهزل ؛ وعن جهل كذلك بوظيفة هذا القرآن وجدية تنزيله . وهو طلب لا يطلبه إلا الذين لا يظنون أنهم سيلقون الله !

إن هذا القرآن دستور حياة شامل ، منسق بحيث يفي بمطالب هذه البشرية في حياتها الفردية والجماعية ، ويهديها إلى طريق الكمال في حياة الأرض بقدر ما تطيق ، ثم إلى الحياة الأخرى في نهاية المطاف . ومن يدرك القرآن على حقيقته لا يخطر له أن يطلب سواه ، أو يطلب تبديل بعض أجزائه .

وأغلب الظن أن أولئك الذين لا يتوقعون لقاء الله ؛ كانوا يحسبون المسألة مسألة مهارة ،

ويأخذونها مأخذ المباريات في أسواق العرب في الجاهلية . فما على محمد أن يقبل التحدي ويؤلف قرآناً آخر ، أو يؤلف جزءاً مكان جزء ؟ !

﴿ قل : ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي . إن أتبع إلا ما يوحى إلي . إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ . .

إنها ليست لعبة لاعب ولا مهارة شاعر . إنما هو الدستور الشامل الصادر من مدبر الكون كله ، وخالق الإنسان وهو أعلم بما يصلحه . فما يكون للرسول أن يبدله من تلقاء نفسه . وإن هو إلا مبلغ متبع للوحي الذي يأتيه . وكل تبديل فيه معصية وراءها عذاب يوم عظيم .

﴿ قل : لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به . فقد لبثت فيكم عمراً من قبله . أفلا تعقلون ؟ ﴾ .

(123/360)

إنه وحي من الله ، وتبليغه لكم أمر من الله كذلك . ولو شاء الله ألا أتلوه عليكم ما تلوته ، ولو شاء الله ألا يعلمكم به ما أعلمكم . فالأمر كله لله في نزول هذا القرآن وفي تبليغه للناس . قل لهم هذا . وقل لهم : إنك لبثت فيهم عمراً كاملاً من قبل الرسالة . أربعين سنة . فلم تحدثهم بشيء من هذا القرآن . لأنك لم تكن تملكه . لم يكن قد أوحي إليك . ولو كان في

استطاعتك عمل مثله أو أجزاء منه فما الذي أقعدك عمراً كاملاً ؟

ألا إنه الوحي الذي لا تملك من أمره شيئاً إلا البلاغ . .

وقل لهم : ما كان لي أن أفتري على الله الكذب ، وأن أقول : إنه أوحي إلي إلا بالحق . فليس هنالك ما هو أشد ظلماً ممن يفتري على الله أو من يكذب بآيات الله :

﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ؟ ﴾ .

.

وأنا أنهاكم عن ثانية الجريمتين ، وهي التكذيب بآيات الله ، فلا أرتكب أولاهما ولا أكذب على الله :

﴿ إنه لا يفلح المجرمون ﴾ . .

ويستمر السياق يعرض ما فعلوه وما قالوه بعد استخلافهم في الأرض ، غير هذا الهزل في طلب قرآن جديد . .

﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل : اتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات والأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ . .

والنفس حين تنحرف لا تقف عند حد من السخف . وهذه الأرباب المتعددة التي يعبدونها لا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً ، ولكنهم يظنونها تشفع لهم عند الله :

﴿ ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ . .

﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض ؟ ﴾ . .

فالله سبحانه لا يعلم أن هناك من يشفع عنده مما تزعمون ! فهل تعلمون أنتم ما لا يعلمه الله وتنبئونه بما لا يعلم له وجوداً في السماوات ولا في الأرض ؟ !

إنه أسلوب ساخر يليق بهذا السخف الذي يلجون فيه . يعقبه التنزيه لله عما لا يليق بجلاله مما يدعون :

﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ . .

(124/360)

وقبل أن يمضي في عرض ما قالوه وما فعلوه ، يعقب على هذا الشرك ، بأنه عارض .

والفطرة في أصلها كانت على التوحيد ، ثم جد الخلاف بعد حين :

﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾ . .

وقد اقتضت مشيئة الله أن يمهلهم جميعاً إلى أجل يستوفونه ، وسبقت كلمته بذلك فنفذت لحكمة يريدها :

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون ﴾ . .

وبعد هذا التعقيب يمضي في الاستعراض لما يقول المستخلفون :

﴿ ويقولون : لولا أنزل عليه آية من ربهَ فقل : إنما الغيب لله ، فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ . .

فكل الآيات التي يحتويها هذا الكتاب العظيم المعجز لا تكفيهم . وكل آيات الله المبثوثة في تضاعيف الكون لا تكفيهم . وهم يقترحون خارقة كخوارق الرسل في الأمم قبلهم . غير مدركين طبيعة الرسالة المحمدية . وطبيعة معجزتها . فهي ليست معجزة وقتية تنتهي بمشاهدة جيل ، إنما هي المعجزة الدائمة التي تخاطب القلب والعقل في جيل بعد جيل . ويوجه الله رسوله أن يحيلهم على الله الذي يعلم ما في غيبه ، ويقدر إن كان سيبرز لهم خارقة أو لا يبرز :

﴿ فقل : إنما الغيب لله . فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ . .

وهو جواب في طيه الإمهال وفي طيه التهديد . . وفي طيه بعد ذلك بيان حدود العبودية في جانب الألوهية . فإن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو أعظم الأنبياء المرسلين ، لا يملك من أمر الغيب شيئاً ، فالغيب كله لله . ولا يملك من أمر الناس شيئاً ، فأمرهم موكول إلى الله . . وهكذا يتحدد مقام العبودية في جانب مقام الألوهية ، ويخط خط بارز فاصل بين الحقيقتين لا شبهة بعده ولا ريبة .

وحين ينتهي السياق من عرض ما يقول المستخلفون وما يفعلون ، يعود إلى الحديث عن بعض طبائع البشر ، حين يذوقون الرحمة بعد الضر . كما تحدث من قبل عنهم حين يصيبهم الضر

ثم ينجون منه . ويضرب لهم مثلاً مما يقع في الحياة يصدق ذلك ، فيقدمه في صورة مشهد قوي من مشاهد القرآن التصويرية :

(125/360)

﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم ، إذا لهم مكر في آياتنا . قل : الله أسرع مكراً ، إن رسلنا يكتبون ما تمكرون . هو الذي يسيركم في البر والبحر ، حتى إذا كنتم في الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق . يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ . .

عجيب هذا المخلوق الإنساني لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة ، ولا يثوب إلى فطرته وينزع عنها ما غشاها من شوائب وانحرافات إلا في ساعة الكربة . فإذا أمن فإما النسيان وإما الطغيان . . ذلك إلا من اهتدى فبقيت فطرته سليمة حية مستجيبة في كل آن ، مجلوة دائماً بجلاء الإيمان .

﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم ، إذا لهم مكر في آياتنا ﴾ . .

كذلك صنع قوم فرعون مع موسى . فكلما أخذوا بعذاب استغاثوا به ووعدوا بالعدول عما هم فيه . فإذا ذاقوا الرحمة مكروا في آيات الله وأولوها على غير وجهها ، وقالوا : إنما رفع عنا الرجز بسبب كذا وكذا . . وكذلك صنعت قريش وقد أجدبت وخافت الهلاك ، فجاءت محمداً تناشده الرحم أن يدعو الله فدعاه فاستجاب له بالسقيا ، ثم مكرت قريش بآية الله وظلت فيما هي فيه ! وهي ظاهرة مطردة في الإنسان ما لم يعصمه الإيمان .

﴿ قل : الله أسرع مكراً . إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ . .

فالله أقدر على التدبير وإبطال ما يمكرون . ومكرهم مكشوف لديه ومعروف ، والمكر المكشوف إبطاله مضمون :

﴿ إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ . .

فلا شيء منه يخفى ، ولا شيء منه ينسى . أما من هم هؤلاء الرسل وكيف يكتبون ، فذلك غيب من الغيب الذي لا نعرف عنه شيئاً إلا من مثل هذا النص ، فعلينا أن ندركه دون ما تأويل ولا إضافة لدلالة اللفظ الصريح .

ثم ذلك المشهد الحي ، الذي يعرض كأنه يقع ، وتشهده العيون ، وتتابعه المشاعر ، وتخفق معه القلوب ، يبدأ بتقرير القدرة المسيطرة المهيمنة على الحركة والسكون :

﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر ﴾ . .

ذلك أن السورة كلها معرض لتقرير هذه القدرة التي تسيطر على أقدار الكون كله بلا شريك .

ثم ها نحن أولاء أمام المشهد القريب :

﴿ حتى إذا كنتم في الفلك ﴾ .

.

وها هي ذي الفلك تتحرك رخاء . .

﴿ وجرين بهم بريح طيبة ﴾ . .

وهذه مشاعر أهل الفلك ندركها :

﴿ وفرحوا بها ﴾ . .

وفي هذا الرخاء الآمن ، وفي هذا السرور الشامل ، تقع المفاجأة ، فتأخذ الغارين الآمنين الفرحين :

﴿ جاءتها ريح عاصف ﴾ . .

يا للهول !

﴿ وجاءهم الموج من كل مكان ﴾ . .

وتناوحت الفلك واضطربت بمن فيها ، ولاطمها الموج وشالها وحطها ، ودار بها كالريشة الضائعة في الخضم . . وهؤلاء أهلها في فزع يظنون أن لا مناص :

﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ . .

فلا مجال للنجاة . .

عندئذ فقط ، وفي وسط هذا الهول المتلاطم ، تتعرى فطرتهم مما ألم بها من أوشاب ، وتنفض قلوبهم ما ران عليها من تصورات ، وتنبض الفطرة الأصيلة السليمة بالتوحيد وإخلاص الدينونة لله دون سواه :

﴿ دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ !

وتهدأ العاصفة ويطمئن الموج ، وتهدأ الأنفاس اللاهثة ، وتسكن القلوب الطائرة ، وتصل الفلك آمنة إلى الشاطئ ، ويوقن الناس بالحياة ، وأرجلهم مستقرة على اليابسة . فماذا ؟

﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ! ﴾ . .

هكذا بغتة ومفاجأة !

إنه مشهد كامل ، لم تفتنا منه حركة ولا خالجة . . مشهد حادث . ولكنه مشهد نفس ، ومشهد طبيعة ومشهد نموذج بشري لطائفة كبيرة من الناس في كل جيل . ومن ثم يجيء

التعقيب تحذيراً للناس أجمعين :

﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ . .

(127/360)

سواء كان بغياً على النفس خاصة ، بإيرادها موارد التهلكة ، والزج بها في ركب الندامة الخاسر بالمعصية ؛ أو كان بغياً على الناس فالناس نفس واحدة . على أن البغاة ومن يرضون منهم البغي يلقون في أنفسهم العاقبة .

والبغي لا يتمثل في أبشع ولا أشنع من البغي على ألوهية الله سبحانه ، واغتصاب الربوبية والقوامة والحاكمية ومزاولتها في عباده .

والناس حين يبغون هذا البغي يذوقون عاقبته في حياتهم الدنيا ، قبل أن يذوقوا جزاءه في الدار الآخرة . يذوقون هذه العاقبة فساداً في الحياة كلها لا يبقى أحد لا يشقى به ، ولا تبقى إنسانية ولا كرامة ولا حرية ولا فضيلة لا تضارّ به .

إن الناس إما أن يخلصوا دينونتهم لله . وإما أن يتعبدهم الطغاة . والكفاح لتقرير ألوهية الله وحدها في الأرض ، وربوبية الله وحدها في حياة البشر ، هو كفاح للإنسانية وللحرية وللكرامة وللفضيلة ، ولكل معنى كريم يرتفع به الإنسان على ذل القيد . ودنس المستنقع ،

وامتهان الكرامة ، وفساد المجتمع ، ودناءة الحياة !

﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم . . متاع الحياة الدنيا ﴾ . .

لا تزيدون عليه !

﴿ ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ . .

فهو حساب الآخرة وجزاؤها كذلك ، بعد شقوة الدنيا وعذابها ابتداء .

وما قيمة " متاع الحياة الدنيا " هذا وما حقيقته ؟ يصور السياق هذه الحقيقة في مشهد من مشاهد القرآن التصويرية الحافلة بالحركة والحياة ، وهي مع ذلك من المشاهدات التي تقع في كل يوم ، ويمر عليها الأحياء دون انتباه :

﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام .

حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها . . أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس . كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ . .

ذلك مثل الحياة الدنيا التي لا يملك الناس إلا متاعها ، حين يرضون بها ، ويقفون عندها ، ولا يتطلعون منها إلى ما هو أكرم وأبقى . .

هذا هو الماء ينزل من السماء ، وهذا هو النبات يمتصه ويختلط به فيمرع ويزدهر . وها هي ذي الأرض كأنها عروس مجلوة تتزين لعرس وتتبرج . وأهلها مزهوون بها ، يظنون أنها بجهدهم ازدهرت ، وبإرادتهم تزينت ، وأنهم أصحاب الأمر فيها ، لا يغيرها عليهم مغير ، ولا ينازعهم فيها منازع .

وفي وسط هذا الخصب الممرع ، وفي نشوة هذا الفرح الملعلع ، وفي غمرة هذا الاطمئنان الواثق . .

﴿ أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ﴾ . .

في ومضة ، وفي جملة ، وفي خطفة . . وذلك مقصود في التعبير بعد الإطالة في عرض مشهد الخصب والزينة والاطمئنان .

وهذه هي الدنيا التي يستغرق فيها بعض الناس ، ويضيعون الآخرة كلها لينالوا بعض المتاع . هذه هي . لا أمن فيها ولا اطمئنان ، ولا ثبات فيها ولا استقرار ، ولا يملك الناس من أمرها شيئاً إلا بمقدار .

هذه هي . .

﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ . .

فيالبعد الشقة بين دار يمكن أن تطمس في لحظة ، وقد أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فإذا هي حصيد كأن لم تغن بالأمس . . ودار السلام التي يدعو إليها الله ، ويهدي من يشاء إلى الصراط المؤدي لها . حينما تنفتح بصيرته ، ويتطلع إلى دار السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1758 . 1775 ﴾

(129/360)

قوله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (26) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ للذين أحسنوا ﴾ أي الأعمال في الدنيا منهم وهم من هداه ﴿ الحسنى ﴾ أي الخصلة التي هي في غاية الحسن من الجزاء ﴿ وزيادة ﴾ أي عظيمة من فضل الله فالناس : مزيد خرجت هدايته من الجهاد ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ [العنكبوت : 69] ، ومراد خرجت هدايته من المشيئة ، فالدعوة إلى الجنة بالبيان عامة ، والهداية إلى الصراط خاصة لأنها الطريق إلى المنعم .

ولما كان النعيم لا يتم إلاّ بالدوام بالأمن من المضار قال : ﴿ ولا يرهق ﴾ أي يغشي ويلحق ﴿ وجوههم قتر ﴾ أي غبرة كغبره الموت وكربة ، وهو تغير في الوجه معه سواد وعبوسة تركبهما غلبة ﴿ ولا ذلة ﴾ أي كآبة وكسوف يظهر منه الانكسار والهوان .

ولما كان هذا واضحاً في أنهم أهل السعادة ، وصل به قوله : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الرتبة ﴿ أصحاب الجنة ﴾ ولما كانت الصحبة جديرة بالملازمة ، صرح بها في قوله : ﴿ هم ﴾ أي لا غيرهم ﴿ فيها ﴾ أي خاصة ﴿ خالدون ﴾ أي مقيمون لا يبرحون ، لأنهم لا يريدون ذلك لطيبها ولا يراد بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 434 ﴾

(130/360)

فصل

قال الفخر :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾

اعلم أنه تعالى لما دعا عباده إلى دار السلام ، ذكر السعادات التي تحصل لهم فيها فقال : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ فيحتاج إلى تفسير هذه الألفاظ الثلاثة .

أما اللفظ الأول : وهو قوله : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ فقال ابن عباس : معناه : للذين ذكروا

كلمة لا إله إلا الله .

وقال الأصم : معناه : للذين أحسنوا في كل ما تعبدوا به ، ومعناه : أنهم أتوا بالمأمور به كما ينبغي ، واجتنبوا المنهيات من الوجه الذي صارت منهياً عنها .

والقول الثاني : أقرب إلى الصواب لأن الدرجات العالية لا تحصل إلا لأهل الطاعات .

وأما اللفظ الثاني : وهو ﴿ الحسنى ﴾ فقال ابن الأنباري : الحسنى في اللغة تأنيث الأحسن ، والعرب توقع هذه اللفظة على الحالة المحبوبة والخصلة المرغوب فيها ، ولذلك لم تؤكد ، ولم تنعت بشيء ، وقال صاحب "الكشاف" : المراد : المثوبة الحسنى .

ونظير هذه الآية قوله : ﴿ هَلْ جَزَاء الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ [الرحمن : 60] .

وأما اللفظ الثالث : وهو الزيادة .

فنقول : هذه الكلمة مبهمة ، ولأجل هذا اختلف الناس في تفسيرها ، وحاصل كلامهم يرجع إلى قولين :

القول الأول : أن المراد من منها رؤية الله سبحانه وتعالى .

قالوا : والدليل عليه النقل والعقل .

أما النقل : فالحديث الصحيح الوارد فيه ، وهو أن الحسنى هي الجنة ، والزيادة هي النظر إلى الله سبحانه وتعالى .

وأما العقل : فهو أن الحسنى لفظة مفردة دخل عليها حرف التعريف ، فانصرف إلى المعهود

السابق ، وهو دار السلام .

والمعروف من المسلمين والمتقرر بين أهل الإسلام من هذه اللفظة هو الجنة ، وما فيها من المنافع والتعظيم .

وإذا ثبت هذا ، وجب أن يكون المراد من الزيادة أمراً مغايراً لكل ما في الجنة من المنافع والتعظيم ، وإلا لزم التكرار .

وكل من قال بذلك قال : إنما هي رؤية الله تعالى .

(131/360)

فدل ذلك على أن المراد من هذه الزيادة : الرؤية .

ومما يؤكد هذا وجهان : الأول : أنه تعالى قال : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22 ، 23] فأثبت لأهل الجنة أمرين : أحدهما : نضرة الوجوه والثاني : النظر إلى الله تعالى ، وآيات القرآن يفسر بعضها بعضاً فوجب حمل الحسنى ههنا على نضرة الوجوه ، وحمل الزيادة على رؤية الله تعالى .

الثاني : أنه تعالى قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ [الإنسان : 20] أثبت له النعيم ، ورؤية الملك الكبير ، فوجب ههنا حمل

الحسنى والزيادة على هذين الأمرين .

القول الثاني : أنه لا يجوز حمل هذه الزيادة على الرؤية .

قالت المعتزلة ويدل على ذلك وجوه : الأول : أن الدلائل العقلية دلت على أن رؤية الله تعالى ممتنعة .

والثاني : أن الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه ، ورؤية الله تعالى ليست من جنس نعيم الجنة .

الثالث : أن الخبر الذي تمسكتم به في هذا الباب هو ما روي أن الزيادة ، هي النظر إلى وجه الله تعالى ، وهذا الخبر يوجب التشبيه ، لأن النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جهة المرئي .

وذلك يقتضي كون المرئي في الجهة ، لأن الوجه اسم للعضو المخصوص ، وذلك أيضاً يوجب التشبيه .

فثبت أن هذا اللفظ لا يمكن حمله على الرؤية ، فوجب حمله على شيء آخر ، وعند هذا قال الجبائي : الحسنى عبارة عن الثواب المستحق ، والزيادة هي ما يزيده الله تعالى على هذا الثواب من التفضل .

قال : والذي يدل على صحته ، القرآن وأقوال المفسرين .

أما القرآن : فقوله تعالى : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [فاطر : 30] .

وأما أقوال المفسرين : فنقل عن علي رضي الله عنه أنه قال : الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة .

(132/360)

وعن ابن عباس : أن الحسنى هي الحسنة ، والزيادة عشر أمثالها وعن الحسن : عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وعن مجاهد : الزيادة مغفرة الله ورضوانه .

وعن يزيد بن سمرة : الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول : ما تريدون أن أمطركم . فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم .

أجاب أصحابنا عن هذه الوجوه فقالوا : أما قولكم إن الدلائل العقلية دلت على امتناع رؤية الله تعالى فهذا ممنوع ، لأنا بينا في كتب الأصول أن تلك الدلائل في غاية الضعف ونهاية السخافة ، وإذا لم يوجد في العقل ما يمنع من رؤية الله تعالى وجاءت الأخبار الصحيحة بإثبات الرؤية ، وجب إجراؤها على ظواهرها .

أما قوله الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه .

فنقول : المزيد عليه ، إذا كان مقدراً بمقدار معين ، وجب أن تكون الزيادة عليه مخالفة له .

مثال الأول : قول الرجل لغيره : أعطيتك عشرة أمداد من الحنطة وزيادة ، فههنا يجب أن

تكون تلك الزيادة من الحنطة .

ومثال الثاني : قوله أعطيتك الحنطة وزيادة ، فههنا يجب أن تكون تلك الزيادة غير الحنطة ، والمذكور في هذه الآية لفظ ﴿ الحسنى ﴾ وهي الجنة ، وهي مطلقة غير مقدرة بقدر معين ، فوجب أن تكون تلك الزيادة عليها شيئاً مغايراً لكل ما في الجنة .

وأما قوله : الخبر المذكور في هذا الباب ، اشتمل على لفظ النظر ، وعلى إثبات الوجه لله تعالى ، وكلاهما يوجبان التشبيه .

فنقول : هذا الخبر أفاد إثبات الرؤية ، وأفاد إثبات الجسمية .

ثم قام الدليل على أنه ليس بجسم ، ولم يقم الدليل على امتناع رؤيته ، فوجب ترك العمل بما قام الدليل على فساده فقط ، وأيضاً فقد بينا أن لفظ هذه الآية يدل على أن الزيادة هي الرؤية من غير حاجة تنافي تقرير ذلك الخبر ، والله أعلم .

(133/360)

واعلم أنه تعالى لما شرح ما يحصل لأهل الجنة من السعادات ، شرح بعد ذلك الآفات التي صانهم الله بفضله عنها ، فقال : ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ والمعنى : لا يغشاها قتر ، وهي غبرة فيها سواد ﴿ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ ولا أثر هوان ولا كسوف .

فالصفة الأولى : هي قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس : 40] .

والصفة الثانية : هي قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشعة عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ [الغاشية : 2 ، 3] والغرض من نفي هاتين الصفتين ، نفي أسباب الخوف والحزن والذل عنهم ، ليعلم أن نعيمهم الذي ذكره الله تعالى خالص غير مشوب بالمكروهات ، وإنه لا يجوز عليهم ما إذا حصل غير صفحة الوجه ، ويزيل ما فيها من النضارة والطلاقة ، ثم بين أنهم خالدون في الجنة لا يخافون الانقطاع .

واعلم أن علماء الأصول قالوا : الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم ، فقوله : ﴿ والله يَدْعُواْ إِلَى دَارُ السلام ﴾ [يونس : 25] يدل على غاية التعظيم .

وقوله : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ يدل على حصول المنفعة وقوله : ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ يدل على كونها خالصة وقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب الجنة هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ إشارة إلى كونها دائمة آمنة من الانقطاع والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 62.64 ﴾

(134/360)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى ﴾ .

للذين وحدوا الله وأطاعوه في الدنيا لهم الجنة في الآخرة ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ ، أي فضلاً .

قال عامة المفسرين : الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى ، وهكذا روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن أبي بكر الصديق ، وحذيفة بن اليمان ، وأبي موسى الأشعري وغيرهم قال الفقيه : حدثنا الخليل بن أحمد قال : حدثنا أبو العباس السراج قال : حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي قال : حدثنا عفان بن مسلم ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت البناني ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ ثم قال : " إذا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ وَدَخَلَ أَهْلُ النَّارِ النَّارَ ، نَادَى مُنَادٍ : يا أَهْلَ الجَنَّةِ ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ مَوْعِداً يُحِبُّ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ فَيَقُولُونَ وَمَا هُوَ ؟ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا وَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ، وَأَدْخَلَنَا الجَنَّة ، وَنَجَّانا مِنَ النَّار ؟ قالَ : ثُمَّ يُكْشَفُ الحِجَابُ فَيَنْظُرُونَ إلى الله تَعَالَى ، فَوَالله مَا أَعْطَاهُمْ شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إلى وَجْهِ الله تعالى " .

قال الفقيه رضي الله عنه : وأخبرنا الثقة بإسناده ، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وحذيفة قالا : الزيادة ، النظر إلى وجه الله تعالى .

وعن أبي موسى الأشعري قال : الحسنى ، هي الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله تعالى .

وعن عامر بن سعد ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، وعكرمة مثله .

قال الفقيه : سمعت محمد بن الفضيل العابد قال : سمعت علي بن عاصم قال أجمع أهل السنة والجماعة أن الله تعالى لم يره أحد من خلقه في الدنيا .

(135/360)

وأن أهل الجنة يرونه يوم القيامة ؛ وقال الزجاج : القول في النظر إلى وجه الله تعالى كثير في القرآن ، والتفسير مروي بالأسانيد الصحاح أنه لا شك في ذلك .

وقال مجاهد : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ قال : الحسنى مثلها ، والزيادة المغفرة والرضوان .

وروي عن علقمة قال : الحسنى مثلها ، وزيادة عشر أمثالها .

ويقال : الحسنى الجنة وما فيها من الكرامة ، والزيادة ما يأتيهم كل يوم من التحف والكرامات من الله تعالى ، فيأتيهم رسول رب العالمين فيقول لهم : أنا رضيت عنكم ، فهل رضيتم عني ؟ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ ، يعني : لا يعلو ولا يغشى وجوههم سواد وهو كسوف الوجوه عند معاينة النار ، ويقال : حزن ولا ذلة يعني : ولا مذلة .

﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب الجنة هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ ، يعني : دائمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(136/360)

وقال الثعلبى :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾

أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن يوسف بن يعقوب الفقيه في آخرين قالوا : حدثنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار . الحسين بن عرفة العبدي حدثني سلم بن سالم البلخي عن نوح عن أُبيّ عن ثابت البناني عن أنس بن مالك قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ فقال : الذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنى وهي الجنّة والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم " .

وهو قول أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) وحذيفة وأبي موسى وصهيب وعبادة بن الصامت وكعب ابن عجرة وعامر بن سعد وعبد الرحمن بن سابط والحسن وعكرمة وأبي الجوزاء والضحاك والسدي وعطاء ومقاتل ، يدلّ عليه :

ما أخبرنا أبو إسحاق بن الفضل القهندري أخبرنا أبو علي الصفار . الحسن بن عرفة .

يزيد ابن هارون عن حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً لم تروه ، قال : فيقولون وما هو ؟ ألم تبيّض وجوهنا وتزحزحنا عن النار وتدخلنا الجنة . قال : فيكشف الحجاب تبارك وتعالى – فينظرون إليه – قال : فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم منه " .

قال ابن عباس : الذين أحسنوا الحسنى يعني الذين شهدوا أن لا إله إلاّ الله الجنة .

وروى عطية عنه هي أن واحدة من الحسنات واحدة والزيادة التضعيف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

وروى جويبر عن الليث عن عبد الرحمن بن سابط قال : الحسنى : النظرة ، والزيادة : النظر . قال الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22-23] .

(137/360)

وروى الحكم عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قال : الزيادة غرفة من لؤلؤ واحدة لها أربعة ألف باب . مجاهد : الحسنى : حسنة مثل حسنة والزيادة مغفرة من الله

ورضوان ، ابن زيد : الحسنى : الجنة والزيادة ما أعطاهم في الدعاء لا يحاسبهم به يوم القيامة .

حكى منصور بن عمار عن يزيد بن شجرة قال : الزيادة : هي أن تمرّ السحابة بأهل الجنة فتمطرهم من كل النوادر ، وتقول لهم : ما تريدون ان أُمطركم ؟ فلا يريدون شيئاً إلاّ مطرتهم . ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ ﴾ يغشى ويلحق ﴿ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ ﴾ غبار وهو جمع قترة . قال الشاعر :

متوج برداء الملك يتبعه . . . موج ترى فوقه الرايات والقترا

وقال ابن عباس وقتادة : سواد الوجوه ، وقرأ الحسن : قتر بسكون التاء وهما لغتان كالقدْر والقدَر ﴿ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ هوان ، وقال قتادة : كآبة وكسوف . قال ابن أبي ليلى : هذا بعد نظرهم إلى ربهم ﴿ أولئك أَصْحَابُ الجنة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(138/360)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾

يعني عبادة ربهم .

﴿ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : أن الحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله تعالى . وهذا قول أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وأبي موسى الأشعري .

والثاني : أن الحسنى واحدة من الحسنات ، والزيادة مضاعفتها إلى عشر أمثالها ، قاله ابن عباس .

الثالث : أن الحسنى حسنة مثل حسنة . والزيادة مغفرة ورضوان ، قاله مجاهد .

والرابع : أن الحسنى الجزاء في الآخرة والزيادة ما أعطوا في الدنيا ، قاله ابن زيد .

والخامس : أن الحسنى الثواب ، والزيادة الدوام ، قاله ابن بحر .

ويحتمل سادساً : أن الحسنى ما يتمنونه ، والزيادة ما يشتهونه .

﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ ﴾ في معنى يرهق وجهان :

أحدهما : يعلو .

الثاني : يلحق ، ومنه قيل غلام مراهق إذا لحق بالرجال .

وفي قوله تعالى : ﴿ قَتَرٌ ﴾ أربعة أوجه :

أحدها : أنه سواد الوجوه ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه الحزن ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه الدخان ومنه قتار اللحم وقتار العود وهو دخانه ، قاله ابن بحر .

الرابع : أنه الغبار في محشرهم إلى الله تعالى ، ومنه قول الشاعر :

متوجٌ برداء الملك يتبعه . . . موجٌ ترى فوقه الرايات والقترا

﴿ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾

فيها ها هنا وجهان :

أحدهما : الهوان .

الثاني : الخيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(139/360)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ الآية

قالت فرقة وهي الجمهور : ﴿ الحسنى ﴾ الجنة و" الزيادة " النظر إلى وجه الله عز وجل ، وروي في نحو ذلك حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم رواه صهيب ، وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق وحذيفة وأبي موسى الأشعري وعامر بن سعد وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال : " الزيادة " غرفة من لؤلؤة واحدة ، وقالت

فرقة ﴿ الحسنى ﴾ هي الحسنة ، و" الزيادة " هي تضعيف الحسنات إلى سبعمائة فدونها حسبما روي في نص الحديث ، وتفسير قوله تعالى : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ [البقرة : 261] ، وهذا قول يعضده النظر ولولا عظم القائلين بالقول الأول لترجح هذا القول ، وطريق ترجيحه أن الآية تتضمن اقتراناً بين ذكر عمال الحسنات وعمال السيئات ، فوصف المحسنين بأن لهم حسنى وزيادة من جنسها ، ووصف المسيئين بأن لهم بالسيئة مثلها فتعادل الكلامان ، وعبر عن الحسنات ب ﴿ الحسنى ﴾ مبالغة ، إذ هي عشرة ، وقال الطبري : ﴿ الحسنى ﴾ عام في كل حسنى فهي تعم جميع ما قيل ، ووعد الله تعالى على جميعها بالزيادة ، ويؤيد ذلك ذلك أيضاً قوله ﴿ أولئك أصحاب الجنة ﴾ ، ولو كان معنى ﴿ الحسنى ﴾ الجنة لكان في القول تكرير بالمعنى ، على أن هذا ينفصل عنه بأنه وصف المحسنين بأن لهم الجنة وأنهم لا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ، ثم قال ﴿ أولئك أصحاب الجنة ﴾ على جهة المدح لهم ، أي أولئك مستحقوها وأصحابها حقاً وباستيجاب ، و﴿ يرهق ﴾ معناه يغشى مع ذلة وتضييق ، والقتر الغبار المسود ، ومنه قول الشاعر [الفرزدق] : [البسيط]

متوج برداء الملك يتبعه . . . موج ترى وسطه الرايات والقترا

وقرأ الحسن وعيسى بن عمر والأعمش وأبو رجاء " قتْر " بسكون التاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا ﴾

قال ابن عباس : قالوا : لا إله إلا الله .

قال ابن الأنباري : الحسنى : كلمة مستغنى عن وصفها ونعتها ، لأن العرب توقعها على الخَلَّة المحبوبة المرغوب فيها المفروح بها ، فكان الذي تعلمه العرب من أمرها يغني عن نعتها ، فكذلك المزيد عليها محمول على معناها ومتعرَّف من جهتها ، يدل على هذا قول امرىء القيس :

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت . . .

هَصَرْتُ بغصنٍ ذي شماريخَ مَيَّالِ

فَصِرْنَا إلى الحُسْنَى وَرَقَّ كَلامُنَا . . .

ورُضْتُ فذلَّت صَعْبَةً أيَّ إذلالِ

أي : إلى الأمر المحبوب .

وهصرتُ بمعنى مددت .

والغصن كناية عن المرأة .

والباء مؤكدة للكلام ، كما تقول العرب : ألقى بيده إِلى الهلاك ، يريدون : ألقى يده .

والشماريخ كناية عن الذوائب .

ورضت ، معناه : أذللت .

ومن أجل هذا قال : أي إِذلال ، ولم يقل : أي رياضة .

وللمفسرين في المراد بالحسنى خمسة أقوال :

أحدها : أنها الجنة ، روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبه قال الأكثرون .

والثاني : أنها الواحدة من الحسنات بواحدة ، قاله ابن عباس .

والثالث : النصرة ، قاله عبد الرحمن بن سابط .

والرابع : الجزاء في الآخرة ، قاله ابن زيد .

والخامس : الأمنية ، ذكره ابن الأنباري .

وفي الزيادة ستة أقوال :

أحدها : أنها النظر إِلى الله عز وجل .

روى مسلم في "صحيحه" من حديث صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الزيادة : النظر إلى وجه الله عز وجل " وبهذا القول قال أبو بكر الصديق ، وأبو موسى الأشعري ، وحذيفة ، وابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، وعبد الرحمن بن أبي

ليلى ، والسدي ، ومقاتل .

والثاني : أن الزيادة : غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب ، رواه الحكم عن عليّ ، ولا يصح .

والثالث : أن الزيادة : مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها ، قاله ابن عباس ، والحسن .

والرابع : أن الزيادة : مغفرة ورضوان ، قاله مجاهد .

(141/360)

والخامس : أن الزيادة : أن ما أعطاهم في الدنيا لا يحاسبهم به في القيامة ، قاله ابن زيد .

والسادس : أن الزيادة : ما يشتهونه ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ ولا يرهق ﴾ أي : لا يغشى ﴿ وجوهَهُم قَتَرٌ ﴾ وقرأ الحسن ، وقتادة ، والأعمش : "قَتْر" باسكان التاء ، وفيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه السواد .

قال ابن عباس : سواد الوجوه من الكآبة .

وقال الزجاج : القتر : الغبرة التي معها سواد .

والثاني : أنه دخان جهنم ، قاله عطاء .

والثالث : الخزي ، قاله مجاهد .

والرابع : الغبار ، قاله أبو عبيدة .

وفي الذلة قولان :

أحدهما : الكآبة ، قاله ابن عباس .

والثاني : الهوان ، قاله أبو سليمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(142/360)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾

روُي من حديث أنس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى "وَزِيَادَةٌ" قال ؛ "للذين أحسنوا العمل في الدنيا لهم الحسنى وهي الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم" وهو قول أبي بكر الصديق وعليّ بن أبي طالب في رواية .

وحذيفة وعُبادة ابن الصامت وكعب بن عُجْرة وأبي موسى وصُهيب وابن عباس في رواية ، وهو قول جماعة من التابعين ، وهو الصحيح في الباب .

وروى مسلم في صحيحه عن صُهيب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخل أهلُ

الجنة الجنةَ قال الله تبارك وتعالى تريدون شيئاً أزيدكم فيقولون ألم تبيّض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشِف الحجاب فما أُعْطُوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل وفي رواية ثم تلا "للذين أحسنوا الحسنى وزيادة" " وخرّجه النسائي أيضاً عن صُهيب قال : " قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه الآية : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ قال : "إذا دخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النار النارَ نادى منادٍ يا أهل الجنة إن لكم موعداً عند الله يريد أن يُنْجِزكُموه قالوا ألم يبيّض وجوهنا ويُثقل موازينَنا ويُجِرْنا من النار قال فيكشِف الحجابَ فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر ولا أقَرّ لأعينهم" " وخرّجه ابن المبارك في دقائقه عن أبي موسى الأشعري موقوفاً ، وقد ذكرناه في كتاب التذكرة ، وذكرنا هناك معنى كشف الحجاب ، والحمد لله .

(143/360)

وخرّج الترمذي الحكيم أبو عبد الله رحمه الله : حدّثنا علي بن حجر حدّثنا الوليد بن مسلم عن زُهير عن أبي العالية " عن أُبَيّ بن كعب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزيادتين في كتاب الله ؛ في قوله : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ قال : "النظر إلى وجه الرحمن" وعن قوله : "وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ" [الصافات :

147] قال : "عشرون ألفاً" " وقد قيل : إن الزيادة أن تضاعف الحسنة عشر حسنات إلى أكثر من ذلك ؛ رُوي عن ابن عباس .

ورُوي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة آلاف باب .

وقال مجاهد : الحسنى حسنة مثل حسنة ، والزيادة مغفرة من الله ورضوان .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الحسنى الجنة ، والزيادة ما أعطاهم الله في الدنيا من فضله لا يحاسبهم به يوم القيامة .

وقال عبد الرحمن بن سابط : الحسنى البشرى ، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم ؛ قال الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

وقال يزيد بن شجرة : الزيادة أن تمرّ السحابة بأهل الجنة فتُمطرهم من كل النوادر التي لم يروها ، وتقول : يا أهل الجنة ، ما تريدون أن أُمطركم ؟ فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم إياه .

وقيل : الزيادة أنه ما يمرّ عليهم مقدار يوم من أيام الدنيا إلا حتى يطيف بمنزل أحدهم سبعون ألف مَلَك ، مع كل ملك هدايا من عند الله ليست مع صاحبه ، ما رأُوا مثل تلك الهدايا قَطّ ؛ فسبحان الواسع العليم الغني الحميد العلي الكبير العزيز القدير البر الرحيم المدبر الحكيم اللطيف الكريم الذي لا تتناهى مقدوراته .

وقيل : "أَحْسَنُوا" أي معاملة الناس ، و "الْحُسْنَى" : شفاعتهم ، والزيادة : إذن الله تعالى

فيها وقبوله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْهَقُ ﴾ قيل : معناه يلحق ؛ ومنه قيل : غلام مراهق إذا لحِق بالرجال .

وقيل : يعلو .

(144/360)

وقيل : يغشى ؛ والمعنى متقارب .

﴿ قَتَرٌ ﴾ غبار .

﴿ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ أي مذلة ؛ كما يلحق أهل النار ؛ أي لا يلحقهم غبار في محشرهم إلى الله ولا تغشاهم ذِلة .

وأنشد أبو عبيدة للفرزدق :

مُتَوَّجٌ برداء الملك يتبعه . . .

مَوْج ترى فوقه الراياتِ والقَتَرا

وقرأ الحسن "قَتْرٌ" بإسكان التاء .

والقَتَر والقَتَرة والقَتْرة بمعنى واحد ؛ قاله النحاس .

وواحد القتَر قتَرة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس: 41] أي تعلوها غَبرة.

وقيل: قَتَرٌ كآبةٌ وكسوف.

ابن عباس: القتر سواد الوجوه.

ابن بحر: دخان النار؛ ومنه قُتار القِدْر.

وقال ابن أبي ليلى: هو بُعْدُ نظرهم إلى ربهم عزّ وجل.

قلت: هذا فيه نظر؛ فإن الله عزّ وجل يقول: ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ وقال في غير آية: ﴿ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 62] وقال: ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ [فصلت: 30] الآية.

وهذا عامّ فلا يتغير بفضل الله في موطن من المواطن لا قبل النظر ولا بعده وجهُ المحسن بسواد من كآبة ولا حزن، ولا يعلوه شيء من دخان جهنم ولا غيره.

﴿ وَأَمَّا الذين ابيضت وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ الله هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [آل عمران: 107]. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى ﴾

قال ابن عباس : للذين شهدوا أن لا إله إلا الله الجنة .

وقيل : معناه للذين أحسنوا عبادة الله في الدنيا من خلقه وأطاعوه فيما أمرهم ونهاهم عنه الحسنى ، قال ابن الأنباري : الحسنى في اللغة ، تأنيث الأحسن والعرب توقع هذه اللفظة على الخلة المحبوبة والخلصة المرغوب فيها .

وقيل : معناه للذين أحسنوا المثوبة الحسنى ﴿ وزيادة ﴾ اختلف المفسرون في معنى هذه الحسنى وهذه الزيادة على أقوال :

القول الأول : إن الحسنى هي الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم وهذا قول جماعة من الصحابة منهم أبو بكر الصديق وحذيفة وأبو موسى الأشعري وعبادة بن الصامت وهو قول الحسن وعكرمة والضحاك ومقاتل والسدي ويدل على صحة هذا القول المنقول والمعقول فما روي عن صهيب أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى أتريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب قال فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى " زاد في رواية " ثم تلا هذه الآية : للذين أحسنوا الحسنى

وزيادة " أخرجه مسلم .

وروى الطبري بسنده عن كعب بن عجرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) في قوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال : الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم .

وعن أبي بن كعب أنه سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن قول الله سبحانه وتعالى : للذين أحسنوا الحسنى وزيادة .

قال : الحسنى : الجنة وزيادة : قال النظر إلى وجه الله .

(146/360)

وعن أبي موسى الأشعري قال : " إن كان يوم القيامة بعث الله إلى أهل الجنة منادياً ينادي هل أنجزكم الله ما وعدكم به فينظرون إلى ما أعد الله لهم من الكرامات فيقولون نعم فيقول للذين أحسنوا الحسنى وزيادة النظر إلى وجه الرحمن تبارك وتعالى وفي رواية رفعها أبو موسى قال عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إن الله يبعث يوم القيامة " وذكره بمعناه .

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : " إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله لهم : هل بقي من حقكم شيء لم تعطوه قال : فيتجلى لهم قال فيصغر عندهم كل شيء أعطوه ثم قال للذين

أحسنوا الحسنى وزيادة قال الحسنى الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه ربهم " فهذه الأخبار والآثار قد دلت على أن المراد بهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى .

وأما المعقول فنقول : إن الحسنى لفظة مفردة دخل عليها حرف التعريف فانصرفت إلى المعهود السابق وهو الجنة في قوله سبحانه وتعالى والله يدعو إلى دار السلام فثبت بهذا أن المراد من لفظة الحسنى هي الجنة وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من الزيادة أمراً مغايراً لكل ما في الجنة من النعيم وإلا لزم التكرار وإذا كان كذلك وجب حمل هذه الزيادة على رؤية الله تبارك وتعالى ومما يؤكد ذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ فأثبت لأهل الجنة أمرين أحدهما النضارة وهو حسن الوجوه وذلك من نعيم الجنة ، والثاني النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى وآيات القرآن يفسر بعضها بعضاً فوجب حمل الحسنى على الجنة ونعيمها وحمل الزيادة على رؤية الله تبارك وتعالى .

(147/360)

وقالت المعتزلة : لا يجوز حمل هذه الزيادة على الرؤية ، لأن الدلائل العقلية دلت على أن رؤية الله سبحانه وتعالى ممتنعة ، ولأن الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه ورؤية

الله ليست من جنس نعيم الجنة ولأن الأخبار التي تقدمت توجب التشبيه ولأن جماعة من المفسرين حملوا هذه الزيادة على غير الرؤية فانتفى ما قلتم .

أجاب أصحابنا عن هذه الاعتراضات بأن الدلائل العقلية قد دلت على إمكان وقع رؤية الله تعالى في الآخرة وإذا لم يوجد في العقل ما يمنع من رؤية الله تعالى وجاءت الأحاديث الصحيحة بإثبات الرؤية وجب المصير إليها وإجراؤها على ظواهرها من غير تشبيه ولا إحاطة .

وأجيب عن قولهم ولأن الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه بأن المزيد عليه إذا كان بمقدار معين كانت الزيادة من جنسه وإذا لم يكن بمقدار معين وجب أن تكون الزيادة مخالفة له فالمذكور في الآية لفظ الحسنى وهي الجن ونعيمها غير مقدر بقدر معين فوجب أن الزيادة تكون شيئاً مغايراً لنعيم الجنة وذلك المغاير هو الرؤية

وأجيب عن قولهم ولأن جماعة من المفسرين حملوا الزيادة على غير الرؤية بأنه معارض بقول جماعة من المفسرين : بأن الزيادة هي الرؤية والمثبت مقدم على النافي والله أعلم .

القول الثاني : في معنى هذه الزيادة ما روي عن علي بن أبي طالب أنه قال الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب .

القول الثالث : إن الحسنى واحدة الحسنات والزيادة التضعيف إلى تمام العشرة إلى سبعمائة .

قال ابن عباس : هو مثل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولدينا مزيد ﴾ يقول يجزيهم بعملهم ويزيدهم من فضله .

قال قتادة : كان الحسن يقول : الزيادة الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

القول الرابع : إن الحسنى حسنة مثل حسنة والزيادة مغفرة من الله ورضوان قاله مجاهد .

(148/360)

القول الخامس : قول ابن زيد أن الحسنى هي الجنة والزيادة ما أعطاهم في الدنيا لا يحاسبهم به يوم القيامة وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا يرهق وجوههم ﴾ يعني ولا يغشى وجوه أهل الجنة ﴿ قتر ﴾ أي كآبة ولا كسوف ولا غبار .

وقال ابن عباس : هو سواد الوجوه ﴿ ولا ذلة ﴾ يعني ولا هوان .

قال ابن أبي ليلى : هذا بعد نظرهم إلى ربهم تبارك وتعالى : ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ يعني أن هؤلاء الذين وصفت صفتهم هم أصحاب الجنة لا غيرهم وهم فيها مقيمون لا يخرجون منها أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(149/360)

وقال أبو حيان :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾

رهقه غشيه ، وقيل : لحقه ومنه .

ولا ترهقني من أمري عسراً ، ورجل مرهق يغشاه الأضياف .

وقال الأزهري : الرهق اسم من الإرهاق ، وهو أن يحمل الإنسان على نفسه ما لا يطيق .

يقال : أرهقته أن يصلي إذا أعجلته عن الصلاة .

وقيل : أصل الرهق المقاربة ، يقال : غلام مراهق أي قارب الحلم .

وفي الحديث : " أرهقوا القبلة " أي ادنوا منها .

ويقال : رهقت الكلاب الصيد إذا لحقته ، وأرهقنا الصلاة أخرناها حتى تدنو من الأخرى .

القتر والقترة الغبار الذي معه سواد ، وقال ابن عرفة : الغبار .

وقال الفرزدق :

متوج برداء الملك يتبعه . . .

موج ترى فوقه الرايات والقترا

أي غبار العسكر .

وقال ابن بحر : أصل القتر دخان النار ، ومنه قتار القدر انتهى .

ويقال : القتر بسكون التاء الشأن والأمر ، وجمعه شؤون .

وأصله الهمز بمعنى القصد من شأنت شأنه إذا قصدت قصده .

عزب يعزب ويعزب بكسر الزاي وضمها غاب حتى خفي ، ومنه الروض العازب .

وقال أبو تمام :

وقلقل نأى من خراسان جأشها . . .

فقلت اطمئني أنضر الروض عازبه

وقيل للغائب عن أهله عازب ، حتى قالوه لمن لا زوجة له .

﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ : أحسنوا قال ابن عباس : ذكروا كلمة لا إله إلا الله .

وقال الأصم : أحسنوا في كل ما تعبدوا به أي : أتوا بالمأمور به كما ينبغي ، واجتنبوا المنهى .

وقيل : أحسنوا معاملة الناس .

وروي أنس عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " أحسنوا العمل في الدنيا " وفي الصحيح : " ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك " وعن

عيسى عليه السلام : " ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ذلك مكافأة ، ولكنّ الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك " .

(150/360)

والحسنى قال الأكثرون : هي الجنة ، وروي ذلك عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولو صح وجب المصير إليه .

وقال الطبري : الحسنى عام في كل حسن ، فهو يعم جميع ما قيل ووعد الله في جميعها بالزيادة ، ويؤيد ذلك أيضاً قوله : أولئك أصحاب الجنة .

ولو كان معنى الحسنى الجنة لكان في القول تكرير في المعنى .

وقال عبد الرحمن بن سابط : هي النضرة .

وقال ابن زيد : الجزاء في الآخرة .

وقيل : الأمنية ذكره ابن الأنباري .

وقال الزمخشري : المثوبة الحسنى وزيادة ، وما يزيد على المثوبة وهو التفضل ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ وعن علي : الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة .

وعن ابن عباس : الحسنى الحسنة والزيادة عشرة أمثالها .

وعن الحسن : عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

وعن مجاهد : الزيادة مغفرة من الله ورضوان .

وعن زياد بن شجرة : الزيادة أنّ تمر السحابة بأهل الجنة فتقول : ما تريدون أن أمطركم ؟ فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم .

وزعمت المشبهة والمجبرة أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى ، وجاءت بحديث موضوع : "إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا يا أهل الجنة ، فيكشفون الحجاب ، فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله تعالى شيئاً هو أحب إليهم منه" انتهى .

أما تفسيره أولاً ونقله عمن ذكر تفسير الزيادة فهو نص الجبائي ونقله ، وأما قوله : وجاءت بحديث موضوع فليس بموضوع ، بل خرجه مسلم في صحيحه عن صهيب ، والنسائي عنه عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وخرجه ابن المبارك في دقائقه موقوفاً على أبي موسى وقال : بأن الزيادة هي النظر إلى الله تعالى ، أبو بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب ، في رواية وحذيفة ، وعبادة بن الصامت ، وكعب بن عجرة ، وأبو موسى ، وصهيب ، وابن عباس في رواية ، وهو قول جماعة من التابعين .

ومسألة الرؤية يبحث فيها في أصول الدين .

قال مجاهد : أراد ولا يلحقها خزي ، والخزي يتغير به الوجه ويسود .

قال ابن ابن عباس : والذلة الكآبة .

(151/360)

وقال غيره : الهوان .

وقيل : الخيبة نفي عن المحسنين ما أثبت للكفار من قوله : ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ وقوله : ﴿ عليها غبرة ترهقها قترة ﴾ وكنى بالوجه عن الجملة لكونه أشرفها ، ولظهور أثر السرر والحزن فيه .

وقرأ الحسن ، وأبو رجاء ، وعيسى بن عمر ، والأعمش : قتر بسكون التاء ، وهي لغة كالقدر ، والقدر وجعلوا أصحاب الجنة لتصرفهم فيها كما يتصرف الملاك على حسب اختيارهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(152/360)

وقال أبو السعود :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾

أي أعمالَهم أي عمِلوها على الوجه اللائقِ وهو حسنُها الوصفيُّ المستلزمُ لحسنها الذاتي ،

وقد فسره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقوله : " أن تعبدَ الله كأنك تراه فإن لم تكنْ تراه فإنه يراك " ﴿ الحسنى ﴾ أي المثوبةُ الحسنى ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ أي ما يزيد على تلك المثوبة تفضلاً لقوله عز اسمه : ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ وقيل : الحسنى مثلُ حسناتِهم والزيادةُ عشرُ أمثالِها إلى سبعمائة ضعفٍ وأكثر ، وقيل : الزيادةُ مغفرةٌ من الله ورضوانٌ ، وقيل : الحُسنى الجنةُ والزيادة اللقاء ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ ﴾ أي لا يغشاها ﴿ قَتَرٌ ﴾ غبرةٌ فيها سوادٌ ﴿ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ أي أثرُ هوانٍ وكسوفُ بالٍ ، والمعنى لا يرهقهم ما يرهَق أهلَ النار أو لا يرهَقُهم ما يوجب ذلك من الحزن وسوءِ الحالِ ، والتنكيرُ للتحقير أيْ شيءٌ منهما والجملةُ مستأنفةٌ لبيان أمنِهم من المكاره إثرَ بيان فوزِهم بالمطالب والثاني وإن اقتضى الأولَ إلا أنه ذُكر إذكاراً بما ينقذهم الله تعالى منه برحمته ، وتقديمُ المفعولِ على الفاعل للاهتمام بيان أن المصونَ من الرهَق أشرفُ أعضائِهم وللتشويق إلى المؤخر فإن ما حقُّه التقديمُ إذا أُخّر تبقى النفسُ مترقبةً لوروده فعند ورودِه عليها يتمكن عندها فضلُ تمكن ولأن في الفاعل ضربَ تفصيلٍ كما في قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ وَجَاءكَ فِى هذه الحق وَمَوْعِظَةٌ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين باعتبار اتصافِهم بالصفات المذكورةِ ، وما في اسم الإشارةِ من معنى البُعدِ للإيذان بعلو درجتِهم وسموّ طبقتِهم أي أولئك الموصوفون بما ذكر من النعوت الجميلةِ

الفائزون بالمثوبات الناجون عن المكاره ﴿ أصحاب الجنة هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ بلا زوالٍ دائمون بلا انتقال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(153/360)

وقال الآلوسى :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾

أي العمل بأن فعلوا المأمور به واجتنبوا المنهي عنه ، وفسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الإحسان بقوله عليه الصلاة والسلام : " أن تعبد الله تعالى كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " ﴿ الحسنى ﴾ أي المنزلة الحسنى وهي الجنة ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ وهي النظر إلى وجه ربهم الكريم جل جلاله وهو التفسير المأثور عن أبي بكر .

وعلي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس .

وحذيفة .

وابن مسعود .

وأبي موسى الأشعري .

وخلق آخرين ، وروى مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من طرق شتى ، وقد أخرج الطيالسي .

وأحمد .

ومسلم .

والترمذي .

وابن ماجه .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وابن خزيمة .

وابن حبان .

وأبو الشيخ .

والدارقطني في الرؤية .

وابن مردويه .

والبيهقي في الأسماء والصفات عن صهيب "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية للذين أحسنوا الخ فقال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل

الجنة أن لكم عند الله تعالى موعداً يريد أن ينجزكموه فيقولون : وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه سبحانه فوالله ما أعطاهم الله تعالى شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم" فحكاية هذا التفسير بقيل : كما فعل البيضاوي عفا الله تعالى عنه مما لا ينبغي ، وقول الزمخشري عامله الله تعالى بعدله : إن الحديث مرقوع بالقاف أي مفترى لا يصدر إلا عن رقيع فإنه متفق على صحته وقد أخرجه حفاظ ليس فيهم ما يقال .

نعم جاء في تفسير ذلك غير ما ذكر لكن ليس في هذه الدرجة من الصحة ولا رفع فيه صريحاً ، فقد أخرج ابن جرير .

(154/360)

عن مجاهد قال : الزيادة المغفرة والرضوان ، وأخرج عن الحسن أنها تضعيف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وأخرج عن ابن زيد أنها أن لا يحاسبهم على ما أعطاهم في الدنيا ، وأخرج عن الحكم بن عتيبة عن علي كرم الله تعالى وجهه أنها غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب .

وتعقبه ابن الجوزي بأنه لا يصح ، وقيل : الزيادة أن تمر السحابة بهم فتقول : ما تريدون أنا

أمطركم فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم .

وجمع بعضهم بين الروايات بأنه لا مانع من أن يمن الله تعالى عليهم بكل ما ذكر ويصدق عليه أنه زيادة على ما من به عليهم من الجنة ، وأيد ذلك بما أخرجه سعيد بن منصور .

وابن المنذر .

والبيهقي .

(155/360)

عن سفيان أنه قال : ليس في تفسير القرآن اختلاف إنما هو كلام جامع يراد به هذا وهذا ، والذي حمل الزمخشري على عدم الاعتماد على الروايات الناطقة بحمل الزيادة على رؤية الله تعالى زعمه الفاسد كأصحابه أن الله تعالى لا يرى وقد علمت منشأ ذلك الزعم وقد رده أهل السنة بوجوه ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ أي لا يغشاها غبرة ما فيها سواد ولا أثر هوان ما وكسوف بال ، والمعنى لا يعرض عليهم ما يعرض لأهل النار أو لا يعرض لهم ما يوجب ذلك من الحزن وسوء الحال ، والكلام على الأول حقيقة وعلى الثاني كناية لأن عدم غشيان ذلك لازم لعدم غشيان ما يوجبهما فذكر اللازم لينتقل منه إلى الملزوم ، ورجح هذا بأنه أمدح ، والمقصود بيان خلوص نعيمهم من شوائب المكاره إثر بيان ما من

سبحانه به عليهم من النعيم ، وقيل : إن ذكر ذلك لتذكيرهم بما ينقذهم منه فإنهم إذا ذكروا ذلك زاد ابتهاجهم ومسرتهم كما أن أهل النار فإن الإنسان متى علم أن عدوه في الهوان وسوء الحال ازداد سروراً ، وقد شاهدنا من يكتفي بمضرة عدوه عن حصول المنفعة له بل من يسره ضرر عدوه وإن تضرر هو ، وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام ببيان أن المصون من الرهق أشرف أعضائهم وللتشويق إلى المؤخر ولأن في الفاعل ضرب تفصيل ﴿ أولئك ﴾ أي المذكورون باعتبار اتصافهم بما تقدم ﴿ أصحاب الجنة هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ دائمون بلا زوال ويلزم ذلك عدم زوال نعيمها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(156/360)

وقال القاسمى فى الآيتين :

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾

أي : يدعو الخلق بتوحيده إلى جنته : ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي : دين قيم يرضاه ، وهو الإسلام .

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ أي : للذين أحسنوا النظر ، فعرفوا مكر الدنيا

والشهوات فأعرضوا عنها ، وتوجهوا إلى الله تعالى ، فعبدوه كأنهم يرونه ، المثوبة الحسنى ، وهي الجنة ، وزيادة على المثوبة ، وهي التفضل كما قال تعالى : ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِه ﴾ [النساء : 173] ، و [النور : 38] ، و [فاطر : 30] ، و [الشورى : 26] ، وأعظم أنواعه النظر إلى وجه تعالى الكريم . ولذا تواتر تفسيرها بالرؤية عن غير واحد من الصحابة والتابعين . ورفعها ابن جرير إلى النبي صلوات الله عليه ، عن أبي موسى وكعب بن عجرة ، وأبيّ . وكذا ابن أبي حاتم .

وروى الإمام أحمد عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ الخ ، وقال : < إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ ، وأهل النارِ النارَ ، نادى مناد : يا أهل الجنة ! إن لكم عند الله موعداً ، يريد أن ينجزكموه . فيقولون : ما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ، ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ! ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم > وهكذا رواه مسلم .

﴿ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ ﴾ أي : لا يغشاها غبرة سوداء من أثر حب الدنيا والشهوات : ﴿ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ أي : أثر هوان ، وكسوف بال ، من أثر الالتفات إلى ما دون الله تعالى .

قال الناصر : وفي تعقيب الزيادة بهذه الجملة مصداق لصحة تفسير الزيادة بالرؤية الكريمة فإن فيه تنبيهاً على إكرام وجوههم بالنظر إلى وجه الله تعالى ، فجدير بهم أن لا يرهن وجوههم قتر البعد ، ولا ذلة الحجاب ، عكس المحرومين المحجوبين ، فإن وجوههم مرهقة بقتر الطرد وذلة البعد .

وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ أي : الذين أحسنوا : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 21.22 ﴾

(158/360)

وقال ابن عاشور :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾

هذه الجملة بدل اشتمال من جملة ﴿ ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ [يونس : 25] لأن الهداية بمن يشاء تفيد مهدياً وغير مهدي .

ففي هذه الجملة ذِكر ما يشتمل عليه كلا الفريقين ، ولك أن تجعلها بدل مفصَّل من مجمل .

ولما أوقع ذكر الذين أحسنوا في جملة البيان عَلم السامع أنهم هم الذين هداهم الله إلى

صراط مستقيم وأن الصراط المستقيم هو العمل الحسن ، وأن الحُسنى هي دار السلام .

ويشرح هذه الآية قوله تعالى في سورة [الأنعام : 125 127] : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾

والحسنى : في الأصل صفةُ أُثنى الأحسن ، ثم عوملت معاملة الجنس فأدخلت عليها لام تعريف الجنس فبعدت عن الوصفية ولَم تَتبع موصوفها .

وتعريفها يفيد الاستغراق ، مثل البُشرى ، ومثل الصالحة التي جمعها الصالحات .

والمعنى : للذين أحسنوا جنسُ الأحوال الحسنى عندهم ، أي لهم ذلك في الآخرة .

وبذلك تعين أن ماصْدقها الذي أريد بها هو الجنة لأنها أحسن مثوبة يصير إليها الذين أحسنوا وبذلك صيرها القرآن علماً بالغلبة على الجنة ونعيمها من حصول الملاذ العظيمة .

والزيادة يتعين أنها زيادة لهم ليست داخلة في نوع الحُسنى بالمعنى الذي صار علماً بالغلبة ، فلا ينبغي أن تفسر بنوع مما في الجنة لأنها تكون حينئذٍ مما يستغرقه لفظ الحسنى فتعين أنها أمر يرجع إلى رفعة الأقدار ، فقيل : هي رضى الله تعالى كما قال : ﴿ ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ﴾ [التوبة : 72] ، وقيل : هي رؤيتهم الله تعالى .

وقد ورد ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم في "صحيح مسلم" و"جامع الترمذي" عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد : إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، قالوا : ألم تبيض وجوهنا وتنجنا من النار وتدخلنا الجنة ، قال : فيُكشف الحجاب ، قال : فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه .

وهو أصرح ما ورد في تفسيرها .

والرهق : الغشيان .

وفعله من باب فرح .

والقَتَرُ : لوْنٌ هو غُبرة إلى السواد .

ويقال له قترة والذي تخلص لي من كلام الأيمة والاستعمال أن القترة لون يغشى جلدة الوجه من شدة البؤس والشقاء والخوفِ .

وهو من آثار تهيج الكَبد من ارتجاف الفؤاد خوفاً وتوقعاً .

والذلة : الهوان .

والمراد أثر الذلة الذي يبدو على وجه الذليل .

والكلام مستعمل في صريحه وكنايته ، أي لا تتشوه وجوههم بالقتر وأثر الذلة ولا يحصل لهم

ما يؤثر القتر وهيئة الذلة .

وليس معنَى نفي القتر والذلة عنهم في جملة أوصافهم مديحاً لهم لأن ذلك لا يخطر بالبال وقوعاً بعد أن أثبت لهم الحسنى وزيادة بل المعنى التعريض بالذين لم يهدهم الله إلى صراط مستقيم وهم الذين كسبوا السيئات تعجيلاً للمساءة إليهم بطريق التعريض قبل التصريح الذي يأتي في قوله : ﴿ وترَهقهم ذلة ﴾ إلى قوله : ﴿ مظلماً ﴾ [يونس : 27] .

وجملة : ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ نتيجة للمقدمة ، فبينها وبين التي قبلها كمال الاتصال ولذلك فصلت عنها ولم تعطف .

واسم الإشارة يرجع إلى ﴿ الذين أحسنوا ﴾ .

وفيه تنبيه على أنهم استحقوا الخلود لأجل إحسانهم نظير قوله : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة : 5] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(160/360)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾

وكلمة ﴿ الحسنى ﴾ مثلها مثل قولنا : " امرأة فُضْلى " ونقول أيضاً : امرأة كبرى ، وهي

أفعل تفضيل ، أي : مبالغة في الفضل .

والمقصود بقوله سبحانه : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى ﴾ أي : بالغوا في أداء الحسنات ، والحسنة كما نعلم بعشرة أمثالها ، وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ فما هذه الزيادة ؟

نقول : هي عطاء زائد في الحسنات ، فهناك "كادر" للجزاء بالحسنات ، يبدأ بعشرة أمثال الحسنة ويصل إلى سبعمائة ضعف ، أما السيئة فبواحدة . وهذا "الكادر" لا يحدد فضل الله تعالى ، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يشاء .

ولذلك يجب ألا نفرق بين عدل الله سبحانه في أن الشيء يساوي الشيء ، وفضل الله تعالى في أن يجزى على الشيء الحسن بأضعاف أضعاف ما نتصور .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس : 58] .

وقال قوم من العارفين بالله : إن الزيادة المقصودة هي في العشرة الأمثال والسبعمائة ضعف ، والفضل هو ما فوق ذلك .

وهكذا تتعدد مراتب الجزاء : فهناك العشرة الأمثال ، والسبعمائة ضعف ، والحسنى ، والزيادة عن الحسنى ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك : "إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم . فيقولون : ألم تُبيِّض وجوهنا ؟ ألم تُدخلنا الجنة وتُنجِّنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً

أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل " .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ أي : لا يغطي وجوههم غبار ، وهو سبحانه القائل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 2223] .

(161/360)

وهو سبحانه القائل : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس : 4041] .

وترهقها : أي تغطيها ، وقترة تعني : الغبار ، وهي مأخوذة من القُتار وهو الهواء الذي يمتلىء بدخان الدُّهْن المحترق من اللحم المشوي ، وقد تكون رائحته أخَّاذة ويسيل لها اللعاب ، ولكن مَنْ يوضع على وجهه هذا القتار يصنع له طبقة سوداء .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ [يونس : 26] .

لأنهم اتقوا الله سبحانه وأحبوا منهجه .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : 106] .

فليس المقصود هو لون الوجه في الدنيا ؛ لأنك قد تجد إنساناً أسود اللون لكنه بالإيمان قد

أشرق وجهه ، وأحاطت ملامحه هالة من البهاء . وهناك من هو أبيض الوجه ولكنه من فرط معصية الله صار وجهه بلا نور .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ أولئك أَصْحَابُ الجنة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس : 26] .

أي : أنهم ملازمون للجنة ملازمة الصاحب لصاحبه ، أو " أصحاب الجنة " أي : مَنْ يملكونها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(162/360)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (26) ﴾

أخرج الطيالسي وهناد وأحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة وابن خزيمة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والدارقطني في الرؤية وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن صهيب رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار

نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه . فيقولون : وما هو ، ألم تثقل موازيننا ، وتبيض وجوهنا ، وتدخلنا الجنة ، وتزحزحنا عن النار ؟ وقال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم " .

وأخرج الدارقطني وابن مردويه عن صهيب رضي الله عنه في الآية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الزيادة : النظر إلى وجه الله " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدارقطني في الرؤية وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي : يا أهل الجنة – بصوت يسمعه أولهم وآخرهم – إن الله وعدكم الحسنى وزيادة ، فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الرحمن " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه واللالكائي في السنة والبيهقي في كتاب الرؤية عن كعب بن عجرة رضي الله عنه " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : الزيادة : النظر إلى وجه الرحمن " .

(163/360)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدارقطني وابن مردويه واللالكائي والبيهقي في كتاب الرؤية عن أبي بن كعب رضي الله عنه " أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : الذين أحسنوا أهل التوحيد ، والحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر " عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال " أحسنوا شهادة أن لا إله إلا الله ، والحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى الله " " .

وأخرج أبو الشيخ وابن منده في الرد على الجهمية والدارقطني في الرؤية وابن مردويه واللالكائي والخطيب وابن النجار عن أنس رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ فقال : للذين أحسنوا العمل في الدنيا لهم الحسنى وهي الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم " .

وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن أنس رضي الله عنه قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : ينظرون إلى ربهم بلا كيفية ولا حدود ولا صفة معلومة " .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من كبّر على سيف البحر تكبيرة رافعاً بها صوته لا يلتمس بها رياء ولا سمعة كتب الله له

رضوانه الأكبر ، ومن كتب له رضوانه الأكبر جمع بينه وبين محمد وإبراهيم عليهما السلام في داره ، ينظرون إلى ربهم في جنة عدن كما ينظر أهل الدنيا إلى الشمس والقمر في يوم لا غيم فيه ولا سحابة ، وذلك قوله ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ فالحسنى لا إله إلا الله ، والزيادة الجنة والنظر إلى الرب " .

(164/360)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن خزيمة وابن المنذر وأبو الشيخ والدارقطني وابن منده في الرد على الجهمية وابن مردويه واللالكائي والآجري والبيهقي كلاهما في الرؤية عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه في قوله ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : الحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله .

وأخرج ابن مردويه من طريق الحرث عن علي رضي الله عنه في قوله ﴿ للذين أحسنوا الحسنى ﴾ قال : يعني الجنة ، والزيادة يعني النظر إلى الله تعالى .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والدارقطني واللالكائي والآجري والبيهقي عن حذيفة رضي الله عنه في الآية قال : والزيادة النظر إلى وجه ربهم .

وأخرج هناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والدارقطني واللالكائي والبيهقي عن أبي موسى الأشعري في الآية قال : الحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه ربهم .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق عكرمة رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ للذين أحسنوا الحسنى ﴾ قال : قول لا إله إلا الله ، والحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجهه الكريم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي من طريق علي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ للذين أحسنوا ﴾ قال : الذين شهدوا أن لا إله إلا الله ، الحسنى : الجنة .

وأخرج ابن أبي حاتم واللالكائي عن ابن مسعود رضي الله عنه في الآية قال : أما الحسنى فالجنة ، وأما الزيادة فالنظر إلى وجه الله ، واما القتر فالسواد .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الرؤية من طريق الحكم بن عتيبة عن علي رضي الله عنه في الآية قال : الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب غرفها وأبوابها من لؤلؤة واحدة .

(165/360)

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه ﴿ للذين أحسنوا ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ الحسنى ﴾ قال : الجنة ﴿ وزيادة ﴾ قال : النظر إلى وجه الله .

وأخرج ابن جرير والدارقطني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه في قوله ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة اعطوا منها ما شاؤوا ، ثم يقال لهم : إنه قد بقي من حقكم شيء لم تعطوه ، فيتجلى الله تعالى لهم فيصغر ما اعطوا عند ذلك ، ثم تلا ﴿ للذين أحسنوا الحسنى ﴾ قال : الجنة ﴿ والزيادة ﴾ نظرهم إلى ربهم عز وجل .

وأخرج ابن جرير والدارقطني عن عامر بن سعد البجلي رضي الله عنه في قوله ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : النظر إلى وجه الله .

وأخرج الدارقطني عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ للذين أحسنوا الحسنى ﴾ قال : الجنة ﴿ وزيادة ﴾ قال : النظر إلى وجه الرب عز وجل .

وأخرج الدارقطني عن الضحاك رضي الله عنه قال : الزيادة النظر إلى وجه الله .

وأخرج ابن جرير والدارقطني عن عبد الرحمن بن سابط قال : الزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل .

وأخرج ابن جرير والدارقطني عن أبي إسحق السبيعي رضي الله عنه في قوله ﴿ للذين أحسنوا الحسنى ﴾ قال : الجنة ﴿ وزيادة ﴾ قال : النظر إلى وجه الرحمن عز وجل .

وأخرج ابن جرير والدارقطني عن قتادة رضي الله عنه قال : ينادي المنادي يوم القيامة أن الله وعد الحسنى وهي الجنة ، فأما الزيادة فهي النظر إلى وجه الرحمن . قال : فيتجلى لهم حتى ينظروا إليه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : هو مثل قوله ﴿ ولدينا مزيد ﴾ [ق : 35] يقول : يجزيهم بعملهم ويزيدهم من فضله ، وقال ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام : 160] .

(166/360)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ للذين أحسنوا الحسنى ﴾ قال : مثلها . قال ﴿ وزيادة ﴾ قال : مغفرة ورضوان .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علقمة بن قيس رضي الله عنه في الآية قال : الزيادة العشر ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام : 160] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه في الآية قال : الزيادة الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه في الآية قال : الزيادة ما أعطاهم في الدنيا لا يحاسبهم به يوم القيامة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في الرؤية عن سفيان رضي الله عنه قال : ليس في تفسير القرآن اختلاف انما هو كلام جامع يراد به هذا وهذا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولا يرهق وجوههم ﴾ قال : لا يغشاهم ﴿ قتر ﴾ قال : سواد الوجوه .

وأخرج أبو الشيخ عن عطاء رضي الله عنه في الآية قال : القتر سواد الوجه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ﴾ قال : خزي .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾ قال : بعد نظرهم إلى الله عز وجل .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والدارقطني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه في قوله ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾ قال : بعد نظرهم إلى ربهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(167/360)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْهَقُ ﴾ : فيه ثلاثة أوجه ، أحدها : أنها مستأنفةٌ . والثاني : أنها في محل نصب على الحال ، والعامل في هذه الحال الاستقرار الذي تضمَّنه الجارُّ ، وهو " للذين " لوقوعه خبراً عن " الحسنى " قاله أبو البقاء ، وقدَّره بقوله : " استقرَّ لهم الحسنى مضموماً لهم السَّلامة " ، وهذا ليس بجائز لأن المضارعَ متى وقع حالاً منفيَّاً ب " لا " امتنع دخولُ واو الحال عليه كالمثبت ، وإن وَرَدَ ما يُوهم ذلك يُؤَوَّل بإضمار مبتدأ ، وقد تقدم تحقيقُه غيرَ مرة . والثالث : أنه في محلِّ رفع نسقاً على " الحسنى " ، ولا بدَّ حينئذٍ من إضمار حرفٍ مصدري يَصِحُّ جَعْلُه معه مخبراً عنه بالجارّ ، والتقدير : للذين أحسنوا الحسنى ، وأنْ لا يرهق ، أي : وعدم رَهَقِهم ، فلمَّا حُذِفت " أن " رُفع الفعلُ المضارع لأنه ليس من مواضع إضمار " أنْ " ناصبة وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ ﴾ [الروم : 24] ، أي : أن يُرِيَكم ، وقوله : " تَسْمع بالمُعَيْدِيّ خيرٌ من أن تراه " ، وقوله :

2582 ألا أيُّهذا الزاجري أحضرُ الوَغَى . . . . . .

. . . . . .

أي : أن أحضر . رُوي برفع " أحضر " ونصبه . ومنع أبو البقاء هذا الوجه ، فقال : " ولا يجوز أن يكون معطوفاً على " الحسنى " لأن الفعل إذا عُطِفَ على المصدر احتاج إلى " أَنْ " ذِكْراً أو تقديراً ، و " أنْ " غيرُ مقدرة لأن الفعلَ مرفوع " ، فقوله : " وأَنْ غيرُ مقدرةٍ ، لأن الفعل مرفوع " ليس بجيد لأن قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ ﴾ [الروم : 24] معه " أنْ " مقدرة مع أنه مرفوع ، ولا يَلْزم من إضمار " أنْ " نصب المضارع ، بل المشهورُ أنه إذا أُضْمرت " أن " في غير المواضع التي نصَّ النحويون على إضمارها ناصبة ارتفعَ الفعلُ ، والنصبُ قليلٌ جدا .

والرَّهَق : الغِشْيان . يقال : رَهِقَه يَرْهَقُه رَهَقا ، أي : غَشِيَهُ بسرعة ، ومنه ﴿ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف : 37] ﴿ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً ﴾ [الجن : 13] / يقال : رَهِقْتُه وأَرْهَقْتُه نحو : رَدِفْتُه وأَرْدَفْتُه ، فَفَعَل وأَفْعل بمعنىً ، ومنه : " أَرْهَقْت الصلاةَ " إذا أخَّرْتَها حتى غَشِي وقتُ الأخرى ، ورجلٌ مُرْهَق ، أي : يغشاه الأضياف . وقال الأزهري : " الرَّهَق " اسمٌ من الإرهاق ، وهو أن يَحْمِلَ الإنسانُ على نفسه ما لا يُطيق ، ويقال : " أَرْهَقْتُه عن الصلاة " ، أي : أَعْجَلْتُه عنها . وقال بعضهم . أصلُ الرَّهَق :

المقاربة ، ومنه غلامٌ مراهِق ، أي : قارب الحُلُم ، وفي الحديث : " ارهَقُوا القِبلة " ، أي : اقرُبوا منها ، ومنه " رَهِقَتِ الكلابُ الصيدَ " ، أي : لحقته .

والقَتَر والقَتَرة : الغبار معه سوادٌ وأنشدوا للفرزدق :

2583 مُتَوَّجٌ بِرِداء المُلك يَتْبَعُه . . . موجٌ ترى فوقه الراياتِ والقترا

(169/360)

أي : غبار العسكر . وقيل : القَتَرُ : الدخان ، ومنه " قُتار القِدْر " . وقيل : القَتْر : التقليل ومنه ﴿ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ [الفرقان : 67] ، ويقال : قَتَرْتُ الشيء وأَقْتَرْتُه وقتَّرته ، أي : قَلَّلْته ، ومنه ﴿ وَعَلَى المقتر قَدَرُهُ ﴾ [البقرة : 236] ، وقد تقدم . والقُتْرَةُ : ناموس الصائد . وقيل : الحفرة ، ومنه قول امرىء القيس :

2584 رُبَّ رامٍ من بني ثُعَلٍ . . . مُتْلِجٍ كَفَّيْهِ في قُتَرِهْ

أي : في حفرته التي يَحْفرها . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وأبو رجاء والأعمش " قَتْرٌ " بسكونِ التاء وهما لغتان قَتْر وقَتَر كقَدْر وقَدَر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 181.183 ﴾

(170/360)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الزيادة)

الزِّيادة : أَن ينضمّ إِلى ما عليه الشىءُ فى نفسه شىءٌ آخر ، زِدته أَزيده زَيْدًا وزيادة فازداد .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ نحو ازددت فضلاً ، أَى ازداد فضلى ، فهو من باب سَفِهَ نفسَه .

وذلك قد يكون زيادة مذمومة كالزِّيادة على الكفاية كزائد الأَصابع ، والزّوائد فى قوائم الدَّابَّة ، وزيادة الكبد ، وهى قطعة متعلِّقة بها يتصوّر أَن لا حاجة إِليها ؛ لكونها غير مأكولة .

وقد يكون زيادة [محمودة] نحو قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ ، رُوى من طُرُق مختلفة أَنَّ هذه الزِّيادة النظر إِلى وجه الله تعالى ، إشارة إِلى أَحوال وأُمور لا يمكن تصوّرها فى الدنيا .

وقوله : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ أَى أَعطاه من العلم والجسم قَدْرًا زائدًا على ما أَعطى أَهل زمانه .

ومن الزِّيادة المكروهة : ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ﴾ فإن هذه الزِّيادة هو ما بُنى عليه جبلَّة الإنسان : أَن مَن تعاطى فعلا – إنْ خيرا وإن شرًّا – يقوى فيما يتعاطاه ، ويزداد حالاً فحالاً فيه .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ يجوز أَن يكون استدعاءً للزِّيادة ، ويجوز أَن يكون تنبيهاً أَنه قد امتلأَت ، وحصل فيها ما ذَكَرَ – تعالى – فى قوله : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ .

يقال : زدته كذا ، وزاد هو ، وازداد ، وشىءٌ زائد وزَيْد ، قال :

*وأَنتم معشرٌ زَيْدٌ على مائةٍ * فأَجمِعوا أَمركم كُلاًّ فكيدونِى *

والزَّاد : المدَّخرُ الزائد على ما يُحتاجُ إليه فى الوقت .

والتزَوُّد : أَخْذُ الزاد ، وقال تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ .

وقد وردت الزِّيادة على وجوه مختلِفة فى القرآن :

كزيادة نُفْرة قوم نوح من دعواهم : ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِي إِلاَّ فِرَاراً ﴾ .

(171/360)

/ زيادة خَسَارهم من اتّباع أَهل الضَّلال : ﴿ وَاتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ ، ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً ﴾ ، ﴿ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ .

زيادة خَسَار ثمود : ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ .

زيادة قوّة قوم عاد : ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ ، ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ﴾ .

زيادة العلم والجسم لِمَلِك الإِسرائيليّين : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ .

زيادة الإِحسان من قوم موسى للمحسنين : ﴿ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

زيادة كيل القوت من يوسف لإِخوته : ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ .

زيادة العَدَ من قوم يونس : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ .

زيادة الهُدَى من الله : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ .

زيادة العلم والحكمة لسيّد المرسلين : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ .

زيادة اليقين والإِخلاص للصّحابة : ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُواْ إِيمَاناً ﴾ ﴿ لِيَزْدَادُواْ إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ .

زيادة خشية الصّحابة عند سماع القرآن : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ .

زيادة خَسَار الظَّالِمِينَ ، من ذلك : ﴿ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ .

زيادة رِجْس المنافقين : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ .

زيادة الشكّ والشُّبهة للكفار : ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ﴾ .

زيادة عذابهم : ﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ ، ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ .

زيادة تطاول الجنّ : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ .

زيادة الفضل للمطيعين : ﴿ نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ﴾ .

زيادة القُرْبَة للعارفين : ﴿ زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ ، ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوا هُدًى ﴾ .

(172/360)

زيادة اللِّقاءِ والرّؤْية لأَهل الجنة : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ .

وفى الحديث : "من ازداد علماً ولم يزدد هدى ، لم يزدد من الله إلاَّ بعدا" .

وقال الشاعر :

*وحدّثنى يا سعد عنها فزدتنى * جنونا فزدنى من حديثك يا سعد * . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 150 . 153 ﴾

(173/360)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾

﴿ أَحْسَنُوا ﴾ : أي عَمِلُوا وأحسنوا إذ كانت أفعالُهم على مقتضى الإذن .

ويقال : « أحسنوا » : لم يُقَصِّروا في الواجبات ، ولم يُخِلُّوا بالمندوبات .

ويقال : « أحسنوا » : أي لم يَبْقَ عليهم حقٌّ إلا قاموا به ؛ إن كان حقَّ الحقِّ فَمِنْ غير تقصير ، وإن كان من حقِّ الخَلْق فأداءٌ من غير تأخير .

ويقال : « أحسنوا » : في المآل كما أحسنوا في الحال ؛ فاستداموا بما فيه واستقاموا ، والحسنى التي لهم هي الجنة وما فيها من صنوف النِّعم .

ويقال : الحسنى في الدنيا توفيق بدوام ، وتحقيق بتمام ، وفي الآخرة غفران مُعَجَّل ، وعيان على التأبيد مُحصَّل .

قوله : ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ : فعلى موجِب الخبر وإجماع السلف النظرُ إلى الله ، ويحتمل أن تكون « الحسنى » : الرُّؤية ، « والزيادة » : دوامُها ، ويحتمل أن تكون « الحسنى » : اللقاء ، « والزيادةُ » : البقاء في حال اللقاء .

ويقال الحسنى عنهم لا مقطوعة ولا ممنوعة ، والزيادة لهم لا عنهم محجوبة ولا مسلوبة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

لا يقع عليهم غبارُ الحجاب ، وبعكسه حديث الكفار حيث قال : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا

غَبَرَةٌ ﴾ [عبس : 40] .

« والذلة » التي لا تصيبهم أي لا يُرَدُّوا مِنْ غير شهودٍ إلى رؤية غيره ، فهم فيها خالدون في فنون أفضالهم ، وفي جميع أحوالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 91 ﴿92.

(174/360)

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (27) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين حال الفضل فيمن أحسن ، بين حال العدل فيمن أساء فقال : ﴿ والذين كسبوا ﴾ أي منهم ﴿ السيئات ﴾ أي المحيطة بهم ﴿ جزآء سيئة ﴾ أي منهم ﴿ بمثلها ﴾ بعدل الله من غير زيادة ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ أي من جملة جزائهم ، فكأنه قيل : أما لهم انفكاك عن ذلك ؟ فقيل جواباً : ﴿ ما لهم من الله ﴾ أي الملك الأعظم ؛ وأغرق في النفي فقال :

﴿ من عاصم ﴾ أي يمنعهم من شيء يريده بهم .

ولما كان من المعلوم أن ذلك مغير لأحوالهم ، وصل به قوله : ﴿ كأنما ﴾ ولما كان المكروه مطلق كونها بالمنظر السيىء ، بني للمفعول قوله : ﴿ أغشيت وجوههم ﴾ أي أغشاها مغش لشدة سوادها لما هي فيه من السوء ﴿ قطعاً ﴾ ولما كان القطع بوزن عنب مشتركاً بين ظلمة آخر الليل وجمع القطعة من الشيء .

بين وأكد فقال : ﴿ من الليل ﴾ أي هذا الجنس حال كونه ﴿ مظلماً ﴾ ولما كان ذلك ظاهراً في أنهم أهل الشقاوة ، وصل به قوله : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ أصحاب النار ﴾ ولما كانت الصحبة الملازمة ، بينها بقوله : ﴿ هم فيها ﴾ أي خاصة ﴿ خالدون ﴾ أي لا يمكنون من مفارقتها ؛ والرهق : لحق الأمر ، ومنه : راهق الغلام - إذا لحق حال الرجال ؛ والقتر : الغبار ، ومنه الإقتار في الإنفاق لقتله ؛ والذلة : صغر النفس بالإهانة ؛ والكسب : الفعل لاجتلاب النفع إلى النفس أو النفس أو استدفاع الضر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 435 ﴾

(175/360)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه كما شرح حال المسلمين في الآية المتقدمة ، شرح حال من أقدم على السيئات في هذه الآية ، وذكر تعالى من أحوالهم أموراً أربعة أولها : قوله : ﴿ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ والمقصود من هذا القيد التنبيه على الفرق بين الحسنات وبين السيئات ، لأنه تعالى ذكر في أعمال البر أنه يوصل إلى المشتغلين بها الثواب مع الزيادة وأما في عمل السيئات ، فإنه تعالى ذكر أنه لا يجازي إلا بالمثل ، والفرق هو أن الزيادة على الثواب تكون تفضلاً وذلك حسن ، ويكون فيه تأكيد للترغيب في الطاعة ، وأما الزيادة على قدر الاستحقاق في عمل السيئات ، فهو ظلم ، ولو فعله لبطل الوعد والوعيد والترهيب والتحذير ، لأن الثقة بذلك إنما تحصل إذا ثبتت حكمته ، ولو فعل الظلم لبطلت حكمته .

تعالى الله عن ذلك ، هكذا قرره القاضي تفريعاً على مذهبه .

وثانيها : قوله : ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ وذلك كناية عن الهوان والتحقير ، واعلم أن الكمال محبوب لذاته ، والنقصان مكروه لذاته ، فالإنسان الناقص إذا مات بقيت روحه ناقصة

خالية عن الكمالات ، فيكون شعوره بكونه ناقصاً ، سبباً لحصول الذلة والمهانة والخزي والنكال .

وثالثها : قوله : ﴿ مَّا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ واعلم أنه لا عاصم من الله لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فإن قضاءه محيط بجميع الكائنات ، وقدره نافذ في كل المحدثات إلا أن الغالب على الطباع العاصية ، أنهم في الحياة العاجلة مشتغلون بأعمالهم ومراداتهم .

أما بعد الموت فكل أحد يقر بأنه ليس له من الله من عاصم .

ورابعها : قوله : ﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً ﴾ والمراد من هذا الكلام إثبات ما نفاه عن السعداء حيث قال : ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ [يونس : 26] .

(176/360)

واعلم أن حكماء الإسلام قالوا : المراد من هذا السواد المذكور ههنا سواد الجهل وظلمة الضلالة ، فإن العلم طبعه طبع النور ، والجهل طبعه طبع الظلمة ، فقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضاحكة مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس : 39] المراد منه نور العلم ، وروحه وبشره وبشارته ، وقوله : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس : 40] المراد منه

ظلمة الجهل وكدورة الضلالة .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ والذين كَسَبُواْ السيئات ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أن يكون معطوفاً على قوله : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ [يونس : 26] كأنه قيل : للذين أحسنوا الحسنى وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها والثاني : أن يكون التقدير وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها .

على معنى أن جزاءهم أن يجازي سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزاد عليها ، وهذا يدل على أن حكم الله في حق المحسنين ليس إلا بالفضل ، وفي حق المسيئين ليس إلا بالعدل .

المسألة الثالثة :

قال بعضهم : المراد بقوله : ﴿ والذين كَسَبُواْ السيئات ﴾ الكفار واحتجوا عليه بأن سواد الوجه من علامات الكفر ، بدليل قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانكم ﴾ [آل عمران : 106] وكذلك قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُوْلَئِكَ هُمُ الكفرة الفجرة ﴾ [عبس : 40 - 42] ولأنه تعالى قال بعد هذه الآية ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ [يونس : 28] والضمير في قوله : ﴿ هُمْ ﴾ عائد إلى هؤلاء ، ثم إنه تعالى وصفهم بالشرك ، وذلك يدل على أن هؤلاء هم الكفار ، ولأن العلم نور وسلطان العلوم والمعارف هو معرفة الله تعالى ، فكل

قلب حصل فيه معرفة الله تعالى لم يحصل فيه الظلمة أصلاً ، وكان الشبلي رحمة الله تعالى عليه يتمثل بهذا ويقول :

كل بيت أنت ساكنه . . غير محتاج إلى السرج وجهك المأمول حجتنا

(177/360)

يوم يأتي الناس بالحجج . . وقال القاضي : إن قوله : ﴿ والذين كَسَبُواْ السيئات ﴾ عام يتناول الكافر والفاسق .

إلا أنا نقول : الصيغة وإن كانت عامة إلا أن الدلائل التي ذكرناها تخصصه :

المسألة الرابعة :

قال الفراء : في قوله : ﴿ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ وجهان : الأول : أن يكون التقدير : فلهم جزاء السيئة بمثلها ، كما قال : ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ ﴾ [البقرة : 196] أي فعليه .

والثاني : أن يعلق الجزاء بالباء في قوله : ﴿ بِمِثْلِهَا ﴾ قال ابن الأنباري : وعلى هذا التقدير الثاني فلا بد من عائد الموصول .

والتقدير : فجزاء سيئة منهم بمثلها .

أما قوله : ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ فهو معطوف على يجازي ، لأن قوله : ﴿ جَزَاء سَيِّئَةٍ

بِمِثْلِهَا ﴾ تقديره : يجازي سيئة بمثلها ، وقرىء ﴿ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ بالياء .

أما قوله تعالى : ﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ أُغْشِيَتْ ﴾ أي ألبست ﴿ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا ﴾ قرأ ابن كثير والكسائي ﴿ قِطَعًا ﴾ بسكون الطاء ، وقرأ الباقون بفتح الطاء ، والقطع بسكون القطعة .

وهي البعض ، ومنه قوله تعالى ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ﴾ [هود : 81] أي قطعة .

وأما قطع بفتح الطاء ، فهو جمع قطعة ، ومعنى الآية : وصف وجوههم بالسواد ، حتى كأنها ألبست سواداً من الليل ، كقوله تعالى : ﴿ تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر : 60] وكقوله : ﴿ فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانكم ﴾ [آل عمران : 106] وكقوله : ﴿ يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم ﴾ [الرحمن : 41] وتلك العلامة هي سواد الوجه وزرقة العين .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ مُظْلِماً ﴾ قال الفراء والزجاج : هو نعت لقوله : ﴿ قِطَعًا ﴾ وقال أبو علي الفارسي : ويجوز أن يجعل حالاً كأنه قيل : أغشيت وجوههم قطعاً من الليل في حال ظلمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 65 . 66 ﴾

وقال السمرقندى :

ثم بيّن حال أهل النار فقال : ﴿ والذين كَسَبُواْ السيئات ﴾

يعني : أشركوا بالله وعبدوا الأصنام والشمس والقمر والملائكة والمسيح ، فهذه كلها من السيئات .

﴿ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ بلا زيادة ، يعني : لا يزاد على ذلك وهذا موصول بما قبله فكأنه قال : ﴿ وَلِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ ﴿ والذين كَسَبُواْ السيئات جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ بلا زيادة وهذا كقوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بالسيئة فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : 160] ، ويقال : ﴿ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ ، يعني : جزاء الشرك النار ، فلا ذنب أعظم من الشرك ، ولا عذاب أشد من النار .

فيكون العذاب موافقاً لسيئاتهم ، كقوله تعالى : ﴿ جَزَآءً وفاقا ﴾ [النبأ : 26] ، أي موافقاً لشركهم .

ثم قال : ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ ، يعني : يغشى وجوههم الذلة وهي سواد الوجوه من

العذاب .

﴿ مَّا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ ، يعني : مانع يمنع من عذاب الله تعالى ، ثم وصف سواد وجوههم فقال : ﴿ والذين كَسَبُواْ السيئات جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ﴾ ، يعني : سواد الليل مظلماً ويقال : ﴿ قِطَعًا مِّنَ الليل ﴾ يعني : بعضاً من الليل وساعة منه .

قال الفقيه : حدثنا الفقيه أبو جعفر قال : حدثنا محمد بن عقيل الكندي قال : حدثنا العباس الدوري قال : حدثنا يحيى بن أبي بكر ، عن شريك ، عن عاصم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة .

(179/360)

رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أُوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ ، ثُمَّ أُوقِد عَلَيهَا أَلفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ، ثم أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ ؛ فَهِي سَوْدَاءُ كَاللَّيْلِ المُظْلِمِ " قرأ ابن كثير والكسائي ﴿ قِطَعًا ﴾ بجزم الطاء وهو اسم ما قطع منه ، يعني : طائفة من الليل ، قرأ الباقون ﴿ قِطَعًا ﴾ بنصب الطاء يعني : جمع قطعة .

وإنما أراد به سواد الليل ﴿ مُظْلِماً ﴾ وصار نصباً للحال أي في حالة الظلام .

﴿ أُولَئِكَ أَصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ ، أي مقيمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(180/360)

وقال الثعلبى :

﴿ والذين كَسَبُواْ السيئات جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾

يجوز أن يكون الجزاء مرفوعاً بإضمار أي : لهم جزاء ، ويجوز أن يكون مرفوعاً بالياء ، فيجوز أن يكون إبتداء وخبره بمثلها أي : مثلها بزيادة الباء فيها كقولهم : بحسبك قول السوء .

﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِّنَ الله ﴾ من عذاب الله ﴿ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي من مانع ، ومن صلة ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ ﴾ أُلبست ﴿ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً ﴾ أكثر القراء على فتح الطاء وهو جمع قطعة ويكون "مظلماً" على هذه القراءة نصباً على الحال والقطع دون النعت كأنه أراد قطع من الليل المظلم فلما حذف الألف واللام نصب . يجوز أن يكون مظلماً صفة لقطع وسط الكلام كقول الشاعر :

لو أن مدحة حي منشر أحداً . . . وقرأ أبو جعفر والكسائي وابن كثير ﴿ قِطَعاً ﴾

بإسكان الطاء وتكون ﴿ مُظْلِماً ﴾ على هذا نعت كقوله : بقطع من الليل ، إعتباراً بقراءة أُبيّ : كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم ﴿ أولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(181/360)

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ والذين كسبوا السيئات ﴾ الآية

اختلف النحويون في رفع " الجزاء " بم هو ؟ فقالت فرقة : التقدير لهم جزاء سيئة بمثلها ، وقالت فرقة : التقدير جزاء سيئة مثلها والباء زائدة .

قال القاضي أبو محمد : ويتوجه أن يكون رفع " الجزاء " على المبتدأ وخبره في ﴿ الذين ﴾ لأن ﴿ الذين ﴾ معطوف على قوله ﴿ للذين أحسنوا ﴾ فكأنه قال والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وعلى الوجه الآخر فقوله ﴿ والذين كسبوا السيئات ﴾ رفع بالابتداء ، وتعم ﴿ السيئات ﴾ ها هنا الكفر والمعاصي فمثل سيئة الكفر التخليد في النار ، ومثل سيئة المعاصي مصروف إلى مشيئة الله تعالى . و" العاصم " المنجي " ، ومنه قوله تعالى ﴿ إلى جبل يعصمني من الماء ﴾ [هود : 43] . و ﴿ أغشيت ﴾ كسيت

ومنه الغشاوة ، و" القطع " جمع قطعة ، وقرأ ابن كثير والكسائي " قطْعاً " من الليل بسكون الطاء ، وقرأ الباقون بفتح الطاء ، و" القطع " الجزء من الليل ومنه قوله تعالى : ﴿ فاسر بأهلك بقطع من الليل ﴾ [هود : 81] وهذا يراد به الجزء من زمان الليل ، وفي هذه الآية الجزء من سواده . و ﴿ مظلماً ﴾ ، نعت ل " قطع " ، ويجوز أن يكون حالاً من الذكر الذي في قوله ﴿ من الليل ﴾ ، فإذا كان نعتاً فكان حقه أن يكون قبل الجملة ولكن قد يجيء بعدها ، وتقدير الجملة قطعاً استقر من الليل " مظلماً " على نحو قوله تعالى : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ [الأنعام : 155] ومن قرأ " قطعاً " على جمع قطعة فنصب " مظلماً " على الحال ﴿ من الليل ﴾ والعامل في الحال ﴿ من ﴾ إذ هي العامل في ذي الحال ، وقرأ أبي بن كعب ، "كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل وظلم " ، وقرأ ابن أبي عبلة " قطَع من الليل مظلم " بتحريك الطاء في قطع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(182/360)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ والذين كسبوا السيئات ﴾

قال ابن عباس : عملوا الشرك .

﴿ جزاءُ سيِّئةٍ بمثلها ﴾ في الآية محذوف ، وفي تقديره قولان :

أحدهما : أن فيها إضمار "لهم" ، المعنى : لهم جزاءُ سيئة بمثلها ، وأنشد ثعلب :

فإنْ سَأَلَ الوَاشُونَ عَنْه فَقُلْ لَهُم . . .

وَذَاكَ عَطَاءُ لِلوشَاةِ جَزِيْلُ

مُلِمٌّ بِلَيْلَى لَمَّةً ثُمَّ إِنَّه . . .

لَهَا جِرُ لَيْلَى بَعْدَهَا فَمُطِيْلُ

أراد : هو مُلَمٌّ ، وهذا قول الفراء .

والثاني : أن فيها إِضمار "منهم" المعنى : جزاء سيئة منهم بمثلها ، تقول العرب : رأيت القوم صائم وقائم ، أي : منهم صائم وقائم ، أنشد الفراء :

حتَّى إِذَا مَا أَضَاءَ الصُّبْحُ فِي غَلَسٍ . . .

وَغُودِرَ البَقْل مَلْوِيٌّ وَمَحْصُودُ

أي : منه ملوي ، وهذا قول ابن الأنباري .

وقال بعضهم : الباء زائدة هاهنا ، و "من" في قوله : ﴿ من عاصم ﴾ صلة ، والعاصم : المانع .

﴿ كأنما أغشيت وجوههم ﴾ أي : أُلبست ﴿ قطعاً ﴾ قرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر

، وأبو عمرو ، وحمزة : "قِطَعَاً" مفتوحة الطاء ، وهي جمع قطعة .

وقرأ ابن كثير ، والكسائي ، ويعقوب : "قِطْعاً" بتسكين الطاء ، قال ابن قتيبة : وهو اسم ما قُطع .

قال ابن جرير : وإنما قال : "مُظلماً" ولم يقل : "مُظلمة" لأن المعنى : قطعاً من الليل المظلم ، ثم حذفت الألف واللام من "المظلم" ، فلما صار نكرة ، وهو من نعت الليل ، نُصب على القَطْعِ ؛ وقوم يسمُّون ما كان كذلك حالاً ، وقوم قطعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(183/360)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والذين كَسَبُواْ السيئات ﴾

أي عملوا المعاصي .

وقيل : الشرك .

﴿ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ "جزاء" مرفوع بالابتداء ، وخبره "بمثلها" .

قال ابن كَيْسان : الباء زائدة ؛ والمعنى جزاء سيئة مثلها .

وقيل : الباء مع ما بعدها الخبر ، وهي متعلقة بمحذوف قامت مقامه ، والمعنى : جزاء سيئة كائن بمثلها ؛ كقولك : إنما أنا بك ؛ أي إنما أنا كائن بك .

ويجوز أن تتعلق بجزاء ، التقدير : جزاء سيئة بمثلها كائن ؛ فحذف خبر المبتدأ .

ويجوز أن يكون "جَزَاءُ" مرفوعاً على تقدير فلهم جزاء سيئة ؛ فيكون مثل قوله : ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة : 184 و 185] أي فعليه عدّة ، وشبهه ؛ والباء على هذا التقدير تتعلق بمحذوف ، كأنه قال لهم جزاء سيئة ثابت بمثلها ، أو تكون مؤكدة أو زائدة .

ومعنى هذه المِثلية أن ذلك الجزاء مما يعدّ مماثلاً لذنوبهم ، أي هم غير مظلومين ، وفعل الرب جلت قدرته وتعالى شأنه غير معلَّل بعلة .

﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أي يغشاهم هوان وخِزي .

﴿ مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ ﴾ أي من عذاب الله .

﴿ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي مانع يمنعهم منه .

﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ ﴾ أي ألبست .

﴿ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً ﴾ جمع قطعة ، وعلى هذا يكون ﴿ مُظْلِماً ﴾ حال من "اللّيْلِ" أي أغشيت وجوههم قطعاً من الليل في حال ظلمته .

وقرأ الكسائي وابن كثير "قطْعاً" بإسكان الطاء ؛ ف "مُظْلِماً" على هذا نعت ، ويجوز أن يكون حالاً من الليل .

والقِطْع اسم ما قُطع فسَقط .

وقال ابن السِّكيت : القِطْع طائفة من الليل ؛ وسيأتي في "هود" إن شاء الله تعالى . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(184/360)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ﴾

اعلم أنه لما شرح الله سبحانه وتعالى أحوال المحسنين وما أعد لهم من الكرامة شرح في الآية حال من أقدم على السيئات والمراد بهم الكفار فقال سبحانه وتعالى : والذين كسبوا السيئات .

يعني : والذين عملوا السيئات والمراد بها الكفر والمعاصي جزاء سيئة بمثلها يعني فلهم جزاء السيئة التي عملوها مثلها العقاب .

والمقصود من هذا التقييد ، التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيئات لأن الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحدة إلى العشرة إلى السبعمائة إلى أضعاف كثيرة وذلك تفضلاً منه وتكرماً .

وأما السيئات ، فإنه يجازي عليها بمثلها عدلاً منه سبحانه وتعالى : ﴿ وترهقهم ذلة ﴾

قال ابن عباس : يغشاهم ذل وشدة .

وقيل : يغشاهم ذل وهوان لعقاب الله إياهم ﴿ ما لهم من الله من عاصم ﴾ يعني ما لهم مانع يمنعهم من عذاب الله إذا نزل بهم ﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً ﴾ يعني كأنما ألبست وجوههم سواداً من الليل المظلم ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(185/360)

وقال أبو حيان :

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾

لما ذكر ما أعد للذين أحسنوا وحالهم يوم القيامة ومآلهم إلى الجنة ، ذكر ما أعد لأضدادهم وحالهم ومآلهم ، وجاءت صلة المؤمنين أحسنوا ، وصلة الكافرين كسبوا السيئات ، تنبيهاً على أنّ المؤمن لما خلق على الفطرة وأصلها بالإحسان ، وعلى أن الكافر لما خلق على الفطرة انتقل عنها وكسب السيئات ، فجعل ذلك محسناً ، وهذا كاسباً للسيئات ، ليدل على أنّ المؤمن سلك ما ينبغي ، وهذا سلك ما لا ينبغي .

والظاهر أنّ والذين مبتدأ ، وجوزوا في الخبر وجوهاً أحدها : أنه الجملة التي بعده وهي جزاء سيئة بمثلها ، وجزاء مبتدأ فقيل : خبره مثبت وهو بمثلها .

واختلفوا في الباء فقيل : زائدة قاله ابن كيسان أي جزاء سيئة مثلها ، كما قال : وجزاء سيئة سيئة مثلها ، كما زيدت في الخبر في قوله : فمنعكها بشيء يستطاع ، أي شيء يستطاع .

وقيل : ليست بزائدة ، والتقدير : مقدر بمثلها أو مستقر بمثلها .

وقيل : محذوف ، فقدّره الحوفي : لهم جزاء سيئة قال : ودل على تقدير لهم قوله : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى ﴾ حتى تشاكل هذه بهذه .

وقدره أبو البقاء جزاء سيئة بمثلها واقع ، والباء في قولهما متعلقة بقوله : جزاء ، والعائد من هذه الجملة الواقعة خبراً عن الذين محذوف تقديره : جزاء سيئة منهم ، كما حذف في قولهم : السمن منوان بدرهم ، أي منوان منه بدرهم .

وعلى تقدير الحوفي : لهم جزاء يكون الرابط لهم .

الثاني : أنّ الخبر قوله : ما لهم من الله من عاصم ، ويكون قد فصل بين المبتدأ والخبر بجملتين على سبيل الاعتراض ، ولا يجوز ذلك عند أبي علي الفارسي ، والصحيح جوازه .

الثالث : أن يكون الخبر كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً .

الرابع : أن يكون الخبر أولئك وما بعده ، فيكون في هذا القول فصل بين المبتدأ والخبر بأربع جمل معترضة ، وفي القول الثالث بثلاث جمل ، والصحيح منع الاعتراض بثلاث الجمل وبأربع الجمل ، وأجاز ابن عطية أن يكون الذين في موضع جر عطفاً على قوله : للذين أحسنوا ، ويكون جزاء مبتدأ خبره قوله : والذين على إسقاط حرف الجر أي : وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، فيتعادل التقسيم ، كما تقول : في الدار زيد ، والقصر عمرو ، وأي : وفي القصر عمرو .

وهذا التركيب مسموع من لسان العرب ، فخرجه الأخفش على أنه من العطف على عاملين .

وخرجه الجمهور على أنه مما حذف منه حرف الجر ، وجره بذلك الحرف المحذوف لا بالعطف على المجرور ، وهي مسألة خلاف وتفصيل يتكلم فيها في علم النحو .

والظاهر أنّ السيئات هنا هي سيئات الكفر ، ويدل عليه ذكر أوصافهم بعد .

وقيل : السيئات المعاصي ، فيندرج فيها الكفر وغيره .

ولهذا قال ابن عطية : وتعم السيئات هاهنا الكفر والمعاصي ، فمثل سيئة الكفر التخليد في النار ، ومثل سيئات المعاصي مصروف إلى مشيئة الله تعالى ، ومعنى بمثلها أي : لا يزاد عليها .

قال الزمخشري : وفي هذا دليل على أنّ المراد بالزيادة الفضل ، لأنه دل بترك الزيادة على السيئة على عدله ، ودل بإثبات الزيادة على المثوبة على فضله انتهى .

وقيل : معنى بمثلها أي : بما يليق بها من العقوبات ، فالعقوبات تترتب على قدر السيئات ، ولهذا كانت جهنم دركات ، وكان المنافقون في الدرك الأسفل لقبح معصيتهم .

وقرىء : ويرهقهم بالياء ، لأنّ تأنيث الذلة مجاز ، وفي وصف المنافقين نفي القتر والذلة عن وجوههم ، وهنا غشيتهم الذلة ، وبولغ فيما يقابل القتر فقيل : كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً ، وهذه مبالغة في سواد الوجوه .

(187/360)

وقد جاء مصرحاً في قوله : ﴿ وتسود وجوه ﴾ من الله أي من سخطه وعذابه ، أو من جهته تعالى ، ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين وأغشيت : كسبت ، ومنه الغشاء .

وكون وجوههم مسودة هي حقيقة لا مجاز ، فتكون ألوانهم مسودة .

قال أبو عبد الله الرازي : واعلم أن حكماء الإسلام قالوا : المراد من هذا السواد ههنا سواد الجهل وظلمة الضلال ، فإن الجهل طبعه طبع الظلمة .

فقوله : وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، المراد نور العلم وروحه وبشره وبشارته ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة ، المراد منه ظلمة الجهل وكدورة الضلالة انتهى .

وكثيراً ما ينقل هذا الرجل عن حكماء الإسلام في التفسير ، وينقل كلامهم تارة منسوباً إليهم ، وتارة مستنداً به ويعني : بحكماء الفلاسفة الذين خلقوا في مدة الملة الإسلامية ، وهم أحق بأنْ يسمّوا سفهاء جهلاء من أن يسموا حكماء ، إذ هم أعداء الأنبياء والمحرفون للشريعة الإسلامية ، وهم أضر على المسلمين من اليهود والنصارى .

وإذا كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى عن قراءة التوراة مع كونها كتاباً إلهياً ، فلأنْ ينهى عن قراءة كلام الفلاسفة أحق .

وقد غلب في هذا الزمان وقبله بقليل الاشتغال بجهالات الفلاسفة على أكثر الناس ، ويسمونها الحكمة ، ويستجهلون من عرى عنها ، ويعتقدون أنهم الكملة من الناس ، ويعكفون على دراستها ، ولا تكاد تلقى أحداً منهم يحفظ قرآناً ولا حديثاً عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

(188/360)

ولقد غضضت مرة من ابن سينا ونسبته للجهل فقال لي بعضهم وأظهر التعجب من كون أحد يغض من ابن سينا : كيف يكون أعلم الناس بالله ينسب للجهل ؟ ولما ظهر من قاضي الجماعة أبي الوليد محمد بن أبي القاسم أحمد بن أبي الوليد بن رشد الاعتناء بمقالات الفلاسفة والتعظيم لهم ، أغرى به علماء الإسلام بالأندلس المنصور منصور الموحدين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي ملك المغرب والأندلس حتى أوقع به ما هو مشهور من ضربه ولعنه وإهانته وإهانة جماعة منهم على رؤوس الاشهاد ، وكان مما خوطب به المنصور في حقهم قول بعض العلماء الشعراء :

خليفتنا جزاك الله خيراً . . .

عن الإسلام والسعي الكريم

فحق جهاده جاهدت فيه . . .

إلى أن فزت بالفتح العظيم

وصيرت الأنام بحسن هدى . . .

على نهج الصراط المستقيم

فجاهد في أناس قد أضلوا . . .

طريق الشرع بالعلم القديم

وحرق كتبهم شرقاً وغرباً . . .

ففيها كامناً شر العلوم

يدب إلى العقائد من أذاها . . .

سموم والعقائد كالجسوم

وفي أمثالها إذ لا دواء . . .

يكون السيف ترياق السموم

وقال :

يا وحشة الإسلام من فرقة . . .

شاغلة أنفسها بالسفه

قد نبذت دين الهدى خلفها . . .

وادعت الحكمة والفلسفه

وقال :

قد ظهرت في عصرنا فرقة . . .

ظهورها شؤم على العصر

لا تقتدي في الدين إلا بما . . .

سن ابن سينا أو أبو نصر

ولما حللت بديار مصر ورأيت كثيراً من أهلها يشتغلون بجهالات الفلاسفة ظاهراً من غير أن ينكر ذلك أحد تعجبت من ذلك ، إذ كنا نشأنا في جزيرة الأندلس على التبرؤ من ذلك والإنكار له ، وأنه إذا بيع كتاب في المنطق إنما يباع خفية ، وأنه لا يتجاسر أن ينطق بلفظ المنطق ، إنما يسمونه المفعل ، حتى أنّ صاحبنا وزير الملك ابن الأحمر أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن الحكيم كتب إلينا كتاباً من الأندلس يسألني أن أشتري أو أستنسخ كتاباً لبعض شيوخنا في المنطق ، فلم يتجاسر أن ينطق بالمنطق وهو وزير ، فسماه في كتابه لي بالمفعل .

ولما ألبست وجوههم السواد قال : كأنما أغشيت وجوههم ، ولما كانت ظلمة الليل نهاية في السواد شبه سواد وجوههم بقطع من الليل حال اشتداد ظلمته .

وقرأ ابن كثير والكسائي قطعاً بسكون الطاء ، وهو مفرد اسم للشيء المقطوع .

وقال الأخفش في قوله : بقطع من الليل ، بسواد من الليل .

وأهل اللغة يقولون : القطع ظلمة آخر الليل .

وقال بعضهم : طائفة من الليل .

وعلى هذه القراءة يكون قوله : مظلماً صفة لقوله : قطعاً ، كما جاء ذلك في قراءة أبي : كأنما تغشى وجوههم قطع من الليل مظلم .

وقرأ ابن أبي عبلة كذلك إلا أنه فتح الطاء .

وقيل : قطع جمع قطعة ، نحو سدر وسدرة ، فيجوز إذ ذاك أن يوصف بالمذكر نحو : نخل منقعر ، وبالمؤنث نحو نخل خاوية ، ويجوز على هذا أن يكون مظلماً حالاً من الليل كما أعربوه في قراءة باقي السبعة ، كأنما أغشيت وجوههم قطعاً بتحريك الطاء بالفتح من الليل : مظلماً بالنصب .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : إذا جعلت مظلماً حالاً من الليل ، فما العامل فيه ؟ (قلت) : لا يخلو إما أن يكون أغشيت ، من قبل أنّ من الليل صفة لقوله : قطعاً ، فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة .

وإما أن يكون معنى الفعل في من الليل انتهى .

(190/360)

أما الوجه الأوّل فهو بعيد ، لأنّ الأصل أن يكون العامل في الحال هو العامل في ذي الحال ، والعامل في الليل هو مستقر الواصل إليه بمن ، وأغشيت عامل في قوله : قطعاً الموصوف بقوله : من الليل ، فاختلفا فلذلك كان الوجه الأخير أولى أي : قطعاً مستقرة من الليل ، أو كائنة من الليل في حال إظلامه .

وقيل : مظلماً حال من قوله : قطعاً ، أو صفة .

وذكر في هذين التوجيهين لأنّ قطعاً في معنى كثير ، فلوحظ فيه الإفراد والتذكير .

وجوزوا أيضاً في قراءة من سكن الطاء أن يكون مظلماً حالاً من قطع ، وحالاً من الضمير في من .

قال ابن عطية : فإذا كان نعتاً يعني : مظلماً نعتاً لقطع ، فكان حقه أن يكون قبل الجملة ، ولكن قد يجيء بعد هذا ، وتقدير الجملة ، قطعاً استقر من الليل مظلماً على نحو قوله : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مباركاً ﴾ انتهى .

ولا يتعين تقدير العامل في المجرور بالفعل فيكون جملة ، بل الظاهر أن يقدر باسم الفاعل ، فيكون من قبيل الوصف بالمفرد والتقدير : كائناً من الليل مظلماً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(191/360)

وقال أبو السعود :

﴿ والذين كَسَبُواْ السيئات ﴾

أي الشركَ والمعاصيَ وهو مبتدأٌ بتقدير المضافِ خبرُه قوله تعالى : ﴿ جَزَاء سَيّئَةٍ بِمِثْلِهَا

﴿ أي جزاءُ الذين كسبوا السيئاتِ أن يجازى سيئةً واحدةً بسيئة مثلها ، لا يزاد عليها كما يزاد في الحسنة ، وتغييرُ السبكِ حيث لم يقل : وللذين كسبوا السيئاتِ السوآى لمراعاة ما بين الفريقين من كمال التنائي والتبايُن ، وإيرادُ الكسب للإيذان بأن ذلك إنما هو لسوء صنيعِهم وبسبب جنايتِهم على أنفسهم ، أو الموصولُ معطوفٌ على الموصول الأولِ كأنه قيل : وللذين كسبوا السيئاتِ جزاءُ سيئةٍ بمثلها كقولك : في الدار زيدٌ والحجرةِ عمروٌ وفيه دلالةٌ على أن المرادَ بالزيادة الفضلُ ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ وأيُّ ذلةٍ كما ينبىء عنه التنوينُ التفخيميُّ ، وفي إسناد الرَهق إلى أنفسهم دون وجوهِهم إيذانٌ بأنها محيطةٌ بهم غاشيةٌ لهم جميعاً وقرىء يرهَقهم بالياء التحتانية ﴿ مَّا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي لا يعصِمُهم أحدٌ من سُخطه وعذابِه تعالى أو ما لهم من عنده تعالى مَن يعصمهم كما يكون للمؤمنين ، وفي نفي العاصمِ من المبالغة في نفي العصمةِ ما لا يخفى ، والجملةُ مستأنفةٌ أو حال من ضمير ترهقهم ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَت وُجُوههم قطعاً مِنَ اللَّيْلِ ﴾ لفرط سوادِها وظلمتِها ﴿ مُظْلِماً ﴾ حالٌ من الليل والعاملُ فيه أغشيت لأنه العاملُ في قِطَعاً وهو موصوفٌ بالجار والمجرور والعاملُ في الموصوف عاملٌ في الصفة ، أو معنى الفعلِ في (مِنَ الليل) وقرىء قِطْعاً بسكون الطاء وهو طائفة من الليل قال :

افتحي الباب وانظُري في النجوم . . . كم علينا من قِطْع ليلٍ بهيم

فيجوز كونُ مظلماً صفةً له أو حالاً منه وقرىء كأنما يغشى وجوهَهم قِطعٌ من الليل مظلمٌ ، والجملةُ كما قبلها مستأنفةٌ أو حال من ضمير ترهقهم ﴿ أولئك ﴾ أي الموصوفون بما ذكر من الصفات الذميمة ﴿ أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ وحيث كانت الآيةُ الكريمةُ في حق الكفارِ بشهادة السياقِ والسباقِ لم يكن فيها تمسك للوعيدية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(193/360)

وقال الآلوسى :

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ ﴾

أي الشرك والمعاصي ، وهو مبتدأ بتقدير المضاف خبره قوله سبحانه : ﴿ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ والباء متعلقة بجزاء وهو مصدر المبني للمفعول لا اسم للعوض كما في بعض الأوجه الآتية على ما قيل أي جزاء الذين كسبوا السيئات أن تجازي سيئة واحدة بسيئة مثلها على معنى عدم الزيادة بمقتضى العدل وإلا فلا مانع عن العفو بمقتضى الكرم لكن ذلك في غير الشرك ويجوز أن يكون جزاء سيئة بمثلها جملة من مبتدأ وخبر هي خبر المبتدأ

وحينئذٍ لا حاجة إلى تقدير المضاف لكن العائد محذوف أي جزاء سيئة منهم بمثلها على حد السمن منوان بدرهم .

وأجاز أبو الفتح أن يكون جزاء مبتدأ محذوف الخبر أي لهم جزاء سيئة بمثلها وحذف لهم لقرينة ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ [يونس : 26] والجملة خبر ﴿ الذين كَسَبُواْ ﴾ وحينئذٍ لا حاجة إلى تقدير عائد كما لا حاجة إلى تقدير مضاف ، وجوز غير واحد أن يكون ﴿ الذين ﴾ عطفا على ﴿ الذين ﴾ [يونس : 26] المجرور الذي هو مع جاره خبر وجزاء سيئة معطوف على ﴿ الحسنى ﴾ [يونس : 26] الذي هو المبتدأ ، وفي ذلك العطف على معمولي عاملين مختلفين وفيه مذاهب المنع مطلقاً وهو مذهب سيبويه والجواز مطلقاً وهو مذهب الفراء والتفصيل بين أن يتقدم المجرور نحو في الدار زيد والحجرة عمرو فيجوز أو لا فيمتنع ، والمانعون يحملون نحو هذا المثال على إضمار الجار ويجعلونه مطرداً كقوله :

أكل امرىء تحسبين امرأ . . .

ونار توقد بالليل ناراً

(194/360)

وقيل : هو مبتدأ والخبر جملة ﴿ مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أو ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ ﴾ أو ﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب النار ﴾ وما في البين اعتراض ، وفي تعدد الاعتراض خلاف بين النحويين و ﴿ جَزَاء سَيِّئَةٍ ﴾ حينئذٍ مبتدأ و ﴿ بِمِثْلِهَا ﴾ متعلق به والخبر محذوف أي واقع أو ﴿ بِمِثْلِهَا ﴾ هو الخبر على أن الباء زائدة أو الجار والمجرور في موضع الخبر على أن الباء غير زائدة ، والأولى تقدير المتعلق خاصاً كمقدر ويصح تقديره عاماً ، والقول بأنه لا معنى له حاصل وهم ظاهر ، وأياً ما كان لا دلالة في الآية على أن الزيادة هي الفضل دون الرؤية وقد علمت أن تفسيرها بذلك هو المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وجملة من السلف الصالح فلا ينبغي العدول عنه لما يتراءى منه خلافه لا سيما وقد أتى الإمام وغيره بدلائل جمة على أن المراد بها ذلك ولم يؤت بالآيتين على أسلوب واحد لمراعاة ما بين الفريقين من كمال التنائي والتباين ، وإيراد الكسب للإيذان بأن ذلك إنما هو بسوء صنيعهم وجنايتهم على أنفسهم ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أي هوان عظيم ، فالتنوين هنا للتفخيم على عكس التنوين فيما قبل كما أشرنا إليه ، وفي إسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم إيذان بأنها محيطة بهم غاشية لهم .

وقرىء ﴿ يرهقهم ﴾ بالباء التحتانية لكون الفاعل ظاهراً وتأنيثه غير حقيقي ، وقيل : التذكير باعتبار أن المراد من الذلة سببها مجازاً ، ولا يحتاج إليه كما لا يخفى لأن التذكير في مجازي التأنيث لا سيما المفصول كثير جداً .

والواو على ما قال غير واحد للعطف وما بعده معطوف على ﴿ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ وضعفه أبو البقاء بأن المستقبل لا يعطف على الماضي .

(195/360)

وأجيب بالمنع ، وفي العطف ههنا ما لا يخفى من المبالغة حيث أخرج نسبة الرهق إليهم يوم القيامة مخرج المعلوم حيث جعل ذلك بواسطة العطف صلة الموصول ، وقيل : إنه عطف على ما قبله بحسب المعنى كأنه قيل : والذين كسبوا السيئات تجازي سيئتهم بمثلها وترهقهم ذلة ولعله أولى من الأول ، وأما جعل الواو حالية والجملة في موضع الحال من ضمير ﴿ كَسَبُواْ ﴾ فلا يخفى حاله ﴿ مَّا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي ما لهم أحد يعصمهم ويمنعهم من سخط الله تعالى وعذابه فمن الأولى متعلقة بعاصم والكلام على حذف مضاف و ﴿ مِنْ ﴾ الثانية زائدة لتعميم النفي ، أو ما لهم من جهته وعنده تعالى من يعصمهم كما يكون للمؤمنين فمن الأولى متعلقة بمحذوف وقع حالاً من ﴿ عَاصِمَ ﴾ وقيل متعلقة بالاستقرار المفهوم من الظرف وليس في الكلام مضاف محذوف ، و ﴿ مِنْ ﴾ الثانية على حالها والجملة مستأنفة أو حال من ضمير ﴿ تَرْهَقُهُمْ ﴾ وفي نفي العاصم من المبالغة في نفي العصمة ما لا يخفى ﴿ والذين كَسَبُواْ السيئات جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ أي

كأنما ألبست ذلك لفرط سوادها وظلمتها ، والجار والمجرور صفة ﴿ قِطَعًا ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ مُظْلِماً ﴾ حال من ﴿ الليل ﴾ والعامل فيه متعلق الجار والمجرور فعلاً كان أو اسماً .

(196/360)

وجوز أبو البقاء كونه حالا من ﴿ قِطَعًا ﴾ أو صفة له ، وكان الواجب الجمع لأن ﴿ قِطَعًا ﴾ جمع قطعة إلا أنه أفردت حاله أو صفته لتأويل ذلك بكثير ولا يخفى أنه تكلف مستغنى عنه ، والظاهر أن دمن ﴿ للتبعيض ، وقال بعض المحققين : لليل معنيان زمان تخفى فيه الشمس قليلاً أو كثيراً كما يقال دخل الليل والآن ليل وما بين غروب الشمس إلى طلوعها أو قربها من الطلوع ، فمن إما تبعيضية على الأول وبيانية على الثاني ، وجوز الزمخشري أن يكون العامل في الحال ﴿ ﴾ للتبعيض ، وقال بعض المحققين : لليل معنيان زمان تخفى فيه الشمس قليلاً أو كثيراً كما يقال دخل الليل والآن ليل وما بين غروب الشمس إلى طلوعها أو قربها من الطلوع ، فمن إما تبعيضية على الأول وبيانية على الثاني ، وجوز الزمخشري أن يكون العامل في الحال ﴿ أُغْشِيَتْ ﴾ من قبل أن ﴿ مِّنَ الليل وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار وَزُلَفاً مِّنَ الليل ﴾ ليس صلة أغشيت حتى

يكون عاملاً في المجرور بل التقدير أنه صفة فيكون العامل فيه الاستقرار ، وأيضاً الصفة ﴿ مِّنَ الليل ﴾ وذو الحال هو الليل فلا يكون ﴿ أُغْشِيَتْ ﴾ عاملاً في ذي الحال مع أنه المقصود وقد يقال : إن ﴿ مِنْ ﴾ للتبيين والتقدير كائنة من الليل فاغشيت عامل في الصفة وهي كائنة فكأنه عامل في ﴿ الليل ﴾ وهو مبني على أن العامل في العامل في الشيء عامل فيه وهو فاسد فالوجه أن يقال : إن ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض أي بعض الليل ويكون بدلاً من ﴿ قِطَعًا ﴾ ويجعل ﴿ مُظْلِماً ﴾ حالا من البعض لا ﴿ مِّنَ الليل ﴾ فيكون العامل في ذي الحال ﴿ أُغْشِيَتْ ﴾ ولا يخفى أنه وجه أغشى قطعاً من ليل التكلف والتعسف مظلماً .

(197/360)

وأجاب الإمام أمين الدين بأنه نسبة ﴿ أُغْشِيَتْ ﴾ إلى ﴿ قِطَعًا ﴾ إنما هي باعتبار ذاتها المبهمة المفسرة بالليل لا باعتبار مفهوم القطع في نفسها وإنما ذكرت لبيان مقدار ما أغشيت به وجوههم وهو الليل مظلماً فافضاء الفعل إلى ﴿ قِطَعًا ﴾ باعتبار ما لا يتم معناها المراد إلا به كافضاء الفعل إليه كما إذا قيل : اشتريت أرطالاً من الزيت صافياً فإن المشتري فيه الزيت والارطال مبينة لمقدار ما اشترى صافياً فالعامل في الحال إنما هو العامل اللفظي ولا يلاحظ معنى الفعل في الجار والمجرور من جهة العمل لغلبة العامل اللفظي عليه

بالظهور ولا يخفى ما فيه .

وقال في الكشف : إن الزمخشري ذهب إلى أن ﴿ أُغْشِيَتْ ﴾ له اتصال بقوله تعالى : ﴿ مِّنَ الليل ﴾ من قبل أن الصفة والموصوف متحدان لا سيما والقطع بعض الليل فجاز أن يكون عاملاً في الصفة بذلك الاعتبار وكأنه قيل أغشيت الليل مظلماً وهذا كما جوز في نحو ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا ﴾ [الحجر : 47] أن يكون حالاً من الضمير باعتبار اتحاده بالمضاف وكأنه قيل : ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً وكما جوز في ﴿ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً ﴾ [البقرة : 135] لأن الملة كالجزء كأنه قيل : اتبعوا إبراهيم حنيفا وهذا الذي ذهب إليه الزمخشري وهو سر هذا الموضع لا ما طوله كثيرون لا سيما حمل ﴿ مِنْ ﴾ على التجريد فإنه مع أن المعنى على التبعيض لا البيان وليس كل بيان تجريداً لا يتم مقصوده انتهى .

وقد عرض في ذلك بشيخه العلامة الطيبي فإنه عليه الرحمة قد تكلف ما تكلف والانصاف أن ما جوزه الزمخشري هنا مما لا ينبغي والسعي في إصلاحه مع وجود الوجه الواضح الذي لا ترهقه قترة يقرب من أن يكون عبثاً .

وقرأ ابن كثير .

والكسائي .

ويعقوب .

وسهل ﴿ قِطَعًا ﴾ بسكون الطاء وهو اسم مفرد معناه طائفة من الليل أو ظلمة آخره أو اسم جنس لقطعة وأنشدوا .

افتحي الباب وانظري في النجو . . .

(198/360)

كم علينا من قطع ليل بهيم

وعلى هذا يجوز أن يكون ﴿ مُظْلِماً ﴾ صفة له أو حالاً منه بلا تكلف تأويل .

وقرىء .

﴿ كَأَنَّمَا يغشى وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مّنَ الله مِنْ ﴾ والكلام فيه ظاهر ، والجملة كالتي قبلها مستأنفة أو حال من ضمير ﴿ تَرْهَقُهُمْ ﴾ ﴿ أولئك ﴾ أي الموصوفون بما ذكر من الصفات الذميمة ﴿ أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ لا يخرجون منها أبداً واحتجت الوعيدية بهذه الآية على قولهم الفاسد بخلود أهل الكبائر .

وأجيب بأن السيآت شاملة للكفر وسائر المعاصي وقد قامت الأدلة على أنه لا خلود لأصحاب المعاصي فخصصت الآية بمن عداهم ، وأيضاً قد يقال انهم داخلون في الذين أحسنوا بناء على ما أخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وغيرهما عن ابن عباس وأبو الشيخ عن قتادة أنهم الذين شهدوا أن لا إله إلا الله أي المؤمنون مطلقاً فلا يدخلون في القسم الآخر لتنافي الحكمين ، وقيل : إن أل في السيئات للاستغراق فالمراد من عمل جميع ذلك ؛ والقول بخلوده في النار مجمع عليه وليس بذاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(199/360)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾

عطف على جملة ﴿ للذين أحسنوا الحسنى ﴾ [يونس : 26] .

وعبر في جانب المسيئين بفعل ﴿ كسبوا السيئات ﴾ دون فعل أساءوا الذي عبر به في جانب الذين أحسنوا للإشارة إلى أن إساءتهم من فِعلهم وسعيهم فما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون .

والموصول مراد به خصوص المشركين لقوله بعده : ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

فإن الخلود في النار لا يقع إلا للكافرين ، كما دلت عليه الأدلة المتظافرة خلافاً للمعتزلة والخوارج.

وجملة : ﴿ جزاءُ سيئة بمثلها ﴾ خبر عن ﴿ الذين كسبوا السيئات ﴾ .

وتنكير (سيئة) للعموم ، أي جزاء كل سيئة بمثلها ، وهو وإن كان في سياق الإثبات فالعموم مستفاد من المقام وهو مقام عموم المبتدأ .

كقول الحريري :

يا أهلَ ذا المغنَى وُقيتم ضُرا

أي كل ضر .

وذلك العموم مُغن عن الرابط بين الجملة الخبرية والمبتدأ ، أو يقدر مجرور ، أي جَزاء سيئةٍ منهم ، كما قدر في قوله تعالى : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو به أذًى من رأسه ففدية من صيام ﴾ [البقرة : 196] أي فعليه .

واقتصر على الذلة لهم دون زيادة ويَرهقهم قَتر ، لأنه سيجيء ما هو أشد منه وهو قوله : ﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً ﴾ .

وجملة : ﴿ ما لهم من الله من عاصم ﴾ خبر ثان ، أو حال من ﴿ الذين كسبوا السيئات ﴾ أو معترضة .

وهو تهديد وتأييس .

والعاصم : المانع والحافظ .

ومعنى ﴿ من الله ﴾ من انتقامه وجزائه .

وهذا من تعليق الفعل باسم الذات ، والمرادُ بعض أحوال الذات مما يدل عليه السياق مثل ﴿ حُرمت عليكم الميتة ﴾ [المائدة : 3] .

وجملة ﴿ كأنما أغشيت وجوهُهم ﴾ الخ بيان لجملة : ﴿ ترهقهم ذلة ﴾ بيانَ تمثيل ، أو حالٌ من الضمير في قوله : ﴿ وترهقهم ﴾ .

و ﴿ أغشيت ﴾ معدَّى غَشِي إذا أحاط وغَطا ، فصار بالهمزة معدى إلى مفعولين من باب كسَا .

(200/360)

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ يُغشي الليلَ النهارَ ﴾ في [الأعراف : 54] ، وقوله : ﴿ إذ يُغْشِيكُم النعاس ﴾ في [الأنفال : 11] .

والقِطع بفتح الطاء في قراءة الجمهور : جمع قِطعة ، وهي الجزء من الشيء ، سمي قطعة لأنه يُقتطع من كل غالباً ، فهي فعْلة بمعنى مفعولة نقلت إلى الاسمية .

وقرأه ابن كثير والكسائي ويعقوب قِطْعاً ﴾ بسكون الطاء .

وهو اسم للجزء من زمن الليل المظلم ، قال تعالى : ﴿ فاسر بأهلك بِقِطْعٍ من الليل ﴾ [هود : 81] .

وقوله : ﴿ مظلماً ﴾ حال من الليل .

ووصف الليل وهو زمن الظلمة بكونه مظلماً لإفادة تمكن الوصف منه كقولهم : ليل أليل ، وظل ظليل ، وشعر شاعر ، فالمراد من الليل الشديد الإظلام باحتجاب نجومه وتمكّن ظلمته .

وشُبهت قَترة وجوههم بظلام الليل .

وجملة : ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ هي كجملة ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ [يونس : 26] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(201/360)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾

وما دام الحق سبحانه قد جاء بمن دعاهم إلى دار السلام وأعطاهم الجنة جزاء للعمل

الحسن ، فذكر مقابل الشيء يجعله ألصق بالذّهن ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً ﴾ [التوبة : 82] .

وأيضاً من أمثلة المقابلة في القرآن قوله الحق : ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : 1314] .

إذن : فمجيء المقابل للشيء إنما يرسِّخه في الذهن ؛ ولأن الحق سبحانه قد تكلم عن الدعوة إلى دار السلام ، ومن دخل هذه الدعوة ؛ فله الجنة خالداً فيها ، لا يرهق وجهه قتر ولا ذلة ، كان لا بد أن يأتي بالمقابل ، وأن يبشِّع رفض الدعوة لدار السلام ، ويحسِّن الأمر عند من يقبلون الدعوة .

ولا بد إذن أن يفرح المؤمن ؛ لأنه لن يكون من أهل النار ، ولا بد أيضاً أن يخرج بعض من الذين ضلّوا عن الغفلة ؛ ليهربوا من مصير النار ، ويتحولوا إلى الإيمان .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ والذين كَسَبُواْ السيئات ﴾ [يونس : 27] .

ونحن نعلم أن الكسب إنما يكون في الأمر الفطري ويناسب الطاعات ؛ لأن الطاعة أمر مناسب وملائم للفطرة ، فلا أحد يستحي أن يصلِّي ، أو يتصدق ، أو يصوم ، أو يحج ، لكن من الناس من يستحي أن يُعرف عنه أنه كاذب ، أو مُرَابٍ ، أو شارب خمر .

والإنسان حين يرتكب السيئة يمر بتفاعلات متضاربة ؛ فالذي يسرق من دولاب والده وهو نائم ، تجده يتسلل على أطراف أصابعه ويكون حذراً من أن يرتطم بشيء يفضح أمره ،

كذلك الذي ينظر إلى محارم غيره .

كل هذا يدل على أن ارتكاب الشيء المخالف فيه افتعال ، أي : يحتاج إلى اكتساب ، ولكن الكارثة أن يستمر الإنسان في ارتكاب المعاصي حتى تصير دُرْبة ، ويسهل اعتياده عليها ؛ فيمارس المعصية باحتراف ؛ فتتحول من اكتساب إلى كسب .

(202/360)

أو أن يصل الفاسق من هؤلاء إلى مرتبة من الاستقرار على الانحلال ؛ فيروي ما يفعله من معاصٍ وآثام بفخر ، كأن يقول : " لقد سهرنا بالأمس سهرة تخلب العقل ، وفعلنا كذا وكذا " ، ويروى ذلك ، وكأنه قد كسب تلك السهرة بما فيها من معاص وآثام .

ومن رحمة الله سبحانه بالخلق أنه يجازي مرتكب السيئة بسيئة مثلها ، فيقول سبحانه : ﴿ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ ، وتتجلى أيضاً رحمة الحق سبحانه وتعالى حين يعطي من لا يرتكب السيئة مرتبة ؛ فيصير ضمن من قال عنهم الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ لكن الذين لم يهتدوا منهم من يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ مَّا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي : لن يجيرهم أحد عند الله تعالى ، ولن يقول أحد لله سبحانه : لا تعذِّبْهم .

أو أن (لا عاصم لهم) بمعنى : أن الله تعالى لن يأمر بعد ذلك بألاّ يُعذَّبوا .

ولا يقتصر أمرهم على ذلك فقط ، بل يقول الحق سبحانه : ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اليل مُظْلِماً ﴾ أي : كأن قطعاً من الليل المظلم قد غطت وجوههم ، ويكون مأواهم النار ﴿ أولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

هذا هو حال الذين كذَّبوا بآيات الله تعالى وكذبوا الرسل ، وتأبَّوا عن دعة الله سبحانه وتعالى إلى دار السلام واتبعوا أهواءهم واتخذوا شركاء من دون الله تعالى .

وشاء الحق سبحانه أن يُجلِّي لنا ذلك كله في الدنيا ؛ حتى يكون الكون كله على بصيرة بما يحدث له في الآخرة ؛ لأنه نتيجة حتمية لما حدث من هؤلاء في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(203/360)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾

أخرج أبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ والذين كسبوا السيئات ﴾ قال : الذين عملوا الكبائر ﴿ جزاء سيئة بمثلها ﴾ قال : النار ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ قال : الذل

﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً ﴾ والقطع السواد ، نسخها الآية في البقرة ﴿ بلى من كسب سيئة ﴾ [البقرة : 81] الآية .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ قال : يغشاهم ذلة وشدة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ رضي الله عنهما ﴿ ما لهم من الله من عاصم ﴾ يقول : من مانع .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ما لهم من الله من عاصم ﴾ قال : من نصير ﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل ﴾ قال : ظلمة من الليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(204/360)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾

قوله تعالى : ﴿ والذين كَسَبُواْ ﴾ : فيه سبعة أُوجه : أحدُها : " أن يكونَ " والذين "

نسقاً على " للذين أحسنوا " أي : للذين أحسنوا الحسنى ، واللذين كسبوا السيئاتِ جزاءُ سيئةٍ بمثلها ، فيتعادل التقسيم كقولك : " في الدار زيدٌ والحجرةِ عمروٌ " ، وهذا يسميه النحويون عطفاً على معمولي عاملين . وفيه ثلاثة مذاهب ، أحدها : الجواز مطلقاً ، وهو قول الفراء . والثاني : المنعُ مطلقاً وهو مذهب سيبويه . والثالث : التفصيل بين أن يتقدَّم الجارُّ نحو : " في الدار زيد والحجرةِ عمرو " ، فيجوز ، أو لا ، فيمتنع نحو : " إن زيداً في الدار وعمراً القصر " ، أي : وإن عمراً في القصر . وسيبويه وأتباعه يُخرِّجون ما ورد منه على إضمار الجارِّ كقوله تعالى : ﴿ واختلاف الليل والنهار . . . لآياتٍ ﴾ [الجاثية : 5] بنصب " آيات " في قراءة الأخوين على ما سيأتي ، وكقوله :

2585 أكلَّ امرىءٍ تحسبين امرأً . . . ونارٍ توقَّدُ بالليل نارا

وقول الآخر :

2586 أَوْصَيْتَ مَنْ تَوَّه قلباً حُرَّاً . . . بالكلبِ خيراً والحماةِ شَرَّاَ

وسيأتي لهذا مزيدُ بيان في غضون هذا التصنيف . وممَّن ذهب إلى أن هذا الموصولَ مجرور عطفاً على الموصول قبله ابن عطية وأبو القاسم الزمخشري . الثاني : أن " الذين " مبتدأ ، وجزاء سيئة مبتدأ ثانٍ ، وخبره " بمثلها " ، والباء فيه زائدة ، أي : وجزاءُ سيئةٍ مثلها كقوله تعالى : ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] ، كما زِيْدَتْ في الخبر كقوله :

2587 فلا تطمعْ أبيت اللعنَ – فيها . . . ومَنْعُكها بشيءٍ يُسْتطاع

أي : شيء يستطاع ، كقول امرىء القيس :

2588 فإن تَنْأَ عنها حقبةً لا تلاقِها . . . فإنَّك ممَّا أَحْدَثْتَ بالمجرِّب

(205/360)

أي : المجرِّب ، وهذا قولُ ابن كيسان في الآية . الثالث : أن الباءَ ليست بزائدةٍ والتقدير : مُقَدَّر بمثلها أو مستقر بمثلها ، والمبتدأ الثاني وخبرُه خبرٌ عن الاول . الرابع : أن خبرَ " جزاء سيئة " محذوفٌ ، فقدَّره الحوفي بقوله : " لهم جزاء سيئة " قال : ودَلَّ على تقدير " لهم " قوله : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى ﴾ حتى تتشاكلَ هذه بهذه . وقدَّره أبو البقاء : جزاء سيئة بمثلها واقع ، وهو وخبره أيضاً خبر عن الأول . وعلى هذين التقديرين فالباءُ متعلقةٌ بنفس جزاء ، لأن هذه المادةَ تتعدَّى بالباء ، قال تعالى : ﴿ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُواْ ﴾ [سبأ : 17] ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الإنسان : 12] إلى غير ذلك . فإن قلت : أين الرابطُ بين هذه الجملةِ والموصولِ الذي هو المبتدأ ؟ ، قلت : على تقديرِ الحوفي هو الضميرُ المجرور باللام المقدر خبراً ، وعلى تقديرِ أبي البقاء هو الضميرُ المجرور باللام المقدر خبراً ، وعلى تقدير أبي البقاء هو محذوف / تقديرُه : جزاءُ سيئة بمثلها منهم واقعٌ ، نحو : "

السَّمْن مَنَوان بدرهم " وهو حَذْفٌ مُطَّرِد لِما عرفْتَه غيرَ مرة .

الخامس : أن يكونَ الخبرُ الجملةَ المنفية من قوله : ﴿ مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ ، ويكون " مِنْ عاصم " إمَّا فاعلاً بالجارِّ قبله لاعتماده على النفي ، وإمَّا مبتدأً ، وخبرُه الجارُّ مقدماً عليه ، و " مِنْ " مزيدة فيه على كلا القولين .

و " من الله " متعلقٌ ب " عاصم " . وعلى كون هذه الجملة خبر الموصول يكون قد فَصَلَ بين المبتدأ وخبره بجملتي اعتراضٍ . وفي ذلك خلافٌ عن الفارسي تقدَّم التنبيهُ عليه وما استدلَّ به عليه .

(206/360)

السادس : أن الخبرَ هو الجملةُ التشبيهية من قوله : ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ ، و " كأنما " حرف مكفوف ، و " ما " هذه زائدة تسمَّى كافَّةً ومهيِّئة ، وتقدَّم ذلك . وعلى هذا الوجه فيكون قد فَصَلَ بين المبتدأ وخبره بثلاثِ جملِ اعتراض .

السابع : أن الخبر هو الجملة من قوله : ﴿ أولئك أَصْحَابُ النار ﴾ ، وعلى هذا القولِ فيكونُ قد فصل بأربعِ جمل معترضة وهي : ﴿ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ ، والثانية : " وتَرْهَقُهم ذلة " ، والثالث : ﴿ مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ ، الرابع : "كأنما أُغْشيت " .

وينبغي أن لا يجوز الفصل بثلاثِ جملٍ فضلاً عن أربع .

وقوله : ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ﴾ فيها وجهان أحدهما : أنها في محل نصب على الحال . ولم يُبَيِّنْ أبو البقاء صاحبَها ، وصاحبُها هو الموصولُ أو ضميرُه . وفيه ضعفٌ لمباشرته الواو ، إلا أن يُجْعَلَ خبرَ مبتدأ محذوف . الثاني : أنها معطوفة على "كسبوا " . قال أبو البقاء : " وهو ضعيف لأن المستقبلَ لا يُعْطَفُ على الماضي . فإن قيل : هو بمعنى الماضي فضعيفٌ جداً " . وقرىء : " ويَرْهقهم " بالياء من تحت ، لأنَّ تأنيثَها مجازي .

قوله : ﴿ قِطَعاً ﴾ قرأ ابن كثير والكسائي " قِطْعاً " بسكون الطاء ، والباقون بفتحها . فأما القراءة الأولى فاختلفت عبارات الناس فيها ، فقال أهل اللغة : " القِطْع " ظلمة آخر الليل . وقال الأخفش في قوله : " بِقِطْع من الليل " بسواد من الليل . وقال بعضهم : " طائف من الليل " ، وأنشد الأخفش :

2589 افتحي الباب فانظري في النجومِ . . . كم علينا من قِطْعِ ليلٍ بَهيم

(207/360)

وأمَّا قراءةُ الباقين فجمعُ " قِطْعة " نحو : دِمْنة ودِمَن ، وكِسْرة وكِسَر وعلى القراءتين يختلف إعراب " مظلماً " ، فإنه على قراءةِ الكسائي وابن كثير يجوز أن يكونَ نعتاً ل " قِطْعاً " ،

ووُصِف بذلك مبالغةً في وَصْف وجوهِهم بالسواد ، ويجوز أن يكونَ حالاً فيه ثلاثةُ أوجه ، أحدها : أنه حالٌ من " قِطْعاً " ، وجاز ذلك لتخصُّصه بالوصف بالجارِّ بعده وهو " من الليل " ، والثاني : أنه حالٌ من " الليل " ، والثالث : أنه حالٌ من الضميرِ المستتر في الجارِّ لوقوعه صفة .

قال الزمخشري : " فإن قلت : إذا جعلت " مظلماً " حالاً من " الليل " فما العاملُ فيه ؟ قلت : لا يخلو : إما أن يكونَ " أُغْشِيَتْ " من قِبل أنَّ " من الليل " صفةٌ لقوله : " قِطْعاً " ، وكان إفضاؤه إلى الموصوفِ كإفضائه إلى الصفة ، وإما أن يكونَ معنى الفعل في " من الليل " .

قال الشيخ : " أمَّا الوجه الأول فهو بعيدٌ لأنَّ الأصلَ أن يكون العاملُ في الحال هو العاملَ في ذي الحال ، والعاملُ في " من الليل " هو الاستقرار ، و " أُغْشِيَتْ " عاملٌ في قوله : " قطعاً " الموصوف بقوله : " من الليل " فاختلفا ، فلذلك كان الوجهُ الأخير أَوْلى ، أي : قطعاً مستقرةً من الليل ، أو كائنةً من الليل في حال إظلامه " . قلت : ولا يَعْني الزمخشري بقوله : " إنَّ العامل أُغْشِيَتْ " إلا أنَّ الموصوفَ وهو " قِطْعاً " معمول لأُغْشِيَتْ والعامل في الموصوف هو عاملٌ في الصفة ، والصفة هي " من الليل " فهي معمولةٌ لـ " أُغْشِيَتْ " ، وهي صاحبةُ الحال ، والعاملُ في الحال هو العاملُ في ذي الحال ، فجاء من ذلك أنَّ العاملَ في الحال هو

العامل في صاحبها بهذه الطريقةِ . ويجوز أن يكونَ "قِطْعاً" جمع قطعة ، أي : اسم جنس ، فيجوز حينئذٍ وصفُه بالتذكير نحو : "نَخْلٌ مُنْقَعِر" والتأنيث نحو : "نخل خاوية" .

(208/360)

وأمَّا قراءة الباقين فقال مكي وغيره : "إنَّ" مظلماً "حال من "الليل" فقط . ولا يجوز أن يكون صفةً ل "قِطَعاً" ، ولا حالاً منه ، ولا من الضمير في "من الليل" ، لأنه كان يجب أن يقال فيه : مظلمة" . قلت : يَعْنُون أنَّ الموصوف حينئذ جمعٌ ، وكذا صاحب الحال فتجب المطابقةُ . وأجاز بعضهم ما منعه هؤلاء وقالوا : جاز ذلك لأنَّه في معنى الكثير ، وهذا فيه تعسُّفٌ .

وقرأ أُبَي / ﴿ تغشى وجوهَهم قِطْعٌ ﴾ بالرفع ، "مظلمٌ" . وقرأ ابن أبي عبلة كذلك ، إلا أنه فتح الطاء . وإذا جَعَلْتَ "مُظْلماً نعتاً ل "قطعاً" ، فتكون قد قَدَّمْتَ النعتَ غير الصريح على الصريح . قال ابن عطية : "فإذا كان نعتاً يعني مظلماً نعتاً لقطع فكان حقه أن يكون قبلَ الجملة ، ولكن قد يجيءُ بعد هذا ، وتقدير الجملة : قطعاً استقرَّ من الليل مظلماً على نحو قوله : ﴿ وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام : 155] . قال الشيخ : "ولا يتعيَّنُ تقديرُ العاملِ في المجرور بالفعل فيكونُ جملة ، بل الظاهرُ تقديره باسم الفاعل فيكون

من قبيل الوصف بالمفرد ، والتقدير : قطعاً كائناً من الليل مظلماً " . قلت : المحذورُ تقديمُ غيرِ الصريحِ على الصريح ولو كان مقدَّراً بمفرد .

و" قطعاً " منصوبٌ ب " أُغْشِيَتْ " مفعولاً ثانياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 188.183 ﴾

(209/360)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾

والذين كسبوا السيئاتِ وعملوا الزّلاتِ لهم جزاء سيئة مثلها ، والباء في « بمثلها » : صلة أي للواحد واحد .

﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ : هو تأبيد العقوبة .

﴿ مَّا لَهُ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي ما لهم من عذابه من عاصم ، سِيمُوا ذُلَّ الحجاب ، ومُنُوا بتأبيد العذاب ، وأصابهم هوان البعاد ، وآثارُ الحجاب على وجوههم لائحة فإنَّ الأَسِرَّةَ تدلُّ على السريرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 92 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (28) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين سبحانه مآل الفريقين ، نبه على بعض مقدمات ذلك المانعة أن يشفع أحد من غير إذنه بقوله : ﴿ ويوم ﴾ أي وفرقنا بينهم لأنه لا أنساب هناك ولا أسباب فلا تناصر يوم ﴿ نحشرهم ﴾ أي الفريقين : الناجين والهالكين العابدين منهم والمعبودين حال كونهم ﴿ جميعاً ﴾ ثم يقطع ما بين المشركين وشركائهم فلا يشفع فيهم شيء مما يعتقدون شفاعته ولا ينفعهم بنافعة ، بل يظهرون الخصومة ويبارزون بالعداوة وهو ناظر إلى قوله تعالى ﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ [يونس : 4] وإلى قوله ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ﴾ [يونس : 18] والحشر : الجمع بكره من كل جانب إلى موقف واحد ؛ وأشار سبحانه إلى طول وقوفهم بقوله : ﴿ ثم نقول للذين أشركوا ﴾ أي بنا من لم يشارك في خلقهم ؛ وقوله : ﴿ مكانكم ﴾ نقل أبو حيان عن النحوين أنهم جعلوه اسماً لأثبتوا ، ورد على

الزمخشري تقديره بألزموا لأنه متعد ويجب أن يساوي بين الاسم والمسمى في التعدي واللزوم ، أي نقول لهم : قفوا وقوف الذل ﴿ أنتم وشركاؤكم ﴾ حتى ينفذ فيكم أمرنا إظهار لضعف معبوداتهم التي كانوا يترجونها وتحسيراً لهم ، فلا يمكنهم مخالفة ذلك .

(211/360)

ولما كان التقدير : فوقفوا موافقة للأمر على حسب الإرادة ، عطف عليه مسبباً عنه قوله : ﴿ فزيلنا ﴾ أي أزلنا إزالة كثيرة مفرقة ما كان ﴿ بينهم ﴾ في الدنيا من الوصلة والألفة حتى صارت عداوة ونفرة فقال الكفار : ربنا هؤلاء الذين أضلونا ، وكنا ندعو من دونك ﴿ وقال شركاؤهم ﴾ لهم متبرئين منهم بما خلق لهم سبحانه من النطق ﴿ ما كنتم ﴾ أي أيها المشركون ، وأضاف الشركاء إليهم لأنهم هم الذين نصبوهم بغير أمر ولا دليل ولأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم ﴿ إيانا تعبدون ﴾ أي تخصوننا بالعبادة لأنا لا نستحق ذلك إشارة لى أنه لا يعبد إلاّ من يستحق الإخلاص في ذلك بأن يعبد وحده من غير شريك ، ومن لا يستحق ذلك لا يستحق مطلق العبادة ولا يصلح لها ، وكل عبادة فيها شرك لا تعد أصلاً ولا يرضى بها جماد لو نطق ، فمتى نفي المقيد بالخلوص نفي المطلق لأنه لا اعتداد به أصلاً ، ومن المعلوم أن ما كان بهذه الصفة لا يقدم عليه أحد ، فنحن نظن أنه لم يعبدنا عابد فضلاً

عن أن يخصنا بذلك ، والشخص يجوز له أن ينفي ما يظن نفيه ونحن لم نعلم شيئاً من ذلك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 435.436 ﴾

(212/360)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن هذا نوع آخر من شرح فضائح أولئك الكفار ، فالضمير في قوله ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ عائد إلى المذكور السابق ، وذلك هو قوله : ﴿ والذين كَسَبُواْ السيئات ﴾ [يونس : 27] فلما وصف الله هؤلاء الذين يحشرهم بالشرك والكفر ، دل على أن المراد من قوله : ﴿ والذين كَسَبُواْ السيئات ﴾ الكفار ، وحاصل الكلام : أنه تعالى يحشر العابد والمعبود ، ثم إن المعبود يتبرأ من العابد ، ويتبين له أنه ما فعل ذلك بعلمه وإرادته ، والمقصود منه أن القوم كانوا يقولون : ﴿ هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله ﴾ [يونس : 18] فبين الله تعالى

أنهم لا يشفعون لهؤلاء الكفار ، بل يتبرؤن منهم ، وذلك يدل على نهاية الخزي والنكال في حق هؤلاء الكفار ، ونظيره آيات منها قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا ﴾ [البقرة : 166] ومنها قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَقُولُ للملائكة أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ * قَالُواْ سبحانك أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن ﴾ [سبأ : 40 ، 41] .

واعلم أن هذا الكلام يشير على سبيل الرمز إلى دقيقة عقلية ، وهي أن ما سوى الواحد الأحد الحق ممكن لذاته ، والممكن لذاته محتاج بحسب ماهيته ، والشيء الواحد يمتنع أن يكون قابلاً وفاعلاً معاً ، فما سوى الواحد الأحد الحق لا تأثير له في الإيجاد والتكوين ، فالممكن المحدث لا يليق به أن يكون معبوداً لغيره ، بل المعبود الحق ليس إلا الموجد الحق ، وذلك ليس إلا الموجود الحق الذي هو واجب الوجود لذاته ، فبراءة المعبود من العابدين ، يحتمل أن يكون المراد منه ما ذكرناه .

والله أعلم بمراده .

المسألة الثانية :

(الحشر) الجمع من كل جانب إلى موقف واحد و ﴿ جَمِيعاً ﴾ نصب على الحال أي نحشر الكل حال اجتماعهم .

و ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ منصوب بإضمار الزموا .

والتقدير : الزموا مكانكم و ﴿ أَنتُمْ ﴾ تأكيد للضمير ﴿ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ عطف عليه .

واعلم أن قوله : ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ كلمة مختصة بالتهديد والوعيد والمراد أنه تعالى يقول للعابدين والمعبودين مكانكم أي الزموا مكانكم حتى تسألوا ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وأزواجهم وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مسؤولون ﴾ [الصافات : 22 24] .

أما قوله : ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ ففيه بحثان :

البحث الأول : أن هذه الكلمة جاءت على لفظ المضي بعد قوله : ﴿ ثُمَّ نَقُولُ ﴾ وهو منتظر ، والسبب فيه أن الذي حكم الله فيه ، بأن سيكون صار كالكائن الراهن الآن ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أصحاب الجنة ﴾ [الأعراف : 44] .

البحث الثاني : (زيلنا) فرقنا وميزنا .

قال الفراء : قوله : ﴿ فَزَيَّلْنَا ﴾ ليس من أزلت ، إنما هو من زلت إذا فرقت .

تقول العرب : زلت الضأن من المعز فلم تزل .

أي ميزتها فلم تتميز ، ثم قال الواحدي : فالزيل والتزييل والمزايلة ، والتمييز والتفريق .

قال الواحدي : وقرىء ﴿ فزايلنا بَيْنَهُمْ ﴾ وهو مثل ﴿ فَزَيَّلْنَا ﴾ وحكى الواحدي عن ابن قتيبة أنه قال في هذه الآية : هو من زال يزول وأزلته أنا ، ثم حكى عن الأزهري أنه قال : هذا غلط ، لأنه لم يميز بين زال يزول ، وبين زال يزيل ، وبينهما بون بعيد ، والقول ما قاله الفراء ، ثم قال المفسرون : ﴿ فَزَيَّلْنَا ﴾ أي فرقنا بين المشركين وبين شركائهم من الآلهة والأصنام ، وانقطع ما كان بينهم من التواصل في الدنيا .

وأما قوله : ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ ففيه مباحث :

(214/360)

البحث الأول : إنما أضاف الشركاء إليهم لوجوه : الأول : أنهم جعلوا نصيباً من أموالهم لتلك الأصنام ، فصيروها شركاء لأنفسهم في تلك الأموال ، فلهذا قال تعالى : ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ الثاني : أنه يكفي في الإضافة أدنى تعلق ، فلما كان الكفار هم الذين أثبتوا هذه الشركة ، لا جرم حسنت إضافة الشركاء إليهم .

الثالث : أنه تعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله : ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ صاروا شركاء في هذا الخطاب .

البحث الثاني : اختلفوا في المراد بهؤلاء الشركاء .

فقال بعضهم : هم الملائكة ، واستشهدوا بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ للملائكة أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ [سبأ : 40] ومنهم من قال : بل هي الأصنام ، والدليل عليه : أن هذا الخطاب مشتمل على التهديد والوعيد ، وذلك لا يليق بالملائكة المقربين ، ثم اختلفوا في أن هذه الأصنام كيف ذكرت هذا الكلام .

فقال بعضهم : إن الله تعالى يخلق الحياة والعقل والنطق فيها ، فلا جرم قدرت على ذكر هذا الكلام .

وقال آخرون إنه تعالى يخلق فيها الكلام من غير أن يخلق فيها الحياة حتى يسمع منها ذلك الكلام ، وهو ضعيف ، لأن ظاهر قوله : ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ يقتضي أن يكون فاعل ذلك القول هم الشركاء .

فإن قيل : إذا أحياهم الله تعالى فهل يبقيهم أو يفنيهم ؟

قلنا : الكل محتمل ولا اعتراض على الله في شيء من أفعاله ، وأحوال القيامة غير معلومة ، إلا القليل الذي أخبر الله تعالى عنه في القرآن .

والقول الثالث : إن المراد بهؤلاء الشركاء ، كل من عبد من دون الله تعالى ، من صنم وشمس وقمر وأنسي وجني وملك .

البحث الثالث : هذا الخطاب لا شك أنه تهديد في حق العابدين ، فهل يكون تهديداً في حق المعبودين ؟ أما المعتزلة : فإنهم قطعوا بأن ذلك لا يجوز .

قالوا : لأنه لا ذنب للمعبود ، ومن لا ذنب له ، فإنه يقبح من الله تعالى أن يوجه التخويف والتهديد والوعيد إليه .

(215/360)

وأما أصحابنا ، فإنهم قالوا إنه تعالى لا يسئل عما يفعل .

البحث الرابع : أن الشركاء قالوا : ﴿ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ وهم كانوا قد عبدوهم ، فكان هذا كذباً ، وقد ذكرنا في سورة الأنعام اختلاف الناس في أن أهل القيامة هل يكذبون أم لا ، وقد تقدمت هذه المسألة على الاستقصاء ، والذي نذكره ههنا ، أن منهم من قال : إن المراد من قولهم ﴿ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ هو أنكم ما عبدتمونا بأمرنا وإرادتنا ؟ قالوا : والدليل على أن المراد ما ذكرناه وجهان :

الأول : أنهم استشهدوا بالله في ذلك حيث قالوا : ﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾

والثاني : أنهم قالوا : ﴿ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ فأثبتوا لهم عبادة ، إلا أنهم زعموا أنهم كانوا غافلين عن تلك العبادة ، وقد صدقوا في ذلك ، لأن من أعظم أسباب الغفلة كونها جمادات لا حس لها بشيء ولا شعور ألبتة .

ومن الناس من أجرى الآية على ظاهرها .

وقالوا : إن الشركاء أخبروا أن الكفار ما عبدوها ، ثم ذكروا فيه وجوهاً : الأول : أن ذلك الموقف موقف الدهشة والحيرة ، فذلك الكذب يكون جارياً مجرى كذب الصبيان ، ومجرى كذب المجانين والمدهوشين .

والثاني : أنهم ما أقاموا لأعمال الكفار وزنا وجعلوها لبطلانها كالعدم ، ولهذا المعنى قالوا : إنهم ما عبدونا .

والثالث : أنهم تخيلوا في الأصنام التي عبدوها صفات كثيرة ، فهم في الحقيقة إنما عبدوا ذوات موصوفة بتلك الصفات ، ولما كانت ذواتها خالية عن تلك الصفات ، فهم ما عبدوها وإنما عبدوا أموراً تخيلوها ولا وجود لها في الأعيان ، وتلك الصفات التي تخيلوها في أصنامهم أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله بغير إذنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 67.69 ﴾

(216/360)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾

وهذا كله في يوم نجمعهم جميعاً ، يعني : الكفار وآلهتهم .

﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ ، يعني : قفوا أنتم وآلهتكم ويقال : الرؤساء والأتباع ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ ، يعني : ميزنا وفرقنا بين المشركين وبين آلهتهم ، وأصله في اللغة من زال يزول ، وأزلته وزيلته بمعنى واحد ، ويقال : فرقنا بينهم من التواصل والألفة ، يعني : بين الرؤساء والأتباع ، ويقال : يأمر الله تعالى أن تلحق كل أمة بما كانوا يعبدون من دون الله فيتفرق أهل الملل ، وذلك قوله ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ يعني : بين أهل الشرك وأهل الإسلام .

ثم قال للمشركين : ماذا كنتم تعبدون ؟ فينكرون ويحلفون ، ثم يقرون بعدما يختم على أفواههم وتشد أعضاؤهم أنهم كانوا يعبدون الأصنام .

﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ ، يعني : آلهتهم لمن عبدها : ﴿ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ في الدنيا بأمرنا ولا نعلم بعبادتكم إيانا ، ولم تكن فينا روح فنعقل عبادتكم إيانا ، فيقول من عبدها قد عبدناكم وأمرتمونا فأطعناكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(217/360)

وقال ابن عطية :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم والحسن وشيبة وغيرهم ، " نحشرهم " بالنون ، وقرأت فرقة : " يحشرهم " بالياء ، والضمير في " يحشرهم " عائد على جميع الناس محسنين ومسيئين ، و ﴿ مكانكم ﴾ نصب على تقدير لازموا مكانكم وذلك مقترن بحال شدة وخزي ، و ﴿ مكانكم ﴾ في هذا الموضع من أسماء الأفعال إذ معناه قفوا واسكنوا ، وهذا خبر من الله تعالى عن حالة تكون لعبدة الأوثان يوم القيامة يؤمرون بالإقامة في موقف الخزي مع أصنامهم ثم ينطق الله الأصمام بالتبري منهم . وقوله : ﴿ وشركاؤكم ﴾ ، أي الذين تزعمون أنتم أنهم شركاء لله ، فأضافهم إليهم لأن كونهم شركاء إنما هو بزعم هؤلاء وقوله ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ معناه فرقنا في الحجة والذهب وهو من زلت الشيء عن الشيء أزيله ، وهو تضعيف مبالغة لا تعدية ، وكون مصدر زيل تزييلاً ، يدل على أن زيل إنما هو فعل لا فيعل ، لأن مصدره كان يجيء على فيعلة ، وقرأت " فزايلنا " ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الكفار إذ رأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب قيل لهم اتبعوا ما كنتم تعبدون فيقولون كنا نعبد هؤلاء فتقول الأصنام : والله ما كنا نسمع أو نعقل : ﴿ ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ فيقولون والله لإياكم كنا نعبد فنقول الألهة ﴿ كفى بالله شهيداً ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(218/360)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾

أي نجمعهم ، والحشر الجمع .

﴿ جَمِيعاً ﴾ حال .

﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ أي اتخذوا مع الله شريكاً .

﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ أي الزموا واثبتوا مكانكم ، وقِفوا مواضعكم .

﴿ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ﴾ وهذا وعيد .

﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ أي فرّقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا ؛ يقال : زيّلته فتزيّل ، أي فرّقته فتفرّق ، وهو فعّلت ؛ لأنك تقول في مصدره تزييلاً ، ولو كان فَيْعَلْت لقلت زَيَلَةً .

والمزايلة المفارقة ؛ يقال : زايله الله مزايلة وزِيالاً إذا فارقه .

والتزايل التباين .

قال الفراء : وقرأ بعضهم "فزايلنا بينهم" ؛ يقال : لا أزايل فلاناً ، أي لا أُفارقه ؛ فإن قلت : لا أُزاوله فهو بمعنى آخر ، معناه لا أُخاتله .

﴿ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ عنى بالشركاء الملائكة .

وقيل : الشياطين ، وقيل : الأصنام ؛ فينطقها الله تعالى فتكون بينهم هذه المحاورة .

وذلك أنهم ادعوا على الشياطين الذين أطاعوهم والأصنام التي عبدوها أنهم أمروهم بعبادتهم ويقولون ما عبدناكم حتى أمرتمونا .

قال مجاهد : ينطق الله الأوثان فتقول ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون ، وما أمرناكم بعبادتنا .

وإن حُمل الشركاء على الشياطين فالمعنى أنهم يقولون ذلك دَهَشا ، أو يقولون كذبا واحتيالاً للخلاص ، وقد يجري مثل هذا غداً ؛ وإن صارت المعارف ضرورية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(219/360)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ﴾

الحشر الجمع من كل جانب وناحية إلى موضع واحد والمعنى ويوم نجمع الخلائق جميعاً لموقف الحساب وهو يوم القيامة ﴿ ثم نقول للذين أشركوا مكانكم ﴾ أي الزموا مكانكم واثبتوا فيه حتى تسألوا وفي هذا وعيد وتهديد للعابدين والمعبودين ﴿ أنتم وشركاؤكم ﴾ يعني أنتم أيها المشركون والأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله ﴿ فزيلنا بينهم ﴾

يعني : ففرقنا بين العابدين والمعبودين وميزنا بينهم وانقطع ما كان بينهم من التواصل في الدنيا .

فإن قلت قوله سبحانه وتعالى فزيلنا بينهم جاء على لفظ الماضي بعد قوله ثم نقول للذين أشركوا وهو منتظر في المستقبل فما وجهه .

قلت : السبب فيه ، أن الذي حكم الله فيه بأنه سيكون صار كالكائن الآن .

قوله : ﴿ وقال شركاؤهم ﴾ يعني الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله وإنما سماهم شركاءهم ، لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم أو لأنه سبحانه وتعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله : مكانكم فقد صاروا شركاء في هذا الخطاب ﴿ ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ تبرأ المعبودون من العابدين .

فإن قلت : كيف صدر هذا الكلام من الأصنام وهي جماد لا روح فيها ولا عقل لها ؟

قلت : يحتمل أن الله تعالى خلق لها في ذلك اليوم من الحياة والعقل والنطق حتى قدرت على هذا الكلام فإن قلت إذا أحياهم الله في ذلك اليوم فهل يفنيهم أو يبقيهم .

قلت : الكل محتمل ولا اعتراض على الله في شيء من أفعاله وأحوال القيامة غير معلومة إلا ما دل عليه الدليل من كتاب أو سنة .

فإن قلت : إن الأصنام قد أنكرت أن الكفار كانوا يعبدونها وقد كانوا يعبدونها ؟

قلت : قد تقدمت هذه المسألة وجوابها في تفسير سورة الأنعام ونقول هنا قال مجاهد : تكون في يوم القيامة ساعة تكون فيها شدة تنصب لهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله ، فتقول الآلهة : والله ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ولا نعلم أنكم تعبدوننا فيقولون والله إياكم كنا نعبد فتقول لهم الآلهة .

﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(221/360)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾

كلامٌ مسأنفٌ مسوقٌ لبيان بعضٍ آخرَ من أحوالهم الفظيعةِ ، وتأخيرُه في الذكر مع تقدمه في الوجود على بعض أحوالِهم المحكيةِ سابقاً للإيذان باستقلال كلَ من السابق واللاحقِ بالاعتبار ، ولو روعيَ الترتيبُ الخارجيُّ لعُدَّ الكلُّ شيئاً واحداً كما مر في قصة البقرة ولذلك فصل عما قبله ، ويومَ منصوبٌ على المفعولية بمضمر أي أنذرْهم أو ذكرْهم ،

وضمير نحشُرهم لكلا الفريقين الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئاتِ لأنه المتبادرُ من قوله تعالى : ﴿ جَمِيعاً ﴾ ومن أفراد الفريقِ الثاني بالذكر في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ أي نقول للمشركين من بينهم ولأن توبيخَهم وتهديدَهم على رؤوس الأشهادِ أفظعُ والإخبارُ بحشر الكلِّ في تهويل اليومِ أدخل ، وتخصيصُ وصفِ إشراكهم بالذكر في حيز الصلةِ من بين سائر ما اكتسبوه من السيئات لابتناء التوبيخِ والتقريعِ عليه مع ما فيه من الإيذان بكونه معظمَ جناياتِهم وعمدةَ سيئاتِهم ، وقيل : للفريق الثاني خاصةً فيكون وضعُ الموصولِ موضعَ الضميرِ لما ذكر آنفاً ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ نُصب على أنه في الأصل ظرفٌ لفعيل أقيم مُقامه لا على أنه اسمُ فعل ، وحركتُه حركةُ بناءٍ كما هو رأيُ الفارسي ، أي الزَموه حتى تنظُروا ما يفعل بكم ﴿ أَنتُمْ ﴾ تأكيدٌ للضمير المنتقل إليه من عامله لسده مسدَّه ﴿ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ عطفٌ عليه وقرىء بالنصب على أن الواوَ بمعنى مع ﴿ فَزَيَّلْنَا ﴾ من زيّلت الشيء مكانه أُزيّله أي أزلتُه ، والتضعيف للتكثير لا للتعدية وقرىء فزايلنا بمعناه نحو كلّمتُه وكالمته وهو معطوفٌ على نقول ، وإيثارُ صيغةِ الماضي للدِلالة على التحقق المورِّثِ لزيادة التوبيخِ والتحسيرِ ، والفاءُ للدِلالة على وقوع التزييل ومباديه عقيبَ الخطابِ من غير مُهلةٍ إيذاناً بكمال رخاوةِ ما بين الفريقين من العلاقة والوصلةِ أي ففرقنا ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ وقطّعنا أقرانَهم والوصائل التي كانت

بينهم في الدنيا لكن لا من الجانبين بل من جانب العبَدةِ فقط لعدم احتمالِ شمولِ الشركاءِ للشياطين كما سيجيء فخابت آمالُهم وانصرمت عُرى أطماعِهم وحصل لهم اليأسُ الكليُّ من حصول ما كانوا يرجونه من جهتهم ، والحالُ وإن كانت معلومةً لهم من حين الموتِ والابتلاءِ بالعذاب لكن هذه المرتبةَ من اليقين إنما حصلت عند المشاهدةِ والمشافهةِ ، وقيل : المرادُ بالتزييل التفريقُ الحسيُّ أي فباعدنا بينهم بعد الجمعِ في الموقفِ وتبرُّؤ شركائِهم منهم ومن عبادتهم كما في قوله تعالى : ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ فالواو حينئذ في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ حاليةٌ بتقدير كلمةِ قد عند من يشترطها وبدونه عند غيرِه ولا عاطفة كما في التفسير الأول لاستدعاء المحاورةِ المحاضرةَ الفائتةَ بالمباعدة وليس في ترتيب التزييلِ بهذا المعنى على الأمر بلزوم المكانِ ما في ترتيبه عليه بالمعنى الأول من النكتة المذكورةِ ليُصار لأجل رعايتِها إلى تغيير الترتيبِ الخارجيِّ فإن المباعدةَ بعد المحاورةِ حتماً ، وأما قطعُ الأقران والعلائق فليس كذلك بل ابتداؤُه حاصلٌ من حين الحشر ، بل بعضُ مراتبه حاصلٌ قبله أيضاً وإنما الحاصلُ عند المحاورةِ أقصاها كما أشير إليه اعتداداً بما في تقديمه من التغيير لا سيما مع رعاية ما ذكر من النكتة ، ولو سلم تأخرُ جميعِ مراتبِه عن المحاورة فمراعاةُ تلك النكتةِ كافيةٌ في استدعاء تقديمه عليها ويجوز أن تكون حاليةً على هذا التقديرِ أيضاً ، والمرادُ بالشركاء قيل : الملائكةُ

وعُزيرٌ والمسيحُ وغيرُهم ممن عبدوه من أولي العلم ففيه تأييدٌ لرجوع الضميرِ إلى الكل وقولهم :

﴿ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾

(223/360)

عبارةٌ عن تبرئهم من عبادتهم وأنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءَهم وشياطينَهم الذين أغوَوْهم لأنها الآمرةُ لهم بالإشراك دونهم كقولهم : ﴿ سبحانك أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ﴾ الآية ، وقيل : الأصنامُ يُنطِقها الله الذي أنطق كلَّ شيء فتُشافِهُهم بذلك مكانَ الشفاعةِ التي كانوا يتوقعونها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(224/360)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾

كلام مستأنف مسوق لبيان بعض آخر من أحوالهم الفظيعة ، وتأخيره في الذكر مع تقدمه في

الوجود على بعض أحوالهم المحكية سابقاً كما قال بعض المحققين للإيذان باستقلال كل من السابق واللاحق بالاعتبار ولو روعي الترتيب الخارجي لعد الكل شيئاً واحداً ولذلك فصل عما قبله ، وزعم الطبرسي أنه تعالى لما قدم ذكر الجزاء بين بهذا وقت ذلك ، وعليه فالآية متصلة بما ذكر آنفاً لكن لا يخفى أن ذلك لم يخرج مخرج البيان ، وأولى منه أن يقال : وجه اتصاله بما قبله أن فيه تأكيداً لقوله سبحانه : ﴿ مَّا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ [يونس : 27] من حيث دلالته على عدم نفع الشركاء لهم .

و ﴿ يَوْمٍ ﴾ منصوب بفعل مقدر كذكرهم وخوفهم ، وضمير ﴿ نَحْشُرُهُمْ ﴾ لكلا الفريقين من الذين أحسنوا الحسنى والذين كسبوا السيآت لأنه المتبادر من قوله تعالى : ﴿ جَمِيعاً وَمَنْ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ أي للمشركين من بينهم ولأن توبيخهم وتهديدهم على رؤوس الاشهاد أفظع ، والأخبار بحشر الكل في تهويل اليوم ادخل ، وإلى هذا ذهب القاضي البيضاوي وغيره ، وكون مراده بالفريقين فريقي الكفار والمشركين خلاف الظاهر جداً .

وقيل : الضمير للفريق الثاني خاصة فيكون الذين أشركوا من وضع الموصول موضع الضمير .

والنكتة في تخصيص وصف إشراكهم في حيز الصلة من بين سائر ما اكتسبوه من السيئات ابتناء التوبيخ والتقريع عليه مع ما فيه من الإيذان بكونه معظم جناياتهم وعمدة سيئاتهم ،

وهو السر في الاظهار في مقام الإضمار على القول الأخير ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ ظرف متعلق بفعل حذف فسد هو مسده وهو مضاف إلى الكاف ، والميم علامة الجمع أي الزموا مكانكم .

والمراد انتظروا حتى تنظروا ما يفعل بكم .

وعن أبي علي الفارسي أن مكان اسم فعل وحركته حركة بناء .

(225/360)

وهل هو اسم فعل لالزم أو لاثبت ظاهر كلام بعضهم الأول والمنقول عن شرح التسهيل الثاني لأنه على الأول يلزم أن يكون متعدياً كالزم مع أنه لازم ، وأجيب بمنع اللزوم ، وقال السفاقسي : في كلام الجوهري ما يدل على أن الزم يكون لازماً ومتعدياً فلعل ما هو اسم له اللازم : وذكر الكوفيون أنه يكون متعدياً وسمعوا من العرب مكانك زيداً أي انتظره .

واختار الدماميني في "شرح التسهيل" عدم كونه اسم فعل فقال : لا أدري ما الداعي إلى جعل هذا الظرف اسم فعل إما لازماً وإما متعدياً وهلا جعلوه ظرفاً على بابه ولم يخرجوه عن أصله أي أثبت مكانك أو انتظر مكانك .

وإنما يحسن دعوى اسم الفعل حيث لا يمكن الجمع بين ذلك الاسم وذلك الفعل نحو صه

وعليك وإليك ، وأما إذا أمكن فلا كوراءك وأمامك وفيه منع ظاهر .

وقوله تعالى : ﴿ أَنتُمْ ﴾ توكيد للضمير المنتقل إلى الظرف من عامله على القول الأول وللضمير المستتر في اسم الفعل على القول الثاني ، وقوله سبحانه : ﴿ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ عطف على ذلك ، وقيل : إن ﴿ أَنتُمْ ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي مهانون أو مجزيون وهو خلاف الظاهر مع ما فيه من تفكيك النظم ، قيل : ولأنه يأباه قراءة وشركاءكم بالنصب إذ يصير حينئذ مثل كل رجل وضيعته ومثله لا يصح فيه ذلك لعدم ما يكون عاملاً فيه ، والعامل على التوجيه الأول ظاهر لمكان ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ أي ففرقنا ، وهو من زلت الشيء عن مكانه أزيله أي أزلته ، والتضعيف للتكثير لا للتعدية ، وهو يائى ووزنه فعل بدليل زايل ، وقد قرىء به وهو بمعناه نحو كلمته وكالمته وصعر خده وصاعر خده .

(226/360)

وقال أبو البقاء : إنه واوى لأنه من زال يزول ، وإنما قلبت الواو ياءً لأنه فيعل ، والأول أصح لما علمت ولأن مصدره التزييل لا الزيولة مع أن فعل أكثر من فيعل ، ونصب بين على الظرفية لا على أنه مفعول به كما توهم ، والمراد بالتفريق قطع الاقران والوصل التي كانت بينهم وبين

الشركاء في الدنيا .

وقيل : التفريق الجسماني وظاهر النظم الجليل لا يساعده ، والعطف على ﴿ نَّقُولُ ﴾ وإيثار صيغة الماضي للدلالة على التحقق لزيادة التوبيخ والتحسير ، والفاء الدلالة على وقوع التزييل ومبادية عقيب الخطاب من غير مهملة إيذاناً بكمال رخاوة ما بين الفريقين من العلاقة والوصلة ، وقوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ عطف على ما قبله ، وجوز أن يكون في موضع الحال بتقدير قد أو بدونها على الخلاف ، والإضافة باعتبار أن الكفار هم الذين اتخذوهم شركاء لله سبحانه وتعالى :

وقيل : لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم فصيروهم شركاء لأنفسهم في ذلك ، والمراد بهؤلاء الشركاء قيل : الأصنام فإن أهل مكة إنما كانوا يعبدونها وهم المعنيون بأكثر هذه الآيات ، ونسبة القول لها غير بعيد من قدرته سبحانه فينطقها الله الذي أنطق كل شيء في ذلك الموقف فتقول لهم ﴿ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ والمراد من ذلك تبريهم من عبادتهم وأنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم الداعية لهم وما أعظم هذا مكان الشفاعة التي كانوا يتوقعونها منهم .

(227/360)

وقيل : المراد بهم الملائكة والمسيح عليهم السلام لقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلملائكة أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ [سبأ : 40] وقوله سبحانه : ﴿ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونى وَأُمّىَ إلهين مِن ﴾ [المائدة : 116] الآية ، والمراد من ذلك القول ما أريد منه أولاً أيضاً لأن نفي العبادة لا يصح لثبوتها في الواقع والكذب لا يقع في القيامة ممن كان ، وقيل : إن قول الشركاء مجرى على حقيقته بناء على أن ذلك الموقف موقف الدهشة والحيرة فذلك الكذب يكون جارياً مجرى كذب الصبيان والمجانين المدهوشين ، ويمكن أن يقال أيضاً : أنهم ما أقاموا لأعمال الكفار وزناً وجعلوها لبطلانها كالعدم فلذا نفوا عبادتهم إياهم أو يقال : إن المشركين لما تخيلوا فيما عبدون أوصافاً كثيرة غير موجودة فيه في نفس الأمر كانوا في الحقيقة إنما عبدوا ذوات موصوفة بتلك الصفات ولما كانت ذوات الشركاء خالية عن تلك الصفات صدق أن يقال : إن المشركين ما عبدوا الشركاء وهذا أولى من الأولين بل لا يكاد يلتفت إليهما وكأن حاصل المعنى عليه انكم عبدتم من زعمتم أنه يقدر على الشفاعة لكم وتخليصكم من العذاب وانه موصوف بكيت وكيت فاطلبوه فأنا لسنا كذلك .

والمراد من ذلك قطع عرى أطماعهم وإيقاعهم في اليأس الكلي من حصول ما كانوا يرجونه ويعتقدونه فيهم ولعل اليأس كان حاصلاً لهم من حين الموت والابتلاء بالعذاب ولكن يحصل بما ذكر مرتبة فوق تلك المرتبة .

وقيل : المراد بهم الشياطين وقطع الوصل عليه من الجانبين لا من جانب العبدة فقط كما يقتضيه ما قبل ، والمراد من قولهم ذلك على طرز ما تقدم .

(228/360)

وأورد على القول بأن المراد الملائكة والمسيح عليهم السلام بأنه لا يناسب قوله سبحانه : ﴿ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ حيث أن المراد منه الوعيد والتهديد ، وظاهر العطف انصراف ذلك إلى الشركاء أيضاً ، وتهديد أولئك الكرام عليهم الصلاة والسلام مما لا يكاد يقدم على القول به .

واعترض بأن هذا مشترك الإلزام فإنه يرد على القول الأول أيضاً إذ لا معنى للوعيد والتهديد في حق الأصنام مع عدم صدور شيء منها يوجب ذلك ، ولا مخلص إلا بالتزام أن التهديد والوعيد للمخاطبين فقط أو للمجموع باعتبارهم .

وأجيب بجواز كون تهديد الأصنام نظير ادخالها النار مع عبدتها كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] وكذا قوله سبحانه : ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ﴾ [البقرة : 24] على ما عليه جمع من المفسرين ، ودعوى الفرق بين التهديد والإدخال في النار تحتاج إلى دليل .

نعم قالوا : يجب على القول بأن المراد الملائكة عليهم السلام أن تحمل الغفلة في قوله سبحانه : ﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (29) ﴾

(229/360)

على عدم الارتضاء لا على عدم الشعور لأن عدم شعور الملائكة بعبادتهم غير ظاهر بل لو قيل بوجوب هذا الحمل على القول بأن المراد المسيح عليه السلام أيضاً لم يبعد لأن عدم شعوره بعبادتهم مع أنه سينزل ويكسر الصليب كذلك ، ولا يكاد يصح الحمل على الظاهر إلا إذا كان المراد الأصنام فإن عدم شعورهم بذلك ظاهر ، وتعقب بأنه لا دليل على شعور الملائكة عليهم السلام بعبادتهم ليصرف له اللفظ عن حقيقته ، وليس هؤلاء المعبودون هم الحفظة أو الكتبة بل ملائكة آخرون ولعلهم مشغلون بأداء ما أمروا به عن الالتفات إلى ما في هذا العالم ونحن لا ندعي في الملائكة عليهم السلام ما يدعيه الفلاسفة فإنهم الذين قالوا يوم استنبئوا عن الأسماء : ﴿ سبحانك لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [البقرة : 32] وهذا جبريل عليه السلام من أجلهم قدراً كان كثيراً ما يسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء فيقول : لا أعلم وسوف أسأل ربي ، وكذا لا دليل على شعور المسيح عليه السلام بعادة هؤلاء المخاطبين عند إيقاعها وكونه سينزل ويكسر الصليب لا يستدعي الشعور بها

كذلك كما لا يخفى ، وقد يستأنس لعدم شعوره بما حكى الله تعالى عنه في الجواب عن سؤاله له عليه السلام من قوله : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعبدوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا ﴾ [المائدة : 117] ، واعترض على القول الأخير بأنه لا يصح مع هذا القول مطلقاً لأن الشياطين هم الذين زينوا لهم هذه الشنيعة الشنعاء وأغروهم عليها فكيف يتأتى القول بأنهم غافلون حقيقة عنها أو أنهم غير مرتضين لها ، ولعل من ذهب إلى ذلك يلتزم الكذب ويقول بجواز وقوعه يوم القيامة .

(230/360)

وقيل : إن القول الأول لا يصح مع هذا القول أيضاً مطلقاً لأن الأوثان لا تتصف بالغفلة حقيقة لأنها كما يفهم من القاموس اسم لترك الشيء وذهاب القلب عنه إلى غيره وهذا شأن ذوي القلوب والأوثان ليست من ذلك وكذا لا تتصف بها مجازاً عن عدم الارتضاء إذ الظاهر أن مرادهم من عدم الاتضاء السخوط والكراهة وظاهر أن الأوثان لا تتصف بسخط ولا ارتضاء إذ هما تابعان للإدراك ولا إدراك لها ومن أثبته للجمادات حسب عالمها فالأمر عنده سهل ومن لا يثبته يقول : إنها مجاز عن عدم الشعور ، وقد يقال : إن المراد بغفلتهم عن عبادة المشركين عدم طلبهم الاستعدادي لها ويرجع ذلك بالآخرة إلى نفي

استحقاق العبادة عن أنفسهم وإثبات الظلم لعابديهم .

وحينئذ فالأظهر أن يراد بالشركاء جميع ما عبد من دون الله تعالى من ذوي العقول وغيرهم والكل صادق في قوله ذلك ، وقد يراد من عدم الطلب ما يشمل عدم الطلب الحالي والقالي إذا اعتبر كون القائل ممن يصح نسبة ذلك له كالملائكة عليهم السلام وهذا الوجه لا يتوقف على شعور الشركاء بعبادتهم ولا على عدمه فيجوز أن يكون لهم شعور بذلك ويجوز أن لا يكون لهم شعور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(231/360)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾

هذه الجملة معطوفة على جملة ﴿ والذين كسبوا السيئات ﴾ [يونس : 27] باعتبار كونها معطوفة على جملة ﴿ للذين أحسنوا الحسنى ﴾ [يونس : 26] فإنه لما ذكر في الجملتين السابقتين ما يختص به كل فريق من الفريقين من الجزاء وسماته جاءت هذه الجملة بإجمالِ حالةٍ جامعةٍ للفريقين ثم بتفصيل حَالة يمتاز بها المشركون ليحصل بذلك ذكر فظيع من أحوال الذين بلغوا الغاية في كسب السيئات ، وهي سيئة الإشراك الذي هو أكبر الكبائر

، وبذلك حصلت المناسبة مع الجملة التي قبلها المقتضية عطفها عليها .

والمقصود من الخبر هو ذكر حشرهم جميعاً ، ثم ما يقع في ذلك الحشر من افتضاح الذين أشركوا ، فكان مقتضى الظاهر أن يقال ، ونحشرهم جميعاً .

وإنما زيد لفظ ﴿ يوم ﴾ في صدر الجملة لأن ذلك اليوم لما كان هو زمن الحشر وأعمالٍ عظيمة أريد التذكير به تهويلاً وموعظة .

وانتصاب ﴿ يوم نحشرهم ﴾ إما على المفعولية بتقدير : اذْكر ، وإما على الظرفية لفعل مقدر يدل عليه قوله : ﴿ ثم نقول للذين أشركوا مكانكم ﴾ والتقدير : ونقول للذين أشركوا مكانكم يوم نحشر الناس جميعاً .

وضمير ﴿ نحشرهم ﴾ للذين تقدم الكلام عليهم وهم الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئات .

وقوله : ﴿ جميعاً ﴾ حال من الضمير البارز في ﴿ نحشرهم ﴾ للتنصيص على إرادة عموم الضمير .

وذلك أن الحشر يعم الناس كلهم .

ومن نكت ذِكر حشر الجميع هُنا التنبيهُ على أن فظيعَ حال المشركين وافتضاحهم يكون بمرأى ومسمع من المؤمنين ، فتكون السلامة من تلك الحالة زيادة في النعمة على المسلمين وتقوية في النكاية للمشركين .

والحشر : الجمع من أمكنة إلى مكان واحد .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وحشرنا عليهم كل شيء ﴾ في سورة [الأنعام : 111] .

(232/360)

وقوله : مكانَكم ﴾ منصوب على المفعولية بفعل محذوف تقديره : الزموا مكانكم ، واستعماله هذا شائع في كلام العرب في الأمر بالملازمة مع التزام حذف العامل فيه حتى صار بمنزلة أسماء الأفعال الموضوعة للأمر ، نحو : صَهْ ، ويقترن بضمير مناسب للمخاطب من إفراد وغيره ، قال عمرو بن الأطنابة :

مكانَكِكِ تحمدي أو تستريحي

وأمرُهم بملازمة المكان تثقيف وحَبس .

وإذ قد جمع فيه المخاطَبون وشركاؤهم عُلِم أن ذلك الحبس لأجل جريمة مشتركة بين الفريقين ، وهي كون أحد الفريقين عابداً والآخرِ معبوداً .

وقوله : ﴿ أنتم ﴾ تأكيد للضمير المتصل المقدر في الفعل المقدر ، وهو المسوغ للعطف عليه وبهذا العطف صار الشركاء مأمورين باللبث في المكان .

والشركاء : الأصنام .

وصفوا بالشركاء لاعتقاد المخاطبين ذلك ، ولذلك أضيف إلى ضميرهم ، أي أنتم والذين زَعمتم أنهم شركاء .

فإضافة شركاء إلى ضمير المخاطبين تهكم .

وعطف ﴿ فزيلْنا ﴾ بفاء التعقيب لإفادة حصول ذلك في عقب وقت الأمر باللبث .

ولما كانت الفاء تقتضي الترتيب الزمني في حصول معطوفها إثر المعطوف عليه وكان المقصود هنا أن التزييل حصل مقارناً لإلزامهم المكان عبر عن فعل التزييل بصيغة الماضي لإفادة تحقيق وقوع التزييل كقوله:

﴿ أتى أمر الله ﴾ [النحل : 1] .

وزيَّل : مضاعف زال المتعدي .

يقال : زاَله عن موضعه يَزِيله بمعنى أزاله فجعلوه يائي العين للتفرقة بينه وبين زال القاصر الذي هو واوي العين ، فزيَّل فعل للمبالغة في الزيْل مثل فرَّق مبالغة في فرق .

والمعنى وقع بينهم تفريق قوي بحيث انقطعت جميع الوِصَل التي كانت بينهم .

والتزييل هنا مجازي فيشمل اختلاف القول .

وتعليق التزييل بالأصنام باعتبار خلق معناه فيها حين أنطقها الله بما يخالف زعم عبّادها .

وجملة ﴿ وقال شركاؤهم ﴾ عطف على جملة : ﴿ فزيلنا ﴾ فهو في حيز التعقيب ، ويجوز جعلها حالاً .

ويقول الشركاء هذا الكلام بخَلق نطق فيها خارق للعادة يفهمه الناس لإشعار أولئك العابدين بأن أصنامهم تبرأوا منهم ، وذلك مما يزيدهم ندامة .

وكلام الأصنام يفيد نفي أن يكونوا عبدوهم بل عبدوا غيرهم .

وفي استقامة ذلك إشكال لأن الواقع أنهم عبدوهم وعبدوا غيرهم فكيف ينفي كلامهم عبادتهم إياهم وهو كلام خلقه الله فيهم فكيف يكون كذباً .

وقد تأول المفسرون هذا بوجوه لا ينثلج لها الصدر .

والذي ظهر لي أن يكون آخر كلام الأصنام مُبيناً لما أجمله أوله بأنهم نفوا أن يكونوا عبدوهم عبادةً كاملة وهي العبادة التي يقصِد منها العابد امتثال أمر المعبود وإرضاءه فتقتضي أن يكون المعبود عالماً وآمراً بتلك العبادة .

ولما كانت الأصنام غير عالمين ولا آمرين استقام نَفْيهم أن يكون عبدتهم قد عبدوهم تلك العبادة وإنما عبدوا غيرهم ممن أمروهم بالعبادة وهم الشياطين ولذلك قالوا : ﴿ إنْ كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ كما تفسره الآية الأخرى وهي قوله تعالى : ﴿ أهؤلاء إياكم كانوا يعبُدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ [

سبأ : 40 ، 41] .

فالمراد بالشركاء الأصنام لا غيرها ، ويجوز أن يكون نُطقها بجحد عبادة المشركين هو أن خلق لها عقولاً فكانت عقولها مستحدثة يومئذٍ لم يتقرر فيها علم بأن المشركين عَبدوها .

ويفسر هذا قولهم بعد ذلك ﴿ إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(234/360)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾

والحشر : هو أخذ الناس من أمكنة متعددة إلى مكان واحد ، وستقذف هذه الأمكنة المتعددة مَنْ فيها مِنَ الكَفَرة ؛ ليصيروا في المكان الذي شاءه الله سبحانه لهم .

وكلما اقترب الناس من هذا المكان ؛ ازدحموا ، وذلك شأن الدائرة بمحيطها ، والمحيطات الداخلة فيها إلى أن تلتقي في المركز ، فأنت إذا نظرت إلى محيط واسع في دائرة ، وأخذت بعد ذلك الأفراد من هذا المحيط الواسع ؛ لتلقي بهم في المركز ؛ فلا شك أنك كلما اقتربت من المركز ؛ فالدوائر تضيق ، ويحدث الحشر .

فكأننا سنكون مزدحمين ازدحاماً شديداً ، ولهذا الازدحام متاعب ، ولكن الناس سيكونون في شغل عنه بما هم فيه من أهوال يوم القيامة .

وقوله الحق : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ تفيد الجمع المؤكد لحالات الذين لم يستجيبوا لمنهج الله تعالى ، ولا لدعوة الله سبحانه لهم لدار السلام ، وكذبوا رسلهم ، واتخذوا من دون الله تعالى أنداداً ، فيجمع الله سبحانه المُتَّخذ أنداداً ، والمُتَّخَذ نداً ، ويواجههم ؛ لتكون الفضيحة تامة وعامَة ، بين عابد عبد باطلاً ، ومعبودٍ لم يطلب من عابده أن يعبده ، أو معبود طلب من عابده أن يعبده .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ﴾ [يونس : 28]

وهكذا يتلاقى من عَبَدَ الملائكة مع الملائكة ، ويتلاقى من عَبَدَ رسولاً وجعله إلهاً ، ومن عبد صنماً ، أو عبد شمساً ، أو عبد قمراً ، أو جِنّاً أو شيطاناً من شياطين الإنس او شياطين الجن .

إذن : فالمعبودون متعددون ، وكل معبود من هؤلاء له حكم في ذلك الحشر ، وستكون المواجهة علنية مكشوفة .

فإذا نظرنا إلى العابد الذي اتخذ إلهاً باطلاً سواء أكان من الملائكة أو رسولاً أرسل إليهم ؛ ليأخذهم إلى عبادة إله واحد هو الله سبحانه وتعالى ففتنوا في الرسول وعبدوه ، أو عبدوا أشياء لا علم لها بمن يعبدها : كالأصنام ، والشمس ، والقمر ، والأشجار .

أما المعبود الذي له علْم ، وله دعوة إلى أن يعبده غيره ، فهو يتركز في شياطين الإنس ، وشياطين الجن ، وإبليس .

أما الملائكة فإن الله سبحانه وتعالى يواجههم بمن عبدهم ، فيسألهم : أأنتم وعدتم هؤلاء ؛ ليتخذوكم آلهة ، فيقولون : سبحانك أنت وليُّنا ، ويتبرأون من هؤلاء الناس ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا ﴾ [البقرة : 166] .

والملائكة لا علم لهم بمن اتخذهم آلهة ، وإذا انتقلنا إلى البشر وعلى قمّتهم الرسل عليهم السلام ، فيأتي سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، ويَقول الحق سبحانه له : ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله ﴾ [المائدة : 116] .

فيقول سيدنا عيسى عليه السلام ما جاء على لسانه في القرآن الكريم : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ [المائدة : 116] .

فكأن هؤلاء قد عبدوا من لا علم له بهذا التأليه ، ولم يَدْعُ إليه .

والأصنام كذلك ليس لها علم بمن ادَّعى ألوهيتها ، ولكن الذي له علم بتلك الدعوة هو

إبليس ، ذلك أنه حينما عز عليه أنه عاص لله ، أغوى آدم ، ثم تاب آدم عليه السلام وقَبِل الله سبحانه وتعالى توبته ، أما إبليس فلم يتب عليه الحق سبحانه ؛ لأنه رد حكم المولى عز وجل بالسجود لآدم ، واستكبر ، وظن نفسه أعلى مكانة . أما آدم عليه السلام فلم يرد الحكم على الله تعالى .

يقول الحق سبحانه :

(236/360)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِّنَ الساجدين * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : 1112] .

ومن ذلك نأخذ مبدأ إيمانياً موجزه أن الذين لا يقدرون على أنفسهم في أخضاعها لمنهج الله تعالى ، فمن الخير لهم أن يقولوا : إن منهج الله سبحانه هو الصدق ، وحكمه سبحانه هو الحق ، ولكننا لم نستطع أن نُخضِعَ أنفسنا للحكم ؛ وبذلك يخرجون من دائرة رد الأمر على الآمر ، وبإمكانهم أن يتوبوا بنية عدم العودة إلى المعصية .

إذن : فالمخاصمة والمحاجّة موجهة من إبليس لذرية آدم ، فقد أقسم إبليس بعزة الله

سبحانه أن يُغوِي كل أبناء آدم إلا الذين استخلصهم الله لعابدته سبحانه وتعالى ؛ فقد علم إبليس أنه غير قادر على إغوائهم .

وهكذا تكون عزة الله سبحانه هي التي تمكّن إبليس وذريته من الشياطين من غواية أو عدم غواية خلق الله سبحانه وتعالى .

والشياطين هم الجن العُصَاة ؛ لأننا نعلم أن الجن جنس يقابل جنس البشر ، ومن الجن من هو صالح طائع ، ومنهم من هو عاصٍ ، ويُسمّى شيطاناً ، ويخدم إبليس في إغواء البشر ، فيتسلَّط على الإنسان فيما يعلم أنها نقطة ضعف فيه .

فمن يحب المال يدخل الشيطان إليه من ناحية المال ، ومن يحب الجمال يدخل له الشيطان من ناحية الجمال ، ومن يحب الجاه يجد الشيطان وهو يزيِّن له الوصول إلى الجاه بأية وسيلة تتنافى مع الأخلاق الكريمة ومنهج الله عز وجل .

وكل إنسان له نقطة ضعف في حياته يعرفها الشيطان ويتسلل منها إليه ، وقد يُجنِّد إبليس وذريته أناساً من البشر يعملون بهدف إغواء الإنسان لإفساده .

(237/360)

فهناك إذن ثلاثة يطلبون أن ينصرف الناس عن منهج الله تعالى ودعوة الحق ؛ وهؤلاء الثلاثة هم : إبليس ، والعاصون من الجن (أي : الشياطين) ، ثم البشر الذين يشاركون إبليس في الإغواء ، وهم شياطين الإنس الذين يعملون أعمالاً تناهض منهج الرسل .

وهل يكون الحوار يوم القيامة بين الملائكة ومَنْ عَبَدُوهم مِنَ البشر ؟ وهل يكون الحوار بين الأصنام والذين عبدوها دون علمها ؟ وهل يكون الحوار بين عيسى عليه السلام ومن اتخذوه إلهاً دون علمه ؟

ها نحن نجد عارفاً بالله يقول على لسان الأصنام :

" عَبَدُونا ونحن أعْبَدُ لله . . . مِنَ القائمينَ بالأسْحَارِ "

لأن الحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] .

ويكمل العارف بالله :

" اتَّخَذُوا صَمْتَنَا علينا دليلاً . . . فَغَدوْنا لَهُم وَقُودَ النارِ "

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ فاتقوا النار التي وَقُودُهَا الناس والحجارة ﴾ [البقرة : 24] .

ويتابع العارف بالله :

" قَدْ تَجَنَّوا جهلاً كما تَجَنَّوا . . . على ابنِ مَرْيم والحَوَارِي "

فما موقف الله سبحانه من هؤلاء وأولئك ؟ فنقول :

إن للمُغَالِي جَزَاءهُ ، والمُغَالَى . . . فيه تُنْجيه رحمةُ الغَفَّارِ " .

وهكذا وَضُحَ موقف كل من يعبد غير الله سبحانه أو يشرك به ، هؤلاء الذين يشملهم قول الحق سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ [يونس : 28]

(238/360)

وهكذا يُحشَر مَنْ عبدوا الأصنام أو الكواكب أو أشركوا بالله ، وكذلك شياطين الجن والإنس ، الجميع سيحشرون في الموقف يوم الحشر ، وليتذكر الجميع في الدنيا أن في الحشر ستُكشَفُ الأمور ويُفصح فيه كل إنسان أشرك مع الله غيره ، سبحانه ، وستحدث المواجهة مع مَنْ أشركه بالعبادة مع الله سبحانه دون عِلْم من الملائكة أو الرسل أو الكواكب أو الحجار بأمر هؤلاء ، ويأتيهم جميعاً أمر الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ ﴾ [يونس : 28] .

وحين تسمع الأمر : " مكانك " فهو يعني : " الزمْ مكانك " وهي لا تُقال للتحية ، بل تحمل التهديد والوعيد ، وانتظار نتيجة موقف لن يكون في صالح من تُقال له ، ونعرف أن الملائكة ، والرسل ، والكواكب ، والحجارة ليس لها علم بأمر هؤلاء الذين عبدوهم .

إذن : فالذين ينطبق عليهم هذا الأمر هم هؤلاء المشركون الذين ظنوا أن بإمكانهم الإفلاتَ

من الحساب ، لكنهم يسمعون الأمر ﴿ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ ، فهل يعني ذلك أنهم سوف يأتون مع الملائكة ومَنْ عُبد من الرسل والكواكب والحجارة في موكب واحد ؟ لا ؛ لأن هؤلاء العبيد اتفقوا على موقف باطل ، ويشاء الحق سبحانه أن يفصل بين الحق والباطل .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ [يونس : 28]

أي : جعل من المشركين فريقاً ، وجعل من الذين عُبدُوا دون علمهم فريقاً آخر ، وأعلن فريقُ مَنْ عُبِدوا دون علمهم : ﴿ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ [يونس : 28]

أي : ما كنتم تعبدوننا بعلمنا .

(239/360)

وانظروا إلى الموقف المُخْزِي لمن عبدوا غير الله سبحانه ، أو أشركوا به ، إن الواحد منهم قد عبد معبوداً دون أن يدري به المعبود ، مع أن الأصل في العبادة هو التزام العابد بأمر المعبود ، وهذا المسألة تَصْدُق على الملائكة وسيدنا عيسى عليه السلام ، وتصدق أيضاً على الكواكب والأحجار ؛ لأن الحق سبحانه الذي يُنطق أبعاض الإنسان يوم القيامة ؛

لتشهد على صاحبها ، قادر على أن يُنْطِق الأحجار .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ اللهِ إِلَى النار فَهُمْ يُوزَعُونَ * حتى إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

[فصلت : 1921] .

ونجد الصنم يوم القيامة وهو يلعن مَنْ عبده ، تماماً مثلما يتبرأ الجلد من صاحبه إنْ عصى الله تعالى ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور : 24] .

ولكن لا تترك عقلك يتخيل كيفية تكلُّم الصنم ، فأنت آمنت أن جوارح الإنسان من يد ورجل وجلد ستنطق يوم القيامة ، فهل تعقَّلت كيف تنطق اليد ، وكيف ينطق الجلد ، وكيف تنطق الرِّجْل في الآخرة ، أنت تؤمن بخبر الآخرة فلا تنظر إلى معطيات أمور الآخرة بقوانين الدنيا ؛ لأن كل شيء يتبدَّل في الآخرة ، ألم تخبرك السنة أنك ستأكل في الجنة ، ولا تُخْرِج فضلات ؟

وهذا أمر غير منطقيّ بقوانين الدنيا ولكننا نؤمن به ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأشياء سوف تحدث في الجنة ، لو قسْناها بعقولنا على ما نعرف في الدنيا لوقفت أمامها عاجزة ، لكن القلب المؤمن يعقل أمور القيامة والآخرة على أساس أنها غيب ، والمقاييس تختلف فيها ؛ لأن الإنسان مظروف بين السماء والأرض . وللدنيا أرض وسماء ، وللآخرة أيضاً أرض وسماء ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات ﴾ [إبراهيم : 48]

.

إذن : فكل شيء يتبدّل يوم القيامة ، فإذا حُدِّثْتَ أن الأصنام تنطق مستنكرة أن تُعبَد من دون الله تعالى ، وأن الملائكة تلعن من عبدوها من دون الله سبحانه ، فلا تتعجب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(241/360)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ : " يوم " منصوب بفعلٍ مقدر ، أي : خَوِّفْهم ، أو ذكِّرْهم يوم . والضميرُ عائد على الفريقين ، أي : الذين أحسنوا والذين كسبوا . و " جميعاً " حال . ويجوز أن تكون تأكيداً عند مَنْ عَدَّها مِنْ ألفاظ التأكيد .

قوله : ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ ، " مكانكم " اسمُ فعل ، ففسَّره النحويون ب " اثبتوا " فيحمل ضميراً ، ولذلك أُكِّد بقوله : " أنتم " وعُطِف عليه " شركاؤكم " ، ومثله قول الشاعر :

2590 وقَوْلِي كلما جَشَأَتْ وجاشَتْ . . . مكانَكِ تُحْمَدي أو تَسْتَريحي

أي : اثبتي ، ويدلُّ على جزمُ جوابِه وهو " تُحْمَدي " . وفسَّره الزمخشري ب " الزموا " قال : " مكانكم " أي : الزموا مكانكم ، ولا تَبْرحوا حتى تنظروا ما يُفْعل بكم " . قال الشيخ : " وتقديره له ب " الزموا " ليس بجيد ، إذ لو كان كذلك لتعدَّى كما يتعدَّى ما ناب هذا عنه ، فإنَّ اسمَ الفعلِ يُعامل معاملةَ مسمَّاه ، ولذلك لَمَّا قدَّروا " عليك " بمعنى " الزم " عدَّوْه تعديتَه نحو : عليك زيداً . و [عند] الحوفي " مكانكم " نُصب بإضمار فعل ، أي : الزموا مكانكم أو اثبتوا " . قلت : فالزمخشري قد سُبِق بهذا التفسير . والعذرُ لمَنْ فسَّره بذلك أنه قصد تفسير المعنى ، وكذلك فَسَّره أبو البقاء فقال : " مكانكم " ظرفٌ مبنيٌّ لوقوعِه موقعَ الأمر ، أي : الزموا " .

وهذا الذي ذكره مِنْ كونه مبنياً فيه خلاف للنحويين : منهم مَنْ ذهب إلى ما ذَكَر ، ومنهم مَنْ ذهب إلى أنها حركةُ إعراب ، وهذان الوجهان مبنيَّان على خلافٍ في أسماء الأفعال : هل لها محلٌّ من الإِعراب أو لا ؟ ، فإن قلنا لها محلٌّ كانت حركاتُ الظرفِ حركاتِ إعراب ، وإن قلنا : لا موضع لها كانت حركاتِ بناء . وأمَّا تقديرُه ب " الزموا " فقد تقدَّم جوابه .

وقوله : ﴿ أَنتُمْ ﴾ فيه وجهان أحدهما : أنه تأكيدٌ للضمير المستتر في الظرفِ لقيامِه مقامَ الفاعلِ كما تقدَّم التنبيه عليه . والثاني : أجازه ابن عطية ، وهو أن يكونَ مبتدأً ، و " شركاؤكم " معطوف عليه ، وخبرُه محذوفٌ قال : " تقديرُه : أنتم وشركاؤكم مُهاونون أو مُعَذَّبون " ، وعلى هذا فيُوقَفُ على قوله : " مكانكم " ثم يُبتدأ بقوله : " أنتم " ، وهذا لا يَنْبغي أن يقال ، لأن فيه تفكيكاً لأفصحِ كلام وتبتيراً لنظمه من غير داعيةٍ إلى ذلك ، ولأن قراءةَ مَنْ قرأ " وشركاءَكم " نصباً تدل على ضعفه ، إذ لا تكونُ إلا من الوجه الأول ، ولقولِه : " فزيَّلْنا بينهم " ، فهذا يدلُّ على أنهم أُمِروا هم وشركاؤهم بالثبات في مكانٍ واحدٍ حتى يحصلَ التَّزْيِيْلُ بينهم .

وقال ابن عطية أيضاً : " ويجوزُ أن يكون " أنتم " تأكيداً للضمير الذي في الفعل المقدر الذي هو " قفوا " ونحوه " .

قال الشيخ " وهذا ليس بجيدٍ ، إذ لو كان تأكيداً لذلك الضمير المتصل بالفعل لجاز تقديمُه على الظرف ، إذ الظرفُ لم يتحمَّلْ ضميراً على هذا القول فيلزمُ تأخيرُه [عنه] وهو غير جائز ، لا تقول : " أنت مكانَك " ولا يُحْفظ من كلامهم . والأصحُّ أنه لا يجوز حَذْفُ المؤكَّد في التأكيد المعنوي ، فكذلك هذا لأن التأكيدَ ينافي الحذف ، وليس من كلامهم : " أنت زيداً " لَمَنْ رأيته قد شَهَرَ سَيْفاً ، وأنت تريد : " اضرب أنت زيداً " إنما كلامُ العرب : " زيداً " تريد : اضرب زيداً " . قلت : لم يَعْنِ ابنُ عطية أن " أنت " تأكيد لذلك الضمير في " قفوا " من/ حيث إنَّ الفعلَ مرادٌ غير منوبٍ عنه ، بل لأنه نابَ عنه هذا الظرفُ ، فهو تأكيدٌ له في الأصلِ قبل النيابة عنه بالظرف ، وإنما قال : الذي هو " قفوا " تفسيراً للمعنى المقدر .

وقرأ فرقةُ " وشكرِكاءَكم " نصباً على المعية . والناصبُ له اسم الفعل .

قوله : ﴿ فَزَيَّلْنَا ﴾ ، أي : فرَّقْنا وميَّزْنا كقوله تعالى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ﴾ [الفتح : 25] . واختلفوا في " زَيَّل " هل وزنُه فَعَّل أو فَيْعَل ؟ والظاهرُ الأول ، والتضعيفُ فيه للتكثيرِ لا للتعديةِ لأنَّ ثلاثيَّه متعدٍّ بنفسِه . حكى الفراء " زِلْتُ الضأْن من المَعِز فلم تَزِل " ، ويقال : زِلْت الشيء مِنْ مكانه أَزيله ، وهو على هذا من ذواتِ الياء . والثاني : أنه فَيْعَل كبَيْطَر

وبَيْقَر وهو مِنْ زال يَزُول ، والأصل : زَيْوَلْنا فاجتمعت الياء والواو وسَبَقَت إحداهما بالسكون فأُعِلَّت الإعلالَ المشهورَ وهو قَلْبُ الواوِ ياءً وإدغامُ الياء فيها كميّت وسَيّد في مَيْوِت وسَيْودِ ، وعلى هذا فهو من مادة الواو . وإلى هذا ذهبَ ابن قتيبة ، وتبعه أبو البقاء .

(244/360)

وقال مكي : " ولا يجوز أن يكون فَعَّلْنا مِنْ زال يزول لأنه [يلزم] فيه الواوُ فيكون زَوَّلنا " ، قلت : هذا صحيحٌ ، وقد تقدم تحريرُ ذلك في قوله : ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ ﴾ [الأنفال : 16] . وقد ردَّ الشيخ كونَه فيْعَل بأنَّ فعَّل أكثر من فَيْعَل ، ولأن مصدره التزييل ، ولو كان فَيْعَل لكان مصدرُه فَيْعَلة كبَيْطَرة ؛ لأن فَيْعَل ملحقٌ بفَعْلَل ، ولقولهم في معناه زايَل ، ولم يقولوا : زاول بمعنى فارق ، إنما قالوه بمعنى حاول وخالط " . وحكى الفراء " " فزايَلْنا " وبها قرأت فرقة . قال الزمخشري : " مثل صاعَرَ خَدَّه وصَعَّره ، وكالمتُه وكلَّمْته " ، قلت : يعني أن فاعَل بمعنى فَعَّل . وزايَلَ بمعنى فارَقَ . قال :

2591 وقال العذارى إنَّما أنت عَمُّنا . . . وكان الشبابُ كالخليطِ نُزايِلُهْ

وقال آخر :

2592 لعَمْري لَمَوْتٌ لا عقوبةَ بعده . . . لِذي البَثّ أَشْفَى مِنْ هوىً لا يُزايلُهْ

وقوله : ﴿ فَزَيَّلْنَا ﴾ و " قال " هذان الفعلان ماضيان لفظاً مستقبلان معنىً لعطفِهما على مستقبل وهو " ويوم نحشرهم " وهما نظيرُ قولِه تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ ﴾ [هود : 98] . و " إيَّانا " مفعولٌ مقدمٌ قُدِّم للاهتمام به والاختصاص ، وهو واجبُ التقديمِ على ناصبِه لأنه ضميرٌ منفصل لو تأخر عنه لَزِمَ اتصالُه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 188.192 ﴾

(245/360)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (28) ﴾

يجمع بين الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله ، فتقول الأصنام : ما أمرناكم بعبادتنا . فيدعون على الشياطين التي أطاعوها ، وعلى الأصنام التي أمرتهم أن يعبدوها ، وتقول الأصنام : كفى بالله شهيداً ، على أنَّا لم نأمركم بذلك ؛ إذ كُنَّا جماداً . وذلك لأنَّ

اللَّهِ يُحْيِيها يوم القيامة ويُنْطِقها .

وفي الجملة . . يتبرأ بعضُهم مِنْ بعض ، ويذوق كُلٌّ وبالَ فِعْلِه .

وفائدةُ هذا التعريف أنه ما ليس لله فهو وبالٌ عليهم ؛ فاشتغالُهم – اليوم – بذلك مُحَالٌ ، ولهم في المآلِ – مِنْ ذلك – وبالُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 92. 93 ﴾

(246/360)

قوله تعالى ﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (29) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما نفوا ذلك عطفوا عليه مسببين عنه قولهم : ﴿ فكفى بالله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة ﴿ شهيداً ﴾ أي هو يكفينا كفاية عظيمة جداً من جهة الشهادة التي لا غيبة فيه بوجه ولا ميل أصلاً ﴿ بيننا وبينكم ﴾ في ذلك يشهد لنا وعلينا ؛ ثم استأنفوا خبراً يصحح نفيهم فقالوا مؤكدين لأنهم كانوا يعتقدون علمهم : ﴿ إن ﴾ أي إنا ﴿ كنا ﴾ أي كوناً هو جبلة لنا ﴿ عن عبادتكم ﴾ لنا أو لغيرنا مخلصة أو مشوبة ؛ ولما كانت " إن " هي المخففة من

الثقيلة تلقيت باللام الفارقة بينها وبين النافية فقيل : ﴿ لغافلين ﴾ لأنه لا أرواح فينا ، فلم تكن بحيث نأمر بالعبادة ولا نرضاها فاللوم عليكم دوننا ، وذلك افتداء من موقف الذل أو أنهم لما تخيلوا في الشركاء صفات عبدوها لأجلها وكانت خالية عنها صح النفي لأنهم عبدوا ذوات موصوفة بصفات لا وجود لها في الأعيان ، وأيضاً فإنهم ما عبدوا إلاّ الشياطين التي كانت تزين لهم ذلك وتغويهم ، ويكون التقدير على ما دل عليه السياق : ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ أي منعناهم مما كانونا فيه من التواصل والتواد المقتضي للتناصر بعبادة الأوثان ، فقال المشركون لشركائهم لما أبطأ عنهم نصرهم : إنا كنا نعبدكم من دون الله فأغنوا عنا كما كنا نذب عنكم وننصر دينكم ﴿ وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ أي كُشِف لنا اليوم بتفهيم الله أنه ليس الأمر كما زعمتم وأنكم لم تخصونا بالعبادة حتى يلزمنا منعكم على أنكم لو خصصتمونا ما قدرنا على ذلك قال الشيطان ﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي ﴾ [إبراهيم : 22] ﴿ فكفى ﴾ أي فتسبب عن نفينا لذلك على ما كشف لنا من العلم أن نقول : كفى ﴿ بالله شهيداً بيننا وبينكم ﴾ في ذلك ، يشهد أنكم لم تخصوا أحداً منه ومنا بعبادة بل كنتم مذبذبين ، وهذا كله إشارة إلى أن العبادة المشوبة لا اعتداد بها ولا يرضاها جماد لو نطق ، وإن من استحق العبادة استحق الإخلاص فيها وأن لا يشرك به أحد وأنه لا يستحق ذلك إلاّ القادر على كشف الكرب والمنع من أن يقطع

بينه وبين متوليه وعابده قاطع ؛ ولما كانت فائدة الشاهد ضبط ما قد ينساه المتشاهدان ، عللوا اكتفاءهم بشهادة الله بقوله : ﴿ إن كنا عن عبادتكم ﴾ في تلك الأزمان ﴿ لغافلين ﴾ فأقروا لهم بما هو الحق مما كان يعلمه كل من له تأمل صحيح أنهم لم يشعروا بعبادتهم ساعة من الدهر قبل ساعتهم هذه ، فهم أجدر الخلق بالاكتفاء بشهادة الشهيد لأنهم أسوأ حالاً ممن يعلم المشهود به ويخشى النسيان ، أو يقال : فقال المشركون لشركائهم : إنا كنا نعبدكم فهل أنتم ناصرونا أو شافعون لنا فنجونا مما وقعنا فيه ﴿ وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا ﴾ وحدنا ﴿ تعبدون ﴾ أي ما كنتم تخلصون لنا العبادة حتى يلزمنا أن نخلصكم كما أعلمنا بذلك الله ربنا وربكم المحيط بكل شيء علماً ﴿ فكفى ﴾ أي فتسبب عن ذلك أنه كفى ﴿ بالله شهيداً بيننا وبينكم ﴾ في ذلك ، فكأن المشركين قالوا : قد تضمن كلامكم أن عبدناكم على غير منهج الإخلاص ، أفليس قد عبدناكم ؟ أفلا تغنون عنا شيئاً ؟ فأجاب الشركاء بقولهم : ﴿ إن كنا عن عبادتكم ﴾ خالصة كانت أو مشوبة ﴿ لغافلين ﴾ فلا نقر لكم بعبادة أصلاً وإن تيقنا الإخلاص لسلب العلم عنا بما كنا فيه من الجمادية فضلاً عن أن نأمركم أو نرضى بعبادتكم على أنه لا غناء عندنا على تقدير من التقادير ؛ أو يقال – وهو أحسن مما مضى – : ﴿ وقال شركاؤهم ﴾ لما تحققوا العذاب طلباً لأن يخفف عنهم منه بتوزيعه عليهم وعلى كل من عبدوه من غيرهم ﴿ ما كنتم ﴾ أيها

العابدون لنا ﴿ إيانا ﴾ أي خاصة ﴿ تعبدون ﴾ بل كنتم تعبدون أيضاً غيرنا ، وهذا يعم والله كل من يرائيه غيره بعمل وهو يعلم أنه يرائيه فيقره ولا ينكره عليه ؛ ولما أفهموا بنفي العبادة بقيد الخصوص أنهم كانوا يعبدون معهم غيرهم ، وكان المخلوق قاصر العلم غير محيطه بوجه بأحوال نفسه فكيف يعبدون بأحوال غيره ، سببوا عن ذلك قولهم :

﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن ﴾ أي في أنا ﴿ كنا عن عبادتكم ﴾ أي في الجملة ﴿ لغافلين ﴾ والحاصل أن هذا ترجمة كلام

(248/360)

الكفار وهو ناشىء منهم عن محض غلبة ودهش وفرط غم وندم وقلق ، فلا يشترط أن يكون معناه على الوجه الأسدّ والطريق الأبلغ ، فالإعجاز في نظمه ، ومرادهم به أن يخفف عنهم من العذاب ولو بمشاركة من كانوا يعبدونهم معهم ، فهو من وادي قوله تعالى

﴿ فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ﴾ [إبراهيم : 21] ، ﴿ فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴾ [غافر : 47] ﴿ فآتاهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾ [الأعراف : 38] ونحوه ﴿ فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب ﴾ [الأعراف : 39] - والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 436 . 437 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ فكفى بالله شَهِيدًا ﴾ يعني : عالماً ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لغافلين ﴾ ، يعني : ولم نعلم أنكم تعبدوننا ، والفائدة في إحضار الأصنام أن يظهر عند المشركين ضعف معبودهم فيزيدهم حسرة على ذاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى فى الآيتين :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ ﴾

اثبتوا وقِفوا في موضعكم ولا تبرحوا ﴿ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ﴾ يعني الأوثان ﴿ فَزَيَّلْنَا ﴾ ميّزنا وفرقنا بين المشركين وشركائهم وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا بذلك حين [اتخذوا] كل معبود من دون الله من خلقه ﴿ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُمْ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ يقولون بلى كنا نعبدكم .

فيقول الأصنام : ﴿ فكفى بالله شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ ﴾ أي ما كنا عن عبادتكم إيّانا إلاّ غافلين ، ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ فكفى بالله شهيداً ﴾ الآية

قال القاضي أبو محمد : وظاهر هذه الآية أن محاورتهم إنما هي مع الأصنام دون الملائكة وعيسى بن مريم بدليل القول لهم ﴿ مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾ ودون فرعون ومن عبد من الجن بدليل قولهم ﴿ إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ ، وهؤلاء لم يغفلوا قط عن عبادة من عبدهم ، و﴿ أنتم ﴾ رفع بالابتداء والخبر موبخون أو مهانون ، ويجوز أن يكون ﴿ أنتم ﴾ تأكيداً للضمير الذي في الفعل المقدر الذي هو قفوا أو نحوه . و﴿ شهيداً ﴾ نصب على التمييز ، وقيل على الحال ، " وأنْ " هذه عند سيبويه هي مخففة موجبة حرف ابتداء ولزمتها اللام فرقاً بينها وبين " إن " النافية ، وقال الفراء : " إن " بمعنى ما واللام بمعنى إلا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(250/360)

وقال ابن الجوزى فى الآيتين :

قوله تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ﴾

قال ابن عباس : يُجمع الكفار وآلهتهم .

﴿ ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾ أي : آلهتكم .

قال الزجاج : "مكانكم" منصوب على الأمر ، كأنهم قيل لهم : انتظروا مكانكم حتى نفصل بينكم ، والعرب تتوعَّد فتقول : مكانك ، أي : انتظر مكانك ، فهي كلمة جرت على الوعيد .

قوله تعالى : ﴿ فزيَّلنا بينهم ﴾ وقرأ ابن أبي عبلة : "فزايلنا" بألف ، قال ابن عباس : فرَّقنا بينهم وبين آلهتهم .

وقال ابن قتيبة : هو من زال يزول وأزلته .

وقال ابن جرير : إنما قال "فزيلنا" ولم يقل : "فزلنا" لإرادة تكرير الفعل وتكثيره .

فإن قيل : "كيف تقع الفرقة بينهم وهم معهم في النار ، لقوله : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَب جهنم ﴾ [الأنبياء : 98] ؟

فالجواب : أن الفرقة وقعت بتبّري كل معبود ممن عبده ، وهو قوله : ﴿ وقال شركاؤهم ﴾ ، قال ابن عباس : آلهتهم ، يُنْطِق الله الأوثان ، فتقول : ﴿ ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ أي : لا نعلم بعبادتكم لنا ، لأنه ما كان فينا روح ، فيقول العابدون : بلى قد عبدناكم ، فتقول الآلهة : ﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ لا نعلم بها .

قال الزجاج : ﴿ إن كنا ﴾ معناه : ما كنا إلا غافلين .

فإن قيل : ما وجه دخول الباء في قوله : ﴿ فكفى بالله شهيداً ﴾ ؟

فعنه جوابان .

أحدهما : أنها دخلت للمبالغة في المدح كما قالوا : أَظْرِفْ بعبد الله ، وأنبل بعبد الرحمن ، وناهيك بأخينا ، وحسبك بصديقنا ، هذا قول الفراء وأصحابه .

والثاني : أنها دخلت توكيداً للكلام ، إذ سقوطها ممكن ، كما يقال : خذ بالخطام ، وخذ الخطام ، قاله ابن الأنباري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(251/360)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فكفى بالله شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾

"شَهِيداً" مفعول ، أي كفى الله شهيداً ، أو تمييز ، أي اكتف به شهيداً بيننا وبينكم إن كنا أمرناكم بهذا أو رضيناه منكم .

﴿ إِن كُنَّا ﴾ أي ما كنا ﴿ عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ إلا غافلين لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ؛ لأنا كنا جماداً لا رُوح فينا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(252/360)

وقال أبو حيان فى الآيتين :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾

الضمير في نحشرهم عائد على من تقدم ذكرهم من ﴿ الذين أحسنوا ﴾ ﴿ والذين كسبوا السيآت ﴾ وقرأ الحسن وشيبة والقراء السبعة : نحشرهم بالنون ، وقرأت فرقة بالياء .

وقيل : يعود الضمير على الذين كسبوا السيئات ، ومنهم عابد غير الله ، ومن لا يعبد شيئاً .

وانتصب يوم على فعل محذوف أي : ذكرهم أو خوفهم ونحوه .

وجميعاً حال ، والشركاء الشياطين أو الملائكة أو الأصنام أو من عبد من دون الله كائناً من كان أربعة أقوال .

ومن قال : الأصنام ، قال : ينفخ فيها الروح فينطقها الله بذلك مكان الشفاعة التي علقوا بها أطماعهم .

وروي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) : " أن الكفار إذا رأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب قيل لهم : اتبعوا ما كنتم تعبدون ، فيقولون والله لإياكم كنا نعبد ، فتقول الآلهة : فكفى بالله شهيداً " الآية .

قال ابن عطية : فظاهر هذه الآية أنّ محاورتهم إنما هي مع الأصنام دون الملائكة وعيسى ابن مريم ، بدليل القول لهم : مكانكم أنتم وشركاؤكم ، ودون فرعون ومن عبد من الجن بدليل قولهم : إن كنا عن عبادتكم لغافلين .

وهؤلاء لم يغفلوا قط عن عبادة من عبدهم .

ومكانكم عده النحويون في أسماء الأفعال ، وقدر بأثبتوا كما قال :

وقولي كلما جشأت وجاشت . . .

مكانك تحمدي أو تستريحي

أي اثبتي .

ولكونها بمعنى اثبتي جزم تحمدي ، وتحملت ضميراً فأكد وعطف عليه في قوله : أنتم وشركاؤكم .

والحركة التي في مكانك ودونك ، أهي حركة إعراب ، أو حركة بناء تبتني على الخلاف الذي بين النحويين في أسماء الأفعال ؟ ألها موضع من الإعراب أم لا ؟ فمن قال : هي في موضع نصب جعل الحركة إعراباً ، ومن قال : لا موضع لها من الإعراب جعلها حركة بناء .

وعلى الأول عول الزمخشري فقال : مكانكم الزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم .

واختلفوا في أنتم ، فالظاهر ما ذكرناه من أنه تأكيد للضمير المستكن في مكانكم ،

وشركاؤكم عطف على ذلك الضمير المستكن وهو قول الزمخشري قال : وأنتم أكّد به

الضمير في مكانكم لسده مسد قوله : الزموا وشركاؤكم عطف عليه انتهى .

يعني عطفاً على الضمير المستكن ، وتقديره : الزموا ، وأنّ مكانكم قام مقامه ، فيحمل

الضمير الذي في الزموا ليس بجيد ، إذ لو كان كذلك لكان مكانك الذي هو اسم فعل يتعدى

كما يتعدى الزموا .

ألا ترى أن اسم الفعل إذا كان الفعل لازماً كان اسم الفعل لازماً ، وإذا كان متعدياً كان

متعدياً مثال ذلك : عليك زيداً لما ناب مناب ، الزم تعدى .

وإليك لما ناب مناب تنح ، لم يتعد .

ولكون مكانك لا يتعدى ، قدره النحويون اثبت ، واثبت لا يتعدى .

قال الحوفي : مكانكم نصب بإضمار فعل أي : الزموا مكانكم أو اثبتوا .

وقال أبو البقاء : مكانكم ظرف مبني لوقوعه موقع الأمر ، أي الزموا انتهى .

وقد بينا أن تقدير الزموا ليس بجيد ، إذ لم تقل العرب مكانك زيداً فتعديه ، كما تعدى الزم .

وقال ابن عطية : أنتم رفع بالابتداء ، والخبر مخزيون أو مهانون ونحوه انتهى .

فيكون مكانكم قد تم ، ثم أخبر أنهم كذا ، وهذا ضعيف لفك الكلام الظاهر اتصال بعض

أجزائه ببعض ، ولتقدير إضمار لا ضرورة تدعو إليه ، ولقوله : فزيلنا بينهم ، إذ يدل على أنهم ثبتوا هم وشركاؤكم في مكان واحد حتى وقع التزييل بينهم وهو التفريق .

ولقراءة من قرأ أنتم وشركاءكم بالنصب على أنه مفعول معه ، والعامل فيه اسم الفعل .

ولو كان أنتم مبتدأ وقد حذف خبره ، لما جاز أن يأتي بعده مفعول معه تقول : كل رجل وضيعته بالرفع ، ولا يجوز فيه النصب .

وقال ابن عطية أيضاً : ويجوز أن يكون أنتم تأكيداً للضمير الذي في الفعل المقدر الذي هو قفوا أو نحوه انتهى .

(254/360)

وهذا ليس بجيد ، إذ لو كان تأكيداً لذلك الضمير المتصل بالفعل لجاز تقديمه على الظرف ، إذ الظرف لم يتحمل ضميراً على هذا القول فيلزم تأخيره عنه ، وهو غير جائز لا تقول : أنت مكانك ، ولا يحفظ من كلامهم .

والأصح أنْ لا يجوز حذف المؤكد في التأكيد المعنوي ، فكذلك هذا ، لأن التأكيد ينافي الحذف .

وليس من كلامهم : أنت زيداً لمن رأيته قد شهر سيفاً ، وأنت تريد اضرب أنت زيد ، إنما

كلام العرب زيداً تريد اضرب زيداً .

يقال زلت الشيء عن مكانه أزيله .

قال الفراء : تقول العرب : زلت الضأن من المعز فلم تزل .

وقال الواحدي : التزييل والتزيل والمزايلة التمييز والتفرق انتهى .

وزيل مضاعف للتكثير ، وهو لمفارقة الحبث من ذوات الياء ، بخلاف زال يزول فمادتهما مختلفة .

وزعم ابن قتيبة أن زيلنا من مادة زال يزول ، وتبعه أبو البقاء .

وقال أبو البقاء : فزيلنا عين الكلمة واو لأنه من زال يزول ، وإنما قلبت لأنّ وزن الكلمة فيعل أي : زيولنا مثل بيطر وبيقر ، فلما اجتمعت الواو والياء على الشرط المعروف قلبت ياء انتهى .

وليس بجيد ، لأنّ فعل أكثر من فيعل ، ولأنّ مصدره تزييل .

ولو كان فيعل لكان مصدره فيعله ، فكان يكون زيلة كبيطرة ، لأنّ فيعل ملحق بفعلل ، ولقولهم في قريب من معناه : زايل ، ولم يقولوا زاول بمعنى فارق ، إنما قالوه بمعنى حاول وخالط وشرح ، فزيلنا ففرقنا بينهم وقطعنا أقرانهم ، والوصل التي كانت بينهم في الدنيا ، أو فباعدنا بينهم بعد الجمع بينهم في الموقف وبين شركائهم كقوله تعالى : ﴿ أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون قالوا ضلوا عنا ﴾ وقرأت فرقة : فزايلنا حكاه الفراء .

قال الزمخشري : كقولك صاعر خده ، وصعر ، وكالمته وكلمته انتهى .

يعني أن فاعل بمعنى فعل ، وزايل في لسان العرب بمعنى فارق .

قال :

وقال العذارى إنما أنت عمنا . . .

وكان الشباب كالخليط يزايله

وقال آخر :

لعمري لموت لا عقوبة بعده . . .

لذي البث أشفى من هوى لا يزايله

(255/360)

والظاهر أن التزييل أو المزايلة هو بمفارقة الأجسام وتباعده .

وقيل : فرقنا بينهم في الحجة والمذهب قاله ابن عطية ، وفزيلنا .

وقال : هنا ماضيان لفظاً ، والمعنى : فنزيل بينهم ونقول : لأنهما معطوفان على مستقبل ، ونفي الشركاء عبادة المشركين هو رد لقولهم : إياكم كنا نعبد ، والمعنى : إنكم كنتم تعبدون من أمركم أن تتخذوا لله تعالى أنداداً فأطعتموهم ، ولما تنازعوا استشهد الشركاء بالله

تعالى .

وانتصب شهيداً ، قيل : على الحال ، والأصح على التمييز لقبوله مِن .

وتقدم الكلام في كفى وفي الياء ، وأنْ هي الخفيفة من الثقيلة .

وعند القراء هي النافية ، واللام بمعنى إلا ، وقد تقدم الكلام في ذلك .

واكتفاؤهم بشهادة الله هو على انتفاء أنهم عبدوهم .

ثم استأنفوا جملة خبرية أنهم كانوا غافلين عن عبادتهم أي : لا شعور لنا بذلك .

وهذا يرجح أن الشركاء هي الأصنام كما قال ابن عطية ، لأنه لو كان الشركاء ممن يعقل من إنسي أو جني أو ملك لكان له شعور بعبادتهم ، ولا شيء أعظم سبباً للغفلة من الجمادية ، إذ لا تحس ولا تشعر بشيء ألبتة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(256/360)

وقال أبو السعود :

﴿ فكفى بالله شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾

فإنه العليمُ الخبير ﴿ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لغافلين ﴾ أي عن عبادتكم لنا ، وتركهُ للظهور وللإيذان بكمال الغفلةِ عنها ، والغفلةُ عبارةٌ عن عدم الارتضاءِ وإلا فعدمُ شعورِ الملائكةِ

بعبادتهم لهم غيرُ ظاهرٍ وهذا يقطع احتمالَ كونِ المرادِ بالشركاء الشياطينَ كما قيل فإن ارتضاءَهم بإشراكهم مما لا ريب فيه وإن لم يكونوا مُجْبِرين لهم على ذلك وإنْ مخففةٌ من إنّ واللامُ فارقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فكفى بالله شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لغافلين ﴾

والظاهر أن تفسير الغفلة بعدم الارتضاء المراد منهم على ما قيل السخط والكراهة يستدعي الشعور إذ كراهة الشيء مع عدم الشعور به مما لا يكاد يعقل وإثباته لجميع الشركاء ولو اجمالاً في وقت من الأوقات الدنيوية غير مسلم ، ولعل التعبير بالغفلة أكثر تهجيناً للمخاطبين ولعبادتهم من التعبير بعدم الطلب مثلاً فتأمل ، والباء في ﴿ بالله ﴾ صلة و ﴿ شَهِيداً ﴾ تمييز ، و ﴿ إن ﴾ مخففة من أن واللام هي الفارقة بين المخففة والنافية والظرف متعلق بغافلين ، والتقديم لرعاية الفاصلة ، أي كفى الله شهيداً فإنه العليم الخبير المطلع على كنه الحال إنا كنا غافلين عن عبادتكم ، والظاهر من كلام بعض المحققين أن ﴿ فكفى ﴾ الخ استشهاد على النفي السابق لا على الإثبات اللاحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ فكفى بالله شهيدا ﴾

مؤكدة بالقسم ليُثبتوا البراءة مما ألصق بهم .

وجواب القسم ﴿ إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ .

وليس قولهم : ﴿ كفى بالله شهيدا ﴾ قسما على كلامهم المتقدم لأن شأن القسم أن يكون في صدر الجملة .

وعطفت جملة القسم بالفاء للدلالة على أن القسم متفرع على الكلام المتقدم لأن إخبارهم بنفي أن يكونوا يعبدونهم خبرٌ غريب مخالف لما هو مشاهد فناسب أن يفرع عليه ما يحققه ويبينه مع تأكيد ذلك بالقسم .

والإتيان بفاء التفريع عند تعقيب الكلام بجملة قسمية من فصيح الاستعمال ، كقوله تعالى : ﴿ كمَا أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ [الحجر : 90 93] .

ومن خصائصه أنه إذا عطف بفاء التفريع كان مُؤكداً لما قبله بطريق تفريع القسم عليه ومؤكِّداً لما بعده بطريق جواب القسم به .

وهذه الآية لم تفسَّر حق تفسيرها .

والشهيد : الشاهد ، وهو المؤيد والمصدّق لدعوى مدع ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا ﴾ [النساء : 6] .

و(كفى] بمعنى أجزأ وأغنى عن غيره .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وكفى بالله وليا ﴾ في سورة [النساء : 45] .

وهو صيغة خبر مستعمل في إنشاء القسم .

والباء مزيدة للتأكيد .

وأصله كفى الله شهيداً .

وانتصب : شهيدا ﴾ على التمييز لنسبة الكفاية إلى الله لما فيها من الإجمال .

وجملة : ﴿ إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ جواب للقسم .

(وإنْ) مخففة من (إنّ) .

واسمها ضمير شأن ملتزم الحذف .

j

وجملة : ﴿ كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ مفسّرة لضمير الشأن .

واللام فارقة بين (إنْ) المؤكدة المخففة و (إنْ) النافية .

وتقديم قوله : ﴿ عن عبادتكم ﴾ على عامله للاهتمام وللرعاية على الفاصلة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (29) ﴾

إذن : فالكائنات التي عُبِدتْ من دون الله تعالى تعلن رفضها لمسألة عبادتها ، فإذا كان الطير ممثلاً في الهدهد قد أعلن من قبل اندهاشه من أن بعضاً من البشر قد عبد غير الله تعالى .

واستدل الهدهد على قدرة الحق سبحانه بما يخصُّه هو من الرزق ، حيث يعلم أن الحق سبحانه قد عَلِمَ الخبء في السموات والأرض ، إذا كان الهدهد قد عرف ذلك

فالاستنكَار أمر منطقي من غيره من المخلوقات ، سواء أكانت من الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام ، أو من الأصنام و الأشجار والكواكب .

ولذلك نجد الحق سبحانه يضرب المثال بسؤاله للملائكة : ﴿ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ [سبأ : 40] .

فيجيب الملائكةُ بقوله : ﴿ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن ﴾ [سبأ : 41] .

والحق سبحانه وتعالى يعرض هذه المواقف في سُوَر القرآن الكريم عرضاً منثوراً مكرراً بما لا يدع للغفلة أن تصيب الإنسان ، فمثلاً يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجن قَدِ استكثرتم مِّنَ الإنس ﴾ [الأنعام : 128] .

ويقول على ألسنة من اتخذوا الشياطين أولياء :

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإنس رَبَّنَا استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الذي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ [الأنعام : 128] .

وقولهم هذا يتضمن الحديث عن ذواتهم والحديث عن الجن .

ولسائل أن يسأل : وكيف يأخذ الجن كثيراً من الإنس ؟

ونقول : إن الحق سبحانه قد خلق الجن على هيئة تختلف عن هيئة الإنس ، فجعل للجن خواصّاً تختلف عن خواص الإنس ، ومن هذه الخواص ما قال عنه الحق سبحانه : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف : 27] .

(259/360)

وأعطى الحق سبحانه للجن قوة أكثر مما أعطى للإنس ، وأعطاهم القدرة على النفاذ من السواتر الحديدية والجدران وغيرها ، وهذا أمر منطقي مع أصل تكوين الجن ، فالجن

مخلوق من النار ، والإنسان مخلوق من الطين . وهناك اختلاف بين طبيعة كل من النار والطين ، فما يخرج من الطين قارٌّ ، أي : لا يشع ، وما يخرج من النار له إشعاع وحرارة .

بمعنى : أنك لو كنت تجلس في حجرة ، وخلف ظهرك في الحجرة الأخرى نار موقدة ؛ فالساتر أيا كان سوف يحمل لك بعضاً من حرارة النار ، إلا لو كان عازلاً للحرارة .

أما لو كانت هناك تفاحة وهي مخلوقة من الطين موجودة في الحجرة الأخرى ، فلن ينفذ طعمها أو رائحتها إليك .

إذن : فالنار لها قانونها ، والطين له قانونه . وقانون المادة المخلوقة من الطين لا ينتقل إلا إذا نَقَلْتَ الجِرْم إلى المكان الذي توجد فيه .

ونلمح هذه المسألة التقنينية في قصة سيدنا سليمان عليه السلام حين علم أن ملكة سبأ تسير في الطريق إليه لتعلن إسلامها ، وأراد سيدنا سليمان عليه السلام أن يأتي لها بعرشها من مكانه قبل أن تصل .

فقال لمن هو في مجلسه : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : 38] ؟

وهذا يدل على أنه كان في مجلسه أجناس مختلفة ، ولكل جنس منهم قدرات مختلفة عن قدرات الجنس الآخر ، ونقل العرش من اليمن إلى مكان سيدنا سليمان عليه السلام يحتاج إلى زمن وإلى قوة ، فلو أنهم كانوا متساوين في قدرتهم ما قال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي ﴾ [النمل :

38] .

فكان أول من تقدم لتنفيذ ما أراده سليمان عفريت من الجن لا جِنّاً عاديّاً ، فمن الجن من هو خائب قليل الذكاء ، ومنهم من هو ذكي ، فهم وأن كانوا من جنس واحد فهم متفاوتون أيضاً ، وكان عفريت الجن هو أول من تكلم ، وقال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ [النمل : 39] .

(260/360)

ولكن مقام سليمان قد يستمر ساعة أو بضع ساعات ، والمتكلم هو عفريت من الجن الذي يعلم أن له صفات أقوى من صفات الإنس . أما الإنس العادي ممن كان حاضراً مجلس سليمان فلم يتكلم ؛ لأن المطلوب ليس في قدرته ، أما الذي تكلم من الإنس فهو مَنْ عنده علم من الكتاب ، فقال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : 40] .

ولم يأخذ الأمر شيئاً من الزمن ؛ لذلك عبَّر القرآن التعبير السريع بعد ذلك ، فقال : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ [النمل : 40] .

إذن : فللجن قوة على أشياء لا يقوى عليها الإنس ، ولم يأخذ الجنّي خواصَّه في الخفة والقدرة ومهارة اختزال الزمن بذات تكوينه ، ولكن بإرادة المكوِّن سبحانه ؛ ولذلك شاء

الحق أن يُذكِّر الجن أنهم قد أخذوا تلك الخصوصيات بمشيئته سبحانه ، والحق هو القادر على أن يجعل الإنس وهو الأدنى قدرة ، قادراً على تسخير الجن ؛ ولذلك يحاول الإنس أن يأخذ من تسخير الجن قوة له فيقوى على نظيره من الإنس .

ولكن الحق سبحانه أصدر الحكم على مَنْ يحاول ذلك بأن تسخير الجن يزيد رَهَقاً .

واقرأوا قول الحق سبحانه :

﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين على مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولكن الشياطين كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ الناس السحر وَمَا أُنزِلَ عَلَى الملكين بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ [البقرة : 102] .

إذن : فتعليم الجن السحر للإنس دليل على تفوق قدرات الجن وتميزها عن قدرات الإنس

.

(261/360)

ولكن الملكين هاروت وماروت حينما عَلَّمَا الإنسان السحر حذَّراه اولاً من أن يأخذ من ذلك فرصة زائدة تطغيه على بني جنسه ويظلم بها ، إنما الأمر كله اختبار ، فإن تعلَّمته فذلك لتقيَ نفسك من الشر لا لتوقعه بغيرك ، ثم إنك أيها الإنسان من الأغيار قد تضمن

نفسك وقت التحمُّل ، ولكن ماذا عن وقت الاداء ؟

مثلما يأتي لك إنسان ليُودِعَ عندك ألفاً من الجنيهات كأمانة ، ولكن أتظل على الأمانة ، أم أنك قد تنكر المال أصلاً حين يطالبك به صاحبه ، أو قد تمر بك أزمة مالية فتتصرف بهذا المال ؟

ولذلك تجد الذكي هو مَنْ يقول لمودع هذا المال : " احفظْ عليك مالك ، لأني من الأغيار "

.

وتلك هي القضية الإيمانية الأصيلة في الكون كله ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72]

والأمانة هي ما يكون في ذمة المؤتمن ، ولا حجة للمؤتمن عنده إلا ذمته ، ولا شهود عليه ، ولا يوجد إيصال بتلك الأمانة ، بل هي وديعة لا توثيق فيها ؛ إلا ذمة المؤتمن ، قد يقرُّ بها ، وقد يُنكرها .

وعلى ذلك فحقُّ المؤتمن عند المؤتَمَن خاضعٌ لخيار المؤتَمَن ؛ ولذلك وجدنا السماء والأرض والجبال قالت : يا رب لا نريد أن نُدخِلَ أنفسنا في هذه التجربة ، افعل بنا ما شئت واجعلنّا مقهورين ولا اختيار لنا ، ولا نريد تحمُّل الأمانة .

أما الإنسان فقد ميَّزه الله بالعقل ، وقدرة الاختيار بين البدائل ؛ لذلك قَبِلَ الإنسان حَمْل

الامانة ، وحين جاء وقت الأداء لم يجد نفسه أميناً على الأَشياء مثلما ظَنَّ في نفسه وقت التحمُّل .

(262/360)

وكذلك الذين يتعلمون السحر ، يقول الواحد منهم لنفسه : سوف أتعلمه لأدفع الضُّرَّ عن نفسي ، ونقول له : أنت لا تضمن نفسك ؛ لأنك من الأغيار ، فقد بغضبك أو يثير أعصابك إنسان ؛ فتستخدم السحر فتصيب نفسك بالرَّهق .

إذن : فحين قال الله سبحانه : ﴿ يَامَعْشَرَ الجن قَدِ استكثرتم مِّنَ الإنس ﴾ [الأنعام : 128] .

أي : أخذتم من الإنس كثيراً بأن اعطيتموهم سلاحاً يحقق لهم فرصة وقوة على غيرهم من البشر .

وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى لنا أن بعض البشر الذين استجابوا للجن قالوا : ﴿ استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ [الأنعام : 128] .

واستمتاع الإنس بالجن مصدره أن الإنس يأخذ قوة فوق قوة غيره من البشر ، واستمتاع الجن بالإنس مصدره أنه سوف يُعين هذا الإنسان على معصيته ؛ تطبيقاً لِقَسَمِ إبليس اللعين

: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 82] .

ولكن هذا الاستمتاع في النهاية لا يعطي أمراً زائداً عن المقدور لكل جنس ؛ ولذلك تجد أن كل مَنْ يعمل بالسحر وتسخير الجن إنما يعاني ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ [الجن : 6] .

وأنت تجد رزق الذي يقوم بالسحر أو تسخير الجن يأتي من يد مَنْ لا يعلم السحر ، ولو كان في تعلُّم ذلك ميزة فوق البشر ؛ لجعل رزقه من مصدر آخر غير من لا يعلمون السحر أو تسخير الجن .

وأنت حين ترى الواحد من هؤلاء ، تجد على ملامحه غَبَرَةً ، وفي ذريته آفة أو عيباً ، فمنهم مَنْ هو أعور أو أكتع أو أعرج ؛ لأنه أراد أن يأخذ فرصة في الحياة أكثر من غيره من البشر ؛ بواسطة الجن ، وهذه الفرصة تزيده رهقاً ؛ ولذلك فليلزم كل إنسان أدبه وقدره الذي شاءه الله سبحانه وتعالى له ؛ فلا يفكر في أخذ فرصة تزيد من رهقه .

(263/360)

ونحن نرى في البشر مَنْ يستخدم صاحب القوة الجسدية أو قدرة تصويب السلاح ؛ ليُرهِب غيره ، وقد ينجح في ذلك مرة أو أكثر ، ثم ينقلب هذا (الفتوّة) أو ذلك القاتل المأجور على

مَنْ استأجره .

إذن : فلا بد أن يحترم كل إنسان قَدَر الله سبحانه وتعالى في نفسه ، وألاّ يأخذ فرصة من جنس آخر ؛ يظن أنها تزيده في دنياه شيئاً ، لكنها في الواقع ستزيده تعباً وتزيده رهقاً .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول عنهم : ﴿ رَبَّنَا استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الذي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النار مَثْوَاكُمْ ﴾ [الأنعام : 128] .

وهكذا نرى أن مصير الاستمتاع بقوة الجن هو النار للإنس الذي استخدم الجن ، وللجن الذي أغوى الإنس .

ثم يعرض لنا الحق سبحانه وتعالى قضية أخرى في هذه المسألة ؛ فيقول سبحانه : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف : 67] .

والأخلاء : هم الجماعة التي يجمع أفرادها صحبة ومودَّة ، ويتخلّل كل منهم حياة الآخر .

وأنت تجد الناس صنفين :

أناساً اتخذوا الخُلَّة في الله تعالى ، فيذهبون إلى المساجد ، ويستذكرون العلم ، ولا يأكلون إلا من حلال ، ويقرأون القرآن ، وإن همَّ واحد منهم بمعصية وجد من صديقه ما يردّه عن المعصية ، ويحجّون إلى بيت الله الحرام ، ويعتمرون ، وتدور حياتهم في إطار حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم : " رجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه " وهذا لون من الخُلَّة .

واللون الآخر يضم أناساً يساعد بعضهم البعض على المعصية ، ويشربون الخمر ، ويلعبون الميسر ، ويفعلون كل المعاصي ، فإذا جاء يوم القيامة يقابلون حكم الله تعالى : ﴿ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ ﴾ [البقرة : 254] .

(264/360)

فلا خُلَّة إلا خُلَّة اللقاء في الله تعالى ، فإذا التقى الأخلاء في الله تعالى فرحوا ببعضهم ؛ لأن كلاّ منهم حمى أخاه من معصية ، أما من كانوا يجتمعون في الدنيا على المعصية ، فكل منهم يلعن الآخر ، ويصدق حكم الله سبحانه وتعالى : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف : 67] .

ولذلك نجد الحوار بين الذين استضعفوا والذين استكبروا ، ونجد الحق سبحانه وتعالى يأتي لنا بهذا الحوار في القرآن : ﴿ فَقَالَ الضعفاء لِلَّذِينَ استكبروا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ الله مِن شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم : 21] .

فيرد الآخرون : ﴿ لَوْ هَدَانَا الله لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم : 21] .

وبعد ذلك يأتي اعتراف الشيطان الذي يقول عنه الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [إبراهيم : 22] .

وهذا الحوار هو الذي يكشف لنا ما سوف يحدث يوم القيامة ، ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿ كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكفر فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بريء مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ الله . . . ﴾ [الحشر : 16] .

هذه كلها لقطات من مشاهد يوم القيامة ، جاءت في خواطرنا ونحن نتناول قول الحق سبحانه : ﴿ فكفى بالله شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ [يونس : 29] .

هكذا يعلن كل مَنْ عُبد من الملائكة أو الرسل أو الأصنام ، وبذلك تتم فضيحة الذين عبدوهم من دون الله سبحانه ويأخذون طريقهم إلى النار .

(265/360)

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ [الصافات : 22] .

ولننتبه هنا إلى أن الأزواج متقدمون في الإغواء والتوجيه إلى الشر ، قبل الأعداء ؛ لأن الزوج أو الزوجة قد يكون هو الشيطان الملازم الذي يُهيِّيء الانحراف إلى ما يريد .

ونجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات : 24] .

ومثلها مثل قوله سبحانه : ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ نفهم من ذلك أنهم كانوا معاً في الدنيا وهي دار الاختبار ، وهم الآن في دار جبرية الاقتدار ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قالوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين ﴾ [الصافات : 2428] .

أي : كنتم تستعملون قوتكم ؛ لتجعلونا نتبعكم ، فلا يظنن ظانٌّ أنها قوة البطش فقط ، أو قوة التذليل ، بل المقصود بذلك أيّ قوة ، حتى وإن كانت قوة الإغواء .

إذن : فالمواقف مفضوحة ، وهذا لون ومقدمة من ألوان العذاب ؛ ليبين الله سبحانه وتعالى صدقه في قوله : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف : 67]

.

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليبين لنا كيف يختار الإنسان خليله في الدنيا ، فلا يختار الخليل الذي يزيِّن الخطأ والمعصية ، بل يختار الذي يعينه على الطاعة .

ويذكر الحق سبحانه موقفاً من مواقف يوم القيامة فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين ﴾ [فصلت : 29] .

(266/360)

هكذا يكون حال الذين ضلُّوا يوم القيامة ، يتبرأون ممن أوقفهم هذا الموقف بل يطلبون من أضلهم لإيقاع العذاب بهم بأنفسهم ؛ لذلك يقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ فكفى بالله شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ [يونس : 29] .

هكذا يتبرَّأ الملائكة والرسول الذي عُبِدَ ، وحتى الأصنام ، من الذين عَبَدُوهم في الدنيا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(267/360)

قوله تعالى ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (30) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر عن حال المشركين ، تشوفت النفس إلى الاطلاع على حال غيرهم فقال مستأنفاً مخبراً عن كِلا الفريقين : ﴿ هنالك ﴾ أي في ذلك الموقف من المكان والزمان العظيم الأهوال المتوالي الزلزال ﴿ تبلوا ﴾ أي تخبر وتخالط مخالطة مميلة محلية ﴿ كل نفس ﴾ طائعة وعاصية ﴿ ما أسلفت ﴾ أي قدمت من العمل فيعرف هل كان خيراً أو شراً وهل كان يؤدي إلى سعادة أو شقاوة .

ولما كان مطلق الرد – وهو صرف الشيء إلى الموضع الذي ابتدأ منه – كافياً في الرهبة لمن له اب ، بُني للمفعول قوله : ﴿ وردوا ﴾ أي بالبعث بالإحياء كما كانوا أولاً ﴿ إلى الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ مولاهم الحق ﴾ فلم يكن لهم قدرة على قصدِ غيره ولا الالتفات إلى سواه من تلك الأباطيل ، بل انقطع رجاءهم من كل ما كانوا يدعونه في الدنيا ، وهو المراد بقوله : ﴿ وضَلَّ عنهم ﴾ أي بطل وذهب وضاع ﴿ ما كانوا ﴾ أي كوناً هو جبلة لهم ﴿ يفترون ﴾ أي يتعمدون كذبه من أن معبوداتهم شركاء ، وتيقنوا في ذلك المقام أن توليهم لغير الله كان باطلاً غير حق ؛ والتزييل : تفريق يزول به كل واحد عن مكانه ، وهو من تفريق الجثث ، وليس من الواوي ، بل من اليائي ، يقال : زلته عن الشيء أزيله – إذا فرقت بينه وبينه ؛ والكفاية : بلوغ مقدار الحاجة في دفع الأذية أو حصول المنفعة ؛ والإسلاف : تقديم

أمر لما بعده ؛ والرد : الذهاب إلى الشيء بعد الذهاب عنه كالرجع ؛ والمولى : من يملك تولى أمر مولاه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 438 ﴾

(268/360)

فصل

قال الفخر :

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾

اعلم أن هذه الآية كالتتمة لما قبلها .

وقوله : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ معناه : في ذلك المقام وفي ذلك الموقف أو يكون المراد في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان ، وفي قوله : ﴿ تَبْلُوا ﴾ مباحث :

البحث الأول : قرأ حمزة والكسائي ﴿ تَتْلُوا ﴾ بتاءين ، وقرأ عاصم ﴿ نبلو كُلُّ نَفْسٍ ﴾ بالنون ونصب كل والباقون ﴿ تَبْلُوا ﴾ بالتاء والباء .

أما قراءة حمزة والكسائي فلها وجهان : الأول : أن يكون معنى قوله : ﴿ تَتْلُوا ﴾ أي تتبع ما أسلفت ، لأن عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة وإلى طريق النار .

الثاني : أن يكون المعنى : أن كل نفس تقرأ ما في صحيفتها من خير أو شر ومنه قوله تعالى :

﴿ اقرأ كتابك كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : 14] وقال : ﴿ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءونَ كتابهم ﴾ [الإسراء : 71] وأما قراءة عاصم فمعناها : أن الله تعالى يقول في ذلك الوقت نختبر كل نفس بسبب اختبار ما أسلفت من العمل ، والمعنى : أنا نعرف حالها بمعرفة حال عملها ، إن كان حسناً فهي سعيدة ، وإن كان قبيحاً فهي شقية ، والمعنى نفعل بها فعل المختبر ، كقوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك : 2] وأما القراءة المشهورة فمعناها : أن كل نفس نختبر أعمالها في ذلك الوقت .

البحث الثاني : الابتلاء عبارة عن الاختبار قال تعالى : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ [الأعراف : 168] ويقال : البلاء ثم الابتلاء أي الاختبار ينبغي أن يكون قبل الابتلاء .

ولقائل أن يقول : إن في ذلك الوقت تنكشف نتائج الأعمال وتظهر آثار الأفعال ، فكيف يجوز تسمية حدوث العلم بالابتلاء ؟

وجوابه : أن الابتلاء سبب لحدوث العلم ، وإطلاق اسم السبب على المسبب مجاز مشهور .

وأما قوله : ﴿ وَرُدُّواْ إِلَى الله مولاهم الحق ﴾ فاعلم أن الرد عبارة عن صرف الشيء إلى الموضع الذي جاء منه ، وههنا فيه احتمالات : الأول : أن يكون المراد من قوله : ﴿ وَرُدُّواْ إِلَى الله ﴾ أي وردوا إلى حيث لا حكم إلا لله على ما تقدم من نظائره .

والثاني : أن يكون المراد ﴿ وَرُدُّواْ ﴾ إلى ما يظهر لهم من الله من ثواب وعقاب ، منبهاً بذلك على أن حكم الله بالثواب والعقاب لا يتغير .

الثالث : أن يكون المراد من قوله : ﴿ وَرُدُّواْ إِلَى الله ﴾ أي جعلوا ملجئين إلى الإقرار بإلهيته ، بعد أن كانوا في الدنيا يعبدون غير الله تعالى ، ولذلك قال : ﴿ مولاهم الحق ﴾ أعني أعرضوا عن المولى الباطل ورجعوا إلى المولى الحق .

وأما قوله : ﴿ مولاهم الحق ﴾ فقد مر تفسيره في سورة الأنعام .

وأما قوله : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ فالمراد أنهم كانوا يدعون فيما يعبدونه أنهم شفعاء وأن عبادتهم مقربة إلى الله تعالى ، فنبه تعالى على أن ذلك يزول في الآخرة ، ويعلمون أن ذلك باطل وافتراء واختلاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 70.69 ﴾

(270/360)

وقال السمرقندى :

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ ﴾

قرأ حمزة والكسائي ﴿ تَتْلُواْ ﴾ بالتاءين ، يعني : عند ذلك تقرأ كل نفس برة أو فاجرة ﴿ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ ، يعني : ما عملت من خير أو شر .

وهذا قوله : ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [الإسراء : 71] ويقال : تتلو يعني : تتبع ، كقوله : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا ﴾ [الشمس : 2] يعني : تبعها ، والباقون ﴿ تَبْلُواْ ﴾ بالتاء والباء ، يعني : عند ذلك تجد .

ويقال : تظهر ، كقوله ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق : 9] وقال القتبي : أي يختبر .

ثم قال : ﴿ وَرُدُّواْ إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ ﴾ ، يعني : رجعوا في الآخرة إلى الله مولاهم الحق .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ ، يعني : اشتغل عنهم آلهتهم بأنفسها ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ يعني : يختلقون من الأوثان فلا يكون لهم شفاعة ويقال بطل افتراؤهم واضمحل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ ﴾

أي تخبر وقيل : تعلم ، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وطلحة وعيسى وحمزة والكسائي (تبلوا) بالتاء ، وهي قراءة ابن مسعود في معنى : وتقرأ .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ صحيفتها ، وقيل : معناه تتبع ما قدمت من خير وشرّ ، وقال ابن زيد [تعاون] ﴿ وردوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحق وَضَلَّ ﴾ [بطل] ﴿ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [من الآلهة] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(271/360)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾

فيه قراءتان :

إحداهما : بتاءين قرأ بها حمزة والكسائي ، وفي تأويلها ثلاثة أوجه :

أحدها : تتبع كل نفس ما قدمت في الدنيا ، قاله السدي ، ومنه قول الشاعر :

إن المريب يتبع المريبا . . . كما رأيت الذيب يتلو الذيبا

الثاني : تتلو كتاب حسناتها وكتاب سيئاتها ، ومن التلاوة .

والثالث : تعاين كل نفس جزاء ما عملت .

والقراءة الثانية : وهي قراءة الباقين تتلو بالباء وفي تأويلها وجهان :

أحدهما : تسلم كل نفس .

الثاني : تختبر كل نفس ، قاله مجاهد .

﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِ ﴾ أي مالكهم ، ووصف تعالى نفسه بالحق ، لأن الحق منه ، كما وصف نفسه بالعدل ، لأن العدل منه .

فإن قيل فقد قال تعالى ﴿ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ ﴾ [محمد : 11] فكيف صارها هنا مولى لهم ؟

قيل ليس بمولى في النصرة والمعونة ، وهو مولى لهم في الملكية .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي بطل عنهم ما كانوا يكذبون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(272/360)

وقال ابن عطية :

و ﴿ هنالك ﴾ نصب على الظرف ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر " تبلوا " بالباء بواحدة بمعنى اختبر ، وقرأ حمزة والكسائي " تتلوا " بالتاء بنقطتين من فوق

بمعنى تتبع أي تطلب وتتبع ما أسلفت من أعمالها ، ويصح أن يكون بمعنى تقرأ كتبها التي ترفع إليها ، وقرأ يحيى بن وثاب " ودوا " بكسر الراء والجمهور " وردوا إلى الله " ، أي ردوا إلى عقاب مالكهم وشديد بأسه ، فهو مولاهم في الملك والإحاطة لا في الرحمة والنصر ونحوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ هنالك تبلو ﴾

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : "تبلو" بالباء .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، وزيد عن يعقوب : "تتلو" بالتاء .

قال الزجاج : "هنالك" ظرف ، والمعنى : في ذلك الوقت تبلو ، وهو منصوب بتبلو ، إلا أنه غير متمكِّن ، واللام زائدة ، والأصل : هناك ، وكسرت اللام لسكونها وسكون الألف ، والكاف للمخاطبة .

و"تبلو" تختبر ، أي : تعلم .

ومن قرأ "تتلو" بتاءين ، فقد فسرها الأخفش وغيره : تتلو من التلاوة ، أي : تقرأ .

وفسروه أيضاً : تتبع كل نفس ما أسلفت .

ومثله قول الشاعر :

قد جعلتْ دلويَ تَسْتَتْلِيني . . .

ولا أُريدُ تَبَعَ القرِيْنِ

أي : تستتبعني ، أي : من ثقلها تستدعي اتباعي إِياها .

قوله تعالى : ﴿ ورُدّوا ﴾ أي : في الآخرة ﴿ إلى الله مولاهم الحق ﴾ الذي يملك أمرهم حقاً ، لا مَن جعلوا معه من الشركاء .

﴿ وضل عنهم ﴾ أي : زال وبطل ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ من الآلهة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(273/360)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ﴾

في موضع نصب على الظرف .

﴿ تَبْلُواْ ﴾ أي في ذلك الوقت .

"تبلو" أي تذوق .

وقال الكَلْبِيّ : تعلم .

مجاهد : تختبر .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ أي جزاء ما عملت وقدّمت .

وقيل : تسلم ، أي تسلم ما عليها من الحقوق إلى أربابها بغير اختيارها .

وقرأ حمزة والكسائيّ "تتلو" أي تقرأ كل نفس كتابها الذي كُتب عليها .

وقيل : "تتلو" تتبع ؛ أي تتبع كل نفس ما قدّمت في الدنيا ؛ قاله السُّدِّي .

ومنه قول الشاعر :

إن المُرِيبَ يتبع المُرِيبَا . . .

كما رأيت الذِّيب يتلو الذِّيبا

قوله تعالى : ﴿ وردوا إِلَى الله مَوْلاَهُمُ الحق ﴾ بالخفض على البدل أو الصفة .

ويجوز نصب الحق من ثلاث جهات ؛ يكون التقدير : وردوا حقاً ، ثم جيء بالألف واللام .

ويجوز أن يكون التقدير : مولاهم حقاً لا ما يعبدون من دونه .

والوجه الثالث أن يكون مدحاً ؛ أي أعني الحق .

ويجوز أن يرفع "الحق" ، ويكون المعنى مولاهم الحق على الابتداء والخبر ، والقطع مما قبل لا ما يشركون من دونه .

ووصف نفسه سبحانه بالحق لأن الحق منه كما وصف نفسه بالعدل لأن العدل منه ؛ أي كل عدل وحق فمن قِبله ، وقال ابن عباس : "مَوْلاَهُمُ بالْحَق" أي الذي يجازيهم بالحق .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي بطل .

﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ "يفترون" في موضع رفع وهو بمعنى المصدر ، أي افتراؤهم .

فإن قيل : كيف قال "وردوا إلى الله مولاهم الحق" وقد أخبر بأن الكافرين لا مولى لهم .

قيل : ليس بمولاهم في النصرة والمعونة ، وهو مولى لهم في الرزق وإدرار النعم . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(274/360)

وقال الخازن :

أما قوله سبحانه وتعالى : ﴿ هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ﴾

فهو كالتتمة للآية المتقدمة والمعنى في ذلك المقام أو ذلك الموقف أو ذلك الوقت على معنى استعارة إطلاق اسم المكان على الزمان وفي قوله تبلو قراءات قرئ بتاءين ولها معنيان أحدهما أنه من تلاه إذا تبعه أي تبع كل نفس ما أسلفت لأن العمل هو الذي يهدي النفس إلى الثواب أو العقاب .

الثاني : أن يكون من التلاوة والمعنى أن كل نفس تقرأ صحيفة عملها من خير أو شر .

وقرئ : تبلو بالتاء المثناة والباء الموحدة ومعناه تخبر وتعلم .

والبلو : الاختبار ومعناه : اختبارها ما أسلفت يعني : أنه إن قدم خيراً أو شراً قدم عليه

وجوزي به ﴿ وردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ الرد : عبارة عن صرف الشيء إلى الموضع الذي جاء منه .

والمعنى : وردوا إلى ما ظهر لهم من الله الذي هو مالكهم ومتولي أمرهم .

فإن قلت : قد قال الله سبحانه وتعالى في آية أخرى ﴿ وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ فما الفرق ؟

قلت : المولى في اللغة يطلق على المالك ويطلق على الناصر ، فمعنى المولى هنا المالك ومعنى المولى هناك الناصر فحصل الفرق بين الآيتين ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ يعني وبطل وذهب ما كانوا يكذبون فيه في الدنيا وهو قولهم إن هذه الأصنام تشفع لنا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(275/360)

وقال أبو حيان :

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾

هنالك ظرف مكان أي : في ذلك الموقف والمقام المقتضي للحيرة والدهش .

وقيل : هو إشارة إلى الوقت ، استعير ظرف المكان للزمان أي : في ذلك الوقت .

وقرأ الإخوان وزيد بن علي : تتلوا بتاءين أي : تتبع وتطلب ما أسلفت من أعمالها ، قاله السدي .

ومنه قول الشاعر :

إن المريب يتبع المريبا . . .

كما رأيت الذيب يتلو الذيبا

قيل : ويصح أن يكون من التلاوة وهي القراءة أي : تقرأ كتبها التي تدفع إليها .

وقرأ باقي السبعة : تبلوا بالتاء والباء أي : تختبر ما أسلفت من العمل فتعرف كيف هو أقبيح أم حسن ، أنافع أم ضار ، أمقبول أم مردود ؟ كما يتعرف الرجل الشيء باختباره .

وروي عن عاصم : نبلوا بنون وباء أي : نختبر .

وكل نفس بالنصب ، وما أسلفت بدل من كل نفس ، أو منصوب على إسقاط الخافض أي : ما أسلفت .

أو يكون نبلوا من البلاء وهو العذاب أي : نصيب كل نفس عاصية بالبلاء بسبب ما أسلفت من العمل المسيء .

وعن الحسن تبلوا تتسلم .

وعن الكلبي : تعلم .

وقيل : تذوق .

وقرأ يحيى بن وثاب : وردوا بكسر الراء ، لمَّا سكن للإدغام نقل حركة الدال إلى حركة الراء بعد حذف حركتها .

ومعنى إلى الله إلى عقابه .

وقيل : إلى موضع جزائه مولاهم الحق ، لا ما زعموه من أصنامهم ، إذ هو المتولي حسابهم .

فهو مولاهم في الملك والإحاطة ، لا في النصر والرحمة .

وقرىء الحق بالنصب على المدح نحو : الحمد لله أهل الحمد .

وقال الزمخشري : كقولك هذا عبد الله الحق لا الباطل ، على تأكيد قوله : ردوا إلى الله انتهى .

وقال أبو عبد الله الرازي : وردوا إلى الله ، جعلوا ملجأين إلى الإقرار بالإلهية بعد أن كانوا في الدنيا يعبدون غير الله ، ولذلك قال : مولاهم الحق .

وضل عنهم أي : بطل وذهب ما كانوا يفترونه من الكذب ، أو من دعواهم أنّ أصنامهم شركاء لله شافعون لهم عنده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(276/360)

وقال أبو السعود :

﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك المقام الدهِش ، أو في ذلك الوقت على استعارة ظرفِ المكان للزمان ﴿ تبلو ﴾ أي تختبر وتذوق ﴿ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ مؤمنةً كانت أو كافرةً سعيدةً أو شقية ﴿ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ من العمل وتعاينه بكُنهه مستتبِعاً لآثاره من نفع أو ضُرَ وخيرٍ أو شر ، وأما ما عِلمتْ من حالها من حين الموتِ والابتلاءِ بالعذاب في البرزخ فأمرٌ مجملٌ وقرىء نبلو بنونِ العظمةِ ونصبِ كلٍّ وإبدالِ ما منه أي نعاملها معاملةَ من يبلوها ويتعرّفُ أحوالَها من السعادة والشقاوةِ باختبار ما أسلفت من العمل ، ويجوز أن يُراد نُصيب بالبلاء أي العذاب كلَّ نفسٍ عاصيةٍ بسبب ما أسلفت من الشر فيكون ما منصوبةً بنزع الخافضِ وقرىء تتلو أي تتبع لأن عملَها هو الذي يهديها إلى طريق الجنةِ أو إلى طريق النارِ ، أو تقرأ في صحيفه أعمالِها ما قدمت من خير أو شر ﴿ وَرُدُّواْ ﴾ الضمير الذين أشركوا على أنه معطوفٌ على زيلنا وما عطف عليه قوله عز وجل : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ ﴾ الخ ، اعتراضٌ في أثناء الحكايةِ مقرّرٌ لمضمونها ﴿ إِلَى اللهِ ﴾ أي جزائه وعقابه ﴿ مولاهم ﴾ ربّهم ﴿ الحق ﴾ أي المتحقق الصادِق ربوبيتُه لا ما اتخذوه باطلاً وقرىء الحقَّ بالنصب على المدح كقولهم : الحمدُ لله أهلَ الحمد أو على المصدر المؤكد .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ وضاع أي ظهر ضَياعُه وضلالُه لا أنه كان قبل ذلك غيرَ ضالٍ ، أو ضل في اعتقادهم أيضاً ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ من أن آلهتَهم تشفع لهم أو ما كانوا يدعون أنها آلهةٌ ، هذا وجُعل الضميرُ في رُدوا للنفوسِ المدلولِ عليها بكل نفسٍ على أنه معطوفٌ على تبلو وأن العدولَ إلى الماضي للدِلالة على التحقق والتقرر ، وأن إيثارَ صيغةِ الجمعِ للإيذان بأن ردّهم إلى الله يكون على طريقة الاجتماعِ لا يلائمه التعرُّض لوصف الحقيةِ في قوله تعالى : ﴿ مولاهم الحق ﴾ فإنه للتعريض بالمردودين حسبما أشير إليه ، ولئن اكتُفيَ فيه بالتعريض ببعضهم أو حُمل (الحقّ) على معنى العدل في الثواب والعقاب فقوله عز وجل : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ مما لا مجال فيه للتدارك قطعاً ، فإن ما فيه من الضمائر الثلاثةِ للمشركين فليزم التفكيكُ حتماً وتخصيصُ (كلُّ نفس) بالنفوس المشتركةِ مع عموم البلوى للكل يأباه مقامُ تهويلِ المقام والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(278/360)

وقال الآلوسى :

﴿ هُنَالِكَ ﴾

أي في ذلك المقام الدحض والمكان الدهش وهو مقام الحشر فهنالك باق على أصله وهو الظرفية المكانية ، وقيل : إنه استعمل ظرف زمان مجازاً أي في ذلك الوقت ﴿ تَبْلُواْ ﴾ أي تختبر ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ مؤمنة كانت أو كافرة ﴿ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ من العمل فتعاين نفعه وضره أتم معاينة .

وقرأ حمزة .

والكسائي ﴿ تَتْلُو ﴾ من التلاوة بمعنى القراءة ، والمراد قراءة صحف ما أسلفت ، وقيل : إن ذلك كناية عن ظهور الأعمال .

وجوز أن يكون من التلو على معنى أن العمل يتجسم ويظهر فيتبعه صاحبه حتى يرد به الجنة أو النار أو هو تمثيل .

وقرأ عاصم في رواية عنه ﴿ نبلو ﴾ بالباء الموحدة والنون ونصب ﴿ والمؤمنون كُلٌّ ﴾ على أن فاعل نبلو ضميره تعالى و ﴿ كُلٌّ ﴾ مفعوله و ﴿ مَا ﴾ بدل منه بدل إشتمال ، والكلام استعارة تمثيلية أي هنالك نعامل كل نفس معاملة من يبلوها ويتعرف أحوالها من السعادة والشقاوة باختبار ما أسلفت من العمل ، ويجوز أن يراد نصيب بالبلاء أي العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر فتكون ما منصوبة بنزع الخافض وهو الباء

السببية .

﴿ وَرُدُّواْ إِلَى الله ﴾ عطف على ﴿ زيلنا ﴾ [يونس : 28] والضمير ﴿ للذين أشركوا ﴾ [يونس : 28] وما في البين اعتراض في أثناء الحكاية مقرر لمضمونها ، والمعنى ردوا إلى جزائه وعقابه أو إلى موضع ذلك ، فالرد ءما معنوي أو حسي .

وقال الإمام : المعنى جعلوا ملجئين إلى الإقرار بأولهيته سبحانه وتعالى ﴿ مولاهم ﴾ أي ربهم ﴿ الحق ﴾ أي المتحقق الصادق في ربوبيته لا ما اتخذوه ربا باطلا .

وقرىء ﴿ الحق ﴾ بالنصب على المدح ، والمراد به الله تعالى وهو من أسمائه سبحانه أو على المصدر المؤكد والمراد به ما يقابل الباطل ، ولا منافاة بين هذه الآية وقوله سبحانه : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الله مَوْلَى الذين ءامَنُواْ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ ﴾ [محمد : 11] لاختلاف معنى المولى فيهما .

(279/360)

وأخرج أبو الشيخ عن السدى أن الأولى منسوخة بالثانية ولا يخفى ما فيه ﴿ وَضَلَّ ﴾ أي ضاع وذهب ﴿ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ من أن آلهتهم تشفع لهم أو ما كانوا يدعون أنها شركاء لله عز وجل ، و ﴿ مَا ﴾ يحتمل أن تكون موصولة وأن تكون مصدرية والجملة

معطوفة على قوله سبحانه : ﴿ رُدُّواْ ﴾ ومن الناس من جعلها عطفاً على ﴿ زيلنا ﴾ [يونس : 28] وجملة ردو معطوفة على جملة تبلو الخ داخلة في الاعتراض وضمير الجمع للنفوس المدلول عليها بكل نفس ، والعدول إلى الماضي للدلالة على التحقق والتقرر ، وإيثار صيغة الجمع للإيذان بأن ردهم إليه سبحانه يكون على طريق الاجتماع ومذا ذكرناه أولى لفظاً ومعنى .

وتعقب شيخ الإسلام جعل الضمير للنفوس وعطف ﴿ رُدُّواْ ﴾ على ﴿ تبلو ﴾ الخ بأنه لا يلائمه التعرض لوصف الحقية في قوله سبحانه : ﴿ الله مولاهم الحق ﴾ فإنه للتعريض بالمردودين ثم قال : ولئن اكتفى فيه بالتعريض ببعضهم أو حمل ﴿ الحق ﴾ على معنى العدل في الثواب والعقاب أي مع تفسير المولى بمتولي الأمور فقوله سبحانه : ﴿ وَضَلَّ ﴾ الخ مما لا مجال فيه للتدارك قطعاً فإن ما فيه من الضمائر الثلاثة للمشركين فيلزم التفكيك حتماً ، وتخصيص كل نفس بالنفوس المشركة مع عموم البلوي للكل يأباه مقام تهويل المقام انتهى ، والظاهر أنه اعتبر عطف ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ الخ على ﴿ رُدُّواْ ﴾ مع رجوع ضميره للنفوس وهو غير ما ذكرناه فلا تغفل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

هَذَا بَيَانٌ لِصِفَةِ الَّذِينَ هَدَاهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْإِسْلَامِ ، فَوَصَلُوا بِالسَّيْرِ عَلَيْهِ إِلَى غَايَتِهِ وَهِيَ (دَارُ السَّلَامِ) أَيْ لِلَّذِينِ أَحْسَنُوا أَعْمَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا الْمَثُوبَةُ (الْحُسْنَى) أَيِ الَّتِي تَزِيدُ فِي الْحُسْنِ عَلَى إِحْسَانِهِمْ ، وَهِيَ مُضَاعَفَتُهَا بِعَشَرَةِ أَمْثَالِهَا أَوْ أَكْثَرَ ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ النَّجْمِ : (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) (53 : 31) وَلَهُمْ زِيَادَةٌ عَلَى هَذِهِ الْحُسْنَى ، وَهِيَ فَوْقَ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ بَعْدَ مُضَاعَفَتِهَا الَّتِي هِيَ مِنْ جَزَائِهَا مَهْمَا تَكُنْ حَسَنَةً ، كَمَا قَالَ : (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) (4 : 173) وَقَدْ وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الْكَثِيرَةِ مِنَ الطُّرُقِ الْعَدِيدَةِ أَنَّ هَذِهِ الزِّيَادَةَ هِيَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ الْكَرِيمِ ، وَهُوَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْكَمَالِ الرُّوحَانِيِّ الَّذِي لَا يَصِلُ إِلَيْهِ الْمُتَّقُونَ الْمُحْسِنُونَ الْعَارِفُونَ إِلَّا فِي الْآخِرَةِ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا الْقَوْلَ فِيهِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (ص 112 وَمَا بَعْدَهَا ج 9 ط الْهَيْئَةِ) بِمَا يُقَرِّبُهُ

(281/360)

مِنَ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ الْعَصْرِيِّ ، وَيَدْحَضُ شُبُهَاتِ الْمُعْتَزِلَةِ الْمُنْكِرِينَ لَهُ بِزَعْمِهِمْ أَنَّهُ مُحَالٌ عَقْلًا ، وَمَا هَذَا الْمُحَالُ إِلَّا نَظَرِيَّاتُ عُقُولِهِمُ الَّتِي تَقِيسُ عَالَمَ الْغَيْبِ عَلَى عَالَمِ الشَّهَادَةِ ، وَقَدْ ظَهَرَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ عُلُومِ الْمَادَّةِ مَا لَمْ يَكُنْ يَقْبَلُهُ عَقْلٌ مِنَ الْعُقُولِ الْمُقَيَّدَةِ بِتِلْكَ النَّظَرِيَّاتِ الْمُتَوَلِّدَةِ مِنَ الْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ وَالْكَلَامِ الْجَهْمِيِّ ، فَكَيْفَ يَكُونُ عَالَمُ الْغَيْبِ الْإِلَهِيِّ مُقَيَّدًا بِهَا ؟ !

وَثَمَّ وَرَاءَ الْعَقْلِ عِلْمٌ يَدُقُّ عَنْ مَدَارِكِ غَايَاتِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ

(282/360)

(وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ) رَهِقَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ (كَتَعِبَ) أَدْرَكَهُ وَرَهِقَهُ الشَّيْءُ كَالدَّيْنِ وَالذُّلُّ غَشِيَهُ ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ حَتَّى غَطَّاهُ وَحَجَبَهُ : (وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا) (18 : 73) لَا تُكَلِّفْنِي مَا يَعْسُرُ عَلَيَّ ، وَالْقَتَرُ : الدُّخَانُ السَّاطِعُ مِنَ الشِّوَاءِ وَالْحَطَبِ وَكُلُّ غَبَرَةٍ فِيهَا سَوَادٌ أَيْ لَا يَغْشَى وُجُوهَهُمْ فِي الْآخِرَةِ شَيْءٌ مِمَّا يَغْشَى وُجُوهَ الْكَفَرَةِ الْفَجَرَةِ مِنَ الْكُسُوفِ وَالظُّلْمَةِ وَالذِّلَّةِ ، كَمَا يَأْتِي قَرِيبًا فِي الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أُولَئِكَ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذُكِرَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ دَارِ السَّلَامِ وَالْإِكْرَامِ ، خَالِدُونَ مُقِيمُونَ فِيهَا لَا يَبْرَحُونَهَا وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا

جَزَاءً وِفَاقًا ، لَا يُزَادُونَ عَلَى مَا يَسْتَحِقُّونَ بِسَيِّئَاتِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ شَيْئًا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ أَيْ تَغْشَاهُمْ ذِلَّةُ الْفَضِيحَةِ وَكُسُوفُ الْخِزْيِ بِمَا يُظْهِرُهُ حِسَابُهُمْ مِنْ شِرْكٍ وَظُلْمٍ وَزُورٍ وَفُجُورٍ (مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ) مَا لَهُمْ مِنْ أَحَدٍ وَلَا مِنْ شَيْءٍ يَعْصِمُهُمْ وَيَمْنَعُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، كَالَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشُّرَكَاءِ ، وَزَعَمُوهُمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالشُّفَعَاءِ . وَانْتَحَلُوهُمْ مِنَ الْوَسَائِلِ وَالْوُسَطَاءِ ؛ لِأَنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي تَنْقَطِعُ فِيهِ الْأَسْبَابُ الَّتِي مَضَتْ بِهَا سُنَنُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا ، فَأَنَّى تُفِيدُ فِيهِ الْمَزَاعِمُ الشِّرْكِيَّةُ الْوَهْمِيَّةُ : (يَوْمَ لَا

(283/360)

تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) (82 : 19)

أَوْ مَا لَهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَنْ فَضْلِهِ مِنْ عَاصِمٍ يَحْفَظُهُمْ مِنْ عَذَابِهِ كَعَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، كَالشُّفَعَاءِ الَّذِينَ يَشْفَعُونَ بِإِذْنِهِ لِمَنِ ارْتَضَى مِنْ عِبَادِهِ إِظْهَارًا لِكَرَامَتِهِمْ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الشَّفَاعَةَ الْخَاصَّةَ لَا نَصِيبَ فِيهَا لِمُنْتَحِلِي الشَّفَاعَةِ الشِّرْكِيَّةِ ، الَّذِينَ كَانُوا يَزْعُمُونَ فِي الدُّنْيَا أَنَّ لِشُفَعَائِهِمْ تَأْثِيرًا فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ وَأَفْعَالِهِ ، حَتَّى يَحْمِلُوهُ عَلَى فِعْلِ مَا لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُهُ لَوْلَا شَفَاعَتُهُمْ ، فَيَجْعَلُونَ ذَاتَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ مَعْلُولَةً تَابِعَةً لِمَا يَطْلُبُونَهُ مِنْهُ ، وَأَمَّا

(284/360)

شَفَاعَةُ الْإِيمَانِ الصَّحِيحَةُ فَهِيَ تَابِعَةٌ لِمَشِيئَتِهِ وَلِمَرْضَاتِهِ (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) (21 : 28) (كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا) أَيْ كَأَنَّمَا قُدَّ لِوُجُوهِهِمْ قِطَعٌ مِنْ أَدِيمِ اللَّيْلِ ، حَالَةَ كَوْنِهِ حَالِكًا مُظْلِمًا ، لَيْسَ فِيهِ بَصِيصٌ مِنْ نُورِ قَمَرٍ طَالِعٍ ، وَلَا نَجْمٍ ثَاقِبٍ ، فَأُغْشِيَتْهَا قِطْعَةً بَعْدَ قِطْعَةٍ ، فَصَارَتْ ظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، وَإِنَّهُ لَتَشْبِيهٌ عَظِيمٌ فِي بَلَاغَةِ الْمُبَالَغَةِ فِي خِذْلَانِهِمْ وَفَضِيحَتِهِمُ الَّتِي تَكْسِفُ نُورَ الْفِطْرَةِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ سَوَادَ وُجُوهِهِمْ حَقِيقِيٌّ وَمَجَازِيٌّ (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أَيْ أُولَئِكَ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذَكَرَهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ، خَالِدُونَ فِيهَا لَا يَبْرَحُونَهَا لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ مَأْوًى سِوَاهَا كَمَا تَقَدَّمَ فِي آيَةٍ أُخْرَى . وَقَدْ يَدْخُلُهَا بَعْضُ عُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ فَيُعَاقَبُونَ عَلَى مَا اجْتَرَحُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنْهَا .

(285/360)

هَذَا الْوَصْفُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ لَهُ نَظِيرٌ فِي آخِرِ سُورَةِ الْأَعْمَى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) (8 : 38 - 42) وَفِي سُورَةِ الْقِيَامَةِ : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ

تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ) (75 : 22 – 25) وَهَذِهِ الْمُقَابَلَةُ فِي سُورَةِ الْقِيَامَةِ تُرَجِّحُ أَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى الْحُسْنَى فِي آيَةِ يُونُسَ هِيَ مَرْتَبَةُ النَّظَرِ إِلَى الرَّبِّ ، فَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا وَأَوْلَادَنَا وَأَهْلَ بَيْتِنَا وَإِخْوَانَنَا الصَّادِقِينَ مِنْ أَهْلِهَا .

(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) .

هَذَا لَوْنٌ آخَرُ مِنْ أَلْوَانِ الْبَيَانِ لِعَقِيدَةِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا حِكْمَةَ هَذَا التَّكْرَارِ الْمُخْتَلِفِ الْأَسَالِيبِ وَالْأَلْوَانِ وَأَمْثَالِهِ فِي الْكَلَامِ عَلَى أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ وَإِعْجَازِهِ .

(286/360)

(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا) أَيْ وَاذْكُرْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِفَرِيقَيِ النَّاسِ الَّذِينَ ضَرَبْنَا لَهُمْ مَا سَبَقَ مِنَ الْأَمْثَالِ ، وَبَيَّنَّا مَا يَعْمَلُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ ، يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ لَا يَتَخَلَّفُ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، أَوِ الظَّرْفُ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ : (هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ) وَفِي بَعْضِ الْآيَاتِ : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ) (25 : 17) (ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ

أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ) أَيْ ثُمَّ نَقُولُ لِلْمُشْرِكِينَ مِنْهُمْ بَعْدَ وُقُوفٍ طَوِيلٍ لَا يُخَاطَبُ فِيهِ أَحَدٌ بِشَيْءٍ كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ بَعْضُ الْآيَاتِ : الْزَمُوا مَكَانَكُمْ لَا تَبْرَحُوهُ حَتَّى تَنْظُرُوا مَا يُفْعَلُ بِكُمْ : وَأَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ أَيِ الْزَمُوهُ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ، أَيِ الَّذِينَ جَعَلْتُمُوهُمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ ؛ لِنَفْصِلَ بَيْنَكُمْ فِيمَا كَانَ مَنْ سَبَبِ عِبَادَتِكُمْ لَهُمْ وَمَا يَقُولُ كُلٌّ مِنْكُمْ فِيهَا فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ أَيْ فَرَّقْنَا بَيْنَ الشُّرَكَاءِ وَمَنْ أَشْرَكُوهُمْ مَعَ اللهِ ، وَمَيَّزْنَا بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ كَمَا يُمَيَّزُ بَيْنَ الْخُصُومِ عِنْدَ الْحِسَابِ ، وَالتَّزْيِيلُ مِنْ زَالَهُ يَزَالُهُ كَنَالَهُ يَنَالُهُ بِمَعْنَى نَحَّاهُ (وَهُوَ يَأْتِي) وَزَايَلْتُهُ فَارَقْتُهُ وَتَزَيَّلُوا تَمَيَّزُوا بِافْتِرَاقِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ فِي أَهْلِ مَكَّةَ وَاخْتِلَاطِ مُؤْمِنِيهِمْ بِكُفَّارِهِمْ قَبْلَ الْفَتْحِ : (لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (48 : 25) أَوِ الْمُرَادُ مِنَ التَّزْيِيلِ وَالتَّفْرِيقِ تَقْطِيعُ مَا

(287/360)

كَانَ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الصِّلَاتِ وَمَا لِلْمُشْرِكِينَ فِي الشُّرَكَاءِ مِنَ الْآمَالِ ، وَكُلٌّ مِنَ الْمَعْنَيَيْنِ صَحِيحٌ ، وَالْعِبَادَةُ الشِّرْكِيَّةُ أَنْوَاعٌ وَالْمَعْبُودَاتُ وَالْمَعْبُودُونَ أَنْوَاعٌ يَصِحُّ فِي بَعْضِهِمْ مَا لَا يَصِحُّ فِي الْآخَرِ ؛ وَلِذَلِكَ تَكَرَّرَ مَعْنَى حَشْرِ الْفَرِيقَيْنِ وَحِسَابِهِمْ فِي سُوَرٍ أُخْرَى ، بَعْضُهَا فِي عِبَادَةِ الْمَلَائِكَةِ وَعِبَادَةِ الْجِنِّ ، وَبَعْضُهَا فِي عِبَادَةِ الْبَشَرِ ، وَمَا اتُّخِذَ لَهُمْ مِنَ التَّمَاثِيلِ

وَالصُّوَرِ ، وَمِثْلُهَا الْقُبُورُ الْمُعَظَّمَةُ وَسَنُشِيرُ إِلَى شَوَاهِدِهِ : (وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ) أَيْ مَا كُنْتُمْ تَخُصُّونَنَا بِالْعِبَادَةِ ، وَإِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَهْوَاءَكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ وَشَيَاطِينَكُمُ الْمُغْوِيَةَ لَكُمْ ، وَتَتَّخِذُونَ أَسْمَاءَنَا وَتَمَاثِيلَنَا هَيَاكِلَ وَمَوَاسِمَ لِمَنَافِعِكُمْ وَمَصَالِحِكُمْ ، وَلَيْسَ هَذَا شَأْنَ الْعُبُودِيَّةِ الصَّادِقَةِ لِلْمَعْبُودِ الْحَقِّ ، الَّذِي يُطَاعُ وَيُعْبَدُ لِأَنَّهُ صَاحِبُ السُّلْطَانِ الْأَعْلَى عَلَى الْخَلْقِ ، وَبِيَدِهِ تَدْبِيرُ الْأَمْرِ ، وَمَصَادِرُ النَّفْعِ وَالضُّرِّ .

وَالْمُرَادُ : أَنَّهُمْ يَتَبَرَّءُونَ مِنْهُمْ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي آيَاتٍ أُخْرَى .

(فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) أَيْ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا وَحَكَمًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، فَهُوَ الْعَلِيمُ بِحَالِنَا وَحَالِكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ أَيْ إِنَّنَا كُنَّا فِي غَفْلَةٍ عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَا نَنْظُرُ إِلَيْهَا وَلَا نُفَكِّرُ فِيهَا ، وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْغَفْلَةِ عَنْهَا عَدَمُ الرِّضَا بِهَا .

(288/360)

(هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ) أَيْ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ وَهُوَ مَوْقِفُ الْحِسَابِ ، أَوْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَوِ الْيَوْمِ تَخْتَبِرُ كُلُّ نَفْسٍ مِنْ عَابِدَةٍ وَمَعْبُودَةٍ وَمُؤْمِنَةٍ وَجَاحِدَةٍ وَشَاكِرَةٍ وَكَافِرَةٍ ، مَا قَدَّمَتْ فِي حَيَاتِهَا الدُّنْيَا مِنْ عَمَلٍ ، وَمَا كَانَ لِكَسْبِهَا فِي صِفَاتِهَا مِنْ أَثَرٍ ، مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَنَفْعٍ وَضُرٍّ

بِمَا تَرَى مِنَ الْجَزَاءِ عَلَيْهِ ، وَكَوْنِهِ ثَمَرَةً طَبِيعِيَّةً لَهُ ، لَا شَأْنَ فِيهِ لِوَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ، وَلَا مَعْبُودٍ وَلَا شَرِيكٍ . وَهُنَالِكَ مَوَاقِفُ وَأَوْقَاتٌ أُخْرَى لَا سُؤَالَ فِيهَا وَلَا جِدَالَ ، تُغْنِي فِيهَا دَلَالَةُ الْحَالِ عَنِ الْمَقَالِ ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ (وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ) أَيْ أُرْجِعُوا إِلَى اللهِ الَّذِي هُوَ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ، دُونَ مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ بِالْبَاطِلِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالشُّفَعَاءِ ، وَالْأَنْدَادِ وَالشُّرَكَاءِ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَسْمَاءِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ كَقَوْلِهِ : (إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ) (5 : 48 و105 ، 11 : 4) ، (إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ) (6 : 164 ، 39 : 7) ، (إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ) (6 : 108) (وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ) (24 : 42 ، 35 : 18) (وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (5 : 18 ، 42 : 15 ، 64 : 3) (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أَيْ وَضَاعَ وَذَهَبَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَهُ عَلَيْهِ مِنَ الشُّفَعَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ فَلَمْ يَجِدُوا أَحَدًا يَنْصُرُهُمْ وَلَا يُنْقِذُهُمْ (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) (82 : 19) .

(289/360)

هَذِهِ الْآيَاتُ فِي مَوْقِفِ الْمُشْرِكِينَ مَعَ الشُّرَكَاءِ ، وَالْمَرْءُوسِينَ مَعَ الرُّؤَسَاءِ ، وَالْمُتَكَبِّرِينَ مَعَ الضُّعَفَاءِ وَالْمُضِلِّينَ مَعَ الضَّالِّينَ ، وَالْغَاوِينَ مَعَ الْمُغْوِينَ ، قَدْ تَكَرَّرَ بَيَانُهَا فِي سُوَرٍ أُخْرَى مُجْمَلًا مُبْهَمًا ، وَفِي بَعْضِهَا مُفَصَّلًا وَمُبَيَّنًا فَمِنْهَا مَا يَسْأَلُ اللهُ فِيهِ الْعَابِدِينَ ، وَمِنْهَا مَا يَسْأَلُ

فِيهِ الْمَعْبُودِينَ ، مِنْ غَيْرِ تَعْيِينٍ ، وَمِنْهَا مَا عَيَّنَ فِيهِ اسْمَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ ، وَفِي كُلٍّ مِنْهَا يَتَبَرَّأُ الْمُضِلُّونَ مِنَ الضَّالِّينَ ، فَتُرَاجَعُ فِيهَا سُورَةُ الْفُرْقَانِ 25 : 17 - 19 وَسُورَةُ الْأَنْعَامِ 6 : 22 - 24 وَسُورَةُ سَبَأٍ 34 : 40 - 42 وَسُورَةُ الْقَصَصِ 28 :62 - 64 وَمِنْهَا مَا يَتَنَاقَشُ فِيهَا الْفَرِيقَانِ فَرَاجِعْ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ 14 : 21 و22 وَسُورَةَ الصَّافَّاتِ 37 : 22 و23 فَبِمُرَاجَعَةِ هَذِهِ الْآيَاتِ كُلِّهَا وَمَا فِي مَعْنَاهَا كَآيَاتِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ 2 : 166 ، 167 وَمَعَ تَفْسِيرِنَا لِهَاتَيْنِ (ج2) يَتَبَيَّنُ لَكَ مَا يُفَسِّرُ بِهِ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَقَدْ بَيَّنَّا حِكْمَةَ هَذَا التَّكْرَارِ فِي مَوْضِعِهِ الَّذِي دَلَّلْنَا عَلَيْهِ آنِفًا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 387. 290 ﴾

(290/360)

وقال ابن عاشور :

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾

تذييل وفذلكة للجمل السابقة من قوله : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ [يونس : 25] إلى هنا .

وهو اعتراض بين الجمل المتعاطفة .

والإشارة إلى المكان الذي أنبأ عنه قوله : ﴿ نَحْشرهم ﴾ [يونس : 28] أي في ذلك المكان الذي نحشرهم فيه .

واسم الإشارة في محل نصب على الظرفية .

وعامله ﴿ تبلو ﴾ ، وقدم هذا الظرف للاهتمام به لأن الغرض الأهم من الكلام لعظم ما يقع فيه .

و ﴿ تبلو ﴾ تختبر ، وهو هنا كناية عن التحقق وعلم اليقين .

و ﴿ أسلفت ﴾ قدّمتْ ، أي عملاً أسلفته .

والمعنى أنها تختبر حالته وثمرته فتعرف ما هو حسن ونافع وما هو قبيح وضار إذ قد وضح لهم ما يفضي إلى النعيم بصاحبه ، وضدُه .

وقرأ الجمهور ﴿ تبلو ﴾ بموحدة بعد المثناة الفوقية .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف بمثناة فوقية بعد المثناة الأولى على أنه من التلو وهو المتابعة ، أي تتبع كل نفس ما قدمته من عمل فيسوقها إلى الجنة أو إلى النار .

يجوز أن تكون معطوفة على جملة : ﴿ هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ﴾ فتكون من تمام التذييل ، ويكون ضمير (ردوا) عائداً إلى (كل نفس) .

ويجوز أن تكون معطوفة على قوله و ﴿ يوم نحشرهم جميعاً ﴾ [يونس : 28] الآية فلا تتصل بالتذييل ، أي ونردهم إلينا ، ويكون ضمير (ردوا) عائداً إلى الذين أشركوا

خاصة .

والمعنى تحقق عندهم الحشر الذي كانوا ينكرونه .

ويناسب هذا المعنى قوله : ﴿ مولاهم الحق ﴾ فإن فيه إشعاراً بالتورك عليهم بإبطال مواليهم الباطلة .

والرد : الإرجاع .

والإرجاع إلى الله الإرجاع إلى تصرفه بالجزاء على ما يرضيه وما لا يرضيه وقد كانوا من قبل حين كانوا في الحياة الدنيا ممهلين غير مجازين .

والمولى : السيد ، لأن بينه وبين عبده ولاء عهد الملك .

ويطلق على متولي أمور غيره وموفر شؤونه .

والحقّ : الموافق للواقع والصدق ، أي ردوا إلى الاله الحق دون الباطل .

(291/360)

والوصف بالحق هو وصف المصدر في معنى الحاق ، أي الحاق المولوية ، أي دون الأولياء الذين زعموهم باطلاً .

﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾

هذه الجملة مختصه بالمشركين كما هو واضح .

والضلال : الضياع .

و ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ ما كانوا يكذبون من نسبتهم الإلهية إلى الأصنام ، فيجوز أن يكون ماصْدق (ما) الموصولة الأصنام ، فيكون قد حذف العائد مع حرف الجر بدون أن يجر الموصول بمثل ما جر به العائد والحق جوازه ، فالتقدير : ما كانوا يكذبون عليه أو له .

وضلاله : عدم وجوده على الوصف المزعوم له .

ويجوز أن يكون ماصدق (ما) نفس الافتراء ، أي الافتراء الذي كانوا يفترونه .

وضلاله : ظهور نَفْيِه وكذبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(292/360)

وقال الشيخ الشعراوى :

وقول الحق سبحانه : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ يعني : في هذا الوقت ، أو في هذا المكان . والزمان والمكان هما ظَرْفَا الحدث ؛ لأن كل فعل يلزم له زمان ومكان ، فإن كان الزمان هو الغالب ، فيأتي ظرف الزمان ، وإذا كان المكان هو الغالب فيأتي ظرف المكان .

وجاءت ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أيضاً في قصة سيدنا زكريا عليه السلام ، إذ يقول الحق سبحانه :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ [آل عمران : 38] .

أي : في ذلك الوقت الذي قالت فيه مريم رضي الله عنها قولةً أدَّت بها قضية اعتقادية إيمانية لكفيلها ، وهو سيدنا زكريا عليه السلام وهو الذي يأتي لها بالطعام ، وشاء لها الحق سبحانه وتعالى أن تعلّمه هي . يقول سبحانه : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً ﴾ [آل عمران : 37] .

والرزق ما به انتفع ، وكان زكريا عليه السلام يكفلها بكل شيء تحتاجه ، لكنه فوجىء بوجود رزق لم يَأت هو به ؛ بدليل أنه قال : ﴿ أنى لَكِ هذا ﴾ [آل عمران : 37] .

وهذه ملحظية ويقظة الكفيل حين يجد مكفوله يتمتع بما لم يأتِ به . وهذه هي قضية « من أين لك هذا » ؟ ، وهي قضية الكفيل العام للمجتمع حين يرى واحداً يتمتع بما لا تؤهله له حركته في الحياة ، وبذلك يُكشف مختلس الانتفاع بما يخص الغير دون أن يَعرف كافله ، ولو أن كافله أصرَّ على معرفة من أين تأتي مصادر دخله ؛ لَحَمى المجتمع من الفساد .

وانظر إلى جواب مريم عليها السلام على قول زكريا عليه السلام الذي ذكره رب العزة سبحانه : ﴿ أنى لَكِ هذا ﴾ [آل عمران : 37] .

قالت مريم : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ الله ﴾ [آل عمران : 37] .

ثم تعلَّل الجواب : ﴿ إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37] .

قالت ذلك ، لأنه وجد عندها أشياء لا توجد في مثل هذا الوقت من السنة ، فعجَبُ سيدنا زكريا عليه السلام إذن كان من أمرين اثنين : شيء لم يأت هو به ، وشيء مخالف للفترة التي هو فيها ، كأنْ وجد عندها عنباً في زمن غير أوانه ، أو وجد برتقالاً في غير أوانه ، وسؤاله كان دليل يقظة الكفيل ، وإجابتها كانت قضية إيمانية عقدية ﴿ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37] .

وما دام ﴿ مِنْ عِندِ اللهِ ﴾ سبحانه وتعالى ما طرح حسابك أنت للأشياء في ضوء هذه القضية .

ولكن هل غفل سيدنا زكريا عليه السلام عن قضية الإيمان بأن الله تعالى يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ؟

فنقول : لا ، لم يغفل عنها ، ولكنها لم تكن في بؤرة شعوره حينئذ ؛ فجاءت بها قولة السيدة مريم لتذكر بهذه القضية ، وهنا تذكَّر زكريا نفسه ، كرجل بلغ من الكبر عتياً ، وامرأته عاقر ، وما دام الله سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب ، فليس من الضروري أن يكون شاباً أو تكون زوجته صغيرة لينجب ، فجاء الحق معبراً عن خاطر زكريا في قوله :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ [آل عمران : 38] .

أي : في هذا الوقت أو ذلك المكان ، أو في الاثنين معاً زماناً ومكاناً ، وهنا جاءته الإجابة من ربه سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم : 9] .

وقد جاء الحق سبحانه بهذه القضية ليمنع أيَّ ظانٍّ من أن يسيء الظن بعفة مريم عليها السلام ؛ لأنها في موقف اللجوء فأنطقها الحق بقوله : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37] .

وما دام الرزق بغير حساب وفي غير وقته وغير مكانه وبلا سبب وبغير علم كافلها ، فعند ذلك تحقق اللجوء إلى الله بالقبول الحسن الذي دعت به امرأة عمران :

﴿ وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشيطان الرجيم * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران : 3637] .

ويطبقها زكريا عليه السلام على نفسه ، ثم تتعرض هي لها ، حين يبشِّرها الحق سبحانه بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام .

فهي ستلد من غير أن يمسسها ذكر ، وهي تعلم أن الأسباب جارية في أنه لا يوجد تناسل إلا بوجود ذكر وأنثى ، وشاء الحق سبحانه أن يقدِّر لها أن تلد دون هذه العملية ، فجاء

سبحانه بتلك المقدمة على لسانها ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37] .

وحين تساءلت : ﴿ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [آل عمران : 47] .

جاءتها الإجابة بأن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسمه المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران : 45] .

(295/360)

فبيقظتها الإيمانية فطنت إلى أن هذا الطفل سينسب إلى أمه ؛ فعرفت أن أباه ملغي ؛ وأدركت أن هذا الولد لن يأتي نتيجة زواج ولو فيما بعد ، وبذلك كان عليها أن تعود إلى القضية الإيمانية التي ذكرتها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37] .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ [يونس : 30]

أي : في ذلك الوقت تُختبر كل نفس ، وترى هل الجزاء طيب أم لا ؟ فإن كانت قد عملت الشر ؛ فستجد الجزاء شَرّاً .

إذن : فالإنسان وقت النتائج يختبر نفسه بما كان منه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وردوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحق ﴾ [يونس : 30]

وكأنهم كانوا في الدنيا عند مولىً آخر غير الإله الحقّ سبحانه ، والمولى غير الحق هو الشريك أو الشركاء الذين اتخذهم بعض الناس مَوالِيَ لهم ، وهنا في اليوم الآخر يُردُّون إلى الإله الحق والمولى الحق سبحانه .

وكلمة « رُدُّوا إلى كذا » لا تدل على أنهم كانوا مع الضِّدِّ ، وجاءوا له ، بل تدل على أنهم كانوا معه أولاً ، ثم ذهبوا إلى الضِّدِّ ، ثم رُدُّوا إليه ثانياً ، مثل قول الحق سبحانه عن موسى عليه السلام :

(296/360)

﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلى أُمِّهِ ﴾ [القصص : 13] .

فدلَّت على أنه كان مع أمه ، ثم فارقها ، ثم رُدَّ إليها .

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿ وردوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحق ﴾ [يونس : 30]

أي : أنهم كانوا مع الله أولاً ، ثم أخذهم الشركاء ، وفي هذا اليوم الآخر يرجعون لربهم سبحانه .

والإنسان يكون مع ربّه أولاً بالفطرة التكوينية المؤمنة ، ثم يتجه به أبواه إلى المجوسية أو أيّ ديانة أخرى تحمل الشرك بالله تعالى ، وهم في ظل تلك الديانات المشركة ، كانوا عند مولىً وسيّدٍ وآمرٍ ومشرّعٍ ، لكنه مَوْلىً غير حق ؛ لأن الحق هو الثابت الذي لا تدركه الأغيار .

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ [يونس : 30] .

أي : عرفت كل نفس ما فعلت ، ويُعرف كل إنسان بفضيحته في جزئيات ذاته ، وكذلك الفضيحة العامة لكل إنسان أشرك بالله سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 30] .

أي : أن الآلهة التي عبدوها لا تتعرف إلى أمكنتهم ومواقعهم ، وأنهم في خطر ؛ فتأخذ بأيديهم ؛ لأن هذه الآلهة لا علم لها بهم ، ولو أن هذه الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله سبحانه على شيء من الحق ؛ ووجودوهم في مأزق ؛ لكان يجب أن يدافعوا عنهم ، لكنهم لم يعرفوا أماكنهم ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 30] .

أي : ما كنوا يكذبونه كذباً متعمداً .

وبعد أن كشف سبحانه المسألة وما سوف يحدث في الآخرة ، وخوّفهم وبشّع لهم ما سوف ينتظرهم من مصير إنْ ظلوا على الكفر ؛ لعلّهم يرتدعون ، ويتذكرون ضرورة العودة إلى عبادة الإله الحق سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (28) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (29) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ويوم نحشرهم ﴾ قال : الحشر الموت .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ قال : فرقنا بينهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه قال : يأتي على الناس يوم القيامة ساعة فيها لين ، يرى أهل الشرك أهل التوحيد يغفر لهم فيقولون ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : 23] قال الله ﴿ أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ [الأنعام : 24] ثم يكون من بعد ذلك ساعة فيها شدة ، تنصب لهم الآلهة التي كانوا يعبدون من دون الله فيقول : هؤلاء الذين كنتم تعبدون من دون الله ؟ فيقولون : نعم ، هؤلاء الذين كنا نعبد . فتقول لهم الآلهة : والله ما

كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ولا نعلم أنكم كنتم تعبدوننا . فيقولون : بلى ، والله لإِياكم كنا نعبد . فتقول لهم الآلهة ﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يمثل لهم يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله فيتبعونهم حتى يوردوهم النار ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت ﴾ " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود رضي الله عنه . أنه كان يقرأ " هنالك تتلو " بالتاء قال : هنالك تتبع .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه " هنالك تتلو " يقال : تتبع .

(298/360)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ هنالك تبلوا ﴾ يقول : تختبر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه ﴿ هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت ﴾ قال : عملت .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه ﴿ هناك تبلوا ﴾ قال : تعاين ﴿ كل نفس ما أسلفت ﴾ قال : عملت ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ قال : ما كانوا يدعون معه من الأنداد .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ قال : نسختها قوله ﴿ مولى الذين آمنوا وإن الكافرين لا مولى لهم ﴾ [محمد : 11] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(299/360)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ ﴾

في " هنالك " وجهان ، الظاهرُ بقاؤه على أصلِه مِنْ دلالته على ظرف المكان ، أي : في ذلك الموقفِ الدَّحْض والمكان الدَّهِش . وقيل : هو هنا ظرف زمان على سبيل الاستعارة ، ومثله ﴿ هُنَالِكَ ابتلي المؤمنون ﴾ [الأحزاب : 11] ، أي : في ذلك الوقت وكقوله :

2593 وإذا الأمورُ تعاظَمَتْ وتشاكَلَتْ . . . فهناكَ يَعْترفون أينَ المَفْزَعُ

وإذا أمكنَ بقاءُ الشيءِ على موضوعِه فهو أولى .

وقرأ الأخَوان " تَتْلو " بتاءَيْن منقوطتين من فوق ، أي : تطلُب وتتبَع ما أسلفَتْه مِنْ أعمالها ، ومن هذا قوله :

2594 إنَّ المُريبَ يَتْبَع المُريبا . . . كما رأيت الذِّيبَ يتلو الذِّيبا

أي : يَتْبَعه ويَتَطَلَّبه . ويجوز أن يكونَ من التلاوة المتعارفة ، أي : تقرأ كلُّ نفسٍ ما عَمِلَتْه مُسَطَّراً في صحف الحفظة لقوله تعالى : ﴿ ياويلتنا مَالِ هذا الكتاب لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : 49] ، وقوله : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقرأ كتابك ﴾ [الإسراء : 13] .

وقرأ الباقون : " تَبْلو " مِن البَلاء وهو الاختبار ، أي : يَعْرف عملَها : أخيرٌ هو أم شر . وقرأ عاصم في روايةٍ " نبلو " بالنون والباءِ الموحدة ، أي : نختبر نحن . و " كل " منصوب على المفعول به . وقوله : " وما أَسْلَفَتْ " على هذه القراءةِ يحتمل أن يكونَ في محلِّ نصبٍ على إسقاطِ الخافض ، أي : بما أَسْلَفَتْ ، فلمَّا سقط الخافض انتصبَ مجرورُه كقوله :

2595 تمرُّون الديار ولم تعوجوا . . . كلامُكمُ عليَّ إذنْ حَرامُ

ويحتمل أن يكونَ منصوباً على البدل من " كل نفس " ويكون من بدلِ الاشتمال . ويجوز أن يكون " نَبْلو " من البلاء وهو العذاب ، أي : نُعَذِّبها بسبب ما أَسْلَفَتْ .

و " ما " يجوز أن تكونَ موصولةً اسميةً أو حرفيةً أو نكرةً موصوفة ، والعائدُ محذوفٌ على التقدير / الأول والآخِر دون الثاني على المشهور .

وقرأ ابن وثاب " وردُّوا " بكسر الراء تشبيهاً للعين المضعفة بالمعتلَّة ، نحو : " قيل " و " بيع " ، ومثله :

2596 وما حِلَّ مِنْ جَهْلٍ حُبا حُلَمائِنا . . . . . .

. . . . . .

بكسر الحاء ، وقد تقدَّم بيانُ ذلك بأوضحَ من هذا .

وقوله : ﴿ إِلَى اللهِ ﴾ لا بدَّ من مضاف ، أي : إلى جزاء الله ، أو موقفِ جزائه .

والجمهور على " الحق " جَرّاً . وقرىء منصوباً على أحد وجهين : إمَّا القطعِ ، وأصلُه أنه تابعٌ فقُطع بإضمارِ " أمدح " كقولهم : الحمدُ للَّهِ أهلِ الحمد " ، وإمَّا أنه مصدر مؤكد لمضمونِ الجملةِ المتقدمةِ وهو ﴿ وردوا إِلَى اللهِ ﴾ وإليه نحا الزمخشري ، قال : " كقولك : " هذا عبد الله الحق لا الباطل " على التأكيد لقوله ﴿ وردوا إِلَى اللهِ ﴾ . وقال مكي : " ويجوز نصبه على المصدر ولم يُقْرأ به " ، قلت : كأنه لم يَطَّلِعْ على هذه القراءة .

وقوله : ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ " ما " تحتمل الأوجه الثلاثة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 192 . 195 ﴾

(301/360)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (30) ﴾

إنما يقفون على خسرانهم إذا ذاقوا طَعْمَ هوانِهم ؛ فإذا رُدُّوا إلى الله لم يجدوا إلا البعدَ عن الله ، والطرْدَ من قِبَل الله ، وذلك جزاءُ مَنْ آثَرَ على اللَّهِ غيرَ الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 93 ﴾

(302/360)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (21) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (30) ﴾

التفسير : لما بين في الآية المتقدمة أنهم يطلبون الآيات الزائدة عناداً ومكراً ولجاجاً أكد ذلك بقوله : ﴿ وإذا أذقنا ﴾ روي أنه سبحانه سلط القحط على أهل مكة سبع سنين ثم رحمهم وأنزل الأمطار النافعة ، ثم إنهم أضافوا تلك المنافع إلى الأصنام – وقيل نسبوها إلى الأنواء – فقابلوا نعم الله بالكفران فذلك مكرهم وهو احتيالهم في دفع آيات الله بكل ما يقدرون عليه من إلقاء شبهة أو تخليط في المناظرة . وفي تخصيص الإذاقة بجانب الرحمة دليل على أن الكثير من الرحمة قليل بالنسبة إلى رحمته الواسعة . وفيه أن الإنسان لغاية ضعفه الفطري لا يطيق أدنى الرحمة كما أنه لا يطيق أدنى الألم الذي يمسه . قال في الكشاف : معنى مستهم خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم . وهذا أيضاً من جملة الضعف لأنه نسي ما عهده من الضر الشديد . و " إذا " الثانية للمفاجأة وقع مقام الفاء في جواب

الشرط كما في قوله : ﴿ إذا هم يسخطون ﴾ [التوبة : 58] وفائدته أن يعلم أنهم فاجأوا وقوع المكر منهم في وقت الإذاقة وسارعوا إليه ولم يلبثوا قدر ما ينفضون عن رؤوسهم غبار الضر ولهذا قال سبحانه ﴿ قل الله أسرع مكراً ﴾ يقدر على إيصال جزاء مكرهم إليهم قبل أن يرتد إليهم طرفهم ولكنه يمهلهم لأجل معلوم ليتضاعف خبثهم مع كونه محفوظاً بيانه قوله ﴿ إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ وقد مر تحقيق هذا في تفسير قوله :

(303/360)

﴿ ويرسل عليكم حفظة ﴾ [الأنعام : 62] . واعلم أن مضمون هذه الآية قريب من مضمون قوله : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر ﴾ [يونس : 12] إلا أن هذه زائدة عليها بدقيقة هي أنهم بعد الإعراض عن الدعاء يطلبون الغوائل ويقابلون الرحمة بالمكر والخديعة ولا يرضون رأساً برأس . ثم ضرب لأجل ما وصفهم به مثالاً حتى ينكشف المقصود تمام الانكشاف فقال : ﴿ هو الذي يسيركم ﴾ ومن قرأ ﴿ ينشركم ﴾ فكقوله : ﴿ فانتشروا في الأرض ﴾ [الجمعة : 10] قال بعض العلماء : المسير في البحر هو الله سبحانه وتعالى ، وأما في البر فالمراد من التسيير التمكين والإقدار . والحق أن جميع الأفعال

والحركات مستندة إلى إحداث الله تعالى ، غاية ذلك أن آثار إقداره وإحداثه في البحر أظهر كما مر في تفسير قوله : ﴿ والفلك التي تجري في البحر ﴾ [البقرة : 164] قال القفال : هو الله الهادي لكم إلى السير في البحر طلباً للمعاش ، وهو المسير لكم لأجل أنه هيأ لكم أسباب ذلك السير . وحتى لانتهاء الغاية والغاية مضمون الجملة الشرطية بكمالها ، فالقيود المعتبرة في الشرط ثلاثة : أولها الكون في الفلك ، وثانيها جري الفلك بهم بالريح الطيبة ، والضمير في ﴿ جرين ﴾ للفلك على أنها جمع كما مر . وثالثها فرحهم بها . والقيود المعتبرة في الجزاء ثلاثة أيضاً : أوّلها ﴿ جاءتها ﴾ أي الفلك أو الريح الطيبة تلتها ريح عاصف ذات عصوف كلابن لذات اللبن ، أو لأن لفظ الريح مذكر والعصوف شدة هبوب الريح . وثانيها ﴿ وجاءهم الموج من كل مكان ﴾ أي من جميع جوانب أحياز الفلك ، والموج ما ارتفع من الماء فوق البحر . وثالثها ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ أي غلب على ظنونهم الهلاك . وأصله أن العدوّ إذا أحاط بقوم أو بلد فقد دنوا من البوار ، فجعل إحاطة العدوّ بالشخص مثلاً في الهلاك . وقرىء ﴿ في الفلكي ﴾ والياء زائدة كما في " الأحمري " أو أريد به الماء الغمر الذي لا تجري الفلك إلا فيه . قال في الكشاف : وإنما التفت في

قوله : ﴿ وجرين بهم ﴾ إلى آخره من الخطاب الى الغيبة للمبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح . وقال الإمام فخر الدين الرازي : الانتقال من مقام الخطاب إلى مقام الغيبة في هذه الآية دليل المقت والتبعيد كما أن عكس ذلك في قوله : ﴿ إياك نعبد ﴾ [الفاتحة : 5] دليل الرضا والتقريب . قلت : هذا وجه حسن . أما قوله : ﴿ دعوا الله مخلصين ﴾ فقد قال ابن عباس : تركوا الشرك ولم يشركوا به من آلهتهم شيئاً ، وأقروا لله بالربوبية والوحدانية . وقال الحسن : ليس هذا إخلاص الإيمان لكن لأجل العلم بأنه لا ينجيهم من ذلك إلا الله فيكون ذلك جارياً مجرى الإيمان الاضطراري .

(305/360)

وقال ابن زيد : هؤلاء المشركون يدعون مع الله ما يدعون ، فإذا جاء الضر والألم لم يدعوا إلا الله . وعن أبي عبيدة : أن المراد من ذلك الدعاء قولهم : " أهيا شراهياً " تفسيره " يا حي يا قيوم " يحكى أن رجلاً قال لجعفر الصادق رضي الله عنه : ما الدليل على إثبات الصانع ؟ فقال : أخبرني عن حرفتك . فقال : التجارة في البحر قال : صف لي كيف

حالك ؟ فقال : ركبت البحر فانكسرت السفينة وبقيت على لوح من ألواحها وجاءت الرياح العاصفة . قال جعفر الصادق رضي الله عنه : هل وجدت في قلبك تضرعاً ؟ فقال : نعم . قال جعفر : فإلهك هو الذي تضرعت إليه في ذلك الوقت . ﴿ لئن أنجيتنا من هذه الشدة كما مر في الأنعام ﴾ يبغون في الأرض بغير الحق ﴾ البغي قصد الاستعلاء بالظلم من قولك بغى الجرح إذا ترامى إلى الفساد ، وأصله الطلب فلهذا أكد المعنى بقوله : ﴿ بغير الحق ﴾ قال في الكشاف : إنما زاد هذا القيد احترازاً من استيلاء المسلمين على أرض الكفرة بهدم دورهم وإحراق زروعهم كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني قريظة . قلت : ويحتمل أن يراد بغير شبهة حق عندهم كقوله ﴿ ويقتلون النبيين بغير الحق ﴾ [البقرة : 61] من قرأ متاع بالنصب فما قبله جملة تامة أي إنما بغيكم وبال على أنفسكم وهو مصدر مؤكد كأنه قيل : يتمتعون متاع الحياة الدنيا . ومن قرأ بالرفع فإما على أن التقدير هو متاع الدنيا بعد تمام الكلام ، أو على أنه خبر وقوله : ﴿ على أنفسكم ﴾ صلة أي إنما بغيكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم يعني بغى بعضكم على بعض منفعة الحياة الدنيا ولا بقاء لها والبغي من منكرات المعاصي قال صلى الله عليه وسلم : " أسرع الخير ثواباً صلة الرحم وأعجل الشر عقاباً البغي واليمين الفاجرة " وروي " اثنتان يعجلهما الله في الدنيا : البغي وعقوق الوالدين " وعن محمد بن كعب : ثلاث من كن فيه كن عليه : البغي والنكث والمكر . قال تعالى : ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ أي لا يتهيأ

(306/360)

لكم بغي بعضكم على بعض إلا أياماً قلائل وهي مدة حياتكم مع قصرها وسرعة انقضائها ﴿ ثم ﴾ إلى ما وعدنا من المجازاة ﴿ مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ وهو في هذا الموضع وعيد بالعقاب كقول الرجل في معرض التهديد سأخبرك بما فعلت . ثم ذكر مثلاً لمن يبغي في الأرض ويغتر بالدنيا ويشتد تمسكه بها فقال : ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا ﴾ أي صفتها العجيبة الشأن ﴿ كماء أنزلناه من السماء فاختلط به ﴾ أي اشتبك بسبب هذا الماء ﴿ نبات الأرض ﴾ فيحتمل أن يراد أن نباته ثم وصوله إلى حد الكمال كليهما بسبب المطر ، ويحتمل أن يراد أن النبات كان في أول بروزه ومبدإ حدوثه غير مهتز ولا مترعرع ، فإذا نزل المطر عليه اهتز وربا حتى اختلط بعض الأنواع ببعض وتكاثف .

(307/360)

﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ﴾ قال الجوهري : الزخرف الذهب ثم يشبه به كل مموه مزوّر . ﴿ وازينت ﴾ أصله تزينت فأدغم واجتلبت لذلك همزة الوصل . وهذا كلام

في نهاية الفصاحة وفيه تشبيه الأرض بالعروس التي تأخذ الثياب الفاخرة من كل لون فتلبسها ، ثم تزين بجميع الأقسام المعهودة لها من حمرة وبياض ونحوها ﴿ وظن أهلها ﴾ أي غلب على ظنونهم أو تيقنوا ﴿ أنهم قادرون عليها ﴾ متمكنون من تحصيل ريعها . ﴿ أتاها أمرنا ﴾ بإهلاكها واستئصالها وضربها ببعض العاهات . ﴿ ليلاً أو نهاراً ﴾ أي حين غفلتهم بالنوم أو حين اشتغالهم وتقلبهم في طلب معايشهم ﴿ فجعلناها ﴾ أي زرعها ﴿ حصيداً ﴾ شبيهاً بما يحصد من الزرع في قطعه واستئصاله . ﴿ كأن لم تغن ﴾ أي كأن الشأن لم يلبث زرعها ﴿ بالأمس ﴾ أي في زمان قريب . يقال : غنى بالمكان بالكسر يغنى بالفتح إذا أقام به . والأمس مثل في الوقت القريب . هذا والصحيح عند علماء البيان أن هذا التشبيه من التشبيه المركب . قال في الكشاف : شبهت حال الدنيا في شرعة تقضيها وانقراض نعيمها بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعدما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه . وقيل : المراد أن عاقبة هذه الحياة التي ينفقها المرء في باب الدنيا كعاقبة هذا النبات الذي حين عظم الرجاء به وقع اليأس منه ، لأن الغالب أن المتمسك بالدنيا إذا اطمأن بها وعظمت رغبته فيها وانتظم أمره بعض الانتظام أتاه الموت . وتلخيصه أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة تحمد فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل له عاقبة تحمد . ويحتمل أن يكون هذا مثلاً لمن لا يؤمن بالمعاد ، فإن الأرض المزينة إذا زال حسنها فإنه يعود رونقها مرة أخرى فكذا النشور ﴿ كذلك نفصل الآيات ﴾ نذكر

واحدة منها بعد الأخرى لتكون كثرتها وتواليها سبباً لقوة اليقين وموجباً لزوال الشك ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ في أحوال الآفاق والأنفس . ثم لما نفر المكلفين عن الميل إلى الدنيا بالمثل السابق رغبهم في

(308/360)

الآخرة بقوله : ﴿ والله يدعوا إلى دار السلام ﴾ ومثله ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سيد بنى داراً وصنع مائدة وأرسل داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل ورضي عنه السيد ، ومن لم يجب لم يدخل ولم يأكل ولم يرض عنه السيد ، فالله السيد والدار دار السلام والمائدة الجنة والداعي محمد صلى الله عليه وسلم " وعنه صلى الله عليه وسلم : " ما من يوم تطلع فيه الشمس إلا وبجنبيها ملكان يناديان بحيث يسمع كل الخلائق إلا الثلقين أيها الناس هلموا إلى ربكم والله يدعو إلى دار السلام " واتفقوا على أن دار السلام هي الجنة واختلفوا في سبب التسمية .

(309/360)

فقيل : لأن السلام هو الله والجنة داره فالإضافة للتشريف ، وإنما أطلق اسم السلام عليه تعالى لأنه سلم من الفناء والتغير ومن جميع سمات النقص والحدوث ومن الظلم والعجز والجهل وهو القادر على تخليص المضطرين عن المكاره والآفات ، وكفى بدار أضافها الله تعالى لنفسه فضلاً وشرفاً وبهجة وسروراً . وقيل : سميت دار السلام لأن من دخلها سلم من الآفات والمخافات . وقيل : لفشوّ السلام بينهم ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ [يونس : 10] ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ﴾ [الرعد : 24] ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ [يس : 58] واعلم أن الدعوة عامة ولكن الهداية خاصة فلذلك قال ﴿ ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ ومن هنا ذهب أهل السنة إلى أن الهداية والضلالة والخير والشر كلها بمشيئة الله تعالى وإرادته . وقالت المعتزلة : المراد ويهدي من يشاء إلى إجابة تلك الدعوة ويعنون أن من أجاب الدعاء وأطاع واتقى فإن الله يهديه إليها . والمراد من الهداية الألطاف ، ثم قسم أهل الدعوة إلى قسمين وبين حال كل طائفة فقال : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ ولا بد من تفسير هذه الألفاظ الثلاثة : فعن ابن عباس أحسنوا أي ذكروا كلمة لا إله إلا الله ، وذهب غيره إلى أن المراد إتيان الطاعات واجتناب المنهيات لأن الدرجات العالية لا تليق إلا بهم . وأما الحسنى فقال في الكشاف : المراد المثوبة الحسنى . وقال ابن الأنباري : العرب توقع هذه اللفظة على الخلة المحبوبة والخصلة المرغوب فيها ، ولذلك ترك موصوفها . وأما الزيادة فحملها أهل السنة على رؤية

الله لأن اللام في الحسنى للمعهود بين المسلمين من المنافع التي أعدها الله تعالى لعباده ، فالزيادة عليها تكون مغايرة لها فما هي إلا الرؤية . وقالت المعتزلة : الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه ، ورؤية الله تعالى بعد تسليم جوازها ليست من جنس نعيم الجنة ، فالمراد بها ما يزيد على المثوبة من التفضل كقوله : ﴿

(310/360)

ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ [فاطر : 30] وزيف بأن الزيادة إذا كان المزيد عليه مقدراً بمقدار معين وجب أن يكون من جنسه كما لو قال الرجل لغيره : أعطيتك عشرة أمنان من الحنطة وزيادة . أما إذا كان غير مقدر كما لو قال : أعطيتك الحنطة زيادة . لم يجب أن تكون الزيادة من جنس المزيد عليه . والمذكور في الآية لفظة الحسنى وهي الجنة وإنها مطلقة ، فالزيادة عليها شيء مغاير لكل ما في الجنة . وعن علي عليه السلام : الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة . وعن ابن عباس : الحسنى الجنة والزيادة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . وعن مجاهد : مغفرة من الله ورضوان . وعن يزيد بن سمرة : هي أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول : ما تريدون أن أمطركم فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم . هذا شأن المنافع الحاصلة لهم ، وأما أنها منافع خالصة عن الكدورات فأفاد

ذلك بقوله : ﴿ ولا يرهق ﴾ أي لا يغشى ﴿ وجوههم قتر ﴾ غبرة فيها سواد ﴿ ولا ذلة ﴾ ولا أثر هوان وكسوف بال .

(311/360)

ثم أشار إلى كون تلك المنافع الخالصة آمنة من الانقطاع بقوله : ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ وهذا معنى قول علماء الأصول " الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم " ثم بين حال الفريق الآخر بقوله : ﴿ والذين ﴾ أي وجزاء الذين ﴿ كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ﴾ أي جزاؤهم أن تجازى سيئة واحد بسيئة مثلها لا يزاد عليها . ومن جوز العطف على عاملين مختلفين جوز أن يكون التقدير : وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها . قالت المعتزلة : وفيه دليل على أن المراد بالزيادة في الآية المتقدمة الفضل ، لأنه دل بترك الزيادة على السيئة على عدله فناسب أن يكون قد دل هناك بإثبات الزيادة على المثوبة على فضله . ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ فإنهم حين ماتوا ناقصين خالين عن الملكات الحميدة كان شعورهم بذلك سبباً لذلهم وهوانهم على أنفسهم ، وهذا على قاعدة حكماء الإسلام أن الجهل سواد وظلمة كما أن العلم والمعرفة بياض ونور ومنه قول الشبلي رضي الله عنه :

كل بيت أنت ساكنه . . . غير محتاج إلى السرج

ومريض أنت عائده . . . قد أتاه الله بالفرج

(312/360)

﴿ ما لهم من الله من عاصم ﴾ أي لا يعصمهم أحد من عذابه وسخطه ، أو ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما للمؤمنين . والتحقيق أنه لا عاصم من الله لأحد في الدنيا ولا في الآخرة إلا بإذن الله إلا أن هذا المعنى في الآخرة أظهر كقوله : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] ثم بالغ في الكشف عن سواد وجوههم فقال : ﴿ كأنما أغشيت ﴾ أي ألبست ﴿ وجوههم قطعاً من الليل ﴾ من قرأ بسكون الطاء فمعناه البعض والطائفة و ﴿ مظلماً ﴾ صفته . ومن قرأ بفتحها على أنه جمع قطعه فمظلماً حال من الليل والعامل فيه إما معنى الفعل في ﴿ من الليل ﴾ أو ﴿ أغشيت ﴾ لأن قوله : ﴿ من الليل ﴾ صفة لقوله : ﴿ قطعاً ﴾ فكان إفضاء العامل إلى الموصوف كإفضائه الى الصفة قاله في الكشاف . واعلم أن جمعاً من العلماء ذهبوا إلى أن المراد بقوله : ﴿ والذين كسبوا السيئات ﴾ هم الكفار لأن سواد الوجه من علامات الكفر بدليل قوله : ﴿ فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم ﴾ [آل عمران : 106] وقوله : ﴿ ووجوه

يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ [عبس : 40 - 42] ولقوله بعدها ﴿ ويوم نحشرهم ﴾ والضمير عائد إلى ﴿ هؤلاء ﴾ . ثم إنه وصفهم بالشرك . وقال الآخرون : اللفظ عام يتناول الكافر والفاسق إلا أن الآيات المذكورة مخصصة . ثم شرع بعض أحوال المشركين في القيامة فقال : ﴿ ويوم نحشرهم ﴾ منصوب بإضمار " اذكر " أو ظرف متعلق بتبلو أي في يوم كذا تبلو كل نفس . وحاصل الكلام أنه يحشر العابد والمعبود ليسألوا فيتبرأ المعبود من العابد خلاف ما كانوا يزعمون من قولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

(313/360)

وفيه إشارة إلى أن الممكن لا نسبة له إلى الواجب الحق ، فإذا اتخذ الممكن معبوداً برىء من ذلك في مقام لا ينفع إلا لصدق . قال في الكشاف : ﴿ مكانكم ﴾ أي الزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما نفعل بكم . وعند أبي علي هو اسم من أسماء الأفعال وحركته حركة بناء وهو كلمة وعيد عند العرب . و ﴿ أنتم ﴾ لتأكيد المضير في ﴿ مكانكم ﴾ لسده مسد قوله : " الزموا " . ﴿ وشركاؤكم ﴾ عطف عليه . ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ ففرقنا بينهم وقطعنا الوصل التي كانت بينهم في الدنيا . قيل : عين الكلمة " واو " لأنه من

زال يزول . وإنما قلبت ياء لأن وزن الكلمة " فعيل " أي زيولنا مثل بيطره أعل إعلال سيد .

وقيل : هي من زلت الشيء أزيله ، فعينه على هذا ياء والوزن " فعل " ونظير زيلنا قوله : ﴿ ونادى أصحاب الأعراف ﴾ [الآية : 48] لأن حكم الله بأنه سيكون كالكائن ﴿ وقال شركاؤهم ﴾ في صحة هذه الإضافة وجوه منها : أنهم جعلوا نصيباً من أموالهم لتلك الأصنام فهم شركاؤهم . ومنها أنهم متشاركون في الخطاب في قوله : ﴿ مكانكم ﴾ ومنها أنهم أثبتوا هذه الشركة والشركاء . وقيل : هم الملائكة لقوله : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾ وقيل : كل من عبد من دون الله . وقيل : الأصنام لأن هذا الخطاب مشتمل على التهديد وأنه لا يليق بالملائكة المقربين . وكيف تنطق هذه الأصنام ؟ وقيل : لأن الله يخلق فيهم الحياة والعقل والنطق . ثم هل يبقيهم أو يفنيهم ؟ الكل محتمل ولا اعتراض لأحد عليه . وقيل : يخلق فيهم الكلام فقط . وهذا الخطاب تهديد في حق العابدين فهل يكون تهديداً في حق المعبودين ؟ قالت المعتزلة لا ، لأنه لا ذنب للمعبودين ومن لا ذنب له يقبح من الله تهديده وتخويفه . وقالت الأشاعرة : لا يسأل عما يفعل . أما قول الشركاء ﴿ ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ وهم كانوا قد عبدوهم فالمراد أنكم ما عبدتمونا بأمرنا وإرادتنا لقولهم : ﴿ فكفى بالله شهيداً ﴾ الآية . ومن أعظم أسباب

الغفلة كونها جمادات لا حس لها ولا شعور . وقيل : لما في ذلك الموقف من الدهشة والحيرة فذلك الكذب يجري مجرى كذب الصبيان والمجانين والمدهوشين . وقيل : إنهما ما أقاموا لأعمال الكفار وزناً فجعلوها كالعدم . وقيل : المراد أنهم عبدوا الشياطين حيث أمروهم باتخاذ الأنداد ، ومن جوز الكذب في القيامة فلا إشكال . و ﴿ هنالك ﴾ أي في ذلك المقام وفي ذلك الموقف أو في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان . ﴿ تبلوا كل نفس ﴾ تختبر وتذوق ﴿ ما أسلفت ﴾ من العمل . ومن قرأ بالنون فالمعنى نفعل بها فعل الخابر ، أو نصيب بالبلاء وهو العذاب كل نفس عاصية لأجل ما أسلفت من الشر . ومن قرأ ﴿ تتلو ﴾ بتائين فمعناه تتبع ما أسفلت لأن عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة أو إلى طريق النار .

أو تقرأ في صحيفتها ما قدمت من خير أو شر . ﴿ وردّوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ الصادق ربوبيته ﴿ وضل عنهم ﴾ وضاع عنهم ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ يدعون أنهم شركاء الله أو ما كانوا يختلفون من شفاعة الآلهة . والحاصل أنهم يرجعون عن الباطل ويعترفون بالحق حين لا ينفعهم ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 571 . 578 ﴾

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

﴿ ولو يعجل الله للناس الشرّ ﴾

ولما وصف الله تعالى الكفار بأنهم لا يرجون لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا ، واطمأنوا بها ، وكانوا عن آيات الله غافلين ؛ بيّن أن مِنْ غفلتهم أنّ الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب جهلاً منهم وسفهاً بقوله تعالى:

﴿ ولو يعجل الله للناس الشرّ ﴾ أي : ولو يعجل الله للناس إجابة دعائهم بالشر فيما لهم فيه مضرة ومكروه ﴿ استعجالهم بالخير ﴾ أي : كما يحبون أن يعجل لهم إجابتهم بالخير ﴿ لقضي إليهم أجلهم ﴾ أي : لأهلكهم ، ولكن يمهلهم . نزلت في النضر بن الحارث حين قال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ فنذر ﴾ أي : فنترك . ﴿ الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم ﴾ أي : في تمردّهم وعتوهم . ﴿ يعمهون ﴾ أي : يتردّدون متحيرين . وقال ابن عباس : هذا في قول الرجل عند الغضب لأهله وولده : لعنكم الله ، لا بارك الله فيكم . وقال قتادة : هو دعاء الرجل على نفسه وأهله وماله بما يكره أن يستجاب له فيه . وعن

أبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم إني أخذ عندك عهداً لن تخلفنيه ، إنما أنا بشر ، فأيّ المؤمنين آذيته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقرّبه بها إليّ يوم القيامة" .

فإن قيل : قابل التعجيل في الآية بالاستعجال ، وكان مقتضى النظم أن يقابل التعجيل بالتعجيل والاستعجال بالاستعجال ، أجيب : بأنَّ تقدير الكلام : ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالاً كاستعجالهم بالخير ، فحذف منه ما حذف لدلالة الباقي عليه ، وقال في "الكشاف" : أصل هذا الكلام : ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم بالخير إلا أنه وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم بالخير شعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم ، حتى كان استعجالهم بالخير تعجيل لهم . A

(316/360)

ولما حكى تعالى عنهم أنهم يستعجلون في نزول العذاب ، بين أنهم كاذبون في ذلك الطلب والاستعجال بقوله تعالى:

﴿ وإذا مس الإنسان ﴾ أي : الكافر ﴿ الضرّ ﴾ أي : المرض والفقر ﴿ دعانا لجنبه ﴾ أي : على جنبه مضطجعاً ﴿ أو قاعداً أو قائماً ﴾ وفائدة التردّد تعميم الدعاء لجميع

الأحوال أو لأصناف المضار ، والمعنى : أنّه لو نزل بالإنسان أدنى شيء يكرهه ويؤذيه فإنه يتضرّع إلى الله تعالى في إزالته عنه ، وفي دفعه عنه ، وذلك يدل على أنه ليس صادقاً في طلب الاستعجال ﴿ فلما كشفنا عنه ضرّه ﴾ أي : أزلنا عنه ما نزل به ، ﴿ مرّ ﴾ أي : مضى على ما كان عليه من الكفر ، ﴿ كأن لم يدعنا ﴾ أي : كأنه ، فأسقط الضمير على سبيل التخفيف ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ كأن لم يلبثوا ﴾ (يونس ،)

. ﴿ إلى ضرَ مسه ﴾ . قال الحسن : نسي ما كان دعا الله فيه ، وما صنع الله به في إزالة ذلك البلاء عنه ، وإنما حمل الإنسان في هذه الآية على الكافر ؛ لأنَّ العمل المذكور لا يليق بالمسلم البتة ، وقول بعضهم : كل موضع في القرآن ورد فيه ذكر الإنسان فالمراد هو الكافر مردود ، فقد قال تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ (الإنسان :)

. وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ (المؤمنون :)

. وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ (ق ،) وأما المؤمن إذا ابتلي ببلية ومحنة ، وجب عليه رعاية أمورٍ :

أوّلها : أن يكون راضياً بقضاء الله تعالى غير معترض بالقلب واللسان عليه ، وإنما وجب عليه ذلك ؛ لأنّه تعالى مالك على الإطلاق ، وملك بالاستحقاق ، فله أن يفعل في ملكه ما شاء ، ولأنه تعالى حكيم على الإطلاق ، وهو منزه عن فعل العبث ، فكل ما فعله فهو

حكمة وصواب ، فيجب عليه الصبر وترك القلق ، فإن أبقى عليه تلك المحنة فهو عدل ، وإن أزالها عنه فهو فضل .

(317/360)

وثانيها : أنه في ذلك الوقت إن اشتغل بذكر الله تعالى ، والثناء عليه بدلاً عن الدعاء ، كان أفضل لقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى : "من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين" ، ولأنّ الاشتغال بالذكر اشتغال بالحق والاشتغال بالدعاء ، اشتغال بطلب حظ النفس ، ولا شك أنَّ الأوّل أفضل . وثالثها :

أنه تعالى إذا أزال عنه تلك البلية وجب عليه أن يبالغ في الشكر ، وأن لا يخلو عن ذلك الشكر في السراء والضراء ، وأحوال الشدّة والرخاء ، فهذا هو الطريق الصحيح عند نزول البلاء ، وحينئذ يكون المؤمن على الضدّ من الكافر ؛ لأنَّ الكافر منهمك في الشهوات ، والإعراض عن العبادات . كما قال تعالى : ﴿كذلك﴾ أي : مثل ما زين لهؤلاء الكافرين هذا العمل القبيح . ﴿زين للمسرفين﴾ أي : المشركين ﴿وما كانوا يعملون﴾ من القبائح لإعراضهم عن الذكر واتباعهم الشهوات ، وإنما سمي الكافر مسرفاً ؛ لأنّه أتلف نفسه بتضييعها في عبادة الأوثان ، وأتلف ماله في البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والمزين هو الله

تعالى ؛ لأنه مالك الملك ، والخلق كلهم عبيده يتصرّف فيهم كيف شاء ، وقيل : هو الشيطان وذلك بإقدار الله تعالى إياه على ذلك ، وإلا فهو أخس وأحقر .

﴿ ولقد أهلكنا القرون ﴾ أي : الأمم الماضية . ﴿ من قبلكم ﴾ يا أهل مكة . ﴿ لما ظلموا ﴾ أي : حين أشركوا ، وقوله تعالى : ﴿ وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي : بالحجج الدالة على صدقهم ، حال من الواو وبإضمار قد أو عطف على ظلموا . ﴿ وما ﴾ أي : والحال أنهم ما ﴿ كانوا ليؤمنوا ﴾ أي : وما استقام لهم أن يؤمنوا ، ولو جاءتهم كل آية لعلمه تعالى بأنهم يموتون على كفرهم ، واللام لتأكيد النفي . ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل ذلك الجزاء العظيم وهو إهلاكهم لما كذبوا رسلهم ﴿ نجزي القوم المجرمين ﴾ أي : نجزيكم يا أهل مكة بتكذيبكم محمداً صلى الله عليه وسلم فوضع المظهر موضع المضمر للدّلالة على كمال جرمهم ، وأنهم أعلام فيه .

(318/360)

﴿ ثم جعلناكم ﴾ أي : أيها المرسل إليهم أشرف رسلنا ﴿ خلائف ﴾ جمع خليفة ﴿ في الأرض من بعدهم ﴾ أي : استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها استخلاف من يختبر ﴿ لننظر ﴾ ونحن أعلم بكم من أنفسكم في علم الشهادة لإقامة الحجة . ﴿ كيف

تعملون ﴾ من خير أو شر فنجازيكم به ، وقد مرّ نظائر هذا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ (هود :)

. وقال صلى الله عليه وسلم "إنّ الدنيا خضرة حلوة ، وإنّ الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون" . وقال قتادة : صدق الله ربنا ما جعلنا خلفاء إلا لينظر إلى أعمالنا ، فأروا الله من أعمالكم خيراً بالليل والنهار . قال الزجاج : وموضع كيف نصب بقوله تعملون ، أي : لا معمول ننظر ؛ لأنها حرف استفهام ، والاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ؛ لأنّ له صدر الكلام فلا يتقدمه عامله ، وظاهر كلامه أنّ كيف مفعول لتعملون ، وجمهور النحاة على أنه حال من ضمير تعملون .

﴿ وإذا تتلى عليهم ﴾ أي : وإذا قرئ على هؤلاء المشركين . ﴿ آياتنا ﴾ أي : القرآن الذي أنزلناه إليك يا محمد حالة كون تلك الآيات ﴿ بينات ﴾ أي : ظاهرات تدل على وحدانيتنا وصحة نبوّتك . ﴿ قال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ أي : لا يخافون عذابنا ، ولا يرجون ثوابنا ؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت ، وكل من كان منكراً للبعث بعد الموت ؛ فإنه لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً . ﴿ ائت ﴾ أي : من عندك ﴿ بقرآن ﴾ أي : كلام مجموع جامع لما نريد . ﴿ غير هذا ﴾ في نظمه ومعناه . ﴿ أو بدله ﴾ بألفاظ أخرى ، والمعاني باقية ، وقد كانوا عالمين بأنه صلى الله عليه وسلم مثلهم في العجز عن ذلك ،

ولكنهم قصدوا أن يأخذ في التغيير حرصاً على إجابة مطلوبهم ، فيبطل مدعاه أو يهلك ، واختلف في هذا القائل .

(319/360)

فقال قتادة : هم مشركو أهل مكة . وقال مقاتل : هم خسمة نفر : عبد الله بن أمية الجمحي ، والوليد بن المغيرة ، ومكدر بن حفص ، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري ، والعاصي بن عامر بن هشام ، قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم إن كنت تريد أن نؤمن بك فأت بقرآن ليس فيه ترك لعبادة اللات والعزى ومناة ، وليس فيه عيبها ، وإن لم ينزله الله فقل أنت من عند نفسك أو بدله ، فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، أو مكان حرام حلالاً ، أو مكان حلالاً حراماً ، ولما كان كأنه قيل فماذا أقول لهم ؟ قال الله تعالى : ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ ما يكون ﴾ أي : ما يصح ﴿ لي ﴾ ولا يتصوّر بوجه من الوجوه ﴿ أن أبدله من تلقاء ﴾ أي : قبل ﴿ نفسي ﴾ وإنما اكتفى بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناع الإتيان بقرآن آخر ، وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الباء والباقون بالسكون ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ أتبع إلا ما يوحى إليّ ﴾ فيما آمركم به أو أنهاكم عنه ، أي : لا آتي بشيء ولا أذر شيئاً من نحو ذلك إلا متبعاً لوحي الله تعالى وأوامره ، إن نسخت آية تبعت النسخ ، وإن

بدلت آية مكان آية تبعت التبديل ، وليس إليّ تبديل ولا نسخ ﴿ إني أخاف إن عصيت ربي ﴾ أي : بتبديله ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ فإني مؤمن به غير مكذب ولا شاك كغيري ممن يتكلم الهذيان بما لا يخاف عاقبته في ذلك اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو لي وإني بفتح الياء ، والباقون بالسكون .

(320/360)

﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين طلبوا منك تغيير القرآن وتبديله ﴿ لو شاء الله ما تلوته عليكم ﴾ أي : لو شاء الله لم ينزل هذا القرآن ، ولم يأمرني بقراءته عليكم ﴿ ولا أدراكم به ﴾ أي : ولا أعلمكم به على لساني . وقرأ ابن كثير بخلاف عن البزي بقصر الهمزة بعد اللام جواب لو ، أي : لأعلمكم به على لسان غيري ، والباقون بالمدّ المنفصل . وقوله تعالى : ﴿ فقد لبثت ﴾ أي : مكثت قراءة نافع وابن كثير وعاصم بإظهار الثاء عند التاء والباقون بالإدغام ﴿ فيكم عمراً ﴾ سنين أربعين ﴿ من قبله ﴾ أي : قبل أن يوحى إليَّ هذا القرآن لا أتلوه ولا أعلمه ، ففي ذلك إشارة إلى أنّ هذا القرآن معجز خارق للعادة . وتقريره : أن أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أوّل عمره إلى ذلك الوقت ، وكانوا عالمين بأحواله وأنه ما طالع كتاباً ، ولا تتلمذ لأستاذ ولا تعلم من

أحد ، ثم بعد انقراض أربعين سنة على هذا الوجه ، جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس علم الأصول ، ودقائق علم الأحكام ولطائف علم الأخلاق ، وأسرار قصص الأوّلين ، وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء ، وكل من له عقل سليم ، فإنه يعرف أن مثل هذا لا يحصل إلا بالوحي والإلهام من الله تعالى ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي : أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر لتعلموا أنَّ مثل هذا الكتاب العظيم على من لم يتعلم ولم يتتلمذ ولم يطالع كتاباً ، ولم يمارس مجادلة ، أنه لا يكون إلا على سبيل الوحي من الله تعالى ، لا من مثلي ، وهذا جواب عمّا دسوه تحت قولهم ﴿ ائت بقرآن غير هذا ﴾ من إضافة الإفتراء إليه .

(321/360)

تنبيه : أقام صلى الله عليه وسلم بعد أن أوحي إليه بمكة ثلاث عشرة سنة ، ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين ، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة . قال النووي : ورد في عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات : إحداها : أنه توفي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ستين سنة . والثانية : خمس وستون سنة . والثالثة : ثلاث وستون سنة ، وهي أصحها وأشهرها ، وتأوّلوا رواية ستين بأنَّ راويها اقتصر فيها على العقود ، وترك الكسر ، ورواية

الخمس أيضاً متأوّلة ، وحصل فيها اشتباه ، ولما أقيمت الدلائل على أنّ هذا القرآن من عند الله وجب أن يقال : إنه ليس في الدنيا أحد أجهل ولا أظلم على نفسه من منكر ذلك كما قال تعالى : ﴿ فمن ﴾ أي : لا أحد ﴿ أظلم ممن افترى ﴾ أي : تعمد ﴿ على الله كذبا ﴾ أي : أيّ كذب كان من شريك أو ولد أو غير ذلك ، وكأنّ الأصل مبنيّ على تقدير أن يكون هذا القرآن من عند الله ، ولكنه وضع هذا الظاهر مكانه تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف ﴿ أو كذب بآياته ﴾ أي : دلائل توحيده فكفر بها كما فعلتم أنتم ، وذلك من أعظم الكذب ، وقوله تعالى : ﴿ إنه ﴾ أي : الشأن ﴿ لا يفلح ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ المجرمون ﴾ أي : المشركون تأكيد لما سبق من هذين الوصفين

﴿ ويعبدون ﴾ أي : هؤلاء المشركون ﴿ من دون الله ﴾ أي : غيره ﴿ ما لا يضرّهم ﴾ أي : إن لم يعبدوه ﴿ ولا ينفعهم ﴾ أي : إن عبدوه ، وهو الأصنام ؛ لأنها حجارة وجماد لا تضرّ ولا تنفع ، والكافرون قادرون على التصرف فيها تارة بالإصلاح وتارة بالإفساد ، وإذا كان العابد أصلح حالاً من المعبود كانت العبادة باطلة ؛ لأنّ العبادة أعظم أنواع التعظيم ، فلا تليق إلا بمن يضرّ وينفع ، بأن يثيب على الطاعة ، ويعاقب على المعصية ، وكان أهل الطائف يعبدون اللات ، وأهل مكة يعبدون العزى ومناة وهبل وإسافا ونائلة .

﴿ ويقولون هؤلاء ﴾ أي : الأصنام التي نعبدها . ﴿ شفعاؤنا عند الله ﴾ ونظيره قوله تعالى إخباراً عنهم : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ . (الزمر ،)

(322/360)

وقيل : إنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم ، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر يكونون شفعاء لهم عند الله . قال الرازي : ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله .اه . ولكن تعظيمهم لهؤلاء ليس كتعظيم الكفار ، وفي هذه الشفاعة قولان:

أحدهما : أنهم يزعمون أنها تشفع لهم فيما يهمهم من أمور الدنيا في إصلاح معايشهم . قاله الحسن ؛ لأنهم كانوا لا يعتقدون بعث الموتى .

(323/360)

والثاني : أنهم يزعمون أنها تشفع لهم في الآخرة إن يكن بعث ، قاله ابن جريج عن ابن عباس ، وكأنهم كانوا شاكين فيه ، وهذا من فرط جهالتهم حيث تركوا عبادة موجدهم الضارّ النافع إلى عبادة ما يعلم قطعاً أنه لا يضرّ ولا ينفع ، على توّهم أنه ربما يشفع لهم . قال النضر

بن الحارث : إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى . وقوله تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿ أتنبئون ﴾ أي : تخبرون ﴿ الله ﴾ وهو العالم بكل شيء المحيط بكل محيط . ﴿ بما لا يعلم ﴾ أي : لا يوجد له به علم في وقت من الأوقات ، استفهام إنكار تهكم بهم ، وبما ادّعوه ومن المحال الذي هو شفاعة الأصنام ، وإعلام بأن الذي أنبؤوا به باطل غير منطوٍ تحت الصحة ، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق به علمه . وقوله تعالى : ﴿ في السموات ولا في الأرض ﴾ تأكيد لنفيه ؛ لأنّ ما لم يوجد فيهما فهو منتفٍ معدوم ، وهذا على طريق الإلزام ، والمقصود نفي علم الله بذلك الشفيع ، وأنه لا وجود له ألبتة ؛ لأنه لو كان موجوداً لكان معلوماً لله تعالى وحيث لم يكن معلوماً لله تعالى ، وجب أن لا يكون معلوماً موجوداً ، وهذا مثل مشهور في العرب ، فإنّ الإنسان إذا أراد نفي شيء عن نفسه يقول : ما علم الله ذلك مني ؛ ومقصوده أنه ما حصل ذلك الشيء منه قط ولا وقع .

﴿ سبحانه ﴾ أي : تنزيهاً له عن كل شيء فيه شائبة نقص . ﴿ وتعالى عما يشركون ﴾ ما مصدرية أو موصولة ، أي : عن إشراكهم أو عن الشركاء الذين يشركونهم به . وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب ، لقوله : ﴿ أتنبئون الله ﴾ والباقون بالياء على الغيبة ، فكأنه قيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم قل أنت : سبحانه وتعالى عما يشركون ، ويجوز أن يكون الله سبحانه و تعالى هو الذي نزه نفسه عما قالوه ، فقال : سبحانه و تعالى عما

يشركون . ولما أقام تعالى الدلالة القاهرة على فساد القول بعبادة الأصنام بيّن السبب في كيفية حدوث هذا المذهب الفاسد بقوله:

(324/360)

﴿ وما كان الناس إلا أمّة واحدة ﴾ أي : جميعاً على الدين الحق وهو دين الإسلام . وقيل على الضلال في فترة الرسل ، واختلف القائلون بالأوّل أنهم متى كانوا كذلك . ؟ فقال ابن عباس ومجاهد : كانوا على دين الإسلام من لدن آدم إلى أن قَتَلَ قابيلُ هابيلَ . وقال قوم : إلى زمن نوح ، وكانوا عشرة قرون . ثم اختلفوا في عهد نوح فبعث الله تعالى إليهم نوحاً . وقال آخرون : كانوا على دين الإسلام من زمن نوح بعد الغرق حيث لم يذر الله على الأرض من الكافرين ديّاراً إلى أن ظهر الكفر فيهم . وقال آخرون : من عهد إبراهيم عليه السلام إلى زمن عمرو بن لحي ، وهذا القائل قال : المراد من الناس في قوله تعالى : ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة ﴾ العرب خاصة . ﴿ فاختلفوا ﴾ بأن ثبت بعض وكفر بعض . ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ وهو تأخير الحكم إلى يوم القيامة ، وقيل : تلك الكلمة هي قوله سبحانه : سبقت رحمتي غضبي . فلما كانت رحمته غالبة اقتضت تلك الرحمة الغالبة إسبال الستر على الجاهل الضال ، وإمهاله إلى وقت الوجدان ﴿ لقضي بينهم ﴾ أي : الناس بنزول

العذاب في الدنيا دون يوم القيامة ﴿ فيما فيه يختلفون ﴾ من الدين بإهلاك المبطل ، وإبقاء المحق ، وكان ذلك فصلاً بينهم ﴿ ويقولون ﴾ أي : كفار مكة ﴿ لولا ﴾ أي : هلا ﴿ أنزل عليه ﴾ أي : محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ آية من ربه ﴾ أي : غير ما جاء به كما كان للأنبياء من الناقة والعصا واليد ﴿ فقل ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفرة المعاندين ﴿ إنما الغيب ﴾ أي : ما غاب عن العباد أمره ﴿ لله ﴾ أي : هو المختص بعلمه ، ومنه الآيات فلا يأتي بها إلا هو وإنما عليّ التبليغ ﴿ فانتظروا ﴾ أي : نزول ما اقترحتموه . وقيل نزول العذاب إن لم يؤمنوا ﴿ إني معكم من المنتظرين ﴾ أي : لما يفعل الله تعالى بكم لعنادكم وجحودكم الآيات ، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر ، بديعة في الآيات ، رقية المسلك بين المعجزات مع عجزكم عن معارضته بتبديل أو غيره ، فأيّ عناد أعظم من هذا

(325/360)

﴿ وإذا أذقنا الناس ﴾ أي : كفار مكة ﴿ رحمة ﴾ أي : صحة وسعة ﴿ من بعد ضرّاء ﴾ أي : شدّة وبلاء ﴿ مستهم ﴾ سلط الله تعالى القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم ، فأنزل عليهم المطر الكثير حتى أخصبت البلاد ، وعاش

الناس بعد ذلك فلم يتعظوا بذلك ، بل رجعوا إلى العناد والكفر كما قال تعالى : ﴿ إذا لهم مكر في آياتنا ﴾ بالاستهزاء والتكذيب ، وقيل : لا يقولون هذا من رزق الله ، إنما يقولون : سُقينا بنوء كذا . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ الله تعالى ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها فيصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون : مطرنا بنوء كذا" والنوء عند العرب : هي منازل القمر إذا طلع نجم سقط نظيره ﴿ قل الله ﴾ أي : قل لهم يا محمد الله ﴿ أسرع مكراً ﴾ منكم ، أي : أعجل عقوبة وأشدّ أخذاً وأقدر على الجزاء . ومعنى الوصف بالأسرعية : أنه قضى بعقابهم قبل تدبيرهم مكايدهم والمكر إخفاء الكيد وهو من الله تعالى ، أمّا الاستدراج أو الجزاء على المكر ، فإنهم لما قابلوا نعمة الله بالمكر قابل مكرهم بأشد منه ، وهو إمهالهم إلى يوم القيامة . ﴿ إن رسلنا ﴾ أي : الحفظة الكرام الكاتبين ﴿ يكتبون ما تمكرون ﴾ لأنهم وكلوا بكم قبل كونكم نطفاً ، ولم يوكلوا بكم إلا بعد علم موكلهم بكل ما تفعلونه ، ولا يكتبون مكركم إلا بعد اطلاعهم عليه ، وأمّا هو سبحانه وتعالى فإنه إذا قضى قضاء لا يمكن أن يطلع عليه رسله إلا بإطلاعه فكيف بغيرهم ، وإذا تبين أنه عالم بأمورهم وهم جاهلون بأموره علم أنه لا يدعهم يدبرون كيداً إلا وقد سبب له ما يجعله في نحورهم ، وقرأ أبو عمرو بسكون السين والباقون بالرفع ، ثم أخذ سبحانه وتعالى يبين ما يتضح به أسرعية مكره في مثال دال على

ما في الآية قبلها ؛ لأن المعنى الكلي لا يصل إلى أفهام السامعين إلا بذكر مثال جلي واضح ، يكشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلي فقال:

(326/360)

﴿ هو الذي يسيركم ﴾ أي : يحملكم على السير في كل وقت تسيرون فيه لا تقدرون على الإنفكاك عنه ويمكنكم منه ، ﴿ في البرّ والبحر ﴾ أي : يسبب لكم أسباباً توجب سيركم فيهما . وقرأ ابن عامر بعد الياء الأولى بنون ساكنة بعدها شين معجمة مضمومة ، والباقون بسين مهملة مفتوحة بعدها ياء مكسورة مشدّدة ، ولما كان العطب بسير البحر أظهر مع أنَّ السير فيه من أكبر الآيات وأوضح البينات بيّنه معرضاً عن ذكر البر بقوله تعالى:

﴿ حتى إذا كنتم ﴾ أي : كوناً لا براح لكم منه . ﴿ في الفلك ﴾ أي : السفن ، فإن قيل : كيف جعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر مع أنَّ الكون في الفلك متقدّم لا محالة على التسيير في البحر ؟

(327/360)

أجيب : بأنه لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير ، بل تقدير الكلام كأنه قيل : هو الذي يسيركم حتى إذا وقع في جملة تلك التسييرات الحصول في الفلك كان كذا وكذا ، ولفظ الفلك يطلق على الواحد وعلى الجمع ، فإن أريد الواحد كان كبناء قفل ، أو الجمع كان كبناء حمر ، والمراد هنا : الجمع لقوله تعالى : ﴿ وجرين بهم ﴾ أي : بمن فيها ، وعدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ، ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح والالتفات في الكلام عن الغيبة إلى الحضور والعكس في فصيح كلام العرب . ﴿ بريح طيبة ﴾ أي : لينة الهبوب . ﴿ وفرحوا بها ﴾ أي : بتلك الريح وبالفلك الجارية بها ، وقوله تعالى : ﴿ جاءتها ﴾ جواب إذا والضمير للفلك أو للريح الطيبة بمعنى تلقتها ﴿ ريح عاصف ﴾ أي : شديدة الهبوب فأزعجت سفينتهم وأساءتهم

﴿ وجاءهم الموج ﴾ أي : وجاء ركاب السفينة الموج وهو ما ارتفع وعلا من ضراب الماء في البحر . وقيل : هو شدّة حركة الماء واختلاطه . ﴿ من كل مكان ﴾ أي : يعتاد مجيء الموج منه فأرجف قلوبهم . ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ أي : فظنوا أنَّ الهلاك قد أحاط بهم وسدت عليهم مسالك الخلاص ، كمن أحاط بهم العدوّ ﴿ دعوا الله مخلصين ﴾ أي : من غير اشتراك به ﴿ له الدين ﴾ أي : الدعاء ؛ لأنهم لا

يدعون حينئذٍ غيره ؛ لأنَّ الإنسان في هذه الحالة لا يطمع إلا في فضل الله ورحمته ويصير منقطعاً عن جميع الخلق ، ويصير بقلبه وروحه وجميع أجزائه متضرعاً إلى الله تعالى . وقوله

تعالى : ﴿ لئن أنجيتنا من هذه ﴾ الشدائد التي نحن فيها وهي الريح العاصفة والأمواج الشديدة ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ على إرادة القول أو مفعول دعوا ؛ لأنه من جملة القول ، أي : لنكونن من الشاكرين لك بالإيمان والطاعة على إنعامك علينا بانجائنا مما نحن فيه من هذه الشدّة .

(328/360)

﴿ فلما أنجاهم ﴾ أي : هؤلاء الذين ظنوا أنهم أحيط بهم من الشدّة التي كانوا فيها إجابة لدعائهم ﴿ إذا هم يبغون ﴾ أي : فأجاؤوا الفساد وسارعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي ﴿ في الأرض ﴾ أي : جنسها ﴿ بغير الحق ﴾ .

فإن قيل : البغي لا يكون بحق فما معنى قوله بغير ؟

أجيب : بأنه قد يكون بحقّ كاستيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم ، وإحراق زروعهم ، وقطع أشجارهم ، كما فعل صلى الله عليه وسلم ببني قريظة ، فإنّ ذلك إفساد بحق . قال صاحب "المفردات" : البغي على ضربين : أحدهما : غير محمود وهو مجاوزة الحق إلى الباطل وإلى الشبهة ، والآخر : كفعل المسلمين ما ذكر ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم ﴾ أي : ظلمكم ﴿ على أنفسكم ﴾ يعود وباله عليها خاصة . قال صلى الله عليه

وسلم "أسرع الخير ثواباً صلة الرحم ، وأعجل الشر عقاباً البغي واليمين الفاجرة" . وروي "ثنتان يعجلهما الله تعالى في الدنيا : البغي ، وعقوق الوالدين" . وعن ابن عباس : لو بغى جبل على جبل لدك الباغي . وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين في أخيه:

*يا صاحب البغي إنّ البغي مصرعة ** فاربع فخير فعال المرء أعدله

*فلو بغى جبل يوماً على جبل ** لاندك منه أعاليه وأسفله

(329/360)

وعن محمد بن كعب : ثلاث من كن فيه كن عليه البغي والنكث والمكر . وعلى تقدير الانتفاع بالبغي هو عرض زائل كما قال تعالى : ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ أي : لا يتهيأ لكم بغي بعضكم على بعض إلا أياماً قليلة ، وهي مدّة حياتكم مع قصرها وسرعة انقضائها . ﴿ ثم إلينا ﴾ بعد البعث ﴿ مرجعكم ﴾ في القيامة ﴿ فننبئكم ﴾ أي : فنخبركم ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ في الدنيا من البغي والمعاصي فنجازيكم عليها . وقرأ حفص متاع بنصب العين على أنه مصدر مؤكد ، أي : تتمتعون متاع الحياة الدنيا ، والباقون بالرفع على أنه خبر بغيكم وعلى أنفسكم صلته ، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره : ذلك متاع الحياة الدنيا وعلى أنفسكم خبر بغيكم . ولما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة

الدنيا ﴾ أتبعه بمثل عجيب ضربه لمن يبغي في الأرض ، ويغتر بالدنيا ، ويشتدّ تمسكه بها ، ويقوى إعراضه عن أمر الآخرة ، والتأهب لها ، بقوله تعالى:

(330/360)

﴿ إنما مثل الحياة الدنيا ﴾ أي : حالها العجيبة في سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واغترار الناس بها . والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بالأوّل ﴿ كماء أنزلناه ﴾ وحقق أمره وبينه بقوله تعالى : ﴿ من السماء فاختلط به ﴾ أي : بسببه ﴿ نبات الأرض ﴾ أي : اشتبك بعضه ببعض ، والاختلاط : تداخل الأشياء بعضها في بعض ﴿ مما يأكل الناس ﴾ من الحبوب والثمار ونحو ذلك ﴿ و ﴾ مما يأكل ﴿ الأنعام ﴾ من الحشيش ونحوه ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ﴾ أي : حسنها وبهجتها من النبات ﴿ وازينت ﴾ بإظهار ألوان زهرها من أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الزهور ، كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين ، وأصل ازينت تزينت أبدلت التاء زاياً وأدغمت في الزاي ﴿ وظنّ أهلها ﴾ أي : أهل تلك الأرض ﴿ أنهم قادرون عليها ﴾ أي : متمكنون من تحصيل جذاذها وحصادها ﴿ أتاها أمرنا ﴾ أي : قضاؤنا من البرد والحرّ المفرط أو غيره ﴿ ليلاً أو نهاراً ﴾ أي : في

الليل أو في النهار ﴿ فجعلناها ﴾ أي : زرعها ﴿ حصيداً ﴾ أي : كالمحصود بالمناجل .

وقوله تعالى : ﴿ كأن ﴾ مخففة ، أي : كأنها ﴿ لم تغن ﴾ أي : لم تكن ﴿ بالأمس ﴾ تلك الزروع والأشجار قائمة على ظهر الأرض ، وحذف المضاف من فجعلناها ومن كأن لم تغن للمبالغة .

تنبيه : تشبيه الحياة الدنيا بهذا النبات يحتمل وجوهاً :

الأوّل أنّ عاقبة هذه الدنيا التي ينفقها المرء في باب الدنيا كعاقبة هذا النبات الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه ؛ لأنّ الغالب أنّ المتمسك بالدنيا إذا وضع قلبه عليها وعظمت رغبته فيها يأتيه الموت ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ (الأنعام ،) أي : خاسرون الدنيا ، وقد أنفقوا أعمارهم فيها ، وخاسرون من الآخرة مع أنهم توجهوا إليها .

(331/360)

الثاني : أنه تعالى بيّن أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة محمودة فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل له عاقبة تحمد ، مع أنَّ المنافع التي تحصل فيها مخلوطة بالمضار والمتاعب ، فإنَّ سعادة الدنيا غير خالصة من الآفات ، بل هي ممزوجة بالبليات ، والاستقراء يدل عليه ،

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم "من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق . فقيل : يا رسول الله ، وما هو ؟ قال : سرور يوم بتمامه" . الثالث : أن مالك ذلك البستان لما عمره بإتعاب النفس ، وكد الروح ، وعلق قلبه على الانتفاع به ، فإذا حصل ذلك السبب المهلك صار العناء الشديد الذي تحمّله في الماضي سبباً لحصول الشقاء الشديد له في المستقبل ، وهو ما يحصل له في قلبه من الحسرات ، فكذا حال من وضع قلبه على الدنيا ، وأتعب نفسه في تحصيلها ، فإذا مات وفاته كل ما فات صار العناء الذي تحمله في تحصيل أسباب الدنيا سبباً لحصول الشقاء العظيم له في الآخرة . ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل هذا التفصيل الذي ذكرناه ﴿ نفصل الآيات ﴾ أي : نبينها ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ لأنهم المنتفعون بها ، ولما نفّر تعالى الغافلين عن الميل إلى الدنيا بالمثل السابق رغبّهم في الآخرة بقوله تعالى:

﴿ والله يدعو ﴾ أي : يعلق دعاءه على سبيل التجدّد والاستمرار بالمدعوين ﴿ إلى دار السلام ﴾ . قال قتادة : السلام هو الله ، وداره الجنة ، وسمي سبحانه وتعالى بالسلام ؛ لأنه واجب الوجود لذاته ، فقد سلم من الفناء والتغير ، وسلم من احتياجه في ذاته وصفاته ، ومن الافتقار إلى الغير ، وهذه الصفة ليست إلا له سبحانه كما قال تعالى : ﴿ والله الغني وأنتم الفقراء ﴾ (محمد ،)

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ﴾ (فاطر ،)

. وقيل : السلام بمعنى السلامة . وقيل : المراد بالسلام الجنة ، سميت الجنة دار السلام ؛

لأنّ أهلها يحيِّي بعضهم بعضاً بالسلام ، والملائكة تسلم عليهم . قال الله تعالى :

﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ﴾ (الرعد ، ،)

(332/360)

ومن كمال رحمته وجوده وكرمه على عباده أن دعاهم إلى الجنة التي هي دار السلام ، وفيه دليل على أنّ فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؛ لأنّ العظيم لا يدعو إلا إلى عظيم ، ولا يصف إلا عظيماً . وقد وصف الله تعالى الجنة في آيات كثيرة من كتابه . وعن جابر قال : جاءت ملائكة إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقالوا : إنّ صاحبكم هذا مثله كمثل رجل بنى داراً ، وجعل فيها مائدة ، وبعث داعياً فمن أجب الداعي دخل الدار ، وأكل من المائدة ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ، ولم يأكل من المائدة ، والدار الجنة ، والداعي محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ و ﴾ الله ﴿ يهدي من يشاء ﴾ من عباده بما يخلق في قلبه من الهداية ﴿ إلى صرط مستقيم ﴾ وهو دين الإسلام ، عمّ سبحانه وتعالى بالدعوة أوّلا إظهاراً للحجة ، وخص بالهداية ثانياً إظهاراً للقدرة ؛ لأنَّ الحكم له في خلقه . وقال الجنيد : الدعوة عامة ، والهداية خاصة ، بل الهداية عامة والصحبة خاصة ، بل الصحبة عامة والاتصال خاص . وقيل : يدعو بالآيات ، ويهدي

للحقائق والمعارف . وقيل : الدعوة لله والهداية من الله . وقال بعضهم : لا تنفع الدعوة لمن لم يسبق له من الله الهداية .

(333/360)

﴿ للذين أحسنوا ﴾ أي : بالإيمان ﴿ الحسنى ﴾ وهي الجنة ﴿ وزيادة ﴾ وهي النظر إليه تعالى في الآخرة ، كما في الحديث الصحيح : "إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن يا أهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً هو أحب إليهم منه" . والزمخشري في "كشافه" قال في هذا : وزعمت المشبهة والمجبرة ؛ لأنّ المعتزلة ينكرون الرؤية ، ويُردّ عليهم قول الله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ (القيامة ، ،) فأثبت الله لأهل الجنة أمرين أحدهما : النضارة وهي حسن الوجوه ، وذلك من نعيم الجنة . والثاني : النظر إلى الله تعالى . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : الحسنى الحسنة ، والزيادة عشرة أمثالها . وعن الحسن عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . وعن مجاهد : الزيادة مغفرة من الله ورضوان . وعن يزيد بن شجرة : الزيادة أن تمرّ السحابة بأهل الجنة فتقول : ما تريدون أن أمطركم ، فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم ، ولا مانع من أن تفسر الزيادة بذلك كله ؛ إذ لا تنافي فيها والفضل واسع . ﴿ ولا يرهق ﴾ أي : يغشى

﴿ وجوههم قتر ﴾ أي : سواد ﴿ ولا ذلة ﴾ أي : كآبة وكسوف يظهر منه الانكسار والهوان . ﴿ أولئك ﴾ أي : هؤلاء الذين وصفهم الله هم ﴿ أصحاب الجنة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هم فيها خالدون ﴾ إشارة إلى كونها دائمة آمنة من الانقطاع ولا زوال فيها ولا انقراض ، بخلاف الدنيا وزخارفها . ولما بين تعالى حال الفضل فيمن أحسن بيّن حال العدل فيمن أساء بقوله تعالى:

(334/360)

﴿ والذين كسبوا السيئات ﴾ أي : الشرك ﴿ جزاء سيئة ﴾ منهم ﴿ بمثلها ﴾ بعدل الله من غير زيادة ، وفي ذلك إشارة إلى الفرق بين السيئات والحسنات ؛ لأنَّ الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحد إلى العشرة إلى السبعمائة إلى أضعاف كثيرة تفضلاً منه تعالى وتكرّماً . وأما السيئة فإنه يجازي عليها بمثلها عدلاً منه تعالى ﴿ وترهقهم ﴾ أي : تغشاهم ﴿ ذلة ﴾ عكس أهل الجنة ﴿ ما لهم من الله من عاصم ﴾ أي : مانع يمنعهم من عذاب الله إذا نزل بهم ﴿ كأنما أغشيت ﴾ أي : ألبست ﴿ وجوههم قطعاً من الليل مظلماً ﴾ لفرط سوادها وظلمتها . وقرأ ابن كثير والكسائي بسكون الطاء ، أي : جزء ،

والباقون بفتحها جمع قطعة ، أي : أجزاء ﴿ أولئك ﴾ أي : هؤلاء الأشقياء ﴿ أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ لا يتمكنون من مفارقتها .

(335/360)

﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يوم نحشرهم ﴾ أي : الفريقين الناجين والهالكين ، العابدين منهم والمعبودين ، من كل جانب وناحية إلى موقف الحساب حال كونهم ﴿ جميعاً ﴾ لا يتخلف منهم أحد وهو يوم القيامة والحشر الجمع بكره إلى موقف واحد ﴿ ثم نقول للذين أشركوا مكانكم ﴾ أي : الزموا مكانكم لا تبرحوا منه حتى تنظروا ما يفعل بكم ، وقوله تعالى : ﴿ أنتم ﴾ تأكيد للضمير المستتر في الفعل المقدّر ليعطف عليه ﴿ وشركاؤكم ﴾ أي : من كنتم تعبدونه من دون الله ﴿ فزيلنا ﴾ أي : فرّقنا ﴿ بينهم ﴾ أي : بين المشركين وشركائهم وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا ، وذلك حين تبرأ كل معبود من دون الله ممن عبده ، وقيل : فرّقنا بينهم وبين المؤمنين كما في آية ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ (يس ،) والأوّل أنسب بقوله تعالى : ﴿ وقال شركاؤهم ﴾ لهؤلاء المشركين ﴿ ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ أي : إنما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم أن تتخذوا لله أنداداً فأطعتموهم ، واختلفوا في المراد بهؤلاء الشركاء . فقال بعضهم : الملائكة واستشهدوا

بقوله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾ (سبأ ،) . ومنهم من قال : هي الأصنام ، والدليل عليه : أنّ هذا الخطاب مشتمل على الوعيد والتهديد ، وذلك لا يليق بالملائكة المقرّبين ، وسموا شركاء ؛ لأنهم جعلوا نصيباً من أموالهم لتلك الأصنام فصيروهم شركاء لأنفسهم في تلك الأموال ، ثم اختلفوا في هذه الأصنام كيف ذكرت هذا الكلام فقال بعضهم : إنّ الله تعالى خلق الحياة والعقل والنطق فيها فقدرت على ذكر هذا الكلام . وقال آخرون : إنّ الله تعالى خلق فيها الكلام من غير أن يخلق فيها الحياة حتى سمع منها ذلك الكلام . والأوّل أظهر ؛ لأنّ ظاهر قوله تعالى : ﴿ وقال شركاؤهم ﴾ يقتضي أن يكون فاعل ذلك القول هو الشركاء .

فإن قيل : إذا أحياها الله تعالى هل يبقيها أو يفنيها ؟

(336/360)

أجيب : بأنَّ الكل محتمل فإنّ الله تعالى يفعل في خلقه ما يشاء ، وأحوال القيامة غير معلومة إلا القليل الذي أخبر الله تعالى عنه في القرآن وعلى لسان أنبيائه . وقال بعضهم : المراد بهؤلاء الشركاء كل من عبد من دون الله من إنس وملك وجنّ وشمس وقمر وصنم ، وهذا أظهر ، وعلى هذا والأوّل سموا شركاء ؛ لأنّ الله تعالى لما خاطب العابدين والمعبودين

بقوله تعالى : ﴿ مكانكم ﴾ صاروا شركاء في هذا الخطاب ، ولما قال لهم شركاؤهم ذلك قالوا بل كنا نعبدكم فقال : ﴿ شركاؤهم ﴾ .

﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ﴾ فإنّه تعالى العالم بكنه الحال . ﴿ إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ أي : لم نأمر بها ولم نعلم بها ، وعلى القول بأنها الأصنام فتقول : ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ، فإنها جمادات لا حس لها بشيء ولا شعور البتة .

تنبيه : إن هي المخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة بين الخفيفة والنافية . ﴿ هنالك ﴾ أي : في ذلك الموقف من المكان العظيم الأهوال المتوالي الزلزال ﴿ تبلو ﴾ أي : تختبر ﴿ كل نفس ﴾ طائعة وعاصية ﴿ ما أسلفت ﴾ أي : ما قدّمت من عمل فتعاين نفعه وضرّه يؤدّي إلى سعادة أو شقاوة . وقرأ حمزة والكسائي بتاءين من التلاوة ، أي : تقرأ ذكر ما قدّمت أو من التلو فيتبع كل شخص عمله فيقوده إلى الجنة والنار والباقون بعد التاء باء موحدة من البلوى وهو الاختبار ﴿ وردّوا إلى الله ﴾ أي : إلى جزائه إياهم عما أسلفوا فلم يكن لهم قدرة على قصد غيره . ﴿ مولاهم الحق ﴾ أي : ربهم ومتولي أمرهم على الحقيقة ولا التفات إلى سواه من تلك الأباطيل ، بل انقطع رجاؤهم من كل ما يدعونه في الدنيا وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ وضلّ عنهم ﴾ أي : ذهب وبطل وضاع . ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ أي : يتعمدون كذبه من أنّ معبوداتهم شركاء ، وتيقنوا في ذلك المقام أن توليهم لغير الله كان باطلاً غير حق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 12 ـ 27 ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ﴾

لما ذكر الله سبحانه ما تقدّم من متاع الدنيا ، جاء بكلام مستأنف يضمن بيان حالها وسرعة تقضيها ، وأنها تعود بعد أن تملأ الأعين برونقها ، وتجتلب النفوس ببهجتها . وتحمل أهلها على أن يسفكوا دماء بعضهم بعضاً ، ويهتكوا حرمهم حباً لها ، وعشقاً لجمالها الظاهري ، وتكالباً على التمتع بها ، وتهافتاً على نيل ما تشتهي الأنفس منها بضرب من التشبيه المركب ، فقال : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحياة الدنيا كَمَاء أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السماء ﴾ إلى آخر الآية .

والمعنى : أن مثلها في سرعة الذهاب والاتصاف بوصف يضادّ ما كانت عليه ويباينه ، مثل ما على الأرض من أنواع النبات في زوال رونقه ، وذهاب بهجته ، وسرعة تقضيه ، بعد أن كان غضاً مخضراً طرياً قد تعانقت أغصانه المتمايلة ، وزهت أوراقه المتصافحة ، وتلألأت أنوار نوره ، وحاكت الزهر أنواع زهره ، وليس المشبه به هو ما دخله الكاف في قوله : ﴿

كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السماء ﴾ بل ما يفهم من الكلام ، والباء في : ﴿ فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض ﴾ للسببية ، أي فاختلط بسببه نبات الأرض بأن اشتبك بعضه ببعض ، حتى بلغ إلى حدّ الكمال ، ويحتمل أن يراد أن النبات كان في أوّل بروزه ، ومبدأ حدوثه غير مهتز ولا مترعرع ، فإذا نزل الماء عليه اهتز وربا ، حتى اختلط بعض الأنواع ببعض ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ الناس والأنعام ﴾ من الحبوب والثمار ، والكلأ والتبن ، وأخذت الأرض زخرفها .

قال في الصحاح الزخرف : الذهب ، ثم يشبه به كل مموّه مزوّر .

انتهى .

والمعنى : أن الأرض أخذت لونها الحسن المشابه بعضه للون الذهب ، وبعضه للون الفضة ، وبعضه للون الياقوت ، وبعضه للون الزمرّد .

(338/360)

وأصل ازينت : تزينت أدغمت التاء في الزاي ، وجيء بألف الوصل ؛ لأن الحرف المدغم مقام حرفين أولهما ساكن .

والساكن لا يمكن الابتداء به .

وقرأ ابن مسعود ، وأبيّ بن كعب "وتزينت" على الأصل .

وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية "وأزينت" على وزن أفعلت : أي أزينت بالزينة التي عليها ، شبهها بالعروس التي تلبس الثياب الجيدة المتلونة ألواناً كثيرة .

وقال عوف بن أبي جميلة : قرأ أشياخنا "وازيانت" على وزن اسوادّت ، وفي رواية المقدمي "وازانت" والأصل فيه تزاينت على وزن تفاعلت .

وقرأ الشعبي ، وقتادة "أزينت" ، ومعنى هذه القراءات كلها هو ما ذكرنا ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي : غلب على ظنونهم أو تيقنوا أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بها ، والضمير في عليها للأرض ، والمراد : النبات الذي هو عليها ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا ﴾ جواب إذا ، أي : جاءها أمرنا بإهلاكها واستئصالها وضربها ببعض العاهات ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ﴾ أي : جعلنا زرعها شبيهاً بالمحصود في قطعه من أصوله .

قال أبو عبيدة : الحصيد : المستأصل ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأمس ﴾ أي : كأن لم يكن زرعها موجوداً فيها بالأمس : مخضرّاً طرياً ، من غنى بالمكان بالكسر يغنى بالفتح إذا أقام به ، والمراد بالأمس الوقت القريب ، والمغاني في اللغة : المنازل .

وقال قتادة : كأن لم تنعم ، قال لبيد :

غنيت سنيناً قبل مجرى داحس . . . لو كان للنفس اللجوج خلود

وقرأ قتادة "كن لم يغن" بالتحتية بإرجاع الضمير إلى الزخرف .

وقرأ من عداه ﴿ تَغْنَ ﴾ بالفوقية بإرجاع الضمير إلى الأرض ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل

ذلك التفصيل البديع ﴿ نُفَصِّلُ الآيات ﴾ القرآنية التي من جملتها هذه الآية ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيما اشتملت عليه ، ويجوز أن يراد الآيات التكوينية .

(339/360)

قوله : ﴿ واللهُ يَدْعُو إلى دَارِ السلام ﴾ لما نفر عباده عن الميل إلى الدنيا بما ضربه لهم من المثل السابق ، رغبهم في الدار الآخرة بإخبارهم بهذه الدعوة منه عزّ وجلّ إلى دار السلام ،

قال الحسن وقتادة : السلام هو : الله تعالى ، وداره الجنة .

وقال الزجاج : المعنى والله يدعو إلى دار السلامة .

ومعنى السلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة .

ومنه قول الشاعر :

تحيى بالسلامة أمّ بكر . . . وهل لك بعد قومك من سلام

وقيل : أراد دار السلام الذي هو : التحية ؛ لأن أهلها ينالون من الله السلام بمعنى : التحية ، كما في قوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سلام ﴾ [إبراهيم : 23] .

وقيل : السلام اسم لأحد الجنان السبع : أحدها : دار السلام ، والثانية : دار الجلال ، والثالثة : جنة عدن ، والرابعة : جنة المأوى ، والخامسة : جنة الخلد ، والسادسة : جنة

الفردوس ، والسابعة : جنة النعيم .

وقيل المراد : دار السلام الواقع من المؤمنين بعضهم على بعض في الجنة ، وقد اتفقوا على أن دار السلام هي الجنة ، وإنما اختلفوا في سبب التسمية بدار السلام ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ جعل سبحانه الدعوة إلى دار السلام عامة ، والهداية خاصة بمن يشاء أن يهديه ، تكميلاً للحجة وإظهاراً للاستغناء عن خلقه .

ثم قسم سبحانه أهل الدعوة إلى قسمين ، وبين حال كل طائفة فقال : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ أي : الذين أحسنوا بالقيام بما أوجبه الله عليهم من الأعمال ، والكفّ عما نهاهم عنه من المعاصي ، والمراد بالحسنى المثوبة الحسنى .

(340/360)

قال ابن الأنباري : العرب توقع هذه اللفظة على الخصلة المحبوبة المرغوب فيها ، ولذلك ترك موصوفها ؛ وقيل المراد بالحسنى : الجنة ، وأما الزيادة فقيل المراد بها : ما يزيد على المثوبة من التفضل ، كقوله : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [فاطر : 30] وقيل الزيادة : النظر إلى وجهه الكريم .

وقيل : الزيادة : هي : مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها .

وقيل : الزيادة : غرفة من لؤلؤ ، وقيل الزيادة : مغفرة من الله ورضوان .

وقيل : هي أنه سبحانه يعطيهم في الدنيا من فضله ما لا يحاسبهم عليه .

وقيل : غير ذلك ، مما لا فائدة في ذكره ، وسيأتي بيان ما هو الحق في آخر البحث : ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ معنى ﴿ يرهق ﴾ : يلحق ، ومنه قيل : غلام مراهق ، إذا لحق بالرجال ، وقيل يعلو ، وقيل يغشى ، والمعنى متقارب ؛ والقتر : الغبار ، ومنه قول الفرزدق :

متوّج برداء الملك يتبعه . . . موج ترى فوقه الرايات والقترا

وقرأ الحسن "قتر" بإسكان المثناة ، والمعنى واحد ، قاله النحاس ، وواحد القتر قترة ، والذلة : ما يظهر على الوجه من الخضوع والإنكسار والهوان ، والمعنى : أنه لا يعلو وجوههم غبرة ، ولا يظهر فيها هوان ؛ وقيل القتر : الكآبة ، وقيل : سواد الوجوه ، وقيل : هو دخان النار ﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب الجنة هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ الإشارة إلى المتصفين بالصفات السابقة هم أصحاب الجنة الخالدون فيها ، المتنعمون بأنواع نعيمها ﴿ والذين كَسَبُواْ السيئات جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ هذا الفريق الثاني من أهل الدعوة ، وهو معطوف على ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ كأنه قيل : وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، أو يقدر .

وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها : أي يجازي سيئة واحدة بسيئة واحدة ، لا يزاد عليها ، وهذا أولى من الأوّل ، لكونه من باب العطف على معمولي عاملين مختلفين ، والمراد بالسيئة : إما الشرك ، أو المعاصي التي ليست بشرك ، وهي ما يتلبس به العصاة من المعاصي ، قال ابن كيسان : الباء زائدة ، والمعنى : جزاء سيئة مثلها ؛ وقيل : الباء مع ما بعدها الخبر ، وهي متعلقة بمحذوف قامت مقامه ، والمعنى : جزاء سيئة كائن بمثلها ، كقولك إنما أنا بك ، ويجوز أن يتعلق بجزاء ، والتقدير جزاء سيئة بمثلها كائن ، فحذف خبر المبتدأ ، ويجوز أن يكون ﴿ جَزَاء ﴾ مرفوعاً على تقدير : فلهم جزاء سيئة ، فيكون مثل قوله : ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة : 184] أي : فعليه عدّة .

والباء على هذا التقدير متعلقة بمحذوف ، كأنه قال : لهم جزاء سيئة ثابت بمثلها ، أو تكون مؤكدة أو زائدة .

قوله : ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أي يغشاهم هوان وخزي .

وقرىء "يرهقهم" بالتحتية ﴿ لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي : لا يعصمهم أحد كائناً من كان من سخط الله وعذابه ، أو ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين ، والأوّل : أولى ، والجملة في محل نصب على الحالية ، أو مستأنفة ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ الليل مُظْلِماً ﴾ قطعاً جمع قطعة ، وعلى هذا يكون مظلماً

منتصباً على الحال من الليل : أي أغشيت وجوههم قطعاً من الليل في حالة ظلمته .

وقد قرأ بالجمع جمهور القراء .

وقرأ الكسائي وابن كثير " قطعا " بإسكان الطاء ، فيكون ﴿ مظلماً ﴾ على هذا صفة ل ﴿ قطعا ﴾ ، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿ الليل ﴾ .

قال ابن السكيت : القطع طائفة من الليل ﴿ أولئك ﴾ أي : الموصوفون بهذه الصفات الذميمة ﴿ أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ وإطلاق الخلود هنا مقيد بما تواتر في السنة من خروج عصاة الموحدين .

(342/360)

قوله : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ الحشر الجمع ، وجميعاً منتصب على الحال ﴿ وَيَوْمَ ﴾ منصوب بمضمر : أي أنذرهم يوم نحشرهم ، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوالهم القبيحة .

والمعنى : أن الله سبحانه يحشر العابد والمعبود لسؤالهم ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ في حالة الحشر ، ووقت الجمع تقريعاً لهم على رءوس الأشهاد ، وتوبيخاً لهم مع حضور من يشاركهم في العبادة ، وحضور معبوداتهم ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ أي : الزموا مكانكم ، واثبتوا فيه

، وقفوا في موضعكم ﴿ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ هذا الضمير تأكيد للضمير الذي في مكانكم لسدّه مسدّ الزموا ، و ﴿ شركاؤكم ﴾ معطوف عليه .

وقرىء بنصب ﴿ شركاؤكم ﴾ على أن الواو واو مع .

قوله : ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ أي : فرّقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا : يقال زيلته فتزيل : أي فرقته فتفرق ، والمزايلة المفارقة ، يقال زايله مزايلة ، وزيالاً إذا فارقه ، والتزايل التباين .

قال الفراء : وقرأ بعضهم : " فزايلنا " والمراد بالشركاء هنا : الملائكة .

وقيل الشياطين ، وقيل الأصنام ، وإن الله سبحانه ينطقها في هذا الوقت .

وقيل : المسيح ، وعزير ، والظاهر أنه كل معبود للمشركين كائناً ما كان ، وجملة : ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ في محل نصب على الحال بتقدير قد ، والمعنى : وقد قال شركاؤهم الذين عبدوهم وجعلوهم شركاء لله سبحانه ما كنتم إيانا تعبدون ، وإنما عبدتم هواكم وضلالكم ، وشياطينكم الذين أغووكم ، وإنما أضاف الشركاء إليهم مع أنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه ، لكونهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم ، فهم شركاؤهم في أموالهم من هذه الحيثية .

وقيل : لكونهم شركاؤهم في هذا الخطاب ، وهذا الجحد من الشركاء وإن كان مخالفاً لما قد وقع من المشركين من عبادتهم ، فمعناه إنكار عبادتهم إياهم عن أمرهم لهم بالعبادة ﴿ فكفى بالله شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ إن كنا أمرناكم بعبادتنا ، أو رضينا ذلك منكم ﴿ إِن كُنَّا عَن عِبَادَتِكُمْ لغافلين ﴾ "إن" هي المخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية ، والقائل لهذا الكلام هم : المعبودون .

قالوا لمن عبدهم من المشركين : إنا كنا عن عبادتكم لنا لغافلين ، والمراد بالغفلة هنا : عدم الرضا بما فعله المشركون من العبادة لهم ، وفي هذا دليل على أن هؤلاء المعبودين غير الشياطين ، لأنهم يرضون بما فعله المشركون من عبادتهم ، ويمكن أن يكونوا من الشياطين ، ويحمل هذا الجحد منهم على أنهم لم يجبروهم على عبادتهم ، ولا أكرهوهم عليها .

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ أي : في ذلك المكان وفي ذلك الموقف ، أو في ذلك الوقت على استعارة اسم الزمان للمكان تذوق كل نفس وتختبر جزاء ما أسلفت من العمل ، فمعنى ﴿ تبلو ﴾ : تذوق وتختبر .

وقيل : تعلم .

وقيل : تتبع ، وهذا على قراءة من قرأ "تبلو" بالمثناة الفوقية بإسناد الفعل إلى كل نفس ؛ وأما على قراءة من قرأ : "نبلو" بالنون ، فالمعنى : أن الله يبتلي كل نفس ويختبرها ، ويكون

ما أسلفت بدلاً من كل نفس .

والمعنى : أنه يعاملها معاملة من يختبرها ويتفقد أحوالها .

(344/360)

قوله : ﴿ وَرُدُّواْ إِلَى الله مولاهم الحق ﴾ معطوف على ﴿ زيلنا ﴾ ، والضمير في ﴿ ردّوا ﴾ عائد إلى الذين أشركوا : أي ردّوا إلى جزائه ، وما أعدّ لهم من عقابه ، و ﴿ مولاهم ﴾ : ربهم ، و ﴿ الحق ﴾ صفة له : أي الصادق الربوبية دون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة ، وقرىء "الحق" بالنصب على المدح ، كقولهم الحمد لله أهل الحمد ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي : ضاع وبطل ما كانوا يفترون من أن الآلهة التي لهم حقيقة بالعبادة ، لتشفع لهم إلى الله وتقرّبهم إليه .

والحاصل أن هؤلاء المشركين يرجعون في ذلك المقام إلى الحق ، ويعترفون به ، ويقرّون ببطلان ما كانوا يعبدونه ويجعلونه إلهاً ، ولكن حين لا ينفعهم ذلك .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض ﴾ قال : اختلط فنبت بالماء كل لون ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ الناس ﴾ كالحنطة والشعير ، وسائر حبوب الأرض والبقول والثمار ، وما تأكله الأنعام والبهائم من الحشيش والمراعي .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة في قوله : ﴿ وازينت ﴾ قال : أنبتت وحسنت ، وفي قوله : ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأمس ﴾ قال : كأن لم تعش ، كأن لم تنعم .

وأخرج ابن جرير ، عن أبيّ بن كعب ، وابن عباس ، ومروان بن الحكم ، أنهم كانوا يقرءون بعد قوله : ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، أنه كان يقرأ : وما أهلكناها إلا بذنوب أهلها "كذلك نفصل الأيات" .

(345/360)

وأخرج ابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن أبي مجلز ، قال : كان مكتوب في سورة يونس إلى حيث هذه الآية ﴿ حتى إِذَا أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا ﴾ إلى ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمني وادياً ثالثاً ، ولا يشبع نفس ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ، فمحيت .

وأخرج أبو نعيم ، والدمياطي في معجمه من طريق الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ والله يَدْعُو إِلَى دَارُ السلام ﴾ يقول : يدعو إلى عمل الجنة .

والله : السلام ، والجنة : داره .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي العالية ، في قوله : ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَاء ﴾ قال : يهديهم للمخرج من الشبهات والفتن والضلالات .

وأخرج أحمد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب ، عن أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من يوم طلعت شمسه إلا وكل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : يا أيها الناس ، هلموا إلى ربكم ، فما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى ، ولا آبت شمسه إلا وكل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً تلفاً ﴿ والليل إِذَا يغشى * والنهار إِذَا تجلى ﴾ إلى قوله : ﴿ للعسرى ﴾ [الليل : 1 0 1] "

(346/360)

وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن سعيد بن أبي هلال ، سمعت أبا جعفر محمد بن عليّ وتلا : ﴿ والله يَدْعُو إلى دَارِ السلام وَيَهْدِي مَن

يَشَاء إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فقال : حدّثني جابر قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : " إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي ، وميكائيل عند رجلي ، يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلاً ، فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمتك مثل ملك اتخذ داراً ، ثم بنى فيها بيتاً ، ثم جعل فيها مأدبة ، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من ترك ؛ فالله هو الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد رسول ، فمن أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل منها " وقد روي معنى هذا من طرق .

وأخرج أحمد في الزهد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ واللهُ يَدْعُواْ إِلَى دَارُ السلام ﴾ قال : ذكر لنا أن في التوراة مكتوباً : يا باغي الخير هلمّ ، ويا باغي الشرّ اتقه .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الحسن ، أنه كان إذا قرأ : ﴿ واللهُ يَدْعُواْ إِلَى دَارُ السلام ﴾ قال : لبيك ربنا وسعديك .

(347/360)

وأخرج أحمد ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وغيرهم ، عن صهيب : "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ قال : " إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار نادى مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ، ويبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويزحزحنا عن النار ؛ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبّ إليهم من النظر إليه ، ولا أقرّ لأعينهم " وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والدارقطني في الرؤية ، وابن مردويه ، عن أبي موسى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي بصوت يسمعه أوّلهم وآخرهم : إن الله وعدكم الحسنى وزيادة " فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقي في الرؤية ، عن كعب بن عجرة ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، في قوله : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ قال : " الزيادة : النظر إلى وجه الرحمن " وأخرج هؤلاء والدارقطني ، وابن أبي حاتم ، عن أبيّ بن كعب ، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ قال : " الذين أحسنوا : أهل التوحيد ، والحسنى : الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الله " وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عمر ، مرفوعاً نحوه .

وأخرج أبو الشيخ ، والدارقطني ، وابن مردويه ، والخطيب ، وابن النجار ، عن أنس مرفوعاً نحوه .

وأخرج أبو الشيخ ، عن أبي هريرة نحوه .

(348/360)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن خزيمة ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، والدارقطني ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عن أبي بكر الصدّيق ، في الآية قال : الحسنى : الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الله .

وأخرج ابن مردويه ، من طريق الحرث ، عن عليّ بن أبي طالب في الآية مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، والدارقطني ، والبيهقي ، عن حذيفة في الآية قال : الزيادة : النظر إلى وجه الله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والدارقطني ، والبيهقي ، عن أبي موسى نحوه .

وأخرج ابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، من طريق عكرمة ، عن ابن عباس نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، واللالكائي عن ابن مسعود ، نحوه .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي ، عن عليّ قال : الزيادة : غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب غرفها وأبوابها من لؤلؤة واحدة .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال : هو مثل قوله : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : 35] يقول : يجزيهم بعملهم ، ويزيدهم من فضله .

وقال : ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : 160] .

وقد روى عن التابعين ومن بعدهم روايات في تفسير الزيادة غالبها أنها النظر إلى وجه الله سبحانه .

وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يبق حينئذ لقائل مقال ، ولا التفات إلى المجادلات الواقعة بين المتمذهبة الذين لا يعرفون من السنة المطهرة ما ينتفعون به ، فإنهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم ، والله المستعان .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ ﴾ قال : لا يغشاهم ﴿ قَتَرٌ ﴾ قال : سواد الوجوه .

وأخرج أبو الشيخ عن عطاء في الآية قال : القتر : سواد الوجه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، في الآية قال : خزي .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن صهيب عن النبيّ : ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ قال : " بعد نظرهم إليه عزّ وجلّ " وأخرج أبو الشيخ ، عن السديّ ، في قوله : ﴿ والذين كَسَبُواْ السيئات ﴾ قال : الذين عملوا الكبائر ﴿ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ قال : النار ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ الليل مُظْلِماً ﴾ القطع : السواد .

نسختها الآية في البقرة : ﴿ بلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ [البقرة : 81] الآية .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ قال : تغشاهم ذلة وشدّة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عنه ، في قوله : ﴿ مَّا لَهُم مِّنَ الله مِنْ عَاصِمٍ ﴾ يقول : من مانع .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ قال : الحشر الموت .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن زيد ، في قوله : ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ قال : فرّقنا بينهم .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، قال :

تنصب الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله ، فيقول : هؤلاء الذين كنتم تعبدون من دون الله ؟ فيقولون : نعم ، هؤلاء الذين كنا نعبد ، فتقول لهم الآلهة .

والله ما كنا نسمع ولا نبصر ، ولا نعقل ، ولا نعلم ، أنكم كنتم تعبدوننا ، فيقولون : بلى والله لإياكم كنا نعبد ، فتقول لهم الآلهة : ﴿ فكفى بالله شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لغافلين ﴾ .

(350/360)

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يمثل لهم يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله ، فيتبعونهم حتى يؤدّوهم النار " ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ ، عن السديّ ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ ﴾ يقول : تتبع .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، قال : ﴿ تبلو ﴾ : تختبر .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن ابن زيد ، ﴿ تبلو ﴾ قال : تعاين ﴿ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ ما عملت ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ ما كانوا يدعون معه من

الأنداد .

وأخرج أبو الشيخ ، عن السديّ في قوله : ﴿ وَرُدُّواْ إِلَى اللهِ مولاهم الحق ﴾ قال : نسخها قوله : ﴿ اللهُ مَوْلَى الذين ءامَنُواْ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ ﴾ [محمد : 11] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(351/360)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وإذا أذقنا الناس ﴾ ذوق توبة وإنابة أو ذوق كشف وشهود ﴿ من بعد ضراء ﴾ وهي الفسوق والأخلاق الذميمة وحجب الأوصاف ﴿ إذا لهم مكر في آياتنا ﴾ بإظهارها إلى غير أهلها بشرف النفس وطلب الجاه والقبول . ﴿ قل الله أسرع مكراً ﴾ فيستدرجهم عن تلك المقامات إلى دركات البعد ﴿ من حيث لا يشعرون ﴾ ﴿ هو الذي يسيركم ﴾ في بر البشرية وبحر الروحانية ، أو في بر العبودية وبحر الربوبية ﴿ حتى إذا كنتم ﴾ في فلك جذبات العناية ﴿ وجرين بهم ﴾ بهبوب نسيم شهود الجمال ﴿ وفرحوا ﴾ بالوصول والوصال ﴿ جاءتها ﴾ نكباء تجلى صفات الجلال ﴿ وجاءهم

﴿ موج البلاء والمحن من أماكن النعم والبلاء موكل بالأنبياء ثم بالأولياء ثم الأمثل فالأمثل ﴿ فلما أنجاهم ﴾ فيه إشارة إلى أن أرباب الطلب لما وصلوا بجذبات الحق إلى شهود الجمال واستغراق لجج بحر الجلال ، استقبلتهم عواصف العزة والكبرياء فيستدرجهم إلى البغي وهو الطلب في أرض ما سوى الحق غير الحق ﴿ كماء أنزلناه ﴾ من سماء القلب إلى أرض البشرية ﴿ فاختلط به ﴾ الصفات المولدة من أرض البشرية ﴿ مما يأكل الناس والأنعام ﴾ من الصفات الحميدة الإنسانية والذميمة البهيمية ﴿ أتاها ﴾ حكمنا الأزلي ﴿ ليلاً ﴾ عند استيلاء ظلمات صفات النفس ﴿ أو نهاراً ﴾ عند بقاء ضوء الفيض الروحاني ، لكنه بامتزاج القوة الخيالية والوهمية وقع في ورطة العقائد الباطلة كما لبعض الفلاسفة والمبتدعة . ﴿ والله يدعوا إلى دار السلام ﴾ وهي مقام الفناء لأن صاحبه يسلم عن آفات الحجب أو مقام العلم والمعرفة لأن صاحبه يسلم عن آفة الأثنينية والجهالة ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ بجذبات العناية ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ يؤدي إلى السير بالله في الله . ﴿ للذين أحسنوا الحسنى ﴾ فالإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، والحسنى هي شواهد الحق والنظر إليه ، والزيادة الجنة وما فيها من النعيم أو هي ما زاد على النظر من إفناء الناسوتية في اللاهوتية والله ولي التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 578.579 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والستون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الحادى والستون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 31 ﴾ من سورة يونس عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 41 ﴾ من نفس السورة

(4/361)

قوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما قدم سبحانه أن شركاءهم مربوبون مقهورون ، لا قدرة لهم إلاّ على ما يقدرهم الله عليه ، وأنه وحده المولى الحق ، وبانت بذلك فضائحهم ، أتبعه ذكر الدلائل على فساد مذهبهم ، فوبخهم بأن وجه السؤال إليهم عما هم معترفون بأنه مختص به ويدل قطعاً على تفرده بجميع الأمر الموجب من غير وقفة لاعتقاد تفرده بالإلهية فقال : ﴿ قل ﴾ أي يا أكرم خلقنا وأرفقهم بالعباد ﴿ من يرزقكم ﴾ أي يجلب لكم الخيرات أيها المنكرون للبعث

المدعون للشركة ﴿ من السمآء ﴾ أي بالمطر وغيره من المنافع ﴿ والأرض ﴾ بالنبات وغيره لتعيشوا ﴿ أمّن يملك السمع ﴾ أي الذي تسمعون به الآيات ، ووحده للتساوي فيه في الغالب ﴿ والأبصار ﴾ التي تبصرون بها ما أنعم عليكم به في خلقها ثم حفظها في المدد الطوال على كثرة الآفات فيفيضها عليكم لتكمل حياتكم الحسية ببقاء الروح ، والمعنوية بوجود العلم ؛ روي عن علي ـ رضى الله عنهم ـ أنه قال : سبحان من بصر بشحم ، وأسمع بعظم ، وأنطق بلحم .

فلما سألهم عن أوضح ما هم فيه وأقربه ، نبههم على ما قبله من بدء الخلق فقال : ﴿ ومن يخرج الحي ﴾ من الحيوان والنبات ﴿ من الميت ﴾ أي من النطفة ونحوها ﴿ ويخرج الميت ﴾ أي من النطفة ونحوها مما لا ينمو ﴿ من الحي ﴾ أي فينقل من النقص إلى الكمال ؛ ثم عم فقال : ﴿ ومن يدبر الأمر ﴾ أي كله التدبير العام .

(5/361)

ولما كانوا مقرين بالرزق وما معه من الخلق والتدبير ، أخبر عن جوابهم إذا سئلوا عنه بقوله : ﴿ فسيقولون الله ﴾ أي مسمى هذا الاسم الذي له الكمال كله بالحياة والقيومية بخلاف ما سيأتي من الإعادة والهداية ﴿ فقل ﴾ أي فتسبب عن ذلك أنا نقول لك : قل لهم مسبباً

عن جوابهم هذا الإنكار عليهم في عدم التقوى : ﴿ أفلا تتقون ﴾ أي تجعلون وقاية بينكم وبين عقابه على اعترافكم بتوحده في ربوبيته وإشراككم غيره في إلهيته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 438 . 439 ﴾

(6/361)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ كلمات ربك ﴾ وكذلك في آخر السورة على الجمع : أبو جعفر ونافع وابن عامر ﴿ لا يهدي ﴾ مثل ﴿ يرمي ﴾ : حمزة وعلي وخلف ﴿ يهدي ﴾ بسكون الهاء وتشديد الدال : أبو جعفر ونافع غير ورش وعباس وأبو عمرو غير عباس بإشمام الفتحة قليلاً ﴿ يهدي ﴾ بكسر الهاء وتشديد الدال : عاصم غير يحيى وجبلة ورويس ﴿ يهدي ﴾ بكسرتين والتشديد : يحيى ﴿ يهدي ﴾ بفتحتين والتشديد : ابن كثير وابن عامر وورش وسهل ويعقوب غير رويس .

الوقوف : ﴿ يدبر الأمر ﴾ ط ﴿ الله ﴾ ج ﴿ تتقون ﴾ ه ج ط ﴿ ربكم الحق ﴾ ج ط للاستفهام مع الفاء ﴿ إلا الضلال ﴾ ج ط ﴿ تصرفون ﴾ ه ﴿ لا يؤمنون ﴾ ه ﴿ ثم

يعيده ﴿ الأول ط ﴿ تؤفكون ﴾ ه ﴿ إلى الحق ﴾ ط ﴿ للحق ﴾ ط ﴿ أن يهدي ﴾ ج ط لما مر ﴿ فما لكم ﴾ ص لحق الاستفهام الثاني ﴿ تحكمون ﴾ ه ط ﴿ إلا ظناً ﴾ ط ﴿ شيئاً ﴾ ط ﴿ شيئاً ﴾ ط ﴿ يفعلون ﴾ ه ﴿ العالمين ﴾ ه ﴿ افتراء ﴾ ط ﴿ صادقين ﴾ ه ﴿ تأويله ﴾ ط ﴿ الظالمين ﴾ ه ﴿ لا يؤمن به ﴾ ط ﴿ بالمفسدين ﴾ ه ﴿ عملكم ﴾ ج لأن ﴿ أنتم ﴾ مبتدأ والعامل واحد ﴿ تعملون ﴾ ه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 579 ﴾

(7/361)

فصل

قال الفخر:

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين فضائح عبدة الأوثان أتبعها بذكر الدلائل الدالة على فساد هذا المذهب.

فالحجة الأولى: ما ذكره في هذه الآية وهو أحوال الرزق وأحوال الحواس وأحوال الموت والحياة.

أما الرزق فإنه إنما يحصل من السماء والأرض ، أما من السماء فبنزول الأمطار الموافقة وأما من الأرض ، فلأن الغذاء إما أن يكون نباتاً أو حيواناً ، أما النبات فلا ينبت إلا من الأرض وأما الحيوان فهو محتاج أيضاً إلى الغذاء .

ولا يمكن أن يكون غذاء كل حيوان حيواناً آخر وإلا لزم الذهاب إلى ما لا نهاية له وذلك محال ، فثبت أن أغذية الحيوانات يجب انتهاؤها إلى النبات وثبت أن تولد النبات من الأرض ، فلزم القطع بأن الأرزاق لا تحصل إلا من السماء والأرض ، ومعلوم أن مدبر السموات والأرضين ليس إلا الله سبحانه وتعالى ، فثبت أن الرزق ليس إلا من الله تعالى ، وأما أحوال الحواس فكذلك ، لأن أشرفها السمع والبصر وكان علي رضي الله عنه يقول : سبحان من بصر بشحم ، وأسمع بعظم ، وأنطق بلحم ، وأما أحوال الموت والحياة فهو قوله : ﴿ وَمَن يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾ وفيه وجهان : الأول : أنه يخرج الإنسان والطائر من النطفة والبيضة ﴿ وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾ أي يخرج النطفة والبيضة من الإنسان والطائر .

(8/361)

والثاني : أن المراد منه أنه يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والأكثرون على القول الأول ، وهو إلى الحقيقة أقرب ، ثم إنه تعالى لما ذكر هذا التفصيل ذكر بعده كلاماً كلياً ، وهو قوله : ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الامر ﴾ وذلك لأن أقسام تدبير الله تعالى في العالم العلوي وفي العالم السفلي وفي عالمي الأرواح والأجساد أمور لا نهاية لها ، وذكر كلها كالمتعذر ، فلما ذكر بعض تلك التفاصيل لا جرم عقبها بالكلام الكلي ليدل على الباقي ثم بين تعالى أن الرسول عليه السلام ، إذا سألهم عن مدبر هذه الأحوال فسيقولون إنه الله سبحانه وتعالى ، وهذا يدل على أن المخاطبين بهذا الكلام كانوا يعرفون الله ويقرون به ، وهم الذين قالوا في عبادتهم للأصنام إنها تقربنا إلى الله زلفى وإنهم شفعاؤنا عند الله وكانوا يعلمون أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ، فعند ذلك قال لرسوله عليه السلام : ﴿ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ يعني أفلا تتقون أن تجعلوا هذه الأوثان شركاء لله في المعبودية ، مع اعترافكم بأن كل الخيرات في الدنيا والآخرة إنما تحصل من رحمة الله وإحسانه ، واعترافكم بأن هذه الأوثان لا تنفع ولا تضر ألبتة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 70 . 71 ﴾

(9/361)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السماء ﴾

يعني : قل يا محمد للمشركين : من يرزقكم من السماء بالمطر .

﴿ والأرض ﴾ ومن الأرض بالنبات .

﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السمع والابصار ﴾ ، أي من يخلق لكم السمع والأبصار ، ﴿ وَمَن يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ﴾ ؛ ومن يقدر أن يخرج الحي من الميت ، يعني : الفرخ من البيضة .

﴿ وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾ ، يعني : البيضة من الطير ، والنطفة من الإنسان ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن .

﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأمر ﴾ ، يعني : من يقدر أن يدبر الأمر بين الخلق ، وينظر في تدبير الخلائق ، ويقال : من يرسل الملائكة بالأمر .

﴿ فَسَيَقُولُونَ الله ﴾ يفعل ذلك كله لا الأصنام ، لأن الأصنام لم يكن لهم قدرة على هذه الأشياء .

﴿ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ الشرك فتوحدونه ، إذ تعلمون أن لا يقدر أحد أن يفعل هذه الأشياء إلا الله تبارك وتعالى ، ويقال : أفلا تتقون أي تطيعون الله الذي يملك ذلك ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(10/361)

وقال القرطبى :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

المراد بمساق هذا الكلام الردُّ على المشركين وتقرير الحجة عليهم ؛ فمن اعترف منهم فالحجة ظاهرة عليهم ، ومن لم يعترف فيقرّر عليه أن هذه السموات والأرض لا بدّ لهما من خالق ؛ ولا يتمارى في هذا عاقل .

وهذا قريب من مرتبة الضرورة .

﴿ مِّنَ السمآء ﴾ أي بالمطر .

﴿ والأرض ﴾ بالنبات .

﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السمع والأبصار ﴾ أي من جعلهما وخلقهما لكم .

﴿ وَمَن يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت ﴾ أي النباتَ من الأرض ، والإنسان من النطفة ، والسُّنْبُلَةَ من الحبّة ، والطيرَ من البيضة ، والمؤمنَ من الكافر .

﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأمر ﴾ أي يقدره ويقضيه .

﴿ فَسَيَقُولُونَ الله ﴾ لأنهم كانوا يعتقدون أن الخالق هو الله ؛ أو فسيقولون هو الله إن فكروا وأنصفوا ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم يا محمد .

﴿ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ أي أفلا تخافون عقابه ونِقْمته في الدنيا والآخرة. انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(11/361)

وقال أبو حيان :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

لما بين فضائح عبدة الأوثان ، أتبعها بذكر الدلائل على فساد مذهبهم بما يوبخهم ، ويحجهم بما لا يمكن إلا الاعتراف به من حال رزقهم وحواسهم ، وإظهار القدرة الباهرة في الموت والحياة .

فبدأ بما فيه قوام حياتهم وهو الرزق الذي لا بد منه ، فمن السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات .

فمن لابتداء الغاية وهيىء الرزق بالعالم العلوي والعالم السفلي معا لم يقتصر على جهة واحدة ، تعالى توسعة منه وإحساناً .

ومن ذهب إلى أنّ التقدير من أهل السماء والأرض فتكون من للتبعيض أو للبيان .

ثم ذكر ملكه لهاتين الحاستين الشريفتين : السمع الذي هو سبب مدارك الأشياء ، والبصر

الذي يرى ملكوت السموات والأرض .

ومعنى ملكهما أنه متصرف فيهما بما يشاء تعالى من إبقاء وحفظ وإذهاب .

وقال الزمخشري : من يملك السمع والأبصار من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سويا عليه من الفطرة العجيبة ، أو من يحميهما ويعصمهما من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال ، وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شيء بكلاءته وحفظه انتهى .

ولا يظهر هذان الوجهان اللذان ذكرهما من لفظ أم من يملك السمع والأبصار .

وعن عليّ كرم الله وجهه : سبحان من بصر بشحم ، وأسمع بعظم ، وأنطق بلحم .

وأم هنا تقتضي تقدير بل دون همزة الاستفهام لقوله تعالى : ﴿ أما ذا كنتم تعملون ﴾ فلا تتقدّر ببل ، فالهمزة لأنها دخلت على اسم الاستفهام ، وليس إضراب إبطال به هو لانتقال من شيء إلى شيء .

ونبه تعالى بالسمع والبصر على الحواس لأنهما أشرفها ، ولما ذكر تعالى سبب إدامة الحياة وسبب انتفاع الحي بالحواس ، ذكر إنشاءه تعالى واختراعه للحي من الميت ، والميت من الحي ، وذلك من باهر قدرته ، وهو إخراج الضد من ضده .

(12/361)

وتقدم تفسير ذلك ومن يدبر الأمر شامل لما تقدم من الأشياء الأربعة المذكورة ولغيرها ، والأمور التي يدبرها تعالى لا نهاية لها ، فلذلك جاء بالأمر الكلي بعد تفصيل بعض الأمور . واعترافهم بأنّ الرازق والمالك والمخرج والمدبر هو الله أي : لا يمكنهم إنكاره ولا المنافسة فيه .

ومعنى أفلا تتقون : أفلا تخافون عقوبة الله في افترائكم وجعلكم الأصنام آلهة ؟ وقيل : أفلا تتعظون فتنتهون عن ما حذرت عنه تلك الموعظة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(13/361)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ أي لأولئك المشركين الذين حُكيت أحوالُهم وبيّن ما يؤدي إليه أعمالُهم احتجاجاً على حقية التوحيدِ وبُطلانِ ما هم عليه من الإشراك ﴿ مَن يَرْزُقُكُم مّنَ السماء والأرض ﴾ أي منهما جميعاً فإن الأرزاقَ تحصُل بأسباب سماوية وموادَّ أرضيةٍ أو من كل واحدة منهما توسعةً عليكم وقيل : مِنْ لبيان كلمة مَنْ على حذف المضافِ أي مِنْ

أهل السماء والأرض ﴿ أَمَّنْ يَمْلِكُ السمع والابصار ﴾ أم منقطعةٌ وما فيها من كلمة بل للإضراب عن الاستفهام الأولِ لكن لا على طريقة الإبطالِ بل على وجه الانتقالِ وصرفِ الكلام عنه إلى استفهام آخرَ تنبيهاً على كفايته فيما هو المقصودُ ، أي من يستطيع خلقَهما وتسويتَهما على هذه الفطرةِ العجيبةِ أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالِهما من أدنى شيءٍ يصيبهما ﴿ وَمَن يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾ أي ومن يحيي ويميت أو ومن ينشىء الحيوانَ من النطفة والنطفةَ من الحيوان ﴿ وَمَن يُدبِّرُ الأمر ﴾ أي ومن يلي تدبيرَ أمرِ العالم جميعاً ، وهو تعميمٌ بعد تخصيصِ بعضِ ما اندرج تحته من الأمور الظاهرةِ بالذكر ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ بلا تلعثم ولا تأخير ﴿ الله ﴾ إذ لا مجال للمكابرة لغاية وضوحِه ، والخبرُ محذوف أي الله يفعل ما ذكر من الأفاعيل لا غيرُه .

﴿ فَقُلْ ﴾ عند ذلك تبكيتاً لهم ﴿ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ الهمزةُ لإنكار عدمِ الاتقاء بمعنى إنكارِ الواقع كما في أتضرب أباك ؟ لا بمعنى إنكار الوقوع في أأضربُ أبي ؟ والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظمُ الكريمُ أي أتعلمون ذلك فلا تقون أنفسَكم عذابَه الذي ذَكر لكم بما تتعاطَونه من إشراككم به ما لا يشاركه في شيء مما ذُكر من خواصّ الإلهية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(14/361)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ أي لأولئك المشركين الذين حيكت أحوالهم وبين ما يؤدي إليه أفعالهم التي هي أفعى لهم احتجاجاً على حقية التوحيد وبطلان ما هم عليه من الاشراك .

﴿ مَن يَرْزُقُكُم مّنَ السماء والأرض ﴾ أي منهما جميعاً فإن الارزاق تحصل بأسباب سماوية كالمطر وحرارة الشمس المنضجة وغير ذلك ومواد أرضية والأولى بمنزلة الفاعل والثانية بمنزلة القابل أو من كل واحد منهما بالاستقلال كاللأمطار والمن والأغذية الأرضية توسعة عليكم فمن على هذا لابتداء الغاية ، وقيل : هي لبيان ﴿ مِنْ ﴾ على تقدير المضاف ، وقيل : تبعيضية على ذلك التقدير أي من أهل السماء والأرض ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السمع والابصار ﴾ ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة بمعنى بل والاضراب انتقالي لا ابطالي وفيه تنبيه على كفاية هذا الاستفهام فيما هو المقصود أي من يستطيع خلقهما وتسويتهما على هذه الفطرة العجيبة ومن وقف على تشريحهما وقف على ما يبهر العقول أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما عن أدنى شيء يصيبهما أو من يتصرف بهما ادها با وابقاء ، والملك على كل مجاز ، قيل : والمعنى الأول أوفق لنظم الخالقية مع الرازقية كقوله تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ خالق غَيْرُ الله يَرْزُقُكُمْ مّنَ السماء والأرض ﴾ [فاطر : 35] ﴿

وَمَن يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ويُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾ أي ومن ينشىء الحيوان من النطفة مثلا والنطفة من الحيوان أو من يحيي أو يميت بأن يكون المراد بالإخراج التحصيل من قولهم : الخارج كذا أي الحاصل أي من يحصل الحي من الميت بأن يفيض عليه الحياة ويحصل الميت من الحي بأن يفيض عليه الموت ويسلب عنه الحياة والمآل ما علمت ، ومن الناس من فسر الحي والميت هنا بالمؤمن والكافر والأول أولى ﴿ وَمَن يُدبّرُ الأمر ﴾ أي ومن يلي تدبير أم العالم جميعاً وهو تعميم بعد تخصيص ما اندرج تحته من الأمور الظاهرة بالذكر ، وفيه إشارة إلى أن الكل منه سبحانه وإليه وأنه لا يمكنكم علم تفاصيله ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ بلا تلعثم ولا تأخير ﴿ الله ﴾ إذ لا مجال للمكابرة والعناد في شيء من ذلك لغاية وضوحه ، والاسم الجليل مبتدأ والخبر محذوف أي الله

(15/361)

يفعل ما ذكر من الأفاعيل لا غيره ﴿ هذا ﴾ وربما يستدل بالآية على تقدير أن لا تكون ﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية على جواز أن يقال الله سبحانه انه من أهل السماء والأرض ، وكون المراد هناك غير الله تعالى لا يناسب الجواب ومن لم ير الجواز تعني ومن رآه بناء على ظواهر الآيات المفيدة لكونه تعالى في السماء وقوله صلى الله عليه وسلم في الجارية التي

أشارت إلى السماء حين قيل لها .

اين الله ؟ "أعتقها فإنها مؤمنة" وإقراره حصينا حين قال له عليه الصلاة والسلام :

"كم تعبد يا حصين ؟ فقال : سبعة ستة في الأرض وواحد في السماء فقال صلى الله عليه وسلم : فمن الذي أعددته لرغبتك ورهبتك ؟ فقال حصين : الاله الذي في السماء " أبقي الآية على ما يقتضيه ظاهرها .

وأنت تعلم إنه لم يرد صريحاً كونه تعالى من أهل السماء والأرض وان ورد كونه جل وعلا في السماء على المعنى اللائق بجلاله جل جلاله فلا أرى جواز ذلك ، ولا داعي لإخراج ﴿ مِنْ ﴾ عن ابتداء الغاية ليحتاج إلى العناية فر رد الاستدلال كما لا يخفى .

وفي الانتصاف أن هذه الآية كافحة لوجوه القدرية الزاعمين أن الارزاق منقسمة فمنها ما رزقه الله تعالى للعبد وهو الحلال ومنها ما رزقه العبد لنفسه وهو الحرام فهي ناعية عليهم هذا الشرك الخفي لو سمعوا ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : 42]

وكذا فيما قيل تكفح في وجوه أناس يزعمون أن الذي يدبر الأمر في كل عصر قطبه وهو عماد السماء عندهم ولولاه لوقعت على الأرض فكوني بك إذا سألتهم من يدبر الأمر يقولون القطب ، وقد يعتذر عنهم بأن مرادهم أنه المدبر باذن الله تعالى وجاء اطلاق المدبر بهذا المعنى على غيره تعالى في قوله سبحانه : ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ [النازعات : 5]

وربما يقال إنه لا فرق عندهم بين الله تعالى وبين القطب إلا بالاعتبار لأنه الذي فاز بقربي النوافل والفرائض على أتم وجه فارتفعت الغيرية ، فالقول بأن القطب هو المدبر كالقول بأن الله سبحانه هو المدبر بلا فرق .

واعترض هذا بأنه ذهاب إلى القول بوحدة الوجود وأكثر المتكلمين وبعض الصوفية كالإمام الرباني قدس سره ينكرون ذلك ، والأول بأنه هلا قال المشركون في جواب ذلك : الملائكة أو عيسى عليهم السلام مثلا على معنى أنهم المدبرون للأمر بإذن الله تعالى فيكون المذكورون عندهم بمنزلة الأقطاب عند أولئك ، وأجيب بأن السؤال إنما هو عمن ينتهي إليه الأمر فلا يتسنى لهم إلا الجواب المذكور ، ولعل غير أهل الوحدة لو سئلوا كذلك ما عدلوا في الجواب عنه سبحانه ، وأما أهل الوحدة قدس الله تعالى أسرارهم فلهم كلمات لا يقولها المشركون وهي لعمري فوق طور العقل ولذا أنكرها أهل الظاهر عليهم ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الهمزة لإنكار عدم الاتقاء بمعنى إنكار الواقع كما في قولك : أتضرب إياك لا بمعنى إنكار الوقوع كما في قولك : أأضرب أبي ، والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم أي أتعلمون ذلك فلا تتقون ، والخلاف في مثل هذا التركيب شهير وما ذكرناه هو ما عليه البعض ، ومفعول ﴿ تَتَّقُونَ ﴾ محذوف وهو متعد لواحد أي أفلا تتقون عذابه الذي لكم بما تتعاطونه من إشراككم به سبحانه ما لا يشاركه في شيء مما ذكر من

خواص الأولوهية ، وكلام القاضي يوهم أنه متعد إلى مفعولين وليس بذاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(17/361)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

انتقال من غرض إلى غرض في أفانين إبطال الشرك وإثبات توحد الله تعالى بالإلهية .

وهذه الجملة تتنزل منزلة الاستدلال لقوله : ﴿ مولاهم الحق ﴾ [يونس : 30] لأنها برهان على أنه المستحق للولاية .

فاحتج على ذلك بمواهب الرزق الذي به قوام الحياة ، وبموهبة الحواس ، وبنظام التناسل والتوالد الذي به بقاء الأنواع ، وبتدبير نظام العالم وتقدير المقدرات ، فهذه كلها مواهب من الله وهم كانوا يعلمون أن جميع ما ذكر لا يفعله إلا الله إذ لم يكونوا ينسبون إلى أصنامهم هذه الأمور ، فلا جرم أن كان المختص بها هو مستحق الولاية والإلهية .

والاستفهام تقريري .

وجاء الاستدلال بطريقة الاستفهام والجوابِ لأن ذلك في صورة الحوار ، فيكون الدليل

الحاصل به أوقع في نفوس السامعين ، ولذلك كان من طرق التعليم مما يراد رسوخه من القواعد العلمية أن يؤتى به في صورة السؤال والجواب .

وقوله : ﴿ من السماء والأرض ﴾ تذكير بأحوال الرزق ؛ ليكون أقوى حضوراً في الذهن ، فالرزق من السماء المطر ، والرزق من الأرض النبات كله من حب وثمر وكلأ .

و(أم) في قوله : ﴿ أم من يملك السمع ﴾ للإضراب الانتقالي من استفهام إلى آخر .

ومعنى : ﴿ يملك السمع والأبصار ﴾ يملك التصرف فيهما ، وهو مِلك إيجاد تينك الحاستين وذلك استدلال وتذكير بأنفع صنع وأدقه .

وأفرد ﴿ السمع ﴾ لأنه مصدر فهو دال على الجنس الموجود في جميع حواس الناس .

وأما ﴿ الأبصار ﴾ فجيء به جمعاً لأنه اسم ، فهو ليس نصاً في إفادة العموم لاحتمال توهم بصر مخصوص فكان الجمع أدل على قصد العموم وأنفى لاحتمال العهد ونحوه بخلاف قوله : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ [الإسراء : 36] لأن المراد الواحد لكل مخاطب بقوله : ﴿ ولا تقفُ ما ليس لك به علم ﴾ [الإسراء : 36] .

(18/361)

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ﴾ في سورة [الأنعام : 46] .

وإخراجُ الحي من الميت : هو تولد أطفال الحيوان من النطف ومن البَيْض ؛ فالنطفة أو البيضة تكون لا حياة فيها ثم تتطور إلى الشكل القابل للحياة ثم تكون فيها الحياة .

و(مِن) في قوله : مِن الميت ﴾ للابتداء .

وإخراج الميت من الحي إخراج النطفةِ والبيضضِ من الحيوان .

والتعريف في ﴿ الحي ﴾ و ﴿ الميت ﴾ في المرتين تعريف الجنس .

وقد نظم هذا الاستدلال على ذلك الصنع العجيب بأسلوب الأحاجي والألغاز وجعل بمحسن التضاد ، كل ذلك لزيادة التعجيب منه .

وقد تقدم الكلام على نظيره في قوله : ﴿ وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ﴾ في سورة [آل عمران : 27] .

غير أن ما هنا ليس فيه رمز إلى شيء .

وقوله : ومن يدبر الأمر ﴾ تقدم القول في نظيره في أوائل هذه السورة .

وهو هنا تعميم بعد تخصيص ذكر ما فيه مزيد عبرة في أنفسهم كالعِبرة في قوله:

﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ [الذاريات : 21 ، 22] .

والفاء في قوله : ﴿ فسيقولون الله ﴾ فاء السببية التي من شأنها أن تقترن بجواب الشرط إذا كان غير صالح لمباشرة أداة الشرط ، وذلك أنه قصد تسبب قولهم : ﴿ اللّهُ ﴾ على السؤال المأمور به النبيءُ عليه الصلاة والسلام ، فنزل فعل ﴿ قل ﴾ منزلة الشرط فكأنه قيل : إن تَقل من يرزقكم من السماء والأرض فسيقولون الله ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا ﴾ [الإسراء : 51 ، 52] .

وهذا الاستعمال نظير تنزيل الأمر من القول منزلة الشرط في جزم الفعل المقول بتنزيله منزلة جواب الشرط كقوله تعالى : ﴿ قل لعباديَ الذين آمنوا يقيمُوا الصلاة ﴾ [إبراهيم : 31] وقوله : ﴿ وقل لعبادِي يقولوا التي هي أحسن ﴾ [الإسراء : 53] .

(19/361)

التقدير : إن تقل لهم أقيموا الصلاة يقيموا وإن تقل لهم قولوا التي هي أحسن يقولوا .

وهو كثير في القرآن على رأي المحققين من النحاة وعادة المعربين أن يُخَرّجوه على حذف شرط مقدر دل عليه الكلام .

والرأيان متقاربان إلا أن ما سلكه المحققون تقدير معنى والتقدير عندهم اعتبار لا استعمال

، وما سلكه المعربون تقدير إعراب والمقدر عندهم كالمذكور .

ولو لم ينزل الأمر بمنزلة الشرط لما جَاءت الفاء كما في قوله تعالى : ﴿ قل لِمَن الأرضُ ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله ﴾ [المؤمنون : 84 ، 85] الآيات .

والفاء في قوله : ﴿ فقل ﴾ فاء الفصيحة ، أي إن قالوا ذلك فقل أفلا تتقون .

والفاء في قوله : ﴿ أفلا تتقون ﴾ فاء التفريع ، أي يتفرع على اعترافكم بأنه الفاعل الواحد إنكار عدم التقوى عليكم .

ومفعول ﴿ تتقون ﴾ محذوف ، تقديره تتقونه ، أي بتنزيهه عن الشريك .

وإنما أخبر الله عنهم بأنهم سيعترفون بأن الرازق والخالق والمدبر هو الله لأنهم لم يكونوا يعتقدون غير ذلك كما تكرر الإخبار بذلك عنهم في آيات كثيرة من القرآن .

وفيه تحدّ لهم فإنهم لو استطاعوا لأنكروا أن يكون ما نسب إليهم صحيحاً ، ولكن خوفهم عار الكذب صرفهم عن ذلك فلذلك قامتْ عليهم الحجة بقوله : ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(20/361)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

أي : أن الحق سبحانه يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : اسألهم هذا السؤال ، ولا يسأل هذا السؤال إلا مَنْ يثق في أن المسئول لو أدار في ذهنه كل الأجوبة ، فلن يجد جواباً غير ما عند السائل .

ومثال ذلك من حياتنا والله المثل الأعلى إن جاء لك من يقول : أبي يهملني ، فتمسك به ، وتسأله : من جاء لك بهذه الملابس وذلك القلم ويُطعمك ويُعلِّمك ؟ سيقول لك : أبي . وأنت لا تسأله هذا السؤال إلا وأنت واثق أنه لو أدار كل الأجوبة فلن يجد جواباً إلا الذي تتوقعه منه ، فليس عنده إجابة أخرى ؛ لأنك لون كنت تعرف أنه سوف يجيبك إجابة مختلفة لما سألته فكأنك ارتضيت حكمه هو في المسألة .

والحق سبحانه وتعالى قال في بداية هذه الآية الكريمة : ﴿ قُلْ ﴾ كما أنزل عليه مثيلاتها مما بُدىء بقوله سبحانه : ﴿ قُلْ ﴾ مثل قوله سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الصمد : 1] .

وهذا ما اقتضاه خطاب الحق سبحانه دائماً للخَلْق ، ويختلف عن خطاب الخَلْق للخَلْق ، فحين تقول لابنك : " اذهب إلى عمِّك ، وقُلْ له كذا " . فالابن يذهب إلى العمِّ ويقول له منطوق رسالة الأب ، دون أن يقول له : " قُلْ " ، أما خطاب الحق سبحانه للخلق ، فقد

شاء سبحانه أن يبلِّغنا به رسوله الله صلى الله عليه وسلم كما نزل ﴿ قُلْ ﴾ فالرسول صلى الله عليه وسلم أمين في البلاغ عن الله تعالى ، لا يترك كلمة واحدة من الوحي دون أن يبلِّغها للبشر ، وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذي أمره ، فهو يبلغ ما أُمِرَ ، حتى لا يحرم آذان خلق الله تعالى من كل لفظ صدر عن الله سبحانه .

وكذلك أمر الحق سبحانه هنا لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول : ﴿ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء والأرض ﴾ [يونس : 31] .

(21/361)

ونحن نعلم أن الرزق هو ما يُنتفع به ، والانتفاع الأول مُقوِّم حياة ، والثاني تَرَفٌ أو كماليات حياة ، والرزق الذي هو أصل الحياة هو ماء ينزل من السماء ، ونبات يخرج من الأرض .

وهكذا قال الحق سبحانه السؤال والإجابة معروفة مقدَّماً ، فلم يَقُلْ لرسوله صلى الله عليه وسلم : " أجِب أنت " بل ترك لهم أن يجيبوا بأنفسهم .

وكذلك جاء الحق سبحانه بسؤال آخر : ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السمع والأبصار ﴾ [يونس : 31] .

والسمع والبصر هما السيدان لملَكَات الإدراك ؛ لأن إدراك المعلومات له وسائل متعددة ،

إنْ أردتَ أنْ تُدرك رائحة ؛ فبأنفك ، وإن أردتَ أنْ تدرك نعومة ؛ فبلمسك وببشرتك ، وإنْ أردتَ أن تدرك مذاق شيء فبلسانك ، وإنْ أردت أن تتكلم فبأجهزة الكلام وعمدتها اللسان ، وإنْ أردتَ أن تسمع فبأذنك .

وكذلك تتجلَّى لك المرائي بعينيك ، ثم تأتي إدراكات متعددة من الحواس ؛ لتُكوِّن أشياء نسميها الخميرة ، توجد منها القضية العقلية الأخيرة ، فالطفل أمام النار يجد منظرها جميلاً جذاباً ، لكن ما إن يلمسها حتى تلسعه ؛ فلا يقرب منها أبداً من بعد ذلك ؛ لأنه اختبرها بحواسه فارتكزت لديه القضية العقلية وهي أن هذه نار محرقة ، واستقر هذا لديه يقيناً .

وهكذا تكون الإدراكات الحسية إدراكات متعددة تصنع خميرة في النفس تتكون منها الإدراكات المعنوية .

إذن : فوسائل العلم للكائن الحي هي الحواس ، وهذه الحواس تعطي العقل معطيات تنغرز فيه لتستقر من بعد ذلك في الوجدان ؛ فتصبح عقائد .

إذن : فمراحل الإدراك هي : إدراك حسيٌّ ، وتفكُّر عقليٌّ ، فانتهاء عَقَدِيٌّ ؛ ولذلك نسمِّي الدين عقيدة .

أي : أنك عقدت الشيء في يقينك بصورة لا تحلُّه بعدها من جديد لتحلّله ، فهذا يُسمى عقيدة .

ولذلك حينما أراد الله سبحانه وتعالى أن يقصَّ علينا مراحل الإدراك في النفس الإنسانية ؛ ليربي الإنسان معلوماته ، قال الحق سبحانه :

(22/361)

﴿ واللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : 78] .

لذلك يقال : "كما ولدته أمه " ، أي : لم يُعْطَ القدرة على استخدام حواسِّه بعد ، ثم يجعل له الحق سبحانه الحواس ، ويجعله قادراً على استخدامها .

ولم يذكر بقية الحواس ، بل جاء بالسيدين ، وهما السمع والبصر ؛ لأن آيات الكون تحتاج إلى الرؤية ، وإبلاغ الرسل يحتاج للسماع ، وهما أهم آلتين في البلاغ ، فأنت ترى بالعين آيات الكون ومعجزات الرسل ، وتسمع البلاغ بمنهج الله سبحانه وتعالى من الرسل .

وقد لفتنا الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى العجائب فقال : " اعجبوا لهذا الإنسان ، ينظر بشحمٍ ، ويتكلم بلَحْمٍ ، ويسمع بعظمٍ ، ويتنفس من خَرْمٍ " .

فالصوت يطرق عظمة الأذن ، ويرنّ على طبلتها ، ونرى بشحمة العين ، وننطق بلحمة اللسان .

وأضاف البعض : " ونشمْ بغضروف ، ونلمس بجلد ، ونفكر بعجين " . فالإنسان يولد وكأن مخه قطعة من العجين التي تعمل في استقبال المعلومات من الكون وتخزينها فيه ، وهي التي ستكون ركيزة لتشكيل الفؤاد من بعد ذلك .

وجاء قول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بوسيلتين من وسائل الإدراك ، وترك بقية الوسائل الثلاث الأخرى الظاهرة ، مع أن العلم الحديث حين تلكم عن وظائف الأعضاء ، احتاط للأمر وقرر أن هذه الحواس هي الحواس الخمس الظاهرة .

وهذا يعني أن هناك حواسّاً أخرى غير هذه سيكشف عنها ، وهي حواس لم يكن القدماء يعرفونها ، مثل حاسة البَيْنَ بَيْنَ ، التي نفرق بها بين أنواع الأقمشة والأوراق وغيرها ، وكثافة هذا النوع من ذلك ، وهذه الحاسة توجد بين لمستين من إصبعين متقاربين .

وكذلك حاسة العَضَل التي تزن ثقل الأشياء ، وتعرف حين تحمل ثقلاً ما مدى الإجهاد الذي يسببه لك ، وهل يختلف عن إجهاد حَمْل ثقلٍ آخر .

(23/361)

وحين نظر العلماء في معاني الألفاظ قالوا : " النظائر حين تخالف فلا بد من علّة للمخالفة " فالسمع آلة إدراك ، والبصر آلة إدراك ، فلماذا قال الحق سبحانه في آلة الإدراك " السمع " ،

وقال في الآلة الثانية " الإبصار " ؟ ، ولماذا جاء السمع بالإفراد ، وجاء الإبصار بالجمع ، ولم يأتْ بالاثنين على وتيرة واحدة ؟

فنقول : إن المتكلم هو الله تعالى ، وكل كلمة منه لها حكمة وموضوعة بميزان ، وأنت ، حين تسمع ، تسمع أي صوت قادم من أي مكان ، لكنك بالعين ترى من جهة واحدة ، فإنْ أردتَ أن ترى ما على يمينك فأنت تتجه بعينيك إلى اليمين ، وإنْ أردت أن ترى ما خلفك ، فأنت تغيِّر من وقفتك ، فالأذن تسمع بدون عمل منك ، لكن البصر يحتاج إلى عمليات متعددة ؛ لترى ما تريد .

وأيضاً فالسمع لا اختيار لك فيه ، فأنت لا تستطيع أن تحجب أذنك عن سماع شيء ، أما الإبصار فأنت تتحكم فيه بالحركة أو بإغلاق العين .

وجاء الحق سبحانه وتعالى بالسمع أولاً ؛ لأن الأذن هي أول وسيلة إدراك تؤدي مهمتها في الإنسان ، أما العين فلا تبدأ في أداء مهمتها إلا من بعد ثلاثة أيام إلى عشرة أيام غالباً .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السمع والأبصار ﴾ [يونس : 31] .

والحق سبحانه يملكها ؛ لأنه خالقها وهو القادر على أن يصونها ، وهو القادر سبحانه على أن يُعَطِّلها ، وقد أعطانا الحق مثالاً لهذا في القرآن فقال عن أصحاب الكهف : ﴿ فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الكهف سِنِينَ عَدَداً ﴾ [الكهف : 11]

فَعَطَّل الله سبحانه أسماعهم بأن ضرب على آذانهم ، فذهبوا في نوم استمر ثلاثة قرون من

الزمن وازدادوا تسعاً .

كيف حدث هذا ؟ . . إن أقصى ما ينامه الإنسان العادي هو يوم وليلة ، ولذلك عندما بعثهم الله تساءلوا فيما بينهم : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَم لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [الكهف : 19] .

(24/361)

ولكن هيئتهم لم تكن تدل على هذا ، فإن شعورهم قد طالت جدّاً ، بل إن لونها الأسود قد تبدل وأصبحوا شيباً وكهولاً ، ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾ [الكهف : 18] .

ونلحظ هنا ملحظاً يجب الانتباه إليه ، ففي هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه : ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السمع والأبصار ﴾ [يونس : 31] .

بينما يقول في آية أخرى في سورة السجدة : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار ﴾ [السجدة : 9] .

ولا بد أن ننتبه إلى الفارق بين " الخَلْق " و " الجَعْل " ، و " الملْك " ، فالخلق قد عرفنا أمره ، وملكية كل شيء لله تعالى أمر مُلْزِمٌ في العقيدة ، ومعروف ، أما " الجَعْل " ، فهو توجيه ما

خلق إلى مهمته .

فأنت تجعل الطين إبريقاً ، والقماس جلباباً ، هذا على المستوى البشري ، أما الحق سبحانه وتعالى فقد خلق المادة أولاً ، ثم جعل من المادة سمعاً وبصراً ، وزاد من بعد ذلك ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ﴾ ، فمن خَلَق هو الله تعالى ، ومن جَعَلَ هو الله تعالى ، ومن مَلَكَ هو الله تعالى .

وهو سبحانه ينبهنا إلى ذلك ، فالأشياء النافعة لابن آدم يخلقها الله سبحانه ، ويجعلها ، ثم يُملِّكها له .

أما ذات الإنسان وأبعاضه من سمع وبصر وغيرهما وإن كانت قد خُلقت في الإنسان ، وجُعلت له للانتفاع بها ، ولكنها ستظل مِلْكاً لله ، يبقيها على حالها ، او يخطفها أو يصيبها بآفة ، أو يعطلها .

إذن : فهي خُلقت لله ، وجُعلت من الله ، وتظل مملوكة لله ، ويُصيِّرها كيف يشاء ، فدقات القلب والحب والكراهية والأمور اللاإرادية التي تعمل لصالح الإنسان هي مملكة الله .

(25/361)

والحق سبحانه على سبيل المثال جعل لكلِّ حيوان جلداً ؛ ننتفع به وندبغه إلا جلدين اثنين : جلد الإنسان وجلد الخنزير ، وقد حُرِّم استخدام جلد الإنسان ؛ لكرامته عند خالقه ،

وحُرِّم استخدام جلد الخنزير ؛ ليدُلَّ على حرمته ونجاسته .

وعلينا أن ننتبه إلى أن الحق سبحانه قد خَلَقَ وجَعَلَ ومَلَكَ ، ودليل ملكية الحق سبحانه وتعالى أنه حَرَّم الجنة على المُنتحِر ؛ لأنه لا يأخذ الحياة إلا واهبُ الحياة ، فأنت أيها الإنسان لستَ مِلْكَ نفسك . ولا عذر لأحد ما دام قد وصله هذا البلاغ ، وعليه أن يستوعبه أما من لا يستوعب ؛ فيلقى مصيره .

لذلك فإنه سبحانه هو الذي رزق ، وهو سبحانه الذي يملك .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَن يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ﴾ [يونس : 31] .

ونحن نعلم أن لكل كائن في الوجود حياة تناسبه ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] .

وما دام كل شيء سيأتي له وقت يهلك فيه ، فمعنى ذلك أن لكل شيء حياة ، إلا أن حياتنا نحن في ظاهر الأمر عبارة عن الحس والحركة ، والإنسان يأكل الخضروات والخبز والفاكهة ، ومن هذه المأكولات وغيرها يكوِّن الجسمُ الحيوانات المنوية في الرجل ، والبويضات في المرأة ، ومنهما يأتي الإنسان ، وكذلك يخرج الكتكوت من البيضة المخصَّبة ؛ لأن البيضة غير المخصبة لا تُخرِج كتكوتاً ؛ فهي بدون حياة ؛ ولذلك لا يتكون منها جنين ، فهناك فرق بين قابلية الحياة ، وبين الحياة نفسها .

وكذلك نواة التمرة ، إذا ما ألقيتْ دون أن توضع في الأرض ، فلن تكون نخلة أبداً ، ولكن إذا ما زُرعتْ في الأرض ، ووجدت لها البيئة المناسبة ؛ خرجَتْ نخلة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأمر ﴾ [يونس : 31] .

(26/361)

والتدبير هو عملية الإدارة لأي شيء ؛ حتى يؤدي مهمته ، وبالله من يُدير قلبك ؟ ومن يدير حركة أمعائك ؟ لتستخلص من الطعام ما يفيدك ، ثم تخرج ما لا يفيدك .

إياك أن تقول : إنني أنا الذي أدير ذلك ؟ ونقول : كنت طفلاً في مرحلة الطفولة ، فهل كنت تدير حركة قلبك أو أمعائك ؟ ومَنْ الذي يدير حركة رئتيك ؟ إن الذي يديرها هو خالقها ؛ لذلك اطمئنوا على حركة أجهزتكم التي لا دخل لكم فيها ؛ لأن الذي خلقها فيكم قيُّوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يؤوده حفظ ذلك .

ويجيب مَنْ يسألهم الرسول صلى الله عليه وسلم على كل تلك الأسئلة بأمر الله تعالى الإجابة التي حددها الله سبحانه سلفاً ﴿ فَسَيَقُولُونَ الله ﴾ [يونس : 31] .

إذن : أما كان يجب أن نرهف الآذان ، ونُعْمِل الأبصار ؛ لنرى قدرة الله سبحانه الذي وهب لنا كل تلك النعم من رزق ، وسمع ، وبصر ، وإحياء ، وإماتة ، وإحياء من ميت ،

وتدبير الأمر كله ؟

أما كان يجب أن نقول : يا مَنْ خَلَقْتَنَا ماذا تنتظر مِنَّا ؛ لنعمّر الكون الذي أوجدتنا فيه ؟

فكيف إذن يتجه البعض بالعبَادة لغير الله تعالى ؛ لشمسٍ أو قمرٍ ، أو ملائكة ، أو نبيّ ، أو صنمٍ ؟ كيف ذلك والعبادة معناها إطاعة العابد للمعبود فيما يأمر به ؟ وهل هناك إله بغير منهج يأمر به عباده ، ومن عبد الشمس هل كَلَّفته بشيء ؟ . . لا .

إذن : يتساوى عندها مَنْ عبدها ، ومَنْ لم يعبدها ، وفي هذا نقض لألوهية كل معبود غير الله تعالى .

ولذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [يونس : 31] .

فما دام الله سبحانه هو الذي خلق كل ذلك ، وأنزل منهجاً ، فعليكم أن تجعلوا بينكم وبينه وقاية ؛ تحميكم من صفات الجلال ، وتقرّبكم من آثار صفات الجمال وأن تسمعوا إلى البلاغ من الرسل عليهم السلام ، وإلى مطلوباته سبحانه .

(27/361)

وما دام كل إنسان سيجيب عن أسئلة هذه الآية ، ويعترف أن الخالف سبحانه والمالك هو الله تعالى ، فعلى الإنسان أن يقي نفسه النار .

والعجيب أن الجميع يجيب بأن الله سبحانه هو الذي خَلَق ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [الزخرف : 87] .

ويقول أيضاً : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25]

.

وما دام الله تعالى هو الذي خلق ، وزرق ، ودبَّر الأمر ، فكيف تتركون عبادته وتتجهون لعبادة غيره ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(28/361)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "قل من يرزقكم من السماء والأرض " وفى سورة سبأ : " قل من يرزقكم من السماوت والأرض " فأفرد لفظ السماء فى الأولى وجمع فى الثانية مع اتحاد المعنى والتساوى فى ألفاظ الآية غير ما ذكر فيسال عن ذلك ؟

والجواب عنه ان الافراد الوارد فى آية يونس محصل للمعنى مع الإيجاز فورد هنا على ما يجب وأما الوارد فى سورة سبأ على الجمع فروعى فيه ما تقدم من قوله تعالى : " قل ادعوا

الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شركاء وماله من ظهير " والمراد بذلك نفى الشركاء له تعالى ثم عاد الكلام إلى ذلك أيضا فقال تعالى : "قل من يرزقكم من السماوات والأرض " على الجمع مناسبة إذ الآية قبل وهذه فى قضية واحدة وهى نفى الشركاء والأنداد فجاءت على ما يناسب التى قبلها .

فإن قيل : فلم ورد الجمع فى قوله فى الأولى : "لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات " وقد كان لفظ الافراد يحرز هذا المعنى مع أنه أوجز ؟ فالجواب ان ما قصد من قطه توهمهم أن شركاءهم ينفعونهم أو يملكون شيئا وان قل والتصرف فى شئ مما قصد من هذا يقتضى تعميم النفع وتأكيد هذا الغرض بأعم ما يعبر به ذلك فناسب ذلك جمع السماوات ولم يكن الافراد ليناسب ثم نوسب بين هذه الآى التى بعدها فى الجمع ولم يكن فى آية يونس ما يستدعى ذلك فجاء كل على ما يجب ويناسب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 240 . 241 ﴾

(29/361)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِّنَ السمآء ﴾ : " مِنْ " يجوز أَنْ تكونَ لابتداء الغاية ، وأن تكونَ للتبعيضِ ، وأن تكونَ لبيان الجنس ، ولا بد على هذين الوجهين من تقديرِ مضافٍ محذوف ، أي : من أهل السماء .

قوله : ﴿ أَمْ ﴾ هذه " أم " المنقطعة لأنه لم تتقدَّمْها همزةُ استفهام ولا تسوية ، ولكن إنما تُقَدَّر هنا ب " بل " وحدها دونَ الهمزة . وقد تقرَّر أن المنقطعةَ عند الجمهور تُقَدَّر بهما ، وإنما لم تتقدَّرْ هنا ب " بل " والهمزةِ ، لأَنَّها وقع بعدها اسم استفهام صريح وهو " مَنْ " ، فهو كقوله تعالى : ﴿ أَمَّا ذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل : 84] . والإِضرابُ هنا على القاعدةِ المقررة في القرآن أنه إضرابُ انتقالٍ لا إضرابُ إبطالٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 195.196 ﴾

(30/361)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ

الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) ﴾ كما تَوَحَّد الحقُّ- سبحانه- بكونه خالقاً تَفَرَّدَ بكونه رازقاً ، وكما لا خالِقَ سواه فلا رازقَ سواه .

ثم الرزق على أقسام : فللأشباح رزق : وهو لقوم توفيق الطاعات ، ولآخرين خذلان الزَّلات . وللأرواح رزق : وهو لقومٍ حقائق الوصلة ، ولآخرين - في الدنيا - الغفلة وفي الآخرة العذاب والمهلة .

﴿ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ : فيكمل بعض الأبصار بالتوحيد ، وبعضها يعميها عن التحقيق .

﴿ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ : يخرج المؤمنَ من الكافر ، والكافرَ من المؤمن .

﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ : ولكنْ ظَنًّا . . . لا عن بصيرة ، ونَطْقاً . . لا عن تصديق سريرة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 93.94 ﴾

(31/361)

قوله تعالى ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم علل إنكار عدم تقواهم بقوله : ﴿ فذلكم ﴾ أي العظيم الشأن ﴿ الله ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام ، فكانت هذه قدرته وأفعاله ﴿ ربكم ﴾ أي الموجد لكم المدبر لأموركم الذي لا إحسان عندكم لغيره ﴿ الحق ﴾ أي الثابته ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه لاجتماع الصفات الماضية له لا لغيره لأنه لا تكون الربوبية حقيقة لمن لم تجتمع له تلك الصفات ﴿ فما ﴾ أي فتسبب عن ذلك أن يقال لكم : ﴿ ماذا بعد الحق ﴾ أي الذي له أكمل الثبات ﴿ إلاّ الضلال ﴾ فإنه لا واسطة بينهما - بما أنبأ عنه إسقاط الجار ، ولا يعدل عاقل عن الحق إلى الضلال فانّى تصرفون أنتم عن الحق إلى الضلال ؛ ولذلك سبب عنه قوله : ﴿ فأنى ﴾ أي فكيف ومن أيّ جهة ﴿ تصرفون ﴾ أي أنتم من صارف ما كائناً ما كان ، عن الحق إلى الضلال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 439 ﴾

(32/361)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ ﴾ ومعناه أن من هذه قدرته ورحمته هو ﴿ رَبُّكُمُ الحق ﴾ الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه ، وإذا ثبت أن هذا هو الحق ، وجب أن يكون ما سواه ضلالاً ، لأن النقيضين يمتنع أن يكونا حقين وأن يكونا باطلين ، فإذا كان أحدهما حقاً وجب أن يكون ما سواه باطلاً .

ثم قال : ﴿ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ والمعنى أنكم لما عرفتم هذا الأمر الواضح الظاهر ﴿ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ وكيف تستجيزون العدول عن هذا الحق الظاهر ، واعلم أن الجبائي قد استدل بهذه الآية وقال : هذا يدل على بطلان قول المجبرة أنه تعالى يصرف الكفار عن الإيمان ، لأنه لو كان كذلك لما جاز أن يقول : ﴿ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ كما لا يقول إذا أعمى بصر أحدهم إني عميت ، واعلم أن الجواب عنه سيأتي عن قريب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 71 ﴾

(33/361)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي تَفْسِيرِ ﴿ الْحَقِّ ﴾ وَقَدْ مَهَّدْنَاهُ فِي كِتَابِ " الْأَمَدِ الْأَقْصَى " فِي تَسْمِيَةِ الْبَارِي تَعَالَى بِهِ .

وَلُبَابُهُ أَنَّ الْحَقَّ هُوَ الْوُجُودُ ، وَالْوُجُودُ عَلَى قِسْمَيْنِ : وُجُودٌ حَقِيقِيٌّ ، وَوُجُودٌ شَرْعِيٌّ .

فَأَمَّا الْوُجُودُ الْحَقِيقِيُّ فَلَيْسَ إلَّا لِلَّهِ وَصِفَاتِهِ ، وَعَلَيْهِ جَاءَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَنْتَ الْحَقُّ ، وَقَوْلُك الْحَقُّ ، وَوَعْدُك الْحَقُّ ، وَلِقَاؤُك حَقٌّ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ ﴾ .

فَأَمَّا اللَّهُ وَصِفَاتُهُ فَوُجُودُهَا [هُوَ] حَقٌّ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْهَا عَدَمٌ ، وَلَا يَعْقُبُهَا فَنَاءٌ .

وَأَمَّا لِقَاءُ اللَّهِ فَهُوَ حَقٌّ سَبَقَهُ عَدَمٌ ، وَيَعْقُبُهُ مِثْلُهُ .

وَأَمَّا الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَهُمَا حَقَّانِ ، سَبَقَهُمَا عَدَمٌ ، وَلَا يَعْقُبُهَا فَنَاءٌ ، لَكِنَّ مَا فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ أَعْرَاضٌ .

وَأَمَّا الْوُجُودُ الشَّرْعِيُّ فَهُوَ الَّذِي يُحَسِّنُهُ الشَّرْعُ ، وَهُوَ وَاجِبٌ وَغَيْرُ وَاجِبٍ .

(34/361)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي تَحْقِيقِ مَعْنَى الْبَاطِلِ : وَهُوَ ضِدُّ الْحَقِّ ، وَالضِّدُّ رُبَّمَا أَظْهَرَ حَقِيقَةَ الضِّدِّ ، فَإِذَا قُلْنَا : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ حَقِيقَةً ، فَمَا سِوَاهُ بَاطِلٌ ، وَعَنْهُ عَبَّرَ الَّذِي يَقُولُ : أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلُ وَإِنْ قُلْنَا : [إِنَّ] الْحَقَّ هُوَ الْحَسَنُ شَرْعًا فَالْبَاطِلُ هُوَ الْقَبِيحُ شَرْعًا ، وَمُقَابَلَةُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ عُرْفًا لُغَةً وَشَرْعًا ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ .

كَمَا أَنَّ مُقَابَلَةَ الْحَقِّ بِالضَّلَالِ عُرْفًا أَيْضًا لُغَةً وَشَرْعًا ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ ،

وَقَدْ بَيَّنَ حَقِيقَةَ الْحَقِّ .

فَأَمَّا حَقِيقَةُ الضَّلَالِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فَهُوَ الذَّهَابُ عَنْ الْحَقِّ ، أُخِذَ مِنْ ضَلَالِ الطَّرِيقِ ، وَهُوَ الْعُدُولُ عَنْ سَمْتِ الْقَصْدِ ، وَخُصَّ فِي الشَّرْعِ بِالْعِبَارَةِ عَنْ الْعُدُولِ عَنْ السَّدَادِ فِي الِاعْتِقَادِ دُونَ الْأَعْمَالِ .

وَمِنْ غَرِيبِ أَمْرِهِ أَنَّهُ يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ عَدَمِ الْمَعْرِفَةِ بِالْحَقِّ إِذَا قَابَلَهُ غَفْلَةً ، وَلَمْ يَقْتَرِنْ بِعَدَمِهِ جَهْلٌ أَوْ شَكٌّ ، وَعَلَيْهِ حَمَلَ الْعُلَمَاءُ قَوْلَهُ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ .

الَّذِي حَقَّقَهُ قَوْلُهُ : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ عَنْ أَشْهَبَ عَنْ مَالِكٍ قَالَ : يَقُولُ اللَّهُ : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ ؟ فَاللَّعِبُ بِالشِّطْرَنْجِ وَالنَّرْدِ مِنْ الضَّلَالِ .

وَرَوَى يُونُسُ عَنْ أَشْهَبَ قَالَ : سُئِلَ يَعْنِي مَالِكًا عَنْ اللَّعِبِ بِالشِّطْرَنْجِ قَالَ : لَا خَيْرَ فِيهِ ، وَلَيْسَ بِشَيْءٍ وَهُوَ مِنْ الْبَاطِلِ ، وَاللَّعِبُ كُلُّهُ مِنْ الْبَاطِلِ ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِذِي الْعَقْلِ أَنْ تَنْهَاهُ اللِّحْيَةُ وَالشَّيْبُ عَنْ الْبَاطِلِ .

وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَسْلَمَ فِي شَيْءٍ : أَمَا تَنْهَاكَ لِحْيَتُك هَذِهِ ؟ قَالَ أَسْلَمُ : فَمَكَثْت زَمَانًا وَأَنَا أَظُنُّ أَنَّهَا سَتَنْهَانِي .

فَقِيلَ لِمَالِكٍ لِمَا كَانَ عُمَرُ لَا يَزَالُ يَقُولُ فَيَكُونُ .

فَقَالَ : نَعَمْ [فِي رَأْيِي] .

وَرَوَى يُونُسُ عَنْ ابْنِ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ الرَّجُلِ يَلْعَبُ مَعَ امْرَأَتِهِ فِي بَيْتِهِ .

فَقَالَ مَالِكٌ : مَا يُعْجِبُنِي ذَلِكَ ، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ اللَّعِبُ ؛ يَقُولُ اللَّهُ : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ ، وَهَذَا مِنْ الْبَاطِلِ .

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ خِدَاشٍ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ اللَّعِبِ بِالشِّطْرَنْجِ قَالَ : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ

الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ .

رَوَاهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ الْجُهَنِيُّ ؛ قَالَ : قُلْت لِمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ : أَدْعُو الرَّجُلَ لِعَبَثِي .

فَقَالَ مَالِكٌ : أَذَلِكَ مِنْ الْحَقِّ ؟ قُلْت : لَا .

قَالَ : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ .

(36/361)

قَالَ الْقَاضِي الْإِمَامُ : هَذَا مُنْتَهَى مَا تَحَصَّلَ لِي مِنْ أَلْفَاظِ مَالِكٍ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَقَدْ اعْتَرَضَ بَعْضُ الْمُتَقَدِّمِينَ عَلَيْهِ مِنْ الْمُخَالِفِينَ ، فَقَالَ : ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا بَعْدَ اللَّهِ هُوَ الضَّلَالُ ؛ لِأَنَّ أَوَّلَهَا : ﴿ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ فَهَذَا فِي الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ يَعْنِي لَيْسَ فِي الْأَعْمَالِ .

وَأَجَابَ عَنْ ذَلِكَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، فَقَالَ : إنَّ الْكُفْرَ تَغْطِيَةُ الْحَقِّ ، وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ غَيْرِ الْحَقِّ يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى .

هَذَا مُنْتَهَى السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ .

وَتَحْقِيقُهُ أَنْ يُقَالَ : إنَّ اللَّهَ أَبَاحَ وَحَرَّمَ ، فَالْحَرَامُ ضَلَالٌ ، وَالْمُبَاحُ هُدًى ؛ فَإِنْ كَانَ الْمُبَاحُ حَقًّا كَمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ فَالشِّطْرَنْجُ مِنْ الْمُبَاحِ ، فَلَا يَكُونُ مِنْ الضَّلَالِ ؛ لِأَنَّ مَنْ اسْتَبَاحَ مَا

أَبَاحَ اللَّهُ لَا يُقَالُ لَهُ ضَالٌّ ، وَإِنْ كَانَ الشِّطْرَنْجُ خَارِجًا مِنْ الْمُبَاحِ فَيَفْتَقِرُ إلَى دَلِيلٍ ، فَإِذَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ حَرَامٌ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ مِنْ الضَّلَالِ الَّذِي تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْقَوْلَ فِيهِ ، وَأَنَّ قَوْلَ الشَّافِعِيَّةِ أَنَّهُ يُخَالِفُ النَّرْدَ ؛ لِأَنَّ فِيهِ إكْدَادَ الْفَهْمِ ، وَاسْتِعْمَالَ الْقَرِيحَةِ ، وَالنَّرْدُ قِمَارٌ غَرَرٌ لَا يَعْلَمُ مَا يَخْرُجُ لَهُ فِيهِ ، كَالِاسْتِقْسَامِ بِالْأَزْلَامِ .

(37/361)

وَقَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنَّ الْحَدِيثَ الصَّحِيحَ الثَّابِتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَقَدْ غَمَسَ يَدَهُ فِي لَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَدَمِهِ ﴾ يُوجِبُ النَّهْيَ عَنْ الشِّطْرَنْجِ ؛ لِأَنَّ الْكُلَّ يَشْغَلُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ ، وَالْفَهْمُ يُكَدُّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَإِنْ تَفَاضَلَا فِيهِ .

وَأَمَّا لَعِبُ الرَّجُلِ مَعَ امْرَأَتِهِ بِالْأَرْبَعِ عَشَرَةَ فَالْمُمْتَنِعُ لَا تَفْتَرِقُ فِيهِ الْمَرْأَةُ تَكُونُ لِلرَّجُلِ وَلَا الْأَجْنَبِيِّ مِنْهُ ، كَمَا لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَلْعَبَ مَعَهَا بِالنَّرْدَشِيرِ لِعُمُومِ النَّهْيِ فِيهِ ، وَالْأَرْبَعَ عَشَرَةَ قِمَارٌ مِثْلُهُ .

وَأَمَّا الْغِنَاءُ فَإِنَّهُ مِنْ اللَّهْوِ الْمُهَيِّجِ لِلْقُلُوبِ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ ، مِنْهُمْ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِهِ .

أَمَّا إنَّ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ [دَلِيلًا عَلَى] إبَاحَتِهِ ، وَهُوَ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ ﴿ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ وَعِنْدَهَا جَارِيَتَانِ حَادِيَتَانِ مِنْ حَادِيَاتِ الْأَنْصَارِ ، تُغَنِّيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتْ الْأَنْصَارُ بِهِ يَوْمَ بُعَاثٍ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَمِزْمَارُ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ ، فَإِنَّهُ يَوْمُ عِيدٍ ﴾ فَلَوْ كَانَ الْغِنَاءُ حَرَامًا مَا كَانَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ .

(38/361)

وَقَدْ أَنْكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ بِظَاهِرِ الْحَالِ ، فَأَقَرَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِفَضْلِ الرُّخْصَةِ وَالرِّفْقِ بِالْخَلِيقَةِ فِي إجْمَامِ الْقُلُوبِ ؛ إذْ لَيْسَ جَمِيعُهَا يَحْمِلُ الْجِدَّ دَائِمًا .

وَتَعْلِيلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ يَوْمُ عِيدٍ يَدُلُّ عَلَى كَرَاهِيَةِ دَوَامِهِ ، وَرُخْصَتِهِ فِي الْأَسْبَابِ كَالْعِيدِ ، وَالْعُرْسِ ، وَقُدُومِ الْغَائِبِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْمُجْتَمَعَاتِ الَّتِي تُؤَلِّفُ بَيْنَ الْمُفْتَرِقِينَ وَالْمُفْتَرِقَاتِ عَادَةً .

وَكُلُّ حَدِيثٍ يُرْوَى فِي التَّحْرِيمِ أَوْ آيَةٍ تُتْلَى فِيهِ فَإِنَّهُ بَاطِلٌ سَنَدًا ، بَاطِلٌ مُعْتَقَدًا ، خَبَرًا وَتَأْوِيلًا ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَخَّصَ فِي الْغِنَاءِ فِي الْعِيدَيْنِ ، وَفِي

الْبُكَاءِ عَلَى الْمَيِّتِ مِنْ غَيْرِ نَوْحٍ مِنْ حَدِيثِ ثَابِتِ ابْنِ وَدِيعَةَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(39/361)

وقال السمرقندى :

ثم قال تعالى : ﴿ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحق ﴾ ، وغيره من الآلهة باطل ليس بشيء .

﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال ﴾ ، يعني : فما عبادتكم بعد ترك عبادة الله تعالى إلا عبادة الشيطان ؟ ويقال : فماذا بعد التوحيد إلا الشرك ؟ ﴿ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ ، يعني : فمن أين تمتنعون عن الإيمان بالله ؟ ويقال : فأنى تصرفون عن هذا الأمر بعد المعرفة ؟ وقال مقاتل : فمن أين تعدلون به غيره ؟ ويقال : كيف ترجعون عن هذا الإقرار ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(40/361)

وقال القرطبى :

﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَذَلِكُمُ الله رَبُّكُمُ الحق فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال ﴾ فيه ثمان مسائل :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ فَذَلِكُمُ الله رَبُّكُمُ الحق ﴾ أي هذا الذي يفعل هذه الأشياء هو ربكم الحق ، لا ما أشركتم معه .

"فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ" "ذا" صلة أي ما بعد عبادة الإله الحق إذا تركت عبادته إلا الضلال .

وقال بعض المتقدّمين : ظاهر هذه الآية يدلّ على أن ما بعد الله هو الضلال ؛ لأن أولها "فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ" وآخرها "فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ" فهذا في الإيمان والكفرِ ، ليس في الأعمال .

وقال بعضهم : إن الكفر تغطية الحق ، وكل ما كان غير الحق جرى هذا المجرى ؛ فالحرام ضلال والمباح هُدًى ؛ فإن الله هو المبيح والمحرّم .

والصحيح الأوّل ؛ لأن قبل "قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ" ثم قال : "فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ" أي هذا الذي رزقكم ، وهذا كله فعله هو .

"رَبُّكُمُ الْحَقُّ" أي الذي تحق له الألوهية ويستوجب العبادة ، وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغيرُ حق .

الثانية قال علماؤنا : حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله تعالى ، وكذلك هو الأمر في نظائرها ، وهي مسائل الأُصول التي الحق فيها في طرف واحد ؛ لأن الكلام فيها إنما هو في تعديد وجود ذاتٍ كيف هي ، وذلك بخلاف مسائل الفروع التي قال الله تعالى فيها : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [المائدة : 48] ، وقوله عليه السلام : " الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أُمور متشابهات " والكلام في الفروع إنما هو في أحكام طارئة على وجود ذات متقررة لا يُختلَفُ فيها وإنما يختلف في الأحكام المتعلقة بها .

الثالثة ثبت عن عائشة رضي الله عنها " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة في جَوْف الليل قال : "اللهم لك الحمد" " الحديثَ .

وفيه " أنت الحق ووَعْدُك الحق وقولك الحق ولقاؤك الحق والجنة حق والنار حق والساعة حق والنبيون حق ومحمد حق " الحديثَ .

فقوله : " أنت الحق " أي الواجب الوجود ؛ وأصله من حَقَّ الشيء أي ثبت ووجب .

وهذا الوصف لله تعالى بالحقيقة إذ وجوده لنفسه لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم ؛ وما عداه مما يقال عليه هذا الاسم مسبوق بعدم ، ويجوز عليه لحاق العدم ، ووجوده من موجِده لا من نفسه .

وباعتبار هذا المعنى كان أصدق كلمة قالها الشاعر ، كلمة لبيد :

ألاَ كلُّ شيءٍ ما خلا اللَّه باطلُ . . .

وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الحكم وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : 88]

الرابعة مقابلة الحق بالضلال عرف لغة وشرعاً ، كما في هذه الآية .

وكذلك أيضاً مقابلة الحق بالباطل عرف لغة وشرعاً ؛ قال الله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الله هُوَ الحق وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الباطل ﴾ [لقمان : 30] .

والضلال حقيقته الذهاب عن الحق ؛ أخِذ من ضلال الطريق ، وهو العدول عن سَمْته .

(42/361)

قال ابن عرفة : الضلالة عند العرب سلوك غيرِ سبيل القصد ؛ يقال : ضلّ عن الطريق وأضلّ الشيء إذا أضاعه .

وخُصّ في الشرع بالعبارة في العدول عن السداد في الاعتقاد دون الأعمال ؛ ومن غريب أمره أنه يعبر به عن عدم المعرفة بالحق سبحانه إذا قابله غفلة ولم يقترن بعدمه جهل أو شك ، وعليه حمل العلماء قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى ﴾ [الضحى : 7] أي غافلاً

، في أحد التأويلات ، يحققه قوله تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾ [الشورى : 52] .

الخامسة روى عبد الله بن عبد الحكم وأشهب عن مالك في قوله تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال ﴾ قال : اللَّعِب بالشِّطْرَنْج والنَّرْدِ من الضلال .

وروى يونس عن ابن وهب أنه سئل عن الرجل يلعب في بيته مع امرأته بأربع عشرة ؛ فقال مالك : ما يعجبني ! وليس من شأن المؤمنين ، يقول الله تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال ﴾ .

وروى يونس عن أشهب قال : سئل يعني مالكاً عن اللّعب بالشطرنج فقال : لا خير فيه ، وليس بشيء وهو من الباطل ، واللعب كله من الباطل ، وإنه لينبغي لذي العقل أن تنهاه اللحية والشيب عن الباطل .

وقال الزهري لما سئل عن الشطرنج : هي من الباطل ولا أُحبها .

السادسة اختلف العلماء في جواز اللَّعِب بالشطرنج وغيره إذا لم يكن على وجه القِمار ؛ فتحصيل مذهب مالك وجمهورِ الفقهاء في الشطرنج أن من لم يقامر بها ولعب مع أهله في بيته مستتراً به مرة في الشهر أو العام ، لا يُطَّلَعُ عليه ولا يُعلم به أنه مَعْفُوٌّ عنه غير محرم عليه ولا مكروه له ، وأنه إن تَخَلّع به واشتهر فيه سقطت مروءته وعدالته ورُدّت شهادته .

وأما الشافعيّ فلا تسقط في مذهب أصحابه شهادةُ اللاعب بالنّرد والشّطرنج ، إذا كان عدلاً في جميع أصحابه ولم يظهر منه سفه ولا رِيبة ولا كبيرة إلا أن يلعب به قماراً ، فإن لعب بها قماراً وكان بذلك معروفاً سقطت عدالته وسفّه نفسه لأكله المال بالباطل .

وقال أبو حنيفة : يكره اللعب بالشطرنج والنرد والأربعة عشر وكلّ اللهو ؛ فإن لم تظهر من اللاعب بها كبيرة وكانت محاسنه أكثر من مساويه قبلت شهادته عندهم .

قال ابن العربي : قالت الشافعية إن الشطرنج يخالف النرد لأن فيه إكداد الفهم واستعمال القريحة .

والنرد قِمار غَرَر لا يعلم ما يخرج له فيه كالاستقسام بالأزلام .

السابعة قال علماؤنا : النرد قطع مملوءة من خشب البقس ومن عظم الفيل ، وكذا هو الشطرنج إذ هو أخوه غُذِّي بِلبانه .

والنرد هو الذي يعرف بالباطل ويعرف بالكِعاب ويعرف في الجاهلية أيضاً بالأَرُنْ ويعرف أيضاً بالنَّرْدَشِير .

وفي صحيح مسلم عن سليمان بن بُريدة عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده في لحم خنزير ودمِه " قال علماؤنا : ومعنى هذا أي هو كمن غمس يده في لحم الخنزير يهيّئه لأن يأكله ، وهذا الفعل في الخنزير حرام لا يجوز ؛ يبيّنه

قوله صلى الله عليه وسلم : " من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله " رواه مالك وغيره من حديث أبي موسى الأشعري وهو حديث صحيح ، وهو يحرّم اللعب بالنرد جملة واحدة وكذلك الشطرنج ، لم يستثن وقتاً من وقت ولا حالاً من حال ، وأخبر أن فاعل ذلك عاصٍ لله ورسوله ؛ إلا أنه يحتمل أن يكون المراد باللعب بالنرد المنهيّ عنه أن يكون على وجه القمار ؛ لما رُوي من إجازة اللعب بالشطرنج عن التابعين على غيرِ قمار .

وحَمْلُ ذلك على العموم قماراً وغير قمار أولى وأحوط إن شاء الله .

(44/361)

قال أبو عبد الله الحليميّ في كتاب منهاج الدين : ومما جاء في الشّطرنج حديث يروى فيه كما يروى في النرد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من لعب بالشّطرنج فقد عصى الله ورسوله " وعن عليّ رضي الله عنه أنه مَرّ على مجلس من مجالس بني تميم وهم يلعبون بالشطرنج فوقف عليهم فقال : أمَا والله لغير هذا خلقتم ! أمَا والله لولا أن تكون سُنّة لضربت به وجوهكم .

وعنه رضي الله عنه أنه مَرّ بقوم يلعبون بالشطرنج فقال : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؛ لأن يَمَسّ أحدكم جمراً حتى يطفأ خَيْر من أن يمسها .

وسئل ابن عمر عن الشطرنج فقال : هي شر من النرد .

وقال أبو موسى الأشعري : لا يلعب بالشطرنج إلا خاطىء .

وسئل أبو جعفر عن الشطرنج فقال : دعونا من هذه المجوسية .

وفي حديث طويل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " وأن من لعب بالنرد والشطرنج والجوز والكِعاب مقَته الله ومن جلس إلى من يلعب بالنرد والشطرنج لينظر إليهم مُحيت عنه حسناته كلها وصار ممن مقته الله " وهذه الآثار كلها تدلّ على تحريم اللعب بها بلا قِمار ، والله أعلم .

وقد ذكرنا في "المائدة" بيان تحريمها وأنها كالخمر في التحريم لاقترانها به ، والله أعلم .

قال ابن العربي في قبسه : وقد جوّزه الشافعي ، وانتهى حال بعضهم إلى أن يقول : هو مندوب إليه ، حتى اتخذوه في المدرسة ؛ فإذا أعيا الطالب من القراءة لعب به في المسجد .

وأسندوا إلى قوم من الصحابة والتابعين أنهم لعبوا بها ؛ وما كان ذلك قطّ ! وتالله ما مستها يَدُ تَقِيّ .

ويقولون : إنها تَشْحَذ الذهن ، والعِيان يكذبهم ، ما تبحّر فيها قطُّ رجل له ذهن .

سمعت الإمام أبا الفضل عطاء المقدسي يقول بالمسجد الأقصى في المناظرة : إنها تعلم الحرب .

فقال له الطَّرْطُوشيّ : بل تفسد تدبير الحرب ؛ لأن الحرب المقصود منها المِلك واغتياله ، وفي الشّطرنج تقول : شاهْ إياك : المِلك نَحّه عن طريقي ؛ فاستضحك الحاضرين .

(45/361)

وتارة شدّد فيها مالك وحرمها وقال فيها : "فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ" .

وتارة استهان بالقليل منها والأهون ؛ والقول الأوّل أصح والله أعلم .

فإن قال قائل : روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سئل عن الشطرنج فقال : وما الشطرنج ؟ فقيل له : إن امرأة كان لها ابن وكان مِلكاً فأُصيب في حرب دون أصحابه ؛ فقالت : كيف يكون هذا أَرُونيه عِياناً ؛ فعُمل لها الشطرنج ، فلما رأته تسلت بذلك .

ووصفوا الشطرنج لعمر رضي الله عنه فقال : لا بأس بما كان من آلة الحرب ؛ قيل له : هذا لا حجة فيه لأنه لم يقل لا بأس بالشطرنج وإنما قال لا بأس بما كان من آلة الحرب .

وإنما قال هذا لأنه شُبّه عليه أن اللعب بالشطرنج مما يستعان به على معرفة أسباب الحرب ، فلما قيل له ذلك ولم يحط به علمه قال : لا بأس بما كان من آلة الحرب ، إن كان كما تقولون فلا بأس به ، وكذلك من روي عنه من الصحابة أنه لم ينه عنه ، فإن ذلك محمول منه على أنه ظنّ أن ذلك ليس يُتَلَهّى به ، وإنما يراد به التسبب إلى علم القتال والمضاربة فيه ، أو على أن الخبر

المسنَد لم يبلغهم .

قال الحَلِيمِيّ : وإذا صح الخبر فلا حجة لأحد معه ، وإنما الحجة فيه على الكافّة .

الثامنة ذكر ابن وهب بإسناده أن عبد الله بن عمر مَرّ بغلمان يلعبون بالكُجّة ، وهي حفر فيها حصًى يلعبون بها ، قال : فسدّها ابن عمر ونهاهم عنها .

وذكر الهرويّ في باب (الكاف مع الجيم) في حديث ابن عباس : في كل شيء قِمار حتى في لعب الصبيان بالكُجّة ؛ قال ابن الأعرابي : هو أن يأخذ الصبي خرقة فيدوّرها كأنها كرة ، ثم يتقامرون بها .

وكج إذا لعب بالكُجّة .

قوله تعالى : ﴿ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ أي كيف تَصرفون عقولكم إلى عبادة ما لا يرزق ولا يُحيي ولا يُميت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(46/361)

وقال أبو السعود :

﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32) ﴾

﴿ فَذَلِكُمُ ﴾ فذلكة لما تقدم أي ذلكم الذي اعترفتم باتصافه بالنعوت المذكورة وهو

مبتدأٌ وقوله تعالى : ﴿ الله ﴾ خبرُه وقوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ أي مالكُكم ومتولي أمورِكم على الإطلاق بدلٌ منه أو بيان له ، وقوله تعالى : ﴿ الحق ﴾ صفةٌ له أي ربكم الثابتُ ربوبيتُه والمتحققُ ألوهيتُه تحققاً لا ريب فيه ﴿ فَمَاذَا ﴾ يجوز أن يكون الكلُّ اسماً واحداً قد غلب فيه الاستفهامُ على اسم الإشارةِ وأن يكون ذا موصولاً بمعنى الذي أي ما الذي ﴿ بَعْدَ الحق ﴾ أي غيرُه بطريق الاستعارةِ ، وإظهارُ الحق إما لأن المرادَ به غيرُ الأول وإما لزيادة التقريرِ ومراعاةِ كمال المقابلةِ بينه وبين الضلالِ ، والاستفهامُ إنكاريٌّ بمعنى الوقوعِ ونفيِه أي ليس غيرُ الحق ﴿ إِلاَّ الضلال ﴾ الذي لا يختاره أحدٌ فحيث ثبت أن عبادةَ من هو منعوتٌ بما ذكر من النعوت الجميلةِ حقٌّ ظهر أن ما عداها من عبادة الأصنامِ ضلالٌ محضٌ إذ لا واسطة بينهما ، وإنما سُميت ضلالاً مع كونها من أعمال الجوارحِ باعتبار ابتنائِها على ما هو ضلالٌ من الاعتقاد ، والرأيُ هذا على تقدير كونِ الحقّ عبارةً عن التوحيد ، وأما على تقدير كونِه عبارةً عن الأول فالمرادُ بالضلال هو الأصنامُ لا عبادتُها ، والمعنى فماذا بعد الربِّ الحقِّ الثابتِ ربوبيّتُه إلا الضلالُ أي الباطلُ الضائعُ المضمحلُّ ، وإنما سمي بالمصدر مبالغةً كأنه نفسُ الضلالِ والضياعِ وهذا أنسبُ بقوله تعالى : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ على التفسير الثاني .

(47/361)

﴿ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ بمعنى إنكارِ الواقعِ واستبعادِه والتعجيبِ منه ، وفيه من المبالغة ما ليس في توجيه الإنكارِ إلى نفس الفعلِ لأن كلَّ موجودٍ لا بد من أن يكون وجودُه على الحال من الأحوال قطعاً فإذا انتفى جميعُ أحوالِ وجودِه فقد انتفى وجودُه على الطريق البرهاني كما مر مراراً ، والفاءُ لترتيب الإنكارِ على ما قبله أي كيف تُصرفون من الحق الذي لا محيدَ عنه وهو التوحيدُ إلى الضلال عن السبيل المستبينِ وهو الإشراكُ وعبادةُ الأصنام أو من عبادة ربكم الحقِّ الثابتِ ربوبيتُه إلى عبادة الباطلِ الذي سمعتم ضلالَه وضياعَه في الآخرة ، وفي إيثار صيغةِ المبنيِّ للمفعول إيذانٌ بأن الانصرافَ من الحق إلى الضلال مما لا يصدُر عن العاقل بإرادته وإنما يقع عند وقوعِه بالقسر من جهة صارفٍ خارجيَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(48/361)

وقال الآلوسى :

﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ﴾

فذلكة لما تقرر والإشارة إلى المتصف بالصفات السابقة حسبما اعترفوا به ، وهي مبتدأ

والاسم الجليل صفة له و﴿ رَبُّكُمْ ﴾ خبر و﴿ الحق ﴾ خبر بعد خبر أو صفة أو خبر مبتدأ محذوف ، ويجوز أن يكون الاسم الجليل هو الخبر و﴿ رَبُّكُمْ ﴾ بدل منه أو بيان له و﴿ الحق ﴾ صفة الرب أي مالككم ومتولي أموركم الثابت ، ربوبيته والمتحقق الوهيته تحققاً لا ريب فيه ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال ﴾ أي لا يوجد غير الحق شيء يتبع الا الضلال فمن تخطى الحق وهو عبادة الله تعالى وحده لا بد وإن يقع في الضلال وهو عبادة غيره سبحانه على الانفراد أو الاشتراك لأن عبادته جل شأنه مع الاشتراك لا يعتد بها فما اسم استفهام وذا موصول ، ويجوز أن يكون الكل اسماً واحداً قد غلب فيه الاستفهام على اسم الإشارة ، وهو مبتدأ خبره ﴿ بَعْدَ الحق ﴾ على ما في النهر والاستفهام إنكاري بمعنى إنكار الوقوع ونفيه ، و﴿ بَعْدَ ﴾ بمعنى غير مجاز والحق ما علمت ، وهو غير الأول ولذا أظهر ، وإطلاق الحق على عبادته سبحانه وكذا اطلاق الضلال على عبادة غيره تعالى لما أن المدار في العبادة الاعتقاد ، وجوز أن يكون الحق عبارة عن الأول والاظهار لزيادة التقرير ومراعاة كمال المقابلة بينه وبين الضلال والمراد به هو الأصنام ، والمعنى فماذا بعد الرب الحق الثابت ربوبيته إلا الضلال أي الباطل الضائع المضمحل وإنما سمي بالمصدر مبالغة كأنه نفس الضلال والضياع ، وقيل : المراد بالحق والضلال ما يعم التوحيد وعبادة غيره سبحانه وغير ذلك ويدخل ما يقتضيه المقام هنا دخولاً أولياء ، ويؤيده ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أشهب قال : سئل مالك عن شهادة اللعاب بالشطرنج والنرد فقال أما من

أدمن فما أرى شهادتهم طائلة يقول الله تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال ﴾ فهذا كله من الضلال .

(49/361)

﴿ فَإِنّي تُصْرَفُونَ ﴾ أي فكيف تصرفون عن الحق إلى الضلال والاستفهام إنكاري بمعنى إنكار الواقع واستبعاده والتعجب منه ، وفيه من المبالغة ما ليس في توجيه الإنكار إلى نفس الفعل فإنه لا بد لكل موجود من أن يكون وجوده على حال من الأحوال فإذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهاني والفاء لترتيب الإنكار والتعجب على ما قبله ، ولعل ذلك الإنكار والتعجب متوجهان في الحقيقة إلى منشأ الصرف وإلا فنفس الصرف منه تعالى على ما هو الحق فلا معنى لإنكاره والتعجب منه مع كونه فعله جل شأنه ، وإنما لم يسند الفعل إلى الفاعل لعدم تعلق غرض به .

وذهب المعتزلة أن فاعل الصرف نفسه المشركون فهم الذين صرفوا أنفسهم وعدلوا بها عن الحق إلى الضلال بناء على أن العباد هم الخالقون لأفعالهم ، وأمر الإنكار والتعجب عليه ظاهر ، وإنما لم يسند الفعل إلى ضميرهم على جهة الفاعلية إشارة إلى أنه بلغ من الشناعة

إلى حيث أنه لا ينبغي أن يصرح بوقوعه منهم فتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(50/361)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ ﴾

الفاء للتفريع على الإنكار الذي في قوله : ﴿ أفلا تتقون ﴾ [يونس : 31] ، فالمفرع من جملة المقول .

واسم الإشارة عائد إلى اسم الجلالة للتنبيه على أن المشار إليه جدير بالحكم الذي سيذكر بعد اسم الإشارة مِن أجْل الأوصاف المتقدمة على اسم الإشارة وهي كونه الرازق ، الواهب الإدراك ، الخالق ، المدبر ، لأن اسم الإشارة قد جمعها .

وأوماً إلى أن الحكم الذي يأتي بعده معلل بمجموعها .

واسم الجلالة بيان لاسم الإشارة لزيادة الإيضاح تعريضاً بقوة خطئهم وضلالهم في الإلهية .

و﴿ ربكم ﴾ خبر .

و﴿ الحق ﴾ صفة له .

وتقدم الوصف بالحق آنفاً في الآية مثل هذه .

والفاء في قوله : ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ تفريع للاستفهام الإنكاري على الاستنتاج الواقع بعد الدليل ، فهو تفريع على تفريع وتفريع بعد تفريع .

و﴿ ماذا ﴾ مركَّبٌ من (ما) الاستفهامية و (ذا) الذي هو اسم إشارة .

وهو يقع بعد (ما) الاستفهامية كثيراً .

وأحسن الوجوه أنه بعد الاستفهام مزيدٍ لمجرد التأكيد .

ويعبر عن زيادته بأنه ملغى تجنباً من إلزام أن يكون الاسم مزيداً كما هنا .

وقد يفيد معنى الموصولية كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ في سورة [البقرة : 26] .

وانظر ما يأتي عند قوله : ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ في هذه [السورة : 50] .

والاستفهام هنا إنكاري في معنى النفي ، ولذلك وقع بعده الاستثناء في قوله : إلا الضلال ﴾ .

و﴿ بعْدَ ﴾ هنا مستعملة في معنى (غير) باعتبار أن المغاير يحصل إثر مغايره وعند انتفائه .

فالمعنى : ما الذي يكون إثر انتفاء الحق .

ولما كان الاستفهام ليس على حقيقته لأنه لا تردد في المستفهَم عنه تعيّن أنه إنكار وإبطال

فلذا وقع الاستثناء منه بقوله : ﴿ إلا الضلال ﴾ .

فالمعنى لا يكون إثر انتفاء الحق إلا الضلال إذ لا واسطة بينهما .

(51/361)

فلما كان الله هو الرب الحق تعين أن غيره مما نسبت إليه الإلهية باطل .

وعبر عن الباطل بالضلال لأن الضلال أشنع أنواع الباطل .

والفاء في ﴿ فأَنَّى تصرفون ﴾ للتفريع أيضاً ، أي لتفريع التصريح بالتوبيخ على الإنكار والإبطال .

و ﴿ أَنَّى ﴾ استفهام عن المكان ، أي إلى مكان تَصرفكم عقولكم .

وهو مكان اعتباري ، أي أنكم في ضلال وعماية كمن ضل عن الطّريق ولا يجد إلا من ينعت له طريقاً غير موصلة فهو يُصرف من ضلال إلى ضلال .

قال ابن عطية : وعبارة القرآن في سوق هذه المعاني تفوق كل تفْسير براعة وإيجازاً ووضوحاً .

وقد اشتملت هذه الآيات على تسع فاءات من قوله : ﴿ فسيقولون الله ﴾ : الأولى

جوابية ، والثانية فصيحة ، والبواقي تفريعية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(52/361)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ ﴾

وقد جاء قول الحق سبحانه : ﴿ فذلكم ﴾ إشاره منه إلى ما ذكره قَبْلاً من الرزق ، وملكية السمع والأبصار ، وقدرة إخراج الحيّ من الميت ، وأخراج الميت من الحي ، وتدبير الأمر .

إذن : فقوله سبحانه : ﴿ فذلكم ﴾ إشارة إلى أشياء ونعم كثيرة ومتعددة أشار إليها بلفظ واحدٍ ؛ لأنها كلها صادرة من إله واحد .

﴿ فذلكم الله ربُّكُمُ الحق ﴾ [يونس : 32] .

ولا يوجد في الكون حقَّان ، بل يوجد حق واحد ، وما عداه هو الضلال ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الحق إلاَّ الضلال ﴾ [يونس : 32] .

إذن : أنتم إنْ وجَّهتم الأمر بالربوبية ألى غيره ؛ تكونون قد ضللتم الطريق ، فالضلال أن يكون

لك غاية تريد أن تصل إليها ، فتتجه إلى طريق لا يوصِّل إليها . فإن صُرفتم من الإله الحق فأنتم تصلون إلى الضلال .

ولذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بما يبين أنه لا يوجد إلا الحق أو الضلال ، فيقول سبحانه : ﴿ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس : 32] .

أي : أنكم إن انصرفتم عن الحق سبحانه وتعالى ، فإلى الضلال ، والحقُّ واحد ثابت لا يتغيَّر .

ومَنْ عبد الملائكة أو الكواكب أو النجوم ؛ أو بعض رسل الله عليهم السلام أو صنماً من الأصنام ؛ فقد هوى إلى الضلال .

وإن كنتم تريدون أن نجادلكم عقلياً ، فَلْنقرأ معاً قول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(53/361)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ﴾ : يجوز أن يكونَ " ماذا " كلُّه اسماً واحداً لتركُّبهما ، وغُلِّب الاستفهامُ على اسم الإشارة ، وصار معنى الاستفهامِ هنا النفيَ ولذلك أوجب بعده ب " إلا " ، ويجوز أن يكون " ذا " موصولاً بمعنى الذي ، والاستفهام أيضاً بمعنى النفي ، والتقدير : ما الذي بعد الحق إلا الضلال ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 195 ﴾

(54/361)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32) ﴾

ما يكون من موضوعات الحق ، ومتعلقاتِ الإرادة ، ومتناولاتِ المشيئة ، ومُجنَّساتِ التقدير ، ومُصرِّفاتِ القدرة – فهي أشباحٌ خاوية ، وأحكامُ التقديرِ عليها جارية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 94 ﴾

(55/361)

قوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانوا جديرين عند تقريرهم بهذه الآية وإقرارهم بمضمونها بأن يقولوا : سلمنا فأسلمنا ولا نصرف عن الحق أبداً ، فلم يقولوا ، كانوا حقيقين بأن يقال لهم : حقت عليكم كلمة الله لفسقكم وزوغانكم عن الحق .

فقيل : هل خصوا بذلك ؟ فقيل : بل ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الحقوق العظيم ﴿ حقت كلمت ربك ﴾ أي المحسن إليك بإهلاك أعدائك : الكلمة الواحدة النافذة التي لا تردد فيها ، ومعنى الجمع في قراءة نافع وابن عامر أنه لا شيء من كلماته يناقض الكلمة التي أوجبت عذابهم ، بل كلها توافقها فالمراد واحد ، أو يكون ذلك كناية عن أن عذابهم دائم فإن كلماته لا تنفذ ﴿ على ﴾ كل ﴿ الذين ﴾ فعلوا فعلهم لأنهم ﴿ فسقوا ﴾ أي أوقعوا الترك لأمر الله وأوجدوا عصيانه وفعلوا الخروج عن طريق الحق والخروج عن دائرة الصلاح ، وهو كونهم أمة واحدة إلى دين أبيهم آدم صَفيُ الله عليه السلام ؛ ثم علل ذلك الحقوق بقوله : ﴿ أنهم لا يؤمنون ﴾ أي لا يتجدد منهم إيمان أصلاً ، وعبر بالفسق المراد به الكفر لأن السياق للخروج عن دائرة الدين الحق في قوله ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾

وهذا المعنى أحق بالتعبير للفسق الذي أصله الخروج عن محيط في قولهم : فسقت الرطبة عن قشرها - أي خرجت ، أو يكون المعنى : حقت الربوبية له سبحانه بهذا الليل ، وهو فعل هذه الأمور المختتمة بالتدبير المقتضي للوحدانية له سبحانه قطعاً لأنه لو كان قادر يساويه في مقدوره لأمكن أن يمانعه ، وبطل أن يكون قادراً ، وحق أن من زاغ عن الحق كان في الضلال كما حق هذا ﴿كذلك حقت﴾ أي ثبتت ثباتاً عظيماً ﴿كلمت ربك على﴾ كل ﴿الذين﴾ قضى بفسقهم منهم .

و﴿أنهم لا يؤمنون﴾ تفسير لكلمته التي حقت ؛ والرزق : جعل العطاء الجاري . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 3 صـ 439 . 440﴾

(56/361)

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الذين فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الكفر بقضاء الله تعالى وإرادته ، وتقريره أنه تعالى أخبر عنهم خبراً جزماً قطعاً أنهم لا يؤمنون ، فلو آمنوا لكان إما أن يبقى ذلك الخبر صدقاً أو لا يبقى ، والأول باطل ، لأن الخبر بأنه لا يؤمن يمتنع أن يبقى صدقاً حال ما يوجد الإيمان منه والثاني أيضاً باطل ، لأن انقلاب خبر الله تعالى كذباً محال فثبت أن صدور الإيمان منهم محال .

والمحال لا يكون مراداً ، فثبت أنه تعالى ما أراد الإيمان من هذا الكافر وأنه أراد الكفر منه ، ثم نقول : إن كان قوله : ﴿ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ يدل على صحة مذهب القدرية ، فهذه الآية الموضوعة بجنبه تدل على فساده ، وقد كان من الواجب على الجبائي مع قوة خاطره حين استدل بتلك الآية على صحة قوله أن يذكر هذه الحجة ويجيب عنها حتى يحصل مقصوده .

المسألة الثانية :

قرأ نافع وابن عامر ﴿ كلمات ربّكَ ﴾ على الجمع وبعده ﴿ إنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كلمات ربّكَ ﴾ [يونس : 96] وفي حم المؤمن ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كلمات ﴾ [غافر : 6] كله بالألف على الجمع والباقون ﴿ كَلِمَتُ رَبّكَ ﴾ في جميع ذلك على لفظ الوحدان .

المسألة الثالثة :

الكاف في قوله : ﴿ كذلك ﴾ للتشبيه ، وفيه قولان : الأول : أنه كما ثبت وحق أنه ليس

بعد الحق إلا الضلال كذلك حقت كلمة ربك بأنهم لا يؤمنون .

الثاني : كما حق صدور العصيان منهم ، كذلك حقت كلمة العذاب عليهم .

المسألة الرابعة :

﴿ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بدل من ﴿ كلمت ﴾ أي حق عليهم انتفاء الإيمان .

المسألة الخامسة :

المراد من كلمة الله إما إخباره عن ذلك وخبره صدق لا يقبل التغير والزوال ، أو علمه بذلك ، وعلمه لا يقبل التغير والجهل .

(57/361)

وقال بعض المحققين : علم الله تعلق بأنه لا يؤمن وخبره تعالى تعلق بأنه لا يؤمن ، وقدرته لم تتعلق بخلق الإيمان فيه ، بل بخلق الكفر فيه وإرادته لم تتعلق بخلق الإيمان فيه ، بل بخلق الكفر فيه ، وأثبت ذلك في اللوح المحفوظ ، وأشهد عليه ملائكته ، وأنزله على أنبيائه وأشهدهم عليه ، فلو حصل الإيمان لبطلت هذه الأشياء ، فينقلب علمه جهلاً ، وخبره الصدق كذباً ، وقدرته عجزاً ، وإرادته كرهاً ، وإشهاده باطلاً ، وإخبار الملائكة

والأنبياء كذباً ، وكل ذلك محال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 71 .

72 ﴾

(58/361)

وقال السمرقندى :

ثم قال : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾

يعني : هكذا وجبت كلمة العذاب من ربك ، كقوله : ﴿ ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين ﴾ [الزمر : 71] ويقال : وجبت كلمة ربك ، وهو قوله : ﴿ قَالَ اخرج مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف : 18] قوله : ﴿ عَلَى الذين فَسَقُواْ ﴾ ، يعني : كفروا بربهم .

﴿ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، يعني : لا يصدقون بعلم الله تعالى السابق فيهم ، ويقال : إنَّهم لا يؤمنون يعني : لأنهم لا يؤمنون فوجب عليهم العذاب بترك إيمانهم .

قرأ نافع وابن عامر ﴿ كلمات رَبَّكَ ﴾ بلفظ الجماعة ، وقرأ الباقون : ﴿ كلمة ﴾ وكذلك الاختلاف في قوله : ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : 96] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية فى الآيات :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

هذا توقيف وتوبيخ واحتجاج لا محيد عن التزامه ، و﴿ من السماء ﴾ يريد بالمطهر ومن ﴿ الأرض ﴾ يريد بالإنبات ونحو ذلك ، و﴿ يملك السمع والأبصار ﴾ ، لفظ يعم جملة الإنسان ومعظمه حتى أن ما عداهما من الحواس تبع ، ﴿ ويخرج الحي من الميت ﴾ الجنين من النطفة ، والطائر من البيضة ، والنبات من الأرض إذ له نمو شبيه بالحياة ، ﴿ ويخرج الميت من الحي ﴾ ، مثل البيضة من الطائر ونحو ذلك ، وقد تقدم فيما سلف إيعاب القول في هذه المعاني ، و" تدبير الأمر " عام لهذا وغيره من جميع الأشياء ، وذلك استقامة الأمور كلها عن إرادته عز وجل ، وليس تدبيره بفكر ولا روية وتغيرات تعالى عن ذلك بل علمه محيط كامل دائم ، ﴿ فسيقولون الله ﴾ لا مندوحة لهم عن ذلك ، ولا تمكنهم المباهتة بسواه ، فإذا أقروا بذلك ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾ . في افترائكم وجعلكم الأصنام آلهة : وقوله تعالى ﴿ فذلكم الله ربكم ﴾ الآية ، يقول : فهذا الذي هذه صفاته ﴿ ربكم الحق ﴾ أي المستوجب للعبادة والألوهية ، وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغير حق ،

وعبارة القرآن في سوق هذه المعاني تفوت كل تفسير براعة وإيجازاً وإيضاحاً ، وحكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والضلال منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله وكذلك هو الأمر في نظائرها ، وهي مسائل الأصول التي الحق فيها في طرف واحد ، لأن الكلام فيها إنما هو في تقرير وجود ذات كيف وهي ، وذلك بخلاف مسائل الفروع التي قال الله تعالى فيها ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ [المائدة : 48] وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور متشابهات " ، و" ﴿ الحق ﴾ في هذه في الطرفين لأن المتعبدين إنما طلبوا بالاجتهاد لا بعين في كل نازلة ويدلك على أن " الحق " في الطرفين اختلاف الشرائع بتحليل وتحريم في شيء واحد ، والكلام في مسائل الفروع إنما هو في أحكام طارئة على وجود ذات متقررة لا يختلف فيها وإنما يختلف في

(60/361)

الأحكام المتعلقة بالمشترع ، وقوله : ﴿ فأنى تصرفون ﴾ تقرير كما قال ﴿ فأين تذهبون ﴾ [التكوير : 26] ثم قال : ﴿ كذلك حقت ﴾ أي كما كانت صفات الله كما وصف وعبادته واجبة كما تقرر وانصراف هؤلاء كما قدر عليهم وتكسبوا ﴿ كذلك حقت ﴾ ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ، وحمزة والكسائي هنا وفي آخر السورة " كلمة " على

الإفراد الذي يراد به الجمع كما يقال للقصيدة كلمة ، فعبر عن وعيد الله تعالى بكلمته ، وقرأ نافع وابن عامر في الموضعين المذكورين "كلمات" وهي قراءة أبي جعفر وشيبة بن نصاح ، وهذه الآية إخبار أن في الكفار من حتم بكفره وقضى بتخليده ، وقرأ ابن أبي عبلة ، "إنهم" بكسر الألف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(61/361)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾

أي حكمه وقضاؤه وعلمه السابق .

﴿ عَلَى الذين فسقوا ﴾ أي خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا .

﴿ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لا يصدقون .

وفي هذا أَوْفَى دليل على القدرية .

وقرأ نافع وابن عامر هنا وفي آخرها "كَذَلِكَ حَقّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ" وفي سورة غافر بالجمع في الثلاثة .

الباقون بالإفراد و "أن" في موضع نصب ؛ أي بأنهم أو لأنهم .

قال الزجاج : ويجوز أن تكون في موضع رفع على البدل من كلمات .

قال الفراء : يجوز "إنهم" بالكسر على الاستئناف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(62/361)

وقال أبو حيان فى الآيتين :

﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾

فذلكم إشارة إلى من اختص بالأوصاف السابقة ، الحق الثابت الربوبية المستوجبة للعبادة ، واعتقاد اختصاصه بالألوهية لا أصنامكم المربوبة الباطلة .

وماذا استفهام معناه النفي ، ولذلك دخلت إلا ، وصحبه التقرير والتوبيخ ، كأنه قيل : ما بعد الحق إلا الضلال ، فالحق والضلال لا واسطة بينهما ، إذ هما نقيضان ، فمن يخطىء الحق وقع في الضلال .

وماذا مبتدأ تركبت ذا مع ما فصار مجموعهما استفهاماً ، كأنه قيل : أي شيء .

والخبر بعد الحق ، ويجوز أن يكون ذا موصولة ويكون خبر ما ، كأنه قيل : الذي بعد الحق ؟ وبعد صلة كذا .

ولما ذكر تعالى تلك الصفات ، وأشار إلى أنّ المتصف بها هو الله ، وأنه مالكهم وأنه هو الحق ، ثم وبخهم على اتباع الضلال بعد وضوح الحق قال تعالى : فأنى تصرفون ، أي كيف يقع صرفكم بعد وضوح الحق وقيام حججه عن عبادة من يستحق العبادة ، وكيف تشركون معه غيره وهو لا يشاركه في شيء من تلك الأوصاف .

واستنباط كون الشطرنج ضلالاً من قوله : فماذا بعد الحق إلا الضلال ، لا يكاد يظهر ، لأنّ الآية إنما مساقها في الكفر والإيمان وعبادة الأصنام وعبادة الله ، وليس مساقها في الأمور الفرعية التي تختلف فيها الشرائع ، وتختلف فيها أقوال علماء ملتنا .

وقد تعلق الجبائي بهذه الآية في الرد على المجبرة إذ يقولون : إنه تعالى يصرف الكفار عن الإيمان .

قال : لو كان كذلك ما قال : أنى تصرفون .

كما لو أعمى بصر أحدهم لا يقول : إني عميت .

كذلك الكاف للتشبيه في موضع نصب ، والإشارة بذلك قيل : إلى المصدر المفهوم من تصرفون ، مثل صرفهم عن الحق بعد الإقرار به في قوله : فسيقولون الله حق العذاب عليهم أي : جازاهم مثل أفعالهم .

وقيل : إشارة إلى الحق .

قال الزمخشري : كذلك مثل ذلك الحق حقت كلمة ربك ، أي كما حق وثبت أنّ الحق بعد الضلال ، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق ، فكذلك حقت كلمة ربك .

وقال ابن عطية : كذلك أي كما كانت صفات الله كما وصف ، وعبادته واجبة كما تقرر ، وانصراف هؤلاء كما قدر عليهم ، واكتسبوا كذلك حقت .

ومعنى فسقوا : تمردوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه ، وأنهم لا يؤمنون بدل من كلمة ربك أي : حق عليهم انتفاء الإيمان .

ويجوز أن يراد بالكلمة عدة العذاب ، ويكون أنهم لا يؤمنون تعليلاً أي : لأنهم لا يؤمنون .

ويوضح هذا الوجه قراءة ابن أبي عبلة : أنهم لا يؤمنون بالكسر ، وهذا إخبار منه تعالى أنّ في الكفار من حتم الله بكفره وقضى بتخليده .

وقرأ أبو جعفر وشيبة والصاحبان : كلمات على الجمع هنا وفي آخر السورة .

وقرأ باقي السبعة على الإفراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(64/361)

وقال أبو السعود :

﴿ كذلك ﴾ أي كما حقت الربوبيةُ لله تعالى أو كما أنه ليس بعد الحقّ إلا الضلالُ أو أنهم مصروفون عن الحق ﴿ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ وحكمُه وقضاؤُه ﴿ عَلَى الذين فَسَقُواْ ﴾ أي تمردوا في الكفر وخرجوا من أقصى حدودِه ﴿ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بدلُ الكلمةِ أو تعليلٌ لحقيتها والمرادُ بها العِدَةُ بالعذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(65/361)

وقال الآلوسى :

﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ كذلك ﴾ أي كما حقت كلمة الربوبية لله سبحانه وتعالى أو كما أنه ليس بعد الحق إلا الضلال أو كما أنهم مصرفون عن الحق ﴿ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي حكمه ﴿ عَلَى الذين فَسَقُواْ ﴾ أي تمردوا في الكفر وخرجوا إلى أقصى حدوده ، والمراد بهم أولئك المخاطبون ، ووضع الموضول موضع ضميرهم للتوصل إلى ذمهم بعنوان الصلة وللاشعار بالعلية ﴿ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بدل من الكلمة بدل كل من كل أو بدل اشتمال بناء على أن الحكم بالمعنى المصدري أو بمعنى المحكوم به ، وقد تفسر الكلمة بالعدة بالعذاب فيكون

هذا في موضع التعليل لحقيتها أي لأنهم الخ ، واعترض بأن محصل الآية حينئذ على ما تقرر في الذين فسقوا أن كلمة العذاب حقت على أولئك المتمردين لتمردهم في كفرهم ولأنهم لا يؤمنون وهو تكرار لا طائل تحته ، وأجيب بأنه لو سلم أن في الآية تكراراً مطلقاً فهو تصريح بما علم ضمناً ، وفيه دلالة على شرف الإيمان بأن عذاب المتمردين في الكفر بسبب انتفاء الإيمان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(66/361)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) ﴾

تذييل للتعجيب من استمرارهم على الكفر بعد ما ظهر لهم من الحجج والآيات ، وتأييس من إيمانهم بإفادة أن انتفاء الإيمان عنهم بتقدير من الله تعالى عليهم فقد ظهر وقوع ما قدره من كلمته في الأزل .

والكاف الداخلة قبل اسم الإشارة كاف التشبيه .

والمشبه به هو المشار إليه ، وهو حالهم وضلالهم ، أي كما شاهدتَ حقَّت كلمة ربك ، يعني أن فيما شاهدتَ ما يبين لك أن قد حقت كلمة ربك عليهم أنهم لا يؤمنون .

وقوله : ﴿ أنهم لا يؤمنون ﴾ بَدل من (كِلمة) أو ﴿ من كلمات .

والمراد مضمون جملة أنهم لا يؤمنون ﴾ .

وقرأ نافع ، وابن عامر ﴿ كلمات ربك ﴾ بالجمع .

وقرأها الباقون بالإفراد ، والمعنى واحد لأن الكلمة تطلق على مجموع الكلام كقوله تعالى : ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾ [المؤمنون : 100] ، ولأن الجمع يكون باعتبار تعدد الكلمات أو باعتبار تكرر الكلمة الواحدة بالنسبة لأناس كثيرين .

والفسق : الخروج من المسلك الذي شأن الشيء سلوكه ، والمراد به فسق عن تلقي دعوة الرسل وإعمال النظر ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وما يُضل به إلا الفاسقين ﴾ في سورة [البقرة : 26] .

(67/361)

ثم يجوز أن يكون المراد بالذين فسقوا كل من استمر على فسقه فلا يؤمن ، فتكون الجملة تذييلاً لما فيها من العموم الشامل لهؤلاء المتحدث عنهم ، كقوله تعالى : ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ [الرعد : 17] ، ويجوز أن يكون المراد بالذين فسقوا المتحدث عنهم خاصة فيكون من الإظهار في مقام الإضمار لإفادة أنهم مع صفاتهم السابقة قد

اتصفوا بالفسق ، ولإفادة كون فسقهم علة في أنْ حقت عليهم كلمة الله ، ويكون المشبه به هو الحق المأخوذ من ﴿ حَقَّت ﴾ أي كذلك الحق حقَّتْ عليهم كلمة ربك مبالغة في ظهوره حتى أنه إذا أريد تشبيهه وتقريبه لم يشبه إلا بنفسه على طريقة قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ في سورة [البقرة : 143] .

وهي مع ذلك تذييل لما فيه من الفذلكة والتعجيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(68/361)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) ﴾

قوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما تقدم من رزق الله تعالى للبشر جميعاً ، ومن مِلْك السمع والبصر ، ومن تدبير الأمر كله ، ومن إخراج الحيّ من الميت ، وإخراج الميت من الحي ، ذلك هو الإله الحق سبحانه ، وقد ثبت ذلك بسؤاله سبحانه وتعالى هذا السؤال الذي علم مُقدَّماً ألا إجابة له إلا بالاعتراف به إلهاً حقاً : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال ﴾ [يونس : 32] .

ومثل هذه القضية تماماً قَوْلُ الحق سبحانه : ﴿ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الذين فسقوا أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : 33] .

لأنهم أساءوا الفهم في الوحدانية ، وفي العقيدة ، واستحقوا أن يُعذَّبوا ؛ لأنهم صرفوا الحق إلى غير صاحب الحق .

وقد كان هذا خطاباً للموجودين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، لكن بعضهم آمن بالله تعالى ؛ ولذلك فالعذاب : إنما يحُلّ على مَنْ لم يؤمن .

وهذا القول متحقق فيمَنْ سبق في علم الله سبحانه أنهم لا يؤمنون ، وكذلك حقَّتْ كلمة ربك على هؤلاء الذين فسقوا ولا ينتهون عن فسقهم وكفرهم ، وإصرارهم على الانحراف بالعبودية لغير الله الأعلى والرَّبِّ الحق سبحانه وتعالى .

والدليل على العلم الأزليّ لله سبحانه ما نقرأه في سورة البقرة : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : 6] .

إذن : معلوم لله تعالى مَنْ يؤمن ومَنْ لا يؤمن ، ومَنْ يستمر ويُصِرّ على كفره ؛ هو الذي يَلْقَى العذاب ، بعلم الله تعالى فيه أنه لن يؤمن .

ثم يذكر الحق بعد ذلك ما يمكن أن يُجادَلَ به الكافرون بمنطق أحوالهم ، ففي ذوات نفوس غير المؤمنين بإله توجد نزعة فطرية لفعل الخير ، وتوجيه غيرهم إليه ، وهو موجود حتى في الأمم غير المؤمنة ، فكل قوم يُوجّهون إلى الخير بحسب معتقداتهم ، فنجد بين الشعوب غير المؤمنة بإلهٍ حكماء وأطباء وعلماء ، وهؤلاء يوجهون الناس إلى بعض الخير الذي يرونه .

ونجد الطفل الصغير يكتسب المعتقدات والعادات والاتجاهات من والديه ، ومما يسمعه من توجيهاتهم ، فنجده يبتعد عن النار مثلاً أو الكهرباء ؛ لأنه ترسخت في ذهنه توجيهات ونصائح غيره ؛ بل إنه يتعلم كيف يتعامل مع هذه الأشياء دون أن تصيبه بالضرر .

إذن : يوجد توجيه من الخلق إلى الخلق لجهات الخير ، ألا نجد في الدول غير المؤمنة بإله مَنْ يرشد الناس إلى الطرق التي يمكن أن يسيروا فيها باتجاهين ، والطرق التي عليهم أن يسيروا فيها باتجاه واحد ؟

ألا يوجد مَنْ يدل الناس على المنحنيات الخطرة على الطرق ، وكذلك يوجّههم إلى ضرورة خفض سرعة السيارات أمام مدارس الأطفال ؟

نعم ، يوجد في البلاد غير المؤمنة مَنْ يفعل ذلك .

إذن : فالتفكير في الخير لصالح الأمم أمر طبيعي غريزي موجود في كل المجتمعات ، وإذ كان التوجيه للخير يحدث من الإنسان المساوي للإنسان ، ألا يكون الله سبحانه هو الأحق

بالتوجيه إلى الخير ، وهو سبحانه الذي خلق الإنسان ، وخلق له ما يقيم حياته على الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(70/361)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون " وقال فى سورة المؤمن : "وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار " ، للسائل أن يسأل هنا عن قوله فى الأولى "كذلك " بغير حرف عطف وفى الثانية "وكذلك " وعن قوله فى الأولى : "على الذين فسقوا " وفى الثانية : "على الذين كفروا " وعن قوله فى الأولى : "أنهم لايؤمنون " وقوله فى الثانية : "أنهم أصحاب النار " ؟ فتلك ثلاث مسائل .

(71/361)

والجواب : أنه لما تقدم فى سورة يونس قوله تعالى : " قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار " إلى قوله : "فأنى تصرفون " فذكر سبحانه عباده بما لا يجدون محيصا عن إضافة ذلك كله وإسناده إليه سبحانه إذ الرزق كالخلق وقد كانوا يقرون بإسناد الخلق إليه سبحانه قال تعالى : " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله " وأخبر هنا سبحانه باعترافهم بإسناد ما قرروا عليه إليه بقوله : "فسيقولون الله " قيل لهم : "أفلا تتقون " أى عجبا لكم كيف تجمعون بين الاقرار بهذا كله ثم لا تخافون من إليه ذلك كله وتتخذون وقاية من عذابه على مخالفتكم ثم قيل لهم : "فذلكم الله ربكم الحق " أى مالك ذلك كله والمنفرد بتدبيره هو ربكم الحق فكيف تنصرفون عنه ثم أخبر تعالى أن كلمته التى لا مبدل لها حقت على من انصرف عن الحق وتركه بعد بيانه بحسب ما قدر له فى الأزل ولم يقلع عن ذلك أنه لا يؤمن أبدا "إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية " ولما لم يتقدم قبل هذه الآيات فيما اتصل بها مقال من ذكر ممن حقت عليه كلمة العذاب أتى قوله : "كذلك حقت " فصورة الاستئناف غير معطوفة إذ لم يتقدم ما يعطف عليه وقيل "فسقوا " لأن بما تقدم مما قرروا عليه مع ما جعل لهم من الاسماع والابصار والافئدة مكنوا من النظر بما خلق لهم من الادوات ووضوح المنظور فيه فبمجموع هذا كله كانوا بمنزلة من تحصل الأجر وكأنه قبح اتصف به وتمكنت حاله فيه ثم تركه وخرج عنه ونظير هذا قوله تعالى : " أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى " فلاءم هذا الحال وسمهم

بالفسق فقيل : "على الذين فسقوا " فاستحقوا على فسقهم بقدر الله عليه أن منعوا التصديق وهو الإيمان فأضلهم الله على علم .

(72/361)

أما آية غافر فإنه تقدم قبلها قوله تعالى : " ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا " ثم أعقب بذكر قوم نوح والأحزاب وهم كل أمة منهم برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذهم الله وأهلكهم بما حق عليهم .

ثم قال تعالى : " وكذلك حقت كلمات ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار " وأهلها فكيف يصح منهم الإيمان وقد حقت عليهم الكلمة : "أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار " فلما تقدم فى هذه السورة ذكر من حقت عليه كلمة العذاب عطف عليه : "وكذلك حقت " ولم يتقدم ذلك فى يونس ولما تقدم قوله تعالى : " ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا " ولم يتقدم بسط دلالات مما به الاعتبار لم يكن هؤلاء بمنزلة المذكورين فى يونس وإن كانت الدلالات عنده فى حق الكل ولكن مراعاة النظم أمر ملتزم والافصاح بالذكر كما أفصح فى آية يونس لم يقع هنا فلما تكن هذه الآية كتلك فيما ذكر وسم هؤلاء بالكفر وقيل "على الذين كفروا " ولم يقل "فسقوا " إذ لم يتقدم هنا ما تقدم هناك ما يتقدم

معه ذكر الفسق وأيضا فقد تقدم فى غافر قوله تعالى : " ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا " فناسبه "وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا " وإذا كانوا كافرين فهم أصحاب النار فأما الفاسق فإن كان فسقه يخرجه من الإيمان كان كافرا وان كان بالخروج إلى المعصية دون الكفر لم يكن كافرا إلا أن المراد بفسوق من ذكر فى سورة يونس إنما هو ترك الاعتبار الحامل على الإيمان إذا وفق المعتبر فالتارك لذلك خارج عن التصديق فكان كافرا فقد حصل الجواب عن السؤالات الثلاث ووضح مجئ كل على ما يناسب وإن الوارد فى سورة يونس لا يناسبه ما تقدم قبل الآية فى سورة غافر ولا الوارد فى سورة غافر يناسب ما تقدم فى سورة يونس والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 241.243 ﴾

(73/361)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ ﴾ : الكافُ في محلِّ نصب نعتاً لمصدر محذوف ، والإشارةُ ب " ذلك " إلى المصدرِ المفهومِ مِنْ " تُصْرفون " ، أي : مثلَ صَرْفِهم عن الحق بعد الإقرار به

في قوله تعالى : ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللهُ ﴾ [يونس : 31] . وقيل إشارةٌ إلى الحق . قال الزمخشري : "كذلك : مثلَ ذلك الحقّ حَقَّتْ كلمةُ ربك" .

قوله : ﴿ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، فيه أربعةُ أوجه ، أحدها : أنَّها في محلِّ رفعٍ بدلاً من "كلمةُ" ، أي : حَقَّ عليهم انتفاء الإيمان . الثاني : أنها في محلِّ رفعٍ خبراً لمبتدأ محذوف ، أي : الأمر عدمُ إيمانِهم . الثالث : أنها في محلِّ نصبٍ بعد إسقاط الحرف الجارّ . الرابع : أنها في محلِّ جرٍّ على إعمالِه محذوفاً إذا الأصل : لأنهم لا يُؤْمنون . قال الزمخشري : "أو أراد بالكلمة العِدَة بالعذاب ، و ﴿ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ تعليل ، أي : لأنهم" .

وقرأ أبو عمرو وابنُ كثير والكوفيون "كلمة" بالإفراد ، وكذا في آخر السورة . وقد تقدَّم ذلك في الأنعام . وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ أَنهم لا يُؤْمنون ﴾ بكسر "إنَّ" على الاستئناف وفيها معنى التعليل ، وهذه مقوِّيةٌ للوجه الصائر إلى التعليل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 195.196 ﴾

(74/361)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) ﴾

سَبَق لهم الحُكْمُ ، وصَدَقَ فيهم القولُ ؛ فلا لِحُكْمِه تحويل ولا لقوله تبديل ، فإنَّ العلَلَ لا تُغَيِّر الأزل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 94 ﴾

(75/361)

قوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (34) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما علم أنهم معترفون بأمر الهداية وما يتبعها من الرزق والتدبير أعاد سبحانه السؤال عنها مقرونة بالإعادة تنبيهاً لهم على ما يتعارفونه من أن الإعادة أهون ، فإنكارها مع ذلك إما جمود أو عناد ، وإنكار المسلمات كلها هكذا ، وسوقه على الطريق الاستفهام أبلغ وأوقع في القلب فقال : ﴿ قل ﴾ أي على سبيل الإنكار عليهم والتوبيخ لهم ﴿ هل من شركائكم ﴾ أي الذين زعمتموهم شركاء لي وأشركتموهم في أموالكم من أنعامكم وزروعكم ﴿ من يبدأ الخلق ﴾ كما بدأته ليصح لهم ما ادعيتم من الشركة ﴿ ثم يعيده

﴾ .

ولما كان الجواب قطعاً من غير توقف .

ليس فيهم من يفعل شيئاً من ذلك ، وكان لجاجهم في إنكار الإعادة وعنادهم لا يدعهم انة يجيبوا بالحق ، أمره بجوابهم بقوله : ﴿ قل الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ يبدأ الخلق ﴾ أي مهما أراد ﴿ ثم يعيده ﴾ وأتى هنا بجزئي الاستفهام وكذا ما يأتي في السؤال عن الهداية تأكيداً للأمر بخلاف ما اعترفوا به ، فإنه اكتفى فيه بأحد الجزأين في قوله ﴿ فسيقولون الله ﴾ ولم يقل : يرزقنا – إلى آخره ؛ ثم زاد في تبكيتهم على عدم الإذعان لذلك بالتعجيب منهم في قوله : ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي كيف ومن أي جهة تصرفون بأقبح الكذب عن وجه الصواب من صارف ما ، وقد استنارت جميع الجهات ، ورتب هذه الجمل أحسن ترتيب ، وذلك أنه سألهم أولاً عن سبب دوام حياتهم وكمالها بالرزق والسمع والبصر وعن بدء الخلق في إخراج الحي من الميت وما بعده ، وكل ذلك تنبيهاً على النظر في أحوال أنفسهم مرتباً على الأوضح فالأوضح ، فلما اعترفوا به كله أعاد السؤال عن بدء الخلق ليقرن به الإعادة تنبيهاً على أنهما بالنسبة إلى قدرته على حد سواء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 440 . 441 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (34) ﴾

اعلم أن هذا هو الحجة الثانية ، وتقريرها ما شرح الله تعالى في سائر الآيات من كيفية ابتداء تخليق الإنسان من النطفة والعلقة والمضغة وكيفية إعادته ، ومن كيفية ابتداء تخليق السموات والأرض ، فلما فصل هذه المقامات ، لا جرم اكتفى تعالى بذكرها ههنا على سبيل الإجمال ، وههنا سؤالات :

السؤال الأول : ما الفائدة في ذكر هذه الحجة على سبيل السؤال والاستفهام

والجواب : أن الكلام إذا كان ظاهراً جلياً ثم ذكر على سبيل الاستفهام وتفويض الجواب إلى المسؤول ، كان ذلك أبلغ وأوقع في القلب .

السؤال الثاني : القوم كانوا منكرين الإعادة والحشر والنشر فكيف احتج عليهم بذلك ؟

والجواب : أنه تعالى قدم في هذه السورة ذكر ما يدل عليه ، وهو وجوب التمييز بين المحسن وبين المسيء وهذه الدلالة ظاهرة قوية لا يتمكن العاقل من دفعها ، فلأجل كمال قوتها وظهورها تمسك به سواء ساعد الخصم عليه أو لم يساعد .

السؤال الثالث : لم أمر رسوله بأن يعترف بذلك ، والإلزام إنما يحصل لو اعترف الخصم به ؟

والجواب : أن الدليل لما كان ظاهراً جلياً ، فإذا أورد على الخصم في معرض الاستفهام ، ثم إنه بنفسه يقول الأمر كذلك ، كان هذا تنبيهاً على أن هذا الكلام بلغ في الوضوح إلى حيث لا حاجة فيه إلى إقرار الخصم به ، وأنه سواء أقر أو أنكر ، فالأمر متقرر ظاهر .

أما قوله : ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ فالمراد التعجب منهم في الذهاب عن هذا الأمر الواضح الذي دعاهم الهوى والتقليد أو الشبهة الضعيفة إلى مخالفته ، لأن الإخبار عن كون الأوثان آلهة كذب وإفك ، والاشتغال بعبادتها – مع أنها لا تستحق هذه العبادة – يشبه الإفك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 72 ﴾

(77/361)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾

يعني : أصنامكم التي تعبدونها ، هل يقدرون أن يخلقوا خلقاً من غير شيء ثم يبعثونهم في الآخرة كما يفعل الله تعالى ؟ فإن أجابوك وإلا ف ﴿ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ، يعني : إن معبودكم لا يستطيع ذلك .

﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ ، يعني : من أين تكذبون ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ ﴾

أي آلهتكم ومعبوداتكم .

﴿ مَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أي قل لهم يا محمد ذلك على جهة التوبيخ والتقرير ؛ فإن أجابوك وإلا ف ﴿ قُلِ الله يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ وليس غيره يفعل ذلك .

﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ أي فكيف تنقلبون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(78/361)

وقال أبو حيان :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾

لما استفهمهم عن أشياء من صفات الله تعالى واعترفوا بها ، ثم أنكر عليهم صرفهم عن الحق وعبادة الله ، استفهم عن شيء هو سبب العبادة : وهو إبداء الخلق ، وهم يسلمون

ذلك .

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ ثم أعاد الخلق وهم منكرون ذلك ، لكنه عطفه على يسلمونه ليعلم أيهما سواء بالنسبة إلى قدرة الله ، وأنّ ذلك لوضوحه وقيام برهانه ، قرن بما يسلمونه إذ لا يدفعه إلا مكابر ، إذ هو من الواضحات التي لا يختلف في إمكانها العقلاء .

وجاء الشرع بوجوبه ، فوجب اعتقاده .

ولما كانوا لمكابرتهم لا يقرون بذلك أمر تعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يجيب فقال : قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، وأبرز الجواب في جملة مبتدأة مصرح بخبرها ، فعاد الخبر فيها مطابقاً لخبر اسم الاستفهام ، وذلك تأكيد وتثبيت .

ولما كان الاستفهام قبل هذا لا مندوحة لهم عن الاعتراف به ، جاءت الجملة محذوفاً منها أحد جزءيها في قوله : فسيقولون الله ، ولم يحتج إلى التأكيد بتصريح خبرها .

ومعنى تؤفكون تصرفون وتقلبون عن اتباع الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(79/361)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ ﴾

احتجاجٌ آخرُ على حقية التوحيدِ وبطلانِ الإشراكِ بإظهار كونِ شركائِهم بمعزل من استحقاق الإلهية ببيان اختصاصِ خواصِّها من بدء الخلقِ وإعادتِه به سبحانه وتعالى وإنما لم يُعطف على ما قبله إيذاناً باستقلاله في إثبات المطلوبِ ، والسؤالُ للتبكيت والإلزامِ وقد جُعلت أهليةُ الإعادةِ وتحققُها لوضوح مكانِها وسُنوحِ برهانِها بمنزلة بدءِ الخلقِ فنُظمت في سلكه حيث قيل : ﴿ مَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ إيذاناً بتلازمهما وجوداً وعدماً يستلزم الاعترافَ بها وإن صدهم عن ذلك ما بهم من المكابرة والعِناد ، ثم أُمر عليه الصلاة والسلام بأن يبين لهم مَنْ يفعل ذلك فقيل له : ﴿ قُلِ الله يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أي هو يفعلهما لا غيرُ كائناً ما كان لا بأن ينوبَ عليه الصلاة والسلام عنهم في ذلك كما قيل لأن القولَ المأمورَ به غيرُ ما أريد منهم من الجواب وإن كان مستلزِماً له إذ ليس المسؤولُ عنه مَنْ يبدأ الخلق ثم يعيده كما في قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السموات والأرض قُلِ الله ﴾ حتى يكونَ القولُ المأمورُ بين عينِ الجوابِ الذي أريد منهم ويكونَ عليه الصلاة والسلام نائباً عنهم في ذلك بل إنما هو وجودُ مَنْ يفعل البدءَ والإعادةَ من شركائهم فالجوابُ المطلوبُ منهم لا غير نعم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يضمِّنه مقالتَه إيذاناً بتعينه وتحققِه وإشعاراً بأنهم لا يجترئون على التصريح به مخافةَ

التبكيتِ وإلقامِ الحجر لا مكابرةً ولَجاجاً فتدبر . وإعادةُ الجملةِ في الجواب السابق لمزيد التأكيدِ والتحقيق ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ الإفكُ الصرْفُ والقلبُ عن الشيء وقد يُخصّ بالقلب عن الرأي وهو الأنسبُ بالمقام أي كيف تُقلبون من الحق إلى الباطل ، والكلامُ فيه كما ذكر في تُصرفون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(80/361)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن الله الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾

احتجاج آخر على حقية التوحية وبطلان الإشراك ، ولم يعطف إيذاناً باستقلاله في إثبات المطلوب ، والسؤال للتبكيت والإلزام ، وجعل سبحانه الإعادة لسطوع البراهين القائمة عليها بمنزلة البدء في إلزامهم ولم يبال بإنكارهم لها لأنهم مكابرون فيه والمكابر لا يلتفت إليه فلا يقال : إن مثل هذا الاحتجاج إنما يتأتى على من اعترف بأن من خواص الإلهية بدء الخلق ثم إعادته ليلزم من نفيه عن الشركاء نفي الإلهية وهم غير مقرين بذلك ، ففي الآية الإشارة إلى أن الإعادة أمر مكشوف ظاهر بلغ في الظهور والجلاء بحيث يصح أن يثبت فيه دعوى أخرى ، وجعل ذلك الطيبي من صنعة الادماج كقول ابن نباتة :

فلا بد لي من جهلة في وصاله . . .

فمن لي بخل أودع الحلم عنده

فقد ضمن الغزل الفخر بكونه حليماً والفخر شكاية الإخوان ﴿ قُلِ اللهُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ قيل هو أمر له صلى الله عليه وسلم بأن يبين لهم من يفعل ذلك أي قل لهم الله سبحانه هو يفعلهما لا غيره كائناً ما كان لا بأن ينوب عليه الصلاة والسلام عنهم في الجواب كما قاله غير واحد لأن المقول المأمور به غير ما أريد منهم من الجواب وإن كان مستلزماً له إذ ليس المسؤول عنه من يبدأ الخلق ثم يعيده كما في قوله سبحانه : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السموات والأرض قُلِ الله ﴾ [الرعد : 16] حتى يكون القول المأمور به عين الجواب الذي أريد منهم ويكون صلى الله عليه وسلم نائباً عنهم في ذلك بل إنما هو وجود من يفعل البدء والإعادة من شركائهم فالجواب المطلوب منهم لا لا غير .

(81/361)

نعم أمر صلى الله عليه وسلم بأن يضمنه مقالته إيذاناً بتعينه وتحتمه وإشعاراً بأنهم لا يجترئون على التصريح به مخافة التبكيت والقام الحجر لا مكابرة ولجاجاً انتهى ، وقد يقال : المراد من قوله سبحانه : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ ﴾ الخ هل المبدىء المعيد الله أم الشركاء ،

والمراد من قوله سبحانه جل شأنه : ﴿ الله ﴾ الخ الله يبدأ ويعيد لا غيره من الشركاء وحينئذٍ ينتظم السؤال والجواب وانفهام الحصر بدلالة الفحوى فإنك إذا قلت : من يهب الألوف زيد أم عمرو فقيل : زيد يهب الألوف أفاد الحصر بلا شبهة .

وبما ذكر يعلم ما في الكلام السابق في الرد على ما قاله الجمع وكذا رد ما قاله القطب من أن هذا لا يصلح جواباً عن ذلك السؤال لأن السؤال عن الشركاء وهذا الكلام في الله تعالى بل هو الاستدلال على الهيته تعالى وإنه الذي يستحق العبادة بأنه المبدىء المعيد بعد الاستدلال على نفي الهية الشركاء فتأمل ، وفي إعادة الجملة في الجواب بتمامها غير محذوفة الخبر كما في الجواب السابق لمزيد التأكيد والتحقيق ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ الإفك الصرف والقلب عن الشيء يقال : أفكه عن الشيء يأفكه أفكاً إذا قلبه عنه وصرفه ، ومنه قول عروة بن أذينة

: إن تك عن أحسن الصنيعة مأ . . .

فوكاً ففي آخرين قد أفكوا

وقد يخص كما في "القاموس" بالقلب عن الرأي ولعله الأنسب بالمقام أي كيف تقلبون من الحق إلى الباطل والكلام فيه كما تقدم في ﴿ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس : 23] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾

استئناف على طريقة التكرير لقوله قبله ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾ [يونس : 31] .

وهذا مقام تقرير وتعديد الاستدلال ، وهو من دواعي التكرير وهو احتجاج عليهم بأن حال آلهتهم على الضد من صفات الله تعالى فبعد أن أقام عليهم الدليل على انفراد الله تعالى بالرزق وخلق الحواس وخلق الأجناس وتدبير جميع الأمور وأنه المستحق للإلهية بسبب ذلك الانفراد بين هنا أن آلهتهم مسلوبة من صفات الكمال وأن الله متصف بها .

وإنما لم يعطف لأنه غرض آخر مستقل ، وموقع التكرير يزيده استقلالاً .

والاستفهام إنكار وتقرير بإنكار ذلك إذ ليس المتكلم بطالب للجواب ولا يسعهم إلا الاعتراف بذلك فهو في معنى نفي أن يكون من آلهتهم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، فلذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يرتقي معهم في الاستدلال بقوله : ﴿ اللّهُ يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ فصار مجموع الجملتين قصراً لصفة بَدْء الخلق وإعادته على الله تعالى قصرَ إفراد ، أي دون شركائكم ، أي فالأصنام لا تستحق الإلهية والله منفرد بها .

وذكر إعادة الخلق في الموضعين مع أنهم لا يعترفون بها ضَرب من الإدماج في الحجاج وهو فن

بديع .

وإضافة الشركاء إلى ضمير المخاطبين تقدم وجهه آنفاً عند قوله : ﴿ مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾ [يونس : 28] .

وقوله : ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ كقوله : ﴿ فأنى تصرفون ﴾ [يونس : 32] .

وأفكهُ : قلبه .

والمعنى : فإلى أي مكان تقلبون .

والقلب مجازي وهو إفساد الرأي .

و(أنى) هنا استفهام عن مكان مجازي شبهت به الحقائق التي يُحول فيها التفكير .

واستعارة المكان إليها مثل إطلاق الموضوع عليها والمجال أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(83/361)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسألهم : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن

يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [يونس : 34] .

ومعنى أن الله يسأل القوم هذا السؤال أنه لا بد أن تكون الإجابة كما أرادها هو سبحانه .

وإنْ قال قائل : وكيف يأمنهم على مثل هذا الجواب ، ألم يكن من الجائز أن ينسبوا هذا إلى غير الله ؟

نقول : إن هذا السؤال : لا يُطرح إلا وطارحه يعلم أن له إجابة واحدة ، فلن يجد المسئول إجابة إلا أن يقول : إن الذي يفعل ذلك هو الله سبحانه ولا يمكن أن يقولوا : إن الصنم يفعل ذلك ؛ لأنهم يعلمون أنهم هم الذين صنعوا الأصنام ، ولا قدرة لها على مثل هذا الفعل .

فالإجابة معلومة سلفاً : إن الله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على ذلك ، وهذا يوضح أن الباطل لجلج والحق أبلج ، وللحق صَوْلة ؛ فأنت ساعة تنطق بكلمة الحق في أمر ما ، تجدها قد فعلت فِعْلها فيمن هو على الباطل ، ويأخذ وقتاً طويلاً إلى أن يجد كلاماً يرد به ما قلته ، بل يحدث له انبهار واندهاش ، وتنقطع حجته .

ولذلك لم يَقُل الحق سبحانه هنا مثلما قال من قبل : ﴿ فَسَيَقُولُونَ الله ﴾ [يونس : 31]

.

بل قال : ﴿ قُلِ الله يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [يونس : 34] .

وجاء بها الحق سبحانه هكذا ؛ لأنهم حينما سُئلوا هذا السؤال بهرهم الحق وغلب ألسنتهم وخواطرهم ؛ فلم يستطيعوا قول أي شيء .

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى نجد وكيل النيابة يضيّق الخناق على المتهم بأسئلة متعددة إلى أن يوجه له سؤالاً ينبهر المتهم من فرط دقته وليس له إلا إجابة واحدة تتأبى طباعة ألا يجيب عنه ، فيجيب المتهم معترفاً .

(84/361)

والإنسان كما خلقه الله تعالى صالح لأن يؤمن ، وصالح لأن يكفر ، فإرادته هنا تتدخل ، لكن أبعاضه مؤمنة عابدة مسبحة ، فاللسان الذي قد ينطق الكفر ، هو في الحقيقة مؤمن مُسبِّحٌ ، حامد ، شاكر ، لكن إرادة الإنسان التي شاءها الله سبحانه متميزة بالاختيار قد تختار الكفر والعياذ بالله فينطق اللسان بالكفر .

وقد تأتمر اليد بأمر صاحبها ؛ فتمتد لتسرق ، أو تسعى الأقدام مثلاً إلى محل احتساء الخمر ، ولكن هل هذه الفاعلات راضية عن تلك الأفعال ؟

لا ، إنها غير راضية ، إنما هي خاضعة لإرادة الفاعل .

وحين يسأل السؤال : من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ فاللسان بفطرية تكوينه المؤمنة يريد أن يتكلم ؛ لكنه لا يملك إرادة الكلام ، فيبين الحق سبحانه للنبي صلى الله عليه وسلم أن يجيب نيابة عن الأبعاض المؤمنة ، فيقول سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [يونس : 34]

وهو بذلك يؤكد الصيغة ، ويكفي أن يقول محمد صلى الله عليه وسلم هذا القول مُبلِّغاً عن ربه ، وينال هذا القول شرف العندية :

﴿ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ [يونس : 34] .

والإفك : هو الكذب المتعمَّد ، وهو الافتراء ، وهناك فارق بين الكذب غير المتعمد والكذب المتعمد ، فالكذب غير المتعمد هو من ينقل ما بلغه عن غيره حسبما فهم واعتقد ، وهو لون من ألوان الكذب لا يصادف الحق ، ويتراجع عنه صاحبه إن عرف الحق .

أما الافتراء فهو الكذب المتعمد ، أي : أن يعلم الإنسان الحقيقة ويقلبها ؛ ولذلك نجد العلماء قد وقفوا هنا وقفة ؛ فمنهم من قال : هناك صدق ، وهناك كذب ، لكن علماء آخرين قالوا : لا ، إن هناك واسطة بين الصدق والكذب .

(85/361)

ومثال ذلك : أن يدخل ابنٌ على أبيه ، بعد أن سمع هذا الابن من الناس أن هناك حريقاً في بيت فلان ، فيقول الابن لوالده : هناك حريق في بيت فلان ؛ فيذهب الأب ليعاين الأمر ، فإن وجد حريقاً فقول الابن صدق ، وإن لم يكن هناك حريق فالخبر كاذب ، ولكن ناقل الخبر نقله حسبما سمع .

إذن : فهناك فَرْق بين صدق الخبر وصدق المُخْبِر ، فمرة يَصْدُق الخبر ويصدُق المخبر ، ومرة يصدُق الخبر ولا يصدُق المخبِر ، ومرة يصدق المخبر ولا يصدق الخبر .

فهُنا أربعة مواقف ، والذين قالوا إن هناك واسطة بين الصدق والكذب هم مَنْ قالوا : إن الصدق يقتضي مطابقة بين الواقع والخبر . أما الكذب فهو ألا يطابق الواقع الخبر .

لذلك يجب أن نفرِّق بين صدق الخبر في ذاته ، وصدق المخبر ، بأنه يقول ما يعتقد . أما صدق الخبر فهو أن يكون هو الواقع .

وقول الحق سبحانه : ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ أي : فكيف تقلبون الحقائق ؛ لأنكم تعرفون الواقع وتكذبونه كذباً متعمداً ؟

وكلنا نعلم قول الحق سبحانه : ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ [النجم : 53] .

والمؤتفكة : هي القرى التي كُفئت أعلاها إلى أسفلها ، كذلك الكذَّاب يقلب الحقيقة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(86/361)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (34) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الخلق ﴾ : هذه الجملةُ جواب لقوله : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ ﴾ وإنما أتى بالجواب جملةً اسمية مُصَرَّحاً بجزأيها مُعَاداً فيها الخبر مطابقاً لخبر اسم الاستفهام للتأكيدِ والتثبيتِ ، ولَمَّا كان الاستفهام قبل هذا لا مَنْدوحةَ لهم عن الاعتراف به جاءَت الجملةُ محذوفاً منها أحدُ جُزْأَيها في قوله ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللهُ ﴾ [يونس : 31] ، ولم يَحْتَجْ إلى التأكيد بتصريح جزأيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 196 . 197 ﴾

(87/361)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (34) ﴾

كَشف قبيحَ ما انطوت عليه عقائدُهم من عبادتهم ما لا يصحُّ منه الخَلْقُ والإعادة ، وأثبت

أن المعبودَ مَنْ منه الخَلْقُ والإعادة .

قومٌ جعلوا له في الإيجاد شركاءَ بدعوى القَدَرِ ، وقوم منعوا جواز قدرته على الإعادة . وكل هذا جنوحٌ إلى الْكفْرِ وذهابٌ عن الدِّين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 94 ﴾

(88/361)

قوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

فلما فرغ مما يتعلق بأحوال الجسد أمره أن يسألهم عن غاية ذلك ، والمقصود منه من أحوال الروح في الهداية التي في سبب السعادة إمعاناً في الاستدلال بالمصنوع على الصانع على وجه مشير إلى التفضيل فقال : ﴿ قل ﴾ أي يا أفهم العباد وأعرفهم بالمعبود ﴿ هل من شركائكم ﴾ أي الذين زعمتم أنهم شركاء لله ، فلم تكن شركتهم إلا لكم لأنكم جعلتم لهم

حظاً من أموالكم وأولادكم ﴿ من يهدي ﴾ أي بالبيان أو التوفيق ولو بعد حين ﴿ إلى الحق ﴾ فضلاً عن أن يهدي للحق على أقرب ما يكون من الوجود إعلاماً .

(89/361)

ولما كانوا جاهلين بالجواب الحق في ذلك أو معاندين ، أمره أن يجيبهم معرضاً عن انتظار جوابهم آتياً بجزئي الاستفهام أيضاً فقال : ﴿ قل الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ يهدي ﴾ ولما كان قادراً على غاية الإسراع ، عبر باللام فقال : ﴿ للحق ﴾ إن أراد ، ويهدي إلى الحق من يشاء ، لا أحد ممن زعموهم شركاء ، فالاشتغال بشيء منها بعبادة أو غيرها جهل محض واختلال في المزاج كبير ، فالآية من الاحتباك : ذكر ﴿ إلى الحق ﴾ أولاً دليلاً على حذفه ثانياً ، و ﴿ للحق ﴾ ثانياً دليلاً على حذفه أولاً ، فتسبب عن ذلك إنكار أتباعهم لهم فقال : ﴿ أفمن يهدي ﴾ أي منتهياً في هداه ولو على بعد ﴿ إلى الحق ﴾ أي الكامل الذي لا زيغ فيه بوجه ولو على أبعد الوجوه ﴿ أحق أن يتبع ﴾ أي بغاية الجهد ﴿ أم من لا يهدي ﴾ أي يهتدي فضلاً عن أن يهدي غيره إلى شيء من الأشياء أصلاً ورأساً ؛ وإدغام تاء الافتعال للإيماء إلى انتفاء جميع أسباب الهداية حتى أدانيها ، فإن التاء عند أرباب القلوب معناها انتهاء التسبب إلى أدناه ﴿ إلا أن يهدى ﴾ أي يهديه هاد غيره

كائناً من كان ، وهذا يعم كل ما عبد من دون الله من يعقل وممن لا يعقل ؛ فلما أتم ذلك على هذا النهج القويم كان كأنه قيل : أتجيبون أم تسكتون ؟ وإذا أجبتم أتؤثرون الحق فترجعوا عن الضلال أم تعاندون ، تسبب عن ذلك سؤالهم عى وجه التوبيخ بقوله : ﴿ فما ﴾ اي أيّ شيء ثبت ﴿ لكم ﴾ في فعل غير الحق من كلام أو سكوت ؛ ثم استأنف تبكيتاً آخر فقال : ﴿ كيف تحكمون ﴾ فيما سألناكم عنه مما لا ينبغي أن يخفى على عاقل ، أبالباطل أم بالحق ؟ فقد تبين الرشد من الغي ؛ والبدء : العقل الأول ؛ والإعادة : إيجاد الشيء ثانياً ؛ والهداية : التعريف بطريق الرشد من الغي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 441 ﴾

(90/361)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن هذا هو الحجة الثالثة ، واعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولاً ، ثم بالهداية ثانياً ، عادة مطردة في القرآن ، فحكى تعالى عن الخليل عليه السلام أنه ذكر ذلك فقال : ﴿ الذى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 78] وعن موسى عليه السلام أنه ذكر ذلك فقال : ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ [طه : 50] وأمر محمداً صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الاعلى الذى خَلَقَ فسوى والذى قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأعلى : 1 3] وهو في الحقيقة دليل شريف ، لأن الإنسان له جسد وله روح ، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق ، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية فههنا أيضاً لما ذكر دليل الخلق في الآية الأولى ، وهو قوله : ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [النمل : 64] أتبعه بدليل الهداية في هذه الآية .

واعلم أن المقصود من خلق الجسد حصول الهداية للروح ، كما قال تعالى : ﴿ والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أمهاتكم لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والابصار والافئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : 78] وهذا كالتصريح بأنه تعالى إنما خلق الجسد ، وإنما أعطى الحواس لتكون آلة في اكتساب المعارف والعلوم ، وأيضاً فالأحوال الجسدية خسيسة يرجع حاصلها إلى الالتذاذ بذوق شيء من الطعوم أو لمس شيء من الكيفيات الملموسة ، أما الأحوال الروحانية والمعارف الإلهية ، فإنها كمالات باقية أبد الآباد مصونة عن الكون والفساد ، فعلمنا أن الخلق تبع للهداية ، والمقصود الأشرف الأعلى – حصول الهداية .

إذا ثبت هذا فنقول : العقول مضطربة والحق صعب ، والأفكار مختلطة ، ولم يسلم من الغلط إلا الأقلون ، فوجب أن الهداية وإدراك الحق لا يكون إلا بإعانة الله سبحانه وتعالى وهدايته وإرشاده ، ولصعوبة هذا الأمر قال الكليم عليه السلام بعد استماع الكلام القديم ﴿ رَبِّ اشرح لِى صَدْرِى ﴾ [طه : 25] وكل الخلق يطلبون الهداية ويحترزون عن الضلالة ، مع أن الأكثرين وقعوا في الضلالة ، وكل ذلك يدل على أن حصول الهداية والعلم والمعرفة ليس إلا من الله تعالى .

إذا عرفت هذا فنقول : الهداية إما أن تكون عبارة عن الدعوة إلى الحق ، وإما أن تكون عبارة عن تحصيل تلك المعرفة وعلى التقديرين فقد دللنا على أنها أشرف المراتب البشرية وأعلى السعادات الحقيقية ، ودللنا على أنها ليست إلا من الله تعالى .

وأما الأصنام فإنها جمادات لا تأثير لها في الدعوة إلى الحق ولا في الإرشاد إلى الصدق ، فثبت أنه تعالى هو الموصل إلى جميع الخيرات في الدنيا والآخرة ، والمرشد إلى كل الكمالات في النفس والجسد ، وأن الأصنام لا تأثير لها في شيء من ذلك ، وإذا كان كذلك كان الاشتغال بعبادتها جهلاً محضاً وسفهاً صرفاً ، فهذا حاصل الكلام في هذا الاستدلال .

المسألة الثانية :

قال الزجاج : يقال هديت إلى الحق ، وهديت للحق بمعنى واحد ، والله تعالى ذكر هاتين اللغتين في قوله : ﴿ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الحق ﴾ .

المسألة الثالثة :

في قوله : ﴿ أَم مَّنْ لاَّ يَهِدِّي ﴾ ست قراءات : الأول : قرأ ابن كثير وابن عامر وورش عن نافع ﴿ يَهْدِي ﴾ بفتح الياء والهاء وتشديد الدال ، وهو اختيار أبي عبيدة وأبي حاتم ، لأن أصله يهتدي أدغمت التاء في الدال ونقلت فتحة التاء المدغمة إلى الهاء .

(92/361)

الثانية : قرأ نافع ساكنة الهاء مشددة الدال أدغمت التاء في الدال وتركت الهاء على حالها ، فجمع في قراءته بين ساكنين كما جمعوا في ﴿ يَخِصِّمُونَ ﴾ [يس : 49] قال علي بن عيسى وهو غلط على نافع .

الثالثة : قرأ أبو عمرو بالإشارة إلى فتحة الهاء من غير إشباع فهو بين الفتح والجزم مختلسة على أصل مذهبه اختياراً للتخفيف ، وذكر علي بن عيسى أنه الصحيح من قراءة نافع .

الرابعة : قرأ عاصم بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال فراراً من التقاء الساكنين ،

والجزم يحرك بالكسر .

الخامسة : قرأ حماد ويحيى بن آدم عن أبي بكر عن عاصم بكسر الياء والهاء أتبع الكسرة للكسرة .

وقيل : هو لغة من قرأ ﴿ نستعين ونعبد ﴾ السادسة : قرأ حمزة والكسائي ﴿ مَّن يَهْدِى ﴾ ساكنة الهاء وبتخفيف الدال على معنى يهتدي والعرب تقول : يهدي ، بمعنى يهتدي يقال : هديته فهدى أي اهتدى .

المسألة الرابعة :

في لفظ الآية إشكال ، وهو أن المراد من الشركاء في هذه الآية الأصنام وأنها جمادات لا تقبل الهداية ، فقوله : ﴿ أَم مَّنْ لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى ﴾ لا يليق بها .

والجواب من وجوه : الأول : لا يبعد أن يكون المراد من قوله : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ هو الأصنام .

والمراد من قوله : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَهْدِى إِلَى الحق ﴾ رؤساء الكفر والضلالة والدعاة إليها .

والدليل عليه قوله سبحانه : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله ﴾ إلى قوله : ﴿ لاَّ إله إِلاَّ هُوَ سبحانه عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : 31] والمراد أن الله سبحانه وتعالى هدى الخلق إلى الدين الحق بواسطة ما أظهر من الدلائل العقلية والنقلية .

وأما هؤلاء الدعاة والرؤساء فإنهم لا يقدرون على أن يهدوا غيرهم إلا إذا هداهم الله تعالى ، فكان التمسك بدين الله تعالى أولى من قبول قول هؤلاء الجهال .

(93/361)

الوجه الثاني : في الجواب أن يقال : إن القوم لما اتخذوها آلهة ، لا جرم عبر عنها كما يعبر عمن يعلم ويعقل ، ألا ترى أنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف : 194] مع أنها جمادات وقال : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَاءكُمْ ﴾ [فاطر : 14] فأجرى اللفظ على الأوثان على حسب ما يجري على من يعقل ويعلم فكذا ههنا وصفهم الله تعالى بصفة من يعقل ، وإن لم يكن الأمر كذلك ، الثالث : أنا نحمل ذلك على التقدير ، يعني أنها لو كانت بحيث يمكنها أن تهدي ، فإنها لا تهدي غيرها إلا بعد أن يهديها غيرها ، وإذا حملنا الكلام على هذا التقدير فقد زال السؤال .

الرابع : أن البنية عندنا ليست شرطاً لصحة الحياة والعقل ، فتلك الأصنام حال كونها خشباً وحجراً قابلة للحياة والعقل ، وعلى هذا التقدير فيصح من الله تعالى أن يجعلها حية عاقلة ثم إنها تشتغل بهداية الغير .

الخامس : أن الهدى عبارة عن النقل والحركة يقال : هديت المرأة إلى زوجها هدى ، إذا

نقلت إليه والهدي ما يهدى إلى الحرم من النعم ، وسميت الهدية هدية لانتقالها من رجل إلى غيره ، وجاء فلان يهادى بين اثنين إذا كان يمشي بينهما معتمداً عليهما من ضعفه وتمايله .

إذا ثبت هذا فنقول : قوله : ﴿ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ ﴾ يحتمل أن يكون معناه أنه لا ينتقل إلى مكان إلا إذا نقل إليه ، وعلى هذا التقدير فالمراد الإشارة إلى كون هذه الأصنام جمادات خالية عن الحياة والقدرة .

واعلم أنه تعالى لما قرر على الكفار هذه الحجة الظاهرة قال : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ يعجب من مذهبهم الفاسد ومقالتهم الباطلة أرباب العقول . انتهى انتهى . ا هـ انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 73 . 75 ﴾

(94/361)

وقال السمرقندى :

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾

يقول هل يقدر أحد من آلهتكم أن يهدي إلى الحق أي يدعو الخلق إلى الإسلام ؟ فقالوا : لا .

﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ ، يعني : يدعو الخلق إلى الإسلام ويوفق من كان أهلاً لذلك ﴿ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ ﴾ ، أي من يدعو إلى الحق أحق أن يعمل بأمره ويعبد ؟

﴿ أَمَّن لاَّ يَهِدِّى ﴾ طريقاً ولا يهتدي ﴿ إِلاَّ أَن يهدى ﴾ ، يعني : لا يمشي بنفسه إلا أن يحمل من مكان إلى مكان .

قرأ نافع وأبو عمر ﴿ أَمَّن لاَّ يَهِدِّى ﴾ بجزم الهاء وتشديد الدال لأن أصله في اللغة يهتدي فادغم التاء في الدال وأقيم التشديد مقامه ؛ وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع في رواية ورش ﴿ يَهْدِى ﴾ بنصب الياء والهاء وتشديد الدال ، لأن حركة التاء وقعت على الهاء وقرأ عاصم في رواية حفص ﴿ يَهْدِى ﴾ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال لأنه لما اجتمع الساكنان حرك أحدهما بالكسر ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ يَهْدِى ﴾ بكسر الياء والهاء وتشديد الدال فأتبع الكسرة الكسرة ؛ وقرأ حمزة والكسائي ﴿ يَهْدِى ﴾ بجزم الهاء وتخفيف الدال ويكون معناه لا يهتدي .

قال الكسائي : قوم من العرب يقول : هديت الطريق بمعنى اهتديت ، فهذه خمس من القراءات في هذه الآية .

ثم قال : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ؟ كيف تقضون لأنفسكم ؟ يعني : تقولون قولاً ثم ترجعون .

ويقال : ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ كلام تام ، فكأنه قيل لهم : أي شيء لكم في عبادة الأوثان .

ثم قيل لهم ﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي على أي حال تحكمون ؟ ويقال : معناه كيف

تعبدون آلهتكم بلا حجة ولا تعبدون الله بعد هذا البيان لكم ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(95/361)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يهدي إِلَى الحق ﴾

يقال : هداه للطريق وإلى الطريق بمعنًى واحد ؛ وقد تقدم .

أي هل من شركائكم من يُرشد إلى دين الإسلام ؛ فإذا قالوا لا ولا بدّ منه ف "قُلْ" لهم ﴿ اللهَ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ ثم قل لهم موبِّخاً ومقرراً .

﴿ أَفَمَن يهدي ﴾ أي يرشد .

﴿ إِلَى الحق ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى .

﴿ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يهدي إِلاَّ أَن يهدى ﴾ يريد الأصنام التي لا تهدي أحداً ، ولا تمشي إلا أن تُحمل ، ولا تنتقل عن مكانها إلا أن تنقل .

قال الشاعر :

للفتى عقلٌ يعيش به . . .

حيث تَهْدِي ساقَه قَدَمُهْ

وقيل : المراد الرؤساء والمضلون الذين لا يرشدون أنفسهم إلى هُدًى إلا أن يُرْشَدوا .

وفي "يَهدِي" قراءات ست :

الأُولى قرأ أهل المدينة إلا وَرْشاً "يَهْدّي" بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال ؛

فجمعوا في قراءتهم بين ساكنين كما فعلوا في قوله : ﴿ لاَ تَعْدُواْ ﴾ وفي قوله : "يَخْصِّمُونَ"

قال النحاس : والجمع بين الساكنين لا يقدر أحد أن ينطق به .

قال محمد بن يزيد : لا بد لمن رام مثل هذا أن يحرك حركة خفيفة إلى الكسر ، وسيبويه

يسمي هذا اختلاس الحركة .

الثانية قرأ أبو عمرو وقالون في روايةٍ بين الفتح والإسكان ، على مذهبه في الإخفاء

والاختلاس .

الثالثة قرأ ابن عامر وابن كثير وورش وابن مُحَيْصن "يَهَدّي" بفتح الياء والهاء وتشديد

الدال .

قال النحاس : هذه القراءة بيّنة في العربية ، والأصل فيها يهتدي أدغمت التاء في الدال

وقلبت حركتها على الهاء .

الرابعة قرأ حفص ويعقوب والأعمش عن أبي بكر مثل قراءة ابن كَثير ، إلا أنهم كسروا الهاء

، قالوا : لأن الجزم إذا اضطر إلى حركته حُرّك إلى الكسر .

قال أبو حاتم : هي لغة سُفْلَى مضر .

(96/361)

الخامسة قرأ أبو بكر عن عاصم "يِهِدّي" بكسر الياء والهاء وتشديد الدال ، كل ذلك لإتباع الكسر الكسر كما تقدم في البقرة في ﴿ يَخْطَفُ ﴾ [البقرة : 20] .

وقيل : هي لغة من قرأ "نِسْتَعِينُ" و ﴿ لَن تَمَسَّنَا النار ﴾ [آل عمران : 24] ونحوه .

وسيبويه لا يجيز "يِهِدّي" ويجيز "تِهِدّي" و "نِهِدّي" و "إهدي" قال : لأن الكسرة في الياء تثقل .

السادسة قرأ حمزة والكسائي وخلف ويحيى بن وَثّاب والأعمش "يَهْدِي" بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال ؛ من هَدَى يهدي .

قال النحاس : وهذه القراءة لها وجهان في العربية وإن كانت بعيدة ، وأحد الوجهين أن الكسائي والفراء قالا : "يهدي" بمعنى يهتدي .

قال أبو العباس : لا يعرف هذا ، ولكن التقدير أمن لا يهدي غيره ، تم الكلام ، ثم قال : "إلاَّ أَنْ يُهْدَى" استأنف من الأوّل ، أي لكنه يحتاج أن يهدى ؛ فهو استثناء منقطع ، كما تقول ؛

فلان لا يُسمِع غيره إلا أن يُسمع ، أي لكنه يحتاج أن يُسْمَع .

وقال أبو إسحاق : ﴿ فَمَا لَكُمْ ﴾ كلام تام ، والمعنى : فأي شيء لكم في عبادة الأوثان .

ثم قيل لهم : ﴿ تَحْكُمُونَ ﴾ أي لأنفسكم وتقضون بهذا الباطل الصراح ، تعبدون آلهة لا تغني عن أنفسها شيئاً إلا أن يُفعل بها ، والله يفعل ما يشاء فتتركون عبادته ؛ فموضع "كيف" نصب ب "تحكمون" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(97/361)

وقال أبو حيان :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾

لما بين تعالى عجز أصنامهم عن الإبداء والإعادة اللذين هما من أقوى أسباب القدرة وأعظم دلائل الألوهية ، بين عجزهم عن هذا النوع من صفات الإله وهو الهداية إلى الحق وإلى مناهج الصواب ، وقد أعقب الخلق بالهداية في القرآن في مواضع قال تعالى حكاية عن الكليم : ﴿ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ وقال : ﴿ الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى ﴾ فاستدل بالخلق والهداية على وجود الصانع ، وهما حالان للجسد والروح .

ولما كانت العقول يلحقها الاضطراب والغلط ، بيّن تعالى أنه لا يهديهما إلا هو بخلاف أصنامهم ومعبوداتهم ، فإنه ما كان منها لا روح فيه جماد لا تأثير له ، وما فيه روح فليس قادراً على الهداية ، بل الله تعالى هو الذي يهديه .

وهدى تتعدّى بنفسها إلى اثنين ، وإلى الثاني بإلى وباللام .

ويهدي إلى الحق حذف مفعوله الأول ، ولا يصح أن يكون لازماً بمعنى يهتدي ، لأن مقابله إنما هو متعد ، وهو قوله قل : الله يهدي للحق أي يهدي من يشاء إلى الحق .

وقد أنكر المبرد ما قاله الكسائي والفراء وتبعهما الزمخشري من أن يكون هدى بمعنى اهتدى ، وقال : لا نعرف هذا ، وأحق ليست أفعل تفضيل ، بل المعنى حقيق بأن يتبع .

ولما كانوا معتقدين أنّ شركاءهم تهدي إلى الحق ، ولا يسلمون حصر الهداية لله تعالى أمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) بأن يبادر بالجواب فقال : قل الله يهدي للحق ، ثم عادل في السؤال بالهمزة وأم بين من هو حقيق بالاتباع ، ومن هو غير حقيق ، وجاء على الأفصح الأكثر من فصل أم مما عطفت عليه بالخبر كقوله : ﴿ أذلك خير أم جنة الخلد ﴾ بخلاف قوله : ﴿ أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ وسيأتي القول في ترجيح الوصل هنا في موضعه إن شاء الله تعالى .

وقرأ أهل المدينة : إلا ورشا أمن لا يهدي بفتح الياء وسكون الهاء وتشديد الدال ، فجمعوا بين ساكنين .

قال النحاس : لا يقدر أحد أن ينطق به .

وقال المبرد : من رام هذا لا بد أن يحرك حركة خفيفة ، وسيبويه يسمي هذا اختلاس الحركة .

وقرأ أبو عمرو وقالون في رواية كذلك : إلا أنه اختلس الحركة .

وقرأ ابن عامر ، وابن كثير ، وورش ، وابن محيصن : كذلك إلا أنهم فتحوا الهاء وأصله يهتدي ، فقلب حركة التاء إلى الهاء ، وأدغمت التاء في الدال .

وقرأ حفص ، ويعقوب ، والأعمش عن أبي بكر كذلك ، إلا أنهم كسروا الهاء لما اضطر إلى الحركة حرّك بالكسر .

قال أبو حاتم : هي لغة سفلى مضر .

وقرأ أبو بكر في رواية يحيى بن آدم كذلك ، إلا أنه كسر الياء .

ونقل عن سيبويه أنه لا يجيز يهدي ، ويجيز تهدي ونهدي وأهدى قال : لأن الكسرة في الياء تثقل .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، ويحيى بن وثاب ، والأعمش : يهدي مضارع هدى .

قال الزمخشري : هذه الهداية أحق بالاتباع أم الذي لا يهدي ، أي لا يهتدي بنفسه أو لا يهدي غيره ، إلا أنْ يهديه الله .

وقيل : معناه أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه ، إلا أن يهدي ، إلا أن ينقل أولا يهتدي ، ولا يصح منه الاهتداء إلا بنقلة الله تعالى من حاله إلى أن يجعله حيواناً مطلقاً فيهديه انتهى .

وتقدم إنكار المبرد ما قاله الكسائي والفراء وتبعهما الزمخشري : من أنّ هدى بمعنى اهتدى .

وقال أبو علي الفارسي : وصف الأصنام بأنها لا تهتدي إلا أن تهدى ، ونحن نجدها لا تهتدي وإن هديت .

فوجه ذلك أنه عامل في العبادة عنها معاملتهم في وصفها بأوصاف من يعقل ، وذلك مجاز وموجود في كثير من القرآن .

وقال ابن عطية : والذي أقول إنّ قراءة حمزة والكسائي يحتمل أن يكون المعنى أم من لا يهدي أحداً إلا أن يهدي ذلك الأحد بهداية من عند الله ، وأما على غيرها من القراءات التي مقتضاها أم مَن لا يهتدي إلا أن يهدي فيتجه المعنى على ما تقدم لأبي علي الفارسي ، وفيه تجوز كثير .

ويحتمل أن يكون ما ذكر الله من تسبيح الجمادات هو اهتداؤها .

(99/361)

وقيل : تم الكلام عند قوله : أم من لا يهدي أي لا يهدي غيره ، ثم قال : إلا أن يهدي استثناء منقطع ، أي لكنه يحتاج إلى أن يهدي كما تقول : فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع ، أي لكنه يحتاج إلى أن يسمع .

وقيل : أم من لا يهدي في الرؤساء المضلين انتهى .

ويكون استثناء متصلاً لأنه إذ ذاك يكون فيهم قابلية الهداية ، بخلاف الأصنام .

فما لكم استفهام معناه التعجب والإنكار أي : أي شيء لكم في اتخاذ هؤلاء الشركاء إذ كانوا عاجزين عن هداية أنفسهم ، فكيف يمكن أن يهدوا غيرهم ؟ كيف تحكمون استفهام آخر أي : كيف تحكمون بالباطل وتجعلون لله أنداداً وشركاء ؟ وهاتان جملتان أنكر في الأولى ، وتعجب من اتباعهم من لا يهدي ولا يهتدي ، وأنكر في الثاني حكمهم بالباطل وتسوية الأصنام برب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(100/361)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ ﴾

احتجاجٌ آخرُ على ما ذكر جيء به إلزاماً لهم غِبَّ إلزامٍ وإفحاماً إثرَ إفحام وفصلُه عما قبله لما ذُكر من الدلالة على استقلاله ﴿ مَّن يَهْدِي إِلَى الحق ﴾ أي بوجه من الوجوه فإن أدنى مراتبِ المعبودية هدايةُ المعبودِ لعبَدته إلى ما فيه صلاحُ أمرِهم وأما تعيينُ طريقِ الهدايةِ وتخصيصُه بنصب الحجج وإرسالِ الرسلِ والتوفيقِ للنظر والتدبر كما قيل فمُخِلٌّ بما يقتضيه المقام من كمال التبكيتِ والإلزامِ فإن العجزَ عن الهداية على وجه خاصَ لا يستلزم العجزَ عن مطلق الهدايةِ . وهدى كما يُستعمل بكلمة إلى لتضمّنه معنى الانتهاءِ يُستعمل باللام للدلالة على أن المنتهى غايةُ الهداية وأنها لم تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك استُعمل بها ما أسند إلى الله تعالى حيث قيل : ﴿ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقّ ﴾ أي هو يهدي له دون غيره وذلك بما ذكر من نصب الأدلةِ والحججِ وإرسالِ الرسل وإنزال الكتبِ والتوفيقِ للنظر والتدبر وغيرِ ذلك من فنون الهداياتِ ، والكلامُ في الأمر بالسؤال والجوابِ كما مر فيما مر ﴿ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الحق ﴾ وهو الله عز وجل ﴿ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي ﴾ بكسر الهاء أصله يهتدي فأُدغم وكُسرت الهاء لالتقاء الساكنين وقرىء بكسر الياء إتباعاً لها لحركة الهاء وقرىء بفتح الهاء نقلاً لحركة التاء إليها أي لا يهتدي بنفسه فضلاً عن هداية غيرِه ، وفيه من المبالغة ما لا يخفى وإنما نُفي عنه الاهتداءُ مع أن المفهومَ مما سبق نفيُ

الهدايةِ لما أن نفيَها مستتبعٌ لنفيه غالباً فإن من اهتدى إلى الحق لا يخلو عن هداية غيرِه في الجملة وأدناها كونُه قدوةً له بأن يراه فيسلُكَ مسلَكَه من حيث لا يدري ، والفاءُ لترتيب الاستفهامِ على ما سبق من تحقق هدايتِه تعالى صريحاً وعدمِ هدايةِ شركائِهم المفهومِ من القصر ومن عدم الجوابِ المنبىء عن الجواب بالعدم فإن ذلك مما يَضطرهم إلى الجواب الحقِّ لا لتوجُّبِه

(101/361)

الاستفهامَ إلى الترتيب كما يقع في بعض المواقعِ فإن ذلك مختصٌّ بالإنكاري كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنِ اتبع رضوان الله ﴾ الخ ونحوه ، والهمزةُ متأخرةٌ في الاعتبار وإنما تقديمُها في الذكر لإظهار عراقتِها في اقتضاء الصدارةِ كما هو رأيُ الجمهورِ حتى لو كان السؤالُ بكلمة أي لأخّرت حتماً ، ألا يُرى إلى قوله تعالى : ﴿ فَأَىُّ الفريقين أَحَقُّ بالامن ﴾ إثرَ تقديرِ ما يُلجىء المشركين إلى الجواب من حالهم وحالِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرىء لا يهدي بمعنى لا يهتدي لمجيئه لازماً أو لا يهدي غيرَه ، وصيغةُ التفضيلِ إما على حقيقتها والمفضلُ عليه محذوف كما اختاره مكي والتقدير أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع ممن لا يهدي أم من لا يهدي أحق الخ .

وإما بمعنى حقيقتي كما اختاره أبو حيان ، وأياً ما كان فالاستفهامُ للإلزام وأن يُتَّبعَ في حيز النصب ، أو الجرّ بعد حذفِ الجارّ على الخلاف المعروفِ أي بأن يتبع ﴿ إِلاَّ أَنْ يَهْدِى ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم الأحوالِ أي لا يهتدي أو لا يهتدي غيره في حال من الأحوال إلا حالَ هدايتِه تعالى له إلى الاهتداء أو إلى هداية الغير ، وهذا حالُ أشرافِ شركائِهم من الملائكة والمسيحِ وعزيرٍ عليهم السلام وقيل : المعنى أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقلُ إليه إلا أن يُنقل إليه أو إلا أن ينقلَه الله تعالى من حاله إلى أن يجعله حيواناً مكلفاً فيهديَه . وقرىء إلا أن يهتدي من التفعيل للمبالغة ﴿ فَمَا لَكُمْ ﴾ أي أيُّ شيءٍ لكم في اتخاذكم هؤلاء شركاءَ لله سبحانه وتعالى والاستفهامُ للإنكار التوبيخيّ وفيه تعجيبٌ من حالهم وقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي بما يقضي صريحُ العقل ببطلانه إنكارٌ لحكمهم الباطلِ وتعجبٌ منه وتشنيعٌ لهم بذلك ، والفاءُ لترتيب كلا الإنكارين على ما ظهر من وجوب اتباعِ الهادي إلى الحق .

(102/361)

إن قلت : التبكيتُ بالاستفهام السابقِ إنما يظهر في حق من يعكسُ جوابَه الصحيحَ فيحكم بأحقية من لا يَهدي بالاتباع دون مَنْ يهدي ، وهم ليسوا حاكمين بأحقية شركائِهم لذلك

دون الله سبحانه وتعالى بل باستحقاقهما جميعاً مع رجحان جانبه تعالى حيث يقولون : هؤلاء شفعاؤُنا عند الله قلتُ : حكمُهم باستحقاقه تعالى للاتباع بطريق الاشتراكِ حكمٌ منهم بعدم استحقاقِه تعالى لذلك بطريق الاستقلال فصاروا حاكمين باستحقاق شركائِهم له دون الله تعالى من حيث لا يحتسبون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(103/361)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾

احتجاج آخر على ما ذكر جىء به إلزاماً غب إلزام وإفحاماً إثر إفحام .

وفصله إيذاناً بفضله واستقلاله في إثبات المطلوب كما في سابقه .

والمراد هل من يهدي إلى الحق بإعطاء العقل وبعثة الرسل وإنزال الكتب والتوفيق إلى النظر والتدبر بما نصب في الآفاق والأنفس إلى غير ذلك الله سبحانه أم الشركاء ؟ .

ومنهم من يبقى الكلام على ما يتبادر منه كما سمعت فيما قبل ، ومن الناس من خصص طريق الهداية ، والتعميم أوفق بما يقتضيه المقام من كمال التبكيت والإلزام كما لا يخفى ﴿

قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقّ ﴾ أي هو سبحانه يهدي له دون غيره جل شأنه ، والكلام في الأمر على طرز ما سبق ، وفعل الهداية يتعدى إلى اثنين ثانيهما بواسطة وهي إلى أو اللام وقد يتعدى لهما بنفسه وهو لغة على ما قيل كاستعماله قاصراً بمعنى اهتدى ، والمبرد أنكر هذا حيث قال : إن هدى بمعنى اهتدى لا يعرف لكن لم يتابعه على ذلك الحفاظ كالفراء وغيره ، وقد جمع هنا بين صلتيه إلى واللام تفننا وإشارة بإلى إلى معنى الانتهاء وباللام للدلالة على أن المنتهى غاية للهداية وأنها لم تتوجه إليه على سبيل الاتفاق بل على قصد من الفعل وجعله ثمرة له ولذلك عدى بها ما أسند إليه سبحانه كما ترى ، وأما قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الحق ﴾ فالمقصود به التعميم وإن كان الفاعل في الواقع هو الله جل شأنه .

وقيل : اللام هنا للاختصاص والجمهور على الأول ، والمفعول محذوف في المواضع الثلاثة ، وجواز اللزوم في الأول مما لا يلتفت إليه ، ويقدر فيها على طرز واحد كالشخص ونحوه ، وقيل : التقدير قل هل من شركائكم من يهدي غيره إلى الحق قل الله يهدي من يشاء إلى الحق أفمن يهدي غيره إلى الحق ﴿ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي ﴾ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال وهي قراءة يعقوب .

(104/361)

وحفص ، وأصله يهتدي وكسر الهاء لالتقاء الساكنين .

وقرأ حماد .

ويحيى عن أبي بكر عن عاصم بكسر الياء والهاء والتشديد وكسرت الياء اتباعاً للهاء ، وكان سيبويه يرى جواز كسر حرف المضارعة لغة إلا الياء لثقل الكسرة عليها وهذه القراءة حجة عليه .

وقرأ ابن كثير .

وورش عن نافع .

وابن عامر بفتح الياء والهاء والتشديد والأصل يهتدي فنقلت فتحة التاء إلى الهاء قبلها ثم قلبت دالاً لقرب مخرجهما وأدغمت فيها .

وقرأ أبو عمرو .

وقالون عن نافع كذلك لكنه اختلس فتحة الهاء تنبيهاً على أن الحركة فيها عارضة ، وفي بعض الطرق عن أبي عمرو أنه قرأ بالإدغام المجرد عن نقل الحركة إلى ما قبلها أو التحريك بالكسر لالتقاء الساكنين .

واستشكل ذلك بأن فيه الجمع بين الساكنين ولذا قال المبرد : من رام هذا لا بد أن يحرك حركة خفيفة قال ابن النحاس إذ بدونه لا يمكن النطق ، وذكر القاضي أنه لم يبال بالتقاء الساكنين لأن المدغم في حكم المتحرك ، وأنكر بعضهم هذه القراءة وادعى أنه إنما قرأ

بالاختلاس ، والحق أنه قرأ بهما وروي ذلك عن نافع أيضاً وتفصيله في لطائف الإشارات والطيبة .

وقرأ حمزة .

والكسائي ﴿ يَهْدِى ﴾ كيرمي ، وهو إما لازم بمعنى يهتدي كما هو أحد استعمالات فعل الهداية على المعول عليه كما علمت آنفاً أو متعد أي لا يهدي غيره ، ورجح هذا بأنه الأوفق بما قبل فإن المفهوم منه نفي الهداية لا الاهتداء ، وقد يرجح الأول بأن فيه توافق القراءات معنى وتوافقها خير من تخالفها ، وإنما نفى الاهتداء مع أن المفهوم مما سبق نفي الهداية كما ذكر لما أن نفيها مستتبع لنفيه غالباً فإن من اهتدى إلى الحق لا يخلو عن هداية غيره في الجملة وأدناها كونه قدوة له بأن يراه فيسلك مسلكه ، والفاء لترتيب الاستفهام على ما سبق كأنه قيل : إذا كان الأمر كذلك فأنا أسألكم أمن يهدي إلى الحق الخ .

(105/361)

، والمقصود من ذلك الإلزام ، والهمزة على هذا متأخرة في الاعتبار وإنما قدمت في الذكر لإظهار عراقتها في اقتضاء الصدارة كما هو المشهور عند الجمهور .

وصيغة التفضيل إما على حقيقتها والمفضل عليه محذوف كما اختاره مكي والتقدير أفمن

يهدي إلى الحق أحق أن يتبع ممن لا يهدي أم من لا يهدي أحق ، وإما بمعنى حقيق كما اختاره أبو حيان ، وهو خبر عن الموصول ، والفصل بالخبر بين أم وما عطفت عليه هو الأفصح كما قال السمين ، وقد لا يفصل كما في قوله سبحانه : ﴿ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 109] والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير ، و ﴿ أَن يُتَّبَعَ ﴾ في حيز النصب أو الجر بعد حذف الجار على الخلاف المعروف في مثله أو بأن يتبع ﴿ إِلاَّ أَن يهدى ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا يهتدي أو لا يهدي غيره في حال من الأحوال إلا حال هدايته تعالى له إلى الاهتداء أو إلى هداية الغير ، وهذا على ما قاله جمع حال أشراف شركائهم كالمسيح وعزير والملائكة عليهم السلام دون الأوثان لأن الاهتداء الذي هو قبول الهداية وهداية الغير مختصان بذوي العلم فلا يتصور فيها .

وأخرج ابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ .

وغيرهما أن المراد الأوثان ؛ ووجه ذلك بأنه جار على تنزيلهم لها منزلة ذوي العلم ، وقيل : المعنى أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينقل إليه إلا أن ينقل إليه أو إلا أن ينقله الله تعالى من حاله إلى أن يجعله حيواناً مكلفاً فيهديه وهو من قولك : هديت المرأة إلى زوجها وقد هديت إليه وقيل : الآية الأولى

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [يونس : 34] في الأصنام أو فيما يعمهم ونحو الملائكة عليهم السلام وهذه في رؤساء الضلالة كالأحبار والرهبان الذين اتخذوا أرباباً من دون الله وليس بالعيد فيما أرى ، ويؤيده التعبير بالاتباع فإنه يقتضي العمل بأوامرهم والاجتناب عن نواهيهم وهذا لا يعقل في الأوثان إلا بتكلف ، وهو وإن عقل في أشراف شركائهم لكنهم لا يدعون إلا إلى خير واتباعهم في ذلك لا ينعى على أحدهم اللهم إلا أن يقال : إن المشركين تقولوا عليهم أوامر ونواهي فنعى عليهم اتباعهم لهم في ذلك ، وعبر بالاتباع ولم يعبر بالعبادة بأن يقال : أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يعبد أم من لا يهدي إلا أن يهدى مع أن الآية متضمنة إبطال صحة عبادتهم من حيث أنهم لا يهدون وأدنى مراتب العبودية هداية المعبود لعبدته إلى ما فيه صلاح أمرهم مبالغة في تفظيع حال عبادتهم لأنه إذا لم يحسن الاتباع لم تحسن العبادة بالطريق الأولى وإذا قبح حال ذاك فحال هذه أقبح والله تعالى أعلم .

وقرىء إلا أن ﴿ يَهْدِى ﴾ مجهولاً مشدداً دلالة على المبالغة في الهداية ﴿ فَمَا لَكُمْ ﴾ أي أي شيء لكم في اتخاذ هؤلاء العاجزين شركاء لله سبحانه وتعالى ، والكلام مبتدأ وخبر والاستفهام للإنكار والتعجب .

وعن بعض النحاة أن مثل هذا التركيب لا يتم بدون حال بعده نحو قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ

عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ ﴾ [المدثر : 49] فلعل الحال هنا محذوف لظهوره كأنه قيل : فما لكم متخذين هؤلاء شركاء ولا يصح أن يكون قوله عز وجل : ﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ في موضع الحال لأن الجملة الاستفهامية لا تقع حالاً بل هو استفهام آخر للإنكار والتعجب أيضاً أي كيف تحكمون بالباطل الذي يأباه صريح العقل ويحكم ببطلانه من اتخاذ الشركاء لله جل وعلا ، والفاء لترتيب الإنكار على ما ظهر من وجوب اتباع الهادي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(107/361)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾

هذا تكرير آخر بعد قوله : ﴿ قل هل من شركائكم من يَبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ [يونس : 34] .

وهذا استدلال بنقصان آلهتهم عن الإرشاد إلى الكمال النفساني بنشر الحق ، وبأن الله تعالى هو الهادي إلى الكمال والحق ، ومجموع الجملتين مفيد قَصْر صفة الهداية إلى الحق على الله تعالى دون آلهتهم قصرَ إفراد ، كما تقدم في نظيره آنفاً .

ومعلوم أن منة الهداية إلى الحق أعظم المنن لأن بها صلاح المجتمع وسلامة أفراده من اعتداء قويّهم على ضعيفهم ، ولولا الهداية لكانت نعمة الإيجاد مختلة في مضمحلة .

والمراد بالحق الدين ، وهو الأعمال الصالحة ، وأصوله وهي الاعتقاد الصحيح .

وقد أتبع الاستدلال على كمال الخالق ببدء الخلق وإعادته بالاستدلال على كماله بالهداية كما في قول إبراهيم عليه السلام ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ [الشعراء : 78] وقول موسى عليه السلام ﴿ ربّنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هَدى ﴾ [طه : 50] وقوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدّر فهدى ﴾ [الأعلى : 1 3] .

وذلك أن الإنسان الذي هو أكمل ما على الأرض مركب من جسد وروح ، فالاستدلال على وجود الخالق وكماله بإيجاد الأجساد وما فيها هو الخلق ، والاستدلال عليه بنظام أحوال الأرواح وصلاحها هو الهداية .

وقوله : ﴿ أفمن يهدي إلى الحق أحق من يتبع ﴾ إلى آخره تفريع استفهام تقريري على ما أفادته الجملتان السابقتان من قصر الهداية إلى الحق على الله تعالى دون آلهتهم .

وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه أهل العقول بأن الذي يهدي إلى الحق يوصل إلى الكمال الروحاني وهو الكمال الباقي إلى الأبد وهو الكون المصون عن الفساد فإن خلق الأجساد مقصود لأجل الأرواح ، والأرواح مراد منها الاهتداء ، فالمقصود الأعلى هو الهداية .

وإذ قد كانت العقول عرضة للاضطراب والخطأ احتاجت النفوس إلى هدي يتلقى من الجانب المعصوم عن الخطأ وهو جانب الله تعالى ، فلذلك كان الذي يهدي إلى الحق أحق أن يتبع لأنه مصلح النفوس ومصلح نظام العالم البشري ، فاتباعه واجب عقلاً واتباع غيره لا مصحح له ، إذ لا غاية ترجى من اتباعه .

وأفعال العقلاء تصان عن العبث .

وقوله : ﴿ أمّن لا يَهدّي إلا أن يُهدى ﴾ أي الذي لا يهتدي فضلاً عن أن يَهدي غيره ، أي لا يقبل الهداية فكيف يهدي غيره فلا يحق له أن يتبع .

والمراد بـ ﴿ من لا يهدي ﴾ الأصنام فإنها لا تهتدي إلى شيء ، كما قال إبراهيم ﴿ يا أبتِ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾ [مريم : 42] .

وقد اختلف القراء في قوله : ﴿ أمَّن لا يَهدي ﴾ فقرأ نافع ، وابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو بفتح التحتية وفتح الهاء على أن أصله يهتدي ، أبدلت التاء دالاً لتقارب مخرجيهما وأدغمت في الدال ونقلت حركة التاء إلى الهاء الساكنة (ولا أهمية إلى قراءة قالون عن نافع إلى قراءة أبي عمرو بجعل فتح الهاء مختلساً بين الفتح والسكون لأن ذلك من وجوه الأداء

فلا يعد خلافاً في القراءة) .

وقرأ حفص عن عاصم ، ويعقوبُ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال على اعتبار طرح حركة التاء المدغمة واختلاف كسرة على الهاء على أصل التخلص من التقاء الساكنين .

وقرأ أبو بكر عن عاصم بكسر الباء وكسر الهاء بإتباع كسرة الياء لكسرة الهاء .

وقرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الياء وسكون الهاء وتخفيف الدال على أنه مضارع هَدَى القاصر بمعنى اهتدى ، كما يقال : شَرى بمعنى اشترى .

والاستثناء في قوله : ﴿ إلا أن يُهدى ﴾ تهكم من تأكيد الشيء بما يشبه ضده .

(109/361)

وأريد بالهَدْي النقل من موضع إلى موضع أي لا تهتدي إلى مكان إلا إذا نقلها الناس ووضعوها في المكان الذي يريدونه لها ، فيكون النقل من مكان إلى آخر شبه بالسير فشبه المنقول بالسائر على طريقة المكنية ، ورُمز إلى ذلك بما هو من لوازم السير وهو الهداية في ﴿ لا يهدي إلا أن يهدى ﴾ .

وجوز بعض المفسرين أن يكون فعل ﴿ إلا أن يهدى ﴾ بمعنى إهداء العروس ، أي نقلها من بيت أهلها إلى بيت زوجها ، فيقال : هديت إلى زوجها .

وجملة : ﴿ فمالكم كيف تحكمون ﴾ تفريع استفهام تعجيبي على اتباعهم من لا يهتدي بحال .

واتباعهم هو عبادتهم إياهم .

ف ﴿ ما ﴾ استفهامية مبتدأ ، و ﴿ لكم ﴾ خبر ، واللام للاختصاص .

والمعنى : أي شيء ثبت لكم فاتبعتم من لا يهتدي بنفسه نقلاً من مكان إلى مكان .

وقوله العرب : مالك ؟ ونحوه استفهام يعامل معاملة الاستفهام في حقيقته ومجازه .

وفي الحديث أن رجلاً قال للنبيء صلى الله عليه وسلم دُلني على عمل يُدخلني الجنة ، فقال الناس : "مَا لَه مَا لَه" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أرَبٌ مَّا له " .

فإذا كان المستفهم عنه حالاً ظاهرة لم يحتج إلى ذكر شيء بعد (مَا له) كما وقع في الحديث .

وجعل الزجاج هذه الآية منه فقال : ﴿ ما لكم ﴾ : كلام تام ، أي أي شيء لكم في عبادة الأوثان .

قال ابن عطية : ووقف القراء ﴿ فما لكم ﴾ ثم يبدأ ﴿ كيف تحكمون ﴾ .

وإذا كان بخلاف ذلك أتبعوا الاستفهام بحال وهو الغالب كقوله تعالى : ﴿ ما لكم لا تناصرون ﴾ [الصافات : 25] ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾ [المدثر : 49]

ولذلك قال بعض النحاة : مثل هذا الكلام لا يتم بدون ذكر حال بعده ، فالخلاف بين كلامهم

وكلام الزجاج لفظي .

وجملة : ﴿ كيف تحكمون ﴾ استفهام يتنزل منزلة البيان لما في جملة : ﴿ ما لكم ﴾ من الإجمال ولذلك فصلت عنها فهو مثله استفهام تعجيبي من حكمهم الضال إذ حكموا بإلهية من لا يهتدي فهو تعجيب على تعجيب .

ولك أن تجعل هذه الجملة دليلاً على حال محذوفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(110/361)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾

وهذا أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يسألهم سؤالاً جديداً ، لا إجابة له إلا ما يفرضه الواقع ، والواقع يؤكد أن الهداية لا تكون إلا للحق ؛ لأن كل كائن مخلوق لغاية ، فلا شيء يُخلق عبثاً .

ونحن بقُدرتنا المحدودة نصنع (الميكرفون) و ﴿ التليفزيون) أو الثلاجة أو السرير وغيرها ، كلّ منها له غاية ، وكل له قوانين صيانته الخاصة به ، والذي يحدِّد الغاية من هذا المصنوع

أو ذاك هو صانعه ، ويضع لها قوانين صيانتها ؛ لتؤدّي غايتها ، فالغاية من أي شيء توجد قبل الشيء نفسه ؛ ليوجد الشيء على مقتضى الغاية منه .

وآفة العالم الآن أنهم يعلمون أن الله سبحانه خلق الإنسان ، ولكنهم يصنعون من عندهم قوانين لصيانة الإنسان وحركة الإنسان ، وهذا غباء وغفلة من الذين يفعلون ذلك ، كان عليهم أن يتركوا أمر صيانة الإنسان للقوانين التي وضعها خالق الإنسان سبحانه .

فالحق سبحانه وتعالى قد حدد الغاية من خَلْق الإنسان وحدّد قوانين صيانته ، والشر الموجود حالياً بسبب الجهل بغاية الإنسان ، والعدول عن المنهج الذي يجب أن يسير عليه الإنسان ، فقال الحق سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يهدي إِلَى الحق ﴾ [يونس : 35] .

أي : هل من هؤلاء الشركاء مَنْ يهدي الإنسان إلى غايته ؟ هل قالت الشمس مثلاً غايتها ؟ هل قالت الملائكة غايتها ؟ هل قالت الأشجار أو الأحجار أو الرسل الذين عبدتموهم شيئاً غير مراد الله تعالى ؟

إنهم آلهة لا يعرفون الغاية من العابد لهم ، ولا يعرفون الطريق الموصل إلى تلك الغاية .

ولذلك يأتي القول الفصل : ﴿ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ [يونس : 35] .

فالله هداك أيها الإنسان إلى الحق في كل حركة تتحركها بالمنهج الذي أنزله الله سبحانه مكتملاً على رسوله صلى الله عليه وسلم من بدء " لا إله إلا الله " إلى إماطة الأذى عن الطريق ، وهو منهج مستوعب مستوفٍ لكل حركات الإنسان .

وجاءت الإجابة من الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم انبهروا بالسؤال وتلجلجوا ولم يوجد عند أي منهم قدرة على المعارضة ، فالغاية من خلق الإنسان وغيره يوجزها قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] .

والعبادة ليست أركان الإسلام فقط ، بل هي عمارة الكون كبنيان حيّ للإسلام ، والذي حدد الغاية هو الخالق سبحانه ، وهو سبحانه الذي يحدد طريق الوصول إليها .

ونحن حين نرغب في الوصول إلى مكان في الصحراء مثلاً ، إنما نحدد أولاً المكان ، ونختار طريق الوصول ، فإن كان الطريق المستقيم مليئاً بالعقبات والجبال ، فإنك ستضطر للانحراف عن هذا الطريق وصولاً إلى غايتك ، فهذا الطريق المعوج هو الطريق المستقيم ؛ لأنه الطريق الذي يجنبنا العقبات .

ومثال ذلك : السيول التي تنزل على هضباب الحبشة ، فاختارت لنفسها المجرى السهل فكان نهر النيل ، فلا أحد قد حفر النيل مثلما حفرنا الرياحات أو قناة السويس ، بل نزل

السيل واختار لنفسه الطريق السهل فسار فيه بين التعاريج والرمال والصخور .

ولذلك أنت تجد كل ما لا دخل للبشر به قد يتعرج لينفذ ، أما ما صنعه البشر فلا يستطيع ذلك .

وكل خلق لا بد له من غاية ؛ لذلك نجد سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام يقول : ﴿ الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 78] .

(112/361)

فمن خلق هو الذي يحدد الغاية ؛ لأن هذه الغاية توجد عنده أولاً ليخلق ، وتتجلى الدقة في قول القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فلم يقل : الذي خلقني يهديني ، بل قال : ﴿ الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ مما يدل على أن هذه القضية ستخالَف ، وبعد أن يخلق الإنسان سيقوم بعض الناس حماية لمصالحهم بوضع طريق أخرى تخالف الغاية ؛ فتوصل إلى الضلال .

أما الحق سبحانه فقد أنزل القرآن فيه الهداية الحقة ، فالذي خلق هو الذي يقنن ، ولذلك يذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ [الشعراء : 79] .

وبهذا القول وصل سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى أن الذي رزق الآباء قدرة استنباط الرزق مطعماً ومشرباً هو الله سبحانه .

وذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء : 81] .

فالإماتة والإحياء هما من الحق سبحانه ، فلا أحد يسأل عمن يملك الإماتة والإحياء ، أما عن شفاء المرض فقال : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : 80] .

فأنت قد تذهب إلى الطبيب وتظن أنه هو الذي يشفيك ؛ بل هو يعالج ، ولكن الله هو الذي يشفي .

وهكذا نعلم أن قول سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 78] .

هو كلام منطقي ؛ لأن خالق الشيء هو الذي يهدي إلى الغاية من الشيء ؛ فالغاية أولاً ، ثم الخلق ، ثم توضيح الطريق الموصل إلى تلك الغاية ، فإذا خولف في شيء من ذلك فلا صلاح لكون أبداً .

وتجد في القرآن على لسان سيدنا موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 50] .

فما دام الحق سبحانه قد خلق فهو يهدي إلى السبيل الموصل إلى الغاية ، ويقول القرآن أيضاً :

﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى * الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأعلى : 13] .

(113/361)

وهكذا يتأكد لنا أنه ما دامت هناك غاية ، فلا بد من وجود طريق يهدينا إليه من خَلَقَنَا .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ [يونس : 35] لأن سبحانه هو الذي خلق ؛ ولذلك فمن المنطقي أن يأتي بعد ذلك التساؤل : ﴿ أَفَمَن يهدي إِلَى الحق أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يهدي إِلاَّ أَن يهدى ﴾ [يونس : 35] ؟

وسبب وجود اللام في قوله : ﴿ يهدي إِلَى الحق ﴾ هو النظرة إلى الغاية ، وسبب وجود : ﴿ إِلَى الحق ﴾ هو لفت الانتباه إلى أن الوصول إلى الغاية يقتضي طريقاً ، فأراد الحق سبحانه في آية واحدة أن يجمع التعبيرين معاً .

ونحن نعلم أن هذه الآية قد نزلت في الذين اتخذوا لله شركاء ، فهم يعترفون بالله تعالى ولكنهم يشركون به غيره ، فالله سبحانه وتعالى تفرَّد بالألوهية بربوبيته للخلق ؛ لأنه خلق من عَدَمٍ ، ورزق من عُدْمٍ ، وخَلَق لنا وسائل العلم ودبَّر لنا الأمر ، وأخرج الحي من الميت ،

وأخرج الميت من الحي ، وهدى للحق .

فإين إذن هؤلاء الشركاء الذين اتخذتموهم مع الله تعالى ؟ وهل صنع واحد منهم أو كلُّهم مجتمعين شيئاً واحداً من تلك الأشياء ؟

لذلك قال سبحانه : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يهدي إِلَى الحق ﴾ [يونس : 35]

إذن : فالذي يهدي هو الذي خَلَق ، وهؤلاء الذين أشركوا اعترفوا بالله خالقاً بشهاداتهم حين قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [الزخرف : 87] .

إذن : فالذين أشركوا قد ارتكبوا الإثم العظيم ، وهؤلاء الشركاء إما أن يكونوا من الملائكة ، أو من الأنبياء والرسل الذين فُتن بهم بعض الناس ، وهناك من اتخذ وسائط أخرى مثل : الشمس والقَمر والنجوم ؛ وهذه أشياء عُلوية ، وبعض الناس اتخذوا وسائط سفلية كالأشجار والأحجار ، فهل أي شيء من كل ذلك يهدي إلى الحق ؟ وما منهج أي منهم إذن ؟ وكيف بلَّغوكم به ؟

(114/361)

إن كل هؤلاء يعلمون أن أيّاً منهم لا يستطيع أن يَهدي ، بل هو يُهْدَى من الله سبحانه وتعالى ، فمن أين قلتم إن الملائكة ستهديكم ؟ أو من أين جاء الذين فُتنوا برسولهم واتخذوه إلهاً ؟

ومن أين جاء هذا الرسول بمنهجه ؟

إن كل كائن لا يَهدي إلا بعد أن يُهدى من الله أولاً ، وإن كانت الأشياء المتخذة شركاء لا هداية لها ، ولا منهج ، ولا عقل ، ولا تفكير ، كالشمس والقمر والنجوم في العلويات ، والأشجار والأحجار في السفليات ، فماذا قالت هذه الأشياء ؟ إنها لم تقل شيئاً .

وهكذا لا يستقيم أمر اتخاذهم شركاء مع الله ، حتى الملائكة ، فالله هو الذي يختار منهم المَلَكَ الذي يُبلِّغ عن الله سبحانه ، وكذلك الرسل عليهم السلام : ﴿ أَفَمَن يهدي إِلَى الحق أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يهدي إِلاَّ أَن يهدى ﴾ [يونس : 35] .

﴿ لاَّ يهدي ﴾ تقرأ هكذا ، وللغة فيها عملية تخفيف جَرْس لسلامة نطقها واستقامة اللغة العربية ، فنحن نعرف أن ﴿ يهدي ﴾ يعنى : يهتدي . . أصلها يهتدي . . ويهتدي فيها هاء ساكنة وتاء ودال وياء . . وفيها تقارب لمخارج الحروف ، وهذا التقارب يجعل المعنى غائماً ، والنطق ثقيلاً ، فتقوم اللغة بعملية إبدال وإدغام ، وتخلّص من التقاء الساكنين فتصل إلى مسامعنا كما أنزلها الله تعالى لسلامة النطق وجمال المعنى ؛ لأن القرآن أدَّب اللغة بكلام السماء ؛ لتكون خالدة اللفظ والمعنى . فإذا كنتم على طريق هداية ، فالأصل في الهداية هو الله تعالى .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس : 35]

.

أي : ماذا أصاب عقولكم لتحكموا هذا الحكم ؛ فتشركوا بالله ما لا منهج له ، أو له منهج ولكنه موصول بالله تعالى جاء ليبلغه لهم ؟

(115/361)

وساعة تسمع ﴿ كَيْفَ ﴾ فهي للاستفسار عن عملية عجيبة ما كان في عُرْف العاقل أن تحدث . كأن تقول : "كيف ضربت أباك ؟ " أو "كيف سببت أمك ؟ " ، وهذا كله من الأمور التي تأباها الفطرة ويأباه الطبع والدين .

وقوله سبحانه : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ كأنه أمر عجيب ما كان يصح أن يحدث ؛ لأن الحق سبحانه وحده هو الإله ، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغيَّر غاية وطريقاً .

والله سبحانه وحده هو الذي حدد لنا الغاية والطريق الموصل إليها ، وهو سبحانه القائل : ﴿ والله يدعوا إلى دَارِ السلام ﴾ [يونس : 25] .

والمنهج هو الطريق الذي يوصل إلى دار السلام من آفة الأغيار ؛ لأن الدنيا كلها أغيار ، فأنت قد تكون قوياً ثم تضعف أو صحيحاً فيصيبك المرض ، أو غنياً فتفتقر ، أو مبصراً فيضيع منك بصرك ، أو تكون صحيح الأذن سمعياً فتصير أصم بعد ذلك .

إذن : فهي دنيا أغيار ، وهَبْ أن إنساناً أخذ من دنياه كل نصيبه عافية وأمناً وسلامةً

وغنًى وكل شيء ؛ سنجده في قلق من جهتين : الجهة الأولى أنه يخاف أن يفارقه كل هذا النعيم ، أو يخاف أن يترك هو هذا النعيم ، هذا ما نراه في حياتنا .

إذن : فالدنيا بما فيها من أغيار لا أمان لها ؛ لنفهم أن كل عطاءات المخلوق إنما هي هبة من الخالق سبحانه وتعالى ؛ لأنها لو كانت من ذاتك لاستطعت الحفاظ عليها ، ولكنها هِبَاتٌ من الحق الأعلى سبحانه .

والأمر الموهوب قد يصبح مسلوباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(116/361)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يهدي إِلَى الحق ﴾ : قد تقدم في أول هذا الموضوع أنَّ " هدى " يتعدى إلى اثنين ثانيهما : إمَّا باللام أو بإلى ، وقد يُحْذَفُ الحرفُ تخفيفاً . وقد جُمع بين التعديتين هنا بحرف الجر فَعَدَّى الأول والثالث ب " إلى " والثاني باللام ، وحُذِف المفعولُ الأول من الأفعال الثلاثة ، والتقدير : هل مِنْ شركائكم مَنْ يَهْدي غيره إلى الحق قل اللَّهُ يَهْدي مَنْ يشاء

للحق ، أفَمَنْ يهدي غيرَه إلى الحق . وزعم الكسائي والفراء وتبعهما الزمخشري أنَّ " يهدي " الأولَ قاصرٌ ، وأنه بمعنى اهتدى . وفيه نظر ، لأن مُقابلَه وهو ﴿ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ متعدٍّ . وقد أنكر المبرد أيضاً مقالة الكسائي والفراء وقال : " لا نَعْرِفُ هَدَى بمعنى اهتدى " قلت : الكسائي والفراء أَثْبتاه بما نقلاه ، ولكن إنما ضَعُف ذلك هنا لِما ذَكَرْت لك من مقابلته بالمتعدي ، وقد تقدَّم أن التعديةَ ب " إلى " أو اللام من باب التفنُّن في البلاغة ، ولذلك قال الزمخشري : " يقال : هَدَاه للحق وإلى الحق ، فجمع بين اللغتين " . وقال غيره : " إنما عدى المسندَ إلى الله باللام / لأنها أَدَلُّ في بابها على المعنى المرادِ من " إلى " ؛ إذ أصلُها لإفادةِ المُلْك ، فكأن الهداية مملوكة لله تعالى " وفيه نظر ، لأن المراد بقوله : ﴿ أَفَمَن يهدي إِلَى الحق ﴾ هو الله تعالى مع تَعدِّي الفعلِ المسند إليه ب " إلى " .

(117/361)

قوله : ﴿ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ ﴾ خبرٌ لقوله : " أَفَمَنْ يَهْدي " و " أَنْ " في موضعِ نصبٍ أو جرٍّ بعد حذف الخافض ، والمفضَّلُ عليه محذوفٌ ، وتقديرُ هذا كله : " أَفَمَنْ يهْدي إلى الحقّ أَحَقُّ بأن يُتَّبَع ممَّن لا يَهْدي " . ذكر ذلك مكي ابن أبي طالب ، فجعل " أحقّ " هنا على بابها من كونها للتفضيل . وقد منع الشيخ كونَها هنا للتفضيل فقال : " وأحق " ليست للتفضيل ، بل

المعنى : حقيقٌ بأن يُتَّبع " . وجوّز مكي أيضاً في المسألة وجهين آخرين أحدهما : أن تكون " مَنْ " مبتدأ أيضاً ، و " أنْ " في محلِّ رفع بدلاً منها بدلَ اشتمال ، و " أحقُّ " خبرٌ على ما كان . والثاني : أن يكون " أن يُتَّبع " في محلِّ رفعٍ بالابتداء ، و " أحقُّ " خبرُه مقدَّم عليه . وهذه الجملةُ خبر ل " مَنْ يَهْدي " ، فَتَحَصَّل في المسألة ثلاثة أوجه .

قوله : ﴿ أَمَّن لاَّ يهدي ﴾ نسقٌ على " أفمن " ، وجاء هنا على الأفصحِ مِنْ حيث إنَّه قد فُصِل بين " أم " وما عُطِفَتْ عليه بالخبر كقولك : " زيدٌ قائم أم عمرو " ومثله : ﴿ أذلك خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد ﴾ [الفرقان : 15] . وهذا بخلاف قوله تعالى : ﴿ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 109] وسيأتي هذا في موضعه .

(118/361)

وقرأ أبو بكر عن عاصم بكسر ياء " يهدي " وهائه . وحفص بكسر الهاء دون الياء . فأمَّا كسر الهاء فلالتقاء الساكنين ، وذلك أن أصلَه يَهْتدي ، فلما قُصِد إدغامُه سكنَتْ التاء ، والهاءُ قبلَها ساكنة فكُسِرَتْ الهاءُ لالتقاء الساكنين . وأبو بكر أتبع الياء للهاء في الكسر . وقال أبو حاتم في قراءة حفص " هي لغة سُفْلَى مُضَر " ، ونَقَل عن سيبويه أنه لا يُجيز " يِهْدي " ويجيز " تِهْدي ونِهْدي وإهدي " ، قال : " لأن الكسرةَ تَثْقُل في الياء " ، قلت

: يعني أنه يُجيز كَسْرَ حرفِ المضارعة من هذا النحو نحو : تِهْدي ونِهدي وإهدي إذ لا ثِقَلَ في ذلك ، ولم يُجزْهُ في الياء لثقل الحركةِ المجانسةِ لها عليها . وهذا فيه غَضٌّ من قراءة أبي بكر ، ولكنه قد تواتَرَ قراءةً فهو مقبول .

وقرأ أبو عمرو وقالون عن نافع بفتح الياء واختلاس فتحة الهاء وتَشْديد الدال ، وذلك أنهما لَمَّا ثقَّلا الفتحة لإدغام اختلسا الفتحة تنبيهاً على أن الهاءَ ليس أصلُها الحركةَ بل السكون . وقرأ ابن كثير وابن عامر وورش بإكمال فتحة الهاء على أصل النقل . وقد رُوي عن أبي عمرو وقالون اختلاسُ كسرةِ الهاءِ على أصل التقاء الساكين ، والاختلاس للتنبيه على أنَّ أصلَ الهاءِ السكون كما تقدم .

(119/361)

وقرأ أهلُ المدينة خلاورشاً بفتح الياء وسكون الهاء وتشديدِ الدال . وهذه القراءةُ استشكلها جماعةٌ من حيث الجمعُ بين الساكنين . قال المبرد : "مَنْ رام هذا لا بد أن يُحَرِّكَ حركةً خفيَّة" . وقال أبو جعفر النحاس : "لا يقدر أحدٌ أن يَنْطِقَ به" ، قلت : وقد قال في "التيسير" : "والنصُّ عن قالون بالإسكان" ، قلت : ولا بُعْدَ في ذلك فقد تقدَّم أن بعضَ القُرَّاء يَقْرأ ﴿ نِعِمَّا ﴾ [النساء : 58] و ﴿ لاَ تَعْدُواْ ﴾ [النساء : 154] بالجمع بين

الساكنين ، وتقدّمت لك قراءاتٌ كثيرة في قوله : ﴿ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [البقرة : 20] ، وسيأتي لك مثلُ هذا في ﴿ يَخِصِّمُونَ ﴾ [يس : 49] .

وقرأ الأخَوان "يَهْدي" بفتح الياء وسكون الهاء وتخفيفِ الدال مِنْ هدى يَهْدي وفيه قولان ، أحدهما : أنَّ "هدى" بمعنى اهتدى . والثاني : أنه متعدٍّ ، ومفعولُه محذوف كما تقدَّم تحريره . وقد تقدم قول الكسائي والفراء في ذلك ورَدَّ المبرد عليهما . وقال ابن عطية : " والذي أقول : قراءةُ حمزة والكسائي تحتمل أن يكون المعنى : أَمْ مَنْ لا يهدي أحداً إلا أن يهدى ذلك الأحدُ بهداية الله ، وأمَّا على غيرِها مِنَ القراءات التي مقتضاها "أم لا يَهْتدي إلا أن يهدى" فيتجه المعنى على ما تقدَّم" ثم قال : "وقيل : تمَّ الكلامُ عند قوله : "أم مَنْ لا يَهِدِّي ، أي : لا يَهِدِّي غيره" .

ثم قال : ﴿ إِلاَّ أَن يهدى ﴾ استثناءٌ منقطع ، أي : لكنه يحتاج إلى أن يهدى كما تقول : فلان لا يسمع غيره إلا أَنْ يُسْمع ، أي : لكنه يحتاج إلى أن يَسمع " . انتهى . ويجوز أن يكونَ استثناءً متصلاً ، لأنه إذ ذاك يكون فيهم قابليةُ الهدايةِ بخلافِ الأصنام . ويجوز أن يكونَ استثناء من تمامِ المفعول له ، أي : لا يهدي لشيءٍ من الأشياءِ إلا لأَجْل أن يهدى بغيره .

(120/361)

وقوله : ﴿ فَمَا لَكُمْ ﴾ مبتدأ وخبر . ومعنى الاستفهام هنا الإنكارُ والتعجبُ ، أي : أيُّ شيءٍ لكم في اتخاذ هؤلاء إذ كانوا عاجزين عن هدايةِ أنفسهم فكيف يمكن أن يَهْدُوا غيرَهم ؟ وقد تقدَّم أن بعضَ النحويين نصَّ على أن مثل هذا التركيب لا يتمُّ إلا بحالٍ بعده ، نحو : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ ﴾ [المدثر : 49] ﴿ وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ ﴾ [المائدة : 84] إلى غير ذلك ، وهنا لا يمكن أن تُقَدَّر الجملةُ بعد هذا التركيب حالاً لأنها استفهامية ، والاستفهامية لا تقع حالاً . وقوله : "كيف تحكمون" استفهامٌ آخرُ ، أي : كيف تحكمون بالباطل وتجعلون لله أنداداً وشركاء ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 197 . 201 ﴾

(121/361)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35) ﴾

الحقُّ اسمٌ من أسمائه سبحانه ، ومعناه أنه موجود ، وأنه ذو الحق ، وأنه مُحِقُ الحقِّ .

والحقُّ من أوصاف الخَلْق ما حَسُنَ فعله وصحَّ اعتقاده وجاز النطق به .

و﴿ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ : أي إلى الحق هدايته . وهداه له وهداه إليه بمعنىً ؛ فَمَنْ هداه الحقُّ للحقِّ وَقَفَه على الحقِّ ، وعزيزٌ منْ هداه الحقُّ إلى الحقِّ للحقِّ ، فماله نصيبٌ وماله حَظٌّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 95 ﴾

(122/361)

قوله تعالى ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر بإقرارهم عن بعض ما يسألون عنه ثم عقبه بما لوح إلى إنكارهم أو سكوتهم عن بعضه مما يتعلق بشركائهم ، عطف على ما صرح به من قولهم ﴿ فسيقولون ﴾ وما لوح إليه من " فسينكرون " أو " فسيسكتون " قوله : ﴿ وما يتبع ﴾ أي بغاية الجهد ﴿ أكثرهم ﴾ أي نطقه أو سكوته في عبادته للأصنام وقوله : إنها شفعاء ، وغير ذلك ﴿ إلا ظناً ﴾ تنبيهاً على أنهم إنما هم مقلدون وتابعون للأهواء .

ولما كان الظن لا ينكر استعماله في الشرائع ، نبه على أن محله إنما هو حيث لا يوجد نص على المقصود ، فيقاس حينئذ على النصوص بطريقة ، وأما إذا وجد القاطع في حكم فإنه لا يجوز العدول عنه بوجه من الوجوه فقال تعالى في جواب من يقول : أو ليس الظن مستعملاً في كثير من الأحكام ؟ : ﴿ إن الظن لا يغني ﴾ أي أصلاً ﴿ من الحق ﴾ أي الكامل ﴿ شيئاً ﴾ أي بدله ، ولا يكون بدل الحق إلا إذا كان تابعه مخالفاً فيه لقاطع يعمله .

ولما صار ظهور الفرق ضرورياً ، أوقع تهديد المتمادي في غيه في جواب من كأنه قال : إن ذلك غير خفي عنهم ولكنهم يستكبرون فلا يرجعون ، فقال : ﴿ إن الله ﴾ أي المحيط بكل شيء ﴿ عليم ﴾ أي بالغ العلم ﴿ بما يفعلون ﴾ فاصبر فلسوف يعملون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 442 ﴾

(123/361)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّا ﴾

فيه وجهان : الأول : وما يتبع أكثرهم في إقرارهم بالله تعالى إلا ظناً ، لأنه قول غير مستند

إلى برهان عندهم ، بل سمعوه من أسلافهم .

الثاني : وما يتبع أكثرهم في قولهم الأصنام آلهة وأنها شفعاء عند الله إلا الظن والقول الأول أقوى ، لأنا في القول الثاني نحتاج إلى أن نفسر الأكثر بالكل .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الظن لاَ يُغْنِي مِنَ الحق شَيْئًا ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

تمسك نفاة القياس بهذه الآية ، فقالوا : العمل بالقياس عمل بالظن ، فوجب أن لا يجوز ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الظن لاَ يُغْنِي مِنَ الحق شَيْئًا ﴾ .

أجاب مثبتو القياس ، فقالوا : الدليل الذي دل على وجوب العمل بالقياس دليل قاطع ، فكان وجوب العمل بالقياس معلوماً ، فلم يكن العمل بالقياس مظنوناً بل كان معلوماً .

أجاب المستدل عن هذا السؤال ، فقال : لو كان الحكم المستفاد من القياس يعلم كونه حكماً لله تعالى لكان ترك العمل به كفراً لقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ الله فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكافرون ﴾ [المائدة : 44] ولما لم يكن كذلك ، بطل العمل به وقد يعدون عن هذه الحجة بأنهم قالوا : الحكم المستفاد من القياس إما أن يعلم كونه حكماً لله تعالى أو يظن أو لا يعلم ولا يظن والأول باطل وإلا لكان من لم يحكم به كافراً لقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ الله فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكافرون ﴾

[المائدة : 44] وبالاتفاق ليس كذلك .

والثاني : باطل ، لأن العمل بالظن لا يجوز لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الظن لاَ يُغْنِي مِنَ الحق شَيْئًا ﴾

والثالث : باطل ، لأنه إذا لم يكن ذلك الحكم معلوماً ولا مظنوناً ، كان مجرد التشهي ، فكان باطلاً لقوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصلاة واتبعوا الشهوات ﴾ [مريم : 59] .

(124/361)

وأجاب مثبتو القياس : بأن حاصل هذا الدليل يرجع إلى التمسك بالعمومات ، والتمسك بالعمومات لا يفيد إلا الظن .

فلما كانت هذه العمومات دالة على المنع من التمسك بالظن ، لزم كونها دالة على المنع من التمسك بها ، وما أفضى ثبوته إلى نفيه كان متروكاً .

المسألة الثانية :

دلت هذه الآية على أن كل من كان ظاناً في مسائل الأصول ، وما كان قاطعاً ، فإنه لا يكون مؤمناً .

فإن قيل : فقول أهل السنة أنا مؤمن إن شاء الله يمنع من القطع فوجب أن يلزمهم الكفر .

قلنا : هذا ضعيف من وجوه : الأول : مذهب الشافعي رحمه الله : أن الإيمان عبارة عن

مجموع الاعتقاد والإقرار والعمل ، والشك حاصل في أن هذه الأعمال هل هي موافقة لأمر الله تعالى ؟ والشك في أحد أجزاء الماهية لا يوجب الشك في تمام الماهية .

الثاني : أن الغرض من قوله إن شاء الله بقاء الإيمان عند الخاتمة .

الثالث : الغرض منه هضم النفس وكسرها والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 75 ﴾

(125/361)

وقال السمرقندى :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّا ﴾

يعني : لا يستيقنون أن اللات والعزى آلهة بالظن ، ومعناه أنهم يتركون عبادة الله تعالى وهو الحق ، لأنهم يقرون بأن الله خالقهم فيتركون الحق ويتبعون الظن .

﴿ إِنَّ الظن لاَ يُغْنِى مِنَ الحق شَيْئًا ﴾ ، يعني : علمهم لا يغني من عذاب الله شيئاً ؛ ويقال : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ ﴾ يعني : ما قذف الشيطان في أوهامهم ﴿ إِنَّ الظن ﴾ يعني : ما قذف الشيطان في أوهامهم لا يستطيعون أن يدفعوا الحق بالباطل .

ويقال : وما يتبع يعني : وما يعمل أكثرهم ﴿ إِلاَّ ظَنّا ﴾ يظنون في غير يقين وهم الرؤساء ،

وأما السفلة فيطيعون رؤساءهم ﴿ إِنَّ الظن لاَ يُغْنِى مِنَ الحق شَيْئًا ﴾ .

﴿ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ من عبادتهم الأصنام وما يقولون من القول المختلق والكذب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً ﴾

هم رؤساؤهم .

﴿ إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِ شَيْئاً ﴾ في الظن وجهان :

أحدهما : أنه منزلة بين اليقين والشك ، وليست يقيناً وليست شكاً .

الثاني : إن الظن ما تردد بين الشك واليقين وكان مرة يقيناً ومرة شكاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(126/361)

وقال ابن عطية فى الآيات :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾

هذا توقيف أيضاً على قصور الأصنام وعجزها ، وتنبيه على قدرة الله عز وجل ، و" بدء الخلق " يريد به إنشاء الإنسان في أول أمره ، و" إعادته " هي البعث من القبور ، و ﴿ تؤفكون ﴾ معناه : تصرفون وتحرمون ، تقول العرب : أرض مأفوكة إذا لم يصبها مطر فهي بمعنى الخيبة والقلب ، كما قال ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ [النجم : 53] وقوله تعالى ﴿ قل هل من شركائكم من يهدي ﴾ الآية ، ﴿ يهدي إلى الحق ﴾ يريد به يبين الطرق والصواب ويدعو إلى العدل ويفصح بالآيات ونحو هذا ، ووصف الأصنام بأنها لا تهدي إلا أن تهدى ، ونحن نجدها لا تهتدي وإن هديت ، فوجه ذلك أنه عامل في العبارة عنها معاملتهم في وصفها بأوصاف من يعقل وذلك مجاز وموجود في كثير من القرآن ، وذكر ذلك أبو علي الفارسي ، والذي أقول : أن قراءة حمزة والكسائي تحتمل أن يكون المعنى أمن لا يهدي أحداً إلا أن يهدى ذلك الأحد بهداية من عند الله ، وأما على غيرها من القراءات التي مقتضاها " أمن لا يهتدي إلا أن يهدى " فيتجه المعنى على ما تقدم لأبي علي الفارسي ، وفيه تجوز كثير ، وقال بعضهم : هي عبارة عن أنها لا تنتقل إلا أن تنقل ، ويحتمل أن يكون ما ذكر الله من تسبيح الجمادات هو اهتداؤها ويحتمل أن يكون الاستثناء في اهتدائها إلى مناكرة الكفار يوم القيامة ، حسبما مضى في هذه السورة ، وقراءة حمزة والكسائي هي " يَهْدي " بفتح الياء وسكون الهاء ، وقرأ نافع وأبو عمرو وشيبة والأعرج وأبو جعفر "يَهْدّي " بسكون الهاء وتشديد الدال ، وقرأ ابن كثير وابن عكامر "يَهَدي " بفتح الياء والهاء ،

وهذه أفصح القراءات ، نقلت حركة تاء " يهتدي " إلى الهاء وأدغمت التاء في الدال ، وهذه رواية ورش عن نافع وقرأ عاصم في رواية حفص "يَهِدّي" بفتح الياء وكسر الهاء وشد الدال ، أتبع الكسرة الكسرة ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ، "يِهِدّي" بكسر الياء والهاء وشد الدال وهذا أيضاً إتباع وقال مجاهد : الله يهدي من

(127/361)

الأوثان وغيرها ما شاء .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، وقرأ يحيى بن الحارث الزماري . " إلا أن يهَدّي " بفتح الهاء وشد الدال ، ووقف القراء ﴿ فما لكم ﴾ ، ثم يبدأ ﴿ كيف تحكمون ﴾ ، وقوله ﴿ وما يتبع أكثرهم ﴾ ، إخبار عن فساد طرائقهم وضعف نظرهم وأنه ظن ، ثم بين منزلة الظن من المعارف وبعده من الحق ، و ﴿ الظن ﴾ في هذه الآية على بابه في أنه معتقد أحد جائزين لكن ثم ميل إلى أحدهما دون حجة تبطل الآخر ، وجواز ما اعتقده هؤلاء إنما هو بزعمهم لا في نفسه .

بل ظنهم محال في ذاته . و ﴿ الحق ﴾ أيضاً على بابه في أنه معرفة المعلوم على ما هو به . وبهذه الشروط " لا يغني الظن من الحق شيئاً " . وأما في طريق الأحكام التي تعبد الناس

بظواهرها فيغني الظن في تلك الحقائق ويصرف من طريق إلى طريق . والشهادة إنما هي مظنونة . وكذلك التهم في الشهادات وغيرها تغني . وليس المراد في هذه الآية هذا النمط . وقرأ جمهور الناس . "يفعلون" وقرأ عبد الله بن مسعود "تفعلون" بالتاء على مخاطبة الحاضر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(128/361)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً ﴾

يريد الرؤساء منهم ؛ أي ما يتبعون إلا حَدْساً وتخْريصاً في أنها آلهة وأنها تشفع ، ولا حجة معهم .

وأما أتباعهم فيتبعونهم تقليداً .

﴿ إِنَّ الظن لاَ يُغْنِي مِنَ الحق شَيْئاً ﴾ أي من عذاب الله ؛ فالحق هو الله .

وقيل "الحق" هنا اليقين ؛ أي ليس الظن كاليقين .

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يُكْتَفَى بالظن في العقائد .

﴿ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ من الكفر والتكذيب ، خرجت مخرج التهديد . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ﴾

الظاهر أن أكثرهم على بابه ، لأن منهم من تبصر في الأصنام ورفضها كما قال :

أربّ يبول الثعلبان برأسه . . .

لقد هان من بالت عليه الثعالب

وقيل : المراد بأكثرهم جميعهم ، والمعنى : ما يتبع أكثرهم في اعتقادهم في الله وفي صفاته إلا ظناً ، ليسوا متبصرين ولا مستندين إلى برهان ، إنما ذلك شيء تلقفوه من آبائهم .

والظن في معرفة الله لا يغني من الحق شيئاً أي : من إدراك الحق ومعرفته على ما هو عليه ، لأنه تجويز لا قطع .

وقيل : وما يتبع أكثرهم في جعلهم الأصنام آلهة ، واعتقادهم أنها تشفع عند الله وتقرب إليه .

وقرأ عبد الله : تفعلون بالتاء على الخطاب التفاتاً والجملة تضمنت التهديد والوعيد على اتباع الظن ، وتقليد الآباء .

وقيل : نزلت في رؤساء اليهود وقريش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ ﴾

كلامٌ مبتدأٌ غيرُ داخلٍ في حيز الأمرِ مَسوقٌ من قِبله تعالى لبيان عدمِ فهمِهم لمضمون ما أفحمهم وألقمهم الحجرَ من البرهان النيّر الموجبِ لاتباع الهادي إلى الحق الناعي عليهم بطلانَ حكمِهم وعدمَ تأثرِهم من ذلك لعدم اهتدائِهم إلى طريق العلم أصلاً أي ما يتبع أكثرهم في معتقداتهم ومحاوراتِهم ﴿ إِلَّا ظَنًّا ﴾ واهياً من غير التفاتٍ إلى فرد من أفراد العِلم فضلاً عن أن يسلُكوا مسالكَ الأدلةِ الصحيحةِ الهادية إلى الحق المبنيةِ على المقدمات اليقينية الحقةِ فيفهموا مضمونَها ويقفوا على صحتها وبُطلانِ ما يخالفها من أحكامهم الباطلةِ فيحصُل التبكيتُ والإلزامُ فالمراد بالاتباع مطلقُ الاعتقادِ الشامل لما يقارن القَبولَ والانقيادَ وما لا يقارنه ، وبالقصر ما أشير إليه من أن لا يكونَ لهم في أثنائه اتباعٌ لفرد من أفراد العلمِ والتفاتٌ إليه ، ووجهُ تخصيصِ هذا الاتباعِ بأكثرهم الإشعارُ بأن بعضَهم قد يتبعون العلم فيقفون على حقية التوحيدِ وبطلانِ الشركِ لا يقبلونه مكابرةً وعناداً فيحصل بالنسبة إليهم التأثرُ من البرهان المزبورِ وإن لم يُظهروه وكونُهم أشدّ كفراً وأكثرَ عذاباً من الفريق الأولِ لا يقدح فيما يُفهم من فحوى الكلامِ عُرفاً من كون أولئك أسوأَ حالاً من غيرهم ، إذ المعتبرُ سوءُ الحالِ من حيث الفهمُ والإدراكُ لا من حيث الكفرُ والعذابُ ، أو ما يتبع

أكثرُهم مدةَ عمرِهم إلا ظناً ولا يتركونه أبداً ، فإن حرفَ النفي الداخلِ على المضارعِ يُفيد استمرارَ النفي بحسب المقامِ فالمرادُ بالاتباع حينئذٍ هو الإذعانُ والانقيادُ والقصرُ باعتبار الزمان ، ووجهُ تخصيصِ هذا الاتباعِ بأكثرهم مع مشاركة المعاندين لهم في ذلك التلويحُ بما سيكون من بعضهم من اتباع الحقِّ والتوبةِ كما سيأتي هذا وقد قيل : المعنى وما يتبع أكثرُهم في إقرارهم بالله تعالى إلا ظناً غيرَ مستندٍ إلى برهان عندهم وقيل : وما يتبع أكثرُهم في قولهم

(130/361)

للأصنام : إنها آلهةٌ إلا ظناً ، والمرادُ بالأكثر الجميعُ فتأمل . وقيل : الضميرُ في أكثرهم للناس فلا حاجةَ إلى التكلف ﴿ إِنَّ الظن لاَ يُغْنِى مِنَ الحق ﴾ من العلم اليقينيِّ والاعتقادِ الصحيحِ المطابقِ للواقع ﴿ شَيْئاً ﴾ من الإغناء ، ويجوز أن يكون مفعولاً به ، ومن الحق حالاً فيه والجملةُ استئنافٌ ببيان شأنِ الظنِّ وبُطلانِه ، وفيه دِلالةٌ على وجوب العلمِ في الأصول وعدمِ جوازِ الاكتفاءِ بالتقليد ﴿ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ وعيدٌ لهم على أفعالهم القبيحةِ فيندرج تحتها ما حُكي عنهم من الإعراض عن البراهين القاطعةِ والاتباعِ

للظنون الفاسدةِ اندراجاً أولياً ، وقرىء تفعلون بالالتفات إلى الخطاب لتشديد الوعيد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(131/361)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّا ﴾

كلام مبتدأ غير داخل في حيز الأمر مسوق من جهته تعالى لبيان سوء إدراكهم وعدم فهمهم لمضمون ما أفحمهم من البراهين النيرة الموجبة للتوحيد أي ما يتبع أكثرهم في معتقداتهم ومحاوراتهم إلا ظناً واهياً مستند إلى خيالات فارغة وأقيسة باطلة كقياس الغائب على الشاهد وقياس الخالق على المخلوق بأدنى مشاركة موهومة ولا يلتفتون إلى فرد من أفراد العلم فضلاً عن أن يسلكوا مسالك الأدلة الصحيحة الهادية إلى الحق فيفهموا مضمونها ويقفوا على صحتها وبطلان ما يخالفها ، فالمراد بالاتباع مطلق الانقياد الشامل لما يقارن القبول والانقياد وما لا يقارنه وبالقصر ما أشير إليه من أن لا يكون لهم في أثنائه اتباع لفراد من أفراد العلم والتفات إليه .

وتنكير ﴿ ظَنّا ﴾ للنوعية ، وفي تخصيص هذا الاتباع بالأكثر الإشارة إلى أن منهم من قد

يتبع فيقف على حقيقة التوحيد لكن لا يقبله مكابرة وعناداف ، ومقتضى ما ذكروه في وجه أمره صلى الله عليه وسلم بأن ينوب عنهم في الجواب من أنه الإشارة إلى أن لجاجهم وعنادهم يمنعهم من الاعتراف بذلك أن فيهم من علم وكان معانداً ، ولعل النيابة حينئذٍ عن الجميع باعتبار هذا البعض ، وجوز أن يكون المعنى ما يتبع أكثرهم مدة عمره إلا ظناً ولا يتركونه أبداً ، فإن حرف النفي الداخل على المضارع يفيد استمرار النفي بحسب المقام فالمراد بالاتباع هو الإذعان والانقياد والقصر باعتبار الزمان ، وفي التخصيص تلويح بما سيكون من بعضهم من اتباع الحق والتوبة ، وقيل : المعنى وما يتبع أكثرهم في إقرارهم بالله تعالى إلا ظناً لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم ، وقيل : المعنى وما يتبع أكثرهم في قولهم للأصنام أنها آلهة وأنها شفعاء عند الله إلا الظن ، والأكثر بمعنى الجميع وهذا كما ورد القليل بمعنى العدم في قوله تعالى : ﴿ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : 88] وفي قوله

(132/361)

: قليل التشكي في المصيبات حافظ . . .

من اليوم أعقاب الأحاديث في غد

وحمل النقيض على النقيض حسن وطريقة مسلوكة ، ولا يخفى أنه لا يتعين على هذين

القولين حمل الأكثر على الجميع بل يمكن حمله على ما يتبادر منه أيضاً ، ومن الناس من جعل ضمير ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ للناس وحينئذٍ يجب الحمل على المتبادر بلا كلفة ﴿ إِنَّ الظن ﴾ مطلقاً ﴿ لاَ يُغْنِى مِنَ الحق شَيْئًا ﴾ فكيف الظن الفاسد والمراد من الحق العلم والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع ، والجار متعلق بما قبله ﴿ وشيئاً ﴾ نصب على أنه مفعول مطلق أي إغناء ما ، ويجوز أن يكون مفعولاً به والجار والمجرور في موضع الحال منه ، والجملة استئناف لبيان شأن الظن وبطلانه ، وفيه دليل لمن قال : إن تحصيل العلم في الاعتقاديات واجب وإن إيمان المقلد غير صحيح ، وإنما لم يؤخذ عاماً للعمليات لقيام الدليل على صحة التقليد والاكتفاء بالظن فيها كما قرر في موضعه .

﴿ شَيْئًا إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ وعيد لهم على أفعالهم القبيحة ويندرج فيها ما حكى عنهم من الإعراض عن البراهين القاطعة واتباع الظنون الفاسدة اندراجاً أولياً .

وقرىء ﴿ تَفْعَلُونَ ﴾ بالالتفات إلى الخطاب لتشديد الوعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(133/361)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ) .

هَذَا نَوْعٌ آخَرُ مِنْ أُسْلُوبِ إِقَامَةِ الْحُجَجِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي إِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ ، وَهُوَ أُسْلُوبُ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ ، وَيَلِيهِ إِثْبَاتُ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ وَالْقُرْآنِ .

(134/361)

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُعَانِدِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ بِمَا يُنْزِلُهُ مِنَ الْمَطَرِ ، وَمِنَ الْأَرْضِ بِمَا يُنْبِتُهُ فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ النَّبَاتِ نَجْمِهِ وَشَجَرِهِ مِمَّا تَأْكُلُونَ وَتَأْكُلُ أَنْعَامُكُمْ ؟ (وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ) بَلْ قُلْ لَهُمْ أَيْضًا : مَنْ يَمْلِكُ مَا تَتَمَتَّعُونَ بِهِ أَنْتُمْ وَغَيْرُكُمْ مِنْ حَوَاسِّ السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ ، الَّتِي لَوْلَاهَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ مِنْ أَمْرِ الْعَالَمِ شَيْئًا ، بَلْ تَكُونُ الْأَنْعَامُ وَالْحَشَرَاتُ وَكَذَا الشَّجَرُ خَيْرًا مِنْكُمْ بِاسْتِغْنَائِهَا عَمَّنْ يَقُومُ بِضَرُورَاتِ مَعَاشِهَا ، مَنْ يَمْلِكُ خَلْقَ هَذِهِ الْحَوَاسِّ وَهِبَتَهَا لِلنَّاسِ ، وَحِفْظَهَا مِنَ الْآفَاتِ وَخَصَّ هَاتَيْنِ الْحَاسَّتَيْنِ بِالذِّكْرِ لِأَنَّ عَلَيْهِمَا مَدَارَ الْحَيَاةِ الْحَيَوَانِيَّةِ وَكَمَالَ الْبَشَرِيَّةِ ، وَتَحْصِيلَ الْعُلُومِ الْأَوَّلِيَّةِ ، يَشْعُرُ بِذَلِكَ الْمَسْئُولُونَ بِمُجَرَّدِ إِلْقَاءِ السُّؤَالِ ، وَكُلَّمَا ازْدَادُوا فِيهِ تَفَكُّرًا ازْدَادُوا عِلْمًا وَإِعْجَابًا وَإِكْبَارًا لِإِنْعَامِ اللهِ تَعَالَى بِهِمَا

وَإِيمَانًا بِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ غَيْرُهُ عَلَيْهِمَا ، وَلَا سِيَّمَا إِدْرَاكَ الْكَلَامِ بِحَاسَّةِ السَّمْعِ ، وَمَا يَرْسُمُهُ صَوْتُ الْمُتَكَلِّمِ فِي الْهَوَاءِ مِنْ مَعْلُومَاتِهِ الَّتِي يُدْلِي بِهَا إِلَى غَيْرِهِ فَتَتَكَيَّفُ بِهَا كُلُّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِهِ (أَيِ الْهَوَاءُ) فَتُقْرَعُ بِهِ طَبْلَةُ كُلِّ أُذُنٍ مِنْ آذَانِ السَّامِعِينَ وَإِنْ كَثُرُوا ،

(135/361)

فَيَنْقُلُهَا الْعَصَبُ الْمُتَّصِلُ بِهَا إِلَى مَرْكَزِ إِدْرَاكِ الْكَلَامِ مِنْ دِمَاغِهِ ، فَيُدْرِكُ مَعْنَاهَا الْمَدْلُولَ عَلَيْهِ بِهَا بِأَقْوَى مِمَّا يُدْرِكُهُ مَنْ قَرَأَهَا مَخْطُوطَةً فِي كِتَابٍ ، لِمَا لِجَرْسِ الصَّوْتِ مِنَ التَّأْثِيرِ الْخَاصِّ ، فَمَنْ ذَا الَّذِي خَلَقَ هَذِهِ الْآيَاتِ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي أَلْهَمَهَا إِيدَاعَ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي الْأَصْوَاتِ وَمَنْ ذَا الَّذِي وَضَعَ هَذَا النِّظَامَ فِي الْهَوَاءِ ؟ .

ثُمَّ إِذَا ازْدَادَ عِلْمًا بِإِدْرَاكِ الْبَصَرِ لِلْمُبْصِرَاتِ ، وَمَا لَهَا مِنَ الْمَقَادِيرِ وَالْأَلْوَانِ وَالصِّفَاتِ ، وَمَا لِلْعَيْنِ الْبَاصِرَةِ مِنَ الشَّكْلِ الْمُحَدَّبِ ، وَمَا لَهَا مِنَ الطَّبَقَاتِ وَالرُّطُوبَاتِ ، الْمُوَافِقَةِ لِسُنَنِ اللهِ فِي النُّورِ الَّذِي تُدْرِكُ بِهِ الْمَرْئِيَّاتِ ، مِمَّا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي الْأَسْفَارِ وَمُوجَزٌ فِي الْمُخْتَصَرَاتِ ، ازْدَادَ يَقِينًا بِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ الدَّالَّةِ عَلَى عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ فِي الْكَائِنَاتِ ، وَإِنْ غَفَلَ عَنْهَا الْمَشْغُولُونَ عَنْ عَظَمَةِ الصَّانِعِ بِعَظَمَةِ الْمَصْنُوعَاتِ ، وَقَدْ وَحَّدَ السَّمْعَ لِأَنَّ إِدْرَاكَهُ لِجِنْسٍ وَاحِدٍ هُوَ الْأَصْوَاتُ وَجَمَعَ الْبَصَرَ لِتَعَدُّدِ أَجْنَاسِ الْمُبْصَرَاتِ .

(وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) أَيْ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَمْلِكُ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ ، فَيُخْرِجُ الْأَحْيَاءَ وَالْأَمْوَاتَ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ فِيمَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تَحْدُثُ وَتَتَجَدَّدُ ، وَفِيمَا لَا تَعْرِفُونَ ؟ فَمِمَّا كَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّ النَّبَاتَ يُخْرَجُ مِنَ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ

(136/361)

بَعْدَ إِحْيَاءِ اللهِ تَعَالَى إِيَّاهَا بِمَاءِ الْمَطَرِ النَّازِلِ عَلَيْهَا مِنَ السَّمَاءِ ، أَوِ النَّابِعِ مِنْهَا بَعْدَ أَنْ سَلَكَهُ اللهُ تَعَالَى فِيهَا كَمَا قَالَ : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ) (39 : 21) الْآيَةَ بَلْ كَانَتِ الْحَيَاةُ الْمَعْرُوفَةُ عِنْدَهُمْ قِسْمَيْنِ : حَيَاةُ النَّبَاتِ وَآيَتُهَا النُّمُوُّ ، وَحَيَاةُ الْحَيَوَانِ وَآيَتُهَا النُّمُوُّ وَالْإِحْسَاسُ وَالْحَرَكَةُ بِالْإِرَادَةِ ، وَكَانُوا يَعُدُّونَ وَصْفَ الْأَرْضِ بِالْحَيَاةِ مَجَازًا وَلَمْ يَكُونُوا يَصِفُونَ أُصُولَ الْأَحْيَاءِ بِالْحَيَاةِ كَالْحَبِّ وَالنَّوَى وَبَيْضِ الْحَيَوَانِ وَمَنِيِّهِ ، وَلِذَلِكَ فَسَّرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِخْرَاجَ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَالْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ بِخُرُوجِ النَّخْلَةِ مِنَ النَّوَاةِ وَالطَّائِرِ مِنَ الْبَيْضَةِ وَعَكْسِهِمَا وَمَا يُشَابِهُهُمَا ، وَهُوَ تَفْسِيرٌ صَحِيحٌ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ غَيْرُ صَحِيحٍ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْحَيَاةِ النَّبَاتِيَّةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ ، وَتَحْصُلُ بِهِ الدَّلَالَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنَ الْآيَةِ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ

وَرَحْمَتِهِ عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ وَضْعَ قَوَاعِدَ فَنِّيَّةٍ لِلْحَيَاةِ وَأَنْوَاعِهَا وَتَحْدِيدَ وَظَائِفِهَا ، عَلَى أَنَّهُ يُمْكِنُ تَفْسِيرُهَا بِمَا يَتَّفِقُ وَقَوَاعِدَ الْفُنُونِ وَتَجَارِبَ الْعُلُومِ الَّتِي تَزْدَادُ عَصْرًا بَعْدَ عَصْرٍ ، فَإِذَا كَانَ أَهْلُهَا

(137/361)

يُثْبِتُونَ أَنَّ فِي أُصُولِ النَّبَاتِ مِنْ بَذْرٍ وَنَوًى وَبَيْضٍ وَمَنِيٍّ حَيَاةً ، فَهُمْ يُثْبِتُونَ أَيْضًا أَنَّ أُصُولَ الْأَحْيَاءِ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا خَرَجَتْ مِنْ مَادَّةٍ مَيِّتَةٍ ، فَإِنَّ الْأَرْضَ عِنْدَهُمْ كَانَتْ كُتْلَةً نَارِيَّةً مُلْتَهِبَةً انْفَصَلَتْ مِنَ الشَّمْسِ ، ثُمَّ صَارَتْ مَاءً ، ثُمَّ نَبَتَتِ الْيَابِسَةُ فِي الْمَاءِ ، ثُمَّ تَكَوَّنَ مِنَ الْمَاءِ النَّبَاتُ وَالْحَيَوَانُ فِي أَطْوَارٍ سَبَقَ الْكَلَامُ فِيهَا ، وَيُثْبِتُونَ أَيْضًا أَنَّ الْغِذَاءَ مِنَ الطَّعَامِ الَّذِي يُحْرَقُ بِالنَّارِ يَتَوَلَّدُ مِنْهُ دَمٌ ، وَمِنْ هَذَا الدَّمِ يَكُونُ الْبَيْضُ وَالْمَنِيُّ الْمُشْتَمِلَانِ عَلَى مَادَّةِ الْحَيَاةِ ، وَيُثْبِتُونَ أَيْضًا أَنَّ بَعْضَ مَوَادِّ الْبَدَنِ الْحَيَّةِ تَمُوتُ وَتَخْرُجُ مِنْهُ مَعَ الْبُخَارِ وَالْعَرَقِ وَغَيْرِهِمَا مِمَّا يُفْرِزُهُ الْبَدَنُ وَيَلْفِظُهُ ، وَيَتَجَدَّدُ فِيهِ مَوَادٌّ حَيَّةٌ جَدِيدَةٌ تَحُلُّ مَحَلَّ مَا انْدَثَرَ وَخَرَجَ مِنْهُ ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ : إِثْبَاتُ قُدْرَةِ الْخَالِقِ وَتَدْبِيرِهِ وَنِعَمِهِ عَلَى عِبَادِهِ وَهُوَ عَامٌّ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى الْفَنِّ وَمُحْدَثَاتِ الْعِلْمِ ، بَلْ تَزِيدُهُ كَمَالًا لِلْمُؤْمِنِ الْمُعْتَبِرِ ، وَقَدْ تَكُونُ حِجَابًا لِغَيْرِهِ

تَحْجُبُهُ عَنْ رَبِّهِ ، فَالْقَاعِدَةُ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْحَيَاةِ أَنَّ الْحَيَّ لَا يَخْرُجُ إِلَّا مِنْ حَيٍّ ، فَتَعَيَّنَ أَنْ تَكُونَ الْحَيَاةُ الْأُولَى مِنْ خَلْقِ اللهِ الْحَيِّ لِذَاتِهِ الْمُحْيِي لِغَيْرِهِ .

(138/361)

وَوَرَدَ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ تَفْسِيرُ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْآيَةِ بِالْمَعْنَوِيَّيْنِ مِنْهُمَا ، كَخُرُوجِ الْمُؤْمِنِ مِنْ سُلَالَةِ الْكَافِرِ ، وَالْعَالِمِ مِنَ الْجَاهِلِ ، وَالْبَرِّ مِنَ الْفَاجِرِ وَعَكْسِهَا ، وَقَدْ قَدَّمْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ آلِ عِمْرَانَ (3 : 27) الْوَارِدِ فِيهَا لِأَنَّهُ الْمُنَاسِبُ لِسِيَاقِهَا . وَهُنَاكَ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَسَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَأَبُو الشَّيْخِ فِي الْعَظَمَةِ عَنْ سَلْمَانَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – وَكَذَا ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْهُ وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – فَرَاجِعْهُ فِي تَفْسِيرِهَا مِنَ الدُّرِّ الْمَنْثُورِ وَسِيَاقُ هَذِهِ الْآيَاتِ هُنَا يُنَاسِبُ مَا فَسَّرْنَاهَا بِهِ مِنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى :

(وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) فِي الْخَلِيقَةِ كُلِّهَا بِمَا أَوْدَعَهُ فِي كُلٍّ مِنْهَا مِنَ السُّنَنِ وَقَدَّرَهُ مِنَ النِّظَامِ ، وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُ التَّدْبِيرِ عِنْدَ ذِكْرِهِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ (فَسَيَقُولُونَ اللهُ) أَيْ فَسَيَكُونُ جَوَابُهُمْ عَنْ هَذِهِ الِاسْتِفْهَامَاتِ الْخَمْسِ أَنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ كُلِّهِ هُوَ اللهُ رَبُّ

(139/361)

كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ ؛ إذْ لَا جَوَابَ غَيْرُهُ وَهُمْ لَا يَجْهَلُونَهُ ، فَالِاسْتِفْهَامُ عَنْهُ لِحَمْلِهِمْ عَلَى الْإِقْرَارِ بِهِ لِيُرَتِّبَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ : (فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) أَيْ فَقُلْ لَهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ أَتَعْلَمُونَ هَذَا وَتُقِرُّونَ بِهِ ، فَلَا تَتَّقُونَ سُخْطَ اللَّهِ وَعِقَابَهُ لَكُمْ بِشِرْكِكُمْ بِهِ ، وَعِبَادَتِكُمْ لِغَيْرِهِ مِمَّنْ لَا يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ تِلْكَ الْأُمُورِ شَيْئًا ، وَهُوَ الْمَالِكُ لَهَا كُلِّهَا ؟ ! .

(140/361)

(فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ) هَذِهِ فَذْلَكَةُ مَا تَقَدَّمَ ، أَيْ فَذَلِكُمُ الَّذِي يَفْعَلُ مَا ذُكِرَ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، أَيِ الْمُرَبِّي لَكُمْ بِنِعَمِهِ وَالْمُدَبِّرُ لِأُمُورِكُمْ ، الْحَقُّ الثَّابِتُ بِذَاتِهِ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْحَيُّ بِذَاتِهِ ، الْمُحْيِي لِغَيْرِهِ ، الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ ، الْمُقِيمُ لِغَيْرِهِ ، وَإِذَا كَانَ هُوَ رَبُّكُمُ الْحَقُّ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَالْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ دُونَ سِوَاهُ (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) الِاسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٌّ ، وَفِي الْجُمْلَةِ إِدْمَاجٌ بِمَا يُسَمُّونَهُ الِاحْتِبَاكَ ، أَيْ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الْبَاطِلُ ؟ وَمَاذَا بَعْدَ الْهُدَى إِلَّا الضَّلَالُ ؟ وَالْوَاسِطَةُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ الْمُتَضَادَّيْنِ الْمُتَنَاقِضَيْنِ مَمْنُوعَةٌ كَالْعَقَائِدِ ، فَالَّذِي يَفْعَلُ

تِلْكَ الْأُمُورَ هُوَ الرَّبُّ الْحَقُّ ، فَالْقَوْلُ بِرُبُوبِيَّةِ مَا سِوَاهُ بَاطِلٌ ، وَهُوَ الْإِلَهُ الَّذِي يُعْبَدُ بِحَقٍّ ، وَعِبَادَتُهُ وَحْدَهُ هِيَ الْهُدَى ، فَمَا سِوَاهَا مِنْ عِبَادَةِ الشُّرَكَاءِ وَالْوُسَطَاءِ ضَلَالٌ ، فَكُلُّ مَنْ يَعْبُدُ غَيْرَهُ مَعَهُ فَهُوَ مُشْرِكٌ مُبْطِلٌ ضَالٌّ (فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) أَيْ فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ وَتَتَحَوَّلُونَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ ، وَعَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ ، بَعْدَ الْعِلْمِ وَالْإِقْرَارِ بِمَا كَانَ بِهِ اللهُ هُوَ الرَّبَّ الْحَقَّ ، وَإِنَّمَا الْإِلَهُ الْحَقُّ ، الَّذِي يُعْبَدُ بِالْحَقِّ ، هُوَ الرَّبُّ الْحَقُّ ، فَمَا بَالُكُمْ تُقِرُّونَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ دُونَ تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ ؟ فَتَتَّخِذُونَ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى وَلَا تَتَحَقَّقُ

(141/361)

الْأُلُوهِيَّةُ إِلَّا بِتَحَقُّقِ الرُّبُوبِيَّةِ ؟ .

فَالْآيَةُ تُقَرِّرُ أَنَّ التَّوْحِيدَ لَا يَصِحُّ مَعَ الْفَصْلِ بَيْنَ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ، وَقَدْ جَهِلَ هَذَا بَعْضُ عُلَمَاءِ الْأَزْهَرِ فِي هَذَا الزَّمَانِ ، الَّذِينَ أَخَذُوا عَقِيدَتَهُمْ مِنْ بَعْضِ الْكُتُبِ الْكَلَامِيَّةِ الْمُبْتَدِعَةِ وَجَهِلُوا عَقَائِدَ الْقُرْآنِ ، فَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ مَفْهُومَيِ الرَّبِّ وَالْإِلَهِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، عَلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ إِنَّمَا وَحَّدَ بَيْنَهُمَا فِي الْمَاصَدَقِ الشَّرْعِيِّ ، لَا فِي الْمَفْهُومِ اللُّغَوِيِّ ، وَاحْتَجَّ بِهَذَا عَلَى الْمُشْرِكِينَ هُنَا وَفِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ ، كَمَا صَرَّحَ بِهِ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ وَغَيْرُهُ مِنْ قَبْلِهِ وَمِنْ بَعْدِهِ .

وَفِي الْآيَةِ مِنْ قَوَاعِدِ الْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ وَأُصُولِ التَّشْرِيعِ وَالْعِلْمِ ، أَنَّ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فِيهِمَا ضِدَّانِ لَا يَجْتَمِعَانِ ، وَأَنَّ الْهُدَى وَالضَّلَالَ ضِدَّانِ لَا يَجْتَمِعَانِ ، وَلِهَذَا الْأَصْلِ فُرُوعٌ كَثِيرَةٌ فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ الْعَقْلِيِّ . وَفِيهَا مِنْ حَسَنَاتِ الْإِيجَازِ فِي التَّعْبِيرِ مَا يُسَمِّيهِ عُلَمَاءُ الْبَدِيعِ بِالِاحْتِبَاكِ ، وَهُوَ أَنْ يُحْذَفَ مِنْ كُلٍّ مِنَ الْمُتَقَابِلَيْنِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مُقَابِلُهُ فِي الْآخَرِ ، وَهُوَ ظَاهِرٌ فِي الْآيَةِ أَتَمَّ الظُّهُورِ ، وَإِنْ غَفَلَ عَنْهُ الْجُمْهُورُ .

(142/361)

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا) أَيْ مِثْلُ ذَلِكَ الَّذِي حَقَّتْ بِهِ كَلِمَةُ رَبِّكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ فِي وَحْدَةِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ ، وَكَوْنِ الْحَقِّ لَيْسَ بَعْدَهُ لِتَارِكِهِ إِلَّا الْبَاطِلُ ، وَالْهُدَى لَيْسَ وَرَاءَهُ لِلتَّارِكِ عَنْهُ إِلَّا الضَّلَالُ (حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) : أَيْ سُنَّتُهُ أَوْ وَعِيدُهُ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا ، أَيْ خَرَجُوا مِنْ حَظِيرَةِ الْحَقِّ وَهُوَ تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ وَهِدَايَةُ الدِّينِ الْحَقِّ . فَفِي كَلِمَةِ الرَّبِّ وَجْهَانِ ، لِكُلٍّ مِنْهُمَا أَصْلٌ فِي الْقُرْآنِ .

أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا كَلِمَةُ التَّكْوِينِ ، وَهِيَ سُنَّتُهُ فِي الْفَاسِقِينَ الْخَارِجِينَ مِنْ نُورِ الْفِطْرَةِ وَاسْتِقْلَالِ الْعَقْلِ ، الَّذِينَ لَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالتَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ ؛ لِرُسُوخِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَاطْمِئْنَانِهِمْ بِهِ بِالتَّقْلِيدِ وَالْعَمَلِ فَقَوْلُهُ : (أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) عَلَى هَذَا بَيَانٌ

لِلْكَلِمَةِ أَوْ بَدَلٌ مِنْهَا ، أَيِ اقْتَضَتْ سُنَّتُهُ فِي غَرَائِزِ الْبَشَرِ وَأَخْلَاقِهِمْ (أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) بِمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ رُسُلُنَا مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْهُدَى مَهْمَا تَكُنْ آيَاتُهُمْ بَيِّنَةً ، وَحُجَجُهُمْ قَوِيَّةً ظَاهِرَةً ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ تَعَالَى يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ مَنْعًا قَهْرِيًّا مُسْتَأْنَفًا بِمَحْضِ قُدْرَتِهِ ، بَلْ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ يَمْتَنِعُونَ مِنْهُ بِاخْتِيَارِهِمْ تَرْجِيحًا لِلْكُفْرِ عَلَيْهِ .

(143/361)

وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْوَجْهَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) (10 : 96 و97) .

وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهَا كَلِمَةُ خِطَابِ التَّكْلِيفِ بِوَعِيدِ الْفَاسِقِينَ الْكَافِرِينَ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الم السَّجْدَةِ : (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) (32 : 20) وَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ غَافِرٍ : (وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ) (40 : 6)

وَيَكُونُ قَوْلُهُ : (أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) عَلَى هَذَا تَعْلِيلًا لِمَا قَبْلَهُ بِحَذْفِ حَرْفِ الْجَرِّ ، أَيْ لِأَنَّهُمْ أَوْ بِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

وَكُلٌّ مِنَ الْوَجْهَيْنِ حَقٌّ ظَاهِرٌ . وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ هُنَا .

وَقَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ (كَلِمَةُ) فِي آيَتَيْ يُونُسَ وَآيَةِ غَافِرٍ بِالْجَمْعِ (كَلِمَاتُ) وَلِأَجْلِ ذَلِكَ رُسِمَتْ

فِي الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ بِالتَّاءِ الْمَبْسُوطَةِ (كَلِمَتُ) وَوَجْهُ قِرَاءَةِ الْجَمْعِ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى بِوَجْهَيْهِ قَدْ تَعَدَّدَ وَتَكَرَّرَ فِي آيَاتِ الْكِتَابِ .

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

(144/361)

لَمْ يَعْطِفْ هَذَا الْأَمْرَ وَلَا مَا بَعْدَهُ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنْ تَلْقِينِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الِاحْتِجَاجَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ؛ لِأَنَّ حُكْمَ الْبَلَاغَةِ فِيهِ الْفَصْلُ كَأَمْثَالِهِ مِمَّا يُسْرَدُ سَرْدًا مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفْرَدَاتِ وَالْجُمَلِ . أَيْ قُلْ لَهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ : هَلْ أَحَدٌ مِنْ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ عَبَدْتُمُوهُمْ مَعَ اللَّهِ أَوْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَهُ هَذَا الشَّأْنُ فِي الْكَوْنِ ، وَهُوَ بَدْءُ الْخَلْقِ فِي طَوْرٍ ثُمَّ إِعَادَتُهُ فِي طَوْرٍ آخَرَ سَوَاءٌ كَانَ مِنَ الْأَصْنَامِ الْمَنْصُوبَةِ ، أَوْ مِنَ الْأَرْوَاحِ الَّتِي تَزْعُمُونَ أَنَّهَا حَالَّةٌ فِيهَا ، أَوْ مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّمَاوِيَّةِ أَوْ غَيْرِهَا مِنَ الْأَحْيَاءِ كَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ وَلَمَّا كَانَ هَذَا السُّؤَالُ مِمَّا لَا يُجِيبُونَ عَنْهُ كَمَا أَجَابُوا عَنْ أَسْئِلَةِ الْخِطَابِ الْأَوَّلِ ، لِإِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ وَالْمَعَادَ – لَا لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ شُرَكَاءَهُمْ تَفْعَلُ ذَلِكَ – لَقَّنَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْجَوَابَ (قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) فَأَدْمَجَ إِثْبَاتَ الْبَعْثِ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ لِأَنَّهُ يَقْتَضِيهِ وَيَسْتَلْزِمُهُ ، فَإِنَّ الرَّبَّ

الْقَادِرَ عَلَى بَدْءِ الْخَلْقِ يَكُونُ قَادِرًا عَلَى إِعَادَتِهِ بِالْأَوْلَى ، عَلَى أَنَّ الَّذِي يُنْكِرُونَهُ هُوَ إِعَادَتُهُ تَعَالَى لِلْأَحْيَاءِ

(145/361)

الْحَيَوَانِيَّةِ دُونَ مَا دُونَهَا مِنَ الْأَحْيَاءِ النَّبَاتِيَّةِ ، فَهُمْ يُشَاهِدُونَ بَدْءَ خَلْقِ النَّبَاتِ فِي الْأَرْضِ عِنْدَمَا يُصِيبُهَا مَاءُ الْمَطَرِ فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ ، وَمَوْتَهُ بِجَفَافِهَا فِي فَصْلِ الصَّيْفِ وَالْخَرِيفِ ثُمَّ إِعَادَتَهُ بِمِثْلِ مَا بَدَأَهُ بِهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى ، وَيُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ هَذَا الْبَدْءَ وَالْإِعَادَةَ ؛ لِأَنَّهُمْ يُشَاهِدُونَ كُلًّا مِنْهُمَا ، فَهُمْ أَسْرَى الْحِسِّ وَالْعِيَانِ ، ثُمَّ يُنْكِرُونَ قُدْرَتَهُ عَلَى إِعَادَةِ خَلْقِ النَّاسِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا أَحَدًا مِنْهُمْ حَيِيَ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَقَدْ فَقَدُوا الْعِلْمَ بِبُرْهَانِ الْقِيَاسِ ، وَإِنَّنَا لَا نَزَالُ نَرَى أَمْثَالًا لَهُمْ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ مِمَّنْ تَعَلَّمُوا الْمَنْطِقَ وَطُرُقَ الِاسْتِدْلَالِ . وَعَرَفُوا مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ

(146/361)

مِنْ سُلْطَانِ الْأَرْوَاحِ فِي عَالَمِ الْأَجْسَامِ ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ أَنْ يُرْشِدَهُمْ إِلَى جَهْلِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَيُنَبِّهَهُمْ لِلتَّفْكِيرِ فِي أَمْرِهِمْ بِقَوْلِهِ : (فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) أَيْ فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ ذَلِكَ وَهُوَ مِنْ دَوَاعِي الْفِطْرَةِ وَخَاصَّةِ الْعَقْلِ فِي التَّفْكِيرِ ، لِلْعِلْمِ بِالْحَقَائِقِ وَالْبَحْثِ عَنِ الْمَصِيرِ ؟

.

(147/361)

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ) ؟ هَذَا سُؤَالٌ عَنْ شَأْنٍ آخَرَ مِنْ شُؤُونِ الرُّبُوبِيَّةِ ، الْمُقْتَضِيَةِ لِاسْتِحْقَاقِ الْأُلُوهِيَّةِ ، وَتَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ الِاعْتِقَادِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ ، وَهُوَ الْهِدَايَةُ الَّتِي تَتِمُّ بِهَا حِكْمَةُ الْخَلْقِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ذِكْرُهَا عَقِبَهُ فِي آيَاتٍ أُخْرَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) (26 : 78) (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (20 : 50) ، (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) (87 : 2 ، 3) وَهِيَ أَنْوَاعُ هِدَايَةِ الْفِطْرَةِ وَالْغَرِيزَةِ ، وَهِدَايَةِ الْحَوَّاسِ ، وَهِدَايَةِ الْعَقْلِ ، وَهِدَايَةِ التَّفَكُّرِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِكُلِّ ذَلِكَ ، وَهِدَايَةِ الدِّينِ ، وَهُوَ لِلنَّوْعِ الْبَشَرِيِّ فِي جُمْلَتِهِ كَالْعَقْلِ لِأَفْرَادِهِ ، وَهِدَايَةِ التَّوْفِيقِ الْمُوصِّلِ بِالْفِعْلِ إِلَى الْغَايَةِ بِتَوْجِيهِ النَّفْسِ إِلَى طَلَبِ الْحَقِّ وَتَسْهِيلِ سَبِيلِهِ وَمَنْعِ الصَّوَارِفِ عَنْهُ . وَلَمَّا كَانَ لَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَدَّعُوا أَنَّ أَحَدًا مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَكُوهُمْ فِي عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى ، بِادِّعَاءِ التَّقْرِيبِ إِلَيْهِ

وَالشَّفَاعَةِ عِنْدَهُ ، يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ مِنْ نَاحِيَةِ الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ ، وَلَا مِنْ نَاحِيَةِ التَّشْرِيعِ ، لَقَّنَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْجَوَابَ بِقَوْلِهِ (قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ) فِعْلُ الْهُدَى يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (1 : 6) ، (وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) (48 : 2) (لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) (29 : 69) وَيَتَعَدَّى بِإِلَى كَقَوْلِهِ :

(148/361)

(وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (6 : 87) ، (وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (5 : 16) (يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ) (72 : 2) ، (وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ) (38 : 22) وَبِاللَّامِ كَقَوْلِهِ

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا) (7 : 43) (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) (17 : 9) ، (بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ) (49 : 17) فَتَعْدِيَتُهُ بِنَفْسِهِ تُفِيدُ اتِّصَالَ الْهِدَايَةِ بِمُتَعَلِّقِهَا مُبَاشَرَةً ، وَتَعْدِيَتُهُ بِـ (اللَّامِ) تُفِيدُ التَّقْوِيَةَ أَوِ الْعِلَّةَ وَالسَّبَبِيَّةَ ، وَبِـ (إِلَى) لِلْغَايَةِ الَّتِي تَنْتَهِي إِلَيْهَا الْهِدَايَةُ ، فَهِيَ تَشْمَلُ مُقَدِّمَاتِهَا وَأَسْبَابَهَا مِنْ حَيْثُ كَوْنِهَا مُوَصِّلَةً إِلَى الْمُنْتَهَى الْمَقْصُودِ لِلْهَادِي السَّائِقِ إِلَيْهَا ، وَقَدْ يَكُونُ قَصْدُهُ مَجْهُولًا لِمُطِيعِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الشَّيْطَانِ : (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) (22 : 4) وَكُلٌّ مِنْ هَذِهِ

الثَّلَاثِ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّنْزِيلِ فِي مَوْضِعِهِ اللَّائِقِ بِهِ ، يَعْلَمُ ذَلِكَ مَنْ لَهُ ذَوْقٌ سَلِيمٌ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ الدَّقِيقَةِ الْعَالِيَةِ . وَقَدْ جَمَعَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيْنَ التَّعْدِيَةِ بِالْحَرْفَيْنِ ، وَبَيْنَ تَرْكِ التَّعْدِيَةِ وَهُوَ حَذْفُ الْمُتَعَلِّقِ الدَّالِّ عَلَى الْعُمُومِ ، وَكُلٌّ مِنْهَا وَقَعَ فِي مَوْقِعِهِ الَّذِي تَقْتَضِيهِ الْبَلَاغَةُ فَهَاكَهُ فَلَمْ نَرَ أَحَدًا بَيَّنَهُ .

(149/361)

أَمَّا الْأَوَّلُ : فَقَدْ عَدَّاهُ بِإِلَى فِي حَيِّزِ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ ؛ لِلْإِيذَانِ بِأَنَّهُ لَا أَحَدَ مِنْ هَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءِ الْمُتَّخَذِينَ بِالْبَاطِلِ يَدُلُّ النَّاسَ عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي يَنْتَهِي سَالِكُهُ إلَى الْحَقِّ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ وَهُوَ التَّشْرِيعُ ، فَهُوَ يَنْفِي الْمُقَدِّمَاتِ وَنَتَائِجَهَا ، وَالْأَسْبَابَ وَمُسَبِّبَاتِهَا ، وَلَوْ عَدَّاهُ بِنَفْسِهِ لَمَا أَفَادَ

إلَّا إنْكَارَ هِدَايَةِ الْإِيصَالِ إلَى الْحَقِّ بِالْفِعْلِ ، دُونَ هِدَايَةِ التَّشْرِيعِ الْمُوَصِّلَةِ إلَيْهِ ، وَلَوْ عَدَّاهُ بِاللَّامِ لَكَانَ بِمَعْنَى تَعْدِيَتِهِ بِنَفْسِهِ إنْ كَانَتِ اللَّامُ لِلتَّقْوِيَةِ أَوْ لِإِنْكَارِ هِدَايَةٍ يُقْصَدُ بِهَا الْحَقُّ إنْ كَانَتْ لِلتَّعْلِيلِ ، وَالْأَوَّلُ أَعَمُّ وَأَبْلَغُ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ .

وَأَمَّا الثَّانِي : وَهُوَ تَعْدِيَتُهُ بِاللَّامِ فَهُوَ يَسْتَلْزِمُ الْأَوَّلَ ، وَإِذَا جَرَيْنَا عَلَى جَوَازِ اسْتِعْمَالِ اللَّامِ

بِمَعْنَيَيْهَا عَلَى مَذْهَبِنَا الَّذِي اتَّبَعْنَا فِيهِ الْإِمَامَيْنِ الشَّافِعِيِّ وَابْنِ جَرِيرٍ ، يَكُونُ مَعْنَاهُ : قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِمَا هُوَ الْحَقُّ لِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ الْمُهْتَدُونَ بِهِ عَلَى الْحَقِّ .

(150/361)

وَأَمَّا الثَّالِثُ : أَيْ حَذْفُ الْمُتَعَلِّقِ فَهُوَ فِي الشِّقِّ الثَّانِي مِنْ قَوْلِهِ : (أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى) قَرَأَ (يَهِدِّي) يَعْقُوبُ وَحَفْصٌ بِكَسْرِ الْهَاءِ وَتَشْدِيدِ الدَّالِ وَأَصْلُهُ يَهْتَدِي كَمَا سَيَأْتِي فِي بَحْثِ لُغَةِ الْكَلِمَةِ ، وَقَرَأَهَا حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ بِالتَّخْفِيفِ كَيَرْمِي ، وَمَعْنَى الْقِرَاءَتَيْنِ مَعَ مَا قَبْلَهُمَا نَصًّا وَاقْتِضَاءً : أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَيَهْدِي لَهُ وَيَهْدِيهِ – وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى – أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ فِيمَا يُشَرِّعُهُ ، أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي غَيْرَهُ وَلَا هُوَ يَهْتَدِي بِنَفْسِهِ مِمَّنْ عُبِدَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَنْ يَهْدِيَهُ غَيْرُهُ ، أَيِ اللَّهُ تَعَالَى

(151/361)

إِذْ لَا هَادِيَ غَيْرُهُ ؟ وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُفَرَّغٌ مِنْ أَعَمِّ الْأَحْوَالِ ؛ لِأَنَّ مَنْ نَفَى عَنْهُمُ الْهِدَايَةَ مِمَّنِ اتَّخَذُوا شُرَكَاءَ لِلَّهِ تَعَالَى يَشْمَلُ الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَعُزَيْرًا وَالْمَلَائِكَةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ،

وَهَؤُلَاءِ كَانُوا يَهْدُونَ إِلَى الْحَقِّ بِهِدَايَةِ اللهِ وَوَحْيِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْأَنْبِيَاءِ مِنْ سُورَتِهِمْ : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) (21 : 73) وَقَالَ النَّحَّاسُ : الِاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ ، كَمَا تَقُولُ : فُلَانٌ لَا يَسْمَعُ غَيْرَهُ إِلَّا أَنْ يَسْمَعَ ، أَيْ لَكِنَّهُ يَحْتَاجُ أَنْ يَسْمَعَ ، فَمَعْنَى (إِلَّا أَنْ يُهْدَى) لَكِنَّهُ يَحْتَاجُ أَنْ يُهْدَى انْتَهَى . فَيَا لِلَّهِ الْعَجَبُ مِنْ هَذِهِ الْبَلَاغَةِ الَّتِي يَظْهَرُ لِلْمُدَقِّقِينَ فِي تَعْبِيرِ الْقُرْآنِ مِنْ بَدَائِعِهَا فِي كُلِّ عَصْرٍ مَا فَاتَ أَسَاطِينَ بُلَغَاءِ الْمُفَسِّرِينَ فِيمَا قَبْلَهُ .

(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) هَذَا تَعْجِيبٌ مِنْ حَالِهِمْ فِي جَعْلِهِمْ مَنْ هَذِهِ حَالُهُمْ مِنَ الْعَجْزِ الْمُطْلَقِ شُرَكَاءَ مَعَ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، أَوْرَدَهُ بِاسْتِفْهَامَيْنِ تَقْرِيعِيَّيْنِ مُتَوَالِيَيْنِ ، وَالْمَعْنَى : أَيُّ شَيْءٍ أَصَابَكُمْ ، وَمَاذَا حَلَّ بِكُمْ حَتَّى اتَّخَذْتُمْ شُرَكَاءَ هَذِهِ حَالُهُمْ وَصِفَتُهُمْ ، فَجَعَلْتُمُوهُمْ وُسَطَاءَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمُ الَّذِي لَا خَالِقَ وَلَا رَازِقَ وَلَا مُدَبِّرَ وَلَا هَادِيَ لَكُمْ وَلَا لِأَحَدٍ مِنْهُمْ سِوَاهُ ؟ كَيْفَ تَحْكُمُونَ بِجَوَازِ عِبَادَتِهِمْ ، وَبِمَا زَعَمْتُمْ مِنْ وَسَاطَتِهِمْ وَشَفَاعَتِهِمْ عِنْدَهُ بِدُونِ إِذْنِهِ ؟ .

(152/361)

وَمِنَ الْقِرَاءَاتِ اللَّفْظِيَّةِ الَّتِي لَا يَخْتَلِفُ بِهَا الْمَعْنَى ، قِرَاءَةُ (يَهِدِّي) الْمُشَدَّدَةِ الدَّالِ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَالْهَاءِ بِنَقْلِ حَرَكَةِ التَّاءِ فِي أَصْلِهَا (يَهْتَدِي) إِلَى الْهَاءِ وَإِدْغَامِهَا فِيهَا ، وَقِرَاءَتِهَا بِكَسْرِهِمَا

مَعًا فَالْهَاءُ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ وَالْيَاءُ لِمُنَاسَبَتِهَا لَهَا ، وَقِرَاءَتُهَا بِفَتْحِ الْيَاءِ وَكَسْرِ الْهَاءِ لِمُنَاسَبَةِ الدَّالِ ، وَهِيَ قِرَاءَةُ حَفْصٍ الَّتِي عَلَيْهَا أَهْلُ بِلَادِنَا .

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا) هَذَا بَيَانٌ لِحَالِ الْمُشْرِكِينَ الِاعْتِقَادِيَّةِ ، فِي إِثْرِ إِقَامَةِ أَنْوَاعِ الْحُجَجِ عَلَى تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ ، بِأُسْلُوبِ الْأَسْئِلَةِ وَالْأَجْوِبَةِ الْمُفِيدَةِ لِلْعِلْمِ ، وَالْهَادِيَةِ إِلَى الْحَقِّ ، وَمِنْهَا أَنَّهُ لَيْسَ فِي شُرَكَائِهِمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ الْمَطْلُوبِ فِي الْعَقَائِدِ الدَّالِّ عَلَى ارْتِقَاءِ الْعَقْلِ وَعُلُوِّ النَّفْسِ ، وَهُوَ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ فِي شِرْكِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ لِغَيْرِ رَبِّهِمْ ، وَلَا فِي إِنْكَارِهِمْ لِلْبَعْثِ ، وَتَكْذِيبِهِمْ لِلرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَّا ضَرْبًا مِنْ ضُرُوبِ الظَّنِّ ، قَدْ يَكُونُ ضَعِيفًا كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ تَنْكِيرُهُ ، وَذَلِكَ كَاسْتِبْعَادِ غَيْرِ

(153/361)

الْمَأْلُوفِ ، وَقِيَاسِ الْغَائِبِ وَالْمَجْهُولِ عَلَى الْحَاضِرِ وَالْمَعْرُوفِ ، وَتَقْلِيدِ الْآبَاءِ ثِقَةً بِهِمْ وَتَعْظِيمًا لِشَأْنِهِمْ أَنْ يَكُونُوا عَلَى بَاطِلٍ فِي اعْتِقَادِهِمْ ، وَضَلَالٍ فِي أَعْمَالِهِمْ ، وَأَمَّا غَيْرُ الْأَكْثَرِ فَكَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ هُوَ الْحَقُّ وَالْهُدَى ، وَأَنَّ أَصْنَامَهُمْ وَغَيْرَهَا مِمَّا عَبَدُوا لَا تَنْفَعُ وَلَا تَشْفَعُ ، وَلَكِنَّهُمْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَيُكَذِّبُونَ رَسُولَهُ عِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ ، وَضَنًّا بِرِيَاسَتِهِمْ وَزَعَامَتِهِمْ أَنْ يَهْبِطُوا مِنْهَا إِلَى اتِّبَاعِ مَنْ دُونَهُمْ ثَرْوَةً وَقُوَّةً وَمَكَانَةً

فِي قَوْمِهِمْ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّعْبِيرُ بِالْأَكْثَرِ جَاءَ عَلَى سُنَّةِ الْقُرْآنِ فِي الْحُكْمِ عَلَى الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ . فَإِنَّهُ تَارَةً يَحْكُمُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ، وَتَارَةً يَسْتَثْنِي مِنَ الِاسْتِغْرَاقِ وَالْإِطْلَاقِ الْقَلِيلَ مِنْهُمْ ، كَمَا تَقَدَّمَ نَظَائِرُهُ مِنْ قَبْلُ . فَيَكُونُ الْحُكْمُ عَلَى الْأَكْثَرِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ يَقِلُّ فِيهِمْ ذُو الْعِلْمِ ، فَإِنْ قِيلَ : وَمَا حُكْمُ اللَّهِ فِي الظَّنِّ ؟ فَالْجَوَابُ : (إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) مِنَ الْإِغْنَاءِ وَلَوْ قَلِيلًا ، أَيْ لَا يَجْعَلُ صَاحِبَهُ غَنِيًّا بِعِلْمِ الْيَقِينِ فِي الْحَقِّ ، فَيَكُونُ أَيِ الظَّنُّ بَدَلًا مِنَ الْيَقِينِ فِي شَيْءٍ مِمَّا يُطْلَبُ فِيهِ الْيَقِينُ كَالدِّينِ ؛ فَإِنَّ الْحَقَّ هُوَ الْأَمْرُ الثَّابِتُ الْمُتَحَقِّقُ الَّذِي لَا رَيْبَ فِي ثُبُوتِهِ وَتَحَقُّقِهِ ، وَالْمَظْنُونُ وَإِنْ كَانَ رَاجِحًا عِنْدَ صَاحِبِهِ عُرْضَةٌ لِلشَّكِّ ،

(154/361)

يَتَزَلْزَلُ وَيَزُولُ إِذَا عَصَفَتْ بِهِ أَيُّ عَاصِفَةٍ مِنَ الشُّبُهَاتِ ، وَالْإِغْنَاءُ يَتَعَدَّى بِـ (عَنْ) كَقَوْلِهِ : (مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ) (7 : 48) (مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ) (69 : 28) (فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ) (11 : 101) وَقَدْ عُدِّيَ هُنَا بِـ (مِنْ) وَفِي مِثْلِهِ مِنْ سُورَةِ النَّجْمِ ، وَفِي قَوْلِهِ فِي ظِلِّ دُخَانِ النَّارِ (لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ) (77 : 31) وَقَوْلِهِ فِي الضَّرِيعِ مِنْ طَعَامِ أَهْلِهَا : (لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ) (88 : 7) فَعُدِّيَ بِـ (مِنْ) لِإِفَادَةِ الْقِلَّةِ أَوْ لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى

الْبَدَلِ أَيْ إِنَّ ظِلَّ دُخَانِ النَّارِ لَا وَارِفٌ يَمْنَعُ الْحَرَّ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ بِأَنْ يُقَلِّلَهُ أَوْ يُزِيلَهُ وَيَكُونَ بَدَلًا مِنْهُ ، وَإِنَّ الضَّرِيعَ الَّذِي هُوَ طَعَامُ أَهْلِ النَّارِ لَا يُسْمِنُ الْبَدَنَ بِالتَّغْذِيَةِ الْكَافِيَةِ ، وَلَا يُقَلِّلُ الْجُوعَ أَوْ يُزِيلُهُ فَيَكُونُ بَدَلًا مِنَ الطَّعَامِ الرَّدِيءِ التَّغْذِيَةِ .

وَاسْتَدَلَّ الْعُلَمَاءُ بِهَذِهِ الْآيَةِ هُنَا وَفِي سُورَةِ النَّجْمِ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ الْيَقِينِيَّ وَاجِبٌ فِي الِاعْتِقَادِيَّاتِ ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ الْمُقَلِّدَ غَيْرُ صَحِيحٍ ، وَيَدْخُلُ فِي الِاعْتِقَادِيَّاتِ الْإِيمَانُ بِوُجُوبِ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْفَرَائِضِ وَالْوَاجِبَاتِ الْقَطْعِيَّةِ ، وَالْإِيمَانُ بِتَحْرِيمِ الْمَحْظُورَاتِ الْقَطْعِيَّةِ كَذَلِكَ ، وَقَدْ بَيَّنَّا مِنْ قَبْلُ أَنَّ الْيَقِينَ الْمَشْرُوطَ فِي صِحَّةِ الْإِيمَانِ شَرْعًا هُوَ الْيَقِينُ اللُّغَوِيُّ ، وَهُوَ

(155/361)

الِاعْتِقَادُ الصَّحِيحُ الَّذِي لَا شَكَّ مَعَهُ - لَا الْمُصْطَلَحُ عَلَيْهِ عِنْدَ نُظَّارِ الْفَلْسَفَةِ وَالْمَنْطِقِ الْمُؤَلَّفُ مِنْ عِلْمَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّ الشَّيْءَ كَذَا (وَالثَّانِي) أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا كَذَا .

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : إِنَّ الْأَحْكَامَ الْعَمَلِيَّةَ يَكْفِي فِيهَا الدَّلِيلُ الظَّنِّيُّ ، فَفِيهِ أَنَّ الدَّلِيلَ الظَّنِّيَّ لَا يَثْبُتُ بِهِ الْإِيمَانُ بِالْمَظْنُونِ ، بَلِ التَّصْدِيقُ بِالْمَظْنُونِ لَا يُسَمَّى إِيمَانًا . وَإِنَّمَا يَعْمَلُ فِي الِاجْتِهَادِيَّاتِ خُرُوجًا مِنَ الْحَيْرَةِ وَالتَّرْجِيحِ بِهَوَى النَّفْسِ .

(إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) هَذِهِ قَضِيَّةٌ ثَانِيَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ خَاصَّةٌ بِالْعَمَلِ ، شَأْنُهَا أَنْ يُسْأَلَ عَنْهَا بَعْدَ الْقَضِيَّةِ الَّتِي قَبْلَهَا فِي الِاعْتِقَادِ ، فَهُوَ يَقُولُ : إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ بِمُقْتَضَى اعْتِقَادَاتِهِمُ الظَّنِّيَّةِ وَالْقَطْعِيَّةِ ، فَهُوَ يُحَاسِبُهُمْ وَيُجَازِيهِمْ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ مِنْهَا بِحَسَبِهِ ، فَالْجَزَاءُ عَلَى مُخَالَفَةِ الِاعْتِقَادِ الْقَطْعِيِّ بِصِدْقِ الرَّسُولِ مِنْ تَكْذِيبٍ وَجُحُودٍ أَشَدُّ أَنْوَاعِ الْجَزَاءِ . وَيَلِيهِ التَّكْذِيبُ بِاتِّبَاعِ الظَّنِّ كَالتَّقْلِيدِ . وَمِنْ تِلْكَ الْأَفْعَالِ الصَّدُّ عَنِ الْإِيمَانِ وَإِيذَاءُ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالْمُؤْمِنِينَ بِأَنْوَاعِهِ ، وَمِنْهَا سَائِرُ الشُّرُورِ وَالْمَعَاصِي الشَّخْصِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ كَالْقَتْلِ وَالْفَاحِشَةِ وَالسُّكْرِ وَالرِّبَا إِلَخْ .

(156/361)

وَالْعِبْرَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْقُرْآنِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَالَّتِي قَبْلَهَا ، وَهُمَا مِنْ آيَاتِهِ الْمُحْكَمَاتِ فِي أُصُولِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ ، أَنْ يَكُونَ غَرَضُهُ مِنْ حَيَاتِهِ تَزْكِيَةَ نَفْسِهِ وَتَكْمِيلَهَا بِاتِّبَاعِ الْحَقِّ فِي كُلِّ اعْتِقَادٍ ، وَالْهُدَى وَهُوَ الصَّلَاحُ فِي كُلِّ عَمَلٍ ، وَبِنَاؤُهُمَا عَلَى أَسَاسِ الْعِلْمِ دُونَ الظَّنِّ وَمَا دُونَهُ مِنَ الْخَرْصِ وَالْوَهْمِ ، فَالْعِلْمُ الْمُفِيدُ لِلْحَقِّ وَالْمُبَيِّنُ لِلْهُدَى فِي الدِّينِ هُوَ مَا كَانَ قَطْعِيَّ الرِّوَايَةِ وَالدَّلَالَةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الَّذِي قَامَتْ بِهِ الْجَمَاعَةُ الْأُولَى ، وَهُوَ الشَّرْعُ الْعَامُّ الَّذِي لَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِينَ التَّفَرُّقُ وَالِاخْتِلَافُ فِيهِ ، فَهُوَ مَنَاطُ وَحْدَتِهِمْ ، وَرَابِطَةُ جَامِعَتِهِمْ ، وَمَا

دُونَهُ مِمَّا لَا يُفِيدُ إلَّا الظَّنَّ فَلَا يُؤْخَذُ بِهِ فِي الِاعْتِقَادِ ، وَهُوَ مَتْرُوكٌ لِلِاجْتِهَادِ فِي الْأَعْمَالِ ، اجْتِهَادِ الْأَفْرَادِ فِي الْأَعْمَالِ الشَّخْصِيَّةِ ، وَاجْتِهَادِ أُولِي الْأَمْرِ فِي الْقَضَاءِ وَالْإِدَارَةِ وَالسِّيَاسَةِ ، مَعَ تَقْيِيدِهِمْ فِيهِ بِالشُّورَى فِي اسْتِبَانَةِ الْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ وَالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ ، كَمَا فَصَّلْنَاهُ مِنْ قَبْلُ فِي مَوَاضِعِهِ .

وَقَدْ غَفَلَ عَنْ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ بَعْضُ أَئِمَّةِ الْفِقْهِ ، فَحَكَمَ بِتَحْرِيمِ بَعْضِ الْعَادَاتِ الْمُبَاحَةِ فِي الْأَصْلِ كَلَعِبِ الشَّطْرَنْجِ ، وَكَذَا الْمُسْتَحَبَّةِ كَمُلَاعَبَةِ الرَّجُلِ لِزَوْجِهِ ، وَسَمَاعِ الْغِنَاءِ ، بِشُبْهَةِ أَنَّهَا مِنَ الْبَاطِلِ أَوْ مِنَ الضَّلَالِ ، وَلَا يَثْبُتُ تَحْرِيمُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ بِدَلِيلٍ ظَنِّيٍّ

(157/361)

فَضْلًا عَنْ قَطْعِيٍّ وِفَاقًا لِلْقَاضِي أَبِي بَكْرِ بْنِ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيِّ الْمُخَالِفِ فِيهِ لِلرِّوَايَةِ عَنْ إمَامِهِ ، وَأَمَّا الْمُقَلِّدُونَ مِنَ الْمُنْتَمِينَ فِي الْفِقْهِ إلَى كُلِّ مَذْهَبٍ ، فَقَدْ حَرَّمُوا عَلَى النَّاسِ مَا لَا يُحْصَى بِالرَّأْيِ وَالْأَقْيِسَةِ الْوَهْمِيَّةِ ، الَّتِي هِيَ دُونَ الْأَدِلَّةِ الظَّنِّيَّةِ ، وَهَدْيُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الشُّبُهَاتِ الِاحْتِيَاطُ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي حَدِيثِ : (الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ) الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ ، وَاسْتِفْتَاءُ (الْوِجْدَانِ) لِحَدِيثِ : (اسْتَفْتِ نَفْسَكَ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي التَّارِيخِ

.

وَإِنَّمَا الْبَاطِلُ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا ثَبَتَ بُطْلَانُهُ بِدَلِيلٍ شَرْعِيٍّ قَطْعِيٍّ ، كَمَا أَنَّ الْحَقَّ فِيهَا مَا ثَبَتَتْ حَقِّيَّتُهُ بِدَلِيلٍ قَطْعِيٍّ ، وَبَيْنَهُمَا وَاسِطَةٌ هِيَ مَا لَا دَلِيلَ فِيهِ بِخِلَافِ الِاعْتِقَادِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ وَاسِطَةٌ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَمِنَ الْأَشْيَاءِ الْعَمَلِيَّةِ مَا الْأَصْلُ فِيهِ الْإِبَاحَةُ وَهُوَ النَّافِعُ ، وَمِنْهُ مَا سَكَتَ الشَّارِعُ عَنْ فَرْضِهِ وَعَنْ تَحْرِيمِهِ وَعَنْ قَوَاعِدِ حُدُودِهِ كَمَا قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا) كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ فِي الْأَرْبَعِينَ النَّوَوِيَّةِ وَقَدْ حَقَّقْنَا هَذَا الْبَحْثَ فِي تَفْسِيرِ : (لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) (5 : 101) مِنْ جُزْءِ التَّفْسِيرِ السَّادِسِ .

(158/361)

وَالَّذِي أُرِيدُ أَنْ أُذَكِّرَ بِهِ كُلَّ مُسْلِمٍ هُنَا أَنَّهُ لَا يُوجَدُ الْآنَ فِي الْأَرْضِ دِينٌ مُتَّبَعٌ . وَلَا قَانُونٌ دَوْلِيٌّ مُنَفَّذٌ ، وَلَا نِظَامٌ حِزْبِيٌّ وَلَا جَمَاعِيٌّ مُلْتَزَمٌ يَفْرِضُ عَلَى النَّاسِ الْحَقَّ وَالْهُدَى فَرْضًا دِينِيًّا ، وَالِاعْتِمَادُ فِي اسْتِبَانَتِهِمَا عَلَى الْعِلْمِ الصَّحِيحِ ، وَحَصْرِ الِاجْتِهَادِ وَالتَّرْجِيحِ فِيمَا سِوَاهُمَا

.

وَالِاعْتِمَادُ فِيهِ عَلَى الْوِجْدَانِ فِي الشَّخْصِيَّاتِ ، وَالشُّورَى فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ . وَلَنْ يَصْلُحَ حَالُ الْبَشَرِ الْفَرْدِيُّ وَلَا الِاجْتِمَاعِيُّ وَالدَّوْلِيُّ إِلَّا بِهَذِهِ الْأُصُولِ الَّتِي فَرَضَهَا الْإِسْلَامُ ، وَجَعَلَهَا

دِينًا يُدَانُ اللهُ بِهِ لَيْسَ لِأَحَدٍ تَجَاوُزُهُ ، وَقَدْ عَجَزَتْ عُلُومُ الْبَشَرِ عَلَى اتِّسَاعِهَا ، وَعُقُولُهُمْ عَلَى ارْتِقَائِهَا عَنِ الِاسْتِغْنَاءِ عَنْهَا بِغَيْرِهَا ، فَهُمْ كُلَّمَا ازْدَادُوا عِلْمًا يَزْدَادُونَ بَاطِلًا وَضَلَالًا وَبَغْيًا ، خِلَافًا لِدُعَاةِ حَضَارَتِهِمُ الْكَاذِبِينَ .

قَالَ شَيْخُ فَلَاسِفَةِ الْأَخْلَاقِ وَعِلْمِ الِاجْتِمَاعِ فِي هَذَا الْقَرْنِ (وَهُوَ هِرْبِرْت سِبِنْسَر الْإِنْكِلِيزِيُّ) لِحَكِيمِ الْإِسْلَامِ شَيْخِنَا الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ ؟ إِنَّ فِكْرَةَ الْحَقِّ قَدْ زَالَتْ مِنْ عُقُولِ أُمَمٍ أُورُبِّيَّةٍ أَلْبَتَّةَ ، فَلَا يَعْرِفُونَ حَقًّا إِلَّا لِلْقُوَّةِ ، وَإِنَّ الْأَفْكَارَ الْمَادِّيَّةَ قَدْ أَفْسَدَتْ أَخْلَاقَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَا يُرَى مِنْ سَبِيلٍ إِلَى عِلَاجِهِمْ ، وَإِنَّهُ لَا يَزَالُ بَعْضُهُمْ يَخْتَبِطُ بِبَعْضٍ – وَلَعَلَّهُ ذَكَرَ الْحَرْبَ – لِيَتَبَيَّنَ أَيُّهُمُ الْأَقْوَى لِيَسُودَ الْعَالَمَ .

(159/361)

وَقَدْ وَقَعَ مَا تَوَقَّعَهُ هَذَا الْحَكِيمُ فِي سَنَةِ 1903 بِالْحَرْبِ الْكُبْرَى مُدَّةَ أَرْبَعِ سِنِينَ (مِنْ 1914 – 1918) فَازْدَادَتِ الْأُمَمُ وَالدُّوَلُ شَقَاءً وَفَسَادًا وَطُغْيَانًا وَإِبَاحَةً ، حَتَّى جَزَمَ كَثِيرٌ مِنْ عُقَلَائِهِمْ بِأَنَّهُ لَا عِلَاجَ لِهَذَا الْفَسَادِ فِي الْبَشَرِ إِلَّا الْهِدَايَةُ الرُّوحِيَّةُ الدِّينِيَّةُ ، وَسَيَعْقِدُونَ لِذَلِكَ مُؤْتَمَرًا عَامًّا فِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمِيرِكَانِيَّةِ ، وَلَنْ يَجِدُوا الْعِلَاجَ الْمَطْلُوبَ إِلَّا فِي هَذِهِ الْأُصُولِ مِنَ الْقُرْآنِ وَمَا فَصَّلْنَاهَا بِهِ فِي مَبَاحِثِ (الْوَحْيِ الْمُحَمَّدِيِّ)

مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ ، ثُمَّ جَمَعْنَاهُ فِي كِتَابٍ مُسْتَقِلٍّ مَعَ زِيَادَةٍ فِي تَفْصِيلِهِ ، فَعَسَى أَنْ يَسْبِقَهُمُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْعَمَلِ بِهِ وَنَشْرِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 290 . 300 ﴾

(160/361)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ﴾

عطف على جملة : ﴿ قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ﴾ [يونس : 35] باعتبار عطف تلك على نظيرتيها المذكورتين قبلَها ، فبعد أن أمر الله رسولَه بأن يحجهم فيما جعلوهم آلهة وهي لا تصرف ولا تدبير ولا هداية لها ، أعقب ذلك بأن عبادتهم إياها اتّباع لظن باطل ، أي لوهَم ليس فيه شبهة حق .

والضمير في قوله : ﴿ أكثرهم ﴾ عائد إلى أصحاب ضمير ﴿ شركائكم ﴾ [يونس : 35] وضمير ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ [يونس : 35] .

وإنما عَمَّهم في ضمائر ﴿ شركائِكم و ما لَكم كيف تحكمون ﴾ ، وخصّ بالحكم في اتّباعهم الظن أكثرَهم ، لأن جميع المشركين اتفقوا في اتباع عبادة الأصنام .

وبين هنا أنهم ليسوا سواء في الاعتقاد الباعث لهم على عبادتها إيماء إلى أن من بينهم عُقَلاء قليلين ارتقت مداركُ أفهامهم فوق أن يعتقدوا أن للأصنام تصرفاً ولكنهم أظهروا عبادتها تبعاً للهوَى وحفظاً للسيادة بين قومهم .

والمقصود من هذا ليس هو تبرئة للذين عبدوا الأصنام عن غير ظن بإلهيتها فإنهم شر من الذين عبدوها عن تَخيل ، ولكن المقصود هو زيادة الاستدلال على بطلان عبادتها حتى أن من عُبَّادها فريقاً ليسوا مطمئنين لتحقق إلهيتها .

وبالتأمل يظهر أن هؤلاء هم خاصة القوم وأهل الأحلام منهم لأن المقام مقام تخطئة ذلك الظن .

ففيه إيقاظ لجمهورهم ، وفيه زيادة موعظة لخاصتهم ليقلعوا عن الاستمرار في عبادة ما لا تطْمئن إليه قلوبهم .

وهذا كقوله الآتي : ﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ﴾ [يونس : 40] .

والظن : يطلق على مراتب الإدراك ، فيطلق على الاعتقاد الجازم الذي لا يشوبه شك ، كما في قوله تعالى : ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ [البقرة : 45 ، 46] ؛ ويطلق على الاعتقاد المشوب بشك .

ويظهر أنه حقيقة في هذا الثاني وأنه مجاز في الأول لكنه في الأول شائع فصار كالمشترك .

وقد تقدم في سورة البقرة عند الكلام على الآية المذكورة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ في سورة [الأعراف : 66] ، وقوله : ﴿ وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ﴾ في سورة [براءة : 118] .

وقد أطلق مجازاً على الاعتقاد المخطىء ، كما في قوله تعالى : ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾ [الحجرات : 12] وقول النبي عليه الصلاة والسلام إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث .

والظن كثر إطلاقه في القرآن والسنة على العلم المخطىء أو الجهل المركب والتخيلات الباطلة ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث " وقد يطلق على الظن الحصيبي كقوله تعالى : ﴿ ظَنَّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ [النور : 12] وقوله تعالى : ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾ [الحجرات : 12] .

وهذا المعنى هو المصطلح عليه عند علماء أصول الدين وأصول الفقه .

وهو العلم المستند إلى دليل راجح مع احتمال الخطأ احتمالاً ضعيفاً .

وهذا الظن هو مناط التكليف بفروع الشريعة .

فوجه الجمع بين هذه المتعارضات إعمال كل في مورده اللائق به بحسب مقامات الكلام

وسياقه ، فمحمل قوله هنا : ﴿ إن الظن لا يغني مِن الحق شيئاً ﴾ أن العلم المشوب بشك لا يغني شيئاً في إثبات الحق المطلوب وذلك ما يطلب فيه الجزم واليقينُ من العلوم الحاصلة بالدليل العقلي لأن الجزم فيها ممكن لمن أعمل رأيه إعمالاً صائباً إذ الأدلة العقلية يحصل منها اليقين ، فأما ما طريق تحصيله الأدلة الظاهرة التي لا يتأتى اليقين بها في جميع الأحوال فذلك يكتفي فيه بالظن الراجح بعد إعمال النظر وهو ما يسمى بالاجتهاد .

و﴿ ظناً ﴾ منصوب على المفعولية به ل ﴿ يتبع ﴾ .

(162/361)

ولما كان الظن يقتضي مظنوناً كان اتباع الظن اتباعاً للمظنون أي يتبعون شيئاً لا دليل عليه إلا الظن ، أي الاعتقاد الباطل .

وتنكير ﴿ ظناً ﴾ للتحقير ، أي ظناً واهياً .

ودلت صيغة القصر على أنهم ليسوا في عقائدهم المنافية للتوحيد على شيء من الحق رداً على اعتقادهم أنهم على الحق .

وجملة : ﴿ إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ تعليل لما دل عليه القصر من كونهم ليسوا على شيء من الحق فكيف يزعمون أنهم على الحق .

والحق : هو الثابت في نفس الأمر .

والمراد به هنا معرفة الله وصفاته مما دل عليها الدليل العقلي مثل وجوده وحياته ، وما دل عليها فعل الله مثل العلم والقدرة والإرادة .

و﴿ شيئاً ﴾ مفعول مطلق مؤكد لعامله ، أي لا يغني شيئاً من الإغناء .

و﴿ مِن ﴾ للبدلية ، أي عوضاً عن الحق .

وجملة : ﴿ إن الله عليم بما يفعلون ﴾ استئناف للتهديد بالوعيد . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(163/361)

وقال الشيخ الشعراوى :

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً ﴾ [يونس : 36] يفيد أن بعضهم كان يتبع يقيناً ؛ لأن مقابل الظن هو اليقين ، فالنسب التي تحدث بين الأشياء تربط بين الموضوع والمحمول ، أو المحكوم والمحكوم عليه ، وهي نسب ذكرناها من قبل ، ونذكِّر بها ، فهناك شيء أنت تجزم به ، وشيء لا تجزم به . وما تجزم به وتُدلِّل عليه هو علم يقين ، أما ما لا تستطيع التدليل عليه فليس علم يقين ، بل تقليد ، كأن يقول الطفل : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾

[الإخلاص : 1] .

وهذا حق ، لكن الطفل لا يستطيع أن يدلل عليه أو أن يقال شيء ومن يقوله جازم به ، وهو غير واقع ؛ فذلك هو الجهل .

والعلم هو القضية المجزوم بها ، وهي واقعة وعليها دليل ، على عكس الجهل الذي هو قضية مجزوم بها وليس عليها دليل .

والظن هو تساوي نسبتين في الإيجاب والسلب ، بحيث لا تستطيع أن تجزم بأي منهما ؛ لأنه إن رجحت كفة كانت قضية مرجوحة ، والقضية المرجوحة هي شك أو ظن أو وهم .

فالظن هو ترجيح النسب على بعضها . والشك هو تساوي الكفتين .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً ﴾ [يونس : 36] يبين لنا أن الذين كانوا يعارضون رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلوا ذلك إما عناداً رغم علمهم بصدق ما يبلغ عنه ، وإما أنهم يعاندون عن غير علم ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ ﴾ [يونس : 39] .

وكان الواحد منهم إذا تمعَّن في البلاغ عن الله تعالى والأدلة عليه ، يعلن الإيمان ، لكن منهم من تمعن في الأدلة وظل على عناده ، والذين اتبعوا الظن إنما اتبعوا ما لا يغني من الحق شيئاً .

لذلك يبيّن لهم الحق سبحانه أنه عليم بخفايا نفوسهم ، ويعلم إن كان إنكارهم للإيمان نابعاً من العناد أو من العجز عن استيعاب قضية الإيمان ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس : 36] .

إذن : فقد علم الله سبحانه أزلاً أن بعضهم في خبايا نفوسهم يوقنون بقيمة الإيمان ، لكنهم يجحدونها ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ولكن الظالمين بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : 33] .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى عليم ، ولا يخفى عليه أنهم كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وبعضهم لم يفهم قيمة الإيمان ، ومن علم منهم قيمة الإيمان جحدها ، عناداً واستكباراً .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل : 14] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(165/361)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لاَيُغْنِي ﴾ : خبرُ " إن " ، و " شيئاً " / منصوبٌ على المصدر ، أي : شيئاً من الإِغناء . و " من الحق " نصبٌ على الحال من " شيئاً " لأنه في الأصلِ صفةٌ له . ويجوز أن تكونَ " مِنْ " بمعنى " بدل " ، أي : لا يُغْني بدلَ الحق . وقرأ الجمهور " يَفْعلون " على الغيبة . وقرأ عبد الله " تَفْعلون " خطاباً وهو التفاتٌ بليغ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 201 ﴾

(166/361)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36) ﴾

الظَّنُّ ينافي اليقين ، فإنه ترجيح أحد طَرَفَيْ الحكم على الآخر من غر قَطْعٍ .

وأربابُ الحقائق على بصيرة وقطع ؛ فالظنُّ في أوصاف الحقّ معلولٌ ، والقطع – في أوصاف النَّفس – لكل أحدٍ معلول . والعَبْدُ يجب أن يكون في الحال خالياً عن الظن إذ لا يَعْرِفُ أحدٌ غيْبَ نَفْسه في مآله .

وفي صفة الحقّ يجب أن يكونَ العبدُ على قطع وبصيرة ؛ فالظنُّ في الله معلول ، والظن فيما مِنَ الله غير محمود . ولا يجوز بوجهٍ من الوجوه أن يكون أهلُ المعرفةِ به سبحانه – فيما يعود إلى صفته – على الظن ، كيف وقد قال الله تعالى فيما أمر نبيّه – عليه السلام – أَنْ يقول : ﴿ أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : 108] ؟ وكما قلنا :

طَلَعَ الصباحُ فلات حين سراج . . . وأتى اليقين فلات حين حجاج

حصل الذي كُنَّا نؤمّل نَيْلَه . . . من عَقْد ألويةٍ وحلِّ رتاج

والبعد قَوْضَ بالدَّنو خيامه . . . والوصلُ وكَّدَ سَجْلَه بعاج

قَدْ حَانَ عَهْدٌ للسرور فحيهلا . . . لهواجم الأحزان بالإزعاج . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 96.95 ﴾

(167/361)

قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (37) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قدم في هذه السورة قولهم ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ وأتى فيها رداً عليهم ووعظاً لهم من الآيات البالغة في الحكمة جداً يتجاوز قوى البشر ويضمحل دونه من الخلق القدر ، وكان آخر ذلك التنبيه على أن شركاءهم لا يهتدون إلا أن هداهم الهادي فضلاً عن أن يهدوا ، وإقامة الدليل على أن مذاهبهم ليست مستندة إلى علم بل هي تابعة للهوى ، أتبع ذلك دليلاً قطعياً في أمر القرآن من أنه لا يصح أصلاً أن يؤتى به من دون أمره سبحانه رداً لقولهم : إنه مفترى ، لأنه من وادي ما ختم به هذه الآيات من اتباعهم للظنون لأنه لا سند لهم في ذلك بل ولا شبهة أصلاً ، وإنما هو مجرد هوى بل وأكثرهم عالم بالحق في أمره ، فنفى ذلك بما يزيح الظنون ويدمغ الخصوم ولا يدع شبهة لمفتون ، وأثبت أنه هو الآية الكبرى والحقيق بالاتباع لأنه هدى ، فقال تعالى : ﴿ وما كان ﴾ عاطفاً له على قوله ﴿ ما يكون لي أن أبدله ﴾ إلى آخره ، فهو حينئذ مقول القول ، أي قل لهم ذاك الكلام وقل لهم ﴿ ما كان ﴾ أي قط بوجه من الوجوه ، وعينه تعييناً لا يمكن معه لبس ، فقال : ﴿ هذا القرآن ﴾ أي الجامع لكل خير مع التأدية بأساليب الحكمة المعجزة لجميع الخلق ﴿ أن يفترى ﴾ أي أن يقع

في وقت من الأوقات تعمد نسبته كذباً إلى الله من أحد من الخلق كائناً من كان ؛ وعرف بتضاؤل رتبتهم دون شامخ رتبته سبحانه بقوله : ﴿ من دون الله ﴾ أي الذي تقرر أنه يدبر الأمر كله ، فما من شفيع إلا من بعد إذنه وما يعزب عنه شيء فسبحان المتفضل على عباده بإيضاح الحجج وإزالة الشكوك والدعاء إلى سبيل الرشاد مع غناه عنهم وقدرته عليهم ؛ والافتراء : الإخبار على القطع بالكذب ، لأنه من فرى الأديم وهو قطعه بعد تفزيره .

(168/361)

ولما كان إتيان الأمي - الذي لم يجالس عالماً - بالأخبار والقصص الماضية على التحرير دليلاً قطعاً على صدق الآتي في ادعائه أنه لا معلم له إلا الله ، عبر بأداة العناد فقال : ﴿ ولكن ﴾ أي كان كوناً لا يجوز غيره ﴿ تصديق الذي ﴾ أي تقدم ﴿ بين يديه ﴾ أي قبله من الكتب ، والدليل على تصادقه شاهد الوجود مع أن القوم كانوا في غاية العداوة له - صلى الله عليه وسلم - وكان أهل الكتابين عندهم في جزيرة العرب على غاية القرب منهم مع أنهم كانوا يتجرون إلى بلاد الشام وهم متمكنون من السؤال عن كل ما يأتي به ، فلو وجدوا مغمزاً ما لقدحوا به ، فدل عدم قدحهم على التصادق قطعاً .

ولما كان ذلك سلطاناً قاهراً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، زاده ظهوراً بما اشتمل الكتاب الآتي به عليه من التفصيل الذي هو نهاية العلم فقال : ﴿ وتفصيل الكتاب ﴾ أي الجامع المجموع فيه الحكم والأحكام وجوامع الكلام من جميع الكتب السماوية في بيان مجملاتها وإيضاح مشكلاتها ، فهو ناظر إلى قوله ﴿ أفمن يهدي إلى الحق ﴾ ، فهو برهان على أنه هو الهادي وحده ، فهو الحقيق بالاتباع والتفصيل بتبيين الفصل بين المعاني الملتبسة حتى تظهر كل معنى على حقه ، ونظيره التقسيم ، ونقضيه التخليط والتلبيس ، وبيان تفصيله أنه أتى من العلوم العلمية الاعتقادية من معرفة الذات والصفات بأقسامها ، والعملية التكليفية المتعلقة بالظاهر وهي علم الفقه وعلم الباطن ورياضة النفوس بما لا مزيد عليه ولا يدانيه فيه كتاب ، وعلم الأخلاق كثير في القرآن مثل

﴿ خذ العفو ﴾ [الأعراف : 199] ﴿ إن الله يأمر بالعدل ﴾ [النحل : 90]

وأمثالهما .

(169/361)

ولما كان – مع الشهادة بالصدق بتصديق ما ثبت حقيقة – معجزاً بالجمع والتفصيل لجميع العلوم الشريفة : عقليها ونقليها إعجازاً لم يثبت لغيره ، ثبت أنه مناقض للافتراء حال كونه

﴿ لا ريب فيه ﴾ وأنه ﴿ من رب العالمين ﴾ أي موجدهم ومدبر أمرهم والمحسن إليهم لأنه – مع الجمع لجميع ذلك – لا اختلاف فيه بوجه ، وذلك خارج عن طوق البشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 442 . 444 ﴾

(170/361)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنا حين شرعنا في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [يونس : 20] ذكرنا أن القوم إنما ذكروا ذلك لاعتقادهم أن القرآن ليس بمعجز ، وأن محمداً إنما يأتي به من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق ، ثم إنه تعالى ذكر الجوابات الكثيرة عن هذا الكلام ، وامتدت تلك البيانات على الترتيب الذي شرحناه وفصلناه إلى هذا الموضع ، ثم إنه تعالى بين في هذا المقام أن إتيان محمد عليه السلام بهذا القرآن ليس على

سبيل الافتراء على الله تعالى ، ولكنه وحي نازل عليه من عند الله ، ثم إنه تعالى احتج على صحة هذا الكلام بقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ وذلك يدل على أنه معجز نازل عليه من عند الله تعالى ، وأنه مبرأ عن الافتراء والافتعال فهذا هو الترتيب الصحيح في نظم هذه الآيات .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هذا القرءان أَن يفترى ﴾ فيه وجهان : الأول : أن قوله : ﴿ أَن يفترى ﴾ في تقدير المصدر ، والمعنى : وما كان هذا القرآن افتراء من دون الله ، كما تقول : ما كان هذا الكلام إلا كذباً .

والثاني : أن يقال إن كلمة ﴿ أن ﴾ جاءت ههنا بمعنى اللام ، والتقدير : ما كان هذا القرآن ليفترى من دون الله ، كقوله : ﴿ وَمَا كَانَ المؤمنون لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ﴾ [التوبة : 122] ﴿ مَّا كَانَ اللهِ لِيَذَرَ المؤمنين . . .

(171/361)

وَمَا كَانَ اللهِ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغيب ﴾ [آل عمران : 179] أي لم يكن ينبغي لهم أن يفعلوا ذلك ، فكذلك ما ينبغي لهذا القرآن أن يفترى ، أي ليس وصفه وصف شيء يمكن أن

يفترى به على الله ، لأن المفترى هو الذي يأتي به البشر ، والقرآن معجز لا يقدر عليه البشر ، والافتراء افتعال من فريت الأديم إذا قدرته للقطع ، ثم استعمل في الكذب كما استعمل قولهم : اختلف فلان هذا الحديث في الكذب ، فصار حاصل هذا الكلام أن هذا القرآن لا يقدر عليه أحد إلا الله عز وجل ، ثم إنه تعالى احتج على هذه الدعوى بأمور :

الحجة الأولى : قوله : ﴿ ولكن تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ وتقرير هذه الحجة من وجوه :

أحدها : أن محمداً عليه السلام كان رجلاً أمياً ما سافر إلى بلدة لأجل التعلم ، وما كانت مكة بلدة العلماء ، وما كان فيها شيء من كتب العلم ، ثم إنه عليه السلام أتى بهذا القرآن ، فكان هذا القرآن مشتملاً على أقاصيص الأولين ، والقوم كانوا في غاية العداوة له ، فلو لم تكن هذه الأقاصيص موافقة لما في التوراة والإنجيل لقدحوا فيه ولبالغوا في الطعن فيه ، ولقالوا له إنك جئت بهذه الأقاصيص لا كما ينبغي ، فلما لم يقل أحد ذلك مع شدة حرصهم على الطعن فيه ، وعلى تقبيح صورته ، علمنا أنه أتى بتلك الأقاصيص مطابقة لما في التوراة والإنجيل ، مع أنه ما طالعهما ولا تلمذ لأحد فيهما ، وذلك يدل على أنه عليه السلام إنما أخبر عن هذه الأشياء بوحي من قبل الله تعالى .

الحجة الثانية : أن كتب الله المنزلة دلت على مقدم محمد عليه السلام ، على ما استقصينا في تقريره في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة :

40] وإذا كان الأمر كذلك كان مجيء محمد عليه السلام تصديقاً لما في تلك الكتب ، من البشارة بمجيئه صلى الله عليه وسلم ، فكان هذا عبارة عن تصديق الذي بين يديه .

(172/361)

الحجة الثالثة : أنه عليه السلام أخبر في القرآن عن الغيوب الكثيرة في المستقبل ، ووقعت مطابقة لذلك الخبر ، كقوله تعالى : ﴿ الم غُلِبَتِ الروم ﴾ [الروم : 1 ، 2] الآية ، وكقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ الله رَسُولَهُ الرؤيا بالحق ﴾ [الفتح : 27] وكقوله : ﴿ وَعَدَ الله الذين ءامَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الارض ﴾ [النور : 55] وذلك يدل على أن الإخبار عن هذه الغيوب المستقبلة ، إنما حصل بالوحي من الله تعالى ، فكان ذلك عبارة عن تصديق الذي بين يديه ، فالوجهان الأولان : إخبار عن الغيوب الماضية والوجه الثالث : إخبار عن الغيوب المستقبلة ، ومجموعها عبارة عن تصديق الذي بين يديه .

النوع الثاني : من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ .

واعلم أن الناس اختلفوا في أن القرآن معجز من أي الوجوه ؟ فقال بعضهم : إنه معجز لاشتماله على الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة ، وهذا هو المراد من قوله :

﴿ تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ومنهم من قال : إنه معجز لاشتماله على العلوم الكثيرة ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ وتحقيق الكلام في هذا الباب أن العلوم إما أن تكون دينية أو ليست دينية ، ولا شك أن القسم الأول أرفع حالاً وأعظم شأناً وأكمل درجة من القسم الثاني .

وأما العلوم الدينية ، فإما أن تكون علم العقائد والأديان ، وإما أن تكون علم الأعمال .

أما علم العقائد والأديان فهو عبارة عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

أما معرفة الله تعالى ، فهي عبارة عن معرفة ذاته ومعرفة صفات جلاله ، ومعرفة صفات إكرامه ، ومعرفة أفعاله ، ومعرفة أحكامه ، ومعرفة أسمائه والقرآن مشتمل على دلائل هذه المسائل وتفاريعها وتفاصيلها على وجه لا يساويه شيء من الكتب ، بل لا يقرب منه شيء من المصنفات .

(173/361)

وأما علم الأعمال فهو إما أن يكون عبارة عن علم التكاليف المتعلقة بالظواهر وهو علم الفقه .

ومعلوم أن جميع الفقهاء إنما استنبطوا مباحثهم من القرآن ، وإما أن يكون علماً بتصفية الباطن أو رياضة القلوب .

وقد حصل في القرآن من مباحث هذا العلم ما لا يكاد يوجد في غيره ، كقوله :

﴿ خُذِ العفو وَأْمُرْ بالعرف وَأَعْرِض عَنِ الجاهلين ﴾ [الأعراف : 199] وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان وَإِيتَآءِ ذِى القربى وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغى ﴾ [النمل : 90] فثبت أن القرآن مشتمل على تفاصيل جميع العلوم الشريفة ، عقليها ونقليها ، اشتمالاً يمتنع حصوله في سائر الكتب فكان ذلك معجزاً ، وإليه الإشارة بقوله :

﴿ وَتَفْصِيلَ الكتاب ﴾ .

أما قوله : ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ فتقريره : أن الكتاب الطويل المشتمل على هذه العلوم الكثيرة لا بد وأن يشتمل على نوع من أنواع التناقض ، وحيث خلي هذا الكتاب عنه ، علمنا أنه من عند الله وبوحيه وتنزيله ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ﴾ [النساء : 82] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 76 . 78 ﴾

(174/361)

وقال السمرقندى :

﴿ وَمَا كَانَ هذا القرءان أَن يفترى ﴾

يعني : لهذا القرآن مختلف ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ تعالى .

وقال القتبي : ما كان هذا القرآن أن يضاف إلى غير الله تعالى أو يختلق ، ﴿ ولكن تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ؛ ولكن نزل بتصديق الذي بين يديه من التوراة والإنجيل ؛ ويقال : معناه ولكن بتصديق النبي الذي أنزل القرآن بين يديه يعني : الذي هو قبل سماعكم ، لأن القرآن تصديق لما جاء من أنباء الأمم السابقة وأقاصيص أنبيائهم ، يعني : بيان كل شيء ؛ ويقال : بيان الحلال والحرام .

﴿ وَتَفْصِيلَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، يعني : لا شك فيه عند المؤمنين إنه نزل ﴿ مِن رَّبّ العالمين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ ﴾

يعني أنه يختلق ويكذب .

﴿ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : شاهد بصدق ما تقدم من التوراة والإنجيل والزبور .

الثاني : لما بين يديه من البعث والنشور والجزاء والحساب .

ويحتمل ثالثاً : أن يكون معناه ولكن يصدقه الذي بين يديه من الكتب السالفة بما فيها من ذكره فيزول عنه الافتراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(175/361)

وقال ابن عطية :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

هذا نفي قول من قال من قريش إن محمداً يفتري القرآن وينسبه إلى الله تعالى ، وعبر عن ذلك بهذه الألفاظ التي تتضمن تشنيع قولهم وإعظام الأمر كما قال تعالى : ﴿ وما كان لنبي أن يغل ﴾ [آل عمران : 161] وكما قال حكاية عن عيسى عليه السلام ﴿ ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ [المائدة : 116] ونحو هذا مما يعطي المعنى والقرائن والبراهين استحالته ، و ﴿ يفترى ﴾ معناه : يختلق وينشأ ، وكأن المرء يفريه من حديثه أي يقطعه ويسمه سمة ، فهو مشتق من فريت إذا قطعت لإصلاح ، و ﴿ تصديق ﴾ نصب على المصدر والعامل فيه فعل مضمر وقال الزجّاج : هو خبر "كان" مضمرة ، والتقدير المتقدم للشيء ، وقالت فرقة في هذه الآية : إن الذي بين يديه هي أشراط الساعة وما يأتي من الأمور .

قال القاضي أبو محمد : وهذا خطأ ، والأمر بالعكس كتاب الله تعالى بين يدي تلك ، أما أن الزجّاج تحفظ فقال : الضمير يعود على الأشراط ، والتقدير ولكن تصديق الذي بين يديه القرآن .

قال القاضي أبو محمد : وهذا أيضاً قلق ، وقيام البرهان على قريش حينئذ إنما كان في أن يصدق القرآن ما في التوراة والإنجيل مع أن الآتي بالقرآن ممن يقطعون أنه لم يطالع تلك الكتب ولا هي في بلده ولا في قومه ، و﴿ تفصيل الكتاب ﴾ هو تبيينه ، و﴿ لا ريب فيه ﴾ يريد هو في نفسه على هذه الحالة وإن ارتاب مبطل فذلك لا يلتفت إليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(176/361)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هذا القرآن أَن يفترى مِن دُونِ الله ﴾

"أنْ" مع "يفترى" مصدر ، والمعنى : وما كان هذا القرآن افتراء ؛ كما تقول : فلان يحب أن يركب ، أي يحب الركوب ؛ قاله الكسائي .

وقال الفراء : المعنى وما ينبغي لهذا القرآن أن يفترى ؛ كقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾

[آل عمران : 161] ﴿ وَمَا كَانَ المؤمنون لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ [التوبة : 122] .

وقيل : "أنْ" بمعنى اللام ، تقديره : وما كان هذا القرآن ليفترى .

وقيل : بمعنى لا ، أي لا يفترى .

وقيل : المعنى ما كان يتهيأ لأحد أن يأتي بمثل هذا القرآن من عند غير الله ثم ينسبُه إلى الله تعالى لإعجازه ؛ لوصفه ومعانيه وتأليفه .

﴿ ولكن تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قال الكسائي والفراء ومحمد ابن سعدان : التقدير ولكن كان تصديق ؛ ويجوز عندهم الرفع بمعنى : ولكن هو تصديق .

﴿ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب ، فإنها قد بشّرت به فجاء مصدّقاً لها في تلك البشارة ، وفي الدعاء إلى التوحيد والإيمان بالقيامة .

وقيل : المعنى ولكن تصديق النبيّ الذي بين يدي القرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم شاهدوه قبل أن سمعوا منه القرآن .

"وتفصيلُ" بالنصب والرفع على الوجهين المذكورين في تصديق .

والتفصيل التبيين ، أي يبيّن ما في كتب الله المتقدمة .

والكتاب اسم الجنس .

وقيل : أراد بتفصيل الكتاب ما بُيِّن في القرآن من الأحكام .

﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ الهاء عائدة للقرآن ، أي لا شك فيه أي في نزوله من قِبَل الله تعالى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(177/361)

وقال أبو حيان :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

لما تقدم قولهم : ﴿ ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴾ وكان من قولهم : إنه افتراه قال تعالى :

وما كان هذا القرآن أن يفتري أي : ما صح ، ولا استقام أن يكون هذا القرآن المعجزة مفترى .

والإشارة بهذا فيها تفخيم المشار إليه وتعظيمه ، وكونه جامعاً للأوصاف التي يستحيل وجودها فيه أن يكون مفترى .

والظاهر أنّ أنْ يفتري هو خبر كان أي : افتراء ، أي : ذا افتراء ، أو مفترى .

ويزعم بعض النحويين أنّ أنْ هذه هي المضمرة بعد لام الجحود في قولك : ما كان زيد ليفعل ، وأنه لما حذفت اللام أظهرت أنْ وأنّ اللام وأن يتعاقبان ، فحيث جيء باللام لم تأت بأن بل تقدرها ، وحيث حذفت اللام ظهرت أنْ .

والصحيح أنهما لا يتعاقبان ، وأنه لا يجوز حذف اللام وإظهار أن إذ لم يقم دليل على ذلك .

وعلى زعم هذا الزاعم لا يكون أنْ يفتري خبراً لكان ، بل الخبر محذوف .

وأن يفترى معمول لذلك الخبر بعد إسقاط اللام ، ووقعت لكنْ هنا أحسن موقع إذ كانت بين نقيضين وهما : الكذب والتصديق المتضمن الصدق ، والذي بين يديه الكتب الإلهية المتقدمة قاله ابن عباس كما جاء مصدّقاً لما معكم .

وعن الزجاج الذي بين يديه أشراط الساعة ، ولا يقوم البرهان على قريش إلا بتصديق القرآن ما في التوراة والإنجيل ، مع أن الآتي به يقطعون أنه لم يطالع تلك الكتب ولا غيرها ، ولا هي في بلده ولا قومه ، لا بتصديق الاشراط ، لأنهم لم يشاهدوا شيئاً منها .

وتفصيل الكتاب تبيين ما فرض وكتب فيه من الأحكام والشرائع .

وقرأ الجمهور : تصديق وتفصيل بالنصب ، فخرجه الكسائي والفراء ومحمد بن سعدان والزجاج على أنه خبر كان مضمرة أي : ولكن كان تصديق أي مصدقاً ومفصلاً .

وقيل : انتصب مفعولاً من أجله ، والعامل محذوف ، والتقدير : ولكن أنزل للتصديق .

وقيل : انتصب على المصدر ، والعامل فيه فعل محذوف .

(178/361)

وقرأ عيسى بن عمر : تفصيل وتصديق بالرفع ، وفي يوسف خبر مبتدأ محذوف أي : ولكن هو تصديق .

كما قال الشاعر :

ولست الشاعر السفساف فيهم . . .

ولكن مده الحرب العوالي

أي ولكن أنا .

وزعم الفراء ومن تابعه أنّ العرب إذا قالت ولكن بالواو آثرت تشديد النون ، وإذا لم تكن الواو آثرت التخفيف .

وقد جاء في السبعة مع الواو التشديد والتخفيف ، ولا ريب فيه داخل في حيز الاستدراك كأنه قيل : ولكن تصديقاً وتفصيلاً منتفياً عنه الريب ، كائناً من رب العالمين .

قال الزمخشري : ويجوز أن يراد ولكن كان تصديقاً من رب العالمين وتفصيلاً منه في ذلك ، فيكون من رب العالمين متعلقاً بتصديق وتفصيل ، ويكون لا ريب فيه اعتراضاً كما تقول : زيد لا شك فيه كريم انتهى .

فقوله : فيكون من رب العالمين متعلقاً بتصديق وتفصيل ، إنما يعني من جهة المعنى ، وأما من جهة الإعراب فلا يكون إلا متعلقاً بأحدهما ، ويكون من باب الأعمال وانتفاء الريب عنه

على ما بيَّن في البقرة في قوله : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ وجمع بينه وبين قوله : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(179/361)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ ﴾

شروعٌ في بيان ردّهم للقرآن الكريم إثرَ بيانِ ردهم للأدلة العقليةِ المندرجةِ في تضاعيفه ، أي وما صح وما استقام أن يكون هذا القرآنُ المشحونُ بفنون الهداياتِ المستوجبةِ للاتّباع التي من جملتها هاتيك الحججُ البينةُ الناطقةُ بحقية التوحيدِ وبطلان الشرك ﴿ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي افتراءً من الخلق أي مفترىً منهم سُمّي بالمصدر مبالغة ﴿ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب الإلهية المشهودِ على صدقها أي مصدّقاً لها كيف لا وهو لكونه معجزاً دونها عيارٌ عليها شاهدٌ بصحتها ، ونصبُه بأنه خبرُ كان مقدراً وقد جوّز كونُه علةً لفعل محذوفٍ تقديرُه لكن أنزله الله تصديقَ الخ وقرىء بالرفع على تقدير المبتدإ أي ولكن هو تصديقُ الخ ﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ ﴾ عطفٌ عليه نصباً ورفعاً أي وتفصيلَ ما كُتب وأثبت من الحقائق والشرائع ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ خبرٌ ثالثٌ داخلٌ في حكم

الاستدراكِ أي منتفياً عنه الريبُ أو حالٌ من الكتاب وإن كان مضافاً إليه فإنه مفعولٌ في المعنى أو استئنافٌ لا محلَّ له من الإعراب ﴿ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ خبرٌ آخرُ أي كائناً من رب العالمين ، أو متعلقٌ بتصديق أو بتفصيل أو بالفعل المعللِ بهما ، و (لا ريب فيه) اعتراضٌ كما في قولك : زيد لا شك فيه كريمٌ أو حالٌ من الكتاب أو من الضمير في فيه ، ومساقُ الآية الكريمةِ بعد المنعِ عن اتباع الظنِّ لبيان ما يجب اتباعُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(180/361)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

شروع في بيان حالهم من القرآن إثر بيان حالهم مع الأدلة المندرجة في تضاعيفه أو استئناف لبيان ما يجب اتباعه والبرهان عليه غب المنع مع اتباع الظن ، وقيل : إنه متعلق بما قصه الله تعالى من قولهم : ﴿ ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا ﴾ [يونس : 15] وقيل : بقوله سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [يونس : 20] الخ ولا يخفى ما في ذلك من البعد ﴿ وَكَانَ ﴾ هنا ناقصة عند كثير من الكاملين ﴿ وهذا ﴾ اسمها ﴿

والقرءان ﴾ نعت له أو عطف بيان ﴿ وَأَنْ يَفْتَرِى ﴾ بتأويل المصدر أي افتراء خبر ﴿ كَانَ ﴾ وهو في تأويل المفعول أي مفترى كما ذكره ابن هشام في قاعدة أن اللفظ بد يكون على تقدير وذلك المقدر على تقدير آخر ، ومنه قوله

: لعمرك ما الفتيان أن تنبت اللحى . . .

(181/361)

وذهب بعض المعربين أن ﴿ مَا كَانَ ﴾ بمعنى ما صح وأن في الكلام لا ما مقدرة لتأكيد النفي ، والأصل ما كان هذا القرآن لأن يفتري كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ المؤمنين لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ﴾ [التوبة : 122] ﴿ وَأَنْ يَفْتَرِى ﴾ خبر كان ﴿ وَمِن دُونِهِمَا الله ﴾ خبر ثان وهو بيان للأول ، أي ما صح ولا استقام أن يكون هذا القرآن المشحون بفنون الهدايات المستوجبة للاتباع التي حمن جملتها هاتيك الحجج البينة الناطقة بحقية التوحيد وبطلان الشرك صادراً من غير الله تعالى كيف كان ، وقيل عليه ما قيل لكنه لا ينبغي العدول عما قاله في محل ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ وما ذكر في حاصل المعنى أمر مقبول كما لا يخفى ، وجوز البدر الدماميني أن تكون ﴿ كَانَ ﴾ تامة ﴿ وَأَنْ يَفْتَرِى ﴾ بدل اشتمال من ﴿ هذا القرءان ﴾ وتعقب بأنه لا يحسن قطعاً لأن ما وجد القرآن يوهم من أول الأمر نفي وجوده

وأيضاً لا بد من الملابسة بين البدل والمبدل منه في بدل الاشتمال فيلزم أن يبتني الكلام على الملابسة بين القرآن العظيم والافتراء وفي التزام كل ما ترى ، وأجيب عن ذلك بما لا أراه مثبتاً للحسن أصلاً ، واقتصر بعضهم على اعتبار المصدر من غير تأويله باسم المفعول اعتباراً للمبالغة على حد ما قيل في زيد عدل ، والظاهر عندي أن المبالغة حينئذٍ راجعة إلى النفي نظير ما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران : 182] لا أن النفي راجع إلى المبالغة كما لا يخفى ، ومن هنا يعلم ما في قول بعض المحققين : إن قول الزمخشري في بيان معنى الآية : وما صح وما استقام وكان محالاً أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى ربما يشعر بأنه على حذف اللام إذ مجرد توسيط كان لا يفيد ذلك والتعبير بالمصدر لا تعلق له بتأكيد معنى النفي من النظر ، ثم إنهم فيما رأينا لم يعتبروا المصدر هنا إلا نكرة ، والمشهور اتفاق النحاة على أن أن والفعل المؤول بالمصدر معرفة

(182/361)

ولذلك لا يخبر به عن النكرة ، وكأنه مبني على ما قاله ابن جني في الخاطريات من أنه يكون نكرة وذكر أنه عرضه على أبي علي فارتضاه .

واستشكل بعضهم هذه الآية بأن أن تخلص المضارع للاستقبال كما نص على ذلك النحويون

، والمشركون إنما زعموا كون القرآن مفترى في الزمان الماضي كما يدل عليه ما يأتي إن شاء الله تعالى فكيف ينبغي كونه مفترى في الزمان المستقبل .

وأجيب عنه بأن الفعل فيها مستعمل في مطلق الزمان وقد نص على جواز ذلك في الفعل ابن الحاجب .

وغيره ونقله البدر الدماميني في شرحه لمغني اللبيب ، ولعل ذلك من باب المجاز ، وحينئذٍ يمكن أن يكون نكتة العدول عن المصدر الصريح مع أنه المستعمل في كلامهم عند عدم ملاحظة أحد الأزمنة نحو أعجبني قيامك أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، وقيل : لعل النكتة في ذلك استقامة الحمل بدون تأويل للفرق بين المصدر الصريح والمؤول على ما أشار إليه شارح اللباب .

وغيره ، ولا يخفى أن فيه مخالفة لما مرت الإشارة إليه من أن أن والفعل في تأويل المصدر وهو في تأويل المفعول .

(183/361)

قيل : وقد يجاب أيضاً عن أصل الإشكال بأنه إنما نفى في الماضي إمكان تعلق الافتراء به في المستقبل وكونه محالاً لذلك فينتفي تعلق الافتراء بالفعل من باب أولى ، وفي ذلك سلوك

طريق البرهان فيكون في الكلام مجاز أصلي أو تبعي ، وقد نص أبو البقاء على جواز كونه الخبر محذوفاً وأن التقدير وما كان هذا القرآن ممكناً أن يفترى ، وقال العلامة ابن حجر : إن الآية جواب عن قولهم : ﴿ ائت بِقُرْإن غَيْرِ هذا أَوْ بَدّلْهُ ﴾ [يونس : 15] وهو طلب للافتراء في المستقبل ، وأما الجواب عن زعمهم أنه عليه الصلاة والسلام افتراه وحاشاه فسيأتي عند حكاية زعمهم ذلك فلا إشكال ، على أن عموم تخليص أن المضارع للاستقبال في حيز المنع ، لم لا يجوز أن يكون ذلك فيما عدا خبر كان المنفية كما يرشد إليه قوله سبحانه : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىّ والذين ءامَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : 113] فإنه نزل عن استغفار سبق منهم للمشركين كما قاله أئمة التفسير ، وقد أطال الكلام على ذلك في ذيل فتاويه فتبصر .

﴿ ولكن تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل ، فالمراد من الموصول الجنس ، وعنى بالتصديق بيان الصدق وهو مطابقة الواقع وإظهاره وإضافته إما لفاعله أو مفعوله ، وتصديق الكتب له بأن ما فيه من العقائد الحقة مطابق لما فيها وهي مسلمة عند أهل الكتاب وما عداهم إن اعترف بها وإلا فلا عبرة به .

(184/361)

وفي جعل الإضافة للمفعول مبالغة في نفي الافتراء عنه لأن ما يثبت ويظهر به صدق غيره فهو أولى بالصدق ، ووجه كونه مصدقاً لها أنه دال على نزولها من عند الله تعالى ومشتمل على قصص الأولين حسبما ذكر فيها وهو معجز دونها فهو الصالح لأن يكون حجة وبرهاناً لغيره لا بالعكس ، وزعم بعضهم أن المراد من ﴿ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أخبار الغيوب والإضافة للفاعل ، وتصديقها له مجيئها على وفق ما أخبر به وليس بشيء ، ونصب التصديق على العطف على خبر كان أو على أنه خبر لكان مقدرة ، وقيل : على أنه مفعول لأجله لفعل مقدر .

أي أنزل لتصديق ذلك ، وجعل العلة هنا ما ذكر مع أنه أنزل لأمور لأنه المناسب لمقام رد دعوى افترائه ، وقيل : نصب على المصدرية لفعل مقدر أي صدق تصديق الخ ، وقرأ عيسى بن عمرو الثقفي برفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف أي ولكن هو تصديق الخ وكذا قرأ بالرفع في قوله تعالى : ﴿ وَتَفْصِيلَ الكتاب ﴾ أي ما كتب وأثبت من الحقائق والشرائع ، والعطف نصباً أو رفعاً على ﴿ تَصْدِيقَ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ خبر آخر للكن أو للمبتدأ المقدر ، وفصل لأنه جملة مؤكدة لما قبلها ، وجوز أن يكون حالاً من الكتاب وإن كان مضافاً إليه فإنه مفعول في المعنى وأن يكون استئنافاً نحوياً لا محل له من الإعراب أو بيانياً جواباً للسؤال عن حال الكتاب والأول أظهر ، والمعنى لا ينبغي لعاقل أن يرتاب فيه لوضوح برهانه وعلو شأنه ﴿ مِن رَّبّ العالمين ﴾ خبر آخر لكان أو المبتدأ

المقدر كما مر في سابقه أو متعلق بتصديق أو بتفصيل أو بالفعل المعلل بهما أو متعلق بمحذوف وقع حالاً من الكتاب و ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ اعتراض لئلا يلزم الفصل بالأجنبي بين المتعلق والمتعلق أو الحال وذيها .

وجوز أن يكون حالاً من الضمير المجرور في ﴿ فِيهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(185/361)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

لما كان الغرض الأول في هذه السورة إبطال تعجب المشركين من الإيحاء بالقرآن إلى النبي صلى الله عليه وسلم وتبيين عدم اهتدائهم إلى آياته البينات الدالة على أنه من عند الله ، وكيف لم ينظروا في أحوال الرسول الدالة على أن ما جاء به وحي من الله ، وكيف سألوه مع ذلك أن يأتي بقرآن غيره أو يبدل آياته بما يوافق أهواءهم .

ثم انتقل بعد ذلك إلى سُؤَالهم أن تنزل عليه آية أخرى من عند الله غير القرآن ، وتخلل ذلك كلَّه وصفُ افترائهم الكذب في دعوى الشركاء لله وإقامة الأدلة على انفراد الله بالإلهية

وعلى إثبات البعث ، وإنذارهم بما نال الأمم من قبلهم ، وتذكيرهم بنعم الله عليهم وإمهالهم ، وبيان خطئهم في اعتقاد الشرك اعتقاداً مبنياً على سوء النظر والقياس الفاسد ، لا جرم عاد الكلام إلى قولهم في القرآن بإبطال رأيهم الذي هو من الظن الباطل أيضاً بقياسهم أحوالَ النبوءة والوحي بمقياس عاداتهم كما قاسُوا حقيقة الإلهية بمثل ذلك ، فقارعتهم هذه الآيةُ بذكر صفات القرآن في ذاته الدالة على أنه حق من الله وتحدتهم بالإعجاز عن الإتيان بمثله .

فجملة : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ يجوز أن تكون معطوفة على جملة : ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ﴾ [يونس : 36] بمناسبة اتباعهم الظن في الأمرين : شؤون الإلهية وفي شؤون النبوءة ، ويجوز أن تكون معطوفة على مجموع ما تقدم عطف الغرض على الغرض والقصة على القصة ، وهو مفيد تفصيل ما أجمله ذكر الحروف المقطعة في أول السورة والجمل الثلاث التي بعد تلك الحروف .

(186/361)

ويجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة : ﴿ قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ﴾ [يونس : 15] تكملة للجواب عن قولهم ﴿ ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴾ [يونس :

15] وهذا الكلام مسوق للتحدي بإعجاز القرآن ، وهي مفيدة للمبالغة في نفي أن يكون مفترى من غير الله ، أي منسوباً إلى الله كذباً وهو آتٍ من غيره ، فإن قوله : ﴿ ما كان هذا القرآن أن يفترى ﴾ أبلغ من أن يقال : ما هو بمفترى ، لما يدل عليه فعل الكون من الوجود ، أي ما وجد أن يفترى ، أي وجوده مناف لافترائه ، فدلالة ذاته كافية في أنه غير مفترى ، أي لو تأمل المتأمل الفطن تأملاً صادقاً في سور القرآن لعلم أنه من عند الله وأنه لا يجوز أن يكون من وضع البشر ، فتركيب ما كان أن يفترى بمنزلة أن يقال : ما كان ليفترى ، بلام الجحود ، فحُذف لام الجحود على طريقة حَذْف الجار اطراداً مع (أنْ) ، ولما ظهرت (أنْ) هنا حذف لام الجحود وإن كان الغالب أن يذكر لام الجحود وتقدر (أنْ) ولا تذكر ، فلما ذكر فعل (كان) الذي شأنه أن يذكر مع لام الجحود استغني بذكره عن ذكر لام الجحود قصداً للإيجاز .

وإنما عدل عن الإتيان بلام الجحود بأن يقال : ما كان هذا القرآن ليفترى ، لأن الغالب أن لام الجحود تقع في نفي كون عن فاعل لا عن مفعول بما تدل عليه اللام من معنى الملك .

واعلم أن الإخبار بـ ﴿ أن ﴾ والفعل يساوي الإخبار بالمصدر ، وهو مصدر بمعنى المفعول لأن صلة ﴿ أن ﴾ هنا فعل مبني للنائب .

والتقدير ما كان هذا القرآن افتراءَ مُفتر ، فآل إلى أن المصدر المنسبك من (أن) مصدر بمعنى المفعول كالخَلْق بمعنى المخلوق ، وهو أيضاً أقوى مبالغة من أن يقال : ما كان مفترًى ،

فحصلت المبالغة في جهتين : جهة فعل (كَان) وجهة (أن) المصدرية .

و(من) في قوله : ﴿ من دون الله ﴾ للابتداء المجازي متعلقة بـ ﴿ يفترى ﴾ أي أن يفتريه على الله مفتر .

(187/361)

فقوله : ﴿ من دون الله ﴾ حال من ضمير ﴿ يفترى ﴾ وهي في قوة الوصف الكاشف .

والافتراء : الكذب ، وتقدم في قوله : ﴿ ولكنَّ الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾ في سورة [العقود : 103] .

ولما نفي عن القرآن الافتراء أخبر عنه بأنه تصديق وتفصيلٌ ، فجرت أخباره كلها بالمصدر تنويهاً ببلوغه الغاية في هذه المعاني حتى اتحد بأجناسها .

وتصديق الذي بين يديه ﴾ كونُه مصدقاً للكتب السالفة ، أي مبيّناً للصادق منها ومييزاً له عما زيد فيها وأسيء من تأويلها كما قال تعالى : ﴿ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ كما تقدم في سورة [العقود : 48] .

وأيضاً هو مصدَّق (بفتح الدال) بشهادة الكتب السالفة فيما أخذت من العهد على أصحابها أن يؤمنوا بالرسول الذي يجيء مصدقاً وخاتماً .

فالوصف بالمصدر صالح للأمرين لأن المصدر يقتضي فاعلاً ومفعولاً .

والتفصيل : التبيين بأنواعه .

والظاهر أن تعريف الكتاب ﴾ تعريف الجنس فيستغرق الكتب كلها .

ومعنى كون القرآن تفصيلاً لها أنه مبين لما جاء مجملاً في الكتب السالفة ، وناسخ لما لا مصلحة للناس في دوام حكمه ، ودافع للمتشابهات التي ضل بها أهل الكتاب ، فكل ذلك داخل في معنى التفصيل ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ ومهيمناً عليه ﴾ في سورة [العقود : 48] .

وهذا غير معنى قوله : ﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ [يوسف : 111] في الآية الأخرى .

وجملة : ﴿ لا ريب فيه مستأنفة ردت مزاعم الذين زعموا أنه مفترى باقتلاع دعوى افترائه ، وأنها مما لا يروج على أهل الفِطن والعقولِ العادلة ، فالريب المنفي عنه هو أن يكون من أحواله في ذاته ومقارناته ما يثير الريب ، ولذلك كان ريب المرتابين فيه ريباً مزعوماً مدعًى وهو لو راجعوا أنفسهم لوجدوها غير مرتابة .

وقد تقدم القول في نظير هذا في طالعة سورة [البقرة : 2] .

(188/361)

وموقع قوله : ﴿ من رب العالمين ﴾ محتمل وجوهاً أظهرها أنه ظرف مستقر في موضع الخبر عن مبتدإ محذوف هو ضمير القرآن ، والجملة استئناف ثان ، و (مِن) ابتدائية تؤذن بالمجيء ، أي هو وارد من رب العالمين ، أي من وحيه وكلامِه ، وهذا مقابل قوله : ﴿ من دون الله ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(189/361)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

وحين تستمع للقرآن وما فيه من سر الأعداد والإخبار بالمغيبات التي لا تخضع لمنطق الزمان ، ولا لمنطق المكان ، فالفطرة السليمة توقن أن هذا القرآن لا يمكن أن يُفتَرى ، بل لا بد أن قائله ومُنزِله عليم خبير ؛ لأن القرآن جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة .

أي : أن ما به دائماً هو أمام الناس ، أو مواجه لهم ، وهو كتاب مصدّق للكتب السابقة من قبل تحريفها كالتوراة والإنجيل والزبور ، وهي الكتب التي سبقت القرآن نزولاً ، لا واقعاً ، فجاء القرآن مصدّقاً لها .

أي : هي تصدقه ، وهي يصدقها من قبل تحريفها ، وهي الكتب التي بشّرت بمحمد صلى

الله عليه وسلم رسولاً ، مثلما جاء في القرآن عن تصديق عيسى عليه السلام بمجيء محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ ﴾ [الصف : 6] .

فلما جاء أحمد (محمد صلى الله عليه وسلم) ونزل عليه القرآن صدّق الإنجيل في قوله هذا ، وما جاء في القرآن من عقائد أصيلة هي عقائد جاءت بها كل الكتب السماوية ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلى نُوحٍ والنبيين مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط وعيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾ [النساء : 163] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى : 13] .

(190/361)

إذن : فهناك أصول جاءت بها كل الكتب السماوية ، وهناك كذلك أخبار أخبرت عن حدوثها الكتب السماوية ، وأبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن وفيه تلك الأخبار ، فمن أين جاء محمد صلى الله عليه وسلم بتلك العقائد الصحيحة ، وتلك الأخبار الموجودة في الكتب السابقة ، وهو صلى الله عليه وسلم لم يكن من أهل الكتاب ، ولا عَلِمَ منهم شيئاً .

إذن : فعندما يقول محمد صلى الله عليه وسلم ما جاء ذكره في الكتب السابقة على القرآن ، فهذه الكتب مصدقة لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن هذه الأخبار قد وقعت ، وهذا تأكيد لصدقه ؛ لأنه بشهادة أهل زمانه لم يجلس إلى معلِّم ، ولم يقرأ كتاباً ، وتاريخه وسيرته معروفة ؛ لأنه من أنفسكم ، ولم يُعْلَم عنه أنه قد زاول كلاماً بليغاً ، أو خطب في قوم قبل الرسالة ، أو قال شعراً .

وبعد ذلك فوجيء هو كما فوجئتم أنتم ، بمجيء هذا البيان الرائع ، فمن أين جاء به ؟ أنتم تقولون إنه هو الذي جاء به ، لكنه صلى الله عليه وسلم ينسب الرفعة لصاحبها ، ويعلن أنه صلى الله عليه وسلم مُبلِّغ فقط ، فيقول ما أمره الله به أن يقوله : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : 16] .

ويحضُّ القرآن الكريم النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يسألهم : هل لاحظوا على كلماته من

قبلُ البلاغةَ والفصاحةَ أو الشعرَ ؟ !

ولننظر في " ماكُنّات " القرآن الكريم ، وهي الآيات التي يقول فيها الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ ﴾ مثل قوله سبحانه :

﴿ ذلك مِنْ أَنبَآءِ الغيب نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران : 44] .

وهذا أمر ثابت في الأخبار .

(191/361)

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إِلى مُوسَى الأمر وَمَا كنتَ مِنَ الشاهدين ﴾ [القصص : 44] .

والوحي إلى موسى عليه السلام والمكان الذي نزل فيه ذلك الوحي أمر ثابت في الأخبار .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العمر وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [القصص : 45] .

وكثير من هذه الآيات تجعل محمداً صلى الله عليه وسلم وكأنه يسأل المعاصرين له : كيف أخبرت بوقائع وأخبار لم أكن موجوداً في زمانها أو مكانها ؟

لا بد إذن أن الله الحق سبحانه هو الذي أخبرني بما وافق ما عندكم من أخبار .

وبعد ذلك جاء القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ الله مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [البقرة : 97] .

أي : أنه الكتاب الذي يضم صدق كل حدث قادم ؛ لأن القرآن خرق حُجُب وحُجُزَ الماضي والمستقبل .

ونحن نعلم أن الأشياء الغيبية تحدث بسببين ؛ الأول : ان يتكلم عن شيء سبق الزمان الذي نزل فيه ، فهو يتكلم في الماضي الذي لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الاطلاع والتعلم ليعرفه ويعلمه .

وكذلك خرق القرآن الكريم حجب الحاضر الذي عاصر نزوله ، هذا الحاضر الذي قد يكون محجوباً بالمكان .

وأضرب هذا المثال ولله المثل الأعلى فقد يحدث حادث في الإسكندرية في نفس الوقت الذي تكون أنت فيه موجوداً بالقاهرة ، وأنت تعلم هذا الحدث ؛ لأنه محجوب عنك ببعد المكان ، وحاجز المكان يتمثل غالباً في الأمور الحاضرة ، أما أمور المستقبل فهي محجوبة عنا بالزمان والمكان معاً .

وحين يخبرنا القرآن الكريم بحدث ماضٍ لم يشهده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يتعلمه ، ولم يقرأ عنه ؛ إذن : فالقرآن إنما يخرق أمامنا حجاب الزمن الماضي . وإذا أخبر القرآن بحدث حاضر في غير مكان نزوله على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا خرق لحجاب المكان مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [المجادلة : 8] .

وحين سمع المنافقون والكفار هذا القول الكريم ، لم ينكروا أنهم قالوا في أنفسهم ما جاء به القرآن ، وهكذا خرق القرآن حاجز المكان في أنفسهم هم .

إذن : فأخبار الغيب في القرآن إما خَرْقٌ لزمان ماضٍ أو خرق لزمان الحال ، وإما خرق الزمان ومكان الاستقبال .

ونحن نعلم أن القرآن كان ينزل والمسلمون ضعاف ، لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ولا أحد يجير على أحد ، ويتجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ليعرض الإسلام على أهلها ، لعلَّه يلتمس لهم مجيراً من أهل الطائف ؛ ولكنه صلى الله عليه وسلم لا يجد إلا الإيذاء والإعراض ، ويوصي بعضاً من صحابته أن يهاجروا إلى الحبشة .

وفي ظل كل هذه الأزمات ، ينزل قول القرآن : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] .

حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستاءل : أيُّ جمع هذا الذي يهزم ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ ثم تأتي غزوة بدر ويشهد عمر هزيمة وفرار مقاتلي قريش ؛ فيرى رأي العين صدق ما جاء به الوحي من قبل .

وهكذا تأكد الجميع أن القرآن الكريم غير مُفتريً ، فكيف يُتَّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه افتراه ؟

(193/361)

وإذا كان هذا القرآن مفتريً ، فلماذا لا تفترون مثله ؟ وفيكم الشعراء والبلغاء والخطباء ؟ ! ولم يقل محمد صلى الله عليه وسلم أنه بليغ أو خطيب أو شاعر ، ولم يطلب القرآن الكريم منهم أن يأتوا بواحد مثل محمد صلى الله عليه وسلم ، لا صلة له بالبلاغة أو الفصاحة ، بل يطلب منهم أن يأتوا بالفصحاء كلهم ، ويدعوهم أن يقولوا مثل آية واحدة من القرآن .

وإن قالوا : إن ما جاء به هو السحر ، وإن محمداً ساحر قد سحر العبيد والضعاف ، وأدخلهم في الإسلام ، فلماذا لم يسحركم محمد ؟

إن بقاءكم من غير سحر يدل على أن إطلاقكم كلمة السحر على ما جاء به دعوى كاذبة

.

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : 37] .

فالقرآن قد جاء فيه تفصيل كل الأحكام الصالحة إلى قيام الساعة ، أما الكتب السابقة على القرآن فكان تضم الأحكام المناسبة لزمانها ، ولأمكنة نزولها .

وهو كتاب ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي : لا شك فيه ، يكشف الكفار ، ويفضح أرتيابهم وكذبهم ، فَهُمْ قد اعترفوا بعظمة القرآن وقالوا : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] .

إذن : فهم قد عرفوا أن القرآن لا عيب فيه ، ولا ريب ، حتى من الكافرين به .

ويأتي الرد على قولهم بالافتراء ، في قول الحق سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(194/361)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَن يفترى ﴾ : فيه وجهان أحدهما : أنه خبرٌ "كان" تقديرُه : وما كان هذا القرآن افتراء ، أي : ذا افتراء ، إذ جُعِل نفسُ المصدر مبالغةً ، أو يكونُ بمعنى مفترى . والثاني : زعم بعضهم أنَّ "أنْ" هذه هي المضمرة بعد لامِ الجحود ، والأصل : وما كان هذا القرآنُ ليفترى ، فلمَّا حُذِفَتْ لامُ الجحود ظهرت "أن" . وزعم أن اللامَ و "أنْ" يتعاقبان ، فتُحْذف هذه تارة ، وتَثْبُت الأخرى . وهذا قولٌ مرغوبٌ عنه ، وعلى هذا القولِ يكون خبر "كان" محذوفاً ، وأنْ وما في حَيِّزها متعلقةٌ بذلك الخبر ، وقد تقدَّم تقريرُ ذلك محرراً . و "مِنْ دون" متعلقٌ ب "يفترى" والقائمُ مقامَ الفاعل ضميرٌ عائد على القرآن .

قوله ﴿ ولكن تَصْدِيقَ ﴾ "تَصْديق" عطف على خبر كان ، ووقعت "لكن" أحسنَ موقع إذ هي بين نقيضين : وهما التكذيبُ والتصديقُ المتضمِّن للصدق . وقرأ الجمهور "تصديق" و "تفصيلَ" بالنصب وفيه أوجهٌ ، أحدُها : العطف على خبر "كان" وقد تقدَّم ذلك ، ومثله : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ولكن رَّسُولَ الله ﴾ [الأحزاب : 40] . والثاني : أنه خبر "كان" مضمرة تقديره : ولكن كان تصديقَ ، وإليه ذهب الكسائي والفراء وابن سعدان والزجاج . وهذا كالذي قبله في المعنى . والثالث : أنه منصوبٌ على المفعول من أجله لفعل مقدر ، أي : وما كان هذا القرآنُ أن يفترى ، ولكن

أُنزل للتصديق . والرابع : أنه منصوبٌ على المصدر بفعل مقدر أيضاً . والتقدير : ولكن يُصَدِّق تصديقَ الذي بين يديه من الكتب .

وقرأ عيسى بن عمر : " تَصْديقُ " بالرفع ، وكذلك التي في يوسف . ووجهُه الرفعُ على خبر مبتدأ محذوف ، أي : ولكن هو تصديق ، ومثله قوله الشاعر :

(195/361)

2597 ولستُ الشاعرَ السَّفْسَافَ فيهمْ . . . ولكن مِدْرَهُ الحربِ العَوانِ

برفع " مِدْرَه " على تقدير : أنا مِدْره . وقال مكي : " ويجوز عندهما أي عند الكسائي والفراء الرفع على تقدير : ولكن هو تصديق " ، قلت : كأنه لم يَطَّلِعْ على أنها قراءة .

وزعم الفراء وجماعةٌ أن العرب إذا قالت : " ولكن " بالواو آثَرَتْ تشديد النون ، وإذا لم تكن الواو آثرت التخفيفَ . وقد وَرَدَ في قراءات السبعة التخفيفُ . وقد وَرَدَ في قراءات السبعة التخفيف والتشديد نحو ﴿ ولكن الشياطين ﴾ [البقرة : 102] ﴿ ولكن الله رمى ﴾ [الأنفال : 17] .

قوله : ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ فيه أوجه أحدها : أن يكون حالاً من " الكتاب " وجاز مجيءُ الحال من المضاف إليه لأنه مفعولٌ في المعنى . والمعنى : وتفصيل الكتاب منتفياً عنه الرَّيب

. والثاني : أنه مستأنفٌ فلا محلَّ له من الإعراب . والثالث : أنه معترضٌ بين " تصديق " وبين ﴿ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ إذ التقديرُ : ولكن تصديق الذين بين يديه مِنْ رب العالمين .

قال الزمخشري : فإن قلت : بم اتَّصَلَ قولُه ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ ؟ قلت : هو داخلٌ في حَيِّز الاستدراك كأنه قيل : ولكن كان تصديقاً وتفصيلاً منتفياً عنه الريبُ كائناً من رب العالمين . ويجوز أن يراد به " ولكن كان تصديقاً من رب العالمين [وتفصيلاً منه لا ريب في ذلك ، فيكون من رب العالمين] متعلقاً ب " تصديق " و " تفصيل " ويكون ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ اعتراضاً كما تقول : زيدٌ لا شكَّ فيه كريم " انتهى .

(196/361)

قوله : ﴿ مِن رَّبِّ ﴾ يجوز فيه أوجهٌ أحدُها : أن يكونَ متعلقاً ب " تصديق " أو ب " تفصيل " ، وتكون المسألة من باب التنازع ؛ إذ يَصِحُّ أَنْ يتعلَّقَ بكلٍ من العاملين من جهة المعنى . وهذا هو الذي أراد الزمخشري بقوله : " فيكون " مِنْ رب " متعلِّقاً ب " تصديق " و " تفصيل " يعني أنه متعلقٌ بكلٍ منهما من حيث المعنى . وأمَّا من حيث الإعرابُ فلا يتعلَّق إلا بأحدهما ، وأمَّا الآخرُ فيعمل في ضميره كما تقدَّم تحريره غيرَ مرة ، والإعمالُ هنا حينئذ إنما هو للثاني بدليلِ الحَذْفِ من الأول . والوجه الثاني : أنَّ " مِنْ رب " حال ثانية .

والثالث : إنه متعلقٌ بذلك الفعلِ المقدرِ ، أي : أُنزِل للتصديق من ربِّ العالمين . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 201.204 ﴾

(197/361)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (37) ﴾

انسدَّتْ بصائرهم فلا يزدادون بكثرة سماع القرآن إلا عمى على عمى ، كما أن أهل الحقيقة ما ازدادوا إلا هُدىً على هدى ، فسبحان مَنْ جعل سماعَ خطابه لقومٍ سببَ تحيُّرهم ، ولآخرين موجِبَ تَبصُّرِهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 96 ﴾

(198/361)

قوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا موضع أن يذعنوا لأن هذا القرآن ليس إلا من عند الله وبأمره قطعاً ، كان كأنه قيل : ارجعوا عن غيهم فآمنوا واستقاموا ﴿ أم ﴾ استمروا على ضلالهم ﴿ يقولون ﴾ على سبيل التجديد والاستمرار عناداً ﴿ افتراه ﴾ أي تعمد نسبته كذباً إلى الله ، فكأنه قيل ، تمادوا على عتوهم فقالوا ذلك فكانوا كالباحث عن حتفه بظلفه ، لأنهم أصلوا أصلاً فاسداً لزم عليه قطعاً إمكان أن يأتوا بمثله لأنهم عرب مثله ، بل منهم من قرأ وكتب وخالط العلماء واشتد اعتناءه بأنواع البلاغة من النظم والنثر والخطب وتمرنه فيها بخلافه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في جميع ذلك ، فلهذا أمره في جوابهم بقوله ﴿ قل ﴾ أي لهم يا أبلغ خلقنا وأعرفهم بمواقع الكلام لجميع أنواعه ، أتى بالفاء السببية في قوله : ﴿ فأتوا ﴾ أي أنتم تصديقاً لقولكم هذا الذي تبين وأنكم فيه معاندون ؛ ولما كانوا قد جزموا في هذه السورة بأنه افتراه ، وكان مفصلاً إلى سور كل واحدة منها لها مقصد معين يستدل فيها عليه ، وتكون خاتمتها مرتبطة بفاتحتها متحدة بها ، اكتفى في تحديهم بالإتيان بقطعة واحدة غير مفصلة إلى مثل سورة لكن تكون مثل جميع القرآن في الطول والبيان وانتظام العبارة والتئام

المعاني فلذلك قال : ﴿ بسورة ﴾ قال الرماني : والسورة منزلة محيطة بآيات من أجل الفاتحة والخاتمة كإحاطة سور البناء ، وهذا نظراً إلى أن المتحدي به سورة اصطلاحية والصواب أنها لغوية ، وهي كما قال الحرالي تمام جملة من المسموع تحيط بمعنى تام بمنزلة إحاطة السور بالمدنية ؛ ووصفها بقوله : ﴿ مثله ﴾ أي قي البلاغة وحسن النظم وصحة المعاني ومصادقة الكتب وتفصيل العلوم لأنكم مثلي في العربية وتزيدون بالكتابة ومخالطة العلماء – من غير إتيان ب " من " لما تقدم من أن المراد كونها مثل القرآن كله ، ولذلك وسع لهم في الاستعانة بجميع من قدروا عليه ووصلت طاقتهم إليه ولم يقصرهم على من بحضرتهم فقال : ﴿ وادعوا ﴾ أي لمعاونتكم ﴿ من استطعتم ﴾ أي

(199/361)

قدرتم على طاعته ولو ببذل الجهد من الجن والإنس وغيرهم للمعاونة ، وحقق أن هذا القرآن من عنده سبحانه باستثنائه في قوله : ﴿ من دون الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ، ونبه على أنهم متعمدون لما نسبوه إليه – وحاشاه من تعمد الكذب – وأنهم معاندون بقوله : ﴿ إن كنتم ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ صادقين ﴾ أي في أنه أتى به من عنده ، لأن العاقل لا يجزم بشيء إلا إذا كان عنده منه مخرج ، وذلك لا يكون إلا عن دليل ظاهر وسلطان قاهر

باهر ، وقد مضى في البقرة ويأتي في هود إن شاء الله تعالى ما يوضح هذا المعنى ؛

والاستطاعة : حالة تتطاوع بها الجروح والقوى للفعل لأنه مأخوذ من الطوع . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 344 ﴾

(200/361)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما ذكر في أول هذه الآية أن هذا القرآن لا يليق بحاله وصفته أن يكون كلاماً مفترى على الله تعالى ، وأقام عليه هذين النوعين من الدلائل المذكورة ، عاد مرة أخرى بلفظ الاستفهام على سبيل الإنكار ، فقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ ثم إنه تعالى ذكر حجة أخرى على إبطال هذا القول ، فقال : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ وهذه الحجة بالغنا في تقريرها في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وادعوا شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ [البقرة : 23] وههنا سؤالات :

السؤال الأول : لم قال في سورة البقرة : ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ وقال ههنا : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ

﴾ .

والجواب : أن محمداً عليه السلام كان رجلاً أمياً ، لم يتلمذ لأحد ولم يطالع كتاباً فقال في سورة البقرة : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ يعني فليأت إنسان يساوي محمداً عليه السلام في عدم التلمذ وعدم مطالعة الكتب وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة تساوي هذه السورة ، وحيث ظهر العجز ظهر المعجز .

فهذا لا يدل على أن السورة في نفسها معجزة ، ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من إنسان مثل محمد عليه السلام في عدم التلمذ والتعلم معجز ، ثم إنه تعالى بين في هذه السورة أن تلك السورة في نفسها معجزة ، فإن الخلق وإن تلمذوا وتعلموا وطالعوا وتفكروا ، فإنه لا يمكنهم الإتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور ، فلا جرم قال تعالى في هذه الآية : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ ولا شك أن هذا ترتيب عجيب في باب التحدي وإظهار المعجز .

السؤال الثاني : قوله : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ هل يتناول جميع السور الصغار والكبار ، أو يختص بالسور الكبار .

الجواب : هذه الآية في سورة يونس وهي مكية ، فالمراد مثل هذه السورة ، لأنها أقرب ما يمكن أن يشار إليه .

السؤال الثالث : أن المعتزلة تمسكوا بهذه الآية على أن القرآن مخلوق ، قالوا : إنه عليه السلام تحدى العرب بالقرآن ، والمراد من التحدي : أنه طلب منهم الإتيان بمثله ، فإذا عجزوا عنه ظهر كونه حجة من عند الله على صدقه ، وهذا إنما يمكن لو كان الإتيان بمثله صحيح الوجود في الجملة ولو كان قديماً لكان الإتيان بمثل القديم محالاً في نفس الأمر ، فوجب أن لا يصح التحدي .

والجواب : أن القرآن اسم يقال بالاشتراك على الصفة القديمة القائمة بذات الله تعالى ، وعلى هذه الحروف والأصوات ، ولا نزاع في أن الكلمات المركبة من هذه الحروف والأصوات محدثة مخلوقة ، والتحدي إنما وقع بها لا بالصفة القديمة .

أما قوله : ﴿ وادعوا مَنِ استطعتم مّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ فالمراد منه : تعليم أنه كيف يمكن الإتيان بهذه المعارضة لو كانوا قادرين عليها ، وتقريره أن الجماعة إذا تعاونت وتعاضدت صارت تلك العقول الكثيرة كالعقل الواحد ، فإذا توجهوا نحو شيء واحد ، قدر مجموعهم على ما يعجز كل واحد منهم ، فكأنه تعالى يقول : هب أن عقل الواحد والاثنين منكم لا يفي باستخراج معارضة القرآن فاجتمعوا وليعن بعضكم بعضاً في هذه المعارضة ، فإذا عرفتم عجزكم حالة الاجتماع وحالة الانفراد عن هذه المعارضة ،

فحينئذ يظهر أن تعذر هذه المعارضة إنما كان لأن قدرة البشر غير وافية بها ، فحينئذ يظهر أن ذلك فعل الله لا فعل البشر .

(202/361)

واعلم أنه قد ظهر بهذا الذي قررناه أن مراتب تحدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن ستة ، فأولها : أنه تحداهم بكل القرآن كما قال : ﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرءان لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : 88] وثانيها : أنه عليه السلام تحداهم بعشر سور قال تعالى : ﴿ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود : 13] وثالثها : أنه تحداهم بسورة واحدة كما قال : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة : 23] ورابعها : أنه تحداهم بحديث مثله فقال : ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ [الطور : 34] وخامسها : أن في تلك المراتب الأربعة ، كان يطلب منهم أن يأتي بالمعارضة رجل يساوي رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدم التلمذ والتعلم ، ثم في سورة يونس طلب منهم معارضة سورة واحدة من أي إنسان سواء تعلم العلوم أو لم يتعلمها .

وسادسها : أن في المراتب المتقدمة تحدى كل واحد من الخلق ، وفي هذه المرتبة تحدى

جميعهم ، وجوز أن يستعين البعض بالبعض في الإتيان بهذه المعارضة ، كما قال :

﴿ وادعوا مَنِ استطعتم مّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ وههنا آخر المراتب ، فهذا مجموع الدلائل التي ذكرها الله تعالى في إثبات أن القرآن معجز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 78.79 ﴾

(203/361)

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ أم يقولونه افتراه ﴾ الآية

﴿ أم ﴾ هذه ليست بالمعادلة لألف الاستفهام التي في قولك أزيد قام أم عمرو ، وإنما هي تتوسط الكلام ، ومذهب سيبويه أنها بمنزلة الألف وبل لأنها تتضمن استفهاماً وإضراباً عما تقدم ، وهي كقوله : إنها لا بل أم شاء ، وقالت فرقة في ﴿ أم ﴾ هذه : هي بمنزلة ألف الاستفهام ، ثم عجزهم في قوله ﴿ قل فأتوا بسورة مثله ﴾ والسورة مأخوذة من سورة البناء وهي من القرآن هذه القطعة التي لها مبدأ وختم ، والتحدي في هذه الآية وقع بجهتي الإعجاز اللتين في القرآن : إحداهما النظم والرصف والإيجاز والجزالة ، كل ذلك في التعريف بالحقائق ، والأخرى المعاني من الغيب لما مضى ولما يستقبل ، وحين تحداهم

بعشر مفتريات إنما تحداهم بالنظم وحده .

قال القاضي أبو محمد : هكذا قول جماعة من المتكلمين ، وفيه عندي نظر ، وكيف يجيء التحدي بمماثلة في الغيوب رداً على قولهم ﴿ افتراه ﴾ ، وما وقع التحدي في الآيتين هذه وآية العشر السور إلا بالنظم والرصف والإيجاز في التعريف بالحقائق ، وما ألزموا قط إتياناً بغيب ، لأن التحدي بالإعلام بالغيوب كقوله

(204/361)

﴿ وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾ [الروم : 3] وكقوله ﴿ لتدخلن المسجد الحرام ﴾ [الفتح : 27] ونحو ذلك من غيوب القرآن فبين أن البشر مقصر عن ذلك ، وأما التحدي بالنظم فبين أيضاً أن البشر مقصر عن نظم القرآن إذ الله عز وجل قد أحاط بكل شيء علماً ، فإذا قدر الله اللفظة في القرآن علم بالإحاطة اللفظة التي هي أليق بها في جميع كلام العرب في المعنى المقصود ، حتى كمل القرآن على هذا النظام الأول فالأول ، والبشر مع أن يفرض أفصح العالم ، محقوق بنيان وجهل بالألفاظ والحق وبغلط وآفات بشرية ، فمحال أن يمشي في اختياره على الأول فالأول ، ونحن نجد العربي ينقح قصيدته – وهي الحوليات – يبدل فيها ويقدم ويؤخر ، ثم يدفع تلك القصيدة إلى أفصح منه فيزيد في التنقيح ، ومذهب

أهل الصرفة مكسور بهذا الدليل ، فما كان قط في العالم إلا من فيه تقصير سوى من يوحي إليه الله تعالى ، وميّزت فصحاء العرب هذا القدر من القرآن وأذعنت له لصحة فطرتها وخلوص سليقتها وأنهم يعرف بعضهم كلام بعض ويميزه من غيره ، كفعل الفرزدق في أبيات جرير ، والجارية في شعر الأعشى ، وقول الأعرابي " عرفجكم " فقطع ونحو ذلك مما إذا تتبع بان . والقدر المعجز من القرآن ما جمع الجهتين " اطراد النظم والسرد ، وتحصيل المعاني وتركيب الكثير منها في اللفظ القليل : فأما مثل قوله تعالى : ﴿ مدهامتان ﴾ [الرحمن : 64] وقوله ﴿ ثم نظر ﴾ [المدثر : 21] فلا يصح التحدي بالإتيان بمثله لكن بانتظامه واتصاله يقع العجز عنه ، وقوله ﴿ مثله ﴾ صفة للسورة والضمير عائد على القرآن المتقدم الذكر ، كأنه قال : فأتوا بسورة مثل القرآن أي في معانيه وألفاظه ، وخلطت فرق في قوله " مثله " من جهة اللسان كقول الطبري : ذلك على المعنى ، ولو كان على اللفظ لقال : " مثلها " ، وهذا وهم بيّن لا يحتاج إليه ، وقرأ عمرو بن فائد " بسورةِ مثلِهِ " ، على الإضافة ، قال أبو الفتح : التقدير بسورة كلام مثله ، قال

أبو حاتم : أمر عبد الله الأسود أن يسأل عمر عن إضافة " سورة " أو تنوينها فقال له عمر كيف شئت ، وقوله ﴿ وادعوا من استطعتم ﴾ إحالة على شركائهم وجنهم وغير ذلك ، وهو كقوله في الآية الأخرى ، ﴿ لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ [الإسراء : 88] أي معيناً ، وهذا أشد إقامة لنفوسهم وأوضح تعجيزاً لهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(206/361)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ أم ها هنا في موضع ألف الاستفهام لأنها اتصلت بما قبلها .

وقيل : هي أم المنقطعة التي تقدّر بمعنى بل والهمزة ؛ كقوله تعالى : ﴿ الم تَنزِيلُ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ أي بل أيقولون افتراه .

وقال أبو عبيدة : أم بمعنى الواو ، مجازه : ويقولون افتراه .

وقيل : الميم صلة ، والتقدير : أيقولون افتراه ، أي اختلق محمد القرآن من قِبل نفسه ، فهو استفهام معناه التقريع .

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ ومعنى الكلام الاحتجاج ، فإن الآية الأُولى دلّت على كون القرآن من عند الله ؛ لأنه مصدّق الذي بين يديه من الكتب وموافق لها من غير أن يتعلم محمد عليه السلام عن أحد .

وهذه الآية إلزام بأن يأتوا بسورة مثله إن كان مفترًى .

وقد مضى القول في إعجاز القرآن ، وأنه معجز في مقدّمة الكتاب ، والحمد لله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(207/361)

وقال أبو حيان :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾

لما نفى تعالى أن يكون القرآن مفترى ، بل جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب وبياناً لما فيها ، ذكر أعظم دليل على أنه من عند الله وهو الإعجاز الذي اشتمل عليه ، فأبطل بذلك دعواهم افتراءه ، وتقدم الكلام على ذلك مشبعاً في البقرة في قوله : ﴿ وإن كنتم في ريب ﴾ الآية .

وأم متضمنة معنى بل ، والهمزة على مذهب سيبويه أي : بل أيقولون اختلقه .

والهمزة تقرير لالتزام الحجة عليهم ، أو إنكار لقولهم واستبعاد .

وقالت فرقة : أم هذه بمنزلة همزة الاستفهام .

وقال أبو عبيدة : أم بمعنى الواو ومجازه ، ويقولون افتراه .

وقيل : الميم صلة ، والتقدير أيقولون .

وقيل : أم هي المعادلة للهمزة ، وحذفت الجملة قبلها والتقدير : أيقرون به أم يقولون افتراه .

وجعل الزمخشري قل فأتوا جملة شرط محذوفة فقال : قل إن كان الأمر كما تزعمون فأتوا أنتم على وجه الافتراء بسورة مثله ، فأنتم مثله في العربية والفصاحة والألمعية ، فأتوا بسورة مثله شبيهة به في البلاغة وحسن النظم انتهى .

والضمير في مثله عائد على القرآن أي : بسورة مماثلة للقرآن ، وتقدم الكلام لنا فيما وقع به الإعجاز .

وقرأ عمرو بن قائد بسورة مثله على الإضافة أي : بسورة كتاب أو كلام مثله أي : مثل القرآن .

وقال صاحب اللوامح : هذا مما حذف الموصوف منه وأقيمت الصفة مقامه أي : بصورة بشر مثله ، فالهاء في ذلك واقعة إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وفي العامة إلى القرآن .

وادعوا من استطعتم أن تدعوه من خلق الله إلى الاستعانة على الإتيان بمثله من دون الله أي

: من غير الله ، لأنه لا يقدر على أن يأتي بمثله أحد إلا الله ، فلا تستعينوه وحده ، واستعينوا بكل من دونه إن كنتم صادقين في أنه افتراه .

(208/361)

وقد تمسك المعتزلة بهذه الآية على خلق القرآن قالوا : لأنه تحدّى به وطلب الإتيان بمثله وعجزوا ، ولا يمكن هذا إلا إذا كان الإتيان بمثله صحيح الوجود في الجملة ، ولو كان قديماً لكان الإتيان بمثل القديم محالاً في نفس الأمر ، فوجب أن لا يصح التحدي به .

وقال أبو عبد الله الرازي : مراتب التحدي بالقرآن ست تحدّ بكل القرآن في : ﴿ قل لئن اجتمعت ﴾ الآية ، وتحد بعشر سور ، وتحدّ بسورة واحدة ، وتحد بحديث مثله في قوله : ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ وفي هذه الأربع طلب أن يعارض رجل يساوي الرسول في عدم التتلمذ والتعليم ، وتحد طلب منهم معارضة سورة واحدة من أي إنسان كان تعلم العلوم أو لم يتعلمها ، وفي هذه المراتب الخمس تحدى كل واحد من الخلق ، وتحد طلب من المجموع واستعانة بعض ببعض انتهى ملخصاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(209/361)

وقال الثعالبى :

قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه . . . ﴾

«أم» هذه ليست بالمعادلة لهمزة الاستفهام ، في قوله : أزَيْدٌ قام أمْ عمرو ؟ ومذهَبُ سِيبَوَيْهِ : أنها بمنزلة «بَلْ» ثم عجَّزهم سبحانه بقوله : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وادعوا مَنِ استطعتم . . . ﴾ الآية : والتحدِّي في هذه الآية عند الجُمْهُور وقَعَ بجهتَي الإِعجاز اللَّتَيْنِ في القرآنِ :

إِحْداهما : النَّظْم والرَّصْف والإِيجازُ وَالجَزَالَة ، كلُّ ذلك في التعريف .

والأُخرَى : المعاني مِنَ الغَيْبِ لِمَا مَضَى ، ولما يُسْتَقْبَلُ .

وحين تحدَّاهم ب «عَشْرِ مفترياتٍ» إِنما تحدَّاهم بالنَّظْم وحْده ، ثم قال *ع* : هذا قول جماعة المتكلِّمين ، ثم اختار أنَّ الإِعجاز في الآيتين إِنما وقع في النَّظْمِ لا في الإِخبارِ بالغُيُوبِ .

* ت * : والصوابُ ما تَقَدَّم للجمهور ، وإليه رَجَعَ في «سورة هود» وأوجُهُ إِعجاز القرآن أَكْثَرُ من هذا وانظر «الشِّفَا» .

وقوله : ﴿ مَنِ استطعتم ﴾ : إِحالةٌ على شركائهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾

أي بل أيقولون افتراه محمد عليه الصلاة والسلام والهمزةُ لإنكار الواقِع واستبعادِه ﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم وإظهاراً لبطلان مقالتِهم الفاسدةِ إن كان الأمر كما تقولون ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ أي في البلاغة وحسنِ الصياغةِ وقوةِ المعنى على وجه الافتراءِ فإنكم مثلي في العربية والفصاحةِ وأشدُّ تمرناً مني في النظم والعبارة ، وقرىء بسورةٍ مثلِه على الإضافة أي بسورة كتابٍ مثلِه ﴿ وادعوا ﴾ للمظاهرة والمعاونة ﴿ مَنِ استطعتم ﴾ دعاءَه والاستعانةَ به من آلهتكم التي تزعُمون بأنها مُمِدةٌ لكم في المُهمات والمُلماتِ ، ومدارِهكم الذين تلجأون إلى آرائهم في كل ما تأتون وما تذرون ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ متعلقٌ بادعوا ، ودون جارٍ مجرى أداةِ الاستثناءِ وقد مر تفصيله في قوله تعالى : ﴿ وادعوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ الله ﴾ أي ادعُوا سواه تعالى من استطعتم من خلقه فإنه لا يقدِر عليه أحدٌ وأخرجه سبحانه من حكم الدعاءِ للتنصيص على براءتهم منه تعالى وكونِهم في عُدوة المضادة والمُشاقّة لا لبيان استبدادِه تعالى بالقدرة على ما كُلّفوه فإن ذلك مما يوهم أنهم لو دعَوْه تعالى لأجابهم إليه ﴿

إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أي في أني افتريته فإن ذلك مستلزمٌ لإمكان الاتيانِ بمثله وهو أيضاً مستلزِمٌ لقدرتكم عليه ، والجوابُ محذوفٌ لدلالة المذكور عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(211/361)

وقال الآلوسى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾

أم منقطعة وهي مقدرة ببل والهمزة عند سيبويه والجمهور أي بل أيقولون ، وبل انتقالية والهمزة لإنكار الواقع واستبعاده أي ما كان ينبغي ذلك ، وجوز أن تكون للتقرير لإلزام الحجة والمعنيان على ما قيل متقاربان ، وقيل : إن أم متصلة ومعادلها مقدر أي أتقرون به أم تقولون افتراه ، وقيل : هي استفهامية بمعنى الهمزة ، وقيل : عاطفة بمعنى الواو والصحيح الأول ، وأياً ما كان فالضمير المستتر للنبي صلى الله عليه وسلم وإن لم يذكر لأنه معلوم من السياق ﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم وإظهاراً لبطلان مقالتهم الفاسدة إن كان الأمر كما تقولون ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ ﴾ طويلة كانت أو قصيرة ﴿ مِّثْلِهِ ﴾ في البلاغة وحسن الارتباط وجزالة المعنى على وجه الافتراء ، وحاصله على ما قيل : إن كان ذاك افتراء مني فافتروا

سورة مثله فإنكم مثلي في العربية والفصاحة وأشد تمرناً واعتياداً في النظم والنثر ، وعلى هذا فالمراد بإتيان المخاطبين بذلك إنشاؤهم له والتكلم به من عند أنفسهم لا ما يعم ذلك وإيراده من كلام الغير ممن تقدم ، وجوز أن يكون المراد ما ذكر ولعله السر في العدول عن قولوا سورة مثله مثلاً إلى ما في النظم الكريم ، أي إن كان الأمر كما زعمتم فأتوا من عند أنفسكم أو ممن تقدمكم من فصحاء العرب وبلغائها كامرىء القيس وزهير وأضرابهما بسورة مماثلة له في صفاته الجليلة فحيث عجزتم عن ذلك مع شدة تمرنكم ولم يوجد في كلام أولئك وهم الذين نصبت لهم المنابر في عكاظ الفصاحة والبلاغة وبهم دارت حا النظم والنثر وتصرمت أيامهم في الإنشاء والإنشاد دل على أنه ليس من كلام البشر بل هو من كلام خالق القوى والقدر .

وقرىء ﴿ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ على الإضافة أي بسورة كتاب مثله ﴿ وادعوا ﴾ للمعاونة والمظاهرة .

(212/361)

﴿ مَنِ استطعتم ﴾ دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التي تزعمون إنها ممدة لكم في المهمات والملمات والمداراة الذين تلجؤون إليهم في كل ما تأتون وتذرون ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ متعلق

بادعوا كما قيل و﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية على معنى أن الدعاء مبتدأ من غيره تعالى لا ملابسة له معه جل شأنه بوجه ، وجوز أن يكون متعلقاً بما عنده ومن بيانية أي ادعوا من استطعتم من خلقه ولا يخلو عن حسن .

وفائدة هذا القيد قيل : التنصيص على براءتهم منه تعالى وكونهم في عدوة المضادة والمشاقة ، وليس المراد به إفادة استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه فإن ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه لأجابهم إليه ، وقد يقال : لا بأس بإفادة ذلك لأن الاستبداد المذكور مما يؤيد المقصود وهو كون ما أتى به صلى الله عليه وسلم لم يكن من عند نفسه بل هو منه تعالى ، والإيهام مما لا يلتفت إليه فإن دعاءهم إياه تعالى بمعنى طلبهم منه سبحانه وتعالى أن يأتي بما كلفوه مستبداً به مما لا يكاد يتصور لأنه ينافي زعمهم السابق كما لا يخفى فتأمل ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في أني افتريته فإن ذلك مستلزم لإمكان الإتيان بمثله وهو أيضاً مستلزم لقدرتكم عليه وجواب ﴿ إن ﴾ محذوف لدلالة المذكور عليه ، وفي هذه الآية دلالة على إعجاز القرآن لأنه عليه الصلاة والسلام تحدي مصاقع العرب بسورة ما منه فلم يأتوا بذلك وإلا لنقل إلينا لتوفر الدواعي إلى نقله .

(213/361)

وزعم بعض الملاحدة أنه لا يلزم من عجزهم عن الإتيان بذلك كونه من عند الله تعالى قطعاً فإنه قد يتفق في الشخص خصوصية لا توجد في غيره فيحتمل أنه صلى الله عليه وسلم كان مخصوصاً بهذه المرتبة من الفصاحة والبلاغة ممتازاً بها عن سائر العرب فأتى بما أتى دونهم ، وقد جاء من بعضا لطرق أنه صلى الله عليه وسلم قال : " أنا أفصح العرب بيد أني من قريش " وأجيب بأنه صلى الله عليه وسلم وإن كان في أقصى الغايات من الفصاحة حتى كأن الله تعالى شأنه وعزت قدرته مخض اللسان العربي وألقى زبدته على لسانه صلى الله عليه وسلم فما من خطب يقاومه الأنكص متفكك الرجل وما من مصقع يناهزه إلا رجع فارغ السجل إلا أن كلامه صلى الله عليه وسلم لا يشبه ما جاء به من القرآن وكلام شخص واحد متشابه كما لا يخفى على ذوي الأذواق الواقفين على كلام البلغاء قديماً وحديثاً .

وتعقب بأنه لا يدفع ذلك الزعم لما فيه ظاهراً من تسليم كون كلامه عليه الصلاة والسلام معجزاً لا تستطاع معارضته وحينئذٍ العجز عن معارضة القرآن يجعله دائراً بين كونه كلامه تعالى وكونه كلامه صلى الله عليه وسلم ولا يثبت كونه كلام الله عز وجل إلا بضم امتيازه على كلامه صلى الله عليه وسلم والزاعم لم يدع إلا عدم لزوم كونه من عند الله تعالى قطعاً من عجزهم عن الإتيان بذلك ، وأيضاً ينافي هذا التسليم ما تقدم في بيان حاصل ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ حيث علل بأنكم مثلي في العربية والفصاحة الخ ، ومن هنا قيل : الأوجه في

الجواب أن يلتزم عدم إعجاز كلامه صلى الله عليه وسلم مع كونه عله الصلاة والسلام أفصح العرب ولا منافاة بينهما كما لا يخفى على المتأمل .

وأطال بعضهم الكلام في هذا المقام ، وبعض أدرج مسألة خلق الأفعال في البين وجعل مدار الجواب مذهب الأشعري فيها ولعل الأمر غني عن الإطالة عند من انجاب عن عين بصيرته الغين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(214/361)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾

﴿ أم ﴾ للإضراب الانتقالي من النفي إلى الاستفهام الإنكاري التعجيبي ، وهو ارتقاء بإبطال دعواهم أن يكون القرآن مفترًى من دون الله .

ولما اختصت ﴿ أم ﴾ بعطف الاستفهام كان الاستفهام مقدراً معها حيثما وقعت ، فالاستفهام الذي تشعر به (أم) استفهام تعجيبي إنكاري ، والمعنى : بل أيقولون افتراه بعد ما تبين لهم من الدلائل على صدقه وبراءته من الافتراء .

ومن بديع الأسلوب وبليغ الكلام أن قدم وصف القرآن بما يقتضي بعده عن الافتراء وبما فيه

من أجل صفات الكتب ، وبتشريف نسبته إلى الله تعالى ثم أعقب ذلك بالاستفهام عن دعوى المشركين افتراء ليتلقى السامع هذه الدعوى بمزيد الاشمئزاز والتعجب من حماقة أصحابها فلذلك جعلت دعواهم افتراءه في حيز الاستفهام الإنكاري التعجيبي .

وقد أمر الله نبيه أن يجيبهم عن دعوى الافتراء بتعجيزهم ، وأن يقطع الاستدلال عليهم ، فأمرهم بأن يأتوا بسورة مثله .

والأمر أمر تعجيز ، وقد وقع التحدي بإتيانهم بسورة تماثل سور القرآن ، أي تشابهه في البلاغة وحسنِ النظم .

وقد تقدم تقرير هذه المماثلة عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله في سورة البقرة (23) .

وقوله : وادْعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين هو كقوله في آية البقرة (23) : ﴿ وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ ، ومعنى ﴿ صادقين ﴾ هنا ، أي قولكم أنه افترى ، لأنه إذا أمكنه أن يفتريه أمكنكم أنتم معارضته فإنكم سواء في هذه اللغة العربية .

وحذف مفعول ﴿ استطعتم ﴾ لظهوره من فعل (ادْعوا) ، أي من استطعتم دعوته لنصرتكم وإعانتكم على تأليف سورة مثل سور القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾

وقد سبق هذا المجيء بالتحدي أسبابُ عجزهم عن النجاح في التحدي ؛ لأن الآية السابقة تقرر أن الكتب السماوية السابقة تُصَدِّق نزول القرآن الكريم ، وبينها وبين القرآن تصديق متبادل .

فهم مهزومون فيه قبل أن ينزل .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ [يونس : 38] .

وقد جاء التحدي مرة بالكتاب في قول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء : 88] .

ولم يستطيعوا ، فنزلت درجة التحدي ؛ وطالبهم أن يأتوا : ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود : 13] .

فلم يستطيعوا الإتيان بعشر سور ، فطالبهم أن يأتوا بسورة تقترب ولو من بعيد من أسلوب

القرآن ، فلم يستطيعوا ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة : 23] .

فكيف إذن من بعد كل ذلك يدَّعون أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد افترى القرآن ، وهو صلى الله عليه وسلم لم تكن له صلة بالأساليب البلاغية أو الفصاحة ؟ !

لقد دعاكم أن تأتوا بكل الفصحاء والبلغاء ليفتروا ، ولو سورة من مثله ، ووضع شرطاً فقال : ﴿ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله ﴾ [يونس : 38] .

لأن الله سبحانه وتعالى هو القادر الوحيد على أن يُنزل قرآناً ؛ لذلك دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعوا الشركاء ؛ وذلك حتى لا يقول الكفار وبعضهم من أهل اللجاجة : سندعوا الله ؛ ولذلك يأتي القرآن بالاستثناء ﴿ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس : 38] . وهم بطبيعة الحال غير صادقين في هذا التحدي .

(216/361)

والله سبحانه وتعالى حين يرسل رسولاً إلى قوم ؛ ليعلِّمهم منهجه في حركة الحياة ، إنما يريد سبحانه أن تؤدي حركة الحياة إلى الغاية المطلوبة من الإنسان الخليفة في الأرض ؛ ولذلك يأتي الرسول من جنس المرسل إليهم ؛ ليكون أسوة لهم ؛ لأن الرسول إن جاء مَلَكاً لما

صحَّت الأسوة ، بل لا بد أن يكون بشراً .

والحق سبحانه لا يرسل أي رسول إلا ومعه بينة ودليل صدق على أنه رسول يبلِّغ عن الله تعالى .

والبينة لا بد أن تكون من جنس نبوغ القوم ، فلا يأتي لهم بمعجزة في شيء لم يعرفوه ولم يألفوه ؛ حتى لا يقولوا : لو تعلمنا هذا لجئنا بمثل ما جاء .

وقد جاء القرآن ليثبت عجزهم عما نبغوا فيه من صناعة الكلام ؛ شعراً ونثراً وخطابة .

وكان القرآن هو معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوم فصحاء يعقدون للشعر أسواقاً ، ويعلِّقون الفائز من هذا الشعر على جدران الكعبة شهرة له وشهادة به .

إذن : فهم أصحاب دراية بصناعة الكلام ، وجاءت المعجزة مع الرسول صلى الله عليه وسلم من جنس ما نبغوا فيه ؛ لتتحداهم .

والتحدي يستدعي استجماع قوة الخصم ؛ ليرد على هذا المتحدي ، فإذا عجز مع التحدي ، يصير العجز ملزماً .

وقد تحدى الحق سبحانه العرب جميعاً بالقرآن كله : ﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء : 88] .

فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله ، فتدرَّج القرآن معهم في التحدي فطلب منهم ما هو أقل من ذلك

، وهو أن يأتوا بعشر سور مثله في قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود : 13] .

ثم تحداهم بالإتيان بمثل سورة من القرآن .

وعند التأمل نجد أن الأسلوب الذي جاء بطلب سورة كان على لونين : فمرة يقول : ﴿ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ [يونس : 38] .

ومرة يقول : ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة : 23] .

(217/361)

وكل من اللونين بليغ في موضعه ف ﴿ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ [يونس : 38] تبين أن المثلية هنا محققة ، أي : مثل ما جاء من سورة القرآن . وقوله : ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة : 23] .

أي : سورة من مثل محمد صلى الله عليه وسلم في أنه لم يجلس إلى معلِّم ، ولم يقرأ ، ولا عُرف عنه أنه تكلم بالبلاغة في أي فترة من مراحل حياته قبل الرسالة .

وقال الحق سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : 16] .

إذن : ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة : 23] .

أي : مثل محمد صلى الله عليه وسلم الذي لم يتعلم وكان أمياً ، ولكن لماذا يأتي هذا اللون من التحدي ؟

لأنهم قالوا عن القرآن :

﴿ أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان : 5] .

بل واتهموه في قمة غفلتهم أنه يتعلم من رجل كان بمكة ، فيلفتهم القرآن إلى أن الرجل الذي قالوا إنه معلم للرسول صلى الله عليه وسلم كان أعجمياً غير عربي ، يقول الحق سبحانه :

﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 103] .

ويريد الحق سبحانه أن يصنفهم ، فيقول بعد ذلك : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(218/361)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

﴿ (38)

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ : في "أم" وجهان أحدهما : أنها منقطعةٌ فتتقدر ب "بل" والهمزة عند الجمهور : سيبويه وأتباعهِ ، والتقديرُ : بل أتقولون ، انتقل عن الكلام الأول وأَخَذَ في إنكارِ قولٍ آخر . والثاني : أنها متصلةٌ ولا بدَّ حينئذٍ مِنْ حَذْفِ جملةٍ ليصِحَّ التعادلُ والتقدير : أيقرُّون به أم يقولون افتراه . وقال بعضُهم : / هذه بمنزلة الهمزة فقط . وعَبَّر بعضهم عن ذلك فقال : "الميمُ زائدة على الهمزة" وهذا قولٌ ساقط ، إذ زيادة الميم قليلة جداً لا سيما هنا . وزعم أبو عبيدة أنها بمعنى الواو والتقدير : ويقولون افتراه .

قوله : ﴿ قُلْ فَأْتُوا ﴾ جوابُ شرطٍ مقدر قال الزمخشري : "قل : إن كان الأمرُ كما تَزْعمون فَأْتوا أنتم على وجه الافتراءِ بسورةٍ مثلِه في العربية والفصاحة والأَبْلغيَّة" . وقرأ عمرو بن فائد "بسورة مثلِه" بإضافة "سورة" إلى "مثله" على حَذْف الموصول وإقامة الصفة مُقامَه ، والتقدير : بسورةِ كتابٍ مثلِه أبو بسورةِ كلام مثله . ويجوز أن يكون التقديرُ : فَأْتوا بسورةٍ بشرٍ مثلِه فالضمير يجوز أن يعودَ في هذه القراءةِ على القرآن ، وأن يعودَ على النبي صلى الله عليه وسلم . وأمَّا في قراءة العامة فالضمير للقرآن فقط . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 204 . 205 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38) ﴾

كلَّتْ القرائح ، وخَمَدَتْ نيرانُ الفصاحة ، واعترف كلُّ خطيب مصقْعٍ بالعجز عن معارضة هذا الكتاب ، فلم يتعرَّض لمعارضته إلا مَنْ افتضح في قالته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 96 ﴾

(220/361)

قوله تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ثم كان كأنه قيل : فقال لهم ذلك فلم يأتوا لقومهم بشبهة توجب شكاً فضلاً عن مصدق ،

لأنه معجز لكونه كلاماً في أعلى طبقات البلاغة بحسن النظام والجزالة منزلاً من عند الله المحيط علماً وقدرة ، فهو مشتمل من كل معنى على ما علا كل العلو عن مدان ﴿ بل ﴾ .

وأحسن من ذلك أنه لما أقام الدليل على أن القرآن كلامه ، وكان الدليل إنما من شأنه أن يقام على من عرض له غلط أو شبهة ، وكان قولهم ﴿ افتراه ﴾ لا عن شبهة وإنما هو مجرد عناد ، نبه سبحانه على ذلك وعلى أنه إنما أقام الدليل لإظهار عنادهم لا لأن عندهم شبهة في كونه حقاً بالإضراب عن قولهم فقال : ﴿ بل ﴾ أي لم يقولوا ﴿ افتراه ﴾ عن اعتقاد منهم لذلك بل ﴿ كذبوا ﴾ أي أوقعوا التكذيب الذي لا تكذيب أشنع منه مسرعين في ذلك من غير أن يتفهموه مستهينين ﴿ بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ اي في نظمه أو معناه من غير شبهة أصلاً بل عناداً وطغياناً ونفوراً مما يخالف دينهم وشراداً ، فهو من باب " من جهل شيئاً عاداه "

والإحاطة : إرادة ما هو كالحائط حول الشيء ، فإحاطة العلم بالشيء العلم به من جميع وجوهه .

ولما كان لا بد من وقوع تأويله ، وهو إتيان ما فيه من الإخبار بالمغيبات على ما هي عليه ، قال : ﴿ ولما يأتهم ﴾ أي إلى زمن تكذيبهم ﴿ تأويله ﴾ أي ترجيعنا لأخباره إلى مراجعها وغاياتها حتى يعلموا أصدق هي أم كذب ، فإنه معجز من جهة نظمه ومن جهة صدقه في أخباره ؛ والتأويل : المعنى الذي يؤول إليه التفسير ، وهو منتهى التصريح من التضمين .

ولما كان كأنه قيل : إن فعلهم هذا لعجب ، فما حملهم على التمادي فيه ؟ فقيل : تبعوا في

ذلك من قبلهم لموافقتهم في سوء الطبع ، قال مهدداً لهم ومسلياً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل تكذيبهم هذا التكذيب العظيم في الشناعة قبل تدبير المعجز ﴿ كذب الذين ﴾ ولما كان المكذبون بعض السالفين ، أثبت الجار فقال : ﴿ من قبلهم ﴾ أي من كفار الأمم الخالية فظلموا فأهلكناهم بظلمهم ؛ ولما كان التكذيب خطراً لما يثير من السرور ، سبب عنه – تحذيراً منه – النظر في عاقبة أمره فقال : ﴿ فانظر ﴾ أي بعينك ديارهم وبقلبك أخبارهم .

(221/361)

ولما كان من نظر هذا النظر وجد فيه أجل معتبر وأعلى مزدجر ، وجه السؤال إليه بقوله : ﴿ كيف كان عاقبة ﴾ أي آخر أمر ﴿ الظالمين ﴾ أي الذين رسخت أقدامهم في وضع الأشياء في غير مواضعها حتى كذبوا من لا يجوز عليه الكذب بوجه ، ومن المقطوع به أن هذا المسؤول يقول من غير تعلثم ولا تردد : عاقبة وخيمة قاصمة ذميمة ؛ والعاقبة سبب تؤدي إليه البادئة ، فالذي أدى إلى إلى هلاكهم بعذاب الاستئصال ما تقدم من ظلمهم لأنفسهم وعتوهم في كفرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 445 ﴾

(222/361)

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى ذكر السبب الذي لأجله كذبوا القرآن فقال : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ واعلم أن هذا الكلام يحتمل وجوهاً :

الوجه الأول : أنهم كلما سمعوا شيئاً من القصص قالوا : ليس في هذا الكتاب إلا أساطير الأولين ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحكاية بل أمور أخرى مغايرة لها : فأولها : بيان قدرة الله تعالى على التصرف في هذا العالم ، ونقل أهله من العز إلى الذل ومن الذل إلى العز وذلك يدل على قدرة كاملة .

وثانيها : أنها تدل على العبرة من حيث إن الإنسان يعرف بها أن الدنيا لا تبقى ، فنهاية كل متحرك سكون ، وغاية كل متكون أن لا يكون ، فيرفع قلبه عن حب الدنيا وتقوى رغبته في طلب الآخرة ، كما قال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لاّوْلِى الالباب ﴾ [يوسف : 111] وثالثها : أنه صلى الله عليه وسلم لما ذكر قصص الأولين من غير تحريف ولا تغيير مع أنه لم يتعلم ولم يتلمذ ، دل ذلك على أنه بوحي من الله تعالى ، كما قال في سورة الشعراء بعد أن ذكر القصص ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبّ العالمين نَزَلَ بِهِ الروح الامين على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين ﴾ [الشعراء : 192 194] .

والوجه الثاني : أنهم كلما سمعوا حروف التهجي في أوائل السور ولم يفهموا منها شيئاً ساء ظنهم بالقرآن .

وقد أجاب الله تعالى عنه بقوله : ﴿ هُوَ الذى أَنزَلَ عَلَيْكَ الكتاب مِنْهُ آيات محكمات ﴾ [آل عمران : 7] .

والوجه الثالث : أنهم رأوا أن القرآن يظهر شيئاً فشيئاً ، فصار ذلك سبباً للطعن الرديء فقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة فأجاب الله تعالى عنه بقوله : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [الفرقان : 32] وقد شرحنا هذا الجواب في سورة الفرقان .

(223/361)

والوجه الرابع : أن القرآن مملوء من إثبات الحشر والنشر ، والقوم كانوا قد ألفوا المحسوسات فاستبعدوا حصول الحياة بعد الموت ، ولم يتقرر ذلك في قلوبهم ، فظنوا أن محمداً عليه السلام إنما يذكر ذلك على سبيل الكذب ، والله تعالى بين صحة القول بالمعاد بالدلائل القاهرة الكثيرة .

الوجه الخامس : أن القرآن مملوء من الأمر بالصلاة والزكاة وسائر العبادات ، والقوم كانوا يقولون إله العالمين غني عنا وعن طاعتنا ، وإنه تعالى أجل من أن يأمر بشيء لا فائدة فيه ،

فأجاب الله تعالى عنه بقوله : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خلقناكم عَبَثاً ﴾ [المؤمنون : 115] وبقوله : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : 7] وبالجملة فشبهات الكفار كثيرة ، فهم لما رأوا القرآن مشتملاً على أمور ما عرفوا حقيقتها ولم يطلعوا على وجه الحكمة فيها لا جرم كذبوا بالقرآن ، والحاصل أن القوم ما كانوا يعرفون أسرار الإلهيات ، وكانوا يجرون الأمور على الأحوال المألوفة في عالم المحسوسات وما كانوا يطلبون حكمها ولا وجوه تأويلاتها ، فلا جرم وقعوا في التكذيب والجهل ، فقوله : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ لَمَّا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ ﴾ إشارة إلى عدم علمهم بهذه الأشياء ، وقوله : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ إشارة إلى عدم جدهم واجتهادهم في طلب تلك الأسرار .

(224/361)

ثم قال : ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة الظالمين ﴾ والمراد أنهم طلبوا الدنيا وتركوا الآخرة ، فلما ماتوا فاتتهم الدنيا والآخرة فبقوا في الخسار العظيم ، ومن الناس من قال المراد منه عذاب الاستئصال وهو الذي نزل بالأمم الذين كذبوا الرسل من ضروب العذاب في الدنيا ، قال أهل التحقيق قوله : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ يدل على أن من كان غير عارف بالتأويلات وقع في الكفر والبدعة ، لأن ظواهر النصوص قد يوجد فيها ما تكون متعارضة ، فإذا لم

يعرف الإنسان وجه التأويل فيها وقع في قلبه أن هذا الكتاب ليس بحق ، أما إذا عرف وجه التأويل طبق التنزيل على التأويل فيصير ذلك نوراً على نور يهدي الله لنوره من يشاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 79.80 ﴾

(225/361)

وقال السمرقندى :

قوله : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ ﴾

يعني : القرآن لم يعلموا ما فيه ؛ ويقال : لم يعلموا ما عليهم بتكذيبهم .

﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ ، يعني : ولما يأتهم عاقبة ما وعدوا في هذا القرآن ، يعني : سيأتيهم ما وعد لهم ، وهو كائن في الدنيا بالعذاب ، وفي الآخرة بالنار .

ثم قال : ﴿ كذلك كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ، هكذا كذب الأمم الخالية رسلهم .

﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة الظالمين ﴾ ، يعني : كيف صار جزاء المكذبين لرسلهم .

فيه تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحثّ له على الصبر ، وتخويف لهم بالعقوبة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : لم يعلموا ما عليهم بتكذيبهم لشكهم فيه .

الثاني : لم يحيطوا بعلم ما فيه من وعد ووعيد لإعراضهم عنه .

﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : علم ما فيه من البرهان .

الثاني : ما يؤول إليه أمرهم من العقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(226/361)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ ﴾

أي كذبوا بالقرآن وهم جاهلون بمعانيه وتفسيره ، وعليهم أن يعلموا ذلك بالسؤال ؛ فهذا يدلّ على أنه يجب أن يُنظر في التأويل .

وقوله : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ أي ولم يأتهم حقيقة عاقبة التكذيب من نزول العذاب بهم .

أو كذبوا بما في القرآن من ذكر البعث والجنة والنار ، ولم يأتهم تأويله أي حقيقة ما وعدوا في

الكتاب ؛ قاله الضحاك .

وقيل للحسين بن الفضل : هل تجد في القرآن (من جهل شيئاً عاداه) قال نعم ، في موضعين : "بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ" وقوله : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَاذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف : 11] .

﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يريد الأُمم الخالية ، أي كذا كانت سبيلهم .

والكاف في موضع نصب .

﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظالمين ﴾ أي أخذهم بالهلاك والعذاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(227/361)

وقال أبو حيان :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾

قال الزمخشري : بل كذبوا ، بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن ، وفاجأوه في بديهة السماع قبل أن يفهموه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ويفقهوا تأويله ومعانيه ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم .

وقال ابن عطية : هذا اللفظ يحتمل معنيين : أحدهما : أن يريد بما الوعيد الذي توعدهم الله على الكفر ، وتأويله على هذا يريد به ما يؤول إليه أمره كما هو في قوله : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ والآية محملها على هذا التأويل يتضمن وعيداً ، والمعنى الثاني : أنه أراد بل كذبوا بهذا القرآن العظيم المنبىء بالغيوب الذي لم يتقدّم لهم به معرفة ، ولا أحاطوا بمعرفة غيوبه وحسن نظمه ، ولا جاءهم تفسير ذلك وبيانه .

وقال أبو عبد الله الرازي : يحتمل وجوهاً ، الأول : كلما سمعوا شيئاً من القصص قالوا ﴿ أساطير الأوّلين ﴾ ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس نفس الحكاية ، بل قدرته تعالى على التصرف في هذا العالم ، ونقله أهله من عز إلى ذل ، ومن ذل إلى عز ، وبفناء الدنيا ، فيعتبر بذلك .

وأن ذلك القصص بوحي من الله ، إذ أعلم بذلك على لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من غير تحريف مع كونه لم يتعلم ولم يتتلمذ .

الثاني : كلما سمعوا خروف التهجّي ولم يفهموا منها شيئاً ساء ظنهم ، وقد أجاب الله بقوله : ﴿ فيه آيات بينات ﴾ الآية .

الثالث : ظهور القرآن شيئاً فشيئاً ، فساء ظنهم وقالوا : ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ وقد أجاب تعالى وشرح في مكانه .

الرابع : القرآن مملوء من الحشر ، وكانوا ألفوا المحسوسات ، فاستبعدوا حصول الحياة بعد

الموت ، فبين الله صحة المعاد بالدلائل الكثيرة .

الخامس : أنه مملوء من الأمر بالعبادات ، وكانوا يقولون : إله العالم غني عن طاعتنا ، وهو أجل أن يأمرنا بما لا فائدة له فيه .

(228/361)

وأجاب تعالى بقوله : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم ﴾ الآية وبالجملة فشبه الكفار كثيرة ، فلما رأوا القرآن مشتملاً على أمور ما عرفوا حقيقتها ولا اطلعوا على وجه الحكمة فيها كذبوا بالقرآن فقوله : بما لم يحيطوا بعلمه ، إشارة إلى عدم علمهم بهذه الأشياء وقوله : ولما يأتهم تأويله ، إشارة إلى عدم جهدهم واجتهادهم في طلب أسرار ما تضمنه القرآن انتهى ملخصاً .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : ما معنى التوقع في قوله تعالى : ولما يأتهم تأويله ؟ (قلت) : معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ، ومعرفة التأويل تقليداً للآباء ، وكذبوه بعد التدبر تمرداً وعناداً فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به ، وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علوّ شأنه وإعجازه لما كرر عليهم التحدي ورازوا قواهم في المعارضة ، واستيقنوا عجزهم عن مثله ، فكذبوا به بغياً وحسداً انتهى .

ويحتاج كلامه هذا إلى نظر .

وقال أيضاً : ويجوز أن يكون المعنى : ولما يأتهم تأويله ، ولما يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب أي عاقبته ، حتى يتبين لهم أكذب هو أم صدق ؟ يعني : أنه كتاب معجز من جهتين : من جهة إعجاز نظمه ، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب .

فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز ، وقبل أن يخبروا إخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه انتهى .

وبقيت جملة الإحاطة بلم ، وجملة إتيان التأويل بلما ، ويحتاج في ذلك إلى فرق دقيق .

والكاف في موضع نصب أي : مثل ذلك التكذيب كذب الذين من قبلهم ، يعني : قبل النظر في معجزات الأنبياء وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم ، ولكن قلدوا الآباء عاندوا .

قال ابن عطية : قال الزجاج : كيف ، في موضع نصب على خبر كان ، لا يجوز أن يعمل فيه انظر ، لأن ما قبل الاستفهام لا يعمل فيه ، هذا قانون النحويين لأنهم عاملوا كيف في كل مكان معاملة الاستفهام المحض .

(229/361)

في قولك : كيف زيد ؟ ولكيف تصرفات غير هذا تحل محل المصدر الذي هو كيفية ، وينخلع معنى الاستفهام ، ويحتمل هذا الموضع أنْ يكون منها ومن تصرفاتها قولهم : كن كيف شئت ، وانظر قول البخاري : كيف كان بدء الوحي ، فإنه لم يستقيم انتهى .

وقول الزجاج : لا يجوز أن يعمل فيه انظر ، وتعليله : يريد لا يجوز أن تعمل فيه انظر لفظاً ، لكنّ الجملة في موضع نصب لانظر معلقة ، وهي من نظر القلب .

وقول ابن عطية : هذا قانون النحويين إلى آخر تعليله ، ليس كما ذكر ، بل لكيف معنيان : أحدهما : الاستفهام المحض ، وهو سؤال عن الهيئة ، إلا أن تعلق عنها العامل فمعناها معنى الأسماء التي يستفهم بها إذا علق عنها العامل .

والثاني : الشرط .

لقول العرب : كيف تكون أكون وقوله : ولكيف تصرفات إلى آخره ، ليس كيف تحل محل المصدر ، ولا لفظ كيفية هو مصدر ، إنما ذلك نسبة إلى كيف .

وقوله : ويحتمل أن يكون هذا الموضع منها ومن تصرفاتها قولهم : كن كيف شئت ، لا يحتمل أن يكون منها ، لأنه لم يثبت لها المعنى الذي ذكر من كون كيف بمعنى كيفية وادعاء مصدر كيفية .

وأما كن كيف شئت ، فكيف ليست بمعنى كيفية ، وإنما هي شرطية وهو المعنى الثاني الذي لها .

وجوابها محذوف التقدير : كيف شئت فكن ، كما تقول : قم متى شئت ، فمتى اسم شرط ظرف لا يعمل فيه قم ، والجواب محذوف تقديره : متى شئت فقم ، وحذف الجواب لدلالة ما قبله عليه كقولهم : إضرب زيداً إنْ أساء إليك ، التقدير : إن أساء إليك فاضربه ، وحذف فاضربه لدلالة اضرب المتقدم عليه .

وأما قول البخاري : كيف كان بدء الوحي ؟ فهو استفهام محض ، إما على سبيل الحكاية كأنّ قائلاً سأله فقال : كيف كان بدء الوحي ؟ فأجاب بالحديث الذي فيه كيفية ذلك .

والظالمين : الظاهر أنه أريد به الذين من قبلهم ، ويحتمل أن يراد به من عاد عليه ضمير بل كذبوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(230/361)

وقال أبو السعود :

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ ﴾

إضرابٌ وانتقالٌ عن إظهار بطلانِ ما قالوا في حق القرآن العظيم بالتحدّي إلى إظهاره ببيانِ أنه كلامٌ ناشيءٌ عن جهلهم بشأنه الجليلِ (فما) عبارةٌ عن كله لا عما فيه من ذكر البعث والجزاءِ وما يخالف دينَهم كما قيل ، فإنه مما يجب تنزيهُ ساحةِ التنزيلِ عن مثله أي سارعوا

إلى تكذيبه آثرَ ذي أثيرٍ من غير أن يتدبروا فيه ويقِفوا على ما في تضاعيفه من الشواهد الدالةِ على كونه كما وُصف آنفاً ويعلموا أنه ليس مما يمكن أن يكون له نظيرٌ يقدر عليه المخلوقُ ، والتعبيرُ عنه بما لم يحيطوا بعلمه دون أن يقال : بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحو ذلك للإيذان بكمال جهلِهم به وأنهم لم يعلموه إلا بعنوان عدمِ العلمِ به وبأن تكذيبَهم به إنما هو بسبب عدم علمِهم به لما أن إدارةَ الحكم على الموصول مشعرةٌ بعلية ما في حيز الصلةِ له ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ عطف على الصلة أو حالٌ من الموصول أي ولم يقِفوا بعدُ على تأويله ولم يبلُغ أذهانَهم معانيه الرائقةُ المنبئةُ عن علو شأنِه ، والتعبيرُ عن ذلك بإتيان التأويل للإشعار بأن تأويلَه متوجّهٌ إلى الأذهان منساقٌ إليها بنفسه أو لم يأتِهم بعدُ تأويلُ ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يتبين أنه صدقٌ أم كذبٌ . والمعنى أن القرآنَ معجزٌ من جهة النظمِ والمعنى ومن جهة الإخبار بالغيب ، وهم قد فاجأوا تكذيبَه قبل أن يتدبروا نظمَه ويتفكروا في معناه أو ينتظروا وقوعَ ما أخبر به من الأمور المستقبلةِ ، ونفيُ إتيان التأويل بكلمة لمّا الدالةِ على التوقع بعد نفي الإحاطةِ بعلمه بكلمة لم لتأكيد الذمّ وتشديد التشنيعِ فإن الشناعةَ في تكذيب الشيء قبل علمِه المتوقّعِ إتيانُه أفحشُ منها في تكذيبه قبل علمِه مطلقاً ، والمعنى أنه كان يجب عليهم أن يتوقفوا إلى زمان وقوعِ المتوقَّعِ فلم يفعلوا ، وأما أن المتوقعَ قد وقع بعدُ وأنهم استمرّوا عند ذلك أيضاً على ما هم عليه أو لا فلا تعرّضَ

له هاهنا والاستشهادُ عليه بعدم انقطاعِ الذمِّ أو ادعاءُ أن قولَهم افتراه تكذيبٌ بعد التدبر ناشىءٌ من عدم التدبر فتدبر ، كيف لا وهم لم يقولوه بعد التحدي بل قبل وادعاءُ كونِه مسبوقاً بالتحدي الواردِ في سورة البقرة يردّه أنها مدنية وهذه مكيةٌ وإنما الذي يدل عليه ما سيتلى عليك من قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ ﴾ الخ ،

وقوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ الخ ، وصفٌ لحالهم المحكيِّ وبيانٌ لما يؤدّي إليه من العقوبة أي مثلَ ذلك التكذيبِ المبنيِّ على بادي الرأي والمجازفةِ من غير تدبرٍ وتأمل ﴿ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي فعلوا التكذيبَ أو كذبوا ما كذبوا من المعجزات التي ظهرت على أيدي أنبيائِهم أو كذبوا أنبياءَهم ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة الظالمين ﴾ وهم الذين من قبلهم من المكذبين ، وإنما وضع المُظهرُ موضعَ المضمر للإيذان بكون التكذيبِ ظلماً أو بعليته لإصابة ما أصابهم من سوء العاقبةِ وبدخول هؤلاء الظالمين في زُمرتهم جزماً ووعيداً دخولاً أولياً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(232/361)

وقال الآلوسى :

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ ﴾

قيل : هو إضراب وانتقال عن إظهار بطلان ما قالوا في حق القرآن العظيم بالتحدي إلى إظهاره ببيان أنه كلام ناشىء عن عدم علمهم بكنه أمره والاطلاع على شأنه الجليل فما عبارة عن القرآن وهو المروى عن الحسن وعليه محققو المفسرن ، وقيل : هي عبارة عما ذكر فيه مما يخالف دينهم كالتوحيد والبعث والجزاء وليس بذاك سواء كانت الباء للتعدية كما هو المتبادر أم للسببية ، والمراد أنهم سارعوا إلى تكذيبه من غير أن يتدبروا ما فيه ويقفوا على ما في تضاعيفه من الشواهد الدالة على كونه كما وصف آنفاً ويعلموا أنه ليس مما يمكن أن يؤتى بسورة مثله ، والتعبير عنه بهذا العنوان دون أن يقال : بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحوه للإيذان بكمال جهلهم به وأنهم لم يعلموه إلا بعنوان عدم العلم به وبأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم إحاطتهم بعلمه لما أن تعليق الحكم بالموصول مشعر بعلية ما في حيز الصلة له ، وأصل الكلام بما لم يحيطوا به علماً إلا أنه عدل عنه إلى ما في النظم الكريم لأنه أبلغ ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ عطف على الصلة أو حال من الموصول أي ولم يقفوا بعد على معانيه الوضعية والعقلية المنبئة عن علو شأنه وسطوح برهانه ، فالتأويل نوع من التفسير ، والإتيان مجاز عن المعرفة والوقوف ، ولعل اختياره للإشعار بأن تلك المعاني متوجهة إلى الأذهان منساقة إلها بنفسها ، وجوز أن يراد بالتأويل وقوع مدلوله وهو عاقبته

وما يؤول إليه وهو المعنى الحققي عند بعض فإتيانه حينئذٍ مجاز عن تبينه وانكشافه ، أي ولم يتبين لهم إلى الآن تأويل ما فيه من الأخبار بالغيوب حتى يظهر أنه صدق أم كذب .

والمعنى أن القرآن معجز من جهة النظم .

(233/361)

والمعنى ومن جهة الإخبار بالغيب وهم فاجؤوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويتفكروا في معناه أو ينتظروا وقوع ما أخبر به من الأمور المستقبلة ، ونفى إتيان التأويل بكلمة ﴿ لَمَّا ﴾ الدالة على توقع منفيها بعد نفي الإحاطة بعلمه بكلمة لم لتأكيد الذم وتشديد التشنيع فإن الشناعة في تكذيب الشيء قبل علمه المتوقع إتيانه أفحش منها في تكذيبه قبل علمه مطلقاً .

وادعى بعضهم أن الإضراب عن التكذيب عناداً المدلول عليه بقوله سبحانه : ﴿ قُلْ فَأْتُوا ﴾ [يونس : 38] الخ فإن الإلزام إنما يأتي بعد ظهور العجز ، ومعنى هذا الإضراب ذمهم على التقلد وترك النظر مع التمكن منه وهو أدخل في الذم من العناد من وجه ، وذلك لأن التقليد اعتراف من صاحبه بالقصور في الفطنة ثم لا يعذر فيه فلا يرتضي ذو عقل أن يقلد رجلاً مثله من غير تقدم عله بفطنة وتجربة وأما العناد فقد يحمده بعض النفوس الأبية بل في

أشعارهم ما يدل على أنهم مفتخرون بذلك كقولهم

: فعاند من تطيق له عناداً . . .

ولا رد أن العناد لما كان بعد العلم كان أدخل في الذم فلا نسلم أنه أدخل فيه من التقليد بل من الجهل قبل التدبر دون اقتران التقليد به ، وإن سلم فهذا أيضاً أدخل من وجه ، وقد جعل مصب الإنكار على جمعهم بن الأمرين والجمع على كل حال أدخل من التفرد بواحد صح الإضراب فكأنه قيل : دع تحديهم وإلزامهم فإنهم لا يستأهلون الخطاب لأنهم مقلدون متهافتون في الأمر لا عن خبر وحجى .

(234/361)

وقد ذكر الزمخشري في هذا المقام ثلاثة أوجه ، الوجه الأول أن التقدير أم كذبوا وقالوا هو مفترى بعد العلم بإعجازه عناداً بل كذبوا به قبل أن يأتيهم العلم بوجه إعجازه أيضاً فهم مستمرون على التكذيب في الحالين مذمومون به موسومون برذيلتي التقليد والعناد جامعون بينهما بالنسبة إلى وقتين ، ووجه ذلك بأن ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ ﴾ صريح في تكذيبهم قبل العلم بوجه الإعجاز ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ يدل على امتداد هذا التكذيب إلى مجيء التأويل المنتظر بالنسبة إلى تكذيبهم قبل لا بالنسبة إلى زمان الإخبار فإن التأويل

أيضاً واقع ، وحينئذٍ إما أن يكون التكذيب قد زال فلا يتوجه عليهم الذم بالتكذيب الأول وإما أن يكون مستمراً وهو الواجب ليصح كونه وارداً ذماً لهم بالتسرع إلى التكذب الذي هو منطوق النص فيجب أن يكون العطف على قوله سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ [يونس : 38] ويكون ذلك لبيان أنهم كذبوا عن علم وهذا لبيان تكذيبهم قبله أيضاً ويكون الجهتان منظورتين وأنهم مذمومون فيهما .

والحاصل أن ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ [يونس : 38] لا مرية فيه أنه تكذيب بعد العلم لمكان الأمر بعده .

لكن لما جعل التوقع المفاد بلما لعلم الإعجاز لزم أن يكون بالنسبة إلى حالهم الأولى وهو التكذيب قبل العلم فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتوقع زواله بالعلم ويكون معنى المبالغة في ﴿ لَمَّا ﴾ الإشعار باستغراق الوقت للتكذيب إلى زمان التأويل المنتظر الواقع الذي كذبوا فيه عناداً وبغياً .

الوجه الثاني : حمل التأويل على المعنى الثاني الذي ذكرناه .

والمعنى بل سارعوا إلى التكذيب قبل الإحاطة بعلمه ليعرفوا إعجاز نظمه ، وقيل : إتيان التأويل المنتظر وهو ما يؤول إليه من الصدق في الإخبار بالمغيبات ، والمقصود من هذا ذمهم بالتسارع إلى التكذيب من الوجهين لكن لما كان مع الوجهين علم ما يتضمنه لو يدبروا لم يكن فيه شيء منتظر والثاني لما لم يكن كذلك كان فه أمر منتظر ، وأتى بحرف التوقع دليلاً عن أن هذا المنتظر كائن وسيظهر أنهم مبطلون فيه أيضاً كالأول ولا نظر إلى أنهم مذمومون حالتي العناد والتقليد بل المقصود كمال إظهار الإلزام بأنه مفروغ عنه مع أمثالهم للتهافت المذكور .

الوجه الثالث أن ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ [يونس : 38] ذم لطائفة كذبوا عن علم وهذا ذم لأخرى كذبت عن شك ولما وجد فيما بينهم القسمات أسند الكل إلى الكل وليس بدعا في القرآن ، والغرض من الاضراب تعميم التكذيب وانه كان الواجب على الشاك التوقف لا التسرع إلى التكذيب ومعنى التوقع أنه سيزل شكهم فسيعلم بعضهم ويبقى بعض على ما هو عليه ، والآية ساكتة عن التفصيل ناطقة بزوال الشك ولا خفاء أن الشاك ينتظر وكذلك كان صلى الله عليه وسلم يتوقع زوال شكهم انتهى ، ولا يخفى أن ما نقلنا أولاً أولى بالقبول عند ذوي العقول .

وأورد على دعوى أن ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ [يونس : 38] تكذيب بعد العلم أنها ناشئة

من عدم العلم وما سيق لاثباتها في حيز المنع فإن الإلزام بعد التحدي وذلك القول قبله ، وكونه مسبوقاً بالتحدي الوارد في سورة البقرة يرده أنها مدنية وهذه مكية .

(236/361)

نعم ربما يقال في الاستدلال على كون ذلك القول بعد العلم بوقوع حكايته في النظم الكريم بعد حكاية الإشارة إلى مضمونه بقوله تعالى : ﴿ قَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائت بِقُرْإن غَيْرِ هذا أَوْ بَدّلْهُ ﴾ [يونس : 15] ورده بما سمعته هناك حسبما قرره الجمهور ، وبيان ذلك أنهم نقل عنهم أولاً الإشارة إلى نسبة الافتراء إلى سيد الصادقين صلى الله عليه وسلم ثم نقل عنهم التصريح بذلك ، والظاهر أن الأمر حسبما نقل لكثرة وقوع التصريح بعد الإشارة ، وقد تخلل رداً أشاروا إليه في البين فيحتمل أنهم عقلوه وعلموا الحق لكنهم لم يقروا به عناداً وبغياً فصرحوا بما صرحوا فيكون ذلك منهم بعد العلم ولترقيهم من الإشارة إلى التصريح ترقي في الزامهم فإن هذا التحدي أظهر في الإلزام مما تقدم كما هو ظاهر ، لكن للمناقشة في هذا مجال ، ويخطر بالبال أنه يحتمل أن يكون الاضراب عن ذمهم بالتكذيب بالقرآن إلى ذمهم بالمسارعة إلى تكذيب ما لم يحيطوا به علماً وأن الوقوف على العلم به متوقع سواء كان قرآناً أو غيره فما عامة للأمرين ويدخل القرآن في العموم دخولاً أولياً ولعله

أولى مما قيل : إنه اضراب عن مقدر وينبغي أن تسمى بل هذه فصيحة فإن المعنى فما أجابوا أو ما قدروا أن يأتوا بل كذبوا الخ ﴿ كذلك ﴾ أي مثل تكذيبهم من غير تدبر وتأمل ﴿ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي فعلوا التكذيب أو كذبوا أنبياءهم فيما أتوا به ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة الظالمين ﴾ خطاب لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يكون عاماً لكل من يصلح له ، والمراد بالظالمين الذين من قبلهم ، ووضع المظهر موضع المضمر للإيذان بكون التكذيب ظلماً وبعليته لإصابة ما أصابهم من سوء العاقبة وبدخول هؤلاء الذين حكى عنهم ما حكى في زمرتهم جرماً ووعيداً دخولاً أولياً ، والفاء لترتيب ما بعدها على محذوف ينساق إليه الكلام أي فاهلكناهم فانظر الخ ، وكيف في موضع نصب خبر كان ، وقد

(237/361)

يتصرف فيها فتوضح موضع المصدر وهو كيفية ويخلع عنها معنى الاستفهام بالكلية ، وهي هنا تحتمل ذلك ، وكذا قول البخاري رضي الله تعالى عنه : كيف كان بدء الوحي كما قال السمين ؛ ونقل إنه أن فعل النظر معلق عن العمل لمكان كيف لأنهم عاملوها في كل موضع معاملة الاستفهام المحض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِه ﴾

إضراب وانتقال عن إظهار بطلان ما قالوا في حق القرآن العظيم بالتحدي ، إلى إظهاره ببيان أنه كلام ناشئ عن جهلهم بشأنه الجليل ، أي : سارعوا إلى التكذيب به ، وفاجؤوه في بديهة السماع ، قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ، ويقفوا على تأويله ومعانيه وما في تضاعيفه من الشواهد الدالة على كونه ليس مما يمكن أن يقدر عليه مخلوق ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم ، كالناشئ على التقليد من الحشوية ، إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه ، وإن كانت أضوأ من الشمس في ظهور الصحة ، وبيان الاستقامة ، أنكرها في أول وهلة ، واشمأز منها ، قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد ؛ لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه ، وفساد ما عداه من المذاهب . وسر التعبير : ﴿ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِه ﴾ الإيذان بكمال جهلهم به ، وأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم علمهم به كذا في " الكشاف وأبي السعود " .

﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ أي : بيان ما يؤول إليه ، مما توعدهم فيه . وهذا المعنى هو الصحيح في الآية . وقد مشى عليه غير واحد .

قال في " تنوير الاقتباس " : أي : عاقبة ما وعدهم في القرآن .

وقال الجلال : أي : عاقبة ما فيه من الوعيد .

وقال القاشاني : تأويله : أي : ظهور ما أشار إليه في مواعيده ، وأمثاله مما يؤول أمره وعلمه إليه ، فلا يمكنهم التكذيب ؛ لأنه إذا ظهرت حقائقه لا يمكن لأحد تكذيبه .

﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : بآيات الرسل ، قبل التدبر في معانيها .

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : من هلاكهم بسبب تكذيبهم . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 29 . 30 ﴾

(239/361)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) .

بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِقَامَةِ الْبُرْهَانِ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ عَاجِزًا كَغَيْرِهِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ فِي هِدَايَتِهِ ، وَفِي عِلْمِهِ وَلُغَتِهِ - وَمَا تَلَاهُ مِنْ

إِقَامَةِ الْحُجَجِ عَلَى بُطْلَانِ شِرْكِهِمْ ، وَمَا بَعْدَهُ مِنْ بَيَانِ حَالِهِمْ فِي اتِّبَاعِ أَكْثَرِهِمْ لِأَدْنَى الظَّنِّ وَأَضْعَفِهِ فِي عَقَائِدِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ - عَادَ إِلَى تَفْنِيدِ رَأْيِهِمُ الْأَفِينِ فِي الطَّعْنِ عَلَى الْقُرْآنِ بِمُقْتَضَى الظَّنِّ الضَّعِيفِ مِنَ الْأَكْثَرِينَ ، وَالْجُحُودِ الْعِنَادِيِّ مِنَ الْأَقَلِّينَ ، كَالزُّعَمَاءِ الْمُسْتَكْبِرِينَ ، فَقَالَ : (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ) النَّفْيُ هُنَا لِلشَّأْنِ الَّذِي هُوَ أَبْلَغُ وَآكَدُ مِنْ نَفْيِ الشَّيْءِ مُبَاشَرَةً كَمَا تَقَدَّمَ مِرَارًا ، وَإِنْ غَفَلَ عَنْ ذَلِكَ مَنْ أَعْرَبَهُ إِعْرَابًا آخَرَ لِقِصَرِ نَظَرِهِ عَلَى ظَاهِرِ اللَّفْظِ ، دُونَ مَا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ

(240/361)

فِي الرَّدِّ ، أَيْ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ فِي عُلُوِّ شَأْنِهِ ، الْمُحَلَّى لَهُ فِي أُسْلُوبِهِ وَنَظْمِهِ ، وَعُلُومِهِ الْعَالِيَةِ ، وَحِكْمَتِهِ السَّامِيَةِ ، وَتَشْرِيعِهِ الْعَادِلِ ، وَآدَابِهِ الْمُثْلَى ، وَتَمْحِيصِهِ لِلْحَقَائِقِ الْإِلَهِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَإِنْبَائِهِ بِالْغُيُوبِ الْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ ، وَجَعْلِ الْمَقْصِدِ مِنْ إِصْلَاحِهِ مَا بَيَّنَهُ آنِفًا مِنَ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالْهُدَى ، وَاجْتِنَابِ الضَّلَالِ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى ، وَالِاعْتِمَادِ فِيهِمَا عَلَى الْعِلْمِ الصَّحِيحِ - مَا كَانَ وَمَا صَحَّ وَلَا يُعْقَلُ أَنْ يَفْتَرِيَهُ أَحَدٌ عَلَى اللَّهِ مِنْ دُونِهِ وَيُسْنِدَهُ إِلَيْهِ ؛ إِذْ لَا يَقْدِرُ غَيْرُهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ ، فَإِنْ فُرِضَ أَنَّ بَشَرًا يَسْتَطِيعُ الْإِتْيَانَ بِمِثْلِهِ ، فَلَنْ يَكُونَ إِلَّا بَشَرًا أَرْقَى وَأَكْمَلَ مِنْ جَمِيعِ الْحُكَمَاءِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَكَذَا الْمَلَائِكَةِ وَمِثْلُهُ لَنْ يَفْتَرِيَ عَلَى اللَّهِ ، بَلْ

قَالَ أَشَدُّ الْكُفَّارِ عِنَادًا وَعَدَاوَةً لِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ أَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللَّهُ : إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكْذِبْ عَلَى بَشَرٍ قَطُّ أَفَيَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ ؟ ! .

(241/361)

(وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) أَيْ وَلَكِنْ كَانَ تَصْدِيقَ الَّذِي سَبَقَهُ مِنَ الْوَحْيِ لِرُسُلِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْإِجْمَالِ كَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِدَعْوَتِهِ إِلَى أُصُولِ دِينِ اللَّهِ الْإِسْلَامِ ، الَّتِي دَعَوْا إِلَيْهَا مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، بَعْدَ أَنْ نَسِيَ بَعْضُ ذَلِكَ بَقَايَا أَتْبَاعِهِمْ وَضَلُّوا عَنْ بَعْضٍ ، وَشَوَّهُوهُ بِالتَّقَالِيدِ الْمُبْتَدَعَةِ مِمَّا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ مُحَمَّدٌ الْأُمِّيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، أَوْ تَصْدِيقَ ذَلِكَ بِكَوْنِهِ جَاءَ وَفَاقًا لِمَا دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ لِأَهْلِ حَرَمِ اللَّهِ ، وَلِمَا بَشَّرَ بِهِ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ كَمَا بَيَّنَّاهُ بِالتَّفْصِيلِ ، فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ) (7 : 157) مِنْ جُزْءِ التَّفْسِيرِ التَّاسِعِ ، وَيَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَعْنَيَيْنِ .

(242/361)

(وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ) الْإِلَهِيِّ أَيْ جِنْسِهِ ، وَهُوَ مَا شَرَّعَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِيَكْتُبَ وَيَهْتَدِيَ بِهِ جَمِيعُ الْبَشَرِ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالشَّرَائِعِ وَالْعِبَرِ وَالْمَوَاعِظِ وَشُئُونِ الِاجْتِمَاعِ وَسُنَنِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ (لَا رَيْبَ فِيهِ) هُوَ لَا رَيْبَ فِيهِ ، أَوْ حَالَ كَوْنِهِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، أَيْ لَيْسَ فِيهِ مَثَارٌ لِلشَّكِّ وَلَا مَوْضِعٌ لِلرَّيْبِ ; لِأَنَّهُ الْحَقُّ وَالْهُدَى مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ وَحْيِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (4 : 82) .

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) انْتِقَالٌ مِنْ بَيَانِ كَوْنِهِ أَجَلَّ وَأَعْلَى مِنْ أَنْ يُفْتَرَى لِعَجْزِ الْخَلْقِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ ، إِلَى حِكَايَةِ زَعْمِ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلِينَ وَالْمُعَانِدِينَ أَنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - افْتَرَاهُ ،

(243/361)

وَالِاسْتِفْهَامُ فِيهِ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّعْجِيبِ ، أَوِ التَّمْهِيدِ بِهِ إِلَى الرَّدِّ عَلَيْهِ بِتَحَدِّي التَّعْجِيزِ ، وَهُوَ : (قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) فِي أُسْلُوبِهِ وَنَظْمِهِ وَتَأْثِيرِهِ وَهِدَايَتِهِ وَعِلْمِهِ ، مُفْتَرَاةٍ فِي مَوْضُوعِهَا ، لَا تَلْتَزِمُونَ أَنْ تَكُونَ حَقًّا فِي أَخْبَارِهَا ، (وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ) وَاطْلُبُوا لِلْمُظَاهَرَةِ لَكُمْ وَالْإِعَانَةِ عَلَى ذَلِكَ مَنِ اسْتَطَعْتُمْ دُعَاءَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ يَعْجِزُونَ عَنْ ذَلِكَ مِثْلَكُمْ ، فَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا

بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (17 : 88) وَهَذِهِ الْآيَةُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ ، وَقَدْ نَزَلَتْ قَبْلَ يُونُسَ (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فِي زَعْمِكُمْ أَنِّي افْتَرَيْتُهُ .

وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ لَفْظَ سُورَةٍ هُنَا يَصْدُقُ بِالْقَصِيرَةِ كَالطَّوِيلَةِ ، وَبَيَّنَّا وَجْهَهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ التَّحَدِّي مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (2 : 23) وَهُوَ الْمُتَبَادَرُ مِنْ تَنْكِيرِ السُّورَةِ ، إِلَّا أَنْ يُقَالَ : إِنَّ التَّنْكِيرَ لِلتَّعْظِيمِ ، أَوْ لِنَوْعٍ مِنَ السُّورِ يَدُلُّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ كَالسُّوَرِ الَّتِي فِيهَا قَصَصُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَخْبَارُ وَعِيدِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ لِأَنَّ الِافْتِرَاءَ تَتَعَلَّقُ تُهْمَتُهُ بِالْإِخْبَارِ لَا بِالْإِنْشَاءِ مِنْ أَمْرٍ وَنَهْيٍ ، كَمَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

(244/361)

وَرَجَّحَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْمُرَادَ السُّورَةُ الطَّوِيلَةُ ، أَيْ مِثْلُ هَذِهِ السُّورَةِ نَفْسِهَا (يُونُسَ) فِي اشْتِمَالِهَا عَلَى أُصُولِ الدِّينِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، كَمَا يُطْلَقُ لَفْظُ الْكِتَابِ أَوْ كِتَابٍ أَحْيَانًا وَيُرَادُ بِهِ السُّورَةُ الْوَاحِدَةُ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا ، كَقَوْلِ مَنْ قَالَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (الم كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ) (7 : 1 و2) أَيْ هَذِهِ السُّورَةُ كِتَابٌ إِلَخْ وَمِنْ تَنْكِيرِ لَفْظِ (سُورَةٍ) الْمُرَادِ بِهَا النَّوْعُ دُونَ الْوَحْدَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ) (47 : 20) أَيْ يُفْرَضُ فِيهَا الْقِتَالُ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ بَعْدَهُ : (فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ

مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ) (47 : 20) الْآيَةَ . وَسَنَعُودُ إلَى هَذَا الْبَحْثِ فِي تَفْسِيرِ التَّحَدِّي بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ مِنْ سُورَةِ هُودٍ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِالْبَدَاهَةِ أَنَّهُ مَا كَانَ لِعَاقِلٍ مِثْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَتَحَدَّاهُمْ هَذَا التَّحَدِّيَ ، لَوْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا مُوقِنًا بِأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ الْإِتْيَانَ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ فِي جُمْلَتِهِ وَلَا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، لَا أَفْرَادُ الْعُلَمَاءِ وَالْبُلَغَاءِ مِنْهُمْ وَلَا جَمَاعَاتُهُمْ وَلَا جُمْلَتُهُمْ ، إنْ

(245/361)

فُرِضَ إمْكَانُ اجْتِمَاعِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ وَمُظَاهَرَةُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ، فَلَوْ كَانَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَهُ وَأَلَّفَهُ لِمَصْلَحَةِ النَّاسِ بِرَأْيِهِ - كَمَا ارْتَأَى بَعْضُ الْمُعْجَبِينَ بِعَقْلِهِ وَذَكَائِهِ وَعُلُوِّ أَفْكَارِهِ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، وَعُلَمَاءِ الْمَادِّيِّينَ الْمُتَأَخِّرِينَ - لَكَانَ عَقْلُهُ وَذَكَاؤُهُ وَعُلُوُّ فِكْرِهِ مَانِعَاتٍ لَهُ مِنْ هَذَا الْجَزْمِ بِعَجْزِ عُقَلَاءِ الْخَلْقِ مِنَ الْعَوَالِمِ الظَّاهِرَةِ (الْإِنْسِ) وَالْخَفِيَّةِ (الْجِنِّ) عَنِ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِ مَا أَتَى هُوَ بِهِ ; فَإِنَّ كُلَّ عَاقِلٍ مُتَوَسِّطِ الذَّكَاءِ وَالْفِكْرِ يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا أَمْكَنَهُ مِنَ الْأَمْرِ فَهُوَ يُمْكِنُ غَيْرَهُ ، بَلْ لَا يَأْمَنُ أَنْ يُوجَدَ مَنْ هُوَ أَقْدَرُ عَلَيْهِ مِنْهُ ، فَهَذِهِ آيَةٌ بَيِّنَةٌ لِلْعَقْلِ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ مُوقِنًا بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنَّهُ هُوَ كَغَيْرِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، وَهِيَ إحْدَى حُجَجِ الَّذِينَ قَالُوا إنَّهُ لَا يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ كَاذِبًا

مُفْتَرِيًا لَهُ . (فَإِنْ قِيلَ) إِنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَقِدَ عَجْزَ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ فِي حَالِ كَوْنِهِ وَحْيًا مِنْ نَفْسِهِ ، مُعْتَقِدًا ، أَنَّهُ مِنْ رَبِّهِ . (قُلْنَا أَوَّلًا) إِنَّ دَعْوَى الْوَحْيِ النَّفْسِيِّ بَاطِلَةٌ بِأَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ كَمَا تَقَدَّمَ . (وَثَانِيًا) إِنَّ عَجْزَ غَيْرِهِ مِمَّنْ كَانُوا أَفْصَحَ مِنْهُ دَلِيلٌ عَلَى عَجْزِهِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى .

(246/361)

ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَمَنْ عَلَى مَذَاهِبِهِمْ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ، يَعْتَمِدُونَ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَى تَحَدِّيهِ لِلْعَرَبِ بِالْقُرْآنِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ إِجْمَالًا ، أَوْ بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ فَبِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ فَبِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَيْ فِي أُمِّيَّتِهِ ، وَبِمَا ظَهَرَ مِنْ عَجْزِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ عَنْ ذَلِكَ ; إِذْ لَوْ قَدَرَ أَحَدٌ عَلَى الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ أَوْ قَرِيبٍ مِنْهُ لَفَعَلُوا ; لِتَوَفُّرِ الدَّوَاعِي مِنْ أَعْدَائِهِ عَلَى تَكْذِيبِ دَعْوَاهُ وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ اسْتِفْحَالِ قُوَّتِهِ ، وَاضْطِرَارِهِمْ إِلَى بَذْلِ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي مُكَافَحَتِهِ ، وَبِهَذَا يُعْلَمُ الْفَرْقُ الْوَاضِحُ بَيْنَ تَحَدِّيهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِالْقُرْآنِ ، وَتَحَدِّي بَعْضِ الدَّجَّالِينَ الْمَغْرُورِينَ بِبَعْضِ مَا هَذَوْا بِهِ مِنْ نَثْرٍ وَنَظْمٍ وَسَمَّوْهُ وَحْيًا ، كَالْبَابِ وَالْبَهَاءِ وَالْقَادِيَانِيِّ ، فَإِنَّهُ كَانَ سُخْرِيَةً لِلْعُلَمَاءِ وَالْبُلَغَاءِ ، وَقَدْ أَخْفَى الْبَهَائِيُّونَ كِتَابَهُ (الْأَقْدَسَ) عَنِ النَّاسِ .

ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَهُمْ عَلَى أَنَّ تَحَدِّيَ الْعَرَبِ إِنَّمَا كَانَ بِمَا امْتَازَ بِهِ مِنَ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ اللُّغَوِيَّةِ .

وَقَدْ صَنَّفُوا فِي بَيَانِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ بِهَا كُتُبًا مُسْتَقِلَّةً ، وَلَمْ يُوَفُّوهُ حَقَّهُ مِنْ نَاحِيَتِهَا وَلَا سِيَّمَا نَظْمِهِ الْعَجِيبِ بَلَهَ النَّوَاحِي الْمَعْنَوِيَّةِ . (وَقَالُوا) إِنَّ وَجْهَ الدَّلَالَةِ فِي ذَلِكَ عَلَى صِدْقِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي دَعْوَى النُّبُوَّةِ وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، هُوَ أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ تَصْدِيقَهُ لَهُ كَأَنَّهُ قَالَ (صَدَقَ عَبْدِي فِيمَا يُبَلِّغُهُ عَنِّي) وَلِذَلِكَ رَجَّحُوا أَنَّ هَذِهِ الدَّلَالَةَ وَضْعِيَّةٌ كَدَلَالَةِ الْكَلَامِ الْإِلَهِيِّ ، وَقِيلَ : إِنَّهَا عَقْلِيَّةٌ وَتَقَدَّمَ بَسْطُ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْبَقَرَةِ .

وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ فِي إِعْجَازِهِ بِالْبَلَاغَةِ قَدِ اعْتَرَضَ عَلَيْهِ بَعْضُ النَّاسِ ، حَتَّى الْمُتَقَدِّمِينَ الَّذِينَ كَانُوا أَقْرَبَ إِلَى فَهْمِهِ وَامْتِيَازِهِ بِهَا مِنْ أَهْلِ عَصْرِنَا . قَالَ الْفَرِيقَانِ : إِنَّ لِكُلِّ بَلِيغٍ مِنْ فُصَحَاءِ كُلِّ أُمَّةٍ أُسْلُوبًا يَمْتَازُ بِهِ ، وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ تَقُولُونَ إِنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ أَفْصَحَ قُرَيْشٍ وَهُمْ أَفْصَحُ الْعَرَبِ ، فَلَا غَرْوَ أَنْ يَمْتَازَ فِيهِمْ بِهَذَا الْأُسْلُوبِ وَالنَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ كَمَا امْتَازَ بَعْضُ شُعَرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ بِأُسْلُوبٍ خَاصٍّ وَكَمَا امْتَازَ شَكْسْبِيرُ فِي شُعَرَاءِ الْإِنْكِلِيزِ وَفِيكْتُورْ هُيُغُو فِي الشُّعَرَاءِ الْفَرَنْسِيسِ ، فَعَجْزُ الْعَرَبِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِ الْقُرْآنِ فِي بَلَاغَتِهِ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

(وَنَقُولُ) إِنَّ هَذَا الِاعْتِرَاضَ يَذُوبُ فَيَزُولُ إِذَا عُرِضَ عَلَى الْأَشِعَّةِ الَّتِي اقْتَبَسْنَاهَا مِنْ ضِيَاءِ شَمْسِ الْقُرْآنِ ، فِي إِعْجَازَيْهِ اللَّفْظِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ ، ثُمَّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَتَيْنِ (15 ، 16) مِنْهَا . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ فِي إِحْدَى مُقَدِّمَاتِهِ : إِنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ أَفْصَحَ قُرَيْشٍ وَأَبْلَغَهُمْ فِي لُغَتِهِ ، فَقَدْ بَيَّنَّا بِالنَّقْلِ الثَّابِتِ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَكُنْ قَبْلَ نُزُولِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ يُذْكَرُ فِي فُحُولِ فُصَحَائِهِمْ وَلَا فِي وَسَطِهِمْ بَلْ لَمْ يَكُنْ يُعَدُّ مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا صَارَ كَلَامُهُ مُمْتَازًا بِالْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ بِمَا اسْتَفَادَهُ مِنْ وَحْيِ الْقُرْآنِ ، كَمَا اسْتَفَادَ مَنْ دُونَهُ مِنْهُ ، عَلَى أَنَّهُ ظَلَّ كَكَلَامِ غَيْرِهِ مِنَ الْبَشَرِ فِي الْبُعْدِ عَنْ مُشَابَهَةِ نَظْمِ الْقُرْآنِ وَأُسْلُوبِهِ وَتَأْثِيرِهِ ، وَهَذَا التَّفَاوُتُ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي كَلَامِ بُلَغَاءِ الْبَشَرِ .

(249/361)

(فَإِنْ قِيلَ) إِنَّ مَا يَظْهَرُ فِي السُّوَرِ الطَّوِيلَةِ مِنْ رَوْعَةِ الْبَلَاغَةِ وَبَرَاعَةِ النَّظْمِ لَا يَظْهَرُ فِي السُّوَرِ الْقَصِيرَةِ . (قُلْنَا) لَكِنَّ النَّاسَ عَجَزُوا عَنْ مُعَارَضَةِ السُّوَرِ الْقِصَارِ كَغَيْرِهَا ، وَلِخَفَاءِ وَجْهِ الْإِعْجَازِ فِيهَا عَلَى بَعْضِهِمْ قَالَ مَنْ قَالَ مِنْهُمْ : إِنَّ عَجْزَهُمْ كَانَ بِصَرْفِ اللهِ تَعَالَى لِقُدَرِهِمْ عَنِ الْمُعَارَضَةِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ التَّحَدِّيَ إِنَّمَا كَانَ بِسُورَةٍ طَوِيلَةٍ كَمَا نَقَلْنَاهُ آنِفًا عَنِ الرَّازِيِّ

وَوَجَّهْنَاهُ بِأَظْهَرِ مِمَّا وَجَّهَهُ بِهِ ، وَهُوَ أَنْ تَكُونَ مِمَّا أَرَادُوهُ مِنْ تُهْمَةِ افْتِرَائِهِ .

وَبَيَانُهُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ التَّحَدِّي بِسُورَةٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَاةٍ خَاصًّا بِالسُّوَرِ الَّتِي فِيهَا قَصَصُ الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ بِالتَّفْصِيلِ ، فَهَذِهِ كُلُّهَا مِنَ السُّوَرِ الطَّوِيلَةِ كَالْأَعْرَافِ وَيُونُسَ وَهُودٍ وَالْحِجْرِ وَطَهَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالطَّوَاسِينِ وَالْعَنْكَبُوتِ ، وَإِنْ كَانَ يَعُمُّ السُّوَرَ

(250/361)

الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى نُذُرِ أُولَئِكَ الْأَقْوَامِ الْمُكَذِّبِينَ لِرُسُلِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ لِدَعْوَتِهِمْ لَهُمْ فَيَدْخُلُ فِي عُمُومِهِ بَعْضُ سُوَرِ الْمُفَصَّلِ أَيْضًا كَالذَّارِيَاتِ وَالنَّجْمِ وَالْقَمَرِ وَالْحَاقَّةِ وَالْفَجْرِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِيهِ عَلَى كُلٍّ مِنَ التَّقْدِيرَيْنِ شَيْءٌ مِنَ السُّوَرِ الْقَصِيرَةِ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ .

وَالتَّحَدِّي فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَسُورَةِ هُودٍ وَسُورَةِ الطُّورِ مَبْنِيٌّ عَلَى تُهْمَةِ الِافْتِرَاءِ وَالتَّكْذِيبِ كَمَا تَرَى إِيضَاحَهُ فِي آيَةِ : (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) (39) الَّتِي تَلِي هَذَا .

(251/361)

وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا فِي هَذِهِ السُّوَرِ مِنَ الْمُفَصَّلِ مِنَ التَّعْبِيرِ عَنِ الْمَعْنَى الْوَاحِدِ بِالْعِبَارَاتِ الْعَدِيدَةِ مَعَ تَعَدُّدِ أَسَالِيبِهَا ، وَاخْتِلَافِ نَظْمِهَا ، وَأَنْوَاعِ فَوَاصِلِهَا ، وَأَلْوَانِ بَيَانِهَا ، وَقَوَارِعِ نُذُرِهَا ، وَصَوَادِعِ وَعِيدِهَا ، وَقَابِلِيَّتِهَا لِلتَّرْتِيلِ بِالنَّغَمَاتِ الْمُؤَثِّرَةِ اللَّائِقَةِ بِكُلٍّ مِنْهَا ، فَأَجْدِرْ بِهِ إِنْ كَانَ قَدْ أُوتِيَ حَظًّا مِنْ بَيَانِ هَذِهِ اللُّغَةِ وَالشُّعُورِ الذَّوْقِيِّ بِبَلَاغَتِهَا ، أَنْ يَقْتَنِعَ بِأَنَّ إِعْجَازَهَا اللُّغَوِيَّ كَإِعْجَازِ قِصَصِ السُّوَرِ الطَّوِيلَةِ أَوْ أَظْهَرَ ، بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ كَوْنِ مَوْضُوعِهَا حَقًّا مُوحًى بِهِ مِنَ اللهِ تَعَالَى أَمْ لَا ، وَأَنْ يَتَجَلَّى لَهُ سِرُّ تَأْثِيرِهَا الْعَجِيبِ فِي أُولَئِكَ الْمُكَذِّبِينَ مِنْ بُلَغَاءِ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ ، الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيُّ – وَهُوَ فِي الذُّرْوَةِ الْعُلْيَا مِنْهُمْ – بِعِبَارَتِهِ الْمَشْهُورَةِ وَمِنْهَا قَوْلُهُ : (وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَلَا يُعْلَى ، وَإِنَّهُ لَيُحَطِّمُ مَا تَحْتَهُ) وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا بَيَّنَّاهُ فِي مَبَاحِثِ الْوَحْيِ ، وَأَنْ يَعْلَمَ صِدْقَ الْإِمَامِ عَبْدِ الْقَاهِرِ فِي قَوْلِهِ : (أَسَالَ عَلَيْهِمُ الْوَادِيَ عَجْزًا ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمْ مَنَافِذَ الْقَوْلِ أَخْذًا) عِلْمًا ذَوْقِيًّا وِجْدَانِيًّا .

(252/361)

وَأَمَّا مَنْ لَا يَعْرِفُ مِنْ بَلَاغَةِ هَذِهِ اللُّغَةِ إِلَّا الْقَوَاعِدَ الْفَنِّيَّةَ ، وَأَمْثِلَتَهَا الْجُزْئِيَّةَ الْمُدَوَّنَةَ فِي مِثْلِ مُخْتَصَرِ السَّعْدِ التَّفْتَازَانِيِّ وَمُطَوَّلَةٍ مِنْ كُتُبِ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ ، فَأَجْدَرُ بِهِ أَنْ يُطَبِّقَهَا عَلَى كُلِّ كَلَامٍ وَنَاهِيكَ بِهِ إِذَا عَدَّ مِنْهَا مَا ذَكَرَهُ الْمُتَنَطِّعُونَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ فِيمَا يُسَمُّونَهُ الْمُحَسِّنَاتِ

الْبَدِيعِيَّةِ ، وَشُرُوطِ الْفَصَاحَةِ وَعُيُوبِهَا ، وَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ بَعْضَهُمْ مَجَّ ذَوْقَهُ بَعْضُ فَوَاصِلِ سُورَةِ الْقَمَرِ ، فَكَانَ بَعْضُ الْمُسْتَشْرِقِينَ أَصَحَّ مِنْهُ فَهْمًا وَذَوْقًا ، إذْ قَالَ إنَّهَا مِنْ أَبْلَغِ سُوَرِ الْقُرْآنِ أَوْ أَبْلَغِهَا كُلِّهَا بِلَا اسْتِثْنَاءٍ .

(فَإِنْ قِيلَ) إنَّ التَّحَدِّيَ فِي السُّوَرِ الثَّلَاثِ : (يُونُسَ ، وَهُودٍ ، وَالطُّورِ) جَاءَ رَدًّا عَلَى تُهْمَةِ الِافْتِرَاءِ وَالتَّقَوُّلِ كَمَا قُلْتُمْ ، فَيَظْهَرُ فِيهِ أَنْ يَخْتَصَّ بِالسُّوَرِ الَّتِي تَظْهَرُ فِيهَا تُهْمَةُ الِافْتِرَاءِ كَمَا قَرَّرْتُمْ وَلَكِنَّ التَّحَدِّيَ فِي آيَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَيْسَ كَذَلِكَ (قُلْنَا) لَكِنَّهُ

(253/361)

جَوَابٌ لِلْمُرْتَابِينَ فِيهِ وَهُمُ الْمُكَذِّبُونَ ، فَهُوَ تَأْكِيدٌ لِمَا قَبْلَهُ ; لِأَنَّهُ نَزَلَ بَعْدَهُ . وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ وَهُنَّ مَكِّيَّاتٌ . فَإِنْ مَنَعْنَا هَذَا وَقُلْنَا إنَّ التَّنْكِيرَ فِيهَا يَصْدُقُ بِأَصْغَرِ سُورَةٍ وَهِيَ الْكَوْثَرُ ، وَسَلَّمْنَا أَنَّهُ لَا يَظْهَرُ فِيهَا إعْجَازُ النَّظْمِ وَالْأُسْلُوبِ (قُلْنَا) إنَّهَا مُعْجِزَةٌ بِمَا فِيهَا مِنَ الْإِيجَازِ وَخَبَرَيِ الْغَيْبِ فِي أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا كَمَا شَرَحْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ مِنَ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ . وَفِي الْجَلَالَيْنِ مَا يُؤَيِّدُ هَذَا فَقَدْ قَالَ : فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ : هِيَ مِثْلُهُ فِي الْبَلَاغَةِ وَحُسْنِ النَّظْمِ وَالْإِخْبَارِ عَنِ الْغَيْبِ ا ه . وَقَالَ فِي آيَةِ يُونُسَ : هِيَ مِثْلُهُ فِي الْفَصَاحَةِ

وَالْبَلَاغَةِ عَلَى وَجْهِ الِافْتِرَاءِ اهـ . وَإِعْجَازُ السُّوَرِ الصَّغِيرَةِ الْمَعْنَوِيُّ بِالْهُدَى وَالنُّورِ وَإِصْلَاحِ الْقُلُوبِ لَا يُكَابِرُ فِيهِ إلَّا الْجَهُولُ الْمَحْجُوبُ .

(254/361)

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) هَذَا إضْرَابٌ عَنْ بَعْضِ مَا يَتَضَمَّنُهُ قَوْلُهُمْ : (افْتَرَاهُ) وَمَا يَسْتَلْزِمُهُ كَكَوْنِهِمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَكْذِبُ ، أَوْ أَنَّ الْقُرْآنَ فِي جُمْلَتِهِ افْتِرَاءٌ مِنْهُ ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ تَحَرِّيَهُ الصِّدْقَ فِي كُلِّ مَا يَقُولُهُ ، وَانْتِقَالٌ إلَى بَيَانِ مَوْضُوعِ تَكْذِيبِهِمْ بِظَنِّهِمْ أَنَّهُ مُحَالٌ فِي نَفْسِهِ ، وَهُوَ مَا أَنْذَرَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إنْ لَمْ يُؤْمِنُوا لَهُ وَيَتَّبِعُوهُ ، وَقَدْ وَصَفَهُمْ بِعَدَمِ إحَاطَتِهِمْ بِعِلْمِهِ ، أَيْ لَمْ يَعْلَمُوهُ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهِ وَنَوَاحِيهِ ، وَبِأَنَّهُ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، أَيْ مِصْدَاقُهُ إلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ مَعَ تَوَقُّعِ إتْيَانِهِ ، وَبِتَشْبِيهِ تَكْذِيبِهِمْ إيَّاهُ بِتَكْذِيبِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ بِمِثْلِهِ ، فَبَيَّنَ مَا كَذَّبُوا بِهِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الثَّلَاثِ .

(255/361)

فَالْوَصْفُ (الْأَوَّلُ) لِمَا كَذَّبُوا بِهِ أَنَّهُ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ فَيَكُونُ تَكْذِيبُهُمْ صَحِيحًا ، وَإِنَّمَا ظَنُّوا ظَنًّا ، وَالظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (وَالثَّانِي) قَوْلُهُ : وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ أَيْ وَلَمْ يَأْتِهِمْ إلَى الْآنَ مَا يَئُولُ إلَيْهِ وَيَكُونُ مِصْدَاقًا لَهُ بِالْفِعْلِ ، وَإِتْيَانُهُ مُتَوَقَّعٌ بَلْ آتٍ لَا بُدَّ مِنْهُ ، وَقَدْ خَبَّطَ الْمُفَسِّرُونَ الْفَنِّيُّونَ فِي مَعْنَى هَذَا التَّأْوِيلِ مُنْذُ الْقُرُونِ الْوُسْطَى ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَفْهَمُوا الْقُرْآنَ بِلُغَتِهِ الْحُرَّةِ الْفُصْحَى ، بَلْ بِلُغَةِ اصْطِلَاحَاتِهِمُ الْفَنِّيَّةِ وَلَا سِيَّمَا أُصُولِ الْفِقْهِ وَالْكَلَامِ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّهُمْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يَفْهَمُوا مَعْنَاهُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّهُمْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يَظْهَرْ لَهُمْ وَجْهُ الْإِعْجَازِ فِيهِ ، وَلَوْ صَحَّ هَذَا أَوْ ذَاكَ لَكَانُوا مَعْذُورِينَ بِالتَّكْذِيبِ طَبْعًا ، وَسَبَبُ مِثْلِ هَذَا الْغَلَطِ جَعْلُهُمُ التَّأْوِيلَ تَارَةً بِمَعْنَاهُ عِنْدَ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ وَهُوَ رَدِيفُ التَّفْسِيرِ ، وَتَارَةً بِمَعْنَاهُ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْأُصُولِيِّينَ ، وَهُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ مَعْنَاهُ الظَّاهِرِ إلَى مَعْنًى يَحْتَمِلُهُ فِي اللُّغَةِ بِشَرْطِ مُوَافَقَتِهِ لِلشَّرْعِ ؛ لِتَخْرُجَ تَأْوِيلَاتُ الْبَاطِنِيَّةِ وَغُلَاةِ الصُّوفِيَّةِ .

وَقَدْ جَمَعَ الرَّازِيُّ كَعَادَتِهِ كُلَّ مَا رَآهُ مُحْتَمَلًا مِنْ هَذَا التَّكْذِيبِ فِي خَمْسَةِ وُجُوهٍ :

(256/361)

---

(1) تَكْذِيبُ قَصَصِ الْقُرْآنِ ، وَذَكَرَ لَهَا ثَلَاثَ صُوَرٍ . (2) حُرُوفُ التَّهَجِّي فِي أَوَائِلِ بَعْضِ السُّوَرِ إذْ لَمْ يَفْهَمُوا مِنْهَا شَيْئًا ، وَزَعَمَ أَنَّ اللَّهَ أَجَابَ عَنْهَا بِآيَةِ آلِ عِمْرَانَ فِي الْمُحْكَمَاتِ

وَالْمُتَشَابِهَاتِ . (3) ظُهُورُ الْقُرْآنِ مَنجَمًا شَيْئًا فَشَيْئًا . (4) أَخْبَارُ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ .

(5) الْعِبَادَاتُ ، قَالُوا إِنَّ اللهَ مُسْتَغْنٍ عَنْ عِبَادَتِنَا ، وَكُلُّ هَذِهِ الْوُجُوهِ بَاطِلَةٌ لَا يُحْتَمَلُ إِرَادَةُ شَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا الرَّابِعُ ، وَفَسَّرَ عَدَمَ إِتْيَانِهِمْ بِجَهْلِهِمْ حَقِيقَتَهَا وَحِكَمَهَا ، وَهُوَ بَاطِلٌ ، وَنَاهِيكَ بِحَمْلِهَا عَلَى الْحُرُوفِ الْمُفْرَدَةِ فِي أَوَّلِ السُّوَرِ وَهِيَ لَيْسَتْ بِكَلَامٍ فَيُكَذَّبَ أَوْ يُصَدَّقَ . ثُمَّ قَالَ : (قَالَ أَهْلُ التَّحْقِيقِ : قَوْلُهُ (وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ غَيْرَ عَارِفٍ بِالتَّأْوِيلَاتِ وَقَعَ فِي الْكُفْرِ وَالْبِدْعَةِ ; لِأَنَّ ظَوَاهِرَ النُّصُوصِ قَدْ يُوجَدُ فِيهَا مَا تَكُونُ مُتَعَارِضَةً ، فَإِذَا لَمْ يَعْرِفِ الْإِنْسَانُ وَجْهَ التَّأْوِيلِ فِيهَا وَقَعَ فِي قَلْبِهِ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ لَيْسَ بِحَقٍّ . أَمَّا إِذَا عَرَفَ وَجْهَ التَّأْوِيلِ طَبَّقَ التَّنْزِيلَ

عَلَى التَّأْوِيلِ ، فَيَصِيرُ نُورًا عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) ا ه .

(257/361)

وَهَذَا الْقَوْلُ الَّذِي عَزَاهُ إِلَى أَهْلِ التَّحْقِيقِ بَاطِلٌ بَعِيدٌ عَنِ الْحَقِّ ، وَحُكْمٌ عَلَى كِتَابِ اللهِ بِمَا عَابَهُ مِنِ اتِّبَاعِ الظَّنِّ ، وَمَا أَهْلُ التَّحْقِيقِ فِي عُرْفِهِ إِلَّا نُظَّارُ عِلْمِ الْكَلَامِ الْمُبْتَدَعِ ، وَهُوَ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ، وَمَا وَلَّدَ الْبِدَعَ الْمُضِلَّةَ إِلَّا الِاشْتِغَالُ بِهِ ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ الَّذِي قَالَ فِيهِ مَا قَالَ لَا يَصِحُّ فِي اللُّغَةِ ، وَلَا أَصْلَ لَهُ فِي كِتَابِ اللهِ وَلَا فِي سُنَّةِ رَسُولِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

- وَلَا فِي الْمَأْثُورِ عَنْ أَصْحَابِهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَلَا عَنْ أَئِمَّةِ سَلَفِ الْأُمَّةِ كَمَا سَتَرَاهُ قَرِيبًا .

وَأَمَّا التَّأْوِيلُ فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ فَلَهُ مَعْنًى وَاحِدٌ لَا مَعْنَى لَهُ سِوَاهُ ، وَهُوَ عَاقِبَةُ الشَّيْءِ وَمَآلُهُ الَّذِي يَئُولُ إِلَيْهِ مِنْ بَيَانِ مِصْدَاقِهِ الْمُرَادِ مِنْهُ بِالْفِعْلِ ، كَمَا قُلْنَا آنِفًا وَبَيَّنَّاهُ بِالتَّفْصِيلِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْمُحْكَمَاتِ وَالْمُتَشَابِهَاتِ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ، الَّتِي أَطَالَ الرَّازِيُّ فِي الْكَلَامِ عَلَيْهَا فَأَخْطَأَ مَحَجَّةَ الصَّوَابِ ، وَحُرِمَ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ، فَكَانَ أَجْدَرَ بِالْخَطَأِ هُنَا وَقَدِ الْتَزَمَ الِاخْتِصَارَ ، وَأَوْضَحُ الْأَدِلَّةِ عَلَى ذَلِكَ بَعْدَ مَا عَلِمْتَ مِنْ حَمْلِهِ التَّأْوِيلَ عَلَى الْمَعْنَى الِاصْطِلَاحِيِّ ، غَفْلَتُهُ عَنْ نَفْيِ إِتْيَانِهِ بِحَرْفِ (لَمَّا) الدَّالِّ عَلَى تَوَقُّعِهِ ; إِذْ مَعْنَاهُ أَنَّ تَأْوِيلَهُ لَمْ يَأْتِهِمْ إِلَى الْآنَ وَإِتْيَانُهُ مُتَوَقَّعٌ بَعْدُ ، وَغَفْلَتُهُ عَنْ تَشْبِيهِ تَكْذِيبِهِمْ بِتَكْذِيبِ مَنْ

(258/361)

قَبْلَهُمْ فِي الْجُمْلَةِ الْآتِيَةِ . وَالْمُتَبَادَرُ مِنْهُ أَنَّهُ وَعِيدُ اللَّهِ إِيَّاهُمْ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ لِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ وَنَصْرِهِ عَلَيْهِمْ وَهُوَ مَا فَسَّرَ الْآيَةَ بِهِ إِمَامُ الْمُفَسِّرِينَ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ قَالَ :

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : مَا بِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ يَا مُحَمَّدُ تَكْذِيبُكَ ، وَلَكِنْ بِهِمُ التَّكْذِيبُ بِمَا لَمْ

يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ وَعِيدِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ . (وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) يَقُولُ : وَلَمَّا يَأْتِهِمْ بَعْدُ بَيَانُ مَا يَئُولُ ذَلِكَ الْوَعِيدُ الَّذِي تَوَعَّدَهُمُ اللهُ فِي هَذَا الْقُرْآنِ : (كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : كَمَا كَذَّبَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ يَا مُحَمَّدُ بِوَعِيدِ اللهِ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الْأُمَمُ الَّتِي خَلَتْ قَبْلَهُمْ بِوَعِيدِ اللهِ إِيَّاهُمْ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ انْتَهَى . وَكَذَلِكَ قَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِ التَّأْوِيلِ لِأَنَّهُ مُحَدِّثٌ فَقِيهٌ غَيْرُ مُتَكَلِّمٍ ، وَتَبِعَهُمَا الْجَلَالُ هُنَا وَفِي آيَةِ الْأَعْرَافِ الْآتِي ذِكْرُهَا .

(259/361)

الْوَصْفُ (الثَّالِثُ) التَّشْبِيهُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي الْإِجْمَالِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) شَبَّهَ تَكْذِيبَ مُشْرِكِي مَكَّةَ لِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِتَكْذِيبِ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ مُشْرِكِي الْأُمَمِ لِرُسُلِهِمْ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ تَأْوِيلُهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ الَّذِي أَوْعَدَهُمْ بِهِ ، كَمَا تَرَى فِي قَصَصِهِمُ الْمُفَسَّرَةِ فِي السُّوَرِ الْعَدِيدَةِ وَلَا سِيَّمَا سُورَةِ الشُّعَرَاءِ الْمَبْدُوءَةِ فِيهَا بِقَوْلِهِ : (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) (26 : 105) (كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ) (26 : 123) (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ) (26 : 141) ثُمَّ ذَكَرَ لَفْظَ التَّكْذِيبِ فِي وَعِيدِهِمْ كَقَوْلِ هُودٍ لِقَوْمِهِ :

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) إِلَى قَوْلِهِ : (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) (26 : 135 - 139) إِلَخْ . وَقَوْلِ صَالِحٍ لِقَوْمِهِ بَعْدَهُمْ إِذْ أَتَتْهُمْ آيَةُ النَّاقَةِ : (وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ) (26 : 156 - 158) إِلَخْ فَهَذَا تَأْوِيلُهُ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ هُنَا : (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) أَيْ فَانْظُرْ أَيُّهَا الرَّسُولُ أَوِ الْعَاقِلُ الْمُعْتَبِرُ ، كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِتَكْذِيبِ رُسُلِهِمْ ، وَهُوَ تَأْوِيلُ وَعِيدِهِمْ لَهُمْ ; لِتَعْلَمَ مَصِيرَ الظَّالِمِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَهَذِهِ الْعَاقِبَةُ مُبَيَّنَةٌ بِالْإِجْمَالِ فِي قَوْلِهِ : (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (29 : 40) وَسَيَأْتِي مَا يُؤَيِّدُ مَا قَرَّرْنَاهُ كُلَّهُ قَرِيبًا فِي الْآيَاتِ (46 - 55) .

وَقَدْ أَنْذَرَ قَوْمَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا نَزَلَ بِالْأُمَمِ قَبْلَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِهَذِهِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ فِي سُوَرٍ كَثِيرَةٍ ، كَمَا أَنْذَرَهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ ، وَكَذَّبَهُ الْمُعَانِدُونَ الْمُقَلِّدُونَ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا ظَانِّينَ أَنَّهُ لَا يَقَعُ ، لَا غَيْرَ فَاهِمِينَ لِمَعْنَاهُ أَوْ لِإِعْجَازِهِ ، وَلَكِنْ قَضَتْ حِكْمَتُهُ تَعَالَى حِفْظَ قَوْمِهِ مِنْ تَكْذِيبِ أَكْثَرِهِمْ وَمَا تَقْتَضِيهِ مِنْ أَخْذِ عَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ لَهُمْ . وَارْجِعْ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ : (هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) (7 : 53) إلَخْ تَعْلَمْ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ مَا قَرَّرْنَاهُ هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ الَّذِي لَا تَقْبَلُ غَيْرَهُ لُغَةُ الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَتَّفِقُ مَعَ سَائِرِ الْآيَاتِ ، وَأَنَّ مَا قَرَّرَهُ الرَّازِيُّ هُوَ الْبَاطِلُ وَالضَّلَالُ الْمُبِينُ الَّذِي تَدْحَضُهُ الْآيَةُ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِمَّا ذَكَرْنَا بَعْضَهُ وَأَشَرْنَا إلَى بَعْضٍ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللَّهُ فِينَا إذْ قَالَ :

وَيَخْرُجُ وَحْيُ اللَّهِ لِلنَّاسِ عَارِيًا . . . مِنَ الرَّأْيِ وَالتَّأْوِيلِ يَهْدِي وَيُلْهِمُ

(اسْتِطْرَادٌ فِي الْمُتَكَلِّمِينَ وَتَفْسِيرِ إمَامِهِمُ الرَّازِيِّ)

(262/361)

اعْلَمْ أَنَّ الْفَخْرَ الرَّازِيَّ كَانَ إِمَامَ نُظَّارِ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْأُصُولِيِّينَ فِي عَصْرِهِ ، وَأَنَّ عُلَمَاءَ النَّظَرِ اعْتَرَفُوا لَهُ بِهَذِهِ الْإِمَامَةِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مِنْ أَقَلِّهِمْ حَظًّا مِنْ عِلْمِ السُّنَّةِ وَآثَارِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ، وَأَئِمَّةِ السَّلَفِ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَالْمُحَدِّثِينَ ، بَلْ وَصَفَهُ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ إِمَامُ عِلْمِ الرِّجَالِ فِي عَصْرِهِ بِالْجَهْلِ بِالْحَدِيثِ ، فَلَمْ يَجِدِ التَّاجُ السُّبْكِيُّ مَا يُدَافِعُ بِهِ عَنْهُ لِأَنَّهُ مِنْ أَئِمَّةِ الْأَشْعَرِيَّةِ الشَّافِعِيَّةِ إِلَّا الِاعْتِرَافَ بِأَنَّهُ لَمْ يَشْتَغِلْ بِهَذَا الْعِلْمِ وَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ ، فَلَا مَعْنَى لِطَعْنٍ عَلَيْهِ بِجَهْلِهِ وَلَا بِذِكْرِهِ فِي رِجَالِهِ الْمَجْرُوحِينَ وَلَا الْعُدُولِ .

أَمَّا عِلْمُهُ بِالْكَلَامِ فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ فِي وَصْفِ كِتَابِهِ (مُحَصِّلِ أَفْكَارِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ) مَا يُنْبِئُكَ بِحَقِيقَتِهِ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ وَهُوَ :

مُحَصِّلٌ فِي أُصُولِ الدِّينِ حَاصِلُهُ . . . مِنْ بَعْدِ تَحْصِيلِهِ عِلْمٌ بِلَا دِينِ

رَأْسُ الْغَوَايَةِ فِي الْعَقْلِ السَّقِيمِ . . . فَمَا فِيهِ فَأَكْثَرُهُ وَحْيُ الشَّيَاطِينِ

وَلِشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ مُصَنَّفٌ مُسْتَقِلٌّ فِي نَقْضِ كِتَابِهِ (أَسَاسِ التَّقْدِيسِ) وَفِيهِ . وَلَوْلَا أَنْ تَصَدَّى لِإِحْيَاءِ شُبُهَاتِهِ فِي هَذَا الْعَهْدِ اثْنَانِ مِنْ مُكْثِرِي النَّشْرِ فِي

الصُّحُفِ لِلْمَبَاحِثِ الدِّينِيَّةِ أَحَدُهُمَا شَيْخٌ أَزْهَرِيٌّ ، وَثَانِيهِمَا كَاتِبٌ مَدَنِيٌّ ، لَمَا أَبْدَيْنَا وَأَعَدْنَا فِي تَفْنِيدِ بِدَعِهِ الْكَلَامِيَّةِ الْمُخَالِفَةِ لِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الَّتِي يَجْهَلَانِهَا ؛ لِأَنَّ بِضَاعَةَ الْأَوَّلِ نَظَرِيَّاتُ مُتَكَلِّمِي الْقُرُونِ الْوُسْطَى عَلَى قِلَّةِ مَنْ يَفْهَمُهَا مِنْهُمُ الْيَوْمَ وَبِضَاعَةَ الثَّانِي نَظَرِيَّاتُ بَعْضِ الْإِفْرِنْجِ ، وَلَمَّا رَأَيَا نَظَرِيَّةَ الرَّازِيِّ فِي التَّأْوِيلِ تُؤَيِّدُ فَهْمَهُمَا الْبَاطِلَ ، أَرَادَ الثَّانِي تَرْوِيجَهَا فِي سُوقِ الْعَامَّةِ بِتَسْمِيَتِهِ إِمَامَ الْمُفَسِّرِينَ ، وَمَا كَانَ إِلَّا إِمَامَ الْمُتَكَلِّمِينَ .

وَأَمَّا تَفْسِيرُهُ فَقَدِ اشْتُهِرَ قَوْلُ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ فِيهِ : إِنَّ فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا التَّفْسِيرَ كَمَا فِي كِتَابِ الْإِتْقَانِ وَالْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ مُبَالَغَةٌ فِي الْإِنْكَارِ عَلَى مَا هُوَ الْغَرَضُ الَّذِي امْتَازَ بِهِ تَفْسِيرُهُ وَهُوَ نَقْلُ آرَاءِ الْفَلَاسِفَةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ ، وَحُجَجِ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْأَشَاعِرَةِ .

(264/361)

فَلْيَنْظُرِ الْقَارِئُ الْمُسْتَقِلُّ الْفَهْمِ كَيْفَ فَعَلَ تَقْلِيدُ الْمُسْلِمِينَ لِهَؤُلَاءِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي دِينِهِمْ : يَنْقُلُ لَهُمْ مُتَكَلِّمٌ مُفَسِّرٌ عَنْ مُتَكَلِّمٍ مَجْهُولٍ زَعَمَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ التَّحْقِيقِ ، أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مِنَ الْقُرْآنِ الَّتِي لَمْ يَعْرِفْ لُغَتَهَا وَلَا مَعْنَاهَا النَّاقِلُ وَلَا الْمَنْقُولُ عَنْهُ (تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ غَيْرَ عَارِفٍ بِالتَّأْوِيلَاتِ (الَّتِي ابْتَدَعُوهَا) وَقَعَ فِي الْكُفْرِ وَالْبِدْعَةِ) وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِمَا هُوَ بَاطِلٌ مِنْ وُجُوهٍ نَكْتَفِي مِنْهَا بِمَا لَا يَخْفَى عَلَى عَامِيٍّ ذَكِيٍّ وَلَا بَلِيدٍ ، وَهُوَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ بِالنُّصُوصِ إِذَا رَأَى فِيهَا

مَا هُوَ مُتَعَارِضٌ ; فَإِنَّهُ إِمَّا أَنْ يَبْحَثَ عَنْ وُجُوهِ التَّرْجِيحِ بَيْنَ الْمُتَعَارِضَاتِ بِمُقْتَضَى الْقَوَاعِدِ الَّتِي وَضَعَهَا عُلَمَاءُ الْأُصُولِ فِي (كِتَابِ التَّعَارُضِ وَالتَّرْجِيحِ) إذَا رَأَى أَنَّهُ أَهْلٌ لِذَلِكَ وَفِي حَاجَةٍ إلَيْهِ ، وَإِمَّا أَنْ يَتْرُكَ هَذَا الْبَحْثَ إلَى أَهْلِهِ مُعْتَقِدًا أَنَّهُمْ أَعْرَفُ بِهِ ، وَلَا يَكُونُ هَذَا التَّعَارُضُ الصُّورِيُّ سَبَبًا لِشَكِّهِ فِي الْقُرْآنِ أَوْ أَنَّهُ لَيْسَ بِحَقٍّ مِمَّا يَكُونُ بِهِ مُبْتَدِعًا أَوْ كَافِرًا ، وَلَوْ صَحَّ قَوْلُ هَذَا الْقَائِلِ لَوَجَبَ تَحْرِيمُ قِرَاءَةِ كِتَابِ اللَّهِ وَكُتُبِ السُّنَّةِ عَلَى كُلِّ مَنْ لَمْ يَأْخُذْ بِقَاعِدَتِهِمْ هَذِهِ ، وَبِتَعَلُّمِ عِلْمِ الْكَلَامِ وَعِلْمِ أُصُولِ الْفِقْهِ قَبْلَ تِلَاوَتِهِ لِأَجْلِهَا ، وَإِنْ كَانَ عَالِمًا بِهَدْيِ السَّلَفِ وَأَقْوَالِ أَئِمَّتِهِ ، وَهَذَا تَقْيِيدٌ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَصَدٌّ عَنْهُ بِتَأْوِيلَاتِهِمُ الْمُبْتَدَعَةِ

(265/361)

بَعْدَ عَصْرِ النُّورِ الْأَوَّلِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَيَلْزَمُ بِهِ أَنْ يَحْكُمُوا عَلَى أَكْثَرِ مَنْ يَقْرَءُونَهُ بِالْكُفْرِ وَالْبِدْعَةِ ، وَالْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي فُتِنُوا بِهَا هِيَ الْمَثَارُ الْأَكْبَرُ لِلشُّكُوكِ وَالْبِدَعِ الَّتِي هِيَ بَرِيدُ الْكُفْرِ ، وَأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ كُلَّهُ هُدًى وَنُورٌ ، وَأَصَحُّ بَيَانٍ لَهُ سُنَّةُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَخَيْرُ الْمُهْتَدِينَ بِهَا سَلَفُ الْأُمَّةِ وَحُفَّاظُ السُّنَّةِ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ الصَّالِحِ وُجُوبُ الْإِيمَانِ بِكُلِّ مَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ ، وَمَا صَحَّ مِنْ وَصْفِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَهُ عَلَى ظَاهِرِهِ مِنْ

غَيْرِ تَعْطِيلٍ لِلْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ يَجْعَلُهُ كَاللَّغْوِ ، وَلَا تَمْثِيلٍ بِتَشْبِيهٍ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ يُعَدُّ مِنَ النَّقْصِ ، وَلَا تَأْوِيلٍ يُخْرِجُ الظَّاهِرَ الْمُتَبَادِرَ عَنْ مَعْنَاهُ بِمَحْضِ الرَّأْيِ .

(266/361)

وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْقَارِئُ أَنَّ الْخَوَاطِرَ الَّتِي تَعْرِضُ لِبَعْضِ النَّاسِ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ تَعَالَى ، لَا تَنْقُصُ إِيمَانَ الْمُوقِنِ بِكِتَابِهِ وَصِدْقِ رَسُولِهِ الْمُتَّبَعِ لَهُمَا ، كَمَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ فِيمَنْ يُوَسْوِسُ لَهُ الشَّيْطَانُ : مَنْ خَلَقَ اللَّهَ ؟ وَفِيمَنْ أَوْصَى بِحَرْقِ جُثَّتِهِ لِئَلَّا يَبْعَثَهُ اللَّهُ وَيُعَذِّبَهُ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَنِ الْوَسْوَسَةِ فَقَالُوا إِنَّ أَحَدَنَا لَيَجِدُ فِي نَفْسِهِ مَا لَأَنْ يَحْتَرِقَ حَتَّى يَصِيرَ حُمَمَةً) أَيْ فَحْمَةً) أَوْ يَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ ؟ قَالَ (ذَلِكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، يَعْنِي أَنَّ الْوَسْوَسَةَ لَا يَسْلَمُ أَحَدٌ مِنْهَا ، وَأَنَّ كَرَاهَةَ الْمُؤْمِنِ لَهَا دَلِيلٌ عَلَى إِيمَانِهِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ .

(267/361)

هَذَا وَإِنَّ أَكْثَرَ كِبَارِ النُّظَّارِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ قَدْ رَجَعُوا إِلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ فِي الْإِيمَانِ بِظَاهِرِ النُّصُوصِ ، وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ كَمَا نَقَلَهُ عَنْهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي شَرْحِهِ لِلْبُخَارِيِّ (مِنْ كِتَابِ التَّوْحِيدِ) وَمِنْ قَبْلِهِ وَالِدُهُ الْإِمَامُ الْجُوَيْنِيُّ الَّذِي نَقَلَ السُّبْكِيُّ فِي تَرْجَمَتِهِ أَنَّ عُلَمَاءَ عَصْرِهِ قَالُوا : لَوْ بَعَثَ اللهُ تَعَالَى نَبِيًّا فِي هَذَا الْعَصْرِ لَكَانَ الْجُوَيْنِيَّ ، وَمِنْ بَعْدِهِمَا أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ فِي آخِرِ عُمْرِهِ ، وَنُقِلَ مِثْلُ هَذَا عَنِ الْفَخْرِ الرَّازِيِّ أَيْضًا رَحِمَهُمُ اللهُ وَرَحِمَنَا وَعَفَا عَنْهُمْ وَعَنَّا ، وَقَدْ صَرَّحَ الْغَزَالِيُّ مِنْ قَبْلِ رُجُوعِهِ إِلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ أَنَّ عِلْمَ الْكَلَامِ لَيْسَ مِنْ عُلُومِ الدِّينِ ، وَإِنَّمَا هُوَ لِحِرَاسَةِ الْعَقِيدَةِ كَالْحَرَسِ لِلْحَاجِّ (وَأَقُولُ) إِنَّمَا رَاجَتْ كُتُبُهُ فِي عَصْرِهِمْ ؛ لِأَنَّهَا وُضِعَتْ لِلرَّدِّ عَلَى مَلَاحِدَتِهِمْ وَمُبْتَدِعَتِهِمْ وَلَا تَنْفَعُ فِي الرَّدِّ عَلَى مَلَاحِدَةِ هَذَا الْعَصْرِ وَلَا مُبْتَدِعَتِهِ كَمَا بَيَّنَّاهُ مِرَارًا .

وَأَمَّا تَلْقِينُ الْمُسْلِمِينَ أَنْفُسِهِمْ لِلْعَقَائِدِ وَقَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ ، فَيَجِبُ أَنْ يُعْتَمَدَ فِيهَا عَلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ ، وَالْمَأْثُورِ فِي الْأَحَادِيثِ ، وَسِيرَةِ الصَّحَابَةِ وَعُلَمَاءِ التَّابِعِينَ وَأَئِمَّةِ الْهُدَى قَبْلَ ظُهُورِ الْبِدَعِ ، وَمِنْ أَكْبَرِ الضَّلَالِ أَنْ يُعْتَمَدَ فِيهَا عَلَى أَقْوَالِ الْمُتَكَلِّمِينَ ، فَتُجْعَلَ أَصْلًا تُرَدُّ إِلَيْهَا آيَاتُ الْقُرْآنِ الْمُبِينِ ، إِيثَارًا لِبَيَانِهِمْ عَلَى بَيَانِهِ .

(268/361)

وَإِنْ تَعَجَبْ فَعَجَبٌ جَعْلُهُمْ عَقِيدَةَ السَّنُوسِيَّةِ الصُّغْرَى الْأَسَاسَ الْأَوَّلَ لِتَعْلِيمِ التَّوْحِيدِ فِي الْأَزْهَرِ وَغَيْرِهِ ، وَإِنَّمَا هِيَ نَظَرِيَّاتٌ كَلَامِيَّةٌ غَيْرُ شَرْعِيَّةٍ ، وَقَدْ أَخْطَأَ مُحْشُوهَا وَشُرَّاحُهَا فِي جَعْلِ التَّوْحِيدِ عِبَارَةً عَنْ نَفْيِ الْكَمِّ الْمُتَّصِلِ وَالْكَمِّ الْمُنْفَصِلِ فِي ذَاتِ اللهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، أَوِ الْمُنْفَصِلِ فِي أَفْعَالِهِ فَقَطْ ، وَهِيَ فَلْسَفَةٌ مُبْتَدَعَةٌ لَا يَعْرِفُهَا الشَّرْعُ وَلَا تَدُلُّ عَلَيْهَا اللُّغَةُ ، كَمَا أَخْطَأَ مُؤَلِّفُهَا فِي تَفْسِيرِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) بِلَازِمٍ مِنْ لَوَازِمِهَا لَا يَتَضَمَّنُ مَعْنَاهَا الَّذِي لِأَجْلِهِ جُعِلَتْ عُنْوَانَ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَتَحْكُمُ فِي صِفَاتِ اللهِ بِالظَّنِّ الَّذِي ذَمَّهُ اللهُ بِأَنَّهُ لَا يُغْنِي

(269/361)

مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ، فَزَعَمَ أَنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ يَتَعَلَّقَانِ بِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ ، يَعْنِي أَنَّهُ تَعَالَى يَسْمَعُ ذَوَاتِ الْجَوَاهِرِ وَأَعْرَاضَهَا كَالْأَلْوَانِ وَالصِّفَاتِ ، وَيَرَى الْأَصْوَاتَ وَيُبْصِرُ اللُّغَاتِ . غَافِلًا عَنْ ذَلِكَ وَعَنْ قَوْلِهِ : (وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (2 : 169) وَمَعَ هَذَا زَعَمَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْأَزْهَرِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقْرَأُ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ فِي الْآخِرَةِ لِأَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُوَ إِمَامُ الْمُوَحِّدِينَ ، الَّذِي آتَاهُ حُجَّتَهُ فِي الدُّنْيَا عَلَى قَوْمِهِ وَهُمْ عُلَمَاءُ عَصْرِهِ وَعَلَى سَائِرِ الْعَالَمِينَ ، وَاطْمِئْنَانَ الْقَلْبِ بِكَيْفِيَّةِ إِحْيَائِهِ تَعَالَى لِلْمَيِّتِينَ ،

فَكَيْفَ يَحْتَاجُ بَعْدَ كَشْفِ الْحُجُبِ فِي الْآخِرَةِ إلَى نَظَرِيَّاتِ السَّنُوسِيِّ وَمَنْ فَوْقَهُ مِنْ نُظَّارِ الْمُتَكَلِّمِينَ ؟ ؟

(270/361)

وَقَدْ صَرَّحَ السَّيِّدُ الْآلُوسِيُّ تَبَعًا لِغَيْرِهِ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ الْعَارِفِينَ ، بِمَا حَقَّقْنَاهُ هُنَا فِي عِلْمِ الْكَلَامِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ ، عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى آيَةِ الظَّنِّ فِي بَابِ الْإِشَارَةِ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ فَقَالَ مَا نَصُّهُ :

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إلَّا ظَنًّا) (36) ذَمٌّ لَهُمْ بِعَدَمِ الْعِلْمِ بِمَا يَجِبُ لِمَوْلَاهُمْ وَمَا يَمْتَنِعُ وَمَا يَجُوزُ ، وَلَا يَكَادُ يَنْجُو مِنْ هَذَا الذَّمِّ إلَّا قَلِيلٌ ، وَمِنْهُمُ الَّذِينَ عَرَفُوهُ جَلَّ شَأْنُهُ بِهِ لَا بِالْفِكْرِ ، بَلْ يَكَادُ يَقْصُرُ الْعِلْمُ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ أَدِلَّةَ أَهْلِ الرُّسُومِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَغَيْرِهِمْ مُتَعَارِضَةٌ ، وَكَلِمَاتُهُمْ مُتَجَاذِبَةٌ ، فَلَا تَكَادُ تَرَى دَلِيلًا سَالِمًا مِنْ قِيلٍ وَقَالٍ ، وَنِزَاعٍ وَجِدَالٍ ، وَالْوُقُوفُ عَلَى عِلْمٍ مِنْ ذَلِكَ مَعَ ذَلِكَ أَمْرٌ أَبْعَدُ مِنَ الْعَيُّوقِ ، وَأَعَزُّ مِنْ بَيْضِ الْأُنُوقِ .

لَقَدْ طُفْتُ فِي تِلْكَ الْمَعَاهِدِ كُلِّهَا . . . وَسَرَّحْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ

فَلَمْ أَرَ إلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ . . . عَلَى ذَقَنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ

فَمَنْ أَرَادَ النَّجَاةَ فَلْيَفْعَلْ مَا فَعَلَ لِيَحْصُلَ لَهُ مَا حَصَلَ لَهُمْ ، أَوَّلًا فَلْيَتَّبِعِ السَّلَفَ الصَّالِحَ فِيمَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ ، غَيْرَ مُكْتَرِثٍ بِمَقَالَاتِ الْفَلَاسِفَةِ وَمَنْ حَذَا حَذْوَهُمْ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ

الَّتِي لَا تَزِيدُ طَالِبَ الْحَقِّ إِلَّا شَكًّا) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 301 . 311 ﴾

(271/361)

وقال ابن عاشور :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾

﴿ بل ﴾ إضرابٌ انتقالي لبيان كنه تكذيبهم ، وأن حالهم في المبادرة بالتكذيب قبل التأمل أعجب من أصل التكذيب إذ إنهم بادروا إلى تكذيبِه دون نظر في أدلة صحته التي أشار إليها قوله : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ [يونس : 37] .

والتكذيب : النسبة إلى الكذب ، أو الوصف بالكذب سواء كان من اعتقاد أم لم يكنه .

واختيار التعْبير عن القرآن بطريق الموصولية في قوله : ﴿ بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ لِمَا تؤذن به صلة الموصول من عجيب تلك الحالة المنافية لتسليط التكذيب ، فهم قد كذبوا قبل أن يختبروا ، وهذا من شأن الحماقة والجهالة .

والإحاطة بالشيء : الكون حوله كالحَائط ، وقد تقدم آنفاً في قوله : ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ [يونس : 22] .

ويكنى بها عن التمكن من الشيء بحيث لا يفوت منه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ولا يُحيطون به علماً ﴾ [طه : 110] وقوله : ﴿ وأحاط بما لديهم ﴾ [الجن : 28] أي علمِه ، فمضى ﴿ بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ بما لم يتقنوا علمه .

والباء للتعدية .

وشأنها مع فعل الإحاطة أن تدخل على المُحاط به وهو المعلوم ، وهو هنا القرآن .

وعدل عن أن يقال بما لم يحيطوا به علماً أو بما لم يحط علمهم به إلى ﴿ بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ للمبالغة إذ جُعل العِلم معلوماً .

فأصل العبارة قبل النفي أحاطوا بعلمه أي أتقنوا عِلْمه أشد إتقان فلما نُفي صار لم يحيطوا بعلمه ، أي وكان الحق أن يحيطوا بعلمه لأن توفر أدلة صدقه يحتاج إلى زيادة تأمل وتدقيق نظر بحيث يتعين على الناظر عِلمُ أدلته ثم إعادةُ التأمل فيها وتسليط علم على علم ونظر على نظر بحيث تحصل الإحاطة بالعلم .

وفي هذا مبالغة في فرط احتياجه إلى صدق التأمل ، ومبالغة في تجهيل الذين بادروا إلى التكذيب من دون تأمل في شيء حقيق بالتأمل بعد التأمل .

(272/361)

والمعنى أنهم سارعوا إلى التكذيب بالقرآن في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره وقبل أن يتدبروه .

وإنما يكون مثل هذا التكذيب عن مكابرة وعداوة لا عن اعتقاد كونِه مكذوباً .

ثم إن عدم الإحاطة بعلمه متفاوت : فمنه عدم بحت وهو حال الدهماء ، ومنه عدم في الجملة وهو ما يكون بضرب من الشبهة والتردد أو يكون مع رجحان صدقه ولكن لا يحيط بما يؤدي إليه التكذيب من شديد العقاب .

ونظير هذه الآية في سورة [النمل : 84] ﴿ قال أكذَّبتم بآياتي ولم تُحيطوا بها علماً أم ماذا كنتم تعملون ﴾

وجملة : ولمَّا يأتهم تأويله ﴾ معطوفة على الصلة ، أي كذبوا بما لمّا يأتهم تأويله .

وهذا ارتقاء في وصفهم بقلة الأَناةِ والتثبت ، أي لو انتظروا حتى يأتيهم تأويل القرآن ، أي ما يحتاج منه إلى التأويل بل هم صمموا على التكذيب قبل ظهور التأويل .

والتأويل : مشتق من آل إذا رجع إلى الشيء .

وهو يطلق على تفسير اللفظ الذي خفي معناه تفسيراً يظهر المعنى ، فيؤول واضحاً بعد أن كان خفياً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ [آل عمران : 7] الآية .

وهو بهذا الإطلاق قريب من معنى التفسير .

وقد مرَّ في سورة آل عمران وفي المقدمة الأولى من هذا التفسير .

ويطلق التأويل على اتضاح ما خفي من معنى لفظ أو إشارة ، كما في قوله تعالى : ﴿ هذا تأويل رؤْياي من قبل ﴾ [يوسف : 100] وقوله : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ [الأعراف : 53] أي ظهور ما أنذرهم به من العذاب .

والتأويل الذي في هذه الآية يحتمل المعنيين ولعل كليهما مراد ، أي لما يأتهم تأويل ما يدّعون أنهم لم يفهموه من معاني القرآن لعدم اعتيادهم بمعرفة أمثالها ، مثل حكمة التشريع ، ووقوع البعث ، وتفضيل ضعفاء المؤمنين على صناديد الكافرين ، وتنزيل القرآن منجماً ، ونحو ذلك .

فهم كانوا يعتبرون الأمور بما ألفوه في المحسوسات وكانوا يقيسون الغائب على الشاهد فكذبوا بذلك وأمثاله قبل أن يأتيهم تأويله .

(273/361)

ولو آمنوا ولازموا النبي صلى الله عليه وسلم لعلموها واحدةً بعد واحدة .

وأيضاً لما يأتهم تأويل ما حسبوا عدم التعجيل به دليلاً على الكذب كما قالوا : ﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : 32] ظناً أنهم إن استغضبوا الله عَجَّل لهم بالعذاب فظنوا تأخر حصول ذلك دليلاً على

أن القرآن ليس حقاً من عنده .

وكذلك كانوا يسألون آيات من الخوارق ، كقولهم : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ [الإسراء : 90] الآية .

ولو أسلموا ولازموا النبي عليه الصلاة والسلام لعلموا أن الله لا يعبأ باقتراح الضُلال .

وعلى الوجهين فحرف ﴿ لمّا ﴾ موضوع لنفي الفعل في الماضي والدلالة على استمرار النفي إلى وقت التكلم ، وذلك يقتضي أن المنفي بها متوقَّع الوقوع ، ففي النفي بها هنا دلالة على أنه سيجيء بيان ما أجمل من المعاني فيما بعد ، فهي بذلك وعد ، وأنه سيحِل بهم ما توعدهم به ، كقوله : ﴿ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ﴾ [الأعراف : 53] الآية .

فهي بهذا التفسير وعيد .

وجملة : ﴿ كذلك كذّب الذين من قبلهم ﴾ استئناف .

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم أو لمن يتأتى منه السماع .

والإشارة بـ ﴿ كذلك ﴾ إلى تكذيبهم المذكور ، أي كان تكذيب الذين مِن قبلهم كتكذيبهم ، والمراد بالذين من قبلهم الأممُ المكذبون رسلهم كما دل عليه المشبه به .

ومما يقصد من هذا التشبيه أمور :

أحدها : أن هذه عادة المعاندين الكافرين ليعلم المشركون أنهم مماثلون للأمم التي كذبت

الرسل فيعتبروا بذلك .

الثاني : التعريض بالنذارة لهم بحلول العذاب بهم كما حل بأولئك الأمم التي عرف السامعون مصيرها وشاهدوا ديارها .

الثالث : تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بأنه ما لقي من قومه إلا مثل ما لقي الرسل السابقون من أقوامهم .

(274/361)

ولذلك فرع على جملة التشبيه خطابُ النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ أي عاقبة الأمم التي ظلمت بتكذيب الرسل كما كذب هؤلاء .

والأمر بالنظر في عاقبة الظالمين مقصود منه قياس أمثالهم في التكذيب عليهم في ترقب أن يحل بهم من المصائب مثل ما حل بأولئك لتعلم عظمة ما يلاقونك به من التكذيب فلا تحسبن أنهم مفلتون من العذاب .

والنظر هنا بصري .

و﴿ كيف ﴾ يجوز أن تكون مجردة عن الاستفهام ، فهي اسم مصدر للحالة والكيفية ، كقولهم : كن كيف شئت .

ومنه قوله تعالى : ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ في سورة [آل عمران : 6] .

فكيف ﴾ مفعول به لفعل ﴿ انظر ﴾ ، وجملة : ﴿ كان عاقبة الظالمين ﴾ صفة ﴿ كيف ﴾ .

والمعنى انظر بعينك حالة صفتها كان عاقبة الظالمين ، وهي حالة خراب منازلهم خراباً نشأ من اضمحلال أهلها .

ويجوز أن تكون ﴿ كيف ﴾ اسم استفهام ، والمعنى فانظر هذا السؤال ، أي جوابَ السؤال ، أي تدَبره وتفكَّر فيه .

و ﴿ كيفَ ﴾ خبر ﴿ كان ﴾ .

وفعل النظر معلق عن العمل في مفعوليه بما في ﴿ كيف ﴾ من معنى الاستفهام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(275/361)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾

وهذا الصنف من الناس الذين ﴿ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ ﴾ [يونس : 39] ، وهم من أخذتهم المفاجأة حين حُدِّثوا بشيء لا يعرفونه ، والناس أعداء ما جهلوا ؛ فكذبوا ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن قبل أن يتبينوا جمال الأداء فيه ، ونسق القيم العالية ، وإذا ما سنحت لهم فرصة يتبينون فيها جمال الأداء ، ودقة الإعجاز فهم يتجهون إلى الإيمان .

ومثال ذلك : عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد كان كافراً ثم علم أن أخته وزوجها قد أسلما ؛ فذهب إليها في منزلها وضربها ، فأسال دمها ، وسيل الدم من أخت بضربة أخيها مثير لعاطفة الحنان ، وهذا ما حدث مع عمر ؛ فهدأت موجة عناده ، فاستقبل القرآن بروح لا عناد فيها ؛ فذهب فآمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من قبل ذلك ممن : ﴿ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [يونس : 39] أي : لم يعرفوا مراميه ، وبمجرد أن سمعوا عن رسالته صلى الله عليه وسلم فجأة ، اتهموه بالكذب والعياذ بالله .

ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً ﴾ [محمد : 16] .

وهذا يدل على أنهم لم يفهموا ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن ، وتأتي الإجابة من الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ

يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : 44] .

إذن : فالقرآن هدى لمن تتفتح قلوبهم للإيمان ، أما القلوب المليئة بالبغض لقائله وللإسلام ؛ فهؤلاء لا يمكن أن يصح حكمهم .

(276/361)

وإن أراد أي منهم حكماً صحيحاً فليُخرجْ من قلبه ما يناقض ما يسمع ، ثم عليه أن يستقبل الأمرين ؛ ولسوف يدخل قلبه الأقوى حجة ، وهو الإسلام .

إذن : فمن امتلأ قلبه بعقيدة كاذبة ؛ لا يمكن له أن يهتدي .

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [يونس : 39] .

والتأويل هو ما يرجع الشيء إليه ، وهذا يوضح لنا أن هناك أقضية من القرآن لم يأت تفسيرها بعد ، ستفسرها الأحداث ، وقد يقول القرآن الكريم قضية غيبية ، ثم يأتي الزمن ليؤكد هذه القضية ، هنا نعرف أن تأويلها قد جاء .

وهؤلاء القوم قد كَذَّبوا من قبل أن يأتي لهم التأويل ، وكان عدم مجيء التأويل هو السبب في تأخر بيان الحق في المسألة لتأخر زمنه .

وعلى سبيل المثال ، ها هو ذا عمار بن ياسر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم

حين قامت المعركة بين معاوية بن أبي سفيان والإمام علي رضي الله عنه وَقاتَلَ عمَّار في صف عليّ ، وقُتِل . هنا تنبه الصحابة إلى تأويل حديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال :

" ويح عمار . . تقتله الفئة الباغية " .

وهكذا جاء تأويل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما تحقق في الواقع ، وكان هذا سبباً في انصراف بعض الصحابة عن جيش معاوية .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [يونس : 39]

أي : أن التأويل لم يظهر لهم بعد .

ومن أدوات النفي : " لم " مثل قولنا : " لم يَجيءْ فلان " ، ونقول أيضاً : " لما يجيء فلان " ، والنفي في الأولى جزم غير متصل بالحاضر ، كأنه لم يأت بالأمس .

أما النفي ب " لما " فيعني أن المجيء مُنْتف إلى ساعة الكلام ، أي : الحاضر ، وقد يأتي من بعد ذلك ؛ لأن " لما " تفيد النفي ، وتفيد توقُّع الإثبات .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات : 14] .

وهؤلاء القوم من الأعراب قالوا : ﴿ آمَنَّا ﴾ رغم أنهم راءوا المسلمين وقلدوهم زيفاً ونفاقاً ، ولم يكن الإيمان قد دخل قلوبهم بعد ، وحين سمعوا قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : 14] .

قالوا : الحمد لله ؛ لأن معنى ذلك أن الإيمان سوف يدخل قلوبهم .

وكذلك قول الحق سبحانه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصابرين ﴾ [آل عمران : 142] .

فحين سمعوا ذلك قالوا : إذن : وثقنا أنه سيأتي علم الله سبحانه بنا كمجاهدين وصابرين .

وهكذا نعرف أن ﴿ لَمَّا ﴾ تعني أن المنفي بها متوقع الحدوث . والتأويل كما نعلم هو مرجع الشيء .

وقد جاء في القرآن الكثير من الأخبار لم تكن وقت ذكرها بالقرآن متوقعة ، أو مظنة أن توجد . وحين وُجدت ولا دخل لبشر في وجودها ، فهذا يعني أن قائل هذا الكلام قد أخذه عَمَّن يقدر على أن يوجد ، مثلما جاء في خبر انتصار الروم على الفرس رغم هزيمة الروم .

قال الحق سبحانه :

﴿ غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله ﴾ [الروم : 25] .

جاء هذا الخبر وانتظر المسلمون تأويله ، وقد جاء تأويله طبقاً لما أخبر القرآن .

أو أن التأويل سيأتي في الآخرة ، وما يؤول الأمر في التكذيب سيعلمونه من بعد ذلك .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ على عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ ﴾ [الأعراف : 52 53] .

هم ينتظرون ما يؤول إليه القرآن وما يؤولون إليه ، إن كان في الدنيا فنصر أهل القرآن ، وإن كان في الآخرة ، فهذا قول الحق سبحانه :

(278/361)

﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف : 53] .

هذا هو التأويل الذي كذَّبه البعض من قبل .

إذن : فالتأويل : إما أن يكون لمن بقي من الكفار فيرى ما أخبره به القرآن وقد جاء على وفق ما أخبر به نبيٌّ لا يملك أن يتحكم في مصائر الأشياء ، وتأتي على وفق ما قال .

فكأن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يجازف بأن يقول كلاماً لا يتحقق ؛ فينصرف عنه الذين آمنوا به ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يقل إلا ما هو واثق ومطمئن من وقوعه ؛ لأن الخبر به جاء من لدن عليم خبير .

وإما أن التأويل أيضاً يأتي في الآخرة .

وهنا قال الحق سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [يونس : 39] .

والحق سبحانه هنا يلفت رسوله صلى الله عليه وسلم إلى أن ما حدث معه قد حدث مع رسل من قبله ، فقال سبحانه في نفس الآية : ﴿ كذلك كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظالمين ﴾ [يونس : 39] .

أي : انظر لموكب الرسل كلهم من بدء إرسال الرسل ، هل أرسل الله رسولا ونصر الكافرين به عليه ؟ . . لا ، لقد كانت الغلبة دائماً لرسل الحق عز وجل مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿ كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي ﴾ [المجادلة : 21] .

وعرفنا ما حدث للظالمين ، فمنهم من أغرقه الله ، ومنهم من خسف به الأرض ، ومنهم من أخذه بالصيحة .

إذن : فالتأويل واضح في كل مواكب الرسل التي سبقت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان كل قوم من الظالمين قد نالوا ما يناسب رسالة رسولهم ، فسينال القوم الظالمين

الكافرين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ما يناسب عمومية رسالته صلى الله عليه وسلم .

(279/361)

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظالمين ﴾ [يونس : 39] لا بد لنا أن نعرف معنى الظلم ، إنه نقل الحق لغير صاحبه ، والحقوق تختلف في مكانتها ، فهناك حق أعلى ، وحق أوسط ، وحق أدنى .

فإذا جئت للحق الأدنى في أن تنقل الألوهية لغير الله سبحانه وتعالى فهذا قمة الظلم ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] .

لأن في هذا نقل الألوهية من الله سبحانه إلى غيره ، ويا ليت غيره كان صاحب دعوة بينه وبين الله تعالى ، لا ، فليس ذلك المنقول له الألوهية بصاحب دعوة ، بل تطوَّع الظالم من نفسه بذلك ، واتخذ من دون الله شريكاً لله ، وفي هذا تطوع بالظلم بغير مُدَّع .

وهَبْ أن الله تعالى قال : لا إله إلا أنا ، فإما أن القضية صحيحة ، وإما أنها غير ذلك ، فإن افترض أحد معاذ الله عدم صحتها ، فالإله الثاني كان يجب أن يعلن عن نفسه ، ولا يترك غيره يسمع له ويعلن عنه ، وإلا كان إلهاً أصمَّ غافلاً ، ولكن أحداً لم يعلن ألوهيته غير الله

سبحانه ، ؛ لذلك تثبت الألوهية الواحدة للإله الحق سبحانه وتعالى .

وقد بيَّن لنا الحق سبحانه : لا إله إلا أنا ، أنا الخالق ، أنا الرازق . ولم يصدر عن أحد آخر دعوى بأنه صاحب تلك الأعمال ، إذن : فقد صَحَّت الدعوى في أنه لا إله إلا الله .

والدرجة التالية في الظلم هي الظلم في الأحكام ، فإذا حكم أحد بحلِّ الربا فهذا ظلم في قضية كبيرة ، ولكن إن حكم قاض على مدين بأن يردَّ الدَّين فقط فهذا عدل ؛ وكذلك القاضي الذي يظلم في أحكامه إنما ينقل حقوق الناس إلى غيرهم .

إذن : فالظلم يأخذ درجات حسب الشيء الذي وقع فيه الظلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(280/361)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ ﴾ : جملةٌ حالية من الموصول أي : سارعوا إلى تكذيبِهِ حالَ

عدم إتيان التأويل . قال الزمخشري : " فإن قلت : ما معنى التوقُّع في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ ؟ قلت : معناه أنهم كذَّبوا به على البديهة قبل التدبُّر ومعرفةِ التأويل " ، ثم قال أيضاً : " ويجوز أن يكونَ المعنى : ولم تأتِهم بعدُ تأويلُ ما فيه من الإخبار بالغيوب ، أي : عاقبته حتى يتبيَّنَ لهم أَكَذِبٌ هو أم صدقٌ " انتهى . وفي وَضْعه " لم " موضعَ " لَمَّا " نظرٌ لِمَا عَرَفْت ما بينهما من الفرق . ونُفِيَتْ جملةُ الإحاطة ب " لم " وجملةُ إتيانِ التأويل ب " لَمَّا " لأن " لم " للنفي المطلق على الصحيح ، و " لَمَّا " لنفي الفعل المتصل بزمن الحال ، فالمعنى : أنَّ عَدَمَ التأويل متصل بزمن الإخبار .

و " كذلك " نعتٌ لمصدرٍ محذوف ، أي : مثل ذلك التكذيب كَذَّب الذين من قبلهم ، أي : قبل النظر والتدبُّر .

(281/361)

وقوله : ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ ﴾ " كيف " خبر ل " كان " ، والاستفهامُ معلِّقٌ للنظر . قال ابن عطية : " قال الزجاج : " كيف " في موضع نصب على خبر كان ، ولا يجوز أن يعمل فيها " انظر " لأنَّ ما قبل الاستفهام لا يَعْمل فيه ، هذا قانونُ النحويين لأنهم عاملوا " كيف " في كل مكان معاملةَ الاستفهامِ المَحْض في قولك " كيف زيد " و ل " كيف " تصرُّفاتٌ غيرُ

هذا فتحلُّ محلَّ المصدرِ الذي هو "كيفية" وتخلعُ معنى الاستفهام، ويحتمل هذا الموضعُ أن يكونَ منها . ومن تصرُّفاتها قولُهم: "كن كيف شئت" وانظر قول البخاري: "كيف كان بدء الوحي" فإنه لم يستفهم" . انتهى . فقول الزجاج "لا يجوز أن تعمل" انظر" في "كيف" يعني لا تتسلَّط عليها ولكن هو متسلِّطٌ على الجملة المنسحبِ عليها حكمُ الاستفهام وهكذا سبيل كُلِّ تعليقٍ .

قال [الشيخ]: "وقولُ ابن عطية: هذا قانون النحويين إلى آخره ليس كما ذكر بل ل "كيف" معنيان، أحدُهما: الاستفهامُ المحض، وهو سؤال عن الهيئة إلا أن يُعَلَّق عنها العامل، فمعناها معنى الأسماء التي يُستفهم بها إذا عُلِّق عنها العاملُ . والثاني: الشرط كقول العرب: "كيف تكونُ أكونُ" . وقوله: "ول "كيف" تصرفات إلى آخره ليس "كيف" تحلُّ محلَّ المصدر، ولا لفظ "كيفية" هو مصدرٌ، إنما ذلك نسبةٌ إلى "كيف"، وقوله: "ويحتمل أن يكونَ هذا الموضعُ منها، ومِنْ تصرفاتها قولهم: "كن كيف شئت" لا يَحْتمل أن يكون منها؛ لأنه لم يثبتْ لها المعنى الذي ذكر مِنْ كونِ "كيف" بمعنى كيفية وادِّعاءُ مصدرية "كيفية" .

(282/361)

وأمَّا "كن كيف شئت" ف "كيف" ليست بمعنى كيفية، وإنما هي شرطيةٌ وهو المعنى الثاني الذي لها، وجوابها محذوف، التقدير: كيف شئت فكن، كما تقول: "قم متى شئت" ف "متى" اسمُ شرطٍ ظرفٌ لا يعمل فيه "قم" والجواب محذوف تقديره: متى شئت فقم، وحُذِفَ الجوابُ لدلالة ما قبله عليه كقولِهم: "اضربْ زيداً إن أساء إليك"، التقدير: إن أساءَ إليك فاضربْه، وحُذِف "فاضربه" لدلالة "اضربْ" المتقدّمِ عليه.

وأمَّا قولُ البخاري: "كيف كان بدء الوحي" فهو استفهامٌ مَحْضٌ: إمَّا على سبيل الحكاية كأن سائلاً سأله فقال: كيف كان بَدْءُ الوحي، [وإما أن يكونَ من قوله هو، كأنه سأل نفسه: كيف كان بدء الوحي؟] فأجاب بالحديثِ الذي فيه كيفيةُ ذلك".

وقوله: ﴿ الظالمين ﴾ مِنْ وَضْعِ الظاهر موضعَ المضمر، ويجوز أن يرادَ به ضميرُ مَنْ عاد عليه ضمير "بل كَذَّبوا"، وأن يُرادَ به ﴿ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 205. 207﴾

(283/361)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39) ﴾

قابلوا الحقَّ بالتكذيب لِتَقاصُر علومهم عن التحقيق ، فالتحقيقُ من شرط التصديق ، وإنما يؤمن بالغيب مَنْ لوَّح – سبحانه – لقلبه حقائق البرهان ، وصَرَفَ عنه دواعي الرِّيَب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 96 ﴾

(284/361)

قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه تكذيبهم ، كان ذلك ربما أيأس من إذعانهم وتصديقهم ، وآذن باستئصالهم لتكمل المشابهة للأولين ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ شديد الشفقة عليهم والحرص على إيمانهم ، فأتبعه تعالى بقوله بياناً لأن علمه بانقسامهم أوجب عدم استئصالهم عاطفاً على ﴿ كذبوا ﴾ : ﴿ ومنهم ﴾ أي قومك ﴿ من يؤمن به ﴾ أي في المستقبل ﴿ ومنهم من لا يؤمن به ﴾ أي القرآن أصلاً ولو رأى كل آية ﴿ وربك ﴾ أي

المحسن إليك بالرفق بأمتك ﴿ أعلم بالمفسدين ﴾ أي الذين هم عريقون في الإفساد فسيعاملهم بما يشفي صدرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 446 ﴾

(285/361)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة قوله : ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة الظالمين ﴾ وكان المراد منه تسليط العذاب عليهم في الدنيا ، أتبعه بقوله : ﴿ وَمِنهُمْ مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ منبهاً على أن الصلاح عنده تعالى كان في هذه الطائفة التبقية دون الاستئصال ، من حيث كان المعلوم أن منهم من يؤمن به ، والأقرب أن يكون الضمير في قوله : ﴿ بِهِ ﴾ راجعاً إلى القرآن ، لأنه هو المذكور من قبل ، ثم يعلم أنه متى حصل الإيمان بالقرآن ، فقد حصل معه الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً .

واختلفوا في قوله : ﴿ وَمِنهُمْ مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ لأن كلمة يؤمن فعل مستقبل وهو يصلح للحال والاستقبال ، فمنهم من حمله على الحال ، وقال : المراد أن منهم من يؤمن

بالقرآن باطناً ، لكنه يتعمد الجحد وإظهار التكذيب ، ومنهم من باطنه كظاهره في التكذيب ، ويدخل فيه أصحاب الشبهات ، وأصحاب التقليد ، ومنهم من قال : المراد هو المستقبل ، يعني أن منهم من يؤمن به في المستقبل بأن يتوب عن الفكر ويبدله بالإيمان ومنهم من بصر ويستمر على الكفر .

ثم قال : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بالمفسدين ﴾ أي هو العالم بأحوالهم في أنه هل يبقى مصراً على الكفر أو يرجع عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 80 . 81 ﴾

(286/361)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ قيل : المراد أهل مكة ، أي ومنهم من يؤمن به في المستقبل وإن طال تكذيبه ؛ لعلمه تعالى السابق فيهم أنهم من السعادة .

و"منْ" رفع بالابتداء والخبر في المجرور .

وكذا .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ والمعنى ومنهم من يُصِر على كفره حتى يموت ؛ كأبي طالب وأبي لهب ونحوهما .

وقيل : المراد أهل الكتاب .

وقيل : هو عام في جميع الكفار ؛ وهو الصحيح .

وقيل : إن الضمير في "به" يرجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فأعلم الله سبحانه أنه إنما أخّر العقوبة لأن منهم من سيؤمن .

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بالمفسدين ﴾ أي من يُصِرّ على كفره ؛ وهذا تهديد لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40) ﴾

الظاهر أنه إخبار بأنّ من كفار قريش من سيؤمن به وهو من سبقت له السعادة ، ومنهم من لا يؤمن به فيوافى على الكفر .

وقيل : هو تقسيم في الكفار الباقين على كفرهم ، فمنهم من يؤمن به باطناً ويعلم أنه حق ولكنه كذب عناداً ، ومنهم من لا يؤمن به لا باطناً ولا ظاهراً ، إما لسرعة تكذيبه وكونه لم يتدبره ، وإما لكونه نظر فيه فعارضته الشبهات وليس عنده من الفهم ما يدفعها .

وفيه تفريق كلمة الكفار ، وأنهم ليسوا مستوين في اعتقاداتهم ، بل هم مضطربون وإن شملهم التكذيب والكفر .

وقيل : الضمير في ومنهم عائد على أهل الكتاب ، والظاهر وعوده على من عاد عليه

ضمير أم يقولون ، وتعلق العلم بالمفسدين وحدهم تهديد عظيم لهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(287/361)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ الخ ، وصفٌ لحالهم بعد إتيانِ التأويل المتوقع ، إذ حينئذٍ يمكن تنويعُهم إلى المؤمن به وغير المؤمن ضرورةَ امتناعِ الإيمان بشيء من غير علمٍ به واشتراكِ الكلِّ في التكذيب والكفرِ به قبل ذلك حسبما أفاده قولُه تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ ﴾ أي ومن هؤلاء المكذبين ﴿ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ عند الإحاطةِ بعلمه وإتيانِ تأويله وظهورِ حقّيته بعد ما سعَوا في المعارضة ورازُوا قواهم فيها فتضاءلت دونها أو بعد ما شاهدوا وقوعَ ما أَخبر به كما أَخبر به مراراً ، ومعنى الإيمانِ به إما الاعتقادُ بحقيته فقط أي يصدّق به في نفسه ويعلم أنه حقٌّ ولكنه يعاند ويكابر وهؤلاءِ هم الذين أُشير بقصْر اتباعِ الظنِّ على أكثرهم إلى أنهم يعلمون الحقَّ على التفسير الأول كما أشير إليه فيما سلف ، وإما الإيمانُ الحقيقيُّ أي سيؤمن به ويتوب عن الكفر وهم الذي أشير بالقصْر

المذكورِ على التفسير الثاني إلى أنهم سيتبعون الحقّ كما مر ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ أي لا يصدق به في نفسه كما لا يصدّق به ظاهراً لفرْط غباوتِه المانعةِ عن الإحاطة بعلمه كما ينبغي وإن كان فوق مرتبةِ عدمِ الإحاطةِ به أصلاً أو لسخافة عقلِه واختلالِ تمييزِه وعجزِه عن تخليص علومِه من مخالطة الظنونِ والأوهام التي أَلِفَها فيبقى على ما كان عليه من الشك ، وهذا القدرُ من الإحاطة وإتيانِ التأويلِ كافٍ في مقابلة ما سبق من عدم الإحاطةِ بالمرة ، وهؤلاء هم الذين أريدوا فيما سلف بقوله عز وجل : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّا ﴾ على التفسير الأول ، أو لا يؤمِن به فيما سيأتي بل يموت على كفره معانداً كان أو شاركاً ، وهم المستمرّون على اتباع الظن على التفسير الثاني من غير إذعانٍ للحق وانقيادٍ له ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بالمفسدين ﴾ أي بكلا الفريقين على الوجه الأول لا بالمعاندين فقط كما قيل ، لاشتراكهما في أصل الإفسادِ المستدعي لاشتراكهما في الوعيد ، أو بالمُصرّين الباقين على الكفر على الوجه الثاني من المعاندين والشاكين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(288/361)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنهُمْ مَّن يُؤْمِنُ بِهِ ﴾

وصف لحالهم بعد اتيان التأويل المتوقع كما قبل إذ حينئذ يمكن تنويعهم إلى المؤمن به وغير المؤمن به ضرورة امتناع الإيمان بشيء من غير علم به واشتراك الكل في التكذيب قبل ذلك فالضمير للمكذبين ، ومعنى الإيمان به إما الاعتقاد بحقيته فقط أي منهم من يصدق به في نفسه أنه حق عند الإحاطة بعلمه وإتيان تأويله لكنه يعاند ويكابر وإما الإيمان الحقيقي أي منهم من سيؤمن به ويتوب عن الكفر ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ أي لا يصدق به في نفسه كما لا يصدق به ظاهراً لفرط غباوته المانعة عن الإحاطة بعلمه كما ينبغى أو لسخافة عقله واختلال تمييزع وعجزه عن تخليص علومه عن معارضة الظنون والأوهام التي ألفها فيبقى على ما كان عليه من الشك أولاً يؤمن به فيما سيأتي بل يموت على كفره معانداً كان أو شاكاً ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بالمفسدين ﴾ أي بكلا الفريقين على الوجه الأول من التفسير لا بالمعاندين فقط لاشتراكهما في أصل الافساد المستدعي لاشتراكهما في الوعيد المراد من الكلام أو بالمصرين الباقين على الكفر على الوجه الثاني منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(289/361)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ﴾

عطف على جملة : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ [يونس : 39] لأن الإخبار عن تكذيبهم بأنه دون الإحاطة بعلم ما كذبوا به يقتضي أن تكذيبهم به ليس عن بصيرة وتأمل . وما كان بهاته المثابة كان حال المكذبين فيه متفاوتاً حتى يبلغ إلى أن يكون تكذيباً مع اعتقاد نفي الكذب عنه ، ولذلك جاء موقع هذه الآية عقب الأخرى موقع التخصيص للعام في الظاهر أو البيان للمجملِ من عدم الإحاطة بعلمه ، كما تقدم بيانه في قوله : ﴿ بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ [يونس : 39] .

فكان حالهم في الإيمان بالقرآن كحالهم في اتباع الأصنام إذ قال فيهم : ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ﴾ [يونس : 36] ، فأشعر لفظ ﴿ أكثرهم ﴾ بأن منهم من يعلم بطلان عبادة الأصنام ولكنهم يتبعونها مشايعة لقومهم ومكابرة للحق ، وكذلك حالهم في التكذيب بنسبة القرآن إلى الله ، فمنهم من يؤمن به ويكتم إيمانه مكابرة وعَداء ، ومنهم من لا يؤمنون به ويكذبون عن تقليد لكبرائهم .

والفريقان مشتركان في التكذيب في الظاهر كما أنبأت عنه (من) التبعيضية ، وضمير الجمع عائد إلى ما عادت إليه ضمائر ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ [يونس : 38] فمعنى يؤمن

به يصدق بحقيته في نفسه ولكنه يظهر تكذيبه جمعاً بين إسناد الإيمان إليهم وبين جعلهم بعضاً من الذين يقولون ﴿ افتراه ﴾ .

واختيار المضارع للدلالة على استمرار الإيمان به من بعضهم مع المعاندة ، واستمرار عدم الإيمان به من بعضهم أيضاً .

وجملة : ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ معترضة في آخر الكلام على رأي المحققين من علماء المعاني ، وهي تعريض بالوعيد والإنذار ، وبأنهم من المفسدين ، للعلم بأنه ما ذكر ﴿ المفسدين ﴾ هنا إلاّ لأن هؤلاء منهم وإلا لم يكن لذكر ﴿ المفسدين ﴾ مناسبة ، فالمعنى : وربك أعلم بهم لأنه أعلم بالمفسدين الذين هم من زمرتهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(290/361)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40) ﴾

والكلام هنا في الذين كذَّبوا ، فكيف يقسِّم الله المكذبين وهم بتكذيبهم لا يؤمنون إلى قسمين : قسم يؤمن ، وقسم لا يؤمن ؟

ونحن نعلم أن الإيمان عمل قلوب ، لا عمل حواس ، فنحن لا نطَّلع على القلوب ، والحق سبحانه يعلم مَنْ مِنْ هؤلاء المكذبين يخفي إيمانه في قلبه .

إذن : فمن هؤلاء من يقول بالتكذيب بلسانه ويخفي الإيمان في قلبه ، ومنهم من يوافق تكذيبه بلسانه فراغُ قبله من الإيمان ، ومن الذين قالوا : إن هذا القرآن افتراء إنما يؤمن بقلبه أن محمداً رسول من الله ، وصادق في البلاغ عن الله ، ولكن العناد والمكابرة والحقد يدفعونه إلى أن يعلن عدم الإيمان .

وكذلك منهم قسم آخر لا يؤمن ويعلن ذلك .

إذن : فالمقسم ليس هو الإيمان الصادر عن القلب والمعبِّر عنه باللسان ، ولكن المُقسِّم هو إيمان بالقلب غير مُعبَّر عنه ، ولم يصل إلى مرتبة الإقرار باللسان .

والذي جعل إيمان بعضهم محصوراً في القلب غير مُعبَّر عنه باللسان هو الحقد والحسد والكراهية وعدم القدرة على حكم النفس على مطلوب المنهج .

وبعض العرب حين أعلن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقولوا : لا إله إلا الله ؛ فيضمن لهم السيادة على الدنيا كلها . ورفضوا أن يقولوا الكلمة ؛ لأنهم يعلمون أنها ليست كلمة تقال : بل فهموا مضمون ومطلوب الكلمة ، وعرفوا أن " لا إله إلا الله " تعني : المساواة بين البشر ، وهم يكرهون ألاَّ تكون لهم السيادة والسيطرة في أقوامهم .

وهذا يدل أيضاً على أن الحق سبحانه قد شاء أن يبدأ الإسلام في مكة ، حيث الأمة التي تعلن رأيها واضحاً ؛ ولذلك نجد أن النفاق لم ينشأ إلا في " المدينة " ، أما في مكة ، فهم قوم منسجمون مع أنفسهم ، فهم حين أعلنوا الكفر لم يعانوا من تشتت المَلَكَات ، لكن المنافقين في المدينة وغيرها هم الذين كانوا يعانون من تشتت الملكات ، ومنهم من كان يلعب على الطرفين ، فيقول بلسانه ما ليس في قلبه .

ولذلك يُعزِّي الحق رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ويُسَرِّى عنه ويبين له : إياك أن تحزن لأنهم يكذبونك ؛ لأنك محبوب عندهم وموقَّر ، فيقول الحق سبحانه : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ﴾ [الأنعام : 33] .

أي : أنك يا محمد مُنزَّه عن الكذب ؟

ويقول الحق سبحانه : ﴿ ولكن الظالمين بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : 33] .

أي : أنه سبحانه يحملها عن رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أن رسوله أمين عند قومه ، وهم في أثناء معركتهم معه ، نجد الواحد منهم يستأمنه على أشيائه النفيسة .

والذين آمنوا برسالته صلى الله عليه وسلم ولم يعلنوا إيمانهم ، والذين لم يؤمنوا ، هؤلاء وأولئك أمرهم موكول إلى الله تعالى ؛ ليلقوا حسابهم عند الخالق سبحانه ؛ لأنه سبحانه

الأعلم بمن كذَّب عناداً ، ومن كذَّب إنكاراً .

والحق سبحانه هو الذي يُعذِّب ويُعاقِب ، وكل إنسان منهم سوف يأخذ على قَدْر منزلته من الفساد ؛ لذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بالمفسدين ﴾ [يونس : 40] .

والمفسد كما نعلم هو الذي يأتي إلى الشيء الصالح فيصيبه بالعطب ؛ لأن العالَم مخلوقٌ قبل تدخُّل الإنسان على هيئة صالحة ، وصنعة الله سبحانه وتعالى لم يدخل فيها الفساد إلا بفعل الإنسان المختار ، وصنعة الله تؤدي مهمتها كما ينبغي لها .

(292/361)

وأنت أيها الإنسان إن أردت أن يستقيم لك كل أمر في الوجود ، فانظر إلى الكون الأعلى الذي لا دخل لك فيه ، وستجد كل ما فيه مستقيماً مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان * أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الميزان * وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ [الرحمن : 79] .

أي : أتقِنوا أداء مسئولية ما في أيديكم وأحسنوه كما أحسن الله سبحانه ما خلق لكم بعيداً عن أياديكم ، والمطلوب من الإنسان إذن أن يترك الصالح على صلاحه ، إن لم يستطع

أن يزيده صلاحاً ؛ حتى لا يدخل في دائرة المفسدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(293/361)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40) ﴾

فأمَّا الذين آمنوا فهم الذين كَحَلَ الحقُّ أبصارَ قلوبهم بنور اليقين ، والذين لم يؤمنوا فهم الذين وَسَمَ قلوبَهم بالعمي فزلُّوا – بالضلالة – عن الهُدَى . . تلك سُنَّةُ الله في الطائفتين ، ولن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تحويلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 97 ﴾

(294/361)

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما قسمتهم هذه الآية قسمين ، وتليت بذكر القسم الثاني بالواو ، عرف أنه معطوف على مطوى القسم الأول ، فكان كأنه قيل : فإن صدقوك فقل : الله ولي هدايتكم ولي مثل أجوركم بنسبتي فيها فضلاً من ربي : ﴿ وإن كذبوك فقل ﴾ أي قول منصف معتمد على قادر عالم ﴿ لي علمي ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿ ولكم عملكم ﴾ ما لأحد من ولا عليه من جزاء الآخر شيء ؛ ثم صرح بالمقصود من ذلك بقوله محذراً لهم : ﴿ أنتم بريئون مما أعمل ﴾ أي فإن كان خيراً لم يكن لكم منه شيء وإن كان غيره لم يكن عليكم منه شيء ﴿ وأنا بريء مما تعملون ﴾ لا جناح عليّ في شيء منه لأني لا أقدر على ردكم عنه ؛ والبراءة : قطع العلقة الذي يوجب رفع المطالبة ، ولا حاجة إلى ادعاء نسخ هذه الآية بآية السيف ، فإنه لا منافاة بينهما ، لأن هذه في رفع لحاق الإثم وهو لا ينافي الجهاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 446 ﴾

(295/361)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾

قيل فقل لي عملي الطاعة والإيمان ، ولكم عملكم الشرك ، وقيل : لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم .

ثم قال : ﴿ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ قيل معنى الآية الزجر والردع ، وقيل بل معناه استمالة قلوبهم .

قال مقاتل والكلبي : هذه الآية منسوخة بآية السيف وهذا بعيد ، لأن شرط الناسخ أن يكون رافعاً لحكم المنسوخ ، ومدلول هذه الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب ، وذلك لا يقتضي حرمة القتال ، فآية القتال ما رفعت شيئاً من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 81 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي ﴾

رفع بالابتداء ، والمعنى : لي ثواب عملي في التبليغ والإنذار والطاعة لله تعالى .

﴿ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ أي جزاؤه من الشرك .

﴿ أَنتُمْ بريئون مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَاْ بريء مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ مثله ؛ أي لا يؤاخذ أحد بذنب الآخر .

وهذه الآية منسوخة بآية السيف ؛ في قول مجاهد والكلبي ومقاتل وابن زيد . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(296/361)

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾

أي وإن تمادوا على تكذيبك فتبرأ منهم قد أعذرت وبلغت كقوله : ﴿ فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ﴾ ومعنى لي عملي أي : جزاء عملي ولكم جزاء عملكم .

ومعنى عملي الصالح المشتمل على الإيمان والطاعة ، ولكم عملكم المشتمل على الشرك والعصيان .

والظاهر أنها آية منابذة لهم وموادعة ، وضمنها الوعيد كقوله : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ السورة .

وقيل : المقصود بذلك استمالتهم وتأليف قلوبهم .

وقال قوم منهم ابن زيد : هي منسوخة بالقتال لأنها مكية ، وهو قول : مجاهد ، والكلبي ،

ومقاتل .

وقال المحققون : ليست بمنسوخة ، ومدلولها اختصاص كل واحد بأفعاله ، وثمراتها من الثواب والعقاب ، ولم ترفع آية السيف شيئاً من هذا .

وبدأ في المأمور بقوله : لي عملي لأنه آكد في الانتفاء منهم وفي البراءة بقوله : أنتم بريئون مما أعمل ، لأنّ هذه الجملة جاءت كالتوكيد والتتميم لما قبلها ، فناسب أنْ تلي قوله : ولكم عملكم .

ولمراعاة الفواصل ، إذ لو تقدم ذكر براءة كما تقدم ذكر لي عملي لم تقع الجملة فاصلة ، إذ كان يكون التركيب وأنتم بريئون مما أعمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(297/361)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ أي إن استمروا على تكذيبك وأصروا عليه حسبما أُخبر عنهم بعد إلزامِ الحجةِ بالتحدي ﴿ فَقُل لّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ أي تبرأ منهم فقد أعذرتَ كقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنّى بَرِىء ﴾ والمعنى لي جزاءُ عملي ولكم جزاءُ عملِكم حقاً

كان أو باطلاً ، وتوحيدُ العمل المضافِ إليهم باعتبار الاتحادِ النوعيّ ولمراعاة كمالِ المقابلة ﴿ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تأكيدٌ لما أفادته لامُ الاختصاص من عدم تعدّي جزاءِ العمل إلى غير عامِله أي لا تؤاخَذون بعملي ولا أؤاخذ بعملكم ، ولما فيه من إيهام المتاركةِ وعدم التعرضِ لهم قيل : إنه منسوخٌ بآية السيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(298/361)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ ﴾

أي أصروا على تكذيبك بعد الزام الحجة ، وأول بذلك لأن أصل التكذيب حاصلاً فلا يصح فيه الاستقبال المفاد بالشرط ، وأيضاً جوابه وهو قوله سبحانه : ﴿ فَقُل لّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ المراد منه التبرؤ والتخلية إنما يناسب الاصرار على التكذيب واليأس من الإجابة ، والمعنى لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم كيفما كانا ، وتوحيد العمل المضاف إليهم باعتبار الاتحاد النوعي ولمراعاة كمال المقابلة كما قيل ، وقوله سبحانه : ﴿ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تأكيد لما أفاده لام الاختصاص من عدم

تعدي جزاء العمل إلى غير عامه أن لا تؤاخذون بعملي ولا أؤاخذ بعملكم ، وعلى هذا فالآية محكمة غير منسوخة بآية السيف لما أن مدلولها اختصاص كل بأفعاله وثمراتها من الثواب والعقاب وآية السيف لم ترفع ذلك ، وعن مقاتل .

والكلبي .

وابن زيد أنها منسوخة بها وكأن ذلك لما فهموا منها الأعراض وترك التعرض بشيء ، ولعل وجه تقديم حكم المتكلم أولاً وتأخيره ثانياً والعكس في حكم المخاطبين ظاهر مما ذكرناه في معنى الآية فافهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(299/361)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِى ءاياتنا ﴾ وهو احتجابهم عن قبول صفات الحق وذلك لأنه بتوفر النعم الظاهرة والمرادات الجسمانية يقوي ميل النفس إلى الجهة السفلية فتحتجب عن قبول ذلك كما أنه بأنواع البلاء تنكسر سورة النفس ويتلطف القلب ويحصل الميل إلى الجهة العلوية والتهيؤ

لقبول ذلك ﴿ قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ بإخفاء القهر الحقيقي في هذا اللطف الصوري ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [يونس : 21] في ألواح الملكوت ﴿ هُوَ الذى يُسَيِّرُكُمْ فِى البر والبحر ﴾ أي يسير نفوسكم في بر المجاهدات وقلوبكم في بحر المشاهدات ، وقيل : يسير عقولكم في بر الأفعال وأرواحكم في بحر الصفات والذات ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِى الفلك ﴾ أي فلك العناية الإزلية ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وهي ريح صبا وصاله سبحانه ﴿ وَفَرِحُواْ بِهَا ﴾ لايذانها بذلك وتعطرها بشذا ديار الأنس ومرابع القدس :

ألا يا نسيم الريح مالك كلما . . .

تقربت منا زاد نشرك طيبا

أظن سليمى خبرت بسقامنا . . .

فأعطتك رياها فجئت طبيباً

﴿ جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ وذلك عاصف القهر وأمواج صفات الجلال ، وهذه سنة جارية في العاشقين لا يستمر لهم حال ولا يدوم لهم وصال ، ولله در من قال :

فبتنا على رغم الحسود وبيننا . . .

شراب كريح المسك شيب به الخمر

فوسدتها كفى وبت ضجيعها . . .

وقلت لليلى طل فقد رقد البدر

فلما أضاء الصبح فرق بيننا . . .

وأي نعيم لا يكدره الدهر

(300/361)

﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أي أنهم من الهالكين في تلك الأمواج ﴿ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ بالتبري من غير الله تعالى قائلين ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ [يونس : 22] لك بك ﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ وهو تجاوزهم عن حد العبودية بكسرهم في جمال الربوبية ، وذلك مثل ما عرا الحلاج وأضرابه ثم أنه سبحانه نبههم بعد رجوعهم من السكر إلى الصحو على أن الأمر وراء ذلك بقوله جل وعلا : ﴿ الحق يا أيها الناس إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ [يونس : 32] أي أنه يرجع إليكم ما ادعيتم لا إليه تعالى فإنه سبحانه الموجود المطلق حتى عن قيد الإطلاق كذا قالوا .

وقال ابن عطاء في الآية ﴿ حتى إِذَا رَكِبُواْ ﴾ مراكب المعرفة وجرت بهم رياح العناية وطابت نفوسهم وقلوبهم بذلك وفرحوا بتوجههم إلى مقصودهم ﴿ جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ

﴿ أفنتهم عن أحوالهم وإرادتهم ﴿ وَجَاءهُمُ الموجِ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أي تيقنوا أنهم مأخوذون عنهم ولم يبق لهم ولا عليهم صفة يرجعون إليها وأن الحق خصهم من بين عباده بأن سلبهم عنهم ﴿ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [يونس : 22] حيث صفى سبحانه أسرارهم وطهرها مما سواه ﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ ﴾ أي ردهم إلى أوصافهم وأشباحهم ورجعوا إلى ما عليه عوام الخلق من طلب المعاش للنفوس انتهى .

(301/361)

وكأنه حمل البغي على الطلب وضمنه معنى الاشتغال أي يطلبون في الأرض مشتغلين بغير الحق سبحانه وهو المعاش الذي به قوام أبدانهم ، ويشكل أمر الوعيد المنبىء به ﴿ فَنُنَبِّئُكُمْ ﴾ [يونس : 23] الخ على هذا التأويل وما قبله لأن ما يقع في السكر لا وعيد عليه وكذا طلب المعاش ، وانظر هل يصح أن يقال : إن الأمر من باب حسنات الأبرار سيآت المقربين ؟ ثم أنه سبحانه مثل الحياة في سرعة زوالها وانصرام نعيمها غب اقبالها واغترار صاحبها بها بما أشار إليه سبحانه بقوله جل وعلا : ﴿ كَمَا أنزلناه ﴾ [يونس : 24] الخ وفيه إشارة إلى ما يعرض والعياذ بالله تعالى لمن سبقت شقاوته في الأزل من الحور بعد الكور فبينما تراه وأحواله حالية وأعوامه عن شوائب الكدر خالية وغصون أنسه

متدلية ورياض قربه مونقة قلب الدهر له ظهر المجن وغزاه بجيوش المحن وهبت على هاتيك الرياض عاصفات القضاء وضاقت عليه فسيحات الفضاء وذهب السرور والانس وجعل حصيداً كأن لم يغن بالأمس وأنشد لسان حاله :

قف بالديار فهذه آثارهم . . .

نبكي الأحبة حشرة وتشوقاً

كم قد وقفت بهنا أسائل مخبرا . . .

عن أهلها أو صادقاً أو مشفقاً

فأجابني داعي الهوى في رسمها . . .

فارقت من تهوي فعز الملتقى

﴿ للَّهُ يَدْعُو إلى دَارِ السلام ﴾ وهو العالم الروحاني السليم من الآفات

﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس : 25] لا شعوب فيه وهو طريق الوحدة .

وقد يقال : يدعو الجميع إلى داره .

ويهدي خواص العارفين إلى وصاله .

أو يدعو السالكين إلى الجنة ويبدي المجذوبين إلى المشاهدة ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ وهم خواص الخواص ﴿ الحسنى ﴾ وهي رؤية الله تعالى ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ وهي دوام الرؤية ، أو للذين جاؤا بما يحسن به حالهم من خير قلبي أو قالبي ، المثوبة الحسنة من الكمال الذي يفاض عليهم وزيادة في استعداد قبول الخير إلى ما كانوا عليه قبل ، وقد يقال : الحسنى ما يقتضيه قرب النوافل والزيادة ما يقتضيه قرب الفرائض ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ أي لا يصيبهم غبار الخجالة ولا ذلك الفرقة ﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب الجنة ﴾ التي تقتضيها أفعالهم ﴿ هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ [يونس : 26] ثم ذكر سبحانه حال الذين أساءوا بقوله جل شأنه : ﴿ والذين كَسَبُواْ ﴾ [يونس : 27] الخ وأشار إلى أنه على عكس حال أولئك الكرام ﴿ الظالمون وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ في المجمع الأكبر ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ منهم وهم المحجوبون الواقفون مع الغير بالمحبة والطاعة ﴿ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ قفوا جميعاً وانتظروا الحكم ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ أي قطعنا الأسباب التي كانت بينهم ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ [يونس : 28] بل كنتم تعبدون أشياء اخترعتموها في أوهامكم الفاسدة ﴿ فكفى بالله شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لغافلين ﴾ [يونس : 29] لم نطلبها منكم لا بلسان حال ولا بلسان قال ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك الموقف ﴿ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ أي تذوق وتختبر ﴿ مَّا أَسْلَفَتْ

﴿ في الدنيا ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مولاهم الحق ﴾ المتولي لجزائهم بالعدل والقسط ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 30] من اختراعاتهم وتوهماتهم الكاذبة وأمانيهم الباطلة .

(303/361)

ثم ذكر سبحانه مما يدل على التوحيد ما ذكر ، والرزق من السماء عند العارفين هو رزق الأرواح ومن الأرض رزق الأشباح ، والحي عندهم العارف والميت الجاهل ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّا ﴾ [يونس : 36] ذم لهم بعدم العلم بما يجب لمولاهم وما يمتنع وما يجوز ولا يكاد ينجو من هذا الذم إلا قليل ، ومنهم الذين عرفوه جل شأنه به لا بالفكر بل قد يكاد يقصر العلم عليهم فإن أدلة أهل الرسوم من المتكلمين وغيرهم متعارضة وكلماتهم متجاذبة فلا تكاد ترى دليلاً سالماً من قيل وقال ونزاع وجدال ، والوقوف على علم من ذلك مع ذلك أمر أبعد من العيوق وأعز من بيض الانوق :

لقد طفت في تلك المعاهد كلها . . .

وسرحت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر . . .

على ذقن أو قارعاً سن نادم

فمن أراد النجاة فليفعل ما فعل القوم ليحصل له ما حصل لهم أولاً فليتبع السلف الصالح فيما كانوا عليه في أمر دينهم غير مكترث بمقالات الفلاسفة ومن حذا حذوهم من المتكلمين التي لا تزيد طالب الحق إلا شكا ﴿ وَمَا كَانَ هذا القرءان أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ الله ولكن تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من اللوح المحفوظ ﴿ وَتَفْصِيلَ الكتاب ﴾ [يونس : 37] الذي هو الأم ، أي كيف يكون مختلقاً وقد أثبت قبله في كتابين مفصلاً ومجملاً ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [يونس : 39] ذم لهم بالمسارعة إلى تكذيب الحق قبل التأمل والتدبر والاطلاع على الحقيقة وهذه عادة المنكرين أهل الحجاب مع كلمات القوم حيث أنهم يسارعون إلى إنكارها قبل التأمل فيها وتدبر مضامينها والوقوف على الاصطلاحات التي ينبت عليها وكان الحرى بهم التثبت والتدبر والله تعالى ولي التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(304/361)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾

لما كان العلم بتكذيبهم حاصلاً مما تقدم من الآيات تعين أن التكذيب المفروض هنا بواسطة أداة الشرط هو التكذيب في المستقبل ، أي الاستمرار على التكذيب .

وذلك أن كل ما تبين به صدق القرآن هو مثبِت لصدق الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أتى به ، أي إن أصروا على التكذيب بعد ما قارعتْهم به من الحجة فاعلم أنهم لا تنجع فيهم الحجج وأعلن لهم بالبراءة منهم كما تَبرؤوا منك .

ومعنى : ﴿ لي عملي ولكم عملكم ﴾ المتاركة .

وهو مما أجري مُجرى المثل ، ولذلك بني على الاختصار ووفرة المعنى ، فأفيد فيه معنى الحصر بتقديم المعمول وبالتعبير بالإضافة بـ ﴿ عَملي ﴾ و ﴿ عَمَلكم ﴾ ، ولم يعبر بنحو لي ما أعمل ولكم ما تعملون ، كما عُبر به بعد .

والبريء : الخلي عن التلبس بشيءٍ وعن مخالطته .

وهو فَعيل من بَرّأ المضاعف على غير قياس .

وفعل بَرَّأَ مشتق من بريء بكسر الراء من كذا ، إذا خلت عنه تبعته والمؤاخذة به .

وهذا التركيب لا يراد به صريحُه وإنما يراد به الكناية عن المباعدة .

وقد جاء هذا المكنى به مصرحاً به في قوله تعالى : ﴿ فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ﴾ [الشعراء : 216] ، ولذلك فجملة : ﴿ أنتم بريئون مما أعمل ﴾ إلى آخرها بيان لجملة : ﴿ لي عملي ولكم عملكم ﴾ ولذلك فصلت .

وإنما عدل عن الإتيان بالعمل مصدراً كما أتي به في قوله : ﴿ لي عملي ولكم عملكم ﴾ إلى الإتيان به فعلاً صلة ل ﴿ ما ﴾ الموصولة للدلالة على البراءة من كل عمل يحدث في الحال والاستقبال ، وأما العمل الماضي فلكونه قد انقضى لا يتعلق الغرض بذكر البراءة منه .

(305/361)

ولو عبر بالعمل لربما توهم أن المراد عمل خاص لأن المصدر المضاف لا يعم ، ولتجنب إعادة اللفظ بعينه في الكلام الواحد ؛ لأن جملة البيان من تمام المبيَّن ، ولأن هذا اللفظ أنسب بسلاسة النظم ، لأن في (ما) في قوله : ﴿ مما أعمل ﴾ من المد ما يجعله أسعد بمد النَفَس في آخر الآية والتهيئة للوقف على قوله : ﴿ مما تعملون ﴾ ، ولما في ﴿ تعملون ﴾ من المد أيضاً ، ولأنه يراعي الفاصلة .

وهذا من دقائق فصاحة القرآن الخارجة عن الفصاحة المتعارفة بين الفصحاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(306/361)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41) ﴾

وهذه آية تضع الاطمئنان في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يَقُل الله سبحانه : " إذا كذَّبوك " بل قال : ﴿ إِن كَذَّبُوكَ ﴾ [يونس : 41] وشاء الحق سبحانه أن يأتي بالتكذيب في مقام الشك ، وأتبع ذلك بقوله للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ [يونس : 41] أي : أبْلِغْهم : أنا لا أريد أن أحْمِلكم على ما أعمل أنا ، إنما أريد لكم الخير في أن تعملوا الخير ، فإن لم تعملوا الخير ؛ فهذا لن يؤثر في حصيلتي من عملي .

وبذلك يتضح لنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يُجازَى على عدد المؤمنين به ، بل بأداء البلاغ كما شاءه الله سبحانه .

وقد شاء الحق سبحانه أن ينقل محمد صلى الله عليه وسلم الخير إلى أمته ، فإن ظلوا على الشر ؛ فهذا الشر لن يناله لأن خير البلاغ بالمنهج يعطيه صلى الله عليه وسلم خيراً ، لأنه يطبِّقه على نفسه ، وشر الذين لا يتبعونه إنما يعود عليهم ؛ لأن الذين يتأبون على الاستجابة لأي داعٍ إنما يظنون أن الداعي سوف يستفيد .

والبلاغ عن الله ، إنما يطبقه الرسول صلى الله عليه وسلم منهجاً وسلوكاً ويُجازَى عليه .

فلا يجوز الخلط في تلك المسائل ﴿ لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ [يونس : 41] .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان رسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : 41] .

وكلمة ﴿ بريء ﴾ تفيد أن هناك ذنباً ، وهذا القول الحق فيه مجاراة للخصوم ، وشاء الحق سبحانه أن يُعلِّم رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أدب الحوار والمناقشة ، فيقول : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24] .

(307/361)

أي : أننا الرسول ومعه المؤمنون وأنتم أيها الكافرون إما على هدى ، أو في ضلال .

والرسول صلى الله عليه وسلم موقن أنه على هدى وأن الكافرين على الضلال ، ولكنه يجاريهم ؛ عدالة منه صلى الله عليه وسلم ومجاراة لهم .

كذلك يعلِّمه ربه سبحانه أن يقول : ﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ﴾ [سبأ : 25] .

أي : أنه يبين لهم : هَبُوا أنِّي أجرمتُ فأنتم لن تُسألوا عن إجرامي ، ومن أدب الرسول صلى الله عليه وسلم شاء له الحق سبحانه أن يقول : ﴿ وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ : 25

] .

ولم يقل : " ولا نُسأل عما تُجرمون " . وكذلك شاء الحق سبحانه أن تأتي هنا في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : 41] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(308/361)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41) ﴾

بَرِحَ الخفاءُ ، واستبانت الحقائق ، وامتاز الطريقان ، فلا المحسنُ بِجُرْمِ المسيءِ مُعَاقَبٌ ، ولا المسيءُ بِجُرْمِ المحسن مُعاتَب ، كُلٌّ على حِدَةٍ بما يعملون وعلى ما يفعله مُحَاسَب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 97 ﴾

(309/361)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41) ﴾

التفسير : لما بين فضائح عبدة الأوثان أكدها بالحجج اللامعة والبراهين القاطعة من أحوال الرزق والموت والحياة والإبداء والإعادة والإرشاد والهداية ، وقد بنى الحجج على الاستفهام وتفويض الجواب إلى المسؤول ليكون أبلغ في إلزام الحجة وأوقع في النفوس . فالحجة الأولى قوله : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾ بإنزال الأمطار النافعة الموجبة لتولد الأغذية النباتية والحيوانية في الأرض بعد رعاية شرائط تربيتها وإنمائها وحفظها من العاهات . ﴿ أمن يملك السمع والأبصار ﴾ خص الحاستين بالذكر لما في خلقهما وتسويتهما من الفطرة العجيبة ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : " سبحان من بَصَّرَ بشحم وأسمع بعظم وأنطق بلحم " ولما في تحصينهما في الآفات في المدد الطوال وهما

لطيفان يؤذيهما أدنى شيء مزيد قدرة ورأفة . ﴿ ومن يخرج الحي من الميت ﴾ الحيوان الماشي والطائر من النطفة والبيضة وقد مر سائر الأقوال في سورة الأنعام . ﴿ ومن يدبر الأمر ﴾ عمم بعد ما خصص لأن أقسام تدبيره تعالى في العالم العلوي والعالم السفلي وعالمي الغيب والشهادة أمور لا نهاية لها . وذكر كلها كالمتعذر . ﴿ فسيقولون الله ﴾ وفيه دليل على أنهم كانوا يعبدون الأصنام بناء على أنها شفعاؤهم وأنها تقربهم إلى الله زلفى ، ولكنهم كانوا مخطئين في هذا الاعتقاد فلهذا ختم الآية بقوله ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾ الله الذي اعترفتم بأنه سبب فيضان جميع الخيرات فكيف أشركتم بعبادته الجمادات التي لا تقدر على نفع أو ضر . ﴿ فذلكم ﴾ الموصوف بالقدرة الكاملة والرحمة الشاملة ﴿ الله ربكم الحق ﴾ الثابت ربوبيته بالوجدان والبرهان . ﴿ فماذا بعد الحق ﴾ " ذا " مزيدة و " ما " نافية أو استفهامية أو مجموع " ماذا " كلمة واحدة معناها أي شيء بعد الحق ﴿ إلا الضلال ﴾ والمراد أنه لما ثبت وجود الواجب الحق كان ما سواه ممكناً لذاته باطلاً دعوى الإلهية فيه ، لأن واجب الوجود يجب أن يكون واحداً في ذاته وفي صفاته وفي

جميع اعتباراته وإلا لزم افتقاره إلى ما انقسم إليه فلا يكون واجباً هف محال ولهذا ختم الآية بقوله : ﴿ فأنى تصرفون ﴾ كيف تستجيزون العدول عن هذا الحق الظاهر وتقعون في الضلال ، إذ لا واسطة بين الأمرين ، فمن يخطىء أحدهما وقع في الآخر .

(311/361)

﴿ كذلك ﴾ أي كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال ، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق فكذلك ﴿ حقت كلمة ربك ﴾ . وتفسير الكلمة ﴿ أنهم لا يؤمنون ﴾ على أنه بدل أي حق عليهم انتفاء الإيمان وقد علم الله منهم ذلك في الأزل ، وأراد بالكلمة العدة بالعذاب وأنهم لا يؤمنون تعليل على حذف اللام . احتجت المعتزلة بمثل قوله تعالى : ﴿ فأنى تصرفون ﴾ أن الصارف لو كان هو الله تعالى لم يصح منه هذا التعجيب والإنكار . وقالت الأشاعرة : قد تعلق علمه تعالى بأنهم لا يؤمنون كما قال : ﴿ حقت كلمة ربك ﴾ وتعلق خبره بأنهم لا يؤمنون وقدرته لم تتعلق بخلق الإيمان فيه بل بخلق الكفر فيه ، وأثبت ذلك في اللوح المحفوظ وأشهد عليه ملائكته وأنزله على أنبيائه وأشهدهم عليه ، فلو حصل الإيمان لبطلت هذه الأشياء فينقلب علمه جهلاً وخبره الصدق كذباً وقدرته عجزاً وإرادته عبثاً وإشهاده باطلاً . الحجة الثانية ﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم

يعيده ﴾ وإنما قال : ﴿ ثم يعيده ﴾ مع أن الخصم لا يعترف به لأنه قدم في هذه السورة دلال الإعادة بحيث لا يتمكن العاقل من دفعها إذا تأمل وأنصف فبنى الأمر على ذلك . وإنما أمر نبيه أن ينوب عنهم في الجواب بقوله ﴿ قل الله ﴾ الآية . تنبيهاً على أن هذا المعنى بلغ في الوضوح إلى حيث لا حاجة فيه الى إقرار الخصم المكابر ، فكأنه قيل : تكلم عنهم إذ لا يدعهم لحاجهم أن ينطقوا بكلمة الحق . وقوله : ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ كقوله : ﴿ فأنى تصرفون ﴾ وقد مر في " المائدة " . الحجة الثالثة ﴿ قل هل من شركائكم من يهدي ﴾ الآية . الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أوّلاً ثم بالهداية عادة مطردة في القرآن ، فحكى عن الخليل صلى الله عليه وسلم ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ [الشعراء : 78] وعن موسى ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ [طه : 5] وأمر محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى ﴾ [الأعلى : 1 - 3] والسر

(312/361)

فيه أن المقصود من خلق الجسد حصول الهداية للروح وارتسام العلوم والمعارف فيه بإرشاد الحق سبحانه من الطرق المنحرفة كثيرة والظنون والأغاليط غير محصورة ،

فتحصيل الوسط الحقيقي لا يمكن إلا بتوفيقه وهدايته ، ولا مدخل في ذلك بالاستقلال لملك أو إنسي أو جني فضلاً عن الأصنام التي هي في أدنى مراتب الوجود لأنها جمادات لا شعور لها هذا تقرير الحجة الثالثة .

وقال الزجاج : يقال : هديت للحق وإلى الحق بمعنى ، فجمع بين العبارتين . ويقال : هدى بنفسه بمعنى اهتدى كما يقال شرى بمعنى اشترى ومنه قوله : ﴿ أمن لا يهدي ﴾ وسائر القراءات أصلها " يهتدي " فأدغم وفتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين ، وقد كسرت الياء لاتباع ما بعدها . قيل : هذه الشركاء جمادات فكيف قال في حقها ﴿ إلا أن يهدى ﴾ وأجيب بوجوه منها : أن المراد في الآية رؤساؤهم وأشرافهم كقوله : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً ﴾ [التوبة : 31] والمراد أن الله سبحانه هو الذي يهدي الخلق إلى الدين الحق بالدلائل النقلية وبما يمكنهم منه من الدلائل العقلية ، وأما هؤلاء الدعاة والرؤساء فإنهم لا يقدرون على أن يهدوا غيرهم إلا إذا هداهم الله . ومنها أنهم لما اتخذوها آلهة وصفهم الله تعالى بصفة من يعقل كقوله : ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ﴾ [فاطر : 14] ومنها أن ذلك بالفرض والتقدير يعني أنها لو كانت بحيث يمكنها أن تهتدي فإنها لا تهدي غيرها إلا أن تهدى . ومنها أن البنية عندنا ليست بشرط في صحة الحياة والعقل فيصح من الله تعالى أن يجعلها حية عاقلة ، ثم إنها تشتغل بهداية الغير ، ومنها أن المراد من الهدي النقل والحركة يقال : هديت المرأة زوجها أي نقلت إليه ، فالمعنى لا

ينتقل إلى مكان إلا إذا نقل إليه . ثم عجب من مذهبهم الفاسد باستفهامين متواليين فقال : ﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ .

(313/361)

ثم بين ما بنوا عليه أمر دينهم فقال : ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ﴾ أي في إقرارهم بالله لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم بل سمعوه من أسلافهم أو في قولهم للأصنام أنها آلهة أو شفعاء ، وعلى هذا فالمراد بالأكثر الجميع . ﴿ إن الظن ﴾ في معرفة الله وفيما يجب تحقيقه ﴿ لا يغني من الحق ﴾ وهو العلم والتحقيق ﴿ شيئاً ﴾ من الغناء . والمعنى أن الظن لا يقوم مقام العلم في شيء من الأحوال . ثم أوعدهم على اتباعهم الظن وتقليد الآباء بقوله : ﴿ إن الله عليم بما يفعلون ﴾ . وتمسك نفاة القياس بالآية ظاهر من قبل أن القياس لا يفيد إلا الظن . وأجيب بأن التمسك بالعمومات لا يفيد إلا الظن وهذه الآية من العمومات فلم يجب اتباعها بزعمكم ، وما أفضى ثبوته إلى نفيه كان متروكاً . ولما فرغ من دلائل التوحد شرع في إثبات النبوة فقال : ﴿ ما كان هذا القرآن أن يفترى ﴾ أي افتراء من دون الله أو كلمة " أن " بمعنى اللام أي ما ينبغي له وما استقام أن يكون مفترى . والحاصل

أن وصفه ليس وصف شيء يمكن أن يفترى به على الله لأنه معجز لا يقدر البشر على إتيان مثله وإنما القادر عليه هو الله تعالى .

(314/361)

﴿ ولكن ﴾ كان ﴿ تصديق الذي بين يديه ﴾ من الكتب المنزلة لإعجازه دونها فهو عيار عليها شاهد بصحتها ، ونفس هذا التصديق أيضاً معجز لأن أقاصيصه موافقه لما في كتب الأولين مع أنه لم يتعلم قط ولم يتلمذ ، ولأن بشارته جاءت في تلك الكتب على وفق دعواه ، ولأنه يخبر عن الغيوب المستقبلة فيقع مطابقاً فظهر أن القرآن معجز من قبل اشتماله على الغيوب الماضية والمستقبلة . أما أنه معجز من جهة اشتماله على العلوم الجمة فذلك قوله : ﴿ وتفصيل الكتاب ﴾ أي يبين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع كقوله : ﴿ كتاب الله عليكم ﴾ [النساء : 24] قال في الكشاف قوله : ﴿ لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ داخل في حيز الاستدراك كأنه قال : ولكن كان تصديقاً وتفصيلاً منتفياً عنه الريب كائناً من رب العالمين ، وجوز أن يكون ﴿ من رب العالمين ﴾ متعلقاً بتصديق وتفصيل و ﴿ لا ريب فيه ﴾ اعتراض كقولك : زيد لا شك فيه كريم . والمعنى ولكن كان تصديقاً من رب العالمين وتفصيلاً منه لا ريب فيه . ثم أعاد بيان إعجازه مرة أخرى فقال

مستفهماً على سبيل الإنكار ﴿ أم يقولون افتراه قل ﴾ إن كان الأمر كما تزعمون ﴿ فأتوا ﴾ أنتم على وجه الافتراء ﴿ بسورة مثله ﴾ في البلاغة وحسن النظم فأنتم مثلي في العربية والفصاحة ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ أي لا تستعينوا بالله وحده ثم استعينوا بكل من سواه ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أنه افتراه . قال بعض العلماء : هذه الآية في سورة يونس وهي مكية ، فلعل المراد بالسورة المتحدّي بها هذه السورة . والأصح أن التحدي واقع على أقصر سورة . قالت المعتزلة : لو لم يكن الإتيان بمثل القرآن صحيح الوجود في الجملة لم يتحدّ العرب به لكنهم تحدّوا بذلك فدل على أن القرآن محدث إذ لو كان قديماً والإتيان بالقديم محال لم يصح هذا التحدي . وأجيب بأن القرآن يقال بالاشتراك على الصفة القديمة القائمة بذات الله وعلى هذه الحروف والأصوات المحدثة ، والتحدي إنما وقع بهذه

(315/361)

لا بتلك ﴿ بل كذبوا ﴾ سارعوا إلى التكذيب ﴿ بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ وهو القرآن ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ ومعنى التوقع فيه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل تقليداً للآباء ، وكذبوا به بعد التدبر وتكرير التحدي عليهم واستيقان عجزهم عن هذا

بغياً وحسداً وعناداً . وذلك إنما حملهم على التكذيب أوّلا وآخراً وجوه منها : أنهم وجدوا في القرآن أقاصيص الأولين ولم يعرفوا المقصود منها فقالوا أساطير الأوّلين ، وخفي عليهم أن الغرض منها بيان قدرة الله تعالى على التصرف في هذا العالم ونقل الأمم من العز إلى الذل وبالعكس ، ليعرف المكلف أن الدنيا ليست مما يبقى ، فنهاية كل حركة سكون وغاية كل سكون أن لا يكون كقوله : عز من قائل

(316/361)

﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ [يوسف : 111] . ومنها أنهم كلما سمعوا حروف التهجي في أوائل السور ولم يفهموا منها شيئاً ساء ظنهم بالقرآن فأجاب الله تعالى عنه بقوله : ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب ﴾ [آل عمران : 7] إلى قوله : ﴿ وأخر متشابهات ﴾ [آل عمران : 7] الآية . ومنها أنهم رأوا القرآن يظهر شيئاً فشيئاً فاتهموا النبي وقالوا : ﴿ لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ [الفرقان : 32] ومنها أنهم وجدوا القرآن مملوءاً من حديث الحشر والنشر ، وكانوا قد ألفوا المحسوسات فاستبعدوا ذلك . وأنهم وجدوا فيه تكاليف كثيرة من الصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد وكانوا يقولون . إن إله العالم غني عنا وعن طاعاتنا ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم

﴾ يعني قبل النظر في معجزات أنبيائهم . قال أهل التحقيق : في الآية دلالة على أن من كان غير عارف بوجوه التأويل قد يقع في الكفر والبدعة ، لأن ظواهر النصوص قد تتعارض فيفتقر هنالك إلى تطبيق التنزيل على التأويل . وقيل : معنى الآية أن القرآن كتاب معجز من جهتين : من جهة إعجاز نظمه ومن جهة ما فيه من الأخبار بالغيوب ومن جملتها أحوال الآخرة . فقوله : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ إشارة إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز ، وقوله : ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ إشارة إلى تكذيبهم قبل أن يمتحنوا غيوبه هل تطابق الواقع أم لا . ثم ختم الآية بقوله : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ والمراد أنهم طلبوا الدنيا وأعرضوا عن الآخرة فلم تبق عليهم الدنيا وفاتتهم الآخرة فبقوا في خسران الدارين . وقيل : المقصود عذاب الاستئصال الذي نزل بالمكذبين قبلهم . ثم قسم طوائف الأمم المكذبين فقال : ﴿ ومنهم من يؤمن به ﴾ أي بالقرآن أو بالرسول أي يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكنه يعاند ﴿ ومنهم ﴾ من يشك فيه لا يصدق به لا ظاهراً ولا باطناً ، ويمكن أن يقال : المراد به قسمتهم في الاستقبال أي

ومنهم من سيؤمن به ومنهم من يبقى على الكفر فتكون الآية كالعذر في تبقيتهم وعدم استئصالهم ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ فيجازيهم على حسب مراتبهم في التكذيب ويعلم طوياتهم هل يتوبون أو يصرفون . ثم بين اختصاص كل مكلف بأفعاله وبنتائج أعماله من الثواب والعقاب فقال : ﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي ﴾ أي جزاء عملي على الطاعة والإيمان وتبليغ الرسالة ﴿ ولكم عملكم ﴾ قال مقاتل والكلبي : هي منسوخة بآية القتال . والتحقيق أن آية القتال لا تدفع شيئاً من مدلولات هذه فلا نسخ والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 580.584 ﴾

(318/361)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

لما بيّن فضائح المشركين أتبعها بإيراد الحجج الدامغة ، من أحوال الرزق والحواس ، والموت والحياة ، والابتداء والإعادة ، والإرشاد والهدى ، وبنى سبحانه الحجج على الاستفهام وتفويض الجواب إلى المسؤولين ، ليكون أبلغ في إلزام الحجة وأوقع في النفوس ، فقال : ﴿ قُلْ

﴿ يا محمد للمشركين احتجاجاً لحقية التوحيد ، وبطلان ما هم عليه من الشرك ﴿ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السماء والأرض ﴾ من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات والمعادن ، فإن اعترفوا حصل المطلوب ، وإن لم يعترفوا فلا بدّ أن يعترفوا بأن الله هو الذي خلقهما ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السمع والأبصار ﴾ "أم" هي المنقطعة ، وفي هذا انتقال من سؤال إلى سؤال ، وخص السمع والبصر بالذكر ، لما فيهما من الصنعة العجيبة ، والقدرة الباهرة العظيمة ، أي : من يستطيع ملكهما وتسويتهما على هذه الصفة العجيبة ، والخلقة الغريبة ، حتى ينتفعوا بهما هذا الانتفاع العظيم ، ويحصلون بهما من الفوائد ما لا يدخل تحت حصر الحاصرين .

ثم انتقل إلى حجة ثالثة ، فقال : ﴿ وَمَن يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ﴾ الإنسان من النطفة ، والطير من البيضة ، والنبات من الحبة ، أو المؤمن من الكافر ﴿ يَخْرُجُ الميت مِنَ الحى ﴾ أي : النطفة من الإنسان ، أو الكافر من المؤمن ، والمراد من هذا الاستفهام عمن يحيي ويميت .

(319/361)

ثم انتقل إلى حجة رابعة ، فقال : ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأمر ﴾ أي : يقدّره ويقضيه ، وهذا من عطف العام على الخاص ؛ لأنه قد عمّ ما تقدّم وغيره ﴿ فَسَيَقُولُونَ الله ﴾ أي : سيكون قولهم في جواب هذه الاستفهامات إن الفاعل لهذه الأمور هو : الله سبحانه ، إن أنصفوا وعملوا على ما يوجبه الفكر الصحيح والعقل السليم ، وارتفاع الاسم الشريف على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف ، أي : الله يفعل ذلك ، ثم أمره الله سبحانه بعد أن يجيبوا بهذا الجواب أن يقول لهم : ﴿ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ والاستفهام للإنكار ، والفاء للعطف على مقدّر : أي تعلمون ذلك ، أفلا تتقون وتفعلون ما يوجبه هذا العلم من تقوى الله الذي يفعل هذه الأفعال .

﴿ فَذَلِكُمُ الله رَبُّكُمُ الحق ﴾ أي : فذلكم الذي يفعل هذه الأفعال هو ربكم المتصف بأنه الحق ، لا ما جعلتموهم شركاء له ، والاستفهام في قوله : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال ﴾ للتقريع والتوبيخ ، إن كانت " ما " استفهامية ، لا إن كانت نافية كما يحتمله الكلام ، والمعنى : أيّ شيء بعد الحق إلا الضلال ، فإن ثبوت ربوبية الربّ سبحانه حق بإقرارهم ، فكان غيره باطلاً ، لأن واجب الوجود يجب أن يكون واحداً في ذاته وصفاته ﴿ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ أي : كيف تستجيزون العدول عن الحق الظاهر ، وتقعون في الضلال إذ لا واسطة بينهما ؟ فمن تخطى أحدهما وقع في الآخر ، والاستفهام للإنكار والاستبعاد والتعجب ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الذين فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : كما حق وثبت أن

الحق بعده الضلال ، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق ، كذلك حقت كلمة ربك : أي حكمه وقضاؤه على الذين فسقوا : أي خرجوا من الحق إلى الباطل ، وتمرّدوا في كفرهم عناداً ومكابرة ، وجملة ﴿ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بدل من الكلمة .

(320/361)

قاله الزجاج : أي حقت عليهم هذه الكلمة ، وهي عدم إيمانهم ، ويجوز أن تكون الجملة تعليلية لما قبلها بتقدير اللام : أي لأنهم لا يؤمنون .

وقال الفراء : إنه يجوز إنهم لا يؤمنون بالكسر على الاستئناف ، وقد قرأ نافع ، وابن عامر : "كلمات ربك" بالجمع .

وقرأ الباقون بالافراد .

قوله : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أورد سبحانه في هذا حجة خامسة على المشركين ، أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقولها لهم ، وهم وإن كانوا لا يعترفون بالمعاد ، لكنه لما كان أمراً ظاهراً بيناً ، وقد أقام الأدلة عليه في هذه السورة على صورة لا يمكن دفعها عند من أنصف ، ولم يكابر ، كان كالمسلم عندهم الذي لا جحد له ولا إنكار فيه ، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم : ﴿ قُلِ الله يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ فأنى تُؤْفَكُونَ

﴿ أي : هو الذي يفعل ذلك لا غيره ، وهذا القول الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم ، عن أمر الله سبحانه له هو نيابة عن المشركين في الجواب ، إما على طريق التلقين لهم ، وتعريفهم كيف يجيبون ، وإرشادهم إلى ما يقولون ، وإما لكون هذا المعنى قد بلغ في الوضوح إلى غاية لا يحتاج معها إلى إقرار الخصم ، ومعرفة ما لديه ، وإما لكون المشركين لا ينطقون بما هو الصواب في هذا الجواب ، فراراً منهم عن أن تلزمهم الحجة ، أو أن يسجل عليهم بالعناد والمكابرة إن حادوا عن الحق ، ومعنى : ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف تؤفكون ، أي تصرفون عن الحق وتنقلبون منه إلى غيره .

(321/361)

ثم أمره الله سبحانه أن يورد عليهم حجة سادسة فقال : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَهْدِى إِلَى الحق ﴾ والاستفهام ها هنا ، كالاستفهامات السابقة ، والاستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيراً في القرآن كقوله : ﴿ الذى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 78] وقوله : ﴿ الذى أعطى كُلَّ شَىء خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 50] وقوله : ﴿ الذى خَلَقَ فسوى * والذى قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأَعلى : 2 ، 3] وفعل الهداية يجيء متعدياً باللام وإلى ، وهما بمعنى واحد .

روي ذلك عن الزجاج.

والمعنى: قل لهم يا محمد، هل من شركائكم من يرشد إلى دين الإسلام، ويدعو الناس إلى الحق؟ فإذا قالوا لا، فقل لهم: الله يهدي للحق دون غيره، ودليل ذلك ما تقدّم من الأدلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا، وهداية الله سبحانه لعباده إلى الحق هي بما نصبه لهم من الآيات في المخلوقات، وإرساله للرسل، وإنزاله للكتب، وخلقه لما يتوصل به العباد إلى ذلك من العقول والأفهام، والأسماع والأبصار، والاستفهام في قوله: ﴿ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الحق أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن مَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يهدى ﴾ للتقرير وإلزام الحجة.

وقد اختلف القراء في ﴿ لاَّ يَهِدِّي ﴾ فقرأ أهل المدينة إلا نافعاً "يهدي" بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال فجمعوا في قراءتهم هذه بين ساكنين.

قال النحاس: والجمع بين ساكنين لا يقدر أحد أن ينطق به.

قال محمد بن يزيد: لا بدّ لمن رام مثل هذا أن يحرك حركة خفيفة إلى الكسر، وسيبويه يسمي هذا اختلاساً.

وقرأ أبو عمرو، وقالون، في رواية بين الفتح والإسكان.

وقرأ ابن عامر، وابن كثير، وورش، وابن محيصن، بفتح الياء والهاء وتشديد الدال.

قال النحاس: هذه القراءة بينة في العربية، والأصل فيها يهتدى، أدغمت التاء في الدال وقلبت حركتها إلى الهاء.

وقرأ حفص ، ويعقوب ، والأعمش مثل قراءة ابن كثير ، إلا أنهم كسروا الهاء ، قالوا : لأن الكسر هو الأصل عند التقاء الساكنين .

وقرأ أبو بكر ، عن عاصم " يهدي ِ " بكسر الياء والهاء وتشديد الدال ، وذلك للاتباع .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، ويحيى بن وثاب " يهْديَ " بفتح الياء وإسكان الهاء ، وتخفيف الدال من هدي يهدي .

قال النحاس : وهذه القراءة لها وجهان في العربية ، وإن كانت بعيدة : الأوّل : أن الكسائي والفراء قالا : إن ﴿ يهدي ﴾ بمعنى يهتدي .

الثاني : أن أبا العباس قال : إن التقدير أم من لا يهدي غيره ، ثم تمّ الكلام ، وقال بعد ذلك ﴿ إِلاَّ أَن يهدى ﴾ أي : لكنه يحتاج أن يهدى ، فهو استثناء منقطع ، كما تقول : فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع : أي لكنه يحتاج أن يسمع ، والمعنى على القراءات المتقدمّة : أفمن يهدي الناس إلى الحق ، وهو الله سبحانه أحق أن يتبع ويقتدي به ، أم الأحق بأن يتبع ويقتدي به من لا يهتدي بنفسه إلا أن يهديه غيره ، فضلاً عن أن يهدي غيره ؟ والاستثناء على هذا ، استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال .

قوله : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ هذا تعجيب من حالهم باستفهامين متواليين ، أي أيّ شيء لكم كيف تحكمون باتخاذ هؤلاء شركاء لله ، وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخ ، و ﴿ كيف ﴾ في محل نصب ب ﴿ تحكمون ﴾ ، ثم بيّن سبحانه ما هؤلاء عليه في أمر دينهم ، وعلى أيّ شيء بنوه .

وبأيّ شيء اتبعوا هذا الدين الباطل ، وهو الشرك فقال : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّا إِنَّ الظن لاَ يُغْنِى مِنَ الحق شَيْئًا ﴾ وهذا كلام مبتدأ غير داخل في الأوامر السابقة .

(323/361)

والمعنى : ما يتبع هؤلاء المشركون في إشراكهم بالله ، وجعلهم له أنداداً إلا مجرّد الظن ، والتخمين والحدس ، ولم يكن ذلك عن بصيرة ، بل ظن من ظن من سلفهم أن هذه المعبودات تقرّبهم إلى الله ، وأنها تشفع لهم ، ولم يكن ظنه هذا لمستند قط ، بل مجرد خيال مختل وحدس باطل ، ولعل تنكير الظن هنا للتحقير : أي إلا ظناً ضعيفاً لا يستند إلى ما تستند إليه سائر الظنون .

وقيل : المراد بالآية : إنه ما يتبع أكثرهم في الإيمان بالله والإقرار به إلا ظناً .

والأوّل : أولى .

ثم أخبرنا الله سبحانه : بأن مجرد الظن لا يغني من الحق شيئاً ، لأن أمر الدين إنما يبنى على العلم ، وبه يتضح الحق من الباطل ، والظن لا يقوم مقام العلم ، ولا يدرك به الحق ، ولا يغني عن الحق في شيء من الأشياء ، ويجوز انتصاب شيئاً على المصدرية ، أو على أنه مفعول به ، و ﴿ من الحق ﴾ حال منه والجملة مستأنفة لبيان شأن الظن وبطلانه ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ من الأفعال القبيحة الصادرة لا عن برهان .

(324/361)

قوله : ﴿ وَمَا كَانَ هذا القرءان أَن يفترى مِن دُونِ الله ﴾ لما فرغ سبحانه من دلائل التوحيد وحججه ، شرع في تثبيت أمر النبوّة : أي وما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشتمل على الحجج البيّنة ، والبراهين الواضحة ، يفترى من الخلق من دون الله ، وإنما هو من عند الله عزّ وجلّ ، وكيف يصح أن يكون مفترى ، وقد عجز عن الإتيان بسورة منه القوم الذين هم أفصح العرب لساناً وأدقهم أذهاناً ﴿ ولكن ﴾ كان هذا القرآن ﴿ تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب المنزلة على الأنبياء ، ونفس هذا التصديق معجزة مستقلة ؛ لأن أقاصيصه موافقة لما في الكتب المتقدمة ، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لم يطلع على ذلك ولا تعلمه ولا سأل عنه ، ولا اتصل بمن له علم بذلك ، وانتصاب

﴿ تصديق ﴾ على أنه خبر لكان المقدرة بعد لكن ، ويجوز أن يكون انتصابه على العلية لفعل محذوف ، أي لكن أنزله الله تصديق الذي بين يديه .

قال الفراء : ومعنى الآية ، وما ينبغي لهذا القرآن أن يفترى ، كقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾ [آل عمران : 161] ، ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ [التوبة : 122] .

وقيل : إن ﴿ أن ﴾ بمعنى اللام ، أي : وما كان هذا القرآن ليفترى .

وقيل : بمعنى لا : أي لا يفترى ، قال الكسائي والفراء : إن التقدير في قوله : ﴿ ولكن تَصْدِيقَ ﴾ ولكن كان تصديق ، ويجوز عندهما الرفع ، أي : ولكن هو تصديق .

وقيل : المعنى : ولكن القرآن تصديق ﴿ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب ، أي أنها قد بشرت به قبل نزوله ، فجاء مصدّقاً لها .

قيل : المعنى : ولكن تصديق النبيّ الذي بين يدي القرآن ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم شاهدوه قبل أن يسمعوا منه القرآن .

(325/361)

قوله : ﴿ وَتَفْصِيلَ الكتاب ﴾ عطف على قوله : ﴿ ولكن تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فيجيء فيه الرفع والنصب على الوجهين المذكورين في ﴿ تصديق ﴾ ، والتفصيل : التبيين

، أي يبين ما في كتب الله المتقدّمة ، والكتاب للجنس .

وقيل : أراد ما بين في القرآن من الأحكام ، فيكون المراد بالكتاب : القرآن .

قوله : ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ الضمير عائد إلى القرآن ، وهو داخل في حكم الاستدراك خبر ثالث ، ويجوز أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال من الكتاب ، ويجوز أن تكون الجملة استئنافية لا محلّ لها ، و ﴿ مِن رَّبّ العالمين ﴾ خبر رابع : أي كائن من ربّ العالمين ، ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب ، أو من ضمير القرآن في قوله : ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي : كائناً من ربّ العالمين ، ويجوز أن يكون متعلقاً بتصديق وتفصيل ، وجملة ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ معترضة .

قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ الاستفهام للإنكار عليهم ، مع تقرير ثبوت الحجة ، و " أم " هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة ، أي بل أيقولون افتراه واختلقه .

وقال أبو عبيدة : أم بمعنى الواو : أي ويقولون افتراه .

وقيل : الميم زائدة ، والتقدير : أيقولون افتراه ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ .

ثم أمره الله سبحانه أن يتحدّاهم حتى يظهر عجزهم ويتبيّن ضعفهم فقال : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ أي : إن كان الأمر كما تزعمون من أن محمداً افتراه ، فأتوا أنتم على جهة الافتراء بسورة مثله في البلاغة ، وجودة الصناعة ، فأنتم مثله في معرفة لغة العرب وفصاحة الألسن وبلاغة الكلام ﴿ وادعوا ﴾ بمظاهريكم ومعاونيكم ﴿ مَنِ استطعتم ﴾ دعاءه

والاستعانة به ، من قبائل العرب ، ومن آلهتكم التي تجعلونهم شركاء لله .

وقوله : ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ متعلق ب ﴿ ادعوا ﴾ : أي ادعوا من سوى الله من خلقه ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في دعواكم أن هذا القرآن مفترى .

(326/361)

وسبحان الله العظيم ما أقوى هذه الحجة وأوضحها ، وأظهرها للعقول ، فإنهم لما نسبوا الافتراء إلى واحد منهم في البشرية والعربية ، قال لهم : هذا الذي نسبتموه إليّ وأنا واحد منكم ، ليس عليكم إلا أن تأتوا ، وأنتم الجمع الجمّ ، بسورة مماثلة لسورة من سوره ، واستعينوا بمن شئتم من أهل هذه اللسان العربية على كثرتهم وتباين مساكنهم ، أو من غيرهم من بني آدم ، أو من الجنّ ، أو من الأصنام ، فإن فعلتم هذا بعد اللتيا والتي ، فأنتم صادقون فيما نسبتموه إليّ وألصقتموه بي ، فلم يأتوا عند سماع هذا الكلام المنصف ، والتنزّل البالغ ، بكلمة ولا نطقوا ببنت شفة ، بل كاعوا عن الجواب ، وتشبثوا بأذيال العناد البارد ، والمكابرة المجردة عن الحجة ، وذلك مما لا يعجز عنه مبطل ، ولهذا قال سبحانه عقب هذا التحدّي البالغ ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ ﴾ فأضرب عن الكلام الأوّل ، وانتقل إلى بيان أنهم سارعوا إلى تكذيب القرآن ، قبل أن يتدبروه ويفهموا معانيه ، وما

اشتمل عليه ، وهكذا صنع من تصلب في التقليد ، ولم يبال بما جاء به من دعا إلى الحق وتمسك بذيول الإنصاف ، بل يردّه بمجرد كونه لم يوافق هواه ، ولا جاء على طبق دعواه قبل أن يعرف معناه ، ويعلم مبناه ، كما تراه عياناً وتعلمه وجداناً .

والحاصل أن من كذب بالحجة النيرة ، والبرهان الواضح ، قبل أن يحيط بعلمه ، فهو لم يتسمك بشيء في هذا التكذيب ، إلا مجرد كونه جاهلاً لما كذب به غير عالم به ، فكان بهذا التكذيب منادياً على نفسه بالجهل بأعلى صوت ، ومسجلاً بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل ، وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكذيبه شيء :

ما يبلغ الأعداء من جاهل . . . ما يبلغ الجاهل من نفسه

(327/361)

قوله : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ معطوف على : ﴿ لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾ أي : بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وبما لم يأتهم تأويله ، أو هذه الجملة في محل نصب على الحال ، أي كذبوا به حال كونهم لم يفهموا تأويل ما كذبوا به ، ولا بلغته عقولهم .

والمعنى : أن التكذيب منهم وقع قبل الإحاطة بعلمه ، وقبل أن يعرفوا ما يؤول إليه من صدق ما اشتمل عليه من حكاية ما سلف من أخبار الرسل المتقدّمين ، والأمم السابقين ،

ومن حكايات ما سيحدث من الأمور المستقبلة التي أخبر عنها قبل كونها ، أو قبل أن يفهموه حق الفهم ، وتتعقله عقولهم ، فإنهم لو تدبروه كلية التدبر لفهموه كما ينبغي ، وعرفوا ما اشتمل عليه من الأمور الدالة أبلغ دلالة على أنه كلام الله ، وعلى هذا فمعنى تأويله ما يؤول إليه لمن تدبره من المعاني الرشيقة ، واللطائف الأنيقة ، وكلمة التوقع أظهر في المعنى الأوّل : ﴿ كذلك كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : مثل ذلك التكذيب كذب الذين من قبلهم من الأمم عند أن جاءتهم الرسل بحجج الله وبراهينه ، فإنهم كذبوا به قبل أن يحيطوا بعلمه ، وقبل أن يأتيهم تأويله : ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة الظالمين ﴾ من الأمم السالفة من سوء العاقبة ، بالخسف والمسخ ونحو ذلك من العقوبات التي حلت بهم ، كما حكى ذلك القرآن عنهم ، واشتملت عليه كتب الله المنزّلة عليهم .

قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ أي : ومن هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن من يؤمن به في نفسه ، ويعلم أنه صدق وحق ، ولكنه كذب به مكابرة وعناداً .

وقيل : المراد : ومنهم من يؤمن به في المستقبل ، وإن كذب به في الحال ، والموصول مبتدأ ، وخبره منهم ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ ولا يصدّقه في نفسه ، بل كذب به جهلاً كما مرّ تحقيقه ، أو لا يؤمن به في المستقبل ، بل يبقى على جحوده وإصراره .

وقيل : الضمير في الموضعين للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقد قيل : إن هذا التقسيم خاص بأهل مكة ، وقيل : عام في جميع الكفار ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بالمفسدين ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ، والمراد بهم : المصرّون المعاندون ، أو بكلا الطائفتين ، وهم الذين يؤمنون به في أنفسهم ، ويكذبون به في الظاهر ، والذين يكذبون به جهلاً ، أو الذين يؤمنون به في المستقبل ، والذين لا يؤمنون به .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم إن أصرّوا على تكذيبه واستمرّوا عليه : ﴿ لّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ أي لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم ، فقد أبلغت إليكم ما أمرت بإبلاغه ، وليس عليّ غير ذلك ، ثم أكد هذا بقوله : ﴿ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِىء مّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : لا تؤاخذون بعملي ، ولا أؤاخذ بعملكم .

وقد قيل : إن هذا منسوخ بآية السيف كما ذهب إليه جماعة من المفسرين .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ ﴾ يقول : سبقت كلمة ربك .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الضحاك ، قال : صدقت .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ أَم مَّن لاَّ يَهِدّى إِلاَّ أَن يهدى ﴾ قال : الأوثان .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد ، في قوله : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ

فَقُل لّى عَمَلِى ﴾ الآية ، قال : أمره بهذا ، ثم نسخه ، فأمره بجهادهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(329/361)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ قل من يرزقكم ﴾ أي من ينزل من سماء النفس مطر الهواجس ويخرج من أرض النفس نبات الأفعال والأعمال ، وينزل من سماء القلب مطر أثار فيض الروح ويخرج من أرض النفس نبات الصفات البشرية والحيوانية . أو ينزل من سماء الروح مطر فيض الروح ويخرج من أرض القلب نبات الأوصاف الحميدة ، أو ينزل من سماء القدرة مطر تجلي الصفات والفيض الرباني ويخرج من أرض الروح المحبة والأخلاق الإلهية ، أو ينزل من سماء الذات مطر تجلي الصفات ويخرج من أرض الوجود نبات الفناء في الله وثمرات البقاء بالله ﴿ أمن يملك السمع والأبصار ﴾ فيكون سمعه الذي به يسمع ، وبصره الذي به يبصر . ﴿ يخرج الحي من الميت ﴾ النفس من القالب والقلب من الروح والروح من القلب وبالعكوس ﴿ ومن يدبر ﴾ أمر الإنسان بالتربية من التراب إلى أن يصل إلى رب الأرباب .

فسيقولون هذه الأحوال كلها من الله فقل لمن بلغ نظره إلى هذه المراتب العلية وإنها عتبة باب التوحيد والمعرفة ﴿ أفلا تتقون ﴾ بالله من غيره لتدخلوا بيت الوحدة ﴿ كذلك حقت كلمة ربك ﴾ هكذا جرى القلم في الأزل على الذين خرجوا عن قبول فيض النور حين رش على الخلق من نوره . ﴿ وتفصيل الكتاب ﴾ وتفصيل الجملة التي هي مكتوبة عنده في أم الكتاب وهو علمه القائم بذاته . ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ الذين أفسدوا استعدادهم الفطري والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 584 ﴾

(330/361)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والستون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/362)

الجزء الثانى والستون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 42 ﴾ من سورة يونس عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 49 ﴾ من نفس السورة

(4/362)

قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (42) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (43) ﴾

مناسبة الآيتين لما قبلهما

قال البقاعى :

ولما قسمهم إلى هذين القسمين ، قسم القسم الأخير إلى قسمين فقال : ﴿ ومنهم ﴾ أي المكذبين ﴿ من ﴾ ولما كان المستمع إليه أكثر لأنهم أشهى الناس إلى تعرف حاله ، وكان طريق ذلك السمع والبصر ، وكان تحديق العين إليه لا يخفى ، فكان أكثرهم يتركه إظهاراً لبغضه وخوفاً من إنكار من يراه عليه ، وكان إلقاء السمع بغاية الجهد يمكن إخفاءه بخلاف الإبصار ، عبر هنا بالافتعال ، وجمع دالاً على كثرتهم نظراً إلى معنى " من " وأفرد في النظر اعتباراً للفظها ودالاً على قلة الناظر بما ذكر فقال : ﴿ يستمعون ﴾ وضمن الاستماع الإصغاء ليؤدي مؤدي الفعلين ، ودل على الإصغاء بصلته معلقة بحال انتزعت منه فكأنه : قال مصغين ﴿ إليك ﴾ أي عند قراءة القرآن وبيانه بالسنة ، ولكنهم وإن كانوا قسمين بالنسبة إلى الاستماع والنظر فهم قسم واحد بالنسبة إلى الضلال ، فكان تعقيب ذلك بحشرهم بعد قصر الهداية عليه سبحانه كذكر حشرهم فيما مضى تقسيمهم إلى قسمين بعد قوله ﴿ ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

(5/362)

ولما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريد – بإسماعه لهم ما أنزل الله – هدايتهم به ، سبب عن استماعهم إنكار إسماعهم الإسماع المترتب عليه الهدى فقال : ﴿ أفأنت ﴾ أي وحدك ﴿ تسمع الصم ﴾ أي في آذان قلوبهم لأنهم يستمعون إليك وقد ختم على أسماعهم فهم لا ينتفعون باستماعهم لأنهم يطلبون السمع للرد لا للفهم ؛ والسمع إدراك الشيء بما يكون به مسموعاً ، فكانوا بعدم انتفاعهم كأنهم هم مجانين ، لأن الأصم العاقل ربما فهم بالتفرس في تحريك الشفاه وغيرها فلذا قال : ﴿ ولو كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ لا يعقلون ﴾ أي لا يتجدد لهم عقل أصلاً فصاروا بحيث لا يمكن إسماعهم لأنه لا يمكن إلا بسماع الصوت الدال على المعنى وبفهم المعنى ، والمانع من الأول الصمم ، ومن الثاني عدم العقل ، فصاروا شراً من البهائم لأنها وإن كانت لا تعقل فهي تسمع ، والأصم : المنسد السمع بما يمنع من إدراك الصوت .

(6/362)

﴿ ومنهم من ينظر ﴾ محدقاً أو رامياً ببصره من بعيد ﴿ إليك ﴾ فهو من التضمين كما سبق في ﴿ يستمعون ﴾ ؛ نقل عن التفتازاني أنه قال في حاشية الكشاف : وحقيقة التضمين أن يقصد بالفعل معناه الحقيقي مع فعل آخر يناسبه وهو كثير في كلام العرب ،

وذلك مع حذف حال مأخوذ من الفعل الآخر بمعونة القرينة اللفظية ، ويتعين جعل الفعل المذكر أصلاً والمذكور حاله تبعاً ، لأن حذفه والدلالة عليه بصلته يدل على اعتباره في الجملة لا على زيادة القصد إليه ، ومن أمثلته : أحمد إليك الله ، أي منهياً إليك حمده ، ويقلب كفيه على كذا ، أي نادماً عليه ،

﴿ ولا تعد عيناك عنهم ﴾ [الكهف : 28] أي مجاوزتين عنهم إلى غيرهم ، ﴿ ولا تأكلوا أموالهم ﴾ -ضاميها ﴿ إلى أموالكم ﴾ [النساء : 2] ، ﴿ الرفث - مفضين - إلى نسائكم ﴾ [البقرة : 187] ، ﴿ ولا تعزموا ﴾ [البقرة : 235] أي على النكاح وأنتم تنوون عقدته ﴿ ولا يسمعون ﴾ مصغين ﴿ إلى الملإ الأعلى ﴾ [الصافات : 8] ، سمع الله - أي مستجيباً - لمن حمده ، ﴿ والله يعلم المفسد ﴾ [البقرة : 220] مميزاً له - ﴿ من المصلح ﴾ ، ﴿ والذين يؤلون ﴾ -ممتنعين ﴿ من ﴾ وطء ﴿ نسائهم ﴾ [البقرة : 226] .

ولما كان المعنى أنك يا أكرم الخلق تريد بنظر هذا الناظر إليك ان ينظر إلى ما تأتي به من باهر الآيات فيهتدي وهو غير منتفع بنظره لما جعل عليه من الغشاوة فكان كالأعمى الذي زاد على عدم بصره عدم العقل فلا بصر ولا بصيرة ، قال منكراً لذلك : ﴿ أفأنت تهدي العمي ﴾ أي عيوناً وقلوباً ﴿ ولو كانوا ﴾ أي بما جبلوا عليه ﴿ لا يبصرون ﴾ أي لا يتجدد لهم بصر ولا بصيرة ، فلا تمكن هدايتهم ، لأن هداية الطريق الحسي لا تمكن إلا

بالبصر ، وهداية الطريق المعنوي لا تمكن إلا بالبصيرة ؛ والنظر : طلب الرؤية بتقليب البصر ، ونظر القلب طلب العلم بالفكر ؛ والعمى : آفة تمنع الرؤية عن العين والقلب ؛ والإبصار : إدراك الشيء بما به يكون مبصراً ، فكأنه قيل : ما له فعل بهم هذا والأمر بيده ؟ فقيل : لأنه تام المُلك والمِلك وهو متفضل في جميع نعمة لا يجب عليه لأحد شيء فهو لا يسأل عما يفعل ، وبنى عليه قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 446.448 ﴾

(7/362)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ أفأنت ﴾ بتليين الهمزة ونحوه : الأصبهاني عن ورش وحمزة في الوقف . ﴿ ولكن الناس ﴾ بالتخفيف والرفع : حمزة وعلي وخلف ﴿ يحشرهم ﴾ بالياء : حفص الباقون بالنون ﴿ نرينك أو نتوفينك ﴾ بالنون الخفيفة : رويس ﴿ آلان ﴾ بوزن " عالان " بحذف الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام حيث كان : أبو جعفر ونافع وزمعة وحمزة في الوقف ﴿ ربي إنه ﴾ بفتح الياء : أبو عمرو وأبو جعفر ونافع . ﴿ فليفرحوا ﴾

بياء الغيبة ﴿ تجمعون ﴾ بتاء الخطاب : ابن عامر ويزيد . وقرأ زيد على ضده ، وقرأ رويس كليهما على الخطاب . والباقون على الغيبة فيهما .

الوقوف : ﴿ إليك ﴾ ط ﴿ لا يعقلون ﴾ ه ﴿ إليك ﴾ ط ﴿ لا يبصرون ﴾ ه ﴿ يظلمون ﴾ ه ﴿ بينهم ﴾ ط ﴿ مهتدين ﴾ ه ﴿ يفعلون ﴾ ه ﴿ رسول ﴾ ج ط ﴿ لا يظلمون ﴾ ه ﴿ صادقين ﴾ ه ﴿ ما شاء الله ﴾ ط ﴿ أجل ﴾ ط ﴿ ولا يستقدمون ﴾ ه ﴿ المجرمون ﴾ ه ﴿ آمنتم به ﴾ ط ، ﴿ تستعجلون ﴾ ه ﴿ الخلد ﴾ ج ط للاستفهام مع أن القائل واحد ﴿ تكسبون ﴾ ه ﴿ أحق هو ﴾ ط ﴿ بمعجزين ﴾ ه ﴿ لافتدت به ﴾ ط ﴿ العذاب ﴾ ج ط للعطف على ﴿ أسروا ﴾ دون ﴿ رأوا ﴾ ﴿ يظلمون ﴾ ه ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ لا يعلمون ﴾ ه ﴿ ترجعون ﴾ ه ﴿ للمؤمنين ﴾ ه ﴿ فليفرحوا ﴾ ط ﴿ يجمعون ﴾ ه ﴿ وحلالاً ﴾ ط ﴿ تفترون ﴾ ه ﴿ القيامة ﴾ ط ﴿ لا يشكرون ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 585 .

﴿ 586

(8/362)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (42) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى في الآية الأولى ، قسم الكفار إلى قسمين منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ، وفي هذه الآية قسم من لا يؤمن به قسمين : منهم من يكون في غاية البغض له والعداوة له ونهاية النفرة عن قبول دينه ، ومنهم من لا يكون كذلك ، فوصف القسم الأول في هذه الآية فقال : ومنهم من يستمع كلامك مع أنه يكون كالأصم من حيث إنه لا ينتفع ألبتة بذلك الكلام فإن الإنسان إذا قوي بغضه لإنسان آخر ، وعظمت نفرته عنه ، صارت نفسه متوجهة إلى طلب مقابح كلامه معرضة عن جميع جهات محاسن كلامه ، فالصمم في الأذن ، معنى ينافي حصول إدراك الصوت فكذلك حصول هذا البغض الشديد كالمنافي للوقوف على محاسن ذلك الكلام والعمى في العين معنى ينافي حصول إدراك الصورة ، فكذلك البغض ينافي وقوف الإنسان على محاسن من يعاديه والوقوف على ما آتاه الله تعالى من الفضائل ، فبين تعالى أن في أولئك الكفار من بلغت حالته في البغض والعداوة إلى هذا الحد ، ثم كما أنه لا يمكن جعل الأصم سميعاً ولا جعل الأعمى بصيراً ، فكذلك لا يمكن جعل العدو البالغ في

العداوة إلى هذا الحد صديقاً تابعاً للرسول صلى الله عليه وسلم والمقصود من هذا الكلام تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام بأن هذه الطائفة ، قد بلغوا في مرض العقل إلى حيث لا يقبلون العلاج والطبيب إذا رأى مريضاً لا يقبل العلاج أعرض عنه ، ولم يستوحش من عدم قبوله للعلاج ، فكذلك وجب عليك أن لا تستوحش من حال هؤلاء الكفار .

المسألة الثانية :

احتج ابن قتيبة بهذه الآية ، على أن السمع أفضل من البصر فقال : إن الله تعالى قرن بذهاب السمع ذهاب العقل ، ولم يقرن بذهاب النظر إلا ذهاب البصر ، فوجب أن يكون السمع أفضل من البصر .

(9/362)

وزيف ابن الأنباري هذا الدليل فقال : إن الذي نفاه الله مع السمع بمنزلة الذي نفاه الله مع البصر لأنه تعالى أراد إبصار القلوب ، ولم يرد إبصار العيون والذي يبصره القلب هو الذي يعقله .

واحتج ابن قتيبة على هذا المطلوب بحجة أخرى من القرآن ، فقال : كلما ذكر الله السمع والبصر ، فإنه في الأغلب يقدم السمع على البصر ، وذلك يدل على أن السمع أفضل من

البصر ومن الناس من ذكر في هذا الباب دلائل أخرى : فأحدها : أن العمى قد وقع في حق الأنبياء عليهم السلام أما الصمم فغير جائز عليهم لأنه يخل بأداء الرسالة ، من حيث إنه إذا لم يسمع كلام السائلين تعذر عليه الجواب فيعجز عن تبليغ شرائع الله تعالى .

الحجة الثانية : أن القوة السامعة تدرك المسموع من جميع الجوانب ، والقوة الباصرة لا تدرك المرئي إلا من جهة واحدة وهي المقابل .

الحجة الثالثة : أن الإنسان إنما يستفيد العلم بالتعلم من الأستاذ ، وذلك لا يمكن إلا بقوة السمع ، فاستكمال النفس بالكمالات العلمية لا يحصل إلا بقوة السمع ، ولا يتوقف على قوة البصر ، فكان السمع أفضل من البصر .

الحجة الرابعة : أنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لذكرى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السمع وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : 37] والمراد من القلب ههنا العقل ، فجعل السمع قريناً للعقل ويتأكد هذا بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أصحاب السعير ﴾ [الملك : 10] فجعلوا السمع سبباً للخلاص من عذاب السعير .

الحجة الخامسة : أن المعنى الذي يمتاز به الإنسان من سائر الحيوانات هو النطق والكلام وإنما ينتفع بذلك القوة السامعة ، فمتعلق السمع النطق الذي به حصل شرف الإنسان ، ومتعلق البصر إدراك الألوان والأشكال ، وذلك أمر مشترك فيه بين الناس وبين سائر الحيوانات ، فوجب أن يكون السمع أفضل من البصر .

الحجة السادسة : أن الأنبياء عليهم السلام يراهم الناس ويسمعون كلامهم ، فنبوتهم ما حصلت بسبب ما معهم من الصفات المرئية ، وإنما حصلت بسبب ما معهم من الأصوات المسموعة وهو الكلام وتبليغ الشرائع وبيان الأحكام ، فوجب أن يكون المسموع أفضل من المرئي ، فلزم أن يكون السمع أفضل من البصر ، فهذا جملة ما تمسك به القائلون بأن السمع أفضل من البصر ، ومن الناس من قال : البصر أفضل من السمع ، ويدل عليه وجوه :

الحجة الأولى : أنهم قالوا في المثل المشهور ليس وراء العيان بيان ، وذلك يدل على أن أكمل وجوه الإدراكات هو الأبصار .

الحجة الثانية : أن آلة القوة الباصرة هو النور وآلة القوة السامعة هي الهواء والنور أشرف من الهواء فالقوة الباصرة أشرف من القوة السامعة .

الحجة الثالثة : أن عجائب حكمة الله تعالى في تخليق العين التي هي محل الأبصار أكثر من عجائب خلقته في الأذن التي هي محل السماع ، فإنه تعالى جعل تمام روح واحد من الأرواح السبعة الدماغية من العصب آلة للأبصار ، وركب العين من سبع طبقات وثلاث رطوبات وخلق لتحريكات العين عضلات كثيرة على صور مختلفة والأذن ليس كذلك وكثرة العناية

في تخليق الشيء تدل على كونه أفضل من غيره .

الحجة الرابعة : أن البصر يرى ما حصل فوق سبع سموات والسمع لا يدرك ما بعد منه على فرسخ ، فكان البصر أقوى وأفضل وبهذا البيان يدفع قولهم إن السمع يدرك من كل الجوانب والبصر لا يدرك إلا من الجانب الواحد .

الحجة الخامسة : أن كثيراً من الأنبياء سمع كلام الله في الدنيا ، واختلفوا في أنه هل رآه أحد في الدنيا أم لا ؟ وأيضاً فإن موسى عليه السلام سمع كلامه من غير سبق سؤال والتماس ولما سأل الرؤية قال :

﴿ لَن تَرَانِى ﴾ [الأعراف : 143] وذلك يدل على أن حال الرؤية أعلى من حال السماع .

(11/362)

الحجة السادسة : قال ابن الأنباري : كيف يكون السمع أفضل من البصر وبالبصر يحصل جمال الوجه ، وبذهابه عيبه ، وذهاب السمع لا يورث الإنسان عيباً ، العرب تسمي العينين الكريمتين ولا تصف السمع بمثل هذا ؟ ومنه الحديث يقول الله تعالى : " من أذهبت كريمته فصبر واحتسب لم أرض له ثواباً دون الجنة " المسألة الثالثة :

احتج أصحابنا بهذه الآية ، على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، قالوا : الآية دالة على أن قلوب أولئك الكفار بالنسبة إلى الإيمان كالأصم بالنسبة إلى استماع الكلام ، وكالأعمى بالنسبة إلى إبصار الأشياء ، وكما أن هذا ممتنع فكذلك ما نحن فيه .

قالوا : والذي يقوي ذلك أن حصول العداوة القوية الشديدة ، وكذلك حصول المحبة الشديدة في القلب ليس باختيار الإنسان ، لأن عند حصول هذه العداوة الشديدة يجد وجداناً ضرورياً أن القلب يصير كالأصم والأعمى في استماع كلام العدو وفي مطالعة أفعاله الحسنة ، وإذا كان الأمر كذلك فقد حصل المطلوب ، وأيضاً لما حكم الله تعالى عليها حكماً جازماً بعدم الإيمان ، فحينئذ يلزم من حصول الإيمان انقلاب علمه جهلاً وخبره الصدق كذباً وذلك محال .

وأما المعتزلة : فقد احتجوا على صحة قولهم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئًا ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ وجه الاستدلال به ، أنه يدل على أنه تعالى ما ألجأ أحداً إلى هذه القبائح والمنكرات ، ولكنهم باختيار أنفسهم يقدمون عليها ويباشرونها .

أجاب الواحدي عنه فقال : إنه تعالى إنما نفى الظلم عن نفسه ، لأنه يتصرف في ملك نفسه ، ومن كان كذلك لم يكن ظالماً ، وإنما قال : ﴿ ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ لأن الفعل منسوب إليهم بسبب الكسب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 81 .

﴿ 83 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾

قال الكلبي : نزلت في شأن اليهود ، قدموا مكة وكانوا يسمعون قراءة القرآن فيعجبون به ويشتهونه ، وتغلب عليهم الشقاوة فلا يسلمون قال الله تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم ﴾ ، يعني : تفقه الكافر الذي لا يعقل الموعظة ؛ وقال الضحاك : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ وذلك أن كفار قريش دخلوا المسجد الحرام والنبي صلى الله عليه وسلم قائم عند المقام يصلي ، وهو يقرأ سورة طه قال الوليد بن المغيرة : يا معشر قريش ، إنما يتلو محمد ليأخذ بقلوبكم .

فقال أبو جهل اللعين وأصحابه : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ، فنزل ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم ﴾ وذلك أنهم صموا عن الحق ، ويقال : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم ﴾ أي من يتصامم ولا يستمع إليك .

﴿ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ ، يقول أي وإن كانوا مع ذلك لا يرغبون في الحق .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ ، يعني : بغير رغبة .

﴿ أَفَأَنْتَ تَهْدِي العمى ﴾ ، يعني : ترشد من يتعامى .

﴿ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ الحق ولا يرغبون فيه .

قال مقاتل والقتبي : هذا من جوامع الكلم ، حيث بَيَّنَ فضل السمع على البصر ، حيث جعل مع الصم فقدان العقل ، ولم يجعل مع العمى إلا فقدان البصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(13/362)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : يستمعون الكذب عليك فلا ينكرونه .

الثاني : يستمعون الحق منك فلا يَعُونَه .

﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن من لا يعي ما يسمع فهو كمن لا يعقل .

الثاني : معناه أنه كما لا يعي من لا يسمع كذلك لا يفهم من لا يعقل .

والألف التي في قوله تعالى ﴿ أَفَأَنتَ ﴾ لفظها الاستفهام ومعناها معنى النفي . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(14/362)

وقال ابن عطية فى الآيات :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾

المعنى : ليس الأمر كما قالوا في أنه مفترى ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ ، وهذا اللفظ يحتمل معنيين : أحدهما أن يريد بها الوعيد الذي توعدهم الله عز وجل على الكفر ، وتأويله على هذا يراد به ما يؤول إليه أمره كما هو في قوله ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ [الأعراف : 53] ، والآية بجملتها على هذا التأويل تتضمن وعيداً ، والمعنى الثاني أنه أراد بل كذبوا بهذا القرآن العظيم المنبىء بالغيوب الذي لم تتقدم لهم به معرفة ولا أحاطوا بعلم غيوبه وحسن نظمه ولا جاءهم تفسير ذلك وبيانه ، و ﴿ الذين من قبلهم ﴾ يريد من سلف من أمم الأنبياء ، قال الزجّاج ﴿ كيف ﴾ في موضع نصب على خبر ﴿ كان ﴾ ولا يجوز أن يعمل فيها " انظر " لأن ما قبل الاستفهام لا يعمل فيه .

(15/362)

قال القاضي أبو محمد : هذا قانون النحويين لأنهم عاملوا "كيف" في كل مكان معاملة الاستفهام المحض في قولك : كيف زيد ول "كيف" تصرفات غير هذا ، وتحل محل المصدر الذي هو كيفية وتخلع معنى الاستفهام ، ويحتمل هذا أن يكون منها ومن تصرفاتها قولهم : كن كيف شئت ، وانظر قول البخاري : كيف كان بدء الوحي فإنه لم يستفهم وذكر الفعل المسند إلى " العاقبة " لما كانت بمعنى المآل ونحوه وليس تأنيثها بحقيقي ، وقوله تعالى : ﴿ ومنهم من يؤمن به ﴾ الآية ، الضمير في ﴿ منهم ﴾ عائد على قريش ، ولهذا الكلام معنيان قالت فرقة : معناه من هؤلاء القوم من سيؤمن في المستقبل ومنهم من حتم الله أنه لا يؤمن به أبداً ، وقالت فرقة : معناه من هؤلاء القوم من هو مؤمن بهذا الرسول إلا أنه يكتم إيمانه وعلمه بأن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وإعجاز القرآن حق ، حفظاً لرياسته أو خوفاً من قومه ، كالفتية الذين خرجوا إلى بدر مع الكفار فقتلوا فنزل فيهم ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ [النساء : 97] وكالعباس ونحو هذا ، ومنهم من ليس بمؤمن .

قال القاضي أبو محمد : وفائدة الآية على هذا التأويل التفرق لكلمة الكفار ، وإضعاف نفوسهم ، وأن يكون بعضهم على وجل من بعض ، وفي قوله ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ ، تهديد ووعيد ، وقوله ﴿ وإن كذبوك ﴾ ، آية مناجزة لهم ومتاركة وفي ضمنها وعيد

وتهديد ، وهذه الآية نحو قوله ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ [الكافرون : 1] إلى آخر السورة ، وقال كثير من المفسرين منهم ابن زيد : هذه الآية منسوخة بالقتال لأن هذه مكية ، وهذا صحيح ، وقوله تعالى ﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ ، جمع ﴿ يستمعون ﴾ على معنى ﴿ من ﴾ لا على لفظها ، ومعنى الآية : ومن هؤلاء الكفار من يستمع إلى ما يأتي به من القرآن بإذنه ولكنه حين لا يؤمن ولا يحصل فكأنه لا يسمع ، ثم قال على وجه التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم : أفأنت يا محمد تريد أن تسمع الصم .

(16/362)

أي لا تكترث بذلك ، وقوله ﴿ ولو كانوا لا يعقلون ﴾ معناه : ولو كانوا من أشد حالات الأصم ، لأن الأصم الذي لا يسمع شيئاً بحال ، فذلك لا يكون في الأغلب إلا مع فساد العقل والدماغ فلا سبيل أن يعقل حجة ولا دليلاً أبداً ، ﴿ ولو ﴾ هذه بمعنى " إن " وهذا توقيف للنبي صلى الله عليه وسلم أي ألزم نفسك هذا ، وقوله ﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ الآية ، هي نحو الأولى في المعنى ، وجاء ﴿ ينظر ﴾ على لفظ ﴿ من ﴾ ، وإذا جاء الفعل على لفظها فجائز أن يعطف عليه آخر على المعنى ، وإذا جاء أولاً على معناها فلا يجوز أن يعطف آخر اللفظ ، لأن الكلام يلبس حينئذ ، وهذه الآية نحو الأولى في المعنى كأنه

قال : ومنهم من ينظر إليك ببصره لكنه لا يعتبر ولا ينظر ببصيرته ، فهو لذلك كالأعمى فهون ذلك عليك ، أفتريد أن تهدي العمي ، والهداية أجمع إنما هي بيد الله عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(17/362)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾

يريد بظواهرهم ، وقلوبُهم لا تَعِي شيئاً مما يقوله من الحق ويتلوه من القرآن ؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أي لا تسمع ؛ فظاهره الاستفهام ومعناه النفي ، وجعلهم كالصم للختم على قلوبهم والطبع عليها ، أي لا تقدر على هداية من أصمّه الله عن سماع الهدى .

وكذا المعنى في : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي العمي وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ أخبر تعالى أن أحداً لا يؤمن إلا بتوفيقه وهدايته .

وهذا وما كان مثله يردّ على القدرية قولهم ؛ كما تقدّم في غير موضع .

وقال : "يستمعون" على معنى "مَن" و "ينظر" على اللفظ ؛ والمراد تسلية النبيّ صلى الله

عليه وسلم ، أي كما لا تقدر أن تسمع من سُلب السمع ولا تقدر أن تخلُق للأعمى بصراً يهتدي به ، فكذلك لا تقدر أن توفّق هؤلاء للإيمان وقد حكم الله عليهم ألاّ يؤمنوا .

ومعنى : "يَنْظُرُ إِلَيْكَ" أي يديم النظر إليك ؛ كما قال : ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدورُ أَعْيُنُهُمْ كالذي يغشى عَلَيْهِ مِنَ الموت ﴾ [الأحزاب : 19] .

قيل : إنها نزلت في المستهزئين ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(18/362)

وقال أبو حيان :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾

قال ابن عباس : نزلت الآيتان في النضر بن الحرث وغيره من المستهزئين .

وقال ابن الأنباري : في قوم من اليهود انتهى .

وهذه الآية فيها تقسيم من لا يؤمن من الكفار إلى هذين القسمين بعد تقسيم المكذبين إلى من يؤمن ومن لا يؤمن ، والضمير في يستمعون عائد على معنى مَن ، والعود على المعنى دون العود على اللفظ في الكثرة وهو كقوله : ﴿ ومن الشياطين من يغصون له ﴾ والمعنى : من

يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع ، ثم نفى جدوى ذلك الاستماع بقوله : أفأنت تسمع الصم أي هم ، وإن استمعوا إليك صم عن إدراك ما تلقيه إليهم ليس لهم وعي ولا قبول ، ولا سيما قد انضاف إلى الصمم انتفاء العقل ، فحري بمن عدم السمع والعقل أن لا يكون له إدراك لشيء البتة ، بخلاف أنْ لو كان الأصم عاقلاً فإنه بعقله يهتدي إلى أشياء .

وأعاد في قوله : ومنهم من ينظر إليك الضمير مفرداً مذكراً على لفظ من ، وهو الأكثر في لسان العرب .

والمعنى : أنهم عمي فلا تقدر على هدايتهم ، لأن السبب الذي يهتدي به إلى رؤية الدلائل قد فقدوه ، هذا وهم مع فقد البصر قد فقدوا البصيرة ، إذ مَن كان أعمى فإنه مهديه نور بصيرته إلى أشياء بالحدس ، وهذا قد جمع بين فقدان البصر والبصيرة ، وهذا مبالغة عظيمة في انتفاء قبول ما يلقى إلى هؤلاء ، إذ جمعوا بين الصمم وانتفاء العقل ، وبين العمى وفقد البصيرة .

وقوله : أفأنت : تسلية للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وأن لا يكترث بعدم قبولهم ، فإنّ الهداية إنما هي لله .

قال ابن عطية : جاء ينظر على لفظ من ، وإذا جاء الفعل على لفظها فجائز أن يعطف عليه آخر على المعنى ، وإذا جاء أولاً على معناها فلا يجوز أن يعطف عليه بآخر على اللفظ ، لأن الكلام يلبس حينئذ انتهى .

وليس كما قال ، بل يجوز أن تراعى المعنى أولاً فتعيد الضمير على حسب ما تريد من المعنى من تأنيث وتثنية وجمع ، ثم تراعي اللفظ فتعيد الضمير مفرداً مذكراً ، وفي ذلك تفصيل ذكر في علم النحو .

والمقصود من الآيتين : إعلامه عليه السلام بأن هؤلاء الكفار قد انتهوا في النفرة والعداوة والبغض الشديد في رتبة من لا ينفع فيه علاج ألبتة ، لأنّ من كان أصم أحمق وأعمى فاقد البصيرة لا يمكن ذلك أن يقف على محاسن الكلام وما انطوى عليه من الإعجاز ، ولا يمكن هذا أن يرى ما أجرى الله على يدي رسوله من الخوارق ، فقد أيس من هداية هؤلاء .

وقال الشاعر :

وإذا خفيت على المعني فعاذر . . .

أن لا تراءى مقلة عمياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾

بيانٌ لكونهم مطبوعاً على قلوبهم بحيث لا سبيل إلى إيمانهم ، وإنما جمع الضميرُ الراجعُ إلى كلمة مَنْ رعايةً لجانب المعنى كما أفرد فيما سيأتي محافظةً على ظاهر اللفظِ ، ولعل ذلك للإيماء إلى كثرة المستمعين بناءً على عدم توقفِ الاستماع على ما يتوقف عليه النظرُ من المقابلة وانتفاءِ الحجاب والظُلمة ، أي ومنهم ناسٌ يستمعون إليك عند قراءتِك القرآنَ وتعليمِك الشرائعَ ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم ﴾ همزةُ الاستفهامِ إنكاريةٌ والفاءُ عاطفةٌ وليس الجمعُ بينهما لترتيب إنكارِ الإسماعِ كما هو رأيُ سيبويهِ والجمهور على أن يجعل تقديمُ الهمزة على الفاء لاقتضائها الصدارةَ كما تقرر في موضعه بل لإنكار ترتُّبه عليه حسبما هو المعتادُ لكن لا بطريق العطفِ على الفعل المذكورِ لأدائه إلى اختلال المعنى ، لأنه إما صلةٌ أو صفةٌ وأياً ما كان فالعطفُ عليه يستدعي دخولَ المعطوفِ في حيزه وتوجّهَ الإنكارِ إليه من تلك الحيثية ولا ريب في فسادة ، بل بطريق العطفِ على مقدر مفهومٍ من فحوى النظمِ ، كأنه قيل : أيستمعون إليك فأنت تسمعهم لا إنكاراً لاستماعهم فإنه أمر محقق بل إنكاراً لوقوع الاستماعِ عقيبَ ذلك وترتبه عليه حسب العادةِ الكليةِ بل نفياً لإمكانه أيضاً كما ينبىء عنه وضع الصمِّ موضعَ ضميرِهم ووصفِهم بعدم العقلِ بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أي ولو انضم إلى صممهم عدمُ عقولِهم لأن الأصمَّ العاقلَ ربما تفرس إذا وصل إلى

صِماخه صوتٌ وأما إذا اجتمع فقدانُ السمع فقد تم الأمر ﴿ وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ ويعاين دلائلَ نبوّتك الواضحة ﴿ أَفَأَنتَ ﴾ أي أعقيبَ ذلك أنت تهديهم وإنما قيل : ﴿ تَهْدِى العمى ﴾ تربيةً لإنكار هدايتِهم وإبرازاً لوقوعها في معرض الاستحالةِ وقد أكد ذلك حيث قيل : ﴿ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ أي ولو انضم إلى عدم البصَر عدمُ البصيرة فإن المقصودَ من الإبصارِ الاعتبارُ

(21/362)

والاستبصارُ ، والعمدةُ في ذلك هي البصيرةُ ولذلك يحدس الأعمى المستبصرُ ويتفطن لما لا يدركه البصيرُ الأحمقُ فحيث اجتمع فيهم الحمَقُ والعمى فقد انسد عليهم بابُ الهدى ، وجوابُ لو في الجملتين محذوف لدلالة قوله تعالى : ﴿ تُسْمِعُ الصم ﴾ و ﴿ تَهْدِى العمى ﴾ عليه وكلٌّ منهما معطوفةٌ على جملة مقدرةٍ مقابلةٍ لها في الفحوى كلتاهما في موضع الحال من مفعول الفعلِ السابق ، أي أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون ، أفأنت تهدي العميَ لو كانوا يبصرون ولو كانوا لا يبصرون ، أي على كل حال مفروضٍ ، وقد حذفت الأولى في الباب حذفاً مطرداً لدِلالة الثانية عليها دِلالةً واضحةً فإن الشيءَ إذا تحقق عند تحققِ المانعِ أو المانع القويِّ فلأنْ يتحققَ عند عدمِه أو عند تحققِ المانعِ الضعيفِ

أولى ، وعلى هذه النُكتةِ يدور ما في لو وأن الوصلتين من التأكيد وقد مر الكلام في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ﴾ ونظائرِه مراراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(22/362)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾

بيان لكونهم مطبوعاً على قلوبهم بحيث لا سبيل إلى إيمانهم ﴿ وَمِنْ ﴾ مبتدأ خبره مقدم عليه ، وهو إما موصول أو نكرة موصوفة والجملة بعده إما صلة أو صفة ، وجمع الضمير الراجع إليه رعاية لجانب المعنى كما أفرد فيما بعد رعاية لجانب اللفظ ، ولعل ذلك للإيماء إلى كثرة المستمعين بناء على عدم توقف الاستماع على ما يتوقف عليه النظر من الشروط العادية أو العقلية ، والمعنى ومن المكذبين الذين أو اناس يصغون إلى القرآن أو إلى كلامك إذا علمت الشرائع وتصل الألفاظ لآذانهم ولكن لا ينتفعون بها ولا يقبلونها كالصم الذين لا يسمعون ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم ﴾ أي تقدر على اسماعهم ﴿ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أي ولو انضم إلى صممهم عدم عقلهم لأن الأصم العاقل ربما تفرس إذا وصل إلى صماخه دوى وأما إذا اجتمع فقدان السمع والعقل فقد تم الأمر ، وإنما جعلوا كالصم الذين لا عقل لهم مع

كونهم عقلاء لأن عقولهم قد أصيبت بآفة معارضة الوهم لها وداء متابعة الألف والتقليد ، ومن هنا تعذر عليهم فهم معاني القرآن والأحكام الدقيقة وادراك الحكم الرشيقة الأنيقة فلم ينتفعوا بسرد الألفاظ عليهم غير ما تنتفع به البهائم من كلام الناعق ، وتقديم المسند إليه في ﴿ أَفَأَنتَ ﴾ للتقوية عند السكاكي وجعله العلامة للتخصيص .

(23/362)

ففي تقديم الفاعل المعنوي وإيلائه همزة الإنكار الدلالة على أن نبي لله صلى الله عليه وسلم تصور في نفسه من حرصه على إيمان القوم أنه قادر على الاسماع أو نزل منزلة من تصور أنه قادر عليه وأنه تعالى شأنه نفى ذلك عنه صلى الله عليه وسلم وأثبته لنفسه سبحانه على الاختصاص كأنه قيل : أنت لا تقدر على اسماع أولئك بل نحن القادرون عليه كذا قيل وفي القلب منه شيء ، ولذا اختير هنا مذهب السكاكي ، وجعل إنكار الاسماع متفرعاً على المقدمة الاستدراكية المطوية المفهومة من المقام حسبما أشير أليه ، وفيه اعتبار كون الهمزة مقدمة من تأخير لاقتضائها الصدارة وهو مذهب لبعضهم .

وقيل : إنها في موضعها ، وأدخلت الفاء لإنكار ترتب الاسماع على الاستماع لكن لا بطريق العطف على فعله المذكور الواقع صلة أو صفة للزوم اختلال المعنى على ذلك بل

بطريق العطف على فعل مثله مفهوم من فحوى النظم غير واقع موقعه كأنه قيل : أيستمعون إليك فأنت تسمعهم ، وقد يراد إنكار إمكان وقوع الاسماع عقيب ذلك وترتبه عليه كما ينبىء عنه وضع الصم موضع ضميرهم ووصفهم بعدم العقل ، وجواب ﴿ لَوْ ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه ، والجملة معطوفة على جملة مقدرة مقابلة لها ، والكل في موضع الحال من مفعول الفعل السابق ، أي أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون على معنى أفأنت تسمعهم على كل حال مفروض ويقال للو هذه وصلية وذلك أمر مشهور .

واستشكل الإتيان بها هنا بأن الأصل فيها أن يكون الحكم على تقدير تحقق مدخولها ثابتاً كما أنه ثابت على تقدير عدمه إلا أنه على تقدير عدمه أولى والأمر هنا بالعكس .

(24/362)

وأجيب بأن اتصال الوصل بالإثبات جار على المعروف فإن تقديره تسمعهم ولو كانوا لا يعقلون وظاهر أن إسماعهم مع العقل بطريق الأولى ، والاستفهام إثبات بحسب الظاهر فإن نظر إليه فذاك وإن نظر إلى الإنكار وأنه نفى بحسب المعنى اعتبر أنه داخل على المجموع بعد ارتباطه وكذا يقال فيما بعد فتأمل فيه ولا تغفل .

﴿ وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾

ويعاين دلائل نبوتك الواضحة ولكن لا يهتدي بها كالأعمى ﴿ أَفَأَنْتَ تَهْدِي العمى ﴾ تقدر على هدايتهم ﴿ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ أي وان انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة فإن المقصود من الأبصار هو الاعتبار والاستبصار والعمدة في ذلك هي البصيرة ولذلك يحدس الأعمى المستبصر ويتفطن لما لا يدرك البصير الأحمق ، فلا يقال : كيف أثبت لهم النظر والابصار أولا ونفى عنهم ثانياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(25/362)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾

لما سبق تقسيم المشركين بالنسبة إلى اعتقادهم في الأصنام إلى من يتبع الظن ومن يوقن بأن الأصنام لا شيء ، وتقسيمهم بالنسبة لتصديق القرآن إلى قسمين : من يؤمن بصدقه ومن لا يؤمن بصدقه ؛ كمُل في هذه الآية تقسيمهم بالنسبة للتلقي من النبي صلى الله عليه وسلم إلى قسمين : قِسم يحضرون مجلسه ويستمعون إلى كلامه ، وقسم لا يحضرون مجلسه وإنما يتوسمونه وينظرون سمته .

وفي كلا الحالين مسلك عظيم إلى الهدى لو كانوا مهتدين ؛ فإن سماع كلام النبي وإرشادِه ينير

عقول القابلين للهداية ، فلا جرم أن كان استمرار المشركين على كفرهم مع سماعهم كلام النبي أو رؤية هديه مؤذناً ببلوغهم الغاية في الضلالة مَيئوساً من نفوذ الحق إليهم ، وليس ذلك لقصور كلامه عن قوة الإبلاغ إلى الاهتداء ، كما أن التوسم في سمته الشريف ودلائل نبوءته الواضحة في جميع أحواله كاف في إقبال النفس عليه بشراشرها ، فما عُدم انتفاع الكفار الذين يعاينون ذاته الشريفة بمعاينتها إلا لشدة بغضهم إياه وحسدهم ، وقد أفاد سياق الكلام أنهم يستمعون إليه وينظرون إليه ولا ينتفعون بذلك من جهة أن المستمعين إليه والناظرين إليه هنا استمروا على الكفر كما دل عليه قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ في الموضعين ، فطويت جملة : ولا ينتفعون أو نحوها لِلإيجاز بدلالة التقسيم .

وجيء بالفعل المضارع دون اسم الفاعل للدلالة على تكرر الاستماع والنظر .

والحرمان من الاهتداء مع ذلك التكرر أعجب .

فجملة : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ تفريع على جملة : ﴿ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ مع ما طوي فيها .

(26/362)

وفي هذا التفريع بيان لسبب عدم انتفاعهم بسماع كلام النبي صلى الله عليه وسلم وتسلية له وتعليم للمسلمين ، فقُربت إليهم هذه الحالة الغريبة بأن أولئك المستمعين بمنزلة صُم لا يعقلون في أنهم حُرموا التأثر بما يسمعون من الكلام فساووا الصم الذين لا يعقلون في ذلك ، وهذه استعارة مصرحة إذ جعلهم نفس الصم .

وبُني على ذلك استفهام عن التمكن من إسماع هؤلاء الصم وهدي هؤلاء العمي مع أنهم قد ضموا إلى صَممهم عدم العقل وضموا إلى عَماهم عدم التبصر .

وهذان الاستفهامان مستعملان في التعجيب من حالهم إذ يستمعون إلى دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعقلونها ، وإذ ينظرون أعماله وسِيرته ولا يهتدون بها ، فليس في هذين الاستفهامين معنى الإنكار على محاولة النبي إبلاغهم وهديهم لأن المقام ينبُو عن ذلك .

وهذه المعاني المجازية تختلف باختلاف المقام والقرائن ، فلذلك لم يكن الاستفهامان إنكاراً ، ولذلك لا يتوهم إشكال بأن موقع (لو) الوصلية هنا بعدما هو بمعنى النفي بحيث تنتقض المبالغة التي اجتلبت لها (لو) الوصلية ، بل المعنى بالعكس .

وفي هذين الاستفهامين ترشيح لاستعارة الصم والعمي لهؤلاء الكافرين ، أي أن الله لما خلق نفوسهم مفطورة على المكابرة والعناد وبغضاء من أنعم الله عليه وحسده كانت هاته الخصال حوائل بينهم وبين التأثر بالمسموعات والمبصرات فجيء بصيغة الاستفهام التعجيبي المشتملة على تقَوّي الخبر بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بقوله : ﴿ أفأنت

تسمع ﴾ وقوله : ﴿ أفأنت تهدي ﴾ دون أن يقال : ﴿ أتسمع الصم ﴾ و ﴿ أتهدي العمي ﴾ ، فكان هذا التعجيب مؤكداً مقوى .

و(لو) في قوله : ﴿ ولو كانوا لا يعقلون ﴾ وقوله : ﴿ ولو كانوا لا يبصرون ﴾ ، وصلية دالة على المبالغة في الأحوال ، وهي التي يكون الذي بعدها أقصى ما يعلق به الغرض .

(27/362)

ولذلك يقدرون لتفسير معناها جملة قبل جملة (لو) مضمونها ضِد الجملة التي دخلت عليها (لو) ، فيقال هنا : أفأنت تسمع الصم لَوْ كانوا يعقلون بل ولو كانوا لا يعقلون .

ولما كان الغرض هنا التعجيب من حالهم إذ لم يصلوا إلى الهدى كان عدم فهمهم وعدم تبصرهم كناية عن كونهم لا يعقلون وكونهم لا بصائر لهم .

فمعنى : ﴿ لا يعقلون ﴾ ليس لهم إدراك العقول ، أي ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم فإن الأصم العاقل ربما تفرس في مخاطَبه واستدل بملامحه .

وأما معنى : ﴿ لا يبصرون ﴾ فإنهم لا بصيرة لهم يتبصرون بها .

وهو الذي فسر به "الكشاف" وهو الوجه ، إذ بدونه يكون معنى : ﴿ لا يبصرون ﴾ مساوياً لمعنى العمى فلا تقع المبالغة بـ (لو) الوصلية موقعها ، إذ يصير أفأنت تهدي العمي

ولو كانوا عمياً .

ومقتضى كلام "الكشاف" أنه يقال : أبصر إذا استعمَل بصيرته وهي التفكير والاعتبار بحقائق الأشياء .

وكلامُ "الأساس" يحوم حوله .

وأيّاً ما كان فالمراد بقوله : ﴿ لا يبصرون ﴾ معنى التأمل ، أي ولو انضم إلى عَمى العُمي عدم التفكير كما هو حال هؤلاء الذين ينظرون إليك سواء كان ذلك مدلولاً لفعل ﴿ يبصرون ﴾ بالوضع الحقيقي أو المجازي .

فبهذا النظم البديع المشتمل على الاستعارة في أوله وعلى الكناية في آخره وعلى التعجيب وتقويته في وسطه حصل تحقيق أنهم لا ينتفعون بأسماعهم ولا بأبصارهم وأنهم لا يعقلون ولا يتبصرون في الحقائق .

وقد علم أن هذه الحالة التي اتصفوا بها هي حالة أصارَهم الله إليها بتكوينه وجعلها عقاباً لهم في تمردهم في كفرهم وتصلبهم في شركهم وإعراضهم عن دعوة رسوله ولذلك جعلهم صماً وعمياً .

فليس المعنى أن الله هو الذي يسمعهم ويهديهم لا أنت لأن هذا أمر معلوم لا يحتاج للعبارة .

وقد أورد الشيخ ابن عرفة سؤالاً عن وجه التفرقة بين قوله : ﴿ من يستمعون ﴾ وقوله : ﴿ من يَنظر ﴾ إذ جيء بضمير الجمع في الأول وبضمير المفرد في الثاني .

(28/362)

وأجاب عنه بأن الإسماع يكون من الجهات كلها وأما النظر فإنما يكون من الجهة المقابلة .

وهو جواب غير واضح لأن تعدد الجهات الصالحة لأحد الفعلين لا يؤثر إذا كان المستمعون والناظرون متحدين ولأن الجمع والإفراد هنا سواء لأن مفاد (مَن) الموصولة فيهما هو من يصدر منهم الفعل وهم عدد وليس الناظر شخصاً واحداً .

والوجه أن كلا الاستعمالين سواء في مراعاة لفظ (من) ومعناها ، فلعل الابتداء بالجمع في صلة (مَن) الأولى الإشارة إلى أن المراد بـ (من) غير واحد معيَّن وأن العدول عن الجمع في صلة (من) الثانية هو التفنن وكراهية إعادة صيغة الجمع لثقلها لا سيما بعد أن حصل فهم المراد ، أو لعل اختلاف الصيغتين للمناسبة مع مادة فعلي (يستمع) و (ينظر) .

ففعل (ينظر) لا تلائمه صيغة الجمع لأن حروفه أثقل من حروف (يَستمع) فيكون العدول استقصاء لمقتضى الفصاحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(29/362)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾

وكلمة " مَنْ " تطلق وقد يراد بها المفرد ، وقد يراد بها المفردة ، وقد يراد بها المثنى ، وقد يراد بها الجمع ، ومرة يطابق اللفظ فيقول سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ [الأنعام : 25] .

ومرة يقصد المعنى فيقول : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ ﴾ [يونس : 42] .

لأن ﴿ مَّن ﴾ صالحة للموقعين .

والسماع كما نعلم هو استقبال الأذن للصوت ، فإن كان صوتاً مُبْهماً كأصوات الحيوانات أو أصوات الأعواد ، فهذه الأصوات لا تفيد إلا ما تفيده النغمة في الجسم من هزة أو ارتجاج .

وإما أن يكون الصوت له معنى تواضُعيٌّ ، كاللغات المختلفة التي يتخاطب بها الناس في البلدان المختلفة ، فإن تكلمتَ بالإنجليزية في بلد يتكلم أهله بهذه اللغة فهموك وفهمت عنهم . هذا هو معنى التواضع في اللغة ، أي : أن المتكلم والسامع على درجة . واحدة من الاتفاق على اللغة .

والنبي صلى الله عليه وسلم عربي يتحدث بلسان عربي مبين لقوم من العرب ، فما العائق عن السمع إذن ؟

إن العائق عن السمع نفض الأذن لما يأتي من جهة الخصم ، والسماع كما نعلم هو استشراف

المخاطب إلى ما يفهم من المتكلم ، فإن لم يوجد عند المخاطب استشراف إلى أن يسمع ، فالكلام يُقال ولا يصل .

إذن : لا بد للسامع من حالة الاستشراف إلى فهم ما يقوله المتكلم . وكما يقول المثل : " إذن من طين وأخرى من عجين " . أو كما تقول المزحة أن واحداً مال على أذن صديق له وقال : " أريد أن أقول لك سِراً " فاقترب الصديق مستشرفاً سماع السر ، فقال الرجل : " أريد مائة جنيه كقرض " ؛ فقال الصديق : " كأني لم أسمع هذا السر " .

(30/362)

إذن : فالكلام ليس مجرد صوت يصل إلى الأذن ، لكن لا بد من استشراف نفسي للتقلي . وهم لا يملكون هذا الاستشراف ؛ لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم ﴾ [يونس : 42] أي : كان سمعهم لا يسمع .

ومثال ذلك : أننا نجد المدرس الذي يشرح الدرس للتلاميذ ، وبين التلاميذ من يستشرف السمع ؛ ولذلك يفهم الدرس ، أما الذي لا يستشرف فكأنه لم يسمع الدرس .

وهم قد فاتوا الصُّمَّ ؛ لأن الأصم قد يفهم بالحركة او الإشارة أو لغة العين ، ولكن هؤلاء لا يسمعون ولا يعقلون ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : 42] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾

والرؤى أيضاً تحتاج إلى استشراف ، وأن يُقْبِل المرء على ما يريد أن يراه ، وأحياناً لا يكون الرائي مستشرفاً ؛ لأن قلبه غير متجه للرؤية .

وسئُل واحد : إنك تقول : من رأى فلاناً الصالح يَهْده الله . فردَّ عليه السامع متسائلاً : كيف تقول ذلك ؟ ! فردَّ القائل : لقد رأى أبو جهل خيراً من هذا ، ومع ذلك ظل كافراً .

فردَّ السامع : إن أبا جهل لم يَرَ محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه رأى يتيم أبي طالب .

وهكذا شرح الرجل أن أبا جهل لم ينظر إلى محمد صلى الله عليه وسلم على أنه رسول ؛ لأنه لو نظر إليه بهذا الإدراك لتسللت إليه سكينة الإيمان وهَيبة الخشوع وجلال الورع .

ونحن قد نلقى رجلاً صالحاً في بشرته أدْمة أو سواد ، وصلاحه يضيء حوله ، وله أسْر من التقوى ، وجاذبية الورع .

ولو أن أبا جهل رأى محمداً صلى الله عليه وسلم على أنه رسول لتغيَّر أمره .

(31/362)

وها هو " " فضالة " يحكى عن لحظة أراد فيها أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما اقترب منه ؛ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماذا كنت تحدّث به نفسك ؟ قال : لا شيء ، كنت أذكر الله . قال : فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : استغفِر الله ، ثم وضع يده على صدر فضالة " .

وساعة سمع فضالة هذا ، ورأى محمداً صلى الله عليه وسلم وهو يقول ذلك القول ، قال : ما كان أبغض إليَّ من وجهه ، ولكني أقبلت عليه فما كان أحَبَّ إليَّ في الأرض كلها من وجهه .

هذا هو السماع ، وهذا هو البصر ، وكلاهما السمع والبصر أكرم المتعلقات وأشرفها ؛ لأن السمع هو وسيلة الاستماع لبلاغ الله عنه ، والإنسان قبل أن يقرأ لا بد له من أن يكون قد سمع .

والمقصود هنا بالعمى في قول الحق سبحانه : ﴿ أَفَأَنْتَ تَهْدِي العمي وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [يونس : 43] هو عمى البصيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(32/362)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ مَّن يَسْتَمِعُونَ ﴾ : مبتدأ وخبرهُ الجار قبله وأعاد الضميرَ جمعاً مراعاة لمعنى " مَنْ " ، والأكثرُ مراعاةُ لفظه كقوله :

﴿ وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾

﴿ وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ : قال ابن عطية : " جاء " ينظر " على لفظ " مَنْ " ، وإذا جاء على لفظها فجائز أن يعطف عليه آخرُ على المعنى ، وإذا جاء أولاً على معناها فلا يجوز أن/ يُعْطَفَ آخرُ على اللفظ لأنَّ الكلامَ يُلْبَسُ حينئذ " . قال الشيخ : وليس كما قال ، بل يجوز أن تراعيَ المعنى أولاً فتعيدَ الضميرَ على حسبِ ما تريد من المعنى مِنْ تأنيثٍ وتثنية وجمعٍ ، ثم تراعي اللفظَ فتعيدُ الضميرَ مفرداً مذكراً ، وفي ذلك تفصيلٌ ذُكر في النحو " ، قلت : قد تقدَّم تحريره أولَ البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 207 ﴾

(33/362)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (42) ﴾

من استمع بتكلفه ازداد في تَخَلُّفِه بزيادة تصرفه ، ومَنْ استمع الحقَّ بتَفَضُّلِه- سبحانه- استغنى في إدراكه عن تَعَمُّلِه . والحقُّ - سبحانه - يُسْمِعُ أولياءَه ما يناجيهم به في أسرارهم ، فإذا سمعوا دعاء الواسطة (1) قابلوه بالقبولِ لِمَا سَبَقَ لهم من استماع الحقِّ . ومَنْ عَدِمَ استماعَ الحقِّ إياه من حيث التفهيم لم يَزِدْه سماعُ الخَلْقِ إلا جحَداً على جحد ، ولم يحْظَ به إلا بُعْداً على بُعْد .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (43) ﴾

مَنْ سُدَّتْ بصيرتُه بالغفلة والغيبة لم يَزِدْه إدراكُ البَصَرِ إلا حجبةً على حجية ، ومَنْ لم ينظر إلى الله بالله ، ولم يسمع من الله بالله ، فقصاراه العمى والصمم ، ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : 46] وقال عليه السلام فيما أخبر عن الله : " فبي يسمع وبي يبصر "

وأنشد قائلهم :

تأمَّلْ بعين الحقِّ إنْ كنتَ ناظراً . . . إلى منظرٍ منه إليه يعود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 97. 98 ﴾

---

(1) المقصود بالواسطة النبي عليه الصلاة والسلام .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان التقدير : إذا علمت ذلك فخفف عنك بعض ما أنت فيه ، فإنك لا تقدر على إسماعهم ولا هدايتهم لأن الله تعالى أراد ما هم عليه منهم لاستحقاقهم ذلك لظلمهم أنفسهم ، علله بقوله : ﴿ إن الله ﴾ أي المحيط بجميع الكمال ﴿ لا يظلم الناس شيئاً ﴾ وإن كان هو الذي جبلهم على الشر ﴿ ولكن الناس ﴾ أي لما عندهم من شدة الاضطراب والتقلب ﴿ أنفسهم ﴾ أي خاصة ﴿ يظلمون ﴾ بحملهم لها على الشر وصرف قواهم فيه باختيارهم مع زجرهم عن ذلك وحجبهم عما جبلوا عليه وإن كان الكل بيده سبحانه ولا يكون إلا بخلقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 448 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئًا ﴾

يقول : لا ينقص من أجور الناس شيئاً ولا يحمل عليهم من أوزار غيرهم ، ﴿ ولكن الناس

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ، يعني : يضرون أنفسهم بتركهم الحق .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ ولكن الناس ﴾ بكسر النون مع التخفيف وضمّ السين ، وقرأ الباقون ﴿ ولكن الناس ﴾ بالنصب والتشديد ونصب السين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(35/362)

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ﴾

لما ذكر أهل الشقاء ذكر أنه لم يظلمهم ، وأن تقدير الشقاء عليهم وسلب سمع القلب وبَصرَه ليس ظلماً منه ؛ لأنه تصرّف في ملكه بما شاء ، و هو في جميع أفعاله عادل .

﴿ ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر والمعصية ومخالفة أمر خالقهم .

وقرأ حمزة والكسائي "ولكِنْ" مخففاً "الناس" رفعا .

قال النحاس : زعم جماعة من النحويين منهم الفرّاء أن العرب إذا قالت "ولكن" بالواو آثرت التشديد ، وإذا حذفوا الواو آثرت التخفيف ، واعتلّ في ذلك فقال : لأنها إذا كانت بغير واو أشبهت بل فخففوها ليكون ما بعدها كما بعد بل ، وإذا جاؤوا بالواو خالفت بل

فشدّدوها ونصبوا بها ، لأنها "إنّ" زيدت عليها لام وكاف وصُيّرت حرفاً واحداً ؛ وأنشد :

ولكنني من حبّها لعَميد . . .

فجاء باللام لأنها "إنّ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(36/362)

وقال أبو حيان :

ولما ذكر تعالى هؤلاء الأشقياء ، ذكر تعالى أنه لا يظلمهم شيئاً ، إذ قد أزاح عللهم ببعثة الرسل وتحذيرهم من عقابه ، ولكن هم ظالموا أنفسهم بالكفر والتكذيب .

واحتمل هذا النفي للظلم أنْ يكون في الدنيا أي : لا يظلمهم شيئاً من مصالحهم ، واحتمل أن يكون في الآخرة وأن ما يلحقهم من العقاب هو عدل منه ، لأنهم هم الذين تسببوا فيه باكتساب ذنوبهم كما قدّر تعالى عليهم لا يسأل عما يفعل .

وتقدم خلاف القراء في ، ولكنّ الناس من تشديد النون ونصب الناس وتخفيفها والرفع .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(37/362)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ ﴾

إشارةٌ إلى أن ما حكيَ عنهم من عدم اهتدائِهم إلى طريق الحقّ وتعطّلِ مشاعرِهم من الإدراك ليس لأمر مستندٍ إلى الله عز وجل من خلقهم مؤفي المشاعرِ ونحو ذلك بل إنما هو من قِبلهم أي لا ينقُصهم ﴿ شَيْئاً ﴾ مما نيط به مصالحُهم الدينيةُ والدنيويةُ وكمالاتُهم الأولويةُ والأُخْروية من مبادىء إدراكِهم وأسبابِ علومِهم من المشاعر الظاهرةِ والباطنةِ والإرشادِ إلى الحق بإرسال الرسلِ وإنزالِ الكتب بل يوفيهم ذلك من غير إخلالٍ بشيء أصلاً ﴿ ولكن الناس ﴾ وقرىء بالتخفيف ورفعِ الناس ، وضع الظاهرُ موضعَ الضمير لزيادة تعيينٍ وتقريرٍ ، أي لكنهم بعدم استعمالِ مشاعِرهم فيما خُلقت له وإعراضِهم عن قبول دعوةِ الحق وتكذيبِهم للرسل والكتب ﴿ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي ينقُصون ما ينقصون مما يُخِلّون به من مبادىء كمالِهم وذرائعِ اهتدائِهم ، وإنما لم يُذكر لما أن مرمى الغرضِ إنما هو قصرُ الظلمِ على أنفسهم لا بيانُ ما يتعلق به الظلمُ ، والتعبيرُ عن فعلهم بالنقص مع كونِه تفويتاً بالكلية وإبطالاً بالمرة لمراعاة جانبِ قرينتِه ، قولُه عز وجل : ﴿ أَنفُسِهِمْ ﴾ إما تأكيدٌ للناس فيكونُ بمنزلة ضمير الفصلِ في قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظلمناهم ولكن كَانُواْ هُمُ الظالمين ﴾ في قصر الظالمية عليهم وإما مفعولٌ ليظلمون حسبما وقع سائر المواقع ، وتقديمُه عليه

لمجرد الاهتمامِ به مع مراعاة الفاصلةِ من غير قصدٍ إلى قصر المظلوميةِ عليهم على رأي من لا يرى التقديمَ موجباً للقصر فيكون كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظلمناهم ولكن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ من غير قصر للظلم لا على الفاعل ولا على المفعول ، وأما على رأي من يراه موجباً له فلعل إيثارَ قصرِها دون قصرِ الظالمية عليهم للمبالغة في بيان بطلان أفعالِهم وسخافةِ عقولِهم لما أن أقبحَ الأمرين عند اتحادِ الفاعلِ والمفعولِ وأشدَّهما إنكاراً عند العقل ونفرةً لدى الطبع وأوجبَهما حذراً منه عند كل

(38/362)

أحدٍ هو المظلوميةُ لا الظالمية ، على أن قصرَ الأولى عليهم مستلزِمٌ لما يقتضيه ظاهرُ الحالِ من قصر الثانية عليهم ضرورةَ أنه إذا لم يظلِمْ أحدٌ من الناس إلا نفسَه يلزم أن لا يظلِمَه إلا نفسُه ، إذ لو ظلمه غيرُه يلزم كونُ ذلك الغيرِ ظالماً لغير نفسِه ، والمفروضُ أن لا يظلم أحدٌ إلا نفسَه فاكتُفي بالقصر الأولِ عن الثاني مع رعاية ما ذكر من الفائدة ، وصيغةُ المضارع للاستمرار نفياً وإثباتاً ، فإن حرفَ النفي إذا دخل على المضارع يفيد بحسب المقامِ استمرارَ النفي لا نفيَ الاستمرارِ ، ألا يرى أن قولكَ : ما زيدا ضربتُ يدل على اختصاص النفي لا على نفي الاختصاص ، ومساقُ الآيةِ الكريمةِ لإلزام الحجةِ ويجوز أن يكون للوعيد

فالمضارعُ المنفيُّ للاستقبال والمُثبتُ للاستمرار ، والمعنى أن الله لا يظلِمُهم بتعذيبهم يومَ القيامة شيئاً من الظلم ولكنهم أنفسَهم يظلِمون ظلماً مستمراً ، فإن مباشرتَهم المستمرةَ للسيئات الموجبةِ للتعذيب عينُ ظلمِهم لأنفسهم ، وعلى الوجهين فالآيةُ الكريمة تذييلٌ لما سبق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(39/362)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ ﴾

أي لا ينقصهم ﴿ شَيْئاً ﴾ مما نيطت به مصالحهم وكمالاتهم من مبادىء الادراكات وأسباب العلوم والإرشاد إلى الحق بإرسال الرسل عليهم السلام ونصب الأدلة بل يوفيهم ذلك فضلاً منه جل شأنه وكرما ﴿ ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي ينقصون ما ينقصون من ذلك لعدم استعمال مشاعرهم فيما خلقت له واعراضهم عن قبول الحق وتكذيبهم للرسل وترك النظر في الأدلة فشيئاً مفعول ثان ليظلم بناء على أنه مضمن معنى ينقص كما قيل أو أنه بمعناه من غير حاجة إلى القول بالتضمين كما نقول وان النقص يتعدى لاثنين كما يكون لازماً ومتعدياً لواحد ، ولم يذكر ثاني مفعول الثاني لعدم تعلق الغرض به ،

وتقديم المفعول الأول يحتمل أن يكون لمجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة من غير قصد إلى قصر المظلومية عليهم على رأي من لا يرى التقديم موجباً للقصر كابن الأثير ومن تبعه كما في قوله سبحانه : ﴿ وَمَا ظلمناهم ولكن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [هود : 101] ويحتمل أن يكون لقصر المظلومية على رأي من يرى التقديم موجباً لذلك كالجمهور ومن تبعهم ، ولعل إيثار قصرها على قصر الظالمية عليهم للمبالغة في بطلان أفعالهم وسخافة عقولهم على أن قصر الأولى عليهم مستلزم كما قيل لما يقتضيه ظاهر الحال من قصر الثانية عليهم فاكتفى بالقصر الأول عن الثاني مع رعاية ما ذكر من الفائدة .

وجوز بعضهم كون ﴿ أَنفُسِهِمْ ﴾ تأكيداً للناس والمفعول حينئذ محذوف فيكون بمنزلة ضنير الفصل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظلمناهم ولكن كَانُواْ هُمُ الظالمين ﴾ [الزخرف : 76] في قصر الظالمية عليهم ، والتعبير عن فعلهم ذلك بالنقص مع كونه تفويتاً بالكلية لمراعاة جانب قرينه ، وصيغة المضارع للاستمرار نفياً وإثباتاً أما الثاني فظاهر وأما الأول فلأن حرف النفي إذا دخل على المضارع يفيد بحسب المقام استمرار النفي لا نفي الاستمرار كما مر غير مرة .

(40/362)

وقيل : المعنى إن الله لا يظلم الناس بتعذيبهم يوم القيامة شيئاً من الظلم ولكن الناس أنفسهم يظلمون ظلماً مستمراً فإن مباشرتهم المستمرة للسيئات الموجبة للتعذيب عين ظلمهم لأنفسهم فالظلم على معناه المشهور ، و﴿ شَيْئاً ﴾ مفعول مطلق والمضارع المنفى للاستقبال والمثبت للاستمرار ، ومساق الآية الكريمة على الأول لالزام الحجة وعلى الثاني للوعيد وعلى الوجهين هي تذييل لما سبق ، وجعلها على الأول تذييلاً لجميع التكاليف والأقاصيص المذكورة من أول السورة وإن كان متجهاً خلاف الظاهر لا سيما وما بعد ليس ابتداء مشروع في قصة آخرين .

وقيل : معنى الآية إن الله لا يظلم الناس شيئاً بسلب حواسهم وعقولهم إن سلبها لأنه تصرف في حالص ملكه ولكن الناس أنفسهم يظلمون بإفساد ذلك وصرفه لما لا يليق ، وهي جواب لسؤال نشأ من الآية السابقة والظلم فيها على ظاهره أيضاً .

واستدل بها على أن للعبد كسباً وليس مسلوب الاختيار بالكلية كما ذهب إليه الجبرية والمختار عند كثير من المحققين أن نفي ظلم الناس عنه تعالى شأنه لأنه سبحانه جواد حكيم يفيض على القوابل حسب استعدادها الأزلي الثابت في العلم فما من كمال أو نقص في العبد الا هو كماله أو نقصه الذي اقتضاه استداده كما يرشد إلى ذلك قوله جل وعلا : ﴿ أعطى كُلَّ شَىء خَلْقَهُ ﴾ [طه : 50] وقوله سبحانه : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا

﴿ [الشمس : 8] وأن اثبات ظلم الناس لأنفسهم باعتبار اقتضاء استعدادهم الثابت في العلم الأزلي ما أفيض عليهم مما استحقوا به التعذيب .

(41/362)

وقد ذكروا أن هذا الاستعداد غير مجعول ضرورة أن الجعل مسبوق بتعلق القدرة المسبوق بتعلق الإرادة المسبوق بتعلق العلم والاستعداد ليس كذلك لأنه لم يثبت العلم إلا وهو متعلق به بل بسائر الأشياء أيضاً لأن التعلق بالمعلوم من ضروريات العلم والتعلق بما لا ثبوت له أصلاً مما لا يعقل ضرورة أنه نسبة وهي لا تتحقق بدون ثبوت الطرفين ، ولا يرد على هذا أنه يلزم منه استغناء الموجودات عن المؤثر لأنا نقول : إن كان المراد استغناءها عن ذلك نظراً إلى الوجود العلمي القديم فالأمر كذلك ولا محذور فيه وان كان المراد استغناءها عن ذلك نظراً إلى وجودها الخارجي الحادث فلا نسلم اللزوم وتحقيق ذلك بما له وما عليه في محله ، وفي الآية على هذا تنبيه على أن كون أولئك المكذبين كما وصفوا إنما نشأ عن اقتضاء استعدادهم له ولذلك ذموا به لا عن محض تقديره عليهم من غير أن يكون منهم طلب له باستعدادهم ولعل تسمية التصرف على خلاف ما يقتضيه الاستعداد لو كان ظلماً من باب المجاز وتنزيل المقتضى منزلة الملك وإلا فحقيقة الظلم مما لا يصح إطلاقه على

تصرف من تصرفاته تعالى كيف كان إذ لا ملك حقيقة لأحد سواه في شيء من الأشياء ،

ووضع الظاهر في الجملة الاستداركية موضع الضمير لزيادة التعيين والتقرير .

وقرأ حمزة .

والكسائي بتخفيف ﴿ لَكِنِ ﴾ ورفع ﴿ الناس ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(42/362)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

يل ، وشمل عموم الناس المشركين الذين يستمعون ولا يهتدون وينظرون ولا يعتبرون .

والمقصود من هذا التذييل التعريض بالوعيد بأنْ سينالهم ما نال جميع الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسل الله .

وعموم ﴿ الناس ﴾ الأولِ على بابه وعموم ﴿ الناس ﴾ الثاني مراد به خصوص الناس الذين ظلَموا أنفسهم بقرينة الخبر .

وإنما حسن الإتيان في جانب هؤلاء بصيغة العموم تنزيلاً للكثرة منزلة الإحاطة لأن ذلك

غالب حال الناس في ذلك الوقت .

وهذا الاستدراك أشعر بكلام مطوي بعد نفي الظلم عن الله ، وهو أن الله لا يظلم الناس بعقابه من لم يستوجب العقاب ولكن الناس يظلمون فيستحقون العقاب ، فصار المعنى أن الله لا يظلم الناس بالعقاب ولكنهم يظلمون أنفسهم بالاعتداء على ما أراد منهم فيعاقبهم عدلاً لأنهم ظلَموا فاستوجبوا العقاب .

وتقديم المفعول على عامله لإفادة تغليطهم بأنهم ما جنوا بكفرهم إلا على أنفسهم وما ظلموا الله ولا رسله فما أضروا بعملهم إلا أنفسهم .

وقرأ الجمهور بتشديد نون ﴿ لكنّ ﴾ ونصب ﴿ الناس ﴾ .

وقرأ حمزة والكسائي وخلف بتخفيف النون ورفع ﴿ الناس ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(43/362)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44) ﴾

كلمة " الله " هي اسم عَلَمٍ على واجب الوجود المتصف بكل صفات الكمال التي عرفناها

في أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين ، وإن كان لله تعالى كمالات لا تتناهى ؛ لأن الأسماء أو الصفات التي يحملها التسعة والتسعون اسماً لا تكفي كل كمالات الله سبحانه ، فكمالاته سبحانه لا تتناهى .

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم :

" أسألك بكل اسم سمَّيت به نفسك ، أو علَّمته أحداً من خَلْقك ، أو استأثرت به في علّم الغيب عندك " .

وإن سأل سائل : ولماذا يستأثر الله سبحانه ببعض من أسمائه في علم الغيب ؟

أقول : حتى يجعل لنا الله سبحانه في الآخرة مزيداً من الكمالات التي لم نكن نعرفها ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يفتح على رسوله صلى الله عليه وسلم " من محامده وحُسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله " .

وهذا بعض من فيض لا ينفد من آفاق اسم عَلَمٍ على واجب الوجود ، وصفات علم واجب الوجود ، والتسعة والتسعون اسماً التي نعلمها هي اللازمة لحياتنا الدنيا ، ولكننا سنجد في الآخرة صفات كمال أخرى ، وكلمة " الله " هي الجامعة لكل هذه الأسماء ، ما عرفناها ؛ وما لم نعرفها .

والإنسان منا حين يُقبل على عمل ، فهذا العمل يتطلب تكاتُفَ صفات متعددة ، يحتاج إلى قدرة ، وعلم ، وحكمة ، ولُطْف ، ورحمة ، وغير ذلك من الصفات ، فإن قلت : باسم

القويّ ؛ فأنت تحتاج إلى القوة ، وإن قلت باسم القادر ؛ فأنت تحتاج إلى القدرة ، وإن قلت : باسم الحليم ؛ فأنت تحتاج إلى الحِلْم ، وإن قلت : باسم الحكيم ؛ فأنت تحتاج إلى الحكمة ، وإن قلت : " باسم الله " فهي تكفيك في كل هذا وغيره أيضاً ؛ ولذلك يكون بدء الأعمال ب " بسم الله " ، فإذا احتجت إلى قدرة وجدتها ، وإن احتجت إلى غِنَىً وجدته ، وإن احتجت إلى بَسْطٍ وجدته .

(44/362)

وكل صفات الكمال أوجزها الحق سبحانه لنا في أن نقول : " بسم الله " . وحين تبدأ عملك باسم الله ؛ فأنت تُقِرُّ بأن كل حَوْلٍ لك موهوب من الله ، والأشياء التي تنفعل لك ، إنما تنفعل باسم الله ، وكل شيء إنما يسخر لك باسم الله ، وهو القائل :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : 7172] .

ولو لم يذلِّل الله لنا الأنعام والأشياء لتنفعل لنا ما استطعنا أن نملكها ، بدليل أن الله تعالى قد ترك أشياء لم يذللها لنا حتى نتعلَّم أننا لا نستطيع ذلك ، لا بعلْمنا ، ولا بقُدْرتنا ، إنما الحق سبحانه هو الذي يُذلِّل .

فأنت ترى الطفل في الريف وهو يسحب الجمل ، ويأمره بالرقود ؛ فيرقد ، ويأمره بالقيام ؛ فيقوم .

أما إن رأينا ثعباناً فالكثير منا يجري ليهرب ، ولا يواجهه إلا من له دُرْبة على قتله .

والبرغوث الصغير الضئيل قد يأتي ليلدغك ليلاً ، فلا تعرف كيف تصطاده ؛ لأن الله لم يذلِّله لك .

وكذلك الثمرة على الشجرة إذا قطفتها قبل نضجها تكون غير مستساغة ، أما إن قطفتها بعد نضجها فأنت تستمتع بطعمها ، ثم تأخذ منها البذرة لتعيد زراعتها ، وتضمن بقاء النوع ، بل إن الثمرة تسقط من على الشجرة حين تنضج وكأنها تنادي من يأكلها .

وكذلك الإنسان حين يبلغ ، أي : يصبح قادراً على أن ينجب غيره ، فيكلّفه الله بعد ذلك بالتكاليف الإيمانية ؛ لأنه لو كلَّفه قبل ذلك ثم طرأتْ عليه مشاكل المراهقة ؛ فقد لا يستطيع أن يتحمل التكليف .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يخلق من عدم ، وأن يربِّي حتى يكتمل الإنسان ، ثم حدَّد التكليف من لحظة البلوغ ، ووضع شرط اكتمال العقل والرشد ، وألا توجد آفة أو جنون .

(45/362)

ولا أقوى من الله سبحانه يمكن أن يُكلِّف لتفعل غير ما يريد الله ؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يكتمل للإنسان الرشد ساعة التكليف ، أم المجنون فلم يكلفه الله سبحانه ، وكذلك يسقط التكليف عن المُكْرَه ؛ لأن التكليف في مضمونه هو اختيار بين البدائل ، وهذه منتهى العدالة في التشريع .

وأنت حين تستقبل التكليف عليك ألا تنظر إلى ما تأخذه منك العبادات ، لأنها لا تأخذ من حريتك ، بل تحترم أنت حرية الآخرين ، ويحترمون هم حريتك ، فإن حرَّم عليك أن تسرق ، فهو سبحانه قد حماك بأن حرَّم على جميع الخلق أن يسرقوا منك .

إذن : فالقيد قد جاء لصالحك .

وهَبْ أنك أطلقت يدك في الناس ، فماذا تصنع لو أطلقوا هم أياديهم فيما تملك ؟

وحين حرَّم عليك التكليف أن تنظر إلى محارم غيرك ، فهو قد حرم على الغير أن ينظروا إلى محارمك .

وحين أمرك أن تزكِّي ، فهو قد أخذ منك ؛ ليعطي الفقير من المال الذي استخلفك الله فيه

.

فلا تنظر إلى ما أخذ منك ، بل انظر إلى ما قد يعود عليك إن أصابك القدر بالفقر ، والشيء الذي تستشعر أنه يؤخذ منك فالله سبحانه يعطيك الثواب أضعافاً كثيرة .

وبعد ذلك انظر إلى حركة الحياة ، وانظرْ إلى ما حَرَّم الله تعالى عليك من أشياء ، وما حلَّل

لك غير ذلك ؛ فستجد المباح لك أكثر مما منعك عنه .

إذن : فالتكليف لصالحك .

ثم بعد كل ذلك : أيعود شيء مما تصنع من تكاليف عل الحق سبحانه ؟ لا .

أيعطيه صفة غير موجودة ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه قد خلقنا بكل صفات كماله ، وليس في عملنا ما يزيده شيئاً .

إذن : فمن المصلحة أن تطبّق التكاليف لأنها تعود عليك أنت بالخير .

وانظر مثلاً إلى الفلاح في الحقل ، إنه يحرث الأرض ، وينقل السماد ، ويبذر ، ويروى ويتعب ، وبعد ذلك يستريح في انتظار الثمار .

وأنت حين تنفِّذ تكاليف الحق سبحانه فأنت تجد العائد ، وأنت ترى في حياتك أن الفلاح الكسول يصاب بحسرة يوم الحصاد ، فما بالنا بحساب الآخرة .

(46/362)

والفلاح الذي يأخذ من مخزنة إردبّاً ؛ ليزرعه ، وهو في هذه الحالة لا ينقص مخزنه ؛ لأنه سيعود بعد فترة بخمسة عشر إردبّاً .

وهكذا من ينفِّذ التكاليف يعود عليه كل خير ؛ ولذلك أقول : انظر في استقبالات منهج الله

تعالى فيما تعطيه ، لا فيما تأخذه .

وهكذا ترى أنه لا ظلم ؛ لأننا صنعة الله ، فهل رأيتم صانعاً يفسد صنعته ؟

إذن : فالصانع الأعلى لا يظلم صنعته ولا يفسدها أبداً ، بل يُحسِّنها ويعطيها الجمال والرونق ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئاً ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس : 44] .

أي : أن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ، ومن الظلم جَحْد الحق ، وهذا هو الظلم الأعلى ، ومن الظلم أن يعطى الإنسان نفسه شهوة عاجلة ؛ ليذوق من بعد ذلك عذاباً آجلاً ، وهو بذلك يحرم نفسه من النعيم المقيم ، وهو حين يظلم نفسه يكون قد افتقد القدرة على قياس عمره في الدنيا ، فالعمر مهما طال قصير ، وما دام الشيء له نهاية فهو قصير .

والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب الناس ، فهو قد نصب لهم آيات باقية إلى أن تقوم الساعة ، وكلهم شركاء فيها ، وهي الآيات الكونية ، وبعد ذلك خَصّ كل رسول بآية ومعجزة ، وأنزل منهجاً ب " افعل " و " لا تفعل " ، وبيَّن في آيات الكتاب ما المطلوب فعله ، وما المطلوب أن نمتنع عنه ، وترك لك بقية الأمور مباحة .

والمثال الذي أضربه دائماً : هو التلميذ الذي يرسب آخر العام ، هذا التلميذ لم تظلمه المدرسة ، بدليل أن غيره قد نجح ؛ لذلك لا يصح أن يقال : إن المدرسة أسقطت فلاناً ،

ولكن الصحيح أن نقول : إن فلاناً قد أسقط نفسه ، وأن زميله قد أنجح نفسه ، ودور المدرسة في ذلك هو إعلان النتيجة .

(47/362)

ومن الظلم أيضاً أن يستكثر الظالم نعمة عند المظلوم ، فيريد أن يأخذها منه ، ولا يمكن أن يكون الحق سبحانه وتعالى ظالماً يستكثر نِعَم عباده ؛ لأنه مُنزَّه عن ذلك ؛ فضلاً عن أن خَلْقه ليس عندهم نِعَم يريدها هو ، فهو الذي أعطاها لهم ؛ ولذلك لا يأتي منه سبحانه أي ظلم ، وإنْ جاء الظلم فهو من الإنسان لنفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(48/362)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ لاَيَظْلِمُ الناس شيئاً ﴾ : يجوز أن ينتصب " شيئاً " على المصدر ، أي : شيئاً من الظلم قليلاً ولا كثيراً ، وأن ينتصبَ مفعولاً ثانياً ل "يَظْلم " بمعنى : لا يُنْقِص الناسَ شيئاً من أعمالهم .

قوله : ﴿ ولكن الناس ﴾ قرأ الأخَوان بتخفيف " لكن " ، ومن ضرورة ذلك كسرُ النونِ لالتقاء الساكنين وَصْلاً ورفع " الناس " ، والباقون بالتشديد ونصب " الناس " وتقدم توجيه ذلك في البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 207 . 208 ﴾

(49/362)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44) ﴾

نَفَى عن نَفْسِه ما يستحيل تقديره في نعته ، وكيف يوصَفُ بالظلم وكلُّ ما يُتَوهَّمُ أَنْ لو فعَلَه كان له ذلك ؟ إذ الحقُّ حقُّه والمُلْكُ مُلْكه . وَمَنْ لا يَصِحُّ تقديرُ قبيحٍ منه - أَنَّى يوصف بالظلم جوازاً أو وجوباً ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 98 ﴾

(50/362)

قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (45) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان في هذه الآيات ما ذكر من أفانين جدالهم في أباطيلهم وضلالهم ، وكان فعل ذلك – ممن لا يرى حشراً ولا جزاء ولا نعيماً وراء نعيم هذه الدار – فعل فارغ السر مستطيل للزمان آمن من نوازل الحدثان ، حسن تعقيبه بأنهم يرون يوم الحشر من الأهوال ما يستقصرون معه مدة لبثهم في الدنيا ، فقد خسروا إذن دنياهم بالنزاع ، وآخرتهم بالعذاب الذي لا يستطاع ، وليس له انقطاع ، فقال تعالى مهدداً لهؤلاء الكفار الذين يعاندون فلا يسمعون ولا يبصرون عاطفاً على ﴿ ويوم نحشرهم ﴾ الأولى : ﴿ ويوم يحشرهم ﴾ أي واستقصروا مدة لبثهم في الدنيا يوم الحشر لما يستقبلهم من الأهوال والزلازل الطوال ، فكأنه قيل : إلى أي غاية ؟ فقيل : ﴿ كأن ﴾ أي كأنهم ﴿ لم يلبثوا ﴾ في دنياهم ، والجملة في موضع الحال من ضمير ﴿ يحشرهم ﴾ البارز أي مشبهين بمن لم يلبثوا ﴿ إلا ساعة ﴾ أي حقيرة ﴿ من النهار ﴾ وقوله : ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ حال ثانية ، أي لم يفدهم تلك الساعة أكثر من أن عرف فيها بعضهم بعضاً ليزدادوا بذلك حسرة في ذلك اليوم بعدم القدرة على

التناصر والتعاون والتظافر كما كانوا يفعلون في الدنيا .

ولما كانت حالهم هذه هي الخسارة التي ليس معها تجارة ، فكان السامع متوقعاً للخبر عنها ، قال متعجباً منهم موضع : ما أخسرهم : ﴿ قد خسر ﴾ أي حقاً ﴿ الذين كذبوا ﴾ أظهر موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف مستهينين ﴿ بلقاء الله ﴾ أي الملك الأعلى بما أخذوا من الدنيا من الخسيس الفاني وتركوا مما كشف لهم عنه البعث من النعيم الشريف الباقي ؛ ولما كان الذي وقع منه تكذيب مرة في الدهر قد يفيق بعد ذلك فيهتدي ، قال عاطفاً على الصلة : ﴿ وما كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ مهتدين ﴾ مشيراً إلى تسفيههم فيما يدعون البصر فيه من أمر المتجر والمعرفة بأنواع الهداية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 448 . 449 ﴾

(51/362)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف هؤلاء الكفار بقلة الإصغاء وترك التدبر أتبعه بالوعيد فقال :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النهار ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ حفص عن عاصم ﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴾ بالياء والباقون بالنون .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا ﴾ في موضع الحال ، أي مشابهين من لم يلبث إلا ساعة من النهار .

وقوله : ﴿ يَتَعَارَفُونَ ﴾ يجوز أن يكون متعلقاً بيوم نحشرهم ، ويجوز أن يكون حالاً بعد حال .

المسألة الثالثة :

﴿ كأنَ ﴾ هذه هي المخففة من الثقيلة .

التقدير : كأنهم لم يلبثوا ، فخففت كقوله : وكأن قد .

المسألة الرابعة :

قيل : كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار وقيل في قبورهم ، والقرآن وارد بهذين الوجهين قال تعالى : ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الأرض عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [المؤمنون : 112 ، 113] قال القاضي : والوجه الأول أولى لوجهين : أحدهما : أن حال المؤمنين كحال الكافرين في أنهم لا يعرفون مقدار لبثهم بعد الموت إلى وقت الحشر ، فيجب أن يحمل ذلك على أمر يختص بالكفار ، وهو أنهم لما لم ينتفعوا بعمرهم استقلوه ، والمؤمن لما انتفع

بعمره فإنه لا يستقله .

الثاني : أنه قال : ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ لأن التعارف إنما يضاف إلى حال الحياة لا إلى حال الممات .

المسألة الخامسة :

(52/362)

ذكروا في سبب هذا الاستقلال وجوهاً : الأول : قال أبو مسلم : لما ضيعوا أعمارهم في طلب الدنيا والحرص على لذاتها لم ينتفعوا بعمرهم ألبتة ، فكان وجود ذلك العمر كالعدم ، فلهذا السبب استقلوه ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العذاب أَن يُعَمَّرَ ﴾ [البقرة : 96] الثاني : قال الأصم : قل ذلك عندهم لما شاهدوا من أهوال الآخرة ، والأنسان إذا عظم خوفه نسي الأمور الظاهرة .

الثالث : أنه قل عندهم مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الآخرة وفي العذاب المؤبد .

الرابع : أنه قل عندهم مقامهم في الدنيا لطول وقوفهم في الحشر .

الخامس : المراد أنهم عند خروجهم من القبور يتعارفون كما كانوا يتعارفون في الدنيا ، وكأنهم لم يتعارفوا بسبب الموت إلا مدة قليلة لا تؤثر في ذلك التعارف .

وأقول : تحقيق الكلام في هذا الباب ، أن عذاب الكافر مضرة خالصة دائمة مقرونة بالإهانة والإذلال ، والإحساس بالمضرة أقوى من الإحساس باللذة بدليل أن أقوى اللذات هي لذات الوقاع ، والشعور بأم القولنج وغيره والعياذ بالله تعالى أقوى من الشعور بلذة الوقاع .

وأيضاً لذات الدنيا مع خساستها ما كانت خالصة ، بل كانت مخلوطة بالهمومات الكثيرة ، وكانت تلك اللذات مغلوبة بالمؤلمات والآفات ، وأيضاً إن لذات الدنيا ما حصلت إلا بعض أوقات الحياة الدنيوية ، وآلام الآخرة أبدية سرمدية لا تنقطع ألبتة ونسبة عمر جميع الدنيا إلى الآخرة الأبدية أقل من الجزء الذي لا يتجزأ بالنسبة إلى ألف ألف عالم مثل العالم الموجود .

إذا عرفت هذا فنقول : أنه متى قوبلت الخيرات الحاصلة بسبب الحياة العاجلة بالآفات الحاصلة للكافر وجدت أقل من اللذة بالنسبة إلى جميع العالم فقوله : ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النهار﴾ إشارة إلى ما ذكرناه من قلتها وحقارتها في جنب ما حصل من العذاب الشديد .

أما قوله : ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ ففيه وجوه :

الأول : يعرف بعضهم بعضاً كما كانوا يعرفون في الدنيا .

الثاني : يعرف بعضهم بعضاً بما كانوا عليه من الخطأ والكفر ، ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا العذاب وتبرأ بعضهم من بعض .

فإن قيل : كيف توافق هذه الآية قوله : ﴿ وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ [المعارج : 10]

والجواب عنه من وجهين :

الوجه الأول : أن المراد من هذه الآية أنهم يتعارفون بينهم يوبخ بعضهم بعضاً ، فيقول : كل فريق للآخر أنت أضللتني يوم كذا وزينت لي الفعل الفلاني من القبائح ، فهذا تعارف تقبيح وتعنيف وتباعد وتقاطع لا تعارف عطف وشفقة .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ فالمراد سؤال الرحمة والعطف .

والوجه الثاني : في الجواب حمل هاتين الآيتين على حالتين ، وهو أنهم يتعارفون إذا بعثوا ثم تنقطع المعرفة فلذلك لا يسأل حميم حميماً .

أما قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَاء الله ﴾ ففيه وجهان : الأول : أن يكون التقدير : ويوم يحشرهم حال كونهم متعارفين ، وحال كونهم قائلين ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَاء الله ﴾ الثاني : أن يكون ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ ﴾ كلام الله ، فيكون هذا شهادة من الله عليهم بالخسران ، والمعنى : أن من باع آخرته بالدنيا فقد خسر ، لأنه أعطى الكثير

الشريف الباقي وأخذ القليل الخسيس الفاني .

وأما قوله : ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ فالمراد أنهم ما اهتدوا إلى رعاية مصالح هذه التجارة ، وذلك لأنهم اغتروا بالظاهر وغفلوا عن الحقيقة ، فصاروا كمن رأى زجاجة حسنة فظنها جوهرة شريفة فاشتراها بكل ما ملكه ، فإذا عرضها على الناقدين خاب سعيه وفات أمله ووقع في حرقة الروع وعذاب القلب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 85.84 ﴾

(54/362)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾

يقول : يجمعهم في الآخرة .

﴿ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النهار ﴾ ؛ قال الكلبي : كأن لم يلبثوا في قبورهم إلاّ ساعة من النهار ؛ وقال الضحاك : كَأَنَّ لَمْ يَلْبَثُوا فِي الْقُبُورِ إلا ما بين العصر إلى غروب الشمس ، أو ما بين صلاة الغداة إلى طلوع الشمس ؛ ويقال : يعني : بين النفختين لأنه يرفع عنهم العذاب فيما بين ذلك ؛ وقال مقاتل : كأن لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من النهار .

﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ قال الكلبي : يعني : يتعارفون بينهم حين خرجوا من قبورهم ، ثم تنقطع عنهم المعرفة فلا يعرف أحد أحداً ، وقال الضحاك : يتعارفون بينهم حين خرجوا ، وذلك أن أهل الإيمان يبعثون يوم القيامة على ما كانوا عليه في دار الدنيا من التواصل والتراحم ، يعرف بعضهم بعضاً محسنهم لمسيئهم ، وأما أهل الشرك فلا أنساب بينهم يومئذ ، ولا يتساءلون .

قال الله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَاء الله ﴾ ، يعني : بالبعث بعد الموت ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ ، يقول لم يكونوا مؤمنين في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : كأن لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من النهار .

الثاني : كأن لم يلبثوا في قبورهم إلا ساعة من النهار لقربه .

﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعرف بعضهم بعضاً . قال الكلبي : يتعارفون إذا خرجوا من قبورهم ثم تنقطع

المعرفة .

الثاني : يعرفون أن ما كانوا عليه باطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(55/362)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يلبثوا ﴾

بمعنى كأنهم فخففّت ، أي كأنهم لم يلبثوا في قبورهم .

﴿ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النهار ﴾ أي قدر ساعة ؛ يعني أنهم استقصروا طول مقامهم في القبور لهول ما يرون من البعث ؛ دليله قولهم : ﴿ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [الكهف : 19] .

وقيل : إنما قَصُرت مدّة لَبثهم في الدنيا من هول ما استقبلوا لا مدة كونهم في القبر .

ابن عباس : رأُوا أن طول أعمارهم في مقابلة الخلود كساعة .

﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ في موضع نصب على الحال من الهاء والميم في "يحشرهم" .

ويجوز أن يكون منقطعاً ، فكأنه قال فهم يتعارفون .

قال الكَلْبِيّ : يعرف بعضهم بعضاً كمعرفتهم في الدنيا إذا خرجوا من قبورهم ؛ وهذا التعارف تعارف توبيخ وافتضاح ؛ يقول بعضهم لبعض : أنت أضللتني وأغويتني وحملتني

على الكفر ؛ وليس تعارف شفقة ورأفة وعطف .

ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال يوم القيامة كما قال : ﴿ وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ [المعارج : 10] .

وقيل : يبقى تعارف التوبيخ ؛ وهو الصحيح لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون مَوْقُوفُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَجَعَلْنَا الأغلال فِي أَعْنَاقِ الذين كَفَرُواْ ﴾ [سبأ : 33] وقوله : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : 38] الآية ، وقوله : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾ [الأحزاب : 67] الآية .

فأما قوله : ﴿ وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ وقوله : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ [المؤمنون : 101] فمعناه لا يسأله سؤال رحمة وشفقة ، والله أعلم .

وقيل : القيامة مواطن .

وقيل : معنى "يَتَعَارَفُونَ" يتساءلون ، أي يتساءلون كم لبثتم ؛ كما قال : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [الصافات : 27] وهذا حسن .

(56/362)

وقال الضحاك : ذلك تعارفُ تعاطفِ المؤمنين ؛ والكافرون لا تعاطف عليهم ؛ كما قال : "فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ" .

والأوّل أظهر ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله ﴾ أي بالعرض على الله .

ثم قيل : يجوز أن يكون هذا إخباراً من الله عز وجل بعد أن دلّ على البعث والنشور ، أي خسروا ثواب الجنة .

وقيل : خسِروا في حال لقاء الله ؛ لأن الخسران إنما هو في تلك الحالة التي لا يرجى فيها إقالة ولا تنفع توبة .

قال النحاس : ويجوز أن يكون المعنى يتعارفون بينهم ، يقولون هذا .

﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ يريد في علم الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(57/362)

وقال أبو حيان :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾

قرأ الأعمش وحفص : يحشرهم بالياء راجعاً الضمير غائباً عائداً على الله ، إذ تقدّم ﴿ أنّ الله لا يظلم الناس شيئاً ﴾ ولما ذكر أولئك الأشقياء أتبعه بالوعيد ، ووصف حالهم يوم القيامة والمعنى : كأن لم يلبثوا في الدنيا أو في القبور يعني : فقليل لبثهم ، وذلك لهول ما يعاينون من شدائد القيامة ، أو لطول يوم القيامة ووقوفهم للحساب .

قال ابن عباس : رأوا أنّ طول أعمارهم في مقابلة الخلود كساعة .

قال ابن عطية : ويوم ظرف ، ونصبه يصح بفعل مضمر تقديره : واذكر .

ويصح أن ينتصب بالفعل الذي يتضمنه قوله : كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار ، ويصح نصبه بيتعارفون ، والكاف من قوله : كأن ، يصح أنْ تكون في موضع الصفة لليوم ، ويصح أن تكون في موضع نعت للمصدر كأنه قال : ويوم نحشرهم حشراً كأن لم يلبثوا ، ويصح أن يكون قوله : كأن لم يلبثوا في موضع الحال من الضمير في نحشرهم انتهى .

أما قوله : ويصح أن ينتصب بالفعل الذي يتضمنه كأن لم يلبثوا فإنه كلام مجمل لم يبين الفعل الذي يتضمنه كأن لم يلبثوا ، ولعله أراد ما قاله الحوفي : من أن الكاف في موضع نصب بما تضمنت من معنى الكلام وهو السرعة انتهى .

فيكون التقدير : ويوم نحشرهم يسرعون كأن لم يلبثوا ، وأما قوله : والكاف من قوله كأن ، يصح أن تكون في موضع الصفة لليوم ، فلا يصح لأنّ يوم نحشرهم معرفة ، والجمل نكرات ، ولا تنعت المعرفة بالنكرة .

لا يقال : إنّ الجمل الذي يضاف إليها أسماء الزمان نكرة على الإطلاق ، لأنها إن كانت في التقدير تنحل إلى معرفة ، فإنّ ما أضيف إليها يتعرف وإن كانت تنحل إلى نكرة كان ما أضيف إليها نكرة ، تقول : مررت في يوم قدم زيد الماضي ، فتصف يوم بالمعرفة ، وجئت ليلة قدم زيد المباركة علينا .

(58/362)

وأيضاً فكأن لم يلبثوا إلا يمكن أن يكون صفة لليوم من جهة المعنى ، لأنّ ذلك من وصف المحشورين لا من وصف يوم حشرهم .

وقد تكلف بعضهم تقدير محذوف بربط فقدره : كأن لم يلبثوا قبله ، فحذف قبله أي قبل اليوم ، وحذف مثل هذا الرابط لا يجوز .

فالظاهر أنها جملة حالية من مفعول نحشرهم كما قاله ابن عطية آخراً ، وكذا أعربه الزمخشري وأبو البقاء .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : كأن لم يلبثوا ويتعارفون كيف موقعهما ؟ (قلت) : أما الأولى فحال منهم أي : نحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة .

وأما الثانية فإما أن تتعلق بالظرف يعني : فتكون حالاً ، وإما أن تكون مبينة لقوله : كأن لم

يلبثوا إلا ساعة ، لأنّ التعارف يبقى مع طول العهد وينقلب تناكراً انتهى .

وقال الحوفي : يتعارفون فعل مستقبل في موضع الحال من الضمير في يلبثوا وهو العامل ، كأنه قال : متعارفين ، المعنى : اجتمعوا متعارفين .

ويجوز أن يكون حالاً من الهاء والميم في نحشرهم وهو العامل انتهى .

وأما قول ابن عطية : ويصح أن يكون في موضع نصب للمصدر ، كأنه قال : ويوم نحشرهم حشراً كأن لم يلبثوا ، فقد حكاه أبو البقاء فقال : وقيل هو نعت لمصدر محذوف أي حشراً كأن لم يلبثوا قبله انتهى .

وقد ذكرنا أن حذف مثل هذا الرابط لا يجوز .

وجوزوا في يتعارفون أن يكون حالاً على ما تقدم ذكره من الخلاف في ذي الحال والعامل فيها ، وأن يكون جملة مستأنفة ، أخبر تعالى أنه يقع التعارف بينهم .

وقال الكلبي : يعرف بعضهم بعضاً كمعرفتهم في الدنيا إذا خرجوا من قبورهم ، وهو تعارف توبيخ وافتضاح ، يقول بعضهم لبعض : أنت أضللتني وأغويتني ، وليس تعارف شفقة وعطف ، ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ ولا يسأل حميم حميماً يبصرونهم ﴾ وقيل : يعرف بعضهم بعضاً ما كانوا عليه من الخطأ والكفر .

وقال الضحاك : تعارف تعاطف المؤمنين ، والكافرون لا أنساب بينهم .

وقيل : القيامة مواطن ، ففي موطن يتعارفون وفي موطن لا يتعارفون ، والظاهر أن قوله : قد خسر الذين إلى آخره جملة مستأنفة ، أخبر تعالى بخسران المكذبين بلقائه .

قال الزمخشري : هو استئناف فيه معنى التعجب ، كأنه قيل : ما أخسرهم .

وقال أيضاً : وابتدأ به قد خسر على إرادة القول أي : يتعارفون بينهم قائلين ذلك .

قال ابن عطية : وقيل إنه إخبار المحشورين على جهة التوبيخ لأنفسهم انتهى .

وهذا يحتمل أن يكون كقول الزمخشري : يتعارفون بينهم قائلين ذلك ، وأن يكون كقول غيره : نحشرهم قائلين قد خسر ، فاحتمل هذا المقدر أن يكون معمولاً ليتعارفون ، وأن يكون معمولاً لنحشرهم ، ونبه على العلة الموجبة للخسران وهو التكذيب بلقاء الله .

وما كانوا مهتدين : الظاهر أنه معطوف على قوله : قد خسر ، فيكون من كلام المحشورين إذا قلنا : إنّ قوله قد خسر من كلامهم ، أخبروا عن أنفسهم بخسرانهم في الآخرة وبانتفاء هدايتهم في الدنيا .

ويحتمل أن يكون معطوفاً على صلة الذين أي : كذبوا بلقاء الله ، وانتفت هدايتهم في الدنيا .

ويحتمل أن تكون الجملة كالتوكيل بجملة الصلة ، لأن من كذب بلقاء الله هو غير مهتد .

وقيل : وما كانوا مهتدين إلى غاية مصالح التجارة .

وقيل : للإيمان .

وقيل : في علم الله ، بل هم ممن حتم ضلالهم وقضى به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(60/362)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾

منصوبٌ بمضمر وقرىء بالنون على الالتفات أي اذكر لهم أو أنذِرْهم يوم يحشرهم ﴿ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ ﴾ أي كأنهم لم يلبثوا ﴿ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النهار ﴾ أي شيئاً قليلاً منه فإنها مثَلٌ في غاية القِلة ، وتخصيصُها بالنهار لأن ساعاتِه أعرفُ حالاً من ساعاتِ الليلِ ، والجملةُ في موقع الحال من ضمير المفعولِ أي يحشرهم مشبَّهين في أحوالهم الظاهرةِ للناس بمَنْ لم يلبَثْ في الدنيا ولم يتقلب في نعيمها إلا ذلك القدرَ اليسيرَ فإن مَنْ أقام بها دهراً وتمتع بمتاعها لا يخلو عن بعض آثارِ نعمةٍ وأحكامِ بهجةٍ منافيةٍ لما بهم من رثاثة الهيئةِ وسوء الحالِ ، أو بمن لم يلبَث في البرزخ إلا ذلك المقدارَ ففائدة التقييدِ بيانُ كمالِ يُسرِ الحشرِ بالنسبة إلى قدرته تعالى ولو بعد دهرٍ طويلٍ وإظهارِ بطلانِ استبعادِهم وانكارِهم بقولهم : أئذا متنا وكنا تراباً

وعظاماً أئنا لمبعوثون ؟ ونحوِ ذلك ، أو بيانُ تمامِ الموافقةِ بين النشأتين في الأشكال والصورِ فإن قلةَ اللُّبثِ في البرزخ من موجبات عدمِ التبدلِ والتغيرِ فيكون قوله عز وعلا : ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ بياناً وتقريراً له لأن التعارفَ مع طول العهدِ ينقلب تناكراً ، وعلى الأول يكون استئنافاً أي يعرِف بعضُهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً ، وذلك أولَ ما خرجوا من القبور ، إذ هم حينئذٍ على ما كانوا عليه من الهيئة المتعارَفةِ فيما بينهم ثم ينقطع التعارفُ بشدة الأهوالِ المذهلة واعتراءِ الأحوالِ المُعضلة المغيّرةِ للصور والأشكالِ المبدّلة لها من حال إلى حال ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَاء الله ﴾ شهادةٌ من الله سبحانه وتعالى على خُسرانهم وتعجبٌ منه ، وقيل : حالٌ من ضمير يتعارفون على إرادة القولِ ، والتعبيرُ عنهم بالموصول مع كون المقامِ مقامَ إضمارٍ لذمهم بما في حيز الصلةِ ، والإشعارُ بعليته لما أصابهم ، والمرادُ بلقاء الله إن كان مطلقَ الحسابِ

(61/362)

والجزاءِ أو حسنَ اللقاءِ فالمراد بالخسران الوضيعةُ ، والمعنى وضَعوا في تجاراتهم ومعاملاتهم واشترائِهم الكفرَ بالإيمان والضلالةَ بالهدى ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ ما كانوا عارفين بأحوال التجارةِ مهتدين لطرقها وإن كان سوءَ اللقاءِ فالخَسارُ

الهلاك والضلال أي قد ضلوا وهلكوا بتكذيبهم وما كانوا مهتدين إلى طريق النجاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(62/362)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾

بالياء وهي قراءة حمزة على عاصم .

وقرأ الباقون بالنون على الالتفات و ﴿ يَوْمَ ﴾ عند الأكثرين منصوب بمضمر أي اذكر لهم أو أنذرهم يوم نجمعهم لموقف الحساب ﴿ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ ﴾ أي كأنهم أناس لم يلبسوا ﴿ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النهار ﴾ أي شيئاً قليلاً منه فانها مثل في غاية القلة وتخصيصها بالنهار لأن ساعاته أعرف حالاً من ساعات الليل والجملة في موقع الحال من مفعول ﴿ نَحْشُرُهُمْ ﴾ أي نحشرهم مشبهين بمن لم يلبث في الدنيا أو في البرزخ إلا ذلك القدر اليسير ، وليس المراد من التشبيه ظاهره على ما قيل ، وقد صرح في "شرح المفتاح" أن التشبيه كثيراً ما يذكر ويراد به معان أخر تترتب عليه ، فالمراد إما التأسف على عدم انتفاعهم بأعمارهم أو تمني

أن يطول مكثهم قبل ذلك حتى لا يشاهدوا ما شاهدوه من الأهوال فمآل الجملة في الآخرة نحشرهم متأسفين أو متمنين طول مكثهم قبل ذلك .

(63/362)

ويجوز أن يراد نحشرهم مشبهين في أحوالهم الظاهرة للناس بمن لم يلبث في الدنيا ولم يتقلب في نعيمها إلا يسيراً فإن من أقام بها دهراً وتمتع بمتاعها لا يخلو عن بعض آثار نعمة وأحكام بجهة منافية لما بهم من رثاثة الهيئة وسوء الحال وإليه ذهب بعضهم ، والظاهر أنه تكلف لإبقاء التشبيه على ظاهره والأول أولى كما لا يخفى ، وأياً ما كان ففائدة التشبيه كنار على علم ، والعجب ممن لم يرها فقال الظاهر أن ﴿ كَأَنَ ﴾ للظن ، وادعى البعض أن فائدة التقييد على تقدير أن يراد اللبث في البرزخ بيان كمال يسر الحشر بالنسبة إلى قدرته تعالى ولو بعد دهو طويل وإظهار بطلان استبعادهم وإنكارهم بقولهم : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [المؤمنون : 82] ونحو ذلك أو بيان تمام الموافقة بين النشأتين في الاشكال والصور فإن قلة اللبث في البرزخ من موجبات عدم التبدل والتغير ، ولعل مآل الحال على هذا ويوم نحشرهم على صورهم وأشكالهم غير متغيرين ، وجوز أبو علي كون الجملة في موضع الصفة ليوم والعائد محذوف تقديره كأن لم يلبثوا قبله أو لمصدر محذوف والعائد

كذلك أي حشراً كأن لم يلبثوا قبله ، ورد بأن مثل هذا الرابط لا يجوز حذفه والأول بأن المراد بالظرف المضاف وهو الموصوف يوم القيامة وهو يوم معين وتقدير الكلام يوم حشره أو يوم خشرنا فيكون الموصوف معرفة والجمل نكرات ولا تنعت المعرفة بالنكرة .

وأجيب بأن المنع من جواز حذف مثل ذلك الرابط في حيز المنع وبأن الجمل التي تضاف إليها أسماء الزمان قد يقدر حلها إلى معرفة فيكون ما أضيف إليها معرفة وقد يقدر حلها إلى نكرة فيكون ذلك نكرة ، ولعل أبا علي يتكلف لاعتبار حلها إلى نكرة ويكون الموصوف هنا نكرة عنده فيرتفع محذور نعت المعرفة بالنكرة .

(64/362)

وأنت تعلم أن الجواب إنما يدفع البطلان لا غير فالحق ترجيح الحالية ، وقوله سبحانه : ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً يحتمل أن يكون استئنافاً وأن يكون بياناً للجملة التشبيهية واستدلالاً عليها كما قيل ، وذلك أنه لو طال العهد لم يبق التعارف لأن طول العهد منس مفض إلى التناكر لكن التعارف باق فطول العهد منتف وهو معنى ﴿ لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً ﴾ وفية دغدغة .

وزعم أبو البقاء كونه حالا مقدرة ولا داعي لاعتبار كونها مقدرة لأن الظاهر عدم تأخر

التعارف عن الحشر بزمان طويل ليحتاج إليه ، وقد صرحوا بأن التعارف بينهم يكون أول حروجهم من القبور ثم ينقطع لشدة الأهوال المذهلة واعتراء الأحوال المعضلة المغيرة للصور والاشكال المبدلة لها من حال إلى حال ، وعندي أن لا قطع بالانقطاع فالمواقف مختلفة والأحوال متفاوتة فقد يتعارفون بعد التناكر في موقف دون موقف وحال دون حال ، وفي بعض الآثار ما يؤيد ذلك .

وزعم بعضهم المنافاة بين ما تدل عليه هذه الآية وما يدل عليه قوله سبحانه : ﴿ لا أنساب بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءلُونَ ﴾ [المؤمنون : 101] وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ [المعارج : 10] من عدم التعارف لولا اعتبار الزمانين .

وقيل : لا منافاة بناء على أن الثمبت تعارف تقريع وتوبيخ الومنفى تعارف تواصل وشفقة ، ولمانع أن يمنع دلالة ما ذكر من الآيات على نفي التعارف ، وقصارى ما يدل عليه نفي نفع الأنساب وسؤال بعضهم بعضاً ، والتعارف ، الذي تدل عليه هذه الآية لا ينافي ذلك ، فقد أخرج ابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ عن الحسن أنه قال فيها : يعرف الرجل صاحبه إلى جنبه فلا يستطيع أن يكلمه ثم أن حمل التعارف على معرفة بعضهم بعضاً هو المعروف عند المفسرين ، وقيل : المراد به التعريف أي يعرف بعضهم بعضاً ما كانوا عليه من الخطأ والكفر وفيه ما فيه .

وجوز بعضهم أن يكون الظرف السابق متعلقاً بيتعارفون قيل فيعطف على ما سبق ولا يظهر له وجه وقوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَاء الله ﴾ جملة مستأنفة سيقت للشهادة منه تعالى على خسرانهم والتعجيب منه وهي خبرية لفظاً إنشائية معنى ، وقيل : مقول لقول مقدر وقع حالا من ضمير ﴿ يَتَعَارَفُونَ ﴾ أو من ضمير ﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴾ إن كانت جملة ﴿ يَتَعَارَفُونَ ﴾ حالا أيضاً لئلا يفصل بين الحال وذيها أجنبي والاستئناف أظهر ، والتعبير عنهم بالموصول مع أن المقام مقام إضمار لذمهم بما في حيز الصلة وللاشعار بعليته لما أصابهم ، والظاهر أن المراد بلقاء الله تعالى مطلق الحساب والجزاء وبالخسران الوضيعة أي قد وضعوا في تجارتهم ومعاملتهم واشترائهم الكفر بالإيمان ، وجوز أن يراد بالأول سوء اللقاء وبالثاني الهلاك والضلال ، أي قد ضلوا وهلكوا بتكذيبهم بذلك ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ أي لطرق التجارة عارفين بأحوالها أو ما كانوا مهتدين إلى طريق النجاة ، والجملة عطف على جملة ﴿ قَدْ خَسِرَ ﴾ الخ ، وجوز أن تكون معطوفة على صلة الموصول على أنها كالتأكيد لها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(66/362)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ﴾

عطف على : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم ﴾ [يونس : 28]

عطف القصة على القصة عَوْداً إلى غرض من الكلام بعد تفصيله وتفريعه وذم المسوق إليهم وتقريعهم فإنه لما جاء فيما مضى ذكر يوم الحشر إذ هو حين افتضاح ضلال المشركين ببراءة شركائهم منهم أتبع ذلك بالتقريع على عبادتهم الأصنام مع وضوح براهين الوحدانية لله تعالى .

وإذ كان القرآن قد أبلغهم ما كان يعصمهم من ذلك الموقف الذليل لو اهتدوا به أتبع ذلك بالتنويه بالقرآن وإثبات أنه خارج عن طوق البشر وتسفيه الذين كذبوه وتفننوا في الإعراض عنه واستُوفي الغرض حقَّه عاد الكلام إلى ذكر يوم الحشر مرة أخرى إذ هو حين خيبة أولئك الذين كذبوا بالبعث وهم الذين أشركوا وظهر افتضاح شركهم في يوم الحشر فكان مثل رد العجز على الصدر .

وانتصب ﴿ يوم ﴾ على الظرفية لفعل ﴿ خسر ﴾ .

والتقدير : وقد خسر الذين كذبوا بلقاء الله يوم نحشرهم ، فارتباط الكلام هكذا : وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون وقد خسر الذين كذبوا بلقاء الله يوم نحشرهم .

وتقديم الظرف على عامله للاهتمام لأن المقصود الأهم تذكيرهم بذلك اليوم وإثبات وقوعه مع تحذيرهم ووعيدهم بما يحصل لهم فيه .

ولذلك عدل عن الإضمار إلى الموصولية في قوله : ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ﴾ دون قد خسروا ، للإيماء إلى أن سبب خسرانهم هو تكذيبهم بلقاء الله وذلك التكذيب من آثار الشرك فارتبط بالجملة الأولى ، وهي جملة : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم إلى قوله : وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ [يونس : 28 30] .

(67/362)

وقرأ الجمهور ﴿ نحشرهم ﴾ بنون العظمة ، وقرأه حفص عن عاصم بياء الغيبة ، فالضمير يعود إلى اسم الجلالة في قوله قبله : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ﴾ [يونس : 44] وجملة : ﴿ كأنْ لم يلبثوا إلا ساعة من النهار ﴾ إما معترضة بين جملة : ﴿ نحشرهم ﴾ وجملة ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ ، وإما حال من الضمير المنصوب في ﴿ نحشرهم ﴾ .

و﴿ كأن ﴾ مخففةُ (كأنَّ) المشددةِ النون التي هي إحدَى أخوات (إنَّ) ، وهي حرف تشبيه ، وإذا خففت يكون اسمها محذوفاً غالباً ، والتقدير هنا : كأنهم لم يلبثوا إلا ساعة

من النهار .

وقد دل على الاسم المحذوف ما تقدم من ضمائرهم .

والمعنى تشبيه المحشورين بعد أزمان مضت عليهم في القبور بأنفسهم لو لم يلبثوا في القبور إلا ساعةً من النهار .

و﴿ من النهار ﴾ (من) فيه تبعيضية صفة ل ﴿ ساعة ﴾ وهو وصف غير مراد منه التقييد إذ لا فرق في الزمن القليل بين كونه من النهار أو من الليل وإنما هذا وصف خرج مخرج الغالب لأن النهار هو الزمن الذي تستحضره الأذهان في المتعارف ، مثل ذكر لفظ الرجل في الإخبار عن أحوال الإنسان كقوله تعالى:

﴿ وعلى الأعراف رجال ﴾ [الأعراف : 46] .

ومن هذا ما وقع في الحديث " وإنما أُحِلَّت لي ساعة من نهار " ، والمقصود ساعة من الزمان وهي الساعة التي يقع فيها قتال أهل مكة من غير التفات إلى تقييد بكونه في النهار وإن كان صادف أنه في النهار .

والساعة : المقدار من الزمان ، والأكثر أن تطلق على الزمن القصير إلا بقرينة ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون ﴾ في سورة [الأعراف : 34] .

ووجه الشبه بين حال زمن لبثهم في القبور وبين لبثِ ساعة من النهار وجوهٌ : هي التحقق والحصول ، بحيث لم يمنعهم طول الزمن من الحشر ، وأنهم حشروا بصفاتهم التي عاشوا

عليها في الدنيا فكأنهم لم يفنوا .

وهذا اعتبار بعظيم قدرة الله على إرجاعهم .

(68/362)

والمقصود من التشبيه التعريض بإبطال دعوى المشركين إحالتهم البعث بشبهة أن طول اللبث وتغير الأجساد ينافي إحياءها ﴿ يقولون أئنا لمردودون في الحافرة أإذا كنا عظاماً نخرة ﴾ [النازعات : 10 ، 11] .

وجملة : ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ حال من الضمير المنصوب في ﴿ نحشرهم ﴾ .

والتعارف : تفاعل من عَرف ، أي يعرف كل واحد منهم يومئذٍ من كان يعرفه في الدنيا ويعرفه الآخَر كذلك .

والمقصود من ذكر هذه الحال كالمقصود من ذكر حالة ﴿ كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار ﴾ لتصوير أنهم حشروا على الحالة التي كانوا عليها في الدنيا في أجسامهم وإدراكهم زيادة في بيان إبطال إحالتهم البعث بشبهة أنه ينافي تمزق الأجسام في القبور وانطفاء العقول بالموت .

فظهر خسرانهم يومئذٍ بأنهم نفوا البعث فلم يستعدوا ليومه بقبول ما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(69/362)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النهار ﴾ الآية .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة ، أن الكفار إذا حشروا استقلوا مدة مكثهم في دار الدنيا ، حتى كأنها قدر ساعة عندهم ، وبين هذا المعنى في مواضع أخر ، كقوله في آخر « الأحقاف » . ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ [الأحقاف : 35] الآية ، وقوله في آخر « النازعات » : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : 46] ، وقوله في آخر « الرُّوم » : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُقْسِمُ المجرمون مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم : 55] الآية .

وقد بينا بإيضاح في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) ، وجه الجمع بين هذه الآيات المقتضية أن الدنيا عندهم كساعة ، وبين الآيات المقتضية أنها عندهم كأكثر من ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً ﴾ [طه : 103] وقوله : ﴿

قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ العَآدِينَ ﴾ [المؤمنون : 113] فانظره فيه في سورة : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] في الكلام على قوله : ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ العَآدِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ .

صرح في هذه الآية الكريمة : أن أهل المحشر يعرف بعضهم بعضاً فيعرف الآباء الأبناء ، كالعكس ، ولكنه بين في مواضع أخر أن هذه المعارفة لا أثر لها ، فلا يسأل بعضهم بعضاً شيئاً ، كقوله : ﴿ وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ [المعارج : 10-11] ، وقوله : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : 101] .

(70/362)

وقد بينا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) أيضاً : وجه الجمع بين قوله : ﴿ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ، وبين قوله : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [الصافات : 27] ، في سورة : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ : أيضاً .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ .

صرح تعالى في هذه الآية الكريمة : بخسران المكذبين بلقائه ، وأنهم لم يكونوا مهتدين ، ولم يبين

هنا المفعول به لقوله خسر ، وذكر في مواضع كثيرة أسبابا باً من أسباب الخسران ، وبين في مواضع أخر المفعول المحذوف هنا ، فمن الآيات المماثلة لهذه الآية ، قوله تعالى في « الأنعام » : ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله حتى إِذَا جَآءَتْهُمُ الساعة بَغْتَةً قَالُواْ ياحسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام : 31] الآية ، وقوله تعالى في « البقرة » : ﴿ الذين يَنقُضُونَ عَهْدَ الله مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأرض أولئك هُمُ الخاسرون ﴾ [البقرة : 27] ، وقوله في « البقرة » أيضاً : ﴿ الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَتْلُونَهُ حَقَّ تلاَوَتِهِ أولئك يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فأولئك هُمُ الخاسرون ﴾ [البقرة : 121] ، وقوله في « الأعراف » : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ الله فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلاَّ القوم الخاسرون ﴾ [الأعراف : 99] ، وقوله في « الأعراف » أيضاً :

(71/362)

﴿ مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتدي وَمَن يُضْلِلْ فأولئك هُمُ الخاسرون ﴾ [الأعراف : 178] ، وقوله في « الزمر » : ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ الله أولئك هُمُ الخاسرون ﴾ [الزمر : 63] .

والآيات في مثل هذا كثيرة ، وقد أقسم تعالى على أن هذا الخسران لا ينجو منه إنسان إلا

بأربعة أمور :

الأول : الإيمان .

الثاني : العمل الصالح .

الثالث : التواصي بالحق .

الرابع : التواصي بالصبر .

وذلك في قوله : ﴿ والعصر إِنَّ الإنسان ﴾ [العصر : 1-2] إلى آخر السورة الكريمة .

وبين في مواضع أخر ، أن المفعول المحذوف الواقع عليه الخسران هو أنفسهم ، كقوله في « الأعراف » : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأولئك الذين خسروا أَنْفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : 9] ، وقوله في « المؤمنون » : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأولئك الذين خسروا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : 103] وقوله في « هود » : ﴿ أولئك الذين خسروا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [هود : 21] .

وزاد في مواضع أخر خسران الأهل مع النفس ، كقوله في « الزمر » : ﴿ قُلْ إِنَّ الخاسرين الذين خسروا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القيامة أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الخسران المبين ﴾ [الزمر : 15] ، وقوله في « الشورى » : ﴿ وَقَالَ الذين آمنوا إِنَّ الخاسرين الذين خسروا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القيامة أَلاَ إِنَّ الظالمين فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الشورى : 45] .

وبين في موضع آخر أن خسران الخاسرين قد يشمل الدنيا والآخرة ، وهو قوله : ﴿ وَمِنَ

الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وَجْهِهِ خَسِرَ الدنيا والآخرة ذلك هُوَ الخسران المبين ﴾ [الحج : 11] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(72/362)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾

فهذه الدنيا التي يتلهف عليها الإنسان ، ويأخذ حظه فيها ، وقد ينسى الآخرة ، فإذا ما قامت القيامة فأنت تشعر كأنك لم تمكث في الدنيا إلا ساعة ، والساعة هي الساعة الجامعة التي تقوم فيها القيامة ، ولكن الساعة في الدنيا هي جزء من الوقت ، ونحن نعلم أن اليوم مقسَّم لأربع وعشرين ساعة ، وأيضاً تُطلق الساعة على تلك الآلة التي تُعلَّق على الحائط أو يضعها الإنسان على يده ، وهي تشير إلى التوقيت .

والتوقيت ثابت بمقدار الساعة والدقيقة والثانية منذ آدم عليه السلام وإلى من سوف يأتون بعدنا ، ولكن التوقيت يختلف من مكان إلى آخر ، فتشير الساعة في القاهرة مثلاً إلى الثانية ظهراً ، وتكون في نيويورك السابعة صباحاً ، وتشير في بلد آخر إلى الثالثة بعد منتصف

الليل ، ولا تتوحد الساعة بالنسبة لكل الخلق إلا يوم القيامة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم : 55] .

وهم إذن يُفاجَأون أن دنياهم الطويلة والعريضة كلها مرَّتْ وكأنها مجرد ساعة ، وهكذا يكتشفون قِصَر ما عاشوا من وقت ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل إنهم لم ينتفعوا بها أيضاً فهي مدة من الزمن لم تكن لها قيمة .

والحق سبحانه يقول :

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الأحقاف : 35] .

أي : أن الدنيا تمر عليهم في لهو ولعب ومشاغل ، ولم يأخذوا الحياة بالجد اللائق بها ؛ فضاعت منهم وكأنها ساعة .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ﴾ [يونس : 45] .

(73/362)

ويوم الحشر ينقسم الناس قسمين : قسم مَنْ كانوا يتعارفون على البر ، وقسم مَنْ كانوا يتعارفون على الإثم ، فالذين تعارفوا في الحياة الدنيا على البر يفرحون ببعضهم البعض ، وأما الذين تعارفوا في الحياة الدنيا على الإثم فهم يتنافرون بالعداء ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف : 67] .

وكذلك قال في الذين تعارفوا على الإثم :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا ﴾ [البقرة : 166] .

هم سيتعارفون على بعضهم البعض ، ولكن هذه المعرفة لا تدوم ، بل تنقلب إلى نكران ، فالواحد منهم لا يريد أن يرى مَنْ كان سبباً في أن يؤول إلى هذا المصير ، وتعارفهم سيكون تعارف تعنيف .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله ﴾ [يونس : 45] .

وساعة تسمع كلمة " خسر " فاعرف أن الأمر يتعلق بتجارة ما ، والخسارة تعنى : أن يفقد الإنسان المتاجر إما جزءاً من رأس المال ، أو رأس المال كله .

ومراحل التجارة كما نعرف إما كسب يزيد رأس المال المتاجَر فيه ، وإما الاَّ يكسب التاجر ولا يخسر ؛ لكنه يشعر بأن ثمن عمله ووقته في هذه التجارة قد ضاع ، وكل ذلك يحدث في الصفقات .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يصف العملية الإيمانية في الدنيا بقوله :

﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكمْ على تِجَارَةٍ تُنجيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف : 1011] .

ويقول سبحانه :

﴿ إِنَّ الذين يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَأَقَامُواْ الصلاة وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر : 29] .

(74/362)

والتجارة تعتمد على أنك لا تُقبل على عقد صفقة إلا إذا غلب على ظنك أن هذه الصفقة سوف تأتي لك بأكثر مما دفعت فيها .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصفقات الخاسرة :

﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة : 16] .

ويقول أيضاً :

﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ﴾ [الجمعة : 11] .

وشاء الحق سبحانه أن يجعل معنى التجارة واضحاً ومعبّراً عن كثير من المواقف ؛ لأن التجارة تمثّل جماع كل حركة الحياة ؛ فهذا يتحرك في ميدان ؛ لينفع نفسه ، وينفع غيره ، وغيره يعمل في ميدان آخر ؛ فينفع نفسه ، وينفع غيره .

وبهذا يتحقق نفع الإنسان من حركة نفسه وحركة غيره ، وهو يستفيد من حركة غيره أكثر مما يستفيد من حركته هو ، ومن مصلحة أي إنسان أن يحسّن كل إنسان حركته ؛ فيرتاح هو ؛ لأن ما سوف يصل إليه من حركة الناس سيكون جيد الإتقان .

والتجارة تحمل أيضاً الوساطة بين المنتج والمستهلك .

ولذلك حين أراد الله سبحانه أن نستجيب لأذان الجمعة قال :

﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة : 9] .

ولم يقل الله سبحانه : اتركوا الزراعة أو اتركوا الصناعة ، أو اتركوا التدريس ، بل اختار من كل حركات الحياة حركة البيع ؛ لأن فيه تجارة ، والتجارة هي الجامعة لكل حركات الحياة .

والتاجر وسيط بين منتج ومستهلك وتقتضي التجارة شراءً وبيعاً ، والشراء يدفع فيه التاجر ثمناً ، أما في البيع فهو يأخذ الثمن ، والغاية من كل شيء أن يتموّل الإنسان .

لذلك فالبيع أفضل عند التاجر من الشراء ، فأنت تشتري شيئاً وأنت كاره له ، لاحتياجك إليه ، ولكنك عند بيع البضاعة تشعر بالسعادة والإشراق ، ولأن الشراء فيه أخذ ، والبيع فيه عطاء ، والعطاء يرضي النفس دائماً ؛ لأن ثمرة الصفقة تأتيك في لحظتها .

وإن كنت مزارعاً فأنت تُعِدّ الأرض ، وتحرثها ، وتبذر البذور ، وترويها ، وتُشَذِّب النبات ، وتنتظر إلى أن ينضج الزرع ، وكذلك تقضي الكثير من الوقت في إتقان الصنعة إن كنت صانعاً ، لكن البيع في التجارة يأتي لك بالكسب سريعاً ، فكأن ضَرْبَ المثل في التجارة ، جاء من أصول التجارة بالبيع ولم يأت بالشراء .

إذن : لا بد أن نعتبر أن دخولك في صفقة الإيمان تجارة ، تأخذ منها أكثر من رأسمالك ، وتربح ، أما إن تركت بعضاً من الدِّين ؛ فأنت تخسر بمقدار ما تركت ، بل وأضعاف ما تركت .

وأنت في أية صفقة قد تعوِّض ما خسرت فيما بعد ، وإن استمرت الخسارة فإن أثرها لا يتجاوز الدنيا ، ويمكن أن تربح بعدها ، وإذا لم تربح ، فسيضيع عليك تعبك فقط ؛ ولأن الدنيا محدودة الزمن ؛ فخسارتها محتملة ، أما الخسارة في الزمان غير الموقوت الزمن الدائم فهي خساة كبيرة ؛ لأن الآخرة ليس فيها أغيار كالدنيا ، وأنت في الآخرة : إما في جنة ذات نعيم مقيم ، وفي هذا ربح وكسب كبير ، وإما إلى نار ، وهذه هي الخسارة الحقيقة .

والخسران الحقيقي أن يكذِّب الإنسان ، لا بنعيم الله فقط ، ولكن بلقاء الله أيضاً .

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله ﴾ [يونس : 45] .

أي : أن الله سبحانه لم يكن في بالهم ، وهو حين تقوم الساعة يجدون الله سبحانه وتعالى أمامهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً ﴾ [النور : 39] .

(76/362)

والسراب كما نعلم يراه السائر في الصحراء ، وهو عبارة عن انعكاس للضوء ؛ فيظن أن أمامه ماء ، ولكن إن سار إليه الإنسان لم يجده ماء ، وهكذا شبَّه الحق سبحانه عمل الكافر بمن يسير في صحراء شاسعة ، ويرى السراب ؛ فيظنه ماءً ، لكنه سراب ، ما إن يصل إليه حتى ينطبق عليه قول الحق سبحانه :

﴿ حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ ﴾ [النور : 39] .

أي : أنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه وتعالى ، فيوفيه الله حسابه .

ولذلك فالذي يكفر بالله ويعمل ما يفيد البشر ، فإنه يأخذ حسابه ممن عمل له ، ولا يُحسب له ذلك في الآخرة ، وتجد الناس يُكرّمونه ، ويقيمون له التماثيل أو يمنحونه الجوائز وينطبق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

" فعلتَ ليقال ، وقد قيل " .

وهنا يقول الحق سبحانه عن الذين كَذّبوا بلقاء الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس : 45] .

أي : لم يكونوا سائرين على المنهج الذي وضعه لهم خالقهم سبحانه ؛ هذا المنهج الذي يمثّل قانون الصيانة لصنعة الله تعالى ، وقد خلق الله سبحانه الإنسان لمهمة ، والله سبحانه يصون الإنسان بالمنهج من أجل أن يؤدي هذه المهمة .

والهداية هي الطريق الذي إن سار فيه الإنسان فهو يؤدي به إلى تحقيق المهمة المطلوبة منه ؛ لأن الحق سبحانه قد جعله الخليفة في الأرض .

ومن لا يؤمن برب المنهج سبحانه وتعالى ولا يطبق المنهج فهو إلى الخسران المبين ، أي : الخسران المحيط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(77/362)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ ﴾ : منصوب على الظرف . وفي ناصبه أوجه ، أحدُها : أنه منصوبٌ بالفعل الذي تضمَّنه قوله : ﴿ كَأَن لَّمْ يلبثوا ﴾ الثاني : أنه منصوبٌ ب " يتعارفون " . والثالث : أنه منصوبٌ بمقدر ، أي : اذكر يومَ . وقرأ الأعمش "يَحْشُرهم" بياء الغيبة ، والضمير لله تعالى لتقدُّم اسمه في قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ ﴾ .

(78/362)

قوله : ﴿ كَأَن لَّمْ يلبثوا ﴾ قد تقدَّم الكلامُ على "كأنْ" هذه . ولكن اختلفوا في محلِّ هذه الجملة على أوجهٍ ، أحدها : أنها في محلِّ نصب صفةً للظرف وهو "يوم" قاله ابن عطية . قال الشيخ : "لا يَصِحُّ لأنَّ "يومَ يحشرُهم" معرفةٌ والجملَ نكرات ، ولا تُنْعَتُ المعرفةُ بالنكرة ، لا يقال : إن الجملَ التي يُضاف إليها أسماءُ الزمانِ نكرةٌ على الإطلاق لأنها إن كانَتْ في التقدير تَنْحَلُّ إلى معرفة فإن ما أُضيف إليها يتعرَّفُ ، وإن كانت تَنْحَلُّ إلى نكرة كان ما أُضيف إليها نكرةً ، تقول " مررت في يوم قَدِم زيدٌ الماضي " فتصِفُ "يوم" بالمعرفة ،

و " جئت ليلةَ قَدِمَ زيدٌ المباركة علينا " وأيضاً فكأنَّ لم يلبثوا لا يمكن أن يكون صفة لليوم من جهةِ المعنى ؛ لأنَّ ذلك من وصف المحشورين لا مِنْ وصف يوم حشرهم . وقد تكلَّفَ بعضُهم تقديرَ رابطٍ يَرْبطه فقدَّره "كأن لم يَلْبثوا قبله " فحذف " قبله " ، أي : قبل اليوم ، وحَذْفُ مثلِ هذا الرباطِ لا يجوز " ، قلت : قوله : " بعضهم " ، هو مكي ابن أبي طالب فإنه قال : " الكافُ وما بعدها مِنْ "كأنْ " صفةٌ لليوم ، وفي الكلامِ حَذْفُ ضميرٍ يعودُ على الموصوفِ تقديرُه : كأنْ لم يَلْبثوا قبلَه ، فحذف " قبل " فصارت الهاءُ متصلةً ب "يَلْبثوا " فحُذِفَتْ لطولِ الاسم كما تُحْذَفُ من الصِّلات " ونَقَل هذا التقدير أيضاً أبو البقاء ولم يُسَمِّ قائلَه فقال : " وقيل " فذكره .

والوجه الثاني : أن تكونَ الجملةُ في محلِّ نصبٍ على الحال من مفعول "يَحْشُرهم " ، أي : يَحْشُرهم مُشْبهين بمَنْ لم يلبث إلا ساعةً ، هذا تقديرُ الزمخشري . وممَّنْ جوَّز الحالية أيضاً ابنُ عطية ومكي وأبو البقاء ، وجعله بعضُهم هو الظاهر .

(79/362)

الوجه الثالث : أن تكونَ الجملةُ نعتاً لمصدر محذوف ، والتقدير : يَحْشُرهم حَشْراتً كأنْ لم يَلْبَثُوا " ذكر ذلك ابن عطية وأبو البقاء ومكي . وقدّر مكي وأبو البقاء العائد محذوفاً كما

قَدَّراه حالَ جَعْلِهما الجملةَ صفةً لليوم ، وقد تقدَّم ما في ذلك .

الرابع : قال ابن عطية : " ويَصِحُّ أن يكونَ قوله ﴿ كَأَن لَّمْ يلبثوا ﴾ كلاماً مجملاً " ولم يُبَيِّنْ الفعلَ الذي يتضمَّنه ﴿ كَأَن لَّمْ يلبثوا ﴾ .

قال الشيخ : " ولعلَّه أرادَ ما قاله الحوفي مِنْ أنَّ الكاف في موضعِ نصبٍ بما تضمَّنَتْه من معنى الكلام وهو السرعة " انتهى . قال : " فيكونُ التقدير : ويوم يحشرهم يُسْرعون كأنْ لم يَلْبثوا " قلت : فيكونُ " يسرعون " حالاً من مفعول " يَحْشرهم " ويكون ﴿ كَأَن لَّمْ يلبثوا ﴾ حالاً من فاعل " يُسْرعون " ، ويجوز أن تكونَ " كأنْ لم " مفسرةً لـ " يُسْرعون " المقدرة .

(80/362)

قوله : ﴿ يَتَعَارَفُونَ ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدُها : أن الجملةَ في محل نصبٍ على الحال من فاعل " يَلْبثوا " . قال الحوفي : " يتعارفون " فعل مستقبلٌ في موضع الحال من الضمير في " يلبثوا " وهو العامل ، كأنه قال : متعارفين ، والمعنى اجتمعوا متعارفين " . والثاني : أنها حالٌ من مفعول " يَحْشُرهم " أي : يَحْشُرهم متعارفين والعاملُ فعلُ الحشر ، وعلى هذا فَمَنْ جوَّز تعدُّدَ الحال جوَّز أن تكونَ " كأَنْ لم " حالاً أولى ، وهذه حالٌ ثانية ، ومَنْ مَنَعَ ذلك جَعَلَ " كأَنْ لم " على ما تقدم من غيرِ الحالية . قال أبو البقاء : " وهي حالٌ مقدرة لأنَّ التعارفَ لا

يكونُ حالَ الحشر " . والثالث : مستأنفةٌ ، أخبر تعالى عنهم بذلك قال الزمخشري : " فإن قلت : كأن لم يَلْبثوا ويتعارفون كيف موقعهما ؟ قلت : أمَّا الأولى فحالٌ منهم أي : يَحْشُرهم مُشْبهين بمَنْ لم يَلْبث إلا ساعةً ، وأمَّا الثانية : فإمَّا أن تتعلق بالظرف يعني فتكون حالاً وإما أن تكونَ مبينةً لقوله : كأن لم يَلْبثوا إلا ساعةً ؛ لأن التعارف لا يبقى مع طول العهد وينقلب تناكراً " .

قوله : ﴿ قَدْ خَسِرَ ﴾ فيها وجهان ، أحدهما : أنها مستأنفة أخبر تعالى بأن المكذِّبينَ بلقائِه خاسرون لا محالة ، ولذلك أتى بحرفِ التحقيق . والثاني : أن يكونَ في محل نصبٍ بإضمارِ قولٍ أي : قائلين قد خسر الذين . ثم لك في هذا القول المقدر / وجهان ، أحدهما : أنه حال مِنْ مفعول " يحشرهم " أي : يحشرهم قائلين ذلك . والثاني : أنه حالٌ من فاعل " يتعارفون " . وقد ذهب إلى الاستئناف والحالية مِنْ فاعل " يتعارفون " الزمخشري فإنه قال : " هو استئنافٌ فيه معنى التعجب كأنه قيل : ما أحشرهم " ثم قال : " قد خَسِر " على إرادة القولِ أي : يتعارفون بينهم قائلين ذلك " ، وذهبَ إلى أنها حالٌ من مفعول " يحشرهم " ابن عطية .

(81/362)

قوله : ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ يجوزُ فيها وجهان ، أحدهما : أن تكونَ معطوفةً على قولِه " قد خَسِر " فيكونُ حكمُه حكمَه . والثاني : أن تكونَ معطوفةً على صلةِ الذين ، وهي كالتوكيد للجملة التي وقعتْ صلةً ؛ لأنَّ مَنْ كذَّب بلقاء الله غيرُ مهتدٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 208 . 211 ﴾

(82/362)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (45) ﴾

الأيامُ والشهور ، والأعوام والدهور بعد مُضيها في حُكْمِ اللحظة لمن تفكَّرَ فيها ، ومتى يكون لها أثر بعد تقضيها ؟ والآتي من الوقت قريب ، وكأنَّ قَدْرَ الماضي من الدهر لم يُعْهَدْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 98 ﴾

(83/362)

قوله تعالى ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (46) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان إخبار الصادق بهلاك الأعداء مقراً لعين ، وكانت مشاهدة هلاكهم أقر لها ، عطف على قوله ﴿ قد خسر ﴾ : ﴿ وإما نرينك ﴾ أي إراءة عظيمة قبل وفاتك ﴿ بعض الذي نعدهم ﴾ أي في الدنيا بما لنا من العظمة فهو أقر لعينك ﴿ أو نتوفينك ﴾ قبل ذلك ﴿ فإلينا مرجعهم ﴾ فنريك فيما هنالك ما هو أقر لعينك وأسر لقلبك ، فالآية من الاحتباك : ذكر أولاً الإراءة دليلاً على حذفها ثانياً ، والوفاة ثانياً دليلاً على حذفها أولاً ؛ و " ثم " في قوله : ﴿ ثم الله ﴾ أي المحيط بكل شيء ﴿ شهيد ﴾ أي بالغ الشهادة ﴿ على ما يفعلون ﴾ في الدارين - يمكن أن يكون على بابها ، فتكون مشيرة إلى التراخي بين ابتداء رجوعهم بالموت وآخره بالقيامة ، ليس المراد بقوله ﴿ شهيد ﴾ ظاهره ، بل العذاب الناشىء عن الشهادة في الآخرة إلى أن الله يعاقبهم بعد مرجعهم ، فيريك ما بعدهم لأنه عالم بما يفعلون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 449 ﴾

فصل

قال الفخر :

وأما قوله : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ فاعلم أن قوله ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾

جواب ﴿ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ وجواب ﴿ نُرِيَنَّكَ ﴾ محذوف ، والتقدير : وإما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك أو نتوفينك قبل أن نرينك ذلك الموعد فإنك ستراه في الآخرة .

واعلم أن هذا يدل على أنه تعالى يُري رسوله أنواعاً من ذل الكافرين وخزيهم في الدنيا ، وسيزيد عليه بعد وفاته ، ولا شك أنه حصل الكثير منه في زمان حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحصل الكثير أيضاً بعد وفاته ، والذي سيحصل يوم القيامة أكثر ، وهو تنبيه على أن عاقبة المحقين محمودة وعاقبة المذنبين مذمومة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 85 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ ﴾

من العذاب ، ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل أن نريك ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ مصيرهم في الآخرة .

وروي عن عبد الله بن عباس ، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنهما قالا : أخبر الله تعالى نبيه أن يستخلف أمته من بعده ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ ﴾ في الآخرة ﴿ على مَا يَفْعَلُونَ ﴾ في الدنيا من الكفر والتكذيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(85/362)

وقال ابن عطية فى الآيات :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44) ﴾

قرأت فرقة : " ولكنْ الناس " بتخفيف " لكِن " ورفع " الناسُ " ، وقرأت فرقة " ولكنّ " بتشديد " لكنّ " ونصب " الناسَ " ، وظلم الناس لأنفسهم إنما هو بالتكسب منهم الذي يقارن اختراع الله تعالى لأفعالهم ، وعرف " لكن " إذا كان قبلها واو أن تثقل وإذا عريت من الواو أن تخفف ، وقد ينخرم هذا ، وقال الكوفيون : قد يدخل اللام في خبر " لكن " المشددة على حد دخولها في " أن " ومنع ذلك البصريون ، وقوله تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم ﴾ الآية ، وعيد بالحشر وخزيهم فيه وتعاونهم في التلاوم بعضهم لبعض ، و ﴿ يوم ﴾ ظرف ونصبه يصح بفعل مضمر تقديره واذكر يوم ، ويصح أن ينتصب بالفعل الذي يتضمنه

قوله ﴿ كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار ﴾ ، ويصح نصبه ب ﴿ يتعارفون ﴾ ، والكاف من قوله ﴿ كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار ﴾ يصح أن تكون في معنى الصفة لليوم ، ويصح أن تكون في موضع نصب للمصدر ، كأنه قال ويوم نحشرهم حشراً كأن لم يلبثوا ، ويصح أن يكون قوله ﴿ كأن لم يلبثوا ﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿ نحشرهم ﴾ وخصص ﴿ النهار ﴾ بالذكر لأن ساعاته وقسمه معروفة بيّنه للجميع ، فكأن هؤلاء يتحققون قلة ما لبثوا ، إذ كل أمد طويل إذا انقضى فهو واليسير سواء ، وأما قوله ﴿ يتعارفون ﴾ فيحتمل أن يكون معادلة لقوله : ﴿ ويوم نحشرهم ﴾ كأنه أخبر أنهم يوم الحشر ﴿ يتعارفون ﴾ وهذا التعارف على جهة التلاوم والخزي من بعضهم لبعض . ويحتمل أن يكون في موضع الحال من الضمير في ﴿ نحشرهم ﴾ ويكون معنى التعارف كالذي قبله ، ويحتمل أن يكون حالاً من الضمير في ﴿ يلبثوا ﴾ ويكون التعارف في الدنيا ، ويجيء معنى الآية ويوم نحشرهم للقيامة فتنقطع المعرفة بينهم والأسباب ويصير تعارفهم في الدنيا كساعة من النهار لا قدر لها ، وبنحو هذا المعنى فسر الطبري ، وقرأ السبعة وجمهور الناس " نحشرهم " ، بالنون ، وقرأ الأعمش فيما روي عنه ، " يحشرهم " بالياء ، وقوله ﴿ قد خسر الذين ﴾ إلى آخرها حكم

على المكذبين بالخسار وفي اللفظ إغلاظ على المحشورين من إظهار لما هم عليه من الغرر مع الله تعالى ، وهذا على أن الكالم إخبار من الله تعالى وقيل : إنه من كلام المحشورين على جهة التوبيخ لأنفسهم ، وقوله تعالى : ﴿ وإما نرينك ﴾ الآية ، ﴿ إما ﴾ شرط وجوابه ﴿ فإلينا ﴾ ، والرؤية في قوله ﴿ نرينك ﴾ رؤية بصر وقد عدي الفعل بالهمزة فلذلك تعدى إلى مفعولين أحدهما الكاف والآخر ﴿ بعض ﴾ ، والإشارة بقوله ﴿ بعض الذي ﴾ إلى عقوبة الله لهم نحو بدر وغيرها ، ومعنى هذا الوعيد بالرجوع إلى الله تعالى أي إن أريناك عقوبتهم أو لم نركها فهم على كل حال راجعون إلينا إلى الحساب والعذاب ثم مع ذلك فالله شهيد من أول تكليفهم على جميع أعمالهم ف ﴿ ثم ﴾ ها هنا لترتيب الإخبار لا لترتيب القصص في أنفسها ، وإما هي " إن " زيدت عليها " ما " ولأجلها جاز دخول النون الثقيلة ولو كانت إن وحدها لم يجز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(87/362)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ شرط .

﴿ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ ﴾ أي من إظهار دينك في حياتك .

وقال المفسرون : كان البعض الذي وعدهم قتْلَ من قُتل وأسْرَ من أُسر ببدر .

﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ عطف على "نُرِيَنَّكَ" أي نتوفينك قبل ذلك .

﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ جواب "إمّا" .

والمقصود إن لم ننتقم منهم عاجلاً انتقمنا منهم آجلاً .

﴿ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ ﴾ أي شاهد لا يحتاج إلى شاهد .

﴿ على مَا يَفْعَلُونَ ﴾ من محاربتك وتكذيبك .

ولو قيل : "ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ" بمعنى هناك ، جاز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(88/362)

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾

إما هي أنْ الشرطية زيد عليها ما قال ابن عطية ، ولأجلها جاز دخول النون الثقيلة .

ولو كانت أن وحدها لم يجز انتهى .

يعني أنّ دخول النون للتأكيد إنما يكون مع زيادة ما بعد إن ، وهذا الذي ذكره مخالف لظاهر كلام سيبويه .

قال ابن خروف : أجاز سيبويه الإتيان بما ، وأن لا يؤتى بها ، والإتيان بالنون مع ما وإن لا يؤتى بها ، والإراءة هنا بصرية ، ولذلك تعدى الفعل إلى اثنين ، والكاف خطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وبعض الذي نعدهم يعني : من العذاب في الدنيا .

وقد أراه الله تعالى أنواعاً من عذاب الكفار في الدنيا قتلاً وأسراً ونهباً للأموال وسبياً للذراري ، وضرب جزية ، وتشتيت شمل بالجلاء إلى غير بلادهم ، وما يحصل لهم في الآخرة أعظم ، لأنه العذاب الدائم الذي لا ينقطع .

والظاهر أنّ جواب الشرط هو قوله : فإلينا مرجعهم ، وكذا قاله الحوفي وابن عطية .

قال ابن عطية : ومعنى هذه الآية الوعيد بالرجوع إلى الله تبارك وتعالى أي : إن أريناك عقوبتهم أو لم نركها فهم على كل حال راجعون إلينا إلى الحساب والعذاب ، ثم مع ذلك الله شهيد من أول تكليفهم على جميع أعمالهم .

فثم هاهنا لترتيب الأخبار ، لا لترتيب القصص في أنفسها .

وقال الزمخشري : فإلينا مرجعهم جواب نتوفينك ، وجواب نرينك محذوف ، كأنه قيل : وإما نرينك بعض الذي نعدهم فذاك ، أو نتوفينك قبل أن نريكه ، فنحن نريك في الآخرة

انتهى .

فجعل الزمخشري الكلام شرطين لهما جوابان ، ولا حاجة إلى تقدير جواب محذوف ، لأن قوله : فإلينا مرجعهم صالح أنْ يكون جواباً للشرط والمعطوف عليه .

وأيضاً فقول الزمخشري : فذاك هو اسم مفرد لا ينعقد منه جواب شرط ، فكان ينبغي أن يأتي بجملة يتضح منها جواب الشرط ، إذ لا يفهم من قوله فذاك الجزء الذي حذف المتحصل به فائدة الإسناد .

(89/362)

وقرأ ابن أبي عبلة : ثم الله بفتح الثاء أي : هنالك .

ومعنى شهادة الله على ما يفعلون مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب ، كأنه قال : ثم الله معاقبهم ، وإلا فهو تعالى شهيد على أفعالهم في الدنيا والآخرة .

ويجوز أن يكون المعنى أنه تعالى مؤد شهادته على أفعالهم يوم القيامة حتى تنطق جلودهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم شاهدة عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(90/362)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾

أصله إن نُرِكَ وما مزيدةٌ لتأكيد معنى الشرطِ ومِنْ ثَمة أُكد الفعلُ بالنون أي بنُصرتك بأن نُظهرَ لك ﴿ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ ﴾ أي وعدناهم من العذاب ونعجّلَه في حياتك فتراه ، والعدولُ إلى صيغة الاستقبالِ لاستحضار الصورةِ أو للدلالة على التجدد والاستمرارِ أي نعِدُهم وعداً متجدداً حسبما تقتضيه الحكمةُ من إنذارٍ غِبَّ إنذار ، وفي تخصيص البعضِ بالذكر رمزٌ إلى العِدَة بإراءةِ بعضِ الموعودِ ، وقد أراه يومَ بدر ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل ذلك ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أي كيفما دارت الحالُ أريناك بعضَ ما وعدناهم أو لا فإلينا مرجعُهم في الدنيا والآخرةِ فننجزُ ما وعدناهم ألبتةَ ، وقيل : المذكورُ جوابٌ للشرط الثاني كأنه قيل : فإلينا مرجعُهم فنريكَه في الآخرة وجوابُ الأول محذوفٌ لظهوره أي فذاك ﴿ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ على مَا يَفْعَلُونَ ﴾ من الأفعال السيئةِ التي حُكيت عنهم ، والمرادُ بالشهادة إما مقتضاها ونتيجتُها وهي معاقبتُه تعالى إياهم وإما إقامتُها وأداؤُها بإنطاق الجوارحِ ، وإظهارُ اسمِ الجلالةِ لإدخال الروعةِ وتربيةِ المهابةِ وتأكيدِ التهديد ، وقرىء ثَمّةَ أي هناك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾

أصله إن نرينك و ﴿ مَا ﴾ مزيد لتأكيد معنى الشرط ومن ثمت أكد الفعل بالنون والرؤية بصرية أي اما نرينك بعينك ﴿ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ ﴾ من العذاب بأن نعذبهم في حياتك ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل ذلك ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ جواب للشرط وما عطف عليه ، والمعنى إن عذابهم في الآخرة مقرر عذبوا في الدنيا أولا ، وقيل : هو جواب ﴿ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ كأنه قيل : إنا نتوفينك فإلينا مرجعهم فنريكه في الآخرة وجواب الأول محذوف أي إما نرينك فذاك المراد أو المتمني أو نحو ذلك ، وقال الطيبي : أي فذاك حق وصواب أو واقع أو ثابت واختار الأول أبو حيان ، والاعتراض عليه بأن الرجوع لا يترتب على تلك الإراءة فيحتاج إلى التزام كون الشرطية اتفاقية ناشىء من الغفلة عن المعنى المراد ، والمراد من ﴿ نَعِدُهُمْ ﴾ وعدناهم إلا أنه عدل إلى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدد والاستمرار أن نعدهم وعداً متجدداً حسبما تقتضيه الحكمة من إنذار غب إنذار .

وفي تخصيص البعض بالذكر قيل رمز إلى أن العدة بإراءة بعض الموعود وقد أراه صلى الله عليه وسلم ذلك يوم بدر ﴿ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ على مَا يَفْعَلُونَ ﴾ من الأفعال السيئة التي حكيت عنهم ، والمراد من الشهادة لازمها مجازاً وهو المعاقبة والجزاء فكأنه قيل : ثم الله تعالى معاقب على ما يفعلون ، وجوز أن يراد منها إقامتها وأداؤها بإنطاق الجوارح وإلا فشهادة الله سبحانه بمعنى كونه رقيباً وحافظاً أمر دائم في الدارين و ﴿ ثُمَّ ﴾ لا تناسب ذلك ، والظاهر أنها على هذين الوجهين على ظاهرها .

(92/362)

وفي "الكشف" وغيره هي على الأول للتراخي الرتبي وعلى الثاني على الظاهر وظاهر كلام البعض استحسان حملها على التراخي الرتبي مطلقاً ولا أرى لارتكاب خلاف الظاهر بعد ذلك الارتكاب داعياً ، وأن العطف بها على الجزاء لا على مجموع الشرطية ، وأنت تعلم أن العطف على ذاك يمنع من إرادة التعذيب منه أو إراءته أو نحو ذلك مما لا يصح أن يكون المعنى المعطوف بثم بعده ومترتباً عليه ، ولعل ما اعتبروه هناك ليس تفسيراً للرجوع بل هو بيان للمقصود من الكلام ، وإظهار اسم الجلالة لإدخال الروعة وتربية المهابة وتأكيد التهديد .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ ثُمَّ ﴾ بالفتح أي هنالك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(93/362)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ) .

(94/362)

لَمَّا بَيَّنَ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ حَالَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ فِي اتِّهَامِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِافْتِرَاءِ الْقُرْآنِ ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِوَعِيدِهِ لَهُمْ ، بَيَّنَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ أَقْسَامَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ فِي تَكْذِيبِهِمْ وَمُسْتَقْبَلِ أَمْرِهِمْ أَوْ حَالِهِمْ وَمُسْتَقْبَلِهِمْ فِي الْإِيمَانِ ، وَفِي عَمَلِ الْمُكَذِّبِينَ بِمُقْتَضَى تَكْذِيبِهِمْ ، وَعَمَلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِمُقْتَضَى رِسَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ فِيهِمْ فَقَالَ : (وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ) يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : وَإِنَّ قَوْمَكَ لَنْ يَكُونُوا كَأُولَئِكَ الظَّالِمِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، الَّذِينَ كَذَّبُوا

رُسُلَهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمْ عَذَابُ الِاسْتِئْصَالِ ، بَلْ سَيَكُونُ قَوْمُكَ قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ سَيُؤْمِنُ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، وَقِسْمٌ لَا يُؤْمِنُ بِهِ أَبَدًا (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ) فِي الْأَرْضِ بِالشِّرْكِ وَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ لِفَسَادِ فِطْرَتِهِمْ وَفَقْدِهِمُ الِاسْتِعْدَادَ لِلْإِيمَانِ ، وَهُمُ الَّذِينَ يُعَذِّبُهُمْ فِي الدُّنْيَا فَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ ، وَيَجْزِيهِمْ فِي الْآخِرَةِ بِفَسَادِهِمْ . وَقِيلَ : إِنَّ الْآيَةَ فِي بَيَانِ حَالِهِمْ عِنْدَ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ وَهِيَ أَنَّ بَعْضَهُمْ يُؤْمِنُ بِهِ فِي الْبَاطِنِ وَإِنَّمَا يُكَذِّبُهُ فِي الظَّاهِرِ عِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ جَهْلًا وَتَقْلِيدًا ، وَمِنْ هَذَا الْفَرِيقِ مَنْ فَقَدَ الِاسْتِعْدَادَ

(95/362)

لِلْإِيمَانِ وَهُمُ الْأَقَلُّونَ ، وَسَيَأْتِي وَصْفُ حَالِهِمْ فِي الْآيَاتِ 42 – 44 قَرِيبًا وَلَهُ وَجْهٌ . وَأَمَّا الَّذِي لَيْسَ لَهُ وَجْهٌ صَحِيحٌ فَهُوَ قَوْلُ مَنْ فَسَّرُوا التَّأْوِيلَ بِالْمَعْنَى الِاصْطِلَاحِيِّ الَّذِي بَيَّنَّا فَسَادَهُ : إِنَّ هَذَا بَيَانٌ لِحَالِهِمْ بَعْدَ إِتْيَانِ التَّأْوِيلِ الْمُتَوَقَّعِ أَيْ سَيَكُونُ مِنْهُمْ حِينَئِذٍ مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ ، لِمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ أَنَّهُ غَيْرُ مُرَادٍ وَلَا مَعْنَى لِإِتْيَانِهِ ، وَأَنَّهُ مَتَى جَاءَ تَأْوِيلُهُ الْمُرَادُ وَهُوَ وُقُوعُ الْعَذَابِ ، يَكُونُ الْإِيمَانُ بِهِ اضْطِرَارِيًّا عَامًّا وَهُوَ الْمَنْصُوصُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) (7 : 53) وَتَأْوِيلُهُ بِعَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ أَوْ بِقِيَامِ السَّاعَةِ سَوَاءٌ فِي أَنَّهُ لَا يَنْفَعُهُمْ مَعَهُ الْإِيمَانُ إِذْ لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ ، بَلْ يُقَالُ لَهُمْ حِينَئِذٍ : (آلْآنَ

وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) كَمَا يَأْتِي فِي الْآيَةِ (51) وَانْظُرْ تَفْصِيلَهُ فِي آخِرِ سُورَةِ الْمُؤْمِنِ (غَافِرٍ) (40 : 82 - 85) وَسَنُبَيِّنُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (46) عَدَمَ وُقُوعِ عَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ . وَفِي الْآيَةِ تَسْلِيَةٌ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُؤَكِّدُهَا مَا بَعْدَهَا وَهُوَ :

(96/362)

(وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ) أَيْ وَإِنْ أَصَرُّوا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ فَقُلْ لَهُمْ : لِي عَمَلِي بِمُقْتَضَى رِسَالَتِي وَهُوَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ، وَالْإِنْذَارُ وَالتَّبْشِيرُ ، وَمَا يَسْتَلْزِمُهُ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالْإِصْلَاحِ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمُسَيْطِرٍ وَلَا بِجَبَّارٍ ، وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، بِمُقْتَضَى تَكْذِيبِكُمْ وَشِرْكِكُمْ ، وَهُوَ الظُّلْمُ وَالْفَسَادُ ، الَّذِي تُجْزَوْنَ بِهِ يَوْمَ الْحِسَابِ ، وَيُقَالُ لَكُمْ : (هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) كَمَا يَأْتِي فِي الْآيَةِ (52) مِنْ هَذَا السِّيَاقِ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا) (17 : 84) (أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) فَلَا يُؤَاخِذُ اللَّهُ أَحَدًا مِنَّا بِعَمَلِ الْآخَرِ . وَهَذَا كَقَوْلِهِ : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ) (11 : 35) وَقَوْلِهِ : (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) (26 : 216) .

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

(97/362)

لَمَّا أَنْبَأَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِأَنَّ مِنْ قَوْمِهِ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَذَا الْقُرْآنِ حَالًا وَلَا اسْتِقْبَالًا ، إِذْ لَا يَنْفَعُهُمُ الْبَيَانُ مَهْمَا يَكُنْ نَاصِعًا ، وَلَا يَنْفَعُهُمُ الْبُرْهَانُ وَإِنْ كَانَ قَاطِعًا ، وَأَنَّ الَّذِي عَلَيْهِ فِي الْمُصِرِّينَ عَلَى تَكْذِيبِهِ مِنْهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ ، الَّتِي دَمْغَتُهُمْ بِالْحُجَجِ الْبَيِّنَاتِ ، أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ ، وَيَنْتَظِرَ أَمْرَ اللَّهِ فِيهِمْ ، كَانَ مِنْ شَأْنِ هَذَا النَّبَأِ أَنْ يُثِيرَ عَجَبَهُ لِغَرَابَتِهِ فِي نَفْسِهِ ، وَأَنْ يَسُوءَهُ لِمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ مِنَ انْتِقَامِ اللَّهِ مِنْهُمْ ، بَيَّنَ لَهُ مَثَلَ الَّذِينَ فَقَدُوا الِاسْتِعْدَادَ لِلْإِيمَانِ ، وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمْ ، وَكَوْنِ مُصِيبَتِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَلَا حَوْلَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ ، فَقَالَ :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ) أَيْ يُصِيخُونَ بِأَسْمَاعِهِمْ مُصْغِينَ إِلَيْكَ إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ، أَوْ بَيَّنْتَ مَا فِيهِ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ وَالْأَحْكَامِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِذْ يَسْتَمِعُونَ ؛ إِذْ لَا يَتَدَبَّرُونَ الْقَوْلَ وَلَا يَعْقِلُونَ مَا يُرَادُ بِهِ . وَلَا يَفْقَهُونَ مَا يَرْمِي إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّ الِاسْتِمَاعَ إِلَيْكَ مَقْصُودٌ عِنْدَهُمْ

(98/362)

لِذَاتِهِ لَا لِمَا يُرَادُ بِهِ ، وَهِيَ بَلَاغَتُهُ فِي غَرَابَةِ نَظْمِهِ ، وَجَرْسِ الصَّوْتِ بِتَرْتِيلِهِ ، كَمَنْ يَسْتَمِعُ إِلَى طَائِرٍ يُغَرِّدُ عَلَى فَنَنِهِ ; لِيَسْتَمْتِعَ بِصَوْتِهِ لَا لِيَفْهَمَ مِنْهُ ، كَمَا قَالَ : (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ) (21 : 2 و3) أَوْ كَالْبَهَائِمِ يَصِيحُ بِهَا الرَّاعِي فَتَرْفَعُ رُءُوسَهَا لِاسْتِمَاعِ صَوْتِهِ الَّذِي رَاعَهَا فَصَرَفَهَا عَنْ رَعْيِهَا ، كَمَا قَالَ : (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (2 : 171) أَوْ كَمَا قَالَ : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) (6 : 25) وَالْقَاعِدَةُ الطَّبِيعِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ أَنَّ الْأُمُورَ بِمَقَاصِدِهَا . وَنَحْنُ نَرَى كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَقْصِدُونَ قُرَّاءَ الْقُرْآنِ فِي لَيَالِي رَمَضَانَ أَوْ فِي الْمَآتِمِ ، لِيَسْتَمِعُوا إِلَى فُلَانٍ الْقَارِئِ الْحَسَنِ الصَّوْتِ لِغَرَضِ التَّلَذُّذِ بِتَرْتِيلِهِ وَتَوْقِيعِ صَوْتِهِ أَوْ بَلَاغَتِهِ ، وَلَا أَحَدَ مِنْهُمْ يَنْتَفِعُ بِشَيْءٍ مِنْ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ وَنُذُرِهِ ، وَحِكَمِهِ وَعِبَرِهِ ، وَلَا عَقَائِدِهِ وَأَحْكَامِهِ ، وَمِنْهُمُ الْمُسْلِمُونَ وَغَيْرُ الْمُسْلِمِينَ ، بَلْ سَمِعْتُ بِأُذُنِي مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَسْتَمِعُ الْقُرْآنَ وَيَعْجَبُ مِنْ شِدَّةِ تَأْثِيرِهِ وَتَغَلْغُلِهِ فِي أَعْمَاقِ الْقَلْبِ وَهُوَ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ; وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا

يَعْقِلُونَ) هَذَا الِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ ، يَعْنِي أَنَّ السَّمَاعَ النَّافِعَ لِلْمُسْتَمِعِ هُوَ مَا عَقَلَ بِهِ مَا يَسْمَعُهُ وَفَقِهَهُ وَعَمِلَ بِمُقْتَضَاهُ ، فَمَنْ فَقَدَ هَذَا كَانَ كَالْأَصَمِّ الَّذِي لَا يَسْمَعُ ، وَأَنْتَ أَيُّهَا الرَّسُولُ لَمْ تُؤْتَ الْقُدْرَةَ عَلَى إِسْمَاعِ الصُّمِّ أَيْ فَاقِدِي حَاسَّةِ السَّمْعِ حَقِيقَةً ، فَكَذَلِكَ لَا تَسْتَطِيعُ الْإِسْمَاعَ النَّافِعَ لِلصُّمِّ مَجَازًا وَهُمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ

مَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَفْقَهُونَ مَعْنَاهُ فَيَهْتَدُوا بِهِ . وَالْبَلَاغَةُ فِي ظَاهِرِ تَعْبِيرِ الْآيَةِ وَصْفُهُمْ بِفَقْدِ السَّمْعِ وَالْعَقْلِ مَعًا ، وَهُوَ مَجَازٌ قَطْعًا ؛ لِأَنَّ مَنْ فَقَدَ الْحِسَّ وَالْعَقْلَ حَقِيقَةً لَا يَكُونُ مُكَلَّفًا . وَإِذْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْعَقْلِ الْمَنْفِيِّ هَنَا عَقْلَ الْكَلَامِ وَفِقْهَهُ ، فَهُوَ يَقْتَضِي ثُبُوتَ السَّمَاعِ وَنَفْيَ الصَّمَمِ الْحَقِيقِيَّيْنِ .

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ) أَيْ يُوَجِّهُ أَشِعَّةَ بَصَرِهِ إِلَيْكَ عِنْدَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، وَلَكِنَّهُ لَا يُبْصِرُ مَا آتَاكَ اللَّهُ مِنْ نُورِ الْإِيمَانِ ، وَهِيبَةِ الْخُشُوعِ لِلدَّيَّانِ ، وَكَمَالِ الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ ، وَأَمَارَاتِ الْهَدْيِ وَالْحَقِّ ، وَآيَاتِ الْتِزَامِ الصِّدْقِ ، الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا أَحَدُ أُولِي الْبَصِيرَةِ بِقَوْلِهِ عِنْدَمَا رَأَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : وَاللَّهِ مَا هَذَا بِوَجْهِ كَذَّابٍ ، وَقَالَ فِيهِ آخَرُ :

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ . . . كَانَتْ بَدِيهَتُهُ تُنْبِيكَ بِالْخَبَرِ

(100/362)

وَقَالَ حَكِيمٌ إِفْرِنْجِيٌّ : كَانَ مُحَمَّدٌ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي حَالَةِ وَلَهٍ وَتَأَثُّرٍ وَتَأْثِيرٍ ، فَيَجْذِبُ بِهِ إِلَى الْإِيمَانِ أَضْعَافَ مَنْ جَذَبَتْهُمْ آيَاتُ مُوسَى وَعِيسَى (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) .

وَمَنْ فَقَدَ الْبَصِيرَةَ الْعَقْلِيَّةَ وَالْقَلْبِيَّةَ فِيمَا يَرَاهُ بِبَصَرِهِ ، فَجَمَعَ بَيْنَ وُجُودِ النَّظَرِ الْحِسِّيِّ بِالْعَيْنَيْنِ ، وَعَدَمِ النَّظَرِ الْمَعْنَوِيِّ بِالْعَقْلِ ، فَهُوَ مَحْرُومٌ مِنْ هِدَايَةِ الْبَصَرِ ، وَهِيَ الْبَصِيرَةُ الَّتِي يَمْتَازُ بِهَا الْإِنْسَانُ عَنْ بَصَرِ الْحَيَوَانِ ، فَكَأَنَّهُ أَعْمَى الْعَيْنَيْنِ (أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ) أَيْ أَنَّكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ لَسْتَ بِقَادِرٍ عَلَى هِدَايَةِ الْعُمْيِ بِدَلَائِلِ الْبَصَرِ الْحِسِّيَّةِ ، فَكَذَلِكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى هِدَايَتِهِمْ بِدَلَائِلِهِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَلَوْ كَانُوا فَاقِدِينَ لِنِعْمَةِ الْبَصِيرَةِ الَّتِي تُدْرِكُهَا ، وَقَدْ أَسْنَدَ فِعْلَ الِاسْتِمَاعِ إِلَى الْجَمِيعِ لِكَثْرَةِ تَفَاوُتِ الْمُسْتَمِعِينَ وَاخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ فِيهِ ، وَأَسْنَدَ فِعْلَ النَّظَرِ إِلَى الْمُفْرَدِ لِأَنَّهُ جِنْسٌ وَاحِدٌ ، وَلَكِنَّهُ أَفْرَدَ السَّمْعَ وَجَمَعَ الْأَبْصَارَ فِي بِضْعِ آيَاتٍ مِنْهَا (31) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فِي تَفْسِيرِهَا .

(101/362)

وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَتَيْنِ : أَنَّ هِدَايَةَ الدِّينِ كَهِدَايَةِ الْحِسِّ ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا لِلْمُسْتَعِدِّ لَهَا بِهِدَايَةِ الْعَقْلِ ، وَأَنَّ هِدَايَةَ الْعَقْلِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِتَوَجُّهِ النَّفْسِ وَصِحَّةِ الْقَصْدِ ، وَهَذَا الصِّنْفُ مِنَ الْكُفَّارِ قَدِ انْصَرَفَتْ أَنْفُسُهُمْ عَنِ اسْتِعْمَالِ عُقُولِهِمْ فِي الدَّلَائِلِ الْبَصَرِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ لِإِدْرَاكِ مَطْلَبٍ مِنَ

الْمَطَالِبِ مِمَّا وَرَاءَ شَهَوَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ فَقَدُوا نِعْمَةَ الْعَقْلِ الْغَرِيزِيِّ وَلَا نِعْمَةَ الْحَوَّاسِ ، بَلِ اسْتِعْمَالَهَا النَّافِعَ - كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (7 : 179) فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا لِلِاعْتِبَارِ وَالِاتِّعَاظِ . وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ بَيَانًا مُسْتَأْنَفًا بِمَا يُبْطِلُ الْقَوْلَ بِالْجَبْرِ فَقَالَ :

(102/362)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا) أَيِ اللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَكُنْ مِنْ شَأْنِهِ وَلَا مِنْ سُنَنِهِ فِي خَلْقِ النَّاسِ أَنْ يَنْقُصَهُمْ شَيْئًا مِنَ الْأَسْبَابِ ، الَّتِي يَهْتَدُونَ بِاسْتِعْمَالِهَا إِلَى مَا فِيهِ خَيْرُهُمْ وَمَنَافِعُهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَهِيَ الْحَوَاسُّ وَالْعَقْلُ وَسَائِرُ الْقُوَى فَالظُّلْمُ هُنَا بِمَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ الْأَصْلِيِّ ، وَهُوَ نَقْصُ مَا تَقْتَضِي الْخِلْقَةُ الْكَامِلَةُ وُجُودَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا) (18 : 33) (وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) أَيْ يَظْلِمُونَهَا وَحْدَهَا ؛ لِأَنَّ عِقَابَ ظُلْمِهِمْ وَاقِعٌ عَلَيْهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ ، فَهُمْ يَجْنُونَ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ هِدَايَاتِ الْمَشَاعِرِ وَالْعَقْلِ وَالدِّينِ ، وَهُوَ عَدَمُ

اسْتِعْمَالِهَا فِيمَا مَنَحَهُمْ إِيَّاهَا لِأَجْلِهِ مِنَ اتِّبَاعِ الْحَقِّ فِي الِاعْتِقَادِ وَالْهُدَى فِي الْأَعْمَالِ ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الْمُوَصِّلُ إِلَى سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ ، الْمُنَجِّي مِنْ عَذَابِهِمَا . وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ (وَلَكِنْ) بِتَخْفِيفِ النُّونِ وَ (النَّاسُ) بِالرَّفْعِ .

(103/362)

وَقَدْ وَضَعَ الِاسْمَ الظَّاهِرَ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ إِذْ قَالَ : (وَلَكِنَّ النَّاسَ وَلَمْ يَقُلْ : (وَلَكِنَّهُمْ) لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ هَذَا الظُّلْمَ خَاصٌّ بِهِمْ دُونَ سَائِرِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ ; فَإِنَّهَا لَا تَعْدُو فِي اسْتِعْمَالِ مَشَاعِرِهَا وَقُوَاهَا مَا خُلِقَتْ لِأَجْلِهِ مِنْ حِفْظِ حَيَاتِهَا الشَّخْصِيَّةِ ، وَالنَّوْعِيَّةِ ، وَأَمَّا النَّاسُ فَقَدْ يَسْتَعْمِلُونَهَا فِيمَا يَضُرُّهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الْحَيَوَانِيَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، وَفِي حَيَاتِهِمُ الرُّوحِيَّةِ الْأُخْرَوِيَّةِ ، كَمَا قَالَ : (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) (25 : 44) وَقَدَّمَ الْمَفْعُولَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى عَامِلِهِ لِإِفَادَةِ قَصْرِ هَذَا الظُّلْمِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ ، أَوْ دُونَ رَبِّهِمُ الَّذِي كَفَرُوا بِنِعَمِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ، فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (2 : 54) وَسُورَةِ الْأَعْرَافِ : (وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (7 : 160) .

هَذَا هُوَ الْمُتَبَادَرُ فِي هَذَا الْمَقَامِ مِنْ نَفْيِ ظُلْمِ النَّاسِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَصْرِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَظْلِمُهُمْ بِعِقَابِهِ لَهُمْ شَيْئًا بِأَنْ يُعَاقِبَهُمْ عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ أَوْ يَزِيدَ عَلَى قَدْرِ الذَّنْبِ وَلَكِنَّ النَّاسَ هُمُ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ ، عَلَى قَاعِدَةِ : (وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا) (6 : 164) الْآيَةَ . فَرَاجِعْ

(104/362)

تَفْسِيرَهَا مَعَ مَا هُنَا ، وَحَاسِبْ نَفْسَكَ ، وَذَكِّرْ غَيْرَكَ ، وَلَا تَجْعَلُوا هَذِهِ الْحِكَمَ الْبَلِيغَةَ حِكَايَةً لِلتَّسْلِيَةِ بِهَجْوِ الْكُفَّارِ ، فَإِنَّمَا هِيَ حَقَائِقُ هَادِيَةٌ لِلْمَوْعِظَةِ وَالِاسْتِبْصَارِ .

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) .

هَذِهِ الْآيَةُ لِلتَّذْكِيرِ بِمِقْدَارِ ظُلْمِ الْمُشْرِكِينَ لِأَنْفُسِهِمْ وَخَسَارَتِهِمْ لَهَا فِي الْآخِرَةِ ، بِتَكْذِيبِهِمُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكُفْرِهِمْ بِالْقُرْآنِ وَوَعِيدِهِ لَهُمْ ، وَغُرُورِهِمْ بِدُنْيَاهُمُ الْحَقِيرَةِ مِصْدَاقًا لِلْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا ، قَالَ : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ) أَيْ وَاذْكُرْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لَهُمْ أَوْ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ يَحْشُرُهُمُ اللَّهُ - وَهَذِهِ قِرَاءَةُ حَمْزَةَ عَنْ عَاصِمٍ وَقَرَأَهَا الْبَاقُونَ (نَحْشُرُهُمْ) بِالنُّونِ أَيْ نَجْمَعُهُمْ بِبَعْثِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ

(105/362)

وَنَسُوقُهُمْ إِلَى مَوَاقِفِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ أَيْ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَمْكُثُوا فِي الدُّنْيَا إِلَّا مُدَّةً قَلِيلَةً مِنَ النَّهَارِ رَيْثَمَا يَعْرِفُ فِيهَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَأُولِي الْقُرْبَى وَالْجِيرَانِ ثُمَّ زَالَتْ ; فَإِنَّ السَّاعَةَ يُضْرَبُ بِهَا الْمَثَلُ فِي قِلَّةِ الْمُدَّةِ . فَالتَّشْبِيهُ بَيَانٌ لِحَالِهِمْ فِي تَذَكُّرِهِمْ لِلدُّنْيَا . يَعْنِي أَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا الَّتِي غَرَّتْهُمْ بِمَتَاعِهَا الْحَقِيرِ الزَّائِلِ قَصِيرَةٌ سَتَزُولُ بِعَذَابِهِمْ أَوْ مَوْتِهِمْ وَسَيُقَدِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قِصَرَهَا بِسَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ لَا تَسَعُ أَكْثَرَ مِنَ التَّعَارُفِ الْقَلِيلِ ، كَمَا قَالَ فِي آخِرِ سُورَةِ الْأَحْقَافِ : (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ) (46 : 35) وَفِي سُورَةِ الرُّومِ : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ) (30 : 55) وَفِي مَعْنَاهَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آخِرِ النَّازِعَاتِ عَنِ السَّاعَةِ : (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) (79 : 46) وَفِي آيَاتٍ أُخْرَى أَنَّ أَهْلَ الْمَوْقِفِ يَخْتَلِفُونَ فِي هَذَا التَّقْدِيرِ ، أَيْ بِحَسْبِ اخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ فِي ذَلِكَ

(106/362)

الْيَوْمِ ; فَإِنَّهُ تَعَالَى قَالَ بَعْدَ آيَةِ سُورَةِ الرُّومِ (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (30 : 56) وَفِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ : (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (23 : 112 - 114) وَفِي سُورَةِ طَهَ يَخْتَلِفُونَ بَيْنَ الْيَوْمِ وَالْعَشْرِ ، وَقِيلَ إِنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ يُحْشَرُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَتَفَارَقُوا لِقِصَرِ مُدَّةِ الْفِرَاقِ ، وَثَمَّ أَقْوَالٌ أُخْرَى فِي التَّشْبِيهِ يُبْطِلُهَا مَا أَوْرَدْنَا مِنَ الْآيَاتِ فِي شَوَاهِدِهِ :

(107/362)

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ) أَيْ خَسِرُوا السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ ; إِذْ لَمْ يَسْتَعِدُّوا لَهُ بِالْإِيمَانِ وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ الْمُزَكِّيَةِ لِلنَّفْسِ ، الْمُرَقِّيَةِ لِلرُّوحِ ، بِمَا تَكُونُ أَهْلًا لِكَرَامَتِهِ وَمَثُوبَتِهِ ، وَرِضْوَانِهِ الْأَكْبَرِ فِي جَنَّاتِهِ ، فَآثَرُوا عَلَيْهَا حَيَاةَ الدُّنْيَا الْقَصِيرَةَ الْحَقِيرَةَ الْمُنَغَّصَةَ بِالْأَكْدَارِ ، السَّرِيعَةَ الزَّوَالِ الَّتِي يُقَدِّرُونَهَا يَوْمَ الْحَشْرِ بِسَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ ، وَالْجُمْلَةُ بَيَانٌ مُسْتَأْنَفٌ مِنْهُ تَعَالَى لِخُسْرَانِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَغَيْرِهِمْ ; وَبِذَلِكَ ذَكَرَهُمْ بِصِفَتِهِمُ الْمُقْتَضِيَةِ لَهُ وَهِيَ التَّكْذِيبُ ، وَعَطَفَ عَلَيْهِ (وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) فِيمَا اخْتَارُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ

إِيثَارِ الْخَسِيسِ الْفَانِي ، عَلَى النَّفِيسِ الْخَالِدِ الْبَاقِي ، أَوْ هِيَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةِ (قَدْ خَسِرَ) أَيْ خَسِرُوا تِجَارَتَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ ، وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ إِلَى أَسْبَابِ النَّجَاةِ وَالرِّبْحِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي هِيَ ثَمَرَاتُ الْإِيمَانِ كَمَا قَالَ : (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) (2 : 16) وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ 7 ، 11 ، 15 مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَتَقَدَّمَ ذِكْرُ خُسْرَانِهِمْ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ (6 : 31) .

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ) .

(108/362)

هَذِهِ الْآيَاتُ تَتِمَّةُ الرَّدِّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي تَكْذِيبِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ مِنَ الْعِقَابِ الَّذِي سَبَقَ فِي الْآيَةِ 39 وَمَا بَعْدَهَا .

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ) هَذِهِ جُمْلَةٌ شَرْطِيَّةٌ زِيدَتْ (مَا) فِي حَرْفِ الشَّرْطِ (إِنْ) وَنُونُ التَّوْكِيدِ فِي فِعْلِهِ فَكَانَ تَوْكِيدُهُ مُزْدَوَجًا ، وَالْمُرَادُ بِالْآيَةِ تَأْكِيدُ وُقُوعِ مَا وَعَدَ اللَّهُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعِقَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِشَرْطِهِ فِيهِمَا ، لَا يَتَخَلَّفُ مِنْهُمَا شَيْءٌ فِي جُمْلَتِهِمَا ، سَوَاءٌ أَرَى اللَّهُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعْضَ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ مِنْهُ وَشَاهَدَهُ

، أَمْ تَوَفَّاهُ قَبْلَ إِرَادَتِهِ إِيَّاهُ فَإِبْهَامُ اللهِ تَعَالَى إِيَّاهُ لِلْحِكْمَةِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهُ فِي أَوَائِلِ الْبَعْثَةِ مِنْ جِهَةِ قُرْبِهِ أَوْ بُعْدِهِ وَرُؤْيَتِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَهُ وَعَدَمِ رُؤْيَتِهِ

(109/362)

لَا يُفِيدُهُمْ شَيْئًا ، وَسَنُبَيِّنُ هَذِهِ الْحِكْمَةَ فِي إِبْهَامِهِ . فَالْمَعْنَى : وَإِنْ نُرِيَنَّكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ مِنَ الْعِقَابِ فِي الدُّنْيَا فَذَاكَ – وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ سَيُرِيهِ بَعْضَهُ لَا كُلَّهُ ، (أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ) بِقَبْضِكَ إِلَيْنَا قَبْلَ إِرَاءَتِكَ إِيَّاهُ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ وَعَلَيْنَا حِسَابُهُمْ حَيْثُ يَكُونُ الْقِسْمُ الثَّانِي مِنْهُ وَهُوَ عِقَابُ الْآخِرَةِ ، وَيَجُوزُ أَنْ يُجْعَلَ هَذَا جَوَابَ الشَّرْطِ بِقِسْمَيْهِ ، وَالْمَعْنَى : فَإِلَيْنَا وَحْدَنَا يَرْجِعُ أَمْرُهُمْ فِي الْحَالَيْنِ (ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ) بَعْدَكَ أَوْ مُطْلَقًا فَيَجْزِيهِمْ بِهِ عَلَى عِلْمٍ وَشَهَادَةِ حَقٍّ ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ لَهُمْ مِمَّا حَكَاهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي تَرَبُّصِهِمْ مَوْتَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَاسْتِرَاحَتِهِمْ مِنْ دَعْوَتِهِ وَنُذُرِهِ بِمَوْتِهِ كَمَا تَرَاهُ فِي سُورَةِ الطُّورِ وَآخِرِ سُورَةِ طَهَ ، فَالْعَذَابُ وَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ .

(110/362)

وَقَدْ وَرَدَ بِمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) (40 : 77) وَيَلِيهَا آيَةٌ بِمَعْنَى الْآيَةِ الَّتِي تَلِي هَذِهِ ذُكِرَ فِيهَا الرُّسُلُ وَكَوْنُ آيَاتِهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ لَا مِنْ كَسْبِهِمْ ، وَالْقَضَاءُ عَلَى أَقْوَامِهِمْ بِالْهَلَاكِ بَعْدَهَا ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ بَعْدَ آيَةٍ فِي إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَكَوْنِ آيَاتِهِمْ إِنَّمَا هِيَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ : (وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) (13 : 40) وَمَا بَعْدَهَا فِي مَعْنَى السِّيَاقِ الَّذِي هُنَا ، وَقَوْلُهُ : (فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ) (43 : 41 ، 42) وَقَبْلَهَا : (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (43 : 40) وَهُوَ بِمَعْنَى مَا قَبْلَ هَذِهِ أَيْضًا

.

وَقَدْ أَبْهَمَ أَمْرَ عَذَابِ الدُّنْيَا فِي كُلِّ هَذِهِ الْآيَاتِ وَآيَاتٍ أُخْرَى ، فَلَمْ يُصَرِّحْ بِأَنَّهُ سَيَقَعُ بِهِمْ مَا وَقَعَ بِالْأُمَمِ الَّتِي كَذَّبَتِ الرُّسُلَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَهُوَ عَذَابُ الِاسْتِئْصَالِ ، وَلَكِنَّهُ أَشَارَ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ : (قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (23 : 93 ، 94) أَيْ كَمَا هِيَ سُنَّتُكَ فِي رُسُلِكَ الْأَوَّلِينَ ، وَقَدْ أَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ فَقَالَ : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) (8 : 33) .

(111/362)

وَحِكْمَةُ هَذَا الْإِبْهَامِ التَّخْوِيفُ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْوَعِيدِ ، مَعَ عِلْمِهِ تَعَالَى أَنَّ عَذَابَ الِاسْتِئْصَالِ لَنْ يَقَعَ عَلَى قَوْمِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ؛ لِأَنَّ شَرْطَهُ أَنْ يَجِيئَهُمْ مَا اقْتَرَحُوا مِنْ آيَةٍ كَوْنِيَّةٍ

وَيُصِرُّوا بَعْدَهُ التَّكْذِيبَ ، وَلَنْ يَقَعَ ، وَلَكِنْ فِي آيَةِ يُونُسَ هَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُرِي رَسُولَهُ بَعْدَ نُزُولِهَا بَعْضَ الَّذِي يَعِدُهُمْ لَا كُلَّهُ ، وَقَدْ أَنْجَزَ لَهُ ذَلِكَ فَأَرَاهُ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْقَحْطِ وَالْمَجَاعَةِ بِدُعَائِهِ عَلَيْهِمْ ، وَنَصْرِهِ عَلَيْهِمْ أَعْظَمَ النَّصْرِ فِي أَوَّلِ مَعْرَكَةٍ هَاجَمَهُ بِهَا رُؤَسَاؤُهُمْ وَصَنَادِيدُهُمْ وَهِيَ غَزْوَةُ بَدْرٍ ، وَفِي غَيْرِهَا إِلَى فَتْحِ عَاصِمَتِهِمُ الْكُبْرَى أُمِّ الْقُرَى ، وَإِكْمَالِ الدِّينِ وَدُخُولِ النَّاسِ فِيهِ أَفْوَاجًا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي مَوَاضِعِهِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المنار جـ 11 صـ 312. 320 ﴾

(112/362)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾

كَانَ ذكر تكذيبهم الذي جاء في صدر السورة بقوله : ﴿ قال الكافرون إنّ هذا لسحر مبين

﴾ [يونس : 2] ، ثم الوعيد عليه بعذاب يحل بهم ، والإشارةُ إلى أنهم كذبوا بالوعيد في قوله : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر إلى قوله : ﴿ لننظر كيف تعملون ﴾ [يونس : 11 14] منذراً بترقب عذاب يحل بهم في الدنيا كما حل بالقرون الذين من قبلهم ، وكان معلوماً من خلق النبي صلى الله عليه وسلم رأفتُه بالناس ورغبتُه أن يتم هذا الدين وأن يهتدي جميع المدعوين إليه ، فربما كان النبي يحذر أن ينزل بهم عذاب الاستئصال فيفوت اهتداؤهم .

وكان قوله : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ﴾ [يونس : 11] تصريحاً بإمكان استبقائهم وإيماءً إلى إمهالهم .

جاء هذا الكلام بياناً لذلك وإنذاراً بأنهم إن أمهلوا فأبقي عليهم في الدنيا فإنهم غير مفلتين من المصير إلى عقاب الآخرة حين يرجعون إلى تصرف الله دون حائل .

وجاء الكلام على طريقة إبْهام الحاصل من الحالين لإيقاع الناس بين الخوف والرجاء وإن كان المخاطب به النبي صلى الله عليه وسلم

والمرادُ بـ ﴿ بعض الذي نعدهم ﴾ هو عذاب الدنيا فإنهم أوعدوا بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، قال تعالى : ﴿ وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ﴾ .

فالمعنى إن وقع عذاب الدنيا بهم فرأيتَه أنت أو لم يقع فتوفاك الله فمصيرهم إلينا على كل

حال .

فمضمون ﴿ أو نتوفينك ﴾ قسيم لمضمون ﴿ نرينك بعضَ الذي نعدهم ﴾ .

والجملتان معاً جملتا شرط ، وجواب الشرط قوله : ﴿ فإلينا مرجعهم ﴾ .

(113/362)

ولما جعل جواب الشرطين إرجاعَهم إلى الله المكنَّى به عن العقاب الآجِل ، تعين أن التقسيم الواقع في الشرط ترديد بين حالتين لهما مناسبة بحالة تحقق الإرجاع إلى عذاب الله على كلا التقديرين ، وهما حالة التعجيل لهم بالعذاب في الدنيا وحالة تأخير العذاب إلى الآخرة .

وأما إراءة الرسول تعذيبهم وتوفيه بدون إرائته فلا مناسبة لهما بالإرجاع إلى الله على كلتيهما إلا باعتبار مقارنة إحداهما لحالة التعجيل ومناسبة الأخرى لحالة التأخير .

وإنما كُني عن التعجيل بأن يريد اللّهُ الرسولَ للإيماء إلى أن حالة تعجيل العذاب لا يريد الله منها إلا الاتصاف لرسوله بأن يريه عذاب معانديه ، ولذلك بُني على ضد ذلك ضدّ التعجيل فكُني بتوفيه عن عدم تعجيل العذاب بل عن تأخيره إذْ كانت حكمة التعجيل هي الاتصافَ للرسول صلى الله عليه وسلم

ولما جعل مضمون جملة : ﴿ نتوفينك ﴾ قسيماً لمضمون جملة : ﴿ نرينك ﴾ تعين أن

إراءته ما أوعدوا به من عذاب الدنيا إنما هو جزاء عن تكذيبهم إياه وأذاهُم له انتصاراً له حتى يكون أمره جارياً على سنة الله في المرسلين ، كما قال نوح:

﴿ رب انصرني بما كذبون ﴾ [المؤمنون : 26] وقد أشار إلى هذا قوله تعالى عقبه : ﴿ ولكل أمة رسول ﴾ [يونس : 47] الآية وقوله : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [يونس : 48] .

وقد أراه الله تعالى بعض الذي توعدهم بما لقوا من القحط سبع سنين بدعوته عليهم ، وبما أصابهم يوم بدر من الإهانة ، وقتل صناديدهم ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلّم مجنون إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ [الدخان : 10 16] .

والدخان هو ما كانوا يرونه في سنين القحط من شبه الدخان في الأرض .

(114/362)

والبطشة الكبرى : بطشة يوم بدر .

وتأمَّلْ قوله : ﴿ ثم تولوا عنه ﴾ وقوله : ﴿ إنا منتقمون ﴾ .

ثم كف الله عنهم عذاب الدنيا إرضاء له أيضاً إذ كان يود استبقاء بقيتهم ويقول : لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده .

فأما الكفر بالله فجزاؤه عذاب الآخرة .

فطوي في الكلام جمل دلت عليها الجمل المذكورة إيجازاً محكماً وصارت قوة الكلام هكذا : وإمّا نعجل لهم بعض العذاب فنرينك نزوله بهم ، أو نتوفينك فنؤخر عنهم العذاب بعد وفاتك ، أي لانتفاء الحكمة في تعجيله فمرجعهم إلينا ، أي مرجعهم ثابت إلينا دوماً فنحن أعلم بالحكمة المقتضية نفوذ الوعيد فيهم في الوقت المناسب في الدنيا إن شئنا في حياتك أو بعدك أو في الآخرة .

وكلمة ﴿ إما ﴾ هي (إن) الشرطية و (ما) المؤكدة للتعليق الشرطي .

وكتبت في المصحف بدون نون وبميم مشددة محاكاة لحالة النطق ، وقد أكد فعل الشرط بنون التوكيد فإنه إذا أريد توكيد فعل الشرط بالنون وتعينت زيادة (ما) بعد (إن) الشرطية فهما متلازمان عند المبرد والزجاج وصاحب "الكشاف" في تفسير قوله تعالى : ﴿ فإما نرينّك ﴾ في سورة [غافر : 77] ، فلا يقولون : إن تكرِمَنّي أكرمك بنون التوكيد ولكن تقولون : إن تُكْرِمْني بدون نون التوكيد كما أنه لا يقال : إما تكرمني بدون نون التوكيد

ولكن تقول : إن تكرمني .

وشذ قول الأعشى :

فإما تريْني ولي لِمة

فإنَّ الحوادث أودَى بها . . .

ثم أكد التعليق الشرطي تأكيداً ثانياً بنون التوكيد وتقديم المجرور على عامله وهو مرجعهم ﴾ للاهتمام .

وجملة : ﴿ إلينا مرجعهم ﴾ اسمية تفيد الدوام والثبات ، أي ذلك أمر في تصرفنا دوماً .

وجملة : ﴿ ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ فإلينا مرجعهم ﴾ .

وحرف ﴿ ثم ﴾ للتراخي الرُّتبي كما هو شأن (ثم) في عطفها الجمل .

(115/362)

والتراخي الرتبي كون الجملة المعطوفة بها أعلى رتبةً من المعطوفة عليها فإن جملة : ﴿ ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ لاشتمالها على التعريض بالجزاء على سوء أفعالهم كانت أهم مرتبة في الغرض وهو غرض الإخبار بأن مرجعهم إلى الله ، لأن إرجاعهم إلى الله مجمل واطلاعه على أفعالهم المكنى به عن مؤاخذتهم بها هو تفصيل للوعيد المجمل ، والتفصيل

أهم من الإجمال .

وقد حصل بالإجمال ثم بتفصيله تمام تقرير الغرض المسوق له الكلام وتأكيد الوعيد .

وأما كون عذاب الآخرة حاصلاً بعد إرجاعهم إلى الله بمهلة جمع ما فيه من تكلف تقرر تلك المهلة هو بحيث لا يناسب حمل الكلام البليغ على التصدي لذكره .

وقوله : ﴿ الله شهيد على ما يفعلون ﴾ خبر مستعمل في معناه الكنائي ، إذ هو كناية عن الوعيد بالجزاء على جميع ما فعلوه في الدنيا بحيث لا يغادر شيئاً .

والشهيد : الشاهد ، وحقيقته : المخبر عن أمر فيه تصديق للمخبر ، واستعمل هنا في العالم علم تحقيق .

وعبر بالمضارع في قوله : ﴿ يفعلون ﴾ للإشارة إلى أنه عليم بما يحدث من أفعالهم ، فأما ما مضى فهو بعلمه أجدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(116/362)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (46) ﴾

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِمَّا ﴾ مكونة من " إن " و " ما " مدغومتين ، وهنا يبين لنا الحق سبحانه أنه يعد الذين كذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم بالعذاب والهوان والعقاب والفضيحة .

أي : يا محمد ، إما أن ترى ما قلناه فيهم من خذلان وهوان ، وإما أن نتوفينَّك قبل أن ترى هذا في الدنيا ، ولكنك ستراه في الآخرة حين تشاهدهم في الهوان الأبدي الذي يصيبهم في اليوم الآخر .

وفي هذا تسرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ [يونس : 46] أي : أن نريك ما وعدناهم من الخذلان والهوان في هذه الحياة ، وإن لم تره في الحياة الدنيا فلسوف ترى هوانهم في الآخرة ، حيث المرجع إلى الله تعالى ؛ لأنه سبحانه سيصيبهم في أنفسهم بأشياء فوق الهوان الذي يُرى في الناس ؛ كحسرة في النفس ، وكَبْت للأسى حين يرون نصر المؤمنين .

أما الذي يُرى فهو الأمر الظاهر ، أي : الخذلان ، والهزيمة ، والأسى ، والقتل ، وأخْذ الأموال ، وسَبْي النساء والأولاد ، أو غير ذلك مما سوف تراه فيهم بعد أن تفيض روحك إلى خالقها فسوف ترى فيهم ما وعدك الله به .

وأنت لن تحتاج إلى شهادة من أحد عليهم ، لأنه سبحانه : ﴿ شَهِيدٌ على مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [

يونس : 46] .

وكفاك الله سبحانه شهيداً : ﴿ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ [النساء : 79] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(117/362)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (46) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ : " إمَّا " هذه قد تقدَّم الكلامُ عليها مستوفىً . وقال ابن عطية : " ولأجلها أي : لأجل زيادةِ " ما " جاز دخولُ النونِ الثقيلة ولو كانَتْ " إنْ " وحدَها لم يَجُزْ " يعني أن توكيد الفعل بالنونِ مشروطٌ بزيادة " ما " بعد " إنْ " ، وهو مخَالفٌ لظاهرِ كلامِ سيبويه ، وقد جاء التوكيد في الشرط بغير " إنْ " كقوله :

2598 مَنْ تثقفَنْ منهم فليس بآيبٍ . . . أبداً وقَتْل بني قتيبةَ شافي

قال ابن خروف : " أجاز سيبويهِ الإتيانَ ب " ما " وأن لا يؤتى بها ، والإتيانُ بالنون مع " ما "

وأن لا يؤتى بها " والإِراءَةُ هنا من البصر ؛ ولذلك تعدَّى الفعلُ إلى اثنين بالهمزة أي : نجعلك رائياً بعضَ الموعودين " .

(118/362)

قوله : ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ مبتدأ وخبر ، وفيه وجهان أظهرهما : أنه جوابٌ للشرط وما عُطف عليه ، إذ معناه صالحٌ لذلك . وإلى هذا ذهب الحوفي وابن عطية . والثاني : أنه جوابٌ لقوله " أو نتوفَيَنَّك " ، وجواب الأول محذوف قال الزمخشري : "كأنه قيل : وإمَّا نُرِيَنَّك بعضَ الذي نَعِدُهم فذاك ، أو نتوفينَّك قبل أن نريك فنحن نُريك في الآخرة" . قال الشيخ : " فجعل الزمخشري في الكلام شرطين لهما جوابان ، ولا حاجةَ إلى [تقدير] جواب محذوف لأنَّ قولهَ " فإلينا مَرْجعهم " صالحٌ لأن يكونَ جواباً للشرط والمعطوفِ عليه ، وأيضاً فقولُ الزمخشري " فذاك " هو اسمٌ مفردٌ لا يَنْعقد منه جوابُ شرطٍ فكان ينبغي أن يأتي بجملةٍ يَصِحُّ منها جوابُ الشرط إذ لا يُفْهَمُ مِنْ قوله " فذاك " الجزء الذي حُذِف ، المتحصَّل به فائدةُ الإِسناد " . قلت : قد تقررَّ أنَّ اسمَ الإِشارة قد يُشار به إلى شيئين فأكثر وهو بلفظِ الإِفراد ، فكأنَّ ذاك واقعٌ موقعَ الجملة الواقعة جواباً ، ويجوز أن يكونَ قد حُذِفَ الخبر لدلالة المعنى عليه إذ التقديرُ : فذاك المراد أو المتمنَّى أو نحوه . وقوله : " إذ لا

يُفْهم الجزء الذي حُذِف " إلى آخره ممنوعٌ بل هو مفهومٌ كما رأيت ، وهي شيءٌ يَتبارد إليه الذهن .

قوله : ﴿ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ ﴾ ليست هنا للترتيب الزماني بل هي لترتيبِ الأخبارِ لا لترتيبِ القصصِ في أنفسها . قال أبو البقاء : "كقولك زيدٌ عالم ثم هو كريم " . وقال الزمخشري : " فإن قلت : اللَّهُ شهيدٌ على ما يفعلون في الدارَيْن فما معنى ثم ؟ قلت : ذُكِرَت الشهادة ، والمراد مقتضاها ونتيجتها ، وهو العقاب ، كأنه قيل : ثم الله معاقِبٌ على ما يفعلونه " .

(119/362)

وقرأ إبرهيم ابن أبي عبلة " ثَمَّ " بفتح الثاء جعله ظرفاً لشهادة الله ، فيكون " ثَمَّ " منصوباً ب " شهيد " أي : اللَّهُ شهيدٌ عليهم في ذلك المكان ، وهو مكانُ حَشْرِهم . ويجوز أن يكونَ ظرفاً لمَرْجعهم أي : فإلينا مَرْجِعُهم يعني رجوعهم في ذلك المكانِ الذي يُثاب فيه المُحْسِن ويُعاقَبُ فيه المسيءُ . انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 211 .

213 ﴾

(120/362)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (46) ﴾

معناه أن خبره صدق ، ووعده ووعيده حق ، وبعد النَّشْرِ حَشْرٌ ، وفي ذلك الوقت مُطَالَبَةٌ وحسابٌ ، ثم على الأعمال ثواب وعقاب ، وما أسرع ما يكون المعلومُ مُشَاهَداً موجوداً ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 99 ﴾

(121/362)

قوله تعالى ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (47) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان في هذه الآية التهديد بالعذاب إما في الدنيا أو في الآخرة غير معين له ـ صلى الله عليه

وسلم ـ واحدةً منهما ، أتبعها بما هو صالح للأمرين بالنسبة إلى كل رسول إشارة إلى أن أحوال الأمم على غير نظام فلذلك لم يجزم بتعيين واحدة من الدارين للجزاء ، وجعل الأمر منوطاً بالقسط ، ففي أي دار أحكم جعله فيها ، فقال تعالى : دالاً على أنه نشر ذكر الإسلام وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر من عهد آدم عليه السلام إلى آخر الدهر على وجه لم يحصل له اندراس في دهر من الدهور ، فمن تركه استحق العذاب سواء كان ممن بين عيسى ومحمد عليهما السلام أم لا ، فلا تغتر بما يقال من غير هذا : ﴿ ولكل أمة ﴾ أي من الأمم التي خلت قبلك ﴿ رسول ﴾ يدعوهم إلى الله ؛ ثم سبب عن إتيان رسولهم بيان القضاء فيهم فقال : ﴿ فإذا جاء ﴾ أي إليهم ﴿ رسولهم ﴾ في الدنيا بالبينات والهدى ؛ وفي الآخرة في الموقف بالإخبار بما صنعوا به في الدنيا من تكذيب أو تصديق ﴿ قضي بينهم ﴾ أي في جميع الأمور بما أفاده نزع الخافض على أسهل وجه من غير شك بما أفاده البناء للمفعول ؛ ولما كان السياق بالترهيب أجدر ، قال ﴿ بالقسط ﴾ أي أظهر خفياً من استحقاقهم في القضاء بالعدل والقسمة المنصفة بينهم كلهم بالسوية فأعطى كل أحد منهم مقدار ما يخصه من تعجيل العذاب وتأخيره كما فعل معك ؛ ولما كان ذلك لا يستلزم الدوام ، قال : ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يتجدد لهم ظلم منه سبحانه ولا من غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 449 . 450 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (47) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه ، بين أن حال كل الأنبياء مع أقوامهم كذلك ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

هذه الآية تدل على أن كل جماعة ممن تقدم قد بعث الله إليهم رسولاً والله تعالى ما أهمل أمة من الأمم قط ، ويتأكد هذا بقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 24] .

فإن قيل : كيف يصح هذا مع ما يعلمه من أحوال الفترة ومع قوله سبحانه : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ ﴾ [يس : 6] .

قلنا : الدليل الذي ذكرناه لا يوجب أن يكون الرسول حاضراً مع القوم ، لأن تقدم الرسول لا يمنع من كونه رسولاً إليهم ، كما لا يمنع تقدم رسولنا من كونه مبعوثاً إلينا إلى آخر الأبد .

وتحمل الفترة على ضعف دعوة الأنبياء ووقوع موجبات التخليط فيها .

المسألة الثانية :

في الكلام إضمار والتقدير : فإذا جاء رسولهم وبلغ فكذبه قوم وصدقه آخرون قضى بينهم أي حكم وفصل .

المسألة الثالثة :

(123/362)

المراد من الآية أحد أمرين : إما بيان أن الرسول إذا بعث إلى كل أمة فإنه بالتبليغ وإقامة الحجة يزيح كل علة فلا يبقى لهم عذر في مخالفته أو تكذيبه ، فيدل ذلك على أن ما يجري عليهم من العذاب في الآخرة يكون عدلاً ولا يكون ظلماً ، لأنهم من قبل أنفسهم وقعوا في ذلك العقاب ، أو يكون المراد أن القوم إذا اجتمعوا في الآخرة جمع الله بينهم وبين رسولهم في وقت المحاسبة ، وبأن الفصل بين المطيع والعاصي ليشهد عليهم بما شاهد منهم ، وليقع منهم الاعتراف بأنه بلغ رسالات ربه فيكون ذلك من جملة ما يؤكد الله به الزجر في الدنيا كالمساءلة ، وإنطاق الجوارح ، والشهادة عليهم بأعمالهم والموازين وغيرها ، وتمام التقرير على هذا الوجه الثاني أنه تعالى ذكر في الآية الأولى أن الله شهيد عليهم ، فكأنه تعالى يقول : أنا شهيد عليهم وعلى أعمالهم يوم القيامة ، ومع ذلك فإني أحضر في موقف القيامة مع كل قوم رسولهم ، حتى يشهد عليهم بتلك الأعمال .

والمراد منه المبالغة في إظهار العدل .

واعلم أن دليل القول الأول هو قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] وقوله : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165] وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أهلكناهم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ [طه : 134] ودليل القول الثاني قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : 143] وقوله : ﴿ وَقَالَ الرسول يا رب إِنَّ قَوْمِى اتخذوا هذا القرءان مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان : 30] وقوله تعالى : ﴿ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ فالتكرير لأجل التأكيد والمبالغة في نفي الظلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 85.86 ﴾

(124/362)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾

يعني نبياً يدعوهم إلى الهدى ويأمرهم بالإيمان .

﴿ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضي بينهم ليكون رسولهم شاهداً عليهم ، قاله مجاهد .

الثاني : فإذا جاء رسولهم يوم القيامة وقد كذبوه في الدنيا قضى الله تعالى بينهم وبين رسولهم في الآخرة ، قاله الكلبي .

الثالث : فإذا جاء رسولهم في الدنيا واعياً بعد الإذن له في الدعاء عليهم قضى الله بينهم بتعجيل الانتقام منهم ، قاله الحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(125/362)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط ﴾ .

يكون المعنى : ولكل أُمة رسول شاهد عليهم ، فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضى بينهم ؛ مثل .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ [النساء : 41] .

وقال ابن عباس : تُنكر الكفار غداً مجيء الرسل إليهم ، فيؤتى بالرسول فيقول : قد أبلغتكم الرسالة ؛ فحينئذ يقضى عليهم بالعذاب .

دليله قوله : ﴿ وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة : 143] .

ويجوز أن يكون المعنى أنهم لا يعذبون في الدنيا حتى يرسل إليهم ؛ فمن آمن فاز ونجا ، ومن لم يؤمن هلك وعُذّب .

دليله قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] .

والقسط : العدل .

"وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ" أي لا يعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ﴾

لما بين حال الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قومه بين حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم ، تسلية له وتطميناً لقلبه .

ودلت الآية على أنه تعالى ما أهمل أمة ، بل بعث إليها رسولاً كما قال تعالى : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ وقوله : فإذا جاء رسولهم ، إما أن كون إخباراً عن حالة ماضية فيكون ذلك في الدنيا ، ويكون المعنى : أنه بعث إلى كل أمة رسولاً يدعوهم إلى دين الله وينبئهم على توحيده ، فلما جاءهم بالبينات كذبوه ، فقضى بينهم أي : بين الرسول وأمته ، فأنجى الرسول وعذب المكذبون .

وإما أن يكون على حالة مستقبلة أي : فإذا جاءهم رسولهم يوم القيامة للشهادة عليهم قضى بينهم ، أي : بين الأمة بالعدل ، فصار قوم إلى الجنة وقوم إلى النار ، فهذا هو القضاء بينهم قاله : مجاهد وغيره .

ويكون كقوله تعالى : ﴿ وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(126/362)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾

من الأمم الخالية ﴿ رَّسُولٌ ﴾ يُبعث إليهم بشريعة خاصةٍ مناسبة لأحوالهم ليدعُوَهم إلى الحق ﴿ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ ﴾ فبلغهم ما أُرسل به فكذبوه وخالفوه ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين كلِّ أمةٍ ورسولِها ﴿ بالقسط ﴾ بالعدل وحُكم بنجاة الرسول والمؤمنين به وإهلاك المكذِبين كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ في ذلك القضاءِ المستوجِب لتعذبهم لأنه من نتائج أعمالِهم أو ولكل أمةٍ من الأمم يوم القيامةِ رسولٌ تُنسَبُ إليه وتدعى به فإذا جاء رسولُهم الموقفَ ليشهدَ عليهم بالكفر والإيمان كقوله

عز وجل : ﴿ وَجِيءَ بالنبيين والشهداء وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسي :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾

يوم القيامة ﴿ رَّسُولٍ ﴾ تنسب إليه وتدعى به ﴿ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ ﴾ الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بعد أن يشهد ﴿ بالقسط ﴾ بالعدل وحكم بنجاة المؤمن وعقاب الكافر ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ أصلاً والجملة قيل تذييل لما قبلها مؤكدة له .

وقيل : في موضع الحال أي مستمراً عدم ظلمهم ، ونظير هذه الآية على هذا قوله سبحانه : ﴿ وَجِيءَ بالنبيين والشهداء وَقُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ [الزمر : 69] أو لكل أمة من الأمم الخالية رسول يبعث إليهم بشريعة اقتضتها الحكمة ليدعوهم إلى الحق فإذا جاء رسولهم فبلغهم ودعاهم فكذبوه وخالفوه قضى بينهم أي بين كل أمة ورسولها بالعدل وحكم بنجاة الرسول والمؤمنين به وهلاك المكذبين والأول مما رواه ابن جرير .

وغيره عن مجاهد ، والاستقبال عليه على ظاهره ولا يحتاج إلى تقدير مثل ما احتيج في التفسير الثاني وقد رجح بقوله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 11 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ أي : منهم ، أرسل لهدايتهم ، وتزكيتهم بما يصلحهم : ﴿ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُم ﴾ أي : فبلغهم ما أرسل به فكذبوه : ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ أي : بالعدل فأنجي الرسول وأتباعه ، وعذب مكذبوه : ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ أي : في ذلك القضاء المستوجب لتعذيبهم ؛ لأنه من نتائج أعمالهم .

وقال القاشاني في قوله تعالى : ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ أي : بهداية من اهتدى منهم ، وضلالة من ضل وسعادة من سعد ، وشقاوة من شقي ، لظهور ذلك بوجوده ، وطاعة بعضهم إياه لقربه منه ، وإنكار بعضهم له لبعده عنه . أو قضى بينهم بإنجاء من اهتدى به وإثابته ، وإهلاك من ضل وتعذيبه ، لظهور أسباب ذلك بوجوده – انتهى – .

فالآية على هذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] وجوز أن يكون المعنى : لكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه ، وتدعى به ، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان ، قضى بينهم بإنجاء المؤمنين ، وعقاب الكافرين . كقوله تعالى : ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ [الزمر : 69] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 31.32 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ﴾

عطف على جملة : ﴿ وإما نرينك بعض الذي نعدهم ﴾ [يونس : 46] ، وهي بمنزلة السبب لمضمون الجملة التي قبلها .

وهذه بينت أن مجيء الرسول للأمة هي منتهى الإمهال ، وأن الأمة إن كذبت رسولها استحقت العقاب على ذلك .

فهذا إعلام بأن تكذيبهم الرسول هو الذي يجر عليهم الوعيد بالعقاب ، فهي ناظرة إلى قوله تعالى : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا ﴾ [القصص : 59] وقوله : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ [الإسراء : 15] .

وجملة : ﴿ لكل أمة رسول ﴾ ليست هي المقصود من الإخبار بل هي تمهيد للتفريع المفرع عليها بقوله : ﴿ فإذا جاء رسولهم ﴾ الخ ، فلذلك لا يؤخذ من الجملة الأولى تعين أن يرسل رسول لكل أمة لأن تعيين الأمة بالزمن أو بالنسب أو بالموطن لا ينضبط ، وقد تخلو قبيلة أو شعب أو عصر أو بلاد عن مجيء رسول فيها ولو كان خلوها زمناً طويلاً .

وقد قال الله تعالى : ﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ [القصص : 46] .

فالمعنى : ولكل أمة من الأمم ذواتِ الشرائع رسول معروف جاءها مثل عاد وثمود ومدين واليهودِ والكلدان .

والمقصود من هذا الكلام ما تفرع عليه من قوله : ﴿ فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط ﴾ .

والفاء للتفريع و (إذا) للظرفية مجردة عن الاستقبال ، والمعنى : أن في زمن مجيء الرسول يكون القضاء بينهم بالقسط .

وتقديم الظرف على عامله وهو (قضي) للتشويف إلى تلقي الخبر .

وكلمة (بين) تدل على توسط في شيئين أو أشياء ، فتعين أن الضمير الذي أضيفت إليه هنا عائد إلى مجموع الأمة ورسولها ، أي قُضي بين الأمةِ ورسولها بالعَدل ، أي قضَى اللّهُ بينهم بحسب عملهم مع رسولهم .

(129/362)

والمعنى : أن الله يمهل الأمة على ما هي فيه من الضلال فإذا أرسل إليها رسولاً فإرسالُه أمارة على أن الله تعالى أراد إقلاعهم عن الضلال فانتهى أمد الإمهال بإبلاغ الرسول إليهم

مرادَ الله منهم فإن أطاعوه رضي الله عنهم وربحوا ، وإن عصوه وشاقوه قضى الله بين الجميع بجزاء كل قضاء حق لا ظلم فيه وهو قضاء في الدنيا .

وقد أشعر قوله : ﴿ قضي بينهم ﴾ بحدوث مشاقة بين الكافرين وبين المؤمنين وفيهم الرسول صلى الله عليه وسلم

وهذا تحذير من مشاقة النبي صلى الله عليه وسلم وإنذار لأهل مكة بما نالهم .

وقد كان من بركة النبي صلى الله عليه وسلم ورغبته أن أبقى الله على العرب فلم يستأصلهم ، ولكنه أراهم بطشته وأهلك قادتهم يوم بدر ، ثم ساقهم بالتدريج إلى حظيرة الإسلام حتى عمهم وأصبحوا دعاته للأمم وحملة شريعته للعالم .

ولما أشعر قوله : ﴿ قضي بينهم ﴾ بأن القضاء قضاء زجر لهم على مخالفة رسولهم وأنه عقاب شديد يكاد من يراه أو يسمعه أن يجول بخاطره أنه مبالغ فيه أتي بجملة ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ ، وهي حال مؤكدة لعاملها الذي هو ﴿ قُضي بينهم بالقسط ﴾ للإشعار بأن الذنب الذي قضي عليهم بسببه ذنب عظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(130/362)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ﴾

والحق سبحانه لا يظلم أحداً ، ولا يعذب قوماً إلا بعد أن يكفروا بالرسول الذي أرسله إليهم ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 24] .

وهو سبحانه القائل أيضاً :

﴿ لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ [الأنعام : 131] .

فلا تجريم ولا عقوبة إلا بنص وبيان لتجريم هذا الفعل أو ذاك ، بإرسال الرسل ؛ حتى لا يحتج أحد بأنه لم يصل إليه شيء يحاسب بمقتضاه .

والحق سبحانه هنا يبيِّن أن لكل أمة رسولاً يتعهدها بأمور المنهج .

وقد خلق الحق سبحانه كل الخلق ، وكانوا موحِّدين منذ ذرية آدم عليه السلام ثم اقتضت الأحداث أن يتباعدوا ، وانتشروا في الأرض ، وصارت الالتقاءات بعيدة ، وكذلك المواصلات ، وتعددت الآفات بتعدد البيئات .

ولكن إذا تقاربت الالتقاءات ، وصارت المواصلات سهلة ، فما يحدث في الشرق تراه في لحظتها وأنت في الغرب ، فهذا يعني توحُّد الآفات أو تكاد تكون واحدة ؛ لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم ، أما في الأزمنة القديمة ، فقد كانت أزمنة انعزالية ،

تحيا كل جماعة بعيدة عن الأخرى ؛ ولذلك كان لا بد من رسول لكل جماعة ؛ ليعالج داءات البيئة ، أمَا وقد التقت البيئات ، فالرسول الخاتم يعالج كل الداءات .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس : 47] .

وقد حكى التاريخ لنا ذلك ، فكل رسول جاء آمن به البعض ، وكفر به البعض الآخر ، والذين آمنوا به انتصروا ، ومَنْ كفروا به هُزِمُوا .

أو أن الآية عامة ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ أي : تُنادي كل أمة يوم القيامة باسم رسولها ، يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويا أمة موسى ، ويا أمة عيسى . . . إلخ .

والحق سبحانه يقول :

(131/362)

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرسول لَوْ تسوى بِهِمُ الأرض وَلاَ يَكْتُمُونَ الله حَدِيثاً ﴾ [النساء : 4142] .

إذن : فالحق سبحانه هنا يبيّن أن لكل أمة رسولاً جاءها بالبلاغ عن الله ، وقد آمن به مَنْ آمن ، وكفر به مَنْ كفر ، وما دام الإيمان قد حدث وكذلك الكفر فلا بد من القضاء بن المؤمنين والكافرين .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس : 47] .

وما دام في الأمر قضاء ، فلا بد أن المؤمن يَعتبر الكافر منازعاً له ، وأن الكافر يَعتبر المؤمن منازعاً له ، ويصير الأمر قضية تتطلب الحكم ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس : 47] .

أي : يُقضي بينهم بالعدل ، فالمؤمنون يتقصَّى الحق سبحانه حسناتهم ويزيدها لهم ، أما الكافرون فلا توجد لهم حسنات ؛ لأنهم كفروا بالله الحق ؛ فيوردهم النار ، وهم قد أبلغهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيأتي يوم يُسألون فيه عن كل شيء ، فاستبعدوا ذلك وقالوا :

﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَآؤُنَا الأولون ﴾ [الصافات : 1617] .

لقد تعجبوا من البعث وأنكروه ، لكنهم يجدونه حتماً وصدقاً .

ويشاء الحق سبحانه أن يُدخل عليهم هذه المسألة دخولاً إيمانياً ، فيقول : ﴿ أَفَعَيِينَا

بالخلق الأول ﴾ [ق : 15] .

فأنتم إذا متُّم وتحلَّلتم في التراب ، أيعجز الله سبحانه أن يخلقكم من جديد ؟ لا ؛ إنه سبحانه القائل :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق : 4] .

أي : أنه سبحانه يأمر العناصر الخاصة بكل إنسان أن تتجمَّع كلها ، وليس هذا بعسير على الله الذي خلقهم أولاً .

(132/362)

وهم كَذَّبوا واستنكروا واستهزأوا بمجيء يوم القيامة والبعث ، وبلغ استهزاؤهم أن استعجلوا هذا اليوم ، وهذا دليل جهلهم ، وكان على الواحد منهم أن يفر من هول ذلك اليوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(133/362)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون " وفيما بعد من هذه السورة : "وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون " وفى سورة الزمر : "وجئ بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون " وفى آخر السورة : "وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين " فورد فى الموضعين من سورة يونس "بالقسط " وفى الموضعين من سورة الزمر "بالحق " فللسائل أن يسأل عن الفرق ؟

(134/362)

ووجه ذلك والله أعلم أن القسط يراد به العمل والتسوية فى الحكم فمظنة وروده حيث يراد موازنة الجزاء بالأعمال من غير زيادة كما قال تعالى فى جزاء الكافرين : "جزاء وفاقا " أى موازنا لأعمالهم موافقا لها : "ولا يظلم ربك أحدا " والحق الصدق فوروده حيث يراد تصديق وعيد أو إخبار متقدم وإن الله سبحانه وعد المؤمنين بزيادة الأجور والإحسان بما يفوت الغايات ويفوق الحصر ولم يجعل جزاءهم على أعمالهم الدينية وفاقا لأعمالهم فى

مقادير الجزاء بل قال تعالى : "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب " وقال تعالى : "وسنزيد المحسنين " وقال تعالى : "فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله " ومنه جعل الحسنة بعشر أمثالها وهذا كثير فى الكتاب والسنة ولما كان الوارد فى آيتى الزمر منزلا على الحكم حقا بين النبيين والشهداء والملائكة قال تعالى : " وجئ بالنبيين والشهداء وقضى بينهم " وقال تعالى : "وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم " والضمير فى الأولى إما أن يكون للنبيين والشهداء ولا كونه فى أن هؤلاء ممن يضاعف أجورهم فجئ بقوله "بالحق " تصديقا لما وعدوا من الزيادة وليس موضع ورود القسط وإما أن يكون للخلق كافة وفيهم المؤمن والكافر فورد قوله "بالحق " تصديقا لما ورد فى حق الفريقين من الزيادة فى أجر المؤمن والعدل فى حق الكافر فلا يظلم مثقال ذرة وإنما جزاؤه وفاق عمله ولا يصح هذا إن لو قيل : "وقضى بينهم بالقسط " وعلى هذا ما ورد فى الآية الأخيرة من فروق .

(135/362)

وأما آيتا يونس فقد تقدم الأولى منهما غير ما آيات فى تأنيس نبينا صلى الله عليه وسلم وتعنيف كفار قريش ووعيدهم وتسليته عليه السلام فى إبراهيم ألا ترى ختام الآى قبلها

بقوله : "وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم " أى فسأجرى تكذيبهم عيانا لا يجدون محيصا عنه ثم قال : "ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم " أى حضرهم فى القيامة وقد كذبوه فى الدنيا قضى بينهم وبينه فصدق زكذب معانده فنجا المصدق وهلك المكذب ولما لم يقصد هنا تفضيل أحوال المصدقين بل لحظ الطرفان من التصديق والتكذيب كان موضع التعبير بالقسط الذى هو العدل بين المصدق والمكذب وإنما بناء الآى على إرغام المكذبين ولا يناسب هذا إلا ذكر العدل بحسب ما بنيت عليه الآى قبله وأما قوله فى الآية بعد : "واشتروا الندامة لما رأوا العذاب " فمسرو ندامتهم هم المكذبون وهم المشاهدون العذاب والضمير فى قوله : "وقضى بينهم " عائد عليهم فليس موضع التعبير بقوله "بالحق " لما قد تبين فقد وضح ورود كل من هذه الآى على ما يناسب ويلائم ولا يناسب خلافه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 244.246 ﴾

(136/362)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (47) ﴾

لمُيخْلِ زماناَ مِنْ شَرعٍ ، ولمُيخْلِ شرعاً مِنْ حُكْم ، ولمُيخْلِ حُكْماً مما يُعْقبُه من ثواب وعقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 99 ﴾

(137/362)

قوله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (49) ﴾

مناسبة الآيتين لما قبلهما

قال البقاعي :

ولما تقدم في هذه الآيات تهديدهم بالعذاب في الدنيا أو في الآخرة ، حكى سبحانه جوابهم عن ذلك عطفاً على قوله : ﴿ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ فقال : ﴿ ويقولون ﴾ أي هؤلاء المشركون مجددين لهذا القول مستمرين على ذلك استهزاء : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ أي بالعذاب في الدنيا أو في الآخرة ، وألهبوا وهيجوا بقولهم : ﴿ إن كنتم ﴾ أي أنت ومن قال بقولك ﴿ صادقين ﴾ والقول كلام مضمن في ذكره بالحكاية وقد يكون كلام لا يعبر عنه فلا يكون له ذكر مضمن بالحكاية ، فلا يكون قولاً لأنه إنما يكون قولاً من أجل تضمن

ذكره بالحكاية – قاله الرماني ، ولتضمين جعل الشيء في وعاء ؛ والوعد : خبر بما يعطي من الخير ، والوعيد : خبر بما يعطى من الشر ، وقد يراد الإجمال كما هنا فيطلق الوعد على المعنيين : وعد المحسن بالثواب والمسيء بالعقاب ؛ والصدق : الخبر عن الشيء على ما هو به ؛ والكذب : الخبر عنه على خلاف ما هو به .

(138/362)

ولما تضمن قولهم هذا استعجاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما يتوعدهم به ، أمره بأن يتبرأ من القدرة على شيء لم يقدره الله عليه بقوله : ﴿ قل ﴾ أي لقومك المستهزئين ﴿ لا أملك لنفسي ﴾ فضلاً عن غيري ؛ ولما كان السياق للنقمة ، قدم الضر منبهاً على أن نعمه أكثر من نقمة ؛ وأنهم في نعمه ، عليهم أن يقيدوها بالشكر خوفاً من زوالها فضلاً عن أن يتمنوه فقال : ﴿ ضراً ولا نفعاً ﴾ .

ولما كان من المشاهد أن كل حيوان يتصرف في نفسه وغيره ببعض ذلك قال : ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة أن أملكه من ذلك ، فكأنه قيل : فما لك لا تدعوه بأن يشاء ذلك ويقدرك عليه ؟ فقيل : ﴿ لكل أمة أجل ﴾ فكأنه قيل : وماذا يكون فيه ؟ فقيل : ﴿ إذا جاء أجلهم ﴾ هلكوا ؛ ولما كان قطع رجائهم من الفسحة في الأجل من أشد

عذابهم ، قدم قوله : ﴿ فلا يستأخرون ﴾ أي عنه ﴿ ساعة ﴾ ثم عطف على الجملة الشرطية بكمالها ﴿ ولا يستقدمون ﴾ فلا تستعجلوه فإن الوفاء بالوعد لا بد منه .

والسين فيهما بمعنى الوجدان ، أي لا يوجد لهم المعنى الذي صيغ منه الفعل مثل : استشكل الشيء واستثقله ، ويجوز كون المعنى : لا يوجدون التأخر ولا التقدم وإن اجتهدوا في الطلب ، فيكون في السين معنى الطلب والملك قوة يتمكن بها من تصريف الشيء أتم تصريف ، والنفع : إيجاب اللذة بفعلها والتسبب المؤدي إليها ؛ والضر : إيجاب الألم بفعله أو التسبب إليه ؛ والأجل : الوقت المضروب لوقوع أمر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 450 . 451 ﴾

(139/362)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

اعلم أن هذه الشبهة الخامسة من شبهات منكري النبوة فإنه عليه السلام كلما هددهم بنزول العذاب ومر زمان ولم يظهر ذلك العذاب ، قالوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ،

واحتجوا بعدم ظهوره على القدح في نوبته عليه السلام ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أن قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ كالدليل على أن المراد مما تقدم من قوله : ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط ﴾ [يونس : 47] القضاء بذلك في الدنيا ، لأنه لا يجوز أن يقولوا متى هذا الوعد عند حضورهم في الدار الآخرة ، لأن الحال في الآخرة حال يقين ومعرفة لحصول كل وعد ووعيد وإلا ظهر أنهم إنما قالوا ذلك على وجه التكذيب للرسول عليه السلام فيما أخبرهم من نزول العذاب للأعداء والنصرة للأولياء أو على وجه الاستبعاد لكونه محقاً في ذلك الإخبار ، ويدل هذا القول على أن كل أمة قالت لرسولها مثل ذلك القول بدليل قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ وذلك لفظ جمع وهو موافق لقوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ [يونس : 47] ثم إنه تعالى أمره بأن يجيب عن هذه الشبهة بجواب يحسم المادة وهو قوله : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾ والمراد أن إنزال العذاب على الأعداء وإظهار النصرة للأولياء لا يقدر عليه أحد إلا الله سبحانه ، وأنه تعالى ما عين لذلك الوعد والوعيد وقتاً معيناً حتى يقال : لما لم يحصل ذلك الموعود في ذلك الوقت ، دل على حصول الخلف فكان تعيين الوقت مفوضاً إلى الله سبحانه ، إما بحسب مشيئته وإلهيته عند من لا يعلل أفعاله وأحكامه برعاية المصالح ، وإما بحسب المصلحة المقدرة

عند من يعلل أفعاله وأحكامه برعاية المصالح ، ثم إذا حضر الوقت الذي وقته الله تعالى لحدوث ذلك الحادث فإنه لا بد وأن يحدث فيه ، ويمتنع عليه التقدم والتأخر .

(140/362)

المسألة الثانية :

المعتزلة احتجوا بقوله : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ ﴾ فقالوا : هذا الاستثناء يدل على أن العبد لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً إلا الطاعة والمعصية ، فهذا الاستثناء يدل على كون العبد مستقلا بهما .

والجواب : قال أصحابنا : هذا الاستثناء منقطع ، والتقدير : ولكن ما شاء الله من ذلك كائن .

المسألة الثالثة :

قرأ ابن سيرين ﴿ فإذا جاء أجلهم ﴾

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ يدل على أن أحداً لا يموت إلا بانقضاء أجله ، وكذلك المقتول لا يقتل إلا على هذا الوجه ، وهذه مسألة طويلة

وقد ذكرناها في هذا الكتاب في مواضع كثيرة .

المسألة الخامسة :

أنه تعالى قال ههنا : ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ فقوله : ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ شرط وقوله : ﴿ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ جزاء والفاء حرف الجزاء ، فوجب إدخاله على الجزاء كما في هذه الآية ، وهذه الآية تدل على أن الجزاء يحصل مع حصول الشرط لا متأخراً عنه وأن حرف الفاء لا يدل على التراخي وإنما يدل على كونه جزاء .

إذا ثبت هذا فنقول : إذا قال الرجل لامرأة أجنبية إن نكحتك فأنت طالق قال الشافعي رضي الله عنه : لا يصح هذا التعليق ، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه : يصح ، والدليل على أنه لا يصح أن هذه الآية دلت على أن الجزاء إنما يحصل حال حصول الشرط ، فلو صح هذا التعليق لوجب أن يحصل الطلاق مقارناً للنكاح ، لما ثبت أن الجزاء يجب حصوله مع حصول الشرط ، وذلك يوجب الجمع بين الضدين ، ولما كان هذا اللازم باطلاً وجب أن لا يصح هذا التعليق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 87.88 ﴾

(141/362)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾

وهو قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ ﴾ ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أن العذاب ينزل بنا ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد : ﴿ لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرّا وَلاَ نَفْعًا ﴾ ، يعني : ليس في يدي دفع مضرة ولا جرّ منفعة ، ﴿ إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾ .

أن يقويني عليه .

قال مقاتل : معناه قل : لا أملك لنفسي أن أدفع عنها سوءاً حين ينزل ، ولا أن أسوق إليها خيراً إلا ما شاء الله فيصيبني ، فكيف أملك نزول العذاب بكم .

وقال القتبي : الضُّر بضم الضاد الشدة والبلاء ، كقوله : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلاَ كاشف لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام : 17] وكقوله : ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضر عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 54] والضُّر بفتح الضاد ضد النفع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرّاً وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَآءَ الله لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [يونس : 49]

يعني : قل : لا أملك جر نفع ولا دفع ضرَ .

ثم قال : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ وقته في العذاب ، ويقال لكل أمة أجل يعني : مهلة ، ويقال : أجل الموت .

﴿ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ ﴾ وقتهم بالعذاب ، ﴿ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ؛ يعني : لا يتأخرون عنه ساعة ، ولا يتقدمون عنه ساعة فكذلك هذه الأمة إذا نزل بهم العذاب لا يتأخر عنهم ساعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(142/362)

وقال ابن عطية فى الآيات :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولكل أمة رسول ﴾ ، إخبار مثل قوله تعالى : ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى ﴾ [الملك : 8] وقال مجاهد وغيره : المعنى فإذا جاء رسولهم يوم القيامة للشهادة عليم صير قوم للجنة وقوم للنار فذلك " القضاء بينهم بالقسط " وقيل : المعنى فإذا جاء رسولهم في الدنيا وبعث صاروا من حتم الله بالعذاب لقوم والمغفرة لآخرين لغاياتهم ، فذلك قضاء بينهم بالقسط ، وقرن بعض المتأولين هذه الآية بقوله ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ [الإسراء : 15] وذلك يتفق إما بأن نجعل ﴿ معذبين ﴾ [الاسراء : 15] في الآخرة ، وإما بأن نجعل " القضاء بينهم " في الدنيا بحيث يصح اشتباه الآيتين ، وقوله ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ إلى ﴿

يستقدمون ﴾ ، الضمير في ﴿ يقولون ﴾ يراد به لكفار ، وسؤالهم عن الوعد تحرير بزعمهم في الحجة ، أي هذا العذاب الذي توعدنا حدد لنا فيه وقته لنعلم الصدق في ذلك من الكذب ، وقال بعض المفسرين ، قولهم هذا على جهة الاستخفاف .

قال القاضي أبو محمد : وهذا لا يظهر من اللفظة ، ثم أمره تعالى أن يقول لهم ﴿ لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ﴾ ، المعنى قل لهم يا محمد رداً للحجة إني ﴿ لا أملك لنفسي ضرّاً ولا نفعاً ﴾ من دون الله ولا أنا إلا في قبضة سلطانه وبضمن الحاجة إلى لطفه ، فإذا كنت هكذا فأحرى أن لا أعرف غيبه ولا أتعاصى شيئاً من أمره ، لكن ﴿ لكل أمة أجل ﴾ انفرد الله تعالى بعلم حده ووقته ، فإذا جاء ذلك الأجل في موت أو هلاك أمة لم يتأخروا ساعة ولا أمكنهم التقدم عن حد الله عز وجل ، وقرأ ابن سيرين " آجالهم " بالجمع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(143/362)

وقال القرطبى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48) ﴾

يريد كفار مكة لفرط إنكارهم واستعجالهم العذاب ؛ أي متى العقاب أو متى القيامة التي

يعدنا محمد .

وقيل : هو عام في كل أُمة كذبت رسولها .

قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾ لما استعجلوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بالعذاب قال الله له : قل لهم يا محمد لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ؛ أي ليس ذلك لي ولا لغيري .

﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ اللهُ ﴾ أن أملكه وأقدر عليه ، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم فلا تستعجلوا .

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أي لهلاكهم وعذابهم وقت معلوم في علمه سبحانه .

﴿ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أي وقت انقضاء أجلهم .

﴿ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أي لا يمكنهم أن يستأخروا ساعة باقين في الدنيا ولا يتقدّمون فيؤخرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(144/362)

وقال أبو حيان :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

الضمير في ويقولون ، عائد على مشركي قريش ومن تابعهم من منكري الشحر ، استعجلوا بما وعدوا به من العذاب على سبيل الاستبعاد ، أو على سبيل الاستخفاف ، ولذلك قالوا : إن كنتم صادقين أي : لستم صادقين فيما وعدتم به فلا يقع شيء منه .

وقولهم : هذا يشهد للقول الأول في الآية قبلها ، وأنها حكاية حال ماضية .

وأنّ معنى ذلك : فإذا جاءهم الرسول وكذبوه قضى بينهم في الدنيا ، وأنّ كل رسول وعد أمته بالعذاب في الدنيا وإن هي كذبت .

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾

لما التمسوا تعجيل العذاب أو تعجيل الساعة ، أمره عليه السلام أن يقول لهم : ليس ذلك إليّ ، بل ذلك إلى الله تعالى .

وإذا كنت لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً فكيف أملكه لغيري ؟ أو كيف أطلع على ما لم يطلعني عليه الله ؟ ولكن لكل أمة أجل انفرد بعلمه تعالى .

وتقدم الكلام على نظير قوله لكل أمة أجل إلى آخر الآية في الأعراف .

وقرأ ابن سيرين : آجالهم على الجمع .

وإلا ما شاء الله ظاهره أنه استثناء متصل ، إلا ما شاء الله أنْ أملكه وأقدر عليه .

وقال الزمخشري : هو استثناء منقطع أي : ولكن ما شاء الله من ذلك كائن ، فكيف أملك لكم الضرر وجلب العذاب .

ولكل أمة أجل أي : إنّ عذابكم له أجل مضروب عند الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(145/362)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾

استعجالاً لما وُعدوا من العذاب على طريقة الاستهزاءِ به والإنكارِ حسبما يرشد إليه الجوابُ لا طلباً لتعيين وقتِ مجيئِه على وجه الإلزام كما في سورة الملك ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أي في أنه يأتينا والخطابُ للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يتلون عليهم الآياتِ المتضمنةَ للوعد المذكور ، وجوابُ الشرط محذوفٌ اعتماداً على ما تقدم حسبما حُذف في مثل قوله تعالى : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ فإن الاستعجالَ في قوة الأمرِ بالإتيان عجلةً كأنه قيل : فليأتنا عجَلةً إن كنتم صادقين ، ولِما فيه من الإشعار بكون إتيانِه بواسطة النبيِّ صلى الله عليه وسلم قيل : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرّا وَلاَ نَفْعًا ﴾ أي لا أقدِر على شيء منهما بوجه من الوجوه ، وتقديمُ الضر لما أن مساقَ النظمِ لإظهار العجزِ عنه ، وأما ذكرُ النفعِ فلتوسيع الدائرة تكملةً للعجز ، وما وقع في سورة الأعرافِ من

تقديم النفعِ للإشعار بأهميته والمقامُ مقامُه ، والمعنى إني لا أملك شيئاً من شؤوني رداً وإيراداً مع أن ذلك أقربُ حصولاً فكيف أملك شؤونَكم حتى أتسبّبَ في إتيان عذابِكم الموعودِ ﴿ إِلاَّ مَا شَاء اللهُ ﴾ استثناءٌ منقطعٌ أي ولكن ما شاء الله كائناً وحملُه على الاتصال على معنى إلا ما شاء الله أن امِلكَه يأباه مقامُ التبُّرؤ من أن يكون له عليه السلام دخلٌ في إتيان الوعدِ فإن ذلك يستدعي بيانَ كونِ المتنازَعِ فيه مما لا يشاء الله أن يمِلكه عليه السلام ، وجعلُ (ما) عبارةً عن بعض الأحوالِ المعهودةِ المنوطةِ بالأفعال الاختياريةِ المفوضة إلى العباد على أن يكون المعنى لا أملك لنفسي شيئاً من الضر والنفعِ إلا ما شاء الله أن أمِلكه منهما من الضر والنفعِ المترتبَيْن على الأكل والشربِ عدماً ووجوداً تعسّفٌ ظاهرٌ ، وقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ بيانٌ لما أُبهم في الاستثناء وتقييدٌ لما في القضاء السابقِ

(146/362)

من الإطلاق المُشعِر بكون المقضيّ به أمراً مُنجزاً غيرَ متوقّفٍ على شيء غيرِ مجيءِ الرسولِ وتكذيبِ الأمة أي لكل أمةٍ أمةٌ ممن قُضي بينهم وبين رسولِهم أجلٌ معينٌ خاصٌّ بهم لا يتعدى إلى أمة أخرى مضروبٍ لعذابهم يحِلّ بهم عند حلولِه ﴿ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ ﴾ إن

جُعل الأجلُ عبارةً عن حد معينٍ من الزمان فمعنى مجيئِه ظاهرٌ ، وإن أريد به ما امتدّ إليه من الزمان فمجيئُه عبارةٌ عن انقضائِه إذ هناك يتحقق مجيئُه بتمامه ، والضميرُ إن جُعل للأمم المدلولِ عليها بكل أمةٍ فإظهارُ الأجلِ مضافاً إليه لإفادة المعنى المقصودِ الذي هو بلوغُ كل أمةٍ أجلَها الخاصّ بها ، ومجيئُه إياها بعينها من بين الأممِ بواسطة اكتسابِ الأجل بالإضافة عموماً يفيده معنى الجمعيةِ كأنه قيل : إذا جاءهم آجالُهم بأن يجيءَ كلَّ واحدةٍ من تلك الأممِ أجلُها الخاصُّ بها ، وإن جُعل لكل أمةٍ خاصةً كما هو الظاهرُ فالإظهارُ في موقع الإضمارِ لزيادة التقريرِ ، والإضافةُ إلى الضمير لإفادة كمالِ التعيين أي إذا جاءها أجلُها الخاصُّ بها ﴿ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عن ذلك الأجلِ ﴿ سَاعَةً ﴾ أي شيئاً قليلاً من الزمان فإنها مثَلٌ في غاية القلةِ منه أي لا يتأخرون عنه أصلاً ، وصيغةُ الاستفعال للإشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له ﴿ وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أي لا يتقدمون عليه وهو عطفٌ على يستأخرون لكنْ لا لبيان انتفاءِ التقدم مع إمكانه في نفسه كالتأخر ، بل للمبالغة في انتفاءِ التأخرِ بنظمه في سلك المستحيلِ عقلاً كما في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَيْسَتِ التوبةِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنِّى تُبْتُ الان وَلاَ الذين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ فإن من مات كافراً مع ظهور أن لا توبة له رأساً قد نُظم في عدم قَبولِ التوبةِ في سلك من سوّفها إلى حضور الموتِ إيذاناً بتساوي وجودِ التوبةِ حينئذٍ وعدمِها بالمرة ، كما مر في سورة الأعراف ، وقد جُوز أن يراد بمجيء الأجلِ دنوُّه بحيث يمكن التقدمُ في الجملة كمجيء اليومِ الذي ضُرب لهلاكهم ساعةٌ معينةٌ منه لكن ليس في تقييد عدمِ الاستئخار بدنوه مزيدُ فائدةٍ ، وتقديمُ بيان انتفاءِ الاستئخار على بيان انتفاءِ الاستقدامِ لأن المقصودَ الأهمَّ بيانُ عدمِ خلاصِهم من العذاب ولو ساعةً وذلك بالتأخر ، وأما ما في قوله تعالى : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴾ من سبق السبْقِ في الذكر فلما أن المرادَ هناك بيانُ سرِّ تأخيرِ عذابِهم مع استحقاقهم له حسبما ينبيء عنه قوله عز وجل : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأمل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ فالأهمُّ إذ ذاك بيانُ انتفاءِ السبقِ كما ذكر هناك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(148/362)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

بناءً على أن الظاهر أن المراد بالوعد الذي أشاروا إليه العذاب الدنيوي الموعود كما يرشد إله ما بعد .

واستشكل ما يقتضيه ظاهر الآية من أن الله تعالى لم يهمل أمة من الأمم قط بل بعث إلى كل واحدة منهم رسولاً بأن أهل الفترة ليس فيهم رسول كما يشهد له قوله سبحانه : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ ﴾ [يس : 6] وأجيب بأن عموم الآية لا يقتضي أن يكون الرسول حاضراً مع كل أمة منهم لأن تقدمه على بعض منهم لا يمنع من كونه رسولاً إلى ذلك البعض كما لا يمنع تقدم رسولنا صلى الله عليه وسلم من كونه مبعوثاً إلينا إلى آخر الأبد غاية ما في الباب أن ما وقع من تخليط القوم في زمن الفترة يكون مؤدياً إلى ضعف أثر دعوة الأنبياء عليهم السلام انتهى وهو كما ترى .

وقد يقال : إن المراد من كل أمة كل جماعة أراد الله تعالى تكليفها حسبما سبق به علمه أو أراد سبحانه تنفيذ كلمته فيها أو نحو ذلك من المخصصات التي لا يلغو معها الحكم لا كل جماعة من الناس مطلقاً فلا إشكال أصلاً فتدبر .

ثم إن هذا القول من المكذبين استعجال لما وعدوا به وغرضهم منه على ما قيل استبعاد الموعود وإنه مما لا يكون وقد يراد بالاستفهام الاستبعاد ابتداءً إذ المقام يقتضيه ولا مانع عنه والقول بأن ذلك إنما يكون ابتداء بأين وأنى ونحوهما دون متى غير مسلم كيف وهو معنى مجازي والمجاز لا حجر فيه والخطاب لسيد المخاطبين عليه الصلاة والسلام والمؤمنن الذين

يتلون عليهم الآيات المتضمنة لذلك ، وجواب ﴿ إن ﴾ محذوف اعتماداً على ما تقدمه أي إن كنتم صادقين في أنه يأتينا فليأتنا عجلة ، ولكونه صلى الله عليه وسلم هو الواسطة في إتيان ذلك ومنه نشأ الوعد دون المؤمنين أمر صلى الله عليه وسلم بالجواب بقوله سبحانه :

﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّا وَلاَ نَفْعًا ﴾

(149/362)

أي لا أقدر على شيء منهما بوجه من الوجوه وتقديم الضر لما أن مساق النظم الكريم لإظهار العجز عنه وأما ذكر النفع فللتعميم إظهاراً لكمال العجز ، وقيل : إنه استطرادي لئلا يتوهم اختصاص ذلك بالضر والأول أولى ، وما وقع في سورة الأعراف من تقديم النفع فللإشعار بأهميته والمقام مقامه ، والمعنى لا أملك شيئاً من شؤوني رداً وإيراداً مع إن ذلك أقرب حصولاً فكيف أملك شؤونكم حتى أتسبب في إتيان عذابكم الموعود حسبما تريدون ﴿ إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ ﴾ استثناء منقطع عند جمع أي ولكن ما شاء الله تعالى كائن ، وقيل : متصل على معنى إلا ما شاء الله تعالى أن أملكه ، وتعقب بأنه يأباه مقام التبرىء عن أن يكون له صلى الله عليه وسلم دخل في إتيان الوعد فإن ذلك يستدعي بيان كون المتنازع

فيه مما لا يشاء أن يملكه عليه الصلاة والسلام : والمعتزلة قالوا باتصال الاستثناء واستدلوا بذلك على أن العبد مستقل بأفعاله من الطاعات والمعاصي ، وأنت تعلم أن ذلك بمراحل عن إثبات مدعاهم .

(150/362)

نعم استدل بها بعض من يرى رأي السلف من أن للعبد قدرة مؤثرة بإذن الله تعالى لا أنه ليس له قدرة أصلاً كما يقوله الجبرية ، ولا أن له قدرة لكنها غير مؤثرة كما هو المشهور عن الأشاعرة ، ولا أن له قدرة مؤثرة إن شاء الله تعالى وإن لم يشأ كما هو رأي المعتزلة وقال : المعنى لا أقدر على شيء من الضر والنفع إلا ما شاء الله تعالى أن أقدر عليه منهما فإني أقدر عليه بمشيئته سبحانه ، وقال بعضهم : إذا كان الملك بمعنى الاستطاعة يكون الاستثناء متصلاً وإذا أبقى على ظاهره تعين الانقطاع ، ولا يخفى أن الأصل الاتصال ولا ينبغي العدول عنه حيث أمكن من دون تعسف ، وأياً ما كان فظاهر كلامهم أن الاستثناء من المفعول إلا أنه على تقدير الانقطاع ليس المعنى على إخراج المستثنى من حكم المستثنى منه ولذا جعل الحكم على ذلك التقدير أنه كائن دون أملكه مثلاً فلا تدافع في كلام من حكم بالانقطاع وقال في بيان المعنى أي ولكن ما شاء الله تعالى من ذلك كائن مشيراً

بذلك إلى النفع والضر فإنه صريح في كون المستثنى من جنس المستثنى منه المقتضى للاتصال لأن المدار عند المحققين في الأمرين على الإخراج من الحكم وعدمه .

(151/362)

ومما يقضي منه العجب زعم أن الاستثناء من فاعل ﴿ لا أَمْلِكُ ﴾ وجعل المعنى لا أملك أنا ولكن الله سبحانه هو المالك لكل ما يشاء يفعله بمشيئته ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم الذين أصروا على تكذيب رسلهم ﴿ أَجَلٌ ﴾ لعذابهم يحل بهم عند حلوله لا يتعدى إلى أمة أخرى ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أي أجل كل أمة على ما هو الظاهر ، ووضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التقرير ، والإضافة لإفادة كمال التعين ، وجوز أن يكون الضمير للأمم المدلول عليه بكل أمة ، ووجه إظهار الأجل مضافاً لذلك بأنه لإفادة المعنى المقصود الذي هو بلوغ كل أمة أجلها الخاص بها ومجيئه إياها بعينها من بين الأمم بواسطة اكتساب الأجل بإضافته عموماً يفيده معنى الجمعية كأنه قيل : إذا جاءتهم آجالهم بالجمع كما قرأ به ابن سيرين بأن يجيء كل واحد من تلك الأمم أجلها الخاص بها ، ويفسر الأجل بحد معين من الزمان والمجيء عليه ظاهر وبما امتد إليه من ذلك فمجيئه حينئذٍ عبارة عن انقضائه إذ هناك يتحقق مجيئه بتمامه أي إذا تم وانقضى أجلهم الخاص بهم ﴿ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عنه ﴿

سَاعَةِ ﴾ أي شيئاً قليلاً من الزمان ﴿ وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ عليه ، والاستفعال عند جمع على أصله ، ونفى طلب التأخر والتقدم أبلغ ، وقال آخرون : إنه بمعنى التفعل أي لا يتأخرون ولا يتقدمون ، والجملة الثانية إما مستأنفة أو معطوفة على القيد والمقيد ومنعوا عطفها على ﴿ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ لئلا يرد أنه لا يتصور التقدم بعد مجيء الأجل فلا فائدة في نفيه ، وأجازه غير واحد والفائدة عنده في ذلك المبالغة في انتفاء التأخر لأنه لما نظم في سلكه أشعر بأنه بلغ في الاستحالة إلى مرتبته فهو مستحيل مثله للتقدير الإلهي وإن أمكن في نفسه ، قيل : وهذا هو السر في إيراد صيغة الاستفعال أي أنه بلغ في الاستحالة إلى أنه لا يطلب إذ المحال لا يطلب .

(152/362)

ودفع بعضهم ذلك بأن ﴿ جَاء ﴾ بمعنى قارب المجيء نحو قولك : إذا جاء الشتاء فتأهب له .

وتعقب بأنه ليس في تقييد عدم الاستئخار بالقرب والدنو مزيد فائدة ، وأشار الزمخشري إلى جواب آخر وهو أن لا يتأخر ولا يتقدم كناية عن كونه له حد معين وأجل مضروب لا يتعداه بقطع النظر عن التقدم والتأخر كقول الحماسي

: وقف الهوى بى حيث أنت فليس لي . . .

متقدم عنه ولا متأخر

فإنه أراد كما قال المرزوقي حبسني الهوى في موضع تستقرين فيه فألزمه ولا أفارقه وأنا معك مقيمة وظاعنة لا أعدل عنك ولا أميل إلى سواك ، ووجه تقديم بيان انتفاء الاستئخار على بيان انتفاء الاستقدام قد تقدم في آية الأعراف مع بسط كلام فيها ؛ ثم لا يخفى أن هذه الآية داخلة في حيز الجواب ولم تعطف على ما قبلها إيذاناً باستقلالها فيه .

(153/362)

قال العلامة الطيبي طيب الله تعالى ثراه : إن الجواب بقوله سبحانه : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ ﴾ الخوارد على الأسلوب الحكيم لأنهم ما أرادوا بالسؤال إلا استبعاد أن الموعود من الله تعالى وأنه صلوات الله تعالى وسلامه عليه هو الذي يدعي أن ذلك منه فطلبوا منه تعيين الوقت تهكماً وسخرية فقيل في الجواب هذا التهكم إنما يتم إذا ادعيت بأني أنا الجالب لذلك الموعود : وإذا كنت مقراً بأني مثلكم في أني لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً كيف أدعي ما ليس لي بحق ؟ ثم شرع في الجواب الصحيح ولم يلتفت صلى الله عليه وسلم إلى تهكمهم واستبعادهم فقال : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ الخ ، وحاصله على ما في "الكشاف" إن

عذابكم له أجل مضروب عند الله تعالى وحد محدود من الزمان إذا جاء ذلك الوقت أنجز وعدكم لا محالة فلا تستعجلوا ، ومن هنا يعلم سر إسقاط الفاء من ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ وزيادتها في ﴿ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ على عكس آية الأعراف حيث أتى بها أولاً ولم يؤت بها ثانياً ، وذلك أنه لما سيقت الآية جواباً عن استعجالهم العذاب الموعود حسبما علمت آنفاً اعتنى بأمر الشرطية ولزومها كمال الاعتناء فأتى بها غير متفرعة على شيء كأنها من الأمور الثابتة في نفسها الغير المتفرعة على غيرها وقوي لزوم التالي فيها للمقدم بزيادة الفاء التي بها يؤتى للربط في أمثال ذلك ولا كذلك آية الأعراف كما لا يخفى إلا على الأنعام فاحفظه فإنه من الأنفال ، ولا يأباه ما مر في تقرير الاستفهام في صدر الكلام كما هو ظاهر لدى ذوي الأفهام ، وكذا لا يأباه ما قيل في ربط هذه الآية بما قبلها من أنها بيان لما أبهم في الاستثناء وتقييد لما في القضاء السابق من الإطلاق المشعر بكون المقضي به أمراً منجزاً غير متوقف على شيء غير مجيء الرسول وتكذيب الأمة لأنه على ما فيه ما فيه إنكار المدخلية في الجواب ، ولعل الغرض يتم بمجرد ذلك لحصول التغاير بين مساقي الآيتين به أيضاً ، وقد يقال

: إن إسقاط الفاء أولاً لتكون الجملة في موضع الصفة لأجل تهويلاً لأمره وتنويهاً بشأنه حسبما يقتضيه المقام ، أي لكل أمة أجل موصوف بأنه إذا جاء لا يستأخرون عنه ولا يستقدمون عليه البتة ، والإظهار في موضع ازضمار لزيادة التقرير مثل ما مر آنفاً وليس بذاك ، ومما تضحك منه الموتى ما قاله بعض العظاميين بعد أن كاد يقضي عليه فكراً من أن السر في اختلاف الآيتين الإشارة منه تعالى إلى جواز الأمرين عربية ولم يعلم عافاه الله تعالى أن القرآن الكريم لم ينزل معلماً للعربية مبيناً لقواعدها وشارحاً لما يجوز فيها وما لا يجوز ، بل نزل معجزاً بفصاحته وبلاغته وما تضمنه من الأسرار أقواماً كل منهم في ذلك الشأن الجذيل المحكك والعذيب المرجب .

وذكر بعض من أحيا ميت الفضل علمه وصفاً عن تخليط أبناء العصر فهمه صفاء الدين عيسى البندنيجي أن مساق هذه الآية لتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وشرح صدره عليه الصلاة والسلام عما عسى يضيق به بحسب البشرية من قولهم :

﴿ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ [يونس : 48] ولتلقينه صلى الله عليه وسلم رد قولهم ذلك كما يشعر به السباق فناسب قطع كل من الجملتين عن الأخرى ليستقل كل منهما في إفادة التثبيت والرد للتأكيد والمبالغة فيها ولذا لم يؤت بالفاء في صدر الشرطية وجيء بها في الجواب زيادة في ذلك لإفادتها تحقق ما بعدها عقيب ما يقتضيه بلا مهلة ، وآية الأعراف سيقت وعيداً لأهل مكة ، ومن البين أن محط الفائدة في إشعار أنه وعيد وأن

ما هو أدخل في التخويف الجملة الشرطية ، لأنها النص في نزول العذاب عند حلول الأجل وأنه لا محيص لهم عن ذلك عنده دون ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ فقط فكان المقام مقام ربط ووصل فجيء بالفاء لتدل على ذلك وتؤذن باتحاد الجملتين في كونهما وعيداً ولمسامحته سبحانه في الوعيد لم يؤت بالفاء في الجواب انتهى .

ولعل ما قدمناه ليس بالبعيد عنه من وجه وإن خالفه من وجه آخر ولكل وجهة والله تعالى أعلم بأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(155/362)

وقال القاسمى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾

استبعاداً له ، واستهزاءً به : ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي : في أنه يأتينا ، ولما فيه من الإشعار بكون إتيانه بواسطة النبي صلوات الله عليه ، قيل :

﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾ أي : مع ذلك أقرب حصولاً ، فكيف أملك لكم حتى أستعجل في جلب العذاب لكم وتقديم الضر ، لما أن مساق النظم لإظهار العجز عنه ، وأما ذكر النفع فلتوسيع الدائرة تعميماً . والمعنى لا أملك شيئاً ما .

﴿ إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ ﴾ أي : أن أملكه ، أو لكن ما شاء الله كائن ، فالاستثناء متصل أو منقطع . وصوب أبو السعود الثاني ، بأن الأول يأباه مقام التبرؤ من أن يكون ، عليه الصلاة والسلام ، له دخل في إتيان الوعد . وبسط تقريره .

وأفاد بعض المحققين أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن الكريم للدلالة على الثبوت والاستمرار ، كما في هذه الآية ، وقوله : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ [هود : 107] ، قال : والنكتة في الاستثناء ؛ بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى ، لا بطبيعتها في نفسها ، ولو شاء تعالى أن يغيرها لفعل . وهو نفيس جداً فليحرص على حفظه .

(156/362)

وقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أي : لكل واحد من آحاد كل أمة أجل معين : ﴿ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ قال القاشاني : درَّجهم إلى شهود الأفعال بسلب الملك والتأثير عن نفسه ، ووجوب وقوع ذلك بمشيئة الله ، ليعرفوا آثار القيامة . ثم لوح إلى أن القيامة الصغرى هي بانقضاء آجالهم المقدرة عند الله بقوله : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 32 . 33 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

عطف على جملة ﴿ وإما نرينك بعض الذي نعدهم ﴾ [يونس : 46] ، والمناسبة أنه لما بيَّنت الآية السالفة أن تعجيل الوعيد في الدنيا لهم وتأخيره سواء عند الله تعالى ، إذ الوعيد الأتم هو وعيد الآخرة ، أتبعت بهذه الآية حكاية لتهكمهم على تأخير الوعيد .

وحُكي قولهم بصيغة المضارع لقصد استحضار الحالة ، كقوله تعالى : ﴿ ويصنع الفلك ﴾ [هود : 38] للدلالة على تكرر صدوره منهم ، وأطلق الوعد على الموعود به ، فالسؤال عنه باسم الزمان مُؤول بتقدير يدل عليه المقام ، أي متى ظهوره .

والسؤال مستعمل في الاستبطاء ، وهو كناية عن عدم اكتراثهم به وأنهم لا يأبهون به لينتقل من ذلك إلى أنهم مكذبون بحصوله بطريق الإيماء بقرينة قولهم : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي إن كنتم صادقين في أنه واقع فعينوا لنا وقته ، وهم يريدون أننا لا نصدقك حتى نرى ما وعدتنا كناية عن اعتقادهم عدم حلوله وأنهم لا يصدقون به .

والوعد المذكور هنا ما هددوا به من عذاب الدنيا .

والخطاب بقولهم : ﴿ إن كنتم ﴾ للرسول ، فضمير التعظيم للتهكم كما في قوله : ﴿ وقالوا يا أيها الذي نُزّل عليه الذكر إنَّك لمجنون ﴾ [الحجر : 6] وقولِه : ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ﴾ [الفرقان : 7] وقولِ أبي بكر بن الأسود الكناني ﴿ : يخَبّرنا الرسولُ بأنْ سنحْيَا وكيفَ حياة أصداء وهامِ ﴾ وهذا المحمل هو المناسب لجوابهم بقوله : ﴿ قل لا أملك ﴾ .

ويجوز أن يكون الخطاب للنبيء وللمسلمين ، جمعوهم في الخطاب لأن النبي أخبر به والمسلمين آمنوا به فخاطبوهم بذلك جميعاً لتكذيب النبي وإدخال الشك في نفوس المؤمنين به .

وإنما خص الرسول عليه الصلاة والسلام بالأمر بجوابهم لأنه الذي أخبرهم بالوعيد وأما المؤمنون فتابعون له في ذلك .

(158/362)

ومعنى : ﴿ لا أملك لنفسي ضَراً ولا نفعاً ﴾ : لا أستطيع ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضَراً ولا نفعاً ﴾ في سورة [العقود : 76] .

وقدم الضر على النفع لأنه أنسب بالغرض لأنهم أظهروا استبطاء ما فيه مضرتهم وهو

الوعيد ولأن استطاعة الضر أهون من استطاعة النفع فيكون ذكر النفع بعده ارتقاء .

والمقصود من جمع الأمرين الإحاطةُ بجنسي الأحوال .

وتقدم في سورة الأعراف وجه تقديم النفع على الضر في نظير هذه الآية .

وقوله : إلا ما شاء الله ﴾ استثناء منقطع بمعنى لكن ، أي لكن نفعي وضري هو ما يشاءه الله لي .

وهذا الجواب يقتضي إبطال كلامهم بالأسلوب المصطلح على تلقيبه في فن البديع بالمذهب الكلامي ، أي بطريق برهاني ، لأنه إذا كان لا يستطيع لنفسه ضراً ولا نفعاً فعدم استطاعته ما فيه ضَر غيره بهذا الوعد أولى من حيث إن أقرب الأشياء إلى مقدرة المرء هو ما له اختصاص بذاته ، لأن الله أودع في الإنسان قدرة استعمال قواه وأعضائه ، فلو كان الله مقدراً إياه على إيجاد شيء من المنافع والمضار في أحوال الكون لكان أقرب الأشياء إلى إقداره ما له تعلق بأحوال ذاته ، لأن بعض أسبابها في مقدرته ، فلا جرم كان الإنسان مسيّراً في شؤونه بقدرة الله لأن معظم أسباب المنافع والمضار من الحوادث منوط بعضه ببعض ، فموافقاته ومخالفاته خارجة عن مقدور الإنسان ، فلذلك قد يقع ما يضره وهو عاجز عن دفعه .

فكان معنى الجواب : أن الوعد من الله لا مِني وأنا لا أقدر على إنزاله بكم لأن له أجلاً عند الله .

وجملة : ﴿ لكل أمة أجل ﴾ من المقول المأمور به ، وموقعها من جملة : ﴿ لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ﴾ موقع العلة لأن جملة ﴿ لا أملك لنفسي ﴾ اقتضت انتفاء القدرة على حلول الوعد .

وجملة : ﴿ لكل أمة أجل ﴾ تتضمن أن سبب عدم المقدرة على ذلك هو أن الله قدر آجال أحوال الأمم .

(159/362)

ومن ذلك أجل حلول العقاب بهم بحكمة اقتضت تلك الآجال فلا يحل العقاب بهم إلا عند مجيء في ذلك الأجل ، فلا يقدر أحد على تغيير ما حدده الله .

وصورة الاستدلال بالطريق البرهاني أن قضية ﴿ لكل أمة أجل ﴾ قضية كلية تشمل كل أمة .

ولما كان المخاطبون من جملة الأمم كانوا مشمولين لحكم هذه القضية فكأنه قيل لهم : أنتم أمة من الأمم ولكل أمة أجل فأنتم لكم أجل فترقبوا حلوله .

وجملة : ﴿ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ صفة ل (أجل) ، أي أجل محدود لا يقبل التغير .

وقد تقدم الكلام على نظيرها في سورة الأعراف .

و﴿ إذا ﴾ في هذه الآية مشربة معنى الشرط ، فلذلك اقترنت جُملة عاملها بالفاء الرابطة للجواب معاملة للفعل العامل في (إذا) معاملة جواب الشرط . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(160/362)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

هذا الإنكار والتكذيب والاستهزاء هو منطق المشركين والملحدين في كل زمان ومكان ، وفي العصر القريب قاله الشيوعيون عندما قاموا بثورتهم الكاذبة ، وذبحوا الطبقة العليا في المجتمع بدعوى رفع الظلم عن الفقراء .

وإذا ما كانوا قد آمنوا بضرورة الثواب والعقاب ، فمن الذي يحكم ذلك ؟ هل الظالم يحكم على ظالم ، فتكون النتيجة أن الظالم سيهلك بالظالم ، وقد حدث ، فأين الشيوعيون الآن ؟ لماذا لم يلتفتوا إلى أن لهذا الكون خالقاً يعاقب من ظلموا من قبل ، أو من يظلمون من بعد ؟ إنهم لم يلتفتوا ؛ لأنهم اتخذوا المادة إلهاً ، وقالوا : لا إله ، والحياة مادة ، فأين هم الآن ؟

وإن كنتم قد تملّكتم في المعاصرين لكم ، وادعيتم أنكم نشرتم العدل بينهم ، فماذا عن الذين سبقوا ، والذين لحقوا ؟

هم إذن لم يلتفتوا إلى أن الله سبحانه وتعالى قد شاء ألا يموت ظالم إلا بعد أن ينتقم الله منه .

وهم لم يلتفتوا إلى أن وراء هذه الدار داراً أخرى يجُازَى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

وكان المنطق يقتضي أن يؤمن هؤلاء بأن لهذا الكون إلهاً عادلاً ، ولا بد أن يجيء اليوم الذي يجازى فيه كل إنسان بما عمل ، ولكنهم سخروا مثل سخرية الذين كفروا من قبلهم ، وجاء خبرهم في قول الله سبحانه على ألسنتهم : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس : 48] .

ولكن وعد الله حق ، ووعد الله قادم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم رسول من الله ، يبلغ ما جاء من عند الله تعالى ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه شيئاً .

ولذلك يقول القرآن بعد ذلك : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾

(161/362)

والرسول صلى الله عليه وسلم يبرّىء نفسه من كل حَوْل وطَوْل ، ويعلن ما أمره الحق سبحانه أن يعلنه ، فهو صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ؛ لأن النفع أو الضر بيد خالقه سبحانه ، وهو سبحانه وتعالى خالقكم ، وكل أمر هو بمشيئته سبحانه .

وهذه الآية جاءت ردّاً على سؤالهم الذي أورده الحق سبحانه في الآية السابقة : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس : 48] .

لقد تساءلوا بسخرية عن هذا الوعد بالعذاب ، وكأنهم استبطأوا نزول العذاب تهكُّماً ، وهذا يدل على أن قول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس : 47] .

هذه الآية لم تنزل ليوم القيامة ، بل نزلت لتوضح موقف مَنْ كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم والذين قالوا بعد ذلك :

﴿ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس : 48] .

وهذا يعني أنهم قالوا هذا القول قبل أن تقوم القيامة ، والآية التي توضح أن لكل أمة رسولاً تؤيدها آيات كثيرة ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] .

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ [الأنعام : 131] .

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ [طه : 134] .

وكل ذلك يؤيد أن الرسول المرسل إلى الأمة هو الرسول الذي جاء بمنهج الله تعالى ، فآمن به قوم ، وكذَّب به آخرون ، وقضى الله بين المؤمنين والكافرين بأن خذل الكافرين ونصر المؤمنين .

وإن استبطأ الكافرون الخذلان فلسوف يرونه ؛ ولذلك أمر الحق سبحانه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(162/362)

﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾ [يونس : 49] .

أي : أنكم إن كنتم تسألون محمداً صلى الله عليه وسلم عن الضر والنفع ، فهو صلى الله عليه وسلم مبلِّغ عن الله تعالى ، ولا يملك لنفسه ضَرّاً ولا نفعاً ، فضلاً عن أن يملك لهم هم ضَرّاً أو نفعاً ، وكل هذا الأمر بيد الله تعالى ، ولكل أمة أجلٌ ينزل بالذين كفروا فيها

بالعذاب ، ويقع فيها القول الفصل .

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ [يونس : 49] .

يفيدُ أن مشيئة الله هي الفاصلة ، ويدل على أن النبي والناس لا يملكون لأنفسم الضر أو النفع ؛ لأن الإنسان خُلِق على هيئة القَسْر في أمور ، وعلى هيئة الاختيار في أمور أخرى ، والاختيار هو في الأمور التكليفية مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] .

وأنت حُرٌّ في أن تطيع أو أن تعصي ، وكل ذلك داخل في نطاق اختيارك ، وإن صنع الإنسان طاعة ، فهو يصنع لنفسه نفعاً ، وإن صنع معصية ، صنع لنفسه ضَرّاً .

إذن : فهناك في الأمور الاختيارية ضر ونفع .

ومثال ذلك : من ينتحر بأن يشنق نفسه ، فهو يأتي لنفسه بالضر ، وقد ينقذه أقاربه ، وذلك بمشيئة الله سبحانه .

إذن : ففي الأمور الاختيارية يملك الإنسان بمشيئة الله الضر أو النفع لنفسه ، والله سبحانه يبين لنا أن لكل أمة أجلاً ، فلا تحددوا أنتم اجال الأمم ؛ لأن آجالهم استئصالاً ، أو عذاباً هي من عند الله سبحانه وتعالى .

والعباد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل بعجلة العباد ، حتى تبلغ الأمور ما أراد سبحانه ،

فالله تعالى مُنزَّه أن يكون موظفاً عند الخلق ، بل هو الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

وهو سبحانه القائل :

﴿ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء : 37] .

وهو سبحانه القائل :

(163/362)

﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير وكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ [الإسراء : 11] .

إذن : فالحق سبحانه يؤخِّر مراداته رحمة بالخَلْق ، وإذا جاء الأجل فهو لا يتأخر عن ميعاده ، ولا يتقدم عن ميعاده .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [يونس : 49] .

وقوله سبحانه : ﴿ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ليست من مدخلية جواب الشرط الذي جاء بعد ﴿ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس : 49] .

لأن الجواب هو : ﴿ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ .

فهم لا يستقدمون قبل أن يحين الأجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(164/362)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ الله ﴾ : فيه وجهان أحدهما : أنه استثناءٌ متصل تقديرُه : إلا ما شاء الله أن أَمْلكه وأُقْدِر عليه . والثاني : أنه منقطعٌ . قال الزمخشري : " هو استثناءٌ منقطع أي : ولكنْ ما شاء الله من ذلك كائن ، فكيف أَمْلك لكم الضررَ وجَلْبَ العذاب ؟ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 213 ﴾

(165/362)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48) ﴾

الاستعجال بهجوم الموعود من أمارات أصحاب التكذيب ، فأمَّا أهل التحقيق فليس لهم لواردٍ يرَدُ عليهم اشتغالٌ قبل وجوده ، أو استعجالٌ على حين كَوْنه ، ولا إذا وَرَدَ استقالٌ لما تضمنه حُكْمُه ؛ فهم مطروحون في أسْرِ الحُكْم ، لا يتحرك منهم – باختيارهم – عِرْقٌ .

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (49) ﴾

المملوكُ متى يكون له مِلْك ؟ !

وإذا كان سيِّدُ البرايا – عليه الصلاة والسلام – لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً . . فَمَنْ نَزَلَتْ رُتْبَتُه ، وتقاصرَتْ حالتُه متى يملك ذرةً أو تكون باختياره وإيثاره شمةٌ ؟

طاح الذي لم يكن – في التحقيق ، وتفرَّدَ الجبارُ بنعت الملكوت . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 99 ﴾

(166/362)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (42) ﴾

قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ ﴾ الخ بيّن الله سبحانه في هذا أن في أولئك الكفار من بلغت حاله في النفرة والعداوة إلى هذا الحد ، وهي أنهم يستمعون إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن وعلم الشرائع في الظاهر ، ولكنهم لا يسمعون في الحقيقة ؛ لعدم حصول أثر السماع ، وهو حصول القبول والعمل بما يسمعونه ، ولهذا قال : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم ﴾ يعني : أن هؤلاء وإن استمعوا في الظاهر فهم صمّ ، والصمم مانع من سماعهم ، فكيف تطمع منهم بذلك مع حصول المانع ، وهو : الصمم ، فكيف إذا انضمّ إلى ذلك أنهم لا يعقلون ، فإن من كان أصمّ غير عاقل ، لا يفهم شيئاً ولا يسمع ما يقال له .

وجمع الضمير في ﴿ يستمعون ﴾ حملاً على معنى من ، وأفرده في ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَنظُرُ ﴾ حملاً على لفظه .

قيل : والنكتة : كثرة المستمعين بالنسبة إلى الناظرين ؛ لأن الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر ، من المقابلة وانتفاء الحائل وانفصال الشعاع ، والنور الموافق لنور البصر ، والتقدير في قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ ﴾ ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَنظُرُ ﴾ ومنهم ناس يستمعون ، ومنهم بعض ينظر ، والهمزتان في ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ﴾ ﴿ أَفَأَنتَ تَهْدِى ﴾ للإنكار ، والفاء في الموضعين للعطف على مقدّر ، كأنه قيل : أيستمعون إليك فأنت تسمعهم ؟ أينظرون إليك فأنت تهديهم ؟ والكلام في : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ

تَهْدِي العمى وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ كالكلام في ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ ﴾ الخ؛ لأن العمى مانع ، فكيف يطمع من صاحبه في النظر .

(167/362)

وقد انضمّ إلى فقد البصر ، فقد البصيرة ؛ لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يكون له من الحدس الصحيح ما يفهم به في بعض الأحوال فهما يقوم مقام النظر ، وكذلك الأصمّ العاقل ، قد يتحدّس تحدّساً يفيده بعض فائدة ، بخلاف من جمع له بين عمي البصر والبصيرة ، فقد تعذر عليه الإدراك .

وكذا من جمع له بين الصمم وذهاب العقل ، فقد انسدّ عليه باب الهدى ، وجواب " لو " في الموضعين محذوف ، دلّ عليهما ما قبلهما ، والمقصود من هذا الكلام تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الطبيب إذا رأى مريضاً لا يقبل العلاج أصلاً أعرض عنه ، واستراح من الاشتغال به .

قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئًا ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ذكر هذا عقب ما تقدّم من عدم الاهتداء بالأسماع والأبصار ، لبيان أن ذلك لم يكن لأجل نقص فيما خلقه الله لهم من السمع والعقل ، والبصر والبصيرة ، بل لأجل ما صار في طبائعهم من التعصب

والمكابرة للحق ، والمجادلة بالباطل ، والإصرار على الكفر ، فهم الذين ظلموا أنفسهم بذلك ، ولم يظلمهم الله شيئاً من الأشياء ، بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به أكمل إدراك ، وركب فيهم من الحواس ما يصلون به إلى ما يريدون ، ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم ، وخلى بينهم وبين مصالحهم الدينية ، فعلى نفسها براقش تجني ، وقرأ حمزة والكسائي " ولكن الناس " بتخفيف النون ورفع الناس ، وقرأ الباقون بتشديدها ونصب الناس .

قال النحاس : زعم جماعة من النحويين منهم الفراء ، أن العرب إذا قالت "ولكن" بالواو شدّدوا النون ، وإذا حذفوا الواو خففوها .

قيل : والنكتة في وضع الظاهر موضع المضمر زيادة التعيين والتقرير ، وتقديم المفعول على الفعل لإفادة القصر ، أو لمجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة .

(168/362)

قوله : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ الظرف منصوب بمضمر : أي واذكر يوم نحشرهم ﴿ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ ﴾ أي : كأنهم لم يلبثوا ، والجملة في محلّ نصب على الحال : أي مشبهين من لم يلبث ﴿ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النهار ﴾ أي : شيئاً قليلاً منه ، والمراد باللبث : هو اللبث في الدنيا ، وقيل :

في القبور ، واستقلوا المدّة الطويلة إما لأنهم ضيعوا أعمارهم في الدنيا ، فجعلوا وجودها كالعدم ، أو استقصروها للدهش والحيرة ، أو لطول وقوفهم في المحشر ، أو لشدّة ما هم فيه من العذاب ، نسوا لذات الدنيا وكأنها لم تكن ، ومثل هذا قولهم : ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [المؤمنون : 113] وجملة : ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ في محل نصب على الحال ، أو مستأنفة .

والمعنى : يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً ، وذلك عند خروجهم من القبور ، ثم تنقطع التعاريف بينهم لما بين أيديهم من الأمور المدهشة للعقول ، المذهلة للأفهام .

(169/362)

وقيل : إن هذا التعارف ، هو : تعارف التوبيخ والتقريع ، يقول بعضهم لبعض : أنت أضللتني وأغويتني ، لا تعارف شفقة ورأفة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ [المعارج : 10] وقوله : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى الصور فَلاَ أنساب بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءلُونَ ﴾ [المؤمنون : 101] فيجمع بأن المراد بالتعارف ؛ هو : تعارف التوبيخ ، وعليه يحمل قوله : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ القول ﴾ [سبأ : 31] ، وقد جمع بين الآيات المختلفة في مثل هذا وغيره بأن المواقف يوم القيامة مختلفة ، فقد يكون

في بعض المواقف ما لا يكون في الآخر ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَاء الله وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ هذا تسجيل من الله سبحانه عليهم بالخسران ، والجملة في محل النصب على الحال ، والمراد بلقاء الله : يوم القيامة عند الحساب والجزاء ، ونفى عنهم أن يكونوا من جنس المهتدين لجهلهم ، وعدم طلبهم لما ينجيهم وينفعهم .

قوله : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ ﴾ أصله : إن نرك ، وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط وزيدت نون التأكيد ، والمعنى : إن حصلت منا الإراءة لك بعض الذي وعدناهم من إظهار دينك في حياتك بقتلهم وأسرهم ، وجواب الشرط محذوف ، والتقدير فتراه ، أو فذاك ، وجملة : ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ معطوفة على ما قبلها ، والمعنى : أو لا نرينك ذلك في حياتك ، بل نتوفينك قبل ذلك ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ فعند ذلك نعذبهم في الآخرة ، فنريك عذابهم فيها ، وجواب ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ محذوف أيضاً ، والتقدير : أو نتوفينك قبل الإراءة فنحن نريك ذلك في الآخرة .

(170/362)

وقيل : إن جواب ﴿ أونتوفينك ﴾ هو قوله : ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ لدلالته على ما هو المراد من إراءة النبي صلى الله عليه وسلم تعذيبهم في الآخرة ، وقيل : العدول إلى صيغة

المستقبل في الموضعين لاستحضار الصورة ، والأصل : أريناك أو توفيناك ، وفيه نظر ، فإن إراءته صلى الله عليه وسلم لبعض ما وعد الله المشركين من العذاب لم تكن قد وقعت كالوفاة .

وحاصل معنى هذه الآية : إن لم ننتقم منهم عاجلاً انتقمنا منهم آجلاً .

وقد أراه الله سبحانه قتلهم وأسرهم ، وذلهم وذهاب عزّهم ، وانكسار سورة كبرهم بما أصابهم به في يوم بدر وما بعده من المواطن ، فلله الحمد .

قوله : ﴿ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ على مَا يَفْعَلُونَ ﴾ جاء بثم الدالة على التبعيد ، مع كون الله سبحانه شهيداً على ما يفعلونه في الدارين ، للدلالة على أن المراد بهذه الأفعال ما يترتب عليها من الجزاء ، أو ما يحصل من إنطاق الجوارح بالشهادة عليهم يوم القيامة ، فجعل ذلك بمنزلة شهادة الله عليهم ، كما ذكره النيسابوري ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم الخالية في وقت من الأوقات ﴿ رَّسُولٍ ﴾ يرسله الله إليهم ، ويبيّن لهم ما شرعه الله لهم من الأحكام على حسب ما تقتضيه المصلحة ﴿ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ ﴾ إليهم ، وبلغهم ما أرسله الله به فكذبوه جميعاً ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : بين الأمة ورسولها ﴿ بالقسط ﴾ أي : العدل فنجا الرسول ، وهلك المكذبون له ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] .

ويجوز أن يراد بالضمير في ﴿ بينهم ﴾ الأمة على تقدير أنه كذبه بعضهم ، وصدقه البعض الآخر ، فيهلك المكذبون ، وينجو المصدقون ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ في ذلك القضاء ، فلا يعذبون بغير ذنب ، ولا يؤاخذون بغير حجة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجِيء بالنبيين والشهداء وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الزمر : 69] وقوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ [النساء : 41] .

والمراد المبالغة في إظهار العدل ، والنصفة بين العباد ، ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبه الكفار ، وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، كان كلما هددهم بنزول العذاب كانوا ﴿ يَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ والاستفهام منهم للإنكار ، والاستبعاد ، وللقدح في النبوّة ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ خطاباً منهم للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وللمؤمنين ، وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه ما قبله ، ويحتمل أن يراد بالقائلين هذه المقالة جميع الأمم الذين لم يسلموا لرسلهم الذين أرسلهم الله إليهم .

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم بما يحسم مادّة الشبهة ويقطع اللجاج فقال : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّا وَلاَ نَفْعًا ﴾ أي : لا أقدر على جلب نفع لها ، ولا دفع ضرّ عنها ، فكيف أقدر على أن أملك ذلك لغيري ، وقدّم الضرّ ، لأن السياق لإظهار العجز عن حضور الوعد الذي استعجلوه واستبعدوه ، والاستثناء في قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾

منقطع كما ذكره أئمة التفسير ، أي : ولكن ما شاء الله من ذلك كان ، فكيف أقدر على أن أملك لنفسي ضراً أو نفعاً ، وفي هذه أعظم واعظ ، وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجيراه المناداة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه ، وكذلك من صار يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه .

(172/362)

فإن هذا مقام ربّ العالمين الذي خلق الأنبياء والصالحين ، وجميع المخلوقين ، ورزقهم ، وأحياهم ويميتهم ، فكيف يطلب من نبيّ من الأنبياء ، أو ملك من الملائكة ، أو صالح من الصالحين ، ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ، ويترك الطلب لربّ الأرباب القادر على كل شيء ، الخالق الرازق المعطي المانع ؟ وحسبك بما في هذه الآية موعظة ، فإن هذا سيد ولد آدم ، وخاتم الرسل ، يأمره الله بأن يقول لعباده : لا أملك لنفسي ضرّاً ولا نفعاً ، فكيف يملكه لغيره ، وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته ، ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته لنفسه ، فضلاً عن أن يملكه لغيره ، فيا عجباً لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى ، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله عزّ وجلّ ؟ كيف لا

يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك ، ولا يتنبهون لما حلّ بهم من المخالفة لمعنى : لا إله إلا الله ، ومدلول : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] ؟ وأعجب من هذا : اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء ، ولا ينكرون عليهم ، ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى ، بل إلى ما هو أشدّ منها ، فإن أولئك يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق ، المحيي المميت ، الضارّ النافع ، وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله ، ومقرّبين لهم إليه ، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضرّ والنفع ، وينادونهم تارة على الاستقلال ، وتارة مع ذي الجلال ، وكفاك من شرّ سماعه ، والله ناصر دينه ، ومطهر شريعته من أوضار الشرك ، وأدناس الكفر ، ولقد توسل الشيطان أخزاه الله بهذه الذريعة إلى ما تقرّ به عينه ، وينثلج به صدره ، من كفر كثير من هذه الأمة المباركة ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : 104] إنا لله وإنا إليه راجعون .

(173/362)

ثم بيّن سبحانه أن لكل طائفة حدّاً محدوداً لا يتجاوزونه ، فلا وجه لاستعجال العذاب فقال : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ فإذا جاء ذلك الوقت ، أنجز وعده وجازى كلاً بما يستحقه ، والمعنى : أن لكل أمة ممن قضى بينهم وبين رسولهم ، أو بين بعضهم البعض أجلاً معيناً ،

ووقتاً خاصاً ، يحلّ بهم ما يريده الله سبحانه لهم عند حلوله : ﴿ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ ﴾ أي : ذلك الوقت المعين ، والضمير راجع إلى كل أمة ﴿ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عن ذلك الأجل المعين ﴿ سَاعَةِ ﴾ أي : شيئاً قليلاً من الزمان ﴿ وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ وعليه ، وجملة : ﴿ لا يستقدمون ﴾ معطوفة على جملة ﴿ لا يستأخرون ﴾ ، ومثله قوله تعالى : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُون ﴾ [الحجر : 5] والكلام على هذه الآية المذكورة هنا قد تقدّم في تفسير الآية التي في أوّل الأعراف ، فلا نعيده .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الحسن ، في قوله : ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ قال : يعرف الرجل صاحبه إلى جنبه لا يستطيع أن يكلمه .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ الآية .

قال : سوء العذاب في حياتك ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ وفي قوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ ﴾ قال : يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والستون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/363)

الجزء الثالث والستون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 50 ﴾ من سورة يونس عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 52 ﴾ من نفس السورة

(4/363)

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان جل قصدهم بذلك الاستهزاء ، وكان وقوعه أمراً ممكناً ، وكان من شأن العاقل أن يبعد عن كل خطر ممكن ، أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بجواب آخر حذف منه واو العطف لئلا يظن أنه لا يكفي في كونه جواباً إلا بضمنه إلى ما عطف عليه فقال : ﴿ قل ﴾ أي لمن استبطأ وعيدنا بالعذاب في الدنيا أو في الأخرى ، وهو لا يكون إلا بعد الأخذ في الدنيا إعلاماً بأن الذي يطلبونه ضرر لهم محض لا نفع فيه بوجه ، فهو مما لا يتوجه إليه قصد عاقل ﴿ أرءيتم ﴾ وهي من رؤية القلب لأنها دخلت على الجملة من الاستفهام ﴿ إن أتاكم

عذابه ﴾ في الدنيا .

ولما كان أخذ الليل أنكى وأسرع ، قدمه فقال : ﴿ بياتاً ﴾ أي في الليل بغتة وأنتم نائمون كما يفعل العدو ؛ ولما كان الظفر ليلاً لا يستلزم الظفر نهاراً مجاهرة قال : ﴿ أو نهاراً ﴾ أي مكاشفة وأنتم مستيقظون ، أتستمرون على عنادكم فلا تؤمنوا ؟ فكأنهم قالوا : لا ، فليجعل به ليرى ، فقيل : إنكم لا تدرون ما تطلبون ! إنه لا لمخلوق بنوع منه ، ولا يجترىء على مثل هذا الكلام إلا مجرم ﴿ ماذا ﴾ أي ما الذي ؟ ويجوز أن يكون هذا جواب الشرط ﴿ يستعجل ﴾ أي يطلب العجله ﴿ منه ﴾ أي من عذابه ، وعذابه كله مكروه لا يحتمل شيء منه ﴿ المجرمون ﴾ إذ سنة الله قد استمرت بأن المكذب لا يثبت إلا عند مخايله ، وأما إذا برك بكلكله وأناخ بثقله فإنه يؤمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿ ولن تجد لسنةِ الله تحويلاً ﴾ [فاطر : 43] وهذا معنى التراخي في قوله : ﴿ أثُمَّ إذا ما وقع ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 451 ﴾

(5/363)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

اعلم أن هذا هو الجواب الثاني عن قولهم ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [يونس : 48] وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

حاصل الجواب أن يقال لأولئك الكفار الذين يطلبون نزول العذاب بتقدير أن يحصل هذا المطلوب وينزل هذا العذاب ما الفائدة لكم فيه ؟ فإن قلتم نؤمن عنده ، فذلك باطل ، لأن الإيمان في ذلك الوقت إيمان حاصل في وقت الإلجاء والقسر ، وذلك لا يفيد نفعاً ألبتة ، فثبت أن هذا الذي تطلبونه لو حصل لم يحصل منه إلا العذاب في الدنيا ، ثم يحصل عقيبه يوم القيامة عذاب آخر أشد منه ، وهو أنه يقال : للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ، ثم يقرن بذلك العذاب كلام يدل على الإهانة والتحقير وهو أنه تعالى يقول : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ فحاصل هذا الجواب : أن هذا الذي تطلبونه هو محض الضرر العاري عن جهات النفع والعاقل لا يفعل ذلك .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ بَيَاتًا ﴾ أي ليلاً يقال بت ليلتي أفعل كذا ، والسبب فيه أن الإنسان في الليل يكون ظاهراً في البيت ، فجعل هذا اللفظ كناية عن الليل والبيات مصدر مثل التبييت كالوداع والسراح ، ويقال في النهار ظللت أفعل كذا ، لأن الإنسان في النهار يكون ظاهراً في الظل .

وانتصب ﴿ بياتاً ﴾ على الظرف أي وقت بيات وكلمة ﴿ مَاذَا ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : أن يكون ماذا اسماً واحداً ويكون منصوب المحل كما لو قال ماذا أراد الله ، ويجوز أن يكون ﴿ ذا ﴾ بمعنى الذي ، فيكون ﴿ ماذا ﴾ كلمتين ومحل ﴿ ما ﴾ الرفع على الابتداء وخبره ﴿ ذا ﴾ وهو بمعنى الذي ، فيكون معناه ما الذي يستعجل منه المجرمون ومعناه ، أي شيء الذي يستعجل من العذاب المجرمون .

واعلم أن قوله : ﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ﴾ شرط .

وجوابه : قوله ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ ، وهو كقولك إن أتيتك ماذا تطعمني ، يعني : إن حصل هذا المطلوب ، فأي مقصود تستعجلونه منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 88 ﴾

(6/363)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ﴾

ظرفان ، وهو جواب لقولهم : "مَتَى هَذَا الْوَعْدُ" وتسفيهٌ لآرائهم في استعجالهم العذاب ؛ أي إن أتاكم العذاب فما نَفْعُكم فيه ، ولا ينفعكم الإيمان حينئذ .

﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ المجرمون ﴾ استفهام معناه التهويل والتعظيم ؛ أي ما أعظم ما يستعجلون به ؛ كما يقال لمن يطلب أمراً يستوخم عاقبته : ماذا تجني على نفسك !

والضمير في "منه" قيل : يعود على العذاب ، وقيل : يعود على الله سبحانه وتعالى .

قال النحاس : إن جعلت الهاء في "منه" تعود على العذاب كان لك في "ماذا" تقديران : أحدهما أن يكون "ما" في موضع رفع بالابتداء ، و "ذا" بمعنى الذي ، وهو خبر "ما" والعائد محذوف .

والتقدير الآخر أن يكون "ماذا" اسماً واحداً في موضع رفع بالابتداء ، والخبر في الجملة ، قاله الزجاج : وإن جعلت الهاء في "منه" تعود على اسم الله تعالى جعلت "ما" ، و "ذا" شيئاً واحداً ، وكانت في موضع نصب ب "يستعجل" ؛ والمعنى : أيّ شيء يستعجل منه المجرمون من الله عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(7/363)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لهم غِبَّ ما بيّنتَ كيفيةَ جريانِ سنةِ الله عز وجل فيما بين الأمم على الإطلاق

ونبهتَهم على أن عذابَهم أمرٌ مقررٌ محتومٌ لا يتوقف إلا على مجيء أجله المعلومِ إيذاناً بكمال دنوّه وتنزيلاً له منزلةَ إتيانِه حقيقة ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ ﴾ الذي تستعجلون به ﴿ بَيَاتًا ﴾ أي وقتَ بياتٍ واشتغالٍ بالنوم ﴿ أَوْ نَهَارًا ﴾ أي عند اشتغالِكم بمشاغلكم حسبما عُيِّن لكم من الأجل بمقتضى المشيئةِ التابعةِ للحكمة كما عيّن لسائر الأممِ المهلَكة ، وقوله عز وجل : ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ المجرمون ﴾ جوابٌ للشرط بحذف الفاءِ كما في قولك : إن أتيتُك ماذا تطعمني ؟ والمجرمون موضوعٌ موضعَ المضمر لتأكيد الإنكارِ ببيان مباينةِ حالِهم للاستعجال ، فإن حقَّ المجرمِ أن يَهلك فزَعاً من إتيان العذابِ فضلاً عن استعجاله ، والجملةُ الشرطيةُ متعلقةٌ بأرأيتم ، والمعنى أخبروني إن أتاكم عذابُه تعالى أيَّ شيءٍ تستعجلون منه سبحانه والشيءُ لا يمكن استعجالُه بعد إتيانِه ، والمرادُ به المبالغةُ في إنكار استعجالِه بإخراجه عن حيز الإمكانِ ، وتنزيلُه في الاستحالة منزلةَ استعجالِه بعد إتيانِه بناءً على تنزيل تقرر إتيانِه ودنوّه منزلةَ إتيانه حقيقةً كما أشير إليه ، وهذا الإنكارُ بمنزلة النهي في قوله عز وعلا : ﴿ أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ خلا أن التنزيلَ هناك صريحٌ وهنا ضمنيٌّ كما في قول من قال لغريمه الذي يتقضّاه حقَّه : أرأيتَ إن أعطيتُك حقَّك فماذا تطلُب مني ؟ يريد المبالغةَ في إنكار التقاضي بنظمه في سلك التقاضي بعد الإعطاءِ بناءً على تنزيل تقرّره منزلةَ نفسِه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لهم بعد ما بينت لهم كيفية حالك وجريان سنة الله تعالى فيما بين الأمم على الإطلاق ونبهتهم على أن عذابهم أمر مقرر محتوم لا يتوقف إلا على مجىء أجله المعلوم إيذاناً بكمال دنوه وتنزيلاً له منزلة إتيانه حقيقة ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ ﴾ الذي تستعجلون به ولعل استعمال ﴿ إن ﴾ من باب المجاراة ﴿ بَيَاتًا ﴾ أي وقت بيات ﴿ أَوْ نَهَارًا ﴾ أي عند اشتغالكم بمشاغلكم وإنما لم يقل ليلاً ونهاراً ليظهر التقابل لأن المراد الإشعار بالنوم والغفلة والبيات متكفل بذلك لأنه الوقت الذي يبيت فيه العدو ويوقع فيه ويغتنم فرصة غفلته وليس في مفهوم الليل هذا المعنى ولم يشتهر شهرة النهار بالاشتغال بالمصالح والمعاش حتى يحسن الاكتفاء بدلالة الالتزام كما في النهار ، وقد يقال : النهار كله محل الغفلة لأنه إما زمان اشتغال بمعاش أو زمان قلولة بخلاف الليل فإن محل الغفلة فيه ما قارب وسطه وهو وقت البيات فلذا خص بالذكر ، والبيات جاء بمعنى البيتوتة وبمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم والمعنى المراد هنا مبني على هذا ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ المجرمون ﴾ أي أي

شيء يستعجلون من العذاب وليس شيء منه يوجب الاستعجال لما أن كله مكروه مر المذاق موجب للنفار ، فمن للتبعيض والضمير للعذاب والتنكير في شيء للفردية ، وجوز أن يكون المعنى على التعجب وهو مستفاد من المقام كأنه قيل : أي هول شديد يستعجلون منه ، فمن بيانية وتجريدية بناءً على عد الزمخشري لها منها ، وقيل : الضمير لله تعالى ، وعليه فالمعنى على الثاني ولكن تزول فائدة الإبهام والتفسير وما فيه من التفخيم .

(9/363)

وما قيل : إنه أبلغ على معنى هل تعرفون ما العذاب المعذب به هو الله سبحانه فهو مشترك على التقديرين ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ عَذَابَهُ ﴾ ، و﴿ مَاذَا ﴾ بمعنى أي شيء منصوب المحل مفعولاً مقدماً وهو أولى من جعله مبتدأ ، ومن فعل قدر العائد ، ومن قال : إن ضمير ﴿ مِنْهُ ﴾ هو الرابط مع تفسيره بالعذاب جنح إلى أن المستعجل من العذاب فهو شامل للمبتدأ فيقوم مقام رابطه لأن عموم الخبر في الاسم الظاهر يكون رابطاً على المشهور ففي الضمير أولى .

وزعم أبو البقاء أن الضمير عائد إلى المبتدأ وهو الرابط وجعل ذلك نظير قولك : زيد أخذت منه درهماً وليس بشيء كما لا يخفى ، والمراد من المجرمون المخاطبون ، وعدل عن

الضمير إليه للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغي أن يفزعوا من إتيان العذاب فضلاً عن أن يستعجلوه ، وقيل : النكتة في ذلك إظهاره تحقيرهم وذمهم بهذه الصفة الفظيعة ، والجملة متعلقة بأرأيتم على أنها استئناف بياني أو في محل نصب على المفعولية وعلق عنها الفعل للاستفهام ، وهو في الأصل استفهام عن الرؤية البصرية أو العلمية ثم استعمل بمعنى أخبروني لما بين الرؤية والإخبار من السببية والمسببية في الجملة فهو مجاز فيما ذكر وإليه ذهب الكثير ، وذهب أبو حيان إلى أن ذلك بطريق التضمين ولم يستعمل إلا في الأمر العجيب ، وجواب الشرط محذوف أي إن أتاكم عذابه في أحد ذينك الوقتين تندموا أو تعرفوا الخطأ أو فاخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون .

وزعم أبو حيان تعين الأخير لأن الجواب إنما يقدر مما تقدمه لفظاً أو تقديراً ولم يدر أن تقديره من غير جنس المذكور إذا قامت قرينة عليه ليس بعزيز ، ولئن سلم صحة الحصر الذي ادعاه فما ذكر غير خارج عنه بناء على أن المقصود من ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ﴾ الخ تنديمهم أو تجهيلهم كما نص عليه بعض المحققين .

(10/363)

وفي "الكشف" تقريراً لأحد الأوجه المذكورة في "الكشاف" أن ﴿ مَاذَا ﴾ الخ متعلق الاستخبار والشرط مع جوابه المحذوف مقرر لمضمون الاستخبار ولهذا وسط بينهما ، ولما كان في الاستفهام تجهيل وتنديم قدر الجواب تندموا أو تعرفوا الخطأ ، ولا مانع من تقديرهما معاً أو ما يفيد المعنيين ولهذا حذف الجواب ووسط تأكيداً على تأكيد انتهى . وجوز كون ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ ﴾ جواباً للشرط كقولك : إن أتيتك ماذا تطعمني والمجموع بتمامه متعلق ﴿ بأرأيتم ﴾ ورد بأن جواب الشرط إذا كان استفهاماً فلا بد فيه من الفاء تقول إن زارنا فلان فأي رجل هو ولا تحذف إلا ضرورة ، وقد صرح في المفصل بأن الجملة إذا كانت إنشائية لا بد من الفاء معها ، والاستفهام وإن لم يرد به حقيقته لم يخرج عن الإنشائية ، والمثال مصنوع فلا يعول عليه .

(11/363)

وأجيب بأن الرضي صرح بأن وقوع الجملة الاستفهامية جواباً بدون الفاء ثابت في كثير من الكلام الفصيح ، ولو سلم ما ذكر فيقدر القول وحذفه كثير مطرد بلا خلاف ، وأورد أيضاً على هذا الوجه أن استعجال العذاب قبل إتيانه فكيف يكون مرتباً عليه وجزاء له ، وأجيب بأنه حكاية عن حال ماضية أي ماذا كنتم تستعجلون ، ويشهد لهذا التصريح

بكنتم فيما بعد والقرآن يفسر بعضه بعضً ، وأنت تعلم أن مجرد ذلك لا يجوز كونه جواباً لأن الاستعجال الماضي لا يترتب على إتيان العذاب فلا بد من تقدير نحو تعلموا أي تعلموا ماذا الخ ، وقيل : إن أتاكم بمعنى إن قارب إتيانه إياكم أو المراد إن أتاكم أمارات عذابه ، وقيل : حيث أن المراد إنكار الاستعجال بمعنى نفيه رأساً صح كونه جواباً ، واعترض على جعل مجموع الشرطية متعلقاً ﴿ بأرأيتم ﴾ بأنه لا يصح أن يكون مفعولاً به له بناءً على أنه بمعنى أخبروني وهو متعد بعن ولا تدخل الجملة إلا أنها إذا اقترنت بالاستفهام وقلنا بجواز تعليقها وفيه كلام في العربية جاز ، ودفع بأن مراد القائل بالتعلق التعلق اللغوي لأن المعنى أخبروني عن صنيعكم أن أتاكم الخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(12/363)

وقال القاسمى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي : أخبروني : ﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ ﴾ أي : الذي تستعجلون به : ﴿ بَيَاتاً ﴾ أي : ليلاً : ﴿ أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي : ولا شيء منه بمرغوب البتة .

لطائف :

الأولى – (أرأيت) يستعمل بمعنى الاستفهام عن الرؤية البصرية أو العلمية ، وهو أصل وضعه ، ثم استعملوه بمعنى (أخبرني) والرؤية فيه يجوز أن تكون بصرية وعلمية ، فالتقدير : أأبصرت حالته العجيبة ، أو أعرفتها ؟ فأخبرني عنها . ولذا لم يستعمل في غير الأمر العجيب . ولما كانت رؤية الشيء سبباً لمعرفته ، ومعرفته سبباً للإخبار عنه ، أطلق السبب القريب أو البعيد ، وأريد مسببه ، وهل هو بطريق التجوز كما ذهب إليه كثير ، أو التضمين كما ذهب إليه أبو حيان – كذا في " العناية " .

الثانية – سر إِيثار (بياتاً) على (ليلاً) مع ظهور التقابل فيه ؛ الإشعار بالنوم والغفلة ، وكونه الوقت الذي يبيت فيه العدو ، ويتوقع فيه ، ويغتنم فرصة غفلته ، وليس في مفهوم الليل هذا المعنى ، ولم يشتهر شهرة النهار بالاشتغال بالمصالح والمعاش ، حتى يحسن الاكتفاء بدلالة الالتزام كما في النهار ، أو النهار كله محل الغفلة ، لأنه إما زمان اشتغال بمعاش أو غذاء ، أو زمان قيلولة ، كما في قوله : ﴿ بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ [الأعراف : من الآية 4] بخلاف الليل ، فإن محل الغفلة فيه ما قارب وسطه وهو وقت البيات ، لذا خص بالذكر دون النهار . و (البيات) بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم ، ولا بمعنى البيتوتة .

(13/363)

الثالثة – قيل : إن استعجالهم العذاب ، كان المقصود منه الاستبعاد والاستهزاء ، دون ظاهره ، فورود (ما) هنا في الجواب على الأسلوب الحكيم ؛ لأنهم ما أرادوا بالسؤال إلا الاستبعاد أن الموعود منه تعالى ، وأنه افتراء ، فطلبوا منه تعيين وقته تهكماً وسخرية ، فقال في جوابهم : هذا التهكم لا يتم إذا كنت مقراً بأني مثلكم ، وأني لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ، فكيف أدعي ما ليس لي به حق ؟ ثم شرع في الجواب الصحيح ، ولم يلتفت إلى تهكمهم واستبعادهم – أفاده الطيبي – .

الرابعة – سر إيثار : ﴿ مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ على (مَاذَا يَسْتَعْجِلونَ مِنْهُ) هو الدلالة على موجب ترك الاستعجال ، وهو الإجرام ، لأن من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ، ويهلك فزعاً من مجيئه ، وإن أبطأ ، فضلاً عن أن يستعجله – كذا في " الكشاف " – .

قال في " الانتصاف " : وفي هذا النوع البليغ نكتتان :

إحداهما : وضع الظاهر مكان المضمر ، والأخرى : ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر .

وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة والمبالغة – والله أعلم – . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 33.34 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

هذا جواب ثان عن قولهم : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [يونس : 48] باعتبار ما يتضمنه قولهم من الوعد بأنهم يؤمنون إذا حق الوعد الذي توعدهم به ، كما حكي عنهم في الآية الأخرى ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً إلى قوله : ﴿ أو تسقط السماء كما زعمتَ علينا كِسفاً ﴾ [الإسراء : 90 92] ، وهذا الجواب إبداء لخلل كلامهم واضطراب استهزائهم ، وقع هذا الأمر بأن يجيبهم هذا الجواب بعد أن أمر بأن يجيبهم بقوله : ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ﴾ [يونس : 49] ، وهذا الجواب واقع موقع التسليم الجدلي بعد أن يجاب المخطىء بالإبطال . وحاصل هذا الجواب إن قدر حصول ما سألتم تعيين وقته ونزول كسف من السماء بكم أو نحوه ماذا يحصل من فائدة لكم في طلب تعجيل حصوله إذ لا تخلون عن أن تكونوا تزعمون أنكم تؤمنون حينئذٍ فذلك باطل لأن العذاب يعاجلكم بالهلاك فلا يحصل إيمانكم .

وهذا كما قال بعض الواعظين : نحن نريد أن لا نموت ؛ حتى نتوب ؛ ونحن لا نتوب حتى نموت .

ووقع في خلال هذا الجواب تفنن في تخييل التهويل لهذا العذاب الموعود بقوله : ﴿ إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ﴾ تخييلاً يناسب تحقق وقوعه فإن هاذين الوقتين لا يخلو حلول الحوادث عن أحدهما ، على أنه ترديد لمعنى العذاب العاجل تعجيلاً قريباً أو أقلَّ قرباً ، أي أتاكم في ليل هذا اليوم الذي سألتموه أو في صبيحته ، على أن في ذكر هذين الوقتين تخييلاً مَا لصورة وقوع العذاب استحضاراً له لديهم على وجه يحصل به تذكيرهم انتهازاً لفرصة الموعظة ، كالتذكير به في قوله : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون ﴾ [الأنعام : 47] .

(15/363)

والبيات : اسم مصدر التبييت ، ليلاً كالسلام للتَّسليم ، وذلك مباغتة .

وانتصب ﴿ بياتاً ﴾ على الظرفية بتقدير مضاف ، أي وقت بيات .

وجواب شرط ﴿ إن أتاكم عذابه ﴾ محذوف دل عليه قوله : ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ الذي هو ساد مسد مفعولي (أرأيتم) إذ علقه عن العمل الاستفهام بـ (ماذا)

.

و﴿ ماذا ﴾ كلمتان هما (ما) الاستفهامية و (ذا) .

أصله إشارة مشار به إلى مأخوذ من الكلام الواقع بعده .

واستعمل (ذا) مع (ما) الاستفهامية في معنى الذي لأنهم يراعون لفظ الذي محذوفاً .

وقد يظهر كقوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة : 255] .

وهذا الاستفهام مستعمل في الإنكار عليهم ، وفي التعجيب من تعجلهم العذاب بنية أنهم يؤمنون به عند نزوله .

و(مِن) للتبعيض .

والمعنى ما الذي يستعجله المجرمون من العذاب ، أي لا شيء من العذاب بصالحٍ لاستعجالهم إياه لأن كل شيء منه مهلك حائل بينهم وبين التمكن من الإيمان وقت حلوله .

وفائدة الإشارة إليه ، تهويله أو تعظيمه أو التعجيب منه كقوله تعالى:

﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ [البقرة : 26] ، فالمعنى ما هذا العذاب العظيم في حال كونه يستعجله المجرمون ، فجملة ﴿ يستعجل منه ﴾ في موضع الحال من اسم الإشارة ، أي أن مثله لا يُستعجل بل شأنه أن يُستأخَر .

و(من) بيانية ، والمعنى معها على معنى ما يسمى في فن البديع بالتجرد .

واعلم أن النحاة يذكرون استعمال (ماذا) بمعنى (ما الذي) وإنما يعنون بذلك بعض مواضع استعماله وليس استعمالاً مطرداً .

وقد حقق ابن مالك في "الخلاصة" إذ زاد قيداً في هذا الاستعمال فقال

ومثل ما ، ذا بعد ما استفهام . . .

أو مَن إذا لم تلغ في الكلام

يريد إذا لم يكن مزيداً .

وإنما عبر بالإلغاء فراراً من إيراد أن الأسماء لا تزاد .

(16/363)

والحق أن المراد بالزيادة أن اسم الإشارة غير مفيد معناه الموضوع له ولا هو بمفيد تأسيس معنى في الكلام ولكنه للتقوية والتأكيد الحاصل من الإشارة إلى ما يتضمنه الكلام ، وقد أشار إلى استعمالاته صاحب "مغنى اللبيب" في فصل عقده ل (ماذ) وأكثر من المعاني ولم يحرر انتساب بعضها من بعض .

وانظر ما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ [يونس : 32] المتقدم آنفاً ، وقوله تعالى : ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ في سورة [البقرة : 26] .

والمجرمون : أصحاب الجرم وهو جرم الشرك .

والمراد بهم الذين يقولون ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [يونس : 48] ، وهم مشركو مكة فوقع الإظهار في مقام الإضمار عوض أن يقال ماذا يستعجلون منه لقصد التسجيل عليهم

بالإجرام ، وللتنبيه على خَطَئِهم في استعجال الوعيد لأنه يأتي عليهم بالإهلاك فيصيرون إلى الآخرة حيث يُفضون إلى العذاب الخالد فشأنهم أن يستأخروا الوعد لا أن يستعجلوه ، فدل ذلك على أن المعنى لا يستعجلون منه إلاّ شراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(17/363)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) ﴾

وهذا رَدٌّ شافٍ على استعجالهم للعذاب ، فإن جاءكم العذاب فَلْتَرَ ماذا سيكون موقفكم

.

وهُمْ باستعجالهم العذاب يبرهنون على غبائهم في السؤال عن وقوع العذاب .

وقول الحق سبحانه : ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ . أي : أخبروني عما سوف يحدث لكم .

وشاء الحق سبحانه أن يأتي أمر العذاب هنا مبهماً من جهة الزمان فقال سبحانه :

﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً ﴾ [يونس : 50] .

والبيات مقصود به الليل ؛ لأن الليل محل البيتوتة ، و النهار محل الظهور .

والزمن اليومي مقسوم لقسمين : ليل ، ونهار .

وشاء الحق سبحانه إبهام اليوم والوقت ، فإن جاء ليلاً ، فالإنسان في ذلك الوقت يكون غافلاً نائماً في الغالب ، وإن جاء نهاراً ، فالإنسان في النهار مشغول بحركة الحياة .

والحق سبحانه يقول في موضع آخر :

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ [الأعراف : 97] .

ويقول سبحانه :

﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأعراف : 98] .

ولو نظرت إلى الواقع لوجدت أن العذاب يأتي في الليل وفي النهار معاً ، لأن هناك بلاداً يكون الوقت فيها ليلاً ، وفي ذات الوقت يكون الزمن نهاراً في بلاد أخرى .

وإذا جاء العذاب بغتة ، وحالوا إعلان الإيمان ، فلن ينفعهم هذا الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يقول فيمن يتخذ هذا الموقف :

﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين ﴾ [يونس : 91] .

(18/363)

فإن جاءكم العذاب الآن لما استقلتم منه ؛ لأنه لن ينفعكم إعلان الإيمان ، ولن يقبل الله منكم ، وبذلك يصيبكم عذاب في الدنيا ، بالإضافة إلى عذاب الآخرة ، وهذا الاستعجال منكم للعذاب يضاعف لكم العذاب مرتين ، في الدنيا ، ثم العذاب الممتد في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(19/363)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ : قد تقدَّم الكلام على / " أَرَأَيْتَ " هذه ، وأنها تتضمَّن معنى أخبرني فتتعدى إلى اثنين ، ثانيهما غالباً جملة استفهامية فينعقد منها مع ما قبلها مبتدأٌ وخبرٌ كقولِهم : " أرأيتَك زيداً ما صنع " وتقدَّم مذاهبُ الناسِ فيها في سورة الأنعام فعليك باعتباره ثَمَّة . ومفعولُها الأول في هذه الآية الكريمة محذوفٌ ، والمسألةُ من بابِ الإعمال لأنه تنازع أرأيت وأتاكم في " عذاب " ، والمسألةُ من إعمال الثاني ، إذ هو المختار عند البصريين ، ولمَّا أعمله أضمر في الأول وحَذَفَه ، لأنَّ إبقاءَه مخصوصٌ بالضرورة ، أو جائزٌ

الذكرِ على قلةٍ عند آخرين ، ولو أعمل الأول لأضمرَ في الثاني ؛ إذ الحذف منه لا يكون إلا في ضرورة أو في قليلٍ من الكلام ، ومعنى الكلام : قل لهم يا محمد أخبروني عن عذاب الله إن أتاكم ، أيُّ شيءٍ تستعجلون منه ، وليس شيءٌ من العذاب يُسْتعجل به لمرارته وشدة إصابته فهو مُقْتَضٍ لنفورِ الطَّبَع منه . قال الزمخشري " فإن قلت : بم يتعلَّق الاستفهامُ وأين جوابُ الشرط ؟ قلت : تعلَّق ب " أرأيتم " لأن المعنى : أخبروني ماذا يَسْتعجل منه المجرمون ، وجوابُ الشرط محذوف وهو " تَنْدموا على الاستعجال " أو " تعرفوا الخطأ فيه " . قال الشيخ : " وما قَدَّره غيرُ سائغ لأنه لا يُقَدَّر الجوابُ إلا مَّا تقدَّمَه لفظاً أو تقديراً تقول : " أنت ظالمٌ إن فعلت " التقدير : إن فعلت فأنت ظالم ، وكذلك : ﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : 70] التقدير : إن شاءَ اللهُ نَهْتَدِ ، فالذي يُسَوِّغ أن يُقَدَّر : إن أتاكم عذابه فأخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون " .

(20/363)

وقال الزمخشري أيضاً : " ويجوز أن يكونَ " ماذا يَسْتعجل منه المجرمون " جواباً للشرط كقولك : إنْ أَتَيْتك ما تُطْعمني ؟ ثم تتعلَّق الجملةُ ب " أرأيتم " ، وأن يكونَ " أثُمَّ إذا ما وقع آمنتم به " . جواباً للشرط ، و " ماذا يَسْتعجل منه المجرمون " اعتراضاً ، والمعنى : إنْ

أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعِه حينَ لا ينفعكم الإيمان " . قال الشيخ : " أمَّا تجويزُه أن يكون " ماذا " جواباً للشرط فلا يَصِح ، لأن جوابَ الشرط إذا كان استفهاماً فلا بد فيه من الفاء تقول : إنْ زارنا فلان فأيُّ رجل هو ، وإن زارَنا فلانٌ فأيُّ يدٍ له بذلك ، ولا يجوز حذفها إلا إن كان في ضرورةٍ ، والمثالُ الذي ذكره وهو " إن أتيتك ما تُطْعمني ؟ " هو مِنْ تمثيلِه لا من كلام العرب . وأمَّا قوله : " ثمَّ تتعلَّق الجملةُ ب " أرأيتم " إن عنى بالجملة " ماذا يَسْتعجل " فلا يصحُّ ذلك ، لأنه قد جعلها جواباً للشرط ، وإن عَنَى بالجملة جملةَ الشرط فقد فسَّر هو " أرأيتم " بمعنى أخبروني ، و " أخبرني " يطلب متعلقاً مفعولاً ، ولا تقع جملةُ الشرط موقعَ مفعول أخبرني .

وأمَّا تجويزُه أن يكون " أثم إذا ما وقع آمنتم به " جواباً للشرط و " ماذا يستعجل منه المجرمون " اعتراضاً فلا يَصِحُّ أيضاً لِما ذكرناه مِنْ أنَّ جملةَ الاستفهام لا تقع جواباً للشرط إلا ومعها فاءُ الجواب ، وأيضاً ف " ثم " هنا هي حرف عطفٍ تَعْطِفُ الجملةَ التي بعدها على التي قبلها ، فالجملةُ الاستفهامية معطوفةٌ ، وإذا كانت معطوفة لم يَصِحَّ أن تقعَ جوابَ الشرط ، وأيضاً ف " أرأيتم " بمعنى " أخبروني " تحتاج إلى مفعول ، ولا تقعُ جملةُ شرط موقعَه " .

(21/363)

وكونُ "أرأيتم" بمعنى "أخبروني" هو الظاهر المشهور . وقال الحوفي : "الرؤيةُ مِنْ رؤية القلب التي بمعنى العلم لأنها داخلةٌ على الجملة من الاستفهام التي معناها التقرير ، وجوابُ الشرط محذوفٌ ، وتقديرُ الكلام : أرأيتم ما يستعجل من العذاب المجرمون إنْ أتاكم عذابه" . انتهى ، فهذا ظاهرٌ في أنَّ "أرأيتم" غيرُ مضمنةٍ معنى الإِخبار ، وأن الجملةَ الاستفهامية سَدَّت مَسَدَّ المفعولين ، ولكن المشهور الأول . /

(22/363)

قوله : ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ ﴾ قد تقدَّم الكلام على هذه الكلمة ومذاهبِ الناس فيها . وجَوَّز بعضُهم هنا أن تكون "ما" مبتدأً و "ذا" خبره ، وهو موصولٌ بمعنى الذي ، و "يستعجل" صلتُه وعائدُه محذوفٌ تقديره : أيُّ شيء الذي يستعجله منه أي من العذاب ، أو من الله تعالى . وجوَّز آخرون كمكي وأنظارِه أن يكونَ "ماذا" كلُّه مبتدأً أي : يُجعل الاسمان بمنزلةِ اسمٍ واحد ، والجملةُ بعده خبره . وقال أبو علي : "وهو ضعيفٌ لخلوِّ الجملةِ من ضمير يعود على المبتدأ" . وقد أجاب أبو البقاء عن هذا فقال : "ورُدَّ هذا القول بأنَّ الهاء في "منه" تعودُ على المبتدأ كقولك : "زيدٌ أَخَذْتُ منه درهماً" . قلت : ومِثْلُ أبي علي لا يخفى عليه مثل ذلك ، إلا أنه لا يَرَى عَوْدَ الهاءِ على الموصولِ لأن الظاهرِ

عَوْدُها على العذاب . قال الشيخ : " والظاهرُ عَوْدُ الضمير في " منه " على العذاب ، وبه يَحْصُل الربطُ لجملةِ الاستفهامِ بمفعول " أرأيتم " المحذوف الذي هو مبتدأٌ في الأصل " .

وقال مكي : " وإن شئت جعلت " ما " و " ذا " بمنزلة اسمٍ واحدٍ في موضع رفع بالابتداء ، والجملةُ التي بعده الخبر ، والهاءُ في " منه " تعود أيضاً على العذاب " . قلت : فقد تُرك المبتدأُ بلا رابطٍ لفظي حيث جَعَل الهاءَ عائدةً على غير المبتدأ فيكون العائدُ عند محذوفاً . لكنه قال بعد ذلك : " فإنْ جعلت الهاء في " منه " تعود على الله جلَّ ذكره و " ما " و " ذا " اسماً واحداً كانت " ما " في موضع نصب ب " يستعجل " والمعنى : أيَّ شيء يستعجل المجرمون من الله " فقوله هذا يؤذنَ بأن الضميرَ لمَّا عاد على غير المبتدأ جعله مفعولاً مقدماً ، وهذا الوجهُ بعينه جائزٌ فيما إذا جُعل الضمير عائداً على العذاب . ووجهُ الرفعِ على الابتداء جائزٌ فيما إذا جُعِل الضمير عائداً على الله تعالى إذ العائدُ الرابطُ مقدرٌ كما تقدم التنبيهُ عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 213.216﴾

(23/363)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) ﴾

مَنْ عَرَفَ كمالَ القدرة لم يأمَنْ فجأةَ الأخذِ بالشدة ، ومن خاف البيات لم يستلذ السُّبات .

ويقال مَنْ توسَّدَ الغفلة أيقظْته فجاءةُ العقوبة ، ومَنْ استوطن مركب الزَّلَّة عَثَرَ في وَهْدَةِ المحنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 100 ﴾

(24/363)

قوله تعالى ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

قوله : ﴿ أثُمَّ إذا ما وقع ﴾ أي عذابه وانتفى كل ما يضاده ﴿ آمنتم به ﴾ وذلك أنه كانت عادتهم كمن قبلهم الاستعجال بالعذاب عند التوعد به ، وكانت سنة الله قد جرت بأن المكذبين إذا أتاهم العذاب يتراخى إيمانهم بعد مجيء مقدماته وقبل اجتثاثهم بعظائم صدماته لشدة معاندتهم فيه وتوطنهم عليه كما وقع للأولين من الأمم بغياً وعتواً كقوم صالح لما تغيرت وجوههم بألوان مختلفة في اليوم الأول ثم الثاني ثم الثالث وأيقنوا بالهلكة وودع بعضهم بعضاً ولم يؤمنوا .

وجرت بأنهم إذا ذاقوا مس العذاب وأخذتهم فواجئه الصعاب شغلتهم دواهيه عن العناد واضطرتهم أهواله إلى سهل الانقياد ، فكان في غاية الحسن وضع تقريعهم على الاستعجال عقب الوعيد ، ثم وضع التراخي عن الإيمان بالعناد بعد الإشراف على الهلاك ومعاينة التلف ، فكان كأنه قيل : أخبروني على تقدير أن يأتيكم عذابه الذي لا عذاب أعظم منه - كما دل ذلك إضافته إليه - فبيتكم أو كاشفكم ، ما تفعلون ؟ ألا تؤمنون ؟ فقالوا لا ، فليعجل به ليرى ، فناسب لما كان استعجالهم بعد هذا الإنذار تسفيههم على ذلك فقيل ﴿ ماذا ﴾ أي أي نوع منه يطلب عجلته ﴿ المجرمون ﴾ ، ولا نوع منه إلا وهو فوق الطاقة ووراء الوسع ، إن هذا لمنكر من الآراء ، أفبعد تراخي إيمانكم عن مخايل صدمته ومشاهدة مبادىء عظمته وشدته أوجدتم الإيمان به عند وقوعه ؟ يقال لكم حين اضطرتكم فواجئه إلى الإيمان وحملتكم قوارعه على صيورة الإذعان : ﴿ آلآن ﴾ تؤمنون به - أي بسببه - بعد أن أزال بطشاً قواكم وحل عزائم هممكم وأوهاكم ﴿ وقد كنتم ﴾ أي كوناً كأنكم مجبولون عليه ﴿ به تستعجلون ﴾ أي تطلبون تعجيله طلباً عظيماً حتى كأنكم لا تطلبون عجلة شيء غيره تكذيباً وعزماً على الثبات على العناد ، لو وقع فلم نقبل إيمانكم هذا منكم ولا كف عذابنا عنكم ، بل صيركم كأمس الدابر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 451.452 ﴾

فصل

قال الفخر :

وأما قوله : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ﴾

فاعلم أن دخول حرف الاستفهام على ثم كدخوله على الواو والفاء في قوله : ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ القرى ﴾ [الأعراف : 98] ﴿ أَفَأَمِنَ ﴾ [الأعراف : 97] وهو يفيد التقريع والتوبيخ ، ثم أخبر تعالى أن ذلك الإيمان غير واقع لهم بل يعيرون ويوبخون ، يقال : الآن تؤمنون وترجون الانتفاع بالإيمان مع أنكم كنتم قبل ذلك به تستعجلون على سبيل السخرية والاستهزاء ، وقرىء ﴿ آلان ﴾ بحذف الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 88.89 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ الآنَ ﴾

في الكلام حذف ، والتقدير : أتأمنون أن ينزل بكم العذاب ثم يقال لكم إذا حل : الآن آمنتم به ؟ قيل : هو من قول الملائكة استهزاء بهم .

وقيل : هو من قول الله تعالى ، ودخلت ألف الاستفهام على "ثم" والمعنى : التقرير والتوبيخ ، وليدلّ على أن معنى الجملة الثانية بعد الأُولى .

وقيل : إن "ثم" هاهنا بمعنى : "ثَمّ" بفتح الثاء ، فتكون ظرفاً ، والمعنى : أهنالك ؛ وهو مذهب الطبري ، وحينئذ لا يكون فيه معنى الاستفهام .

و"الآن" قيل : أصله فعل مبنيّ مثل حان ، والألف واللام لتحويله إلى الاسم .

الخليل : بنيت لالتقاء الساكنين ، والألف واللام للعهد والإشارة إلى الوقت ، وهو حدّ الزمانين .

﴿ وَقَدْ كُنتُم بِهِ ﴾ أي بالعذاب ﴿ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(26/363)

وقال أبو حيان فى الآيتين :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

تقدّم الكلام في أرأيتم في سورة الأنعام وقررنا هناك أن العرب تضمن أرأيت معنى أخبرني ، وأنها تتعدى إذ ذاك إلى مفعولين ، وأن المفعول الثاني أكثر ما يكون جملة استفهام ينعقد منها مع قبلها مبتدأ وخبر كقول العرب : أرأيت زيداً ما صنع ؟ المعنى : أخبرني عن زيد ما صنع .

وقبل دخول أرأيت كان الكلام : زيد ما صنع ؟ وإذا تقرر هذا فأرأيتم هنا المفعول الأول لها محذوف ، والمسألة من باب الإعمال تنازع .

أرأيت وإن أتاكم على قوله : عذابه ، فأعمل الثاني إذ هو المختار على مذهب البصريين ، وهو الذي ورد به السماع أكثر من إعمال الأول .

فلما أعمل الثاني حذف من الأول ولم يضمر ، لأنّ إضماره مختص بالشعر ، أو قليل في الكلام على اختلاف النحويين في ذلك .

والمعنى : قل لهم يا محمد أخبروني عن عذاب الله إن أتاكم أي شيء تستعجلون منه ، وليس شيء من العذاب يستعجله عاقل ، إذ العذاب كله مرّ المذاق موجب لنفار الطبع منه ، فتكون جملة الاستفهام جاءت على سبيل التلطف بهم ، والتنبيه لهم أن العذاب لا ينبغي أن يستعجل .

ويجوز أن تكون الجملة جاءت على سبيل التعجب والتهويل للعذاب أي : أي شيء شديد تستعجلون منه ، أي : ما أشدّ وأهول ما تستعجلون من العذاب .

وقال الحوفي : الرؤية من رؤية القلب التي بمعنى العلم ، لأنها داخلة على الجملة من الاستفهام ومعناها التقرير .

وجواب الشرط محذوف ، وتقدير الكلام : أرأيتم ما يستعجل من العذاب المجرمون إن أتاكم عذابه انتهى .

فظاهر كلام الحوفي : أن أرأيتم باقية على موضوعها الأول لم تضمن معنى أخبروني ، وأنها بمعنى أعلمتم ، وأن جملة الاستفهام سدت مسد المفعولين ، وأنه استفهام معناه التقرير ، ولم يبين الحوفي ما يفيد جواب الشرط المحذوف .

(27/363)

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : بم يتعلق الاستفهام ؟ وأين جواب الشرط ؟ (قلت) : تعلق بأرأيتم ، لأن المعنى أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون ، وجواب الشرط محذوف : وهو تندموا على الاستعجال وتعرفوا الخطأ فيه انتهى .

وما قدره الزمخشري غير سائغ ، لأنه لا يقدر الجواب إلا مما تقدمه لفظاً أو تقديراً تقول : أنت ظالم إن فعلت ، فالتقدير إن فعلت فأنت ظالم .

وكذلك وإنا إن شاء الله لمهتدون التقدير : إن شاء الله نهتد .

فالذي يسوغ أن يقدر إنْ أتاكم عذابه فأخبروني ماذا يستعجل .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون ماذا يستعجل منه المجرمون اعتراضاً والمعنى : إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان ؟ انتهى .

أما تجويزه أن يكون ماذا جواباً للشرط فلا يصح ، لأنّ جواب الشرط إذا كان استفهاماً فلا

بد فيه من الفاء ، تقول : إنْ زارنا فلان فأي رجل هو ، وإن زارنا فلان فأي يد له بذلك ، ولا يجوز حذفها إلا إن كان في ضرورة ، والمثال الذي ذكره وهو : إن أتيتك ماذا تطعمني ؟ هو من تمثيله ، لا من كلام العرب .

وأما قوله : ثم تتعلق الجملة بأرأيتم ، إن عني بالجملة ماذا يستعجل فلا يصح ذلك لأنه قد جعلها جواباً للشرط ، وإن عني بالجملة جملة الشرط فقد فسر هو أرأيتم بمعنى أخبرني ، وأخبرني تطلب متعلقاً مفعولاً ، ولا تقع جملة الشرط موقع مفعول أخبرني .

وأما تجويزه أن يكون أثم إذا ما وقع آمنتم به جواب الشرط ، وماذا يستعجل منه المجرمون اعتراضاً فلا يصح أيضاً ، لما ذكرناه من أنّ جملة الاستفهام لا تقع جواباً للشرط إلا ومعها فاء الجواب .

وأيضاً فثم هنا وهي حرف عطف ، تعطف الجملة التي بعدها على ما قبلها ، فالجملة الاستفهامية معطوفة ، وإذا كانت معطوفة لم يصح أن تقع جواب شرط .

وأيضاً فأرأيتم بمعنى أخبرني تحتاج إلى مفعول ، ولا تقع جملة الشرط موقعه .

وتقدم الكلام في قوله : ﴿ بياتاً ﴾ في الأعراف مدلولاً وإعراباً .

(28/363)

والمعنى إن أتاكم عذابه وأنتم ساهون غافلون ، مما بنوم وإما باشتغال بالمعاش والكسب ، وهو نظير قوله : ﴿ بغتة ﴾ لأن العذاب إذا فاجأ من غير شعور به كان أشد وأصعب ، بخلاف أن يكون قد استعد له وتهيىء لحلوله ، وهذا كقوله تعالى : بياتاً وهم نائمون ضحى وهم يلعبون .

ويجوز في ماذا أن يكون ما مبتدأ وذا خبره ، وهو بمعنى الذي ، ويستعجل صلته ، وحذف الضمير العائد على الموصول التقدير أي : شيء يستعجله من العذاب المجرمون .

ويجوز في ماذا أن يكون كله مفعولاً كأنه قيل : أي شيء يستعجله من العذاب المجرمون .

وقد جوز بعضهم أن يكون ماذا كله مبتدأ ، وخبره الجملة بعده .

وضعفه أبو عليّ لخلوّ الجملة من ضمير يعود على المبتدأ .

والظاهر عود الضمير في منه على العذاب ، وبه يحصل الربط لجملة الاستفهام بمفعول أرأيتم المحذوف الذي هو مبتدأ في الأصل .

وقيل : يعود على الله تعالى .

والمجرمون هم المخاطبون في قوله : أرأيتم إن أتاكم .

ونبه على الوصف الموجب لترك الاستعجال وهو الإجرام ، لأنّ من حق المجرم أنْ يخاف التعذيب على إجرامه ، ويهلك فزعاً من مجيئه وإن أبطأ ، فكيف يستعجله ؟ وثم حرف عطف وتقدمت همزة الاستفهام عليها كما تقدمت على الواو والفاء في : ﴿ أفلم يسيروا

﴿ وفي ﴿ أولم يسيروا ﴾ وتقدم الكلام على ذلك .

وخلاف الزمخشري للجماعة في دعواه أنّ بين الهمزة وحرف العطف جملة محذوفة عطفت عليها الجملة التي بعد حرف العطف .

وقال الطبري في قوله : أثم بضم الثاء ، أنّ معناه أهنالك قال : وليست ثم هذه التي تأتي بمعنى العطف انتهى .

وما قاله الطبري من أنّ ثم هنا ليست للعطف دعوى ، وأما قوله : إن المعنى أهنالك ، فالذي ينبغي أن يكون ذلك تفسير معنى ، لا أنْ ثم المضمومة الثاء معناها معنى هنالك .

وقرأ طلحة بن مصرّف : أثم بفتح الثاء ، وهذا يناسبه تفسير الطبري أهنالك .

وقرأ الجمهور آلآن على الاستفهام بالمد ، وكذا آلآن وقد عصيت .

(29/363)

وقرأ طلحة والأعرج : بهمزة الاستفهام بغير مد ، وهو على إضمار القول أي : قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به ، فالناصب لقوله : الآن هو آمنتم به ، وهو محذوف .

قيل : تقول لهم ذلك الملائكة .

وقيل : الله ، والاستفهام على طريق التوبيخ .

وفي كتاب اللوامح عيسى البصري وطلحة : آمنتم به الآن بوصل الهمزة من غير استفهام ، بل على الخبر ، فيكون نصبه على الظرف من آمنتم به المذكور .

وأما في العامة فنصبه بفعل مضمر يدل عليه آمنتم به المذكور ، لأن الاستفهام قد أخذ صدر الكلام ، فيمنع ما قبله أن يعمل فيما بعده انتهى .

وقد كنتم جملة حالية .

قال الزمخشري : وقد كنتم به تستعجلون يعني تكذبون ، لأن استعجالكم كان على جهة التكذيب والإنكار .

وقال ابن عطية : تستعجلون مكذبين به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(30/363)

وقال أبو السعود :

قوله عز وجل : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ﴾

إنكارٌ لإيمانهم بنزول العذابِ بعد وقوعِه حقيقةً داخلٌ مع ما قبله من إنكار استعجالِهم به بعد إتيانِه حكماً تحت القولِ المأمورِ به أي أبعد ما وقع العذابُ وحل بكم حقيقةً آمنتم به حين لا ينفعُكم الإيمانُ إنكاراً لتأخيره إلى هذا الحد وإيذاناً باستتباعه للندم والحسرةِ ليُقلعوا

عما هم عليه من العناد ويتوجهوا نحوَ التدارُك قبل فوتِ الوقتِ ، فتقديمُ الظرفِ للقصر ، وقيل : ماذا يستعجل منه متعلّقٌ بأرأيتم ، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ أي تندموا على الاستعجال أو تعرفوا خطأه ، والشرطيةُ اعتراضٌ مقرّرٌ لمضمون الاستخبار ، وقيل : الجوابُ قوله تعالى : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾ الخ ، والاستفهاميةُ الأولى اعتراضٌ والمعنى أخبروني إن أتاكم عذابُه آمنتم به بعد وقوعِه حين لا ينفعكم الإيمانُ ثم جيء بكلمة التراخي دِلالةً على الاستبعاد ، ثم زيد أداةُ الشرطِ دِلالةً على استقلاله بالاستبعاد وعلى أن الأولَ كالتمهيد له وجيء (بإذا) مؤكداً (بما) ترشيحاً لمعنى الوقوعِ وزيادةً للتجهيل وأنهم لم يؤمنوا إلا بعد أن لم ينفعْهم الإيمانُ ألبتةَ وقولُه تعالى :

(31/363)

﴿ الآن ﴾ استئنافٌ من جهته تعالى غيرُ داخل تحت القول الملقن مَسوقٌ لتقرير مضمونِ ما سبق على إرادة القولِ ، أي قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوعِ العذاب : الآن آمنتم به ؟ إنكاراً للتأخير وتوبيخاً عليه ببيان أنه لم يكن ذلك لعدم سبق الإنذارِ به ولا للتأمل والتدبرِ في شأنه ولا لشيء آخرَ مما عسى يُعدّ عذراً في التأخير ، كان ذلك على طريق التكذيبِ والاستعجالِ به على وجه الاستهزاءِ ، وقرىء آلآن بحذف الهمزة وإلقاء حركتِها على اللام

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي تكذيباً واستهزاءً ، جملةٌ وقعت حالاً من فاعل آمنتم المقدرِ لتشديد التوبيخِ والتقريعِ وزيادةِ التنديمِ والتحسيرِ ، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على الفعل لمراعاة الفواصلِ دون القصرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(32/363)

وقال الآلوسى :

والمراد بقوله سبحانه : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ﴾ زيادة التنديم والتجهيل ، والمعنى أئذا وقع العذاب وحل بكم حقيقة آمنتم به وعاد استهزاؤكم وتكذيبكم تصديقاً وإذعاناً ، وجىء بثم دلالة على زيادة الاستبعاد ، وفيه إن هذا الثاني أبعد من الأول وأدخل في الإنكار .

وجوز أن يكون هذا جواب الشرط والاستفهامية الأولى اعتراض ، والمعنى أخبروني أن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان ، وأصل الكلام على ما قيل : إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ووقع وتحقق آمنتم ثم جىء بحرف التراخي بدل الواو دلالة على الاستبعاد ثم زيد أداة الشرط دلالة على استقلاله بالاستبعاد وعلى أن الأول كالتمهيد له

وجيء بإذا مؤكداً بما ترشيحاً لمعنى الوقوع والتحقيق وزيادة للتجهيل وأنهم لم يؤمنوا إلا بعد إن لم ينفعهم البتة ، وهذا الوجه مما جوزه الزمخشري .

وتعقب بأنه في غاية البعد لأن ثم حرف عطف لم يسمع تصدير الجواب به والجملة المصدرة بالاستفهام لا تقع جواباً بدون الفاء وأجيب عن هذا بما مر .

وأما الجواب عنه بأنه أجرى ﴿ ثُمَّ ﴾ مجرى الفاء فكما أن الفاء في الأصل للعطف والترتيب وقد ربطت الجزاء فكذلك هذه فمخالف لإجماع النحاة ، وقياسه على الفاء غير جلي ولهذه الدغدغة قيل : مراد الزمخشري أنه يدل على الجواب والتقدير إن أتاكم عذابه أمنتم به بعد وقوعه وما في النظم الكريم معطوف عليه للتأكيد نحو ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر : 3 ، 4] وتعقب بأنه لا يخفى تكلفه فإن عطف التأكيد بثم مع حذف المؤكد مما لا ينبغي ارتكابه ولو قيل : المراد إن ﴿ أَمِنتُمْ ﴾ هو الجواب و ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾ معترض فالاعتراض بالواو والفاء وأما بثم فلم يذهب إليه أحد ، وبالجملة قد كثر الجرح والتعديل لهذا الوجه ولا يصلح العطار ما أفسد الدهر .

(33/363)

وقرىء ﴿ ثُمَّ ﴾ بفتح الثاء بمعنى هنالك ، وقوله سبحانه : ﴿ الآن ﴾ على تقدير القول وهو الأظهر والأقوى معنى أي قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب الآن آمنتم به .

فالآن في محل نصب على أنه ظرف لآمنتم مقدراً ، ومنع أن يكون ظرفاً للمذكور لأن الاستفهام له صدر الكلام .

وقرىء بدون همزة الاستفهام والظاهر عندي على هذا تعلقه بمقدر أيضاً لأن الكلام على الاستفهام ، وبعض جوز تعلقه بالمذكور وليس بذاك .

وعن نافع أنه قرىء ﴿ الآن ﴾ بحذف الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام ، وقوله سبحانه : ﴿ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ في موضع الحال من فاعل ﴿ أَمِنتُمْ ﴾ المقدر ، والكلام على ما قيل مسوق من جهته تعالى غير داخل تحت القول الملقن لتقرير مضمون ما سبق من إنكار التأخير والتوبيخ عليه ، وفائدة الحال تشديد التوبيخ والتقريع وزيادة التنديم والتحسير .

قال العلامة الطيبي : إن الآن آمنتم به يقتضي أن يقال بعده : وقد كنتم به تكذبون لا ﴿ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ إلا أنه وضع موضعه لأن المراد به الاستعجال السابق وهو ما حكاه سبحانه عنهم بقوله تعالى : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [يونس : 48] وكان ذلك تهكماً منهم وتكذيباً واستبعاداً ، وفي العدول استحضار لتلك المقالة الشنيعة فيكون أبلغ من تكذبون ، وتقديم الجار والمجرور على الفعل لمراعاة الفواصل ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ ﴾

الخ عطف على قيل المقدر قبل ﴿ الآن ﴾ لتوكيد التوبيخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(34/363)

وقال ابن عاشور :

وعطفت جملة : ﴿ أثم إذا ما وقع ﴾ بحرف المهلة للدلالة على التراخي الرتبي كما هو شأن (ثم) في عطفها الجمل ، لأن إيمانهم بالعذاب الذي كانوا ينكرون وقوعه حين وقوعه بهم أغرب وأهم من استعجالهم به .

وهمزة الاستفهام مقدمة من تأخير كما هو استعمالها مع حروف العطف المفيدة للتشريك .

والتقدير : ثم أإذا ما وقع ، وليس المراد الاستفهام عن المهلة .

والمستفهم عنه هو حصول الإيمان في وقت وقوع العذاب ، وهذا الاستفهام مستعمل في الإنكار بمعنى التغليط وإفساد رأيهم ، فإنهم وعدوا بالإيمان عند نزول العذاب استهزاء منهم فوقع الجواب بمجاراة ظاهر حالهم وبيان أخطائهم ، أي أتؤمنون بالوعد عند وقوعه على طريقة الأسلوب الحكيم ، كقوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت

للناس والحج ﴾ [البقرة : 189 .

]

وكلمة ﴿ الآن ﴾ استفهام إنكاري عن حصول إيمانهم عند حلول ما توعدهم ، فعبر عن وقت وقوعه باسم الزمان الحاضر وهو (الآن) حكاية للسانِ حالِ منكر عليهم في ذلك الوقت استحضر حال حلول الوعد كأنه حاضر في زمن التكلم ، وهذا الاستحضار من تخييل الحالة المستقبلة واقعة .

ولذلك يحسن أن نجعل (الآن) استعارة مكنية بتشبيه الزمن المستقبل بزمن الحال ، ووجه الشبه الاستحضار .

ورمز إلى المشبه به بذكر لفظ من روادفه ، وهو اسم الزمن الحاضر .

وجملة : ﴿ وقد كنتم به تستعجلون ﴾ ترشيح ، وإما تقدير قول في الكلام ، أي يقال لهم إذا آمنوا بعد نزول العذاب الآن آمنتم ، كما ذهب إليه أكثر المفسرين .

فذلك تقدير معنى لا تقدير نظم وإعراب لأن نظم هذا الكلام أدق من ذلك .

ومعنى : ﴿ تستعجلون ﴾ تكذبون ، فعبر عن التكذيب بالاستعجال حكايةً لحاصل قولهم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [يونس : 48] الذي هو في صورة الاستعجال ، والمرادُ منه التكذيب .

وتقديم المجرور للاهتمام بالوعد الذي كذبوا به ، وللرعاية على الفاصلة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(35/363)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51) ﴾

أي : إذا ما وقع العذاب فهل ستؤمنون ؟

إن إعلان إيمانكم في هذا الوقت لن يفيدكم ، وسيكون عذابكم بلا مقابل .

إذن : فاستعجالكم للعذاب لن يفيدكم على أي وضع ؛ لأن الإيمان لحظة وقوع العذاب لا يفيد .

ومثال ذلك : فرعون حين جاءه الغرق ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ ﴾ [يونس : 90] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(36/363)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَثُمَّ ﴾ : قد تقدَّم خلافُ الزمخشري للجمهور في ذلك ، حيث يقدِّر جملةً بين همزة الاستفهام وحرف العطف . و " ثمَّ " حرفُ عطف ، وقد قال الطبري ما لا يوافَق عليه فقال : " وأُثُمَّ هذه بضمِّ الثاء ليست التي بمعنى العطف ، وإنما هي بمعنى هنالك " فإن كان قَصَدَ تفسير المعنى وهو بعيدٌ فقد أبهم في قوله ، لأن هذا المعنى لا يُعْرَفُ في " ثُمَّ " بضم الثاء ، إلا أنه قد قرأ طلحة بن مصرف " أَثَمَّ " بفتح الثاء ، وحينئذ يَصِحُّ تفسيرها بمعنى هنالك .

قوله : ﴿ الآنَ ﴾ قد تقدَّم الكلام في " الآن " . وقرأ الجمهور " ألآن " بهمزة استفهام داخلة على " الآن " وقد تقدم مذاهب القراء في ذلك . و " الآن " نصبٌ بمضمر تقديره : الآن آمنتم . ودلَّ على هذا الفعلِ المقدرِ الفعلُ الذي تقدَّمه وهو قولُه : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ . ولا يجوز أن يعملَ فيه " آمنتم " الظاهرُ ؛ لأنَّ ما قبلَ الاستفهام لا يَعْمل فيما بعده ، كما أنَّ ما بعدَه لا يعملُ فيما قبله لأنَّ له صدرَ الكلام ، وهذا الفعلُ المقدرُ ومعمولُه على إضمار قول أي : قِيل لهم إذ آمنوا بعد وقوعِ العذابِ : آمنتم الآن به .

والقراءةُ بالاستفهامِ هي قراءةُ العامة ، وقد عَرَفْتَ تخريجَها . وقرأ عيسى وطلحة " آمنتم

به الآن " بوصل الهمزة من غيرِ استفهامٍ ، وعلى هذه القراءةِ ف " الآن " منصوبٌ ب " آمنتم " هذا الظاهر .

(37/363)

قولُه : ﴿ وَقَدْ كُنتُم ﴾ جملةٌ حاليةٌ . قال الزمخشري : ﴿ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ يعني تُكَذِّبون ، لأنَّ استعجالَهم كان على جهةِ التكذيبِ والإنكارِ " . قلت : فَجَعَله من باب الكناية لأنه دلالةٌ على الشيءِ بلازِمه نحو " هو طويلُ النِّجاد " كَنَيْتَ به عن طولِ قامتِه ؛ لأنَّ طولَ نِجادِه لازمٌ لطول قامتِه وهو باب بليغ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 218.217 ﴾

(38/363)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51) ﴾

بعد انتهاك سِتْرِ الغيب لا يُقْبَلُ تضرعُ المعاذير .

ويقال لا حُجَّة بعد إزاحة العلة ، ولا عذْرَ بعد وضوح الحجة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 100 ﴾

(39/363)

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ما ذكر هو العذاب الدنيوي ، أتبعه ما بعده إعلاماً بأنه لا يقتصر عليه في جزائهم فقال : ﴿ ثم قيل ﴾ أي من أيّ قائل كان استهانة ﴿ للذين ظلموا ﴾ أي وبعد أزّكم في الدنيا والبرزخ بالعذاب وهزّكم بشديد العقاب قيل لكم يوم الدين بظلمكم بالآيات وبما أمرتم به فيها بوضعكم كلاًّ من ذلك في غير موضعه : ﴿ ذوقوا عذاب الخلد ﴾ فالإتيان ب " ثم " إشارة إلى تراخي ذلك عن الإهلاك في الدنيا بالمكث في البرزخ أو إلى أن عذابه أدنى من عذاب يوم الدين ﴿ هل تجزون ﴾ بناه للمفعول لأن المخيف مطلق الجزاء ؛ ولما كان

الاستفهام الإنكاري بمعنى النفي ، وكان المعنى : بشيء ، استثنى منه فقال : ﴿ إلا بما كنتم ﴾ أي بجبلاتكم ﴿ تكسبون ﴾ أي في الدنيا من العزم على الاستمرار على الكفر ولو طال المدى لا تنفكون عنه بشيء من الأشياء وإن عظم ، فكان جزاءكم الخلود في العذاب طبق النعل بالنعل ؛ والعذاب : الألم المستمر ، وأصله الاستمرار ، ومنه العذوبة لاستمرارها في الحلق ؛ والبيات : إتيان الشيء ليلاً ؛ والذوق : طلب الطعم بالفم في ابتداء الأخذ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 452 ﴾

(40/363)

فصل

قال الفخر :

وأما قوله : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الخلد ﴾

فهو عطف عى الفعل المضمر قبل ﴿ آلآن ﴾ والتقدير : قيل : آلآن وقد كنتم به تستعجلون ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد .

وأما قوله تعالى : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ ففيه ثلاث مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تعالى أينما ذكر العقاب والعذاب ذكر هذه العلة كأن سائلاً يسأل يقول : يا رب العزة أنت الغني عن الكل فكيف يليق برحمتك هذا التشديد والوعيد ، فهو تعالى يقول : "أنا ما عاملته بهذه المعاملة ابتداء بل هذا وصل إليه جزاء على عمله الباطل" وذلك يدل على أن جانب الرحمة راجح غالب ، وجانب العذاب مرجوح مغلوب .

المسألة الثانية :

ظاهر الآية يدل على أن الجزاء يوجب العمل ، أما عند الفلاسفة فهو أثر العمل ، لأن العمل الصالح يوجب تنوير القلب ، وإشراقه إيجاب العلة معلولها وأما عند المعتزلة فلأن العمل الصالح يوجب استحقاق الثواب على الله تعالى وأما عند أهل السنة ، فلأن ذلك الجزاء واجب بحكم الوعد المحض .

المسألة الثالثة :

الآية تدل على كون العبد مكتسباً خلافاً للجبرية ، وعندنا أن كونه مكتسباً معناه أن مجموع القدرة مع الداعية الخالصة يوجب الفعل والمسألة طويلة معروفة بدلائلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 89 ﴾

(41/363)

وقال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ .

يا أهل مكة ﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ ﴾ ، يعني : عذاب الله تعالى .

﴿ بَيَاتًا ﴾ ليلاً كما جاء إلى قوم لوط ، ﴿ أَوْ نَهَارًا ﴾ ؛ يعني : مجاهرة كما جاء إلى قوم شعيب .

﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ المجرمون ﴾ ، يقول : بأي شيء يستعجل منه المجرمون يعني : المشركين ، ويقال ماذا ينفعهم استعجالهم منه أي من عذاب الله تعالى ؟ .

قوله : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ﴾ ، يعني : إذا وقع العذاب صدقتم به ، يعني : بالعذاب ؛ ويقال : بالله .

﴿ الآن ﴾ ، يعني : يقال لهم آمنتم بالعذاب حين لا ينفعكم ، ﴿ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ؛ وهذا اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التهديد .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ ، يعني : قالت لهم خزنة جهنم : ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ الخلد ﴾ ، الذي لا ينقطع .

﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ ﴾ ، يقول : هل تثابون ، ﴿ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والتكذيب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾

أي تقول لهم خزنة جهنم هذا الكلام .

والظلم ظلم الكفر لا ظلم المعصية ، لأنّ من دخل النار من عصاة المؤمنين لا يخلد فيها .

وثم قيل عطف على المضمر قبل الآن .

ومن قرأ بوصل ألف الآن فهو استئناف إخبار عما يقال لهم يوم القيامة ، وهل تجزون توبيخ لهم وتوضيح أنّ الجزاء هو على كسب العبد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(42/363)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ ﴾ الخ

تأكيدٌ للتوبيخ والعتابِ بوعيد العذابِ والعقابِ وهو عطفٌ على ما قدّر قبل الآن ﴿ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ إن وضعوا الكفرُ والتكذيبُ موضعَ الإيمان والتصديقِ ، أو ظلموا أنفسَهم بتعريضها للعذاب والهلاكِ ، ووضعُ الموصول موضع الضمير لذمهم بما في حيز الصلة والإشعارِ بعلّيته لإصابة ما أصابهم ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ الخلد ﴾ المؤلمَ على الدوام ﴿ هَلْ

تُجْزَوْنَ ﴾ اليوم ﴿ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ في الدنيا من أصناف الكفر والمعاصي التي من جملتها ما مرّ من الاستعجال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52) ﴾

﴿ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أي وضعوا ما نهوا عنه من الكفر والتكذيب موضع ما أمروا به من الإيمان والتصديق أو ظلموا أنفسهم بتعريضها للهلاك والعذاب ، ووضع الموصول موضع الضمير لذمهم بما في حيز الصلة والإشعار بعليته لإصابة ما أصابهم ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ الخلد ﴾ أي المؤلم على الدوام ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ ﴾ أي ما تجزون اليوم ﴿ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي إلا ما استمررتم على كسبه في الدنيا من أصناف الكفر التي من جملتها ما مر من الاستعجال ، وزاد غير واحد في البيان سائر أنواع المعاصي بناء أن الكفار مكلفون بالفروع فيعذبون على ذلك لكن هل العذاب عليه مستمر تبعاً للكفر أو منته كعذاب غيرهم من العصاة ؟ قيل : الظاهر الثاني وبه جمع بين النصوص الدالة على تخفيف عذاب الكفار وما يعارضها فقالوا : إن المخفف عذاب المعاصي والذي لا يخفف عذاب الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ)

أَيْ أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ رَسُولًا بَعَثَهُ فِيهَا فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ، يُبَيِّنُ لَهُمْ أُصُولَ دِينِهِ الثَّلَاثَةَ : الْإِيمَانُ بِاللهِ ، وَالْيَوْمُ الْآخِرُ ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ الْمُنَاسِبُ لِحَالِ زَمَنِهِمْ : (فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ) وَقَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ : قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ أَيْ قَضَى اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) فِي قَضَائِهِ تَعَالَى كَمَا تَقَدَّمَ وَسَيَأْتِي تَأْكِيدُهُ قَرِيبًا) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) أَيْ وَيَقُولُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ لِلنَّبِيِّ وَمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ : مَتَى يَقَعُ هَذَا الْوَعْدُ الَّذِي تَعِدُونَنَا بِهِ (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فِي قَوْلِكُمْ إِنَّ اللهَ تَعَالَى سَيَنْتَقِمُ لَكُمْ مِنَّا وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْنَا ، أَيْ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : (حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا) (19 : 75) وَقَوْلِهِ (حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا) (72 : 24 – 26) إِلَخْ .

(44/363)

وَهَا هُنَا لَقَّنَ اللَّهُ رَسُولَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْجَوَابَ بِقَوْلِهِ : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) أَيْ إنَّنِي بَشَرٌ رَسُولٌ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي - فَضْلًا عَنْ غَيْرِهَا - شَيْئًا مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الضُّرِّ فَأَدْفَعَهُ عَنْهَا وَلَا النَّفْعِ فَأَجْلِبَهُ لَهَا ، مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَقْدِرُ غَيْرِي عَلَيْهَا ، وَلَيْسَ مِنْهَا إنْزَالُ الْعَذَابِ بِالْكُفَّارِ الْمُعَانِدِينَ ، وَلَا هِبَةُ النَّصْرِ لِلْمُؤْمِنِينَ (إلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) أَيْ لَكِنْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ كَانَ مَتَى شَاءَ لِي فِيهِ ؛ لِأَنَّهُ خَاصٌّ بِالرُّبُوبِيَّةِ دُونَ الرِّسَالَةِ الَّتِي وَظِيفَتُهَا التَّبْلِيغُ لَا التَّكْوِينُ . هَكَذَا قَالَ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ إنَّ الِاسْتِثْنَاءَ هُنَا مُنْقَطِعٌ وَلَهُ أَمْثَالٌ تَقَدَّمَ بَعْضُهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى وَهُوَ مَنْ أَظْهَرَهَا الصَّرِيحِ فِي هَذَا

(45/363)

الْمَقَامِ : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إنْ أَنَا إلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (7 : 188) وَالِاخْتِلَافُ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ فِي تَقْدِيمِ ذِكْرِ الضُّرِّ عَلَى النَّفْعِ وَتَأْخِيرِهِ لِاخْتِلَافِ الْمَقَامِ ، فَقَدْ قُدِّمَ الضُّرُّ فِي آيَةِ يُونُسَ لِأَنَّهَا جَوَابٌ لِلْمُشْرِكِينَ عَنْ مِيعَادِ الْعَذَابِ الَّذِي أُنْذِرُوا بِهِ ، وَهُوَ مِنَ الضُّرِّ ، وَقُدِّمَ النَّفْعُ فِي آيَةِ الْأَعْرَافِ لِأَنَّ الْمَقَامَ بَيَانُ الْحَقِيقَةِ فِي نَفْسِهَا ، وَهُوَ أَنَّ الرَّسُولَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ شَيْئًا مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْكَوْنِ بِغَيْرِ الْأَسْبَابِ الْعَامَّةِ فَضْلًا عَنْ مِلْكِهِ لِغَيْرِهِ ، وَالْمُنَاسِبُ فِي

هَذَا تَقْدِيمُ النَّفْعِ لِأَنَّهُ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ مِنْ تَصَرُّفِ الْإِنْسَانِ وَسَعْيِهِ لِنَفْسِهِ . وَقِيلَ : إنَّ الِاسْتِثْنَاءَ مُتَّصِلٌ ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الْمَنْفِيُّ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ عَامًّا لِمَا يَمْلِكُهُ الْإِنْسَانُ بِالْأَسْبَابِ الْعَادِيَّةِ ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى : إلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ أَمْلِكَهُ بِمَا أَعْطَانِي مِنَ الْكَسْبِ الِاخْتِيَارِيِّ مَعَ تَيْسِيرِ أَسْبَابِهِ لِي ، وَأَمَّا الْآيَاتُ الْخَارِقَةُ لِلْعَادَةِ فَهِيَ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، لَا مِمَّا يَمْلِكُهُ رُسُلُهُ .

(46/363)

وَقَدْ أَجَابَ سُبْحَانَهُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ بِقَوْلِهِ : (لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) لِبَقَائِهَا وَهَلَاكِهَا ، عَلِمَهُ اللَّهُ وَقَدَّرَهُ لَهَا لَا يَعْلَمُهُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ (إذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) أَيْ فَلَا يَمْلِكُ رَسُولُهُمْ مِنْ دُونِهِ تَعَالَى أَنْ يُقَدِّمَهُ وَلَا أَنْ يُؤَخِّرَهُ سَاعَةً عَنِ الزَّمَانِ الْمُقَدَّرِ لَهُ وَإِنْ قَلَّتْ وَلَا أَنْ يَطْلُبَ ذَلِكَ مِنْهُ تَعَالَى ، وَهُوَ مَعْنَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ السِّينُ وَالتَّاءُ فِي الْأَصْلِ . وَقَدْ حَقَّقْنَا مَعْنَى هَذَا النَّصِّ فِي آيَةِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (7 : 34) بِلَفْظِهِ فَاسْتَغْرَقَ أَرْبَعَ وَرَقَاتٍ مِنْ جُزْءِ التَّفْسِيرِ الثَّامِنِ فَلْيُرَاجِعْهُ مَنْ شَاءَ ، إلَّا أَنَّهُ قَالَ هُنَالِكَ : (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ) إلَخْ وَقَالَ هُنَا : (إذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ) إلَخْ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ مَا هُنَا أَبْلَغُ فِي نَفْيِ تَأْخِيرِ الْوَعِيدِ لِأَنَّهُ تَفْنِيدٌ لِاسْتِعْجَالِهِمْ بِهِ وَذَلِكَ أَنَّهُ جَعَلَ الْجُمْلَةَ

الشَّرْطِيَّةَ وَصْفًا لِلْأَجَلِ مُرْتَبِطًا بِهِ مُبَاشَرَةً لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهُ ، وَمَا هُنَالِكَ إِخْبَارٌ بِآجَالِ الْأُمَمِ مُبْتَدَأٌ وَمَا بَعْدَهُ تَفْرِيعٌ عَلَيْهِ ، فَهُوَ لَا يَدُلُّ عَلَى لُزُومِهِ لَهُ بِلَا مُهْمَلَةٍ كَالَّذِي هُنَا . وَقَدْ تَكَرَّرَ هَذَا السُّؤَالُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَعَ جَوَابِهِ فِي سُوَرٍ أُخْرَى ، وَأَشْبَهُهُ بِمَا هُنَا سِيَاقُ سُورَةِ النَّمْلِ وَأُجِيبَ فِيهَا بِقَوْلِهِ :

(47/363)

(قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ) (27 : 72) وَهُوَ مِنْ رَدِفَهُ إِذَا لَحِقَهُ وَتَبِعَهُ ، وَعُدِّيَ بِاللَّامِ لِتَأْكِيدِهِ أَوْ تَضْمِينِهِ مَعْنًى يُنَاسِبُهُ .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ جَهْلِ الْخُرَافِيِّينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِتَوْحِيدِ اللهِ ، أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ النُّصُوصِ مِنْ آيَاتِ التَّوْحِيدِ لَمْ تَصُدَّ الْجَاهِلِينَ بِهِ مِنْهُمْ عَنْ دَعْوَى قُدْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ – حَتَّى الْمَيِّتِينَ مِنْهُمْ – عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي نَفْعِهِمْ وَضُرِّهِمْ ، مِمَّا لَمْ يَجْعَلْهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْكَسْبِ الْمَقْدُورِ لَهُمْ بِمُقْتَضَى سُنَنِهِ فِي الْأَسْبَابِ ، بَلْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَتَصَرَّفُونَ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ ، كَالَّذِينَ يُسَمُّونَهُمُ الْأَقْطَابَ الْأَرْبَعَةَ . وَأَنَّ بَعْضَ كِبَارِ عُلَمَاءِ الْأَزْهَرِ فِي هَذَا الْعَصْرِ يَكْتُبُ هَذَا حَتَّى فِي مَجَلَّةِ الْأَزْهَرِ الرَّسْمِيَّةِ (نُورِ الْإِسْلَامِ) فَيُفْتِي بِجَوَازِ دُعَاءِ غَيْرِ اللهِ مِنَ الْمَوْتَى وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِمْ فِي كُلِّ مَا يَعْجِزُونَ عَنْهُ مِنْ جَلْبِ نَفْعٍ وَدَفْعِ ضُرٍّ ، وَأَلَّفَ

بَعْضُهُمْ كِتَابًا فِي إِثْبَاتِ ذَلِكَ ، وَكَوْنِ الْمَيِّتِينَ مِنَ الصَّالِحِينَ يَنْفَعُونَ وَيَضُرُّونَ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَيَخْرُجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ فَيَقْضُونَ حَوَائِجَ مَنْ يَدْعُونَهُمْ وَيَسْتَغِيثُونَ بِهِمْ . قَالَ فِي فَتْحِ الْبَيَانِ بَعْدَ نَقْلِهِ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ فِي الِاسْتِثْنَاءِ عَنْ أَئِمَّةِ الْمُفَسِّرِينَ وَتَرْجِيحِهِ مَا نَصُّهُ :

(48/363)

(وَفِي هَذَا أَعْظَمُ وَازِعٍ وَأَبْلَغُ زَاجِرٍ لِمَنْ صَارَ دَيْدَنَهُ وَهَجِيرَاهُ الْمُنَادَاةُ لِرَسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، أَوِ الِاسْتِغَاثَةُ بِهِ عِنْدَ نُزُولِ النَّوَازِلِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِهَا إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ ، وَكَذَلِكَ مَنْ صَارَ يَطْلُبُ مِنَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى تَحْصِيلِهِ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ ;

فَإِنَّ هَذَا مَقَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الَّذِي خَلَقَ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ وَجَمِيعَ الْمَخْلُوقِينَ ، وَرَزَقَهُمْ وَأَحْيَاهُمْ وَيُمِيتُهُمْ ، فَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْ مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ صَالِحٍ مِنَ الصَّالِحِينَ مَا هُوَ عَاجِزٌ عَنْهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَيْهِ ؟ وَيُتْرَكُ الطَّلَبُ لِرَبِّ الْأَرْبَابِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ الْخَالِقِ الرَّازِقِ الْمُعْطِي الْمَانِعِ ؟ وَحَسْبُكَ بِمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ مَوْعِظَةٍ ، فَإِنَّ هَذَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَخَاتَمُ الرُّسُلِ يَأْمُرُهُ اللَّهُ بِأَنْ يَقُولَ لِعِبَادِهِ (لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) فَكَيْفَ يَمْلِكُهُ لِغَيْرِهِ ؟ وَكَيْفَ يَمْلِكُهُ غَيْرُهُ - مِمَّنْ رُتْبَتُهُ دُونَ رُتْبَتِهِ وَمَنْزِلَتُهُ لَا تَبْلُغُ إِلَى مَنْزِلَتِهِ

- لِنَفْسِهِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَمْلِكَهُ لِغَيْرِهِ ؟

(فَيَا عَجَبًا لِقَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى قُبُورِ الْأَمْوَاتِ الَّذِينَ قَدْ صَارُوا تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى ، وَيَطْلُبُونَ مِنْهُمْ مِنَ الْحَوَائِجِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ! كَيْفَ لَا يَتَيَقَّظُونَ لِمَا

(49/363)

وَقَعُوا فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَلَا يَنْتَبِهُونَ لِمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْمُخَالَفَةِ لِمَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) وَمَدْلُولِ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) (112 : 1) (وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا اطِّلَاعُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى مَا يَقَعُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَلَا يُنْكِرُونَ عَلَيْهِمْ ، وَلَا يَحُولُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الرُّجُوعِ إِلَى الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى بَلْ إِلَى مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهَا ; فَإِنَّ أُولَئِكَ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ ، الْمُحْيِي الْمُمِيتُ ، الضَّارُّ النَّافِعُ ، وَإِنَّمَا يَجْعَلُونَ أَصْنَامَهُمْ شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ وَمُقَرِّبِينَ لَهُمْ إِلَيْهِ ، وَهَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ لَهُمْ قُدْرَةً عَلَى الضُّرِّ وَالنَّفْعِ ، وَيُنَادُونَهُمْ تَارَةً عَلَى الِاسْتِقْلَالِ وَتَارَةً مَعَ ذِي الْجَلَالِ وَكَفَاكَ مِنْ شَرٍّ سَمَاعُهُ ، وَاللهُ نَاصِرُ دِينِهِ ، وَمُطَهِّرُ شَرِيعَتِهِ مِنْ أَوْضَارِ الشِّرْكِ وَأَدْنَاسِ الْكُفْرِ . وَلَقَدْ تَوَسَّلَ الشَّيْطَانُ أَخْزَاهُ اللهُ بِهَذِهِ الذَّرِيعَةِ إِلَى مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُهُ وَيَنْثَلِجُ بِهِ صَدْرُهُ مِنْ كُفْرِ كَثِيرٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُبَارَكَةِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (18 : 104) (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) اهـ .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا) أَيْ قُلْ لَهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ : أَخْبِرُونِي عَنْ حَالِكُمْ وَمَا يُمْكِنُكُمْ فِعْلُهُ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ فِي وَقْتِ مَبِيتِكُمْ فِي اللَّيْلِ ، أَوْ وَقْتِ اشْتِغَالِكُمْ بِلَهْوِكُمْ وَلَعِبِكُمْ أَوْ أُمُورِ مَعَاشِكُمْ بِالنَّهَارِ ، وَهُوَ لَا يَعْدُوهُمَا (كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَاتِ 4 ، 97 ، 98 مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ) (مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) أَيَّ شَيْءٍ أَوْ أَيَّ نَوْعٍ يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ الْمُكَذِّبُونَ الْآنَ ؟ أَعَذَابَ الدُّنْيَا أَمْ قِيَامَ السَّاعَةِ ؟ أَيًّا مَا اسْتَعْجَلُوا فَهُوَ حَمَاقَةٌ وَجَهَالَةٌ ، وَقِيلَ : إِنَّ الْمَعْنَى : مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ مِنْكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ ، أَيْ أَنَّ جُمْلَةَ الِاسْتِفْهَامِ جَوَابٌ لِلشَّرْطِ فِيمَا قَبْلَهَا ، وَفِيهِ بَحْثٌ لِلنُّحَاةِ الَّذِينَ أَوْجَبُوا اقْتِرَانَ مِثْلِ هَذَا الْجَوَابِ بِالْفَاءِ وَخَالَفَهُمْ غَيْرُهُمْ لَا نَعْرِضُ لَهُ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ : (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ) (6 : 47) وَتَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِهَا وَتَفْسِيرِ مَا قَبْلَهَا أَنَّ الِاسْتِفْهَامَ فِي (أَرَأَيْتُمْ) وَ (أَرَأَيْتَكُمْ) مُسْتَعْمَلٌ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى أَخْبِرُونِي عَنْ حَالِكُمْ وَمَا يَكُونُ مِنْ عَمَلِكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ ذَلِكَ ؟ .

(أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ)

قَرَأَ الْجُمْهُورُ (ثُمَّ) بِالضَّمِّ وَهِيَ حَرْفُ عَطْفٍ يَدُلُّ عَلَى التَّرْتِيبِ وَالتَّأَخُّرِ وَالتَّرَاخِي ، وَقُرِئَ بِالْفَتْحِ وَهُوَ اسْمُ إِشَارَةٍ بِمَعْنَى هُنَالِكَ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ وَمَعْنَى قَوْلِهِ (أَثُمَّ) فِي هَذَا الْمَوْضِعِ : أَهُنَالِكَ ؟ وَلَيْسَ (ثُمَّ) هَا هُنَا الَّتِي تَأْتِي بِمَعْنَى الْعَطْفِ . انْتَهَى .

وَلَمْ يَضْبُطْهَا بِفَتْحِ الثَّاءِ فَظَاهِرُ قَوْلِهِ أَنَّ الْمَضْمُومَةَ تَأْتِي ظَرْفًا أَيْضًا وَهَذَا لَمْ يُرْوَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ ، بَلْ قَالَ ابْنُ هِشَامٍ فِي الْمُغْنِي وَقَدْ نَقَلَهُ عَنْهُ : وَهَذَا وَهْمٌ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ ثُمَّ الْمَضْمُومَةُ الثَّاءِ بِالْمَفْتُوحَتِهَا ا ه .

(52/363)

وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ فَهَذَا اسْتِفْهَامٌ آخَرُ مَعْطُوفٌ عَلَى فِعْلٍ مُقَدَّرٍ بَعْدَ الْهَمْزَةِ عُلِمَ مِمَّا قَبْلَهُ مِنْ إِنْكَارِ اسْتِعْجَالِ مُجْرِمِيهِمْ بِالْعَذَابِ ، كَمَا يُقَدَّرُ مِثْلُهُ بَعْدَ حَرْفِ الِاسْتِفْهَامِ الدَّاخِلِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : (أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ) (7 : 63) ؟ وَقَوْلِهِ : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا) (23 : 115) وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ ، أَيَسْتَعْجِلُ بِالْعَذَابِ مُجْرِمُوكُمُ الَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ بِالْخَوْفِ مِنْهُ بَدَلًا مِنَ الْإِيمَانِ الَّذِي يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ وَعَنْكُمْ ، ثُمَّ إِذَا وَقَعَ بِالْفِعْلِ آمَنْتُمْ بِهِ إِذْ

لَا يَنْفَعُ الْإِيمَانُ ; لِأَنَّهُ صَارَ ضَرُورِيًّا بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْعِيَانِ ، لَا تَصْدِيقًا لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقِيلَ لَكُمْ حِينَئِذٍ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا : (آلْآنَ) آمَنْتُمْ بِهِ اضْطِرَارًا (وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) تَكْذِيبًا بِهِ وَاسْتِكْبَارًا ؟ وَقَرَأَ نَافِعٌ (الْآنَ) بِحَذْفِ الْهَمْزَةِ وَإِلْقَاءِ حَرَكَتِهَا عَلَى اللَّامِ ، وَالْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ ، وَالِاسْتِعْجَالُ يَتَضَمَّنُ الْمُبَالَغَةَ فِي التَّكْذِيبِ الْمُقَابِلِ لِلْإِيمَانِ ، وَسَيَأْتِي فِي هَذِهِ السُّورَةِ إيمَانُ فِرْعَوْنَ عِنْدَ إدْرَاكِ الْغَرَقِ إيَّاهُ وَأَنَّهُ يُقَالُ لَهُ : (آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (91) . (ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا) (قِيلَ) هَذِهِ مَعْطُوفَةٌ عَلَى (قِيلَ) الْمُقَدَّرَةِ قَبْلَ (آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) أَيْ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكُفْرِ بِالرِّسَالَةِ وَالْوَعْدِ

(53/363)

وَالْوَعِيدِ ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْفَسَادِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ : (ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ) الْخُلْدُ كَالْخُلُودِ مَصْدَرُ خَلَدَ الشَّيْءُ إذَا بَقِيَ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ لَا يَتَغَيَّرُ ، وَخَلَدَ الشَّخْصُ فِي الْمَكَانِ إذَا طَالَ مُكْثُهُ فِيهِ ، لَا يَرْحَلُ وَلَا هُوَ بِصَدَدِ التَّحَوُّلِ عَنْهُ . وَظَاهِرُ إضَافَةِ الْعَذَابِ إلَى (الْخُلْدِ) أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْبَقَاءُ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ مُؤْلِمَةٍ ، وَيَحْتَمِلُ إرَادَةَ الْعَذَابِ الْخَالِدِ الدَّائِمِ وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِلْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ الْمُطْلَقَةِ فِي الْأَكْثَرِ وَالْمُقَيَّدَةِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ

الْأَنْعَامِ (6 : 128) وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا وَفِي سُورَةِ هُودٍ وَسَيَأْتِي .

(هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) أَيْ لَا تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَهُ بِاخْتِيَارِكُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ، وَالْعَزْمِ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَيْهِ وَعَدَمِ التَّحَوُّلِ عَنْهُ ، وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الظُّلْمِ ؛ لِأَنَّهُ أَثَرٌ لَازِمٌ لِتَدْسِيَةِ النَّفْسِ وَإِفْسَادِهَا بِالظُّلْمِ ، حَتَّى لَمْ تَعُدْ أَهْلًا لِجِوَارِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ وَلَيْسَ عَذَابًا أُنُفًا مِنْ خَارِجِهَا ، وَتَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ) (6 : 139) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 320 .

323 ﴾

(54/363)

وقال ابن عاشور :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾

معطوفة على جملة : ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ﴾ [يونس : 50] الآية .

و(ثم) للتراخي الرتبي ، فهذا عذاب أعظم من العذاب الذي في قوله : ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ﴾ [يونس : 50] فإن ذلك عذاب الدنيا وأما عذاب الخلد فهو عذاب الآخرة وهذا أعظم من عذاب الدنيا ، فذلك موقع عطف جملته بحرف (ثم)

.

وصيغة المضي في قوله : ﴿ قيل للذين ظلموا ﴾ مستعملة في معنى المستقبل تنبيهاً على تحقيق وقوعه مثل ﴿ أَتَى أمرُ الله ﴾ [النحل : 1 .

]

والذين ظلموا هم القائلون ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [يونس : 48] .

وأظهر في مقام الإضمار لتسجيل وصف الظلم عليهم وهو ظلم النفس بالإشراك .

ومعنى ظلموا : أشركوا .

والذوق : مستعمل في الإحساس ، وهو مجاز مشهور بعلاقة الإطلاق .

والاستفهام في ﴿ هل تجزون ﴾ إنكاري بمعنى النفي ، ولذلك جاء بعده الاستثناء ﴿ إلا بما كنتم تكسبون ﴾ .

وجملة : ﴿ هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴾ استئناف بياني لأن جملة ﴿ ذوقوا عذاب الخلد ﴾ تثير سؤالاً في نفوسهم عن مقدار ذلك العذاب فيكون الجواب على أنه على قدر فظاعة ما كسبوه من الأعمال مع إفادة تعليل تسليط العذاب عليهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾

وهذا إخبار عن العذاب القادم لمن كفروا ويلقونه في اليوم الآخر ، فهم بكفرهم قد ظلموا أنفسهم في الدنيا ، وسيلقون العذاب في الآخرة ، وهو ﴿ عَذَابَ الخلد ﴾ أي : عذاب لا ينتهي .

وينهي الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ .

أي : أن الحق سبحانه لم يظلمهم ، فقد بلغهم برسالة الإيمان عن طريق رسول ذي معجزة ، ومعه منهج مفصَّل مؤيَّد ، وأمهلهم مدة طويلة ، ولم يستفيدوا منها ؛ لأنهم لم يؤمنوا .

إذن : فسيلقون عذاب الخلد ، وقد جاء سبحانه هنا بخبر عذاب الخلد ؛ لأن عذاب الدنيا موقوت ، فيه خزي وهوان ، لكن محدوديته في الحياة يجعله عذاباً قليلاً بالقياس إلى عذاب الآخرة المؤبد .

وجاء الحق سبحانه بأمر عذاب الخلد كأمر من كسبهم ، والكسب زيادة عن الأصل ، فمن يتاجر بعشر جنيهات ، قد يكسب خمسة جنيهات .

وهنا سؤال : هل الذي يرتكب معصية يكسب زيادة عن الأصل ؟

نعم ؛ لأن الله سبحانه حرَّم عليه أمراً ، وحلله هو لنفسه ، فهو يأخذ زيادة في التحليل ،

وينقص من التحريم وهو يظن أنه قد كسب بمفهومه الوهمي الذي زين له مراد النفس الأمارة ، وهذا يعني أنه ينظر إلى واقع اللذة في ذاتها ، ولا ينظر إلى تبعات تلك اللذة ، وهو يظن أنه قد كسب ، رغم أنه خاسر في حقيقة الأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(56/363)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ : هذه الجملةُ على قراءةِ العامة عطفٌ على ذلك الفعلِ المقدَّرِ الناصبِ ل " الآن " ، وعلى قراءةِ طلحة هو استئنافُ إخبارٍ عَمَّا يُقال لهم يومَ القيامة ، و " ذوقوا " ، و " هل تُجْزَوْن " كلُّه في محلِّ نصبٍ بالقول ، وقوله " إلا بما " هو المفعولُ الثاني ل " تُجْزَون " ، والأولُ قائمٌ مقامَ الفاعلِ ، وهو استثناءٌ/ مفرغ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 218 ﴾

(57/363)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52) ﴾ لا تُكَلَفُ نَفْسٌ إلا تجرع ما منه سَقَتْ ، ولا يحصد زارعٌ غَلَّةً ما منه زرع ، وفي معناه قالوا :

سَنَنْتِ فينا سَنَناً . . . قَذَفَ البلايا عقبه

يصبر على أهوالها . . . مَنْ برَّ يوماً ربَّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 100 ﴾

(58/363)

فصل

قال الثعلبى فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء ﴾ المطر ﴿ والأرض ﴾ النبات ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السمع والأبصار وَمَن يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي وَمَن يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ الله ﴾ الذي فعل هذه الأشياء ﴿ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ أفلا تخافون عقابه في شرككم ﴿

فَذَلِكُمُ اللهُ ﴾ الذي يفعل هذه الأشياء ﴿ رَبُّكُمُ الحق فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال ﴾ فمن أين تصرفون عن عبادته وأنتم مقرّون ﴿ كَذَلِكَ ﴾ فسرها الكلبي هكذا في جميع القرآن ﴿ حَقَّتْ ﴾ وجبت ﴿ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ حكمه وعلمه السابق .

وقرأ الأعرج : كلمات ﴿ عَلَى الذين فسقوا ﴾ كفروا ﴿ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَبْدَأُ الخلق ﴾ ينشىء من غير أصل ولا [مثال] ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ يحييه بهيئته بعد الموت [أي قل لهم يا محمد ذلك على وجهة التوبيخ والتقرير] فإن أجابوك وإلاّ ﴿ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ تصرفون عن قصد السبيل ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ ﴾ أوثانكم ﴿ مَّن يهدي ﴾ يرشد ﴿ إِلَى الحق ﴾ فإذا قالوا : لا ، فلابدّ لهم منه ﴿ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ أي إلى الحق ﴿ أَفَمَن يهدي إِلَى الحق أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يهدي ﴾ .

اختلف القراء فيه ، فقرأ أهل المدينة : مجزومة الهاء مشدّدة الدال لأن أصله يهتدي فأُدغمت التاء في الدال وتركت الهاء على [السكون] في قراءتهم بين ساكنين كما فعلوا في قوله : (تعدّوا وتخصّمون) .

وقرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الهاء وتشديد الدال وقلبت الياء المدغمة الى الهاء ، فاختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، وقرأ عاصم وورش بكسر الهاء وتشديد الدال فراراً من

إلتقاء الساكنين . [لأن الجزم إذا اضطر إلى حركته] تحول إلى الكسر . قال أبو حاتم : هي لغة سفلى مضر .

(59/363)

وروى يحيى ابن آدم عن أبي بكر عن عاصم بكسر الهاء والياء وتشديد الدال [لإتباع] الكسر الكسر وقيل : هو على لغة من يقرأ نعبد ونستعين ولن تمسّنا النار ونحوها ، وقرأ أبو عمرو بين الفتح والجزم على مذهبه في الإخفاء ، وقرأ حمزة والكسائي وخلف : بجزم الهاء وتخفيف الدال على معنى يهتدي ، يقال : هديته فهدى أي اهتدى فقال : خبرته فخبر ونقصته فنقص .

﴿ إِلاَّ أَن يهدى ﴾ في معنى الآية وجهان : فصرفها قوم إلى الرؤساء والمظلين . أراد لا يرشدون إلاّ أن يرشدوا وحملها الآخرون على الأصنام ، قالوا : وجه الكلام والمعنى لا يمشي إلاّ أن يحمل وينتقل عن مكانه إلاّ أن ينقل كقول الشاعر :

للفتى عقل يعيش به . . . حيث تهدي ساقه قدمه

يريد حيث يحمل ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ تقضون لأنفسكم ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ

ظَنّاً ﴾ منهم إنها آلهة وأنها تشفع لهم في الآخرة وأراد بالأكثر الكل ﴿ إِنَّ الظن لاَ يُغْنِي مِنَ الحق شَيْئاً إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

(60/363)

﴿ وَمَا كَانَ هذا القرآن أَن يفترى مِن دُونِ الله ﴾

قال الفراء : معناه وما ينبغي لهذا القرآن أن يفترى كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾ [آل عمران : 161] وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ المؤمنون لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ [التوبة : 122] ، وقال الكسائي : أن في محل نصب الخبر ويفترى صلة له وتقديره : وما كان هذا القرآن مفترى ، وقيل : أن بمعنى اللام أي وما كان القرآن ليفترى من دون الله ﴿ ولكن تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الكتاب ﴾ تمييز الحلال من الحرام والحق من الباطل ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العالمين * أَمْ يَقُولُونَ ﴾ أي يقولون .

قال أبو عبيدة : أم بمعنى الواو أي ويقولون افتراه ، اختلق محمّد القرآن من قبل نفسه .

﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ شبيه القرآن وقرأ ابن السميفع : بسورة مثله مضافة ، فتحتمل أن تكون الهاء كناية عن القرآن وعن الرسول ﴿ وادعوا مَنِ استطعتم ﴾ ممن تعبدون ﴿ مِّن دُونِ الله ﴾ ليعينوكم على ذلك ، وقال ابن كيسان : وادعوا من استطعتم على

المخالفة ليعينوكم ، وقال مجاهد : شهداءكم بمعنى ناساً يشهدون لكم ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ إنَّ محمداً افتراه .

ثم قال : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ تفسيره .

(61/363)

وقال الضحاك : يعني عاقبته وما وعد الله في القرآن انه كائن من الوعيد والتأويل ما يؤول إليه الأمر .

وقيل للحسين بن الفضل : هل تجد في القرآن (من جهل شيئاً عاداه ؟) فقال : نعم في موضعين ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف : 11] ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من كفار الأمم الخالية ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظالمين ﴾ أي كما كذب هؤلاء المشركون بالقرآن كذلك كذب في هذا وبشّر المشركون بالهلاك والعذاب ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ أي ومن قومك من سيؤمن بالقرآن ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ لعلم الله السابق فيهم ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بالمفسدين ﴾ الذين لا يؤمنون ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ يا محمد ﴿ فَقُل لِّي عَمَلِي ﴾ الإيمان ﴿ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ الشرك ﴿ أَنتُمْ بريئون مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَاْ بريء مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

قال مقاتل والكلبي : هذه الآية منسوخة بآية الجهاد ، ثم أخبر أن التوفيق للإيمان به لا بغيره ، وأن أحداً لا يؤمن إلاّ بتوفيقه وهدايته ، وذكر أن الكفار يستمعون القرآن وقول محمد صلى الله عليه وسلم فينظرون إليه ويرون أعلامه وأدلته على نبوته ولا ينفعهم ذلك ولا يهتدون لإرادة الله وعلمه فيهم فقال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ بأسماعهم الظاهرة ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ بأبصارهم الظاهرة ﴿ أَفَأَنْتَ تَهْدِي العمي وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ وهذا تسلية من الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وسلم يقول ما لا تقدر أن تسمع من سلبته السمع ، ولا تقدر أن تخلق للأعمى بصراً يهتدي به فكذلك لا تقدر أن توفقهم للإيمان وقد حكمت عليهم أن لا يؤمنوا ﴿ إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئاً ﴾ لأنه في جميع أفعاله عادل .

﴿ ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر والمعصية وفعلهم ما ليس لهم أن يفعلوا [وألزمهم] ما ليس للفاعل أن يفعله .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يلبثوا ﴾ قال الضحاك : كأن لم يلبثوا في الدنيا ﴿ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النهار ﴾ قصرت الدنيا في أعينهم من هول ما استقبلوا ، وقال ابن عباس : كأن لم يلبثوا في

قبورهم إلاّ قدر ساعة من النهار ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ حين بعثوا من القبور يعرف بعضهم بعضاً كمعرفتهم في الدنيا ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال القيامة ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ * وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ يا محمد في حياتك ﴿ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ ﴾ من العذاب ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل ذلك ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ ثُمَّ الله شَهِيدٌ على مَا يَفْعَلُونَ ﴾ مجزيهم به .

(63/363)

قال المفسرون : فكان البعض الذي أراهُ قبلهم ببدر وسائر العذاب بعد موتهم ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ خلت ﴿ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ ﴾ فكذبوه ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط ﴾ أي عذبوا في الدنيا واهلكوا بالحق والعدل .

وقال مجاهد ومقاتل : فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضى بينه وبينهم بالقسط ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ لا يعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة ولا ينقصون من حسناتهم ويزادوا على سيئاتهم ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أي المشركون ﴿ متى هذا الوعد ﴾ الذي وعدتنا يا محمد من العذاب .

وقيل : قيام الساعة ﴿ إِن كُنتُمْ ﴾ أنت يا محمد وأتباعك ﴿ صَادِقِينَ * قُل لاَّ أَمْلِكُ

لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾ لا أقدر لها على ضرّ ولا نفع ﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ الله ﴾ أن أملكه ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ مدة [وأجل] ﴿ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ وقت [انتهاء] أعمارهم ﴿ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ يتأخرون ساعة ﴿ وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ * قُلْ ﴾ لهم ﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ ﴾ الله ﴿ بَيَاتاً ﴾ ليلا ﴿ أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ المجرمون ﴾ المشركون وقد وقعوا فيه ﴿ أَثُمَّ ﴾ هنالك وحينئذ ، وليس بحرف عطف ﴿ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾ نزل العذاب ﴿ آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ صدقتم بالعذاب في وقت نزوله .

وقيل : بأنه في وقت البأس ﴿ الآنَ ﴾ فيه إضمار أي ، وقيل : أنّهم الآن يؤمنون ﴿ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ وتكذبون ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أشركوا ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ الخلد هَلْ تُجْزَوْنَ ﴾ اليوم ﴿ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ في الدنيا . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(64/363)

وقال ابن الجوزى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ قل مَنْ يرزقكم من السماء ﴾ المطر ، ومن الأرض النبات ، ﴿ أم من يملك السمع ﴾ أي : خَلْق السمع والأبصار .

وقد سبق معنى إِخراج الحي من الميت ، والميت من الحي [آل عمران : 27] .

قوله تعالى : ﴿ ومن يدبِّر الأمرَ ﴾ أي : أمر الدنيا والآخرة ﴿ فسيقولون الله ﴾ لأنهم خوطبوا بما لا يقدر عليه إِلا الله ، فكان في ذلك دليل توحيده .

وفي قوله : ﴿ أفلا تتقون ﴾ قولان :

أحدهما : أفلا تتَّعظون ، قاله ابن عباس .

والثاني : تتقون الشرك ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ فذلكم الله ربكم الحق ﴾ قال الخطابي : الحق هو المتحقق وجوده ، وكل شيء صح وجوده وكونه ، فهو حق .

قوله تعالى : ﴿ فأَنَّى تُصْرَفون ﴾ قال ابن عباس : كيف تصرف عقولكم إِلى عبادة من لا يرزق ولا يحيى ولا يميت ؟

قوله تعالى : ﴿ كذلك حَقَّتْ كلمة ربك ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : "كلمةُ ربك" ، وفي آخر السورة كذلك .

وقرأ نافع ، وابن عامر الحرفين "كلماتُ" على الجمع .

قال الزجاج : الكاف في موضع نصب ، أي : مِثْل أفعالهم جازاهم ربك ، والمعنى : حق عليهم أنهم لا يؤمنون ، وقوله : ﴿ أنهم لا يؤمنون ﴾ بدل من ﴿ كلمة ربك ﴾ .

وجائز أن تكون الكلمة حقت عليهم لأنهم لا يؤمنون ، وتكون الكلمة ما وُعدوا به من

العقاب .

وذكر ابن الأنباري في ﴿ كذلك ﴾ قولين :

أحدهما : أنها إشارة إلى مصدر "تُصرفون" ، والمعنى : مثل ذلك الصرف حقت كلمة ربك .

والثاني : أنه بمعنى هكذا .

وفي معنى "حقت" قولان :

أحدهما : وجبت .

والثاني : سبقت .

وفي كلمته قولان :

أحدهما : أنها بمعنى وعده .

والثاني : بمعنى قضائه .

ومن قرأ "كلماتُ" جعل كل واحدة من الكلم التي توعِّدُوا بها كلمة .

وقد شرحنا معنى الكلمة في [الأعراف : 137 و 158] .

قوله تعالى : ﴿ قل الله يهدي للحق ﴾ أي : إلى الحق .

قوله تعالى : ﴿ أم من لا يَهِدِّي ﴾ قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وورش عن نافع : "يَهَدِّي" بفتح الياء والهاء وتشديد الدال .

قال الزجاج : الأصل يهتدي ، فأدغمت التاء في الدال ، فطرحت فتحتها على الهاء .

وقرأ نافع إلا ورشاً ، وأبو عمرو : "يَهْدِّي" بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال ، غير أن أبا عمرو كان يُشِم الهاء شيئاً من الفتح .

وقرأ حمزة ، والكسائي : "يَهْدي" بفتح الياء وسكون الهاء وتخفيف الدال .

قال أبو علي : والمعنى : لا يهدي غيرَه إلا أن يُهدَى هو ، ولو هُدي الصُّمُّ لم يهتد ، ولكن لما جعلوها كمن يعقل ، أجريت مجراه .

وروى يحيى بن آدم عن أبي بكر عن عاصم : "يِهِدِّي" بكسر الياء والهاء وتشديد الدال ، وكذلك روى أبان وجبلة عن المفضل وعبد الوارث ، قال الزجاج : أتبعوا الكسرة الكسرة ، وهي رديئة لثقل الكسرة في الياء .

وروى حفص عن عاصم ، والكسائي عن أبي بكر عنه : "يَهِدِّي" بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال ، قال الزجاج : وهذه في الجودة كالمفتوحة الهاء ، إلا أن الهاء كُسرت لالتقاء الساكنين .

وقرأ ابن السميفع : "يهتدي" بزيادة تاء .

والمراد بقوله : ﴿ أم من لا يهدّي ﴾ الصم ﴿ إلا أن يُهدى ﴾ .

وظاهر الكلام يدل على أن الأصنام إن هديت اهتدت ، وليست كذلك ، لأنها حجارة لا تهتدي ، إلا أنهم لما اتخذوها آلهة ، عبّر عنها كما يعبَّر عمن يعقل ، ووصفت صفةَ مَن يعقل وإن لم تكن في الحقيقة كذلك ؛ ولهذا المعنى قال في صفتها : ﴿ أمَّن ﴾ لأنهم جعلوها كمن يعقل .

ولما أعطاها حقها في أصل وضعها ، قال : ﴿ يا أبتِ لم تعبدُ ما لا يسمع ﴾ [مريم : 42] .

وقال الفراء : ﴿ أمّن لا يهدي ﴾ أي : أتعبدون ما لا يقدر أن ينتقل من مكانه إلا أن يحوّل ؟ وقد صرف بعضهم الكلام إلى الرؤساء والمضلّين ، والأول أصح .

(66/363)

قوله تعالى : ﴿ فما لكم ﴾ قال الزجاج : هو كلام تام ، كأنه قيل لهم : أيُّ شيء لكم في عبادة الأوثان ؟ ثم قيل لهم : ﴿ كيف تحكمون ﴾ أي : على أي حال تحكمون ؟ وقال ابن عباس : كيف تقضون لأنفسكم ؟ وقال مقاتل : كيف تقضون بالجَوْر ؟

قوله تعالى : ﴿ وما يتَّبع أكثرهم ﴾ أي : كلهم ﴿ إلا ظناً ﴾ أي : ما يستيقنون أَنها آلهة ،

بل يظنون شيئاً فيتَّبعونه .

﴿ إِن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ أي : ليس هو كاليقين ، ولا يقوم مقام الحق وقال مقاتل : ظنهم بأنها آلهة لا يدفع عنهم من العذاب شيئاً ، وقال غيره : ظنهم أنها تشفع لهم لا يغني عنهم .

قوله تعالى : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ قال الزجاج : هذا جواب قولهم : ﴿ ائت بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّلْهُ ﴾ [يونس : 15] وجواب قولهم : ﴿ افتراه ﴾ [الفرقان : 4] .

قال الفراء : ومعنى الآية : ما ينبغي لمثل هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، فجاءت "أن" على معنى ينبغي .

وقال ابن الأنباري : يجوز أن تكون "أن" مع "يفترى" مصدراً ، وتقديره : وما كان هذا القرآن افتراءً .

ويجوز أن تكون "كان" تامة ، فيكون المعنى : ما نزل هذا القرآن ، وما ظهر هذا القرآن لأن يفترى ، وبأن يفترى ، فتُنْصَب "أن" بفقد الخافض في قول الفراء ، وتخفض بإضمار الخافض في قول الكسائي .

وقال ابن قتيبة : معنى ﴿ أن يفترى ﴾ أي : يضاف إلى غير الله ، أو يُختَلق .

قوله تعالى : ﴿ ولكن تصديقَ الذي بين يديه ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه تصديق الكتب المتقدمة ، قاله ابن عباس .

فعلى هذا ، إنما قال : ﴿ الذي ﴾ لأنه يريد الوحي .

والثاني : ما بين يديه من البعث والنشور ، ذكره الزجاج .

والثالث : تصديق النبي صلى الله عليه وسلم الذي بين يدي القرآن ، لأنهم شاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم وعرفوه قبل سماعهم القرآن ، ذكره ابن الأنباري :

(67/363)

قوله تعالى : ﴿ وتفصيل الكتاب ﴾ أي : وبيان الكتاب الذي كتبه الله على أُمة محمد صلى الله عليه وسلم الفرائض التي فرضها عليهم .

قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ في "أم" قولان : أحدهما : أنها بمعنى الواو ، قاله أبو عبيدة .

والثاني : بمعنى بل ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ فأتوا بسورةٍ مثلِهِ ﴾ قال الزجاج : المعنى : فأتوا بسورة مثلِ سورة منه ، فذكر المِثْلَ لأنه إنما التمس شبه الجنس ، ﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطعتم ﴾ ممن هو في التكذيب مثلكم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أنه اختلقه .

قوله تعالى : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن المعنى : بما لم يحيطوا بعلم ما فيه ذِكْر الجنة والنار والبعث والجزاء .

والثاني : بما لم يحيطوا بعلم التكذيب به ، لأنهم شاكّون فيه .

وفي قوله : ﴿ ولمَّا يأتهم تأويله ﴾ قولان :

أحدهما : تصديق ما وُعدوا به من الوعيد .

والتأويل : ما يؤول إليه الأمر .

والثاني : ولم يكن معهم عِلم تأويله ، قاله الزجاج .

قيل لسفيان بن عيينة : يقول الناس : كل إنسان عدوُّ ما جهل ، فقال : هذا في كتاب الله .

قيل : أين ؟ فقال : ﴿ بل كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ .

وقيل للحسين بن الفضل : هل تجد في القرآن : من جهل شيئاً عاداه ؟ فقال : نعم ، في موضعين .

قوله : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ وقوله : ﴿ إذْ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ [الأحقاف : 11] .

قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يؤمن به ﴾ في المشار إليهم قولان :

أحدهما .

أنهم اليهود ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : قريش ، قاله مقاتل بن سليمان .

وفي هاء "به" قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم ودينه ، قاله مقاتل .

والثاني : إلى القرآن ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

وهذه الآية تضمنت الإخبار عما سبق في علم الله ، فالمعنى : ومنهم مَنْ سيؤمن به .

وقال الزجاج : منهم من يعلم أنه حق فيصدّق به ويعاند فيظهر الكفر .

(68/363)

﴿ ومنهم من لا يؤمن به ﴾ أي : يشكُّ ولا يصدّق .

قوله تعالى : ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ قال عطاء : يريد المكذبين ، وهذا تهديد لهم .

قوله تعالى : ﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي . . .

﴾ الآية .

قال أبو صالح عن ابن عباس : نسختها آية السيف ؛ وليس هذا بصحيح ، لأنه لا تنافي بين الآيتين .

قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال :

أحدها : في يهود المدينة ، كانوا يأتون رسول الله ويستمعون القرآن فيعجبون ويشتهونه ويغلب عليهم الشقاء ، فنزلت هذه الآية .

والثاني : أنها نزلت في المستهزئين ، كانوا يستمعون إلى النبي صلى الله عليه وسلم للاستهزاء والتكذيب ، فلم ينتفعوا ، فنزلت فيهم هذه الآية ، والقولان مرويَّان عن ابن عباس .

والثالث : أنها نزلت في مشركي قريش ؛ قاله مقاتل .

قال الزجاج : ظاهرهم ظاهر من يستمع ، وهم لشدة عداوتهم بمنزلة الصم .

﴿ ولو كانوا لا يعقلون ﴾ أي : ولو كانوا مع ذلك جهالاً .

وقال ابن عباس : يريد أنهم شرٌّ من الصم ، لأن الصم لهم عقول وقلوب ، وهؤلاء قد أصم الله قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ قال ابن عباس ؛ يريد : متعجبين منك .

﴿ أفأنت تهدي العمي ﴾ يريد أن الله أعمى قلوبهم فلا يبصرون .

وقال الزجاج : ومنهم من يُقبل عليك بالنظر ، وهو من بغضه لك وكراهته لما يرى من آياتك كالأعمى .

وقال ابن جرير : ومنهم من يستمع قولك وينظر إلى حججك على نُبُوَّتك ، ولكن الله قد سلبه التوفيق .

وقال مقاتل : و"لو" في الآيتين بمعنى "إذا" .

قوله تعالى : ﴿ إِن الله لا يظلم الناس شيئاً ﴾ لما ذكر الذين سبق القضاء عليهم بالشقاوة ، أخبر أن تقدير ذلك عليهم ليس بظلم ، لأنه يتصرف في ملكه كيف شاء ، وهم إِذا كسبوا المعاصي فقد ظلموا أنفسهم بذلك ، لأن الفعل منسوب إِليهم ، وإِن كان بقضاء الله .

(69/363)

قوله تعالى : ﴿ ولكنَّ الناس ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : "ولكنِ الناسُ" بتخفيف النون وكسرها ، ورفع الاسم بعدها .

قوله تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم ﴾ وقرأ حمزة : "يحشرهم" بالياء .

قال أبو سليمان الدمشقي : هم المشركون .

قوله تعالى : ﴿ كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار ﴾ فيه قولان :

أحدهما : كأن لم يلبثوا في قبورهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : في الدنيا ، قاله مقاتل .

قال الضحاك : قصر عندهم مقدار الوقت الذي بين موتهم وبعثهم ، فصار كالساعة من النهار ، لهول ما استقبلوا من القيامة .

قوله تعالى : ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ قال ابن عباس : إِذا بعثوا من القبور تعارفوا ، ثم تنقطع

المعرفة .

قال الزجاج : وفي معرفة بعضهم بعضاً ، وعِلم بعضهم بإضلال بعض ، التوبيخُ لهم ، وإِثباتُ الحجة عليهم .

وقيل : إِذا تعارفوا وبَّخ بعضهم بعضاً ، فيقول هذا لهذا : أنت أضللتني ، وكسَّبتني دخول النار .

قوله تعالى : ﴿ قد خسر الذين كذَّبوا ﴾ هو من قول الله تعالى ، لا مِن قولهم ، والمعنى : خسروا ثواب الجنة إِذْ كذَّبوا بالبعث ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ من الضلالة .

قوله تعالى : ﴿ وإِمّا نرينَّك بعض الذي نَعِدُهُمْ ﴾ قال المفسرون : كانت وقعة بدر مما أراه الله في حياته من عذابهم .

﴿ أو نتوفينَّك ﴾ قبل أن نريَك ﴿ فإلينا مرجعهم ﴾ بعد الموت ، والمعنى : إِن لم ننتقم منهم عاجلاً ، انتقمنا آجلاً .

قوله تعالى : ﴿ ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ من الكفر والتكذيب .

قال الفراء : "ثم" هاهنا عطف ، ولو قيل : معناها : هناك الله شهيد ، كان جائزاً .

وقال غيره : "ثم" هاهنا بمعنى الواو .

وقرأ ابن أبي عبلة : "ثَمَّ الله شهيد" بفتح الثاء ، يراد به : هنالك الله شهيد .

قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء رسولهم قضي بينهم ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : إِذا جاء في الدنيا بعد الإِذن له في دعائهم ، قضي بينهم بتعجيل الانتقام منهم ، قاله الحسن .

(70/363)

وقال غيره : إِذا جاءهم في الدنيا ، حُكم عليهم عند اتباعه وخلافه بالطاعة والمعصية .

والثاني : إِذا جاء يوم القيامة ، قاله مجاهد .

وقال غيره : إِذا جاء شاهداً عليهم .

والثالث : إِذا جاء في القيامة وقد كذَّبوه في الدنيا ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : ﴿ قضي بينهم بالقسط ﴾ فيه قولان :

أحدهما : بين الأمَّة ، فأثيب المحسن وعوقب المسيء .

والثاني : بينهم وبين نبيهم .

قوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ في القائلين هذا قولان :

أحدهما : الأمم المتقدمة ، أخبر عنهم باستعجال العذاب لأنبيائهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم المشركون الذين أنذرهم نبينا صلى الله عليه وسلم ، قاله أبو سليمان .

وفي المراد بالوعد قولان :

أحدهما : العذاب ، قاله ابن عباس .

والثاني : قيام الساعة .

﴿ إِن كنتم صادقين ﴾ أنت وأتباعك .

قوله تعالى : ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً . . .

﴾ الآية ، قد ذكرت تفسيرها في آيتين من (الأعراف 34 و 188) .

قوله تعالى : ﴿ إن أتاكم عذابه بياتاً ﴾ قال الزجاج : البيات : كل ما كان بليل .

وقوله : ﴿ ماذا ﴾ في موضع رفع من جهتين .

إِحداهما : أن يكون "ذا" بمعنى الذي ، المعنى : ما الذي يستعجل منه المجرمون ؟ ويجوز أن يكون "ماذا" اسماً واحداً ، فيكون المعنى : أي شيء يستعجل منه المجرمون ؟ والهاء في "منه" تعود على العذاب .

وجائز أن تعود على ذكر الله تعالى ، فيكون المعنى : أي شيء يستعجل المجرمون من الله تعالى ؟ وعودها على العذاب أجود ، لقوله : ﴿ أثم إِذا ما وقع آمنتم به ﴾ .

(71/363)

وذكر بعض المفسرين أن المراد بالمجرمين : المشركون ، وكانوا يقولون : نكذب بالعذاب ونستعجله ، ثم إذا وقع العذاب آمنا به ؛ فقال الله تعالى موبّخاً لهم : ﴿ أثمَّ إذا ما وقع آمنتم به ﴾ أي : هنالك تؤمنون فلا يُقبل منكم الإيمان ، ويقال لكم : الآن تؤمنون ؟ فأضمر : تؤمنون به مع ﴿ آلآن وقد كنتم به تستعجلون ﴾ مستهزئين ، وهو قوله : ﴿ ثم قيل للذين ظلموا ﴾ أي : كفروا ، عند نزول العذاب ﴿ ذوقوا عذاب الخلد ﴾ ، لأنه إذا نزل بهم العذاب ، أفضوا منه إلى عذاب الآخرة الدائم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(72/363)

وقال الخازن فى الآيات :

قوله : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾

أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من يرزقكم من السماء يعني المطر والأرض يعني النبات ﴿ أم من يملك السمع والأبصار ﴾ يعني ومن أعطاكم هذه الحواس التي تسمعون بها وتبصرون بها ﴿ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ يعني أنه تعالى يخرج الإنسان حياً من النطفة وهي ميتة وكذلك الطير من البيضة وكذلك يخرج النطفة الميتة من الإنسان

الحي ويخرج البيضة الميتة من الطائر الحي .

وقيل : معناه أنه يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، والقول الأول أقرب إلى الحقيقة ﴿ ومن يدبر الأمر ﴾ يعني أن مدبر أمر السموات ومن فيها ومدبر أمر الأرض وما فيها هو الله تعالى وذلك قوله ﴿ فسيقولون الله ﴾ يعنى أنهم يعترفون أن فاعل هذه الأشياء هو الله وإذا كانوا يقرون بذلك ﴿ فقل ﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿ أفلا تتقون ﴾ يعني : أفلا تخافون عقابه حيث تعبدون هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شيء من هذه الأمور ﴿ فذلكم الله ربكم الحق ﴾ يعني : فذلكم الذي يفعل هذه الأشياء ويقدر عليها هو الله ربكم الحق الي يستحق العبادة لا هذه الأصنام ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ يعني : إذا ثبت بهذه البراهين الواضحة والدلائل القطعية أن الله هو الحق وجب أن يكون ما سواه ضلالاً وباطلاً ﴿ فأنى تصرفون ﴾ يعني : إذا عرفتم هذا الأمر الظاهر الواضح فكيف تستخيرون العدول عن الحق إلى الضلال الباطل .

(73/363)

﴿ كذلك ﴾ أي كما ثبت أنه ليس بعد الحق إلا الضلال ﴿ حقت ﴾ أي وجبت ﴿ كلمة ربك ﴾ في الأزل ﴿ على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴾ قيل : المراد بكلمة الله

قضاؤه عليهم في اللوح المحفوظ أنهم لا يؤمنون وقضاؤه لا يرد ولا يدفع ﴿ قل هل من شركائكم ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين هل من شركائكم يعني هذه الأصنام التي تزعمون أنها آلهة ﴿ من يبدأ الخلق ﴾ يعني من يقدر على أن ينشئ الخلق على غير مثال سبق ﴿ ثم يعيده ﴾ أي ثم يعيده بعد الموت كهيئته أول مرة ، وهذا السؤال استفهام إنكار ﴿ قل ﴾ أي : قل أنت يا محمد ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ يعني أن الله هو القادر على ابتداء الخلق وإعادته ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ يعنى فأنى تصرفون عن قصد السبيل والمراد من هذا التعجب من أحوالهم كيف تركوا هذا الأمر الواضح وعدلوا عنه إلى غيره ﴿ قل ﴾ أي قل يا محمد ﴿ هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ﴾ يعني هل من هذه الأصنام من يقدر علي أن يرشد إلى الحق فإذا قالوا لا ولا بد لهم من ذل ﴿ قل ﴾ أي قل لهم أنت يا محمد ﴿ الله يهدي للحق ﴾ يعني أن الله هو الذي يرشد إلى الحق لا غيره ﴿ أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى ﴾ يعني أن الله هو الذي يهدي إلى الحق فهو أحق بالاتباع لا هذه الأصنام التي لا تهتدي إلا أن تهدي .

فإن قلت : الأصنام جماد لا تتصور هدايتها ولا أن تهدي فكيف قال إلا أن يهدي .

قلت : ذكر العلماء عن هذا السؤال وجوهاً .

الأول : أن معنى الهداية في حق الأصنام الانتقال من مكان إلى مكان فيكون المعنى أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان آخر إلا أن تحمل وتنقل ، فبين سبحانه وتعالى بها عجز الأصنام .

الوجه الثاني : أن ذكر الهداية في حق الأصنام على وجه المجاز وذلك أن المشركين لما اتخذوا الأصنام آلهة وأنزلوها منزلة من يسمع ويعقل عبر عنها بما يعبر به عمن يسمع ويعقل ويعلم ووصفها بهذه الصفة وإن كان الأمر ليس كذلك .

(74/363)

الوجه الثالث : يحتمل أن يكون المراد من قوله هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده الأصنام ، والمراد من قوله هل من شركائكم من يهدي إلى الحق رؤساء الكفر والضلالة فالله سبحانه وتعالى هدى الخلق إلى الدين بما ظهر من الدلائل الدالة على وحدانيته وأما رؤساء الكفر والضلالة فإنهم لا يقدرون على هداية غيرهم إلا إذا هداهم الله إلى الحق فكان اتباع دين الله والتمسك بهدايته أولى من اتباع غيره .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ قال الزجاج : فما لكم كلام تام كأنه قيل لهم : أي شيء لكم في عبادة هذه الأصنام .

ثم قال : كيف تحكمون ؟ يعني : على أي حال تحكمون .

وقيل : معناه كيف تقضون لأنفسكم بالجور حين تزعمون أن مع الله شريكاً وقيل معناه بئسما حكمتم إذ جعلتم لله شريكاً من ليس بيده منفعة ولا مضرة ولا هداية .

﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ﴾ يعني : وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين إلا ما لا علم لهم بحقيقته وصحته بل هم في شك منه وريبة وقيل المراد بالأكثر الكل لأن جميع المشركين يتبعون الظن في دعواهم أن الأصنام تشفع لهم وقيل المراد بالأكثر الرؤساء ﴿ إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ يعني أن الشك لا يغني عن اليقين شيئاً ولا يقوم مقامه وقيل في الآية إن قولهم إن الأصنام آلهة وإنها تشفع لهم ظن منهم لم يرد به كتاب ولا يعني أنها لا تدفع عنهم من عذاب الله شيئاً ﴿ إن الله عليم بما يفعلون ﴾ يعني من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق اليقين .

(75/363)

قوله تعالى : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ يعني وما كان ينبغي لهذا القرآن أن يختلف ويفتعل لأن معنى الافتراء الاختلاق والمعنى ليس وصف القرآن وصف شيء ممكن أن يفترى به على الله لأن المفترى هو الذي يأتي به البشر وذلك أن كفار مكة زعموا أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) أتى بهذا القرآن من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق فأخبر الله أن هذا القرآن وحي أنزل الله عليه وأنه مبرأ من الافتراء والكذب وأنه لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى .

ثم ذكر سبحانه وتعالى ما يؤكد هذا بقوله ﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ يعني ولكن الله أنزل هذا القرآن مصدقاً لما قبله من الكتب التي أنزلها على أنبيائه كالتوراة والإنجيل . وتقرير هذا ، أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يجتمع بأحد من العلماء ، ثم إنه (صلى الله عليه وسلم) أتى بها القرآن العظيم المعجز وفيه أخبار الأولين وقصص الماضين وكل ذلك موافق لما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلة قبله ولو لم يكن كذلك لقدحوا فيه لعداوة أهل الكتاب له ولما لم يقدح فيه أحد من أهل الكتاب علم بذلك أن ما فيه من القصص والأخبار مطابقة لما في التوراة والإنجيل مع القطع بأنه ما علم ما فيها فثبت بذلك أنه وحي من الله أنزله عليه وأنه مصدق لما بين يديه وأنه معجزة له (صلى الله عليه وسلم) .

(76/363)

وقيل في معنى قوله : ولكن تصديق الذي بين يديه يعني من أخبار الغيوب الآتية ، فإنها جاءت على وفق ما أخر ﴿ وتفصيل الكتاب ﴾ يعني وتبيين ما في الكتاب من الحلال والحرام والفرائض والأحكام ﴿ لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ يعني أن هذا القرآن لا شك فيه أنه من رب العالمين وأنه ليس مفترى على الله وأنه لا يقدر أحد من البشر على الإتيان

بمثله وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ يعني أم يقول هؤلاء المشركون افترى محمد هذا القرآن وخلقه من قبل نفسه وهو استفهام إنكار وقيل أم بمعنى الواو أي ويقولون افتراه ﴿ قل ﴾ أي : قل لهم يا محمد إن كان الأمر كما تقولون ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾ يعني بسورة شبيهة به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم فأنتم عرب مثلي في الفصاحة والبلاغة .

فإن قلت : قال الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة فأتوا بسورة من مثله وقال سبحانه وتعالى هنا فأتوا بسورة مثله فما فائدة ذلك وما الفرق بينهما .

قلت لما كان محمداً (صلى الله عليه وسلم) أمياً لم يقرأ ولم يكتب وأتى بهذا القرآن العظيم كان معجزاً في نفسه فقيل لهم فأتوا بسورة من مثله يعني : مع إنسان أمي مثل محمد (صلى الله عليه وسلم) في عدم الكتابة والقرآءة .

وأما قوله سبحانه وتعالى : فأتوا بسورة مثله أي فأتوا بسورة تساوي سورة القرآن في الفصاحة والبلاغة وهو المراد بقوله فأتوا بسورة مثله يعني أن السورة في نفسها معجزة فإن الخلق لو اجتمعوا على ذلك لم يقدروا عليه وهو المراد من قوله : ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ يعني وادعوا للاستعانة على ذلك من استطعتم من خلقه ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ يعني في قولكم إن محمداً افتراه ثم قال تعالى : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ يعني القرآن .

أي : كذبوا بما لم يعلموه .

قال عطاء : يريد أنه ليس خلق يحيط بجميع علوم القرآن .

(77/363)

وقيل : معناه بل كذبوا بما في القرآن من ذكر الجنة والنار والحشر والقيامة والثواب والعقاب وغيرها مما لم يحيطوا بعلمه ، لأنهم كانوا ينكرون ذلك كله .

وقيل : إنهم لما سمعوا ما في القرآن من القصص وأخبار الأمم الخالية ولم يكونوا سمعوها قبل ذلك أنكروها لجهلهم فرد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه لأن القرآن العظيم مشتمل على علوم كثيرة لا يقدر أحد على استيعابها وتحصيلها ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ يعني أنهم كذبوا به ولم يأتهم بعد بيان ما يؤول إليه ذلك الوعيد الذي توعدهم الله في القرآن به من العقوبة .

والمعنى : أنهم لم يعلموا ما تؤول إليه عاقبة أمرهم .

وقيل : معناه أنهم لم يعلموه تنزيلاً ولا علموه تأويلاً فكذبوا به وذلك لأنهم جهلوا القرآن وعلمه وعلم تأويله ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ يعني كما كذب هؤلاء بالقرآن كذلك كذب الأمم الماضية أنبياءهم فيما وعدوهم به ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين

﴿ الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) أي : فانظر يا محمد كيف كان عاقبة من ظلم من الأمم كذلك تكون عاقبة من كذبك من قومك ففيه تسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) وقيل يحتمل أن يكون الخطاب لكل فرد من الناس .

والمعنى : فانظر أيها الإنسان كيف كان عاقبة من ظلم فاحذر أن تفعل مثل فعله .

﴿ وإن كذبوك ﴾ يعني وإن كذبك قومك يا محمد ﴿ فقل ﴾ أي فقل لهم ﴿ لي عملي ﴾ يعني الطاعة وجزاء ثوابها ﴿ ولكم عملكم ﴾ يعني الشرك وجزاء عقابه ﴿ أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون ﴾ قيل : المراد منه الزجر والرجوع .

وقال مقاتل والكلبي : هذه الآية منسوخة بآية السيف .

قال الإمام فخر الدين الرازي : وهو بعيد لأن شرط الناسخ أن يكون رافعاً الحكم المنسوخ .

ومدلول الآية : اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وآية القتال ما رفعت شيئاً من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلاً .

(78/363)

قوله تعالى : ﴿ ومنهم ﴾ يعني ومن هؤلاء المشركين ﴿ من يستمعون إليك ﴾ يعني بأسماعهم الظاهرة ولا ينفعهم ذلك لشدة بغضهم وعداوتهم لك ﴿ أفأنت تسمع الصم ﴾

يعني كما أنك لا تقدر على إسماع الصم فكذلك لا تقدر على إسماع من أصم الله سمع قلبه ﴿ ولو كانوا لا يعقلون ﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى صرف قلوبهم عن الانتفاع بما يسمعون ولم يوفقهم لذلك فهم بمنزلة الجهال إذا لم ينتفعوا بما لم يسمعوا وهم أيضاً كالصم الذين لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه لعدم التوفيق ﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ يعني بأبصارهم الظاهرة ﴿ أفأنت تهدي العمي ﴾ يريد عمي القلوب ﴿ ولو كانوا لا يبصرون ﴾ لأن الله أعمى بصائر قلوبهم فلا يبصرون شيئاً من الهدى وفي هذا تسلية من الله لنبيه (صلى الله عليه وسلم) يقول الله إنك لا تقدر أن تسمع من سلبته السمع ولا تقدر أن تهدي من سلبته البصر ولا تقدر أن توفق للإيمان من حكمت عليه أن لا يؤمن ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ .

قال العلماء : لما حكم الله على أهل الشقوة بالشقاوة لقضائه وقدره السابق فيهم أخبر في هذه الآية أن تقدير الشقاوة عليهم ما كان ظلماً منه لأنه يتصرف في ملكه كيف يشاء والخلق كلهم عبيدة وكل من تصرف في ملكه لا يكون ظالماً وإنما قال ولكن الناس أنفسهم يظلمون لأن الفعل منسوب إليهم بسبب الكسب وإن كان قد سبق قضاء الله وقدره فيهم .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ويوم يحشرهم ﴾ يعني : واذكر يا محمد يوم نجمع هؤلاء المشركين لموقف الحساب .

وأصل الحشر : إخراج الجماعة وإزعاجهم من مكانهم ﴿ كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار

﴿ يعني كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا قدر ساعة من النهار .

وقيل : معناه كأنهم لم يلبثوا في قبورهم إلا قدر ساعة من النهار .

(79/363)

والوجه الأول أولى ، لأن حال المؤمن والكافر سواء في عدم المعرفة بمقدار لبثهم في القبور إلى وقت الحشر ، فتعين حمله على أمر يختص بحال الكافر وهو أنهم لما لم ينتفعوا بأعمارهم في الدنيا استقلوها .

والمؤمن لما انتفع بعمره في الدنيا لم يستقله .

وسبب استقلال الكفار : مدة مقامهم في الدنيا أنهم لما ضيعوا أعمارهم في طلب الدنيا والحرص على ما فيها ولم يعملوا بطاعة الله فيها كان وجود ذلك كالعدم فلذلك استقلوه .

وقيل : إنهم لما شاهدوا أهوال يوم القيامة وطال عليهم ذلك ، استقلوا مدة مقامهم في الدنيا ، لأن مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الآخرة قليل جداً ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ يعني : يعرف بعضهم بعضاً إذا خرجوا من قبورهم كما كانوا يتعارفون في الدنيا ثم تنقطع المعرفة بينهم إذا عاينوا أهوال يوم القيامة ، وفي بعض الآثار : أن الإنسان يوم القيامة يعرف من بجنبه ولا يقدر أن يكلمه هيبة وخشية ، وقيل : إن أحوال يوم القيامة مختلفة ففي بعضها يعرف

بعضها بعضاً وفي بعضها ينكر بعضهم بعضاً لهول ما يعاينون في ذلك اليوم ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ﴾ يعني أن من باع آخرته الباقية بدنياه الفانية قد خسر لأنه أثر الفاني على الباقي ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ يعني إلى ما يصلحهم وينجيهم من هذا الخسار .

(80/363)

﴿ وإما نرينك ﴾ يعني يا محمد ﴿ بعض الذي نعدهم ﴾ يعني ما نعدهم به من العذاب في الدنيا فذاك ﴿ أو نتوفينك ﴾ قبل أن نريك ذلك الوعد في الدنيا فإنك ستراه في الآخرة وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فإلينا مرجعهم ﴾ يعني في الآخرة وفيه دليل على أن الله يري رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنواعاً من عذاب الكافرين وذلهم وخزيهم في حال حياته في الدنيا وقد أراه ذلك في يوم بدر وغيره من الأيام وسير به ما أعد لهم من العذاب في الآخرة بسبب كفرهم وتكذيبهم ﴿ ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ فيه وعيد وتهديد لهم يعني أنه سبحانه وتعالى شاهد على أفعالهم التي فعلوها في الدنيا فيجازيهم عليها يوم القيامة .

قوله : ﴿ ولكل أمة رسول ﴾ لما بيَّن الله حال محمد (صلى الله عليه وسلم) مع قومه بيَّن أن حال الأنبياء مع أممهم كذلك فقال تعالى : وكل أمة ، يعني قد خلت وتقدمت قبلكم ،

رسول يعني : مبعوثاً إليهم يدعو إلى الله وإلى طاعته والإيمان به ﴿ فإذا جاء رسولهم ﴾ في هذا الكلام إضمار تقديره ، فإذا جاءهم رسولهم وبلغهم ما أرسل به إليهم فكذبه قوم وصدقه آخرون ﴿ قضي بينهم بالقسط ﴾ يعني حكم بينهم بالعدل وفي وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان : أحدهما : أنه في الدنيا وذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل إلى كل أمة رسولاً لتبليغ الرسالة وإقامة الحجة وإزالة العذر فإذا كذبوا رسلهم وخالفوا أمر الله قضى بينهم ، وبين رسلهم في الدنيا فيهلك الكافرين وينجي رسلهم والمؤمنين ويكون ذلك عدلاً لا ظلماً لأن قبل مجيء الرسول لا يكون ثواباً ولا عقاباً .

القول الثاني : إن وقت القضاء في الآخرة وذلك أن الله إذا جمع الأمم يوم القيامة للحساب والقضاء بينهم والفصل بين المؤمن والكافر والطائع والعاصي جيء بالرسل لتشهد عليهم . والمراد من ذلك ، المبالغة في إظهار العدل ، وهو قوله تعالى : ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ يعني من جزاء أعمالهم شيئاً ولكن يجازي كل أحد على قدر عمله .

(81/363)

وقيل : معناه أنهم لا يعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة ولا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم ﴿ ويقولون ﴾ يعني هؤلاء الكفار ﴿ متى هذا الوعد ﴾ يعني الذي

تعدنا به يا محمد من نزلو العذاب وقيل قيام الساعة ، وإنما قالوا ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ يعني فيما تعدونا به ، وإنما قالوا بلفظ الجمع لأن كل أمة قالت لرسولها كذلك أو يكون المعنى : إن كنتم صادقين أنت وأتباعك يا محمد أو ذكروه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم ﴿ قل ﴾ أي : قل لهم يا محمد ﴿ لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ﴾ يعني لا أملك لنفسي دفع ضر أو جلب نفع ولا أقدر على ذلك ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ يعني أن أقدر عليه أو أملكه .

(82/363)

والمعنى : أن إنزال العذاب على الأعداء وإظهار النصر للأولياء وعلم قيام الساعة لا يقدر عليه إلا الله فتعيين الوقت إلى الله سبحانه وتعالى بحسب مشيئته ثم إذا حضر ذلك الوقت الذي وقته الله لحدوث هذه الأشياء فإنه يحدث لا محالة وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولكل أمة أجل ﴾ أي مدة مضروبة ووقت معين ﴿ إذا جاء أجلهم ﴾ يعني إذا انقضت مدة أعمارهم ﴿ فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ يعني لا يتأخرون عن ذلك الأجل الذي أجل لهم ولا يتقدمونه ﴿ قل ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك ﴿ أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً ﴾ يعني ليلاً يقال بات يفعل كذا إذا فعل بالليل والسبب فيه إن

الإنسان في الليل لا يكون إلا في البيت غالباً فجعل الله هذه اللفظة كناية عن الليل ﴿ أو نهاراً ﴾ يعني في النهار ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ يعني ما الذي يستعجلون من نزول العذاب وقد وقعوا فيه وحقيقة المعنى أنهم كانوا يستعجلون نزول العذاب كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بقوله ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ فأجابهم الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ يعني أي شيء يعلم المجرمون ما يطلبون ويستعجلون كما يقول الرجل لغيره وقد فعل فعلاً قبيحاً ماذا جنيت على نفسك .

﴿ أثمّ إذا ما وقع ﴾ يعني إذا ما نزل العذاب ووقع ﴿ آمنتم به ﴾ يعني آمنتم بالله وقت نزول العذاب وهو وقت اليأس وقيل معناه صدقتم بالعذاب عند نزوله ودخلت همزة الاستفهام على ثم للتوبيخ والتقريع ﴿ آلآن ﴾ فيه إضمار تقديره يقال لهم آلآن تؤمنون أي حين وقوع العذاب ﴿ وقد كنتم به تستعجلون ﴾ يعني تكذيباً واستهزاء ﴿ ثم قيل للذين ظلموا ﴾ يعني ظلموا أنفسهم بسبب شركهم وكفرهم بالله ﴿ ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴾ يعني في الدنيا من الأعمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

فصل

قال الزمخشري في الآيات السابقة :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ ﴾

الْحُسْنى المثوبة الحسنى وَزِيادَةٌ وما يزيد على المثوبة وهي التفضل . ويدل عليه قوله تعالى وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وعن عليّ رضى اللّه عنه : الزيادة : غرفة من لؤلؤة واحدة . وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : الحسنى : الحسنة ، والزيادة : عشر أمثالها . وعن الحسن رضى اللّه عنه :

عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وعن مجاهد رضى اللّه عنه : الزيادة مغفرة من اللّه ورضوان .

وعن يزيد بن شجرة : الزيادة أن تمرّ السحابة بأهل الجنة فتقول : ما تريدون أن أمطركم ؟ فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم . وزعمت المشبهة والمجبرة « 1 » أن الزيادة النظر إلى وجه اللّه تعالى « 2 » وجاءت بحديث مرقوع « 3 » « إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن يا أهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فو اللّه ما أعطاهم اللّه شيئاً هو أحب إليهم منه » « 4 » وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ لا يغشاها قَتَرٌ غبرة فيها سواد وَلا ذِلَّةٌ ولا أثر هوان وكسوف بال . والمعنى لا يرهقهم ما يرهق

(1) . قوله «وزعمت المشبهة والمجبرة» يريد أهل السنة القائلين بجواز رؤيته تعالى ووقوعها في الآخرة ، خلاف المعتزلة في ذلك . (ع)

(2) . ذكر محمود في الزيادة تفاسير كثيرة ، ثم قال : وزعمت المشبهة والمجبرة أن الزيادة النظر إلى وجه اللّه تعالى . . . الخ ، قال أحمد : نسبة تفسير الزيادة برؤية اللّه تعالى إلى زعم أهل السنة الملقبين عنده بالمشبهة والمجبرة :

مرور على ديدنه المعروف في التكذيب بما لم يحط به علما ، وهذا التفسير مستفيض منقول عن جملة الصحابة ، والحديث المروي فيه مدون في الصحاح متفق على صحته ، وقد جعل أهل السنة جاءوا به من عند أنفسهم ، ومن قبل قال المصرون على الكفر لسيد البشر وصاحب السنة : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، حملا له على أنه جاء به من عنده ، فلأهل السنة إذاً أسوة بصاحبها ، ولقد كان لكم في رسول اللّه أسوة حسنة ، فابتلاء الحق بالباطل قديم ، واللّه الموفق . وإن في قوله تعالى على أثر ذلك وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ مصداقا لصحة هذا التفسير ، فان فيه تنبيها على إكرام وجوههم بالنظر إلى وجه اللّه تعالى فجدير بهم أن لا يرهق وجوههم قتر البعد ولا ذلة الحجاب ، عكس المحرومين المحجوبين فان وجوههم مرهقة بقتر الطرد وذلة البعد . نسأله اللّه الكفاية . فأولئك يغشى وجوههم أنوار المشاهدة ، وهؤلاء يغشى وجوههم كقطع الليل المظلم ، منهم شقى وسعيد .

(3) . قوله «بحديث مرقوع بالقاف ، أى مفترى ، كذا قيل . وهو في مقابلة المرفوع بالفاء ،

أى المضاف إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم . (ع)

(4) . قال الطيبي : قوله «مرقوع» هو عنده بالقاف أى مرقع معدى . وهو عند أهل السنة بالفاء اه . وقد أخرجه مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب . ورواه الترمذي وقال : كذا رفعه حماد بن سلمة . وقد رواه سليمان بن المغيرة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قوله . انتهى . وفي الباب عن أبى موسى مرفوعا أخرجه الطبراني في مسند الشاميين . وللطبري . وعن ابن عمر وأنس أخرجهما ابن مردويه باسنادين ضعيفين . وعن أبى بكر الصديق أخرجه إسحاق في مسنده من رواية عامر بن سعد عنه . وعن ابن عباس وعلى أخرجهما ابن مردويه أيضا .

(84/363)

أهل النار إذكارا بما ينقذهم منه برحمته . ألا ترى إلى قوله تعالى ، تَرْهَقُها قَتَرَةٌ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ .

[سورة يونس (10) : آية 27]

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (27)

فإن قلت : ما وجه قوله وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وكيف يتلاءم ؟ قلت :

لا يخلو ، إمّا أن يكون وَالَّذِينَ كَسَبُوا معطوفاً على قوله الَّذِينَ أَحْسَنُوا كأنه قيل : والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وإمّا أن يقدّر : وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها على معنى : جزاؤهم أن تجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزاد عليها ، وهذا أوجه من الأوّل ، لأنّ في الأوّل عطفاً على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه . وفي هذا دليل على أنّ المراد بالزيادة الفضل ، لأنه دل بترك الزيادة على السيئة على عدله ، ودل ثمة بإثبات الزيادة على المثوبة على فضله .

وقرئ : يرهقهم ذلة ، بالياء مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ أى لا يعصمهم أحد من سخط اللّه وعذابه . ويجوز ما لهم من جهة اللّه ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين مُظْلِماً حال من اللّه . ومن قرأ قِطَعاً بالسكون من قوله بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ جعله صفة له . وتعضده قراءة أبىّ بن كعب :

كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم . فإن قلت : إذا جعلت مظلماً حالا من الليل ، فما العامل فيه ؟ قلت : لا يخلو إمّا أن يكون أُغْشِيَتْ من قبل إن مِنَ اللَّيْلِ صفة لقوله قِطَعاً فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة ، وإما أن يكون معنى الفعل في مِنَ اللَّيْلِ .

[سورة يونس (10) : آية 28]

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ (28)

مَكانَكُمْ الزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم. وأَنْتُمْ أكد به الضمير في مكانكم لسدّه مسدّ قوله الزموا وَشُرَكاؤُكُمْ عطف عليه. وقرئ وَشُرَكاؤُكُمْ على أنّ الواو بمعنى مع، والعامل فيه ما في مكانكم من معنى الفعل فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ ففرّقنا بينهم وقطعنا أقرانهم. والوصل «1» التي كانت بينهم في الدنيا. أو فباعدنا بينهم بعد الجمع بينهم في

---

(1). قوله «أقرانهم» مفرده «قرن» بالتحريك وهو حبل يقرن به البعيران، كما في الصحاح. وقوله «و الوصل» مفرده «وصلة» أى اتصال وذريعة، كما في الصحاح أيضا. (ع)

الموقف. وتبرؤ شركائهم منهم ومن عبادتهم، كقوله تعالى ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا. وقرئ: فزايلنا بينهم، كقولك: صاعر خدّه وصعره، وكالمته وكلمته. ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ إنما كنتم تعبدون الشياطين، حيث أمروكم أن تتخذوا للّه أندادا فأطعتموهم.

[سورة يونس (10): الآيات 29 إلى 30]

فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ (29) هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ

ما أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (30)

إِنْ كُنَّا هي المخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية ، وهم الملائكة والمسيح ومن عبدوه من دون اللّه من أولى العقل ، وقيل : الأصنام ينطقها اللّه عزّ وجلّ فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التي زعموها وعلقوا بها أطماعهم هُنالِكَ في ذلك المقام وفي ذلك الموقف أو في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ تختبر وتذوق ما أَسْلَفَتْ من العمل فتعرف كيف هو ، أقبيح أم حسن ، أنافع أم ضارّ ، أمقبول أم مردود ؟ كما يختبر الرجل الشيء ويتعرّفه ليكتنه حاله . ومنه قوله تعالى يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ وعن عاصم : نبلو كلَّ نفس ، بالنون ونصب كل : أى نختبرها باختبار ما أسلفت من العمل ، فنعرف حالها بمعرفة حال عملها : إن كان حسناً فهي سعيدة ، وإن كان سيئاً فهي شقية . والمعنى : نفعل بها فعل الخابر ، كقوله تعالى لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ويجوز أن يراد نصيب بالبلاء وهو العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر . وقرئ : تتلو ، أى تتبع ما أسلفت ، لأنَّ عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة أو إلى طريق النار . أو تقرأ في صحيفتها ما قدّمت من خير أو شر مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ربهم الصادق ربوبيته ، لأنهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة . أو الذي يتولى حسابهم وثوابهم ، العدل الذي لا يظلم أحداً .

وقرئ : الحق ، بالفتح على تأكيد قوله رُدُّوا إِلَى اللَّهِ كقولك هذا عبد اللّه الحق لا الباطل .

أو على المدح كقولك : الحمد للّه أهل الحمد وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ وضاع عنهم ما كانوا يدعون أنهم شركاء للّه . أو بطل عنهم ما كانوا يختلقون من الكذب وشفاعة الآلهة .

(86/363)

[سورة يونس (10) : الآيات 31 إلى 33]

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (31) فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَماذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32) كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (33)

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أى يرزقكم منهما جميعاً ، «1» لم يقتصر برزقكم على جهة واحدة ليفيض عليكم نعمته ويوسع رحمته أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحدّ الذي سويا عليه من الفطرة العجيبة . أو من يحميهما ويحصنهما من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال ، وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شيء بكلاءته وحفظه وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ومن يلي تدبير أمر العالم كله ، جاء بالعموم بعد الخصوص أَفَلا تَتَّقُونَ أفلا تقون أنفسكم ولا تحذرون عليها عقابه فيما أنتم بصدده من الضلال فَذلِكُمُ إشارة إلى

من هذه قدرته وأفعاله رَبُّكُمُ الْحَقُّ الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقق النظر فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ يعنى أن الحق والضلال لا واسطة بينهما ، فمن تخطى الحق وقع في الضلال فَأَنَّى تُصْرَفُونَ عن الحق إلى الضلال ، وعن التوحيد إلى الشرك ، وعن السعادة إلى الشقاء كَذلِكَ مثل ذلك الحق حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ أى كما حق وثبت أنّ الحق بعده الضلال ، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق ، فكذلك حقت كلمة ربك عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أى تمرّدوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه ، وأَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ بدل من الكلمة أى حق عليهم انتفاء الإيمان ، وعلم اللّه منهم ذلك . أو حق عليهم كلمة اللّه أنهم من أهل الخذلان ، وأن إيمانهم غير كائن . أو أراد بالكلمة : العدة بالعذاب ، وأنهم لا يؤمنون تعليل ، بمعنى : لأنهم لا يؤمنون .

[سورة يونس (10) : الآيات 34 إلى 35]

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (34) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35)

---

(1) . قال محمود : «معناه أى من يرزقكم منهما جميعا . . . الخ» قال أحمد : وهذه الآية كافحة لوجوه القدرية الزاعمين أن الأرزاق منقسمة ، فمنها ما رزقه اللّه العبد وهو الحلال ،

ومنها ما رزقه العبد لنفسه وهو الحرام وهذه الآية ناعية عليهم هذا الشرك الخفي لو سمعوا أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ .

(87/363)

فإن قلت : كيف قيل لهم هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وهم غير معترفين بالإعادة ؟ قلت : قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن رفعه دافع كان مكابراً رادّا للظاهر البين الذي لا مدخل للشبهة فيه ، دلالة على أنهم في إنكارهم لها منكرون أمراً مسلماً معترفاً بصحته عند العقلاء ، وقال لنبيه صلى اللّه عليه وسلم قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فأمره بأن ينوب عنهم في الجواب ، يعنى أنه لا يدعهم لجاجهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فكلم عنهم . يقال : هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين : ويقال : هدى بنفسه بمعنى اهتدى ، كما يقال : شرى بمعنى اشترى . ومنه قوله أَمَّنْ لا يَهِدِّي « 1 » وقرئ لا يهدّى بفتح الهاء وكسرها مع تشديد الدال . والأصل : يهتدى ، فأدغم وفتحت الهاء بحركة التاء ، أو كسرت لالتقاء الساكنين ، وقد كسرت الياء لاتباع ما بعدها . وقرئ : إلا أن يهدى من هداه وهدّاه للمبالغة .

ومنه قولهم : تهدى . ومعناه أن اللّه وحده هو الذي يهدى للحق ، بما ركب في المكلفين من

العقول وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي نصبها لهم ، وبما لطف بهم ووفقهم وألهمهم وأخطر ببالهم ووقفهم على الشرائع ، فهل من شركائكم الذين جعلتم أندادا لله أحد من أشرفهم كالملائكة والمسيح وعزير ، يهدى إلى الحق مثل هداية اللّه . ثم قال : أفمن يهدى إلى الحق هذه الهداية أحق بالاتباع ، أم الذي لا يهدى أى لا يهتدى بنفسه ، أو لا يهدى غيره إلا أن يهديه اللّه وقيل : معناه أم من لا يهتدى من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه إِلَّا أَنْ يُهْدى إلا أن ينقل ، أو لا يهتدى ولا يصح منه الاهتداء إلا أن ينقله اللّه من حاله إلى أن يجعله حيواناً مكلفاً فيهديهفَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ

بالباطل ، حيث تزعمون أنهم أندادا للّه .

[سورة يونس (10) : آية 36]

وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (36)

وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ في إقرارهم باللّه إِلَّا ظَنًّا لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم إِنَّ الظَّنَّ في معرفة اللّه لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ وهو العلم شَيْئًا وقيل : وما يتبع أكثرهم في قولهم للأصنام أنها آلهة وأنها شفعاء عند اللّه إلا الظن . والمراد بالأكثر : الجميع إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ وعيد على ما يفعلون من اتباع الظن وتقليد الآباء . وقرئ : تفعلون ، بالتاء .

---

(1) . قوله «أم من لا يهدى» من قولهم : هدى بنفسه . أم من لا يهدى ، كيرمى . وقوله : بفتح الهاء . . . الخ :

بقيت القراءة بكسرها مع التشديد ، وقد أشار إليها بقوله «أو كسرت» والقراءة كيرمى لحمزة وعلى . وبالفتح مع التشديد للمكي والشامي . وبالكسر معه لعاصم . والأصل : يهتدى . وهي قراءة عبد اللّه ، أفاده النسفي . (ع)

(88/363)

[سورة يونس (10) : الآيات 37 إلى 40]

وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (37) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (38) بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40)

وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ افتراء مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ كان تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وهو ما تقدمه من الكتب المنزلة ، لأنه معجز دونها فهو عيار عليها وشاهد لصحتها ، كقوله تعالى هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وقرئ : ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب ، على : ولكن هو تصديق وتفصيل . ومعنى ما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى وما صحّ وما استقام ،

وكان محالا أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع ، من قوله كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ . فإن قلت : بم اتصل قوله لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ قلت : هو داخل في حيز الاستدراك . كأنه قال : ولكن كان تصديقاً وتفصيلا منتفياً عنه الريب كائنا من رب العالمين . ويجوز أن يراد : ولكن كان تصديقاً من رب العالمين وتفصيلا منه لا ريب في ذلك ، فيكون مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ متعلقاً بتصديق وتفصيل ، أو يكون لا رَيْبَ فِيهِ اعتراضاً ، كما تقول : زيد لا شكّ فيه كريم أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بل أيقولون اختلقه ، على أن الهمزة تقرير لإلزام الحجة عليهم . أو إنكار لقولهم واستبعاد ، والمعنيان متقاربان قُلْ إن كان الأمر كما تزعمون فَأْتُوا أنتم على وجه الافتراء بِسُورَةٍ مِثْلِهِ فأنتم مثلي في العربية والفصاحة . ومعنى بِسُورَةٍ مِثْلِهِ أى شبيهة به في البلاغة وحسن النظم . وقرئ : بسورة مثله ، على الإضافة ، أى : بسورة كتاب مثله وَادْعُوا من دون اللّه مَنِ اسْتَطَعْتُمْ من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله ، يعنى : أنّ اللّه وحده هو القادر على أن يأتى بمثله لا يقدر على ذلك أحد غيره ، فلا تستعينوه وحده ، ثم استعينوا بكل من دونه إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أنه افتراء بَلْ كَذَّبُوا بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن ، وفاجئوه في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم ، كالناشئ على التقليد من الحشوية ،

إذا أحسّ بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه – وإن كانت أضوأ من الشمس في ظهور الصحة وبيان الاستقامة – أنكرها في أوّل وهلة ، واشمأز منها قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد ، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه وفساد ما عداه من المذاهب . فإن قلت :

ما معنى التوقع في قوله وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ؟ قلت : معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل «1» ، تقليداً للآباء . وكذبوه بعد التدبر ، تمرداً وعناداً ، فذمّهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به ، وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه لما كرّر عليهم التحدّى ، ورازوا قواهم «2» في المعارضة واستيقنوا عجزهم عن مثله ، فكذبوا به بغياً وحسداً كَذَلِكَ أى مثل ذلك التكذيب كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ يعنى قبل النظر في معجزات الأنبياء وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم ، ولكن قلدوا الآباء وعاندوا .

وقيل : هو في الذين كذبوا وهم شاكون . ويجوز أن يكون معنى وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب أى عاقبته ، حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق ،

يعنى أنه كتاب معجز من جهتين : من جهة إعجاز نظمه ، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب ، فتسرّعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حدّ الإعجاز ، وقبل أن يخبروا أخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ يصدق به في نفسه ، ويعلم أنه حق ، ولكنه يعاند بالتكذيب . ومنهم من يشكّ فيه لا يصدق به ، أو يكون للاستقبال ، أى : ومنهم من سيؤمن به ومنهم من سيصرّ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ بالمعاندين ، أو المصرين .

[سورة يونس (10) : آية 41]

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41)

وَإِنْ كَذَّبُوكَ وإن تموا على تكذيبك «3» ويئست من إجابتهم ، فتبرأ منهم وخلقهم فقد أعذرت ، كقوله تعالى فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ وقيل : هي منسوخة بآية السيف .

[سورة يونس (10) : الآيات 42 إلى 43]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (42) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ (43)

---

(1) . قال محمود : «معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل . . . الخ» قال أحمد : وكان التكذيب قبل الاحاطة بعلمه ربما يوهم عذرا ما للمكذب ، فجاءت كلمة لما مشعرة بأنهم قد أحاطوا بعلمه حتى تنحسم أعذارهم ويتحقق شقاؤهم ، والله أعلم .

(2) . قوله «و رازوا قواهم» أى جربوها وخبروها . أفاده الصحاح. (ع)

(3) . قوله «و إن تموا على تكذيبك» أى مضوا عليه ولم يرجعوا عنه ، أفاده الصحاح. (ع)

(90/363)

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ معناه : ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع ، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون ، وناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوّة ولكنهم لا يصدقون . ثم قال : أتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم ، لأنّ الأصم العاقل ربما تفرّس واستدل إذا وقع في صماخه دوىّ الصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعاً فقد تمّ الأمر . وأ تحسب أنك تقدر على هداية العمى ولو انضم إلى العمى – وهو فقد البصر – فقد البصيرة ، لأنّ الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنن «1» . وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء ، يعنى : أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا ، كالصمّ والعمى الذين لا بصائر لهم ولا عقول . وقوله أَفَأَنْتَ . . . دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا اللّه عز وجل بالقسر والإلجاء ، كما لا يقدر على ردّ الأصم والأعمى المسلوبى العقل حديدي السمع والبصر

راجحى العقل ، إلا هو وحده .

[سورة يونس (10) : آية 44]

إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44)

إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً أى لا ينقصهم شيئاً مما يتصل بمصالحهم من بعثة الرسل وإنزال الكتب ، ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب . ويجوز أن يكون وعيداً للمكذبين ، يعنى : أن ما يلحقهم يوم القيامة من العذاب لا حق بهم على سبيل العدل والاستيجاب ، ولا يظلمهم اللّه به ، ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف ما كان سببا فيه .

[سورة يونس (10) : آية 45]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (45)

إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ يستقربون وقت لبثهم في الدنيا . وقيل في القبور ، لهول ما يرون يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ يعرف بعضهم بعضاً ، كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلا ، وذلك عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لشدّة الأمر عليهم . فإن قلت : كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا ويَتَعارَفُونَ كيف موقعهما ؟ قلت أما الأولى فحال من «هم» أى يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة . وأما الثانية فإما أن تتعلق بالظرف ، وإما أن تكون مبينة ، لقوله : كأن لم يلبثوا إلا ساعة ، لأنّ التعارف لا يبقى مع طول العهد وينقلب تناكرا قَدْ خَسِرَ على إرادة القول ، أى يتعارفون

بينهم قائلين ذلك ، أو هي شهادة من اللّه تعالى على خسرانهم . والمعنى أنهم وضعوا في تجارتهم «2»

---

(1) . قوله «ويتظنن» أي يعمل ظنه . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . قوله «وضعوا في تجارتهم» في الصحاح : وضع الرجل في تجارته وأوضع - على ما لم يسم فاعله - وضعا فيهما ، أي خسر . (ع) [. . . . .]

(91/363)

وبيعهم الإيمان بالكفر وَما كانُوا مُهْتَدِينَ للتجارة عارفين بها ، وهو استئناف فيه معنى التعجب ، كأنه قيل : ما أخسرهم !

[سورة يونس (10) : آية 46]

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ (46)

فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ جواب نتوفينك ، وجواب نرينك محذوف ، كأنه قيل : وإما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك ، أو نتوفينك قبل أن نريكه فنحن نريكه في الآخرة . فإن قلت : اللّه شهيد على ما يفعلون في الدارين ، فما معنى ثم ؟ قلت : ذكرت الشهادة والمراد

مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب ، كأنه قال : ثم اللّه معاقب على ما يفعلون . وقرأ ابن أبى عبلة : ثم ، بالفتح ، أى هنالك . ويجوز أن يراد : أنّ اللّه مؤدّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة ، حين ينطق جلودهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم شاهدة عليهم .

[سورة يونس (10) : آية 47]

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (47)

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ يبعث إليهم لينبههم على التوحيد ، ويدعوهم إلى دين الحق فَإِذا جاءَ هم رَسُولُهُمْ بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه قُضِيَ بَيْنَهُمْ أى بين النبي ومكذبيه بِالْقِسْطِ بالعدل ، فأنجى الرسول وعذب المكذبون ، كقوله وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا أو لكل أمّة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به ، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان ، كقوله تعالى وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ .

[سورة يونس (10) : الآيات 48 إلى 49]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (48) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (49)

مَتى هذَا الْوَعْدُ استعجال لما وعدوا من العذاب استبعادا له لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا من مرض أو فقر وَلا نَفْعاً من صحة أو غنى إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ استثناء منقطع : أى ولكن ما شاء اللّه من ذلك كائن ، فكيف أملك لكم الضرر وجلب العذاب ؟ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ يعنى أن

عذابكم له أجل مضروب عند اللّه ، وحدّ محدود من الزمان إذا جاءَ ذلك الوقت أنجز وعدكم لا محالة ، فلا تستعجلوا . وقرأ ابن سيرين : فإذا جاء آجالهم .

(92/363)

[سورة يونس (10) : الآيات 50 إلى 52]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52)

بَياتاً نصب على الظرف ، بمعنى . وقت بيات . فإن قلت : هلا قيل ليلا أو نهاراً ؟ قلت : لأنه أريد : إن أتاكم عذابه وقت بيات فبيتكم وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون ، كما يبيت العدو المباغت . والبيات بمعنى التبييت ، كالسلام بمعنى التسليم ، وكذلك قوله نَهاراً معناه في وقت أنتم فيه مشتغلون بطلب المعاش والكسب . ونحوه بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ ، ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ الضمير في مِنْهُ للعذاب . والمعنى : أن العذاب كله مكروه مرّ المذاق موجب للنفار ، فأى شيء يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال . ويجوز أن يكون معناه التعجب ، كأنه قيل :

أى شيء هول شديد «1» يستعجلون منه ، ويجب أن تكون «من» للبيان في هذا الوجه .

وقيل :

الضمير في مِنْهُ للّه تعالى . فإن قلت : بم تعلق الاستفهام ؟ وأين جواب الشرط ؟ قلت :

تعلق ب أرأيتم ، لأنّ المعنى : أخبرونى ما ذا يستعجل منه المجرمون ، وجواب الشرط

محذوف وهو :

تندموا على الاستعجال ، أو تعرفوا الخطأ فيه . فإن قلت : فهلا قيل : ما ذا تستعجلون منه

«2» .

قلت : أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجرام ، لأنّ من حق المجرم أن

يخاف التعذيب على إجرامه ، ويهلك فزعا من مجيئه وإن أبطأ ، فضلا أن يستعجله .

ويجوز أن يكون ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ جوابا للشرط ، كقولك : إن أتيتك ما ذا

تطعمني ؟ ثم تتعلق الجملة ب أرأيتم ، وأن يكون أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ جواب الشرط ، وما

ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ اعتراضاً . والمعنى : إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا

ينفعكم الإيمان ، ودخول حرف الاستفهام على ثم ، كدخوله على الواو والفاء في قوله أَفَأَمِنَ

أَهْلُ الْقُرى ، أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى .

آلْآنَ على إرادة القول ، أى : قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب : آلْآنَ آمنتم به وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ

تَسْتَعْجِلُونَ يعنى : وقد كنتم به تكذبون ، لأنّ استعجالهم كان على جهة التكذيب

---

(1) . قوله «أى شيء هول شديد» لعله أى شيء أتى هو لا شديدا . (ع)

(2) . قال محمود : «إن قلت هلا قيل ما ذا تستعجلون منه . . . الخ» ؟ قال أحمد : وفي هذا النوع البليغ نكتتان ، إحداهما : وضع الظاهر مكان المضمر . والأخرى : ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر ، وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة والمبالغة ، والله أعلم .

(93/363)

والإنكار . وقرئ : آلان ، بحذف الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عطف على «قيل» المضمر قبل آلآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 352.342 ﴾

(94/363)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) ﴾

ولما بيّن فضائح عبدة الأوثان أتبعها بذكر الدلائل على فساد هذا المذهب بحجج:

الحجة الأولى : قوله تعالى :

﴿ قل ﴾ أي : قل يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿ من يرزقكم من السماء ﴾ بالمطر ﴿ والأرض ﴾ بالنبات فانحصر الرزق في ذلك ، أما من السماء فبتنزل الأمطار ، وأما من الأرض فلأن الغذاء إما أن يكون نباتاً أو حيواناً ، أما النبات فلا ينبت إلا من الأرض ، وأما الحيوان فهو يحتاج أيضاً إلى الغذاء ، ولا يمكن أن يكون غذاء كل حيوان حيواناً آخر ، وإلا لزم الذهاب إلى ما لا نهاية له ، وذلك محال فثبت أنّ أغذية الحيوانات

(95/363)

يجب انتهاؤها إلى النبات ، وثبت أن تولد النبات من الأرض ، فثبت القطع بأنّ الأرزاق لا تحصل إلا من السماء والأرض ﴿ أمّن يملك السمع ﴾ أي : الأسماع ﴿ والأبصار ﴾ أي : من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحدّ الذي سوّياً عليه من الفطرة العجيبة . عن علي رضي الله تعالى عنه كان يقول : سبحان من بصر بشحم وأسمع بعظم وأنطق بلحم ، أو جمعهما وحفظهما من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شيء بكلائه وحفظه ﴿ ومن يخرج الحيّ من الميت ﴾ كأن يخرج الإنسان من النطفة والطائر من

البيضة ﴿ ويخرج الميت من الحيّ ﴾ كأن يخرج النطفة من الإنسان والبيضة من الطائر .

وقيل : المراد أن يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن . وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي ميت في الموضعين بعد الميم بكسر الياء المشدّدة ، والباقون بعد الميم بسكون الياء . ﴿ ومن يدبر الأمر ﴾ أي : ومن يلي تدبير أمر الخلائق ، وهو تعميم بعد تخصيص ، وذلك لأنَّ أقسام تدبير الله تعالى في العالم السفلي وفي العالم العلوي وفي عالم الأرواح والأجساد أمور لا نهاية لها . وذكر كلها كالمتعذر ، فلما ذكر بعض تلك الأفاصيل عقبها بالكلام الكلي ليدل على الباقي ثم بيّن تعالى أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم إذا سألهم عن مدبر هذه الأحوال ﴿ فسيقولون الله ﴾ إذ لا يقدرون على المكابرة والعناد في ذلك لفرط وضوحه ، وإذا كانوا يقرّون بذلك ﴿ فقل ﴾ لهم يا محمد ﴿ أفلا تتقون ﴾ الشرك مع اعترافكم بأنّ

كل الخيرات في الدنيا والآخرة إنما تحصل بفضل الله تعالى وإحسانه .

﴿ فذلكم الله ربكم الحق ﴾ أي : الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه ، وإذا ثبت أنّ هذا هو الحق وجب أن يكون ما سواه ضلالاً ؛ لأنَّ النقيضين يمتنع أن يكونا حقين ، وأن يكونا باطلين

، فإذا كان أحدهما حقاً وجب أن يكون ما سواه باطلاً ، كما قال تعالى : ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ إذ لا واسطة بينهما فهو استفهام تقرير ، أي : ليس بعده غيره فمن أخطأ الحق وهو عبادة الله تعالى وقع في الضلال ، ولذلك سبب عنه قوله تعالى : ﴿ فأنّى ﴾ أي : فكيف ومن ، أي : جهة ﴿ تصرفون ﴾ أي : تعدلون عن عبادته وأنتم تقرّون بأنّ الله هو الحق .

﴿ كذلك ﴾ أي : كما حقت الربوبية لله تعالى أو أنّ الحق بعده الضلال ، أو أنهم مصروفون عن الحق ﴿ حقت كلمة ربك ﴾ في الأزل ﴿ على الذين فسقوا ﴾ أي : تمرّدوا في كفرهم وخرجوا عن حدّ الاستصلاح . وقوله تعالى : ﴿ أنهم لا يؤمنون ﴾ بدل من الكلمة ، أي : حق عليهم انتفاء الإيمان وعلم الله منهم ذلك والمراد بكلمة الله العدة بالعذاب ، وهو ﴿ لأملأن جهنم ﴾ (الأعراف ،) الآية ، وأنهم لا يؤمنون تعليل بمعنى لأنهم لا يؤمنون ، أو ذلك تفسير لكلمته التي حقت . وقرأ نافع وابن عامر كلمة بالألف بعد الميم على الجمع ، والباقون بغير الألف بعد الميم على الإفراد .

الحجة الثانية : قوله تعالى:

﴿ قل ﴾ أي : قل يا محمد لهؤلاء ﴿ هل من شركائكم ﴾ الذين زعمتموهم شركاء وأشركتموهم في أموالكم من أنعامكم وزرعكم ﴿ من يبدأ الخلق ﴾ كما بدأ به ليصح لكم

ما ادّعيتم من الشركة ﴿ ثم يعيده ﴾ كما كان . فإن قيل : هم غير معترفين بالإعادة فكيف احتج عليهم تعالى بها كالابتداء في الإلزام بها ؟

(97/363)

أجيب : بأنها لظهور برهانها وإن لم يقروا بها وضعت موضع ما إن دفعه دافع كان مكابراً رادّاً للظاهر البيّن الذي لا مدخل للشبهة فيه دلالة على أنهم في إنكارهم لها منكرون أمراً مسلماً معترفاً بصحته عند العقلاء . ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينوب عنهم في الجواب بقوله تعالى : ﴿ قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ لأنّ لجاجهم لا يدعهم أن يعترفوا بها ﴿ فأنى ﴾ أي : فكيف ﴿ تؤفكون ﴾ عن عبادته مع قيام الدلائل . فإن قيل : ما الفائدة في ذكر هذه الحجة على سبيل السؤال والاستفهام ؟

أجيب : بأنّ الكلام إذا كان ظاهراً جلياً ثم ذكر على سبيل الاستفهام كان ذلك أبلغ وأوقع في القلب .

الحجة الثالثة : قوله تعالى ﴿ قل ﴾ أي : قل يا محمد لهم ﴿ هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ﴾ بنصب الحجج ، وخلق الاهتداء ، وإرسال الرسل ، ولما كانوا جاهلين بالجواب الحق في ذلك أو معاندين أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب بقوله تعالى :

﴿ قل الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ يهدي للحق ﴾ من يشاء لا أحداً ممن زعمتموه شركاء ، فالاشتغال بشيء منها بعبادة أو غيرها جهل محض . قال الزجاج : يقال هديت إلى الحق ، وهديت للحق بمعنى واحد . فالله تعالى ذكر هاتين اللغتين في قوله تعالى : ﴿ من يهدي إلى الحق ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ قل الله يهدي للحق ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أفمن يهدي إلى الحق ﴾ أي : وهو الله تعالى ﴿ أحق أن يتبع أمّن لا يهدي ﴾ أي : يهتدي ﴿ إلا أن يهدى ﴾ أحق أن يتبع استفهام تقرير وتوبيخ ، أي : الأوّل أحق ﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ هذا الحكم الفاسد من اتباع من لا يستحق الاتباع ، وقوله تعالى:

(98/363)

﴿ وما يتبع أكثرهم ﴾ في تفسيره وجهان الأوّل : وما يتبع أكثرهم في إقرارهم بالله تعالى . ﴿ إلا ظناً ﴾ لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم بل سمعوه من أسلافهم . الثاني : وما يتبع أكثرهم إلا ظناً في قولهم للأصنام آلهة ، وإنها شفعاء عند الله تعالى إلا الظنّ ، حيث قلدوا فيه آباءهم . قال الرازي : والقول الأول أقوى لأنا في القول الثاني نحتاج إلى تفسير الأكثر بالكل ﴿ إنَّ الظنّ لا يغني من الحق ﴾ فيما المطلوب فيه العلم ﴿ شيئاً ﴾ من الإغناء ، فدلت هذه الآية على أنّ كل من كان ظاناً في مسائل الأصول ، وما كان قاطعاً لا يكون

مؤمناً . فإن قيل : فقول أهل السنة : أنا مؤمن إن شاء الله يمنع من القطع فوجب أن يلزمهم الكفر أجاب الرزاي : بأنَّ هذا ضعيف من وجوه : الأوّل : أنَّ مذهب الشافعيّ رضي الله تعالى عنه أنَّ الإيمان عبارة عن مجموع الاعتقاد والإقرار والعمل ، فالشك حاصل في أنّ هذه الأعمال هل هي موافقة لأمر الله تعالى والشك في أحد أجزاء الماهية لا يوجب الشك في تمام الماهية . الثاني : أنّ الغرض من قوله إن شاء الله تعالى بقاء الإيمان عند الخاتمة . الثالث : الغرض هضم النفس وكسرها . ﴿ إنَّ الله عليم ﴾ أي : بالغ العلم ﴿ بما يفعلون ﴾ أي : من اتباعهم الظنّ ، وتكذيبهم الحق اليقين ، فيجازيهم عليه . وقوله تعالى:

(99/363)

﴿ وما كان ﴾ عطف على قوله : ﴿ ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ﴾ إلخ فهو حينئذٍ مقول القول ، أي : قل لهم ذلك الكلام . ﴿ هذا القرآن ﴾ أي : الجامع لكل خير مع التأدية بأساليب الحكمة المعجزة لجميع الخلق ﴿ أن يفترى ﴾ أي : افتراء ﴿ من دون الله ﴾ أي : غيره ؛ لأنّ المفترى هو الذي تأتي به البشر ، وكفار مكة زعموا أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم أتى بهذا من عند نفسه ، فأخبر الله تعالى أنّ هذا القرآن وحي أنزله عليه وأنه مبرأ عن الافتراء والكذب وأنه لا يقدر عليه أحد إلا الله ، ثم ذكر هذا بقوله تعالى :

﴿ ولكن ﴾ أنزل ﴿ تصديق الذي بين يديه ﴾ أي : قبله من الكتب الذي أنزلها على أنبيائه كالتوراة والانجيل ، فثبت بذلك أنه وحي من الله أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم وأنه معجزة له فإنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجتمع بأحد من العلماء ، ثم أنه صلى الله عليه وسلم أتى بهذا القرآن العظيم المعجز ، وفيه أخبار الأوّلين وقصص الماضين ، وقيل تصديق الذي القرآن بين يديه من القيامة والبعث . ﴿ وتفصيل الكتاب ﴾ أي : تبيين ما كتب الله من الأحكام وغيرها ﴿ لا ريب ﴾ أي : لا شك ﴿ فيه ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ من رب العالمين ﴾ متعلق بتصديق أو بأنزل المحذوف .

﴿ أم ﴾ أي : بل ﴿ يقولون افتراه ﴾ أي : اختلقه محمد ، ومعنى الهمزة فيه للإنكار ﴿ قل ﴾ أي : قل لهم يا محمد إن كان الأمر كما تقولون ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾ في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم ، فأنتم عرب مثله في البلاغة والفطنة . فإن قيل : هل يتناول ذلك جميع السور الصغار والكبار أو يختص بالسور الكبار ؟

أجيب : بأنّ هذه الآية في سورة يونس وهي مكية ، فيكون المراد مثل هذه السورة ؛ لأنها أقرب ما يمكن أن يشار إليه ، هكذا أجاب الرازي ، والأولى التناول لجميع السور ؛ فإنهم لا يقدرون أن يأتوا بأقصر سورة . فإن قيل : لم قال في البقرة ﴿ بسورة من مثله ﴾ (البقرة ،) وهنا ﴿ بسورة مثله ﴾ ؟

أجيب : بأنه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ ولم يكتب ولم يتتلمذ لأحد فقيل في سورة البقرة : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ بناء على أنّ الضمير يرجع للنبيّ صلى الله عليه وسلم أي : فليأت إنسان يساوي محمداً صلى الله عليه وسلم في عدم مطالعة الكتب وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة تساوي هذه السورة ، وحيث ظهر العجز ظهر المعجز ، فهذا لا يدل على أنّ السورة في نفسها معجزة ، ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من إنسان مثل محمد صلى الله عليه وسلم في عدم التعلم والتتلمذ معجز . ثم بيّن تعالى في هذه السورة أن تلك السورة في نفسها معجزة فإنّ الخلق وإن تتلمذوا وتعلموا وطالعوا وتفكروا لا يمكنهم الإتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ وادعوا من استطعتم ﴾ أي : فاستعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به ﴿ من دون الله ﴾ أي : غيره ؛ فإنه تعالى وحده قادر على ذلك ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي : في أني أتيت به من عندي ؛ لأنَّ العاقل لا يجزم بشيء إلا إذا كان عنده منه مخرج وذلك لا يكون إلا عن دليل ظاهر وسلطان قاهر باهر .

(101/363)

تنبيه : مراتب تحدّي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن ستة : أوّلها : أنه تحداهم بكل القرآن كما قال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (الإسراء ،) . ثانيها : أنه تحدّاهم بعشر سور فقال تعالى : ﴿ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾ (هود ،) . ثالثها : أنه تحدّاهم بسورة واحدة كما قال تعالى : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ (البقرة ،) . رابعها : أنه تحدّاهم بحديث مثله . خامسها : أن في تلك المراتب الأربعة كان يطلب منهم أن يأتي بالمعارضة رجل يساوي رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدم التلمذة والتعلم ، ثم في هذه السورة طلب منهم معارضة سورة واحدة من أي : إنسان سواء تعلم العلوم أم لم يتعلمها . سادسها : أنّ في المراتب المتقدّمة تحدي واحد من الخلق ، وفي هذه المرتبة تحدى جميعهم ، وجوز أن يستعين البعض بالبعض في الاتيان بهذه المعارضة ، كما قال تعالى : ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ وههنا آخر المراتب فهذا مجموع الدلائل التي ذكرها الله تعالى في إثبات أنّ القرآن معجز ، ثم إنَّ الله تعالى ذكر السبب الذي لأجله كذبوا بالقرآن فقال تعالى:

(102/363)

﴿ بل كذبوا ﴾ أي : أوقعوا التكذيب الذي لا تكذيب أشنع منه مسرعين في ذلك ﴿ بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ أي : القرآن أوّل ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته من غير شبهة أصلاً بل عناداً وطغياناً ونفوراً مما يخالف دينهم ، فهو من باب : مَنْ جَهِلَ شيئاً عاداه ، والإحاطة إدارة ما هو كالحائط حول الشيء وإحاطة العلم بالشيء العلم به من جميع وجوهه ﴿ ولما يأتهم ﴾ أي : إلى زمن تكذيبهم ﴿ تأويله ﴾ أي : تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب وعاقبة ما فيه من الوعيد حتى يتبين لهم أنه صدق أم كذب ، ومعنى التوقع في لما أنه قد ظهر لهم بالآخرة إعجازه لما كرّر عليهم التحدي ، فجربوا عقولهم في معارضته فصغرت وضعفت دونها ، ومع هذا لم يقلعوا عن التكذيب تمرداً وعناداً ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل تكذيبهم هذا التكذيب العظيم في الشناعة قبل تدبر المعجزة ﴿ كذب الذين من قبلهم ﴾ أي : من كفار الأمم الماضية فظلموا فأهلكناهم بظلمهم ﴿ فانظر ﴾ يا محمد ﴿ كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ بتكذيب الرسل ، أي : آخر أمرهم من الهلاك ، فكذلك يهلك من كذبك من قومك ، وفي ذلك تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يكون الخطاب لكل فرد من الناس ، والمعنى : فانظر أيها الإنسان كيف كان عاقبة من ظلم ، فاحذر أن تفعل مثل فعله .

﴿ ومنهم ﴾ أي : من قومك يا محمد ، ﴿ من يؤمن به ﴾ أي : القرآن ، أي : يصدق به في نفسه ، ويعلم أنه حق ، ولكنه يعاند بالتكذيب ﴿ ومنهم من لا يؤمن به ﴾ في نفسه لغباوته

وقلة تدبره ، أو منهم من يؤمن به في المستقبل بأن يتوب عن الكفر ويبدله بالإيمان ، ومنهم من يصر ويستمرّ على الكفر ، وإنما فسرت هذه الآية بهذين التأويلين ؛ لأنّ كلمة يؤمن تصلح للحال والاستقبال ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ أي : المعاندين على التفسير الأوّل ، والمصرين على التفسير الثاني ، وفي ذلك تهديد لهم .

(103/363)

﴿ وإن كذبوك ﴾ أي : وإن كذبوك يا محمد بعد الزام الحجة ﴿ فقل ﴾ لهم ﴿ لي عملي ﴾ من الطاعة وجزاء ثوابها ﴿ ولكم عملكم ﴾ من الشرك وجزاء عقابه ، أي : فتبرأ منهم فقد أعذرت ، والمعنى : لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقاً كان أو باطلاً . ﴿ أنتم بريؤن مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ لا تؤاخذون بعملي ولا أؤاخذ بعملكم . واختلف في معنى ذلك فقيل : معنى الآية الزجر والردع . وقيل : بل معناه استمالة قلوبهم . وقال مقاتل والكلبي : هذه الآية منسوخة بآية السيف . قال الرازي : وهذا بعيد ؛ لأنّ شرط الناسخ أن يكون رافعاً لحكم المنسوخ ، ومدلول هذه الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب ، وذلك لا يقتضي حرمة القتال ، وآية القتال ما رفعت شيئاً من

مدلولات هذه الآية ، فكان القول بالنسخ باطلاً انتهى . ولا تنبغي هذه المبالغة مع مثل من ذكر ، وقد تبعهما جماعة من المفسرين .

(104/363)

ولما قسم تعالى الكفار قسمين : منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به قسم من لا يؤمن به قسمين : منهم من يكون في نهاية البغض له والعداوة له ونهاية النفرة عن قبول دينه ، ومنهم من لا يكون ، كذلك ، فوصف القسم الأول في قوله تعالى : ﴿ ومنهم ﴾ أي : من هؤلاء المشركين ، ﴿ من يستمعون إليك ﴾ إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع بأسماعهم الظاهرة ، ولا ينفعهم لشدّة عداوتهم وبغضهم لك ، فإن الإنسان إذا قوي بغضه لآخر وعظمت نفرته منه صارت نفسه معرضة عن جميع جهات محاسن كلامه ﴿ أفأنت تسمع الصم ﴾ أي : أتقدر على إسماعهم ﴿ ولو كانوا ﴾ مع الصمم ﴿ لا يعقلون ﴾ أي : لأنّ الأصمّ العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع في صماخه دويّ الصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعاً فقد تم الأمر ، فكما أنك لا تقدر على إسماع الأصم الذي لا يعقل لا تقدر على إسماع من أصم الله تعالى قلبه ، فإنَّ الله تعالى صرف قلوبهم عن الانتفاع بما يستمعون ولم يوفقهم لذلك ، فشبههم بالصم في عدم الانتفاع بما يتلى عليهم ، ثم وصف القسم الثاني في قوله تعالى:

﴿ ومنهم من ينظرون إليك ﴾ أي : يعاينون دلائل نبوّتك ولا يصدّقونك ﴿ أفأنت تهدي العمي ﴾ أي : أتقدر على هدايتهم ﴿ ولو كانوا ﴾ مع العمى ﴿ لا يبصرون ﴾ أي : لا بصيرة لهم ؛ لأنَّ الأعمى الذي في قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنن ، فأمّا العمى مع الحمق فجهد البلاء ، فلا تقدر على هداية من أعمى الله بصيرته ، فهؤلاء في اليأس من أن يقبلوا أو يصدقوا كالصم والعمي الذين لا عقول لهم ولا بصائر ، فلا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله تعالى .

(105/363)

تنبيه : اختلف في أنّ السمع أفضل أو البصر فمنهم من قال : السمع ، واحتج على ذلك بأمور منها تقدّمه في الآية ، ومنها : أنّ القوة السامعة تدرك المسموع من جميع الجوانب ، والقوّة الباصرة لا تدرك المرئيّ إلا من جهة واحدة ، وهي المقابل ، ومنها : أنّ الإنسان إنما يستفيد العلم من التعلم من الأستاذ ، وذلك لا يكون إلا بقوة السمع ، فاستكمال النفس بالكمالات العلمية لا يحصل إلا بقوة السمع . ومنها : أنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يراهم الناس ويسمعون كلامهم ، فنبوّتهم ما حصلت بسبب ما معهم من الصفات المرئية ، وإنما حصلت بسبب ما معهم من الأحوال المسموعة وهو الكلام وتبليغ الشرائع ، وبيان

الأحكام . ومنها : أنّ المعنى الذي يمتاز به الإنسان من سائر الحيوانات هو النطق بالكلام ، وإنما ينتفع بذلك بالقوّة السامعة ، فمتعلق السمع النطق الذي يحصل به شرف الإنسان ، ومتعلق البصر إدراك الألوان والأشكال ، وذلك أمر مشترك فيه بين الناس وبين سائر الحيوانات .

(106/363)

ومنهم من قال : البصر ، واحتج بأمور منها : أن آلة القوّة الباصرة هي النور ، وآلة القوّة السامعة هي الهواء ، والنور أشرف من الهواء . ومنها : أنّ جمال الوجه يحصل بالبصر وبذهابه عيبه وذهاب السمع لا يورث الإنسان عيباً في جمال وجهه ، والعرب تسمي : العينين الكريمتين ، ولا تصف السمع بمثل هذا ، وفي الحديث يقول الله تعالى : "من أذهبت كريمتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثواباً دون الجنة" . ومنها : أنهم قالوا في المثل المشهور : ليس وراء العيان بيان . وذلك يدل على أن أكمل وجوه الإدراكات هو الإبصار . ومنها : أنّ كثيراً من الأنبياء سمع الله ، واختلفوا في أنه هل رآه منهم أحد أم لا ؟ وأيضاً فإنّ موسى عليه السلام أسمعه الله تعالى كلامه من غير سبق سؤال والتماس ، فلما طلب الرؤية قال : لن تراني ، وذلك يدل على أنَّ حال الرؤية أعلى من حال السماع ، وهذا هو الظاهر . ولما

حكم تعالى على أهل الشقاوة بالشقاوة بقضائه وقدره السابق فيهم أخبر تعالى أنّ تقدير الشقوة عليهم ما كان ظلماً منه بقوله تعالى : ﴿ إنّ الله لا يظلم الناس شيئاً ﴾ أي : لأنه تعالى في جميع أحواله متفضل وعادل ، فيتصرّف في ملكه كيف يشاء والخلق كلهم عبيده ، وكل من تصرّف في ملكه بالفضل والعدل لا يكون ظالماً ، وإنما قال تعالى : ﴿ ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ لأنّ فعلهم منسوب إليهم بسبب الكسب وإن كان قد سبق قضاء الله تعالى وقدره فيهم ، ففي ذلك دليل على أنّ للعبد كسباً وأنه ليس مسلوب الاختيار كما زعمت المجبرة . وقرأ حمزة والكسائي بكسر النون مخففة ورفع السين ، والباقون بنصب النون مشدّدة ونصب السين .

(107/363)

ولما وصف تعالى هؤلاء الكفار بقلّة الإصغاء وترك التدبر أتبعه بالوعيد بقوله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم ﴾ أي : واذكر يا محمد يوم نحشر هؤلاء المشركين لموقف الحساب ، وأصل الحشر : إخراج الجماعة وإزعاجهم عن مكانهم ﴿ كأن ﴾ أي : كأنهم ﴿ لم يلبثوا ﴾ في دنياهم . والجملة في موضع الحال من ضمير نحشرهم البارز ، أي : مشبهين بمن لم يلبثوا ﴿ إلا ساعة ﴾ حقيرة ﴿ من النهار ﴾ أي : يستقصرون مدّة مكثهم في الدنيا وفي

القبور لهول ما يرون ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ أي : يعرف بعضهم بعضاً إذا بعثوا ثم ينقطع التعارف لشدّة الأهوال ، والجملة حال مقدّرة متعلق الظرف ، والتقدير : يتعارفون يوم نحشرهم . وقوله تعالى : ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ﴾ أي : بالبعث . يحتمل وجهين : الأوّل : أن يكون على إرادة القول ، أي : يتعارفون بينهم قائلين ذلك ، الثاني : أن يكون كلام الله تعالى ، فيكون شهادة من الله تعالى عليهم بالخسران . والمعنى : أن من باع آخرته بالدنيا فقد خسر ؛ لأنه أعطى الكثير الشريف الباقي وأخذ القليل الخسيس الفاني ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ أي : إلى رعاية مصالح التجارة ، وذلك لأنهم اغتروا بالظاهر وغفلوا عن الحقيقة ، فصاروا كمن رأى زجاجة خسيسة فظنها جوهرة شريفة فاشتراها بكل ما ملكه فإذا عرضها على الناقدين خاب سعيه وفات أمله ووقع في حرقة الروع وعذاب القلب . وقوله تعالى:

(108/363)

﴿ وإمّا ﴾ فيه إدغام إن الشرطية في ما الزائدة ﴿ نرينّك ﴾ يا محمد ﴿ بعض الذي نعدهم ﴾ به من العذاب في حياتك ، وجواب الشرط محذوف ، أي : فذاك ﴿ أو نتوفّينّك ﴾ قبل أن نريك ذلك الوعد في الدنيا فإنك ستراه في الآخرة وهو قوله تعالى :

﴿ فإلينا ﴾ بعد البعث ﴿ مرجعهم ﴾ فنريك هناك ما هو أقرّ لعينك وأسرّ لقلبك ، وقوله تعالى : ﴿ ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ فيه وعيد وتهديد لهم ، أي : أنه تعالى شهيد على أفعالهم التي فعلوها في الدنيا فيجازيهم عليها يوم القيامة ، ولما بيّن تعالى حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه بين أنّ حال كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم كذلك بقوله تعالى:

﴿ ولكل أمة ﴾ أي : من الأمم التي خلت من قبلك ﴿ رسول ﴾ يدعوهم إلى الله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط ﴾ فيه إضمار تقديره : فإذا جاء رسولهم وبلغهم ما أرسل به إليهم فكذبه قوم وصدقه آخرون ، قضي ، أي : حكم وفصل بينهم بالقسط ، أي : بالعدل . وفي وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان : أحدهما أنه في الدنيا بأن يهلك الكافرين ، وينجي رسوله والمؤمنين لقوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ (الإسراء ،) والثاني في الآخرة : وذلك أنّ الله تعالى إذا جمع الأمم يوم القيامة للحساب والفصل بين المؤمن والكافر والطائع والعاصي جيء بالرسل لتشهد عليهم لقوله تعالى : ﴿ وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم ﴾ (الزمر ،) والمراد منه : المبالغة في إظهار العدل وهو قوله تعالى : ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ في جزاء أعمالهم شيئاً بل يجازى كل واحد على قدر عمله فكذلك يفعل بهؤلاء .

﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ الذي تعدنا به يا محمد من نزول العذاب ومن قيام الساعة وإنما قالوا ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي : فيما تعدونا به ، وإنما قالوا بلفظ الجمع على سبيل التعظيم أو خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وإن كان كل أمة قالوا لرسولها مثل ذلك وهو الموافق لقوله تعالى : ﴿ ولكل أمّة رسول ﴾ قال الله تعالى:

﴿ قل ﴾ أي : قل لهم يا محمد ﴿ لا أملك لنفسي ضرًّا ﴾ من مرض أو فقر أدفعه ﴿ ولا نفعاً ﴾ من صحة أو غنىً أجلبه ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ أن يقدرني عليه ، فكيف أملك لكم حلول العذاب أو قيام الساعة ولا يقدر على ذلك أحد إلا الله تعالى ﴿ لكل أمة أجل ﴾ أي : مدّة مضروبة ﴿ إذا جاء أجلهم ﴾ أي : انقضت مدّة أعمارهم ﴿ فلا يستأخرون ﴾ أي : لا يتأخرون ﴿ عنه ساعة ﴾ ثم عطف على الجملة الشرطية بكمالها ﴿ ولا يستقدمون ﴾ أي : ولا يتقدّمون ، أي : ولا يستعجلون ؛ فإنّ الوفاء بالوعد لابدّ منه ، والسين فيهما بمعنى الوجدان ، أي : لا يوجد لهم المعنى الذي منع منه الفعل ، ويجوز أن يكون المعنى لا يجدون التأخر ولا التقدّم وإن اجتهدوا في الطلب ، فيكون في السين معنى الطلب . وتدلّ الآية على أنَ أحداً لا يموت إلا بانقضاء أجله ، وكذا المقتول لا

يقتل إلا على هذا الوجه . وقرأ قالون والبزي وأبو عمرو بإسقاط الهمزة الأولى ، وسهل ورش وقنبل الثانية وأبدلها أيضاً حرف مد ، والباقون بالتحقيق . قال الله تعالى:

(110/363)

﴿ قل ﴾ أي : قل لهم يا محمد أيضاً ﴿ أرأيتم إن أتاكم عذابه ﴾ الذي تستعجلون به ﴿ بياتاً ﴾ أي : في الليل بغتة كما يفعل العدوّ ﴿ أو نهاراً ﴾ أي : وقت أنتم فيه تشتغلون بطلب المعاش والكسب ﴿ ماذا ﴾ أي : أيّ شيء ﴿ يستعجل منه ﴾ أي : من عذابه وعذاب كل مكروه لا يحتمل شيء منه ﴿ المجرمون ﴾ أي : المشركون ، وضع المجرمون موضع المضمر للدّلالة على أنهم لجرمهم ينبغي أن يفزعوا من مجيء الوعيد لا أن يستعجلوا ، وجملة الاستفهام متعلقة بأرأيتم ، وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه .

﴿ أثمَّ إذا ما وقع ﴾ أي : حل بكم ﴿ آمنتم ﴾ أي : آمنتم بالله أو العذاب وقت نزول العذاب وهو وقت اليأس ، والهمزة لإنكار التأخير فلا يقبل منكم ، وقوله تعالى : ﴿ آلآن ﴾ على إرادة القول ، أي : قيل لهم إذا آمنوا وقت نزول العذاب آلآن ﴿ وقد كنتم به تستعجلون ﴾ تكذيباً واستهزاءً .

تنبيه : اتفق قالون مع ورش على النقل هنا ، واتفق القراء كلهم على همزة الوصل التي بعد همزة الاستفهام إن فيها وجهين : وهما البدل والتسهيل . وقوله تعالى:

﴿ ثم قيل للذين ظلموا ﴾ عطف على قيل المقدّر ، أي : من ، أي : قائل كان استهانة بهم . وقرأ هشام والكسائي بإشمام القاف وهو أن تضم القاف قبل الياء ، والباقون بالكسر ﴿ ذوقوا عذاب الخلد ﴾ أي : الذي تخلدون فيه ، والاتيان بثم إشارة إلى تراخي ذلك عن الإهلاك في الدنيا بالمكث في البرزخ أو إلى أن عذابه أدنى من عذاب يوم الدين ﴿ هل ﴾ أي : ما ﴿ تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 27 . 37 ﴾

(111/363)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾

هذا الدرس كله لمسات وجدانية متتابعة ، تنتهي كلها إلى هدف واحد : مواجهة الفطرة البشرية بدلائل توحيد الله وصدق الرسول ، واليقين باليوم الآخر . والعدل فيه .

لمسات وجدانية تأخذ النفس من أقطارها ، وتأخذ بها إلى أقطار الكون ، في جولة

واسعة شاملة . جولة من الأرض إلى السماء . ومن آفاق الكون إلى آفاق النفس . ومن ماضي القرون إلى الحاضر القريب . ومن الدنيا إلى الآخرة . . في سياق . .

وفي الدرس الماضي لمسات من هذه ، وجولات من هذه . . ولكنها في هذا الدرس أظهر . . فمن معرض الحشر ، إلى مشاهد الكون ، إلى ذات النفس ، إلى التحدي بالقرآن ، إلى التذكير بمصائر المكذبين من الماضين . ومن ثم لمحة عابرة من الحشر في مشهد جديد ، إلى تخويف من المفاجأة بالعذاب في صورة موحية للحس بالتوجس ، إلى تصوير علم الله الشامل الذي لا يند عنه شيء ، إلى بعض آيات الله في الكون ، إلى الإنذار بما ينتظر المفترين على الله يوم الحساب . .

إنها جملة من اللمسات العميقة الصادقة ، لا تملك فطرة سليمة التلقي ، صحيحة الاستجابة ، ألا تستجيب لها ، وألا تتذاوب الحواجز والموانع فيها دون هذا الفيض من المؤثرات المستمدة من الحقائق الواقعة ، ومن فطرة الكون وفطرة النفس وطبائع الوجود . .

لقد كان الكفار صادقين في إحساسهم بخطر القرآن على صفوفهم وهم يتناهون عن الاستماع إليه خيفة أن يجرفهم تأثيره ويزلزل قلوبهم ! وهم يريدون أن يظلوا على الشرك صامدين !

﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ، ما لهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . .

كانت آخر آية في الدرس السابق : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط المستقيم ﴾ فهنا يبين عن قواعد الجزاء للمهتدين ولغير المهتدين . ويكشف عن رحمة الله وفضله ، وعن قسطه وعدله في جزاء هؤلاء وهؤلاء .

فأما الذين أحسنوا . أحسنوا الاعتقاد ، وأحسنوا العمل ، وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم ، وإدراك القانون الكوني المؤدي إلى دار السلام . . فأما هؤلاء فلهم الحسنى جزاء ما أحسنوا ، وعليها زيادة من فضل الله غير محدودة :

﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ . .

وهم ناجون من كربات يوم الحشر ، ومن أهوال الموقف قبل أن يفصل في أمر الخلق :

﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾ . .

والقتر : الغبار والسواد وكدرة اللون من الحزن أو الضيق . والذلة : الانكسار والمهانة أو الإهانة . فلا يغشى وجوههم قتر ولا تكسو ملامحهم الذلة . . والتعبير يوحي بأن في الموقف

من الزحام والهول والكرب والخوف والمهانة ما يخلع آثاره على الوجوه ، فالنجاة من هذا كله غنيمة ، وفضل من الله يضاف إلى الجزاء المزيد فيه .

.

﴿ أولئك ﴾ . . أصحاب هذه المنزلة العالية البعيدة الآفاق ﴿ أصحاب الجنة ﴾ وملاكها ورفاقها ﴿ هم فيها خالدون ﴾ .

﴿ والذين كسبوا السيئات ﴾ . .

فكانت هي الربح الذي خرجوا به من صفقة الحياة ! هؤلاء ينالهم عدل الله ، فلا يضاعف لهم الجزاء ، ولا يزاد عليهم السوء . ولكن :

﴿ جزاء سيئة بمثلها ﴾ . . ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ . .

تغشاهم وتركبهم وتكربهم .

﴿ ما لهم من الله من عاصم ﴾ . .

يعصمهم ويمنعهم من المصير المحتوم ، نفاذاً لسنة الله الكونية فيمن يحيد عن الطريق ، ويخالف الناموس . .

(113/363)

ثم يرسم السياق صورة حسية للظلام النفسي والكدرة التي تغشى وجه المكروب المأخوذ المرعوب :

﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً ﴾ . .

كأنما أخذ من الليل المظلم فقطع رقعاً غشيت بها هذه الوجوه ! وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليل المظلم ورهبة من رهبته ، تبدو فيه هذه الوجوه ملفعة بأغشية من هذا الليل البهيم . .

﴿ أولئك ﴾ . . المبعدون في هذا الظلام والقتام ﴿ أصحاب النار ﴾ . . ملاكها ورفاقها ﴿ هم فيها خالدون ﴾ . ولكن أين الشركاء والشفعاء ؟ وكيف لم يعصموهم من دون الله ؟ هذه هي قصتهم في يوم الحشر العصيب :

﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ، ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم . فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين . . هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ، وردوا إلى الله مولاهم الحق . وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ . .

هذه هي قصة الشفعاء والشركاء في مشهد من مشاهد القيامة ، مشهد حي أبلغ من الإخبار المجرد بأن الشركاء والشفعاء لن يعصموا عبادهم من الله ، ولن يملكوا لهم خلاصاً ولا نجاة .

هؤلاء هم محشورون جميعاً . . الكفار والشركاء . . وهم كانوا يزعمونهم شركاء لله ، ولكن القرآن يسميهم ﴿ شركاءهم ﴾ تهكماً من وجهة ، وإشارة إلى أنهم من صنعهم هم ولم يكونوا يوماً شركاء لله .

هؤلاء هم جميعاً كفاراً وشركاء . يصدر إليهم الأمر :

﴿ مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾ . .

قفوا حيث أنتم . ولا بد أن يكونوا قد تسمروا في أماكنهم ! فالأمر يومئذ للنفاذ . ثم فرق بينهم وبين شركائهم وحجز بينهما في الموقف :

﴿ فزيلنا بينهم ﴾ . .

وعندئذ لا يتكلم الذين كفروا ولكن يتكلم الشركاء يتكلمون ليبرئوا أنفسهم من الجريمة . جريمة أن عبدهم هؤلاء الكفار مع الله ، أو من دون الله ، وإعلان أنهم لم يعلموا بعبادتهم إياهم ولم يشعروا ، فهم إذن لم يشتركوا في الجناية ، ويشهدون الله وحده على ما يقولون :

(114/363)

﴿ وقال شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ . .

هؤلاء هم الشركاء الذين كانوا يعبدون . هؤلاء هم ضعاف يطلبون البراءة من إثم أتباعهم . ويجعلون الله وحده شهيداً ، ويطلبون النجاة من إثم لم يشاركوا فيه !

عندئذ ، وفي هذا الموقف المكشوف ، تختبر كل نفس ما أسلفت من عمل ، وتدرك عاقبته إدراك الخبرة والتجربة :

﴿ هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ﴾ .

.

وهنالك يتكشف الموقف عن رب واحد حق يرجع إليه الجميع ، وما عداه باطل :

﴿ وردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ . .

وهنالك لا يجد المشركون شيئاً من دعاويهم ومزاعمهم وآلهتهم ، فكله شرد عنهم ولم يعد له وجود :

﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ . .

وهكذا يتجلى المشهد الحي ، في ساحة الحشر ، بكل حقائقه ، وبكل وقائعه ، وبكل مؤثراته واستجاباته . تعرضه تلك الكلمات القلائل ، فتبلغ من النفس ما لا يبلغه الإخبار المجرد ، ولا براهين الجدل الطويل !

ومن جولة الحشر الذي تسقط فيه الدعاوى والأباطيل ، ويتجلى فيه أن المولى هو الله المهيمن على الموقف وما فيه . إلى جولة في واقعهم الذي يعيشون فيه ، وإلى أنفسهم التي

يعلمونها ، وإلى المشاهد التي يرونها في الحياة . بل إلى اعترافهم هم أنفسهم بأنها من أمر الله ومن خلق الله :

﴿ قل : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون : الله . فقل : أفلا تتقون ؟ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فأنى تصرفون ؟ ﴾ . .

ولقد مر أن مشركي العرب لم يكونوا ينكرون وجود الله ، ولا أنه الخالق ، والرازق ، والمدبر . إنما كانوا يتخذون الشركاء للزلفى ، أو يعتقدون أن لهم قدرة إلى جانب قدرة الله . فهو هنا يأخذهم بما يعتقدونه هم أنفسهم ، ليصحح لهم - عن طريق إيقاظ وعيهم وتدبرهم ومنطقهم الفطري - ذلك الخلط والضلال .

(115/363)

﴿ قل : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ ﴾ . .

من المطر الذي يحيي الأرض وينبت الزرع ، ومن طعام الأرض نباتها وطيرها وأسماكها وحيوانها ، ثم سائر ما كانوا يحصلون عليه من الأرض لهم ولأنعامهم . وذلك بطبيعة الحال ما كانوا يدركونه حينذاك من رزق السماء والأرض . وهو أوسع من ذلك بكثير . وما يزال

البشر يكشفون كلما اهتدوا إلى نواميس الكون عن رزق بعد رزق في السماء والأرض ، يستخدمونه أحياناً في الخير ويستخدمونه أحياناً في الشر حسبما تسلم عقادهم أو تعتل . وكله من رزق الله المسخر للإنسان . فمن سطح الأرض أرزاق ومن جوفها أرزاق . ومن سطح الماء أرزاق ومن أعماقه أرزاق . ومن أشعة الشمس أرزاق ومن ضوء القمر أرزاق . حتى عفن الأرض كشف فيه عن دواء وترياق !

﴿ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ﴾ . .

يهبها القدرة على أداء وظائفها أو يحرمها ، ويصححها أو يمرضها ، ويصرفها إلى العمل أو يلهيها ، ويسمعها ويريها ما تحب أو ما تكره . . ذلك ما كانوا يدركونه يومئذ من ملك السمع والأبصار . وهو حسبهم لإدراك مدلول هذا السؤال وتوجيهه . وما يزال البشر يكشفون من طبيعة السمع والبصر ، ومن دقائق صنع الله في هذين الجهازين ما يزيد السؤال شمولاً وسعة . وإن تركيب العين وأعصابها وكيفية إدراكها للمرئيات ، أو تركيب الأذن وأجزائها وطريقة إدراكها للذبذبات ، لعالم وحده يدير الرؤوس ، عندما يقاس هذا الجهاز أو ذاك إلى أدق الأجهزة التي يعدها الناس من معجزات العلم في العصر الحديث ! وإن كان الناس يهولهم ويروعهم ويبهرهم جهاز يصنعه الإنسان ، لا يقاس في شيء إلى صنع الله .

بينما هم يمرون غافلين بالبدائع الإلهية في الكون وفي أنفسهم كأنهم لا يبصرون ولا يدركون !

﴿ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؟ ﴾ . .

وكانوا يعدون الساكن هو الميت ، والنامي أو المتحرك هو الحي . فكان مدلول السؤال عندهم مشهوداً في خروج النبتة من الحبة ، والحبة من النبتة ، وخروج الفرخ من البيضة ، والبيضة من الفرخ . . إلى آخر هذه المشاهدات . وهو عندهم عجيب . وهو في ذاته عجيب حتى بعد أن عرف أن الحبة والبيضة وأمثالهما ليست في الموتى بل في الأحياء ؛ بما فيها من حياة كامنة واستعداد . فإن كمون الحياة بكل استعداداتها ووراثاتها وسماتها وشياتها لأعجب العجب الذي تصنعه قدرة الله . .

وإن وقفة أمام الحبة والنواة ، تخرج منهما النبتة والنخلة ، أو أمام البيضة والبويضة يخرج منهما الفرخ والإنسان ، لكافية لاستغراق حياة في التأمل والارتعاش !

وإلا فأين كانت تكمن السنبلة في الحبة ؟ وأين كان يكمن العود ؟ وأين كانت تلك الجذور والساق والأوراق ؟ . . وأين في النواة كان يكمن اللب واللحاء ، والساق السامقة والعراجين والألياف ؟ وأين يكمن كان الطعم والنكهة واللون والرائحة ، والبلح والتمر ، والرطب والبسر . . . ؟

وأين في البيضة كان الفرخ ؟ وأين يكمن كان العظم واللحم ، والزغب والريش ، واللون

والشيات ، والرفرفة والصوات . . . ؟

وأين في البويضة كان الكائن البشري العجيب ؟ أين كانت تكمن ملامحه وسماته المنقولة عن وراثات موغلة في الماضي متشعبة المنابع والنواحي ؟ أين كانت نبرات الصوت ، ونظرات العين ، ولفتات الجيد ، واستعدادات الأعصاب ، ووراثات الجنس والعائلة والوالدين ؟

وأين أين كانت تكمن الصفات والسمات والشيات ؟

وهل يكفي أن نقول : إن هذا العالم المترامي الأطراف كان كامناً في النبتة والنواة وفي البيضة والبويضة ، لينقضي العجب العاجب الذي لا تفسير له ولا تأويل إلا قدرة الله وتدبير الله ؟

(117/363)

وما يزال البشر يكشفون من أسرار الموت وأسرار الحياة ، وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي ، وتحول العناصر في مراحل إلى موت أو حياة ، ما يزيد مساحة السؤال وعمقه وشموله كل يوم وكل لحظة . وإن تحول الطعام الذي يموت بالطهي والنار إلى دم حي في الجسم الحي ، وتحول هذا الدم إلى فضلات ميتة بالاحتراق ، لأعجوبة يتسع العجب منها كلما زاد العلم بها . وهي بعد كائنة في كل لحظة آناء الليل وأطراف النهار . وإن الحياة لأعجوبة غامضة مثيرة تواجه الكينونة البشرية كلها بعلامات استفهام لا جواب عليها كلها

إلا أن يكون هناك إله ، يهب الحياة !

﴿ ومن يدبر الأمر ؟ ﴾ . .

في هذا الذي ذكر كله وفي سواه من شؤون الكون وشؤون البشر ؟ من يدبر الناموس الكوني الذي ينظم حركة هذه الأفلاك على هذا النحو الدقيق ؟ ومن يدبر حركة هذه الحياة فتمضي في طريقها المرسوم بهذا النظام اللطيف العميق ؟ ومن يدبر السنن الاجتماعية التي تصرف حياة البشر ، والتي لا تخطئ مرة ولا تحيد ؟ ومن ومن ؟

﴿ فسيقولون الله ﴾ .

.

فهم لم يكونوا ينكرون وجود الله ، أو ينكرون يده في هذه الشؤون الكبار . ولكن انحراف الفطرة كان يقودهم مع هذا الاعتراف إلى الشرك بالله ، فيتوجهون بالشعائر إلى سواه ، كما يتبعون شرائع لم يأذن بها الله .

﴿ فقل : أفلا تتقون ؟ ﴾ . .

أفلا تخشون الله الذي يرزقكم من السماء والأرض ، والذي يملك السمع والأبصار ، والذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، والذي يدبر الأمر كله في هذا وفي سواه ؟ إن الذي يملك هذا كله لهو الله ، وهو الرب الحق دون سواه :

﴿ فذلكم الله ربكم الحق ﴾ . .

والحق واحد لا يتعدد ، ومن تجاوزه فقد وقع على الباطل ، وقد ضل التقدير :

﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فأنى تصرفون ﴾ . .

وكيف توجهون بعيداً عن الحق وهو واضح بين تراه العيون ؟

(118/363)

بمثل هذا الانصراف عن الحق الواضح الذي يعترف المشركون بمقدماته وينكرون نتائجة اللازمة ، ولا يقومون بمقتضياته الواجبة ، قدر الله في سننه ونواميسه أن الذين يفسقون وينحرفون عن منطق الفطرة السليم وسنة الخلق الماضية لا يؤمنون :

﴿ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴾ . .

لا لأنه يمنعهم من الإيمان . فهذه دلائله قائمة في الكون ، وهذه مقدماته قائمة في اعتقادهم . ولكن لأنهم هم يحيدون عن الطريق الموصل إلى الإيمان ، ويجحدون المقدمات التي في أيديهم ، ويصرفون أنفسهم عن الدلائل المشهودة لهم ، ويعطلون منطق الفطرة القويم فيهم . ثم عودة إلى مظاهر قدرة الله ، وهل للشركاء فيها من نصيب .

﴿ قل : هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ قل : الله يبدأ الخلق ثم يعيده . فأنى تؤفكون ؟ قل : هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ؟ قل : الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى

الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدِّي إلا أن يهدى ؟ فما لكم ؟ كيف تحكمون ؟ ﴾ . .

وهذه الأمور المسؤول عنها – من إعادة الخلق وهدايتهم إلى الحق – ليست من بدائه مشاهداتهم ولا من مسلمات اعتقاداتهم كالأولى . ولكنه يوجه إليهم فيها السؤال ارتكاناً على مسلماتهم الأولى ، فهي من مقتضياتها بشيء من التفكر والتدبر . ثم لا يطلب إليهم الجواب ، إنما يقرره لهم اعتماداً على وضوح النتائج بعد تسليمهم بالمقدمات .

﴿ قل : هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ ﴾ . .

وهم مسلمون بأن الله هو الذي يبدأ الخلق غير مسلمين بإعادته ، ولا بالبعث والنشور والحساب والجزاء . . ولكن حكمة الخالق المدبر لا تكمل بمجرد بدء الخلق ؛ ثم انتهاء حياة المخلوقين في هذه الأرض ، ولم يبلغوا الكمال المقدر لهم ، ولم يلقوا جزاء إحسانهم وإساءتهم ، وسيرهم على النهج أو انحرافهم عنه .

(119/363)

إنها رحلة ناقصة لا تليق بخالق مدبر حكيم . وإن الحياة الآخرة لضرورة من ضرورات الاعتقاد في حكمة الخالق وتدبيره وعدله ورحمته . ولا بد من تقرير هذه الحقيقة لهم وهم الذين يعتقدون بأن الله هو الخالق ، وهم الذين يسلمون كذلك بأنه يخرج الحي من الميت .

والحياة الأخرة قريبة الشبه بإخراج الحي من الميت الذي يسلمون به :

﴿ قل : الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ . .

وإنه لعجيب أن يصرفوا عن إدراك هذه الحقيقة ولديهم مقدماتها :

﴿ فأنى تؤفكون ﴾ . .

فتوجهون بعيداً عن الحق إلى الإفك وتضلون ؟

﴿ قل : هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ؟ ﴾ . .

فينزل كتاباً ، ويرسل رسولاً ، ويضع نظاماً ، ويشرع شريعة ، وينذر ويوجه إلى الخير ؛ ويكشف عن آيات الله في الكون والنفس ؛ ويوقظ القلوب الغافلة ، ويحرك المدارك المعطلة . كما هو معهود لكم من الله ومن رسوله الذي جاءكم بهذا كله وعرضه عليكم لتهتدوا إلى الحق ؟ وهذه قضية ليست من سابق مسلماتهم ، ولكن وقائعها حاضرة بين أيديهم . فليقررها لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وليأخذهم بها :

﴿ قل : الله يهدي للحق ﴾ . .

ومن هذه تنشأ قضية جديدة ، جوابها مقرر :

﴿ أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع ؟ أم من لا يهدي إلا أن يهدى ؟ ﴾ . .

والجواب مقرر . فالذي يهدي الناس إلى الحق أولى بالاتباع ، ممن لا يهتدي هو بنفسه إلا أن يهديه غيره . .

وهذا ينطبق سواء كان المعبودون حجارة أو أشجاراً أو كواكب . أو كانوا من البشر – بما في ذلك عيسى عليه السلام ، فهو ببشريته محتاج إلى هداية الله له ، وإن كان هو قد بعث هادياً للناس – ومن عدا عيسى عليه السلام أولى بانطباق هذه الحقيقة عليه :

﴿ فما لكم ؟ كيف تحكمون ؟ ﴾ . .

ما الذي وقع لكم وما الذي أصابكم ؟ وكيف تقدرون الأمور ، فتحيدون عن الحق الواضح المبين ؟

(120/363)

فإذا فرغ من سؤالهم وإجابتهم ، وتقرير الإجابة المفروضة التي تحتّمها البديهة وتحتّمها المقدمات المسلمة . . عقب على هذا بتقرير واقعهم في النظر والاستدلال والحكم والاعتقاد . فهم لا يستندون إلى يقين فيما يعتقدون أو يعبدون أو يحكمون ، ولا إلى حقائق مدروسة يطمئن إليها العقل والفطرة ، إنما يتعلقون بأوهام وظنون ، يعيشون عليها ويعيشون بها ؛ وهي لا تغني من الحق شيئاً .

﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً . إن الله عليم بما يفعلون . . ﴾ .

فهم يظنون أن لله شركاء . ولا يحققون هذا الظن ولا يمتحنونه عملاً ولا عقلاً . وهم يظنون أن آباءهم ما كانوا ليعبدوا هذه الأصنام لو لم يكن فيها ما يستحق العبادة : ولا يمتحنون هم هذه الخرافة ، ولا يطلقون عقولهم من إسار التقليد الظني . وهم يظنون أن الله لا يوحي إلى رجل منهم ، ولا يحققون لماذا يمتنع هذا على الله . وهم يظنون أن القرآن من عمل محمد ولا يحققون إن كان محمد – وهو بشر – قادراً على تأليف هذا القرآن ، بينما هم لا يقدرون وهم بشر مثله .

. وهكذا يعيشون في مجموعة من الظنون لا تحقق لهم من الحق شيئاً . والله وحده هو الذي يعلم علم اليقين أفعالهم وأعمالهم . .

﴿ إن الله عليم بما يفعلون ﴾ . .

وتفريعاً على هذا التعقيب ، يأخذ بهم السياق في جولة جديدة حول القرآن تبدأ بنفي التصور لإمكان أن يكون القرآن مفترى من دون الله ، وتحديهم أن يأتوا بسورة مثله . وتثني بوصمهم بالتسرع في الحكم على ما لم يعلموه يقيناً أو يحققوه . وتثلث بإثبات حالتهم في مواجهة هذا القرآن ، وتثبيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على خطته أياً كانت استجابتهم أو عدم استجابتهم له ، وتنتهي بالتيئيس من الفريق الضال والإيماء إلى مصيرهم الذي لا يظلمهم الله فيه ؛ وإنما يستحقونه بما هم فيه من ضلال :

﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ؛ ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون : افتراه ؟ قل : فأتوا بسورة مثله ، وادعوا استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله . كذلك كذب الذين من قبلهم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ، وربك أعلم بالمفسدين . وإن كذبوك فقل : لي عملي ولكم عملكم ؛ أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون . ومنهم من يستمعون إليك ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ؟ ومنهم من ينظر إليك ، أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون ؟ إن الله لا يظلم الناس شيئاً . ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ . .

﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ . .

فهو بخصائصه ، الموضوعية والتعبيرية . بهذا الكمال في تناسقه ؛ وبهذا الكمال في العقيدة التي جاء بها وفي النظام الإنساني الذي يتضمن قواعده ؛ وبهذا الكمال في تصوير حقيقة الألوهية ، وفي تصوير طبيعة البشر ، وطبيعة الحياة ، وطبيعة الكون . . لا يمكن أن يكون مفترى من دون الله ، لأن قدرة واحدة هي التي تملك الإتيان به هي قدرة الله . القدرة التي تحيط بالأوئل والأواخر ، وبالظواهر والسرائر ، وتضع المنهج المبرأ من القصور والنقص من آثار الجهل والعجز . .

﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ . .

ما كان من شأنه أصلاً أن يفترى . فليس الافتراء هو المنفي ، ولكن جواز وجوده هو المنفي . وهو أبلغ في النفي وأبعد .

﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ . .

من الكتب التي سبق بها الرسل . تصديقها في أصل العقيدة ، وفي الدعوة إلى الخير .

﴿ وتفصيل الكتاب ﴾ . . الواحد الذي جاء به الرسل جميعاً من عند الله ، تتفق أصوله وتختلف تفصيلاته . . وهذا القرآن يفصل كتاب الله ويبين وسائل الخير الذي جاء به ، ووسائل تحقيقه وصيانته .

(122/363)

فالعقيدة في الله واحدة ، والدعوة إلى الخير واحدة . ولكن صورة هذا الخير فيها تفصيل ، والتشريع الذي يحققه فيه تفصيل ، يناسب نمو البشرية وقتها ، وتطورات البشرية بعدها ، بعد أن بلغت سن الرشد فخوطبت بالقرآن خطاب الراشدين ، ولم تخاطب بالخوارق المادية التي لا سبيل فيها للعقل والتفكير .

﴿ لا ريب فيه ، من رب العالمين ﴾ . .

تقرير وتوكيد لنفي جواز افترائه عن طريق إثبات مصدره : ﴿ من رب العالمين ﴾ . .

﴿ أم يقولون افتراه ؟ ﴾ .

بعد هذا النفي والتقرير ، فهو إذان من صنع محمد ، ومحمد بشر ينطق باللغة التي ينطقون بها ، ولا يملك من حروفها إلا ما يملكون . (ألف . لام . ميم) . . (ألف . لام . را .) . . (ألف . لام . ميم . صاد) . . . الخ . فدونهم إذن – ومعهم من يستطيعون جمعهم – فليفتروا ، كما افترى (زعمهم) محمد . فليفتروا سورة واحدة لا قرآناً كاملاً :

﴿ قل : فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ . .

وقد ثبت هذا التحدي ؛ وثبت العجز عنه ، وما يزال ثابتاً ولن يزال . والذين يدركون بلاغة هذه اللغة ، ويتذوقون الجمال الفني والتناسق فيها ، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان . وكذلك الذين يدرسون النظم الاجتماعية ، والأصول التشريعية ، ويدرسون النظام الذي جاء به هذا القرآن ، يدركون أن النظرة فيه إلى تنظيم الجماعة الإنسانية ومقتضيات حياتها من جميع جوانبها ، والفرص المدخرة فيه لمواجهة الأطوار والتقلبات في يسر ومرونة . . كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشري واحد ، أو مجموعة العقول في جيل واحد او في جميع الأجيال . ومثلهم الذين يدرسون النفس الإنسانية ووسائل الأصول إلى التأثير فيها وتوجيهها ثم يدرسون وسائل القرآن وأساليبه . .

فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده ، ولكنه الاعجاز المطلق الذي يلمسه الخبراء في هذا وفي النظم والتشريعات والنفسيات وما إليها . .

(123/363)

والذين زاولوا فن التعبير ، والذين لهم بصر بالأداء الفني ، يدركون أكثر من غيرهم مدى ما في الأداء القرآني من إعجاز في هذا الجانب . والذين زاولوا التفكير الاجتماعي والقانوني والنفسي ، والإنساني بصفة عامة ، يدركون أكثر من غيرهم مدى الإعجاز الموضوعي في هذا الكتاب أيضاً .

ومع تقدير العجز سلفاً عن بيان حقيقة هذا الإعجاز ومداه ؛ والعجز عن تصويره بالأسلوب البشري . ومع تقدير أن الحديث المفصل عن هذا الإعجاز – في حدود الطاقة البشرية – هو موضوع كتاب مستقل . فسأحاول هنا أن ألم إلمامة خاطفة بشيء من هذا . .

إن الأداء القرآني يمتاز ويتميز من الأداء البشري . . إن له سلطاناً عجيباً على القلوب ليس للأداء البشري ؛ حتى ليبلغ أحياناً أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية

حرفاً . . وهناك حوادث عجيبة لا يمكن تفسيرها بغير هذا الذي نقول – وإن لم تكن هي القاعدة – ولكن وقوعها يحتاج إلى تفسير وتعليل .

(124/363)

. ولن أذكر نماذج مما وقع لغيري ؛ ولكني أذكر حادثاً وقع لي وكان عليه معي شهود ستة ، وذلك منذ حوالي خمسة عشر عاماً . . كنا ستة نفر من المنتسبين إلى الإسلام على ظهر سفينة مصرية تمخر بنا عباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك ؛ من بين عشرين ومائة راكب وراكبة أجانب ليس فيهم مسلم . . وخطر لنا أن نقيم صلاة الجمعة في المحيط على ظهر السفينة ! والله يعلم – أنه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة ذاتها أكثر مما كان بنا حماسة دينية إزاء مبشر كان يزاول عمله على ظهر السفينة ؛ وحاول أن يزاول تبشيره معنا ! . . وقد يسر لنا قائد السفينة – وكان إنجليزياً – أن نقيم صلاتنا ؛ وسمح لبحارة السفينة وطهاتها وخدمها – وكلهم نوبيون مسلمون – أن يصلي منهم معنا من لا يكون في " الخدمة " وقت الصلاة ! وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً ، إذ كانت المرة الأولى التي تقام فيها صلاة الجمعة على ظهر السفينة . . وقمت بخطبة الجمعة وإمامة الصلاة ؛ والركاب الأجانب – معظمهم – متحلقون يرقبون صلاتنا ! . . وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنئوننا على نجاح "

القدّاس ! ! ! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا ! ولكن سيدة من هذا الحشد – عرفنا فيما بعد أنها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم " تيتو " وشيوعيته ! – كانت شديدة التأثر والانفعال ، تفيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها . جاءت تشد على أيدينا بحرارة ؛ وتقول : – في إنجليزية ضعيفة – إنها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح ! . . وليس هذا موضع الشاهد في القصة . . ولكن ذلك كان في قولها : أي لغة هذه التي كان يتحدث بها " قسيسكم " ! فالمسكينة لا تتصور أن يقيم " الصلاة " إلا قسيس – أو رجل دين – كما هو الحال عندها في مسيحية الكنيسة ! وقد صححنا لها هذا الفهم ! . . وأجبناها : فقالت : إن اللغة التي يتحدث بها ذات إيقاع موسيقي عجيب ، وإن كنت لم أفهم منها حرفاً . . ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهي تقول : ولكن

هذا ليس الموضوع الذي أريد أن أسأل عنه . . إن الموضوع الذي لفت حسي ، هو أن " الإمام " كانت ترد في أثناء كلامه – بهذه اللغة الموسيقية – فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه ! نوع أكثر موسيقية وأعمق إيقاعاً . . هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث في رعشة

وقشعريرة ! إنها شيء آخر ! كما لو كان – الإمام – مملوءاً من الروح القدس ! – حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها ! – وتفكرنا قليلاً . ثم أدركنا أنها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة وفي أثناء الصلاة ! وكانت – مع ذلك – مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة ، من سيدة لا تفهم مما تقول شيئاً !

وليست هذه قاعدة كما قلت .

ولكن وقوع هذه الحادثة – ووقوع أمثالها مما ذكره لي غير واحد – ذو دلالة على أن في هذا القرآن سرّاً آخر تلتقطه بعض القلوب لمجرد تلاوته . وقد يكون إيمان هذه السيدة بدينها ، وفرارها من الجحيم الشيوعي في بلادها ، قد أرهف حسها بكلمات الله على هذا النحو العجيب . . ولكن ما بالنا نعجب وعشرات الألوف ممن يستمعون إلى القرآن من عوامنا لا يطرق عقولهم منه شيء ، ولكن يطرق قلوبهم إيقاعه – وسره هذا – وهم لا يفترقون كثيراً من ناحية فهم لغة القرآن عن هذه السيدة اليوغسلافيّة ! ! !

ولقد أردت أن أقدم للحديث عن القرآن بسلطانه هذا الخفي العجيب . قبل أن أتحدث عن الجوانب المدركة التي يعرفها أكثر من غيرهم من يزاولون فن التعبير . ومن يزاولون التفكير والشعور !

* إن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض ، وذلك بأوسع مدلول ، وأدق تعبير ، وأجمله وأحياه أيضاً ! مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو . ومع جمال التعبير دقة الدلالة في آن واحد ، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ في موضعه ، وبحيث لا يجور الجمال على الدقة ولا الدقة على الجمال . ويبلغ من ذلك كله مستوى لا يدرك إعجازه أحد ، كما يدرك ذلك من يزاولون فن التعبير فعلاً ؛ لأن هؤلاء هم الذين يدركون حدود الطاقة البشرية في هذا المجال . ومن ثم يتبينون بوضوح أن هذا المستوى فوق الطاقة البشرية قطعاً .

* وينشأ عن هذه الظاهرة ظاهرة أخرى في الأداء القرآني . . هي أن النص الواحد يحوي مدلولات متنوعة متناسقة في النص ؛ وكل مدلول منها يستوفي حظه من البيان والوضوح دون اضطراب في الأداء أو اختلاط بين المدلولات ؛ وكل قضية وكل حقيقة تنال الحيز الذي يناسبها . بحيث يستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى ؛ ويبدو في كل مرة أصيلاً في الموضع الذي استشهد به فيه ؛ وكأنما هو مصوغ ابتداء لهذا المجال ولهذا الموضع ! وهي ظاهرة قرآنية بارزة لا تحتاج منا إلى أكثر من الإشارة إليها (ولو راجع القارئ المقتطفات الواردة في التعريف بهذه السورة لوجد أن النص الواحد يرد للدلالة على أغراض شتى ،

وهو في كل مرة أصيل في موضعه تماماً . وليس هذا إلا مثالاً) .

* وللأداء القرآني طابع بارز كذلك في القدرة على استحضار المشاهد ، والتعبير المواجه كا لو كان المشهد حاضراً ، بطريقة ليست معهودة على الإطلاق في كلام البشر ؛ ولا يملك الأداء البشري تقليدها . لأنه يبدو في هذه الحالة مضطرباً غير مستقيم مع أسلوب الكتابة ! وإلا فكيف يمكن للأداء البشري أن يعبر على طريقة الأداء القرآني مثلاً في مثل هذه المواضع :

(127/363)

﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده – بغياً وعدواً – حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ (وإلى هنا هي قصة تحكى . . ثم يعقبها مباشرة خطاب موجه في مشهد حاضر . . ﴿ آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟ ! فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ﴾ ثم يعود الأداء للتعقيب على المشهد الحاضر : ﴿ وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ ﴿ قل : أي شيء أكبر شهادة . قل الله ، شهيد بيني وبينكم ، وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ وإلى هنا أمر يوجه ورسول يتلقى . . ثم فجأة نجد الرسول يسأل

القوم : ﴿ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ ﴾ وإذا به يعود للتلقي في شأن هذا الذي سأل عنه قومه – وأجابوه ! – : ﴿ قل : لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد ، وإنني بريء مما تشركون ﴾ وكذلك هذه الالتفاتات المتكررة في مثل هذه الآيات : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً . . يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس . . وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا . قال : النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم . . وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون . . يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ . . قالوا : شهدنا على أنفسنا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين . . ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾ وأمثالها كثير في القرآن كله . وهو أسلوب متميز تماماً من الأسلوب البشري . وإلا فمن شاء أن يماري ، فليحاول أن يعبر على هذا النحو ، ثم ليأت بكلام مفهوم مستقيم ؛ فضلاً على أن يكون له هذا الجمال الرائع ، وهذا الإيقاع المؤثر ، وهذا التناسق الكامل !

(128/363)

هذه بعض جوانب الإعجاز في الأداء نلم بها سراعاً . ويبقى الإعجاز الموضوعي ؛ والطابع الرباني المتميز من الطابع البشري فيه .

إن هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية بجملتها ؛ فلا يخاطب ذهنها المجرد مرة . وقلبها الشاعر مرة . وحسها المتوفز مرة . ولكنه يخاطبها جملة ، ويخاطبها من أقصر طريق ؛ ويطرق كل أجهزة الاستقبال والتلقي فيها مرة واحدة كلما خاطبها . . وينشئ فيها بهذا الخطاب تصورات وتأثرات وانطباعات لحقائق الوجود كلها ، لا تملك وسيلة أخرى من الوسائل التي زاولها البشر في تاريخهم كله أن تنشئها بهذا العمق ، وبهذا الشمول ، وبهذه الدقة وهذا الوضوح ، وبهذه الطريقة وهذا الأسلوب أيضاً !

وأنا أستعير هنا فقرات مقتبسة من القسم الثاني من كتاب : " خصائص التصور ومقوماته " تعين على توضيح هذه الحقيقة ؛ وهي تتحدث عن " المنهج القرآني في عرض مقومات التصور الإسلامي " في صورتها الجميلة الكاملة الشاملة المتناسقة المتوازنة ، وأبرز خصائص هذا المنهج في العرض :

أنه يمتاز عن كل المناهج :

* أولاً : بكونه يعرض الحقيقة – كما هي في عالم الواقع – في الأسلوب الذي يكشف كل زواياها ، وكل جوانبها ، وكل ارتباطاتها ، وكل مقتضياتها .

. وهو – مع هذا الشمول – لا يعقد هذه الحقيقة ، ولا يلفها بالضباب ! بل يخاطب بها الكينونة البشرية في كل مستوياتها . . ولم يشأ الله – سبحانه – رحمة منه بالعباد أن يجعل مخاطبتهم بمقومات هذا التصور أو إدراكهم لها ، متوقفاً على سابق علم لهم . . إطلاقاً . . لأن العقيدة هي حاجة حياتهم الأولى ؛ والتصور الذي تنشئه في عقولهم وقلوبهم هو الذي يحدد لهم طريقة تعاملهم مع الوجود كله ؛ ويحدد لهم كذلك طريقة اتجاههم لتعلم أي علم ، ولطلب أية معرفة . . لهذا السبب لم يجعل الله إدراك هذه العقيدة متوقفاً على علم سابق . ولسبب آخر هو أن الله يريد أن يكون هذا التصور الذي تنشئه حقائق العقيدة هو قاعدة علم البشر ومعرفتهم – بما أنه هو قاعدة تصورهم وتفسيرهم للكون من حولهم ، ولما يجري فيه ولما يجري فيهم – كي يقوم علمهم وتقوم معرفتهم على أساس من الحق المستيقن الذي ليس هنالك غيره حق مستيقن . ذلك أن كل ما يتلقاه الإنسان وكل ما يصل إليه – عن غير هذا المصدر – هو معرفة – " ظنية " ونتائج " محتملة " لا " قطعية " حتى ذلك " العلم التجريبي " . فطريق العلم التجريبي هو القياس – لا الاستقراء والاستقصاء – فما يتسنى للبشر الاستقصاء والاستقراء في أية تجربة . هذا على فرض صحة جميع الملاحظات والاستنتاجات والأحكام البشرية على الظواهر ! إنما قصارى " العلم " أن يقوم بعدد من التجارب ، ثم يقيس على نتائجها . والعلم نفسه يسلم بأن النتائج الناشئة عن هذا القياس

ظنية محتملة لا يقينية قطعية (وذلك بالإضافة إلى أن كل تجربة على حدة ، تقوم على ترجيح أحد " الاحتمالات " لا على القطع الحتمي) . . فلم يبق من علم مستيقن يمكن أن يحصل عليه البشر إلا العلم الذي يأتيهم من عند العليم الخبير ، والذي يقصه عليهم من يقص الحق وهو خير الفاصلين .

(130/363)

---

* ثانياً : بكونه مبرأ من الانقطاع والتمزق الملحوظين في الدراسات " العلمية " والتأملات " الفلسفية " والومضات " الفنية " جميعاً . فهو لا يفرد كل جانب من جوانب (الكل) الجميل المتناسق بحديث مستقل . كما تصنع أساليب الأداء البشرية . وإنما هو يعرض هذه الجوانب في سياق موصول ؛ يرتبط فيه عالم الشهادة بعالم الغيب . وتتصل فيه حقائق الكون والحياة والإنسان بحقيقة الألوهية . وتتصل فيه الدنيا بالآخرة . وحياة الناس في الأرض بحياة الملأ الأعلى . . في أسلوب تتعذر مجاراته أو تقليده ؛ لأن الأسلوب البشري عندما يحاول تقليده في هذه الخاصية تبدو فيه الحقائق مختلطة مضطربة غامضة ، غير واضحة ولا محددة ولا منسقة ، كما تبدو في المنهج القرآني !

" وهذا الاتصال والارتباط في عرض جملة الحقائق في السياق القرآني الواحد ؛ قد يختلف

فيه التركيز على أي منها بين موضع وموضع .

ولكن هذا الترابط يبدو دائماً . فعندما يكون التركيز في موضع من السياق القرآني مثلاً على تعريف الناس بربهم الحق ، تتجلى هذه الحقيقة الكبيرة في آثار القدرة الإلهية الفاعلة في الكون والحياة والإنسان . في عالم الغيب وعالم الشهادة سواء . . وعندما يكون التركيز في موضع آخر على التعريف بحقيقة الكون ، تتجلى العلاقة بين " حقيقة الألوهية " و " حقيقة الكون " ، ويتطرق السياق كثيراً إلى حقيقة الحياة والأحياء ، وإلى سنن الله في الكون والحياة . . وعندما يكون التركيز على " حقيقة الإنسان " يتجلى ارتباطها بحقيقة الألوهية وبالكون والأحياء ، وبعالم الغيب وعالم الشهادة على السواء . . وعندما يكون التركيز على الدار الآخرة تذكر الحياة الدنيا وترتبطان بالله وبسائر الحقائق الأخرى . . وكذلك عندما يكون التركيز على قضايا الحياة الدنيا . . إلى آخر هذا النسق من العرض ، الواضح الملامح في القرآن .

(131/363)

---

* ثالثاً : بكونه – مع تماسك جوانب " الحقيقة " وتناسقها – يحافظ تماماً على إعطاء كل جانب من جوانبها – في الكل المتناسق – مساحته التي تساوي وزنه الحقيقي في ميزان الله

- وهو الميزان - ومن ثم تبدو " حقيقة الألوهية " وخصائصها ، وقضية " الألوهية والعبودية " بارزة مسيطرة محيطة شاملة ؛ حتى ليبدو أن التعريف بتلك الحقيقة وتجلية هذه القضية هو موضوع القرآن الأساسي . . وتشغل حقيقة عالم الغيب - بما فيه القدر والدار الآخرة - مساحة بارزة . ثم تنال حقيقة الإنسان ، وحقيقة الكون ، وحقيقة الحياة ، أنصبة متناسقة تناسق هذه الحقائق في عالم الواقع . . وهكذا لا تدغم حقيقة من الحقائق ، ولا تهمل ، ولا تضيع معالمها في المشهد الكلي الذي تعرض فيه هذه الحقائق . . وكما أن هذه الحقائق لا يطغى بعضها على بعض في التصور الإسلامي ذاته - كما بينا في فصل " التوازن " في القسم الأول - حيث لا ينتهي الإعجاب بالكون المادي ودقة نواميسه وتناسق أجزائه وقوانينه إلى تألهه - كمؤلهة العوالم المادية والأكوان الطبيعية قديماً وحديثاً ! - ولا ينتهي الإعجاب بعظمة الحياة واهتدائها إلى وظائفها وتناسقها مع نفسها ومع المحيط الكوني إلى تأليهها - كأصحاب المذهب الحيوي ! - ولا ينتهي الإعجاب بالإنسان ، وتفرده في خصائصه والاستعدادات الكامنه في كيانه المنطلقة في تعامله مع الكون ، إلى تأليه الإنسان - أو العقل - في صورة من الصور - كالمثاليين في عمومهم ! - ولا ينتهي الإجلال للحقيقة الإلهية في ذاتها إلى إنكار وجود العوالم المادية أو احتقارها أو احتقار الكائن الإنساني - كالمذاهب الهندوكية والبوذية والنصرانية المحرفة - .

. كما أن هذا التوازن هو طابع التصور الإسلامي ذاته ، فكذلك هو طابع منهج العرض القرآني لمقومات هذا التصور والحقائق التي يقوم عليها بحيث تبدو كلها واضحة في المشهد الفريد الذي يرسمه للكل في السياق القرآني الواحد ! وهي خاصية قرآنية لا يملكها الأداء الإنساني !

* رابعاً : بتلك الحيوية الدافقة المؤثرة الموحية – مع الدقة والتقرير والتحديد الحاسم ، وهي تمنح هذه الحقائق حيوية وإيقاعاً وروعة وجمالاً ، لا يتسامى إليها المنهج البشري في العرض ولا الأسلوب البشري في التعبير . ثم هي في الوقت ذاته تعرض في دقة عجيبة ، وتحديد حاسم ؛ ومع ذلك لا تجور الدقة على الحيوية والجمال ، ولا يجور التحديد على الإيقاع والروعة !

" ولا يمكن أن نصف نحن في أسلوبنا البشري ، ملامح المنهج القرآني ، فنبلغ من ذلك ما يبلغه تذوق هذا المنهج . كما أنه لا يمكن أن نبلغ بهذا البحث كله عن " خصائص التصور الإسلامي ومقوماته " شيئاً مما يبلغه القرآن في هذا الشأن . . وما نحاول تقديم هذا البحث للناس إلا لأن الناس قد بعدوا عن القرآن ببعدهم عن الحياة في مثل الجو الذي تنزل فيه القرآن ؛ ولم يعودوا يزاولون تلك الملابسات ، ولا يعانون تلك الاهتمامات التي كان يزاولها ويعانيها من كان يتنزل عليهم القرآن ، بينما هم ينشئون المجتمع المسلم في وجه كل الملابسات

القائمة حينذاك . ومن ثم لم يعد الناس قادرين على تذوق المنهج القرآني ذاته ، والاستمتاع بخصائصه ومذاقاته " . . . انتهت المقتطفات . .

والقرآن يقدم حقائق العقيدة – إحياناً – في مجالات لا يخطر للفكر البشري عادة أن يلم بها ، لأنها ليست من طبيعة ما يفكر فيه عادة أو يلتفت إليه على هذا النحو .

من هذا القبيل ما جاء في سورة الأنعام في تصوير حقيقة العلم الإلهي ومجالاته . .

(133/363)

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ فهذه المطارح المترامية ، الخفية والظاهرة ، ليست مما يتوجه الفكر البشري إلى ارتيادها على هذا النحو ؛ وهو في معرض تصوير شمول العلم ؛ مهما أراد تصوير هذا الشمول . ولو أن فكراً بشرياً هو الذي يريد تصوير شمول العلم لاتجه اتجاهات أخرى تناسب اهتمامات الإنسان وطبيعة تصوراته . . وذلك كما قلنا في تفسير هذه الآية من قبل في الجزء السابع :

" ننظر إلى هذه الآية القصيرة من أي جانب فنرى هذا الإعجاز الناطق بمصدر هذا القرآن .

ننظر إليها من ناحية موضوعها ، فنجزم للوهلة الأولى بأن هذا كلام لا يقوله بشر فليس عليه طابع البشر . . إن الفكر البشري – حين يتحدث عن مثل هذا الموضوع – موضوع شمول العلم وإحاطته – لا يرتاد هذه الآفاق .

. إن مطارح الفكر البشري وانطلاقاته في هذا المجال لها طابع تآخر ولها حدود . إنه ينتزع تصوراته التي يعبر عنها من اهتماماته . . فما اهتمام الفكر البشري بتقصي وإحصاء الورق الساقط من الشجر ، في كل أنحاء الأرض ؟ إن المسألة لا تخطر على بال الفكر البشري ابتداء . لا يخطر على باله أن يتتبع ويحصي ذلك الورق الساقط في أنحاء الأرض . ومن ثم لا يخطر له أن يتجه هذا الاتجاه ، ولا أن يعبر هذا التعبير عن العلم الشامل ! إنما الورق الساقط شأن يحصيه الخالق ويعبر عنه الخالق !

" وما اهتمام الفكر البشري بهذا الإطلاق : ﴿ ولا رطب ولا يابس ﴾ . إن أقصى ما يتجه إليه تفكير البشر هو الانتفاع بالرطب واليابس ما بين أيديهم . . فأما التحدث عنه كدليل للعلم الشامل فهذا ليس معهوداً في اتجاه البشر وتعبيراتهم كذلك ! إنما كل رطب وكل يابس شأن يحصيه الخالق ، ويعبر عنه الخالق !

(134/363)

" ولا يفكر البشر أن تكون كل ورقة ساقطة ؛ وكل حبة مخبوءة ، وكل رطب وكل يابس في كتاب مبين ، وفي سجل محفوظ فما شأنهم بهذا ؟ وما فائدته لهم ؟ وما احتفالهم بتسجيله ؟ إنما الذي يحصيه ويسجله هو صاحب الملك ، الذي لا يند عنه شيء في ملكه . . الصغير كالكبير ، والحقير كالجليل ، والمخبوء كالظاهر ، والمجهول كالمعلوم ، والبعيد كالقريب . .

" إن هذا المشهد الشامل الواسع العميق الرائع . . مشهد الورق الساقط من شجر الأرض جميعاً ، والحب المخبوء في أطواء الأرض جميعاً ، والرطب واليابس في أرجاء الأرض جميعاً . . إن هذا المشهد كما أنه لا يتجه إليه الفكر البشري والاهتمام البشري ؛ وكذلك لا تلحظه العين البشرية ؛ ولا تلم به النظرة البشرية . . إن هذا المشهد إنما يتكشف هكذا بجملته لعلم الله وحده ، المشرف على كل شيء ، المحيط بكل شيء ، الحافظ لكل شيء ، الذي تتعلق مشيئته وقدره بكل شيء . . الصغير كالكبير ، والحقير كالجليل ، والمخبوء كالظاهر ، والمجهول كالمعلوم ، والبعيد كالقريب . .

" والذين يزاولون الشعور ويزاولون التعبير من بني البشر يدركون جيداً حدود التصور البشري وحدود التعبير البشري أيضاً . ويعلمون – من تجربتهم البشرية – أن مثل هذا المشهد ، لا يخطر على القلب البشري ؛ كما أن مثل هذا التعبير لا يتأتى له أيضاً . . والذين يمارون في هذا عليهم أن يراجعوا قول البشر كله ، ليروا إن كانوا قد اتجهوا مثل هذا الاتجاه

أصلاً !

" وهذه الآية وأمثالها في القرآن الكريم تكفي وحدها لمعرفة مصدر هذا الكتاب الكريم . .

" كذلك ننظر إليها من ناحية الإبداع الفني في التعبير ذاته ، فنرى آفاقاً من الجمال والتناسق لا تعرفها أعمال البشر ، على هذا المستوى السامق : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ آماد وآفاق وأغوار في " المجهول " المطلق . في الزمان والمكان ، وفي الماضي و الحاضر والمستقبل وفي أحداث الحياة وتصورات الوجدان .

(135/363)

﴿ ويعلم ما في البر والبحر ﴾ آماد وآفاق وأغوار في " المنظور " على استواء وسعة وشمول . . تناسب في عالم الشهود المشهود تلك الآماد والآفاق والأغوار في عالم الغيب المحجوب .

﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ حركة الموت والفناء ؛ وحركة السقوط والانحدار من علو إلى سفل ، ومن حياة إلى اندثار .

﴿ ولا حبة في ظلمات الأرض ﴾ حركة البزوغ والنماء ، المنبثقة من الغور إلى السطح ،

ومن كمون وسكون إلى اندفاع وانطلاق .

﴿ ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ التعميم الشامل ، الذي يشمل الحياة والموت . والأزدهار والذبول ، في كل حي على الإطلاق . .

فمن ذا الذي يبدع ذلك الاتجاه والانطلاق ؟ من ذا الذي يبدع هذا التناسق والجمال ؟ . .

من ذا الذي يبدع هذا كله وذلك كله ، في مثل هذا النص القصير . . من ؟ إلا الله ؟ !

كذلك هذا النص الآخر عن شمول علم الله :

﴿ يعلم ما يلج في الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور ﴾ ويقف الإنسان أمام هذه الصفحة المعروضة في كلمات قليلة ؛ فإذا هو أمام حشد هائل عجيب من الأشياء ، والحركات ، والأحجام ، والأشكال ، والصور ، والمعاني ، والهيئات ، لا يصمد لها الخيال !

ولو أن أهل الأرض جميعاً وقفوا حياتهم كلها يتتبعون ويحصون ما يقع في لحظة واحدة ، مما تشير إليه الآية لأعجزهم تتبعه وإحصاؤه عن يقين !

فكم من شيء في هذه اللحظة الواحدة يلج في الأرض ؟ وكم من شيء في هذه اللحظة يخرج منها ؟ وكم من شيء في هذه اللحظة ينزل من السماء ؟ وكم من شيء في هذه اللحظة يعرج فيها ؟

كم من شيء يلج في الأرض ؟ كم من حبة تختبئ أو تخبأ في جنبات هذه الأرض ؟ كم من

دودة ومن حشرة ومن هامة ومن زاحفة تلج في الأرض في أقطارها المترامية ؟ كم من قطرة ماء ومن ذرة غاز ، ومن إشعاع كهرباء تندس في الأرض في أرجائها الفسيحة ؟ وكم وكم مما يلج في الأرض ، وعين الله عليه ساهرة لا تنام ؟ !

(136/363)

وكم يخرج منها ؟ كم من نبتة تنبثق ؟ وكم من نبع يفور ؟ وكم من بركان يتفجر ؟ وكم من غاز يتصاعد ؟ وكم من مستور يتكشف ؟ وكم من حشرة تخرج من بيتها المستور ؟ وكم وكم مما يرى ومما لا يرى ، ومما يعلم البشر ومما يجهلونه وهو كثير ؟ ؟

وكم مما ينزل من السماء ؟ كم من نقطة مطر ؟ وكم من شهاب ثاقب ؟ وكم من شعاع محرق ؟ وكم من شعاع منير ؟ وكم من قضاء نافذ ومن قدر مقدور ؟ وكم من رحمة تشمل الوجود وتخص بعض العبيد ؟ وكم من رزق يبسطه الله لمن يشاء من عباده ويقدر ؟ . .

وكم وكم مما لا يحصيه إلا الله ؟

وكم مما يعرج فيها ؟ كم من نفس صاعد من نبات أو حيوان أو إنسان أو خلق آخر مما لا يعرفه الإنسان ؟ وكم من دعوة إلى الله معلنة أو مستسرة لم يسمعها إلا الله في علاه ؟

وكم من روح من أرواح الخلائق التي نعلمها أو نجهلها متوفاة ؟ وكم من ملك يعرج بأمر من روح

الله ؟ وكم من روح يرف في هذا الملكوت لا يعلمه إلا الله ؟

ثم كم من قطرة بخار صاعدة من بحر ، ومن ذرة غاز صاعدة من جسم ؟ وكم وكم مما لا يعلمه سواه ؟ !

كم في لحظة واحدة ؟ وأين يذهب علم البشر وإحصاؤهم لما في اللحظة الواحدة ولو قضوا الأعمار الطوال في العد والإحصاء ؟ وعلم الله الكامل الهائل اللطيف العميق يحيط بهذا كله في كل مكان وفي كل زمان .

. وكل قلب وما فيه من نوايا وخواطر وماله من حركات وسكنات تحت عين الله ، وهو مع هذا يستر ويغفر . . ﴿ وهو الرحيم الغفور ﴾ وإن آية واحدة من القرآن كهذه الآية لمما يوحي بأن هذا القرآن ليس من قول البشر . فمثل هذا الخاطر الكوني لا يخطر بطبيعته على قلب بشر . ومثل هذا التصور الكوني لا دافع إليه من طبيعة تصور البشر ، ومثل هذه الإحاطة باللمسة الواحدة تتجلى فيها صنعة الله بارئ هذا الوجود التي لا تشبهها صنعة العبيد !

(137/363)

كذلك يبدو الطابع الإلهي في هذا القرآن في طريقة استدلاله بأشياء وأحداث مثيرة صغيرة في ظاهرها ؛ وهي ذات حقيقة ضخمة تناسب الموضوع الضخم الذي يستدل بها عليه . . كما يبدو في قوله تعالى :

﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ! أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى ، فلولا تذكرون ! ﴾ ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون ؟ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أجاجاً ، فلولا تشكرون ! ﴾ ﴿ أفرأيتم النار التي تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين ﴾ ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ إن هذا القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة ، قضايا كونية كبرى يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود ، وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة وتصوراً كاملاً لهذا الوجود ، كما يجعل منها منهجاً للنظر والتفكير ، وحياة للأرواح والقلوب ، ويقظة في المشاعر والحواس . يقظة لظواهر هذا الوجود التي تتطالع الناس صباح مساء وهم غافلون ، ويقظة لأنفسهم وما يجري من العجائب والخوارق فيها !

إنه لا يكل الناس إلى الحوادث الفذة الخارقة والمعجزات الخاصة المعدودة . كذلك لا يكلفهم أن يبحثوا عن الخوارق والمعجزات والآيات والدلائل بعيداً عن أنفسهم ، ولا عن مألوف

حياتهم ، ولا عن الظواهر الكونية القريبة منهم المعروفة لهم . . إنه لا يبعد بهم في فلسفات معقدة ، أو مشكلات عقلية عويصة ، أو تجارب علمية لا يملكها كل أحد . . لكي ينشئ في نفوسهم عقيدة ، وتصوراً للكون والحياة قائماً على هذه العقيدة .

(138/363)

إن أنفسهم من صنع الله ؛ وظواهر الكون حولهم من إبداع قدرته . والمعجزة كامنة في كل ما تبدعه يده . وهذا القرآن قرآنه . ومن ثم يأخذهم إلى هذه المعجزات الكامنة فيهم ، والمبثوثة في الكون من حولهم . يأخذهم إلى هذه الخوارق المألوفة لهم ، التي يرونها ولا يحسون حقيقة الإعجاز فيها . لأنهم لطول ألفتهم بها غفلوا عن مواضع الإعجاز فيها . يأخذهم إليها ليفتح عيونهم عليها ، فتطلع على السر الهائل المكنون فيها . سر القدرة المبدعة ، وسر الوحدانية المفردة ، وسر الناموس الأزلي الذي يعمل في كيانهم هم أنفسهم كما يعمل في الكون من حولهم ؛ والذي يحمل دلائل الإيمان ؛ وبراهين العقيدة فيبثها في كيانهم ، أو يوقظها في فطرتهم بتعبير أدق .

وعلى هذا المنهج يسير ، وهو يعرض عليهم آيات القدرة المبدعة في خلقهم هم أنفسهم . وفي زرعهم الذي تزاوله أيديهم . وفي الماء الذي يشربون . وفي النار التي يوقدون – وهي

أبسط ما يقع تحت أبصارهم من مألوفات حياتهم - كذلك يصور لهم لحظة النهاية . نهاية الحياة على هذه الأرض وبدء الحياة في العالم الآخر . اللحظة التي يواجهها كل أحد ، والتي تنتهي عندها كل حيلة ، والتي تقف الأحياء وجهاً لوجه أمام القدرة المطلقة المتصرفة وقفة فاصلة ، لا محاولة فيها ولا مجال ! حيث تسقط جميع الأقنعة ، وتبطل جميع التعلات .

(139/363)

إن طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية تدل بذاتها على مصدره . . إنه المصدر الذي صدر منه الكون . فطريقة بنائه هي طريقة بناء الكون . فمن أبسط المواد الكونية تنشأ أعقد الأشكال ، وأضخم الخلائق . . الذرة يظن أنها مادة بناء الكون ؛ والخلية يظن أنها مادة بناء الحياة . . والذرة على صغرها معجزة في ذاتها ؛ والخلية على ضآلتها آية في ذاتها . . وهنا في القرآن يتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر مادة لبناء أضخم عقيدة دينية وأوسع تصور كوني . . المشاهدات التي تدخل في تجارب كل إنسان : النسل . الزرع . والماء . والنار . والموت . . أي إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في تجاربه ؟ أي ساكن كهف لم يشهد نشأة حياة جنينية ، ونشأة حياة نباتية . ومسقط ماء . وموقد نار . ولحظة وفاة ؟ . . من هذه المشاهدات التي رآها كل إنسان

ينشئ القرآن العقيدة ، لأنه يخاطب كل إنسان في كل بيئة . . وهذه المشاهدات البسيطة الساذجة بذاتها هي أضخم الحقائق الكونية ، وأعظم الأسرار الربانية ؛ فهي في بساطتها تخاطب فطرة كل إنسان ؛ وهي في حقيقتها موضوع دراسة أعلم العلماء إلى آخر الزمان . ولسنا نملك المضي أبعد من هذا في بيان طبيعة " هذا القرآن " الدالة على مصدره . ففي هذا القدر كفاية لنعود إلى سياق السورة . .

وصدق الله العظيم :

﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله . . . ﴾ .

﴿ أم يقولون افتراه ؟ قل : فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

ويضرب السياق عن المضي في الجدل بعد هذا التحدي ، ليقرر أنهم لا يتبعون إلا الظن ، فهم يحكمون على ما لم يعلموه . والحكم يجب أن يسبقه العلم ، وألا يعتمد على مجرد الهوى أو مجرد الظن . والذي حكموا عليه هنا هو الوحي بالقرآن وصدق ما فيه من الوعد والوعيد . لقد كذبوا بهذا وليس لديهم من علم يقوم عليه التكذيب ، ولما يأتهم تأويله الوقعي بوقوعه :

﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ﴾ . .

شأنهم في هذا شأن المكذبين من قبلهم ، الظالمين المشركين بربهم . فليتأمل المتأمل كيف كان مصير الأولين ليعرف حقيقة مصير الآخرين :

﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ . .

وإذا كان أكثرهم لا يتبعون إلا الظن ، ويكذبون بما لم يحصل لهم عنه علم ، فإن هناك منهم من يؤمن بهذا الكتاب ، فليسوا جميعهم من المكذبين :

﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به . وربك أعلم بالمفسدين ﴾ . .

والمفسدون هم الذين لا يؤمنون . وما يقع الفساد في الأرض كما يقع بضلال الناس عن الإيمان بربهم والعبودية له وحده . وما نجم الفساد في الأرض إلا من الدينونة لغير الله ، وما يتبع هذا من شر في حياة الناس في كل اتجاه . شر اتباع الهوى في النفس والغير ؛ وشر قيام أرباب أرضية تفسد كل شيء لتستبقي ربوبيتها المزيفة . . تفسد أخلاق الناس وأرواحهم وأفكارهم وتصوراتهم . . ثم تفسد مصالحهم وأموالهم . في سبيل بقائها المصطنع الزائف . وتاريخ الجاهلية في القديم والحديث فائض بهذا الفساد الذي ينشئه المفسدون الذين لا يؤمنون .

ويعقب على تقرير مواقفهم من هذا الكتاب بتوجيه الخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - بألا يتأثر بتكذيب المكذبين ، وأن ينفض يديه منهم ، ويعلنهم ببراءته من عملهم ، ويفاصلهم

على ما معه من الحق في وضوح وفي حسم وفي يقين :

﴿ وإن كذبوك فقل : لي عملي ولكم عملكم . أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا بريء مما تعملون ﴾ . .

وهي لمسة لوجدانهم ، باعتزالهم وأعمالهم ، وتركهم لمصيرهم منفردين ، بعد بيان ذلك المصير المخيف . وذلك كما تترك طفلك المعاند الذي يأبى أن يسير معك ، وفي وسط الطريق وحده يواجه مصيره فريداً لا يجد منك سنداً . وكثيراً ما يفلح هذا الأسلوب من التهديد !

(141/363)

ويمضي السياق يستعرض حال بعضهم من الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهم يستمعون إليه بآذانهم وقلوبهم مغلقة . وينظرون إليه بعيونهم وبصيرتهم مطموسة ، فلا يؤبون من السمع والنظر بشيء ، ولا يهتدون إلى الطريق :

﴿ ومنهم من يستمعون إليك . أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ؟ ومنهم من ينظر إليك . أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون ؟ ﴾ . .

إن هؤلاء الخلائق الذين يستمعون ولا يعقلون ما سمعوا ، وينظرون ولا يميزون ما نظروا . .

إن هؤلاء لكثير ، في كل زمان وفي كل مكان .

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يملك لهم شيئاً . لأن حواسهم وجوارحهم مطموسة الاتصال بعقولهم وقلوبهم ، فكأنها معطلة لا تؤدي حقيقة وظيفتها . والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يسمع الصم ، ولا يبصر العمي . فذلك من شأن الله وحده عز وجل . والله سن سنة وترك الخلق لمقتضى السنة . وأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول ليهتدوا بها ؛ فإذا هم عطلوها حقت عليهم سنته التي لا تتخلف ولا تحابي ، ولقوا جزاءهم عدلاً ، ولم يظلمهم الله شيئاً :

﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ . .

وفي هذه الآيات الأخيرة تسرية عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما يجده في نفسه من ضيق بهذا التكذيب لما معه من الحق ، وبهذا العناد الصفيق بعد تكرار البيان والإعلام ، وذلك بما يقرره له ربه من أن إباءهم الهدى لم يكن عن تقصير منه في الجهد . ولا قصور فيما معه من الحق . ولكن هؤلاء كالصم العمي . وما يفتح الآذان والعيون إلا الله . فهو شأن خارج عن طبيعة الدعوة والداعية داخل في اختصاص الله .

وفيها كذلك تحديد حاسم لطبيعة العبودية ومجالها – حتى ولو تمثلت في شخص رسول الله . فهو عبد من عباد الله لا قدرة له خارج مجال العبودية . والأمر كله لله .

بعد ذلك يلمس وجدانهم لمسة خاطفة بمشهد من مشاهد القيامة ، تبدو فيه الحياة الدنيا التي تزحم حسهم ، وتشغل نفوسهم ، وتأكل اهتماماتهم . . رحلة سريعة ، قضاها الناس هناك ، ثم عادوا إلى مقرهم الدائم ودارهم الأصيلة .

﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم . قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ، وما كانوا مهتدين ﴾ . .

وفي هذه الجولة الخاطفة ننظر فإذا المحشورون مأخوذون بالمفاجأة ، شاعرون أن رحلتهم الدنيوية كانت قصيرة قصيرة ، حتى لكأنها ساعة من نهار قضوها في التعارف ، ثم أسدل الستار .

أو هذا مجرد تشبيه لهذا الحياة الدنيا ، وللناس الذين دخلوا ثم خرجوا ، كأن لم يفعلوا شيئاً سوى اللقاء والتعارف ؟

إنه لتشبيه ، ولكنه حق اليقين وإلا فهل ينتهي البشر في هذه الأرض من عملية التعارف ؟

إنهم يجيئون ويذهبون وما يكاد أحدهم ينتهي من التعرف إلى الآخرين ، وما تكاد الجماعة فيهم تنتهي من التعرف إلى الجماعات الأخرى . ثم يذهبون .

وإلا فهل هؤلاء الأفراد الذين يتنازعون ويتعاركون ويقع من سوء التفاهم بينهم وبين بعضهم في كل ساعة ما يقع . . هل هؤلاء تم تعارفهم كما ينبغي أن يكون ؟

وهذه الشعوب المتناحرة ، والدول المتخاصمة – لا تتخاصم على حق عام ، ولا على منهج سليم ، إنما تتعارك على الحطام والأعراض – هذه . هل عرف بعضها بعضاً ؟ وهي ما تكاد تفرغ من خصام حتى تدخل في خصام .

إنه تشبيه لتمثيل قصر الحياة الدنيا .

ولكنه يصور حقيقة أعمق فيما يكون بين الناس في هذه الحياة . . ثم يرحلون !

وفي ظل هذا المشهد تبدو الخسارة الفادحة لمن جعلوا همهم كله هو هذه الرحلة الخاطفة ، وكذبوا بلقاء الله ، وشغلوا عنه واستغرقوا في تلك الرحلة – بل تلك الومضة – فلم يستعدوا لهذا اللقاء بشيء يلقون به ربهم ؛ ولم يستعدوا كذلك بشيء للإقامة الطويلة في الدار الباقية :

﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ، وما كانوا مهتدين ﴾ . .

(143/363)

ومن هذا المشهد الخاطف ليوم الحشر ، وما سبقه من أيام الحياة في الأرض إلى حديث مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - في شأن وعيد الله للمكذبين ؛ ذلك الوعيد الغامض ، لا يدرون إن كان سيعاجلهم غداً ، أم إنهم سينظرون إلى يوم الدين . ليبقى مصلتاً فوق

رؤوسهم لعلهم يتقون ويهتدون . . وشيئاً فشيئاً تنتهي الجولة التي بدأت بالحديث عن الوعيد إلى نهايتها يوم لا ينفع الفداء ولو كان ما في الأرض كله ، ويوم يقضي الله بالقسط لا يظلم أحداً . . وذلك على طريقة القرآن في وصل الدنيا بالآخرة ، في كلمات ولحظات ، في تصوير حي يلمس القلوب ، ويصور في الوقت ذاته حقيقة الاتصال بين الدارين والحياتين كما هما في الواقع ، وكما ينبغي أن يكونا في التصور الإسلامي الصحيح :

﴿ وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ، ثم الله شهيد على ما يفعلون . ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون . ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل : لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ، لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . قل أرأيتم : إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون . أثم إذا ما وقع آمنتم به ؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون ؟ ثم قيل للذين ظلموا : ذوقوا عذاب الخلد ، هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون . ويستنبئونك أحق هو ؟ قل : إي وربي إنه لحق ، وما أنتم بمعجزين . ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ .

تبدأ هذه الجولة بتقرير أن مرجع القوم إلى الله ، سواء وقع بعض الوعيد الذي كلف الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يبلغه لهم ، في حياته أو بعد وفاته . فالمرجع إلى الله في الحالين . وهو شهيد على ما يفعلون في حضور الرسول بالحياة ، وفي غيبته بالوفاة . فلن يضيع شيء من أعمالهم ولن تعفيهم وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مما يوعدون .

﴿ وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ، ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ . . فالأمور مدبرة سائرة حسب التدبير ، لا يخرج منها حرف ، ولا يتغير بالطوارئ والظروف . ولكن كل قوم يُنظرون حتى يجيء رسولهم ، فينذرهم ويبين لهم ، وبذلك يستوفون حقهم الذي فرضه الله على نفسه بألا يعذب قوماً إلا بعد الرسالة ، وبعد الإعذار لهم بالتبيين .

وعندئذ يقضي بينهم بالقسط حسب استجابتهم للرسول :

﴿ ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ .

ونقف من هاتين الآيتين أمام حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية التي يرتكز عليها التصور الإسلامي كله . وعناية المنهج القرآني بتوضيحها وتقريرها في كل مناسبة ، وفي صور شتى متنوعة . .

إنه يقال للرسول - صلى الله عليه وسلم - إن أمر هذه العقيدة ، وأمر القوم الذين يخاطبون

بها . كله لله ، وأن ليس لك من الأمر شيء . دورك فيها هو البلاغ ، أما ما وراء لك فكله لله . وقد ينقضي أجلك كله ولا ترى نهاية القوم الذين يكذبونك ويعاندونك ويؤذونك ، فليس حتماً على الله أن يريك عاقبتهم ، وما ينزله بهم من جزاء . . هذا له وحده سبحانه ! أما أنت – وكل رسول – فعليك البلاغ . . ثم يمضي الرسول ويدع الأمر كله لله . . ذلك كي يعلم العبيد مجالهم ، وكي لا يستعجل الدعاة قضاء الله مهما طال عليهم في الدعوة ومهما تعرضوا فيها للعذاب ! !

﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ ﴾ . .

(145/363)

وقد كانوا يسألون في تحد واستعجال ، طالبين وقوع ما يوعدهم به النبي - صلى الله عليه وسلم - من قضاء الله فيهم ، كما قضى الله بين الأمم التي جاءتها رسلها فكذبت ، فأخذ الله المكذبين : والجواب :

﴿ قل : لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ، لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ . .

وإذا كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، فهو لا يملك لهم

الضر والنفع بطبيعة الحال . (وقد قدم ذكر الضر هنا ، وإن كان مأموراً أن يتحدث عن نفسه ، لأنهم هم يستعجلون الضر ، فمن باب التناسق قدم ذكر الضر ، أما في موضع آخر في سورة الأعراف فقدم النفع في مثل هذا التعبير ، لأنه الأنسب أن يطلبه لنفسه وهو يقول :

﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴾ ﴿ قل : لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً . . إلا ما شاء الله . . ﴾ .

فالأمر إذن لله يحقق وعيده في الوقت الذي يشاؤه . وسنة الله لا تتخلف ، وأجله الذي أجله لا يستعجل :

﴿ لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ . .

والأجل قد ينتهي بالهلاك الحسي . هلاك الاستئصال كما وقع لبعض الأمم الخالية ، وقد ينتهي بالهلاك المعنوي . هلاك الهزيمة والضياع . وهو ما يقع للأمم ، إما لفترة تعود بعدها للحياة ، وإما دائماً فتضمحل وتنمحي شخصيتها وتنتهي إلى اندثارها كأمة ، وإن بقيت كأفراد . . وكل أولئك وفق سنة الله التي لا تتبدل ، لا مصادفة ولا جزافاً ولا ظلماً ولا محاباة .

(146/363)

فالأمم التي تأخذ بأسباب الحياة تحيا والأمم التي تنحرف عنها تضعف أو تضمحل أو تموت بحسب انحرافها . والأمة الإسلامية منصوص على أن حياتها في اتباع رسولها ، والرسول يدعوها لما يحييها . لا بمجرد الاعتقاد ، ولكن بالعمل الذي تنص عليه العقيدة في شتى مرافق الحياة . وبالحياة وفق المنهج الذي شرعه الله لها ، والشريعة التي أنزلها ، والقيم التي قررها . وإلا جاءها الأجل وفق سنة الله .

ثم يبادرهم السياق بلمسة وجدانية تنقلهم من موقف السائل المستهزئ المتحدي ، إلى موقف المهدَّد الذي قد يفاجئه المحظور في كل لحظة من الليل أو النهار :

﴿ قل : أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ، ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ ﴾ . .

فهذا العذاب المغيب الذي لا يُعلم موقعه وموعده ؛ والذي قد يحل بياتاً وأنتم نيام ، أو نهاراً وأنتم أيقاظ ، لا يجديكم في رده الصحو . . ما الذي يستعجل منه المجرمون ؟ وهو عذاب لا خير لهم في استعجاله على كل حال .

وبينما هم في مفاجأة السؤال الذي ينقل مشاعرهم إلى تصور الخطر وتوقعه ، تفجؤهم الآية التالية بوقوعه فعلاً . . وهو لم يقع بعد . . ولكن التصور القرآني يرسمه واقعاً ، ويغمر به المشاعر ، ويلمس به الوجدان :

﴿ أثم إذا ما وقع آمنتم به ؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون ؟ ! ﴾ .

فكأنما قد وقع . وكأنما قد آمنوا به ، وكأنما يخاطبون بهذا التبكيت في مشهد حاضر

يشهدونه الآن !

وتتمة المشهد الحاضر :

﴿ ثم قيل للذين ظلموا : ذوقوا عذاب الخلد . هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ؟ ﴾ . .

وهكذا نجدنا مع السياق في ساحة الحساب والعذاب ، وقد كنا منذ لحظات وفقرات في الدنيا نشهد خطاب الله لرسوله عن هذا المصير ! !

وختام هذه الجولة ، هو استنباء القوم للرسول : إن كان هذا الوعيد حقاً . فهم مزلزلون من الداخل تجاهه يريدون أن يستوثقوا وليس بهم من يقين . والجواب بالإيجاب حاسم مؤكد بيمين :

﴿ ويستنبئونك : أحق هو ؟ قل : إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1778 . 1798 ﴾

(147/363)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة يونس (10) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1)

الإعراب :

(الر) ، أحرف مقطّعة لا محلّ لها من الإعراب – انظر أول سورة البقرة – (تلك) اسم اشارة مبنيّ على السكون الظاهر على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين في محلّ رفع مبتدأ . . و (اللام) للبعد و (الكاف) للخطاب ، والإشارة إلى آيات القرآن (آيات) خبر المبتدأ مرفوع (الكتاب) مضاف إليه مجرور (الحكيم) نعت للكتاب مجرور .

جملة : " تلك آيات . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

الصرف :

(الحكيم) ، صفة مشتقّة ، وزنها فعيل بمعنى مفعول أي المحكم بفتح الكاف أي الممتنع من الفساد ، وقد يكون بمعنى فاعل أي الحاكم أو بمعنى ذي الحكم .

الفوائد

– قوله تعالى (الر) أورد أبو البقاء العكبري في إعرابها عدة أوجه سنوردها توخيا للفائدة وحسن الاطلاع .

1 – هذه الحروف المقطعة كل واحد منها اسم ، لأنّ كل واحد منها يدل على معنى في نفسه ، وهي مبنية . وفي موضع (الر) ثلاثة أوجه :

آ – الجر بحرف قسم محذوف ، كما قالوا : اللّه ليفعلن (في لغة من جر) .

ب – موضعها النصب : وفيه وجهان : أحدهما على تقدير حذف القسم كما تقول اللّه لأفعلنّ . والناصب فعل محذوف تقديره : التزمت اللّه ، أي اليمين به . والثاني هي مفعول به تقديره : اتل : الر .

ج – الرفع : على أنها مبتدأ وما بعدها الخبر .

معاني هذه الحروف :

جمهور أهل العلم والتفسير على أن هذه الحروف لا يعلمها إلا اللّه عز وجل ، فهي مما اختص به اللّه دون سواه ، وهي سرّ من أسرار القرآن الكريم لذلك يقال في تفسيرها ، اللّه أعلم بمراده وأسرار كتابه ، وقد وأورد العلماء فائدتين من ورود هذه الحروف في بدايات السور :

---

1 – هي تشير إلى أن هذا القرآن عربي ، نزل بلغة العرب الذين خاطبهم ، وكأن اللّه عز وجل يقول لهم : لقد أنزلنا إليكم قرآنا بلغتكم وحروفكم ، ومع هذا فأنتم عاجزون عن الإتيان بمثله .

2 - من عادة العرب في شعرها ونثرها أن تستفتح بما يسترعي الانتباه ويشد السامع ، لذا فقد افتتح اللّه عز وجل بعض سوره بشي ء غير مألوف بالنسبة للعرب آنذاك ، فكانوا إذا سمعوا ذلك أصاخوا السمع ، فيهجم عليهم القرآن ببيانه الساحر

ما أورد الخازن في تفسيره حول (الر) .

قال ابن عباس والضحاك معناه : أن اللّه أرى ، وقال ابن عباس في رواية أخرى عنه (الر) و (حم) و (ن) هي حروف الرحمن مقطعة . وبه قال سعيد بن جبير وسالم بن عبد اللّه ، وقال قتادة (الر) اسم من أسماء القرآن . وقيل هي اسم للسورة واللّه أعلم .

[سورة يونس (10) : آية 2]

أَكانَ لِلنّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ (2)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (كان) فعل ماض ناقص - ناسخ - (للناس) جارّ ومجرور حال من (عجبا) - نعت تقدم على المنعوت - (عجبا) خبر كان مقدّم منصوب (أن) حرف مصدريّ (أوحينا) فعل ماض مبنيّ على السكون و (نا) ضمير فاعل (إلى رجل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أوحينا) ، (من) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لرجل (أن) حرف تفسير " 1 " (أنذر) فعل أمر ، والفاعل أنت (الناس) مفعول به

منصوب .

والمصدر المؤوّل (أن أوحينا . .) في محلّ رفع اسم كان مؤخّر .

(الواو) عاطفة (بشّر) مثل أنذر (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (آمنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (أنّ)

(149/363)

---

(1) يجوز أن يكون (أن) حرفا مصدريّا يؤوّل مع ما بعده بمصدر وهو مجرور بباء محذوفة أي : أوحينا بإنذار ، وهو اختيار أبي حيّان في البحر . . كما يجوز أن يكون مخفّفا من الثقلية واسمه ضمير الشأن محذوف ، والمصدر المؤوّل مجرور بالباء المحذوفة أيضا .

حرف مشبه بالفعل – ناسخ – للتوكيد (اللام) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدم (قدم) اسم أنّ مؤخّر منصوب (صدق) مضاف إليه مجرور (عند) ظرف منصوب متعلّق بنعت لقدم صدق (ربّ) مضاف إليه مجرور و (هم) ضمير متّصل مضاف إليه في محلّ جرّ .

والمصدر المؤوّل (أنّ لهم قدم . .) في محلّ جرّ بباء محذوفة متعلّق بـ (بشّر) ، أي بشّرهم بأن لهم . .

(قال) فعل ماض (الكافرون) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو (إنّ) مثل أنّ (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم اشارة مبنيّ في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) المزحلقة للتوكيد (ساحر) خبر إنّ مرفوع (مبين) نعت لساحر مرفوع.

جملة: "كان للناس عجبا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أوحينا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة: "أنذر الناس . . . " لا محلّ لها تفسيريّة.

وجملة: "بشّر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنذر.

وجملة: "آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: "قال الكافرون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: إنّ هذا لساحر . . . " في محلّ نصب مقول القول.

الصرف:

(عجبا) ، مصدر سماعيّ لفعل عجب يعجب باب فرح، وزنه فعل بفتحتين . . وقيل هو بمعنى معجب اسم المفعول أو الفاعل " 1 " .

(قدم) ، لفظ يدلّ على العضو المعروف، وهو هنا مستعار لكلّ سابق

---

(1) وبهذا المعنى يصحّ تعليق (للناس) به، لأن المصدر إذا وقع موقع اسم الفاعل أو المفعول جاز أن يتقدّم معموله عليه.

في خير ، قال أبو عبيدة : كلّ سابق في خير أو شر هو عند العرب قدم .

وقال الليث : القدم السابقة ، أي سبق لهم عند اللّه خير ، والسبب في اطلاق لفظ القدم على هذه المعاني أن السعي والسبق لا يكون إلّا بالقدم ، فسمّي المسبّب باسم السبب على سبيل المجاز المرسل ، كما سمّيت النعمة يدا .

البلاغة

المجاز المرسل : في قوله تعالى " أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ " أي سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم .

وإنما عبر عنها بها إذ بها يحصل السبق والوصول إلى المنازل الرفيعة ، كما يعبر عن النعمة باليد ، لأن العطاء يكون بها ، فالعلاقة هنا السببية ونزيد هنا أن المجاز لا يكون مطردا ، فلا يصح أن يقال قدم سوء ، وهذه خاصة عجيبة من خصائص المجاز يكاد الحكم فيها أن يكون مرده إلى الذوق

[سورة يونس (10) : آية 3]

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (3)

الإعراب :

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – (ربّ) اسم إنّ منصوب و (كم) ضمير مضاف إليه (اللّه) خبر إن مرفوع (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع نعت للفظ الجلالة (خلق) فعل ماض ، والفاعل هو (السموات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (الواو) عاطفة (الأرض) معطوف على السموات منصوب (في ستة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خلق) ، (أيام) مضاف إليه مجرور (ثمّ) حرف عطف (استوى) ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف ، والفاعل هو (على العرش) جارّ ومجرور متعلّق بـ (استوى) ، (يدبّر) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (الأمر)

(151/363)

مفعول به منصوب (ما) حرف نفي (من) حرف جرّ زائد (شفيع) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ (إلّا) حرف للحصر (من بعد) جارّ ومجرور خبر المبتدأ (إذن) مضاف إليه مجرور و (الهاء) ضمير مضاف إليه (ذلكم) اسم اشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ، والإشارة إلى الخالق المدبّر . . و (اللام) للبعد و (كم) حرف خطاب (اللّه) لفظ الجلالة خبر مرفوع (ربّكم) بدل من لفظ الجلالة ، ومضاف إليه (الفاء) لربط المسبّب بالسبب " 1 " ،

(اعبدوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل و (الهاء) مفعول به (الهمزة) للاستفهام (الفاء) عاطفة (لا) نافية (تذكّرون) مضارع مرفوع محذوف منه إحدى التاءين تخفيفا . . والواو فاعل .

جملة : " إنّ ربّكم اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " استوى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " يدبّر . . . " في محلّ رفع خبر ثان لـ (إنّ) " 2 " وجملة : " ما من شفيع . . " في محلّ رفع خبر ثالث لـ (إنّ) " 3 " .

وجملة : " ذلكم اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اعبدوه " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

تنبهوا فاعبدوه " 4 " .

وجملة : " تذكّرون " لا محلّ لها معطوفة على مقدّر أي أغفلتم فلا تذكّرون .

---

(1) أو رابطة لجواب شرط مقدّر .

(2 ، 3) أو في محلّ نصب حال . . أو لا محلّ لها استئنافيّة .

(4) أو هي جواب شرط مقدر أي إن أقررتم بألهوهيّته فاعبدوه .

[سورة يونس (10) : آية 4]

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (4)

الإعراب :

(إلى) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (مرجع) مبتدأ مؤخّر مرفوع و (كم) ضمير مضاف إليه (جميعا) حال منصوبة من ضمير الخطاب (وعد) مفعول مطلق لفعل محذوف منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (حقّا) مفعول مطلق لفعل محذوف (إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و (الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (يبدأ) مضارع مرفوع، والفاعل هو (الخلق) مفعول به منصوب (ثمّ) حرف عطف (يعيد) مثل يبدأ و (الهاء) ضمير مفعول به (اللام) للتعليل (يجزي) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (الذين) موصول في محلّ نصب مفعول به (آمنوا) فعل ماض وفاعله مثله (عملوا)، (الصالحات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (بالقسط) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يجزي) " 1 " .

والمصدر المؤوّل (أن يجزي) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يعيده) .

(الواو) استئنافيّة (الذين) موصول في محلّ رفع مبتدأ (كفروا) مثل آمنوا (لهم شراب) مثل إليه مرجع (من حميم) جارّ ومجرور نعت لشراب (الواو) عاطفة (عذاب) معطوف على شراب مرفوع (أليم) نعت لعذاب مرفوع (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 2 " ، (كانوا) ماض ناقص – ناسخ – مبنيّ على الضمّ . . والواو اسم كان (يكفرون) مضارع مرفوع . .

---

(1) أو بحال من فاعل يجزي أو من مفعوله .

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والجملة بعده صلة ، والعائد مقدّر .

والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بأليم " 1 " .

جملة : " إليه مرجعكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " (وعد) وعد اللّه " لا محلّ لها استئناف لتأكيد مضمون ما سبق .

وجملة : " (حق) حقا " لا محلّ لها لتأكيد مضمون ما سبق .

وجملة : "إنّه يبدأ . . . "لا محلّ لها استئنافيّة في حكم التعليل .

وجملة : "يبدأ . . . "في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : "يعيده "في محلّ رفع خبر معطوفة على جملة يبدأ .

وجملة : "يجزي . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : "آمنوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "عملوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا .

وجملة : "كفروا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : "لهم شراب . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : "كانوا يكفرون "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : "يكفرون "في محلّ نصب خبر كانوا .

البلاغة

المناسبة اللفظية بين حميم وأليم : والمناسبة ضربان : مناسبة في المعاني ومناسبة في الألفاظ .

---

(1) أو متعلّق بفعل دلّ عليه الكلام أي عذّبوا بما كانوا يكفرون .

أما هنا فالمناسبة لفظية ، وهي عبارة عن الإتيان بلفظات متزنات وغير مقفيات ، فهو تام وناقص . وقد وقعت الناقصة في الكلام الفصيح أكثر لأن التقفية غير لازمة فيها .

[سورة يونس (10) : آية 5]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5)

الإعراب :

(هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر (جعل) فعل ماض ، والفاعل هو وهو العائد (الشمس) مفعول به منصوب (ضياء) مفعول به ثان منصوب على حذف مضاف أي ذات ضياء " 1 " ، (الواو) عاطفة (القمر نورا) مثل الشمس ضياء ومعطوف عليه (الواو) عاطفة (قدّر) مثل جعل ، والفاعل هو و (الهاء) مفعول به (منازل) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (قدّره) " 2 " ، (اللام) لام التعليل (تعلموا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (عدد) مفعول به منصوب (السنين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء (الواو) عاطفة (الحساب) معطوف على عدد منصوب .

والمصدر المؤوّل (أن تعلموا) في محل جرّ باللام متعلق بـ (قدّره) .

(ما) حرف نفي (خلق) مثل جعل (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (ذلك) اسم اشارة مبنيّ في محلّ نصب مفعول به و (اللام) للبعد و (الكاف) للخطاب (إلّا) حرف للحصر (بالحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بحال

---

(1) يجوز أن يكون (ضياء) حالا إن كان (جعل) بمعنى خلق .

(2) أو هو حال أي متنقّلا . . أو مفعول به وضمير الغائب في محلّ نصب على نزع الخافض أي قدّر له منازل . . أو مفعول ثان إن كان الفعل بمعنى جعله .

(155/363)

من لفظ الجلالة (يفصّل) مضارع مرفوع . . والفاعل هو (الآيات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (لقوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يفصّل) (يعلمون) مثل يكفرون " 1

" جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جعل الشمس . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " قدّره . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " ما خلق اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يفصّل . . . " في محلّ نصب حال من لفظ الجلالة .

وجملة : " يعلمون " في محلّ جرّ نعت لقوم .

الصرف :

(الشمس) اسم جامد ذات ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(ضياء) ، مصدر ضاء يضوء وزنه فعال بكسر الفاء ، وقد يكون اسما لما تدرك به العين الأشياء ، والياء فيه منقلبة عن واو لانكسار ما قبلها ، أصله ضواء – بكسر الضاد – والهمزة في آخره أصليّة .

(القمر) ، اسم جامد ذات ، وزنه فعل بفتحتين .

(منازل) ، جمع منزل ، اسم مكان من نزل ينزل باب ضرب وزنه فعل بكسر العين لأن مضارعه مكسور العين .

(عدد) ، الاسم من عدّ يعدّ باب نصر وزنه فعل بفتحتين ، جمعه أعداد زنة أفعال .

الفوائد

إعجاز القرآن .

ورد في هذه الآية قوله تعالى هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً

---

(1) في الآية السابقة (4) . [. . . . .]

وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ .

لقد اشتملت هذه الآية على دقة في التعبير ، وسلامة في المعنى ، تدل دلالة قاطعة على أن القرآن الكريم كلام اللَّه ، وأنه صادر عن خالق الكون بما فيه الشمس والقمر وقد أورد العلماء الفرق بين معنى الضياء والنور ، وذكروا أن الضياء أكمل وأعم من النور ، وأسطع وأقوى . وأما النور فدونه . ويترتب عن ذلك الليل والنهار . ولو كان النور واحدا في الشمس والقمر لما حدث التمييز بين الليل والنهار ، كما اشتملت الآية على إشارات فلكية بقوله تعالى وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ فالمولى عز وجل قد جعل للقمر منازل ومواضع يترتب عنها معرفة الشهور القمرية والسنين القمرية ، وهذا يحدث باطراد منتظم دون خلل أو شذوذ ، ودون زيغ أو انحراف . وقد مضى على ذلك سنون لا يحصيها العدّ ، ونحن مع هذا النظام الثابت الدقيق الذي لا يخل أبدا ، فما كان لبشر أن يأتي بمثل هذا الكلام مهما أوتي من الحكمة وفصل الخطاب .

[سورة يونس (10) : آية 6]

إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6)

" 1 "

الإعراب :

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل (في اختلاف) جارّ ومجرور خبر مقدّم (الليل) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (النهار) معطوف على الليل مجرور (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ معطوف على اختلاف (خلق) فعل ماض (اللَّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (في السموات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خلق) ، (الواو) عاطفة (الأرض) معطوف على السموات مجرور (اللام) لام الابتداء للتوكيد (آيات) اسم إنّ منصوب مؤخّر وعلامة النصب الكسرة (لقوم يتّقون) مثل لقوم

---

(1) وانظر الآية (190) من سورة آل عمران.

(157/363)

يعلمون " 1 " ، والجارّ نعت لآيات.

جملة: "إنّ في اختلاف . . . لآيات" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "خلق اللَّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة: "يتّقون" في محلّ جرّ نعت لقوم.

[سورة يونس (10) : الآيات 7 إلى 8]

إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ

(7) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (8)

الإعراب :

(إنّ) مثل السابق " 2 " ، (الذين) موصول اسم إنّ (لا) نافية (يرجون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (لقاء) مفعول به منصوب و (نا) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (رضوا) فعل ماض وفاعله (بالحياة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (رضوا) ، (الدنيا) نعت للحياة مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (اطمأنوا) مثل رضوا (الباء) حرف جرّ و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (اطمأنّوا) ، (الواو) عاطفة (الذين) مثل الأول ومعطوف عليه (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (عن آيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (غافلون) ، و (نا) ضمير مضاف إليه (غافلون) خبر المبتدأ (هم) مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " إنّ الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يرجون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " رضوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

---

(1) في الآية السابقة .

(2) في الآية السابقة (6) .

وجملة : " اطمأنّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة " 1 " وجملة : " هم . . غافلون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

(أولئك) اسم اشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ . . و (الكاف) حرف خطاب (مأوى) مبتدأ ثان مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف و (هم) متّصل مضاف إليه (النار) خبر المبتدأ مأوى (الباء) حرف جرّ (ما كانوا يكسبون) مثل ما كانوا يكفرون " 2 " . والمصدر المؤوّل (ما كانوا . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بفعل محذوف دلّ عليه الكلام أي عوقبوا بما كانوا . .

وجملة : " أولئك مأواهم النار . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " مأواهم النار . . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ (أولئك) .

وجملة : " كانوا يكسبون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يكسبون " في محلّ نصب خبر كانوا .

[سورة يونس (10) : الآيات 9 إلى 10]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ

النَّعِيمِ (9) دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (10)

الإعراب :

(إنّ الذين) مرّ إعرابها " 3 " ، (آمنوا) مثل رضوا " 4 " وكذلك (عملوا) ، (الصالحات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (يهدي)

---

(1) يجوز أن تكون الواو حاليّة ، والجملة في محلّ نصب حال من فاعل رضوا بتقدير قد .

(2) في الآية (4) من هذه السورة .

(3 ، 4) في الآية (7) من هذه السورة .

مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء و (هم) ضمير مفعول به (ربّ) فاعل مرفوع و (هم) مضاف إليه (بإيمان) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يهدي) ، والباء للسببيّة و (هم) مثل الأخير (تجري) مثل يهدي (من تحت) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تجري) " 1 " ، و (هم) مثل الأخير (الأنهار) فاعل مرفوع (في جنّات) جارّ ومجرور متعلّق بحال من الأنهار " 2 " ، (النعيم) مضاف إليه مجرور .

جملة : "إنّ الذين آمنوا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "آمنوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "عملوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : "يهديهم ربّهم . . . "في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : "تجري . . الأنهار "لا محلّ لها استئنافية" 3 " .

(دعوى) مبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف و (هم) ضمير مضاف إليه (في) حرف جرّ و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بدعوى (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره نسبّح و (الكاف) ضمير مضاف إليه (اللهمّ) لفظ الجلالة منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب . . و (الميم) المشدّدة عوض من (يا) المحذوفة (الواو) عاطفة (تحيّتهم فيها) مثل دعواهم فيها " 4 " ، (سلام) خبر المبتدأ تحيّة مرفوع" 5 " ، (الواو) عاطفة (آخر) مبتدأ مرفوع (دعوى) مضاف إليه مجرور

---

(1) أو بحال من الأنهار – نعت تقدّم على المنعوت –

(2) أو متعلّق بـ (تجري) ، ويجوز أن يكون خبرا آخر لـ (إنّ) .

(3) أو في محلّ رفع خبر ثان لـ (إنّ) ، أو في محلّ نصب حال من مفعول يهديهم .

(4) والمجرور والجارّ يجوز أن يكون حالا من ضمير الغائب في تحيّتهم .

(5) أو مبتدأ خبره محذوف أي سلام عليكم ، والجملة خبر تحيّتهم .

وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف و (هم) مثل الأخير (أن) هي المخفّفة من الثقيلة " 1 " ، واسمها ضمير الشأن واجب الحذف (الحمد) مبتدأ مرفوع (للَّه) جارّ ومجرور خبر المبتدأ الحمد (ربّ) نعت للفظ الجلالة مجرور (العالمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " دعواهم فيها . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : (نسبّح) سبحانك " في محلّ رفع خبر المبتدأ دعواهم " 3 " .

وجملة النداء : " اللهمّ " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة .

وجملة : " تحيّتهم . . سلام " لا محلّ لها معطوفة على جملة دعواهم . . .

وجملة : " آخر دعواهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة دعواهم . . .

وجملة : " الحمد للَّه . . . " في محلّ رفع خبر أن المخفّفة .

والمصدر المؤوّل من أن المخفّفة واسمها وخبرها في محلّ رفع خبر المبتدأ (آخر) .

الصرف :

(دعوى) ، مصدر سماعيّ لفعل دعا يدعو ، وزنه فعلى بفتح الفاء فسكون العين .

(تحيّة) ، مصدر قياسي لفعل حيّا يحيّي ، وقد عوض من إحدى الياءات الثلاث تاء مربوطة ، وأصل المصدر تحيية . . فلمّا اجتمعت ياءان وأريد إدغامهما حرّكت الحاء بالكسر وسكّنت الياء الأولى ، فالوزن تفعلة ،

---

(1) وهو اختيار أبي حيّان . . وابن هشام يجعلها زائدة لأنها لم تسبق بما يدلّ على اليقين .

(2) أو خبر ثالث لـ (إنّ) .

(3) خلت الجملة من الرابط الذي يربطها بالمبتدأ لكنها تلتقي مع المبتدأ في المعنى .

[. . . . .]

(161/363)

وأصله تفعيل . وإضافة التحيّة إلى الضمير إمّا من إضافة المصدر إلى الفاعل إذا كانوا هم الذين يحيّون الملائكة . . أو من إضافة المصدر إلى المفعول إذا كان اللَّه يحيّيهم .

الفوائد

ورد في هذه الآية قوله تعالى سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ ونحن هنا بخصوص كلمة (سبحانك) فإننا نعربها مفعولا مطلقا لفعل محذوف ، وهناك مصادر تجري على هذا المنوال وتعرب إعرابها

، ولما كان ذلك من الأمور الهامة ويخفى على الكثير رأينا تتميما للفائدة أن نذكرها . هناك مصادر مسموعة شاع استعمالها ولا أفعال لها ، ولكن القرائن دالة عليها . مثل : (سمعا وطاعة ، عجبا ، حمدا وشكرا لا كفرا معاذ اللَّه) ، ومن المفيد أن نعرض هنا طائفة من هذه المصادر المسموعة لدورانها على الألسنة :

1 – فمنها ما لا يستعمل إلا مضافا مثل : سبحان اللَّه ، معاذ اللَّه .

وقد ورد منها مثناة المصادر الآتية : (لبيك ، لبيك وسعديك ، وحنانيك ، ودواليك ، وحذاريك) والمتكلم يريد بذلك التكثير فكأنه يقول تلبية لك بعد تلبية ، حنانا بعد حنان .

2 – ومنها ما استعمل غير مضاف كالأمثلة الأولى وك (حجرا محجورا) بمعنى منعا ممنوعا) .

3 – في تفصيل مجمل أو بيان عاقبة مثل فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً .

(162/363)

---

4 – ورد مصادر لا أفعال لها مثل (ويل ، ويب) في الدعاء على الإنسان ، و (ويح ، ويس) في الدعاء له ، و (بلها) يقدرون لها عاملا من معناها ولا يلفظونه ، ومتى أضيفت هذه المصادر وجب نصبها ، فإذا لم تضف جاز النصب والابتداء بها نقول : (ويل للظالم ، وويلا

للظالم) أما مثل : (ويل الظالم) فليس غير النصب لأنها أضيفت .

[سورة يونس (10) : آية 11]

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لو) حرف شرط غير جازم (يعجّل) مضارع مرفوع (اللَّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (للناس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يعجّل) ، (الشرّ) مفعول به منصوب (استعجالهم) منصوب على نزع الخافض " 1 " أي : كاستعجالهم . . و (هم) مضاف إليه (بالخير) جارّ ومجرور حال من المفعول المقدّر للمصدر استعجال أي استعجالهم الأمور بالخير " 2 " ، (اللام) واقعة في جواب لو (قضي) فعل ماض مبنيّ للمجهول (إلى) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (قضي) ، (أجل) نائب الفاعل مرفوع و (هم) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (نذر) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (الذين) موصول مبنيّ في محل نصب مفعول به (لا يرجون لقاءنا) مرّ إعرابها " 3 " في (طغيان) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يعمهون) ، و (هم) مثل الأخير (يعمهون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " يعجّل اللَّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قضي إليهم أجلهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " نذر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدّرة مستأنفة فيها استدراك لما سبق أي : لو يعجّل اللَّه الشرّ للناس لأهلكهم ، لكننا نمهلهم فنذر . . ففي الكلام التفات .

---

(1) أو هو مفعول مطلق ولكن بتقدير شيئين : مصدر الفعل عجّل ، والصفة التي هي مضاف أي : يعجّل اللَّه تعجيلا مثل استعجالهم بالخير .

(2) يجوز أن يكون متعلقا بالمصدر استعجال .

(3) في الآية (7) من هذه السورة .

وجملة : " لا يرجون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يعمهون " في محلّ نصب حال " 1 " .

الصرف :

(استعجال) مصدر قياسي للسداسي استعجل ، وزنه استفعال .

البلاغة

- التنكيت : في قوله تعالى " وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ " أصله " وَلَوْ

يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ " تعجيله لهم الخير ، فوضع " اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ " موضع تعجيله لهم الخير اشعارا بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم ، حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم . وهو كلام رصين يدل على دقة صاحبه إذ لا يكاد يوضع مصدر مؤكد مقارنا لغير فعله في الكتاب العزيز بدون مثل هذه الفائدة الجليلة . والنحاة يقولون في ذلك : أجرى المصدر على فعل مقدر دل عليه المذكور ، ولا يزيدون عليه وإذا راجع الفطن قريحته وناجى فكرته علم أنه إنما قرن بغير فعله لفائدة . وهي في قوله تعالى " وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً " التنبيه على نفوذ القدرة في المقدور وسرعة إمضاء حكمها حتى كأن إنبات اللّه تعالى لهم نفس نباتهم ، أي إذا وجد الإنبات وجد النبات حتما حتى كأن أحدهما عين الآخر فقرن به .

[سورة يونس (10) : آية 12]

وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (12)

---

(1) يجوز أن تكون الجملة مفعولا ثانيا إذا قدّر الفعل (نذر) متعدّيا لمفعولين .

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بـ (دعانا) ، (مسّ) فعل ماض (الإنسان) مفعول به مقدّم منصوب (الضرّ) فاعل مرفوع (دعا) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف و (نا) ضمير مفعول به (لجنب) جارّ ومجرور حال من فاعل دعا و (الهاء) مضاف إليه (أو) حرف عطف (قاعدا) معطوف على الحال الأولى منصوب ومثله (قائما) . الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بـ (مرّ) كشف) مثل مسّ و (نا) ضمير في محلّ رفع فاعل (عن) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (كشفنا) ، (ضرّ) مفعول به منصوب و (الهاء) مثل الأخير (مرّ) مثل مسّ ، والفاعل هو (كأن) حرف تشبيه ونصب مخفّف من التثقيلة ، واسمه محذوف أي كأنّه . . (لم) حرف نفي وجزم (يدعنا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلّة . . و (نا) مثل الأخير (إلى ضرّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يدعنا) على حذف مضاف أي إلى دفع ضرّ أو إزالة ضرّ (مسّ) مثل الأول و (الهاء) مفعول به ، والفاعل هو أي الضرّ .

جملة : " مسّ . . الضرّ . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " دعانا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : "كشفنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " مرّ . . . " لا محلّ لها جواب الشرط (لمّا) .

وجملة : "كأن لم يدعنا . . . " في محلّ نصب حال من فاعل مرّ .

وجملة : " لم يدعنا . . . " في محلّ رفع خبر كأن .

وجملة : " مسّه " في محلّ جرّ نعت لضرّ .

(الكاف) حرف جرّ وتشبيه (ذلك) اسم اشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله زيّن الآتي . . (اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب (زيّن) فعل ماض مبنيّ للمجهول (للمسرفين) جارّ ومجرور

متعلّق بـ (زيّن) ، وعلامة الجرّ الياء (ما) حرف مصدريّ ، (كانوا) فعل ماض ناقص – ناسخ – والواو اسم كان (يعملون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

(165/363)

والمصدر المؤوّل (كانوا . .) في محلّ رفع نائب الفاعل .

وجملة : " زيّن للمسرفين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كانوا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يعملون " في محلّ نصب خبر كانوا .

البلاغة

- التقسيم أو صحة الأقسام : وهو عبارة عن استيفاء المتكلم جميع أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه ، بحيث لا يغادر منه شيئا . وقوله : " دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً " استوفى جميع الهيئات التي يكون عليها الإنسان وقد تردد التقسيم في آل عمران .

الفوائد

- خلجات النفوس وأوضاع الناس :

هذه الآية الكريمة تصور لنا نموذجا بشريا في الناس لا يختص بزمان أو مكان ، وإنما يتكرر ويتوالى على مدار الزمان والمكان ، وهو نموذج شائع ، ويشكل الغالبية العظمى ، إلا من رحم ربك ، وقليل ما هم فنحن في هذه الآية مع الإنسان حين يمسه الضر أو تنزل به مصيبة فإنه يدعو اللّه في جميع أحواله مضطجعا أو قائما أو قاعدا ، ولكن عند ما يكشف اللّه عنه الضر فإنه ينسى اللّه ويمرّ كأن لم يكن بالأمس شيء ! فهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم أنه يصور النفس البشرية بكافة أبعادها ، وجميع حالاتها ، ونرى هذا التصوير يصدق على الجنس البشري في كل زمان ومكان إلى قيام الساعة . ولا عجب لأن اللّه خالق الإنسان ويعلم ما هو عليه ، ولا تخفى عليه خافية في الأنفس والآفاق .

[سورة يونس (10) : الآيات 13 إلى 14]

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ

نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14)

الإعراب :

(166/363)

(الواو) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (أهلكنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (نا) ضمير فاعل (القرون) مفعول به منصوب (من قبل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أهلكنا) ، و (كم) ضمير مضاف إليه (لمّا ظلموا) مثل لمّا كشفنا " 1 " ، (الواو) حاليّة (جاءت) فعل ماض . . و (التاء) للتأنيث و (هم) ضمير مفعول به (رسل) فاعل مرفوع و (هم) ضمير مضاف إليه (بالبيّنات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جاءتهم) ، (الواو) عاطفة (ما) نافية (كانوا) مثل السابق " 2 " ، (اللام) لام الجحود (يؤمنوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام .

والمصدر المؤوّل (أن يؤمنوا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بمحذوف خبر كانوا .

(كذلك) مثل السابق " 3 " ، والعامل فعل (نجزي) وهو مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (المجرمين) نعت للقوم

منصوب وعلامة النصب الياء و (القوم) مفعول به منصوب .

جملة : أهلكنا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " ظلموا " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله

أي : لمّا ظلموا أهلكناهم .

(1 ، 2 ، 3) في الآية السابقة (12) .

(167/363)

وجملة : " جاءتهم رسلهم " في محلّ نصب حال بتقدير (قد) .

وجملة : " ما كانوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ظلموا .

وجملة : " يؤمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " نجزي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة - أو اعتراضيّة .

(ثمّ) حرف عطف (جعلنا) مثل أهلكنا و (كم) ضمير مفعول به (خلائف) مفعول به ثان

منصوب (في الأرض) جارّ ومجرور نعت لخلائف (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ

(جعلناكم) ، و (هم) ضمير مضاف إليه (اللام) للتعليل (ننظر) مضارع منصوب بأن

مضمرة بعد اللام (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب حال عامله (تعملون) وهو مضارع مرفوع.

والواو فاعل.

(168/363)

والمصدر المؤوّل (أن ننظر) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جعلناكم) .

وجملة: "جعلناكم . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة القسم المقدّرة المستأنفة في الآية السابقة.

وجملة: "ننظر "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: "تعملون "في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام.

[سورة يونس (10) : آية 15]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (إذا) مثل السابق " 1 " متعلّق بـ (قال) ، (تتلى) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدّرة على الألف (على) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تتلى) ، (آيات) نائب الفاعل مرفوع و (نا) ضمير مضاف إليه (بيّنات) حال منصوبة وعلامة النصب الكسرة (قال) فعل ماض (الذين) موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (لا يرجون لقاءنا) مرّ إعرابها " 2 " ، (ائت) فعل أمر ، والفاعل أنت (بقرآن) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ائت) (غير) نعت لقرآن مجرور (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم اشارة مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (أو) حرف عطف (بدّل) مثل ائت و (الهاء) ضمير مفعول به (قل) مثل ائت (ما) نافية (يكون) مضارع تام مرفوع " 3 " ، (اللام) حرف جرّ و (الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يكون) ، (أن) حرف مصدريّ (أبدّل) مضارع منصوب والفاعل أنا و (الهاء) ضمير مفعول به (من تلقاء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أبدّله) ، (نفس) مضاف إليه مجرور و (الياء) ضمير مضاف إليه (إن) حرف نفي (أتّبع) مثل أبدّل وهو مرفوع (إلّا) أداة حصر (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يوحى) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد

(اليّ) مثل لي متعلّق بـ (يوحى) .

والمصدر المؤوّل (أن أبدّله) في محلّ رفع فاعل يكون .

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و (الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (أخاف) مثل أبدّل

وهو مرفوع (إن) حرف شرط جازم (عصيت) فعل

---

(1) في الآية (12) من هذه السورة .

(2) في الآية (7) من هذه السورة .

(3) أي ما ينبغي لي . . .

ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و (التاء) ضمير فاعل (ربّ) مفعول

به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء و (الياء) مثلها في نفسي

(عذاب) مفعول به عامله أخاف ، منصوب (يوم) مضاف إليه مجرور (عظيم) نعت ليوم

مجرور .

جملة : " تتلى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " لا يرجون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ائت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " بدّله " في محلّ نصب معطوفة على جملة ائت .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ما يكون . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أبدّله " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : إن أتّبع . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يوحى إليّ " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " إنّي أخاف . . . " لا محلّ لها تعليل آخر .

وجملة : " أخاف . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " إن عصيت . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : فإنّي أخاف عذاب اللَّه .

[سورة يونس (10) : آية 16]

قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (16)

الإعراب :

(قل) مثل السابق " 1 " ، (لو) حرف شرط غير جازم (شاء) فعل ماض (اللَّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (ما) نافية (تلوت) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (التاء) فاعل و (الهاء) ضمير مفعول به (عليكم) مثل عليهم " 2 " ، (الواو) عاطفة (لا) نافية (أدرى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف و (كم) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي اللَّه (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أدرى) ، (الفاء) تعليليّة (قد) حرف تحقيق (لبثت) مثل تلوت (في) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (لبثت) ، (عمرا) مفعول فيه ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (لبثت) ، وهو على حذف مضاف أي مدة عمر أو أمد عمر (من قبل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (لبثت) ، و (الهاء) ضمير مضاف إليه (الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (لا) نافية (تعقلون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لو شاء اللَّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ما تلوته . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " لا أدراكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " لبثت . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " تعقلون " لا محلّ لها معطوفة على جملة محذوفة مستأنفة أي أغاب عنكم ذلك فلا تعقلون .

الصرف :

(أدرى) ، فيه إعلال بالقلب أصله أدري - بالياء - جاءت

---

(1) في الآية السابقة (15) .

(2) انظر الآية (21) من سورة الأنعام والآية (37) من سورة الأعراف .

الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا ، وزنه أفعل (عمرا) ، الاسم من عمر يعمر باب ضرب ، وباب نصر بمعنى الحياة أو ما طال منها ، وزنه فعل بضمّتين .

[سورة يونس (10) : آية 17]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أظلم) خبر مرفوع (من) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بأظلم (افترى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف ، والفاعل هو وهو العائد (على اللَّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (افترى) ، (كذبا) مفعول به " 1 " ، (أو) حرف عطف (كذّب) فعل ماض ، والفاعل هو (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كذّب) ، و (الهاء) ضمير مضاف إليه (إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و (الهاء) ضمير الشأن في محلّ نصب اسم إنّ (لا) نافية (يفلح) مضارع مرفوع (المجرمون) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " من أظلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " افترى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " كذّب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " إنّه لا يفلح المجرمون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يفلح المجرمون " في محلّ رفع خبر إنّ .

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو مرادفه .

البلاغة

خروج الاستفهام عن معناه الأصلي : في قوله تعالى " فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً " استفهام إنكاري معناه النفي ، أي لا أحد أظلم من ذلك ، ونفي الأظلمية كما هو المشهور كناية عن نفي المساواة . والمراد أنه أظلم من أي ظالم .

[سورة يونس (10) : آية 18]

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (18)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (يعبدون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (من دون) جارّ ومجرور حال من فاعل يعبدون أي متجاوزين اللّه (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه (ما) اسم موصول " 1 " مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (لا يضرّ) مثل لا يفلح " 2 " ، و (هم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو وهو العائد (الواو) عاطفة (ينفعهم) مثل يضرّهم (الواو) عاطفة (يقولون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (ها) حرف تنبيه (أولاء) اسم اشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (شفعاء) خبر مرفوع و (نا) ضمير مضاف إليه (عند) ظرف منصوب متعلّق بشفعاء ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ التعجّبيّ (تنبّئون) مثل يعبدون (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به (الباء)

حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ " 3 " متعلّق بـ (تنبّئون) ، (لا يعلم) مثل لا يضرّ (في السموات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يعلم) ، (الواو) عاطفة

---

(1) أو نكرة موصوفة . . والجملة بعده نعت .

(2) في الآية السابقة (17) .

(3) أو نكرة موصوفة . . والجملة بعده نعت . [. . . . .]

(174/363)

(لا) زائدة لتأكيد النفي (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بما تعلّق به الجارّ الأول لأنّه معطوف عليه (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف و (الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (تعالى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف والفاعل هو (عن) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ (يشركون) مثل يعبدون .

والمصدر المؤوّل (ما يشركون) في محلّ جرّ متعلّق بـ (تعالى) .

جملة : " يعبدون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يضرّهم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " لا ينفعهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعبدون .

وجملة : " هؤلاء شفعاؤنا " في محلّ نصب مقول القول .

(175/363)

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أ تنبّئون اللّه " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا يعلم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " (نسبّح) سبحانه " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة .

وجملة : " تعالى " لا محلّ لها معطوفة على الاعتراضيّة .

وجملة : " يشركون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

[سورة يونس (10) : آية 19]

وَما كانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19)

الإعراب :

(الواو) عاطفة – أو استئنافيّة – (ما) نافية (كان) فعل ماض

ناقص – ناسخ – (الناس) اسم كان مرفوع (إلّا) أداة حصر (أمّة) خبر كان منصوب

(واحدة) نعت لأمّة منصوب (الفاء) عاطفة (اختلفوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . .

والواو فاعل (الواو) عاطفة (لولا) حرف شرط غير جازم (كلمة) مبتدأ مرفوع ، والخبر

محذوف تقديره موجودة (سبقت) فعل ماض . . و (التاء) للتأنيث ، والفاعل هي (من

ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لكلمة و (الكاف) ضمير مضاف إليه (اللام)

واقعة في جواب لولا (قضي) فعل ماض مبنيّ للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره

هو أي العذاب المفهوم من سياق الكلام (بين) ظرف منصوب متعلّق بـ (قضي) ، (في)

حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (قضي) ، (في) مثل الأول و (الهاء)

ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يختلفون) وهو مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " ما كان الناس . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . أو معطوفة على جملة يعبدون . .

وجملة : " اختلفوا " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " لولا كلمة . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " سبقت " في محلّ رفع نعت لكلمة .

وجملة : " قضي بينهم " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يختلفون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

[سورة يونس (10) : آية 20]

وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (20)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (يقولون) مثل يختلفون " 1 " ، (لولا) حرف

---

(1) في الآية السابقة .

تحضيض بمعنى هلّا (أنزل) فعل ماض مبنيّ للمجهول (على) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنزل) ، (آية) نائب الفاعل مرفوع (من ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنزل) " 1 " ، و (الهاء) مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (إنّما) كافّة ومكفوفة (الغيب) مبتدأ مرفوع (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر

المبتدأ (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر آخر (انتظروا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و (الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (مع) ظرف منصوب متعلّق بالمنتظرين " 2 " ، و (كم) ضمير مضاف إليه (من المنتظرين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر إنّ ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعبدون " 3 " .

وجملة : " لولا أنزل . . آية " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قل . . . " جواب شرط مقدّر أي إن يقولوا هذا القول فقل . .

وجملة : " الغيب للّه " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " انتظروا . . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن لم تؤمنوا فانتظروا . .

وجملة : " إنّي . . من المنتظرين " لا محلّ لها في حكم التعليل .

[سورة يونس (10) : آية 21]

وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ (21)

---

(1) أو متعلّق بمحذوف نعت لآية .

(2) أو متعلّق بخبر إنّ .

(3) في الآية (18) من هذه السورة .

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بمضمون الجواب (أذقنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (نا) فاعل (الناس) مفعول به منصوب (رحمة) مفعول به ثان منصوب (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أذقنا) ، (ضرّاء) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة لامتناعه من الصرف فهو منته بألف التأنيث الممدودة (مسّ) فعل ماض و (التاء) للتأنيث و (هم) ضمير مفعول به (إذا) حرف فجائي (اللام) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (مكر) مبتدأ مؤخّر مرفوع (في آيات) جارّ ومجرور متعلّق بمكر بحذف مضاف أي في تأويل آياتنا و (نا) ضمير مضاف إليه (قل) فعل أمر والفاعل أنت (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (أسرع) خبر مرفوع (مكرا) تمييز منصوب (إنّ) مثل السابق " 1 " ، (رسل) اسم إنّ منصوب و (نا) مضاف إليه (يكتبون) مثل يختلفون " 2 " ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (تمكرون) مثل يختلفون " 3 " .

جملة : " أذقنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " مسّتهم " في محلّ جرّ نعت لضرّاء .

وجملة : " لهم مكر . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اللّه أسرع . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّ رسلنا يكتبون . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يكتبون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

---

(1) في الآية (20) من هذه السورة .

(2 ، 3) في الآية (19) من هذه السورة .

وجملة : " تمكرون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) ، والعائد محذوف .

البلاغة

الإشارة : وفي قوله : " قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً " فن الإشارة ، لأن أفعل التفضيل دلّ على أن مكرهم كان سريعا ، ولكن مكر اللّه أسرع منه . وإذا الفجائية يستفاد منها السرعة . والمعنى أنهم فاجؤوا المكر أي أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة .

[سورة يونس (10) : الآيات 22 إلى 23]

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23)

الإعراب :

(هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر المبتدأ (يسيّر) مضارع مرفوع و (كم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (في البرّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يسيّر) ، (الواو) عاطفة (البحر) معطوف على البرّ مجرور (حتّى) حرف ابتداء (إذا) مثل السابق " 1 " متعلّق بـ (جاءتها) ، (كنتم) فعل ماض ناقص - ناسخ - مبنيّ على السكون . . و (تم) اسم كان (في الفلك) جارّ ومجرور متعلّق بخبر كنتم (الواو) عاطفة (جرين) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (النون)

---

(1) في الآية السابقة .

نون النسوة أي الفلك (الباء) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (جرين) ، وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة (بريح) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جرين) " 1 " ، (طيّبة) نعت لريح مجرور (الواو) عاطفة (فرحوا) فعل ماض وفاعله (بها) مثل بهم متعلّق بـ (فرحوا) ، (جاءت) فعل ماض ، و (التاء) للتأنيث و (ها) ضمير مفعول به (ريح) فاعل مرفوع (عاصف) نعت لريح مرفوع (الواو) عاطفة (جاءهم الموج) مثل جاءتها ريح (من كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جاء) ، (مكان) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (ظنّوا) مثل فرحوا (أنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و (هم) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (أحيط) فعل ماض مبنيّ للمجهول (بهم) مثل الأول في محلّ رفع الفاعل (دعوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . والواو فاعل (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (مخلصين) حال منصوبة من فاعل دعوا ، وعلامة النصب الياء (اللام) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمخلصين الدين) مفعول به لاسم الفاعل مخلصين منصوب (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (أنجيت) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و (التاء) فاعل و (نا) ضمير مفعول به (من) حرف جرّ (ها) حرف تنبيه (ذه) اسم اشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنجيتنا) اللام) لام القسم (نكونن) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . و (النون) نون التوكيد ، واسم

نكون ضمير مستتر تقديره نحن (من الشاكرين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر نكونن ، وعلامة الجرّ الياء .

والمصدر المؤوّل (أنّهم أحيط .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ظنّوا .

---

(1) الباء في (بهم) للتعدية ، والباء في (بريح) للسببيّة ولذلك جاز تعليقهما بعامل واحد . . ويجوز أن تكون الباء الثانية للملابسة فالجار والمجرور حال .

(181/363)

جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يسيّركم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " كنتم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " جرين . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة كنتم .

وجملة : " فرحوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة كنتم " 1 " .

وجملة : " جاءتها ريح . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " جاءهم الموج . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الجواب .

وجملة : " ظنّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الجواب .

وجملة : " أحيط بهم " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " دعوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " إن أنجيتنا " لا محلّ لها تفسير لمعنى الفعل دعوا " 3 " .

وجملة : " نكونن . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

(الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بمضمون الجواب (أنجى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف ، و (هم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (إذا) فجائيّة (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يبغون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل

---

(1) أو حال من ضمير (بهم) بتقدير (قد) .

(2) أو بدل من جملة ظنّوا بدل اشتمال .

(3) لأن دعوا بمعنى قالوا . . ويجوز أن تكون الجملة مقول القول لقول مقدّر أي قائلين : لئن . . .

(في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يبغون) ، (بغير) جارّ ومجرور حال من فاعل يبغون أي مجانبين للحقّ (الحقّ) مضاف إليه مجرور . (يا) حرف نداء (أيّ) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب و (ها) حرف تنبيه (الناس) بدل من أيّ – أو عطف بيان – تبعه في الرفع لفظا (إنّما بغيكم على أنفسكم) مثل إنّما الغيب للّه و (كم) مضاف إليه في اللفظين (متاع) مفعول مطلق لفعل محذوف " 1 " ، (الحياة) مضاف إليه مجرور (الدنيا) نعت للحياة مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (ثمّ) حرف عطف (إلى) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (مرجع) مبتدأ مؤخّر مرفوع . . و (كم) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (ننبّئ) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن للتعظيم و (كم) ضمير مفعول به (بما كنتم تعملون) مثل بما كانوا يكفرون " 2 " .

وجملة : " أنجاهم . . . " في محلّ جرّ بإضافة (لمّا) إليها .

وجملة : " هم يبغون " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يبغون " في محلّ رفع خبر المبتدأ هم .

وجملة : " يأيّها الناس . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّما بغيكم على أنفسكم " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : (تتمتّعون) متاع . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " .

---

(1) أو مصدر في موضع الحال . . وهو ظرف عند أبي حيّان ، والعامل في الحال والظرف

هو الاستقرار في الخبر وليس المصدر بغيكم . . وبعضهم أعربه مفعولا لأجله على أن يتعلّق الجار (على أنفسكم) بالمصدر بغيكم ، أي : بغيكم على أنفسكم من أجل متاع الدنيا مذموم .

(2) في الآية (4) من هذه السورة .

(3) أو حال من ضمير المخاطب . [. . . . .]

(183/363)

وجملة : " إلينا مرجعكم " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة الأخيرة .

وجملة : " ننبئكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إلينا مرجعكم .

وجملة : " كنتم تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسميّ أو الحرفيّ .

وجملة : " تعملون " في محلّ نصب خبر كنتم .

الصرف :

(عاصف) ، اسم فاعل من عصف يعصف باب ضرب ، وهو صفة تطلق على المذكّر والمؤنّث ، ويقال أيضا عاصفة ، وزنه فاعل .

(الموج) ، اسم على وزن المصدر لما ارتفع من الماء على سطحه ، وزنه فعل بفتح فسكون ،

واحدته موجة ، جمعه أمواج .

(يبغون) ، انظر الآية (83) من سورة آل عمران . . الصرف واحد ولكن المعنى مختلف .

البلاغة

1 – الالتفات : في قوله تعالى : " حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ " التفات من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بما لهم من سوء الحال ، الموجب للإعراض عنهم كأنه يذكر لغيرهم مساوئ أحوالهم .

2 – الاستعارة التبعية : في قوله تعالى " وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ " أي أهلكوا ففي الكلام استعارة تبعية ، وقيل : إن الإحاطة استعارة لسد مسالك الخلاص ، تشبيها له بإحاطة العدو بإنسان ، ثم كنى بتلك الاستعارة عن الهلاك ، لكونها من روادفها ولوازمها .

3 – المجاز المرسل : في قوله تعالى " إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ " معناه : إنما بغيكم وبال على أنفسكم لأن البغي لا يقع على الأنفس ، وإنما هو الوبال . ولما كان البغي هو سببه ذكره على طريق المجاز المرسل والعلاقة السببية .

الفوائد

الأمور التي يتعدّى بها الفعل القاصر .

ورد في هذه الآية قوله تعالى هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ والملاحظ أن الفعل يسيّر قد

تعدى إلى مفعول به وأصل الفعل (سار) هو لازم فعند ما أصبح سيّر على وزن فعّل صار متعدّيا . وإتماما للفائدة سنورد الحالات التي يصبح فيها الفعل اللازم متعدّيا وهي :

(184/363)

---

1 – دخول همزة التعدية على أوله ، كقوله تعالى : أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ ورَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ .

وقد ينقل المتعدي إلى واحد بالهمزة إلى التعدي لاثنين : نحو " ألبست زيدا ثوبا " ولم ينقل المتعدي إلى اثنين إلى ثلاثة بالهمزة إلا في رأى وعلم مثل : أعلم الجندي القائد الأمر خطيرا .

2 – ألف المفاعلة ، تقول في جلس زيد ومشى وسار جالست زيدا ، وماشيته ، وسايرته .

3 – صوغه على وزن " فعلت " لإفادة الغلبة ، تقول : كرمت زيدا أي غلبته في الكرم .

4 – صوغه على وزن : استفعل للطلب أو النسبة إلى الشيء ك " استخرجت المال " و " واستحسنت زيدا " أي طلبت استخراج المال ونسبت الحسن إلى زيد .

5 – تضعيف العين : تقول في فرح زيد : فرّحته ، ومنه قوله تعالى الوارد في هذه الآية : " هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ " .

[سورة يونس (10) : آية 24]

إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24)

الإعراب :

(185/363)

(إنّما مثل الحياة الدنيا كماء) مثل إنّما الغيب للّه " 1 " ، (الحياة) مضاف إليه مجرور (الدنيا) نعت للحياة مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (أنزلنا) فعل ماض مبنيّ على السكون. و (نا) فاعل و (الهاء) ضمير مفعول به (من السماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنزلناه) ، (الفاء) عاطفة (اختلط) فعل ماض (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (اختلط) ، (نبات) فاعل مرفوع (الأرض) مضاف إليه مجرور (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف حال من نبات الأرض (يأكل) فعل مضارع مرفوع (الناس) فاعل مرفوع (الأنعام) معطوف على الناس بالواو

مرفوع. (حتّى إذا) مرّ إعرابها " 2 " ، (أخذت) فعل ماض . . و (التاء) للتأنيث (الأرض) فاعل مرفوع (زخرف) مفعول به منصوب و (ها) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ازّينت) مثل أخذت ، والفاعل هي (الواو) عاطفة (ظنّ) فعل ماض (أهل) فاعل مرفوع و (ها) مضاف إليه (أنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و (هم) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (قادرون) خبر أنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو (على) حرف جرّ و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بالخبر (أتاها) مثل أنجاهم " 3 " ، (أمر) فاعل مرفوع و (نا) ضمير مضاف إليه (ليلا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (أتى) ، (أو) حرف عطف (نهارا) معطوف على

---

(1) في الآية (4) من هذه السورة.

(2) في الآية (22) من هذه السورة.

(3) في الآية (23) من هذه السورة.

(ليلا) منصوب ومتعلّق بما تعلّق به المعطوف عليه (الفاء) عاطفة (جعلنا) مثل أنزلنا و (ها) ضمير مفعول به أوّل (حصيدا) مفعول به ثان منصوب (كأن) مخفّفة من الثقيلة ،

واسمها ضمير محذوف (لم) حرف نفي وجزم (تغن) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلّة ، والفاعل هي (بالأمس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تغن) ، (الكاف) حرف جرّ " 1 " ، (ذلك) اسم اشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نفصّل . . و (اللام) للبعد و (الكاف) للخطاب (نفصّل) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن للتعظيم (الآيات) مفعول به منصوب ، وعلامة النصب الكسرة (لقوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نفصّل) ، (يتفكّرون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " مثل الحياة . . كماء " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنزلناه " في محلّ جرّ نعت لماء .

وجملة : " اختلط به نبات . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أنزلناه .

وجملة : " يأكل الناس " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " أخذت الأرض . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ازّينت . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أخذت ؟

الأرض .

وجملة : " أتاها أمرنا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " جعلناها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

---

(1) أو اسم بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه صفته .

وجملة : "كأن لم تغن . . . " في محلّ نصب حال من مفعول جعلناها .

وجملة : " لم تغن . . . " في محلّ رفع خبر كأن .

وجملة : " نفصّل الآيات " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يتفكّرون " في محلّ جرّ نعت لقوم .

الصرف :

(ازّينت) ، فيه إبدال التاء زايا وأصله تزّينت ، قلبت التاء زايا ثمّ سكّنت للإدغام ، ثمّ جيء بهمزة الوصل تخلّصا من البدء بالساكن ، وزنه افتعّلت .

(حصيدا) ، صفة مشتقّة من حصد يحصد باب نصر ، وزنه فعيل بمعنى مفعول أي محصودا بمعنى كالمحصود .

(تغن) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، ففيه ألف محذوفة ، وزنه تفع بفتح العين .

(الأمس) ، اسم ظرفي دال على الزمن الماضي البعيد وزنه فعل بفتح فسكون . . جمعه آمس بضم الميم وأموس بضم الهمزة والميم وآماس . .

والنسبة إليه إمسيّ بكسر الهمزة وسكون الميم على غير القياس .

البلاغة

1 - التشبيه المركب : في الآية الكريمة وفي قوله تعالى " إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ " شبهت الآية حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال ، بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاما بعد ما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه .

2 - الاستعارة بالكناية : في قوله تعالى " حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ " ففي الكلام استعارة بالكناية ، حيث شبهت الأرض بالعروس ، وحذف المشبه به ، وأقيم المشبه مقامه . وإثبات أخذ الزخرف لها تخييل ، وما بعده ترشيح .

3 - الاستعارة : في قوله تعالى " فَجَعَلْناها حَصِيداً " استعارة مصرحة . والأصل جعلنا نباتها هالكا . فشبه الهالك بالحصيد ، وأقيم اسم المشبه به مقامه ، ولا ينافيه تقدير المضاف ، كما توهم ، لأنه لم يشبه الزرع بالحصيد بل الهالك به .

وذهب السكاكي إلى أن في الكلام استعارة بالكناية حيث شبهت الأرض المزخرفة والمزينة بالنبات الناضر المونق الذي ورد عليه ما يزيده ويغنيه وجعل الحصيد تخيلا .

الفوائد

- التناسق في المعنى :

لقد عبرت هذه الآية الكريمة عن سرعة زوال الحياة الدنيا وفنائها ، وأنها زخرف خادع ، سرعان ما يبهت وينطفئ بريقه ، وهناك لفتات في التعبير توحي بهذا المعنى إيحاء شديدا ، فقد قال تعالى إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ نحن هنا في التعبير على سرعة زوال الدنيا ، لذلك جاء المعنى متناسقا مع هذه الفكرة ، ونرى كيف أن النبات هو الذي يسرع ليستقبل ماء السماء مع أن ماء السماء هو الذي يسقط على النبات ، وفي هذا قوة في المعنى تمنحه بعدا عميقا ، وكذلك يقفز الزمن مراحل سريعة ، فسرعان ما تأخذ الأرض زخرفها وتتزين ، وسرعان ما يظن أهلها أنهم مقيمون في نعيمها ، وسرعان ما يأتيها أمر اللَّه ليلا أو نهارا ، فتصبح حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، تناسق بديع وملاءمة بين المعنى والمبنى تبلغ قمة الكمال !

[سورة يونس (10) : آية 25]

وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (25)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللَّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يدعو) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الواو ، والفاعل هو (إلى دار) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يدعو) ، (السلام) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (يهدي) مثل يدعو (من)

اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يشاء) مضارع مرفوع، والفاعل هو أي اللَّه، والعائد محذوف أي من يشاء اللَّه هدايته (إلى صراط) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يهدي)، (مستقيم) نعت لصراط مجرور.

جملة: "اللَّه يدعو . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يدعو . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه).

وجملة: "يهدي . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يدعو.

وجملة: "يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من).

[سورة يونس (10): الآيات 26 إلى 27]

(189/363)

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (26) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (27)

الإعراب:

(اللام) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم

(أحسنوا) فعل ماض مبني على الضمّ . .

والواو فاعل (الحسنى) مبتدأ مؤخّر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (الواو)

عاطفة (زيادة) معطوف على الحسنى مرفوع (الواو) عاطفة (لا) نافية (يرهق) مضارع

مرفوع (وجوه) مفعول به مقدّم منصوب و (هم) ضمير مضاف إليه (قتر) فاعل مرفوع

(الواو) عاطفة (لا) زائدة

لتأكيد النفي (ذلّة) معطوف على قتر مرفوع مثله (أولئك) اسم اشارة مبنيّ في محلّ رفع

مبتدأ و (الكاف) حرف خطاب (أصحاب) خبر مرفوع (الجنّة) مضاف إليه مجرور (هم)

ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (في) حرف جرّ و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ

(خالدون) وهو خبر المبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " للذين أحسنوا الحسنى " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أحسنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا يرهق . . قتر " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة " 1 " .

وجملة : " أولئك أصحاب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هم فيها خالدون " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ أولئك " 2 " .

(الواو) عاطفة (الذين) مبتدأ مبنيّ في محلّ رفع " 3 " ، (كسبوا) مثل أحسنوا (السيّئات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (جزاء) مبتدأ مرفوع (سيئة) مضاف إليه مجرور (بمثل) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر جزاء أي مستقرّ ، أو مقدّر " 4 " ، و (ها) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ترهق) مثل يرهق و (هم) ضمير مفعول به (ذلّة) فاعل مرفوع (ما) نافية (اللام) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (من اللّه)

---

(1) يجوز أن تكون الواو حاليّة ، والجملة خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم ، والجملة الاسميّة حال عامله الاستقرار الذي تعلّق به الخبر .

(2) أو لا محلّ لها استئنافيّة .

(3) أو في محلّ جرّ معطوف على الموصول المتقدّم (للذين) . . أو جزاء هو مبتدأ خبره الموصول المتقدّم عليه بإسقاط الجارّ أي وللذين كسبوا . . جزاء سيّئة فيتعادل التقسيم ، والعطف يصبح من عطف الجمل .

(4) يجوز أن يتعلق الجارّ بجزاء ، والخبر حينئذ محذوف تقديره واقع أو لهم . . وقال ابن كيسان إن الباء زائدة أي جزاء سيّئة مثلها كما جاء في الآية : وجزاء سيّئة سيّئة مثلها .

جارّ ومجرور متعلّق بعاصم (من) حرف جرّ زائد (عاصم) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (كأنّما) كافّة ومكفوفة (أغشيت) فعل ماض مبنيّ للمجهول . . و (التاء) للتأنيث (وجوه) نائب الفاعل مرفوع و (هم) ضمير مضاف إليه (قطعا) مفعول به منصوب بتضمين فعل أغشيت معنى ألبست (من الليل) جارّ ومجرور نعت لـ (قطعا) (مظلما) ، حال من الليل منصوبة " 1 " (أولئك . . . . خالدون) مثل الأولى .

وجملة : " الذين كسبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة للذين أحسنوا الحسنى .

وجملة : "كسبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " جزاء سيّئة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " ترهقهم ذلّة " في محلّ رفع معطوفة على جملة جزاء سيّئة " 2 " . .

وجملة : ما لهم . . من عاصم " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " .

وجملة : "كأنّما أغشيت وجوههم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 4 " .

وجملة : " أولئك أصحاب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هم فيها خالدون " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ أولئك " 5 " .

---

(1) والعامل في الحال هو الاستقرار الذي تعلّق به (من الليل) ، أي قطعا مستقرّة وكائنة من الليل في حال إظلامه .

(2) يجوز أن تكون الواو حاليّة ، والجملة خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم ، والاسميّة حال .

(3) يجوز أن تكون الجملة خبرا للمبتدأ (الذين) . . والجملتان بين المبتدأ والخبر معترضتان .

(4) يجوز أن تكون الجملة خبرا للمبتدأ (الذين) والجمل الثلاث بين المبتدأ والخبر معترضة وهو احتمال مردود .

(5) يجوز أن تكون الجملة خبرا للمبتدأ (الذين) والجمل الأربع بين المبتدأ والخبر معترضة وهو احتمال مردود أيضا .

(192/363)

الصرف :

(قتر) ، اسم بمعنى الغبار الذي فيه سواد ، أو هو الدخان ، ومنه غبار القدر ، وقد يراد به اللون دون المادة ، وزنه فعل بفتحتين ، وهو مأخوذ من فعل قتر يقتر باب نصر وباب ضرب وباب فرح.

(عاصم) ، اسم فاعل من عصم الثلاثيّ باب ضرب ، وزنه فاعل .

(قطعا) ، جمع قطعة ، اسم لما يقتطع من الشيء ، وزنه فعلة بكسر فسكون ، ووزن قطع فعل بكسر ففتح .

(مظلما) ، اسم فاعل من أظلم الرباعيّ ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين .

[سورة يونس (10) : الآيات 28 إلى 29]

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ (28) فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ (29)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (يوم) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (نحشر) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن للتعظيم و (هم) ضمير مفعول به ويعود إلى الخلق ، (جميعا) حال منصوبة من ضمير المفعول (ثمّ) حرف عطف (نقول) مثل نحشر (اللام) حرف جرّ (الذين) موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (نقول) ، (أشركوا) مثل أحسنوا " 1 " ، (مكانكم) اسم فعل أمر بمعنى اثبتوا منقول عن الظرف ، والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره أنتم " 2 " ، (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع توكيد للضمير المستتر في اسم الفعل " 3 " ، والواو) عاطفة (شركاء) معطوف على الضمير

(1) في الآية (26) من هذه السورة. [. . . . .]

(2) أو مفعول به لفعل محذوف تقديره الزموا أو لازموا . . أو هو ظرف لفعل محذوف تقديره قفوا .

(3) أو توكيد لفاعل الأفعال المقدّرة الواردة في الإعراب المتقدّم .

(193/363)

المستتر تبعة في الرفع و (كم) ضمير مضاف إليه (الفاء) استئنافيّة (زيّلنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (نا) فاعل (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (زيّلنا) ، و (هم) مثل كم الأخير (الواو) عاطفة (قال) فعل ماض (شركاء) فاعل مرفوع و (هم) مثل كم (ما) نافية (كنتم) فعل ماض ناقص – ناسخ – واسمه ، (إيّانا) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ نصب مفعول به مقدّم (تعبدون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة : " نحشرهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " نقول . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة نحشرهم .

وجملة : " أشركوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " مكانكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " زيّلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قال شركاؤهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة زيّلنا . . .

وجملة : " ما كنتم . . . تعبدون " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تعبدون " في محلّ نصب خبر كنتم .

(194/363)

(الفاء) عاطفة (كفى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (الباء) حرف جرّ زائدة (اللّه) لفظ الجلالة مجرور لفظا مرفوع محلّا فاعل كفى (شهيدا) تمييز منصوب " 1 " ، (بيننا) مثل بينهم متعلّق بشهيد (الواو) عاطفة (بينكم) مثل بينهم ومعطوف على بيننا (إن) مخفّفة من الثقيلة ، واسمه ضمير محذوف أي إنّنا (كنّا) مثل كنتم (عن عبادة) جارّ ومجرور متعلّق بغافلين و (كم) ضمير مضاف إليه (اللام) هي الفارقة التي تميّز إن

---

(1) أو حال منصوبة . . وانظر الآية (6) من سورة النساء .

(195/363)

المخفّفة من غيرها (غافلين) خبر كنّا منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة : "كفى بالله . . . " في محلّ نصب معطوف على جملة ما كنتم . . تعبدون " 1 " .

وجملة : " إن كنّا . . . " لا محلّ لها في حكم العليليّة .

وجملة : "كنّا . . . غافلين " في محلّ رفع خبر إن المخفّفة .

الصرف :

(زيّلنا) ، قيل فيه إعلال بالقلب ، مجرّده زال يزول ، وأصله زيولنا . . فلمّا اجتمعت الياء والواو وكانت الأولى منهما ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الثانية وزنه فيعلنا . . وقيل إن مجرّدة زال يزيل ، يقال زلت الشيء عن مكانه أزيله ، وعلى ذلك فليس فيه إعلال ، وزنه فعّل بالتضعيف للتكثير لا للتعدية ، وهذا هو الأظهر .

الفوائد

ـ أسماء الأفعال :

ورد في هذه الآية قوله تعالى مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ و (مكانكم) اسم فعل أمر بمعنى " الزموا " . ولعله من المفيد أن نعرض أهم ما يتعلق بأسماء الأفعال .

1 ـ أسماء الأفعال تدل على معنى الفعل وزمنه ، لذلك تشبه الفعل كما أنها لا تقبل النواصب والجوازم ، وبهذا تشبه الاسم ومن هنا جاءت تسميتها أسماء الأفعال .

2 ـ أسماء الأفعال مبنية حسب حركة آخرها .

3 – وتنقسم إلى أقسام :

آ – مرتجلة : وهي ما وضعت أصلا في اللغة لهذا الغرض دون غيره . وتنقسم إلى اسم فعل ماض مثل : هيهات . أي بعد ، واسم فعل مضارع مثل : أفّ أي أتضجّر واسم فعل أمر مثل : آمين : استجب .

ب – منقولة : وهي المنقولة عن ظرف مثل : دونك الكتاب : خذه .

ومنقولة عن جار ومجرور مثل إليك عني : ابتعد ، ومنقولة عن مصدر مثل :

---

(1) لأن الكلام لا يزال للشركاء الذين اتّخذوا آلهة – بالبناء للمجهول –

رويد أخاك : أمهل . بله الشرّ : اترك .

ج – قياسية : وتؤخذ من الفعل الثلاثي التام المتصرف على وزن (فعال) مثل :

نزال وحذار ولا يأتي من هذا الوزن (فعال) إلا ما يفيد الأمر .

ملاحظة : اسم الفعل المنقول الذي تلحقه كاف الخطاب ، فإنها تتصرف بحسب المخاطب ، إفرادا وتثنية وجمعا ، وتذكيرا وتأنيثا . وهي حرف لا محل له من الإعراب .

[سورة يونس (10) : آية 30]

هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (30)

الإعراب :

(197/363)

(هنا) اسم اشارة مبنيّ في محلّ نصب على الظرفيّة المكانيّة – أي في ذلك الموقف – " 1 " متعلّق بـ (تبلوا) ، و (اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب (تبلو) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدرّة على الواو (كلّ) فاعل مرفوع (نفس) مضاف إليه مجرور (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (أسلفت) فعل ماض . . و (التاء) للتأنيث ، والفاعل هي أي كلّ نفس (الواو) عاطفة (ردّوا) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على الضمّ . . والواو نائب الفاعل (إلى اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ردّوا) ، (مولى) بدل من لفظ الجلالة مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة و (هم) ضمير مضاف إليه (الحقّ) نعت لمولى مجرور (الواو) عاطفة (ضلّ) فعل ماض (عن) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ضلّ) بتضمينه معنى غاب (ما) اسم موصول " 2 " في محلّ رفع فاعل (كانوا) فعل ماض ناقص مبنيّ على الضمّ . . والواو اسم كان (يفترون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

---

(1) أو هو مستعار للزمان أي في ذلك اليوم.

(2) أو نكرة موصوفة، والجملة بعده نعت له.

(198/363)

جملة: "تبلو كلّ . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أسلفت" لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول.

وجملة: "ردّوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "ضلّ عنهم ما . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "كانوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني.

وجملة: "يفترون" في محلّ نصب خبر كانوا.

[سورة يونس (10): آية 31]

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (31)

الإعراب:

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يرزق) فعل مضارع مرفوع و (كم) ضمير مفعول به (من السماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يرزق) ، (الأرض) معطوف على السماء بالواو مجرور مثله (أم) حرف بمعنى بل وهي المنقطعة للإضراب الانتقاليّ (من يملك) مثل من يرزق (السمع) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (الأبصار) معطوف على السمع منصوب (الواو) عاطفة (من يخرج الحيّ) مثل من يملك السمع (من الميّت) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يخرج) ، (الواو) عاطفة (يخرج الميّت من الحيّ) مثل نظيرها المتقدّمة (الواو) عاطفة (من يدبّر الأمر) مثل من يملك السمع (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (السين) حرف استقبال (يقولون) مثل يفترون " 1 " ، (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع ، والخبر محذوف أي اللّه يفعل كلّ ذلك " 2 " ، (الفاء)

---

(1) في الآية السابقة (30) .

(2) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره الفاعل ذلك اللّه .

عاطفة (قل) مثل الأول (الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (الفاء) عاطفة (لا) نافية (تتّقون) مثل يفترون " 1 " .

جملة : " قل . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من يرزقكم " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يرزقكم " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " من يملك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة في حيّز القول المتقدّم .

وجملة : " يملك . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) الثاني .

وجملة : " من يخرج . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " يخرج . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) الثالث .

وجملة : " يخرج (الثانية) " في محلّ رفع معطوفة على جملة يخرج الأولى .

وجملة : " من يدبّر . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " يدبّر . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) الرابع .

وجملة : " سيقولون . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدر أي : إن سألتموهم ذلك فسيقولون .

وجملة : " اللّه (يفعل ذلك . .) " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قل (الأولى) .

وجملة : " أفلا تتّقون " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقدّرة هي مقول القول أي : أ تصرون على الضلال فلا تتقون .

---

(1) في الآية السابقة (30) .

(201/363)

[سورة يونس (10) : آية 32]

فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (ذلكم) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ، والإشارة إلى الفعّال لهذه الأشياء ، و (اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب ، و (الميم) حرف لجمع الذكور (اللّه) لفظ الجلالة خبر مرفوع (ربّ) بدل من لفظ الجلالة مرفوع و (كم) ضمير مضاف إليه (الحقّ) نعت لربّ مرفوع (الفاء) عاطفة (ماذا) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ، وفيه معنى النفي " 1 " ، (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (الحقّ) مضاف إليه مجرور (إلّا) أداة حصر (الضلال) بدل من اسم الاستفهام تبعه في الرفع (الفاء) عاطفة

(أنّي) اسم استفهام بمعنى كيف في محلّ نصب حال عامله تصرفون " 2 " ، (تصرفون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . . والواو نائب الفاعل .

جملة : " ذلكم اللّه " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ماذا بعد الحقّ " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة " 3 " .

وجملة : " أنّى تصرفون " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

[سورة يونس (10) : آية 33]

كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (33)

الإعراب :

(الكاف) حرف جرّ (ذلك) إشارة في محلّ جرّ متعلق

---

(1) يجوز أن يكون (ما) اسم استفهام مبتدأ ، وفيه معنى النفي (ذا) اسم موصول خبر (بعد) ظرف متعلّق بالصلة .

(2) أو في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق بـ (تصرفون) .

(3) أو هي تعليليّة لمقدّر أي آمنوا فليس بعد الحقّ إلّا .

بمحذوف مفعول مطلق عامله حقّت " 1 " ، (حقّت) فعل ماض . . و (التاء) للتأنيث (كلمة) فاعل مرفوع (ربّ) مضاف إليه مجرور و (الكاف) مضاف إليه (على) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (حقّت) ، (فسقوا) فعل ماض وفاعله (أنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و (هم) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (لا) نافية (يؤمنون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (أنّهم لا يؤمنون) في محلّ رفع بدل من (كلمة) " 2 " .

جملة : " حقّت كلمة . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " فسقوا . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا يؤمنون " في محلّ رفع خبر أنّ .

[سورة يونس (10) : آية 34]

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (34)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (هل) حرف استفهام (من شركاء) جارّ ومجرور متعلّق بخبر مقدّم و (كم) ضمير مضاف إليه (من) اسم موصول " 3 " مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (يبدأ) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (الخلق) مفعول به منصوب (ثمّ) حرف عطف (يعيد)

مثل

---

(1) أو الكاف اسم بمعنى مثل مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي حقّت كلمة ربّك حقّا مثل صرف أولئك عن الإيمان .

(2) أو في محلّ جرّ بلام التعليل المحذوفة أي : لأنهم لا يؤمنون . . إذا دلت (كلمة ربّك) على عذاب اللّه . [. . . . .]

(3) أو نكرة موصوفة . . والجملة بعده نعت له .

(203/363)

يبدأ و (الهاء) ضمير مفعول به (قل) مثل الأول (اللّه) مبتدأ مرفوع (يبدأ . . . يعيده) مثل الأولى (فأنّى تؤفكون) مثل فأنّى تصرفون " 1 " .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هل من شركائكم من . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يبدأ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يعيده " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اللّه يبدأ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يبدأ الخلق . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) وجملة : " يعيده . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يبدأ .

وجملة : " تؤفكون " لا محلّ لها معطوفة على جملة قل (الثانية) .

[سورة يونس (10) : آية 35]

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35)

الإعراب :

(قل . . يهدي) مثل نظيرها " 2 " ، (إلى الحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يهدي) ، (قل اللّه . .) مثل نظيرها " 3 " ، (للحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يهدي) الثاني (الهمزة) للاستفهام (الفاء) عاطفة (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يهدي إلى الحق) كالأولى (أحقّ) خبر مرفوع (أن) حرف مصدريّ ونصب (يتّبع) مضارع مبنيّ للمجهول منصوب . .

---

(1) في الآية (32) من هذه السورة .

(2 ، 3) في الآية السابقة (34) .

ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو .

والمصدر المؤوّل (أن يتّبع) في محلّ جرّ بباء محذوفة والجارّ والمجرور متعلّق بأحقّ أي : أحقّ بأن يتّبع ، والمفضّل عليه محذوف أي ممن لا يهدي " 1 " .

(أم) حرف عطف معادل للهمزة (من لا يهدّي) مثل من يهدي " 2 " (إلّا) أداة حصر (أن يهدى) مثل أن يتّبع . والمصدر المؤوّل (أن يهدى) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف هو الباء متعلّق بـ (يهدّي) ، أي : لا يهدّي إلّا بأن يهدى " 3 " .

(الفاء) استئنافيّة (ما) اسم استفهام للتوبيخ والإنكار مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (اللام) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر المبتدأ ما (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب حال من فاعل (تحكمون) وهو مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هل من شركائكم من يهدي " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يهدي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اللّه يهدي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

(1) يجوز أن يكون لفظ (أحقّ) صفة لا تدلّ على التفضيل ، وحينئذ لا حاجة لتقدير المفضّل عليه المحذوف .

(2) وخبر (من) محذوف تقديره أحق أن يتّبع .

(3) يحتمل أن يكون (إلّا) حرف استثناء والاستثناء إمّا منقطع فإلّا بمعنى لكن . . وإمّا متّصل ، وهو استثناء من أعمّ الأحوال أي : من لا يهدّي في كلّ حال إلّا في حال أن يهدى .

(205/363)

وجملة : " من يهدي . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة هل من شركائكم . . .

وجملة : " يهدي (الثالثة) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة : " يتّبع " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " من لا يهدّي " في محلّ نصب معطوفة على جملة من يهدي . . .

وجملة : " لا يهدّي " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثالث .

وجملة : " يهدى (بالبناء للمفعول) " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " ما لكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تحكمون " في محلّ نصب حال من ضمير الخطاب في (لكم) " 1 " .

الصرف :

(يهدّي) ، فيه قلب التاء دالا وإدغامها مع الدال الثانية ، أصله يهتدي ، فلمّا أريد إدغام الدالين سكنت الأولى ، وقد كانت الهاء قبل ذلك ساكنة ، فكسرت تخلّصا من التقاء الساكنين ، وزنه يفتعل .

(يهدي) ، بالبناء للمجهول ، فيه إعلال بالقلب ، أصله يهدي بفتح الدال وضمّ الياء بالضمّة المقدّرة ، فلمّا فتح ما قبل الياء المتحركة في الأصل قلبت ألفا ، وزنه يفعل بضمّ الياء وفتح العين .

البلاغة

مخالفة حروف الجر : وهذا باب ينطوي على السر في مخالفة حروف الجر .

---

(1) يمكن الوقوف على (لكم) . . فالجملة بعدها لا محلّ لها استئنافيّة .

وأكثر الناس يضعون هذه الحروف في غير مواضعها ، ويجهلون الدقائق الكامنة في وضعها حيث وضعت ، وهنا عدّى فعل هدى إلى الحق بإلى مرتين ، وفي الثالثة عدّاه باللام ، والنحاة يغفلون عن هذا السر ويقولون : إن ما يصح جره بإلى يجوز جره باللام التي تفيد الغاية

مثلها ، ولا عكسه ، فلا يقال في قلت له ، قلت إليه ، ويقولون : الماء في الكأس لأن في للظرفية ، ويجيزون التعدي بالباء لأنها تخلفها في الظرفية . ولا يجوز أن يقال في مررت به : مررت فيه . إذا تقرر هذا نقول ، والله أعلم ، إن هناك سرا وراء الصورة ، فالهداية لما أسندت إليهم وجبت تعديتها بإلى التي تفيد البعد ، كأنها ضمنا بعيدة عنهم ولكنها لما أسندت إلى الله تعالى ، وجب تعديتها باللام التي تفيد القرب ، كأنها من خصائصه وحده ، وملك يمينه ، وهو المنفرد بها على وجه الديمومة والكمال .

الفوائد

حلّ لإشكال .

ورد في هذه الآية قوله تعالى أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى قد يقول قائل : الأصنام جماد ، لا تتصور هدايتها ، ولا أن تهدى ، فكيف قال : إلا أن يهدى ؟ فقد ذكر العلماء في ذلك وجوه :

1 - أن معنى الهداية في حق الأصنام الانتقال من مكان إلى مكان ، فيكون المعنى أنها لا تنتقل إلا بفعل فاعل ، فبيّن سبحانه وتعالى عجز الأصنام .

2 - أن ذكر الهداية في حق الأصنام على وجه المجاز ، وذلك أن المشركين لما اتخذوا الأصنام آلهة ، وأنزلوها منزلة من يسمع ويعقل ، عبر عنها بما يعبر به عمّن يسمع ويعقل ويعلم ، ووصفها بهذه الصفة وإن كان الأمر ليس كذلك .

3 - يحتمل أن يكون المراد من قوله هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ الأصنام ، ومن قوله هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ رؤساء الكفر والضلالة ، فاللّه سبحانه تعالى هدى الخلق إلى الدين بما أظهر من الدلائل الدالة على وحدانيته ، وأما رؤساء الكفر والضلالة فإنهم لا يقدرون على هداية غيرهم إلا إذا

هداهم اللّه إلى الحق ، فكان اتباع دين اللّه والتمسك بهدايته أولى من اتباع غيره .

[سورة يونس (10) : آية 36]

وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (36)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) حرف ناف (يتّبع) مضارع مرفوع (أكثر) فاعل مرفوع و (هم) ضمير مضاف إليه (إلّا) أداة حصر (ظنّا) مفعول مطلق منصوب نائب عن المصدر لأنه نوعه أي إلّا اتباع الظنّ ، ومفعول يتّبع محذوف أي يتّبعون الأصنام اتّباع الظنّ (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (الظنّ) اسم إنّ منصوب (لا) نافية (يغني) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل هو (من الحقّ) جارّ ومجرور حال من (شيئا) -

نعت تقدّم على المنعوت - (شيئا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي لا يغني إغناء ما لا قليلا ولا كثيرا " 1 " ، (إنّ اللّه) مثل إنّ الظنّ (عليم) خبر إنّ مرفوع (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 2 " (يفعلون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (ما يفعلون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بعليم .

جملة : " يتّبع أكثرهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ الظنّ لا يغني . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لا يغني . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " إنّ اللّه عليم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو هو مفعول به إذا ضمن يغني معنى يدفع .

(2) أو هو اسم موصول - أو نكرة موصوفة - في محلّ جرّ ، والعائد محذوف ، والجملة صلة أو نعت .

(208/363)

[سورة يونس (10) : آية 37]

وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ لا

رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (37)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (كان) فعل ماض ناقص – ناسخ – (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع اسم كان (القرآن) بدل من ذا – أو عطف بيان له – مرفوع (أن) حرف مصدريّ ونصب (يفتري) مضارع مبنيّ للمجهول منصوب ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (من دون) جارّ ومجرور حال من ضمير نائب الفاعل " 1 " ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (لكن) حرف استدراك (تصديق) معطوف على خبر كان " 2 " ، (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (بين) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة الموصول (يدي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء و (الهاء) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن يفتري) في محلّ نصب خبر كان ، وهذا المصدر على معنى اسم المفعول أي مفترى .

(الواو) عاطفة (تفصيل) معطوف على تصديق منصوب ويأخذ كلّ حالات إعرابه (الكتاب) مضاف إليه مجرور ، (لا) نافية للجنس (ريب) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (في) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر لا (من ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بتصديق أو

(1) أو متعلّق بـ (يفتري) .

(2) أو مفعول مطلق لفعل محذوف . . أو مفعول لأجله عامله مقدّر أي أنزل للتصديق .

(209/363)

بتفصيل ويكون من باب التنازع " 1 " ، (العالمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " ما كان هذا القرآن . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يفتري . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " لا ريب فيه " في محلّ نصب حال من الكتاب " 2 " .

الصرف :

(يفتري) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله يفتري بضمّ الياء الأولى وإثبات ياء أخيرة ، ويعامل معاملة يهدى " 3 " .

(تصديق) ، مصدر قياسيّ لفعل صدّق الرباعيّ ، وزنه تفعيل .

[سورة يونس (10) : آية 38]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (38)

الإعراب :

(أم) هي المنقطعة بمعنى بل للإضراب الانتقاليّ (يقولون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (افترى) فعل ماض مبني على الفتح المقدّر على الألف و (الهاء) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ائتوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (بسورة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ائتوا) (مثل) نعت لسورة مجرور و (الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ادعوا) مثل ائتوا (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (استطعتم) فعل ماض مبنيّ على السكون وفاعله (من دون اللّه) مرّ إعرابها " 4 " متعلّق بحال

---

(1) يجوز أن يكون الجارّ والمجرور حالا من الكتاب .

(2) صح مجي ء الحال من المضاف إليه لأن المضاف عامل في المعنى في المضاف إليه ، ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة ، كما يجوز أن تكون اعتراضيّة بين عامل ومعمول إذا علّق (من ربّ) بتفصيل .

(3) في الآية (35) من هذه السورة . [. . . . .]

(4) في الآية (38) السابقة .

من الموصول (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و (تم) ضمير اسم كان (صادقين) خبر كنتم منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " افتراه " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ائتوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كنتم صادقين فأتوا .

وجملة : " ادعوا . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة ائتوا .

وجملة : " استطعتم . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " كنتم صادقين " لا محلّ لها صلة استئنافيّة " 1 " . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه المذكور أي إن كنتم صادقين في أنه افتراء فأتوا بسورة مثله .

الصرف :

(فأتوا) ، حذفت همزة الوصل لدخول الفاء على الفعل ، أصله ائتوا ، فلمّا دخلت الفاء حذفت همزة الوصل وكتبت الهمزة الثانية على ألف " 2 "

[سورة يونس (10) : آية 39]

بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39)

الإعراب :

(بل) حرف إضراب (كذّبوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ

---

(1) أو تفسير للشرط المقدّر المتقدّم.

(2) أنظر الآية (23) من سورة البقرة.

جرّ متعلّق بـ (كذّبوا) ، (لم) حرف نفي وجزم (يحيطوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (بعلم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يحيطوا) ، و (الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) حاليّة (لمّا) مثل لم (يأت) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلّة و (هم) ضمير مفعول به (تأويل) فاعل مرفوع و (الهاء) مثل الأخير (الكاف) حرف جرّ (ذلك) اسم اشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مطلق عامله كذّب . . و (اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب (كذّب) فعل ماض (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع

فاعل (من قبل) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة الموصول ، و (هم) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (انظر) فعل أمر ، والفاعل أنت (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب خبر كان (كان) فعل ماض ناقص – ناسخ – (عاقبة) اسم كان مرفوع (الظالمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : "كذّبوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لم يحيطوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يأتهم تأويله " في محلّ نصب حال من فاعل يحيطوا " 1 " .

وجملة : "كذّب الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " انظر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مستأنفة أي تنبّه فانظر " 2 " .

"كان عاقبة . . . " في محلّ نصب مفعول به عامله انظر المعلّق بالاستفهام كيف .

---

(1) أو لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

(2) أو هي معطوفة على جملة كذّب الذين . . لأنها إنشائيّة لفظا خبريّة معنى ، ومعناها : أهلكناهم .

البلاغة

- لـ" لما " في قوله تعالى " بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ " سرّ عجيب ، أفاد الكلام معنى ، لم يكن ليتأتى لولا دخولها ، لأنها تفيد التوقع بعد نفي الإحاطة بعلمه ، فقد أفادت الأمور التالية : 1 - أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل . 2 - تقليدا للآباء . 3 - كان التكذيب قبل الإحاطة بعلمه ربما يوهم عذرا ما للكذب ، فجاءت كلمة لما مشعرة بأنهم قد أحاطوا بعلمه حتى تنحسم أعذارهم ويتحقق شقائهم .

[سورة يونس (10) : الآيات 40 إلى 41]

وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر محذوف " 1 " ، (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (يؤمن) مضارع مرفوع ، والفاعل هو وهو العائد (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يؤمن) ، (الواو) عاطفة (منهم من لا يؤمن به) مثل نظيرها المثبتة (الواو) استئنافيّة (ربّ) مبتدأ (الكاف) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (أعلم) خبر مرفوع (بالمفسدين) جارّ ومجرور متعلّق بأعلم ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " منهم من يؤمن . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يؤمن به " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " منهم من لا يؤمن . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " لا يؤمن به " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

---

(1) أو متعلّق بنعت لخبر محذوف أي بعض منهم .

وجملة : " ربّك أعلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

(الواو) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (كذّبوا) فعل ماض مبني على الضمّ في محلّ جزم فعل الشرط . . والواو فاعل و (الكاف) ضمير مفعول به (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (اللام) حرف جرّ و (الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (عمل) مبتدأ مؤخّر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على آخره و (الياء) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (الواو) عاطفة (لكم عملكم) مثل لي عملي ، (أنتم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (بريئون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو (من) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 2 " (أعمل) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (الواو) عاطفة

(أنا بريء مما تعملون) مثل نظيرها المتقدّمة . . و (تعملون) مضارع مرفوع وفاعله .

وجملة : "كذّبوك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة منهم من يؤمن . . .

وجملة : " قل . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " لي عملي " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لكم عملكم " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " أنتم بريئون . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " أعمل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الأول .

---

(1) يجوز أن تكون اعتراضيّة بين متعاطفين .

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف ، والجملة بعده صلة .

(214/363)

وجملة : " أنا بريء . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنتم بريئون .

وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الثاني .

الصرف :

(أعلم) ، صفة جاءت على وزن التفضيل ولم يقصد به التفضيل بل قصد به الوصف أي

عالم وزنه أفعل (بريئون) ، جمع بريء . . انظر الآية (112) من سورة النساء .

[سورة يونس (10) : الآيات 42 إلى 43]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ (42) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ (43)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (منهم من) مرّ إعرابها " 1 " ، (يستمعون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (إلى) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يستمعون) ، (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) استئنافيّة (أنت) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (تسمع) مضارع مرفوع ، والفاعل أنت ضمير مستتر (الصمّ) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم (كانوا) ماض ناقص مبنيّ على الضمّ . . والواو اسم كان (لا) نافية (يعقلون) مثل يستمعون .

جملة : " منهم من . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف سابق .

وجملة : " يستمعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " أنت تسمع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تسمع الصمّ " في محلّ رفع خبر أنت .

---

(1) في الآية (40) من السورة .

وجملة : "كانوا لا يعقلون " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنت تسمع .

وجملة : " لا يعقلون " في محلّ نصب خبر كانوا . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي فأنت لا تسمع الصمّ .

(الواو) عاطفة (منهم من ينظر إليك) مثل منهم من يؤمن به " 1 " ، (أ فأنت تهدي . . لا يبصرون) مثل نظيرها المتقدّمة .

وجملة : " منهم من ينظر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة منهم من يستمعون .

وجملة : " ينظر إليك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " أنت تهدي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تهدي العمي . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنت) .

وجملة : "كانوا لا يبصرون " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنت تهدي .

وجملة : " لا يبصرون " في محلّ نصب خبر كانوا .

البلاغة

الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى " وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ " إلى آخر الآية استعارة

تمثيلية ، فقد شبههم في عدم الاهتداء بالصم والعمي ، بل هم أعظم ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ، ولأن الأصم العاقل ربما استعان بالفراسة على الاستدلال ، والأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنّن . وقد جاء المشبه به مركبا لأن المشبه مركب أيضا .

---

(1) في الآية (40) من هذه السورة .

(216/363)

[سورة يونس (10) : آية 44]

إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44)

الإعراب :

(إنّ) حرف مشبه بالفعل - ناسخ - (اللَّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (لا) نافية (يظلم) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (الناس) مفعول به منصوب (شيئًا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته (الواو) عاطفة (لكنّ) مثل إنّ وللاستدراك (الناس) اسم لكنّ منصوب (أنفس) مفعول به مقدّم " 1 " منصوب و (هم) ضمير مضاف إليه (يظلمون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة: "إنّ اللّه لا يظلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لا يظلم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "لكنّ الناس . . يظلمون " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة: " يظلمون " في محلّ رفع خبر لكنّ.

[سورة يونس (10) : الآيات 45 إلى 48]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (45) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ (46) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (47) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (48)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق ب

---

(1) أو توكيد معنوي للناس منصوب مثله.

(يتعارفون) الآتي " 1 " ، (يحشر) مضارع مرفوع و (هم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو أي اللَّه (كأن) مخفّفة من الثقيلة ، واسمها ضمير محذوف تقديره هم (لم) حرف نفي وجزم (يلبثوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون والواو فاعل (إلّا) أداة حصر (ساعة) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يلبثوا) ، (من النهار) جارّ ومجرور نعت لساعة (يتعارفون) مثل يظلمون " 2 " ، (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (يتعارفون) ، و (هم) ضمير مضاف إليه (قد) حرف تحقيق (خسر) فعل ماض (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (كذّبوا) فعل ماض وفاعله (بلقاء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كذّبوا) ، (اللَّه) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (ما) حرف ناف (كانوا) فعل ماض ناقص مبنيّ على الضمّ . . والواو اسم كان (مهتدين) خبر كانوا منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " يحشرهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " كأن لم يلبثوا . . . " في محلّ نصب حال من ضمير الغائب .

وجملة : " لم يلبثوا . . . " في محلّ رفع خبر كأن المخفّفة .

وجملة : " يتعارفون " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " .

وجملة : " خسر الذين . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " كذّبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ما كانوا مهتدين " لا محلّ لها معطوفة على جملة خسر الذين . .

---

(1) أو هو مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر لهم أو أنذرهم .

(2) في الآية (44) من السورة .

(3) إذا تعلّق (يوم) بالفعل المحذوف ، فالجملة هنا حال مقارنة أو مقدّرة . [. . . . .]

(218/363)

(الواو) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (ما) زائدة (نرينّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم فعل الشرط . . والنون للتوكيد و (الكاف) ضمير مفعول به (بعض) مفعول به ثان منصوب (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (نعد) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن للتعظيم و (هم) ضمير مفعول به (أو) حرف عطف (نتوفّينّك) مثل نرينّك (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إلى) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (مرجع) مبتدأ مؤخّر و (هم) مضاف إليه (ثمّ) حرف عطف (اللَّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (شهيد) خبر مرفوع (على) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 1 " ، (يفعلون) مثل يظلمون " 2 " .

والمصدر المؤوّل (ما يفعلون) في محلّ جرّ بـ (على) متعلّق بشهيد .

وجملة : " نرينّك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يتعارفون " 3 " .

وجملة : " نعدهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " نتوفّينّك " لا محلّ لها معطوفة على جملة نريّنك .

وجملة : " إلينا مرجعهم " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " اللَّه شهيد " في محلّ جزم معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " يفعلون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

(الواو) عاطفة (لكلّ) جارّ ومجرور متعلّق بخبر مقدّم (أمّة) مضاف إليه مجرور (رسول) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الفاء) عاطفة (إذا) ظرف للزمن

---

(1) أو هو اسم موصول ، والجملة صلة ، والعائد محذوف أي يفعلونه .

(2) في الآية (44) من هذه السورة .

(3) أو على جملة (اذكر . . . أو أنذر) المقدّرة إذا كانت جملة يتعارفون حالا .

المستقبل متضمّن معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (قضي) ، (جاء) فعل ماض (رسول) فاعل مرفوع و (هم) ضمير مضاف إليه (قضي) فعل ماض مبنيّ للمجهول ، ونائب الفاعل محذوف تقديره القضاء (بين) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (قضي) ، و

(هم) مثل الأخير (بالقسط) جارّ ومجرور حال من نائب الفاعل " 1 " ، (الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (لا) نافية (يظلمون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . . والواو نائب الفاعل .

جملة : " لكلّ أمّة رسول " لا محلّ لها معطوفة على استئناف متقدّم .

وجملة : " جاء رسولهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قضي بينهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " هم لا يظلمون " في محلّ نصب حال مؤكّدة .

وجملة : " لا يظلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ هم .

(الواو) عاطفة (يقولون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (متى) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب ظرف زمان متعلّق بخبر محذوف (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم اشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (الوعد) بدل من ذا – أو عطف بيان – مرفوع (إنّ) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبنيّ على السكون . . و (تم) اسم كان ، والفعل في محلّ جزم فعل الشرط (صادقين) خبر كنتم منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لكلّ أمّة رسول .

وجملة : " متى هذا الوعد . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) أو متعلّق بفعل قضي .

وجملة : "كنتم صادقين " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول . .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : فمتى يحلّ العذاب .

الفوائد

توكيد المضارع بالنون ورد في هذه الآية الكريمة توكيد الفعل المضارع بنون التوكيد الثقلية في قوله تعالى وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ وسنوضح فيما يلي قاعدة توكيد الفعل المضارع .

1 - يجب توكيد المضارع إذا وقع جوابا للقسم ، دالا على الاستقبال غير منفي ، وغير مفصول عن لام القسم بفاصل كقوله تعالى : فوربك لنحشرنّهم والشياطين .

2 - يجوز توكيد المضارع في الحالات التالية :

آ - بعد إن الشرطية المدغمة بما الزائدة كما مر في الآية ب - بعد (لا) الناهية مثل : لا تصاحبنّ الأشرار .

ج - بعد الاستفهام مثل : هل تكرمنّ الضيف ملاحظة :

1 - إذا اتصل المضارع بنون التوكيد بني على الفتح .

2 - نون التوكيد نوعان ثقيلة وهي المشدّدة ، وخفيفة وهي الساكنة ، واجتمع ذلك في

قوله تعالى لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ

[سورة يونس (10) : آية 49]

قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (49)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (لا) حرف ناف (أملك) مضارع مرفوع ، والفاعل أنا (لنفس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أملك) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على آخره لاشتغال المحلّ بالحركة المناسبة و (الياء) ضمير مضاف إليه (ضرّا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (نفعا) معطوف على المفعول منصوب مثله ، (إلّا) أداة

استثناء (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع أو المتّصل " 1 " ، (شاء) فعل ماض (اللَّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (لكلّ أمّة أجل) مثل لكلّ أمّة رسول " 2 " ، (إذا جاء أجلهم) مثل إذا جاء رسولهم " 3 " ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) نافية (يستأخرون) مثل يقولون " 4 " ، (ساعة) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يستأخرون) ،

(الواو) عاطفة (لا يستقدمون) مثل لا يستأخرون .

جملة : " قل . . . " استئناف بيانيّ لا محلّ لها .

وجملة : " لا أملك . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " شاء اللَّه " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " لكلّ أمّة أجل . . " لا محلّ لها في حكم التعليل .

وجملة : " جاء أجلهم . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " لا يستأخرون " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " لا يستقدمون " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

البلاغة

الكناية : في قوله تعالى " فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ " كناية عن كونه له حد معين وأجل مضروب لا يتعداه ، بقطع النظر عن التقدم والتأخر كقول الحماسي :

---

(1) هو منقطع على رأي الزمخشريّ أي لكن ما شاء اللّه من ذلك كائن فكيف أملك لكم الضرر ولكلّ أمّة أجل . . وهو متّصل على رأي ابن حيّان أي إلا ما شاء اللّه أن أملكه وأقدر عليه .

(2 ، 3) في الآية (47) من هذه السورة .

(4) في الآية السابقة (48) .

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متقدم عنه ولا متأخر

فإنه أراد حبسني الهوى في موضع تستقرين فيه فألزمه ولا أفارقه وأنا معك مقيمة وظاعنة لا أعدل عنك ولا أميل إلى سواك .

[سورة يونس (10) : آية 50]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50)

الإعراب :

(قل) مثل السابق " 1 " ، (الهمزة) للاستفهام (رأيتم) فعل ماض وفاعله - بمعنى أخبروني " 2 " - (إن) حرف شرط جازم (أتى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف في محلّ جزم فعل الشرط و (كم) ضمير مفعول به (عذاب) فاعل مرفوع و (الهاء) ضمير مضاف إليه (بياتا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (أتاكم) ، (أو) حرف عطف (نهارا) معطوف على الظرف منصوب ، متعلّق بما تعلّق به الأول (ماذا) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 3 " (يستعجل) مضارع مرفوع (من) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من المفعول المحذوف أي : يستعجله منه (المجرمون) فاعل مرفوع وعلامة الرفع

الواو .

جملة : " قل " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أرأيتم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) في الآية السابقة (49) .

(2) قال الحوفيّ الرؤية من رؤية القلب التي بمعنى العلم لأنها داخلة على جملة الاستفهام التي بمعنى التقرير ، ففعل الرؤية على رأي الحوفي باق على معناه لا يتضمّن معنى أخبروني ، وجملة الاستفهام سدّت مسدّ المفعولين .

(3) أعرب (ماذا) مبتدأ ولم يعرب مفعولا به لأن المفعول ضمير يعود على العذاب أي : يستعجله منه المجرمون . . هذا وقد أجاز أبو حيّان أن يكون (ماذا) مفعولا به ، كأنه قيل : أيّ شيء يستعجله من العذاب المجرمون ، وهو اختياره .

(223/363)

وجملة : " أتاكم عذابه " لا محلّ لها اعتراضيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : إن أتاكم عذاب اللّه فأخبروني عنه ماذا يستعجل منه المجرمون " 1 " .

وجملة : " ماذا يستعجل . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل أرأيتم " 2 " .

وجملة : " يستعجل . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ماذا) .

[سورة يونس (10) : آية 51]

أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (ثمّ) حرف عطف (إذا) ظرف للزمن المستقبل فيه معنى الشرط مبنيّ في محلّ النصب متعلّق - (آمنتم) ، (ما) زائدة (وقع) فعل ماض ، والفاعل هو أي العذاب (آمنتم) فعل ماض مبنيّ على السكون وفاعله (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (آمنتم) ، والضمير يعود على اللّه (الهمزة) للاستفهام (الآن) ظرف مبنيّ على الفتح في محلّ نصب متعلّق بفعل محذوف تقديره تؤمنون (الواو)

---

(1) انظر مزيدا من الشرح والإعراب حول هذا التعبير في الآية (40) من سورة الأنعام . . ويجوز أن يكون الجواب المقدّر دلّ عليه مضمون الاستفهام الآتي أي : فما ذا يستعجل المجرمون ، أو استعجلتموه .

(2) أمّا المفعول الأول فمحذوف على رأي أبي حيّان ولم يضمر لأن الإضمار مختصّ بالشعر أو قليل في الكلام ، وهو ضمير مستتر وجوبا يعود على كلمة (عذابه) على رأي غير أبي حيّان ، والكلام من باب التنازع بين الفعلين (رأيتم) و (أتاكم) ، فأعمل الثاني إذ هو المختار على مذهب البصريين وهو الذي ورد به السماع أكثر من إعمال الأول ، فلمّا أعمل

الثاني حذف ولم يضمر على رأي أبي حيّان ، والمعنى : قل لهم يا محمّد أخبروني عن عذاب اللّه إن أتاكم أي شيء تستعجلون منه ، أو أضمر على رأي آخر .

(224/363)

حاليّة (قد) حرف تحقيق (كنتم) فعل ماض ناقص - ناسخ - مبنيّ على السكون . . و (تم) ضمير اسم كان (به) مثل الأول متعلّق (تستعجلون) بتضمينه معنى تكذبون

(تستعجلون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " الشرط وفعله وجوابه . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة أرأيتم " 1 " .

وجملة : " وقع . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " آمنتم به . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير الجازم .

وجملة : " الآن (تؤمنون) . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كنتم به تستعجلون " في محلّ نصب حال من فاعل تؤمنون .

وجملة : " تستعجلون " في محلّ نصب خبر كنتم .

الصرف :

(الآن) ، أدغمت همزة الاستفهام مع همزة الوصل في (ال) التعريف بألف واحدة فوقها مدّة

، وكذا شأن كلّ همزة وصل في (ال) التعريف إذا سبقت بهمزة. قيل هذا الادغام واجب وقيل هو جائز بحذف همزة الوصل أصلا وبقاء همزة الاستفهام، وقد وقع من هذا القبيل ستة مواضع في القرآن أدغم فيها الألفان. . اثنان في الأنعام وهما (الذكرين) " 2 " مرّتين، وثلاثة في هذه السورة هي (الآن) هنا " 3 "، ولفظ (اللّه) " 4 "، ولفظ (اللّه) في سورة النمل " 5 ".

---

(1) في الآية السابقة (50).

(2) في الآية (143) و (144). [. . . . .]

(3) وفي الآية (91).

(4) في الآية (60) من هذه السورة.

(5) في الآية (59).

[سورة يونس (10): آية 52]

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52)

الإعراب:

(ثمّ) حرف عطف (قيل) فعل ماض مبنيّ للمجهول (اللام) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (قيل) ، (ظلموا) فعل ماض وفاعله (ذوقوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (عذاب) مفعول به منصوب (الخلد) مضاف إليه مجرور (هل) حرف استفهام في معنى النفي (تجزون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . . والواو نائب الفاعل (إلّا) أداة حصر (الباء) حرف جرّ للسببيّة (ما) حرف مصدريّ (كنتم) مثل المتقدّم " 1 " (تكسبون) مثل تستعجلون " 2 " .

والمصدر المؤوّل (ما كنتم) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بفعل تجزون " 3 " .

جملة : " قيل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف الآن (تؤمنون) " 4 " .

وجملة : " ظلموا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ذوقوا . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل .

وجملة : " تجزون . . . " لا محلّ لها في حكم التعليل .

(226/363)

وجملة : "كنتم تكسبون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " تكسبون " في محلّ نصب خبر كنتم .

البلاغة

الاستعارة المكنية : في قوله تعالى " ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ " أي المؤلم على الدوام . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الجدول حـ 11 صـ 70 . 145 ﴾

(1 ، 2) في الآية السابقة (51) .

(3) يجوز أن يكون (ما) اسم موصول ، والجملة صلة ، والعائد محذوف .

(4) في الآية السابقة (51) . . أو في محلّ نصب معطوفة على الجملة ذاتها إذا كانت مقول القول لقول محذوف .

(227/363)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(10) سورة يونس

مكية وآياتها تسع ومائة

[سورة يونس (10) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (1) أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ

النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (2) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (4)

اللغة :

(الر) : تقدم القول فيها مفصلا فجدد به عهدا .

(الآية) : العلامة التي تنبىء عن مقطع الكلام من جهة مخصوصة .

(الْحَكِيمِ) : ها هنا بمعنى المحكم فعيل بمعنى مفعل قال الأعشى :

وغريبة تأتي الملوك حكيمة قد قلتها ليقال : من ذا قالها ؟

وقيل الحكيم بمعنى الحاكم ودليله قوله تعالى " ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه " وسيأتي القول في باب الفوائد عن الحكمة وشيوعها في القرآن .

(قَدَمَ صِدْقٍ) : القدم بفتحتين الشيء الذي تقدمه أمامك ليكون لك عدة حتى تقدم عليه وقال أبو عبيدة والكسائي : كل سابق خير أو شر فهو عند العرب قدم وهو مؤنث ، يقال قدم حسنة ، قال حسان ابن ثابت :

لنا القدم العليا إليك وخلفنا لأولنا في طاعة اللّه تابع

وقال ذو الرمة :

(228/363)

لكم قدم لا ينكر الناس أنها مع الحسب العادي طمت على البحر

وسيأتي في باب البلاغة المزيد من بحثها .

(القسط) العدل وهي بكسر القاف ومنه القسط أي النصيب ، والقسط بفتح القاف الجور ، والسين اعوجاج في الرجلين .

(الحميم) : الماء الذي أسخن بالنار أشد اسخان ، قال المرقش الأصغر :

في كل يوم لها مقطّرة فيها كباء معد وحميم

الاعراب :

(الر ، تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ) الر تقدم إعرابها في سورة البقرة فجدد به عهدا وتلك مبتدأ وآيات الكتاب خبر والحكيم صفة للكتاب . (أَكانَ لِلنّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ) الهمزة للاستفهام الإنكاري المشوب بالتعجب وكان فعل ماض ناقص وللناس جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال لأنه تقدم على الصفة وعجبا خبر كان مقدم وأن أوحينا

مصدر في محل رفع اسم كان والى رجل جار ومجرور متعلقان بأوحينا ومنهم صفة لرجل .

(أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ) أن مفسرة وهي الواقعة بعد جملة فيها معنى القول دون حروفه أو مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وجملة أنذر الناس مقول قول محذوف هو في محل رفع خبر إن على معنى أن الشأن قولنا أنذر الناس .

)

(229/363)

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ) وبشر معطوف على أنذر والذين مفعول به وجملة آمنوا صلة وأن حرف مشبه بالفعل وهي وما في حيزها نصب بنزع الخافض أي بأن ، ولهم خبرها المقدم وقدم صدق اسمها المؤخر وعند ربهم الظرف متعلق بمحذوف صفة لقدم صدق . (قالَ الْكافِرُونَ : إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ) الجملة مستأنفة كأنه قيل : ماذا صنعوا بعد التعجب ، وقال الكافرون فعل وفاعل وإن واسمها وخبرها واللام المزحلقة ومبين صفة لساحر والجملة مقول القول (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) إن واسمها وخبرها والذي صفة لله وجملة خلق السموات والأرض صلة وفي ستة أيام متعلقان بخلق . (ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) ثم حرف عطف وتراخ

واستوى عطف على خلق وعلى العرش جار ومجرور متعلقان باستوى وجملة يدبر الأمر خبر ثان لإن ويجوز أن تكون حالية ويجوز

(230/363)

أن تكون مستأنفة لا محل لها من الاعراب . (ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) ما نافية حجازية ومن زائدة وشفيع مجرور لفظا اسم ما محلا وإلا أداة حصر ومن بعد إذنه متعلقان بمحذوف خبر . (ذِلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) ذلكم مبتدأ والله بدل وربكم خبر ذلكم والفاء الفصيحة واعبدوه فعل أمر وفاعل ومفعول به والهمزة للاستفهام الانكاري المراد به الحث على التفكر والتذكر والفاء عاطفة على محذوف ولا نافية وتذكرون فعل مضارع أصله تتذكرون . (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً) إليه خبر مقدم ومرجعكم مبتدأ مؤخر وجميعا نصب على الحال (وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا) وعد الله منصوب على المصدر لأن قوله إليه مرجعكم معناه الوعد بالرجوع وحقا منصوب على المصدرية والتقدير حق ذلك حقا . (إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) ان واسمها وجملة يبدأ خبرها والخلق مفعول به ثم يعيده عطف على يبدأ الخلق والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل وجود الخلق ومرجعهم إليه (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ) اللام للتعليل ويجزي مضارع منصوب بأن مضمرة والذين

مفعول يجزي وجملة آمنوا صلة وعملوا الصالحات عطف على آمنوا وبالقسط جار ومجرور متعلقان بيجزي أي بسبب قسطهم وعدلهم ويجوز أن يكون حالا إما من الفاعل وإما من المفعول أي يجزيهم ملتبسا بالقسط أي عادلا أو ملتبسين به . (

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ) والذين مبتدأ وجملة كفروا صلة ولهم خبر مقدم وشراب مبتدأ مؤخر ومن حميم صفة لشراب وعذاب عطف على شراب وجملة لهم شراب خبر الذين وأليم صفة لعذاب وبما الباء حرف جر سببية وما مصدرية وكانوا كان واسمها وجملة يكفرون خبرها أي بسبب كفرهم والجار والمجرور صفة ثانية لعذاب ويجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف ، أي ذلك بسبب كفرهم .

(231/363)

البلاغة :

1 - المجاز المرسل في قوله : " أن لهم قدم صدق " فقد أطلق لفظ القدم على السعي والسبق لأنهما لا يحصلان إلا بالقدم فسمى المسبب باسم السبب كما سميت النعمة يدا لأنها تعطى باليد فالعلاقة هنا السببية وقد تقدم بحثه ، ونزيد هنا ان المجاز لا يكون مطردا فلا يصح أن يقال قدم سوء ، وهذه خاصة عجيبة من خصائص المجاز يكاد الحكم فيها

مرده إلى الذوق .

2- المناسبة اللفظية بين حميم وأليم والمناسبة ضربان : مناسبة في المعاني ومناسبة في الألفاظ وقد مر ذكر المناسبة المعنوية في الأنعام ، أما هنا فالمناسبة لفظية وهي عبارة عن الإتيان بلفظات متزنات مقفاة وغير مقفاة فهو تام وناقص وقد وقعت الناقصة في الكلام الفصيح أكثر لأن التقفية غير لازمة فيها .

الفوائد :

1- الحكمة في القرآن :

شاعت لفظة الحكمة في القرآن ووصف القرآن بالحكيم وقد مر معنا الكثير من ذلك وسيمر أكثر منقين أن الكلمة عبرية ومعناها في هذا اللسان : القضاء أي الحكم أيضا ، والحكمة في معناها العام تدل على السّداد وإتقان الرأي والفعل قال تعالى : " ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا " ، وهذا القول من الوجاهة إلى حد كبير وقد سبق الامام الشافعي إلى تقرير شيء من ذلك فقال : " إن المقصود بالحكمة سنة النبي صلى اللّه عليه وسلم " .

2- إضافة الموصوف إلى الصفة وبالعكس : الأصل أن لا يضاف موصوف إلى صفته كرجل فاضل ولا تضاف صفة لموصوفها كفاضل رجل وما ورد من ذلك يؤول كقوله تعالى " قدم صدق " ومسجد الجامع وصلاة الأولى وحب الحصيد وحبة الحمقاء وتأويله أن يقدر موصوف أضيف إليه المضاف المذكور والتقدير في هذه الأمثلة قدم سعي صدق ، ومسجد المكان الجامع ، وصلاة الساعة الأولى ، وحبة البقلة الحمقاء ، وإنما وصفوها بالحمق لأنها تنبت في مجاري السيول فيمر السيل بها فيقطعها فتطؤها الأقدام ، ومن أمثلة اضافة الصفة إلى موصوفها قولهم جرد قطيفة بفتح الجيم وسكون الراء وفتح القاف وكسر الطاء ، وسحق عمامة بفتح السين وسكون الحاء وكسر العين وتأويله أن يقدر موصوف أيضا ويقدر إضافة الصفة إلى جنسها ويجر جنسها بمن لأن الاضافة بمعنى من أي شيء جرد من نفس القطيفة وشيء سحق من جنس العمامة فشيء موصوف وجردا وسحق صفته والصفة فيهما مضافة إلى جنسها معنى .

3- ابن هشام وتعليق " للناس " : وأجاز ابن هشام أن يتعلق قوله " للناس " بكان في بحثه المتعلق بالتعليق بالفعل الناقص قال :

" هل يتعلقان بالفعل الناقص ؟ من زعم أنه لا يدل على الحدث منع من ذلك وهم المبرد فالفارسي فابن جني فالجرجاني فابن برهان ثم الشلوبين ، والصحيح أنها كلها دالة عليه إلا ليس " أي ف " كان " تدل على حدث وهو كون مطلق والمقيد له خبرها فمعنى كان زيد :

حصل زيد ، وقولك قائما أفاد أن المراد حصول قيام زيد وتدل أيضا على زمن خاص وهو الزمن الماضي وأما خبرها وهو قائم فيدل على زمن مطلق فيقيد ويعين بالزمن في كان أو يكون فتحصل ان "كان" تدل على حدث مطلق يقيد بالخبر والخبر يدل على زمن مطلق يقيد بالزمن المستفاد من كان فتعاوضا وأما بقية الأفعال ك "صار" الدالة على الانتقال و" أصبح" الدالة على الدخول في الصباح إلخ فدلالتها على حدث لا يدل عليه الخبر في غاية الظهور وقد استدل على بطلان القول بأنها لا تدل على الحدث بأمور منها : أن الأصل في الفعل الدلالة على الحدث والزمان إذ الدال على الحدث وحده مصدر وعلى الزمان وحده اسم زمان ولا يخرج الفعل عن أصله إلا بدليل ، ومنها : أن الأفعال المتساوية في الزمان إنما تمتاز بالأحداث فإذا زال ما به الافتراق وبقي ما به التساوي فلا فرق بين كان زيد غنيا وصار زيد غنيا والفرق حاصل فبطل ما يوجب خلافه ، ومنها : أنه لو كان معناها الزمن لجاز أن ينعقد جملة تامة من بعضها ومن اسم معنى كما ينعقد منه ومن اسم زمان ثم قال ابن هشام :

" واستدل لمثبتي ذلك التعلق بقوله تعالى : " أكان للناس عجبا أن أوحينا " فإن اللام لا

تتعلق بعجبا لأنه مصدر مؤخر ولا بأوحينا

لفساد المعنى ولأنه صلة لأن ، ويجوز أيضا أن تكون متعلقة بمحذوف هو حال من عجبا

على حد قوله :

لمية موحشا طلل يلوح كأنه خلل

وعبارة ابن يعيش : " فقوله للناس متعلق بكان وذلك انه لا يخلو إما أن يكون متعلقا بعجبا أو بأوحينا أو بكان فلا يجوز أن يتعلق بعجبا نفسها لأنه مصدر ومعموله من صلته فلا يتقدم عليه ولا يكون صفة لعجبا على أنه يتعلق بمحذوف لتقدمه عليه والصفة لا تتقدم على الموصوف ولا يجوز أن يتعلق بأوحينا لأنه في صلته ولا يجوز تقديمه عليه وإذا بطل تعلقه بما ذكرنا تعين أن يكون متعلقا بكان نفسها تعلق الظرف بالفعل " .

(234/363)

و لا أدري كيف منع ابن يعيش تقديم الصفة على الموصوف وقد أجمع النحاة على أنها إذا تقدمت عليه أعربت حالا وأنشدوا البيت الآنف الذكر .

[سورة يونس (10) : الآيات 5 إلى 6]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ما

خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6)

اللغة :

(الضياء) : يجوز أن يكون جمع ضوء كسوط وسياط وحوض وحياض ويجوز أن يكون مصدر ضاء يضوء ضياء وضوءا مثل عاذ يعوذ عياذا وعوذا وعلى أي الوجهين فالمضاف محذوف وتقديره جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور ويكون جعل الضياء والنور لكثرة ذلك فيهما وقد تقدم في سورة البقرة الفرق الدقيق بين الضوء والنور فارجع إليه .

الاعراب :

(235/363)

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً) هو مبتدأ والذي خبره وجملة جعل صلة وإن كان الجعل بمعنى التصيير كانت الشمس مفعولا أولا وضياء مفعولا ثانيا وان كان الجعل بمعنى الخلق كانت الشمس مفعولا به وضياء حال والقمر نورا عطف عليهما . (وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ) وقدره فعل وفاعل مستتر ومفعول به ومنازل أي في منازل فهو منصوب على الظرفية ويجوز أن يكون التقدير ذا منازل ، وقدّر على هذا متعدية

إلى مفعولين لأن معناه جعل وصيّر فيكون مفعولا ثانيا ويجوز أن يكون قدّر متعديا إلى واحد بمعنى خلق وهو الهاء ومنازل حال أي متنقلا وارتأى أبو البقاء وجها طريفا لا يخلو من وجاهة وهو أن يكون الضمير منصوبا بنزع الخافض فحذف حرف الجر أي قدر له منازل ومنازل مفعول به واللام للتعليل وتعلموا منصوب بأن مضمرة وعدد مفعول به والسنين مضاف إليه والحساب معطوف على عدد ، سئل أبو عمرو عن الحساب أننصبه أم نجره فقال : ومن يدري عدد الحساب ومعنى جوابه أنه سئل هل نعطفه على عدد فنصبه أم على السنين فنجره ؟ فكأنه قال : لا يمكن جره إذ يقتضي ذلك أن يعلم عدد الحساب ، ولا يقدر أحد أن يعلم عدده . (ما خَلَقَ اللَّهُ ذِلكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) ما نافية وخلق اللّه ذلك فعل وفاعل ومفعول به وإلا أداة حصر وبالحق حال فالاستثناء المفرغ من أعم الأحوال أي ما خلق ذلك إلا ملتبسا بالحق والحكمة البالغة ولم يخلقه عبثا وجملة يفصل الآيات حال أيضا والآيات مفعول به ولقوم متعلقان بيفصل وجملة يعلمون صفة لقوم .

)

(236/363)

إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ) الجملة مستأنفة لتعليل تعاقب الليل والنهار وتفاوتهما بالزيادة والنقصان وإن حرف مشبه بالفعل وفي اختلاف خبر مقدم لإن وما اسم موصول معطوف على اختلاف ويجوز أن تكون مصدرية والمصدر معطوفا على اختلاف ، وفي السموات والأرض جار ومجرور متعلقان بخلق ولآيات اللام المزحلقة وآيات اسم إن المؤخر ولقوم متعلقان بصفة لآيات وجملة يتقون صفة لقوم .

[سورة يونس (10) : الآيات 7 إلى 10]

إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ (7) أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (8) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9) دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (10)

اللغة :

(الرجاء) : له معنيان صالحان في هذه الآية فالأول الخوف ومنه قول الشاعر :

إذ لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عواسل

والثاني الطمع ومنه قول الشاعر :

أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة ورائيا

فالمعنى على الأول : لا يخافون عقابا وعلى الثاني : لا يطمعون في ثواب وقيل المراد بالرجاء هنا التوقع فيدخل تحته الخوف والطمع .

الاعراب :

)

(237/363)

إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا) ان واسمها وجملة لا يرجون صلة ولقاءنا مفعول به . (وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها) عطف على لا يرجون لقاءنا فهو داخل في حكم الصلة ويحتمل أن تكون الواو للحال وقد مقدرة وكذلك يقال في واطمأنوا بها . (وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ) والذين عطف على الذين المتقدمة فيكون قسما مباينا للذين لا يرجون وقد أخبر عن الصنفين فيما يأتي وهم مبتدأ وعن آياتنا جار ومجرور متعلقان بغافلون وغافلون خبر هم والجملة صلة

الموصول . (أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ) أولئك مبتدأ ومأواهم مبتدأ ثان والنار خبر الثاني والثاني وخبره خبر أولئك وأولئك وخبره خبر إن وبما كانوا يكسبون تقدم في

إعراب بما كانوا يكفرون .

)

(238/363)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ) إن واسمها وجملة آمنوا صلة وعملوا عطف على آمنوا والصالحات مفعول وجملة يهديهم ربهم خبر إن . (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) الجملة خبر ثان لإن أو حال من مفعول يهديهم أو مستأنفة وفي جنات النعيم خبر ثالث أو حال ثانية أو متعلقان بتجري . (دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ) دعواهم مبتدأ وفيها جار ومجرور متعلقان بدعواهم أو بمحذوف حال وسبحانك مفعول مطلق لفعل محذوف والجملة المؤلفة منه خبر دعواهم والمعنى أن دعاءهم هو هذا اللفظ فالخبر هو نفس المبتدأ واللهم منادى مفرد علم والميم المشددة عوض عن حرف النداء وتحيتهم مبتدأ وفيها متعلقان بتحيتهم أو بمحذوف حال وسلام خبر تحيتهم والمصدر يعني التحية مضاف لمفعوله والفاعل مستتر أي تحية اللّه لهم أو تحية الملائكة إياهم أو مضاف لفاعله أي ويحيي بعضهم بعضا . (وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ) الواو عاطفة وآخر مبتدأ ودعواهم مضاف إليه وأن مخففة من الثقيلة واسمها

ضمير الشأن والحمد مبتدأ ولله خبر ورب العالمين صفة أو بدل من اللّه وجملة الحمد للّه خبران.

[سورة يونس (10) : الآيات 11 إلى 12]

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11) وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (12)

الاعراب:

)

(239/363)

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لتصوير حالة الناس وتجسيد ما انطوى عليه كيانهم من مطاوعة لنوازع النفس التي تغضب وتتبرم بسواها فتبدر منها في حالات الأزمات النفسية أدعية يتمنون فيها الموت لأولادهم وذويهم ولكن اللّه يتجاوز عن الاستجابة لأنه لو استجاب لكل ما

يصدر عنهم لفرغ من هلاكهم ، ولو حرف شرط للامتناع ويعجل فعل مضارع والله فاعل وللناس جار ومجرور متعلقان بيعجل والشر مفعول به واستعجالهم مفعول مطلق وبالخير متعلقان بالمصدر الذي هو استعجالهم ، اللام واقعة في جواب لو وقضي فعل ماض بالبناء للمجهول وإليهم متعلقان بقضي وأجلهم نائب فاعل ، والمعنى لفرغ من أجلهم ومدتهم المضروبة وسيرد في باب البلاغة المزيد من النكت الرائعة في هذا التعبير الرشيق وهذا هو المشهور في الاعراب على أن سيبويه أعرب استعجالهم حالا وان التقدير عنده استعجالا مثل استعجالهم ثم حذف الموصوف وهو استعجال وأقيمت صفته مقامه وهي مثل فبقي ولو يعجل مثل استعجالهم ثم حذف المضاف

(240/363)

و أقيم المضاف اليه مقامه فأعرب حالا من ذلك المصدر المقدر ، والأول أسهل كما سيأتي ويجوز أيضا أن يعرب منصوبا بنزع الخافض على إسقاط كاف التشبيه والتقدير كاستعجالهم (فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ) الفاء عاطفة ونذر عطف على مفهوم النفي لأن لو يعجل متضمن معنى النفي للتعجيل كأنه قيل ولا نعجل لهم الشر ولا نقضي إليهم أجلهم فنذر ، والفاعل مستتر تقديره نحن والذين مفعول به وجملة لا يرجون

لقاءنا صلة وفي طغيانهم جار ومجرور متعلقان بيعمهون وجملة يعمهون حال أي مترددين في عماهم متخبطين في دجنات آثامهم . (وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ) الواو للاستئناف والجملة استئنافية مسوقة لتقرير ضعف الإنسان ونهاية عجزه ، وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن وجملة مس مضاف إليها والإنسان مفعول به والضر فاعل . (دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً) جملة دعانا لا محل لها لأنها جواب إذا ولجنبه في محل نصب حال من فاعل دعانا بدليل ما عطف عليه من الحالين الآتيين أو حرف عطف وقاعدا معطوف على محل لجنبه وكذلك أو قائما ومعنى هذه الأحوال أن المضرور لا يزال لاهجا بالدعاء لا يفتر عنها في مطلق الأحوال كلها سواء أكان منبطحا عاجزا عن النهوض أو كان قاعدا متخاذلا لا يقدر على القيام أو كان قائما لا يطيق المشي . (فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ) الفاء عاطفة ولما حينية أو رابطة وكشفنا فعل وفاعل وعنه متعلقان بكشفنا وجملة مر لا محل لها لأنها جواب لما وكأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وجملة لم يدعنا خبرها والى ضر جار ومجرور متعلقان بيدعنا وجملة مسه صفة لضر . (كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ) كذلك مفعول مطلق أي مثل ذلك التزيين وزين

بالبناء للمجهول وللمسرفين جار ومجرور متعلقان بزين وما موصول نائب فاعل وجملة كانوا صلة والواو اسم كان وجملة يعملون خبر كان .

البلاغة :

1- التنكيت في قوله تعالى " ولو يعجل اللّه للناس الشر استعجالهم بالخير " فقد كان سياق الكلام يقضي أن يأتي بالمصدر المناسب لفعله وهو التعجيل ولكنه عدل إلى الاستعجال وهو مصدر لاستعجال لنكتة تدق على الافهام وتكاد تذهل عنها الخواطر إذ لا يكاد وضع المصدر مؤكدا ومقارنا لغير فعله في الكتاب العزيز يخلو من نكتة وقصارى ما يقوله النحاة في ذلك أنه أجرى المصدر على الفعل مقدرا عدم الزيادة وإذا تسوّر القارئ الفطن بفكر مراقي البيان علم أن وراء الجنوح إلى هذا المصدر بدلا عن المصدر الملائم للفعل سرا إذ وضع الاستعجال موضع التعجيل إيذانا وإشعارا بسرعة اجابته لهم واسعافه بطلبتهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم ومثل ذلك قوله " واللّه أنبتكم من الأرض نباتا " في التنبيه على حتمية نفوذ القدرة في المقدور وسرعة إمضاء الحكم وسيأتي في حينه .

2- التقسيم أو صحة الأقسام وهو عبارة عن استيفاء المتكلم جميع أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه بحيث لا يغادر منه شيئًا وقوله :

" دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما " استوفى جميع الهيئات التي يكون عليها الإنسان وقد تردد

التقسيم في آل عمران فارجع اليه .

[سورة يونس (10) : الآيات 13 إلى 17]

(242/363)

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13) ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (16) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17)

اللغة

: (الْقُرُونَ) : جمع قرن بفتح القاف ، وهو أهل كل عصر ، سموا بذلك لمقارنة بعضهم لبعض ومنه قرن الكبش لمقارنته آخر بإزائه والقرن بكسر القاف هو المقام لقرينه في الشدة ويؤخذ من المعاجم أيضا أن القرن بفتح القاف هو مائة سنة وأمة بعد أمة والوقت المطلق من الزمان

والقرون الخالية الأمة المتقدمة على التي بعدها .

(خَلائِفَ) : جمع خليفة وهو من يخلف غيره ويقوم مقامه والإمام الذي ليس فوقه إمام وهو مذكر فيقال هذا خليفة آخر وربما أنث مراعاة للفظ فيقال خليفة أخرى ويجمع على خلفاء وخلائف والعدد مع الجمع الأول مذكر فيقال ثلاثة خلفاء ومع الثاني يجوز أن يكون مذكرا ومؤنثا فيقال ثلاثة وثلاث خلائف .

(القرآن) : هناك خمسة أقوال في لفظ القرآن نلخصها بما يلي :

1- ما ذهب اليه الشافعي من أنه ليس مهموزا ولا مشتقا بل وضع علما على الكلام المنزل .

2- ما نقل عن الأشعري وغيره من أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممته اليه ثم جعل علما على اللفظ المنزل وسسي بذلك لقران السور والآيات والحروف فيه بعضها ببعض .

3- ذهب الفراء إلى أنه مشتق من القرائن لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضا وجعل علما على اللفظ المنزل لذلك وهو على هذين غير مهموز أيضا كالذي قبلهما ونونه أصلية .

4- قال الزجاج: هو وصف على وزن فعلان وهو مهموز مشتق من القرء بمعنى الجمع ومنه قرأت الماء في الحوض إذا جمعته وسمي الكلام المنزل على النبي المرسل به قرآنا لأنه جمع السور أو جمع ثمرات الكتب السابقة.

5- ما ذهب اليه اللحياني وجماعة من أنه مصدر مهموز بوزن الغفران سمي به المقروء من تسمية المفعول بالمصدر.

وينقل السيوطي في الإتقان عن الجاحظ أن اللّه سمى كتابه اسما مخالفا لما سمى العرب كلامهم، سمى جملة قرآنا كما سمى العرب جملة كلامهم ديوانا وسمى بعضه سورة كقصيدة، وسمى بعض السورة آية كالبيت وسمى آخر السورة الفاصلة كالقافية.

أما دائرة المعارف الاسلامية فتبدأ بحثها في ماده قرآن بذكر اختلاف المسلمين في نطق واشتقاق ومعنى كلمة قرآن فبعضهم يقول القرآن بغير همز ويذهب إلى أنها كلمة وضعت كما وضعت كلمة توراة وإنجيل وهو كما ترى قول الشافعي، ثم تمضي الدائرة في ذكر بقية الأقوال الخمسة الآنفة الذكر وتضيف إليها قولا سادسا وهو ما ذهب اليه شفالي، ولها وزن من أن الكلمة عبرية أو سريانية ومعناها ما يقرأ، وتجنح دائرة المعارف مع هذين العالمين، إلى رأيهما الذي يقول بأن قرأ بمعنى تلا ليست كلمة عربية النسب ولكنها دخيلة على اللغة.

هذا وسيرد المزيد من هذا البحث الطريف في مواقع أخرى يتبين فيها أرجع الأقوال.

الاعراب :

)

(244/363)

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ) الواو استئنافية واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وأهلكنا القرون فعل وفاعل ومفعول ومن قبلكم جار ومجرور متعلقان بأهلكنا ولا يجوز أن يكون حالا من القرون لأنه ظرف زمان فلا يقع حالا عن الجثة كما لا يقع خبرا لها وقد تقدم بحثه . (لَمَّا ظَلَمُوا وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ) لما حينية متعلّقة بأهلكنا أو رابطة وظلموا فعل وفاعل وجاءتهم الواو واو الحال

بإضمار قد وقد تقدم بحث واو الحال وقيل الواو للعطف على ظلموا ولعل الأول أولى ، وجاءتهم رسلهم فعل ومفعول به وفاعل وبالبينات متعلق بجاءتهم . (وَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) عطف على ظلموا واللام في ليؤمنوا للجحود ويؤمنوا منصوب بأن مضمرة وهي مع مدخولها خبر كانوا ، وكذلك في محل نصب صفة لمصدر محذوف ونجزي القوم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به والمجرمين صفة للقوم . (ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ) ثم حرف عطف وجعلناكم عطف على أهلكنا وخلائف

مفعول به ثان وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لخلائف ومن بعدهم متعلقان بجعلناكم . (لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) اللام للتعليل وننظر منصوب بأن مضمرة بعدها وكيف اسم استفهام في محل نصب مفعول به لتعملون أي لننظر أي عمل تعملونه ، لا لننظر لأن لها الصدارة فلا يعمل فيها ما قبلها ، ولا يبعد أن تكون في محل نصب على الحال أي على أي حالة تعملون الأعمال اللائقة بالاستخلاف .

(وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ) الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة تتلى مضاف إليها وتتلى فعل مضارع بالبناء للمجهول وعليهم متعلقان بتتلى وآياتنا نائب فاعل وبينات حال .

)

(245/363)

قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا : ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ) الجملة لا محل لها لأنها جواب إذا والذين فاعل وجملة لا يرجون صلة ولقاءنا مفعول يرجون وجملة ائت مقول القول وبقرآن متعلقان بائت وغير صفة لقرآن وهذا مضاف لغير وأو حرف عطف وبدله عطف على ائت .

(قُلْ : ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي) ما نافية ويكون فعل مضارع ناقص ولي خبرها المقدم وأن وما في حيزها اسمها المؤخر ويجوز أن تكون تامة والمصدر فاعل ومن تلقاء نفسي متعلقان بأبدله

(246/363)

و نفسي مضافة لتلقاء وقد تقدم القول في التلقاء . (إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ) إن نافية وأتبع فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا وإلا أداة حصر وما مفعول به وجملة يوحى إلي صلة . (إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) إن واسمها وجملة أخاف خبرها وإن شرطية وعصيت فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والتاء فاعل ربي مفعول به وعذاب مفعول به لأخاف ويوم مضاف اليه وعظيم صفة . (قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ) لو شرطية وشاء اللّه فعل وفاعل وجملة ما تلوته عليكم جواب لو وعليكم جار ومجرور متعلقان بتلوته ، ولا الواو عاطفة ولا نافية وأدراكم فعل ماض وفاعله مستتر والكاف مفعول به وبه متعلقان بأدراكم . (فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ) الفاء تعليلية وقد حرف تحقيق ولبثت فعل وفاعل وفيكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال وعمرا ظرف زمان متعلق بلبثت ومن قبله متعلقان بلبثت أفلا الهمزة للاستفهام الانكاري

والفاء عاطفة على مقدر ولا نافية وتعقلون معطوف على المقدر . (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ) الفاء عاطفة ومن اسم استفهام للنفي مبتدأ وأظلم خبره وممن متعلقان بأظلم وجملة افترى صلة الموصول وعلى اللّه متعلقان بافترى وكذبا مفعول به ، وأو حرف عطف وكذب عطف على افترى وبآياته متعلقان بكذب ، والمعنى : لا أحد أظلم ممن افتري على اللّه الكذب ، وزيادة كذبا مع أن الافتراء لا يكون الا كذبا لبيان أن هذا مع كونه افتراء على اللّه هو كذب في نفسه فربما يكون الافتراء كذبا في الاسناد فقط كما إذا أسند ذنب زيد إلى عمرو .

)

إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ) الجملة تعليل لكونه لا أظلممن افترى على اللّه كذبا أو كذب بآياته ، وان واسمها وجملة لا يفلح خبرها والمجرمون فاعل .

(247/363)

[سورة يونس (10) : الآيات 18 إلى 20]

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (18) وَما كانَ

النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19) وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (20)

الإعراب :

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة لحكاية جناية أخرى من جناياتهم ويعبدون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل ومن دون اللّه متعلقان بمحذوف حال من فاعل يعبدون أي متجاوزين اللّه لا بمعنى ترك اللّه بالكلية بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وضم عبادة الأوثان إليها للشفاعة والتقرب وما موصول مفعول به وهي راجعة إلى الأصنام ولكنه راعى لفظها فأفرد في قوله ما لا يضرهم ولا ينفعهم وراعى معناها في قوله هؤلاء شفعاؤنا فجمع ، وجملة لا يضرهم صلة الموصول ولا ينفعهم عطف . وقيل ما موصوفة . (وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ) الواو

(248/363)

عاطفة ويقولون معطوف على يعبدون وهؤلاء مبتدأ وشفعاؤنا خبر وعند اللّه ظرف متعلق بمحذوف حال . (قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ) قل فعل

أمر وجملة أتنبئون مقول القول والمقصود بالأمر التبكيت والهمزة للاستفهام الانكاري كأنه يؤنبهم وينكر عليهم أن يخبره بما لا يعلم لها وجودا في السموات والأرض وهو الشفيع ولو أنه كان ثمة شفيع لعلمه . وربما الباء حرف جر وما موصولة أو نكرة موصوفة وعلى كلا التقديرين العائد محذوف أي يعلمه والجار والمجرور متعلقان بتنبئون وفي السموات حال من العائد المحذوف في يعلم وجملة لا يعلم صلة ما . (سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ) سبحانه تقدم أنه مفعول مطلق لفعل محذوف وتعالى فعل ماض وعما يشركون متعلقان بتعالى وما موصولة أو مصدرية .

(

وَما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لبيان أن الفطرة والتشريع تتطلب وحدة البشر ولكنهم نزوعا منهم إلى أهواء النفس ومتطلباتها اختلفوا وقد أفاض المفسرون في كيفية ذلك والرجوع اليه في المطولات . وما نافية وكان الناس كان واسمها وإلا أداة حصر وأمة خبر كان وواحدة صفة فاختلفوا عطف على المعنى أي كان الناس جميعا على الحق فاختلفوا . (وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) الواو عاطفة ولولا حرف امتناع لوجود وكلمة مبتدأ محذوف الخبر وجملة سبقت صفة لكلمة ومن ربك متعلقان بسبقت ولقضي اللام جواب لولا وجملة قضي لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ونائب الفاعل مستتر تقديره الأمر وبينهم

متعلقان بقضي أي لفصل بينهم ولميز المحق من المبطل ولكن كلمته سبقت بالتأخير لتكون هذه الدار دار تكليف وتلك دار ثواب أو عقاب وفيما متعلقان بقضي أيضا وفيه متعلقان بيختلفون

(249/363)

و جملة يختلفون صلة الموصول . (وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ) الواو عاطفة ويقولون فعل مضارع وفاعل ولو لا حرف تحضيض وأنزل فعل ماض مبني للمجهول وعليه متعلقان بأنزل وآية نائب فاعل ومن ربه صفة لآية . وأتى بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه . (فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) الفاء واقعة في جواب لو لا وإنما كافة ومكفوفة والغيب مبتدأ ولله خبر فانتظروا الفاء الفصيحة وانتظروا فعل أمر وفاعل واني ان واسمها ومن المنتظرين خبرها ومعكم ظرف متعلق بالمنتظرين .

[سورة يونس (10) : الآيات 21 إلى 23]

وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ (21) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ

وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23)

اللغة :

(الْفُلْكِ) : السفن وسميت فلكا لدورانها في الماء وأصله الدور ومنه فلكة المغزل ، وتفلّك ثدي الجارية إذا استدار والفلك يكون جمعا وواحد وهو هنا جمع .

(250/363)

(رِيحٌ) : في المصباح : الريح الهواء المسخر بين السماء والأرض وأصلها الواو لكن قلبت لانكسار ما قبلها والجمع أرواح ورياح وبعضهم يقول أرياح بالياء على لفظ الواحد وغلّطه أبو حاتم . والريح مؤنثة على الأكثر فيقال هي الريح وقد تذكر على معنى الهواء فيقال هو الريح نقله أبو زيد ، وقال ابن الأنباري : الريح مؤنثة لا علامة فيها وكذلك سائر أسمائها إلا الإعصار فهو مذكر وراح اليوم يروح روحا من باب قال وفي لغة من باب خاف إذا اشتدت ريحه فهو رائح .

(عاصِفٌ) : عصفت الريح فهي عاصف وعاصفة قال :

حتى إذا عصفت ريح مزعزعة فيها قطار ورعد صوته زجل

ويقال أعصفت الريح فهي معصفة ومعصف والجمع معاصف ومعاصيف .

الاعراب :

)

وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي

آياتِنا)

(251/363)

الواو استئنافية وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه منصوب بجوابه وجملة أذقنا في محل جر بالإضافة إليها وجوابها في إذا الثانية الفجائية وانما جعلت جوابا لكونها بمعنى المفاجأة كأنه قال وإذا رحمناهم من بعد ضراء فاجئوا وقوع المكروه منهم وسارعوا اليه وقد يقدم القول في إذا الفجائية وهل هي حرف أم ظرف زمان أم ظرف مكان ، ورحمة مفعول به ثان ومن بعد صفة لرحمة وضراء مضافة ترجمة وجملة مستهم صفة لضراء وإذا الفجائية ولهم خبر مقدم ومكر مبتدأ مؤخر وفي آياتنا صفة لمكر . (قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً) اللّه مبتدأ وأسرع خبر ومكرا تمييز . (إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ) ان واسمها وجملة

يكتبون خبرها وما موصول مفعول به وجملة تمكرون صلة والجملة تعليلية لسرعة مكره تعالى وتعجيله العقوبة . (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) جملة مستأنفة مسوقة لبيان جريمة أخرى من جرائمهم قائمة على اختلاف ما يعتريهم من تقلب بالنسبة لما يصيبهم من سراء وضراء ، وهو مبتدأ والذي خبره وجملة يسيركم صلة والكاف مفعول به وفي البر والبحر جار ومجرور متعلقان بيسيركم . (حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها) حتى حرف غاية وجر وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن وجملة كنتم مضافة إليها والتاء اسم كان وفي الفلك خبرها وجرين عطف على كنتم على طريق الالتفات كما سيأتي في باب البلاغة والنون للنسوة فاعل جرين وبهم جار ومجرور متعلقان بجرين وبريح طيبة حال أي مسوقين وطيبة صفة وفرحوا بها عطف على وجرين ويجوز أن تكون جملة حالية من الضمير بهم وقد مضمرة .

)

جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ) جملة جاءتها لا محل لها لأنها جواب إذا وريح فاعل جاءتها وعاصف صفة وجاءهم الموج عطف على جاءتها ومن كل مكان متعلقان بجاءهم أو بمحذوف

حال من الموج أي منحدرا . (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ) عطف على جاءهم وان وما في حيزها سدت مسد مفعولي ظنوا وجملة أحيط بهم خبر أنهم ويلاحظ القارئ أنه جعل الشرط أمورا ثلاثة وهي الكون في الفلك والجري بهم بريح طيبة والفرح بها وجعل الجواب أمورا ثلاثة أيضا وهي مجيء الريح العاصف ومجيء الموج وظنهم الإحاطة بهم .

)

دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) جملة دعوا اللّه بدل من ظنوا بدل اشتمال لما بينهما من الملابسة والتلازم ذلك لأن دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك فهو ملتبس به ، أو استئنافية مبنية على سؤال يخطر للذهن وهو فماذا صنعوا فقيل دعوا اللّه ، ودعوا اللّه فعل وفاعل ومفعول ومخلصين حال وله جار ومجرور متعلقان بمخلصين والدين مفعول به (لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) اللام موطئة للقسم وان شرطية ونجيتنا فعل وفاعل ومفعول به وهي فعل الشرط ومن هذه متعلقان بأنجيتنا والاشارة للاهوال وما وقعوا فيه من مشارفه الهلاك في البحر ولنكونن جوابه وجواب الشرط محذوف لتقدم القسم ، والقسم وجوابه في محل نصب بقول مقدر وذلك القول المقدر في محل نصب حال والتقدير : دعوا اللّه قائلين لئن أنجيتنا من هذه الأهوال لنكونن من الشاكرين . (فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) الفاء عاطفة ولما حينية أو رابطة وأنجاهم فعل وفاعل مستتر ومفعول

به وإذا فجائية وهم مبتدأ وجملة يبغون خبرهم وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بيبغون وبغير الحق حال . (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ) إنما كافة ومكفوفة وبغيكم مبتدأ وعلى أنفسكم خبر . (مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا) قرأ حفص وابن اسحق والمفضل بنصب متاع على المفعولية المطلقة بفعل محذوف أي تتمتعون متاع الحياة الدنيا أو على أنه مفعول به لفعل محذوف أي تبتغون متاع الحياة الدنيا وقرأ الباقون بالرفع على أنه

(253/363)

خبر لمبتدأ محذوف أي هو متاع الحياة الدنيا وقيل غير ذلك والأرجح ما ذكرناه . (ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ثم حرف عطف وتراخ وإلينا خبر مقدم ومرجعكم مبتدأ مؤخر فننبئكم الفاء عاطفة وننبئكم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وربما كنتم تعملون متعلقان بننبئكم وجملة كنتم صلة ما وجملة تعملون خبر كنتم .

البلاغة :

في هذه الآيات ضروب متعددة من البلاغة تقدم ذكر بعضها واحتاج بعضها الآخر إلى مزيد من البسط ومن أهم فنونها :

1 - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ثم العودة إلى الغيبة وذلك في قوله تعالى " هو الذي

يسيركم في البر والبحر " إلى آخر الآية وقد تقدم القول في الالتفات ونوضحه هنا فنقول : لما كان قوله هو الذي يسيركم خطابا ينطوي على الامتنان واظهار نعمة المخاطبين ولما كان المسيرون في البر والبحر مؤمنين وكفارا والخطاب شامل لهم جميعا حسن خطابهم بذلك ليستديم الصالح الشكر ولعل الطالح يتذكر هذه النعمة فيتهيأ قلبه لتذكر وشكر مسديها ولما كان في آخر الآية ما يقتضي أنهم إذا نجوا بغوا في الأرض عدل عن خطابهم بذلك إلى الغيبة لئلا يخاطب المؤمنين بما لا يليق صدوره منهم وهو البغي بغير الحق هذا من جهة ومن جهة ثانية ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها كالمخبر لهم ويستدعي منهم الإنكار عليهم والتقبيح لما اقترفوه ، ففي الالتفات فائدتان وهما المبالغة والمقت والتبعيد ، قال الرازي " الانتقال من مقام الخطاب إلى مقام الغيبة في هذا المقام دليل المقت والتبعيد كما أن عكس ذلك في قوله إياك نعبد دليل الرضا والتقريب " .

2- المجاز المرسل : في قوله " بغيكم على أنفسكم " لأن البغي لا يقع على الأنفس وانما هو الوبال ولما كان البغي هو سببه ، ذكره على طريق المجاز المرسل والعلاقة السببية .

3- المشاكلة : أفرد لفظ الريح للمشاكلة لوجهين لأنه في مقابلة قوله سبحانه : جاءتهم ريح عاصف ولأن الرحمة تقتضي هنا وحدة الريح فإن السفينة إنما تسير بريح واحدة ولو اختلفت عليها الرياح هلكت ولذا أكد بوصف الطيبة .

وفي تسمية عقوبة اللّه سبحانه مكرا فن المشاكلة وقد تقدم بحثها .

4- الاشارة : وفي قوله : قل اللّه أسرع مكرا فن الاشارة لأن أفعل التفضيل دلّ على أن مكرهم كان سريعا ولكن مكر اللّه أسرع منه وإذا الفجائية يستفاد منها السرعة والمعنى أنهم فاجئوا المكر أي أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة .

الفوائد :

في قوله تعالى : " هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم . . . " فائدة منقطعة النظير ترتبت عليها أحكام فقهية نشير إليها وهي ما ذكره الزمخشري في كشافه قال : " فان قلت : كيف جعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر والتسيير في البحر انما هو بعد الكون في الفلك ؟ قلت : لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتى بما في حيزها كأنه قيل يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجيء الريح

العاصف وتراكم الأمواج وظن الهلاك والدعاء بالانجاء " إلى آخر هذا الفصل . وقد سبق مثل هذه الآية وفاتنا أن نشير إلى هذا السر في حينه وهي قوله تعالى في سورة النساء "

وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم " فقد استدل الزمخشري بها لأبي حنيفة في أن الصغير يبتلى قبل البلوغ أن يسلم اليه قدر من المال يمتحن فيه خلافا لما لك فانه لا يرى الابتلاء قبل البلوغ أما الشافعي فله قولان أحدهما يوافق أبا حنيفة والآخر يوافق مالكا ، وللأئمة في هذا الصدد مناقشات تخرج عن صدد الكتاب وإنما أشرنا إلى مكان الفائدة البيانية والنحوية والرجوع لمعرفة الاحكام الفقهية إلى المظان .

[سورة يونس (10) : الآيات 24 إلى 25]

(255/363)

إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24) وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (25)

اللغة :

(الزخرف) : بالضم الذهب وكمال حسن الشيء ومن القول حسنه ومن الأرض ألوان نباتها .

(ازَّيَّنَتْ) : أصله تزينت فأدغمت التاء في الزاي وسكنت الزاي فاجتلبت لها همزة الوصل .

(تَغْنَ) : مضارع غني بالمكان أقام به والمغاني المنازل قال النابغة :

غنيت بذلك إذ هم لك جيرة منها بعطف رسالة وتودّد

وفي القاموس ما يقتضى أن غني يأتي بمعنى كان ووجد كقوله :

غنيت دارنا بتهامة أي كانت بها .

الاعراب :

(إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ) كلام مستأنف مسوق لبيان حال الدنيا وسرعة تقضيها وأنها بعد أن تستهوي الأعين برونقها تحمل أهلها على أن يسفك بعضهم دم بعض ويمتشقوا الحسام فيما بينهم لتعكير صفو السلم الذي يجب أن يسود بينهم وضرب لذلك مثلا من التشبيه المركب . وإنما كافة ومكفوفة ومثل مبتدأ والحياة مضاف اليه والدنيا صفة ، كماء : الجار والمجرور خبر مثل أو هي اسم فهي الخبر وجملة أنزلناه صفة لماء ومن السماء متعلقان بأنزلناه .

(فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ) الفاء عاطفة

و اختلط عطف على أنزلناه وبه متعلقان باختلط ونبات الأرض فاعل اختلط ومما يأكل الناس الجار والمجرور حال من نبات الأرض وجملة يأكل الناس صلة والانعام عطف على الناس . (حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ) حتى حرف غاية وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن متعلق بالجواب وهو أتاها وجملة أخذت مضافة إليها والأرض فاعل وزخرفها مفعول به وازينت عطف على أخذت . (وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها) وظن عطف أيضا وأهلها فاعل ظن وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي ظن وقادرون خبر أن وعليها جار ومجرور متعلقان بقادرون . (أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً) أتاها جواب إذا والهاء مفعول به وأمرنا فاعل وليلا ظرف متعلق بأتاها وأو حرف عطف ونهارا معطوف على ليلا . (فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ) الفاء عاطفة وجعلناها فعل وفاعل ومفعول به أول وحصيدا مفعول به ثان وكأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وجملة لم تغن خبرها وبالأمس جار ومجرور متعلقان بتغن وأراد بالأمس مطلق الزمان الماضي لا خصوص اليوم الذي قبل يومك ولذلك أعربه وأدخل عليه " أل " ولو قال أمس للزم البناء على الكسر والتجرد من أل .

(كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) كذلك جار ومجرور متعلقان بمحذوف مفعول مطلق ونفصل الآيات فعل وفاعل مستتر ومفعول به والجار والمجرور متعلقان بنفصل وجملة

يتفكرون صفة لقوم . (وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ) والله مبتدأ وجملة يدعو خبر والى دار السلام متعلقان بيدعو وسيأتي الفرق بين الدعاء والأمر في باب الفوائد .

(وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) ويهدي عطف على يدعو ومن مفعول به وجملة يشاء صلة والى صراط متعلقان بيهدي ومستقيم صفة .

البلاغة :

1- في هذه الآية تشبيه تمثيلي ومركب وهو هنا يحتمل شيئين :

آ- انه شبه الحياة الدنيا بالماء فيما يكون به من الانتفاع ثم الانقطاع .

ب- انه شبهها بالنبات في جفافه وذهابه حطاما بعد ما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه .

2- وفي قوله " أخذت الأرض زخرفها " استعارة مكنية حيث جعلت الأرض في زينتها بما عليها من أصناف النبات كالعروس التي أخذت من أنواع الزينة والثياب فتزينت بها .

الفوائد :

الفرق بين الدعاء والأمر أن الأول طلب الفعل بما يقع لأجله والداعي إلى الفعل خلاف

الصارف عنه وهو لا يكون إلا من الأدنى إلى الأعلى أما الأمر فهو ترغيب في الفعل وزجر عن تركه وهو يقتضي أن المأمور دون الآمر في الرتبة .

[سورة يونس (10) : الآيات 26 إلى 27]

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (26) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (27)

اللغة :

(يَرْهَقُ) وجوههم أي يغشاها والرهق الغشيان يقال رهقه يرهقه من باب طرب أي غشيه بسرعة ومنه " لا ترهقني من أمري عسرا " و" فلا يخاف بخسا ولا رهقا " يقال رهقته وأرهقته مثل ردفته وأردفته ففعل وأفعل بمعنى ، ومنه أرهقت الصلاة إذا أخرتها حتى غشي وقت الأخرى أي دخل وقال بعضهم الرهق المقاربة ومنه غلام مراهق أي قارب الحلم وقال آخرون : الرهق لحاق الأمر ومنه راهق الغلام إذا لحق بالرجال ورهقه في الحرب أدركه وقال الأزهري :

الرهق اسم من الارهاق وهو أن يحمل الإنسان على ما لا يطيقه ومنه سأرهقه صعودا .

وللراء مع الهاء خاصة غريبة فهما لا تفيدان معنى واحدا وانما تفيدان إحداث التأثير وقد أحصيناها فلم تختل هذه القاعدة المطردة ، فرهيأ الحمل جعل أحد العدلين أثقل من الآخر ، وترهيأت السحابة تمخضت بالمطر ، ورهبته خفت منه وفي قلبي منه رهبة وهو رجل مرهوب ، عدوه منه مرعوب قالت ليلى :

وقد كان مرهوب السنان وبيّن اللسان ومجذام السّرى غير فاتر

وهو راهب بين الرهبانية وهؤلاء رهبان ورهبة ورهابين ورهابنة قال رجل من الضبّاب :

قد أدبر الليل وقضّى أربه وارتفعت في فلكيها الكوكبة

كأنها مصباح دير الرهبة ورماه فأصاب رهابته وهي عظيم في الصدر مطلّ على البطن كأنه طرف لسان الكلب . ومن المجاز أرهب الإبل عن الحوض :

ذادها ، وأرهب عنه الناس بأسه ونجدته ، قال رجل من جرم :

إنّا إذا الحرب نساقيها المال وجعلت تلقح ثم تحتال

يرهب عنا الناس طعن إيغال شزر كأفواه المزاد الشلشال

أي ننفق عليها المال وهو من فصيح الكلام وانما فصّحه ملح الاستعارة ، والرهج الغبار ولا يخفى ما يحدثه من أثر ، وأرهج الغبار :

أثاره وأرهجت حوافر الخيل ومن المجاز أرهج فلان نار الفتنة بين القوم ، وله بالشر لهج ، وله فيه رهج ، ورهز وارتهز لأمر كذا تحرك له واهتز ونشط ، ونشط من الرهز وهو الحركة في الجماع وغيره ومن أقوالهم : فلان للطمع مرتهز ولفرصه منتهز ، ورهص أصلح باحكام وإذا بنيت جدارا فأحكم رهصه وهو عرقه الأسفل ومن المجاز أرهص الشيء أثبته وأسسه ، وكان ذلك إرهاصا للنبوة ، ورهصه لامه وهو من الرّهصة وتقول فلان ما ذكر عنده أحد إلا غمصه ،

(259/363)

و قدح في ساقه ورهصه ، وفلان أسد رهيص أي لا يبرح مكانه كأنما رهص ، والرهط من الثلاثة إلى العشرة وأثرهم واضح في اجتماع الشمل ، وانتظام العمل ، وإحراز النصر قال الوليد بن عقبة أخو عثمان ابن عفان حين قتل وبويع علي بن أبي طالب وأمر بقبض ما في الدار من السلاح وغيره :

بني هاشم إنا وما كان بيننا كصدع الصّفا لا يرأب الدهر شاعبه

ثلاثة رهط : قاتلان وسالب سواء علينا قاتلاه وسالبه

ورهف سيفه رقّ حده وسيف رهيف ومرهف الحد ورجل مرهف الجسم دقيقه وقد

شحذت علينا لسانك وأرهفته ، وفيه رهل أي انتفاخ ، وروضه مرهومة ممطورة قال ذو الرمة :

أو نفحة من أعالي حنوة معجت فيها الصّبا موهنا والروض مرهوم

والرهن معروف وقبض الرّهن والرّهون والرّهان والرّهن واسترهنني فرهنته ضيعتي ومن المجاز فيه : جاءا فرسي رهان أي متساويين وإني لك رهن بكذا أي أنا ضامن له ورجلي رهينة أي مقيدة قال السمهري بن أسد العكلي :

لقد طرقت ليلي ورجلي رهينة فما راعني في السجن إلا سلامها

وفلان رهن بكذا ورهين ورهينة ومرتهن به : مأخوذ به ، قال تعالى "كل امرئ بما كسب رهين " و"كل نفس بما كسبت رهينة " والرهو السكون قال تعالى " واترك البحر رهوا " أي ساكنا وعيش راه أي ساكن ، ومر باعرابي فالج فقال : سبحان اللّه رهو بين سنامين ، ويقال طلع رهوا ورهوة وهو نحو التل قال ذو الرمة :

يجلّي كما جلّى على رأس رهوة من الطير أقنى ينفض الطلّ أزرق

وجاءت الخيل رهوا أي متتابعة وأتاه بالشيء رهوا سهوا أي عفوا سهلا لا احتباس فيه قال :

يمشين رهوا فلا الأعجاز خاذلة ولا الصدور على الاعجاز تتكل

وهذا من عجيب أمر هذه اللغة الشريفة .

(القتر) : والقترة الغبار معه سواد يقال قتر كفرح ونصر وضرب ومنه قول الفرزدق :

متوج برداء الملك يتبعه موج ترى فوقه الرايات والقترا

(260/363)

و فيل القتر : الدخان ومنه غبار القدر وقيل القتر القدر القليل والاقتار في المعيشة ويقال قترت الشيء واقترته أي قللته ومنه " وعلى المقتر قدره " .

(القطع) : جمع قطعة من الليل فيها ظلمة والقطع بكسر القاف وسكون الطاء الجزء من الليل الذي فيه ظلمة وقد قرىء بهما .

الاعراب :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ) للذين خبر مقدم وجملة أحسنوا صلة والحسنى مبتدأ مؤخر وزيادة عطف على الحسنى أي ما يزيد على المثوبة . (وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ) يجوز في الواو أن تكون مستأنفة لتعدد النعميات على المحسنين ويجوز أن تكون عاطفة وجملة يرهق وجوههم معطوفة على الحسنى ولا بد حينئذ من تقدير أن فإن شئت نصبت وان شئت رفعت على حد قول ميسون :

ولبس عباءة وتقر عيني أحب إليّ من لبس الشفوف

ولا نافية ويرهق وجوههم فعل مضارع ومفعول به وقتر فاعل ولا ذلة عطف على قتر (أُولَئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ) أولئك مبتدأ وأصحاب خبر والجنة مضاف اليه ، وهم مبتدأ وفيها متعلقان بخالدون وخالدون خبر والجملة حالية . (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها) يجوز أن تكون الواو عاطفة والذين معطوفة نسقا على الذين الأولى أي للذين أحسنوا الحسنى وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها فيتعادل التقسيم وهذا أسهل الوجوه التي ذكرها المعربون والنحاة ويجوز أن تكون الواو استئنافية والذين مبتدأ خبره جزاء سيئة بمثلها وهو قول سهل أيضا لا تكلف فيه وهناك أقوال

أضربنا عنها لأنها تكلف لا حاجة اليه . وكسبوا السيئات الجملة من الفعل والفاعل والمفعول به صلة الموصول وجزاء مبتدأ ثان وسيئة مضاف اليه وبمثلها خبر جزاء أي مقدر بمثلها . (وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) قيل هذه الجملة عطف على كسبوا وفيه ضعف من وجهين أولهما أن المستقبل لا يعطف على الماضي وثانيهما أنه فصل بينهما بجملة مطولة ، وقيل الواو حالية وجملة ترهقهم ذلة حالية ولا يخفى ما فيه من تكلف ، وقيل الواو معترضة والجملة اعتراضية ، ولكن الاعتراض غير وارد هنا لأنه بصدد تعداد أحوال عذابهم ،

ونرى أن تكون الواو مستأنفة والجملة استئنافية ، كأنما هو يعدد أصناف العذاب لهم تهويلا ، وكذلك قوله : (ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ) ما نافية أو حجازية ولهم خبر مقدم ومن اللّه جار ومجرور متعلقان بعاصم ومن زائدة وعاصم مبتدأ مؤخر أو اسم ما مؤخر عند من يجيز تقدم خبرها . (كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً) وهذه جملة مستأنفة استوفت المصائر الثلاثة لهم وهي الجزاء المعادل والذلة التي رهقتهم وغشيان وجوههم قطعا من الليل ، وكأنما كافة ومكفوفة وأغشيت فعل ماض مبني للمجهول ووجوههم نائب فاعل وقطعا مفعول به ثان ومن الليل صفة لقطع ومظلما صفة ثانية لقطعا بكسر القاف وسكون الطاء . وعلى قراءة قطعا يشكل أن تكون مظلما صفة فتعرب حالا من الليل والعامل فيه إما أغشيت من قبل من أن الليل صفة لقوله قطعا فكان افضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة وإما أن يكون معنى الفعل في قوله من الليل . (أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ) وهذه جملة مستأنفة رابعة تتم فيها المصائر المحتومة لهم ، وأولئك مبتدأ وأصحاب النار خبر وهم فيها خالدون جملة اسمية حالية منهم .

الفوائد :

قول ابن هشام في " والذين كسبوا " :

قال ابن هشام في هذه الآية : جملة " وترهقهم ذلة " معطوفة على "كسبوا السيئات " فهي من الصلة وما بينهما اعتراض بيّن به قدر جزائهم وجملة " ما لهم من اللّه من عاصم " خبر قاله ابن عصفور وهو بعيد لأن الظاهر أن " ترهقهم " لم يؤت به لتعريف " الذين " فيعطف على صلته بل جيء به للاعلام بما يصيبهم جزاء على كسبهم السيئات ثم انه ليس بمتعين لجواز أن يكون الخبر " جزاء سيئة بمثلها " فلا يكون في الآية اعتراض ويجوز أن يكون الخبر جملة النفي كما ذكر وما قبلها جملتان معترضتان وأن يكون الخبر "كأنما أغشيت " فالاعتراض بثلاث جمل أو " أولئك أصحاب النار " فالاعتراض بأربع جمل ويحتمل وهو الأظهر ان " الذين " ليس مبتدأ بل معطوف على " الذين " الأولى أي " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، فمثلها هنا في مقابلة الزيادة هناك ونظيرها في المعنى قوله تعالى " من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون " وفي اللفظ قولهم في الدار زيد والحجرة عمرو وذلك من العطف على معمولي عاملين مختلفين عند الأخفش وعلى إضمار الجار عند سيبويه والمحققين ، ومما يرجح هذا الوجه أن الظاهر أن الباء في " بمثلها " متعلقة بالجزاء فإذا كان " جزاء سيئة " مبتدأ احتيج إلى تقدير الخبر أي واقع ، قاله أبو البقاء أو " لهم " قاله الخوفي وهو أحسن لإغنائه عن تقدير رابط بين هذه الجملة ومبتدئها وهو الذين

وعلى ما اخترناه يكون " جزاء "

عطفا على " الحسنى " فلا يحتاج إلى تقدير آخر ، وأما قول أبي الحسن وكيسان أن " بمثلها " هو الخبر وأن الباء زيدت في الخبر كما زيدت في المبتدأ في " بحسبك درهم " فمردود عند الجمهور ، وقد يؤنس قولهما بقوله " وجزاء سيئة سيئة " .

[سورة يونس (10) : الآيات 28 إلى 30]

(263/363)

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ (28) فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ (29) هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (30)

اللغة :

(زيلنا) : فرقنا .

(تَبْلُوا) تختبر .

الاعراب :

(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً) الظرف متعلق بمحذوف مفهوم من الآية السابقة أي نفعل ذلك كله يوم نحشرهم ، وجملة نحشرهم مضاف إليها

وجميعا نصب على الحال (ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ) ثم حرف عطف وتراخ ونقول معطوف على متعلق الظرف أي نفعل ذلك كله ثم نقول أو معطوف على نحشرها وللذين متعلقان بنقول وجملة أشركوا صلة ومكانكم اسم فعل أمر معناه الزموا وسيأتي بحثها في باب الفوائد ، وأنتم ضمير منفصل في محل رفع تأكيد للضمير في مكانكم ، وشركاؤكم عطف عليه (فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ) الفاء استئنافية وزيلنا فعل وفاعل وبينهم ظرف متعلق بزيلنا وقال شركاؤهم فعل وفاعل وما نافية وكنتم كان واسمها وإيانا ضمير منفصل مفعول مقدم لتعبدون وجملة تعبدون نصب خبر كنتم . (فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ) الفاء استئنافية وكفى فعل ماض والباء حرف جر زائد والله فاعل محلا ، وشهيدا : قال الزجاج منصوب على التمييز إن شئت وإن شئت على الحال فإن كان الاسم جامدا فالنصب على التمييز كقول بشار :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى بالمرء نبلا أن تعدّ معايبه

)

إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ) إن مخففة من الثقيلة وليست نافية كما قال أحد الأئمة وهي مهملة كما تقدم وكنا كان واسمها وعن عبادتكم متعلقان بغافلين واللام الفارقة وهي التي أبعدت إن النافية ، وغافلين خبر كنا . (هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ) هنالك اسم إشارة في محل نصب على الظرفية المكانية وهو متعلق بتبلو واللام للعبد والكاف للخطاب وتبلو كل نفس فعل مضارع وفاعل وما اسم موصول مفعول به وجملة أسلفت صلة .

(وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ) الواو عاطفة

وردوا فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والى اللّه جار ومجرور متعلقان بردوا ومولاهم صفة أو بدل من اللّه والحق صفة لأنهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة .

(وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ) وضل الواو عاطفة وضل معطوف على ردوا وعنهم متعلقان بضل وما اسم موصول فاعل وكانوا كان واسمها وجملة كانوا يفترون صلة وجملة يفترون خبر كانوا .

الفوائد :

(مَكانَكُمْ) كلمة جرت مجرى الوعيد والعرب تتوعد فتقول مكانك وانتظرني والصحيح عند المحققين أن مكانك ودونك من أسماء الأفعال ونقول أن أسماء الأفعال قسمان مرتجلة ومنقولة فالمرتجلة هي ما وضعت من أول أمرها أسماء أفعال وهي ثلاثة أقسام : اسم فعل

ماض كهيهات ، واسم فعل مضارع كأف ، واسم فعل أمر كآمين ، وقد تقدمت الاشارة إلى ذلك . والمنقولة هي ما استعملت في غير اسم الفعل ثم نقلت اليه والنقل يكون :

1- إما عن جار ومجرور مثل : عليك نفسك أي الزمها وإليك عني أي تنح .

2- وإما عن ظرف مثل : دونك الكتاب أي خذه ومكانك وقد تقدمت .

3- وإما عن مصدر مثل : رويد أخاك أي أمهله وبله الشر أي دعه واتركه .

4- وإما عن تنبيه مثل : ها الكتاب أي خذه و" هاؤم اقرءوا كتابيه " .

5- وإما معدولة كنزال وحذار .

تنبيهات :

(265/363)

1- الكاف التي تلحق اسم الفعل المنقول تتصرف بحسب المخاطب إفرادا وتثنية وجمعا وتذكيرا وتأنيثا وهي حرف خطاب لا محل لها من الاعراب لأنها بمثابة جزء من الكلمة لا إعراب له .

2- اسم الفعل المنقول والمعدول لا يأتي إلا للأمر ولا يأتي لغيره بعكس المرتجل كما تقدم .

3- المرتجل والمنقول سماعيان لا يقاس عليهما .

4- المعدول قياسي وهو بني على وزن فعال من كل فعل ثلاثي مجرد تام متصرف .

وسيأتي مزيد منه في أثناء هذا الكتاب .

[سورة يونس (10) : الآيات 31 إلى 33]

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (31) فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَماذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32) كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (33)

الاعراب :

)

(266/363)

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ) من اسم استفهام مبتدأ وجملة يرزقكم خبر ومن السماء جار ومجرور متعلقان بيرزقكم والأرض معطوفة . (أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ) أم حرف عطف وهي منقطعة لأنها ليست مسبوقة بهمزة الاستفهام ولا بالتسوية ومن اسم استفهام مبتدأ وجملة يملك خبر والسمع مفعول به والابصار عطف على السمع . (وَمَنْ

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) عطف أيضا وما بعده عطف . (فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ) الفاء استئنافية ويقولون فعل وفاعل والله خبر لمبتدأ محذوف أي هو الله أو مبتدأ والخبر محذوف والتقدير يفعل هذه الأشياء كلها والجملة مقول القول . (فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) الفاء الفصيحة وقل فعل أمر والهمزة للاستفهام والفاء حرف عطف ولا نافية وتتقون فعل مضارع وفاعل . (فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ) الفاء عاطفة وذلكم مبتدأ والله خبر وربكم بدل من الله أو صفة والحق صفة لربكم ويجوز أن يعرب الله مبتدأ ثانيا وربكم خبره والجملة خبر اسم الاشارة . (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) الفاء عاطفة وماذا تقدم أن فيها وجهين الأول أن تكون كلها اسما واحدا لتركبهما وغلب الاستفهام على اسم الاشارة وصار معنى الاستفهام هنا النفي ولذلك أتى بعده بإلا وهو في محل رفع مبتدأ والثاني أن يكون ذا موصولا خبرا لما الاستفهامية وبعد ظرف متعلق بمحذوف حال وإلا أداة حصر والضلال بدل من ذا والاستفهام بمعنى النفي أيضا ، والفاء عاطفة وأنى اسم استفهام بمعنى كيف في محل نصب حال من فاعل تصرفون وتصرفون بالبناء للمجهول فعل مضارع ونائب فاعل (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف والاشارة بذلك إلى المصدر المفهوم أي مثل صرفهم عن الحق بعد الإقرار به في قوله " فسيقولون اللّه " أو الاشارة إلى الحق ، وحقت كلمة ربك فعل وفاعل وعلى الذين جار ومجرور متعلقان بحقت وجملة فسقوا صلة وأن وما في حيزها بدل من كلمة ربك أي حقيق عليهم أنهم لا يؤمنون وجملة لا يؤمنون خبر ان .

[سورة يونس (10) : الآيات 34 إلى 36]

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (34) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35) وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (36)

الإعراب :

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) هل حرف استفهام ومن شركائهم خبر مقدم ومن موصول مبتدأ مؤخر وجملة يبدأ الخلق صلة وثم حرف عطف على يبدأ . (قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) اللّه مبتدأ وجملة يبدأ الخلق خبره والجملة الاسمية مقول القول ثم يعيده عطف على يبدأ والفاء عاطفة وأنى اسم

استفهام بمعنى كيف في محل نصب على الحال وتؤفكون فعل مضارع بالبناء للمجهول والواو نائب فاعل . (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ) احتجاج آخر على ما ذكر ومن شركائكم خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر ويهدي فعل مضارع يتعدى إلى اثنين ثانيهما إما باللام أو بإلى وقد يحذف حرف الجر تخفيفا وقد جمع في هذه الآية بين التعديتين بحرف الجر فعدى الأول والثالث بإلى وعدى الثاني باللام وحذف المفعول به الاول من الأفعال الثلاثة والتقدير هل من شركائكم من يهدي غيره إلى الحق قل اللّه يهدي من يشاء للحق أفمن يهدي غيره إلى الحق ؟ وسيأتي السر في مخالفة حروف الجر في باب البلاغة .

)

قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ) تقدم اعراب نظيرها . (أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ) الهمزة للاستفهام الانكاري وهو ثامن سؤال لم يذكر جوابه وهو هنا اللّه ومن مبتدأ وأحق خبره وأن حرف مصدري ونصب ويتبع بالبناء للمجهول والمصدر المؤول مضاف لأحق بعد نصبه بنزع الخافض أي أحق بالاتباع . (أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى) أم عاطفة ومن مبتدأ وجملة لا يهدي صلة وإلا أداة حصر وأن وما في حيزها نصب بنزع الخافض والجار والمجرور

في محل نصب حال فالاستثناء مفرّغ من أعم الأحوال أي لا يهدي أو يهتدي في حال من الأحوال إلا في حال اهدائه أي إهداء الآخرين إياه والخبر محذوف تقديره أحق ولك أن تنسق من على الاولى فلا تحتاج إلى الخبر . (فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) الفاء استئنافية وما استفهامية مبتدأ ولكم خبره أي فأي شيء ثبت لكم في اتخاذ هؤلاء العاجزين عن هداية أنفسهم فكيف تحكمون بالباطل وتجعلون للّه أندادا وشركاء ؟ (وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا) كلام مستأنف مسوق لبيان السر في عدم اكتناههم الحق وفهمهم لمضمون البرهان وما نافية ويتبع أكثرهم فعل وفاعل وإلا أداة حصر

(269/363)

و ظنا مفعول به . (إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً) كلام مستأنف مسوق لبيان العلة في إخفاقهم في الفهم وعدم الاكتناه ، وإن واسمها وجملة لا يغني خبرها ومن الحق حال مقدمة وشيئا مفعول مطلق أي شيئا من الإغناء أو مفعول به بتضمين يغني معنى يدفع . (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ) ان واسمها وخبرها وبما متعلقان بعليم وجملة يفعلون لا محل لها لأنها صلة ما سواء كانت موصولة أو مصدرية .

البلاغة :

مخالفة حروف الجر :

وهذا باب تقدمت الاشارة اليه في الأنفال وهو ينطوي على السر في مخالفة حروف الجر وأكثر الناس يضعون هذه الحروف في غير مواضعها ويجهلون الدقائق الكامنة في وضعها حيث وضعت وهنا عدى فعل هدى إلى الحق بإلى مرتين وفي الثلاثة عداه باللام ، والنحاة يغفلون عن هذا السر ويقولون إن ما يصح جره بإلى يجوز جره باللام التي تفيد الغاية مثلها ولا عكس فلا يقال في قلت له : قلت اليه ، ويقولون الماء في الكأس لأن في للظرفية ويجيزون التعدي بالباء لأنها تخلفها في الظرفية ولا يجوز أن يقال في مررت به : مررت فيه ، إذا تقرر هذا نقول ، واللّه أعلم ، ان هناك سرا وراء الصورة فالهداية لمّا أسندت إليهم وجبت تعديتها بإلى التي تفيد البعد كأنها ضمنا بعيدة عنهم ولكنها لما أسندت إلى اللّه تعالى وجب تعديتها باللام التي تفيد القرب كأنها من خصائصه وحده وملك يمينه وهو المنفرد بها على وجه الديمومة والكمال وستأتي نماذج من هذه المخالفة السامية .

[سورة يونس (10) : الآيات 37 إلى 40]

وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (37) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (38) بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40)

الإعراب :

)

وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ) الواو استئنافية وما نافية وكان واسمها والقرآن بدل من هذا وان وما في حيزها خبر كان أي افتراء . (وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) الواو عاطفة ولكن مخففة مهملة وتصديق معطوف على افتراء المؤولة ووقعت لكن أحسن موقع لأنها بين نقيضين وهما الكذب والصدق ولهذا لا حاجة إلى الاوجه التي تكلفها بعض الأئمة وهي سائغة ومقبولة ولكن ما أوردناه أولى بالتقديم والذي مضاف لتصديق وبين ظرف متعلق بمحذوف صلة

الموصول ويديه مضاف لبين بمعنى أمامه . (وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ) وتفصيل عطف على تصديق ولا نافية للجنس وريب اسمها مبني على الفتح وفيه خبر لا ومن رب العالمين حال وجملة لا ريب فيه معترضة وهو الظاهر بين تفصيل ومن رب العالمين والتقدير ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب كائنا من رب العالمين وجنح الزمخشري إلى جعل لا ريب فيه حالا داخلا في حيز الاستدراك كأنه قيل ولكن كان تصديقا وتفصيلا منتفيا عنه الريب كائنا من رب العالمين ولك أن تعلق من رب العالمين بتفصيلا ويكون لا ريب فيه اعتراضا .

)

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ) أم عاطفة منقطعة فهي بمعنى بل حتى لقد وردت قراءة شاذة بها فهي للاضراب الانتقالي ، والهمزة للاستفهام الانكاري للواقع واستبعاده ويجوز أن تكون متصلة وحينئذ فلا بد من حذف جملة ليصح التعادل والتقدير أيقرون به أم يقولون افتراه وجملة افتراه مقول القول . (قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) الفاء الفصيحة أي قل تبكيتا لهم إن كان الأمر كما تقولون فأتوا وأتوا فعل أمر وفاعل وبسورة جار ومجرور متعلقان بأئتوا ومثله صفة . (وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) وادعوا عطف على فأتوا والواو فاعل ومن اسم موصول مفعول به وجملة استطعتم صلة ومن دون اللّه حال وإن شرطية وكنتم فعل الشرط والتاء اسم كان وصادقين خبر كان وجواب الشرط محذوف أي فأتوا

وادعوا . (بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) بل حرف إضراب وعطف وكذبوا فعل وفاعل وبما متعلقان بكذبوا وجملة لم يحيطوا صلة ما والواو للحال ويجوز أن تكون عاطفة أي بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وبما لم يأتهم تأويله ، أو هذه الجملة في محل نصب على الحال أي كذبوا به حال كونهم لم يفهموا ما كذبوا به ولا بلغة عقولهم ، ولما حرف جازم ويأتهم مضارع مجزوم بلما والهاء

(272/363)

مفعول به وتأويله فاعل يأتهم ويجوز أن تكون الواو للعطف والجملة معطوفة على لم يحيطوا فتكون داخلة في حكم الصلة ولمجيء " ما " سر ستقف عليه في باب البلاغة . (كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) الكاف نعت لمصدر محذوف أي كذلك التكذيب كذبوا رسلهم ، وكذب الذين فعل وفاعل ومن قبلهم صلة الذين ، فانظر : الفاء عاطفة على محذوف أي فأهلكنا فانظر وكيف اسم استفهام في موضع نصب على أنه خبر كان ولا يصح أن يعمل فيه الفعل فانظر لأن ما قبل الاستفهام لا يعمل فيه وعاقبة اسمها والظالمين مضاف اليه . (وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ) ومنهم خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر وجملة يؤمن به صلة وجملة ومنهم من لا

يؤمن عطف على الجملة السابقة وربك مبتدأ وأعلم خبر وبالمفسدين جار ومجرور متعلقان بأعلم.

البلاغة:

ل" لما " في قوله تعالى " بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله " سر عجيب أفاد الكلام معنى لم يكن ليتأتى لو لا دخولها لأنها تفيد التوقع بعد نفي الإحاطة بعلمه فقد أفادت الأمور التالية:

1- انهم كذبوا على البديهة قبل أن يتدبروه ويكتنهوا مطاويه.

2- الإصرار على التقليد الأعمى ومساوقة آبائهم الذين طبعوا على اللجاج والسفسطة وإنكار الحق رغم ظهوره ونصاعته.

3- ان التكذيب قبل الإحاطة بالعلم ربما يوهم لهم عذرا فجاءت كلمة " لما " حاسمة مشعرة بأنهم قد أحاطوا بعلمه قطعا لحججهم وتحقيقا لشقائهم.

[سورة يونس (10) : الآيات 41 إلى 44]

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (42) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ (43) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44)

الإعراب :

(وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ) الواو عاطفة وإن شرطية وكذبوك فعل وفاعل ومفعول به وهو في محل جزم فعل الشرط ، فقل الفاء رابطة لأن ما بعدها جملة طلبية وقل فعل أمر ولي خبر مقدم وعملي مبتدأ مؤخر ولكم عملكم عطف وجملة لي عملي في محل نصب مقول القول . (أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ) أنتم مبتدأ وبريئون خبر ومما متعلقان ببريئون وجملة أعمل صلة الموصول . (وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) عطف على ما تقدم والاعراب ظاهر . (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ) الواو عاطفة ومنهم خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر ويستمعون صفة لمن إذا كانت نكرة موصوفة أي ناس يستمعون وصلة إذا كانت موصولة وأعاد الضمير جمعا مراعاة لمعنى من والأكثر مراعاة لفظه كقوله " ومنهم من ينظر إليك " وقد تقدمت الاشارة إلى ذلك مرارا وإليك

متعلقان بيسمعون . (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ) الهمزة للاستفهام الانكاري والفاء عاطفة للتعقيب وفيه الوجهان المشهوران من اعتبار الحذف للمعطوف عليه أو اعتبار التقديم والتأخير وقد تقدمت الاشارة إليهما والواو عاطفة ولو وصلته وكانوا كان واسمها وجملة لا يعقلون خبرها . قال الزجاج : معنا ولو كانوا جهالا بالإضافة إلى الصمم وإذا اجتمع سلب السمع والعقل فقد تم الأمر وفقد الإنسان كل خصائص انسانية . (وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ) عطف على سابقتها ومثيلتها ولكنه حمل الضمير هنا على لفظ من والفرق بين الموضعين أن الغالب على المستمعين أن يكونوا جماعة والغالب على الناظر أن يكون مفردا . (أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ) عطف على ما تقدم والمعنى ولو انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة وجواب لو في الجملتين محذوف لدلالة قوله أفأنت تسمع الصم وقوله أفأنت تهدي العمي وكل منهما معطوف على جملة مقدرة مقابلة لها وكلتاهما في موضع الحال من مفعول الفعل السابق أي أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون ، أفأنت تهدي العمي لو كانوا يبصرون ولو كانوا لا يبصرون أي لا تسمعهم ولا تهديهم على كل حال وسيأتي المزيد من هذا التشبيه في باب البلاغة . (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا) إن حرف مشبه بالفعل والله اسمها وجملة لا يظلم خبرها والناس مفعول به وشيئا مفعول مطلق أي شيئا من الظلم ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا ليظلم بمعنى لا ينقص الناس

شيئا من أعمالهم .

(وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) الواو حالية ولكن حرف استدراك ونصب والناس اسمها وأنفسهم مفعول مقدم ليظلمون وجملة يظلمون خبر لكن .

البلاغة :

1- الاستعارة التمثيلية :

(275/363)

في قوله تعالى " ومنهم من يستمعون إليك " إلى آخر الآية استعارة تمثيلية وقدم تقدم القول ان الاستعارة التمثيلية هي تركيب استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة فقد شبههم في عدم الاهتداء بالصم والعمي بل هم أعظم فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ولأن الأصم العاقل ربما استعان بالفراسة على الاستدلال والأعمى الذي له في قلبه بصيرة وقد يحدس ويتظنّن وقد جاء المشبه به مركبا لأن المشبه مركب أيضا ولو أنه لجأ إلى التشبيه لضؤل الأثر الفني ولم تكن له تلك القيمة التي نلاحظها في الاستعارة لان الاستعارة وان تكن مبنية على المشاهدة إلا أن تركيبها يحملنا على تناسي التشبيه ويدعونا لتخيل صورة جديدة وهي من ناحية اللفظ- كما ترى في الآية- تترك التعبير

الثنائي أي المشبه والمشبه به وتستعمل التعبير الآحادي الذي يدعي أن ليس هناك إلا شيء واحد نتحدث عنه ويبقى للابتكار أثره في عقد الاستعارة الموفقة وفي هذا المضمار تتجلى عبقرية الفنانين والمبدعين .

هذا وقد رمق أبو الطيب سماء هذه البلاغة بقوله :

وإذا خفيت على الغبي فعاذر أن لا تراني مقلة عمياء

يريد أنه إذا خفي مكانه على الغبي وهو الجاهل الذي لا يعرف شيئًا ولم يعرف قدري ولم يقر بفضلي فأنا أعذره لأن الجاهل كالأعمى ،

والمقلة العمياء إن لم تر فهي في عذر لعماها وكذلك الجاهل الذي يجهلني ويجهل قدري ومن قبل المتنبي قيل :

وقد بهرت فما أخفى على أحد إلا على أكمه لا يعرف القمرا

2- التهذيب :

(276/363)

وفي هذه الآيات المتقدمة فن بديعي يقال له فن التهذيب وقد أطال فيه علماء هذا الفن ويمكن تلخيصه بأنه وصف يعم كل كلام منتخل وهو ترداد النظر في الكلام بعد عمله ،

وإمعان الفكر في تهذيبه وتنقيحه نظما كان أو نثرا ، وكشف ما يشكل من عويص معانيه وغريب إعرابه وطرح ما يتجافى عن مواطن الرقة من لفظ قاس وكلمة نابية جافية وقد عبر عنه أبو تمام في وصيته للبحتري ، نقل عن أبي عبادة قال : "كنت في حداثتي أروم الشعر وأرجع فيه إلى طبع سليم ولم أكن وقفت له على تسهيل مأخذ ووجوه اقتضاب حتى قصدت أبا تمام وانقطعت اليه فكان أول ما قال لي : يا أبا عبيدة تخير الأوقات وأنت قليل الهموم ، صفر من الغموم ، واعلم أن العادة في الأوقات إذا قصد الإنسان تأليف شيء أو حفظه أن يختار وقت السحر ولا تعمل نظما ولا نثرا عند الملل فإن الكثير منه قليل والخواطر ينابيع إذا رفقت بها جمت ، وإذا عنفت عليها نزحت ، وترنم بالشعر وقت عمله فإنه يعين عليه وقد يتخيل الشاعر الشعر الجيد فيمكنه مرة ولا يمكنه أخرى وإياك وتعقيد المعاني واجعل المعنى الشريف في اللفظ اللطيف لئلا يتلف أحدهما الآخر ومتى عصى الشعر اتركه ومتى طاوعك عاوده وروّح الخاطر إذا كلّ واعمل في أحب المعاني إليك وفي كل ما يوافقه طبعك فالنفوس تعطي على الرغبة ولا تعطي على الإكراه واعمل الأبيات متفرقة على ما يجود به الخاطر ثم انظمها في الآخر وحصل المبدأ والمقطع والمخرج فهو أصعب ما في القصيدة وميّز بفكرك محطّ الرسالة ومصبّ القصيدة فإنه أسهل عليك وانظمها أولا وهذبها آخرا " .

التهذيب في الآية :

أما الآية التي نحن بصدد البحث فيها ، فهي قوله تعالى " ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون " فإن لقائل أن يقول : ما فائدة الفاصلتين وقد أغنى عنهما ما قبلهما ؟ فيقال في الكلام تقديم وتأخير إذا علم سقط معه السؤال وهو أن يقال : " ومنهم من ينظر إليك ولو كانوا لا يبصرون أفأنت تهدي العمي " والاخرى كذلك ، ويرد على ذلك قول من يقول : فما الداعي إلى وضع الكلام على التقديم والتأخير الذي هو أحد أسباب التعقيد ؟ قلت : الداعي اليه توخي الإتيان بمقاطع الكلام متماثلة مع ما قبلها ومع ما بعدها من الفواصل فإن قبلها : " وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون " . وبعدها " إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم كانوا يظلمون " ومعظم فواصل السورة على هذه الزنة والتقفية .

[سورة يونس (10) : الآيات 45 إلى 47]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (45) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ

اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ (46) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (47)

الاعراب :

)

(278/363)

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ) الظرف متعلق بيتعارفون على أصح الأقوال وجملة يحشرهم مضاف إليها وكأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وجملة لم يلبثوا خبر كأن وجملة كأن لم يلبثوا جملة حالية من الهاء في يحشرهم وإلا أداة حصر وساعة ظرف متعلق بيلبثوا ومن النهار صفة لساعة . (يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ) الجملة حالية من الواو في يلبثوا فتكون حالا متداخلة أو من الضمير في يحشرهم فتكون حالا مترادفة ، وبينهم ظرف متعلق بيتعارفون والمعنى بعد هذا الاعراب إن الخلق يعرف بعضهم بعضا في ذلك الوقت كما كانوا في الدنيا وكأنهم لم يمكثوا في الدنيا إلا ساعة من النهار ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا العذاب ويتبرأ بعضهم من بعض ، وهناك أعاريب أخرى يضيق عن استيعابها المجال وما أوردناه أقربها . (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ) قد حرف تحقيق

وخسر الذين فعل وفاعل وجملة كذبوا صلة وبلقاء اللّه جار ومجرور متعلقان بكذبوا وجملة قد خسر مستأنفة والواو عاطفة وما نافية وكان واسمها ومهتدين خبرها وهي معطوفة على قد خسر أو على صلة الذين لأن من كذب باللّه غير مهتد . (وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ) إن شرطية وما زائدة ونرينك فعل مضارع مبني على الفتح في محل جزم فعل

(279/363)

الشرط والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن والكاف مفعول به وبعض مفعول ثان والذي مضاف اليه وجملة نعدهم صلة وأو حرف عطف ونتوفينك عطف على نرينك . (فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ) الفاء رابطة وإلينا خبر مقدم ومرجعهم مبتدأ مؤخر والجملة جواب الشرط ثم حرف عطف لا للترتيب الزماني بل لترتيب الأخبار واللّه مبتدأ وشهيد خبر وعلى ما يفعلون متعلقان بشهيد وجملة يفعلون صلة . (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ) لكل خبر مقدم وأمة مضاف لكل ورسول مبتدأ مؤخر (فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) الفاء عاطفة على صفة رسول أي يبعث إليهم فإذا ، وإذا ظرف مستقبل وجملة جاء رسولهم مضاف إليها وجملة قضي لا محل لها وبينهم ظرف متعلق بقضي

وبالقسط حال من فاعل قضى وهم الواو حرف عطف أو حالية وهم مبتدأ وجملة لا يظلمون خبر.

[سورة يونس (10) : الآيات 48 إلى 52]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (48) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (49) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52)

الاعراب:

)

(280/363)

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) الواو استئنافية ويقولون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل ومتى استفهام عن الزمان متعلق بمحذوف خبر مقدم وهذا مبتدأ مؤخر والوعد بدل وهذا التعبير بمثابة استبعاد لما وعدوه من عذاب وان شرطية وكنتم

فعل الشرط والتاء اسم كان وصادقين خبرها والجواب محذوف أي فمتى هذا الوعد ؟ (قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ) جملة لا أملك مقول القول ولنفسي متعلقان بأملك وضرا مفعول به ولا نفعا عطف على ضرا وإلا أداة استثناء أو حصر لوجود النفي وما اسم موصول مستثنى قيل الاستثناء متصل وقيل منقطع وإذا كانت " إلا " حصرا فما بدل من ضرا ونفعا وجملة شاء اللّه صلة . (لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) تتمة مقول القول ولكل خبر مقدم وأمة مضاف اليه وأجل مبتدأ مؤخر . (إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ) إذا ظرف مستقبل وجملة جاء مضاف إليها وأجلهم فاعل جاء والفاء رابطة ولا نافية وجملة يستأخرون لا محل لها لأنها جواب إذا وساعة ظرف متعلق بيستأخرون ولا يستقدمون عطف على فلا يستأخرون . (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً) قل فعل أمر وفاعله أنت أي محمد وجملة أرأيتم مقول القول وقد تقدم الكلام في سورة الأنعام على أرأيتم وقلنا هناك أن العرب تضمن أرأيت معنى أخبرني وانها تتعدى إذ ذاك إلى مفعولين وان المفعول الثاني يكون غالبا جملة استفهام ينعقد منها

مع ما قبلها مبتدأ وخبر تقول العرب أرأيت زيد ما صنع والمعنى أخبرني عن زيد ما صنع ، إذا ذكرت هذا فأرأيتم هنا المفعول الاول لها محذوف ولا يصح أن تقع جملة الشرط موقعه والمسألة من باب التنازع تنازع أرأيتم وإن أتاكم في قوله عذابه وإعمال الثاني هو المختار فلما أعمل حذف من الاول والمعنى قل لهم يا محمد أخبروني عن عذاب اللّه إن أتاكم أي شيء تستعجلون منه وليس شيء من العذاب يستعجله عاقل لأن العذاب كله مرّ المذاق سيء المغبة موجب للنفور منه ، وإن شرطية وأتاكم فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والجواب جملة الاستفهام على تقدير الفاء في الجملة الاسمية وبيا تا منصوب على الظرف متعلق بأتاكم ، أو نهارا عطف عليه . (ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) ما يجوز أن يكون في موضع رفع وذلك إذا كان ذا بمعنى الذي والمعنى ما الذي يستعجل منه المجرمون فيكون ما مبتدأ والذي خبره ويجوز أن يكون في موضع نصب وذلك إذا جعلت ما وذا اسما واحدا والمعنى أي شيء يستعجل منه المجرمون فيكون مفعول يستعجل والمجرمون فاعل يستعجل . (أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) أثم الهمزة للاستفهام الانكاري وثم حرف عطف وإذا ظرف مستقبل وما زائدة وجملة وقع في محل جر بالإضافة إليها وجملة آمنتم به صلة والظرف متعلق بآمنتم والآن الهمزة للاستفهام الانكاري والآن ظرف متعلق بمحذوف يفهم من سياق الكلام تقديره آلآن به تؤمنون والواو حالية وقد حرف تحقيق وكنتم كان واسمها وبه جار ومجرور متعلقان بتستعجلون وجملة تستعجلون

خبر كنتم . (

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) ثم حرف عطف وقيل فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر وللذين متعلقان بقيل وجملة ظلموا صلة وجملة ذوقوا مقول القول وعذاب

(282/363)

مفعول به والخلد مضاف اليه وهل حرف استفهام وتجزون فعل مضارع ونائب فاعل وإلا أداة حصر وبما متعلقان بتجزون وجملة كنتم صلة وجملة تكسبون خبر كنتم .

البلاغة :

في قوله : بياتا ونهارا ، وضرا ونفعا طباق تكرر فسمي مقابلة ، واستعارة مكنية في قوله ذوقوا عذاب الخلد وقد تقدمت الاشارة إلى ذلك كله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 4 صـ 200 . 259 ﴾

(283/363)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والستون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/364)

الجزء الرابع والستون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 53 ﴾ من سورة يونس عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 61 ﴾ من نفس السورة

(4/364)

قوله تعالى ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انقضى ما اشتملت عليه الآية من التهديد وصادع الوعيد ، أخبر تعالى أنهم صاروا إلى ما هو جدير بسامع ذلك من النزول عن ذلك العناد إلى مبادىء الانقياد بقوله تعالى :

﴿ ويستنبئونك ﴾ عطفاً على قوله " ويقولون متى هذا الوعد " أي ويطلبون منك الإنباء وهو الإخبار العظيم عن حقيقة هذا الوعد الجسيم ، ويمكن أن يكون ذلك منهم على طريق الاستهزاء كالأول ، فيكون التعجيب والتوبيخ فيه بعد ما مضى من الأدلة أشد

﴿ أحق هو ﴾ أي أثابت هذا الذي تتوعدنا به أم هو كالسحر لا حقيقية له كما تقدم أنهم قالوه ﴿ قل ﴾ أي في جوابهم ﴿ إي وربي ﴾ أي المحسن إليّ المدبر لي والمصدق لجميع ما

آتي به ؛ ولما كانوا منكرين ، أكد قوله : ﴿ إنه لحق ﴾ أي كائن ثابت لا بد من نزوله بكم .

ولما كان الشيء قد يكون حقاً ، ويكون الإنسان قادراً على دفعه فلا يهوله ، قال نفياً ذلك : ﴿ وما أنتم ﴾ أي لمن توعدكم ﴿ بمعجزين ﴾ فيما يراد بكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 452 . 453 ﴾

(5/364)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53) ﴾

اعلم أنه سبحانه أخبر عن الكفار بقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس : 48] .

وأجاب عنه بما تقدم فحكى عنهم أنهم رجعوا إلى الرسول مرة أخرى في عين هذه الواقعة وسألوه عن ذلك السؤال مرة أخرى وقالوا : أحق هو واعلم أن هذا السؤال جهل محض من وجوه : أولها : أنه قد تقدم هذا السؤال مع الجواب فلا يكون في الإعادة فائدة .

وثانيها : أنه تقدم ذكر الدلالة العقلية على كون محمد رسولاً من عند الله ، وهو بيان كون

القرآن معجزاً ، وإذا صحت نبوته لزم القطع بصحة كل ما يخبر عن وقوعه ، فهذه المعاني توجب الإعراض عنهم ، وترك الالتفات إلى سؤالهم ، واختلفوا في الضمير في قوله : ﴿ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ قيل : أحق ما جئتنا به من القرآن والنبوة والشرائع .

وقيل : ما تعدنا من البعث والقيامة .

وقيل : ما تعدنا من نزول العذاب علينا في الدنيا .

ثم إنه تعالى أمره أن يجيبهم بقوله : ﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ والفائدة فيه أمور : أحدها : أن يستمليهم ويتكلم معهم بالكلام المعتاد ومن الظاهر أن من أخبر عن شيء ، وأكده بالقسم فقد أخرجه عن الهزل وأدخله في باب الجد .

وثانيها : أن الناس طبقات فمنهم من لا يقر بالشيء إلا بالبرهان الحقيقي ، ومنهم من لا ينتفع بالبرهان الحقيقي ، بل ينتفع بالأشياء الإقناعية ، نحو القسم فإن الأعرابي الذي جاء الرسول عليه السلام ، وسأل عن نبوته ورسالته اكتفى في تحقيق تلك الدعوى بالقسم ، فكذا ههنا .

(6/364)

ثم إنه تعالى أكد ذلك بقوله : ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ ولا بد فيه من تقدير محذوف ، فيكون المراد وما أنتم بمعجزين لمن وعدكم بالعذاب أن ينزله عليكم والغرض منه التنبيه على أن أحداً لا يجوز أن يمانع ربه ويدافعه عما أراد وقضى ، ثم إنه تعالى بين أن هذا الجنس من الكلمات ، إنما يجوز عليهم ما داموا في الدنيا فأما إذا حضروا محفل القيامة وعاينوا قهر الله تعالى ، وآثار عظمته تركوا ذلك واشتغلوا بأشياء أخرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 89.90 ﴾

(7/364)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ ﴾ أي يستخبرونك ، وهو طلب النبأ .

﴿ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : البعث ، قاله الكلبي .

الثاني : العذاب في الآخرة .

﴿ قُلْ وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ فأقسم مع إخباره أنه حق تأكيداً .

﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بممتنعين .

الثاني : بسابقين ، قاله ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(8/364)

وقال ابن عطية فى الآيات :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

المعنى : قال يا أيها الكفرة المستعجلون عذاب الله عز وجل ﴿ أرأيتم إن أتاكم عذابه ﴾ ليلاً وقت المبيت ، يقال : بيت القوم القوم إذا طرقوهم ليلاً بحرب أو نحوها ﴿ أو نهاراً ﴾ لكم منه منعة أو به طاقة ؟ فماذا تستعجلون منه ، وأنتم لا قبل لكم به ؟ و" ما " ابتداء و" ذا " خبره ، ويصح أن تكون ﴿ ماذا ﴾ بمنزلة اسم واحد في موضع رفع بالابتداء وخبره الجملة التي بعده ، وضعف هذا أبو علي وقال : إنما يجوز ذلك على تقدير إضمار في ﴿ يستعجل ﴾ وحذفه كما قال [أبو النجم] : [الرجز]

كله لم أصنع . . . وزيدت ضربت قال : ويصح أن تكون ﴿ ماذا ﴾ في حال نصب ل ﴿ يستعجل ﴾ ، والضمير في ﴿ منه ﴾ يحتمل أن يعود على الله عز وجل ، ويحتمل أن يعود على " العذاب " وقوله ﴿ أثم إذا ما وقع ﴾ الآية ، عطف بقوله ﴿ ثم ﴾ جملة القول على

ما تقدم ثم أدخل على الجميع ألف التقرير ، ومعنى الآية : إذا وقع العذاب وعاينتموه آمنتم به حينئذ ، وذلك غير نافعكم بل جوابكم الآن وقد كنتم تستعجلونه مكذبين به ، وقرأ طلحة بن مصرف " أَثَم " بفتح الثاء ، وقال الطبري في قوله " ثُم " بضم الثاء ، معناه هنالك وقال : ليست " ثُم " هذه التي تأتي بمعنى العطف .

(9/364)

قال القاضي أبو محمد : والمعنة صحيح على أنها " ثم " المعروفة ولكن إطباقه على لفظ التنزيل هو كما قلنا ، وما ادعاه الطبري غير معروف و ﴿ الآن ﴾ أصله عند بعض النحاة آن فعل ماض دخلت عليه الألف واللام على حدها في قوله : الحمار اليجدع ولم يتعرف بذلك كل التعريف ولكنها لفظة مضمنة معنى حرف التعريف ولذلك بنيت على الفتح لتضمنها معنى الحرف ولوقوعها موقع المبهم لأن معناها هذا الوقت ، وقرأ الأعمش وأبو عمرو وعاصم والجمهور ﴿ الآن ﴾ بالمد والاستفهام على حد التوبيخ ، وكذلك ﴿ الآن وقد عصيت ﴾ [يونس : 91] وقرأها باستفهام بغير مد طلحة والأعرج . وقوله تعالى : ﴿ ثم قيل للذين ظلموا ﴾ الآية ، هو الوعيد الأعظم بالخلود لأهل الظلم الأخص الذي هو ظلم الكفر لا ظلم المعصية ، وقوله ﴿ هل تجزون ﴾ توقيف وتوبيخ ، ونصت هذه الآية

على أن الجزاء في الآخرة ، هو على تكسب العبد ، وقوله ﴿ ويسألونك ﴾ معناه يستخبرونك ، وهي على هذا تتعدى إلى مفعولين : أحدهما الكاف ، والآخر في الابتداء والخبر ، وقيل هي بمعنى يستعلمونك ، فهي على هذا تحتاج إلى مفعولين ثلاثة : أحدها الكاف ، والابتداء والخبر يسد مسد المفعولين ، و ﴿ أحق هو ﴾ قيل الإشارة إلى الشرع والقرآن ، وقيل : إلى الوعيد وهو الأظهر ، وقرأ الأعمش " الحق هو " بمدة وبلام التعريف ، وقوله ﴿ إي ﴾ ، هي لفظة تتقدم القسم وهي بمعنى " نعم " ويجيء بعدها حرف القسم وقد لا يجيء ، تقول : ﴿ إي وربي ﴾ وإي ربي ﴿ معجزين ﴾ معناه مفلتين ، وهذا الفعل أصله تعدية عجز لكن كثر فيه حذف المفعول حتى قالت العرب : أعجز فلان ، إذا ذهب في الأرض فلم يقدر عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(10/364)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ ﴾ أي يستخبرونك يا محمد عن كون العذاب وقيام الساعة .

﴿ أَحَقٌّ ﴾ ابتداء .

﴿ هُوَ ﴾ سدّ مسدّ الخبر ؛ وهذا قول سيبويه .

ويجوز أن يكون "هو" مبتدأ ، و "أحق" خبره .

﴿ قُلْ إِي ﴾ "إي" كلمة تحقيق وإيجاب وتأكيد بمعنى نعم .

﴿ وربي ﴾ قسم .

﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ جوابه ، أي كائن لا شك فيه .

﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي فائتين عن عذابه ومجازاته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(11/364)

وقال أبو حيان :

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ﴾

أي يستخبرونك .

وأحق هو الضمير عائد على العذاب .

وقيل : على الشرع والقرآن .

وقيل : على الوعيد ، وقيل : على أمر الساعة ، والجملة في موضع نصب فقال الزمخشري :

بيقولون أحق هو فجعل يستنبئونك تتعدى إلى واحد .

وقال ابن عطية : معناه يستخبرونك ، وهي على هذا تتعدّى إلى مفعولين : أحدهما الكاف ، والآخر في الابتداء ، والخبر فعلى ما قال : يكون يستنبئونك معلقة .

وأصل استنبأ أن يتعدّى إلى مفعولين : أحدهما بعن ، تقول : استنبأت زيداً عن عمرو أي طلبت منه أن ينبئني عن عمرو ، والظاهر أنها معلقة عن المفعول الثاني .

قال ابن عطية : وقيل هي بمعنى يستعلمونك .

قال : فهي على هذا تحتاج إلى مفاعيل ثلاثة : أحدها الكاف ، والابتداء ، والخبر سد مسد المفعولين انتهى .

وليس كما ذكر ، لأنّ استعلم لا يحفظ كونها متعدية إلى مفاعيل ثلاثة ، لا يحفظ استعلمت زيداً عمراً قائماً فتكون جملة الاستفهام سدت مسد المفعولين ، ولا يلزم من كونها بمعنى يستعلمونك أنْ تتعدى إلى ثلاثة ، لأنّ استعلم لا يتعدّى إلى ثلاثة كما ذكرنا .

وارتفع هو على أنه مبتدأ ، وحق خبره .

وأجاز الحوفي وأبو البقاء أن يكون حق مبتدأ وهو فاعل به سد مسد الخبر ، وحق ليس اسم فاعل ولا مفعول ، وإنما هو مصدر في الأصل ، ولا يبعد أن يرفع لأنه بمعنى ثابت .

وهذا الاستفهام منهم على جهة الاستهزاء والإنكار .

وقرأ الأعمش : الحق .

قال الزمخشري : وهو أدخل في الاستهزاء لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل ، وذلك أن اللام

للجنس ، فكأنه قيل : أهو الحق لا الباطل ، أو أهو الذي سميتموه الحق ؟ انتهى .

وأمر تعالى نبيه أن يقول مجيباً لهم : قل إي وربي ، أي نعم وربي .

وإي تستعمل في القسم خاصة ، كما تستعمل هل بمعنى قد فيه خاصة .

قال معناه الزمخشري قال : وسمعتهم يقولون في التصديق أي و ، فيصلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده انتهى .

(12/364)

ولا حجة فيما سمعه الزمخشري من ذلك لعدم الحجية في كلامه لفساد كلام العرب إذ ذاك وقبله بأزمان كثيرة .

وقال ابن عطية : هي لفظة تتقدّم القسم ، وهي بمعنى نعم ، ويجيء بعدها حرف القسم وقد لا يجيء ، تقول : أي ربي أي وربي انتهى .

وقد كان يكتفي في الجواب بقوله : إي وربي ، إلا أنه أوكد بإظهار الجملة التي كانت تضمر بعد قوله : إي وربي ، مسوقة مؤكدة بأنّ .

واللام مبالغة في التوكيد في الجواب ، ولما تضمن قولهم أحق هو السؤال عن العذاب ، وكان سؤالاً عن العذاب اللاحق بهم لا عن مطلق عذاب يقع بمن يقع .

قيل : وما أنتم بمعجزين أي فائتين العذاب المسؤول عنه ، بل هو لاحق بكم .

واحتملت هذه الجملة أن تكون داخلة في جواب القسم ، فتكون معطوفة على الجواب قبلها .

واحتمل أن تكون إخباراً ، معطوفاً على الجملة المقولة لا على جواب القسم .

وأعجز الهمزة فيه للتعدية كما قال : ولن نعجزه هرباً ، لكنه كثر فيه حذف المفعول حتى قالت العرب : أعجز فلان إذا ذهب في الأرض فلم يقدر عليه ، وقال الزجاج : أي ما أنتم ممن يعجز من يعذبكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(13/364)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ ﴾ أي يستخبرونك فيقولون على طريقة الاستهزاءِ أو الإنكار : ﴿ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ أحقٌّ خبرٌ قُدم على المبتدإ الذي هو الضميرُ للاهتمام به ويؤيده قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ أو مبتدأٌ والضميرُ مرتفعٌ به سادٌّ مسدَّ الخبر ، والجملةُ في موقع النصب بيستنبئونك ، وقرىء أألحقُّ هو ، تعريضاً بأنه باطلٌ كأنه قيل : أهو الحق لا الباطل ؟ أو أهو الذي سميتموه الحقَّ ؟ ﴿ قُلْ ﴾ لهم غيرَ ملتفتٍ إلى استهزائهم مغضياً عما قصدوا وبانياً

للأمر على أساس الحكمة ﴿ إِي وَرَبِّي ﴾ (إي) من حروف الإيجابِ بمعنى نعم في القسم خاصةً كما أن هل بمعنى قد في الاستفهام خاصةً ، ولذلك يوصل بواوه ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي العذابُ الموعودُ ﴿ لَحَقٌّ ﴾ لثابتٌ ألبتةَ ، أُكّد الجوابُ بأتم وجوهِ التأكيدِ حسب شدةِ إنكارِهم وقوتِه ، وقد زيد تقريراً وتحقيقاً بقوله عز اسمُه : ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي بفائتين العذابَ بالهرب وهو لاحقٌ بكم لا محالة وهو إما معطوفٌ على جواب القسم أو مستأنفٌ سيق لبيانِ عجزِهم عن الخلاص مع ما في من التقدير المذكور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(14/364)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ ﴾

أي يستخبرونك ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ أي العذاب الموعود كما هو الأنساب بالسياق دون ادعاء النبوة الذي جوزه بعضهم ، ورجح عليه أيضاً بأنه لا يتأتى إثبات النبوة لمنكريها بالقسم .

وأجيب بأنه ليس المراد منه إثباتها بل كون تلك الدعوى جداً لا هزلاً أو أنه بالنسبة لمن يقنع

بالإثبات بمثله ، وقد يقال : ما ذكر مشترك الإلزام لأن العذاب الموعود لا يثبت عند الزاعمين أنه افتراء قبل وقوعه بمجرد القسم أيضاً فلا يصلح ما ذكر مرجحاً ، والحق أن القسم لم يذكر للإلزام بل توكيد لما أنكروه ، والاستفهام للإنكار ، والاستنباء على سبيل التهكم والاستهزاء كما هو المعلوم من حالهم فلا يقتضي بقاءه على أصله ، وربما يقال : إن الاستنباء بمعنى طلب النبأ حقيقة لكن لا عن الحقبة ومقابلها بالمعنى المتبادر لأنهم جازمون بالثاني بل المراد من ذلك الجد والهزل كأنهم قالوا : إنا جازمون بأن ما تقوله كذب لكنا شاكون في أنه جد منك أم هزل فأخبرنا عن حقيقة ذلك ، ونظير هذا قولهم : ﴿ أفترى عَلَى الله كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾ [سبأ : 8] على ما قرره الجماعة إلا أن ذلك خلاف الظاهر ، و﴿ حَقّ ﴾ خبر قدم على المبتدأ الذي هو ﴿ هُوَ ﴾ ليلى الهمزة المسؤول عنه ، وجوز أن يكون مبتدأ وهو مرتفع به ساد مسد الخبر لأنه بمعنى ثابت فهو حينئذٍ صفة وقعت بعد الاستفهام فتعمل ويكتفي بمرفوعها عن الخبر إذا كان اسماً ظاهراً أو في حكمه كالضمير المنفصل هنا ، والمشهور أن استنبأ تتعدى إلى اثنين أحدهما بدون واسطة والآخر بواسطة عن فالمفعول الأول على هذا ليستنبؤون الكاف والثاني قامت مقامه هذه الجملة ، على معنى يسألونك عن جواب هذا السؤال إذ الاستفهام لا يسأل عنه وإنما يسأل عن جوابه .

والزمخشري لما رأى أن الجملة هنا لا تصلح أن تكون مفعولاً ثانياً معنى لما عرفت ولفظاً لأنه لا يصح دخول عن عليها جعل الفعل مضمناً معنى القول أي يقولون لك هذا ، والجملة في محل نصب مفعول القول .

وقرأ الأعمش ﴿ الحق هُوَ ﴾ بالتعريف مع الاستفهام وهي تؤيد كون الاستفهام للإنكار لما فيها من التعريض لبطلانه المقتضى لإنكاره لإفادة الكلام عليها القصر وهو من قصر المسند على المسند إليه على المشهور ، والمعنى أن الحق ما تقول أم خلافه ، وجعله الزمخشري من قصر المسند إليه على المسند حيث قال كأنه قيل : أهو الحق لا الباطل أو أهوى الذي سميتموه الحق ، وأشار بالترديد إلى أن الغرض من هذا الوجه لا يختلف جعل الحصر حقيقياً تحكماً أو ادعائياً .

واعترض ذلك بأنه مخالف لما عليه علماء المعاني في مثل هذا التركيب .

وفي "الكشف" أنه يتخايل أن الحصر على معنى أهو الحق لا غيره لا معنى أهو الحق لا الباطل على ما قرروه في قولهم : زيد المنطلق والمنطلق زيد ، فعلى هذا لا يسد ما ذكره الزمخشري ولكنه يضمحل بما حققناه في قوله تعالى : ﴿ وَقُودُهَا الناس والحجارة ﴾ [البقرة : 24] وأن انحصار أحدهما في الآخر يلاحظ بحسب المقام وحينئذٍ لا يبالي قدم أو أخر ، وههنا المعنى على حصر العذاب في الحقية لا على حصر الحقية في العذاب .

وقد قال هناك : إن التحقيق أن نحو زيد المنطلق وعكسه إنما يحكم فيه بقصر الثاني أعني الانطلاق على الأول لأن المناسب قصر العام على الخاص ، وكذلك نحو الناس هم العلماء والعلماء هم الناس وإن كان بينهما عموم وخصوص من وجه لأن المقصود بين ، وأما في نحو قولنا : الخاشعون هم العلماء والعلماء هم الخاشعون فالحكم مختلف تقديماً وتأخيراً وأحد القصرين غير الآخر ، فينبغي أن ينظر إلى مقتضى المقام إن تعين أحدهما لذلك حكم به قدم أو أخر وإلا روعي التقديم والتأخير ، وقد يكون القصر متعاكساً نحو زيد المنطلق إذا أريد المعهود وهذا ذاك ، وكذلك الجنسان إذا اتحدا مورداً كقولك : الضاحك الكاتب إلى آخر ما قال ، وكون المعنى ههنا على حصر العذاب في الحقية دون العكس هو المناسب ، ومخالفة علماء المعاني ليست بدعا من صاحب الكشاف وأمثاله ، والحق ليس محصوراً بما هم عليه كما لا يخفى فتدبر ﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ أي قل لهم غير مكترث باستهزائهم مغضياً عما قصدوا بانياً للأمر على أساس الحكمة : نعم إن ذلك العذاب الموعود ثابت ألبتة ، فضمير ﴿ إِنَّهُ ﴾ للعذاب أيضاً ﴿ وإي ﴾ حرف جواب وتصديق بمعنى نعم قيل : ولا تستعمل كذلك إلا مع القسم خاصة كما أن هل بمعنى قد في الاستفهام

خاصة ، ولذلك سمع من كلامهم وصلها بواو القسم إذا لم يذكر المقسم به فيقولون إيو ويوصلون به هاء السكت أيضاً فيقولون : إيوه وهذه اللفظة شائعة اليوم في لسان المصريين وأهل ذلك الصقع .

(17/364)

وادعى أبو حيان أنه يجوز استعمالها مع القسم وبدونه إلا أن الأول هو الأكثر قال : وما ذكر من السماع ليس بحجة لأن اللغة فسدت بمخالطة غير العرب فلم يبق وثوق بالسماع ، وحذف المجرور بواو القسم والاكتفاء بها لم يسمع من موثوق به وهو مخالف للقياس ، وأكد الجواب بأتم وجوه التأكيد حسب شدة إنكارهم وقوته وقد زيد تقريراً وتحقيقاً بقوله جل شأنه : ﴿ لَأْتِيَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي بفائتين العذاب على أنه من فاته الأمر إذا ذهب عنه ، ويصح جعله من أعجزه بمعنى وجده عاجزاً أي ما أنتم بواجدي العذاب أو من يوقعه بكم عاجزاً عن إدراككم وإيقاعه بكم ، وأياً ما كان فالجملة إما معطوفة على جواب القسم أو مستأنفة سيقت لبيان عجزهم عن الخلاص مع ما فيه من التقرير المذكور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(18/364)

وقال القاسمي :

﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ ﴾

أي : يستخبرونك : ﴿ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ أي : الوعد بعذاب الخلد ، أو ادعاء النبوة أو القرآن : ﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي : بفائتين العذاب ، فهو لاحق بكم لا محال ، من (أعجزه) الشيء إذا فاته ، يصح كونه (أعجزه) بمعنى وجده عاجزاً . أي : ما أنتم بواجدي العذاب أو من يوقعه بكم عاجزاً عن إدراككم ، وإيقاعه بكم .

لطائف :

الأولى – دل سؤالهم هذا على محض جهلهم أو عنادهم ، لما ثبت من البرهان القاطع على نبوته بمعجز القرآن ، وإذا صحت النبوة لزم القطع بصحة كل ما ينبئهم عنه ، مما يصدعهم به .

الثانية – إنما أمر بالقسم لاستمالتهم ، وللجري على ما هو المألوف في المحاورة ، من تحقيق المدعي ، فإن من أقسم على خير ، فقد كساه حلة الجدّ ، وخلع عنه لباس الهزل : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ [الطارق : 13 – 14] .

الثالثة – لما كانت الناس طبقات ، كان منهم من لا يسلم إلا ببرهان حقيقي ، ومنهم من لا ينتفع به ، ويسلم إلا بالأمور الإقناعية ، نحو القسم ، كالأعرابي الذي قدم على النبي صلى

الله عليه وسلم وسأله عن رسالته وبعثه ، وأنشده بالذي بعثه ، ثم اقتنع بقوله صلوات الله عليه : < اللهم نعم > فقال : آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قومي ، وأنا ضمام بن ثعلبة ، - رواه البخاري في أوائل كتاب العلم - .

(19/364)

الرابعة - قال ابن كثير : هذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان ، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ : 3] ، وفي التغابن : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن : 7] - انتهى - .

وقد استمد ابن كثير هذا مما ذكره شيخه الإمام ابن القيم في " زاد المعاد " قال : وحلف صلى الله عليه وسلم في أكثر من ثمانين موضعاً ، وأمره الله سبحانه بالحلف في ثلاثة مواضع ، ثم ذكر هذه الآيات ، ثم قال : وكان إسماعيل بن إسحاق القاضي يذاكر أبا بكر بن داود الظاهري ولا يسميه بالفقيه - فتحاكم إليه يوماً هو وخصم له ، فتوجهت اليمين على أبي بكر بن داود ، فتهيأ للحلف ، فقال له القاضي إسماعيل : وتحلف ومثلك يحلف يا أبا بكر

؟ فقال : وما يمنعني عن الحلف ، وقد أمر الله تعالى نبيه بالحلف في ثلاثة مواضع من كتابه ؟ قال : أين ذلك ؟ فسردها أبو بكر ، فاستحسن ذلك منه جداً ، ودعاه بالفقيه من ذلك اليوم . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 35.36 ﴾

(20/364)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ﴾

هذا حكاية فن من أفانين تكذيبهم ، فمرة يتظاهرون باستبطاء الوعد استخفافاً به ، ومرة يُقبلون على الرسول في صورة المستفهم الطالب فيسألونه : أهذا العذاب الخالد ، أي عذاب الآخرة ، حق .

فالجملة معطوفة على جملة ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ [يونس : 48] ، وضمير الجمع عائد إليهم فهم المستنبئون لا غيرهم ، وضمير (هو) عائد إلى ﴿ عذاب الخلد ﴾ [يونس : 52] .

والحق : الثابت الواقع ، فهو بمعنى حاقّ ، أي ثابت ، أي أن وقوعه ثابت ، فأسند الثبوت لذات العذاب بتقدير مضاف يدل عليه السياق إذ لا توصف الذات بثبوت .

وجملة : ﴿ أحق هو ﴾ استفهامية معلقة فعل ﴿ يستنبئونك ﴾ عن العمل في المفعول الثاني ، والجملة بيان لجملة ﴿ يستنبئونك ﴾ لأن مضمونها هو الاستثناء .

والضمير يجوز كونه مبتدأ ، و ﴿ أحقّ ﴾ خبر مقدم .

واستعملوا الاستفهام تَبالُها ، ولذلك اشتمل الجواب المأمور به على مراعاة الحالتين فاعتبر أولاً ظاهر حال سؤالهم فأجيبوا على طريقة الأسلوب الحكيم بحمل كلامهم على خلاف مرادهم تنبيهاً على أن الأولى بهم سؤال الاسترشاد تغليطاً لهم واغتناماً لفرصة الإرشاد بناء على ظاهر حال سؤالهم ، ولذلك أكد الجواب بالتوكيد اللفظي إذْ جمع بين حرف ﴿ إي ﴾ وهو حرف جواب يحقق به المسؤول عنه ، وبين الجملة الدالة على ما دل عليه حرف الجواب ، وبالقسم ، وإنّ ، ولام الابتداء ، وكلها مؤكدات .

والاعتبار الثاني اعتبار قصدهم من استفهامهم فأجيبوا بقوله : ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ .

فجملة : ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ معطوفة على جملة جواب القسم فمضمونها من المقْسم عليه .

ولما كان المقسم عليه جواباً عن استفهامهم كان مضمون ﴿ ما أنتم بمعجزين ﴾ جواباً عن الاستفهام أيضاً باعتبار ما أضمروه من التكذيب ، أي هو واقع وأنتم مصابون به غير مفلتين منه .

وليس فعل ﴿ يستنبئونك ﴾ مستعملاً في الظاهر بمعنى الفعل كما استعمل قوله : ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة ﴾ [التوبة : 64] ، كما تقدم في براءة لأن حقيقة الاستنباء واقعة هنا إذ قد صرحوا بصورة الاستفهام .

و ﴿ إي ﴾ بكسر الهمزة : حرف جواب لتحْقيق ما تضمنه سؤال سائل ، فهو مرادف (نَعم) ، ولكن من خصائص هذا الحرف أنه لا يقع إلا وبعده القسم .

والمعجزون : الغالبون ، أي وما أنتم بغالبين الذي طلبكم ، أي بمفلتين .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين ﴾ في سورة [الأنعام : 134] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(22/364)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ﴾

وهم قد قالوا من قبل : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [يونس : 48] .

وهم هنا قد عادوا للتساؤل . ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ ﴾ أي : يطلبون منك النبأ . والنبأ هو

الخبر المتعلق بشيء عظيم ، وهم يطلبون الخبر منك يا رسول الله ويتساءلون : أهو حق ؟

وكلمة " حق " هنا لها معطيات كثيرة ؛ لأن ﴿ هُوَ ﴾ يمكن أن تعود على أصل الدين قرآناً ؛ ونبوَّة ، وتشريعاً ، وهي كلمة تحمل التصديق بأن القرآن حق ، والتشريع حق ، والنبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم حق ، والقيامة والبعث حق ، والكلام عن العذاب في الدنيا بخذلانهم ونصرة المؤمنين عليهم حق .

إذن : فقولهم : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ [يونس : 53] لها أكثر من مرجع ، كأنهم سألوا : هل القرآن الذي جئت به حق ؟

وهل النبوة التي تدَّعيها حق ؟

وهل الشرائع التي تقول : إن الله أنزلها كمنهج بحكم حركة الإنسان حق ؟

وهل القيامة والبعث حق ؟

وهل العذاب في الدنيا حق ؟

إنها كلمة شاملة يمكن أن تؤول إلى أكثر من معنى .

ويأتي الجواب من الله تعالى :

﴿ قُلْ إِي وربي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ [يونس : 53] .

وأنت حين يستفهم منك أحد قائلاً : هل زيد موجود ؟ فأنت تقول : نعم موجود . ولا تقول له : والله إن زيداً موجود ؛ لأنك لن تؤكد الكلام لمن يسألك ؛ لأنه لا ينكر وجود زيد .

إذن : فأنت لن تؤكد إجابةً ما إلا إذا كان هناك في السؤال شبهة إنكار .

إذن : فأنت تستدل من قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ [يونس : 53] على أن سؤالهم يحمل معاني الإنكار والاستهزاء ؛ ولذلك جاء الجواب ب " أي " وهو حرف جواب يعني : " نعم " ، وتأتي " أي " دائماً مع القسم .

ولكل حرف من حروف الجواب مقام ، فهناك " بلى " وهي تأتي في جواب سؤال منفي ، في مثل قوله تعالى :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [الأعراف : 172] .

(23/364)

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿ إِي وربي ﴾ [يونس : 53] .

تعني : نعم وأقسم بربي إنه لحق . وأنت لا تُقسم على شيء إلا إذا كان السائل عنده شبهة إنكار ، وتأتي ب " إن " لمزيد من هذا التأكيد .

ومثال ذلك في قوله سبحانه :

﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً أَصْحَابَ القرية إِذْ جَآءَهَا المرسلون * إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثنين

فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فقالوا إِنَّآ إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ [يس : 1314] .

وماذا كان رد من بُعث اليهم الثلاثة ؟

﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ الرحمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴾ [يس : 15] .

هكذا كان إنكار المكذبين للرسل الثلاثة شديداً . فقال لهم الرسل :

﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ [يس : 16] .

فكان قولهم هذا مناسباً لإنكار الكافرين الشديد .

إذن : فالتأكيد في أسلوب المسئول إنما يأتي على مقدار الإنكار ، فإن لم يكن هناك إنكار ؛ فلا يحتاج الأمر إلى تأكيد .

أما إذا صادف الكلام إنكاراً قليلاً ، فالتأكيد يأتي مرة واحدة .

وإن صادف الكلام لجاجة في الإنكار جاء التأكيد مرتين .

أما إذا ما صادف الكلام تبجُّحاً في الإنكار فالتأكيد يأتي ثلاث مرات .

وقد علَّم الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم هنا أن يرد على استنبائهم بأن يقول لهم : ﴿ إِي وربي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ [يونس : 53] .

وهنا يقسم الرسول صلى الله عليه وسلم بالرب ؛ لأن الرب هو من كلَّفه ، ثم يؤكد ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ لأن سؤالهم تضمَّن الإنكار والاستهزاء .

وما دام قد قال : ﴿ إِي وربي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ فهم إن لم يؤمنوا فسوف يلقون العذاب ؛ لأنه ليس هناك مَنْجًى من الله تعالى ، ولن تُعْجِزوا الله هرباً ، ولن تعجزوه شفاعة من أحد ، ولن تعجزوه بيعاً ، ولن تعجزوه خُلَّة تتقدم لتشفع لكم .

ثم يأتي قوله سبحانه في نهاية الآية :

(24/364)

﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس : 53] .

وقد أراد الحق سبحانه أن يفسر لمحة من الإعجاز ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى من الممكن أن يقبل شفاعة الشافعين ، ومن الممكن أن يقبل الفداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(25/364)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ : يجوز أن يكونَ " حَقٌّ " مبتدأ و " هو " مرفوعاً بالفاعلية سدَّ مَسَدَّ الخبر ، و " حق " وإن كان في الأصلِ مصدراً ليس بمعنى اسم فاعل ولا مفعول ، لكنه في قوةِ " ثابت " فلذلك رَفَعَ الظاهرَ . ويجوز أن يكون " حَقٌّ " خبراً مقدماً و " هو " مبتدأً مؤخراً .

(26/364)

واختلف في " يَسْتَنْبِئُونك " هذه هل هي متعديةٌ إلى واحد أو إلى اثنين أو إلى ثلاثة ؟ فقال الزمخشري : " ويَسْتَنْبِئونك فيقول : أحقٌّ هو " فظاهرُ هذه العبارةِ أنها متعديةٌ لواحد ، وأن الجملةَ الاستفهاميةَ في محلِّ نصبٍ بذلك القولِ المضمرِ المعطوفِ على " يَسْتَنْبِئُونك " وكذا فَهِم عنه الشيخ أعني تعدِّيَها لواحدٍ . وقال مكي : " أحقٌّ هو ابتداءٌ وخبرٌ في موضعِ المفعولِ الثاني إذا جَعَلْتَ " يستنبؤنك " بمعنى يَسْتَخْبِرونك ، فإذا جَعَلْتَ " يستنبئونك " بمعنى يَسْتَعْلِمونك كان " أحقٌّ هو " ابتداءً وخبراً في موضع المفعولَيْن لأنَّ " أَنْبأ " إذا كان بمعنى أَعْلَم كان متعدياً إلى ثلاثةِ مفعولِيْن يجوزُ الاكتفاءُ بواحدٍ ، ولا يجوزُ الاكتفاء باثنين دون الثالث ، وإذا كانت " أنبأ " بمعنى أَخْبر تَعَدَّتْ إلى مفعولَيْن ، لا يجوز الاكتفاءُ بواحد

دون الثاني : وأنبأ ونبّأ في التعدّي سواءٌ " . وقال ابنُ عطية : " معناه يَسْتَخْبرونك ، وهو على هذا يتعدَّى إلى مفعولين أحدهما الكافُ ، والآخرُ في الابتداء والخبر " فعلى ما قال تكون "يَسْتنبئونك " معلقة بالاستفهام ، وأصل استنبأ أن يتعدَّى إلى مفعولين أحدهما ب " عن " ، تقول : اسْتَنْبأت زيداً عن عمرو أي : طلبت منه أن يُنْبِئَني عن عمرو . ثم قال : " والظاهر أنها تحتاج إلى مفعولِين ثلاثةٍ أحدُهما الكافُ ، والابتداءُ والخبرُ سَدَّ مَسَدَّ المفعولَيْن " . قال الشيخ : " وليس كما ذكر لأن " استعلم " لا يُحْفظ كونُها متعديةً إلى مفاعيلَ ثلاثةٍ ، لا يُحْفظ " استعملت زيداً عمراً قائماً " فتكونُ جملةُ الاستفهامِ سَدَّتْ مَسدَّ المفعولين ، ولا يَلْزَمُ مِنْ كونها بمعنى "يَسْتعلمونك " أن تتعدَّى إلى ثلاثة ؛ لأنَّ " استعلم " لا يتعدَّى إلى ثلاثةٍ كما ذكرنا " .

(27/364)

قلت : قد سَبَقَ أبا محمد إلى هذا مكي بن أبي طالب كما قدَّمْتُ حكايته عنه ، والظاهرُ جوازُ ذلك ، ويكون التعدي إلى ثالث قد حَصَلَ بالسين ، لأنهم نَصُّوا على أن السين تُعَدّي ، فيكونُ الأصلُ : " علم زيدٌ عمراً قائماً " ثم تقول : " استعلمْتُ زيداً عمراً قائماً " ، إلا أنَّ النحويين نَصُّوا على أنه لا يتعدَّى إلى ثلاثةٍ إلا " عَلِم " و " رأى " المنقولَيْن بخصوصيةِ همزة

التعدّي إلى ثالثٍ ، وأنبأ ونَبَّأ وأخبر وخبَّر وحدَّث .

وقرأ الأعمش " آلحقُّ " بلامِ التعريف . قال الزمخشري : " وهو أَدْخَلُ في الاستهزاء لتضمُّنه معنى التعريض بأنه باطلٌ ، ذلك أن اللامُ للجنس وكأنه قيل : أهو الحقُّ لا الباطلُ ، أو : أهو الذي سَمَّيْتموه الحق " .

قوله : ﴿ إي ﴾ حرفُ جوابٍ بمعنى نعم ولكنها تختصُّ بالقسم أي : لا تُسْتعمل إلا في القسم بخلافِ نعم . قال الزمخشري : " وإي بمعنى نعم في القسم خاصةً كما كان " هل " بمعنى " قد " في الاستفهامِ خاصةً ، وسَمِعْتهم يقولون في التصديق " إيْوَ " فيَصِلُونه بواو القسم ولا يَنْطِقون به وحده " . قال الشيخ : " لا حجَّةَ فيما سمعه لعدمِ الحُجة في كلامِ مَنْ سمعه لفسادِ كلامه وكلامِ مَنْ قبله بأزمانٍ كثيرة " . وقال ابن عطية : " وهي لفظةٌ تتقدَّم القسمَ بمعنى نعم ، ويجيءُ بعدها حرفُ القسم وقد لا يجيءُ تقول : إي وربي ، إي ربي " .

(28/364)

قوله : ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ يجوزُ أن تكونَ الحجازيةَ ، وأن تكونَ التميميةَ ، لخفاءِ النصبِ أو الرفع في الخبر . وهذا عند غيرِ الفارسي وأتباعِه ، عني جوازَ زيادةِ الباء في خبر التميمية . وهذه الجملةُ تحتملُ وجهين ، أحدهما : أن تكون معطوفةً على جوابِ

القسم ، فيكونَ قد أجاب القسم بجملتين إحداهما مثبتةٌ مؤكَّدةٌ ب " إنَّ " واللام ، والأخرى منفيةٌ مؤكَّدةٌ بزيادة الباء . والثاني : أنها مستأنفةٌ سِيْقَتْ للإخبار بعَجْزهم عن التعجيز . و " مُعْجز " مِنْ أعجز فهو متعدٍّ لواحدٍ كقوله تعالى : ﴿ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ [الجن : 12] فالمفعول هنا محذوفٌ أي : بمعجزين الله . وقال الزجاج : " أي : ما أنتم مِمَّن يُعْجِزُ مَنْ يُعَذِّبكم " . ويجوز أن يكونَ استُعْمل استعمَال اللازم ؛ لأنه قد كثُر فيه حَذْفُ المفعولِ حتى قالت العرب : " أعْجزَ فلانٌ " : إذا ذهب في الأرض فلم يُقْدَرْ عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 218 . 221 ﴾

(29/364)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53) ﴾

صرِّحْ بالإخبار عند استخبارهم ، وأَعْلِمْ بما يزيل الشُّبْهَةَ عمَّا التَبس على جُهَّالِهم ، وأَكِّدْ إخبارَكَ بما تذكره مِنَ القَسَم واليمين ، مضافاً ذلك إلى ما تُسْلِفُه من التَّبيين . على أنه لا ينفَعهم نُصحُك ، ولا يُؤثّر فيهم وعظُكَ . . كيف لا ؟ وقد جُرِّعوا شرابَ الحُجبة ،

وَوِسُمُوا بَكِيِّ الفُرقة ؛ فلا بصيرة لهم ولا (. . .) ولا فهمَ ولا حصافة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 100 . 101 ﴾

(30/364)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (54) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبرهم بحقيقته ، أخبرهم بما يكون منهم من الظلم أيضاً عند معاينته بالسماح ببذل جميع ما في الأرض حيث لا ينفع البذل بعد ترك المأمور به وهو من أيسر الأشياء وأحسنها فقال : ﴿ ولو أن لكل نفس ظلمت ﴾ أي عند المعاينة ﴿ ما في الأرض ﴾ أي كلها من خزائنها ونفائسها ﴿ لافتدت به ﴾ أي جعلت فدية لها من العذاب لكنه ليس لهم ذلك ، ولو كان من قبل منهم ، فإذا وقع ما يوعدون استسلموا ﴿ وأسروا الندامة ﴾ أي اشتد ندمهم ولم يقدروا على الكلام ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ لأنهم بهتوا لعظم ما دهمهم فكان فعلهم فعل المسر ، لأنهم لم يطيقوا بكاء ولا شكاية ولا شيئاً مما يفعله الجازع ؛ والاستنباء : طلب

النبأ كما أن الاستفهام طلب الفهم ؛ والنبأ : خبر عن يقين في أمر كبير ؛ والحق : عقد على المعنى على ما هو به تدعو لحكمة إليه ، وكل ما بنى على هذا العقد فهو حق لأجله ، والحق في الدين ما شهد به الدليل على الثقة فيما طريقه العلم ، والقوة فيما طريقة غالب الأمر ، وذلك فيما يحتمل أمرين أحدهما أشبه بالأصل الذي جاء به النص ؛ والافتداء : إيقاع الشيء بدل غيره لرفع المكروه ، فداه فدية وأفداه وافتداه افتداء وفاداه مفاداة وفداه تفدية وتفادى منه تفادياً ؛ والإسرار : إخفاء الشيء في النفس ؛ والندامة : الحسرة على ما كان يتمنى أنه لم يكن أوقعها ، وهي حال معقولة يتأسف صاحبها على ما وقع منها ويود أنه لم يكن أوقعها .

ولما اشتملت الآيات الماضيات على تحتم إنجاز الوعد والعدل في الحكم ، وختمت بقوه : ﴿ وقضي ﴾ أي وأوقع القضاء على أيسر وجه وأسهله ؛ ولما استغرق القضاء جميع وقائعهم .

دل بنزع الجار فقال : ﴿ بينهم ﴾ أي الظالمين والمظلومين والظالمين والأظلمين ﴿ بالقسط ﴾ أي العدل ؛ ولما كان وقوع ذلك لا ينفي وقوع الظلم في وقت آخر قال : ﴿ وهم ﴾ أي والحال أنهم ﴿ لا يظلمون ﴾ أي لا يقع فيهم ظلم من أحد أصلاً كائناً من كان في وقت ما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 453.454 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أشياء : أولها : قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ ﴾ إلا أن ذلك متعذر لأنه في محفل القيامة لا يملك شيئاً كما قال تعالى : ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ القيامة فَرْداً ﴾ [مريم : 95] وبتقدير : أن يملك خزائن الأرض لا ينفعه الفداء لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : 48] وقال في صفة هذا اليوم ﴿ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شفاعة ﴾ [البقرة : 254] وثانيها : قوله : ﴿ وَأَسَرُّواْ الندامة لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ﴾

واعلم أن قوله : ﴿ وَأَسَرُّواْ الندامة ﴾ جاء على لفظ الماضي ، والقيامة من الأمور المستقبلة إلا أنها لما كانت واجبة الوقوع ، جعل الله مستقبلها كالماضي ، واعلم أن الإسرار هو الإخفاء والإظهار وهو من الأضداد ، أما ورود هذه اللفظة بمعنى الإخفاء فظاهر وأما ورودها بمعنى الإظهار فهو من قولهم سر الشيء وأسره إذا أظهره .

إذا عرفت هذا فنقول : من الناس من قال : المراد منه إخفاء تلك الندامة ، والسبب في هذا الإخفاء وجوه : الأول : أنهم لما رأوا العذاب الشديد صاروا مبهوتين متحيرين ، فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخاً سوى إسرار الندم كالحال فيمن يذهب به ليصلب فإنه يبقى

مبهوتاً متحيراً لا ينطق بكلمة .

الثاني : أنهم أسروا الندامة من سفلتهم وأتباعهم حياء منهم وخوفاً من توبيخهم .

فإن قيل : إن مهابة ذلك الموقف تمنع الإنسان عن هذا التدبير فكيف قدموا عليه .

(32/364)

قلنا : إن هذا الكتمان إنما يحصل قبل الاحتراق بالنار ، فإذا احترقوا تركوا هذا الإخفاء وأظهروه بدليل قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ [المؤمنون : 106]

الثالث : أنهم أسروا تلك الندامة لأنهم اخلصوا لله في تلك الندامة ، ومن أخلص في الدعاء أسره ، وفيه تهكم بهم وبإخلاصهم يعني أنهم لما أتوا بهذا الإخلاص في غير وقته ولم ينفعهم ، بل كان من الواجب عليهم أن يأتوا به في دار الدنيا وقت التكليف ، وأما من فسر الإسرار بالإظهار فقوله : ظاهر لأنهم إنما أخفوا الندامة على الكفر والفسق في الدنيا لأجل حفظ الرياسة ، وفي القيامة بطل هذا الغرض فوجب الإظهار .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ فقيل بين المؤمنين والكافرين ، وقيل بين الرؤساء والأتباع ، وقيل بين الكفار بإنزال العقوبة عليهم .

واعلم أن الكفار وإن اشتركوا في العذاب فإنه لا بد وأن يقضي الله تعالى بينهم لأنه لا يمتنع أن

يكون قد ظلم بعضهم بعضاً في الدنيا وخانه ، فيكون في ذلك القضاء تخفيف من عذاب بعضهم ، وتثقيل لعذاب الباقين ، لأن العدل يقتضي أن ينتصف للمظلومين من الظالمين ، ولا سبيل إليه إلا بأن يخفف من عذاب المظلومين ويثقل في عذاب الظالمين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 90. 91 ﴾

(33/364)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ ﴾

فيه وجهان : أحدهما : أخفوا الندامة وكتموها عن رؤسائهم ، وقيل بل كتمها الرؤساء عن أتباعهم .

الثاني : أظهروها وكشفوها لهم .

وذكر المبرد فيه وجهاً ثالثاً : أنه بدت بالندامة أَسِرّةُ وجوههم وهي تكاسير الجبهة .

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : قضي بينهم وبين رؤسائهم ، قاله الكلبي .

الثاني : قضى عليهم بما يستحقونه من عذابهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(34/364)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾

أي أشركت وكفرت .

﴿ مَا فِي الأرض ﴾ أي ملكاً .

﴿ لاَفْتَدَتْ بِهِ ﴾ أي من عذاب الله ، يعني ولا يقبل منها ؛ كما قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرض ذَهَباً وَلَوِ افتدى بِهِ ﴾ .

وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّواْ الندامة ﴾ أي أخفَوْها ؛ يعني رؤساءهم ، أي أخفوا ندامتهم عن أتباعهم .

﴿ لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ﴾ وهذا قبل الإحراق بالنار ، فإذا وقعوا في النار أُلْهتهم النار عن التصنع ؛ بدليل قولهم : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ [المؤمنون : 601] .

فبيّن أنهم لا يكتمون ما بهم .

وقيل : "أسَرُّوا" أظهروا ، والكلمة من الأضداد ، ويدلّ عليه أن الآخرة ليست دار تجلد وتصبّر .

وقيل : وجدوا ألم الحسرة في قلوبهم ؛ لأن الندامة لا يمكن إظهارها .

قال كثير :

فأسررتُ الندامة يوم نادى . . .

بردّ جمال غاضرة المنادي

وذكر المبرّد فيه وجهاً ثالثاً أنه بدت بالندامة أسِرّة وجوههم ، وهي تكاسير الجبهة ، واحدها سِرَار .

والندامة : الحسرة لوقوع شيء أو فوت شيء ، وأصلها اللزوم ؛ ومنه النديم لأنه يلازم المجالس .

وفلان نادم سادم .

والسَّدَم اللَّهَج بالشيء .

ونَدِم وتندّم بالشيء أي اهتمّ به .

قال الجوهري : السَّدَم (بالتحريك) الندم والحزن ؛ وقد سَدِم بالكسر أي اهتمّ وحَزِن ورجل نادمٌ سادمٌ ، وندمانُ سَدْمان ؛ وقيل : هو إتباع .

وماله همٌّ ولا سَدَم إلا ذلك .

وقيل : الندم مقلوب الدمن ، والدَّمْن اللزوم ؛ ومنه فلان مدمن الخمر .

والدّمْن : ما اجتمع في الدار وتلبّد من الأبوال والأبعار ؛ سُمِّيَ به للزومه .

والدّمنة : الحقد الملازم للصدر ، والجمع دِمَن .

وقد دَمِنت قلوبهم بالكسر ؛ يقال : دَمِنت على فلان أي ضَغِنت .

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط ﴾ أي بين الرؤساء والسُّفَّل بالعدل .

﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(35/364)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾

ولما ذكر العذاب وأقسم على حقيقته ، وأنهم لا يفلتون منه ، ذكر بعض أحوال الظالمين في الآخرة .

وظلمت صفة لنفس .

والظلم هنا الشرك والكفر ، وافتدى يأتي مطاوعاً لفدى ، فلا يتعدى تقول : فديته فافتدى

، وبمعنى فدى فيتعدى ، وهنا يحتمل الوجهين .

وما في الأرض أي : ما كان لها في الدنيا من الخزائن والأموال والمنافع ، وأسروا من الأضداد تأتي بمعنى أظهر .

قال الفرزدق :

ولما رأى الحجاج جرد سيفه . . .

أسر الحروري الذي كان أظهرا

وقال آخر :

فأسررت الندامة يوم نادى . . .

برد جمال غاضرة المنادي

وتأتي بمعنى أخفى وهو المشهور فيها كقوله : ﴿ يعلم ما يسرون ما يعلنون ﴾ ويحتمل هنا الوجهين .

أما الإظهار فإنه ليس بيوم تصبر ولا تجلد ولا يقدر فيه الكافر على كتمان ما ناله ، ولأنّ حالة رؤية العذاب يتحسر الإنسان على اقترافه ما أوجبه ، ويظهر الندامة على ما فاته من الفوز ومن الخلاص من العذاب ، وقد قالوا : ربنا غلبت علينا شقوتنا وأما إخفاء الندامة فقيل : أخفى رؤساؤهم الندامة من سفلتهم حياء منهم وخوفاً من توبيخهم ، وهذا فيه بعد ، لأنّ من عاين العذاب هو مشغول بما يقاسيه منه فكيف له فكر في الحياء وفي التوبيخ

الوارد من السفلة .

وأيضاً وأسروا عائد على كل نفس ظلمت على المعنى ، وهو عام في الرؤساء والسفلة .

وقيل : إخفاء الندامة هو من كونهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحسبوه ولا خطر ببالهم ، ومعاينتهم ما أوهى قواهم فلم يطيقوا عند ذلك بكاء ولا صراخاً .

ولا ما يفعله الجازع سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب ، كما يعرض لمن يقدم للصلب لا يكاد ينبس بكلمة ، ويبقى مبهوتاً جامداً .

وأما من قال : إن معنى قوله : وأسروا الندامة ، أخلصوا لله في تلك الندامة ، أو بدت بالندامة أسرة وجوههم أي : تكاسير جباههم ففيه بعد عن سياق الآية .

(36/364)

والظاهر أنّ قوله : وقضى بينهم بالقسط ، جملة أخبار مستأنفة ، وليست معطوفة على ما في حيز لما ، وأن الضمير في بينهم عائد على كل نفس ظلمت .

وقال الزمخشري : بين الظالمين والمظلومين دل على ذلك ذكر الظلم انتهى .

وقيل : يعود على المؤمن والكافر .

وقيل : على الرؤساء والأتباع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾

بالشرك أو التعدّي على الغير أو غيرِ ذلك من أصناف الظلمِ ولو مرةً حسبما يفيده كونُ الصفةِ فعلاً ﴿ مَّا فِى الأَرض ﴾ أي ما في الدنيا من خزائنها وأموالِها ومنافعها قاطبةً بما كثُرت ﴿ لاَفْتَدَتْ بِهِ ﴾ أي لجعلتْه فديةً لها من العذاب من افتداه بمعنى فداه ﴿ وَأَسَرُّواْ ﴾ أي النفوسُ المدلولُ عليها بكل نفسٍ ، والعدولُ إلى صيغة الجمعِ مع تحقق العمومِ في صورة الإفرادِ أيضاً لإفادة تهويلِ الخطبِ بكون الإسرارِ بطريق المعيةِ والاجتماع ، وإنما لم يُراعَ ذلك فيما سبق لتحقيق ما يتوخى من فرض كونِ جميعِ ما في الأرض لكل واحدةٍ من النفوس ، وإيثارُ صيغةِ جمعِ المذكرِ لحمل لفظ النفسِ على الشخص أو لتغليب ذكورِ مدلولِه على إناثه ﴿ الندامة ﴾ على ما فعلوا من الظلم أي أخفَوْها ولم يظهروها لكن لا للاصطبار والتجلد هيهاتَ ولاتَ حينَ اصطبارٍ بل لأنهم بُهتوا ﴿ لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ﴾ أي عند معاينتِهم من فظاعة الحالِ وشدةِ الأهوالِ ما لم يكونوا يحتسبوا فلم يقدروا على أن ينطِقوا بشيء ، (فلما) بمعنى حين منصوبٌ بأسرّوا أو حرفُ شرطٍ حذف جوابُه لدِلالة

ما تقدم عليه ، وقيل : أسرها رؤساؤُهم ممن أضلوهم حياءً منهم وخوفاً من توبيخهم ، ولكن الأمرَ أشدُّ من أن يعترِيَهم هناك شيءٌ غيرَ خوفِ العذاب ، وقيل : أسروا الندامةَ أخلصوها لأن إسرارها إخلاصُها أو لأن سرَّ الشيءِ خالصتُه حيث تخفى ويُضَنّ بها ، ففيه تهكمٌ بهم . وقيل : أظهروا الندامةَ من قولهم : أسرَّ الشيء وأشره إذا أظهره حين عيل صبرُه وفنِيَ تجلُّده ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي أُوقع القضاءُ بين الظالمين من المشركين وغيرِهم من أصناف أهل الظلمِ بأن أُظهر الحقُّ سواءٌ كان من حقوق الله سبحانه أو من حقوق العبادِ من العباد من الباطل ، وعومل أهلُ كل منهما بما يليق به ﴿ بالقسط ﴾ بالعدل ، وتخصيصُ الظلم بالتعدي وحملُ القضاء على مجرد الحكومةِ بين الظالمين والمظلومين من

(38/364)

غير أن يُتعرَّضَ لحال المشركين وهم أظلمُ الظالمين لا يساعدُه المقامُ فإن مقتضاه كونُ الظلم عبارةً عن الشرك أو عما يدخُل فيه دخولاً أولياً ﴿ وَهُمْ ﴾ أي الظالمون ﴿ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ فيما فعل بهم من العذاب بل هو من مقتضيات ظلمِهم ولوازمِه الضرورية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(39/364)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾

أي بالكفر أو بالتعدي على الغير أو غير ذلك من أصناف الظلم كذا قيل ، وربما يقتصر على الأول لأنه الفرد الكامل مع أن الكلام في حق الكفار و ﴿ لَوْ ﴾ قيل بمعنى أن وقيل على ظاهرها واستبعد ولا أراه بعيداً ﴿ مَّا فِى الأرض ﴾ أي ما في الدنيا من خزائنها وأموالها ومنافعها قاطبة ﴿ لاَفْتَدَتْ بِهِ ﴾ أي لجعلته فدية لها من العذاب من افتداه بمعنى فداه فالمفعول محذوف أي لافتدت نفسها به .

وجوز أن يكون افتدى لازماً على أنه مطاوع فدى المتعدي يقال فداه فافتدى ، وتعقب بأنه غير مناسب للسياق إذ المتبادر منه أن غيره فداه لأن معناه قبلت الفدية والقابل غير الفاعل ، ونظر فيه بأنه قد يتحد القابل والفاعل إذا فدى نفسه نعم المتبادر الأول ﴿ وَأَسَرُّواْ ﴾ أي النفوس المدلول عليها بكل نفس ، والعدول إلى صيغة الجمع لإفادة تهويل الخطب بكون الإسرار بطريق المعية والاجتماع ، وإيثار صيغة جمع المذكر لحمل لفظ النفس على الشخص أو لتغليب ذكور مدلوله على إناثه ، والإسرار الإخفاء أي أخفوا ﴿ الندامة ﴾ أي الغم والأسف على ما فعلوا من الظلم ، والمراد إخفاء آثارها كالبكاء وعض اليد وإلا فهي من الأمور الباطنة التي لا تكون إلا سراً وذلك لشدة حيرتهم وبهتهم

﴿ لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ﴾ أي عند معاينتهم من فظاعة الحال وشدة الأهوال ما لم يمر لهم ببال ، فأشبه حالهم حال المقدم للصلب يثخنه ما دهمه من الخطب ويغلب حتى لا يستطيع التفوه ببنت شفة ويبقى جامداً مبهوتاً ، وقيل : المراد بالإسرار الإخلاص أي أخلصوا الندامة وذلك إما لأن إخفاءها إخلاصها وإما من قولهم : سر الشيء لخالصه الذي من شأنه أن يخفى ويصان ويضن به وفيه تهكم بهم : وقال أبو عبيدة .

والجبائي : إن الأسرار هنا بمعنى الإظهار .

(40/364)

وفي "الصحاح" أسررت الشيء كتمته وأعلنته أيضاً وهو من الأضداد ، والوجهان جميعاً يفسران في قوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّواْ الندامة ﴾ وكذلك في قول امرىء القيس

: لو يسرون مقتلي . . .

انتهى وفي "القاموس" أيضاً أسره كتمه وأظهره ضد ، وفيه اختلاف اللغويين فإن الأزهري منهم ادعى أن استعمال أسر بمعنى أظهر غلط وأن المستعمل بذلك المعنى هو أشر بالشين المعجمة لا غير .

ولعله قد غلط في الغليط ، وعليه فالإظهار أيضاً باعتبار الآثار على ما لا يخفى .

وجوز بعضهم أن يكون المراد بالإسرار الإخفاء إلا أن المراد من ضمير الجمع الرؤساء أي أخفى رؤساؤهم الندامة من سفلتهم الذين أضلوهم حياء منهم وخوفاً من توبيخهم ، وفيه أن ضمير ﴿ أَسَرُّواْ ﴾ عام لا قرينة على تخصيصه على أن هول الموقف أشد من أن يتفكر معه في أمثال ذلك ، وجملة ﴿ أَسَرُّواْ ﴾ مستأنفة على الظاهر وقيل : حال بتقدير قد ، و ﴿ لَّمَّا ﴾ على سائر الأوجه بمعنى حين منصوب بأسروا ، وجوز أن يكون للشرط والجواب محذوف على الصحيح لدلالة ما تقدم عليه أي لما رأوا العذاب أسروا الندامة ﴿ وَقُضِيَ ﴾ أي حكم وفصل ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين النفوس الظالمة ﴿ بالقسط ﴾ أي بالعدل ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ أصلاً لأنه لا يفعل بهم إلا ما يقتضيه استعدادهم ، وقيل : ضمير ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ للظالمين السابقين في قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ والمظلومين الذين ظلموهم وإن لم يجر لهم ذكر لكن الظلم يدل بمفهومه عليهم وتخصيص الظلم بالتعدي ، والمعنى وقعت الحكومة بين الظالمين والمظلومين وعومل كل منهما بما يليق به .

(41/364)

وأنت تعلم أن المقام لا يساعد على ذلك لأنه إن لم يقتض حمل الظلم على أعظم أفراده وهو الشرك فلا أقل من أنه يقتضي حمله على ما يدخل ذلك فيه دخولاً أولياً ، والظاهر أن جملة

﴿ قَضَى ﴾ مستأنفة ، وجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿ رَأَوْاْ ﴾ فتكون داخلة في حيز لما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(42/364)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾

الأظهر أن هذه الجملة من بقية القول ، فهي عطف على جملة ﴿ إي وربي إنه لحق ﴾ [يونس : 53] إعلاماً لهم بهول ذلك العذاب عساهم أن يحذروه ، ولذلك حذف المتعلِّق الثاني لفعل (افتدت) لأنه يقتضي مفدياً به ومفدياً منه ، أي لافتدت به من العذاب .

والمعنى أن هذا العذاب لا تتحمله أية نفس على تفاوت الأنفس في احتمال الآلام ، ولذلك ذكر ﴿ كل نفس ﴾ دون أن يقال ولو أن لكم ما في الأرض لافتديتم به .

وجملة ﴿ أن لكل نفس ظلمتْ ما في الأرض ﴾ واقعة موقع شرط (لو) .

و ﴿ ما في الأرض ﴾ اسم (أن) .

و ﴿ ولكل نفس ﴾ خبر (أن) وقدم على الاسم للاهتمام بما فيه من العموم بحيث ينص على أنه لا تسلم نفس من ذلك .

وجملة ﴿ ظلمت ﴾ صفة لِ ﴿ لنفس ﴾ .

وجملة : ﴿ لافتدت به ﴾ جواب (لو) .

فعموم ﴿ كل نفس ﴾ يشمل نفوس المخاطبين مع غيرهم .

ومعنى ﴿ ظلمت ﴾ أشركت ، وهو ظلم النفس ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] .

و ﴿ ما في الأرض ﴾ يعم كل شيء في ظاهر الأرض وباطنها لأن الظرفية ظرفية جمع واحتواء .

و(افتدى) مرادف فدى .

وفيه زيادة تاء الافتعال لتدل على زيادة المعنى ، أي لتكلفت فداءها به .

جملة مستأنفة معطوفة عطف كلام على كلام .

وضمير ﴿ أسروا ﴾ عائد إلى ﴿ كل نفس ﴾ باعتبار المعنى مع تغليب المذكر على المؤنث ، وعبر عن الإسرار المستقبَلي بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقيق وقوعه حتى كأَّنه قد مضى ، والمعنى : وسيسرُّون الندامة قطعاً .

وكذلك قوله : ﴿ وقُضيَ بينهم ﴾ .

والندامة : الندم ، وهو أسف يحصل في النفس على تفويت شيء ممكن عمله في الماضي ، والندم من هواجس النفس ، فهو أمر غير ظاهر ولكنه كثير ، أي يصدر عن صاحبه قولٌ أو فعل يدل عليه ، فإذا تجلد صاحب الندم فلم يظهر قولاً ولا فعلاً فقد أسر الندامة ، أي قصرها على سِره فلم يظهرها بإظهار بعض آثارها ، وإنما يكون ذلك من شدة الهول ؛ فإنما أسروا الندامة لأنهم دهشوا لرؤية ما لم يكونوا يحتسبون فلم يطيقوا صراخاً ولا عويلاً .

وجملة : ﴿ وقُضي بينهم ﴾ عطف على جملة : ﴿ وأسروا ﴾ مستأنفة .

ومعنى : ﴿ قضي بينهم ﴾ قضي فيهم ، أي قضي على كل واحد منهم بما يستحقه بالعدل ، فالقضاء بالعدل وقع فيهم ، وليس المعنى أنه قضي بين كل واحد وآخر لأن القضاء هنا ليس قضاء نزاع ولكنه قضاء زجر وتأنيب ، إذ ليس الكلام هنا إلا على المشركين وهم صنف واحد ، بخلاف قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط ﴾ [يونس : 47] فإن ذلك قضاء بين المرسل إليهم وبين الرسل كما قال تعالى : ﴿ فلنَسألنَّ الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ [الأعراف : 6 ، 7] .

وجملة : ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ حالية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾

وساعة ياتي العذاب فالإنسان يرغب في الفرار منه ، ولو بالافتداء .

وانظر كيف يحاول الإنسان أن يتخلص من كل ما يملك افتداء لنفسه ، حتى ولو كان يملك كل ما في السموات وما في الأرض .

ولكن هل يتأتى لأحد غير الله سبحانه أن يملك السموات والأرض ؟

طبعاً لا .

إذن : فالشر لا يتأَّتى . وهَبْ أنه تأَّتى ، فلن يصلح الافتداء بملك ما في السموات وما في الأرض ؛ لأن الإنسان الظالم في الدنيا قد أخذ حق الغير ، وهذا الغير قد كسب بطريق مشروع ما أخذه الظالم منه ، والظالم إنما يأخذ ثمرة عمل غيره ، ولو صحَّ ذلك لتحوَّل البعض إلى مغتصبِين لحقوق الغير ، ولأخذوا عرق وكدح غيرهم ، ولتعطلت حركة الحياة .

ولذلك إن لم يردع الله سبحانه وتعالى الظالم في الدنيا قبل الآخرة لاستشرى الظلم ، وإذا استشرى الظلم في مجتمع ، فالبطالة تنتشر فيه ، ويحاول كل إنسان أن يأخذ من دم وعرق

غيره ، وبهذا يختلّ ميزان العدل وتفسد حركة الحياة كلها .

وهَبْ أن الظالم أخذ مُلْك الدنيا كلها ، وأراد أن يفتدى به نفسه ساعة يأتي العذاب ، ويفاجأ بأن كسبه من حرام لا يُقْبَل فداءً ، أليس هذا هو الخسران الكبير ؟ وهذه ظاهرة موجودة في دنيا الناس .

وهَبْ أن واحداً ارتشى أو اختلس أو سرق ، ويفاجئه القانون ليمسكه من تلابيبه فيقول : خذوا ما عندي واتركوني . ولن يقبل القائمون على القانون ذلك . وإن كان مثل هذا التنازل يحدث في (الجمارك) فنرى من يتنازل عن البضائع المهربة مقابل الإفراج عنه ، هذا ما يحدث في الدنيا ، لكنه لن يحدث في الآخرة .

وفي سورة البقرة يقول الحق سبحانه :

﴿ واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ [البقرة : 48] .

وقال الحق سبحانه في آية أخرى :

﴿ واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : 123] .

وقال بعض المشككين أن الآيتين متشابهتان ، ولم يلتفتوا إلى أن كل آية تختلف عن الأخرى في التقديم للعدل ، والتأخير للشفاعة .

والبلاغة الحقَّة تتجلَّى في الآيتين ؛ لأن القارىء لصَدْر كل آية منهما ، والفاهم للمَلَكه اللغوية العربية أن عَجُز كل آية يناسب صدرها .

ومن يقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ ﴾ [البقرة : 48] .

يرى أنه أمام نفسين : النفس الأولى هي التي تقدِّم الشفاعة ، والنفس الثانية هي المشفوع لها . والشفاعة هنا لا تُقبل من النفس الأولى الشافعة ، وكذلك لا يُقبل العدل .

وفي الآية الثانية لا تُقبل الشفاعة ولا العدل من النفس المشفوع لها ، فهي تحاول أن تقدم العدل أولاً ، ثم حين لا ينفعها تأتي بالشفيع .

وهكذا جاء التقديم والتأخير في الآيتين مناسباً للموقف في كل منهما .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ ﴾ [يونس : 54] .

وفي هذا القول تعذُّر ملْك النفس الواحدة لكل ما في الأرض ، ولو افترضنا أن هذه النفس

ملكته فلن تستطيع الاقتداء به ؛ وتكون النتيجة هي ما يقوله الحق سبحانه :

﴿ وَأَسَرُّواْ الندامة لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ﴾ [يونس : 54] .

أي : أخفوا الحسرة التي تأتي إلى النفس ، وليس لها ظاهر من انزعاج لفظي أو حركي .

إن كلاّ منهم يكتم هَمَّه في قبله ؛ لأنه ساعة يرى العذاب ينبهر ويُصعَق ويُبهَت من هول العذاب ، فتجمد دماؤه ، ولا يستطيع حتى أن يصرخ ، وهو بذلك إنما يكبت ألمه في نفسه ؛ لأن هول الموقف يجمِّد كل دم في عروقهم ، ويخرس ألسنتهم ، ولا يستطيع أن ينطق ؛ لأنه يعجز عن التعبير الحركي من الصراخ أو الألم .

(46/364)

ونحن نعلم أن التعبير الحركي لون من التنفيس البدني ، وحين لا يستطيعه الإنسان ، فهو يتألم أكثر .

هم إذن يُسرُّون الندامة حين يرون العذاب المفزع المفجع ، والكلام هنا عن الظالمين ، وهم على الرغم من ظلمهم ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس : 54] .

وهؤلاء رغم كفرهم واستحقاقهم للعذاب يلقون العدل من الله ، فَهَبْ أن كافراً بالله بمنأى

عن الدين ظلم كافراً آخر ، أيقف الله سبحانه من هذه المسألة موقفاً محايداً .

لا ؛ لأن حق خَلْق الله سبحانه الكافر المظلوم يقتضى أن يقتص الله سبحانه له من أخيه الكافر الظالم ؛ لأن الظالم الكافر ، إنما ظلم مخلوقاً لله ، حتى وإن كان هذا المظلوم كافراً .

ولذلك يقضي الله بينهم بالحق ، أي : يخفِّف عن المظلوم بعضاً من العذاب بقدر ما يثقله على الظالم .

هذا هو معنى ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ لأنها تتطلب قضاء ، أي : عدم تحيز ، وتتطلب الفصل بين خصومتين .

ويترتب على هذا القضاء حكم ؛ لذلك يبين لنا الحق سبحانه أنهم وإن كانوا كافرين به إلا أنه إن وقع من أحدهم ظلم على الآخر ، فالحق رب الجميع وخالق الجميع ، كما أعطاهم بقانون الربوبية كل خير مثلما أعطى المؤمنين ، فهو سبحانه الذي أعطى الشمس ، والماء ، والهواء ، وكل وسائل الرزق والقُوت لكل الناس مؤمنهم ، وكافرهم فإذا ما حدث ظلم بين متدينين بدين واحد ، أو غير متدينين ، فلا بد أن يقضي فيه الحق سبحانه بالفصل والحكم بالعدل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(47/364)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾ : " افتدى " يجوز أن يكون متعدياً وأن يكونَ قاصراً ، فإذا كان مطاوعاً ل " فَدَى " كان قاصراً تقول : فَدَيْتُه فافتدى ، ويكونُ بمعنى فَدَى فيتعدى لواحد . والفعلُ هنا يحتملُ الوجهين : فإنْ جعلناه متعدياً فمفعولُه محذوفٌ تقديرُه : لافتدَتْ به نفسَها ، وهو في المجاز كقولِه : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل : 111] .

وقوله : ﴿ وَأَسَرُّوا ﴾ / قيل : " أسرَّ " مِنَ الأضداد ، يُسْتعمل بمعنى أظهر ، كقوله الفرزدق :

2599 ولمَّا رأى الحجَّاجَ جرَّد سيفَه . . . أسَرَّ الحَرُوريُّ الذي كانوا أضمرا

وقول الآخر :

2600 فأسرَرْتُ الندامةَ يوم نادى . . . بِرَدِّ جمالِ غاضِرةَ المُنادي

ويُسْتعمل بمعنى : " أخفى " وهو المشهورُ في اللغةِ كقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [النحل : 19] وهو في الآيةِ يحتمل الوجهين . وقيل : إنه ماض على بابه قد وقع . وقيل : بل هو بمعنى المستقبل . وقد أبعدَ بعضُهم فقال : " أسرُّوا الندامةَ " أي : بَدَتْ

بالندامة أسِرَّةُ وجوهِهم أي : تكاسيرُ جباهِهم .

و﴿ لَمَّا رَأَوُاْ ﴾ يجوز أن تكونَ حرفاً ، وجوابُها محذوف لدلالة ما تقدَّم عليه ، وهو المتقدمُ عند مَنْ يَرى تقديمَ جواب الشرط جائزاً . ويجوز أن تكونَ بمعنى حين والناصبُ لها " أسَرُّوا " . وقوله : " ظَلَمْت " في محل جرٍّ صفةٍ ل " نفس " أي : لكل نفس ظالمة . و ﴿ مَّا فِي الأرض ﴾ اسمُ أن ، و " لكلٍ " هو الخبر .

(48/364)

وقوله : ﴿ وَقُضِيَ ﴾ يجوز أن يكونَ مستأنفاً ، وهو الظاهر ، ويجوز أن يكونَ معطوفاً على " رأوا " فيكونَ داخلاً في حَيِّز " لَمَّا " والضميرُ في " بينهم " يعودُ على " كل نفس " في المعنى . وقال الزمخشري : " بين الظالمين والمظلومين ، دلَّ على ذلك ذِكْرُ الظلم " وقال بعضُهم : إنه يعود على الرؤساء والأتباع . و " بالقسط " يجوز أن تكونَ الباءُ للمصاحبةِ ، وأن تكونَ للآلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 221 . 222 ﴾

(49/364)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (54) ﴾

لا يُقْبَلُ منهم عَدْلٌ ولا سَرَفٌ ، ولا يحصل فيما سَبَقَ لهم من الوعيد خَلَفَ . ولا ندامة تنفعهم وإنْ صَدَقوها ، ولا كرامة تنالهم وإنْ طلبوهَا ، ولا ظُلْمَ يجري عليهم ولا حيف ، كلا . . . بل هو اللَّهُ العَدْلُ في قضائه ، الفَرْدُ في علائه بنعت كبريائه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 101 ﴾

(50/364)

قوله تعالى ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (55) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56) ﴾

مناسبة الآيتين لما قبلهما

قال البقاعى :

ولما كان السبب الحامل لملوك الدنيا على الكذب والجور والظلم العجز أو طلب التزيد في

الملك ، أشار إلى تنزهه عن ذلك بقوله مؤكداً سوقاً لهم مساق المنكر لأن فعلهم في عبادة الأصنام فعل من ينكر مضمون الكلام : ﴿ ألا إن لله ﴾ أي الملك الأعظم وحده ﴿ ما في السماوات ﴾ بدأ بها لعلوها معنى وحساً وعظمتها ؛ ولما كان المقام للغنى عن الظلم لم يحوج الحال إلى تأكيد بإعادة النافي فقال : ﴿ والأرض ﴾ أي من جوهر وعرض صامت وناطق ، فلا شيء خارج عن ملك يحوجه إلى ظلم أو إخلاف وعد لحيازته ، والحاصل أنه لا يظلم إلا ناقص الملك وأما من له الملك كله فهو الحكم العدل : لأن جميع الأشياء بالنسبة إليه على حد سواء ، ولا يخلف الوعد إلا ناقص القدرة وأما من له كل شيء ولا يخرج عن قبضته شيء فهو المحق في الوعد العدل في الحكم ، وفي الآية زيادة تحسير وتنديم للنفس الظالمة حيث أخبرت بأن ما تود أن تفتدي به ليس لها منه شيء ولا تقدر على التوصل إليه ، ولو قدرت ما قبل منها ، وإنما هو لمن رضي منها بالقليل منه فضلاً منه عليها على ما أمر به على لسان رسله ، وعلى هذا فيجوز أن يكون التقدير : لو أن لها ذلك لافتدت به ، لكنه ليس لها بل لله ؛ فلما ثبت بذلك حكمه بالعدل وتنزهه عن إخلاف الوعد .

(51/364)

صرح بمضمون ذلك بقوله مؤكداً لإنكارهم : ﴿ ألا إن وعد الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ حق ﴾ لأنه تام القدرة والغنى ، فلا حامل له على الإخلاف ﴿ ولكن أكثرهم ﴾ أي الذين تدعوهم وهم يدعون دقة الأفهام وسعة العقول ﴿ لا يعلمون ﴾ أي لا علم لهم فهم لا يتدبرون ما نصبنا من الأدلة فلا ينقادون لما أمرنا به من الشريعة فهم باقون على الجهل معدودون مع البهائم ؛ و ﴿ ألا ﴾ مركبة من همزة الاستفهام و " لا " وكانت تقريراً وتذكيراً فصارت تنبيهاً ، وكسرت إن بعدها لأنها استئنافيه ينبه بها على معنى يبتدأ به ولذا يقع بعدها الأمر والدعاء بخلاف " لو " و " إلا " للاستقبال فلم يجز بعدها إلا كسر " إن " " أما " قد تكون بمعنى " حقاً " في قولهم : أما إنه منطلق ، وهي للحال فجاز في " أن " بعدها الوجهان – ذكره الرماني ؛ والسماوات طبقات مرفوعه أولها سقف مزين بالكواكب . وهي من سما بمعنى علا .

(52/364)

ولما تقرر أنه لا شيء خارج عن ملكه ، وأنه تام القدرة لأنه لا منجي من عذابه ، شامل العلم لقضائه بالعدل ، صادق الوعد لأنه لا حامل له على غيره ، وثبت تفرده بأنه يحي ويميت ؛ ثبت أنه قادر على الإعادة كما قدر على الابتداء ، فثبت أنه لا يكون الرد إلا إليه

فنبه على ذلك بقوله : ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ يحيي ﴾ أي كما أنتم به مقرون ﴿ ويميت ﴾ كما أنتم له مشاهدون ﴿ وإليه ﴾ أي لا إلى غيره ﴿ ترجعون ﴾ لأنه وعد بذلك في قوله : ﴿ إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً ﴾ [يونس : 4] وفي قوله : ﴿ فإلينا مرجعهم ﴾ [يونس : 46] وفي قوله ﴿ إي وربي إنه لحق ﴾ [يونس : 53] وغير ذلك ولا مانع له منه ؛ والحياة معنى يوجب صحة العلم والقدرة ويضاد الموت ، وهو يحل سائر أجزاء الحيوان فيكون بجميعه حياً واحداً ، والحي هو الذي يصح أن يكون قادراً ، والقادر هو الذي يصح أن يذم ويحمد بما فعل ، والموت معنى يضاد الحياة على البنية الحيوانية ، وليس كذلك الجمادية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 454.455 ﴾

(53/364)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

اعلم أن من الناس من قال : إن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه تعالى قال قبل هذه الآية ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ ﴾ [يونس : 54] فلا جرم قال في هذه الآية

ليس للظالم شيء يفتدى به ، فإن كل الأشياء ملك الله تعالى وملكه ، واعلم أن هذا التوجيه حسن ، أما الأحسن أن يقال إنا قد ذكرنا أن الناس على طبقات ، فمنهم من يكون انتفاعه بالإقناعيات أكثر من انتفاعه بالبرهانيات ، أما المحققون فإنهم لا يلتفتون إلى الإقناعيات ، وإنما تعويلهم على الدلائل البينة والبراهين القاطعة ، فلما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا ﴿ أحق هو ﴾ ؟ أمر الرسول عليه السلام بأن يقول : ﴿ إِي وَرَبِّي ﴾ [يونس : 53] وهذا جار مجرى الإقناعيات ، فلما ذكر ذلك أتبعه بما هو البرهان القاطع على صحته وتقريره أن القول بالنبوة والقول بصحة المعاد يتفرعان على إثبات الإله القادر الحكيم وأن كل ما سواه فهو ملكه وملكه ، فعبر عن هذا المعنى بقوله : ﴿ أَلا إِنَّ للَّهِ مَا فِى السموات والارض ﴾ ولم يذكر الدليل على صحة هذه القضية ، لأنه تعالى قد استقصى في تقرير هذه الدلائل فيما سبق من هذه السورة ، وهو قوله : ﴿ إِنَّ فِى اختلاف الليل والنهار وَمَا خَلَقَ الله فِى السموات والارض ﴾ [يونس : 6] وقوله : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ الشمس ضِيَاء والقمر نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ [يونس : 5] فلما تقدم ذكر هذه الدلائل القاهرة اكتفى بذكرها ، وذكر أن كل ما في العالم من نبات وحيوان وجسد وروح وظلمة ونور فهو ملكه وملكه ، ومتى كان الأمر كذلك ، كان قادراً على كل الممكنات ، عالماً بكل المعلومات غنياً عن جميع الحاجات ، منزهاً عن النقائص والآفات ، فهو تعالى لكونه قادراً على جميع

الممكنات يكون قادراً على إنزال العذاب على الأعداء في الدنيا وفي الآخرة ويكون قادراً على إيصال الرحمة إلى الأولياء في الدنيا وفي الآخرة ويكون قادراً على

(54/364)

تأييد رسوله عليه السلام بالدلائل القاطعة والمعجزات الباهرة ويكون قادراً على إعلاء شأن رسوله وإظهار دينه وتقوية شرعه ، ولما كان قادراً على كل ذلك فقد بطل الاستهزاء والتعجب ولما كان منزهاً عن النقائص والآفات ، كان منزهاً عن الخلف والكذب وكل ما وعد به فلا بد وأن يقع ، هذا إذا قلنا : إنه تعالى لا يراعي مصالح العباد ، أما إذا قلنا : إنه تعالى يراعيها فنقول : الكذب إنما يصدر عن العاقل ، إما للعجز أو للجهل أو للحاجة ، ولما كان الحق سبحانه منزهاً عن الكل كان الكذب عليه محالاً ، فلما أخبر عن نزول العذاب بهؤلاء الكفار ، وبحصول الحشر والنشر وجب القطع بوقوعه ، فثبت بهذا البيان أن قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السموات والأرض ﴾ مقدمة توجب الجزم بصحة قوله : ﴿ أَلَا إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ ثم قال : ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ والمراد أنهم غافلون عن هذه الدلائل ، مغرورون بظواهر الأمور ، فلا جرم بقوا محرومين عن هذه المعارف ، ثم إنه أكد هذه الدلائل فقال : ﴿ هُوَ يُحْيِ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ والمراد أنه لما قدر على الإحياء

في المرة الأولى فإذا أماته وجب أن يبقى قادراً على إحيائه في المرة الثانية ، فظهر بما ذكرنا أنه تعالى أمر رسوله بأن يقول :

﴿ إِى وَرَبِّى ﴾ [يونس : 53] ثم إنه تعالى أتبع ذلك الكلام بذكر هذه الدلائل القاهرة .

(55/364)

واعلم أن في قوله : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السموات والارض ﴾ دقيقة أخرى وهي كلمة ﴿ ألا ﴾ وذلك لأن هذه الكلمة إنما تذكر عند تنبيه الغافلين وإيقاظ النائمين وأهل هذا العالم مشغولون بالنظر إلى الأسباب الظاهرة فيقولون البستان للأمير والدار للوزير والغلام لزيد والجارية لعمرو فيضيفون كل شيء إلى مالك آخر والخلق لكونهم مستغرقين في نوم الجهل ورقدة الغفلة يظنون صحة تلك الإضافات فالحق نادى هؤلاء النائمين الغافلين بقوله : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السموات والارض ﴾ وذلك لأنه لما ثبت بالعقل أن ما سوى الواحد الأحد الحق ممكن لذاته ، وثبت أن الممكن مستند إلى الواجب لذاته إما ابتداء أو بواسطة ، فثبت أن ما سواه ملكه وملكه ، وإذا كان كذلك ، فليس لغيره في الحقيقة ملك ، فلما كان أكثر الخلق غافلين عن معرفة هذا المعنى غير عالمين به ، لا جرم أمر الله رسوله عليه الصلاة

والسلام أن يذكر هذا النداء ، لعل واحداً منهم يستيقظ من نوم الجهالة ورقدة الضلالة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 92.91 ﴾

(56/364)

وقال ابن عطية في الآيات :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾

هذا إخبار للكفار في سياق إخبارهم بأن ذلك الوعد حق ، ﴿ وأسروا ﴾ لفظة تجيء بمعى أخفوا ، وهي حينئذ من السر ، وتجيء بمعنى أظهروا ، وهي حينئذ من أسارير الوجه ، قال الطبري : المعنى وأخفى رؤساء هؤلاء الكفار الندامة عن سفلتهم ووضعائهم .

قال القاضي أبو محمد : بل هو عام في جميعهم و ﴿ ألا ﴾ استفتاح وتنبيه ، ثم أوجب أن جميع ﴿ ما في السماوات والأرض ﴾ ملك لله تعالى ، قال الطبري : يقول فليس لهذا الكافر يومئذ شيء يقتدي به .

قال القاضي أبو محمد : وربط الآيتين هكذا يتجه على بعد ، وليس هذا من فصيح المقاصد ، وقوله : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ قيد بالأكثر لأن بعض الناس يؤمن فهم

يعلمون حقيقة وعد الله تعالى وأكثرهم لا يعلمون فهم لأجل ذلك يكذبون ، وقوله و ﴿ هو يحيي ﴾ يريد يحيي من النطفة ﴿ ويميت ﴾ بالأجل ثم يجعل المرجع إليه بالحشر يوم القيامة وفي قوة هذه الآيات ما يستدعي الإيمان وإجابة دعوة الله ، وقرأ " ترجعون " بالتاء من فوق الأعرج وأبو عمرو وعاصم ونافع والناس ، وقرأ عيسى بن عمر " يرجعون " بالياء من تحت ، واختلف عن الحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

"ألا" كلمة تنبيه للسامع تزاد في أوّل الكلام ؛ أي انتبهوا لما أقول لكم : ﴿ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض أَلَا إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ ، ﴿ لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ فلا مانع يمنعه من إنفاذ ما وعده .

﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(57/364)

وقال أبو حيان :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

قيل : تعلق هذه الآية بما قبلها من جهة أنه فرض أنّ النفس الظالمة لو كان لها ما في الأرض لافتدت به ، وهي لاشيء لها البتة ، لأنّ جميع الأشياء إنما هي بأسرها ملك لله تعالى ، وهو المتصرف فيها ، إذ له الملك والملك .

ويظهر أنّ مناسبتها لما قبلها أنه لما سألوا عما وعدوا به من العذاب أحق هو ؟ وأجيبوا بأنه حق لا محالة ، وكان ذلك جواباً كافياً لمن وفقه الله تعالى للإيمان ، كما كان جواباً للأعرابي حين سأل الرسول (صلى الله عليه وسلم) : آلله أرسلك ؟ قوله عليه السلام : "اللهم نعم" فقنع منه بإخباره (صلى الله عليه وسلم) إذ علم أنه لا يقول إلا الحق والصدق ، كما قال هرقل : لم يكن ليدع الكذب ويكذب على الله انتقل من هذا الجواب إلى ذكر البرهان القاطع على حجته .

وتقريره بأن القول بالنبوة والمعاد يتفرعان على إثبات الإله القادر الحكيم ، وأنّ ما سواه فهو ملكه وملكه ، وعبر عن هذا بهذه الآية ، وكان قد استقصى الدلائل على ذلك في هذه السورة في قوله : ﴿ إن في اختلاف الليل والنهار ﴾ الآية وقوله : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء ﴾ فاكتفى هنا عن ذكرها .

وإذا كان جميع ما في العالم ملكه ، وملكه كان قادراً على كل الممكنات ، عالماً بكل المعلومات ، غنياً عن جميع الحاجات ، منزهاً عن النقائص والآفات ، وبكونه قادراً على الممكنات كان قادراً على إنزال العذاب على الكفار في الدنيا والآخرة ، وقادراً على تأييد

رسوله بالدلائل وإعلاء دينه ، فبطل الاستهزاء والتعجيز .

وبتنزيهه عن النقائص كان منزهاً عن الخلف والكذب ، فثبت أن قوله : ألا إن لله ما في السموات والأرض مقدمة توجب الجزم بصحة قوله .

ألا إن وعد الله حق .

(58/364)

وألا كلمة تنبيه دخلت على الجملتين تنبيهاً للغافل ، إذ كانوا مشغولين بالنظر إلى الأسباب الظاهرة من نسبة أشياء إلى أنها مملوكة لمن جعل له بعض تصرف فيها واستخلاف ، ولذلك قال تعالى : ولكن أكثرهم لا يعلمون يعني : لغفلتهم عن هذه الدئل ، ثم أتبع ذلك بذكر قدرته على الإحياء والإماتة .

فيجب أن يكون قادراً على إحيائه مرة ثانية ، ولذلك قال : وإليه ترجعون ، فترون ما وعد به .

وقرأ الحسن بخلاف عنه ، وعيسى ابن عمر : يرجعون بالياء على الغيبة .

وقرأ الجمهور : بالتاء على الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(59/364)

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السموات والأرض ﴾ أي ما وجد فيهما داخلاً في حقيقتهما أو خارجاً عنهما متمكناً فيهما ، وكلمةُ ما لتغليب غيرِ العقلاءِ على العقلاء ، فهو تقريرٌ لكمال قدرتِه سبحانه على جميع الأشياءِ وبيانٌ لاندراج الكلِّ تحت ملكوتِه يتصرف فيه كيفما يشاء إيجاداً وإعداماً وإثابةً وعقاباً .

﴿ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ ﴾ إظهارُ الاسمِ الجليلِ لتفخيم شأنِ الوعدِ والإشعارِ بعلة الحكم ، وهو إما بمعنى الموعودِ أي جميعِ ما وُعد به كائناً ما كان فيندرج فيه العذابُ الذي استعجلوه وما ذُكر في أثناء بيان حالِه اندراجاً أولياً ، أو بمعناه المصدريِّ أي وعدَه بجميع ما ذكر فمعنى قولِه تعالى : ﴿ حَقٌّ ﴾ على الأول ثابتٌ واقعٌ لا محالة وعلى الثاني مطابقٌ للواقع ، وتصديرُ الجملتين بحرفي التنبيهِ والتحقيقِ للتسجيل على تحقق مضمونِها المقرّرِ لمضمون ما سلف من الآيات الكريمة والتنبيهِ على وجوب استحضارِه والمحافظةِ عليه ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ ﴾ لقصور عقولِهم واستيلاءِ الغفلة عليهم والفهمِ بالأحوال المحسوسةِ المعتادة ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون ﴿ هُوَ يُحْيِ وَيُمِيتُ

﴿ في الدنيا من غير دخلٍ لأحد في ذلك ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ في الآخرة بالبعث والحشرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(60/364)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

أي إن له سبحانه لا لغيره تعالى ما وجد في هذه الأجرام العظيمة داخلاً في حقيقتها أو خارجاً عنها متمكناً فيها ، وكلمة ﴿ مَا ﴾ لتغليب غير العقلاء على العقلاء ، وهو تذييل لما سبق وتأكيد واستدلال عليه بأن من يملك جميع الكائنات وله التصرف فيها قادر على ما ذكر وقيل : إنه متصل بقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الأَرض لاَفْتَدَتْ بِهِ ﴾ [يونس : 54] كأنه بيان لعقدهم ما يفتدون به وعدم ملكهم شيئاً حيث أفاد أن جميع ما في السموات والأرض ملكه لا ملك لأحد فيه سواه جل وعلا وليس بشيء وإن ذكره بعض الأجلة واقتصر عليه ﴿ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ ﴾ أي جميع ما وعد به كائناً ما كان فيندرج فيه العذاب الذي استعجلوه وما ذكر في أثناء بيان حاله اندراجاً أولياً ، فالمصدر بمعنى اسم المفعول ، ويجوز أن يكون باقياً على معناه المصدري أي وعده

سبحانه بجميع ما ذكر ﴿ حَقّ ﴾ أي ثابت واقع لا محالة أو مطابق للواقع ، والظاهر أن حمل الوعد على العموم بحيث يندرج فيه العذاب المذكور والعقاب للعصاة أو الوعد بهما يستدعي اعتبار التغليب في الكلام ، وبعضهم حمل الوعد على ما وعد به صلى الله عليه وسلم من نصره وعقاب من لم يتبعه وقال : إن اعتبار التغليب توهم وليس بالمتعين ، وإظهار الاسم الجليل لتفخيم شأن الوعد والإشعار بعلة الحكم ، وتصدير الجملتين بحرفي التنبيه والتحقيق للتسجيل على تحقق مضمونها المقرر لمضمون ما سلف من الآيات الكريمة والتنبيه على وجوب استحضاره والمحافظة عليه .

(61/364)

وذكر الإمام في توجيه ذكر أداة التنبيه في الجملة الأولى أن أهل هذا العالم مشغولون بالنظر إلى الأسباب الظاهرة فيضيفون الأشياء إلى ملاكها الظاهرة المجازية ويقولون مثلاً الدار لزيد والغلام لعمرو والسلطنة للخليفة والتصرف للوزير فكانوا مستغرقين في نوم الجهل والغفلة حيث يظنون صحة تلك الإضافات فلذلك زادهم سبحانه بقوله عز اسمه : ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ ﴾ الخ ، واستناد جميع ذلك إليه جل شأنه بالمملوكية لما ثبت من وجوب وجوده لذاته سبحانه وأن جميع ما سواه ممكن لذاته وأن الممكن لذاته مستند إلى الواجب لذاته إما

ابتداء أو بواسطة وذلك يقتضي أن الكل مملوك له تعالى ، والكلام في ذكر الأداة في الجملة الثانية على هذا النمط لا يخلو عن تكلف ، والحق ما أشرنا إليه في وجه التصدير ، ووجه اتصال هذه الجملة بما تقدم ظاهر مما قررنا وللطبرسي في توجيه ذلك كلام ليس بشيء ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ ﴾ لسواء استعداداتهم وقصور عقولهم واستيلاء الغفلة عليهم ﴿ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون .

﴿ هُوَ يُحْيِ وَيُمِيتُ ﴾ في الدنيا من غير دخل لأحد في ذلك ، وهذا على ما يفهم من كلام البعض استدلال على البعث والنشور على معنى أنه تعالى يفعل الإحياء والإماتة في الدنيا فهو قادر عليهما في العقبى لأن القادر لذاته لا تزول قدرته والمادة القابلة بالذات للحياة والموت قابلة لهما أبداً ، ولا يخفى أن ذكر القدرة على الإماتة استطرادي لا دخل له في الاستدلال على ذلك ، والظاهر عندي أنه كالذي قبله تذييل لما سبق ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ في الآخرة بالبعث والحشر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(62/364)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ)

النَّبَأُ الْخَبَرُ الْمُهِمُّ ذُو الْفَائِدَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَالِاسْتِثْنَاءُ طَلَبُهُ ، وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ بَعْضِ الْكُفَّارِ وَالْمُكَذِّبِينَ ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ وَإِنَّمَا كَانُوا ظَانِّينَ مُسْتَبْعِدِينَ ، بَيْنَ مُعَانِدِينَ وَمُقَلِّدِينَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي هَذَا السِّيَاقِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا) (36) وَالْمَعْنَى : وَيَسْأَلُونَكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ أَنْ تُنَبِّئَهُمْ عَنْ هَذَا الْعَذَابِ الَّذِي تَعِدُهُمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَحَقٌّ هُوَ سَيَقَعُ بِالْفِعْلِ ؟ أَمْ هُوَ إِرْهَابٌ وَتَخْوِيفٌ ؟ (قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ) إِيْ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ وَسُكُونِ الْيَاءِ الْخَفِيفَةِ حَرْفُ جَوَابٍ وَتَصْدِيقٍ بِمَعْنَى نَعَمْ ، وَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ مَعَ الْقَسَمِ ؛ أَيْ نَعَمْ أُقْسِمُ لَكُمْ بِرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَاقِعٌ ، كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الطُّورِ بَعْدَ الْقَسَمِ : (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ) (52 : 7 و8) وَقَدْ أَكَّدَهُ هُنَا بِالْقَسَمِ وَبِإِنَّ مَعَ الْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) لِلَّهِ تَعَالَى عَنْ إِنْزَالِهِ بِكُمْ ، وَلَا بِفَائِتِيهِ هَرَبًا مِنْهُ ، وَقَدْ عَلِمَ مُؤْمِنُو الْجِنِّ مَا جَهِلْتُمْ إِذْ قَالُوا كَمَا حَكَى اللهُ عَنْهُمْ : (وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا) (72 : 12) .

(63/364)

وَقَدِ اسْتَشْكَلَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ السُّؤَالَ بِاسْتِبْعَادِ أَنْ يَكُونَ الِاسْتِفْهَامُ حَقِيقِيًّا مِنَ الْمُكَذِّبِينَ وَالْجَوَابُ بِزَعْمِهِمْ أَنَّ تَأْكِيدَهُ بِالْقَسَمِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُؤَكِّدَاتِ اللَّفْظِيَّةِ لَا يُقْنِعُ السَّائِلِينَ ، وَمَنْ

عَرَفَ أَخْلَاقَ الْعَرَبِ فِي زَمَنِ الْبَعْثَةِ لَمْ يَسْتَشْكِلِ السُّؤَالَ ، إلَّا أَنْ يَكُونَ السَّائِلُونَ مِنَ الْمُعَانِدِينَ لِلرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَحِينَئِذٍ يَكُونُ الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّهَكُّمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ ، أَوْ كَمَا قِيلَ : إنَّمَا سَأَلُوا أَهُوَ جِدٌّ أَمْ هَزْلٌ ، فَأَرَادُوا مِنَ الْحَقِّ لَازِمَهُ وَهُوَ الْجِدُّ لَا مُقَابِلَ الْبَاطِلِ ، وَالْمَعْرُوفُ مِنْ أَخْلَاقِ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ أَنَّهُ كَانَ يَقِلُّ فِيهِمُ الْكَذِبُ لِعِزَّةِ أَنْفُسِهِمْ ، وَعَدَمِ خُضُوعِهِمْ لِرِيَاسَةٍ اسْتِبْدَادِيَّةٍ تَضْطَرُّهُمْ إلَيْهِ ، وَكَانُوا يَهَابُونَ الْأَيْمَانَ الْبَاطِلَةَ وَيَخَافُونَهَا ، وَمِنَ الْمَنْقُولِ عَنْهُمْ أَنَّ الْأَيْمَانَ الْفَاجِرَةَ تَدَعُ الدِّيَارَ بَلَاقِعَ ، وَنَاهِيكَ بِمَا اشْتُهِرَ بِهِ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مُنْذُ صِغَرِهِ مِنَ الصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ حَتَّى لَقَّبُوهُ بِالْأَمِينِ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ أَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يَسْأَلُهُ عَنْ نُبُوَّتِهِ وَعَنِ الشَّرَائِعِ وَيَسْتَحْلِفُهُ فَإِذَا حَلَفَ اطْمَأَنَّ لِصِدْقِهِ وَاتَّبَعَهُ ، وَإِنَّ صِدْقَ عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ لَيَقِلُّ مِثْلُهُ فِي رِجَالِ الدِّينِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ حَتَّى الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ .

(64/364)

رَوَى أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانِ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ الثَّلَاثَةُ وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : (بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي السَّجْدَةِ إذْ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ ، فَأَنَاخَهُ فِي الْمَسْجِدِ ثُمَّ عَقَلَهُ ثُمَّ قَالَ : أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ ؟ قُلْنَا : هَذَا الرَّجُلُ الْأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ

فَقَالَ : ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (قَدْ أَجَبْتُكَ) فَقَالَ : إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ فَلَا تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ ، قَالَ : (سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ) فَقَالَ : أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ آللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ ؟ قَالَ : (اللَّهُمَّ نَعَمْ) قَالَ أَنْشُدُكَ بِاللهِ آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ؟ قَالَ : (اللَّهُمَّ نَعَمْ) قَالَ : أَنْشُدُكَ بِاللهِ آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ ؟ قَالَ : (اللَّهُمَّ نَعَمْ) قَالَ أَنْشُدُكَ بِاللهِ آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا

(65/364)

فَتَقْسِمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا ؟ قَالَ : (اللَّهُمَّ نَعَمْ) قَالَ : آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي ، وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ) وَلَفْظُ مُسْلِمٍ عَنْهُ : قَالَ أَنَسٌ نُهِينَا فِي الْقُرْآنِ أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ شَيْءٍ فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ الْعَاقِلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَيَسْأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ ، قَالَ : (صَدَقَ) قَالَ : فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ ؟ قَالَ : (اللهُ) قَالَ : فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ ؟ قَالَ (اللهُ) قَالَ : فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ فَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ ؟ قَالَ : (اللهُ) قَالَ : فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَخَلَقَ الْأَرْضَ وَنَصَبَ

الْجِبَالِ آللَّهُ أَرْسَلَكَ ؟ قَالَ (نَعَمْ) (ثُمَّ سَأَلَهُ بِالَّذِي أَرْسَلَهُ عَنْ كُلٍّ مِنَ الصَّلَوَاتِ وَالزَّكَاةِ وَصِيَامِ رَمَضَانَ وَالْحَجِّ .

فَأَجَابَ نَعَمْ) ثُمَّ وَلَّى وَقَالَ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ) .

(66/364)

وَزَادَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّهُ قَالَ لَهُ أَيْضًا : آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْمُرَنَا أَنْ نَعْبُدَهُ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ نَخْلَعَ هَذِهِ الْأَنْدَادَ الَّتِي كَانَ آبَاؤُنَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ ؟ قَالَ : (اللَّهُمَّ نَعَمْ) وَأَنَّهُ كَانَ أَشْعَرَ ذَا غَدِيرَتَيْنِ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : (إنْ صَدَقَ ذُو الْعَقِيصَتَيْنِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ) وَذَكَرَ أَنَّهُ خَرَجَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى قَوْمِهِ فَاجْتَمَعُوا إلَيْهِ ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ : بِئْسَتِ اللَّاتُ وَالْعُزَّى . قَالُوا : مَهْ يَا ضِمَامُ ، اتَّقِ الْبَرَصَ وَالْجُذَامَ ، اتَّقِ الْجُنُونَ . قَالَ : وَيْلَكُمْ إنَّهُمَا وَاللَّهِ مَا يَضُرَّانِ وَلَا يَنْفَعَانِ ، إنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ بَعَثَ إلَيْكُمْ رَسُولًا وَأَنْزَلَ كِتَابًا اسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ ، وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِهِ بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ فَوَاللَّهِ مَا أَمْسَى فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي حَاضِرِهِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إلَّا مُسْلِمًا .

وَأَقُولُ : إِنَّ فَائِدَةَ السُّؤَالِ عَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ وَمَا فِيهَا ثُمَّ ذِكْرُهُ فِي الْقَسَمِ ، أَنَّ اسْتِحْضَارَ ذَلِكَ فِيهِ يَكُونُ أَحْرَى أَنْ يُلْتَزَمَ فِي الْجَوَابِ الصِّدْقُ وَتَعْظِيمُ الْقَسَمِ وَالْخَوْفُ مِنْ عَاقِبَةِ الْحِنْثِ ، وَقَدْ خَفِيَ هَذَا كُلُّهُ عَلَى الْمُفَسِّرِينَ لِأَنَّهُمُ اعْتَادُوا إِثْبَاتَ الْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ بِالْأَدِلَّةِ النَّظَرِيَّةِ الْجَدَلِيَّةِ الَّتِي وُضِعَتْ لِلْجَاحِدِينَ الْمُجَادِلِينَ بِالْبَاطِلِ ، وَجَهِلَ هَذِهِ الْحَقَائِقَ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْإِفْرِنْجِ ، وَلَا سِيَّمَا السِّيَاسِيِّينَ رِجَالِ الْكَنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ وَدُعَاةِ التَّنْصِيرِ الْبُرُوتَسْتَنْتِيُّ الْمَطْبُوعِينَ عَلَى الْكَذِبِ وَالْكَسْبِ بِهِ وَالْأَخْذِ بِقَوْلِ رُؤَسَائِهِمْ : (إِنَّ الْغَايَةَ تُبَرِّرُ الْوَاسِطَةَ) يَعْنُونَ أَنَّ اقْتِرَافَ الْكَذِبِ وَسَائِرِ الرَّذَائِلِ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ الْكَنِيسَةِ فَضِيلَةٌ – جَهِلَ هَؤُلَاءِ أَنَّ عُبَّادَ الْأَصْنَامِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمُ احْتِرَامًا لِلصِّدْقِ ، فَضْلًا عَنِ الْإِسْلَامِ وَكِتَابِهِ وَنَبِيِّهِ فَأَبَاحُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ افْتِرَاءِ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ ، وَكِتَابِهِ وَخَاتَمِ رُسُلِهِ ، مَا لَمْ يَخْطُرْ مِثْلُهُ فِي بَالِ الشَّيْطَانِ قَبْلَهُمْ فَيُوَسْوِسَ بِهِ لِغَيْرِهِمْ :

لَقَدْ كَذَبُوا عَلَى الْإِسْلَامِ كِذْبًا . . . تَزُولُ الشُّمُّ مِنْهُ مُزَلْزَلَاتِ

أَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ : (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ) (16 : 105) وَالنَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ فِي هَدْيِهِ : (يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى كُلِّ خُلُقٍ لَيْسَ الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ) رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ عَنِ ابْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - .

(69/364)

(وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ) أَيْ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ تَلَبَّسَتْ بِهَذَا الظُّلْمِ جَمِيعَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمِلْكِ وَالزِّينَةِ وَصُنُوفِ النَّعِيمِ وَأَمْكَنَهَا أَنْ تَفْتَدِيَ بِهِ ، أَيْ تَجْعَلُهُ فِدَاءً لَهَا مِنْ ذَلِكَ الْعَذَابِ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ذُو قُوَّةٍ يُنْقِذُهَا مِنْهُ بَذْلُهَا لَهُ ، لَافْتَدَتْ بِهِ كُلِّهِ لَا تَدَّخِرُ مِنْهُ شَيْئًا (وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ) إِسْرَارُ الشَّيْءِ إِخْفَاؤُهُ وَكِتْمَانُهُ ، وَإِسْرَارُ الْحَدِيثِ وَالْكَلَامِ خَفْضُ الصَّوْتِ بِهِ ، فَهُوَ ضِدُّ إِعْلَانِهِ وَالْجَهْرِ بِهِ ، وَمِنْهُ (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ) (67 : 13) (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ) 21 : 110) وَاسْتُعْمِلَ بِمَعْنَى الْجَهْرِ مُطْلَقًا فَهُوَ ضِدٌّ وَأَنْكَرَهُ بَعْضُهُمْ ، وَالنَّدَمُ وَالنَّدَامَةُ مَا يَجِدُهُ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْأَلَمِ وَالْحَسْرَةِ عَقِبَ كُلِّ فِعْلٍ يَظْهَرُ لَهُ ضَرَرُهُ ، وَقَدْ يَجْهَرُ بِهِ بِالْكَلَامِ كَقَوْلِهِ : (يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ) (39 : 56) أَوْ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ ، وَقَدْ يُخْفِيهِ وَيَكْتُمُهُ لِعَدَمِ الْفَائِدَةِ مِنْ

إِعْلَانِهِ أَوِ اتِّقَاءً لِلشَّمَاتَةِ أَوِ الْإِهَانَةِ بِهِ ، أَيْ وَأَسَرَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ ظَلَمُوا نَدَامَتَهُمْ وَحَسْرَتَهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ أَوْ كَتَمُوهَا فِي قُلُوبِهِمْ (لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ) أَيْ رَأَوْا مَبَادِيَهُ عِيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ وَأَيْقَنُوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا لَا مَصْرِفَ لَهُمْ عَنْهَا ، وَقَدْ يُعَبَّرُ بِرُؤْيَتِهِ عَنْ وُقُوعِهِ

(70/364)

وَالظَّاهِرُ الْأَوَّلُ لِقَوْلِهِ : (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ) أَيْ وَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خُصُومِهِمْ بِالْعَدْلِ وَالْحَقِّ ، فَإِذَا أُرِيدَ بِالظُّلْمِ الْكُفْرُ وَالتَّكْذِيبُ وَمَا يَلْزَمُهُ مِنَ الْإِيذَاءِ فَخُصُومُهُمُ الرُّسُلُ وَالْمُؤْمِنُونَ بِهِمْ ، وَكَذَا مَنْ أَضَلُّوهُمْ وَظَلَمُوهُمْ مِنَ الْمَرْءُوسِينَ وَالضُّعَفَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يُغْرُونَهُمْ بِالْكُفْرِ وَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ ، وَهُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ هُنَا وَفِي سُورَةِ سَبَأٍ بَعْدَ حِكَايَةِ مُجَادَلَةِ الظَّالِمِينَ وَالْمَظْلُومِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : (وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (34 : 33) وَإِنْ أُرِيدَ بِالظُّلْمِ مَا يَعُمُّ ظُلْمَهُمْ لِلنَّاسِ فِي الْأَحْكَامِ وَهَضْمَ الْحُقُوقِ كَانَ كُلُّ مَظْلُومٍ خَصْمًا لِظَالِمِهِ (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) أَيْ لَا يَظْلِمُهُمُ اللَّهُ كَمَا ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَظَلَمُوا أَتْبَاعَهُمْ وَمُقَلِّدِيهِمْ ، بَلْ هُمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَظَلَمُوا غَيْرَهُمْ . وَالْآيَاتُ فِي نَدَمِ الظَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعْرُوفَةٌ كَقَوْلِهِ فِي آخِرِ سُورَةِ النَّبَأِ : (إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ

وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا) (78 : 40) وَقَوْلِهِ : (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا) (25 : 27 و28) وَغَيْرِ ذَلِكَ .

(71/364)

ثُمَّ قَفَّى عَلَى ذَلِكَ بِالدَّلِيلِ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى إِنْفَاذِ حُكْمِهِ وَإِنْجَازِ وَعْدِهِ وَكَوْنِ هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ لَا يُعْجِزُونَهُ ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ الِافْتِدَاءَ مِنْ عَذَابِهِ ، فَقَالَ : (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْنَا مِرَارًا : إِنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ عِبَارَةٌ عَنْ جَمْعِ الْعَالَمِ ، وَهُوَ تَعَالَى مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَلِكُهُمَا ، وَلَهُ كُلُّ مَنْ فِيهِمَا مِنَ الْعُقَلَاءِ ، وَمَا فِيهِمَا مِنْ غَيْرِ الْعُقَلَاءِ ، وَقَدْ نَطَقَتِ الْآيَاتُ بِهَذَا كُلِّهِ وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ ، فَهَاهُنَا غَلَّبَ غَيْرَ الْعُقَلَاءِ بِمُنَاسَبَةِ مَا فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى غُرُورِ الْكَافِرِينَ وَالظَّالِمِينَ بِمَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ بِهِ ، وَتَعَذُّرِ الِافْتِدَاءِ بِشَيْءٍ مِنْهُ ، وَسَيَأْتِي تَغْلِيبُ الْعُقَلَاءِ فِي الْآيَةِ 66 مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ لِاقْتِضَاءِ الْمُنَاسِبَةِ لَهُ ، وَصَدَّرَ الْجُمْلَةَ بِحَرْفِ التَّنْبِيهِ (أَلَا) الَّذِي يُفْتَتَحُ بِهِ الْكَلَامُ لِتَنْبِيهِ الْغَافِلِينَ عَنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَإِنْ كَانُوا يَعْرِفُونَهَا لِكَثْرَةِ ذُهُولِ النَّاسِ عَنْ تَذَكُّرِ أَمْثَالِهَا ، وَالْمَعْنَى : لِيَتَذَكَّرِ النَّاسِي وَلْيَتَنَبَّهِ الْغَافِلُ وَلْيَعْلَمِ الْجَاهِلُ أَنَّ لِلَّهِ وَحْدَهُ مَا فِي الْعَوَالِمِ الْعُلْوِيَّةِ وَعَالَمِ الْأَرْضِ يَتَصَرَّفُ فِيهَا حَيْثُ

يَشَاءُ ، فَيُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْ دُونِهِ شَيْئًا مِنَ التَّصَرُّفِ وَالْفِدَاءِ ، فِي يَوْمِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ (أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) أَعَادَ

(72/364)

فِيهِ حَرْفَ التَّنْبِيهِ تَأْكِيدًا لِتَمْيِيزِهِ بِهَذَا التَّنْبِيهِ عَمَّا سَبَقَهُ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ هُنَا بِذَاتِهِ وَإِنَّمَا ذُكِرَ قَبْلَهُ لِلِاسْتِدْلَالِ عَلَيْهِ ، أَيْ كُلُّ مَا وَعَدَ بِهِ عَلَى لِسَانِ رُسُلِهِ حَقٌّ وَاقِعٌ لَا رَيْبَ فِيهِ ؛ لِأَنَّهُ وَعْدُ الْمَالِكِ الْقَادِرِ عَلَى إِنْجَازِ مَا وَعَدَ لَا يُعْجِزُهُ مِنْهُ شَيْءٌ (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) يَعْنِي بِأَكْثَرِهِمُ الْكُفَّارَ مُنْكِرِي الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ أَيْ لَا يَعْلَمُونَ أَمْرَ الْآخِرَةِ لَا مِنْ طَرِيقِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ ، وَلَا مِنْ طَرِيقِ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

(هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ) بِقُدْرَتِهِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ النَّظَرُ وَالِاسْتِدْلَالُ ، وَقَدْ بَسَطْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَتَيْنِ 31 و34 (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) عِنْدَمَا يُحْيِيكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ وَيَحْشُرُكُمْ لِيُحَاسِبَكُمْ وَيَجْزِيَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ، فَهَذِهِ الْآيَةُ بَيَانٌ مُسْتَأْنَفٌ لِمَا قَبْلَهُ بِالْإِيجَازِ ، وَجُمْلَةُ هَذِهِ الْآيَاتِ خَاتِمَةُ هَذَا السِّيَاقِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 324 .

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

تذييل تنهية للكلام المتعلق بصدق الرسول والقرآن وما جاء به من الوعيد وترقب يوْم البعث ويوم نزول العذاب بالمشركين .

وقد اشتمل هذا التذييل على مجمل تفصيل ذلك الغرض ، وعلى تعليله بأن من هذه شؤونه لا يعجز عن تحقيق ما أخبر بوقوعه .

فكان افتتاحه بأن الله هو المتوحد بملك ما في السماوات والأرض فهو يتصرف في الناس وأحوالهم في الدنيا والآخرة تصرفاً لا يشاركه فيه غيره ؛ فتصرفه في أمور السماء شامل للمغيبات كلها ، ومنها إظهار الجزاء بدار الثواب ودار العذاب ؛ وتصرفه في أمور الأرض شامل لتصرفه في الناس .

ثم أعقب بتحقيق وعده ، وأعقب بتجهيل منكريه ، وأعقب بالتصريح بالمهم من ذلك وهو الإحياء والإماتة والبعث .

وافتتح هذا التذييل بحرف التنبيه ، وأعيد فيه حرف التنبيه للاستيعاء لسماعه ، وللتنبيه

على أنه كلام جامع هو حوصلة الغرض الذي سمعوا تفصيله آنفاً .

وتأكيد الخبر بحرف ﴿ إن ﴾ للرد على المشركين لأنهم لما جعلوا لله شركاء فقد جعلوها غير مملوكة لله .

ولا يدفع عنهم ذلك أنهم يقولون : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ لأن ذلك اضطراب وخبط .

وقدم خبر ﴿ إنَّ ﴾ على اسمها للاهتمام باسمه تعالى ولإفادة القصر لرد اعتقادهم الشركة كما علمت .

وأكد بحرف التوكيد بعد حرف التنبيه في الموضعين للاهتمام به ، ولرد إنكار منكري بعضه والذين هم بمنزلة المنكرين بعضه الآخر .

واللام في ﴿ لله ﴾ للملك ، و (ما) اسم موصول مفيد لعموم كل ما ثبتت له صلة الموصول من الموجودات الظاهرة والخفية .

ووعْد الله : هو وعده بعذاب المشركين ، وهو وعيد ، ويجوز أن يكون وعده مراداً به البعث ، قال تعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعْداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ [الأنبياء : 104] فسمَّى إعادة الخلق وعْداً .

وأظهر اسم الجلالة في الجملة الثانية دون الإتيان بضميره لتكون الجملة مستقلة لتجري مجرى المثل والكلام الجامع .

ووقع الاستدراك بقوله : ﴿ ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ لأن الجملتين اللتين قبله أريد بهما الرد على معتقدي خلافهما فصارتا في قوة نفي الشك عن مضمونهما ، فكأنه قيل : لا شك يَحق في ذلك ، ولكن أكثرهم لا يعلمون فلذلك يَشكّون .

وتقييد نفي العلم بالأكثر إشارة إلى أن منهم من يعلم ذلك ولكنه يجحده مكابرة ، كما قال في الآية السابقة ﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ﴾ [يونس : 40] .

فضمير ﴿ أكثرهم ﴾ للمتحدث عنهم فيما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(75/364)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

و " ألا " في اللغة يقال عنها " أداة تنبيه " وهي تنبه السامع أن المتكلم سيقول بعدها كلاماً في

غاية الأهمية ، والمتكلم كما نعلم يملك زمام لسانه ، بحكم وضعه كمتكلم ، لكن السامع يكون في وضع المُفاجَأ .

وقد يتكلم متكلم بما دار في ذهنه ليبرزه على لسانه للمخاطب ، ولكن المخاطب يفاجأ ، وإلى أن ينتبه قد تفوته كلمة أو اثنتان مما يقوله المتكلم .

والله سبحانه وتعالى يريد ألاَّ يفوت السامع لقوله أي كلمة ، فأتى بأداة تنبيه تنبه إلى الخبر القادم بعدها ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ للَّهِ مَا فِي السماوات والأرض ﴾ [يونس : 55] .

هكذا شاء الحق سبحانه أن تأتي أداة التنبيه سابقة للقضية الكلية ، وهي أنه سبحانه مالك كل شيء ، فهو الذي خلق الكون ، وخلق الإنسان الخليفة ، وسخَّر الكون للإنسان الخليفة ، وأمر الأسباب أن تخضع لمسببات عمل العامل ؛ فكل من يجتهد ويأتي بالأسباب ؛ فهي تعطيه ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً .

وإذا خدمت الأسبابُ الإنسانَ ، وكان هذا الإنسان غافلاً عن ربه أو عن الإيمان به ، ويظن أن الأسباب قد دانت له بقوته ، ويفتن بتلك الأسباب ، ويقول مثلما قال قارون :

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي ﴾ [القصص : 78] .

فالذي نسي مسبِّب الأسباب ، وارتبط بالأسباب مباشرة ، فهو ينال العذاب ، إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة ؛ فكأن الحق سبحانه ينبههم : تَنَّبهوا أيها الجاهلون ، وافهموا هذه

القضية الكبرى : ﴿ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض ﴾ [يونس : 55] .

فإياك أيها الإنسان أن تغترَّ بالأسباب ، أو أنك بأسبابك أخذت غير ما يريده الله لك ، فهو سبحانه الذي أعطاك وقدَّر لك ، وكل الأسباب تتفاعل لك بعطاء وتقدير من الله عز وجل .

(76/364)

وفي أغيار الكون الدليل على ذلك ، ففكرك الذي تخطِّط به قد تصيبه آفة الجنون ، والجوارح مثل اليد أو القدم أو اللسان أو العين أو الأذن قد تُصاب أيٌّ منها بمرض ؛ فلا تعرف كيف تتصرف .

وكل ما تأتي فيه الأغيار ؛ فهو ليس من ذاتك ، وكل ما تملكه موهوب لك من مسبِّب الأسباب .

فإياك أن تنظر إلى الأسباب ، وتنسى المسبِّب ؛ لأن لله ملك الأشياء التي تحوزها والأدوات التي تحوز بها ؛ بدليل أنه سبحانه حين يشاء يسلبها منك ، فتنبه أيها الغافل ، وإياك أن تظن أن الأسباب هي الفاعلة ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يخلق الأسباب ؛ ثم يشاء ألا تأتي بنتائجها ، كمن يضع بذور القطن مثلاً ويحرث الأرض ، ويرويها في مواعيدها

، ثم تأتي دودة القطن لتأكل المحصول .

إذن : فمردُّ كل مملوك إلى الله تعالى .

واعلمْ أن هناك مِلْكاً ، وإن هناك مُلْكاً ، والمِلْك هو ما تملكه ؛ جلباباً ؛ أو بيتاً ، أو حماراً ، إلى غير ذلك ، أما المُلْك فهو أن تملك من له مِلْك ، وتسيطر عليه ، فالقمة إذن في المُلْك .

وانظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ ﴾ [آل عمران : 26] .

إذن : فالمُلك في الدنيا كله لله سبحانه .

وكلمة " ألا " جاءت في أول الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها لتنبِّه الغافل عن الحق ؛ لأن الأسباب استجابت له وأعطته النتائج ، فاغترَّ بها ، فيجعل الله سبحانه الأسباب تختلف في بعض الأشياء ؛ ليظل الإنسان مربوطاً بالمسبِّب .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ [يونس : 55] .

والوعد إن كان في خير فهو بشارة بخير يقع ، وإن كان بِشَرٍّ فهو إنذار بشرّ يقع ؛ ويغلب عليه كلمة " الوعيد " .

إذن : ففي غالب الأمر تأتي كلمة " وعد " للأثنين : الخير والشر ، أما كلمة " وعيد " فلا

تأتي إلا في الشر .

والوعد : هو إخبارٌ بشي سيحدث من الذي يملك أن يُحْدِث الشيء .

(77/364)

وإنفاذ الوعد له عناصر : أولها الفاعل ، وثانيها المفعول ، وثالثها الزمان ، ورابعها المكان ، ثم السبب .

والحدث يحتاج إلى قدرة ، فإن قلت : " آتيك غداً في المكان الفلاني لأكلمك في موضوع كذا " فماذا تملك أنت من عناصر هذا الحدث ؛ إنك لا تضمن حياتك إلى الغد ، ولا يملك سامعك حياته ، وكذلك المكان الذي تحدد فيه اللقاء قد يصيبه ما يدمّره ، والموضوع الذي تريد أن تتحدث فيه ، قد يأتي لك خاطر ألا تتحدث فيه من قبل أن يتم اللقاء .

وهَبْ أن كل العناصر اجتمعت ، فماذا تملك أنت أو غيرك من عناصر الوعد ؟ لا شيء أبداً .

ولذلك يعلّم الله سبحانه خَلْقه الأدب في إعطاء الوعود ، التي لا يملكونها ، فيقول سبحانه : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ [الكهف : 2324] .

وحين تقدّم المشيئة فإن حدث لك ما يمنع إنفاذ الوعد فلن تكون كذاباً .

وهكذا يعلّمنا ربنا صيانة أخبارنا عن الكذب ، وجعلنا نتكلم في نطاق قُدراتنا ، وقُدراتنا لا يوجد فيها عنصر من عناصر الحدث ، لكن إذا قال الله سبحانه ، ووعد ، فلا رادّ لما وعد به سبحانه ؛ لأنه منزَّه عن أن يُخْلف الميعاد ؛ لأن عناصر كل الأحداث تخضع لمشيئته سبحانه ، ولاَ تتأبَّى عليه ، ووعده حق وثابت .

أما أنت فتتحكم فيك الأغيار التي يُجريها الحق سبحانه عليك .

وهَبْ أنك أردت أن تبني بيتاً ، وقلت للمهندس المواصفات الخاصة التي تريدها في هذا البيت ، لكن المهندس لمي يستطع أن يشتري من الأسواق بعضاً من المواد التي حددتها أنت ، فأنت إذن قد أردت ما لا يملك المهندس تصرُّفاً فيه .

لكن الأمر يختلف بالنسبة للخالق الأعلى سبحانه ؛ فهو الذي يملك كل شيء ، وهو حين يَعد يصير وَعْدُه محتَّم النفاذ ، ولكن الكافرين ينكرون ذلك ؛ ولذلك قال الله سبحانه :

﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَيَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : 55] .

أي : أنهم لا يعلمون هذه الحقيقة ، فقد سبق أن قالوا :

﴿ متى هذا الوعد ﴾ [يونس : 48] .

أو أن ﴿ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ تعني : أن الإنسان يجب ألاَّ يضع نفسه في موعد دون أن يقدِّم المشيئة ؛ لأنه لا يملك من عناصر أي وعد إلا ما يشاؤه الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾

ونحن نعلم أن حركة الحياة ، والمِلْك والمُلْك ، هي فروع من الأحياء ، وهو سبحانه حَيٌّ ؛ لأنه مالك الأصل ، وهو القادر على أن يميت ، وكل ما يصدر عن الحياة يسلبه الله سبحانه بالموت فهو مالك الأشياء ، والأسباب التي تُنتج الأشياء ، ولا يفوته شيء من وعد ولا وعيد ، ونحن نحيا بمشيئته سبحانه ، ونموت بمشيئته سبحانه ، فلن نفلت منه .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فمن لا يعتبر بأمر الأحياء ؛ عليه أن يرتدع بخوف الرجعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(79/364)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " ألا إن لله ما فى السماوات والأرض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا

يعلمون " وقال فيما بعد : "ألا إن لله من فى السماوات ومن فى الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء " ثم قال بعد : "قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له ما فى السماوات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا " هنا ثلاث سؤالات يسأل عن سقوط "ما " من قوله فى الآية الأولى : " ألا إن لله ما فى السماوات والأرض " ؟ ووجه ثبوتها فى الآية الثالثة فى قوله : " له ما فى السماوات وما فى الأرض " ؟ وعن ورود "من " مكان "ما " فى الآية المتوسطة فى قوله : " ألا إن لله من فى السماوات ومن فى الأرض " ؟ والجواب عن السؤال الأول : أنه تقدم قبل الآية قوله تعالى : " ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به " وهذه الآية مبنية عليها ومجموع الآيتين فى قوة أن لو قيل : "ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به " وليس ذلك لها بل كل ذلك لله سبحانه : "ألا إن لله ما فى السماوات والأرض " فلما كانت الآية مبنية على هذه التى قبلها – والمعنى بين ذلك – وقع الاكتفاء بوقوع ما فى الأولى واجتزئ بذا عن تكرارها فى الثانية وليس الموضع موضع تأكيد فتكرر لذلك .

(80/364)

وأما ثبوتها فى الآية الثالثة – وهو السؤال الثانى – فوجهه أن التأكيد مقصود فى هذه الآية لأن قبلها حكاية قول الكفار : "قالوا اتخذ الله ولدا " فنزه تعالى نفسه عن مقالهم فقال : "سبحانه هو الغنى له ما فى السماوات وما فى الأرض "وإذا ورد فى القرآن ذكر مقال هؤلاء المعتدين فى ضلالهم تبعه ذكر ملكه سبحانه لكل من فى السماوات والأرض كقوله تعالى : "وقالوا اتخذ الرحمان ولدا " ثم قال : "لقد جئتم شيئا إدا " ثم ذكر سبحانه عظيم مرتكبهم فى شنيع مقالهم فقال : "تكاد السماوت يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمان ولدا " أى من أجل ادعائهم الولد لله سبحانه ثم قال : "وما ينبغى للرحمان أن يتخذ ولدا " وكيف والكل عبيده وملكه : "إن كل ما فى السماوت والأرض إلا آتى الرحمان عبدا " وهو الغنى عن العالمين فلما كان موضع تأكيد ناسبه الاتيان بما والتأكيد بها وإن كان المعنى حاصلا دونها .

(81/364)

والجواب عن السؤال الثالث : أن ورود "من " فى الآية المتوسطة مناسب لما قصد بها وبنيت عليه ألا ترى أن ما ثبت قبل هذه الآية من قوله تعالى : " ولا يحزنك قولهم " فأنسه تعالى وثبته كما قال فى موضع آخر : "قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك

ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون " فتأمل عظيم هذا التأنيس وما تضمنه قوله : "فإنهم لا يكذبونك " من وضوح صدقه عليه السلام وتصديقه فلم يبق إلا الحسد وقصد إطفاء نور الله : "زيأبى الله إلا أن يتم نوره " فلما قال له تأنيسا وتكفلا لحفظه إياه : "ولا يحزنك قولهم " أتبع ذلك سبحانه بإعلامه إياه أن العزة له جل جلاله لا يشركه فى ذلك أحد ولا يعتز مخلوق إلا بإعزازه يعز من يشاء ويذل من يشاء وإلى ذلك أشار قوله "جميعا " ثم قال : "هو السميع العليم " أى لا يخفى عليه مقالهم فيك وما يسرونه من مكر أو مكيدة ثم أعلمه باحتواء ملكه سبحانه على ما أعلمه به فى قوله : "ألا إن لله من فى السماوات والأرض " فهو يعزك بإمداده إياك بمن شاء من مخلوقاته "ولله جنود السماوات والأرض " ولما كان تأييده عليه السلام فى الغالب عند لقاء أعدائه إنما يكون بالملائكة والمؤمنين لذلك ما ورد التعبير بمن وكررت تأكيدا فقيل : "ألا إن لله من فى السماوات ومن فى الأرض " وهو مؤسده وممده بمن شاء من عباده : "ولا يحزنك قولهم " وقد وضح أن كل آية من هذه الآيات لا يناسبها غير ما اتصلت به ولا يمكن على ما تبين وقوع واحدة منهما فى موضع الأخرى والله أعلم بما أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 243.244 ﴾

(82/364)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ : قدَّمَ الجارَّ للاختصاص أي : إليه لا إلى غيرِه تُرْجَعون ولأجل الفواصل . وقرأ العامَّةُ : " تُرْجَعون " بالخطاب . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر " يُرْجَعُون " بياء الغَيْبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 222 ﴾

(83/364)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (55) ﴾

الحادثات بأسْرِها له مِلْكاً ، وبه ظهوراً ، ومنه ابتداءً ، وإليه انتهاء ؛ فقولُه حقٌّ ، ووعدهُ صِدْقٌ ، وأمره حَتْمٌ وقضاؤه باتٌّ . وهو العَلِيُّ ، وعلى ما يشاء قويٌّ .

﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56) ﴾

يحيي القلوبَ بأنوار المشاهدة ، ويميت النفوسَ بأنواع المجاهدة فنفوسُ العابدين تَلَفُها فنون المجاهدات ، وقلوب العارفين شَرَفُها عيون المشاهدات .

ويقال يحيي مَنْ أقبل عليه ، ويميتَ مَنْ أعرض عنه .

ويقال يحيي قلوب قوم بجميل الرجاء ، ويميت قلوبَ قوم بِوَسْم القنوط . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 101 ﴾

(84/364)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ثبت أن ذلك كله حق مباين للسحر الذي مبناه على التخييل ، أقبل على الذين تقدم الإخبار عنهم في أول السورة في قوله : أكان للناس عجباً أنهم قالوا إنه سحر ، فقال : ﴿ يا أيها الناس ﴾ أي الذين قالوا : إن وعدنا والإخبار به سحر ؛ ولما كان بين الأرواح والأبدان حب غريزي بالتعلق ، والتذ الروح لذلك بمشتهيات هذه الحياة الدنيا بما انطبع فيه بمظاهر

الحس فلم يأته نور العقل حتى تعود النقائص بقوة التعلق فحدثت له أخلاق ذميمة هي أمراض روحانية ، فأرسل ربه الذي أوجده ودبره وأحسن إليه طبيباً حاذقاً هو الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلاج هذه الأمراض .

وأنزل كتابه العزيز لوصف الأدوية ، فكان أحكم الطب منع المريض عن أسباب المرض ، قال تعالى : ﴿ قد جاءتكم موعظة ﴾ أي زاجر عظيم عن التخلي عن كل ما يشغل القلب عن الله من المحظورات وغيرها من كل ما لا ينبغي ، وذلك هو الشريعة .

ولما كان تناول المؤذي شديد الخطر ، وهو لذيذ إلى النفس بينهما من ملاءمة النقص ، وكان الانكفاف عنه أشق شيء عليها ، رغبها في القبول بقوله : ﴿ من ربكم ﴾ أي المحسن إليكم المدبر لمصالحكم بهذا القرآن ؛ ولما كان أليق ما يعمل بعد الحمية تعاطي الدواء المزيل للأخلاط الفاسدة من الباطن ، قال : ﴿ وشفاء ﴾ أي عظيم جداً ﴿ لما في الصدور ﴾ من أدواء الجهل ، وذلك الشفاء يحصل بتطهير الباطن بعد التخلي عن الأخلاق الذميمة بالتحلي بالصفات الحميدة ليصير الباطن سالماً عن العقائد الفاسدة والأخلاق الناقصة كما سلم البدن من الأفعال الدنية ، وهذا هو الطريق .

ولما كانت الروح إذا انصقلت مرآتها فصارت قابلة لتجلي الأنوار عليها بفيض البروق الإلهية والنفخات القدسية والمواهب الملكوتية لأنها دائمة اللمعان كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه الطبراني عن محمد بن مسلمة ـ رضى الله عنهم ـ : " إن لربكم أيام

دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا له " الحديث .

وليس المانع من نزولها في كل قلب إلا عدم القابلية من بعضها لتراكم الظلمات فيها من صداء المخالفة ودين الإعراض والغفلة ، فيكون بذلك كالمرايا الصديئة لا تقبل انطباع الصور بها ، قال تعالى : ﴿ وهدى ﴾ إلى الحق لأنه نور عظيم يقود صاحبه – ولابد – إلى الطريق الأقوم ، وهذا للصديقين وهو الحقيقة .

(85/364)

ولما كان هذا النور إذا زاد عظمة وانتشر إشراقه يفيض – بعد الوصول إلى هذه الدرجات الروحانية والمعارج الربانية – على أرواح الناقصين فيض النور من جوهر الشمس على أجرام العالم فينير كل قابل له مقبل عليه ، قال تعالى : ﴿ ورحمة ﴾ أي إكرام عظيم بالإمامية بالغ في الكمال والإشراق إلى حد لا مزيد عليه ، وهذا للأنبياء عليهم السلام ؛ ولما كان لا ينتفع بأنوارهم إلا من توجه إليهم ، ثم إن الانتفاع بهم يتفاوت بتفاوت درجات التوجه إليهم والإقبال عليهم ، قال : ﴿ للمؤمنين ﴾ الذين اتبعوه وهم راسخون في التوجه إلى المرشدين والاستسلام لهم فكان ذلك سبباً لنجاتهم – أشار إلى هذا الإمام وقال : فهذه درجات عقلية ومراتب برهانية مدلول عليها بهذه الكلمات الأربع القرآنية على وجه لا يمكن تأخير

شيء منها عن موضعه ولا تقديمه ، وهذا بخلاف ما نسبوه إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من السحر فإنه داء كله وضلال يجر إلى الشقاء ، والموعظة : إبانة تدعو إلى الصلاح بطريق الرغبة والرهبة ، والوعظ ما دعا إلى الخشوع والنسك وصرف عن الفسوق والإثم ؛ والشفاء : إزالة الداء ، وداء الجهل أضر من داء البدن وعلاجه أعسر وأطباؤه أقل ، والشفاء منه أجل ؛ والصدر : موضع القلب ، وهو أجل موضع في الحي لشرف القلب ؛ والهدى : بيان عن معنى يؤدي إلى الحق ، وهو دلالة تؤدي إلى المعرفة ؛ والرحمة : نعمة على المحتاج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 455 . 456 ﴾

(86/364)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن الطريق إلى إثبات نبوة الأنبياء عليهم السلام أمران : الأول : أن نقول إن هذا

الشخص قد ادعى النبوة وظهرت المعجزة على يده وكل من كان كذلك ، فهو رسول من عند الله حقاً وصدقاً ، وهذا الطريق مما قد ذكره الله تعالى في هذه السورة وقرره على أحسن الوجوه في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ هذا القرءان أَن يَفْتَرِى مِن دُونِ الله ولكن تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبّ العالمين أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مّثْلِهِ وادعوا مَنِ استطعتم مّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ [يونس : 37 ، 38] وقد ذكرنا في تفسير هذه الآية ما يقوي الدين ويورث اليقين ويزيل الشكوك والشبهات ويبطل الجهالات والضلالات .

وأما الطريق الثاني فهو أن نعلم بعقولنا أن الاعتقاد الحق والعمل الصالح ما هو ؟ فكل من جاء ودعا الخلق إليهم وحملهم عليه وكانت لنفسه قوة قوية في نقل الناس من الكفر إلى الإيمان ، ومن الاعتقاد الباطل إلى الاعتقاد الحق ، ومن الأعمال الداعية إلى الدنيا إلى الأعمال الداعية إلى الآخرة فهو النبي الحق الصادق المصدق ، وتقريره : أن نفوس الخلق قد استولى عليها أنواع النقص والجهل وحب الدنيا ، ونحن نعلم بعقولنا أن سعادة الإنسان لا تحصل إلا بالاعتقاد الحق والعمل الصالح ، وحاصله يرجع إلى حرف واحد وهو أن كل ما قوى نفرتك عن الدنيا ورغبتك في الآخرة فهو العمل الصالح وكل ما كان بالضد من ذلك فهو العمل الباطل والمعصية ، وإذا كان الأمر كذلك كانوا محتاجين إلى إنسان كامل ، قوي النفس

، مشرق الروح ، علوي الطبيعة ، ويكون بحيث يقوى على نقل هؤلاء الناقصين من مقام النقصان إلى مقام الكمال ، وذلك هو النبي .

(87/364)

فالحاصل أن الناس أقسام ثلاثة : الناقصون والكاملون الذين لا يقدرون على تكميل الناقصين ، والقسم الثالث هو الكامل الذي يقدر على تكميل الناقصين ، فالقسم الأول هو عامة الخلق ، والقسم الثاني هم الأولياء ، والقسم الثالث هم الأنبياء ، ولما كانت القدرة على نقل الناقصين من درجة النقصان إلى درجة الكمال مراتبها مختلفة ودرجاتها متفاوتة ، لا جرم كانت درجات الأنبياء في قوة النبوة مختلفة .

ولهذا السر : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل "

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول : إنه تعالى لما بين صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بطريق المعجزة ، ففي هذه الآية بين صحة نبوته بالطريق الثاني ، وهذا الطريق طريق كاشف عن حقيقة النبوة معرف لماهيتها ، فالاستدلال بالمعجز هو الذي يسميه المنطقيون برهان الآن ، وهذا الطريق هو الطريق الذي يسمونه برهان اللم ، وهو أشرف وأعلى وأكمل وأفضل .

المسألة الثانية :

اعلم أنه تعالى وصف القرآن في هذه الآية بصفات أربعة : أولها : كونه موعظة من عند الله .

وثانيها : كونه شفاء لما في الصدور .

وثالثها : كونه هدى .

ورابعها : كونه رحمة للمؤمنين .

ولا بد لكل واحد من هذه الصفات من فائدة مخصوصة فنقول : إن الأرواح لما تعلقت بالأجساد كان ذلك التعلق بسبب عشق طبيعي وجب للروح على الجسد ، ثم إن جوهر الروح التذ بمشتهيات هذا العالم الجسداني وطيباته بواسطة الحواس الخمس وتمرن على ذلك وألف هذه الطريقة واعتادها .

(88/364)

ومن المعلوم أن نور العقل إنما يحصل في آخر الدرجة ، حيث قويت العلائق الحسية والحوادث الجسدانية ، فصار ذلك الاستغراق سبباً لحصول العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة في جوهر الروح ، وهذه الأحوال تجري مجرى الأمراض الشديدة لجوهر الروح ، فلا

بد لها من طبيب حاذق ، فإن من وقع في المرض الشديد ، فإن لم يتفق له طبيب حاذق يعالجه بالعلاجات الصائبة مات لا محالة ، وإن اتفق أن صادفه مثل هذا الطبيب ، وكان هذا البدن قابلاً للعلاجات الصائبة فربما حصلت الصحة وزال السقم .

إذا عرفت هذا فنقول : إن محمداً صلى الله عليه وسلم كان كالطبيب الحاذق ، وهذا القرآن عبارة عن مجموع أدويته التي بتركيبها تعالج القلوب المريضة .

ثم إن الطبيب إذا وصل إلى المريض فله معه مراتب أربعة :

المرتبة الأولى : أن ينهاه عن تناول ما لا ينبغي ويأمره بالاحتراز عن تلك الأشياء التي بسببها وقع في ذلك المرض ، وهذا هو الموعظة فإنه لا معنى للوعظ إلا الزجر عن كل ما يبعد عن رضوان الله تعالى ، والمنع عن كل ما يشغل القلب بغير الله .

المرتبة الثانية : الشفاء وهو أن يسقيه أدوية تزيل عن باطنه تلك الأخلاط الفاسدة الموجبة للمرض ، فكذلك الأنبياء عليهم السلام إذا منعوا الخلق عن فعل المحظورات صارت ظواهرهم مطهرة عن فعل ما لا ينبغي فحينئذ يأمرونهم بطهارة الباطن وذلك بالمجاهدة في إزالة الأخلاق الذميمة وتحصيل الأخلاق الحميدة ، وأوائلها ما ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان وَإِيتَآءِ ذِى القربى وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغى ﴾ [النحل : 90] وذلك لأنا ذكرنا أن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة جارية

مجرى الأمراض ، فإذا زالت فقد حصل الشفاء للقلب وصار جوهر الروح مطهراً عن جميع النقوش المانعة عن مطالعة عالم الملكوت .

(89/364)

والمرتبة الثالثة : حصول الهدى ، وهذه المرتبة لا يمكن حصولها إلا بعد المرتبة الثانية ، لأن جوهر الروح الناطقة قابل للجلايا القدسية والأضواء الإلهية وفيض الرحمة عام غير منقطع على ما قال عليه الصلاة والسلام : " إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها " وأيضاً فالمنع إنما يكون إما للعجز أو للجهل أو للبخل ، والكل في حق الحق ممتنع ، فالمنع في حقه ممتنع ، فعلى هذا عدم حصول هذه الأضواء الروحانية ، إنما كان لأجل أن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة طبعها طبع الظلمة ، وعند قيام الظلمة يمتنع حصول النور ، فإذا زالت تلك الأحوال ، فقد زال العائق فلا بد وأن يقع ضوء عالم القدس في جوهر النفس القدسية ، ولا معنى لذلك الضوء إلا الهدى ، فعند هذه الحالة تصير هذه النفس بحيث قد انطبع فيها نقش الملكوت وتجلى لها قدس اللاهوت ، وأول هذه المرتبة هو قوله : ﴿ يَأَيَّتُهَا النفس المطمئنة ارجعى إلى رَبِّكِ ﴾ [الفجر : 27] وأوسطها قوله تعالى : ﴿ فَفِرُّواْ إِلَى الله ﴾ [الذاريات : 50] وآخرها قوله : ﴿ قُلِ الله ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ

يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام : 91] ومجموعها قوله : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السموات والارض وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : 123] وسيجيء تفسير هذه الآيات في مواضعها بإذن الله تعالى ، وهذه المرتبة هي المراد بقوله سبحانه ﴿ وهدى ﴾ .

(90/364)

وأما المرتبة الرابعة : فهي أن تصير النفس البالغة إلى هذه الدرجات الروحانية والمعارج الربا نية بحيث تفيض أنوارها على أرواح الناقصين فيض النور من جوهر الشمس على أجرام هذا العالم ، وذلك هو المراد بقوله ﴿ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وإنما خص المؤمنين بهذا المعنى ، لأن أرواح المعاندين لا تستضيء بأنوار أرواح الأنبياء عليهم السلام ، لأن الجسم القابل للنور عن قرص الشمس هو الذي يكون وجهه مقابلاً لوجه الشمس ، فإن لم تحصل هذه المقابلة لم يقع ضوء الشمس عليه ، فكذلك كل روح لما لم تتوجه إلى خدمة أرواح الأنبياء المطهرين ، لم تنتفع بأنوارهم ، ولم يصل إليها آثار تلك الأرواح المطهرة المقدسة ، وكما أن الأجسام التي لا تكون مقابلة لقرص الشمس مختلفة الدرجات والمراتب في البعد عن هذه المقابلة ولا تزال تتزايد درجات هذا البعد حتى ينتهي ذلك الجسم إلى غاية بعده عن

مقابلة قرص الشمس ، فلا جرم يبقى خالص الظلمة ، فكذلك تتفاوت مراتب النفوس في قبول هذه الأنوار عن أرواح الأنبياء ولا تزال تتزايد حتى تنتهي إلى النفس التي كملت ظلمتها ، وعظمت شقاوتها وانتهت في العقائد الفاسدة ، والأخلاق الذميمة إلى أقصى الغايات ، وأبعد النهايات ، فالحاصل أن الموعظة إشارة إلى تطهير ظواهر الخلق عما لا ينبغي وهو الشريعة ، والشفاء إشارة إلى تطهير الأرواح عن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة وهو الطريقة والهدى وهو إشارة إلى ظهور نور الحق في قلوب الصديقين وهو الحقيقة ، والرحمة وهي إشارة إلى كونها بالغة في الكمال والإشراق إلى حيث تصير مكملة للناقصين وهي النبوة ، فهذه درجات عقلية ومراتب برهانية مدلول عليها بهذه الألفاظ القرآنية لا يمكن تأخير ما تقدم ذكره ولا تقديم ما تأخر ذكره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 17 صـ 92.95 ﴾

(91/364)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس ﴾ يعني قريشاً .

﴿ قَدْ جَآءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ ﴾ أي وعظ .

﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني القرآن ، فيه مواعظ وحِكَم .

﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصدور ﴾ أي من الشك والنفاق والخلاف والشقاق .

﴿ وَهُدًى ﴾ أي ورشداً لمن اتبعه .

﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي نعمة .

﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خصّهم لأنهم المنتفعون بالإيمان ؛ والكل صفات القرآن ، والعطف لتأكيد المدح .

قال الشاعر :

إلى المَلِك القَرْم وابنِ الهُمام . . .

وليثِ الكَتِيبة في المُزْدَحَمْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(92/364)

وقال أبو حيان :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾

قيل : نزلت في قريش الذين سألوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) أحق هو ؟ فالناس هم كفار قريش .

وقال ابن عطية : هو خطاب لجميع العالم .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر الأدلة على الألوهية والوحدانية والقدرة ، ذكر الدلائل الدالة على صحة النبوة والطريق المؤدّي إليها وهو القرآن ، والمتصف بهذه الأوصاف الشريفة هو القرآن .

قال الزمخشري : أي قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد ، هو شفاء أي : دواء لما في صدوركم من العقائد الفاسدة ، ودعاء إلى الحق ورحمة لمن آمن به منكم انتهى .

ومن ربكم يحتمل أن يتعلق بجاءتكم ، فمن لابتداء الغاية .

ويحتمل أن يكون في موضع الصفة أي : من مواعظ ربكم ، فتتعلق بمحذوف ، فمن للتبعيض .

وفي قوله : من ربكم تنبيه على أنه من عند الله ليس من عند أحد .

قال ابن عطية : وجعله موعظة بحسب الناس أجمع ، وجعله هدى ورحمة بحسب المؤمنين ، وهذا تقسيم صحيح المعنى إذا تؤوّل بأن وجهه انتهى .

وذكر أبو عبد الله الرازي هنا كلاماً كثيراً ممزوجاً بما يسمونه حكمة ، نعلم قطعاً أنّ العرب لا تفهم ذلك الذي قرره من ألفاظ القرآن ، وطوّل في ذلك ، وضرب أمثلة حسية يوقف عليها من تفسيره ، ثم قال آخر كلامه : فالحاصل أنّ الموعظة إشارة إلى تطهير ظواهر الخلق عما

لا ينبغي وهو الشريعة ، والشفاء إشارة إلى تطهير الأرواح عن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة وهو الطريقة ، والهدى إشارة إلى ظهور نور الحق في قلوب الصديقين وهو الحقيقة ، والرحمة إشارة إلى كونها بالغة في الكمال ، والإشراق إلى حيث تصير تكمل الناقصين وهي النبوّة .

فهذه درجات عقلية ومراتب برهانية مدلول عليها بهذه الألفاظ القرآنية ، لا يمكن تأخر ما تقدّم ذكره ، ولا تقدم ما تأخر ذكره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(93/364)

وقال أبو السعود :

﴿ يا أَيُّهَا الناس ﴾

التفاتٌ ورجوعٌ إلى استمالتهم نحوَ الحق واستنزالهم إلى قَبوله واتباعه غِبَّ تحذيرِهم من غوائل الضلالِ بما تُلِيَ عليهم من القوارع الناعيةِ عليهم سوءَ عاقبتِهم وإيذانٌ بأن جميعَ ذلك مسوقٌ لمصالحهم ومنافعِهم ﴿ قَدْ جَاءتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ ﴾ هي والوعظُ والوعظة التذكيرُ بالعواقب سواءٌ كان بالزجر والترهيبِ أو بالاستمالة والترغيبِ وكلمة من في قوله تعالى : ﴿ مّن رَّبِّكُمْ ﴾ ابتدائيةٌ متعلقةٌ بجاءتكم أو تبعيضيةٌ متعلقةٌ بمحذوف وقع صفةً لموعظة

أي موعظةٌ كائنةٌ من مواعظ ربِّكم ، وفي التعرض لعنوان الربوبيةِ من حسن الموقِع ما لا يخفى ﴿ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصدور وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي كتاب جامعٌ لهذه الفوائد والمنافِع فإنه كاشفٌ عن أحوال الأعمالِ حسناتِها وسيئاتِها مرغب في الأولى ورادِعٌ عن الأخرى ومبينٌ للمعارف الحقةِ التي هي شفاءٌ لما في الصدور من الأدواء القلبيةِ كالجهل والشكِّ والشِّرْكِ والنفاق وغيرِها من العقائد الزائغةِ وهادٍ إلى طريق الحقِّ واليقين بالإرشاد إلى الاستدلال بالدلائل المنصوبةِ في الآفاق والأنفسِ وفي مجيئه رحمةً للمؤمنين حيث نجَوا به من ظلمات الكفرِ والضلال إلى نور الإيمانِ وتخلصوا من دركاتِ النيرانِ وارتقَوا إلى درجات الجنانِ ، والتنكيرُ في الكل للتفخيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(94/364)

وقال الآلوسى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

التفات ورجوع إلى استمالتهم نحو الحق واستنزالهم إلى قبوله واتباعه غب تحذيرهم من غوائل الضلال بما تلا عليهم من القوارع وإيذان بأن جميع ذلك مسوق لمصالحهم وهذا وجه

الربط بما تقدم .

وقال أبو حبان في ذلك : أنه تعالى لما ذكر الأدلة على الألوهية والوحدانية والقدرة ذكر الدلائل الدالة على صحة النبوة والطريق المؤدي إليها وهو المتصف بهذه الأوصاف والأول أولى ولا يأباه عموم الخطاب كما هو الظاهر واختاره الطبري خلافاً لمن جعله خاصاً بقريش ، والموعظة كالوعظ والعظة تذكير ما يلين القلب من الثواب والعقاب ، وقيل : زجر مقترن بتخويف ، والشفاء الدواء ويجمع على أشفية وجمع الجمع أشافي ، والهدى معلوم مما مر غير مرة ، والرحمة الإحسان أو إرادته أو صفة غيرهما لائقة بمن قامت به ، و ﴿ مّن رَّبِّكُمْ ﴾ متعلق بجاء و ﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية أو بمحذوف وقع صفة لموعظة و ﴿ مِنْ ﴾ تبعيضية والكلام على حذف مضاف أي موعظة من مواعظ ربكم و ﴿ لَّمّاً ﴾ إما متعلق بما عنده واللام مقوية وأما متعلق بمحذوف وقع نعتاً له وكذا يقال على ما قيل فيما بعد ، والمراد قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد والمنافع كاشف عن أحوال الأعمال حسناتها وسيئاتها مرغب في الأولى ورادع عن الأخرى ومبين للمعارف الحقة المزيلة لأدواء الشكوك وسوء مزاج الاعتقاد وهاد إلى طريق الحق واليقين بالإرشاد إلى الاستدلال بالدلائل الآفاقية والأنفسية ورحمة للمؤمنين حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان وتخلصوا من دركات النيران وارتقوا إلى درجات الجنان .

قال بعض المحققين : إن في ذلك إشارة إلى أن للنفس الإنسانية مراتب كمال من تمسك بالقرآن فاز بها .

(95/364)

أحدها : تهذيب الظاهر عن فعل ما لا ينبغي وإليه الإشارة ﴿ بالموعظة ﴾ بناءً على أن فيها الزجر عن المعاصي وثانيها : تهذيب الباطن عن العقائد الفاسدة والملكات الردية وإليه الإشارة ﴿ وَشِفَاءٌ لِمَا فِى الصدور ﴾ وثالثها : تحلي النفس بالعقائد الحقة والأخلاق الفاضلة ولا يحصل ذلك إلا بالهدى .

ورابعها : تجلي أنوار الرحمة الإلهية وتختص بالنفوس الكاملة المستعدة بما حصل لها من الكمال الظاهر والباطن لذلك .

وقال الإمام : الموعظة إشارة إلى تطهر ظواهر الخلق عما لا ينبغي وهو الشريعة ، والشفاء إلى تطهر الأرواح عن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة وهو الطريقة ، والهدى إلى ظهور الحق في قلوب الصديقين وهو الحقيقة ، والرحمة إلى بلوغ الكمال والأشراق حتى يكمل غيره ويفيض عليه وهو النبوة والخلافة فهذه درجات لا يمكن فيها تقديم ولا تأخير ، ولا يخفى أن هذا خلاف الظاهر جداً والذي يقتضيه الظاهر كون المذكورات أوصافاً للقرآن باعتبار

كونه سبباً وآلة لها ، وجعلت عينه مبالغة وبينها تلازم في الجملة ، والتنكير فيها للتفخيم ، والهداية إن أخذت بمعنى الدلالة مطلقاً فعامة أو بمعنى الدلالة الموصولة فخاصة وحينئذٍ يكون ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيد الأمرين ، ويؤيد تقييد الهدى بذلك قوله سبحانه : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فالقرآن واعظ بما فيه من الترهيب والترغيب أو بما فيه من الزجر عن المعاصي كيفما كانت المقترن بالتخويف فقط بناءً على التفسير الثاني للموعظة ، وشاف لما في الصدور من الأدواء المفضية إلى الهلاك كالجهل والشك والشرك والنفاق وغيرها ، ومرشد ببيان ما يليق وما لا يليق إلى ما فيه النجاة والفوز بالنعيم الدائم أو موصل إلى ذلك ، وسبب الرحمة للمؤمنين الذين آمنوا به وامتثلوا ما فيه من الأحكام ، وأما إذا ارتكب خلاف الظاهر فيقال غير ما قيل أيضاً مما ستراه إن شاء الله تعالى في باب الإشارة .

(96/364)

واستدل كما قال الجلال السيوطي بالآية على أن القرن يشفي من الأمراض البدنية كما يشفي من الأمراض القلبية فقد أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " إني أشتكي صدري فقال عليه الصلاة والسلام : "اقرأ القرآن يقول الله تعالى شفاء لما في الصدور " وأخرج البيهقي في الشعب عن واثلة بن

الأسقع أن رجلاً شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وجع حلقه فقال : " عليك بقراءة القرآن " وأنت تعلم أن الاستدلال بها على ذلك مما لا يكاد يسلم ، والخبر الثاني لا يدل عليه إذ ليس فيه أكثر من أمره صلى الله عليه وسلم الشاكي بقراءة القرآن إرشاداً له إلى ما ينفعه ويزول به وجعه ونحن لا ننكر أن لقراءة القرآن بركة قد يذهب الله تعالى بسببها الأمراض والأوجاع وإنما ننكر الاستدلال بالآية على ذلك ؛ والخبر الأول وإن كان ظاهراً في المقصود لكن ينبغي تأويله كأن يقال : لعله صلى الله عليه وسلم اطلع على أن في صدر الرجل مرضاً معنوياً قلبياً قد صار سبباً للمرض الحسي البدني فأمره عليه الصلاة والسلام بقراءة القرآن ليزول عنه الأول فيزول الثاني ، ولا يستبعد كون بعض الأمراض القلبية قد يكون سبباً لبعض الأمراض القالبية فإنا نرى أن نحو الحسد والحقد قد يكون سبباً لذلك ، ومن كلامهم لله تعالى در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله : وهذا أولى من إخراج الكلام مخرج الأسلوب الحكيم .

والحسن البصري ينكر كون القرآن شفاء للأمراض ، فقد أخرج أبو الشيخ عنه .

أنه قال : إن الله تعالى جعل القرآن شفاء لما في الصدور ولم يجعله شفاء لأمراضكم ، والحق ما ذكرنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعاني حـ 11 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

استئناف أو اعتراض ، يجوز أن يكون لابتداء غرض جديد وهو خطاب جميع الناس بالتعريف بشأن القرآن وهديه ، بعد أن كان الكلام في جدال المشركين والاحتجاج عليهم بإعجاز القرآن على أنه من عند الله وأن الآتي به صادق فيما جاء به من تهديدهم وتخويفهم من عاقبة تكذيب الأمم رُسلَها ، وما ذيل به ذلك من الوعيد وتحقيق ما توعدوا به ، فالكلام الآن منعطف إلى الغرض المفتتح بقوله : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله إلى قوله : ولو كانوا لا يبصرون ﴾ [يونس : 37 43] .

فعاد الكلام إلى خطاب جميع الناس لما في القرآن من المنافع الصالحة لهم ، والإشارة إلى اختلافهم في مقدار الانتفاع به ، ولذلك كان الخطاب هنا عاماً لجميع الناس ولم يأت فيه ما يقتضي توجيهه لخصوص المشركين من ضمائر تعود إليهم أو أوصاف لهم أو صلات موصول .

وعلى هذا الوجه فليس في الخطاب بـ ﴿ يا أيها الناس ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب ، والمعنى أن القرآن موعظة لجميع الناس وإنما انتفع بموعظته المؤمنون فاهتدوا وكان لهم رحمة .

ويجوز أن يكون خطاباً للمشركين بناء على الأكثر في خطاب القرآن بـ ﴿ يا أيها الناس ﴾ فيكون ذكر الثناء على القرآن بأنه هدًى ورحمة للمؤمنين إدماجاً وتسجيلاً على المشركين بأنهم حَرموا أنفسهم الانتفاع بموعظة القرآن وشفائه لما في الصدور ، فانتفع المؤمنون بذلك .

وافتتاح الكلام بـ ﴿ قد ﴾ لتأكيده ، لأن في المخاطبين كثيراً ممن ينكر هذه الأوصاف للقرآن .

والمجيء : مستعمل مجازاً في الإعلام بالشيء ، كما استعمل للبلوغ أيضاً ، إلا أن البلوغ أشهر في هذا وأكثر ، يُقال : بلغني خبر كذا ، ويقال أيضاً : جاءني خبر كذا أو أتاني خبر كذا .

وإطلاق المجيء عليه في هذه الآية أعز .

(98/364)

والمراد بما جاءهم وبلغهم هو ما أنزل من القرآن وقرىء عليهم ، وقد عبر عنه بأربع صفات هي أصول كماله وخصائصه وهي : أنه موعظة ، وأنه شفاء لما في الصدور ، وأنه هدى ، وأنه رحمةٌ للمؤمنين .

والموعظة : الوعظ ، وهو كلام فيه نصح وتحذير مما يضر .

وقد مضى الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ فأعرض عنهم وعظهم ﴾ في سورة [النساء

: 63] ، وعند قوله تعالى : ﴿ موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴾ في سورة [الأعراف : 145] .

ووصفها بـ من ربكم ﴾ للتنبيه على أنها بالغة غاية كمال أمثالها .

والشفاء تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ في سورة [براءة : 14] .

وحقيقته : زوال المرض والألم ، ومجازه : زوال النقائص والضلالات وما فيه حرج على النفس ، وهذا هو المراد هنا .

والمراد بالصدور النفوس كما هو شائع في الاستعمال .

والهدى تقدم في قوله تعالى : ﴿ هدى للمتقين ﴾ في طالع سورة [البقرة : 2] ، وأصله : الدالة على الطريق الموصل إلى المقصود .

ومجازه : بيان وسائل الحصول على المنافع الحقة .

والرحمة تقدمت في تفسير البسملة .

وقد أوماً وصف القرآن بالشفاء إلى تمثيل حال النفوس بالنسبة إلى القرآن ، وإلى ما جاء به بحال المعتل السقيم الذي تغير نظام مزاجه عن حالة الاستقامة فأصبح مضطرب الأحوال خائر القوى فهو يترقب الطبيب الذي يدبر له بالشفاء ، ولا بد للطبيب من موعظة للمريض يحذره بها مما هو سبب نشء علته ودوامها ، ثم ينعت له الدواء الذي به شفاؤه من العلة ، ثم يصف له النظام الذي ينبغي له سلوكه لتدوم له الصحة والسلامة ولا ينتكسَ له المرض ، فإن هو انتصح بنصائح الطبيب أصبح معافى سليماً وحيي حياة طيبة لا يعتوره ألم ولا يشتكي وَصَبَا ، وقد كان هذا التمثيل لكماله قابلاً لتفريق تشبيه أجزاء الهيئة المشبَّهة بأجزاء الهيئة المشبَّه بها ، فزواجرُ القرآن ومواعظه يُشبَّه بنصح الطبيب على وجه المكنية ، وإبطالُه العقائد الضالة يشبه بنعت الدواء للشفاء من المضار على وجه التصريحية ، وتعاليمُه الدينية وآدابه تشبَّه بقواعد حفظ الصحة على وجه المكنية ، وعبر عنها بالهَدى ، ورحمتُه للعالمين تشبه بالعيش في سلامة على وجه المكنية .

ومعلوم أن ألفاظ المكنية يصح أن تكون مستعملة في حقائق معانيها كما هنا ، ويصح أن تجعل تخييلاً كأظفار المنية .

ثم إن ذلك يتضمن تشبيه شأن باعث القرآن بالطبيب العليم بالأدواء وأدويتها ، ويقوم من ذلك تشبيه هيئة تلقي الناس للقرآن وانتفاعهم به ومعالجة الرسول إياهم بتكرير النصح والإرشاد بهيئة المرضى بين يدي الطبيب وهو يصف لهم ما فيه برؤهم وصلاح أمزجتهم

فمنهم القابل المنتفع ومنهم المتعاصي الممتنع .

فالأوصاف الثلاثة الأُول ؛ ثابتة للقرآن في ذاته سواء في ذلك مَن قَبِلها وعمل بها ، ومن أعرض عنها ونبذها ، إلا أن وصفه بكونه هدًى لَمَّا كان وصفاً بالمصدر المقتضي للمبالغة بحيث كأنه نفس الهدى كان الأنسب أن يراد به حصول الهدى به بالفعل فيكون في قران الوصف الرابع .

(100/364)

والوصف الرابع وهو الرحمة ، خاص بمن عمل بمقتضى الأوصاف الثلاثة الأُول ، فانتفع بها فكان القرآن رحمة له في الدنيا والآخرة .

وهو ينظر إلى قوله تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ [الإسراء : 82] .

فقَيْد ﴿ للمؤمنين ﴾ متعلق بـ ﴿ رحمة ﴾ بلا شبهة وقد خصه به جمهور المفسرين .

ومن المحققين من جعله قيداً ل ﴿ هدى ورحمة ﴾ ناظراً إلى قوله تعالى : ﴿ هدى للمتقين ﴾ [البقرة : 2] فإنه لم يجعله هدى لغير المتقين وهم المؤمنون .

والوجه أن كونه موعظة وصف ذاتي له ، لأن الموعظة هي الكلام المحذّر من الضر ولهذا

عقبت بقوله : ﴿ من ربكم ﴾ فكانت عامة لمن خوطب بـ ﴿ يأيُّها الناس ﴾ .

وأما كونه شفاء فهو في ذاته صالح للشفاء لكن الشفاء بالدواء لا يحصل إلا لمن استعمله .

وأما كونه هدى ورحمة فإن تمام وصف القرآن بهما يكون بالنسبة لمن حَصَلت له حقيقتُهما ، وأما لمن لم تحصل له آثارهما ، فوصف القرآن بهما بمعنى صلاحيته لذلك ، وهو الوصف بالقوة في اصطلاح أهل المنطق .

وقد وقع التصريح في الآية الأخرى بأنه ﴿ شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ [الإسراء : 82] ، وصرح في آية [البقرة : 2] بأنه ﴿ هدى للمتقين ، ﴾ فالأظهر أن قيد للمؤمنين راجع إلى ﴿ هدى ورحمة ﴾ معاً إلى قاعدة القيد الوارد بعد مفردات ، وأما رجوعه إلى ﴿ شفاء ﴾ فمحتمل ، لأن وصف ﴿ شفاء ﴾ قد عُقب بقيد ﴿ لما في الصدور ﴾ فانقطع عن الوصفين اللذين بعده ، ولأن تعريف ﴿ الصدور ﴾ باللام يقتضي العموم ، فليحمل الشفاء على معنى الدواء الذي هو صالح للشفاء للذي يتناوله .

وهو إطلاق كثير .

وصَدَّر به في "اللسان" و"القاموس" ، وجعلوا منه قوله تعالى في شأن العسل ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ [النحل : 69] .

وأما تعليق فعل المجيء بضمير الناس في قوله : ﴿ قد جاءتكم ﴾ فباعتبار كونهم المقصود بإنزال القرآن في الجملة .

(101/364)

ثم وقع التفصيل بالنسبة لما اختلفت فيه أحوال تلقيهم وانتفاعهم ، كما دل عليه قوله بعده :

﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ [يونس : 58] أي المؤمنون .

وعبر عن الهدى بالفضل في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً ﴾ [النساء : 174 ، 175] فعمم في مجيء البرهان وإنزال النور جميع الناس ، وخصص في الرحمة والفضل والهداية المؤمنين ، وهذا منتهى البلاغة وصحة التقسيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(102/364)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

والخطاب هنا للناس جميعاً ؛ لأن الحق سبحانه حين يخاطب المؤمنين بقوله تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا الذين آمَنُواْ ﴾ [البقرة : 104] .

فهذا خطاب لمن آمن بالمنهج .

والحق سبحانه وتعالى يخاطب الناس كافّةً بأصول العقائد ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ يا أَيُّهَا الناس اتقوا رَبَّكُمُ ﴾ [النساء : 1] .

أما المؤمنون فسبحانه يكلّفهم بخطابه إليهم ، من مثل قول الحق سبحانه :

﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام ﴾ [البقرة : 183] .

ومثل قول الحق :

﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القصاص فِي القتلى ﴾ [البقرة : 178] .

أي : أن خطابه سبحانه للمؤمنين يكون دائماً في الأحكام التي يخطاب بها المؤمنين ، أما في أصول العقائد والإيمان الأعلى بالواجد الموجِد ، فهذا يكون خطاباً للناس كافة .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ يا أَيُّهَا الناس قَدْ جَآءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ ﴾ [يونس : 57] .

والأية هنا تصوِّر الموعظة وكأنها قد تجسَّدت وصار لها مجيء ، رغم أن الموعظة هي كلمات ، وأراد الله تعالى بذلك أن يعطى للموعظة صورة الحركة التي تؤّثِر وتحضُّ على الإيمان .

والموعظة هي الوصية بالخير والبعد عن الشر بلَفْظٍ مؤثِّر ، ويقال : فلان واعظ متميز ، أي

: أن كلامه مستميل وأسلوبه مؤثر وجميل ، والموعوظ دائماً أضعف من الواعظ ، وتكون نفس الموعوظ ثقيلة ، فلا تتقبل الموعظة بيسر إلا ممن يجيد التأثير بجمال الكلمة وصدق الأداء ؛ لأن الموعوظ قد يقول في نفسه : لقد رأيتني في محل دونك وتريد أن ترفعني ، وأنت أعلى مني . فإذا قدَّر الواعظ هذ الظرف في الموعوظ فهو يستميل نفسه .

(103/364)

ولنتذكر الحكمة التي تقول : " النصح ثقيل ، فلا تجعلوه جَدَلاً ، ولا ترسلوه جَبَلاً ، واستعيروا له خِفَّة البيان " ؛ وذلك لتستميل أذن السامع إليك فتأتي له بالأسلوب الجميلَ المقنع الممتع الذي يعجبه ، وتلمس في نفسه صميم ما ترغب أن يصل إليه .

والموعظة تختلف عن الوصية ؛ لأن الوصية عادة لا تتأتى إلا في خلاصة حكمة الأشياء ، وهَبْ أن إنساناً مريضاً وله أولاد ، وحضرته الوفاة ، فيقوم بكتابة وَصِيَّته ، ويوصيهم بعيون المسائل .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ ﴾ [يونس : 57] .

والموعظة إما أن تسمعها أو تفرضها ، ولأنها موعظة قادمة ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فلا بد من

الالتفات والانتباه ، وملاحظة أن الحق سبحانه قد اختص الموعظة بأنها من الرب ، لا من الإله ؛ لأن الإله يريدك عابداً ، لكن الرب هو المربِّي والكفيل ، وإن كفرت به .

وهذه الموعظة قادمة من الرب ، أي : أنها من كمالات التربية ، ونحن نعلم أن متعلقات الربوبية تتوزع ما بين قسمين : القسم الأول هو مقوِّمات الحياة التي يعطيها الحق سبحانه من قُوت ورزق وهذه المقومات للمؤمن ، وللكافر والقسم الآخر هو مقومات القيم التي ترسم منهج حركة الحياة ، وهذه للمؤمن فقط .

إذن : فالموعظة هي نوع من التربية جاءت من ربكم المأمون عليكم ؛ لأنه هو الذي خَلَق من عَدَم وأمَدّ من عُدْم ، ولم يختص بنعمة الربوبية المؤمنين فقط ، بل شملت نعمته كل الخلق .

إذن : فالموعظة تجيء ممن يُعطي ولا ينتظر منك شيئاً ، فهو سبحانه مُنزَّه عن الغرض ؛ لأنه لن ينال شَيئاً منك فأنت لا تقدر على شيء مع قدرته سبحانه .

والموعظة القادمة بالمنهج تخصُّ العقلاء الراشدين ؛ لأن حركة العاقل الراشد تمر على عقله أولاً ، ويختار بين البدائل ، أما حركة المجنون فهي غير مرتَّبة ولا منسَّقة ، ولا تمر على عقله ؛ لأن عقله مختل الإدراك وفاقد للقدرة على الاختيار بين البدائل .

(104/364)

ولكن لماذا يُفسِد العاقل الاختيار بين البدائل ؟

إن الذي يفسد حركة اختيار العاقل هو الهوى ، والهوى إنما ينشأ مما في النفس والقلب ؛

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصدور ﴾ [يونس : 57] .

أي : أنه سبحانه قد أنزل عليكم ما يشفي صدوركم من غِلّ يؤثر في أحكامكم ، وحقد ، وحسد ، ومكر ، ويُنقِّي باطن الإنسان ؛ لأن أي حركة من حركات الإنسان لها نبع وجداني ، ولا بد أن يُشفى النبع الوجداني ؛ ليصحَّ ؛ حتى تخرج الحركات من الجوارح وهي نابعة من وجدان طاهر مُصفّى وسليم ؛ وبذلك تكون الحركات الصادرة من الإنسان سليمة .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصدور وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : 57] .

وجاءت كلمة " الشفاء " أولاً ، لتبيّن أن الهداية الحقَّة إلى الطريق المستقيم تقتضي أن تُخْرِج ما في قلبه من أهواء ، ثم تدلَّه إلى المنهج المستقيم .

وإن سأل سائل عن الفارق بين الشفاء والرحمة ؟ نجيب : إن الشفاء هو إخراج لما يُمْرِض الصدور ، أما الرحمة فهي اتْباع الهداية بما لا يأتي بالمرض مرة أخرى ، وأقرأ إن شئت قول الحق سبحانه :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء : 82] .

وهكذا يتبيَّن لنا أثر الموعظة : شفاء ، وهدى ، ورحمة ، إنها تعالج ليس ظواهر المرض فقط ، ولكن تعالج جذور المرض .

إذن : فشفاء الصدور يجب أن يتم أولاً ؛ لذلك نجد الطبيب الماهر هو من لا ينظر إلى ظواهر المرض فقط ليعالجها ، ولكنه يبحث عما خلف تلك الظواهر ، على عكس الطبيب غير المدرَّب العَجُول الذي يعالج الظاهر دون علاج جذور المرض .

(105/364)

ومثال ذلك : طبيب الأمراض الجلدية غير الماهر حين يرى بثوراً ؛ فهو يعالجها بما يطمسها ويزيلها مؤقَّتاً ، لكنها تعود بعد قليل ، أما الطبيب المدرَّب الفاهم فهو يعالج الأسباب التي تُنتج البثور ، ويزيلها بالعلاج الفعَّال ؛ فيقضي على أسباب ظهورها .

وفي القرآن الكريم نجد قصة ابتلاء سيدنا أيوب عليه السلام ، فقد قال له الحق سبحانه :

﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : 42] .

أي : اضربْ برجلك ذلك المكان يخرجْ لك منه ماء بارد ، تغتسل منه ؛ فيزيل الأعراض الظاهرة ، وتشرب منه ليعالج أصل الداء .

إذن : فالموعظة وكأنها تجسَّدت ، فجاءت من ربكم المأمون علكيم شفاءً حتى تعالج المواجيد التي تصدر عنها الأفعال ، وتصبح مواجيد سليمة مستقيمة ، لا تحلُّل فيها ، وهدى إلى الطريق الموصِّل إلى الغاية الحقَّة ، ورحمة إن اتبعها الإنسان لا يُصَابُ بأيِّ داءٍ ، وهذه الموعظة تؤدي إلى العمل المقبول عند الله سبحانه .

ولكن إنْ صحَّتْ لك الأربعة النابعة من الموعظة : الشفاء ، والهدى ، والرحمة والعمل الصالح ، فإيّاك أن تفرح بذلك ؛ ففوق كل ذلك فضل الله عليك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(106/364)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57) ﴾

أخرج الطبراني وأبو الشيخ عن أبي الأحوص قال : جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : إن أخي يشتكي بطنه . فوصف له الخمر فقال : سبحان الله . . . !

ما جعل الله في رجس شفاء ، إنما الشفاء في شيئين : القرآن والعسل ، فيهما شفاء لما في الصدور وشفاء للناس .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه قال : إن الله سبحانه وتعالى جعل القرآن شفاء لما في الصدور ولم يجعله شفاء لأمراضكم .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : " جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أني أشتكي صدري . فقال : اقرأ القرآن ، يقول الله تعالى : شفاء لما في الصدور " .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه . " أن رجلاً شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وجع حلقه . فقال : عليك بقراءة القرآن " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : في القرآن شفاءان القرآن والعسل ، فالقرآن شفاء لما في الصدور ، والعسل شفاء من كل داء .

وأخرج البيهقي عن طلحة بن مصرف كان يقال : إن المريض إذا قرىء عنده القرآن وجد له خفة . فدخلت على خيثمة وهو مريض فقلت : إني أراك اليوم صالحاً . قال : إنه قرىء عندي القرآن . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(107/364)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ : يجوز أن تكونَ " مِنْ " لابتداء الغاية فتتعلَّقَ حينئذ ب " جاءَتْكم " ، وابتداءُ الغايةِ مجازٌ ، ويجوز أن تكونَ للتبعيضِ فتتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنها صفة لموعظة أي : موعظةٌ كائنةٌ مِنْ مواعظِ ربكم . وقوله : ﴿ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصدور وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ من باب ما عُطِف فيه الصفات بعضُها على بعض أي : قد جاءتكم موعظةٌ جامعةٌ لهذه الأشياءِ كلِّها .

و " شِفاء " في الأصلِ مصدرٌ جُعِل وَصْفاً مبالغة ، أو هو اسمٌ لما يُشْفَى به أي : يداوى ، فهو كالدواءِ لما يداوى . و ﴿ لِّمَا فِي الصدور ﴾ يجوزُ أن يكونَ صفةً ل " شفاء " فيتعلَّقَ بمحذوف ، وأن تكونَ اللامُ زائدةً في المفعول ؛ لأن العاملَ فرعٌ إذا قلنا بأنه مصدرٌ . وقوله : " للمؤمنين " محتملٌ لهذين الوجهين وهو من التنازع ؛ لأنّ كلاً من الهدى والرحمة يَطْلبه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 222 . 223 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57) ﴾

الموعظة للكافة . . . ولكنها لا تنجع في أقوام ، وتنفع في آخرين ؛ فَمَنْ أصغى إليها بَسْمعِ سِرِّه اتضح نورُ التحقيق في قلبه ، ومَنْ استمع إليها بنعت غَيْبَته ما اتصف إلا بدوام حجبته .

ويقال الموعظة لأربابِ الغيبةِ ليَؤوبُوا ، والشِّفاء لأصحاب الحضور ليطيبوا .

ويقال " الموعظة " : للعوام ، " والشفاء " : للخواص ، " والهُدى " لخاص الخاص ، " الرحمة " لجميعهم ، وبرحمته وصَلوا إلى ذلك .

ويقال شفاءُ كلِّ أحدٍ على حَسَبِ دائه ، فشفاءُ المذنبين بوجود الرحمة ، وشفاء المطيعين بوجود النعمة ، وشفاء العارفين بوجود القربة ، وشفاء الواجدين بشهود الحقيقة .

ويقال شفاء العاصين بوجود النجاة ، وشفاء المطيعين بوجود الدرجات ، وشفاءُ العارفين بالقرب والمناجاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 102 ﴾

(109/364)

قوله تعالى ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ثبت ذلك ، حثهم عليه لبعده عن السحر بثباته وعدم القدرة على زلزلته فضلاً عن إزالته وبأن شفاء وموعظة وهدى ورحمة فهو جامع لمراتب القرب الإلهي كلها ، وزهدهم فيما هم عليه مقبلون من الحطام : لمشاركته للسحر في سرعة التحول والتبدل بالفناء والاضمحلال فهو أهل للزهد فيه والإعراض عنه فقال تعالى : ﴿ قل بفضل الله ﴾ الآية ، وحسن كل الحسن تعقيب ذلك لقوله : ﴿ هو يحيي ويميت ﴾ لما ذكر من سرعة الرحيل عنه ، ولأن القرآن محيي لميت الجهل ، من أقبل عليه أفاده العلم والحكمة ، فكان للقلب كالحياة للجسد ، ومن أعرض عنه صار في ضلال وخبط فوصل إلى الهلاك الدائم ، فكان إعراضه عنه مميتاً له ، وجعل أبو حيان متعلق الباء في بفضل محذوفاً تقديره : ﴿ قل ﴾

ليفرحوا ﴿ بفضل الله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ وبرحمته ﴾ ثم عطف قصر الفرح على ذلك ﴿ فبذلك ﴾ أي الأمر العظيم جداً وحده إن فرحوا يوماً ما بشيء ﴿ فليفرحوا ﴾ فهما جملتان وقال : إن ذلك أظهر ، وفائدة الثانية قصر الفرح على ذلك دون ما يسرون به من الحطام فإن السعادات الروحانية أفضل من السعادات الجسمانية .

ثم صرح بسبب الفرح فقال : ﴿ هو ﴾ أي المحدث عنه من الفضل والرحمة ﴿ خير مما يجمعون ﴾ أي من حطام الدنيا وإن كان أشرف ما فيها من المتاع دائبين فيه على تعاقب الأوقات ، والعاقل يختار لتعبه الأفضل ؛ والفضل : الزيادة في النعمة ؛ والفرح : لذة في القلب بنيل المشتهى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 457 ﴾

(110/364)

فصل

قال الفخر :

ولما نبه الله تعالى في هذه الآية على هذه الأسرار العالية الآلهية قال : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ والمقصود منه الإشارة إلى ما قرره حكماء الإسلام من أن السعادات الروحانية أفضل من السعادات الجسمانية وقد سبق في

مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبالغة في تقرير هذا المعنى فلا فائدة في الإعادة انتهى .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ وتقديره : بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ، ثم يقول مرة أخرى : ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ والتكرير للتأكيد .

وأيضاً قوله : ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ يفيد الحصر ، يعني يجب أن لا يفرح الإنسان إلا بذلك .

واعلم أن هذا الكلام يدل على أمرين : أحدهما : أنه يجب أن لا يفرح الإنسان بشيء من الأحوال الجسمانية ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن جماعة من المحققين قالوا : لا معنى لهذه اللذات الجسمانية إلا دفع الآلام ، والمعنى العدمي لا يستحق أن يفرح به .

والثاني : أن بتقدير أن تكون هذه اللذات صفات ثبوتية ، لكنها معنوية من وجوه : الأول : أن التضرر بآلامها أقوى من الانتفاع بلذاتها ألا ترى أن أقوى اللذات الجسمانية لذة الوقاع ، ولا شك أن الالتذاذ بها أقل مرتبة من الاستضرار بألم القولنج وسائر الآلام القوية .

والثاني : أن مداخل اللذات الجسمانية قليلة ، فإنه لا سبيل إلى تحصيل اللذات الجسمانية إلا بهذين الطريقين أعني لذة البطن والفرج .

وأما الآلام : فإن كل جزء من أجزاء بدن الإنسان معه نوع آخر من الآلام ، ولكل نوع منها خاصية ليست للنوع الآخر .

والثالث : أن اللذات الجسمانية لا تكون خالصة ألبتة بل تكون ممزوجة بأنواع من المكاره ، فلو لم يحصل في لذة الأكل والوقاع إلا إتعاب النفس في مقدماتها وفي لواحقها لكفى .

(111/364)

الرابع : أن اللذات الجسمانية لا تكون باقية ، فكلما كان الالتذاذ بها أكثر كانت الحسرات الحاصلة من خوف فواتها أكثر وأشد ، ولذلك قال المعري :

إن حزنا في ساعة الموت أضعا . . ف سرور في ساعة الميلاد

فمن المعلوم أن الفرح الحاصل عند حدوث الولد لا يعادل الحزن الحاصل عند موته .

الخامس : أن اللذات الجسمانية حال حصولها تكون ممتنعة البقاء ، لأن لذة الأكل لا تبقى بحالها ، بل كما زال ألم الجوع زال الالتذاذ بالأكل ولا يمكن استبقاء تلك اللذة .

السادس : أن اللذات الجسمانية التذاذ بأشياء خسيسة ، فإنها التذاذ بكيفيات حاصلة في أجسام رخوة سريعة الفساد مستعدة للتغير ، فأما اللذات الروحانية فإنها بالضد في جميع هذه الجهات ، فثبت أن الفرح باللذات الجسمانية فرح باطل ، وأما الفرح الكامل فهو الفرح بالروحانيات والجواهر المقدسة وعالم الجلال ونور الكبرياء .

والبحث الثاني : من مباحث هذه الآية أنه إذا حصلت اللذات الروحانية فإنه يجب على

العاقل أن لا يفرح بها من حيث هي هي ، بل يجب أن يفرح بها من حيث إنها من الله تعالى وبفضل الله وبرحمته ، فلهذا السبب قال الصديقون : من فرح بنعمة الله من حيث إنها تلك النعمة فهو مشرك ، أما من فرح بنعمة الله من حيث إنها من الله كان فرحه بالله ، وذلك هو غاية الكمال ونهاية السعادة فقوله سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ يعني فليفرحوا بتلك النعم لا من حيث هي هي ، بل من حيث إنها بفضل الله وبرحمة الله ، فهذه أسرار عالية اشتملت عليها هذه الألفاظ التي ظهرت من عالم الوحي والتنزيل ، هذا ما تلخص عندنا في هذا الباب ، أما المفسرون فقالوا : فضل الله الإسلام ، ورحمته القرآن .

وقال أبو سعيد الخدري : فضل الله القرآن ، ورحمته أن جعلكم من أهله .

المسألة الرابعة :

(112/364)

قرىء ﴿ فلتفرحوا ﴾ بالتاء ، قال الفراء : وقد ذكر عن زيد بن ثابت أنه قرأ بالتاء وقال : معناه فبذلك فلتفرحوا يا أصحاب محمد هو خير مما يجمع الكفار ، قال وقريب من هذه القراءة قراءة أبي ﴿ فَبِذَلِكَ فافرحوا ﴾ والأصل في الأمر للمخاطب والغائب اللام نحو

لتقم يا زيد وليقم زيد ، وذلك لأن حكم الأمر في الصورتين واحد ، إلا أن العرب حذفوا اللام من فعل المأمور المخاطب لكثرة استعماله ، وحذفوا التاء أيضاً وأدخلوا ألف الوصل نحو اضرب واقتل ليقع الابتداء به وكان الكسائي يعيب قولهم فليفرحوا لأنه وجده قليلاً فجعله عيباً إلا أن ذلك هو الأصل ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في بعض المشاهد : " لتأخذوا مصافكم " يريد به خذوا ، هذا كله كلام الفراء .

وقرىء ﴿ تجمعون ﴾ بالتاء ووجهه أنه تعالى عنى المخاطبين والغائبين إلا أنه غلب المخاطب على الغائب كما يغلب التذكير على التأنيث ، فكأنه أراد المؤمنين هكذا قاله أهل اللغة وفيه دقيقة عقلية وهو أن الإنسان حصل فيه معنى يدعوه إلى خدمة الله تعالى وإلى الاتصال بعالم الغيب ومعارج الروحانيات ، وفيه معنى آخر يدعوه إلى عالم الحس والجسم واللذات الجسدانية ، وما دام الروح متعلقاً بهذا الجسد ، فإنه لا ينفك عن حب الجسد ، وعن طلب اللذات الجسمانية ، فكأنه تعالى خاطب الصديقين العارفين ، وقال : حصلت الخصومة بين الحوادث العقلية الإلهية وبين النوازع النفسانية الجسدانية ، والترجيح لجانب العقل لأنه يدعو إلى فضل الله ورحمته والنفس تدعو إلى جمع الدنيا وشهواتها وفضل الله ورحمته خير لكم مما تجمعون من الدنيا لأن الآخرة خير وأبقى ، وما كان كذلك فهو أولى بالطلب والتحصيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 95.96 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن فضل الله معرفته ، ورحمته توفيقه .

الثاني : أن فضل الله القرآن ، ورحمته الإسلام ، قاله ابن عباس وزيد بن أسلم والضحاك .

الثالث : أن فضل الله الإسلام ، ورحمته القرآن ، قاله الحسن ومجاهد وقتادة .

﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ يعين بالمغفرة والتوفيق على الوجه الأول ، وبالإسلام والقرآن على الوجهين الآخرين .

وفيه ثالث : فلتفرح قريش بأن محمداً منهم ، قاله ابن عباس .

﴿ هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ يعني في الدنيا .

روى أبان عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ هَدَاهُ اللهُ لِلإِسْلاَمِ وَعَلَّمَهُ القُرآنَ ثُمَّ شَكَا الفَاقَةَ كَتَبَ اللَّهُ الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ " ثم تلا ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فبذلك فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية فى الآيتين :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾

هذه آية خوطب بها جميع العالم ، و" الموعظة " القرآن لأن الوعظ إنما هو بقول يأمر بالمعروف ويزجر ويرقق ويوعد ويعد ، وهذه صفة الكتاب العزيز ، وقوله : ﴿ من ربكم ﴾ يريد لم يختلقها محمد صلى الله عليه وسلم بل هي من عند الله و﴿ ما في الصدور ﴾ يريد به الجهل والعتو عن النظر في آيات الله ونحو هذا مما يدفع الإيمان ، وجعله موعظة بحسب الناس أجمع ، وجعله ﴿ هدى ورحمة ﴾ بحسب المؤمنين فقط ، وهذا تفسير صحيح المعنى إذا تؤمل بان وجهه ، وقوله سبحانه ﴿ قل بفضل الله وبرحمته ﴾ ، الباء متعلقة بمحذوف استغني عن ذكره يدل عليه قوله : ﴿ وهدى ورحمة ﴾ قال بعض المتأولين وهو هلال بن يساف وقتادة والحسن وابن عباس " الفضل " : الإسلام ، و" الرحمة " : القرآن ، وقال أبو سعيد الخدري : " الفضل " : القرآن ، و" الرحمة " أن جعلهم من أهله ، وقال زيد بن أسلم والضحاك " الفضل " : القرآن ، و" الرحمة " : الإسلام ، وقالت فرقة : " الفضل " : محمد صلى الله عليه وسلم ، و" الرحمة " : القرآن .

قال القاضي أبو محمد : ولا وجه عندي لشيء من هذا التخصيص إلا أن يستند منه شيء إلى النبي صلى الله عليه سلم ، وإنما الذي يقتضيه اللفظ ويلزم منه ، أن " الفضل " هو هداية الله تعالى إلى دينه والتوفيق إلى اتباع الشرع ، و" الرحمة " : هي عفوه وسكنى جنته التي جعلها جزاء على التشرع بالإسلام والإيمان به ، ومعنى الآية : قل يا محمد لجميع الناس : ﴿ بفضل الله وبرحمته ﴾ فليقع الفرح منكم ، لا بأمور الدنيا وما جمع من حطامها ، فالمؤمنون يقال لهم فلتفرحوا ، وهم متلبسون بعلة الفرح وسببه ، ومحصلون لفضل الله منتظرون الرحمة ، والكافرون يقال لهم : ﴿ بفضل الله وبرحمته ﴾ فلتفرحوا ، على معنى أن لو اتفق لكم أو لو سعدتم بالهداية إلى تحصيل ذلك ، وقرأ أبي بن كعب وابن القعقاع وابن عامر والحسن على ما زعم هارون ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم " فلتفرحوا " ، و" تجمعون " بالتاء فيهما على المخاطبة ، وهي قراءة جماعة من السلف كبيرة ، وعن أكثرهم خلاف ، وقرأ السبعة سوى ابن عامر وأهل المدينة والأعرج ومجاهد وابن أبي إسحاق وقتادة وطلحة والأعمش : بالياء فيهما على ذكر الغائب ، ورويت عن الحسن بالتاء من فوق فيهما ، وقرأ أبو التياح وأبو جعفر وقتادة : بخلاف عنهم وابن عامر بالياء في

الأولى وبالتاء في الآخرة ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن وجماعة من السلف ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم بالياء في الأولى وفي الآخرة ، ورويت عن أبي التياح ، وإذا تأملت وجوه ذلك بانت على مهيع الفصيح من كلام العرب ولذلك كثر الخلاف من كل قارىء ، وفي مصحف أبي بن كعب ، " فبذلك فافرحوا " وأما من قرأ " فلتفرحوا " فأدخل اللام في أمر المخاطب فذلك على لغة قليلة ، حكى ذلك أبو علي في الحجة ، وقال أبو حاتم وغيره : الأصل في كل أمر إدخال اللام إذا كان النهي بحرف فكذلك الأمر ، وإذا كان أمراً لغائب بلام ، قال أبو الفتح : إلا أن العرب رفضت إدخال اللام في أمر المخاطب

(116/364)

لكثرة ترداده ، وقرأ أبو الفتوح والحسن : بكسر اللام من " فِلتفرحوا " ، فإن قيل : كيف أمر الله بالفرح في هذه الآية ؟ وقد ورد ذمه في قوله

﴿ لفرح فخور ﴾ [هود : 10] ، وفي قوله ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ [القصص : 76] قيل إن الفرح إذا ورد مقيداً في خير فليس بمذموم وكذلك هو في هذه الآية ، وإذا ورد مقيداً في شر أو مطلقاً لحقه ذم إذ ليس من أفعال الآخرة بل ينبغي أن يغلب على

الإنسان حزنه على ذنبه وخوفه لربه ، وقوله : ﴿ مما يجمعون ﴾ يريد من مال الدنيا وحطامها الفاني المؤذي في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(117/364)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾

قال أبو سعيد الخُدرِيّ وابن عباس رضي الله عنهما : فضل الله القرآن ، ورحمته الإسلام .

وعنهما أيضاً : فضل الله القرآن ، ورحمته أن جعلكم من أهله ، وعن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة : فضل الله الإيمان ، ورحمته القرآن ؛ على العكس من القول الأوّل .

وقيل : غير هذا .

﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ إشارة إلى الفضل والرحمة .

والعرب تأتي "بذلك" للواحد والاثنين والجمع .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قرأ "فَبِذَلِكَ فَلْتَفْرَحُوا" بالتاء ؛ وهي قراءة يزيد بن القَعْقاع ويعقوب وغيرهما ، وفي الحديث .

" لتأخذوا مصافّكم " والفرح لذة في القلب بإدراك المحبوب .

وقد ذمّ الفرح في مواضع ؛ كقوله : ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [القصص : 76] وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود : 10] ولكنه مطلق .

فإذا قيّد الفرح لم يكن ذماً ؛ لقوله ؛ ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [آل عمران : 170] وها هنا قال تبارك وتعالى : ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ أي بالقرآن والإسلام فليفرحوا ؛ فقيد .

قال هارون : وفي حرف أُبَيّ "فبذلك فافرحوا" .

قال النحاس : سبيل الأمر أن يكون باللام ليكون معه حرف جازم كما أن مع النهي حرفاً ؛ إلا أنهم يحذفون من الأمر للمخاطب استغناء بمخاطبته ، وربما جاءوا به على الأصل ؛ منه "فبذلك فلتفرحوا" .

﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ يعني في الدنيا .

وقراءة العامة بالياء في الفعلين ؛ ورُوي عن ابن عامر أنه قرأ "فليفرحوا" بالياء "تجمعون" بالتاء ؛ خطاباً للكافرين .

ورُوي عن الحسن أنه قرأ بالتاء في الأوّل ؛ و "يجمعون" بالياء على العكس .

(118/364)

وروى أبان عن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من هداه الله للإسلام وعلمه القرآن ثم شكا الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه " ثم تلا ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(119/364)

وقال أبو حيان :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾

قال الزمخشري عن أبيّ بن كعب : أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قرأ : قل بفضل الله وبرحمته فقال : "بكتاب الله والإسلام" فضله الإسلام ، ورحمته ما وعد عليه انتهى .

ولو صح هذا الحديث لم يمكن خلافه .

قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، وهلال بن يساف : فضل الله الإسلام ، ورحمته القرآن .

وقال الضحاك وزيد بن أسلم عكس هذا ، وقال أبو سعيد الخدري : الفضل القرآن ، والرحمة أن جعلهم من أهله .

وقال ابن عباس فيما روى الضحاك عنه : الفضل العلم والرحمة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وقال ابن عمر : الفضل الإسلام ، والرحمة تزيينه في القلوب .

وقال مجاهد : الفضل والرحمة القرآن ، واختاره الزجاج .

وقال خالد بن معدان : الفضل القرآن ، والرحمة السنة .

وعنه أيضاً أنّ الفضل الإسلام ، والرحمة الستر .

وقال عمرو بن عثمان : فضل الله كشف الغطاء ، ورحمته الرؤية واللقاء .

وقال الحسين بن فضل : الفضل الإيمان ، والرحمة الجنة .

وقيل : الفضل التوفيق ، والرحمة العصمة .

وقيل : الفضل نعمه الظاهرة ، والرحمة نعمه الباطنة .

وقال الصادق : الفضل المغفرة ، والرحمة التوفيق .

وقال ذون النون : الفضل الجنان ، ورحمته النجاة من النيران .

وهذه تخصيصات تحتاج إلى دلائل ، وينبغي أن يعتقد أنها تمثيلات ، لأن الفضل والرحمة أريد بهما تعيين ما ذكر وحصرهما فيه .

وقال ابن عطية : وإنما الذي يقتضيه اللفظ ويلزم منه أنّ الفضل هو هداية الله إلى دينه

والتوفيق إلى اتباع الشرع ، والرحمة هي عفوه وسكنى جنته التي جعلها جزاء على اتباع الإسلام والإيمان .

(120/364)

ومعنى الآية : قل يا محمد لجميع الناس بفضل الله وبرحمته فليقع الفرح منكم ، لا بأمور الدنيا وما يجمع من حطامها ، فالمؤمنون يقال لهم : فليفرحوا وهم ملتبسون بعلة الفرح وسببه ، ومخلصون لفضل الله منتظرون لرحمته ، والكافرون يقال لهم : بفضل الله ورحمته فليفرحوا على معنى أنْ لو اتفق لكم أو لو سعدتم بالهداية إلى تحصيل ذلك انتهى .

والظاهر أن قوله : قل بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا جملتان ، وحذف ما تتعلق به الباء والتقدير : قل بفضل الله وبرحمته ليفرحوا ، ثم عطفت الجملة الثانية على الأولى على سبيل التوكيد .

قال الزمخشري : والتكرير للتقرير والتأكيد ، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا ، فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه ، والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل : إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح ، فإنه لا مفروح به أحق منهما .

ويجوز أن يراد بفضل الله وبرحمته فليعتنوا بذلك ، فليفرحوا .

ويجوز أنْ يراد قد جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك أي : فبمجيئهما فليفرحوا انتهى .

أما إضمار فليعنتوا فلا دليل عليه ، وأما تعليقه بقوله : قد جاءتكم ، فينبغي أن يقدر ذلك محذوفاً بعد قل ، ولا يكون متعلقاً بجاءتكم الأولى للفصل بينهما بقل .

وقال الحوفي : الباء متعلقة بما دل على المعنى أي : قد جاءتكم الموعظة بفضل الله .

وقيل : الفاء الأولى زائدة ، ويكون بذلك بدلاً مما قبله ، وأشير به إلى الاثنين الفضل والرحمة .

(121/364)

وقيل : كررت الفاء الثانية للتوكيد ، فعلى هذا لا تكون الأولى زائدة ، ويكون أصل التركيب فبذلك ليفرحوا ، وفي القول قبله يكون أصل التركيب بذلك فليفرحوا ، ولا تنافي بين الأمر بالفرح هنا وبين النهي عنه في قوله : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ لاختلاف المتعلق ، فالمأمور به هنا الفرح بفضل الله وبرحمته ، والمنهي هناك الفرح بجمع الأموال لرئاسة الدنيا وإرادة العلو بها والفساد والأشر ، ولذلك جاء بعده : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله

الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ وقبله : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ﴾ وقوله : ﴿ لفرح فخور ﴾ جاء ذلك على سبيل الذم لفرحه بإذاقة النعماء بعد الضراء ، ويأسه وكفرانه للنعماء إذا نزعت منه ، وهذه صفة مذمومة ، وليس ذلك من أفعال الآخرة .

وقول من قال : إنه إذا أطلق الفرح كان مذموماً ، وإذا قيد لم يكن مذموماً كما قال : ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ ليس بمطرد ، إذ جاء مقيداً في الذم في قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ﴾ وإنما يمدح الفرح ويذم بحسب متعلقه ، فإذا كان بنيل ثواب الآخرة وإعمال البر كان محموداً ، وإذا كان بنيل لذات الدنيا وحطامها كان مذموماً .

وقرأ عثمان بن عفان ، وأبيّ ، وأنس ، والحسن ، وأبو رجاء ، وابن هرمز ، وابن سيرين ، وأبو جعفر المدني ، والسلمي ، وقتادة ، والجحدري ، وهلال بن يساف ، والأعمش ، وعمرو بن قائد ، والعباس بن الفضل الأنصاري : فلتفرحوا بالتاء على الخطاب ، ورويت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) .

قال صاحب اللوامح : وقال وقد جاء عن يعقوب كذلك ، انتهى .

وقال ابن عطية : وقرأ أبي وابن القعقاع ، وابن عامر ، والحسن : على ما زعم هارون .

ورويت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) فلتفرحوا وتجمعون بالتاء فيهما على المخاطبة

، وهي قراءة جماعة من السلف كثيرة ، وعن أكثرهم خلاف انتهى .

والجمهور بالياء على أمر الغائب .

(122/364)

وما نقله ابن عطية أن ابن عامر قرأ فلتفرحوا بالتاء ليس هو المشهور عنه ، إنما قراءته في مشهور السبعة بالياء أمراً للغائب ، لكنه قرأ تجمعون بالتاء على الخطاب ، وباقي السبعة بالتاء على الخطاب .

وفي مصحف أبي : فبذلك فافرحوا ، وهذه هي اللغة الكثيرة الشهيرة في أمر المخاطب .

وأما فليفرحوا بالياء فهي لغة قليلة .

وفي الحديث : "لتأخذوا مصافكم" وقرأ أبو التياح والحسن : فليفرحوا بكسر اللام ، ويدل على أنّ ذلك أشير به إلى واحد عود الضمير عليه موحداً في قوله : هو خير مما يجمعون ، فالذي ينبغي أنّ قوله تعالى : بفضل الله وبرحمته ، على أنهما شيء واحد عبر عنه باسمين على سبيل التأكيد ، ولذلك أشير إليه بذلك ، وعاد الضمير عليه مفرداً .

وقوله : مما يجمعون يعني من حطام الدنيا ومتاعها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾

﴿ قُلْ ﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأمرَ الناسَ بأن يغتنموا ما في مجيء القرآن العظيمِ من الفضل والرحمة ﴿ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ المرادُ بهما إما ما في مجيء القرآنِ من الفضل والرحمةِ وإما الجنسُ وهما داخلان فيه دخولاً أولياً ، والباء متعلقةٌ بمحذوف ، وأصلُ الكلام ليفرَحوا بفضل الله وبرحمته للإيذان باستقلالها في استيجاب الفرحِ ثم قُدّم الجارُّ والمجرورُ على الفعل لإفادة القصرِ ثم أُدخل عليه الفاءُ لإفادة معنى السببيةِ فصار بفضل الله وبرحمته فليفرَحوا ثم قيل : ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ للتأكيد والتقريرِ ثم حُذف الفعلُ الأول لدلالة الثاني عليه والفاءُ الأولى جزائيةٌ والثانيةُ للدلالة على السببية والأصلُ إن فرِحوا بشيء فبذلك ليفرحوا لا بشيء آخرَ ، ثم أُدخل الفاءُ للدلالة على السببية ثم حذف الشرطُ ، ومعنى البُعد في اسم الإشارةِ للدلالة على بُعد درجةِ فضل الله تعالى ورحمتِه ويجوز أن يراد بفضل الله وبرحمته فلْيعتنوا فبذلك فليفرحوا ، ويجوز أن يتعلق الباءُ بجاءتكم أي جاءتكم موعظةٌ بفضل الله وبرحمته فبذلك

أي فبمجيئها فليفرَحوا وقرىء فلتفرحوا وقرأ أُبيّ : فافرَحوا ، وعن أُبي بن كعب أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم تلا : "قل بفضلِ الله وبرحمتِهِ" فقالَ : "بكتاب الله والإسلامِ" ، وقيل : فضلُه الإسلامُ ورحمتُه ما وعَد عليه .

﴿ هُوَ ﴾ أي ما ذكر من فضل الله ورحمته ﴿ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ من حُطام الدنيا وقرىء تجمعون أي فبذلك فليفرَحِ المؤمنون هو خير مما تجمعون أيها المخاطَبون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(124/364)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾

﴿ قُلْ ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأمر الناس بأن يغتنموا ما في القرآن العظيم من الفضل والرحمة أي قل لهم ﴿ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ متعلق بمحذوف ، وأصل الكلام ليفرحوا بفضل الله تعالى وبرحمته ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لإفادة اختصاصه بالمجرور ثم أدخل عليه الفاء لإفادة معنى السببية فصار بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ثم جىء بقوله سبحانه : ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ للتأكيد والتقرير ثم

حذف الفعل الأول لدلالة الثاني عليه ، والفاء الأولى قيل جزائية والثانية زائدة للتأكيد ، والأصل أن فرحوا بشيء فبذلك ليفرحوا لا بشيء آخر ثم زيدت الفاء لما ذكر ثم حذف الشرط ، وقيل : إن الأولى هي الزائدة لأن جواب الشرط في الحقيقة فليفرحوا وبذلك مقدم من تأخير لما أشير إليه ، وزيدت فيه الفاء للتحسين ، ولذلك جوز أن يكون بدلاً من قوله سبحانه : ﴿ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ وحينئذٍ لا يحتاج إلى القول بحذف متعلقه ونظير ذلك في الاختلاف في تعيين الزائد فيه قول النمر بن تولب

: لا تجزعي إن منفساً أهلكته . . .

فإذا هلكت فعند ذلك فاجزعي

(125/364)

ومن غريب العربية ما أشار إليه بعضهم إن الآية من باب الاشتغال وقد أقيم اسم الإشارة مقام ضمير المعمول وتوحيده باعتبار ما ذكر ونحوه كما هو شائع فيه ، ووجه غرابته أن المعروف في شرط الباب اشتغال العامل بضمير المعمول ولم يذكر أحد من النحاة اشتغاله باسم الإشارة إليه ، وجوز أن يقدر متعلق الجار والمجرور ﴿ فليعتنوا ﴾ أي بفضل الله ورحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا ، والقرينة على تقدير ذلك أن ما يفرح به يكون مما يعتني

ويهتم بشأنه ، أو تقديم الجار والمجرور على ما قيل ، وقال الحلبي : الدلالة عليه من السباق واضحة وليس شرط الدلالة أن تكون لفظية ، فقول أبي حيان : إن ذلك إضمار لا دليل عليه مما لا وجه له ، وأن يقدر جاءتكم بعد ﴿ اثنين قُلْ ﴾ مدلولاً عليه بما قبل أي قل جاءتكم موعظة وشفاء وهدى ورحمة بفضل الله وبرحمته ولا يجوز تعلقه بجاءتكم المذكور لأن ﴿ قُلْ ﴾ تمنع من ذلك ، وذلك على هذا إشارة إلى المصدر المفهوم من الفعل وهو المجيء أي فبمجيء المذكورات فليفرحوا ، وتكرير الباء في برحمته على سائر الأوجه للإيذان باستقلالها في استيجاب الفرح ، والمراد بالفضل والرحمة إما الجنس ويدخل فيه ما في مجيء القرآن من الفضل والرحمة دخولاً أولياً وإما ما في مجيئه من ذلك ، ويؤيده ما روي عن مجاهد أن المراد بالفضل والرحمة القرآن .

وأخرج أبو الشيخ .

وابن مردويه عن أنس قال قال : " رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل الله القرآن ورحمته أن جعلكم من أهله "

وروي ذلك عن البراء .

وأبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنهما موقوفاً .

وجاء عن جمع جم أن الفضل القرآن والرحمة الإسلام وهو في معنى الحديث المذكور .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الفضل العلم والرحمة محمد

صلى الله عليه وسلم .

وأخرج الخطيب .

(126/364)

وابن عساكر عنه تفسير الفضل بالنبي عليه الصلاة والسلام والرحمة بعلي كرم الله تعالى وجهه ، والمشهور وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالرحمة كما يرشد إليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أرسلناكَ إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] دون الأمير كرم الله تعالى وجهه ، وإن كان رحمة جليلة رضي الله تعالى عنه وأرضاه ، وقيل : المراد بهما الجنة والنجاة من النار .

وقيل غير ذلك ، ولا يجوز أن يراد بالرحمة على الوجه الأخير من أوجه الإعراب ما أريد بها أولاً بل هي فيه غير الأولى كما لا يخفى .

وروى رويس عن يعقوب أنه قرأ ﴿ فلتفرحوا ﴾ بتاء الخطاب ولام الأمر على أصل المخاطب المتروك بناءً على القول بأن أصل صيغة الأمر الأمر باللام فحذفت مع تاء المضارعة واجتلبت همزة الوصل للتوصل إلى الابتداء بالساكن لا على القول بأنها صيغة أصلية ، وقد وردت هذه القراءة في حديث صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد

أخرجه جماعة منهم أبو داود .

وأحمد .

والبيهقي من طرق عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه مرفوعاً ، وقرأ بها أيضاً ابن عباس .

وقتادة .

وغيرهما .

(127/364)

وفي تعليقات الزمخشري على كشافه كأنه صلى الله عليه وسلم إنما آثر القراءة بالأصل لأنه أدل على الأمر بالفرح وأشد تصريحاً به إيذاناً بأن الفرح بفضل الله تعالى وبرحمته بليغ التوصية به ليطابق التقرير والتكرير وتضمين معنى الشرط لذلك ، ونظيره مما انقلب فيه ما ليس بفصيح فصيحاً قوله سبحانه : ﴿ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الصمد : 4] من تقديم الظرف اللغو ليكون الغرض اختصاص التوحيد انتهى ، وهو مأخوذ من كلام ابن جني في توجيه ذلك ، ونقل عن "شرح اللب" في توجيهه أنه لما كان النبي صلى الله عليه وسلم مبعوثاً إلى الحاضر والغائب جمع بين اللام والتاء قيل : وكأنه عنى أن الأمر لما كان لجملة

المؤمنين حاضرهم وغائبهم غلب الحاضرون في الخطاب على الغائبين وأتى باللام رعاية لأمر الغائبين ، وهي نكتة بديعة إلا أنه أمر محتمل ، وما نقل عن صاحب الكشاف أولى بالقبول .

وقرىء ﴿ فافرحوا ﴾ وهي تؤيد القراءة السابقة لأنها أمر المخاطب على الأصل .

وقرىء ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ بكسر اللام ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ من الأموال والحرث والإنعام وسائر حطام الدنيا فإنها صائرة إلى الزوال مشرفة عليه وهو راجع إلى لفظ ذلك باعتبار مدلوله وهو مفرد فروعي لفظه وإن كان عبارة عن الفضل والرحمة .

ويجوز إرجاع الضمير إليهما ابتداء بتأويل المذكور كما فعل في ذلك أو جعلهما في حكم شيء واحد ، ولك أن تجعله راجعاً إلى المصدر أعني المجيء الذي أشير إليه و ﴿ مَا ﴾ تحتمل الموصولية والمصدرية .

(128/364)

وقرأ ابن عامر ﴿ تجمعون ﴾ بالخطاب لمن خوطب ﴿ يا أَيُّهَا الناس ﴾ [يونس : 57] سواء كان عاماً أو خاصاً بكفار قريش ، وضمير ﴿ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ للمؤمنين أي فبذلك فليفرح المؤمنون فهو خير مما تجمعون أيها المخاطبون وعلى قراءة ﴿ فلتفرحوا ﴾ ﴿

وافرحوا ﴾ يكون الخطاب على ما قيل للمؤمنين ، وجوز أن يكون لهم على قراءة الغيبة أيضاً التفاتاً ، وتعقب بأن الجمع أنسب بغيرهم وإن صح وصفهم به في الجملة فلا ينبغي أن يلتزم القول بما يستلزمه ما دام مندوحة عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(129/364)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾

يتفرع على كون القرآن هدى ورحمة للمؤمنين تنبيههم إلى أن ذلك فضل من الله عليهم ورحمة بهم يحق لهم أن يفرحوا بهما ، وأن يقدروا قدر نعمتهما ، وأن يعلموا أنها نعمة تفوق نعمة المال التي حُرم منها أكثر المؤمنين ومُنحها أكثر المشركين ، فكانت الجملة حقيقة بأن تفتتح بفاء التفريع .

وجيء بالأمر بالقول معترضاً بين الجملة المفرعة والجملة المفرع عليها تنويهاً بالجملة المفرعة ، بحيث يؤمر الرسول أمراً خاصاً بأن يقولها وإن كان جميع ما ينزل عليه من القرآن مأموراً بأن يقوله .

وتقدير نظم الكلام : قل لهم فليفرحوا بفضل الله وبرحمته بِذلك ليفرحوا .

فالفاء في قوله : ﴿ فليفرحوا ﴾ فاء التفريع ، و ﴿ بفضل الله وبرحمته ﴾ مجرور متعلق بفعل ﴿ فليفرحوا ﴾ قُدم على متعلَّقه للاهتمام به للمسلمين ولإفادة القصر ، أي بفضل الله وبرحمته دون ما سواه مما دل عليه قوله : ﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ ، فهو قصر قلب تعريضي بالرد على المشركين الذين ابتهجوا بعَرض المال فقالوا : نحن أكثر أموالاً وأولاداً .

والإشارة في قوله : ﴿ فبذلك ﴾ للمذكور ، وهو مجموع الفضل والرحمة ، واختير للتعبير عنه اسم الإشارة لما فيه من الدلالة على التنويه والتعظيم مع زيادة التمييز والاختصار .

ولما قصد توكيد الجملة كلها بما فيها من صيغة القصر قرن اسم الإشارة بالفاء تأكيداً لفاء التفريع التي في ﴿ فليفرحوا ﴾ لأنه لما قدم على متعلَّقه قرن بالفاء لإظهار التفريع في ابتداء الجملة ، وقد حذف فعل (ليفرحوا) فصار مفيداً مفاد جملتين متماثلتين مع إيجاز بديع .

وتقدير معنى الكلام : قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته لا سواهما فليفرحوا بذلك لا سواه .

والفرح : شدة السرور .

ولك أن تجعل الكلام استئنافاً ناشئاً مما تقدم من النعمة على المؤمنين بالقرآن .

(130/364)

ولما قدم المجرور وهو ﴿ بفضل الله وبرحمته ﴾ حصل بتقديمه معنى الشرط فقرنت الجملة بعده بالفاء التي تربط الجواب لقصد إفادة معنى الشرط .

وهذا كثير في الاستعمال كقوله تعالى : ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ [المطففين : 26] ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم " ففيهما فجاهد " ، وقوله : "كما تكونوا يولَّ عليكم " بجزم (تكونوا) وجزم (يول) .

فالفاء في قوله : ﴿ فبذلك ﴾ رابطة للجواب ، والفاء في قوله : ﴿ فليفرحوا ﴾ مؤكدة للربط .

ولم يختلف المفسرون في أن القرآن مراد من فضل الله ورحمته .

وقد روي حديث عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : فضل الله القرآن .

ورحمته أن جعلكم من أهله (يعني أن هداكم إلى اتباعه) .

ومثله عن أبي سعيد الخدْري والبراءِ موقوفاً ، وهو الذي يقتضيه اللفظ فإن الفضل هو هداية الله التي في القرآن ، والرحمة هي التوفيق إلى اتباع الشريعة التي هي الرحمة في الدنيا والآخرة .

وجملة : ﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ مبيّنة للمقصود من القصر المستفاد من تقديم المجرورين .

وأفرد الضمير بتأويل المذكور كما أفرد اسم الإشارة .

والضمير عائد إلى اسم الإشارة ، أي ذلك خير مما يجمعون .

و ﴿ ما يجمعون ﴾ مراد به الأموال والمكاسب لأن فعل الجمع غلب في جمع المال .

قال تعالى : ﴿ الذي جمع مالاً وعدده ﴾ [الهمزة : 2] .

ومن المعتاد أن جامع المال يفرح بجمعه .

وضمير ﴿ يجمعون ﴾ عائد إلى ﴿ الناس ﴾ في قوله : ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة ﴾ [يونس : 57] بقرينة السياق وليس عائداً إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ يفرحوا ﴾ فإن القرائن تصرف الضمائر المتشابهة إلى مصارفها ، كقول عباس بن مرداس :

عدنا ولولا نحن أحدق جمعهم

بالمسلمين وأحرزوا مَا جمَّعوا . . .

ضمير (أحرزوا) عائد إلى المشركين الذين عاد إليهم الضمير في قوله : (جمعهم) .

(131/364)

وضمير (جمَّعوا) عائد إلى المسلمين ، أي لولا نحن لغنم المشركون ما جمَعه المسلمون من الغنائم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وعمروها أكثر مما عمروه ﴾ في سورة [الروم : 9] .

وعلى هذا الوجه يظهر معنى القصر أتمّ الظهور ، وهو أيضاً المناسب لحالة المسلمين وحالة المشركين يومئذٍ ، فإن المسلمين كانوا في ضعف لأن أكثرهم من ضعاف القوم أو لأن أقاربهم من المشركين تسلطوا على أموالهم ومنعوهم حقوقهم إلجاء لهم إلى العود إلى الكفر .

وقد وصف الله المشركين بالثروة في آيات كثيرة كقوله : ﴿ وذرني والمكذبين أولي النَّعْمة ﴾ [المزمل : 11] وقال : ﴿ أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ [القلم : 14 ، 15] وقال : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ﴾ [آل عمران : 196 ، 197] ، فلعل المشركين كانوا يحتقرون المسلمين كما حكي عن قوم نوح قولهم : ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾ [هود : 27] .

وقد قال الله للنبيء صلى الله عليه وسلم ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي إلى قوله : ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ [الأنعام : 52 ، 53] حين قال له المشركون : لو طردت هؤلاء العبيد من مجلسك لجلسنا إليك ، فكمدهم الله بأن المسلمين خيرٌ منهم لأنهم كملت عقولهم بالعقائد الصحيحة والآداب الجليلة .

وهذا الوجه هو المناسب للإتيان بالمضارع في قوله : ﴿ يجمعون ﴾ المقتضي تجدد الجمع وتكرره ، وذلك يقتضي عنايتهم بجمع الأموال ولم يكن المسلمون بتلك الحالة .

والمعنى أن ذلك خير مما يجمعه المشركون مع اتصافهم بالشرك لأنهم وإن حصلوا ما به بعض الراحة في الدنيا فهم شرار النفوس خساس المدارك .

وقرأ الجمهور ﴿ يجمعون ﴾ بياء الغيبة فالضمير عائد على معلوم من الكلام ، أي مما يجمع المشركون من الأموال .

(132/364)

وقرأه ابن عامر وأبو جعفر ورويس عن يعقوب ﴿ مما تجمعون ﴾ بتاء الخطاب فيكون خطاباً للمشركين الذين شملهم الخطاب في أول الآية بقوله : ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ﴾ [يونس : 57] ، فإنه بعد أن عمم الخطاب خص المؤمنين بالذكر وبالجدارة بالفرح ، فبقي الخطاب لمن عدا المسلمين وهم المشركون إذ ليس ثم غير هذين الفريقين من الناس هنالك .

ولا يناسب جعل الخطاب للمسلمين إذ ليس ذلك من شأنهم كما تقدم آنفاً ، ولأنه لا يظهر منه معنى التفضيل إلا بالاعتبار لأن المسلمين قد نالوا الفضل والرحمة فإذا نالوا معهما المال لم ينقص ذلك من كمالهم بالفضل والرحمة .

وقد أجملت الآية وجه تفضيل هذا الفضل والرحمة على ما يجمعونه لقصد إعمال النظر في وجوه تفضيله ، فإنها كثيرة ، منها واضح وخفي .

وينبىء بوجه تفضيله في الجملة إضافتُه الفضل والرحمة إلى الله وإسناد فعل ﴿ يجمعون

﴿ إلى ضمير ﴿ الناس ﴾ [يونس : 57] .

وهذا الفضل أخروي ودنيوي .

أما الأخروي فظاهر ، وأما الدنيوي فلأن كمال النفس وصحة الاعتقاد وتطلع النفس إلى الكمالات وإقبالها على الأعمال الصالحة تكسب الراحة في الدنيا وعيشة هنيئة .

قال تعالى : ﴿ يأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مَرضية ﴾ [الفجر : 27 ، 28] فجعل رضاها حالاً لها وقت رجوعها إلى ربها .

قال فخر الدين : "والمقصود من الآية الإشارة إلى أن السعادات الروحانية أفضل من السعادات الجسمانية ، فيجب أن لا يفرح الإنسان بشيء من الأحوال الجسمانية لأن اللذات الجسمانية ليست غير دفع الآلام عند جمع من الحكماء والمعنى العدمي لا يستحق أن يفرح به .

وعلى تقدير أن تكون هذه اللذات صفات ثبوتية فإنها لا تكون خالصة البتة بل تكون ممزوجة بأنواع من المكاره وهي لا تكون باقية ، فكلما كان الالتذاذ بها أكثر كانت الحسرات الحاصلة من خوف فواتها أكثر وأشد " .

ثم إن عدم دوامها يقتضي قصر مدة التمتع بها بخلاف اللذات الروحانية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾

وأنت وكل المؤمنين مهما عملوا في تطبيق منهج الله ، فكلُّنا بعبادتنا لن نؤدي حَقَّ النعم الموجودة عندنا قبل أن نُكَلَّف ، وعلينا أن نتدبَّر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لن يدخل أحدكم الجنة بعمله " . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : " ولا أنا إلا أنْ يتغمَّدني الله برحمته " .

إذن : فإن افتخر إنسان بطاعته لله ، فهذه الطاعة تعود على العبد في دنياه ، وهو لن يؤدي بطاعته حق كل النعم التي أسبغها الله عليه .

ومثال ذلك : إن العبد لا يُكلَّف إلا عند البلوغ ، أي : في سنّ الخامسة عشر تقريباً ، فإ نظر إلى النعم التي أسبغها الله تعالى عليه حتى وصل إلى هذه السِّنِّ ، فهو لن يحصيها ، فما بالنا بالنعم التي تغمرنا في كل العمر ، وحين يجازينا الحق في الآخرة ، فهو لا يجازينا بالعدل ، بل يعاملنا بالفضل .

إذن : إياك أن تقول : أنا تصدَّقتُ بكذا ، أو صلّيت كذا ؛ حتى لا تورثك استجابتك لمنهج الله غروراً بعملك التعبُّديّ ، وتذكَّر القول المأثور : " رُبَّ معصية أورثتْ ذُلاً وانكساراً ، خيرٌ من طاعةٍ أورثتْ عِزّاً واستكبارا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

فائدة

قال ابن القيم :

الفرق بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر فإن الفرح بالله ومعرفته ومحبته وكلامه من القلب قال تعالى والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك فإذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحي فأولياء الله وأتباع رسوله أحق بالفرح به وقال تعالى وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وقال تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون قال أبو سعيد الخدري فضل الله القرآن ورحمته أن جعلكم من أهله وقال هلال بن يساف فضل الله ورحمته الإسلام الذي هداكم إليه والقرآن الذي علمكم هو خير من الذهب والفضة الذي تجمعون وقال ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين فضل الله الإسلام ورحمته القرآن فهذا فرح القلب وهو من الإيمان ويثاب عليه العبد فإن فرحه به يدل على رضاه به بل هو فوق الرضا فالفرح بذلك على قدر محبته فإن الفرح إنما يكون بالظفر بالمحبوب وعلى قدر محبته يفرح بحصوله له فالفرح بالله وأسمائه وصفاته ورسوله وسنته وكلامه محض الإيمان

وصفوته ولبه وله عبودية عجيبة وأثر القلب لا يعبر عنه فابتهاج القلب وسروره وفرحه بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه أفضل ما يعطاه بل هو جل عطاياه والفرح في الآخرة بالله ولقائه بحسب الفرح به ومحبته في الدنيا فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة وضعفها فهذا شأن فرح القلب وله فرح آخر وهو فرحه بما من الله به عليه علمه من معاملته والإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه به وكلما تمكن في ذلك قوى فرحه وابتهاجه وله فرحة أخرى عظيمة الوقع عجيبة الشأن وهي الفرحة التي تحصل له بالتوبة فإن لها فرحة عجيبة لا نسبة لفرحة المعصية إليها البتة فلو علم المعاصي إن لذة التوبة وفرحتها يزيد على لذة المعصية وفرحتها أضعافا مضاعفة لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية

(135/364)

وسر هذا الفرح إنما يعلمه من علم سر فرح الرب تعالى بتوبة عبده أشد فرح يقدر ولقد ضرب له رسول مثلا ليس في أنواع الفرح في الدنيا أعظم منه وهو فرح رجل قد خرج براحته التي عليها طعامه وشرابه في سفر ففقدها في أرض دوية مهلكة فاجتهد في طلبها فلم يجدها فيئس منه فجلس ينتظر الموت حتى إذا طلع البدر رأي في ضوئه راحلته وقد تعلق

زمامها بشجر فقال من شدة فرحه اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته

فلا ينكر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة ولكن ها هنا أمر يجب التنبيه عليه وهو أن لا يصل إلى ذلك إلا بعد ترحات ! ومضض ومحن لا تثبت لها الجبال فإن صبر لها ظفر بلذة الفرح وإن ضعف عن حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشيء وآخر أمره فوات ما آثره من فرحة المعصية ولذتها فيفوته الأمران ويحصل على ضد اللذة من الألم المركب من وجود المؤذي وفوت المحبوب فالحكم لله العلي الكبير

فصل وها هنا فرحة أعظم من هذا كله وهي فرحته عند مفارقته الدنيا

(136/364)

إلى الله إذا أرسل إليه الملائكة فبشروه بلقائه وقال له ملك الموت أخرجي أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب ابشري بروح وريحان ورب غير غضبان اخرجي راضية مرضيا عنك يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي فلو لم يكن بين يدي التائب إلا هذه الفرحة وحدها لكان العقل يأمر بآيثارها فكيف ومن بعدها أنواع من الفرح منها الملائكة الذين بين السماء والأرض على روحه ومنه فتح

أبوب السماء لها وصلاة ملائكة السماء عليها وتشييع مقربيها لها إلى السماء الثانية فتفتح ويصلي عليها أهلها وشيعها مقربوها هكذا إلى السماء السابعة فكيف يقدر فرحها استؤذن لها على ربها ووليها وحبيبها فوقفت بين يديه وأذن لها بالسجود فسجدت ثم سمعته سبحانه يقول اكتبوا كتابه في غلبين ثم يذهب به فيرى الجنة ومقعده فيها وما أعد الله له ويلقي أصحابه وأهله فيستبشرون به ويفرحون به ويفرح بهم فرح الغائب يقدم على أهله فيجدهم على أحسن حال ويقدم عليهم بخير ما قدم به مسافر هذا كله قبل الفرج الأكبر يوم حشر الأجساد بجلوسه في ظل العرش وشربه من الحوض وأخذه كتابه بيمينه وثقل ميزانه وبياض وجهه وإعطائه النور التام والناس في الظلمة وقطعه جسر جهنم بلا تعويق وانتهائه إلى باب الجنة وقد أزلفت له في لموقف وتلقي خزنتها له بالترحيب والسلام والبشارة وقدومه على منازله وقصوره وأزواجه وسراريه

وبعد ذلك فرح آخر لا يقدر قدره ولا يعبر عنه تتلاشى هذه الأفراح كلها عنده وإنما يكون هذا لأهل السنة المصدقين برؤية وجه ربهم تبارك وتعالى من فوقهم وسلامه عليهم وتكليمه إياهم ومحاضرته لهم

وليست هذه الفرحات إلا . . . لذى الترحات في دار الرزايا

فشمر ما استطعت الساق واجهد . . . لعلك أن تفوز بذي العطايا

وصم عن لذة حشيت بلاء . . . الذات خلصن من البلايا

ودع أمنية إن لم تنلها . . . تعذب أو تنل كانت منايا

ولا تستبط وعدا من رسول . . . أتى بالحق من رب البرايا

فهذا الوعد أدنى من نعيم . . . مضى بالأمس لو وفقت رايا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الروح صـ 250.248﴾

(137/364)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58) ﴾

أخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان من طرق عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن فقلت : أسماني لك ؟ قال : نعم . قيل لأبي رضي الله عنه : أفرحت بذلك ؟ قال : وما يمنعني والله تعالى يقول " قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما تجمعون " هكذا قرأها بالتاء " " .

وأخرج الطيالسي وأبو داود والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي رضي الله عنه قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم " فبذلك فلتفرحوا " بالتاء .

وأخرج ابن جرير عن أبي رضي الله عنه أنه كان يقرأ " فبذلك فلتفرحوا هو خير مما تجمعون " بالتاء .

وأخرج ابن أبي عمر العدني والطبراني وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم " إنه كان يقرأ " فبذلك فلتفرحوا " .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ قل بفضل الله وبرحمته ﴾ قال : " فضل الله القرآن ، ورحمته أن جعلهم من أهله " " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ قل بفضل الله وبرحمته ﴾ قال : بكتاب الله وبالإِسلام .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ قل بفضل الله وبرحمته ﴾ قال : فضله الإِسلام ورحمته القرآن .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ قل بفضل الله ﴾ القرآن ﴿ وبرحمته ﴾ حين جعلهم من أهل القرآن .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال : فضل الله العلم ، ورحمته محمد صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سالم رضي الله عنه ﴿ قل بفضل الله ﴾ قال : الإِسلام ﴿ وبرحمته ﴾ قال : القرآن .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ قل بفضل الله وبرحمته ﴾ قال : القرآن .

وأخرج ابن جرير والبيهقي عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال : فضل الله القرآن ، ورحمته الإِسلام .

وأخرج ابن جرير والبيهقي عن هلال بن يسار رضي الله عنه في قوله ﴿ قل بفضل الله وبرحمته ﴾ قال : بالإِسلام الذي هداكم وبالقرآن الذي علمكم .

وأخرج ابن جرير والبيهقي عن هلال بن يسار رضي الله عنه ﴿ قل بفضل الله وبرحمته ﴾ قال : فضل الله الإِسلام ، ورحمته القرآن .

وأخرج ابن جرير عن الحسن وقتادة . مثله .

وأخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ قل بفضل الله ﴾ قال :

النبي صلى الله عليه وسلم ، ﴿ وبرحمته ﴾ قال : علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وأخرج أبو القاسم بن بشران في أماليه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من هداه الله للإِسلام وعلمه القرآن ثم شكا الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه ، ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ من عرض الدنيا من الأموال " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب رضي الله عنه في الآية قال : إذا عملت خيراً حمدت الله عليه فأفرح فهو خير مما يجمعون من الدنيا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما خير ﴿ مما يجمعون ﴾ قال : من الأموال والحرث والأنعام .

(139/364)

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن أيفع الكلاعي رضي الله عنه قال : لما قدم خراج العراق إلى عمر رضي الله عنه ، خرج عمر رضي الله عنه ومولى له ، فجعل يعد الإِبل فإذا هو أكثر من ذلك ، فجعل عمر رضي الله عنه يقول : الحمد لله . وجعل مولاه يقول : هذا – والله – من فضل الله ورحمته . فقال عمر رضي الله عنه : كذبت ليس هذا الذي يقول ﴿

قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(140/364)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58) ﴾

قوله تعالى : ﴿ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ : في تعلُّق هذا الجارّ أوجهٌ ، أحدُها : أنَّ " بفضل " و " برحمته " متعلقٌ بمحذوفٍ تقديرُه : بفضل الله وبرحمته ليَفْرحوا بذلك فَلْيفرحوا ، فحذفَ الفعلَ الأولَ لدلالة الثاني عليه ، فهما جملتان ، ويدلُّ على ذلك قولُ الزمخشري : " أصلُ الكلام : بفضل الله وبرحمته فَلْيفرحوا فبذلك والتكرير للتأكيد والتقريرِ وإيجابِ اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دونَ ما عَداهما من فوائدِ الدنيا ، فحُذِفَ أحدُ الفعَلْين لدلالةِ المذكورِ عليه ، والفاء داخلةٌ لمعنى الشرط كأنه قيل : إنْ فَرِحوا بشيءٍ فَلْيَخُصُّوهما بالفرح فإنه لا مفروحَ به أحقُّ منهما .

الثاني : أن الجارَّ الأولَ متعلقٌ أيضاً بمحذوفٍ دلَّ عليه السياقُ والمعنى ، لا نفس الفعلِ

الملفوظِ به والتقديرُ : بفضل الله وبرحمتِه فَلْيَعْتَنوا فبذلك فليفرحوا قاله الزمخشري .

الثالث : أن يتعلق الجارُّ الأول ب " جاءتكم " قال الزمخشري : " ويجوز أن يُراد " قد جاءَتْكم موعظةٌ بفضلِ الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، أي فبمجيئِها فَلْيفرحوا " . قال الشيخ : " أما إضمار " فليعتنوا " فلا دليلَ عليه " قلت : الدلالةُ عليه من السياق واضحةٌ ، وليس شرطُ الدلالةِ أن تكونَ لفظية .

وقال الشيخ : " وأمَّا تعلُّقه بقوله : " قد جاءتكم " فينبغي أن يقدَّرَ محذوفاً بعد " قل " ، ولا يكونُ متعلِّقاً ب " جاءتكم " الأولى للفصل بينهما ب " قل " . قلت : هذا إيرادٌ واضحٌ ، ويجوزُ أن تكونَ " بفضل الله " صفةً ل " موعظة " أي : موعظةٌ مصاحبةٌ أو ملتبسَةٌ بفضل الله .

الرابع : قال الحوفي : " الباءُ متعلقةٌ بما دَلَّ عليه المعنى أي : قد جاءتكم الموعظةُ بفضل الله " .

(141/364)

الخامس : أنَّ الفاءَ الأولى زائدةٌ ، وأن قولَه " بذلك " بدلٌ مِمَّا قبله وهو ﴿ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ وأُشير بذلك إلى اثنين وهما الفضلُ والرحمةُ كقوله : / ﴿ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ

عَوَانٌ بَيْنَ ذلك ﴾ [البقرة : 68] ، وكقوله :

2601 إنَّ للخيرِ وللشرِ مَدَى . . . وكِلا ذلك وَجْهٌ وقَبَلْ

وفي هاتين الفاءَيْن أوجهٌ ، أحدُهما : أنَّ الأولى زائدةٌ ، وقد تقدَّم تحريرُه في الوجه الخامس .

الثاني : أن الفاءَ الثانية مكررةٌ للتوكيد ، فعلى هذا لا تكونُ الأولى زائدةً ، ويكونُ أصلُ التركيبِ : فبذلك ليفرحوا ، وعلى القولِ الأول قبله يكون أصلُ التركيب : بذلك فَلْيفرحوا . الثالث : قال أبو البقاء : " الفاءُ الأولى مرتبطةٌ بما قبلها ، والثانيةُ بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه : فليَعْجبوا بذلك فَلْيفرحوا كقولهم : " زيداً فاضربه أي : تَعمَّدْ زيداً فاضْرِبه " .

والجمهورُ على " فَلْيفرحوا " بياء الغيبة . وقرأ عثمان بن عفان وأبيّ وأنس والحسن وأبو رَجاء وابن هرمز وابن سيرين بتاء الخطاب ، وهي قراءةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الزمخشري : " وهو الأصلُ والقياسُ " .

وقال الشيخ : " إنها لغةٌ قليلة " يعني أن القياسَ أن يُؤْمَرَ المخاطب بصيغة افعل ، وبهذا الأصلِ قرأ أُبَيٌّ " فافرحوا " وهي في مصحفِه كذلك ، وهذه قاعدةٌ كليةٌ : وهي أن الأمر باللام يَكْثُر في الغائب والمخاطبِ المبني للمفعول مثال الأول : " ليقم زيداً " وكالآية الكريمة في قراءة الجمهور ، ومثال الثاني : لِيُعْنَ بحاجتي ، ولتُضْرَبْ يا زيد . فإن كان مبنياً للفاعل كان قليلاً كقراءة عثمان ومن معه . وفي الحديث " لتأخذوا مصافَّكم " بل الكثيرُ في هذا النوع الأمرُ بصيغة افْعَلْ نحو : قم يا زيد وقوموا ، وكذلك يَضْعُف الأمر باللام للمتكلم وحده

أو ومعه غيره ، فالأول نحو " لأَقُمْ " تأمر نفسك بالقيام ، ومنه قوله عليه السلام : " قوموا فلأصلّ لكم " .

(142/364)

ومثالُ الثاني : لنقمْ أي : نحن وكذلك النهي ، ومنه قول الشاعر :

2602 إذا ما خَرَجْنا مِنْ دمشقَ فلا نَعُدْ . . . بها أبداً ما دام فيها الجُراضِمُ

ونَقَل ابن عطية عن ابنِ عامر أنه قرأ " فَلْتَفْرحوا " خطاباً ، وهذه ليست مشهورةً عنه .

وقرأ الحسن وأبو التيّاح " فَلِيفرحوا " بكسرِ اللام ، وهو الأصل .

قوله : ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ " هو " عائدٌ على الفضل والرحمة ، وإن كانا شيئين ؛ لأنهما بمعنى شيء واحد ، عُبِّر عنه بلفظتين على سبيل التأكيد ، ولذلك أُشير إليهما بإشارة الواحد . وقرأ ابن عامر " تَجْمعون " بالتاء خطاباً وهو يحتمل وجهين أحدُهما : أن يكونَ من باب الالتفات فيكونَ في المعنى كقراءة الجماعة ، فإن الضمير يُراد به مَنْ يراد بالضمير في قوله : " فَلْيفرحوا " . والثاني : أنه خطابٌ لقوله : ﴿ يا أَيُّهَا الناس قَدْ جَآءَتْكُمْ ﴾ [يونس : 57] ، وهذه القراءةُ تناسبُ قراءةَ الخطاب في قوله : " فَلْيفرحوا " ، وقد

تقدَّم أن ابنَ عطية نقلها عنه أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 223 .

226 ﴾

(143/364)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58) ﴾

" الفضل " : الإحسانُ الذي ليس بواجبٍ على فاعله " والرحمة " إرادة النعمة وقيل هي النعمة .

والإحسان على أقسام كذلك النعمة ، ونِعَمُ اللَّهِ أكثر من أَنْ تُحْصَى .

ويقال الفضل ما أتاح لهم من الخيرات ، والرحمة ما أزاحَ عنهم من الآفات .

ويقال فضل الله ما أكرمهم من إجراء الطاعات ، ورحمته ما عَصَمَهم به من ارتكاب الزَّلات .

ويقال فضل الله دوام التوفيق ورحمته تمام التحقيق .

ويقال فضل الله ما يُخصُّ به أهل الطاعات من صنوف إحسانه ، ورحمته يخصُّ به أهلَ

الزلاَّت من وجوه غفرانه .

ويقال فضل الله الرؤية ، ورحمته إبقاؤهم في حالة الرؤية .

ويقال فضل الله المعرفة في البداية ، ورحمته المغفرةُ في النهاية .

ويقال فضل الله أَنْ أَقَامَكَ بشهود الطلب ، ورحمته أن أشهدك حقَّه بحكم البيان إلى أنْ تراه غداً بكشف العيان .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ أي بما أهَّلَهم له ، لا بما يتكلَّفون من حَرَكاتهم وسَكَنَاتهم ، أو يَصِلُونَ إليه بنوعٍ من تكلفهم وتعملهم . ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ : أي ما تُتْحَفُونَ به من الأحوال الزاكية خيرٌ مِمَّا تجمعون من الأموال الوافية .

ويقال الذي لَكَ منه – في سابق القسمة – خيرٌ مما تتكلَّفُه من صنوف الطاعة والخدمة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 102 . 103 ﴾

(144/364)

فصل فى منزلة السرور

قال ابن القيم :

قال صاحب المنازل . باب السرور قال الله تعالى ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ

فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

تصدير الباب بهذه الآية في غاية الحسن فإن الله تعالى أمر عباده بالفرح بفضله ورحمته وذلك تبع للفرح والسرور بصاحب الفضل والرحمة فإن من فرح بما يصل إليه من جواد كريم محسن بر يكون فرحه بمن أوصل ذلك إليه أولى وأحرى ونذكر ما في هذه الآية من المعنى ثم نشرح كلام المصنف قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والحسن وغيرهم فضل الله الإسلام ورحمته القرآن فجعلوا رحمته أخص من فضله فإن فضله الخاص عام على أهل الإسلام ورحمته بتعليم كتابه لبعضهم دون بعض فجعلهم مسلمين بفضله وأنزل إليهم كتابه برحمته قال تعالى ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله قلت يريد بذلك أن ههنا أمرين .

(145/364)

أحدهما الفضل في نفسه والثاني استعداد المحل لقبوله كالغيث يقع على الأرض القابلة للنبات فيتم المقصود بالفضل وقبول المحل له والله أعلم والفرح لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب ونيل المشتهى فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور كما أن الحزن والغم من

فقد المحبوب فإذا فقده تولد من فقده حالة تسمى الحزن والغم وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله وبرحمته عقيب قوله يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته التي تتضمن الموعظة وشفاء الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة فأخبر سبحانه أن ما آتى عباده من الموعظة التي هي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب وشفاء الصدور المتضمن لعافيتها من داء الجهل والظلمة والغي والسفه وهو أشد ألما لها من أدواء البدن ولكنها لما ألفت هذه الأدواء لم تحس بألمها وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدنيا فهناك يحضرها كل مؤلم محزن وما آتاها من ربها الهدى الذي يتضمن ثلج الصدور باليقين وطمأنينة القلب به وسكون النفس إليه وحياة الروح به والرحمة التي تجلب لها كل خير ولذة وتدفع عنها كل شر ومؤلم فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها أي هذا هو الذي ينبغي أن يفرح به ومن فرح به فقد فرح بأجل مفروح به لا ما يجمع أهل الدنيا منها فإنه ليس بموضع للفرح لأنه عرضة للآفات ووشيك الزوال ووخيم العاقبة وهو طيف خيال زار الصب في المنام ثم انقضى المنام وولى الطيف وأعقب مزاره الهجران وقد جاء الفرح في القرآن على نوعين مطلق ومقيد .

(146/364)

فالمطلق جاء في الذم كقوله تعالى ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ وقوله ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ والمقيد نوعان أيضا مقيد بالدنيا ينسي صاحبه فضل الله ومنته فهو مذموم كقوله ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ والثاني مقيد بفضل الله وبرحمته وهو نوعان أيضا فضل ورحمة بالسبب وفضل بالمسبب فالأول كقوله ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ والثاني كقوله ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فالفرح بالله وبرسوله وبالإيمان وبالسنة وبالعلم وبالقرآن من أعلى مقامات العارفين قال الله تعالى ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ وقال ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ فالفرح بالعلم والإيمان والسنة دليل على تعظيمه عند صاحبه ومحبته له وإيثاره له على غيره فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله له على قدر محبته له ورغبته فيه فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله له ولا يحزنه فواته فالفرح تابع للمحبة والرغبة والفرق بينه وبين الاستبشار أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله والاستبشار يكون به قبل حصوله إذا كان على ثقة من حصوله ولهذا قال تعالى ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ والفرح صفة كمال ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها

طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقده لها واليأس من حصولها والمقصود أن الفرح أعلى أنواع نعيم القلب ولذته وبهجته والفرح والسرور نعيمه والهم

(147/364)

والحزن عذابه والفرح بالشيء فوق الرضى به فإن الرضى . ر

طمأنينة وسكون وانشراح والفرح لذة وبهجة وسرور فكل فرح راض وليس كل راض فرحا ولهذا كان الفرح ضد الحزن والرضى ضد السخط والحزن يؤلم صاحبه والسخط لا يؤلمه إلا إن كان مع العجز عن الانتقام والله أعلم .

فصل قال صاحب المنازل السرور اسم لاستبشار جامع وهو أصفى من .

الفرح لأن الأفراح ربما شانه الأحزان ولذلك نزل القرآن باسمه في أفراح الدنيا في مواضع وورد السرور في موضعين من القرآن في حال الآخرة السرور والمسرة مصدر سره سرورا ومسرة وكأن معنى سره أثر في أسارير وجهه فإنه تبرق منه أسارير الوجه كما قال شاعر العرب

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه . . . برقت كبرق العارض المتهلل

وهذا كما يقال رأسه إذا أصاب رأسه وبطنه وظهره إذا أصاب بطنه وظهره وأمه إذا

أصاب أم رأسه وأما الاستبشار فهو استعفال من البشرى والبشارة هي أول خبر صادق سار والبشرى يراد بها أمران أحدهما بشارة المخبر والثاني سرور المخبر قال الله تعالى ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ فسرت البشرى بهذا وهذا ففي حديث عبادة بن الصامت وأبي الدرداء رضي الله عنهما عن النبي صلى اله عليه وسلم" هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له " وقال ابن عباس بشرى الحياة الدنيا هي عند الموت تأتيهم ملائكة الرحمة بالبشرى من الله وفي الآخرة عند خروج نفس المؤمن إذا خرجت يعرجون بها إلى الله تزف كما تزف العروس تبشر برضوان الله .

(148/364)

وقال الحسن هي الجنة واختاره الزجاج والفراء وفسرت بشرى الدنيا بالثناء الحسن يجري له على ألسنة الناس وكل ذلك صحيح فالثناء من البشرى والرؤيا الصالحة من البشرى وتبشير الملائكة له عند الموت من البشرى والجنة من أعظم البشرى قال الله تعالى ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَار ﴾ وقال تعالى ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ قيل وسميت بذلك لأنها تؤثر في بشرة الوجه ولذلك كانت نوعين بشرى سارة تؤثر فيه نضارة وبهجة وبشرى محزنة تؤثر فيه بسورا

وعبوسا ولكن إذا أطلقت كانت للسرور وإذا قيدت كانت بحسب ما تقيد به قوله هو أصفى من الفرح واحتج على ذلك بأن الأفراح ربما شابها أحزان أي ربما مازجها ضدها بخلاف السرور فيقال والمسرات ربما شابها أنكاد وأحزان فلا فرق قوله ولذلك نزل القرآن باسمه في أفراح الدنيا في مواضع يريد أن الله تعالى نسب الفرح إلى أحوال الدنيا في قوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ فإن الدنيا لا تتخلص أفراحها من أحزانها وأتراحها البتة بل ما من فرحة إلا ومعها ترحة سابقة أو مقارنة أو لاحقة ولا تتجرد الفرحة بل لا بد من ترحة تقارنها ولكن قد تقوى الفرحة على الحزن فينغمر حكمه وألمه مع وجودها وبالعكس فيقال ولقد نزل القرآن أيضا بالفرح في أمور الآخرة في مواضع كقوله تعالى فرحين بما آتاهم الله من فضله وقوله تعالى ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ فلا فرق بينهما من هذا الوجه الذي ذكره قوله وورد اسم السرور في القرآن في موضعين في حال الآخرة.

(149/364)

يريد بهما قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ والموضع الثاني قوله ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ فيقال وورد السرور في أحوال الدنيا في موضع على وجه الذم كقوله تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً وَيَصْلَى سَعِيراً إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ فقد رأيت ورود كل واحد من الفرح والسرور في القرآن بالنسبة إلى أحوال الدنيا وأحوال الآخرة فلا يظهر ما ذكره من الترجيح بل قد يقال الترجيح للفرح لأن الرب تبارك وتعالى يوصف به ويطلق عليه اسمه دون السرور فدل على أن معناه أكمل من معنى السرور وأمر الله به في قوله تعالى ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ وأثنى على السعداء به في قوله ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ وأما قوله تعالى ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ وقوله ﴿ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ فعدل إلى لفظ السرور لاتفاق رؤوس الآي ولو أنه ترجم الباب بباب الفرح لكان أشد مطابقة للآية التي استشهد بها والأمر في ذلك قريب فالمقصود أمر وراء ذلك قال وهو في هذا الباب على ثلاث درجات الدرجة الأولى سرور ذوق ذهب بثلاثة أحزان حزن أورثه خوف الانقطاع وحزن هاجته ظلمة الجهل وحزن بعثته وحشة التفرق لما كان السرور ضد الحزن والحزن لا يجامعه كان مذهبا له ولما كان سببه ذوق الشيء السار فإنه كلما مان الذوق أتم كان السرور به أكمل وهذا السرور يذهب ثلاثة أحزان الحزن الأول حزن أورثه خوف انقطاع وهذا حزن المتخلفين عن .

ركب المحبين ووفد المحبة فأهل الانقطاع هم المتخلفون عن صحبة هذا الركب وهذا الوفد وهم الذين كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين فثبط عزائمهم وهممهم أن تسير إليه وإلى جنته وأمر قلوبهم أمرا كونيا قدريا أن تقعد مع القاعدين المتخلفين عن السعي إلى محغابه فلو عانيت قلوبهم حين أمرت بالقعود عن مرافقة الوفد وقد غمرتها الهموم وعقدت عليها سحائب البلاء فأحضرت كل حزن وغم وأمواج القلق والحسرات تتقاذف بها وقد غابت عنها المسرات ونابت عنها الأحزان لعلمت أن الأبرار في هذه الدار في نعيم وأن المتخلفين عن رفقتهم في جحيم وهذا الحزن يذهب به ذوق طعم الإيمان فيذيق الصديق طعم الوعد الذي وعد به على لسان الرسول فلا يعقله ظن ولا يقطعه أمل ولا تعوقه أمنية كما تقدم فيباشر قلبه حقيقة قوله تعالى ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وأمثال هذه الآيات قوله وحزن

هاجته ظلمة الجهل وهذا الحزن الثاني الذي يذهب سرور الذوق هو حزن ظلمة الجهل والجهل نوعان جهل علم ومعرفة وهو مراد الشيخ ههنا وجهل عمل وغي وكلاهما له ظلمة ووحشة في القلب وكما أن العلم يوجب نورا وأنسا فضده يوجب ظلمة ويوقع وحشة وقد سمى الله سبحانه وتعالى العلم الذي بعث به رسوله نورا وهدى وحياة وسمى ضده ظلمة وموتا وضلالا قال الله تعالى ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ

(151/364)

آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ وقال تعالى .

(152/364)

﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ وقال تعالى ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط

مستقيم ﴾ وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ﴾ وقال تعالى ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ فجعله روحا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح ونورا لما يحصل به من الهدى والرشاد ومثل هذا النور في قلب المؤمن كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ومثل حال من فقد هذا النور بمن هو في ظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور الحزن الثالث حزن بعثته وحشة التفرق وهو تفرق الهم والقلب عن الله عز وجل ولهذا التفرق حزن ممض على فوات جمعية القلب على الله ولذاتها ونعيمها فلو فرضت لذات أهل الدنيا بأجمعها حاصلة لرجل لم يكن لها نسبة إلى لذة جمعية قلبه على الله وفرحه به وأنسه بقربه وشوقه إلى لقائه وهذا أمر لا يصدق به إلا من ذاقه فإنما يصدقك من أشرق فيه ما أشرق فيك ولله در القائل .

أيا صاحبي أما ترى نارهم . . . فقال تريني مالا أرى

سقاك الغرام ولم يسقني . . . فأبصرت ما لم أكن مبصرا

فلو لم يكن في التفرق المذكور إلا ألم الوحشة ونكد التشتت وغبار الشعث لكفى به عقوبة فكيف وأقل عقوبته أن يبتلى بصحبة المنقطعين ومعاشرتهم وخدمتهم فتصير أوقاته التي هي مادة حياته ولا قيمة لها مستغرقة في قضاء حوائجهم ونيل أغراضهم وهذه عقوبة قلب ذاق حلاوة الإقبال على الله والجمعية عليه والأنس به ثم آثر على ذلك سواه ورضي بطريقة بني جنسه وما هم عليه ومن له أدنى حياة في قلبه ونور فإنه يستغيث قلبه من وحشة هذا التفرق كما تستغيث الحامل عند ولادتها ففي القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبدا فالتفرق يوقع وحشة الحجاب وألمه أشد من ألم العذاب قال الله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ فاجتمع عليهم عذاب الحجاب وعذاب الجحيم والذوق الذي يذهب وحشة هذا التفرق هو الذوق الذي ذكره الشيخ .

في قوله ذوق الإرادة طعم الأنس فلا يعلق به شاغل ولا يفسده عارض ولا تكدره تفرقة .

فصل قال الدرجة الثانية سرور شهود كشف حجاب العلم وفك رق التكليف .

(154/364)

ونفي صغار الاختيار يريد أن العلم حجاب على المعرفة فشهود كشف ذلك الحجاب حتى يفضي القلب إلى المعرفة يوجب سرورا والعلم عند هذه الطائفة استدلال والمعرفة ضرورية فالعلم له الخبر والمعرفة لها العيان فالعلم عندهم حجاب على المعرفة وإن كان لا يوصل إليها إلا بالعلم والعلم لها كالصوان لما تحته فهو حجاب عليه ولا يوصل إليه إلا منه ومثال هذا أنك إذا رأيت في حومة ثلج ثقبا خاليا استدللت به على أن تحته حيوانا يتنفس فهذا علم فإذا حفرته وشاهدت الحيوان فهذه معرفة قوله وفك رق التكليف عبارة قلقة غير سديدة ورق التكليف لا يفك إلى الممات وكلما تقدم العبد منزلا شاهد من رق تكليفه ما لم يكن شاهده من قبل فرق التكليف أمر لازم للمكلف ما بقي في هذا العالم والذي يتوجه عليه كلامه أن السرور بالذوق الذي أشار إليه يعتق العبد من رق التكليف بحيث لا يعده تكليفا بل تبقى الطاعات غذاء لقلبه وسرورا له وقرة عين في حقه ونعيما لروحه يتلذذ بها ويتنعم بملابستها أعظم مما يتنعم بملابسة الطعام والشراب واللذات الجسمانية فإن اللذات

الروحانية القلبية أقوى وأتم من اللذات الجسمانية فلا يجد في أوراد العبادة كلفة ولا تصير تكليفا في حقه فإن ما يفعله المحب الصادق ويأتي به في خدمة محبوبه هو أسر شيء إليه وألذه عنده ولا يرى ذلك تكليفا لما في التكليف من إلزام المكلف بما فيه كلفة ومشقة .

(155/364)

عليه والله سبحانه إنما سمى أوامره ونواهيه وصية وعهدا وموعظة ورحمة ولم يطلق عليها اسم التكليف إلا في جانب النفي كقوله لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ووقوع الوسع بعد الاستثناء من التكليف لا يوجب وقوع الاسم عليه مطلقا فهذا أقرب ما يؤول به كلامه على أن للملحد ههنا مجالا وهو أن هذه الحال إنما هي لأقوام انتقلت عباداتهم من ظواهرهم إلى بواطنهم فانتقل حكم أورادهم إلى وارداتهم فاستغنوا بالواردات عن الأوراد وبالحقائق عن الرسوم وبالمعاني عن الصور فخلصوا من رق التكليف المختص بالعلم وقاموا بالحقيقة التي يقتضيها الحكم وهكذا الألفاظ المجملة عرضة للمحق والمبطل قوله ونفى صغار الاختيار يريد به أن العبد متى كان مربوطا باختياراته محبوسا في سجن إراداته فهو في ذل وصغار فإذا وصل إلى هذه الدرجة انتفى عنه صغار الاختيار وبقي من جملة الأحرار فيا لها من عبودية أوجبت حرية وحرية كملت عبودية فيصير واقفا مع ما يختار الله له لا مع ما يختاره

هو لنفسه بل يصير مع الله بمنزلة من لا اختيار له البتة فمن كان محجوبا بالعلم عن المعرفة نازعته اختياراته ونازعها فهو معها في ذل وصغار ومتى أفضى إلى المعرفة وكشف له عن حجابها شاهد البلاء نعيما والمنع عطاء والذل عزا والفقر غنى فانقاد باطنه لأحكام المعرفة وظاهره لأحكام العلم على أن للملحد ههنا مجالا قد جال فيه هو وطائفته فقال هذا يوجب الانقياد لأحكام المعرفة والتخلص والراحة من أحكام العلم وقد قيل إن العالم يسعطك الخل والخردل والعارف ينشقك المسك والعنبر قال ومعنى هذا أنك مع العالم في تعب ومع العارف في راحة لأن العارف يبسط عذر العوالم والخلائق والعالم يلوم وقد قيل من نظر إلى الناس بعين العلم مقتهم ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم .

(156/364)

فانظر ما تضمنه هذا الكلام الذي ملمسه ناعم وسمه زعاف قاتل من الانحلال عن الدين ودعوى الراحة من حكم العبودية والتماس الأعذار لليهود والنصارى وعباد الأوثان والظلمة والفجرة وأن أحكام الأمر والنهي الواردين على السن الرسل للقلوب بمنزلة سعط الخل والخردل وأن شهود الحقيقة الكونية الشاملة للخلائق والوقوف معها والانقياد لحكمها بمنزلة تنشيق المسك والعنبر فليهن الكفار والفجار والفساق انتشاق هذا المسك والعنبر

إذا شهدوا هذه الحقيقة وانقادوا لحكمها ويا رحمة للأبرار المحكمين لما جاء به الرسول من كثرة سعوطهم بالخل والخردل فإن قوله هذا يجوز وهذا لايجوز وهذا حلال وهذا حرام وهذا يرضي الله وهذا يسخطه خل وخردل عند هؤلاء الملاحدة وإلا فالحقيقة تشهدك الأمر بخلاف ذلك ولذلك إذا نظرت عندهم إلى الخلق بعين الحقيقة عذرت الجميع فتعذر من توعده الله ورسوله أعظم الوعيد وتهدده أعظم التهديد ويا لله العجب إذا كانوا معذورين في الحقيقة فكيف يعذب الله سبحانه المعذور ويذيقه أشد العذاب وهلا كان الغنى الرحيم أولى بعذره من هؤلاء نعم العالم الناصح يلوم بأمر الله والعارف الصادق يرحم بقدر الله ولا يتنافى عنده اللوم والرحمة ومن رحمته عقوبة من أمر الله بعقوبته فذلك رحمة له وللأمة وترك عقوبته زيادة في أذاه وأذى غيره وأنت مع العالم في تعب يعقب كل الراحة ومع عارف هؤلاء الملاحدة في راحة وهمية تعقب كل تعب وخيبة وألم كما ذكر الإمام أحمد في كتاب الزهد أن المسيح عليه السلام كان يقول على قدر ما تتعبون ههنا تستريحون هنالك وعلى قدر ما تستريحون ههنا تتبعون هنالك .

فالعالم يحذرك ويمنعك الوقوف حتى تبلغ المأمن وعارف الملاحدة يوهمك الراحة من كد المسير ومؤنة السفر حتى تؤخذ في الطريق .

فصل قال الدرجة الثالثة سرور سماع الإجابة وهو سرور يمحو آثار .

الوحشة ويقرع باب المشاهدة ويضحك الروح قيد الشيخ السماع بكونه سماع إجابة فإنه السماع المنتفع به لا مجرد سماع الإدراك فإنه مشترك بين المجيب والمعرض وبه تقوم الحجة وينقطع العذر ولهذا قال الله عن أصحابه ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ وقال النبي صلى اله عليه وسلم لليهودي الذي سأله عن أمور من الغيب " ينفعك إن حدثتك" قال أسمع بأذني وأما سماع الإجابة ففي مثل قوله تعالى ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ أي مستجيبون لهم وفي قوله ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أي مستجيبون له وهو المراد وهذا المراد بقول المصلى سمع الله لمن حمده أي أجاب الله حمد من حمده وهو السمع الذي نفاه الله عز وجل عمن لم يرد به خيرا في قوله ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ أي لجعلهم يسمعون سمع إجابة وانقياد وقيل المعنى لأفهمهم وعلى هذا يكون المعنى لأسمع قلوبهم فإن سماع القلب يتضمن الفهم والتحقيق أن كلا الأمرين مراد فلو علم فيهم خيرا لأفهمهم ولجعلهم يستجيبون لما سمعوه وفهموه والمقصود أن سماع الإجابة هو سماع انقياد القلب والروح والجوارح لما سمعته الأذنان قوله ويمحو آثار الوحشة يعني يزيل بقايا الوحشة التي سببها ترك الانقياد التام فإنه على قدر فقد ذلك تكون الوحشة وزوالها إنما يكون بالانقياد التام وأيضا فإنه يبقى على أهل الدرجة الثانية آثار وهم أهل كشف حجاب

العلم فإنهم إذا انكشف عنهم حجاب العلم وأفضوا إلى المعرفة بقيت عليهم بقايا من آثار ذلك الحجاب فإذا حصلوا في هذه الدرجة زالت عنهم تلك البقايا وقد يوجه كلامه على معنى آخر وهو أنه إذا دعا ربه سبحانه فسمع ربه دعاءه سماع إجابة وأعطاه ما سأله على حسب مراده ومطلبه أو أعطاه خيرا منه حصل له بذلك سرور يمحو من قلبه آثار ما كان يجده من وحشة البعد فإن للعطاء والإجابة سرورا وأنسا وحلاوة وللمنع وحشة ومرارة فإذا تكرر منه الدعاء وتكرر من ربه سماع وإجابة لدعائه محا عنه آثار الوحشة وأبدله بها أنسا وحلاوة قوله ويقرع باب المشاهدة يريد والله أعلم مشاهدة حضرة الجمع التي يشمر إليها السالكون عنده وإلا فمشاهدة الفضل والمنة قد سبقت في الدرجتين الأولتين وانتقل المشاهد لذلك إلى ما هو أعلامنه وهو مشاهدة الحضرة المذكورة قوله ويضحك الروح يعني أن سماع الإجابة يضحك الروح لسرورها بما حصل لها من ذلك السماع وإنما خص الروح بالضحك ليخرج به سرورا يضحك النفس والعقل والقلب فإن ذلك يكون قبل رفع الحجاب الذي أشار إليه إذ محله النفس فإذا ارتفع ومحا الشهود رسم النفس بالكلية كان الإدراك حينئذ بالروح فيضحكها بالسرور وهذا مبني على قواعد

القوم في الفرق بين أحكام النفس والقلب والروح والفتح عندهم نوعان فتح قلبي وفتح روحي فالفتح القلبي يجمعه على الله ويلم شعثه والفتح الروحي يغنيه عنه ويجرده منه وبالله التوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿المدارج حـ 3 صـ 156 . 169﴾

(159/364)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) ﴾

قوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ ﴾ هذا منه سبحانه تزييف لرأي الكفار في استعجال العذاب بعد التزييف الأوّل : أي أخبروني إن أتاكم عذاب الله ﴿ بَيَاتًا ﴾ أي : وقت بيات ، والمراد به : الوقت الذي يبيتون فيه ، وينامون ويغفلون ، عن التحرز ، والبيات بمعنى التبييت اسم مصدر كالسلام بمعنى التسليم ، وهو منتصب على الظرفية ، وكذلك نهاراً : أي وقت الاشتغال بطلب المعاش والكسب ، والضمير في ﴿ منه ﴾ راجع إلى العذاب ، وقيل : راجع إلى الله ، والاستفهام في : ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ المجرمون ﴾ للإنكار المتضمن للنهي ، كما في قوله : ﴿ أَتَى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : 1] ووجه الإنكار عليهم

في استعجالهم : أن العذاب مكروه تنفر منه القلوب ، وتأباه الطبائع فما المقتضى لاستعجالهم له ؟ والجملة المصدرة بالاستفهام جواب الشرط بحذف الفاء ، وقيل : إن الجواب محذوف ، والمعنى : تندموا على الاستعجال ، أو تعرفوا الخطأ منكم فيه .

وقيل : إن الجواب قوله : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾ وتكون جملة ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ المجرمون ﴾ اعتراضاً ، والمعنى : إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان .

والأوّل : أولى .

وإنما قال : ﴿ يستعجل منه المجرمون ﴾ ، ولم يقل : يستعجلون منه ؛ للدلالة على ما يوجب ترك الاستعجال ، وهو الإجرام ؛ لأن من حقّ المجرم أن يخاف من العذاب بسبب إجرامه ، فكيف يستعجله ؟ كما يقال لمن يستوخم أمراً إذا طلبه : ماذا تجني على نفسك .

(160/364)

وحكى النحاس ، عن الزجاج ، أن الضمير في ﴿ مِنْهُ ﴾ إن عاد إلى العذاب كان لك في ﴿ مَاذَا ﴾ تقديران : أحدهما : أن تكون " ما " في موضع رفع بالابتداء ، و " ذا " بمعنى الذي ، وهو خبر ما ، والعائد محذوف .

والتقدير الآخر : أن يكون ﴿ مَاذَا ﴾ اسماً واحداً في موضع رفع بالابتداء ، والخبر ما

بعده ، وإن جعل الضمير في ﴿ مِنْهُ ﴾ عائداً إلى الله تعالى ، كان ﴿ مَاذَا ﴾ شيئاً واحداً في موضع نصب ب ﴿ يستعجل ﴾ ، والمعنى : أيّ شيء يستعجل منه المجرمون : أي من الله عزّ وجلّ .

ودخول الهمزة الاستفهامية في ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ﴾ على ثم كدخولها على الواو والفاء ، وهي لإنكار إيمانهم ، حيث لا ينفع الإيمان ، وذلك بعد نزول العذاب ، وهو يتضمن معنى التهويل عليهم ، وتفظيع ما فعلوه في غير وقته ، مع تركهم له في وقته الذي يحصل به النفع والدفع ، وهذه الجملة داخلة تحت القول المأمور به ، وجيء بكلمة " ثم " التي للتراخي ؛ دلالة على الاستبعاد .

وجيء ب ﴿ إذا ﴾ مع زيادة ما للتأكيد ؛ دلالة على تحقق وقوع الإيمان منهم في غير وقته ، ليكون في ذلك زيادة استجهال لهم ، والمعنى : أبعد ما وقع عذاب الله عليكم ، وحلّ بكم سخطه وانتقامه آمنتم ، حين لا ينفعكم هذا الإيمان شيئاً ، ولا يدفع عنكم ضرّاً .

وقيل إن هذه الجملة : ليست داخلة تحت القول المأمور به ، وأنها من قول الملائكة استهزاء بهم ، وإزراء عليهم .

والأول : أولى .

وقيل : إن ثم ها هنا ، هي بفتح الثاء ، فتكون ظرفية بمعنى هناك .

والأوّل : أولى .

قوله : ﴿ الآن وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ قيل : هو استئناف بتقدير القول ، غير داخل تحت القول الذي أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم ، أي قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب : الآن آمنتم به وقد كنتم به تستعجلون : أي بالعذاب تكذيباً منكم واستهزاء ؛ لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب والاستهزاء ، ويكون المقصود بأمره صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم هذا القول : التوبيخ لهم ، والاستهزاء بهم ، والإزراء عليهم ، وجملة ﴿ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ، وقرىء : "آلآن" بحذف الهمزة التي بعد اللام ، وإلقاء حركتها على اللام .

قوله : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الخلد ﴾ معطوف على الفعل المقدّر ، قيل : الآن ، والمراد منه : التقريع والتوبيخ لهم : أي قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر وعدم الإيمان : إن هذا الذي تطلبونه ضرر محض ، عار عن النفع من كل وجه ، والعاقل لا يطلب ذلك ، ويقال لهم على سبيل الإهانة لهم : ذوقوا عذاب الخلد : أي العذاب الدائم الذي لا ينقطع ، والقائل لهم هذه المقالة ، والتي قبلها ، قيل : هم : الملائكة الذين هم : خزنة جهنم .

ولا يبعد أن يكون القائل لذلك هم الأنبياء على الخصوص ، أو المؤمنون على العموم ﴿ هَلْ

تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ في الحياة من الكفر والمعاصي .

والاستفهام للتقرير ، وكأنه يقال لهم هذا القول عن استغاثتهم من العذاب ، وحلول النقمة .

ثم حكى الله سبحانه عنهم بعد هذه البيانات البالغة ، والجوابات عن أقوالهم الباطلة :

أنهم استفهموا تارة أخرى عن تحقق العذاب ، فقال : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ أي :

يستخبرونك عن جهة الاستهزاء منهم والإنكار ، أحق ما تعدنا به من العذاب في العاجل

والآجل ، وهذا السؤال منهم جهل محض .

(162/364)

وظلمات بعضها فوق بعض ، فقد تقدّم ذكره عنهم مع الجواب عليه ، فصنيعهم في هذا

التكرير صنيع من لا يعقل ما يقول ، ولا يقال له ؛ وقيل : المراد بهذا الاستخبار منهم هو :

عن حقية القرآن ، وارتفاع حق على أنه خبر مقدّم .

والمبتدأ هو الضمير الذي بعده ، وتقديم الخبر للاهتمام ، أو هو مبتدأ ، والضمير مرتفع به

سادّ مسدّ الخبر ، والجملة في موضع نصب ب ﴿ يستنبئونك ﴾ ، وقرىء "آلحق هو"

على أن اللام للجنس ، فكأنه قيل : أهو الحق لا الباطل .

قوله : ﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول

لهم هذه المقالة جواباً عن استفهامهم الخارج مخرج الاستهزاء ، أي قل لهم يا محمد غير ملتفت إلى ما هو مقصودهم من الاستهزاء : إي وربي إنه لحق ، أي نعم ، وربي إن ما أعدّكم به من العذاب لحق ثابت كائن لا محالة .

وفي هذا الجواب تأكيد من وجوه : الأوّل : القسم مع دخول الحرف الخاص بالقسم الواقع موقع نعم .

الثاني : دخول إن المؤكدة ؛ الثالث : اللام في لحق ؛ الرابع : إسمية الجملة ، وذلك يدلّ على أنهم قد بلغوا في الإنكار والتمرّد إلى الغاية التي ليست وراءها غاية ، ثم توعدهم بأشدّ توعد ، ورهبهم بأعظم ترهيب ، فقال : ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي : فائتين العذاب بالهرب والتحيل الذي لا ينفع ، والمكابرة التي لا تدفع من قضاء الله شيئاً ، وهذه الجملة إما معطوفة على جملة جواب القسم ، أو مستأنفة لبيان عدم خلوصهم من عذاب الله بوجه من الوجوه .

(163/364)

ثم زاد في التأكيد ، فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ ﴾ أي : ولو أن لكل نفس من الأنفس المتصفة بأنها ظلمت نفسها بالكفر بالله وعدم الإيمان به ما في

الأرض ، من كل شيء من الأشياء التي تشتمل عليها من الأموال النفيسة ، والذخائر الفائقة لافتدت به : أي جعلته فدية لها من العذاب ، ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرض ذَهَبًا وَلَوِ افتدى بِهِ ﴾ [آل عمران : 91] وقد تقدّم قوله : ﴿ وَأَسَرُّواْ الندامة لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ﴾ الضمير راجع إلى الكفار ، الذين سياق الكلام معهم .

وقيل : راجع إلى الأنفس المدلول عليها بكل نفس .

ومعنى ﴿ أسروا ﴾ : أخفوا ، أي لم يظهروا الندامة بل أخفوها ، لما قد شاهدوه في ذلك الموطن مما سلب عقولهم ، وذهب بتجلدهم ، ويمكن أنه بقي فيهم ، وهم على تلك الحالة عرق ينزعهم إلى العصبية التي كانوا عليها في الدنيا ، فأسرّوا الندامة لئلا يشمت بهم المؤمنون ، وقيل : أسرّها الرؤساء فيما بينهم دون أتباعهم ، خوفاً من توبيخهم لهم ، لكونهم هم الذين أضلوهم ، وحالوا بينهم وبين الإسلام ؛ ووقوع هذا منهم كان عند رؤية العذاب ، وأما بعد الدخول فيه فهم الذين : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ [المؤمنون : 106] .

وقيل : معنى ﴿ أسروا ﴾ : أظهروا .

وقيل : وجدوا ألم الحسرة في قلوبهم ؛ لأن الندامة لا يمكن إظهارها ، ومنه قول كثير :

فأسررت الندامة يوم نادى . . . بردّ جمال عاضرة المنادى

وذكر المبرد في ذلك وجهين : الأوّل : أنها بدت في وجوههم أسرة الندامة ، وهي الإنكسار ، واحدها : سرار ، وجمعها : أسارير ، والثاني : ما تقدّم .

(164/364)

وقيل معنى : ﴿ أَسَرُّواْ الندامة ﴾ أخلصوها ؛ لأن إخفاءها إخلاصها ، و ﴿ لَّمَّاً ﴾ في قوله : ﴿ لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ﴾ ظرف بمعنى حين منصوب بأسرّوا ، أو حرف شرط جوابه محذوف للدلالة ما قبله عليه ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بالقسط ﴾ أي : قضى الله بين المؤمنين وبين الكافرين ، أو بين الرؤساء والأتباع ، أو بين الظالمين من الكفار والمظلومين . وقيل : معنى القضاء بينهم : إنزال العقوبة عليهم ، والقسط : العدل ، وجملة ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : لا يظلمهم الله فيما فعله بهم من العذاب الذي حلّ بهم ، فإنه بسبب ما كسبوا .

وجملة ﴿ أَلا إِنَّ للَّهِ مَا فِى السموات والأرض ﴾ مسوقة لتقرير كمال قدرته ؛ لأن من ملك ما في السموات والأرض ، تصرف به كيف يشاء ، وغلب غير العقلاء لكونهم أكثر المخلوقات ، قيل : لما ذكر سبحانه افتداء الكفار بما في الأرض لو كان لهم ذلك بين أن الأشياء كلها لله ، وليس لهم شيء يتمكنون من الافتداء به .

وقيل : لما أقسم على حقية ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، أراد أن يصحب ذلك بدليل البرهان البين بأن ما في العالم على اختلاف أنواعه ملكه ، يتصرّف به كيف يشاء ، وفي تصدير الجملة بحرف التنبيه تنبيه للغافلين ، وإيقاظ للذاهلين ، ثم أكد ما سبق بقوله : ﴿ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ أي : كائن لا محالة ، وهو عامّ يندرج فيه ما استعجلوه من العذاب اندراجاً أوّلياً ، وتصدير الجملة بحرف التنبيه ، كما قلنا في التي قبلها مع الدلالة على تحقق مضمون الجملتين ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس ﴾ أي : الكفار ﴿ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ ما فيه صلاحهم ، فيعملون به ، وما فيه فسادهم فيجتنبونه ﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ يهب الحياة ويسلبها .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ في الدار الآخرة ، فيجازي كلاًّ بما يستحقه ، ويتفضل على من يشاء من عباده .

(165/364)

قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الناس قَدْ جَاءتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مّن رَّبّكُمْ ﴾ يعني : القرآن فيه ما يتعظ به من قرأه وعرف معناه ، والوعظ في الأصل : هو : التذكير بالعواقب سواء كان بالترغيب أو الترهيب ، والواعظ هو كالطبيب ينهى المريض عما يضرّه ، و ﴿ مِنْ ﴾ في ﴿ مّن رَّبّكُمْ

﴿ متعلقة بالفعل ، وهو ﴿ جاءتكم ﴾ ، فتكون ابتدائية ، أو متعلقة بمحذوف ، فتكون تبعيضية ﴿ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصدور ﴾ من الشكوك التي تعتري بعض المرتابين ، لوجود ما يستفاد منه في من العقائد الحقة ، واشتماله على تزييف العقائد الباطلة ، والهدى : الإرشاد لمن اتبع القرآن ، وتفكر فيه ، وتدبر معانيه إلى الطريق الموصلة إلى الجنة ، والرحمة : هي ما يوجد في الكتاب العزيز من الأمور التي يرحم الله بها عباده ، فيطلبها من أراد ذلك حتى ينالها ، فالقرآن العظيم مشتمل على هذه الأمور .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل الخطاب معه بعد خطابه للناس على العموم ، فقال : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ المراد بالفضل من الله سبحانه : هو تفضله على عباده في الآجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر ، والرحمة : رحمته لهم .

وروي عن ابن عباس أنه قال : فضل الله : القرآن ، ورحمته : الإسلام .

وروي عن الحسن والضحاك ، ومجاهد وقتادة ، أن فضل الله : الإيمان ، ورحمته : القرآن .

والأولى : حمل الفضل والرحمة على العموم ، ويدخل في ذلك ما في القرآن منهما دخولاً أوّلياً ، وأصل الكلام : قل بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ، ثم حذف هذا الفعل لدلالة الثاني في قوله : ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ عليه ، قيل : والفاء في هذا الفعل المحذوف داخلة في جواب شرط مقدّر ، كأنه قيل : إن فرحوا بشيء فليخصوا فضل الله ورحمته بالفرح .

وتكرير الباء في برحمته للدلالة على أن كل واحد من الفضل والرحمة سبب مستقلّ في الفرح ، والفرح : هو اللذة في القلب بسبب إدراك المطلوب ، وقد ذمّ الله سبحانه الفرح في مواطن كقوله : ﴿ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الفرحين ﴾ [القصص : 76] وجوّزه في قوله : ﴿ فَرِحِينَ بِمَا ءاتاهم الله مِن فَضْلِهِ ﴾ [آل عمران : 170] وكما في هذه الآية ، ويجوز أن تتعلق الباء في ﴿ بفضل الله وبرحمته ﴾ بقوله : ﴿ جَاءتْكُمُ ﴾ ، والتقدير : جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك : أي فبمجيئها ، فليفرحوا ، وقرأ يزيد بن القعقاع ويعقوب "فلتفرحوا" بالفوقية ، وقرأ الجمهور بالتحتية ، والضمير في ﴿ هو خير ﴾ راجع إلى المذكور من الفضل والرحمة ، أو إلى المجيء على الوجه الثاني ، أو إلى اسم الإشارة في قوله ﴿ فَبِذَلِكَ ﴾ والمعنى : أن هذا خير لهم مما يجمعون من حطام الدنيا .

وقد قرىء بالتاء الفوقية في ﴿ يَجْمَعُونَ ﴾ مطابقة للقراءة بها في ﴿ فلتفرحوا ﴾ .

وقد تقرّر في العربية أن لام الأمر تحذف مع الخطاب إلا في لغة قليلة ، جاءت هذه القراءة عليها ، قورأ الجمهور بالمثناة التحتية في يجمعون ، كما قرءوا في ﴿ فليفرحوا ﴾ .

وروي عن ابن عامر أنه قرأ بالفوقية في "يجمعون" ، والتحتية في "فلتفرحوا" .

وقد أخرج الطبراني ، وأبو الشيخ ، عن أبي الأحوص ، قال : جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال : إن أخي يشتكي بطنه ، فوصف له الخمر ، فقال : سبحان الله ! ما جعل

الله في رجس شفاء ، إنما الشفاء في شيء من القرآن والعسل ، فهما شفاء لهما في الصدور ، وشفاء للناس .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الحسن ، قال : إن الله جعل القرآن شفاء لما في الصدور ، ولم يجعله شفاء لأمراضكم .

(167/364)

وأخرج ابن المنذر ، وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني أشتكي صدري ، فقال : " اقرأ القرآن ، يقول الله : شفاء لما في الصدور " وأخرج البيهقي في شعب الإيمان ، عن واثلة بن الأسقع ، أن رجلاً شكا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وجع حلقه ، قال : " عليك بقراءة القرآن والعسل ، فالقرآن شفاء لما في الصدور ، والعسل شفاء من كل داء " .

وأخرج أبو داود ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن أبيّ قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتاء يعني الفوقية ، وقد روى نحو هذا من غير هذه الطريق .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن أنس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ قال :

" بفضل الله : القرآن ، وبرحمته : أن جعلكم من أهله " وأخرج الطبراني في الأوسط ، عن البراء ، مثله من قوله .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي في الشعب ، عن أبي سعيد الخدري ، مثله .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، والبيهقي عن ابن عباس ، في الآية قال : بكتاب الله بالإسلام .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي ، عنه قال : فضله : الإسلام ، ورحمته : القرآن .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي ، عنه أيضاً قال .

بفضل الله : القرآن ، وبرحمته : حين جعلهم من أهله .

وقد روي عن جماعة من التابعين نحو هذه الروايات المتقدّمة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن ابن عباس ، هو خير مما يجمعون من الأموال والحرث والأنعام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(168/364)

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آلَلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما وصف القرآن العظيم بالشفاء وما معه المقتضي لاستقامة المناهج وسداد الشرائع ووضوح المذاهب ، وأشار إلى أن العاقل ينبغي له أن يخصه بالفرح لبقاء آثاره وما يدعو إليه وزهده فيما يجمعون لفنائه ولأنه يدعو إلى رذائل الأخلاق فيحط من أوج المعالي ، أشار إلى أنهم كما خبطوا في الفرح فخصوه بما يفني معرضين عما يبقى فكذلك خبطوا في طريق الجمع فوعدوها على أنفسهم بأن حرموا بعض ما أحله ، فمنعوا أنفسهم ما هم به فرحون دون أمر من الله تعالى فنقصوا بذلك حظهم في الدنيا بهذا المنع وفي الآخرة بكذبهم على ربهم في تحريمه حيث جعلوه شرعاً مرضياً وهو في غاية الفساد والبعد عن الصواب والقصور عن مراقي السداد فقال تعالى : ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء الذين يستهزئون بك استهزاء قاضياً عليهم بأنهم لا عقول لهم مستهزئاً بهم وموبخاً لهم توبيخاً هو في أحكم مواضعه ، وساقه على طريق السؤال بحيث إنهم لا يقدرون على الجواب أصلاً بغير الإقرار بالافتراء فقال : ﴿ أرءيتم ﴾ أي أخبروني ، وعبر عن الخلق بالإنزال تنبيهاً على أنه شيء لا يمكن

ادعاءه لأصنامهم لنزول أسبابه من موضع لا تعلق لهم به بوجه فقال : ﴿ ما أنزل الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال التي منها الغنى المطلق ﴿ لكم ﴾ أي خاصاً بكم ﴿ من رزق ﴾ أي أيّ رزق كان ﴿ فجعلتم منه ﴾ أي ذلك الرزق الذي خصكم به ﴿ حراماً وحلالاً ﴾ على النحو الذي تقدم في الأنعام وغيرها قصته وبيان فساده على أنه جلي الفساد ظاهر العوج ؛ ثم ابتدأ أمراً آخر تأكيداً للإنكار عليهم فقال : ﴿ قل ﴾ أي من أذن لكم في ذلك ؟ ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ أذن لكم ﴾ فتوضحوا المستند به ﴿ أم ﴾ لم يأذن لكم فيه مع نسبتكم إياه إليه لأنكم فصلتموه إلى حرام وحلال ولا محلل ومحرم إلا الله ، فأنتم ﴿ على الله ﴾ أي المحيط بكل شيء عظمة وعلماً ﴿ تفترون ﴾ مع نسبتكم الافتراء إلي في هذا القرآن الذي أعجز الأفكار والشرع الذي بهر العقول وادعائكم أنكم أبعد الناس عن مطلق الكذب وأطهرهم

ذيولاً منه ، وتقديم الجار للإشارة إلى زيادة التشنيع عليهم من حيث إنهم أشد الناس تبرؤاً من الكذب وقد خصوا الله – على تقدير التسليم لهم – بأن تعمدوا الكذب عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 457.458 ﴾

(169/364)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن الناس ذكروا في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوهاً ، ولا أستحسن واحداً منها .

والذي يخطر بالبال والعلم عند الله تعالى وجهان : الأول : أن المقصود من هذا الكلام ذكر طريق ثالث في إثبات النبوة .

وتقريره أنه عليه الصلاة والسلام قال للقوم : " إنكم تحكمون بحل بعض الأشياء وحرمة بعضها فهذا الحكم تقولونه على سبيل الافتراء على الله تعالى ، أو تعلمون أنه حكم حكم الله به " والأول طريق باطل بالاتفاق ، فلم يبق إلا الثاني ، ثم من المعلوم أنه تعالى ما خاطبكم به من غير واسطة ، ولما بطل هذا ، ثبت أن هذه الأحكام إنما وصلت إليكم بقول رسول أرسله الله إليكم ونبي بعثه الله إليكم ، وحاصل الكلام أن حكمهم بحل بعض الأشياء وحرمة بعضها مع اشتراك الكل في الصفات المحسوسة والمنافع المحسوسة ، يدل على اعترافكم بصحة النبوة والرسالة وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يمكنكم أن تبالغوا هذه المبالغات العظيمة في إنكار النبوة والرسالة وحمل الآية على هذا الوجه الذي ذكرته

طريق حسن معقول .

الطريق الثاني : في حسن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه عليه الصلاة والسلام ، لما ذكر الدلائل الكثيرة على صحة نبوة نفسه وبين فساد سؤالاتهم وشبهاتهم في إنكارها ، أتبع ذلك ببيان فساد طريقتهم في شرائعهم وأحكامهم وبين أن التمييز بين هذه الأشياء بالحل والحرمة ، مع أنه لم يشهد بذلك لا عقل ولا نقل طريق باطل ومنهج فاسد ، والمقصود إبطال مذاهب القوم في أديانهم وفي أحكامهم ، وأنهم ليسوا على شيء في باب من الأبواب .

المسألة الثانية :

(170/364)

المراد بالشيء الذي جعلوه حراماً ما ذكروه من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وأيضاً قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ هذه أنعام وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ [الأنعام : 138] إلى قوله : ﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هذه الإنعام خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ على أزواجنا ﴾ [الأنعام : 139] وأيضاً قوله تعالى : ﴿ ثمانية أزواج مِّنَ الضأن اثنين وَمِنَ المعز اثنين ﴾ [الأنعام : 143] والدليل عليه أن قوله : ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَامًا ﴾ إشارة إلى أمر تقدم منهم ، ولم يحك الله تعالى عنهم إلا هذا ، فوجب توجه هذا الكلام إليه ، ثم لما حكى تعالى عنهم ذلك

قال لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ قُلِ اللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ وهذه القسمة صحيحة ، لأن هذه الأحكام إما أن تكون من الله تعالى أو لم تكن من الله فإن كانت من الله تعالى ، فهو المراد بقوله : ﴿ اللهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ وإن كانت ليست من الله .

فهو المراد بقوله : ﴿ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 96.97 ﴾

(171/364)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً ﴾ .

فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ يخاطب كفار مكة .

﴿ مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ ﴾ "ما" في موضع نصب "بأرأيتم" .

وقال الزجاج : في موضع نصب ب "أنزل" .

"وَأَنْزَلَ" بمعنى خلق ؛ كما قال : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [الزمر : 6] .

﴿ وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ .

فيجوز أن يعبر عن الخلق بالإنزال ؛ لأن الذي في الأرض من الرزق إنما هو بما ينزل من السماء من المطر .

﴿ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً ﴾ قال مجاهد : هو ما حكموا به من تحريم البَحِيرة والسائبة والوصيلة والحام .

وقال الضحاك : هو قول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً ﴾ [الأنعام : 136] .

﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ أي في التحليل والتحريم .

﴿ أَمْ عَلَى الله ﴾ "أم" بمعنى بل .

﴿ تَفْتَرُونَ ﴾ هو قولهم إن الله أمرنا بها .

الثانية استدلّ بهذه الآية من نفى القياس ، وهذا بعيد ؛ فإن القياس دليل الله تعالى ، فيكون التحليل والتحريم من الله تعالى عند وجود دِلالة نصبها الله تعالى على الحكم ، فإن خالف في كون القياس دليلاً لله تعالى فهو خروج عن هذا الغرض ورجوع إلى غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(172/364)

وقال أبو حيان :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾

مناسبة هذه الآية لما قبلها هي أنه لما ذكر تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ﴾ وكان المراد بذلك كتاب الله المشتمل على التحليل والتحريم ، بيّن فساد شرائعهم وأحكامهم من الحلال والحرام من غير مستند في ذلك إلى وحْي .

وأرأيتم هنا بمعنى أخبروني .

وجوزوا في ما أنزل أن تكون موصولة مفعولاً أولا لأرأيتم ، والعائد عليها محذوف ، والمفعول الثاني قوله : آلله أذن لكم ، والعائد على المبتدأ من الخبر محذوف تقديره : آلله أذن لكم فيه ، وكرر قلْ قبل الخبر على سبيل التوكيد .

وأن تكون ما استفهامية منصوبة بأنزل قاله : الحوفي والزمخشري .

وقيل : ما استفهامية مبتدأة ، والضمير من الخبر محذوف تقديره : آلله أذن لكم فيه أو به ، وهذا ضعيف لحذف هذا العائد .

وجعل ما موصولة هو الوجه ، لأن فيه إبقاء .

أرأيت على بابها من كونها تتعدى إلى الأول فتؤثر فيه ، بخلاف جعلها استفهامية ، فإنْ أرأيت إذ ذاك تكون معلقة ، ويكون ما قد سدّت مسد المفعولين ، والظاهر أنّ أم متصلة والمعنى : أخبروني آلله إذن لكم في التحليل والتحريم ، فأنتم تفعلون ذلك بأذنه أم تكذبون

على الله في نسبة ذلك إليه ؟ فنبه بتوقيفهم على أحد القسمين ، وهم لا يمكنهم ادعاء إذن الله في ذلك فثبت افتراؤهم .

وقال الزمخشري : ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار ، وأم منقطعة بمعنى بل ، أتفترون على الله تقريراً للافتراء انتهى ، وأنزل هنا قيل معناه : خلق كقوله : ﴿ وأنزلنا الحديد ﴾ ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ وقيل : أنزل على بابها وهو على حذف مضاف أي : من سبب رزق وهو المطر .

وقال ابن عطية : أنزل لفظة فيها تجوز ، وإنزال الرزق إما أن يكون في ضمن إنزال المطر بالمآل ، ونزول الأمر به الذي هو ظهور الأثر في المخلوق منه المخترع والمجعول حراماً وحلالاً .

(173/364)

قال مجاهد : هو ما حكموا به من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام .

وقال الضحاك : هو إشارة إلى قوله : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(174/364)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾

أي أخبروني ﴿ مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ ﴾ (ما) منصوبةُ المحلِّ بما بعدها أو بما قبلها واللامُ للدِلالة على أن المرادَ بالرزق ما حل لهم ، وجعلُه منزلاً لأنه مقدّرٌ في السماء محصّلٌ هو أو ما يتوقف عليه وجوداً أو بقاءً بأسباب سماويةٍ من المطر والكواكبِ في الإنضاج والتلوين ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ ﴾ أي جعلتم بعضَه ﴿ حَرَامًا ﴾ أي حكمتم بأنه حرامٌ ﴿ وَحَلَالاً ﴾ أي وجعلتم بعضَه حلالاً أي حكمتم بحِلّه مع كون كلِّه حلالاً وذلك قولُهم : ﴿ هذه أنعام وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ الآية ، وقولهم : ﴿ مَا فِى بُطُونِ هذه الأنعام خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ على أزواجنا ﴾ ونحوُ ذلك ، وتقديمُ الحرامِ لظهور أثرَ الجعلِ فيه ودورانِ التوبيخِ عليه ﴿ قُلْ ﴾ تكريرٌ لتأكيد الأمرِ بالاستخبار أي أخبروني ﴿ اللهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ في ذلك الجعلِ فأنتم فيه ممتثلون بأمره تعالى ﴿ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ أم متصلةٌ والاستفهامُ للتقرير والتبكيتِ لتحقق العلمِ بالشق الأخير قطعاً كأنه قيل : أم لم يأذنْ لكم بل تفترون عليه سبحانه ، فأظهر الاسمَ الجليلَ وقدّم على الفعل دِلالةً على كمال قبحِ افترائِهم وتأكيداً للتبكيت إثرَ تأكيدٍ مع مراعاة الفواصلِ ، ويجوز أن يكون الاستفهامُ للإنكار وأمْ منقطعةً ، ومعنى بل فيها الإضرابُ والانتقال من التوبيخ والزجرِ بإنكار الإذنِ إلى ما تفيده همزتُها من

التوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتقريرِه ، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على هذا يجوز أن يكون للقصر كأنه قيل : بل أعلى الله تعالى خاصة تفترون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(175/364)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾

أي ما قدر لانتفاعكم من ذلك وإلا فالرزق ليس كله منزلاً ، واستعمال أنزل فيما ذكر مجاز من إطلاق المسبب على السبب ، وجوز أن يكون الإسناد مجازياً بأن أسند الإنزال إلى الرزق لأن سببه كالمطر منزل ، وقيل : إن هناك استعارة مكنية تخيلية وهو بعيد ، وجعل الرزق مجازاً عن سببه أو تقدير لفظ سبب مما لا ينبغي و ﴿ مَا ﴾ إما موصولة في موضع النصب على أنها مفعول أول لأرأيتم والعائد محذوف أي أنزله والمفعول الثاني ما ستراه إن شاء الله تعالى قريباً و ﴿ مَا ﴾ استفهامية في موضع النصب على أنه مفعول ﴿ أَنْزَلَ ﴾ وقدم عليه لصدارته ، وهو معلق لما قبله إن قلنا بالتعليق فيه أي أي شيء أنزل الله تعالى من رزق ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾ أي فبعضتموه وقسمتموه إلى حرام وحلال وقلتم ،

﴿ هذه أنعام وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ [الأنعام : 138] و﴿ مَا فِي بُطُونِ هذه الأنعام خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ على أزواجنا ﴾ [الأنعام : 139] إلى غير ذلك .

(176/364)

﴿ قُلِ الله أَذِنَ لَكُمْ ﴾ في جعل البعض منه حراماً والبعض الآخر حلالاً ﴿ أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ ﴾ ﴿ أَمْ ﴾ والهمزة متعادلتان والجملة في موضع المفعول الثاني لأرأيتم و﴿ قُلْ ﴾ مكرر للتأكيد فلا يمنع من ذلك ، والعائد على المفعول الأول مقدر ، والمعنى أرأيتم الذي أنزله الله تعالى لكم من رزق ففعلتم فيه ما فعلتم أي الأمرين كائن فيه الإذن فيه من الله تعالى بجعله قسمين أم الافتراء منكم ، وكان أصل ﴿ الله أَذِنَ لَكُمْ ﴾ الخ آلله أذن أم غيره فعدل إلى ما في النظم الجليل دلالة على أن الثابت هو الشق الثاني وهم نسبوا ذلك إليه سبحانه فهم مفترون عليه جل شأنه لا على غيره وفيه زجر عظيم كما لا يخفى ، ولعل هذا مراد من قال : إن الاستفهام للاستخبار ولم يقصد به حقيقته لينافي تحقق العلم بانتفاء الإذن وثبوت الافتراء بل قصد به التقرير والوعيد وإلزام الحجة .

وجوز أن يكون الاستفهام لإنكار الإذن وتكون ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة بمعنى بل الإضرابية ، والمقصود الإضراب عن ذلك لتقرير افترائهم ، والجملة على هذا معمولة للقول وليست

متعلقة بأرأيتم وهو قد اكتفى بالجملة الأولى كما أشرنا إليه ، ومن الناس من جوز كون ﴿ أَمْ ﴾ متصلة وكونها منفصلة على تقدير تعلق الجملة بفعل القول وأوجب الاتصال على تقدير تعلقها بأرأيتم وجعل الاسم الجليل مبتدأ مخبراً عنه بالجملة للتخصيص عند بعض ولتقوية الحكم عند آخر ، والإظهار بعد في مقام الإضمار للإيذان بكمال قبح افترائهم ، وتقديم الجار والمجرور للقصر مطلقاً في رأي ولمراعاة الفواصل على الوجه الأول وللقصر على الوجه الثاني في آخر .

(177/364)

واستدل المعتزلة بالآية على أن الحرام ليس برزق ولا دليل لهم فيها على ما ذكرناه لأن المقدر للانتفاع هو الحلال فيكون المذكور هنا قسماً من الرزق وهو شامل للحلال والحرام والكفرة إنما أخطأوا في جعل بعض الحلال حراماً ، ومن جعل أهل السنة نظيراً لهم في جعلهم الرزق مطلقاً منقسماً إلى قسمين فقد أعظم الفرية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(178/364)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾

استئناف أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقوله للمشركين .

وافتتاحه بـ ﴿ قل ﴾ لقصد توجه الأسماع إليه .

ومناسبة وقوعه عقب ما تقدم أن الكلام المتقدم حكى تكذيبهم بالقرآن وادعاءهم أنه مفترى وأنه ليس بحق ، ثم إبطال أن يكون القرآن مفترى على الله لأنه اشتمل على تفصيل الشريعة وتصديق الكتب السالفة ، ولأنه أعجز مكذبيه عن معارضته .

فلما استوفى ذلك بأوضح حجة ، وبانت لِقاصد الاهتداء المَحجة ، لا جرم دالت النوبة إلى إظهار خطل عقولهم واختلال تكذيبهم ، فإنه بعد أن كان تكذيباً بما لم يحيطوا بعلمه فقد ارتبكوا في دينهم بما يلزمهم منه مماثلة الحالة التي أنكروها ، فإنهم قد وضعوا ديناً فجعلوا بعض أرزاقهم حلالاً لهم وبعضها حراماً عليهم فإن كان ذلك حقاً بزعمهم فمن الذي أبلغهم تلك الشرائع عن الله ولماذا تقبلوها عمن شرعها لهم ولم يكذبوه وهم لا يستطيعون أن يلتزموا ذلك ، وإن كان ذلك من تلقاء أنفسهم فقد افتَروا على الله فلزمهم ما ألصقوه بالنبي صلى الله عليه وسلم فعلق بهم وبرأ الله منه رسوله ، فهذا الاستدلال من الطريق المسمى بالقلب في علم الجدل .

.

ثم إن اختيار الاستدلال عليهم بشيء من تشريعهم في خصوص أرزاقهم يزيد هذا الاستدلال مناسبة بآخر الكلام الذي قبله ليظهر ما فيه من حسن التخلص إليه وذلك أن آخر الكلام المتقدم جملة ﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ [يونس : 58] ، أي من أموالهم . وتلك الأموال هي التي رزقهم الله إياها فجعلوا منها حلالاً ومنها حراماً وكَفروا نعمة الله إذ حرموا على أنفسهم من طيبات ما أعطاهم ربهم ، وحسبهم بذلك شناعة بهم ملصقة ، وأبواباً من الخير في وجوههم مغلقة .

(179/364)

والاستفهام في ﴿ أرأيتم ﴾ و ﴿ ءَالله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ تقريري باعتبار إلزامهم بأحد الأمرين : إما أن يكون الله أذن لهم ، أو أن يكونوا مفترين على الله ، وقد شيب التقرير في ذلك بالإنكار على الوجهين .

والرؤية علمية ، و ﴿ ما أنزل الله لكم من رزق ﴾ هو المفعول الأول ل (رأيتم) ، وجملة ﴿ فجعلتم منه ﴾ الخ معطوفة على صلة الموصول بفاء التفريع ، أي الذي أنزل الله لكم فجعلتم منه .

والاستفهام في ﴿ آللهُ أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ مفعول ثان ل (رأيتم) ، ورابط الجملة بالمفعول محذوف ، تقديره : أذنكم بذلك ، دل عليه قوله : ﴿ فجعلتم منه حراماً وحلالاً ﴾ .

و﴿ قل ﴾ الثاني تأكيد ل ﴿ قل ﴾ الأول معترض بين جملة الاستفهام الأولى وجملة الاستفهام الثانية لزيادة إشراف الأسماع عليه .

وهي معادلة بهمزة الاستفهام لأنها بين الجملتين المعمولتين لفعل ﴿ أرأيتم ﴾ .

وفعل الرؤية معلق عن العمل في المفعول الثاني ؛ لأن الأصح جواز التعليق عن المفعول الثاني .

وزعم الرضي أن الرؤية بصرية .

وقد بسطت القول في ذلك عند قوله:

﴿ أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه ﴾ الآية في سورة [الواقعة : 58 ، 59] .

و﴿ أم ﴾ متصلة وهي معادلة لهمزة الاستفهام لأن الاستفهام عن أحد الأمرين .

والرزق : ما ينتفع به .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ في سورة [البقرة : 3] وفي قوله : ﴿ أو مما رزقكم الله ﴾ في [الأعراف : 50] .

وعبر عن إعطاء الرزق بالإنزال ؛ لأن معظم أموالهم كانت الثمار والأعناب والحبوب ، وكلها من آثار المطر الذي هو نازل من السحاب بتكوين الله ، فأسند إنزاله إلى الله بهذا الاعتبار ، ومعظم أموالهم الأنعام ، وحياتها من العشب والكلأ وهي من أثر المطر ، قال تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأباً متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ [عبس : 24 ، 32] .

وقال : ﴿ وفي السماء رزقكم ﴾ [الذاريات : 22] أي سبب رزقكم وهو المطر .

وقد عُرف العرب بأنهم بنو ماء السماء .

وهو على المجاز في كلمة (بني) لأن الابن يطلق مجازاً على الملازم للشيء .

وقد عبر عن إعطاء الأنعام بالإنزال في قوله : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [الزمر : 6] بهذا الاعتبار .

والمجعول حراماً هو ما حكى الله بعضه عنهم في قوله : ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حِجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حُرمت ظهورها وقوله : ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومُحرَّم على أزواجنا ﴾ في سورة [الأنعام : 138 ، 139] .

ومحل الإنكار ابتداءً هو جعلهم بعض ما رزقهم الله حراماً عليهم .

وأما عطف حلالاً ﴾ على ﴿ حراماً ﴾ فهو إنكار بالتبع لأنهم لما عمدوا إلى بعض ما أحل الله لهم فجعلوه حراماً وميَّزوه من جملة الرزق فقد جعلوا الحلال أيضاً حلالاً ، أي بجعل جديد إذ قالوا هو حلال فجعلوا أنفسهم مهيمنين على أحكام الله إذ عمدوا إلى الحلال منها فقلبوه حراماً وأبقَوا بعض الحلال على الحل ، فلولا أنهم أبقوه على الحل لما بقي عندهم حلالاً ولتعطل الانتفاع به فلذلك أنكر عليهم جعل بعض الرزق حراماً وبعضه حلالاً ، وإلا فإنهم لم يجعلوا ما كان حراماً حلالاً إذ لم يكن تحريم في الجاهلية .

(181/364)

وقوله : ﴿ حلالاً ﴾ عطف على ﴿ حراماً ﴾ والتقدير : ومنه حلالاً ، لأن جميع ما رزقهم الله لا يعدو بينهم هذين القسمين ، وليس المعنى فجعلتم بعضه حراماً وحلالاً ، وبعضه ليس بحرام ولا حلال لأن ذلك لا يستقيم .

وتقديم اسم الجلالة وهو مسند إليه على خبره الفعلي في قوله : ﴿ آلله أذن لكم ﴾ لتقوية الحكم مع الاهتمام .

وتقديم المجرور على عامله في قوله : ﴿ أم على الله تفترون ﴾ للاهتمام بهذا المتعلق تشنيعاً لتعليق الافتراء به .

وأظهر اسم الجلالة لتهويل الافتراء عليه .

وحذف متعلق ﴿ أذن ﴾ لظهوره .

والتقدير : آللهُ أذن لكم بذلك الجعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(182/364)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾

إن تمتع الإنسان في الحياة بالمُلْك والمِلْك ، فكل ذلك يحتاج إلى استبقاء الحياة بالرزق الذي يهبُنَا الحق سبحانه إيّاه ، وكذلك استبقاء النوع بالتزواج بين الذكر والأنثى .

ولكن الرزق الذي يستبقي الحياة لا بُدَّ أن يكون حلالاً ؛ لذلك حدَّد لنا الحق سبحانه وتعالى المحرَّمات فلا تقربها ، وأنت عليك بالالتزام بما حدَّده الله ، فلا تدخل أنت على ما حلّل الله لتحرِّمَه ؛ لأن الحق سبحانه حدَّد لك من الطعام ما يستبقي حياتك ويعطيك وقوداً لحركة الحياة ، فعاملْ نفسك كما تعامل الآلة التي تصنعها ، فأنت تعطي كل آلة الوقود المناسب لها لتؤدي مهمتها ، كذلك جعل الله سبحانه لك المواصفات التي تنفعك وتستفيد منها وتؤدي حركات الحياة بالطاقة التي يمدّك بها ما حَلَّله الله لك .

وكذلك حرَّم الله عليك ما يَضُرُّك .

وإياك أن تقول : ما دامت هذه الأشياء تضرّني فلماذا خلقها الله ؛ لأن عليك أن تعرف أن هناك فارقاً بين رزق مباشر ، ورزق غير مباشر ، وكل ما في الكون هو رزق ، ولكنه ينقسم إلى رزق مباشر تستفيد منه فوراً ، وهناك رزق غير مباشر .

ومثال ذلك : النار ، فأنت لا تأكل النار ، لكنها تُنضِج لك الطعام .

إذن : فهناك شيء مخلوق لمهمة تساعد في إنتاج ما يفيدك .

والحق سبحانه قد حلّل لك على سبيل المثال لحم الضأن والماعز ، والإبل والبقر وغيرها ، وحرَّم عليك لحم الخنزير ، فلا تسألْ : لماذا خلق الله الخنزيرَ ؛ لأنه خَلقه لمهمةٍ أخرى ، فهو يلملم قاذورات الوجود ويأكلها ، فهذا رزق غير مباشر ، فاتركه للمهمة التي أراده الله لها .

(183/364)

وبعض الناس قد حرَّم على نفسه أشياء حلَّلها الله تعالى ، وهم بذلك يُضيّقون على أنفسهم ، ويظن البعض أنه حين يحلّل ما حرَّم الله أنه يوسّع على نفسه ، فيأمر الحق سبحانه رسول صلى الله عليه وسلم أن يقول :

﴿ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ [يونس : 59] .

أي : أخبِروني ما أنزل الله لكم من رزق ، وهو كل ما تنتفعون به ، إما مباشرةً ، وإما بالوسائط ، فكيف تتدخلون بالتحليل والتحريم ، رغم أن الذي أنزل الرزق قد بيَّن لكم الحلال والحرام ؟ !

وكلمة ﴿ أَنزَلَ ﴾ تفيد أن الرزق كله قادم من أعلى ، وكل ما ترونه حولكم هو رزق ، تنتفعون به مباشرة ، أو بشكل غير مباشر ، فالمال الذي تُشترى به أغلب الأرزاق لا يأكله الإنسان ، بل يشتري به ما يأكله .

وكلمة ﴿ أَنزَلَ ﴾ تعني : أوْجَدَ ، وخلق مِنْ أعلى ، وما دام كل شيء قد وُجد بمشيئة مَنْ هو أعلى من كل الوجود ، فكل شيء لصالحك مباشرة أو بوسائط .

ولا تأخذ كلمة ﴿ أَنزَلَ ﴾ من جهة العلوّ الحسية ، بل خُذها من جهة العلوِّ المعنوية ، فالمطر مثلاً ينزل من أعلى حسيّاً ، ويختلط بالأرض فيأخذ النبات غذاءه منها ، والرزق بالمطر ومن الأرض مُقدَّر ممّن خَلَق ، وهو الأعلى سبحانه .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ للنَّاسِ ﴾ [الحديد : 25] .

نعم ، فقد أنزل الحق سبحانه منهجه على الرسل عليهم السلام لتصلح حياة الناس ، وأنزل

الحديد ايضاً ، هذا الذي نستخرجه من الجبال ومن الأرض .

إذن : فالمراد هنا بالإنزال ، أي : الإيجاد ممن هو أعلى منك لصالحك أيها الإنسان .

(184/364)

وما دام الحق سبحانه هو الذي أنزل الرزق ، وبيَّن الحلال والحرام ، فلماذا تُدخِلون أنوفكم في الحلال والحرام ، وتجعلون بعض الحلال حراماً ، وبعض الحرام أو كُلَّ الحرام حلالاً ؟ لماذا لا تتركون الجَعْل لمن خَلَق وهو سبحانه أدْرى بمصلحتكم ؟

﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ [يونس : 59] .

أي : هل أعطاكم الله سبحانه تفويضاً في جَعْلِ الحلال حراماً ، والحرام حلالاً ؟ ﴿ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 59] أي : على الله تتعمدون الكذب .

وقد جاء الحق سبحانه بالحلال والحرام ليبيِّن لنا مدى قُبح السلوك في تحريم ما أحلّ الله ، وتحليل ما حرَّم الله .

ويشير الحق سبحانه في إجمال هذه الآية ، إلى آيات أخرى فَصَّلت الحرام ، وسبق أن تناولناها بخواطرنا ، مثل قوله تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ ولكن الذين كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ على الله

الكذب وَأَكْثَرُهُمْ لاَيَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: 103] .

والبَحيرة كما ذكرنا هي الناقة التي أنجبتْ خمس بُطونٍ آخرها ذَكَر ، وكانوا يشقُّون أذنها ، ويعلنون أنها قامت بواجبها ويتركونها سائمة غير مملوكة ، لا يركبها أحد ، ولا يحمل عليها أحد أيَّ حِمْل ، ولا يحلبها أحد ، ولا يجزّ صوفها أحد ، ثم يذبحها خُدّام الآلهة التي كانوا يعبدونها ، وسَمَّوها "بَحيرة" ، لأنهم كانوا يشقون آذانها علامةً على أنها أدَّتْ مهمتها .

أما السائبة فهي غير المربوطة ؛ لأن الربط يفيد الملكية ، وكان الواحد منهم إذى شفي من مرض أو أراد شيئاً وَهَبَ أن يجعل ناقةً لخدّام الأصنام ، واسمها سائبة ، وهي أيضاً لا تُركب ، ولا تُحلب ، ولا يُحمل عليها ، ولا أحد يتعرَّض لها .

والوصيلة : هي الأنثى تلدها الناقة في بطن واحدة مع ذكر ، فيقولون : "وَصَلَتْ أخاها" ؛ فلا يذبحونه للأصنام من أجل أخته .

(185/364)

﴿ وَلاَ حَامٍ ﴾ والحام : هو الفَحْل الذي يحمي ظهر نفسه بإنجاب عشرة أبْطُن ، فلا يركبه أحد بعد ذلك ، ولا يُحمَل عليه ، ويترك لخدّام الأصنام .

هذه هي الأنعام المحلَّلة التي حرَّموها على أنفسهم ، بينما يأكلها خُدّام الأصنام ، وفي ذكر

عدم تحريم تلك الأنعام رأفة بهم .

وهناك أيضاً قول الحق سبحانه :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضأن اثنين وَمِنَ المعز اثنين قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإبل اثنين وَمِنَ البقر اثنين قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّاكُمُ الله بهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً لِّيُضِلَّ الناس بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾

[الأنعام : 143144] .

إذن : فقد حَرَّموا بعضاً مما أحلَّ الله لهم ، وقالوا ما أورده القرآن :

﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً فَقَالُواْ هذا للَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلى الله وَمَا كَانَ للَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام : 136] .

وأجمل الحق سبحانه كل ذلك في قوله الحق :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّآ أَنزَلَ الله لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 59] .

وهكذا تدخَّلوا في تحريم بعض الحلال وحلَّلوا بعضاً من الحرام ، وفي هذا تعدٍّ ما كان يجب

أن يقترفوه ؛ لأن الحق سبحانه هو خالقهم ، وهو خالق أرزاقهم ، وفي هذا كذب متعمَّد على الله سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(186/364)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق ﴾ الآية . قال : هم أهل الشرك كانوا يحلون من الحرث والأنعام ما شاؤوا ، ويحرمون ما شاؤوا .

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه والبيهقي في سننه وابن عساكر عن أبي سعيد مولى أبي أسيد الأنصاري قال : أتى وفد أهل مصر عثمان بن عفان رضي الله عنه فقالوا له : ادع بالمصحف وافتتح السابعة – وكانوا يسمون سورة يونس السابعة – فقرأها حتى أتى على هذه الآية ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً ﴾ فقالوا له : قف ، أرأيت ما حميت من الحمى أَآلله أذن لك أم على الله تفتري ؟ فقال : امضه

إنما نزلت في كذا وكذا ، فاما الحمى فإن عمر رضي الله عنه حمى الحمى لإبل الصدقة ، فلما وليت وزادت إبل الصدقة زدت في الحمى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(187/364)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ : هذه بمعنى أخبروني . وقوله " ما أنزل " يجوز أن تكونَ " ما " موصولةً بمعنى الذي ، والعائدُ محذوفٌ أي : ما أنزله ، وهي في محل نصبٍ مفعولاً أول ، والثاني هو الجملةُ من قوله : ﴿ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ والعائدُ من هذه الجملةِ على المفعولِ الأول محذوفٌ تقديرُه : اللَّهُ أَذِن لكم فيه . واعتُرِضَ على هذه بأنَّ قولَه " قُلْ " يمنع من وقوع الجملةِ بعده مفعولاً ثانياً . وأُجيب عنه بأنه كُرِّر توكيداً . ويجوز أن تكونَ " ما " استفهامية منصوبةً المحلِّ ب " أَنْزَلَ " وهي حينئذ مُعَلِّقَةٌ ل " أَرَأَيْتم " ، وإلى هذا ذهب الحوفي

والزمخشري . ويجوز أن تكونَ " ما " الاستفهاميةُ في محلِّ رفعٍ بالابتداء ، والجملةُ من قوله : ﴿ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ خبره ، والعائدُ محذوفٌ كما تقدَّم أي : أَذِن لكم فيه ، وهذه الجملةُ الاستفهاميةُ معلِّقةٌ لـ " أَرَأَيتم " ، والظاهرُ من هذه الوجهِ هو الوجهُ الأولُ ، لأنَّ فيه إبقاءَ " أرأيت " على بابها مِنْ تَعَدِّيها إلى اثنين ، وأنها مؤثرةٌ في أولِهما بخلافِ جَعْلِ " ما " استفهاميةً فإنها معلقةٌ لـ " أرأيت " وسادَّةٌ مَسَدَّ المفعولين .

وقوله : ﴿ مِّن رِّزْقٍ ﴾ يجوزُ أن يكونَ حالاً من الموصول ، وأن تكونَ " مِنْ " لبيان الجنس و " أنزل " على بابها وهو على حَذْف مضاف أي : أنزله من سببِ رزقٍ وهو المطر . وقيل : تُجُوِّز بالإنزال عن الخلقِ كقولِه ﴿ وَأَنزَلْنَا الحديد ﴾ [الحديد : 25] ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ﴾ [الزمر : 6] .

(188/364)

قوله : ﴿ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ في " أم " هذه وجهان أحدهما : أنها متصلةٌ عاطفةٌ/ تقديرُه : أخبروني : آللَّهُ أَذِنَ لكم في التحليلِ والتحريم ، فإنهم يفعلون ذلك بإذنه أم يَكْذِبون على الله في نسبة ذلك إليه . والثاني : أن تكونَ منقطعةً . قال الزمخشري : " ويجوز أن تكونَ الهمزةُ للإنكار و " أم " منقطعةٌ بمعنى : بل أَتَفْتَرون على الله ، تقريراً للافتراء " .

والظاهر هو الأول إذ المعادلةُ بين هاتين الجملتين اللتين بمعنى المفردين واضحةٌ ، إذ التقدير : أيُّ الأمرينِ وَقَعَ : إذْنُ اللَّهِ لكم في ذلك أم افتراؤكم عليه ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 226. 227 ﴾

(189/364)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آلَلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59) ﴾

يعَنِّفُهم ويُقَرِّعهُم على ما ابتدعوه من التحليل والتحريم ، ويُظْهِر كذبهم فيما تقوَّلُوه من نسبتهم ذلك إلى إذن وشرع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 103 ﴾

(190/364)

قوله تعالى ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (60) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان قد مضى من أدلة المعاد ما صيره كالشمس ، وكان افتراءهم قد ثبت بعدم قدرتهم على مستند بإذن الله لهم في ذلك ، قال مشيراً إلى أن القيامة مما هو معلوم لا يسوغ إنكاره : ﴿ وما ظن الذين يفترون ﴾ أي يتعمدون ﴿ على الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ الكذب ﴾ أي أنه نازل بهم ﴿ يوم القيامة ﴾ أي هب أنكم لم تستحيوا منه ولم تخافوا عواقبه في الدنيا فما تظنون أنه يكون ذلك اليوم ؟ أتظنون أنه لا يحاسبكم فيكون حينئذ قد فعل ما لا يفعله رب مع مربوبه .

ولما كان تعالى يعاملهم بالحلم وهم يتمادون في هذا العقوق ، قال : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ لذو فضل ﴾ أي عظيم ﴿ على الناس ﴾ أي بنعم منها إنزال الكتب مفصلاً فيها ما يرضاه وما يسخطه وإرسال الرسل عليهم السلام لبيانها بما يحتمله عقول الخلق منها ، ومنها طول إمهالهم على سوء أعمالهم فكان شكره واجباً عليهم ﴿ ولكن أكثرهم ﴾ أي الناس لاضطراب ضمائرهم ﴿ لا يشكرون ﴾ أي لا يتجدد منهم شكر فهم لا يتبعون رسله ولا كتبه ، فهم يخبطون خبط عشواء فيفعلون ما يغضبه سبحانه ؛ والتحريم : عقد

معنى النهي عن الفعل ؛ والتحليل : حل معنى النهي بالإذن ؛ والشكر : حق يجب بالنعمة من الاعتراف به والقيام فيما تدعو إليه على قدرها ؛ وافتراء الكذب : تزويره وتنميقه فهو أفحش من مطلق الكذب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 458 ﴾

(191/364)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا ظَنُّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب ﴾ وهذا وإن كان في صورة الاستعلام فالمراد منه تعظيم وعيد من يفتري على الله .

وقرأ عيسى بن عمر ﴿ وَمَا ظَنَّ ﴾ على لفظ الفعل ومعناه أي ظن ظنوه يوم القيامة وجيء به على لفظ الماضي لما ذكرنا أن أحوال القيامة وإن كانت آتية إلا أنها لما كانت واجبة الوقوع في الحكمة ولا جرم عبر الله عنها بصيغة الماضي .

ثم قال : ﴿ إِنَّ الله لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ﴾ أي بإعطاء العقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ فلا يستعملون العقل في التأمل في دلائل الله تعالى ولا يقبلون دعوة أنبياء الله ولا ينتفعون باستماع كتب الله .

المسألة الثالثة :

(ما) في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا أَنزَلَ اللهُ ﴾ فيه وجهان : أحدهما : بمعنى الذي فينتصب برأيتم والآخر أن يكون بمعنى أي في الاستفهام ، فينتصب بأنزل وهو قول الزجاج ، ومعنى أنزل ههنا خلق وأنشأ كقوله : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الإنعام ثمانية أزواج ﴾ [الزمر : 6] وجاز أن يعبر عن الخلق بالإنزال ، لأن كل ما في الأرض من رزق فما أنزل من السماء من ضرع وزرع وغيرهما ، فلما كان إيجاده بالإنزال سمي إنزالاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 97 ﴾

(192/364)

وقال ابن عطية فى الآيتين :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾

هذه المخاطبة لكفار العرب الذين جعلوا البحائر والسوائب والنصيب من الحرث والأنعام وغير ذلك مما لم يأذن الله به ، وإنما اختلقوه بأمرهم ، وقوله تعالى : ﴿ أنزل ﴾ لفظة فيها تجوز ، وإنزال الرزق ، إما أن يكون في ضمن إنزال المطر بالمآل ، أو نزول الأمر به الذي هو ظهور الأثر في المخلوق منه المخترع ، ثم أمر الله نبيه بتوقيفهم على أحد القسمين ، وهو لا

يمكنهم ادعاء إذن الله تعالى في ذلك ، فلم يبق إلا أنهم افتروه ، وهذه الآية نحو قوله تعالى : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ﴾ [الأعراف : 32] ، ذكر ذلك الطبري عن ابن عباس ، وقوله ﴿ وما ظن الذين يفترون على الله ﴾ الآية ، وعيد ، لما تحقق عليهم ، بتقسيم الآية التي قبلها ، أنهم مفترون على الله ، عظم في هذه الآية جرم الافتراء ، أي ظنهم في غاية الرداءة بحسب سوء أفعالهم ، ثم ثنى بإيجاب الفضل على الناس في الإمهال لهم مع الافتراء والعصيان : والإمهال داعية إلى التوبة والإنابة ، ثم استدرك ذكر من لا يرى حق الإمهال ولا يشكره ولا يبادر به فيه على جهة الذم لهم ، والآية بعد هذا تعم جميع فضل الله وجميع تقصير الخلق في شكره ، لا رب غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَنُّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب يَوْمَ القيامة ﴾

"يوم" منصوب على الظرف ، أو بالظن ؛ نحو ما ظنك زيداً ؛ والمعنى : أيحسبون أن الله لا يؤاخذهم به .

﴿ إِنَّ الله لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ﴾ أي في التأخير والإمهال .

وقيل : أراد أهل مكة حين جعلهم في حَرَم آمن .

﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ ﴾ يعني الكفار .

﴿ لاَيَشْكُرُونَ ﴾ الله على نعمه ولا في تأخير العذاب عنهم .

وقيل : "لا يشكرون" لا يوحدون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(193/364)

وقال أبو حيان :

﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

ما استفهامية مبتدأة خبرها ظن ، والمعنى : أي شي ظن المفترين يوم القيامة ، أبهم الأمر على سبيل التهديد ، والإبعاد يوم يكون الجزاء بالإحسان والإساءة .

ويوم منصوب بظن ، ومعمول الظن قيل : تقدير ما ظنهم أنّ الله فاعل بهم ، أينجيهم أم يعذبهم .

وقرأ عيسى بن عمر : ما ظن جعله فعلاً ماضياً أي أي ظن الذين يفترون ، فما في موضع نصب على المصدر ، وما الاستفهامية قد تنوب عن المصدر تقول : ما تضرب زيداً تريد أي : ضرب تضرب زيداً .

وقال الشاعر :

ماذا يغير ابنتي ربع عويلهما . . .

لا يرقدان ولا بؤسي لمن رقدا

وجيء بلفظ ظنّ ماضياً لأنه كائن لا محالة فكأن قد كان ، والأولى أن يكون ظن في معنى يظن ، لكونه عاملاً في يوم القيامة .

وهو ظرف مستقبل ، وفضله تعالى على الناس حيث أنعم عليهم ورحمهم ، فأرسل إليهم الرسل ، وفصل لهم الحلال والحرام ، وأكثرهم لا يشكر هذه النعمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(194/364)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾

﴿ وَمَا ظَنُّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب ﴾ كلامٌ مسوقٌ من قِبَله تعالى لبيان هولِ ما سيلقَونه غيرُ داخلٍ تحت القولِ المأمورِ به والتعبيرُ عنهم بالموصول في موقع الإضمارِ لقطع احتمالِ الشق الأولِ من التردد والتسجيلِ عليهم بالافتراء وزيادةِ الكذب مع أن الافتراءَ لا يكون إلا كذباً لإظهار كمالِ قبحِ ما افتعلوا وكونِه كذباً في اعتقادهم أيضاً ، وكلمةُ (ما) استفهاميةٌ وقعت مبتدأً وظن خبرُها ومفعولاه محذوفان وقوله عز وجل : ﴿ يَوْمُ القيامة

﴿ ظرفٌ لنفس الظنّ ، أي أيُّ شيءٍ ظنُّهم في ذلك اليوم ، يومَ عرضِ الأفعال والأقوالِ والمجازاة عليها مثقالاً بمثقال ، والمرادُ تهويلُه وتفظيعُه بهول ما يتعلق به مما يُصنع بهم يومئذ ، وقيل : هو ظرفٌ لما يتعلق به ظنُّهم اليومَ من الأمور التي ستقع يوم القيامة تنزيلاً له ولِما فيه من الأحوال لكمال وضوحِ أمرِه في التقرير والتحققِ منزلةَ المسلم عندهم أي أيُّ شيء ظنُّهم لما سيقع يوم القيامة ؟ أيحسبون أنهم لا يُسألون عن افترائهم أو لا يجازون عليه أو يجازون جزاءً يسيراً ولأجل ذلك يفعلون ما يفعلون ؟ كلا إنهم لفي أشدِّ العذاب لأن معصيتَهم أشدُّ المعاصي ، ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، وقرىء على لفظ الماضي ، أي أيُّ ظنَ ظنوا يوم القيامة ؟ وإيرادُ صيغةِ الماضي لأنه كائنٌ فكأنه قد كان ﴿ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ ﴾ أي عظيم لا يُكتنه كنهُه ﴿ عَلَى الناس ﴾ أي جميعاً حيث أنعم عليهم بالعقل المميّز بين الحقِّ والباطلِ والحسَنِ والقبيحِ ورحِمهم بإنزال الكتبِ وإرسالِ الرسلِ وبيّن لهم الأسرارَ التي لا تستقلُّ العقولُ في إدراكها وأرشدهم إلى ما يُهمّهم من أمر المعاشِ والمعاد ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ تلك النعمةَ الجليلةَ فلا يصرِفون قُواهم ومشاعرَهم إلى ما خُلقت له ولا يتبعون دليلَ الشرعِ فيما لا يدرك إلا به ، وقد تفضل عليهم ببيان ما سيلقَوْنه يوم القيامة فلا يلتفتون إليه فيقعون فيما يقعون فهو تذييلٌ لما سبق مقرِّرٌ لمضمونه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾

كلام مسوق من جهته تعالى لبيان هول ما سيلقونه غير داخل تحت القول المأمور به ، والتعبير عنهم بالموصول لقطع احتمال الشق الأول من الترديد والتسجيل عليهم بالافتراء ، وزيادة الكذب مع أن الافتراء لا يكون إلا كذلك لإظهار لإظهار كمال قبح ما افتعلوا وكونه كذباً في اعتقادهم أيضاً ، و﴿ مَا ﴾ استفهامية مبتدأ و﴿ ظَنَّ ﴾ خبرها هو مصدر مضاف إلى فاعله ومفعولاه محذوفان .

(196/364)

وقوله سبحانه : ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ ظرف لنفس الظن لا بيفترون لعدم صحته معنى ولا بمقدر لأن التقدير خلاف الظاهر ، أي أي شيء ظنهم في ذلك اليوم أني فاعل بهم ، والمقصود التهديد والوعيد ، ويدل على تعلقه بالظن قراءة عيسى ابن عمر ﴿ وَمَا ظَنَّ ﴾ بصيغة الماضي و﴿ مَا ﴾ في هذه القراءة بمعنى الظن في محل نصب على المصدرية ، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع وأكثر أحوال القيامة يعبر عنها بذلك في القرآن لما ذكر ،

والعمل في الظرف المستقبل لا يمنع لتصييره الفعل نصاً في الاستقبال التجوز المذكور لأنه يقدر لتحققه أيضاً ماضياً ، وقيل : الظرف متعلق بما يتعلق به ظنهم اليوم من الأمور التي ستقع يوم القيامة تنزيلاً له ولما يقع فيه من الأهوال لمكان وضوح أمره في التحقق والتقرر منزلة المسلم عندهم ، أي أي شيء ظنهم لما سيقع يوم القيامة أيحسبون أنهم لا يسألون عن افترائهم أو لا يجازون عليه أو يجازون جزاءً يسيراً ولذلك ما يفعلون يفعلون كلا إنهم لفي أشد العذاب لأن معصيتهم أشد المعاصي ، والآية السابقة قيل متصلة بقوله سبحانه : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السماء والأرض ﴾ [يونس : 31] الخ كأنه قيل : حيث أقروا أنه سبحانه الرازق قل لهم أرأيتم ما أنزل الله الخ ونقل ذلك عن أبي مسلم ، وقيل : بقوله تعالى ﴿ يا أيها الناس ﴾ [يونس : 57] الخ ، وذلك أنه جل شأنه لما وصف القرآن بما وصفه وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرغب باغتنام ما فيه عقب ذلك بذكر مخالفتهم لما جاء به وتحريمهم ما أحل ، وقيل : إنها متصلة بالآيات الناعية عليهم سوء اعتقادهم كأنه سبحانه بعد أن نعى عليهم أصولهم بين بطلان فروعهم ، ولعل خير الثلاثة وسطها .

(197/364)

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ ﴾ أي عظيم لا يقدر قدره ولا يكتنه كنهه ﴿ عَلَى النَّاسِ ﴾ جميعاً حيث أنعم عليهم بالعقل ورحمهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب وبين لهم ما لا تستقل عقولهم بإدراكه وأرشدهم إلى ما يهمهم من أمر المعاش والمعاد ورغبهم ورهبهم وشرح لهم الأحوال وما يلقاه الحائد عن الرشاد من الأهوال .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ذلك الفضل فلا ينتفعون به ، ولعل الجملة تذييل لما سبق مقرر لمضمونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(198/364)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

عطف على ﴿ جملة قل أرأيتم ﴾ [يونس : 59] ، فهو كلام غير داخل في القول المأمور به ، ولكنه ابتداء خطاب لجميع الناس .

و ﴿ ما ﴾ للاستفهام .

والاستفهام مستعمل في التعجيب من حالهم .

والمقصود به التعريض بالمشركين ليستفيقوا من غفلتهم ويحاسبوا أنفسهم .

ولذلك كان مقتضى الظاهر أن يؤتى بضمير (هم) مضافاً إليه الظن إما ضميرَ خطاب أو غيبة .

فيقال : وما ظنكم أو وما ظنهم ، فعدل عن مقتضى الظاهر إلى الإتيان بالموصول بالصلة المختصة بهم للتنبيه على أن التردْيد بين أن يكون الله أذن لهم فيما حرَّموه وبين أن يكونوا مفترين عليه قد انحصر في القسم الثاني ، وهو كونهم مفترين إذ لا مساغ لهم في ادعاء أنه أذن لهم ، فإذ تعين أنهم مفترون فقد صار الافتراء حالهم المختص بهم .

وفي الموصول إيذان بعلة التعجيب من ظنهم بأنفسهم يوم القيامة .

وحذف مفعولا الظن لقصد تعميم ما يصلح له ، أي ما ظنهم بحالهم وبجزائهم وبأنفسهم .

وانتصب ﴿ الكذبَ ﴾ على المفعول المطلق ، واللام فيه لتعريف الجنس ، كأنه قيل كذباً ، ولكنه عرف لتفظيع أمره ، أي هو الكذب المعروف عند الناس المستقبح في العقول .

و ﴿ يوم القيامة ﴾ منصوب على الظرفية وعامله الظن ، أي ما هو ظنهم في ذلك اليوم أي إذا رأوا الغضب عليهم يومئذٍ ماذا يكون ظنهم أنهم لاقون ، وهذا تهويل .

وجملة : ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ تذييل للكلام المفتتح بقوله : ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موْعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ﴾ [يونس : 57] .

وفيه قطع لعذر المشركين ، وتسجيل عليهم بالتمرد بأن الله تفضل عليهم بالرزق والموعظة والإرشاد فقابلوا ذلك بالكفر دون الشكر وجعلوا رزقهم أنهم يكذبون في حين قابله

المؤمنون بالفرح والشكر فانتفعوا به في الدنيا والآخرة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(199/364)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

وهذه الآية توضح أن كل أمر بحساب ، فالذين يفترون على الله الكذب سيجدون حسابهم يوم القيامة عسيراً ، فالحق سبحانه منزّه عن الغفلة ، ولو ظنوا أنه لا توجد آخرة ولن يوجد حساب ، فهم يخطئون الظن .

ولو استحضروا ما أعدَّه الله لهم من العذاب والنكال يوم القيامة لما فعلوا ذلك ، ولكنهم كالظَّان بأن الله سبحانه وتعالى غافل عن أفعالهم ، وكأنها أفعال لا حساب عليها ، ولا كتابة لها ، ولا رقيب يحسبها :

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يونس : 60] .

إن الله سبحانه متفضِّل على كل خَلْقه وأنتم منهم بأشياء كثيرة ؛ فلم تحرمون أنفسكم من

هذا الفضل ؟ ! ولو شكرتم الله تعالى على هذا التفضل لزاد من عطائكم ، لكنكم تنسون الشكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(200/364)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون وما تكون فى شأن "

وقال تعالى فى سورة غافر : "إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون "

فأظهر هنا ما أضمر فى الآية الأخرى فللسائل أن يسأل عن ذلك ؟

والجواب والله أعلم أن آية غافر لما تقدمها قوله تعالى : " لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون " ومقصود هذه الآية تحريك الخلق للاعتبار قالتذكير بما نصب سبحانه من الدلائل والآيات فاقتضى ذلك تكرار الظاهر كما فى آية التذكير والتنبيه ثم جئ بعد هذا بقوله : "إن الله لذو فضل على الناس " فنوسب بين هذا وبين ما تقدم لتجئ هذه الآى على منهاج واحد من التذكير فاقتضت الثانية تكرير الظاهر .

وأما آية يونس فإنما تقدمها تأنيس بقوله تعالى : "قل بفضل الله وبرحمته فبذلك

فليفرحوا . . . "الآية ثم رجع الكلام إلى تعنيف الكفار فى تحكيمهم فقال : "قل أرأيتم ما أنزل لكم من رزق . . . " الآية ثم قال : "وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة " ولم يتقدم تكرير يطلب بمناسبة فلذلك ورد الكلام على ما هو الأصل من الاتيان بالضمير ليحصل به ربط الكلام فجاء كل من الموضعين على ما يقتضيه ما قبله رعيا لتناسب الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 246 ﴾

(201/364)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَنُّ ﴾ : " ما " مبتدأةٌ استفهامية ، و " ظنُّ " خبرُها ، و " يومَ " منصوبٌ بنفس الظن ، والمصدرُ مضافٌ لفاعِله ، ومفعولا الظن محذوفان ، والمعنى : وأيُّ شيءٍ يَظُنُّ الذين يَفْترون يومَ القيامة أني فاعلٌ بهم أأُنجيهم من العذاب أم أنتقمُ منهم ؟ وقرأ عيسى بن عمر : " وما ظَنَّ الذين " جَعَلَه فعلاً ماضياً والموصولُ فاعلُه ، و " ما " على هذه القراءة استفهاميةٌ أيضاً في محلِّ نصبٍ على المصدرِ ، وقُدِّمَتْ لأنَّ الاستفهامَ له صدرُ

الكلام والتقدير : أيَّ ظنٍ ظنَّ المفترون ، و " ما " الاستفهامية قد تَنُوب عن المصدر ، ومنه قول الشاعر :

2603 – ماذا يَغيرُ ابنَتْي رِبْعٍ عويلُهما . . . لا تَرْقُدان ولا بؤسى لِمَنْ رَقَدا

وتقول : " ما تَضْرب زيداً " ، تريد : أيَّ ضربٍ تَضْربه . قال الزمخشري : أتى به فعلاً ماضياً ، لأنه واقعٌ لا محالةَ ، فكأنه قد وقع وانقضى " وهذا لا يستقيمُ هنا لأنه صار نصاً في الاستقبال لعملِهِ في الظرف المستقبل وهو يومُ القيامة ، وإن كان بلفظ الماضي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 227 . 228 ﴾

(202/364)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (60) ﴾

هذا على جهة التهويل والتعظيم لما أسلفوه من الكذب .

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ في إمهال مَنْ أجْرَم ، والعصْمِة لِمنْ لم يُجْرِمْ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 103 . 104 ﴾

(203/364)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (42) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (60) ﴾

التفسير : إن الإنسان إذا قوي بغضه لإنسان خر وعظمت نفرته عنه صارت نفسه متوجهة إلى طلب مقابحه في كلامه معرضة عن جهات محاسنه فيه ، وكما أن الصمم في الأذن معنى ينافي حصول إدراك الصوت ، والعمى في العين أمر ينافي حصول إدراك الصورة ، فكذلك حصول هذا البغض الشديد يضاد وقوف الإنسان على محاسن من يعاديه ، فبين الله سبحانه في أولئك الكفار من بلغت حاله في النفرة والعداوة إلى هذا الحد ﴿ يستمعون

إليك ﴾ إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع ولكنهم لا يسمعون ولا يقبلون وينظرون إليك يعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يتبصرون ولا يصدقون . قال أهل المعاني : المستمع إلى القرآن كالمستمع إلى النبي صلى الله عليه وسلم بخلاف النظر . فكان في المستمعين كثرة فجمع ليطابق اللفظ المعنى ووحد النظر حملاً على اللفظ إذ لم يكثروا كثرتهم . ثم قال : أتطمع أن تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم ، أو تقدر على هداية العمي ولا سيما إذا قرن بفقد البصر فقد البصيرة ، إنما يقدر على ردهم إلى حالة الكمال خالق القدر والقوى وحده . وهذا الحصر إنما يفهم من قوله : ﴿ أفأنت ﴾ . والمقصود من هذا الكلام تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم فإن الطبيب إذا رأى مريضاً لا يقبل العلاج أصلاً أعرض عنه ولم يستوحش من ذلك لأن التقصير من المزاج لا من الصنعة والحذق . ثم أكد عدم قابليتهم في الفطرة مع إشارة إلى ما يلحقهم من الوعيد يوم القيامة بقوله : ﴿ إن الله لا يظلم ﴾ الآية .

(204/364)

فسرها المعتزلة بأن المراد من نفي الظلم أنه ما ألجأ أحد إلى هذه القبائح والمنكرات ولكنهم باختيار أنفسهم أقدموا عليها . وأجاب الواحدي عنه بأنه إنما نفى الظلم عن نفسه لأنه

يتصرف في ملك نفسه فلا اعتراض عليه . وإنما قال : ﴿ ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ لأن الفعل منسوب إليهم بسبب الكسب . والتحقيق أنه نفى الظلم عنه لأنه وقوع فريق القهر ضروري ، ونسب الظلم إليهم لخصوص وقوعهم في الطريق وفيه دقة . ثم ذكر وعيد الكفار فقال : ﴿ ويوم يحشرهم ﴾ أي واذكر يوم يحشرهم ﴿ كأن لم يلبثوا ﴾ في محل النصب على الحال أي مشبهين بمن لم يلبث ﴿ إلا ساعة ﴾ وقوله ﴿ يتعارفون ﴾ إما حال أخرى أو بيان لقوله : ﴿ كأن لم يلبثوا ﴾ لأن التعارف لا يبقى مع طول العهد . ويجوز أن يكون قوله : ﴿ ويوم يحشرهم ﴾ متعلقاً ب ﴿ يتعارفون ﴾ والمراد باللبث . قيل : لبثهم في الدنيا وقيل في القبور استقلوا المدد الطوال إما لأنهم ضيعوا أعمارهم في الدنيا فجعلوا وجودها كالعدم واستقصروها للدهش والحيرة ، أو لطول وقوفهم في الحشر ، أو لشدة ما هم فيه من العذاب نسوا لذات الدنيا واستحقروها . وأما التعارف فقد قيل : يعرّف بعضهم بعضاً ما كانوا عليه من الخطإ والكفر وقيل : يعرف كل واحد أهل معرفته . والجمع بين ذلك وبين قوله : ﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ [المعارج : 10] أن هذا تعارف توبيخ وتضليل يقول كل فريق لصاحبه أنت أضللتني يوم كذا ، أو أنهم يتعارفون إذا بعثوا ثم تنقطع المعرفة . وإنما حذف " جميعاً " في هذه الآية اكتفاء بما في الآية السابقة ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا ﴾ [الأنعام : 22] ولأن الآية سيقت هناك لبيان حشر العابدين والمعبودين فأكد بقوله : ﴿ جميعاً ﴾ ليشمل الفريقين صريحاً والله أعلم . قوله : ﴿ قد خسر ﴾

استئناف فيه معنى التعجب كأنه قيل : ما أخسرهم ! وفيه شهادة من الله على خسرانهم . وجوز في الكشاف أن يكون على إرادة القول أي يتعارفون بينهم قائلين

(205/364)

ذلك . ثم أكد خسرانهم بقوله : ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ أي في رعاية مصالح هذه التجارة لأنهم أعطوا الكثير الشريف الباقي وقنعوا بالقليل الخسيس الفاني كمن رأى زجاجة خسيسة فظنها جوهرة نفيسة فاشتراها بكل ماله ، فإذا عرضها على الناقدين خاب سعيه وفات أمله .

ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ وإما نرينك ﴾ وجوابه محذوف . وقوله : ﴿ فإلينا مرجعهم ﴾ جواب ﴿ أو نتوفينك ﴾ والمعنى وإما نرينك في أعدائك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك ، أو نتوفينك قبل أن تدركه فنحن نريكهم في الآخرة لأن مرجع الكل إلينا . ولقد صدق الله وعده فقد أراه في هذه الدار خزيهم وقهرهم بالقتل والأسر والاستعلاء عليهم والاستيلاء على ديارهم وأموالهم ، والذي سيريه في الآخرة أكثر وأدوم يدل عليه لفظ " ثم " لتبعيد الرتبة في قوله : ﴿ ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ ولا يخفى

نتيجة هذه الشهادة من السخط والعقاب ، ويحتمل أن يراد إنطاق جوارحهم يوم القيامة جعل ذلك بمنزلة شهادة الله .

(206/364)

ثم بيّن أنه ما أهمل أمة من الأمم من رسول في وقت من الأوقات فقال : ﴿ ولكل أمة رسول ﴾ وزمان الفترة محمول على ضعف دعوة النبي صلى الله عليه وسلم المتقدم ووقوع موجبات التخليط في شرعه . ﴿ فإذا جاء رسولهم ﴾ فبلغ فكذبه قوم وصدقه آخرون ﴿ قضى بينهم بالقسط ﴾ أي حكم وفصل بالعدل فأنجى الرسول والمصدقون وعذب المكذبون فهذه الآية نظيرة قوله : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ [الإسراء : 15] ويحتمل أن يقال : المراد ولكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول ينسبون إليه ويدعون به فكأنه تعالى يقول : أنا شهيد على أعمالهم ومع ذلك فإني أحضر في موقف القيامة ، مع كل قوم رسولهم حتى يشهد عليهم بالكفر والإيمان . ﴿ فإذا جاء رسولهم ﴾ وشهد لهم أو عليهم ﴿ قضى بينهم ﴾ والمراد منه المبالغة في إظهار العدل والنصفة فتكون الآية كقوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ [النساء : 41] ثم ذكر شبهة أخرى من شبهات الكفرة ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كلما هددهم بنزول العذاب ومر زمان ولم

يظهر ذلك العذاب كانوا ﴿ يقولون متى هذا الوعد ﴾ استبعاداً لنزوله وقدحاً في نبوته وهذا مما يؤكد القول الأوّل في الآية المتقدمة ، لأنه لا يجوز أن يقولوا متى هذا الوعد عند حضورهم في دار الآخرة لحصول اليقين والمعرفة حينئذٍ . وأيضاً قوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ لفظ الجمع موافق لقوله : ﴿ ولكل أمة رسول ﴾ ثم أمره أن يجيب بما يحسم مادة الشبهة وهو قوله : ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ﴾ من مرض أو فقر ﴿ ولا نفعاً ﴾ من صحة أو غنى ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ قال العلماء : إنه استثناء منقطع أي ولكن ما شاء الله من ذلك كائن فكيف أملك لكم الضر وجلب العذاب . ثم بين أن أحداً لا يموت إلا بالقضاء ، وأن لعذاب كل طائفة أمداً محدوداً لا يتجاوزه فلا وجه للاستعجال . فقال و ﴿ لكل أمة أجل ﴾ الآية . وقد مر تفسير الآية في أوائل الأعراف إلا أنه أدخل الفاء ههنا في الجزاء ، فإنه بنى الشرط على

(207/364)

الاستئناف أو البيان بخلاف ما هنالك فإنه جعل الشرط مرتباً على قوله : ﴿ ولكل أمة أجل ﴾ [الأعراف : 34] فلم يحسن الجمع بين الفاءين . ثم زيف رأيهم في استعجال العذاب مرة أخرى فقال : ﴿ قل أرأيتم ﴾ أي أخبروني ﴿ إن أتاكم عذابه بياتاً ﴾ أي في

حين الغفلة والراحة . ﴿ أو نهاراً ﴾ حين الاشتغال بطلب المعاش كما مر في أول الأعراف ﴿ ماذا يستعجل ﴾ أي شيء يستعجل ﴿ منه ﴾ أي من العذاب ﴿ المجرمون ﴾ وإنما لم يقل " ماذا يستعجلون منه " دلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجرام ، لأن حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه وإن أبطأ مجيئه فضلاً عن أن يستعجله .

(208/364)

و " من " للبيان أو للابتداء والمعنى أن العذاب كله مر المذاق موجب للنفار فأيّ شيء يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال ؟ أو المراد التعجب كأنه قيل : أيّ شيء هائل شديد يستعجلون ؟ وقيل : الضمير في " منه " لله تعالى وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه . و " ماذا " الجملة مفعول ﴿ أرأيتم ﴾ ويجوز أن يكون جواباً للشرط كقولك إن أتيتك ماذا تطعمني ، ثم تتعلق الجملة ب ﴿ أرأيتم ﴾ ويجوز أن يكون اعتراضاً وجواب الشرط ﴿ ثم إذا وقع آمنتم به ﴾ والمعنى إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان ، ودخول حرف الاستفهام على " ثم " كدخوله على الواو والفاء إلا أنه على إرادة القول أي قيل لهم إذا آمنوا

بعد وقوع العذاب ﴿ آلآن ﴾ آمنتم به ﴿ وقد كنتم به تستعجلون ﴾ على جهة التكذيب والإنكار وقوله ﴿ ثم قيل ﴾ عطف على قيل المضمر قبل ﴿ آلآن ﴾ والحاصل ان الذي تطلبونه ضرر محض عارٍ عن المنفعة ، والعاقل لا يطلب مثل ذلك . وإنما قلنا إنه ضرر محض لأنه إذا وقع العذاب فإما أن تؤمنوا وإيمان اليأس غير مقبول ، وإما أن لا تؤمنوا فيحصل عقيب ذلك عذاب آخر أشد وأدوم ويقال على سبيل الإهانة . ﴿ ذوقوا عذاب الخلد ﴾ فإن قلتم إلهنا أنت الغني عن الكل فكيف يليق برحمتك هذا الوعيد والتهديد ؟ أجبتم ﴿ هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴾ فالجزاء مرتب على العمل ترتب المعلول على العلة كما يقوله الحكيم ، أو ترتب الأجر الواجب عند المعتزلة ، أو بحكم الوعد المحض عند أهل السنة . وتفسير الكسب مذكور في البقرة في قوله : ﴿ لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾ [الآية : 134] .

(209/364)

ثم حكى عنهم أنهم بعد هذه البيانات استفهموا تارة أخرى عن تحقيق العذاب فقال : ﴿ ويستنبئونك أحق هو ﴾ وهو استخبار على جهة الاستهزاء والإنكار أي أحق ما تعدنا به من نزول العذاب في العاجل ؟ وهذا السؤال جهل محض لأنه تقدم ذكره مع الجواب مرة

واحدة فلا وجه للإعادة ، ولأنه قد تبين بالبراهين القاطعة صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فيلزم القطع بصحة كل ما يخبر عن وقوعه . وقيل : المراد أحق ما جئت به من القرآن والشرائع ؟ وقيل : أي ما تعدنا من البعث والقيامة ؟ فأمره الله تعالى أن يجيبهم بقوله : ﴿ قل إي وربي ﴾ ومعناه نعم ولكنه مستعمل مع القسم ألبتة . وفائدة هذا القسم في جوابهم أن يكون قد أبرز الكلام معهم على الوجه المعتاد بينهم استمالة لقلوبهم . ومن الظاهر أن من أخبر عن شيء وأكده بالقسم فقد أخرجه عن حد الهزل وأدخله في باب الجد .

(210/364)

فقد يكون هذا القدر مقنعاً إذا لم يكن الخصم ألد . ثم أكد مضمون المقسم عليه بقوله ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ فائتين العذاب . والغرض التنبيه على أن أحداً لا يدافع نفسه عما أراد الله وقضى . ثم زاد في التأكيد بقوله : ﴿ ولو أن لكل نفس ﴾ الآية . وقد مر مثله في " آل عمران " و " المائدة " . وقوله : ﴿ ظلمت ﴾ صفة لنفس . أما قوله : ﴿ وأسروا الندامة ﴾ فقد قيل : الإسرار بمعنى الإظهار والهمزة للسلب أي أظهروا الندامة حينئذٍ لضعفهم وليس هناك تجلد . والمشهور أنه الإخفاء وسببه أنهم بهتوا حين عاينوا ما سلبهم قواهم فلم يطيقوا صراخاً ولا بكاء ، أو أخفوا الندامة من سفلتهم وأتباعهم حياء منهم

وخوفاً من توبيخهم . وهذا التزوير في أول ما يرون العذاب ، أما عند إحاطة النار بهم فلا يبقى هذا التماسك ، أو أراد بالإخفاء الإخلاص لأن من أخلص في الدعاء أسره ، وفيه تهكم بهم وبإخلاصهم لأنهم أتوا بذلك في غير وقته ﴿ وقضى بينهم بالقسط ﴾ قيل : أي بين المؤمنين والكافرين . وقيل : بين الرؤساء والأتباع ، وقيل : بين الكفار بإنزال العقوبة عليهم . وقيل : بين الظالمين من الكفار والمظلومين منهم فيكون في ذلك القضاء تخفيف من عذاب بعضهم وتثقيل لعذاب بعضهم وإن اشترك كلهم في العذاب . ثم ذكر آيتين أن له جميع ما قرر بحكم المالكية والقدرة على الإحياء والإماتة والإبداء والإعادة . وقيل : في وجه النظم أنه لما ذكر حديث الافتداء بيّن أنه ليس للظالم شيء يفتدي به فإن كل الأشياء ملكه وملكه . وقيل : إنه لما أقسم على حقية ما جاء به النبي وكان دليلاً إقناعياً أراد أن يصححها بالبرهان النير فذكر أن كل ما في هذا العالم من نبات وحيوان وجسد وروح وظلمة ونور وعلوي وسفلي بسيط ومركب فهو ملكه ، فلكونه قادراً على جميع الممكنات يقدر على إيصال الرحمة إلى أوليائه والعذاب إلى أعدائه ، ولكنه منزهاً عن النقائص والآفات يكون بريئاً عن الخلف في الوعد والإيعاد . وفي تصدير الكلام

بكلمة " ألا " تنبيه للغافلين وإيقاظ للنائمين وتقريع للناظرين في الأسباب الظاهرة القائلين : البستان للأمير ، والدار للوزير ، والغلام لزيد والجارية لعمرو ، ولا يعلمون أن كلها عوارٍ وودائع .

ولا بد يوماً أن ترد الودائع . . . واعلم أن الطريق إلى إثبات نبوة الأنبياء بأمور أحدها : إظهار المعجزة على يده مطابقاً لدعواه ، وقد قرره الله سبحانه في هذه السورة على أحسن الوجوه حيث قال : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى ﴾ إلى تمام الآيتين . والثاني أن نعلم بعقولنا أن الاعتقاد الحق والعمل الصالح ما هو فكل من جاء ودعا الخلق إلى ذلك وادعى الرسالة وكان لنفسه قوّة تكميل الناقصين غلب على ظننا أنه النبي الحق ، فأشار سبحانه إلى هذا الطريق بقوله : قل ﴿ يا أيها الناس ﴾ الآية . فوصف القرآن بصفات أربع : الأولى كونه موعظة والمراد بها الزجر عما لا ينبغي كالطبيب ينهى المريض أوّلاً عما يضره .

(212/364)

الثانية كونه شفاء لما في الصدور لحصول العقائد الحقة والأخلاق الحميدة فيها بدل أضدادها كالطبيب يعيد الصحة بدل المرض والأخلاط المحمودة بدل الأخلاط الفاسدة

بالمعالجات الصائبة والأدوية النافعة . الثالثة حصول الهدي بسببه وذلك أنه إذا زالت الملكات الرديئة التي طبيعتها الظلمة وصارت مرآة النفس مصقولة محاذية لعالم القدس انطبع فيها نقش الملكوت وتجلى لها قدس اللاهوت . الرابعة كونه رحمة للمؤمنين وذلك بأن تصير النفس البالغة إلى هذه الدرجات الروحانية والمعارج الربانية بحيث تفيض أنوارها على أرواح الناقصين فيض النور من جوهر الشمس على أجرام هذا العالم . وإنما خص المؤمنين بهذه الرحمة لأن كل روح لم يتوجه إلى خدمة أرواح الأنبياء المطهرين لم ينتفع بأنوارهم كما أن كل جرم لم يقع في مواجهة قرص الشمس لا يستضيء بنورها . والحاصل أن الموعظة إشارة إلى تطهير ظواهر الخلق عما لا ينبغي وهو الشريعة ، والشفاء إشارة إلى تطهير الأرواح عن العقائد الفاسدة والأخلاق الرديئة بتحصيل أضدادها وهي الطريقة ، والهدى عبارة عن ظهور نور الحق في قلوب الصدّيقين وهي الحقيقة ، والرحمة إشارة إلى كونها بالغة في الكمال والإشراق إلى حيث تصير مكملة للباقين وهي النبوة .

(213/364)

ولما أرشد سبحانه إلى الطريق الموصل إلى السعادات الباقية الروحانية ذكر أنها هي التي يجب أن يكمل الفرح بحصولها دون السعادات الفانية الجسمانية فقال : ﴿ قل بفضل الله

وبرحمته ﴾ قال في الكشاف : أصل الكلام بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ﴿ فبذلك فليفرحوا ﴾ والتكرير للتقرير والتأكيد ، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة الآخر عليه . والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل : إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح ، وجوز أن يراد بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا ، وأن يراد قد جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك أي بمجيئها فليفرحوا . وعلى هذا يكون ﴿ قل ﴾ اعتراضاً . ومن قرأ بتاء الخطاب فمعناه على ما نقل عن زيد بن ثابت فبذلك فلتفرحوا يا أصحاب محمد هو خير مما يجمع الكفار ، ونسبت هذه القراءة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو الأصل والقياس لأنه أدل على الأمر بالفرح وأشد تحريضاً به ، وإنما قلنا إنه الأصل لأن حكم الأمر في المخاطب والغائب واحد إلا أنه خفف أمر المخاطب بحذف اللام وبحذف حرف المضارعة لكثرة الاستعمال فاضطروا إلى همزة الوصل . ومن قرأ تجمعون بتاء الخطاب فإنه عنى المخاطبين والغائبين جميعاً إلا أنه غلب الخطاب كما يغلب التذكير ، أو كأنه أراد المؤمنين وفيه حث لهم على ترجيح الجواذب العقلية الروحانية على النوازع النفسانية الجسدانية لأنه لا معنى لهذه اللذات الجسمانية إلا دفع الآلام ، والمعنى العدمي لا يستحق الفرح به ، وبتقدير أن تكون صفات ثبوتية إلا أن التضرر بالآمها أقوى من الانتفاع بلذاتها فلا نسبة للذة الوقاع – وهي أقوى اللذات – إلى ألم القولنج وسائر الآلام القوية .

(214/364)

وأيضاً إن مداخل اللذات الجسمانية معظمها البطن والفرج ، ومداخل الآلام كل جزء من أجزاء البدن . وأيضاً اللذات الجسمانية لا بقاء لها مثلاً إذا زال ألم الجوع زال الالتذاذ بالأكل ، وكل ما لا بقاء له لا يشتد فرح العاقل بحصوله ، ولو لم يحصل في لذة الأكل والوقاع إلا إتعاب الحواس والجوارع في مقدماتها ولواحقها لكفى . ومن المعلوم أن الفرح الحاصل بحدوث الولد لا يعادل الحزن الواقع عند موته وفيه قال المعري :

إن حزناً في ساعة الموت ضعا . . . ف سرور في ساعة الميلاد

(215/364)

فتبين بهذه الوجوه أن الفرح إنما يجب أن يكون بالروحانيات الباقيات لا بالجسمانيات الزائلات ، أما المفسرون فقد قالوا : فضل الله الإسلام ، ورحمته ما وعد عليه . وعن أبيّ بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا ﴿ قل بفضل الله وبرحمته ﴾ فقال : بكتاب الله والإسلام . ومثله ما روي عن أبي سعيد الخدري : فضل الله القرآن ورحمته أن

جعلكم من أهله . ثم أشار إلى طريق ثالث في إثبات النبوة فقال : ﴿ قل أرأيتم ﴾ الآية . وتقريره أنكم تحكمون بحل بعض الأشياء وبحرمة بعضها فإن كان هذا لمجرد التشهي فذلك طريق باطل مهجور بالاتفاق لأدائه إلى التنازع والتشاجر واختلاف الآراء وافتراق الأهواء ، وإن كان لأنه حكم الله فيكم فبم عرفتم ذلك فإن كان بقول رسول أرسله إليكم فقد اعترفتم بصحة النبوة وإلا كان افتراء على الله . وفي الآية أيضاً إشارة إلى فساد طريقتهم في شرائعهم وأحكامهم من تحريم السوائب والبحائر وقولهم : ﴿ هذه أنعام وحرث حجر ﴾ [الأنعام : 138] وغير ذلك . ﴿ وما أنزل ﴾ الجملة في محل الرفع بالابتداء وخبره ﴿ آلله أذن لكم ﴾ و ﴿ قل ﴾ مكرر للتأكيد والرابط محذوف ، ومجموع المبتدأ والخبر متعلق ب ﴿ أرأيتم ﴾ والمعنى أخبروني الذى أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً آلله أذن لكم في تحريمه وتحليله ﴿ أم على الله تفترون ﴾ وعن الزجاج أن " ما " في ﴿ ما أنزل ﴾ بمعنى الاستفهام منصوباً ب ﴿ أنزل ﴾ وأنه مع معموله مفعول ﴿ أرأيتم ﴾ معناه أخبرونيه . وعلى هذا يكون ﴿ قل آلله ﴾ كلاماً مستأنفاً . ومعنى أنزل خلق وأنشأ كقوله : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [الزمر : 6] وذلك أن كل ما في الأرض من زرع أو ضرع فإنه بسبب الماء النازل من السماء . قال في الكشاف : ويجوز أن تكون الهمزة في ﴿ آلله ﴾ للإنكار و " أم " منقطعة بمعنى " بل " أتفترون على الله تقريراً للافتراء . ثم قال : ﴿ وما ظن الذين ﴾ يعني أي شيء ظنهم في ذلك اليوم وما يصنع

(216/364)

بهم فيه ؟ وهو في صورة الاستعلام ولكن المراد تعظيم وعيد من يفتري على الله حيث أبهم أمره وكفى به زاجراً للمفتي في الأحكام بغير علم فليتق الله وليصمت ﴿ لذو فضل على الناس ﴾ إذ أنعم عليهم بالعقل ورحمهم بإرسال النبي وتعليم الشرائع ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ هذه النعمة بجحد نبيه أو مخالفته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 592.586 ﴾

(217/364)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

(218/364)

التأويل : ﴿ أفأنت تسمع الصم ﴾ صم آذان القلوب ﴿ أفأنت تهدي العمى ﴾ عمي أبصار البصائر . ﴿ ويوم نحشرهم ﴾ حشر العوام خروج أجسادهم من القبور إلى المحشر ، وحشر الخواص خروج أرواحهم الأخروية من قبور أجسادهم الدنيوية بالسير والسلوك ، وحشر الأخص خروجهم من قبور الأنانية الروحانية إلى هوية الربانية كما قال : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن ﴾ [مريم : 85] كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار لأنه لا نسبة لمدة الدنيا إلى ما بين الأزل والأبد . ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ يعرفون تفاوت مقامات كل صنف من هؤلاء ﴿ وإما نرينك بعض الذي نعدهم ﴾ بشرط الإيمان من نعيم الجنان ولقاء الرحمن ﴿ أو نتوفينك ﴾ فنبلغك أقصى المراتب ومقامك المحمود ﴿ فإلينا مرجعهم ﴾ رجوعاً اضطرارياً لا اختيارياً ﴿ ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ من خسارة الدارين ﴿ ولكل أمة رسول ﴾ في الظاهر من الأنبياء وفي الباطن من إلهام الحق . ﴿ لكل أمة أجل ﴾ في استكمال السعادة والشقاوة ﴿ بياتاً ﴾ أي في الأزل ﴿ أو نهاراً ﴾ أي يظهر الآن ما قدّر لكم في الأزل . ﴿ قل أي وربي إنه لحق ﴾ أي أقسم بربك الذي يريك أن وقوع الأمور الأخروية حق لأنك عبرت على الجنة والنار ليلة المعراج ظلمت بإفساد الاستعدادات . ﴿ ألا إن لله ما في السموات ﴾ الأرواح وأرض القلوب والنفوس ﴿ ألا إن وعد الله ﴾ لأهل السعادة ولأهل الشقاوة في الأزل ﴿ حق هو يحيي ﴾ قلوب بعضهم بالمعرفة ﴿ ويميت ﴾ قلوب آخرين بالجهل ، أو يحيي بالنور ويميت بالظلمة ، أو يحيي

بصفة الجمال ويميت بصفة الجلال ﴿ يا أيها الناس ﴾ يا أهل النسيان ﴿ قد جاءتكم موعظة ﴾ هي خطاب ﴿ ألست بربكم ﴾ [الأعراف : 172] وهو داء العشق وشفاء من ذلك الداء وهو توفيق إجابة ﴿ بلى ﴾ ﴿ لما في الصدور ﴾ وهو القلب فإنها درة صدف الصدر وهدى عناية خاصة إذ الدعوة عامة والهداية خاصة . ورحمة اتصال إمداد الفيض إلى أن يبلغ غاية الكمال ويفوز بالوصول والوصال ﴿ قل بفضل الله ﴾

(219/364)

وهو إسماع الخطاب ورحمته وهو الإبقاء على مدلول الخطاب ﴿ فليفرحوا هو خير مما ﴾ يجمعه أهل الدنيا في دنياهم ﴿ ما أنزل الله لكم من رزق ﴾ القلوب والأرواح فضلاً عن النفوس والأشباح من الواردات والشواهد ﴿ فجعلتم منه حراماً ﴾ على أنفسكم ﴿ وحلالاً ﴾ على غيركم أي حدثت أنفسكم بأن تحصيل هذه السعادات ونيل تلك الكرامات ليس من شأننا وإنما هو من شأن الأنبياء وخواص الأولياء ﴿ قل آلله أذن لكم ﴾ أن تعرضوا عن هذه المقامات وتحيلوها إلى غيركم وتركنوا إلى الدنيا وزخارفها ﴿ أم على الله تفترون ﴾ بأن الدعوة اختصت بهم دوننا ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾

بتسوية الاستعداد الفطري. انتهى انتهى. ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 3 صـ 592.

593 ﴾

(220/364)

قوله تعالى ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (61) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي:

ولما وصف القرآن بما وصفه به من الشفاء وما معه بعد إقامة الدليل على إعجازه، وأشار إلى أن ما تدينوا به في غاية الخبط وأنه مع كونه كذباً يقدر كل واحد على تغييره بأحسن منه لكونه غير مبني على الحكمة، وختم ذلك بتهديدهم على افتراء الكذب في شرع ما لم يأذن به مع ادعائهم أن القرآن مفترى وهم عاجزون عن معارضته، وبأنهم لم يشكروه على نعمه التي أجلّها تخصيصهم بهذا الذكر الحكيم والشرع القويم، وكان قد أكثر في ذلك كله من الأمر له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمحاجتهم ﴿ قل لا أملك لنفسي ﴾، ﴿ قل أرأيتم إن

أتاكم عذابه ﴾ ، ﴿ قل إي وربي إنه لحق ﴾ ، ﴿ قل بفضل الله ﴾ - الآية ، ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم ﴾ ، ﴿ قل الله أذن لكم ﴾ ، قال تعالى ناظراً إلى قوله : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى ﴾ الآية ، تسلية له - صلى الله عليه وسلم - وتقوية لهمته وزيادة في تهديدهم عطفاً على ما تقديره : فقد أنزلت إليهم على لسانك ما هو شرف لهم ونعمة عليهم وهو في غاية البعد عن مطلق الكذب فإن كل شيء منه في أحكم مواضعه وأحسنها لا يتطرق إليه الباطل بوجه وهم يقابلون نعمته بالكفر : ﴿ وما تكون ﴾ أنت ﴿ في شأن ﴾ أي أيّ شأن كان ﴿ وما تتلوا منه ﴾ أي من القرآن المحدث عنه في جميع هذه السورة ، الذي تقدم أنهم كذبوا به من غير شبهة لهم ﴿ من قرآن ﴾ أي قليل أو كثير ﴿ ولا تعملون ﴾ أي كلكم طائعكم وعاصيكم ، وأغرق في النفي فقال : ﴿ من عمل ﴾ صغير أو كبير ﴿ إلا كنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ عليكم شهوداً ﴾ أي عاملين بإحاطة علمنا ووكالة جنودنا عمل الشاهد ﴿ إذ تفيضون فيه ﴾ الآية إيذاناً بأنك بعيني في جميع هذه المراجعات وغيرها من شؤونك وأنا العالم بتدبيرك والقادر على نصرتك ، وهي كلها من كتابي الذي تتضاءل القوى دونه وتقف الأفكار عن مجاراته لأنه حكيم لكونه من عندي فجل عن مطلق المعارضة لفظاً أو معنى فضلاً عن التغيير فضلاً عن الإتيان بما هو مثله فكيف بما هو أحسن منه ، لاستقامة أمره

وتناسب أحكامه كونها شفاء وهدى ورحمة ، وما كان كذلك فهو من عندي قطعاً وبإذني جزماً لأني عالم بالإفاضة فيه والانفصال عنه وجميع الأمور الواقعة منك ومنهم ومن غيرهم .

ولما كان ربما ظن ظان من إفهام ﴿ كنا ﴾ و ﴿ شهوداً ﴾ للجنود أنه سبحانه محتاج إليهم ، نفى ذلك بقوله : ﴿ وما ﴾ أي والحال أنه ما ﴿ يعزب ﴾ أي يغيب ويخفى ﴿ عن ربك ﴾ أي المربي لكل مخلوق بعام أفضاله ولك بخاص نعمه وأشرف نواله ، وأغرق في النفي فقال : ﴿ من مثقال ذرة ﴾ أي وزن نملة صغيرة جداً وموضع وزنها وزمانه ؛ ولما كان " في " بمزون أهل الأرض كان تقديمها أولى فقال : ﴿ في الأرض ﴾ ولما لم يدع السياق إلى الجمع – كما سيأتي في سبأ – قال اكتفاء بالمفرد الدال على الجنس : ﴿ ولا في السماء ﴾ أي ما علا عن الأرض كائناً ما كان .

ولما كان ربما أدى الجمود بعض الأغبياء إلى أن يحمل المثقال على حقيقته ويجهل أن المراد به المبالغة ، قال عاطفاً على الجملة من أولها وهو على الابتداء سواء رفعنا الراءين على قراءة حمزة ويعقوب أو نصبناهما عند الباقين : ﴿ ولا أصغر من ذلك ﴾ أي من مثقال الذرة ﴿ ولا أكبر ﴾ ولما أتى بهذا الابتداء الشامل الحاصر ، أخبر عنه بقوله : ﴿ إلا ﴾ أي لا شيء من ذلك إلا موجود ﴿ في كتاب ﴾ أي جامع ﴿ مبين ﴾ أي ظاهر في نفسه

مظهر لكل ما فيه ، وسيأتي في سبأ ما يتم به هذا المكان ، وفي ذلك تهديداً لهم وتثبيت له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولاح بهذا أن ما بعد ﴿ إلا ﴾ حال من الفاعل ، أي ما يفعل شيئاً إلا وأنت بأعيننا فثبت أن القرآن بعلمه ، فلو افتراه أحد عليه لأمكن منه ؛ والإفاضة : الدخول في العمل على جهة الانصباب إليه وهو الانبساط في العمل أخذاً من فيض الإناء إذا انصب ما فيه من جوانبه ، وأفضتم : تفرقتم كتفرق الماء الذي يتصبب من الإناء ؛ والعزوب : ذهاب المعنى عن العلم ، وضده الحضور ؛ والذر : صغار النمل وهو خفيف الوزن جداً ، ومثقاله : وزنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 459 . 460 ﴾

(222/364)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ شأن ﴾ بغير همز حيث كان : أبو عمرو غير شجاع والأعشى ويزيد والأصفهاني عن ورش وحمزة في الوقف ﴿ يعزب ﴾ بالكسر حيث كان : علي . الباقون بالضم . ﴿ ولا أصغر ﴾ ﴿ ولا أكبر ﴾ بالرفع فيهما : حمزة وخلف وسهل ويعقوب والمفضل . الآخرون بالنصب .

الوقوف : ﴿ تفيضون فيه ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ ه ﴿ يحزنون ﴾ ه ج لأن ﴿ الذين ﴾ يصلح صفة ﴿ لأولياء ﴾ ويصلح نصباً أو رفعاً على المدح فيوقف على ﴿ يتقون ﴾ أو مبتدأ خبره ﴿ لهم البشرى ﴾ فلا يوقف على ﴿ يتقون ﴾ ﴿ وفي الآخرة ﴾ ط ﴿ لكلمات الله ﴾ ط ﴿ العظيم ﴾ ه ط لأنه لو وصل لأوهم أن الضمير عائد إلى ﴿ أولياء ﴾ وقول الأولياء لا يحزن الرسول . ﴿ قولهم ﴾ م لئلا يوهم أن قوله : ﴿ إن العزة ﴾ مقول الكفار . ﴿ جميعاً ﴾ ط ﴿ العليم ﴾ ه ﴿ الأرض ﴾ ط ﴿ شركاء ﴾ ط ﴿ يخرصون ﴾ ه ﴿ مبصراً ﴾ ط ﴿ يسمعون ﴾ ه ﴿ سبحانه ﴾ ط ﴿ الغني ﴾ ط ﴿ وما في الأرض ﴾ ط ﴿ بهذا ﴾ ط ﴿ ما لا تعلمون ﴾ ه ﴿ لا يفلحون ﴾ ه ط ، ﴿ يكفرون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 593.594 ﴾

(223/364)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه لما أطال الكلام في أمر الرسول بإيراد الدلائل على فساد مذاهب الكفار ، وفي أمره بإيراد الجواب عن شبهاتهم ، وفي أمره بتحمل أذاهم ، وبالرفق معهم ذكر هذا الكلام ليحصل به تمام السلوة والسرور للمطيعين ، وتمام الخوف والفزع للمذنبين ، وهو كونه سبحانه عالماً بعمل كل واحد ، وبما في قلبه من الدواعي والصوارف ، فإن الإنسان ربما أظهر من نفسه نسكاً وطاعة وزهداً وتقوى ، ويكون باطنه مملوأ من الخبث وربما كان بالعكس من ذلك فإذا كان الحق سبحانه عالماً بما في البواطن كان ذلك من أعظم أنواع السرور للمطيعين ومن أعظم أنواع التهديد للمذنبين .

المسألة الثانية :

اعلم أنه تعالى خصص الرسول في أول هذه الآية بالخطاب في أمرين ، ثم أتبع ذلك بتعميم الخطاب مع كل المكلفين في شيء واحد ، أما الأمران المخصوصان بالرسول عليه الصلاة والسلام .

فالأول : منهما قوله : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ ﴾ واعلم أن ﴿ مَا ﴾ ههنا جحد والشأن الخطب والجمع الشؤن ، تقول العرب ما شأن فلان أي ما حاله ، قال الأخفش : وتقول ما

شأنت شأنه أي ما عملت عمله ، وفيه وجهان : قال ابن عباس : وما تكون يا محمد في شأن يريد من أعمال البر وقال الحسن : في شأن من شأن الدنيا وحوائجك فيها .

(224/364)

والثاني : منهما قوله تعالى : ﴿ وَمَا تتلوا منه من قرآن ﴾ واختلفوا في أن الضمير في قوله : ﴿ مِنْهُ ﴾ إلى ماذا يعود ؟ وذكروا فيه ثلاثة أوجه : الأول : أنه راجع إلى الشأن لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل هو معظم شأنه ، وعلى هذا التقدير ، فكان هذا داخلاً تحت قوله : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ ﴾ إلا أنه خصه بالذكر تنبيهاً على علو مرتبته ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَلِئكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وميكال ﴾ [البقرة : 98] وكما في قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ وإبراهيم ﴾ [الأحزاب : 7] والثاني : أن هذا الضمير عائد إلى القرآن والتقدير : وما تتلو من القرآن من قرآن ، وذلك لأن كما أن القرآن اسم للمجموع ، فكذلك هو اسم لكل جزء من أجزاء القرآن والإضمار قبل الذكر ، يدل على التعظيم .

الثالث : أن يكون التقدير : وما تتلو من قرآن من الله أي نازل من عند الله .

وأقول : قوله : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءانٍ ﴾ أمران مخصوصان بالرسول

صلى الله عليه وسلم .

وأما قوله : ﴿ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ فهذا خطاب مع النبي ومع جميع الأمة .

والسبب في أن خص الرسول بالخطاب أولاً ، ثم عمم الخطاب مع الكل ، هو أن قوله : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءانٍ ﴾ وإن كان بحسب الظاهر خطاباً مختصاً بالرسول ، إلا أن الأمة داخلون فيه ومرادون منه ، لأنه من المعلوم أنه إذا خوطب رئيس القوم كان القوم داخلين في ذلك الخطاب .

والدليل عليه قوله تعالى :

﴿ يأَيُّهَا النبى إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾ [الطلاق : 1] ثم إنه تعالى بعد أن خص الرسول بذينك الخطابين عمم الكل بالخطاب الثالث فقال : ﴿ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ فدل ذلك على كونهم داخلين في الخطابين الأولين .

(225/364)

ثم قال تعالى : ﴿ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ وذلك لأن الله تعالى شاهد على كل شيء ، وعالم بكل شيء ، أما على أصول أهل السنة والجماعة ، فالأمر فيه ظاهر ، لأنه لا محدث ولا خالق ولا موجد إلا الله تعالى .

فكل ما يدخل في الوجود من أفعال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة ، فكلها حصلت بإيجاد الله تعالى وإحداثه .

والموجد للشيء لا بد وأن يكون عالماً به ، فوجب كونه تعالى عالماً بكل المعلومات ، وأما على أصول المعتزلة ، فقد قالوا : إنه تعالى حي وكل من كان حياً ، فإنه يصح أن يعلم كل واحد من المعلومات ، والموجب لتلك العالمية ، هو ذاته سبحانه .

فنسبة ذاته إلى اقتضاء حصول العالمية ببعض المعلومات كنسبة ذاته إلى اقتضاء حصول العالمية بسائر المعلومات ، فلما اقتضت ذاته حصول العالمية ببعض المعلومات وجب أن تقتضي حصول العالمية بجميع المعلومات فثبت كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات .

أما قوله تعالى : ﴿ إِذْ تفيضون فِيهِ ﴾ فاعلم أن الإفاضة ههنا الدخول في العمل على جهة الانصباب إليه وهو الانبساط في العمل ، يقال أفاض القوم في الحديث إذا اندفعوا فيه ، وقد أفاضوا من عرفة إذا دفعوا منه بكثرتهم ، فتفرقوا .

فإن قيل : ﴿ إِذْ ﴾ ههنا بمعنى حين ، فيصير تقدير الكلام إلا كنا عليكم شهوداً حين تفيضون فيه ، وشهادة الله تعالى عبارة عن علمه ، فيلزم منه أن يقال إنه تعالى ما علم الأشياء إلا عند وجودها وذلك باطل .

قلنا : هذا السؤال بناء على أن شهادة الله تعالى عبارة عن علمه ، وهذا ممنوع ، فإن الشهادة لا تكون إلا عند وجود المشهود عليه ، وأما العلم ، فلا يمتنع تقدمه على الشيء ،

والدليل عليه أن الرسول عليه السلام ، لو أخبرنا عن زيد أنه يأكل غداً كنا من قبل حصول تلك الحالة عالمين بها ولا نوصف بكوننا شاهدين لها .

(226/364)

واعلم أن حاصل هذه الكلمات أنه لا يخرج عن علم الله شيء ، ثم إنه تعالى أكد هذا الكلام زيادة تأكيد ، فقال : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السماء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كتاب مبين ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أصل العزوب من البعد .

يقال : كلأ عازب إذا كان بعيد المطلب ، وعزب الرجل بإبله إذا أرسلها إلى موضع بعيد من المنزل ، والرجل سمي عزباً لبعده عن الأهل ، وعزب الشيء عن علمي إذا بعد .

المسألة الثانية :

قرأ الكسائي ﴿ وَمَا يَعْزُبُ ﴾ بكسر الزاي ، والباقون بالضم ، وفيه لغتان : عزب يعزب ، وعزب يعزب .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ أي وزن ذرة ، ومثقال الشيء ما يساويه في الثقل ، والمعنى : ما يساوي ذرة والذر صغار النمل واحدها ذرة ، وهي تكون خفيفة الوزن جداً ، وقوله : ﴿ فِي الأرض وَلاَ فِى السماء ﴾ فالمعنى ظاهر .

فإن قيل : لم قدم الله ذكر الأرض ههنا على ذكر السماء مع أنه تعالى قال في سورة سبأ : ﴿ عالم الغيب لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السموات وَلاَ فِى الارض ﴾ [سبأ : 3] .

قلنا : حق السماء أن تقدم على الأرض إلا أنه تعالى لما ذكر في هذه الآية شهادته على أحوال أهل الأرض وأعمالهم ، ثم وصل ذلك قوله لا يعزب عنه ، ناسب أن تقدم الأرض على السماء في هذا الموضع .

ثم قال : ﴿ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك وَلاَ أَكْبَرَ ﴾ وفيه قراءتان قرأ حمزة ﴿ وَلاَ أَصْغَرَ وَلاَ أَكْبَرَ ﴾ بالرفع فيهما ، والباقون بالنصب .

(227/364)

واعلم أن قوله : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ تقديره وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فلفظ ﴿ مِثْقَالَ ﴾ عند دخول كلمة ﴿ مِنْ ﴾ عليه مجرور بحسب الظاهر ، ولكنه مرفوع في المعنى ، فالمعطوف عليه إن عطف على الظاهر كان مجروراً إلا أن لفظ أصغر

وأكبر غير منصرف ، فكان مفتوحاً / وإن عطف على المحل ، وجب كونه مرفوعاً ، ونظيره قوله ما أتاني من أحد عاقل وعاقل ، وكذا قوله : ﴿ مَالَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : 59] وغيره وقال الشاعر :

فلسنا بالجبال ولا الحديدا . . هذا ما ذكره النحويون ، قال صاحب "الكشاف" : لو صح هذا العطف لصار تقدير هذه الآية وما يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء إلا في كتاب : وحينئذ يلزم أن يكون الشيء الذي في الكتاب خارجاً عن علم الله تعالى وأنه باطل .

وأجاب بعض المحققين عنه بوجهين :

الوجه الأول : أنا بينا أن العزوب عبارة عن مطلق البعد .

وإذا ثبت هذا فنقول : الأشياء المخلوقة على قسمين : قسم أوجده الله تعالى ابتداء من غير واسطة كالملائكة والسموات والأرض ، وقسم آخر أوجده الله بواسطة القسم الأول ، مثل : الحوادث الحادثة في عالم الكون والفساد ، ولا شك أن هذا القسم الثاني قد يتباعد في سلسلة العلية والمعلولية عن مرتبة وجود واجب الوجود فقوله : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السماء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أي لا يبعد عن مرتبة وجوده مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء إلا وهو في كتاب مبين وهو كتاب كتبه الله تعالى وأثبت صور تلك المعلومات فيه ، ومتى كان الأمر كذلك فقد كان عالماً بها محيطاً

بأحوالها ، والغرض منه الرد على من يقول : إنه تعالى غير عالم بالجزئيات ، وهو المراد من قوله :

﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : 29] .

(228/364)

والوجه الثاني : في الجواب أن نجعل كلمة ﴿ إلا ﴾ في قوله : ﴿ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ استثناء منقطعاً لكن بمعنى هو في كتاب مبين ، وذكر أبو علي الجرجاني صاحب "النظم" عنه جواباً آخر فقال : قوله : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِى السماء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك وَلا أَكْبَرَ ﴾ ههنا تم الكلام وانقطع ثم وقع الابتداء بكلام آخر ، وهو قوله : ﴿ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أي وهو أيضاً في كتاب مبين .

قال : والعرب تضع "إلا" موضع "واو النسق" كثيراً على معنى الابتداء ، كقوله تعالى : ﴿ لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾ [النمل : 10] يعني ومن ظلم .

وقوله : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ ﴾ [البقرة : 150] يعني والذين ظلموا ، وهذا الوجه في غاية التعسف .

وأجاب صاحب "الكشاف" : بوجه رابع فقال : الإشكال إنما جاء إذا عطفنا قوله :

﴿ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك وَلاَ أَكْبَرَ ﴾ على قوله : ﴿ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرض وَلاَ فِى السماء ﴾ إما بحسب الظاهر أو بحسب المحل ، لكنا لا نقول ذلك ، بل نقول : الوجه في القراءة بالنصب في قوله : ﴿ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ﴾ الحمل على نفي الجنس وفي القراءة بالرفع الحمل على الابتداء ، وخبره قوله : ﴿ فِى كتاب مُّبِينٍ ﴾ وهذا الوجه اختيار الزجاج. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 97. 101 ﴾

(229/364)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾

"ما" للجحد ؛ أي لست في شأن ، يعني من عبادة أو غيرها إلا والربّ مطلع عليك .

والشأن الخطب ، والأمر ، وجمعه شؤون .

قال الأخفش : تقول العرب ما شأْنتُ شَأْنَه ، أي ما عملت عمله .

﴿ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْآنٍ ﴾ قال الفرّاء والزجاج : الهاء في "منه" تعود على الشأن ، أي تحدِث شأناً فيتلى من أجله القرآن فيعلم كيف حكمه ، أو ينزل فيه قرآن فيتلى .

وقال الطبري : "منه" أي من كتاب الله تعالى .

"مِنْ قُرْآنٍ" أعاد تفخيماً ؛ كقوله : ﴿ إني أَنَا الله ﴾ .

﴿ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ يخاطب النبيّ صلى الله عليه وسلم والأُمة .

وقوله : "وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ" خطاب له والمراد هو وأُمته ؛ وقد يخاطَب الرسول والمراد هو وأتباعه .

وقيل : المراد كفار قريش .

﴿ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً ﴾ أي نعلمه ؛ ونظيره ﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة : 7] .

﴿ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي تأخذون فيه ، والهاء عائدة على العمل ؛ يقال : أفاض فلان في الحديث والعمل إذا اندفع فيه .

قال الراعي :

فأَفَضْنَ بعد كُظُومِهِنّ بجِرّة . . .

من ذي الأَباطح إذ رَعَيْنَ حَقِيلاَ

ابن عباس : "تُفِيضُونَ فِيهِ" تفعلونه .

الأخفش : تتكلمون .

ابن زيد : تخوضون .

ابن كَيسان : تنشرون القول .

وقال الضحاك : الهاء عائدة على القرآن ؛ المعنى : إذ تشيعون في القرآن الكذب .

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : يغيب .

وقال أبو رَوق : يبعد .

وقال ابن كَيسان : يذهب .

وقرأ الكسائيّ "يعزِب" بكسر الزاي حيث وقع ؛ وضم الباقون ؛ وهما لغتان فصيحتان ؛ نحو يعرِش ويعرُش .

﴿ مِن مِّثْقَالِ ﴾ "من" صلة ؛ أي وما يعزب عن ربك مثقال ﴿ ذَرَّةٍ ﴾ ؛ أي وزن ذرّة ، أي نميلة حمراء صغيرة ، وقد تقدّم في "النساء" .

(230/364)

﴿ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السمآء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ ﴾ عطف على لفظ مثقال ، وإن شئت على ذرّة .

وقرأ يعقوب وحمزة برفع الراء فيهما عطفاً على موضع مثقال لأن من زائدة للتأكيد .

وقال الزجاج : ويجوز الرفع على الابتداء .

وخبره ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ يعني اللوح المحفوظ مع علم الله تعالى به .

قال الجُرْجاني : "إلا" بمعنى واو النسق ، أي وهو في كتاب مبين ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾ [النمل : 10] أي ومن ظلم .

وقوله : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [البقرة : 150] أي والذين ظلموا منهم ؛ ف "إلا" بمعنى واو النسق ، وأضمر هو بعده ، كقوله : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ [البقرة : 58] أي هي حطّة .

وقوله : ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ ﴾ [النساء : 171] أي هم ثلاثة .

ونظير ما نحن فيه : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرض وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : 59] وهو في كتاب مبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(231/364)

وقال أبو حيان :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ﴾

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر جملة من أحوال الكفار ومذاهبهم والرد عليهم ، ومحاورة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لهم ، وذكر فضله تعالى على الناس وأن أكثرهم

لا يشكره على فضله ، ذكر تعالى اطلاعه على أحوالهم وحال الرسول معهم في مجاهدته لهم ، وتلاوة القرآن عليهم ، وأنه تعالى عالم بجميع أعمالهم ، واستطرد من ذلك إلى ذكر أولياء الله تعالى ، ليظهر التفاوت بين الفريقين فريق الشيطان وفريق الرحمن .

والخطاب في قوله تعالى : وما تكون في شأن ، وما تتلوا للرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو عام بجميع شؤونه عليه السلام .

وما تتلوا مندرج تحت عموم شأن ، واندرج من حيث المعنى في الخطاب كل ذي شأن .

وما في الجملتين نافية ، والضمير في منه عائد على شأن ، ومن قرآن تفسير للضمير ، وخص من العموم لأنّ القرآن هو أعظم شؤونه عليه السلام .

وقيل : يعود على التنزيل ، وفسر بالقرآن لأنّ كل جزء منه قرآن ، وأضمر قبل الذكر على سبيل التفخيم له .

وقيل : يعود على الله تعالى أي : وما تتلوا من عند الله من قرآن .

والخطاب في قوله : ولا تعملون عام ، وكذا إلا كنا عليكم شهوداً .

وولى إلا هنا الفعل غير مصحوب بقد ، لأنه قد تقدم الأفعل .

والجملة بعد إلا حال وشهوداً رقباء نحصي عليكم ، وإذ معمولة لقوله : شهوداً .

ولما كانت الأفعال السابقة المراد بها الحالة الدائمة وتنسحب على الأفعال الماضية كان الظرف ماضياً ، وكان المعنى : وما كنت في شأن وما تلوت من قرآن ولا عملتم من عمل إلا

كنا عليكم شهوداً إذ أفضتم فيه .

وإذ تخلص المضارع لمعنى الماضي ، ولما كان قوله : إلا كنا عليكم شهوداً فيه تحذير وتنبيه عدل عن خطابه (صلى الله عليه وسلم) إلى خطاب أمته بقوله : ولا تعملون من عمل ، وإن كان الله شهيداً على أعمال الخلق كلهم .

(232/364)

وتفيضون : تخوضون ، أو تنشرون ، أو تدفعون ، أو تنهضون ، أو تأخذون ، أو تنقلون ، أو تتكلمون ، أو تسعون ، أقوال متقاربة ثم واجهه تعالى بالخطاب وحده في قوله : وما يعزب عن ربك ، تشريفاً له وتعظيماً .

ولما ذكر شهادته تعالى على أعمال الخلق ناسب تقديم الأرض الذي هي محل المخاطبين على السماء ، بخلاف ما في سورة سبأ ، وإن كان الأكثر تقديمها على الأرض .

وقرأ ابن وثاب ، والأعمش ، وابن مصرف ، والكسائي ، يعزب بكسر الزاي ، وكذا في سبأ .

والمثقال اسم لا صفة ، ومعناه هنا وزن ذرة .

والذر صغار النمل ، ولما كانت الذرة أصغر الحيوان المتناسل المشهور النوع عندنا جعلها

الله مثالاً لأقل الأشياء وأحقرها ، إذ هي أحقر ما نشاهد .

ثم قال : ولا أصغر من ذلك أي : من مثقال ذرة .

ولما ذكر تعالى أنه لا يغيب عن علمه أدق الأشياء التي نشاهدها ، ناسب تقديم ولا أصغر من ذلك ، ثم أتى بقوله : ولا أكبر ، على سبيل إحاطة علمه بجميع الأشياء .

ومعلوم أنّ من علم أدق الأشياء وأخفاها كان علمه متعلقاً بأكبر الأشياء وأظهرها .

وقرأ الجمهور : ولا أصغر من ذلك ولا أكبر بفتح الراء فيهما ، ووجه على أنه عطف على ذرة أو على مثقال على اللفظ .

وقرأ حمزة وحده : برفع الراء فيهما ، ووجه على أنه عطف على موضع مثقال لأن من زائدة فهو مرفوع بيعزب ، هكذا وجهه الحوفي وابن عطية وأبو البقاء .

وقال الزمخشري تابعاً لاختيار الزجاج : والوجه النصب على نفي الجنس ، والرفع على الابتداء ، يكون كلاماً مبتدأ .

وفي العطف عل محل مثقال ذرة أو لفظه فتحاً في موضع الجر أشكال ، لأنّ قولك : لا يعزب عنه شيء إلا في كتاب مشكل انتهى .

وإنما أشكل عنده ، لأنّ التقدير يصير إلا في كتاب فيعزب ، وهذا كلام لا يصح .

وخرجه أبو البقاء على أنه استثناء منقطع تقديره : لكن هو في كتاب مبين ، ويزول بهذا التقدير الإشكال .

وقال أبو عبد الله الرازي : أجاب بعض المحققين من وجهين : أحدهما : أنّ الاستثناء منقطع ، والآخر أنّ العزوب عبارة عن مطلق البعد ، والمخلوقات قسم أوجده الله ابتداء من غير واسطة كالملائكة والسموات والأرض ، وقسم أوجده بواسطة القسم الأول مثل الحوادث الحادثة في عالم الكون والفساد ، وهذا قد يتباعد في سلسلة العلية والمملوكية عن مرتبة وجود واجب الوجود ، فالمعنى : لا يبعد عن مرتبة وجوده مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء إلا وهو في كتاب مبين ، كتبه الله ، وأثبت صور تلك المعلومات فيها انتهى ، وفيه بعض تلخيص .

وقال الجرجاني صاحب النظم : إلا بمعنى الواو أي : وهو في كتاب مبين .

والعرب تضع إلاّ موضع واو النسق كقوله : ﴿ إلا من ظلم ﴾ ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ انتهى .

وهذا قول ضعيف لم يثبت من لسان العرب وضع إلا موضع الواو ، وتقدم الكلام على قوله : ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ وسيأتي على قوله : إلا من ظلم إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ . . . ﴾ الآية :

مَقْصِدُ هذه الآية وصْفُ إِحاطة اللَّه عزَّ وجلَّ بكلِّ شيء ، لا ربَّ غيره ، ومعنى اللفْظِ : وما تكُونُ يا محمَّد ، والمرادُ هو وَغَيْرُهُ في شأن من جميع الشؤون ، ﴿ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ ﴾ : الضمير عائدٌ على شَأْن أي : فيه وبسببه «مِن قُرْآنٍ» ، ويحتمل أنْ يعود الضميرُ على جميع القرآن .

وقال * ص * : ضمير «منه» عائدٌ على «شأن» و ﴿ مِن قُرْآنٍ ﴾ : تفسيرٌ للضمير . انتهى . وهو حَسَن ، ثم عمَّ سبحانه بقوله : ﴿ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ ، وفي قوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ تحذيرٌ وتنبيهٌ .

* ت * وهذه الآية عظيمةُ المَوْقِعِ لأَهْل المراقبة تثيرُ من قلوبهم أسراراً ، ويغترفون من بَحْر فيضها أنواراً ، و ﴿ تُفِيضُونَ ﴾ معناه : تأخذون وتَنْهَضُون بجدٍّ ، ﴿ وَمَا يَعْزُبُ ﴾ : معناه : وما يَغِيبُ ﴿ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ والكتابُ المُبينُ هو اللوحُ المحفوظُ ، ويحتملُ ما كتبته الحَفَظَةُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ ﴾

أي في أمر ، من شأَنْتُ شأْنه أي قصدتُ قصدَه مصدر بمعنى المفعول ﴿ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ ﴾ الضميرُ للشأنِ والظرفُ صفةٌ لمصدر محذوفٍ أي تلاوةً كائنةً من الشأن إذ هي معظمُ شؤونه عليه السلام أو للتنزيل ، والإضمارُ قبل الذكر لتفخيم شأنِه ، ومن ابتدائيةٌ أو تبعيضيةٌ أو لله عز وجل ومن ابتدائيةٌ والتي في قوله تعالى : ﴿ مِن قُرْأن ﴾ مزيدةٌ لتأكيد النفيِ أو ابتدائيةٌ على الوجه الأول وبيانية أو تبعيضيةٌ على الثاني والثالث ﴿ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ تعميمٌ للخطاب إثرَ تخصيصِه بمقتضى الكلِّ وقد رُوعي في كل من المقامين ما لا يليق به حيث ذُكر أولاً من الأعمال ما فيه فخامةٌ وجلالةٌ وثانياً ما يتناول الجليلَ والحقيرَ ﴿ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم أحوال المخاطبين بالأفعال الثلاثة أي ما تلابسون بشيء منها حال من الأحوال إلا حالَ كونِنا رُقباءَ مطّلعين عليه حافظين له ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي تخوضون وتندفعون فيه ، وأصلُ الإفاضة الاندفاعُ بكثرة أو بقوة ، وحيث أريد بالأفعال السابقةِ الحالةُ المستمرّةُ الدائمةُ المقارنةُ للزمان الماضي أيضاً أوثر في

الاستثناء صيغةُ الماضي وفي الظرف كلمةُ إذ التي تفيد المضارعَ معنى الماضي ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ ﴾ أي لا يبعُد ولا يغيب على علمه الشامل ، وفي التعرض لعنوان الربوبيةِ من الإشعار باللطف ما لا يخفى وقرىء بكسر الزاءِ ﴿ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ كلمةُ مِنْ مزيدةٌ لتأكيد النفي أي ما يعزُب عنه ما يساوي في الثقل نملةً صغيرةً أو هباءً ﴿ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِى السماء ﴾ أي في دائرة الوجودِ والإمكان فإن العامة لا تعرِف سواهما ممكناً ليس في أحدهما أو متعلّقاً بهما ، وتقديمُ الأرضِ لأن الكلامَ في حال أهلِها والمقصودُ إقامةُ البرهانِ على إحاطة علمِه تعالى بتفاصيلها وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك وَلا أَكْبَرَ

(236/364)

إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ كلامٌ برأسه مقرِّرٌ لما قبله ولا نافيةٌ للجنس وأصغرَ اسمُها وفي كتاب خبرُها وقرىء بالرفع على الابتداء والخبر (في كتاب) .

ومن عطفَ على لفظ مثقالِ ذرةٍ وجعل الفتحَ بدلَ الكسرِ لامتناع الصرف أو على محله مع الجار جعلَ الاستثناءَ منقطعاً كأنه قيل : لا يعزُب عن ربك شيءٌ ما ، لكنْ جميعُ الأشياء في كتاب مبين فكيف يعزُب عنه شيءٌ منها ؟ وقيل : يجوز أن يكون الاستثناءُ متصلاً ويعزُب

بمعنى يَبينُ ويصدُر والمعنى لا يصدُر عنه تعالى شيءٌ إلا وهو في كتابٌ مبين . والمراد بالكتاب المبين اللوحُ المحفوظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(237/364)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ ﴾

أي في أمر معتنى به ، من شأنه بالهمز كسأله إذا قصده وقد تبدل همزته ألفاً ، وهو في الأصل مصدر وقد أريد المفعول ﴿ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ ﴾ الضمير المجرور للشأن ؛ والتلاوة أعظم شؤونه صلى الله عليه وسلم ولذا خصت بالذكر أو للتنزيل ، والإضمار قبل الذكر لتفخيم شأنه أو لله عز وجل ، و ﴿ مِنْ ﴾ قيل تبعيضية على الاحتمالين الأولين وابتدائية على الثالث والتي في قوله سبحانه : ﴿ مِن قُرْءَانٍ ﴾ زائدة لتأكيد النفي على جميع التقادير وإلى ذلك ذهب القطب .

وقال الطيبي : إن ﴿ مِنْ ﴾ الأولى على الاحتمال الأخير ابتدائية والثانية مزيدة ، وعلى الاحتمال الأول الأولى للتبعيض والثانية للبيان ، وعلى الثاني الأولى ابتدائية والثانية للبيان .

وفي إرشاد العقل السليم أن الضمير الأول للشأن والظرف صفة لمصدر محذوف أي تلاوة كائنة من الشأن أو للتنزيل و﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية أو تبعيضية أو لله تعالى شأنه و﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية و﴿ مِنْ ﴾ الثانية مزيدة وابتدائية على الوجه الأول وبيانية أو تبعيضية على الوجه الثاني والثالث .

وأنت تعلم أنه قد يكون الظرف متعلقاً بما عنده ، والتزام تعلقه بمحذوف وقع صفة لمصدر كذلك في جميع الاحتمالات مما لا حاجة إليه .

(238/364)

نعم اللازم بناءً على المشهور أن لا يتعلق حرفان بمعنى بمتعلق واحد ، وذهب أبو البقاء إلى أن الضمير الأول للشأن و﴿ مِنْ ﴾ الأولى للأجل كما في قوله سبحانه : ﴿ مِّمَّا خطيئاتهم أُغْرِقُواْ ﴾ [نوح : 25] و﴿ مِنْ ﴾ الثانية مزيدة وما بعدها مفعول به لتتلو وله وجه ، ومما يقضي منه العجب ما قاله بعضهم إنه يحتمل أن يكون ضمير ﴿ مِنْهُ ﴾ للشأن إما على تقدير ما تتلو حال كون القراءة بعض شؤونك وإما أن يحمل الكلام على حذف المضاف أي وما تتلو من أجل الشأن بأن يحدث لك شأن فتتلو القرآن من أجله فإن الحالية مما لا تكاد تخطر ببال من له أدنى ذوق في العربية ولم نر القول بتقدير مضاف في الكلام إذا كان فيه ﴿

مِنْ ﴾ الأجلية أو نحوها ، وما في كلام غير واحد من الأفاضل في أمثال ذلك تقدير معنى لا تقدير إعراب ، ويبعد حمل هذا البعض على ذلك كما لا يخفى ﴿ هذا ﴾ ثم إن القرآن عام للمقروء كلاً وبعضاً وهو حقيقة في كل كما حقق في موضعه ، والقول بأنه مجاز في البعض بإطلاق الكل وإرادة الجزء مما لا يلتفت إليه ﴿ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ أي أي عمل كان ، والخطاب الأول خاص برأس النوع الإنساني وسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم وهذا عام ويشمل سائر العباد برهم وفاجرهم لا الأخيرين فقط ، وقد روعي في كل من المقامين ما يليق به فعبر في مقام الخصوص في الأول بالشأن لأن عمل العظيم عظيم وفي الثاني بالعمل العام للجليل والحقير ، وقيل : الخطاب الأول عام للأمة أيضاً كما في قوله تعالى :

(239/364)

﴿ يأَيُّهَا النبى إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾ [الطلاق : 1] ﴿ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالأفعال الثلاثة أي وما تلابسون بشيء منها في حال من الأحوال إلا حال كوننا رقباء مطلعين عليه حافظين له كذا قالوا ، ويفهم منه أن الجار والمجرور متعلق بما بعده ، ولعل تقديمه للاهتمام بتخويف من أريد تخويفه من المخاطبين ، وكأنه للمبالغة فيه جيء بضمير العظمة ، وأن المقصود من الاطلاع عليهم الاطلاع على

عملهم ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي تشرعون فيه وتتلبسون به ، وأصل الإفاضة الاندفاع بكثرة أو بقوة ، وحيث أريد بالأفعال السابقة الحالة المستمرة الدائمة المقارنة للزمان الماضي أيضاً أوثر في الاستثناء صيغة الماضي ، وفي الظرف كلمة ﴿ إِذْ ﴾ التي تفيد المضارع معنى الماضي كذا قيل ، ولم أر من تعرض لبيان وجه اختيار النفي بما التي تخلص المضارع للحال عند الجمهور عند انتفاء قرينة خلافه في الجملتين الأوليين والنفي بلا التي تخلص المضارع للاستقبال عند الأكثرين خلافاً لابن مالك في الجملة الثالثة ، ولعل ذلك من آثار اختلاف الخطاب خصوصاً وعموماً فتأمله فإنه دقيق جداً ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ ﴾ أي ما يبعد وما يغيب ، ومنه يقال : الروض العازب وروض عزيب إذا كان بعيداً من الناس ، والكلام على حذف مضاف أي وما يعزب عن علم ربك عز وجل أو هو كناية عن ذلك ، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من الإشعار باللطف ما لا يخفى .

وقرأ الكسائي .

والأعمش .

ويحيى بن وثاب بكسر الزاي ﴿ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ ﴿ مِنْ ﴾ مزيدة لتأكيد النفي ، والمثقال اسم لما يوازن الشيء ويكون في ثقله وهو في الشرع أربعة وعشرون قيراطاً .

وأخرج ذلك ابن أبي حاتم في تفسيره عن أبي جعفر ، والصحيح أنه لم يختلف جاهلية وإسلاماً فقد نقل الجلال السيوطي عن الرافعي أنه قال : أجمع أهل العصر الأول على التقدير بهذا الوزن وهو أن الدرهم ستة دوانيق وكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل ولم يتغير المثقال في الجاهلية ولا في الإسلام .

والذرة واحدة الذر وهو النمل الأحمر الصغير ، وسئل ثعلب عنها فقال : إن مائة نملة وزن حبة والذرة واحدة منها ، وقيل : الذرة ليس لها وزن ويراد بها ما يرى في شعاع الشمس الداخل في النافذة ﴿ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِى السماء ﴾ أي في جهتي السفل والعلو أو في دائرة الوجود والإمكان لأن العامة لا تعرف سواهما ممكناً ليس فيهما ولا متعلقاً بهما ، والكلام شامل لهما أنفسهما أيضاً كما لا يخفى ، وتقديم الأرض على السماء مع أنها قدمت عليها في كثير من المواضع ووقعت أيضاً في سبأ في نظير هذه الآية مقدمة لأن الكلام في حال أهلها والمقصود إقامة البرهان على إحاطة علمه سبحانه بتفاصيلها ، وذكر السماء لئلا يتوهم اختصاص إحاطة علمه جل وعلا بشيء دون شيء ، وحاصل الاستدلال أنه سبحانه لا يغيب عنه شيء ومن يكون هذا شأنه كيف لا يعلم حال أهل الأرض وما هم عليه مع نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ جملة مستقلة ليست معطوفة على ما قبلها ، و ﴿ لا ﴾ نافية للجنس و ﴿ أَصْغَرَ ﴾

اسمها منصوب لشبهه بالمضاف وكذا ﴿ أَكْبَرَ ﴾ لتقدير عمله ، وقول السمين : إنهما مبنيان على الفتح ضعيف وهو مذهب البغداديين ، وزعم أنه سبق قلم متأخر عن حيز القبول ، و ﴿ فِى كتاب ﴾ متعلق بمحذوف وقع خبراً .

وقرأ حمزة .

ويعقوب .

وخلف .

(241/364)

وسهل بالرفع على الابتداء والخبر ، و ﴿ لا ﴾ يجوز الغاؤها إذا تكررت ، وأما قولهم : إن الشبيه بالمضاف يجب نصبه فالمراد منه المنع من البناء لا المنع من الرفع والإلغاء كما توهمه بعضهم ، وجوز أن يكون ذلك على جعل ﴿ لا ﴾ عاملة عمل ليس ، وقيل : إن ﴿ أَصْغَرَ ﴾ على القراءة الأولى عطف على ﴿ مِثْقَالَ ﴾ أو ﴿ ذَرَّةٍ ﴾ باعتبار اللفظ ، وجيء بالفتح بدلا عن الكسر لأنه لا ينصرف للوصف ووزن الفعل ، وعلى القراءة الأخرى معطوف على ﴿ مِثْقَالَ ﴾ باعتبار محله لأنه فاعل .

و ﴿ مِنْ ﴾ كما عرفت مزيد .

واستشكل بأنه يصير التقدير ولا يعزب عنه أصفر من ذلك ولا أكبر منه إلا في كتاب فيعزب عنه ومعناه غير صحيح .

وأجيب بأن هذا على تقدير اتصال الاستثناء وأما على تقدير انقطاعه فيصير التقدير لكن لا أصغر ولا أكبر إلا هو في كتاب مبين ، وهو مؤكد لقوله سبحانه : ﴿ لاَيَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ [سبأ : 3] الخ ، وأجاب بعضهم على تقدير الاتصال بأنه على حد ﴿ لاَيَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الاولى ﴾ [الدخان : 56] ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الاختين إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : 23] في رأي ، فالمعنى لا يبعد عن علمه شيء إلا ما في اللوح الذي هو محل صور معلوماته تعالى شأنه بناء على تفسير الكتاب المبين به أو إلا ما في علمه بناء على ما قيل : إن الكتاب العلم ، فإن عد ذلك من العزوب فهو عازب عن علمه وظاهر أنه ليس من العزوب قطعاً فلا يعزب عن علمه شيء قطعاً .

(242/364)

ونقل عن بعض المحققين في دفع الأشكال أن العزوب عبارة عن مطلق البعد ، والمخلوقات قسمان قسم أوجده الله تعالى من غير واسطة كالأرض والسماء والملائكة عليهم السلام وقسم أوجده بواسطة القسم الأول مثل الحوادث في العالم وقد تتباعد سلسلة العلية

والمعلولية عن مرتبة وجود واجب الوجود سبحانه ، فالمعنى لا يبعد عن مرتبة وجوده تعالى ذرة في الأرض ولا في السماء إلا وهو في كتاب مبين أثبت فيه سبحانه تلك المعلومات ، فهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، وإثبات العزوب بمعنى البعد عنه تعالى في سلسلة الإيجاد لا محذور فيه وهو وجه دقيق إلا أنه أشبه بتدقيقات الحكماء وأن خالف ما هم عليه في الجملة .

وقال الكواشي : معنى يعزب يبين وينفصل ، أي لا يصدر عن ربك شيء من خلقه إلا وهو في اللوح وتلخيصه أن كل شيء مكتوب فيه .

واعترض بأن تفسيره بيبين وينفصل غير معروف ، وقيل : المراد بالبعد عن الرب سبحانه البعد والخروج عن غيبه أي لا يخرج عن غيبه إلا ما كان في اللوح فيعزب عن الغيب ويبعد إذ لا يبقى ذلك غيباً حينئذ لاطلاع الملائكة عليهم السلام وغيرهم عليه فيفيد إحاطة علمه سبحانه بالغيب والشهادة .

(243/364)

ومن هنا يظهر وجه آخر لتقديم الأرض على السماء ، وقيل : إن ﴿ إلا ﴾ عاطفة بمنزلة الواو كما قال بذلك الفراء في قوله تعالى : ﴿ لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾ [

النحل : 1101] والأخفش في قوله سبحانه : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [البقرة : 150] وقوم في قوله جل شأنه : ﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ كبائر الإثم والفواحش إِلاَّ اللمم ﴾ [النجم : 32] وهو مقدر بعدها ، والكلام قد تم عند قوله سبحانه : ﴿ وَلاَ أَكْبَرَ ﴾ ثم ابتدأ بقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ فِى كتاب ﴾ أي وهو في كتاب ونقل ذلك مكي عن أبي علي الحسن بن يحيى الجرجاني ثم قال : وهو قول حسن لولا أن جميع البصريين لا يعرفون ﴿ إِلا ﴾ بمعنى الواو ، والانصاف أنه لا ينبغي تخريج كلام الله تعالى العزيز على ذلك ولو اجتمع الخلق إنسهم وجنهم على مجيء إلا بمعنى الواو ، وقيل : آن الاستثناء من محذوف دل عليه الكلام السابق أي ولا شيء إلا في كتاب ؛ ونظيره ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكتاب مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : 38] ويكون من مجموع ذلك إثبات العلم لله تعالى في كل معلوم وإن كل شيء مكتوب في الكتاب ، ويشهد لهذا على ما قيل كثير من أساليب كلام العرب .

ونقل عن صاحب كتاب تبصرة المتذكر أنه يجوز أن يكون الاستثناء متصلاً بما قبل قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَعْزُبُ ﴾ ويكون في الآية تقديم وتأخير ، وترتيبها وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا في كتاب مبين إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه إلى ولا أكبر ، وتلخيصه وما من شيء إلا وهو في اللوح المحفوظ ونحن نشاهده في كل آن .

ونظر فيه البلقيني في رسالته المسماة بالاستغناء بالفتح المبين في الاستثناء في ﴿ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ بأنه على ما فيه من التكلف يلزم عليه القول بتركيب في الكلام المجيد لم يوجد في كلام العرب مثله أعني إلا في كتاب مبين إلا كنا عليكم شهوداً وليس ذلك نظير .

أمرر بهم الا الفتى إلا العلا .

كما لا يخفى .

وأنت تعلم أن أقل الأقوال تكلفا القول بالانقطاع ، وأجلها قدراً وأدقها سراً القول بالاتصال وإخراج الكلام مخرج ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : 23] ونظائره الكثيرة نثراً ونظماً ، ولا عيب فيه إلا أن الآية عليه أبلغ فليفهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(245/364)

لطيفة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : هذه الآية وأمثالها هي أصل المراقبة عند القوم ، وهي على ثلاثة أقسام : مراقبة

الظواهر ، ومراقبة القلوب ، ومراقبة السرائر . فالأولى للعوام ، والثانية للخواص ، والثالثة لخواص الخواص .

فأما مراقبة الظواهر : فهي اعتقاد العبد أن الله يراه ، ومطلع عليه في كل مكان ، فينتجُ له الحياء من الله ، فيستحيي أن يسيء الأدب معه وهو بين يديه ، وفي بعض الأخبار القدسية : « إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم ، فالخَلَلُ في إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فلِمَ جعلتموني أهون الناظرين إليكم ؟ » .

وقال عليه الصلاة والسلام

« أفضل الناس إيماناً من يعلم أن الله معه في كل مكان » أو كما قال صلى الله عليه وسلم :

ورُوي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه مرَّ براعي غنم ، فقال له : أعطنا شاة من غنمك ، فقال له : ليست لي . فقال له : لصاحبها أكلها الذئب ، فقال له الراعي : وأين الله ؟ ! .

ورُويَ أن رجلاً خلا بجارية فراودها على المعصية ، وقال لها : لا ترانا إلا الكواكب ، فقال له : وأين مُكوكبُها ؟ .

وأما مراقبة القلوب فهي : تحقيق العبد أن الله مطلع على قلبه ، فيستحي منه أن يجول فيما لا يعني ، أو يدبر ما لا يفيد ولا يجدي ، أو يهم بسوء أدب ؛ فإنْ جال في ذلك استغفر وتاب .

وأما مراقبة السرائر فهي : كشف الحجاب عن الروح ، حتى ترى الله أقرب إليها من كل

شيء ، فتستحي أن تجول فيما سواه من المحسوسات ، فإن فعلت بادرت إلى التوبة والاستغفار ، فالتوبة لا تفارق أهل المراقبة مطلقاً ، وقد تقدم في أول سورة النساء بعض الكلام على المراقبة ، فمن لم يُحْكِم أمر المراقبة ، لم يذق أسرار المشاهدة .

فالمراقبة مفتاح المشاهدة ، والمشاهدة مفتاح المعرفة ، والمعرفة هى الولاية ، التي أشار إليها بقوله :

[سورة يونس (10) : الآيات 62 الى 64]

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64) ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 3 صـ 483. 484 ﴾

(246/364)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ) .

هَاتَانِ الْآيَتَانِ فِي مَوْضُوعِ تَشْرِيعِ الْقُرْآنِ الْعَمَلِيِّ التَّهْذِيبِيِّ جَاءَ بَعْدَ بَيَانِ عَقَائِدِهِ الثَّلَاثِ : (التَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ وَالْبَعْثِ) وَتَأْيِيدِهَا بِالِاسْتِدْلَالِ عَلَى كَوْنِهِ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَعَلَى صِدْقِ

وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ، وَالرَّدِّ عَلَى مُكَذِّبِيهِ ، وَقَدْ أَجْمَلَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى فِي جَمِيعِ مَقَاصِدِ هَذَا التَّشْرِيعِ وَإِصْلَاحِهِ لِلنَّاسِ بِمَا يُظْهِرُ بِهِ لِلْعَاقِلِ أَنَّهُ حَقٌّ وَخَيْرٌ وَصَلَاحٌ بِذَاتِهِ لَا يَصِحُّ لِعَاقِلٍ أَنْ يُمَارِيَ فِيهِ ، وَلَا أَنْ يَحْتَاجَ لِلِاسْتِدْلَالِ عَلَيْهِ فَقَالَ :

(247/364)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) أَيْ قَدْ جَاءَكُمْ كِتَابٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ مَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ لِإِصْلَاحِ أَخْلَاقِكُمْ وَأَعْمَالِكُمُ الظَّاهِرَةِ ، وَحِكْمَةٌ بَالِغَةٌ لِإِصْلَاحِ خَفَايَا أَنْفُسِكُمْ وَشِفَاءِ أَمْرَاضِهَا الْبَاطِنَةِ ، وَهِدَايَةٌ وَاضِحَةٌ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الْمُوَصِّلِ إِلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَرَحْمَةٌ خَاصَّةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ هِيَ شَجْنَةٌ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الْعَامَّةِ لِلْخَلْقِ أَجْمَعِينَ ، يَتَرَاحَمُونَ بِهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ ، فَتَكْمُلُ بِهَا رَحْمَتُهُ تَعَالَى لَهُمْ ، وَرَحْمَتُهُ لِلْعَالَمِينَ بِرَسُولِهِ إِلَيْهِمْ وَبِهِمْ ، وَقَدْ عَرَفَ هَذَا مِنْ تَارِيخِهِمْ أَشْهَرُ فَلَاسِفَةِ التَّارِيخِ مِنَ الْإِفْرِنْجِ فَقَالَ : (مَا عَرَفَ التَّارِيخُ فَاتِحًا أَعْدَلَ وَلَا أَرْحَمَ مِنَ الْعَرَبِ) فَكَأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلنَّاسِ ، بَعْدَ بَيَانِ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ الْأَرْبَعَةِ لِلْقُرْآنِ . فَمَا بَالُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ تُكَذِّبُونَ بِمَا لَمْ تُحِيطُوا بِهِ عِلْمًا مِنْ أَخْبَارِ هَذَا الْكِتَابِ ، الَّتِي هِيَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ عَنِ الْمَآلِ وَالْمَآبِ ، وَلَا تُفَكِّرُونَ

(248/364)

فِي آدَابِهِ وَمَوَاعِظِهِ ، وَأَحْكَامِهِ وَحِكَمِهِ ، وَهِدَايَةِ نَوَامِيسِهِ وَسُنَنِهِ ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ ، الَّتِي لَا يُمَارِي فِيهَا عَالِمٌ وَلَا يُكَابِرُ فِيهَا عَاقِلٌ ؟ حَتَّى إِنَّ أَشَدَّ أَعْدَاءِ الرَّسُولِ إِيذَاءً لَهُ وَصَدًّا عَنْ دَعْوَتِهِ فِي أَوَّلِ ظُهُورِهَا لَمْ يَسْتَطِيعُوا الطَّعْنَ عَلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْخَيْرِ وَالْبِرِّ ، وَمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الرَّذَائِلِ وَالشُّرُورِ وَالْفُجُورِ ، كَأَبِي سُفْيَانَ عِنْدَمَا سَأَلَهُ هِرَقْلُ قَيْصَرُ الرُّومِ ، وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عِنْدَمَا سَأَلَهُ أَصْحَمَةُ نَجَاشِيُّ الْحَبَشَةِ ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ قَدْ خَفِيَ عَلَى بَعْضِ الْجَاحِدِينَ وَالْمُقَلِّدِينَ لَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَبْلَ تَعْمِيمِ نَشْرِ الْقُرْآنِ فِيهِمْ ، وَقَبْلَ ظُهُورِ مَا كَانَ لَهُ مِنَ التَّأْثِيرِ الْعَظِيمِ بَعْدَ انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ فِي الْعَرَبِ ، وَمِنَ الْإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ وَالْمَدَنِيِّ فِي شُعُوبِ الْعَجَمِ ، أَفَلَيْسَ مِنَ الْعَجَبِ الْعُجَابِ أَنْ يُمَارِيَ بِهِ أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ وَيُصَدِّقُ مَا يَفْتَرِيهِ عَلَيْهِ دُعَاةُ الْكَنِيسَةِ وَرِجَالُ السِّيَاسَةِ مِنَ الْإِفْرِنْجِ وَتَلَامِيذُهُمْ وَهُمْ أَكْذَبُ الْبَشَرِ ؟ ! .

(249/364)

أَجْمَلَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ هَذَا الْإِصْلَاحَ الْقُرْآنِيَّ لِأَنْفُسِ الْبَشَرِ فِي أَرْبَعِ قَضَايَا أَوْ مَسَائِلَ نُكَرِّرُ فِي اللَّفْظِ لِتَعْظِيمِ أَمْرِهِنَّ ، أَوْ لِبَيَانِ أَنَّهُنَّ نَوْعٌ خَاصٌّ لَمْ يَعْهَدِ النَّاسُ مِثْلَهُنَّ ، فِي كَمَالِهِنَّ الْمَعْنَوِيِّ وَبَيَانِهِنَّ اللَّفْظِيِّ ، وَقَوْلُهُ : (مِنْ رَبِّكُمْ) لِلتَّذْكِيرِ بِمَا يَزِيدُهَا تَعْظِيمًا ، وَوُجُوبِ الِاتِّعَاظِ بِهَا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ؛ لِأَنَّهَا مِنْ مَالِكِ أَمْرِ النَّاسِ وَمُرَبِّيهِمْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ .

(الْأُولَى : الْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ) وَهِيَ اسْمٌ مِنَ الْوَعْظِ أَيِ الْوَصِيَّةُ بِالْحَقِّ وَالْخَيْرِ ، وَاجْتِنَابُ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ ، بِأَسَالِيبِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ الَّتِي يَرِقُّ لَهَا الْقَلْبُ ، فَتَبْعَثُ عَلَى الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حُقُوقِ النِّسَاءِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ) (2 : 231)

(250/364)

الْآيَةَ ، وَفِي الَّتِي بَعْدَهَا : (ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (2 : 232) وَتَقَدَّمَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ بَعْدَ النَّهْيِ عَنْ أَكْلِ الرِّبَا وَالْأَمْرِ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالتَّرْغِيبِ فِي الْإِنْفَاقِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَكَظْمِ الْغَيْظِ وَالْعَفْوِ عَنِ النَّاسِ ، وَمَا أَعَدَّهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْجَزَاءِ (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ

لِلْمُتَّقِينَ) (3 : 137 و138) وَيَلِيهِ الْكَلَامُ فِي الْجِهَادِ وَغَزْوَةِ أُحُدٍ ، وَفِي سُورَةِ النِّسَاءِ : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ) (4 : 58) الْآيَةَ ، وَتَقَدَّمَ غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَمْثِلَةِ الْوَعْظِ وَسَيَأْتِي غَيْرُهُ مِمَّا يُفَسِّرُ مُرَادَهُ تَعَالَى مِنْ مَوْعِظَتِهِ الرَّبَّانِيَّةِ ، فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَتَمَارَى عَاقِلَانِ فِي حُسْنِهَا وَمَنْفَعَتِهَا لِلْعِبَادِ فِي أَعْمَالِهِمْ وَأَحْكَامِهِمْ ؟ كَلَّا إِنَّهَا مِمَّا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ صَلَاحُ الْعِبَادِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ .

(251/364)

(الثَّانِيَةُ : شِفَاءُ مَا فِي الصُّدُورِ) أَيْ شِفَاءُ جَمِيعِ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنْ أَدْوَاءِ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ ، وَسَائِرِ الْأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي يَشْعُرُ صَاحِبُهَا ذُو الضَّمِيرِ الْحَيِّ بِضِيقِ الصَّدْرِ ، مِنْ شَكٍّ فِي الْإِيمَانِ ، وَمُخَالَفَةٍ لِلْوِجْدَانِ ، وَإِضْمَارٍ لِلْحِقْدِ وَالْحَسَدِ وَالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ ، وَحُبٍّ لِلْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ وَالشَّرِّ ، وَبُغْضٍ لِلْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْخَيْرِ .

(252/364)

قَالَ الرَّاغِبُ : قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ حَيْثُمَا ذَكَرَ اللهُ الْقَلْبَ فَإِشَارَةٌ إِلَى الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ نَحْوُ : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) (50 : 37) وَحَيْثُمَا ذَكَرَ الصَّدْرَ فَإِشَارَةٌ إِلَى ذَلِكَ وَإِلَى سَائِرِ الْقُوَى مِنَ الشَّهْوَةِ وَالْهَوَى وَالْغَضَبِ وَنَحْوِهَا ، وَقَوْلُهُ : (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي) (20 : 25) فَسُؤَالُ الْإِصْلَاحِ قُوَاهُ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) (9 : 14) إِشَارَةٌ إِلَى اشْتِفَائِهِمْ . وَقَوْلُهُ : (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (22 : 46) أَيِ الْعُقُولُ الَّتِي هِيَ مُنْدَسَّةٌ فِيمَا بَيْنَ سَائِرِ الْقُوَى وَلَيْسَتْ مُهْتَدِيَةً وَاللهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ انْتَهَى . وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الصَّدْرَ يُطْلَقُ مَجَازًا عَلَى الْقَلْبِ الْحِسِّيِّ الَّذِي فِيهِ وَعِلَاقَتُهُ ظَاهِرَةٌ ، وَعَلَى الْقَلْبِ الْمَعْنَوِيِّ الَّذِي هُوَ لِلنَّفْسِ كَالْقَلْبِ الْحِسِّيِّ لِلْبَدَنِ لِأَنَّهُ لُبُّهَا ، وَمَرْكَزُ شُعُورِ مَدَارِكِهَا وَانْفِعَالَاتِهَا ، دُونَ الدِّمَاغِ فَإِنَّ النَّفْسَ لَا تَشْعُرُ بِمَا يَنْطَبِعُ فِيهِ مِنَ الْمُدْرَكَاتِ مِنَ انْشِرَاحٍ وَبَسْطٍ وَحَرَجٍ وَضِيقٍ وَقَبْضٍ ، فَجَمِيعُ الْإِدْرَاكَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْوِجْدَانِيَّةِ تُوصَفُ بِهَا الْقُلُوبُ حَقِيقَةً وَالصُّدُورُ مَجَازًا ، وَتَكُونُ فَاعِلَةً وَمَفْعُولَةً وَصِفَاتٍ لِلْأَفْعَالِ الْعَامِلَةِ فِيهِمَا ، وَأَمَّا الْعَقْلُ فِي اللُّغَةِ فَهُوَ الْحَكَمُ الصَّحِيحُ فِي بَعْضِ الْإِدْرَاكَاتِ وَلَوَازِمِهَا مِنْ حُسْنٍ وَقُبْحٍ وَصَلَاحٍ وَفَسَادٍ ، وَنَفْعٍ وَضُرٍّ ، وَمَرْكَزُهُ الدِّمَاغُ قَطْعًا ، فَأَمْرَاضُ

الصُّدُورِ وَالْقُلُوبِ تَشْمَلُ الْجَهْلَ وَسُوءَ الظَّنِّ ، وَالشَّكَّ فِي الْإِيمَانِ وَالنِّفَاقَ ، وَالْحِقْدَ وَالضَّغَنَ وَالْحَسَدَ ، وَسُوءَ النِّيَّةِ وَخُبْثَ الطَّوِيَّةِ وَفَسَادَ السَّرِيرَةِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا تَقَدَّمَ آنِفًا ، وَالشَّوَاهِدُ عَلَى هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ .

(254/364)

وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إلَى أَنَّ الشِّفَاءَ فِي الْآيَةِ يَشْمَلُ شِفَاءَ الْأَمْرَاضِ الْبَدَنِيَّةِ ، وَاسْتَدَلُّوا بِمَا أَخْرَجَهُ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ : إنِّي أَشْتَكِي صَدْرِي فَقَالَ : (اقْرَأْ الْقُرْآنَ ؛ يَقُولُ اللَّهُ : (وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ) وَفِيهِ أَنَّ ضِيقَ الصَّدْرِ فِي الْغَالِبِ أَلَمٌ نَفْسِيٌّ لَا بَدَنِيٌّ ، قَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ دِينِيًّا وَقَدْ يَكُونُ دُنْيَوِيًّا كَالْخَوْفِ وَالْحَاجَةِ ، وَقِرَاءَةُ الْمُؤْمِنِ لِلْقُرْآنِ تَنْفَعُ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا ، وَمِنَ الْأَوَّلِ قَوْلُهُ : (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) (6 : 125) وَقَوْلُهُ فِي آخِرِ سُورَةِ الْحِجْرِ : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) (15 : 97 - 99) وَالتَّسْبِيحُ بِحَمْدِ اللَّهِ

وَالسُّجُودُ لَهُ وَعِبَادَتُهُ بِالصَّلَاةِ وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ أَعْظَمُ أَسْبَابِ انْشِرَاحِ الصَّدْرِ ، كَمَا قَالَ : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) (39 : 22) الْآيَةَ .

(255/364)

وَاسْتَدَلُّوا أَيْضًا بِمَا أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَجُلًا شَكَا إلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَجَعَ حَلْقِهِ قَالَ : (عَلَيْكَ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَالْعَسَلِ ، فَالْقُرْآنُ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ، وَالْعَسَلُ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ) وَهُوَ عَلَى ضَعْفِهِ لَا يَدُلُّ عَلَى مَا قِيلَ إذْ مَعْنَاهُ اقْرَأْ الْقُرْآنَ ، تَعْلَمْ مِنْهُ مَا يُفِيدُكَ ، إذْ فِيهِ أَنَّ الْقُرْآنَ شِفَاءٌ لِأَمْرَاضِ الصُّدُورِ وَالْعَسَلَ شِفَاءٌ لِأَمْرَاضِ الْبَدَنِ ، فَهُوَ كَوَصْفِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْعَسَلَ لِمَنْ شَكَا لَهُ اسْتِطْلَاقَ بَطْنِ ابْنِ أَخِيهِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الطِّبِّ الْحَدِيثِ أَنَّ الْعَسَلَ مُطَهِّرٌ طِبِّيٌّ وَمُضَادٌّ لِلْفَسَادِ ، وَاسْتِطْلَاقُ الْبَطْنِ يَكُونُ مِنْ فَسَادٍ فِي الْأَمْعَاءِ ، وَكَذَا وَجَعُ الْحَلْقِ بِالْتِهَابِ اللَّوْزَتَيْنِ وَنَحْوِهِ وَالْعَسَلُ مُطَهِّرٌ لِكُلٍّ مِنْهُمَا ، وَقَدْ رَوَى أَبُو الشَّيْخِ عَنْ الْحَسَنِ الْبَصَرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : إنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْقُرْآنَ شِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ وَلَمْ يَجْعَلْهُ شِفَاءً لِأَمْرَاضِكُمْ . وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إنَّ تَنْكِيرَ الشِّفَاءِ فِي آيَةِ الْعَسَلِ يَدُلُّ عَلَى الْخُصُوصِ لَا الْعُمُومِ . عَلَى أَنَّ الرُّقْيَةَ بِالْفَاتِحَةِ وَغَيْرِهَا قَدْ تُفِيدُ فِي شِفَاءِ بَعْضِ

الْأَمْرَاضِ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الرَّاقِي قَوِيَّ الْإِيمَانِ وَالْمَرْقِيُّ حَسَنَ الِاعْتِقَادِ ، وَلَيْسَ هَذَا مِمَّا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ .

(256/364)

(الثَّالِثَةُ : الْهُدَى) وَهُوَ بَيَانُ الْحَقِّ الْمُنْقِذُ مِنَ الضَّلَالِ فِي الِاعْتِقَادِ وَالْبُرْهَانِ ، وَفِي الْعَمَلِ بِبَيَانِ الْحِكَمِ وَالْمَصَالِحِ فِي أَحْكَامِ الْأَعْمَالِ ، وَهُوَ مَا فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا فِي هَذَا التَّفْسِيرِ ، وَبَيَّنَّا أَنْوَاعَهُ فِي مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ مِنْ مَبَاحِثِ الْوَحْيِ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ بِأَنْوَاعِهَا الدِّينِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ وَأَنْوَاعِهِ فِي تَفْسِيرِ الْفَاتِحَةِ وَأَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

(الرَّابِعَةُ : الرَّحْمَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ) وَهِيَ مَا تُثْمِرُهُ لَهُمْ هِدَايَةُ الْقُرْآنِ وَتُفِيضُهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِمُ الْخَاصَّةِ ، وَهِيَ صِفَةُ كَمَالٍ مِنْ آثَارِهَا إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ ، وَبَذْلُ الْمَعْرُوفِ وَكَفُّ الظُّلْمِ ، وَمَنْعُ التَّعَدِّي وَالْبَغْيِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ ، وَمُقَاوَمَةِ الشَّرِّ ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ : (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) (48 : 29) وَبِقَوْلِهِ : (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) (90 : 17) .

(257/364)

وَهَذِهِ الصِّفَاتُ الْأَرْبَعُ مُرَتَّبَةٌ عَلَى سُنَّةِ الْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، فَالْمَوْعِظَةُ : التَّعَالِيمُ الَّتِي تُشْعِرُ النَّفْسَ بِنَقْصِهَا وَخَطَرِ أَمْرَاضِهَا الِاعْتِقَادِيَّةِ وَالْخُلُقِيَّةِ ، وَتُزْعِجُهَا إِلَى مُدَاوَاتِهَا وَطَلَبِ الشِّفَاءِ مِنْهَا ، وَالشِّفَاءُ تَخْلِيَةٌ يُتْبِعُهَا طَلَبُ التَّحْلِيَةِ بِالصِّحَّةِ الْكَامِلَةِ ، وَالْعَافِيَةُ التَّامَّةُ ، وَهُوَ الْهُدَى ، وَمِنْ ثَمَرَاتِهِ هَذِهِ الرَّحْمَةُ الَّتِي لَا تُوجَدُ عَلَى كَمَالِهَا إِلَّا فِي الْمُؤْمِنِينَ الْمُهْتَدِينَ ، وَلَا يُحَرِّمُهَا إِلَّا الْكَافِرُونَ الْمَادِّيُّونَ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهَا ضَعْفٌ فِي الْقَلْبِ ، يَجْعَلُ صَاحِبَهُ كَالْمُضْطَرِّ إِلَى الْإِحْسَانِ وَالْعَطْفِ ، وَمَا هَذَا الْقَوْلُ إِلَّا مِنْ فَسَادِ الْفِطْرَةِ ، وَقَسْوَةِ الْقَلْبِ وَفَلْسَفَةِ الْكُفْرِ ، فَلَقَدْ كَانَ أَشْجَعُ النَّاسِ وَأَقْوَاهُمْ بَدَنًا وَقَلْبًا ، أَرْحَمَ النَّاسِ وَأَشَدَّهُمْ عَطْفًا ، وَهُوَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ الَّذِي وَصَفَهُ رَبُّهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ قَوْلِهِ : (بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (9 : 128) بَلْ جَعَلَهُ عَيْنَ الرَّحْمَةِ فِي قَوْلِهِ : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (21 : 107) وَكَذَلِكَ كَانَ أَصْحَابُهُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ – حَتَّى كَانَ مَنْ يُوصَفُ بِالشِّدَّةِ وَالْقَسْوَةِ كَعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – صَارَ مِنْ أَرْحَمِ النَّاسِ وَسِيرَتُهُ فِي ذَلِكَ مَعْرُوفَةٌ .

(258/364)

وَقَدْ قَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَاللَّفْظُ لَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ كَانَ إذَا سَمِعَ وَهُوَ وَفِي الصَّلَاةِ بُكَاءَ طِفْلٍ تَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ ، أَيِ اخْتَصَرَ وَخَفَّفَ رَحْمَةً بِهِ وَبِأُمِّهِ ، وَرَوَى ابْنُ إسْحَاقَ أَنَّ بِلَالًا – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – مَرَّ بِصَفِيَّةَ وَبِابْنَةِ عَمٍّ لَهَا عَلَى قَتْلَى قَوْمِهِمَا الْيَهُودِ بَعْدَ انْتِهَاءِ غَزْوَةِ قُرَيْظَةَ فَصَكَّتِ ابْنَةُ عَمِّهَا وَجْهَهَا وَحَثَتْ عَلَيْهِ التُّرَابَ وَهِيَ تَصِيحُ وَتَبْكِي ، فَقَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَهُ : (أَنُزِعَتِ الرَّحْمَةُ مِنْ قَلْبِكَ حَتَّى مَرَرْتَ بِالْمَرْأَتَيْنِ عَلَى قَتْلَاهُمَا) وَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ إلَيْهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ : إنَّكُمْ تُقَبِّلُونَ أَوْلَادَكُمْ وَمَا نُقَبِّلُهُمْ . فَقَالَ : (أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – .

(259/364)

بَلْ كَانَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – شَدِيدَ الرَّحْمَةِ بِالْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ وَالْحَشَرَاتِ ، وَطَالَمَا أَوْصَى بِهَا وَلَا سِيَّمَا صِغَارِهَا وَأُمَّهَاتِهَا . جَاءَهُ مَرَّةً رَجُلٌ وَعَلَيْهِ كِسَاءٌ وَفِي يَدِهِ شَيْءٌ قَدِ الْتَفَّ عَلَيْهِ ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إنِّي لَمَّا رَأَيْتُكَ أَقْبَلْتَ ، فَمَرَرْتُ بِغَيْطَةِ شَجَرٍ فَسَمِعْتُ فِيهَا

أَصْوَاتَ فِرَاخِ طَائِرٍ فَأَخَذْتُهُنَّ فَوَضَعْتُهُنَّ فِي كِسَائِي فَجَاءَتْ أُمُّهُنَّ فَاسْتَدَارَتْ عَلَى رَأْسِي وَكَشَفْتُ لَهَا عَنْهُنَّ فَوَقَعَتْ عَلَيْهِنَّ فَلَفَفْتُهَا مَعَهُنَّ بِكِسَائِي فَهُنَّ أُولَاءِ مَعِي ، فَقَالَ : (ضَعْهُنَّ (قَالَ) فَفَعَلْتُ فَأَبَتْ أُمُّهُنَّ إِلَّا

(260/364)

لُزُومَهُنَّ فَقَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (أَتَعْجَبُونَ لِرَحْمَةِ أُمِّ الْأَفْرَاخِ بِفِرَاخِهَا ؟ قَالُوا نَعَمْ ، قَالَ : (وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ أُمِّ الْأَفْرَاخِ بِفِرَاخِهَا ، ارْجِعْ بِهِنَّ حَتَّى تَضَعَهُنَّ حَيْثُ أَخَذْتَهُنَّ ، وَأُمُّهُنَّ مَعَهُنَّ) ، فَرَجَعَ بِهِنَّ ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وَرَوَى مَالِكٌ وَالْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِهِ مَرْفُوعًا حَدِيثَيْنِ خُلَاصَتُهُمَا أَنَّ اللَّهَ غَفَرَ لِرَجُلٍ وَلِامْرَأَةٍ بَغِيٍّ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا رَأَى كَلْبًا قَدِ اشْتَدَّ بِهِ الْعَطَشُ فَرَحِمَهُ وَأَخْرَجَ لَهُ الْمَاءَ مِنَ الْبِئْرِ بِخُفِّهِ فَسَقَاهُ ، قَالُوا لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا ؟ فَقَالَ : (فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ) وَرَوَاهُ مَالِكٌ وَأَحْمَدُ عَنْ غَيْرِهِ بِلَفْظِ (فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ حَرَّى أَجْرٌ) .

(261/364)

وَقَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمُكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – وَرَوَيْنَاهُ مُسَلْسَلًا بِالْأَوَّلِيَّةِ مِنْ طَرِيقِ أُسْتَاذِنَا الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ أَبِي الْمَحَاسِنِ الْقَاوَقْجِيِّ . وَقَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – (إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ فِيهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوُحُوشُ عَلَى وَلَدِهَا ، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) – وَفِي رِوَايَةٍ – وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْأَسْ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) (15 : 49 ، 50) وَيَقُولُ : (إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) (12 : 87) وَيَقُولُ : (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا

(262/364)

يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) (7 : 99) وَمَا دَامَ الْمُؤْمِنُ حَيًّا فَالْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَخَافَ اللهَ خَوْفًا يُرْهِبُهُ وَيَزْجُرُهُ عَنْ مَعَاصِيهِ ، وَأَنْ يَرْجُوَهُ رَجَاءً يُرَغِّبُهُ فِي ثَوَابِهِ وَمَا يُرْضِيهِ وَمَا عِنْدَ اللهِ مَجْهُولٌ لَنَا ، وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ أَبِي الْحَسَنِ الشَّاذِلِيِّ قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ : (وَقَدْ

أَبْهَمْتَ الْأَمْرَ عَلَيْنَا لِنَرْجُو وَنَخَافَ ، فَآمِنْ خَوْفَنَا ، وَلَا تُخَيِّبْ رَجَاءَنَا) اللَّهُمَّ آمِينْ .

خَاطِبَ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا تَقَدَّمَ كُلَّهِ أُمَّةَ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَهُمْ جَمِيعُ النَّاسِ ، فَمَوْعِظَةُ الْقُرْآنِ وَمَا فِيهِ مِنْ شِفَاءٍ مِنْ أَمْرَاضِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ وَالرَّذَائِلِ ، وَهُدَاهُ إِلَى الْحَقِّ وَالْفَضَائِلِ مُوَجَّهَاتٌ إِلَى الْجَمِيعِ ، وَخَصَّ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا تُثْمِرُهُ الثَّلَاثُ مِنَ الرَّحْمَةِ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِهَا ، ثُمَّ خَاطَبَ رَسُولَهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِأَنْ يُبَلِّغَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ يَحِقُّ لَهُمْ أَنْ يَفْرَحُوا بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِنِعْمَةِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ ، وَبِهَذِهِ الرَّحْمَةِ الْخَاصَّةِ بِهِمْ لِاسْتِجْمَاعِهِمْ كُلَّ مَا ذُكِرَ قَبْلَهَا مِنْ مَقَاصِدِ تَشْرِيعِهِ فَقَالَ :

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا) فَضْلُ اللَّهِ عَلَى جَمِيعِ عِبَادِهِ عَظِيمٌ وَهُوَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ أَعْظَمُ ، وَرَحْمَتُهُ الْعَامَّةُ لَهُمْ وَبِهِمْ وَاسِعَةٌ ، وَرَحْمَتُهُ الْخَاصَّةُ بِالْمُؤْمِنِينَ أَوْسَعُ ، وَبِكُلٍّ

(263/364)

مِنَ النَّوْعَيْنِ نَطَقَ الْقُرْآنُ ، وَقَدْ مَنَّ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِالْجَمْعِ لَهُمْ بَيْنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ فِي آيَاتٍ ، وَبِكُلٍّ مِنْهُمَا فِي آيَاتٍ ، وَقَالَ بَعْدَ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا فِي آيَتَيْنِ مِنْ سُورَةِ النُّورِ : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(24 : 21) وَإِنَّ دُخُولَ الْبَاءِ عَلَى كُلٍّ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ هُنَا يَدُلُّ عَلَى اسْتِقْلَالِ كُلٍّ مِنْهُمَا بِالْفَرَحِ بِهِ فَهُوَ يَرُدُّ مَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمَا وَاحِدٌ وَهُوَ الْقُرْآنُ ، وَيَرُدُّهُ أَيْضًا مَا رُوِيَ مِنَ الْمَأْثُورِ فِي تَفْسِيرِ كُلٍّ مِنْهُمَا بِمَعْنًى ، وَمِنْهُ مَا رَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ مَرْفُوعًا (فَضْلُ اللهِ الْقُرْآنُ وَرَحْمَتُهُ أَنْ جَعَلَكُمْ مِنْ أَهْلِهِ) وَرُوِيَ عَنِ الْبَرَاءِ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ مَوْقُوفًا . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رِوَايَتَانِ (إِحْدَاهُمَا) إِنَّ فَضْلَ اللهِ : الْقُرْآنُ ، وَرَحْمَتَهُ : الْإِسْلَامُ وَ (الثَّانِيَةُ) إِنَّ الْفَضْلَ : الْعِلْمُ ، وَالرَّحْمَةَ : مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . وَعَنِ الْحَسَنِ وَالضَّحَّاكِ وَقَتَادَةَ وَمُجَاهِدٍ فِي الرِّوَايَةِ الثَّانِيَةِ عَنْهُ ، فَضْلُ اللهِ : الْإِيمَانُ ، وَرَحْمَتُهُ : الْقُرْآنُ . وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي صَحِيحَةٌ فِي نَفْسِهَا لَا فِي رِوَايَتِهَا .

وَأَظْهَرُهَا فِي الْآيَةِ وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِمَا قَبْلَهَا وَالْجَامِعُ لِمَعَانِي الرِّوَايَاتِ كُلِّهَا ، أَنَّ فَضْلَ اللهِ : تَوْفِيقُهُ إِيَّاهُمْ لِتَزْكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ

(264/364)

بِالْمَوْعِظَةِ

وَالشِّفَاءِ وَالْهُدَى الَّتِي امْتَازَ بِهَا الْقُرْآنُ ، وَرَحْمَتُهُ ثَمَرَتُهَا الَّتِي فَضَلُوا بِهَا جَمِيعَ النَّاسِ فَكَانُوا أَرْحَمَهُمْ ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَعْدَلَهُمْ وَأَبَرَّهُمْ بِهِمْ ، فَقَدْ أَمَرَهُمْ هَذَا الْقُرْآنُ بِالْبِرِّ وَالْعَدْلِ وَإِقَامَةِ

الْقِسْطِ فِي الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، وَأَمْرَهُمْ بِالرَّحْمَةِ حَتَّى فِي الْمُحَارِبِينَ لَهُمْ بِقَدْرِ مَا يَدْفَعُ شَرَّهُمْ كَمَا فَصَّلْنَاهُ فِي الْمَقْصِدِ الثَّامِنِ مِنْ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ فِي مَبَاحِثِ الْوَحْيِ ، وَلَوْلَا مُرَاعَاةُ هَذَا التَّنَاسُبِ لَقُلْتُ : إنَّ الْمُرَادَ بِفَضْلِهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) (2 : 143) الْآيَةَ ، وَقَوْلُهُ : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) (30 : 110) الْآيَةَ وَلَكِنْ مَا قُلْتُهُ يَدْخُلُ فِي مَعْنَاهُ وَيُوَافِقُهُ وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ .

(265/364)

وَالْفَرَحُ كَالسُّرُورِ : انْفِعَالٌ نَفْسِيٌّ بِنِعْمَةٍ حِسِّيَّةٍ أَوْ مَعْنَوِيَّةٍ يَلَذُّ الْقَلْبَ وَيَشْرَحُ الصَّدْرَ وَضِدَّهُمَا الْأَسَى وَالْحُزْنُ وَهُمَا مِنَ الْوِجْدَانِ الطَّبِيعِيِّ لَا يُمْدَحَانِ وَلَا يُذَمَّانِ لِذَاتِهِمَا ، بَلْ حُكْمُهُمَا حُكْمُ سَبَبِهِمَا أَوْ أَثَرِهِمَا فِي النَّفْسِ وَالْعَمَلِ ، خِلَافًا لِبَعْضِ النَّاسِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فِيهِمَا ، فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى هُنَا بِالْفَرَحِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَمَدَحَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْفَرَحِ فِي قَوْلِهِ : (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ) (30 : 4 ، 5) وَهَذَا فَرَحٌ بِأَمْرٍ دِينِيٍّ وَدُنْيَوِيٍّ ، ثُمَّ قَالَ فِيهَا : (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا) (30 : 36) وَقَالَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَيَهْتَدُونَ بِالْقُرْآنِ : (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) (13 : 36) الْآيَةَ .

وَذَمَّ سُبْحَانَهُ الْفَرَحَ بِالْبَاطِلِ وَفَرَحَ الْبَطَرِ وَالْغُرُورِ بِالْمَالِ وَمَتَاعِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا فِي عِدَّةِ آيَاتٍ مَعْرُوفَةٍ . وَجَعَلَ الِاعْتِدَالَ بَيْنَ الْفَرَحِ وَالْأَسَى وَالْحُزْنِ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ بَعْدَ ذِكْرِ تَرْبِيَتِهِمْ بِالْمَصَائِبِ الْمُقَدَّرَةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ (لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) (57 : 23)

وَتَقَدَّمَ تَحْقِيقُ الْكَلَامِ فِي الْحُزْنِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ بَرَاءَةٌ (9 : 40) ، (369 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(266/364)

وَالتَّعْبِيرُ فِي غَايَةِ الْبَلَاغَةِ لِمَا فِيهَا مِنَ التَّأْكِيدِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي التَّقْرِيرِ ، فَإِنَّ أَصْلَ الْمَعْنَى بِدُونِهِمَا : قُلْ لِيَفْرَحُوا بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ ، فَأَخَّرَ الْأَمْرَ وَقَدَّمَ عَلَيْهِ مُتَعَلَّقَهُ لِإِفَادَةِ الِاخْتِصَاصِ ، كَأَنَّهُ قَالَ : إِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُفْرَحَ بِهِ فَهُوَ فَضْلُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ ، وَأَدْخَلَ عَلَيْهِ (الْفَاءَ) لِإِفَادَةِ مَعْنَى السَّبَبِيَّةِ فَصَارَ فِيهِمَا (فَلْيَفْرَحُوا) دُونَ مَا يَجْمَعُونَ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمُبَيَّنِ فِي آخِرِ الْآيَةِ ثُمَّ أَدْخَلَ عَلَى الْأَمْرِ (فَبِذَلِكَ) لِزِيَادَةِ التَّأْكِيدِ وَالتَّقْرِيرِ ، وَتَفْصِيلِ مَبَاحِثِهِ فِي الْإِعْرَابِ أَكْثَرَ مِمَّا قُلْنَا ، وَبَسْطُهُ يُشْغِلُ عَنِ الْمَعْنَى وَالِاعْتِبَارِ بِهِ ، وَهُوَ خُرُوجٌ عَنْ مَنْهَجِنَا فِي هَذَا التَّفْسِيرِ .

ثُمَّ قَالَ : (هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) أَيْ أَنَّ الْفَرَحَ بِفَضْلِهِ وَبِرَحْمَتِهِ أَفْضَلُ وَأَنْفَعُ لَهُمْ مِمَّا يَجْمَعُونَهُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ وَسَائِرِ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، مَعَ فَقْدِهِمَا لَا لِأَنَّهُ سَبَبُ سَعَادَةِ الْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ ، الْمُفَضَّلَةِ عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ ، كَمَا اشْتُهِرَ فِيمَا خَطَّتْهُ الْأَقْلَامُ وَلَاكَتْهُ الْأَلْسِنَةُ ، بَلْ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ كَمَا حَصَلَ بِالْفِعْلِ إِذْ كَانَتْ هِدَايَةُ الْإِسْلَامِ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ سَبَبًا لِمَا نَالَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي الْعُصُورِ الْأُولَى مِنَ الْمُلْكِ الْوَاسِعِ ، وَالْمَالِ الْكَثِيرِ ، مَعَ الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ ، وَالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، وَالْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ ، وَالْعِزِّ الْكَبِيرِ ، فَلَمَّا صَارَ جَمْعُ الْمَالِ وَمَتَاعُ الدُّنْيَا وَفَرَحُ الْبَطَرِ بِهِ هُوَ الْمَقْصُودَ لَهُمْ بِالذَّاتِ ، وَتَرَكُوا هِدَايَةَ الدِّينِ فِي إِنْفَاقِهِ وَالشُّكْرِ عَلَيْهِ ، ذَهَبَتْ دُنْيَاهُمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ إِلَى أَيْدِي أَعْدَائِهِمْ كَمَا شَرَحْنَاهُ مِرَارًا .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آلله أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) .

هَاتَانِ الْآيَتَانِ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى مُنْكِرِي الْوَحْيِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِفِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِهِمْ لَا يُنْكِرُونَهُ وَلَا يُجَادِلُونَ فِيهِ ، تَعْزِيزًا لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنْوَاعِ الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى إِثْبَاتِهِ ، وَدَفْعِ شُبُهَاتِهِمْ عَلَيْهِ وَهَذِهِ الْحُجَّةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى قَاعِدَةِ كَوْنِ التَّشْرِيعِ الْعَمَلِيِّ فِي التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ هُوَ حَقُّ اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ ،

وَقَاعِدَةِ كَوْنِ الْأَصْلِ فِي الْأَرْزَاقِ وَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَنْتَفِعُ بِهَا الْخَلْقُ الْإِبَاحَةَ ، وَقَاعِدَةِ كَوْنِ انْتِحَالِ الْعَبِيدِ حَقَّ التَّشْرِيعِ

الْخَاصِّ بِرَبِّهِمُ افْتِرَاءً عَلَيْهِ وَكُفْرًا بِهِ ، يَسْتَحِقُّ فَاعِلُوهُ أَشَدَّ عِقَابِهِ ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الشَّهَادَةَ عَلَى صِدْقِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي كَوْنِهِ مُبَلِّغًا لِهَذَا الْقُرْآنِ عَنْهُ تَعَالَى ، مُؤَكَّدًا لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْحُجَجِ عَلَى صِدْقِهِ ، وَعَلَى كَوْنِ الْقُرْآنِ كَلَامَ اللهِ الْمُعْجِزَ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ . قَالَ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

(269/364)

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ) أَيْ أَخْبِرُونِي أَيُّهَا الْجَاحِدُونَ لِلْوَحْيِ وَالتَّشْرِيعِ الْإِلَهِيِّ (مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ) أَيْ هَذَا الَّذِي أَفَاضَهُ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنْ سَمَاءِ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ مِنْ رِزْقٍ تَعِيشُونَ بِهِ مِنْ

نَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ ، وَكُلُّ عَطَاءٍ مِنْهُ تَعَالَى يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْإِنْزَالِ كَقَوْلِهِ : (وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) (39 : 6) وَقَوْلِهِ : (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) (57 : 25) - (فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا) أَيْ فَتَرَتَّبَ عَلَى إِنْزَالِهِ لِمَنْفَعَتِكُمْ أَنْ جَعَلْتُمْ بَعْضَهُ حَرَامًا وَبَعْضَهُ حَلَالًا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْصِيلُ هَذَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا) إِلَى قَوْلِهِ : (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا) (6 : 136 - 150) الْآيَاتِ وَفِي مَعْنَاهَا قَوْلُهُ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ : (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (5 : 103) أَيْ يَفْتَرُونَ عَلَيْهِ بِتَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ ، وَقَالَ هُنَا وَهُوَ الْمُرَادُ مِنَ الِاسْتِخْبَارِ : (قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ) هَذَا الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ وَمُدَّتْ هَمْزَتُهُ لِدُخُولِهَا عَلَى أَلِفِ اسْمِ الْجَلَالَةِ ، أَيْ أَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ حَقٌّ أَنْ يُحَرِّمَ عَلَى النَّاسِ وَيُحِلَّ لَهُمْ إِلَّا رَبُّهُمُ اللَّهُ ،

(270/364)

فَهَلِ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَذِنَ لَكُمْ بِذَلِكَ بِوَحْيٍ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ؟ (أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ) بِزَعْمِكُمْ أَنَّهُ حَرَّمَهَا عَلَيْكُمْ أَيْ لَا مَنْدُوحَةَ لَكُمْ عَنِ الْإِقْرَارِ بِأَحَدِ الْأَمْرَيْنِ : إِمَّا دَعْوَى الْإِذْنِ مِنَ اللَّهِ لَكُمْ

بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ وَهُوَ اعْتِرَافٌ بِالْوَحْيِ وَأَنْتُمْ تُنْكِرُونَهُ وَتَلِحُّونَ وَتَلَجُّونَ فِي الْإِنْكَارِ ، وَتَزْعُمُونَ أَنَّهُ مُحَالٌ عَلَيْهِ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ إلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، وَإِمَّا الِافْتِرَاءُ عَلَى اللَّهِ ؟ وَهُوَ الَّذِي يَلْزَمُكُمْ بِإِنْكَارِ الْأَوَّلِ ؛ إذْ لَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُمَا وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ وَ (أَمْ) مُتَّصِلَةً ،

فَيَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ تَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْغَايَةُ وَاحِدَةٌ وَأَصْلُ الْفَرْيِ قَطْعُ الْجِلْدِ لِمَصْلَحَةٍ وَالِافْتِرَاءُ تَكَلُّفُهُ وَغَلَبَ فِي تَعَمُّدِ الْكَذِبِ .

قَالَ الْكَرْخِيُّ فِي هَذَا الِاسْتِفْهَامِ : وَكَفَى بِهِ زَاجِرًا لِمَنْ أَفْتَى بِغَيْرِ إتْقَانٍ ، كَبَعْضِ فُقَهَاءِ هَذَا الزَّمَانِ ، وَقَالَ الْعِمَادُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ : وَقَدْ أَنْكَرَ اللَّهُ عَلَى مَنْ حَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ أَوْ أَحَلَّ مَا حَرَّمَ بِمُجَرَّدِ الْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ الَّتِي لَا مُسْتَنَدَ لَهَا ، وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهَا ا ه . وَنَحْنُ نَقُولُ : وَكَفَى بِهِ زَاجِرًا

(271/364)

لِمَنْ يُحَرِّمُونَ عَلَى النَّاسِ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللَّهُ تَعَالَى بِنَصٍّ كِتَابِهِ ، كَالتَّحْرِيمِ بِالرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ ، أَوْ بِدَلِيلٍ ظَنِّيٍّ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحَدِيثِ غَيْرِ قَطْعِيِّ الرِّوَايَةِ وَالدَّلَالَةِ ، وَهُوَ مُخَالِفٌ لِهَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا ، وَالْمَرْوِيُّ عَنِ السَّلَفِ أَنَّ التَّحْرِيمَ لَا يَكُونُ إلَّا بِنَصٍّ قَطْعِيٍّ ، وَهُوَ أَصْلُ مَذْهَبِ

الْحَنَفِيَّةِ وَالْكَرْخِيِّ مِنْهُمْ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ هَذَا مِرَارًا فِي هَذَا التَّفْسِيرِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْقَاضِي أَبِي يُوسُفَ : لَمْ يَكُونُوا يَقُولُونَ فِي شَيْءٍ إنَّهُ حَرَامٌ إلَّا مَا كَانَ بَيِّنًا فِي كِتَابِ اللَّهِ بِلَا تَفْسِيرٍ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ قَوَاعِدُ أَشَرْنَا إلَى ثَلَاثٍ مِنْهَا :

(الْقَاعِدَةُ الْأُولَى) أَنَّ الْأَصْلَ فِي كُلِّ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلنَّاسِ مِنَ الْأَرْزَاقِ نَبَاتِهَا وَحَيَوَانِهَا الْإِبَاحَةُ ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ بُطْلَانَ قَوْلِ مَنْ يُحَرِّمُونَ أَكْلَ اللُّحُومِ ، وَلَهُمْ عَلَى هَذَا شُبْهَتَانِ :

(272/364)

(الشُّبْهَةُ الْأُولَى) قَدِيمَةٌ وَهِيَ زَعْمُهُمْ أَنَّ أَكْلَ لَحْمِ الْحَيَوَانِ يَتَوَقَّفُ عَلَى تَذْكِيَتِهِ بِالذَّبْحِ وَغَيْرِهِ وَهُوَ تَعْذِيبٌ مُسْتَقْبَحٌ عَقْلًا ، وَجَوَابُهُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ جَهْلٌ ، فَإِنَّ التَّذْكِيَةَ الشَّرْعِيَّةَ لَيْسَتْ تَعْذِيبًا وَرُبَّمَا كَانَتْ أَهْوَنَ مِنْ مَوْتِهِ بِسَبَبٍ آخَرَ مِنْ أَسْبَابِ الْمَوْتِ كَافْتِرَاسِ سَبُعٍ أَوْ تَرَدٍّ مِنْ مَكَانٍ عَالٍ ، أَوِ انْخِنَاقٍ بَيْنَ شَجَرَتَيْنِ مَثَلًا ، أَوْ نِطَاحٍ ، أَوْ وَقْذِ رَاعٍ قَاسٍ أَوْ مُتَعَدٍّ آخَرَ .

وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ فِي آيَةِ الْمَائِدَةِ (5 : 3) أَكْلَ مَا مَاتَ بِسَبَبٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ كَالَّذِي يَمُوتُ حَتْفَ أَنْفِهِ وَنَهَى الشَّرْعُ عَنْ تَعْذِيبِ أَيِّ ذِي رُوحٍ وَحَثَّ عَلَى رَحْمَتِهِ كَمَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا فِي تَفْسِيرِ الرَّحْمَةِ ، وَقَالَ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ

شَفْرَتَهُ ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ شَدَّادِ بْنِ ثَابِتٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –

وَالذَّبْحُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ لَا يُؤْلِمُ

الْحَيَوَانَ إلَّا لَحْظَةً قَصِيرَةً ، وَالْحَيَوَانَاتُ لَا تَشْعُرُ بِالْأَلَمِ بِقَدْرِ مَا يَشْعُرُ بِهِ الْبَشَرُ كَمَا قَرَّرَهُ بَعْضُ عُلَمَاءِ هَذَا الشَّأْنِ .

(273/364)

(الشُّبْهَةُ الثَّانِيَةُ) حَادِثَةٌ وَهِيَ مَا يَزْعُمُهُ النَّبَاتِيُّونَ الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ الْأَغْذِيَةَ النَّبَاتِيَّةَ عَلَى الْحَيَوَانِيَّةِ مِنْ كَوْنِ أَكْلِ اللُّحُومِ ضَارًّا لِلنَّاسِ ، وَجَوَابُنَا عَنْهَا أَنَّهُمْ إنْ زَعَمُوا أَنَّ أَكْلَ اللَّحْمِ يَضُرُّ كُلَّ آكِلٍ مِنْهُمْ مُطْلَقًا فَهَذَا زَعْمٌ تُبْطِلُهُ التَّجَارِبُ وَيُنْكِرُهُ أَكْثَرُ أَطِبَّاءِ الْعَالَمِ ، وَإِنْ قَالُوا إنَّهُ يَضُرُّ بَعْضَهُمْ كَأَصْحَابِ أَمْرَاضِ التَّرَفِ وَضِعَافِ الْمَعِدَةِ (كَالرَّئِيَةِ وَالنِّقْرِسِ) فَهَذَا لَا يَقْتَضِي تَحْرِيمَهُ عَلَيْهِمْ كُلِّهِمْ بِالْإِطْلَاقِ ، وَحُكْمُ الشَّرْعِ فِي الْمَضَارِّ الْحَظْرُ ، وَمِنْهُ عَامٌّ وَخَاصٌّ .

(الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالثَّالِثَةُ) أَنَّ تَشْرِيعَ التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ الدِّينِيِّ هُوَ حَقُّ اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ وَأَنَّ جَعْلَهُ لِغَيْرِهِ شِرْكٌ بِهِ ، وَقَدْ بَسَطْنَا هَذَا فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ بِدَلَالَةِ الْآيَاتِ وَالسُّنَّةِ وَالْآثَارِ .

(الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ) أَنَّ مَا خَلَقَهُ اللهُ وَسَخَّرَهُ لَنَا مِنْ سَائِرِ مَنَافِعِ الْكَوْنِ فَالْأَصْلُ فِيهِ الْإِبَاحَةُ

كَالرِّزْقِ وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ بِالْفَحْوَى ، وَبِنَاءُ الْمِنَّةِ فِيهِ عَلَى كَوْنِهِ مِنْهُ تَعَالَى ، وَهُوَ صَرِيحُ قَوْلِهِ (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) (2 : 29) .

(274/364)

(وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) سَجَّلَ عَلَيْهِمْ جَرِيمَةَ افْتِرَاءِ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ وَهُوَ اخْتِلَاقُهُ ، وَقَفَّى عَلَيْهِ بِالْوَعِيدِ عَلَيْهِ مُشِيرًا إِلَى مَا يَكُونُ مِنْ سُوءِ حَالِهِمْ وَشِدَّةِ عِقَابِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَالْمَعْنَى أَيُّ شَيْءٍ ظَنُّهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي تُجْزَى فِيهِ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ أَيَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يُتْرَكُونَ بِغَيْرِ عِقَابٍ عَلَى جَرِيمَةِ افْتِرَاءِ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ وَهُوَ تَعَمُّدُهُ فِي حَقِّ خَاصِّ بِرُبُوبِيَّتِهِ ، فَهُوَ نِزَاعٌ لَهُ فِيهَا وَشِرْكٌ بِهِ ، كَمَا قَالَ : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ) (42 : 21) الْآيَةَ . فَوَيْلٌ لِلْمُعَمِّمِينَ مِنْ جُهَلَاءِ الْمُقَلِّدِينَ ، الَّذِينَ يُحَرِّمُونَ عَلَى النَّاسِ وَيُحِلُّونَ لَهُمْ بِتَقْلِيدِ بَعْضِ الْمُؤَلِّفِينَ ، أَوْ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى ، وَالرَّأْيِ فِي الدِّينِ ، وَهُمْ يَتْلُونَ قَوْلَهُ : (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ) إِلَى قَوْلِهِ : (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(16 : 116 ، 117) .

(275/364)

(إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ) هَذِهِ الْآيَةُ بَيَانٌ مُسْتَأْنَفٌ يَتَضَمَّنُ بِمَفْهُومِهِ تَعْلِيلًا لِمَا فُهِمَ مِمَّا قَبْلَهَا مِنْ عِقَابِ الْمُفْتَرِينَ عَلَى اللهِ بِكَوْنِهِ عَدْلًا اسْتَحَقُّوهُ بِظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ لَا ظُلْمًا مِنْهُ ، وَهُوَ إِثْبَاتُ فَضْلِهِ عَلَى النَّاسِ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ الْمُؤَكَّدَةِ أَشَدَّ التَّوْكِيدِ ، فَأَفَادَ أَنَّ صَاحِبَ هَذَا الْفَضْلِ الْعَظِيمِ عَلَيْهِمْ لِمُجَرَّدِ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكُونَ ظَالِمًا لَهُمْ إِذَا قَابَلُوا أَكْبَرَ فَضْلِهِ وَنِعَمِهِ ، بِأَشَدِّ الْكُفْرِ وَأَنْكَرِهِ ، وَهَذَا الْمَعْنَى الْمَفْهُومُ مِنَ الْآيَتَيْنِ مِنْ أَغْرَبِ إِيجَازِ الْقُرْآنِ الْمُعْجِزِ لِلْبَشَرِ . وَالْمَعْنَى : تَاللهِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ عَلَى النَّاسِ فِي كُلِّ مَا خَلَقَهُ لَهُمْ مِنَ الرِّزْقِ وَكُلِّ مَا شَرَعَهُ لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ، وَمِنْهُ أَنَّهُ جَعَلَ الْأَصْلَ فِيمَا أَنْزَلَهُ إِلَيْهِمْ مِنَ الرِّزْقِ الْإِبَاحَةَ وَجَعَلَ حَقَّ التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ لَهُ وَحْدَهُ عَزَّ وَجَلَّ ، لِكَيْلَا يَتَحَكَّمَ فِيهِمْ أَمْثَالُهُمْ مِنْ عِبَادِهِ ، كَالَّذِينَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّوْبَةِ – بَرَاءَةٌ – وَهُوَ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا هُوَ ضَارٌّ بِهِمْ ، وَلِهَذَا أَبَاحَ لَهُمْ مَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ إِذَا اضْطُرُّوا إِلَيْهِ وَكَانَ تَرْكُهُ أَضَرَّ مِنْ تَنَاوُلِهِ ، وَحَصَرَ أُصُولَ مُحَرَّمَاتِ الطَّعَامِ فِي قَوْلِهِ : (لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا

مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (6 : 145) وَفَصَّلَ أَنْوَاعَ الْمَيْتَةِ الْمُحَرَّمَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ (5 : 3) فَرَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَتَيْنِ (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) فَضْلَهُ عَلَيْهِمْ كَمَا يَجِبُ ، كَمَا قَالَ : (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) (34 : 13) فَيَجْنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِتَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ عَلَيْهِمْ وَبِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كُفْرِ نِعَمِهِ الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ كَالْغُلُوِّ فِي الزُّهْدِ ، وَتَرْكِ الزِّينَةِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، وَفِي ضِدِّ ذَلِكَ مِنَ الْإِسْرَافِ فِي الْأَكْلِ

وَالشُّرْبِ ، وَزِينَةِ اللِّبَاسِ ، ابْتِغَاءَ الشُّهْرَةِ وَالْخُيَلَاءِ وَالتَّكَبُّرِ عَلَى النَّاسِ ، وَشَرٌّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ تَحْرِيمُهُ تَعَبُّدًا وَالْإِسْلَامُ يَأْمُرُ بِالْوَسَطِ وَالِاعْتِدَالِ (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ) (65 : 7) الْآيَةَ

أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ طُرُقٍ عَنْ أَبِي الْحَوْصِ ، وَهُوَ عَوْفُ بْنُ مَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ

(277/364)

يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَنَا رَثُّ الْهَيْئَةِ فَقَالَ : (هَلْ لَكَ مَالٌ ؟) قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : (مِنْ أَيِّ الْمَالِ) ؟ قُلْتُ مِنْ كُلِّ الْمَالِ مِنَ الْإِبِلِ وَالرَّقِيقِ وَالْخَيْلِ وَالْغَنَمِ فَقَالَ : (إِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيَرَ عَلَيْكَ) الْحَدِيثَ وَفِي رِوَايَةِ أَصْحَابِ السُّنَنِ

الثَّلَاثَةِ عَنْهُ : (إذَا آتَاكَ اللهُ مَالًا فَلْيُرَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكَ وَكَرَامَتُهُ) وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي التَّارِيخِ وَالطَّبَرَانِيُّ وَالضِّيَاءُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي عَلْقَمَةَ مَرْفُوعًا : (إذَا آتَاكَ اللهُ مَالًا فَلْيُرَ عَلَيْكَ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَهُ عَلَى عَبْدِهِ حَسَنًا ، وَلَا يُحِبُّ الْبُؤْسَ وَلَا التَّبَاؤُسَ) وَالشُّكْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ بِحَسْبِ مُتَعَلَّقَاتِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَحْوَالِ ، وَهِيَ مَا يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ لِرَبِّهِ وَلِعِبَادِهِ مِنَ اسْتِعْمَالِ نِعَمِهِ عَلَيْهِ فِيمَا يُرْضِيهِ مِنْ أَحْكَامِ شَرْعِهِ ، وَمُوَافَقَةِ سُنَنِهِ وَحِكْمَتِهِ فِي خَلْقِهِ ، وَالنِّصْفُ الْآخَرُ الصَّبْرُ ، وَهُوَ مَا يَجِبُ فِي حَالِ وُقُوعِ الْمَكَارِهِ وَالِابْتِلَاءِ مِنْ عَمَلِ بَدَنِيٍّ وَنَفْسِيٍّ وَيُضَادُّ الشُّكْرَ الْكُفْرُ وَهُوَ قِسْمَانِ : كُفْرُ النِّعَمِ ، وَكُفْرُ الْمُنْعِمِ ، وَأَنْصَحُ لِلْقَارِئِ أَنْ يُطَالِعَ كِتَابَ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ فِي الْمُجَلَّدِ الرَّابِعِ مِنْ إحْيَاءِ الْعُلُومِ لِلْغَزَالِيِّ .

(278/364)

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

لَمَّا ذَكَّرَ تَعَالَى عِبَادَهُ بِفَضْلِهِ ، وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ شُكْرِهِ ، وَبِكَوْنِ أَكْثَرِهِمْ لَا يَشْكُرُونَهُ كَمَا

يَجِبُ عَلَيْهِمْ - عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ تَذْكِيرَهُ لَهُمْ بِإِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِشُؤُونِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ كُلِّهَا ، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا ، جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا ، وَبِكُلِّ مَا فِي الْعَوَالِمِ عُلْوِيِّهَا وَسُفْلِيِّهَا ، لِيُحَاسِبُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى تَقْصِيرِهِمْ فِي ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ ، وَبَدَأَ بِخِطَابِ أَعْظَمِهِمْ شَأْنًا فِي أَعْظَمِ شُؤُونِهِ فَقَالَ : وَمَا تَكُونُ أَيُّهَا الرَّسُولُ فِي شَأْنٍ أَيْ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ الْمُهِمَّةِ الْخَاصَّةِ بِكَ أَوِ الْعَامَّةِ

(279/364)

الَّتِي تُعَالِجُ بِهَا أَمْرَ الْأُمَّةِ) فِي الدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، إِنْذَارًا وَتَبْشِيرًا ، وَتَعْلِيمًا وَعَمَلًا : (وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ) أَيْ وَمَا تَتْلُو مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الشَّأْنِ مِنْ قُرْآنٍ أُنْزِلَ عَلَيْكَ ، تَعَبُّدًا بِهِ أَوْ تَبْلِيغًا لَهُ ، فَـ (مِنْ) الْأُولَى لِلتَّعْلِيلِ وَالثَّانِيَةُ لِلتَّبْعِيضِ ، أَوِ الضَّمِيرُ فِي (مِنْهُ) لِلْكِتَابِ لِأَنَّ السِّيَاقَ بَلِ السُّورَةَ كُلَّهَا فِيهِ ، وَإِضْمَارُهُ قَبْلَ الذِّكْرِ ثُمَّ بَيَانُهُ تَفْخِيمٌ لَهُ وَقِيلَ لِلَّهِ ، لِذِكْرِهِ فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا . وَالتَّعْبِيرُ فِي خِطَابِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالشَّأْنِ وَهُوَ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ أَوْ ذُو الْبَالِ ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ أُمُورِهِ وَأَعْمَالِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَتْ عَظِيمَةً حَتَّى الْعَادَاتِ مِنْهَا ، لِأَنَّهُ كَانَ قُدْوَةً صَالِحَةً فِيهَا كُلِّهَا (وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ) هَذَا خِطَابٌ عَامٌّ لِلْأُمَّةِ كُلِّهَا فِي كُلِّ شُؤُونِهَا وَأَعْمَالِهَا ، بَعْدَ خِطَابِ رَأْسِهَا وَسَيِّدِهَا فِي

أَخَصِّ شُئُونِهِ وَأَعْلَاهَا ، فَتُذَكِّرُكَ الْآيَةُ فِي أَخْصَرِ الْأَلْفَاظِ وَأَقْصَرِهَا بِأَفْضَلِ مَا أَتَاكَ اللَّهُ مِنْ هِدَايَةٍ وَنِعْمَةٍ ، وَتَنْتَقِلُ بِكَ إلَى كُلِّ عَمَلٍ تَعْمَلُهُ مِنْ شُكْرٍ وَكُفْرٍ وَإِنْ كَانَ كَمِثْقَالِ ذَرَّةٍ ، فَإِنَّ مَجِيءَ . (عَمَلٍ) نَكِرَةٌ مَنْفِيَّةٌ يُفِيدُ الْعُمُومَ ، وَدُخُولُ (مِنَ) التَّبْعِيضِيَّةِ عَلَيْهِ يُؤَكِّدُ هَذَا الْعُمُومَ ، فَيَشْمَلُ أَدَقَّ الْأَعْمَالِ وَأَحْقَرَهَا وَهُوَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

(280/364)

خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (99 : 7 ، 8) (إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا) أَيْ رُقَبَاءَ مُطَّلِعِينَ عَلَيْكُمْ إذْ تُفِيضُونَ فِيهِ أَيْ تَخُوضُونَ وَتَنْدَفِعُونَ فِيهِ ، فَنَحْفَظُهُ لِنَجْزِيَكُمْ بِهِ ، وَأَصْلُ الْإِفَاضَةِ فِي الشَّيْءِ أَوْ مِنَ الْمَكَانِ الِانْدِفَاعُ فِيهِ بِقُوَّةٍ أَوْ بِكَثْرَةٍ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ (2 : 198) (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ) أَيْ وَمَا يَبْعُدُ عَنْهُ وَلَا يَغِيبُ عَنْ عِلْمِهِ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ ، قَرَأَ الْجُمْهُورُ (يَعْزُبُ) بِضَمِّ الزَّايِ وَالْكِسَائِيُّ بِكَسْرِهَا وَهُمَا لُغَتَانِ فِيهَا – وَأَصْلُهُ مِنْ قَوْلِهِمْ : عَزَبَ الرَّجُلُ يَعْزُبُ بِإِبِلِهِ ، أَيْ يَبْعُدُ وَيَغِيبُ فِي طَلَبِ الْكَلَأِ الْعَازِبِ وَهُوَ مَا يَكُونُ بِفَلَاةٍ بَعِيدَةٍ حَيْثُ لَا زَرْعَ ، وَيُقَالُ : رَجُلٌ عَزَبٌ بِفَتْحَتَيْنِ أَيْ مُنْفَرِدٌ ، وَمِنْهُ : رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ عَزَبٌ أَيْ مُنْفَرِدٌ لَا زَوْجَ لَهُ أَوْ لَهَا وَيُقَالُ : أَمْرَأَةٌ عَزَبَةٌ وَاخْتُلِفَ فِي أَعْزَبَ وَعَزْبَاءَ . وَنَفْيُ عُزُوبِ الشَّيْءِ عَنِ الرَّبِّ تَعَالَى أَخَصُّ وَأَبْلَغُ مِنْ نَفْيِ الْغَيْبَةِ أَوِ الْخَفَاءِ عَنْهُ ، كَمَا أَنَّ

الْإِفَاضَةَ فِي الْعَمَلِ أَخَصُّ مِنْ إِتْيَانِهِ مُطْلَقًا ، وَحِكْمَةُ تَخْصِيصِهَا بِالذِّكْرِ دُونَ اللَّفْظِ الْأَعَمِّ مِنْهَا ، هِيَ أَنَّ مَا يَفِيضُ فِيهِ الْإِنْسَانُ مُهْتَمًّا بِهِ مُنْدَفِعًا فِيهِ جَدِيرٌ بِأَلَّا

(281/364)

يَنْسَى أَوْ يَغْفُلُ عَنْ مُرَاقَبَةِ رَبِّهِ فِيهِ وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِ ، فَاللَّفْظُ يُذَكِّرُهُ بِهِ تَذْكِيرًا مُنَبِّهًا مُؤَثِّرًا ، وَكَذَلِكَ لَفْظُ (يَعْزُبُ) الدَّالُّ عَلَى الْخَفَاءِ وَالْبُعْدِ مَعًا ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ إِنَّ مَا شَأْنُهُ أَنْ يَبْعُدَ وَيَخْفَى عَلَيْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ لَا يَغِيبُ عَنْ عِلْمِ رَبِّكُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ ، أَيْ أَقَلُّ شَيْءٍ يَبْلُغُ وَزْنُهُ ثِقَلَ ذَرَّةٍ وَهِيَ النَّمْلَةُ الصَّغِيرَةُ يُضْرَبُ بِهَا الْمَثَلُ فِي الصِّغَرِ وَالْخِفَّةِ ، وَيُطْلَقُ عَلَى الدَّقِيقَةِ مِنَ الْهَبَاءِ وَهُوَ الْغُبَارُ الَّذِي لَا يُرَى إِلَّا فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ الدَّاخِلِ مِنَ الْكُوَى إِلَى الْبُيُوتِ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ أَيْ فِي الْوُجُودِ سُفْلِيِّهِ وَعُلْوِيِّهِ ، وَقَدَّمَ ذِكْرَ الْأَرْضِ لِأَنَّ الْكَلَامَ مَعَ أَهْلِهَا وَأَخَّرَهُ فِي آيَةِ سَبَأٍ (34 : 3) وَقَدَّمَ السَّمَاءَ لِأَنَّهَا فِي سِيَاقِ ثَنَائِهِ تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ وَوَصْفِهِ بِإِحَاطَةِ عِلْمِهِ فَنَاسَبَ تَقْدِيمَ السَّمَاءِ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ ، فَإِنَّ فِيهَا مِنَ الشُّمُوسِ وَعَوَالِمِهَا مَا يَبْعُدُ بَعْضُهُ عَنْ بَعْضٍ مَسَافَةَ أُلُوفٍ

(282/364)

الْأُلُوفِ مِنَ السِّنِينَ الَّتِي تُقَدَّرُ أَبْعَادُهَا بِسُرْعَةِ النُّورِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي عِلْمِ هَذَا الْعَصْرِ (وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ) هَذَا كَلَامٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ قَائِمٌ بِرَأْسِهِ ، مُؤَكِّدٌ لِمَا قَبْلَهُ بِتَعْبِيرٍ أَدَقَّ وَأَشْمَلَ وَ (لَا) فِيهِ نَافِيَةٌ لِلْجِنْسِ عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ ، أَيْ وَلَا شَيْءَ أَصْغَرَ مِنَ الذَّرَّةِ وَهُوَ مَا لَا تُبْصِرُونَهُ مِنْ دَقَائِقِ الْكَوْنِ كَمَا قَالَ : (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) (69 : 38 و39) وَلَا أَكْبَرَ مِنْهَا وَإِنْ عَظُمَ مِقْدَارُهُ كَعَرْشِهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَيَعْقُوبُ بِـ (أَصْغَرُ) بِالرَّفْعِ عَلَى الِابْتِدَاءِ وَالْخَبَرِ ، وَلَا يَخْفَى تَوْجِيهُهُ فِي الْإِعْرَابِ عَلَى أَهْلِهِ . قَدَّمَ ذِكْرَ الْأَصْغَرِ لِأَنَّهُ هُوَ الْأَهَمُّ فِي سِيَاقِ الْعِلْمِ بِالْخَفِيِّ ، وَعَطَفَ عَلَيْهِ الْأَكْبَرَ لِإِفَادَةِ الْإِحَاطَةِ وَكَوْنِ الْأَكْبَرِ لَا يَكْبُرُ عَلَيْهِ كَمَا أَنَّ الْأَصْغَرَ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ (إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) أَيْ إِلَّا وَهُوَ مَعْلُومٌ وَمَحْصِيٌّ عِنْدَهُ وَمَرْقُومٌ فِي كِتَابٍ عَظِيمِ الشَّأْنِ تَامِّ الْبَيَانِ ، وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ مَقَادِيرُ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا إِكْمَالًا لِلنِّظَامِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا مَا وَرَدَ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْمُبِينِ فِي تَفْسِيرِ : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) (6 : 59) الْآيَةَ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ فَرَاجِعْهُ فِي (ص 381 وَمَا بَعْدَهَا ج 7 ط الْهَيْئَةِ) مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ . وَفِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى مَا فِي الْوُجُودِ مِنْ أَشْيَاءَ لَا تُدْرِكُهَا الْأَبْصَارُ ، وَقَدْ رُؤِيَ كَثِيرٌ مِنْهَا فِي

هَذَا الْعَصْرِ بِالْآلَاتِ الَّتِي تُكَبِّرُ الْمَرْئِيَّاتِ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا مِمَّا يَخْطُرُ فِي الْبَالِ فِي عَصْرِ التَّنْزِيلِ فَهُوَ مِنْ دَقَائِقِ تَعْبِيرِ الْقُرْآنِ ، الَّتِي تَظْهَرُ حِكْمَتُهَا لِلنَّاسِ آنًا بَعْدَ آنٍ ، وَتَقَدَّمَ التَّذْكِيرُ بِمَا لَهَا مِنَ الْأَمْثَالِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَنْوَاعِ الْإِعْجَازِ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 328 . 340 ﴾

(284/364)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾

معطوفة على جملة ﴿ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴾ [يونس : 60] عطفَ غرض على غرض ، لأن فصل الغرض الأول بالتذييل دليل على أن الكلام قد نقل إلى غرض آخر ، وذلك الوعدُ بالثواب للرسول على ما هو قائم به من تبليغ أمر الله وتدبير شؤون المسلمين وتأييد دين الإسلام ، وبالثواب للمسلمين على اتباعهم الرسول فيما دعاهم إليه .

وجاء هذا الوعد بطريقة التعريض بحصول رضى الله تعالى عنهم في قوله : ﴿ إلا كنا

عليكم شهوداً ﴾ لأنهم يعلمون أن عملهم وعمل النبي ما كان إلا في مرضاة الله ، فهو كقوله تعالى : ﴿ الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين ﴾ .

ويتضمن ذلك تنويهاً بالنبي صلى الله عليه وسلم في جليل أعماله وتسلية على ما يُلاقيه من المشركين من تكذيب وأذى ، لأن اطلاع الله على ذلك وعلمه بأنه في مرضاته كاف في التسلية ، كقوله : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ [الطور : 48] ، ولذلك توجه الخطاب ابتداء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم توجه إليه وإلى من معه من المسلمين .

و﴿ ما ﴾ الأولى و ﴿ ما ﴾ الثانية نافيتان .

والشأن : العمل المهم والحال المهم .

و(في) للظرفية المجازية التي بمعنى شدة التلبس .

وضمير (منه) إما عائد إلى (شأن) ، أي وما تتلو من الشَّأن قرآناً فتكون (مِن) مبينة ل (ما) الموصولة أو تكون بمعنى لام التعليل ، أي تتلو من أجل الشأن قرآناً .

وعَطْف ﴿ وما تتلو ﴾ من عطف الخاص على العام للاهتمام به ، فإن التلاوة أهم شؤون الرسول عليه الصلاة والسلام .

وإما عائد إلى ﴿ قرآن ﴾ ، أي وما تتلو من القرآن قرآناً ، فتكون ﴿ منه ﴾ للتبعيض ، والضمير عائد إلى مؤخر لتحصيل التشويق إليه حتى يتمكن في نفس السامع .

وواو (تتلو) لام الكلمة ، والفعل محتمل لضمير مفرد لخطاب النبي صلى الله عليه وسلم

فيكون الكلام قد ابتدىء بشؤون النبي صلى الله عليه وسلم التي منها ما هو من خواصّه كقيام الليل ، وثُنِّي بما هو من شؤونه بالنسبة إلى الناس وهو تلاوة القرآن على الناس ، وثُلِّث بما هو من شؤون الأمة في قوله : ﴿ ولا تعمَلون من عمل ﴾ فإنه وإن كان الخطاب فيه شاملاً للنبيء صلى الله عليه وسلم إلا أن تقديم ذكر شأن في أول الآية يخصص عموم الخطاب في قوله : ﴿ تَعملون ﴾ فلا يبقى مراداً منه إلا ما يعمله بقية المسلمين .

ووقع النفي مرتين بحرف (ما) ومرة أخرى بحرف (لا) لأن حرف (ما) أصله أن يخلص المضارع للحال ، فقصد أولاً استحضار الحال العظيم من شأن النبي صلى الله عليه وسلم ومن قراءته القرآن ، ولما نفي عمل الأمة جيء بالحرف الذي الأصل فيه تخليصه المضارع للاستقبال للتثنية من أول الكلام على استمرار ذلك في الأزمنة كلها .

ويعلم من قرينة العموم في الأفعال الثلاثة بواسطة النكرات الثلاث المتعلقة بتلك الأفعال والواقعة في سياق النفي أن ما يحصل في الحال وما يحصل في المستقبل من تلك الأفعال سواءٌ ، وهذا من بديع الإيجاز والإعجاز .

وكذلك الجمع بين صيغ المضارع في الأفعال المعممة ﴿ تكونُ وتتلو وتعملون ﴾ وبين صيغة

الماضي في الفعل الواقع في موضع الحال منها ﴿ إلاَّ كنا ﴾ للتنبيه على أن ما حصل ويحصل وسيحصل سواء في علم الله تعالى على طريقة الاحتباس كأنه قيل : وما كنتم وتكون وهكذا ، إلاَّ كنا ونكون عليكم شهودا .

و ﴿ من عمل ﴾ مفعول ﴿ تعملون ﴾ فهو مصدر بمعنى المفعول وأدخلت عليه (من) للتنصيص على التعميم ليشمل العمل الجليل والحقير والخير والشر .

والاستثناء في قوله : ﴿ إلاَّ كنا عليكم شهوداً ﴾ استثناء من عموم الأحوال التي اقتضاها عموم الشأن وعموم التلاوة وعموم العَمل ، أي إلا في حالة علمْنا بذلك ، فجملة ﴿ كنا عليكم ﴾ في موضع الحال .

ووجود حرف الاستثناء أغنى عن اتصال جملة الحال بحرف (قد) لأن الربط ظاهر بالاستثناء .

(286/364)

والشهود : جمع شاهد .

وأخبر بصيغة الجمع عن الواحد وهو الله تعالى تبعاً لضمير الجمع المستعمل للتعظيم ، ومثله قوله تعالى : ﴿ إنا كنا فاعلين ﴾ [الأنبياء : 104] .

ونظيره في ضمير جماعة المخاطبين في خطاب الواحد في قول جعفر بن عُلبة الحارِثي :

فلا تحسبي أني تخشعت بعدكم

لشيء ولا أني من الموت أفرق . . .

وذلك استعارة بتشبيه الواحد بالجماعة في القوة لأن الجماعة لا تخلو من مزايا كثيرة موزعة في أفرادها .

والشاهد : الحاضر ، وأطلق على العالم بطريقة المجاز المرسل ولذلك عدي بحرف (على)

.

و﴿ إذْ ﴾ ظرف ، أي حين تفيضون .

والإفاضة في العمل : الاندفاع فيه ، أي الشروع في العمل بقوة واهتمام ، وهذه المادة مؤذنة بأن المراد أعمالهم في مرضاة الله ومصابرتهم على أذى المشركين .

وخصت هذه الحالة وهذا الزمان بالذكر بعد تعميم الأعمال اهتماماً بهذا النوع فهو كذكر الخاص بعد العام ، كأنه قيل : ولا تعملون من عملٍ مَّا وعملٍ عظيمٍ تفيضون فيه إلا كنا عليكم شهوداً حين تعملونه وحين تفيضون فيه .

وجملة : ﴿ وما يعزب عن ربك ﴾ الخ عطف على جملة : ﴿ وما تكون في شأن ﴾ ، وهي بمنزلة التذييل لما فيها من زيادة التعميم في تعلق علم الله تعالى بجميع الموجودات بعد الكلام على تعلقه بعمل النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

والعزوب : البعد ، وهو مجاز هنا للخفاء وفواتِ العلم ، لأن الخفاء لازم للشيء البعيد ، ولذلك علق باسم الذات دون صفة العلم فقال : ﴿ عن ربك ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ يعزب ﴾ بضم الزاي ، وقرأه الكسائي بكسر الزاي وهما وجهان في مضارع (عزب) .

و(من) في قوله : ﴿ من مثقال ذرة ﴾ مزيدة لتأكيد عموم النفي الذي في ﴿ ما يعزب ﴾ .

والمِثقال : اسم آلة لما يعرف به مقدار ثِقَل الشيء فهو وزن مِفعال من ثَقُل ، وهو اسم لصنج مقدر بقدر معين يوزن به الثقل .

(287/364)

والذرة : النملة الصغيرة ، ويطلق على الهباءة التي ترى في ضوء الشمس كغبارٍ دقيق جداً ، والظاهر أن المراد في الآية الأولُ .

وذُكرت الذرة مبالغة في الصغر والدقة للكناية بذلك عن إحاطة العلم بكل شيء فإن مَا هو أعظم من الذرة يكون أولى بالحكم .

والمراد بالأرض والسماء هنا العالم السفلي والعالم العلوي .

والمقصود تعميم الجهات والأبعاد بأخصر عبارة .

وتقديم الأرض هنا لأن ما فيها أعلق بالغرض الذي فيه الكلام وهو أعمال الناس فإنهم من أهل الأرض بخلاف ما في سورة [سبأ : 3] ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ﴾ فإنه لما كان المقام لذكر علم الغيب والغيب ما غاب عن الناس ومعظمه في السماء لاءم ذلك أن قدمت السماء على الأرض .

وعطف ﴿ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴾ على ﴿ ذرة ﴾ تصريحاً بما كني عنه بمثقال ذرة من جميع الأجرام .

و ﴿ أصغر ﴾ بالفتح في قراءة الجمهور ممنوعاً من الصرف لأنه معطوف على ﴿ ذرة ﴾ المجرور على أنَّ ﴿ لا ﴾ مقحمة لتأكيد النفي .

وجوز أن يكون العطف عطف جملة وتكون ﴿ لا ﴾ نافية للجنس ﴿ وأصغر ﴾ اسمها مبنياً على الفتح فيكون ابتداء كلام .

وقرأ حمزة وخلف ويعقوب ﴿ ولا أصغرُ ولا أكبرُ ﴾ برفعهما باعتبار عطف ﴿ أصغر ﴾ على محل ﴿ مثقال ﴾ لأنه فاعل ﴿ يعزب ﴾ في المعنى ، وكسرته كسرة جر الحرف الزائد وهو وجه من فصيح الاستعمال ، أو باعتبار عطف الجملة على الجملة وتكون ﴿ لا ﴾ نافية عاملة عمل ليس و ﴿ أصغر ﴾ اسمها .

والاستثناء على الوجهين الأوّلين من قراءتي نصب ﴿ أصغرَ ﴾ ورفعه استثناء منقطع

بمعنى (لكن) ، أي لا يعزب ذلك ولكنه حاضر في كتاب ، وجوز أن يكون استثناء متصلاً من عموم أحوال عزوب مثقال الذرة وأصغرَ منها وأكبر .

وتأويله أن يكون من تأكيد الشيء بما يشبه ضده .

(288/364)

والمعنى لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء إلا في حال كونه في كتاب مُبين ، أي إلا معلوماً مكتوباً ويعلم السامع أن المكتوب في كتاب مبين لا يمكن أن يعزب ، فيكون انتفاء عزوبه حاصلاً بطريق برهاني .

والمجرور على هذا كله في محل الحال ، وعلى الوجهين الأخيرين من القراءتين يكون الاستثناء متصلاً والمجرور ظرفاً مستقلاً في محل خبر (لا) النافية فهو في محل رفع أو في محل نصب ، أي لا يوجد أصغر من الذرة ولا أكبر إلا في كتاب مبين كقوله تعالى : ﴿ ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ [الأنعام : 59] .

والكتاب : علم الله ، استعير له الكتاب لأنه ثابت لا يخالف الحق بزيادة ولا نقصان .

ومبين : اسم فاعل من أبان بمعنى بان ، أي واضح بيّن لا احتمال فيه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾

والخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي : ما تكون يا محمد في شأن . والشأن : هو الحال العظيم المتيمز الذي يطرأ على الأمر .

ونحن في حياتنا اليومية نقول : ما شأنك اليوم أو ما حالك ؟ وهنا يجيب السامع بالشيء الهام الذي حدث له أو فعله ، ويتناسى التافة من الأمور .

ولذلك يصف الله تعالى نفسه فيقول :

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : 29] .

أي : لا تظنوا أن ربنا سبحانه وتعالى خلق النواميس والقوانين ، وقال لها : اعملي أنتِ ، لا فهو سبحانه كل يوم في شأن .

ولذلك حين سئل أحد العلماء : ما شأن ربك الآن ؛ وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ ؟ فقال : " أمور يبديها ولا يبتديها " .

أي : أنه سبحانه قد رسم كل شيء ، وجعل له زماناً ليظهر ، فهو سبحانه قيُّوم ، أي : مُبَالغ في القيام على مصالحكم ؛ ولذلك يطمئننا سبحانه وقد جعل الليل لنومنا وراحتنا بأنه سبحانه قيوم لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ، وهو يراعينا .

فالحديث في الآية التي نحن بصددها موجَّه لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ [يونس : 61] .

وشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يهتم به ليس المأكل ولا المشرب ، إنما المهم بالنسبة له هو بلاغ الرسالة بالمنهج ب " افعل و " لا تفعل " .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْآنٍ ﴾ [يونس : 61] .

و " منه " هنا بمعنى اللام ، أي : ما تتلوه ، وتعني تأبيداً لآيات القرآن .

وهناك في موضع آخر من القرآن يقول الحق سبحانه :

﴿ مِّمَّا خطيائاتهم أُغْرِقُواْ ﴾ [نوح : 25]

أي : أغرقوا لأجْل خطيئاتهم .

(290/364)

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نفهم ما تكون في شأن وما تتلو لأجل هذا الشأن من قرآن ، فالنبي صلى الله عليه وسلم في شأن هام هو الرسالة ، ويتلو من القرآن تأييداً لهذا الشأن وهو البلاغ بالمنهج .

ويدخل في هذا الشأن ما فوّض رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه حسب قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] .

ومثال ذلك : تحديد كيفية الصلاة وعدد ركعات كل صلاة ، وكذلك نِصَاب الزكاة ، وهذه أمور لم يأت بها القرآن تفصيلاً ، ولكن جاءت بها الأحاديث النبوية .

إذن : فهناك تفويض من الحق للرسول صلى الله عليه وسلم ليكتمل البلاغ بمنهج الله ، بنصوص القرآن ، وبتفويض الله تعالى له أن يشرِّع .

إذن : فكل شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إما بلاغ عن الله بالنص القرآني ، وإما تطبيق فعليّ للنص القرآني بالحديث النبوي ، وبالأسوة التي تركها لنا صلى الله عليه وسلم في سُنَّته .

والحُجَّة على الحُكم أي حُكم يأتي بها القرآن ، فإن كانت الأحكام غير صادرة من الله مباشرة ، فيكفي فيها أنها صدرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتفويض من الله تعالى ليشرِّع .

وبذلك نردُّ على المنافقين الذين إذا حُدِّثوا بشيء من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : قالوا : " بيننا وبينكم كتاب الله " وهدفهم أن يردُّوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فِعْلاً ، أو قولاً أو إقراراً .

ثم ينقل الحق سبحانه الخطاب من المفرد إلى الجماعة فيقول جَلَّ شأنه :

﴿ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً ﴾ [يونس : 61] .

وفي هذا انتقال للسامعين للقرآن ، والمبلَّغ إليهم هذا المنهج ، فكل عمل إنما يشهده الحق سبحانه .

(291/364)

والعمل هو مجموع الأحداث التي تصدر عن الإنسان ، فكل حدث يصدر من الإنسان ولو بِنيَّة القلب يسمَّى عملاً ؛ لأن عمل القلوب هو النية . ولكن إذا صدر الحدث من اللسان كان قولاً ، وإذا صدر الحدث من بقية الجوارح كان فعلاً .

وهكذا ينقسم العمل إلى قسيمن : قول ، وفعل .

وقد اختُصَّ حدث اللسان باسم القول ؛ لأن أصل مستندات التكليف كلهم قولية .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي : تسرعون إلى العمل بنشاط وحيوية

وإقبال مما يدل على حسن الاستجابة للمنهج فور أن يبلَّغه الرسول صلى الله عليه وسلم .

والإقبال على العمل التكليفي بهذا الشوق ، وتلك اللهفة ، وحسن الاستقبال ، وإخلاص الأداء ، كل هذه المعاني يؤول إليها قول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ كما يفيض ماء الإناء إذا امتلأ لينزل . أي : أن تقبلوا على أعمال التكليف بسرعة وانصباب وانسكاب .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ ﴾ [البقرة : 198] .

أي : شَرَعْتُم في الذهاب مسرعين ؛ لأنكم أدَّيتم نُسُكاً أخذتم منه طاقة ، وتقبلون بها على نُسُك ثانٍ .

إذن : فالحق سبحانه يشهد كل عمل منكم ، لكن ماذا عن النيَّات وما يُبيَّت فيها من خواطر .

ها هو الحق سبحانه يخبرنا أن كل شيء مهما صغر واختفى فهو معلوم ومحسوب .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السمآء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : 61] .

أي : كل أمورك ، وأمور الخلق ، والمخلوقات كلها معلومة لله تعالى ، ومكتوبة في كتاب مبين واضح ، فلا أحد بقادر على أن يختلس حركة قلب ، أو يختلس حركة ضمير ، وكملة "

يعزب " تعني : يغيب ويختفي .

والحق سبحانه يخبرنا أنه لا يضيع عنده جزاء أي عمل أو نية مهما بلغ العمل أو النية أدنى درجة من القِلَّة .

(292/364)

ولم يوجد عند العرب ما يضرب به المثل على الوزن القليل إلا الذَّرَّة ، وهي النملة الدقيقة الصغيرة جِدّاً ، ثم أطلقت الذرة على الهَبَاء الشائع في الجو ، ويمكنك أن ترى هذا الهَبَاء إن جلست في حجرة مظلمة مغلقة ، ثم دخلها شعاع من ضوء ، هنا ترى هذا الضوء وهو يمر من الثقب وكأنه سهم ، وترى مكوِّنات هذا السهم من ذرات الهباء المتحركة الموجودة في الجو ، تلك الذرات التي لا تراها وأنت في الضوء فقط أو في الظلام فقط ، ولكن التناقض بين الضوء والظلام يُبرزها .

وأنت لا تدرك الشيء ولا تحسه لأمرين : إما لتناهيه في الصغر ، وإما لتناهيه في الكبر ؛ فلا تحيط به ، وحين تقدم العلم التطبيقي اخترعوا المَجَاهر التي تُكبِّر الشيء المتناهي في الصغر آلاف ، أو ملايين المرات .

وأنت لو وضعت جلدك تحت عدسة المجهر فسترى فجوات وكأنها آبار لم تكن تراها أو

تحسها من قبل ؛ لأنها بلغت من الدقة والصِّغر بحيث لا تستطيع عيناك أن تدركها ، فإن رأيتها بالمجهر كَبُرَت فترى فجوات وتعاريج وعُلُوّاً وانخفاظاً مهما كان الجلد الذي تراه تحت المجهر ناعماً .

وكذلك أنت لا تقدر على إدراك الشيء الضخم ، وقد تفصل بينك وبين الشيء الكبير مسافة ؛ فتراه أصغر من حجمه ، وكلما ابتعد صَغُرَ ، فأنت إذا رأيت مثلاً رجلاً طويلاً على مسافة كبيرة ، فأنت تراه وكأنه طفل صغير ، وكلما اقترب منه زاد طوله في عينيك .

إذن : لا الضخامة ولا البُعد ولا القِلَّة تمنع من علم الحق سبحانه لأي شيء .

وقد خاطب الحق سبحانه العرب بأصغر ما عرفوه ، وهو الذرة ، أي : النملة الصغيرة .

وأنت إذا وطأتَ نملة في أرض رملية فهي لا تموت ، بل تدخل في فجوات الرمل ، وتجد لنفسها طريقاً إلى سطح الأرض مرة أخرى .

قد بيَّن الحق سبحانه هذه المسألة حين تحدَّث عن سليمان عليه السلام في وادي النمل ، فقال تعالى :

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : 18] .

لأنهم لا يرونهم ؛ لحجمهم المتناهي في الصغر .

وهكذا يعطينا الحق سبحانه بياناً عن كل أمة في الحياة ، وأن من بينهم جنوداً يحرسون بيقظة ، فالنملة قامت بإنذار قومها من سليمان وجنوده ، لأنهم لن يروا النمل الصغير .

إذن : الذَّرُّ إما أن يكون النمل الصغير ، وإما أن يكون الذرَّات الهبائية .

وأراد الله سبحانه أن يضرب لنا مثلاً بإحاطة علمه في أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة .

ويعزب ، أي : يغيب ، ويقال : " هذا البئر ماؤه عازب " ، أي قادم من عمق بعيد ، ويحتاج استخراجه إلى دَلْوٍ وحبال طويلة .

ونسمِّي الرجل الذي يبعد عن أهله " عَزَب " .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ ﴾ . أي : لا يبعد ولا يغيب عنه أصغر شيء ولا أكبر شيء .

يقول سبحانه ذلك ؛ ليطمئننا أن كل خاطرة من خواطر الإنسان إنما يشهدها الله ، ويَعْلَمُها ، وهو المُجَازِي عليها .

وإن استطاع إنسان أن يُعمِّي على قضاء الأرض ، فلن يستطيع أن يُعمِّي على قضاء السماء .

ومسألة الذرَّة والصغر يقول عنها الحق سبحانه :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 78] .

هذا للمتساوِي في الثقل والوزن ، أما إن كان أصغر من الذرة ، فقد ذكره الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها فقال :

﴿ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ ﴾ [يونس : 61] .

وعلى زمن نزول القرآن الكريم لم يكن أحد يعرف أن هناك ما هو أصغر من الذرة ، وكنا جميعاً حتى ما قبل الحرب العالمية الأولى لا نعلم أن هناك شيئاً أصغر من الذرة ، وكان العلماء يعتقدون أن الذرة هي الجزء الذي لا يتجزَّا ؛ لأنها أصغر ما يقع عليه البصر ، فضرب الله مثلاً بالأقل في زمن نزول القرآن .

(294/364)

ولما تقدم العلم بعد الحرب العالمية الأولى واخترعت ألمانيا آلةً لتحطيم الذرة قيل عنها : إنها آلة تحطيم الجوهر الفرد . أي : الشيء الذي لا ينقسم ، وهذه الآلة مكونة من اسطوانتين مثل اسطوانتي عَصَّارة القصب ، والمسافة بين الاسطوانتين لا تكاد تُرَى ، وحين حَطَّمت ألمانيا ما قيل عنه " الجوهر الفرد " تحول إلى ما هو أقل منه ، وتفتَّتت الذرّة .

وقد جعل الحق سبحانه المقياس في الصغر هو الذرة .

وحين اخترعت ألمانيا تلك الآلة توجَسّ المتصلون بالدين وخالوا أن يقال : إن الحق سبحانه لم يذكر ما هو أقل من الذرة ، ولكنهم التفتوا إلى الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، فقرأوا قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السمآء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : 61] .

و﴿ وَمَا يَعْزُبُ ﴾ أي : لا يبعد أو يغيب ﴿ عَن رَّبِّكَ ﴾ أي : عن عِلْمه ﴿ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ . أي : وزن ذَرَّة .

وقديماً قلنا : إن البعض يقول : إن " من " قد تكون حرفاً زائداً في اللغة ، كقولنا : " ما جاءني مِنْ رجل " وتعرب كلمة " من " : حرف جر زائد ، و " رجل " : فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة التي منع من ظهورها اشتغال المحلِّ وهو " اللام " بحركة حرف الجر الزائد .

ولكن في كلام الله لا يوجد حرف زائد ، ف " مِنْ " في قوله : ﴿ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ . أي : من بداية ما يقال له " مثقال " .

ويقول الحق سبحانه في آية أخرى .

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَأْتِينَا الساعة قُلْ بلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الغيب لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السماوات وَلاَ فِي الأَرض ﴾ [سبأ : 3] .

وكلمة ﴿ وَرَبِّي ﴾ مُقْسَمٌ به ، وحرف " الواو " هو حرف الجر ، ولم يأت هنا بالشهادة ، وجاء بالغيب ، ولم يأت بعلم الغيب في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها .

وعالم الشهادة ، تعني : أنه عَالِمٌ بكل ما يشهد ، ويظن البشر أنها غير مُحَاطٍ بها لعظمتها ؛ أو لأن الله غيب فلا يرى إلا الغيب ، لكن الحق سبحانه يرى ويعلم الغيب والشهادة .

لقد قال الحق كلمة " مقال ذرة " ثلاث مرات :

مرة حين قال سبحانه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [الزلزلة : 7] .

ومرة حين قال هنا :

﴿ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السمآء ﴾ [يونس : 61] .

وجاء ب " من " هنا ليبين أنه لا يغيب عن الله تعالى من بداية ما يقال له " مثقال " .

وقال الحق سبحانه في موضع آخر :

﴿ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السماوات وَلاَ فِي الأَرْضِ ﴾ [سبأ : 3] .

وجاء بالسموات أولاً ، وجاء في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بالأرض أولاً ، وهو في الآيتين يتكلم عن علمه للغيب ، فيأتي بمثقال الذرة ويقدِّم السماء ويأتي بها مفردة ، ثم يأتي

بما هو أقل من الذرة ويقدّم الأرض .

وهذا كله من إعجاز أساليب القرآن التي أراد البعض من المستشرقين أن يعترضوا عليها ، وكانت جميع اعتراضاتهم نتيجة لعجزهم عن امتلاك مَلَكة الأداء البياني .

وإنْ عرضنا الرد على تساؤلاتهم نجد أن الحق سبحانه قَدَّم الأرض في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ لأنه سبحانه يتكلم عن أهل الأرض :

﴿ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس : 61] .

وجاء أيضاً بالسماء ، وهي السماء الدنيا التي يراها أهل الأرض .

أما الآية الأخرى فهو سبحانه يقول :

(296/364)

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَأْتِينَا الساعة قُلْ بلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الغيب لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض ﴾ [سبأ : 3] .

والكلام هنا عن الساعة ، وعلمها عند الله تعالى ، ولم تنزل من السموات إلى السماء الدنيا حتى نقول للمكلَّفين في الأرض : قوموا ها هي الساعة .

ولذلك جاء الحديث هنا عن السموات أولاً ؛ لأن علم الساعة عند ربِّي ، ولن ينزل إلا

بمشيئته سبحانه .

وهكذا جاء كل أسلوب لا بإجمال المعنى ، ولكن بدقة جزئياته ، فتكلم في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، وآية سبأ عن العلم والذرَّة ، والسماء والأرض ، وكل آية جاءت الكلمات فيها بتقديم أو تأخير يناسب مجالها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : 61] .

ولنا أن نلتفت إلى أن الاستثناء هنا لا يُخْرِج ما قبله ، بل كل شيْ مكتوب في الكتاب المبين ، ونحن في الدنيا نجد الإنسان إن كان له دَين عند آخر فهو يحتفظ بالوثائق المكتوبة التي تُسجِّل ما له وما عليه . ولكن ، أيحتفظ الحق سبحانه بأعمالنا ونيَّاتنا مكتوبة كحجة له ، أم حجة لنا ؟

إنه سبحانه يعلم أزلاً كل أعمالنا ، ولكنه يُسجِّل لنا بالواقع تلك الأعمال والنيات ؛ لنعلم عن أنفسنا ماذا فعلنا ؛ لتنقطع حجة من أساء إذا وقع به العقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(297/364)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فى الأرض زلا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين " وفى سورة سبأ : "عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين " وقال فيما بعد : "قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير " للسائل أن يسأل عن تقديم الأرض على السماء فى سورة يونس وعكس ذلك فى الموضعين من سورة سبأ ؟

والجواب عن ذلك والله أعلم : أن آية يونس مقصود فيها من تأكيد الاستيفاء والاستغراق مالم يقصد فى الأخريين وإن كان العموم مراد فى الجميع إلا أن آية يونس قضت بزيادة التأكيد ولذلك تكررت فيها مع ما قبلها ما النافية المتلقى بها القسم فى قوله : "وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا ليكم شهودا " فقوى بذلك قصد تأكيد الاستغراق وتضمين الكلام معنى القسم فقال تعالى : "وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة " بزيادة من فى الفاعل وهى مقتضية معنى الاستغراق فى مثل هذا وبناؤها على ما المتلقى بها القسم بفهم ما قلناه من معنى القسم وتأكيد الاستغراق بل أقول إن "من " فى مثل هذا نص فى ذلك .

قال سيبويه رحمه الله : "إذا قلت ما أتانى رجل فإنه يحتمل ثلاثة معان أحدها أن تريد أنه ما أتاك رجل واحد بل أتاك أكثر من واحد والثانى ما أتاك لاجل فى قوته ونفاذه بل أتاك الضعفاء والثالث أن تريد ما أتاك رجل واحد ولا أكثر من ذلك فإن قلت ما أتانى من رجل كان نفيا لذلك كله " هذا معنى كلامه والحاصل منه أن "من " فى سيلق النفى تعم وتستغرق .

(298/364)

ثم إنه قد تقدم قبل هذه الآية قوله تعالى : " وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه " فدخول "من " فى المفعول فى الموضعين من قوله : " وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل " فزيدت فى المفعول وهو اسم نكرة وارد فى سياق النفى وذلك محصل للاستغراق ثم حمل عليه قوله تعالى : " وما يعزب عن ربك مثقال ذرة . . . " الآية فناسب هذا تقديم ذكر الأرض على السماء لأن السماء مصعد الأمر ومحل العلو ومسكن الملائكة وهى مشاهدة لهم ومستقبل الداعين منها ينزل الأمر ورزق العباد وفيها الخزنة من الملائكة واليها يصعد بأرواح المؤمنين ويعرج الملائكة السياحون فى الأرض المسؤولون عن أفعال العباد فكان العلم بما فيها أجلى وأظهر

وكان العلم بما فى الأرض أخفى وهذا بالنظر الينا وبحسب متعارف أحوالنا وإلا فعلم بارينا سبحانه بما فى الأرض وما فى السماء على حد سواء كما أن علمه بالسر والجهر مستو : "سواء منكم من أسر القول ومن جهر به " ولكنا إنما خوطبنا على أحوالنا وبما نتعاهده ونتعارفه من المعانى والصفات ولذلك ورد فى القرآن التعجب والدعاء والترجى وغير ذلك فخوطب العباد بما يتعارفون ويألفون فيما بينهم .

فهذا بيان ما تقدم .

فلما كانت الأرض بالنسبة إلى اسمها فيما ذكرنا كان أمرها أخفى وكان أمر السماء أوضح وأقرب من حيث ذكرنا خوطب الخلق على ذلك فقدم ذكر ما هو عندنا كافة أخفى فقيل عند قصد المبالغة فى تأكيد الاستغراق والقسم على ذلك : "وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء " ونظير هذا الوارد هنا قوله تعالى : " ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شئ فى الأرض ولا فى السماء " وهذه الآية فى الذى تعطيه من إفهام القسم والاستغراق والابتداء بما هو عندنا أخفى كآية يونس من غير فرق وعلمه سبحانه بما خفى عندنا أو ظهر سواء تعالى ربنا عن شبه الخليقة .

(299/364)

فإن قيل فإن قوله سبحانه : "وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين " قد اجتمع فيه زيادة من الاستغراقية بعد ما النافية المشيرة إلى معنى القسم كما فى الآيتين وقد تقدم فيه ذكر السماء بخلاف ما فى الآيتين ؟ قلت لما تقدم هذا قوله تعالى : " وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون " وقد تقدم فى سبأ إحراز التسوية من غير فرق فقدم ذكر السماء وإنما كانت تكون كالآيتين لو لم يتقدمها ما ذكر وإذ قد نبين وجه تقديم الأرض فى آية يونس فنقول ان الآيتين من سورة سبأ لما لم يتقدم فيهما ما تقدم فى آية يونس مما يحرز تأكيد العموم والاستغراق ولم يكن فيهما داع من المعنى لتقديم الأرض على السماء ثم ان ورود السماوات بلفظ الجمع يحرز فى الآيتين من سورة سبأ معنى العموم والاستغراقى إذ هو مراد فى كل هذه الآيات الواردة فى هذا الغرض فأعطاه وأحرزه فى آية يونس وآية إبراهيم ما نجر فى هاتين الآيتين من محرز معنى القسم والاستغراق وأعطاه وأحرزه فى آيتى سبأ ما ورد فيهما من جمع السماوات وجاء كل على ما يجب ويناسب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ ملاك التأويل صـ 246 . 248 ﴾

(300/364)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ إذ تفيضون فيه ﴾ قال : إذ تفعلون .

وأخرج عبد بن حميد والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وما يعزب ﴾ قال : ما يغيب .

وأخرج الفريابي وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه . مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة ﴾ قال : لا يغيب عنه وزن ذرة ﴿ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ قال : هو الكتاب الذي عند الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(301/364)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا ﴾ : " ما " نافية في الموضعين ، ولذلك عَطَفَ بإعادة " لا " النافية ، وأَوْجب ب " إلا " بعد الأفعال لكونها منفيةً . و " في شأن " خبر " تكون " والضميرُ في " منه " عائدٌ على " شأن " و " مِنْ قرآن " تفسير للضمير ، وخُصَّ من العمومِ ، لأنَّ القرآنَ هو أعظمُ شؤونه صلى الله عليه وسلم . وقيل : يعودُ على التنزيل ، وفُسِّر بالقرآن لأنَّ كلَّ جزء منه قرآن ، وإنما أَضْمَرَ قبل الذكرِ تعظيماً له . وقيل : يعود على الله ، أي : وما تتلو مِنْ عند الله من قرآنٍ . وقال أبو البقاء : " من الشأن " ، أي : مِنْ أجله ، و " من قرآن " مفعول " تتلو " و " مِنْ " زائدةٌ " . يعني أنها زِيْدت في المفعول به ، و " من " الأولى جارةٌ للمفعولِ مِنْ أجله ، تقديره : وما تتْلو من أجل الشأن قرآناً ، وزِيْدَت لأنَّ الكلامَ غيرُ موجَبٍ والمجرور نكرةٌ . وقال مكي : " منه " الهاء عند الفراء تعود على الشأن على تقديرِ حَذْفِ مضافٍ تقديرُه : وما تتلو من أجل الشأن ، أي : يحدث لك شأنٌ فتتلو القرآنَ من أجله " .

والشَّأْنُ مصدرُ شَأَنَ يَشْأَنُ شَأْنَه ، أي : قَصَدَ يَقْصِدُ قَصْدَه ، وأصلُه الهمز ، ويجوز تخفيفه

. والشأن أيضاً الأمرُ ، ويُجْمع على شُؤُون .

وقوله : ﴿ إِلَّا كُنَّا ﴾ هذه الجملةُ حاليةٌ وهو استثناء مفرغ ، وولي " إلا " هنا الفعلُ الماضي دون قد لأنه قد تقدَّمها فعلٌ وهو مُجَوِّز لذلك .

(302/364)

وقوله : " إذ " هذا الظرفُ معمولٌ ل " شُهودا " ولمَّا كانت الأفعالُ السابقةُ المرادُ بها الحالةُ الدائمةُ وتنسحب على الأفعالِ الماضيةِ كان الظرفُ ماضياً ، وكان المعنى : وما كنت ، وما تكون ، ولا عَمِلْتم ، إلا كنا عليكم شهوداً ، إلا أفضتم فيه . و " إذ " تُخَلِّصُ المضارعَ لمعنى الماضي .

قوله : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ ﴾ قرأ الكسائي هنا وفي سبأ " يَعْزِب " بكسرِ العين ، والباقون بضمها ، وهما لغتان في مضارع عَزَبَ ، يقال : عَزَبَ يَعْزِب العين ، ويَعْزُب ، أي : غابَ حتى خفي ، ومنه الروضُ العازِبُ . قال أبو تمام :

2604 وقَلْقَلَ نَأْيٌ مِنْ خراسانَ جَأْشَها . . . فقلتُ اطمئنّي أَنْضَرُ الروضِ عزِبُه

وقيل للغائب عن أهله : عازِب ، حتى قالوا لمن لا زوجَ له : عازب . وقال الراغب : " العازِبُ : المتباعِدُ في طلب الكلأ . ويقال : رجل عَزَبٌ وامرأة عَزَبة ، وعَزَب عنه حِلْمُه ،

أي : غاب ، وقوم مُعَزَّبون ، أي : عَزَبَتْ عنهم إبلُهم ، وفي الحديث : " من قرأ القرآن في أربعين يوماً فقد عَزَب " ، أي : فقد بَعُد عهدُه بالخَتْمة . وقال قريباً منه الهروي فإنه قال : / " أي : بَعُدَ عهدُه بما ابتدأ منه وأبطأ في تلاوته " ، وفي حديث أم مَعْبد : " والشاءُ عازِبٌ حِيال " ، قال : " والعازِب : البعيدُ الذهابِ في المَرْعَى .

والحائلُ : التي ضَرَبَها الفحلُ فلم تَحْمل لجُدُوبة السَّنة . وفي الحديث أيضاً : " أصبحنا بأرضٍ عَزيبةٍ صحراءَ " ، أي : بعيدةِ المرعى . ويقال للمال الغائب : عازِب ، وللحاضرِ عاهِن . والمعنى في الآية : وما يَبْعُد أو ما يخفى أو ما يَغيب عن ربك .

و " مِنْ مِثْقال " فاعل ، و " مِنْ " مزيدةٌ فيه ، أي : ما يبعد عنه مثقالُ . والمثْقال هنا : اسمٌ لا صفةٌ ، والمعنيُّ به الوزنُ ، أي : وزن ذرة .

(303/364)

قوله : ﴿ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ ﴾ قرأ حمزة برفع راء " أَصْغر " و " أكبر " ، والباقون بفتحها . فأما الفتحُ ففيه وجهان ، أحدهما : وعليه أكثر المُعْربين أنه جَرٌّ ، وإنما كان بالفتحةِ لأنه لا يَنْصَرف للوزن والوصف ، والجرُّ لأجلِ عطفِه على المجرور وهو : إمَّا " مثقال " ، وإمَّا " ذرة " . وأمَّا الوجهُ الثاني فهو أنَّ " لا " نافيةٌ للجنس ، و " أصغر " و "

أكبر " اسمُها ، فهما مَبْنيان على الفتح . وأمَّا الرفعُ فمن وجهين أيضاً ، أشهرهُما عند المُعْربين : العطفُ على محل " مثقال " إذ هو مرفوعٌ بالفاعلية و " مِنْ " مزيدة فيه كقولك : " ما قام مِنْ رجل ولا امرأة " بجرِّ " امرأة " ورَفعْها . والثاني : أنه مبتدأ ، قال الزمخشري : " والوجهُ النصبُ على نفي الجنس ، والرفع على الابتداء ليكون كلاماً برأسِه ، وفي العطفِ على محل " مثقال ذرة " ، أو على لفظ " مثقال ذرة " فتحاً في موضع الجرِّ لامتناع الصرف إشكالٌ ؛ لأنَّ قولَك : " لا يَعْزُب عنه شيءٌ إلا في كتاب مشكل " انتهى . وهذان الوجهان اختيار الزجاج ، وإنما كان هذا مُشْكلاً عنده لأنه يصير التقدير : إلا في كتاب مبين فيعزبُ ، وهو كلامٌ لا يصحُّ . وقد يزول هذا الإشكالُ بما ذكره أبو البقاء : وهو أن يكون ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ استثناءٌ منقطعاً ، قال : ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ ، أي : إلا هو في كتاب ، والاستثناءُ منقطع " . وقال الإمام فخر الدين بعد حكايته الإشكالَ المتقدم : " أجاب بعضُ المحققين مِنْ وجهين ، أحدهما : أن الاستثناءَ منقطع ، والآخر : أن العُزوبَ عبارةٌ عن مُطْلق البعد ، والمخلوقاتِ قسمان ، قسمٌ أوجده اللهُ ابتداءً مِنْ غير واسطةٍ كالملائكة والسمواتِ والأرض ، وقسمٌ أوجده بواسطةِ القسم الأول مثلِ الحوادث الحادثة في عالم الكون والفساد ، وهذا قد يتباعدُ في سلسلةِ العِلِّيَّة والمعلولِيَّة عن مرتبة وجود واجبِ الوجود ،

فالمعنى : لا يَبْعد عن مرتبة وجوده مثقالُ ذرة في الأرض ولا في السماء إلا وهو في كتاب مبين ، كتبه الله وأثبت فيه صورَ تلك المعلومات " .

قلت : فقد آل الأمرُ إلى أنه جَعَله استثناءً مفرغاً ، وهو حال من " أصغر " و " أكبر " ، وهو في قوة الاستثناءِ المتصل ، ولا يُقال في هذا : إنه متصل ولا منقطع ، إذ المفرَّغُ لا يُقال فيه ذلك .

وقال الجرجاني : " إلا " بمعنى الواو ، أي : وهو في كتاب مبين ، والعربُ تضعُ " إلا " موضعَ واو النسق كقوله : ﴿ إِلاَّ مَن ظُلِمَ ﴾ [النساء : 148] ﴿ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [البقرة : 150] . وهذا الذي قاله الجرجانيُّ ضعيفٌ جداً ، وقد تقدَّم الكلامُ في هذه المسألة في البقرة ، وأنه شيءٌ قال به الأخفش ، ولم يَثْبُت ذلك بدليل صحيح . وقال الشيخ أبو شامةَ : " ويُزيل الإشكالَ أن تُقَدِّر قبلَ قوله : ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ " ليس شيء من ذلك إلا في كتاب " وكذا تقدِّر في آية الأنعام .

ولم يُقرأ في سبأ إلا بالرفع ، وهو يُقَوِّي قولَ مَنْ يقول إنه معطوف على " مثقال " ويُبَيِّنه أن " مثقال " فيها بالرفع ، إذ ليس قبله حرفُ جر . وقد تقدَّمَ الكلامُ على نظير هذه المسألة والإشكالُ فيها في سورة الأنعام في قوله : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ ﴾ [يونس : 59] ، إلى قوله : ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : 59] ، وأنَّ صاحبَ " النظم " الجرجانيَّ هذا

أحال الكلامَ فيها على الكلامِ في هذه السورة ، وأن أبا البقاء قال : " لو جَعَلْناه كذا لفَسَدَ المعنى " ، وقد بيَّنْتُ تقريرَ فسادِه والجوابَ عنه في كلام طويل هناك فعليك باعتبارِه ونَقْلِ ما يمكن نَقْلُه إلى هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 228.232 ﴾

(305/364)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾

خوَّفَهم بما عرفَّهم من اطلاعه عليهم في جميع أحوالهم ، ورؤية ما سيفعلونه من فنون أعمالهم . والعلْمَ بأنه يراهم يوجِبُ استحياءَهم منه ، وهذه الحال المراقبة ، والعبد إذا عَلِمَ أن مولاه يراه استحي منه ، وتَرَكَ متابعة هواه ، ولا يحُوِّم حَوْلَ ما نهاه ، وفي معناه أنشدوا :

كأنَّ رقيباً منك حَالَّ بمهجتي . . . إذا رُمتُ تسهيلاً عليَّ تَصعَّبَا

وأنشدوا :

أُعاتِبُ عَنْكَ النَّفسَ في كلِّ خَصْلَةٍ . . . تعاتبني فيها وأنت مقيم

﴿ وما يعزُبُ عن ربك من مثقال ذرة ﴾ : وكيف يخفى ذلك عليه ، أو يتقاصر علمه عنه ، وهو منشئُه وموجِدُه ؟ وبعض أحكامه الجائزة مخصصة ، وإنما قال : ﴿ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ : ردَّهم إلى كتابته ذلك عليهم - لعدم اكتفائهم في الامتناع عمَّا نُهُوا عنه - برؤيته وعلمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 104 ﴾

(306/364)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ﴾

قال قتادة ومقاتل : وذلك أنَّ حييَّ بْنَ أَخْطَبَ حين قدم مكة قال للنبي صلى الله عليه وسلم أحق هذا العذاب ؟ قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي ﴾ ، يعني : إي والله إنَّه لكائن .

ويقال : معناه ويسألونك عن البعث أحق هو ؟ ويسألونك عن دينك أحق هو ؟ ﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي ﴾ ، يعني قل : يا محمَّد نعم ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ يعني : العذاب نازل بكم إن لم تؤمنوا ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ بفائتين من العذاب حتَّى يخزيكم به ، ثم أخبر عن حالهم حين نزل بهم

العذاب .

فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ يعني : كفرت ، وأشركت بالله تعالى ، لو كان لها ﴿ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ ﴾ يعني : النَّفس لافتدت من سوء العذاب ، ولا يُقبَل منها .

﴿ وَأَسَرُّواْ الندامة ﴾ يعني : أخفوا النَّدامة يعني : القادةُ من السَّفلة ، ﴿ لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ﴾ حين نزل بهم العذاب .

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط ﴾ بين القادة والسفلة بالعدل ، ويقال : قضي بينهم ، يعني : بين الخلق بالعدل ، فيعطي ثوابهم على قدر أعمالهم .

ويقال : يقضي بين الكفَّار بالعدل ، وبين المؤمنين بالفضل .

ثم قال : ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ يعني : لا يُنْقَصُونَ من ثواب أعمالهم شيئاً ، ثمَّ بيَّن استغناءه عن عبادة الخلق وقدرته عليهم ، فقال : ﴿ أَلاَ إِنَّ للَّهِ مَا فِي السموات والأرض ﴾ يعني : كلُّهم عبيده وإماؤه ، وهو قادر عليهم .

ويقال : كلُّ شيء يدلُّ على توحيده ، وأنَّ له صانعاً .

﴿ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ يعني : البعث بعد الموت هو كائن .

﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : لا يُصدّقون به .

ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ يُحْيِ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ في الآخرة ، فيجازيكم بأعمالكم .

قوله تعالى : ﴿ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا الناس ﴾ يعني : يا أهل مكَّة ، ويقال : جميع النَّاس ، ﴿ قَدْ جَاءتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مّن رَّبّكُمْ ﴾ يعني : نهياً من ربِّكم عن الشِّرك على لسان نبيِّكم ، ﴿ وَشِفَاء لِمَا فِى الصدور ﴾ يعني : القرآن شفاء للقلوب من الشِّرك .

ويقال : شفاء من العمى ؛ لأن فيه بيان الحلال والحرام ﴿ وهدى ﴾ من الضّلالة ، ويقال : صواباً ، وبياناً ﴿ وَرَحْمَةٌ للمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني : القرآن نعمة الله على المؤمنين ، نعمة من العذاب لِمَنْ آمن ، وعمل بما فيه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ الله ﴾ ، يعني : قل يا مُحمَّد للمؤمنين بفضل الله ، والإسلام ﴿ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ القرآن .

وروي عن ابن عبَّاس أنه قال : بفضل الله ، يعني : القرآن ، وبرحمته الإسلام ، يعني : بنعمته عليكم إذ أكرمكم بالإسلام ، والقرآن .

وهكذا قال أبو سعيد الخِدْرِيّ .

وقال الضَّحَّاك ، ومجاهد : بفضل الله : القرآن ؛ وبرحمته : الإسلام .

وقال مقاتل : بفضل الله : الإسلام ، وبرحمته : القرآن .

وعن الحسن مثله .

وقال القُتَبِيّ مثله .

قوله : ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ يعني : بالقرآن والإيمان ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ من الأموال .

قرأ ابن عامر : ﴿ فَبِذَلِكَ ﴾ بالتاء كلاهما على معنى المخاطبة وقرأ الباقون : ﴿ مِّنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ بالياء ، على معنى المغايبة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ ﴾

في الكتاب ، ويقال : من السَّماء ، ويقال : ما أعطاكم الله من الرِّزق ، والحرث ، والأنعام ، والبحيرة ، والسَّائبة .

وبَيَّنَ في كتابه تحليلها .

(308/364)

﴿ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً ﴾ حراماً على النساء ، وحلالاً على الرجال ﴿ قُلِ اللهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ يعني : الله عزّ وجل أمركم بتحريمه وتحليله ؟ ﴿ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ يعني : بل على الله تفترون ، يعني : تختلقون على الله كذباً ما لم يقله ، ولم يأمر به .

فقال : ﴿ قُلِ اللهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ ؟ فقالوا : بلى ، أمرنا بها ، قال الله تعالى : ﴿ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ ، بل على الله تختلقون .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا ظَنُّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكذب ﴾ يعني : وما ظنُّهم حين ينزل بهم العذاب ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ ؟ وكيف ينجون منه ؟ ﴿ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ﴾ لذو مَنَ على النَّاس ، بتأخير العذاب عنهم ، ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ نعمة الله تعالى عليهم ، بتأخير العذاب عنهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ ﴾ ، أي : وما تكون يا مُحَمَّدُ في أمر من الأمور ، ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا ﴾ وما تقرأ من الله من قرآن ، ممَّا أوحي إليك .

فخاطب النبي صلى الله عليه وسلم ، وخاطب أمته أيضاً ، فقال : ﴿ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ يعني : عالماً بكم ، وبأعمالكم ، فلا تنسوه .

ويقال : إلاّ جعل عليكم شاهداً من الملائكة ، وهم الحفظة ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ يعني : حين تأخذون في قراءة القرآن .

ويقال : حين تخوضون فيه .

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ ﴾ قرأ الكِسَائِيُّ : ﴿ وَمَا يَعْزِبُ ﴾ بكسر الزَّاي .

وقرأ الباقون : بالضَّم ، وهما لغتان جيدتان .

وهكذا ذُكِرَ عن الفَرَّاءِ .

يعني : وما يغيب ﴿ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ قال الكَلْبِيّ : وهي النَّملة الحُمَيْرَاءُ .

وقال مقاتل : أصغر نملة في الأرض .

ويقال : الذَّر ما يُرَى من شعاع الشَّمس ، والمثقال عبارة عن الوزن .

(309/364)

يعني : لا يغيب عنه وزن الذَّرَّة ﴿ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِى السماء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ﴾ يعني : ولا أخف من وزن الذَّرَّة ﴿ وَلاَ أَكْبَرَ ﴾ ، يعني : ولا أثقل من وزن الذَّرَّة .

ويقال : لا أقلَّ منه ، ولا أعظم ، ﴿ إِلاَّ فِى كتاب مُّبِينٍ ﴾ .

يعني : مكتوباً في اللَّوح المحفوظ .

قرأ حمزة : ﴿ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك وَلاَ أَكْبَرَ ﴾ بضمِّ الرَّاءين .

ومعناه : ولا يغيب عنه أصغر من ذلك ، ولا أكبر منه ، فيصير رفعاً لأنه فاعل .

وقرأ الباقون بالنَّصب ، لأن معناه : ولا يغيب عنه بمثقال ذرة في الأرض ولا في السَّماء ، ولا بمثقال ذرَّة أصغر من ذلك .

فموضعه خَفْضٌ ، إلاّ أنّه لا ينصرف فصار نصباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(310/364)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والستون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/365)

الجزء الخامس والستون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 62 ﴾ من سورة يونس عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 65 ﴾ من نفس السورة

(4/365)

قوله تعالى ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) ﴾

مناسبة الآيتين لما قبلهما

قال البقاعي :

ولما تقدم أنه سبحانه شامل العلم ، وعلم – من وضع الأحوال ما لا يتسع ومن لا تسع مجرد أسمائهم الأرض في كتاب مبين أي مهما كشف منه وجد من غير خفاء ولا احتياج إلى تفتيش – أنه كامل القدرة بعد أن تقدم أنهم فريقان : صادق في أمره ، ومفتر عليه ، وأنه متفضل على الناس بعدم المعاجلة والتأخير إلى القيامة ، وخوّف المفتري عواقب أمره عاجلاً وآجلاً ، ورجىّ المطيع ، كان موضع أن يقال : ليت شعري ماذا يكون تفصيل حال الفريقين في الدارين على الجزم ؟

فأجيب بأن الأولياء فائزون والأعداء هالكون ليشمر كل مطيع عن ساعد جده ويبذل غاية جهده في لحاق المخلصين وتحامي جانب المفترين بقوله تعالى مؤكداً لاعتقادهم أنهم يهلكون حزب الله وإنكارهم غاية الإنكار أن يفوتوهم : ﴿ ألا إن أولياء الله ﴾ أي الذين يتولون بالطاعة من لا شيء أعز منه ولا أعظم ويتولاهم ﴿ لا خوف ﴾ أي ثابت عال ﴿ عليهم ﴾ أي من شيء يستقبلهم ﴿ ولا هم ﴾ أي بضمائرهم ﴿ يحزنون ﴾ أي يتجدد لهم حزن على فائت لأن قلوبهم معلقة بالله سبحانه فلا يؤثر فيهم لذلك خوف ولا حزن أثراً يقطع قلوبهم كما يعرض لغيرهم ، وفسرهم بقوله : ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا هذا الوصف المصحح للأعمال وبه كمال القوة العلمية ﴿ وكانوا ﴾ أي كوناً صار لهم جبلة وخلقاً ﴿ يتقون ﴾ أي يوجدون التقوى ، وهي كمال القوة العملية في الإيمان والأعمال ويجددونها فإنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره ؛ وانتهى الجواب بقوله : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب ﴾ - الآية ، وهذا الذي فسر الله به الأولياء لا مزيد على حسنه ، وعن علي - رضى الله عنهم - " هم قوم صفر الوجوه من السهر عمش العيون من العبر خمص البطون من الخوى " وقيل : الولي من لا يرائي ولا ينافق ، وما أقل صديق من كان هذا خلقه ،

وصح عن الإمامين : أبي حنيفة والتبيان أن كلاًّ منهما قال : إن لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي .

وهذا في العالم العامل بعلمه كما بينته عند قوله في سورة الزمر ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ [الزمر : 9] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 461.460 ﴾

(6/365)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

اعلم أنا بينا أن قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ ﴾ [يونس : 61] مما يقوي قلوب المطيعين ، ومما يكسر قلوب الفاسقين فأتبعه الله تعالى بشرح أحوال المخلصين الصادقين الصديقين وهو المذكور في هذه الآية .

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنا نحتاج في تفسير هذه الآية إلى أن نبين أن الولي من هو ؟ ثم نبين تفسير نفي الخوف والحزن عنه .

فنقول : أما إن الوحي من هو ؟ فيدل عليه القرآن والخبر والأثر والمعقول .

أما القرآن ، فهو قوله في هذه الآية : ﴿ الذين ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ فقوله : ﴿ ءامَنُواْ ﴾ إشارة إلى كمال حال القوة النظرية وقوله : ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ إشارة إلى كمال حال القوة العملية .

وفيه قيام آخر ، وهو أن يحمل الإيمان على مجموع الاعتقاد والعمل ، ثم نصف الولي بأنه كان متقياً في الكل .

أما التقوى في موقف العلم فلأن جلال الله أعلى من أن يحيط به عقل البشر ، فالصديق إذا وصف الله سبحانه بصفة من صفات الجلال ، فهو يقدس الله عن أن يكون كماله وجلاله مقتصراً على ذلك المقدار الذي عرفه ووصفه به ، وإذا عبد الله تعالى فهو يقدس الله تعالى عن أن تكون الخدمة اللائقة بكبريائه متقدرة بذلك المقدار فثبت أنه أبداً يكون في مقام الخوف والتقوى .

(7/365)

وأما الأخبار فكثيرة روى عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس " ثم قرأ هذه الآية ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " هم الذين يذكر الله تعالى برؤيتهم " قال أهل التحقيق : السبب فيه أن مشاهدتهم تذكر أمر الآخرة لما يشاهد فيهم من آيات الخشوع والخضوع ، ولما ذكر الله تعالى سبحانه في قوله : ﴿ سيماهم فِى وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ [الفتح : 29] وأما الأثر ، فقال أبو بكر الأصم : أولياء الله هم الذين تولى الله تعالى هدايتهم بالبرهان وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة إليه ، وأما المعقول فنقول : ظهر في علم الاشتقاق أن تركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب ، فولى كل شيء هو الذي يكون قريباً منه ، والقرب من الله تعالى بالمكان والجهة محال ، فالقرب منه إنما يكون إذا كان القلب مستغرقاً في نور معرفة الله تعالى سبحانه ، فإن رأى دلائل قدرة الله ، وإن سمع سمع آيات الله وإن نطق نطق بالثناء على الله ، وإن تحرك تحرك في خدمة الله ، وإن اجتهد اجتهد في طاعة الله ، فهنالك يكون في غاية القرب من الله ، فهذا الشخص يكون ولياً لله تعالى ، وإذا كان كذلك كان الله تعالى ولياً له أيضاً كما قال الله تعالى : ﴿ الله وَلِيُّ الذين ءامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [البقرة : 257] ويجب أن يكون الأمر كذلك ، لأن القرب لا يحصل إلا من الجانبين .

وقال المتكلمون : ولي الله من يكون آتياً بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل ويكون آتياً بالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة ، فهذا كلام مختصر في تفسير الولي .

وأما قوله تعالى في صفتهم : ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ففيه بحثان :

(8/365)

البحث الأول : أن الخوف إنما يكون في المستقبل بمعنى أنه يخاف حدوث شيء في المستقبل من المخوف ، والحزن إنما يكون على الماضي إما لأجل أنه كان قد حصل في الماضي ما كرهه أو لأنه فات شيء أحبه .

(9/365)

البحث الثاني : قال بعض المحققين : إن نفي الحزن والخوف إما أن يحصل للأولياء حال كونهم في الدنيا أو حال انتقالهم إلى الآخرة والأول باطل لوجوه : أحدها : أن هذا لا يحصل في دار الدنيا لأنها دار خوف وحزن والمؤمن خصوصاً لا يخلو من ذلك على ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام : " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر " وعلى ما قال : " حفت الجنة

بالمكاره وحفت النار بالشهوات " وثانيها : أن المؤمن ، وإن صفا عيشه في الدنيا ، فإنه لا يخلو من هم بأمر الآخرة شديد ، وحزن على ما يفوته من القيام بطاعة الله تعالى ، وإذا بطل هذا القسم وجب حمل قوله تعالى : ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على أمر الآخرة ، فهذا كلام محقق ، وقال بعض العارفين : إن الولاية عبارة عن القرب ، فوليُّ الله تعالى هو الذي يكون في غاية القرب من الله تعالى ، وهذا التقرير قد فسرناه باستغراقه في معرفة الله تعالى بحيث لا يخطر بباله في تلك اللحظة شيء مما سوى الله ، ففي هذه الساعة تحصل الولاية التامة ، ومتى كانت هذه الحالة حاصلة فإن صاحبها لا يخاف شيئاً ، ولا يحزن بسبب شيء ، وكيف يعقل ذلك والخوف من الشيء والحزن على الشيء لا يحصل إلا بعد الشعور به ، والمستغرق في نور جلال الله غافل عن كل ما سوى الله تعالى ، فيمتنع أن يكون له خوف أو حزن ؟ وهذه درجة عالية ، ومن لم يذقها لم يعرفها ، ثم إن صاحب هذه الحالة قد تزول عنه الحالة ، وحينئذ يحصل له الخوف والحزن والرجاء والرغبة والرهبة بسبب الأحوال الجسمانية ، كما يحصل لغيره ، وسمعت أن إبراهيم الخواص كان بالبادية ومعه واحد يصحبه ، فاتفق في بعض الليالي ظهور حالة قوية وكشف تام له ، فجلس في موضعه وجاءت السباع ووقفوا بالقرب منه ، والمريد تسلق على رأس شجرة خوفاً منها والشيخ ما كان فازعاً من تلك السباع ، فلما أصبح وزالت تلك الحالة ففي الليلة الثانية وقعت بعوضة على يده فأظهر الجزع من تلك البعوضة

، فقال المريد : كيف تليق هذه الحالة بما قبلها ؟ فقال الشيخ : إنا إنما تحملنا البارحة ما تحملناه بسبب قوة الوارد الغيبي ، فلما غاب ذلك الوارد فأنا أضعف خلق الله تعالى .

المسألة الثانية :

قال أكثر المحققين : إن أهل الثواب لا يحصل لهم خوف في محفل القيامة واحتجوا على صحة قولهم بقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر وتتلقاهم الملئكة ﴾ [الأنبياء : 103] وأيضاً فالقيامة دار الجزاء فلا يليق به إيصال الخوف ومنهم من قال : بل يحصل فيه أنواع من الخوف ، وذكروا فيه أخباراً تدل عليه إلا أن ظاهر القرآن أولى من خبر الواحد .

وأما قوله : ﴿ الذين ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ ففيه ثلاثة أوجه : الأول : النصب بكونه صفة للأولياء .

والثاني : النصب على المدح .

والثالث : الرفع على الابتداء وخبره لهم البشرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 101.103 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي في الآخرة .

﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لفقد الدنيا .

وقيل : ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي من تولاه الله تعالى وتولى حفظه وحِياطته ورضي عنه فلا يخاف يوم القيامة ولا يحزن ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أولئك عَنْهَا ﴾ أي عن جهنم ﴿ مُبْعَدُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ [الأنبياء : 103] .

وروى سعيد بن جبير : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : مَن أولياء الله ؟ فقال : "الذين يُذكَر الله برؤيتهم" " وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " "إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداءَ تغبِطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى" .

قيل : يا رسول الله ، خبّرنا مَن هم وما أعمالهم فلعلّنا نحبهم .

قال : "هم قوم تحابّوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموالٍ يتعاطَون بها فوالله إن وجوههم

لنور وإنهم على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزِن الناس ثم قرأ ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ " " وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أولياء الله قوم صفر الوجوه من السّهر ، عُمْش العيون من العِبَر ، خُمْص البطون من الجوع ، يُبْس الشفاه من الذَّوِيّ .

وقيل : "لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ" في ذريتهم ، لأن الله يتولاهم .

"وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" على دنياهم لتعويض الله إياهم في أولاهم وأُخراهم لأنه وليّهم ومولاهم .

﴿ الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) ﴾

هذه صفة أولياء الله تعالى ؛ فيكون : ﴿ الذين ﴾ في موضع نصب على البدل من اسم "إنّ" وهو "أولياء" .

وإن شئت على أعني .

وقيل : هو ابتداء ، وخبره .

﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة ﴾ ؛ فيكون مقطوعاً مما قبله .

أي يتقون الشرك والمعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(12/365)

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ . . . ﴾ الآيةُ :

«أَلا» استفتاحٌ وتنبيهٌ ، و ﴿ أَوْلِيَاءَ اللهِ ﴾ : هم المؤمنون الذينَ وَالوهُ بالطاعةِ والعبادةِ ، وهذه الآيةُ يُعْطِي ظاهرُها أَنَّ مَنْ آمَنَ واتقَى اللَّه ، فَهُوَ داخلٌ في أولياء اللَّه ، وهذا هو الذي تقتضيه الشريعةُ في الوَلِيِّ ، " وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ أَنَّهُ سُئِلَ ، مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : «الَّذِينَ إِذَا رَأَيْتُهُمْ ذَكَرْتَ اللَّه» " . قال : *ع* : هذا وصفٌ لازمٌ للمتَّقِين ؛ لأنهم يَخْشَعُونَ ويُخْشِّعُونَ ، وروي عنه صلى الله عليه وسلم أيضاً أَنَّهُ قَالَ : " أَوْلِيَاءُ اللَّه قَوْمٌ تَحَابُّوا فِي اللَّهِ ، وَاجْتَمَعُوا فِي ذَاتِهِ ، لَمْ تَجْمَعْهُمْ قَرَابَةٌ وَلاَ مَالٌ يَتَعَاطَوْنَهُ " وروى الدارقطنيُّ في «سننه» عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ أَنَّهُ قَالَ : " خِيَارُ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ إِذَا رؤُوا ، ذُكِرَ اللَّهُ ، وَشَرُّ عِبَادِ اللَّهِ المَشَّاؤونَ بِالنَّمِيمَةِ المُفَرِّقُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ ، البَاغُونَ لِلْبُرَآءِ العَيْبَ " انتهى من «الكوكب الدُّرِّيِّ» .

وقوله : ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ يعني : في الآخرة ، ويحتملُ في الدنيا لا يخافُونَ أَحداً من أَهل الدنيا ، ولا من أعراضها ، ولا يحزنون على ما فاتهم منها ، والأولُ أظهر ، والعمومُ في ذلك صحيحٌ : لاَ يَخَافُونَ في الآخرة جملةً ، ولا في الدنيا الخَوْفَ الدُّنْيَوِيَّ .

(13/365)

وذكر الطبريُّ عن جماعة من العلماء مثْلَ ما في الحديثِ في الأولياء ؛ أنهم هُمُ الَّذِينَ إِذَا رَآهُمُ أَحَدٌ ، ذَكَرَ اللَّهَ ، وروي فيهم حديث ؛ " أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمْ قَوْمٌ يَتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ وَيُجْعَلُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ ، وَتُنِيرُ وُجُوهُهُمْ ، فَهُمْ فِي عَرَصَاتِ القِيَامَةِ لاَ يَخَافُونَ وَلاَ يَحْزَنُونَ " وروى عمر بن الخطاب ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : " إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَاداً مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ ؛ لِمَكَانَتِهِمْ مِنَ اللَّهِ ، قَالُوا : وَمَنْ هُمْ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ ، وَلاَ أَمْوَالٍ . . . " الحديثَ ، ثم قرأَ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

* ت * وقد خرَّج هذا الحديثَ أبو داود والنسائيُّ ، قال أبو داود في هذا الحديث : فَوَاللَّهِ ، إِنَّ وجوههم لَنُورٌ ، وإِنهم لَعَلَى نُورٍ ، ذكره بإِسنادٍ آخر . انتهى .

(14/365)

ورواه أيضاً ابن المبارك في «رقائقه» بسنده ، عن أبي مالك الأشعريّ ؛ أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أَقْبَلَ عَلَى النَّاس ، فَقَالَ : " يَأَيُّهَا النَّاسُ اسمعوا واعقلوا ، واعلموا أَنَّ لِلَّهِ عِبَاداً لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ ، يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ عَلَى مَجَالِسِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ عَزَّ

وَجَلَّ » ، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : انْعَتْهُمْ لَنَا ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، فَقَالَ : «هُمْ نَاسٌ مِنْ أَبْنَاءِ النَّاسِ ، لَمْ تَصِلْ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ مُتَقَارِبَةٌ ، تَحَابُّوا فِي اللَّهِ ، وتَصَافَوْا فيهِ ، يَضَعُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فَيُجْلِسُهُمْ عَلَيْهَا فَيَجْعَلُ وُجُوهَهُمْ نُوراً وَثِيَابَهُمْ نُوراً ، يَفْزَعُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهُمْ لاَ يَفْزَعُونَ ، وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(15/365)

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ﴾

بيانٌ على وجه التبشير والوعدِ نتيجةٌ لأعمال المؤمنين وغايةٌ لما ذكر قبله من كونه تعالى مهيمناً على نبيه عليه السلام وأمتِه في كل ما يأتون وما يذرون وإحاطةِ علمه سبحانه بجميع ما في السماء والأرض وكونِ الكلِّ مثبتاً في الكتاب المبين بعد ما أشير إلى فظاعة حالِ المفترين على الله تعالى يوم القيامة وما سيعتريهم من الهول إشارةٌ إجماليةٌ على طريق التهديدِ والوعيد ، وصُدّرت الجملةُ بحرفي التنبيه والتحقيق لزيادة تقريرِ مضمونِها ، والوليُّ لغة القريبُ والمرادُ بأولياء الله خُلّصُ المؤمنين لقربهم الروحاني منه سبحانه وتعالى كما

سيفصح عنه تفسيرهم ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ في الدارين من لُحوق مكروه ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ من فواتِ مطلوبٍ أي لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا أنه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولا أنه لا يعتريهم خوفٌ وحزنٌ أصلاً بل يستمرون على النشاط والسرورِ ، كيف لا واستشعارُ الخوفِ والخشيةِ استعظاماً لجلال الله سبحانه وهيبتِه واستقصاراً للجد والسعي في إقامة حقوقِ العبوديةِ من خصائص الخواصِّ والمقرَّبين ، والمرادُ بيانُ دوامِ انتفائِهما لا بيانُ انتفاءِ دوامِهما كما يوهمه كونُ الخبرِ في الجملة الثانية مضارِعاً لما مر مراراً من أن النفيَ وإن دخل على نفس المضارِعِ يفيد الاستمرارَ والدوامَ بحسب المقام ، وإنما لا يعتريهم ذلك لأن مقصِدَهم ليس إلا طاعةَ الله تعالى ونيلَ رضوانِه المستتبِعِ للكرامة والزُّلفى ، وذلك مما لا ريب في حصوله ولا احتمالَ لفواته بموجب الوعدِ بالنسبة إليه تعالى ، وأما ما عدا ذلك من الأمور الدنيويةِ المترددةِ بين الحصول والفوات فهي بمعزل من الانتظام في سلك مقصِدهم وجوداً وعدماً حتى يخافوا من حصول ضارِّها أو يحزنوا بفوات نافعِها .

وقوله عز وجل : ﴿ الذين ءامنوا ﴾

(16/365)

أي بكل ما جاء من عند الله تعالى : ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ أي يقون أنفسَهم عما يحِقّ وقايتُها عنه من الأفعال والتروك وقايةً دائمةً حسبما يفيده الجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبلِ (وهو) بيانٌ وتفسيرٌ لهم وإشارةٌ إلى ما به نالوا ما نالوا على طريقة الاستئنافِ المبنيِّ على السؤال ، ومحلُّ الموصولِ الرفعُ على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ كأنه قيل : مَنْ أولئك وما سببُ فوزِهم بتلك الكرامةِ ؟ فقيل : هم الذين جمعوا بين الإيمانِ والتقوى المُفْضِيَيْن إلى كل خير المُنْجِيَيْن عن كل شر وقيل : محلُّه النصبُ أو الرفعُ على المدح أو على أنه وصفٌ مادحٌ للأولياء ، ولا يقدح في ذلك توسطُ الخبرِ ، والمرادُ بالتقوى المرتبةُ الثالثةُ منها الجامعةُ لما تحتها من مرتبة التوقي عن الشرك التي يفيدها الإيمانُ أيضاً ومرتبةِ التجنبِ عن كل ما يُؤثم من فعل وترك ، أعني تنزهَ الإنسانِ عن كل ما يشغل سرَّه عن الحق والتبتلِ إليه بالكلية وهي التقوى الحقيقيُّ المأمورُ به في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ مّسْتَقِيمٍ ﴾ وبه يحصُل الشهودُ والحضورُ والقُرب الذي عليه يدورُ إطلاقُ الاسمِ عليه ، وهكذا كان حالُ كل من دخل معه عليه السلام تحت الخطاب بقوله عز وجل : ﴿ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ خلا أن لهم في شأن التبتّلِ والتنزّه درجاتٍ متفاوتةً حسب تفاوتِ درجاتِ استعدادِتهم الفائضةِ عليهم بموجب المشيئةِ المبنيةِ على الحِكَم الأبيةِ أقصاها ما انتهى إليه همُ الأنبياءِ عليهم السلام حتى جمعوا بذلك بين رياستي النبوة والولايةِ يعُقْهم التعلقُ بعالم الأشباح عن الاستغراقِ في عالم الأرواح ولم تصُدَّهم الملابسةُ بمصالح الخلقِ عن التبتل إلى

جناب الحقِّ لكمال استعدادِ نفوسِهم الزكيةِ المؤيدةِ بالقوة القدسيةِ ، فمَلاكُ أمرِ الولاية هو التقوى المذكورُ فأولياءُ الله هم المؤمنون المتقون ، ويقرُب منه ما

(17/365)

قيل من أنهم الذين تولّى الله هدايتَهم بالبرهان وتولَّوُا القيامَ بحق عبوديةِ الله تعالى والدعوةِ إليه ولا يخالفه ما قيل من أنهم الذين يُذكرُ الله برؤيتهم لما رُوي عن سعيد بن جبير أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم سُئل مَنْ أولياءُ الله فقال : " هم الذين يُذكرُ الله برؤيتهم أي بسَمْتهم وإخباتهم وسكينتهم " ، ولا ما قيل من أنهم المتحابّون في الله لما رُوي (عن عمرَ رضي الله عنه أنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " إن من عبادِ الله عباداً ليسوا بأنبياءَ ولا شهداءَ يغبِطُهم الأنبياءُ والشهداءُ يوم القيامة لمكانهم من الله " قالوا : يا رسولَ الله خبِّرنا من هم وما أعمالُهم فلعلنا نحبّهم ، قال : " هم قوم تحابُّوا في الله على غير أرحامٍ منهم ولا أموالٍ يتعاطَونها فوالله إن وجوهَهم لنورٌ وإنهم لعلى منابرَ من نور لا يخافون إذا خاف الناسُ ولا يحزنون إذا حزِن الناسُ "

(18/365)

فإن ما ذكر من حسن السَّمْت والسكينةِ المذكّرةِ لله تعالى والتحابّ في الله سبحانه من الأحكام الدنيويةِ اللازمة للإيمان والتقوى والآثارِ الخاصّةِ بهما الحقيقةِ بالتخصيص بالذكر لظهورها وقُربها من أفهام الناسِ قد أورد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كلاًّ من ذلك حسبما يقتضيه مقامُ الإرشادِ والتذكيرِ ترغيباً للسائلين أو غيرِهم من الحاضرين فيما خصه بالذكر هناك من أحكامهم فلعلَّ الحاضرين أولاً كانوا محتاجين إلى إصلاح الحالِ من جهة الأقوالِ والأفعال والملابس ونحو ذلك ، والحاضرين ثانياً مفتقرين إلى تأليف قلوبِهم وعطِفها نحوَ المؤمنين الذين لا علاقة بينهم وبينهم من جهة النسبِ والقرابةِ وتأكيدِ ما بينهم من الأخوة الدينية ببيان عِظَم شأنِها ورفعةِ مكانتها وحُسن عاقبتِها ليُراعوا حقوقَها ويهجُروا من لا يوافقهم في الدين من أرحامهم ، وأما ما ذكر من أنه يغبطُهم الأنبياءُ فتصويرٌ لحسن حالِهم على طريقة التمثيلِ . قال الكواشي : وهذا مبالغةٌ ، والمعنى لو فُرض قومٌ بهذه الصفة لكانوا هؤلاء وقيل : أولياءُ الله الذين يتولّونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة وجُعل قوله عز وجل : ﴿ الذين ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ تفسيرا لتولّيهم إياه تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(19/365)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) ﴾

ثم إنه تعالى لما عمم وعده ووعيده في حق كافة من أطاع وعصى أتبعه سبحانه بشرح أحوال أوليائه تعالى المخلصين

فقال عز من قائل : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وفي ارشاد العقل السليم أنه بيان على وجه التبشير والوعد لما هو نتيجة لأعمال المؤمنين وغاية لما ذكر قبله من كونه سبحانه مهيمناً على نبيه صلى الله عليه وسلم وأمته في كل ما يأتون ويذرون وإحاطة علمه جل وعلا بعد ما أشير إلى فظاعة حال المفترين على الله تعالى يوم القيامة وما سيعتريهم من الهول إشارة إجمالية على طريق التهديد والوعيد ، وصدرت الجملة بحرف التنبيه والتحقيق لزيادة تقرير مضمونها ، والأولياء جمع ولي من الولي بمعنى القرب والدنو يقال : تباعد بعد ولي أي قرب ، والمراد بهم خلص المؤمنين لقربهم الروحاني منه سبحانه كما يفصح عنه تفسيرهم الآتي ، ويفسر الولي بالمحب وبين المعنيين تلازم ، وسيأتي تمام الكلام على ذلك قريباً إن شاء الله تعالى ، وجاء بمعنى النصير ويشير كلام البعض إلى صحة اعتبار هذا المعنى هنا ، والمراد من الجملتين المنفيتين المتعاطفتين دوام انتفاء مدلولهما كما مر تحقيقه غير مرة ، قيل : والمعنى لا خوف عليه من لحوق مكروه ولا هم

يحزنون من فوات مطلوب في جميع الأوقات أي لا يعتريهم ما يوجب ذلك أصلاً لا أنه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولا أنه لا يعتريهم خوف وحزن أصلاً بل يستمرون على النشاط والسرور ، كيف لا واستشعار الخوف استعظاماً لجلال الله تعالى واستقصاراً للجد والسعي في إقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين بل كلما ازداد العبد قرباً من ربه سبحانه ازداد خوفاً وخشية منه سبحانه ، ويرشد إلى ذلك غير ما خبر وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر : 28] وإنما لا يعتريهم ذلك لأن مقصدهم ليس إلا الله تعالى ونيل رضوانه المستتبع للكرامة والزلفى وذلك مما لا ريب في حصوله ولا احتمال لفواته بموجب الوعد الإلهي ، وأما ما عدا ذلك من الأمور الدنيوية المترددة

(20/365)

بين الحصول والفوات فهي عندهم أحقر من ذبالة عن الحجاج بل الدنيا بأسرها في اعينهم أقذر من ذراع خنزير ميت بال عليه كلب في يد مجذوم فهيهات أن تنتظم في سلك مقصدهم وجوداً وعدماً حتى يخافوا من حصول ضارها أو يحزنوا من فوات نافعها .

وقيل : المراد بانتفاء الخوف والحزن أمنهم من ذلك يوم القيامة بعد تحقق مالهم من القرب

والسعادة وإلا فالخوف والحزن يعرضان لهم قبل ذلك سواء كان سببهما دنيوياً أو أخروياً ، ولا يجوز أن يراد أمنهم مما ذكر في الدنيا أو فيما يعمها والآخرة لأن في ذلك أمناً من مكر الله تعالى ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون وهذا مبني على أن الخوف المنفي مسند إليهم وليس بالمتعين ، فقد ذهب بعض الجلة إلى أنه مسند إلى غيرهم أي غيرهم لا يخاف عليهم ولا يلزم من ذلك أنهم لا يخافون ليجيء حديث لزوم الأمن ، وجعل ذلك نكتة اختلاف أسلوب الجملتين ، والعدول عن لا هم يخافون الأنسب بلا هم يحزنون إلى ما في النظم الجليل ، وقد يقال : إذا كان المراد أنهم لا يعتريهم ما يوجب الخوف والحزن لا يبقى لحديث لزوم الأمن من مكر الله تعالى مجال على ما لا يخفى على المتدبر لكن لا يظهر عليه نكتة اختلاف أسلوب الجملتين وكونها اختلاف شأن الخوف والحزن بشيوع وصف الأخير بعدم الثبات كما قيل

: فلا حزن يدوم ولا سرور . . .

دون الأول ولذا ناسب أن يعبر بالاسم في الأول وبالفعل المفيد للحدوث والتجدد في الثاني كما ترى .

(21/365)

وقيل : إن المراد نفي استيلاء الخوف عليهم ونفي الحزن أصلاً ومفاد ذلك اتصافهم بالخوف في الجملة ، ففيه إشارة إلى أنهم بين الرجاء والخوف غير آيسين ولا آمنين ، ولهذا لم يؤت بالجملتين على طرز واحد ، وكذا لم يقل لا خوف لهم مثلا ، والأوجه عندي ما نقل عن بعض الجلة من أن معنى ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ لا يخاف عليهم غيرهم ويجعل الجملة الأولى عليه كناية عن حسن حالهم ، وأنت في الجملة الثانية بالخيار ، والخوف على ما قال الراغب توقع المكروه وضده الأمن ، والحزن من الحزن بالفتح وهو خشونة في النفس لما يحصل من الغم ويضاده الفرح ، وعلى هذا قالوا في بيان المعنى لا خوف عليهم من لحوق مكروه ولا هم يحزنون من فوات مأمول .

﴿ الذين آمَنُواْ ﴾ أي بكل ما جاء من عند الله تعالى ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ عما يحق الاتقاء منه من الأفعال والتروك اتقاء دائماً حسبما يفيده الجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل والموصول في محل الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة استئناف بياني كأنه قيل : من أولئك وما سبب فوزهم بما أشار إليه الكلام السابق ؟ فقيل : هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى المفضيين إلى كل خير المجنبين عن كل شر ؟ ولك أن تقصر في السؤال على من أولئك فيكون ذلك بياناً وتفسيراً للمراد من الأولياء فقط ، وعلى الأول هذا مع الإشارة إلى ما به نالوا مالوا ، وقيل : محله النصب أو الرفع على المدح أو على أنه وصف للأولياء .

ورد بأن في ذلك الفصل بين الصفة والموصوف بالخبر .

وقد أباه النحاة .

(22/365)

نعم جوزه الحفيد ، وجوز فيه البدلية أيضاً ، والمراد من التقوى عند جمع المرتبة الثالثة منها وهي التقوى المأمور بها في قوله تعالى : ﴿ اتقوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : 102] وفسرت بتنزه الإنسان عن كل ما يشغل سره عن الحق والتبتل إليه بالكلية ، وبذلك يحصل الشهود والحضور والقرب الذي يدور إطلاق الاسم عليه ، وهكذا كان حال من دخل معه صلى الله عليه وسلم تحت الخطاب بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ [يونس : 61] الخ خلا أن لهم في شأن التبتل والتنزه درجات متفاوتة حسبما درجات تفاوت استعداداتهم ، وأقصى الدرجات ما انتهى إليه همم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حتى جمعوا بذلك بين رياسة النبوة والولاية ولم يعقهم التعلق بعالم الأشباح عن الاستغراق في عالم الأرواح ولم تصدهم الملابسة بمصالح الخلف عن التبتل إلى جناب الحق سبحانه عز وجل لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدسية كذا قيل ، وفي كون حال كل من دخل معه صلى الله عليه وسلم تحت الخطاب مراداً به جميع الصحابة رضي الله تعالى

عنهم ما أشار إليه من التقوى الحقيقية المأمور بها في الآية التي بها يحصل الشهود والحضور والقرب بحث ، وقصارى ما تحقق بعد نزاع طويل ذكرناه في جوابنا لبسؤال أهل لاهور أن الصحابة كلهم عدول من لابس منهم الفتنة ومن لم يلابسها ودعوى أن العدالة تستلزم الولاية بالمعنى السابق أن تمت تم المقصود وإلا فلا ، والآية ظاهرة في أن الأولياء هم المؤمنون المتقون وأقل ما يكفي في إطلاق الولي التقرب إليه سبحانه بالفرائض من امتثال الأوامر واجتناب الزواجر ، والأكمل التقرب إليه جل شأنه بكل ما يمكن من القرب ، وفي المبين المعين الولي هو من يتولى الله تعالى بذاته أمره فلا تصرف له أصلاً إذ لا وجود له ولا ذات ولا فعل ولا وصف ، والتركيب يدل على القرب فكأنه قريب منه عز وجل لاستدامة عباداته واستقامة طاعاته أو لاستغراقه

(23/365)

في بحر معرفته ومشاهدة طلعة عظمته انتهى ، وفيه القول بأن الولي فعيل بمعنى مفعول ، وجوز أن يكون بمعنى فاعل ، وفسر بأنه من يتولى عبادة الله تعالى وطاعته على التوالي من غير تخلل معصية ، وعن القشيري أن كلا الوصفين تولى الله تعالى أمره وتولية عبادة الله تعالى وطاعته شرط في الولاية غير أن الوصف الأول غالب على المجذوب المراد والثاني على

السالك المريد ، ولا يخفى أن هذا الكلام وكذا ما قبله يدل على أن تخلل المعصية مناف للولاية وهو الذي يشير إليه كلام غير واحد من الفضلاء ، وليس في ذلك قول بالعصمة التي لم يثبتها الجماعة إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بل قصارى ما فيه القول بالحفظ ، وقد قيل : الأولياء محفوظون وفسر بعدم صدور الذنب مع إمكانه ، والقيد لإخراج العصمة .

نعم جاءت العصمة بمعنى الحفظ المفسر بما ذكر ، وعلى ذلك خرج قول صاحب حزب البحر اللهم اعصمني في الحركات والسكنات لأن الدعاء بما هو من خواص الأنبياء عليهم السلام لا يجوز كالدعاء بسائر المستحيلات كما حقق في محله .

(24/365)

وأطلق بعضهم القول بأن تخلل ذلك غير مناف احتجاجاً بما حكى عن الجنيد قدس سره أنه سئل هل يزني العارف ؟ فقال : نعم ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ﴾ [الأحزاب : 38] ، وتعقب بأنه محمول على الإمكان سؤال وجواباً ولا كلام فيه وإنما الكلام في أن الوقوع مناف أو غير مناف ، وقال بعضهم : لا شبهة في عدم بقاء وصف الولاية حال التلبس بالمعصية إذ لا تقوى حينئذ بالإجماع ومدار هذا الوصف عليها وكذا على الإيمان ، وهو غير كامل إذ ذاك عند أهل الحق وغير متحقق أصلاً بل المتحقق الفسق المعنى

بالواسطة أو الكفر عند آخرين ، وكذا لا شبهة في عدم منافاة وقوع المعصية الاتصاف بالولاية بعده بأن يعود من ابتلى بذلك إلى تقوى الله تعالى ويتصف بما تتوقف الولاية عليه ، وهو نظير من يتصف بالإيمان أو بالعدالة مثلاً بعد أن لم يكن متصفاً بذلك بقي الكلام في منافاة الوقوع الاتصاف قبل ، فإن قيل : إنه مناف له بمعنى أنه لذلك لم يكن متصفاً قبل بما هو إيمان وتقوى عند الناس فلا شبهة أيضاً في عدم المنافاة بهذا المعنى وهو ظاهر وإن قيل : إنه مناف له بمعنى أنه لم يكن لذلك متصفاً بما ذكر عند الله تعالى بناء على أن المراد بالتقوى التي هي شرط الولي التقوى الكاملة التي يترتب عليها حب الله تعالى المترتب عليه الحفظ كما أشير إليه فيما رواه البخاري من حديث أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى قال من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه ولا زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها "

الحديث .

(25/365)

وقد قال غير واحد في معنى الشرطية فإذا أحببته كنت حافظاً حواسه وجوارحه فلا يسمع ولا يبصر ولا يأخذ ولا يمشي إلا فيما ارضى وأحب وينقلع عن الشهوات ويستغرق في الطاعات ، وقريب منه قول الخطابي : المراد من ذلك توفيقه في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء ، يعني ييسر عليه فيها سبيل ما يحبه ويعصمه عن موافقة ما يكرهه من إصغاء إلى لهو يسمعه ونظر إلى ما نهى عنه ببصره وبطش بما لا يحل بيده وسعى في باطل برجله ، وكذا قول بعضهم المعنى أجعل سلطان حبي غالباً عليه حتى أسلب عنه الاهتمام بشيء غير ما يقربها إلي فيصير متخلياً عن اللذات متجنباً عن الشهوات متى ما يتقلب وأينما يتوجه لقى الله تعالى بمرأى فيه وسمع منه ويأخذ حب الله تعالى مجامع قلبه فلا يسمع ولا يرى ولا يفعل إلا ما يحبه ويكون له في ذلك عوناً ومؤيداً ووكيلاً يحمي جوارحه وحواسه فله وجه لأنه إذا وقعت المعصية يعلم أنه لم يكن محفوظاً وبه يعلم أنه لم يكن محبوباً وبذلك يعلم أنه لم يكن متقرباً إليه تعالى شأنه ومتقياً إياه حق تقاته وان ظنه الناس كذلك فهو ليس من أوليائه سبحانه في نفس الأمر .

(26/365)

نعم من اتصف بصفات الأولياء ظاهراً يجب تعظيمه واحترامه والتأدب معه والكف عن إيذائه بشيء من أنواع الإيذاء التي لا مسوغ لها شرعاً كالإنكار عليه عناداً أو حسداً دون المنازعة في محاكمة أو خصومة راجعة لاستخراج حق أو كشف غامض ونحو ذلك لما دل عليه الحديث السابق المشتمل من تهديد المؤذي على الغاية القصوى والحكم على من ذكره لولاية إذا لم يكن هناك نص من معصوم على ما يدل على تحققها في نفس الأمر إنما هو بالنظر إلى الظاهر لا إلى ما عند الله تعالى لما أن من الذنوب ما لا يمكن أن يطلع عليه إلا علام الغيوب ومنها الذنوب القلبية التي هي أدواء قاتلة وسموم ناقعة من أن الأعمال بخواتيمها وهي مجهولة إلا للمبدىء المعيد جل جلاله ﴿ هذا ﴾ وهو تحقيق يلوح عليه مخايل القبول ، ومن الناس من قسم الولاية إلى صغرى قد يقع فيها الذنب على الندرة لكن يبادر للتنصل منه فوراً وعد العلامة ابن حجر عليه الرحمة من وقع منه الذنب كذلك فبادر للتنصل منه محفوظاً فالوقوع عنده على الندرة مع المبادرة للتنصل لا ينافي الحفظ وإنما ينافيه تكرر الوقوع وكثرته وكذا ندرته مع عدم المبادرة للتنصل ، وكبرى لا يقع فيها الذنب أصلاً مع إمكان الوقوع ولو قيل أو مع استحالته كما في ولاية الأنبياء عليهم السلام وادعى أن ذلك من خصوصيات ولايتهم فيكون الحفظ أعم من العصمة لم يبعد .

وأنت تعلم أن قولهم الأنبياء معصومون ظاهر في كون العصمة من توابع النبوة ومعللة بها وهو مخالف لتلك الدعوى كما لا يخفى ، وما ذكر من التقسيم حسن ويعلم منه أن الكثير ممن

يدعي الولاية في زماننا أو تدعى له ليس له منها سوى الدعوى لإصراره والعياذ بالله تعالى على كبائر تقع منه في اليوم مراراً عافانا الله تعالى والمسلمين من ذلك .

وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير الأولياء ما يظن أنه مخالف لما دلت عليه الآية في ذلك .

فقد أخرج ابن المبارك : والترمذي في نوادر الأصول وأبو الشيخ .

(27/365)

وابن مردويه .

وآخرون عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قيل : يا رسول الله من أولياء الله ؟

قال : " والذين إذا رؤا ذكر الله تعالى " أي لحسن سمتهم وأخباتهم .

وأخرج أحمد .

وابن أبي حاتم .

والبيهقي .

وجماعة عن أبي مالك الأشعري قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن للهتعالى عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله

تعالى .

قال أعرابي : يا رسول الله انعتهم لنا قال : "هم أناس من افناء الناس ونوازع القبائل لم تصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا في الله وتصافوا في الله يضع الله تعالى لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسون عليها يفزع الناس وهم لا يفزعون وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " ولا مخالفة في الحقيقة فإن ما أشير إليه من حسن السمات والأخبات والتحاب في الله تعالى من الأحكام اللازمة للإيمان والتقوى والآثار الخاصة بهما الحقيقة بالتخصيص بالذكر لظهورها وقربنا من أفهام الناس ، وقد أورد رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا من ذلك حسبما يقتضيه مقام الإرشاد والتذكير ترغيباً لسائل أو حاضر فيما خصه بالذكر من أحكامهما ، وأريد بوصفهم بأنهم يغبطهم النبيون على مجالسهم وقربهم الإشارة إلى راحتهم مما يعتري الأنبياء عليهم السلام من الاشتغال بأممهم ، والمراد أنهم يغبطونهم على مجموع الأمرين ، وعن الكواشي أن ذلك خارج مخرج المبالغة ، والمعنى أنه لو فرض قوم بهذه الصفة لكانوا هؤلاء .

وقال بعض المحققين : إن ذلك تصوير لحسن حالهم على طريقة التمثيل ، وأيا ما كان فلا دليل فيه على أن الولاية أفضل من النبوة وقد كفر معتقد ذلك ، وقد يؤول له بحمل ذلك على أن ولاية النبي أفضل من نبوته كما حمل ما قاله العز بن عبد السلام المخالف للأصح من أن النبوة

أفضل من الرسالة على نحو ذلك ، وكذا لنظير ما ذكرنا لا يخالف ما دلت الآية عليه تفسير عيسى عليه السلام لذلك .

(28/365)

فقد أخرج أحمد في الزهد .

وابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ عن وهب قال : قال الحواريون : يا عيسى من أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؟ فقال عليه السلام : الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها والذين نظروا إلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها وأماتوا منها ما يخشون أن يميتهم وتركوا ما علموا أن سيتركهم فصار استكثارهم منها استقلالاً وذكرهم إياها فواتاً وفرحهم بما أصابوا منها حزناً وما عارضهم من نائلها رفضوه وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه ، خلقت الدنيا عندهم فليسوا يجددونها وخربت بينهم فليسوا يعمرونها وماتت في صدورهم فليسوا يحيونها ، يحدمونها فيبنون بها آخرتهم ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم ، رفضوها فكانوا برفضها هم الفرحين ، باعوها فكانوا ببيعها هم الرابحين ونظروا إلى أهلها صرعى قد خلت فيهم المثلات فأحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر

الحياة ، يحبون الله سبحانه وتعالى ويستضيؤون بنوره ويضيؤون به لهم خبر عجيب وعندهم الخبر العجيب ، بهم قام الكتاب وبه قاموا وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا وبهم علم الكتاب وبه علموا ، ليس يرون نائلاً مع نالوا ولا أماني دون ما يرجون ولا فرقاً دون ما يحذرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(29/365)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

استئناف للتصريح بوعد المؤمنين المعرَّض به في قوله : ﴿ إلاَّ كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك ﴾ [يونس : 61] الآية ، وبتسلية النبي صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من الكفار من أذى وتهديد ، إذ أعلن الله للنبيء والمؤمنين بالأمن من مخافة أعدائهم ، ومن الحزن من جراء ذلك ، ولمح لهم بعاقبة النصر ، ووعدهم البشرى في الآخرة وعداً لا يقبل التغيير ولا التخلف تطميناً لنفوسهم ، كما أشعر به قوله عقبه ﴿ لا تَبديل لكلمات الله ﴾ .

وافتتاح الكلام بأداة التنبيه إيماء إلى أهمية شأنه ، كما تقدم في قوله : ﴿ ألا إنهم هم

المفسدون ﴾ في سورة [البقرة : 12] ، ولذلك أكدت الجملة بإنَّ ﴾ بعد أداة التنبيه .

وفي التعبير بـ ﴿ أولياء الله ﴾ دون أن يؤتى بضمير الخطاب كما هو مقتضى وقوعه عقب قوله : ﴿ وما تعملون من عمل ﴾ [يونس : 61] يؤذن بأن المخاطبين قد حق لهم أنهم من أولياء الله مع إفادة حكم عام شملهم ويشمل من يأتي على طريقتهم .

وجملة : ﴿ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ خبر ﴿ إن ﴾ .

والخوف : توقع حصول المكروه للمتوقِّع ، فيتعدى بنفسه إلى الشيء المتوقَّع حصوله .

فيقال : خاف الشيْء ، قال تعالى : ﴿ فلا تخافوهم وخَافون ﴾ [آل عمران : 175] .

وإذا كان توقع حصول المكروه لغير المتوقع يقال للمتوقَّع : خاف عليه ، كقوله تعالى : ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ [الشعراء : 135] .

(30/365)

وقد اقتضى نظم الكلام نفي جنس الخوف لأن (لا) إذا دخلت على النكرة دلت على نفي الجنس ، وأنها إذا بني الاسم بعدها على الفتح كان نفي الجنس نصاً وإذا لم يُبنَ الاسم على الفتح كان نفي الجنس ظاهراً مع احتمال أن يراد نفي واحد من ذلك الجنس إذا كان المقام صالحاً لهذا الاحتمال ، وذلك في الأجناس التي لها أفراد من الذوات مثل رجل ، فأما

أجناس المعاني فلا يتطرق إليها ذلك الاحتمال فيستوي فيها رفع اسم (لا) وبناؤه على الفتح ، كما في قول إحدى نساء حديثِ أم زرع "زوجي كلَيْلِ تهامة لا حَرّ ولا قرّ ولا مخافة ولا سآمة" فقد رويت هذه الأسماء بالرفع وبالبناء على الفتح .

فمعنى ﴿ لا خوف عليهم ﴾ أنهم بحيث لا يخاف عليهم خائف ، أي هم بمأمنٍ من أن يُصيبهم مكروه يُخاف من إصابة مِثلِه ، فهم وإن كانوا قد يهجس في نفوسهم الخوف من الأعداء هجساً من جبلة تأثر النفوس عند مشاهدة بوادر المخافة ، فغيرهم ممن يَعلم حالهم لا يَخَاف عليهم لأنه ينظر إلى الأحوال بنظر اليقين سَليماً من التأثر بالمظاهر ، فحالهم حال من لا ينبغي أن يخاف ، ولذلك لا يَخاف عليهم أولياؤهم لأنهم يأمنون عليهم من عاقبة ما يتوجَّسون منه خيفة ، فالخوف الذي هو مصدر في الآية يقدر مضافاً إلى فاعله وهو غيرهم لا محالة ، أي لا خوف يخافه خائف عليهم ، وهم أنفسهم إذا اعتراهم الخوف لا يلبث أن ينقشع عنهم وتحل السكينة محله ، كما قال تعالى:

﴿ وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ [التوبة : 25 ، 26] ، وقال لموسى : ﴿ لا تَخاف دَرَكا ولا تخشى ﴾ [طه : 77] ، وقال : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر يدعو الله بالنصر ويكثر من الدعاء ويقول : " اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد في الأرض " ثم خرج وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ [القمر : 45] .

ولهذا المعنى الذي أشارت إليه الآية تغير الأسلوب في قوله : ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ فأسند فيه الحزن المنفي إلى ضمير ﴿ أولياء الله ﴾ مع الابتداء به ، وإيراد الفعل بَعده مسنداً مفيداً تقوي الحكم ، لأن الحزن هو انكسار النفس من أثر حصول المكروه عندها فهو لا توجد حقيقته إلا بعد حصوله ، والخوف يكون قبل حصوله ، ثم هم وإن كانوا يحزنون لما يصيبهم من أمور في الدنيا كقول النبي صلى الله عليه وسلم " وإنّا لفراقك يا إبراهيم لمحزنون " فذلك حزن وجداني لا يستقر بل يزول بالصبر ، ولكنهم لا يلحقهم الحزن الدائم وهو حزن المذلة وغلبة العدو عليهم وزوال دينهم وسلطانهم ، ولذلك جيء في جانب نفي الحزن عنهم بإدخال حرف النفي على تركيب مفيد لتقوي الحكم بقوله : ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ لأن جملة : ﴿ هم يحزنون ﴾ يفيد تقديم المسند إليه فيها تقوي الحكم الحاصل بالخبر الفعلي ، فالمعنى لا يحصل لهم خوف متمكن ثابت يبقى فيهم ولا يجدون تخلصاً منه .

فالكلام يفيد أن الله ضمن لأوليائه أن لا يحصل لهم ما يخافونه وأن لا يحل بهم ما يحزنهم .

ولما كان ما يُخاف منه من شأنه أن يُحزن من يصيبه كان نفي الحزن عنهم مؤكِّداً لمعنى نفي

خوف خائف عليهم .

وجمهور المفسرين حملوا الخوف والحزن المنفيين على ما يحصل لأهل الشقاوة في الآخرة بناء على أن الخوف والحزن يحصلان في الدنيا ، كقوله : ﴿ فأوجس في نفسه خيفة موسى ﴾ [طه : 67] .

وقد علمت ما يُغني عن هذا التأويل ، وهو يبعد عن مفاد قوله : ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ .

والولي : الموالي ، أي المحالف والناصر .

وكلها ترجع إلى معنى الوَلْي (بسكون اللام) ، وهو القرب وهو في معنى الولي كلها قرب مجازي .

(32/365)

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ قل أغير الله اتخذ ولياً ﴾ في سورة [الأنعام : 14] .

وهو قرب من الجانبين ، ولذلك فسروه هنا بأنه الذي يتولى الله بالطاعة ويتولاه الله بالكرامة .

وقد بين أولياء الله في هذه الآية بأنهم الذين آمنوا واتقوا ، فاسم الموصول وصلته خبر وما

بينهما اعتراض ، أو يجعل جملة : لا خوف عليهم ﴾ خبر ﴿ إنّ ﴾ ويجعل اسم الموصول خبرَ مبتدأ محذوف حذفاً جارياً على الاستعمال ، كما سماه السكاكي في حذف المسند إليه .

وأياً ما كان فهذا الخبر يفيد أن يعرف السامع كنه معنى أولياء الله اعتناء بهم على نحو ما قيل في قول أوس بن حجر :

الأُلمعِي الذي يظن بك الظَّنَّ . . .

كأنْ قد رأى وقد سَمعا

ودل قوله : ﴿ وكانوا يتقون ﴾ على أن التقوى ملازمة لهم أخذاً من صيغة ﴿ كانوا ﴾ وأنها متجددة منهم أخذاً من صيغة المضارع في قوله : ﴿ يتقون ﴾ .

وقد كنت أقول في المذاكرات منذ سنين خَلَتْ في أيام الطلب أن هذه الآية هي أقوى ما يُعتمد عليه في تفسير حقيقة الولي شرعاً وأن على حقيقتها يحمل معنى قوله في الحديث القدسي الذي رواه الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله تعالى : من عادَى لي ولياً فقد آذنته بحرب " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(33/365)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

وجاءت هذه الآية بعد كلامه الحق عن نفسه سبحانه بأنه عالم الغيب ، ولا يخفى عليه شيء ، وشاء الله سبحانه بذلك أن يعلّمنا أنه قد يفيض على بعض خلقه فيوضات الإمداد على قَدْر رياضات المرتاضين ، فَهَبْ أن الله قد امتن عليك بنفحة ، فإياك أن تقول إنها من عندك ، بل هي من عند عالم الغيب سبحانه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

وعلى ذلك فلا يقال : إن فلاناً قد عَلِم غيباً لأنه وليٌّ لله ، بل لنقل : " إن فلانا مُعَلَّمُ غَيْب " ؛ لأن الغيب ما غاب عن الناس ، وما يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فهو ليس غيباً مطلقاً .

ومثال ذلك : الرجل الذي سُرق منه شيء ، هو لا يعرف أين يوجد الشيء الذي سُرق منه ، ولكنه اللص يعرف ، وكذلك من ساعد اللص وأخفاه وأخفى له المسروقات ، كل هؤلاء يعلمون ، وأيضاً الجن الذين كانوا في نفس مكان السرقة يعلمون ، وهذا ليس غيباً مطلقاً .

وأيضاً أسرار الكون التي كانت غيباً موقوتاً ، مثل جاذبية الأرض ، والسالب والموجب في الكهرباء ، وتلقيح الرياح للسحاب لينزل الماء ، كل ذلك كان غيباً في زمن ما ، ثم شاء الحق سبحانه فحدَّد لكل أمرٍ منها ميعادَ كشفٍ ، فصارت أموراً مشهورة .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليعمل الإنسان ويجتهد ليكشف أسرار الكون .

ومن العجيب أن الباحث قد يعمل من أجل كشف معين ، فيصادف كشفاً آخر ؛ لأن الله تعالى قد أذن لذلك الكشف الذي كان غيباً أن يولد ، وإن لم يبحث عنه أهل الأرض .

ومن اكتشف " البنسلين " رأى العفن الأخضر حول بعض المواد العضوية فبحث عن أسرار ذلك ، واكتشف " البنسلين " .

و" أرشميدس " الذي اكتشف قانون الطفو ، واستفادت منه صناعات السفن والغواصات ، وكل ما يسير في البحر ، وقد اكتشاف قانون الطفو صدفة .

(34/365)

إذن : ففي الكون غيب قد يصير مَشْهَداً ، إما بمقدّمات يتابعها خَلْقُ الله بالبحث ، وإما أن تأتي صدفة في أثناء أي بحث عن شيء آخر .

ومثال ذلك : عصر البخار الذي بدأ من رجل رأى إناء مُغَطّى يغلي فيه الماء ، فضل غطاء الإناء يرتفع ليُخرج بعضاً من البخار ، وانتبه الرجل إلى أن البخار يمكن أن يتحول إلى طاقة تجرّ العربات التي تسير على عَجَل ، وهكذا جاء عصر البخار .

إذن : فميلاد بعض من أسرار الكون كان تنبيهاً من الله تعالى لأحد عباده لكي يتأمل ؛

ليكتشف سِرّاً من تلك الأسرار .

وأغلب أسرار الكون تم اكتشافها صدفة ، لنفهم أن عطاء الله بميلادها دون مقدمات من الخَلْق أكثر مما وُصِل إليه بالعطاء من مقدمات الخلق .

ولذلك تجد التعبير الأدائي في القرآن عن لونَي الغيب ، تعبيراً دقيقاً لنفهم أن هناك غيباً عن الخلق جميعاً وليست له مقدمات ، ولا يشاء الله سبحانه له ميلاداً ، واستأثر الله بعلمه ؛ فلا يعلمه إلا هو سبحانه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : 255] .

هذا هو الغيب الذي يكشفه الله سبحانه لهم ، إما بالمقدمات ، أو بالصدفة ، وقد نسب المشيئة له سبحانه ، والإحاطة من البشر ، وهذا هو غيب الابتكارات .

أما الغيب الآخر الذي لا يعلمه أحد إلا هو سبحانه ولا يُجَلّيه إلا الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقول الحق عنه :

﴿ عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن : 2627] .

إذن : فالحق سبحانه يفيض من غيبه الذاتي على بعض خَلْقه ، والقرآن الكريم فيه الكثير

من الغيب ، وأفاضة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتحققت الأحداث كما جاءت في القرآن .

(35/365)

والحق سبحانه يهب بعضاً من خلقه بعضاً من فيوضاته ، وقد أعطى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بعضاً من الهِبَات وحدَّد من يعطيه بعضاً من الغيب :

﴿ إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن : 27] .

وهي ليست للحصر ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أسوة ، وقال فيه الحق سبحانه :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ واليوم الآخر وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب : 21] .

ومن يعمل بعمل الرسول صلى الله عليه وسلم ويقتدي به ؛ يهبه الله تعالى هِبةً يراها الناس فيعرفون أن مَنْ يتّبع الرسول صلى الله عليه وسلم كقدوة يعطيه الله سبحانه الهبات النوارنية ، ولكن هذه الهِبَة ليست وظيفة ، وليست (دُكَاناً) للغيب ، بل هي مِنْ عطاءات الله تعالى .

وانظر إلى دقة القرآن حين يقول :

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : 59] .

أي : أنه سبحانه لم يُعْطِ مفتاح الغيب لأحد ، والوليّ من أولياء الله إنما يأخذ الهبة منه سبحانه ، لكن مفتاح الغيب هو عند الله وحده .

وعندما نتأمل قول الحق سبحانه :

﴿ ألا إِنَّ أَوْلِيَآءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : 62] .

نجد أن كلمة " وليّ " من وَلِيَهُ ، يليه ، أي : قريبٌ منه ، وهو أول مَفزَع يفزع إليه إن جاءه أمر يحتاج فيه إلى معاونة من غيره ، وإن احتاج إلى نصرة فهو ينصره ، وخيره يفيض على مَنْ والاه .

ومَنْ يقْرُب عالماً يأخذ بعضاً من العلم ، ومَنْ يقرب قويّاً يأخذ بعضاً من القوة ، ومَنْ يقرب غنيّاً ، إن احتاج ، فالغني يعطيه ولو قَرْضاً .

إذن : فالوَاليّ هو القريب الناصر المُعِين المُوالِي .

وتطلق " الولي " مرةً لله سبحانه ، وقد قال القرآن :

﴿ فالله هُوَ الولي ﴾ [الشورى : 9] .

(36/365)

لأنه سبحانه القريب من كل خَلْقه ، عكس الخَلْق الذين يقتربون من بعضهم أو يتباعدون حسب إمكاناتهم ، أما الله سبحانه وتعالى فهو الوليّ المُطلَق ، فقُربه مِنْ خَلْقٍ لا يبعده عن خَلقٍ ، ولا يشغله شيء عن شيء ، فهو الوليّ الحقُّ ، وهو سبحانه يقول :

﴿ هُنَالِكَ الولايةِ لِلَّهِ الحق ﴾ [الكهف : 44] .

فمن يحتاج إلى الولاية الحقَّة فَليلجأ إلى الله ، وهو سبحانه يُفيض على الأوفياء لمنهجه من الولاية .

ونجد التعبير القرآني الدقيق :

﴿ اللهُ وَلِيُّ الذين آمَنُواْ ﴾ [البقرة : 257] .

فهو سبحانه يقرب من عباده المؤمنين ، والمؤمنون يقربون من الله تعالى في قول الحق سبحانه :

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ ﴾ [يونس : 62] .

إذن : فالولاية المطلقة لله ، وإنْ قُيِّدت بشيء مضافٍ ومضافٍ إليه ، فهي مرة تكون من المؤمنين لله ، ومرة تكون من الله للمؤمنين .

والحق سبحانه لا تحكمه قوانين ؛ فبطَلاقة قُدرته سبحانه إذا رأى في إنسانٍ ما خَصْلة من خير ، فيكرمه أولاً ، فيصير هذا العبد طائعاً من بعد ذلك .

وتسمع من يقول : إن فلاناً قد خُطف من المعصية أي : أنه كان عاصياً ، ثم أحب الله تعالى خَصْلة خيرٍ فيه ، فهداه .

ومثال ذلك : الرجل الذي سقى كلباً ، بل احتال ليسقيه بأن ملأ خُفَّه بالماء من البئر ليروي ظمأ الكلب ؛ فغفر الله سبحانه وتعالى له سيئاته .

هذا الرجل لم يكن ليروي الكلب نفاقاً للكلب ، ولكن لأن الرجل شعر بالعطف على كائن ذي كبد رطبة .

إذن : فليست المسائل عند الله تعالى آلية أو ميكانيكية ، بل طلاقة قُدرته سبحانه تقدّر كل موقف كما قدَّرتْ اختلاف الخَلْق ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات والأرض واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ [الروم : 22] .

(37/365)

فليس عند الله تعالى قالب يضع فيه الخلق ، بل سبحانه يخلق الطويل والقصير والسمين والرفيع والأشقر والزنجي ، وهذا بعضٌ من طلاقة قدرته سبحانه ، وبرحمته سبحانه قرب من خَلْقه الذين آمنوا أولاً ، وقربه سبحانه منهم : ﴿ يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [البقرة : 257] .

فمن يتبع المنهج يأخذ النور ، فإذا علم الله سبحانه عمله بمنهجه فهو سبحانه يُقرّبه قُرْباً أكثر فيعطيه هبةً اصطفائية يراها الذين حوله وقد يقتدون به .

والحق سبحانه يريد من المؤمن الأدب مع خَلْق الله ، فإذا علم سيئةً عن إنسان فعليه أن يسترها ، لأن الحق سبحانه يحب السَّتْر ويحب من يَستر .

وأنت قد تكره إنساناً تعلم عنه سيئةً ما ، وقد تكره كل حسنة من حسناته ، فيريد الله ألاّ يحرمك من حسنات مَنْ له سيئة فيسترها عنك لتأخذ بعضاً من حسناته ، ويأمرك الحق ألاّ تحتقر هذا المسيء ؛ لأنه قد يتمتع بخَصْلة خير واحدة ، فيكرمه الله سبحانه من أجلها أولاً ، ثم يطيعه هذا العبد ثانياً .

والحق سبحانه يقول في الحديث القدسي :

" يا ابن آدم أنا لك محبٌّ فبحقّي عليك كن لي مُحِبّاً " .

ويقول الله سبحانه في حديث قدسي :

" أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإنْ ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم " .

وفي هذا القول يضع مسئولية القُرب من الله في يد الخَلْق ، ويضيف الحق سبحانه :

" وإن تقرَّب إليَّ شبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً ، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة " .

ومن يريد أن يأتيه الله هرولة فليذهب إلى الله ماشياً .

إذن : فالإيمان بالله يسلِّم المؤمن مفتاح القرب من الله .

ومن يكن من أصحاب الخُلُق الملتزمين بالمنهج يُقرِّبْه الله منه أكثر وأكثر .

(38/365)

إذن : فمن الناس مَنْ يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، ويدق على باب الحق ، فينفتح له الباب ، ومن الناس مَنْ يصل بكرامة الله أولاً إلى طاعة الله ثانياً .

ولله المثل الأعلى : أنت كواحد من البشر قد يدق بابك إنسانٌ يحتاج إلى لقمة أو صدقة فتعطيه ، وهناك إنسان آخر تحب أنت أن تعطيه ، وعندما تعطيه يطيعك من منطلق الإحسان إليه ، فما بالنا بعطاء الحق لعباده ؟

إذن : فمنهم مَنْ يصل بكرامة الله إلى طاعة الله ، ومنهم من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، وحين يصل الإنسان إلى القرب من الله ، ويقرب الله من العبد ، هنا يكون العبد في معية الله ، وتفيض عليه هذه المعية كثيراً .

وقد قال أبو العلاء المعري لمحبوبته :

أنت الحبيبُ ولكني أعوذ بِهِ . . . من أن أكون حبيباً غير محبوبِ

أي : أنه يستعيذ بالله من أن يكون محباً لمن يرفض حبّه ، ولكن محبة الله تختلف عن محبة

البشر ، وسبحانه لا يعامل محبيه كذلك ، فأنت حين تحب الله يقرّبك أكثر وأكثر ، ويسمَّي ذلك " المصافاة " ، فإذا أفاض الله سبحانه على بعض خَلْقه هِباتٍ من الكرامات فعلى العباد الذين اختصهم الحق سبحانه بذلك أن يُحسنوا الأدب مع الله ، وألا يتبجَّح واحد منهم متفاخراً بعطاء الله سبحانه له .

فالمباهاة بالكرامات تضيعها ، ويسلبها الحق سبحانه من الذي يتبجَّح بها ويتفاخر ويتباهى ، فمن تظاهر بالكرامة ليس له كرامة .

إذن : فالحق سبحانه يريد أن يكون العبد دائماً في معيّيته ، وهو سبحانه الذي بدأ وبيَّن بالآية الواضحة أنه سبحانه وليّ المؤمنين ؛ ولذلك سيخرجهم من الظلمات إلى النور . فقال :

﴿ اللهُ وَلِيُّ الذين آمَنُواْ يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [البقرة : 257] .

(39/365)

ونحن نعلم أنه سبحانه يأتي بالمحسَّات ليبيّن المعنويات ؛ لأن إلْفَ الإنسان أولاً بالمحسَّات ، وهي أقرب إلى تقريب المراد ، فحين يضرب الحق سبحانه لنا المثل بالكفر والإيمان ، يصف الكفر بالظلمة ، والإيمان بالنور ، إنما يريد الحق أن يجعل لك المراد واضحاً موصولاً بمفهومك

.

وإذا كنا نتجنَّب معاطب الظلمات الحسية ، أليس الأجدر بها أيضاً أن نتجنب معاطب الظلمات المعنوية ، إن الظلمة الحسية تستر الأشياء فلا نرى الأشياء ، وقد نرتطم بأضعف شيءٍ فنحطِّمه أو نصطدم بأقوى شيء فيحطمنا .

إذن : فَحَجْب المرائي يسبِّب الكوارث ، أما حين يأتي النور ؛ فهو يبيِّن ملامح الأشياء فتسير على هُدىً وأنت مطمئن .

وهَبْ أنك في مكان مظلم ويوجد شيء آخر في مكان منير ، فأنت في الظلمة ترى مَنْ يوجد في النور ، وهذه مسألة لم يفطن لتفسيرها علماء ما قبل الإسلام ، حيث كانوا يظنون أن الرؤية إنما تحدث من انتقال شعاع من عين الرائي إلى المرئيِّ ، حتى جاء " الحسن بن الهيثم " العالم الإسلامي واكتشف قوانين الضوء ، وكشف خطأ ما سبقه من نظريات ، وحدَّد أن المرئي هو الذي يصدر منه شعاع إلى الرائي ، وإذا ما كان المرئي في ظُلمةٍ فلن يراه أحد ، ولو كان هناك شعاع يخرج من الرائي ؛ لرأى الإنسان في الظلام .

إذن : أول ولاية من الله للمؤمنين أنه سبحانه يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والظلمة المعنوية أقوى من الظلمة الحسية ، وكذلك النور المعنوي أقوى من النور الحسّي ، فعالَمُ القيم قد يكون أقوى من عالم الحس ؛ لأن الجبر في عالم الحسّ يمكن أن يحدث ، أما في عالم القيم فهو أمر شاق ؛ ولذلك قال الشاعر :

جراحاتُ السنانِ لها التئامُ . . . ولا يلتامُ ما جَرَحَ اللسانُ

ويقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : 62] .

(40/365)

و " ألا " كما أوضحنا من قبل أداة تنبيه من المتكلم للمخاطب حتى لا تفوته كلمة واحدة مما يجيء في الخطاب .

وقوله سبحانه : ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ [يونس : 62] . أي : لا خوف عليهم من غيرهم ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : 62] أي : أن الحزن لن يأتي منهم ، والخوف يكون من توقع شيء ضار لم يقع حتى الآن ، ولكنه قد يحدث في المستقبل .

وفي حياتنا اليومية نجد الأب يمسك بيد ابنه في الزحام خوفاً عليه ، وقد ترى وليّاً من أولياء الله وقد أصيب ابنه في حادث أو مات الابن ، تجد الوليّ في ثبات لأنه يعلم حكمة الله في قضائه ، فلا تتطوع أنت بالخوف عليه .

إذن : فالخوف يأتي من المستقبل ، وهو أمر مرتقب ، أما الحزن فهو إحساس يحدث على شيء فات .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ ﴾ [الحديد : 23] .

والحزن على ما فات عبث ؛ لأن ما فات لا يعود .

وأولياء الله تعالى لا خوف عليهم ؛ لأنهم دائماً بصدد معرفة حكمة الله ، ومَنْ لا يعرف حكمة الله تعالى في الأشياء قد يقول : " إن فلاناً هذا مسكين " ؛ لأنك لا تعرف ماذا جرى له .

وأما الحزن فهو مشاعر قلبية يريد الله من المؤمن أن تمر على باله .

وقد قال صلى الله عليه وسلم حين افتقد ابنه : " وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون " ولكنه حزن الوَرَع الذي يتجلَّى في قوله صلى الله عليه وسلم :

" إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا " .

وبين الله سبحانه لنا شروط الولاية فيقول : ﴿ الذين آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾

والإيمان هو الأمر الاعتقادي الأول الذي يُبنى عليه كل عمل ، ويقتضي تنفيذ منهج الله ، الأمر في الأمر ، والنهي في النهي ، والإباحة في الإباحة .

(41/365)

والتقوى كما علمنا هي اتقاء صفات الجلال في اله تعالى ، وأيضاً اتقاء النار ، وزاد رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفات من تصدر عنه التقوى ؛ لأنها مراحل ، " فقال صلى الله عليه وسلم يصف المتقين :

" هم قوم تحابُّوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لَعَلَى نور " .

وقد سئُل عمر رضي الله عنه عن المتقين فقال : " الواحد منهم يزيدك النظر إليه قُرباً من الله " . وكأنه رضي الله عنه يشرح لنا قول الحق سبحانه :

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ [الفتح : 29] .

وساعة ترى المتقي لله تُسَرُّ وتفرح به ، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يقال لك : إنه ملتزم بتقوى الله ، وهذا السرور يلفتك إلى أن تقلده ؛ لأن رؤياه تذكِّرك بالخشوع ، والخضوع ، والسكينة ، ورقَّة السَّمْت ، وانبساط الأسارير .

والواحد من هؤلاء ينظر إلى الكون ولا يجد في هذا الكون أي خَلَل ، بل يرى كل شيء في موضعه تماماً ، ولا يرى أي قُبح في الوجود ، وحتى حين يصادف القبح ، فهو يقول : إن هذا القبح يبيِّن لنا الحُسْن ، ولولا وجود الباطل ومتاعبه لما عشق الناسُ الحقّ ، وهكذا يصير الباطل من جنود الحق .

إن وجود الشرّ يدفع الناس إلى الخير ؛ ولذلك يقال : كُنْ جميلاً في دينك تَرَ الوجود جميلاً ؛

لأنك حين ترى الأشياء وتقبل قدر الله فيها ، هنا يفيض الله عليك بهبات من الفيض الأعلى ، وكلما تقرَّبت إلى الله زاد اقتراب الله سبحانه منك ، ويفيض عليك من الحكمة وأسرار الخلق .

(42/365)

ومثال ذلك : العبد الصالح الذي آتاه الله من عنده رحمة وعلَّمه من لدنه علماً ، هذا العبد يعلّم موسى عليه السلام ، فحين قارن بين خَرْق العبد الصالح لسفينة سليمة ، ولم يكن يعلم أن هناك حاكماً ظالماً يأخذ كل سفينة غَصْباً ؛ ولذلك ناقش موسى العبد الصالح ، وتساءل : كيف تخرق سفينة سليمة ؟ وهنا بيَّن له العبد الصالح أن الملك الظالم حين يجد السفينة مخروقة فلن يأخذها ، وهي سفينة يملكها مساكين .

وحين قَتل العبدُ الصالح غلاماً ، كان هذا الفعل في نظر موسى جريمة ، ولم يعلم سيدنا موسى ما علمه العبد الصالح أن هذا الولد سوف يسيء إلى أهله ، وأمر الله العبد الصالح بقتله قبل البلوغ حتى لا يفتن أهله ، وسوف يدخل هذا الولد الجنة ويصير من دعاميص الجنة .

ويقال : إن من يموت من قبل البلوغ ليس له مسكن محدّد في الجنة ، بل يذهب حيث يشاء ؛

فهو كالطفل الصغير الذي يدخل قصراً ، ولا يطيق البقاء في مكان واحد ، بل يذهب هنا وهناك ، وقد يذهب إلى حيث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أو أبو بكر الصديق ، أو عند أي صحابي جليل .

وأيضاً حين دخل سيدنا موسى عليه السلام مع العبد الصالح إلى قرية واستطعما أهلها فرفضوا أن يطعموهما وطلب الطعام . هو أصدق ألوان السؤال فأبى أهل القرية أن يطعموهما ، وهذا دليل الخسَّة واللؤم ؛ فأقام العبد الصالح الجدار الآيل للسقوط في تلك القرية .

ولم يكن سيدنا موسى عليه السلام قد علم ما علمه العبدُ الصالح من أن رجلاً صالحاً قد مات وترك لأولاده كنزاً تحت هذا الجدار ، وبناه بناية موقوتة بزمن بلوغ الأبناء لسن الرشد ؛ فيقع الجدار ليحد الأبناء ما ترك لهم والدهم من كنز ، ولا يجرؤ أهل القرية اللئام على السطو عليه .

إذن : هذه هباتٌ من فيض الحق سبحانه على عباده الصالحين ، وهو سبحانه وتعالى يجعل مَثَل هؤلاء العباد كالصواري المنصوبة التي تهدي الناس ، أو كالفنار الذي يهدي السفن في الظلمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(43/365)

فائدة

قال التستري :

قوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [62] قال سهل : هم الذين وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رؤوا ذكر الله » وهم المجاهدون في الله السابقون إليه الذين توالت أفعالهم على الموافقة ﴿ أولائك هُمُ المؤمنون حَقّاً ﴾ [الأنفال : 4] وقال : اجتمع الخير كله في هذه الأربعة وبها صاروا أبدالاً : إخماص البطون ، والاعتزال عن الخلق ، وسهر الليل ، والصمت .

قيل له : لِمَ سمي الأبدال أبدالاً ؟ فقال : لأنهم يبدلون الأحوال ، أخرجوا أبدانهم عن الحيل في سرهم ، ثم لا يزالوان ينقلبون من حال إلى حال ، ومن علم إلى علم ، فهم أبداً في المزيد من العلم فيما بينهم وبين ربهم .

قيل : الأوتاد أفضل أم الأبدال ؟ قال : الأوتاد .

قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن الأوتاد قد بلغوا وثبتت أركانهم ، والأبدال ينقلبون من حال إلى حال .

وقال سهل : لقيت ألفاً وخمسمائة صدّيق ، فمنهم أربعون بديلاً وسبعة أوتاد ، وطريقهم ومذهبهم ما أنا عليه .

وكان يقول : أنا حجة الله عليكم خاصة ، وعلى الناس عامة .

وكان من طريقه وسيرته أنه كان كثير الشكر والذكر ، دائم الصمت والفكر ، قليل الخلاف ، سخي النفس ، قد ساد الناس بحسن الخلق والرحمة والشفقة عليهم والنصيحة لهم ، متمسكاً بالأصل ، عاملاً بالفرع ، قد حشى الله قلبه نوراً ، وأنطق لسانه بالحكمة ، وكان من خير الأبدال ، وإن قلنا من الأوتاد فقد كان القطب الذي يدور عليه الرحى ، ولولا أن الصحابة لا يقاس بهم أحد لصحبتهم ورؤيتهم لكان كأحدهم ، عاش حميداً ومات غريباً بالبصرة رحمه الله عليه .

وقد كان رجل يصحب سهلاً يقال له عبد الرحمن بن أحمد ، فقال يوماً لسهل : يا أبا محمد ، إني ربما أتوضأ للصلاة فيسيل الماء من بين يدي فيصير قضبان ذهب وفضة .

فقال سهل : يا حبيبي ، أما علمت أن الصبي إذا بكى يناول خشخاشة حتى يشتغل بها ، فانظر أي شيء هو هذا يعمل .

وقال : كان في منزله بيت قال له بيت السباع ، وكانت السباع تجيء سهلاً ، فكان يدخلها ذلك البيت ، ويضيفها فيطعمها اللحم ، ثم يخليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 77 ﴾

فائدة

قال ابن الجوزى :

قوله تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

أخبرنا عبد الأول بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ إن الله تعالى قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي

(45/365)

عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته وفي حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ عن جبريل عليه السلام عن ربه عز وجل قال من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وإني لأسرع شيء إلي نصرة أوليائي وإني لأغضب لهم أشد من

غضب الليث الحرب أخبرنا محمد بن أبي طاهر عن حميد عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار قال قال موسى عليه السلام يا رب من أهلك الذين هم أهلك الذين تظلهم في ظل عرشك قال هم البريئة أيديهم الطاهرة قلوبهم الذين يتحابون بجلالي الذين إذا ذكرت ذكروا بي وإذا ذكروا ذكرت بذكرهم الذين يسبغون الوضوء في المكاره وينيبون إلي ذكري كما تنيب النسور إلى وكورها ويكلفون بحبي كما يكلف الصبي بحب الناس ويغضبون لمحارمي إذا استحلت كما يغضب النمر إذا حرب أخبرنا ابن ناصر بسنده عن وهب بن منبه قال قال الحواريون يا عيسى من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فقال عيسى عليه السلام الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها والذين نظروا إلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم وتركوا ما علموا أن سيتركهم فصار استكثارهم منها استقلالا وذكرهم إياها فواتا وفرحهم بما أصابوه منها حزنا فما عارضهم من نائلها رفضوه أو من رفعتها بغير الحق وضعوه خلقت الدنيا عندهم فليسوا يجددونها وخربت بينهم فليسوا يعمرونها وماتت في صدورهم فليسوا يحيونها يهدمونها فيبنون بها آخرتهم ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم رفضوها فكانوا برفضها فرحين وباعوها فكانوا ببيعها

رابحين نظروا إلى أهلها صرعى قد حلت بهم المثلات فأحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة يحبون الله ويحبون ذكره ويستضيئون بنوره لهم خبر عجيب وعندهم الخبر العجيب بهم قام الكتاب وبه قاموا وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا وبهم علم الكتاب وبه علموا ليسوا يرون نائلا ولا أمانا دون ما يرجون ولا خوفا دون ما يحذرون وقد روي ذكر عدد الأولياء في أحاديث لا تصح أخبرنا أبو الحسن الأنصاري بسنده عن عطاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ الأبدال أربعون رجلا وأربعون امرأة كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا وكلما ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة أخبرنا محمد بن عبد الباقي بسنده عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن كعب رضي الله عنه قال لم يزل في الأرض بعد نوح عليه السلام أربعة عشر يدفع بهم العذاب أخبرنا ابن ناصر بسنده عن سفيان بن عيينة قال قال أبو الزناد لما ذهبت النبوة وكانوا أوتاد الأرض أخلف الله مكانهم أربعين رجلا من أمة محمد ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يقال لهم الأبدال لا يموت الرجل منهم حتى ينشئ الله مكانه آخر يخلفه وهم أوتاد الأرض لم يفضلوا الناس بكثرة الصيام ولا بكثرة القيام ولا بحسن التخشع ولا بحسن الحلية بل بصدق الورع وحسن النية وسلامة القلوب والنصيحة لجميع المسلمين وعلامة ذلك أنهم لا يعلنون شيئا ولا يؤذنون أحدا ولا يتطاولون على أحد تحتهم ولا يحقرونه ولا يحسدون أحدا فوقهم ليسوا

بمتخشعين ولا متماوتين ولا بمعجبين ولا يحبون الدنيا ليسوا اليوم في خشية وغدا في غفلة رمضان القوم دائم وشوالهم كذلك صائم وأعيادهم سرور القوم بالمحبوب وأفراحهم بكمال التقى وترك الذنوب إذا جن عليهم الليل عادت القلوب بالمناجاة جددا

(47/365)

وإذا جاء النهار سلكوا من الجد جددا يجمعون هممهم فيما أهمهم إذا بات هم الغافل بددا جزموا على ما عزموا وما انهزموا أبدا أعيادهم بقرب القلوب إلى المحبوب دائمة وأقدامهم في الدجى على باب اللجا قائمة وأرواحهم بالاشتياق إلى الملك الخلاق هائمة قربهم مولاهم وأدنى فالنفوس عن الفاني الأدنى صائمة تزينت لهم لذات الدنيا معا فما وجدت في قلوبهم لها موضعا لما وجدوا كسرة وخلقا أقنعا (قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه

فقلت خلقة ساق حبه جرعا

(فقر وصبر هما ثوبان تحتهما

قلب يرى إلفه الأعياد والجمعا

(أحرى الملابس أن يلقى الحبيب بها

يوم التزاور في الثوب الذي خلعا

(الدهر لي مأتم إن غبت يا أملي

والعيد ما كنت لي مدا ومستمعا

إخواني ليس العيد ثوباً يجر الخيلاء جره ولا تناول مطعم بكف شره لا يؤمن شره إنما العيد لبس توبة عاص تائب يسر بقدوم قلب غائب أخبرنا أبو بكر الصوفي بسنده عن الحيري عن ابن باكوية الشيرازي قال أنشدني أبو الحسن الحنظلي قال سمعت الشبلي ينشد يوم العيد (

ليس عيد المحب قصد المصلى

وانتظار الخطيب والسلطان

(إنما العيد أن تكون لدى الحب

كريما مقربا في أمان

يا من وفى رمضان على أحسن حال لا تتغير بعده في شوال يا من رأى العيد ووصل إليه متى تشكر المنعم وتثني عليه كم من صحيح هيأ طيب عيده صار ذاك الطيب في تلحيده سلبتهم والله أيدي المنون فأنزلتهم قفراً ليس يمسكون فهم في القبور بعد البيان خرسون ومن نيل آمالهم أو بعضها آيسون وهكذا أنتم عن قريب تكونون وقد دلهم على صدق قولي ما تعملون أما ترون الأتراب كيف يتقلبون أترى ضلت الأفهام أم عميت العيون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون إلى متى ترضون من العمل بالفاسد ومن السلع بالكاسد وتنسون الحتف الرابض المستأسد لقد أشمتم بكم كل حاسد يا مظهرون ضد ما به الكتاب وارد

إلى متى تبهرجون والبصير ناقد كيف يكون حالكم وهو عليكم شاهد

عجبت من مستيقظ

والقلب منه راقد

(مضيع لدينه

(48/365)

وللذنوب زائد

(كأنه على مداه

مهمل وخالد

(فأحسنوا أعمالكم

فهي لكم قلائد

(ولا تضيعوا واجباً

واجتهدوا وجاهدوا

لله در أقوام تلمحوا العواقب فعملوا عمل مراقب وجاوزوا الفرائض إلى طلب المناقب

علت هممهم عن الدنايا وارتفعت وكفت الأكف عن الأذايا وامتنعت ووسعت خطاها

إلى الفضائل وسعت من يحب العزيد أب إليه وكذا من طلب الدر غاص عليه كانوا إذا ابتلاهم مولاهم يصبرون وإذا أعطاهم مناهم يشكرون وإذا استراح البطالون يدأبون فلو رأيتهم يوم يقول (هذا يومكم الذي كنتم توعدون

(لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) زال الخوف عنهم واندفع فأفادهم حزنهم في الدنيا ونفع وتم السرور لهم واجتمع وزال الحجاب بينهم وبينه وارتفع فهم إلى وجه الكريم ينظرون (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) قوله تعالى (الذين آمنوا وكانوا يتقون)

(49/365)

قطعوا بوحدانيته واجتمعوا على طاعته وامتنعوا من مخالفته وارتبضوا في رياض معرفته واضطبعوا بأردية خدمته واطلعوا بالعلوم على هيبته فيا بشراهم يوم يحضرون (الذين آمنوا وكانوا يتقون) امتثلوا ما أمرهم به مولاهم واجتنبوا ما عنه نهاهم فإذا أخرجهم من الدنيا وتوفاهم استقبلوا الروح والريحان وتلقاهم فإذا حضروا لديه أكرم مثواهم وكشف الحجاب فأشهدهم وأراهم وهذا غاية ما كانوا يأملون (الذين آمنوا وكانوا يتقون) كانوا يتقون الشرك والمعاصي ويجتمعون على الأمر بالخير والتواصي ويحذرون يوم الأخذ بالأقدام والنواصي فاجتهد في لحاقهم أيها العاصي قبل أن تبغتك المنون (الذين آمنوا وكانوا

يتقون) قوله تعالى (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال هي الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له كانت قلوبهم في خدمته حاضرة ونفوسهم على طاعته مثابرة وألسنتهم على الدوام ذاكرة وهممهم إلى ما يرضيه مبادرة (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) منازلهم عنده عظيمة وأنفسهم عليه كريمة كانت قلوبهم من الشك سليمة ساروا إلى الجهاد على خيل العزيمة فإذا وقعاتهم للعدو كاسرة (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) زموا مطايا الصدق وساروا وجالوا حول دار الكريم وداروا ونهضوا

(50/365)

إلى مراضيه وثاروا وطلبوا عدوهم فأوقعوا به وأغاروا فيا حسنهم إذا توجهوا إلى الصلاة واستداروا والدموع في محاربهم ماطرة (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) أقبل القوم فقبلوا وعرفوا لماذا خلقوا فعملوا إذا رجع الناس إلى لذاتهم عادوا إلى عباداتهم وإذا سكن الخلق إلى أوطانهم سكنوا إلى حرقات أشجانهم وإذا أقبل التجار على أموالهم أقبلوا على تفقد أحوالهم وإذا التذ الغافلون بالمنام على جنوبهم تلذذوا في القيام بكلام محبوبهم فلو ذقت من كئوس المناجاة الدائرة في خيمة الدجى الدائرة (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي

الآخرة) نصبوا الآخرة بين أيديهم وجدوا ومثلوا المنادي يناديهم فاستعدوا وتضرعوا في طلب الإعانة فأمدوا وأقبلوا إلى الباب صادقين فما ردوا ففازوا بالأرباح الجمة الوافرة (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) أقلقهم ذكر الذنوب فما ناموا وشوقهم رجاء المطلوب فقاموا وذكروا العرض يوم تبديل الأرض فاستقاموا وتفكروا في تصرم العمر فاجتهدوا وداموا وتذكروا سالف الذنب فوبخوا النفوس ولاموا وباتت أعينهم ساهرة لذكر أرض الساهرة (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) أذبلوا الشفاه يطلبون الشفاء بالصيام وأنصبوا لما انتصبوا الأجساد يخافون المعاد بالقيام وحفظوا الألسنة عما لا يعني عن فضول الكلام وأناخوا على باب الرجاء في الدجى إذا سجى الظلام فأنشبوا مخاليب طمعهم في العفو فإذا الأظافير ظافرة (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) يا هذا سبقك القوم وتخلفت ومضى أكثر العمر وتسوفت ثم تعصي المنعم بالنعم فما أنصفت وتؤثر الضلال على الهدى وقد عرفت أما تخاف أن تقول إذا حضرت ووقفت (تلك إذا كرة خاسرة) يا من بين يديه الحساب والصراط وهو عظيم الجرأة كثير الانبساط متكاسل في

الطاعات وفي المعاصي ذو نشاط يدعى إلى العلو ويأبى إلا الانهباط أمؤمنة هذه النفس بالوعيد أم كافرة يا مبارزاً مولاه لم يخف من بطشه يا مقبلا على الهوى لا تغترر بنفسه تفكر في من سكن الثرى بعد لين فرشه وانتبه بالتعريض قبل ظهور التصريح بفحشه أما أبقاك وأراك سواك محمولا على نعشه إلى أن ألقى في الحافرة يا خاسرا فاته جزيل الأرباح يا من أبعدته عنا خطاياه القباح يا من لو انتبه لنفسه لبكى عليها وناح أتأمن عليها أن تؤخذ على بعض الاجتراح فيفعل بها فاقرة أيقظنا الله وإياكم من هذه الرقدة وحفظ إيماننا ولا أذاقنا فقده. انتهى انتهى. اهـ ﴿التبصرة حـ2 صـ118.125﴾

(52/365)

فَصْلٌ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

وَ" أَوْلِيَاءُ اللَّهِ " هُمْ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ. وَهُمْ " قِسْمَانِ " : الْمُقْتَصِدُونَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ وَالْمُقَرَّبُونَ السَّابِقُونَ. فَوَلِيُّ اللَّهِ ضِدُّ عَدُوِّ اللَّهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَا إنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ -إلَى قَوْلِهِ- ﴿ وَمَنْ

يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْت عَلَيْهِ وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ؛ فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْت عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ

(53/365)

عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ ﴾ .

(54/365)

وَ " الْوَلِيُّ " مُشْتَقٌّ مِنْ الْوَلَاءِ وَهُوَ الْقُرْبُ كَمَا أَنَّ الْعَدُوَّ مِنْ الْعَدْوِ وَهُوَ الْبُعْدُ . فَوَلِيُّ اللَّهِ مَنْ وَالَاهُ بِالْمُوَافَقَةِ لَهُ فِي مَحْبُوبَاتِهِ وَمَرْضِيَّاتِهِ وَتَقَرَّبَ إلَيْهِ بِمَا أُمِرَ بِهِ مِنْ طَاعَاتِهِ . وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الصِّنْفَيْنِ الْمُقْتَصِدِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَهُمْ الْمُتَقَرِّبُونَ إلَى اللَّهِ بِالْوَاجِبَاتِ وَالسَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ وَهُمْ الْمُتَقَرِّبُونَ إلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْوَاجِبَاتِ . وَذَكَرَ اللَّهُ " الصِّنْفَيْنِ " فِي " سُورَةِ فَاطِرٍ " وَ " الْوَاقِعَةِ " وَ " الْإِنْسَانِ " وَ " الْمُطَفِّفِينَ " وَأَخْبَرَ أَنَّ الشَّرَابَ الَّذِي يُرْوَى بِهِ الْمُقَرَّبُونَ بِشُرْبِهِمْ إيَّاهُ صِرْفًا يُمْزَجُ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ . وَ " الْوَلِيُّ الْمُطْلَقُ " هُوَ مَنْ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ . فَأَمَّا إنْ قَامَ بِهِ الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَى وَكَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ يَرْتَدُّ عَنْ ذَلِكَ فَهَلْ يَكُونُ فِي حَالِ إيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ وَلِيًّا لِلَّهِ أَوْ يُقَالُ لَمْ يَكُنْ وَلِيًّا لِلَّهِ قَطُّ لِعِلْمِ اللَّهِ بِعَاقِبَتِهِ ؟ هَذَا فِيهِ قَوْلَانِ لِلْعُلَمَاءِ . وَكَذَلِكَ عِنْدَهُمْ الْإِيمَانُ الَّذِي يَعْقُبُهُ الْكُفْرُ هَلْ هُوَ إيمَانٌ صَحِيحٌ ثُمَّ يَبْطُلُ بِمَنْزِلَةِ مَا يُحْبَطُ مِنْ الْأَعْمَالِ بَعْدَ كَمَالِهِ أَوْ هُوَ إيمَانٌ بَاطِلٌ بِمَنْزِلَةِ مَنْ أَفْطَرَ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فِي صِيَامِهِ وَمَنْ أَحْدَثَ قَبْلَ السَّلَامِ فِي صَلَاتِهِ . فِيهِ أَيْضًا قَوْلَانِ : لِلْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَالصُّوفِيَّةِ .

(55/365)

وَالنِّزَاعُ فِي ذَلِكَ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ مِنْ أَصْحَابِ الْإِمَامِ أَحْمَد وَغَيْرِهِمْ وَكَذَلِكَ يُوجَدُ النِّزَاعُ فِيهِ بَيْنَ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِمْ . لَكِنَّ أَكْثَرَ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ لَا يَشْتَرِطُونَ سَلَامَةَ الْعَاقِبَةِ وَكَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد يَشْتَرِطُ سَلَامَةَ الْعَاقِبَةِ وَهُوَ قَوْلُ كَثِيرٍ مِنْ مُتَكَلِّمِي أَهْلِ الْحَدِيثِ : كَالْأَشْعَرِيِّ وَمِنْ مُتَكَلِّمِي الشِّيعَةِ وَيَبْنُونَ عَلَى هَذَا النِّزَاعِ : إنَّ وَلِيَّ اللَّهِ هَلْ يَصِيرُ عَدُوًّا لِلَّهِ وَبِالْعَكْسِ ؟ وَمَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ . هَلْ أَبْغَضَهُ وَسَخِطَ عَلَيْهِ فِي وَقْتٍ مَا وَبِالْعَكْسِ ؟ وَمَنْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ وَسَخِطَ عَلَيْهِ هَلْ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ فِي وَقْتٍ مَا عَلَى الْقَوْلَيْنِ ؟ . وَ " التَّحْقِيقُ " هُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ . فَإِنَّ عِلْمَ اللَّهِ الْقَدِيمَ الْأَزَلِيَّ وَمَا يَتْبَعُهُ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ وَبُغْضِهِ وَسُخْطِهِ وَوِلَايَتِهِ وَعَدَاوَتِهِ لَا يَتَغَيَّرُ . فَمَنْ عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُ أَنَّهُ يُوَافِي حِينَ مَوْتِهِ بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى فَقَدْ تَعَلَّقَ بِهِ مَحَبَّةُ اللَّهِ وَوِلَايَتُهُ وَرِضَاهُ عَنْهُ أَزَلًا وَأَبَدًا وَكَذَلِكَ مَنْ عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُ أَنَّهُ يُوَافِي حِينَ مَوْتِهِ بِالْكُفْرِ فَقَدْ تَعَلَّقَ بِهِ بُغْضُ اللَّهِ وَعَدَاوَتُهُ وَسُخْطُهُ أَزَلًا وَأَبَدًا لَكِنْ مَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبْغِضُ مَا قَامَ بِالْأَوَّلِ مِنْ كُفْرٍ وَفُسُوقٍ قَبْلَ مَوْتِهِ . وَقَدْ يُقَالُ : إنَّهُ يُبْغِضُهُ وَيَمْقُتُهُ عَلَى ذَلِكَ كَمَا يَنْهَاهُ عَنْ ذَلِكَ وَهُوَ سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى يَأْمُرُ بِمَا فَعَلَهُ الثَّانِي مِنْ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى وَيُحِبُّ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَرْضَاهُ وَقَدْ يُقَالُ إنَّهُ يُوَالِيه حِينَئِذٍ عَلَى ذَلِكَ . وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ : اتِّفَاقُ الْأَئِمَّةِ عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا ثُمَّ ارْتَدَّ

(57/365)

فَإِنَّهُ لَا يُحْكَمُ بِأَنَّ إيمَانَهُ الْأَوَّلَ كَانَ فَاسِدًا بِمَنْزِلَةِ مَنْ أَفْسَدَ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْحَجَّ قَبْلَ الْإِكْمَالِ ؛ وَإِنَّمَا يُقَالُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ وَقَالَ ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وَلَوْ كَانَ فَاسِدًا فِي نَفْسِهِ لَوَجَبَ الْحُكْمُ بِفَسَادِ أَنْكِحَتِهِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَتَحْرِيمِ ذَبَائِحِهِ وَبُطْلَانِ إرْثِهِ الْمُتَقَدِّمِ وَبُطْلَانِ عِبَادَاتِهِ جَمِيعِهَا حَتَّى لَوْ كَانَ قَدْ حَجَّ عَنْ غَيْرِهِ كَانَ حَجُّهُ بَاطِلًا وَلَوْ صَلَّى مُدَّةً بِقَوْمٍ ثُمَّ ارْتَدَّ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُعِيدُوا صَلَاتَهُمْ خَلْفَهُ وَلَوْ شَهِدَ أَوْ حَكَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ لَوَجَبَ أَنْ تَفْسُدَ شَهَادَتُهُ وَحُكْمُهُ وَنَحْوُ ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ أَيْضًا الْكَافِرُ إذَا تَابَ مِنْ كُفْرِهِ لَوْ كَانَ مَحْبُوبًا لِلَّهِ وَلِيًّا لَهُ فِي حَالِ كُفْرِهِ لَوَجَبَ أَنْ يُقْضَى بِعَدَمِ إحْكَامِ ذَلِكَ الْكُفْرِ وَهَذَا كُلُّهُ خِلَافُ مَا ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ . وَالْكَلَامُ فِي هَذِهِ " الْمَسْأَلَةِ " نَظِيرُ الْكَلَامِ فِي الْأَرْزَاقِ وَالْآجَالِ وَهِيَ أَيْضًا مَبْنِيَّةٌ عَلَى " قَاعِدَةِ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ " وَهِيَ قَاعِدَةٌ كَبِيرَةٌ .

وَعَلَى هَذَا يَخْرُجُ جَوَابُ السَّائِلِ فَمَنْ قَالَ : إنَّ وَلِيَّ اللَّهِ لَا يَكُونُ إلَّا مَنْ وَافَاهُ حِينَ الْمَوْتِ

بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى فَالْعِلْمُ بِذَلِكَ أَصْعَبُ عَلَيْهِ وَعَلَى غَيْرِهِ . وَمَنْ قَالَ : قَدْ يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا وَإِنْ لَمْ تُعْلَمْ

(58/365)

عَاقِبَتُهُ فَالْعِلْمُ بِهِ أَسْهَلُ .

وَمَعَ هَذَا يُمْكِنُ الْعِلْمُ بِذَلِكَ لِلْوَلِيِّ نَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ وَلَكِنَّهُ قَلِيلٌ وَلَا يَجُوزُ لَهُمْ الْقَطْعُ عَلَى ذَلِكَ فَمَنْ ثَبَتَتْ وِلَايَتُهُ بِالنَّصِّ . وَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ كَالْعَشْرَةِ وَغَيْرِهِمْ فَعَامَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ يَشْهَدُونَ لَهُ بِمَا شَهِدَ لَهُ بِهِ النَّصُّ .

(59/365)

وَأَمَّا مَنْ شَاعَ لَهُ لِسَانُ صِدْقٍ فِي الْأُمَّةِ بِحَيْثُ اتَّفَقَتْ الْأُمَّةُ عَلَى الثَّنَاءِ عَلَيْهِ فَهَلْ يَشْهَدُ لَهُ بِذَلِكَ ؟ هَذَا فِيهِ نِزَاعٌ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْأَشْبَهُ أَنْ يَشْهَدَ لَهُ بِذَلِكَ . هَذَا فِي الْأَمْرِ الْعَامِّ .

وَأَمَّا " خَوَاصُّ النَّاسِ " فَقَدْ يَعْلَمُونَ عَوَاقِبَ أَقْوَامٍ بِمَا كَشَفَ اللَّهُ لَهُمْ لَكِنَّ هَذَا لَيْسَ مِمَّنْ يَجِبُ التَّصْدِيقُ الْعَامُّ بِهِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَظُنُّ بِهِ أَنَّهُ حَصَلَ لَهُ هَذَا الْكَشْفُ يَكُونُ ظَانًّا فِي

ذَلِكَ ظَنًّا لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا وَأَهْلُ الْمُكَاشَفَاتِ وَالْمُخَاطَبَاتِ يُصِيبُونَ تَارَةً ؛ وَيُخْطِئُونَ أُخْرَى ؛ كَأَهْلِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ فِي مَوَارِدِ الِاجْتِهَادِ ؛ وَلِهَذَا وَجَبَ عَلَيْهِمْ جَمِيعُهُمْ أَنْ يَعْتَصِمُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنْ يَزِنُوا مَوَاجِيدَهُمْ وَمُشَاهَدَتَهُمْ وَآرَاءَهُمْ وَمَعْقُولَاتِهِمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ؛ وَلَا يَكْتَفُوا بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ سَيِّدَ الْمُحَدَّثِينَ وَالْمُخَاطَبِينَ الْمُلْهَمِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ هُوَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؛ وَقَدْ كَانَتْ تَقَعُ لَهُ وَقَائِعُ فَيَرُدُّهَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ صَدِيقُهُ التَّابِعُ لَهُ الْآخِذُ عَنْهُ الَّذِي هُوَ أَكْمَلُ مِنْ الْمُحَدَّثِ الَّذِي يُحَدِّثُهُ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ . وَلِهَذَا وَجَبَ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(60/365)

وَطَاعَتُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِيهِ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَحْتَاجُ إلَى عَرْضِهِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَكَانَ مُسْتَغْنِيًا عَنْ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ دِينِهِ . وَهَذَا مِنْ أَقْوَالِ الْمَارِقِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ مَعَ الرَّسُولِ كَالْخَضِرِ مَعَ مُوسَى وَمَنْ قَالَ هَذَا فَهُوَ كَافِرٌ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إلَّا إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ

آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ لِلرَّسُولِ وَلِلنَّبِيِّ أَنْ يَنْسَخَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ وَلَمْ يَضْمَنْ ذَلِكَ لِلْمُحَدَّثِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ فِي الْحَرْفِ الْآخَرِ الَّذِي كَانَ يَقْرَأُ بِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِك مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ وَلَا مُحَدَّثٍ إلَّا إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ وَيُحْتَمَلُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ أَنْ لَا يَكُونَ هَذَا الْحَرْفُ مَتْلُوًّا حَيْثُ لَمْ يَضْمَنْ نَسْخَ مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّةِ الْمُحَدَّثِ ؛ فَإِنَّ نَسْخَ مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ لَيْسَ إلَّا لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ إذْ هُمْ مَعْصُومُونَ فِيمَا يُبَلِّغُونَهُ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَسْتَقِرَّ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ إلْقَاءِ الشَّيْطَانِ وَغَيْرِهِمْ لَا تَجِبُ عِصْمَتُهُ مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ فَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ أَلَّا يَكُونُوا

(61/365)

مُخْطِئِينَ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ خَطَأً مَغْفُورًا لَهُمْ ؛ بَلْ

(62/365)

وَلَا مِنْ شَرْطِهِمْ تَرْكُ الصَّغَائِرِ مُطْلَقًا بَلْ وَلَا مِنْ شَرْطِهِمْ تَرْكُ الْكَبَائِرِ أَوْ الْكُفْرُ الَّذِي تَعْقُبُهُ التَّوْبَةُ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فَقَدْ وَصَفَهُمْ اللَّهُ بِأَنَّهُمْ هُمْ الْمُتَّقُونَ . وَ " الْمُتَّقُونَ " هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَمَعَ هَذَا فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُكَفِّرُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا . وَهَذَا أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ . وَإِنَّمَا يُخَالِفُ فِي ذَلِكَ الْغَالِيَةُ مِنْ الرَّافِضَةِ وَأَشْبَاهُ الرَّافِضَةِ مِنْ الْغَالِيَةِ فِي بَعْضِ الْمَشَايِخِ وَمَنْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ . فَالرَّافِضَةُ تَزْعُمُ أَنَّ " الِاثْنَيْ عَشَرَ " مَعْصُومُونَ مِنْ الْخَطَأِ وَالذَّنْبِ . وَيَرَوْنَ هَذَا مِنْ أُصُولِ دِينِهِمْ وَالْغَالِيَةُ فِي الْمَشَايِخِ قَدْ يَقُولُونَ : إنَّ الْوَلِيَّ مَحْفُوظٌ وَالنَّبِيَّ مَعْصُومٌ . وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ إنْ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ بِلِسَانِهِ ؛ فَحَالُهُ حَالُ مَنْ يَرَى أَنَّ الشَّيْخَ وَالْوَلِيَّ لَا يُخْطِئُ وَلَا يُذْنِبُ . وَقَدْ بَلَغَ الْغُلُوُّ بِالطَّائِفَتَيْنِ إلَى أَنْ يَجْعَلُوا بَعْضَ مَنْ غَلَوْا فِيهِ بِمَنْزِلَةِ النَّبِيِّ وَأَفْضَلَ مِنْهُ وَإِنْ زَادَ الْأَمْرُ جَعَلُوا لَهُ نَوْعًا مِنْ الْإِلَهِيَّةِ وَكُلُّ هَذَا مِنْ الضَّلَالَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ الْمُضَاهِيَةِ لِلضَّلَالَاتِ النَّصْرَانِيَّةِ . فَإِنَّ فِي النَّصَارَى مِنْ الْغُلُوِّ فِي

الْمَسِيحِ وَالْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ مَا ذَمَّهُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ ؛ وَجَعَلَ ذَلِكَ عِبْرَةً لَنَا ؛ لِئَلَّا نَسْلُكَ سَبِيلَهُمْ وَلِهَذَا قَالَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ : ﴿ لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ . فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا : عَبْدُ اللَّهِ ؛ وَرَسُولُهُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 11 صـ 61.68 ﴾

(64/365)

وقال أيضا عليه الرحمة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ . وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا . أَرْسَلَهُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا فَهَدَى بِهِ مِنْ الضَّلَالَةِ وَبَصَّرَ بِهِ مِنْ الْعَمَى وَأَرْشَدَ بِهِ مِنْ الْغَيِّ وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا وَفَرَقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ وَالرَّشَادِ وَالْغَيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ

(65/365)

وَالْكُفَّارِ . وَالسُّعَدَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالْأَشْقِيَاءِ أَهْلِ النَّارِ وَبَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَاءِ اللَّهِ فَمَنْ شَهِدَ لَهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَمَنْ شَهِدَ لَهُ بِأَنَّهُ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ . وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ لِلَّهِ أَوْلِيَاءَ مِنْ النَّاسِ وَلِلشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَ فَفَرَّقَ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ فَقَالَ تَعَالَى ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾

﴾

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ

(67/365)

يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ . وَذَكَرَ " أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ " فَقَالَ تَعَالَى ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ

أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴾ . وقال تعالى ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ

(68/365)

إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ الْآيَاتِ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

فَصْلٌ :

(69/365)

وَإِذَا عُرِفَ أَنَّ النَّاسَ فِيهِمْ " أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ " فَيَجِبُ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كَمَا فَرَّقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بَيْنَهُمَا فَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ أَلَا إنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ . وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ يَقُولُ اللَّهُ : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ - أَوْ فَقَدْ آذَنْته بِالْحَرْبِ - وَمَا تَقَرَّبَ إلَيَّ

(70/365)

عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْت عَلَيْهِ وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي . وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَ بِي لَأُعِيذَنهُ وَمَا تَرَدَّدْت عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ

يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ ﴾ وَهَذَا أَصَحُّ حَدِيثٍ يُرْوَى فِي الْأَوْلِيَاءِ فَبَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مَنْ عَادَى وَلِيًّا لِلَّهِ فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ . وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ ﴿ وَإِنِّي لَأَثْأَرُ لِأَوْلِيَائِي كَمَا يَثْأَرُ اللَّيْثُ الْحَرِبُ ﴾ أَيْ آخُذُ ثَأْرَهُمْ مِمَّنْ عَادَاهُمْ كَمَا يَأْخُذُ اللَّيْثُ الْحَرِبُ ثَأْرَهُ وَهَذَا لِأَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَوَالَوْهُ فَأَحَبُّوا مَا يُحِبُّ وَأَبْغَضُوا مَا يُبْغِضُ وَرَضُوا بِمَا يَرْضَى وَسَخِطُوا بِمَا يَسْخَطُ وَأَمَرُوا بِمَا يَأْمُرُ وَنَهَوْا عَمَّا نَهَى وَأَعْطَوْا لِمَنْ يُحِبُّ أَنْ يُعْطَى وَمَنَعُوا مَنْ يُحِبُّ أَنْ يُمْنَعَ كَمَا فِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ : الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ ﴾ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد قَالَ ﴿ وَمَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ ﴾ . وَ " الْوِلَايَةُ " ضِدُّ

(71/365)

الْعَدَاوَةِ وَأَصْلُ الْوِلَايَةِ الْمَحَبَّةُ وَالْقُرْبُ وَأَصْلُ

(72/365)

الْعَدَاوَةِ الْبُغْضُ وَالْبُعْدُ . وَقَدْ قِيلَ : إنَّ الْوَلِيَّ سُمِّيَ وَلِيًّا مِنْ مُوَالَاتِهِ لِلطَّاعَاتِ أَيْ مُتَابَعَتِهِ لَهَا وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ . وَالْوَلِيُّ الْقَرِيبُ فَيُقَالُ : هَذَا يَلِي هَذَا أَيْ يَقْرُبُ مِنْهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا أَبْقَتْ الْفَرَائِضُ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ ﴾ أَيْ لِأَقْرَبِ رَجُلٍ إلَى الْمَيِّتِ . وَأَكَّدَهُ بِلَفْظِ " الذَّكَرِ " لِيُبَيِّنَ أَنَّهُ حُكْمٌ يَخْتَصُّ بِالذُّكُورِ وَلَا يَشْتَرِكُ فِيهَا الذُّكُورُ وَالْإِنَاثُ كَمَا قَالَ فِي الزَّكَاةِ ﴿ فَابْنُ لَبُونٍ ذَكَرٍ ﴾ . فَإِذَا كَانَ وَلِيُّ اللَّهِ هُوَ الْمُوَافِقُ الْمُتَابِعُ لَهُ فِيمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَيُبْغِضُهُ وَيُسْخِطُهُ وَيَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ كَانَ الْمُعَادِي لِوَلِيِّهِ مُعَادِيًا لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ فَمَنْ عَادَى أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فَقَدْ عَادَاهُ وَمَنْ عَادَاهُ فَقَدْ حَارَبَهُ فَلِهَذَا قَالَ ﴿ وَمَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ ﴾ . وَأَفْضَلُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ هُمْ أَنْبِيَاؤُهُ وَأَفْضَلُ أَنْبِيَائِهِ هُمْ الْمُرْسَلُونَ مِنْهُمْ وَأَفْضَلُ الْمُرْسَلِينَ أُولُو الْعَزْمِ : نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ

وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ

(74/365)

مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ . وَأَفْضَلُ أُولِي الْعَزْمِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَإِمَامُ الْأَنْبِيَاءِ إذَا اجْتَمَعُوا وَخَطِيبُهُمْ إذَا وَفَدُوا صَاحِبُ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ الَّذِي يَغْبِطُهُ بِهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخَرُونَ وَصَاحِبُ لِوَاءِ الْحَمْدِ وَصَاحِبُ الْحَوْضِ الْمَوْرُودِ وَشَفِيعُ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَصَاحِبُ الْوَسِيلَةِ وَالْفَضِيلَةِ الَّذِي بَعَثَهُ بِأَفْضَلِ كُتُبِهِ وَشَرَعَ لَهُ أَفْضَلَ شَرَائِعِ دِينِهِ وَجَعَلَ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ وَجَمَعَ لَهُ وَلِأُمَّتِهِ مِنْ الْفَضَائِلِ وَالْمَحَاسِنِ مَا فَرَّقَهُ فِيمَنْ قَبْلَهُمْ وَهُمْ آخِرُ الْأُمَمِ خَلْقًا وَأَوَّلُ الْأُمَمِ بَعْثًا كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ ؛ فَهَذَا يَوْمُهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ - يَعْنِي يَوْمَ الْجُمُعَةِ - فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ : النَّاسُ لَنَا تَبَعٌ فِيهِ غَدًا لِلْيَهُودِ وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى ﴾ . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ ﴾ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ آتِي

بَابَ الْجَنَّةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ : مَنْ أَنْتَ . فَأَقُولُ أَنَا مُحَمَّدٌ فَيَقُولُ بِكَ أُمِرْتُ أَلَّا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ ﴾ .

(75/365)

وَفَضَائِلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفَضَائِلُ أُمَّتِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْ حِينِ بَعَثَهُ اللَّهُ جَعَلَهُ اللَّهُ الْفَارِقَ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ فَلَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ إلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا وَمَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ وَوِلَايَتَهُ وَهُوَ لَمْ يَتَّبِعْهُ فَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ ؛ بَلْ مَنْ خَالَفَهُ كَانَ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ ادَّعَى قَوْمٌ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِحْنَةً لَهُمْ وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ فِيهَا أَنَّ مَنْ اتَّبَعَ الرَّسُولَ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ وَمَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ وَلَمْ يَتَّبِعْ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَظُنُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَوْ فِي غَيْرِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَلَا يَكُونُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ الْآيَةَ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴾

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . وَكَانَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُ اللَّهِ لِسُكْنَاهُمْ مَكَّةَ وَمُجَاوَرَتِهِمْ الْبَيْتَ وَكَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ كَمَا

(76/365)

قَالَ تَعَالَى ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ﴾ ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

(77/365)

وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَيْسُوا أَوْلِيَاءَهُ وَلَا أَوْلِيَاءَ بَيْتِهِ إنَّمَا أَوْلِيَاؤُهُ الْمُتَّقُونَ . وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَمْرِو بْنِ العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ جِهَارًا مِنْ غَيْرِ سِرٍّ : ﴿ إنَّ آلَ فُلَانٍ لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ - يَعْنِي طَائِفَةً مِنْ أَقَارِبِهِ - إنَّمَا وَلِيِّي اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَهَذَا مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الْآيَةَ . وَصَالِحُ

الْمُؤْمِنِينَ هُوَ مَنْ كَانَ صَالِحًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ . وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَسَائِرُ أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَكَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ وَكُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ وَمِثْلُ هَذَا الْحَدِيثِ الْآخَرِ : ﴿ إنَّ أَوْلِيَائِي الْمُتَّقُونَ أَيًّا كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا ﴾ . كَمَا أَنَّ مِنْ الْكُفَّارِ مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ وَلَيْسَ وَلِيًّا لِلَّهِ ؛ بَلْ عَدُوٌّ لَهُ فَكَذَلِكَ مَنَّ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ يُقِرُّونَ فِي الظَّاهِرِ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّهُ مُرْسَلٌ إلَى جَمِيعِ الْإِنْسِ ؛ بَلْ إلَى الثَّقَلَيْنِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ

(78/365)

وَيَعْتَقِدُونَ فِي الْبَاطِنِ

(79/365)

مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ مِثْلُ أَلَّا يُقِرُّوا فِي الْبَاطِنِ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَإِنَّمَا كَانَ مَلِكًا مُطَاعًا سَاسَ النَّاسَ بِرَأْيِهِ مِنْ جِنْسِ غَيْرِهِ مِنْ الْمُلُوكِ أَوْ يَقُولُونَ إنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إلَى الْأُمِّيِّينَ دُونَ أَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَوْ أَنَّهُ مُرْسَلٌ إلَى عَامَّةِ الْخَلْقِ وَأَنَّ لِلَّهِ أَوْلِيَاءَ خَاصَّةً لَمْ يُرْسِلْ إلَيْهِمْ وَلَا يَحْتَاجُونَ إلَيْهِ ؛ بَلْ لَهُمْ طَرِيقٌ إلَى اللَّهِ مِنْ غَيْرِ جِهَتِهِ كَمَا كَانَ الْخَضِرُ مَعَ مُوسَى أَوْ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ عَنْ اللَّهِ كُلَّ مَا يَحْتَاجُونَ إلَيْهِ وَيَنْتَفِعُونَ بِهِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ أَوْ أَنَّهُ مُرْسَلٌ بِالشَّرَائِعِ الظَّاهِرَةِ وَهُمْ مُوَافِقُونَ لَهُ فِيهَا وَأَمَّا الْحَقَائِقُ الْبَاطِنَةُ فَلَمْ يُرْسَلْ بِهَا أَوْ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهَا أَوْ هُمْ أَعْرَفُ بِهَا مِنْهُ أَوْ يَعْرِفُونَهَا مِثْلَ مَا يَعْرِفُهَا مِنْ غَيْرِ طَرِيقَتِهِ . وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُ هَؤُلَاءِ : إنَّ " أَهْلَ الصُّفَّةِ " كَانُوا مُسْتَغْنِينَ عَنْهُ وَلَمْ يُرْسَلْ إلَيْهِمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إنَّ اللَّهَ أَوْحَى إلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فِي الْبَاطِنِ مَا أَوْحَى إلَيْهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ فَصَارَ أَهْلُ الصُّفَّةِ بِمَنْزِلَتِهِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ فَرْطِ جَهْلِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ بِمَكَّةَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ وَأَنَّ الصُّفَّةَ لَمْ تَكُنْ إلَّا بِالْمَدِينَةِ وَكَانَتْ صُفَّةٌ فِي شَمَالِيِّ مَسْجِدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْزِلُ بِهَا

(80/365)

الْغُرَبَاءُ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ أَهْلٌ وَأَصْحَابٌ يَنْزِلُونَ عِنْدَهُمْ ؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يُهَاجِرُونَ إِلَى النَّبِيِّ

(81/365)

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ فَمَنْ أَمْكَنَهُ أَنْ يَنْزِلَ فِي مَكَانٍ نَزَلَ بِهِ وَمَنْ تَعَذَّرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ نَزَلَ فِي الْمَسْجِدِ إلَى أَنْ يَتَيَسَّرَ لَهُ مَكَانٌ يَنْتَقِلُ إلَيْهِ . وَلَمْ يَكُنْ " أَهْلُ الصُّفَّةِ " نَاسًا بِأَعْيَانِهِمْ يُلَازِمُونَ الصُّفَّةَ بَلْ كَانُوا يَقِلُّونَ تَارَةً وَيَكْثُرُونَ أُخْرَى وَيُقِيمُ الرَّجُلُ بِهَا زَمَانًا ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْهَا : وَالَّذِينَ يَنْزِلُونَ بِهَا مِنْ جِنْسِ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ ؛ لَيْسَ لَهُمْ مَزِيَّةٌ فِي عِلْمٍ وَلَا دِينٍ ؛ بَلْ فِيهِمْ مَنْ ارْتَدَّ عَنْ الْإِسْلَامِ وَقَتَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كالعرنيين الَّذِينَ اجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ – أَيْ اسْتَوْخَمُوهَا – فَأَمَرَ لَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلِقَاحٍ – أَيْ إبِلٍ لَهَا لَبَنٌ – وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا فَلَمَّا صَحُّوا قَتَلُوا الرَّاعِيَ وَاسْتَاقُوا الذَّوْدَ فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي طَلَبِهِمْ فَأُتِيَ بِهِمْ فَأَمَرَ بِقَطْعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ وَسُمِّرَتْ أَعْيُنُهُمْ وَتَرَكَهُمْ فِي الْحَرَّةِ يَسْتَسْقُونَ فَلَا يُسْقَوْنَ وَحَدِيثُهُمْ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَفِيهِ أَنَّهُمْ نَزَلُوا الصُّفَّةَ فَكَانَ يَنْزِلُهَا مِثْلُ هَؤُلَاءِ وَنَزَلَهَا مِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَهُوَ أَفْضَلُ مَنْ

نَزَلَ بِالصُّفَّةِ ثُمَّ انْتَقَلَ عَنْهَا وَنَزَلَهَا أَبُو هُرَيْرَةَ وَغَيْرُهُ . وَقَدْ جَمَعَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي تَارِيخَ مَنْ نَزَلَ الصُّفَّةَ . وَأَمَّا " الْأَنْصَارُ " فَلَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ

(82/365)

وَكَذَلِكَ أَكَابِرُ الْمُهَاجِرِينَ كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ

(83/365)

بْنِ عَوْفٍ وَأَبِي عُبَيْدَةَ وَغَيْرِهِمْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ . وَقَدْ ﴿ رُوِيَ أَنَّهُ بِهَا غُلَامٌ لِلْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : هَذَا وَاحِدٌ مِنْ السَّبْعَةِ ﴾ وَهَذَا الْحَدِيثُ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَإِنْ كَانَ قَدْ رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحِلْيَةِ وَكَذَا كُلُّ حَدِيثٍ يُرْوَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عِدَّةِ " الْأَوْلِيَاءِ " وَ " الْأَبْدَالِ " وَ " النُّقَبَاءِ " وَ " النُّجَبَاءِ " وَ " الْأَوْتَادِ " وَ " الْأَقْطَابِ " مِثْلُ أَرْبَعَةٍ أَوْ سَبْعَةٍ أَوْ اثْنَيْ عَشَرَ أَوْ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ أَوْ ثَلَاثِمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ أَوْ الْقُطْبَ الْوَاحِدَ فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ صَحِيحٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَنْطِقْ السَّلَفُ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ إلَّا بِلَفْظِ " الْأَبْدَالِ " . وَرُوِيَ فِيهِمْ حَدِيثُ

أَنَّهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا وَأَنَّهُمْ بِالشَّامِ وَهُوَ فِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ حَدِيثٌ مُنْقَطِعٌ لَيْسَ بِثَابِتٍ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ عَلِيًّا وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الصَّحَابَةِ كَانُوا أَفْضَلَ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَمَنْ مَعَهُ بِالشَّامِ فَلَا يَكُونُ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي عَسْكَرِ مُعَاوِيَةَ دُونَ عَسْكَرِ عَلِيٍّ وَقَدْ أَخْرَجَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ تَمْرُقُ مَارِقَةٌ مِنْ الدِّينِ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَقْتُلُهُمْ أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ ﴾ وَهَؤُلَاءِ الْمَارِقُونَ هُمْ الْخَوَارِجُ الحرورية الَّذِينَ مَرَقُوا

(84/365)

لَمَّا حَصَلَتْ الْفُرْقَةُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي خِلَافَةِ عَلِيٍّ فَقَتَلَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابُهُ فَدُلَّ هَذَا الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ عَلَى أَنَّ عَلِيَّ

بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَأَصْحَابِهِ ؛ وَكَيْفَ يَكُونُ الْأَبْدَالُ فِي أَدْنَى الْعَسْكَرَيْنِ دُونَ أَعْلَاهُمَا ؟ وَكَذَلِكَ مَا يَرْوِيهِ بَعْضُهُمْ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ أَنْشَدَ مُنْشِدَ :

قَدْ لَسَعَتْ حَيَّةُ الْهَوَى كَبِدِي * * * فَلَا طَبِيبَ لَهَا وَلَا رَاقِي

إلَّا الْحَبِيبُ الَّذِي شُغِفْت بِهِ * * * فَعِنْدَهُ رُقْيَتِي وَتِرْيَاقِي

وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوَاجَدَ حَتَّى سَقَطَتْ الْبُرْدَةُ عَنْ مَنْكِبِهِ ﴾ فَإِنَّهُ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ وَأَكْذَبُ مِنْهُ مَا يَرْوِيهِ بَعْضُهُمْ : ﴿ أَنَّهُ مَزَّقَ ثَوْبَهُ وَأَنَّ جِبْرِيلَ أَخَذَ قِطْعَةً مِنْهُ فَعَلَّقَهَا عَلَى الْعَرْشِ ﴾ فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِمَّا يَعْرِفُ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مِنْ أَظْهَرِ الْأَحَادِيثِ كَذِبًا عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَكَذَلِكَ مَا يَرْوُونَهُ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ يَتَحَدَّثَانِ وَكُنْت بَيْنَهُمَا كَالزِّنْجِيِّ ﴾ وَهُوَ كَذِبٌ مَوْضُوعٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ .

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ فِيمَنْ يُقِرُّ بِرِسَالَتِهِ الْعَامَّةِ فِي الظَّاهِرِ مَنْ يَعْتَقِدُ فِي الْبَاطِنِ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ فَيَكُونُ مُنَافِقًا وَهُوَ يَدَّعِي فِي نَفْسِهِ وَأَمْثَالِهِ

(85/365)

أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ مَعَ كُفْرِهِمْ فِي الْبَاطِنِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمَّا عِنَادًا وَإِمَّا جَهْلًا كَمَا أَنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ؛ وَلَكِنْ يَقُولُونَ إنَّمَا أُرْسِلَ إلَى غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَأَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْنَا اتِّبَاعُهُ لِأَنَّهُ أَرْسَلَ إلَيْنَا رُسُلًا قَبْلَهُ فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ كُفَّارٌ مَعَ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي طَائِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَوْلِيَاءُ

اللَّهِ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِوِلَايَتِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

(86/365)

وَلَا بُدَّ فِي الْإِيمَانِ مِنْ أَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُؤْمِنُ بِكُلِّ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ وَكُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ . وَقَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ : ﴿ الم ﴾ ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾

(87/365)

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . فَلَا بُدَّ فِي الْإِيمَانِ مِنْ أَنْ تُؤْمِنَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَأَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فَكُلُّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جَاءَ بِهِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ ؛ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ ؛ وَمَنْ آمَنَ بِبَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ كَافِرٌ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ وَمِنْ الْإِيمَانِ بِهِ الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ الْوَاسِطَةُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي تَبْلِيغِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ . وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ ؛ فَالْحَلَالُ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالدِّينُ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ

الْأَوْلِيَاءِ طَرِيقًا إِلَى اللَّهِ مِنْ غَيْرِ مُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ كَافِرٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ .

وَأَمَّا خَلْقُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْخَلْقِ وَرِزْقُهُ إِيَّاهُمْ وَإِجَابَتُهُ لِدُعَائِهِمْ وَهِدَايَتُهُ لِقُلُوبِهِمْ وَنَصْرُهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ فَهَذَا لِلَّهِ وَحْدَهُ يَفْعَلُهُ بِمَا يَشَاءُ مِنْ الْأَسْبَابِ لَا يَدْخُلُ فِي مِثْلِ هَذَا وَسَاطَةُ الرُّسُلِ . ثُمَّ لَوْ بَلَغَ الرَّجُلُ فِي " الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ وَالْعِلْمِ " مَا بَلَغَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَلَا وَلِيٍّ لِلَّهِ تَعَالَى كَالْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَعُبَّادِهِمْ : وَكَذَلِكَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَالتُّرْكِ وَالْهِنْدِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ كَانَ مِنْ حُكَمَاءِ الْهِنْدِ وَالتُّرْكِ وَلَهُ عِلْمٌ أَوْ زُهْدٌ وَعِبَادَةٌ فِي دِينِهِ وَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ عَدُوٌّ لِلَّهِ وَإِنْ ظَنَّ طَائِفَةٌ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ كَمَا كَانَ حُكَمَاءُ الْفُرْسِ مِنْ الْمَجُوسِ كُفَّارًا مَجُوسًا .

(89/365)

وَكَذَلِكَ حُكَمَاءُ " الْيُونَانِ " مِثْلُ أَرِسْطُو وَأَمْثَالِهِ كَانُوا مُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَالْكَوَاكِبَ وَكَانَ أَرِسْطُو قَبْلَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ وَزِيرًا لِلْإِسْكَنْدَرِ بْنِ فَيْلَبُس الْمَقْدُونِيِّ وَهُوَ الَّذِي تُؤَرِّخُ بِهِ تَوَارِيخُ الرُّومِ وَالْيُونَانِ وَتُؤَرِّخُ بِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ؛ وَلَيْسَ هَذَا

هُوَ ذُو الْقَرْنَيْنِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ كَمَا يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ أَرِسْطُو كَانَ وَزِيرًا لِذِي الْقَرْنَيْنِ لَمَّا رَأَوْا أَنَّ ذَاكَ اسْمُهُ الْإِسْكَنْدَرُ وَهَذَا قَدْ يُسَمَّى بِالْإِسْكَنْدَرِ ظَنُّوا أَنَّ هَذَا ذَاكَ كَمَا يَظُنُّهُ ابْنُ سِينَا وَطَائِفَةٌ مَعَهُ

(90/365)

وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ؛ بَلْ هَذَا الْإِسْكَنْدَرُ الْمُشْرِكُ الَّذِي قَدْ كَانَ أَرِسْطُو وَزِيرَهُ مُتَأَخِّرٌ عَنْ ذَاكَ وَلَمْ يَبْنِ هَذَا السَّدَّ وَلَا وَصَلَ إلَى بِلَادِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهَذَا الْإِسْكَنْدَرُ الَّذِي كَانَ أَرِسْطُو مِنْ وُزَرَائِهِ يُؤَرِّخُ لَهُ تَارِيخُ الرُّومِ الْمَعْرُوفِ . وَفِي أَصْنَافِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَمُشْرِكِي الْهِنْدِ وَالتُّرْكِ وَالْيُونَانِ وَغَيْرِهِمْ مَنْ لَهُ اجْتِهَادٌ فِي الْعِلْمِ وَالزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ ؛ وَلَكِنْ لَيْسَ بِمُتَّبِعٍ لِلرُّسُلِ وَلَا يُؤْمِنُ بِمَا جَاءُوا بِهِ وَلَا يُصَدِّقُهُمْ بِمَا أَخْبَرُوا بِهِ وَلَا يُطِيعُهُمْ فِيمَا أَمَرُوا فَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ وَلَا أَوْلِيَاءَ لِلَّهِ وَهَؤُلَاءِ تَقْتَرِنُ بِهِمْ الشَّيَاطِينُ وَتَنْزِلُ عَلَيْهِمْ فَيُكَاشِفُونَ النَّاسَ بِبَعْضِ الْأُمُورِ وَلَهُمْ تَصَرُّفَاتٌ خَارِقَةٌ مِنْ جِنْسِ السِّحْرِ وَهُمْ مِنْ جِنْسِ الْكُهَّانِ وَالسَّحَرَةِ الَّذِينَ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ الشَّيَاطِينُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ ﴿ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ .

وَهَؤُلَاءِ جَمِيعُهُمْ الَّذِينَ يَنْتَسِبُونَ إلَى الْمُكَاشَفَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ إذَا لَمْ يَكُونُوا مُتَّبِعِينَ

لِلرُّسُلِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكْذِبُوا وَتُكَذِّبَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ . وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ مَا هُوَ إِثْمٌ وَفُجُورٌ مِثْلُ نَوْعٍ مِنْ الشِّرْكِ أَوْ الظُّلْمِ أَوْ الْفَوَاحِشِ أَوْ الْغُلُوِّ أَوْ الْبِدَعِ فِي الْعِبَادَةِ ؛ وَلِهَذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ الشَّيَاطِينُ وَاقْتَرَنَتْ بِهِمْ فَصَارُوا مِنْ

(91/365)

أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ لَا مِنْ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا

فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ وَذِكْرُ الرَّحْمَنِ هُوَ الذِّكْرُ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلُ الْقُرْآنِ فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقُرْآنِ وَيُصَدِّقْ خَبَرَهُ وَيَعْتَقِدْ وُجُوبَ أَمْرِهِ فَقَدْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَيُقَيِّضُ لَهُ الشَّيْطَانَ فَيَقْتَرِنُ بِهِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ ذِكْرَهُ هُوَ آيَاتُهُ الَّتِي أَنْزَلَهَا وَلِهَذَا لَوْ ذَكَرَ الرَّجُلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دَائِمًا لَيْلًا وَنَهَارًا مَعَ غَايَةِ الزُّهْدِ وَعَبَدَهُ مُجْتَهِدًا فِي عِبَادَتِهِ وَلَمْ يَكُنْ مُتَّبِعًا لِذِكْرِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ – وَهُوَ الْقُرْآنُ – كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ وَلَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ

؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْمِلُهُ فِي الْهَوَاءِ . وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

فَصْلٌ :

(92/365)

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ فِيهِ إيمَانٌ وَفِيهِ شُعْبَةٌ مِنْ نِفَاقٍ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إذَا حَدَّثَ كَذَبَ ؛

(93/365)

وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ ﴾ فَبَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ مَنْ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ هَذِهِ

الْخِصَالِ فَفِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ ﴿ قَالَ لِأَبِي ذَرٍّ - وَهُوَ مِنْ خِيَارِ الْمُؤْمِنِينَ - إنَّك امْرُؤٌ فِيك جَاهِلِيَّةٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعَلَى كِبَرِ سِنِّي قَالَ : نَعَمْ ﴾ . وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ ﴿ أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ : الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ﴾ وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ﴿ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ . ﴾ وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ : أَدْرَكْت ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ

(94/365)

الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ

(95/365)

مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ فَقَدْ جَعَلَ هَؤُلَاءِ إلَى الْكُفْرِ أَقْرَبَ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ فَعُلِمَ أَنَّهُمْ مخلطون وَكُفْرُهُمْ أَقْوَى وَغَيْرُهُمْ يَكُونُ مُخَلِّطًا وَإِيمَانُهُ أَقْوَى . وَإِذَا كَانَ " أَوْلِيَاءُ اللَّهِ " هُمْ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ فَبِحَسَبِ إيمَانِ الْعَبْدِ وَتَقْوَاهُ تَكُونُ وِلَايَتُهُ لِلَّهِ تَعَالَى فَمَنْ كَانَ أَكْمَلَ إيمَانًا وَتَقْوَى كَانَ أَكْمَلَ وِلَايَةً لِلَّهِ . فَالنَّاسُ مُتَفَاضِلُونَ فِي وِلَايَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِحَسَبِ تَفَاضُلِهِمْ فِي الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى وَكَذَلِكَ يَتَفَاضَلُونَ فِي عَدَاوَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ تَفَاضُلِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى فِي الْمُنَافِقِينَ ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ . فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ الشَّخْصَ الْوَاحِدَ قَدْ يَكُونُ فِيهِ قِسْطٌ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ إيمَانِهِ ؛ وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ قِسْطٌ مِنْ عَدَاوَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ كُفْرِهِ وَنِفَاقِهِ . وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إيمَانًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ لِيَزْدَادُوا إيمَانًا مَعَ إيمَانِهِمْ ﴾ .

فَصْلٌ :

وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَلَى " طَبَقَتَيْنِ " سَابِقُونَ مُقَرَّبُونَ وَأَصْحَابُ يَمِينٍ مُقْتَصِدُونَ . ذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ وَآخِرِهَا وَفِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ ؛ وَالْمُطَفِّفِينَ وَفِي سُورَةِ فَاطِرٍ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَكَرَ فِي الْوَاقِعَةِ الْقِيَامَةَ الْكُبْرَى فِي أَوَّلِهَا وَذَكَرَ الْقِيَامَةَ الصُّغْرَى فِي آخِرِهَا فَقَالَ فِي أَوَّلِهَا ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴾ ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾ ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ ﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ ﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ فَهَذَا تَقْسِيمُ النَّاسِ إِذَا قَامَتْ الْقِيَامَةُ الْكُبْرَى الَّتِي يَجْمَعُ اللَّهُ فِيهَا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ كَمَا وَصَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ : فَلَوْلَا أَيْ : فَهَلَّا ﴿ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ ﴿ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ ﴿ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ ﴿ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ ﴿ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ الْآيَاتِ . وَكَذَلِكَ ذَكَرَ فِي سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ فَقَالَ : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴾ ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ

(98/365)

فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ ﴿ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .
وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَغَيْرِهِ مِنْ السَّلَفِ قَالُوا يُمْزَجُ

(99/365)

لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ مَزْجًا وَيَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ صِرْفًا وَهُوَ كَمَا قَالُوا . فَإِنَّهُ تَعَالَى قَالَ ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : يَشْرَبُ مِنْهَا لِأَنَّهُ ضَمَّنَ ذَلِكَ قَوْلَهُ يَشْرَبُ يَعْنِي يُرْوَى بِهَا فَإِنَّ الشَّارِبَ قَدْ يَشْرَبُ وَلَا يُرْوَى فَإِذَا قِيلَ يَشْرَبُونَ مِنْهَا لَمْ يَدُلَّ عَلَى الرِّيِّ فَإِذَا قِيلَ يَشْرَبُونَ بِهَا كَانَ الْمَعْنَى يَرْوُونَ بِهَا فَالْمُقَرَّبُونَ يَرْوُونَ بِهَا فَلَا يَحْتَاجُونَ مَعَهَا إلَى مَا دُونَهَا ؛ فَلِهَذَا يَشْرَبُونَ مِنْهَا صِرْفًا بِخِلَافِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَإِنَّهَا مُزِجَتْ لَهُمْ مَزْجًا وَهُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ .
فَعِبَادُ اللَّهِ هُمْ الْمُقَرَّبُونَ الْمَذْكُورُونَ فِي تِلْكَ السُّورَةِ وَهَذَا لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ

الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ؛ وَحَفَّتْهُمُ

(100/365)

الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ ﴾ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ ، وَقَالَ

(101/365)

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ . ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ قَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَدِيثٌ صَحِيحٌ . وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ الصَّحِيحِ الَّذِي فِي السُّنَنِ ﴿ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : أَنَا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي فَمَنْ

وَصَلَهَا وَصَلْته وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَّتُهُ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ ﴾ وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ . وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نَوْعَيْنِ : مُقَرَّبُونَ وَأَصْحَابُ يَمِينٍ كَمَا تَقَدَّمَ . وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَلَ الْقِسْمَيْنِ فِي حَدِيثِ الْأَوْلِيَاءِ فَقَالَ ﴿ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ وَمَا تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْته عَلَيْهِ وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ؛ فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ﴾ . فَالْأَبْرَارُ أَصْحَابُ الْيَمِينِ هُمْ الْمُتَقَرِّبُونَ إلَيْهِ بِالْفَرَائِضِ يَفْعَلُونَ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَيَتْرُكُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَا يُكَلِّفُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمَنْدُوبَاتِ ؛ وَلَا الْكَفِّ عَنْ فُضُولِ الْمُبَاحَاتِ . وَأَمَّا السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ فَتَقَرَّبُوا إلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ فَفَعَلُوا

(102/365)

الْوَاجِبَاتِ وَالمستحبات وَتَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ فَلَمَّا تَقَرَّبُوا إلَيْهِ بِجَمِيعِ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَحْبُوبَاتِهِمْ أَحَبَّهُمْ الرَّبُّ حُبًّا تَامًّا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ﴾ يَعْنِي الْحُبَّ الْمُطْلَقَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ أَيِّ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ

الْإِنْعَامَ الْمُطْلَقَ التَّامَّ الْمَذْكُورَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ فَهَؤُلَاءِ الْمُقَرَّبُونَ صَارَتْ الْمُبَاحَاتُ فِي حَقِّهِمْ طَاعَاتٍ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَكَانَتْ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا عِبَادَاتٍ لِلَّهِ فَشَرِبُوا صِرْفًا كَمَا عَمِلُوا لَهُ صِرْفًا وَالْمُقْتَصِدُونَ كَانَ فِي أَعْمَالِهِمْ مَا فَعَلُوهُ لِنُفُوسِهِمْ فَلَا يُعَاقَبُونَ عَلَيْهِ وَلَا يُثَابُونَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَشْرَبُوا صِرْفًا ؛ بَلْ مُزِجَ لَهُمْ مِنْ شَرَابِ الْمُقَرَّبِينَ بِحَسَبِ مَا مَزَجُوهُ فِي الدُّنْيَا . وَنَظِيرُ هَذَا انْقِسَامُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ إلَى عَبْدٍ رَسُولٍ وَنَبِيٍّ مَلِكٍ وَقَدْ خَيَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا فَالنَّبِيُّ الْمَلِكُ مِثْلُ دَاوُد وَسُلَيْمَانَ وَنَحْوِهِمَا عَلَيْهِمَا

(103/365)

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ سُلَيْمَانَ الَّذِي ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي

(104/365)

بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أَيْ أَعْطِ مَنْ شِئْت وَاحْرِمْ مَنْ شِئْت لَا حِسَابَ عَلَيْك فَالنَّبِيُّ الْمَلِكُ يَفْعَلُ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَيَتْرُكُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَيَتَصَرَّفُ فِي الْوِلَايَةِ وَالْمَالِ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَخْتَارُ مِنْ غَيْرِ إثْمٍ عَلَيْهِ . وَأَمَّا الْعَبْدُ الرَّسُولُ فَلَا يُعْطِي أَحَدًا إلَّا بِأَمْرِ رَبِّهِ وَلَا يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَحْرِمُ مَنْ يَشَاءُ بَلْ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ ﴿ إنِّي وَاَللَّهِ لَا أُعْطِي أَحَدًا وَلَا أَمْنَعُ أَحَدًا إنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْت ﴾ وَلِهَذَا يُضِيفُ اللَّهُ الْأَمْوَالَ الشَّرْعِيَّةَ إلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ وَقَوْله تَعَالَى ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ وَقَوْله تَعَالَى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ . وَلِهَذَا كَانَ أَظْهَرُ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ هَذِهِ الْأَمْوَالَ تُصْرَفُ فِيمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِحَسَبِ اجْتِهَادِ وَلِيِّ الْأَمْرِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَغَيْرِهِ مِنْ السَّلَفِ وَيُذْكَرُ هَذَا رِوَايَةً عَنْ أَحْمَد وَقَدْ قِيلَ فِي الْخُمُسِ أَنَّهُ يُقَسَّمُ عَلَى خَمْسَةٍ كَقَوْلِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد فِي الْمَعْرُوفِ عَنْهُ وَقِيلَ : عَلَى ثَلَاثَةٍ كَقَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ .

(105/365)

وَ " الْمَقْصُودُ هُنَا " أَنَّ الْعَبْدَ الرَّسُولَ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ النَّبِيِّ الْمَلِكِ كَمَا أَنَّ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدًا عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَفْضَلُ مِنْ يُوسُفَ وَدَاوُد وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ كَمَا أَنَّ الْمُقَرَّبِينَ السَّابِقِينَ أَفْضَلُ مِنْ الْأَبْرَارِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ الَّذِينَ لَيْسُوا مُقَرَّبِينَ سَابِقِينَ فَمَنْ أَدَّى مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَفَعَلَ مِنْ الْمُبَاحَاتِ مَا يُحِبُّهُ فَهُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَمَنْ كَانَ إنَّمَا يَفْعَلُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ وَيَقْصِدُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِمَا أُبِيحَ لَهُ عَلَى مَا أَمَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ مِنْ أُولَئِكَ .

فَصْلٌ :

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى " أَوْلِيَاءَهُ " الْمُقْتَصِدِينَ وَالسَّابِقِينَ فِي سُورَةِ فَاطِرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ لَكِنَّ هَذِهِ الْأَصْنَافَ الثَّلَاثَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ ثُمَّ

أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ . وَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُمْ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ بَعْدَ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَلَيْسَ ذَلِكَ مُخْتَصًّا بِحُفَّاظِ الْقُرْآنِ ؛ بَلْ كُلُّ مَنْ آمَنَ بِالْقُرْآنِ فَهُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَقَسَّمَهُمْ إلَى ظَالِمٍ لِنَفْسِهِ وَمُقْتَصِدٍ وَسَابِقٍ ؛ بِخِلَافِ الْآيَاتِ الَّتِي فِي الْوَاقِعَةِ وَالْمُطَفِّفِينَ وَالِانْفِطَارِ فَإِنَّهُ دَخَلَ فِيهَا جَمِيعُ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ كَافِرُهُمْ وَمُؤْمِنُهُمْ وَهَذَا التَّقْسِيمُ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَـ " الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ " أَصْحَابُ الذُّنُوبِ الْمُصِرُّونَ عَلَيْهَا وَمَنْ تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ تَوْبَةً صَحِيحَةً لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ السَّابِقِينَ وَ " الْمُقْتَصِدُ " الْمُؤَدِّي لِلْفَرَائِضِ الْمُجْتَنِبُ لِلْمَحَارِمِ . وَ " السَّابِقُ لِلْخَيْرَاتِ " هُوَ الْمُؤَدِّي لِلْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ كَمَا فِي تِلْكَ الْآيَاتِ وَمَنْ تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ تَوْبَةً صَحِيحَةً لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ السَّابِقِينَ وَالْمُقْتَصِدِينَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَسَارِعُوا إلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ

(107/365)

فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ

(108/365)

الْعَامِلِينَ ﴾ وَ " الْمُقْتَصِدُ " الْمُؤَدِّي لِلْفَرَائِضِ الْمُجْتَنِبُ لِلْمَحَارِمِ وَ " السَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ " هُوَ الْمُؤَدِّي لِلْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ كَمَا فِي تِلْكَ الْآيَاتِ . وَقَوْلُهُ ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ مِمَّا يَسْتَدِلُّ بِهِ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّهُ لَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ . وَأَمَّا دُخُولُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ النَّارَ فَهَذَا مِمَّا تَوَاتَرَتْ بِهِ السُّنَنُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا تَوَاتَرَتْ بِخُرُوجِهِمْ مِنْ النَّارِ وَشَفَاعَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ وَإِخْرَاجِ مَنْ يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ بِشَفَاعَةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَفَاعَةِ غَيْرِهِ . فَمَنْ قَالَ : إنَّ أَهْلَ الْكَبَائِرِ مُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ وَتَأَوَّلَ الْآيَةَ عَلَى أَنَّ السَّابِقِينَ هُمْ الَّذِينَ يَدْخُلُونَهَا وَأَنَّ الْمُقْتَصِدَ أَوْ الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ لَا يَدْخُلُهَا كَمَا تَأَوَّلَهُ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ فَهُوَ مُقَابَلٌ بِتَأْوِيلِ الْمُرْجِئَةِ الَّذِينَ لَا يَقْطَعُونَ بِدُخُولِ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ النَّارَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ أَهْلَ الْكَبَائِرِ قَدْ يَدْخُلُ جَمِيعُهُمْ الْجَنَّةَ مِنْ غَيْرِ عَذَابٍ وَكِلَاهُمَا مُخَالِفٌ لِلسُّنَّةِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِإِجْمَاعِ

سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا . وَقَدْ دَلَّ عَلَى فَسَادِ قَوْلِ " الطَّائِفَتَيْنِ " قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ وَهُوَ قَوْله تَعَالَى ﴿ إنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ

(109/365)

يَشَاءُ ﴾ فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الشِّرْكَ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَغْفِرُ مَا دُونَهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِذَلِكَ التَّائِبُ كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ

(110/365)

الْمُعْتَزِلَةِ لِأَنَّ الشِّرْكَ يَغْفِرُهُ اللَّهُ لِمَنْ تَابَ وَمَا دُونَ الشِّرْكِ يَغْفِرُهُ اللَّهُ أَيْضًا لِلتَّائِبِ فَلَا تَعَلُّقَ بِالْمَشِيئَةِ ؛ وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ الْمَغْفِرَةَ لِلتَّائِبِينَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ . فَهُنَا عَمَّمَ الْمَغْفِرَةَ وَأَطْلَقَهَا فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِلْعَبْدِ أَيَّ ذَنْبٍ تَابَ مِنْهُ فَمَنْ تَابَ مِنْ الشِّرْكِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَمَنْ تَابَ مِنْ الْكَبَائِرِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَأَيُّ ذَنْبٍ تَابَ الْعَبْدُ مِنْهُ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ . فَفِي آيَةِ التَّوْبَةِ عَمَّمَ وَأَطْلَقَ وَفِي تِلْكَ الْآيَةِ خَصَّصَ وَعَلَّقَ فَخَصَّ الشِّرْكَ بِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ وَعَلَّقَ مَا سِوَاهُ عَلَى

الْمَشِيئَةِ وَمِنْ الشِّرْكِ التَّعْطِيلِ لِلْخَالِقِ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ قَوْلِ مَنْ يَجْزِمُ بِالْمَغْفِرَةِ لِكُلِّ مُذْنِبٍ . وَنَبَّهَ بِالشِّرْكِ عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ كَتَعْطِيلِ الْخَالِقِ أَوْ يَجُوزُ أَلَّا يُعَذِّبَ بِذَنْبٍ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ يَغْفِرُ الْبَعْضَ دُونَ الْبَعْضِ وَلَوْ كَانَ كُلُّ ظَالِمٍ لِنَفْسِهِ مَغْفُورًا لَهُ بِلَا تَوْبَةٍ وَلَا حَسَنَاتٍ مَاحِيَةٍ لَمْ يُعَلِّقْ ذَلِكَ بِالْمَشِيئَةِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَغْفِرُ الْبَعْضَ دُونَ الْبَعْضِ فَبَطَلَ النَّفْيُ وَالْوَقْفُ الْعَامُّ .

فَصْلٌ :

(111/365)

وَإِذَا كَانَ " أَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " هُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ . وَالنَّاسُ يَتَفَاضَلُونَ فِي الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى فَهُمْ مُتَفَاضِلُونَ فِي وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ كَمَا أَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا مُتَفَاضِلِينَ فِي الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ كَانُوا مُتَفَاضِلِينَ فِي عَدَاوَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ . وَأَصْلُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى : الْإِيمَانُ بِرُسُلِ اللَّهِ وَجِمَاعُ ذَلِكَ : الْإِيمَانُ بِخَاتَمِ الرُّسُلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَالْإِيمَانُ بِهِ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِجَمِيعِ كُتُبِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَأَصْلُ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ هُوَ الْكُفْرُ بِالرُّسُلِ وَبِمَا جَاءُوا بِهِ فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْكُفْرُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ الْعَذَابَ فِي الْآخِرَةِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إلَّا بَعْدَ بُلُوغِ الرِّسَالَةِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى

نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾

(112/365)

﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ النَّارِ ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ ﴿ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِي النَّارِ فَوْجٌ أَقَرُّوا بِأَنَّهُمْ جَاءَهُمُ النَّذِيرُ فَكَذَّبُوهُ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا يُلْقَى فِيهَا فَوْجٌ إِلَّا مَنْ كَذَّبَ النَّذِيرَ . وَقَالَ تَعَالَى فِي خِطَابِهِ لِإِبْلِيسَ ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَمْلَؤُهَا بِإِبْلِيسَ وَمَنْ اتَّبَعَهُ ؛ فَإِذَا مُلِئَتْ بِهِمْ لَمْ يَدْخُلْهَا غَيْرُهُمْ . فَعُلِمَ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ تَبِعَ الشَّيْطَانَ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُهَا مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَمْ يَتَّبِعْ الشَّيْطَانَ وَلَمْ يَكُنْ مُذْنِبًا وَمَا تَقَدَّمَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ بِالرُّسُلِ .

فَصْلٌ :

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُؤْمِنُ بِالرُّسُلِ إيمَانًا مُجْمَلًا وَأَمَّا الْإِيمَانُ الْمُفَصَّلُ فَيَكُونُ قَدْ بَلَغَهُ كَثِيرٌ مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَلَمْ يَبْلُغْهُ بَعْضُ ذَلِكَ فَيُؤْمِنُ بِمَا بَلَغَهُ عَنْ الرُّسُلِ وَمَا لَمْ يَبْلُغْهُ لَمْ يَعْرِفْهُ وَلَوْ بَلَغَهُ لَآمَنَ بِهِ ؛ وَلَكِنْ آمَنَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ إيمَانًا مُجْمَلًا فَهَذَا إذَا عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِهِ مَعَ

(113/365)

إيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ فَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ إيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ وَمَا لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُكَلِّفْهُ مَعْرِفَتَهُ وَالْإِيمَانُ الْمُفَصَّلُ بِهِ فَلَا يُعَذِّبُهُ عَلَى تَرْكِهِ ؛ لَكِنْ يَفُوتُهُ مِنْ كَمَالِ وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ مَا فَاتَهُ مِنْ ذَلِكَ فَمَنْ عَلِمَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ وَآمَنَ بِهِ إيمَانًا مُفَصَّلًا وَعَمِلَ بِهِ فَهُوَ أَكْمَلُ إيمَانًا وَوِلَايَةً لِلَّهِ مِمَّنْ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ مُفَصَّلًا وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ ؛ وَكِلَاهُمَا وَلِيٌّ لِلَّهِ تَعَالَى . وَالْجَنَّةُ دَرَجَاتٌ مُتَفَاضِلَةٌ تَفَاضُلًا عَظِيمًا وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ فِي تِلْكَ الدَّرَجَاتِ بِحَسَبِ إيمَانِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ . قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ

وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ . فَبَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ يَمُدُّ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ مِنْ عَطَائِهِ وَأَنَّ عَطَاءَهُ مَا كَانَ مَحْظُورًا مِنْ بَرٍّ وَلَا فَاجِرٍ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ . فَبَيَّنَ

(114/365)

اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ أَهْلَ الْآخِرَةِ يَتَفَاضَلُونَ فِيهَا أَكْثَرُ مِمَّا يَتَفَاضَلُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا وَأَنَّ دَرَجَاتِهَا أَكْبَرُ مِنْ دَرَجَاتِ الدُّنْيَا وَقَدْ بَيَّنَ

(115/365)

تَفَاضُلَ أَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ كَتَفَاضُلِ سَائِرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ

وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُك وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزَنَّ وَإِنْ أَصَابَك شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْت لَكَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ ﴾ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى

(116/365)

الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ﴿ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴾ ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

فَصْلٌ :

(117/365)

وَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ لَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ إلَّا إذَا كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ الْحَدِيثُ الْمَشْهُورُ - وَقَدْ تَقَدَّمَ - يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِ : ﴿ وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ﴾ وَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا تَقِيًّا حَتَّى يَتَقَرَّبَ إلَى اللَّهِ بِالْفَرَائِضِ فَيَكُونُ مِنْ الْأَبْرَارِ

أَهْلِ الْيَمِينِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَزَالُ يَتَقَرَّبُ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى يَكُونَ مِنْ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ فَمَعْلُومٌ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ لَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ . وَكَذَلِكَ مَنْ لَا يَصِحُّ إيمَانُهُ وَعِبَادَاتُهُ وَإِنْ قَدَرَ أَنَّهُ لَا إثْمَ عَلَيْهِ مِثْلُ أَطْفَالِ الْكُفَّارِ وَمَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ – وَإِنْ قِيلَ إنَّهُمْ لَا يُعَذَّبُونَ حَتَّى يُرْسَلَ إلَيْهِمْ رَسُولٌ – فَلَا يَكُونُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ إلَّا إذَا كَانُوا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ ؛ فَمَنْ لَمْ يَتَقَرَّبْ إلَى اللَّهِ لَا بِفِعْلِ الْحَسَنَاتِ وَلَا بِتَرْكِ السَّيِّئَاتِ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ . وَكَذَلِكَ الْمَجَانِينُ وَالْأَطْفَالُ ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ : عَنْ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ وَعَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ . وَعَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ ﴾ . وَهَذَا الْحَدِيثُ قَدْ رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ وَعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . وَاتَّفَقَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ عَلَى تَلَقِّيهِ بِالْقَبُولِ . لَكِنَّ الصَّبِيَّ الْمُمَيِّزَ تَصِحُّ عِبَادَاتُهُ وَيُثَابُ عَلَيْهَا عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ . وَأَمَّا الْمَجْنُونُ الَّذِي رُفِعَ عَنْهُ الْقَلَمُ فَلَا يَصِحُّ شَيْءٌ مِنْ عِبَادَاتِهِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ . وَلَا يَصِحُّ مِنْهُ إيمَانٌ وَلَا كُفْرٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَادَاتِ ؛ بَلْ لَا يَصْلُحُ هُوَ عِنْدَ عَامَّةِ الْعُقَلَاءِ لِأُمُورِ الدُّنْيَا كَالتِّجَارَةِ وَالصِّنَاعَةِ . فَلَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ بَزَّازًا وَلَا عَطَّارًا وَلَا حَدَّادًا

وَلَا نَجَّارًا وَلَا تَصِحُّ عُقُودُهُ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ . فَلَا يَصِحُّ بَيْعُهُ وَلَا شِرَاؤُهُ وَلَا نِكَاحُهُ وَلَا طَلَاقُهُ وَلَا إقْرَارُهُ وَلَا شَهَادَتُهُ . وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ

(120/365)

أَقْوَالِهِ بَلْ أَقْوَالُهُ كُلُّهَا لَغْوٌ لَا يَتَعَلَّقُ بِهَا حُكْمٌ شَرْعِيٌّ وَلَا ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ . بِخِلَافِ الصَّبِيِّ الْمُمَيِّزِ فَإِنَّ لَهُ أَقْوَالًا مُعْتَبَرَةً فِي مَوَاضِعَ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ وَفِي مَوَاضِعَ فِيهَا نِزَاعٌ . وَإِذَا كَانَ الْمَجْنُونُ لَا يَصِحُّ مِنْهُ الْإِيمَانُ وَلَا التَّقْوَى وَلَا التَّقَرُّبُ إلَى اللَّهِ بِالْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ وَامْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدِ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ ؛ لَا سِيَّمَا أَنْ تَكُونَ حُجَّتُهُ عَلَى ذَلِكَ إمَّا مُكَاشَفَةُ سَمْعِهَا مِنْهُ أَوْ نَوْعٌ مِنْ تَصَرُّفٍ مِثْلِ أَنْ يَرَاهُ قَدْ أَشَارَ إلَى وَاحِدٍ فَمَاتَ أَوْ صُرِعَ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ - مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ - لَهُمْ مُكَاشَفَاتٌ وَتَصَرُّفَاتٌ شَيْطَانِيَّةٌ كَالْكُهَّانِ وَالسَّحَرَةِ وَعُبَّادِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدِ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ عَلَى كَوْنِ الشَّخْصِ وَلِيًّا لِلَّهِ وَإِنْ لَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ مَا يُنَاقِضُ وِلَايَةَ اللَّهِ فَكَيْفَ إذَا عُلِمَ مِنْهُ مَا يُنَاقِضُ وِلَايَةَ اللَّهِ مِثْلُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَعْتَقِدُ وُجُوبَ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ؛ بَلْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَتَّبِعُ الشَّرْعَ الظَّاهِرَ دُونَ الْحَقِيقَةِ الْبَاطِنَةِ . أَوْ يَعْتَقِدُ أَنَّ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ

طَرِيقًا إلَى اللَّهِ غَيْرَ طَرِيقِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ . أَوْ يَقُولُ : إنَّ الْأَنْبِيَاءَ ضَيَّقُوا الطَّرِيقَ أَوْ هُمْ عَلَى قُدْوَةِ الْعَامَّةِ دُونَ الْخَاصَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَقُولُهُ

(121/365)

بَعْضُ مَنْ يَدَّعِي الْوِلَايَةَ فَهَؤُلَاءِ فِيهِمْ مِنْ الْكُفْرِ مَا يُنَاقِضُ الْإِيمَانَ . فَضْلًا عَنْ وِلَايَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . فَمَنْ احْتَجَّ بِمَا يَصْدُرُ عَنْ أَحَدِهِمْ مِنْ خَرْقِ عَادَةٍ عَلَى وِلَايَتِهِمْ كَانَ أَضَلَّ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى .

(122/365)

وَكَذَلِكَ الْمَجْنُونُ ؛ فَإِنَّ كَوْنَهُ مَجْنُونًا يُنَاقِضُ أَنْ يَصِحَّ مِنْهُ الْإِيمَانُ وَالْعِبَادَاتُ الَّتِي هِيَ شَرْطٌ فِي وِلَايَةِ اللَّهِ وَمَنْ كَانَ يَجُنُّ أَحْيَانًا وَيُفِيقُ أَحْيَانًا . إذَا كَانَ فِي حَالِ إفَاقَتِهِ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُؤَدِّي الْفَرَائِضَ وَيَجْتَنِبُ الْمَحَارِمَ ؛ فَهَذَا إذَا جُنَّ لَمْ يَكُنْ جُنُونُهُ مَانِعًا مِنْ أَنْ يُثِيبَهُ اللَّهُ عَلَى إيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ الَّذِي أَتَى بِهِ فِي حَالِ إفَاقَتِهِ وَيَكُونُ لَهُ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ مَنْ طَرَأَ عَلَيْهِ الْجُنُونُ بَعْدَ إيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُثِيبُهُ وَيَأْجُرُهُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ إيمَانِهِ

وَتَقْوَاهُ . وَلَا يُحْبِطُهُ بِالْجُنُونِ الَّذِي ابْتُلِيَ بِهِ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ فَعَلَهُ وَالْقَلَمُ مَرْفُوعٌ عَنْهُ فِي حَالِ جُنُونِهِ . فَعَلَى هَذَا فَمَنْ أَظْهَرَ الْوِلَايَةَ وَهُوَ لَا يُؤَدِّي الْفَرَائِضَ وَلَا يَجْتَنِبُ الْمَحَارِمَ بَلْ قَدْ يَأْتِي بِمَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ هَذَا وَلِيٌّ لِلَّهِ فَإِنَّ هَذَا إنْ لَمْ يَكُنْ مَجْنُونًا ؛ بَلْ كَانَ مُتَوَلِّهًا مِنْ غَيْرِ جُنُونٍ أَوْ كَانَ يَغِيبُ عَقْلُهُ بِالْجُنُونِ تَارَةً وَيُفِيقُ أُخْرَى وَهُوَ لَا يَقُومُ بِالْفَرَائِضِ بَلْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ كَافِرٌ وَإِنْ كَانَ مَجْنُونًا بَاطِنًا وَظَاهِرًا قَدْ ارْتَفَعَ عَنْهُ الْقَلَمُ ؛ فَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُعَاقَبًا عُقُوبَةَ الْكَافِرِينَ فَلَيْسَ هُوَ مُسْتَحِقًّا لِمَا يَسْتَحِقُّهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا يَجُوزُ عَلَى

(123/365)

التَّقْدِيرَيْنِ أَنْ يَعْتَقِدَ فِيهِ أَحَدٌ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ وَلَكِنْ إنْ كَانَ لَهُ حَالَةٌ فِي إفَاقَتِهِ كَانَ فِيهَا مُؤْمِنًا بِاللَّهِ مُتَّقِيًا كَانَ لَهُ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ

وَإِنْ كَانَ لَهُ فِي حَالِ إفَاقَتِهِ فِيهِ كُفْرٌ أَوْ نِفَاقٌ أَوْ كَانَ كَافِرًا أَوْ مُنَافِقًا ثُمَّ طَرَأَ عَلَيْهِ الْجُنُونُ فَهَذَا فِيهِ مِنْ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ مَا يُعَاقَبُ عَلَيْهِ وَجُنُونُهُ لَا يُحْبِطُ عَنْهُ مَا يَحْصُلُ مِنْهُ حَالَ إفَاقَتِهِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ نِفَاقٍ .

فَصْلٌ :

(124/365)

وَلَيْسَ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ شَيْءٌ يَتَمَيَّزُونَ بِهِ عَنْ النَّاسِ فِي الظَّاهِرِ مِنْ الْأُمُورِ الْمُبَاحَاتِ فَلَا يَتَمَيَّزُونَ بِلِبَاسٍ دُونَ لِبَاسٍ إذَا كَانَ كِلَاهُمَا مُبَاحًا وَلَا بِحَلْقِ شَعْرٍ أَوْ تَقْصِيرِهِ أَوْ ظُفْرِهِ إذَا كَانَ مُبَاحًا كَمَا قِيلَ : كَمْ مِنْ صِدِّيقٍ فِي قَبَاءٍ وَكَمْ مِنْ زِنْدِيقٍ فِي عَبَاءٍ ؛ بَلْ يُوجَدُونَ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ الظَّاهِرَةِ وَالْفُجُورِ فَيُوجَدُونَ فِي أَهْلِ الْقُرْآنِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ وَيُوجَدُونَ فِي أَهْلِ الْجِهَادِ وَالسَّيْفِ وَيُوجَدُونَ فِي التُّجَّارِ وَالصُّنَّاعِ وَالزُّرَّاعِ . وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ أَصْنَافَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ .

(125/365)

وَكَانَ السَّلَفُ يُسَمُّونَ أَهْلَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ " الْقُرَّاءَ " فَيَدْخُلُ فِيهِمْ الْعُلَمَاءُ وَالنُّسَّاكُ ثُمَّ حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ اسْمُ " الصُّوفِيَّةِ وَالْفُقَرَاءِ " . وَاسْمُ " الصُّوفِيَّةِ " هُوَ نِسْبَةٌ إلَى لِبَاسِ الصُّوفِ ؛ هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ وَقَدْ قِيلَ إنَّهُ نِسْبَةٌ إلَى صَفْوَةِ الْفُقَهَاءِ وَقِيلَ إلَى صُوفَةَ بْنِ أُدِّ بْنِ طَابِخَةَ قَبِيلَةٌ مِنْ الْعَرَبِ كَانُوا يُعْرَفُونَ بِالنُّسُكِ وَقِيلَ إلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ وَقِيلَ إلَى الصَّفَا وَقِيلَ إلَى الصَّفْوَةِ وَقِيلَ إلَى الصَّفِّ الْمُقَدَّمِ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ تَعَالَى وَهَذِهِ أَقْوَالٌ ضَعِيفَةٌ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَقِيلَ صَفِيٌّ أَوْ صَفَائِيٌّ أَوْ صَفَوِيٌّ أَوْ صَفِيٌّ وَلَمْ يَقُلْ صُوفِيٌّ . وَصَارَ أَيْضًا اسْمُ " الْفُقَرَاءِ " يَعْنِي بِهِ أَهْلَ السُّلُوكِ وَهَذَا عُرْفٌ حَادِثٌ وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ أَيُّمَا أَفْضَلُ مُسَمَّى " الصُّوفِيِّ " أَوْ مُسَمَّى " الْفَقِيرِ " ؟ وَيَتَنَازَعُونَ أَيْضًا أَيُّمَا أَفْضَلُ : الْغَنِيُّ الشَّاكِرُ أَوْ الْفَقِيرُ الصَّابِرُ ؟ . وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ فِيهَا نِزَاعٌ قَدِيمٌ بَيْنَ الْجُنَيْدِ وَبَيْنَ أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ عَطَاءٍ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فِيهَا رِوَايَتَانِ وَالصَّوَابُ فِي هَذَا كُلِّهِ مَا قَالَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيْثُ قَالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

وَفِي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ سُئِلَ : ﴿ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ أَتْقَاهُمْ . قِيلَ لَهُ : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُك فَقَالَ : يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ يَعْقُوبَ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ إسْحَاقَ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ إبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ . فَقِيلَ لَهُ : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُك . فَقَالَ : عَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي ؟ النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إذَا فَقِهُوا ﴾ . فَدَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ إنَّ أَكْرَمَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ . وَفِي السُّنَنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَبْيَضَ وَلَا لِأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ إلَّا بِالتَّقْوَى . كُلُّكُمْ لِآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ . وَعَنْهُ أَيْضًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ إنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ النَّاسُ رَجُلَانِ : مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ ﴾ . فَمَنْ كَانَ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ أَتْقَى لِلَّهِ فَهُوَ أَكْرَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِذَا اسْتَوَيَا فِي التَّقْوَى اسْتَوَيَا فِي الدَّرَجَةِ . وَلَفْظُ " الْفَقْرِ " فِي الشَّرْعِ يُرَادُ بِهِ الْفَقْرُ مِنْ الْمَالِ وَيُرَادُ بِهِ فَقْرُ الْمَخْلُوقِ إلَى خَالِقِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾

(127/365)

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ صِنْفَيْنِ مِنْ الْفُقَرَاءِ : أَهْلَ الصَّدَقَاتِ وَأَهْلَ الْفَيْءِ فَقَالَ فِي الصِّنْفِ الْأَوَّلِ : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ وَقَالَ فِي الصِّنْفِ الثَّانِي وَهُمْ أَفْضَلُ الصِّنْفَيْنِ ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ . وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ هَجَرُوا السَّيِّئَاتِ وَجَاهَدُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ ﴾ . أَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي يَرْوِيهِ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ قَالَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ﴿ رَجَعْنَا مِنْ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ ﴾ فَلَا أَصْلَ لَهُ وَلَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِأَقْوَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَفْعَالِهِ وَجِهَادُ الْكُفَّارِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَعْمَالِ ؛ بَلْ هُوَ أَفْضَلُ مَا تَطَوَّعَ بِهِ الْإِنْسَانُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ

أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى

(129/365)

الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴾ ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ . وَثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ عَنْ ﴿ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كُنْت عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَجُلٌ : مَا أُبَالِي أَلَّا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إلَّا أَنْ أَسْقِيَ الْحَاجَّ وَقَالَ آخَرُ : مَا أُبَالِي أَنْ أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إلَّا أَنْ أُعَمِّرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِمَّا ذَكَرْتُمَا فَقَالَ عُمَرُ : لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَكِنْ إذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ سَأَلْته فَسَأَلَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ ﴾ . وَفِي

الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ﴿ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْت يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ قَالَ الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا

(130/365)

قُلْت ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : بِرُّ الْوَالِدَيْنِ . قُلْت : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ : حَدَّثَنِي بِهِنَّ رَسُولُ اللَّهِ

(131/365)

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَوْ اسْتَزَدْته لَزَادَنِي ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ ﴿ سُئِلَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : إيمَانٌ بِاللَّهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ حَجٌّ مَبْرُورٌ ﴾ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ ﴿ رَجُلًا قَالَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ : لَا تَسْتَطِيعُهُ أَوْ لَا تُطِيقُهُ قَالَ فَأَخْبِرْنِي بِهِ قَالَ : هَلْ تَسْتَطِيعُ إذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ وَتَقُومَ وَلَا تَفْتُرَ ﴾ ؟ وَفِي السُّنَنِ عَنْ ﴿ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ وَصَّاهُ لَمَّا بَعَثَهُ إلَى الْيَمَنِ فَقَالَ :

يَا مُعَاذُ اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْت وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقْ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ وَقَالَ : يَا مُعَاذُ إنِّي لَأُحِبُّك فَلَا تَدَعُ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِك وَشُكْرِك وَحُسْنِ عِبَادَتِك وَقَالَ لَهُ - وَهُوَ رَدِيفُهُ - يَا مُعَاذُ : أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ قُلْت اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : حَقُّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا . أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ؟ قُلْت : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : حَقُّهُمْ عَلَيْهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ ﴾ .

وَقَالَ أَيْضًا لِمُعَاذٍ : ﴿ رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ

(132/365)

سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ يَا مُعَاذُ أَلَا أُخْبِرُك بِأَبْوَابِ الْبِرِّ ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ وَقِيَامُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ثُمَّ قَرَأَ ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ : يَا مُعَاذُ أَلَا أُخْبِرُك بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ ؟ قُلْت بَلَى فَقَالَ : أَمْسِكْ عَلَيْك لِسَانَك هَذَا فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فَقَالَ : ثَكِلَتْك أُمُّك يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ﴾ . وَتَفْسِيرُ هَذَا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ ﴾ فَالتَّكَلُّمُ بِالْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْ السُّكُوتِ عَنْهُ وَالصَّمْتُ عَنْ الشَّرِّ خَيْرٌ مِنْ التَّكَلُّمِ بِهِ فَأَمَّا الصَّمْتُ الدَّائِمُ فَبِدْعَةٌ مَنْهِيٌّ عَنْهَا وَكَذَلِكَ الِامْتِنَاعُ عَنْ أَكْلِ الْخُبْزِ وَاللَّحْمِ وَشُرْبِ الْمَاءِ فَذَلِكَ مِنْ الْبِدَعِ الْمَذْمُومَةِ أَيْضًا كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَجُلًا قَائِمًا فِي الشَّمْسِ فَقَالَ : مَا هَذَا فَقَالُوا : أَبُو إسْرَائِيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ فِي الشَّمْسِ وَلَا يَسْتَظِلَّ وَلَا

(133/365)

يَتَكَلَّمَ وَيَصُومَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرُوهُ فَلْيَجْلِسْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ ﴾ .

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ﴿ أَنَسٍ أَنَّ رِجَالًا سَأَلُوا عَنْ عِبَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَأَنَّهُمْ تقالوها فَقَالُوا وَأَيْنَا مِثْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ وَلَا أُفْطِرُ وَقَالَ الْآخَرُ : أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ وَلَا أَنَامُ وَقَالَ الْآخَرُ : أَمَّا أَنَا فَلَا آكُلُ اللَّحْمَ وَقَالَ الْآخَرُ : أَمَا أَنَا فَلَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا بَالُ رِجَالٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَقُومُ وَأَنَامُ وَآكُلُ اللَّحْمَ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ

عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ أَيْ سَلَكَ غَيْرَهَا ظَانًّا أَنَّ غَيْرَهَا خَيْرٌ مِنْهَا فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ إلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ بَلْ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ كَانَ يَخْطُبُ بِذَلِكَ كُلَّ يَوْمِ جُمْعَةٍ .

(134/365)

فَصْلٌ وَلَيْسَ مَنْ شَرْطِ وَلِيِّ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا لَا يَغْلَطُ وَلَا يُخْطِئُ ؛ بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ بَعْضُ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ وَيَجُوزُ أَنْ يَشْتَبِهَ عَلَيْهِ بَعْضُ أُمُورِ الدِّينِ حَتَّى يَحْسَبَ بَعْضُ الْأُمُورِ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَمِمَّا نَهَى

(135/365)

اللَّهُ عَنْهُ وَيَجُوزُ أَنْ يَظُنَّ فِي بَعْضِ الْخَوَارِقِ أَنَّهَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَكُونُ مِنْ الشَّيْطَانِ لَبَّسَهَا عَلَيْهِ لِنَقْصِ دَرَجَتِهِ وَلَا يَعْرِفُ أَنَّهَا مِنْ الشَّيْطَانِ وَإِنْ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ وِلَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَجَاوَزَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْ الْخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ وَمَا

اُسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اسْتَجَابَ هَذَا الدُّعَاءَ وَقَالَ : قَدْ فَعَلْت فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ ﴿ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴾ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قَالَ : دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْهَا قَبْلَ ذَلِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنْهُ فَقَالَ النَّبِيُّ

(136/365)

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا قَالَ فَأَلْقَى اللَّهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(137/365)

إلى قوله ﴿ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قال الله قد فعلت ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ قال : قد فعلت ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ قال قد فعلت . وقد قال تعالى ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ ﴾ . وثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعا أنه قال ﴿ إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر ﴾ فلم يؤثم المجتهد المخطئ ؛ بل جعل له أجرا على اجتهاده وجعل خطأه مغفورا له ولكن المجتهد المصيب له أجران فهو أفضل منه ؛ ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي لله لئلا يكون نبيا ؛ بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه إلا أن يكون موافقا للشرع وعلى ما يقع له مما يراه إلهاما ومحادثة وخطابا من الحق ؛ بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف ؟ توقف فيه .

وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ " ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ " طَرَفَانِ وَوَسَطٌ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ إذَا اعْتَقَدَ فِي شَخْصٍ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ وَافَقَهُ فِي كُلِّ مَا يَظُنُّ أَنَّهُ حَدَّثَ

(139/365)

بِهِ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ وَسَلَّمَ إلَيْهِ جَمِيعَ مَا يَفْعَلُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ إذَا رَآهُ قَدْ قَالَ أَوْ فَعَلَ مَا لَيْسَ بِمُوَافِقِ لِلشَّرْعِ أَخْرَجَهُ عَنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِالْكُلِّيَّةِ وَإِنْ كَانَ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا وَخِيَارُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا وَهُوَ أَنْ لَا يُجْعَلَ مَعْصُومًا وَلَا مَأْثُومًا إذَا كَانَ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا فَلَا يُتَّبَعُ فِي كُلِّ مَا يَقُولُهُ وَلَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالْكُفْرِ وَالْفِسْقِ مَعَ اجْتِهَادِهِ . وَالْوَاجِبُ عَلَى النَّاسِ اتِّبَاعُ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ وَأَمَّا إذَا خَالَفَ قَوْلَ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ وَوَافَقَ قَوْلَ آخَرِينَ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدِ أَنْ يُلْزِمَهُ بِقَوْلِ الْمُخَالِفِ وَيَقُولَ هَذَا خَالَفَ الشَّرْعَ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَعُمَرُ مِنْهُمْ ﴾ وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَوْ لَمْ أُبْعَثْ فِيكُمْ لَبُعِثَ فِيكُمْ عُمَرُ ﴾ ﴿ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ إنَّ اللَّهَ ضَرَبَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ وَفِيهِ لَوْ كَانَ نَبِيٌّ بَعْدِي لَكَانَ عُمَرُ ﴾ وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ مَا كُنَّا نُبْعِدُ أَنَّ السَّكِينَةَ

تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ . ثَبَتَ هَذَا عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ الشَّعْبِيِّ . وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : مَا كَانَ عُمَرُ يَقُولُ فِي شَيْءٍ : إنِّي لَأَرَاهُ كَذَا إلَّا كَانَ كَمَا يَقُولُ . وَعَنْ قَيْسِ بْنِ طَارِقٍ قَالَ كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ عُمَرَ يَنْطِقُ عَلَى لِسَانِهِ مَلَكٌ . وَكَانَ

(140/365)

عُمَرُ يَقُولُ

(141/365)

اقْتَرِبُوا مِنْ أَفْوَاهِ الْمُطِيعِينَ وَاسْمَعُوا مِنْهُمْ مَا يَقُولُونَ فَإِنَّهُ تَتَجَلَّى لَهُمْ أُمُورٌ صَادِقَةٌ . وَهَذِهِ الْأُمُورُ الصَّادِقَةُ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهَا تَتَجَلَّى لِلْمُطِيعِينَ هِيَ الْأُمُورُ الَّتِي يَكْشِفُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ . فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ مُخَاطَبَاتٍ وَمُكَاشَفَاتٍ ؛ فَأَفْضَلُ هَؤُلَاءِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ تَعْيِينُ عُمَرَ بِأَنَّهُ مُحَدَّثٌ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فَأَيُّ مُحَدَّثٍ وَمُخَاطَبٍ فُرِضَ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعُمَرُ أَفْضَلُ مِنْهُ

وَمَعَ هَذَا فَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَفْعَلُ مَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ فَيَعْرِضُ مَا يَقَعُ لَهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَارَةً يُوَافِقُهُ فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ فَضَائِلِ عُمَرَ كَمَا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ وَتَارَةً يُخَالِفُهُ فَيَرْجِعُ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ كَمَا رَجَعَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ لَمَّا كَانَ قَدْ رَأَى مُحَارَبَةَ الْمُشْرِكِينَ وَالْحَدِيثُ مَعْرُوفٌ فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ ؛ فَإِنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ اعْتَمَرَ سَنَةَ سِتٍّ مِنْ الْهِجْرَةِ وَمَعَهُ الْمُسْلِمُونَ نَحْوُ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَهُمْ الَّذِينَ بَايَعُوهُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَكَانَ قَدْ صَالَحَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ مُرَاجَعَةٍ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ فِي

(142/365)

ذَلِكَ الْعَامِ وَيَعْتَمِرَ مِنْ الْعَامِ الْقَابِلِ وَشَرَطَ لَهُمْ شُرُوطًا فِيهَا نَوْعُ غَضَاضَةٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي

(143/365)

الظَّاهِرِ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ وَأَحْكَمَ بِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ الْمَصْلَحَةِ وَكَانَ عُمَرُ فِيمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ حَتَّى قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا رَسُولَ

اللَّهِ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ ؟ قَالَ : بَلَى قَالَ : أَفَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ ؟ قَالَ : بَلَى قَالَ : فَعَلَامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ نَاصِرِي وَلَسْت أَعْصِيه ثُمَّ قَالَ : أَفَلَمْ تَكُنْ تُحَدِّثُنَا أَنَّا نَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ ؟ قَالَ : بَلَى . قَالَ : أَقُلْت لَك أَنَّك تَأْتِيه الْعَامَ ؟ قَالَ : لَا قَالَ : إنَّك آتِيه وَمَطُوفٌ بِهِ فَذَهَبَ عُمَرُ إلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَدَّ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ مِثْلَ جَوَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ وَلَمْ يَكُنْ أَبُو بَكْرٍ يَسْمَعُ جَوَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَكْمَلَ مُوَافَقَةً لِلَّهِ وَلِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عُمَرَ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ : فَعَمِلْت لِذَلِكَ أَعْمَالًا . وَكَذَلِكَ لَمَّا مَاتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْكَرَ عُمَرُ مَوْتَهُ أَوَّلًا فَلَمَّا قَالَ أَبُو بَكْرٍ : إنَّهُ مَاتَ رَجَعَ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ فِي " قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ " قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ : كَيْفَ نُقَاتِلُ النَّاسَ

(144/365)

وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أُمِرْت أَنْ

(145/365)

أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ﴾ فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَلَمْ يَقُلْ : " إِلَّا بِحَقِّهَا " فَإِنَّ الزَّكَاةَ مِنْ حَقِّهَا وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتهمْ عَلَى مَنْعِهَا . قَالَ عُمَرُ : فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْت اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَلِمْت أَنَّهُ الْحَقُّ . وَلِهَذَا نَظَائِرُ تُبَيِّنُ تَقَدُّمَ أَبِي بَكْرٍ عَلَى عُمَرَ مَعَ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُحَدَّثٌ ؛ فَإِنَّ مَرْتَبَةَ الصِّدِّيقِ فَوْقَ مَرْتَبَةِ الْمُحَدَّثِ لِأَنَّ الصِّدِّيقَ يَتَلَقَّى عَنْ الرَّسُولِ الْمَعْصُومِ كُلَّ مَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ وَالْمُحَدَّثُ يَأْخُذُ عَنْ قَلْبِهِ أَشْيَاءَ وَقَلْبُهُ لَيْسَ بِمَعْصُومٍ فَيَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِضَهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُشَاوِرُ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَيُنَاظِرُهُمْ وَيَرْجِعُ إلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ وَيُنَازِعُونَهُ فِي أَشْيَاءَ فَيَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ وَيَحْتَجُّونَ عَلَيْهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَيُقَرِّرُهُمْ عَلَى مُنَازَعَتِهِ وَلَا يَقُولُ لَهُمْ : أَنَا مُحَدَّثٌ مُلْهَمٌ مُخَاطَبٌ فَيَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَقْبَلُوا مِنِّي وَلَا تُعَارِضُونِي فَأَيُّ أَحَدٍ ادَّعَى أَوْ ادَّعَى لَهُ أَصْحَابُهُ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ وَأَنَّهُ مُخَاطَبٌ يَجِبُ عَلَى أَتْبَاعِهِ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُ كُلَّ مَا يَقُولُهُ

وَلَا يُعَارِضُوهُ وَيُسَلِّمُوا لَهُ حَالَهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ وَهُمْ مُخْطِئُونَ وَمِثْلُ هَذَا مِنْ أَضَلِّ النَّاسِ فَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَفْضَلُ مِنْهُ وَهُوَ

(147/365)

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُنَازِعُونَهُ فِيمَا يَقُولُهُ وَهُوَ وَهُمْ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَقَدْ اتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا عَلَى أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَهَذَا مِنْ الْفُرُوقِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ يَجِبُ لَهُمْ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ مَا يُخْبِرُونَ بِهِ عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَجِبُ طَاعَتُهُمْ فِيمَا يَأْمُرُونَ بِهِ ؛ بِخِلَافِ الْأَوْلِيَاءِ فَإِنَّهُمْ لَا تَجِبُ طَاعَتُهُمْ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُونَ بِهِ وَلَا الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ مَا يُخْبِرُونَ بِهِ ؛ بَلْ يُعْرَضُ أَمْرُهُمْ وَخَبَرُهُمْ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَمَا وَافَقَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَجَبَ قَبُولُهُ وَمَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَانَ مَرْدُودًا وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَكَانَ مُجْتَهِدًا مَعْذُورًا فِيمَا قَالَهُ لَهُ أَجْرٌ عَلَى اجْتِهَادِهِ . لَكِنَّهُ إذَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَانَ مُخْطِئًا وَكَانَ مِنْ الْخَطَإِ الْمَغْفُورِ إذَا كَانَ صَاحِبُهُ قَدْ اتَّقَى اللَّهَ مَا اسْتَطَاعَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ وَهَذَا تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ : حَقَّ تُقَاتِهِ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى وَأَنْ يُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى ؛ وَأَنْ

يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ أَيْ بِحَسَبِ اسْتِطَاعَتِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ

(148/365)

اللَّهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ

(149/365)

وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا ﴾ . وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْإِيمَانَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إلَى إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الم ﴾ ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا

رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ . وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْته مِنْ أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ يَجِبُ عَلَيْهِمْ الِاعْتِصَامُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ مَعْصُومٌ يَسُوغُ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ اتِّبَاعُ مَا يَقَعُ فِي قَلْبِهِ

(150/365)

مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ هُوَ مِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ خَالَفَ فِي هَذَا فَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الَّذِينَ أَمَرَ اللَّهُ

(151/365)

بِاتِّبَاعِهِمْ ؛ بَلْ إِمَّا أَنْ يَكُونَ كَافِرًا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُفْرِطًا فِي الْجَهْلِ . وَهَذَا كَثِيرٌ فِي كَلَامِ الْمَشَايِخِ كَقَوْلِ الشَّيْخِ أَبِي سُلَيْمَانَ الدارانِي : إِنَّهُ لَيَقَعُ فِي قَلْبِي النُّكْتَةُ مِنْ نُكَتِ الْقَوْمِ فَلَا أَقْبَلُهَا إِلَّا بِشَاهِدَيْنِ : الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الْجُنَيْد رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ : عِلْمُنَا هَذَا مُقَيَّدٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَمَنْ لَمْ يَقْرَأْ الْقُرْآنَ وَيَكْتُبْ الْحَدِيثَ لَا يَصْلُحُ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي عِلْمِنَا أَوْ قَالَ : لَا يُقْتَدَى بِهِ . وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّيْسَابُورِيُّ مَنْ أَمَّرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ وَمَنْ أَمَّرَ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كَلَامِهِ الْقَدِيمِ ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنِ نجيد : كُلُّ وَجْدٍ لَا يَشْهَدُ لَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَهُوَ بَاطِلٌ . وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَغْلَطُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فَيَظُنُّ فِي شَخْصٍ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ وَيَظُنُّ أَنَّ وَلِيَّ اللَّهِ يَقْبَلُ مِنْهُ كُلَّ مَا يَقُولُهُ وَيُسَلِّمُ إِلَيْهِ كُلَّ مَا يَقُولُهُ وَيُسَلِّمُ إِلَيْهِ كُلَّ مَا يَفْعَلُهُ وَإِنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَيُوَافِقُ ذَلِكَ الشَّخْصُ لَهُ وَيُخَالِفُ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ تَصْدِيقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ وَطَاعَتَهُ فِيمَا أَمَرَ وَجَعَلَهُ الْفَارِقَ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ وَبَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَبَيْنَ السُّعَدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ

(152/365)

فَمَنْ اتَّبَعَهُ كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ وَجُنْدِهِ الْمُفْلِحِينَ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ ؛ وَمَنْ لَمْ يَتْبَعْهُ كَانَ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ الْخَاسِرِينَ الْمُجْرِمِينَ فَتَجُرُّهُ مُخَالَفَةُ الرَّسُولِ وَمُوَافَقَةُ ذَلِكَ الشَّخْصِ أَوَّلًا إلَى الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالِ وَآخِرًا إلَى الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ وَيَكُونُ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾ ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ ﴿ إذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ . وَهَؤُلَاءِ مُشَابِهُونَ لِلنَّصَارَى

الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وَفِي

(154/365)

الْمَسْنَدِ وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ لَمَّا سَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهَا فَقَالَ : مَا عَبَدُوهُمْ : فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَلُّوا لَهُمْ الْحَرَامَ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ الْحَلَالَ فَأَطَاعُوهُمْ وَكَانَتْ هَذِهِ عِبَادَتَهُمْ إيَّاهُمْ ﴾ وَلِهَذَا قِيلَ فِي مِثْلِ هَؤُلَاءِ إنَّمَا حَرَّمُوا الْوُصُولَ بِتَضْيِيعِ الْأُصُولِ فَإِنَّ أَصْلَ الْأُصُولِ تَحْقِيقُ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا بُدَّ مِنْ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا بُدَّ مِنْ الْإِيمَانِ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ إنْسِهِمْ وَجِنِّهِمْ وَعَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ عُلَمَائِهِمْ وَعُبَّادِهِمْ مُلُوكِهِمْ وَسُوقَتِهِمْ وَأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِأَحَدٍ مِنْ الْخَلْقِ إلَّا بِمُتَابَعَتِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا حَتَّى لَوْ أَدْرَكَهُ مُوسَى وَعِيسَى وَغَيْرُهُمَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ لَوَجَبَ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

﴿ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا

(155/365)

إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى أُمَّتِهِ الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ وَقَدْ قَالَ

(156/365)

تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا

أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ . وَكُلُّ مَنْ خَالَفَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ مُقَلِّدًا فِي ذَلِكَ لِمَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ فَإِنَّهُ بَنَى أَمْرَهُ عَلَى أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ ؛ وَأَنَّ وَلِيَّ اللَّهِ لَا يُخَالِفُ فِي شَيْءٍ وَلَوْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ أَكْبَرِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ كَأَكَابِرِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ مَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ ؛ فَكَيْفَ إذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَتَجِدُ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ عُمْدَتُهُمْ فِي اعْتِقَادِ كَوْنِهِ وَلِيًّا لِلَّهِ

(157/365)

أَنَّهُ قَدْ صَدَرَ عَنْهُ مُكَاشَفَةٌ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ أَوْ بَعْضِ التَّصَرُّفَاتِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ مِثْلِ أَنْ يُشِيرَ إلَى شَخْصٍ فَيَمُوتَ ؛ أَوْ يَطِيرَ فِي الْهَوَاءِ إلَى مَكَّةَ أَوْ غَيْرِهَا

(158/365)

أَوْ يَمْشِيَ عَلَى الْمَاءِ أَحْيَانًا ؛ أَوْ يَمْلَأَ إِبْرِيقًا مِنْ الْهَوَاءِ ؛ أَوْ يُنْفِقَ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ مِنْ الْغَيْبِ أَوْ أَنْ يَخْتَفِيَ أَحْيَانًا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ ؛ أَوْ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ اسْتَغَاثَ بِهِ وَهُوَ غَائِبٌ أَوْ مَيِّتٌ فَرَآهُ قَدْ جَاءَهُ فَقَضَى حَاجَتَهُ ؛ أَوْ يُخْبِرَ النَّاسَ بِمَا سُرِقَ لَهُمْ ؛ أَوْ بِحَالِ غَائِبٍ لَهُمْ أَوْ مَرِيضٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْأُمُورِ ؛ وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ صَاحِبَهَا وَلِيٌّ لِلَّهِ ؛ بَلْ قَدْ اتَّفَقَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ لَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ لَمْ يُغْتَرَّ بِهِ حَتَّى يَنْظُرَ مُتَابَعَتَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُوَافَقَتَهُ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ . وَكَرَامَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ ؛ وَهَذِهِ الْأُمُورُ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَكُونُ صَاحِبُهَا وَلِيًّا لِلَّهِ فَقَدْ يَكُونُ عَدُوًّا لِلَّهِ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْخَوَارِقَ تَكُونُ لِكَثِيرٍ مِنْ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقِينَ وَتَكُونُ لِأَهْلِ الْبِدَعِ وَتَكُونُ مِنْ الشَّيَاطِينِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ ؛ بَلْ يُعْتَبَرُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ بِصِفَاتِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَيُعْرَفُونَ بِنُورِ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ وَبِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ الْبَاطِنَةِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ . مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الْمَذْكُورَةَ وَأَمْثَالَهَا قَدْ

(159/365)

تُوجَدُ فِي أَشْخَاصٍ وَيَكُونُ أَحَدُهُمْ لَا يَتَوَضَّأُ ؛ وَلَا يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةَ ؛ بَلْ يَكُونُ

مُلَابِسًا لِلنَّجَاسَاتِ مُعَاشِرًا لِلْكِلَابِ ؛ يَأْوِي إِلَى الْحَمَّامَاتِ والقمامين وَالْمَقَابِرِ وَالْمَزَابِلِ ؛ رَائِحَتُهُ خَبِيثَةٌ لَا يَتَطَهَّرُ الطَّهَارَةَ الشَّرْعِيَّةَ ؛ وَلَا يَتَنَظَّفُ ؛ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ جُنُبٌ وَلَا كَلْبٌ ﴾ وَقَالَ عَنْ هَذِهِ الأخلية : ﴿ إِنَّ هَذِهِ الْحُشُوشَ مُحْتَضَرَةٌ ﴾ أَيْ يَحْضُرُهَا الشَّيْطَانُ وَقَالَ : ﴿ مَنْ أَكَلَ مِنْ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ الْخَبِيثَتَيْنِ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا ؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ ﴾ . وَقَالَ ﴿ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ خَمْسٌ مِنْ الْفَوَاسِقِ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ : الْحَيَّةُ وَالْفَأْرَةُ وَالْغُرَابُ وَالْحِدَأَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ ﴾ وَفِي رِوَايَةٍ ﴿ الْحَيَّةُ وَالْعَقْرَبُ ﴾ . وَأَمَرَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِقَتْلِ الْكِلَابِ وَقَالَ : ﴿ مَنْ اقْتَنَى كَلْبًا لَا يُغْنِي عَنْهُ زَرْعًا وَلَا ضَرْعًا نَقَصَ مِنْ عَمَلِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ ﴾ وَقَالَ : ﴿ لَا تَصْحَبُ الْمَلَائِكَةُ رُفْقَةً مَعَهُمْ كَلْبٌ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إذَا وَلَغَ الْكَلْبُ فِي إنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْسِلْهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ إحْدَاهُنَّ بِالتُّرَابِ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ

(161/365)

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ

(162/365)

وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . فَإِذَا كَانَ الشَّخْصُ مُبَاشِرًا لِلنَّجَاسَاتِ وَالْخَبَائِثِ الَّتِي يُحِبُّهَا الشَّيْطَانُ أَوْ يَأْوِي إلَى الْحَمَّامَاتِ وَالْحُشُوشِ الَّتِي تَحْضُرُهَا الشَّيَاطِينُ أَوْ يَأْكُلُ الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وَالزَّنَابِيرَ ؛ وَإِذْ أَنْ . . . (1) الْكِلَابِ الَّتِي هِيَ خَبَائِثُ وَفَوَاسِقُ أَوْ يَشْرَبُ الْبَوْلَ وَنَحْوَهُ مِنْ النَّجَاسَاتِ الَّتِي يُحِبُّهَا الشَّيْطَانُ أَوْ يَدْعُو غَيْرَ اللَّهِ فَيَسْتَغِيثَ بِالْمَخْلُوقَاتِ وَيَتَوَجَّهَ إلَيْهَا أَوْ يَسْجُدُ إلَى نَاحِيَةِ شَيْخِهِ وَلَا يُخْلِصُ الدِّينَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ أَوْ يُلَابِسُ الْكِلَابَ أَوْ النِّيرَانَ أَوْ يَأْوِي إلَى الْمَزَابِلِ وَالْمَوَاضِعِ النَّجِسَةِ أَوْ يَأْوِي إلَى الْمَقَابِرِ ؛ وَلَا سِيَّمَا إلَى مَقَابِرِ الْكُفَّارِ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَوْ الْمُشْرِكِينَ أَوْ يَكْرَهُ سَمَاعَ الْقُرْآنِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ وَيُقَدِّمُ عَلَيْهِ سَمَاعَ الْأَغَانِي وَالْأَشْعَارِ وَيُؤْثِرُ سَمَاعَ مَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ عَلَى

سَمَاعِ كَلَامِ الرَّحْمَنِ فَهَذِهِ عَلَامَاتُ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ لَا عَلَامَاتُ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ . قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يُسْأَلُ أَحَدُكُمْ عَنْ نَفْسِهِ إلَّا الْقُرْآنُ فَإِنْ كَانَ يُحِبُّ الْقُرْآنَ فَهُوَ يُحِبُّ اللَّهَ وَإِنْ كَانَ يُبْغِضُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يُبْغِضُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَوْ طَهُرَتْ قُلُوبُنَا لَمَا شَبِعَتْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : الذِّكْرُ يُنْبِتُ الْإِيمَانَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ وَالْغِنَاءُ

(163/365)

يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ .

(164/365)

وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ خَبِيرًا بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ الْبَاطِنَةِ فَارِقًا بَيْنَ الْأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ فَيَكُونُ قَدْ قَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نُورِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ

وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ فَهَذَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ جَاءَ فِيهِمْ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ ﴾ قَالَ التِّرْمِذِيُّ حَدِيثٌ حَسَنٌ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ الَّذِي فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ قَالَ فِيهِ : ﴿ لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْت فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ ﴾ . فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ مِنْ هَؤُلَاءِ فُرِّقَ بَيْنَ حَالِ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ

(165/365)

الشَّيْطَانِ كَمَا يُفَرِّقُ الصَّيْرَفِيُّ بَيْنَ الدِّرْهَمِ الْجَيِّدِ وَالدِّرْهَمِ الزَّيْفِ وَكَمَا يُفَرِّقُ مَنْ يَعْرِفُ الْخَيْلَ بَيْنَ الْفَرَسِ الْجَيِّدِ وَالْفَرَسِ الرَّدِيءِ وَكَمَا يُفَرِّقُ مَنْ يَعْرِفُ الْفُرُوسِيَّةَ بَيْنَ الشُّجَاعِ وَالْجَبَانِ وَكَمَا أَنَّهُ يَجِبُ الْفَرْقُ بَيْنَ النَّبِيِّ الصَّادِقِ وَبَيْنَ الْمُتَنَبِّئِ الْكَذَّابِ فَيُفَرِّقُ بَيْنَ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ الْأَمِينِ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَمُوسَى وَالْمَسِيحِ وَغَيْرِهِمْ

وَبَيْنَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ ؛ وَالْأَسْوَدِ العنسي وطليحة الأسدي وَالْحَارِثِ الدِّمَشْقِيِّ ؛ وَبَاذَانَ الرُّومِيِّ ؛ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْكَذَّابِينَ ؛ وَكَذَلِكَ يُفَرِّقُ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ الضَّالِّينَ .

فَصْلٌ :

وَ " الْحَقِيقَةُ " حَقِيقَةُ الدِّينِ : دِينُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، هِيَ مَا اتَّفَقَ عَلَيْهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ ؛ وَإِنْ كَانَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَاجٌ . فَ " الشِّرْعَةُ " هِيَ الشَّرِيعَةُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ . وَ " الْمِنْهَاجُ " هُوَ الطَّرِيقُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ .

(166/365)

فَالشِّرْعَةُ بِمَنْزِلَةِ الشَّرِيعَةِ لِلنَّهْرِ وَالْمِنْهَاجُ هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي سَلَكَ فِيهِ وَالْغَايَةُ الْمَقْصُودَةُ هِيَ حَقِيقَةُ الدِّينِ وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَهِيَ حَقِيقَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ وَهُوَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ

الْعَبْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا يَسْتَسْلِمُ لِغَيْرِهِ فَمَنْ اسْتَسْلَمَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ كَانَ مُشْرِكًا وَاللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَسْلِمْ لِلَّهِ بَلْ اسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَتِهِ كَانَ مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ . وَدِينُ الْإِسْلَامِ هُوَ دِينُ الْأَوَّلِينَ والآخرين مِنْ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وقَوْله تَعَالَى ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ عَامٌّ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ . فَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَيَعْقُوبُ وَالْأَسْبَاطُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَالْحَوَارِيُّونَ كُلُّهُمْ دِينُهُمْ الْإِسْلَامُ الَّذِي هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ : ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا

(167/365)

تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ وَقَالَ السَّحَرَةُ : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾

وَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ وَقَالَتْ بلقيس : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ﴾ وَقَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ . فَدِينُ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُهُمْ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ " ﴿ إنَّا مَعْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ ﴾ قَالَ تَعَالَى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ .

فَصْلٌ :

(168/365)

وَقَدْ اتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا وَسَائِرُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَقَدْ رَتَّبَ اللَّهُ عِبَادَهُ السُّعَدَاءَ الْمُنْعَمَ عَلَيْهِمْ " أَرْبَعَ مَرَاتِبَ " فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ

وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ . وَفِي الْحَدِيثِ : " ﴿ مَا طَلَعَتْ الشَّمْسُ وَلَا غَرَبَتْ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ ﴾ وَأَفْضَلُ الْأُمَمِ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِي الْمُسْنَدِ " ﴿ أَنْتُمْ تُوَفُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ ﴾ وَأَفْضَلُ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقَرْنُ الْأَوَّلُ . وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّهُ قَالَ :

(169/365)

" ﴿ خَيْرُ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثْت فِيهِ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ﴾ وَهَذَا ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " ﴿ لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ ﴾ . وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ أَفْضَلُ مِنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ

الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلُوا وَالْمُرَادُ بِالْفَتْحِ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ فَإِنَّهُ كَانَ أَوَّلَ فَتْحِ مَكَّةَ وَفِيهِ ﴿ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَفَتْحٌ هُوَ قَالَ : نَعَمْ ﴾ . وَأَفْضَلُ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ " الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ " وَأَفْضَلُهُمْ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ وَهَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عَنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَأَئِمَّةِ الْأُمَّةِ وَجَمَاهِيرِهَا وَقَدْ دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ دَلَائِلُ بَسَطْنَاهَا فِي " مِنْهَاجِ

(170/365)

أَهْلِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ فِي نَقْضِ كَلَامِ أَهْلِ الشِّيعَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ " . وَبِالْجُمْلَةِ اتَّفَقَتْ طَوَائِفُ السُّنَّةِ وَالشِّيعَةِ عَلَى أَنَّ أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا وَاحِدٌ مِنْ الْخُلَفَاءِ وَلَا يَكُونُ مِنْ بَعْدِ الصَّحَابَةِ أَفْضَلُ مِنْ الصَّحَابَةِ وَأَفْضَلُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُهُمْ مَعْرِفَةً بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاتِّبَاعًا لَهُ كَالصَّحَابَةِ الَّذِينَ هُمْ أَكْمَلُ الْأُمَّةِ فِي مَعْرِفَةِ دِينِهِ وَاتِّبَاعِهِ وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ أَكْمَلُ مَعْرِفَةً بِمَا جَاءَ بِهِ وَعَمَلًا بِهِ فَهُوَ أَفْضَلُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ إذْ كَانَتْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلَ الْأُمَمِ وَأَفْضَلُهَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَفْضَلُهُمْ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(171/365)

وَقَدْ ظَنَّ طَائِفَةٌ غالطة أَنَّ " خَاتَمَ الْأَوْلِيَاءِ " أَفْضَلُ الْأَوْلِيَاءِ قِيَاسًا عَلَى خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ مِنْ الْمَشَايِخِ الْمُتَقَدِّمِينَ بِخَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ إلَّا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ فَإِنَّهُ صَنَّفَ مُصَنَّفًا غَلِطَ فِيهِ فِي مَوَاضِعَ ثُمَّ صَارَ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ يَزْعُمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي أَنَّ خَاتَمَ الْأَوْلِيَاءِ أَفْضَلُ مِنْ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ جِهَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ يَسْتَفِيدُونَ الْعِلْمَ بِاللَّهِ مِنْ جِهَتِهِ كَمَا يَزْعُمُ ذَلِكَ ابْنُ عَرَبِيٍّ صَاحِبُ " كِتَابِ الْفُتُوحَاتِ الْمَكِّيَّةِ " وَ " كِتَابِ الْفُصُوصِ " فَخَالَفَ الشَّرْعَ وَالْعَقْلَ مَعَ مُخَالَفَةِ جَمِيعِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَوْلِيَائِهِ كَمَا يُقَالُ لِمَنْ قَالَ : فَخَرَّ عَلَيْهِمْ السَّقْفُ مِنْ تَحْتِهِمْ لَا عَقْلٌ وَلَا قُرْآنٌ .

(172/365)

ذَلِكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ فِي الزَّمَانِ مِنْ أَوْلِيَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَالْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمْ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ أَفْضَلُ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ فَكَيْفَ الْأَنْبِيَاءُ كُلُّهُمْ ؟ وَالْأَوْلِيَاءُ إنَّمَا يَسْتَفِيدُونَ مَعْرِفَةَ اللَّهِ مِمَّنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ وَيَدَّعِي أَنَّهُ خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ وَلَيْسَ آخِرُ الْأَوْلِيَاءِ أَفْضَلَهُمْ كَمَا أَنَّ آخِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَفْضَلُهُمْ ؛

فَإِنَّ فَضْلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَبَتَ بِالنُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " ﴿ أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ ﴾ . وَقَوْلِهِ : " ﴿ آتِي بَابَ الْجَنَّةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ فَيَقُولُ بِك أُمِرْت أَنْ لَا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَك ﴾ وَ " لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ " رَفَعَ اللَّهُ دَرَجَتَهُ فَوْقَ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ فَكَانَ أَحَقَّهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الدَّلَائِلِ كُلٌّ مِنْهُمْ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنْ اللَّهِ لَا سِيَّمَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ فِي نُبُوَّتِهِ مُحْتَاجًا إلَى غَيْرِهِ فَلَمْ تَحْتَجْ شَرِيعَتُهُ إلَى سَابِقٍ وَلَا إلَى لَاحِقٍ ؛ بِخِلَافِ الْمَسِيحِ أَحَالَهُمْ فِي أَكْثَرِ الشَّرِيعَةِ عَلَى التَّوْرَاةِ وَجَاءَ الْمَسِيحُ فَكَمَّلَهَا ؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّصَارَى مُحْتَاجِينَ إلَى النُّبُوَّاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَلَى الْمَسِيحِ : كَالتَّوْرَاةِ وَالزَّبُورِ وَتَمَامِ الْأَرْبَعِ وَعِشْرِينَ نُبُوَّةً وَكَانَ الْأُمَمُ

(173/365)

قَبْلَنَا مُحْتَاجِينَ إلَى مُحَدَّثِينَ ؛ بِخِلَافِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَاهُمْ بِهِ فَلَمْ يَحْتَاجُوا مَعَهُ إلَى نَبِيٍّ وَلَا إلَى مُحَدَّثٍ ؛ بَلْ جُمِعَ لَهُ مِنْ الْفَضَائِلِ وَالْمَعَارِفِ

(174/365)

وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا فَرَّقَهُ فِي غَيْرِهِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ؛ فَكَانَ مَا فَضَّلَهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ اللَّهِ بِمَا أَنْزَلَهُ إلَيْهِ وَأَرْسَلَهُ إلَيْهِ لَا بِتَوَسُّطِ بَشَرٍ . وَهَذَا بِخِلَافِ " الْأَوْلِيَاءِ " فَإِنَّ كُلَّ مَنْ بَلَغَهُ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ إلَّا بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكُلُّ مَا حَصَلَ لَهُ مِنْ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ هُوَ بِتَوَسُّطِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَلِكَ مَنْ بَلَغَهُ رِسَالَةُ رَسُولٍ إلَيْهِ لَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ إلَّا إذَا اتَّبَعَ ذَلِكَ الرَّسُولَ الَّذِي أُرْسِلَ إلَيْهِ . وَمَنْ ادَّعَى أَنَّ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمْ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ لَهُ طَرِيقٌ إلَى اللَّهِ لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إلَى مُحَمَّدٍ فَهَذَا كَافِرٌ مُلْحِدٌ وَإِذَا قَالَ : أَنَا مُحْتَاجٌ إلَى مُحَمَّدٍ فِي عِلْمِ الظَّاهِرِ دُونَ عِلْمِ الْبَاطِنِ أَوْ فِي عِلْمِ الشَّرِيعَةِ دُونَ عِلْمِ الْحَقِيقَةِ ؛ فَهُوَ شَرٌّ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ قَالُوا : إنَّ مُحَمَّدًا رَسُولٌ إلَى الْأُمِّيِّينَ دُونَ أَهْلِ الْكِتَابِ . فَإِنَّ أُولَئِكَ آمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ فَكَانُوا كُفَّارًا بِذَلِكَ وَكَذَلِكَ هَذَا الَّذِي يَقُولُ إنَّ مُحَمَّدًا بُعِثَ بِعِلْمِ الظَّاهِرِ دُونَ عِلْمِ الْبَاطِنِ آمَنَ بِبَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ كَافِرٌ وَهُوَ أَكْفَرُ مِنْ أُولَئِكَ ؛ لِأَنَّ عِلْمَ الْبَاطِنِ الَّذِي هُوَ عِلْمُ إيمَانِ الْقُلُوبِ وَمَعَارِفِهَا وَأَحْوَالِهَا هُوَ عِلْمٌ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ الْبَاطِنَةِ وَهَذَا أَشْرَفُ

مِنْ الْعِلْمِ بِمُجَرَّدِ أَعْمَالِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ .

فَإِذَا ادَّعَى الْمُدَّعِي أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّمَا عَلِمَ هَذِهِ الْأُمُورَ الظَّاهِرَةَ دُونَ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ ؛ وَأَنَّهُ لَا يَأْخُذُ هَذِهِ الْحَقَائِقَ عَنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَقَدْ ادَّعَى أَنَّ بَعْضَ الَّذِي آمَنَ بِهِ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ دُونَ الْبَعْضِ الْآخَرِ وَهَذَا شَرٌّ مِمَّنْ يَقُولُ : أُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَأَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَلَا يَدَّعِي أَنَّ هَذَا الْبَعْضَ الَّذِي آمَنَ بِهِ أَدْنَى الْقِسْمَيْنِ . وَهَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ يَدَّعُونَ أَنَّ " الْوِلَايَةَ " أَفْضَلُ مِنْ " النُّبُوَّةِ " وَيُلَبِّسُونَ عَلَى النَّاسِ فَيَقُولُونَ : وِلَايَتُهُ أَفْضَلُ مِنْ نُبُوَّتِهِ وَيُنْشِدُونَ : مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيِّ وَيَقُولُونَ نَحْنُ شَارَكْنَاهُ فِي وِلَايَتِهِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ مِنْ رِسَالَتِهِ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ ضَلَالِهِمْ فَإِنَّ وِلَايَةَ مُحَمَّدٍ لَمْ يُمَاثِلْهُ فِيهَا أَحَدٌ لَا إبْرَاهِيمُ وَلَا مُوسَى فَضْلًا عَنْ أَنْ يُمَاثِلَهُ هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدُونَ . وَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ وَلِيٌّ فَالرَّسُولُ نَبِيٌّ وَلِيٌّ . وَرِسَالَتُهُ مُتَضَمِّنَةٌ لِنُبُوَّتِهِ وَنُبُوَّتُهُ مُتَضَمِّنَةٌ لِوِلَايَتِهِ وَإِذَا قَدَّرُوا مُجَرَّدَ إنْبَاءِ اللَّهِ إيَّاهُ بِدُونِ وِلَايَتِهِ لِلَّهِ فَهَذَا تَقْدِيرٌ مُمْتَنِعٌ فَإِنَّهُ حَالَ إنْبَائِهِ إيَّاهُ مُمْتَنِعٌ أَنْ يَكُونَ إلَّا وَلِيًّا لِلَّهِ وَلَا تَكُونُ مُجَرَّدَةً عَنْ وِلَايَتِهِ وَلَوْ قُدِّرَتْ مُجَرَّدَةً لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مُمَاثِلًا لِلرَّسُولِ فِي وِلَايَتِهِ . انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 11 صـ 156.226 ﴾

(176/365)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) ﴾

أخرج أحمد في الزهد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب قال : قال الحواريون : يا عيسى من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؟ قال عيسى عليه السلام : الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها ، والذين نظروا إلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها ، وأماتوا منها ما يخشون أن يميتهم وتركوا ما علموا أن سيتركهم ، فصار استكثارهم منها استقلالاً وذكرهم إياها فواتاً ، وفرحهم بما أصابوا منها حزناً ، وما عارضهم من نائلها رفضوه ، وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه ، خلقت الدنيا عندهم فليس يجددونها ، وخربت بينهم فليس يعمرونها ، وماتت في صدورهم فليس يحيونها ، يهدمونها فيبنون بها آخرتهم ، ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم ، ويرفضونها فكانوا برفضها هم الفرحين ، وباعوها فكانوا ببيعها هم المربحين ، ونظروا إلى أهلها صرعى قد خلت فيهم المثلات فاحبوا ذكر الموت وتركوا ذكر الحياة ، يحبون الله تعالى ويستضيئون بنوره ويضيئون به ، لهم خبر عجيب وعندهم الخبر العجيب ، بهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، وبهم علم الكتاب وبه علموا ، ليسوا

يرون نائلاً مع ما نالوا ، ولا أماني دون ما يرجون ، ولا خوفاً دون ما يحذرون .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ قال : هم الذين إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله .

وأخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً وموقوفاً ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ قال " هم الذين إذا رُؤُوا يذكر الله لرؤيتهم " .

(177/365)

وأخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعيد بن جبير رضي الله عنه " عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ قال " يذكر الله لرؤيتهم " " .

وأخرج ابن المبارك والحكيم والترمذي في نوادر الأصول والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه " عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قيل يا رسول الله من أولياء الله ؟ قال " الذين إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله " " .

وأخرج أبو الشيخ من طريق مسعر عن سهل بن الأسد رضي الله عنه قال : " سئل رسول

الله صلى الله عليه وسلم من أولياء الله ؟ قال " الذين إذا رُؤُوا ذكر الله " " .

وأخرج ابن مردويه من طريق مسعر بن بكر بن الأخنس عن سعد رضي الله عنه قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أولياء الله ؟ قال " الذين إذا رُؤُوا ذكر الله " " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي الضحى رضي الله عنه في قوله ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ قال : هم " الذين إذا رؤُوا ذكر الله " .

وأخرج أحمد وابن ماجة والحكيم الترمذي وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا أخبركم بخياركم ؟ قالوا : بلى . قال : خياركم الذين إذا رُؤُوا ذكر الله " .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر رضي الله عنه مرفوعاً " ان لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة بقربهم ومجلسهم منه ، فجثا أعرابي على ركبيته فقال : يا رسول الله صفهم لنا حلهم لنا . قال : قوم من إفناء الناس من نزاع القبائل تصادقوا في الله وتحابوا في الله ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم ، يخاف الناس ولا يخافون ، هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " .

(178/365)

وأخرج أحمد والحكيم الترمذي عن عمرو بن الجموح رضي الله عنه " إنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : لا يحق العبد حق صريح الإِيمان حتى يحب لله ويبغض لله تعالى ، فإذا أحب لله وأبغض لله فقد استحق الولاء من الله ، وإن أوليائي من عبادي وأحبائي من خلقي الذين يذكرون بذكري واذكر بذكرهم " .

وأخرج أحمد عن عبد الرحمن بن غنم رضي الله عنه يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم " خيار عباد الله الذين إذا رُؤُوا ذكر الله ، وشر عباد الله المشَّاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة ، الباغون البرآء العنت " .

وأخرج الحكيم الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خياركم من ذكركم الله رؤيته ، وزاد في علمكم منطقه ، ورغبكم في الآخرة عمله " .

وأخرج الحكيم الترمذي " عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قيل : يا رسول الله أي جلسائنا خير ؟ قال : من ذكركم الله رؤيته ، وزاد في أعمالكم منطقه ، وذكركم الآخرة عمله " .

وأخرج الحكيم الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : قالوا : " يا رسول الله أينا أفضل كي نتخذه جليساً معلماً ؟ قال : الذي إذا رُئي ذكر الله برؤيته " .

وأخرج أبو داود وهناد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي

في شعب الإِيمان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن من عباد الله ناساً يغبطهم الأنبياء والشهداء ، قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب ، لا يفزعون إذا فزع الناس ولا يحزنون إذا حزنوا ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ " .

(179/365)

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله . قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم قرأ ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ " .

وأخرج أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الاخوان وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" إن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله . قال أعرابي ، يا رسول الله أنعتهم لنا . قال : هم أناس من أبناء الناس ونوازع القبائل لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا في الله وتصافوا في الله ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسون عليها ، يفزع الناس ولا هم يفزعون وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " .

وأخرج ابن مردويه " عن أبي الدرداء رضي الله عنه " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تعالى : حقت محبتي للمتحابين فيّ ، وحقت محبتي للمتزاورين فيّ ، وحقت محبتي للمتجالسين فيّ ، الذين يعمرون مساجدي بذكري ، ويعلمون الناس الخير ، ويدعونهم إلى طاعتي ، أولئك أوليائي الذين أظلهم في ظل عرشي ، وأسكنهم في جواري ، وآمنهم من عذابي ، وأدخلهم الجنة قبل الناس بخمسمائة عام ، يتنعمون فيها وهم فيها خالدون ، ثم قرأ نبي الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أَلَا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ " .

(180/365)

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى ﴿ أَلا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ قال " الذين يتحابون في الله " " .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه " عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ قال " هم الذين يتحابون في الله " " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند عن أبي مسلم رضي الله عنه قال : لقيت معاذ بن جبل رضي الله عنه بحمص فقلت : والله إني لأحبك لله .

قال : أبشر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " المتحابون في الله في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله يغبطهم بمكانهم النبيون والشهداء ، ثم خرجت فلقيت عبادة بن الصامت رضي الله عنه فحدثته بالذي قال معاذ ، فقال عبادة رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يروي عن ربه عز وجل أنه قال : حقت محبتي للمتحابين فيّ ، وحقت محبتي للمتزاورين فيّ ، وحقت محبتي للمتباذلين فيّ ، على منابر من نور يغبطهم النبيون والصديقون " .

وأخرج ابن أبي شيبة والحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن مسعود رضي الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن للمتحابين في الله تعالى عموداً من ياقوتة حمراء في رأس العمود سبعون ألف غرفة ، يضيء حسنهم أهل الجنة كما تضيء الشمس أهل الدنيا

، يقول بعضهم لبعض : انطلقوا بنا حتى ننظر إلى المتحابين في الله ، فإذا أشرفوا عليها أضاء حسنهم أهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا ، عليهم ثياب خضر من سندس ، مكتوب على جباههم هؤلاء المتحابون في الله " .

(181/365)

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن سابط رضي الله عنه انبئت أن عن يمين الرحمن – وكلتا يديه يمين – قوماً على منابر من نور وجوههم نور ، عليهم ثياب خضر تغشي أبصار الناظرين رؤيتهم ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، قوم تحابوا في جلال الله حين عصيَ الله في الأرض .

وأخرج ابن أبي شيبة عن العلاء بن زياد رضي الله عنه عن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال " عباد من عباد الله ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بقربهم من الله على منابر من نور ، يقول الأنبياء والشهداء : من هؤلاء ؟ فيقول : هؤلاء كانوا يتحابون في الله على غير أموال يتعاطونها ولا أرحام كانت بينهم " .

وأخرج أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن المتحابين لنرى غرفهم في الجنة كالكوكب الطالع الشرقي أو الغربي ، فيقال : من هؤلاء ؟ فيقال : المتحابون في الله تعالى " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الذين آمَنُواْ ﴾ : في محلِّه أوجهٌ ، أحدُها : أنه مرفوعٌ على خبرِ ابتداءٍ مضمر ، أي : هم الذين آمنوا ، أو على أنه خبرٌ ثانٍ ل " إنَّ " ، أو على الابتداءِ ، والخبرُ الجملةُ من قوله : " لهم البشرى " ، أو على النعت على موضع " أولياء " لأنَّ موضعَه رفعٌ بالابتداء قبل دخول " إنَّ " أو على البدل من الموضع أيضاً ، ذكرهما مكي . وهذان الوجهان على مذهب الكوفيين لأنهم يُجْرون التوابعَ كلَّها مُجرى عطفِ النسق في اعتبار المحل/ محلِّ الجر بدلاً من الهاء والميم في " عليهم " . وقيل : منصوبُ المحلِّ نعتاً ل " أولياء " ، أو بدلاً منهم على اللفظ أو على إضمارِ فعلٍ لائقٍ وهو " أمدحُ " ، فقد تَحَصَّل فيه تسعةُ أوجهٍ : الرفعُ من خمسة ، والجرُّ من وجه واحد ، والنصبُ من ثلاثة . وإذا لم تجعلِ الجملةَ من قوله : " لهم البشرى " ، خبراً للذين جاز فيها الاستئنافُ ، وأن تكونَ خبراً ثانياً ل " إنَّ " أو ثالثاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 232 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾

الوليُّ على وزن فعيل مبالغة من الفاعل ، وهو مَنْ تَوَالَت طاعاته ، من غير أن يتخللها عصيان .

ويجوز أن يكون فعيل بمعنى مفعول كجريح وقتيل بمعنى مجروح ومقتول ؛ فيكون الوليُّ مَنْ يتوالى عليه إحسانُ الله وأفضاله ، ويكون بمعنى كونه محفوظاً في عامة أحواله من المحن .

وأشدُّ المحن ارتكابُ المعاصي فيعصمه الحقُّ – سبحانه – على دوام أوقاته من الزلَّات .

وكما أن النبيَّ لا يكون إلا معصوماً فالوليُّ لا يكون إلا محفوظاً .

والفَرْقُ بين المحفوظ والمعصوم أن المعصوم لا يُلِمُّ بذنبٍ أَلْبَتَّةَ ، والمحفوظُ قد تحصُل منه هَنَات ، وقد يكون له – في الندرة – زَلَّاتٌ ، ولكن لا يكون له إصرار : ﴿ أولئك الذين يتوبون من قريب ﴾ [النساء : 17] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

حسنٌ ما قيل إنه ﴿ لا خوف عليهم ﴾ : في الدنيا ، ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ : في العاقبة .

ولكن الأَوْلى أَنْ يقال إن الخواص منهم لا خوفٌ عليهم في الحال – لأنَّ حقيقةَ الخوفِ توقُّع محذورٍ في المستقبل ، أو ترقُّب محبوب يزول في المستأنف . . وهم بِحُكْمِ الوقت ؛ ليس لهم تطلّعُ إلى المستقبل . والحزن هو أن تنالهم حُزُونة في الحال ، وهم في رَوْحِ الرضا بكلِّ ما يجري فلا تكون لهم حزونة الوقت . فالوليُّ لا خوفٌ عليه في الوقت ، ولا له حزن بحال ، فهو بحكم الوقت .

ولا يكون وليّاً إلا إذا كان موفَّقاً لجميع ما يلزمه من الطاعات ، معصوماً بكل وجه عن جميع الزلات . وكلُّ خصْلَةٍ حميدة يمكن أن يُعْتَبَرَ بها فيقال هي صفة الأولياء .

ويقال الوليُّ مَنْ فيه هذه الخصلة .

(184/365)

ويقال الوليُّ من يُقَصِّر في حقِّ الحق ، ولا يؤخِّر القيام بحق الخَلق ؛ يطيع لا لخوف عقاب ، ولا على ملاحظةِ حسن مآب ، أو تطلع لعاجلٍ اقتراب ، ويقضي لكلِّ أحدٍ حقاً يراه واجباً ، ولا يقتضي من أحدٍ حقاً له ، ولا ينتقم ، ولا ينتصف ولا يشمت ولا يحقد ، ولا يقلد أحداً مِنّةً ، ولا يرى لنفسه ولا لما يعمله قَدْراً ولا قيمة .

﴿ الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) ﴾

هذه صفة الأولياء ؛ آمنوا في الحال ، واتقوا الشّرْكَ في المآل . ويقال ﴿ ءَامَنُوا ﴾ أي قاموا بقلوبهم من حيث المعارف . ﴿ وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ : استقاموا بنفوسهم بأداء الوظائف . ويقال " آمنوا " بتلقي التعريف . " واتقوا " : بالتقوى عن المحرمات بالتكليف . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 104. 106 ﴾

(185/365)

قوله تعالى ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما نفى عنهم الخوف والحزن ، زادهم فقال مبيناً لتوليه لهم بعد أن شرح توليهم له :

﴿ لهم ﴾ أي خاصة ﴿ البشرى ﴾ أي الكاملة ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ أي بأن دينهم يظهر وحالهم يشتهر وعدوهم يخذل وعمله لا يقبل وبالرؤية الصالحة ﴿ وفي الآخرة ﴾ بأنهم هم السعداء وأعداؤهم الأشقياء وتتلقاهم الملائكة ﴿ هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ [

الأنبياء : 103] .

وما كان الغالب على أحوال أهل الله في الدنيا الضيق ولا سيما في أول الإسلام ، كان السامع لذلك بمعرض أن يقول : يا ليت شعري هل يتم هذا السرور ! فقيل : نعم ، وأكد بنفي الجنس لأن الجبابرة ينكرون ذلك لهم لما يرون من أن عزهم من وراء ذل ليس فيه سوء ما لباطل المتكبرين من السورة والإرجاف والصولة : ﴿ لا تبديل ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ لكلمات الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له الإحاطة بكل شيء علماً وقدرة ؛ وقوله – : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العالي الرتبة ﴿ هو ﴾ أي خاصة ﴿ الفوز العظيم ﴾ في موضع البيان والكشف لمضمون هذه البشرى ؛ والخوف : انزعاج القلب بما يتوقع من المكروه ، ونظيره الجزع والفزع ، ونقيضه الأمن ؛ والحزن : انزعاجه وغلظ همه مما وقع من المكروه ، من الحزن للأرض الغليظة ، ونقيضه السرور ، وهما يتعاقبان على حال الحي الذاكر للمحبوب ؛ والبشرى : الخبر الأول بما يظهر سروره في بشرة الوجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 461.462 ﴾

(186/365)

فصل

قال الفخر :

وأما قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا وَفِى الأخرة ﴾

ففيه أقوال :

الأول : المراد منه الرؤيا الصالحة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه قال : " البشرى هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له " وعنه عليه الصلاة والسلام : " ذهبت النبوة وبقيت المبشرات " وعنه عليه الصلاة والسلام : " الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان ، فإذا حلم أحدكم حلماً يخافه فليتعوذ منه وليبصق عن شماله ثلاث مرات فإنه لا يضره " وعنه صلى الله عليه وسلم : " الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة " وعن ابن مسعود ، الرؤيا ثلاثة : الهم يهم به الرجل من النهار فيراه في الليل ، وحضور الشيطان ، والرؤيا التي هي الرؤيا الصادقة .

وعن إبراهيم الرؤيا ثلاثة ، فالمبشرة من الله جزء من سبعين جزءاً من النبوة والشيء يهم به أحدكم بالنهار فلعله يراه بالليل والتخويف من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم ما يحزنه فليقل أعوذ بما عاذت به ملائكة الله من شر رؤياي التي رأيتها أن تضرني في دنياي أو في آخرتي .

واعلم أنا إذا حملنا قوله : ﴿ لَهُمُ البشرى ﴾ على الرؤيا الصادقة فظاهر هذا النص يقتضي أن لا تحصل هذه الحالة إلا لهم والعقل أيضاً يدل عليه ، وذلك لأن ولي الله هو الذي يكون

مستغرق القلب والروح بذكر الله ، ومن كان كذلك فهو عند النوم لا يبقى في روحه إلا معرفة الله ، ومن المعلوم أن معرفة الله ونور جلال الله لا يفيده إلا الحق والصدق ، وأما من يكون متوزع الفكر على أحوال هذا العالم الكدر المظلم ، فإنه إذا نام يبقى كذلك ، فلا جرم لا اعتماد على رؤياه ، فلهذا السبب قال : ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا ﴾ على سبيل الحصر والتخصيص .

القول الثاني : في تفسير البشرى ، أنها عبارة عن محبة الناس له وعن ذكرهم إياه بالثناء الحسن عن أبي ذر .

قال ؟ قلت : يا رسول الله إن الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس .

(187/365)

فقال : " تلك عاجل بشرى المؤمن "

واعلم أن المباحث العقلية تقوي هذا المعنى ، وذلك أن الكمال محبوب لذاته لا لغيره ، وكل من اتصف بصفة من صفات الكمال ، صار محبوباً لكل أحد ، ولا كمال للعبد أعلى وأشرف من كونه مستغرق القلب بمعرفة الله ، مستغرق اللسان بذكر الله ، مستغرق الجوارح والأعضاء بعبودية الله ، فإذا ظهر عليه أمر من هذا الباب ، صارت الألسنة

جارية بمدحه ، والقلوب مجبولة على حبه ، وكلما كانت هذه الصفات الشريفة أكثر ، كانت هذه المحبة أقوى ، وأيضاً فنور معرفة الله مخدوم بالذات ، ففي أي قلب حضر صار ذلك الإنسان مخدوماً بالطبع ألا ترى أن البهائم والسباع قد تكون أقوى من الإنسان ، ثم إنها إذا شاهدت الإنسان هابته وفرت منه وما ذاك إلا لمهابة النفس الناطقة .

والقول الثالث : في تفسير البشرى أنها عبارة عن حصول البشرى لهم عند الموت قال تعالى : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملئكة ألاتَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بالجنة ﴾ [فصلت : 30] وأما البشرى في الآخرة فسلام الملائكة عليهم كما قال تعالى : ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مّن كُلّ بَابٍ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ [الرعد : 23-24] وسلام الله عليهم كما قال : ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مّن رَّبّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : 58] ويندرج في هذا الباب ما ذكره الله في هذا الكتاب الكريم من بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم وما يلقون فيها من الأحوال السارة فكل ذلك من المبشرات .

والقول الرابع : إن ذلك عبارة عما بشر الله عباده المتقين في كتابه وعلى ألسنة أنبيائه من جنته وكريم ثوابه .

ودليله قوله : ﴿ يُبَشّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مّنْهُ ورضوان ﴾ [التوبة : 21] .

واعلم أن لفظ البشارة مشتق من خبر سار يظهر أثره في بشرة الوجه ، فكل ما كان كذلك دخل في هذه الآية ، ومجموع الأمور المذكورة مشتركة في هذه الصفة ، فيكون الكل داخلاً فيه فكل ما يتعلق من هذه الوجوه بالدنيا فهو داخل تحت قوله : ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا ﴾ وكل ما يتعلق بالآخرة فهو داخل تحت قوله : ﴿ وَفِي الأخرة ﴾ ثم إنه تعالى لما ذكر صفة أولياء الله وشرح أحوالهم قال تعالى : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ﴾ والمراد أنه لا خلف فيها ، والكلمة والقول سواء .

ونظيره قوله : ﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَيَّ ﴾ [ق : 29] وهذا أحد ما يقوي أن المراد بالبشرى وعد الله بالثواب والكرامة لمن أطاعه بقوله : ﴿ يُبَشّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مّنْهُ ورضوان ﴾ ثم بين تعالى أن : ﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ وهو كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ [الإنسان : 20] ثم قال القاضي : قوله : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ﴾ يدل على أنها قابلة للتبديل ، وكل ما قبل العدم امتنع أن يكون قديماً .

ونظير هذا الاستدلال بحصول النسخ على أن حكم الله تعالى لا يكون قديماً وقد سبق الكلام على أمثال هذه الوجوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 103 .

104 ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَهُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي تَفْسِيرِهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا بُشْرَى اللَّهِ لِعِبَادِهِ بِمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مِنْ وَعْدِهِ الْكَرِيمِ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ﴿ وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ ﴾ وَنَظَائِرِهِ .

الثَّانِي : مَا رَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ وَغَيْرُهُ عَنْ مَالِكٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ . قَالَ : " هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ ، يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ " .

قَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ : سَأَلْت أَبَا الدَّرْدَاءِ عَنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ لَهُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ فَقَالَ : مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ مُنْذُ سَأَلْت رَسُولَ اللَّهِ عَنْهَا ؛ ﴿ سَأَلْت رَسُولَ اللَّهِ عَنْهَا ؛ فَقَالَ : مَا سَأَلَنِي أَحَدٌ عَنْهَا غَيْرُك مُنْذُ أُنْزِلَتْ ؛ فَهِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عُمَرَ وَطَلْحَةَ ، وَلَمْ يَصِحَّ مِنْهَا طَرِيقٌ وَلَكِنَّهَا حِسَانٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : وَالَّذِي ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْبَابِ : ﴿ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّةِ ﴾ .

(190/365)

وَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ ، وَمَعْنَاهُ بَدِيعٌ ، قَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ شَرْحِ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ، وَسَيَأْتِي جُمْلَةٌ مِنْ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ يُوسُفَ إنْ شَاءَ اللَّهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(191/365)

وقال الماوردى فى الآيات :

قوله عز وجل : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فِي ﴿ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ﴾

ها هنا خمسة أقاويل :

أحدها : أنهم أهل ولايته والمستحقون لكرامته ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير .

الثاني : هم ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

الثالث : هم الراضون بالقضاء ، والصابرون على البلاء ، والشاكرون على النعماء .

الرابع : هم من توالت أفعالهم على موافقة الحق .

الخامس : هم المتحابون في الله تعالى .

روى جرير عن عمارة بن غزية عن أبي زرعة عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إِنَّ مِن عِبَادِ اللَّهِ أُنَاسًا مَّا هُم بِأَنبِيَآءٍ وَلاَ شُهَدَآءٍ يَغْبِطُهُم الأَنبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِم مِّنَ اللَّهِ " قالوا : يا رسول الله خبّرنا من هم وما أعمالهم فإنا نحبهم لذلك ، قال : " هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُم وَلاَ أَمْوَالٍ يَتَعَاطَونَهَا . فَوَاللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُم لَعَلَى مَنَابَرَ مِن نُورٍ لاَ يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ " وقرأ ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيهِم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

وفيه وجهان : أحدهما : لا يخافون على ذريتهم فإن الله تعالى يتولاهم ولا هم يحزنون على دنياهم لأن الله تعالى يعوضهم عنها ، وهو محتمل .

الثاني : لا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون عند الموت .

قوله عز وجل : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أن البشرى في الحياة الدنيا هي البشارة عند الموت بأن يعلم أين هو من قبل أن يموت ، وفي الآخرة الجنة ، قاله قتادة والضحاك ، وروى علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " إِنّ لِخَدِيجَةَ بِنتِ خُوَيلِدِ بَيْتاً مِنْ قَصَبٍ لاَ صَخَبَ فِيهِ وَلاَ نَصَب " . الثاني : أن البشرى في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو تُرى له ، وفي الآخرة الجنة ، روى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو الدرداء وأبو هريرة وعبادة بن الصامت .

ويحتمل تأويلاً ثالثاً : أن البشرى في الحياة الدنيا الثناء الصالح ، وفي الآخرة إعطاؤه كتابه بيمينه .

﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لا خلف لوعده .

الثاني : لا نسخ لخبره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(193/365)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا ﴾

" عن أبي الدّرداء قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال : "ما سألني أحد عنها غيرك منذ أنزلت هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرَى له" " خرّجه الترمذي في جامعه .

وقال الزهريّ وعطاء وقتادة : هي البشارة التي تبشّر بها الملائكة المؤمنَ في الدنيا عند الموت .

وعن محمد بن كعب القُرَظِيّ قال : إذا استنقعت نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال : السلام عليك وليَّ الله الله يقرئك السلام .

ثم نزع بهذه الآية : ﴿ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ﴾ ذكره ابن المبارك .

وقال قتادة والضحاك : هي أن يعلم أين هو من قبل أن يموت .

وقال الحسن : هي ما يبشرهم الله تعالى في كتابه من جنته وكريم ثوابه ؛ لقوله : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ [التوبة : 21] ، وقوله : ﴿ وَبَشِّرِ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ﴾ [البقرة : 25] .

وقوله : ﴿ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : 30] ولهذا قال : ﴿ لاَ

تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ﴾ أي لا خلف لمواعيده ، وذلك لأن مواعيده بكلماته .

﴿ وَفِي الآخرة ﴾ قيل : بالجنة إذا خرجوا من قبورهم .

وقيل : إذا خرجت الروح بُشِّرت برضوان الله .

وذكر أبو إسحاق الثعلبي : سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله الجَوْزَقيّ يقول : رأيت أبا عبد الله الحافظ في المنام راكباً بِرْذَوْناً عليه طَيْلسان وعمامة ، فسلّمت عليه وقلت له : أهلاً بك ، إنا لا نزال نذكرك ونذكر محاسنك ؛ فقال : ونحن لا نزال نذكرك ونذكر محاسنك ، قال الله تعالى : ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة ﴾ الثناء الحسن : وأشار بيده .

﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ﴾ أي لا خلف لوعده .

(194/365)

وقيل : لا تبديل لأخباره ، أي لا ينسخها بشيء ، ولا تكون إلا كما قال : ﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ أي ما يصير إليه أولياؤه فهو الفوز العظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(195/365)

وقال أبو حيان فى الآيات :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

أولياء الله هم الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة .

وقد فسر ذلك في قوله : ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ وعن سعيد بن جبير : " أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سئل عن أولياء الله فقال : "هم الذين يذكرون الله برؤيتهم" يعني السمت والهيئة " وعن ابن عباس : الإخبات والسكينة .

وقيل : هم المتحابون في الله .

قال ابن عطية : وهذه الآية يعطي ظاهرها أن من آمن واتقى فهو داخل في أولياء الله ، وهذا هو الذي تقتضيه الشريعة في الولي ، وإنما نبهنا هذا التنبيه حذراً من مذهب الصوفية وبعض الملحدين في الولي انتهى .

وإنما قال : حذرا من مذهب الصوفية ، لأن بعضهم نقل عنه أنّ الولي أفضل من النبي ، وهذا لا يكاد يخطر في قلب مسلم .

ولابن العربي الطائي كلام في الولي وفي غيره نعوذ بالله منه .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " إنّ من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء بمكانهم من الله" قالوا

: يا رسول الله ومن هم ؟ قال : "قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إنّ وجوههم لتنور ، وإنهم لعلى منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم قرأ : ألا إن أولياء الله " الآية وتقدم تفسير لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

والذين يحتمل أن يكون منصوباً على الصفة قاله الزمخشري ، أو على البدل قاله ابن عطية ، أو بإضمار أمدح ، ومرفوعاً على إضمارهم ، أو على الابتداء ، والخبر لهم البشرى .

وأجاز الكوفيون رفعه على موضع أولياء نعتاً ، أو بدلاً ، وأجيز فيه الخبر بدلاً من ضمير عليهم .

وفي قوله : وكانوا يتقون ، إشعار بمصاحبتهم للتقوى مدة حياتهم ، فحالهم في المستقبل كحالهم في الماضي .

(196/365)

وبشراهم في الحياة الدنيا تظاهرت الروايات عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أنها الرؤيا الصالحة يراها المؤمن " أو "ترى له" فسرها بذلك وقد سئل .

وعنه في صحيح مسلم : " لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة " وقال قتادة والضحاك :

هي ما يبشر به المؤمن عند موته وهو حي عند المعاينة .

وقيل : هي محبة الناس له ، والذكر الحسن .

وسئل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس : فقال : " تلك عاجل بشرى المؤمن " وعن عطاء : لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة .

قال تعالى : ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ الآية قال ابن عطية : ويصح أن تكون بشرى الدنيا في القرآن من الآيات المبشرات ، ويقوي ذلك قوله في هذه الآية : لا تبديل لكلمات الله ، وإن كان ذلك كله يعارضه قول النبي (صلى الله عليه وسلم) :

" هي الرؤيا " إلا إن قلنا : إنّ النبي (صلى الله عليه وسلم) أعطى مثالاً من البشرى وهي تعم جميع البشر .

وبشراهم في الآخرة تلقى الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالنور والكرامة ، وما يرون من بياض وجوههم ، وإعطاء الصحف بأيمانهم ، وما يقرأون منها ، وغير ذلك من البشارات .

لا تبديل لكلمات الله ، لا تغيير لأقواله ، ولا خلف في مواعيده كقوله : ﴿ ما يبدّل القول لديّ ﴾ والظاهر أنّ ذلك إشارة إلى التبشير والبشرى في معناه .

قال الزمخشري : وذلك إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين .

وقال ابن عطية : إشارة إلى النعيم الذي وقعت به البشرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(197/365)

وقال الثعالبى :

قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ البشرى . . . ﴾ الآية :

أَمَّا بشرَى الآخرة ، فهي بالجنَّةِ ؛ بلا خلاف قولاً واحداً ، وذلك هو الفَضْل الكبير ، وأَمَّا بُشْرَى الدنيا ، فَتَظاهَرَت الأَحاديث من طرق ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أَنَّهَا " الرُّؤْيا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ أَوْ تُرَى لَهُ " ، وقال قتادة والضَّحَّاك : البُشْرَى في الدنيا : هِيَ ما يُبَشَّرُ به المؤمنُ عِنْد موته ، وهو حَيٌّ عند المعاينة ، ويصح أَنْ تكون بُشْرَى الدنيا ما في القرآن من الآيات المبشّرات ؛ ويقوّى ذلك بقوله : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ﴾ ، ويؤوّل قوله صلى الله عليه وسلم : « هِيَ الرُّؤْيَا » أنه أعطَى مثالاً يعمُّ جميع الناس .

وقوله سبحانه : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ﴾ : يريد : لا خُلْفَ لمواعيده ، ولا رَدَّ في أمره ، وقد أخذ ذلك ابنُ عُمَرَ على نحو غَيْرِ هذا ، وجَعَلَ التبديلَ المنفيَّ في الألفاظ ، وذلك أَنَّه روي أَنَّ الحجاج خَطَبَ ، فَقَالَ : أَلاَ إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ قَدْ بَدَّلَ كِتَابَ اللَّهِ ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ

اللَّهِ بْنُ عُمَرَ : إِنَّكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ أَنْتَ ، وَلاَ ابن الزُّبَيْرِ ؛ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، وقد رُوِيَ هذا النظرُ عن ابن عباس في غيرِ مُقَاوَلَةِ الحَجَّاجِ ، ذكره البخاريُّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(198/365)

وقال أبو السعود :

﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ ﴾

وقيل : أولياءُ الله الذين يتولّونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة وجُعل تفسيراً لتولّيه تعالى إياهم ولا ريب في أن اعتبارَ القيد الأخيرِ في مفهوم الولايةِ عيرُ مناسبٍ لمقام ترغيبِ المؤمنين في تحصيلها والثباتِ عليها وبشارتهم بآثارها ونتائجها مخِلٌّ بذلك إذ التحصيلُ إنما يتعلق بالمقدور والاستبشارُ لا يحصل إلا بما عُلم بوجود سببه والقيدُ المذكور ليس بمقدور لهم حتى يحصّلوا الولاية بتحصيله ولا بمعلوم لهم عند حصولِه حتى يعرفوا حصولَ الولايةِ لهم ويستبشروا بمحاسنِ آثارِها بل التولي بالكرامة عينُ نتيجةِ الولاية فاعتبارُه في عنوان الموضوعِ ثم الإخبارُ بعدم الخوفِ والحزنِ مما لا يليق بشأن التنزيلِ الجليلِ ، فالذي يقتضيه نظمُه الكريمُ أن الأولَ تفسيرٌ للأولياء حسبما شُرح والثاني بيانٌ لما أولاهم من خيرات

الدارين بعد بيانِ إنجائِهم من شرورهما ومكارههما ، والجملةُ مستأنفةٌ كما سبق كأنه قيل : هل لهم وراء ذلك من نعمة وكرامةٍ ؟ فقيل لهم ما يسرّهم في الدارين ، وتقديمُ الأول لما أن التخليةَ سابقةٌ على التحلية مع ما فيه من مراعاة حقِّ المقابلةِ بين حسن حالِ المؤمنين وسوء حالِ المفترين ، وتعجيلُ إدخالِ المسرّة بتبشير الخلاصِ عن الأهوال وتوسيطُ البيانِ السابق بين بشارةِ الخلاص عن المحذور وبشارةِ الفوز بالمطلوب لإظهار كمالِ العناية بتفسير الأولياءِ مع الإيذان بأن انتفاءَ الخوف والحزنِ لاتقائهم عما يؤدّي إليهما من الأسباب ، والبُشرى مصدرٌ أريد به المبشَّرُ به من الخيرات العاجلةِ كالنصر والفتحِ والغنيمة وغيرُ ذلك والآجلةِ الغنيةِ عن البيان ، وإيثارُ الإبهام والإجمالِ للإيذان بكونه وراءَ البيان والتفصيلِ ، والظرفان في موقع الحالِ منه والعاملُ ما في الخبر من معنى الاستقرارِ أي لهم البشرى حالَ كونها في الحياة الدنيا وحالَ كونِها في الآخرة أي عاجلةً وآجلةً ، أو من الضمير المجرور أي حالَ كونِهم في الحياة

(199/365)

الخ ، ومن البشرى العاجلةِ الثناءُ الحسنُ والذكرُ الجميلُ ومحبةُ الناس .

عن أبي ذر رضي الله عنه قلت : يا رسولَ الله الرجلُ يعمل العملَ لله ويحبه الناسُ فقال

عليه السلام : " تلك عاجلُ بشرى المؤمنين " هذا وقيل : البشرى مصدرٌ والظرفان متعلقان به . أما البُشرى في الدنيا فهي البشاراتُ الواقعةُ للمؤمنين المتقين في غير موضع من الكتاب المبين . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " هي الرؤيا الصالحةُ يراها المؤمنُ أو تُرى له " وعنه عليه الصلاة والسلام : " ذهبت النبوةُ وبقيت المبشّراتُ " وعن عطاء : لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكةُ بالرحمة قال الله تعالى : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بالجنة ﴾ وأما البشرى في الآخرة فتلقّي الملائكةِ إياهم مسلمين مبشَّرين بالفوز والكرامة وما يرون من بياض وجوهِهم وإعطاء الصحائفِ بأيمانهم وما يقرؤون منها وغيرُ ذلك من البشارات فتكون هذه بشارةً بما سيقع من البشارات العاجلةِ والآجلةِ المطلوبة لغاياتها لا لذواتها ، ولا يخفى أن صرفَ البشارة الناجزةِ عن المقاصد بالذات إلى وسائلها مما لا يساعده جلالةُ شأنِ التنزيل الكريم ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ﴾ لا تغييرَ لأقواله التي من جملتها مواعيدُه الواردةُ بشارةً للمؤمنين المتقين فتدخل فيها البشاراتُ الواردةُ هاهنا دخولاً أولياً ويثبُت امتناعُ الإخلافِ فيها ثبوتاً قطعياً ، وعلى تقدير كونِ المراد بالبشرى الرؤيا الصالحةَ فالمرادُ بعدم تبديل كلماتهِ تعالى ليس عدمَ الخُلفِ بينهما وبين نتائجِها الدنيوية والأخرويةِ بل عدمَ الخُلفِ بينهما وبين ما دل على ثبوتها ووقوعِها فيما سيأتي بطريق الوعد من قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ البشرى ﴾ فتدبر .

﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من أن لهم البشرى في الدارين ﴿ هُوَ الفوز العظيم ﴾ الذي لا فوزَ وراءَه وفيه تفسيرٌ فيما سبق ، وها تيك الجملة والتي قبلها اعتراضٌ لتحقيق المبشَّر وتعظيمٌ شأنه ، وليس من شرطه أن يكون بعده كلامٌ متصل بما قبله ، أو هذه تذييلٌ والسابقة اعتراضٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(201/365)

وقال الآلوسى :

﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ ﴾

استئناف جيء به في موضع التعليل لنفي حزنهم والخوف عليهم في قول ، وفي آخر جيء به بياناً لما أولاهم سبحانه من خيرات الدارين بعد أن أخبر جل وعلا بانجائهم من شرورهما ومكارههما وكأنه على هذا قيل : هل لهم وراء ذلك من نعمة وكرامة ؟ فقيل : لهم البشرى الخ ، وتقديم الأول لما أن التخلية سابقة على التحلية مع ما فيه من رعاية حق المقابلة بين حسن حال المؤمنين وسوء حال المفترين وتعجيل إدخال المسرة بتبشير الخلاص عن الأهوال ، وتوسيط البيان السابق بين التخلية والتحلية لإظهار كمال العناية به مع الإيذان

بأن انتفاء ما تقدم لإيمانهم واتقائهم عما يؤدي إليه من الأسباب ، ومن الناس من فسر الأولياء بالذين يتولنه تعالى بالطاعة ويتولاهم بالكرامة وجعل ﴿ الذين آمنوا ﴾ [يونس : 63] الخ تفسيراً لتوليهم إياه تعالى ، وهذه الجملة تفسيراً لتوليته تعالى إياهم .

وتعقب بأنه لا ريب في أن اعتبار القيد الأخير في مفعوم الولاية غير مناسب لمقام ترغيب المؤمنين في تحصيلها والثبات عليها وبشارتهم بآثارها ونتائجها بل مخل بذلك إذ التحصيل إنما يتعلق بالمقدور والاستبشار لا يحصل إلا بما علم وجود سببه والقيد المذكور ليس بمقدور لهم حتى يحصلوا الولاية بتحصيله ولا بمعلوم لهم عند حصوله حتى يعرفوا حصول الولاية لهم ويستبشروا بمحاسن آثارها بل التولي بالكرامة عين نتيجة الولاية فاعتباره في عنوان الموضوع ثم الأخبار بعدم الخوف والحزن مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل انتهى ، وأنت تعلم أن ما ارتكبه ذلك البعض تكلف وعدول عن الظاهر فلا ينبغي العدول إليه وإن كان ما ذكره المتعقب لا يخلو عن نظر .

(202/365)

وجوز كون الموصول مبتدأ وهذه الجملة خبره ، وفي بعض الأخبار ما يؤيده ، و ﴿ البشرى ﴾ في الأصل الخبر بما يظهر السرور في بشرة الوجه ومثلها البشارة وتطلق على المبشر به

من ذلك وإلى إرادة كل ذهب بعض ، والظرفان بعده على الأول متعلقان به وعلى الثاني في موضع الحال منه ، والعامل ما في الخبر من معنى الاستقرار أي لهم البشرى حال كونها في الدنيا وحال كونها في الآخرة أي عاجلة وآجلة ؛ أو من الضمير المجرور أي حال كونهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، والثابت في أكثر الروايات أن البشرى في الحياة الدنيا هي الرؤيا الصالحة التي هي جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة كما هو المشهور ، أو جزء من سبعين جزأ منها كما أخرجه ابن أبي شيبة عن ابن عمر .

وأبي هريرة .

وهو .

وابن ماجه عن الأول .

فقد أخرج الطيالسي .

وأحمد .

والدارمي .

والترمذي .

وابن ماجه .

والطبراني .

والحاكم وصححه .

والبيهقي .

وغيرهم عن عبادة بن الصامت قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله سبحانه : ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا ﴾ قال : هي

" الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له " وأخرج ابن جردويه عن ابن مسعود أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأجيب بما ذكر أيضاً ، وأخرج من طريق أبي سفيان عن جابر مثل ذلك ، وأخر ابن أبي الدنيا .

وأبو الشيخ .

(203/365)

وأبو القاسم بن منده من طريق أبي جعفر عن جابر المذكور قال : أتى رجل من أهل البادية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أخبرني عن قول الله تعالى : ﴿ الذين ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ البشرى ﴾ الخ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا ﴾ فهي الرؤيا الحسنة ترى للمؤمن فيبشر بها في دنياه وأما قوله سبحانه : ﴿ وَفِي الآخرة ﴾ فإنها بشارة المؤمن عند الموت أن الله قد غفر لك ولمن حملك إلى قبرك " وجاء مرفوعاً وموقوفاً عن غير واحد تفسيرها بما ذكر ،

وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن البشرى في الحياة الدنيا هي قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ الله فَضْلاً كَبِيراً ﴾ [الأحزاب : 47] وعن الزجاج .

والفراء أنها هذا وما يشاكله من قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الذين ءامَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس : 2] وقوله سبحانه : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ ﴾ [التوبة : 21] ، وقوله جل وعلا : ﴿ وَبَشِّرِ الصابرين ﴾ [البقرة : 155] إلى غير ذلك ، وأخرج ابن أبي شيبة .

وغيره عن الضحاك أنه قال في ذلك : إنهم يعلمون أين هم قبل أن يموتوا .

وجاء في تفسير البشرى في الآخرة ما سمعت في الخبر عن جابر الأخير .

وأخرج ابن جرير .

(204/365)

وغيره عن أبي هريرة مرفوعاً أنها الجنة ، وعن عطاء أن البشرى في الدنيا أن تأتيهم الملائكة عند الموت بالرحمة قال الله تعالى : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ

بالجنة ﴾ [فصلت : 30] وأما البشرى في الآخرة فتلقى الملائكة اياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة وما يرون من بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم وما يقرأون منها وغير ذلك من البشارات ، وقيل : المراد بالبشرى العاجلة نحو النصر والفتح والغنيمة والثناء الحسن والذكر الجميل ومحبة الناس وغير ذلك ، وأما البشرى الآجلة فغنية عن البينا ، وأنت تعلم أنه لا ينبغي العدول عما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسير ذلك إذا صح وحيث عدل من عدل لعدم وقوفه على ذلك فيما أظن ، فالأولى أن يحمل البشرى في الدارين على البشارة بما يحقق نفي الخوف والحزن كائناً ما كان ، ويرشد إلى ذلك السباق ، ومن أجل ذلك بشرى الملائكة لهم بذلك وقتاً فوقتاً حتى يدخلوا الجنة ، وقد نطق الكتاب العزيز في غير موضع بهذه البشرى من الله تعالى علينا بها برحمته وكرمه ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لكلمات الله ﴾ أي لا تغيير لأقواله التي من جملتها مواعيده الواردة بشارة للمؤمنين المتقين فيدخل فيها البشارات الواردة ههنا دخولاً أولياً ويثبت امتناع الاخلاف فيها لطفاً وكرماً ثبوتاً قطعياً ، وأريد من عدم تبديل كلماته سبحانه على تقدير أن يراد من البشرى الرؤيا الصالحة عدم الخلف بينها وبين ما دل على ثبوتها ووقوعها فيما سيأتي بطريق الوعد من قوله تبارك اسمه : ﴿ لَهُمُ البشرى ﴾ لا عدم الخلف بينها وبين نتائجها الدنيوية والأخروية ولم يظهر لي وجهه بعد التدبر ، والمشهور أن الرؤيا الصالحة لا يتخلف ما

تدل عليه .

وقد جاء من حديث الحكيم الترمذي .

(205/365)

وغيره عن عبادة رضي الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال له في الرؤيا الصالحة " كلام يكلم به ربكعبده في المنام " ﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر من أن لهم البشرى في الدارين ﴿ هُوَ الفوز العظيم ﴾ الذي لا فوز وراءه ، وجوز أن تكون الإشارة إلى البشرى بمعنى التبشير وقيل : إن ذلك إشارة إلى النعيم الذي وقعت به البشرى وجعل غير واحد الجملة الأولى وهذه الجملة اعتراضاً جيء به لتحقيق المبشر به لتعظيم شأنه وهو مبني على جواز تعدد الاعتراض وعلى أنه يجوز أن يكون في آخر الكلام .

ولذا قال العلامة الطيبي : لو جعلت الأولى معترضة والثانية تذييلاً للمعترض والمعترض فيه ومؤكدة لهما كان أحسن بناء على أن ما في آخر الكلام يسمى تذييلاً لا اعتراضاً وهو مجرد اصطلاح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(206/365)

وقال القاسمى فى الآيات السابقة :

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللّهِ ﴾ جمع ولي ، وهو في الأصل ضد العدو ، بمعنى المحب ، وجاز كونه هنا بمعنى الفاعل ، أي : الذين يتولونه بالطاعة ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة : 56] وبمعنى المفعول أي : الذي يتولاهم بالإكرام ، كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور ﴾ [البقرة : من الآية 257] ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُه ﴾ [المائدة : من الآية 55] الآية – وكلا المعنيين متلازمان : ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من لحوق مكروه ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي : من الفزع الأكبر ، كما في قوله تعالى : ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَر ﴾ [الأنبياء : من الآية 103] .

﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ أي : بكل ما جاء من عند الله تعالى : ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ أي : يخافون ربهم ، فيفعلون أوامره ، ويتجنبون مناهيه ، من الشرك والكفر والفواحش . ومحل الموصول الرفع على أنه خبر لمحذوف ، كأنه قيل : من أولئك ، وما سبب فوزهم بذاك الإكرام ؟ فقيل : هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى ، المفضيين إلى كل خير ، المنجيين من كل شر ، أو النصب بمحذوف .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ : ﴿ الْبُشْرَى ﴾ مصدر إما باق على مصدريته ، والمبشر به محذوف ، أي : لهم البشارة فيهما بالجنة ، وإنما حذف للعلم به من آيات أخر ، كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴾ [التوبة : 20 - 21] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : 30] ، وإما مراد به المبشر به ، وتعريفه للعهد ، كقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الحديد : 12] .

وقوله تعالى : ﴿ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ أي : لمواعيده : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : بشراكم ، وهي الجنة ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي : المنال الجليل ، الذي لا مطلب وراءه ، كيف وقد فازوا بالجنة وما فيها ، ونجوا من النار وما فيها ؟ ! .

تنبيه :

هذه الآية الكريمة أصل في بيان أولياء الله ، وقد بين تعالى في كتابه ، ورسوله في سنته ، أن لله أولياء من الناس ، كما أن للشيطان أولياء ، وللإمام تقي الدين بن تيمية عليه الرحمة كتاب في ذلك سماه " الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان " نقتبس منه جملة يهم الوقوف عليها ، لكثرة ما يدور على الألسنة من ذكر الولي والأولياء . قال رحمه الله :

(208/365)

إذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان ، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء ، كما فرق الله ورسوله بينهما . فأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، كما في هذه الآية ، وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : < يقول الله : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، أو فقد آذنته بالحرب . . . > الحديث – وهذا أصح حديث يروى في الأولياء ، دل على أن من عادى ولياً لله ، فقد بارز الله بالمحاربة .

وفي حديث آخر : < وإني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب > أي : آخذ ثأرهم ممن عاداهم ، كما يأخذ الليث الحرب ثأره ، وهذا لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه ، فأحبوا ما يحب ، وأبغضوا ما يبغض ، ورضوا بما يرضى ، وسخطوا بما يسخط ، وأمروا

بما يأمر ، ونهوا عما نهى ، وأعطوا لمن يحب أن يعطى ، ومنعوا من يحب أن يمنع .

والولاية ضد العداوة . وأصل الولاية المحبة والقرب . وأصل العداوة البغض والبعد .

(209/365)

وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وإمام المتقين ، الذي بعثه الله بأفضل كتبه ، وشرع له أفضل شرائع دينه ، وجعله الفارق بين أوليائه وأعدائه ، فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به ، وبما جاء به ، واتبعه ظاهراً وباطناً . ومن ادعى محبة الله وولايته ، وهو لم يتبعه ؛ فليس من أولياء الله ، بل من خالفه كان من أعداء الله وأولياء الشيطان . وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم من أولياء الله ، ولا يكونون من أولياءه . فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه . قال تعالى : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة : من الآية 18] الآية ، وكان مشركو العرب يدعون أنهم أهل الله ، لسكناهم مكة ، ومجاورتهم البيت ، فأنزل تعالى : ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال : 34] ، وكما أن من الكفار من يدعي أنه ولي الله ، وليس ولياً لله ، بل عدو له ، فكذلك من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ، يقرون في الظاهر بالشهادتين ،

ويعتقدون في الباطن ما يناقض ذلك ، مثل ألا يقروا باطناً برسالته عليه السلام ، وإنما كان ملكاً مطاعاً ، ساس الناس برأيه ، من جنس غيره من الملوك . أو يقولون : إنه رسول الله إلى الأميين خاصة . أو يقولون : إنه مرسل إلى عامة الخلق ، وأن لله أولياء خاصة لم يرسل إليهم ، ولا يحتاجون إليه ، بل لهم طريق إلى الله من غير جهته ، كما كان الخضر مع موسى . أو أنهم يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه ، وينتفعون به من غير واسطة ، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة وهم موافقون له فيها . وأما الحقائق الباطنة ، فلم يرسل بها ، أو لم يكن يعرفها ، أو هم أعرف بها منه ، أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته ، فهؤلاء كلهم كفار ، مع أنهم

(210/365)

يعتقدون في طائفتهم أنهم أولياء الله . وإنما أولياء الله : الذي وصفهم تعالى بولايته بقوله : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : 62 - 63] .

ولا بد في الإيمان من أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، مرسل إلى جميع الثقلين الإنس والجن . فكل من لم يؤمن بما

جاء به فليس بمؤمن ، فضلاً عن أن يكون من أولياء الله المتقين ومن آمن ببعض ما جاء به ، وكفر ببعض ، فهو كافر ليس بمؤمن .

ومن الإيمان به ، الإيمان بأنه الواسطة بين الله وبين خلقه ، في تبليغ أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وحلاله وحرامه . فالحلال : ما أحله الله ورسوله ، والحرام : ما حرمه الله ورسوله ، والدين : ما شرعه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو كافر من أولياء الشيطان .

وأما خلق الله تعالى للخلق ، ورزقه إياهم ، وإجابته لدعائهم ، وهدايته لقلوبهم ، ونصرهم على أعدائهم ، وغير ذلك من جلب المنافع ، ودفع المضار ، فهذا لله وحده ، يفعله بما يشاء من الأسباب ، لا يدخل في مثل هذا وساطة الرسل .

(211/365)

ثم لو بلغ الرجل في الزهد والعبادة والعلم ما بلغ ، ولم يؤمن بجميع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فليس بمؤمن ، ولا ولي لله تعالى ، كالأحبار والرهبان من علماء اليهود والنصارى وعبَّادهم ، وكذلك المنتسبون إلى العلم والعبادة من مشركي العرب والترك

والهند وغيرهم ، ممن كان من حكماء الهند والترك ، وله علم أو زهد وعبادة في دينه ، وليس مؤمناً بجميع ما جاء به ، فهو كافر ، عدو لله ، وإن ظن طائفة أنه ولي لله . كما كان حكماء الفرس من المجوس كفاراً مجوساً ، وكذلك حكماء اليونان مثل : أرسطو وأمثاله ، كانوا مشركين ، يعبدون الأصنام والكواكب . وفي أصناف المشركين من هذه الطوائف من له اجتهاد في العلم والزهد والعبادة ، ولكن ليس بمؤمن بالرسل ، ولا يصدقهم فيما أخبروا به ولا يطيعهم فيما أمروا ، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ، ولا أولياء لله ، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين وتنزل عليهم ، فيكاشفون الناس ببعض الأمور ، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر ، وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تنزل عليهم الشياطين . قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ [الشعراء : 221 - 223] ، وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلى المكاشفات ، وخوارق العادات ، إذا لم يكونوا متبعين للرسل ، فلا بد أن يكذبوا وتكذبهم شياطينهم ، لا بد أن يكون في أعمالهم ما هو إثم وفجور ، مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع في العبادة ، ولهذا تنزلت عليهم الشياطين ، واقترنت بهم ، فصاروا من أولياء الشيطان ، لا من أولياء الرحمن .

(212/365)

ومن الناس من يكون فيه إيمان ، وفيه شعبة من نفاق ، كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : < آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان > . وفي صحيح مسلم : < وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم > .

وإذا كان أولياء الله هم (المؤمنون المتقون) فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى ، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى كان أكمل ولاية لله . فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل ، بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى ، وكذلك يتفاضلون في عداوة الله بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق .

وأولياء الله على طبقتين : سابقون ومقربون وأصحاب يمين مقتصدون ، ذكرهم الله في عدة مواضع من كتابه العزيز . فالأبرار أصحاب اليمين ، هم المتقربون إلى الله بالفرائض ، يفعلون ما أوجب الله عليهم ، ويتركون ما حرم الله عليهم ، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات ، ولا الكف عن فضول المباحات . وأما السابقون المقربون ، فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ، ففعلوا الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات ، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم أحبهم الرب حباً تاماً ، كما قال تعالى : < ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه > يعني الحب المطلق .

ثم إذا كان العبد لا يكون ولياً لله إلا إذا كان مؤمناً تقياً ، لهذه الآية ؛ فمعلوم أن أحداً من الكفار والمنافقين لا يكون ولياً لله . وكذلك من لا يصح إيمانه وعباداته ، وإن قدر أنه لا إثم عليه ، مثل أطفال الكفار ، ومن لم تبلغه الدعوة ، وإن قيل : إنهم لا يعذبون حتى يُرسل إليهم رسولاً فلا يكونون من أولياء الله ، إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين . فمن يتقرب إلى الله لا بفعل الحسنات ولا بفعل السيئات ، لم يكن من أولياء الله .

(213/365)

وكذلك المجانين والأطفال ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : < رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبي حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يستيقظ > . وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث عائشة رضي الله عنها ، واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول . ولكن الصبي المميز تصح عباداته ، ويثاب عليها عند جمهور العلماء ، وأما المجنون الذي رفع عنه القلم ، فلا يصح شيء من عباداته باتفاق العلماء ، ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات ، بل لا يصلح هو ، عند عامة العقلاء لأمور الدنيا ، كالتجارة والصناعة ، فلا يصح أن يكون بزازاً ولا عطاراً ولا حداداً ولا نجاراً ، ولا تصح عقوده باتفاق العلماء . فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه

ولا إقراره ولا شهادته ، ولا غير ذلك من أقواله ، بل أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعي ، ولا ثواب ولا عقاب ، بخلاف الصبي المميز فإن له أقوالاً معتبرة في مواضع ، بالنص والإجماع ، وفي مواضع فيها نزاع . وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل ، وامتنع أن يكون ولياً لله ، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي لله ، لا سيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه ، أو نوعاً من تصرف ، مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فمات أو صرع ، فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين من المشركين وأهل الكتاب لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية ، كالكهان والسحرة وعبّاد المشركين وأهل الكتاب ، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص ولياً لله ، إن لم يعلم ما يناقض ولاية الله ، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله ؟ مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب إتباع النبي صلى الله عليه وسلم ظاهراً وباطناً ، بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر ، دون الحقيقة الباطنة ، أو يعتقد أن لأولياء الله طريقاً إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ،

(214/365)

أو يقول : إن الأنبياء ضيقوا الطريق ، أو هم قدوة العامة دون الخاصة ، ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعي الولاية ، فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان ، فضلاً عن ولاية الله عز وجل . فمن احتج بما يصدر عن أحدهم ، من خرق عادة على ولايتهم ، كان أضل من اليهود والنصارى ، وكذلك المجنون ، فإن كونه مجنوناً يناقض أن يصح منه الإيمان والعبادات ، التي هي شرط في ولاية الله . ومن كان يجن أحياناً ، ويفيق أحياناً ، إذا كان في حال إفاقته مؤمناً بالله ورسوله ، ويؤدي الفرائض ، ويجتنب المحارم ، فهذا إذا جن ، لم يكن جنونه مانعاً من أن يثيبه الله على إيمانه وتقواه الذي أتى به في حال إفاقته ، ويكون له من ولاية الله بحسب ذلك ، وكذلك من طرأ عليه الجنون بعد إيمانه وتقواه ، فإن الله يثيبه ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه ، ولا يحبطه بالجنون الذي ابتلي به من غير ذنب فعله ، ولا قلم مرفوع عنه في حال جنونه .

(215/365)

فعلى هذا ، فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدي الفرائض ، ولا يجتنب المحارم ، بل قد يأتي بما يناقض ذلك ، لم يكن لأحد أن يقول : هذا ولي لله ، فإن هذا إن لم يكن مجنوناً ، بل كان متولهاً من غير جنون ، أو كان يغيب عقله بالجنون تارة ، ويفيق أخرى ، وهو لا يقوم بالفرائض بل

يعتقد أنه لا يجب عليه إتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فهو كافر ؛ وإن كان مجنونا باطناً وظاهراً قد ارتفع عنه القلم . فهذا وإن لم يكن معاقباً عقوبة الكافرين ، فليس هو مستحقاً لما يستحقه أهل الإيمان والتقوى من كرامة الله عز وجل ، فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه ولي لله ، لكن إن كان له حالة في إفاقته كان فيها مؤمناً بالله متقياً ، كان له من ولاية الله بحسب ذلك ، وإن كان له في حال فيه كفر أو نفاق ، أو كان كافراً أو منافقاً ثم طرأ عليه الجنون ، فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه ، وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق .

فصل

(216/365)

وليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات ، فلا يتميزون بلباس دون لباس ، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ضفره ، إذا كان كلاهما مباحاً ، كما قيل : كم من صديق في قباء ، وكم من زنديق في عباء . بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور . فيوجدون في أهل القرآن ، وأهل العلم ، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف ، ويوجدون في التجار والصناع

والزراع . وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم (القراء) فيدخل فيهم العلماء والنساك . ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء واسم (الصوفية) : نسبة إلى لباس الصوف . هذا هو الصحيح ، وقد قيل : إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء ، وقيل إلى (صوفة بن أد) قبيلة من القرب كانوا يعرفون بالنسك ، وقيل إلى أهل الصفا ، وقيل إلى الصفوة ، وقيل إلى الصفة ، وقيل إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى . وهذه أقوال ضعيفة ، فإنه لو كان كذلك لقيل : صفي ، أو صفائي ، أو صُفي ، ولم يقل صوفي ، وصار أيضاً اسم الفقراء يعني به أهل السلوك ، وهذا عرف حادث ، وقد تنازع الناس ، أيما أفضل : مسمى الصوفي أو مسمى الفقير ؟ ويتنازعون أيضاً : أيما أفضل ؟ الغني الشاكر ، أو الفقير الصابر ؟ والصواب في هذا كله ما قاله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : 13] وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل أي : الناس أفضل ؟ قال : < أتقاهم > ، فدل الكتاب والسنة على أن أكرم الناس عند الله أتقاهم . وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : < لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أبيض ، ولا لأبيض على أسود

، إلا بالتقوى > . وعنه أيضاً صلى الله عليه وسلم أنه قال : < إن الله تعالى أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية وفخرها بالآباء . الناس رجلان : مؤمن تقي وفاجر شقي > .

فصل

(218/365)

وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوماً لا يغلط ولا يخطئ ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين ، حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به مما نهى الله عنه ، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى ، وتكون من الشيطان لبَّسها عليه ، لنقص درجته ، ولا يعرف أنها من الشيطان ، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى . فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ، ولم يؤثِّم النبي صلى الله عليه وسلم المجتهد المخطئ بل جعل له أجراً على اجتهاده ، وجعل خطأه مغفوراً له ، ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط ، لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي الله ، إلا أن يكون نبياً ، بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه ، إلا أن يكون موافقاً ، وعلى ما يقع له مما يراه

إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق ، بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله ، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف توقف فيه . والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف : طرفان ووسط . فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي الله وافقه في كل ما يظن أنه حدثه به قلبه عن ربه ، وسلم إليه جميع ما يفعله . ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع ، أخرجه عن ولاية الله بالكلية وإن كان مجتهداً مخطئاً ، وخيار الأمور أوساطها ، وهو ألا يجعل معصوماً ولا مأثوماً ، إذا كان مجتهداً مخطئاً ، فلا يتبع في كل ما يقوله ، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده . والواجب على الناس إتباع ما بعث الله به رسوله . وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء ، ووافق قول آخرين ، لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ، ويقول : هذا خالف الشرع .

(219/365)

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : < قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن كان في أمتي أحد فعمر منهم > . وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنه يتجلى لهم أمور صادقة . والمحدث الذي يأخذ عن قلبه

أشياء ليس بمعصوم ، فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي المعصوم صلى الله عليه وسلم ، ولهذا كان عمر رضي الله عنه يشاور الصحابة ويناظرهم ويرجع إليهم في بعض الأمور ، وينازعونه في أشياء فيحتج عليهم ، ويحتجون عليه بالكتاب والسنة ، ويقررهم على منازعته ، ولا يقول لهم : أنا محدث ملهم مخاطب ، فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني . فأي من ادعى له أصحابه أنه ولي الله ، وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ولا يعارضوه ويسلموا له حاله من غيره اعتبار بالكتاب والسنة ، فهو وهُم مخطئون . ومثل هذا من أضل الناس . فعمر بن الخطاب رضي الله عنه أفضل منه ، وهو أمير المؤمنين ، وكان المسلمون ينازعونه ويعرضون ما يقول هو وهم على الكتاب والسنة . وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم . ولذا قال الجنيد : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة . وقال أبو عثمان النيسابوري : من أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور : من الآية 54] وقال أبو عَمْرو بن نجيد : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل .

(220/365)

فأولياء الله تعتبر بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة ، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن ، وبحقائق الإيمان الباطنة ، وشرائع الإسلام . فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان ، أو يأوي إلى الحمامات والحشوش التي تحضرها الشياطين ، أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير وآذان الكلاب التي هي خبائث وفواسق ، أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحبها الشيطان ، أو يدعو غير الله فيستغيث بالمخلوقات ، ويتوجه إليها ، أو يسجد إلى ناحية شيخه ولا يخلص الدين لرب العالمين ، أو يلابس الكلاب أو النيران ، أو يأوي إلى المزابل والمواضع النجسة ، أو يأوي إلى المقابر ، لا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين ، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ، ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار ، ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن ؛ فهذه علامات أولياء الشيطان ، لا علامات أولياء الرحمن – انتهى ملخصاً – .

والكتاب مما يلزم الوقوف عليه ، ومطالعته بالحرف ، ففيه من الفوائد ما لا يوجد في غيره ، فرحم الله جامعه ، وجزاه خيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 39 .

47 ﴾

(221/365)

وقال ابن عاشور :

وإشارة الآية إلى تولي الله إياهم بالكرامة بقوله : ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ .

وتعريف ﴿ البشرى ﴾ تعريف الجنس فهو صادق ببشارات كثيرة .

و﴿ في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ حال من ﴿ البشرى ﴾ .

والمعنى : أنهم يبشرون بخيرات قبل حصولها : في الدنيا بما يتكرر من البشارات الواردة في كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وفي الآخرة بما يتلقونه من الملائكة وما يسمعونه من أمر الله بهم إلى النعيم المقيم ، كقوله : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات ﴾ [البقرة : 25] .

وروى الترمذي عن أبي الدرداء أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا ﴾ فقال : " ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت فهي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أوْ ترى له " قال الترمذي : وليس فيه عطاء بن يسار أي ليس في الحديث أن أبا صالح يرويه عن عطاء بن يسار كما هو المعروف في رواية أبي صالح إلى أبي الدرداء ، وعليه فالحديث منقطع غير متصل السند .

وقد رواه الترمذي بسندين آخرين فيهما عطاء بن يسار عن رجل من أهل مِصر عن أبي

الدرداء وذلك سند فيه مجهول ، فحالة إسناد هذا الخبر مضطربة لظهور أن عطاء لم يسمعه من أبي الدرداء .

ومحمل هذا الخبر أن الرؤيا الصالحة من جملة البشرى في الحياة الدنيا لأنها تؤذن صاحبها بخير مستقبل يحصل في الدنيا أحرى الآخرة ، أو كأن السائل سأل عن بشرى الحياة فأما بشرى الآخرة فكانت معروفة بقوله : ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ﴾ [التوبة : 21] الآية ونحوها من الآيات .

وفي "الموطأ" عن هشام بن عروة عن أبيه كان يقول في هذه الآية ﴿ لهم البُشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ قال : هي الرؤيا الصالحة يَراها الرجل أوْ تُرى له .

ومن البشرى الوعد بأن لهم عاقبة النصر على الأعداء ، وتمكينُهم من السلطان في الدنيا ، وأن لهم النعيم الخالد في الآخرة .

(222/365)

ومقابلة الحَزَن بالبشرى من محسنات الطباق .

وجملة : ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ مبينة لمعنى تأكيد الوعد الذي تضمنه قوله : ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ ، تذكيراً لهم بأن ما وعدهم الله به من البشائر مثل

النصر وحسن العاقبة أمر ثابت لا يتخلف لأنه من كلمات الله ، وقد نفي التبديل بصيغة التبرئة الدالة على انتفاء جنس التبديل .

والتبديل : التغيير والإبطال ، لأن إبطال الشيء يستلزم إيجاد نقيضه .

و﴿ كلمات الله ﴾ الأقوال التي أوحى بها إلى الرسول في الوعد المشار إليه ، ويؤخذ من عموم ﴿ كلمات الله ﴾ وعموم نفي التبديل أن كل ما هو تبديل منفي من أصله .

رُوي أن الحجاج خطب فذكر عبد الله بن الزبير فقال : إنه قد بَدَّل كتاب الله .

وكان ابن عمر حاضراً فقال له ابن عمر : لا تطيق ذلك أنت ولا ابنُ الزبير : ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ .

وجملة ﴿ ذلك هو الفَوْز العظيم ﴾ مؤكدة لجملة ﴿ لهم البشرى ﴾ ومقررة لمضمونها فلذلك فُصلت .

والإشارة بذلك إلى المذكور من مضمون الجمل الثلاث المتقدمة ، واختيار اسم الإشارة لأنه أجمع لما ذُكر ، وفيه كمال تمييز له لزيادة تقرير معناه .

وذكرُ ضمير الفصل بعد اسم الإشارة لزيادة التأكيد ولإفادة القصر ، أي هو الفوز العظيم لا غيرُه مما يتقلب فيه المشركون في الحياة الدنيا من رزق ومَنَعَة وقوة ، لأن ذلك لا يعد فوزاً إذا عاقبته المذلة والإهانة في الدنيا وبعدَه العذاب الخالد في الآخرة ، كما أشار إليه قوله تعالى :

﴿ لا يغرَّنَّك تقلُّب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ [آل عمران : 196 ، 197] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(223/365)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ ﴾

والبُشرى : من البِشْر والبشارة والتبشير ، وكلها مأخوذة من البشرة ، وهي الجلد ؛ لأن أي انفعال في باطن النفس الإنسانية إنما ينضح على البشرة ، فإذا جئت للإنسان بأمر سارٍّ تجد أثر هذا السرور على أساريره ، وإن جئت للإنسان بخبر سيِّىء تجد الكدر وقد ظهر على بشرته ، فالبشرة هي أول منفعل بالأحداث السارة أو المؤلمة .

وحين يقال : " بشرى " فهذا يعني كلاماً إذا سمعه السامع يظهر على بشرته إشراق وسرور ؛ لأنه كلام مبشِّر بخير .

وحين " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البشرى ، قال : " إنها الرؤية الصالحة تُرى للمؤمن أو يراها " ، وقال صلى الله عليه وسلم : " إنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة " .

وقد أوحي للنبي صلى الله عليه وسلم بالرؤيا ستة أشهر ، وأوحي إليه في اليقظة ثلاثة وعشرين عاماً ، فإذا نسبت الستة أشهر إلى الثلاثة والعشرين عاماً ، تجد أن الستة أشهر تمثل جزءاً من ستة وأربعين جزءاً .

والرؤيا ليست هي الحُلْم ؛ لأن الرؤيا هي شيء لم يشغل عقلك نهاراً ، وليس للشيطان فيه دخل .

والمثل العامي يقول : " الجوعان يحلم بسوق العيش " فإن كان ما يراه الإنسان في أثناء النوم له علاقة بأمر يشغله ، فهذا هو الحلم ، وليس للرؤيا ، وإن كان ما يراه الإنسان في أثناء النوم شيئاً يخالف منهج الله ، فهذه قذفة من الشيطان .

إذن : فهناك فارق بين الرؤيا والحلم ، وأضغاث الأحلام .

(224/365)

البشرى إذن هي الرؤيا الصالحة ، أو هي المقدمات التي تُشْعر خَلْق الله بهم فتتجه قلوب الناس إلى هؤلاء الأولياء ، وقد تجد واحداً أَحبه الله تعالى في السماء ، " فيقول الله سبحانه وتعالى لجبريل عليه السلام : " إني أحب فلاناً فأَحبَّهُ . قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادي جبريل في السماء فيقول : إن الله يَحب فلاناً فأَحِبُّوه ، فيحبه أهل السماء . قال : ثم

يُوضع له القبول في الأرض " .

وساعة تراه مكتوباً له القبول ، فالكل يُجمعون على أن في رؤيتهم لهذا المحبوب من السماء سَمْتاً طيباً ، وهذه هي البشرى .

أو أن البشرى تأتي لحظة أن يأتي مَلَكُ الموت ، فيُلْقي عليه السلام ، ويشعر أن الموت مسألة طبيعية ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادخلوا الجنة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 32] .

أو ساعة يبيضُّ الوجه حين يأخذ الإنسان من هؤلاء كتابه بيمينه ، وهذه بشرى في الدنيا وفي الآخرة .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة وَلَكُمْ فِيهَا مَا تشتهي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾

[فصلت : 3031] .

إذن : فهؤلاء الأولياء يتلقون من فيوضات الله عليهم بواسطة الملائكة ويتميزون عن غيرهم ؛ لأن الواحد منهم قد يفرض على نفسه نوافل فوق الفروض ؛ لأن الفروض هي أقل القليل من التكاليف .

وقد يرى واحد منهم أن القيام بالفروض لا تناسب مع حبه لله تعالى ؛ فيزيد من جنسها على ما فرض الله ، ويصلِّي بدلاً من خمسة فروض عشرة أخرى نوافل ، أو يصوم مع رمضان شهراً أو اثنين ، أو يصوم يومي الاثني والخميس من كل أسبوع .

(225/365)

وهذا دليل على أنه وجد أن الفروض قليلة بالنسبة لدرجة حبه لله تعالى ، وأن الله تعالى يستحق أكثر من ذلك ، وهذا معناه أن مثل هذا العبد قد دخل في مقام الود مع الله تعالى ، وهنا يفيض الله سبحانه وتعالى عليه بما يشاء ، وينال من رضوان الله ما جاء في الحديث القدسي :

" من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورِجْلَهُ التي يمشي عليها ، وإن سألني لأعطينَّه ، ولئن استعاذني لأعيذنَّه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته " .

وهكذا تختلف المقاييس بين عبد يحب الله تعالى ويؤدي فوق ما عليه ، وعبد آخر يقوم

بالتكاليف وحدها .

ويُنهي الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ [يونس : 64] .

وما دام الحق سبحانه قد قال : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ﴾ فلن تجد أحداً قادراً على ذلك ، كما أن الخلق مقهورون كلهم يوم القيامة ؛ ومَنْ كان يبيح له الله تعالى أن يملك شيئاً في الدنيا لم يعد مالكاً لشيء ، بدليل أن الكل سيسمع قول الحق سبحانه :

﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] .

وما دام الحق سبحانه قد وعد ببشرى الدنيا وبشرى الآخرة ، فلا تبديل لما حكم به الله ، فلا شيء يتأبَّى على حكم الله تعالى ، والوعد بالبُشريات في الدنيا وفي الآخرة فوز عظيم مؤكد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(226/365)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

﴿ (64)

أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان " عن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر قال : سألت أبا الدرداء رضي الله عنه عن قول الله تعالى ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ فقال : ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت . هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له فهي بشراه في الحياة الدنيا ، وبشراه في الآخرة الجنة " " .

وأخرج الطيالسي وأحمد والدارمي والترمذي وابن ماجة والهيثم بن كليب الشامي والحكيم الترمذي وابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي " عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا ﴾ قال " هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له " " .

وأخرج أحمد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا ﴾ قال " الرؤيا الصالحة يبشر بها المؤمن ، وهي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة ، فمن رأى

ذلك فليخبر بها وادّاً ، ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطان ليحزنه ، فلينفث عن يساره ثلاثاً وليسكت ولا يخبر بها أحداً " .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ قال " هي في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو ترى له ، وفي الآخرة الجنة " " .

(227/365)

وأخرج ابن سعد والبزار وابن مردويه والخطيب في المتفق والمفترق من طريق الكلبي عن أبي صالح عن جابر بن عبد الله بن رباب وليس بالأنصاري " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ قال " هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له " " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو القاسم بن منده في كتاب سؤال القبر من طريق أبي جعفر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : " أتى رجل من أهل البادية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أخبرني عن قول الله ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ فقال رسول الله صلى

الله عليه وسلم " أما قوله ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا ﴾ فهي الرؤيا الحسنة ترى للمؤمن فيبشر بها في دنياه ، وأما قوله ﴿ وفي الآخرة ﴾ فإنها بشارة المؤمن عند الموت ، إن الله قد غفر لك ولمن حملك إلى قبرك " " .

وأخرج ابن مردويه من طريق أبي سفيان " عن جابر رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ قال " ما سألني عنها أحد : هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ، وفي الآخرة الجنة " " .

وأخرج ابن مردويه " عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ قال " هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له " " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا ﴾ قال : هي الرؤيا الحسنة يراها المسلم لنفسه أو لبعض إخوانه .

(228/365)

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " كشف النبي صلى الله عليه وسلم الستارة في مرضه

الذي مات فيه والناس صفوف خلف أبي بكر رضي الله عنه فقال : إنه لم يبق من مبشرات النبوّة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له " .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن مردويه عن أبي الطفيل عامر بن واثلة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا نبوّة بعدي إلا بالمبشرات . قيل يا رسول الله : وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة " .

وأخرج ابن مردويه عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ذهبت النبوّة فلا نبوة بعدي وبقيت المبشرات ، رؤيا المسلم الحسنة يراها المسلم أو ترى له " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الرسالة والنبوّة قد انقطعتا ، فلا رسول بعدي ولا نبي ولكن المبشرات . قالوا : يا رسول الله وما المبشرات ؟ قال : رؤيا المسلم هي جزء من أجزاء النبوّة " .

وأخرج أحمد وابن مردويه عن أبي قتادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الرؤيا الصالحة بشرى من الله ، وهي جزء من أجزاء النبوّة " .

وأخرج أحمد وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا يبقى بعدي شيء من النبوّة إلا المبشرات . قالوا : يا رسول الله وما المبشرات ؟ قال :

الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له " .

وأخرج ابن ماجة وابن جرير " عن أم كند الكعبية " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ذهبت النبوّة وبقيت المبشرات " " .

(229/365)

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً ، ورؤيا المسلم جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، والرؤيا ثلاث . فالرؤيا الصالحة بشرى من الله ، والرؤيا مما تحزن الشيطان ، والرؤيا مما يحدث بها الرجل نفسه ، وإذا رأى أحدكم ما يكره فليقم وليتفل ولا يحدث به الناس ، وأحب القيد في النوم وأكره الغل ، القيد ثبات في الدين . ولفظ ابن ماجة : فإذا رأى أحدكم رؤيا تعجبه فليقصها إن شاء ، وإن رأى شيئاً يكرهه فلا يقصه على أحد وليقم يصلي " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة " .

وأخرج البخاري والترمذي والنسائي " عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه " أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنما هي من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها ، وإذا رأى غيره مما يكره فإنما هي من الشيطان ، فليستعذ بالله من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره " " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري وابن ماجة " عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه " أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً .

ولفظ ابن أبي شيبة وابن ماجة : جزء من سبعين جزءاً من النبوة " " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة " .

وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا : وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة " .

(230/365)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن ماجة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : الرؤيا من المبشرات ، وهي جزء من سبعين جزءاً من النبوة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عروة ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا ﴾ قال : هي الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا ﴾ قال : هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له .

وأخرج الحكيم الترمذي وابن مردويه عن حميد بن عبد الله رضي الله عنه . " أن رجلاً سأل عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن قوله ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا ﴾ فقال عبادة رضي الله عنه : سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن لنفسه أو ترى له ، وهو كلام يكلم به ربك عبده في المنام " " .

وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه . أنه كان يقول : إذا أصبح من رأى رؤيا صالحة فليحدثنا بها ، لأن يرى لي رجل مسلم أسبغ وضوءه رؤيا صالحة أحب إليَّ من كذا وكذا .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي وصححه وابن ماجة عن أبي رزين رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة ، وهي على رجل طائر ما لم يحدث بها فإذا حدث بها وقعت " .

وأخرج مالك والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي قتادة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " الرؤيا من الله والحلم من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم شيئاً يكرهه فلينفث عن يساره ثلاث مرات ثم ليستعذ بالله من الشيطان ، فإنها لا تضره " .

(231/365)

وأخرج ابن أبي شيبة عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الرؤيا على ثلاثة : تخويف من الشيطان ليحزن به ابن آدم ، ومنه الأمر يحدث به نفسه في اليقظة فيراه في المنام ، ومنه جزء من ستة وأربعين جزءاً النبوّة " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن سمير بن أبي واصل رضي الله عنه قال : كان يقال : إذا أراد الله بعبده خيراً عاتبه في نومه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا ﴾ قال : هو قوله لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾ [الأحزاب : 47] .

وأخرج ابن المنذر من طريق مقسم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : آيتان يبشر بهما

المؤمن عند موته ﴿ أَلا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ وقوله ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ [فصلت : 30] .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في ذكر الموت وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وأبو القاسم بن منده في كتاب سؤال القبر عن الضحاك في قوله ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا ﴾ قال : يعلم أين هو قبل أن يموت .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الزهري وقتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا ﴾ قالا : البشارة عند الموت .

وأخرج ابن جرير والحاكم والبيهقي في الأسماء والصفات عن نافع رضي الله عنه قال : خطب الحجاج فقال : إن ابن الزبير بدل كتاب الله . فقال ابن عمر رضي الله عنهما : لا تستطيع ذلك أنت ولا ابن الزبير ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(232/365)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فِي الحياة الدنيا ﴾ : يجوز فيه وجهان ، أظهرهما : أنه متعلقٌ بالبشرى ، أي : البشرى تقع في الدنيا ، وفُسِّرت بالرؤيا الصالحةِ . والثاني : أنها حالٌ من " البشرى " فتتعلق بمحذوف ، والعاملُ في الحال الاستقرارُ في " لهم " لوقوعه خبراً . وقوله : " لا تبديلَ " جملةٌ مستأنفة . وقوله : " ذلك " إشارةٌ للبشرى وإن كانت مؤنثةً لأنها في معنى التبشير . وقيل : هو إشارةٌ إلى النعيم ، قاله ابن عطية . وقال الزمخشري : " ذلك " إشارةٌ إلى كونهم مبشَّرين في الدارين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 232 . 233 ﴾

(233/365)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64) ﴾

القيام بالأمر يدل على الصحة ؛ فإذا قاموا بما أُمِروا به ، واستقاموا بِتَرْكِ ما زُجروا عنه

بَشَّرَتْهُم الشريعة بالخروج عن عهدة الإلزام ، وبشَّرتهم الحقيقة باستجياب الإكرام ، بما كوشِفوا به من الإعلام . . . وهذه هي البشرى في عاجلهم . وأما البُشرى في آجِلِهم : فالحقُّ – سبحانه – يتولَّى ذلك التعريف ، قال تعالى : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ [التوبة : 21] .

ويقال البشارة العُظْمَى ما يجدون في قلوبهم مِنْ ظَفَرِهم بنفوسهم بسقوط مآربهم ، وأيُّ مُلْكٍ أتمُّ من سقوط المآرب ، والرضا بالكائن ؟ هذه هي النعمة العظمى ، ووجدانُ هذه الحالة هو البشرى الكبرى .

ويقال الفرق بين هذه البشارة التي لهم وبين البشارة التي للخلْق أنَّ للخلْق عِدَةٌ بالجميل ، والذي له نَقْدٌ ومحصول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 106 ﴾

(234/365)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آلَلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59) ﴾

أشار سبحانه بقوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا أَنزَلَ اللهُ ﴾ إلخ إلى طريق أخرى غير ما تقدّم في إثبات النبوّة ، وتقرير ذلك ما حاصله أنكم تحكمون بتحليل البعض ، وتحريم البعض ، فإن كان بمجرد التشهي والهوى فهو مهجور باتفاق العقلاء ، مسلمهم وكافرهم ، وإن كان لاعتقادكم أنه حكم الله فيكم وفيما رزقكم ، فلا تعرفون ذلك إلا بطريق موصلة إلى الله ، ولا طريق يتبين بها الحلال من الحرام إلا من جهة الرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده ، ومعنى ﴿ أرأيتم ﴾ : أخبروني ، و ﴿ مَا ﴾ في محل نصب بأرأيتم المتضمن لمعنى أخبروني ، وقيل : إن ﴿ ما ﴾ في محل الرفع بالابتداء وخبرها ﴿ آللهُ أذن لكم ﴾ و ﴿ قل ﴾ في قوله : ﴿ قُلِ اللهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ تكرير للتأكيد والرابط محذوف ، ومجموع المبتدأ والخبر في محل نصب ب ﴿ أرأيتم ﴾ والمعنى : أخبروني الذي أنزل الله إليكم من رزق ، فجعلتم منه حراماً وحلالاً ، آللهُ أذن لكم في تحليله وتحريمه ﴿ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ وعلى الوجهين ، فمن في ﴿ منه حراماً ﴾ للتبعيض ، والتقدير : فجعلتم بعضه حراماً وجعلتم بعضه حلالاً ، وذلك كما كانوا يفعلونه في الأنعام حسبما سبق حكاية ذلك عنهم في الكتاب العزيز ؛ ومعنى إنزال الرزق : كون المطر ينزل من جهة العلوّ ، وكذلك يقضي الأمر في أرزاق العباد في السماء على ما قد ثبت في اللوح المحفوظ من ذكره سبحانه وتعالى ، لكل شيء فيه .

وروى عن الزجاج أن ﴿ ما ﴾ في موضع نصب ب ﴿ أنزل ﴾ ، وأنزل بمعنى خلق ، كما قال : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [الزمر : 6] ﴿ وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد : 25] وعلى هذا القول والقول الأوّل يكون قوله : ﴿ قُلِ الله أَذِنَ لَكُمْ ﴾ مستأنفاً ، قيل : ويجوز أن تكون الهمزة في ﴿ الله أَذِنَ لَكُمْ ﴾ للإنكار ، وأم منقطعة بمعنى : بل أتفترون على الله ، وإظهار الإسم الشريف وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال الافتراء .

وفي هذه الآية الشريفة ما يصكّ مسامع المتصدرين للإفتاء لعباد الله في شريعته ، بالتحليل والتحريم والجواز وعدمه ، مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج الله ، ولا يفهمونها ولا يدرون ما هي .

ومبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الأمة قد قلدوه في دينهم ، وجعلوه شارعاً مستقلاً .

ما عمل به من الكتاب والسنة ، فهو المعمول به عندهم .

وما لم يبلغه أو بلغه ولم يفهمه حق فهمه ، أو فهمه وأخطأ الصواب في اجتهاده وترجيحه ، فهو في حكم المنسوخ عندهم المرفوع حكمه عن العباد ، مع كون من قلدوه متعبّداً بهذه الشريعة ، كما هم متعبدون بها ومحكوماً عليه بأحكامها ، كما هو محكوم عليهم بها ، وقد

اجتهد رأيه وأدّى ما عليه ، وفاز بأجرين مع الإصابة وأجر مع الخطأ ، إنما الشأن في جعلهم لرأيه الذي أخطأ فيه شريعة مستقلة ، ودليلاً معمولاً به .

وقد أخطئوا في هذا خطأ بيناً .

واغلطوا غلطاً فاحشاً .

فإن الترخيص للمجتهد في اجتهاد رأيه يخصه وحده ، ولا قائل من أهل الإسلام المعتمد بأقوالهم أنه يجوز لغيره أن يعمل به تقليداً له واقتداء به ، وما جاء به المقلدة في تقوّم هذا الباطل ، فهو من الجهل العاطل ، اللهمّ كما رزقتنا من العلم ما نميز به بين الحق والباطل ، فارزقنا من الإنصاف ما نظفر عنده بما هو الحق عندك يا واهب الخير .

(236/365)

ثم قال : ﴿ وَمَا ظَنُّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب يَوْمَ القيامة ﴾ أي : أيّ شيء ظنهم في هذا اليوم ، وما يصنع بهم فيه ، وهذه الجملة الاستفهامية المتضمنة لتعظيم الوعيد لهم غير داخلة تحت القول الذي أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم ، بل مبتدأة مسوقة لبيان ما سيحلّ بهم من عذاب الله ، و ﴿ يوم القيامة ﴾ منصوب بالظنّ ، وذكر الكذب بعد الافتراء ، مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً لزيادة التأكيد .

وقرأ عيسى بن عمر "وما ظنّ" على أنه فعل : ﴿ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ﴾ يتفضل عليهم بأنواع النعم في الدنيا والآخرة ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ الله على نعمه الواصلة إليهم منه سبحانه في كل وقت من الأوقات ، وطرفة من الطرفات .

قوله : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، و " ما " نافية ، والشأن : الأمر بمعنى القصد ، وأصله الهمز ، وجمعه شؤون .

قال الأخفش : تقول العرب : ما شأنت شأنه : أي ما عملت عمله : ﴿ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْآن ﴾ قال الفراء والزجاج : الضمير في منه يعود على الشأن ، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف : أي تلاوة كائنة منه ، إذ التلاوة للقرآن من أعظم شؤونه صلى الله عليه وسلم ؛ والمعنى : أنه يتلو من أجل الشأن الذي حدّث القرآن ، فيعلم كيف حكمه ، أو يتلو القرآن الذي ينزل في ذلك الشأن .

وقال ابن جرير الطبري : الضمير عائد في ﴿ منه ﴾ إلى الكتاب : أي ما يكون من كتاب الله من قرآن ، وأعاده تفخيماً له كقوله : ﴿ إنني أَنَا الله ﴾ [طه : 14] ، والخطاب في ﴿ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ لرسول الله وللأمة ، وقيل : الخطاب لكفار قريش ﴿ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُم شُهُوداً ﴾ استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال للمخاطبين : أي شهوداً عليكم بعمله منكم ، والضمير .

في ﴿ فيه ﴾ من قوله : ﴿ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ عائد على العمل ، يقال : أفاض فلان في الحديث والعمل : إذا اندفع فيه .

وقال الضحاك : الضمير في ﴿ فيه ﴾ عائد على القرآن .

والمعنى : إذ تشيعون في القرآن الكذب .

قوله : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِى السماء ﴾ قرأ الكسائي "يعزب" بكسر الزاي ، وقرأ الباقون بالضم وهما لغتان فصيحتان ، ومعنى يعزب : يغيب ، وقيل يبعد .

وقال ابن كيسان : يذهب ، وهذه المعاني متقاربة ، و "من" في ﴿ مِن مِّثْقَالِ ﴾ زائدة للتأكيد : أي وما يغيب عن ربك وزن ذرة .

أي : نملة حمراء ، وعبر بالأرض والسماء مع أنه سبحانه لا يغيب عنه شيء ، لا فيهما ولا فيما هو خارج عنهما ، لأن الناس لا يشاهدون سواهما وسوى ما فيهما من المخلوقات ، وقدّم الأرض على السماء ؛ لأنها محل استقرار العالم فهم يشاهدون ما فيها من قرب ، والواو في ﴿ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك وَلاَ أَكْبَرَ ﴾ لعطف على لفظ مثقال ، وانتصبا لكونهما ممتنعين ، ويجوز أن يكون العطف على ذرة ؛ وقيل : انتصابهما بلا التي لنفي الجنس ، والواو للاستئناف ، وليس من متعلقات وما يعزب ، وخبر لا ﴿ إِلاَّ فِى كتاب ﴾ والمعنى : ولا

أصغر من مثقال الذرّة ولا أكبر منه إلا وهو في كتاب مبين ، فكيف يغيب عنه ؟ وقرأ يعقوب وحمزة برفع أصغر وأكبر ، ووجه ذلك أنه معطوف على محل من مثقال ، ومحله الرفع ، وقد أورد على توجيه النصب والرفع على العطف على لفظ مثقال ومحله ، أو على لفظ ذرّة إشكال ، وهو أنه يصير تقدير الآية : لا يعزب عنه شيء في الأرض ، ولا في السماء إلا في كتاب ، ويلزم منه أن يكون ذلك الشيء الذي في الكتاب خارجاً عن علم الله وهو محال .

(238/365)

وقد أجيب عن هذا الإشكال بأن الأشياء المخلوقة قسمان : قسم أوجده الله ابتداء من غير واسطة ، كخلق الملائكة والسموات والأرض ؛ وقسم آخر أوجده بواسطة القسم الأوّل من حوادث عالم الكون والفساد ، ولا شك أن هذا القسم الثاني متباعد في سلسلة العلية عن مرتبة الأوّل ، فالمراد من الآية أنه لا يبعد عن مرتبة وجوده ، سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء إلا وهو في كتاب مبين أثبت فيه صورة تلك المعلومات ، والغرض : الردّ على من يزعم أنه غير عالم بالجزئيات .

وأجيب أيضاً بأن الاستثناء منقطع : أي لكن هو في كتاب مبين .

وذكر أبو علي الجرجاني أن " إلا " بمعنى الواو ، على أن الكلام قد تمّ عند قوله : ﴿ وَلَا

أَكْبَرَ ﴾ ثم وقع الابتداء بقوله : ﴿ إِلاَّ فِى كتاب مُّبِينٍ ﴾ أي : وهو أيضاً في كتاب مبين .

والعرب قد تضع إلا موضع الواو ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنِّى لاَ يَخَافُ لَدَىَّ المرسلون * إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾ [النمل : 10 ، 11] يعني : ومن ظلم ، وقوله : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ ﴾ [البقرة : 150] أي : والذين ظلموا ، وقدّر هو بعد الواو التي جاءت إلا بمعناها ، كما في قوله : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ [البقرة : 58] أي : هي حطة ، ومثله : ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ ثلاثة ﴾ [النساء : 171] ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظلمات الأرض وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كتاب مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : 59] .

وقال الزجاج : إن الرفع على الابتداء في قراءة من قرأ بالرفع ، وخبره : ﴿ إِلاَّ فِى كتاب ﴾ واختاره صاحب الكشاف ، واختار في قراءة النصب التي قرأ بها الجمهور أنهما منصوبان بلا التي لنفي الجنس ، واستشكل العطف بنحو ما قدّمنا .

(239/365)

ثم لما بين سبحانه إحاطته بجميع الأشياء ، وكان في ذلك تقوية لقلوب المطيعين ، وكسر لقلوب العاصين ذكر حال المطيعين ، فقال : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الوليّ : في اللغة : القريب .

والمراد بأولياء الله : خلص المؤمنين كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته .

وقد فسر سبحانه ، هؤلاء الأولياء بقوله : ﴿ الذين ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ أي : يؤمنون بما يجب الإيمان به ، ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصي الله سبحانه ، والمراد بنفي الخوف عنهم : أنهم لا يخافون أبداً كما يخاف غيرهم ؛ لأنهم قد قاموا بما أوجب الله عليهم ، وانتهوا عن المعاصي التي نهاهم عنها ، فهم على ثقة من أنفسهم ، وحسن ظنّ بربهم ، وكذلك لا يحزنون على فوت مطلب من المطالب ، لأنهم يعلمون أن ذلك بقضاء الله وقدره ، فيسلمون للقضاء والقدر ، ويريحون قلوبهم عن الهمّ والكدر ، فصدورهم منشرحة ، وجوارحهم نشطة ، وقلوبهم مسرورة ، ومحل الموصول النصب على أنه بدل من أولياء أو الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أو هو مبتدأ وخبره لهم البشرى ، فيكون غير متصل بما قبله ، أو النصب أيضاً على المدح ، أو على أنه وصف لأولياء .

قوله : ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا وَفِى الآخرة ﴾ تفسير لمعنى كونهم أولياء الله : أي لهم البشرى من الله ما داموا في الحياة بما يوحيه إلى أنبيائه ، وينزله في كتبه ، من كون حال المؤمنين عنده هو إدخالهم الجنة ورضوانه عنهم ، كما وقع كثير من البشارات للمؤمنين في القرآن الكريم ، وكذلك ما يحصل لهم من الرؤيا الصالحة ، وما يتفضل الله به عليهم من إجابة دعائهم ، وما يشاهدونه من التبشير لهم عند حضور آجالهم بتنزل الملائكة عليهم قائلين

لهم : لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة ؛ وأما البشرى في الآخرة ، فتلقى الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعيم والسلامة من العذاب .

(240/365)

والبشرى مصدر أريد به المبشر به ، والظرفان في محل نصب على الحال : أي حال كونهم في الدنيا ، وحال كونهم في الآخرة ، ومعنى : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ﴾ لا تغيير لأقواله على العموم ، فيدخل فيها ما وعد به عباده الصالحين دخولاً أوّلياً ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى المذكور قبله من كونهم مبشرين بالبشارتين في الدارين ﴿ هُوَ الفوز العظيم ﴾ الذي لا يقادر قدره ، ولا يماثله غيره ، والجملتان : أعني ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ﴾ و ﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ اعتراض في آخر الكلام عند من يجوّزه ، وفائدتهما تحقيق المبشر به وتعظيم شأنه ، أو الأولى : اعتراضية ، والثانية : تذييلية .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ ﴾ قال : هم أهل الشرك كانوا يحلون من الأنعام والحرث ، ما شاءوا ويحرّمون ما شاءوا .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عنه ، في قوله : ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾

قال : إذ تفعلون .

وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، عن مجاهد ، مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السديّ ، في قوله : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ ﴾ قال : لا يغيب عنه وزن ذرّة ﴿ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ قال : هو الكتاب الذي عند الله .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد ، في قوله : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء الله ﴾ قيل : من هم يا ربّ ؟ قال : هم ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ ، عن سعيد بن جبير ، قال : هم الذين إذا رؤوا ذكر الله .

وأخرج الطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والضياء في المختارة ، عن ابن عباس ، مرفوعاً وموقوفاً قال : هم الذين إذا رؤوا يذكر الله لرؤيتهم .

(241/365)

وأخرج عنه ابن المبارك ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، والبزار ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه مرفوعاً ، مثله .

وأخرجه ابن المبارك ، وابن شيبة ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن سعيد بن

جبير ، مرفوعاً وهو مرسل .

وروي نحوه من طرق أخرى مرفوعاً وموقوفاً .

وأخرج أحمد ، والحكيم الترمذي ، عن عمرو بن الجموح ، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يحقّ العبد حقّ صريح الإيمان حتى يحبّ لله ويبغض لله ، فإذا أحبّ لله وأبغض لله فقد استحقّ الولاء من الله ، وإنّ أوليائي من عبادي وأحبائي من خلقي الذين يذكرون بذكري وأذكر بذكرهم " وأخرج أحمد عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم : " خيار عباد الله الذين إذا رؤوا ذكر الله ، وشرار عباده المشاءون بالنميمة المفرّقون بين الأحبة الباغون البرآء العنت " وأخرج الحكيم الترمذي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خياركم من ذكركم الله رؤيته ، وزاد في علمكم منطقه ، ورغبكم في الآخرة عمله " وأخرج الحكيم الترمذي ، عن ابن عباس ، مرفوعاً نحوه .

وأخرج الحاكم وصححه ، عن ابن عمر ، مرفوعاً : " إن لله عباداً ليسوا بالأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة بقربهم ومجلسهم منه " ، فجثا أعرابي على ركبتيه فقال : يا رسول الله صفهم لنا حلهم لنا ؟ قال : " قوم من أفناء الناس من نزاع القبائل ، تصافوا في الله وتحابوا في الله ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم . يخاف الناس ولا يخافون ، هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون "

وأخرج أبو داود ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه .

قال ابن كثير : وإسناده جيد .

(242/365)

وأخرج ابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه .

وأخرج أحمد ، وابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عن أبي مالك الأشعري مرفوعاً نحوه .

وأخرج ابن مردويه ، عن أبي هريرة ، قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء الله ﴾ الآية فقال : " الذين يتحابون في الله " وأخرج ابن مردويه ، عن جابر ، مرفوعاً مثله .

وقد ورد في فضل المتحابين في الله أحاديث ليس فيها أنهم المرادون بالآية .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، والترمذي وحسنه ، والحكيم في

نوادر الأصول ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مرودويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن عطاء بن يسار ، عن رجل من أهل مصر قال : سألت أبا الدرداء عن معنى قوله : ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا ﴾ فقال : ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت عليّ : هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم ، أو ترى له ، فهي بشراه في الحياة الدنيا ، وبشراه في الآخرة الجنة " ، وفي إسناده هذا الرجل المجهول .

(243/365)

وأخرج أبو داود الطيالسي ، وأحمد ، والدارمي ، والترمذي ، وابن ماجه ، والحكيم الترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عن عبادة بن الصامت قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا ﴾ قال : " هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له " وأخرج أحمد ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي عن عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا ﴾ قال : " الرؤيا الصالحة يبشر بها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة ، فمن رأى

ذلك فليخبر بها " الحديث .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال : " هي في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو ترى له ، وفي الآخرة الجنة " وأخرج ابن أبي الدنيا ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وابن منده ، من طريق أبي جعفر ، عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر البشرى في الحياة الدنيا بالرؤيا الحبيبة ، وفي الآخرة ببشارة المؤمن عند الموت : إن الله قد غفر لك ولمن حملك إلى قبرك .

وأخرج ابن مردويه ، عنه ، مرفوعاً مثل حديث جابر .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن مسعود ، مرفوعاً الشطر الأوّل من حديث جابر .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، عن ابن عباس ، مثله .

وقد وردت أحاديث صحيحة بأن الرؤيا الصالحة من المبشرات ، وأنها جزء من أجزاء النبوّة ، ولكنها لم تقيد بتفسير هذه الآية .

وقد روي أن المراد بالبشرى في الآية هي قوله : ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ الله فَضْلاً كَبِيراً ﴾ [الأحزاب : 47] أخرج ذلك ابن جرير ، وابن المنذر ، من طريق عليّ بن أبي طلحة ، عن ابن عباس .

وأخرج ابن المنذر ، عنه ، من طريق مقسم أنها قوله : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ [فصلت : 30] .

وأخرج ابن جرير ، والحاكم ، والبيهقي عن نافع ، قال : خطب الحجاج فقال : إن ابن الزبير بدّل كتاب الله ، فقال ابن عمر : لا تستطيع ذلك أنت ولا ابن الزبير ، ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(245/365)

قوله تعالى ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقدمت البشرى بنفي الخوف والحزن معاً عن الأولياء ، علم أن المعنى : هذه البشرى للأولياء وأنت رأسهم فلا تخف ، فعطف عليه قوله : ﴿ ولا يحزنك قولهم ﴾ أي في نحو قولهم : إنهم يغلبون ، وفي تكذيبك والاستهزاء بك وتهديدك ، فإن ذلك قول يراد به تبديل كلمات الله الغني القدير ، وهيهات ذلك من الضعيف الفقير فكيف بالعلي الكبير ! وإلى

هذا يرشد التعليل لهذا النهي بقوله : ﴿ إن العزة ﴾ أي الغلبة والقهر وتمام العظمة ﴿ لله ﴾ أي الملك الأعلى حال كونها ﴿ جميعاً ﴾ أي فسيذلهم ويعز دينه ، والمراد بذلك التسلية عن قولهم الذي يؤذونه به .

ولما بدئت الآية بقولهم ، ختمها بالسمع له والعلم به وقصرهما عليه لأن صفات كل موصوف متلاشية بالنسبة إلى صفاته فقال : ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ السميع ﴾ أي البليغ السميع لأقوالهم ﴿ العليم ﴾ أي المحيط العلم بضمائرهم وجميع أحوالهم فهو البالغ القدرة على كل شيء فيجازيهم بما تقتضيه ، وهو تعليل لتفرده بالعزة لأنه تفرد بهذين الوصفين فانتفيا عن غيره ، ومن انتفيا عنه كان دون الحيوانات العجم فأنى يكون له عزة ! والعزة : قدرة على كل جبار بما لا يرام ولا يضام ، والمعنى أنه يعزك على من ناواك ، والنهي في ﴿ ولا يحزنك ﴾ في اللفظ للقول وفي المعنى للسبب المؤدي إلى التأذي بالقول ، وكسرت " إن " هاهنا للاستئناف بالتذكر بما ينفي الحزن ، لا لأنها بعد القول لأنها ليست حكاية عنهم ، وقرىء بفتحها على معنى " لأن " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 462 ﴾

(246/365)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65) ﴾

اعلم أن القوم لما أوردوا أنواع الشبهات التي حكاها الله تعالى عنهم فيما تقدم من هذه السورة وأجاب الله عنها بالأجوبة التي فسرناها وقررناها ، عدلوا إلى طريق آخر ، وهو أنهم هددوه وخوفوه وزعموا أنا أصحاب التبع والمال ، فنسعى في قهرك وفي إبطال أمرك ، والله سبحانه أجاب عن هذا الطريق بقوله : ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ .

واعلم أن الإنسان إنما يحزن من وعيد الغير وتهديده ومكره وكيده ، لو جوز كونه مؤثراً في حاله ، فإذا علم من جهة علام الغيوب أن ذلك لا يؤثر ، خرج من أن يكون سبباً لحزنه .

ثم إنه تعالى كما أزال عن الرسول حزن الآخرة بسبب قوله : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : 62] فكذلك أزال حزن الدنيا بقوله : ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ فإذا كان الله تعالى هو الذي أرسله إلى الخلق وهو الذي أمره بدعوتهم إلى هذا الدين كان لا محالة ناصراً له ومعيناً ، ولما ثبت أن العزة والقهر والغلبة ليست إلا له ، فقد حصل الأمن وزال الخوف .

فإن قيل : فكيف آمنه من ذلك ولم يزل خائفاً حتى احتاج إلى الهجرة والهرب ، ثم من بعد ذلك يخاف حالاً بعد حال ؟

قلنا : إن الله تعالى وعده الظفر والنصرة مطلقاً والوقت ما كان معيناً ، فهو في كل وقت كان يخاف من أن لا يكون هذا الوقت المعين ذلك الوقت ، فحينئذ يحصل الانكسار والانهزام في هذا الوقت .

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ ففيه أبحاث :

البحث الأول : قال القاضي : إن العزة بالألف المكسورة وفي فتحها فساد يقارب الكفر لأنه يؤدي إلى أن القوم كانوا يقولون : ﴿ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ وأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحزنه ذلك .

(247/365)

أما إذا كسرت الألف كان ذلك استئنافاً ، وهذا يدل على فضيلة علم الإعراب .

قال صاحب "الكشاف" : وقرأ أبو حيوة ﴿ أَنَّ العزة ﴾ بالفتح على حذف لام العلة يعني : لأن العزة على صريح التعليل .

البحث الثاني : فائدة ﴿ إِنَّ العزة للَّهِ ﴾ في هذا المقام أمور : الأول : المراد منه أن جميع العزة والقدرة هي لله تعالى يعطي ما يشاء لعباده ، والغرض منه أنه لا يعطي الكفار قدرة عليه ، بل يعطيه القدرة عليهم حتى يكون هو بذلك أعز منهم ، فآمنه الله تعالى بهذا القول من

إضرار الكفار به بالقتل والإيذاء ، ومثله قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة : 21] ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر : 51] الثاني : قال الأصم : المراد أن المشركين يتعززون بكثرة خدمهم وأموالهم ويخوفونك بها وتلك الأشياء كلها لله تعالى فهو القادر على أن يسلب منهم كل تلك الأشياء وأن ينصرك وينقل أموالهم وديارهم إليك .

فإن قيل : قوله : ﴿ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ كالمضادة لقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : 8] .

قلنا : لا مضادة ، لأن عزة الرسول والمؤمنين كلها بالله فهي لله .

أما قوله : ﴿ هُوَ السميع العليم ﴾ أي يسمع ما يقولون ويعلم ما يعزمون عليه وهو يكافئهم بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 104 . 105 ﴾

(248/365)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾

تمّ الكلام ، أي لا يحزنك افتراؤهم وتكذيبهم لك ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ إِنَّ العزة للَّهِ ﴾ أي القوّة الكاملة والغلبة الشاملة والقدرة التامة لله وحده ؛ فهو ناصرك ومعينك ومانعك .

﴿ جَمِيعاً ﴾ نصب على الحال ، ولا يعارض هذا قوله : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : 8] فإن كل عزة بالله فهي كلها لله ؛ قال الله سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات : 180] .

﴿ هُوَ السميع العليم ﴾ السميع لأقوالهم وأصواتهم ، العليم بأعمالهم وأفعالهم وجميع حركاتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(249/365)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾

إما أن يكون قولهم أريد به بعض أفراده وهو التكذيب والتهديد وما يتشاورون به في أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فيكون من إطلاق العام وأريد به الخاص .

وإما أن يكون مما حذفت منه الصفة المخصصة أي : قولهم الدال على تكذيبك ومعاندتك ، ثم استأنف بقوله : إنّ العزة لله جميعاً أي : لا عزة لهم ولا منعة ، فهم لا يقدرون لك على شيء ولا يؤذونك ، إن الغلبة والقهر لله ، وهو القادر على الانتقام منهم ، فلا يعازه شيء ولا يغالبه .

وكأنّ قائلاً قال : لم لا يحزنه قولهم وهو مما يحزن ؟ فقيل : إنّ العزة لله جميعاً ، ليس لهم منها شيء .

وقرأ أبو حيوة : أنّ العزة بفتح الهمزة وليس معمولاً لقولهم : لأن ذلك لا يحزن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، إذ هو قول حق .

وخرجت هذه القراءة على التعليل أي : لا يقع منك حزن لما يقولون ، لأجل أنّ العزة لله جميعاً .

ووجهت أيضاً على أن يكون إنّ العزة بدل من قولهم ولا يظهر هذا التوجيه .

قال الزمخشري : ومن جعله بدلاً من قولهم ثم أنكره ، فالمنكر هو تخريجه لا ما أنكره من القرآن .

وقال القاضي : فتحها شاذ يقارب الكفر ، وإذا كسرت كان استئنافاً ، وهذا يدل على فضيلة علم الإعراب .

وقال ابن قتيبة : لا يجوز فتح إن في هذا الموضع وهو كفر وغلو ، وإنما قال القاضي وابن قتيبة بناء منهما على أن معمولة لقولهم ، وقد ذكرنا توجيه ذلك على التعليل وهو توجيه صحيح .

هو السميع لما يقولون ، العليم لما يريدون .

وفي هذه الآية تأمين للرسول (صلى الله عليه وسلم) من اضرار الكفار ، وأن الله تعالى

يديله عليهم وينصره .

﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ وقال الأصم : كانوا يتعززون بكثرة خدمهم وأموالهم ، فأخبر أنه قادر على أن يسلب منهم ملك الأشياء ، وأن ينصرك وينقل إليك أموالهم وديارهم انتهى .

ولا تضاد بين قوله : إن العزة لله جميعاً ، وقوله : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ لأن عزتهم إنما هي بالله ، فهي كلها لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(250/365)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾

تسليةٌ للرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من جهتهم من الأذية الناشئةِ عن مقالاتهم الموحشةِ وتبشيرٌ له عليه الصلاة والسلام بأنه عز وجل ينصُره ويُعزّه عليهم ، إثرَ بيانِ أن له ولأتباعه أمْناً من كل محذورٍ وفوزاً بكل مطلوبٍ ، وقرىء ولا يُحْزِنك من أحزنه وهو في الحقيقة نهيٌ له عليه السلام عن الحزن كأنه قيل : لا تحزنْ بقولهم ولا تُبالِ بتكذيبهم وتشاورِهم في تدبير هلاكِك وإبطالِ أمرِك وسائرِ ما يتفوهون به في شأنك مما لا خيرَ فيه ،

وإنما وُجِّه النهيُ إلى قولهم للمبالغة في نهيه عليه السلام عن الحزن لما أن النهيَ عن التأثير نهيٌ عن التأثر بأصله ونفيٌ له بالمرة وقد يوجّه النهيُ إلى اللازم والمرادُ هو النهيُ عن الملزوم كما في قولك : لا أُرَيَّنك هاهنا ، وتخصيصُ النهي عن الحزن بالإيراد مع شمول النفي السابقِ للحزن أيضاً لما أنه لم يكن فيه عليه السلام شائبةُ خوفٍ حتى ينهى عنه وربما كان يعنى به عليه السلام في بعض الأوقاتِ نوعُ حزنٍ فسُلِّيَ عن ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ العزة ﴾ تعليلٌ للنهي على طريقة الاستئنافِ أي الغلبةَ والقهرَ ﴿ للَّهِ جَمِيعاً ﴾ أي في ملكته وسلطانِه لا يملك أحدٌ شيئاً منها أصلاً لا هم ولا غيرُهم فهو يقهرُهم ويعصِمُك منهم وينصُرك عليهم وقد كان كذلك فهي من جملة المبشرات العاجلة ، وقرىء بفتح (أن) على صريح التعليلِ أي لأن العزة لله ﴿ هُوَ السميع العليم ﴾ يسمع ما يقولون في حقك ويعلم ما يعزمون عليه وهو مكافِئُهم بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(251/365)

وقال الآلوسى :

ومن جعل قوله سبحانه :

﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ معطوفاً على الجملة قبل أي إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم

يحزنون فلا يحزنك قول أعداء الله تعالى فالاعتراض عنده بين متصلين لا في آخر الكلام لكنه ليس بشيء ، والذي عليه الجمهور أنه استئناف سيق تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من جهة الاعداء من الأذية الناشئة من مقالاتهم الرديئة الوحشية وتبشيراً له عليه الصلاة والسلام بالنصر والعز إثر بيان أن له ولأتباعه أمناً من كل محذور وفوزاً بكل مطلوب فهو متصل بقوله سبحانه : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاء اللَّهِ ﴾ [يونس : 62] الخ معنى .

وقيل : إنه متصل بقوله سبحانه : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ [يونس : 41] الآية واختاره على ما فيه من البعد الطبرسي .

وقرأ نافع ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ﴾ من أحزن وهو في الحقيقة نهى له صلى الله عليه وسلم عن الحزن كأنه قيل : لا تحزن بقولهم ولا تبال بكل ما يتفوهون به في شأنك مما لا خير فيه ، وإنما عدل عنه إلى ما في النظم الجليل للمبالغة في النهي عن الحزن لما أن النهي عن التأثير نهى عن التأثر بأصله ونفى له بالمرة ، ونظير ذلك كما مر غير مرة قولهم لا أرينك ههنا ولا يأكلك السبع ونحوه ، وقد وجه فيه النهي إلى اللازم والمراد هو النهي عن الملزوم ، قيل : وتخصيص النهي عن الحزن بالإيراد مع شمول النفي السابق للخوف أيضاً لما أنه لم يكن فيه صلى الله عليه وسلم شائبة خوف حتى ينهى عنه وربما كان يعتريه صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات حزن فسلى عنه ، ولا يخفى أنه إذا قلنا أن الخوف والحزن متقاربان فإذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا كما علمت آنفاً كان النهي عن الحزن نهياً عن الخوف أيضاً إلا أن

الأولى عدم اعتبار ما فيه توهم نسبة الخوف إلى ساحته عليه الصلاة والسلام وإن لم يكن في ذلك نقص .

(252/365)

فقد جاء نهي الأنبياء عليهم السلام عن الخوف كنهيهم عن الحزن بل قد ثبت صريحاً نسبة ذلك إليهم وهو مما لا يخل بمرتبة النبوة إذ ليس كل خوف نقصاً لينزهوا عنه كيف كان .

﴿ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ كلام مستأنف سيق لتعليل النهي ، وقيل : جواب سؤال مقدر كأنه قيل : لم لا يحزنه ؟ فقيل : لأن الغلبة والقهر لله سبحانه لا يملك أحد شيئاً منها أصلاً لا هم ولا غيرهم فلا يقهر ولا يغلب أولياءه بل يقهرهم ويغلبهم ويعصمك منهم .

وقرأ أبو حيوة ﴿ إن ﴾ بالفتح على صريح التعليل أي لأن ، وحمل قتيبة بن مسلم ذلك على البدل ثم أنكر القراءة لذلك لأنه يؤدي إلى أن يقال : فلا يحزنك أن العزة لله جميعاً وهو فاسد .

وذكر الزمخشري أنه لو حمل على البدل لكان له وجه أيضاً على أسلوب ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً للكافرين ﴾ [القصص : 86] ﴿ وَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إلها ءاخَرَ ﴾ [القصص : 88] فيكون للتهييج والإلهاب والتعريض بالغير وفيه بعد ﴿ هُوَ السميع العليم ﴾ يسمع

أقوالهم في حقك ويعلم ما يضمرونه عليك فيكافؤهم على ذلك وما ذكرناه في الآية هو الظاهر المتبادر .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : لما لم ينتفعوا بما جاءهم من الله تعالى وأقاموا على كفرهم كبر ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه من الله سبحانه فيما يعاتبه ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً هُوَ السميع العليم ﴾ يسمع ما يقولون ويعلمه فلو شاء بعزته لانتصر منهم ولا يخفى أنه خلاف الظاهر جداً مع ما فيه من تعليق العلم بما علق بالسمع ، ولعل روايته عن الحبر غير معول عليها . انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(253/365)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

لَمَّا بَيَّنَ تَعَالَى لِعِبَادِهِ سَعَةَ عِلْمِهِ ، وَمُرَاقَبَتَهُ لِعِبَادِهِ ، وَإِحْصَاءَهُ أَعْمَالَهُمْ عَلَيْهِمْ ، وَجَزَاءَهُمْ عَلَيْهَا ، وَذَكَّرَهُمْ بِفَضْلِهِ ، وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ شُكْرِهِ ، بَيَّنَ لَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ حَالَ

الشَّاكِرِينَ الْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ لَهُمْ أَحْسَنُ الْجَزَاءِ فِي يَوْمِ الدِّينِ فَقَالَ : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ) افْتُتِحَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ بِكَلِمَةِ (أَلَا) لِلتَّنْبِيهِ وَتَوْجِيهِ الْفِكْرِ لَهَا ، وَالْأَوْلِيَاءُ : جَمْعُ وَلِيٍّ وَهُوَ وَصْفٌ مِنَ الْوَلَاءِ وَالتَّوَالِي ، وَمِنَ الْوِلَايَةِ وَالتَّوَلِّي ، فَيُطْلَقُ عَلَى الْقَرِيبِ بِالنَّسَبِ وَبِالْمَكَانَةِ وَالصَّدَاقَةِ ، وَعَلَى النَّصِيرِ ، وَالْمُتَوَلِّي لِلْأَمْرِ وَالْحُكْمِ أَوْ عَلَى الْيَتِيمِ وَالْقَاصِرِ الْمُدَبِّرُ لِشُؤُونِهِ ، وَيُوصَفُ بِهِ الْعَبْدُ وَالرَّبُّ تَعَالَى كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا) (2 : 257) وَفَصَّلْنَا الْكَلَامَ فِي تَفْسِيرِهِ

(254/365)

بِمَا بَيَّنَّا بِهِ وِلَايَةَ اللَّهِ الْعَامَّةَ وَالْخَاصَّةَ لِعِبَادِهِ ، وَوِلَايَتَهُمْ لَهُ ، أَوْ لِلشَّيْطَانِ وَالطَّاغُوتِ ، وَوِلَايَةَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ وَضَلَالِ بَعْضِهِمْ بِجَعْلِ وِلَايَةِ اللَّهِ الْخَاصَّةَ بِهِ لِبَعْضِ عِبَادِهِ ، (وَهُمُ الَّذِينَ يُسَمُّونَهُمْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ بِمَا يَسْلُبُهُمُ اسْتِحْقَاقَ هَذَا اللَّقَبِ ، وَذَكَرْنَا فِي شَوَاهِدِ ذَلِكَ التَّفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةَ .

أَوْلِيَاءُ اللَّهِ أَضْدَادُ أَعْدَائِهِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ ، وَالْكَافِرِينَ بِنِعَمِهِ ، فَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ كَمَا نَطَقَتْ بِهِ الْآيَةُ ، وَهُمْ دَرَجَاتٌ أَعْلَاهُمْ دَرَجَةً هُمُ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، وَحُبِّهِ وَالْحُبِّ فِيهِ ، وَالْوِلَايَةِ لَهُ ، فَلَا يَتَّخِذُونَ لَهُ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ مِنْ نَوْعِ حُبِّهِ ،

وَلَا يَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِهِ وَلِيًّا وَلَا شَفِيعًا يُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ زُلْفَى ، وَلَا وَكِيلًا وَلَا نَصِيرًا فِيمَا يَخْرُجُ عَنْ تَوْفِيقِهِمْ لِإِقَامَةِ سُنَنِهِ فِي الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ ، وَيَتَوَلَّوْنَ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ ، قَالَ تَعَالَى : (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (6 : 51) وَقَالَ :

(255/365)

(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) (32 : 4) وَقَالَ : (قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) (33 : 17) وَقَالَ فِي آيَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ مِنْهَا : (وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) (33 : 3 ، 48) وَالْآيَاتُ كَثِيرَةٌ فِي تَوَلِّيهِمْ لَهُ بِالطَّاعَةِ ، وَتَوَلِّيهِ لَهُمْ بِالْهِدَايَةِ وَالْعِنَايَةِ وَالْإِعَانَةِ وَالنَّصْرِ وَالتَّوْفِيقِ .

(256/365)

وَحَسْبُنَا هُنَا مَا نَفَاهُ عَنْهُمْ وَمَا وَصَفَهُمْ بِهِ ثُمَّ مَا زَفَّهُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْبِشَارَةِ ، فَأَمَّا مَا نَفَاهُ مُخْبِرًا بِهِ عَنْهُمْ فَقَوْلُهُ : (لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) وَهُوَ مَا نَفَاهُ عَنْ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ وَالْمُصْلِحِينَ وَالْمُتَّقِينَ فِي الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ (رَاجِعْ 2 : 62 ، 5 : 69 و6 : 48 ، 7 : 35 ، 49 وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا) فَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ حَيْثُ يَتَحَقَّقُ هَذَا عَلَى أَتَمِّ وَجْهٍ وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ فَلَا خَوْفَ يَقَعُ عَلَيْهِمْ وَيُرْهَقُونَ بِهِ مِمَّا يَخَافُ الْكُفَّارُ وَالْفُسَّاقُ وَالظَّالِمُونَ مِنْ أَهْوَالِ الْمَوْقِفِ وَعَذَابِ الْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ إِبْعَادِهِمْ عَنْ جَهَنَّمَ : (لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ) (21 : 103) الْآيَةَ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا تَرَكُوا وَرَاءَهُمْ ، وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَلَا يَخَافُونَ مِمَّا يَخَافُ غَيْرُهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَضُعَفَاءِ الْإِيمَانِ وَعَبِيدِ الدُّنْيَا مِنْ مَكْرُوهٍ يُتَوَقَّعُ كَلِقَاءِ الْعَدُوِّ ، قَالَ : (فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (3 : 175) أَوْ بَخْسٍ فِي الْحُقُوقِ أَوْ رَهَقٍ يَغْشَاهُمْ بِالظُّلْمِ وَالذُّلِّ ، قَالَ : (فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا) (72 : 13) (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) مِنْ مَكْرُوهٍ أَوْ ذَهَابِ مَحْبُوبٍ وَقَعَ بِالْفِعْلِ كَمَا قَالَ : (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ) (57 : 23) وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ فِي الدُّنْيَا كَخَوْفِ الْكُفَّارِ وَلَا يَحْزَنُونَ كَحُزْنِهِمْ ، وَسَنَذْكُرُ نَفْيَ الْخَوْفِ وَالْحُزْنِ عَنْهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ وَأَمَّا

أَصْلُ الْخَوْفِ وَالْحُزْنِ فَهُوَ مِنَ الْأَعْرَاضِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي لَا يَسْلَمُ مِنْهَا أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُونَ الصَّالِحُونَ أَصْبَرَ النَّاسِ وَأَرْضَاهُمْ بِسُنَنِ اللهِ ، اعْتِقَادًا وَعِلْمًا بِأَنَّهُ إِذَا ابْتَلَاهُمْ بِشَيْءٍ مِمَّا يُخِيفُ أَوْ يُحْزِنُ فَإِنَّمَا يُرَبِّيهِمْ بِذَلِكَ لِتَكْمِيلِ نُفُوسِهِمْ وَتَمْحِيصِهَا بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ الَّذِي يَزْدَادُ بِهِ أَجْرُهُمْ كَمَا صَرَّحَتْ بِذَلِكَ الْآيَاتُ الْكَثِيرَةُ .

وَأَمَّا مَا وَصَفَهُمْ وَعَرَّفَهُمْ بِهِ فَقَوْلُهُ : (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) فَهَذَا اسْتِئْنَافٌ لِبَيَانِ حَالِ هَؤُلَاءِ الْأَوْلِيَاءِ النَّفْسِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ . أَيْ هُمُ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَلَكَةِ التَّقْوَى لَهُ عَزَّ

وَجَلَّ ، وَمَا تَقْتَضِيهِ مِنْ عَمَلٍ . وَعَبَّرَ عَنْ إِيمَانِهِمْ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي لِبَيَانِ أَنَّهُ كَانَ كَامِلًا بِالْيَقِينِ ، لَمْ يُزَلْزِلْهُ شَكٌّ وَلَمْ يَحْصُلْ بِالتَّدْرِيجِ ، وَعَنْ تَقْوَاهُمْ بِالْفِعْلِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ لِأَنَّ التَّقْوَى تَتَجَدَّدُ دَائِمًا بِحَسَبِ مُتَعَلَّقَاتِهَا : مِنْ كَسْبٍ وَحَرْبٍ ، وَشَهْوَةٍ وَغَضَبٍ ، وَالْمَعْنَى الْجَامِعُ فِيهَا أَنَّهَا اتِّقَاءُ كُلِّ مَا لَا يُرْضِي اللهَ تَعَالَى مِنْ تَرْكِ وَاجِبٍ وَمَنْدُوبٍ ، وَفِعْلِ مُحَرَّمٍ وَمَكْرُوهٍ ، وَاتِّقَاءِ مُخَالَفَةِ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ مِنْ أَسْبَابِ الصِّحَّةِ وَالْقُوَّةِ وَالنَّصْرِ وَالْعِزَّةِ وَسِيَادَةِ الْأُمَّةِ . وَقَدْ فَصَّلْنَا هَذَا فِي مَوَاضِعَ مِنْ أَهَمِّهَا تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (8 : 29) .

(259/365)

وَأَمَّا الْبُشْرَى الَّتِي زَفَّهَا إِلَيْهِمْ فَهِيَ قَوْلُهُ : (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) الْبُشْرَى : الْخَبَرُ السَّارُّ الَّذِي تَنْبَسِطُ بِهِ بَشَرَةُ الْوَجْهِ فَيَتَهَلَّلُ وَتَبْرُقُ أَسَارِيرُهُ . وَهَذِهِ الْبُشْرَى مُبَيَّنَةٌ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَدْ يُرَادُ بِهَا مُتَعَلِّقُهَا الَّذِي يُبَشَّرُونَ بِهِ ، وَلَمْ يُذْكَرْ هُنَا لِيَشْمَلَ كُلَّ مَا بُشِّرُوا بِهِ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَأَمَّا الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَأَهَمُّهَا الْبِشَارَةُ بِالنَّصْرِ ، وَبِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ فِي كُلِّ أَمْرٍ ، وَبِاسْتِخْلَافِهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا أَقَامُوا شَرْعَ اللَّهِ وَسُنَنَهُ ، وَنَصَرُوا دِينَهُ وَأَعْلَوْا كَلِمَتَهُ ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَمِنْ أَكْمَلِهَا وَأَجْمَعِهَا لِمَعَانِي الْآيَةِ لِأَكْمَلِهِمْ قَوْلُهُ : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ) (41 : 30 - 32) الْمَشْهُورُ فِي تَنَزُّلِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ يَكُونُ عِنْدَ

الْبَعْثِ ، وَكَذَا عِنْدَ الْمَوْتِ ، وَلَا مَانِعَ مِنْ شُمُولِهِ لِمَا فِي الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ أَمَدَّ بِهِمْ أَصْحَابَ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ : (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ

(260/365)

قُلُوبُكُمْ (8 : 10) الْآيَةَ . ثُمَّ قَالَ : (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا) (8 : 12) وَقَدْ يَكُونُ مِنْهُ إِلْهَامُ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا عِنْدَ

التِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ (إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً ، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ الْأُخْرَى فَيَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ) .

(لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ) أَيْ لَا تَغْيِيرَ وَلَا خُلْفَ فِي مَوَاعِيدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَمِنْهَا هَذِهِ الْبِشَارَاتُ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْآيَاتِ (ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) أَيْ ذَلِكَ الَّذِي ذُكِرَ مِنَ الْبُشْرَى بِسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يَعْلُوهُ فَوْزٌ وَإِنَّمَا هُوَ ثَمَرَةُ الْإِيمَانِ الْحَقِّ ، وَالتَّقْوَى الْعَامَّةُ فِي حُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ الْخَلْقِ .

مَا وَرَدَ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ فِي الْأَوْلِيَاءِ :

ذَكَرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ بَعْضَ الْأَخْبَارِ النَّبَوِيَّةِ ، وَلَا يَصِحُّ مِنْهَا حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ مُتَّصِلُ الْإِسْنَادِ ، وَأَقْرَبُ مَا رَوَوْهُ فِي تَفْسِيرِهَا إلَى اصْطِلَاحِهِمْ فِي الْأَوْلِيَاءِ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمَرْفُوعُ : (إنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَادًا يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ) قِيلَ : مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ (هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا فِي اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَمْوَالٍ وَلَا أَنْسَابٍ ، وُجُوهُهُمْ نُورٌ ، عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ ، لَا يَخَافُونَ إذَا خَافَ النَّاسُ ، وَلَا يَحْزَنُونَ إذَا حَزِنَ النَّاسُ) ثُمَّ قَرَأَ : (أَلَا إنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (62) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ شَيْخِهِ أَبِي هِشَامٍ الرِّفَاعِيِّ وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ كَثِيرٍ الْعِجْلِيُّ الْكُوفِيُّ ، قَالَ الْبُخَارِيُّ : رَأَيْتُهُمْ مُجْمِعِينَ عَلَى ضَعْفِهِ ، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بِمِثْلِ سَنَدِ ابْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ جَرِيرٍ عَنْهُ إلَّا أَنَّهُ مُنْقَطِعٌ بَيْنَ أَبِي زُرْعَةَ وَعَمْرٍو ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ وَلَمْ أَرَهُ فِي تَفْسِيرِ السُّورَةِ مِنَ الْمُسْتَدْرَكِ وَمَا كُلُّ مَا صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ بِصَحِيحٍ ، وَمَتْنُ هَذَا الْحَدِيثِ مُشْكِلٌ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى تَفْضِيلِ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَهُوَ مُخَالِفٌ لِإِجْمَاعِ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، مُوَافِقٌ لِقَوْلِ بَعْضِ أَوْلِيَاءِ الشَّيَاطِينِ : إنَّ الْوَلِيَّ أَفْضَلُ مِنَ النَّبِيِّ ، مِنْ حَيْثُ إنَّ وِلَايَةَ النَّبِيِّ أَفْضَلُ مِنْ

(262/365)

نُبُوَّتِهِ ، وَهُوَ تَأْوِيلٌ شَيْطَانِيٌّ .

وَمِثْلُهُ حَدِيثُ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ مَرْفُوعًا (يَأْتِي مِنْ أَفْنَاءِ النَّاسِ وَنَوَازِعِ الْقَبَائِلِ قَوْمٌ لَمْ تَتَّصِلْ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ مُتَقَارِبَةٌ ، تَحَابُّوا فِي اللَّهِ ، وَتَصَافَوْا فِي اللَّهِ ، يَضَعُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فَيُجْلِسُهُمْ عَلَيْهَا ، يَفْزَعُ النَّاسُ وَلَا يَفْزَعُونَ ، وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) وَالْحَدِيثُ مُطَوَّلٌ أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ طَرِيقِ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ ، وَفِيهِ مَقَالٌ لَهُمْ أَهْوَنُهُ مَا اكْتَفَى بِهِ الْحَافِظُ فِي التَّقْرِيبِ وَهُوَ أَنَّهُ صَدُوقٌ كَثِيرُ الْإِرْسَالِ وَالْأَوْهَامِ ، وَذَكَرَ فِي تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ : أَنَّهُ مِمَّا قِيلَ فِيهِ إنَّهُ يَرْوِي الْمُنْكَرَاتِ عَنِ الثِّقَاتِ ، وَقَالَ ابْنُ حَزْمٍ هُوَ سَاقِطٌ ، وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ : ضَعِيفٌ جِدًّا .

(263/365)

وَوَرَدَ عِدَّةُ رِوَايَاتٍ مَرْفُوعَةٍ وَآثَارٌ فِي تَفْسِيرِ الْبُشْرَى فِي الدُّنْيَا بِالرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ ، يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوِ الْمُؤْمِنُ أَوْ تُرَى لَهُ . وَعَلَيْهِ ابْنُ مَسْعُودٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَابْنُ عَبَّاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ،

وَمُجَاهِدٌ وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَيَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَعَطَاءُ ابْنُ أَبِي رَبَاحٍ مِنَ التَّابِعِينَ وَغَيْرُهُمْ وَفَسَّرَهَا بَعْضُهُمْ بِآيَةِ (حَمِ) السَّجْدَةِ الَّتِي أَوْرَدْنَاهَا آنِفًا مَعَ تَفْسِيرِهَا .

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ أَنَّ الْأَوْلِيَاءَ هُمُ الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ لِرُؤْيَتِهِمْ وَرَوَاهُ بَعْضُهُمْ مَرْفُوعًا وَهُوَ ضَعِيفٌ ، وَرُوِيَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ أَنَّهُمَا قَالَا : إِذَا لَمْ يَكُنِ الْعُلَمَاءُ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِيٌّ ، قَالَ النَّوَوِيُّ وَالْمُرَادُ بِهِمُ الْعُلَمَاءُ الْعَامِلُونَ . فَهَذِهِ خُلَاصَةُ الرِّوَايَاتِ فِي الْآيَةِ .

وَإِنَّنَا لَمْ نَرَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ فِي الْأَوْلِيَاءِ مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى كَلَامِ الصُّوفِيَّةِ مِنْهُ إِلَى

(264/365)

كَلَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَدِيثَ : (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِحَرْبٍ) إِلَخْ . وَقَدِ انْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ وَفِي سَنَدِهِ غَرَابَةٌ كَمَتْنِهِ . قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ : هَذَا الْحَدِيثُ تَفَرَّدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ دُونَ بَقِيَّةِ أَصْحَابِ الْكُتُبِ ، خَرَّجَهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ كَرَامَةَ عَنْ خَالِدِ بْنِ مَخْلَدٍ - إِلَى أَنْ قَالَ - وَهُوَ مِنْ غَرَائِبِ الصَّحِيحِ ، تَفَرَّدَ بِهِ ابْنُ كَرَامَةَ عَنْ خَالِدٍ وَلَيْسَ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مَعَ أَنَّ خَالِدَ بْنَ مَخْلَدٍ الْقَطْوَانِيَّ تَكَلَّمَ فِيهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ وَقَالُوا لَهُ مَنَاكِيرُ (ثُمَّ قَالَ) وَقَدْ رُوِيَ مِنْ وُجُوهٍ أُخَرَ لَا تَخْلُو كُلُّهَا مِنْ مَقَالٍ . وَذَكَرَ الْحَافِظُ فِي تَهْذِيبِ

التَّهْذِيبِ اخْتِلَافًا فِي أَئِمَّةِ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ فِي خَالِدٍ ، وَمِنْهُ تَصْرِيحُ جَمَاعَةٍ بِرِوَايَتِهِ لِلْمَنَاكِيرِ وَمِنْهُ : فِي (الْمِيزَانِ) لِلذَّهَبِيِّ قَالَ : أَبُو حَاتِمٍ يُكْتَبُ حَدِيثُهُ وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ ، وَقَالَ الْأَزْدِيُّ : فِي حَدِيثِهِ بَعْضُ الْمَنَاكِيرِ وَهُوَ عِنْدَنَا فِي عِدَادِ أَهْلِ الصِّدْقِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنِ سَعْدٍ : كَانَ مُنْكَرَ الْحَدِيثِ مُتَشَيِّعًا

(265/365)

مُفْرِطًا فِي التَّشَيُّعِ وَكَتَبُوا عَنْهُ لِلضَّرُورَةِ ، وَذَكَرَ بَعْضَ هَذَا الْجُرْحِ وَغَيْرَهُ فِي مُقَدِّمَةِ (فَتْحِ الْبَارِي) وَأَجَابَ عَنْهُ بِمَا حَاصِلُهُ أَنَّ التَّشَيُّعَ لَا يَضُرُّ مِثْلَهُ ، وَأَمَّا الْمَنَاكِيرُ فَقَدْ تَتَبَّعَهَا أَبُو أَحْمَدَ بْنُ عَدِيٍّ مِنْ حَدِيثِهِ وَأَوْرَدَهَا فِي كَامِلِهِ وَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِمَّا أَخْرَجَهُ لَهُ الْبُخَارِيُّ (قَالَ) بَلْ لَمْ أَرَ لَهُ عِنْدَهُ مِنْ أَفْرَادِهِ سِوَى حَدِيثٍ وَاحِدٍ وَهُوَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ : (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا) الْحَدِيثَ اهـ .

(أَقُولُ) وَأَمَّا الْغَرَابَةُ فِي مَتْنِ هَذَا الْحَدِيثِ فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ) إِلَى آخِرِ الَّذِي اسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ ، وَقَدْ أَوَّلَهُ الْعُلَمَاءُ وَبَيَّنْتُ أَمْثِلَةَ تَأْوِيلٍ لَهُ عِنْدِي فِي الْكَلَامِ عَلَى حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ تَفْسِيرِ (9 : 24 ص 214 ج 10 ط الْهَيْئَةِ) فَرَاجِعْهُ يُغْنِكَ عَنْ ذِكْرِهِ كُلِّهِ

هُنَا .

(أَوْلِيَاءُ الْخَيَالِ وَأَوْلِيَاءُ الطَّاغُوتِ وَالشَّيْطَانِ)

(266/365)

ذَلِكَ مَا فَسَّرْنَا بِهِ الْآيَتَيْنِ بِشَوَاهِدَ مِمَّا فِي مَعْنَاهُمَا مِنَ الْآيَاتِ ، وَالْقُرْآنُ خَيْرُ مَا يُفَسَّرُ بِهِ الْقُرْآنُ وَأَصَحُّهُ ، وَكُلُّ مَا خَالَفَهُ وَخَرَجَ عَنْهُ فَهُوَ بَاطِلٌ ، وَعَزَّزْنَاهُ بِأَمْثَلِ مَا رُوِيَ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ فِيهِمَا ، فَأَوْلِيَاءُ اللهِ الَّذِينَ يَشْهَدُ لَهُمْ كِتَابُهُ بِالْوِلَايَةِ لَهُ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الصَّالِحُونَ الْمُتَّقُونَ ، وَلَكِنِ اشْتُهِرَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ عَصْرِ السَّلَفِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَوْلِيَاءَ عَالَمٌ خَيَالِيٌّ غَيْرُ مَعْقُولٍ ، لَهُمْ مِنَ الْخَصَائِصِ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ ، وَالتَّصَرُّفِ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، فَوْقَ كُلِّ مَا وَرَدَ فِي كِتَابِ اللهِ وَأَخْبَارِ رَسُولِهِ الصَّادِقَةِ فِي أَنْبِيَاءِ اللهِ الْمُرْسَلِينَ ، بَلْ فَوْقَ كُلِّ مَا وَصَفَ بِهِ جَمِيعُ الْوَثَنِيِّينَ آلِهَتَهُمْ وَأَرْبَابَهُمُ الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ ، وَيَنْقُلُونَ مِثْلَ هَذِهِ الدَّعَاوَى عَنْ بَعْضِ مَنِ اشْتُهِرُوا بِالْوِلَايَةِ مِمَّنْ لَهُمْ ذِكْرٌ فِي التَّارِيخِ ، وَمَنْ لَا ذِكْرَ لَهُمْ إِلَّا فِي كُتُبِ الْأَدْعِيَاءِ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ بِهِمْ ، مِمَّنْ يُسَمَّوْنَ بِالْمُتَصَوِّفَةِ وَأَهْلِ الطَّرِيقِ ، يَنْقُلُونَ عَنْهُمْ مَا يُؤَيِّدُونَ بِهِ مَزَاعِمَهُمُ الْخُرَافِيَّةَ الشِّرْكِيَّةَ كَمَا تَرَى فِيمَا نَنْقُلُهُ مِنَ

الشَّوَاهِدِ الْآتِيَةِ :

وَلَئِنْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مُنْكِرٌ ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِكِتَابِ رَبِّهِمْ وَحَدِيثِ نَبِيِّهِمْ مُفَسِّرٌ أَوْ مُحَدِّثٌ

(267/365)

لَيَقُولُنَّ هَذَا ضَالٌّ مُضِلٌّ مُنْكِرٌ لِلْكَرَامَاتِ مُخَالِفٌ لِلْقُرْآنِ وَقَرَءُوا عَلَيْهِ (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (62) وَهَلْ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَّا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (2 : 62) وَغَيْرِهِ مِمَّا أَوْرَدْنَا مِنَ الشَّوَاهِدِ آنِفًا ، نَعَمْ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ دَرَجَاتٌ أَشَرْنَا آنِفًا إِلَى أَدْنَاهَا وَأَعْلَاهَا ، وَفَصَّلْنَا الْقَوْلَ فِيهِمْ فِي الْكَلَامِ عَلَى حُبِّ اللهِ وَرَسُولِهِ مِنْ تَفْسِيرِ (9 : 24) .

(268/365)

هَذِهِ الْوِلَايَةِ الْخَيَالِيَّةِ الْمُبْتَدَعَةِ مِنْ مُحْدَثَاتِ الصُّوفِيَّةِ أَلْبَسُوهَا أَوَّلًا ثَوْبَ الشَّرِيعَةِ وَجَعَلُوا لِلشَّرِيعَةِ مُقَابِلًا سَمَّوْهُ الْحَقِيقَةَ ، ثُمَّ صَارُوا يُلْبِسُونَهَا عَلَيْهَا لَبْسًا ، وَيَبْعُدُونَ بِهَا عَنْهَا مَعْنًى

وَحِسًّا بِقَدْرِ مَا يَبْعُدُونَ عَنِ الِاتِّبَاعِ ، وَيُوغِلُونَ فِي الِابْتِدَاعِ ، وَاعْتَبِرْ فِي ذَلِكَ بِسِيرَةِ سَلَفِهِمُ الْأَوَّلِينَ كَالْحَارِثِ الْمُحَاسِبِيِّ وَالسَّرِيِّ السَّقَطِيِّ وَمَنْصُورِ بْنِ عَمَّارٍ وَالْجُنَيْدِ وَالشِّبْلِيِّ وَجُمْهُورِ رِجَالِ رِسَالَةِ الْقُشَيْرِيِّ ، وَمِثْلِ أَبِي إِسْمَاعِيلَ الْهَرَوِيِّ وَسِيرَةِ مَنْ بَعْدَهُمْ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ أُولَئِكَ قَدْ رَوَوُا الْحَدِيثَ وَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ، وَكَانُوا يَتَحَرَّوْنَ الِاعْتِصَامَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَيَحْذَرُونَ وَيُحَذِّرُونَ أَتْبَاعَهُمْ مِنَ الْبِدَعِ ، وَيَحُثُّونَ عَلَى اتِّبَاعِ السَّلَفِ ، مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأَئِمَّةِ آلِ الْبَيْتِ وَحُفَّاظِ السُّنَّةِ وَعُلَمَاءِ الْأَمْصَارِ كَالْأَرْبَعَةِ وَطَبَقَتِهِمْ ، وَلَوْلَا هَذَا لَكَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غُلَاةِ مُتَصَوِّفَةِ الْقُرُونِ الْوُسْطَى وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ وَالدَّجَّالِينَ أَصْحَابِ الدَّعَاوَى الْعَرِيضَةِ وَالْخُرَافَاتِ الشَّنِيعَةِ مِثْلُ مَا بَيْنَ صُوفِيَّةِ الْبُرْهُمِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ، وَكِتَابِهِمُ (الْفِيدَا) وَكِتَابِهِ الْقُرْآنِ .

(269/365)

أَمْرِرْ بِبَصَرِكَ عَلَى طَبَقَاتِ الشَّعْرَانِيِّ الْكُبْرَى ، فَإِنَّكَ لَا تَرَى فِيهَا فَرْقًا كَبِيرًا بَيْنَ سِيرَةِ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَأَئِمَّةِ التَّصَوُّفِ فِي الْعِبَادَةِ وَالتَّقْوَى وَالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ثُمَّ انْظُرْ فِي سِيرَةِ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ صُوفِيَّةِ الْقُرُونِ الْوُسْطَى ثُمَّ قَرْنِ الْمُؤَلِّفِ وَهُوَ الْعَاشِرُ وَتَأَمَّلْ وَوَازِنْ تَرَ فِي أَوْلِيَاءِ الشَّعْرَانِيِّ الْمَجَانِينَ وَالْمُجَّانَ وَالْقَذِرِينَ الَّذِينَ تَتَنَاثَرُ الْحَشَرَاتُ مِنْ رُءُوسِهِمْ وَلِحَاهُمْ

وَثِيَابِهِمُ الَّتِي لَا يَغْسِلُونَهَا حَتَّى تَبْلَى أَوْ فِي السَّنَةِ مَرَّةً وَاحِدَةً تَجِدْ ذَلِكَ الْبَوْنَ الشَّاسِعَ فِيهِمْ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يُفَضِّلُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي الِاتِّحَادَ بِاللَّهِ أَوِ الْأُلُوهِيَّةَ .

تَأَمَّلْ مَا كَتَبَهُ فِي تَرْجَمَةِ الَّذِينَ يُسَمُّونَهُمُ الْأَقْطَابَ الْأَرْبَعَةَ ، فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ فِيهِ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ كَانَ يَنْفَعُ النَّاسَ بِعُلُومِ الشَّرْعِ إِلَّا الشَّيْخَ عَبْدَ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيَّ ، وَتَجِدُ أَنَّ الشَّيْخَ أَحْمَدَ الرِّفَاعِيَّ كَانَ يُوَبِّخُهُ عُلَمَاءُ عَصْرِهِ ، وَيُخَاطِبُونَهُ بِلَقَبِ الدَّجَّالِ وَيَرْمُونَهُ

(270/365)

بِالْجَمْعِ بَيْنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ وَأَمَّا الدُّسُوقِيُّ فَكَتَبَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِالْعَجَمِيِّ وَالسُّرْيَانِيِّ وَالْعِبْرَانِيِّ وَالزَّنْجِيِّ وَسَائِرِ لُغَاتِ الطُّيُورِ وَالْوُحُوشِ ، وَنَقَلَ عَنْهُ كِتَابًا مِنْ هَذِهِ اللُّغَاتِ أَرْسَلَهُ إِلَى أَحَدِ مُرِيدِيهِ ، وَهُوَ خَلْطٌ مُخْتَرَعٌ لَيْسَ مِنْهَا فِي شَيْءٍ وَسَلَامًا مِثْلَهُ أَرْسَلَهُ مَعَ أَحَدِ الْحُجَّاجِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

مِنْهُ قَوْلُهُ : (موز الرموز ، عموز النهوز ، سلاحات أفق ، فردنانية امق ، شوامق اليرامق حيد وفرقيد وفرغاط الْأَسْبَاط ، إِلَخْ ، فَمَا مَعْنَى هَذَا وَأَيُّ فَائِدَةٍ لِلنَّاسِ فِيهِ ؟ .

وَنَقَلَ عَنْهُ كَلَامًا مِنَ الْمَعْهُودِ مِنْ أَمْثَالِهِ الصُّوفِيَّةِ مِنْهُ النَّافِعُ وَالضَّارُّ ، فَمِنَ الْحَقِّ النَّافِعِ مَا مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَوْ لَمْ تَغْلِبْ عَلَيْهِمُ الْأَحْوَالُ لَمَا قَالُوا فِي التَّفْسِيرِ إِلَّا صَحِيحَ الْمَأْثُورِ ، وَمِنَ الضَّارِّ الَّذِي

أَفْسَدَ عَلَى الْمُصَدِّقِينَ بِوِلَايَةِ هَؤُلَاءِ النَّاسِ دِينَهُمْ وَهُوَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ قَوْلُهُ : وَكَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَقُولُ : أَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مُنَاجَاتِهِ ، أَنَا عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي حَمَلَاتِهِ أَنَا كُلُّ وَلِيٍّ فِي الْأَرْضِ خَلَقْتُهُ بِيَدَيَّ ، أُلْبِسُ مِنْهُمْ مَنْ شِئْتُ ، أَنَا فِي السَّمَاءِ شَاهَدْتُ رَبِّي وَعَلَى الْكُرْسِيِّ خَاطَبْتُهُ أَنَا بِيَدِيَّ أَبْوَابُ النَّارِ غَلَّقْتُهَا ، وَبِيَدِيَّ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ فَتَّحْتُهَا ، مَنْ زَارَنِي أَسْكَنْتُهُ جَنَّةَ الْفِرْدَوْسِ إلَخْ ، وَقَوْلُهُ وَهُوَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ :

(271/365)

(وَاعْلَمْ يَا وَلَدِي أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ مُتَّصِلُونَ بِاللَّهِ ، وَمَا كَانَ وَلِيٌّ مُتَّصِلٌ بِاللَّهِ إلَّا وَهُوَ يُنَاجِي رَبَّهُ كَمَا كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يُنَاجِي رَبَّهُ ، وَمَا مِنْ وَلِيٍّ إلَّا وَهُوَ يَحْمِلُ عَلَى الْكُفَّارِ كَمَا كَانَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَحْمِلُ ، وَقَدْ كُنْتُ أَنَا وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ أَشْيَاخًا فِي الْأَزَلِ ، بَيْنَ يَدَيْ قَدِيمِ الْأَزَلِ ، وَبَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَنِي مِنْ نُورِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَخْلَعَ عَلَى جَمِيعِ الْأَوْلِيَاءِ بِيَدِي فَخَلَعْتُ عَلَيْهِمْ بِيَدِي ، وَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَا إبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَقِيبٌ عَلَيْهِمْ فَكُنْتُ أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَخِي عَبْدُ الْقَادِرِ خَلْفِي وَابْنُ الرِّفَاعِيِّ خَلْفَ عَبْدِ الْقَادِرِ ثُمَّ الْتَفَتَ إلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ -

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَقَالَ لِي : (يَا إِبْرَاهِيمُ سِرْ إِلَى مَالِكٍ وَقُلْ لَهُ يُغْلِقِ النِّيرَانَ ، وَسِرْ إِلَى رَضْوَانَ وَقُلْ لَهُ يَفْتَحُ الْجِنَانَ ، فَفَعَلَ مَالِكٌ مَا أُمِرَ بِهِ ، وَرَضْوَانَ مَا أُمِرَ بِهِ) إلخ وَلَهُ مَا هُوَ أَغْرَبُ مِنْهُ .

وَذَكَرَ الشَّعْرَانِيُّ أَنَّهُ أَطَالَ فِي هَذَا الْكَلَامِ وَهُوَ مِنْ مَقَامِ الِاسْتِطَالَةِ ، تُعْطِي

(272/365)

الرُّتْبَةُ صَاحِبَهَا أَنْ يَنْطِقَ بِمَا يَنْطِقُ بِهِ ، وَقَدْ سَبَقَهُ إلَى نَحْوِ ذَلِكَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ الْجِيلِيُّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وَغَيْرُهُ فَلَا يَنْبَغِي مُخَالَفَتُهُ إلَّا بِنَصٍّ صَرِيحٍ ا ه .

وَنَقُولُ : إنَّ مُثْبِتَ هَذِهِ الدَّعَاوَى الْمُنْكَرَةِ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ مِنْ شُئُونِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَلَائِكَتِهِ وَأَكْرَمِ رُسُلِهِ وَجَنَّتِهِ وَنَارِهِ ، هُوَ الَّذِي يَحْتَاجُ فِي إثْبَاتِهِ إلَى النَّصِّ الصَّرِيحِ دُونَ مُنْكِرِهِ فَإِنَّهُ يَتْبَعُ الْأَصْلَ ، وَالْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لَا يَثْبُتُ إلَّا بِنَصٍّ قَطْعِيٍّ ، وَسَنَذْكُرُ مَا انْتَهَتْ إلَيْهِ هَذِهِ الدَّعَاوَى فِي إفْسَادِ الدِّينِ ، وَإِضْلَالِ الْمَلَايِينِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

جَاءَ فِي كُتُبِ الرِّفَاعِيَّةِ أَنَّ الشَّيْخَ أَحْمَدَ الرِّفَاعِيَّ مَسَّ بِيَدِهِ سَمَكَةً ، فَأَرَادُوا شَيَّهَا بِالنَّارِ فَلَمْ تُؤَثِّرْ فِيهَا النَّارُ . فَذَكَرُوا لَهُ ذَلِكَ فَقَالَ : وَعَدَنِي الْعَزِيزُ أَنَّ كُلَّ مَا لَمَسَتْهُ يَدُ هَذَا اللَّاشِ حَمِيدٌ لَا تَحْرِقُهُ النَّارُ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، وَجَاءَ فِيهَا أَنَّ سَيِّدِي أَحْمَدَ الرِّفَاعِيَّ كَانَ

يُمِيتُ وَيُحْيِي

وَيُسْعِدُ وَيُشْقِي ، وَيُفْقِرُ وَيُغْنِي ، وَأَنَّهُ وَصَلَ إِلَى مَقَامٍ صَارَتِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي رِجْلِهِ كَالْخَلْخَالِ وَفِي الْبَهْجَةِ الرِّفَاعِيَّةِ أَنَّ سَيِّدَهُمْ أَحْمَدَ الرِّفَاعِيَّ بَاعَ بُسْتَانًا فِي الْجَنَّةِ لِبَعْضِ النَّاسِ وَذَكَرَ لَهُ حُدُودًا أَرْبَعَةً . وَقَدْ نَقَلْتُ هَذَا وَمَا قَبْلَهُ فِي كِتَابِي (الْحِكْمَةِ الشَّرْعِيَّةِ فِي مُحَاكَمَةِ الْقَادِرِيَّةِ وَالرِّفَاعِيَّةِ) .

(273/365)

وَجَاءَ فِي بَعْضِ كُتُبِ مَنَاقِبِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلِيِّ أَنَّهُ مَاتَ بَعْضُ مُرِيدِيهِ ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ أُمُّهُ وَبَكَتْ فَرَقَّ لَهَا فَطَارَ وَرَاءَ مَلَكِ الْمَوْتِ فِي الْمَسَاءِ وَهُوَ صَاعِدٌ إِلَى السَّمَاءِ يَحْمِلُ فِي زِنْبِيلٍ مَا قَبَضَ مِنَ الْأَرْوَاحِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُعْطِيَهُ رُوحَ مُرِيدِهِ أَوْ أَنْ يَرُدَّهَا إِلَيْهِ فَامْتَنَعَ ، فَجَذَبَ الزِّنْبِيلَ مِنْهُ فَأَفْلَتَ فَسَقَطَ جَمِيعُ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْأَرْوَاحِ فَذَهَبَتْ كُلُّ رُوحٍ إِلَى جَسَدِهَا ، فَصَعِدَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى رَبِّهِ وَشَكَا لَهُ مَا فَعَلَهُ عَبْدُ الْقَادِرِ فَأَجَابَهُ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ بِمَا امْتَنَعْنَا مِنْ نَقْلِهِ ، إِذْ نَقَلْنَا هَذِهِ الْخُرَافَةَ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الْمُجَلَّدِ التَّاسِعِ مِنَ الْمَنَارِ تَنْزِيهًا وَأَدَبًا مَعَ رَبِّنَا عَزَّ وَجَلَّ .

وَنَقَلْنَا ثَمَّ أَنَّ خَطِيبًا خَطَبَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْهِنْدِ ذَاكِرًا مَنَاقِبَ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ فَقَالَ إِنَّ

حِدَأَةٌ خَطَفَتْ قِطْعَةَ لَحْمٍ مِمَّا ذُبِحَ لِلشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ فِي مَوْلِدِهِ - كَمَا كَانُوا يَذْبَحُونَ لِلْأَصْنَامِ - فَوَقَعَتْ عَظْمَتُهَا فِي مَقْبَرَةٍ فَغَفَرَ اللهُ تَعَالَى لِجَمِيعِ مَنْ دُفِنَ فِيهَا كَرَامَةً لِلشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ ، وَيَا وَيْلَ مَنْ يُنْكِرُ أَمْثَالَ هَذِهِ الْخُرَافَاتِ فَيُسْتَهْدَفُ لِرَمْيِهِ بِمُخَالَفَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (10 : 62) وَإِنْكَارِ الْكَرَامَاتِ وَقَوْلِ اللَّقَانِيِّ :

وَأَثْبِتَنْ لِلْأَوْلِيَا الْكَرَامَهْ . . . وَمَنْ نَفَاهَا فَانْبِذَنْ كَلَامَهُ

(274/365)

وَمِنْ هَذِهِ الْكَرَامَاتِ بِزَعْمِهِمْ ادِّعَاءُ الْوَحْيِ وَلَا يُنَافِيهَا عِنْدَهُمْ مُعَارَضَةُ الْقُرْآنِ وَعِبَادَةُ الشَّيْطَانِ وَعِلْمُ الْغَيْبِ ، وَمِلْكُ النَّفْعِ وَالضُّرِّ ، وَتَدْبِيرُ الْأَمْرِ ، وَتَرْكُ الْفَرَائِضِ وَارْتِكَابُ الْفَوَاحِشِ ؛ لِأَنَّهَا لَا تَكُونُ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا صُورِيَّةً لِمَصْلَحَةٍ وَكَذَا الْكُفْرُ الصَّرِيحُ كَمَا تَرَى فِي الشَّوَاهِدِ الْآتِيَةِ :

(الشَّاهِدُ الْأَوَّلُ كَرَامَاتُ وَلِيٍّ شَيْطَانِيٍّ مُوَحِّدِ أُلُوهِيَّةِ إِبْلِيسَ) .

(275/365)

قَالَ الشَّعْرَانِيُّ فِي تَرْجَمَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ الْحَضْرِيِّ : (كَانَ مِنْ أَصْحَابِ جَدِّي - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ، وَكَانَ يَتَكَلَّمُ بِالْغَرَائِبِ وَالْعَجَائِبِ مِنْ دَقَائِقِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ مَا دَامَ صَاحِيًا ، فَإِذَا قَوِيَ عَلَيْهِ الْحَالُ تَكَلَّمَ بِأَلْفَاظٍ لَا يُطِيقُ أَحَدٌ سَمَاعَهَا فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ ، وَكَانَ يُرَى فِي كَذَا كَذَا بَلَدًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، وَأَخْبَرَنِي الشَّيْخُ أَبُو الْفَضْلِ السَّرَسِيُّ أَنَّهُ جَاءَهُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَسَأَلُوهُ الْخُطْبَةَ فَقَالَ : بِسْمِ اللهِ فَطَلَعَ الْمِنْبَرَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ ثُمَّ قَالَ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ لَكُمْ إِلَّا إِبْلِيسُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - . فَقَالَ النَّاسُ : كَفَرَ ، فَسَلَّ السَّيْفَ وَنَزَلَ فَهَرَبَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مِنَ الْجَامِعِ فَجَلَسَ عِنْدَ الْمِنْبَرِ إِلَى أَذَانِ الْعَصْرِ ، وَمَا تَجَرَّأَ أَحَدٌ أَنْ يَدْخُلَ الْجَامِعَ ، ثُمَّ جَاءَ بَعْضُ أَهْلِ الْبِلَادِ الْمُجَاوِرَةِ فَأَخْبَرَ أَهْلَ كُلِّ بَلَدٍ أَنَّهُ خَطَبَ عِنْدَهُمْ وَصَلَّى بِهِمْ ، قَالَ فَعَدَدْنَا لَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ ثَلَاثِينَ خُطْبَةً ، هَذَا وَنَحْنُ نَرَاهُ جَالِسًا عِنْدَنَا فِي بَلَدِنَا .

(276/365)

(وَأَخْبَرَنِي الشَّيْخُ أَحْمَدُ الْقَلْعِيُّ أَنَّ السُّلْطَانَ قَايْتَبَايْ كَانَ إِذَا رَآهُ قَاصِدًا لَهُ تَحَوَّلَ وَدَخَلَ الْبَيْتَ خَوْفًا أَنْ يَبْطِشَ بِهِ بِحَضْرَةِ النَّاسِ ، وَكَانَ إِذَا أَمْسَكَ أَحَدًا يُمْسِكُهُ مِنْ لِحْيَتِهِ وَيَصِيرُ

يَبْصُقُ عَلَى وَجْهِهِ وَيَصْفَعُهُ حَتَّى يَبْدُو لَهُ إطْلَاقُهُ ، وَكَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَكْبَرُ النَّاسِ أَنْ يَذْهَبَ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْ ضَرْبِهِ ، وَكَانَ يَقُولُ : لَا يَكْمُلُ الرَّجُلُ حَتَّى يَكُونَ مَقَامُهُ تَحْتَ الْعَرْشِ عَلَى الدَّوَامِ ، وَكَانَ يَقُولُ الْأَرْضُ بَيْنَ يَدَيَّ كَالْإِنَاءِ الَّذِي آكُلُ مِنْهُ ، وَأَجْسَادُ الْخَلَائِقِ كَالْقَوَارِيرِ أَرَى مَا فِي بَوَاطِنِهِمْ ، تُوُفِّيَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سَنَةَ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَثَمَانِمَائَةٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -اه . ص 94 ج 2 طَبَقَاتٍ .

(أَقُولُ) لَوْلَا أَنَّ سُلْطَانَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَجْنُونٌ بِالْخُرَافَاتِ مِثْلُهُمْ ، لَمَا كَانَ لِمِثْلِ هَذَا الْمَجْنُونِ مَأْوًى إلَّا الْبِيمَارَسْتَانُ يَكُفُّ كُفْرَهُ وَشَرَّهُ عَنْهُمْ .

(الشَّاهِدُ الثَّانِي كَرَامَةُ وَلِيِّ الْعَاهِرَاتِ وَالزُّنَاةِ الْفَاعِلِ بِالْأَتَانِ)

(277/365)

قَالَ فِي تَرْجَمَةِ مَنْ سَمَّاهُ (سَيِّدِي عَلِيٌّ وَحِيشٍ مِنْ مَجَاذِيبِ التِّجَارِيَّةِ) كَانَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) مِنْ أَعْيَانِ الْمَجَاذِيبِ أَرْبَابِ الْأَحْوَالِ ، وَكَانَ يَأْتِي مِصْرَ وَالْمَحَلَّةَ وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْبِلَادِ وَلَهُ كَرَامَاتٌ وَخَوَارِقُ ، وَاجْتَمَعْتُ بِهِ يَوْمًا فِي خَطٍّ بَيْنَ الْقَصْرَيْنِ فَقَالَ لِي : وَدِّينِي لِلزَّلَبَانِيِّ فَوَدَّيْتُهُ لَهُ فَدَعَا لِي وَقَالَ : اللَّهُ يُصَبِّرُكَ عَلَى مَا بَيْنَ يَدَيْكَ مِنَ الْبَلْوَى . وَأَخْبَرَنِي الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ الطَّنِيخِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ : كَانَ الشَّيْخُ وَحِيشٌ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) يُقِيمُ عِنْدَنَا

فِي الْمَحَلَّةِ فِي خَانِ بَنَاتِ الْخَطَأِ (أَيِ الْعَاهِرَاتِ) وَكَانَ كُلُّ مَنْ خَرَجَ يَقُولُ لَهُ قِفْ حَتَّى أَشْفَعَ فِيكَ عِنْدَ اللهِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ ، فَيَشْفَعُ فِيهِ ، وَكَانَ يَحْبِسُ بَعْضَهُمُ الْيَوْمَ وَالْيَوْمَيْنِ وَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَخْرُجَ حَتَّى يُجَابَ فِي شَفَاعَتِهِ ، وَقَالَ يَوْمًا لِبَنَاتِ الْخَطَأِ : اخْرُجُوا فَإِنَّ الْخَانَ رَائِحٌ يُطْبِقُ عَلَيْكُمْ فَمَا سَمِعَ مِنْهُنَّ إِلَّا وَاحِدَةٌ فَخَرَجَتْ وَوَقَعَ عَلَى الْبَاقِي فَمِتْنَ كُلُّهُنَّ ، وَكَانَ إِذَا رَأَى شَيْخَ بَلَدٍ أَوْ غَيْرَهُ يُنْزِلُهُ مِنْ عَلَى الْحِمَارَةِ وَيَقُولُ لَهُ امْسِكْ رَأْسَهَا حَتَّى أَفْعَلَ فِيهَا : فَإِنْ أَبَى شَيْخُ الْبَلَدِ تَسَمَّرَ فِي الْأَرْضِ لَا يَسْتَطِيعُ يَمْشِي خُطْوَةً ، وَإِنْ سَمَحَ حَصَلَ لَهُ خَجَلٌ عَظِيمٌ وَالنَّاسُ يَمُرُّونَ عَلَيْهِ ، وَكَانَ لَهُ أَحْوَالٌ غَرِيبَةٌ ، وَقَدْ أَخْبَرْتُ عَنْهُ سَيِّدِي مُحَمَّدَ بْنَ عُثْمَانَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – فَقَالَ : هَؤُلَاءِ يُخَيِّلُونَ لِلنَّاسِ هَذِهِ

(278/365)

الْأَفْعَالَ وَلَيْسَ لَهَا حَقِيقَةٌ) اهـ . (ص 129 مِنْهُ) وَوِلَايَةُ هَذَا الْمَجْنُونِ أَنَّهُ قَوَّادٌ لِلْعَاهِرَاتِ بِضَمَانِهِ الْمَغْفِرَةَ لِمَنْ يَفْجُرُ بِهِنَّ بِشَفَاعَتِهِ ، وَأَضَلُّ مِنْهُ عُلَمَاءُ الْخُرَافَاتِ الْمُدَّعُونَ لِكَرَامَتِهِ .

(الشَّاهِدُ الثَّالِثُ وِلَايَةُ مَجْنُونٍ مُعَارِضٍ لِلْقُرْآنِ بِالْكُفْرِ وَالْهَذَيَانِ)

قَالَ فِي تَرْجَمَةِ الشَّيْخِ شَعْبَانَ الْمَجْذُوبِ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَهْلِ التَّصْرِيفِ بِمِصْرَ الْمَحْرُوسَةِ وَنَقَلَ عَنْ شَيْخِهِ عَلِيٍّ الْخَوَّاصِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى كَانَ يُطْلِعُهُ عَلَى جَمِيعِ مَا يَقَعُ فِي السَّنَةِ عِنْدَ رُؤْيَةِ

هِلَالِهَا وَأَنَّهُ كَانَ يَسْأَلُهُ عَمَّا يُشْكِلُ عَلَيْهِ (ثُمَّ قَالَ) وَكَانَ يَقْرَأُ سُوَرًا غَيْرَ السُّوَرِ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ عَلَى

كَرَاسِيِّ الْمَسَاجِدِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَغَيْرِهَا فَلَا يُنْكِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ وَكَانَ الْعَامِّيُّ يَظُنُّ أَنَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ لِشَبَهِهَا بِالْآيَاتِ فِي الْفَوَاصِلِ .

(وَقَدْ سَمِعْتُهُ مَرَّةً يَقْرَأُ عَلَى بَابِ دَارٍ عَلَى طَرِيقَةِ الْفُقَهَاءِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ فِي الْبُيُوتِ فَصَغَيْتُ إِلَى مَا يَقُولُ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : وَمَا أَنْتُمْ فِي تَصْدِيقِ هُودٍ بِصَادِقِينَ ، وَلَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ لَنَا قَوْمًا بِالْمُؤْتَفِكَاتِ يَضْرِبُونَنَا ، وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَنَا وَمَا لَنَا مِنْ نَاصِرِينَ ، ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ ثَوَابَ مَا قَرَأْنَاهُ مِنَ الْكَلَامِ الْعَزِيزِ فِي صَحَائِفِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ - إِلَى آخِرِ مَا قَالَ) .

(279/365)

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ عُرْيَانًا دَائِمًا إِلَّا أَنَّهُ يَسْتُرُ سَوْأَتَيْهِ بِقِطْعَةِ جِلْدٍ أَوْ بِسَاطٍ أَوْ حَصِيرٍ لِأَنَّهُ كَانَ يُحَرِّمُ كُلَّ مَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا قَالَ : (وَكَانَتِ الْخَلَائِقُ تَعْتَقِدُهُ اعْتِقَادًا زَائِدًا لَمْ أَسْمَعْ قَطُّ أَنَّ أَحَدًا يُنْكِرُ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ حَالِهِ ، بَلْ يَعُدُّونَ رُؤْيَتَهُ عِيدًا عِنْدَهُمْ تَحْنِينًا عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مَاتَ سَنَةَ نَيِّفٍ وَتِسْعِمِائَةٍ) ا ه ص 160 مِنْهُ .

(أَقُولُ) إِذَا كَانَ الشَّعْرَانِيُّ مِنْ أَكْبَرِ عُلَمَاءِ الْأَزْهَرِ وَمُؤَلِّفِيهِ يَعُدُّ هَذَا الْمَجْنُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ ،

وَيَتَرَضَّى عَنْهُ كُلَّمَا ذَكَرَهُ وَإِنْ تَكَرَّرَ ذِكْرُهُ فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ ، وَكَانَ شَيْخُهُ عَلِيٌّ الْخَوَاصُّ يَتَلَقَّى عَنْهُ حَلَّ مُشْكِلَاتِ الْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ وَيَعْتَمِدُ عَلَى كَشْفِهِ ، فَهَلْ نَكُونُ مُخْطِئِينَ إِذَا قُلْنَا إِنَّ جَمِيعَ مَنْ شَهِدَ لَهُمْ بِالْوِلَايَةِ وَالْكَرَامَةِ كَانُوا خُرَافِيِّينَ مَجَانِينَ مِثْلَهُ ، وَأَيُّ قِيمَةٍ كَانَتْ فِي عَصْرِهِ لِلْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالدِّينِ ؟ وَهَلْ يُوجَدُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْجُنُونَ كَانَ تَخَبُّطًا شَيْطَانِيًّا لَا جَذْبًا إِلَهِيًّا أَقْوَى مِنْ مُعَارَضَةِ صَاحِبِهِ لِلْقُرْآنِ بِمِثْلِ مَا نَقَلَهُ الشَّعْرَانِيُّ مِمَّا سَمِعَهُ وَرَآهُ مِنْهُ وَرَوَاهُ عَنْهُ مِنَ الْهَذَيَانِ ؟ .

(شَوَاهِدُ أُخْرَى عَنِ الْمَعْرُوفِ بِالتِّجَانِيِّ تَابِعَةٌ لِمَا قَبْلَهَا)

(280/365)

كَانَ مِنْ فَسَادِ هَذَا التَّصَوُّفِ الَّذِي بَثَّهُ الشَّعْرَانِيُّ وَأَمْثَالُهُ فِي الْمُسْلِمِينَ ، أَنْ وُجِدَ فِي الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى فِي الْقَرْنِ الثَّالِثَ عَشَرَ لِلْهِجْرَةِ شَيْخٌ اسْمُهُ الشَّيْخُ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ التِّجَانِيُّ ، صَارَ لَهُ طَرِيقَةٌ مِنْ أَشْهَرِ الطُّرُقِ امْتَدَّتْ مِنَ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى إِلَى السُّودَانِ الْفَرَنْسِيِّ وَالْجَزَائِرِ فَتُونُسَ فَمِصْرَ ، وَصَارَ لَهَا مِئَاتُ الْأُلُوفِ مِنَ الْأَتْبَاعِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْغُلُوِّ فِي الدَّعَاوَى وَالْخُرَافَاتِ وَالِابْتِدَاعِ وَتَفْضِيلِ شَيْخِهَا نَفْسَهُ عَلَى جَمِيعِ مَنْ سَبَقَهُ مِنْ أَقْطَابِ الْأَوْلِيَاءِ وَكَذَا الْأَنْبِيَاءِ بِأُمُورٍ مِنْهَا ضَمَانُ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَهُ وَلِأُصُولِهِ

وَفُرُوعِهِ وَأَتْبَاعِهِ وَلِكُلِّ مَنْ يُكْرِمُهُ وَيُحْسِنُ إِلَيْهِ وَلَوْ بِالطَّعَامِ أَعْلَى مَنَازِلِ الْجَنَّةِ مَعَ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عِقَابٍ ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ مَعَاصِيهِمْ وَتَبِعَاتِهِمْ تُغْفَرُ لَهُمْ لِأَجْلِهِ إلخ ، كَانَ الْغَرَضُ مِنْ طَرِيقَتِهِ أَكْلَ أَمْوَالِ النَّاسِ وَطَعَامِهِمْ وَالْجَاهَ عِنْدَهُمْ خِلَافًا لِجَمِيعِ صُوفِيَّةِ الْعَالَمِ ، وَقَدْ أَلَّفَ أَحَدُ أَتْبَاعِهِ كِتَابًا كَبِيرًا فِي مَنَاقِبِهِ وَكَرَامَاتِهِ وَأَوْرَادِهِ تَلَقَّاهَا مِنْ لِسَانِهِ وَقَلَمِهِ ، هَدَمَ بِهَا هَدْيَ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ مُدَّعِيًا أَنَّهُ تَلَقَّاهَا مِنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَسَمَّاهُ (جَوَاهِرَ الْمَعَانِي) وَهَاكَ بَعْضَ الشَّوَاهِدِ مِنْهُ :

(281/365)

(الشَّاهِدُ الرَّابِعُ ضَمَانُ دُخُولِ الْجَنَّةِ لِكُلِّ مَنْ لَهُ عَلَاقَةٌ بِالتِّجَانِيِّ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عِقَابٍ) .

قَالَ الْمُؤَلِّفُ فِي الْفَصْلِ الثَّانِي مِنَ الْبَابِ الْأَوَّلِ .

(قَالَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) أَخْبَرَنِي سَيِّدُ الْوُجُودِ يَقْظَةً لَا مَنَامًا قَالَ لِي : أَنْتَ مِنَ الْآمِنِينَ وَكُلُّ مَنْ رَآكَ مِنَ الْآمِنِينَ إِنْ مَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَكُلُّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ بِخِدْمَةٍ أَوْ غَيْرِهَا ، وَكُلُّ مَنْ أَطْعَمَكَ (!) يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عِقَابٍ .

(ثُمَّ قَالَ) فَلَمَّا رَأَيْتُ مَا صَدَرَ لِي مِنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْمَحَبَّةِ وَصَرَّحَ لِي بِهَا تَذَكَّرْتُ الْأَحْبَابَ وَمَنْ وَصَلَنِي إِحْسَانُهُمْ ، وَمَنْ تَعَلَّقَ بِي بِخِدْمَةٍ ، وَأَنَا أَسْمَعُ أَكْثَرَهُمْ يَقُولُونَ

لِي نُحَاسِبُكَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ إِنْ دَخَلْنَا النَّارَ وَأَنْتَ تَرَى ، فَأَقُولُ لَهُمْ : لَا أَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ مِنْهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هَذِهِ الْمَحَبَّةَ سَأَلْتُهُ لِكُلِّ مَنْ أَحَبَّنِي وَلَمْ يُعَادِنِي بَعْدَهَا ، وَلِكُلِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فَأَكْثَرَ وَلَمْ يُعَادِنِي (؟) بَعْدَهَا ، وَآكَدُ ذَلِكَ مَنْ أَطْعَمَنِي طَعَامَهُ (! !) قَالَ : كُلُّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عِقَابٍ) .

(282/365)

(قَالَ : وَسَأَلْتُهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِكُلِّ مَنْ أَخَذَ عَنِّي ذِكْرًا أَنْ تُغْفَرَ لَهُمْ جَمِيعُ ذُنُوبِهِمْ مَا تَقَدَّمَ مِنْهَا وَمَا تَأَخَّرَ ، وَأَنْ تُؤَدَّى عَنْهُمْ تَبِعَاتُهُمْ مِنْ خَزَائِنِ فَضْلِ اللهِ لَا مِنْ حَسَنَاتِهِمْ ، وَأَنْ يَرْفَعَ اللهُ عَنْهُمْ مُحَاسَبَتَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنْ يَكُونُوا آمِنِينَ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى دُخُولِ الْجَنَّةِ ، وَأَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عِقَابٍ فِي أَوَّلِ الزُّمْرَةِ الْأُولَى ، وَأَنْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ مَعِي فِي عِلِّيِّينَ فِي جِوَارِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فَقَالَ لِي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : ضَمِنْتُ لَهُمْ هَذَا كُلَّهُ ضَمَانَةً لَا تَنْقَطِعُ حَتَّى تُجَاوِرَنِي أَنْتَ وَهُمْ فِي عِلِّيِّينَ .

(قَالَ الْمُؤَلِّفُ) ثُمَّ اعْلَمْ أَنِّي بَعْدَ مَا كَتَبْتُ هَذَا مِنْ سَمَاعِهِ وَإِمْلَائِهِ عَلَيْنَا (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) مِنْ حَفْظِهِ وَلَفْظِهِ اطَّلَعْتُ عَلَى مَا أَرْسُمُهُ ، مِنْ خَطِّهِ ، وَنَصِّهِ :

(283/365)

(أَسْأَلُ مِنْ فَضْلِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنْ يَضْمَنَ لِي دُخُولَ الْجَنَّةِ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عِقَابٍ أَنَا وَكُلُّ أَبٍ وَأُمٍّ وَلَدَنِي مِنْ أَبَوَيَّ إِلَى أَوَّلِ أَبٍ وَأُمٍّ لِي فِي الْإِسْلَامِ مِنْ جِهَةِ أَبِي وَمِنْ جِهَةِ أُمِّي ، وَجَمِيعُ مَا وَلَدَ آبَائِي وَأُمَّهَاتِي مِنْ أَبَوَيَّ إِلَى الْجَدِّ الْحَادِي عَشَرَ وَالْجَدَّةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ (؟) مِنْ جِهَةِ أَبِي وَمِنْ جِهَةِ أُمِّي مِنْ كُلِّ مَا تَنَاسَلَ مِنْهُمْ (؟) مِنْ وَقْتِهِمْ إِلَى أَنْ يَمُوتَ سَيِّدُنَا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ مِنْ جَمِيعِ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ ، وَالصِّغَارِ وَالْكِبَارِ ، وَكُلُّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيَّ بِإِحْسَانٍ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فَأَكْثَرَ ، مِنْ خُرُوجِي مِنْ بَطْنِ أُمِّي إِلَى مَوْتِي ، وَكُلُّ مَنْ لَهُ عَلَيَّ مَشْيَخَةٌ فِي عِلْمٍ أَوْ ذِكْرٍ أَوْ سِرٍّ مِنْ كُلِّ مَنْ لَمْ يُعَادِنِي مِنْ جَمِيعِ هَؤُلَاءِ . وَأَمَّا مَنْ عَادَانِي أَوْ أَبْغَضَنِي فَلَا ، وَكُلُّ مَنْ أَحَبَّنِي وَلَمْ يُعَادِنِي (؟) وَكُلُّ مَنْ وَالَانِي وَاتَّخَذَنِي شَيْخًا أَوْ أَخَذَ عَنِّي ذِكْرًا ، وَكُلُّ مَنْ زَارَنِي وَكُلُّ مَنْ خَدَمَنِي أَوْ قَضَى لِي حَاجَةً أَوْ دَعَا لِي ، كُلُّ هَؤُلَاءِ مِنْ خُرُوجِي مِنْ بَطْنِ أُمِّي إِلَى مَوْتِي وَآبَائِهِمْ (؟) وَأُمَّهَاتِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَوَالِدِي أَزْوَاجِهِمْ يَضْمَنُ لِي سَيِّدُنَا رَسُولُ اللهِ

(284/365)

وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ أَنْ أَمُوتَ أَنَا وَكُلُّ حَيٍّ مِنْهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ ، وَأَنْ يُؤَمِّنَنَا اللهُ وَجَمِيعَهُمْ مِنْ جَمِيعِ عَذَابِهِ ، وَعِقَابِهِ وَتَهْوِيلِهِ وَتَخْوِيفِهِ وَرُعْبِهِ وَجَمِيعِ الشُّرُورِ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْمُسْتَقَرِّ فِي الْجَنَّةِ وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَلِجَمِيعِهِمْ جَمِيعَ الذُّنُوبِ مَا تَقَدَّمَ مِنْهَا وَمَا تَأَخَّرَ وَأَنْ تُؤَدِّيَ عَنِّي وَعَنْهُمْ جَمِيعَ تَبِعَاتِنَا وَتَبِعَاتِهِمْ ، وَجَمِيعَ مَظَالِمِنَا وَمَظَالِمِهِمْ مِنْ خَزَائِنِ فَضْلِ اللهِ لَا مِنْ حَسَنَاتِنَا ، وَأَنْ يُؤَمِّنَنِي اللهُ وَجَمِيعَهُمْ مِنْ جَمِيعِ مُحَاسَبَتِهِ وَمُنَاقَشَةِ سُؤَالِهِ عَنِ الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَنْ يُظِلَّنِي اللهُ وَجَمِيعَهُمْ فِي ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَنْ يُجِيزَنِي رَبِّي أَنَا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَذْكُورِينَ عَلَى الصِّرَاطِ أَسْرَعَ مِنْ طَرْفَةِ الْعَيْنِ عَلَى كَوَاهِلِ الْمَلَائِكَةِ ، وَأَنْ يَسْقِيَنِي اللهُ وَجَمِيعَهُمْ مِنْ حَوْضِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَنْ يُدْخِلَنِي رَبِّي وَجَمِيعَهُمْ جَنَّتَهُ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عِقَابٍ فِي أَوَّلِ الزُّمْرَةِ الْأُولَى وَأَنْ يَجْعَلَنِي رَبِّي وَجَمِيعَهُمْ مُسْتَقِرِّينَ فِي الْجَنَّةِ فِي عِلِّيِّينَ مِنْ جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ وَمِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ . أَسْأَلُ سَيِّدَنَا رَسُولَ اللهِ بِاللهِ أَنْ يَضْمَنَ لِي وَلِجَمِيعِ الَّذِينَ ذَكَرْتُهُمْ فِي هَذَا الْكِتَابِ كُلَّ مَا طَلَبْتُهُ مِنَ اللهِ لِي وَلَهُمْ فِي هَذَا الْكِتَابِ بِكَمَالِهِ كُلِّهِ ، ضَمَانًا يُوَصِّلُنِي وَجَمِيعَ الَّذِينَ ذَكَرْتُهُمْ فِي هَذَا الْكِتَابِ إِلَى كُلِّ مَا طَلَبْتُهُ مِنَ اللهِ لِي

(285/365)

وَلَهُمْ (كَذَا بِهَذَا التَّكْرَارِ) فَأَجَابَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِقَوْلِهِ الشَّرِيفِ : كُلُّ مَا فِي هَذَا الْكِتَابِ ضَمِنْتُهُ لَكَ ضَمَانَةً لَا تَتَخَلَّفُ عَنْكَ وَعَنْهُمْ أَبَدًا إلَى أَنْ تَكُونَ أَنْتَ وَجَمِيعُ مَا ذَكَرْتَ فِي جِوَارِي فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ ، وَضَمِنْتُ لَكَ جَمِيعَ مَا طَلَبْتَ مِنَّا ضَمَانَةً لَا يُخْلَفُ عَلَيْكَ الْوَعْدُ فِيهَا وَالسَّلَامُ ، انْتَهَى بِحُرُوفِهِ وَلَحْنِهِ وَتَكْرَارِهِ مِنْ ص 91 و92 ج1

- قَالَ الْمُؤَلِّفُ :

ثُمَّ قَالَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) وَكُلُّ هَذَا وَقَعَ يَقَظَةً لَا مَنَامًا . ثُمَّ قَالَ : وَأَنْتُمْ وَجَمِيعُ الْأَحْبَابِ لَا تَحْتَاجُونَ إلَى رُؤْيَتِي إنَّمَا يَحْتَاجُ إلَى رُؤْيَتِي مَنْ لَمْ يَكُنْ حَبِيبًا يَعْنِي تَابِعًا وَلَا آخِذًا عَنِّي ذِكْرًا وَلَا أَكَلْتُ طَعَامَهُ ، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ ضَمِنَهُمْ لِي بِلَا شَرْطِ رُؤْيَةٍ مَعَ زِيَادَةِ أَنَّهُمْ مَعِي فِي عِلِّيِّينَ) وَلَوْ رُوِيَ هَذَا عَنْهُ فِي حَيَاتِهِ لَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ مُفْتَرًى عَلَيْهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

(286/365)

ثُمَّ قَالَ التِّجَانِيُّ : وَأَمَّا مَنْ رَآنِي فَقَطْ غَايَتُهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عِقَابٍ ، وَلَا مَطْمَعَ لَهُ فِي عِلِّيِّينَ إلَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ ذَكَرْتُهُمْ وَهُمْ أَحْبَابُنَا وَمَنْ أَحْسَنَ إلَيْنَا وَمَنْ أَخَذَ عَنَّا ذِكْرًا فَإِنَّهُ يَسْتَقِرُّ فِي عِلِّيِّينَ مَعَنَا . وَقَدْ ضُمِنَ لَنَا هَذَا بِوَعْدٍ صَادِقٍ لَا خُلْفَ فِيهِ إلَّا أَنِّي اسْتَثْنَيْتُ مَنْ

عَادَانِي بَعْدَ الْمَحَبَّةِ وَالْإِحْسَانِ فَلَا مَطْمَعَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَإِنْ كُنْتُمْ مُتَمَسِّكِينَ بِمَحَبَّتِنَا فَأَبْشِرُوا بِمَا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ فَإِنَّهُ وَاقِعٌ لِجَمِيعِ الْأَحْبَابِ قَطْعًا ا ه .

وَهَاهُنَا ذَكَرَ مُؤَلِّفُ الْكِتَابِ أَنَّ هَذِهِ الْكَرَامَةَ الْعَظِيمَةَ الْمِقْدَارِ ، وَهِيَ دُخُولُ الْجَنَّةِ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عِقَابٍ لِمَنْ ذَكَرَهُمْ ، لَمْ تَقَعْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ قَبْلَهُ إِلَخْ ، وَيَزِيدُ عَلَيْهِ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَضْمَنْ مِثْلَ هَذَا فِي حَيَاتِهِ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَلَا خَوَاصِّ أَصْحَابِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - حَتَّى الْعَدَدِ الْقَلِيلِ الَّذِينَ بَشَّرَهُمْ بِالْجَنَّةِ كَالْعَشَرَةِ لَمْ يَضْمَنْ لَهُمْ مَا زَعَمَ

(287/365)

التِّجَانِيُّ أَنَّهُ ضَمِنَهُ لِمَنْ لَا يُحْصَى عَدَدًا مِنْ أُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ وَأَتْبَاعِهِ ، وَلَا يُوجَدُ فِي شَرِيعَتِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَذِنَ لَهُ بِمِثْلِ هَذَا ، بَلْ قَاعِدَةُ دِينِهِ وَشَرِيعَتِهِ أَنَّ الْغُرْمَ بِالْغُنْمِ ، فَمَنْ تُضَاعَفُ حَسَنَاتُهُمْ تُضَاعَفُ سَيِّئَاتُهُمْ كَمَا صَرَّحَ بِهِ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ فِي خِطَابِ نِسَائِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ سُورَةِ الْأَحْزَابِ .

وَصَحَّ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) (26 : 214) جَمَعَهُمْ وَكَانَ مِمَّا قَالَهُ لَهُمْ : (اعْمَلُوا لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) قَالَ هَذَا لِعَمِّهِ

وَعَمَّتِهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – وَلِبِنْتِهِ السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ سَيِّدَةِ النِّسَاءِ عَلَيْهَا السَّلَامُ ، فَكَلَامُ التِّجَانِيِّ صَرِيحٌ فِي أَنَّ جَمِيعَ أَتْبَاعِهِ وَأَقَارِبِهِ وَمُحِبِّيهِ وَالْمُحْسِنِينَ إِلَيْهِ يَكُونُونَ فِي عِلِّيِّينَ فَوْقَ أَتْبَاعِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَمُحِبِّيهِمْ ، وَإِلَّا لَمَا بَقِيَ لِلْجَنَّاتِ السَّبْعِ أَحَدٌ يَسْكُنُهُنَّ وَهُوَ افْتِرَاءٌ لَمْ يَتَجَرَّأْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُجَازِفِينَ قَبْلَهُ .

(الشَّاهِدُ الْخَامِسُ عَنْهُ تَفْضِيلُ أَوْرَادِهِ الْمُبْتَدَعَةِ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادَاتِ الْمَأْثُورَةِ) .

ذَكَرَ مُؤَلِّفُ هَذَا الْكِتَابِ صَلَاةً عَلَيْهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُسَمُّونَهَا صَلَاةَ الْفَاتِحِ ، وَغَلَا فِيمَا زَعَمَهُ مِنْ أَمْرِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَهُ يَقَظَةً بِهَا وَالْغُلُوِّ فِي ثَوَابِهَا وَهَذَا نَصُّهَا :

(288/365)

(اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْفَاتِحِ لِمَا أُغْلِقَ ، وَالْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ ، نَاصِرِ الْحَقِّ بِالْحَقِّ ، وَالْهَادِي

إِلَى صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ حَقَّ قَدْرِهِ وَمِقْدَارِهِ الْعَظِيمِ) وَذَكَرَ أَنَّ شَيْخَهُ التِّجَانِيَّ كَانَ يَقْرَؤُهَا ثُمَّ تَرَكَهَا لِصَلَاةٍ أُخْرَى الْمَرَّةُ الْوَاحِدَةُ مِنْهَا بِسَبْعِينَ أَلْفَ خَتْمَةٍ مِنْ دَلَائِلِ الْخَيْرَاتِ ، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِالرُّجُوعِ إِلَيْهَا وَقَالَ فِي ص 96 مِنَ

الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مَا نَصُّهُ :

(فَلَمَّا أَمَرَنِي عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقِرَاءَتِهَا سَأَلْتُهُ عَنْ فَضْلِهَا فَأَخْبَرَنِي أَوَّلًا بِأَنَّ الْمَرَّةَ الْوَاحِدَةَ تَعْدِلُ مِنَ الْقُرْآنِ سِتَّ مَرَّاتٍ ثُمَّ أَخْبَرَنِي ثَانِيًا أَنَّ الْمَرَّةَ الْوَاحِدَةَ مِنْهَا تَعْدِلُ مِنْ كُلِّ تَسْبِيحٍ وَقَعَ فِي الْكَوْنِ وَمِنْ كُلِّ ذِكْرٍ وَمِنْ كُلِّ دُعَاءٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ وَمِنَ الْقُرْآنِ سِتَّةَ آلَافِ مَرَّةٍ لِأَنَّهُ مِنَ الْأَذْكَارِ)

.

(قَالَ) (وَمِنْ جُمْلَةِ الْأَدْعِيَاءِ (كَذَا) دُعَاءُ السَّيْفِيِّ ، فَفِي الْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ مِنْهُ ثَوَابُ صَوْمِ رَمَضَانَ وَقِيَامُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَعِبَادَةُ سَنَةٍ كَمَا أَخْبَرَنِي بِهِ سَيِّدُنَا عَنْ سَيِّدِ الْوُجُودِ .

(289/365)

(وَأَعْظَمُ مِنْ دُعَاءِ السَّيْفِيِّ دُعَاءُ : يَا مَنْ أَظْهَرَ الْجَمِيلَ إِلَخْ . وَأَنَّهُ هَدِيَّةٌ مِنْ جِبْرِيلَ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَوِ اجْتَمَعَتْ مَلَائِكَةُ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ عَلَى أَنْ يَصِفُوهُ لَمَا وَصَفُوهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَكُلُّ وَاحِدٍ يَصِفُ مَا لَا يَصِفُهُ الْآخَرُ فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ . وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِيهِ : (أُعْطِيهِ مِنَ الثَّوَابِ بِقَدْرِ مَا خَلَقْتُ فِي سَبْعِ سَمَاوَاتٍ وَفِي الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَفِي الْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ وَعَدَدِ الْقَطْرِ وَالْمَطَرِ وَالْبِحَارِ ، وَعَدَدِ الْحَصَى وَالرَّمْلِ ،) وَمِنْ جُمْلَتِهَا

أَيْضًا أَنَّ اللهَ يُعْطِيهِ ثَوَابَ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ ، وَمِنْ جُمْلَتِهَا أَنَّ اللهَ يُعْطِيهِ ثَوَابَ سَبْعِينَ نَبِيًّا كُلُّهُمْ بَلَّغُوا الرِّسَالَةَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ . (قَالَ) وَهَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ ثَابِتٌ فِي صَحِيفَةِ عُمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ إِلَخْ .

وَصَرَّحَ الْمُؤَلِّفُ بِأَنَّ هَذَا الْكَذِبَ أَمْلَاهُ شَيْخُهُ التِّجَانِيُّ . ثُمَّ قَالَ عَنْ شَيْخِهِ :

(وَأَمَّا صَلَاةُ الْفَاتِحِ لِمَا أُغْلِقَ فَإِنِّي سَأَلْتُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْهَا فَأَخْبَرَنِي أَوَّلًا أَنَّهَا بِسِتِّمِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ ، فَقُلْتُ لَهُ هَلْ فِي جَمِيعِ تِلْكَ الصَّلَوَاتِ أَجْرُ مَنْ صَلَّى صَلَاةً مُفْرَدَةً ؟ فَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا مَعْنَاهُ : نَعَمْ يَحْصُلُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ مِنْهَا أَجْرُ مَنْ صَلَّى بِسِتِّمِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ مُفْرَدَةٍ .

(290/365)

وَسَأَلْتُهُ : هَلْ يَقُومُ مِنْهَا طَائِرٌ الَّذِي لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ جَنَاحٍ إِلَخْ . الْحَدِيثَ . أَمْ يَقُومُ مِنْهَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ سِتِّمِائَةِ أَلْفِ طَائِرٍ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ وَثَوَابِ تَسْبِيحِهِمْ لِقَارِئِهَا ؟ فَقَالَ : بَلْ يَقُومُ مِنْهَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ سِتِّمِائَةِ أَلْفِ طَائِرٍ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ .

وَقَالَ فِي ص 97 فَسَأَلْتُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ حَدِيثِ أَنَّ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ تَعْدِلُ أَرْبَعِمِائَةِ غَزْوَةٍ

كُلُّ غَزْوَةٍ تَعْدِلُ أَرْبَعِمِائَةِ حَجَّةٍ صَحِيحٌ أَمْ لَا ؟ فَقَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : بَلْ صَحِيحٌ فَسَأَلْتُهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَنْ عَدَدِ هَذِهِ الْغَزَوَاتِ هَلْ يَقُومُ مِنْ صَلَاةِ الْفَاتِحِ لِمَا أُغْلِقَ إلَخْ مَرَّةً أَرْبَعُمِائَةِ غَزْوَةٍ أَمْ يَقُومُ أَرْبَعُمِائَةِ غَزْوَةٍ صَلَاةً مِنَ السِّتِّمِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ وَكُلُّ صَلَاةٍ عَلَى انْفِرَادِهَا أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ غَزْوَةٍ ؟ فَقَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَا مَعْنَاهُ : إنَّ صَلَاةَ الْفَاتِحِ لِمَا أُغْلِقَ بِسِتِّمِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ وَكُلُّ صَلَاةٍ مِنَ السِّتِّمِائَةِ أَلْفٍ بِأَرْبَعِمِائَةِ غَزْوَةٍ ثُمَّ قَالَ بَعْدَهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : أَنَّ مَنْ صَلَّى بِهَا ، أَيْ بِالْفَاتِحِ لِمَا أُغْلِقَ إلَخْ مَرَّةً حَصَلَ لَهُ ثَوَابُ مَا إذَا صَلَّى بِكُلِّ صَلَاةٍ وَقَعَتْ فِي الْعَالَمِ مِنْ كُلِّ جِنٍّ وَإِنْسٍ وَمَلَكٍ سِتُّمِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ مِنْ أَوَّلِ الْعَالَمِ إلَى وَقْتِ تَلَفُّظِ الذَّاكِرِ بِهَا ، أَيْ كَأَنَّهُ صَلَّى بِكُلِّ صَلَاةٍ سِتَّمِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ مِنْ جَمِيعِ صَلَاةِ الْمُصَلِّينَ عُمُومًا : مَلَكًا وَجِنًّا وَإِنْسًا وَكُلُّ صَلَاةٍ مِنْ ذَلِكَ بِأَرْبَعِمِائَةِ غَزْوَةٍ وَكُلُّ صَلَاةٍ مِنْ ذَلِكَ بِزَوْجَةٍ مِنَ الْحُورِ وَمَحْوِ عَشْرِ سَيِّئَاتٍ وَثُبُوتِ عَشْرِ حَسَنَاتٍ وَرَفْعِ عَشْرِ دَرَجَاتٍ ، وَأَنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى صَاحِبِهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ (قَالَ الشَّيْخُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) فَإِذَا تَأَمَّلْتَ هَذَا بِقَلْبِكَ عَلِمْتَ أَنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا تَقُومُ لَهَا عِبَادَةٌ فِي مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ فَكَيْفَ مَنْ صَلَّى بِهَا مَرَّاتٍ

(292/365)

مَاذَا لَهَا مِنَ الْفَضْلِ عِنْدَ اللهِ وَهَذَا حَاصِلٌ فِي كُلِّ مَرَّةٍ مِنْهَا ا ه .

ثُمَّ إِنَّهُ ذَكَرَ مَا هُوَ فَوْقَ ذَلِكَ مِنَ الْمُبَالَغَاتِ الْجُنُونِيَّةِ الَّتِي لَا يَعْقِلُهَا دِمَاغُهُ ، وَصَرَّحَ بِأَنَّهُ لَا مَدْخَلَ فِيهَا لِلْعُقُولِ ، وَمِنْهَا مَا عَدَّهُ مِنْ ثَوَابِ مَلَايِينِ الْأُمَمِ وَالْمَلَائِكَةِ ، وَلَمْ يُفَضَّلْ عَلَيْهَا إِلَّا الدُّعَاءُ بِالِاسْمِ الْأَعْظَمِ وَهُوَ هَذَا بِزَعْمِهِمْ (اهم سقك حلع يص) قَالَ الْمُؤَلِّفُ فِي ص 102 مَا نَصُّهُ : (فَائِدَةٌ) قَالَ الشَّيْخُ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) عَدَدُ أَلْسِنَةِ الطَّائِرِ الَّذِي يَخْلُقُهُ اللهُ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الَّذِي لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ جَنَاحٍ إِلَخْ الْحَدِيثَ أَلْفُ أَلْفِ أَلْفِ أَلْفِ أَلْفِ أَلْفِ أَلْفِ إِلَى أَنْ تَعُدَّ ثَمَانِيَ مَرَاتِبَ وَسِتَّمِائَةٍ وَثَمَانُونَ أَلْفَ أَلْفِ أَلْفِ أَلْفِ أَلْفِ أَلْفِ أَلْفِ إِلَى أَنْ تَعُدَّ سَبْعَ مَرَاتِبَ وَسَبْعَمِائَةِ

(293/365)

أَلْفِ أَلْفِ أَلْفِ أَلْفِ أَلْفِ إِلَى أَنْ تَعُدَّ خَمْسَ مَرَاتِبَ فَهَذَا مَجْمُوعُ عَدَدِ أَلْسِنَتِهِ ، وَكُلُّ لِسَانٍ يُسَبِّحُ اللهَ تَعَالَى بِسَبْعِينَ أَلْفَ لُغَةٍ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ، وَكُلُّ ثَوَابِهَا لِلْمُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي كُلِّ مَرَّةٍ ، هَذَا فِي غَيْرِ الْيَاقُوتَةِ الْفَرِيدَةِ وَهِيَ الْفَاتِحُ لِمَا أُغْلِقَ إِلَخْ ، وَأَمَّا فِيهَا فَإِنَّهُ يُخْلَقُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ سِتُّمِائَةِ أَلْفِ طَائِرٍ عَلَى الصِّفَةِ الْمَذْكُورَةِ كَمَا تَقَدَّمَ . فَسُبْحَانَ الْمُتَفَضِّلِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ مِنْ غَيْرِ مِنَّةٍ وَلَا عِلَّةٍ اه . مَنْ خَطِّ سَيِّدِنَا وَحَبِيبِنَا وَخَازِنِ سِرِّ سَيِّدِنَا أَبِي عَبْدِ اللهِ سَيِّدِي مُحَمَّدِ بْنِ الْمِشْرِيِّ حَفِظَهُ اللهُ اه .

(الشَّاهِدُ السَّادِسُ عَنِ التِّجَانِيِّ دَعْوَاهُ مَوْتَ مَنْ يَكْرَهُهُ كَافِرًا)

وَفِي هَذَا الْكِتَابِ مِنَ الْعَقَائِدِ الزَّائِغَةِ الْمُخَالِفَةِ لِعَقَائِدِ جَمِيعِ السَّلَفِ وَحُفَّاظِ السُّنَنِ وَأَئِمَّةِ الْفِقْهِ وَالْمُفَسِّرِينَ وَعُلَمَاءِ الْكَلَامِ ، مَا نَعْهَدُ مِثْلَهُ عَنِ الْبَاطِنِيَّةِ وَأَهْلِ الْوَحْدَةِ وَالِاتِّحَادِ وَسَائِرِ غُلَاةِ الصُّوفِيَّةِ وَلِعِلْمِ التِّجَانِيِّ وَأَمْثَالِهِ أَنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ إِلْمَامٌ بِالضَّرُورِيَّاتِ مِنْ عَقَائِدِ الْإِسْلَامِ يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ جَعَلُوا مَنْ أُصُولِ طَرِيقَتِهِمُ التَّسْلِيمَ لَهُمْ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا .

(294/365)

وَقَدْ بَالَغَ التِّجَانِيُّ فِيمَا يُلَقِّنُهُ لِأَتْبَاعِهِ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الِاعْتِرَاضِ وَالْإِنْكَارِ عَلَيْهِ ، حَتَّى زَعَمَ أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ عَلَيْهِ وَكَرِهَ عَمَلَهُ أَوْ طَعَنَ فِيهِ أَوْ أَبْغَضَهُ يَمُوتُ كَافِرًا قَطْعًا ; وَهَذِهِ الدَّعْوَى بَاطِلَةٌ كَدَعْوَى دُخُولِ أَتْبَاعِهِ وَأُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ الْجَنَّةَ قَطْعًا ، لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى . وَقَدِ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى عَدَمِ جَوَازِ الْقَطْعِ لِشَخْصٍ مُعَيَّنٍ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ

الْجَنَّةِ أَوْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ إلَّا بِنَصٍّ مِنَ الشَّارِعِ . وَإِنَّمَا الْقَطْعِيُّ أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَنْ مَاتَ عَلَى الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَأَنَّ الْخَوَاتِيمَ لَا يَعْلَمُهَا إلَّا اللَّهُ تَعَالَى .

(295/365)

وَلَوْلَا أَنَّ لَهُ أَتْبَاعًا فِي مِصْرَ وَبِلَادِ الْمَغْرِبِ لَمَا سَوَّدْنَا صَحَائِفَ هَذَا التَّفْسِيرِ بِذِكْرِ خُرَافَاتِهِ وَضَلَالَاتِهِ ، وَقَدِ اسْتَفْتَانِي بَعْضُ الْمُنْكِرِينَ لِدَعْوَاهُمْ تَلَقِّيَ شَيْخِهِمْ لِأَوْرَادِهِ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْيَقَظَةِ ، وَحُضُورَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِمَجَالِسِ حَضْرَتِهِمْ ، عَنْ دَعْوَى رُؤْيَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْيَقَظَةِ وَالتَّلَقِّي عَنْهُ ، فَأَفْتَيْتُ فِي الْمَنَارِ بِبُطْلَانِهَا ، فَلَجَأَ بَعْضُهُمْ إلَى مَجَلَّةِ مَشْيَخَةِ الْأَزْهَرِ (نُورِ الْإِسْلَامِ) فَاسْتَفْتَوْهَا فِي ذَلِكَ فَأَفْتَاهُمْ مُفْتِيهَا الدَّجَوِيُّ الدَّجَّالُ بِمَا يَتَّخِذُونَهُ حُجَّةً عَلَى كُلِّ مَا افْتَرَاهُ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُحْتَجًّا بِأَنَّ الْأَرْضَ لَا تَأْكُلُ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَأَنَّهُمْ أَحْيَاءٌ فِي قُبُورِهِمْ يَرُدُّونَ السَّلَامَ عَلَى مَنْ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ، وَالْحَقُّ أَنَّ كُلَّ مَا وَرَدَ فِي حَيَاةِ الشُّهَدَاءِ ، وَالْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ فَهُوَ مِنْ أَخْبَارِ الْغَيْبِ الَّتِي لَا يُقَاسُ عَلَيْهَا وَلَا يَتَعَدَّى فِيهَا مَا صَحَّ مِنْهَا عَنِ الْمَعْصُومِ بِإِجْمَاعِ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ .

(296/365)

هَذَا وَإِنِّي لَا أَجْهَلُ أَنَّ لِلتِّجَانِيَّةِ فِي الْمَغْرِبِ وَالسُّودَانِ الْفَرَنْسِيِّ ، حَسَنَاتٍ فِي مُقَاوَمَةِ التَّنْصِيرِ وَالِاسْتِعْمَارِ الْمُعَادِي لِلْإِسْلَامِ كَالْقَادِرِيَّةِ وَالسَّنُوسِيَّةِ ، وَلَكِنَّ كِتَابَهُمْ (جَوَاهِرَ الْمَعَانِي) قَدْ فَضَحَهُمْ فَضَائِحَ لَا يَقْبَلُهَا مُسْلِمٌ يَعْرِفُ ضَرُورِيَّاتِ الْإِسْلَامِ ، وَسَتَعْلَمُ قِيمَةَ حَسَنَاتِهِمْ وَغَيْرِهَا مِمَّا سَنَنْقُلُهُ فِي كَرَامَاتِ أَمْثَالِهِمْ عَنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ .

(تَقْلِيدُ الْبَابِ وَالْبَهَاءِ وَالْقَادْيَانِيِّ لِغُلَاةِ الصُّوفِيَّةِ)

(فِي دَعْوَى الْوَحْيِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ)

(297/365)

قَدْ جَرَّأَ هَؤُلَاءِ الْغُلَاةُ مِنَ الصُّوفِيَّةِ إِخْوَانَهُمْ فِي الِابْتِدَاعِ عَلَى دَعْوَى الْوَحْيِ وَالتَّلَقِّي عَنِ اللهِ تَعَالَى كَالْأَنْبِيَاءِ حَتَّى ادَّعَى بَعْضُهُمُ النُّبُوَّةَ نَفْسَهَا ، بَلِ ادَّعَى بَعْضُهُمُ الْأُلُوهِيَّةَ ، وَإِنَّكَ لَتَجِدُ مِنْ كَلَامِ الْبَابِ مُؤَسِّسِ فِرْقَةِ الْبَابِيَّةِ ، وَالْبَهَاءِ مُؤَسِّسِ دِيَانَةِ الْبَهَائِيَّةِ عَلَى أَنْقَاضِ ، الْبَابِيَّةِ ، وَغُلَامِ أَحْمَدِ الْقَادْيَانِيِّ – مَسِيحِ الْهِنْدِ الدَّجَّالِ – أَنَّهُمْ كُلَّهُمْ قَدِ ادَّعَوُا الْوَحْيَ مِنَ اللهِ لَهُمْ ،

وَتَجِدُ كَلَامَهُمْ فِي الْغُلُوِّ فِي أَنْفُسِهِمْ مَمْزُوجًا بِاصْطِلَاحَاتِ الصُّوفِيَّةِ ، فَلَمْ يُفْسِدِ الْإِسْلَامَ عَلَى أَهْلِهِ بِدَعَةٌ وَلَا فَلْسَفَةٌ وَلَا رِوَايَةٌ وَلَا رَأْيٌ ، كَمَا أَفْسَدَ أَدْعِيَاءُ الْوِلَايَةِ وَالْكَشْفِ ، فَإِنَّ أَصْلَ هَذَا الدِّينِ كِتَابُ اللهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِإِجْمَاعِ أَهْلِهِ ، وَبَدَاهَةِ الْعَقْلِ أَيْضًا ، فَأَمَّا الْبَابِيَّةُ فَقَدِ انْحَصَرُوا فِي الْبَهَائِيَّةِ ، وَهَؤُلَاءِ كَانَ لَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَكْبَرِ الدُّهَاةِ يَسُوسُهُمْ فَمَاتَ فَانْحَطَّ شَأْنُهُمْ ، وَوَقَعَ الشِّقَاقُ بَيْنَهُمْ عَلَى الزَّعَامَةِ وَظَهَرَ لِلْمُسْلِمِينَ تَلْبِيسُهُمُ الْبَاطِنِيُّ فَقَلَّمَا يَنْخَدِعُ بِدَعْوَتِهِمْ أَحَدٌ بَعْدَهُ ، وَزَعِيمُهُمُ الْوَارِثُ لَهُ قَدْ تَرَبَّى تَرْبِيَةً إِنْكِلِيزِيَّةً مَفْضُوحَةً ، فَهُوَ عَاجِزٌ عَنْ تَأْوِيلَاتِ عَبَّاسٍ أَفَنْدِي الصُّوفِيَّةِ الْفَلْسَفِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ .

(298/365)

وَأَمَّا الْقَادِيَانِيَّةُ فَقَدْ نَشِطُوا لِلدِّعَايَةِ وَهُمْ يُؤَمِّلُونَ أَنْ يُوجِدُوا فِي بَقِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ مَا أَوْجَدَتِ الْمَسِيحِيَّةُ فِي الْيَهُودِ ، أَعْنِي إِحْدَاثَ مِلَّةٍ جَدِيدَةٍ تُسَمَّى الْمَسِيحِيَّةَ الْأَحْمَدِيَّةَ ، وَسَيَفْتَضِحُونَ ؛ لِأَنَّ زَعِيمَهُمْ وَمَسِيحَهُمْ رَجُلٌ مَجْنُونٌ ، وَالْعَصْرُ يُطْلَبُ تَجْدِيدًا لِلْإِسْلَامِ لَا تَقْدِيسَ فِيهِ إِلَّا لِلَّهِ ، وَجَمِيعُ كُتُبِ مَسِيحِهِمْ غُلَامِ أَحْمَدَ تَدُورُ عَلَى تَقْدِيسِ نَفْسِهِ كَالْبَهَاءِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَخْلُفْهُ رَجُلٌ دَاهِيَةٌ كَعَبَّاسٍ عَبْدِ الْبَهَاءِ ، يُخْفِي كُتُبَهُ عَنِ الْعُقَلَاءِ وَيَتَصَرَّفُ فِي التَّأْوِيلِ لِدَعْوَتِهِ بِمِثْلِ ذَلِكَ الدَّهَاءِ وَكَيْفَ يَتَسَنَّى لَهُمْ إِخْفَاءُ كُتُبِهِ ، وَقَدْ طَبَعَهَا وَنَشَرَهَا فِي

عَصْرِهِ ، وَفِيهَا أَقْوَى الْحُجَجِ عَلَى ضَلَالِهِ وَإِضْلَالِهِ ، وَخِزْيِهِ وَنَكَالِهِ ؟ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ الصُّوفِيَّةَ ثَلَاثُ فِرَقٍ : صُوفِيَّةُ الْأَخْلَاقِ الْمُهْتَدِينَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَسِيرَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَهُمْ مِنْ خِيَارِ أَوْلِيَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَصُوفِيَّةُ الْفَلْسَفَةِ

(299/365)

الْهِنْدِيَّةِ الَّذِينَ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ صُوفِيَّةَ الْحَقَائِقِ ، وَغُلَاتُهُمْ كَغُلَاةِ الشِّيعَةِ الْبَاطِنِيَّةِ شَرُّ الْمُبْتَدِعَةِ الْهَادِمِينَ لِلدِّينِ ، وَصُوفِيَّةُ التَّقْلِيدِ وَهُمْ أَهْلُ الطَّرَائِقِ وَالزَّوَايَا الْكُسَالَى ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا صُوفِيَّةُ أَكْلٍ وَاحْتِفَالَاتٍ ، وَبِدَعٍ وَخُرَافَاتٍ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وَهَاكَ مَا وَعَدْنَا بِهِ مِنْ رَأْيِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ، فِي أَوْلِيَاءِ اللهِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ ، وَنُقَفِّي عَلَيْهِ بِشَوَاهِدَ فِي هَذَا الزَّمَانِ .

(كِتَابُ الْفُرْقَانِ لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ)

(اسْتِمْتَاعُ الْبَشَرِ وَالْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَتَمَثُّلُهُمْ بِصُوَرِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْقِدِّيسِينَ)

(300/365)

هَذَا الْكِتَابُ لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ أَحْمَدَ تَقِيِّ الدِّينِ بْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، بَيَّنَ فِيهِ تَحْقِيقَ الْحَقِّ فِي أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ ، وَمِنْ أَهَمِّ مَبَاحِثِهِ مُلَابَسَةُ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ لِلنَّاسِ وَتَلْبِيسُهُمْ عَلَيْهِمْ ، وَاسْتِمْتَاعُ كُلٍّ مِنْهُمَا بِالْآخَرِ ، وَظُهُورُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضِ النَّاسِ فِي صُوَرِ مَشَايِخِهِمْ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْخِضْرِ وَالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالْإِيحَاءُ إِلَى بَعْضِهِمْ فِيمَا يُضِلُّهُمْ وَيُغْوِيهِمْ ، وَظُهُورُ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ فِيمَا هُوَ نَافِعٌ ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَقَعَ لَهُ هُوَ نَفْسُهُ ، وَفِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ مَبَاحِثِ التَّفْسِيرِ وَهَدْيِ السُّنَّةِ وَالتَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْمُعْجِزَاتِ وَالْكَرَامَاتِ وَبَيْنَ السِّحْرِ وَالْكِهَانَةِ وَاسْتِخْدَامِ الْجِنِّ وَالتَّأْوِيلِ الْبَاطِلِ وَوُجُوبِ الِاتِّبَاعِ مَا لَا يُوجَدُ فِي غَيْرِهِ ، وَحِكَايَاتُ اسْتِخْدَامِ الْجِنِّ كَثِيرَةٌ فِي قَدِيمِ الْأُمَمِ كُلِّهَا وَحَدِيثِهَا ، وَأَكْثَرُ الَّذِينَ يَدَّعُونَهَا أَوْ كُلُّهُمْ دَجَّالُونَ مُحْتَالُونَ عَلَى أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَكْثَرُ مَنْ يَتَمَثَّلُونَ لَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مِنْهُمْ ، وَشَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَقِّقٌ وَصِدِّيقٌ لَا يَرْمِي الْقَوْلَ عَلَى عَوَاهِنِهِ .

(301/365)

وَمِمَّا قَالَهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ أَنَّهُ قَدْ تَوَاتَرَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى رُؤْيَةُ مَنْ يَقُولُ لَهُمْ إِنَّهُ الْخِضْرُ وَإِنَّهُمْ صَادِقُونَ فِي قَوْلِهِمْ ، وَلَكِنَّ الَّذِي يَتَرَاءَى لَهُمْ وَيَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ شَيْطَانٌ لَا الْخِضْرُ الَّذِي ثَبَتَ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ وَمِثْلُ ذَلِكَ ظُهُورُ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ

السَّلَامُ لِكَثِيرٍ مِنَ النَّصَارَى عَقِبَ رَفْعِهِ وَبَعْدَهُ إِلَى الْآنَ ثُمَّ قَالَ :

(وَأَصْحَابُ الْحَلَّاجِ لَمَّا قُتِلَ كَانَ يَأْتِيهِمْ مَنْ يَقُولُ أَنَا الْحَلَّاجُ فَيَرَوْنَهُ فِي صُورَتِهِ ، وَكَذَلِكَ شَيْخٌ بِمِصْرَ يُقَالُ لَهُ الدَّسُوقِيُّ بَعْدَ أَنْ مَاتَ كَانَ يَأْتِي أَصْحَابَهُ مِنْ جِهَتِهِ رَسَائِلُ وَكُتُبٌ مَكْتُوبَةٌ ، وَأَرَانِي صَادِقٌ مِنْ أَصْحَابِهِ الْكِتَابَ الَّذِي أَرْسَلَهُ فَرَأَيْتُهُ بِخَطِّ الْجِنِّ – وَقَدْ رَأَيْتُ خَطَّ الْجِنِّ غَيْرَ مَرَّةٍ – وَفِيهِ كَلَامٌ مِنَ الْجِنِّ ، وَذَاكَ الْمُعْتَقِدُ يَعْتَقِدُ أَنَّ الشَّيْخَ حَيٌّ ، وَكَانَ يَقُولُ انْتَقَلَ ثُمَّ مَاتَ ، وَكَذَلِكَ شَيْخٌ آخَرُ كَانَ بِالْمَشْرِقِ وَكَانَ لَهُ خَوَارِقُ مِنَ الْجِنِّ ، وَقِيلَ : كَانَ بَعْدَ هَذَا يَأْتِي خَوَاصَّ أَصْحَابِهِ فِي صُورَتِهِ فَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ هُوَ . وَالَّذِينَ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ بَقَاءَ عَلِيٍّ أَوْ بَقَاءَ مُحَمَّدِ بْنِ خَلِيفَةَ قَدْ كَانَ يَأْتِي إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِمْ جِنِّيٌّ فِي صُورَتِهِ ، وَهَكَذَا مُنْتَظَرُ الرَّافِضَةِ قَدْ يَرَاهُ أَحَدُهُمْ أَحْيَانًا وَيَكُونُ الْمَرْئِيُّ جِنِّيًّا .

(302/365)

(فَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ وَاقِعٌ كَثِيرًا ، وَكُلَّمَا كَانَ الْقَوْمُ أَجْهَلَ كَانَ عِنْدَهُمْ أَكْثَرَ ، فَفِي الْمُشْرِكِينَ أَكْثَرُ مِمَّا فِي النَّصَارَى ، وَهُوَ فِي النَّصَارَى كَمَا هُوَ فِي الدَّاخِلِينَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ يُسْلِمُ بِسَبَبِهَا نَاسٌ وَيَتُوبُ بِسَبَبِهَا نَاسٌ يَكُونُونَ أَضَلَّ مِنْ أَصْحَابِهَا فَيَنْتَقِلُونَ بِسَبَبِهَا إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ ، كَالشَّيْخِ الَّذِي فِيهِ كَذِبٌ وَفُجُورٌ مِنَ الْإِنْسِ قَدْ يَأْتِيهِ قَوْمٌ كُفَّارٌ

فَيَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَيُسْلِمُونَ وَيَصِيرُونَ خَيْرًا مِمَّا كَانُوا وَإِنْ كَانَ قَصْدُ ذَلِكَ الرَّجُلِ فَاسِدًا ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ وَبِأَقْوَامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ) وَهَذَا كَانَ كَالْحُجَجِ وَالْأَدِلَّةِ الَّتِي يَذْكُرُهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالرَّأْيِ فَإِنَّهُ يَنْقَطِعُ بِهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْبَاطِلِ ، وَيَقْوَى بِهَا قُلُوبُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَإِنْ كَانَتْ فِي نَفْسِهَا بَاطِلَةً فَغَيْرُهَا أَبْطَلُ مِنْهَا وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ دَرَجَاتٌ ، فَيَنْتَفِعُ بِهَا أَقْوَامٌ يَنْتَقِلُونَ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ ، (وَقَدْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنْ مُبْتَدِعَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الرَّافِضَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى الْكُفَّارِ ، فَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَانْتَفَعُوا بِذَلِكَ وَصَارُوا مُسْلِمِينَ مُبْتَدِعِينَ ، وَهُوَ

(303/365)

خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونُوا كُفَّارًا وَكَذَلِكَ بَعْضُ الْمُلُوكِ قَدْ يَغْزُو غَزْوًا يَظْلِمُ فِيهِ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُفَّارَ وَيَكُونُ آثِمًا بِذَلِكَ ، وَمَعَ هَذَا فَيَحْصُلُ بِهِ نَفْعُ خَلْقٍ كَثِيرٍ كَانُوا كُفَّارًا فَصَارُوا مُسْلِمِينَ ، وَذَاكَ كَانَ شَرًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْقَائِمِ بِالْوَاجِبِ ، وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكُفَّارِ فَهُوَ خَيْرٌ ، وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ وَالْفَضَائِلِ وَالْأَحْكَامِ وَالْقَصَصِ ، قَدْ يَسْمَعُهَا أَقْوَامٌ فَيَنْتَقِلُونَ بِهَا إِلَى خَيْرٍ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ كَذِبًا وَهَذَا كَالرَّجُلِ يُسْلِمُ رَغْبَةً فِي

الدُّنْيَا وَرَهْبَةً مِنَ السَّيْفِ ، ثُمَّ إِذَا أَسْلَمَ وَطَالَ مُكْثُهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ دَخَلَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ ، فَنَفْسُ ذُلِّ الْكُفْرِ عَلَيْهِ وَانْقِهَارِهِ وَدُخُولِهِ فِي حُكْمِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَبْقَى كَافِرًا ، فَانْتَقَلَ إِلَى خَيْرٍ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ وَخَفَّ الشَّرُّ الَّذِي كَانَ فِيهِ ، ثُمَّ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ هِدَايَتَهُ أَدْخَلَ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى بَعَثَ الرُّسُلَ بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا ، وَتَعْطِيلِ الْمَفَاسِدِ وَتَعْلِيلِهَا ، وَالنَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دَعَا الْخَلْقَ بِغَايَةِ الْإِمْكَانِ ، وَنَقَلَ كُلَّ شَخْصٍ إِلَى خَيْرٍ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ بِحَسْبِ الْإِمْكَانِ ، (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (46 : 19) وَأَكْثَرُ الْمُتَكَلِّمِينَ يَرُدُّونَ بَاطِلًا بِبَاطِلٍ وَبِدْعَةً بِبِدْعَةٍ ، لَكِنْ قَدْ يَرُدُّونَ بَاطِلَ الْكُفَّارِ مِنَ

(304/365)

الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ بِبَاطِلِ الْمُسْلِمِينَ ، فَيَصِيرُ الْكَافِرُ مُسْلِمًا مُبْتَدِعًا ، وَأَخَصُّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَرُدُّ الْبِدَعَ الظَّاهِرَةَ كَبِدْعَةِ الرَّافِضَةِ بِبِدْعَةٍ أَخَفَّ مِنْهَا وَهِيَ بِدْعَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَقَدْ ذَكَرْنَا فِيمَا تَقَدَّمَ أَصْنَافَ الْبِدَعِ ، انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ .

(أَقُولُ) كُلُّ الْمُشَاهَدَاتِ الَّتِي نَقَلَ خَبَرَهَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ هُنَا مَشْهُورَةٌ عَنْ أَهْلِ عَصْرِهِ وَأَهْلِ عَصْرِنَا ، وَقَدْ نَقَلَ عَنِ الشِّيعَةِ أَنَّهُمْ يَسْتَفْتُونَ الْمَهْدِيَّ الْمُنْتَظَرَ فِي بَعْضِ الْمُشْكِلَاتِ ،

فَيَضَعُونَ

وَرَقَةَ الِاسْتِفْتَاءِ فِي كُلِّ شَجَرَةٍ ثُمَّ يَجِدُونَ الْفَتْوَى مَكْتُوبَةً عَلَيْهَا وَأَنَّهَا عِنْدَهُمْ مِنْ أَقْوَى الْحُجَجِ أَوْ أَقْوَاهَا ، وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا فِي الْمَنَارِ ، وَمِنْ هَذَا مَا يَكُونُ مِنْ حِيَلِ شَيَاطِينِ النَّاسِ وَتَزْوِيرِهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُمْ شَرٌّ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ .

(بَعْضُ حِكَايَاتِ النَّصَارَى الْمُعَاصِرِينَ فِي رُؤْيَةِ الْمَسِيحِ وَمَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) .

(305/365)

إِنَّ الَّذِينَ يَتَرَاءَى لَهُمُ الْمَسِيحُ أَوْ أُمُّهُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَوْ غَيْرُهُمَا مِنَ الْقِدِّيسِينَ عِنْدَهُمْ كَثِيرُونَ ، وَمِنَ الرِّجَالِ الْمَشْهُورِينَ بِهَذَا فِي هَذَا الزَّمَانِ رَشِيدٌ بِكٌّ مُطْرَانُ وَهُوَ وَجِيهٌ سُورِيٌّ مِنْ بَعْلَبَكَّ مَشْهُورٌ يُقِيمُ فِي أُورُبَّةَ وَيَكُونُ غَالِبًا فِي (بَارِيسَ) فَهُوَ يَرَى أَوْ يَتَرَاءَى لَهُ مِثَالُ السَّيِّدَةِ مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ فِي الْيَقَظَةِ كَثِيرًا وَيَسْأَلُهَا عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يُشْكِلُ عَلَيْهِ فَتُجِيبُهُ . وَحَدَّثَنِي الْأَمِيرُ شَكِيبُ أَرْسَلَانُ عَنْهُ أَنَّهُ سَأَلَهَا مَرَّةً عَنْ نَبِيِّنَا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَأَجَابَتْهُ مُثْنِيَةً عَلَيْهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ثَنَاءً عَظِيمًا لَمْ أَحْفَظْهُ .

(306/365)

وَقَرَأْتُ فِي جَرِيدَةِ مِرْآةِ الْغَرْبِ الْغَرْبِيَّةِ الَّتِي صَدَرَتْ فِي (نِيوُيورْكَ) فِي مَارِسَ سَنَةَ 1933 رِسَالَةً مِنْ عَمَّانَ عَاصِمَةِ إِمَارَةِ شَرْقِ الْأُرْدُنِّ كُتِبَتْ فِي 26 مِنْ كَانُونَ الثَّانِي (يَنَايِرَ) سَنَةَ 1923 (الْمُوَافِقِ 29 رَمَضَانَ سَنَةَ 1351) مُلَخَّصُهَا أَنَّ امْرَأَةً نَصْرَانِيَّةً فِي عَمَّانَ اسْمُهَا حِنَّةُ بِنْتُ إِلْيَاسَ غَابِي الْمُلَقَّبِ صِهْرَ اللهِ مُتَزَوِّجَةً وَلَهَا أَوْلَادٌ وَأَخٌ، فَقِيرَةٌ مَشْهُورَةٌ بِالتَّقْوَى عَرَضَ لَهَا مُنْذُ سَنَةٍ وَنِصْفٍ نَزِيفٌ دَمَوِيٌّ عَقِبَ الْوِلَادَةِ وَأُرِيدَ عَمَلُ عَمَلِيَّةٍ جِرَاحِيَّةٍ لَهَا فَأُرْشِدَتْ إِلَى التَّوَجُّهِ أَوَّلًا إِلَى الطَّبِيبِ السَّمَاوِيِّ، فَدَعَتْ يَسُوعَ لَيْلًا ثُمَّ ذَهَبَتْ إِلَى الْكَنِيسَةِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ لِتُصَلِّيَ وَهِيَ فِي حَالٍ غَيْبُوبَةٍ أَوْ عَقِبَ رُؤْيَا، فَرَأَتِ الْكَنِيسَةَ خَالِيَةً وَشَاهَدَتْ فِي الْهَيْكَلِ شَخْصًا يُحِيطُ بِهِ نُورٌ عَظِيمٌ فَاشْتَدَّ خَوْفُهَا وَرُعْبُهَا، فَدَعَاهَا وَقَالَ لَهَا: لَا تَخَافِي أَنَا الْمَسِيحُ، فَرَكَعَتْ عَلَى قَدَمَيْهِ وَقَالَتْ لَهُ اشْفِنِي يَا سَيِّدُ، فَقَالَ لَهَا: حَسَبَ إِيمَانِكِ يَكُونُ لَكِ، فَبَرِئَتْ وَقَرَّرَ الْأَطِبَّاءُ بَعْدَ فَحْصِهَا أَنَّهُ لَمْ تَبْقَ حَاجَةٌ إِلَى الْعَمَلِيَّةِ الْجِرَاحِيَّةِ فَازْدَادَتْ عِبَادَةً وَتَقْوَى.

(307/365)

(وَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الرَّابِعُ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ ك2 مِنْ (يَنَايِرَ) شَعَرَتْ فِي مُنْتَصَفِ السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ بَعْدَ نِصْفِ اللَّيْلِ بِيَدٍ تَهُزُّهَا مِنَ الْكَتِفِ ، فَفَتَحَتْ عَيْنَيْهَا فَإِذَا نُورٌ عَظِيمٌ فِي الْغُرْفَةِ وَفِي وَسَطِ النُّورِ شَخْصُ الْمَلَاكِ يَقُولُ لَهَا : سَيَحْدُثُ ضِيقٌ عَظِيمٌ فِي الْعَالَمِ ، وَلَكِنْ لَا تَخَافُوا وَسَتَكُونُ لَكُمْ هَذِهِ الْعَلَامَةُ – وَكَانَ بِيَدِهِ كَأْسٌ فَغَمَسَ الْيَدَ الْأُخْرَى فِي الْكَأْسِ وَبِأَصَابِعِهِ الثَّلَاثِ وَضَعَ عَلَى جَبِينِهَا عَلَامَةً ثُمَّ تَرَكَهَا وَقَالَ : اعْطُوا مَجْدَ اللهِ فَقَامَتْ وَصَارَتْ تُمَجِّدُ اللهَ بِصَوْتٍ عَالٍ فَهَبَّ أَهْلُهَا وَقَالُوا لَهَا : مَاذَا جَرَى لَكِ ؟ فَقَالَتْ :

أَلَمْ تَرَوُا النُّورَ وَتَسْمَعُوا الصَّوْتَ ؟ قَالُوا لَا ، قَالَتْ : جِيئُونِي بِالضَّوْءِ ، فَلَمَّا أَحْضَرُوا الْقِنْدِيلَ رَأَوْا فِي جَبِينِهَا عَلَامَةَ طَائِرٍ يُشْبِهُ النَّسْرَ صَافًّا جَنَاحَيْهِ مُمْتَدًّا عَلَى طُولِ جَبِينِهَا وَعَرْضِهِ (أَيْ جَبْهَتِهَا) وَلَيْسَ مَاسًّا لِلْحَاجِبَيْنِ وَلَا شَعْرِ الرَّأْسِ ، وَلَوْنُهُ عُنَّابِيٌّ كَالدَّمِ وَرَسْمُهُ مُتْقَنٌ كَأَنَّهُ رَسْمُ فَنَّانٍ عَظِيمٍ) .

وَقَالَتْ كَاتِبَةُ الرِّسَالَةِ : إِنَّ أَهْلَ عَمَّانَ لَمَّا عَلِمُوا بِهَذِهِ الْحَادِثَةِ أَقْبَلَ النَّاسُ مِنْ وَطَنِيِّينَ وَأَجَانِبَ عَلَى اخْتِلَافِ أَدْيَانِهِمْ فَشَاهَدُوا هَذَا الرَّسْمَ وَعُنِيَ الْأَطِبَّاءُ بِإِزَالَتِهِ فَعَجَزُوا ، وَإِنَّ الَّذِينَ شَاهَدُوهَا يُعَدُّونَ بِالْمِئَاتِ ، ثُمَّ نَقَلَتْ عَنْ قِسِّيسٍ مَعْرُوفٍ جَاءَ مِنْ نَابُلُسَ وَكَتَبَ عَنْهَا مَا يَأْتِي مُلَخَّصًا :

(قَالَتْ إِنَّهُ ظَهَرَ لَهَا الْمَلَاكُ مَرَّةً ثَانِيَةً فِي لَيْلَةِ السَّبْتِ السَّابِعَةِ مِنَ الشَّهْرِ نَفْسِهِ (يَنَايِرَ) وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى جَبِينِهَا فَزَالَتِ الْعَلَامَةُ ، فَقَالَتْ لَهُ يَا رَبِّ ارْفَعِ الضِّيقَ عَنِ الْعَالَمِ ، فَقَالَ : (سَيَرَوْنَ أَعْمَالَ اللهِ) قَالَتْ : ارْحَمْنَا يَا رَبِّ ، قَالَ : (تَكْفِيكُمْ نِعْمَتِي) وَفِي ثَانِي لَيْلَةٍ أَفَاقَ أَهْلُهَا فَوَجَدُوهَا وَاقِفَةً تَتَكَلَّمُ بِالْعِبْرَانِيِّ فَكَتَبُوا مَا قَالَتْهُ وَتَرْجَمُوهُ بِالنَّهَارِ فَإِذَا هُوَ تَسْبِيحٌ وَتَمْجِيدٌ لِلَّهِ ثُمَّ تَكَرَّرَ ذَلِكَ مِنْهَا فِي اللَّيَالِي التَّالِيَةِ بِاللُّغَاتِ الْأَلْمَانِيَّةِ وَالْفَرَنْسِيَّةِ وَالطَّلْيَانِيَّةِ وَفِي الْخَامِسَةِ وَثُلُثٍ بِالْعَرَبِيِّ وَالْيُونَانِيِّ ، وَكَانَتْ تَرْتِيلَةُ الْعَرَبِيِّ مِنْ نَظْمِهَا وَقَوْلُهَا (اصْفَحْ عَنْ ذَنْبِي يَا رَبِّي ، خُذْنِي يَا رَبِّي ، خُذْنِي إِلَى أُورْشَلِيمَ) ثُمَّ لَمْ يَحْدُثْ شَيْءٌ . إِلَّا أَنَّ الْمَلَاكَ ظَهَرَ لَهَا لَيْلَةَ 17 مِنَ الشَّهْرِ وَوَضَعَ عَلَيْهَا الْعَلَامَةَ وَقَالَ : (لِتَكُنْ هَذِهِ الْعَلَامَةُ مُبَارَكَةً ثُمَّ اخْتَفَى ، ثُمَّ ظَهَرَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ وَمَحَا الْعَلَامَةَ . انْتَهَى بِاخْتِصَارٍ وَبِلَفْظِهِ إِلَّا تَصْحِيحَ كُلَيْمَاتٍ قَلِيلَةٍ .

(309/365)

(أَقُولُ) سُئِلَ بَعْضُ أُدَبَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي عَمَّانَ كِتَابَةً عَنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ ، وَعَمَّا رُوِيَ فِي بَعْضِ الْجَرَائِدِ مِنْ رُؤْيَةِ مَوْتَى مِنَ الصَّحَابَةِ لَمْ تَبْلَ أَجْسَادُهُمْ وَلَا لَفَائِفُهُمْ فَأَنْكَرَهَا . وَقَدْ سَبَقَ لِي تَحْقِيقٌ لِأَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ مُلَخَّصُهُ أَنَّ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ مَحْضٌ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ تَخَيُّلٌ

وَلَّدَتْهُ الْأَوْهَامُ يُشْبِهُ الرُّؤَى وَالْأَحْلَامَ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ رُؤْيَةٌ لِشَيْءٍ مَوْجُودٍ فِي الْخَارِجِ مِنْ عَالَمِ الْأَرْوَاحِ الَّتِي تَتَمَثَّلُ بِأَجْسَامٍ لَطِيفَةٍ جِدًّا لَا يُدْرِكُهَا إلَّا بَعْضُ النَّاسِ فِي أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ التَّجَرُّدِ مِنْ كَثَافَةِ الْحِسِّ ، وَمِنْهَا مَا يَتَمَثَّلُ بِصُورَةٍ مَادِّيَّةٍ كَثِيفَةٍ كَمَا صَحَّ مِنْ رُؤْيَةِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - لِلْمَلَكِ

(310/365)

وَلِلْجِنِّ ، وَالْمُشْتَغِلُونَ مِنَ الْإِفْرِنْجِ بِمُعَالَجَةِ رُؤْيَةِ الْأَرْوَاحِ يُسَمُّونَ صَاحِبَ الِاسْتِعْدَادِ الْخَاصِّ لِرُؤْيَةِ الْأَرْوَاحِ بِالْوَسِيطِ ، وَالرَّاجِحُ عِنْدَنَا أَنَّ أَكْثَرَ الْمُدَّعِينَ لِذَلِكَ أُولُو كَذِبٍ وَحِيَلٍ وَتَلْبِيسٍ ، وَأَنَّ أَقَلَّهُمْ يَرَوْنَ بَعْضَ الشَّيَاطِينِ مِنْ جُنْدِ إبْلِيسَ ، وَلَا سِيَّمَا شَيَاطِينِ الْمَوْتَى وَقُرَنَائِهِمُ الْعَارِفِينَ بِأَحْوَالِهِمْ ، وَشَيْخُ الْإِسْلَامِ يَقُولُ مَا قَرَأْتَ آنِفًا ، وَهَذَا الَّذِي يَقُولُهُ لَا يُنْكِرُ أَحَدٌ مِنَ الصُّوفِيَّةِ وُقُوعَهُ لِكِبَارِ شُيُوخِهِمْ ، بَلْ أَثْبَتُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ يَتَرَاءَى لَهُمْ وَيُلَقِّنُهُمْ كَلَامًا مُدَّعِيًا أَنَّهُ رَبُّهُمْ ، كَمَا حَكَاهُ الشَّعْرَانِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيِّ الَّذِي اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ كَانَ الْقُطْبَ الْغَوْثَ الْأَكْبَرَ .

وَمُلَخَّصُهُ أَنَّهُ رَأَى نُورًا عَظِيمًا مَلَأَ الْأُفُقَ وَسَمِعَ مِنْهُ صَوْتًا يُخَاطِبُهُ بِأَنَّهُ رَبُّهُ وَقَدْ أَحَلَّ لَهُ الْمُحَرَّمَاتِ ، فَقَالَ لَهُ : اخْسَأْ يَا لَعِينُ ، فَتَحَوَّلَ النُّورُ ظَلَامًا وَدُخَانًا ، وَقَالَ لَهُ قَدْ نَجَوْتَ مِنِّي

بِفِقْهِكَ إِلَخْ . وَأَنَّهُ فُتِنَ بِهَذَا كَثِيرِينَ مِنْ كِبَارِ الشُّيُوخِ ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ جَمِيعَ غُلَاةِ الصُّوفِيَّةِ قَدِ ادَّعَوْا أَنَّ اللهَ خَاطَبَهُمْ بِالْحَقَائِقِ وَكَشَفَ لَهُمْ مِنْهَا مَا لَمْ يَكْشِفْهُ لِغَيْرِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَهُمْ يَتَعَارَضُونَ فِي دَعَاوِيهِمُ الشَّيْطَانِيَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ .

(311/365)

وَلِلشَّيْخِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الشَّعْرَانِيِّ كِتَابٌ صَغِيرٌ سَمَّاهُ (الْأَنْوَارَ الْمُقَدَّسَةَ ، فِي بَيَانِ آدَابِ الْعُبُودِيَّةِ) مَطْبُوعٌ مَعَ كِتَابِهِ الطَّبَقَاتِ ، ذَكَرَ فِي أَوَّلِهِ أَنَّهُ سَمِعَ وَهُوَ فِي حَالَةٍ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ هَاتِفًا يَسْمَعُ صَوْتَهُ وَلَا يَرَى شَخْصَهُ يَقُولُ لَهُ عَلَى لِسَانِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَلَامًا ذَكَرَهُ قَالَ : (فَمَا اسْتَتَمَّ هَذَا الْكَلَامُ وَبَقِيَ عِنْدِي شَهْوَةُ نَفْسٍ لِمَقَامٍ مِنْ مَقَامِ الْأَوْلِيَاءِ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ثُمَّ بَسَطَ الْكَلَامَ عَلَى مُرَادِهِمْ بِالْهَاتِفِ وَعَلَّلَهُ بِقَوْلِهِ : (خَوْفًا أَنْ يَتَوَهَّمَ أَحَدٌ مِنَ الْقَاصِرِينَ الَّذِينَ لَا مَعْرِفَةَ عِنْدَهُمْ بِمَرَاتِبِ الْوَحْيِ أَنَّ ذَلِكَ وَحْيٌ كَوَحْيِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَأَقُولُ : (اعْلَمْ أَنَّ الْهَاتِفَ الْمَذْكُورَ لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَلَكًا أَوْ وَلِيًّا أَوْ مِنْ صَالِحِي الْجِنِّ أَوْ هُوَ الْخِضْرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ ; لِأَنَّ الْخِضْرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيٌّ بَاقٍ لَمْ يَمُتْ ، وَقَدِ اجْتَمَعْنَا بِمَنِ اجْتَمَعَ بِهِ وَبِالْمَهْدِيِّ وَأَخَذَ عَنْهُمَا طَرِيقَ الْقَوْمِ إِلَخْ .

ثُمَّ إِنَّهُ جَعَلَ الْوَحْيَ أَقْسَامًا وَضُرُوبًا كَثِيرَةً وَذَكَرَ مِنْهَا الْكَهَانَةَ وَالزَّجْرَ - أَيْ وَهُوَ أَسْفَلُهَا - وَوَحْيَ التَّشْرِيعِ الدِّينِيِّ الْخَاصَّ بِالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَمَا بَيْنَهُمَا .

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ بَعْضَ الْفُقَرَاءِ مِنَ الْإِخْوَانِ سَأَلَهُ أَنْ يُمْلِيَ عَلَيَّ إِلْقَاءَ الْهَاتِفِ الَّذِي سَمِعَهُ جُمْلَةً

(312/365)

مِمَّا فَهِمَهُ مِنْ آدَابِ الْعُبُودِيَّةِ وَآدَابِ طَلَبِ الْعِلْمِ وَآدَابِ الْفُقَرَاءِ عُمُومًا وَخُصُوصًا (وَمَا يَدْخُلُ عَلَى كُلِّ طَائِفَةٍ مِنَ الدَّسَائِسِ فِي مَقَاصِدِهِمْ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ لَهُمْ بِالْمِرْصَادِ وَلَا يَنْجُو مِنْهُ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْ عِبَادِ اللهِ) وَهَذَا مَحَلُّ الشَّاهِدِ .

وَأَقُولُ : إِنَّ هَاتِفَهُ الَّذِي جَعَلَهُ الْأَصْلَ لِهَذَا التَّأْلِيفِ هُوَ مِنْ دَسَائِسِ الشَّيْطَانِ أَيْضًا ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُوَافِقٍ لِلشَّرْعِ الْمَعْصُومِ ، بَلْ فِي هَذَا الْكِتَابِ كَثِيرٌ مِنَ الْمُخَالَفَةِ لَهُ وَكَذَا كِتَابِهِ الطَّبَقَاتِ فَهِيَ مَنْ أَشَدِّ الْكُتُبِ إِفْسَادًا لِلدِّينِ أُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ وَآدَابِهِ بِمَا فِيهَا مِنْ وَحْيِ الشَّيَاطِينِ ، فَقَدْ أَصْبَحَ الْمَلَايِينُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُشْرِكِينَ بِاللهِ تَعَالَى بِعِبَادَةِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُسَمُّونَهُمُ الْأَوْلِيَاءَ وَقَبُولِ مَا نُقِلَ عَنْهُمْ مِنْ وَحْيِ الشَّيَاطِينِ ، وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الدَّجَّالِينَ وَمُدَّعِي عِلْمِ الْغَيْبِ وَقَضَاءِ الْحَوَائِجِ بِالْكَرَامَاتِ أَوِ اسْتِخْدَامِ الْجِنِّ ، وَهَؤُلَاءِ الدَّجَّالُونَ يَسْلُبُونَ أَمْوَالَهُمْ ، وَيَهْتِكُونَ أَعْرَاضَهُمْ ، وَفِي نَصِّ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى أَنَّ الْجِنَّ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ، وَأَصْبَحَ فَرِيقٌ آخَرُ مِنَ

الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ تَلَقَّوُا الْعُلُومَ الْعَصْرِيَّةَ وَتَرَبَّوْا تَرْبِيَةً اسْتِقْلَالِيَّةً ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينٌ خُرَافِيٌّ كَغَيْرِهِ مِنَ الْأَدْيَانِ .

(313/365)

عَلَى أَنَّ مِنْ دُعَاةِ الْأَدْيَانِ وَالنِّحَلِ الْجَدِيدَةِ الْمُتَوَلِّدَةِ مِنَ التَّصَوُّفِ مَنْ أَلْبَسُوا دَعَايَتَهُمْ ثَوْبَ الْمَدَنِيَّةِ الْعَصْرِيَّةِ ، وَهُمْ يَبُثُّونَهَا فِي بِلَادِ الْإِفْرِنْجِ كَالْبَهَائِيَّةِ وَالْقَادِيَانِيَّةِ الْأَحْمَدِيَّةِ ، وَكُلُّ خِلَابَتِهِمْ مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ تَأْوِيلَاتِ الصُّوفِيَّةِ الَّذِينَ ادَّعَوُا الْوَحْيَ وَادَّعَوُا الْأُلُوهِيَّةَ مِنْ طَرِيقِ وَحْدَةِ الْوُجُودِ وَغَيْرِهِ كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا .

وَالْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ قَدْ جَعَلَهَا اللهُ وَسَطًا بَيْنَ الْغَالِينَ وَالْمُقَصِّرِينَ ، مِنَ الْمُعَطِّلِينَ وَالْمُشْرِكِينَ ، فَهِيَ لَا تَعْبُدُ إِلَّا اللهَ ، وَلَا تُؤْمِنُ بِوَحْيٍ وَلَا نُبُوَّةٍ لِأَحَدٍ بَعْدَ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَلَا بِتَشْرِيعٍ دِينِيٍّ إِلَّا مَا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ ، وَلَا بِوِلَايَةٍ إِلَّا مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي كِتَابِ اللهِ ، وَقَدْ صَارَ الْمُعْتَصِمُونَ بِهَذَا فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْبِلَادِ ، الَّتِي انْتَشَرَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَسَادُ ، جَمَاعَاتٍ قَلِيلَةَ الْأَفْرَادِ ، فَإِنْ لَمْ يَنْصُرْهَا اللهُ ضَاعَ فِيهَا الْإِسْلَامُ .

(اسْتِطْرَادٌ ، فِي أَصْلِ الْإِسْلَامِ ، وَمَا طَرَأَ عَلَيْهِ مِنَ الْفَسَادِ)

(مِنْ طَرِيقِ السِّيَاسَةِ وَالْفَلْسَفَةِ وَالتَّصَوُّفِ)

(314/365)

أَيُّهَا الْقَارِئُ لِهَذَا التَّفْسِيرِ ، قَدْ آنَ أَنْ أُصَارِحَكَ بِمَسَائِلَ مُخْتَصَرَةٍ هِيَ ثَمَرَةُ عِلْمٍ وَعَمَلٍ وَعِبَادَةٍ وَرِيَاضَةٍ وَتَصَوُّفٍ وَتَعْلِيمٍ وَتَصْنِيفٍ وَمُنَاظَرَاتٍ وَمُحَاجَّةٍ فِي مُدَّةِ نِصْفِ قَرْنٍ كَامِلٍ ، لَمْ يَشْغَلْنِي عَنْهَا مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا شَاغِلٌ ، وَإِنَّهَا لَكَلِمَاتٌ فِي حَقِيقَةِ دِينِ اللهِ وَعُلَمَائِهِ وَعِبَادِهِ صَادِرَةٌ عَنْ بَصِيرَةٍ وَتَجْرِبَةٍ ، فَتَأَمَّلْهَا بِإِخْلَاصٍ وَاسْتِقْلَالِ فِكْرٍ ، وَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنِ النَّظَرِ فِيهَا لِذَاتِهَا وَالِاعْتِمَادِ فِي ثُبُوتِهَا عَلَى مَصَادِرِهَا ، حِرْمَانُ الْمُعَاصِرَةِ ، وَاحْتِقَارُ الْأَحْيَاءِ ، وَتَقْدِيسُ شُهْرَةِ الْأَمْوَاتِ ، وَاتِّهَامُ قَائِلِهَا بِالْغُرُورِ وَالدَّعْوَى ، فَإِنْ عَرَضَ لَكَ رَيْبٌ أَوْ شُبْهَةٌ فِي شَيْءٍ مِنْهَا فَارْجِعْ إِلَى مَصَادِرِهَا وَدَلَائِلِهَا ، أَوِ ارْجِعْ إِلَى كَاتِبِهَا فَاسْأَلْهُ عَنْهَا ، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ غَرَضُكَ مَعْرِفَةُ الْحَقِّ لِذَاتِهِ ، دُونَ التَّعَصُّبِ وَالْجَدَلِ ، أَوِ التَّحَرُّفِ لِمَذْهَبٍ أَوِ التَّحَيُّزِ إِلَى فِئَةٍ .

(315/365)

(الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى) أَنَّ هَذَا الدِّينَ (الْإِسْلَامَ) وَحْيٌ إِلَهِيٌّ إِلَى نَبِيٍّ أُمِّيٍّ ظَهَرَ فِي أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ جَاهِلِيَّةٍ ؛ لِيُعَلِّمَهَا الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُزَكِّيَهَا بِالْعِلْمِ وَالْعَدْلِ وَالْفَضِيلَةِ ، فَيَجْعَلَهَا بِهِ مُعَلِّمَةً وَهَادِيَةً لِجَمِيعِ شُعُوبِ التَّعْطِيلِ وَالْأَدْيَانِ وَالْفَلْسَفَةِ وَالْحَضَارَةِ ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ شَهِدَ فِي كِتَابِهِ بِأَنَّهُ أَكْمَلَ هَذَا الدِّينَ لِعِبَادِهِ فِي آخِرِ عُمْرِ نَبِيِّهِ ، لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَزِيدَ فِيهِ بَعْدَهُ عَقِيدَةً وَلَا عِبَادَةً وَلَا تَحْرِيمًا دِينِيًّا مُطْلَقًا ، وَلَا تَشْرِيعًا مَدَنِيًّا ، إِلَّا مَا أَذِنَ بِهِ لِأُولِي الْأَمْرِ مِنَ الِاجْتِهَادِ عَلَى أَسَاسِ نُصُوصِهِ وَقَوَاعِدِهِ ، فَكَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ وَأَفْقَهَهُمْ بِهِ وَأَصَحَّهُمْ دَعْوَةً إِلَيْهِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، وَالْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، أُولَئِكَ الْأُمِّيُّونَ الَّذِينَ تَلَقَّوْهُ عَنْ ذَلِكَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَهُمْ خُلَفَاؤُهُ وَأَصْحَابُهُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ – فَهَذِهِ إِحْدَى مُعْجِزَاتِهِ إِذْ لَوْ كَانَ هَذَا الدِّينُ وَضْعًا بَشَرِيًّا لَكَانَ كَسَائِرِ الْعُلُومِ وَالْأَعْمَالِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي تَظْهَرُ مَبَادِئُهَا الْأُولَى نَاقِصَةً ثُمَّ تَنْمَى (وَفِي لُغَةٍ ضَعِيفَةٍ اشْتُهِرَتْ تَنْمُو) وَتَتَكَامَلُ بِالتَّدْرِيجِ ، فَهَذِهِ سُنَّةٌ مِنَ السُّنَنِ الْمُطَّرِدَةِ فِي عُلُومِ الْبَشَرِ .

(316/365)

(الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ) مِنَ الْبَرَاهِينِ الْعِلْمِيَّةِ الثَّابِتَةِ بِالشَّوَاهِدِ الْعَمَلِيَّةِ ، عَلَى أَنَّ هَذَا الدِّينَ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى ، أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدِ اهْتَدَوْا بِإِرْشَادِهِ إِلَى الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ فِي جَمِيعِ أُمُورِ الْعَالَمِ

السَّمَاوِيِّ وَالْأَرْضِيِّ ، وَلَا سِيَّمَا نَوْعِ الْإِنْسَانِ وَعُلُومِهِ وَفَلْسَفَتِهِ وَأَدْيَانِهِ وَنُظُمِهِ وَتَشْرِيعِهِ وَآدَابِ شُعُوبِهِ فَازْدَادُوا بِكُلِّ مِنْ ذَلِكَ عِلْمًا بِحَقِّيَّةِ الْمَسْأَلَةِ الْأُولَى ، وَظَهَرَ لِلرَّاسِخِينَ فِي عِلْمِهِ أَنَّ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ أُولَئِكَ الْأُمِّيُّونَ الْأَوَّلُونَ أَوْ أَكْثَرُهُمْ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّ كُلَّ مَا خَالَفَ نُصُوصَهُ الْقَطْعِيَّةَ مِنَ الْعَقَائِدِ

(317/365)

وَالْآرَاءِ وَالْأَفْكَارِ الْبَشَرِيَّةِ فَهُوَ بَاطِلٌ ، وَمِنْهُ جَمِيعُ نَظَرِيَّاتِ الْمُتَكَلِّمِينَ الْعَقْلِيَّةِ ، وَكَشْفُ فَلْسَفَةِ الصُّوفِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ ، وَأَنَّ الْمَصْلَحَةَ لِلْمُسْلِمِينَ وَلِلْبَشَرِ كَافَّةً أَنْ يَقْصُرُوا هِدَايَةَ الدِّينِ عَلَى نُصُوصِ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّلَةِ ، وَمَا بَيَّنَهُ مِنْ سُنَّةِ الرَّسُولِ الْمُتَّبَعَةِ ، وَسِيرَةِ خُلَفَائِهِ وَجُمْهُورِ عِتْرَتِهِ وَأَصْحَابِهِ قَبْلَ فُشُوِّ الِابْتِدَاعِ وَالتَّفَرُّقِ فِي الْمِلَّةِ ، ثُمَّ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ عُلَمَاءُ الْأَمْصَارِ مِنْ مُجْتَهِدِي الْأُمَّةِ ، وَأَنْ يَعْذُرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيمَا لَا يَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الْأُصُولِ مِنَ الْمَسَائِلِ غَيْرِ الْقَطْعِيَّةِ فِي الدِّينِ فَلَا يَجْعَلُوهُ سَبَبًا لِلتَّفَرُّقِ وَالشِّقَاقِ ، بِالتَّعَصُّبِ لِلْمَذَاهِبِ وَالشِّيَعِ وَالْأَحْزَابِ ؛ لِئَلَّا يَكُونُوا مِمَّنْ قَالَ اللهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ فِيهِمْ : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) (6 : 159) فَاسْتَحَقُّوا وَعِيدَ قَوْلِهِ : (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ

انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) (6 : 65) وَقَوْلِهِ : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (3 : 105) .

(318/365)

(الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ) أَنَّ الْبِدَعَ الَّتِي فَرَّقَتِ الْأُمَّةَ فِي أُصُولِ دِينِهَا وَجَعَلَتْهَا شِيَعًا تُؤْثِرُ كُلُّ شِيعَةٍ أَتْبَاعَ زُعَمَائِهَا وَمَذَاهِبِهَا عَلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَهَدْيِ سَلَفِهِ الصَّالِحِ بِالتَّأْوِيلِ ، مِنْ حَيْثُ تَدَّعِي أَنَّ أَئِمَّتَهَا أَعْلَمُ مِنْ مُخَالِفِيهِمْ بِتَأْوِيلِ الْكِتَابِ وَالْحَدِيثِ ، وَأَنَّ بَعْضَهُمْ مُؤَيَّدٌ بِالْكَشْفِ وَبَعْضَهُمْ بِالْعِصْمَةِ ، فَهُمْ أَحَقُّ بِأَنْ يُقَلَّدُوا وَيُتَّبَعُوا ، وَلَكِنَّ الْأَعْلَمَ إِنَّمَا يُعْلَمُ بِالدَّلِيلِ لَا بِالتَّقْلِيدِ ، وَإِنَّمَا تُفْهَمُ النُّصُوصُ بِقَوَاعِدِ اللُّغَةِ وَالسُّنَّةِ الْعَمَلِيَّةِ لَا بِمَا اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ مِنَ التَّأْوِيلِ ، وَلِهَذِهِ الْبِدَعِ الْمُفَرِّقَةِ ثَلَاثُ مَثَارَاتٍ مِنْ أَرْكَانِ حَضَارَةِ الْأُمَمِ الثَّلَاثَةِ وَهِيَ : السِّيَاسَةُ وَالسُّلْطَانُ ، وَالْعِلْمُ الْعَقْلِيُّ وَالْعُرْفَانُ

وَفَلْسَفَةُ التَّعَبُّدِ وَالْوِجْدَانِ ، وَمَا يَتْبَعُهُ مِنْ دَعْوَى عِلْمِ الْغَيْبِ الْمُسَمَّى بِالْكَشْفِ ، وَالْكَرَامَاتِ الشَّامِلَةِ لِدَعْوَى التَّصَرُّفِ فِي الْكَوْنِ ، وَنَقُولُ فِي كُلٍّ مِنْهَا كَلِمَةً :

(319/365)

(1) السِّيَاسَةُ الدَّوْلِيَّةُ وَكَانَ مَثَارَهَا الْأَوَّلَ مَا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - ، ثُمَّ كَانَ أَشَدَّهَا إِفْسَادًا مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالشِّيعَةِ ، وَقَدْ زَالَتِ الْخِلَافَةُ وَضَاعَتْ سِيَادَةُ الْأُمَّةِ مِنْ أَكْثَرِ الْعَالَمِ ، وَمَفَاسِدُهَا لَا تَزَالُ مَاثِلَةً ، بِمَا لِلزُّعَمَاءِ الْمُسْتَغِلِّينَ لَهَا مِنَ الْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ الزَّائِلَةِ ، وَإِنَّهَا لَعَصَبِيَّةٌ قَضَتْهَا السِّيَاسَةُ ، وَسَتَقْضِي عَلَيْهَا السِّيَاسَةُ ، وَقَدْ زَالَتِ السُّلْطَةُ الدِّينِيَّةُ مِنْ بَعْضِ مَمَالِكِ الْمُسْلِمِينَ وَبَقِيَ لَهَا بَقِيَّةٌ فِي بَعْضٍ ، وَبَعْضُهَا مُذَبْذَبَةٌ بَيْنَ بَيْنَ ، وَلَا مَحَلَّ لِبَسْطِ ذَلِكَ هُنَا وَلَا فَائِدَةَ فِي هَذَا الْوَقْتِ . إِلَّا التَّذْكِيرُ بِأَنَّ الْمُنْتَمِينَ إِلَى مَذَاهِبِ السُّنَّةِ قَدْ غَلَبَهُمْ جَهَلَةُ الْأَعَاجِمِ عَلَى خِلَافَتِهِمْ بَعْدَ أَنْ جَعَلُوهَا عَصَبِيَّةً وِرَاثِيَّةً ، فَلَمْ يَعْمَلُوا أَيَّ عَمَلٍ لِتَقْوِيَتِهَا بَعْدَ ضَعْفِهَا ، وَلَا لِإِحْيَائِهَا بَعْدَ مَوْتِهَا وَلَمْ يَضَعُوا نِظَامًا لِلِاسْتِعْدَادِ لِذَلِكَ عِنْدَ سُنُوحِ الْفُرْصَةِ كَمَا فَعَلَ الْكَاثُولِيكُ بِنِظَامِ الْفَاتِيكَانِ الْبَابَوِيِّ ، وَكَانَتِ الزَّيْدِيَّةُ مِنَ الشِّيعَةِ الْمُعْتَدِلَةِ أَشَدَّ حَزْمًا وَاعْتِصَامًا مِنْهُمْ بِنَصْبِ إِمَامٍ بَعْدَ إِمَامٍ لَهُمْ فِي جِبَالِ الْيَمَنِ يَتَوَلَّوْنَهُ وَيُقَاتِلُونَ مَعَهُ بَيْدَ أَنَّهُمْ قَصَّرُوا فِي وَضْعِ نِظَامٍ لِتَعْمِيمِ الدَّعْوَةِ ، وَالِاسْتِعْدَادِ لَهُ بِالْعِلْمِ وَالْمَالِ وَالْقُوَّةِ .

(320/365)

وَلَكِنَّ غُلَاةَ الشِّيعَةِ نَقَضُوا أَرْكَانَ الْإِسْلَامِ مِنْ أَسَاسِهِ بِدَعَايَةِ عِصْمَةِ الْأَئِمَّةِ ، وَتَأْوِيلِ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَكَانَ هَذَا أَصْلَ كُلِّ ابْتِدَاعٍ مُخْرِجٍ مِنَ الْمِلَّةِ ، إِذِ انْتَهَى بِأَهْلِهِ إِلَى ادِّعَاءِ الْوَحْيِ وَادِّعَاءِ الْأُلُوهِيَّةِ ، فَخَرَجُوا مِنَ الْمِلَّةِ سِرًّا فَعَلَانِيَةً .

(2) النَّظَرِيَّاتُ الْعَقْلِيَّةُ وَتَحْكِيمُهَا فِي النُّصُوصِ النَّقْلِيَّةِ ، وَكَانَ أَضَرَّهَا وَشَرَّهَا ذَلِكَ التَّنَازُعُ بَيْنَ أَئِمَّةِ الِاتِّبَاعِ وَعَلَى رَأْسِهِمُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ، وَدُعَاةِ الِابْتِدَاعِ مِنْ مُتَكَلِّمِي نُظَّارِ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ ، وَلَوْلَا تَدَخُّلُ سُلْطَانِ الْعَبَّاسِيِّينَ فِي نَصْرِ فَرِيقٍ عَلَى فَرِيقٍ ، لَمَا وَصَلَتْ إِلَى ذَلِكَ الْحَدِّ مِنَ الشِّقَاقِ وَالتَّفْرِيقِ ، وَقَدْ ضَعُفَتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ فِي أَكْثَرِ الْأَمْصَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهَا دُوَلٌ تَنْصُرُ بَعْضَ أَهْلِهَا عَلَى بَعْضٍ ، وَمَتَى تَوَطَّدَتْ حُرِّيَّةُ الْعِلْمِ كَانَ النَّصْرُ وَالْفَلْجُ لِأَهْلِ الْحَقِّ ، وَسَيَمُوتُ مَا بَقِيَ مِنْ عِلْمِ الْكَلَامِ بِمَوْتِ الْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ الَّتِي بُنِيَ عَلَى قَوَاعِدِهَا

(321/365)

وَنَظَرِيَّاتِهَا ، بَلْ هِيَ قَدْ مَاتَتْ وَصَارَتْ مِنْ مَوَارِيثِ التَّارِيخِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَمَاتَ هُوَ وَإِنْ بَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّةٌ تَقْلِيدِيَّةٌ فِي بَعْضِ الْمَدَارِسِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَسَيَخْلُفُهُ عِلْمٌ آخَرُ فِي حِرَاسَةِ الْعَقَائِدِ مِنْ شُبُهَاتِ الْعِلْمِ وَفَلْسَفَةِ هَذَا الْعَصْرِ ، مَعَ إِبْقَاءِ الْخَلْطِ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ عَقَائِدِ الدِّينِ وَمُحَاوَلَةِ

تَحْكِيمِ كُلٍّ مِنْهُمَا فِي الْآخَرِ ، كَمَا فَعَلَ نُظَّارُنَا الْمُتَقَدِّمُونَ فَجَنَوْا عَلَى كُلٍّ مِنْهُمَا بِمَا أَضْعَفَ سُلْطَانَ الدِّينِ فِي أَدَاءِ وَظِيفَتِهِ وَهِيَ تَزْكِيَةُ النَّفْسِ ، بِمَا يُوقِفُهَا عِنْدَ حُدُودِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، وَالْفَضِيلَةِ وَعَمَلِ الْبِرِّ ، وَأَضْعَفَ سُلْطَانَ الْعِلْمِ فِي أَدَاءِ وَظِيفَتِهِ وَهِيَ إِظْهَارُ سُنَنِ اللهِ فِي الْعَالَمِ وَتَسْخِيرِ قُوَى الطَّبِيعَةِ لِمَنَافِعِ النَّاسِ ، وَفَاقًا لِمَا أَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ ، وَقَوْلُ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – (أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

(322/365)

وَلَوْ بَقِينَا عَلَى تَأْوِيلِ الْمُتَكَلِّمِينَ لَهَانَ الْأَمْرُ ؛ لِأَنَّهُمْ يَجْرُونَ فِيهِ عَلَى قَوَاعِدِ اللُّغَةِ وَأُصُولِ الْفِقْهِ وَمُصْطَلَحِ الْحَدِيثِ ، وَلَكِنْ نَبَتَتْ نَابِتَةٌ وَدَعَايَةٌ لِتَحْكِيمِ نَظَرِيَّاتِ الْعِلْمِ الْعَصْرِيِّ وَالنَّظَرِيَّاتِ الْعَقْلِيَّةِ فِي نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَلَا بِتَأْوِيلٍ يُوَافِقُ اللُّغَةَ وَأُصُولَ الشَّرْعِ كَمَا يَقُولُ الْمُتَكَلِّمُونَ بَلْ يَتْرُكُ مَدْلُولَاتِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِأَنَّهَا غَيْرُ مُرَادَةٍ وَلَا يُمْكِنُ الْعِلْمُ بِالْمُرَادِ مِنْهَا ، وَلِبَعْضِ الدُّعَاةِ إِلَى هَذَا الْإِلْحَادِ فِي مِصْرَ كُتُبٌ تُطْبَعُ وَمَقَالَاتٌ تُنْشَرُ فِي الصُّحُفِ مُصَرِّحَةٌ بِهَذَا ، وَمَشْيَخَةُ الْأَزْهَرِ تُقِرُّهَا لِأَنَّهَا لَا تَفْهَمُهَا .

(323/365)

(3) دَعْوَى الْكَرَامَاتِ وَالْكَشْفِ ، وَتَحْكِيمُهُ فِي عَقَائِدِ الدِّينِ وَعِبَادَاتِهِ وَآدَابِهِ وَتَفْسِيرِ نُصُوصِهِ ، وَفِي أَحْكَامِ الْمُعَامَلَاتِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَقَدْ نَجَمَتِ الْبِدَعُ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ صَغِيرَةً كَقُرُونِ الْمَعْزِ ثُمَّ كَبِرَتْ فَصَارَتْ كَقُرُونِ الْوُعُولِ الَّتِي تُنَاطِحُ الصُّخُورَ ، هَاجَمَهَا عُلَمَاءُ الْمَنْقُولِ وَالْمَعْقُولِ يُؤَيِّدُهُمُ الْخُلَفَاءُ وَالْمُلُوكُ فَانْهَزَمَتْ أَمَامَهُمْ ، حَتَّى إِذَا مَا ضَعُفَ الْعِلْمُ فَصَارَ تَقْلِيدِيًّا ، وَضَعُفَ الْحُكْمُ فَصَارَ إِرْثًا جَهْلِيًّا ، وَصَارَ صُوفِيَّةُ عُلَمَاءِ الْأَزْهَرِ مِثْلِ الشَّعْرَانِيِّ وَسَلَاطِينُ مِصْرَ مِثْلَ قَايْتَبَايْ ، خَضَعَتْ رِقَابُ الْمُسْلِمِينَ لِوِلَايَةِ مِثْلِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ الْحَضَرِيِّ الَّذِي يَصْعَدُ الْمِنْبَرَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَيَخْطُبُهُمْ فَيَقُولُ : (أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ لَكُمْ إِلَّا إِبْلِيسُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ

وَالسَّلَامُ) ثُمَّ يَنْزِلُ فَيَسُلُّ السَّيْفَ فَيَهْرُبُ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَسْجِدِ فَلَمْ يَتَجَرَّأْ أَحَدٌ عَلَى دُخُولِهِ إِلَى وَقْتِ الْعَصْرِ وَيَزْعُمُ الشَّعْرَانِيُّ أَنَّ هَذَا الْوَلِيَّ الشَّيْطَانِيَّ نَفْسَهُ قَدْ خَطَبَ خُطْبَةَ الْجُمُعَةِ يَوْمَئِذٍ فِي

ثَلَاثِينَ مَسْجِدًا مِنْ مَسَاجِدِ الْقُطْرِ الْمِصْرِيِّ ، بِنَاءً عَلَى قَاعِدَتِهِمْ أَنَّ الْوَلِيَّ قَدْ يَتَمَثَّلُ بِالصُّوَرِ الْكَثِيرَةِ فِي الْأَمْكِنَةِ الْمُخْتَلِفَةِ ، كَالشَّيَاطِينِ وَالْمَلَائِكَةِ ، وَهُمْ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمَا .

وَمِثْلُهُ ذَلِكَ الْوَلِيُّ الَّذِي كَانَ يُعَارِضُ الْقُرْآنَ بِالْهَذَيَانِ ، وَالْوَلِيُّ الَّذِي كَانَ يَسْكُنُ فِي مَاخُورِ الْمُومِسَاتِ ; لِيَشْفَعَ لِكُلِّ مَنْ يَأْتِيهِنَّ عِنْدَ اللهِ وَيُمْسِكُهُ عِنْدَهُنَّ إِلَى أَنْ يُخْبِرَهُ كَشْفُهُ الشَّيْطَانِيَّ بِقَبُولِ شَفَاعَتِهِ فِيهِ وَمَغْفِرَةِ اللهِ لَهُ . وَكَانَ مِنْ كَرَامَاتِهِ إِتْيَانُ الْأَتَانِ – فَهَذَا الْكُفْرُ وَالشِّرْكُ وَالْإِلْحَادُ وَمُعَارَضَةُ الْقُرْآنِ ، وَاجْتِرَاحُ كَبَائِرِ الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ ، كُلُّهُ عِنْدَهُ وَعِنْدَ أَمْثَالِهِ مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللهِ الَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، وَيُطِيعُ أَمْرَهُمْ رِضْوَانُ خَازِنُ الْجِنَانِ ، وَمَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ ، كَمَا نَقَلَهُ الشَّعْرَانِيُّ عَنِ الدُّسُوقِيِّ ، وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّهُمْ يَتَصَرَّفُونَ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ، وَقَدْ رَسَخَتْ هَذِهِ الْخُرَافَاتُ فِي قُلُوبِ الْمَلَايِينِ مِنْ مُسْلِمِي مِصْرَ وَأَمْثَالِهَا مِنَ الْأَقْطَارِ ، فَهُمْ يَعْتَمِدُونَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَوْلِيَاءِ فِي أُمُورِ دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ .

(325/365)

وَإِنَّكَ لَتَجِدُ أَكْثَرَهُمْ يَحْتَجُّ عَلَى ذَلِكَ بِالْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي ذَكَرْنَا هَذَا الْبَيَانَ فِي صَدَدِ تَفْسِيرِهَا وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى : (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ) (39 : 34 ، 42 : 22) فَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ لِهَؤُلَاءِ الْأَوْلِيَاءِ الْخَيَالِيِّينَ ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى يُعْطِيهِمْ كُلَّ مَا أَرَادُوا لِأَنْفُسِهِمْ وَلِغَيْرِهِمْ

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا يَزْعُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّ مِنْهُمْ أَقْطَابًا مُتَصَرِّفِينَ (أَوْ مُدْرِكِينَ) بِالْكَوْنِ كُلِّهِ ، وَهَذَا افْتِرَاءٌ عَلَى اللهِ وَتَحْرِيفٌ لِكِتَابِهِ الْعَزِيزِ بِمَا هُوَ شِرْكٌ بِهِ سُبْحَانَهُ ، وَإِنَّمَا وَرَدَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ فِي عِدَّةِ سُوَرٍ فِي جَزَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ ، لَا فِي أَوْلِيَاءِ الْخَيَالِ الْخُرَافِيِّ الْمَزْعُومِ ، رَاجِعْ سُورَةَ النَّحْلِ (16 : 30 – 32) وَسُورَةَ الْفُرْقَانِ (25 : 15 ، 16) وَسُورَةَ الزُّمَرِ (39 : 33 ، 34) وَسُورَةَ الشُّورَى (42 : 22) وَسُورَةَ ق (50 : 31 – 35) .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْفِتَنِ الْمُضِلَّةِ لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ عَنِ الِاعْتِصَامِ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ الْمُبَيِّنَةِ لَهُ عَلَى النَّهْجِ الَّذِي اهْتَدَى بِهِ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الصَّالِحُ لَا يَقُومُ لِشَيْءٍ مِنْهَا حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ ظَاهِرَةٌ وَلَا كَشْفِيَّةٌ بَاطِنَةٌ ، وَلَوْ صَحَّ أَنَّهَا مِنَ الْإِسْلَامِ لَكَانَ مَا جَاءَ الرَّسُولُ نَاقِصًا ثُمَّ كَمَلَ بِهَا .

(بُطْلَانُ تَأْوِيلِ النُّصُوصِ لِلنَّظَرِيَّاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ ، بَلْ هُوَ الْبَاطِنِيَّةِ)

(326/365)

أَمَّا النَّظَرِيَّاتُ الْعَقْلِيَّةُ الَّتِي يَتَأَوَّلُ النُّصُوصَ لِأَجْلِهَا عُلَمَاءُ الْكَلَامِ ، فَقَدْ ظَهَرَ بُطْلَانُهَا وَبُطْلَانُ الْفَلْسَفَةِ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَيْهَا لِعُلَمَاءِ هَذَا الْعَصْرِ وَفَلَاسِفَتِهِ ، وَقَدْ أَجْمَعَ هَؤُلَاءِ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ

النَّظَرِيَّاتِ الْعَقْلِيَّةِ الْفَلْسَفِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ الْمُسَلَّمَةِ الْيَوْمَ لأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ غَيْرِهَا فِي بَابِهَا ، لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ يُعَدُّ مِنَ الْحَقَائِقِ الْقَطْعِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ الثَّابِتَةِ الَّتِي لا يُمْكِنُ نَقْضُهَا ، بَلْ كُلُّهَا قَابِلَةٌ لِلنَّقْضِ وَالْبُطْلانِ ،

كَمَا ثَبَتَ بُطْلانُ مِثْلِهَا مِنْ مُسَلَّمَاتِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ إِلَى السِّنِينَ الأَخِيرَةِ مِنْ هَذَا الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ الْمِيلادِيِّ ، الَّتِي تَرَجَّحَ فِيهَا أَنَّ كُلَّ مَا عُرِفَ فِي هَذَا الْكَوْنِ مِنْ مَظَاهِرِ الْمَادَّةِ وَالْقُوَّةِ هُوَ مَظْهَرٌ لِتَرْكِيبٍ خَاصٍّ مَجْهُولٍ لِجُزْئَيِ الْكَهْرَبَاءِ الإِيجَابِيِّ وَالسَّلْبِيِّ ، الْمُعَبَّرِ عَنْهَا بِكَلِمَتَيِ (الْبُرُوتُونِ وَالإِلِكْتُرُونِ) فَبَطَلَتْ بِهَذَا جَمِيعُ النَّظَرِيَّاتِ الْعِلْمِيَّةِ فِي الْمَادَّةِ وَالْقُوَّةِ ، فَكَيْفَ يَجُوزُ إِذَنْ تَأْوِيلُ نَصٍّ دِينِيٍّ قَطْعِيِّ الرِّوَايَةِ وَالدَّلالَةِ فِي خَبَرٍ عَنْ عَالَمِ الْغَيْبِ مِنَ الْوَحْيِ الإِلَهِيِّ ، لِنَظَرِيَّةٍ ظَنِّيَّةٍ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ مِنَ الرَّأْيِ الْبَشَرِيِّ ؟ .

(327/365)

وَإِذَا بَطَلَ تَأْوِيلُ عُلَمَاءِ الْكَلامِ الْمُتَقَدِّمِينَ الْمَبْنِيِّ عَلَى قَوَاعِدِ النَّظَرِ الْعَقْلِيِّ وَمُرَاعَاةِ مَدْلُولاتِ اللُّغَةِ ، وَاشْتِرَاطِ عَدَمِ الْمُخَالَفَةِ لأَصْلٍ مِنْ قَوَاعِدِ الشَّرْعِ ، وَبَطَلَ تَأْوِيلُ الْمُعَاصِرِينَ لِمَا يُخَالِفُ الْعُلُومَ الْعَصْرِيَّةَ ، فَأَجْدَرُ بِتَأْوِيلاتِ الْبَاطِنِيَّةِ أَنْ تَكُونَ أَشَدَّ بُطْلانًا لأَنَّهَا تَحْكُمُ فِي اللُّغَةِ بِمَا لا تَدُلُّ عَلَيْهِ مُفْرَدَاتُهَا ، وَلا قَوَاعِدُ نَحْوِهَا وَبَيَانِهَا ، وَنَاقِضَةٌ لأُصُولِ الشَّرْعِ وَقَوَاعِدِهِ

الْقَطْعِيَّةِ الثَّابِتَةِ بِالْإِجْمَاعِ الْمُتَوَاتِرِ ، وَالْعَمَلِ الَّذِي لَا مَجَالَ لِلتَّأْوِيلِ وَلَا لِلتَّحْرِيفِ فِيهِ ، كَتَأْوِيلِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ الْقَرَامِطَةِ السَّابِقَيْنِ ، وَالْبَهَائِيَّةِ وَالْقَادِيَانِيَّةِ اللَّاحِقَيْنِ ، الْبَهَائِيَّةِ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى أُلُوهِيَّةِ الْبَهَاءِ ، وَالْقَادِيَانِيَّةِ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى نُبُوَّةِ مِيرْزَا غُلَامِ أَحْمَدَ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَسْتَدِلُّ بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ مُخَالِفًا لِلُغَتِهِمَا عَلَى دِينِهِ الْجَدِيدِ الَّذِي غَايَتُهُ أَنْ يَتْبَعَهُ النَّاسُ وَيُقَدِّسُوهُ .

بُطْلَانُ الْأَخْذِ بِالْكَشْفِ فِي الدِّينِ :

(328/365)

وَأَمَّا الْكَشْفُ فَهُوَ ضَرْبٌ مِنْ إِدْرَاكِ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ غَيْرُ ثَابِتٍ وَلَا مُطَّرِدٌ ، فَلَيْسَ بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ وَلَا شَرْعِيٍّ ، وَإِنَّمَا هُوَ إِدْرَاكَاتٌ نَاقِصَةٌ تُخْطِئُ وَتُصِيبُ ، وَقَدْ عُرِفَتْ أَسْبَابُهُ الطَّبِيعِيَّةُ وَأَنَّ مِنْهَا مَا هُوَ فِطْرِيٌّ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ كَسْبِيٌّ وَصِنَاعِيٌّ ، كَالتَّنْوِيمِ الْمِغْنَاطِيسِيِّ الْمَعْرُوفِ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، وَمَا يُسَمُّونَهُ قِرَاءَةَ الْأَفْكَارِ وَمُرَاسَلَةَ الْأَفْكَارِ ، وَيُشَبِّهُونَهُ بِنَقْلِ الْأَخْبَارِ بِخُطُوطِ الْأَسْلَاكِ الْكَهْرَبَائِيَّةِ وَبِدُونِهَا ، وَهُوَ يَقَعُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، وَيَعْتَرِفُ بِهِ صُوفِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ لِصُوفِيَّةِ الْهِنْدُوسِ وَغَيْرِهِمْ ، كَمَا يَعْتَرِفُونَ بِتَلْبِيسِ الشَّيَاطِينِ

عَلَيْهِمْ فِيهِ ، وَقِلَّةٌ مَنْ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْكَشْفِ الشَّيْطَانِيِّ وَالْكَشْفِ الْحَقِيقِيِّ مِنْهُمْ ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُسَمَّى حَقِيقِيًّا إلَّا مَا وَافَقَ نَصًّا قَطْعِيًّا .

(329/365)

وَمِنْ دَلَائِلِ الْخَطَأِ وَالتَّلْبِيسِ وَالتَّخَيُّلَاتِ فِي الْكَشْفِ الَّذِي يُسَمُّونَهُ النُّورَانِيَّ تَعَارُضُ أَهْلِهِ وَتَنَاقُضُهُمْ فِيهِ ، وَمَا يَذْكُرُونَهُ فِيهِ مِنْ مَعْلُومَاتِهِمُ الْمُخْتَلِفَةِ بِاخْتِلَافِ مَعْلُومَاتِهِمُ الْفَنِّيَّةِ وَالْخُرَافِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ ، فَتَرَى بَعْضَهُمْ يَذْكُرُ فِي كَشْفِهِ جَبَلَ قَافٍ الْمُحِيطَ بِالْأَرْضِ وَالْحَيَّةَ الْمُحِيطَةَ بِهِ كَمَا تَرَاهُ فِي تَرْجَمَةِ الشَّعْرَانِيِّ لِلشَّيْخِ أَبِي مَدْيَنَ وَهُوَ مِنَ الْخُرَافَاتِ الَّتِي لَا حَقِيقَةَ لَهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَذْكُرُ فِي كَشْفِهِ الْأَفْلَاكَ وَكَوَاكِبَهَا عَلَى الطَّرِيقَةِ الْيُونَانِيَّةِ الْبَاطِلَةِ أَيْضًا . وَأَكْثَرُهُمْ يَذْكُرُونَ فِي كَشْفِهِمُ الْأَحَادِيثَ الْمَوْضُوعَةَ ، فَإِنِ اعْتَرَضَ عَلَيْهِمْ أَوْ عَلَى الْمَفْتُونِينَ بِكَشْفِهِمْ عُلَمَاءُ الْحَدِيثِ

(330/365)

قَالُوا : إِنَّ الْحَدِيثَ قَدْ صَحَّ فِي كَشْفِنَا وَإِنْ لَمْ يَصِحَّ فِي رِوَايَاتِكُمْ ، وَكَشْفُنَا أَصَحُّ لِأَنَّهُ مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ وَعِلْمُكُمْ ظَنِّيٌّ . وَالْحَاصِلُ أَنَّ كَشْفًا هَذَا شَأْنُهُ وَشَأْنُ أَهْلِهِ إِنْ صَحَّ أَنْ يُصَدَّقَ فِيمَا لَا يُخَالِفُ نُصُوصَ الشَّرْعِ وَعَقَائِدَهُ وَأَحْكَامَهُ ، فَلَا يَصِحُّ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ أَنْ يُصَدِّقَ مِنْهُ مَا يُخَالِفُهُمَا ، وَأَنْ يُثْبِتَ مَنْ أَمْرِ عَالَمِ الْغَيْبِ مَا لَمْ يَثْبُتْ بِهِمَا ، وَمَا أَغْنَانَا عَنْ هَذَا كُلِّهِ ، وَفِي جَمْعِ الْجَوَامِعِ أَنَّ الْإِلْهَامَ - وَهُوَ الْكَشْفُ الصَّحِيحُ عِنْدَهُمْ ، (لَيْسَ بِحُجَّةٍ لِعَدَمِ ثِقَةِ مَنْ لَيْسَ مَعْصُومًا بِخَوَاطِرِهِ خِلَافًا لِبَعْضِ الصُّوفِيَّةِ) أَيْ وَلَا يُعْتَدُّ بِخِلَافِهِمْ لِأَنَّهُمْ خَالَفُوا بِهِ الْأُصُولَ كَمَا خَالَفُوا النُّصُوصَ .

الْكَرَامَاتُ لَا تَدُلُّ عَلَى الْوِلَايَةِ فَضْلًا عَنِ الْعِصْمَةِ :

وَأَمَّا الْكَرَامَاتُ فَهِيَ نَوْعٌ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ الَّتِي تُرْوَى عَنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَدْيَانِ وَالْمِلَلِ ، وَقَدْ قَالَ عُلَمَاءُ الْكَلَامِ إِنَّهَا تَقَعُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، وَالنَّبِيِّ وَالسَّاحِرِ ، وَيَخْتَلِفُ اسْمُهَا بِاخْتِلَافِ مَنْ ظَهَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ ، فَتُسَمَّى مُعْجِزَةً لِلنَّبِيِّ الْمُرْسَلِ إِذَا تَحَدَّى بِهَا ، وَكَرَامَةً لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ الْمُتَّبِعِ لِلرَّسُولِ ، وَمَعُونَةً لِمَنْ دُونَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَاسْتِدْرَاجًا لِلْكَافِرِ وَالْفَاسِقِ .

(331/365)

وَصَحَّتِ الْأَحَادِيثُ بِأَنَّ الدَّجَّالَ يَظْهَرُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْخَوَارِقِ الْكُبْرَى مَا قَلَّمَا كَانَ مِثْلُهُ فِي الْمُعْجِزَاتِ حَتَّى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى . وَقَالَ أَئِمَّةُ الصُّوفِيَّةِ الْعَارِفُونَ : إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ وَيَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ فَلَا تَعْتَدُّوا بِهِ (أَوْ كَلِمَةً بِهَذَا الْمَعْنَى) حَتَّى تَرَوْهُ عِنْدَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ الشَّرْعِيَّيْنِ ، وَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ الْخَلَّاطُونَ مِنْهُمْ ، فَفِي الْبَابِ الثَّالِثِ مِنْ كِتَابِ (الْأَنْوَارِ الْقُدْسِيَّةِ) لِلشَّعْرَانِيِّ (وَظُهُورُ الْكَرَامَاتِ لَيْسَ بِشَرْطٍ فِي الْوِلَايَةِ وَإِنَّمَا يُشْتَرَطُ امْتِثَالُ أَوَامِرِ اللَّهِ وَاجْتِنَابُ نَوَاهِيهِ ، فَيَكُونُ أَمْرُهُ مَضْبُوطًا عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَالْقُرْآنُ يَشْهَدُ بِوِلَايَتِهِ وَإِنْ لَمْ يَعْتَقِدْ فِيهِ أَحَدٌ) إِلَخْ . وَهَذَا عَيْنُ مَا حَقَّقْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ .

وَمِنْ خَلْطِهِ أَنَّ أَكْثَرَ مَا ذَكَرَهُ مِنْ كَلَامِهِمْ فِي طَبَقَاتِهِمْ مُخَالِفٌ لِشَرْطِهِ ، فَهُوَ يُبْطِلُ وِلَايَةَ أَكْثَرِ رِجَالِ أَهْلِهَا مِنَ الْعُقَلَاءِ فَضْلًا عَنِ الْمَجَاذِيبِ الْمَجَانِينِ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُعَدُّونَ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ الْعَارِفِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ .

(332/365)

وَمِنْهُ ، وَفِي الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنْهُ : (فَلَوْ رَأَيْنَا الصُّوفِيَّ يَتَرَبَّعُ فِي الْهَوَاءِ لَا يُعْبَأُ بِهِ إِلَّا إِذَا امْتَثَلَ أَمْرَ اللَّهِ وَاجْتَنَبَ نَهْيَهُ فِي الْمُحَرَّمَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، مُخَاطِبًا بِتَرْكِهَا كُلَّ الْخَلْقِ الْمُكَلَّفِينَ لَا يَخْرُجُ عَنْ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ ، وَمَنِ ادَّعَى أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى حَالَةً أَسْقَطَتْ

عَنْهُ التَّكَالِيفَ الشَّرْعِيَّةَ مِنْ غَيْرِ ظُهُورِ أَمَارَةٍ تُصَدِّقُهُ عَلَى دَعْوَاهُ فَهُوَ كَاذِبٌ ، كَمَنْ يَشْطَحُ مِنْ شُهُودٍ فِي حَضْرَةٍ خَيَالِيَّةٍ عَلَى اللهِ وَعَلَى أَهْلِ اللهِ ، وَلَا يَرْفَعُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ رَأْسًا ، وَلَا يَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى مَعَ وُجُودِ عَقْلِ التَّكْلِيفِ عِنْدَهُ ، فَهَذَا مَطْرُودٌ عَنْ بَابِ الْحَقِّ ، مُبَعَّدٌ

عَنْ مَقْعَدِ صِدْقٍ ، وَحَرَامٌ عَلَى الْفَقِيهِ وَغَيْرِهِ أَنْ يُسَلِّمَ لِمِثْلِ هَذَا) ا ه . وَهُوَ يُخَالِفُ هَذَا الْحَقَّ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى .

(333/365)

ثُمَّ قَالَ (فِي آخِرِ ص 8 مِنْهُ) وَاعْلَمْ أَنَّ طَرِيقَ الْقَوْمِ عَلَى وَفْقِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَمَنْ خَالَفَهُمَا خَرَجَ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ كَمَا قَالَ سَيِّدُ الطَّائِفَةِ أَبُو الْقَاسِمِ الْجُنَيْدُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – ، فَلَا تَظُنَّ أَنَّهُمْ كَانُوا كَحَالِ غَالِبِ الْمَنْسُوبِينَ إِلَى التَّصَوُّفِ فِي هَذَا الزَّمَانِ فَتُسِيءَ الظَّنَّ بِهِمْ ، إِنَّمَا كَانُوا – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ – عَالِمِينَ بِأَسْرَارِ الشَّرِيعَةِ ، قَائِمِينَ صَائِمِينَ زَاهِدِينَ وَرِعِينَ خَائِفِينَ وَجِلِينَ كَمَا يُعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ تَرَاجِمِهِمْ وَطَبَقَاتِهِمْ ، وَإِنَّمَا أُنْكِرَ مَنْ أُنْكِرَ عَلَى الْمُتَشَبِّهِينَ بِالْمُتَشَبِّهِينَ بِالْمُتَشَبِّهِينَ بِالْمُتَشَبِّهِينَ بِالْمُتَشَبِّهِينَ بِالْمُتَشَبِّهِينَ سِتَّ مَرَّاتٍ مِنْهُمْ ، فَكُلُّ قَرْنٍ مِنْهُمْ بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ قَبْلَهُ يَصِحُّ عَلَيْهِ الْإِنْكَارُ إِذِ ادَّعَى أَنَّهُ عَلَى طَرِيقَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ ، لِأَنَّ النَّاسَ

لَمْ يَزَالُوا رَاجِعِينَ الْقَهْقَرَى وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) الْحَدِيثَ ا ه .

(334/365)

أَقُولُ : إِنَّ هَذَا التَّصَرُّفَ قَدْ ذَرَّ قَرْنُهُ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الثَّانِي وَظَهَرَ الشُّذُوذُ فِي الْمُنْتَحِلِينَ لَهُ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ . وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ الَّذِي تُوُفِّيَ سَنَةَ 202 هـ . إذَا تَصَوَّفَ الرَّجُلُ فِي الصَّبَاحِ لَا يَأْتِي الْمَسَاءُ – أَوْ قَالَ الْعَصْرُ – إلَّا وَهُوَ مَجْنُونٌ . وَأَنْكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ الَّذِي تُوُفِّيَ سَنَةَ 241 ه . بَعْدَهُ عَلَى خِيَارِهِمْ ، وَنَهَى عَنْ قِرَاءَةِ كُتُبِ الْحَارِثِ الْمُحَاسَبِيِّ عَلَى الْتِزَامِهِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ عِلْمًا وَعَمَلًا كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ بَرَاءَةٌ ، وَقَدْ تُوُفِّيَ الْحَارِثُ فِي سَنَةِ 243 ه . وَهُوَ أُسْتَاذُ أَكَابِرِ الْبَغْدَادِيِّينَ ، وَمِمَّنْ أَخَذَ عَنْهُ سَيِّدُ الطَّائِفَةِ أَبُو الْقَاسِمِ الْجُنَيْدُ ، فَإِذَا قُلْنَا إنَّ الشَّعْرَانِيَّ يَعُدُّ أَهْلَ قَرْنِهِ الْعَاشِرِ فِي الدَّرَجَةِ السَّادِسَةِ مِنَ الْمُتَشَبِّهِينَ بِالصُّوفِيَّةِ ، فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ يَعُدُّ أَهْلَ الْقَرْنِ الْخَامِسِ أَوَّلَ الْمُتَشَبِّهِينَ الَّذِينَ يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ . وَقَدْ أَنْكَرَ الْغَزَالِيُّ فِي كِتَابِ الْغُرُورِ مِنَ الْإِحْيَاءِ عَلَى الْمُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ وَعَدَّ مِنْهُمْ فِرَقًا مِنْ أَهْلِ الْمُكَاشَفَاتِ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ فَإِنَّ الْغَزَالِيَّ تُوُفِّيَ سَنَةَ 505 ه . وَكَانَ قَدْ تَابَ إلَى اللَّهِ مِنْ عُلُومِ التَّصَوُّفِ وَالْكَلَامِ وَانْقَطَعَ إلَى عِلْمِ السُّنَّةِ : ثُمَّ إنَّ ابْنَ الْحَاجِّ

الْمَالِكِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةِ 737 هـ . تَكَلَّمَ فِي كِتَابِهِ الْمَدْخَلِ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُتَشَبِّهِينَ بِالْمَشَايِخِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِ فِي الْقَرْنِ

(335/365)

الثَّامِنِ وَبَيَّنَ مَا لَهُمْ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ وَفَنَّدَ مَا يَدَّعُونَهُ مِنَ الْكَرَامَاتِ . وَقَامَ فِي هَذَا الْقَرْنِ أَيْضًا شَيْخُ الْإِسْلَامِ ، مِدْرَهُ السُّنَّةِ الْأَكْبَرُ ، وَقَامِعُ الْبِدَعِ الْأَقْهَرُ ، أَحْمَدُ بْنُ تَيْمِيَّةَ ، نَبَذَ مَنْ قَبْلَهِ ، وَأَغْنَى عَمَّنْ جَاءَ بَعْدَهُ ، وَعَلَى كُتُبِهِ وَكُتُبِ تِلْمِيذِهِ ابْنِ الْقَيِّمِ الْمُعَوَّلُ .

تَفْضِيلُ أَهْلِ الْحَدِيثِ عَلَى غَيْرِهِمْ :

وَمِمَّا كَتَبَهُ الشَّعْرَانِيُّ فِي كِتَابِهِ هَذَا مِنَ الْحَقِّ بَيْنَ الْأَبَاطِيلِ قَوْلُهُ فِي الْبَابِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِهِ الْمَذْكُورِ – وَهُوَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ – مَا نَصُّهُ :

(336/365)

(وَاعْلَمْ أَنَّهُ مَا مَتَّ بِالْإِرْثِ لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، إِلَّا الْمُحَدِّثُونَ الَّذِينَ رَوَوُا الْأَحَادِيثَ بِالسَّنَدِ الْمُتَّصِلِ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَمَا قَالَهُ شَيْخُنَا ، فَلَهُمْ

حَظٌّ فِي الرِّسَالَةِ لِأَنَّهُمْ نَقَلَةُ الْوَحْيِ ، وَهُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ فِي التَّبْلِيغِ ، وَالْفُقَهَاءِ بِلَا مَعْرِفَةِ دَلِيلِهِمْ لَيْسَ لَهُمْ هَذِهِ الدَّرَجَةُ ، فَلَا يُحْشَرُونَ مَعَ الرُّسُلِ إِنَّمَا يُحْشَرُونَ فِي عَامَّةِ النَّاسِ ، فَلَا يَنْطَبِقُ اسْمُ الْعُلَمَاءِ حَقِيقَةً إِلَّا عَلَى أَهْلِ الْحَدِيثِ . وَكَذَلِكَ الْعُبَّادُ وَالزُّهَّادُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ ، إِذَا لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ حُكْمُهُمْ حُكْمُ الْفُقَهَاءِ الَّذِينَ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ ، فَيُحْشَرُونَ مَعَ عُمُومِ النَّاسِ وَيَتَمَيَّزُونَ عَنْهُمْ بِأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ لَا غَيْرَ كَمَا أَنَّ الْفُقَهَاءَ يُمَيَّزُونَ عَنِ الْعَامَّةِ فِي الدُّنْيَا ، لَا غَيْرَ) اهـ .

وَلَكِنَّ بَعْضَ مَنْ يُسَمَّوْنَ كِبَارَ الْعُلَمَاءِ فِي زَمَانِنَا يُفَضِّلُونَ خُرَافَاتِ الْمُتَشَبِّهِينَ بِالْمُتَصَوِّفَةِ فِي الدَّرَجَةِ السَّادِسَةِ إِلَى الْعَاشِرَةِ وَآرَاءَ مُقَلِّدِي الْفُقَهَاءِ فِي الدَّرَجَةِ الْخَامِسَةِ – وَهِيَ السُّفْلَى – عَلَى عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ وَفُقَهَائِهِ وَحُكَمَائِهِ ، وَيَطْعَنُونَ فِي الْمُحَدِّثِينَ وَكُلِّ مَنْ يَهْتَدِي بِالْحَدِيثِ قَوْلًا وَكِتَابَةً بَلْ صَرَّحَ بَعْضُهُمْ بِأَنَّ مَنْ يَعْمَلُ بِالْحَدِيثِ فَهُوَ زِنْدِيقٌ ! ! .

إِقْرَارُ مُتَقَدِّمِي الصُّوفِيَّةِ وَمُتَأَخِّرِيهِمْ بِوُجُوبِ اتِّبَاعِ السَّلَفِ :

(337/365)

تَوَاتَرَ عَنْ شُيُوخِ الصُّوفِيَّةِ الْمُتَقَدِّمِينَ أَنَّ أَصْلَ طَرِيقِهِمُ اتِّبَاعُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمُوَافَقَةُ السَّلَفِ كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا وَتَجِدُ مِثْلَ هَذَا فِي كَلَامِ الصُّوفِيَّةِ الشَّاذِّينَ الَّذِينَ خَلَطُوا الْبِدَعَ بِالسُّنَنِ ،

وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ عُلُومَهُمْ عَنِ اللهِ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ مُبَاشَرَةً ، وَأَنَّ عُلَمَاءَ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ يَأْخُذُونَ عُلُومَهُمْ عَنِ الْمَيِّتِينَ كَالْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ ، وَهَذَا أَسَاسُ الِابْتِدَاعِ بَلِ الْمُرُوقِ مِنَ الدِّينِ . وَمِمَّا نَقَلَهُ الشَّعْرَانِيِّ عَنِ الشَّيْخِ إِبْرَاهِيمَ الدُّسُوقِيِّ مِنَ الْخَلْطِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ مَا نَصُّهُ :

(وَكَانَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – يَقُولُ أَسْلَمُ التَّفْسِيرِ مَا كَانَ مَرْوِيًّا عَنِ السَّلَفِ ، وَأَنْكَرُهُ مَا فُتِحَ بِهِ عَلَى الْقُلُوبِ فِي كُلِّ عَصْرٍ ، وَلَوْلَا مُحَرِّكُ قُلُوبِنَا لَمَا نَطَقْتُ إِلَّا بِمَا وَرَدَ عَنِ السَّلَفِ ، فَإِذَا حَرَّكَ قُلُوبَنَا وَارِدٌ اسْتَفْتَحْنَا بَابَ رَبِّنَا وَسَأَلْنَاهُ الْفَهْمَ فِي كَلَامِهِ فَنَتَكَلَّمُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بِقَدْرِ مَا يَفْتَحُهُ عَلَى قُلُوبِنَا ، فَسَلِّمُوا لَنَا تَسْلَمُوا ، فَإِنَّنَا فَخَّارَةٌ فَارِغَةٌ ، وَالْعِلْمُ عِلْمُ اللهِ تَعَالَى) اهـ .

(338/365)

أَقُولُ : مِنْ أَيْنَ نَعْلَمُ أَوْ يَعْلَمُونَ هُمْ أَنَّ خَوَاطِرَهُمُ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْوَارِدَاتِ مِنَ الْإِلْهَامِ الْإِلَهِيِّ لَا مِنَ الْوَسْوَاسِ الشَّيْطَانِيِّ ، وَكَيْفَ نُسَلِّمُ لَهُمْ مَا لَا نَعْلَمُ ، وَالْإِلْهَامُ الصَّحِيحُ لَيْسَ بِحُجَّةٍ كَمَا تَقَدَّمَ ؟ ثُمَّ كَيْفَ لَا نُنْكِرُ عَلَيْهِمْ مَا تَرَاهُ مُخَالِفًا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَآثَارِ السَّلَفِ ، وَمُوَافِقًا لِإِلْحَادِ

الْبَاطِنِيَّةِ أَوْ بِدَعِ الْخَلَفِ ، وَإِنَّا وَإِيَّاهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَصِحُّ الْخِلَافُ فِيهِ ؟

(339/365)

فَثَبَتَ إِذًا أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ تَعَالَى الَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، هُمْ مَنْ عَرَّفَهُمْ تَعَالَى بِقَوْلِهِ الْحَقِّ : (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) وَأَنَّهُمْ دَرَجَاتٌ كَمَا بَيَّنَهَا اللهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) (35 : 32) فَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ : مَنْ يُقَصِّرُ فِي اتِّبَاعِ الْكِتَابِ وَلَوْ بِتَرْكِ بَعْضِ الْفَضَائِلِ ، وَالْمُقْتَصِدُ : مَنْ يَتْرُكُ مَا نُهِيَ عَنْهُ ، وَيَفْعَلُ مَا أُمِرَ بِهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الْقَاصِرَةِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَالسَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ : مَنْ يَزِيدُ عَلَى التَّقَرُّبِ بِالنَّوَافِلِ ، وَالتَّكَمُّلِ بِالْفَضَائِلِ ، وَالْجَمْعِ بَيْنَ التَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ وَالتَّأَدُّبِ وَالتَّأْدِيبِ ، حَتَّى يَكُونَ إِمَامًا لِلْمُتَّقِينَ ، فَهَذِهِ دَرَجَةُ الْمُقَرَّبِينَ مِنْ شُهَدَاءِ اللهِ وَالصِّدِّيقِينَ وَمَا قَبْلَهَا دَرَجَةُ الصَّالِحِينَ مِنَ الْأَبْرَارِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، فَرَاجِعْ سُورَتَيِ الْوَاقِعَةِ وَالْمُطَفِّفِينَ ، فَفِيهِمَا بَيَانٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ

وَالصَّالِحِينَ) (4 : 69) وَهِيَ تَفْسِيرٌ لِدُعَائِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) (1 : 6 ، 7) .

(340/365)

وَبِهَذَا تَقُومُ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى الْعَالَمِينَ بِأَنَّ هَذَا الدِّينَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَقَدْ أَكْمَلَهُ لَنَا قَبْلَ أَنْ يَقْبِضَ اللَّهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَأَنَّهُ لَوْ صَحَّ شَيْءٌ مِمَّا ابْتَدَعَهُ النَّاسُ فِيهِ بِفَلْسَفَتِهِمُ الْعَقْلِيَّةِ أَوِ النَّفْسِيَّةِ أَوْ بِمَا ادَّعَوْهُ مِنَ الْكَشْفِ لَمَا صَحَّتْ شَهَادَةُ اللَّهِ بِإِكْمَالِهِ ، وَلَا أَنَّهُ مِنْ عِنْدِهِ لَا مِنْ عِنْدِ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، وَهَذَا كُلُّ غَرَضِنَا مِنْ هَذَا الْبَحْثِ ، وَقَدْ أُظْهِرَ بِهِ الْحَقُّ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ .

(وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) .

(341/365)

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ حَالَ أَوْلِيَائِهِ وَصِفَتَهُمْ وَمَا بَشَّرَهُمْ بِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَكَوْنَهُ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِهِ فِيمَا بَشَّرَهُمْ وَوَعَدَهُمْ ، كَمَا أَنَّهُ لَا تَبْدِيلَ لَهَا فِيمَا أَوْعَدَ بِهِ أَعْدَاءَهُ الْمُشْرِكِينَ وَكَانَ هَذَا يَتَضَمَّنُ الْوَعْدَ بِنَصْرِهِ وَنَصْرِ مَنْ آمَنَ لَهُ وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ وَأَنْصَارُ دِينِهِ عَلَى ضَعْفِهِمْ وَفَقْرِهِمْ ، وَكَانَتِ الْعِزَّةُ أَيِ الْقُوَّةُ وَالْغَلَبَةُ فِي مَكَّةَ لَا تَزَالُ لِلْمُشْرِكِينَ بِكَثْرَتِهِمُ الَّتِي يُعَبِّرُونَ عَنْهَا بِقَوْلِهِمْ : وَإِنَّمَا الْعِزَّةُ لِلْكَاثِرِ ، وَكَانُوا لِغُرُورِهِمْ بِكَثْرَتِهِمْ وَثَرْوَتِهِمْ يُكَذِّبُونَ بِوَعْدِ اللهِ وَكَانَ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِالطَّبْعِ كَمَا قَالَ : (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ) (6 : 33) الْآيَةَ . قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لَهُ وَمُؤَكِّدًا وَعْدَهُ لَهُ وَلِأَوْلِيَائِهِ ، وَوَعِيدَهُ لِأَعْدَائِهِمْ وَأَعْدَائِهِ .

(342/365)

وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ نَهَاهُ عَنِ الْحُزْنِ وَالْغَمِّ مِنْ قَوْلِهِمُ الَّذِي يَقُولُونَهُ فِي تَكْذِيبِهِ الَّذِي تَقَدَّمَ مُفَصَّلًا فِي هَذِهِ السُّورَةِ ، فَحَذَفَ مَقُولَ الْقَوْلِ لِلْعِلْمِ بِهِ وَبَيَّنَ لَهُ سَبَبَ هَذَا النَّهْيِ بِقَوْلِهِ : (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) أَيْ إِنَّ الْغَلَبَةَ وَالْقُوَّةَ وَالْمَنَعَةَ لِلَّهِ جَمِيعَهَا لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْ دُونِهِ شَيْئًا مِنْهَا ، فَهُوَ يَهَبُهَا لِمَنْ يَشَاءُ وَيَحْرِمُهَا مَنْ يَشَاءُ ، وَلَيْسَتْ لِلْكَثْرَةِ دَائِمًا كَمَا يَدَّعُونَ ، فَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ، وَقَدْ وَعَدَ بِهَا رُسُلَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ ، كَمَا قَالَ :

(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) (58 : 21) وَ (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) (40 : 51) وَ (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) (63 : 8) فَعِزَّتُهُ تَعَالَى ذَاتِيَّةٌ لَهُ ، وَعِزَّةُ رَسُولِهِ

(343/365)

وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَمِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ ، كَمَا قَالَ : (وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) (3 : 26) وَقَرَأَ نَافِعٌ (يُحْزِنْكَ) بِضَمِّ الْيَاءِ مِنْ أَحْزَنَهُ وَهِيَ لُغَةٌ ، وَقُرِئَ (أَنَّ الْعِزَّةَ) بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ أَنَّ لِحَذْفِ لَامِهَا ، وَهِيَ لِلتَّعْلِيلِ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ بِالْكَسْرِ عَلَى الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ (هُوَ السَّمِيعُ) لِمَا يَقُولُونَ مِنْ تَكْذِيبٍ بِالْحَقِّ وَادِّعَاءٍ لِلشِّرْكِ (الْعَلِيمُ) بِمَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ إِيذَاءٍ وَكَيْدٍ وَمَكْرٍ ، فَهُوَ يُذِلُّهُمْ وَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ، وَهَذَا اسْتِئْنَافٌ آخَرُ فِي تَقْرِيرِ مَضْمُونِ الْأَوَّلِ وَهُوَ تَسْلِيَتُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَتَأْكِيدُ وَعْدِهِ بِالْعِزَّةِ وَوَعِيدَ تَكْذِيبِهِ ، ثُمَّ اسْتَدَلَّ عَلَى كَوْنِ الْعِزَّةِ لَهُ جَمِيعًا وَالْجَزَاءِ بِيَدِهِ بِقَوْلِهِ مُسْتَأْنِفًا أَيْضًا وَمُفْتَتِحًا بِأَدَاةِ التَّنَبُّهِ :

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 340.370 ﴾

(344/365)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾

الجملة معطوفة على جملة ﴿ ألا إن أولياء الله لا خَوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [يونس : 62] عطف الجزئي على الكلي لأن الحزن المذكور هنا نوع من أنواع الحزن المنفي في قوله : ﴿ ولا هُم يحزنون ﴾ [يونس : 62] ، ولأن الرسول عليه الصلاة والسلام من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

فكان مقتضى الظاهر أن يعطف بفاء التفريع لأن دفع هذا الحزن يتفرع على ذلك النفي ولكن عُدل إلى العطف بالواو ليعطي مضمون الجملة المعطوفة استقلالاً بالقصد إليه فيكون ابتداء كلام مع عدم فوات معنى التفريع لظهوره من السياق .

والحزن المنهي عن تطرقه هو الحزن الناشىء عن أذى المشركين محمداً صلى الله عليه وسلم بأقوالهم البذيئة وتهديداتهم .

ووجه الاقتصار على دحضه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يلقى من المشركين محزناً إلا أذى القول البذئي .

وصيغة ﴿ لا يحزنك قولهم ﴾ خطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم وظاهر صيغته أنه نهي عن أن يحزن النبي صلى الله عليه وسلم كلام المشركين ، مع أن شأن النهي أن يتوجه

الخطاب به إلى من فعل الفعل المنهي عنه ، ولكن المقصود من مثل هذا التركيب نهي النبي عليه الصلاة والسلام عن أن يتأثر بما شأنه أن يُحزن الناس من أقوالهم ، فلما وجه الخطاب إليه بالنهي عن عمل هو من عمل غيره تعين أن المراد بذلك الكناية عن نهيه هو عن حصول ذلك الحزن في نفسه بأن يصرف عن نفسه أسبابه وملزوماته فيؤول إلى معنى لا تترك أقوالهم تُحزنك ، وهذا كما يقولون : لا أرَيَنَّك تفعل كذا ، ولا أعرفنَّك تفعل كذا ، فالمتكلم ينهى المخاطب عن أن يراه المتكلم فاعلاً كذا .

والمراد نهيه عن فعل ذلك حتى لا يراه المتكلم فهو من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم .

والمعنى : لا تفعلن كذا فأراك تفعله .

ومعنى ﴿ لا يحزنك قولهم ﴾ لا تحزن لقولهم فيحزنك .

(345/365)

ومعلوم أن أقوال المشركين التي تحزن النبي هي أقوال التكذيب والاستهزاء ، فلذلك حذف مفعول القول لأن المصدر هنا نزل منزلة مصدر الفعل اللازم .

وجملة : ﴿ إن العزة لله جميعاً ﴾ تعليل لدفع الحزن عنه ، ولذلك فصلت عن جملة النهي كأنَّ النبي يقول : كيف لا أحزن والمشركون يتطاولون علينا ويتوعدوننا وهم أهل عزة ومنعَة

، فأجيب بأن عزتهم كالعدم لأنها محدودة وزائلة والعزة الحق لله الذي أرسلك .

وهي أيضاً في محل استئناف بياني .

وكل جملة كان مضمونها علة للتي قبلها تكون أيضاً استئنافاً بيانياً ، فالاستئناف البياني أعم من التعليل .

وافتتحت بحرف التأكيد للاهتمام بها ، ولأَنَّه يفيد مفاد لام التعليل وفاء التفريع في مثل هذا المقام الذي لا يقصد فيه دفع إنكار من المخاطب .

ويحسن الوقف على كلمة ﴿ قولهم ﴾ لكي لا يتوهم بعض من يسمع جملة ﴿ إنّ العزة لله جميعاً ﴾ فيحسبه مقولاً لقولهم فيتطلب لماذا يكونُ هذا القول سبباً لحزن الرسول صلى الله عليه وسلم وكيف يحزن الرسول صلى الله عليه وسلم من قولهم : ﴿ إنّ العزّة لله ﴾ وإن كان في المقام ما يهدي السَّامع سريعاً إلى المقصود .

ونظير هذا الإيهام ما حكي أنّ ابن قتيْبة (وهو عبد الله بن مسلم بن قُتيبة) ذكر قراءة أبي حيْوة ﴿ أنّ العزّة لله ﴾ بفتح همزة (أن) وأعرب بدلاً من (قولُهم) فحكم أنّ هذه القراءة كُفر .

حكى ذلك عنه ابن عطيَّة .

وأشار إلى ذلك في "الكشاف" فقال : "ومن جعله بدلاً من (قولُهم) ثم أنكره فالمنكر هو تخريجه" .

ولعل ابن قتيبة أراد أن كسر الهمزة وإن كان محتملاً لأن تكون الجملة بعدها معمولة ل ﴿ قولهم ﴾ لأن شأن (إن) بعد فعل القول أن لا تكون بفتح الهمزة لكن ذلك احتمال غير متعيَّن لأنَّه يحتمل أيضاً أن تكون الجملة استئنافاً ، والسياق يعيّن الاحتمال الصحيح .

(346/365)

فأمَّا إذا فتحت الهمزة كما قرأ أبو حَيْوَة فقد تعيَّنت أن تكون معمولة لما ذكر قبلها وهو لفظ ﴿ قولُهم ﴾ ولا محمل لها عنده إلا أنها أي المصدر المنسبك .

منها بدل من كلمة ﴿ قولهم ﴾ ، فيصير المعنى : أنّ الله نهى نبيئه عن أن يحزن من قول المشركين ﴿ العزةُ لله جميعاً ﴾ وكيف وهو إنَّما يدعوهم لذلك .

وإذ كان النهي عن شيء يقتضي تجويز تلبس المنهي بالشيء المنهى عنه اقتضى ذلك تجويز تلبس النبي عليه الصلاة والسلام بالحَزن لمن يقول هذا القول وهذا التجويز يؤول إلى كفر من يجوزه على طريقة التكفير باللازم ، ومقصده التَّشنيع على صاحب هذه القراءة .

وإنَّما بنى ابن قتيبة كلامه على ظاهر لفظ القرآن دون تقدير حرف قبل (أنّ) لعلَّه راعى أنّ التقدير خلاف الأصل أو أنَّه غير كاف في دفع الإيهام .

فالوجه أنّ ابن قتيبة هوّل ما له تأويل ، ورد العلماء عليه رد أصيل .

والتَّعريف في ﴿ العزّة ﴾ تعريف الجنس المفيد للاستغراق بقرينة السِّياق .

واللام في قوله : ﴿ لله ﴾ للملك .

وقد أفاد جعل جنس العزة ملكاً لله أنّ جميع أنواعها ثابت لله ، فيفيد أنّ له أقوى أنواعها وأقصاها .

وبذلك يفيد أنّ غير الله لا يملك منها إلاّ أنواعاً قليلة ، فما من نوع من أنواع العزة يوجد في مِلك غيره فإن أعظم منه من نوعه ملك لله تعالى .

فلذلك لا يكون لما يملكه غير الله من العزة تأثير إذا صادم عزة الله تعالى ، وأنه لا يكون له تأثير إلا إذا أمهله الله ، فكل عزّة يستخدمها صاحبها في مناواة من أراد الله نصره فهي مدحوضة مغلوبة ، كما قال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبنّ أنا ورُسلي إنّ الله قوي عزيز ﴾ [المجادلة : 21] وإذ قد كان النبي عليه الصلاة والسلام يعلم أنّ الله أرسله وأمره بزجر المشركين عمَّا هم فيه كان بحيث يؤمن بالنصر إذا أعلمه الله بأنه مراده ، ويعلم أنّ ما للمشركين من عزة هو في جانب عزة الله تعالى كالعدم .

(347/365)

و ﴿ جميعاً ﴾ حال من ﴿ العزّة ﴾ موكّدة مضمونَ الجملة قبلها المفيدَ لاختصاصه تعالى بجميع جنس العزّة لدفع احتمال إرادة المبالغة في ملك ذلك الجنس .

وجملة : ﴿ هو السَّميع العليم ﴾ مستأنفة وإجراء هذا الخبر على اسم الجلالة الواقع ركناً في الجملة التعليلية يجر معنى التعليل إلى هذه الجملة فتفيد الجملة تعليلاً آخر أو تكملة للتعليل الأوّل ، لأنه إذا تذكر المخاطب أنّ صاحب العزة يعلم أقوالهم وأحوالهم زاد ذلك قوة في دفع الحُزن مِن أقوالهم عن نفسه لأنّ الذي نهاه عن الحزن من أقوالهم وتطوالهم أشد منهم قوة ومحيط علمه بما يقولونه وبأحوالهم .

فهو إذا نهاك عن الحزن من أقوالهم ما نهاك إلا وقد ضمن لك السَّلامة منهم مع ضعفك وقوتهم لأنه يمدُّك بقوته وهو أعلم بتكوين أسباب نصرك عليهم .

والمراد بـ ﴿ السميع ﴾ العالم بأقوالهم التي من شأنها أن تسمع ، وبـ ﴿ العليم ﴾ ما هو أعم من أحوالهم التي ليست بمسموعات فلا يطلق على العلم بها اسم (السَّميع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(348/365)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾

تجيء هذه الآية بعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالى اعتراضات الكفار ، وإيذاءهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم له وقولهم فيه ما قالوه ، وفيما قالوه ما أحزنه صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك طلب منه الحق سبحانه ألاَّ ينفعل لما قالوه انفعال الحزين ، فقد قالوا : ساحر ، وكاذب ، ومُفْتَرٍ ، ومجنون ، وقد نفى عنه الحق سبحانه كل ما قالوه ، فلو كان محمد صلى عليه وسلم ساحراً فلماذا لم يسحرهم هم أيضاً ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ !

إذن : كَذَّبَ قولَهم في أنه صلى الله عليه وسلم سحر عبيدَهم وأولادَهم .

وقالوا : مجنون ، ولم يكن في سلوكه صلى الله عليه وسلم أدنى أثر من جنون ، وفنَّد أقوالهم هذه بقوله سبحانه :

﴿ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 14] .

فالمجنون لا يكون على خُلُق عظيم أبداً .

وحين قالوا : إنه افترى القرآن ، تحداهم أن يأتوا بسورة من مثل ما قال ، وعجزوا عن ذلك رغم أنهم مرتاضون للشعر والأدب والبيان .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ [يونس : 65] لأن أقوالهم لا حصيلة لها من الوقوف أمام الدعوة ؛ لأن ﴿ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ [يونس : 65] والعزة هي القوة ، والغلبة ، ويقال : هذا الشيء عزيز ، أي : لا يوجد مثله ، وهو سبحانه العزيز المُطْلَق ؛ لأنه لا إله إلا هو لا يُغلَب ولا يُقهَر .

وتلحظ حين تقرأ هذه الآية وجود حرف " الميم " فوق كلمة ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾ وتعني : ضرورة الوقف هنا .

ولسائل أن يقول :

كيف يلزم الوقف هنا مع أن القرآن الكريم مبنيٌّ على الوصل ؛ وآخر حرف في كل سورة تجده مُنوَّناً ، وليس في القرآن ما يُلزم الوقف للقارىء ؟

(349/365)

وأقول رَدّاً على هذا التساؤل : إن العلماء حين لاحظوا ضعف مَلَكة اللغة ؛ جاءوا بهذا الوقف ليتفهم القارىء الذي لا علم له بالبيان العربي كيف يقرأ هذه الآية ، فهَبْ أن واحداً لا يملك فطنة الأداء ، فينسب ﴿ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ [يونس : 65] إلى ﴿ وَلاَ

يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ [يونس : 65] . ويخطىء الفهم ، ويظن معاذ الله أن العزة لله هي أمر يُحزِن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك جاء العلماء بالوقف هنا لندقِّق القراءة ونُحْسِن الفهم .

ولذلك علينا أن نقرأ ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ [يونس : 65] ثم نتوقف قبل أن نتابع القراءة ﴿ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ [يونس : 65] ؛ وبهذا نفهم المعنى : يجب ألاَّ تحزن يا محمد ؛ لأن أقوالهم لن تغيّر في مجرى حتمية انتصارك عليهم .

ويريد الحق سبحانه هنا أن يطمئن رسوله صلى الله عليه وسلم في أمر محدد ، هو أنه صلى الله عليه وسلم مهمته هي البلاغ فقط ، وليس عليه أن يُلزمهم بالإيمان برسالته والتسليم لمنهجه .

وبيّن له الحق سبحانه : أنهم إذا ما صدُّوا بعد بلاغك ، فلا تحزن مما يقولون ؛ فأقوالهم لا يقوم عليها دليل ، ولا تنهض لها حُجَّة ، وقد جاء فيهم قول الحق سبحانه :

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل : 14] .

وأقوالهم لن تقف في سبيل دعوتك ، وسيُتمُّ الله نوره ، ولا يوجد أعز من الله سبحانه وتعالى ، ولن يجير أحد على أحداً ، فهو سبحانه يُجير ولا يُجار عليه .

وإذا كانت العزة هي القهر والغلبة ، وقد تكون عزة حُجّة ، وقد تكون عزة حلْف ، وقد تكون عزة حكمة ، وكل واحد من خلق الله سبحانه قد توجد له عزة مجالٍ ما أو محيط ما

، لكن العزة لله سبحانه شاملة مطلقة في كل محيطٍ وفي كل مجال ، شاملة لكل شيء وأي شيء .

ولماذا لم يأت الحق سبحانه بأسلوب القَصْر في هذه الآية ؟

(350/365)

أي : أن تأتي الصفة للموصوف وتنفيها عما عداه ؛ كأن نقول : " لزيدٍ مالٌ ليس لغيره " .

وإذا قدمنا الجار والمجرور وهو المتعلّق فنقول : " لفلانٍ كذا " ، وهذا يعني ان غير فلانٍ ليس له كذا .

وإنْ قلنا : " فلان له كذا " فيصح أن نقول : " ولفلانٍ كذا ، ولفلانٍ كذا ، ولفلانٍ كذا " .

أما إذا قلت : " لفلان كذا " فمعناها : امتناع أن يكون لغير فلان شيء من مثل ما قلت .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ [يونس : 65] وجاء بالتأكيد ولم يأت لها بأسلوب القصر الذي يعطي العزة لله سبحانه وينفيها عن غيره ؛ لأنه لا يوجد لهذه الآية مناهض ، وهو كلام ابتدائي يخبر به الله سبحانه خبراً كونياً بأن العزة لله جميعاً .

وما دام الحق سبحانه هو الذي يقول ذلك وهو خالق الخلق فلن تأتي قضية كونية تناقضها ، ولو وجدت معاذ الله قضية كونية تناقضها ، فالآية لن تكون صادقة . وهذا لم ولن يحدث

أبداً مع آيات الحق سبحانه ؛ لأنه هو خالق الكون ، وهو مُنزل الآيات ؛ فلا يمكن أن يحدث تناقض أبداً بين الكون وكلام خالق الكون سبحانه وتعالى :

وقد حدث أن ادعى بعضهم العزة لنفسه وقالوا :

﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾ [المنافقون : 8] .

وكان مغزى قولهم هو ادعاء العزة لأنفسهم ، وادعاء الذلة للمؤمنين .

إذن فالعزة قد ادُّعيت ، وما دامت قد ادعيت فلماذا لم تأت بأسلوب القصر ؟

نقول : لا ، لقد شاء الحق سبحانه أن يقول :

﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : 8] .

فالعزة لله لا تتعداه ، ولكنه سبحانه شاء أن تكون عزة رسوله صلى الله عليه وسلم وعزة المؤمنين من باطن عزة الله تعالى .

وقول الحق سبحانه هنا :

(351/365)

﴿ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ أي : في كل ألوانها هي لله سبحانه وتعالى ، إن كانت عزة حكمه فهو الحكيم ، وإنْ كانت عزة القبض على الأمور فهو العزيز ، وإن كانت عزة الحلْم فهو الحليم

، وإنْ كانت عزة الغضب والانتقام فهو المنتقم الجبّار ، وكلُّ ألوان العزة لله تعالى :

﴿ هُوَ السميع العليم ﴾ [يونس : 65] .

وما دامت العزة هي الغلبة والقهر ، فالله سبحانه يسمع من يستحق أن يُقهر منه ، وما دام الأمر فيه قول فهو يجيء بالسمع ، وإنْ كان فيه فعل ، فهو يأتي بصفة العليم ، فهو السميع لما يُقال والعليم بما يُفعل .

ونحن نعلم أن المنهيَّ عنه هنا هو : ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ [يونس : 65] .

لذلك كان المناسب أن يقال : ﴿ هُوَ السميع ﴾ أولاً .

ويريد الحق سبحانه أن يدلِّل على هذه القضية دلالة كونية في آيات الله تعالى في الكون ، وليس في الوجود أو الكون مَنْ يقف أمامه سبحانه ؛ لذلك لا بد أن نلحظ أن قانون " العزة لله جميعاً " محكوم بأن لله تعالى ما في السموات وما في الأرض .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ أَلا إِنَّ للَّهِ مَن فِي السماوات ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(352/365)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما لم ينتفعوا بما جاءهم من الله وأقاموا على كفرهم ، كبر ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء من الله فيما يعاتبه ﴿ ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم ﴾ يسمع ما يقولون ويعلمه ، فلو شاء بعزته لانتصر منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(353/365)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ العزة ﴾ : العامَّةُ على كسر " إنَّ " استئنافاً وهو مُشْعِرٌ بالعِلِّيَّة . وقيل : هو جوابُ سؤالٍ مقدر كأنَّ قائلاً قال : لِمَ لا يُحْزِنُه قولُهم ، وهو ممَّا يُحْزِن ؟ فأجيب بقوله : ﴿ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ ، ليس لهم منها شيءٌ فكيف تبالي بهم وبقولهم ؟ .

والوقفُ على قولِه : ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾ ينبغي أن يُعْتمد ويُقْصَدَ ثم يُبتدأ بقوله : " إن العزَّة " وإن كان من المستحيلِ أن يتوهَّم أحد أن هذا مِنْ مقولهم ، إلا مَنْ لا يُعْتَبَرُ بفهمه .

وقرأ أبو حيوة : " أنَّ العزة " بفتح " أنَّ " . وفيها تخريجان ، أحدهما : أنها على حَذْفِ لام العلة ، أي : لا يَحْزنك قولهم لأجل أن العزة لله جميعاً . والثاني : أنَّ " أنَّ " وما في حيّزها بدل من " قولهم " كأنه قيل : ولا يَحْزُنك أن العَّزة لله ، وكيف يَظْهَرُ هذا التوجيهُ أو يجوز القول به ، وكيف ينهى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك في المعنى وهو لم يَتَعاطَ شيئاً من تلك الأسباب ، وأيضاً فمِنْ أيِّ قبيلٍ الإبدالُ هذا ؟ قال الزمخشري : " ومَنْ جعله بدلاً من " قولهم " ثم أنكره فالمُنْكَر هو تخريجُه لا ما أنكره من القراءة به " ، يعني أن إنكارَه للقراءة مُنْكَرٌ ؛ لأنَّ معناها صحيحٌ على ما ذَكَرْتُ لك مِنَ التعليلِ ، وإنما المُنْكَر هذا التخريجُ .

(354/365)

وقد أنكر جماعةٌ هذه القراءةَ ونَسَبُوها للغلَط ولأكثر منه . قال القاضي : " فَتْحُها شاذٌّ يُقارِبُ الكفر ، وإذا كُسِرت كان استئنافاً وهذا يدلُّ على فضيلة علم الإعراب " . وقال ابن قتيبة : " لا يجوز فتحُ " إنَّ " في هذا الموضعِ وهو كفرٌ وغلوٌّ " ، وقال الشيخ : " وإنما قالا

ذلك بناءً منهما على أن "أنَّ" معمولةٌ ل "قولهم" . قلت : كيف تكون معمولةً ل "قولهم" وهي واجبةُ الكسرِ بعد القول إذا حُكِيَتْ به ، كيف يُتَوَهَّم ذلك ؟ وكما لا يُتَوَهَّم هذا المعنى مع كسرِها لا يُتَوَهَّم أيضاً مع فتحها ما دام له وجهٌ صحيح .

و "جميعاً" حال من "العِزَّة" ويجوز أن يكون توكيداً ولم يؤنَّثْ بالتاءِ ، لأنَّ فعيلاً يستوي فيه المذكر والمؤنث لشبهه بالمصادرِ ، وقد تقدَّم تحريرُه في قوله : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ [الأعراف : 56] .

وقوله : ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾ ، قيل : حُذِفَتْ صفتُه لِفَهْم المعنى ، إذ التقديرُ : ولا يَحْزنك قولُهم الدالُّ على تكذيبك ، وحَذْفُ الصفةِ وإبقاءُ الموصوفِ قليلٌ بخلافِ عكسِه . وقيل : بل هو عامٌّ أُريد به الخاص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 233.234 ﴾

(355/365)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65) ﴾

العبدُ ما دام متفرقاً يضيقُ صدرُه ويستوحش قلبُه بما يسمع ويشهد من الأغيار والكفارِ ما

تَتَقدَّسُ عنه صفةُ الحقّ ، فإنْ صار عارفاً زالَتْ عنه تلك الصفة لتحققه بأنَّ الحقَّ سبحانه وراء كلّ طاعةٍ وزلَّةٍ ، فلا له – سبحانه – من هذا استيحاش ، ولا بذلك استئناس .

ثم يتحقق العارفُ بأنَّ المُجرِيَ لطاعةِ أربابِ الوفاق – اللَّهُ ، والمُنشِئُ لأحوال أهل الشّقاقِ – اللَّهُ . لا يبالي الحقُّ بما يجري ولا يبالي العبد بشهود ما يجري ، كما قيل :

بنو حقٍّ قضوا بالحقِّ صِرْفا . . . فَنَعْتُ الخَلْقِ فيهم مستعار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 106 . 107 ﴾

(356/365)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والستون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/366)

الجزء السادس والستون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 66 ﴾ من سورة يونس عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 70 ﴾ من نفس السورة

(4/366)

قوله تعالى ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (66) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ختمت بعموم سمعه وعلمه بعد قصر العزة عليه ، كان كأنه قيل : إن العزة لا تتم إلاّ بالقدرة فأثبت اختصاصه بالملك الذي لا يكون إلاّ بها ، فقال مؤكداً لما يستلزمه إشراكهم من الإنكار لمضمون هذا الكلام : ﴿ ألآ إن لله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ؛ ولما كان بعض الناس قد أشركوا ببعض النجوم ، جمع فقال معبراً بأداة العقلاء تصريحاً بما أفهمه التعبير سابقاً بأداة غيرهم : ﴿ من في السماوات ﴾ أي كلها ، وابتدأ بها لأن ملكها يدل على ملك الأرض بطريق الأولى ، ثم صرح بها في قوله مؤكداً لما تقدم : ﴿ ومن في الأرض ﴾ أي كلهم عبيده ملوكهم ومن دونهم ، نافذ فيهم تصريفه ، منقادون لما يريده ، وهو أيضاً تعليل ثان لقوله ﴿ ولا يحزنك قولهم ﴾ أو للتفرد بالعزة ، وعبر ب " من " التي للعقلاء والمراد كل ما في الكون لأن السياق لنفي العزة عن غيره ، والعقلاء بها أجدر ، فنفيها عنهم نفي عن غيرهم بطريق الأولى ، ثم غلبوا لشرفهم على غيرهم ، ولذا تطلق " ما " التي هي لغيرهم في سياق هو بها أحق ثم يراد بها العموم تغليباً للأكثر الذي لا يعقل على الأقل ؛ ثم نفى أن يكون له في ذلك شريك بقوله عاطفاً على ما تقديره : فما له شريك مما ادعاه المشركون منهما أو من إحداهما : ﴿ وما يتبع ﴾ أي بغاية الجهد ﴿ الذين يدعون ﴾ أي على سبيل العبادة ﴿ من دون الله ﴾ أي الذي له العظمة كلها ﴿ شركآء ﴾ على الحقيقة ؛ ويجوز أن تكون " ما " موصولة تحقيراً للشركاء بالتعبير بأداة ما لا يعقل ومعطوفه

على " من " ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ يتبعون ﴾ في ذلك الذي هو أصل أصول الدين يجب فيه القطع وهو دعاءهم له شركاء ﴿ إلاّ الظن ﴾ أي المخطىء على أنه لو كان صواباً كانوا مخطئين فيه حيث قنعوا في الأصل بالظن ، ثم نبه على الخطأ بقوله : ﴿ وإن ﴾ أي وما ﴿ هم إلاّ يخرصون ﴾ أي يحزرون ذلك ويقولون ما لا حقيقة له أصلاً ؛ والاتباع : طلب اللحاق بالأول على تصرف الحال ، فهؤلاء اتبعوا الداعي إلى عبادة الوثن وتصرفوا معه فيما دعا إليه ، وظنهم في عبادتها إنما هو بشبيهة ضعيفة كقصد زيادة التعظيم لله وتعظيم تقليد الأسلاف ، ويجوز أن يكون ﴿ شركاء ﴾ مفعولاً تنازعه ﴿ يتبع ﴾ و ﴿ يدعون ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 462 . 463 ﴾

(5/366)

فصل

قال الفخر :

وأما قوله : ﴿ أَلا إِنَّ للَّهِ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾

ففيه وجهان : الأول : أنه تعالى ذكر في الآيات المتقدمة ﴿ أَلا إِنَّ للَّهِ مَا فِى السموات والأرض ﴾ [يونس : 55] وهذا يدل على أن كل ما لا يعقل فهو ملك لله تعالى وملك له ،

وأما ههنا فكلمة ﴿ مِنْ ﴾ مختصة بمن يعقل ، فتدل على أن كل العقلاء داخلون تحت ملك الله وملكه فيكون مجموع الآيتين دالاً على أن الكل ملكه وملكه .

والثاني : أن المراد ﴿ مَن فِى السموات ﴾ العقلاء المميزون وهم الملائكة والثقلان .

وإنما خصهم بالذكر ليدل على أن هؤلاء إذا كانوا له وفي ملكه فالجمادات أولى بهذه العبودية فيكون ذلك قدحاً في جعل الأصنام شركاء لله تعالى .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ وفي كلمة ﴿ مَا ﴾ قولان : الأول : أنه نفي وجحد ، والمعنى أنهم ما اتبعوا شريك الله تعالى إنما اتبعوا شيئاً ظنوه شريكاً لله تعالى .

ومثاله أن أحدنا لو ظن أن زيداً في الدار وما كان فيها ، فخاطب إنساناً في الدار ظنه زيداً فإنه لا يقال : إنه خاطب زيداً بل يقال خاطب من ظنه زيداً .

الثاني : أن ﴿ مَا ﴾ استفهام ، كأنه قيل : أي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، والمقصود تقبيح فعلهم يعني أنهم ليسوا على شيء .

ثم قال تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ والمعنى أنهم إنما اتبعوا ظنونهم الباطلة وأوهامهم الفاسدة ، ثم بين أن هذا الظن لا حكم له ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ وذكرنا معنى الخرص في سورة الأنعام عند قوله : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : 116] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 105 . 106 ﴾

(6/366)

وقال ابن عطية فى الآيات :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾

قصد الآية وصف إحاطة الله تعالى بكل شيء ، ومعنى اللفظ ﴿ وما تكون ﴾ يا محمد ، والمراد هو وغيره ﴿ في شأن ﴾ من جميع الشؤون ﴿ وما تتلوا نه ﴾ الضمير عائد على ﴿ شأن ﴾ أي فيه وبسببه من قرآن ، ويحتمل أن يعود الضمير على جميع القرآن ، ثم عم بقوله ﴿ ولا تعملون من عمل ﴾ وفي قوله ﴿ إلا كنا عليكم شهوداً ﴾ ، تحذير وتنبيه ، و ﴿ تفيضون ﴾ تنهضون بجد ، يقال : أفاض الرجل في سيره وفي حديثه ، ومنه الإفاضة في الحج ومفيض القدام ، ويحتمل أن " فاض " عدي بالهمزة ، و ﴿ يعزب ﴾ معناه : يغيب حتى يخفى حتى قالوا للبعيد عازب ، ومنه قول الشاعر [ابن مقبل] : الطويل]

عوازب لم تسمع نبوح مقامه . . . ولم تر ناراً تم حول محرم

(7/366)

وقيل للغائب عن أهله : عازب حتى قالوه لمن لا زوجة له ، وفي السير أن بيت سعد بن خيثمة كان يقال : بيت العزاب ، وقرأ جمهور السبعة والناس " يعزُب " يضم الزاي ، وقرأ الكسائي وحده منهم : " يعزِب " بكسرها وهي قراءة ابن وثاب والأعمش وطلحة بن مصرف ، قال أبو حاتم : القراءة بالضم ، والكسر لغة ، و" المثقال " : الوزن ، وهو اسم ، لا صفة كمعطار ومضراب والذر : صغار النمل ، جعلها الله مثالاً إذ لا يعرف في الحيوان المتغذي المتناسل المشهور النوع والموضع أصغر منه ، وقرأ جمهور الناس وأكثر السبعة : " ولا أصغرَ ولا أكبرَ " بفتح الراء عطفاً على ﴿ ذرة ﴾ في موضع خفض لكن منع من ظهوره امتناع الصرف ، وقرأ حمزة وحده : " ولا أصغر ولا أكبر " عطفاً على موضع قوله ﴿ مثقال ﴾ ، لأن التقدير وما يعزب عن ربك مثقال ذرة ، و" الكتاب المبين " : اللوح المحفوظ ، كذا قال بعض المفسرين ، ويحتمل أن يريد تحصيل الكتبة ، ويكون القصد ذكر الأعمال المذكورة قبل ، وتقديم " الأصغر " في الترتيب جرى على قولهم : القمرين والعمرين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ﴾ [الكهف : 49] والقصد بذلك تنبيه الأقل وأن الحكم المقصود إذ وقع على الأقل فأحرى أن يقع على الأعظم ، و﴿ ألا ﴾ استفتاح وتنبيه ، و﴿ أولياء الله ﴾ هم المؤمنون الذين والوه بالطاعة والعبادة ، وهذه الآية يعطي ظاهرها أن من آمن واتقى فهو داخل في أولياء الله ، وهذا هو الذي تقتضيه الشريعة في الولي ، وإنما نبهنا هذا التنبيه حذراً من بعض الوصفية وبعض الملحدين في الولي ، وروي

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا سئل عن أولياء الله ؟ فقال : الذين إذا رأيتهم ذكرت الله .

(8/366)

قال القاضي أبو محمد : وهذا وصف لازم للمتقين لأنهم يخشعون ويخشعون ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً أنه قال : " أولياء الله قوم تحابوا في الله واجتمعوا في ذاته لم تجمعهم قرابة ولا مال يتعاطونه " وقوله ﴿ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ يحتمل أن يكون في الآخرة ، أي لا يهتمون بهمها ولا يخافون عذاباً ولا عقاباً ولا يحزنون لذلك ، ويحتمل أن يكون ذلك في الدنيا أي لا يخافون أحداً من أهل الدنيا ولا من أعراضها ولا يحزنون على ما فاتهم منها ، والأول أظهر والعموم في ذلك صحيح لا يخافون في الآخرة جملة ولا في الدنيا الخوف الدنياوي الذي هو في فوت آمالها وزوال منازلها وكذلك في الحزن ، وذكر الطبري عن جماعة من العلماء مثل ما في الحديث من الأولياء الذين إذا رآهم أحد ذكر الله ، وروي فيهم حديث : " إن أولياء الله هم قوم يتحابون في الله وتجعل لهم يوم القيامة منابر من نور وتنير وجوههم ، فهم في عرصة القيامة لا يخافون ولا يحزنون " وروي عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء

يغبطهم الأنبياء والشهداء بمكانهم من الله قالوا ومن هم يا رسول الله ؟ قال : قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام ولا أموال " ، الحديث ، ثم قرأ ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، وقوله ﴿ الذين آمنوا ﴾ يصح أن يكون في موضع نصب على البدل من الأولياء ، ويصح أن يكون في موضع رفع على الابتداء على تقديرهم الذين ، وكثيراً ما يفعل ذلك بنعت ما عملت فيه " أن " إذا جاء بعد خبرها ، ويصح أن يكون ﴿ الذين ﴾ ابتداء وخبره في قوله ﴿ لهم البشرى ﴾ ، وقوله ﴿ وكانوا يتقون ﴾ لفظ عام في تقوى الشرك والمعاصي .

﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ ﴾

(9/366)

أما بشرى الآخرة فهي بالجنة قولاً واحداً وتلك هي الفضل الكبير الذي في قوله ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾ [الأحزاب : 47] وأما بشرى الدنيا فتظاهرت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له ، وروي ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو الدرداء وعمران بن حصين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وغيرهم على أنه سئل عن ذلك ففسره بالرؤيا ، وعن النبي

صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم أنه قال : " لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة " ، وروت عنه أم كرز الكعبية أنه قال : " ذهبت النبوءة وبقيت المبشرات " ، وقال قتادة والضحاك : البشرى في الدنيا هي ما يبشر به المؤمن عند موته وهو حي عند المعاينة .

قال القاضي أبو محمد : ويصح أن تكون بشرى الدنيا في القرآن من الآيات المبشرات ، ويقوى ذلك بقوله في هذه الآية ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ وإن كان ذلك كله يعارضه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " هي الرؤيا " إلا إن قلنا إن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى مثالاً من البشرى وهي تعم جميع الناس ، وقوله ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ يريد لا خلف لمواعيده ولا رد في أمره .

(10/366)

قال القاضي أبو محمد : وقد أخذ ذلك عبد الله بن عمر على نحو غير هذا وجعل التبديل المنفي في الألفاظ وذلك أنه روي : أن الحجّاج بن يوسف خطب فأطال خطبته حتى قال : إن عبد الله بن الزبير قد بدل كتاب الله ، فقال له عبد الله بن عمر : إنك لا تطيق ذلك أنت ولا ابن الزبير ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ ، فقال له الحجاج : لقد أعطيت علماً فلما انصرف إليه في خاصته سكت عنه ، وقد روي هذا النظر عن ابن عباس في غير مقاولة

الحجّاج، ذكره البخاري، وقوله ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ إشارة إلى النعيم الذي به وقعت البشرى. وقوله: ﴿ ولا يحزنك ﴾ الآية، هذه آية تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم، المعنى ولا يحزنك يا محمد ويهمك قولهم، أي قول كفار قريش، ولفظة القول تعم جحودهم واستهزاءهم وخداعهم وغير ذلك، ثم ابتدأ بوجوب ﴿ إن العزة لله جميعاً ﴾، أي فهم لا يقدرون على شيء ولا يؤذونه إلا بما شاء الله وهو القادر على عقابهم لا يعازه شيء، ففي الآية وعيد لهم، وكسر ﴿ إن ﴾ في الابتداء ولا ارتباط لها بالقول المتقدم لها، وقال ابن قتيبة لا يجوز فتح "إن" في هذا الموضع وهو كفر.

(11/366)

قال القاضي أبو محمد: وقوله هو كفر غلو، وكأن ذلك يخرج على تقدير لأجل أن العزة لله، وقوله: ﴿ هو السميع ﴾ أي لجميع ما يقولونه ﴿ العليم ﴾ بما في نفوسهم من ذلك، وفي ضمن هذه الصفات تهديد، ثم استفتح بقوله ﴿ ألا إن لله من في السماوات والأرض ﴾ أي بالملك والإحاطة، وغلب من يعقل في قوله ﴿ من ﴾ إذ له ملك الجميع ما فيها ومن فيها، وإذا جاءت العبارة ب "ما" فذلك تغليب للكثرة إذ الأكثر عدداً من المخلوقات لا يعقل، ف ﴿ من ﴾ تقع للصنفين بمجموعهما، "وما" كذلك، ولا تقع لما يعقل إذا تجرد

من أن تقول : ما قائل هذا القول ؟ هذا ما يتقلده من يفهم كلام العرب ، وقوله ﴿ وما يتبع ﴾ يصح أن تكون ﴿ ما ﴾ استفهاماً بمعنى التقرير وتوقيف نظر المخاطب ، ويعمل ﴿ يدعون ﴾ في قوله ﴿ شركاء ﴾ ويصح أن تكون نافية ويعمل ﴿ يتبع ﴾ في ﴿ شركاء ﴾ على معنى أنهم لا يتبعون شركاء حقاً ، ويكون مفعول ﴿ يدعون ﴾ وقوله ﴿ إن ﴾ نافية و ﴿ يخرصون ﴾ معناه يحدسون ويخمنون لا يقولون بقياس ولا نظر ، وقرأت فرقة " ولا يُحزنك " من أحزن ، وقرأت فرقة " ولا يَحزنك " من حزن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(12/366)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السماوات وَمَنْ فِي الأرض ﴾ أي يحكم فيهم بما يريد ، ويفعل فيهم ما يشاء سبحانه !

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله شُرَكَآءَ ﴾ "ما" للنفي ، أي لا يتبعون شركاء على الحقيقة ، بل يظنون أنها تشفع أو تنفع .

وقيل : "ما" استفهام ، أي أيّ شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء تقبيحاً لفعلهم ،

ثم أجاب فقال : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ أي يَحْدِسون ويكذبون ، وقد تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(13/366)

وقال أبو حيان :

﴿ ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض ﴾ .

المناسبة ظاهرة في هذه الآية لما ذكر أن العزة له تعالى وهي القهر والغلبة ، ذكر ما يناسب القهر وهو كون المخلوقات ملكاً له تعالى ، ومن الأصل فيها أن تكون للعقلاء ، وهنا هي شاملة لهم ولغيرهم على حكم التغليب ، وحيث جيء بما كان تغليباً للكثرة إذ أكثر المخلوقات لا تعقل .

وقال الزمخشري : يعني العقلاء المميزين وهم الملائكة والثقلان ، وإنما خصهم ليؤذن أنّ هؤلاء إذا كانوا له في ملكه فهم عبيد كلهم ، لا يصلح أحد منهم للربوبية ، ولا أن يكون شريكاً فيها ، فما دونهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون نداً وشريكاً .

ويدل على أنّ من اتخذ غيره رباً من ملك أو إنسي فضلا عن صنم أو غير ذلك ، فهو مبطل تابع لما أدّى إليه التقليد وترك النظر .

والظاهر أنّ ما نافية ، وشركاء مفعول يتبع ، ومفعول يدعون محذوف لفهم المعنى تقديره : آلهة أو شركاء أي : أنّ الذين جعلوهم آلهة وأشركوهم مع الله في الربوبية ليسوا شركاء حقيقة ، إذ الشركة في الألوهية مستحيلة ، وإن كانوا قد أطلقوا عليهم اسم الشركاء .

وجوزوا أن تكون ما استفهامية في موضع نصب بيتبع ، وشركاء منصوب بيدعون أي : وأي شيء يتبع على تحقير المتبع ، كأنه قيل : من يدعو شريكاً لله لا يتبع شيئاً .

وأجاز الزمخشري أن تكون ما موصولة عطفاً على من ، والعائد محذوف أي : والذي يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أي : وله شركاؤهم .

وأجاز غيره أن تكون ما موصولة في موضع رفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره : والذي يتبعه المشركون باطل .

وقرأ السلمي : تدعون بالتاء على الخطاب .

قال ابن عطية : وهي قراءة غير متجهة .

(14/366)

وقال الزمخشري : وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه تدعون بالتاء ، ووجهه أن يحمل وما يتبع على الاستفهام أي : وأي شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين ،

يعني : أنهم يبتعون الله تعالى ويطيعونه ، فما لكم لا تفعلون فعلهم كقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ انتهى .

وأنّ نافية أي : ما يتبعون إلا ظنهم أنهم شركاء .

ويخرصون : يقدرون .

ومن قرأ تدعون بالتاء كان قوله : إن يتبعون التفاتاً ، إذ هو خروج من خطاب إلى غيبة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(15/366)

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾

أي العقلاَ من الملائكة والثقلين ، وتخصيصُهم بالذكر للإيذان بعدم الحاجةِ إلى التصريح بغيرهم فإنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم إذا كانوا عبيداً له سبحانه مقهورين تحت قهرِه وملكته فما عداهم من الموجودات أولى بذلك وهو مع ما فيه من التأكيد لما سبق من اختصاص العزة بالله تعالى الموجبِ لسلوته عليه السلام وعدمِ مبالاِته بالمشركين وبمقالاتهم تمهيدٌ لما لحِق من قوله تعالى :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله شُرَكَاء ﴾ وبرهانٌ على بطلان ظنونِهم وأعمالِهم المبنيةِ عليها ، وما إما نافيةٌ وشركاءَ مفعولُ يتّبع ومفعولُ يدْعون محذوفٌ لظهوره أي ما يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاءَ شركاءَ في الحقيقة وإن سمَّوْها شركاءَ فاقتُصر على أحدهما لظهور دلالتِه على الآخر ، ويجوز أن يكون المذكورُ مفعولَ يدعون ويكون مفعولُ يتّبع محذوفاً لانفهامه من قوله تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ أي ما يتبعونه يقيناً إنما يتبعون ظنَّهم الباطلَ ، وإما موصولةٌ معطوفةٌ على مَنْ كأنه قيل : والله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاءَ أي وله شركاؤهم ، وتخصيصُهم بالذكر مع دخولهم فيما سبق عبارةٌ أو دلالةٌ للمبالغة في بيان بطلانِ اتباعِهم وفسادِ ما بنَوْه عليه من ظنهم شركاءَهم معبودين مع كونهم عبيداً له سبحانه ، وإما استفهاميةٌ أي وأيُّ شيءٍ يتّبعون أي لا يتبعون إلا الظنَّ والخيالَ الباطلَ كقوله تعالى : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ الخ ، وقرىء تدعون بالتاء فالاستفهامُ للتبكيت والتوبيخ كأنه قيل : وأي شيءٍ يتّبع الذين تدعونهم شركاءَ من الملائكة والنبيين تقريراً لكونهم متّبعين لله تعالى مطيعين له وتوبيخاً لهم على اقتدائهم بهم في ذلك كقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة ﴾ ثم

صُرف الكلامُ عن الخطاب إلى الغَيبة فقيل : إنْ يتبعُ هؤلاء المشركون إلا الظنَّ ولا يتبعون ما يتبعه الملائكةُ والنبيون من الحق ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ يكذبون فيما ينسُبونه إليه سبحانه ويحزَرون ويقدّرون أنهم شركاءُ تقديراً باطلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(17/366)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾

أي من الملائكة والثقلين كما يدل عليه التعبير بمن الشائع في العقلاء ، والتغليب غير مناسب هنا ، ووجه تخصيصهم بالذكر الإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بغيرهم فإنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم إذا كانوا عبيداً لله مملوكين له سبحانه فما عداهم من الموجودات أولى بذلك ، والجملة مع ما فيها من التأكيد لما سبق من اختصاص العزة به جل شأنه الموجب لسلوته عليه الصلاة والسلام وعدم مبالاته بمقالات المشركين تمهيد لما لحق من قوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله شُرَكَاء ﴾ ودليل على بطلان ظنونهم وأعمالهم المبنية عليها والاقتصار على أحد الأمرين قصور فلا تكن من القاصرين ، و﴿ مَا ﴾ نافية ﴿

وشركاء ﴾ مفعول ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ﴾ ومفعول ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ محذوف لظهوره ، أي ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء في الحقيقة وان سموها شركاء لجهلهم فالمراد سلب الصفة في الحقيقة ونفس الأمر فما ذكره أبو البقاء من عدم جواز هذا الوجه من الإعراب لأنه يدل على نفي اتباعهم الشركاء مع أنهم اتبعوهم ناشىء من الغفلة عما ذكرنا ، وجوز أن يكون ﴿ شُرَكَاء ﴾ المذكور مفعول ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ ويكون مفعول ﴿ يَتَّبِعُ ﴾ محذوفاً لانفهامه من قوله سبحانه : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ أي ما يتبعون يقيناً وإنما يتبعون ظنهم الباطل أو ظنهم أنها شركاء بتقدير معمول الظن أو تنزيله منزلة اللازم ، وقدر بعضهم مفعول ﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ شركاء ميلاً إلى إعمال الثاني في التنازع ، وتعقب بأنه لا يصح أن يكون من ذلك الباب لأن مفعول الفعل الأول مقيد دون الثاني فلا يتحد المعمول والاتحاد شرط في ذلك ، وكون التقييد عارضاً بعد الإعمال بقرينة عاملة فلا ينافي ما شرط في الباب بالباب كما لا يخفى ، وجوز أيضاً أن تكون ﴿ مَا ﴾ استفهامية منصوبة بيتبع و ﴿ شُرَكَاء ﴾ مفعول ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ أي أي شيء يتبع المشركون أي ما يتبعونه ليس بشيء ، وأن تكون

(18/366)

موصولة معطوفة على ﴿ مِنْ ﴾ أي وله تعالى ما يتبعه المشركون خلقاً وملكاً فكيف يكون شريكاً له سبحانه ، وتخصيص ذلك بالذكر مع دخوله فيما سبق عبارة أو دلالة للمبالغة في بيان بطلان الاتباع وفساد ما بنوه عليه من الظن الذي هو من الفساد بمكان ، وجوز على احتمال الموصولية أن تكون مبتدأ خبره محذوف أي باطل ونحوه أو الخبر قوله سبحانه : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ والعائد محذوف أي في عبادته أو اتباعه .

وقرأ السلمي ﴿ تَدْعُونَ ﴾ بالتاء الخطابية ، وروي ذلك عن علي كرم الله وجهه وهي قراءة متجهة خلافاً لزاعم خلافه فإن ﴿ مَا ﴾ فيها استفهامية للتبكيت والتوبيخ والعائد على ﴿ الذين ﴾ محذوف و ﴿ شُرَكَاء ﴾ حال منه ، والمراد من ﴿ الذين ﴾ الملائكة والمسيح وعزير عليهم الصلاة والسلام فكأنه قيل : أي شيء يتبع الذين تدعونهم حال كونهم شركاء في زعمكم من الملائكة والنبيين تقريراً لكونهم متبعين لله تعالى مطيعين له وتوبيخاً لهم على عدم اقتدائهم بهم في ذلك كقوله سبحانه :

﴿ أولئك الذين تَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى ربِّهِمُ الوسيلة ﴾ [الإسراء : 57] وحاصله أن الذين تعبدونهم يعبدون الله تعالى ولا يعبدون غيره فما لكم لا تقتدون بهم ولا تتبعونهم في ذلك ثم صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقيل : إن يتبع هؤلاء إلا الظن ولا يتبعون ما يتبعه الملائكة والنبيون عليهم السلام من الحق ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ أي يحزرون ويقدرون أنهم شركاء تقديراً باطلاً أو يكذبون فيما ينسبونه إليه سبحانه وتعالى على أن الخرص إما

بمعنى الحزر والتخمين كما هو الأصل الشائع فيه وإما بمعنى الكذب فإنه جاء استعماله في ذلك لغلبته في مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 11 صـ ﴾

(19/366)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾

المقصود بتوجيه هذا الكلام هم المشركون لتأييسهم من كل احتمال لانتصارهم على النَّبيء عليه الصلاة والسلام والمسلمين ، فإن كثيراً منهم حين يفهم ما في الآيات الخمس السَّابقة من قوله : ﴿ وما تكون في شأن ﴾ [يونس : 61] إلى هنا من التصريح بهوان ، شأنهم عند الله وعند رسوله ومن التعريض باقتراب حلول الغلبة عليهم يخامرهم بعض الشك في صدق الرسول وأنّ ما توعَّدهم به حق ، ثمّ يغالطون أنفسهم ويسلون قلوبهم بأنَّه إن تحقَّق ذلك سيجدون من آلهتهم وساطة في دفع الضر عنهم ويقولون في أنفسهم : لمثل هذا عبدناهم ، وللشَّفاعة عند الله أعددناهم ، فسيق هذا الكلام لقطع رجائهم منهم بالاستدلال على أنَّهم دون ما يظن بهم .

فالجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً ومناسبة وقوعها عقب جملة ﴿ ولا يحزنك قولهم ﴾ [

يونس : 65] أن أقوالهم دحضت بمضمون هذه الجملة .

وأما وقوعها عقب جملة ﴿ إن العزة لله جميعاً ﴾ [يونس : 65] فلأنها حجَّة على أنّ العزّة لله لأنّ الذي له من في السماوات ومن في الأرض تكون له العزّة الحق .

وافتتاح الجملة بحرف التنبيه مقصود منه إظهار أهميَّة العلم بمضمونها وتحقيقه ولذلك عقب بحرف التأكيد ، وزيد ذلك تأكيداً بتقديم الخبر في قوله : ﴿ لله من في السماوات ومن في الأرض ﴾ وباجتلاب لام الملك .

و﴿ مَنْ ﴾ الموصولة شأنها أن تطلق على العقلاء وجيء بها هنا مع أن المقصد الأوّل إثبات أنّ آلهتهم ملك لله تعالى ، وهي جمادات غير عاقلة ، تغليباً ولاعتقادهم تلك الآلهة عقلاء وهذا من مجاراة الخصم في المناظرة لإلزامه بنهوض الحجَّة عليه حتَّى على لازم اعتقاده .

(20/366)

والحكم بكون الموجودات العاقلة في السماوات والأرض ملكاً لله تعالى يفيد بالأحرى أن تلك الحجارة ملك الله لأن من يملك الأقوى أقدر على أن يملك الأضعف فإن من العرب من عَبَد الملائكة ، ومنهم من عبدوا المسيح ، وهم نصارى العرب .

وذكر السماوات والأرض لاستيعاب أمكنة الموجودات فكأنه قيل : ألا إنّ لله جميع الموجودات .

وجملة : ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ﴾ الخ معطوفة على جملة : ﴿ لله من في السماوات ومن في الأرض ﴾ .

وهي كالنتيجة للجملة الأولى إذ المعنى أن جميع الموجودات ملك لله ، واتّباع المشركين أصنامهم اتباع خاطىء باطل .

و(ما) نافية لا محالة ، بقرينة تأكيدها بـ (إنْ) النَّافية ، وإيراد الاستثناء بعدهما .

و﴿ شركاء ﴾ مفعول ﴿ يدْعون ﴾ الذي هو صلة ﴿ الذين ﴾ .

وجملة : ﴿ إن يتبعون ﴾ تَوكيدٌ لَفظي لجملة ﴿ ما يتبع الذين يدعون ﴾ وأعيد مضمونها قضاء لحق الفصاحة حيث حصل من البعد بين المستثنى والمستثنى منه بسبب الصلة الطويلة ما يشبه التعقيد اللفظي وذلك لا يليق بأفصح كلام مع إفادة تلك الإعادة مفاد التأكيد لأن المقام يقتضي الإمعان في إثبات الغرض .

و﴿ الظن ﴾ مفعولِ لكلا فعلي ﴿ يتَّبعُ ، ويتْبعون ﴾ فإنهما كفعل واحد .

وليس هذا من التنازع لأن فعل التوكيد اللفظي لا يطلب عملاً لأن المقصود منه تكرير اللفظ دون العمل فالتقدير : وما يتبع المشركون إلا الظنّ وإن هم إلا يخرصون .

والظنُّ : هنا اسم منزل منزلة اللازم لم يقصد تعليقه بمظنون معين ، أي شأنهم اتباع الظنون .

والمراد بالظن هنا العلم المخطىء .

وقد بينت الجملة التي بعدها أنّ ظنهم لا دليل عليه بقوله : ﴿ وإن هم إلا يخرصون ﴾ .

والخرْص : القول بالحزر والتخمين .

وتقدّم نظير هذه الآية في سورة الأنعام (116) وهو قوله : ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلاّ الظنّ وإن هم إلا يخرصون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(21/366)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾

فالحق سبحانه إذن لن يَخرج كائنٌ مَنْ كان عن ملكه .

وساعة تجد الحق سبحانه يبيّن الشيء وضده ، فهو يأتي بالقانون والإطار ﴿ لِلَّهِ ما فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ [البقرة : 284] .

ومثال ذلك : حين تبع قوم فرعون موسى عليه السلام وقومه ، قال أصحاب موسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : 61] .

قالوا ذلك ؛ لأنهم رأوا البحر أمامهم ، فشاء الحق سبحانه أن يبيّن لهم أن البحر لن يعوق مشيئته سبحانه ، ولم ينفلت البحر من قوة الله تعالى ؛ لأن لله ما في السموات وما في الأرض ، والبحر منها ؛ لذلك انفلق البحر ، فكان فِرْقٍ كالطود العظيم .

فلا شيء يخرج عن مُلكه سبحانه تعالى ؛ ولذلك يأتي الحق سبحانه بالنقيض ، فبعد أن جعل الحق سبحانه لهم مسلكاً في البحر ، وكل فرْق كالطود العظيم ، ويظل البحر مفلوقاً فيدخل قوم فرعون فيه .

والحق سبحانه يقول لموسى عليه السلام : ﴿ واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان : 24] .

فيأمر الحق سبحانه البحر أن يعود كما كان ؛ فيغرق قوم فرعون بعد أن أنجى الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام ومن معه ، فأهلك وأنجى بالشيء الواحد ؛ لأنه سبحانه له ما في السموات وما في الأرض ، وليبيّن الحق سبحانه لنا أنه لا شيء في كون الله تعالى يقوم مقام عزته سبحانه أبداً .

وهناك مثال آخر : حين يقول نوح عليه السلام لابنه : ﴿ يا بني اركب مَّعَنَا ﴾ [هود : 42] .

فيردّ الابن قائلاً :

﴿ سآوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المآء ﴾ [هود : 43] .

وهذا كلام صحيح من ناحية أن الجبل يعلو مستواه عن مستوى المياه ، ولكن ابن نوح نسي أن لله تعالى جنديا آخر هو الموج ؛ فكان من المغرَقين .

(22/366)

صحيح أن ابن نوح فطن إلى أن السفينة سوف تستوي على " الجدوى " ، وأن من يركبها لن يغرق ، وكذلك من يأوي إلى الجبل العالي ، لكنه لم يفطن إلى الموج الذي حال بينه وبين الجبل ؛ فكان من المغرقين .

إذن : فكل كائن هو مؤتمر بأمر الله تعالى ، وما دامت العزة لله جميعاً فمصداقها أن لله تعالى ما في السموات وما في الأرض ، وليس هناك كائن في الوجود يتأبَّى على أن يكون جنديا من جنود الحق سبحانه ، فيكون جنديا للإهلاك ، وجنديا للنجاة في نفس الوقت .

وقول الحق سبحانه هنا : (ألا) نعلم من أن (ألا) أداة تنبيه للسامع فلا يؤخذ على غرَّة ولا تفوته حكمة من حكم الكلام ، وينتبه إلى أن هناك خطابا عليه أن يجمع عقله كله ليحسن استقبال ما في هذا الخطاب .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السماوات وَمَنْ فِي الأرض ﴾ [يونس : 66] .

ولقائل أن يقول : هناك كثير من الكائنات غير العاقلة ، وقوله هنا ﴿ مَن ﴾ مقصود به الكائنات العاقلة ؟

ولنا أن نتساءل للرَّدِّ على هذا القائل :

وهل هناك أي شيء في الوجود لا يفهم عن الله ؟

طبعاً لا ، والله سبحانه وتعالى هو القائل عن الأرض :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 45] .

إذن : فكل الكائنات في عُرف الاستقبال عن الله سبحانه سواء ب " مَنْ " أو ب " ما " ، وكل من في الوجود يفهم عن الله .

ونلحظ أن الحق سبحانه يأتي مرة بالقول : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ [آل عمران : 83] .

ومرة يقول الحق سبحانه : ﴿ أَلا إِنَّ للَّهِ مَن فِي السماوات وَمَنْ فِي الأرض ﴾ [يونس : 66] .

كما جاء في هذه الآية التي نحن بصددها الآن .

شاء الحق سبحانه ذلك ، لأن هناك جنساً في الوجود يوجد في السماء ويوجد في الأرض ، وهم الملائكة المُدبِّرَات أمْراً ، هؤلاء هم المقصودون بأن لله ما في السموات والأرض .

ولله سبحانه وتعالى أيضاً جنس في السموات لا يوجد في الأرض وهم الملائكة المهيمون العالين ، وليس لهم وجود على الأرض ، كما أن لله تعالى جنوداً في الأرض ليس لهم وجود في السماء ، فإن لاحظنا الملائكة المدبرات أمراً ، نجد أن قول الحق سبحانه :

﴿ للَّهِ ما فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ [البقرة : 284] .

مناسب لها .

وإن لاحظنا أن لله ملائكة مهيمين في السماء ، وجنوداً في الأرض لا علاقة لهم بالسماء يكون مناسباً لذلك قول الحق سبحانه :

﴿ ألا إِنَّ للَّهِ مَن فِي السماوات وَمَنْ فِي الأرض ﴾ [يونس : 66] .

وما دام كل شيء في الكون مملوكاً لله تعالى فلا شيء يخرج عن مراده سبحانه ، فلا يوجد مثلاً غار يدخله كائن فراراً من الله ؛ لأنه سبحانه قادر على أن يسد الغار ، وإن شاء الله سبحانه أن يساعد من دخل الغار فهو تعالى يعمي بصر من يرقب الغار .

إذن : فلن يجير شيء على الله تعالى ، وستظل له صفة العزة لا يخدشها خادش من وجود الله في الكون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله شُرَكَآءَ ﴾ [يونس : 66] .

ومعنى اتباعهم شركاء كأن هناك شركاء ، رغم أن الأصل والحقيقة ألاَّ شركاء له سبحانه .

إذن : فهم يتبعون غير شيء ؛ والدليل على ذلك موجود في طي القضية ، فهم يبعدونهم من دون الله تعالى ، ومعنى العبادة أن يطاع أمر وينهى نهي ، وما يعبدونه من أشياء لا أوامر لها ولا نواهي ؛ فليس هناك منهج جاءوا به .

إذن : فلا ألوهية لهم .

إذن : فالأصل ألا شركاء لله تعالى ، ولو كان له شركاء لأنزلوا منهجاً ولأوجدوا أوامر ، وكان لهم نواهٍ ؛ لأن الذي يقول : " اعبدني " إنما يحدد طريقة وأسلوب العبادة . وهاتوا واحداً من الذين تتبعونهم وتدعون لهم يكون له منهج ، ولن يستطيعوا ذلك ، ولاحق سبحانه هو القائل :

(24/366)

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 42] .

أي : أننا لو افترضنا أن هناك آلهة ولها مظهر قوة كالشمس التي تضيء والقمر الذي ينير ، والمطر الذي ينزل من السماء ، والملائكة التي تدبِّر الأمر ، لو صدَّقنا أن كل هؤلاء آلهة ، فهم

سيبحثون عن الإله الواحد الأحد ؛ ليأخذوا منه القوة التي ظننتم أنها لهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : 91] .

إذ لو كان هذا الأمر صحيحاً لكانت هناك ولايات إليهة .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ أولئك الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة ﴾ [الإسراء : 57] .

وهم قالوا إنهم يعبدون الملائكة ، وعليهم أن يعلموا أن الملائكة نفسها تعبد الله سبحانه وتعالى ، وما دام لا يوجد شركاء لله لتتبعوهم ؛ إذن : فأنتم تتبعون الظن .

لذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [يونس : 66] .

ونحن نجد الذين أولعوا بأن يُوجِدوا في القرآن ظاهر تعارض ليشكّكوا فيه ، قالوا : إن هذه الآية مثال على ذلك ؛ فيقولون : في بداية الآية يقول : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَآءَ ﴾ [يونس : 66] .

فينفي أن المشركين يتبعون شركاء لله ، ثم يأتي في آخر الآية فيقول إنهم يتَّبعون الظن والخرص ، ففي أولها ينفي الاتباع ، وفي آخرها يثبته .

وهذا جهل ممن قال بهذا وادعى أن هناك تناقضاً في الآية ، فالله سبحانه ينفي أن يكون ما يدعوه هؤلاء المشركون شركاء لله في ملكه ، فللَّه من في السموات ومن في الأرض ، ولكنه يثبت أنهم يتَّبعون الظن والخرص والتخمين .

ونقول : ما هو الظن ؟ وما هو الخرص ؟

(25/366)

إن الظن حكم بالراجح كما أوضحنا من قبل في النسب من أن هناك نسبة إنْ لم تكن موجودة فهي مشكوك فيها ، أو نسبة راجحة ، أو أن نسبة تساوي فيها الشك مع الإثبات ، فإنْ كان الشك مساوياً للإثبات فهذا هو الشك . وإن رجحت ، فهذا هو الظن . أما المرجوح فنسميه وهماً .

الظن إذن حكم بالراجح . والخَرْص : هو التخمين ، والقول بلا قاعدة أو دليل .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [يونس : 66] .

والقرآن حين يوجه خطاباً فهو يأتي بالخطاب المستوعب لكل ممكن ، وهو سبحانه حكم عليهم هنا أنهم يتَّبعون الظن والخرص .

ونحن نعلم أن الكافرين قسمان : قسم يُعْلم حقيقة الشيء ، ولكنه يغيّر الحقيقة إلى إفك وإلى خَرْص ، وقسم آخر لا يعرف حقيقة الشيء ، بل يستمع إلى من يعتقد أنه يعرف .

إذن : فهناك مُتَّبِع بكسر الباء وهناك مُتَّبَع بفتح الباء المُتَّبَع بفتح الباء يعلم أن ما يقوله هو كلام ملتوٍ ، يشوّه الحقيقة ويزينها ، أما المتّبع بكسر الباء فيظن أنه يتبع أناساً عاقلين أمناء فأخذ كلامهم بتصديق .

إذن : فالمتبع (بكسر الباء) يكون الظن من ناحيته ، أما المتبع (فتح الباء) فيكون الخَرْص والكذب والافتراء من ناحيته ؛ ولذلك يقول لنا الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكتاب إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة : 78] .

هؤلاء إذن يصدّقون ما يقال لهم ؛ لأنهم أميُّون ، والكلام الذي يقال لهم راجح ، وهم لو فكروا بعقولهم لما انتهوا إلى أنه كلام راجح .

أما الآخرون فيقول فيهم الحق سبحانه :

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ [البقرة : 79] .

وهؤلاء هم الذين يأتي منهم الخَرْص والإفك وقول الزور والبهتان .

إذن : فالكفار إن كانوا من الأميين فهم من أهل الظن ، وينطبق عليهم قول الحق سبحانه :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ [يونس : 66] .

وإن كانوا من القادة والرؤساء فهؤلاء هم من ينطبق عليهم قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [يونس : 66] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(27/366)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ مَن فِي السماوات وَمَنْ فِي الأرض ﴾ : يجوز أن يُرادَ [به] العقلاءُ خاصةً ، ويكون من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى ، وذلك أنه تعالى إذا كان يملك أشرفَ المخلوقات وهما الثَّقَلان العقلاءُ من الملائكة والإنس والجن فَلأَنْ يملكَ ما سواهم بطريق الأُوْلى والأُحْرى . ويجوز أن يُرادَ العمومُ ، وغَلَّبَ العاقلَ على غيرِه .

قوله : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ﴾ يجوز في " ما " هذه أن تكون نافيةً وهو الظاهرُ . و " شركاء "

مفعولُ "يَتَّبع" ، ومفعولُ "يَدْعون" محذوفٌ لفَهْمِ المعنى ، والتقدير : وما يتبع الذين يَدْعُون مِنْ دون الله آلهةً شركاءَ ، فآلهةً مفعول "يَدْعون" و "شركاءَ" مفعول "يتبع" ، وهو قولُ الزمخشري ، قال : "ومعنى وما يَتَّبعون شركاءَ : وما يتَّبعون حقيقة الشركاء وإن كانوا يُسَمُّونها شركاءَ ؛ لأن شركةَ الله في الربوبيةِ مُحال ، إن يتبعونَ إلا ظنَّهم أنها شركاءُ" . ثم قال : "ويجوز أن تكون "ما" استفهاماً ، يعني : وأيَّ شيءٍ يَتَّبعون ، و "شركاء" على هذا نُصِب ب "يدعون" ، وعلى الأول ب "يَتَّبع" وكان حقُّه "وما يتبع الذين يَدْعُون من دون الله شركاءَ شركاءَ" فاقتصر على أحدهما للدلالة" .

وهذا الذي/ ذكره الزمخشري قد رَدَّه مكي ابن أبي طالب وأبو البقاء . أمَّا مكيٌّ فقال : "انتصَبَ شركاء ب "يَدْعون" ومفعول "يَتَّبع" قام مقامَه "إنْ يتبعون إلا الظنَّ لأنه هو ، ولا ينتصِبُ الشركاء ب "يَتَّبع" لأنك تَنْفي عنهم ذلك ، والله قد أَخْبر به عنهم" . وقال أبو البقاء : "وشركاء مفعولٌ "يَدْعون" ولا يجوزُ أن يكونَ مفعول "يتبعون" ؛ لأنَّ المعنى يَصير إلى أنَّهم لم يَتَّبعوا شركاء ، وليس كذلك .

(28/366)

قلت : معنى كلامِهما أنه يَؤُول المعنى إلى نفي اتِّباعهم الشركاءَ ، والواقعُ أنهم قد اتَّبعوا الشركاء . وجوابه ما تقدَّم من أنَّ المعنى أنهم وإن اتَّبعوا شركاءَ فليسوا بشركاءَ في الحقيقة ؛ بل في تسميتهم هم لهم بذلك ، فكأنهم لم يَتَّخذوا شركاءَ ولا اتَّبعوهم لسلب الصفة الحقيقية عنهم ، ومثلُه قولُك : " ما رأيتُ رجلاً " ، أي : مَنْ يستحقُّ أن يُسَمَّى رجلاً ، وإن كنت قد رأيت الذَّكر من بني آدم . ويجوز أن تكونَ " ما " استفهامية ، وتكون حينئذٍ منصوبةً بما بعدها ، وقد تقدَّم قولُ الزمخشري في ذلك . وقال مكي : " لو جعلتَ " ما " استفهاماً بمعنى الإِنكار والتوبيخ كانت اسماً في موضعِ نصبٍ ب " يتَّبع " . وقال أبو البقاء نحوه .

ويجوز أنَ تكونَ " ما " موصولةً بمعنى الذي نسقاً على " مَنْ " في قوله : ﴿ ألا إنَّ للَّهِ مَن فِي السماوات ﴾ ، قال الزمخشري : " ويجوز أن تكونَ " ما " موصولةً معطوفةً على " مَنْ " ، كأنه قيل : وللَّهِ ما يتَّبعه الذين يَدْعون من دونَ الله شركاء ، أي : وله شركاؤكم " .

ويجوز أن تكون " ما " هذه الموصولةَ في محل رفع بالابتداء ، والخبرُ محذوفٌ تقديرُه : والذي يَتَّبعه المشركون باطلٌ . فهذه أربعةُ أوجهٍ .

وقرأ السلمي " تَدْعُون " بالخطاب ، وعزاها الزمخشري لعليّ ابن أبي طالب . قال ابن عطية : " وهي قراءةٌ غيرُ متَّجهة " قلت : قد ذكر توجيهَها أبو القاسم ، فقال : " ووجهُه أن يُحْمل " وما يتَّبع " على الاستفهام ، أي : وأيُّ شيء يتَّبع الذين تَدْعونهم شركاءَ من الملائكة

والنبيين ، يعني أنهم يتَّبعون الله تعالى ويطيعونه ، فما لكم لا تَفْعلون مثلَ فعلِهم كقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى ربِّهِمُ الوسيلة أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ [الإسراء : 57] .

(29/366)

قوله : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ "إنْ" نافية ، و "الظن" مفعولٌ به ، فهو استثناءٌ مفرَّغ ، ومفعولُ الظن محذوفٌ تقديرُه : إن يتبعون إلا الظنَّ أنهم شركاءُ ، وعند الكوفيين تكون أل عوضاً من الضمير تقديره : "إن يَتَّبعون إلا ظنَّهم أنهم شركاءُ . والأحسنُ أن لا يُقَدَّر للظن معمولٌ ؛ إذ المعنى : إن يتبعون إلا الظن لا اليقين .

وقوله : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ مَنْ قرأ "يَدْعُون" بياء الغيبة فقد جاء ب "يَتَّبعون" مطابقاً له ، ومَنْ قرأ "تدعون" بالخطاب فيكون "يتبعون" التفاتاً ، إذ هو خروج من خطاب إلى غَيْبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 234 . 237 ﴾

(30/366)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (66) ﴾

لله مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض مِلْكاً ، ويبدي عليهم ما يريد ، حكما جَزْماً ؛ فلا لقبوله عِلَّة ، ولا موجِبَ لردّه زلَّة ، كلا . . . إنها أحكامٌ سابقة ، لم تُوجِبْها أجرامٌ لاحقة ، ولا طاعاتٌ وعباداتٌ صادقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 107 ﴾

(31/366)

قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ثم أثبت سبحانه اختصاصه بشيء جامع للعلم والقدرة تأكيداً لاختصاصه بالعزة وتفرده بالوحدانية ، وأن من أشرك به خارص لا علم له بوجه لكثرة الدلائل على وحدانيته

ووضوحها فقال : ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الذي جعل ﴾ أي بسبب دوران الأفلاك الذي أتقنه ﴿ لكم ﴾ أي نعمة منه ﴿ الليل ﴾ أي مظلماً ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ راحة لكم ودلالة على قدرته سبحانه على الإيجاد والإعدام وأُنساً للمحبين لربهم ﴿ والنهار ﴾ وأعار السبب وصف المسبب فقال : ﴿ مبصراً ﴾ أي لتنتشروا فيه ، حذف وصف الليل وذكرت علته عكس ما فعل بالنهار ليدل ما ثبت على ما حذف ، فالآية من الاحتباك .

ولما كانت هذه الآيات من الظهور بحيث لا يحتاج إلى أكثر من سماعها ، قال : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم ﴿ لآيات لقوم ﴾ أي لهم قوة المحاولة على ما يريدونه ﴿ يسمعون ﴾ أي لهم سمع صحيح ، وفي ذلك أدلة واضحات على أنه مختص بالعزة فلا شريك له ، لأن الشريك لا بد وأن يقاسم شريكه شيئاً من الأفعال أو الأحوال أو الملك ، وأما عند انتفاء جميع ذلك فانتفاء الشركة أوضح من أن يحتاج فيه إلى دليل ، ويجوز أن يكون المعنى : لآيات لقوم يبصرون إبصار اعتبار ويسمعون سماع تأمل وإدكار ، ولكنه حذف " يبصرون " لدلالة ﴿ مبصراً ﴾ عليه ، ويزيد ذلك وضوحاً وحسناً كون السياق لنفي الشركاء ، فهو إشارة إلى أنها لا تسمع ولا تبصر أصلاً فكيف بالاعتبار والافتكار ؟ فالذين عبدوهم أكمل حالاً منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 463 ﴾

(32/366)

فصل

قال الفخر :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67) ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر قوله : ﴿ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ [يونس : 65] احتج عليه بهذه الآية ، والمعنى أنه تعالى جعل الليل ليزول التعب والكلال بالسكون فيه ، وجعل النهار مبصراً أي مضيئاً لتهتدوا به في حوائجكم بالأبصار ، والمبصر الذي يبصر ، والنهار يبصر فيه ، وإنما جعله مبصراً على طريق نقل الاسم من السبب إلى المسبب .

فإن قيل : إن قوله : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ يدل على أنه تعالى ما خلقه إلا لهذا الوجه ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ يدل على أنه تعالى أراد بتخليق الليل والنهار أنواعاً كثيرة من الدلائل .

قلنا : إن قوله تعالى : ﴿ لِّتَسْكُنُواْ ﴾ لا يدل على أنه لا حكمة فيه إلا ذلك ، بل ذلك يقتضي حصول تلك الحكمة .

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ فالمراد يتدبرون ما يسمعون ويعتبرون به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 106 ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾

لما نص عظمة الله تعالى في الآية المتقدمة عقب ذلك في هذه بالتنبيه على أفعاله لتبين العظمة المحكوم بها قبل ، وقوله ﴿ لتسكنوا ﴾ دال على أن النهار للحركة والتصرف ، وكذلك هو في الوجود ، وذلك أن حركة الليل متعذرة بفقد الضوء ، وقوله ﴿ والنهار مبصراً ﴾ مجاز لأن النهار لا يبصر ولكنه ظرف للإبصار ، وهذا موجود في كلام العرب إذ المقصود من ذلك مفهوم ، فمن ذلك قول ذي الرمة : [الطويل]

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى . . . ونمت وما ليل المطي بنائم

وليس هذا من باب النسب كعيشة راضية ونحوها . وإنما ذلك مثل قول الشاعر : [الكامل]

أما النهار ففي قيد وسلسلة . . . والليل في بيت منحوت من الساج

فجعل الليل والنهار بهاتين الحالتين وليس يريد إلا أنه هو فيهما كذلك ، وهذا البيت لمسجون كان يبيت في خشبة السجن ، وعلى أن هذا البيت قد ينشد " أما النهار "

بالنصب ، وفي هذه الألفاظ إيجاز وإحالة على ذهن السامع لأن العبرة هي في أن الليل مظلم يسكن فيه والنهار مبصر يتصرف فيه ، فذكر طرف من هذا والطرف الآخر من الجهة الثانية ودل المذكوران على المتروكين ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع ﴾ [البقرة : 171] . وقوله ﴿ يسمعون ﴾ يريد ويعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(34/366)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الليلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾

بيّن أن الواجب عبادةُ من يقدِر على خلق الليل والنهار لا عبادة من لا يقدر على شيء .

"لِتَسْكُنُوا فِيهِ" أي مع أزواجكم وأولادكم ليزول التعب والكَلال بكم .

والسكون : الهدوء عن الاضطراب .

قوله تعالى : ﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ أي مضيئاً لِتهتدوا به في حوائجكم .

والمبصِر : الذي يبصر ، والنهار يُبْصَر فيه .

وقال : "مُبْصِراً" تجوّزاً وتوسعاً على عادة العرب في قولهم : "ليل قائم ، ونهار صائم" .

وقال جرير :

لقد لُمْتِنا يا أُمَّ غَيْلان في السُّرَى . . .

ونمتِ وما ليلُ المَطِيّ بنائم

وقال قُطْرُب : يقال أظلم الليل أي صار ذا ظلمة ، وأضاء النهار وأبصر أي صار ذا ضياء وبصر .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي علامات ودلالات .

﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي سماع اعتبار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(35/366)

وقال أبو حيان :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾

هذا تنبيه منه تعالى على عظيم قدرته وشمول نعمته لعباده ، فهو المستحق لأنْ يفرد بالعبادة لتسكنوا فيه مما تقاسون من الحركة والتردّد في طلب المعاش وغيره بالنهار ، وأضاف الإبصار إلى النهار مجازاً ، لأن الأبصار تقع فيه كما قال :

ونمت وما ليل المطيّ بنائم . . .

أي : يبصرون فيه مطالب معايشهم .

وقال قطرب : يقال أظلم الليل صار ذا ظلمة ، وأضاء النهار وأبصر أي صار ذا ضياء وبصر انتهى .

وذكر علة خلق الليل وهي قوله : لتسكنوا فيه ، وحذفها من النهار ، وذكر وصف النهار وحذفه من الليل ، وكل من المحذوف يدل على مقابله ، والتقدير : جعل الليل مظلماً لتسكنوا فيه ، والنهار مبصراً لتتحركوا فيه في مكاسبكم وما تحتاجون إليه بالحركة ، ومعنى تسمعون : سماع معتبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(36/366)

وقال أبو السعود :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾

﴿ هُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ الليلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً ﴾ تنبيهٌ على تفرّده تعالى بالقدرة الكاملةِ والنعمةِ الشاملة ليدلّهم على توحّده سبحانه باستحقاق العبادة ، وتقريرٌ لما سلف من كون جميعِ الموجوداتِ الممكنةِ تحت قدرتِه وملكته المفصِحِ عن اختصاص العزةِ به سبحانه ، والجعلُ إن كان بمعنى الإبداعِ والخلق فمبصِراً حالٌ وإلا (فلكم) مفعولُه الثاني ،

أو هو حالٌ كما في الوجه الأولِ والمفعولُ الثاني لتسكنوا فيه ، أو هو محذوفٌ يدل عليه المفعولُ الثاني من الجملة الثانيةِ كما أن العلةَ الغائيّةَ منها محذوفةٌ اعتماداً على ما في الأولى ، والتقديرُ هو الذي جعل لكم الليلَ مظلماً لتسكُنوا فيه والنهارَ مبصِراً لتتحركوا فيه لمصالحكم كما سيجيء نظيره في قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ الآية ، فحُذف في كل واحد من الجانبين ما ذكر في الآخر اكتفاءً بالمذكور عن المتروك ، وإسنادُ الإبصار إلى النهار مجازيٌّ كالذي في : نهارُه صائمٌ ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي في جعل كلَ منهما كما وُصف أو فيهما ، وما في اسم الإشارةِ من معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلةِ المشارِ إليه وعلوّ رتبته ﴿ لآيَاتٍ ﴾ عجيبةً كثيرةً أو آياتٍ أُخَرَ غيرَ ما ذكر ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي هذه الآياتِ المتلوةَ ونظائرَها المنبّهةَ على تلك الآيات التكوينيةِ الآمرةِ بالتأمل فيها سماعَ تدبرٍ واعتبار فيعملون بمقتضاها ، وتخصيصُ الآيات بهم مع أنها منصوبة لمصلحة الكل لما أنهم المنتفعون بها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(37/366)

وقال الآلوسى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾

تنبيه على تفرده تعالى بالقدرة الكاملة والنعمة الشاملة ليدلهم على توحده سبحانه باستحقاق العبادة فتعريف الطرفين للقصر وهو قصر تعيين ، وفي ذلك أيضاً تقرير لما سلف من كون جميع الموجودات الممكنة تحت قدرته وملكته المفصح عن اختصاص العزة به سبحانه .

والجعل إن كان بمعنى الإبداع والخلق فمبصراً حال وإن كان بمعنى التصيير فلكم المفعول الثاني أو حال كما فيي الوجه الأول فالمفعول الثاني ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ أو هو محذوف يدل عليه المفعول الثاني من الجملة الثانية كما أن العلة الغائية منها محذوفة اعتماداً على ما في الأولى ، والتقدير هو الذي جعل لكم الليل مظلماً لتسكنوا فيه والنهار مبصراً لتتحركوا فيه لمصالحكم فحذف من كل ما ذكر في الآخر اكتفاءً بالمذكور عن المتروك ؛ وفيه على هذا صنعة الاحتباك والآية شائعة في التمثيل بها لذلك وهو الظاهر فيها وإن كان أمراً غير ضروري ، ومن هنا ذهب جمع إلى أنه لا احتباك فيها ، والعدول عن لتبصروا فيه الذي يقتضيه ما قبل إلى ما في النظم الجليل للتفرقة بين الظرف المجرور والظرف الذي هو سبب يتوقف عليه في الجملة وإسناد الإبصار إلى النهار مجازي كالذي في قول جرير

: لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى . . .

ونمت وما ليل المطي بنائم

وقولهم : نهاره صائم وغير ذلك مما لا يحصي كثرة .

وإلى هذا ذهب ابن عطية .

(38/366)

وجماعة ، وقيل : إن ﴿ مُبْصِراً ﴾ للنسب كلابن وتامر أي ذا إبصار ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي في الجعل المذكور أو في الليل والنهار ، وما في اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان ببعد منزلة المشار إليه وعلو رتبته ﴿ لآيات ﴾ أي حججاً ودلالات على توحيد الله تعالى كثيرة أو آيات أخر غير ما ذكر ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي الحجج مطلقاً سماع تدبر واعتبار أو يسمعون هذه الآيات المتلوة ونظائرها المنبهة على تلك الآيات التكوينية الآمرة بالتأمل فيها ذلك السماع فيعملون بمقتضاها ، وتخصيص هؤلاء بالذكر مع أن الآيات منصوبة لمصلحة الكل لما أنهم المنتفعون بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(39/366)

وقال ابن عاشور :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾

جملة معترضة بين جملة : ﴿ إن يتبعون إلا الظنّ ﴾ [يونس : 66] وجملة : ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ [يونس : 68] جاءت مجيء الاستدلال على فساد ظنهم وخَرْصهم بشواهد خلق الليل والنهار المشاهَدِ في كل يوم من العمر مرّتين وهم في غفلة عن دلالته ، وهو خلق نظام النهار والليل .

وكيف كان النهار وقتاً ينتشر فيه النور فيناسب المشاهدة لاحتياج الناس في حركات أعمالهم إلى إحساس البصر الذي به تتبين ذوات الأشياء وأحوالها لتناول ، الصالح منها في العمل ونبذ غير الصالح للعمل .

وكيف كان الليل وقتاً تغشاه الظلمة فكان مناسباً للسكون لاحتياج الناس فيه إلى الراحة من تعب الأعمال التي كدحوا لها في النهار .

فاكانت الظلمة باعثة الناس على الراحة ومحددة لهم إبانها بحيث يستوي في ذلك الفَطِن والغافل .

ولما قابل السكون في جانب الليل بالإبصار في جانب النهار ، والليل والنهار ضدّان دلّ ذلك على أنّ علة السكون عدم الإبصار ، وأنّ الإبصار يقتضي الحركة فكان في الكلام احتباك .

ووصف النهار بمبصر مجاز عقلي للمبالغة في حصول الإبصار فيه حتَّى جعل النَّهار هو

المبصر .

والمراد : مبصِراً فيه الناسُ .

ومن لطائف المناسبة أنّ النّور الذي هو كيفية زمن النّهار ، شيء وجودي ، فكان زمانه حقيقاً بأن يوصف بأوصاف العقلاء ، بخلاف الليل فإن ظلمته عدمية فاقتصر في العبرة به على ذكر الفائدة الحاصلة فيه وهي أن يسكنوا فيه .

وفي قوله : ﴿ هو الذي جعل لكم الليل ﴾ طريق من طرق القصر وهو تعريف المسند والمسند إليه .

(40/366)

وهو هنا قصر حقيقي وليس إضافياً كما توهّمه بعض الكاتبين إذ جعله قصر تعيين ، وهم معترفون به لا يستطيعون دفع هذا الاستدلال ، فالمقصود الاستدلال على انفراده تعالى بخصائص الإلهية التي منها الخلق والتقدير ، وأن آلهتهم انتفت عنها خصائص الإلهية ، وقد حصل مع الاستدلال امتنان على الناس بجعل الليل والنهار على هذا النظام .

وهذا الامتنان مستفاد من قوله : ﴿ جعل لكم ﴾ ومن تعليل خلق الليل بعلة سكون الناس فيه ، وخلق النهار بعلة إبصار الناس ، وكل الناس يعلمون ما في سكون الليل من نعمة

وما في إبصارهم بالنهار من نعمة كذلك ، فإن في العمل بالنهار نعماً جمّة من تحصيل رغبات ، ومشاهدة محبوبات ، وتحصيل أموال وأقوات ، وأن في السكون بالليل نعماً جمّة من استجمام القوى المنهوكة والإخلاد إلى محادثة الأهل والأولاد ، على أن في اختلاف الأحوال ، ما يدفع عن المرء الملال .

وفي إدماج الاستدلال بالامتنان تعريض بأن الذين جعلوا لله شركاء جمعوا وصمتين هما : وصمة مخالفة الحق ، ووصمة كفران النعمة .

وجملة : ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ مستأنفة .

والآيات : الدلائل الدالة على وحدانية الله تعالى بالإلهية ، فإن النظام الذي نشأ عنه الليل والنهار مشتمل على دقائق كثيرة من العلم والحكمة والقدرة وإتقان الصنع .

(41/366)

فمن تلك الآيات : خلق الشمس ، وخلق الأرض ، وخلق النور في الشمس ، وخلق الظلمة في الأرض ، ووصول شعاع الشمس إلى الأرض ، ودوران الأرض كل يوم بحيث يكون نصف كرتها مواجهاً للشعاع ونصفها الآخر محجوباً عن الشعاع ، وخلق الإنسان ؛ وجَعْلِ نظام مزاجه العصبي متأثراً بالشعاع نشاطاً ، وبالظلمة فتُوراً ، وخلق حاسة البصر ، وجعلها

مقترنة بتأثر الضوء ؛ وجعل نظام العمل مرتبطاً بحاسة البصر ؛ وخلق نظام المزاج الإنساني مشتملاً على قوى قابلة للقوة والضعف ثم مدفوعاً إلى استعمال قواه بقصد وبغير قصد بسبب نشاطه العصبي ، ثم فاقداً بالعمل نصيباً من قواه محتاجاً إلى الاعتياض بقوى تخلفها بالسكون والفتور الذي يلجئه إلى تطلب الراحة .

وأيّة آيات أعظم من هذه ، وأية منة على الإنسان أعظم من إيداع الله فيه دواعي تسوقه إلى صلاحه وصلاح نوعه بداع من نفسه .

ووصف ﴿ قوم ﴾ بأنهم ﴿ يسمعون ﴾ إشارة إلى أن تلك الآيات والدلائل تنهض دلالتها للعقول بالتأمل فيها ، وأن توجه التفكير إلى دلائلها غير محتاج إلا إلى التنبيه عليها ولفته إليها ، فلما كان سماع تذكير الله بها هو الأصل الأصيل في استخراج دلالتها وتفريع مدلولاتها على تفاوت الأذهان في الفِطنة وترتيب الأدلة جعل آيات دلالتها حاصلة للذين يسمعون .

ويجوز أن يكون المراد يسمعون تفاصيل تلك الدلائل في تضاعيف سور القرآن ، وعلى كلا الاحتمالين فالوصف بالسمْع تعريض بأن الذين لم يهتدوا بها ولا تفطنوا لدلالتها بمنزلة الصم ، كقوله تعالى : ﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدي العميْ ﴾ [الزخرف : 40] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾

وشاء الحق سبحانه بعد أن بيَّن الإيمان والمؤمنين ، وما يمكن أن يدَّعيه الكافرون في نبيِّ الرسالة ، وبعد أن بيَّن المنهج ، ها هو سبحانه يأتي بالكلام عن آياته سبحانه في الكون تأييداً للمطلوب بالمجود .

فالمطلوب أن نؤمن برسول يبلِّغ منهجاً عن الله ؛ ليكون هذا المنهج نافعاً لنا ، وإنْ أراد أحد دليلاً على ذلك فلينظر إلى الآيات التي وجدت للإنسان من قبل أن يُكلِّف ، أهي في مصلحته أم غير مصلحته ؟

وما دامت الآيات الموجودة في الكون والمسخَّرة للإنسان تفيد الإنسان في حياته ، فلماذا لا يشكر من أعطاه كل تلك النعم ، وقد أعطى الحق سبحانه وتعالى الإنسان من قبل التكليف الكثير من النعم ، وفور أن يصل إلى البلوغ يصير مكلَّفاً .

إذن : فالله سبحانه لم يكلِّف أحداً إلا بعد أن غمره بالنعم النافعة له باعتقاد من العبد وصدق من الواقع .

فإذا ما جاء لك التكليف ، فَقِسْ ما طُلِب منك على ما وُجِد لك ، فإذا كنت تعتقد أن الآيات الكونية التي سبقت التكليف نافعة لك قبل أن يطلب منك " افعل كذا " و " لا تفعل

كذا " ؛ فَخُذْ منها صدقاً واقعاً يؤيد صدق ما طُلِب منك تكليفاً ، فكما نفعك في الأولى ، فالحق سبحانه سينفعك باتباعك التكليف ، واستقبلْ حركة الحياة على ضوء هذا التكليف ؛ لتسعد .

ونحن نعلم أن الأصل في الإنسان أن يرتاح أولاً ليتحرك ، ثم يتعب ، ثم يرتاح ؛ ولذلك نجد التكاليف قد جاءت على نفس المنوال ، فقد أراحك الحق سبحانه إلى سن البلوغ وأخذت نعم الله تعالى وتمتعت بها إلى سن البلوغ ، ارتحت اختياراً ، وارتحت في مراداتك ، ثم تجيء " افعل " و " لا تفعل " لتلتزم بما يُصْلِح لك كل أحوالك .

(43/366)

وإذا كان التكليف سيأخذ منك بعضاً من الجهد ، فهناك فاصل زمني للراحة ، وأنت في حياتك تجد وقتاً للراحة ، ووقتاً للحركة ، والراحة تجعلك تسعى بنشاط إلى الحركة ، والحركة تأخذ منك الجهد الذي تحب أن ترتاح بعده .

إذن : فالحركة تحتاج للراحة ، والراحة تحتاج للحركة .

وجاء الحق سبحانه إلى الفترة الزمنية المسماة " اليوم " ، فبيَّن لنا أنه كما قسَّم الوجود الإنساني إلى مرحلتين :

الأولى : هي ما قبل البلوغ ولا تكليف فيها .

والثانية : هي ما بعد البلوغ وفيها التكليف .

فقد قسَّم الله سبحانه أيضاً " اليوم " إلى وقت للراحة ووقت للحركة ، فقال الله تعالى ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الليلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً ﴾ [يونس : 67] .

فكما خلق سبحانه لنا اليوم وفيه وقت للراحة ، ووقت للحركة ، كذلك شرع الحق سبحانه منهج الدين ؛ لتستقيم حركة الحياة ؛ لأن الإنسان الخليفة في الأرض لا بد أن يتحرك ، لا بد أن تكون حركته على مقتضى " افعل كذا " و " لا تفعل كذا " ، وما لم يَرِدْ فيه " افعل " و " لا تفعل " فهو مباح ؛ إن شاء فعله ، وإن شاء لم يفعله .

وكل فعل ، وكل نهي يتطلب حركة ، وإياك أن تتصور أن النهي لا يتطلب حركة ؛ لأنك تتحرك في أمر ما ثم يأتيك قرار التوقف ، وقد تتوهم أن التوقف لا يحتاج إلى حركة ؛ لأنه سلبك ملكة القيام بما تعمل ، ولكنك تنسى أن هناك حركة داخلية ، وهي الدوافع التي كانت تلح عليك أن تقوم بما تشتهيه نفسك ولا يواكب منهج الله ، وأنت تكبت تلك الدوافع وتكبح جماحها ؛ لأن الله سبحانه قد أمرك بذلك .

وما دامت هناك حركة فلا بد أن يأتي منها تعب ؛ لذلك جعل الله تعالى لك حقّاً في الراحة .

وكذلك عُمْر الإنسان ، لم يكلِّف الله تعالى الإنسان إلا بعد البلوغ ، وترك له الفترة الأولى من عمره دون تكليف منه وحساب ، لكنه سبحانه لم يقطع عنه التكليف في تلك المرحلة بتاتاً ، وإنما منع حسابه على ما " يفعل " أو " لا يفعل " ، وترك مسئولية التدريب على التكليف للأب مثلاً ، فالأب يقول لابنه : " لا تكذبْ " فإن كذب ؛ فالأب يعاقبه ، وهكذا يكون الأمر من الوالد ، والنهي للولد والأمر والنهي يتطلب ثواباً أو عقاباً .

ويبيِّن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر فيقول : " مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين " .

والذي يأمر هنا الابن بالصلاة هو الأب ، وهو أيضاً الذي يعاقب على ترك الصلاة ، وهو الذي يثيب ابنه إن أراد أن يجعل الصلاة محبوبة للابن ، وأن يجعل للابن انساً بالعبادة .

وحين يكلِّف الأب ابنه بالصلاة ، فالابن يطيع ؛ لأن الأب هو الذي يقضي حاجات الابن ، ويحقق له مصالحه ، والابن يعلم أن والده لن يكلفه إلا بما يحقق تلك المصالح ، وهو يفعل ذلك ؛ لأنه يحبه ؛ لذلك جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر والنهي من النافع للابن ؛ لتوجد حيثية قبول في النفس .

وما إن يأت البلوغ فيكون التكليف من الله والأمر من الله ، والثواب والعقاب منه سبحانه .

إذن : فالأمر والنهي قبل البلوغ يأتيان من الأب ؛ ليتعود الإنسان استقبال الأمر والنهي من ربه ورب أبيه .

(45/366)

وإذا كانت الحياة والسير فيها على ضوء منهج الله يقتضي حركة في " افعل " و " لا تفعل " فلا بد أن يحتاج الإنسان إلى راحة من الحركة ، لذلك يبيّن لنا الله سبحانه أنه جعل في " اليوم " ليلاً ونهاراً ، ولكلٍّ مهمة ، فإياك أن تضع مهمة شيء مكان شيء آخر ؛ حتى لا ترتبك الأمور ، ولكن الظروف قد تضطرك إلى ذلك ، فهناك من يسهر للحراسة ، وهناك من يسهر للعمل في المخابز ، أو إعداد طعام الإفطار للناس ؛ ولذلك فهناك احتياط قدري ، فقال الحق سبحانه في آية ثانية :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار وابتغاؤكم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [الروم : 23] .

لأن الحق سبحانه قد علم أزلاً أن هناك مصالح لا يمكن إلا أن تكون ليلاً ، فالذي يعمل ليلاً يرتاح نهاراً ، ولو أن الآية جاءت عمومية ؛ لقلنا لمن ينام بالنهار : لا ، ليس هذا وقت السكن والراحة .

ولكن شاء الحق سبحانه أن يضع الاحتياطيَّ القدريَّ ؛ ليرتاح من يتصل عمله بالليل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ اليلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ يونس : 67] .

ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين " الخَلْق " ، و " الجَعْل " ، و " المِلْك ، والمثال على الخلق : أنه سبحانه خَلَق الزمن ، ثم جاء لهذا الزمن ليجعل منه ليلاً ونهاراً .

إذن : فالجعل هو توجيه شيء مخلوق لمهمة .

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى وهو منُزَّه عن أي تشبيه أو مثل :

تجد صانع الفخَّار وهو يمسك بالطين ؛ ليجعل منه إبريقاً ، فهو يصنع الطين أولاً بأن يخلط الماء بالتراب ويعجنها معاً ، ثم يجعل من الطين إبريقاً أو اصُص زرع أو زهرية ورد ، وهو بذلك إنما يحوِّل مخلوقاً إلى شي له مهمة .

والزمن كله لله سبحانه ، جعل منه قسم الليل ، وقسم النهار ، مثلما خلق الإنسان ، ووجَّه جزءاً منه ؛ ليجعله سمعاً ، وجزءاً آخر ؛ ليجعله بصراً ، وجزءاً آخر ؛ ليصير مخاً ، وجزءاً آخر ؛ ليكون رئة ، كل ذلك مأخوذ مما خلقه الحق سبحانه .

(46/366)

أي : أنه سبحانه جعل أشياء مما خلق أصلاً ؛ لتؤدي مهمة للمخلوق .

وفي حياتنا ولله المثل الأعلى نجد من يغزل من القطن خيوطاً ، وهناك من ينسج من تلك الخيوط قماشاً ، وبعد ذلك نجد من يأخذ هذا القماش ؛ ليجعل منه جلباباً أو بنطلوناً أو قميصاً أو لحافاً .

إذن : فالجعل هو أخذ من شيء مخلوق لمهمة . والخلق قد يترتب عليه مِلْك ، والجعل أيضاً قد يترتب عليه مِلْك ؛ فمن عمل قِدْراً من الطين هو مالكه ، ومن جعل من الطين إبريقاً إنما يملكه .

وهكذا نجد الخَلْق والجَعْل قد يترتب عليهما ملكية ما ، لكن الملكية المنسحبة بعد الخلق والجعل تجعلك تنتفع بالأشياء وقد لا تملكها ؛ لذلك نجد قول الحق سحبانه :

﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السمع والأبصار ﴾ [يونس : 31] .

والحق سبحانه خلق لنا الأنعام ، وذلَّلها لنا ، وملَّكها لنا ، وإذا قال الحق سبحانه : " مِلْك " فملكيته سبحانه لا تنتهي لأحد أبداً سواء من الخلق أو الجعل ، بل يَظل مملوكاً ؛ ولذلك قلنا : إن نقل الأعضاء هو تحكُّم فيما لا يملكه المخلوق ، بل يملكه الخالق سبحانه وتعالى .

يذكر الحق سبحانه الليل والنهار فيقول :

﴿ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ اليلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً ﴾ [يونس : 67] .

وكان مقتضى الكلام أن يقول :

جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتتحركوا .

وشاء سبحانه أن يأتي هنا بالأداء القرآني المعجز فقال : ﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ .

فهل النهار هو الذي يُبصر أم نحن ؟

هل النهار مُبصِر أم مُبصَر فيه ؟

وقديماً لم يكونوا قد وصلوا إلى الحقيقة العلمية التي وصلنا إليها الآن ، فقد كانوا يعتقدون أن الضوء يخرج من العين إلى المرئي فتراه ، إلى أن جاء " الحسن بن الهيثم " العالم العربي المسلم ، وأوضح بالتجربة أن الضوء إنما ينعكس من المرئي إلى العين ، بدليل أن المرئي إن كان في النور وأنت في الظلام ، فأنت تراه وإذا كان الأمر بالعكس فانت لا تراه .

(47/366)

إذن : فقد سبق القرآن كل النظريات ، وبيَّن لنا أن النهار إنما يأتي بالضوء فينعكس الضوء من الكائنات والموجودات إلى العين فتراه .

إذن : فالنهار هو المبصر ؛ لأنه جاء بالضوء اللازم لانعكاس هذا الضوء من المرائي إلى العيون .

ونحن نجد القرآن حين يتعرض لليل والنهار يقول :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ايل والنهار ﴾ [فصلت : 37] .

ويقول :

﴿ وَجَعَلْنَا اليل والنهار آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اليل وَجَعَلْنَا آيَةَ النهار مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء : 12] .

وهي مبصرة كما أثبت الحسن بن الهيثم العالم المسلم ، وإن كانت في ظاهر الامر مُبْصَرٌ فيها .

ويعطي لنا الحق سبحانه تجربة حية مع موسى عليه السلام ، وذلك في قوله سبحانه لموسى عليه السلام :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى * قَالَ أَلْقِهَا يا موسى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى ﴾ [طه : 1720] .

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليتعرف موسى بالتجربة على ما سوف يحدث من عصاه أمام فرعون ، ثم أمام السحرة ، ثقة منه سبحانه أن موسى حين يراها تنقلب إلى حية أمام عينيه لأول وهلة سوف يفزع ؛ فيطمئنه الحق سبحانه بقوله :

﴿ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأولى ﴾ [طه : 21]

وكانت المرة الأولى لتحوُّلِ العصا إلى حية ، هي تجربة للاستعداد ؛ حتى لا يجزع موسى

عليه السلام أو يخاف لحظة أن يمر بالتجربة العملية ، وحتى يقبل على تقديم المعجزة وهو واثق تمام الثقة أمام فرعون .

ثم قال الحق سبحانه لموسى عليه السلام :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ [النمل : 12] .

(48/366)

والجيب : هو المكان الذي تنفذ منه الرقبة في الجلباب ويسمى (القبة) ، فلا يظن أحد أن الجيب المقصود هنا هو مكان وضع النقود ؛ لأن مكان وضع النقود قديماً كان يوجد من داخل الجلباب ، مثل جيب (الصديري) الذي يرتديه أهل الريف ، وقد سُمِّي الجيب الذي نضع فيه النقود جيباً ؛ لأن اليد لا تذهب إلى الجيب إلا إذا دخلت في الفتحة التي تخرج منها الرقبة .

وقد قال الحق سبحانه لموسى عليه السلام :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾

[النمل : 12] .

ويخبره الحق سبحانه :

﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ [النمل : 1213] .

هكذا كانت الآيات مبصرة وكأنها تقول للعين : أبصريني .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً ﴾ [يونس : 67] .

ولم يقل : لتتحركوا فيه ، بل جاء بما يضمن سلامة الحركة ، فقال سبحانه : ﴿ مُبْصِراً ﴾ لأن الضوء الذي ينعكس على الأشياء هو الذي يحفظ للإنسان سلامة الحركة .

ولكن البعض من الناس في زماننا يستخدمون نعمة الكهرباء في الإسراف في السهر ، وحين يأتي الليل يسهرون حتى الصباح أمام جهاز (التلفزيون) أو (الفيديو) أو في غير ذلك من أمور الترفيه ، ثم ينامون في النهار ، وينسون أن الليل للرقود ، والنهار للعمل . وقد ثبت أن للضوء أثراً على الأجسام ، فالضوء يؤثر في الكائن الحي ، وقد سبق النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الاكتشاف بزمان طويل وقال :

" أطفئوا المصابيح إذا رقدتم " ؛ وذلك حتى لا ينشغل الجسم بإشعاعات الضوء التي تتسبب في تفاعلات كيماوية في الجسم .

لذلك أقول دائماً : خذوا الحضارة بقواعد التحضير لها ؛ لأننا يجب أن نتيح للفلاح أن يذهب إلى حقله والعامل إلى مصنعه ؛ لأن السهر ضار ، وإذا ادَّعى الإنسان أنه هو الذي تحضَّر ، فليحترم قيمة العمل الذي يصنع الحضارة ؛ لأن الآلة التي يسهر لمراقبتها ومشاهدتها هي إنتاج أناس يلتزمون بقواعد الحضارة ؛ واحترام قيمة العمل في النهار ، وقيمة الترفيه في الوقت المخصص .

نحن نسيء استخدام أدوات الحضارة ، فالزمن الذي وفَّرته الثلاجة للزوجة ؛ حتى لا تقف في المطبخ نصف النهار لتعد الطعام ، وصارت تطهو وجبات ثلاثة أيام وتحفظها في الثلاجة ، وتستخدم الغسالة الكهربائية فتنهي الغسيل في ساعة من الزمن ، لكن بقية الوقت يضيع أمام (التلفزيون) ولا تلتفت إلى تربية الأبناء .

وهكذا يسيء البعض استخدام الآلات المتحضرة ، وفي هذه الإساءة نوع من التخلف ، فإذا أخذنا الحضارة بمنطقية فهذا هو التحضر .

وعلى سبيل المثال : أقول لمن يركب سيارة : إياك أن تسرع بها في طريق مترية حتى لا يثور الغبار ويملأ صدور الناس بالحساسية .

وإياك أن تهمل صيانة سيارتك حتى لا يفسد الموتور ؛ ويخرج العادم الضار بصحة الناس والبيئة ، فلا يسافر الإنسان في الطريق المترية أو بسيارة غير جيدة الصاينة ؛ فيصيب

صدور الناس بالمرض ، ويصيب الزروع ويفسد الهواء .

ويجب ألاَّ نأخذ الحضارة بتلصص ، إنما علينا أن نرتقي إلى مدارجها بصيانة أساليبها ؛ لأن من لا يأخذ الحضارة بقواعدها هو من يتخلف رغم تقدُّم الآلة ، فتصير الآلة أكثر تحضُّراً منه .

إذن : فإن أخذنا كل أمر بمهمته فحن نحقق الراحة لأنفسنا ولغيرنا .

ولذلك قلنا في تفسير قول الحق سبحانه :

﴿ والليلِ إذَا يغشى * والنهارِ إذَا تجلى ﴾ [الليل : 12] .

(50/366)

وإن بدا للإنسان أن هناك تعارضاً بين غشيان الليل (أي : تغطيته للمرئيات) وتجلِّي النهار (أي : كشف المرئيات) فهذا ليس تعارضاً ، بل هو التكامل ؛ لأن حركة النهار تتولد من الليل ، وراحة الليل تتولد من النهار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى ﴾ [الليل : 3] .

وهذا الخلق للذكر والأنثى هو للتكامل ، لا للتناقض ، هكذا جاء الحق سبحانه بنوعين :

الأول : هو الزمن ليلاً ونهاراً .

والثاني : هو الإنسان ذكراً وأنثى .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ [الليل : 4] .

أي : أن حركتكم هي الموصِّلة إلى غايتكم ، والحركات شتى (أي : مختلفة) ، سواء في الليل أو النهار أو للذكر أو للأنثى ، فإن خلطنا الحركة وعبثنا بأنظمة الحياة ، فالحياة ترتبك ، ونعاني من مرارة التجربة إلى أن تتعقد الأمور ، فنبحث لها عن حلول .

وقد نادينا أن تعمل المرأة نصف الوقت لتعطي البيت بعضاً من الوقت ، أو أن تعتني بالبيت إن كان لها ما يكفيها من دخل ، أو كان لزوجها ما يكفي لحياة الأسرة ، ولكن أحداً لم يلتفت إلى ذلك إلا بعد مرارة التجارب .

وهناك مثال آخر : في قول البعض أن الليل في تلك البلاد المتحضِّرة لا ينتهي وأنت تجد السهر هناك حتى الصباح ، وعندما أسمع مثل هذا القول أقول : إن هذا ليس في مصلحة سكان تلك البلاد ؛ لأن الليل يجب أن يكون سباتاً لتأتي الحركة المنتجة في النهار .

إذن : فالآفة أن تنقل مهمة نوع إلى مهمة نوع آخر ، سواء أكان في الزمان أو في الإنسان ، واقرأ جيداً قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ [الليل : 4] .

فكل فرد من أفراد الكون له مهمة وله سعي يختلف عن سعي الآخرين .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يُنهي الحق سبحانه الآية فيقول :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [يونس : 67] .

ولقائل أن يقول : لم يقل " إن في ذلك لآيات لقوم يبصرون " .

(51/366)

ونقول : لننتبه إلى أن الحق سبحانه حين يتكلم عن زمان فهو يبيِّن في هذا الزمان مهمته ،

وهو القائل في صدر الآية ووسطها :

﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾ [يونس : 67] .

فالعلَّة في هذه الآية هي سكون الليل ، لا حركة النهار ، والعين في الليل لا تؤدي مهمتها ، بل السمع هو الذي يؤدي مهمته .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ [القصص : 71] .

أي : أن أحداً لن يستطيع الحركة في مثل هذا الليل السرمدي ولا أحد سيتبيَّن شيئاً .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إِلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص : 72] .

إذن : فقد جاء الحق سبحانه في آية الليل بالسمع ، وجاء في آية النهار بالأبصار ، وبعد أن تكلم الله سبحانه عن مجال الحركة بالنهار والراحة في الليل ، يأتي الكلام عن الينبوع الذي يجب أن تَصْدُرَ عنه الحركة أو السكون ، وهو ضرورة الامتثال لأمر إله واحد حتى لا تصطدم حركتك بآمر إله آخر يقول ما يناقض حركة الإله الأول .

وكما تتحرك في النهار ، وترتاح في الليل لا بد أن تكون حركتك صادرة عن أمر واحد ، هذا الأمر الواحد صادر من الآمر الواحد ، وهو الله تعالى الذي تعبده بلا شريك ، ومن يقول بغير ذلك إنما يربك حركة الحياة .

والله سبحانه يقول :

﴿ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ ﴾ [المؤمنون : 91] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(52/366)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67) ﴾

قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الليل ﴾ : . . . الآية . انظر إلى فصاحة هذه الآية ، حيث حَذَفَ من كل جملةٍ ما ثبت في الأخرى ، وذلك أنه ذكر علة جَعْل الليل لنا ، وهي قوله " لتسكنوا " وحَذَفها مِنْ جَعْل النهار ، وذَكَر صفةَ النهار وهي قوله " مُبْصِراً " وحَذَفَها من الليل لدلالة المقابل عليه ، والتقدير : هو الذي جَعَل لكم الليل مُظْلماً لتَسْكُنوا فيه والنهارَ مُبْصِراً للتحرُّكوا فيه لمعاشِكم ، فحذف " مُظْلماً " لدلالة " مبصراً " عليه ، وحذف " لتتحَرَّكوا " لدلالة " لتسكنوا " وهذا أفصحُ كلامٍ .

وقوله : ﴿ مُبْصِراً ﴾ أسند الإبصارَ إلى الظرف مجازاً كقولِهم " نهارُه صائم وليله قائم ونائم " قال :

2605 . . . . . ونِمْتِ وما ليلُ المَطِيِّ بنائمِ

وقال قطرب : " يقال : أَظْلَمَ الليلُ : صار ذا ظلمة ، وأضاء النهار : صار ذا ضياء ، فيكون هذا من باب النسبِ كقولهم لابن وتامر ، وقوله تعالى : ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 20] ، إلا أن ذلك إنما جاء في الثلاثي ، وفي فعَّل بالتضعيف عند بعضِهم في قوله

تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] ، في أحد الأوجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 237 . 238 ﴾

(53/366)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67) ﴾

الليل لأهل الغفلة بُعْدٌ وغيبة ، ولأهل الندم توبة وأوبة ، وللمحبين زُلْفَةٌ وقربة ؛ فالليل بصورته غير مُؤْنِسٍ ، لكنه وقت القربة لأهل الوصلة كما قيل :

وكم لظلام الليل عندي من يَدٍ . . . تُخَبِّر أن المانوية تكذب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 107 ﴾

(54/366)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ ﴾

يعني : المؤمنين .

ويقال : أحباء الله ، وهم حملة القرآن والعلم .

ويقال : الَّذين يجتنبون الذُّنوب في الخلوات ، ويعلمون أنّ الله تعالى مُطَّلِعٌ عليهم .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه سُئِل عن أولياء الله تعالى ، فقال : " هُمُ الَّذِينَ إذا رُءُوا ذُكِرَ الله تَعَالَى " .

وقال وهبُ بنُ مُنَبِّه : قال الحواريُّون لعيسى ابنِ مريمَ : يا روحَ الله ، مَنْ أولياء الله ؟ قال : الَّذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر النَّاس إلى ظاهرها ، ونظروا إلى أجل الدُّنيا حين نظر النَّاس إلى عاجلها ، فأحبُّوا ذِكْرَ الموت ، وأماتوا ذِكْرَ الحياة ، ويحبُّون الله تعالى ، ويحبُّون ذكره .

وقال الضَّحَّاك : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ ﴾ يعني : المخلصين لله ، ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : لا يخافون من أهوال يوم القيامة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ حين زفرت جهنَّم .

ثمَّ نعتهم فقال تعالى : ﴿ الذين ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ يعني : أقرُّوا وصدَّقوا بوحدانية الله تعالى ، ويتَّقون الشِّرك والفواحش ، ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا ﴾ يعني : البشارة ،

وهي الرُّؤيا الصَّالحة يراها العبد المسلم لنفسه ، أو يرى له غيره .

وروي عن عبد الله بن عُمَر عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الرُّؤيا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ من سَبْعِينَ جُزْءاً مِنَ النّبوَّةِ " .

وفي خبر آخر : " مِنْ أربَعِينَ جُزْءا " وفي خبر آخر : " مِنْ سِتَّةٍ وأَرْبَعِينَ جُزْءاً " .

(55/366)

وروى عَطَاء بن يَسَارٍ ، عن رجل كان يفتي بالبصرة ، قال : سألت أبا الدَّرداء عن هذه الآية : ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا ﴾ ، قال أبو الدَّرداء : ما سألني عنها أحد منذ سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ ، هِيَ الرُّؤيا الصَّالِحَةَ يَرَاهَا المُسْلِمُ ، أَوْ تُرَى لَهُ " ﴿ وَفِي الآخرة ﴾ : الجَنَّةُ .

وعن عبادة بن الصامت ، أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم ، فأجابه بمثل ذلك .

ويقال : ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا ﴾ يعني : عند الموت يُبَشّره الملائكة ، كما قال في آية أُخرى : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْكُمُ الملئكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

وفي الآخرة يُبَشِّرُهُ الملائكة حين يخرج من القبر .

﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ﴾ : لا تغيير ، ولا تحويل لقول الله تعالى ، لأنَّ قوله حقٌّ بأنّ لهم البشرى في الحياة الدنيا .

ويقال : لا تبديل لكلمات الله ، يعني : لا خلف لمواعيده التي وعد في القرآن .

﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ يعني : الثَّواب الوافر .

ويقال : النجاة الوافرة .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ يقول : يا مُحَمَّدُ لا يحزنك تكذيبهم : ﴿ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ ، بأنّ النِّعمة والقدرة لله تعالى ، وجميع مَنْ يتعزَّزُ إنَّما هو بإذن الله تعالى .

﴿ هُوَ السميع العليم ﴾ : السَّميع لمقالتهم ، العليم بهم ، وبعقوبتهم على ترك توحيدهم .

ثم قال : ﴿ أَلا إِنَّ للَّهِ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ يعني : من الخلق ، كلهم عبيده وإماؤه .

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله شُرَكَاء ﴾ يعني : وما يعبد الذين يعبدون من دون الله الأوثان والأصنام .

(56/366)

ولم يأت بجوابه ، وجوابه مضمر ، ومعناه : ما هي لي شركاء ، ولا نفع لهم في عبادتها ، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ يعني : ما يعبدون الأصنام إلاّ بالظن ، ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ يقول : وما هم إلاّ يكذبون .

يقول : ما أمرهم الله تعالى بعبادتها ، ولا تكون لهم شفاعة .

ثمّ دلَّ بصنعه على توحيده ، فقال عز وجل : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ يعني : خلق لكم اللَّيل ، لِتَقَرُّوا فيه من النَّصَبِ والتَّعَبِ ، ﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ يعني : خلق النَّهار مطلباً للمعيشة .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ يعني : في تقليب اللَّيل والنَّهار ﴿ لآيَاتٍ ﴾ يعني : لَعِبْرَاتٍ وَعَلاَمَاتٍ لوحدانيَّةِ الله ، ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ يعني : المواعظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(57/366)

وقال الثعلبى فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ ﴾ ويستخبرونك يا محمد ﴿ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ ما تعدنا من العذاب وقيام الساعة ﴿ قُلْ إِي ﴾ كلمة تحقيق ﴿ وربي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ لا شك فيه ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ

﴿ فأتيقن ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ أشركت ﴿ مَا فِي الأرض لافْتَدَتْ بِهِ ﴾ يوم القيامة ﴿ وَأَسَرُّواْ ﴾ وأخفوا ﴿ الندامة ﴾ على كفرهم ﴿ لَمَّا رَأَوُاْ العذاب وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط ﴾ وفرغ من عذابهم ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ * ألا إِنَّ للَّهِ مَا فِي السماوات والأرض أَلاَ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ إلى قوله ﴿ قَدْ جَآءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ ﴾ تذكرة ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ ﴾ ودواء ﴿ لِّمَا فِي الصدور ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ .

قال أبو سعيد الخدري : فضل الله القرآن ورحمته أن جعلكم من أهله .

وقال ابن عمر : فضل الله الإسلام وبرحمته تزيينه في القلب .

خالد بن معدان : فضل الله الإسلام وبرحمته السنّة .

الكسائي : فضل الله النعم الظاهرة ، ورحمته النعم الباطنة . بيانه : وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة .

أبو بكر الوراق : فضل الله النعماء وهو ما أعطى وجنى ورحمته الآلاء وهي ما صرف .

وروى ابن عيينة فضل الله التوفيق ورحمته العصمة .

سهل بن عبد الله : فضل الله الإسلام ورحمته السنّة .

الحسين بن الفضل : فضل الله الإيمان ورحمته الجنة .

ذو النون المصري : فضل الله دخول الجنان ورحمته النجاة من النيران .

عمر بن عثمان الصدفي : فضل الله كشف الغطاء ورحمته الرؤية واللقاء .

(58/366)

وقال هلال بن يساف ومجاهد وقتادة : فضل الله الإيمان ورحمته القرآن ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ من الأموال قرأ العامة كلاهما بالياء على الخبر ، وقرأهما أبو جعفر : بالتاء وذكر ذلك عن أبي بن كعب ، وقرأ الحسين ويعقوب : فلتفرحوا بالتاء خطاباً للمؤمنين يدل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم في بعض مغازيه : " لتأخذوا [مصافكم] ويجمعون " بالياء خبراً عن الكافرين ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿ أَرَأَيْتُمْ مَّآ أَنزَلَ اللهُ ﴾ خلق الله ﴿ لَكُمْ ﴾ عبّر عن الخلق بالإنزال لأن ما في الأرض من خيراتها أنزل من السماء ﴿ مِّن رِّزْقٍ ﴾ زرع أو ضرع ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً ﴾ وهو ما حرموا من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي .

قال الضحاك : هو قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً ﴾ [الأنعام : 136] الآية ﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ في هذا التحريم والتحليل ﴿ أَمْ ﴾ بل ﴿ عَلَى الله تَفْتَرُونَ ﴾ وهو قولهم : الله أمرنا بها ﴿ وَمَا ظَنُّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب

يَوْمَ القيامة ﴾ أيحسبون أن الله لا يؤاخذهم ولا يعاتبهم عليه ﴿ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ﴾ منّ على الناس حين لا يعجل عليهم بالعذاب بافترائهم ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ * وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ عمل من الأعمال ، وجمعه : شؤون ، قال الأخفش : يقول العرب ما شأنك شأنه ، أي لمّا عملت على عمل ﴿ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ ﴾ من الله ﴿ مِن قُرْآنٍ ﴾ ثم خاطبه وأمته جميعاً فقال : ﴿ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي تأخذون وتدخلون فيه ، والهاء عائدة على العمل ، يقال : أفاض فلان في الحديث وفي القول إذا أبدع فيه .

قال الراعي :

(59/366)

وأفضن بعد كظومهن بجرة . . . من ذي الأبارق إذ رعين حقيلا

قال ابن عباس : تفيضون تفعلون ، الحسن : تعملون ، الأخفش : تكلمون ، المؤرّخ : تكثرون ، ابن زيد : تخرصون . ابن كيسان : تنشرون . يقال : حديث ستفيض ، وقيل : تسعون .

وقال الضحاك : الهاء عائدة إلى القرآن أي تستمعون في القرآن من الكذب . قيل : من شهد

شهود الحق قطعاً ذلك عن مشاهدة الأغيار أجمع ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : فلا يغيب ، أبو روق : يبعد ، وقال ابن كيسان يذهب .

وقرأ يحيى والأعمش والكسائي : يعزب بكسر الزاء وقرأ الباقون : بالضم وهما لغتان [صحيحتان] ﴿ مِن مِّثْقَالِ ﴾ من صلة معناه وما يعزب عن ربك مثقال ذرة أو وزن ذرة [وهي النملة الحمراء الصغيرة] ، يقول العرب : [خذ] هذا ، فإنهما أثقل مثقالا وأخفها مثقالا أي وزناً ﴿ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السمآء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ ﴾ قرأ الحسن وابن أبي يحيى وحمزة برفع الراء فيهما عطفاً على موضع المثقال فبرّر دخول من ، وقرأ الباقون بفتح الراء عطفاً على الذرة ولا مثقال أصغر وأكبر ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ بمعنى اللوح المحفوظ .

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَآءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ثم وصفهم فقال ﴿ الذين آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ قال ابن زيد : فلن يقبل الإيمان إلاّ بالتقوى ، واختلفوا فيمن يستحق هذا الاسم .

فروى سعيد بن جبير " عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه سئل عن أولياء الله تعالى فقال : هم الذين يذكر الله لرؤيتهم " .

وقال عمر (رضي الله عنه) في هذه الآية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بإيمانهم عند الله تعالى ، قالوا : يا رسول الله خبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبّهم ؟ قال : هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام منهم ولا أموال يتعاطونها ، والله ان وجوههم لنور وإنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ " .

قال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) : أولياء الله قوم صفر الوجوه من السهر (عُمش) العيون من العبر خمص البطون من الخواء يبس الشفاه من الذوي .

وقال ابن كيسان : [هم الذين] تولى الله هداهم بالبرهان الذي أتاهم وتولّوا القيام بحقّه والدعاء إليه . ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة ﴾ .

" عن عبادة بن الصامت قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة ﴾ . قال : هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له " .

وعن عطاء بن يسار " عن أبي الدرداء أنه سئل عن هذه الآية ﴿ لَهُمُ البشرى ﴾ قال : لقد سألت عن [شيء] ما سمعت أحداً سأل عنه بعد أن سألت رسول الله صلى الله

عليه وسلم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما سألني عنها أحد قبلك منذ نزل الوحي ، هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له وفي الآخرة الجنة " .

وعن يمان بن عبيد الراسبي قال : حدثنا أبو الطفيل عامر بن واثلة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا نبوة بعدي إلاّ المبشرات " . قيل : يا رسول الله وما المبشرات ؟ . قال : " الرؤيا الصالحة " " .

(61/366)

محمد بن سيرين عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً قال : والرؤيا ثلاثة : فرؤيا بشرى من الله ورؤيا من الشيء يحدث الرجل به نفسه ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، والرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة . فإذا رأى أحدكم ما يكره فلا يقصّه فليقم وليصل ، قال : وأحبّ القيد في النوم وأكره الغل ، القيد ثبات في الدين " .

" وقال عبادة بن الصامت : قلت : يا رسول الله الرجل يحبّه القوم لعمله ولا يعمل مثل عمله .

قال صلى الله عليه وسلم :

" تلك عاجل بشرى المؤمن " .

وقال الزهري وقتادة : هي البشارة التي يبشر بها المؤمن بالدنيا عند الموت ، وقال الضحاك : هي أن المؤمن يعلم أين هو قبل أن يموت ، وقال الحسن : هي ما بشرهم الله به في كتابه ، جنته وكرم ثوابه لقوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الذين آمنوا ﴾ [يونس : 2] ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ [البقرة : 223] ﴿ وَأَبْشِرُواْ بالجنة ﴾ [فصلت : 30] . وقال عطاء : لهم البشرى في الحياة الدنيا عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة والبشارة من الله وتأتي أعداء الله بالغلظة والفظاظة في الآخرة ساعة خروج نفس المؤمن تعرج بها إلى الله كما تزف العروس تبشر برضوان من الله ، قال الله تعالى : ﴿ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة طَيِّبِينَ ﴾ [النحل : 32] الآية قال ابن كيسان : هي ما بشرهم الله في الدنيا بالكتاب والرسول بأنّهم أولياء الله وتبشرهم في قبورهم وفي كتابهم الذي فيه أعمالهم بالجنة .

(62/366)

وسمعت أبا بكر محمد بن عبد الله الجوزقي يقول : رأيت أبا أحمد الحافظ في المنام راكباً برذوناً وعليه طيلسان وعمامة فسلمت عليه وسلم عليَّ فقلت له : أيها الحاكم نحن لا نزال نذكرك ونذكر محاسنك ، فعطف عليَّ وقال لي : ونحن لا نزال نذكرك ونذكر محاسنك ،

قال الله تعالى : ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة ﴾ الثناء الحسن ، وأشار بيده ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ﴾ لا تغيير لقوله ولا خلف لوعده .

روى ابن عليَّة عن أيوب عن نافع . قال : أطال الحجاج الخطبة فوضع ابن عمر رأسه في حجري . فقال الحجاج : إن ابن الزبير بدّل كتاب الله ، فقعد ابن عمر فقال : لا تستطيع أنت ذلك ولا ابن الزبير . ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ﴾ . فقال الحجاج : لقد رأيت حلماً وسكت [لقد أُوتيت علماً أن تفعل ، قال أيوب : فلما أقبل عليه في خاصة نفسه سكت] .

﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم * وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ يعني قول المشركين ، تمّ الكلام ها هنا .

(63/366)

ثم قال مبتدئاً : ﴿ إِنَّ العزة ﴾ القدرة ﴿ للَّهِ جَمِيعاً ﴾ وهو المنتقم منهم . قال سعيد بن المسيب : أنَّ العزة لله جميعاً يعني أن الله يعز من يشاء كما قال في آية أخرى : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : 8] ، وعزة الرسول والمؤمنين منّاً لله فهي كلها لله قال الله : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات : 180] ﴿ هُوَ السميع العليم * ألا إِنَّ للَّهِ مَن فِي السماوات وَمَنْ فِي الأرض وَمَا يَتَّبِعُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله

شُرَكَآءَ ﴾ هو ما الاستفهام يقول وأي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء يعني أنهم ليسوا على شيء ، وقراءة السلمي : يدعون بالتاء أي ما تصنع شركاؤكم في الآخرة ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ يعني ظنوا أنها تشفع لهم يوم القيامة ، ويقربهم إلى الله زلفى ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ * هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ اليل لِتَسْكُنُواْ ﴾ لتهدأوا وتقروا وتستريحوا ﴿ فِيهِ والنهار مُبْصِراً ﴾ مضيئاً يبصر فيه كقولهم : ليل نائم وسرّ كاتم وماء دافق وعيشة راضية ، وقال جرير :

لقد لمتنا يا أُمّ غيلان في السرى . . . ونمت وما ليل المطيّ بنائم

وقال قطرب : يقول العرب : أظلم الليل وأضاء النهار فأبصر ، أي صار ذا ظلّة وضياء وبصر .

﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ المواعظ فيعتبرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(64/366)

وقال ابن الجوزى فى الآيات :

قوله تعالى : ﴿ ويستنبؤنك ﴾ أي : ويستخبرونك .

﴿ أحق هو ﴾ يعنون البعث والعذاب .

﴿ قل إِي ﴾ المعنى : نعم ﴿ وربي ﴾ ، وفتح هذه الياء نافع ، وأبو عمرو .

وإِنما أقسم مع إِخباره تأكيداً .

وقال ابن قتيبة : "إِي" بمعنى "بل" ولا تأتي إِلا قبل اليمين صلة لها .

قوله تعالى : ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ قال ابن عباس : بسابقين .

وقال الزجاج : لستم ممن يُعجز أن يجازى على كفره .

قوله تعالى : ﴿ ولو أن لكل نفس ظلمت ﴾ قال ابن عباس : أشركَتْ .

﴿ ما في الأرض لافتدت به ﴾ عند نزول العذاب .

﴿ وأسرُّوا النَّدَامةَ ﴾ يعني : الرؤساء أخفوها من الأتباع .

﴿ وقُضِيَ بينهم ﴾ أي : بين الفريقين .

وقال آخرون منهم أبو عبيدة والمفضل : "أسرُّوا الندامة" بمعنى أظهروا ، لأنه ليس بيوم تَصَنُّعٍ ولا تصبُّرٍ ، والإِسرار من الأضداد ؛ يقال : أسررت الشيء ، بمعنى : أخفيته .

وأسررته : أظهرته ، قال الفرزدق :

ولما رأى الحجَّاجَ جرَّد سيفَه . . .

أسرَّ الحروريُّ الذي كان أضمرا

يعني : أظهر .

فعلى هذا القول : أظهروا الندامة عند إِحراق النار لهم ، لأن النار ألهتهم عن التصنع والكتمان .

وعلى الأول : كتموها قبل إِحراق النار إِياهم .

قوله تعالى : ﴿ ألا إِن وعد الله حق ﴾ قال ابن عباس : ما وعد أولياءه من الثواب ، وأعداءه من العقاب .

﴿ ولكن أكثرهم ﴾ يعني المشركين ﴿ لا يعلمون ﴾

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس ﴾ قال ابن عباس : يعني قريشاً .

﴿ قد جاءتكم موعظةٌ ﴾ يعني القرآن .

﴿ وشفاءٌ لما في الصدور ﴾ أي : دواء لداء الجهل .

﴿ وهدىً ﴾ أي : بيان من الضلالة .

قوله تعالى : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته ﴾ فيه ثمانية أقوال :

أحدها : أن فضل الله : الإِسلام ، ورحمته : القرآن ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، وهلال بن يساف .

وروي عن الحسن ، ومجاهد في بعض الرواية عنهما ، وهو اختيار ابن قتيبة .

والثاني : أن فضل الله : القرآن ، ورحمته : أن جعلهم من أهل القرآن ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال أبو سعيد الخدري ، والحسن في رواية .

والثالث : أن فضل الله : العلم ، ورحمته : محمد صلى الله عليه وسلم ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والرابع : أن فضل الله : الإِسلام ، ورحمته : تزيينه في القلوب ، قاله ابن عمر .

والخامس : أن فضل الله : القرآن ، ورحمته : الإِسلام ، قاله الضحاك ، وزيد بن أسلم ، وابنه ، ومقاتل .

والسادس : أن فضل الله ورحمته : القرآن ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد ، واختاره الزجاج .

والسابع : أن فضل الله : القرآن ، ورحمته : السُّنَّة ، قاله خالد بن معدان .

والثامن : فضل الله ، التوفيق ، ورحمته : العصمة ، قاله ابن عيينة .

قوله تعالى : ﴿ فبذلك فليفرحوا ﴾ وقرأ أُبَيُّ بن كعب ، وأبو مجلز ، وقتادة ، وأبو العالية ، ورويس عن يعقوب : "فلتفرحوا" بالتاء .

وقرأ الحسن ، ومعاذ القارىء ، وأبو المتوكل مثل ذلك ، إِلا أنهم كسروا اللام .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران : "فبذلك فافرحوا" .

قال ابن عباس : بذلك الفضل والرحمة .

﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ أي : مما يجمع الكفار من الأموال .

وقرأ أبو جعفر ، وابن عامر ، ورويس : "تجمعون" بالتاء .

وحكى ابن الأنباري أن الباء في قوله : ﴿ بفضل الله ﴾ خبر لاسم مضمر ، تأويله : هذا الشفاء وهذه الموعظة بفضل الله ورحمته ، فبذلك التطوّل من الله فليفرحوا .

قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق ﴾ قال المفسرون : هذا خطاب لكفار قريش ، كانوا يحرِّمون ما شاؤوا ، ويُحلُّون ما شاؤوا .

و ﴿ أنزل ﴾ بمعنى خلق .

وقد شرحنا بعض مذاهبهم فيما كانوا يفعلون من البحيرة والسائبة وغير ذلك في [المائدة : 103] و [الأنعام : 139] .

قوله تعالى : ﴿ قل آلله أذن لكم ﴾ أي : في هذا التحليل والتحريم .

(66/366)

قوله تعالى : ﴿ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب ﴾ في الكلام محذوف ، تقديره : ما ظنهم أن الله فاعل بهم يوم القيامة بكذبهم ، ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ حين لم

يعجِّل عليهم بالعقوبة ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ تأخير العذاب عنهم .

قوله تعالى : ﴿ وما تكون في شأن ﴾ أي : في عمل من الأعمال ، وجمعه : شؤون .

﴿ وما تتلو منه ﴾ في هاء الكناية قولان :

أحدهما : أنها تعود إِلى الشأن .

قال الزجاج : معنى الآية : أي وقت تكون في شأن من عبادة الله ، وما تلوت من الشأن من قرآن .

والثاني : أنها تعود إِلى الله تعالى ، فالمعنى : وما تلوت مِنَ الله ، أي : من نازل منه من قرآن ، ذكره جماعة من العلماء .

والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأمته داخلون فيه ، بدليل قوله : ﴿ ولا تعملون من عمل ﴾ قال ابن الأنباري : جمع في هذا ، ليدل على أنهم داخلون في الفعلين الأوَّلين .

قوله تعالى : ﴿ إِذ تُفيضون فيه ﴾ الهاء عائدة على العمل .

قال ابن قتيبة : تفيضون بمعنى تأخذون فيه .

وقال الزجاج : تنتشرون فيه ، يقال : أفاض القوم في الحديث : إِذا انتشروا فيه وخاضوا .

﴿ وما يعزب ﴾ معناه : وما يبعد .

وقال ابن قتيبة : ما يبعد ولا يغيب .

وقرأ الكسائي "يعزِب" بكسر الزاي ها هنا وفي [سبأ : 3] .

وقد بيّنا "مثقال ذرة" في سورة [النساء : 40] .

قوله تعالى : ﴿ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴾ قرأ الجمهور بفتح الراء فيهما .

وقرأ حمزة ، وخلف ، ويعقوب ، برفع الراء فيهما .

قال الزجاج : مَنْ قرأ بالفتح ، فالمعنى : وما يعزب عن ربك من مثقال ذرَّةٍ ، ولا مثقالَ أصغرَ من ذلك ولا أكبر ، والموضع موضع خفض ، إلا أنه فُتح لأنه لا ينصرف .

ومن رفع ، فالمعنى : وما يعزب عن ربك مثقال ذرة ولا أصغر ولا أكبر .

ويجوز رفعه على الابتداء ، فيكون المعنى : ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، ﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ قال ابن عباس : هو اللوح المحفوظ .

(67/366)

قوله تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله ﴾ روى ابن عباس " أن رجلاً قال : يا رسول الله ، مَن أولياء الله ؟ قال "الذين إذا رُؤوا ذُكر الله" " وروى عمر بن الخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم الله عليه وسلم أنه قال : " "إنَّ من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله عز وجل" قالوا : يا رسول الله ، مَنْ هم ، وما أعمالهم لعلنا نحبُّهم ؟ قال "هم قوم تحابّوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا

أموال يتعاطَونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس" ، ثم قرأ ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ " .

قوله تعالى : ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا ﴾ فيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح ، أو تُرى له ، رواه عبادة ابن الصامت ، وأبو الدرداء ، وجابر بن عبد الله ، وأبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أنها بشارة الملائكة لهم عند الموت ، قاله الضحاك ، وقتادة ، والزهري .

والثالث : أنها ما بشر الله به في كتابه من جنته وثوابه ، كقوله : ﴿ وبشر الذين آمنوا ﴾ [البقرة 25] ، ﴿ وأبشروا بالجنة ﴾ [فصلت 30] ، ﴿ يبشّرهم ربُّهم ﴾ [التوبة 21] ، وهذا قول الحسن ، واختاره الفراء ، والزجاج ، واستدلا بقوله : ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ .

قال ابن عباس : لا خُلف لمواعيده ، وذلك أن مواعيده بكلماته ، فإذا لم تبدَّل الكلمات ، لم تبدَّل المواعيد .

فأما بشراهم في الآخرة ، ففيها ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها الجنة ، رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، واختارة ابن قتيبة .

والثاني : أنه عند خروج الروح تبشَّر برضوان الله ، قاله ابن عباس .

والثالث : أنها عند الخروج من قبورهم ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ ولا يحزنك قولهم ﴾ قال ابن عباس : تكذيبهم .

(68/366)

وقال غيره : تظاهرهم عليك بالعداوة وإِنكارهم وأذاهم .

وتم الكلام هاهنا .

ثم ابتدأ فقال : ﴿ إِنَّ العزَّة لله جميعاً ﴾ أي : الغلبة له ، فهو ناصرك وناصر دينك ، ﴿ هو السميع ﴾ لقولهم ﴿ العليم ﴾ بإضمارهم ، فيجازيهم على ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض ﴾ قال الزجاج : "ألا" افتتاح كلام وتنبيه ، أي : فالذي هم له ، يفعل فيهم وبهم ما يشاء .

قوله تعالى : ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ﴾ أي : ما يتبعون شركاء على الحقيقة ، لأنهم يعدُّونها شركاء لله شفعاء لهم ، وليست على ما يظنون .

﴿ إِن يتبعون إِلا الظن ﴾ في ذلك ﴿ وإِن هم إِلا يخرصون ﴾ قال ابن عباس : يكذبون .

وقال ابن قتيبة : يحدسون ويحزرون .

قوله تعالى : ﴿ هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ﴾ المعنى : إِن ربكم الذي يجب أن

تعتقدوا ربوبيته ، هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ، فيزول تعب النهار وكلاله بالسكون في الليل ، وجعل النهار مبصراً ، أي : مضيئاً تبصرون فيه .

وإنما أضاف الإبصار إليه ، لأنه قد فهم السامع المقصود ، إذ النهار لا يبصر ، وإنما هو ظرف يفعل فيه غيره ، كقوله : ﴿ عيشة راضية ﴾ [الحاقة : 21] ، إنما هي مرضية ، وهذا كما يقال : ليل نائم ، قال جرير :

لقد لُمْتِنا يا أمَّ غَيلانَ في السُّرى . . .

ونمتِ وما ليلُ المطيِّ بنائم

قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ سماع اعتبار ، فيعلمون أنه لا يقدر على ذلك إلا الإله القادر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(69/366)

وقال الخازن فى الآيات السابقة :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ويستنبئونك أحق هو ﴾ يعني ويستخبرونك يا محمد أحق ما تعدنا به من نزول العذاب وقيام الساعة ﴿ قل إي وربي ﴾ أي قل لهم يا محمد نعم وربي ﴿ إنه لحق ﴾ يعني إن الذي أعدكم به حق ، لا شك فيه ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ يعني

بفائتين من العذاب لأن من عجز عن شيء فقد فاته ﴿ ولو أن لكل نفس ظلمت ﴾ يعني أشركت ﴿ ما في الأرض ﴾ يعني من شيء ﴿ لافتدت به ﴾ يعني يوم القيامة .

والافتداء : بمعنى البذل لما ينجو به من العذاب إلا أنه لا ينفعه الفداء ولا يقبل منه ﴿ وأسرّوا الندامة ﴾ يعني يوم القيامة ، وإنما جاء بلفظ الماضي والقيامة من الأمور المستقبلة ، لأن أحوال يوم القيامة لما كانت واجبة الوقوع ، جعل الله مستقبلها كالماضي والإسرار يكون بمعنى الإخفاء وبمعنى الإظهار فهو من الأضداد ، فلهذا اختلفوا في قوله : وأسروا الندامة .

فقال أبو عبيدة : معناه وأظهروا الندامة لأن ذلك اليوم ليس يوم تصبر وتصنع .

وقيل : معناه أخفوا ، يعني أخفى الرؤساء الندامة من الضعفاء والأتباع خوفاً من ملامتهم إياهم وتعييرهم لهم ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ يعني : حين عاينوا العذاب وأبصروه ﴿ وقضي بينهم بالقسط ﴾ يعني وحكم بينهم بالعدل قيل بين المؤمن والكافر وقيل : بين الرؤساء والأتباع .

(70/366)

وقيل : بين الكفار لاحتمال أن بعضهم قد ظلم بعضاً فيؤخذ للمظلوم من الظالم وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ يعني في الحكم لهم وعليهم بأن يخفف من عذاب المظلوم ويشدد في عذاب الظالم ﴿ ألا إن لله ما في السموات والأرض ﴾ يعني أن كل شيء في السموات والأرض لله ملك له لا يشركه فيه غيره فليس للكافر شيء يفتدي به من عذاب الله يوم القيامة لأن الأشياء كلها لله وهو أيضاً ملك لله فكيف يفتدي من هو مملوك لغيره بشيء لا يملكه ﴿ ألا إن وعد الله حق ﴾ يعني ما وعد الله به على لسان نبيه (صلى الله عليه وسلم) ثواب الطائع وعقاب العاصي حق لا شك فيه ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ يعني حقيقة ذلك ﴿ هو يحيي ويميت ﴾ يعني الذي يملك ما في السموات والأرض قادر على الإحياء والإماتة لا يتعذر عليه شيء مما أراد ﴿ وإليه ترجعون ﴾ يعني بعد الموت للجزاء .

قوله : ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ﴾ قيل : أراد بالناس قريشاً .

وقيل : هو على العموم وهو الأصح وهو اختيار الطبري قد جاءتكم موعظة من ربكم يعني القرآن والوعظ زجر مقترن بتخويف .

وقال الخليل : هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب .

وقيل : الموعظة ، ما يدعو إلى الصلاح بطريقة الرغبة والرهبة .

والقرآن داع إلى كل خير وصلاح بهذا الطريق ﴿ وشفاء لما في الصدور ﴾ يعني أن القرآن

ذو شفاء لما في القلوب من داء الجهل وذلك لأن داء الجهل أضر للقلب من داء المرض للبدن .

وأمراض القلب هي : الأخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة .

(71/366)

فالقرآن مزيل لهذه الأمراض كلها ، لأن فيه الوعظ والزجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير فهو الدواء والشفاء لهذه الأمراض القلبية ، وإنما خص الصدر بالذكر ، لأنه موضع القلب وغلافه وهو أعز موضع في بدن الإنسان لمكان القلب فيه ﴿ وهدى ﴾ يعني وهو هدى من الضلالة ﴿ ورحمة للمؤمنين ﴾ يعني ونعمة على المؤمنين لأنهم هم الذين انتفعوا بالقرآن دون غيرهم ﴿ قل بفضل الله وبرحمته ﴾ الباء في بفضل الله متعلقة بمضمر استغنى عن ذكره لدلالة ما تقدم عليه وهو قوله قد جاءتكم موعظة من ربكم .

والفضل هنا : بمعنى الإفضال ويكون معنى الآية على هذا يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهو القرآن بإفضال الله عليكم ورحمته بكم وإرادته الخير لكم ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿ فبذلك فليفرحوا ﴾ أشارة بذلك إلى القرآن لأن المراد بالموعظة والشفاء : القرآن فترك اللفظ وأشار إلى المعنى وقيل : فبذلك

فليفرحوا إشارة إلى معنى الفضل والرحمة والمعنى فبذلك التطول والإنعام فليفرحوا قال الواحدي الفاء في قوله تعالى : فليفرحوا زائدة كقول الشاعر :

فإذا هلكت فعند ذلك فاجزعي . . .

فالفاء في قوله فاجزعي ، زائدة .

وقال صاحب الكشاف في معنى الآية بفضل الله وبرحمته فليفرحوا فبذلك .

فليفرحوا والتكرير للتأكيد والتقرير إيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط فكأنه قيل : إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح ، فإنه لا مفروح به أحق منهما ، والفرح : لذة في القلب بإدراك المحبوب والمشتهى .

(72/366)

يقال : فرحت بكذا إذا أدركت المأمول ولذلك أكثر ما يستعمل الفرح في اللذات البدنية الدنيوية واستعمل هنا فيما يرغب فيه من الخيرات ومعنى الآية ليفرح المؤمنون بفضل الله ورحمته أي ما آتاهم الله من المواعظ وشفاء الصدور وثلج اليقين بالإيمان وسكون النفس إليه ﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ يعني من متاع الدنيا ولذاتها الفانية هذا مذهب أهل المعاني

في هذه الآية .

وأما مذهب المفسرين فغير هذا ، فإن ابن عباس والحسن وقتادة قالوا : فضل الله الإسلام ورحمته القرآن وقال أبو سعيد الخدري : فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله .

وقال ابن عمر : فضل الله الإسلام ورحمته تزيينه في قلوبنا .

وقيل : فضل الله الإسلام ورحمته الجنة .

وقيل : فضل الله القرآن ورحمته السنن .

فعلى هذا الباء في بفضل الله تتعلق بمحذوف يفسره ما بعده تقديره قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته ﴿ قل ﴾ أي قل يا محمد لكفار مكة ﴿ أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق ﴾ يعني من زرع وضرع وغيرهما وعبر عما في الأرض بالإنزال لأن جميع ما في الأرض من خير ورزق فإنما هو من بركات السماء ﴿ فجعلتم منه ﴾ يعني من ذلك الرزق ﴿ حراماً وحلالاً ﴾ يعني ما حرموه على أنفسهم في الجاهلية من الحرث والأنعام ، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي .

(73/366)

قال الضحاك : هو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ ﴿ قل آلله أذن لكم ﴾ يعني : قل لهم يا محمد آلله أذن لكم في هذا التحريم ﴿ أم على الله تفترون ﴾ يعني بل أنتم كاذبون على الله في ادعائكم أن الله أمرنا بهذا ﴿ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴾ يعني : إذا لقوه يوم القيامة أيحسبون أنه لا يؤاخذهم على أعمالهم فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع والوعيد العظيم لمن يفتري على الله الكذب ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ يعني ببعثة الرسل وإنزال الكتب لبيان الحلال والحرام ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ يعني : لا يشكرون الله على ذلك الفضل والإحسان .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ﴾ الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) وحده والشأن الخطب والحال والأمر الذي يتفق ويصلح ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور والجمع الشؤون تقول العرب ما شأن فلان أي ما ماله .

والشأن اسم إذا كان بمعنى الخطب والحال ويكون مصدراً إذا كان معناه القصد والذي في هذه الآية يجوز أن يكون المراد به الاسم .

قال ابن عباس : معناه ، وما تكون يا محمد في شأن يريد من أعمال البر ؟ وقال الحسن : في شأن من شؤون الدنيا وحوائجك ويجوز أن يكون المراد منه القصد يعني قصد الشيء وما تتلو منه من قرآن .

اختلفوا في الضمير في منه إلى ماذا يعود فقيل : يعود إلى الشأن إذا تلاوة القرآن شأن من شؤون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بل هو أعظم شؤونه ، فعلى هذا يكون داخلاً تحت قوله تعالى : وما تكون في شأن إلا أنه سبحانه وتعالى خصة بالذكر لشرفه وعلو مرتبته .

وقيل : إنه راجع إلى القرآن لأنه قد تقدم ذكره في قوله سبحانه وتعالى قل بفضل الله وبرحمته ، فعلى هذا يكون المعنى وما تتلو من القرآن من قرآن يعني من سورة وشيء منه لأن لفظ القرآن يطلق على جميعه وعلى بعضه .

(74/366)

وقيل : الضمير في منه راجع إلى الله والمعنى وما تتلو من الله من قرآن نازل عليك .

وأما قول سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تعملون من عمل ﴾ فإنه خطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأمته داخلون فيه ومرادون به ، لأن من المعلوم أنه إذا خوطب رئيس قوم وكبيرهم ، كان القوم داخلين في ذلك الخطاب .

ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى : ولا تعلمون من عمل على صيغة الجمع فدل على أنهم داخلون في الخطابين الأولين وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إلا كنا عليكم شهوداً ﴾ يعني

شاهدين لأعمالكم وذلك لأن الله سبحانه وتعالى شاهد على كل شيء وعالم بكل شيء أنه لا محدث ولا خالق ولا موجد إلا الله تعالى فكل ما يدخل في الوجود من أحوال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة داخل في علمه وهو شاهد عليه ﴿ إذ تفيضون فيه ﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى شاهد عليكم حين تدخلون وتخوضون في ذلك العمل .

والإفاضة : الدخول في العمل على جهة الانتصاب إليه والانبساط فيه .

وقال ابن الأنباري : معناه إذا تدفعون فيه وتبسطون في ذكره .

وقيل : الإفاضة : الدفع بكثرة .

وقال الزجاج : تنشرون فيه .

يقال : أفاض القوم في الحديث ، إذا انتشروا فيه ﴿ وما يعزب عن ربك ﴾ يعني : وما يبعد ويغيب عن ربك يا محمد من عمل خلقه شيء لأنه عالم به وشاهد عليه .

وأصل العزوب : البعد .

يقال منه كلام عازب إذا كان بعيد المطلب ﴿ من مثقال ذرة ﴾ يعني وزن ذرة والمثقال : الوزن .

(75/366)

والذرّة : النملة الصغيرة الحمراء وهي خفيفة الوزن جداً ﴿ في الأرض ولا في السماء ﴾ فإن قلت : لِمَ قدم ذكر الأرض على لاسماء هنا وقدم ذكر السماء على الأرض في سورة سبأ وما فائدة ذلك ؟ قلت : كان حق السماء أن تقدم على الأرض كما في سورة سبأ إلا أنه تعالى لما ذكر في هذه الآية شهادته على أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ، ثم وصل ذلك بقوله وما يعزب عن ربك حسن تقديم الأرض على السماء في هذا الموضع لهذه الفائدة ﴿ ولا أصغر من ذلك ﴾ يعني من الذرة ﴿ ولا أكبر ﴾ يعني منها ﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ يعني في اللوح المحفوظ .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ اعلم أننا نحتاج أولاً في تفسير هذه الآية أن نبين من يستحق اسم الولاية ومن هو الولي فنقول : اختلف العلماء فيمن يستحق هذا الاسم فقال ابن عباس في هذه الآية هم الذين يذكر الله لرؤيتهم وروى الطبري بسنده عن سعيد بن جبير مرسلاً قال : " سئل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن أولياء الله فقال هم الذين إذ رؤوا ذكر الله " وقال ابن زيد : هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ولن يتقبل الإيمان إلا بالتقوى .

وقال قوم : هم المتحابون في الله .

ويدل على ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا بشهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة

بمكانهم من الله قالوا يا رسول الله تخبرنا من هم ؟ .

قال : هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتقاطعونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس .

وقرأ هذه الآية : ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " أخرجه أبو داود .

(76/366)

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي " أخرجه مسلم .

عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : " قال الله تعالى : المتحابون بجلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء " أخرجه الترمذي .

وروي البغوي بسنده عن أبي مالك الأشعري .

قال : كنت عند النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال : " إن لله عبيداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة " قال : وفي ناحية القوم أعرابي ، فجثا على ركبتيه ورمى بيديه ثم قال : حدثنا يا رسول الله عنهم من هم ؟

قال : فرأيت في وجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) البشر فقال

" هم عباد من عباد الله ومن بلدان شتى وقبائل شتى لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها ولا دنيا يتبادلون بها يتحابون بروح الله يجعل وجوههم نوراً ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن ، يفزع الناس لو يفزعون ويخاف الناس ولا يخافون " ويروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " قال الله تبارك وتعالى إن أوليائي من عبادي الذين يذكرون بذكري وأذكر بذكرهم " هكذا ذكره البغوي بغير سند ، وروى الطبري بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء قيل من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " الغبطة نوع من السحد إلا أن الحسد مذموم والغبطة محمودة والفرق بين الحسد والغبطة أن الحاسد يتمنى زوال ما على المحسود من النعمة ونحوها والغبطة هي أن يتمنى الغابط مثل تلك النعمة التي هي على المغبوط من غير زوال عنه .

(77/366)

وقال أبو بكر الأصم : أولياء الله هم الذين تولى الله هدايتهم وتولوا القيام بحق العبودية لله والدعوة إليه .

وأصل الولي من الولاء وهو القرب والنصرة فولي الله هو الذي يتقرب إلى الله بكل ما افترض عليه ويكون مشتعلاً بالله مستغرق القلب في معرفة نور جلال الله فإن رأى رأى دلائل قدرة الله وإن سمع سمع آيات الله وإن نطق نطق بالثناء على الله وإن تحرك تحرك في طاعة الله وإن اجتهد اجتهد فيما يقربه إلى الله لا يفتر عن ذكر الله ولا يرى بقلبه غير الله ، فهذه صفة أولياء الله وإذا كان العبد كذلك كان الله وليه وناصره ومعينه قال الله تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا ﴾ وقال المتكلمون : ولي الله من كان آتياً بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل ويكون آتياً بالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة وإليه الإشارة بقوله ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ وهو أن الإيمان مبني على جميع الاعتقاد والعمل ومقام التقوى هو أن يتقي العبد كل ما نهى الله عنه وقوله سبحانه وتعالى : لا خوف عليهم ، يعني في الآخرة إذ خاف غيرهم ولا هم يحزنون يعني على شيء وفاتهم من نعيم الدنيا ولذاتها .

قال بعض المحققين : زوال الخوف والحزن عنهم إنما يحصل لهم في الآخرة لأن الدنيا لا تخلو من هم وغم وأنكاد وحزن .

قال بعض العارفين : إن الولاية عبارة عن القرب من الله ودوام الاشتغال بالله وإذا كان العبد بهذه الحالة فلا يخاف من شيء ولا يحزن على شيء لأن مقام الولاية والمعرفة منعه من أن يخاف أو يحزن .

وأما قوله سبحانه وتعالى ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ فقد تقدم تفسيره وأنه صفة

لأولياء الله .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ اختلفوا في هذه البشرى ، فروي عن عبادة بن الصامت قال " سألت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن قوله تعالى لهم البشرى في الحياة الدنيا قال : هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له " أخرجه الترمذي .

(78/366)

وله عن رجل من أهل مصر قال " سألت أبا الدرداء عن هذه الآية لهم البشرى في الحياة الدنيا قال : ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عنها وقال ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له " قال الترمذي حديث حسن (خ) .

عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " لم يبق بعدي من النبوة إلا المبشرات قالوا وما المبشرات قال الرؤيا الصالحة " (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة " لفظ البخاري ومسلم " إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا

المسلم تكذب وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة والرؤيا ثلاث : الرؤيا الصالحة بشرى من الله ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث المرء نفسه ، قال بعض العلماء : ووجه هذا القول إنا إذا حملنا قوله تبارك وتعالى لهم البشرى على الرؤيا الصالحة الصادقة فظاهر هذا النص يقتضي أن لا تحمل هذه الحالة إلا لهم ، وذلك لأن ولي الله هو الذي يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله ومن كان كذلك فإنه عند النوم لا يبقى في قلبه غير ذكر الله ومعرفته ومن المعلوم أن معرفة الله في القلب لا تفيد إلا الحق والصدق فإذا رأى الولي رؤيا أو رؤيت له كانت تلك الرؤيا بشرى من الله لهذا الولي .

(79/366)

قال الخطابي : في هذه الأحاديث توكيد لأمر الرؤيا وتحقيق منزلتها وإنما كانت جزءاً من أجزاء النبوة في حق الأنبياء دون غيرهم وكان الأنبياء عليهم السلام يوحى إليهم في منامهم كما يوحى إليهم في اليقظة ، قال الخطابي : قال بعض العلماء معنى الحديث أن الرؤيا تأتي على موافقة النبوة لا أنها جزء من النبوة وقال الخطابي وغيره في معنى قوله – الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة : أقام النبي (صلى الله عليه وسلم) في النبوة ثلاثاً وعشرين

سنة على الصحيح وكان قبل ذلك بستة أشهر يرى في المنام الوحي فهي جزء من ستة وأربعين جزءاً وقيل إن المنام لعل أن يكون فيه إخبار بغيب وهو أحد مراتب النبوة وهو يسير في جانب النبوة لأنه لا يجوز أن يبعث الله بعد محمد (صلى الله عليه وسلم) نبياً يشرع الشرائع ويبين الأحكام ولا يخبر بغيب أبداً .

فإذا وقع لأحد في المنام الإخبار بغيب يكون هذا القدر جزءاً من النبوة لا أنه نبي ، وإذا وقع ذلك لأحد في المنام يكون صدقاً والله أعلم .

(80/366)

وقيل في تفسير الآية : إن المراد بالبشرى في الحياة الدنيا هي الثناء الحسن وفي الآخرة الجنة ويدل على ذلك ما روي عن أبي ذر قال " قيل لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن " أخرجه مسلم قال الشيخ محيي الدين النووي قال العلماء معنى هذا البشرى المعجلة له بالخير ، وهي دليل للبشرى المؤخرة له في الآخرة بقوله بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار وهذه البشرى المعجلة دليل على رضا الله عنه ومحبته له وتحبيبه إلى الخلق كما قال ثم يوضع له القبول في الأرض هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم وإلا

فالتعرض مذموم قال بعض المحققين : إذا اشتغل العبد بالله استنار قلبه وامتلأ نوراً فيفيض من ذلك النور الذي في قلبه على وجهه فتظهر عليه آثار الخشوع والخضوع يحبه الناس ويثنون عليه فتلك عاجل بشراه بمحبة الله له ورضوانه عليه وقال الزهري وقتادة في تفسير البشرى : هي نزول الملائكة بالبشارة من الله عند الموت ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى : ﴿ تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ وقال عطاء عن ابن عباس البشرى في الدنيا عند الموت تأتيهم الملائكة بالبشارة وفي الآخرة بعد خروج نفس المؤمن يعرج بها إلى الله تعالى ويبشر برضوان الله تعالى وقال الحسن هي ما بشر الله به المؤمنين في كتابه من جنته وكريم ثوابه ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ يعني لا خلف لوعد الله الذي وعد به أولياءه وأهل طاعته في كتابه وعلى ألسنة رسله ولا تغيير لذلك الوعد ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ يعني ما وعدهم به في الآخرة ﴿ ولا يحزنك قولهم ﴾ يقول الله لنبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) ولا يحزنك يا محمد قول هؤلاء المشركين لك ولا يغمك تخويفهم إياك ﴿ إن العزة لله جميعاً ﴾ يعني أن القهر والغلبة والقدرة لله جميعاً هو المنفرد

(81/366)

بها دون غيره وهو ناصرك عليم والمنتقم لك منهم .

وقال سعيد بن المسيب : إن العزة لله جميعاً فيعز من يشاء وهذا كما قال سبحانه وتعالى في آية أخرى ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ ولا منافاة بين الآيتين فإن عزة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعزة المؤمنين بإعزاز الله إياهم فثبت بذلك أن العزة لله جميعاً وهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء .

وقيل إن المشركين كانوا يتعززون بكثرة أموالهم وأولادهم وعبيدهم فأخبر الله سبحانه وتعالى أن جميع ذلك لله وفي ملكه فهو قادر على أن يسلبهم جميع ذلك ويذلهم بعد العز ﴿ هو السميع ﴾ لأقوالكم ودعائكم ﴿ العليم ﴾ بجميع أحوالكم لا تخفى عليه خافية .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض ﴾ ألا كلمة تنبيه معناه أنه لا ملك لأحد في السموات ولا في الأرض إلا لله فهو يملك من في السموات ومن في الأرض .

فإن قلت قال سبحانه وتعالى في الآية التي قبل هذه ألا إن لله ما في السموات بلفظة ما وقال سبحانه وتعالى في هذه الآية بلفظة من فمن فائدة ذلك ؟ قلت إن لفظة ما تدل على ما لا يعقل ولفظة من تدل على من يعقل فمجموع الآيتين يدل على أن الله يملك جميع من في السموات ومن في الأرض من العقلاء وغيرهم وهم عبيده وفي ملكه .

وقيل : إن لفظة من لمن يعقل فيكون المراد بمن في السموات الملائكة والعقلاء ومن في الأرض الإنس والجن وهم العقلاء أيضاً وإنما خصهم بالذكر لشرفهم وإذا كان هؤلاء العقال المميزون في ملكه وتحت قدرته فالجمادات بطريق الأولى أن يكونوا في ملكه إذا ثبت هذا فتكون الأصنام التي يعبدها المشركون أيضاً في ملكه وتحت قبضته وقدرته ويكون ذلك قدحاً في جعل الأصنام شركاء لله معبودة دونه ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ﴾ لفظة ما استفهاميه معناه وأي شيء يتبع الذي يدعون من دون الله شركاء والمقصود تقبيح فعلهم يعني أنهم ليسوا على شيء لأنهم يعبدونها على أنها شركاء لله تشفع لهم وليس الأمر على ما يظنون وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ يعني أن فعلهم ذلك ظن منهم إنها تشفع لهم وأنها تقربهم إلى الله وذلك ظن منهم لا حقيقة له ﴿ وإن هم إلا يخرصون ﴾ يعني إن هم إلا يكذبون في دعواهم ذلك .

قوله : ﴿ هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ﴾ يعني هو الله ربكم الذي خلق لكم الليل راحة لتسكنوا فيه وليزول التعب والكلال بالسكون فيه ، وأصل السكون الثبوت بعد الحركة والنهار مبصراً وجعل النهار مضيئاً لتهتدوا فيه لحوائجكم وأسباب معايشكم وأضاف الإبصار إلى النهار وإنما يبصر فيه وليس النهار مما يبصر ولكن لما كان مفهوماً من كلام العرب معناه خاطبهم بلغتهم وما يفهمونه قال جرير :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى . . .

ونمت وما ليل المطي بنائم

فأضاف النوم إلى الليل ووصفه به وإنما عنى نفسه وأنه لم يكن نائماً ولا بعيره وهذا من باب نقل الاسم من المسبب إلى السبب قال قطرب تقول العرب أظلم الليل وأبصر النهار بمعنى صار ذا ظلمة وذا ضياء .

(83/366)

قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ يعني يسمعون سمع اعتبار وتدبر فيعلمون بذلك أن الذي خلق هذه الأشياء كلها هو الإله المعبود المنفرد بالوحدانية في الوجود .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(84/366)

قوله تعالى ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (68) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما لم يكن شبهة على ادعاء الولد لله سبحانه ولا لهم اطلاع عليه بوجه ، ساق قوله : ﴿ قالوا اتخذ ﴾ أي تكلف الأخذ بالتسبب على ما نعهد ﴿ الله ﴾ أي المسمى بهذا الاسم الذي يقتضي تسميته به أن يكون له الكمال كله ، فلا يكون محتاجاً إلى شيء بوجه ﴿ ولداً ﴾ مساق البيان لقوله ﴿ إن يتبعون إلاّ الظن ﴾ وهذا صالح لأن يكون تعجيباً ممن ادعى في الملائكة أو عزير أو المسيح وغيرهم .

ولما عجب منهم في ذلك لمنافاته بما يدل عليه من النقص لما ثبت لله تعالى من الكمال كما مرّ ، نزه نفسه الشريفة عنه فقال : ﴿ سبحانه ﴾ أي تنزه عن كل شائبة نقص التنزه كله ؛ ثم علل تنزهه عنه وبينه بقوله : ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الغني ﴾ أي عن الولد وغيره لأنه فرد منزه عن الإبعاض والأجزاء والمجانسة ؛ ثم بين غناه بقوله : ﴿ له ما في السماوات ﴾ ولما كان سياق الاستدلال يقتضي التأكيد ، أعاد " ما " فقال : ﴿ وما في الأرض ﴾ من صامت وناطق ، فهو غني بالملك ذلك عن أن يكون شيء منه ولداً له لأن الولد لا يملك ، وعدم ملكه نقص مناف للغنى ، ولعله عبر ب " ما " لأن الغني محط نظره الصامت مع شمولها للناطق .

ولما بين بالبرهان القاطع والدليل الباهر الساطع امتناع أن يكون له ولد ، بكتهم بنفي أن يكون لهم بذلك نوع حجة فقال : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ عندكم ﴾ وأغرق في النفي فقال : ﴿ من سلطان ﴾ أي حجة ﴿ بهذا ﴾ أي الاتخاذ ، وسميت الحجة سلطاناً لاعتلاء يد المتمسك بها ؛ ثم زادهم بها تبكيتاً بالإنكار عليهم بقوله : ﴿ أتقولون ﴾ أي على سبيل التكرير ﴿ على الله ﴾ أي الملك الأعظم على سبيل الاستعلاء ﴿ ما لا تعلمون ﴾ لأن ما لا برهان عليه في الأصول فهو جهل ، فكيف بما قام الدليل على خلافه ؛ والسلطان : البرهان القاهر لأنه يتسلط به على صحة الأمر ويقهر به الخصم ، وأصله القاهر للرعية بعقد الولاية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 464 . 465 ﴾

(86/366)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من الأباطيل التي حكاها الله تعالى عن الكفار وهي قولهم : ﴿ اتخذ

الله وَلَدًا ﴾ ويحتمل أن يكون المراد حكاية قول من يقول : الملائكة بنات الله ، ويحتمل أن يكون المراد قول من يقول : الأوثان أولاد الله ، ويحتمل أن يكون قد كان فيهم قوم من النصارى قالوا ذلك ثم إنه تعالى لما استنكر هذا القول قال بعده : ﴿ هُوَ الغني لَهُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ .

واعلم أن كونه تعالى غنياً مالكاً لكل ما في السموات والأرض يدل على أنه يستحيل أن يكون له ولد ، وبيان ذلك من وجوه : الأول : أنه سبحانه غني مطلقاً على ما في هذه الآية ، والعقل أيضاً يدل عليه ، لأنه لو كان محتاجاً لافتقر إلى صانع آخر ، وهو محال وكل من كان غنياً فإنه لا بد أن يكون فرداً منزهاً عن الأجزاء والأبعاض ، وكل من كان كذلك امتنع أن ينفصل عنه جزء من أجزائه ، والولد عبارة عن أن ينفصل جزء من أجزاء الإنسان ، ثم يتولد عن ذلك الجزء مثله ، وإذا كان هذا محالاً ثبت أن كونه تعالى غنياً يمنع ثبوت الولد له .

الحجة الثانية : أنه تعالى غني وكل من كان غنياً كان قديماً أزلياً باقياً سرمدياً ، وكل من كان كذلك ، امتنع عليه الانقراض والانقضاء ، والولد إنما يحصل للشيء الذي ينقضي ، وينقرض ، فيكون ولده قائماً مقامه ، فثبت أن كونه تعالى غنياً ، يدل على أنه يمتنع أن يكون له ولد .

الحجة الثالثة : أنه تعالى غني وكل من كان غنياً فإنه يمتنع أن يكون موصوفاً بالشهوة واللذة وإذا امتنع ذلك امتنع أن يكون له صاحبة وولد .

الحجة الرابعة : أنه تعالى غني ، وكل من كان غنياً امتنع أن يكون له ولد ، لأن اتخاذ الولد إنما يكون في حق من يكون محتاجاً حتى يعينه ولده على المصالح الحاصلة والمتوقعة ، فمن كان غنياً مطلقاً امتنع عليه اتخاذ الولد .

(87/366)

الحجة الخامسة : ولد الحيوان إنما يكون ولداً له بشرطين : إذا كان مساوياً له في الطبيعة والحقيقة ، ويكون ابتداء وجوده وتكونه منه ، وهذا في حق الله تعالى محال ، لأنه تعالى غني مطلقاً ، وكل من كان غنياً مطلقاً كان واجب الوجود لذاته ، فلو كان لواجب الوجود ولد ، لكان ولده مساوياً له .

فيلزم أن يكون ولد واجب الوجود أيضاً واجب الوجود ، لكن كونه واجب الوجود يمنع من تولده من غيره ، وإذا لم يكن متولداً من غيره لم يكن ولداً ، فثبت أن كونه تعالى غنياً من أقوى الدلائل على أنه تعالى لا ولد له ، وهذه الثلاثة مع الثلاثة الأول في غاية القوة .

الحجة السادسة : أنه تعالى غني ، وكل من كان غنياً امتنع أن يكون له أب وأم ، وكل من تقدس عن الوالدين وجب أن يكون مقدساً عن الأولاد .

فإن قيل : يشكل هذا بالوالد الأول ؟

قلنا : الوالد الأول لا يمتنع كونه ولداً لغيره ، لأنه سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق الوالد الأول من أبوين يقدمانه أما الحق سبحانه فإنه يمتنع افتقاره إلى الأبوين ، وإلا لما كان غنياً مطلقاً .

الحجة السابعة : إنه تعالى غني مطلقاً ، وكل من كان غنياً مطلقاً امتنع أن يفتقر في إحداث الأشياء إلى غيره .

إذا ثبت هذا فنقول : هذا الولد ، إما أن يكون قديماً أو حادثاً ، فإن كان قديماً فهو واجب الوجود لذاته ، إذ لو كان ممكن الوجود لافتقر إلى المؤثر ، وافتقار القديم إلى المؤثر يقتضي إيجاد الموجود وهو محال ، وإذا كان واجب الوجود لذاته لم يكن ولداً لغيره ، بل كان موجوداً مستقلاً بنفسه ، وأما إن كان هذا الولد حادثاً والحق سبحانه غني مطلقاً فكان قادراً على إحداثه ابتداء من غير تشريك شيء آخر ، فكان هذا عبداً مطلقاً ، ولم يكن ولداً ، فهذه جملة الوجوه المستنبطة من قوله : ﴿ هُوَ الغنى ﴾ الدالة على أنه يمتنع أن يكون له ولد .

أما قوله : ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ فاعلم أنه نظير قوله : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى السموات والارض إِلاَّ اتِى الرحمن عَبْداً ﴾ [مريم : 93] وحاصله يرجع إلى أن ما سوى الواحد الأحد الحق ممكن ، وكل ممكن محتاج ، وكل محتاج محدث ، فكل ما سوى الواحد الأحد الحق محدث ، والله تعالى محدثه وخالقه وموجده وذلك يدل على فساد القول بإثبات الصاحبة والولد ، ولما بين تعالى بالدليل الواضح امتناع ما أضافوا إليه ، عطف عليهم بالإنكار والتوبيخ فقال : ﴿ إِنْ عِندَكُمْ مّن سُلْطَانٍ بهذا ﴾ منبهاً بهذا على أنه لا حجة عندهم في ذلك ألبتة .

ثم بالغ في ذلك الإنكار فقال : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقد ذكرنا أن هذه الآية يحتج بها في إبطال التقليد في أصول الديانات ونفاة القياس وأخبار الآحاد قد يحتجون بها في إبطال هذين الأصلين وقد سبق الكلام فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 106 . 108 ﴾

(89/366)

وقال ابن عطية :

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾

والضمير في ﴿ قالوا ﴾ للكفار العرب وذلك قول طائفة منهم : الملائكة بنات الله ، والآية بعد تعم كل من قال نحو هذا القول كالنصارى ومن يمكن أن يعتقد ذلك من الكفرة ، و ﴿ سبحانه ﴾ : مصدر معناه تنزيهاً له وبراءة من ذلك ، فسره بهذا النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله ﴿ هو الغني ﴾ صفة على الإطلاق أي لا يفتقر إلى شيء من الجهات ، و" الولد " جزء مما هو غني عنه ، والحق هو قول الله تعالى ﴿ أنتم الفقراء إلى الله ﴾ [فاطر : 15] ، وقوله ﴿ ما في السماوات ﴾ ، أي بالملك والإحاطة والخلق ، و ﴿ إن ﴾ نافية ، و" السلطان " الحجة ، وكذلك معناه حيث تكرر من القرآن ، ثم وقفهم موبخا بقوله ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(90/366)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً ﴾ يعني الكفار .

وقد تقدّم .

﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ نَزَّه نفسه عن الصاحبة والأولاد وعن الشركاء والأنداد .

﴿ هُوَ الغني لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ ثم أخبر بغناه المطلق ، وأن له ما في السموات والأرض ملكاً وخلقاً وعبداً ؛ ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً ﴾ [مريم : 93] .

﴿ إِنْ عِندَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بهاذآ ﴾ أي ما عندكم من حجة بهذا .

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ من إثبات الولد له ، والولد يقتضي المجانسة والمشابهة والله تعالى لا يجانِس شيئاً ولا يشابه شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(91/366)

وقال الخازن :

﴿ قالوا ﴾ يعني المشركين ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ يعني به قولهم الملائكة بنات الله ﴿ سبحانه ﴾ نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن اتخاذ الولد ﴿ هو الغني ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى هو الغني عن جميع خلقه فكيف يليق بجلاله اتخاذ الولد وإنما يتخذ الولد من هو محتاج إليه والله تعالى هو الغني المطلق وجميع الأشياء محتاجة إليه وهو غني عنها ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ يعني أنه مالك ما في السموات وما في الأرض وكلهم عبيده

وفي قبضته وتصرفه وهو محدثهم وخالقهم .

ولما نزّه الله سبحانه وتعالى نفسه عن اتخاذ الولد عطف على من قال ذلك بالإنكار والتوبيخ والتقريع فقال سبحانه وتعالى : ﴿ إن عندكم من سلطان بهذا ﴾ يعني أنه لا حجة عندكم على هذا القول البتة ثم بالغ في الإنكار عليهم بقوله تعالى : ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ يعني أتقولون على الله قولاً لا تعلمون حقيقته وصحته وتضيفون إليه ما لا تجوز إضافته إليه جهلاً منكم بما تقولون بغير حجة ولا برهان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(92/366)

وقال أبو حيان :

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾

الضمير في قالوا عائد على من نسب إلى الله الولد ، ممن قال الملائكة بنات الله ، أو عزير ابن الله ، أو المسيح ابن الله ، وسبحانه : تنزيه من اتخاذ الولد وتعجب ممن يقول ذلك ، هو الغني علة لنفي الولد ، لأنّ اتخاذ الولد إنما يكون للحاجة إليه ، والله تعالى غير محتاج إلى شيء ، فالولد منتف عنه ، وكل ما في السموات والأرض ملكه فهو غني عن اتخاذ الولد .

وأنْ نافية ، والسلطان الحجة أي : ما عندكم من حجة بهذا القول .

قال الحوفي : وبهذا متعلق بمعنى الاستقرار يعني : الذي تعلق به الظرف .

وتبعه الزمخشري فقال : الباء حقها أن تتعلق بقوله : إن عندكم على أن يجعل القول مكاناً للسلطان كقولك : ما عندكم بأرضكم نور ، كأنه قيل : إنّ عندكم فيما تقولون سلطان .

وقال أبو البقاء : وبهذا متعلق بسلطان أو نعت له ، وأتقولون استفهام إنكار وتوبيخ لمن اتبع ما لا يعلم ، ويحتج بذلك في إبطال التقليد في أصول الدين ، واستدل بها نفاة القياس وإخبار الآحاد .

ولما نفى البرهان عنهم جعلهم غير عالمين ، فدل على أن كل قول لا برهان عليه لقائله فذلك جهل وليس بعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(93/366)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾

﴿ قَالُواْ ﴾ شروعٌ في ذكر ضربٍ آخرَ من أباطيلهم وبيانُ بطلانه ﴿ اتخذ الله وَلَدًا ﴾ أي تبنّاه ﴿ سبحانه ﴾ تنزيهٌ وتقديس له عما نسبوا إليه وتعجيبٌ من كلمتهم الحمقاء ﴿ هُوَ

الغنى ﴾ على الإطلاق عن كل شيءٍ في كل شيء وهو علةٌ لتنزيهه سبحانه وإيذانٌ بأن اتخاذَ الولدِ من أحكام الحاجةِ وقوله عز وجل : ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ أي من العقلاء وغيرِهم ، تقريرٌ لغناه وتحقيقٌ لمالكيته تعالى لكل ما سواه وقوله تعالى : ﴿ إِنْ عِندَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ ﴾ أي حجة ﴿ بهذا ﴾ أي بما ذكر من قولهم الباطلِ وتوضيحٌ لبطلانه بتحقيق سلامةِ ما أقيم من البرهان الساطِع عن المعارض ، فِمنْ في قوله تعالى : ﴿ مِّن سلطان ﴾ زائدةٌ لتأكيد النفي وهو مبتدأٌ والظرفُ المقدم خبرُه أو مرتفعٌ على أنه فاعلٌ للظرف لاعتماده على النفي وبهذا متعلقٌ إما بسلطان لأنه بمعنى الحجةِ والبرهانِ وإما بمحذوف وقعَ صفةً له وإما بما في (عندكم) من معنى الاستقرارِ ، كأنه قيل : إن عندكم في هذا القول من سلطان ، والالتفاتُ إلى الخطاب لمزيد المبالغةِ في الإلزام والإفحام وتأكيدِ ما في قوله تعالى : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ من التوبيخ والتقريعِ على جهلهم واختلاقِهم ، وفيه تنبيه على أن كل مقالةٍ لا دليلَ عليها فهي جهالةٌ وأن العقائدَ لا بد لها من برهان قطعيَ وأن التقليدَ بمعزل من الاعتداد به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(94/366)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُواْ اتخذ الله وَلَدًا ﴾

شروع في ذكر ضرب آخر من أباطيل المشركين وبيان بطلانه ، والمراد بهؤلاء المشركين على ما قيل : كفار قريش والعرب فإنهم قالوا : الملائكة بنات الله تعالى ، واليهود والنصارى القائلون : عزير وعيسى عليهما السلام ابناه عز وجل والاتخاذ صريح في التبني ، وظاهر الآية يدل على أن ذلك قول كل المشركين وإذا ثبت أن منهم من يقول بالولادة والتوليد حقيقة كان ما هنا قول البعض ولينظر هل يجري فيه احتمال إسناد ما للبعض للكل لتحقق شرطه أم لا يجري لفقد ذلك والولد يستعمل مفرداً وجمعاً .

وفي "القاموس" الولد محركة وبالضم والكسر والفتح واحد وجمع وقد يجمع على أولاد وولدة وإلدة بالكسر فيهما وولد الضم وهو يشمل الذكر والأنثى ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه وتقديس له تعالى عما نسبوا إليه على ما هو الأصل في معنى سبحانه وقد يستعمل للتعجب مجازاً ويصح إرادته هنا ، والمراد التعجب من كلمتهم الحمقى ، وجمع بعضهم بين التنزيه والتعجب ولعله مبني على أن التعجب معنى كنائي وأنه يصح إرادة المعنى الحقيقي في الكناية وهو أحد قولين في المسألة ، وقيل : إنه لا يلزم استفادة معنى التعجب منه باستعمال اللفظ فيه بل هو من المعاني الثواني ، وقوله سبحانه : ﴿ هُوَ الغنى ﴾ أي عن

كل شيء في كل شيء علة لتنزهه تعالى وتقدس عن ذلك وإيذان بأن اتخاذ الولد مسبب عن الحاجة وهي التقوى أو بقاء النوع مثلاً ، وقوله تعالى :

(95/366)

﴿ لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ أي من العقلاء وغيرهم تقرير لمعنى الغنى لأن المالك لجميع الكائنات هو الغني وما عداه فقير ، وقيل : هو علة أخرى للتنزه عن التبني لأنه ينافي المالكية ، وقوله جل شأنه : ﴿ إِنْ عِندَكُمْ مّن سُلْطَانٍ ﴾ أي حجة ﴿ بهذا ﴾ أي بما ذكر من القول الباطل توضيح لبطلانه بتحقيق سلامة ما أقيم من البرهان الساطع عن المعارض والمنافي فإن نافية و ﴿ مِنْ ﴾ زائدة لتأكيد النفي ومجرورها مبتدأ والظرف المقدم خبره أو مرتفع على أنه فاعل له لاعتماده على النفي وب ﴿ بهذا ﴾ متعلق إما بسلطان لأنه بمعنى الحجة كما سمعت وإما بمحذوف وقع صفة له ، وقيل : وقع حالاً من الضمير المستتر في الظرف الراجع إليه وإما بما في ﴿ عِندَكُمْ ﴾ من معنى الاستقرار ، ويتعين على هذا كون ﴿ سلطان ﴾ فاعلاً للظرف لئلا يلزم الفصل بين العامل المعنوي ومتعلقه بأجنبي ، والالتفات إلى الخطاب لمزيد المبالغة في الإلزام والإفحام وتأكيد ما في قوله تعالى :

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ من التوبيخ والتقريع على جهلهم واختلاقهم ، وفي الآية دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة وأن العقائد لا بد لها من قاطع وأن التقليد بمعزل من الاهتداء ولا تصلح متمسكاً لنفي القياس والعمل بخبر الآحاد لأن ذلك في الفروع وهي مخصوصة بالأصول لما قام من الأدلة على تخصيصها وإن عم ظاهرها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(96/366)

وقال القاسمى :

﴿ قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ ﴾

تنزيه له عن أن يجانس أحداً ، أو يحتاج إليه ، وتعجب من كلمتهم الحمقاء : ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أي : الذي وجوده بذاته ، وبه وجود كل شيء ، فكيف يماثله شيء ؟ ! ومن له الوجود كله فكيف يجانسه شيء ؟ ! والجملة علة لتنزيهه ، وإيذان بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة ، إما للتقوي به ، أو لبقاء نوعه : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ تقرير لغناه ، أي : فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولداً : ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾ أي : ما عندكم من حجة بهذا القول الباطل [في المطبوع : الباطن]

توضيح لبطلانه ، بتحقيق سلامة ما أقيم من البرهان الساطع عن المعارض ، أي : ليس بعد هذا حجة تسمع . والمراد تجهيلهم ، وأنه لا مستند لهم سوى تقليد الأوائل ، وإتباع جاهل لجاهل .

تنبيه :

دلت الآية على تسمية البرهان سلطاناً .

(97/366)

قال الإمام ابن القيم في " مفتاح دار السعادة " : إنه سبحانه سمى الحجة العلمية سلطاناً .

قال ابن عباس رضي الله عنه : كل سلطان في القرآن فهو حجة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾ يعني ما عندكم من حجة بما قلتم ، إن هو إلا قول على الله بلا علم . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [النجم : من الآية 23] ، يعني ما أنزل بها حجة ولا برهاناً ، بل هي من تلقاء أنفسكم وآبائكم . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني حجة واضحة . إلا موضعاً واحداً اختلف فيه ، وهو قوله : ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ ﴾ ، فقيل : المراد به القدرة والملك ، أي : ذهب عني مالي وملكي ، فلا مال لي ولا سلطان ،

قيل : هو على بابه ، أي : انقطعت حجتي وبطلت ، فلا حجة لي . والمقصود : أن الله سبحانه سمى علم الحجة سلطاناً ؛ لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره ، فله بها سلطان على الجاهلين ، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد ، ولهذا ينقاد الناس للحجة ما لا ينقادون لليد ، فإن الحجة تنقاد لها القلوب ، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن . فالحجة تأسر القلب وتقوده ، وتذل المخالف وإن أظهر العناد والمكابرة ، فقلبه خاضع لها ذليل ، مقهور تحت سلطانها . بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يساس به ، فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها ، قدرة بلا علم ولا رحمة ، بخلاف سلطان الحجة ، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة ، ومن لم يكن له اقتدار في علمه ، فهو إما لضعف حجته وسلطانه ، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له ، وإلا فالحجة ناصرة نفسها ، ظاهرة على الباطل قاهرة له – انتهى – .

(98/366)

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ توبيخ وتقريع على جهلهم . قال الزمخشري : لما نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالمين ، فدل على أن كل قول لا برهان عليه لقائله ، فذاك جهل وليس بعلم .

وقال أبو السعود : فيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها ، فهي جهالة ، وأن العقائد لا بد لها من برهان قطعي ، وأن التقليد بمعزل من الاعتداد به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 49.50 ﴾

(99/366)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾

بيان لجملة ﴿ ألا إن لله مَن في السماوات ومَن في الأرض ﴾ [يونس : 66] إلى آخرها ، وفي هذا البيان إدماج بحكاية فن من فنون كفرهم مغاير لادعاء شركاء لله ، لأن هذا كفر خفي من دينهم ، ولأن الاستدلال على إبطاله مغاير للاستدلال على إبطال الشركاء .

فضمير ﴿ قالوا ﴾ عائد إلى ﴿ الذين يدعون من دون الله شركاء ﴾ [يونس : 66] أي قال المشركون ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ .

وليس المراد من الضمير غيرَهم من النصارى لأن السورة مكية والقرآن المكي لم يتصد لإبطال زيغ عقائد أهل الكتاب ، ذلك أن كثيراً منهم كانوا يزعمون أن لله بنات هم الملائكة ، وهم بناته من سَروات نساء الجن ، ولذلك عَبَدت فرق من العرب الجن قال تعالى : ﴿ ويوم

نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت وَلِيُّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ [سبأ : 40 ، 41] .

والاتخاذ : جعل شيء لفائدة الجاعل ، وهو مشتق من الأخذ لأن المتخذ يأخذ الشيء الذي يصطفيه .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ أتتخذ أصناما آلهة ﴾ في سورة [الأنعام : 74] ، وقوله : ﴿ وإن يَروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ﴾ في [الأعراف : 146] ، فالاتخاذ يصدق على أخذ شيء موجود للاستئثار به ، ويصدق على تكوين شيء للانتفاع به .

وهو هنا صالح للمعنيين لأن منهم مَن يعتقد تولد الولد عن الله تعالى ، ومنهم مَن يعتقد أن الله تبنَّى بعض مخلوقاته .

والولد : اسم مصوغ على وزن فَعَل مثل عَمَد وعرب .

وهو مأخوذ من الولادة ، أي النتاج .

يقال : ولدت المرأة والناقة ، ولعل أصل الولد مصدر مات على وزن فعل مثل الفَرح .

ومن أجل ذلك أطلق على الواحد والجمع كما يوصف بالمصدر .

يقال : هؤلاء ولد فلان .

وفي الحديث أنا سيد ولَدِ آدمِ والمراد هنا الجمع لأنهم قالوا : الملائكة بنات الله استولدها من سروات الجن قال تعالى : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ﴾ [النحل : 57] .

وجملة : ﴿ سبحانه ﴾ إنشاء تنزيه للرد عليهم ، فالجملة جواب لذلك المقال ولذلك فصلت عن التي قبلها .

وهو اسم مصدر ل (سَبَّح) إذا نزّه ، نائب عن الفعل ، أي نسبحه .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا ﴾ في سورة [البقرة : 32] ، أي تنزيهاً لله عن هذا لأن ما قالوه يستلزم تنقيص الله تعالى ، ولذلك بُينت جملةُ التنزيه بجملة : هو الغني ﴾ بياناً لوجه التنزيه ، أي هو الغني عن اتخاذ الولد ، لأن الإلهية تقتضي الغنى المطلق عن كل احتياج إلى مُكمِل نقص في الذات أو الأفعال ، واتخاذ الولد إما أن ينشأ عن اندفاع طبيعي لقضاء الشهوة عن غير قصدِ التوليد وكونُها نقصاً غير خفي ، وإما أن ينشأ عن القصد والتفكير في إيجاد الولد ، وذلك لا يكون إلا لسد ثلمة نَقص من حاجة إلى معنى في الحياة أو خَلَف بعد الممات .

وكل ذلك مناف للإلهية التي تقتضي الاتصاف بغاية الكمال في الذات والصفات والأفعال .

والغَنِيُّ : الموصوف بالغِنى ، فعيل للمبالغة في فعل (غَنِيَ) عن كذا إذا كان غير محتاج ، وغنى الله هو الغنى المطلق ، وفسر في أصول الدين الغنى المُطلق بأنه عدم الافتقار إلى المُخَصّص وإلى المحل ، فالمخصص هو الذي يُعين للممكن إحدى صفتي الوجود أو العدم عوضاً عن الأخرى ، فبذلك ثبت للإله الوجودُ الواجب ، أي الذي لا يتصور انتفاؤه ولذلك انتفى عنه التركيب من أجزاء وأبعاض ومن أجل ذلك امتنع أن ينفصل عنه شيء منه ، والولد ينشأ من جزء منفصل عن الوالد ، فلا جرم أنْ كان الغَنِيُّ منزّهاً عن الولد من جهة الانفصال ، ثم هو أيضاً لا يجوز أن يتخذ بعض المخلوقات ولداً له بالتبني لأجل كونه غنياً عن الحاجات التي تبعث على اتخاذ الولد من طلب معونة أو إيناس أو خلَف ، قال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ [الأنبياء : 26] وقال : ﴿ بديع السماوات والأرض أَنَّى يكون له ولد ﴾ [الأنعام : 101] .

وجملة : ﴿ له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ مقررة لوصف الغنى بأن ما في السماوات وما في الأرض ملكه ، فهو يسخر كل موجود لما خلقه لأجله ، فلا يحتاج إلى إعانة ولد ، ولا إلى ترفيع رتبة أحد استصناعاً له كما يفعل الملوك لقواد جيوشهم وأمراء أقطارهم وممالكهم لاكتساب مودتهم وإخلاصهم .

وهذا مساو للاستدلال على نفي الشريك في قوله آنفاً ﴿ ألا إن لله من في السماوات ومن في

الأرض وما يَتبع الذين يَدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن ﴾ [يونس : 66]

ودل قوله : ﴿ له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ على أن صفة العبودية تنافي صفة البُنُوة وذلك مثل قوله : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمان ولداً سبحانه بل عباد مُكرمون ﴾ [الأنبياء : 26] .

ويؤخذ من هذا أن الولد لا يُسترقُّ لأبيه ولا لأمّه ولذلك يعتق الولد على من يملكه من أب أو أم وإن عَلَيَا .

(102/366)

وجملة : ﴿ إنْ عندكم من سلطان بهذا ﴾ جواب ثان لقولهم : ﴿ اتَّخذ الله ولداً ﴾ فلذلك فُصلت كما فصلت جملة ﴿ سبحانه ﴾ ، فبعد أن استدل على إبطال قولهم ، سجل عليهم أنهم لا حجة لهم في قولهم ذلك .

و﴿ إن ﴾ حرف نفي .

و﴿ مِن ﴾ مزيدة لتأكيد النفي بالاستغراق ، أي استغراق نفي جميع أنواع الحجة قويِّها وضعيفها ، عقليّها وشرعيّها .

و(عند) هنا مستعملة مجازاً .

شُبِّه وجودُ الحجة للمحتج بالكون في مكانه ، والمعنى : لا حجَّة لكم .

و﴿ سلطان ﴾ محله رفع بالابتداء ، وخبره ﴿ عِندكم ﴾ واشتغل آخر المبتدأ عن الضمة بكسرة حرف الجر الزائدة .

والسلطان : البرهان والحجة ، لأنه يكسب المستدل به سلطة على مخالفه ومجادله .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ما نزل الله بها من سلطان ﴾ في سورة [الأعراف : 71] .

والباء للملابسة ، وهي في موضع صفة لسلطان ﴾ ، أي سلطان ملابس لهذا .

والإشارة إلى المقول .

والمعنى : لا حجة لكم تصاحب مَقولكم بأن الله اتخذ ولداً .

وجملة : ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ جواب ثالث ناشيء عن الجوابين لأنهم لما أُبطل قولهم بالحجة .

ونُفي أن تكون لهم على قولهم حجة كانوا أحرياء بالتوبيخ والتشنيع بأنهم يجترئون على جناب الله فيصفون الله بما لا يعلمون ، أي بما لا يوقنون به ، ولكونها جواباً فصلت .

فالاستفهام مستعمل في التوبيخ ، لأن المذكور بعده شيء ذميم ، واجتراء عظيم وجهل كبير مركب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾

ونفس نص الآية الكريمة يكذِّبهم فيما يدَّعونه .

ومثال ذلك : أنك حين تقول : " اتخذ فلان بيتاً " أي : أن فلاناً له ذاتية سابقة على اتخاذه للبيت ، وبها اتخذ البيت ، فإذا قيل : ﴿ اتخذ الله وَلَداً ﴾ [يونس : 68] .

فهذا اعتراف منهم بكمال الله تعالى وذاتيته قبل أن يتخذ الولد .

وهم قد اختلفوا في أمر هذا الولد ، فمنهم من قال : إن الملائكة هن بنات الله وكذَّبهم الحق سبحانه في ذلك ، ومنهم من قال : عزير ابن الله وهم اليهود وقد كذَّبهم الله سبحانه في ذلك ، وطائفة من المسيحيين قالوا : إن المسيح ابن الله ، وكذَّبهم الحق سبحانه في ذلك .

ثم ما الداعي أن يتخذ الله الولد ؟

هل استنفد قوته حتى يساعده الولد ؟ !

وهل يمكن أن يضعف سبحانه معاذ الله فيمتد بقوة الولد أو يعتمد عليه ؟ !

مثلما يقال حين يواجه شيخٌ شابّاً ، ويعتدي الشاب على الشيخ ، فيقال للشاب : احذر ؛ إن لهذا الشيخ ولداً أقوى منك ؛ فيرتدع الشاب ، أو أن يقول الشيخ للشاب : إن أبنائي يفوقونك في القوة ، وفي هذا اعتداد بالأولاد .

ويريد الحق سبحانه أن يغفل كل هذه الدعاوي ولتكون حركة الحياة متماسكة متلازمة ، لا متعارضة ولا متناقضة ؛ لذلك ينبغي أن يكون المحرِّك إلهاً واحداً تصدر منه كل الأوامر ، فلا تعارض في تلك الأوامر ؛ لأن الأوامر إن صدرت عن متعدد فحركة الحياة تتصادم بما يبدد الطاقة ويفسد الصالح .

ولذلك لا بد أن يكون الأمر صادراً من آمر واحد يُسْلَّم له كل أمر ، وهذا الإله منزَّه عن كل ما تعرفه من الأغيار ، فله تنزيه في ذاته ؛ فلا ذات تشبه ذاته ، ومنزَّه في صفاته ؛ فلا صفة تشبه صفته ، ومنزَّه في أفعاله ؛ فلا فعل يشبه فعله .

وحتى نضمن هذه المسألة لا بد أن يكون الإله واحداً ، ولكن بعضاً من القوم جعلوا لله شركاء ، ومن لم يجعل له شريكاً ، توهَّم أن له ابناً وولداً .

ونقول لهم :

(104/366)

إن كلمتكم : ﴿ اتخذ الله وَلَداً ﴾ [يونس : 68] ترد عليكم ؛ لأن معنى اتخاذ الولد أن الألوهية وُجِدَت أولاً مستقلة ، وبهذا الألوهية اتخذ الولد .

ومن المشركين من قال : إن الملائكة بنات الله .

فردَّ عليهم الحق سبحانه :

﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ [النجم : 2122] .

والكمال كله لله سبحانه فهو كمال ذاتي ؛ ولذلك يأتي في وسط الآية ويقول تعالى :

﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ الغني ﴾ [يونس : 68] .

وسبحانه تعني : التنزيه ، وهو الغني أي : المستغني عن مُعِين كما تستعينون أنتم بأبنائكم ، وهو دائم الوجود ؛ فلا يحتاج إلى ابن مثل البشر ، وهم أحداث تبدأ وتنتهي ؛ لذلك يحبون أن يكون لهم أبناء كما يقول الشاعر :

ابني يا أنا بعد ما أقَضي . . . ويقال : " من لا ولد له لا ذِكْر له " ، كأن الإنسان لما علم أنه يموت لا محالة أراد أن يستمر في الحياة في ولده .

ولذلك حين يأتي الولد للإنسان يشعر الإنسان بالسرور والسعادة ، والجاهل هو من يحزن حين تلد له زوجته بنتاً ؛ لأن البنت لن تحمل الاسم لمن بعدها ، أما الولد والحفيد فيحملان اسم الجد ، فيشعر الجد أنه ضمن الذِّكْر في جيلين .

إذن : فاتخاذ الولد إما استعانة وإما اعتداد ، والحق سبحانه غنيٌّ عن الاستعانة ، وغني عن الاعتداد ؛ لأنك تعتد بمن هو أقوى منك ، وليس هناك أقوى من الله تعالى ، وهو سبحانه لا يحتاج لامتداد ؛ لأنه هو الأول وهو الآخر ، وعلى ذلك ففكرة اتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا تصح على أي لون من ألوانها .

ولذلك يقول الحق سبحانه مرادفاً لتلك الفكرة : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ لأنها تقطع كل احتمالات ما سبقها ، ويُتْبِع ذلك بقوله : ﴿ هُوَ الغني ﴾ لأنه غني عن اتخذا الولد ، وغني عن كل شيء ، وقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيه له ، والتنزيه : ارتفاع بالمُنَزَّه عن مشاركة شيءٍ له في الذات أو الأفعال .

(105/366)

وإذا ورد شيء هو لله وصفٌ ولخَلْقه وصفٌ ، فإياك أن تأخذ هذه الصفة مثل تلك الصفة .

فإن قابلت غنياً من البشر ، فالغني في البشر عَرَضٌ ، أما غنى الله تعالى ففي ذاته سبحانه .

وأنت حي والله سبحانه حي ، ولكن أحياتك كحياته ؟ لا ؛ لأن حياته سبحانه لم يسبقها عدم ، وحياتك سبقها عدم ، وحياته سبحانه لا يلحقها عدم ، وأنت يلحق حياتك العدم .

والله موجود وأنت موجود ، لكن وجوده سبحانه وجود ذاتيٌّ ، ووجودك وجود عَرَضِيٌّ .

وإذا قال الحق سبحانه :

إن له سبحانه وتعالى يداً ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : 10] .

فلا يمكن أن تكون يد الله سبحانه مثل يدك ؛ لأن ذاته سبحانه ليست كذاتك ، وصفاته سبحانه ليست كصفاتك ، وهو سبحانه القادر الأعلى ، ولا يمكن أن يكون مقدوراً لأحد

.

ولذلك حين يتجلَّى الله سبحانه لخلقه ، فسوف يتجلى بالصورة التي تختلف عن كل خيال العبد ، وهذه الصورة تختلف من عبد إلى آخر ، ولو كانت الصورة التي يتجلى بها الله سبحانه مقدوراً عليها لكان معنى ذلك أن هناك ذهناً بشرياً قد قدر على الإحاطة بها .

وما خطر ببالك فالله سبحانه بخلاف ذلك ؛ لأن ما خطر بالبال مقدور عليه لأنه خاطر ، والله سبحانه لا ينقلب أبداً إلى مقدور عليه .

وأنت حين تأتي بمسألة في الحساب أو الهندسة مثلاً ، وتعطيها لتلميذ ويقوم بحلها ، فمعنى ذلك أن عقله قد قدر عليها ، أما إن جئت لتلميذ في المرحلة الإعدادية مثلاً بمسألة هندسية مقررة على طلبة كلية الهندسة ؛ فعقله لن يقدر عليها .

إذن : لو أن الإنسان قد أدرك شيئاً عن الله غير ما قاله الله لانقلب الإله إلى مقدور عليه ، والحق سبحانه مُنَزَّه عن ذلك ؛ لأنه القادر الأعلى الذي لا ينقلب أبداً إلى مقدور .

لذلك يعلِّمنا الحق سبحانه أن نقول تنزيهاً لله تعالى كلمة ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ ، وهو التنزيه الواجب عن كل شيء يخطر ببال الإنسان عن الله تعالى ، وهذه السبحانية أو هذا التنزيه هو صفة ذاتية في الله تعالى ، قبل أن يوجد شيء ، وبعد أن خَلَق الخَلْق ، فعلى كل المخلوقات تنزيهه ، وبدأ الخلق في التسبيح .

والتسبيح فعل مستمر لا ينقطع ولا ينقضي ؛ لذلك تجد استدلالات القرآن في السور التنزيهية تؤكد ذلك ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء : 1] .

وإياك أن تظن أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد سرى بقرار من نفسه ، بل الذي أسرى به هو الحق سبحانه ، فلا تظن أن المسافة يمكن أن تمنع مشيئة الحق المطلقة ، ولا المكان ، ولا الزمن ؛ لأن الفعل منسوب لله تعالى ، ولا يمكن أن نقيس فعلاً منسوباً لله تعالى بقياس الزمان أو المكان ، أو حسب قانون الحركة النسبية ، لأن الحق سبحانه له طلاقة القدرة ، وأنت بشر مجرد حادث محدود الزمان والمكان .

وأنت إذا سِرْت من هنا إلى الإسكندرية مثلاً على قدميك فستقطع المسافة في أسابيع ، وإن امتطيت دابة فقد تأخذ في الوصول إلى الإسكندرية أياماً ، وإن ركبت سيارة فسوف

تقطع المسافة في ساعتين ، وإن ركبت صاروخاً ، فستصل خلال دقائق .

أي : أنك كلما زادت قوة أداة الوصول قَلَّ زمن الوصول ، وهذا موجز نظرية الحركة ، وإذا كان الذي أسرى هو الله سبحانه ، وهو قوة القوى ، لذلك لا يمكن أن يقاس بالنسبة لمشيئة قوة أخرى ، أو أن يقاس الأمر ببُعد أو قُرْب المكان أو كيفية الزمان الذي تعرفه .

وإياك أن تفهم أن إسراء الله تعالى مثل إسرائك ؛ لأن الفعل إنما يأخذ قوته من الفاعل ، وما دام الفاعل هو الله سبحانه فلا أحد بقادر أن يَحُدَّ أفعاله بزمن .

(107/366)

وقد استهل الحق سبحانه سورة الإسراء بالسبحانية وآياتها الأولى تتكلم في أدق شيء تكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذاته بأنه قد أُسْرِيَ به ، وبذلك أثبت بحادث الإسراء حقيقة المعراج ، وأن الناموس قد خُرِق له ، وحدَّثنا عما نعلم لنصدِّق حديثه عما لا نعلم ، وحتى نقيس ما لا نعلم على ما نعلم ، فيتأكد لنا صدقه صلى الله عليه وسلم في حديثه عما لا نعلم .

كلمة " سبحانه " إذن هي للتنزيه ، وهي لله تعالى أزلاً قبل أن يَخلق الخَلق ، فقد شهد سبحانه لذاته أنه إله واحد ، ثم شهدت الملائكة ، ويتكرر التسبيح من كل المخلوقات التي

أوجدها الله سبحانه .

وأنت تجد سور القرآن الكريم التي جاء فيها التسبيح مؤكدة أنه سبحانه مُنزَّه ، وله التسبيح من قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق ؛ ليسبِّحوا ، ففي سورة الحديد يقول سبحانه :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض ﴾ [الحديد : 1] .

ويقول سبحانه في سورة الحشر :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ [الحشر : 1] .

فهل سبَّح كل من في السموات ومن في الأرض مرة واحدة وانتهى الأمر ؟ لا ؛ لأن الله سبحانه يقول :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض الملك القدوس ﴾ [الجمعة : 1] .

ويقول سبحانه في سورة التغابن :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض لَهُ الملك وَلَهُ الحمد وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن : 1] .

إذن : فالسبحانية لله أزلاً ، وسبَّح ويسبِّح الخَلْق وكل الوجود بعد أن خلقه الله سبحانه ، سموات وأرض وما فيهما ومن فيهما ، وما بقى إلا أنت أيها الإنسان فسبِّحْ باسم ربك الأعلى .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ ﴾ [يونس : 68] .

(108/366)

وعلة التسبيح والتنزيه عن أن يكون له ولد تأتي في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الغني ﴾ ؛ لأن اتخاذ الولد إنما يكون عن حاجة ، إما استعانة ، وإما اعتماداً ، وإما اعتداداً ، وإما امتداداً ، وكل هذه أمور باطلة بالنسبة له سبحانه ، وهو الحق الأعلى ، وهو سبحانه القائل في آية أخرى :

﴿ وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [البقرة : 116] .

والقنوت معناه : الإقرار بالعبودية لله تعالى والخضوع له وإطاعته .

ويقول سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ إِنْ عِندَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بهاذا أَتَقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : 68] .

و " إِنْ " قد تأتي للنفي في مثل قول الحق سبحانه :

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللائي وَلَدْنَهُمْ ﴾ [المجادلة : 2] .

وفي قول الحق سبحانه هنا :

﴿ إِنْ عِندَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بِهَاذَآ ﴾ [يونس : 68] .

أي : ليس عندكم حُجَّة تدل على أن الله تعالى اتخذ ولداً .

ولذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : 68]

أي : أنكم لا تملكون إعلاماً من الله تعالى بذلك ، فلا إعلام عن الله إلا من الله ، وليس لأحد أن يُعْلِم عن ربه ، فهو سبحانه من يُعْلِم عن نفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(109/366)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن الأعرج رضي الله عنه في قوله ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ يقول : فاحكموا أمركم ، وادعوا شركاءكم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ أي فلتجمعوا أمرهم معكم .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ قال : لا يكبر عليكم أمركم ، ثم اقضوا ما أنتم قاضون .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ ثم اقضوا إليَّ ﴾ قال : انهضوا إليَّ ﴿ ولا تنظرون ﴾ يقول : ولا تؤخرون .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ ثم اقضوا إليَّ ﴾ قال : ما في أنفسكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(110/366)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (68) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ عِندَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ ﴾ : " إنْ " نافية و " عندكم " يجوز أن يكونَ خبراً مقدماً ، و " مِنْ سلطان " مبتدأ مؤخراً ، ويجوز أن يكونَ " مِنْ سلطان " مرفوعاً بالفاعلية بالظرف قبلَه لاعتمادِه على النفي ، و " مِنْ " مزيدةٌ على كلا التقديرين ، وبهذا يجوز أن يتعلَّقَ بسلطان لأنه بمعنى الحجة والبرهان ، وأن يتعلَّقَ بمحذوف صفةً له ، فيُحكمَ على موضعه بالجرِّ على اللفظ ، وبالرفعِ على المحل ؛ لأنَّ موصوفَه مجرور بحرفِ جرٍّ زائدٍ ، وأن يتعلق بالاستقرار . قال الزمخشري : " الباءُ حقُّها أن تتعلَّقَ بقوله : " إنْ عندكم " على أن يُجْعَلَ القولُ مكاناً للسلطان كقولك : " ما عندكم بأرضِكم مَوْزٌ " كأنه قيل : إنْ عندكم/ بما تقولون سُلْطان " . وقال الحوفي : " وبهذا " متعلقٌ بمعنى الاستقرار " ، يعني الذي تَعَلَّق به الظرف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 238 ﴾

(111/366)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

الوَلَدُ بعض الوالد ، والصمدية تَجِلُّ عن البغيضة ، فَنَزَّهَ اللهُ نَفْسَه عن ذلك بقوله ﴿ سبحانه ﴾ .

ثم إنه لم يعجِّلْ لهم العقوبة – مع قبيح قالتهم ومع قدرته على ذلك – تنبيهاً على طريق الحكمة لعبادة .

ولا تجوز في وصفه الولادةِ لتَوَحُّده ، فلا قسيمَ له ، ولا يجوز في نعته التبني أيضاً لِتَفَرُدِه وأنه لا شبيهَ له .

قوله : ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ : الغِنَى نَفْيُ الحاجة ، وشهوةُ المباشرةِ حاجة ، ويتعالى عنها سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 108 ﴾

(112/366)

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (69) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قدم أن قولهم كذب ، وبكتهم عليه مواجهة ، أتبعه بما يشير إلى أنهم أهل للإعراض في

سياق مهدد على الكذب ، فقال معرضاً عن خطابهم مؤكداً لأن اجتراءهم على ذلك دال على التكذيب بالمؤاخذة عليه : ﴿ قل ﴾ أي للذين ادعوا الولد لله وحرموا ما رزقهم من السائبة ونحوها ﴿ إن الذين يفترون ﴾ أي يتعمدون ﴿ على الله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ الكذب لا يفلحون ﴾ ثم بين عدم الفلاح بقوله : ﴿ متاع ﴾ أي لهم ، ونكره إشارة إلى قلته كما قال في الآية الأخرى ﴿ متاع قليل ﴾ وأكد ذلك بقوله : ﴿ في الدنيا ﴾ لأنها دار ارتحال ، وما كان إلى زوال وتلاش واضمحلال كان قليلاً وإن تباعد مدّه وتطاولت مُدَده وجل مَدَده ، وزاد على الحصر عَدده ؛ وبين حالهم بعد النقلة بقوله : ﴿ ثم ﴾ أي بعد ذلك الإملاء لهم وإن طال ﴿ إلينا ﴾ أي على ما لنا من العظمة لا إلى غيرنا ﴿ مرجعهم ﴾ بالموت فنذيقهم عذاباً شديداً لكنه دون عذاب الآخرة ﴿ ثم نذيقهم ﴾ يوم القيامة ﴿ العذاب الشديد بما ﴾ أي بسبب ما ﴿ كانوا ﴾ أي كوناً هو جبلة لهم ﴿ يكفرون ﴾ ووجب كسر " إن " بعد القول لأنه حكاية عما يستأنف الإخبار به كما فعل في لام الابتداء لذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 465 ﴾

(113/366)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين بالدليل القاهر أن إثبات الولد لله تعالى قول باطل ثم بين أنه ليس لهذا القائل دليل على صحة قوله ، فقد ظهر أن ذلك المذهب افتراء على الله ونسبه لما لا يليق به إليه ، فبين أن من هذا حاله فإنه لا يفلح ألبتة ألا ترى أنه تعالى قال في أول سورة المؤمنون : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] وقال في آخر هذه السورة : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكافرون ﴾ [المؤمنون : 117] .

واعلم أن قوله : ﴿ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ يدخل فيه هذه الصورة ولكنه لا يختص بهذه الصورة بل كل من قال في ذات الله تعالى وفي صفاته قولاً بغير علم وبغير حجة بينة كان داخلاً في هذا الوعيد ، ومعنى قوله : ﴿ لاَ يُفْلِحُ ﴾ قد ذكرناه في أول سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [البقرة : 5] وبالجملة فالفلاح عبارة عن الوصول إلى المقصود والمطلوب ، فمعنى أنه لا يفلح هو أنه لا ينجح في سعيه ولا يفوز بمطلوبه بل خاب وخسر ، ومن الناس من إذا فاز بشيء من المطالب العاجلة والمقاصد الخسيسة ، ظن أنه قد فاز بالمقصد الأقصى ، والله سبحانه أزال هذا الخيال بأن قال : إن ذلك المقصود الخسيس متاع قليل في الدنيا ، ثم لا بد من الموت ، وعند الموت لا بد من الرجوع

إلى الله وعند هذا الرجوع لا بد من أن يذيقه العذاب الشديد بسبب ذلك الكفر المتقدم ، وهذا كلام في غاية الانتظام ونهاية الحسن والجزالة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 108 ﴾

(114/366)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ قل إن الذين يفترون على الله ﴾ الآية

هذا توعد لهم بأنهم لا يظفرون ببغية ولا يبقون في نعمة إذ هذه حال من يصير إلى العذاب وإن نعم في دنياه يسيراً ، وقوله : ﴿ متاع ﴾ مرفوع على خبر ابتداء ، أي ذلك متاع أو هو متاع أو على الابتداء بتقدير : لهم متاع ، وقوله ﴿ ثم إلينا مرجعهم ﴾ إلى آخر الآية توعد بحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ ﴾ أي يختلقون .

﴿ عَلَى الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ أي لا يفوزون ولا يأمنون ؛ وتم الكلام .

﴿ مَتَاعٌ فِي الدنيا ﴾ أي ذلك متاع ، أو هو متاع في الدنيا ؛ قاله الكسائي .

وقال الأخفش : لهم متاع في الدنيا .

قال أبو إسحاق : ويجوز النصب في غير القرآن على معنى يتمتعون متاعاً .

﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أي رجوعهم .

﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العذاب الشديد ﴾ أي الغليظ .

﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ أي بكفرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(115/366)

وقال الخازن :

﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب ﴾

أي : قل يا محمد لهؤلاء الذين يختلقون على الله الكذب فيقولون على الله الباطل ويزعمون أن له ولداً ﴿ لا يفلحون ﴾ يعني لا يسعدون وإن اغتروا بطول السلام والبقاء في النعمة . والمعنى أن قائل هذا القول لا ينجح في سعيه ولا يفوز بمطلوبه بل خاب وخسر قال الزجاج هذا وقف قام يعني قوله لا يفلحون ثم ابتدأ فقال تعالى : ﴿ متاع في الدنيا ﴾ وفيه إضمار تقديره لهم متاع في الدنيا يتمتعون به مدة أعمارهم وانقضاء آجالهم في الدنيا وهي أيام يسيرة بالنسبة إلى طول مقامهم في العذاب وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثم إلينا مرجعهم

﴿ يعني بعد الموت ﴾ ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ يعني ذلك العذاب بسب بما كانوا يجحدون في الدنيا من نعمة الله عليهم ويصفونه بما لا يليق بجلاله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(116/366)

وقال أبو حيان :

﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾

والذين يفترون على الله الكذب عام يشمل من نسب إلى الله الولد ، ومن قال في الله وفي صفاته قولاً بغير علم وهو داخل في الوعيد بانتفاء الإفلاح ، ولما نفى عنهم الفلاح وكان لهم حظ من إفلاحهم في الدنيا لحظوظ فيها من مال وجاه وغير ذلك قيل : متاع قليل جواب على تقدير سؤال ، أن قائلاً قال : كيف لا يفلحون وهم في الدنيا مفلحون بأنواع مما يتلذذون به ، فقيل : ذلك متاع في الدنيا ، أو لهم متاع في الدنيا زائل لا بقاء له ، ثم يلقون الشقاء المؤبد في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(117/366)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ ﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبين لهم سوءَ مغبّتِهم ووخامةَ عاقبتِهم ﴿ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب ﴾ أي في كل أمر فيدخل ما نحن بصدده من الافتراء بنسبة الولدِ والشريكِ إليه سبحانه دخولاً أولياً ﴿ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ أي لا ينجُون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب أصلاً وتخصيصُ عدم النجاةِ والفوز بما يندرج في ذلك من عدم النجاةِ من النار وعدمِ الفوز بالجنة لا يناسب مقامَ المبالغة في الزجر عن الافتراء عليه سبحانه ﴿ متاع فِى الدنيا ﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيق لبيان أن ما يتراءى فيهم بحسب الظاهرِ من نيل المطالبِ والفوزِ بالحظوظ الدنيويةِ على الإطلاق أو في ضمن افترائِهم بمعزل من أن يكون من جنس الفلاحِ كأنه قيل : كيف لا يُفلحون وهم في غِبطة ونعيم ؟ فقيل : هو متاعٌ يسير في الدنيا وليس بفوز بالمطلوب ، ثم أشير إلى انتفاء النجاةِ عن المكروه أيضاً بقوله عز وعلا : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أي بالموت . ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العذاب الشديد بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ فيبقَوْن في الشقاء المؤبدِ بسبب كفرهم المستمرّ أو بكفرهم في الدنيا فأين هم من الفلاح ، وقيل : المبتدأُ المحذوف حياتُهم أو تقلُّبهم ، وقد قيل : إنه افتراؤُهم ، ولا يخفى أن المتاعَ إنما يطلق على ما يكون مطبوعاً عند النفسِ مرغوباً فيه في نفسه يُتمتع ويُنتفع به ، وإنما عدمُ الاعتدادِ به لسرعة زوالِه ، ونفسُ الافتراء عليه سبحانه أقبحُ القبائح عند

النفس فضلاً عن أن يكون مطبوعاً عندها وعده كذلك باعتبار إجراءِ حكمِ ما يؤدي إليه من رياستهم عليه مما لا وجهَ له ، فالوجهُ ما ذكر أولاً ، وليس ببعيد ما قيل : أن المحذوفَ هو الخبرُ أي لهم متاعُ والآية إما مسوقةٌ من جهة الله تعالى لتحقيق عدم إفلاحِهم غيرُ داخلةٍ في الكلام المأمورِ به كما يقتضيه ظاهرُ قولِه تعالى : ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ﴾ وإما داخلةٌ فيه على أن النبي عليه الصلاة والسلام مأمورٌ بنقله وحكايتِه عنه عز وجل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(118/366)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى سيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم ليبين سوء مغبتهم ووخامة عاقبتهم وفي ذلك إنذار لهم عن الاستمرار على ما هم فيه ولغيرهم عن الوقوع في مثله ﴿ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب ﴾ في كل أمر ويدخل الافتراء بنسبة الولد والشريك إليه تعالى دخولاً أولياً وهو أولى من الاقتصار على ما الكلام فيه ، وحينئذٍ فالمراد بالموصول ما يعم أولئك المخاطبين وغيرهم ، أي إن من تكون هذه صفتهم كائناً ما

كانوا ﴿ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ لا ينجون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب أصلاً ويندرج في ذلك عدم النجارة من النار وعدم الفوز بالجنة والاقتصار عليه في مقام المبالغة في الزجر عن الافتراء عليه سبحانه دون التعميم في المناسبة .

﴿ متاع فِى الدنيا ﴾

(119/366)

خبر مبتدأ محذوف أي هو أو ذلك متاع ، والتنوين للتحقير والتقليل ، والظرف متعلق بما عنده أو بمحذوف وقع نعتاً له ، والجملة كلام مستأنف سيق جواباً لسؤال مقدر عما يتراءى فيهم بحسب الظاهر من نيل المطالب والفوز بالحظوظ الدنيوية على الإطلاق أو في ضمن افترائهم وبياناً لأن ذلك بمعزل من أن يكون من جنس الفلاح كأنه قيل : كيف لا يفلحون وهم في غبطة ونعيم ؟ فقيل : هو أو ذلك متاع حقير قليل في الدنيا وليس بفوز بالمطلوب ، ثم أشير إلى انتفاء النجاة عن المكروه أيضاً بقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أي إلى حكمنا رجوعهم بالموت فيلقون الشقاء المؤبد ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العذاب الشديد بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ أي بسبب كفرهم المستمر أو بكفرهم في الدنيا فأين هم من الفلاح وما ذكرنا من كون متاع خبر مبتدأ محذوف هو الذي ذهب إليه غير واحد من المعربين ، غير أن

أبا البقاء وآخرين منهم قدروا المبتدأ حياتهم أو تقلبهم أو افتراؤهم ، واعترض على تقدير الأخير بأن المتاع إنما يطلق على ما يكون مطبوعاً عند النفس مرغوباً فيه في نفسه يتمتع به وينتفع وإنما عدم الاعتداد به لسرعة زواله ، ونفس الافتراء عليه سبحانه أقبح القبائح عند النفس فضلاً عن أن يكون مطبوعاً عندها .

(120/366)

وأجيب بأن إطلاق المتاع على ذلك باعتبار أنه مطبوع عند نفوسهم الخبيثة وفيه انتفاع لهم به حسبما يرونه انتفاعاً وإن كان من أقبح القبائح وغير منتفع به في نفس الأمر ، ولا يخفى أن الوجه الأول مع هذا أوجه ، وقيل : إن المذكور مبتدأ محذوف الخبر أي لهم متاع الخ وليس ببعيد ، والآية إما مسوقة من جهته سبحانه لتحقيق عدم إفلاحهم غير داخلة في الكلام المأمور به وهو الذي يتقضيه ظاهر قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ﴾ وإما داخلة فيه على أن النبي صلى الله عليه وسلم مأمور بنقله وحكايته عنه تعالى شأنه وله نظائر في الكتاب العزيز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(121/366)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) .

مِنْ عَابِدٍ وَمَعْبُودٍ فَهُوَ رَبُّهُمْ وَمَالِكُهُمْ وَهُمْ عَبِيدُهُ الْمَرْبُوبُونَ الْمَمْلُوكُونَ لَهُ (وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ) لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَمُلْكِهِ ، أَيْ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللهِ بِدُعَائِهِمْ فِي الشَّدَائِدِ ، وَاسْتِغَاثَتِهِمْ فِي النَّوَازِلِ ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِمْ بِالنُّذُورِ وَالْقَرَابِينِ وَالْوَسَائِلِ لَا يَتَّبِعُونَ شُرَكَاءَ لَهُ فِي تَدْبِيرِ أُمُورِ عِبَادِهِ يَنْفَعُونَهُمْ أَوْ يَكْشِفُونَ الضُّرَّ عَنْهُمْ ، إِذْ لَا شُرَكَاءَ لَهُ (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) أَيْ مَا يَتَّبِعُونَ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا ظَنَّهُمْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ أَوْلِيَاءَ لِلَّهِ وَشُفَعَاءَ عِنْدَهُ ، فَهُمْ يَتَوَسَّلُونَ بِهِمْ وَبِتَمَاثِيلِهِمْ إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُمْ يَقِيسُونَهُ عَلَى مُلُوكِهِمُ الظَّالِمِينَ الْمُتَكَبِّرِينَ ، الَّذِينَ لَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ

(122/366)

مِنْ رَعَايَاهُمْ إِلَّا بِوَسَائِلِ حُجَّابِهِ وَوُسَائِطِهِ وَوُزَرَائِهِ (وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) أَيْ وَمَا هُمْ فِي اتِّبَاعِ هَذَا الظَّنِّ الَّذِي لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ، إِلَّا يَخْرُصُونَ خَرْصًا ، أَيْ يَحْزِرُونَ حَزْرًا ، أَوْ يَكْذِبُونَ كَذِبًا ، أَصْلُ الْخَرْصِ : الْحَزْرُ وَالتَّقْدِيرُ لِلشَّيْءِ الَّذِي لَا يَجْرِي عَلَى قِيَاسٍ مِنْ

وَزْنٍ أَوْ كَيْلٍ أَوْ ذِرَاعٍ ، بَلْ هُوَ كَخَرْصِ الثَّمَرِ عَلَى الشَّجَرِ وَالْحَبِّ فِي الزَّرْعِ ، وَلِكَثْرَةِ الْخَطَأِ فِيهِ أُطْلِقَ عَلَى لَازِمِهِ الْغَالِبِ وَهُوَ الْكَذِبُ ، فَالظَّنُّ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ يَكُونُ مِنْ أَضْعَفِ الظَّنِّ وَأَبْعَدِهِ عَنِ الْحَقِّ ، مِثَالُهُ مَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا مِنْ قِيَاسِ الرَّبِّ فِي تَدْبِيرِ أُمُورِ عِبَادِهِ عَلَى الْمُلُوكِ ، وَهَذَا قِيَاسٌ شَيْطَانِيٌّ سَمِعْتُهُ مِنْ جَمِيعِ طَبَقَاتِ الْجَاهِلِينَ لِعَقَائِدِ الْإِسْلَامِ ، وَتَوْحِيدِ الرَّحْمَنِ ، حَتَّى مَنْ يُلَقَّبُونَ بِالْعُلَمَاءِ وَالْبَاشَوَاتِ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُمْ فِي وَسَائِلِهِمُ الَّذِينَ يُسَمُّونَهُمُ الْأَوْلِيَاءَ : إِنَّ اللهَ يُحِبُّهُمْ ، وَكُلُّ مَنْ يُحِبُّ أَحَدًا فَإِنَّهُ يَقْبَلُ وَسَاطَتَهُ

(123/366)

وَشَفَاعَتَهُ ، فَيَقِيسُونَ تَأْثِيرَ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ عِنْدَهُ تَعَالَى ، عَلَى تَأْثِيرِ أَصْدِقَاءِ الْمُلُوكِ وَالْوُجَهَاءِ وَمَعْشُوقِيهِمْ فِي قَبُولِهِمْ مِنْهُمْ جَمِيعَ مَا يَطْلُبُونَهُ ، وَيَجْهَلُونَ أَنَّ أَفْعَالَ اللهِ تَعَالَى إِنَّمَا تَجْرِي بِمُقْتَضَى مَشِيئَتِهِ الْأَزَلِيَّةِ عَلَى وَفْقِ عِلْمِهِ الذَّاتِيِّ الْمُحِيطِ وَحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ الْعَادِلَةِ ، وَأَنَّ صِفَاتِهِ تَعَالَى كَامِلَةٌ أَزَلِيَّةٌ لَا تُؤَثِّرُ فِيهَا الْحَوَادِثُ وَأَنَّ جَمِيعَ أَوْلِيَائِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَمَلَائِكَتِهِ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لَهُ : (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) (17 : 57) أَيْ إِنَّ أَقْرَبَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ وَيَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ تَعَالَى بِهِمْ كَالْمَسِيحِ وَالْمَلَائِكَةِ وَمَنْ دُونَهُمْ هُمْ يَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ

رَاجِينَ خَائِفِينَ ، لَا كَأَعْوَانِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ لَا يَقُومُ أَمْرُ مَلِكِهِمْ بِدُونِهِمْ ، وَمَعْشُوقِيهِمُ الَّذِينَ لَا يَتِمُّ تَمَتُّعُهُمُ الشَّهْوَانِيُّ إِلَّا بِهِمْ .

(124/366)

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) هَذَا اسْتِدْلَالٌ عَلَى مَضْمُونِ مَا قَبْلَهُ مِنْ نَفْيِ وُجُودِ شُرَكَاءَ لَهُ فِي الْخَلْقِ وَالتَّقْدِيرِ ، وَلَا بِالشَّفَاعَةِ عِنْدَهُ فِي التَّصَرُّفِ وَالتَّدْبِيرِ ؛ أَيْ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْوَقْتَ قَسَمَيْنِ بِمُقْتَضَى عِلْمِهِ وَمَشِيئَتِهِ بِدُونِ مُسَاعِدٍ وَلَا شَفِيعٍ ، بَلْ بِمَحْضِ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ وَالرَّحْمَةِ الشَّامِلَةِ : أَحَدُهُمَا اللَّيْلُ جَعَلَهُ مُظْلِمًا لِأَجْلِ أَنْ تَسْكُنُوا فِيهِ بَعْدَ طُولِ الْحَرَكَةِ وَالتَّقَلُّبِ فِي الْأَرْضِ ، تَسْتَرِيحُونَ مِنَ التَّعَبِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ ، وَثَانِيهِمَا النَّهَارُ جَعَلَهُ مُضِيئًا ذَا إِبْصَارٍ لِتَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ، وَتَقُومُوا بِجَمِيعِ أَعْمَالِ الْعُمْرَانِ وَالْكَسْبِ ، وَالشُّكْرِ لِلرَّبِّ ، فَالْمُبْصِرُ هُنَا مُعْطِي الْإِبْصَارِ سَبَبَهُ حِسِّيًّا كَانَ أَوْ مَعْنَوِيًّا ، فَالْأَوَّلُ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ) (17 : 12) الْآيَةَ . وَالثَّانِي قَوْلُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَيْضًا : (وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً) (17 : 59) أَيْ آيَةً مُفِيدَةً لِلْبَصِيرَةِ وَالْحُجَّةِ عَلَى صِدْقِ رَسُولِهِمْ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ النَّمْلِ : (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) (27 :

13) .

وَقَالَ قُطْرُبٌ : تَقُولُ الْعَرَبُ : أَظْلَمَ اللَّيْلُ وَأَبْصَرَ النَّهَارُ وَأَضَاءَ بِمَعْنَى صَارَ ذَا ظُلْمَةٍ وَذَا إِبْصَارٍ

(125/366)

وَذَا ضِيَاءٍ اه . وَقَدْ تَكَرَّرَ التَّذْكِيرُ فِي التَّنْزِيلِ بِآيَاتِ اللهِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنْ خَلْقِهِمَا وَتَقْدِيرِهِمَا وَمَنَافِعِ النَّاسِ فِيهِمَا ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ احْتِبَاكٌ وَهُوَ أَنَّهُ حَذَفَ مِنْ كُلٍّ مِنْ آيَتَيِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مَا أَثْبَتَ مُقَابِلَهُ فِي الْأُخْرَى وَالْعَكْسُ ، وَفِي قَوْلِهِ

(126/366)

تَعَالَى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) مِثْلُهُ ، أَيْ إِنَّ فِيمَا ذُكِرَ لَدَلَائِلَ بَيِّنَاتٍ ، وَآيَاتٍ أَيَّ آيَاتٍ ، عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ مَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ مِنَ التَّذْكِيرِ بِحِكَمِهِ تَعَالَى وَنِعَمِهِ فِيهَا سَمَاعَ فِقْهٍ وَتَدَبُّرٍ ، وَيُبْصِرُونَ مَا فِي الْكَائِنَاتِ مِنَ السُّنَنِ الْحَكِيمَةِ إِبْصَارَ تَأَمُّلٍ ، ذَكَرَ الْآيَاتِ السَّمْعِيَّةَ الْمُنَاسِبَةَ لِلَّيْلِ الَّذِي قَدَّمَ ذِكْرَهُ ، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى الْآيَاتِ الْبَصَرِيَّةِ

الْمُنَاسِبَةِ لِلنَّهَارِ وَتَذْكِيرٌ بِهَا ، وَهُوَ أَبْلَغُ الْإِيجَازِ ، وَقَدْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي مَقَامِ الْإِطْنَابِ مِنْ سُورَةِ الْقَصَصِ بِقَوْلِهِ : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (28 : 71 - 73) وَأَحْسِنْ بِذَلِكَ الْإِطْنَابِ تَفْسِيرًا لِمَا هُنَا مِنَ الْإِيجَازِ ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا مَوْقِعُهُ مِنْ بَلَاغَةِ الْإِعْجَازِ .

(127/366)

(قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) .

هَذِهِ الْآيَاتُ حِكَايَةٌ لِنَوْعٍ آخَرَ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ تَعَالَى قَرِيبٍ مِنْ كُفْرِ اتِّخَاذِ الشُّرَكَاءِ لَهُ وَهُوَ زَعْمُهُمْ أَنَّهُ اتَّخَذَ وَلَدًا ، وَقَدِ اشْتَرَكَ فِيهِ عُبَّادُ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ وَبَعْضُ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَحَكَاهُ عَنْهُمْ مَفْصُولًا لَا لِأَنَّهُ نَوْعٌ مُسْتَقِلٌّ وَتَعَقَّبَهُ بِالْإِبْطَالِ .

(قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) فَزَعَمَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ ، وَقَالَتِ

النَّصَارَى : الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ، وَقَالَ بَعْضُ الْيَهُودِ : عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ، وَتَقَدَّمَ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ (وَيَرَى بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ أَنَّ عُزَيْرًا هُوَ أُوزِيرُوسُ أَحَدُ آلِهَةِ قُدَمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ) (سُبْحَانَهُ) كَلِمَةُ التَّسْبِيحِ مَعْنَاهَا التَّنْزِيهُ

(128/366)

وَالتَّقْدِيسُ ، أَيْ تَسْبِيحًا لَهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ ، وَتُقَالُ فِي مَقَامِ التَّعَجُّبِ ، وَيَصِحُّ هُنَا جَمْعُ الْمَعْنَيَيْنِ كِلَيْهِمَا ، وَقَفَّى عَلَى هَذَا التَّنْزِيهِ وَالتَّعَجُّبِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِهِمْ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ فَقَالَ : (هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) أَيْ هُوَ الْغَنِيُّ بِذَاتِهِ عَنِ الْوَلَدِ ، لِأَنَّ كُلَّ مَا فِي الْوُجُودِ مِنَ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ مِلْكٌ وَعَبِيدٌ لَهُ لَا يَحْتَاجُ مِنْهَا إِلَى شَيْءٍ ، وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ ، وَلَا يُشْبِهُهُ أَوْ يُجَانِسُهُ مِنْهَا شَيْءٌ ، فَالْإِنْسَانُ يَحْتَاجُ إِلَى الْوَلَدِ لِأُمُورٍ مِنْهَا بَقَاءُ ذِكْرِهِ بِهِ وَبِذُرِّيَّتِهِ ، وَمِنْهَا أَنَّهُ قُوَّةٌ وَعُصْبَةٌ لَهُ يَعْتَزُّ بِهِ هُوَ وَعَشِيرَتُهُ ، وَمِنْهَا أَنَّ وُجُودَهُ زِينَةٌ لَهُ فِي دَارِهِ يَلْهُو بِهِ فِي صِغَرِهِ ، وَيُفَاخِرُ بِهِ أَقْرَانَهُ فِي كِبَرِهِ وَمِنْهَا أَنَّهُ قَدْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِقَضَاءِ مَصَالِحِهِ وَتَنْمِيَةِ ثَرْوَتِهِ ، وَقَدْ يَحْتَاجُ إِلَى رِفْدِهِ وَبِرِّهِ ، عِنْدَ عَجْزِهِ أَوْ فَقْرِهِ ، وَاللهُ تَعَالَى لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمَنَافِعِ لِأَنَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ بِذَاتِهِ لِذَاتِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا (إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا) (إِنْ) هُنَا نَافِيَةٌ وَ (مِنْ) مُؤَكِّدَةٌ

لِهَذَا النَّفْيِ مُفِيدَةٌ لِعُمُومِهِ ، وَالسُّلْطَانُ : الْحُجَّةُ وَالْبُرْهَانُ ، وَالْجُمْلَةُ تَجْهِيلٌ لَهُمْ وَرَدٌّ عَلَيْهِمْ ، أَيْ مَا عِنْدَكُمْ أَيُّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الدَّلِيلِ

(129/366)

وَالْبُرْهَانِ بِهَذَا الْقَوْلِ الَّذِي تَقُولُونَهُ مِنْ غَيْرِ عَقْلٍ وَعِلْمٍ وَلَا وَحْيٍ إلَهِيٍّ ، وَتُعَارِضُونَ بِهِ هَذَا الْبُرْهَانَ الْعَقْلِيَّ ، وَهُوَ تَنْزِيهُ اللَّهِ وَغِنَاهُ الْمُطْلَقُ عَنِ الْوَلَدِ وَغَيْرِهِ ، وَكَوْنُهُ الْمَالِكَ لِكُلِّ شَيْءٍ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ : (أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) هَذَا اسْتِفْهَامُ تَبْكِيتٍ وَتَوْبِيخٍ عَلَى أَقْبَحِ الْجَهْلِ وَالْكُفْرِ ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ مَجِيءِ مَا يَنْقُضُهُ مِنَ الْعِلْمِ الْبُرْهَانِيِّ ، وَالْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ ، قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ وَغَيْرُهُ : وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كُلَّ قَوْلٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ فَهُوَ جَهَالَةٌ ، وَأَنَّ الْعَقَائِدَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ قَاطِعٍ ، وَأَنَّ التَّقْلِيدَ فِيهَا غَيْرُ سَائِغٍ اهـ . وَقَدْ تَقَدَّمَ حِكَايَةُ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ عَنِ الْكُفَّارِ عَامَّةً وَعَنِ النَّصَارَى خَاصَّةً فِي سُورِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَالنِّسَاءِ وَالْمَائِدَةِ وَالْأَنْعَامِ ، وَسَيَأْتِي فِي سُوَرٍ أُخْرَى مَعَ إبْطَالِهِ وَتَفْنِيدِهِ بِالدَّلَائِلِ وَوُجُوهِ

الْحُجَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَسَالِيبِ ، أَوِ التَّقْرِيعِ وَالتَّأْنِيبِ ، وَالْإِنْذَارِ وَالْوَعِيدِ .

(130/366)

(قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ) بِاتِّخَاذِهِمُ الشُّرَكَاءَ لَهُ ، أَوْ بِزَعْمِهِمُ اتِّخَاذَهُ وَلَدًا لِنَفْسِهِ ، أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ وَغَيْرِهِ مِنْ مَسَائِلِ التَّشْرِيعِ ، أَوْ بِدَعْوَى وِلَايَتِهِمْ وَإِطْلَاعِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى أَسْرَارِ خَلْقِهِ وَتَصْرِيفِهِ لَهُمْ فِي مُلْكِهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَعْضُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ 17 ، 59 ، 60 (لَا يُفْلِحُونَ) أَيْ لَا يَفُوزُونَ بِمَا يُؤَمِّلُونَ مِنَ النَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ وَالتَّمَتُّعِ بِنَعِيمِهَا بِشَفَاعَةِ الْوَلَدِ أَوِ الشُّرَكَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ لَهُ تَعَالَى أَوْ فِدَائِهِمْ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ .

(مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا) هَذَا جَوَابٌ لِسُؤَالٍ مُقَدَّرٍ قَدْ يَرُدُّ عَلَى نَفْيِ فَلَاحِهِمْ بِالْإِطْلَاقِ الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ مَنَافِعُ الدُّنْيَا ، وَالْمُفْتَرُونَ عَلَى اللهِ بِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الِافْتِرَاءِ الْمَقْبُولَةِ عِنْدَ الْجَاهِلِينَ ،

(131/366)

لَهُمْ كَثِيرٌ مِنَ الْمَنَافِعِ الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينِ ، وَأَكْثَرُ الْبَشَرِ لَا يَزَالُونَ جَاهِلِينَ يَخْضَعُونَ لِهَؤُلَاءِ الزُّعَمَاءِ الْمُلَبِّسِينَ ، فَهُوَ يَقُولُ : هَذَا مَتَاعٌ قَلِيلٌ - أَوْ لَهُمْ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا حَقِيرٌ يَتَلَهَّوْنَ بِهِ فِي حَيَاةٍ قَصِيرَةٍ ، فَأَمَّا قِلَّتُهُ وَحَقَارَتُهُ فَيَدُلُّ عَلَيْهَا تَنْكِيرُهُ مَعَ الْقَرِينَةِ ، وَأَمَّا قِصَرُ الْحَيَاةِ الَّتِي يَكُونُ فِي بَعْضِهَا فَمَعْلُومٌ بِالِاخْتِيَارِ ، فَمَهْمَا يَبْلُغْ هَذَا الْمَتَاعُ مِنْ كَثْرَةِ الْمَالِ وَعَظَمَةِ الْجَاهِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ، فَلَا يَكُونُ إِلَّا قَلِيلًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا عِنْدَ اللهِ فِي الْآخِرَةِ

لِلصَّادِقِينَ الْمُتَّقِينَ كَمَا صَرَّحَتْ بِهِ الْآيَاتُ الْكَثِيرَةُ ، وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا لَهُمْ مِنْ ضِدِّ ذَلِكَ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي قَوْلِهِ : (ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ) بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَمَا فِيهِ مِنْ أَهْوَالِ الْحَشْرِ وَالْحِسَابِ وَالْعَرْضِ (ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) بِآيَاتِنَا وَنِعَمِنَا ، وَبِالِافْتِرَاءِ عَلَيْنَا ، وَتَكْذِيبِ رُسُلِنَا أَوِ الْكَذِبِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ تَقُومَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ فِي الْحِسَابِ بِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَهُ بِظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّنَا لَا نَظْلِمُهُمْ شَيْئًا ، وَتَقَدَّمَ ذِكْرُ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ تَعَالَى وَمَا يَلِيهِ مِنَ الْجَزَاءِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا .

(132/366)

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ) .

هَذَا سِيَاقٌ جَدِيدٌ مُتَّصِلٌ بِمَا سَبَقَ مِنْ مَقَاصِدِ هَذِهِ السُّورَةِ أَتَمَّ الِاتِّصَالِ ، بِتَفْصِيلِهِ لِبَعْضِ مَا فِيهَا مِنْ إِجْمَالٍ ، وَهُوَ الِاحْتِجَاجُ عَلَى مُشْرِكِي مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا وَسَائِرِ مَنْ تَبْلُغُهُمُ الدَّعْوَةُ

مِنَ الْمُكَذِّبِينَ ، بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَخْذُلُهُمْ وَيَنْصُرُ رَسُولَهُ عَلَيْهِمْ كَمَا نَصَرَ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ عَلَى أَقْوَامِهِمُ الْمُجْرِمِينَ ، فَأَهْلَكَهُمْ وَأَنْجَى الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَائِلِهَا قَوْلُهُ : (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا) (13)

(133/366)

إِلَى آخِرِ الْآيَةِ 14 ثُمَّ قَالَ فِي الرَّدِّ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ بِمَا وَعَدَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ (كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) (39) ثُمَّ قَالَ (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (47) جَاءَ هَذَا فِي سِيَاقِ إِقَامَةِ الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي دَعْوَى الْوَحْيِ ، وَكَوْنِ الْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَا مِنْ عِنْدِهِ وَرَأْيِهِ وَكَلَامِهِ ، وَالْحُجَجِ عَلَى مَضْمُونِ الدَّعْوَى مِنَ التَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَالتَّفَنُّنِ فِيهَا ، وَالتَّكْرَارِ الْبَلِيغِ لِمَقَاصِدِهَا ، وَإِنْذَارِ أُولَئِكَ الْمُكَذِّبِينَ بِهَا ، فَنَاسَبَ أَنْ يُفَصِّلَ لَهُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ الْإِجْمَالِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، فَجَاءَ بِهِ مَعْطُوفًا لِأَنَّهُ مُرْتَبِطٌ بِهِ مُتَمِّمٌ لَهُ بِخِلَافِ سَرْدِ قَصَصِ الرُّسُلِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ حَيْثُ بَدَأَهُ بِقَوْلِهِ : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ) (7 : 59) لِأَنَّ هَذِهِ الْقَصَصَ أُورِدَتْ هُنَاكَ مُسْتَقِلَّةً ،

لَا تَفْسِيرًا ، وَلَا تَفْصِيلًا لِمُجْمَلٍ قَبْلَهَا ، وَأَمَّا مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا مُبَاشَرَةً بِكَوْنِهَا مِنْ

جِنْسِ مَوْضُوعِهَا الْعَامِّ ، فَلَا تَدُلُّ عَلَى هَذِهِ الْخُصُوصِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي بِهَا كَانَتِ الْبَلَاغَةُ فَلْسَفَةً عَقْلِيَّةً نَفْسِيَّةً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 370. 375 ﴾

(134/366)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾

استئناف افتتح بأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول لتنبيه السامعين إلى وعي ما يرد بعد الأمر بالقول بأنه أمر مهم بحيث يطلب تبليغه ، وذلك أن المَقُول قضية عامة يحصل منها وعيد للذين قالوا : اتخذ الله ولداً ، على مقالتهم تلك ، وعلى أمثالها كقولهم : ﴿ ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرَّم على أزواجنا ﴾ [الأنعام : 139] وقولهم : ما كان لآلهتهم من الحَرث والأنعام لا يصل إلى الله وما كان لله من ذلك يصل إلى آلهتهم ، وقولهم : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ [الإسراء : 90] وأمثال ذلك . فذلك كله افتراء على الله ، لأنهم يقولونه على أنه دين ، وماهية الدين أنه وضع إلهي فهو منسوب إليه ، ويحصل من تلك القضية وعيد لأمثال المشركين من كل من يفتري على الله ما لم يقله ، فالمقول لهم ابتداءاً هم المشركون .

والفلاح : حصول ما قصده العامل من عمله بدون انتقاض ولا عاقبة سوء .

وتقدم في طالع سورة البقرة (5) .

فنفي الفلاح هنا نفي لحصول مقصودهم من الكذب وتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم

وجملة : ﴿ متاعٌ في الدنيا ﴾ استئناف بياني ، لأن القضاء عليه بعدم الفلاح يتوجه عليه أن يسأل سائل كيف نراهم في عزة وقدرة على أذى المسلمين وصد الناس عن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فيجاب السائل بأن ذلك تمتيع في الدنيا لا يَعبأ به ، وإنما عدم الفلاح مظهره الآخرة ، ف ﴿ متاع ﴾ خبر مبتدأ محذوف يعلم من الجملة السابقة ، أي أمرهم متاع .

والمتاع : المنفعة القليلة في الدنيا إذ يقيمون بكذبهم سيادتهم وعزتهم بين قومهم ثم يزول ذلك .

ومادة (متاع) مؤذنة بأنه غير دائم كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ في أوائل سورة الأعراف (24 .

)

وتنكيره مؤذن بتقليله ، وتقييده بأنه في الدنيا مؤكد للزوال وللتقليل ، و (ثم) من قوله : ثم إلينا مرجعهم ﴾ للتراخي الرتبي لأن مضمونه هو محقة أنهم لا يفلحون فهو أهم مرتبة من مضمون لا يفلحون .

والمرجع : مصدر ميمي بمعنى الرجوع .

ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى وقت نفاذ حكمه المباشر فيهم .

وتقديم ﴿ إلينا ﴾ على متعلَّقه وهو المرجع للاهتمام بالتذكير به واستحضاره كقوله : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة إلى قوله ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه ﴾ [النور : 39] ويجوز أن يكون المرجع كناية عن الموت .

وجملة : ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد ﴾ بيان لجملة : ﴿ ثم إلينا مرجعهم ﴾ .

وحرف (ثم) هذا مؤكد لنظيره الذي في الجملة المبينة على أن المراد بالمرجع الحصول في نفاذ حكم الله .

والجمل الأربع هي من المقول المأمور به النبي صلى الله عليه وسلم تبليغاً عن الله تعالى .

وإذاقة العذاب إيصاله إلى الإحساس ، أطلق عليه الإذاقة لتشبيهه بإحساس الذوق في التمكن من أقوى أعضاء الجسم حاسية لمس وهو اللسان .

والباء في ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾ للتعليل .

وقوله : ﴿ كانوا يكفرون ﴾ يؤذن بتكرر ذلك منهم وتجدده بأنواع الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(136/366)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾

والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن الإيمان وثمرته ونهايته يأتي بالفَلاَح كنتيجة لذلك الإيمان ، فهو سبحانه القائل :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس : 9] .

وهو سبحانه القائل :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] .

ويقول أيضاً :

﴿ أولئك هُمُ المفلحون ﴾ [الأعراف : 157] .

وكلها من مادة " الفلاح " وهي مأخوذة من الأمر الحسي المتصل بحياة الكائن الحي ، فمقومات وجود الكائن الحي : نَفَس ، وماء ، وطعام ، والتنفس يأتي من الهواء الذي يحيط

بالأرض ، والماء ينزل من السماء أو يُستنبط مما تسرب في باطن الأرض . والطعام يأتي من الأرض ، وكل ما أصله من الأرض يُستخرج بالفلاحة .

لذلك نقول : إن الفلاَحة هي السبب الاستبقائي للحياة ، فكما يُفْلِح الإنسان الأرض ، ويشقها ويبذر فيها البذور ، ثم يرويها ، ثم تنضج وتخرج الثمرة ، ويقال : أفلح ، أي : أنتجت زراعته نتاجاً طيباً .

وشاء الحق سبحانه أن يمسِّي الحصيلة الإيمانية الطيبة بالفلاح .

وبيَّن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الدنيا مزرعة الآخرة ، فإن كنت تريد ثمرة فابذل الجهد .

وإياك والظن أن الدين حينما يأخذ منك شيئاً في الدنيا أنه يُنْقِص ما عندك ، لا ، بل هو يُنمِّي لك ما عندك .

والمثل الذي أضربه دائماً ولله المثل الأعلى نجد الفَلاَّح حين يزرع فداناً بالقمح ، فهو يأخذ من مخزنه إردباً ؛ ليستخدمه كبذور في الأرض ، ولو كانت امرأته حمقاء لا تعرف أصول الزراعة ستقول له : " أنت أخذت من القمح ، وكيف تترك عيالك وأنت تنقصهم من قوتهم ؟ "

هذه المرأة لا تعلم أنه أخذ إردبَّ القمح المُخَزَّن ؛ ليعود به بعد الحصاد عشرة أو خمسة عشر إردّباً من القمح .

كذلك مطلوب الله سبحانه في الدنيا قد يبدو وكأنه ينقصك أشياء ، لكنه يعطيك ثمار الآخرة ويزيدها .

(137/366)

إذن : فالفلاح مادة مأخوذة من فلح الأرض وشقها وزرعها لتأخذ الثمرة .

وكما أنك تأخذ حظك من الثمار على قدر حظك من التعب ومن العمل ، فذلك أمر الآخرة وأمر الدنيا .

ومثال ذلك : الفلاح الذي يحرث الأرض ، ويحمل للأرض السماد على المطية ، ثم يستيقظ مبكراً في مواعد الري ، تجد هذا الفلاح في حالة من الانشراح والفرح في يوم الحصاد ، وأمره يختلف عمن يهمل الأرض ويقضي الوقت على المقهى ، ويسهر الليل أمام التلفزيون ، ويأتي يوم الحصاد ليحزن على محصوله الذي لم يحسن زراعته .

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ [يونس : 69] .

أي : هؤلاء الذي يقولون عن الله تعالى أو في الله تعالى بغير علم من الله ، هم الذين لا يفلحون .

وأوضحت من قبل أن كل ما يتعلق بالله تعالى لا يُعْلَم عنه إلا عن طريق الله . لكن ما الذي يحملهم على الافتراء ؟

نعم ، إن كل حركة في الحياة لا بد أن يكون الدافع إليها نفعاً ، وتختلف النظرة إلى النفع وما يترتب عليه ، فالطالب الكسول المتسكع في الشوارع ، الرافض للتعلم ، نجده راسباً غير موفق في مستقبله ، أما التلميذ الحريص على علومه ، فهو من يحصل على المكانة اللائقة به في المجتمع ، والتلميذ الأول كان محدود الأفق ولم ير امتداد النفع وضخامته ، بل قصر النفع على لذة عاجلة مُضحّياً بخيرٍ آجلٍ .

والذي جعل هؤلاء يفترون على الله الكذب هو انهيار الذات ، فكل ذات لها وجود ولها مكانة ، فإذا انهارت المكانة ، أحس الإنسان أنه بلا قيمة في مجتمعه .

والمثل الذي ضربته من قبل بحَلاَّق الصحة في القرية ، وكان يعالج الجميع ، ثم تَخرَّجَ أحد شباب القرية في كلية الطب وافتتح بها عيادة ، فإن كان حلاق الصحة عاقلاً ، فهو يذهب إلى الطبيب ليعمل في عيادته ممرضاً ، أو (تمرجياً) ، أما إن أخذته العزة بالإثم ، فهو يعاند ويكابر ، ولكنه لن يقدر على دفع علْم الطبيب .

(138/366)

وكذلك عصابة الكفر ورؤساء الضلال حينما يُفاجَآون بمَقْدِم رسول من الله ، فهم يظنون أنه سوف يأخذ السيادة لنفسه ، رغم أن أي رسول من رسل الله تعالى عليه السلام إنما يعطي السيادة لصاحبها ، ألا وهو الحق الأعلى سبحانه .

وحين يأخذ منهم السيادة التي كانت تضمن لهم المكانة الوجاهة والشأن والعظمة ، فهم يصابون بالانهيار العصبي ، ويحاولون مقاومة الرسول دفاعاً عن السلطة الزمنية .

ومثال ذلك : هو مَقْدِمُ النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وكان البعض يعمل على تنصيب عبد الله بن أبيّ ليكون مَلكاً ؛ ولذلك قاوم الرجل الإسلام ، وحين لم يستطع آمن نفاقاً ، وظل على عدائه للإسلام ، رغم أنه لو أحسن الإسلام واقترب من رسول الله صلى الله عليه وسلم لنال أضعاف ما كان يسأخذه لو صار ملكاً .

وهكذا قادة الضلال وأئمة الكفر ، هم مشفقون على أنفسهم وخائفون على السلطة الزمنية ؛ لأن الرسول حينما يجيء إنما يُسوِّي بين الناس ؛ لذلك يقفون ضد الدعوة حفاظاً على السلطة الزمنية .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن سبب افترائهم الكذب : ﴿ مَتَاعٌ فِي الدنيا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾

ويعزُّ إذن على قادة الكفر وأئمة الضلال أن يسلبهم الرياسة والسيادة داعٍ جديد إلى الله سبحانه وتعالى ، ويخافون أن يأخذ الداعي الجديد لله الأمر منهم جميعاً ، لا إلى ذاته ،

ولكن إلى مراد ربه .

ولو كان الداعي إلى الله تعالى يأخذ السلطة الزمنية لذاته ؛ لقلنا : ذاتٌ أمام ذاتٍ ، ولكنه صلى الله عليه وسلم أوضح أنه يعود حتى فيما يخصه إلى الله سبحانه وتعالى .

ويكشف لنا الحق سبحانه الكسب القليل الذي يدافعون عنه أنه :

﴿ مَتَاعٌ فِي الدنيا ﴾ [يونس : 70] ؛ لأن كُلاً منهم يحب أن يقنع نفسه ، بِحُمْق تقدير المنفعة ، وكلمة " الدنيا " لا بد أن منها حقيقة الشيء المنسوبة إليه .

والاسماء كما نعلم هي سمات مسميات ، فحين تقول : إن فلاناً طويل ، فأنت تعطيه سمة الطول .

(139/366)

وحين تقول : " دنيا " فهي من الدُّنُوِّ " أو " الدناءة " .

وإن اعتبرت الدنو هو طريق موصل إلى القيمة ، فهذا أمر مقبول ؛ لأن الدرجة الأولى في الوصول إلى الأعلى هي الدنو ، وتلتزم بمنهج الله تعالى فتصعد عُلوّاً وارتفاعاً إلى الآخرة .

إذن : فمن يصف الدنيا بالدناءة على إطلاقها نقول له : لا ، بل هي دنيا بشرط أن تأخذها طريقاً إلى الأعلى ، ولكن من لا يتخذها كذلك فهو من يجعل مكانته هي الدنيئة ، أما من

يتخذها طريقاً إلى العلو فهو الذي أفلح باتِّباع منهج الله تعالى .

إذن : فالدنيا ليست من الدناءة ؛ لأن الدين ليس موضوعه الآخرة ، بل موضوعه هو الدنيا ، ومنهج الدين يلزمك ب " افعل " و " لا تفعل " في الدنيا ، والآخرة هي دار الجزاء ، والجزاء على الشيء ليس عين موضوعة ، وأنت تستطيع أن تجعل الدنيا مفيدة لك إنْ جعلتها مزرعة للآخرة .

وإياك أن تعمل على أساس أن الدنيا عمرها ملايين السنين ؛ لأنه لا يعنيك كعائش في الدنيا إن طال عمرها أم قَصُرَ ، بل يعنيك في الدنيا مقدار مُكْثِك فيها ، وعمرك فيها مظنون ، بل وزمن الدنيا كله مظنون ، وهناك من يموت وعمره ستة أشهر ، وهناك من يموت وعمره مائة سنة ، وكلٌّ يتمتع بقدر ما يعيش ، ثم يرجع إلى الله سبحانه وتعالى .

وهؤلاء الذين ضَلُّوا وقالوا على الله سبحانه افتراء ، هؤلاء لن يفلتوا من الله ؛ لأن مرجعهم إليه سبحانه ككل خَلْقه ، وهؤلاء المُضِلُّون لم يلتفتوا إلى عاقبة الأمر ، ولا إلى من بيده عاقبة الأمر ، ولم يرتدعوا .

ولكن من نظر إلى عاقبة الأمر وأحسن في الدنيا فمرجعه إلى حسن الثواب والجنة ، ومن لم ينظر إلى عاقبة الأمر وافترى على الله سبحانه وتعالى الكذب فالمآب والمآل إلى العذاب مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العذاب الشديد بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : 70] .

ودرجة العذاب تختلف باختلاف المعذِّب ، فإن كان المعذِّب ضعيفاً ، فتعذيبه يكون ضعيفاً ، وإن كان المعذِّب متوسط القوة ؛ فتعذيبه يكون متوسطاً ، أما إن كان المعذِّب هو قوة القوى فلا بد أن يكون عذابه شديداً ، وهو سبحانه الحق القائل :

﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : 102] .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مبدأ تنزيه الألوهية عن اتخاذ الولد ، فهو سبحانه الغنيُّ الذي له ما في السموات والأرض ، وبيَّن لنا سبحانه أننا يجب أن نأخذ المنهج من مصدر واحد وهو الرسل المبلِّغون عن الله تعالى ، شاء الحق سبحانه أن يكلمنا عن موكب الرسالات ؛ لأن الكلام حين يكون كلاماً نظرياً ليس له واقع يسنده ، فقد تنسحب النظرية عليه .

أما إن كان للكلام واقع في الكون يؤيد الكلام النظري ، فهذا دليل على صحة الكلام النظري ؛ ولذلك فنحن حين نحب أن نضخِّم مسألة من المسائل في داء اجتماعي ، نحاول أن نصنع منه رواية ، أي : أمراً لم يحدث حقيقة ، ولكننا نتخيل أنه حقيقة ؛ لنبيِّن الأمر النظري في واقع متخيَّل .

ويقص علينا الحق سبحانه في القرآن قصصاً من الموكب الرسالي ؛ ليبيّن للكفار : أنكم لن تستطيعوا الوقوف أمام هذه الدعوة ، وأمامكم سِجل التاريخ وأحداث الرسل مع أممهم ؛ المؤيدين بالمؤمنين ؛ والكفار المعاندين والمعارضين ، فإن كان قوم من السابقين قد انتصروا على رسولهم ، فللكفار الحق في أن يكون لهم أمل في الانتصار على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا بد أن يكون هذا الكلام موجهاً إلى أناس لهم علم ببعض أحداث الموكب الرسالي .

ولكن قد يكون علم هذا قد بهت ؛ لأن الزمان قد طال عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(141/366)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَتَاعٌ فِي الدنيا ﴾ : يجوز رفع " متاع " مِنْ وجهين ، أحدهما : أنه خبرُ مبتدأ محذوف ، والجملة جوابٌ لسؤالٍ مقدر فهي استئنافيةٌ كأن قائلاً قال : كيف لا

يَعْلمون وهم في الدنيا مُفْلحون بأنواعٍ ممَّا يتلذذون به ؟ فقيل : ذلك متاع . والثاني : أنه مبتدأ والخبر محذوفٌ تقديرُه ، لهم متاعٌ ، و " في الدنيا " يجوز أن يتعلقَ بنفس " متاع " ، أي : تَمَتُّعٌ في الدنيا ، ويجوز أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه نعتٌ ل " متاع " فهو في محلِّ رفعٍ . ولم يُقرأ بنصبه هنا بخلاف قوله : " متاع الحياة " في أول السورة .

وقوله : ﴿ بِمَا كَانُواْ ﴾ الباءُ للسببية ، و " ما " مصدريةٌ ، أي : بسببِ كونهم كافرين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 238 ﴾

(142/366)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ .

ليس لهم بما هم فيه استمتاع ، إنما هو أيامٌ قليلة ثم تتبعها آلامٌ طويلة ، فلا قَدَمٌ لهم بعد ذلك تُرْفَع ، ولا نَدَمٌ ينفع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 108 ﴾

(143/366)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70) ﴾

(144/366)

التفسير : لما بين فساد طريقة الكفار في عقائدهم وأحكامهم بيّن كونه سبحانه عالماً بعمل كل أحد وبما في قلبه من الدواعي والصوارف والرياء والإخلاص وغير ذلك فقال : ﴿ وما تكون ﴾ يا محمد ﴿ في شأن ﴾ أي أمر من الأمور . وأصله الهمز بمعنى القصد من شأنت شأنه إذا قصدت قصده . قال ابن عباس : أي في شأن من أعمال البر . وقال الحسن : في شأن الدنيا وحوائجها و " ما " في ﴿ وما تكون ﴾ ﴿ وما تتلو ﴾ نافية والضمير في ﴿ منه ﴾ إما لله عز وجل أي نازل من عنده ، وإما للشأن لأن تلاوة القرآن شأن من

شؤون رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو معظم شأنه ولهذا أفرد بالذكر كقوله : ﴿ وملائكته وجبريل وميكال ﴾ [البقرة : 98] وإما للقرآن والإضمار قبل الذكر تفخيم له كأنه قيل : وما تتلو من التنزيل من قرآن لأن كل جزء منه قرآن . ثم عمم الخطاب فقال : ﴿ ولا تعملون ﴾ أيها المكلفون ﴿ من عمل ﴾ أيّ عمل كان ﴿ إلا كنا عليكم شهوداً ﴾ شاهدين رقباء والجمع للتعظيم أو لأن المراد الملائكة الموكلون ﴿ إذ تفيضون فيه ﴾ الإفاضة الشروع في العمل على جهة الانصباب والاندفاع ومنه قوله : ﴿ فإذا أفضتم من عرفات ﴾ [البقرة : 198] قيل : شهادة الله علمه فيلزم أنه لا يعلم الأشياء إلا عند وجودها . والجواب أن الشهادة علم خاص ولا يلزم منه امتناع تقدم العلم المطلق على الشيء كما لو أخبرنا الصادق أن زيداً يفعل كذا غداً فنكون عالمين بذلك لا شاهدين . ثم زاد في التعميم فقال : ﴿ وما يعزب عن ربك ﴾ أي لا يبعد ولا يغيب ومنه كلأ عازب أي بعيد ، والرجل العزب لبعده عن الأهل . ومعنى ﴿ مثقال ذرة ﴾ قد مر في قوله : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾

[النساء : 140] وذلك في سورة النساء . والمقصود أنه لا يغيب عن علمه شيء أصلاً وإن كان في غاية الحقارة . وإنما قال ههنا ﴿ في الأرض ولا في السماء ﴾ خلاف ما في سورة سبأ وهو المعهود في القرآن لأن الكلام سيق لشاهدته على شؤون أهل الأرض فناسب أن يقدم ذكر ما في الأرض ، هذا بعد تسليم أن الواو تفيد الترتيب . ثم بالغ في تعميم علمه فقال : ﴿ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴾ من قرأ بالنصب على نفس الجنس أو بالرفع على الابتداء ليكون كلاماً برأسه فلا إشكال ، وأما من جعله منصوباً معطوفاً على لفظ مثقال لأنه في موضع الجر بالفتح لامتناع الصرف ، أو جعله مرفوعاً معطوفاً على محل ﴿ من مثقال ﴾ لأنه فاعل ﴿ يعزب ﴾ فأورد عليه الإشكال وهو أنه يصير تقدير الآية لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء إلا في كتاب ، ويلزم منه أن يكون ذلك الشيء الذي في الكتاب خارجاً عن علم الله وإنه محال . ويمكن أن يجاب عنه بأن الأشياء المخلوقة قسمان : قسم أوجده الله تعالى ابتداء من غير واسطة كخلق الملائكة والسموات والأرض . وقسم آخر أوجده بواسطة القسم الأول من حوادث عالم الكون والفساد ، ولا شك أن هذا القسم الثاني متباعد في سلسلة العلية والمعلولية عن مرتبة واجب الوجود ، فالمراد من الآية أنه لا يبعد عن مرتبة وجوده شيء في الأرض ولا في السماء إلا هو في كتاب مبين . وهو كتاب أثبت فيه صور تلك المعلومات ، والغرض الرد على من يزعم أنه تعالى غير عالم بالجزئيات . أو نقول : إن الاستثناء منقطع بمعنى لكن هو في كتاب مبين . وذكر أبو علي

الجرجاني صاحب النظم إن " إلا " بمعنى الواو على أن الكلام قد تم عند قوله : ﴿ ولا أكبر ﴾ ثم وقع الابتداء بكلام آخر فقال : ﴿ إلا في كتاب ﴾ أي وهو أيضاً في كتاب ﴿ مبين ﴾ والعرب تضع " إلا " موضع واو النسق كثيراً ومنه قوله : ﴿ إني لا يخاف لدي المرسلون إلا من ظلم ﴾ [النمل : 11] يعني ومن ظلم . وقوله : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة

(146/366)

إلا الذين ظلموا ﴾ يعني والذين ظلموا .

ثم إنه لما بين إحاطته بجميع الأشياء وكان في ذلك تقوية قلوب المطيعين وكسر قلوب المذنبين أتبعها تفصيل حال كل فريق فقال : ﴿ ألا إن أولياء الله ﴾ الآية . والتركيب يدل على القرب فكأنهم قربوا منه تعالى لاستغراقهم في نور معرفته وجماله وجلاله . قال أبو بكر الأصم : هم الذين تولى الله هدايتهم بالبرهان وتولوا القيام بحق عبوديته والدعوة إليه . وقال المتكلمون : ولي الله من يكون آتياً بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل ، ويكون آتياً بالأعمال الصالحة الواردة في الشريعة وعنوا بذلك قوله تعالى في وصفهم ﴿ الذين آمنوا ﴾ وهو إشارة إلى كمال حال القوة النظرية .

﴿ وكانوا يتقون ﴾ وهو إشارة إلى كمال حال القوة العملية . وههنا مقام آخر وهو أن يحمل الإيمان على مجموع الاعتقاد والعمل ويكون الولي متقياً في كل الأحوال ، أما في موقف العلم فبأن يقدس ذاته عن أن يكون مقصوراً على ما عرفه أو يكون كما وصفه ، وأما في مقام العمل فأن يرى عبوديته وعبادته قاصرة عما يليق بكبريائه وجلاله فيكون أبداً في الخوف والدهشة . وأما نفي الخوف والحزن عنهم فقد مر تفسيره في أوائل سورة البقرة : وعن سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من أولياء الله ؟ فقال : هم الذين يذكر الله برؤيتهم . يعني أن مشاهدتهم تذكر أمر الآخرة لما فيهم من آثار الخشوع والإخبات والسكينة : وعن عمر سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله . قالوا : يا رسول الله أخبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم . قال : هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم قرأ الآية " .

(147/366)

يحكى أن إبراهيم الخواص كان في البادية ومعه واحد يصحبه ، فاتفق في بعض الليالي ظهور حالة قوية وكشف تام له فجلس في موضعه وجاءه السباع ووقفوا بالقرب منه والمريد تسلق على رأس شجرة خوفاً منها والشيخ كان فارغاً من تلك السباع ، فلما أصبح زالت تلك الحالة . ففي الليلة الثانية وقعت بعوضة على بدنه فأظهر الجزع من تلك البعوضة فقال المريد : كيف تليق هذه الحالة بما قبلها ؟ فقال الشيخ : تحملنا البارحة ما تحملناه بسبب قوة الوارد الغيبي ، فلما غاب ذلك الوارد فإنا أضعف خلق الله . ثم أخبر الله سبحانه عنهم بأن ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ فقيل : بشراهم في الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكان من كتابه ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات ﴾ [البقرة : 25] ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات ﴾ [التوبة : 21] وقيل : إنها عبارة عن محبة الناس لهم وعن ذكرهم إياهم بالثناء الحسن . عن أبي ذر رضي الله عنه قلت : يا رسول الله إن الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس . قال : تلك عاجل بشرى المؤمن . والدليل العقلي عليه أن الكمال محبوب لذاته فكل من اتصف بصفة الكمال كان محبوباً لكل أحد إذا أنصفه ولم يحسده ، ولا كمال للعبد أعلى وأشرف من كونه مستغرق القلب في معرفة الله معرضاً عما سواه . ونور الله مخدوم بالذات ففي أي قلب حصل كان مخدوماً بالطبع لما سوى الله . وقيل : هي الرؤيا الصالحة . وعنه صلى الله عليه وسلم :

" " الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة " وسبب تخصيص هذا العدد أن النبي صلى الله عليه وسلم استنبىء بعد أربعين سنة إلى كمال عمره – وهو ثلاث وستون سنة – وكان يأتيه الوحي أوّلاً بطريقة المنام ستة أشهر . ونسبة هذه المدة إلى ثلاث وعشرين سنة التي هي جميع مدة الوحي نسبة الواحد إلى ستة وأربعين . وأما أن الرؤيا الصادقة توجب لبشارة فلأنها دليل صفاء القلب واتصال النفس إلى عالم القدس والاطلاع على بعض ما هنالك . وعن عطاء : البشرى في الدنيا هي البشارة عند الموت ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة ﴾ [فصلت : 30] وأما البشرى في الآخرة فتلقي الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة وما يرون من بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم وما يقرأون منها إلى آخر أحوالهم في الجنة ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده وقد مر مثله في " الأنعام " ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين ، وكلتا الجملتين اعتراض ولا يجب أن يقع بعد الاعتراض كلام . تقول : فلان ينطق بالحق والحق أبلج ، قال القاضي : ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ يدل على أنها قابلة للتبديل ، وكل ما يقبل العدم امتنع أن يكون قديماً ومحل المنع ظاهر فإن

نفي شيء عن شيء لا يلزم منه إمكانه له كقول الموحد : لا شريك لله . ثم سلى رسوله عن صنيع الفريق المكذبين فقال : ﴿ ولا يحزنك ﴾ أو نقول : إنه كما أزال الحزن عنه في الآخرة بقوله : ﴿ ألا إن أولياء الله ﴾ أزال الحزن عنه في الدنيا بقوله : ﴿ ولا يحزنك قولهم ﴾ أي تكذيبهم لك وتهديدهم بالخدم والأموال وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك ، وبالجملة كل ما يتكلمون به في شأنك من المطاعن والقوادح . ثم استأنف قوله : ﴿ إن العزة لله ﴾ كأنه قيل : ما لي لا أحزن ؟ فقيل : لأن العزة لله . ﴿ جميعاً ﴾ إن الغلبة والقهر له ولحزبه ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ [المجادلة : 21]

(149/366)

وقرىء " أن " بالفتح لا على أنه بدل فإن ذلك يؤدي إلى أن القوم كانوا يقولون إن العزة لله جميعاً والرسول كان يحزنه ذلك وهذا كفر ، بل لأن العزة على صريح التعليل ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم واثقاً بوعد الله تعالى في جميع الأحوال وإن كان قد يقع في بعض الحروب والوقائع انكسار وهزيمة فإن الأمور بخواتيمها . ثم أكد الوعد بقوله : ﴿ هو السميع العليم ﴾ يسمع ما يقولون ويعلم ما يدبرون فيكفيك شرهم .

ثم زاد في التأكيد مع إشارة إلى فساد عقيدة المشركين فقال : ﴿ ألا إن لله من في السموات

ومن في الأرض ﴾ فخصص ذوي العقول إما للتغليب وإما لأن الآية سيقت لبيان فساد عقائد أهل الشرك ، فذكر أن العقلاء المميزين – وهم الملائكة والثقلان – كلهم عبيد له ولا يصلح أحد منهم لأن يكون شريكاً له فما وراءهم ممن لا يسمع ولا يعقل كالأصنام أولى بأن لا يكون نداً له .

(150/366)

ثم أكد هذا المعنى بقوله : ﴿ وما يتبع ﴾ " ما " نافية ومفعول ﴿ يدعون ﴾ محذوف أي ليس يتبع ﴿ الذين يدعون من دون الله شركاء ﴾ شركاء في الحقيقة إنما هي أسماء لا مسميات لها لأن شركة الله في الربوبية محال . وإنما حذف أحد المكررين للدلالة ، فالأول مفعول ﴿ يدعون ﴾ والثاني مفعول ﴿ يتبع ﴾ ويجوز أن تكون " ما " استفهامية بمعنى أي شيء يتبعون . و ﴿ شركاء ﴾ على هذا نصب ب ﴿ يدعون ﴾ ولا حاجة إلى إضمار . ويجوز أن تكون " ما " موصولة معطوفة على " من " كأنه قيل : ولله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أي وله شركاؤهم . ثم زاد في التأكيد فقال : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ وقد مر مثله في سورة الأنعام . ثم ذكر طرفاً من آثار قدرته مع إشارة إلى بعض نعمه فقال : ﴿ هو الذين جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ﴾ طلباً للراحة ﴿

والنهار مبصراً ﴾ ذا إبصار باعتبار صاحبه أي جعله مضيئاً لتهتدوا به في حوائجكم وهذان طرفان من منافع الليل والنهار ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ سماع تأمل وتدبر وقبول .

(151/366)

ثم حكى نوعاً آخر من أباطيلهم فقال : ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه ﴾ وقد مر في " البقرة " . ولما نزه نفسه عن اتخاذ الولد برهن على ذلك بقوله : ﴿ هو الغني ﴾ وتقريره أن الغنى التام يوجب امتناع كونه ذا أجزاء ، وحصول الولد لا يتصور إلا بعد انفصال جزء منه يكون كالبذر بالنسبة إلى النبات ، وأيضاً إنما يحتاج إلى الولد وإلى توليد المثل الذي يقوم مقامه من يكون بصدد الانقضاء والانقراض فالأزلي القديم لا يفتقر إلى الولد ولا يصح له مثل . وأيضاً الغني لا يفتقر إلى الشهوة ولا إلى إعانة الولد ، ولو صح أن يتولد منه مثله لصح أن يكون هو أيضاً متولداً من مثله ولا يشكل هذا بالولد الأول من الأشخاص الحيوانية فإن المدعي هو الصحة لا الوقوع . ثم بالغ في البرهان فقال : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ وإذا كان الكل ملكه وعبيده فلا يكون شيء منها ولداً له لأن الأب يساوي الابن في الطبيعة بخلاف المالك . ثم زيف دعواهم الفاسدة فقال : ﴿ إن عندكم من سلطان بهذا

﴿ أي ما عندكم من حجة بهذا القول . قال في الكشاف : والباء حقها أن تتعلق بقوله : ﴿ إن عندكم ﴾ على أن يجعل القول مكاناً للسلطان كقولك : ما عندكم بأرضكم موز . كأنه قيل : إن عندكم فيما تقولون سلطان . أقول : كأنه نظر إلى أن استعمال الباء بمعنى " في " أكثر منه بمعنى " على " .

ثم وبخهم على القول بلا دليل ومعرفة فقال : ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ . ثم أوعدهم على افترائهم فقال : ﴿ قل أن الذين يفترون ﴾ الآية . ثم بين أن ذلك المفتري إن فاز بشيء من المطالب العاجلة والمآرب الخسيسة من رياسة ظاهرة وغرض زائل فذلك ﴿ متاع قليل ﴾ في الدنيا . ثم لا بد من الموت والرجوع إلى حكم الله ثم حصول الشقاء المؤبد والعذاب الأليم أعاذنا الله منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 594 ـ 599 ﴾.

(152/366)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65) ﴾

قوله : ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ : نهى للنبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن من قول الكفار

المتضمن : للطعن عليه وتكذيبه ، والقدح في دينه .

والمقصود : التسلية له والتبشير .

ثم استأنف سبحانه الكلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم معللاً لما ذكره من النهي لرسوله صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ أي : الغلبة والقهر له في مملكته وسلطانه ، ليست لأحد من عباده ، وإذا كان ذلك كله له ، فكيف يقدرون عليك حتى تحزن لأقوالهم الكاذبة ، وهم لا يملكون من الغلبة شيئاً .

وقرىء "يحزنك" من أحزنه .

وقرىء "أن العزة" بفتح الهمزة على معنى ، لأن العزّة لله ، ولا ينافي ما في هذه الآية من جعل العزّة جميعها لله تعالى قوله سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : 8] لأن كل عزّة بالله ، فهي : كلها لله .

ومنه قوله : ﴿ كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾ [المجادلة : 21] ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر : 51] .

﴿ أَلا إِنَّ للَّهِ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ ومن جملتهم هؤلاء المشركون المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا كانوا في ملكه يتصرّف فيهم كيف يشاء ، فكيف يستطيعون أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا يأذن الله به ، وغلب العقلاء على غيرهم ؛ لكونهم أشرف .

وفي الآية نعي على عباد البشر ، والملائكة والجمادات ؛ لأنهم عبدوا المملوك ، وتركوا المالك ، وذلك مخالف لما يوجبه العقل ، ولهذا عقبه بقوله : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله شُرَكَاء ﴾ والمعنى : أنهم وإن سموا معبوداتهم شركاء لله ، فليست شركاء له على الحقيقة ، لأن ذلك محال : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] و " ما " في و ﴿ ما يتبع ﴾ نافية وشركاء مفعول يتبع ، وعلى هذا يكون مفعول يدعون محذوفاً ، والأصل : وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء في الحقيقة : إنما هي : أسماء لا مسميات لها ، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه ، ويجوز أن يكون المذكور مفعول ﴿ يدعون ﴾ ، وحذف مفعول يتبع لدلالة المذكور عليه ، ويجوز أن تكون استفهامية بمعنى : أيّ شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، ويكون على هذا الوجه ﴿ شركاء ﴾ منصوباً ب ﴿ يدعون ﴾ ، والكلام خارج مخرج التوبيخ لهم ، والإزراء عليهم .

ويجوز أن تكون " ما " موصولة معطوفة على ﴿ من في السموات ﴾ : أي لله من في السموات ، ومن في الأرض ، وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ؛ والمعنى : أن الله

مالك لمعبوداتهم لكونها من جملة من في السموات ومن في الأرض .

ثم زاد سبحانه في تأكيد الردّ عليهم ، والدفع لأقوالهم ، فقال : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ أي : ما يتبعون يقيناً إنما يتبعون ظناً ، والظنّ لا يغني من الحق شيئاً ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ أي : يقدرون أنهم شركاء تقديراً باطلاً ، وكذباً بحتاً ، وقد تقدّمت هذه الآية في الأنعام .

(154/366)

ثم ذكر سبحانه طرفاً من آثار قدرته مع الامتنان على عباده ببعض نعمه ، فقال : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ اليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً ﴾ أي : جعل لعباده الزمان منقسماً إلى قسمين : أحدهما : مظلم وهو : الليل ؛ لأجل يسكن العباد فيه عن الحركة والتعب ، ويريحون أنفسهم عن الكدّ والكسب .

والآخر : مبصر ، لأجل يسعون فيه بما يعود على نفعهم ، وتوفير معايشهم ، ويحصلون ما يحتاجون إليه في وقت مضيء منير ، لا يخفى عليهم فيه كبير ولا حقير ، وجعله سبحانه للنهار مبصراً مجاز .

والمعنى : أنه مبصر صاحبه كقولهم : نهاره صائم ، والإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾

إلى الجعل المذكور ﴿ لآيَاتٍ ﴾ عجيبة كثيرة ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي : يسمعون ما يتلى عليهم من الآيات التنزيلية المنبهة على الآيات التكوينية مما ذكره الله سبحانه ها هنا منها ، ومن غيرها مما لم يذكره ، فعند السماع منهم لذلك يتفكرون ويعتبرون ، فيكون ذلك من أعظم أسباب الإيمان .

قوله : ﴿ قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سبحانه هُوَ الغني ﴾ هذا نوع آخر من أباطيل المشركين التي كانوا يتكلمون بها ، وهو زعمهم بأن الله سبحانه اتخذ ولداً ، فردّ ذلك عليهم بقوله : ﴿ سبحانه هُوَ الغني ﴾ فتنزّه جل وعلا عما نسبوه إليه من هذا الباطل البين ، وبين أنه غنيّ عن ذلك ، وأن الولد إنما يطلب للحاجة .

والغنيّ المطلق لا حاجة له حتى يكون له ولد يقضيها ، وإذا انتفت الحاجة انتفى الولد ، وأيضاً إنما يحتاج إلى الولد من يكون بصدد الانقراض ، ليقوم الولد مقامه ، والأزليّ القديم لا يفتقر إلى ذلك .

وقد تقدّم تفسير الآية في البقرة .

ثم بالغ في الردّ عليهم بما هو كالبرهان ، فقال : ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ ، وإذا كان الكل له ، وفي ملكه ، فلا يصح أن يكون شيء مما فيهما ولداً له للمنافاة بين الملك والبنوّة والأبوّة .

ثم زيف دعواهم الباطلة وبين أنها بلا دليل فقال : ﴿ إِنْ عِندَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾ أي : ما عندكم من حجة وبرهان بهذا القول الذي تم لونه ، و"من" في : ﴿ مِّن سلطان ﴾ زائدة للتأكيد ، والجار والمجرور في ﴿ بهذا ﴾ متعلق إما بسلطان ، لأنه بمعنى الحجة والبرهان ، أو متعلق بما عندكم لما فيه من معنى الاستقرار .

ثم وبخهم على هذا القول العاطل عن الدليل الباطل عند العقلاء فقال : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْمَلُونَ ﴾ ، ويستفاد من هذا أن كل قول لا دليل عليه ، ليس هو من العلم في شيء ، بل من الجهل المحض .

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم قولاً يدلّ على أن ما قالوه كذب ، وأن من كذب على الله لا يفلح ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكذب لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ أي : كل مفتر هذا شأنه ، ويدخل فيه هؤلاء دخولاً أوّلياً .

وذكر الكذب مع الافتراء للتأكيد كما سبق في مواضع من الكتاب العزيز .

والمعنى : أن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لا يفوزون بمطلب من المطالب .

ثم بين سبحانه أن هذا الافتراء وإن فاز صاحبه بشيء من المطالب العاجلة ، فهو متاع قليل في الدنيا ، ثم يتعقبه الموت والرجوع إلى الله ، فيعذب المفتري عذاباً مؤبّداً .

فيكون ﴿ متاع ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة لبيان أن ما يحصل للمفترى

بافترائه ليس بفائدة يعتدّ بها ، بل هو متاع يسير في الدنيا ، يتعقبه العذاب الشديد بسبب الكفر الحاصل بأسباب من جملتها الكذب على الله .

وقال الأخفش : إن التقدير : لهم متاع في الدنيا ، فيكون المحذوف على هذا هو الخبر .

وقال الكسائي : التقدير ذلك متاع أو هو متاع ، فيكون المحذوف على هذا هو المبتدأ .

(156/366)

وقد أخرج أبو الشيخ ، عن ابن عباس ، قال : في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ ﴾ : لما لم ينتفعوا بما جاءهم من الله وأقاموا على كفرهم ، كبر ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه من الله فيما يعاتبه : ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً هُوَ السميع العليم ﴾ يسمع ما يقولون ويعلمه ، فلو شاء بعزّته لانتصر منهم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ قال : منيراً .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الحسن ، في قوله : ﴿ إِنْ عِندَكُمْ مّن سُلْطَانٍ بهذا ﴾ يقول : ما عندكم سلطان بهذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(157/366)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ ويستنبئونك : أحق هو ؟ قل : إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾

﴿ إي وربي ﴾ . .

الذي أعرف قيمة ربوبيته فلا أقسم به حانثاً ، ولا أقسم به إلا في جد وفي يقين . .

﴿ إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ . .

ما أنتم بمعجزين أن يأتي بكم ، وما أنتم بمعجزين أن يحاسبكم ، وأن يجازيكم .

وبينما نحن معهم على هذه الأرض في استنباء وجواب . إذا نحن فجأة – مع السياق في نقلة من نقلات الأسلوب القرآني المصور – في ساحة الحساب والجزاء . مبدئياً على وجه الفرض والتقدير .

﴿ ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به ﴾ . .

فلا يقبل منها حتى على فرض وجوده معها .

ولا تكتمل الآية حتى يكون الفرض قد وقع وقضى الأمر :

﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ . .

أخذتهم وهلة المفاجأة فسقط في أيديهم ، والتعبير يرسم للخيال صورة الكمد يظلل الوجوه ، دون أن تنطق الشفاه !

﴿ وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ .

.

وانتهى المشهد الذي بدأ منذ نصف آية فرضاً وانتهى واقعاً ، على طريقة التصوير القرآني المؤثر المثير .

والتعقيب المؤكد للحشر والحساب ، جولة أخرى مع القدرة في بعض مجاليها في السماء والأرض وفي الحياة والموت . جولة عابرة لتوكيد معنى القدرة الكفيلة بتحقق الوعد . ثم نداء عام للناس أجمعين للانتفاع بهذا القرآن الذي يحمل لهم الموعظة والهدى وشفاء الصدور .

﴿ ألا إن لله ما في السماوات والأرض . ألا إن وعد الله حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون . هو يحيي ويميت . وإليه ترجعون . يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ، قل : بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ . .

﴿ ألا . . . ﴾ بهذا الإعلان المدوي . ﴿ ألا إن لله ما في السماوات والأرض ﴾ .

والذي يملك ما في السماوات والأرض يملك أن يجعل وعده حقاً فلا يعجزه عن تحقيقه معجز ، ولا يعوقه عن تصديقه معوق :

﴿ ألا إن وعد الله حق ﴾ . . ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ . .

وهم لجهلهم يشكون أو يكذبون .

﴿ هو يحيي ويميت ﴾ . .

والذي يملك الحياة والموت ، يملك الرجعة والحساب . .

﴿ وإليه ترجعون ﴾ . .

إنه تعقيب سريع للتوكيد السريع بعد الاستعراض المثير .

ثم يعقبه النداء الجامع للبشرية جميعاً :

﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ . . .

جاءتكم في ذلك الكتاب الذي ترتابون فيه . وجاءتكم الموعظة ﴿ من ربكم ﴾ فليس هو كتاباً مفترى ، وليس ما فيه من عند بشر . جاءتكم الموعظة لتحيي قلوبكم ، وتشفي صدوركم من الخرافة التي تملؤها ، والشك الذي يسيطر عليها ، والزيغ الذي يمرضها ، والقلق الذي يحيرها . جاءت لتفيض عليها البرء والعافية واليقين والاطمئنان والسلام مع الإيمان . وهي لمن يرزق الإيمان هدى إلى الطريق الواصل ، ورحمة من الضلال والعذاب :

﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون ﴾ . .

فبهذا الفضل الذي آتاه الله عباده ، وبهذه الرحمة التي أفاضها عليهم من الإيمان . . فبذلك وحده فليفرحوا . فهذا هو الذي يستحق الفرح . لا المال ولا أعراض هذه الحياة . إن ذلك هو الفرح العلوي الذي يطلق النفس من عقال المطامع الأرضية والأعراض الزائلة ، فيجعل هذه الأعراض خادمة للحياة لا مخدومة ؛ ويجعل الإنسان فوقها وهو يستمتع بها لا عبداً خاضعاً لها . والإسلام لا يحقر أعراض الحياة الدنيا ليهجرها الناس ويزهدوا فيها . إنما هو يزنها بوزنها ليستمتع بها الناس وهم أحرار الإرادة طلقاء اليد ، مطمحهم أعلى من هذه الأعراض ، وآفاقهم أسمى من دنيا الأرض . الإيمان عندهم هو النعمة ، وتأدية مقتضيات الإيمان هي الهدف . والدنيا بعد ذلك مملوكة لهم لا سلطان لها عليهم .

(159/366)

عن عقبة بن الوليد عن صفوان بن عمرو : سمعت أيفع بن عبد الله الكلاعي يقول : لما قدم خراج العراق إلى عمر – رضي الله عنه – خرج عمر ومولى له ، فجعل عمر يعد الإبل فإذا هي أكثر من ذلك ، فجعل يقول : الحمد لله تعالى .

ويقول مولاه : هذا والله من فضله الله ورحمته ، فقال عمر : كذبت ليس هذا هو الذي يقول الله تعالى : ﴿ قل : بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ .

هكذا كان الرعيل الأولون ينظرون إلى قيم الحياة . كانوا يعدون الفضل الأول والرحمة الأولى هي ما جاءهم من الله من موعظة وهدى . فأما المال ، وأما الثراء ، وأما النصر ذاته فهو تابع . لذلك كان النصر يأتيهم ، وكان المال ينثال عليهم ، وكان الثراء يطلبهم . . إن طريق هذه الأمة واضح . إنه في هذا الذي يسنه لها قرآنها ، وفي سيرة الصدر الأول الذين فهموه من رجالها . . هذا هو الطريق .

إن الأرزاق المادية ، والقيم المادية ، ليست هي التي تحدد مكان الناس في هذه الأرض . . في الحياة الدنيا فضلاً عن مكانهم في الحياة الأخرى . . إن الأرزاق المادية ، والتيسيرات المادية ، والقيم المادية ، يمكن أن تصبح من أسباب شقوة البشرية – لا في الآخرة المؤجلة ولكن في هذه الحياة الواقعة – كما نشهد اليوم في حضارة المادة الكالحة !

إنه لا بد من قيم أخرى تحكم الحياة الإنسانية ؛ وهذه القيم الأخرى هي التي يمكن أن تعطي للأرزاق المادية والتيسيرات المادية قيمتها في حياة الناس ؛ وهي التي يمكن أن تجعل منها مادة سعادة وراحة لبني الإنسان .

إن المنهج الذي يحكم حياة مجموعة من البشر هو الذي يحدد قيمة الأرزاق المادية في حياتهم . هو الذي يجعلها عنصر سعادة أو عنصر شقاء . كما يجعلها سبباً للرقي الإنساني أو مزلقاً للارتكاس !

ومن هنا كان التركيز على قيمة هذا الدين في حياة أهله :

﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . قل : بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ . .

ومن هنا كان الذين تلقوا هذا القرآن أول مرة يدركون هذه القيمة العليا ، فيقول عمر – رضي الله عنه – عن المال والأنعام : " ليس هذا هو الذي يقول الله تعالى : ﴿ قل : بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ . .

لقد كان عمر – رضي الله عنه – يفقه دينه . كان يعرف أن فضل الله ورحمته يتمثلان بالدرجة الأولى في هذا الذي أنزله الله لهم : موعظة من ربهم ، وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . لا فيما يجمعون من المال والإبل والأرزاق !

لقد كانوا يدركون قيمة النقلة البعيدة التي نقلها لهم هذا الدين ، من وهدة الجاهلية التي كانوا فيها . . وإنها لنقلة بعيدة بالقياس إلى الجاهلية في كل زمان ومكان . . بما فيها جاهلية القرن العشرين .

إن النقلة الأساسية التي تتمثل في هذا الدين هي إعتاق رقاب العباد من العبودية للعباد ؛ وتحريرهم من هذه العبودية ، وتعبيدهم لله وحده ، وإقامة حياتهم كلها على أساس هذا

الانطلاق الذي يرفع تصوراتهم ، ويرفع قيمهم ، ويرفع أخلاقهم .

ويرفع حياتهم كلها من العبودية إلى الحرية :

ثم تجيء الأرزاق المادية والتيسيرات المادية ، والتمكين المادي ، تبعاً لهذا التحرر وهذا الانطلاق . كما حدث في تاريخ العصبة المسلمة ، وهي تكتسح الجاهليات حولها ، وتهيمن على مقاليد السلطان في الأرض ، وتقود البشرية إلى الله ، لتستمتع معها بفضل الله . .

والذين يركزون على القيم المادية ، وعلى الإنتاج المادي ، ويغفلون تلك القيمة الكبرى الأساسية ، هم أعداء البشرية الذين لا يريدون لها أن ترتفع على مستوى الحيوان وعلى مطالب الحيوان .

(161/366)

وهم لا يطلقونها دعوة بريئة ؛ ولكنهم يهدفون من ورائها إلى القضاء على القيم الإيمانية ، وعلى العقيدة التي تعلق قلوب الناس بما هو أرفع من مطالب الحيوان – دون أن تغفل ضروراتهم الأساسية – وتجعل لهم مطالب أساسية أخرى إلى جوار الطعام والمسكن والجنس التي يعيش في حدودها الحيوان !

وهذا الصياح المستمر بتضخيم القيم المادية ، والإنتاج المادي ، بحيث يطغى الانشغال به على حياة الناس وتفكيرهم وتصوراتهم كلها . . وبحيث يتحول الناس إلى آلات تلهث وراء هذه القيمة ، وتعدها قيمة الحياة الكبرى ؛ وتنسى في عاصفة الصياح المستمر . .

الإنتاج . . الإنتاج . . كل القيم الروحية والأخلاقية ؛ وتدوس هذه القيم كلها في سبيل الإنتاج المادي . . هذا الصياح ليس بريئاً ؛ إنما هو خطة مدبرة لإقامة أصنام تعبد بدل أصنام الجاهلية الأولى ؛ وتكون لها السيادة العليا على القيم جميعاً !

وعندما يصبح الإنتاج المادي صنماً يكدح الناس حوله ويطوفون به في قداسة الأصنام ؛ فإن كل القيم والاعتبارات الأخرى تداس في سبيله وتنتهك . . الأخلاق . الأسرة . الأعراض . الحريات الضمانات . . . كلها . . كلها إذا تعارضت مع توفير الإنتاج يجب أن تداس ! فماذا تكون الأرباب والأصنام إن لم تكن هي هذه ؟ إنه ليس من الحتم أن يكون الصنم حجراً أو خشباً . فقد يكون قيمة واعتباراً ولافتة ولقباً !

إن القيمة العليا يجب أن تبقى لفضل الله ورحمته المتمثلين في هداه الذي يشفي الصدور ، ويحرر الرقاب ، ويعلي من القيم الإنسانية في الإنسان . وفي ظل هذه القيمة العليا يمكن الانتفاع برزق الله الذي أعطاه للناس في الأرض ؛ وبالتصنيع الذي يوفر الإنتاج المادي ؛ وبالتيسيرات المادية التي تقلل من شدة الكدح ؛ وبسائر هذه القيم التي تدق الجاهلية حولها الطبول في الأرض !

وبدون وجود تلك القيمة العليا وسيادتها تصبح الأرزاق والتيسيرات والإنتاج لعنة يشقى بها الناس ؛ لأنها يومئذ تستخدم في إعلاء القيم الحيوانية والآلية ، على حساب القيم الإنسانية العلوية .

وصدق الله العظيم :

﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . قل : بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ . .

وفي ظل هذا الحديث عن فضل الله ورحمته ، المتمثلين فيما جاء للناس من موعظة وهدى وشفاء لما في الصدور ، يتعرض السياق للجاهلية ، وهي تزاول حياتها العملية ، لا وفق ما جاء من عند الله ؛ ولكن وفق أهواء البشر ، واعتدائهم على خصائص الله سبحانه ، ومزاولتهم أمر التحليل والتحريم فيما رزقهم الله :

﴿ قل : أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً ! قل : آلله أذن لكم ؟ أم على الله تفترون ؟ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ؟ إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ .

.

قل : ماذا ترون في رزق الله الذي أنزله إليكم ؟ – وكل ما جاء من عند الله في عليائه إلى البشر فهو منزل من ذلك المقام الأعلى – ماذا ترون في هذا الرزق الذي أعطاه لكم ، لتتصرفوا فيه وفق إذنه وشرعه ، فإذا أنتم – من عند أنفسكم ودون إذن من الله لكم – تحرمون منه أنواعاً وتحلون منه أنواعاً . والتحريم والتحليل تشريع . والتشريع حاكمية . والحاكمية ربوبية ، وأنتم تزاولونها من عند أنفسكم :

﴿ قل : آلله أذن لكم ؟ أم على الله تفترون ؟ ﴾ . .

إنها القضية التي يتكرر ذكرها في القرآن الكريم ؛ وتواجه بها الجاهلية بين الحين والحين . . ذلك أنها القضية الكبرى التالية لشهادة أن لا إله إلا الله . بل إنها هي هي في حالة التطبيق الواقعي في الحياة .

(163/366)

إن الاعتراف بأن الله هو الخالق الرازق يستتبعه حتماً أن يكون الله هو الرب المعبود ؛ وأن يكون هو الذي يحكم في أمر الناس كله . . ومنه أمر هذه الأرزاق التي أعطاها الله للبشر ، وهي تشمل كل ما يرزقهم من السماء والأرض . . والجاهليون العرب كانوا يعترفون بوجود

الله – سبحانه – وبأنه الخالق الرازق – كما يعترف اليوم ناس يسمون أنفسهم " المسلمين ! " . ثم كانوا مع هذا الاعتراف يزاولون التحريم والتحليل لأنفسهم فيما رزقهم الله – كما يزاول ذلك اليوم ناس يسمون أنفسهم " المسلمين ! " – وهذا القرآن يواجههم بهذا التناقض بين ما يعترفون به من وجود الله ومن أنه الخالق الرازق ؛ وما يزاولونه في حياتهم من ربوبية لغير الله تتمثل في التشريع الذي يزاوله نفر منهم ! وهو تناقض صارخ يدمغهم بالشرك ؛ كما يدمغ كل من يزاول هذا التناقض اليوم وغداً وإلى آخر الزمان . مهما اختلفت الأسماء واللافتات . فالإسلام حقيقة واقعة لا مجرد عنوان !

ولقد كان الجاهليون العرب يزعمون – كما يزعم اليوم ناس ممن يسمون أنفسهم " المسلمين " – أن هذا الذي يزاولونه من التحريم والتحليل إنما أذن لهم به الله . أو كانوا يقولون عنه : شريعة الله !

وقد ورد في سورة الأنعام ادعاؤهم أن هذا الذي يحرمونه وهذا الذي يحلونه شرعه الله . . وذلك في قوله تعالى : ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء – بزعمهم – وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه . سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾

فهم كانوا يقولون : إن الله يشاء هذا ، ولا يشاء هذا . . افتراء على الله . . كما أن ناساً اليوم يدعون أنفسهم " مسلمين " يشرعون من عند أنفسهم ثم يقولون : شريعة الله !

والله يجبههم هنا بالافتراء ، ثم يسألهم ماذا تظنون بربكم يوم القيامة وأنتم تفترون عليه :

﴿ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ؟ ﴾ . .

(164/366)

وصيغة الغائب تشمل جنس الذين يفترون على الله الكذب وتنتظمهم جميعاً . . فما ظنهم يا ترى ؟ ما الذي يتصورون أن يكون في شأنهم يوم القيامة ! ! وهو سؤال تذوب أمامه حتى الجبلات الصلدة الجاسية !

﴿ إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ . .

والله ذو فضل على الناس برزقه هذا المادي الذي أودعه هذا الكون من أجلهم ؛ وأودع فيهم القدرة على معرفة مصادره ؛ والنواميس التي تحكم هذه المصادر ، وأقدرهم كذلك على التنويع في أشكاله ، والتحليل والتركيب في مادته لتنويع هذه الأشكال . . وكله في الكون وفيهم من رزق الله . .

والله ذو فضل على الناس بعد ذلك بزرقه وفضله ورحمته التي أنزلها في منهجه هدى للناس وشفاء لما في الصدور ؛ ليهدي الناس إلى منهج الحياة السليم القويم ؛ الذي يزاولون به خير ما في إنسانيتهم من قوى وطاقات ؛ ومشاعر واتجاهات ؛ والذي ينسقون به بين خير الدنيا

وخير الآخرة ؛ كما ينسقون به بين فطرتهم وفطرة الكون الذي يعيشون فيه ويتعاملون معه . ولكن أكثر الناس لا يشكرون على هذا الرزق وذاك . . فإذا هم يحيدون عن منهج الله وشرعه ؛ وإذا هم يشركون به غيره . . ثم يشقون في النهاية بهذا كله . . يشقون لأنهم لا ينتفعون بهذا الذي هو شفاء لما في الصدور !

وإنه لتعبير عجيب عن حقيقة عميقة . . إن هذا القرآن شفاء لما في الصدور بكل معنى من معاني الشفاء . . إنه يدب في القلوب فعلاً دبيب الشفاء في الجسم المعلول ! يدب فيها بإيقاعه ذي السلطان الخفي العجيب . ويدب فيها بتوجيهاته التي توقظ أجهزة التلقي الفطرية ، فتهتز وتتفتح وتتلقى وتستجيب . ويدب فيها بتنظيماته وتشريعاته التي تضمن أقل احتكاك ممكن بين المجموعات البشرية في الحياة اليومية . ويدب فيها بإيحاءاته المطمئنة التي تسكب الطمأنينة في القلوب إلى الله ، وإلى العدل في الجزاء ، وإلى غلبة الخير ، وإلى حسن المصير . .

(165/366)

وإنها لعبارة تثير حشداً وراء حشد من المعاني والدلائل ، تعجز عنها لغة البشر ويوحي بها هذا التعبير العجيب !

لا يشكرون . . والله هو المطلع على السرائر ، المحيط بكل مضمر وظاهر ، الذي لا يغيب عن علمه ولا يبعد عن متناوله مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء . . هذه هي اللمسة الجديدة للمشاعر والضمائر في السياق ، ليخرج منها إلى طمأنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن معه بأنهم في رعايته وولايته ، لا يضرهم المكذبون ، الذين يتخذون مع الله شركاء وهم واهمون :

﴿ وما تكون في شأن ، وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل ، إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ؛ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .

ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم ، ولا يحزنك قولهم ، إن العزة لله جميعاً ، هو السميع العليم ، ألا أن لله من في السماوات ومن في الأرض ، وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون . هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ . .

إن الشعور بالله على النحو الذي تصوره الآية الأولى من هذا السياق :

﴿ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه . . . ﴾ شعور مطمئن ومخيف معاً ، مؤنس ومرهب معاً . . وكيف بهذا المخلوق البشري وهو مشغول بشأن من شؤونه يحس أن الله معه ، شاهد أمره وحاضر شأنه . الله بكل عظمته ، وبكل هيبته ، وبكل جبروته ، وبكل قوته . الله خالق هذا الكون وهو عليه هين . ومدبر هذا الكون ما جل منه وما هان . . الله مع هذا المخلوق البشري . الذرة التائهة في الفضاء لولا عناية الله تمسك بها وترعاها ! إنه شعور رهيب . ولكنه كذلك شعور مؤنس مطمئن . إن هذه الذرة التائهة ليست متروكة بلا رعاية ولا معونة ولا ولاية . . إن الله معها :

﴿ وما تكون في شأن ، وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه . . ﴾

إنه ليس شمول العلم وحده ، ولكن شمول الرعاية ، ثم شمول الرقابة . .

﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ . .

ويسبح الخيال مع الذرات السابحة في الأرض أو في السماء – ومعها علم الله – ومع ما هو أصغر من الذرة وأكبر محصوراً في علم الله . . ويرتعش الوجدان إشفاقاً ورهبة ، ويخشع

القلب إجلالاً وتقوى ، حتى يطامن الإيمان من الروعة والرهبة ، ويهدهد القلب الواجف بأنس القرب من الله .

وفي ظل هذا الأنس ، وفي طمأنينة هذا القرب . . يأتي الإعلان الجاهر :

﴿ ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة . لا تبديل لكلمات الله . ذلك هو الفوز العظيم ﴾ . .

وكيف يخاف أولياء الله أو يحزنون والله معهم هكذا في كل شأن وفي كل عمل وفي كل حركة أو سكون ؟ وهم أولياء الله ، المؤمنون به الأتقياء المراقبون له في السر والعلن :

﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

.

(167/366)

كيف يخافون وكيف يحزنون ، وهم على اتصال بالله لأنهم أولياؤه ؟ وعلام يحزنون ومم يخافون ، والبشرى لهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ؟ إنه الوعد الحق الذي لا يتبدل – لا تبديل لكلمات الله – :

﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ . .

إن أولياء الله الذين يتحدث عنهم السياق هم المؤمنون حق الإيمان المتقون حق التقوى . والإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل . والعمل هو تنفيذ ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه . . هكذا يجب أن نفهم معنى الولاية لله . لا كما يفهمه العوام ، من أنهم المهبولون المخبولون الذين يدعونهم بالأولياء !

وفي ظل هذه الرعاية والحماية لأولياء الله يخاطب النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو أولى الأولياء ، بما يطمئنه تجاه المكذبين والمفترين ، وكانوا في ذلك الوقت هم أصحاب القوة والجاه :

﴿ ولا يحزنك قولهم . إن العزة لله جميعاً . هو السميع العليم ﴾ . .

ويفرد الله بالعزة هنا ، ولا يضيفها إلى الرسول والمؤمنين - كما في الموضع الآخر - لأن السياق سياق حماية لله لأوليائه . فيفرده بالعزة جميعاً - وهي أصلاً لله وحده ، والرسول والمؤمنون يستمدونها منه - ليجرد منها الناس جميعاً ، ومشركو قريش العتاة داخلون في الناس . أما الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهو في الحماية الإلهية التي أضفاها على أوليائه . فلا يحزن لما يقولون . والله معه وهو السميع العليم . الذي يسمع قولهم ويعلم كيدهم ويحمي أولياءه مما يقال ومما يكاد . وفي ملك يده كل من في السماوات وكل من في الأرض من إنس وجن وملائكة ، ومن عصاة وتقاة ، فكل ذي قوة من خلقه داخل في سلطانه وملكه :

﴿ ألا إن لله من في السماوات ومن في الأرض ﴾ . .

وهذه حكمة ذكر " من " هنا لا " ما " لأن المقصود إثبات أن الأقوياء كالضعفاء كلهم في ملك يده سواء . فالسياق جار فيها مجراه .

﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ﴾ . .

(168/366)

فهؤلاء الشركاء الموهومون ليسوا في حقيقتهم شركاء لله في شيء ؛ وعبادهم ليسوا على يقين مما يزعمون لهم من شركة :

﴿ إن يتبعون إلا الظن . وإن هم إلا يخرصون . ﴾ . .

ثم لفتة إلى بعض مجالي القدرة في المشاهد الكونية التي يغفل عنها الناس بالتكرار :

﴿ هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً . إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ . .

والمالك للحركة وللسكون ، الذي يجعل الليل ليسكن فيه الناس ، ويجعل النهار مبصراً يقود الناس فيتحركون ! ويبصرهم فيبصرون . . ممسك بمقاليد الحركة والسكون ، قادر على الناس ، قادر على حماية أوليائه من الناس . ورسوله - صلى الله عليه وسلم - في مقدمة

أوليائه .

ومن معه من المؤمنين . .

﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ . .

يسمعون فيتدبرون ما يسمعون .

والمنهج القرآني يستخدم المشاهدة الكونية كثيراً في معرض الحديث عن قضية الألوهية والعبودية . ذلك أن هذا الكون بوجوده وبمشاهده شاهد ناطق للفطرة لا تملك لمنطقه رداً . كذلك يخاطب الناس بما في علاقتهم بهذا الكون من تناسق . وهم يجدون هذا في حياتهم فعلاً .

فهذا الليل الذي يسكنون فيه ، وهذا النهار الذي يبصرون به ، هما ظاهرتان كونيتان شديدتا الاتصال بحياتهم . وتناسق هذه الظواهر الكونية مع حياة الناس يحسونه هم – ولو لم يتعمقوا في البحث و " العلم " . ذلك أن فطرتهم الداخلية تفهم عن هذا الكون لغته الخفية !

وهكذا لم يكن البشر في عماية عن لغة الكون حتى جاءتهم " العلوم الحديثة ! " لقد كانوا يفهمون هذه اللغة بكينونتهم كلها . ومن ثم خاطبهم بها العليم الخبير منذ تلك القرون . وهي لغة متجددة بتجدد المعرفة ، وكلما ارتقى الناس في المعرفة كانوا أقدر على فهمها ، متى تفتحت قلوبهم بالإيمان ونظرت بنور الله في هذه الآفاق !

والافتراء على الله بالشركاء يكون بنسبة ولد لله – سبحانه – وقد كان مشركو العرب يزعمون أن الملائكة بنات الله .

(169/366)

وختام هذا الدرس جولة مع هذا النوع من الشرك والافتراء تبدأ بالحجة في الدنيا وتنتهي بالعذاب في الآخرة على طريقة القرآن :

﴿ قالوا : اتخذ الله ولداً ، سبحانه هو الغني ، له ما في السماوات وما في الأرض ، إن عندكم من سلطان بهذا ، أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ قل : إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ . .

وعقيدة أن لله – سبحانه – ولداً ، عقيدة ساذجة ، منشؤها قصور في التصور ، يعجز عن إدراك الفارق الهائل بين الطبيعة الإلهية الأزلية الباقية ، والطبيعة البشرية المخلوقة الفانية ؛ والقصور كذلك عن إدراك حكمة السنة التي جرت بتوالد أبناء الفناء ، وهو التكملة الطبيعية لما فيهم من نقص وقصور لا يكونان لله .

فالبشر يموتون ، والحياة باقية إلى أجل معلوم ، فإلى أن ينقضي هذا الأجل فحكمة الخالق

تقتضي امتداد البشر ، والولد وسيلة لهذا الامتداد .

والبشر يهرمون ويشيخون فيضعفون . والولد تعويض عن القوة الشائخة بقوة فتية ، تؤدي دورها في عمارة الأرض – كما شاء الله – وتعين الضعفاء والشيوخ على بقية الحياة .

والبشر يكافحون فيما يحيط بهم ، ويكافحون أعداؤهم من الحيوان والناس . فهم في حاجة إلى التساند ، والولد أقرب من يكون إلى العون في هذه الأحوال .

والبشر يستكثرون من المال الذي يجلبونه لأنفسهم بالجهد الذي يبذلونه ، والولد يعين على الجهد الذي يجلب المال . .

وهكذا إلى سائر ما اقتضته حكمة الخالق لعمارة هذه الأرض ، حتى ينقضي الأجل ، ويقضي الله أمراً كان مفعولاً .

وليس شيء من ذلك كله متعلقاً بالذات الإلهية ، فلا الحاجة إلى الامتداد ، ولا الحاجة إلى العون عند الشيخوخة ، ولا الحاجة إلى النصير ، ولا الحاجة إلى المال . ولا الحاجة إلى شيء ما مما يخطر أو لا يخطر على البال متعلقة بذات الله تعالى . .

(170/366)

ومن ثم تنتفي حكمة الولد ، لأن الطبيعة الإلهية لا يتعلق بها غرض خارج عن ذاته ، يتحقق بالولد . وما قضت حكمة الله أن يتولد البشر إلا لأن طبيعتهم قاصرة تحتاج إلى هذا النوع من التكملة . فهي تقتضي الولد اقتضاء . وليست المسألة جزافاً .

ومن ثم كان الرد على فرية : ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ . . هو :

﴿ سبحانه ! هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ .

﴿ سبحانه ! . . ﴾ تنزيها لذاته العلية عن مستوى هذا الظن أو الفهم أو التصوّر . ﴿ هو الغني ﴾ . . بكل معاني الغنى ، عن الحاجات التي أسلفنا وعن سواها مما يخطر ومما لا يخطر على البال . مما يقتضي وجود الولد . والمقتضيات هي التي تسمح بوجود المقتضيات ، فلا يوجد شيء عبثاً بلا حاجة ولا حكمة ولا غاية . ﴿ له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ . فكل شيء ملكه . ولا حاجة به – سبحانه – لأن يملك شيئاً بمساعدة الولد . فالولد إذن عبث . تعالى الله سبحانه عن العبث !

ولا يدخل القرآن الكريم في جدل نظري حول الطبيعة الإلهية والطبيعة الناسوتية ، مما جد عند المتكلمين ، وفي الفلسفات الأخرى . لأنه يلمس الموضوعات في واقعها القريب إلى الفطرة . ويتعامل مع الموضوع ذاته لا مع فروض جدلية قد تترك الموضوع الحاصر نهائياً وتصبح غرضاً في ذاتها !

فيكتفي هنا بهذه اللمسة التي تمس واقعهم ، وحاجتهم إلى الولد ، وتصورهم لهذه الحاجة

، وانتفاء وجودها بالقياس إلى الله الغني الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض ، ليبلغ من نفوسهم موضع الاقتناع أو موضع الإفحام ، بلا جدل نظري يضعف أثر اللمسة النفسية التي تستجيب لها الفطرة في يسر وهوادة .

ثم يجبههم بالواقع ، وهو أنهم لا يملكون برهاناً على ما يدعون . ويسمي البرهان سلطاناً ، لأن البرهان قوة ، وصاحب البرهان قوي ذو سلطان :

﴿ إن عندكم من سلطان بهذا ﴾ . .

ما عندكم من حجة ولا برهان على ما تقولون .

﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ ﴾ . .

(171/366)

وقول الإنسان ما لا يعلم منقصة لا تليق . فكيف إذا كان هذا القول بلا علم على الله – سبحانه – ! إنه جريمة إذن أكبر من كل جريمة . فهو أولاً ينافي ما يستحقه الله من عباده من تنزيه وتعظيم ، لأنه وصف له بمقتضيات الحدوث والعجز والنقص والقصور . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ولأنه ضلال في تصور العلاقة بين الخالق والمخلوق ، ينشأ عنه ضلال في تصور كل علاقات الحياة والناس والمعاملات . فكلها فرع من تصور هذه العلاقة .

وكل ما ابتدعه الكهنة لأنفهسم في الوثنيات من سلطان ؛ وكل ابتدعته الكنيسة لها من سلطان ، إنما نشأ عن تصور العلاقة بين الله تعالى وبناته الملائكة : أو بين الله تعالى وعيسى بن مريم من صلة الأبوة والبنوة ، وحكاية الخطيئة ، ومنها نشأت مسألة الاعتراف ، ومسألة قيام كنيسة المسيح بتوصيل الناس بأبي المسيح (بزعمهم) . . إلى نهاية السلسلة التي متى بدأت الحلقة الأولى فيها بفساد تصور العلاقة بين الخالق والمخلوق فسدت الحلقات التالية كلها في كل ضروب الحياة .

فليست المسألة مجرد فساد في التصور الاعتقادي ، ولكنه مسألة الحياة برمتها . وكل ما وقع بين الكنيسة وبين العلم والعقل من عداء ، انتهى إلى تخلص المجتمع من سلطان الكنيسة بتخلصه من سلطان الدين نفسه ! إنما نشأ من هذه الحلقة . حلقة فساد تصور العلاقة بين الله وخلقه . وجر في ذيوله شراً كثيراً تعاني البشرية كلها ويلاته في التيارات المادية وما وراءها من بلايا وأرزاء .

(172/366)

ومن ثم كان حرص العقيدة الإسلامية على تجلية هذه العلاقة تجلية كاملة لا لبس فيها ولا إيهام . . الله خالق أزلي باق ، لا يحتاج إلى الولد . والعلاقة بينه وبين الناس جميعاً هي

علاقة الخالق بخلقه دون استثناء . وللكون والحياة والأحياء سنن ماضية لا تتخلف ولا تحابي . فمن اتبع هذه السنن أفلح وفاز ، ومن حاد عنها ضل وخسر . . الناس في هذا كلهم سواء . وكلهم مرجعهم إلى الله . وليس هنالك من شفعاء ولا شركاء . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً . ولكل نفس ما عملت . ولا يظلم ربك أحداً .

عقيدة بسيطة واضحة ، لا تدع مجالاً لتأويل فاسد ، ولا تنحني أو تنحرف بالقلب في دروب ومنحنيات ، وفي في سحب وضباب !

ومن ثم يقف الجميع سواء أمام الله وكلهم مخاطب بالشريعة ، وكلهم مكلف بها ، وكلهم حفيظ عليها ، وبذلك تستقيم العلاقات بين الناس بعضهم وبعض ، نتيجة استقامة العلاقة بينهم وبين الله .

﴿ قل : إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ . .

لا يفلحون أي فلاح . لا يفلحون في شِعب ولا طريق . لا يفلحون في الدنيا ولا في الأخرى . والفلاح الحقيقي هو الذي ينشأ من مسايرة سنن الله الصحيحة ، المؤدية إلى الخير وارتقاء البشر وصلاح المجتمع ، وتنمية الحياة ، ودفعها إلى الإمام . وليس هو مجرد الإنتاج المادي مع تحطم القيم الإنسانية ، ومع انتكاس البشر إلى مدارج الحيوانية . فذلك فلاح ظاهري موقوت ، منحرف عن خط الرقي الذي يصل بالبشرية إلى أقصى ما تطيقه طبيعتها من الاكتمال .

﴿ متاع في الدنيا . ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ . . مجرد متاع واط . وهو متاع قصير الأمد . وهو متاع مقطوع لأنه لا يتصل بالمتاع اللائق بالبشرية في الدار الآخرة . إنما يعقبه ﴿ العذاب الشديد ﴾ ثمرة للانحراف عن سنن الله الكونية المؤدية إلى المتاع العالي اللائق ببني الإنسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1798.1808 ﴾

(173/366)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وما تكون في شأن ﴾ من النبوة ﴿ وما تتلوا ﴾ من شأن النبوة ﴿ من قرآن ﴾ ﴿ ولا تعملون ﴾ يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ من عمل ﴾ من الأعمال من قبول القرن ورده من مثقال ذرة مما أظهر من حركة في أرض البشرية بعمل من أعمال الخير والشر . ﴿ ولا في السماء ﴾ أي في سماء القلوب بالنيات الصالحة والفاسدة ﴿ ولا أصغر ﴾ من الحركة وهو القصد دون الفعل ﴿ ولا أكبر ﴾ من النية وهو العمل ﴿ ألا إن أولياء الله ﴾ الذين هم أعداء النفوس ﴿ لا خوف عليهم ﴾ من تمني النظر بنفوسهم ﴿

ولا هم يحزنون ﴾ على ما فاتهم من شهوات النفوس للعداوة القائمة بينهم ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا ﴾ بالوقائع والمبشرات ﴿ وفي الآخرة ﴾ بكشف القناع عن جمال العزة . ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ لأحكامه الأزلية حيث قال للولي كن ولياً وللعدوّ كن عدواً ﴿ ولا يحزنك ﴾ يا رسول القلب قول مشركي النفوس في تزيين شهوات الدنيا ولذاتها في نظرك ﴿ إن العزة لله جميعاً ﴾ يعز من يشاء في الدنيا وفي الآخرة جميعاً فلا يمنعه نعيم الدنيا عن نعيم الآخرة بل ربما يعينه على الآخرة كما جاء في الحديث الرباني " وإن من عبادي من لا يصلحه الا الغنى فإن أفقرته يفسده ذلك " ﴿ ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض ﴾ أي القلوب السماوية والنفوس الأرضية ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ أي يظنون أنهم يتبعون شركاء الدنيا والهوى باختيارهم لا باختيارنا ﴿ هو الذي جعل لكم ﴾ ليل البشرية لتستريحوا فيه من تعب المجاهدات ، وتزول عنكم الملالة والكلالة ونهار الروحانية ذا ضياء وبصيرة يبصر بها مصالح السلوك والترقي في المقامات ﴿ لقوم يسمعون ﴾ حقائق القرآن بسمع القلوب الواعية . ثم أخبر عن الشبهات التي تقع في أثناء السلوك قالوا أي مشركو النفوس عند تجلي الروح بالخلافة في صفة الربوبية معترفاً بتجلي صفة إبداع الحق ومبدعة الروح مع كمال قربه واختصاصه بالحق عند بقاء تصرفات الخيال حتى تثبت الأبوة والبنوة

بين الله وبين العبد ، إذ البنوة أخص التعلقات بالوالد . وهذا الكشف والابتداء هو مبتدأ ضلالة اليهود والنصارى ﴿ له ما في السموات ﴾ الروحانية من الكشوف والأحوال ﴿ وما في الأرض ﴾ البشرية من الوهم والخيال وما ينشأ من الشبهات والآفات ﴿ إن الذين يفترون ﴾ هم النفوس الأمارة بالسوء ﴿ لا يفلحون ﴾ لا يظفرون بكشف الحقائق ﴿ ثم نذيقهم لأن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا فأحسوا بالألم والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 599.600 ﴾

(175/366)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والستون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/367)

الجزء السابع والستون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 71 ﴾ من سورة يونس عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 82 ﴾ من نفس السورة

(4/367)

قوله تعالى ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ

اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (71) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقدم سؤالهم الإتيان بما يقترحون من الآيات ، ومضت الإشارة إلى أن تسييرهم في الفلك من أعظم الآيات وإن كانوا لإلفهم له قد نسوا ذلك ، وتناسجت الآي كما سلف إلى أن بين هذا أن متاع المفترين الكذبَ قليل تخويفاً من شديد السطوة وعظيم الأخذ ، عقب ذلك بقصة قوم نوح لأنهم كانوا أطول الأمم الظالمة مدة وأكثرهم عدة ، ثم أخذوا أشد أخذ فزالت آثارهم وانطمست أعلامهم ومنارهم فصاروا كأنهم لم يكونوا أصلاً ولا أظهروا قولاً ولا فعلاً ، فقال تعالى عاطفاً على قوله ﴿ قل إن الذين ﴾ مسلياً لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ م لأن المصيبة إذا عمت خفت ، وتخويفاً للكفار ليرجعوا أو يخفوا من أذاهم : ﴿ واتل ﴾ أي اقرأ قراءة متتابعة مستعلية ﴿ عليهم نبأ نوح ﴾ أي خبره العظيم مذكراً بأول كون الفلك وأنه كان إذ ذاك آية غريبة خارقة للعادة عجيبة ، وأن قوم نوح لم ينفعهم ذلك ولا أغنى عنهم افتراءهم وعنادهم مع تطاول الأمد وتباعد المدد ، بل صار أمرهم إلى زوال ، وأخذ عنيف ونكال ﴿ كأن لم يلبثوا إلاّ ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾ [يونس : 45] مع نجاة رسولهم وخيبة مأمولهم ، قد لبث فيهم ما لم يلبثه نبي في قولهم ولا رسول في أمته ألف سنة إلاّ خمسين عاماً ، وما آمن معه إلاّ

قليل ﴿ إذ قال لقومه ﴾ أي بعد أن دعاهم إلى الله فأطال دعاءهم ومتعوا في الدنيا كثيراً وأملى لهم طويلاً فما زادهم ذلك إلا نفوراً ﴿ يا قوم ﴾ أي يا من يعز عليّ خلافهم ويشق عليّ ما يسوءهم لتهاونهم بحق ربهم مع قوتهم على الطاعة ﴿ إن كان كبر ﴾ أي شق وعظم مشقة صارت جبلة ﴿ عليكم ﴾ ولما كانت عادة الوعاظ والخطباء أن يكونوا حال الخطبة واقفين ، قال : ﴿ مقامي ﴾ أي قيامي ، ولعله خص هذا المصدر لصلاحيته لموضع القيام وزمانه فيكون الإخبار بكراهته لأجل ما وقع فيه من القيام أدل على كراهة القيام ﴿ وتذكيري ﴾ أي بكم ﴿ بآيات الله ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام ، فإن ذلك لا يصدني عن

(5/367)

مجاهدتي بما يكبر عليكم من ذلك خوفاً منكم لأن الله أمرني به وأنا أخاف عذابه إن تركت ، ولا أبالي بكراهيتكم لذلك خوف عاقبة قصدكم لي بالأذى ﴿ فعلى ﴾ أي فإني على ﴿ الله ﴾ أي الذي له العزة كلها وحده ﴿ توكلت ﴾ فإقامة ذلك المقام الجزاء من إطلاق السبب – الذي هو التوكل – على المسبب – الذي هو انتفاء الخوف – مجازاً مرسلاً ، إعلاماً لهم بعظمة الله وحقارتهم بسبب أنهم أعرضوا عن الآيات وهم يعرفونها ،

بما دل عليه التعبير بالتذكير ، فدل ذلك على عنادهم بالباطل ، والمبطل لا يخشى أمره لأن الباطل لا ثبات له ، ودل على ذلك بقوله : ﴿ فأجمعوا أمركم ﴾ أي في أذاي بالإهلاك وغيره ، أعزموا عليه وانووه واجزموا به ، والواو بمعنى " مع " في قوله : ﴿ وشركاءكم ﴾ ليدل على أنه لا يخافهم وإن كانوا شركاءهم أحياء كائنين من كانوا وكانت كلمتهم واحدة لا فرقة فيها بوجه .

ولما كان الذي يتستر بالأمور بما يفوته بعض المقاصد لاشتراط التستر ، أخبرهم أنه لا يمانعهم سواء أبدوا أو أخفوا فقال : ﴿ ثم لا يكن ﴾ أي بعد التأبي وطول زمان المجاوزة في المشاورة ﴿ أمركم ﴾ أي الذي تقصدونه بي ﴿ عليكم غمة ﴾ أي خفياً يستتر عليكم شيء منه بسبب ستر ذلك عني لئلا أسعى في معارضتكم ، فلا تفعلوا ذلك بل جاهروني به مجاهرة فإنه لا معارضة لي بغير الله الذي يستوي عنده السر والعلانية ؛ والتعبير ب ﴿ ثم ﴾ إشارة إلى التأني وإتقان الأمر للأمان من معارضته بشيء من حول منه أو قوة ﴿ ثم اقضوا ﴾ ما تريدون ، أي بتوه بتة المقضي إليه واصلاً ﴿ إلي ﴾ .

ولما كان ذلك ظاهراً في الإنجاز وليس صريحاً ، صرح به في قوله : ﴿ ولا تنظرون ﴾ أي ساعة ما ، وكل ذلك لإظهار قلة المبالاة بهم للاعتماد على الله لأنه لا يعجزه شيء ومعبوداتهم لا تغني شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 465 . 466 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ وشركاؤكم ﴾ بالرفع : يعقوب ﴿ إن أجري ﴾ بفتح الياء حيث كان : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص ﴿ ويكون لكما ﴾ بياء الغيبة : حماد ويزيد وزيد . الباقون بتاء التأنيث ﴿ آلسحر ﴾ بالمد : يزيد وأبو عمرو ﴿ أن تبويا ﴾ بالياء : الخراز وحمزة في الوقف وإن شاء لين الهمزة . الآخرون بالهمز . ﴿ ليضلوا ﴾ بضم الياء : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير المفضل ﴿ ولا تتبعان ﴾ بتخفيف النون : ابن عامر غير الحلواني عن هشام . ﴿ تتبعان ﴾ خفيفة التاء والنون : ابن مجاهد والنقاش عن ابن ذكوان ، وفي كلتا القراءتين خففت النون ثم كسرت لالتقاء الساكنين تشبيهاً بنون التثنية . الباقون والحلواني عن هشام ﴿ تتبعان ﴾ بتشديدها في الحالين ﴿ منت أنه ﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف بدلاً من ﴿ آمنت ﴾ : حمزة وعلي وخلف . الآخرون بالفتح . ﴿ ننجيك ﴾ من الإنجاء : سهل ويعقوب وقتيبة . والآخرون بالتشديد .

(7/367)

الوقوف : ﴿ نبأ نوح ﴾ م لئلا يوهم أن " إذ " ظرف لقوله : ﴿ اتل ﴾ بل التقدير : واذكر إذ قال . ﴿ ولا تنظرون ﴾ ه ﴿ من أجر ﴾ ط ﴿ على الله ﴾ ج لأن التقدير وقد أمرت ﴿ من المسلمين ﴾ ه ﴿ بآياتنا ﴾ ج للفاء ولأن أمر النظر للعبرة يقتضي التثبيت للتدبر ﴿ المنذرين ﴾ ه ﴿ من قبل ﴾ ط ﴿ المعتدين ﴾ ه ﴿ مجرمين ﴾ ه ﴿ مبين ﴾ ه ﴿ لما جاءكم ﴾ ط بناء على أن التقدير أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر والاستفهام في قوله : ﴿ أسحر ﴾ يستحق الابتداء وسيجيء له مزيد بيان ﴿ هذا ﴾ ط للفصل بين الأخبار والاستخبار ﴿ الساحرون ﴾ ه ﴿ في الأرض ﴾ ط ﴿ بمؤمنين ﴾ ه ﴿ عليم ﴾ ه ﴿ ملقون ﴾ ه ﴿ ما جئتم به ﴾ ط لمن قرأ ﴿ آلسحر ﴾ مستفهماً ﴿ السحر ﴾ ط ﴿ سيبطله ﴾ ط ﴿ المفسدين ﴾ ه ﴿ المجرمين ﴾ ه ﴿ أن يفتنهم ﴾ ط ﴿ في الأرض ﴾ ج لاتصال الكلام ﴿ المسرفين ﴾ ه ﴿ مسلمين ﴾ ه ﴿ توكلنا ﴾ ج للعدول مع اتحاد القائل ﴿ الظالمين ﴾ ه لا للعطف . ﴿ الكافرين ﴾ ه ج ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ ط لأن قوله ﴿ وبشر ﴾ خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم وإن أريد به موسى فلا بد من العدول ﴿ المؤمنين ﴾ ه ﴿ الدنيا ﴾ لا لتعلق قوله : ﴿ ليضلوا ﴾ بقوله : ﴿ آتيت ﴾ و ﴿ وربنا ﴾ تكرار للأول لأجل التضرع . ﴿ عن سبيلك ﴾ ج لابتداء النداء مع اتحاد القائل ﴿ الأليم ﴾ ه ﴿ لا يعلمون ﴾ ه ﴿ وعدواً ﴾ ط ﴿

الغرق ﴾ لا لأن قال جواب "إذا " ﴿ المسلمين ﴾ ه ﴿ المفسدين ﴾ ه ﴿ آية ﴾ ط ﴿ لغافلون ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 601 ﴾

(8/367)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾

اعلم أنه سبحانه لما بالغ في تقرير الدلائل والبينات ، وفي الجواب عن الشبه والسؤالات ، شرع بعد ذلك في بيان قصص الأنبياء عليهم السلام لوجوه : أحدها : أن الكلام إذا أطال في تقرير نوع من أنواع العلوم ، فربما حصل نوع من أنواع الملالة فإذا انتقل الإنسان من ذلك الفن من العلم إلى فن آخر ، انشرح صدره وطاب قلبه ووجد في نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلاً قوياً .

وثانيها : ليكون للرسول عليه الصلاة والسلام ولأصحابه أسوة بمن سلف من الأنبياء ، فإن الرسول إذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كانت إلا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه ، كما يقال : المصيبة إذا عمت خفت .

وثالثها : أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص ، وعلموا أن الجهال ، وإن بالغوا في إيذاء الأنبياء المتقدمين إلا أن الله تعالى أعانهم بالآخرة ونصرهم وأيدهم وقهر أعداءهم ، كان سماع هؤلاء الكفار لأمثال هذه القصص سبباً لانكسار قلوبهم ، ووقوع الخوف والوجل في صدورهم ، وحينئذ يقللون من أنواع الإيذاء والسفاهة .

ورابعها : أنا قد دللنا على أن محمداً عليه الصلاة والسلام لما لم يتعلم علماً ، ولم يطالع كتاباً ثم ذكر هذه الأقاصيص من غير تفاوت ، ومن غير زيادة ومن غير نقصان ، دل ذلك على أنه صلى الله عليه وسلم إنما عرفها بالوحي والتنزيل .

واعلم أنه تعالى ذكر في هذه السورة من قصص الأنبياء عليهم السلام ثلاثة .

فالقصة الأولى : قصة نوح عليه السلام ، وهي المذكورة في هذه الآية ، وفيها وجهان من الفائدة : الأول : أن قوم نوح عليه السلام لما أصروا على الكفر والجحد عجل الله هلاكهم بالغرق فذكر الله تعالى قصتهم لتصير تلك القصة عبرة لهؤلاء الكفار ، وداعية إلى مفارقة الجحد بالتوحيد والنبوة .

والثاني : أن كفار مكة كانوا يستعجلون العذاب الذي يذكره الرسول عليه السلام لهم وكانوا يقولون له كذبت ، فإنه ما جاءنا هذا العذاب ، فالله تعالى ذكر لهم قصة نوح عليه السلام لأنه عليه السلام كان يخوفهم بهذا العذاب وكانوا يكذبونه فيه ، ثم بالآخرة وقع كما أخبر فكذا ههنا .

المسألة الثانية :

أن نوحاً عليه السلام قال لقومه : ﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ وهذا جملة من الشرط والجزاء ، أما الشرط فهو مركب من قيدين :

القيد الأول : قوله : ﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِى ﴾ قال الواحدي في "البسيط" : يقال كبر يكبر كبراً في السن ، وكبر الأمر والشيء إذا عظم يكبر كبراً وكبارة .

قال ابن عباس : ثقل عليكم وشق عليكم وعظم أمره عندكم والمقام بفتح الميم مصدر كالإقامة .

يقال : أقام بين أظهرهم مقاماً وإقامة ، والمقام بضم الميم الموضع الذي يقام فيه ، وأراد بالمقام ههنا مكثه ولبثه فيهم وبالجملة فقوله : ﴿ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِى ﴾ جار مجرى قولهم : فلان ثقيل الظل .

واعلم أن سبب هذا الثقل أمران : أحدهما : أنه عليه السلام مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .

والثاني : أن أولئك الكفار كانوا قد ألفوا تلك المذاهب الفاسدة والطرائق الباطلة والغالب أن من ألف طريقة في الدين فإنه يثقل عليه أن يدعى إلى خلافها ، ويذكر له ركاكتها ، فإن اقترن بذلك طول مدة الدعاء كان أثقل وأشد كراهية ، فإن اقترن به إيراد الدلائل القاهرة على فساد تلك المذهب كانت النفرة أشد فهذا هو السبب في حصول ذلك الثقل .

والقيد الثاني : هو قوله : ﴿ وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللهِ ﴾ .

(10/367)

واعلم أن الطباع المشغوفة بالدنيا الحريصة على طلب اللذات العاجلة تكون شديدة النفرة عن الأمر بالطاعات والنهي عن المعاصي والمنكرات ، قوية الكراهة لسماع ذكر الموت وتقبيح صورة الدنيا ومن كان كذلك فإنه يستثقل الإنسان الذي يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر وفي الآية وجه آخر وهو أن يكون قوله : ﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللهِ ﴾ معناه أنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم ظاهراً وكلامهم مسموعاً ، كما يحكى عن عيسى عليه السلام أنه كان يعظ الحواريين قائماً وهم قعود .

واعلم أن هذا هو الشرط المذكور في هذه الآية ، أما الجزاء ففيه قولان :

القول الأول : أن الجزاء هو قوله : ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ يعني أن شدة بغضكم لي تحملكم على الإقدام على إيذائي وأنا لا أقابل ذلك الشر إلا بالتوكل على الله .

واعلم أنه عليه السلام كان أبداً متوكلاً على الله تعالى ، وهذا اللفظ يوهم أنه توكل على الله في هذه الساعة ، لكن المعنى أنه إنما توكل على الله في دفع هذا الشر في هذه الساعة .

والقول الثاني : وهو قول الأكثرين إن جواب الشرط هو قوله : ﴿ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ كلام اعترض به بين الشرط وجوابه كما تقول في الكلام إن كنت أنكرت علي شيئاً فالله حسبي فاعمل ما تريد واعلم أن جواب هذا الشرط مشتمل على قيود خمسة على الترتيب .

القيد الأول : قوله : ﴿ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : قال الفراء : الإجماع الإعداد والعزيمة على الأمر وأنشد :

يا ليت شعري والمنى لا تنفع . . هل اغدون يوماً وأمري مجمع

(11/367)

فإذا أردت جمع التفرق قلت : جمعت القوم فهم مجموعون ، وقال أبو الهيثم : أجمع أمره ، أي جعله جميعاً بعد ما كان متفرقاً ، قال : وتفرقه ، أي جعل يتدبره فيقول : مرة أفعل كذا ومرة

أفعل كذا فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه ، أي جعله جميعاً فهذا هو الأصل في الإجماع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ ﴾ [يوسف : 102] ثم صار بمعنى العزم حتى وصل بعلى فقيل : أجمعت على الأمر ، أي عزمت عليه ، والأصل أجمعت الأمر .

البحث الثاني : روى الأصمعي عن نافع ﴿ فَاجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ ﴾ بوصل الألف من الجمع وفيه وجهان : الأول : قال أبو علي الفارسي : فاجمعوا ذوي الأمر منكم فحذف المضاف ، وجرى على المضاف إليه ما كان يجري على المضاف لو ثبت .

الثاني : قال ابن الأنباري : المراد من الأمر ههنا وجوه كيدهم ومكرهم ، فالتقدير : ولا تدعوا من أمركم شيئاً إلا أحضرتموه .

والقيد الثاني : قوله : ﴿ وَشُرَكَاءكُمْ ﴾ وفيه أبحاث :

البحث الأول : الواو ههنا بمعنى مع ، والمعنى : فأجمعوا أمركم مع شركائكم ، ونظيره قولهم لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها ، ولو خليت نفسك والأسد لأكلك .

البحث الثاني : يحتمل أن يكون المراد من الشركاء الأوثان التي سموها بالآلهة ، ويحتمل أن يكون المراد منها من كان على مثل قولهم ودينهم ، فإن كان المراد هو الأول فإنما حث الكفار على الاستعانة بالأوثان بناء على مذهبهم من أنها تضر وتنفع ، وإن كان المراد هو الثاني فوجه الاستعانة بها ظاهر .

البحث الثالث : قرأ الحسن وجماعة من القراء ﴿ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ بالرفع عطفاً على الضمير المرفوع ، والتقدير : فأجمعوا أنتم وشركاؤكم .

(12/367)

قال الواحدي : وجاز ذلك من غير تأكيد الضمير كقوله : ﴿ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة ﴾ [البقرة : 35] لأن قوله : ﴿ أَمْرَكُمْ ﴾ فصل بين الضمير وبين المنسوق ، فكان كالعوض من التوكيد وكان الفراء يستقبح هذه القراءة ، لأنها توجب أن يكتب وشركاؤكم بالواو وهذا الحرف غير موجود في المصاحف .

القيد الثالث : قوله : ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ قال أبو الهيثم : أي مبهماً من قولهم غم علينا الهلال فهو مغموم إذا التبس قال طرفة :

لعمري ما أمري علي بغمة . . نهاري ولا ليلي علي بسرمد

وقال الليث : إنه لفي غمة من أمره إذا لم يهتد له .

قال الزجاج : أي ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً .

القيد الرابع : قوله : ﴿ ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : قال ابن الأنباري معناه ثم امضوا إلي بمكروهكم وما توعدونني به ، تقول

العرب : قضى فلان ، يريدون مات ومضى ، وقال بعضهم : قضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه وبه يسمى القاضي ، لأنه إذا حكم فقد فرغ فقوله : ﴿ ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ ﴾ أي افرغوا من أمركم وامضوا ما في أنفسكم واقطعوا ما بيني وبينكم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إلى بَنِي إسرائيل فِي الكتاب ﴾ [الإسراء : 4] أي أعلمناهم إعلاماً قاطعاً ، قال تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الامر ﴾ [الحجر : 66] قال القفال رحمه الله تعالى ومجاز دخول كلمة ﴿ إلى ﴾ في هذا الموضع من قولهم برئت إليك وخرجت إليك من العهد ، وفيه معنى الإخبار فكأنه تعالى قال : ثم اقضوا ما يستقر رأيكم عليه محكماً مفروغاً منه .

البحث الثاني : قرىء ﴿ ثم أفضوا إلي ﴾ بالفاء بمعنى ثم انتهوا إلى بشركم ، وقيل : هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى الفضاء ، أي أصحروا به إلي وأبرزوه إلي .

(13/367)

القيد الخامس : قوله : ﴿ وَلاَ تُنظِرُونَ ﴾ معناه لا تمهلون بعد إعلامكم إياي ما اتفقتم عليه فهذا هو تفسير هذه الألفاظ ، وقد نظم القاضي هذا الكلام على أحسن الوجوه فقال إنه عليه السلام قال : " في أول الأمر فعلى الله توكلت فإني واثق بوعد الله جازم بأنه لا يخلف

الميعاد ولا تظنوا أن تهديدكم إياي بالقتل والإيذاء يمنعني من الدعاء إلى الله تعالى " ثم إنه عليه السلام أورد ما يدل على صحة دعوته فقال : " فأجمعوا أمركم " فكأنه يقول لهم أجمعوا كل ما تقدرون عليه من الأسباب التي توجب حصول مطلوبكم ثم لم يقتصر على ذلك بل أمرهم أن يضموا إلى أنفسهم شركائهم الذين كانوا يزعمون أن حالهم يقوى بمكانتهم وبالتقرب إليهم ، ثم لم يقتصر على هذين بل ضم إليهما ثالثاً وهو قوله : ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ وأراد أن يبلغوا فيه كل غاية في المكاشفة والمجاهرة ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى ضم إليها : رابعاً فقال : ﴿ ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ ﴾ والمراد أن وجهوا كل تلك الشرور إلي ، ثم ضم إلى ذلك خامساً .

وهو قوله : ﴿ وَلاَ تُنظِرُونَ ﴾ أي عجلوا ذلك بأشد ما تقدرون عليه من غير إنظار فهذا آخر هذا الكلام ومعلوم أن مثل هذا الكلام يدل على أنه عليه السلام كان قد بلغ الغاية في التوكل على الله تعالى وأنه كان قاطعاً بأن كيدهم لا يصل إليه ومكرهم لا ينفذ فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 109 . 112 ﴾

(14/367)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . فَأَجْمِعُوا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : فاجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم لنصرتكم ، قاله الفراء .

الثاني : فاجمعوا أمركم مع شركائكم على تناصركم ، قاله الزجاج .

وفي هذا الإجماع وجهان :

أحدهما : أنه الإعداد .

الثاني : أنه العزم .

﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أن الغمة ضيق الأمر الذي يوجب الغم .

الثاني : أنه المغطى ، من قولهم : قد غم الهلال إذا استتر .

وفي المراد بالأمر ها هنا وجهان :

أحدهما : من يدعونه من دون الله تعالى .

الثاني : ما هم عليه من عزم .

﴿ ثُمَّ اقْضُوا۟ إِلَيَّ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ثم انهضوا ، قاله ابن عباس .

الثاني : ثم اقضوا إليّ ما أنتم قاضون ، قاله قتادة .

الثالث : اقضوا إليّ ما في أنفسكم ، قاله مجاهد .

﴿ وَلَا تُنظِرُونَ ﴾ قال ابن عباس : ولا تؤخروني .

قوله عز وجل : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ يعني عن الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(15/367)

وقال ابن عطية :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾

تقدم في الأعراف الكلام على لفظة ﴿ نوح ﴾

و" المقام " وقوف الرجل لكلام أو خطبة أو نحوه ، و" المُقام بضم الميم إقامته ساكناً في موضع أو بلد ، ولم يقرأ هنا بضم الميم و" تذكيره " : وعظه وزجره ، والمعنى : يا قوم إن كنتم تستضعفون حالي ودعائي لكم إلى الله فإني لا أبالي عنكم لتوكلي على الله تعالى فافعلوا ما قدرتم عليه ، وقرأ السبعة وجمهور الناس وابن أبي إسحاق وعيسى : " فأجمعوا " من أجمع الرجل على الشيء إذا عزم عليه ومنه قول الشاعر : [الكامل]

هل أغدونْ يوماً وأمر مجمع . . . ومنه قول الآخر : [الخفيف]

أجمعوا أمرهم بليلٍ فلما . . . أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

ومنه الحديث ما لم يجمع مكثاً ومنه قول أبي ذؤيب : [الكامل]

ذكر الورود بها فأجمع أمرَهُ . . . شوقاً وأقبلَ حينه يتتبع

وقرأ نافع فيما روى عنه الأصمعي وهي قراءة الأعرج وأبي رجاء وعاصم الجحدري والزهري والأعمش " فاجمَعوا بفتح الميم من جمع إذا ضم شيئاً إلى شيء ، و﴿ أمركم ﴾ يريد به قدرتكم وحياتكم ويؤيد هذه القراءة قوله تعالى : ﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ﴾ [طه : 60] وكل هؤلاء نصب " الشركاء " ، ونصب قوله : ﴿ شركاءكم ﴾ ، يحتمل أن يعطف على قوله ﴿ أمركم ﴾ ، وهذا على قراءة " فاجمعوا " بالوصل ، وأما من قرأ : " فأجمعوا " بقطع الألف فنصب " الشركاء " بفعل مضمر كأنه قال : وادعوا شركاءكم فهو من باب قول الشاعر : [المتقارب]

شراب اللبان وتمر وأقط . . . ومن قول الآخر : [مجزوء الكامل مرفل]

ورأيت زوجك في الوغى . . . متقلداً سيفاً ورمحا

ومن قول الآخر : [الرجز]

علفتها تبناً وماء بارداً . . . حتى شَأت همالة عيناها

وفي مصحف أبي بن كعب : " فأجمعوا وادعوا شركاءكم " ، قال أبو علي : وقد ينتصب " الشركاء " بواو " مع " ، كما قالوا جاء البريد والطيالسة ، وقرأ أبو عبد الرحمن والحسن وابن أبي إسحاق وعيسى وسلام ويعقوب وأبو عمرو فيما روي عنه " وشركاؤكم " بالرفع عطفاً على الضمير في ﴿ أجمعوا ﴾ ، وعطف على الضمير قبل تأكيده لأن الكاف والميم في ﴿ أمركم ﴾ ناب مناب أنتم المؤكد للضمير ، ولطول الكلام أيضاً ، وهذه العبارة أحسن من أن يطول الكلام بغير ضمير ، ويصح أن يرتفع بالابتداء والخبر مقدر تقديره وشركاؤهم فليجمعوا ، وقرأت فرقة " وشركائكم " بالخفض على العطف على الضمير في قوله : ﴿ أمركم ﴾ ، التقدير وأمر شركائكم ، فهو كقول الشاعر [العجّاج] :

أكل امرىء تحسبين أمرأً . . . ونار توقد بالليل نارا

أي وكل نار ، والمراد بالشركاء في هذه الآية الأنداد من دون الله ، فأضافهم إليهم إذ يجعلونهم شركاء بزعمهم ، وقوله ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ ، أي ملتبساً مشكلاً ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في الهلال ، " فإن غم عليكم " ومنه قول الراجز :

ولو شهدت الناس إذا تكمّوا . . . بغمة لو لم تفرجْ غمّوا

وقوله ﴿ ثم اقضوا إلي ﴾ ومعناه أنفذوا قضاءكم نحوي ، وقرأ السدي بن ينعم : " ثم أفضوا " بالفاء وقطع الألف ، ومعناه : أسرعوا وهو مأخوذ من الأرض الفضاء أي اسلكوا

إلي بكيدكم واخرجوا معي وبي إلى سعة وجلية ، وقوله ﴿ ولا تنظرون ﴾ أي لا تؤخرون والنظرة التأخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(17/367)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾

أمره عليه السلام أن يذكّرهم أقاصيص المتقدّمين ، ويخوّفهم العذاب الأليم على كفرهم .

وحذفت الواو من "اتل" لأنه أمر ؛ أي اقرأ عليهم خبر نوح .

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ "إذ" في موضع نصب .

﴿ يا قوم إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي عظم وثقل عليكم .

﴿ مَّقَامِي ﴾ المقام (بفتح الميم) : الموضع الذي يقوم فيه .

والمُقام (بالضم) الإقامة .

ولم يُقرأ به فيما علمت ؛ أي إن طال عليكم لُبْثي فيكم .

﴿ وَتَذْكِيرِي ﴾ إياكم ، وتخْويفي لكم .

﴿ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ وعزمتم على قتلي وطردي .

﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي اعتمدت .

وهذا هو جواب الشرط ، ولم يزل عليه السلام متوكلاً على الله في كل حال ، ولكن بيّن أنه متوكل في هذا على الخصوص ليعرف قومه أن الله يكفيه أمرهم ؛ أي إن لم تنصروني فإني أتوكّل على من ينصرني .

قوله تعالى : ﴿ فأجمعوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ قراءة العامة "فَأَجْمِعُوا" بقطع الألف "شُرَكَاءَكُمْ" بالنصب .

وقرأ عاصم الجَحْدرِيّ "فاجمعوا" بوصل الألف وفتح الميم ؛ من جَمع يجمع .

"شُرَكَاءَكُمْ" بالنصب .

وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق ويعقوب "فأجمِعوا" بقطع الألف "شركاؤكم" بالرفع .

فأما القراءة الأُولى من أجمع على الشيء إذا عزم عليه .

وقال الفراء : أجمع الشيء أعدّه .

وقال المؤرّج : أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه .

وأنشد :

يا ليت شعري والمُنَى لا تنفع . . .

هل أَغْدُوَنْ يوماً وأمري مُجْمَعُ

قال النحاس : وفي نصب الشركاء على هذه القراءة ثلاثة أوجه ؛ قال الكسائي والفراء :

هو بمعنى وادعوا شركاءكم لنصرتكم ؛ وهو منصوب عندهما على إضمار هذا الفعل .

وقال محمد بن يزيد : هو معطوف على المعنى ؛ كما قال :

يا ليت زوجَك في الوَغَى . . .

متقلّدا سَيْفاً ورُمْحاً

والرمح لا يُتقلّد ، إلا أنه محمول كالسيف .

(18/367)

وقال أبو إسحاق الزجاج : المعنى مع شركائكم على تناصركم ؛ كما يقال : التقى الماء والخشبةَ .

والقراءة الثانية من الجمع ، اعتباراً بقوله تعالى : ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ [طاه : 60] .

قال أبو معاذ : ويجوز أن يكون جَمَعَ وأَجْمع بمعنًى واحد ، "وشركاءكم" على هذه القراءة عطف على "أمركم" ، أو على معنى فأجمعوا أمركم وأجمعوا شركاءكم ، وإن شئت بمعنى مع .

قال أبو جعفر النحاس : وسمعت أبا إسحاق يجيز قام زيد وعمراً .

والقراءة الثالثة على أن يعطف الشركاء على المضمر المرفوع في أجمعوا ، وحسن ذلك لأن

الكلام قد طال .

قال النحاس وغيره : وهذه القراءة تبعد ؛ لأنه لو كان مرفوعاً لوجب أن تكتب بالواو ، ولم يُرَ في المصاحف واو في قوله "وشركاءكم" ، وأيضاً فإن شركاءهم الأصنام ، والأصنام لا تصنع شيئاً ولا فعل لها حتى تُجْمِع .

قال المهدويّ : ويجوز أن يرتفع الشركاء بالابتداء والخبر محذوف ، أي وشركاءكم ليجمعوا أمرهم ، ونسب ذلك إلى الشركاء وهي لا تسمع ولا تبصر ولا تميز على جهة التوبيخ لمن عبدها .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ اسم يكن وخبرها .

وغُمّة وغَمّ سواء ، ومعناه التغطية ؛ من قولهم : غُمّ الهلال إذا استتر ؛ أي ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً تتمكنون فيه ممّا شئتم ؛ لا كمن يخفَى أمرُه فلا يقدر على ما يريد .

قال طرفَة :

لعمرك ما أمري عليّ بغُمّة . . .

نهاري ولا ليلي عليَّ بسَرْمَد

الزجاج : غمّة ذا غم ، والغم والغُمّة كالكَرْب والكُرْبة .

وقيل : إن الغمة ضيق الأمر الذي يوجب الغم فلا يتبيّن صاحبه لأمره مصدراً لينفرج عنه ما يغُمّه .

وفي الصحاح: والغمة الكربة.

قال العجاج:

بل لو شهدت الناس إذ تُكُمُّوا . . .

بغُمّة لو لم تُفَرَّج غُمُّوا

يقال: أمْرٌ غُمّة، أي مُبْهَم ملتبس؛ قال تعالى:

﴿ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾.

قال أبو عبيدة: مجازها ظلمة وضيق.

(19/367)

والغمة أيضاً: قعر النِّحْي وغيره.

قال غيره: وأصل هذا كله مشتق من الغمامة.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونَ ﴾ ألف "اقضوا" ألف وصل، من قضى يقضي.

قال الأخفش والكسائي: وهو مثل.

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر ﴾ [الحجر: 66]، أي أنهيناه إليه وأبلغناه إياه.

ورُوي عن ابن عباس "ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ" قال : امضوا إليّ ولا تؤخرون .

قال النحاس : هذا قول صحيح في اللغة ؛ ومنه : قَضَى الميت أي مضى .

وأعلمهم بهذا أنهم لا يصلون إليه ، وهذا من دلائل النبوّات .

وحكى الفراء عن بعض القراء "ثم أفضوا إليّ" بالفاء وقطع الألف ، أي توجهوا ؛ يقال : أفضت الخلافة إلى فلان ، وأفضى إليّ الوجع .

وهذا إخبار من الله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام أنه كان بنصر الله واثقاً ، ومن كيدهم غير خائف ؛ علماً منه بأنهم وآلهتهم لا ينفعون ولا يضرون .

وهو تعزيةٌ لنبيه صلى الله عليه وسلم وتقويةٌ لقلبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(20/367)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح ﴾

لما ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة أحوال كفار قريش وما كانوا عليه نم الكفر والعناد شرع بعد ذلك في بيان قصص الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم ليكون في ذلك لرسول

الله (صلى الله عليه وسلم) أسوة بمن سلف من الأنبياء وتسلية له ليخف عليه ما يلقى من أذى قومه وأن الكفار من قومه إذا سمعوا هذه القصص وما جرى لكفار الأمم الماضية من العذاب والهلاك في الدنيا كان ذلك سبباً لخوف قلوبهم وداعياً لهم إلى الإيمان .

(21/367)

ولما كان قوم نوح أول الأمم هلاكاً وأعظمهم كفراً وجحوداً ذكر الله قصتهم وأنه أهلكهم بالغرق ليصير ذلك موعظة وعبرة لكفار قريش ، فقال سبحانه وتعالى واتل عليهم نبأ نوح يعني واقرأ على قومك يا محمد خبر قوم نوح ﴿ إذ قال لقومه يا قوم ﴾ وهو بنو قابيل ﴿ إن كان كبر ﴾ يعني ثقل ﴿ عليكم مقامي ﴾ يعني فيكم ﴿ وتذكيري بآيات الله ﴾ يعني : ووعظي إياكم بآيات الله : وقيل : معناه إن كان ثقل وشق عليكم طول مقامي فيكم وذلك أنه أقام فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى ويذكرهم بآيات الله وهو قوله وتذكيري بآيات الله يعني ووعظي بآيات الله وحججه وبيناته فعزمتم على قتلي وطردي ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ يعني فهو حسبي وثقتي ﴿ فأجمعوا أمركم ﴾ يعني فأحكموا أمركم واعزموا عليه ، قال الفراء : الإجماع الإعداد والعزيمة على الأمر قال ابن الأنباري : المراد من الأمر هنا وجوه كيدهم وكرهم فالتقدير لا تدعوا من أمركم شيئاً إلا أحضرتموه

﴿ وشركاءكم ﴾ يعني وادعوا شركاءكم يعني آلهتكم فاستعينوا بها لتجمع معكم وتعينكم على مطلوبكم وإنما حثهم على الاستعانة بالأصنام بناء على مذهبهم واعتقادهم أنها تضر وتنفع مع اعتقاده أنها جماد لا تضر ولا تنفع فهو كالتبكيت والتوبيخ لهم ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ يعني لا يكن أمركم عليكم خفياً مبهماً ولكن ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً من قولهم غم الهلال فهو مغموم إذا خفي والتبس على الناس ﴿ ثم اقضوا ﴾ ثم امضوا ﴿ إليّ ﴾ بما في أنفسكم من مكروه وما توعدوني به من قتل وطرد وافرغوا منه تقول العرب قضى فلان إذا مات ومضى وقيل معناه ثم اقضوا ما أنتم قاضون ﴿ ولا تنظرون ﴾ أي : ولا تؤخروني ولا تمهلوني بعد إعلامكم إياي ما أنتم عليه وهذا الكلام من نوح عليه الاسلام على طريق التعجيز لهم أخبر الله عن نوح عليه السلام أنه كان قد بلغ الغاية في التوكل على الله وأنه كان واثقاً بنصره غير خائف من كيدهم علماً منه بأنهم وآلهتهم ليس لهم نفع ولا ضر وإن مكرهم لا يصل إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(22/367)

وقال أبو حيان :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾

لما ذكر تعالى الدلائل على وحدانيته ، وذكر ما جرى بين الرسول وبين الكفار ، ذكر قصصاً من قصص الأنبياء وما جرى هم مع قومهم من الخلاف وذلك تسلية للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وليتأسى بمن قبله من الأنبياء فيخف عليه ما يلقى منهم من التكذيب وقلة الاتباع ، وليعلم المتلوّ عليهم هذا القصص عاقبة من كذب الأنبياء ، وما منح الله نبيه من العلم بهذا القصص وهو لم يطالع كتاباً ولا صحب عالماً ، وأنها طبق ما أخبر به .

فدل ذلك على أن الله أوحاه إليه وأعلمه به ، وأنه نبي لا شك فيه .

والضمير في عليهم عائد على أهل مكة الذين تقدم ذكرهم .

وكبر معناه عظم مقامي أي : طول مقامي فيكم ، أو قيامي للوعظ .

كما يحكى عن عيسى عليه السلام أنه كان يعظ الحواريين قائماً ليروه وهم قعود ، وكقيام الخطيب ليسمع الناس وليروه ، أو نسب ذلك إلى مقامه والمراد نفسه كما تقول : فعلت كذا لمكان فلان ، وفلان ثقيل الظل تريد لأجل فلان وفلان ثقيل .

قال ابن عطية : ولم يقرأ هنا بضم الميم انتهى .

وليس كما ذكر ، بل قرأ مقامي بضم الميم أبو مجلز وأبو رجاء وأبو الجوزاء .

والمقام الإقامة بالمكان ، والمقام مكان القيام .

والتذكير وعظه إياهم وزجرهم عن المعاصي ، وجواب الشرط محذوف تقديره : فافعلوا ما شئتم .

وقيل : الجواب فعلى الله توكلت .

وفأجمعوا معطوف على الجواب ، وهو لا يظهر لأنه متوكل على الله دائماً .

وقال الأكثرون : الجواب فأجمعوا ، وفعلى الله توكلت جملة اعتراض بين الشرط وجزائه كقوله :

أما تريني قد نحلت ومن يكن . . .

غرضاً لأطراف الأسنة ينحل

فلرب أبلج مثل ثقلك بادن . . .

ضخم على ظهر الجواد مهبل

وقرأ الجمهور : فأجمعوا من أجمع الرجل الشيء عزم عليه ونواه .

قال الشاعر :

أجمعوا أمرهم بليل فلما . . .

أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

وقال آخر :

يا ليت شعري والمنى لا تنفع . . .

هل أعذرت يوماً وأمري مجمع

(23/367)

وقال أبو قيد السدوسي : أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه .

وقال أبو الهيثم : أجمع أمره جعله مجموعاً بعدما كان متفرقاً ، قال : وتفرقته أنه يقول مرة أفعل كذا ، ومرة أفعل كذا ، فإذا عزم على أمر واحد قد جعله أي : جعله جميعاً ، فهذا هو الأصل في الإجماع ، ثم صار بمعنى العزم حتى وصل بعلى ، فقيل : أجمعت على الأمر أي عزمت عليه ، والأصل أجمعت الأمر انتهى .

وعلى هذا القراءة يكون وشركاءكم عطفاً على أمركم على حذف مضاف أي : ك وأمر شركائكم ، أو على أمركم من غير مراعاة محذوف .

لأنه يقال أيضاً : أجمعت شركائي ، أو منصوباً بإضمار فعل أي : وادعوا شركاءكم ، وذلك بناء على أنه لا يقال أجمعت شركائي يعني في الأكثر ، فيكون نظير قوله :

فعلفتها تبناً وماء بارداً . . .

حتى شتت همالة عيناها

في أحد المذهبين أي : وسقيتها ماء بارداً ، وكذا هي في مصحف أبي .

وادعوا شركاءكم ، وقال أبو علي : وقد تنصب الشركاء بواو مع كما قالوا : جاء البرد والطيالسة .

ولم يذكر الزمخشري في نصب ، وشركاءكم غير قول أبي على أنه منصوب بواو مع ، وينبغي أن يكون هذا التخريج على أنه مفعول معه من الفاعل وهو الضمير في اجمعوا لا من المفعول الذي هو أمركم ، وذلك على أشهر الاستعمالين .

لأنه يقال : أجمع الشركاء ، ولا يقال جمع الشركاء أمرهم إلا قليلاً ، ولا أجمعت الشركاء إلا قليلاً .

وفي اشتراط صحة جواز العطف فيما يكون مفعولاً معه خلاف ، فإذا جعلناه من الفاعل كان أولى .

وقرأ الزهري ، والأعمش ، والجحدري ، وأبو رجاء ، والأعرج ، والأصمعي عن نافع ، ويعقوب : بخلاف عنه فاجمعوا بوصل الألف وفتح الميم من جمع ، وشركاءكم عطف على أمركم لأنه يقال : شركائي ، أو على أنه مفعول معه ، أو على حذف مضاف أي : ذوي الأمر منكم ، فجرى على المضاف إليه ما جرى على المضاف ، لو ثبت قاله أبو علي .

وفي كتاب اللوامح : أجمعت الأمر أي جعلته جميعاً ، وجمعت الأموال جميعاً ، فكان الإجماع في الاحداث والجمع في الاعيان ، وقد يستعمل كل واحد مكان الآخر .

وفي التنزيل : ﴿ فجمع كيده ﴾ انتهى .

وقرأ أبو عبد الرحمن ، والحسن ، وابن أبي إسحاق ، وعيسى بن عمر ، وسلام ، ويعقوب فيما روي عنه : وشركاؤكم بالرفع ، ووجه بأنه عطف على الضمير في فأجمعوا ، وقد وقع الفصل بالمفعول فحسن ، وعلى أنه مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما قبله عليه أي :

وشركاؤكم فليجمعوا أمرهم .

وقرأت فرقة : وشركائكم بالخفض عطفاً على الضمير في أمركم أي : وأمر شركائكم فحذف كقول الآخر :

أكل امرىء تحسبين امرءاً . . .

ونار توقد بالليل ناراً

أي وكل نار ، فحذف كل لدلالة ما قبله عليه .

والمراد بالشركاء الأنداد من دون الله ، أضافهم إليهم إذ هم يجعلونهم شركاء بزعمهم ، وأسند الإجماع إلى الشركاء على وجه التهكم كقوله تعالى : ﴿ قل ادعو شركاءكم ثم كيدون ﴾ أو يراد بالشركاء من كان على دينهم وطريقتهم .

قال ابن الأنباري : المراد من الأمر هنا وجود كيدهم ومكرهم ، فالتقدير : لا تتركوا من أمركم شيئاً إلا أحضرتموه انتهى .

وأمره إياهم بإجماع أمرهم دليل على عدم مبالاته بهم ثقة بما وعده ربه من كلاءته وعصمته ، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة أي حالكم معي وصحبتكم لي غماً ، وهماً أي : ثم أهلكوني لئلا يكون عيشكم بسببي غصة ، وحالكم عليكم غمة .

والغم والغمة كالكرب والكربة ، قال أبو الهيثم : هو من قولهم غم علينا الهلال فهو مغموم إذا التمس فلم ير .

وقال طرفة :

لعمرك ما أمري عليّ بغمة . . .

نهاري ولا ليلي عليّ بسرمد

وقال الليث : يقال : إنه لفي غمة من أمره إذا لم يتبين له .

وقال الزجاج : أمركم ظاهراً مكشوفاً ، وحسنه الزمخشري فقال : وقد ذكر القول الأول الذي يراد بالأمر فقال : والثاني أن يراد به ما أريد بالأمر الأول .

والغمة السترة ، من غمه إذا ستره .

ومنه قوله (صلى الله عليه وسلم) : " ولا غمة في فرائض الله تعالى " أي لا تستر ولكن يجاهر بها ، يعني : ولا يكن قصدكم إلى إهلاكي مستوراً عليكم ، بل مكشوفاً مشهوراً تجاهرون به انتهى .

ومعنى اقضوا : إلي أنفذوا قضاءكم نحوي ، ومفعول اقضوا محذوف أي : اقضوا إليّ ذلك الأمر وامضوا في أنفسكم ، واقطعوا ما بيني وبينكم .

وقرأ السري بن ينعم : ثم أفضوا بالفاء وقطع الألف ، أي : انتهوا إليّ بشركم من أفضى بكذا انتهى إليه .

وقيل : معناه أسرعوا .

وقيل : من أفضى إذا خرج إلى الفضاء أي : فاصحروا به إليّ وأبرزوه .

ومنه قول الشاعر :

أبى الضيم والنعمان تحرق نابه . . .

عليه فأفضى والسيوف معاقله

ولا تنظرون : أي لا تؤخرون ، والنظرة التأخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(26/367)

وقال أبو السعود :

﴿ واتل عَلَيْهِمْ ﴾

أي على المشركين من أهل مكةَ وغيرِهم لتحقيق ما سبق من أنهم لا يفلحون وأن ما يتمعون به على جناح الفواتِ وأنهم مشرِفون على العذاب الخالد ﴿ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ أي خبرَه الذي له شأنٌ وخطر مع قومه الذين هم أضرابُ قومِك في الكفر والعنادِ ليتدبروا ما فيه من زوال ما تمتعوا به من النعيم وحلولِ عذابِ الغرق الموصولِ بالعذاب المقيمِ لينزجروا بذلك عما هم عليه من الكفر أو تنكسر شدةُ شكيمتهم أو يعترف بعضُهم بصحة نبوءِتك بأن عرفوا أن ما تتلوه موافقٌ لما ثبت عندهم من غير مخالفةٍ بينهما أصلاً مع علمهم بأنك لم تسمَعْ ذلك من أحد ليس إلا بطريق الوحي ، وفيه من تقرير ما سبق من كون الكلِّ لله سبحانه واختصاصِ العزةِ به تعالى وانتفاءِ الخوفِ والحزن عن أوليائه عز وعلا قاطبةً وتشجيعِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وحمِله على عدم المبالاة بهم وبأقوالهم وأفعالهم ما لا يخفى .

(27/367)

﴿ إِذْ قَالَ ﴾ معمولٌ لنبأَ أو بدلٌ منه بدلَ اشتمالٍ ، وأياً ما كان فالمرادُ بعضُ نَبئِه عليه السلام لا كلُّ ما جرى بينه وبين قومه واللامُ في قوله تعالى : ﴿ لِقَوْمِهِ ﴾ للتبليغ ﴿ يا قومِ إِن كَانَ كَبُرَ ﴾ أي عظمُ وشقّ ﴿ عَلَيْكُمْ مَّقَامِى ﴾ أي نفسي كما يقال : فعلتُه لمكان فلان ، أي لفلان ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ أي خاف ربَّه أو قيامي ومُكثي بين ظَهْرانيكم مدةً طويلة أو قيامي ﴿ وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللهِ ﴾ فإنهم كانوا إذا وعَظوا الجماعةَ يقومون على أرجلهم والجماعةُ قعودٌ ليظهر حالُهم ويُسمع مقالُهم ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ جوابٌ للشرط أي دمت على تخصيص التوكلِ به تعالى ، ويجوز أن يراد به إحداثُ مرتبةٍ مخصوصة من مراتب التوكل ﴿ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ ﴾ عطفٌ على الجواب ، والفاءُ لترتيب الأمرِ بالإجماع على التوكل لا لترتيب نفسِ الإجماعِ عليه أو هو الجوابُ وما سبق جملةٌ معترضةٌ ، والإجماعُ العزم قيل : هو متعدَ بنفسه وقيل : فيه حذفٌ وإيصال . قال السدوسي : أجمعتُ الأمرَ أفصحُ من أجمعت عليه وقال أبو الهيثم : أجمع أمرَه جعله مجموعاً بعد ما كان متفرقاً ، وتفرُّقُه أنه يقول : مرة أفعل كذا وأخرى أفعل كذا وإذا عزم على أمر واحدٍ فقد جمعه أي جعله جميعاً ﴿ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ بالنصب على أن الواو بمعنى مع كما تدل عليه القراءةُ بالرفع عطفاً على الضمير المتصل تنزيلاً للفصل منزلةَ التأكيدِ ، وإسنادُ الإجماعِ إلى الشركاء على طريقة التهكم ، وقيل : إنه عطفٌ على أمركم بحذف المضافِ أي أمرَ شركائِكم وقيل : منصوبٌ بفعل محذوفٍ أي وادعوا شركاءَكم وقد قرىء

كذلك وقرىء فاجْمعوا من الجمع ، أي فاعزِموا على أمركم الذين تريدون بي من السعي في إهلاكي واحتشِدوا فيه على أي وجه يمكنكم ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ ﴾ ذلك ﴿ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ أي مستوراً من غمّه إذا ستره ، بل مكشوفاً

(28/367)

مشهوراً تجاهرونني به فإن السرَّ إنما يُصار إليه لسد باب تدارُك الخلاصِ بالهرب أو نحوه ، فحيث استحال ذلك في حقي لم يكن للسر وجهٌ وإنما خاطبهم عليه السلام بذلك إظهاراً لعدم المبالاةِ بهم وأنهم لم يجدوا إليه سبيلاً وثقةً بالله سبحانه وبما وعده من عصمته وكَلاءتِه ، فكلمةُ ثمّ للتراخي في الرتبة ، وإظهارُ الأمر في موقع الإضمارِ لزيادة تقريرٍ يقتضيها مقامُ الأمرِ بالإظهار الذي يستلزمه النهيُ عن التستر والإسرار ، قيل : المرادُ بأمرهم ما يعتريهم من جهته عليه السلام من الحال الشديدةِ عليهم المكروهةِ لديهم ، والغُمة والغمّ كالكُربة والكرب وثم للتراخي الزماني ، والمعنى لا يكن حالُكم عليكم غمةً وتخلّصوا بإهلاكي من ثِقَل مقامي وتذكيري ، ولا يخفى أنه لا يساعده قولُه عز وجل ﴿ ثُمَّ اقضوا إِلَىَّ وَلاَ تُنظِرُونَ ﴾ أي أدّوا إليّ أي أحكِمُوا ذلك الأمرَ الذي تريدون بي ولا تمهلوني كقوله تعالى :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر ﴾ أو أدوا إلي ما هو حقٌّ عليكم عندكم من إهلاكي كما يقضي الرجلُ غريمَه ، فإن توسيطَ ما يحصل بعد الإهلاك بين الأمر بالعزم على مباديه وبين الأمر بقضائه من قبيل الفصلِ بين الشجرِ ولِحائِه ، وقرىء أفضوا بالفاء أي انتهوا إليّ بشرّكم أو ابرُزوا إليّ ، من أفضى إذا خرج إلى الفضاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(29/367)

وقال الآلوسى :

﴿ واتل عَلَيْهِمْ ﴾

أي على المشركين من أهل مكة وغيرهم لتحقيق ما سبق من عدم إفلاح المفترين وكون ما يتمتعون به على جناح الفوات وأنهم مشرفون على الشقاء المؤبد والعذاب الشديد ﴿ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ أي خبره الذي له شأن وخطر مع قومه الذين هم أضراب قومك في الكفر والعناد ليتدبروا ما فيه مما فيه مزدجر فلعلهم ينزجرون عما هم عليه أو تنكسر شدة شكيمتهم ولعل بعض من يسمع ذلك منك ممن أنكر صحة نبوتك أن يعترف بصحتها فيؤمن بك بأن يكون قد ثبت عنده ما يوافق ما تضمنه المتلو من غير مخالفة له أصلاً فيستحضر أنك لم

تسمع ذلك من أحد ولم تستفده من كتاب فلا طريق لعلمك به إلا من جهة الوحي وهو مدار النبوة .

(30/367)

وفي ذلك من تقرير ما سبق من كون الكل لله سبحانه ، واختصاص العزة به تعالى ، وانتفاء الخوف على أوليائه وحزنهم ، وتشجيع النبي صلى الله عليه وسلم وحمله على عدم المبالاة بهم وبأقوالهم وأفعالهم ما لا يخفى ، والاقتصار على بعض ذلك قصور ؛ وقد تقدم الكلام في نوح عليه السلام ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ اللام للتبليغ أو التعليل و ﴿ إِذْ ﴾ بدل من ﴿ نَبَأَ ﴾ بدل اشتمال أو معمولة له لا لاتل لفساد المعنى ، وجوز أبو البقاء تعلقه بمحذوف وقع حالاً من ﴿ نَبَأَ ﴾ وأياً ما كان فالمراد بعض نبئه عليه الصلاة والسلام لا كل ما جرى بينه وبين قومه وكانوا على ما قال الأجهوري من بني قابيل ﴿ لِقَوْمِهِ يا قوم إِن كَانَ كَبُرَ ﴾ أي عظم وشق ﴿ عَلَيْكُمْ مَّقَامِى ﴾ أي نفسي على أنه في الأصل اسم مكان وأريد منه النفس بطريق الكناية الإيمائية كما يقال المجلس السامي ، ويجوز أن يكون مصدراً ميمياً بمعنى الإقامة يقال : قمت بالمكان وأقمت بمعنى أي إقامتي بين ظهرانيكم مدة مديدة ، وكونها ما ذكر الله تعالى ألف سنة إلا خمسين عاماً يقتضي أن يكون القول في آخر عمره

ومنتهى أمره ويحتاج ذلك إلى نقل ، أو المراد قيامه بدعوتهم وقريب منه قيامه لتذكيرهم ووعظهم لأن الواعظ كان يقوم بين من يعظهم لأنه أظهر وأعون على الاستماع كما يحكى عن عيسى عليه السلام أنه كان يعظ الحواريين قائماً وهم قعود ، وكثيراً ما كان نبينا صلى الله عليه وسلم يقوم على المنبر فيعظ الجماعة وهم قعود فيجعل القيام كناية أو مجازاً عن ذلك أو هو عبارة عن ثبات ذلك وتقرره ﴿ وَتَذْكِيرِى ﴾ إياكم ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ ﴾ الدالة على وحدانيته المبطلة لما أنتم عليه من الشرك ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ لا على غيره ، والجملة جواب الشرط وهو عبارة عن عدم مبالاته والتفاته إلى استثقالهم ، ويجوز أن تكون قائمة مقامه ، وقيل : الجواب محذوف وهذا عطف عليه أي فافعلوا ما شئتم ، وقيل : المراد

(31/367)

الاستمرار على تخصيص التوكل به تعالى ، ويجوز أن يكون المراد إحداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل وإلا فهو عليه السلام متوكل عليه سبحانه لا على غيره دائماً ، وقوله سبحانه : ﴿ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ ﴾ عطف على الجواب المذكور عند الجمهور والفاء لترتيب الأمر بالإجماع على التوكل لا لترتيب نفس الإجماع عليه ، وقيل : إنه الجواب وما سبق اعتراض وهو يكون بالفاء .

فاعلم فعلم المرء ينفعه . . .

ولعله أقل غائلة مما تقدم لما سمعته مع ما فيه من ارتكاب عطف الإنشاء على الخبر وفيه كلام .

و ﴿ أَجْمَعُواْ ﴾ بقطع الهمزة وهو كما قال أبو البقاء من أجمعت على الأمر إذا عزمت عليه إلا أنه حذف حرف الجر فوصل الفعل ، وقيل : إن أجمع متعد بنفسه واستشهد له بقول الحرث بن حلزة

: أجمعوا أمرهم بليل فلما . . .

أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

ونص السدوسي على أن عدم الإتيان بعلى كأجمعت الأمر أفصح من الإتيان بها كأجمعت على الأمر ، وقال أبو الهيثم : معنى أجمع أمره جعله مجموعاً بعد ما كان متفرقاً وتفرقته أن يقول مرة أفعل كذا ومرة أفعل كذا فإذا عزم فقد جمع ما تفرق من عزمه ثم صار بمعنى العزم حتى وصل بعلى وأصله التعدية بنفسه ، ولا فرق بين أجمع وجمع عند بعض ، وفرق آخرون بينهما بأن الأول يستعمل في المعاني والثاني في الأعيان فيقال : أجمعت أمري وجمعت الجيش ولعله أكثري لا دائمي ، والمراد بالأمر هنا نحو المكر والكيد ﴿ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ أي التي زعمتم أنها شركاء لله سبحانه وتعالى ، وهو نصب على أنه مفعول معه من الفاعل لأن الشركاء عازمون لا معزوم عليهم ، ويؤيد ذلك قراءة الحسن .

وابن أبي إسحاق .

وأبي عبد الرحمن السلمي .

وعيسى الثقفي بالرفع فإن الظاهر أنه حينئذٍ معطوف على الضمير المرفوع المتصل ووجود الفاصل قائم مقام التأكيد بالضمير المنفصل .

وقيل : إنه مبتدأ محذوف الخبر أي وشركاؤكم يجمعون ونحوه .

(32/367)

وقيل : إن النصب بالعطف على ﴿ أَمْرَكُمْ ﴾ بحذف المضاف أي وأمر شركائكم بناءً على أن أجمع تتعلق بالمعاني والكلام خارج مخرج التهكم بناءً على أن المراد بالشركاء الأصنام ، وقيل : إنه على ظاهره والمراد بهم من على دينهم .

وجوز أن لا يكون هناك حذف والكلام من الإسناد إلى المفعول المجازي على حد ما قيل في ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف : 82] ، وقيل : إن ذاك على المفعولية به لمقدر كما قيل في قوله

علفتها تبناً وماءً بارداً . . .

(33/367)

أي وادعوا شركاءكم كما قرأ به أبي رضي الله تعالى عنه ، وقرأ نافع ﴿ فَأَجْمِعُواْ ﴾ بوصل الهمزة وفتح الميم من جمع ، وعطف الشركاء على الأمر في هذه القراءة ظاهر بناءً على أنه يقال : جمعت شركائي كما يقال : جمعت أمري ، وزعم بعضهم أن المعنى ذوي أمركم وهو كما ترى ، والمعنى أمرهم بالعزم والإجماع على قصده والسعي في إهلاكه على أي وجه يمكنهم من المكر ونحوه ثقة بالله تعالى وقلة مبالاة بهم ، وليس المراد حقيقة الأمر ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ ﴾ ذلك ﴿ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ أي مستوراً من غمه إذا ستره ، ومنه حديث وائل ابن حجر "لا غمة في فرائض الله تعالى" أي لا تستر ولا تخفى وإنما تظهر وتعلن ، والجار والمجرور متعلق بغمة ، والمراد نهيهم عن تعاطي ما يجعل ذلك غمة عليهم فإن الأمر لا ينهى ويستلزم ذلك الأمر بالإظهار ، فالمعنى أظهروا ذلك وجاهروني به فإن الستر إنما يصار إليه لسد باب تدارك الخلاص بالهرب أو نحوه فحيث استحال ذلك في حقي لم يكن للستر وجه ، وكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي في الرتبة ، وإظهار الأمر في مقام الإضمار لزيادة التقرير ، وقيل : أظهر لأن المراد به ما يعتريهم من جهته عليه السلام من الحال الشديدة عليهم المكروهة لديهم لا الأمر الأول ، والمراد بالغمة الغم كالكربة والكرب ، والجار والمجرور متعلق بمقدر وقع حالاً منها ، وثم للتراخي في الزمان ، والمعنى ثم لا يكن حالكم غماً كائناً عليكم وتخلصوا بهلاكي من ثقل مقامي وتذكيري بآيات الله تعالى ، واعترض

عليه بأنه لا يساعده قوله تعالى شأنه : ﴿ ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونَ ﴾ أي أدوا إلى ذلك الأمر الذي تريدون ولا تمهلوني على أن القضاء من قضى دينه إذا أداه ، ومفعوله محذوف كما أشرنا إليه وفيه استعارة مكنية والقضاء تخييل وقد يفسر القضاء بالحكم أي احكموا بما تؤدوه إلى ففيه تضمين واستعارة مكنية أيضاً لأن توسيط ما يحصل بعد الإهلاك بين الأمر بالعزم على

(34/367)

مباديه وبين الأمر بقضائه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه ، والوجه الأول سالم عن ذلك وهو ظاهر ، وقيل : المراد بالغمة المعنى الأول وبالأمر ما تقدم وبالنهي الأمر بالمشاورة أي أجمعوا أمركم ثم تشاوروا فيه وفيه بعد لعدم ظهور كلا الترتيبين الدالة عليهما ثم سواء اعتبرت قراءة الجماعة أو قراءة نافع في ﴿ أَجْمَعُواْ ﴾ وقرىء ﴿ أفضوا ﴾ إلى بالفاء أي انتهوا إلى بشركم أو ابرزوا إلى من أفضى إذا خرج إلى الفضاء كأبرز إذا خرج إلى البراز وهو المكان الواسع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(35/367)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾

من مقارعة المشركين بالحجج الساطعة على بطلان دينهم ، وبالدلائل الواضحة على تفنيد أكاذيبهم وتكذيبهم وما تخلل ذلك من الموعظة والوعيد بالعذاب العاجل والآجل والإرهاب ، إلى التعريض لهم بذكر ما حل بالأمم المماثلة أحوالها لأحوالهم ، استقصاء لطرائق الحجاج على أصحاب اللجاج ؛ فإن نوحاً عليه السلام مع قومه مَثَل لحال محمد صلى الله عليه وسلم مع المشركين من قومه في ابتداء الأمر وتطوره ، ففي ذكر عاقبة قوم نوح عليه السلام تعريض للمشركين بأن عاقبتهم كعاقبة أولئك أو أنهم إنما يمتعون قليلاً ثم يؤخذون أخذة رابية ، كما متع قوم نوح زمناً طويلاً ثم لم يفلتوا من العذاب في الدنيا ، فذكر قصة نوح مع قومه عِظة للمشركين وملقياً بالوجل والذعر في قلوبهم ، وفي ذلك تأنيس للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين بأنهم إسوة بالأنبياء ، والصالحين من أقوامهم ، وكذلك قصة موسى عليه السلام عقبها كما ينبيء عن ذلك قولهُ في نهاية هذه القصص ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ [يونس : 99] الآيات .

وقوله : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ﴾ [يونس : 94] الآيات .

وبهذا يظهر حسن موقع (إذْ) من قوله : ﴿ إذ قال لقومه يا قوم ﴾ إلى آخره ، فإن تقييد النبأ بزمن قوله : ﴿ لقومه ﴾ إيماء إلى أن محاورته قومه وإصرارهم على الإعراض هو محل العبرة ، لأنه وجه الشبه بين المشركين وبين قوم نوح عليه السلام في صم آذانهم عن دعوة رسولهم ، وقوله ذلك لهم إنما كان بعد أن كرر دعاءَهم زمناً طويلاً فكان ذلك آخر جدل بينه وبينهم ، والنبي صلى الله عليه وسلم قد دعا أهل مكة سنين وقت نزول هذه السورة ثم حاورهم وجادلهم ولأن ذلك الزمن هو أعظم موقف وقفه نوح عليه السلام مع قومه ، وكان هو الموقف الفاصل الذي أعقبه العذاب بالغرق .

و ﴿ إذا ﴾ اسم للزمن الماضي .

(36/367)

وهو هنا بدل اشتمال من ﴿ نبأ ﴾ أو من ﴿ نوح ﴾ .

وفي ذكر قصة نوح عليه السلام وما بعدها تفصيل لما تقدم إجماله من قوله تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لمَّا ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ [يونس : 13] .

وضمير ﴿ عليهم ﴾ عائد إلى ﴿ الذين يفترون على الله الكذب ﴾ [يونس : 69] .

والتلاوة : القراءة .

وتقدمت في سورة الأنفال .

والنبأ : الخبر .

وتقدم في قوله : ﴿ ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ في سورة [الأنعام : 34] .

والتعريف بنوح عليه السلام وتاريخه مضى في أول آل عمران .

وتعريف قوم نوح بطريق الإضافة إلى ضمير نوح في قوله : إذ قَال لقومه ﴾ إذ ليس ثمة طريق لتعريفهم غير ذلك إذ لم يكن لتلك الأمة اسم تعرف به ، فإنهم كانوا أمة واحدة في الأرض فلم يحصل داع إلى تسميتهم باسم جَد أو أرض إذ لم يكن ما يدعو إلى تمييزهم إذ ليس ثمة غيرهم ، ألا ترى إلى حكاية الله عن هود في قوله لقومه

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ [الأعراف : 69] ، ولما حكى عن صالح إذ قال لقومه : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ [الأعراف : 74]

وظرف ﴿ إذ ﴾ وما أضيف إليه في موضع الحال من ﴿ نبأ نوح ﴾ .

وافتتاح خطاب نوح قومَه بـ ﴿ يا قوم ﴾ إيذان بأهيمة ما سيلقيه إليهم ، لأن النداء طلب الإقبال .

ولما كان هنا ليس لطلب إقبال قومه إليه لأنه ما ابتدأ خطابهم إلا في مجمعهم تعين أن النداء مستعمل مجازاً في طلب الإقبال المجازي ، وهو توجيه أذهانهم إلى فهم ما سيقوله .

واختيار التعبير عنهم بوصف كونهم قومه تحبيب لهم في نفسه ليأخذوا قوله مأخذ قول

الناصح المتطلب الخيرَ لهم ، لأن المرء لا يريد لقومه إلا خيراً .

وحذفت ياء المتكلم من المنادى المضاف إليها على الاستعمال المشهور في نداء المضاف إلى ياء المتكلم .

ومعنى : ﴿ إن كان كُبُر عليكم مقامي ﴾ شق عليكم وأحرجكم .

(37/367)

والكبَر : وفرة حجم الجسم بالنسبة لأمثاله من أجسام نوعه ، ويستعار الكبَر لكون وصف من أوصاف الذوات أو المعاني أقوى فيه منه في أمثاله من نوعه ، فقد يكون مدحاً كقوله تعالى : ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ [البقرة : 45] ، ويكون ذماً كقوله : ﴿ كَبُرَتْ كلمة تخرج من أفواههم ﴾ [الكهف : 5] ، ويستعار الكبَر للمشقة والحرج ، كقوله تعالى : ﴿ كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ [الشورى : 13] وقوله : ﴿ وإن كان كَبُر عليك إعراضهم ﴾ [الأنعام : 35] وكذلك هنا .

والمقام مصدر ميمي مرادف للقيام .

وقد استعمل هنا في معنى شأن المرء وحاله كما في قوله تعالى : ﴿ ولِمَن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [الرحمن : 46] ، وقوله : ﴿ قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير

مَقاماً ﴾ [مريم : 73] أي خير حالة وشأناً .

وهو استعمال من قبيل الكناية ، لأن مكان المرء ومقامه من لوازم ذاته ، وفيهما مظاهر أحواله .

وخَص بالذكر من أحواله فيهم تذكيره إياهم بآيات الله ، لأن ذلك من أهم شؤونه مع قومه ، فعطفه من عطف الخاص على العام .

فمعنى : ﴿ كَبُر عليكم مقامي وتذكيري ﴾ سئمتم أحوالي معكم وخاصة بتذكيري بآيات الله .

وتجهم الحق على أمثالهم شنشنة المتوغلين في الفساد المأسورين للهوى إذ تقع لديهم الدعوة إلى الإقلاع عنه والتثويب بهم إلى الرشاد موقعاً مُرّ المَذاق من نفوسهم ، شديد الإيلام لقلوبهم ، لما في منازعة الحق نفوسهم من صَولة عليها لا يستطيعون الاستخفاف بها ولا يطاوعهم هواهم على الإذعان إليها ، فيتورطون في حيرة ومنازعة نفسانية تثقل عليهم ، وتشمئز منها نفوسهم ، وتكدر عليهم صفو انسياقهم مع هواهم .

وإضافة التذكير إلى ضميره من إضافة المصدر إلى فاعله .

والباء في ﴿ بآيات الله ﴾ لتأكيد تعدية المصدر إلى مفعوله الثاني ، والمفعولُ الأول محذوف ، والتقدير : تذكيري إياكم .

و ﴿ آيات الله ﴾ مفعول ثان للتذكير .

يقال : ذكرته أمراً نسيه ، فتعديته بالباء لتأكيد التعدية كقوله تعالى : ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ [إبراهيم : 5] ، وقول مسور بن زيادةَ الحارثي :

أذَكَّر بالبقيا على من أصابني

وبقياي أني جاهد غير مؤتلي . . .

ولذلك قالوا في قوله تعالى : ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6] أن الباء لتأكيد اللصوق أي لصوق الفعل بمفعوله .

وآيات الله : دلائل فضله عليهم ، ودلائل وحدانيته ، لأنهم لما أشركوا بالله فقد نسوا تلك الدلائل ، فكان يذكرهم بها ، وذلك يُبرمهم ويحرجهم .

وجملة : ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ جواب شرط ﴿ إن كان كُبر عليكم مقامي ﴾ باعتبار أن ذلك الشرط تضمن أن إنكاره عليهم قد بلغ من نفوسهم ما لا طاقة لهم بحمله ، وأنهم متهيئون لمدافعته فأنبأهم أن احتمال صدور الدفاع منهم ، وهم في كثرة ومنعَة وهو في قلة وضعف ، لا يصُده عن استمرار الدعوة ، وأنه وإن كان بينهم وحيداً فذلك يوهنه لأنه متوكل على الله .

ولأجل هذا قدم المجرور على عامله في قوله : ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ أي لا على غيره .

والتوكل : التعويل على من يدبر أمره .

وقد مر عند قوله : ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ في سورة [آل عمران : 159] .

والفاء في فأجمعوا أمركم ﴾ للتفريع على جملة ﴿ على الله توكلت ﴾ فللجملة المفرعة حكم جواب الشرط لأنها مفرعة على جملة الجواب ، ألا ترى أنه لولا قصده المبادرة بإعلامهم أنه غير مكترث بمناوأتهم لكان مقتضى ظاهر الكلام أن يقول : إن كان كُبُر عليكم مقامي الخ ، فأجمعوا أمركم فإني على الله توكلت ، كما قال هود لقومه ﴿ فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ﴾ [هود : 55 ، 56] .

وإجماع الأمر : العزم على الفعل بعد التردد بين فِعله وفعل ضده .

وهوَ مأخوذ من الجمع الذي هو ضد التفريق ، لأن المتردد في ماذا يعمله تكون عنده أشياء متفرقة فهو يتدبر ويتأمل فإذا استقر رأيه على شيء منها فقد جَمَع ما كان متفرقاً .

(39/367)

فالهمزة فيه للجعل ، أي جعلَ أمره جمعاً بعد أن كان متفرقاً .

ويقولون : جاؤوا وأمرهم جميع ، أي مجموع غير متفرق بوجوه الاختلاف .

والأمر : هو شأنهم من قصد دفعه وأذاه وترددهم في وجوه ذلك ووسائله .

و ﴿ شركاءكم ﴾ منصوب في قراءة الجمهور على أنه مفعول معه .

والواو بمعنى (مع) أي أجمعوا أمركم ومعكم شركاؤكم الذين تستنصرون بهم .

وقرأ يعقوب ﴿ وشركاؤكم ﴾ مرفوعاً عطفاً على ضمير ﴿ فأجمعوا ﴾ ، وسوغه الفصل بين الضمير وما عطف عليه بالمفعول .

والمعنى : وليجْمَع شركاؤكم أمرَهم .

وصيغة الأمر في قوله : ﴿ فأجمعوا ﴾ مستعملة في التسوية ، أي أن عزمهم لا يضيره بحيث هو يغريهم بأخذ الأهبة التامة لمقاومته .

وزاد ذكر شركائهم للدلالة على أنه لا يخشاها لأنها في اعتقادهم أشد بطشاً من القوم ، وذلك تهكم بهم ، كما في قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾ [الأعراف : 195] .

وعطْف جملة : ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غُمة ﴾ بـ ﴿ ثم ﴾ الدالة على التراخي في الرتبة لما تتضمنه الجملة الثانية من الترقي في قلة مبالاته بما يُهيئونه له من الضر بحيث يتصدى لهم تصدي المشير بما يسهل لهم البلوغ إلى الإضرار به الذي ينوونه وإزالة العوائق الحائلة دون مقصدهم .

وجاء بما ظاهره نهي أمرهم عن أن يكون غمة عليهم مبالغة في نهيهم عن التردد في تبين

الوصول إلى قصدهم حتى كأنّ شأنهم هو المنهي عن أن يكون التباساً عليهم ، أي اجتهدوا في أن لا يكون ذلك .

والغمة : اسم مصدر للغم .

وهو الستر .

والمراد بها في مثل هذا التركيب الستر المجازي ، وهو انبهام الحال ، وعدم تبين السداد فيه ، ولعل هذا التركيب جرى مجرى المثل فقد قال طرفة من قبل :

لعمرك ما أمري علي بغمة

نهاري ولا ليلي علي بسرمد . . .

وإظهار لفظ الأمر في قوله : ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ مع أنه عين الذي في قوله : ﴿ فأجمعوا أمركم ﴾ لكون هذا التركيب مما جرى مجرى المثل فيقتضي أن لا تغير ألفاظه .

(40/367)

و (ثم) في قوله : ﴿ ثم اقضوا إلي ﴾ للتراخي في الرتبة ، فإن رتبة إنفاذ الرأي بما يزمعون عليه من أذاهُ أقوى من تدبير ذلك ، ومن رتبة إجماع الرأي عليه فهو ارتقاء من الشيء إلى

أعلى منه ، فعطف بـ (ثم) التي تفيد التراخي في الرتبة في عطفها الجمل .

و﴿ اقضُوا ﴾ أمر من القضاء ، فيجوز أن يكون من القضاء بمعنى الإتمام والفصل ، أي انفذوا ما ترونه من الإضرار بي .

ويجوز أن يكون من القضاء بمعنى الحكم ، وهو قريب من الوجه الأول ، أي أنفذوا حكمكم .

وعدي بـ (إلى) دون (على) لأنه ضمن معنى الإبلاغ والإيصال تنصيصاً على معنى التنفيذ بالفعل ، لأن القضاء يكون بالقول فيعقبه التنفيذ أو الإرجاء أو العفو ، ويكون بالفعل ، فهو قضاء بتنفيذ .

ويسمى عند الفقهاء بالقضاء الفعلي .

وقوله : ﴿ ولا تُنظرون ﴾ تأكيد المدلول التضمين المشار إليه بحرف (إلى) .

والإنظار التأخير ، وحذفت ياء المتكلم من ﴿ تنظرون ﴾ للتخفيف ، وهو حذف كثير في فصيح الكلام ، وبقاء نون الوقاية مشعر بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(41/367)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾

ولقائل أن يقول : ولماذا جاء الله سبحانه هنا بخبر نوح عليه السلام ولم يأت بخبر آدم عليه السلام أو أدريس عليه السلام وهُمَا من الرسل السابقين على نوح عليه السلام ؟

ومن هنا جاءت الشبهة في أن آدم لم يكن رسولاً ؛ لأن البعض قد ظن أن الرسول يجب أن يحمل رسالته إلى جماعة موجودة من البشر ، ولم يفطن هؤلاء البعض إلى أن الرسول إنما يُرْسَل لنفسه أولاً .

وإذا كان آدم عليه السلام ، أول الخلق فهو مُرسَل لنفسه ، ثم يبلِّغ من سوف يأتي بعده من أبنائه .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى التجربة لآدم عليه السلام في الجنة ، فكان هناك أمر ، وكان هناك نهي هو ﴿ وَقُلْنَا يَآءَادَمُ اسكن أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنة وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة ﴾ [البقرة : 35] .

وحَذَّره من الشيطان ، ثم وقع آدم عليه السلام في إغواء الشيطان ، وأنزله الله تعالى إلى الأرض واجتباه ، وتاب عليه ، ومعه تجربته ، فإن خالف أمر ربه فسوف يقع عليه العقاب ، وحذره من اتباع الشيطان حتى لا يخرج عن طاعة الله تعالى .

إذن : فقد أعطاه الحق سبحانه المنهج ، وأمره أن يباشر مهمته في الأرض ؛ في نفسه أولاً ، ثم

يبلغه لمن بعده .

وكما علَّمه الحق سبحانه الأسماء كلها ، علَّم آدم الأسماء لأبنائه فتكلموا : وكما نقل إليهم آدم الأسماء نقل لهم المنهج ، وقد علمه الحق سبحانه الأسماء ؛ ليعمر الدنيا ، وعلَّمه المنهج ؛ ليحسن العمل في الدنيا ؛ ليصل إلى حسن جزاء الآخرة .

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ [طه : 121] .

ويتبعها الحق سبحانه بقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ اجتباه ﴾ [طه : 122] .

ومعنى الاجتباء : هو الاصطفاء بالرسالة لنفسه أولاً ، ثم لمن بعده بعد ذلك ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾ [البقرة : 38] .

(42/367)

والهدى : هو المنهج المنزَّل على آدم عليه السلام ، والرسالة ليست إلا بلاغ منهج وهدى من الله سبحانه للخلق .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] .

فالسابقون لنوح عليه السلام هم من أبلغهم آدم عليه السلام ، والدليل هو ما جاء من خبر ابني آدم في قول الحق سبحانه :

﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابني ءَادَمَ بالحق إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً ﴾ [المائدة : 27] .

وهما قد قدَّما القربان إلى الله تعالى .

إذن : فخبر الألوهية موجود عند ابني آدم بدليل قول الحق سبحانه :

﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخر قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ الله مِنَ المتقين ﴾ [المائدة : 27] .

إذن : فهم قد أقروا بوجود الله تعالى ، وأيضا عرفوا النهي ، ؛ لأنه في إحدى الآيتين قال :

﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِي أَخَافُ الله رَبَّ العالمين ﴾

[المائدة : 28] .

إذن : فالذين جاءوا بعد آدم عليه السلام عرفوا الإله الواحد ، وعلموا المنهج .

إذن : فالذين يقولون : إن آدم عليه السلام لم يكن رسولاً ، نقول لهم : افهموا عن الله جيداً ، كان يجب أن تقولوا : هذه مسألة لا نفهم فيها ، وكان عليهم أن يسألوا أهل الذِّكْر ليفهموا

عنهم أن آدم عليه السلام رسول ، وأن من أولاده قابيل وهابيل ، وقد تكلما في التقوى .

أما لماذا جاء الحق سبحانه هنا بالحديث عن نوح ، عليه السلام ، فلنا أن نعلم أن آدم عليه السلام هو الإنسان الأول ، وأنه قد نقل لأولاده المنهج المُبلَّغ له ، ودلَّهم على ما ينفعهم ، ثم طال الزمن وأنشأت الغفلة ، فجاء إدريس عليه السلام ، ثم تبعته الغفلة ، إلى أن جاء نوح عليه السلام .

(43/367)

وهنا يأتي لنا الحق سبحانه بخبر نوح عليه السلام في قوله :

﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ [يونس : 71] .

والنبأ : هو الخبر الهام الذي يلفت الذهن ، وهو الأمر الظاهر الواضح .

والحق سبحانه يقول :

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ النبإِ العظيم * الذي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ [النبأ : 13] .

إذن : فالنبأ هو الخبر الهام المُلْفِت ، وقد جاء هنا خبر نوح عليه السلام الذي يُبلِّغ قومه أي : يخاطبهم ، وهو قد شهد لنفسه أنه رسول يبلِّغ منهجاً .

وكلمة " قَوْمِ " لا تطلق في اللغة إلا على الرجال ، يوضح القرآن ذلك في قوله الحق سبحانه :

﴿ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات : 11] .

إذن : فالقوم هم الرجال ، والمرأة إنما يُبنى أمرها على السر ، والحركة في الدنيا للرجل ، وقد شرحنا ذلك في حديث الحق سبحانه لآدم عليه السلام عن إبليس ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى ﴾ [طه : 117] .

ولأن الخطاب لآدم فقد قال الحق سبحانه : ﴿ فتشقى ﴾ [طه : 117] .

ولم يقل : فتشقيا ؛ مما يدل على أن المرأة لا شأن لها بالأعمال التي خارج البيت والتي تتطلب مشقة ، فالمرأة تقرُّ في البيت ؛ لتحتضن الأبناء ، وتُهيِّىء السكن للرجل بما فيها من حنان وعاطفة وقرار واستقرار . أما القيام والحركة فللرجل .

فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى ﴾ [طه : 117] .

إذن : فالكدح للرجل ومتطلبه القيام لا القعود .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام .

﴿ يا قوم إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي ﴾ [يونس : 71] .

وهنا يُحنّن نوح قومه بإضافات التحنن ، أي : جاء بالإضافة التي تُشْعِر المخاطبين بأنه منهم وهم منه ، وأنه لا يمكن أن يغشهم فهم أهله ، مثل قول النائب الذي يخطب في أهل دائرته الانتخابية : " أهلي وعشيرتي وناخبيّ " وكلها اسمها إضافة تحنن .

وكذلك مثل قول لقمان لابنه :

﴿ يا بني لاَ تُشْرِكْ بالله إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] .

وقوله :

﴿ يا بني إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السماوات أَوْ فِي الأرض يَأْتِ بِهَا الله إِنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : 16] .

وقوله : ﴿ يا بني أَقِمِ الصلاة ﴾ [لقمان : 17] .

وهذا إضافات التحنن وفيها إيناس للسامع أن يقرب ويستجيب للحق .

﴿ يا قوم إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي ﴾ [يونس : 71] .

و" الكاف والياء والراء " تأتي لمعنيين :

الأول : كبر السن ، وهي : كبر يكبر .

والثاني : العظمة والتعظيم ، إلا أن التعظيم يأتي ليبيّن أنه أمر صعب على النفس ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً ﴾ [الكهف : 5] .

أي : أن هذه الكلمة التي خرجت من أقوالهم أمر صعب وشاق ، وهي قولهم :

﴿ قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً ﴾ [الكهف : 4] .

وهذه الكلمة إنما تعظم على المؤمن ، وهي مسألة صعبة لا يمكن قبولها فلا يوجد مؤمن قادر على أن يقبل ادعاء خلق من خلق الله تعالى أن له سبحانه ولداً .

ومرة تكون العظمة من جهة أخرى ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ كَبُرَ عَلَى المشركين مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى : 13] .

أي : عَظُم على المشركين ، وصَعب على أنفسهم ، وشَقَّ عليهم ما تدعوهم إليه من أن الإله هو واحد أحد ، ولا سلطان إلا له سبحانه .

وهكذا ، إن كانت الكلمة مناقضة للإيمان فهي تكبر عند المؤمنين ، وإن كانت الكلمة تدعو الكافرين إلى الإيمان فهي تشق عليهم .

(45/367)

وهنا يأتي على لسان سيدنا نوح عليه السلام :

﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي ﴾ [يونس : 71] .

ونحن نعلم أن سيدنا نوحاً عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً .

أي : أن حياته طالت كثيراً بين قومه ، كما أن تقريعه للكافرين جعله ثقيلاً عليهم .

أو أن : ﴿ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي ﴾ [يونس : 71] .

تعني : أنه حمَّلهم ما لا يطيقون ؛ لأن نوحاً عليه السلام أراد أن يُخرجهم عما ألفوا من عبادة الأصنام ، فشقَّ عليهم ذلك .

إذن : فمبدأ عبادة الإله الواحد يصعب عليهم .

أو أن الأصل في الواعظ أو المبلِّغ أن يكون على مستوى القيام وهم قعود ، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يتكلم مع الحواريين وهو واقف ، والوقوف إشعار بأن مجهود الهدي يقع على سيدنا عيسى عليه السلام بينما يقعد الحواريون ليستمعوا له في راحة .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي ﴾ [يونس : 71] .

أي : إن صعب عليكم ما أدعوكم اليه .

ويصح أن نأخذها من ناحية طول الوعظ والتكرار في ألف سنة إلا خمسين عاماً ، أو أن مقامي كبر عليكم ، بمعنى : أننا انقسمنا إلى قسمين ؛ لأن المنهج الذي أدعو إليه لا يعجبكم ، وكنت أحب أن نكون قسماً واحداً .

وها هو ذا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأرضاه حين أحس أن الخلافة تقتضي

أن يسمِّي من يَخْلُفُهُ من بعده ، قال له بعض الناس : لماذا لا تولي علينا عبد الله بن عمر ، فقال ابن الخطاب : بحسب آل خطاب أن يُسأل منهم عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم رجل واحد . ثم أضاف : أعلم أنكم مَلَلْتُم حُكْمي ؛ لأني شديد عليكم .

إذن : فقد أحس نوح عليه السلام أنه انقسم هو وقومه إلى قسمين : هو قد أخذ جانب الله سبحانه الذي يدعو إلى عبادته ، وهم أخذوا جانب الأصنام التي ألفوا عبادتها .

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [يونس : 71] .

(46/367)

أي : أنني لن أتنازل عن دعوتي ، ونلحظ أنك إن قلت : " توكَّلتُ على الله " فقد يعني هذا أنك قد تقول : وعلى فلان ، وفلان ، وفلان لكنك إن قلت : ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [يونس : 71] .

فأنت قد قصرت توكُّلك على الله فقط .

وهكذا واجه نوح عليه السلام قومه ، ورصيده في ذلك هو الاعتماد والتوكل على من أرسله سبحانه ، ويحاول أن يهديهم ، لكنهم لم يستجيبوا ، وقال لهم :

﴿ فأجمعوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ [يونس : 71] .

ومعنى جمع الأمر : (أي : جمع شتات الآراء كلها في رأي واحد) ، أي : اتفقوا يا قوم على رأي واحد ، وأنتم لن تضروني . وجمع أمر الأجيال التي ظل سيدنا نوح عليه السلام يحاول هدايتها تحتاج إلى جهد ؛ لأن الجيل العقلي ينقسم إلى عشرين سنة .

وقد ظل سيدنا نوح عليه السلام يدعو القوم بعدد ما عاش فيهم ، أي : ألف سنة إلى خمسين ، فكم جيل إذن ظل نوح يعالجه ؟

إنها أجيال متعددة ، ومع ذلك لم يظفر إلا بقدر قليل من المؤمنين بحِمْل سفينة واحدة ، ومعهم الحيوانات أيضاً ، فضلاً عن أن ابنه خرج أيضاً مع القوم الكافرين ، وناداه نوح عليه السلام ليركب معه وأن يؤمن ، فرفض ، وآثر أن يظل في جانب الكفر ، بما فيه من فناء للقوم الكافرين ، وظن أنه قادر على أن يأوي إلى جبل يعصمه من الطوفان ، ولم ينظر ابن نوح إلى جندي آخر من جنود الله سبحانه يقف عقبة في سبيل الوصول إلى الجبل ، وهو الموج .

إذن : فقول نوح عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [يونس : 71] .

له رصيد إيماني ضمني ، فلا يوجد مجير على الله من خلق الله ؛ لأن الخلق كله جماده ونباته وحيوانه إنما ينصاع لأمر الله تعالى في نصرة نوح عليه السلام ولن يتخلف شيء .

هكذا كان توكُّل نوح عليه السلام على الله تعالى بما في هذا التوكل من الرصيد الإيماني المتمثل في :

(47/367)

﴿ للَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ [المائدة : 120] .

و﴿ للَّهِ ما فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ [البقرة : 284] .

ولن يخرج شيء عن ملكه سبحانه .

ومن العجيب أنه لم يخرج عن مراد الله في " كن " إلا الإنسان المختار ، لم يخرج بطبيعة تكوينه ، ولكن الحق سبحانه وهبه من عنده أن يكون مختاراً ، ولو لم يهبه الله تعالى أن يكون مختاراً لما استطاع أن يقف ، ولكان كل البشر من جنود الحق .

وقد قال نوح عليه السلام :

﴿ فَعَلَى الله تَوَكَّلْتُ فأجمعوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ [يونس : 71] .

والإنسان حين يهمه أمر من الأمور يظل متردداً بين خواطر شتى ، ويحاول أن يرى ميزات كل خاطر ، ويختار أفضلها ، وإذا ما جمع الإنسان خواطره كلها من خاطر واحد ، فهذا يعني استقراره على رأي واحد ، وجمع أمره عليه .

أما إذا كان الأمر متعدد الناس ، فكل واحد منهم له رأي ، فإن اجتمعوا وقرروا الاتفاق على رأي واحد ، فهذا جمعٌ للأمر .

والاتفاق على رأي واحد إنما يختلف باختلاف هويّة المجتمعين ، فإن كانوا أهل خير فهم ينزلون بالشر ، وإن كانوا أهل شر فهم يصعدون بالشر .

ومثال ذلك : أبناء يعقوب عليه السلام حينما حدث بينهم وبين أخيهم من الحسد لمكانة يوسف عليه السلام فقالوا :

﴿ اقتلوا يُوسُفَ أَوِ اطرحوه أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ [يوسف : 9] .

أي : أن الاقتراح بقتل يوسف هدفه ألا يلتفت وجه يعقوب وقلبه إلى أحد سواهم ، وأتبعوا اقتراحهم بقتل يوسف باقتراح التوبة ، فقالوا لبعضهم البعض :

﴿ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ [يوسف : 9] .

وهم قد ظنوا أن التوبة إن نفَّذوا القتل ستصبح مقبولة .

وهذا الشر البادي في حديثهم لم يقبله بعضهم في بادىء الأمر ؛ لأنهم أبناء نبوّة ، وما يزالون هم الأسباط ، لا يصعد فيهم الشر ، بل ينزل ، فقال واحدٌ منهم : لا تقتلوه بل ﴿ اطرحوه أَرْضاً ﴾ [يوسف : 9] .

أي : أنه خفَّف المسألة من القتل إلى الطرح أرضاً ، وهذه أول درجة في نزول الأخيار عن الشر الأول ، وأيضاً تنازلوا عن الشر الثاني ، وهو طرحه أرضاً ؛ حتى لا يأكله حيوان مفترس ، وجاء اقتراح : ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الجب يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [يوسف : 10] .

ثم أجمعوا أمرهم أخيراً حتى نزل الشر مرة أخرى لاحتمال ورود النجاة .

إذن : فالأخيار حين يجتمعون على شر لا بد أن ينزل .

ومثال ذلك : رجل طيب رأى ابنه وهو يُضرَب من آخر ، فيفكر للحظة في أن يضرب غريم ابنه بطلقة من (مسدس) ، ثم يستبدل هذه الفكرة بفكرة الاكتفاء بضربه ضرباً مبرحاً بالعصا ، ثم يتنازل عن ذلك بأن يفكر في صفعه صفعتين ، ثم يتنازل عن فكرة الصفع ويفكر في توبيخه ، ثم يتنازل عن فكرة التوبيخ ويكتفي بالشكوى لوالده ، وهذا ينزل الشر عند أهل الخير .

أما إن كان الرجل من أهل الشر ، فهو يبدأ بفكرة الشكوى لوالد من ضرب ابنه ، ثم يرفضها ليصعد شره إلى فكرة أن يصفعه هو ، ثم لا ترضيه فكرة الصفع ، فيفكر في أن يضربه ضرباً شديداً ، ولا ترضيه هذه الفكرة ، يقول لنفسه : " سأطلق عليه الرصاص " .

وهكذا يتصاعد الشر من أهل الشر .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا نوح عليه السلام :

﴿ فأجمعوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ [يونس : 71] .

أي : اجتمعوا والزموا رأياً واحداً تحرصون على تنفيذه أنتم وشركاؤكم ، وهو ينصحهم رغم أنهم أعداؤه ، وكان عليه أن يحرص على اختلافهم ، ولكن لأنه واثق من توكله على ربه ؛ فهو يعلم أنهم مهما فعلوا فلن يقدروا عليه ، ولن ينتصروا على دعوته إلا بالإقدام على إهلاك أنفسهم .

أو أنه مثلما يقول العامة : " أعلى ما في خيولكم اركبوه " أي : أنه يهددهم ، ولا يفعل ذلك إلا إذا كان له رصيد من قوة التوكل على الله تعالى .

ولا يكتفى بذلك بل يضيف :

(49/367)

﴿ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ [يونس : 71] .

والغمة : منها الغمام ، ومنها الإغماء ، أي : فقد الوعي وسَتْر العقل ، أي : أنه قال لهم : لا تتبعوا أنفسكم بتبادل الهمسات فيما بينكم بل افعلوا ما يحلو لكم ، ولا تحاولوا ستر ما سوف تفعلون .

إن عليكم أن تجتمعوا على راي واحد أنتم وشركاؤكم الذين تعتمدون عليهم ، وتعبدونهم ، أو شركاؤكم في الكفر ، ولم يأبَهْ نوح عليه السلام بتقوية العصبية المضادة له ؛ لأنه متوحل على الله فقط .

لذلك يقول : ﴿ ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونَ ﴾ [يونس : 71] .

أي : أنه يُحفِّزهم على الاجتماع على أمر واحد ومعهم شركاؤهم سواء من الأصنام التي عبدوها أو من أقرانهم في الكفر وأن يصمموا على المضيّ في تنفيذ ما اتفقوا عليه .

و" قضى " أي : حكم حكماً ، ولكن الحكم على شيء لا يعني الاستمرار بحيث ينفذ ، فقد يُقضيَ على إنسان بحكم ؛ ويوقف التنفيذ .

لكن قوله : ﴿ اقضوا إِلَيَّ ﴾ يعني : أصدروا حكمكم وسيروا إلى تنفيذ ما قضيتم به .

ثم يقول : ﴿ وَلاَ تُنظِرُونَ ﴾ أي : لا تمهلوني في تنفيذ ما حكمتم به عليَّ .

والمتأمل للآية الكريمة يجد فيها تحدياً كبيراً ، فهو أولاً يطلب أن يجتمعوا على أمر واحد ، هم وشركاؤهم ، ثم لا يكون على هذا الأمر غُمَّة ، ثم اقضوا إليَّ ما اتفقتم عليه من حكم ونفِّذوه ولا تؤجلوه ، فهل هناك تحدٍّ للخصم أكثر من ذلك ؟

لقد كانوا خصوماً معاندين ، ظل نوح عليه السلام يترفق إليهم ويتحنن لهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وصبر عليهم كل هذا الوقت ، ولا بد إذن من حدوث فاصل قوي ، ولهذا كان الترقِّي في التحدي ، فدعاهم إلى جمع الأمر ومعهم الشركاء ، ثم بإصدار حكمهم عليه

وعدم الإبطاء في تنفيذه ، كان هذا هو التحدي الذي أخذ يترقى إلى أن وصل إلى قبول تنفيذ الحكم .

(50/367)

والنفسية العربية على سبيل المثال حين سامحت ، وصبرت ، وصفحت في أمر لا علاقة له بمنهج الله ، بل بأمر يخص خلافاً على الأرض ، تجد الشاعر العربي يقول عن " بني ذُهْل " الذين اتعبوا قوم الشاعر كثيراً ، ولكن قومه صفحوا عنهم ؛ يقول الشاعر :

صَفَحْنا عن بني ذُهْلٍ . . . وقلنا : القومُ إخوانُ

عسى الأيامُ أنْ يرجع . . . نَ قوماً كالذي كانوا

فلما صَرَّحَ الشرُّ . . . فأمْسَى وهو عريانُ

ولم يبقَ سوى العدوا . . . نِ دِنَّاهم كما دانوا

مَشَيْنا مِشْيةَ الليثِ . . . غَدَا والليثُ غضبانُ

بِضرب فيه توهينٌ . . . وتخضيعٌ وإقرانُ

وطعْن كَفَمِ الزقِّ . . . غَدَا والزِّقُّ مَلآنُ

وفي الشرِّ نجاةٌ حي . . . ن لا يُنجيكَ إحسانُ

وبعضُ الحِلْمِ عند الجهْ . . . لِ للذِّلَّةِ إذعانُ

إذن : فالمناجرة بين نوح عليه السلام وقومه اقتضت التشديد ، لعل بشريتهم تلين ، ولعل جبروتهم يلين ، ولعلهم يعلنون الإيمان بالله تعالى ، ولكنهم لم يرتدعوا . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(51/367)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ : يجوز أن تكونَ " إذ " معمولةً ل " نَبأ " ، ويجوز أن تكونَ بدلاً مِنْ " نبأ " بدلَ اشتمال . وجوَّز أبو البقاء أن تكونَ حالاً من " نبأ " وليس بظاهرٍ ، ولا يجوزُ أن يكونَ منصوباً ب " اتلُ " لفساده ، إذ " اتلُ " مستقبلٌ ، و " إذا " ماض ، و " لقومه " اللام : إمَّا للتبليغ وهو الظاهرُ ، وإمَّا للعلة وليس بظاهرٍ .

وقوله : ﴿ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي ﴾ من باب الإِسناد المجازي كقولهم : " ثَقُل عليَّ ظلُّه " .

وقرأ أبو رجاء وأبو مجلز وأبو الجوزاء " مُقامي " بضم الميم ، و " المقام " بالفتح مكان القيام ، وبالضم مكان الإِقامة أو الإِقامة نفسها . وقال ابن عطية : " ولم يُقرأ هنا بضم الميم " كأنه لم يَطَّلع على قراءةِ هؤلاء الآباء .

قوله : ﴿ فَعَلَى اللهِ ﴾ جواب الشرط .

وقوله : ﴿ فأجمعوا ﴾ عطف على الجواب ، ولم يذكر أبو البقاء غيرَه . واستُشْكِل عليه أنه متوكلٌ على الله دائماً كَبُر عليهم مقامُه أو لم يكبر . وقيل : جوابُ الشرط قوله " فأجمعوا " وقوله ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ جملةٌ اعتراضية بين الشرط وجوابه ، وهو كقول الشاعر :

2606 إمَّا تَرَيْني قد نَحَلْتُ ومَنْ يكنْ . . . غَرَضاً لأطراف الأَسِنَّةِ يَنْحَلِ

فلرُبَّ أَبْلَجَ مثلِ ثِقْلِكِ بادِنٍ . . . ضخمٍ على ظهر الجَوادِ مُهَبَّلِ

وقيل : الجوابُ محذوف ، أي : فافعلوا ما شئتم .

وقرأ العامة : " فَأَجْمعوا " أمراً مِنْ " أَجْمع " بهمزة القطع يقال : أَجْمع في المعاني ، وجَمَع في الأعيان ، فيقال : أجمعت أمري وجمعت الجيش ، هذا هو الأكثر . قال الحارث بن حلزة :

2607 أَجْمَعُوا أمرهم بليلٍ فلمَّا . . . أصبحوا أصبحت لهم ضَوْضَاءُ

وقال آخر :

2608 يا ليت شعري والمُنَى لا تَنْفَعُ . . . هل أَغْدُوَنْ يوماً وأَمْري مُجْمَعُ

وهل أَجْمَعَ متعدٍّ بنفسه أو بحرف جر ثم حُذِف اتِّساعاً ؟ فقال أبو البقاء : " مِنْ قولك " أجمعتُ على الأمر : إذا عَزَمْتَ عليه ، إلا أنه حُذِفَ حرفُ الجر فوصل الفعل إليه . وقيل : هو متعدٍّ بنفسه في الأصل " وأنشد قولَ الحارث . وقال أبو فيد السدوسي : " أَجْمعت الأمر " أفصحُ مِنْ أَجْمعت عليه " وقال أبو الهثيم : " أجمعَ أمرَه جَعَله مجموعاً بعدما كان متفرقاً " قال : " وتَفْرِقَتُه أن يقولُ مرةً افعل كذا ، ومرة افعل كذا ، وإذا عَزَم على أمرٍ واحد فقد جَمَعه أي : جعله جميعاً ، فهذا هو الأصلُ في الإِجماع ، ثم صار بمعنى العَزْم حتى وصل ب " على " فقيل : أَجْمَعْتُ على الأمر أي : عَزَمْتُ عليه ، والأصل : أجمعت الأمر

.

وقرأ العامَّةُ : " وشركاءَكم " نصباً وفيه أوجه ، أحدها : أنه معطوفٌ على " أَمْرَكم " بتقدير حذف مضاف ، أي : وأمر شركاءكم كقوله :

﴿ وَسْئَلِ القرية ﴾ [يوسف : 82] ، ودلَّ على ذلك ما قدَّمْتُه من أن " أَجْمع " للمعاني . والثاني : أنه عطف عليه من غير تقدير حذف مضاف ، قيل : لأنه يقال أيضاً : أجمعت شركائي . الثالث : أنه منصوب بإضمار فعلٍ لائق ، أي : وأجمعوا شركاءكم بوصل الهمزة

. وقيل : تقديره : وادعوا ، وكذلك هي في مصحف أُبَيّ " وادعوا " فأضمرَ فعلاً لائقاً كقوله تعالى : ﴿ والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان ﴾ [الحشر : 9] ، أي : واعتقدوا الإِيمانَ ، ومثلُه قولُ الآخر :

2609 فَعَلَفْتُها تِبْناً وماءً بارداً . . . حتى شَتَتْ هَمَّالةً عيناها

وكقوله :

2610 يا ليت زوجَك قد غدا . . . مُتَقَلِّداً سَيْفاً ورُمْحاً

/ وقول الآخر :

2611 إذا ما الغانياتُ بَرَزْنَ يوماً . . . وزَجَّجْنَ الحواجبَ والعيونا

(53/367)

يريد : ومُعْتَقِلاً رُمْحاً ، وكحَّلْنَ العيونا . وقد تقدم أن في هذه الأماكن غيرَ هذا التخريج . الرابع : أنه مفعولٌ معه ، أي : مع " شركائكم " قال الفارسي : " وقد يُنْصب الشركاء بواو مع ، كما قالوا : جاء البردُ والطَّيالسةَ " ، ولم يذكر الزمخشري غيرَ قولِ أبي علي . قال الشيخ : " وينبغي أَنْ يكونَ هذا التخريجُ على أنه مفعول معه من الفاعل ، وهو الضمير في " فَأَجْمعوا " لا من المفعول الذي هو " أَمْرَكُمْ " وذلك على أشهرِ الاستعمالين ، لأنه يقال : "

أجمع الشركاءُ أمرَهم ، ولا يقال : " جَمَع الشركاء أمرهم " إلا قليلاً ، قلت : يعني أنه إذا جعلناه مفعولاً معه من الفاعل كان جائزاً بلا خلافٍ ، لأنَّ مِن النحويين مَنْ اشترط في صحةِ نصبِ المفعول معه أن يصلح عَطْفُه على ما قبله ، فإن لم يَصْلُحْ عطفُه لم يَصِحَّ نصبُه مفعولاً معه ، فلو جعلناه من المفعول لم يَجُزْ على المشهور ، إذ لا يَصْلُح عَطْفُه على ما قبله ، إذ لا يقال : أجمعت شركائي ، بل جَمَعْت .

(54/367)

وقرأ الزهري والأعمش والأعرج والجحدري وأبو رجاء ويعقوب والأصمعي عن نافع " فأجْمَعُوا " بوصل الألف وفتح الميم من جَمَع يَجْمَع ، و " شركاءَكم " على هذه القراءةِ يتضح نصبه نسقاً على ما قبله ، ويجوز فيه ما تقدم في القراءة الأولى من الأوجه . قال صاحب " اللوامح " : " أَجْمَعْتُ الأمر : أي : جَعَلْتُه جميعاً ، وجَمَعْتُ الأموال جمعاً ، فكان الإجماعُ في الأحداث والجمع في الأعيان ، وقد يُسْتعمل كلُّ واحد مكان الآخر ، وفي التنزيل : ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ [طه : 60] . قلت : وقد اختلف القراء في قوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ﴾ [طه : 64] ، فقرأ السبعة بقطع الهمزة ، جعلوه مِنْ أجمع وهو موافقٌ لِما قيل : " إنَّ " أجمع " في المعاني . وقرأ أبو عمرو وحدَه " فاجمعوا " بوصل الألفِ ، وقد

اتفقوا على قولِه " فَجَمع كيدَه ثم أتى " فإنه مِن الثلاثي ، مع أنه متسلِّطٌ على معنى لا عَيْنٍ .

ومنهم مَنْ جَعَل للثلاثي معنىً غيرَ معنى الرباعي فقال في قراءة أبي عمرو مِنْ جَمَع يَجْمع ضد فرَّق يُفَرِّق ، وجَعَلَ قراءةَ الباقين مِنْ " أجمع أمرَه " إذا أحكمه وعزم عليه ، ومنه قول الشاعر :

2612 يا ليت شعري والمنى لا تَنْفَعُ . . . هل أَغْدُوَنْ يوماً وأَمْري مُجْمَعُ

وقيل : المعنى : فاجْمَعوا على كيدكم ، فحذف حرف الجر .

وقرأ الحسن والسلمي وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق وسلام ويعقوب " وشركاؤكم " رفعاً . وفيه تخريجان ، أحدهما : أنه نسقٌ على الضمير المرفوع بأَجْمِعُوا قبله ، وجاز ذلك إذ الفصلُ بالمفعولِ سَوَّغ العطف ، والثاني : أنه مبتدأ محذوف الخبر ، تقديرُه : وشركاؤكم فَلْيُجْمِعوا أمرهم .

وشَذَّتْ فرقةٌ فقرأت : " وشركائكم " بالخفض ووُجِّهَتْ على حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه مجروراً على حاله كقوله :

2613 أكلَّ امرِىءٍ تحسبين أمرأً . . . ونارٍ تَوَقَّدُ بالليل نارا

أي : وكل نار ، فتقدير الآية : وأمر شركائكم ، فحذف الأمر وأبقى ما بعدَه على حاله ، ومَنْ رأى برأي الكوفيين جوَّز عطفه على الضمير في " أمركم " من غيرِ تأويل ، وقد تقدَّم ما فيه من المذاهب أعني العطفَ على الضميرِ المجرور مِنْ غير إعادة الجارّ في سورة البقرة .

قوله : ﴿ غُمَّةً ﴾ يقال : غَمٌّ وغُمَّة نحو كَرْبٌ وكُرْبَةٌ . قال أبو الهيثم : " هو مِنْ قولهم : " غَمَّ علينا الهلالُ فهو مغموم إذا التُمِس فلم يُر . قال طرفة ابن العبد .

2614 لعَمْرك ما أمري عليَّ بغُمَّةٍ . . . نهاري ولا ليلي عليَّ بسَرْمَدِ

وقال الليث : "يُقال : هو في غُمَّة مِنْ أمره إذا لم يتبيَّنْ له .

قوله : ﴿ ثُمَّ اقضوا ﴾ مفعول " اقضوا " محذوف ، أي : اقضُوا إليَّ ذلك الأمر / الذي تريدون إيقاعه كقوله : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر ﴾ [الحجر : 66] فعدَّاه لمفعولٍ صريح . وقرأ السَّرِيُّ " ثم أَفْضُوا " بقطع الهمزة والفاء ، مِنْ أفضى يُفْضي إذا انتهى ، يقال : أَفْضَيْتُ إليك ، قال تعالى : ﴿ وَقَدْ أفضى بَعْضُكُمْ إلى بَعْضٍ ﴾ [النساء : 21] فالمعنى : ثم افضُوا إلى سِرِّكم ، أي : انتهوا به إليَّ . وقيل : معناه : أَسْرِعوا به إليَّ . وقيل : هو مِنْ أفضى ، أي : خَرَجَ إلى الفضاء ، أي : فأصحِروا به إليَّ ، وأَبْرِزوه لي كقوله :

2615 أبى الضيمَ والنعمانُ يَحْرِقُ نابَه . . . عليه فأفضى والسيوفُ مَعاقِلُهْ

ولامُ الفضاءِ واوٌ ؛ لأنه مِنْ فَضَا يَفْضُو ، أي : اتَّسَع . وقوله : " لا تُنْظِرون " ، أي : لا

تُؤَخّرون من النَّظِرة وهي التأخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 239 . 244 ﴾

(56/367)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾

أنزل الله هذه الآية على وجه التسلية لنبيّه – صلى الله عليه وسلم – لِمَا كان يمسُّه من مقاساة الشِّدَّة من قومه ، فإنَّ أيامَ نوحٍ – وأنْ طالَت – فما لَبِثَتْ كثيراً إلا وقد زالت ، كما قيل :

وأحْسَنَ شيءٍ في النوائب أنها . . . إذا هي نابت لم تكن خلدا

ثم بيَّنَ أنه كان يتوكل على ربّه مهما فعلوا . ولم يحتشم عبدٌ – ما وَثِقَ بربّه – من كلِّ ما نَزَلَ به . ثم إن نوحاً – عليه السلام – قال : " إني توكلت على الله " وهذا عين التفرقة ، وقال لنبيّه صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ﴾ [الأنفال : 64] وهذا عين

الجمع فبانت المزية وظهرت الخصوصية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 109.108 ﴾

(57/367)

قوله تعالى ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم سبب عن ذلك قوله : ﴿ فإن توليتم ﴾ أي كلفتم أنفسكم الإعراض عن الحق بعد عجزكم عن إهلاكي ولم ينفعكم علمكم بأن الذي منعني - وأنا وحدي - منكم وأنتم ملء الأرض له العزة جميعاً وأن من أوليائه الذين تقدم وعده الصادق بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿ فما ﴾ أي فلم يكن توليكم عن تفريط مني لأني سقت الأمر على ما يجب ، ما ﴿ سألتكم ﴾ أي ساعة من الدهر ، وأغرق في النفي فقال : ﴿ من أجر ﴾ أي على دعائي لكم يفوتني بتوليكم ولا تتهموني به في دعائكم .

ولما كان من المحال أن يفعل عاقل شيئاً لا لغرض ، بين غرضه بقوله مستأنفاً : ﴿ إن ﴾ أي

ما ﴿ أجري إلا على الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ؛ ثم عطف عليه غرضاً آخر وهو اتباع الأمر خوفاً من حصول الضر فقال : ﴿ وأمرت ﴾ أي من الملك الأعلى الذي لا أمر لغيره ، وبناه للمفعول للعلم بأنه هو الآمر وليزيد في الترغيب في المأمور به وتغطية بجعله عمدة الكلام بإقامته مقام الفاعل فقال ﴿ أن أكون ﴾ أي كوناً أتخلق به فلا أنفك عنه ؛ ولما كان في مقام الاعتذار عن مفاجأته لهم بالإنذار ، عبر بالإسلام الذي هو الأفعال الظاهرة فقال : ﴿ من المسلمين ﴾ أي الراسخين في صفة الانقياد بغاية الإخلاص ، لي ما لهم وعليّ ما عليهم ، أنا وهم في الإسلام سواء ، لا مرية لي فيه أتهم بها ، أن أستسلم لكل ما يصيبني في الله ، لا يردني ذلك عن إنفاذ أمره ، والحاصل أنه لم يكن بدعائه إياهم في موضع تهمة ، لا سألهم غرضاً دنيوياً يزيده إن أقبلوا ولا ينقصه إن أدبروا ، ولا أتى بشيء من عند نفسه ليظن أنه أخطأ فيه ولا سلك به مسلكاً يظن به استعباده إياهم في اتباعه ، بل أعلمهم بأنه أول مؤتمر بما أمرهم به مستسلم لما دعاهم إليه ولكل ما يصيبه في الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 466 . 467 ﴾

(58/367)

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾

قال المفسرون : هذا إشارة إلى أنه ما أخذ منهم مالاً على دعوتهم إلى دين الله تعالى ومتى كان الإنسان فارغاً من الطمع كان قوله أقوى تأثيراً في القلب .

وعندي فيه وجه آخر وهو أن يقال : إنه عليه السلام بين أنه لا يخاف منهم بوجه من الوجوه وذلك لأن الخوف إنما يحصل بأحد شيئين إما بإيصال الشر أو بقطع المنافع ، فبين فيما تقدم أنه لا يخاف شرهم وبين بهذه الآية أنه لا يخاف منهم بسبب أن يقطعوا عنه خيراً ، لأنه ما أخذ منهم شيئاً فكان يخاف أن يقطعوا منه خيراً .

ثم قال : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ وفيه قولان : الأول : أنكم سواء قبلتم دين الإسلام أو لم تقبلوا ، فأنا مأمور بأن أكون على دين الإسلام .

والثاني : أني مأمور بالاستسلام لكل ما يصل إلي لأجل هذه الدعوة .

وهذا الوجه أليق بهذا الموضع ، لأنه لما قال : ﴿ ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ ﴾ بين لهم أنه مأمور بالاستسلام لكل ما يصل إليه في هذا الباب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 17 صـ 112 ﴾

وقال الماوردى :

﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : فما سألتكم من أجر تستثقلونه فتمتنعون من الإجابة لأجله ، ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾ .

والثاني : فما سألتكم من أجر إن انقطع عني ثقُل علي .

﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾ وقد حصل بالدعاء لكم إن أجبتم أو أبيتم .

﴿ أُمِرتُ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي من المستسلمين لأمر الله بطاعته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(60/367)

وقال ابن عطية :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾

المعنى فإن لم تقبلوا على دعوتي وكفرتم بها وتوليتم عنها ، و" التولي " أصله في البدن

ويستعمل في الإعراض عن المعاني ، يقول : فأنا لم أسألكم أجراً على ذلك ولا مالاً ، فيقع منكم قطع بي وتقصير بإرادتي ، وإنما أجري على الذي بعثني ، وقرأ نافع وأبو عمرو بخلاف عنه : " أجري " بسكون الياء ، وقرأ " أجريَ " بفتح الياء الأعرج وطلحة بن مصرف وعيسى وأبو عمرو ، ، وقال أبو حاتم : هما لغتان ، والقراءة بالإسكان في كل القرآن ، ثم أخبرهم بأن الله أمره بالإسلام والدين الحنيفي الذي هو توحيد الله والعمل بطاعته والإعداد للقائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(61/367)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ ﴾

أي فإن أعرضتم عما جئتكم به فليس ذلك لأني سألتكم أجراً فيثقل عليكم مكافأتي .

﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله ﴾ في تبليغ رسالته .

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ أي الموحدين لله تعالى .

فتح أهل المدينة وأبو عمرو وابن عامر وحفص ياء "أجرِيَ" حيث وقع ، وأسكن الباقون .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(62/367)

وقال الخازن :

﴿ فإن توليتم ﴾

يعني فإن أعرضتم عن قولي وقبول نصحي ﴿ فما سألتكم من أجر ﴾ يعني من جعل وعوض على تبليغ الرسالة فإذا لم يأخذ على تبليغ الدعوة إلى الله شيئاً كان أقوى تأثيراً في النفس ﴿ إن أجري إلا على الله ﴾ أي : ما ثوابي وجزائي على تبليغ الرسالة إلا على الله ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ يعني أني أمرت بدين الإسلام وأنا ماض فيه غير تارك له سواء قبلتموه أم لم تقبلوه وقيل معناه وأمرت أن أكون من المستسلمين لأمر الله ولكل مكروه يصل إلي منكم لأجل هذه الدعوة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(63/367)

وقال أبو السعود :

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾

الفاءُ لترتيب التولِّي على ما سبق فالمرادُ به إما الاستمرارُ عليه وإما إحداثُ التولّي المخصوصِ ، أي إن أعرضتم عن نصيحتي وتذكيري إثرَ ما شاهدتم مني من مخايل صحةِ ما أقول ودلائِلها التي من جملتها دعوتي إياكم جميعاً إلى تحقيق ما تريدون بي من السوء غيرَ مبالٍ بكم وبما يأتي منكم وإحجامُكم من الإجابة علماً منكم بأني على الحق المبين مؤيدٌ من عند الله العزيز ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُمْ ﴾ بمقابلة وعظي وتذكيري ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ تؤدّونه إلي حتى يؤدي ذلك إلى توليكم إما لاتهامكم إياي بالطمع والسؤالِ وإما لثقلِ دفع المسؤولِ عليكم أو حتى يضرّني توليكم المؤدّي إلى الحرمان ، فالأولُ لإظهار بطلان التولي ببيان عدمِ ما يصححه والثاني لإظهار عدم مبالاتِه عليه السلام بوجوده وعدمه ، وعلى التقديرين فالفاء الجزائيةُ لسببية الشرطِ لإعلام مضمونِ الجزاءِ لا لنفسه ، والمعنى إن توليتم فاعلموا أن ليس في مصحّحٍ له ولا تأثّرٍ منه وقوله عز وجل : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ﴾ ينتظم المعنيين جميعاً خلا أنه على الأول تأكيدٌ وعلى الثاني تعليلٌ لاستغنائه عليه السلام عنه أي ما ثوابي على العِظة والتذكير إلا عليه تعالى يُثيبني به آمنتم أو توليتم ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ المنقادين لحكمه لا أخالف أمرَه ولا أرجو غيرَه أو المستسلمين لكل ما يصيب من البلاء في طاعة الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(64/367)

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾

أي بقيتم على إعراضكم عن تذكيري أو أحد ثتم إعراضاً مخصوصاً عن ذلك بعد وقوفكم على أمري ومشاهدتكم مني ما يدل على صحة قولي ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُمْ ﴾ بمقابلة تذكيري ووعظي ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ تؤدونه إلي حتى يؤدي ذلك إليكم إلى توليكم إما لاتهامكم إياي بالطمع أو لثقل دفع المسؤول عليكم أو حتى يضرني توليكم المؤدي إلى الحرمان فالأول لإظهار بطلان التولي ببيان عدم ما يصححه والثاني لإظهار عدم مبالاته عليه السلام بوجوده وعدمه ، وعلى التقديرين فالفاء الأولى لترتب هذا الشرط على الجزاء قبله والفاء الثانية لسببية الشرط للإعلام بمضمون الجزاء بعده كما ذكره بعض المحققين ، أي إن توليتم فاعلموا أن ليس في مصحح له أولاً تأثر منه على حد ما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام : 17] .

(65/367)

وذهب بعضهم إلى أن جواب الشرط محذوف أقيم ما ذكر وهو علته مقامه أي فلا باعث لكم على التولي ولا موجب له أو فلا ضير علي بذلك ، وكلام البعض مشعر بأنه مع اعتبار الحذف والإقامة المذكورين يجيء حديث اعتبار سببية الشرط للإعلام وهو الذي يميل إليه الذوق و ﴿ مِنْ ﴾ زائدة للتأكيد أي فما سألتكم أجراً ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ﴾ تأكيد لما قبله على المعنى الأول وتعليل لاستغنائه عليه السلام على المعنى الثاني أي ما ثوابي على العظة والتذكير إلا عليه تعالى يثبني بذلك آمنتم أو توليتم ، وقوله سبحانه : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ تذييل على ما قيل لمضمون ما قبله مقرر له ، والمعنى وأمرت بأن أكون منتظماً في عداد المسلمين الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئاً ولا يطلبون به دنيا ، وفيه حمل الإسلام على ما يسارق الإيمان واعتبار التقييد ، وعدل عنه بعضهم لما فيه من نوع تكلف فحمل الإسلام على الاستسلام والانقياد ولم يقيد ، أي وأمرت بأن أكون من جملة المنقادين لحكمه تعالى لا أخالف أمره ولا أرجو غيره ، وفيه على هذا المعنى أيضاً من تأكيد ما تقدم وتقرير مضمونه ما لا يخفى ، ولا يظهر أمر التأكيد على تقدير أن يكون المعنى من المستسلمين لكل ما يصيب من البلاء في طاعة الله تعالى ظهوره على التقديرين السابقين ، وبالجملة أنه عليه السلام لم يقصر في إرشادهم بهذا الكلام وبلغ الغاية القصوى فيه .

وذكر بعضهم وجه نظمه على هذا الأسلوب على بعض الأوجه المحتملة فقال : إنه عليه

الصلاة والسلام قال في أول الأمر : ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [يونس : 71] فبين وثوقه بربه سبحانه أي إني وثقت به فلا تظنوا بي أن تهديدكم إياي بالقتل والإيذاء يمنعني من الدعاء إلى الله تعالى ، ثم أورد عليهم ما يدل على صحة دعواه فقال :

(66/367)

﴿ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ ﴾ [يونس : 71] كأنه يقول : أجمعوا كل ما تقدرون عليه من الأشياء التي توجب حصول مطلوبكم ثم لم يقتصر على ذلك بل أمرهم أن يضيفوا إلى أنفسهم شركاءهم الذين كانوا يزعمون أن حالهم يقوى بمكانهم وبالتقرب إليهم ثم لم يقتصر على هذين بل ضم إليهما ثالثاً وهو قوله : ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ [يونس : 71] فأراد أن يسعوا في أمره غاية السعي ويبالغوا فيه غاية المبالغة حتى يطيب عيشهم ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى ضم إليه رابعاً فقال : ﴿ ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ ﴾ [يونس : 71] آمراً لهم بأداء ذلك كله إليه ، ثم ضم إلى ذلك خامساً ﴿ وَلاَ تُنظِرُونَ ﴾ [يونس : 71] فنهاهم عن الإمهال وفي ذلك من الدلالة على أنه عليه الصلاة والسلام قد بلغ الغاية في التوكل على الله سبحانه وأنه كان قاطعاً بأن كيدهم لا يضره ولا يصل إليه وأن مكرهم لا ينفذ فيه ما هو أظهر من الشمس وأبين من أمس ، ثم إنه عليه السلام أراد أن يجعل الحجة لازمة عليهم

ويبرىء ساحته فنفي سؤاله إياهم شيئاً من الأجر وأكد ذلك بأن أجره على الله سبحانه لا على غيره مشيراً إلى مزيد كرمه جل جلاله وأنه يثيبه على فعله سأله أو لم يسأله ولذا لم يقل إن سؤالي الأجر إلا من الله تعالى ، ثم لم يكتف بذلك حتى ضم إليه أنه مأمور بما يندرج فيه عدم سؤالهم والالتفات إلى ما عندهم وأن يتصف به على أتم وجه لأن ﴿ مِنَ المسلمين ﴾ أبلغ من مسلماً كما تحقق في محله وفي ذلك قطع ما عسى أن يحول بينهم وبين إجابة دعوته والاتعاظ بعظته إلا أن القوم قد بلغوا الغاية في العناد والتمرد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(67/367)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾

لتفريع الكلام على الكلام فجملة الشرط وجوابه مفرعتان على الجملتين السابقتين ، ولما كان توليهم عن دعوته قد وقع واستمر تعين أن جعل التولي في جملة الشرط مرادٌ به ما كان حصل ليرتب عليه جواب الشرط الذي هو شيء قد وقع أيضاً .

وإنما قُصد إقرارهم به قطعاً لتعللاتهم واستقصاء لقطع معاذيرهم .

والمعنى : فإن كنتم قد توليتم فقد علمتُم أني ما سألتكم أجراً فتتهموني برغبة في نفع ينجر لي من دعوتكم حتى تعرضوا عنها شُحّاً بأموالكم أو اتهاماً بتكذيبي ، وهذا إلزام لهم بأن توليهم لم يكن فيه احتمال تهمتهم إياه بتطلب نفع لنفسه .

وبذلك برّأ نفسه من أن يكون سبباً لتولّيهم ، وبهذا تعين أن المعلق بهذا الشرط هو التحقق بين مضمون جملة الشرط وجملة الجزاء لا وقوعُ جملة الجزاء عند وقوع جملة الشرط .

وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ إن كنت قلته فقد عِلمتَه ﴾ في آخر سورة [العقود : 116] .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وإنْ كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به ، وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ﴾ في سورة [الأعراف : 87] .

وجملة : إن أجري إلا على الله ﴾ تعميم لنفي تطلبه أجراً على دعوتهم سواء منهم أم من غيرهم ، فالقصر حقيقي وبه يحصل تأكيد جملة : ﴿ فما سألتكم من أجر ﴾ مع زيادة التعميم .

وطريقُ جزمه بأن الله يؤجره على ذلك هو وعد الله إياه به بما أوحى إليه .

وأتى بحرف (على) المفيد لكونه حقاً له عند الله بناء على وعد الله إيّاه وأعلمه بأن الله لا يخلف وعده ، فصار بالوعد حقاً على الله التزم الله به .

والأجر : العوض الذي يعطى لأجل عمل يعمله آخذ العوض .

وجملة : ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ معطوفة على جملة الجواب ، والتقدير فإن توليتم فأمرت أن أكون من المسلمين ، أي أمرني الله أن أتبع الدين الحق ولو كنت وحدي .

(68/367)

وهذا تأييس لهم بأن إجماعهم على التولي عنه لا يفل حده ولا يصده عن مخالفة دينهم الضلال .

وبُني فعل ﴿ أمرت ﴾ للمجهول في اللفظ للعلم به ، إذ من المعلوم من سياق الكلام أنّ الذي أمره هو الله تعالى .

وقوله : ﴿ أن أكون من المسلمين ﴾ أي من الفئة التي يصدق عليها هذا الوصف وهو الإسلام ، أي توحيد الله دون عبادة شريك ، لأنه مشتق من إسلام العبادة وتخليصها لله تعالى دون غيره .

كما في قوله تعالى : ﴿ فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعنِ ﴾ [آل عمران : 20] .

وقد سمي التوحيد ودين الحق الخالص إسلاماً في مختلف العصور وسمَّى الله به سُنن الرسل فحكاه عن نوح عليه السلام هنا وعن إبراهيم بقوله تعالى : ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ [البقرة : 131] ، وعن إسماعيل

﴿ ربنا واجعلنا مُسْلِمَين لك ﴾ [البقرة : 128] ، ويعقوب وبنيه إذ حكى عنهم ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة : 133] ، وعن يوسف ﴿ توفني مسلماً ﴾ [يوسف : 101] ، وعن موسى ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ [يونس : 8] ، وعن سليمان ﴿ أن لا تعلوا علي واتوني مسلمين ﴾ [النمل : 31] ، وعن عيسى والحواريين ﴿ قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ [المائدة : 111] .

وقد تقدم بيان ذلك مفصلاً عند قوله تعالى : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ في سورة [البقرة : 128] .

وقوله : ﴿ أن أكون من المسلمين ﴾ أقوى في الدلالة على الاتصاف بالإسلام من : أن أكون مسلماً ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾ في سورة [البقرة : 43] ، وعند قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ في سورة [براءة : 119] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(69/367)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾

أي : إن توليتم عن دعوتي لعبادة الإله الحق ، فأنا أدعوكم إلى مثيل لكم هو أنا ، بل أدعوكم إلى من هو فوقي وفوقكم ، فأنا لا أريد أن أستولي على السلطة الزمنية منكم ، ولا أبحث عن جاهٍ ، فالجاه كله لله تعالى .

والله لا يحتاج إلى جاهٍ منكم لأن جاهه سبحانه ذاتي فيه ، ولكن لنمنع جبروتكم وتجبُّركم ؛ لتعيشوا على ضوء المنهج الحق ؛ لتكون حياتكم صالحة ، وكل ذلك لمصلحتكم .

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ [يونس : 72] فهل يُمَالىء نوح عليه السلام أعداءه .

إن الإنسان يُمَالىء العدو ؛ لأن يخاف أن يوقع به شرّاً ، ونوح عليه السلام لا يخافهم ؛ لأنه يعتمد على الله تعالى وحده ، بل هو يدلُّهم على مواطن القوة فيهم ، وهو يعلم أن قوتهم محدودة ، وأن شرهم مهما بلغ فهو غير نافذ ، وقد لا يكون منهم شر على الإطلاق ، فهل هناك نفعٌ سيعود على نوح عليه السلام ويُمنَع عنه ؟

لا ؛ لأنه يعلن أنه لا يأخذ أجراً على دعوته .

هم إذن لا يقدرون على ضُرِّه ، ولا يقدرون على نفعه ، وهو لا يريد منهم نفعاً ؛ لأن مركزه بإيمانه بالله الذي أرسله مركزٌ قويٌّ .

وهو لا يسألهم أجراً ، وكلمة " أجر " تعني : ثمن المنفعة ، والأثمان تكون عادة في المعاوضات ، إما أن تكون ثمناً للأعيان والذوات ، وإما أن تكون ثمناً للمنفعة .

ومثال ذلك : أن إنساناً يرغب في شراء " شقة " في بيت فيذهب إلى رجل يملك بيتاً ، ويطلب منه أن يبيع له عدداً من الأسهم بقيمة الشقة .

وهناك آخر يريد أن يستأجر شقة فيذهب إلى صاحب البيت ؛ ليدفع له قيمة إيجار شقة في البيت ، اي : يدفع له قيمة الانتفاع بالشقة ، والأجر لا يُدفع إلا لطلب منفعة مُلِحَّة .

(70/367)

وكان على نوح عليه السلام أن يطلب منهم أجراً ؛ لأنه يهديهم إلى الحق ، هذا في أصول التقييم للأشياء ؛ لأنه يقدِّم لهم نفعاً أساسياً ، لكنه يعلن أنه لا يطلب أجراً وكأنه يقول : إن عملي كان يجب أن يكون له أجر ؛ لأن منفعته تعود عليكم ، وكان من الواجب أن آخذ أجراً عليه .

ولكن نوحاً عليه السلام تنازل عن الأجر منهم ؛ لأنه أراد الأجر الأعلى ، فلو أخذ منهم ؛ فلسوف يأخذ على قدر إمكاناتهم ، ولكن الأجر من الله تعالى هو على قدر إمكانيات الله سبحانه وتعالى ، وفارق بين إمكانات المحدود العطاء وهو البشر ، ومن له قدرة عطاء لا

نهاية لها وهو الله سبحانه وتعالى .

وهنا يقول : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ [يونس : 72] .

فهذا التولّي والإعراض لا يضرُّني ولا ينفعني ؛ لأنكم لا تملكون لي ضُرّاً ولا تملكون لي نفعاً ؛ لأني لن آخذ منكم أجراً .

ومن العجيب أن كل مواكب الرسل عليهم السلام حين يخاطبون أقوامهم يخاطبونهم بهذه العبارة :

﴿ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [ص : 86] .

إلا في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام وقصة موسى عليه السلام ، فعن قصة سيدنا إبراهيم يأتي قول الحق سبحانه :

﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء : 6974] .

ولم يأت الحق سبحانه فيها بشيء عن عدم السؤال عن الأجر .

وأيضاً في قصة سيدنا موسى عليه السلام ، قال الحق سبحانه :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلاَّ فَاذهبا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : 1217] .

وهنا أيضاً لا نجد قولاً لموسى عليه السلام في عدم السؤال عن الأجر .

أما هنا في قصة نوح عليه السلام فنجد قول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ [يونس : 72] .

وكذلك جاء نفس المعنى في قصة هود عليه السلام ، حيث يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 123127] .

وجاء نفس المعنى أيضاً في قوم ثمود ، إذ قال الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين ﴾ [

الشعراء : 141145] .

وكذلك جاء نفس القول على لسان لوط عليه السلام ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 160164] .

(72/367)

ونفس القول جاء على لسان شعيب عليه السلام في قول الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيكة المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 176180] .

إذن : فغالبية الموكب الرسالي يأتي على ألسنتهم الكلام عن الأجر :

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الشعراء : 164] .

فكأن الرسل عليهم السلام يقولون للبشر الذين ارسلوا إليهم : لو أنكم فطنتم إلى حقيقة الأمر لكان من الواجب أن يكون لنا أجر على ما نقدمه لكم من منفعة ، لكنَّا لا نريد منكم أنتم

أجراً ، إنما سنأخذ أجرنا من ربِّ العالمين ؛ لأن المنفعة التي نقدمها لكم لا يستطيع بشر أن يقوِّمها ، وإنما القادر على تقييمها هو واضع المنهج سبحانه ومُنزِله على رسله .

وها هو القرآن الكريم يأتي على لسان رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقول :

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ [الشورى : 23] .

أما لماذا لم تأت مسألة الأجر على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام فنحن نعلم أن إبراهيم عليه السلام أول ما دعا ؛ دعا عمه ، وكان للعم حظ تربية إبراهيم ، وله على سيدنا إبراهيم حق الأبوة .

وكذلك سيدنا موسى عليه السلام ، فقد دعا فرعون ، وفرعون هو الذي قام بتربية موسى ، وكانت زوجة فرعون تريده قرة عين لها ولزوجها ، حتى إن فرعون فيما بعد قد ذكَّره بذلك ، وقال :

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء : 18] .

أما هنا في دعوة سيدنا نوح عليه السلام فيأتي قول القرآن على لسان نوح بما يوضِّح الأمر لقوم نوح :

فإن توليتم فلا حزن لي ، ولا جزع ؛ لأنكم لن تصيبوني بضُرٍّ ، ولن تمنعوا عني منفعة ؛ لأنكم لم تسألوني أن آتي لكم بالهدى لآخذ أجري منكم ، ولكن الحق سبحانه هو الذي بعثني ، وهو الذي سيعطيني أجري ، وقد أمرني سبحانه أن أكون من المسلمين له حَقّاً وصدقاً .

وفي حياتنا نجد أن صديقاً يرسل إلى صديقه عاملاً من عنده ليصلح شيئاً ، فهو يأخذ الأجر من المرسل ، لا من المرسل إليه ، وهذا أمر منطقي وطبيعي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(74/367)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) ﴾

إذا كان عمِله لله لم يَطْلُبْ الأجْرَ عليه من غير الله ، وهكذا سنَّته في جميع أولياء الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 109 ﴾

(75/367)

قوله تعالى ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما لم يردهم كلامه هذا عن غيهم ، سبب عنه قوله مخبراً بتماديهم : ﴿ فكذبوه ﴾ أي ولم يزدهم شيء من هذه البراهين الساطعة والدلائل القاطعة إلا إدباراً ، وكانوا في آخر المدة على مثل ما كانوا عليه من التكذيب ﴿ فنجيناه ﴾ أي تنجية عظيمة بما لنا من العظمة الباهرة بسبب امتثاله لأوامرنا وصدق اعتماده علينا ﴿ ومن معه ﴾ أي من العقلاء وغيرهم ﴿ في الفلكِ ﴾ كما وعدنا أولياءنا ، وجعلنا ذلك آية للعالمين ﴿ وجعلناهم ﴾ أي على ضعفهم بما لنا من العظمة ﴿ خلائف ﴾ أي في الأرض بعد من أغرقناهم ، فمن فعل في الطاعة فعلهم كان جديراً بأن نجازيه بما جازيناهم ﴿ وأغرقنا ﴾ أي بما لنا من كمال العزة ﴿ الذين كذبوا ﴾ أي مستخفين مستهينين ﴿ بآياتنا ﴾ كما توعدنا يفترون على الله الكذب .

ولما كان هذا أمراً باهراً يتعظ به من له بصيرة ، سبب عنه أمر أعلى الخلق فهما بنظره إشارة إلى أنه لا يعتبر به حق الاعتبار غيره فقال : ﴿ فانظر ﴾ وأشار إلى أنه أهل لأن

يبحث عن شأنه بأداة الاستفهام ، وزاد الأمر عظمة بذكر الكون فقال : ﴿ كيف كان ﴾ أي كوناً كان كأنه جبلة ﴿ عاقبة ﴾ أي آخر أمر ﴿ المنذرين ﴾ أي الغريقين في هذا الوصف وهم الذين أنذرتهم الرسل ، فلم يكونوا أهلاً للبشارة لأنهم لم يؤمنوا لنعلم أن من ننذرهم كذلك ، لا ينفع من أردنا شقاوته منهم إنزال آية ولا إيضاح حجة ؛ والتوكل : تعمد جعل الأمر إلى من يدبره للتقدير في تدبيره ؛ والغمة : ضيق الأمر الذي يوجب الحزن ؛ والتولي : الذهاب عن الشيء ؛ والأجر : النفع المستحق بالعمل ؛ والإسلام الاستسلام لأمر الله بطاعته بأنها خير ما يكتسبه العباد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 467 ـ 468 ﴾.

(76/367)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى الكلمات التي جرت بين نوح وبين أولئك الكفار ، ذكر ما إليه رجعت عاقبة تلك الواقعة ، أما في حق نوح وأصحابه فأمران : أحدهما : أنه تعالى نجاهم

من الكفار .

الثاني : أنه جعلهم خلائف بمعنى أنهم يخلفون من هلك بالغرق ، وأما في حق الكفار فهو أنه تعالى أغرقهم وأهلكهم .

وهذه القصة إذا سمعها من صدق الرسول ومن كذب به كانت زجراً للمكلفين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح وتكون داعية للمؤمنين على الثبات على الإيمان ، ليصلوا إلى مثل ما وصل إليه قوم نوح ، وهذه الطريقة في الترغيب والتحذير إذا جرت على سبيل الحكاية عمن تقدم كانت أبلغ من الوعيد المبتدأ وعلى هذا الوجه ذكر تعالى أقاصيص الأنبياء عليهم السلام .

وأما تفاصيل هذه القصة فهي مذكورة في سائر السور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 112 ﴾

(77/367)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾

قال ابن عباس : كان في سفينة نوح عليه السلام ثمانون رجلاً أحدهم جرهم وكان لسانه

عربياً ، وحمل فيها من كل زوجين اثنين ، قال ابن عباس فكان أول ما حمل الذرة وآخر ما حمل الحمال ودخل معه إبليس يتعلق بذنبه .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ ﴾ أي خلفاً لمن هلك بالغرق .

﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ حكى أبو زهير أن قوم نوح عاشوا في الطوفان أربعين يوماً . وذكر محمد بن إسحاق أن الماء بقي بعد الغرق مائة وخمسين يوماً ، فكان بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن غاض الماء ستة أشهر وعشرة أيام وذلك مائة وتسعون يوماً . قال محمد بن إسحاق لما مضت على نوح أربعون ليلة فتح كوة السفينة ثم أرسل منها الغراب لينظر ما فعل الماء فلم يعد ، فأرسل الحمامة فرجعت إليه ولم تجد لرجلها موضعاً ، ثم أرسلها بعد سبعة أيام فرجعت حيث أمست وفي فيها ورقة زيتونة فعلم أن الماء قد قل على الأرض ، ثم أرسلها بعد سبعة أيام فلم تعد فعلم أن الأرض قد برزت ، وكان استواء السفينة على الجودي لسبع عشرة ليلة من الشهر السابع فيما ذكر ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(78/367)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ فكذبوه ﴾ الآية

إخبار من الله عز وجل عن حال قوم نوح المكذبين له ، وفي ضمن ذلك الإخبار توعد للكفار بمحمد صلى الله عليه وسلم وضرب المثال لهم ، أي أنتم بحال هؤلاء من التكذيب فسيكونون بحالهم من النقمة والتعذيب ، و ﴿ الفلك ﴾ : السفينة ، والمفسرون وأهل الآثار مجمعون على أن سفينة نوح كانت واحدة ، و ﴿ الفلك ﴾ لفظ الواحد منه ولفظ الجمع مستو وليس به وقد مضى شرح هذا في الأعراف ، و ﴿ خلائف ﴾ جمع خليفة ، وقوله ﴿ فانظر ﴾ مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم يشاركه في معناها جميع الخلق ، وفي هذه الآية أنه أغرق جميع أهل الأرض كما قال بعض الناس لاستوى : نوح ومحمد صلى الله عليه وسلم في البعث إلى أهل الأرض ، ويرد ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي " الحديث . ويترجح بهذا النظر أن بعثة نوح والغرق إنما كان في أهل صقع لا في أهل جميع الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(79/367)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ يعني نوحاً .

﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ ﴾ أي من المؤمنين .

﴿ فِي الفلك ﴾ أي السفينة ، وسيأتي ذكرها .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ ﴾ أي سكان الأرض وخَلَفاً ممن غرِق .

﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ يعني آخر أمر الذين أنذرهم الرسل فلم يؤمنوا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ فكذبوه ﴾

يعني فكذبوا نوحاً عليه السلام ﴿ فنجيناه ومن معه في الفلك ﴾ يعني في السفينة ﴿ وجعلناهم خلائف ﴾ يعني وجعلنا الذين نجيناهم معه في الفلك سكان الأرض بعد الهالكين ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ أي فانظر يا محمد أو يا أيها الإنسان كيف كان آخر أمر من أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا ولم يقبلوا ذلك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيتين :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾

أي : فإن دام توليكم عما جئت به إليكم من توحيد الله ورفض آلهتكم فلست أبالي بكم ، لأنّ توليكم لا يضرني في خاصتي ، ولا قطع عني صلة منكم ، إذ ما دعوتكم إليه وذكرتكم به ووعظتكم ، لم أسألكم عليه أجراً ، إنما يثيبني عليه الله تعالى أي : ما نصحتكم إلا لوجه الله تعالى لا لغرض من أغراض الدنيا .

ثم أخبر أنه أمره أن يكون من المسلمين من المنقادين لأمر الله الطائعين له ، فكذبوه ، فتموا على تكذيبه ، وذلك عند مشارفة الهلاك بالطوفان .

وفي الفلك متعلق بالاستقرار الذي تعلق به معه ، أو بفنجيناه .

وجعلناهم جمع ضمير المفعول على معنى من ، وخلائف يخلفون الفارقين المهلكين .

ثم أمر بالنظر في عاقبة المنذرين بالعذاب ، وإلى ما صار إليه حالهم .

وفي هذا الإخبار توعد للكفار بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، وضرب مثال لهم في أنهم بحال هؤلاء من التكذيب فسيكون حالهم كحالهم في التعذيب .

والخطاب في فانظر للسامع لهذه القصة ، وفي ذلك تعظيم لما جرى عليهم ، وتحذير لمن

أنذرهم الرسول ، وتسلية له (صلى الله عليه وسلم) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(81/367)

وقال أبو السعود :

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فأصروا على ما هم عليه من التكذيب بعد ما ألزمهم الحجةَ وبيّن لهم المَحَجّةَ وحقق أن تولّيَهم ليس له سببٌ غيرُ التمردِ والعناد فلا جرم حقت عليهم كلمةُ العذاب ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الفلك ﴾ من المسلمين وكانوا ثمانين ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ ﴾ من الهالكين ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي بالطوفان ، وتأخيرُ ذكره عن ذكر الإنجاءِ والاستخفاف حسبما وقع في قوله عز وعلا : ﴿ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا والذين ءامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ ﴾ وغيرِ ذلك من الآيات الكريمة لإظهار كمالِ العناية بشأنِ المقدّمِ ولتعجيل المسرة للسامعين وللإيذان بسبق الرحمةِ التي هي من مقتضيات الربوبية على الغضب الذي هو من مستتبعات جرائمِ المجرمين ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ تهويلٌ لما جرى عليهم وتحذيرٌ لمن كذب الرسولَ

عليه الصلاة والسلام وتسليةٌ له صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(82/367)

وقال الآلوسى :

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾

أي فأصروا بعد أن لم يبق عليهم عليه السلام في قوس الإلزام منزعاً وفي كأس بيان أن لا سبب لتوليهم غير التمرد مكرعاً على ما هم عليه من التكذيب الدال عليه السباق واللحاق وهو عطف على جملة قوله تعالى : ﴿ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ [يونس : 71] والفاء في قوله تعالى : ﴿ فنجيناه ﴾ فصيحة في رأي أي فحقت عليهم كلمة العذاب فأنجيناه ، وأنكر ذلك الشهاب وادعى أن ذكر ما يشير إليه في عبارة بعض المفسرين توطئة للتفريع لا إشارة إلى أن الفاء فصيحة ، وأنا لا أرى فيه بأساً إلا أن تقدير فعاملنا كلا بما تقتضيه الحكمة ونحوه عندي أولى ، ومتعلق الإنجاء محذوف أي من الغرق كما يدل عليه المقام ، وقيل : من أيدي الكفار أي فخلصناه من ذلك ﴿ وَمَن مَّعَهُ ﴾ من المؤمنين به وكانوا في المشهور أربعين رجلاً وأربعين امرأة وقيل دون ذلك ﴿ فِى الفلك ﴾ أي السفينة وهو

مفرد ههنا ، والجار كما قال الأجهوري وغيره متعلق بأنجيناه أي وقع الإنجاء في الفلك ، ويجوز أن يتعلق بالاستقرار الذي تعلق به الظرف قبله الواقع صلة أي والذين استقروا معه في الفلك ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾ عمن هلك بالإغراق بالطوفان وهو جمع خليفة ﴿ فَكَذَّبُوهُ فأنجيناه والذين مَعَهُ ﴾ وهم الباقون من قومه ، والتعبير عنهم بالموصول للإيذان بعلية مضمون الصلة للإغراق وتأخير ذكره عن ذكر الإنجاء والاستخلاف لإظهار كمال العناية بشأن المقدم ولتعجيل المسرة للسامعين وللإيذان بسبق الرحمة التي هي من مقتضيات الربوبية على الغضب الذي هو من مستتبعات جرائم المجرمين ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ المخوفين بالله تعالى وعذابه والمراد بهم المكذبين ، والتعبير عنهم بذلك للإشارة إلى إصرارهم على التكذيب حيث لم ينجع الإنذار فيهم ولم يفدهم شيئاً وقد جرت عادة الله تعالى أن لا يهلك قوماً بالاستئصال إلا بعد الإنذار لأن من أنذر فقد أعذر ، والنظر كما قال الراغب يكون بالبصر والبصيرة

(83/367)

والثاني أكثر عند الخاصة وسيق الكلام لتهويل ما جرى عليهم وتحذير من كذب بالرسول عليه الصلاة والسلام والتسلية له صلى الله عليه وسلم ، والمراد اعتبر ما أخبر الله تعالى به

لأنه لا يمكن أن ينظر إليه هو صلى الله عليه وسلم ولا من أنذره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 11 صـ ﴾

(84/367)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾

الفاء للتفريع الذكري ، أي تفريع ذكر هذه الجمل على ذكر الجمل السابقة لأن الشأن أن تكون لما بعد الفاء مناسبةٍ لما قبلها تقتضي أن يذكر بعدها فيؤتى بالفاء للإشارة إلى تلك المناسبة ، كقوله تعالى : ﴿ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ [الزمر : 72] ، وإلا فإن تكذيب قوم نوح حصل قبل أن يقول لهم : ﴿ إن كان كبُر عليكم مقامي ﴾ [يونس : 71] الخ ، لأنه ما قال لهم ذلك إلا وقد رأى منهم تجهم دعوته .

ولك أن تجعل معنى فعل ﴿ كذبوه ﴾ الاستمرار على تكذيبه مثل فِعل ﴿ آمنوا ﴾ في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ﴾ [النساء : 136] ، فتكون الفاء لتفريع حصول ما بعدها على حصول ما قبلها .

وأما الفاء التي في جملة : ﴿ فنجيناه ﴾ فهي للترتيب والتعقيب ، لأن تكذيب قومه قد

استمر إلى وقت إغراقهم وإنجاء نوح عليه السلام ومَن اتبعه .

وهذا نظم بديع وإيجاز معجز إذ رجع الكلام إلى التصريح بتكذيب قومه الذي لم يذكر قبل بل أشير له ضمناً بقوله : ﴿ إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبُر عليكم مقامي ﴾ [يونس : 71] الآية ، فكان كرد العجز على الصدر .

ثم أشير إلى استمراره في الأزمنة كلها حتى انتهى بإغراقهم ، فذكر إنجاء نوح وإغراق المكذبين له ، وبذلك عاد الكلام إلى ما عقب مجادلةَ نوح الأخيرة قومَه المنتهية بقوله : ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ [يونس : 72] فكان تفنناً بديعاً في النظم مع إيجاز بهيج .

وتقدم ذكر إنجائه قبل ذكر الإغراق الذي وقع الإنجاء منه للإشارة إلى أن إنجاءه أهم عند الله تعالى من إغراق مكذبيه ، ولتعجيل المسرة للمسلمين السامعين لهذه القصة .

والفلك : السفينة ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ والفلك التي تجري في البحر ﴾ في سورة [البقرة : 164] .

والخلائف : جمع خليفة وهو اسم للذي يخلف غيره .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ في سورة [البقرة : 30] .

وصيغة الجمع هنا باعتبار الذين معه في الفلك تفرع على كل زوجين منهم أمة .

وتعريف قوم نوح بطريق الموصولية في قوله : وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ للإيماء إلى سبب تعذيبهم بالغرق ، وأنه التكذيب بآيات الله إنذاراً للمشركين من العرب ولذلك ذيل بقوله : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ ، أي المنذرين بالعذاب المكذبين بالإنذار .

والنظر : هنا نظر عين ، نزل خبرهم لوضوحه واليقين به منزلة المشاهد .

والخطاب بـ ﴿ انظر ﴾ يجوز أن يكون لكل من يسمع فلا يراد به مخاطب معين ويجوز أن يكون خطاباً لمحمد صلى الله عليه وسلم فخصّ بالخطاب تعظيماً لشأنه بأن الذين كذبوه يوشك أن يصيبهم من العذاب نحو مما أصاب قوم نوح عليه السلام وفي ذلك تسلية له على ما يلاقيه من أذاهم وإظهار لعناية الله به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(86/367)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾

وكأن الأمر الذي وقع من الحق سبحانه نتيجة عدائهم للإيمان كان من الممكن أن يشمله ؛ لأنه لا يقال : نجَّيتُك من كذا إلا إذا كان الأمر الذي نجيتك منه ، توشك أن تقع فيه ، وكان هذا بالفعل هو الحال مع الطوفان ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السماء بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً ﴾ [القمر : 1112] .

ومن المتوقع أن تشرب الأرض ماء المطر ، لكن الذي حدث أن المطر انهمر من السماء والأرض أيضاً تفجَّرتْ بالماء ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَالْتَقَى المآء على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر : 12] .

أي : أن ذلك الأمر كان مقدَّراً ؛ حتى لا يقولن أحد : إن هذه المسألة ظاهرة طبيعية . لا إنه أمر مُقدَّر ، وقد كانت السفينة موجودة بصناعة من نوح عليه السلام ؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بذلك في قوله تعالى في سورة هود : ﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [هود : 37] .

ويقول الحق سبحانه في الآية التي بعدها :

﴿ وَيَصْنَعُ الفلك وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود : 38] .

ويركب نوح عليه السلام السفينة ، ويركب معه من آمن بالله تعالى ، وما حملوا معهم من الطير والحيوان من كُلِّ نوع اثنين ذكراً وأنثى .

وقول الحق سبحانه :

﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ ﴾ [يونس : 73] .

يوحي أن الذي صعد إلى السفينة هم العقلاء من البشر ، فكيف نفهم مسألة صعود الحيوانات والطيور إلى السفينة ؟

(87/367)

نقول : إن الأصل في وجود هذه الحيوانات وتلك الطيور أنها مُسخَّرة لخدمة الإنسان ، وكان لا بد أن توجد في السفينة ؛ لأنها ككائنات مسخّرة تسبّح الله ، وتعبد الحق سبحانه ، فكيف يكون علمها فوق علم العقلاء الذين كفرو بعضهم ، ثم أليس من الكائنات المسخَّرة ذلك الغراب الذي علَّم " قابيل " كيف يواري سوأة أخيه ؟ ! إنه طائر ، لكنه علم ما لم يعلمه الإنسان !

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ [المائدة : 31]

.

ثم يقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصددها الآن :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الفلك وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ [يونس : 73] .

وكلمة " الفُلْك " من الألفاظ التي تطلق على المفرد ، وتطلق على الجماعة .

وقول الحق سبحانه : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ ﴾ نعلم منه أن الفعل من الله تعالى ، وهو سبحانه حين يتحدث عن أي فعل له ، فالكلام عن الفعل يأتي مثل قوله سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] .

ولكنه حين يتحدث عن ذاته ، فهو يأتي بكلمة تؤكد الوحدانية وتكون بضمير الإفراد مثل :

﴿ إنني أَنَا الله ﴾ [طه : 14] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الفلك ﴾ [يونس : 73] .

كلمة " أنجى " للتعددية ، وكلمة " نَجَّى " تدل على أن هناك معالجة شديدة للإنجاء ، وعلى أن الفعل يتكرر .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ ﴾ [يونس : 73] .

تعني : أن الخليفة هو من يجيء بعد سابق ، وكلمة " الخليفة " تأتي مرة للأعلى ، مثل الحال

هنا حيث جعل الصالح خليفة للصالح ، فبعد أن أنجى الله سبحانه العناصر المؤمنة في السفينة ، أغرق الباقين .

(88/367)

إذن : فالصالحون على ظهر السفينة أنجبوا الصالحين من بعدهم .

ومرة تأتي كلمة " الخليفة " للأقل ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصلاة واتبعوا الشهوات ﴾ [مريم : 59] .

فهنا تكون كلمة الخليفة موحية بالمكانة الأقل ، وهناك معيار وضعه الحق سبحانه لتقييم الخليفة ، هو قول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأرض مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : 14] .

ولأن الإنسان مخيَّر بين الإيمان والكفر ، فسوف يَلْقَى مكانته على ضوء ما يختار .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارتضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ﴾ [النور : 55] .

إذن : فالخليفة إما أن يكون خليفة لصالحٍ ، وإما أن يكون صالحاً يَخْلُفُ فاسداً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ [يونس : 73] .

والآيات كما قلنا من قبل إما آيات الاعتبار التي تهدي إلى الإيمان بالقوة الخالقة ، وهي آيات الكون كلها ، فكل شيء في الكون يدلُّكَ على أن هذا الكون مخلوق على هيئة ولغاية .

بدليل أن الأشياء في هذا الكون تنتظم انتظاماً حكيماً .

وإذا أردت أن تعرف دقة هذا الخلق ، فانظر إلى ما ليدك فيه دَخْلٌ ، وما ليس ليدك فيه دخل ؛ ستجد كل ما ليس ليدك فيه دخل على درجة هائلة من الاستقامة ، والحق سبحانه يقول :

﴿ لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ اليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 40] .

أما ما ليدك فيه دخل ، فاختيارنا حين يتدخل فهو قد يفسد الأشياء .

(89/367)

وهكذا رأينا أن الآيات الكونية تلفت إلى وجود الخالق سبحانه وهي مناط الاستدلال العقلي على وجود الإله ، أو أن الآيات هي الأمور العجيبة التي جاءت على أيدي الرسل عليهم السلام لتقنع الناس بأنهم صادقون في البلاغ عن الله سبحانه وتعالى .

ثم هناك آيات القرآن الكريم التي يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الذي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكتاب مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب ﴾ [آل عمران : 7]

.

وهي الآيات التي تحمل المنهج .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَغْرَقْنَا الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ [يونس : 73] .

فهو يعلِّمنا أنه أغرق من كذَّبوا بالآيات الكونية ولم يلتفتوا إلى بديع صنعه سبحانه ، وحكمة تكوين هذه الآيات ، وترتيبها ورتابتها ، وهم أيضاً كذَّبوا الآيات المعجزات ، وكذلك كذَّبوا بآيات الأحكام التي جاءت بها رسلهم .

وينهي الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بقوله :

﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ [يونس : 73] .

والخطاب هنا لكل من يتأتَّى منه النظر ، وأوَّلُهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو أول مُخاطَب بالقرآن .

وأنت حين تقول : " انظر " ؛ فأنت تُلْفِت إلى أمر حسّي ، إن وجَّهت نظرك نحوه جاء الإشعاع من المنظور إليه ، ليرسم أبعاد الشيء ؛ فتراه .

والكلام هنا عن أمور غائبة ، فهي أحداث حسية وقعت مرة واحدة ثم صارت خبراً ، فإن أخبرك بها مخبر فيكون تصديقك بها على مقدار الثقة فيه .

(90/367)

فمن رأى عصا موسى عليه السلام وهي تلقف الحبال التي ألقاها السحرة ؛ آمن بها ، مثلما آمن من شاهد النار عاجزة عن إحراق إبراهيم عليه السلام ، ومن رأى عيسى عليه السلام وهو يُشفي الأَكْمَهَ والأبرص ويُحيي الموتى بإذن الله تعالى ، فقد آمن بما رأى ، أما من لم ير تلك المعجزات فإيمانه يتوقف على قدر توثيقه لمن أخبر ، فإن كان المخبر بذلك هو الله سبحانه وفي القرآن الكريم فإيماننا بتلك المعجزات هو أمر حتمي ؛ لأننا آمنا بصدق المبلِّغ عن الله تعالى .

ونحن نفهم أن الرسالات السابقة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، كانت رسالات موقوتة زماناً ومكاناً ، لكن الإسلام جاء لينتظم الناس الموجَّه إليهم منذ أن أرسل الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة .

لذلك جاء القرآن آيات باقيات إلى أن تقوم الساعة ، وهذا هو السبب في أن القرآن قد جاء معجزة عقلية دائمة يستطيع كل من يدعو إلى منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : محمد رسول من عند الله تعالى ، وتلك هي معجزته .

وساعة يقول الحق سبحانه : ﴿ فانظر ﴾ فمثلها مثل قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾ [الفيل : 1] .

وحادثة الفيل قد حدثت في العام الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبطبيعة الحال فسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير حادثة الفيل ، ولكن الذين رأوها هم الذين كانوا يعيشون وقتها ، وهذا ما يلفتنا إلى فارق الأداء ، فعيونك قد ترى أمراً ، وأنذك قد تسمع خبراً ، ولكن من الجائز أن تخدعك حواسك ، أما الخبر القادم من الله تعالى ، وإن كان غائباً عنك الآن وغير مسموع لك فخذه على أنه أقوى من رؤية العين .

ولقائل أن يقول : لماذا لم يقل الحق : " ألم تعلم " وجاء بالقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ [الفيل : 1] .

وأقول : ليدلنا الله سبحانه على أن العلم المأخوذ من الله تعالى عن أمر غيبي عليك أن تتلقاه بالقبول أكثر من تلقيك لرأي العين .

إذن : ﴿ فانظر ﴾ تعني : اعلمْ الأمر وكأنه مُجسَّم أمامك ؛ لأنك مؤمن بالله تعالى وكأنك تراه ، ومُبلِّغك عن الله سبحانه هو رسول تؤمن برسالته ، وكل خبر قادم من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه سولم لا يمكن أن يتسرب إليه الشك ، ولكن الشك لا يمكن أن يتسرب إلى المخبر الصادق أبداً .

ولقائل أن يقول : ولماذا لم يقل الحق : " فانظر كيف كان عاقبة الكافرين " بدلاً من قول الحق سبحانه :

﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ [يونس : 73] .

وهنا نقول :

إن الحق سبحانه وتعالى قد بيَّن أنه لم يعذِّب قبل أن يُنْذِر ، فهو قد أنذر أولاً ، ولم يأخذ القوم على جهلهم .

" فانظر " كما نعلم هي خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يشمل أمته أيضاً ، وجاء هذا الخبر تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن صادف من قومك يا محمد ما صادف قوم نوح عليه السلام فاعلمْ أن عاقبتهم ستكون كعاقبة قوم نوح .

وفي هذا تحذير وتخويف للمناوئين لرسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(92/367)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فِي الفلك ﴾ : يجوز فيه وجهان ، أحدهما : أن يتعلق بأَنْجَيْناه ، أي : وقع الإِنْجاء في هذا المكان . والثاني : أن يتعلَّقَ بالاستقرار الذي تعلَّق به الظرفُ ، وهو " معه " لوقوعه صلةً ، أي : والذين استقروا معه في الفلك .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ ﴾ ، أي : صَيَّرناهم ، وجُمع الضميرُ في " جَعَلْناهم " حَمْلا على معنى " مِنْ " ، و " خلائف " جمع خَلِيفة ، أي : يَخْلُفون الغارقين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 244 ﴾

(93/367)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73) ﴾

أغرق قومَه بأمواج القَطْرة ، وفي الحقيقة أغرقهم بأمواج الأحكام والقدرة ، وحفظ نوحاً – عليه السلام – وقومه في السفينة ، وفي الحقيقة نَجَّاهم في سفينة السلامة . وكان نوحٌ في سابق حكمه من المحروسين ، وكان قومُه في قديم قضائه من جملة المُغْرِقين ، فَجرَتْ الأحوال على ما جرَتْ به القسمةُ في الأزل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 109 ﴾

(94/367)

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما لم يكن في قصص من بينه وبين موسى عليهم السلام مما يناسب مقصود هذه السورة إلا ما شاركوا فيه قوم نوح من أنهم لم تنفع الآيات من أريدت شقاوته منهم ، ذكره سبحانه طاوياً لما عداه فقال تعالى : ﴿ ثم ﴾ أي بعد مدة طويلة ﴿ بعثنا ﴾ أي على عظمتنا ؛ ولما كان البعث لم يستغرق زمان البعد ، أدخل الجار فقال : ﴿ من بعده ﴾ أي قوم نوح ﴿ رسلاً ﴾ كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام .

ولما كان ربما ظن أن قوم الإنسان لا يكذبونه ، وإن كذبوه لم يتمادوا على التكذيب لا سيما إن أتاهم بما يقترحونه من الخوارق قال : ﴿ إلى قومهم ﴾ أي ففاجأهم قومهم بالتكذيب ﴿ فجاءوهم ﴾ أي فتسبب عن استنادهم إلى عظمتنا أن جاؤوهم ﴿ بالبينات ﴾ ليزول تكذيبهم فيؤمنوا ﴿ فما ﴾ أي فتسبب عن ذلك ضد ما أمروا به وقامت دلائله وهو أنهم ما ﴿ كانوا ﴾ أي بوجه من وجوه الكون ﴿ ليؤمنوا ﴾ أي مقرين ﴿ بما كذبوا ﴾ أي مستهينين ﴿ به ﴾ أول ما جاؤوهم .

ولما كان تكذيبهم في بعض الزمن الماضي ، أدخل الجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي قبل مجيء البينات لأنا طبعنا على قلوبهم ؛ قال أبو حيان : وجاء النفي مصحوباً بلام الجحود ليدل على أن إيمانهم في حيز الاستحالة والامتناع - انتهى .

ويجوز أن يكون التقدير : من قبل مجيء الرسل إليهم ، ويكون التكذيب أسند إليهم لأن أباهم كذبوا لما بدلوا ما كان عندهم من الدين الصحيح الذي أتتهم به الرسل ورضوا هم بما أحدث آباؤهم استحساناً له ، أو لأنه كان بين أظهرهم بقايا على بقايا مما شرعته الرسل فكانوا يعظونهم فيما يبتدعون فلا يعون ولا يسمعون كما كان قس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وغيرهم قبل بعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لكن المعنى الأول أولى – والله أعلم .

ولما قرر عدم انتفاعهم بالآيات ، بنى ما يليه على سؤاله من لعله يقول : هل استمر الخلق فيمن بعدهم ؟ فكأنه قيل : نعم ! ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ما طبعنا على قلوبهم هذا الطبع العظيم ﴿ نطبع ﴾ أي نوجد الطبع ونجدده متى شئنا بما لنا من العظمة ﴿ على قلوب المعتدين ﴾ في كل زمن لكل من تعمد العدو فيما لا يحل له ، وهذا كما أتى موسى عليه السلام إلى فرعون فدعاه إلى الله فكذبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 468 ـ 469 ﴾.

(96/367)

فصل

قال الفخر :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾

اعلم أن المراد : ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً ولم يسمهم ، وكان منهم هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين بالبينات ، وهي المعجزات القاهرة ، فأخبر تعالى عنهم أنهم جروا على منهاج قوم نوح في التكذيب ، ولم يزجرهم ما بلغهم من إهلاك الله تعالى المكذبين من قوم نوح عن ذلك ، فلهذا قال : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ وليس المراد عين ما كذبوا به ، لأن ذلك لم يحصل في زمانه بل المراد بمثل ما كذبوا به من البينات ، لأن البينات الظاهرة على الأنبياء عليهم السلام أجمع كأنها واحدة .

ثم قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَطْبَعُ على قُلوبِ المعتدين ﴾ واحتج أصحابنا على أن الله تعالى قد يمنع المكلف عن الإيمان بهذه الآية وتقريره ظاهر .

قال القاضي : الطبع غير مانع من الإيمان بدليل قوله تعالى : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء : 155] ولو كان هذا الطبع مانعاً لما صح هذا الاستثناء .

والجواب : أن الكلام في هذه المسألة قد سبق على الاستقصاء في تفسير قوله تعالى :

﴿ خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة : 7] فلا فائدة في الإعادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 113 ﴾

(97/367)

وقال ابن عطية :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾

الضمير في قوله ﴿ من بعده ﴾ عائد على نوح عليه السلام والضمير في ﴿ قومهم ﴾ عائد على الرسل ، ومعنى هذه الآيات كلها ضرب المثل لحاضري محمد صلى الله عليه وسلم ، أي كما حل بهؤلاء يحل بكم ، و ﴿ البينات ﴾ المعجزات والبراهين الواضحة ، والضمير في قوله ﴿ كانوا ﴾ وفي ﴿ ليؤمنوا ﴾ عائد على قوم الرسل ، والضمير في ﴿ كانوا ﴾ عائد على قوم نوح ، وهذا قول بعض المتأولين ، وقال بعضهم : بل تعود الثلاثة على قوم الرسل على معنى أنهم بادروا رسلهم بالتكذيب كلما جاء رسول ثم لجوا في الكفر وتمادوا فلم يكونوا ليؤمنوا بما سبق به تكذيبهم ، وقال يحيى بن سلام ﴿ من قبل ﴾ معناه من قبل العذاب .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا القول بعد ، ويحتمل اللفظ عندي معنى آخر وهو أن تكون

" ما " مصدرية والمعنى فكذبوا رسلهم فكان عقابهم من الله أن لم يكونوا ليؤمنوا بتكذيبهم من قبل أي من سببه ومن جراه ، ويؤيد هذا التأويل قوله ﴿ كذلك نطبع ﴾ ، وقال بعض العلماء : عقوبة التكذيب الطبع على القلوب ، وقرأ جمهور الناس : " نطبع " بالنون ، وقرأ العباس بن الفضل : " يطبع " بالياء ، وقوله ﴿ كذلك ﴾ أي هذا فعلنا بهؤلاء ، ثم ابتدأ ﴿ كذلك نطبع ﴾ أي كفعلنا هذا و ﴿ المعتدين ﴾ هم الذين تجاوزوا طورهم واجترحوا ما لا يجوز لهم وهي ها هنا في الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(98/367)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ ﴾

أي من بعد نوح .

﴿ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾ كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم .

﴿ فَجَآءُوهُمْ بِالبينات ﴾ أي بالمعجزات .

﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ التقدير : بما كذب به قوم نوح من قبل .

وقيل : "بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ" أي من قبل يوم الذَّر ، فإنه كان فيهم من كذّب بقلبه وإن قال الجميع : بلى .

قال النحاس : ومن أحسن ما قيل في هذا أنه لقوم بأعيانهم ؛ مثل : ﴿ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : 6] .

﴿ كَذَلِكَ نَطْبَعُ ﴾ أي نختم .

﴿ على قُلوبِ المعتدين ﴾ أي المجاوزين الحدّ في الكفر والتكذيب فلا يؤمنوا .

وهذا يردّ على القدرية قولهم كما تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(99/367)

وقال الخازن :

﴿ ثم بعثنا من بعده ﴾

يعني من بعد نوح ﴿ رسلاً إلى قومهم ﴾ لم يسم هنا من كان بعد نوح من الرسل وقد كان بعد نوح هود وصالح وغيرهما من الرسل ﴿ فجاؤوهم بالبينات ﴾ يعني بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات التي تدل على صدقهم ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به

من قبل ﴾ يعني أن أولئك الأقوام والأمم التي جاءتهم الرسل جروا على منهاج قوم نوح في التكذيب ولم يزجرهم ما جاءتهم به الرسل ولم يرجعوا عما هم فيه من الكفر والتكذيب ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ يعني مثل إغراقنا قوم نوح بسبب تكذيبهم نوحاً كذلك نختم على قلوب من اعتدى وسلك سبيلهم في التكذيب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(100/367)

وقال أبو حيان :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾

من بعده أي : من بعد نوح رسلاً إلى قومهم ، يعني هوداً وصالحاً ولوطاً وإبراهيم وشعيباً .

والبينات : المعجزات ، والبراهين الواضحة المثبتة لما جاءوا به .

وجاء النفي مصحوباً بلام الجحود ليدل على أنّ إيمانهم في حيز الاستحالة والامتناع ،

والضمير في كذبوا عائد على من عاد عليه ضمير كانوا وهم قوم الرسل .

والمعنى : أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية وتكذيب للحق ، فتساوت حالتهم قبل البعثة وبعدها ، كأن لم يبعث إليهم أحد .

ومن قبل متعلق بكذبوا أي : من قبل بعثة الرسل .

وقيل : المعنى أنهم بادروا رسلهم بالتكذيب كلما جاء رسول ، ثم لحوا في الكفر وتمادوا ، فلم يكونوا ليؤمنوا بما سبق به تكذيبهم من قبل لجهم في الكفر وتماديهم .

وقال يحيى بن سلام : من قبل معناه من قبل العذاب ، وهذا القول فيه بعد .

وقيل : الضمير في كذبوا عائد على قوم نوح أي : فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح ، يعني : أن شنشنتهم واحدة في التكذيب .

قال ابن عطية ، ويحتمل اللفظ عندي معنى آخر وهو : أن تكون ما مصدرية ، والمعنى فكذبوا رسلهم فكان عقابهم من الله أن لم يكونوا ليؤمنوا بتكذيبهم من قبل أي : من سببه ومن جرائه ، ويؤيد هذا التأويل كذلك نطبع انتهى .

والظاهر أنّ ما موصولة ، ولذلك عاد الضمير عليها في قوله : بما كذبوا به .

ولو كانت مصدرية بقي الضمير غير عائد على مذكور ، فتحتاج أن يتكلف ما يعود عليه الضمير .

وقرأ الجمهور : نطبع بالنون ، والعباس بن الفضل بالياء ، والكاف للتشبيه أي : مثل ذلك الطبع المحكم الذي يمتنع زواله نطبع على قلوب المعتدين المجاوزين طورهم والمبالغين في الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ أي أرسلنا ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد نوحٍ عليه السلام ﴿ رُسُلاً ﴾ التنكير للتفخيم ذاتاً ووصفاً أي رسلاً كراماً ذوي عددٍ كثير ﴿ إلى قَوْمِهِمْ ﴾ أي إلى أقوامهم لكن لا بأن أرسلنا كلَّ رسولٍ منهم إلى أقوام الكل أو إلى قوم ما ، أيَّ قومٍ كانوا بل كلُّ رسولٍ إلى قومه خاصة مثلُ هودٍ إلى عاد وصالحٍ إلى ثمودَ وغير ذلك ممن قُصَّ منهم ومن لم يُقَصّ ﴿ فَجَاءوهُم ﴾ أي جاء كلُّ رسولٍ قومَه المخصوصين به ﴿ بالبينات ﴾ أي المعجزات الواضحةِ الدالةِ على صدق ما قالوا والباءُ إما متعلقةٌ بالفعل المذكورِ على أنها للتعدية أو بمحذوف وقع حالاً من ضمير جاءوا أي ملتبسين بالبينات ، لكن لا بأن يأتيَ كلُّ رسولٍ ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصةٍ به معينةٍ له حسب اقتضاءِ الحِكمة فإنَّ مراعاةَ انقسامِ الآحاد إلى الآحاد إنما هي فيما بين ضميري جاءوهم كما أشير إليه ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ بيانٌ لاستمرار عدمِ إيمانهم في الزمان الماضي لا لعدم استمرارِ إيمانِهم كما مر مثلُه في هذه السورة الكريمة غيرَ مرة أي فما صح وما استقام لقوم من أولئك الأقوامِ في وقت من الأوقات أن يؤمنوا بل كان ذلك ممتنعاً منهم لشدة شكيمتِهم في الكفر والعناد ، ثم إن كان المحكيُّ آخرَ حال كلِّ قومٍ حسبما يدل عليه حكايةُ قوم نوحٍ فالمراد بعدم إيمانِهم المذكور هاهنا إصرارُهم على ذلك بعد اللتيا والتي وبما أشير إليه في قوله عز وجل : ﴿ بِمَا كَذَّبُواْ

بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ تكذيبُهم من حيث مجيءِ الرسلِ إلى زمان الإصرارِ والعناد وإنما لم يُجعل ذلك مقصوداً بالذات كالأول حيث جُعل صلةً للموصول إيذاناً بأنه بيّنٌ بنفسه غنيٌّ عن البيان ، وإنما المحتاجُ إلى ذلك عدمُ إيمانِهم بعد تواترِ البيناتِ الظاهرةِ وتظاهُرِ المعجزاتِ الباهرةِ التي كانت تَضْطَرُّهم إلى القَبول لو كانوا من أصحاب العقول ، والموصولُ الذي تعلق به الإيمانُ

(102/367)

والتكذيب سلباً وإيماناً عبارةٌ عن جميع الشرائعِ التي جاء بها كلُّ رسولٍ أصولِها وفروعِها . وإن كان المحكيُّ جميعَ أحوالِ كل قومٍ منهم فالمرادُ بما ذُكر أولاً كفرُهم المستمرُّ من حين مجيءِ الرسلِ إلى آخره ، وبما أشير إليه آخراً تكذيبُهم قبل مجيئِهم فلا بد من كون الموصولِ المذكور عبارةً عن أصول الشرائعِ التي أجمعت عليها الرسلُ قاطبةً ودعَوا أممَهم إليها آثرَ ذي أثيرٍ لاستحالة تبدلِها وتغيرها مثلُ ملة التوحيد ولوازمِها ، ومعنى تكذيبهم بها قبل مجيء رسلهم أنهم ما كانوا في زمن الجاهلية بحيث لم يسمعوا بكلمة التوحيد قط بل كان كلُّ قومٍ من أولئك الأقوام يتسامعون بها من بقايا من قبلهم كثمودَ من بقايا عادٍ وعادٍ من بقايا قوم نوحٍ عليه السلام فيكذبونها ثم كانت حالتُهم بعد مجيء الرسلِ كحالتهم قبل ذلك كأن لم يُبعث إليهم أحدٌ ، وتخصيصُ التكذيبِ وعدمِ الإيمان بما ذكر من الأصول لظهور حال الباقي

بدِلالة النص ، فإنهم حيث لم يؤمنوا بما أجمعت عليه كافةُ الرسلِ فلأَن لا يؤمنوا بما تفرّد به بعضُهم أولى ، وعدمُ جعل هذا التكذيبِ مقصوداً بالذاتِ لِما أن عليه يدورُ أمرُ العذابِ والعقابِ عند اجتماعِ المكذِّبين هو التكذيبُ الواقعُ بعد الدعوةِ حسبما يُعرب عنه قوله تعالى :

(103/367)

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ وإنما ذُكر ما وقع قبلها بياناً لعراقتهم في الكفر والتكذيبِ ، وعلى التقديرين فالضمائرُ الثلاثةُ متوافقةٌ في المرجع ، وقيل : ضميرُ كذبوا راجعٌ إلى قوم نوحٍ عليه السلام ، والمعنى فما كان قومُ الرسلِ ليؤمنوا بما كَذب بمثله قومُ نوح ، ولا يخفى ما فيه من التعسف ، وقيل : الباءُ للسببية أي بسبب تعوُّدِهم تكذيبَ الحقِّ وتمرُّنهم عليه قبل بعثة الرسلِ ، ولا يخفى أن ذلك يؤدّي إلى مخالفة الجمهورِ من جعل ما المصدريةِ من قبيل الأسماءِ كما هو رأيُ الأخفشِ وابنِ السرّاج ليرجعِ إليها الضميرُ وفي إرجاعه إلى الحق بادعاء كونِه مركوزاً في الأذهان ما لا يخفى من التعسف ﴿ كذلك ﴾ أي مثلَ ذلك الطبعِ المُحكَم ﴿ نَطْبَعُ ﴾ بنون العظمةِ وقرىء بالياء على أن الضميرَ لله سبحانه ﴿ على قُلوبِ المعتدين ﴾ المتجاوزين عن الحدود المعهودةِ في الكفر والعناد

المتجافين عن قَبول الحق وسلوكِ طريقِ الرشادِ ، وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشأنَهم لانهماكهم في الغيّ والضلالِ وفي أمثال هذا دلالةٌ على أن الأفعالَ واقعةٌ بقدرة الله تعالى وكسب العبد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(104/367)

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ أي أرسلنا ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد نوح عليه الصلاة والسلام ﴿ رُسُلاً ﴾ أي كراماً ذوي عذر كثير فالتنكير للتفخيم والتكثير ﴿ إلى قَوْمِهِمْ ﴾ قيل أي إلى أقوامهم على معنى أرسلنا كل رسول الله إلى قوم خاصة مثل هود إلى عاد وصالح إلى ثمود وغير ذلك ممن قص منهم ومن لم يقص لا على معنى أرسلنا كل رسول منهم إلى أقوام الكل أو إلى قوم أي قوم كانوا ، وفيه إشارة إلى أن عموم الرسالة إلى البشر لم يثبت لأحد من أولئك الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وظاهر كلامهم الإجماع على أن ذلك مخصوص بنبينا صلى الله عليه وسلم ولم يثبت لأحد ممن أرسل بعد نوح ، واختلف فيه عليه السلام هل بعث إلى أهل الأرض كافة أو إلى أهل صقع منها ، وعليه يبنى النظر في الغرق هل عم جميع أهل الأرض أو كان لبعضهم وهم أهل دعوته المكذبين به كما هو ظاهر كثير من الآيات

والأحاديث ، قال ابن عطية : الراجح عند المحققين هو الثاني ، وكثير من أهل الأرض كأهل الصين وغيرهم ينكرون عموم الغرق ، والأول لا ينافي القول باختصاص عموم الرسالة على العموم المشهور بين الخصوص والعموم بنبينا صلى الله عليه وسلم لأنها لمن بعده إلى يوم القيامة .

وزعم بعضهم أن الغرق كان عاماً مع خصوص البعثة ولا مانع من أن يهلك الله تعالى من لا جناية له مع من له جناية ولا اعتراض عليه سبحانه فيما ذكر إذ هو تصرف في خالص ملكه ولا يسئل عما يفعل .

وفي قوله سبحانه : ﴿ واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال : 25] نوع إشارة إلى ذلك .

(105/367)

نعم قد ثبت لنون عليه السلام عموم الرسالة انتهاء حيث لم يبق على وجه الأرض بعد الطوفان سوى من كان معهم وهم جميع أهل الأرض إذ ذاك فالفرق بين رسالته عليه السلام ورسالة نبينا صلى الله عليه وسلم ظاهر فإن رسالة نبينا عليه الصلاة والسلام عامة ابتداء وانتهاء ورسالته عليه السلام عامة انتهاء لا ابتداء ولا يخلو عن نظر ، والأولى أن

يعتبر في اختصاص عموم رسالة نبينا عليه الصلاة والسلام كونها لمن بعده إلى يوم القيامة فإن عدم ثبوت ذلك لأحد من الرسل عليهم السلام قبل نوح وبعده مما لا يتنازع فيه ، وهذا كله إذا لم يلاحظ في العموم الجن وكذا الملائكة إذا لوحظ كما يفيده قوله سبحانه : ﴿ لِيَكُونَ للعالمين نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1] فأمر الاختصاص أظهر وأظهر .

﴿ فَجَاءوهُم ﴾ أي فأتى كل رسول قومه المخصوصين به ﴿ بالبينات ﴾ أي بالمعجزات الواضحة الدالة على صدق ما يقولون ، والباء إما متعلقة بما عندها على أنها للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من الضمير المرفوع أي متلبسين بالبينات لكن لا بأن يأتي كل رسول ببينة فقط بل بأن يأتي ببينة أو ببينات كثيرة خاصة به معينة له حسب اقتضاء الحكمة ، وإلى نفي إرادة الإتيان ببينة وإرادة الإتيان ببينات كثيرة ذهب شيخ الإسلام ، ثم قال : فإن مراعاة انقسام الآحاد على الآحاد إنما هي في ضميري ﴿ جاؤوهم ﴾ كما أشير إليه ، ولعل صنيعنا أحسن من صنيعه ، ويفهم من كلام بعض المحققين أن انفهام إرسال كل رسول إلى قومه من إشافة القوم إلى ضمير ﴿ بَعْدِهِ رُسُلاً ﴾ وليس ذلك من مقابلة الجمع بالجمع المقتضى لانقسام الآحاد على الآحاد ، ولا شك أن انفهام مجيء كل رسول قومه المخصوصين به تابع لذلك .

وبعد هذا كله إذا اعتبر مقابلة الجمع بالجمع في جاؤوهم بالبينات ، وقيل بانقسام الآحاد على الآحاد لا يلزم أن يكون لكل رسول بينة جاء بها كما أن باع القوم دوابهم لا يقتضي أن يكون لكل واحد من القوم دابة واحدة باعها فإن معناه باع كل من القوم ماله من الدواب وهم يعم الدابة الواحدة وغيرها ، وهذا بخلاف ركب القوم دوابهم فإنه يتعين فيه إرادة كل واحدة من الدواب لاستحالة ركوب الشخص دابتين مثلا .

(107/367)

وقد نص العلامة أبو القاسم السمرقندي في حواشيه على المطول أنه لا يشترط في مقابلة الجمع بالجمع انقسام الآحاد على الآحاد بمعنى أن يكون لكل واحد من أحد الجمعين واحد من الجمع الآخر وهو ظاهر فيما قلنا ، والمعول عليه في كون الآية من قبيل المثال الأول أمر خارج ، فإن من المعلوم أن الرسول الواحد من الرسل عليهم السلام قد جاء قومه ببينات فوق الواحدة ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ بيان لاستمرار عدم إيمانهم في الزمان الماضي أي فما صح ولا استقام لهم في وقت من الأوقات أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم ومزيد عنادهم ، وضمير الجمع هنا للقوم المبعوث إليهم وكذا في قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ﴾

والباء فيه صلة يؤمنوا و﴿ مَا ﴾ موصولة والمراد بها جميع الشرائع التي جاء بها كل رسول أصولها وفروعها ، والمراد بعدم إيمانهم بها إصرارهم على ذلك بعد اللتيا والتي وبتكذيبهم من قبل تكذيبهم من حين مجيء الرسل عليهم السلام إلى زمان الاصرار والعناد ، وهذا بناء على أن المحكي آخر أحوالهم حسبما يشير إليه حكاية قوم نوح عليه السلام ، ولم يجعل التكذيب مقصوداً بالذات كما جعل عدم إيمانهم كذلك إيذاناً بأنه بين في نفسه غني عن البيان ، وإنما المحتاج إليه عدم إيمانهم بعد تواتر البينات وتظاهر المعجزات التي كانت تضطرهم إلى القبول لو كانوا من أهل العقول ، وإذا كان المحكى جميع أحوال أولئك الأقوام فالمراد بعدم إيمانهم المفاد بالنفي السابق كفرهم المستمر من حين مجيء الرسل عليهم السلام إلى زمان إصرارهم وبعدم إيمانهم المفهوم من جملة الصلة كفرهم قبل مجيء الرسل عليهم السلام ، ويراد حينئذ من الموصول أصول الشرائع التي أجمعت عليها الرسل قاطبة ودعوا أممهم إليها كالتوحيد ولوازمه مما يستحيل تبدله وتغيره ومعنى تكذيبهم بذلك قبل مجيء رسلهم أنهم ما كانوا أهل جاهلية بحيث لم يسمعوا بذلك قط بل كأن كل قوم يتسامعون به من بقايا من قبلهم

(108/367)

فيكذبونه ثم كانت حالهم بعد مجيء الرسل كحالهم قبل ذلك كأن لم يبعث إليهم أحد ، وقيل : المراد أنهم لم ينتفعوا بالبعثة وكانت حالهم بعد البعثة كحالهم قبلها في كونهم أهل جاهلية والأول أولى ، وتخصيص التكذيب وعدم الإيمان بما ذكر من الأصول لظهور حال الباقي بدلالة النص ، فإنهم حيم لم يؤمنوا بما اجتمعت عليه الكافة فلأن لا يؤمنوا بما تفرد به البعض أولى ، وعدم جعل هذا التكذيب مقصوداً بالذات لأن ما عليه يدور أمر العذاب عند اجتماع التكذيبين هو التكذيب الواقع بعد البعثة والدعوة حسبما يعرب عنه قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولا ﴾ [الإسراء : 15] وإنما ذكر ما وقع قبل بيانا لعراقتهم في الكفر والتكذيب ، وفكك بعضهم بين الضمائر فقيل : ضمير ﴿ كَانُواْ ﴾ و ﴿ يُؤْمِنُواْ ﴾ لقوم الرسل وضمير ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ لقوم نوح عليه السلام أي ما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح أي بمثله ، والمراد به ما بعث الرسل عليهم السلام لإبلاغه .

وجوز على هذا القول أن يراد بالموصول نوح نفسه أي ما كان قوم الرسل ليؤمنوا بنوح عليه السلام إذ لو آمنوا به آمنوا بأنبيائهم عليهم السلام ولا يخفى ما في ذلك ، ومن الناس من جعل الباء سببية ودما ﴾ مصدرية والمعنى كذبوا رسلهم فكان عقابهم من الله تعالى أنهم لم يكونوا ليؤمنوا بسبب تكذيبهم من قبل وأيده بالآية الآتية ، وفيه مخالفة الجمهور من جعل ﴿ ﴾ مصدرية والمعنى كذبوا رسلهم فكان عقابهم من الله تعالى أنهم لم يكونوا ليؤمنوا بسبب

تكذيبهم من قبل وأيده بالآية الآتية ، وفيه مخالفة الجمهور من جعل ﴿ مَا ﴾ المصدرية إسما كما هو رأي الأخفش .

(109/367)

وابن السراج ليرجع الضمير إليها ، وفي إرجاعه إلى الحق بادعاء كونه مركوزاً في الاذهان ما لا يخفى من التعسف ، وقيل : ﴿ مَا ﴾ موصوفة والباء للسببية أيضاً أو للملابسة أي بشيء كذبوا به وهو العناد والتمرد وهو كما ترى ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الطبع المحكم ﴿ نَطْبَعُ ﴾ فالإشارة على حد ما قرر في قوله سبحانه : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : 143] ونظائره مما مر ، وجعل الإشارة إلى الاغراق كما فعل الخازن ليس بشيء ، والطبع يطلق على تأثير الشيء بنقش الطابع وعلى الأثر الحاصل عن النقش والختم مثله في ذلك على ما ذكره الراغب أيضاً ، وذكر أنه تصور الشيء بصورة ما كطبع السكة وطبع الدراهم وأنه أعم من الختم وأخص من النقش ، والأكثرون على تفسيره بالختم مراداً به المنع أي نختم ﴿ على قُلوبِ المعتدين ﴾ أي المتجاوزين عن الحدود المعهودة في الكفر والعناد ونمنعها لذلك عن قبول الحق وسلوك سبيل الرشاد ، وقد جاء الطبع بمعنى الدنس ومنه طبع السيف لصدئه ودنسه ، وبعضهم حمل ما في الآية على ذلك ،

وفسره المعتزلة حيث وقع منسوباً إليه تعالى بالخذلان تطبيقاً له على مذهبهم ، ومن هنا قال الزمخشري : إنه جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم لأن من عاند وثبت على اللجاج خذله الله تعالى ومنعه التوفيق واللطف فلا يزال كذلك حتى يتراكم الرين والطبع على قلبه ، ومراده كما قيل أن ﴿ نَطْبَعُ ﴾ بمعنى نخذل على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية لكن لما كان الطبع الذي هو الخذلان تابعاً لعنادهم ولجاجهم لازماً لهما أجرى مجرى الكناية عنهما .

وقرىء ﴿ يَطْبَعُ ﴾ بالياء على أن الضمير لله سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(110/367)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ)

(111/367)

أَيْ وَاقْرَأْ أَيُّهَا الرَّسُولُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ لَكَ مِنْ قَوْمِكَ ، فِيمَا أَوْعَدْتُهُمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ لَهُمْ عَلَى سَابِقِ سُنَّتِهِ فِي الْمُكَذِّبِينَ لِرُسُلِهِ مِنْ قَبْلِكَ ، خَبَرَ نُوحٍ ذِي الشَّأْنِ الْعَظِيمِ : (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ) أَيْ نَبَأَهُ حِينَ قَالَ لَهُمْ هَذَا الْقَوْلَ فَكَذَّبُوهُ ، (فَأَغْرَقْنَاهُمْ وَنَجَّيْنَاهُ هُوَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ) – لَا جَمِيعَ أَنْبَاءِ قِصَّتِهِ مَعَهُمْ (الْمُفَصَّلَةِ فِي سُورَةِ هُودٍ الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلَ هَذِهِ السُّورَةِ وَوُضِعَتْ بَعْدَهَا فِي الْمُصْحَفِ) لِيَعْلَمُوا مِنْ هَذَا النَّبَأِ الْخَاصِّ سُنَّتَهُ تَعَالَى فِي نَصْرِ رُسُلِهِ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَأَنَّهُ كَذَلِكَ يَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ ، فَيُهْلِكُ الْمُكَذِّبِينَ لَكَ الْمَغْرُورِينَ بِكَثْرَتِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ وَقِلَّةِ مَنِ اتَّبَعَكَ وَضَعْفِهِمْ ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءَ سَيَكُونُونَ خَلَائِفَ الْأَرْضِ فِي قَوْمِهِمْ وَغَيْرِ قَوْمِهِمْ مِنْ سُكَّانِ الْأَرْضِ ، قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ بَعْدَ أَنْ طَالَ مُكْثُهُ فِيهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ وَالْإِصْلَاحِ فِي الْأَرْضِ فَمَلُّوا مَقَامَهُ ، وَسَئِمُوا وَعْظَهُ وَائْتَمَرُوا بِهِ : يَا قَوْمِي إِنْ كَانَ قَدْ كَبُرَ أَيْ شَقَّ وَعَظُمَ عَلَيْكُمْ قِيَامِي فِيكُمْ ، أَوْ مَكَانِي مِنَ الْقِيَامِ بِمَا أَقُومُ بِهِ مِنْ دَعْوَتِكُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّكُمْ ، وَتَذْكِيرِي إِيَّاكُمْ بِآيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَوُجُوبِ عِبَادَتِهِ وَشُكْرِهِ ،

(112/367)

وَالرَّجَاءِ فِي ثَوَابِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ ، وَالْخَوْفِ مِنْ عِقَابِهِ لِلْمُشْرِكِينَ الْمُجْرِمِينَ – التَّذْكِيرُ : يُطْلَقُ عَلَى الْإِعْلَامِ بِالْآيَاتِ وَالدَّلَائِلِ فِي أَنْفُسِ النَّاسِ وَفِي الْآفَاقِ فَيُدْرِكُهَا الْعَقْلُ وَتَقْتَضِيهَا الْفِطْرَةُ ، حَتَّى يَكُونَ بَيَانُهَا تَذْكِيرًا أَوْ كَالتَّذْكِيرِ لِمَنْ فَقِهَهَا بِشَيْءٍ كَانَ يَعْرِفُهُ بِالْقُوَّةِ ، فَعَرَفَهُ بِالْفِعْلِ ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْوَعْظِ وَالنُّصْحِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى عَوَاقِبِ الْأُمُورِ ، وَسَيَأْتِي فِي السُّورَةِ التَّالِيَةِ قَوْلُهُ لَهُمْ : (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ) (11 : 34) الْآيَةَ (فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ) دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَسْتَضْعِفُونَهُمْ ، أَيْ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ ذَلِكَ وَأَرَدْتُمُ التَّفَصِّيَ مِنْهُ بِالْإِيقَاعِ بِي ، فَإِنَّنِي قَدْ وَكَّلْتُ أَمْرِي إِلَى

(113/367)

اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلَنِي وَاعْتَمَدْتُ عَلَيْهِ وَحْدَهُ بَعْدَ أَنْ أَدَّيْتُ رِسَالَتَهُ بِقَدْرِ طَاقَتِي (فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ) مِنْ أَجْمَعَ الْأَمْرَ كَالسَّفَرِ وَالصِّيَامِ وَغَيْرِهِمَا وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ إِذَا عَزَمَ عَلَيْهِ عَزْمًا لَا تَرَدُّدَ فِيهِ ، قِيلَ أَصْلُهُ جَمْعُ مَا تَفَرَّقَ مِنْ أَسْبَابِهِ وَمُقَدِّمَاتِهِ ، وَأَجْمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الشَّيْءِ اتَّفَقُوا عَلَيْهِ كُلُّهُمْ لَمْ يَشِذَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ ، أَيْ أَجْمِعُوا مَا تُرِيدُونَ مِنْ أَمْرِكُمْ مِنْ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، وَقِيلَ : التَّقْدِيرُ وَادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ لِيُعِينُوكُمْ كَمَا تَزْعُمُونَ كَمَا أَدْعُو رَبِّي وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ : (ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ) الَّذِي تَعْتَزِمُونَهُ (عَلَيْكُمْ غُمَّةً) أَيْ

خَفِيًّا فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْحَيْرَةِ أَوِ اللَّبْسِ الَّذِي يَقْتَضِي التَّرَدُّدَ فِي الْإِنْفَاذِ ، بَعْدَ الْعَزْمِ وَالْإِجْمَاعِ ، بَلْ كُونُوا عَلَى عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ فِيهِ لِكَيْلَا تَتَحَوَّلُوا عَنْهُ بِظُهُورِ الْخَطَأِ أَوِ التَّرَدُّدِ فِي كَوْنِهِ هُوَ الصَّوَابَ (ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ) ذَلِكَ الْأَمْرَ بَعْدَ إِجْمَاعِهِ وَاعْتِزَامِهِ وَبَعْدَ اسْتِبَانَتِهِ التَّامَّةِ الَّتِي لَا غُمَّةَ فِيهَا وَلَا الْتِبَاسَ بِأَنْ تُنَفِّذُوهُ بِالْفِعْلِ ، فَالْقَضَاءُ يُطْلَقُ بِمَعْنَى أَدَاءِ الشَّيْءِ وَتَنْفِيذِهِ وَإِتْمَامِهِ وَمِنْهُ : (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ) (28 : 29) (فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ) (33 : 23) وَ (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا) (33 : 37) وَتَعْدِيَتُهُ بِإِلَى لِإِفَادَةِ إِبْلَاغِهِ وَإِيصَالِهِ إِلَى مُتَعَلِّقِهِ بِالْفِعْلِ كَمَا

(114/367)

قَالَ فِي أَوَائِلِ السُّورَةِ آيَةَ رَقْمِ 11 (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) وَيُطْلَقُ بِمَعْنَى الْحُكْمِ بِالشَّيْءِ ، وَإِذَا عُدِّيَ هَذَا بِإِلَى يُفِيدُ تَبْلِيغَ خَبَرِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ) (17 : 4) إِلَخْ . وَقَوْلِهِ : (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ) (15 : 66) ، (وَلَا تُنْظِرُونِ) أَيْ لَا تُمْهِلُونِي بِتَأْخِيرِ هَذَا الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذِهِ بَعْدَ اسْتِيفَاءِ تِلْكَ الْمُقَدِّمَاتِ كُلِّهَا .

هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَبْلَغِ آيَاتِ الْقُرْآنِ عِبَارَةً ، وَأَجْمَعِهَا عَلَى إِيجَازِهَا لِلْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ مِنْ عِلْمِ

النَّفْسِ ، وَدَرَجَةِ إِيمَانِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ وَثِقَتِهِمْ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَشَجَاعَتِهِمْ وَاحْتِقَارِهِمْ لِكُلِّ مَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ أَسْبَابِ الْخَوْفِ مِنْ غَيْرِهِ وَالرَّجَاءِ فِيمَا سِوَاهُ ، وَبَيَانِ خَاتَمِهِمْ لِسُنَّتِهِ تَعَالَى فِيهِمْ وَفِي أَقْوَامِهِمْ ، وَحَسْنِ وَعْظِهِ لَهُمْ بِوَحْيِ رَبِّهِ تَعَالَى فَهُوَ يَضْرِبُ لِحَالِهِ وَمَقَامِهِ مَعَهُمْ مَثَلَ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ فِي غُرُورِ كُلٍّ مِنْهُمْ بِكَثْرَتِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ وَاحْتِقَارِهِمْ لِرَسُولِهِ وَلِمَنْ آمَنَ مَعَهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَالْفُقَرَاءِ ، وَلِمَا

(115/367)

يَعْتَزُّ بِهِ كُلٌّ مِنَ الرَّسُولَيْنِ مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ وَالِاعْتِمَادِ عَلَيْهِ فِي النَّصْرِ وَالْعِزَّةِ وَحُسْنِ الْعَاقِبَةِ ، وَالْجَزْمِ بِإِهْلَاكِ الْمُصِرِّينَ عَلَى تَكْذِيبِهِ وَنَجَاةِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّبِعِينَ لَهُ بِجَعْلِهِمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَأَصْحَابَ السُّلْطَانِ فِيهَا . صَوَّرَتِ الْآيَةُ لِأَهْلِ مَكَّةَ الْبُلَغَاءِ هَذِهِ الْمَعَانِيَ بِمُطَالَبَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ عَلَى كَثْرَتِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ – الْمَشْهُورُ فِي تَوَارِيخِ الْأُمَمِ وَظَوَاهِرِ الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ أَنَّهُمْ جَمِيعُ أَهْلِ الْأَرْضِ – بِأَنْ يَفْعَلُوا مَا اسْتَطَاعُوا مِنَ الْإِيقَاعِ بِهِ وَاكْتِفَاءِ أَمْرِهِ وَالِاسْتِرَاحَةِ مِنْ دَعْوَتِهِ ، مُطَالَبَةَ الْقَوِيِّ الْعَزِيزِ الْمُذِلِّ بِبَأْسِهِ ، وَالْمُعْتَصِمِ بِإِيمَانِهِ بِوَعْدِ رَبِّهِ وَتَوَكُّلِهِ عَلَيْهِ ، لِلضَّعِيفِ الْعَاجِزِ عَنْ تَنْفِيذِ مُرَادِهِ مَهْمَا يَكُنْ مِنِ اسْتِيفَائِهِ لِجَمِيعِ أَسْبَابِهِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالْكَسْبِيَّةِ ، إِذْ أَمَرَهُمْ فِي الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى بِإِجْمَاعٍ

أَمْرِهِمْ بِالْعَزِيمَةِ الصَّادِقَةِ وَقُوَّةِ الْإِرَادَةِ الْجَازِمَةِ ، حَتَّى لَا يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ مُوجِبَاتِهَا مُتَفَرِّقًا بَيْنَهُمْ ، وَأَنْ يَضُمُّوا إلَى هَذِهِ الْقُوَّةِ النَّفْسِيَّةِ الْكَسْبِيَّةِ قُوَّةَ الْإِيمَانِ الْمَعْنَوِيَّةِ بِشُرَكَائِهِمْ وَآلِهَتِهِمْ ، وَلَمَّا كَانَتِ الْعَزِيمَةُ الصَّادِقَةُ الْمُجَمَّعَةُ قَدْ يَعْرِضُ لَهَا الْوَهْنُ أَوِ الْعِلَلُ الْمُقْتَضِيَةُ لِلْفَسْخِ قَبْلَ التَّنْفِيذِ ، نَهَاهُمْ أَنْ يَكُونَ فِي أَمْرِهِمُ الَّذِي أَجْمَعُوا شَيْءٌ مِنَ الْغُمَّةِ وَالْخَفَاءِ الَّذِي يَقْتَضِي ذَلِكَ .

(116/367)

(فَإِنْ قِيلَ) : إنَّ إجْمَاعَ الْعَزْمِ فِي الْأَمْرِ لَا يَكُونُ بَعْدَ الْجَزْمِ بِالْعِلْمِ بِالْمُقْتَضَى لَهُ الْبَاعِثِ إذْ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ غُمَّةً امْتَنَعَ إجْمَاعُهُ كَمَا يَمْتَنِعُ إجْمَاعُ الصِّيَامِ مِنَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ رَمَضَانَ إذَا غُمَّ الْهِلَالُ فِي لَيْلَةِ الثَّلَاثِينَ مِنْ شَعْبَانَ ، وَلِهَذَا قَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا شَعْبَانَ ثَلَاثِينَ) رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَرَوَاهُ غَيْرُهُمْ عَنْ غَيْرِهِ ، فَالْأَمْرُ بِإِجْمَاعِ الْأَمْرِ يُغْنِي عَنِ النَّهْيِ أَنْ يَكُونَ غُمَّةً ، فَمَا حِكْمَةُ ذِكْرِهِ بَعْدَهُ وَعَطْفِهِ عَلَيْهِ بِـ (ثُمَّ) الدَّالَّةِ عَلَى تَأَخُّرِهِ عَنْهُ فِي الرُّتْبَةِ ؟ (قُلْتُ) : يَكْفِي فِي إجْمَاعِ الْأَمْرِ عَلَى الْإِيقَاعِ بِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَعْتَقِدُوا أَنَّهُ مَصْلَحَةٌ لَهُمْ غَيْرُ مُعَارَضَةٍ بِمَفْسَدَةٍ أَرْجَحَ مِنْهَا ، وَهَذَا لَا يَمْنَعُ أَنْ يَعْرِضَ لَهُمْ قَبْلَ تَنْفِيذِهِ شَيْءٌ مِنَ الْغُمَّةِ وَالْحَيْرَةِ

الْمُقْتَضِيَةِ لِلْفَسْخِ أَوِ التَّرَدُّدِ فَمِنْ ثَمَّ اقْتَضَتِ الْمُبَالَغَةُ فِي أَمْرِ التَّعْجِيزِ الْمَذْكُورَةِ أَنْ يُؤَكَّدَ بِهَذَا النَّهْيِ عَنِ الْغُمَّةِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَاقْتَضَتِ الْبَلَاغَةُ أَنْ يَعْطِفَ بِـ (ثُمَّ) لِأَنَّ مَرْتَبَتَهُ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ مَرْتَبَةِ ذَلِكَ الْأَمْرِ وَمَا يَسْتَلْزِمُهُ مِنَ الْعِلْمِ بِالْمُقْتَضَى لَهُ ، كَمَا أَنَّ مَرْتَبَةَ قَضَاءِ ذَلِكَ الْأَمْرِ وَتَنْفِيذِهِ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ مَرْتَبَةِ الْأَمْرِ

(117/367)

الْأَوَّلِ وَالنَّهْيِ كِلْتَيْهِمَا ، وَلِذَلِكَ عُطِفَا عَلَيْهِمَا مَعًا بِـ (ثُمَّ) ، وَأُكِّدَ هَذَا الْأَمْرُ الثَّانِي بِالنَّهْيِ عَنِ الْإِنْظَارِ مَعْطُوفًا بِالْوَاوِ الَّتِي تُفِيدُ مُطْلَقَ الْجَمْعِ لِاتِّحَادِ زَمَنِهِمَا وَرُتْبَتِهِمَا فَلَا تَرْتِيبَ بَيْنَهُمَا .

وَقَرَأَ نَافِعٌ (فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ) بِوَصْلِ الْهَمْزَةِ وَفَتْحِ الْمِيمِ مِنَ الْجَمْعِ ، أَيِ اجْمَعُوا مَا تَفَرَّقَ مِنْهُ ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ : (وَشُرَكَاءَكُمْ) مَفْعُولًا بِهِ مَعْطُوفًا عَلَيْهِ ، لَا مَفْعُولًا مَعَهُ ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ وَابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلَمِيُّ وَعِيسَى الثَّقَفِيُّ (وَشُرَكَاؤُكُمْ) بِالرَّفْعِ أَيْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ، وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ شَاذَّةٌ مُخَالِفَةٌ لِخَطِّ الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ فَلَا تُتْلَى فِي الصَّلَاةِ ، وَقُرِئَ (أَفْضُوا إِلَيَّ) مِنَ الْإِفْضَاءِ إِلَى الشَّيْءِ وَهُوَ الْوُصُولُ وَالِانْتِهَاءُ إِلَيْهِ مُبَاشَرَةً وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا تَصْحِيفٌ وَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى الْمُرَادُ وَاحِدًا لَا يَخْتَلِفُ .

(118/367)

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ) أَيِ انْصَرَفْتُمْ عَنِّي مُصِرِّينَ عَلَى إِعْرَاضِكُمْ عَنْ تَذْكِيرِي (فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ) أَيْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ عَلَى هَذَا التَّذْكِيرِ وَلَا عَلَى غَيْرِهِ مِنْ مَسَائِلِ الدَّعْوَةِ وَالنُّصْحِ أَدْنَى شَيْءٍ مِنَ الْأَجْرِ وَالْمُكَافَآتِ فَتَتَوَلَّوْا لِثِقَلِهِ عَلَيْكُمْ ، أَوْ فَيَضُرُّنِي أَنْ يَفُوتَ عَلَيَّ وَأُحْرَمَهُ فَأُبَالِيَ بِتَوَلِّيكُمْ (إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ) أَيْ مَا أَجْرِي وَثَوَابِي عَلَى دَعْوَتِكُمْ وَتَذْكِيرِكُمْ إِلَّا عَلَى اللهِ الَّذِي أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ ، فَهُوَ يُوَفِّينِي إِيَّاهُ سَوَاءٌ آمَنْتُمْ أَوْ تَوَلَّيْتُمْ (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) أَيِ الْمُنْقَادِينَ الْمُذْعِنِينَ بِالْفِعْلِ لِمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ أَسْلَمْتُمْ أَمْ كَفَرْتُمْ ، فَلَا أَتْرُكُ شَيْئًا مِمَّا أَمَرْتُكُمْ بِهِ (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) (11 : 88) .

(119/367)

(فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ) أَيْ فَأَصَرُّوا عَلَى تَكْذِيبِهِ بَعْدَ أَنْ أَقَامَ لَهُمُ الْحُجَّةَ بِقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ عَلَى حَقِّيَّةِ دَعْوَتِهِ ، وَبَرَاءَتِهِ مِنْ كُلِّ خَوْفٍ مِنْهُمْ إِذَا كَذَّبُوا ، وَرَجَاءٍ فِيهِمْ إِذَا آمَنُوا ، فَنَجَّيْنَاهُ هُوَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ الَّتِي كَانَ يَصْنَعُهَا بِأَمْرِنَا لِأَجْلِ ذَلِكَ ، وَلَفْظُ (الْفُلْكِ) هُنَا مُفْرَدٌ وَهُوَ السَّفِينَةُ كَمَا عَبَّرَ بِهِ فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ ، وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى الْجَمْعِ أَيْضًا كَمَا قَالَ : (وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ) (16 : 14) وَيُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا بِالْقَرَائِنِ ، إِنْ لَمْ

تُوصَفُ بِالْجَمْعِ كَالْمَوَاخِرِ (وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ) يَخْلُفُونَ الْمُكَذِّبِينَ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا عَلَى قِلَّتِهِمْ (وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) بَعْدَ أَنْ أَنْذَرَهُمْ وَأَوْعَدَهُمُ الْعَذَابَ ، أَيْ وَأَغْرَقْنَاهُمْ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)

أَيْ فَانْظُرْ أَيُّهَا الرَّسُولُ بِعَيْنِ بَصِيرَتِكَ وَعَقْلِكَ ، كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْقَوْمِ الَّذِينَ أَنْذَرَهُمْ رَسُولُهُمْ وُقُوعَ عَذَابِ اللهِ عَلَيْهِمْ فَأَصَرُّوا عَلَى تَكْذِيبِهِ ، فَكَذَا تَكُونُ عَاقِبَةُ مَنْ يُصِرُّونَ عَلَى تَكْذِيبِكَ مِنْ قَوْمِكَ ، وَكَذَلِكَ تَكُونُ عَاقِبَةُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّبِعِينَ لَكَ .

(120/367)

قَدَّمَ ذِكْرَ تَنْجِيَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَاسْتِخْلَافَهُمْ عَلَى إغْرَاقِ الْمُكَذِّبِينَ وَقَطْعِ دَابِرِهِمْ ، لِأَنَّهُ هُوَ الْأَهَمُّ فِي سِيَاقِ صِدْقِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَوَّلُهُمَا تَقْدِيمُ مِصْدَاقِ الْوَعْدِ لِتَسْلِيَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَتَسْرِيَةِ حُزْنِهِ عَلَى قَوْمِهِ وَمِنْهُمْ ، وَثَانِيهِمَا كَوْنُهُ هُوَ الْأَظْهَرَ فِي الْحُجَّةِ عَلَى أَنَّهُمَا (أَيِ الْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ) مِنَ اللهِ تَعَالَى الْقَادِرِ عَلَى إيقَاعِهِمَا ، عَلَى خِلَافِ مَا يَعْتَقِدُ الْمُشْرِكُونَ الْمُكَذِّبُونَ الْمَغْرُورُونَ بِكَثْرَتِهِمْ وَقِلَّةِ أَتْبَاعِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَخِلَافُ الْأَصْلِ الْمَعْهُودِ فِي الْمَصَائِبِ الْعَامَّةِ فِي الْعَادَةِ وَهُوَ أَنَّهَا تُصِيبُ الصَّالِحَ وَالطَّالِحَ عَلَى سَوَاءٍ ، فَلَا تَمْيِيزَ فِيهَا وَلَا اسْتِثْنَاءَ ، وَلَكِنَّهُ هُوَ الَّذِي جَرَتْ بِهِ سُنَّةُ اللهِ تَعَالَى

فِي مُكَذِّبِي الرُّسُلِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ فَكَانَ آيَةً لَهُمْ ، فَلَوْلَا أَنَّ الْأَمْرَ بِيَدِ اللَّهِ عَلَى وَفْقِ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ لَمَا هَلَكَ الْأُلُوفُ الْكَثِيرُونَ ، وَنَجَا أَفْرَادٌ قَلِيلُونَ لَهُمْ صِفَةٌ خَاصَّةٌ أَخْرَجَهُمْ مِنْهُمْ تَصْدِيقًا لِخَبَرِ رَسُولِهِمْ ، وَمَا سِيقَ هَذَا النَّبَأُ هُنَا إلَّا لِتَقْرِيرِ هَذَا الْمَعْنَى . وَغَفَلَ عَنْهُ الْبَاحِثُونَ عَنْ نُكْتَةِ الْبَلَاغَةِ فِي الْعُدُولِ عَنِ الضَّمِيرِ إلَى الِاسْمِ الْمَوْصُولِ فَقَالُوا : إنَّهَا تَعْجِيلُ الْمَسَرَّةِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْإِيذَانُ بِأَنَّ الرَّحْمَةَ مُقَدَّمَةٌ عَلَى الْعَذَابِ وَلَكِنْ مَا قُلْنَاهُ هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَوَّلُ لِذَاتِهِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ

(121/367)

السِّيَاقُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مُلْهِمِ الصَّوَابِ .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ) .

بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ عِبْرَةً أُخْرَى مَنْ عِبَرِ مُكَذِّبِي الرُّسُلِ وَسُنَّةً مِنْ سُنَنِهِ فِيهِمْ ، تَكْمِلَةً لِمَا بَيَّنَهُ فِي حَالِ قَوْمِ نُوحٍ مَعَ رَسُولِهِمْ ، عَسَى أَنْ يَعْتَبِرَ بِهَا أَهْلُ مَكَّةَ فَيَعْلَمُوا كَيْفَ يَتَّقُونَ عَاقِبَةَ الْمُكَذِّبِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ وَغَيْرِهِمْ ، فَإِنَّ كُلَّ سُوءٍ وَضُرٍّ عُلِمَ سَبَبُهُ أَمْكَنَ اتِّقَاؤُهُ

بِاتِّقَاءِ سَبَبِهِ ، إِذَا كَانَ مِنْ عَمَلِ النَّاسِ الِاخْتِيَارِيِّ كَالْكُفْرِ وَالِاعْتِدَاءِ وَالظُّلْمِ .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ) أَيْ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ نُوحٍ رُسُلًا مِثْلَهُ

(122/367)

إِلَى أَقْوَامِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا مِثْلَ قَوْمِهِ فِيمَا يَأْتِي مِنْ خَبَرِهِمْ مَعَهُمْ ، وَلِهَذَا أَفْرَدَ كَلِمَةَ (قَوْمِهِمْ) فِيمَا يَظْهَرُ لَنَا مِنْهُ ، وَالْمُرَادُ : أَرْسَلْنَا كُلَّ رَسُولٍ مِنْهُمْ إِلَى قَوْمِهِ كَهُودٍ إِلَى عَادٍ وَصَالِحٍ إِلَى ثَمُودَ ، وَلَمْ يُرْسَلْ رَسُولٌ مِنْهُمْ إِلَى كُلِّ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَانِهِ إِلَّا شُعَيْبًا ، أُرْسِلَ إِلَى قَوْمِهِ أَهْلِ مَدِينَ وَإِلَى جِيرَانِهِمْ أَصْحَابِ الْمُؤْتَفِكَةِ لِاتِّحَادِهِمَا فِي اللُّغَةِ وَالْوَطَنِ ، وَإِنَّمَا أُرْسِلَ مُحَمَّدٌ وَحْدَهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً (فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) أَيْ فَجَاءَ كُلُّ رَسُولٍ مِنْهُمْ قَوْمَهُ بِالْبَيِّنَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى رِسَالَتِهِ وَصِحَّةِ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ ، بِحَسْبِ أَفْهَامِهِمْ وَأَحْوَالِهِمُ الْعَقْلِيَّةِ : (فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ) أَيْ فَمَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يُؤْمِنَ الْمُتَأَخِّرُ مِنْهُمْ بِمَا كَذَّبَ بِهِ الْمُتَقَدِّمُ مِنْ قَبْلُ مِمَّنْ كَانَ مِثْلَهُ فِي سَبَبِ كُفْرِهِ ، وَهُوَ اسْتِكْبَارُ الرُّؤَسَاءِ ، وَتَقْلِيدُ الدَّهْمَاءِ لِلْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ (كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ) أَيْ مِثْلُ هَذَا الطَّبْعِ ، وَعَلَى غِرَارِ هَذِهِ السُّنَّةِ الَّتِي اطَّرَدَتْ فِيهِمْ ، (نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ) مَثَلُهُمْ فِي كُلِّ قَوْمٍ كَقَوْمِكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ إِذَا كَانُوا مِثْلَهُمْ : (وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا) (17 : 77) وَ (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ

تَبْدِيلًا) (33 : 62 ، 48 : 23) فَأَمَّا الطَّبْعُ عَلَى الْقُلُوبِ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ عَدَمِ قَبُولِهَا شَيْئًا غَيْرَ مَا رَسَخَ فِيهَا

(123/367)

وَاسْتَحْوَذَ عَلَيْهَا مِمَّا يُخَالِفُهُ كَقَبُولِ الْجَاهِلِ الْمُقَلِّدِ الدَّلِيلَ الْعِلْمِيَّ عَلَى بُطْلَانِ اعْتِقَادِ التَّقْلِيدِيِّ وَرُجُوعِ الْمُعَانِدِ عَنْ عِنَادِهِ وَكِبْرِهِ النَّفْسِيِّ (وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهُ فِي تَفْسِيرِهَا مَا سَبَقَ فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ فِي سُورِ النِّسَاءِ وَالْأَعْرَافِ وَالتَّوْبَةِ ، وَمَثَلُهُ تَفْسِيرُ : (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ آيَةَ (7) .

(124/367)

وَأَمَّا الِاعْتِدَاءُ الَّذِي صَارَ وَصْفًا ثَابِتًا لِهَؤُلَاءِ (الْمُعْتَدِينَ) فَمَعْنَاهُ تَجَاوُزُ حُدُودِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ اتِّبَاعًا لِهَوَى النَّفْسِ وَشَهَوَاتِهَا ، فَالطَّبْعُ الْمَذْكُورُ أَثَرٌ طَبَعِيٌّ لِلْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا بِوَصْفِ الِاعْتِدَاءِ ، وَلَيْسَ عِقَابًا أُنُفًا (بِضَمَّتَيْنِ أَيْ جَدِيدًا) خَلَقَهُ اللَّهُ لِمَنْعِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ ، إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانُوا مَعْذُورِينَ بِكُفْرِهِمْ وَلَمَا كَانَ فِيهِ عِبْرَةٌ لِغَيْرِهِمْ ، بَلْ لَكَانَ

حُجَّةً لَهُمْ ، وَقَدْ فَهِمَتْ قُرَيْشٌ وَسَائِرُ الْعَرَبِ مَا لَمْ يَفْهَمْهُ مُتَكَلِّمُو الْجَبْرِيَّةِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا ، وَهُوَ أَنَّهَا وَصْفٌ لِلْعِلَّةِ وَالْمَعْلُولِ ، وَالسَّبَبِ وَالْمُسَبَّبِ ، وَسَنَّتُهُ تَعَالَى فِي دَوَامِ كُلٍّ مِنْهُمَا بِدَوَامِ الْآخَرِ ، لَا بِذَاتِهِ وَكَوْنِهِ خَلْقِيًّا لَا مَفَرَّ مِنْهُ ، بَلِ الْمَفَرُّ أَمْرٌ اخْتِيَارِيٌّ مُمْكِنٌ ، وَهُوَ تَرْكُ الْمُعَانِدِ لِعِنَادِهِ وَالْمُقَلِّدِ لِتَقْلِيدِهِ ، إِيثَارًا لِلْحَقِّ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ ، فَهِمُوا هَذَا فَاهْتَدَى الْأَكْثَرُونَ بِالتَّدْرِيجِ ، وَهَلَكَ الَّذِينَ اسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَغَيْرِهَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 375. 379 ﴾

(125/367)

وقال ابن عاشور :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾

﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي ، لأن بعثة رسل كثيرين إلى أمم تلقوهم بمثل ما تلقَّى به نوحاً قومه أعجب من شأن قوم نوح حيث تمالأت تلك الأمم على طريقة واحدة من الكفر .

وليست (ثم) لإفادة التراخي في الزمن للاستغناء عن ذلك بقوله : ﴿ من بعده ﴾ .

وقد أُبهم الرسل في هذه الآية .

ووقع في آيات أخرى التصريح بأنهم : هود وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب .

وقد يكون هنالك رسل آخرون كما قال تعالى : ﴿ ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾ [النساء : 164] ، ويتعين أن يكون المقصود هنا من كانوا قبل موسى لقوله : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى ﴾ [يونس : 75] .

وفي الآية إشارة إلى أن نوحاً أول الرسل .

والبينات : هي الحجج الواضحة الدلالة على الصدق .

والفاءُ للتعقيب ، أي أظهروا لهم المعجزات بإثر إرسالهم .

والباء للملابسة ، أي جاءوا قومهم مبلغين الرسالة ملابسين البينات .

وقد قوبل جمع الرسل بجمع (البينات) فكان صادقاً ببينات كثيرة موزعة على رسل كثيرين ، فقد يكون لكل نبيء من الأنبياء آيات كثيرة ، وقد يكون لبعض الأنبياء آية واحدة مثل آية صالح وهي الناقة .

والفاء في قوله : ﴿ فما كانوا ليؤمنوا ﴾ للتفريع ، أي فترتب على ذلك أنهم لم يؤمنوا .

وصيغ النفي بصيغة لام الجحود مبالغة في انتفاء الإيمان عنهم بأقصى أحوال الانتفاء .

حتى كأنهم لم يوجدوا لأن يؤمنوا بما كذبوا به ، أي لم يتزحزحوا عنه .

ودلت صيغة الجحود على أن الرسل حاولوا إيمانهم محاولة متكررة .

ودل قوله : ﴿ بما كذبوا به من قبل ﴾ أن هنالك تكذيباً بادروا به لرسلهم ، وأنهم لم يقلعوا عن تكذيبهم الذي قابلوا به الرسل ، لأن التكذيب إنما يكون لخبرٍ مخبر فقوله : ﴿ فجاءهم

بالبينات ﴾ مؤذن بحصول التكذيب فلما كذبوهم جاؤوهم بالبينات على صدقهم فاستمروا على التكذيب فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل .

(126/367)

وهذا من إيجاز الحذف لجمل كثيرة .

وهذا يقتضي تكرر الدعوة وتكرر البينات وإلا لما كان لقوله : ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ وقع لأن التكذيب الذي حصل أول مرة إذا لم يطرأ عليه ما من شأنه أن يقلعه كان تكذيباً واحداً منسياً .

وهذا من بلاغة معاني القرآن .

وبذلك يظهر وقع قوله عقبه ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ فان الطبع مؤذن بأن قلوبهم قد ورد عليها ما لو خلت عند وروده عن الطبع عليها لكان شأنه أن يصل بهم إلى الإيمان ، ولكن الطبع على قلوبهم حال دون تأثير البينات في قلوبهم .

وقد جُعل الطبع الذي وقع على قلوب هؤلاء مثلاً لكيفيات الطبع على قلوب المعتدين فقوله : ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ ، أي مثل هذا الطبع العجيب نطبع على قلوب المعتدين فتأملوه واعتبروا به .

والطبع : الختم .

وهو استعارة لعدم دخول الإيمان قلوبهم .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ في سورة البقرة (7 .

(والاعتداء : افتعال من عدا عليه ، إذا ظلمه ، فالمعتدين مرادف الظالمين ، والمراد به المشركون لأن الشرك اعتداء ، فإنهم كذبوا الرسل فاعتدوا على الصادقين بلمزهم بالكذب وقد جاء في نظير هذه الآية من سورة [الأعراف : 101] ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ فهذا التَّحالف للتفنّن في حكاية هذه العبرة في الموضعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(127/367)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾

وكلمة " بعث " هنا تستحق التأمل ، فالبعث إنما يكون لشيء كان موجوداً ثم انتهى ، فيبعثه الله تعالى .

وكلمة ﴿ بَعَثْنَا ﴾ هذه تلفتنا إلى الحق سبحانه أول ما خلق الخلق أعطى المنهج لآدم عليه

السلام ، وأبلغه آدم لأبنائه ، وكل طمس أو تغيير من البشر للمنهج هو إماتة للمنهج .

وحين يرسل الحق سبحانه رسولاً ، فهو لا ينشيء منهجاً ، بل يبعث ما كان موجوداً ، ليذكِّر الفطرة السليمة .

وهذا هو الفرق بين أثر كلمة " البعث " عن كلمة " الإرسال " ، فكلمة البعث تشعرك بوجود شيء ، ثم انتهاء الشيء ، ثم بعث ذلك الشيء من جديد ، ومثله مثل البعث في يوم القيامة ، فالبشر كانوا يعيشون وسيظلون في تناسل وحياة وموت إلى يوم البعث ، ثم يموت كل الخلق ليبعثوا للحساب .

ولم يكن من المعقول أن يخلق الله سبحانه البشر ، ويجعل لهم الخلافة في الأرض ، ثم يتركهم دون منهج ؛ وما دامت الغفلة قد طرأت عليهم من بعد آدم عليه السلام جاء البعث للمنهج على ألسنة الرسل المبلِّغين عن الله تعالى .

وبعد نوح عليه السلام بعث الحق سبحانه رسلاً ، وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ ﴾ [يونس : 74] .

أي : من بعد نوح ، فمسألة نوح عليه السلام هنا تعني مقدمة الرَّكْب الرسالي ؛ لأن نوحاً عليه السلام قد قالوا عنه إنه رسول عامٌّ للناس جميعاً أيضاً ، مثله مثل محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو لم يُبعث رسولاً عامّاً للناس جميعاً ، بل كان صعوده إلى السفينة هو الذي جعله رسولاً لكل الناس ؛ لأن سكان الأرض أيامها كانوا قِلّة .

والحق سبحانه قد أخذ الكافرين بذنبهم وأنجى المؤمنين من الطوفان ، وكان الناس قسمين : مؤمنين ، وكافرين ، وقد صعد المؤمنون إلى السفينة ، وأغرق الحق سبحانه الكافرين .

(128/367)

وهكذا صار نوح عليه السلام رسولاً عامّاً بخصوصية من بقوا وهم المرسَل إليهم بخصوصية الزمان والمكان .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾ [يونس : 74] .

فهل قَصَّ الله تعالى كل أخبار الرسل عليه السلام ؟ لا ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر : 78] .

وجاء الحق عز وجل بقصص أولي العزم منهم ، مثلما قال سبحانه :

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات : 147] .

فمن أرسله الله تعالى إلى من هم أقل من مائة ألف ، فقد لا يأتي ذكره ، ونحن نعلم أن الرسول إنما كان يأتي للأمة المنعزلة ؛ لأن العالم كان على طريقة الانعزال ، فنحن مثلاً منذ ألف عام لم نكن نعلم بوجود قارة أمريكا ، بل ولم نعلم كل القارات والبلاد إلا بعد المسح الجوي في العصر

الحديث ، وقد توجد مناطق في العالم نعرفها كصورة ولا نعرفها كواقع .

ونحن نعلم أن ذرية آدم عليه السلام كانت تعيش على الأرض ، ثم انساحت في الأرض ؛ لأن الأقوات التي كانت تكفي ذرية آدم على عهده ، لم تعد تكفي بعدما اتسعت الذرية ، فضاق الرزق في رقعة الأرض التي كانوا عليها ، وانساح بعضهم إلى بقية الأرض .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً ﴾ [النساء : 100]

.

وهكذا انتقل بعض من ذرية آدم عليه السلام إلى مواقع الغيث ، فالهجرة تكون إلى مواقع المياه ؛ لأنها أصل الحياة .

ويلاحظ مؤرِّخو الحضارات أن بعض الحضارات نشأت على جوانب الأنهار و الوديان ، أما البداوة فكانت تتفرق في الصحاري ، مثلهم مثل العرب ، وكانوا في الأصل يسكنون عند سد مأرب ، وبعد أن تهدم السد وأغرق الأرض ، خاف الناس من الفيضان ؛ لأن العَدُوَّين اللذين لم يقدر عليهما البشر هما النار والماء .

(129/367)

وحين رأى الناس اندفاع الماء ذهبوا إلى الصحاري ، وحفروا الآبار التي أخذوا منها الماء على قَدْر حاجتهم ؛ لأنهم عرفوا أنهم ليسوا في قوة المواجهة مع الماء .

وهكذا صارت الانعزالات بين القبائل العربية ، مثلها كانت في بقية الأرض ؛ ولذلك اختلفت الداءات باختلاف الأمم ؛ ولذلك بعث الحق سبحانه إلى كل أمة نذيراً ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 24] .

وقصَّ علينا الله سبحانه قصص بعضهم ، ولم يقصص قصص البعض الآخر .

يقول الحق سبحانه :

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [غافر : 78] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُمْ بِالبينات ﴾ [يونس : 74] .

فهل هؤلاء هم الرسل الذين لم يذكرهم الله ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه أرسل بعد ذلك هوداً إلى قوم عاد ، وصالحاً إلى ثمود ، وشعيباً إلى مدين ، ولم يأت بذكر هؤلاء هنا ، بل جاء بعد نوح عليه السلام بخبر موسى عليه السلام ، وكأنه شاء سبحانه هنا أن يأتي لنا بخبر عيون الرسالات .

وما دام الحق سبحانه قد أرسل رسلاً إلى قوم ، فكل قوم كان لهم رسول ، وكل رسول بعثه الله تعالى إلى قومه .

وكلمة " قوم " في الآية جمع مضاف ، والرسل جمع ، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحاداً ، مثلما نقول : هَيَّا اركبوا سياراتكم ، والخطاب لكم جميعاً ، ويعني : أن يركب كل واحد منكم سيارته .

وجاء كل رسول إلى قومه بالبينات ، أي : بالآيات الواضحات الدالة على صدق بلاغهم عن الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ على قُلُوبِ المعتدين ﴾ [يونس : 74] .

(130/367)

أي : أن الناس جميعهم لو آمنوا لانقطع الموكب الرسالي ، فموكب إيمان كل البشر لم يستمر ، بل جاءت الغفلة ، وطبع الله تعالى على قلوب المعتدين .

والطبع كما نعلم هو الختم .

ومعنى ذلك أن القلب المختوم لا يُخرج ما بداخله ، ولا يُدخل إليه ما هو خارجه ؛ فما دام البعض قد عشق الكفر فقد طبع الله سبحانه على هذه القلوب ألاّ يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، والطبع هنا منسوب لله تعالى .

وبعض الذين يتلمَّسون ثغرات في منهج الله تعالى يقولون : إن سبب كفرهم هو أن الله هو الذي طبع على قلوبهم .

ونقول : التفتوا إلى أنه سبحانه بيَّن أنه قد طبع الى قلوب المعتدين ، فالاعتداء قد وقع منهم أولاً ، ومعنى الاعتداء أنهم لم ينظروا في آيات الله تعالى ، وكفروا بما نزل إليهم من منهج ، فهم أصحاب السبب في الطبع على القلوب بالاعتداء والإعراض .

وجاء الطبع لتصميمهم على ما عشقوه وألفوه ، والحق سبحانه وتعالى هو القائل في الحديث القدسي :

" أنا أغنى الشركاء عن الشرك " .

ولله المثل الأعلى ، فأنت تقول لمن يَسْدِر في غَيِّه : ما دمت تعشق ذلك الأمر فاشبع به .

ومَثَل هؤلاء الذين طبع الله سبحانه وتعالى على قلوبهم ، مثل الذين كذَّبوا من قبل وكانوا معتدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(131/367)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ : أي : بعد نوح . " بالبينات " متعلقٌ ب " جاؤُوهم " ، أو بمحذوفٍ على أنه حال ، أي : ملتبسين بالبينات . وقوله : " ليؤمِنوا " أتى بلام الجحود توكيداً . والضمير في "كَذَّبوا " عائدٌ على مَنْ عاد عليه الضمير في "كانوا " وهم قومُ الرسل . والمعنى : أنَّ حالَهم بعد بعثِ الرسل كحالِهم قبلها في كونهم أهلَ جاهلية ، وقال أبو البقاء ومكي : " إن الضميرَ في "كانوا " يعود على قوم الرسل ، وفي "كَذَّبوا " يعودُ على قوم نوح ، والمعنى : فما كان قومُ الرسلِ ليؤمنوا بما كَذَّب به قومُ نوح ، أي : بمثِله . ويجوز أن تكونَ الهاءُ عائدةً على نوح نفسه من غير حَذْفِ مضافٍ ، والتقدير : فما كان قومُ الرسلِ بعد نوح ليؤمنوا بنوحٍ ، إذ لو آمنوا به لآمنوا بأنبيائهم . و " من قبل " متعلقٌ ب "كَذَّبوا " أي من قبل بعثة الرسل . وقيل : الضمائرُ كلُّها تعودُ على قوم الرسل بمعنى آخر : وهو أنهم بادروا رسلَهم بالتكذيب ، كلما جاءَ رسولٌ لَجُّوا في الكفرِ وتمادَوْا عليه فلم يكونوا ليؤمنوا بما سَبَقَ به تكذيبُهم من قبلِ لَجِّهم في الكفر وتمادِيهم .

وقال ابن عطية : " ويحتمل اللفظُ عندي معنى آخر ، وهو أن تكونَ " ما " مصدرية ، والمعنى : فكذَّبوا رسلَهم فكان عقابهم من الله أَنْ لم يكونوا ليؤمنوا بتكذيبهم مِنْ قبل ، أي : من سببه ومن جزائه ، ويؤيِّد هذا التأويلَ " كذلك نطبع " ، وهو كلامٌ يحتاج لتأمُّل " . قال الشيخ : " والظاهرُ أنَّ " ما " موصولةٌ ، ولذلك عاد الضمير عليها في قوله : ﴿ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ ﴾ ولو كانت مصدريةً بقي الضميرُ غيرَ عائدٍ على مذكور ، فتحتاج أن يتُكلَّفَ ما يعود عليه الضمير " . قلت : الشيخ بناه على قولِ جمهورِ النحاة في عدمِ كونِ " ما " المصدرية اسماً فيعود عليها ضميرٌ ، وقد نبَّهْتُك غيرَ مرةٍ أن مذهبَ الأخفش وابن السراج أنها اسمٌ فيعود عليها الضمير .

وقرأ العامَّةُ " نَطْبع " بالنون الدالة على تعظيم المتكلم . وقرأ العباس بن الفضل بياء الغيبة وهو الله تعالى ، ولذلك صرَّح به في موضعٍ آخرَ ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ ﴾ [الأعراف : 101] . والكافُ نعتٌ لمصدر محذوف ، أو حالٌ من ضمير ذلك المصدرِ على حسبِ ما عرفته من الخلاف ، أي : مثلَ ذلك الطَّبْع المُحْكمِ الممتنعِ زوالُه نطبع على قلوب المُعْتدين على خَلْق الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 244.246 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74) ﴾

قصَّ عليه – صلوات الله عليه وسلامه – أنباءَ الأولين ، وشرح له جميع أحوال الغابرين ، ثم فضَّله على كافتهم أجمعين ، فكانوا نجوماً وهو البدر ، وكانوا أنهاراً وهو البحر ، ثم به انتظم عِقْدُهم ، وبنورِه أَشْرَقَ نهارُهم ، وبظهوره خُتِم عددُهم (1) ، كما قيل :

يومٌ وحَسْبُ الدهرِ من أَجْلِه . . . حيَّا غدٌ والتفت الأمسُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 110 ﴾

---

(1) قارن ذلك بما يقوله الحلاج فى طواسينه وبما يقوله أصحاب «نظرية الإنسان الكامل» عن الحقيقة المحمدية لتلحظ مدى اعتدال هذا الامام السنى المتحفظ فى نظرته لشخصية الرسول عليه صلاة اللّه وسلامه .

فصل

قال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾

لما بالغ سبحانه في تقرير البراهين الواضحة ودفع الشبهة المنهارة ؛ شرع في ذكر قصص الأنبياء ، لما في ذلك من التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ﴿ واتل عَلَيْهِمْ ﴾ أي : على الكفار المعاصرين لك ، المعارضين لما جئت به بأقوالهم الباطلة ﴿ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ أي : خبره ، والنبأ هو الخبر الذي له خطر وشأن ، والمراد : ما جرى له مع قومه الذين كفروا بما جاء به ، كما فعله كفار قريش وأمثالهم : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ أي : وقت قال لقومه ، والظرف منصوب بنبأ أو بدل منه بدل اشتمال ، واللام في ﴿ لِقَوْمِهِ ﴾ لام التبليغ ﴿ يا قوم إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِى ﴾ أي : عظم وثقل ، والمقام بفتح الميم : الموضع الذي يقام فيه ، وبالضم الإقامة .

وقد اتفق القراء على الفتح ، وكنى بالمقام عن نفسه كما يقال فعلته لمكان فلان : أي لأجله .

ومنه : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ [الرحمن : 46] أي : خاف ربه ، ويجوز أن يراد

بالمقام : المكث : أي : شقّ عليكم مكثي بين أظهركم ، ويجوز أن يراد بالمقام : القيام ؛ لأن الواعظ يقوم حال وعظه ؛ والمعنى : إن كان كبر عليكم قيامي بالوعظ في مواطن اجتماعكم ، وكبر عليكم تذكيري لكم ﴿ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ التكوينية والتنزيلية ، ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ هذه الجملة جواب الشرط ، والمعنى : إني لا أقابل ذلك منكم إلا بالتوكل على الله ، فإن ذلك دأبي الذي أنا عليه قديماً وحديثاً .

ويجوز أن يريد إحداث مرتبة مخصوصة عن مراتب التوكل ، ويجوز أن يكون جواب الشرط ﴿ فَأَجْمِعُواْ ﴾ وجملة ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ اعتراض ، كقولك : إن كنت أنكرت عليّ شيئاً فالله حسبي .

(135/367)

ومعنى : ﴿ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ ﴾ اعتزموا عليه ، من أجمع الأمر : إذا نواه وعزم عليه قاله الفراء : وروي عن الفراء أنه قال : أجمع الشيء : أعدّه ، وقال مؤرّج السدوسي : أجمع الأمر أفصح من أجمع عليه ، وأنشد :

يا ليت شعري والمنى لا تنفع . . . هل أغدون يوماً وأمري مجمع

وقال أبو الهيثم : أجمع أمره : جعله جميعاً بعدما كان متفرّقاً ، وتفرّقه أن تقول مرّة أفعل كذا

، ومرّة أفعل كذا ، فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه : أي جعله جميعاً ، فهذا هو الأصل في الإجماع ، ثم صار بمعنى العزم ، وقد اتفق جمهور القراء على نصب "شركاءكم" وقطع الهمزة من أجمعوا .

وقرأ يعقوب ، وعاصم الجحدري بهمزة وصل في ﴿ أجمعوا ﴾ ، على أنه من جمع يجمع جمعاً .

وقرأ الحسن ، وابن أبي إسحاق ، ويعقوب "وشركاؤكم" بالرفع .

قال النحاس : وفي نصب الشركاء على قراءة الجمهور ثلاثة أوجه : الأوّل : بمعنى : وادعوا شركاءكم ، قاله : الكسائي والفراء ، أي ادعوهم لنصرتكم ، فهو على هذا منصوب بفعل مضمر .

وقال محمد بن يزيد المبرد : هو معطوف على المعنى ، كما قال الشاعر :

يا ليت زوجك في الوغى . . . متقلداً سيفاً ورمحاً

والرمح لا يتقلد به ، لكنه محمول كالسيف .

وقال الزجاج : المعنى مع شركائكم ، فالواو على هذا واو مع .

وأما على قراءة " اجمعوا " بهمزة وصل فالعطف ظاهر : أي اجمعوا أمركم ، واجمعوا شركاءكم .

وأما توجيه قراءة الرفع ، فعلى عطف الشركاء على الضمير المرفوع في ﴿ أجمعوا ﴾ ،

وحسن هذا العطف مع عدم التأكيد بمنفصل كما هو المعتبر في ذلك أن الكلام قد طال .

قال النحاس وغيره : وهذه القراءة بعيدة ؛ لأنه لو كان ﴿ شركاءكم ﴾ مرفوعاً لرسم في المصحف بالواو ، وليس ذلك موجوداً فيه ، قال المهدوي : ويجوز أن يرتفع الشركاء بالابتداء ، والخبر محذوف : أي وشركاؤكم ليجمعوا أمرهم ، ونسبة ذلك إلى الشركاء مع كون الأصنام لا تعقل ، لقصد التوبيخ ، والتقريع لمن عبدها .

(136/367)

وروي عن أبيّ أنه قرأ : "وادعوا شركاءكم" بإظهار الفعل .

قوله : ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ الغمة : التغطية من قولهم ، غمّ الهلال : إذا استتر ، أي : ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً ، قال طرفة :

لعمرك ما أمري عليّ بغمة . . . نهاري ولا ليلي عليّ بسرمد

هكذا قال الزجاج ، وقال الهيثم : معناه لا يكن أمركم عليكم مبهماً .

وقيل : إن الغمة : ضيق الأمر ، كذا روي عن أبي عبيدة .

والمعنى : لا يكن أمركم عليكم بمصاحبتي والمجاملة لي ضيقاً شديداً ، بل ادفعوا هذا الضيق والشدّة بما شئتم ، وقدرتم عليه ، وعلى الوجهين الأوّلين : يكون المراد بالأمر الثاني

هو الأمر الأول ، وعلى الثالث : يكون المراد به غيره .

قوله : ﴿ ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونَ ﴾ أي ذلك الأمر الذي تريدونه بي ، وأصل اقضوا : من القضاء ، وهو الإحكام ، والمعنى : أحكموا ذلك الأمر .

قال الأخفش والكسائي : هو مثل : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر ﴾ [الحجر : 66] أي أنهيناه إليه وأبلغناه إياه ، ثم ﴿ لا تنظرون ﴾ : أي لا تمهلون ، بل عجلوا أمركم واصنعوا ما بدا لكم ، وقيل معناه : ثم امضوا إليّ ولا تؤخرون ، قال النحاس : هذا قول صحيح في اللغة ، ومنه قضى الميت : مضى ، وحكى الفراء عن بعض القراء أنه قرأ "ثم أفضوا" بالفاء وقطع الهمزة ، أي توجهوا ، وفي هذا الكلام من نوح عليه السلام ما يدلّ على وثوقه بنصر ربه ، وعدم مبالاته بما يتوعده به قومه .

(137/367)

ثم بيّن لهم أن كل ما أتى به إليهم من الإعذار والإنذار ، وتبليغ الشريعة عن الله ، ليس هو لطمع دنيويّ ، ولا لغرض خسيس ، فقال : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي : إن أعرضتم عن العمل بنصحي لكم ، وتذكيري إياكم ، فما سألتكم في مقابلة ذلك من أجر تؤدّونه إليّ حتى تتهموني فيما جئت به ، والفاء في ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ لترتيب ما بعدها على

ما قبلها ، والفاء في ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُمْ ﴾ جزائية ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ﴾ أي : ما ثوابي في النصح والتذكير إلا عليه سبحانه ، فهو يثيبني آمنتم أو توليتم .

قرأ أهل المدينة ، وأبو عمر ، وابن عامر ، وحفص ، بتحريك الياء من ﴿ أجري ﴾ ، وقرأ الباقون بالسكون ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ المنقادين لحكم الله الذين يجعلون أعمالهم خالصة لله سبحانه ، لا يأخذون عليها أجراً ولا يطمعون في عاجل .

قوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الفلك ﴾ أي : استمروا على تكذيبه أصرّوا على ذلك ، وليس المراد أنهم أحدثوا تكذيبه بعد أن لم يكن ، والمراد بمن معه : من قد أجابه وصار على دينه ، والخلائف جمع خليفة ، والمعنى : أنه سبحانه جعلهم خلفاء يسكنون الأرض التي كانت للمهلكين بالغرق ، ويخلفونهم فيها ﴿ وَأَغْرَقْنَا الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ من الكفار المعاندين لنوح ، الذين لم يؤمنوا به أغرقهم الله بالطوفان ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ فيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتهديد للمشركين ، وتهويل عليهم .

(138/367)

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ ﴾ أي : من بعد نوح ﴿ رُسُلاً ﴾ كهود وصالح ، وإبراهيم ولوط ، وشعيب ﴿ فَجَاءوهُم بالبينات ﴾ أي : بالمعجزات وبما أرسلهم الله به من الشرائع التي شرعها الله لقوم كل نبيّ ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ أي : فما أحدثوا الإيمان بل استمرّوا على الكفر وأصرّوا عليه ، والمعنى : أنه ما صح ولا استقام لقوم من أولئك الأقوام الذين أرسل الله إليهم رسله أن يؤمنوا في وقت من الأوقات ﴿ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبل تكذيبهم الواقع منهم عند مجيء الرسل إليهم ، والمعنى : أن كل قوم من العالم لم يؤمنوا عند أن أرسل الله إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم المبعوث إليهم على الخصوص بما كانوا مكذبين به من قبل مجيئه إليهم ؛ لأنهم كانوا غير مؤمنين ، بل مكذبين بالدين ، ولو كانوا مؤمنين لم يبعث إليهم رسولاً ، وهذا مبنيّ على أن الضمير في ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ وفي : ﴿ بِمَا كَذَّبُواْ ﴾ راجع إلى القوم المذكورين في قوله : ﴿ إلى قَوْمِهِمْ ﴾ وقيل : ضمير ﴿ كذبوا ﴾ راجع إلى قوم نوح : أي فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح من قبل أن يأتي هؤلاء الأقوام الذين جاءوا من بعدهم ﴿ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ وقيل : إن الباء في ﴿ بما كذبوا به من قبل ﴾ للسببية ، أي فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بسبب ما اعتادوه من تكذيب الحق من قبل مجيئهم ، وفيه نظر .

وقيل المعنى : بما كذبوا به من قبل : أي في عالم الذرّ فإن فيهم من كذب بقلبه ، وإن آمنوا ظاهراً .

قال النحاس : ومن أحسن ما قيل : إنه لقوم بأعيانهم ﴿ كَذَلِكَ نَطْبَعُ على قُلوبِ المعتدين ﴾ أي : مثل ذلك الطبع العظيم نطبع على قلوب المتجاوزين للحدّ المعهود في الكفر ، وقد تقدّم تفسير هذا في غير موضع .

(139/367)

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن الأعرج ، في قوله : ﴿ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ﴾ يقول : فأحكموا أمركم ، وادعوا شركاءكم .

وأخرج أيضاً عن الحسن في الآية أي : فليجمعوا أمرهم معكم .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ قال : لا يكبر عليكم أمركم ﴿ ثُمَّ اقضوا ﴾ ما أنتم قاضون .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ ثُمَّ اقضوا ﴾ قال : انهضوا ﴿ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونَ ﴾ يقول : ولا تؤخرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(140/367)

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (75) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (76) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (78) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

أتى موسى عليه السلام إلى فرعون فدعاه إلى الله فكذبه .

فأخبره أن معه آية تصدقه فقال له : إن كنت جئت بآية فائت بها إن كنت من الصادقين ، فلما أتاه بها استمر على تكذيبه وكان كلما رأى آية ازداد تكذيباً ، وكان فرعون قد قوي ملكه وعظم سلطانه وعلا في كبريائه وطال تجبره على الضعفاء ، فطمست أمواله وآثاره ، وبقيت أحاديثه وأخباره ، ولهذا أفصح سبحانه بقصته فقال : دالاً على الطبع : ﴿ ثم بعثنا ﴾ أي وبعد زمن طويل من إهلاكنا إياهم بعثنا ، ولعدم استغراق زمن البعد أدخل الجار فقال : ﴿ من بعدهم ﴾ أي من بعد أولئك الرسل ﴿ موسى و ﴾ كذا بعثنا

﴿ هاورن ﴾ تأييداً له لأن اتفاق اثنين أقوى لما يقررانه وأوكد لما يذكرانه ؛ ولما استقر في الأذهان بما مضى أن ديدن الأمم تكذيب من هو منهم حداً له ونفاسة عليه .

(141/367)

كان ربما ظن أن الرسول لو أتى غير قومه كان الأمر على غير ذلك ، فبين أن الحال واحد في القريب والغريب ، فقال مقدماً لقوله : ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ أي الأشراف من قومه ، فإن الأطراف تبع لهم ﴿ بآياتنا ﴾ أي التي لا تكتنه عظمتها لنسبتها إلينا ، فطبعنا على قلوبهم ﴿ فاستكبروا ﴾ أي طلبوا الكبر على قبول الآيات وأوجدوا ما يدل عليه من الرد بسبب انبعاثه إليهم عقب ذلك ﴿ وكانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ قوماً مجرمين ﴾ أي طبعهم قطع ما ينبغي وصله ووصل ما ينبغي قطعه ، فلذلك اجترؤوا على الاستكبار مع ما فيها أيضاً من شديد المناسبة لما تقدم من قول الكافرين ﴿ هذا سحر مبين ﴾ في نسبة موسى عليه السلام إليه وبيان حقيقة السحر في زواله وخيبته متعاطية لإفساده إلى غير ذلك من الأسرار التي تدق عن الأفكار ، هذا إلى ما ينظم إليه من مناسبة ما بين إهلاك القبط وقوم نوح بآية الغرق ، وأنه لم ينفع أحداً من الفريقين معاينة الآيات ومشاهدة الدلالات البينات ، بل ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه بعد تلك المعجزات الباهرة والبراهين الظاهرة ، ثم اتبعهم

فرعون بعد أن كانت انحلت عن حبسهم عراه ، وتلاشت من تجبره قواه ، وشاهد من الضربات ما يهد الجبال ، ودخل في طلبهم البحر بحزات لا يقرب ساحتها الأبطال ، لما قدره عليه ذو الجلال ، ولم يؤمن حتى أتاه البأس حيث يفوت الإيمان بالغيب الذي هو شرط الإيمان ، فلم ينفعه إيمانه مع اجتهاده فيه وتكريره لفوات شرطه إجابة لدعوة موسى عليه السلام ، ثم إن بني إسرائيل كانوا قبل مجيء موسى عليه السلام على منهاج واحد .

(142/367)

فما اختلفوا إلا بعد مجيء العلم إليهم وبيان الطريق واضحة لديهم ، ولهذا المراد ذكر هنا هارون عليه السلام لأن من أعظم مقاصد السورة المنع من طلب الآيات لمن بعد الإيمان عند الإتيان بها ، إشارة إلى أن القول من الاثنين أوكد ، ومع ذلك فلم يصدق من حكم القدير بشقاوته ، كل ذلك حثاً على الرضا والتسليم ، ووكل الأمر إلى الرب الحكيم ، فمهما أمر به قبل ، وما أعرض عنه ترك السؤال فيه رجاء تدبيره بأحسن التدبير وتقديره ألطف المقادير ؛ ولما أخبر سبحانه باستكبارهم ، بين أنه تسبب عنه طعنهم في معجزاته من غير تأمل ، بل بغاية المبادرة والإسراع بما أشعرت به الفاء والسياق ، فقال تعالى : ﴿ فلما جاءهم ﴾ أي فرعون وملؤه ﴿ الحق ﴾ أي البالغ في الحقية ، ثم زاد في عظمته بقوله :

﴿ من عندنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة التي عرفوا بها أنه منا ، لا من الرسولين

﴿ قالوا ﴾ أي غير متأملين له ولا ناظرين في أمره بل عناداً ودلالة على استكبارهم مؤكدين لما علموا من تصديق الناس به ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ كما قال الناس الذين أخبر عنهم سبحانه في أول السورة في هذا القرآن وما إبانه من البعث .

فلما قالوا كان كأنه قيل : فماذا أجابهم ؟ فأخبر أنه أنكر عليهم ، بقوله : ﴿ قال موسى ﴾

ولما كان تكريرهم لذلك القول أجدر بالإنكار ، عبر بالمضارع الدال على أنهم كرروه لينسخوا ما ثبت في قلوب الناس من عظمته ﴿ أتقولون للحق ﴾ ونبه على أنهم بادروا إلى التكذيب من غير نظر ولا توقف بقوله : ﴿ لما جاءكم ﴾ أي هذا القول الذي قلتموه وهو أنه سحر ، فإن القول يطلق على المكروه ، تقول : فلان قال في فلان ، أي ذمه ، وفلان يخاف القالة ، وبين الناس تقاول ؛ ثم كرر الإنكار بقوله : ﴿ أسحر هذا ﴾ أي الذي هو في غاية الثبات والمخالفة للسحر في جميع الصفات حتى تقولون فيه ذلك .

فالآية من الاحتباك : ذكر القول في الأول دال على حذف مثله في الثاني ، وذكر السحر الثاني دال على حذف مثله في الأول .

(143/367)

ولما كان التقدير : أتقولون هذا والحال أنكم قد رأيتم فلاحه ، بني عليه قوله : ﴿ ولا يفلح ﴾ أي يظفر بما يريد في وقت من الأوقات ﴿ الساحرون ﴾ أي العريقون فيه لأن حاصل أمرهم تخييل وتمويه في الأباطيل ، فالظفر بعيد عنهم ، ويجوز أن تجعل هذه الجملة معطوفه على قوله : ﴿ أسحر هذا ﴾ لأنه إنكاري بمعنى النفي ، فلما أنكر عليهم عليه السلام ما ظهر به الفرق الجلي بين ما أتى به في كونه أثبت الأشياء وبين السحر ، لأنه لا ثبات له أصلاً ، عدلوا عن جوابه إلى الإخبار بما يتضمن أنهم لا يقرون بحقيته لأنه يلزم عن ذلك ترك ما هم عليه من العلو وهم لا يتركونه ، وأوهموا الضعفاء أن مراده عليه السلام الاستكبار معللين لاستكبارهم عن اتباعه بما دل على أنهم لا مانع أنهم منه إلا الكبر ، فقال تعالى حكاية عنهم : ﴿ قالوا ﴾ أي منكرين عليه معللين بأمرين : التقليد ، والحرص على الرئاسة .

ولما كان هو الأصل في الرسالة .

(144/367)

وكان أخوه له تبعاً ، وحدوا الضمير فقالوا : ﴿ أجئتنا ﴾ أي أنت يا موسى ﴿ لتلفتنا ﴾ أي لتقتلنا وتصرفنا ﴿ عما وجدنا عليه ﴾ وقالوا مستندين إلى التقليد غير مستحيين من

ترك الدليل ﴿ آباءنا ﴾ من عبادة الأصنام والقول بالطبيعة لنقل نحن بذلك ﴿ وتكون لكما ﴾ أي لك أنت ولأخيك دوننا ﴿ الكبرياء ﴾ أي بالملك ﴿ في الأرض ﴾ أي أرض مصر التي هي - لما فيها من المنافع - كأنها الأرض كلها ﴿ وما ﴾ أي وقالوا أيضاً : ما ﴿ نحن لكما ﴾ وبالغوا في النفي وغلب عليهم الدهش فعبروا بما دل على أنهم غلبهم الأمر فعرفوا أنه صدق ولم يذعنوا فقالوا : ﴿ بمؤمنين ﴾ أي عريقين في الإيمان ، فهو عطف على ﴿ أجئتنا ﴾ أي قالوا ذاك وقالوا هذا ، أو يكون عطفاً على نحو : فما نحن بموصليك إلى هذا الغرض ، أفردوه أولاً بالإنكار عليه في المجيء ليضعف ويكف أخوه عن مساعدته ، وأشركوه معه ثانياً تأكيداً لذلك الغرض وقطعاً لطمعه ؛ والبعث : الإطلاق في أمر يمضي فيه ، وهو خلاف الإطلاق من عقال ؛ والملأ : الجماعة الذين هم وجوه القبيلة ، لأن هيبتهم تملأ الصدور عند منظرهم ؛ والاستكبار : طلب الكبر من غير استحقاق ؛ والمجرم من اكتسب سيئة كبيرة ، من جرم التمر - إذا قطعه ، فالجرم يوجب قطع الخير عن صاحبه ؛ والسحر : إيهام المعجزة على طريق الحيلة ، ويشبه به البيان في خفاء السبب ؛ والحق : ما يجب الحمد عليه ويشتد دعاء الحكمة إليه ويعظم النفع به والضرر بتركه ؛ والكبرياء : استحقاق صفة الكبر في أعلى المراتب ، وهي صفة مدح لله وذم للعباد لأنها منافية لصفة العبودية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 469 . 471 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾

اعلم أن هذا الكلام غني عن التفسير وفيه سؤال واحد ، وهو أن القوم لما قالوا : ﴿ إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فكيف حكى موسى عليه السلام أنهم قالوا : ﴿ أَسِحْرٌ هذا ﴾ على سبيل الاستفهام ؟

وجوابه : أن موسى عليه السلام ما حكى عنهم أنهم قالوا : ﴿ أَسِحْرٌ هذا ﴾ بل قال : ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ﴾ ما تقولون ، ثم حذف عنه مفعول ﴿ أَتَقُولُونَ ﴾ لدلالة الحال عليه ، ثم قال مرة أخرى ﴿ أَسِحْرٌ هذا ﴾ وهذا استفهام على سبيل الإنكار ، ثم احتج على أنه ليس بسحر ، وهو قوله : ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون ﴾ يعني أن حاصل صنعهم تخييل وتمويه ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون ﴾ وأما قلب العصا حيّة وفلق البحر ، فمعلوم بالضرورة أنه ليس من باب التخييل والتمويه ؛ فثبت أنه ليس بسحر .

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى حكى عن فرعون وقومه أنهم لم يقبلوا دعوة موسى عليه السلام ، وعللوا عدم القبول بأمرين : الأول : قوله : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَائِنَا ﴾ قال الواحدي : اللفت في أصل اللغة الصرف عن أمر ، وأصله اللَّيّ يقال : لفت عنقه إذا لواها ، ومن هذا يقال : التفت إليه ، أي أمال وجهه إليه .

قال الأزهري : لفت الشيء وفتله إذا لواه ، وهذا من المقلوب .

واعلم أن حاصل هذا الكلام أنهم قالوا : لا نترك الدين الذي نحن عليه ، لأنا وجدنا آبائنا عليه ، فقد تمسكوا بالتقليد ودفعوا الحجة الظاهرة بمجرد الإصرار .

والسبب الثاني : في عدم القبول قوله : ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الكبرياء فِى الأرض ﴾ قال المفسرون : المعنى ويكون لكما الملك والعز في أرض مصر ، والخطاب لموسى وهارون .

(146/367)

قال الزجاج : سمى الملك كبرياء ، لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا ، وأيضاً فالنبي إذا اعترف القوم بصدقه صارت مقاليد أمر أمته إليه ، فصار أكبر القوم .

واعلم أن السبب الأول : إشارة إلى التمسك بالتقليد ، والسبب الثاني : إشارة إلى الحرص

على طلب الدنيا ، والجد في بقاء الرياسة ، ولما ذكر القوم هذين السببين صرحوا بالحكم وقالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 114.113 ﴾

(147/367)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴾

وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لتلوينا ، قاله قتادة .

الثاني : لتصدنا ، قاله السدي .

الثالث : لتصرفنا ، من قولهم لفته لفتاً إذا صرفه ومنه لفت عنقه أي لواها ، قاله عليّ بن عيسى .

﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِي الأَرْضِ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : الملك ، قاله مجاهد .

الثاني : العظمة ، حكاه الأعمش .

الثالث : العلو ، قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

الرابع : الطاعة ، قاله الضحاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(148/367)

وقال ابن عطية :

والضمير في ﴿ بعدهم ﴾ على الرسل ، والضمير في ﴿ ملئه ﴾ عائد على ﴿ فرعون ﴾ ، والملأ : الجماعة من قبيلة وأهل مدينة ، ثم يقال للأشراف والأعيان من القبيلة أو البلد ملأ ، أي هم يقومون مقام الملأ ، وعلى هذا الحد هي في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في قريش بدر : " أولئك " الملأ " وكذلك هي في قوله تعالى : ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ﴾ [القصص : 20] . وأما في هذه الآية فهي عامة لأن بعثة موسى وهارون كانت إلى فرعون وجميع قومه من شريف ومشروف وقد مضى في ﴿ المص ﴾ [الأعراف : 1] ، ذكر ما بعث إليهم فيه ، و " الآيات " البراهين والمعجزات وما في معناها ، وقوله ﴿ فاستكبروا ﴾ أي تعظموا وكفروا بها ، و ﴿ مجرمين ﴾ معناه يرتكبون ما لم يبح الله ويجسرون من ذلك على الخطر الصعب .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾

يريد ب ﴿ الحق ﴾ آيتي العصا واليد ، ويدل على ذلك قولهم عندهما : هذا سحر ولم يقولوا ذلك إلا عندهما ولا تعاطوا إلا مقاومة العصا فهي معجزة موسى عليه السلام التي وقع فيها عجز المعارض ، وقرأ جمهور الناس : " لسحر مبين " وقرأ سعيد بن جبير والأعمش : " لساحر مبين " ، ثم حكي عن موسى أنه وقفهم ووبخهم بقوله ﴿ أتقولون للحق لما جاءكم ﴾ ثم اختلف المتأولون في قوله ﴿ أسحر هذا ﴾ فقالت فرقة : هو حكاية من موسى عنهم على معنى أن قولهم كان ﴿ أسحر هذا ﴾ ثم اختلف في معنى قول قوم فرعون : ﴿ أسحر هذا ﴾ فقال بعضهم : قالها منهم كل مستفهم جاهل بالأمر فهو يسأل عنه .

(149/367)

قال القاضي أبو محمد : وهذا التأويل يضعفه ما ذكر الله قبل عنهم من أنهم صمموا على أنه سحر بقولهم : ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ وقال بعضهم بل قالوا ذلك على معنى التعظيم للسحر الذي رأوه بزعمهم كما تقول لفرس تراه يجيد الجري : أفرس هذا ؟ على معنى التعجب منه والاستغراب وأنت قد علمت أنه فرس ، وقالت فرقة غير هاتين : ليس ذلك حكاية من موسى عنهم بل القول الذي حكاه عنهم مقدر تقديره أتقولون للحق لما جاءكم

سحر .

قال القاضي أبو محمد : أو نحو هذا من التقدير ، ثم ابتدأ يوقفهم بقوله : ﴿ أسحر هذا ﴾ على جهة التوبيخ ، ثم أخبرهم عن الله تعالى أن الساحرين لا يفلحون ولا يظفرون ببغية ، ومثل هذا التقدير المحذوف على هذا التأويل موجود في كلام العرب ، ومنه قول ذي الرمة :

فلما لبسن الليل أو حين نصّبت . . . له من خذا آذانها وهو جانح

يريد أو حين قاربن ذلك ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم ﴾ [الإسراء : 7] المعنى بعثناهم ليسوءوا ، ومثل هذا كثير شائع ، وقوله تعالى : ﴿ قالوا أجئتنا ﴾ الآية ، المعنى قال قوم فرعون لموسى : أجئتنا لتصرفنا وتلوينا وتردنا عن دين آبائنا ، ويقال لفت الرجل عن الآخر إذا لواه ، ومنه قولهم : التفت فإنه افتعل من لفت عنقه ، ومنه قول رؤبة : [الرجز]

لفتاً وتهزيعاً سواء اللفت . . . وقرأ السبعة سوى أبي عمرو فإنه اختلف عنه " وتكون " بالتاء من فوق وهي قراءة جمهور الناس ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن فيما زعم خارجة وإسماعيل ، " ويكون " بالياء من تحت ورويت عن أبي عمرو وعن عاصم وهي قراءة ابن مسعود ، و ﴿ الكبرياء ﴾ : مصدر مبالغ من الكبر ، والمراد به في هذا الموضع الملك ، وكذلك قال فيه مجاهد والضحاك وأكثر المتأولين ، لأنه أعظم تكبر الدنيا ، ومنه قول الشاعر [ابن الرقاع] : [الخفيف]

مؤددا غير فاحش لا تداني . . . ه تجبارة ولا كبرياء

وقوله ﴿ بمؤمنين ﴾ بمصدقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(150/367)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِمْ ﴾

أي من بعد الرسل والأُمم .

﴿ موسى وَهَارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أي أشراف قومه .

﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ يريد الآيات التسع ، وقد تقدّم ذكرها .

﴿ فاستكبروا ﴾ أي عن الحق .

﴿ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ أي مشركين .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا ﴾ يريد فرعون وقومه .

﴿ قالوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ حملوا المعجزات على السحر .

قال لهم موسى : ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا ﴾ قيل : في الكلام حذف ، المعنى : أتقولون للحق هذا سحر .

ف "أتقولون" إنكار وقولهم محذوف أي هذا سحر ، ثم استأنف إنكاراً آخر من قِبَله فقال : أسحر هذا ! .

فحذف قولهم الأوّل اكتفاء بالثاني من قولهم ، منكراً على فرعون وملئه .

وقال الأخفش : هو من قولهم ، ودخلت الألف حكايةً لقولهم ؛ لأنهم قالوا أسحر هذا .

فقيل لهم : أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ؛ وروي عن الحسن .

﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون ﴾ أي لا يفلح من أتى به .

قوله تعالى : ﴿ قالوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ أي تصرفنا وتَلْوِينا ، يقال : لفته يلفِته لَفْتاً إذا لواه وصرفه .

قال الشاعر :

تلفّتُّ نحو الحيِّ حتى رأيتُني . . .

وجِعْتُ من الإصغاء لِيتاً وأُخْدَعَا

ومن هذا التفت إنما هو عدل عن الجهة التي بين يديه .

﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ يريد من عبادة الأصنام .

﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الكبرياء ﴾ أي العظمة والملك والسلطان .

﴿ فِي الأرض ﴾ يريد أرض مصر .

ويقال للملك : الْكِبْرياء لأنه أعظم ما يطلب في الدنيا .

﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وقرأ ابن مسعود والحسن وغيرهما "ويكون" بالياء لأنه تأنيث غير حقيقي وقد فصل بينهما .

وحكى سيبويه : حضر القاضي اليوم امرأتان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(151/367)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم ﴾

يعني من بعد الرسل ﴿ موسى وهارون إلى فرعون وملئه ﴾ يعني أشراف قومه ﴿ بآياتنا فاستكبروا ﴾ يعني عن الإيمان بما جاء به موسى وهارون ﴿ وكانوا قوماً مجرمين ﴾ يعني مستكسبين للإثم ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا ﴾ يعني فلما جاء فرعون وقومه الحق الذي جاء به موسى من عند الله ﴿ قالوا إن هذا لسحر مبين ﴾ يعني أن هذا الذي جاء به موسى سحر مبين يعرفه كل أحد ﴿ قال موسى أتقولون للحق لمَّا جاءكم أسحر هذا ﴾ فيه حذف تقديره أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر أسحر هذا فحذف السحر الأول اكتفاء بدلالة الكلام عليه ثم قال أسحر هذا وهو استفهام على سبيل الإنكار يعني أنه ليس

بسحر ثم احتج على صحة قوله فقال ﴿ ولا يفلح الساحرون ﴾ يعني حاصل السحر تمويه وتخييل وصاحب ذلك لا يفلح أبداً ﴿ قالوا ﴾ يعني قال قوم فرعون لموسى ﴿ أجئتنا لتلفتنا ﴾ يعني لتصرفنا وتلوينا ﴿ عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ يعني من الدين ﴿ وتكون لكما الكبرياء ﴾ يعني الملك والسلطان ﴿ في الأرض ﴾ يعني في أرض مصر والخطاب لموسى وهارون .

قال الزجاج : سمي الملك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ يعني بمصدقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(152/367)

وقال أبو حيان :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا ﴾

أي : من بعد أولئك الرسل بآياتنا وهي المعجزات التي ظهرت على يديه ، ولا يخص قوله : وملائه بالإشراف ، بل هي عامّة لقوم فرعون شريفهم ومشروفهم .

فاستكبروا تعاظموا عن قبولها ، وأعظم الكبر أن يتعاظم العبيد عن قبول رسالة ربهم بعد تبينها واستيضاحها ، وباجترامهم الآثام العظيمة استكبروا واجترؤوا على ردّها .

والحق هو العصا واليد قالوا لحبهم الشهوات : إن هذا لسحر مبين ، وهم يعلمون أنّ الحق أبعد شيء من السحر الذي ليس إلا تمويهاً وباطلاً ، ولم يقولوا إنّ هذا لسحر مبين إلا عند معاينة العصا وانقلابها ، واليد وخروجها بيضاء ، ولم يتعاطوا إلا مقاومة العصا وهي معجزة موسى الذي وقع فيها عجز المعارض .

وقرأ مجاهد ، وابن جبير ، والأعمش : لساحر مبين ، جعل خبر إنّ اسم فاعل لا مصدراً كقراءة الجماعة .

ولما كابروا موسى فيما جاء به من الحق أخبروا على جهة الجزم بأنّ ما جاء به سحر مبين فقال لهم موسى : أتقولون ؟ مستفهماً على جهة الإنكار والتوبيخ ، حيث جعلوا الحق سحراً ، أسحر هذا أي : مثل هذا الحق لا يدعى أنه سحر .

وأخبر أنه لا يفلح من كان ساحراً لقوله تعالى : ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ والظاهر أن معمول أتقولون محذوف تقديره : ما تقدم ذكره وهو إنّ هذا لسحر ، ويجوز أن يحذف معمول القول للدلالة عليه نحو قول الشاعر :

لنحن الألى قلتم فإني ملتئم . . .

برؤيتنا قبل اهتمام بكم رعبا

ومسألة الكتاب متى رأيت ، أو قلت زيداً منطلقاً .

وقيل : معمول أتقولون هو أسحر هذا إلى آخره ، كأنهم قالوا : أجئتما بالسحر تطلبان به

الفلاح ، ولا يفلح الساحرون .

كما قال موسى للسحرة : ما جئتم به السحر إن الله سيبطله .

(153/367)

والذين قالوا : بأن الجملة وأن الاستفهام هي محكية لقول اختلفوا فقال بعضهم : قالوا ذلك على سبيل التعظيم للسحر الذي رأوه بزعمهم ، كما تقول لفرس تراه يجيد الجري : أفرس هذا على سبيل التعجيب والاستغراب ، وأنت قد علمت أنه فرس ، فهو استفهام معناه التعجيب والتعظيم .

وقال بعضهم : قال ذلك منهم كل جاهل بالأمر ، فهو يسأل أهو سحر ؟ لقول بعضهم : إن هذا لسحر ، وأجاز الزمخشري أن يكون معنى قوله : أتقولون للحق ، أتعيبونه وتطعنون فيه ، فكان عليكم أن تذعنوا له وتعظموه ، قال : من قولهم فلان يخاف القالة ، وبين الناس تقاول إذا قال بعضهم لبعض ما يسوء ، ونحو القول الذكر في قوله : سمعنا فتى يذكرهم ثم قال أسحر هذا فأنكر ما قالوه في عيبه والطعن عليه .

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾

لفت عنقه لوها وصرفها .

وقال الأزهري : لفت الشيء وقتله لواه ، وهذا من المقلوب انتهى .

ومطاوع لفت التفت ، وقيل : انفتل .

﴿ قالوا : أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(154/367)

وقال أبو السعود :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ عطفٌ على قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ ﴾ عطفَ قصةٍ على قصة ﴿ مّن بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد أولئك الرسلِ عليهم السلام ﴿ موسى وهارون ﴾ خُصّت بعثتُهما عليهما السلام بالذكر ولم يُكتفَ باندراج خبرِهما فيما أشير إليه إجمالاً من أخبار الرسل عليهم السلام مع أقوامهم وأُوثر في ذلك ضربُ تفصيلٍ إيذاناً بخطر شأنِ القصةِ وعِظَمِ وقعها كما في نبأ نوح عليه السلام ﴿ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ ﴾ أي أشرافِ قومِه ، وتخصيصُهم بالذكر لأصالتهم في إقامة المصالحِ والمُهمّات ومراجعةِ الكل إليهم في النوازل والملمات ﴿ بآياتنا ﴾ أي ملتبسين بها وهي الآياتُ المفصّلات في الأعراف ﴿ فاستكبروا ﴾ الاستكبارُ ادعاءُ الكِبْر من غير استحقاقٍ والفاءُ فصيحة أي فأتيَاهم

فبلغاهم الرسالةَ فاستكبروا عن اتباعهما وذلك قولُ اللعين لموسى عليه السلام : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ الخ ، ﴿ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله أي كانوا معتادين لارتكاب الذنوبِ العظامِ فإن الإجرامَ مؤذنٌ بعظم الذنبِ ومنه الجرمُ أي الجثة فلذلك اجترأوا على ما اجترأوا عليه من الاستهانة برسالةِ الله تعالى ، وحملُ الاستكبارِ على الامتناع عن قَبول الآيات لا يساعده قولُه عز وعلا : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فإنه صريحٌ في أن المرادَ باستكبارهم ما وقع منهم قبل مجيءِ الحقِّ الذي سمَّوه سحراً أعني العصا واليدَ البيضاءَ كما ينبىء عنه سياقُ النظمِ الكريم وذلك أولُ ما أظهره عليه السلام من الآياتِ العظام والفاء فيه أيضاً فصيحةٌ معربةٌ عما صرّح به في مواضعَ أُخَرَ كأنه قيل : قال موسى : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ

(155/367)

ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء للناظرين ﴾ فلما جاءهم الحقُّ من عندنا وعرَفوه قالوا من فَرْط عتوّهم وعِنادِهم : إن هذا لسحرٌ مبين ، أي ظاهرٌ كونُه سحراً ، أو فائقٌ في بابه واضحٌ فيما بين أضرابِه ، وقرىء لساحر .

﴿ قَالَ موسى ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال تنساق إليه الأذهانُ كأنه قيل : فماذا قال لهم موسى حينئذٍ ؟ فقيل : قال على طريقة الاستفهامِ الإنكاريِّ التوبيخيِّ : ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقّ ﴾ الذي هو أبعدُ شيءٍ من السحر الذي هو الباطلُ البحتُ ﴿ لَمَّا جَاءكُمْ ﴾ أي حين مجيئِه إياكم ووقوفِكم عليه أو من أول الأمر من غير تأمل وتدبرٍ ، وكلا الحالين مما ينافي القولَ المذكور ، والمقولُ محذوفٌ ثقةً بدِلالة ما قبله وما بعده عليه وإيذاناً بأنه مما لا ينبغي أن يُتفوَّه به ولو على نهج الحكاية ، أي أتقولون له ما تقولون من أنه سحرٌ يعني به أنه مما لا يمكن أن يقوله قائلٌ ويتكلمَ به متكلمٌ أو القول بمعنى العيب والطعن ، من قولهم : فلان يخاف القالَةَ ، وبين الناسِ تقاولٌ إذا قال بعضهم لبعض ما يسوؤه ونظيرُه الذكرُ في قوله تعالى : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ الخ ، فيُستغنى عن المفعول أي أتعيبونه وتطعنون فيه وعلى الوجهين فقوله عز وجل : ﴿ أَسِحْرٌ هذا ﴾ إنكارٌ مستأنفٌ من جهته عليه السلام لكونه سحراً وتكذيبٌ لقولهم وتوبيخٌ لهم على ذلك إثرَ توبيخٍ وتجهيلٌ بعد تجهيلٍ ، أما على الأول فظاهرٌ وأما على الثاني فوجهُ إيثارِ إنكارِ كونه سحراً على إنكار كونِه معيباً بأن يقال مثلاً : أفيه عيبٌ حسبما يقتضيه ظاهرُ الإنكارِ السابق التصريحَ بالرد عليهم في خصوصية ما عابوه به بعد

التنبيهِ بالإنكار السابقِ على أن ليس فيه شائبةُ عيبٍ ما وما في هذا من معنى القربِ لزيادة تعيينِ المشارِ إليه واستحضارِ ما فيه من الصفات الدالةِ على كونه آيةً باهرةً من آيات الله المناديةِ على امتناع كونِه سحراً أي أسحرٌ هذا الذي أمرُه واضحٌ مكشوفٌ وشأنُه مشاهَدٌ معروفٌ بحيث لا يرتاب فيه أحدٌ ممن له عين مبُصِرةٌ وتقديمُ الخبر للإيذان بأنه مُنْصَبٌّ الإنكارِ ولما استلزَم كونُه سحراً كونَ من أتى به ساحراً أُكِّد الإنكارُ السابق وما فيه من التوبيخ

(157/367)

والتجهيل بقوله عز وجل : ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون ﴾ وهو جملةٌ حالية من ضمير المخاطَبين والرابطُ هو الواو بلا ضمير كما في قول من قال :

(158/367)

جاء الشتاءُ ولست أمِلك عُدّةً . . . وقولِك : جاء وحده زيدٌ ولم تطلُع الشمس أي أتقولون للحق إنه سحرٌ والحال أنه لا يُفلح فاعلُه أي لا يظفَر بمطلوب ولا ينجو من مكروه فكيف

يمكن صدورُه من مثلي من المؤيَّدين من عند الله العزيزِ الحكيم الفائزين بكل مطلب الناجين من كل محذورٍ وقوله تعالى : ﴿ أَسِحْرٌ هذا ﴾ جملةٌ معترضةٌ بين الحال وصاحبِها أكّد بها الإنكارُ السابقُ ببيان استحالةِ كونه سحراً بالنظر إلى ذاته قبل بيانِ استحالتِه بالنظر إلى صدوره عنه عليه السلام هذا ، وأما تجويزُ أن يكون الكلُّ مقولَ القولِ على أن المعنى أجئتما السحر تطلُبان به الفلاحَ ولا يفلح الساحرون ؟ فمما لا يساعده النظمُ الكريم أصلاً أما أولاً فلأن ما قالوا هو الحكمُ بأنه سحرٌ من غير أن يكون فيه دِلالةٌ على ما تعسف فيه من المعنى بوجه من الوجوه فصرفُ جوابِه عليه السلام عن صريح ما خاطبوه به إلى ما لا يُفهم منه أصلاً مما يجب تنزيهُ النظمِ التنزيليِّ عن الحمل على أمثاله وأما ثانياً فلأن التعرضَ لعدم إفلاحِ السحرةِ على الإطلاق من وظائف من يتمسك بالحق المبينِ دون الكثرةِ المتشبثين بأذيال بعضٍ منهم في معارضته عليه السلام ولو كان ذلك من كلامهم لناسب تخصيصَ عدم الإفلاح بمن زعموه ساحراً بناءً على غلبة من يأتون به من السحرة وأما ثالثاً فلأن قولَه عز وجل : ﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا ﴾ الخ ، مسوقٌ لبيان أنه عليه السلام ألقمهم الحجرَ فانقطعوا عن الإتيان بكلام له تعلقٌ بكلامه عليه السلام فضلاً عن الجواب الصحيحِ واضطروا إلى التشبّث بذيل التقليدِ الذي هو دأبُ كل عاجزٍ محجوجٍ وديدنُ كلِّ عاجزٍ على أنه استئنافٌ وقع جواباً عما قبله من كلامه عليه السلام على طريقة قوله تعالى : ﴿ قَالَ موسى ﴾ الخ ،

حسبما أشير إليه ، كأنه قيل : فماذا قالوا لموسى عليه السلام عندما قال لهم ما قال ؟ فقيل : قالوا عاجزين عنه المحاجّة : أجئتنا ﴿ لِتَلْفِتَنَا ﴾ أي

(159/367)

لتصْرِفنا فإن الفتلَ واللفتَ أخوَان ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا ﴾ أي من عبادة الأصنامِ ، ولا ريب في أن ذلك إنما يتسنى بكون ما ذكر من تتمة كلامِه عليه السلام على الوجه الذي شرح إذ على تقدير كونِه محكياً من قِبَلهم يكون جوابُه عليه السلام خالياً من التبكيت الملجىءِ لهم إلى العدول عن سنن المُحاجّة ولا ريب في أنه لا علاقةَ بين قولِهم : أجئتنا الخ ، وبين انكارِه عليه السلام لما حُكيَ عنهم مصححةٌ لكونه جواباً عنه ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الكبرياء ﴾ أي المُلكُ أو التكبرُ على الناس باستتباعهم وقرىء ويكون بالياء التحتانية . وكلمة "في" في قوله تعالى : ﴿ فِى الأرض ﴾ أي أرض مصرَ متعلقةٌ بتكون أو بالكبرياء أو بالاستقرار في لكما لوقوعه خبراً أو بمحذوف وقع حالاً من الكبرياء أو من الضمير في لكما لتحمُّله إياه ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بمصدّقين فيما جئتما به وتثنيةُ الضمير في هذين الموضعين بعد إفرادِه فيما تقدم من المقامين باعتبار شمولِ الكبرياءِ لهما عليهما السلام واستلزامِ التصديقِ لأحدهما التصديقَ للآخر ، وأما اللفتُ والمجيءُ له فحيث كانا

من خصائص صاحب الشريعةِ أسند إلى موسى عليه السلام خاصة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(160/367)

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ عطف على ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾ [يونس : 74] عطف قصة على قصة ﴿ مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد أولئك الرسل عليهم السلام ﴿ موسى وهارون ﴾ أوثر التنصيص على بعثتهما عليهما السلام مع ضرب تفصيل إيذاناً بخطر شأن القصة وعظم وقعها ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ أي أشراف قومه الذين يجتمعون على رأي فيملأون العين رواء والنفوس جلالة وبهاء ، وتخصيصهم بالذكر لأصالتهم في إقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل إليهم في النوازل والملمات ، وقيل : المراد بهن هنا مطلق القوم من استعمال الخاص في العام ﴿ جَاءهُم بِآيَاتِنَا ﴾ أي أدلتنا ومعجزاتنا وهي الآيات المفصلات في الاعراف والباء للملابسة أي متلبسين بها ﴿ فاستكبروا ﴾ أي تكبروا وأعجبوا بأنفسهم وتعظموا عن الاتباع ، والفاء فصيحة أي فأتياهم فبلغاهم الرسالة فاستكبروا ، وأشير بهذا الاستكبار إلى ما وقع منهم أول الأمر من قول اللعين لموسى عليه

السلام : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء : 18] وغير ذلك ﴿ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ جملة معترضة تذييلية وجوز فيها الحالية بتقدير قد ، وعلى الوجهين تفيد اعتيادهم الاجرام وهو فعل الذنب العظيم ، أي وكانوا قوماً شأنهم ودأبهم ذلك .

وقد يؤخذ مما ذكر تعليل استكبارهم ، والحمل على العطف الساذج لا يناسب البلاغة القرآنية ولا يلائمها فمعلوم هذا القدر من سوابق أوصافهم .

﴿ فَلَمَّا جَاءهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا ﴾ الفاء فصيحة أيضاً معربة عما صرح به في مواضع أخر كأنه قيل : قال موسى : قد جئتكم ببينة من ربكم إلى قوله تعالى : ﴿ فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء للناظرين ﴾ [الأعراف : 107 108] فلما جاءهم الحق ﴿ قَالُواْ ﴾ من فرط عنادهم وعتوهم مع تناهي عجزهم :

(161/367)

﴿ إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر كونه سحرا أو واضح في بابه فائق فيما بين أضرابه فمبين من أبان بمعنى ظهر واتضح لا بمعنى أظهر وأوضح كما هو أحد معنييه ، والإشارة إلى الحق الذي جاءهم ، والمراد به كما قال غير واحد الآيات ، وقد أقيم مقام الضمير

للإشارة إلى ظهور حقيته عند كل أحد ، ونسبة المجيء إليه على سبيل الاستعارة تشير أيضاً إلى غاية ظهوره وشدة سطوعه بحيث لا يخفى على من له أدنى مسكة ، ومن هنا قيل في المعنى : فلما جاءهم الحق من عندنا وعرفوه قالوا الخ ، فالاعتراض عليه بأنه لا دلالة في الكلام على هذه المعرفة وإنما تعلم من موضع آخر كقوله سبحانه : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل : 14] من قلة المعرفة لظهور دلالة ما علمت ، وكذا ما قالوا بناء على ما قيل من دلالته على الاعتراف وتناهي العجز عليها ، وقرىء ﴿ لساحر ﴾ وعنوا به موسى عليه السلام لأنه الذي ظهر على يده ما أعجزهم .

(162/367)

﴿ قَالَ موسى ﴾ استئناف بياني كأنه قيل : فماذا قال لهما موسى عليه السلام ؟ فقيل : قال لهم على سبيل الاستفهام الإنكاري التوبيخي : ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقّ ﴾ الذي هو أبعد شيء من السحر الذي هو الباطل البحت ﴿ لَمَّا جَاءكُمْ ﴾ أي حين مجيئه إياكم ووقوفكم عليه وهو الذي يقتضيه ما أشير إليه آنفاً ، أو من أول الأمر من غير تأمل وتدبر كما قيل ، وإياما كان فهو مما ينافي القول الذي في حيز الاستفهام ، والمقول محذوف ثقة بدلالة ما قبل وما بعد عليه وإيذاناً بأنه مما لا ينبغي أن يتفوه به ولو على نهج الحكاية ، أي أتقولون له

ما تقولون من أنه سحر مبين ؟ يعني به أنه مما لا يمكن أن يقوله قائل ويتكلم به متكلم ، وجوز أن يكون مقول القول قوله عز وجل : ﴿ أَسِحْرٌ هذا ﴾ على أن مقصودهم بالاستفهام تقريره عليه السلام لا الاستفهام الحقيقي لأنهم قد بتوا القول بأنه سحر فكيف يستفهمون عنه ، والمحكي في أحد الموضعين مفهوم قولهم ومعناه وإلا فالقصة واحدة والصادر فيها بحسب الظاهر إحدى المقالتين ولا يخفي ضعفه ، وأن يكون القول بمعنى العيب والطعن من قولهم : فلأن يخاف القالة وبين الناس تقاول إذا قال بعضهم لبعض ما يسوءه ، ونظيره الذكر في قوله تعالى : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبراهيم ﴾ [الأنبياء : 60] وحينئذ يستغني عن المفعول ، واللام لبيان المطعون فيه كما في قوله تعالى : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف : 23] أي أتعيبونه وتطعنون فيه ، وعلى هذا الوجه وكذا الوجه الأول يكون قول سبحانه : ﴿ أَسِحْرٌ هذا ﴾ إنكاراً مستأنفاً من جهة موسى عليه السلام لكونه سحراً وتكذيب لقولهم وتوبيخ لهم عليه إثر توبيخ وتجهيل إثر تجهيل ، أما على الوجه المتقدم فظاهر ، وأما على الوجه الأخير فوجه إيثار إنكار كونه سحراً على إنكار كونه معيباً بأن يقال : أفيه عيب ؟ حسبما يقتضيه ظاهر الإنكار السابق التصريح بالرد عليهم في خصوصية ما عابوه به بعد

التنبيه بالإنكار الأول على أنه ليس فيه شائبة عيب ما ، وتقديم الخبر للإيذان بأنه مصب الإنكار ، وما في اسم الإشارة من معنى القرب لزيادة تعيين المشار إليه واستحضار ما فيه من الصفات الدالة على كونه آية باهرة من آيات الله تعالى المنادية على امتناع كونه سحراً ، أي أسحر هذا الذي أمره واضح مكشوف وشأنه مشاهد معروف بحيث لا يرتاب فيه أحد ممن له عين مبصرة ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون ﴾ تأكيد للإنكار السابق وما فيه من التوبيخ والتجهيل ، وقد استلزم القول بكونه سحراً القول بكون من أتى به ساحراً ، والجملة في موضع الحال من ضمير المخاطبين والرابط الواو بلا ضمير كما في قوله

: جاء الشتاء ولست أملك عدة . . .

(164/367)

وقولك : جاء زيد ولم تطلع الشمس ، أي أتقولون للحق إنه سحر والحال أنه لا يفلح فاعله أي لا يظفر بمطلوب ولا ينجو من مكروه وأنه قد أفلحت وفزت بالحجة ونجوت من الهلكة ، وجملة ﴿ أَسِحْرٌ هذا ﴾ معترضة بين الحال وذيها لتأكيد الإنكار السابق ببيان استحالة

كونه سحراً بالنظر إلى ذاته قبل بيان استحالته بالنظر إلى صدوره منه عليه السلام ، ومن جعلها مقول القول أبقى الحالية على حالها ولا اعتراض عنده ، وكان المعنى على ذلك أتحملوني على الإقرار بأنه سحر وما أنا عليه من الفلاح دليل على أن بينه وبين السحر أبعد مما بين المشرق والمغرب ، وقيل : يجوز أن تكون هذه الجملة كالتي قبلها في حيز قولهم وهي حالية أيضاً لكن على نمط آخر والاستفهام مصروف إليها ، والمعنى أجئتنا بسحر تطلب به الفلاح والحال أنه لا يفلح الساحر ، أو هم يتعجبون من فلاحه وهو ساحر ، ولا يخفى أن السباق والسياق يأبيان هذا التجويز فلا ينبغي حمل النظم الجليل على ذلك ، وفي إرشاد العقل السليم أن تجويز أن يكون الكل مقول القول مما لا يساعده النظم الكريم أصلاً ، أما أولاً فون ما قالوا هو الحكم بأنه سحر من غير أن يكون فيه دلالة على ما تعسف فيه من المعنى بوجه من الوجوه ، فصرف جوابه عليه السلام عن صريح ما خاطبوه به إلى ما لا يفهم منه مما يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله ؛ وكون ذلك اعراضاً عن رد الإنكار السابق إلى رد ما هو أبلغ منه في الإنكار لا أراه يحسن الالتفات هنا إلى قبول ذلك التجويز في كلام الله تعالى العزيز .

(165/367)

وأما ثانياً فلأن التعرض لعدم افلاح السحرة على الإطلاق من وظائف من يتمسك بالحق المبين دون الكفرة المتشبثين بأذيال بعض منهم في معارضته عليه السلام ولو كان ذلك من كلامهم لناسب تخصيص عدم الإفلاح بمن زعموه ساحراً بناء على غلبة من يأتون به من السحرة ، والاعتذار بأن التشبث بأذيال بعض السحرة لا ينافي التعرض لعدم إفلاحهم على الإطلاق لجواز أن يكون اعتقادهم عدم الإفلاح مطلقاً وتشبثهم بعد بما تشبثوا به من باب تلقي الباطل بالباطل لا أراه إلا من باب تشبث الغريق بالحشيش ، وأما ثالثاً

(166/367)

فلأن قوله عز وجل : ﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا ﴾ الخ مسوق لبيان أنه عليه السلام ألقمهم الحجر فانقطعوا عن الإتيان بكلام له تعلق بكلامه عليه السلام فضلاً عن الجواب الصحيح واضطروا إلى التشبث بذيل التقليد الدي هو دأب كل عاجز محجوج وديدن كل معالج لجوج على أنه استئناف وقع جواباً عما قبله من كلامه صلى الله عليه وسلم على طريقة ﴿ قَالَ موسى ﴾ [يونس : 77] كما أشير إليه كأنه قيل : فماذا قالوا لموسى عليه السلام حين قال لهم ما قال ؟ فقيل : قالوا عاجزين عن المحاجة : أجئتنا ﴿ لِتَلْفِتَنَا ﴾ أي لتصرفنا ، وبين اللفت والفتل مناسبة معنوية واشتقاقية وقد نص غير واحد على أنهما أخوان وليس

أحدهما مقلوباً من الآخر كما قال الأزهري ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا ﴾ أي من عبادة غير الله تعالى ، ولا ريب في أن ذلك إنما يتسنى بكون ما ذكر من تتمة كلامه عليه السلام على الوجه الذي شرح إذ على تقدير كونه محكياً من قبلهم يكون جوابه عليه السلام خالياً عن التبكيت الملجىء لهم إلى العدول عن سنن المحاجة ، ولا ريب في أنه لا علاقة بين قولهم : ﴿ أَجِئْتَنَا ﴾ الخ وبين إنكاره عليه السلام لما حكي عنهم مصححة لكونه جواباً عنه ، وهذا ظاهر إلا على من حجب عن إدراك البديهيات ، وبالجملة الحق أن لا وجه لذلك التجويز بوجه والانتصار له من الفضول كما لا يخفى ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الكبرياء ﴾ أي الملك كما ريو عن مجاهد فهو من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم ، وعن الزجاج أنه إنما سمي الملك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا ، وقيل : أي العظمة والتكبر على الناس باستتباعهم .

وقرأ حماد بن يحيى عن أبي بكر .

وزيد عن يعقوب ﴿ يَكُونَ ﴾ بالياء التحتانية لأن التأنيث غير حقيقي مع وجود الفاصل .

(167/367)

﴿ فِى الأَرض ﴾ أي أرض مصر ، وقيل : أريد الجنس ، والجار متعلق بتكون أو بالكبرياء أو بالاستقرار في لكما لوقوعه خبراً أو بمحذوف وقع حالاً من ﴿ الكبرياء ﴾ أو من الضمير في ﴿ لَّكُمَا ﴾ لتحمله إياه ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بمصدقين فيما جئتما به أصلاً ، وفيه تأكيد لما يفهم من الإنكار السابق ، والمراد بضمير المخاطبين موسى وهارون عليهما السلام ، وإنما لم يفردوا موسى عليه السلام بالخطاب هنا كما أفردوه به فيما تقدم لأنه المشافه لهم بالتوبيخ والإنكار تعظيماً لأمر ما هو أحد سبى الأعراض معنى ومبالغة في إغاظة موسى عليه السلام وإقناطه عن الإيمان بما جاء به ، وفي إرشاد العقل السليم أن تثنية الضمير في هذين الموضعين بعد أفراده فيما تقدم من المقامين باعتبار شمول الكبرياء عليهما السلام واستلزام التصديق لأحدهما التصديق للآخر ، وأما اللفت والمجيء له فحيث كانا من خصائص صاحب الشريعة أسند إلى موسى عليه السلام خاصة انتهى فتدبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(168/367)

وقال القاسمى :

﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ ﴾

أي : على وجه لم يترك لكم شبهة مقالتكم الحمقى من أنه سحر ، فحذف المحكي المقول لدلالة الكلام عليه . ثم قال : ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ استفهام إنكار من قول موسى لا من قولهم . فهو مستأنف لإنكار كونه سحراً ، وتكذيب لقولهم ، وتوبيخ لهم على ذلك إثر توبيخ . وليس : ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ مقولهم ، لأنهم بتوا القول بأنه سحر ، فكيف يستفهمون عنه ؟ - كذا قيل - .

ولا أرى مانعاً من أن يكون مقولهم ، والهمزة وسطت مزيدة لتكون مؤكدة لما قبلها من الاستفهام ، ومن لطائفها الاحتراس عن إيهام فاعلية سحر لـ : ﴿ جَاءَكُمْ ﴾ بادئ بدء ، وأسلوب القرآن فوق كل أسلوب . أو الهمزة ومدخولها من مقولهم لقولهم الذي بتوا عليه أمرهم . ثم رأيت الناصر في " الانتصاف " أشار لهذا حيث قال :

(169/367)

وأما القراءة الثانية - يعني قراءة (آلسحر) - على الاستفهام ففيها - والله أعلم - إرشاد إلى أن قول موسى أولاً : ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ حكاية لقولهم ، ويكون : ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ هو الذي قالوه ، ولا يناقض ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وذلك إما لأنهم قالوا الأمرين جميعاً ، بدؤوا بالاستفهام على

سبيل الاستهتار بالحق والاستهزاء بكونه حقاً ، والاستهزاء بالحق إنكار له ، بل قد يكون الاستفهام في بعض المواطن أبتَ من الإخبار . ألا ترى أنهم يقولون في قوله : أأنت أم سالم ، أبلغ في البت من قوله مخبراً (أنت أم سالم) ثم ثنوا بصيغة الخبر الخاصة ببت الإنكار ، ودعوى أنه سحر ، فقالوا : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثاني ، ووبخهم موسى على قولهم الأول ، ومعنى العبارتين ومآلهما واحد . وإما ألا يكونوا قالوا سوى : ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ على سبيل الإنكار حسبما تقدم ، فحكاه الله تعالى عنهم بمآله ؛ لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار ، وبتَّ القول أنه سحر ، وحكى موسى عليه السلام قولهم بلفظه ، ولم يؤده بعبارة أخرى . وحكاية القصص المتلوة في الكتاب العزيز بصيغ مختلفة ، لا محمل لها سوى أنها معان منقولة إلى اللغة العربية ، فيترجم عنها بالألفاظ المترادفة المتساوية المعاني .

(170/367)

وحاصل هذا البحث أن قول موسى عليه السلام : ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ إنما حكى فيه قولهم ، ويرشد إلى ذلك أنه كافأهم عند ما أتوا بالسحر بمثل مقالتهم مستفهماً ، فقال : ما جئتم به آلسحر (على قراءة الاستفهام) قرضاً بوفاء على

السواء ، والذي يحقق لك أن الاستفهام والإخبار في مثل هذا المعنى مؤداهما واحد أن الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام : ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ ﴾ [السحر] على الوجهين : الخبر والاستفهام ، على ما اقتضته القراءتان وهو قول واحد ، دل أن مؤدى الأمرين واحد ، ضرورة صدق الخبر .

وإنما حمل الزمخشري على تأويل القول بالتعييب أو إضمار مفعول (تقولون) استشكال وقوع الاستفهام محكياً بالقول ، والمحكى عنهم الخبر ، وقد أوضحنا أن لا تنافر ولا تنافي بين الأمرين .

قال الناصر : فشد بهذا الفضل عرى التمسك ، فإنه من دقائق النكت ، والله الموفق .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ من كلام موسى قطعاً ، أتى به تقريراً لما سبق ؛ لأنه لما استلزم كون الحق سحراً ، كون من أتى به ساحراً ، أكد الإنكار السابق وما فيه من التوبيخ والتجهيل بذلك .

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [78] .

﴿ قَالُوا ﴾ أي : لموسى : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ أي : لتصرفنا : ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ يعنون عبادة الأصنام : ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ ﴾ أي : الملك والسلطان : ﴿

فِي الأَرْضِ ﴾ أي : أرض مصر : ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : لتبقى عزتنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 53.55 ﴾

(171/367)

وقال ابن عاشور :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآَيَاتِنَا ﴾

﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي لأنّ بعثة موسى وهارون عليهما السلام كانت أعظم من بعثة من سبقهما من الرسل ، وخصَّت بعثة موسى وهارون بالذكر لأنها كانت إنقلاباً عظيماً وتطوراً جديداً في تاريخ الشرائع وفي نظام الحضارة العقليَّة والتشريعيَّة فإن الرسل الذين كانوا قبل موسى إنما بعثوا في أمم مستقلَّة ، وكانت أديانهم مقتصرة على الدعوة إلى إصلاح العقيدة ، وتهذيب النفوس ، وإبطال ما عظم من مفاسدَ في المعاملات ، ولم تكن شرائع شاملةِ لجميع ما يُحتاج إليه من نظم الأمة وتقرير حاضرها ومستقبلها .

فأمَّا بعثة موسى فقد أتت بتكوين أمَّة ، وتحريرها من استعباد أمة أخرى إياها ، وتكوين وطن مستقل لها ، وتأسيس قواعد استقلالها ، وتأسيس جامعة كاملة لها ، ووضع نظام سياسة الأمَّة ، ووضع ساسة يدبرون شؤونها ، ونظام دفاع يدفع المعتدين عليها من الأمم

، ويمكّنها من اقتحام أوطان أمم أخرى ، وإعطاء كتاب يشتمل على قوانين حياتها الاجتماعية من كثير نواحيها ، فبعثة موسى كانت أوّل مظهر عام من مظاهر الشرائع لم يسبق له نظير في تاريخ الشرائع ولا في تاريخ نظام الأمم ، وهو مع تفوّقه على جميع ما تقدّمه من الشرائع قد امتاز بكونه تلقينا من الله المطَّلع على حقائق الأمور ، المريد إقرار الصَّالح وإزالة الفاسد .

وجعل موسى وهارون مبعوثين كليهما من حيث إنّ الله استجاب طلب موسى أن يجعل معه أخاه هارون مؤيِّداً ومُعرباً عن مقاصد موسى فكان بذلك مأموراً من الله بالمشاركة في أعمال الرسالة ، وقد بينته سورة القصص ، فالمبعوث أصالة هو موسى وأما هارون فَبُعِثَ معيناً له وناصراً ، لأنّ تلك الرّسالة كانت أوّل رسالة يصحبها تكوين أمة .

(172/367)

وفرعون مَلك مصر ، وقد مضى الكلام عليه عند قوله تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه ﴾ في سورة [الأعراف : 103] ، وعلى صفة إرسال موسى إلى فرعون وملئه ، وفرعون هذا هو منفطاح الثاني أحد فراعنة العائلة التاسعة عشرة من الأسر التي ملكت بلاد القبط .

والمرَاد بالملأ خاصَّةُ الناس وسادتُهم وذلك أنّ موسى بعث إلى بني إسرائيل وبعث إلى فرعون وأهل دولته ليطلقوا بني إسرائيل .

والسِّين والتَّاء في استكبروا ﴾ للمبالغة في التكبّر ، والمراد أنَّهم تكبَّروا عن تلقي الدعوة من موسى ، لأنَّهم احتقروه وأحالوا أن يكون رسولاً من الله وهو من قوم مستعبَدين استعبدهم فرعون وقومه ، وهذا وجه اختيار التَّعبير عن إعراضهم عن دعوته بالاستكبار كما حكى الله عنهم فقالوا : ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾ [المؤمنون : 47] .

وتفريع ﴿ استكبروا ﴾ على جملة ﴿ بعثنا ﴾ يدلُّ على أنّ كل إعراض منهم وإنكار في مدة الدعوة والبعثة هو استكبَار .

وجملة : ﴿ وكانوا قوماً مجرمين ﴾ في موضع الحال ، أي وقد كان الإجرام دأبهم وخُلقهم فكان استكبارهم على موسى من جملة إجرامهم .

والإجرام : فعل الجُرم ، وهو الجناية والذّنب العظيم .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك نجزي المجرمين ﴾ في سورة [الأعراف : 40] .

(173/367)

وقد كان الفراعنة طُغاة جبابرة فكانوا يعتبرون أنفسهم آلهة للقبط وكانوا قد وضعوا شرائع لا تخلو عن جور ، وكانوا يستعبدون الغرباء ، وقد استعبدوا بني إسرائيل وأذلوهم قروناً فإذا سألوا حقهم استأصلوهم ومثلوا بهم وقتلوهم ، كما حكى الله عنهم ﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾ [القصص : 4] ، وكان القبط يعتقدون أوهاماً ضالة وخرافات ، فلذلك قال الله تعالى : ﴿ وكانوا قوماً مجرمين ﴾ ، أي فلا يستغرب استكبارهم عن الحق والرّشاد ، ألا ترى إلى قولهم في موسى وهارون ﴿ إنّ هذان لَساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ [طه : 63] فأغراهم الغرور على أن سموا ضلالهم وخورهم طريقة مثلى .

وعبر بـ ﴿ قوماً مجرمين ﴾ دون كانوا مجرمين للوجه الذي تقدم في سورة البقرة وفي مواضع من هذه السورة .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾

أي لما رأوا المعجزات التي هي حق ثابت وليست بتخيلات وتمويهات ، وعلموا أن موسى صادق فيما ادّعاه ، تدرجوا من مجرّد الإباء المنبعث عن الاستكبار إلى البهتان المنبعث عن الشعور بالمغلوبية .

والحقُّ : يطلق اسماً على ما قابل الباطل وهو العدل الصالح ، ويطلق وصفاً على الثابت

الذي لا ريبة فيه ، كما يقال : أنت الصديق الحق .

ويُلازم الإفراد لأنه مصدر وصف به .

(174/367)

والذي أثبت له المجيء هنا هو الآيات التي أظهرها موسى إعجازاً لهم لقوله قبله : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا ﴾ [الأعراف : 103] فكان جعل الحق جائياً بتلك الآيات صالحاً لمعنيي الحقّ ، لأنّ تلك الآيات لما كانت ثابتة لا ريبة فيها كانت في ذاتها حقاً فمجيئها حصولُها وظهورها المقصود منه إثبات صدق موسى في رسالته فكان الحق جائياً معها ، فمجيئه ثبوته كقوله تعالى : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ﴾ [الإسراء : 81] وبهذا يظهر أن لكلمة ﴿ الحقّ ﴾ هنا من الوقع في الدلالة على تمام المعنى المراد ، ولكلمة ﴿ من عندنا ﴾ ما ليس لغيرهما في الإيجاز ، وهذا من حدّ الإعجاز .

وبهذا تبين أنّ الآية دالة على أن آيات الصدق ظهرت وأنّ المحجوجين أيقنوا بصدق موسى وأنه جاء بالحق .

واعتذارهم عن ظهور الآيات بأنها سحر هو اعتذار المغلوب العديم الحجة الذي قهرته الحجة وبهره سلطان الحقّ ، فلم يبق له منتشب من المعارضة المقبولة فهو يهرع إلى انتحال

معارضات بمعاذير لا تدخل تحت التمحيص ولا تثبت في محكّ النقد .

"ولا بدّ للمغلوب من بارد العذر"

وإذ قد اشتهر بين الدّهماء من ذوي الأوهام أنّ السحر يظهر الشيء في صورة ضدّه ، ادّعى هؤلاء أنّ ما ظهر من دلائل صدق موسى هو سحر ظهر به الباطل في صورة الحقّ بتخييل السحر .

ومعنى إدّعاء الحقّ سحراً أنّ دلائله من قبيل التخيلات والتمويهات ، فكذلك مدلوله هو مدلول السحر وهو إنشاء تخيل باطل في نفوس المسحورين ، وقد حملهم استشعارهم وَهَنَ معذرتهم على أن أبرزوا دعواهم في صورة الكلام المتثبّت صاحبُه فأكَّدوا الكلام بما دلّ عليه حرف التوكيد ولام الابتداء ﴿ إنّ هذا لسحرٌ ﴾ ، وزادوا ذلك ترويجاً بأن وصفوا السِّحر بكونه مُبيناً ، أي شديدَ الوضوح .

والمبين اسم فاعل من أبان القاصر ، مرادف بَانَ : ظهر .

(175/367)

والإشارة بقوله : ﴿ إنّ هذا ﴾ إلى ما هو مشاهد بينهم حين إظهار المعجزة مثل انقلاب العصا حية ، وخروج اليد بيضاء ، أي أنّ هذا العمل الذي تشاهدونه سحر مبين .

وجملة : ﴿ قال موسى ﴾ مجاوبة منه عن كلامهم ففُصلت من العطف على الطريقة التي استخرجناها في حكاية الأقوال ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة ، إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ [البقرة : 30] ، ونظائره الكثيرة .

تولى موسى وحده دون هارون مجادلتهم لأنه المباشر للدعوة أصالة ، ولأن المعجزات ظهرت على يديه .

واستفهام ﴿ أتقولون ﴾ إنكاري .

واللام في ﴿ للحق ﴾ لام التعليل .

وبعضهم يسميها لام البيان .

وبعضهم يسميها لام المجاوزة بمعنى (عن) .

وجملة : ﴿ أسحر هذا ﴾ مستأنفة للتوبيخ والإنكار ، أنكر موسى عليهم وصفهم الآيات الحق بأنها سحر .

والإشارة تفيد التعريض بجهلهم وفساد قولهم ، بأن الإشارة إلى تلك الآيات كافية في ظهور حقيقتها وأنها ليست من السحر في شيء .

ولذلك كان مفعول ﴿ أتقولون ﴾ محذوفاً لدلالة الكلام عليه وهو ﴿ إنّ هذا لسحر مبين ﴾ فالتقدير : أتقولون هذا القول للحق لمَّا جاءكم .

وقريب منه قوله تعالى : ﴿ قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قُلتم ﴾ [آل عمران : 183] وقوله : ﴿ بَيَّت طائفة منهم غير الذي تقول ﴾ [النساء : 81] .

ولما نفى موسى عن آيات الله أن تكون سحراً ارتقى فأبان لهم فساد السحر وسوء عاقبة معالجيه تحقيراً لهم ، لأنهم كانوا ينوّهون بشأن السحر .

فجملة : ﴿ ولا يفلح الساحرون ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ أسحر هذا ﴾ .

فالمعنى : هذا ليس بسحر وإنما أعلم أن الساحر لا يفلح ، أي لو كان ساحراً لما شنع حال الساحرين ، إذ صاحب الصناعة لا يحقر صناعته لأنه لو رآها محقرة لما التزمها .

(176/367)

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (78) ﴾

الكلام على جملة : ﴿ قالوا أجئتنا ﴾ مثل الكلام على جملة : ﴿ قال موسى أتقولون ﴾ [يونس : 77] .

والاستفهام في ﴿ أجئتنا ﴾ إنكاري ، بنَوا إنكارهم على تخطئة موسى فيما جاء به ، وعلى سوء ظنهم به وبهارون في الغاية التي يتطلبانها مما جاء به موسى .

وإنما واجهوا موسى بالخطاب لما تقدم من أنه الذي باشر الدعوة وأظهر المعجزة ، ثم أشركاه مع أخيه هارون في سوء ظنهم بهما في الغاية من عملهما .

و﴿ تَلْفِتَنَا ﴾ مضارع لَفَتَ من باب ضرَب متعدياً : إذا صرف وجهه عن النظر إلى شيء مقابل لوجهه .

والفعل القاصر منه ليس إلا لا لمطاوعة .

يقال : التفت .

وهو هنا مستعمل مجازاً في التحويل عن العمل أو الاعتقاد إلى غيره تحويلاً لا يبقى بعده نظر إلى ما كان ينظره ، فأصله استعارة تمثيلية ثم غلبت حتى صارت مساوية الحقيقة .

وقد جمعت صلة ﴿ ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ كل الأحوال التي كان آباؤهم متلبسين بها .

واختير التعبير بـ ﴿ وَجدنا ﴾ لما فيه من الإشارة إلى أنهم نشأوا عليها وعقلوها ، وذلك مما يكسبهم تعلقاً بها ، وأنها كانت أحوال آبائهم وذلك مما يزيدهم تعلقاً بها تبعاً لمحبة آبائهم لأن محبة الشيء تقتضي محبة أحواله وملابساته .

وفي ذلك إشارة إلى أنها عندهم صواب وحق لأنهم قد اقتدوا بآبائهم كما قال تعالى : ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمَّة وإنَّا على آثارهم مقتدون ﴾ [الزخرف : 23] .

وقال عن قوم إبراهيم عليه السلام : ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ [الأنبياء : 53 ، 54] ، وقد جاءهم موسى لقصد لفتهم عما وجدوا عليه آباءهم فكان ذلك محل الإنكار عندهم لأن تغيير ذلك يحسبونه إفساداً ﴿ قال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ﴾ [الأعراف : 127].

والإتيان بحرف (على) للدلالة على تمكن آبائهم من تلك الأحوال وملازمتهم لها .

وعطف ﴿ وتكون لكما الكبرياء ﴾ على الفعل المعلَّل به ، والمعطوف هو العلة في المعنى لأنهم أرادوا أنهم تفطنوا لغرض موسى وهارون في مجيئهما إليهم بما جاءوا به ، أي أنهما يحاولان نفعاً لأنفسهما لا صلاحاً للمدعوين ، وذلك النفع هو الاستحواذ على سيادة مصر بالحيلة .

والكبرياء : العظمة وإظهار التفوق على الناس .

والأرض : هي المعهودة بينهم ، وهي أرض مصر ، كقوله : ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم ﴾ [الأعراف : 110] .

ولما كانوا ظنوا تطلبهما للسيادة أتوا في خطاب موسى بضمير المثنى المخاطب لأن هارون كان حاضراً فالتفتوا عن خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين .

وإنَّما شرّكوا هارون في هذا الظن من حيث إنه جاء مع موسى ولم يباشر الدعوة فظنوا أنه جاء معه لينال من سيادة أخيه حظاً لنفسه .

وجملة : ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ عطف على جملة : ﴿ أجئتنا ﴾ .

وهي في قوة النتيجة لتلك الجملة بما معها من العلة ، أي لما تبين مقصدكما فما نحن لكما بمؤمنين .

وتقديم ﴿ لكما ﴾ على متعلَّقه لأن المخاطبين هما الأهم من جملة النفي لأن انتفاء إيمانهم في زعمهم كان لأجل موسى وهارون إذ توهموهما متطلبي نفع لأنفسهما .

فالمراد من ضمير التثنية ذاتاهما باعتبار ما انطويا عليه من قصد إبطال دين آباء القبط والاستيلاء على سيادة بلادهم .

(178/367)

وصيغت جملة : ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ اسمية دون أن يقولوا وما نؤمن لكُما لإفادة الثبات والدوام وأن انتفاء إيمانهم بهما متقرر متمكن لا طماعية لأحد في ضده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(179/367)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (75) ﴾

وكل من موسى وهارون عليهما السلام رسول ، وقد أخذ البعث لهما مراحل ، والأصل فيها أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام :

﴿ وَأَنَا اخترتك فاستمع لِمَا يوحى ﴾ [طه : 13] .

وقال الحق سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام :

﴿ اذهبا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ [طه : 43] .

ثم سأل موسى عليه السلام ربه سبحانه وتعالى أن يشدَّ عَضُدَه بأخيه ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى ﴾ [طه : 36] .

لأن موسى عليه السلام أراد أن يفقه قوله ، وقد رجى موسى ربه سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ [طه : 2728] .

وبعد ذلك جاء تكليف هارون بالرسالة مع موسى عليه السلام .

وقال الحق سبحانه : ﴿ اذهب إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ [طه : 24] .

فالأصل إذن كانت رسالة موسى عليه السلام ثم ضم الله سبحانه هارون إلى موسى إجابة لسؤال موسى ، والدليل على ذلك أن الآيات كلها المبعوثة في تلك الرسالة كانت بيد موسى ، وحين يكون موسى هو الرسول ، وينضم إليه هارون ، لا بد إذن أن يصبح هارون رسولاً .

ولذلك نجد القرآن معبّراً عن هذا : ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ ﴾ [طه : 47] .

أي : أنهما رسولان من الله .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 16] .

فهما الاثنان مبعوثان في مهمة واحدة ، وليس لكل منهما رسالة منفصلة ، بل رسالتهما واحدة لم تتعدد ، وإن تعدد المرسل فكانا موسى وهارون .

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى حين يوفد ملك أو رئيس وفداً إلى ملك آخر ، فيقولون : نحن رسل الملك فلان .

(180/367)

وفي رسالة موسى وهارون نجد الأمر البارز في إلقاء الآيات كان لموسى . ولكن هارون له أيضاً أصالة رسالية ؛ لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا رَسُولاَ ﴾ [طه : 47] .

ذلك أن فرعون كان متعالياً سَمْجاً رَذْل الخُلُق ، فإن تكلم هارون ليشد أزر أخيه ، فقد يقول الفرعون : وما دخلك أنت ؟

ولكن حين يدخل عليه الاثنان ، ويعلنان أنهما رسولان ، فإن رد فرعون هارون ، فكأنه يرد موسى أيضاً .

أقول ذلك حتى نغلق الباب على من يريد أن يتورك القرآن متسائلاً : ما معنى أن يقول القرآن مرة " رسول " ومرة " رسولا " ؟

وفي هذا ردٌّ كافٍ على هؤلاء المتورّكين .

ويقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِمْ موسى وَهَارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فاستكبروا ﴾ [يونس : 75] .

والملأ : هم أشراف القوم ، ووجوهه وأعيانه والمقرَّبون من صاحب السيادة العليا ، ويقال لهم : " ملأ " ؛ لأنهم هم الذين يملأون العيون ، أي : لا ترى العيون غيرهم .

وفرعون كما نعلم لم يصبح فرعوناً إلا بالملأ ؛ لأنهم هم الذين نصَّبوه عليهم ، وكان " هامان "

مثلاً يدعم فكرة الفرعون ، وكان الكهنة يؤكدون أن الفرعون إله .

ولكل فرعون ملأ يصنعونه ، والمثل الشعبي في مصر يقول : " قالوا لفرعون من فَرْعَنك ، قال : لم أجدا أحداً يردّني " .

أي : أنه لم يجد أحداً يقول له : تَعقَّلْ . ولو وجد من يقول له ذلك لما تفرعن .

والآيات التي بعث بها الله سبحانه إلى فرعون وملئه مع موسى وهارون من المعجزات الدالة على صدق نبوة موسى وهارون عليهما السلام ، وفيها ما يُلْفِت إلى صدق البلاغ عن الله .

(181/367)

أو أن الآيات هي المنهج الذي يثبت وجود الخالق الأعلى ، لكن فرعون وملأوه استكبروا .

والاستكبار : هو طلب الكبر ، مثلها مثل " استخرج " أي : طلب الإخراج ، ومثل " استفهم " أي : طلب الفهم . ومن يطلب الكبر إنما يفتعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن مقوماته لا تعطيه هذا الكبر .

وينهي الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ [يونس : 75] .

وشرُّ الإجرام ما يتعدى إلى النفس ، فقد يكون من المقبول أن يتعدى إجرام الإنسان إلى أعدائه ، أما أن يتعدى الإجرام إلى النفس فهذا أمر لا مندوحة له ، وإجرام فرعون وملئه أودى بهم إلى جهنم خالدين مخلدين فيها ملعونين ، وفي عذاب عظيم ومهين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا ﴾

وقد جاءهم الحق على لسان الرسل عليهم السلام وعلى كل إنسان أن يفهم أنه حين يستقبل من الرسول رسالة الحق ، فليفهم أنها رسالة ليست ذاتية الفكر من الرسول ، بل قد أرسله بها الله الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

ولذلك فالمتأبِّى على الرسول ، لا يتأبَّى على مساوٍ له ؛ لأن الرسول هو مُبلِّغ عن الله تعالى ، والله سبحانه هو الذي بعثه ، ويجب على الإنسان أن يعرف قدر البلاغ القادم من الله الحق ، لأنه سبحانه هو الحق الأعلى ، وهو الذي خلق كل شيء بالحق : سماء مخلوقة بالحق ، وأرض مخلوقة بالحق ، وشمس تجري بالحق ، ومطر ينزل بالحق ، وكل شيء ثابت ومتحرك بقوانين أرادها الحق سبحانه .

ولو سيطر الإنسان دون منهج على قوانين الكائنات لأفسدها ؛ لأن الفساد إنما يتأتى مما للإنسان دخل فيه ، ويدخل إليه بدون منهج الله .

والفساد إنما يجيء من ناحية اختيار الإنسان للبدائل التي لا يخضع فيها لمنهج الله تعالى .

ولذلك إن أردتم أن تستقيم حياتكم استقامة الكائنات العليا التي لا دخل لكم فيها ، فامتثلوا لمنهج الحق وميزانه ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

(182/367)

﴿ والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان * أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الميزان ﴾ [الرحمن : 87] .

أي : إن كنتم تريدون أن تعتدل أموركم ، وتنضبط انضباط الكائنات الأخرى فالتكن إرادة الاختيار المخلوقة لكم خاضعة لمنهج الله تعالى ، وتسير في إطار هذا المنهج الرباني .

وحين نتأمل قول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا ﴾ [يونس : 76] .

نجد في هذا القول توجيهاً إلى أن الحق لم يأت من ذوات الرسل ؛ فهذه الذوات لا دخل لها في الموضوع ، وإياك أن تهاجم رسالة حق جاءتك من إنسان لا تحبه ، بل ناقش الحق في ذاته ، ولا تدخل في متاهة البحث عمَّن جاء بهذا الحق ، وانظر إلى من كفروا بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَهُمْ من قالوا :

﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] .

وهم بذلك قد أدخلوا النازل عليه القرآن في الحكم ، مع أن العقل كان يقتضي أن ينظروا إلى

القرآن في ذاته ، وأن يأخذوا الحكمة من أي وعاء خرجت .

وعليك أنت أن تستفيد من هذا الأمر ، وخُذ الحكمة من أي قائل لها ، ولا تنظر إلى من جاءت الحكمة منه ، فإن كنت تكرهه فأنت ترفض أن تأخذ الحكمة منه ، وإن كانت تحبه أخذتها . لا ، إن عليك أن تأخذ الحكمة ما دامت قد جاءت بالحق ؛ لأنك إن لم تأخذها أضعت نفسك .

والحق هو الشيء الثابت ، وإن ظهر في بعض الأحيان أن هناك من طمس الحق ، وأن الباطل تغلّب عليه ، فهذا يعني ظهور المفاسد ؛ فيصرخ الناس طالبين الحق .

وانتشار المفاسد هو الذي يجعل الناس تستدعي الحق ، وتتحمس له ؛ لأن الباطل حين يَعَضُّ الناس ، تجدهم يتجهون إلى الحق ليتمسكوا به .

والحق سبحانه هو القائل :

(183/367)

﴿ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال ﴾ [

الرعد : 17] .

والحق سبحانه هنا يضرب المثل النازل كسيل من السماء على الجبال ، فيأخذ كل وادٍ أسفل الجبال على قدر احتماله ، ويرتوى الناس ، وترتوي الأرض ، لكن السيل في أثناء نزوله على الجبال إنما يحمل بعضاً من الطمي ، والقش ، ويستقر الطمي في أرض الأودية ؛ لتستفيد منه ، أما القش والقاذورات فتطفو على سطح الماء ، وتسمى تلك الأشياء الطافية زَبَداً ، وساعة تضعها في النار ، فهي تصدر أصواتاً تسمى (الطشطشة) .

ومثال ذلك : حين نوقد النار ؛ لنصهر الحديد ، نجد الخبث هو الذي يطفو ، ويبقى الحديد النقي في القاع .

هذا الزبد الذي وجد فوق الماء ينزاح على الجوانب ، ومثال ذلك : ما نراه على شواطىء البحر حين يقذف الموج بقاذورات على الشاطىء ، هذه القاذورات التي ألقتها البواخر ، فيلفظها البحر بالموج ، وهذا الزبد يذهب جُفاءً ، أما ما ينفع الناس فيبقى في الأرض ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل ﴾ [الرعد : 17] .

إذن : فالله سبحانه يترك للباطل مجالاً ، ولكن لا يسلم له الحق ، بل يترك الباطل ؛ ليحفز غيرة الناس على الحق ، فإن لم يغاروا على الحق غار هو عليه .

وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا قالوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس : 76] .

ولأنهم كانوا مشهورين بالسحر ؛ ظنوا أن الآيات التي جاءت مع موسى عليه السلام هي السحر المبين ، أي : السحر الظاهر الواضح .

(184/367)

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ قَالَ موسى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ﴾

وفي هذه الآية ما يوضح رد سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا ﴾ [يونس : 77] .

والذين يتوركون على القرآن يقولون : كيف يأتي القرآن ليؤكد أنهم قالوا إن هذا لسحر مبين ، ثم يأتي في الآية التي بعدها ليقول إنهم قالوا متسائلين : أسحرٌ هذا ؟

وفَهِم هؤلاء الذين يتوركون على القرآن أن كلمة ﴿ أَسِحْرٌ هذا ﴾ من كلماتهم ، ولكن هذا هو قول موسى عليه السلام ، وكأن موسى عليه السلام قد تساءل ؛ ليعيدوا النظر في حكمهم : هل ما جاء به سحر ؟ وهذا استفهام استنكاري ، وأريد به أن يؤكد أن هذا ليس بسحر ، ولكن جاء بصيغة التساؤل ؛ لأنه واثق أن الإجابة الأمينة ستقول : إن ما جاء به ليس سحراً .

ولو جاء كلام موسى عليه السلام كمجرد خَبَر لكان يحتمل الصدق ، ويحتمل الكذب ، لكنه جاء بصيغة الاستفسار ؛ لأن المكذِّب له سيجيب بلجلجة .

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى أنت حين تذهب لشراء قماش ، فيقول لك البائع : إنه صوف خالص ونقي ، فتمسك بعود كبريت وتشعل النار في خيط من القماش ، فإن احترق الصوف كما يحترق البلاستيك أو القماش الصناعي ، فأنت تقول للبائع : وهل هذا صوف نقي يا رجل ؟ وهنا لن يجيب البائع إلا بالموافقة ، أو بصمت العاجز عن حجب الحقيقة .

إذن : أنت إن طرحت الأمر بستفهام إنكاري فهذا أبلغ من أن تقوله كخبر مجرد ؛ لأن السامع لك لا بد أن يجيب .

وقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ﴾ [يونس : 77] .

يفيد ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عمَّن جاء به .

ولذلك لم يقل موسى عليه السلام : أتقولون للحق لما جئناكم به : إنه سحر مبين ؟

إن القول الحكيم الوارد في الآية الكريمة هو تأكيد على ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عمّن جاء به .

وينهي الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ أَسِحْرٌ هذا وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون ﴾ [يونس : 77] .

إذن : فسيدنا موسى عليه السلام قد أصدر الحكم بأن السحر لا ينفع ، ولكن الآيات التي جاء بها من الحق سبحانه قد أفلحت ، فقد ابتلعت عصاه التي صارت حية كل ما ألقوه من حبالهم ؛ وكل ما صنعوه من سحر .

وأراد الحق سبحانه لعصا موسى أن تكون آية معجزة من جنس ما نبغ فيه القوم .

فالله سبحانه حين يرسل معجزةً إلى قوم ؛ يجعلها من جنس ما نبغوا فيه ؛ لتكون المعجزة تحدياً في المجال الذي لهم به خبرة ودربة ودراية ؛ فأنت لن تتحدى رجلاً لا علم له بالهندسة ؛ ليبنى لك عمارة ، ولكنك تتحدى مهندساً أن يبني لك هرماً ؛ لأن العلوم المعاصرة لم تتوصل إلى بعض ما اكتشفه القدماء ولم يسجلوه في أوراقهم ، أو لم يعثر على كشف يوضح كيف فرَّغوا الهواء بين كل حجر وآخر فتماسكت الحجارة .

وقول الحق سبحانه وتعالى هنا :

﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون ﴾ [يونس : 77] .

يبين لنا أن الفلاح مأخوذ من العملية الحسية التي يقوم بها الفلاح من جهد في حرث الأرض ووضع البذور ، وري الأرض وانتظار الثمرة بعد بذل كل ذلك الجهد .

والفلاح أيضاً مأخوذ من فلح الحديد ، أي : شق الحديد ، ككتل أو كقطع ، ولا يصلح إلا إذا

أخذ الحديد الشكل المناسب للاستعمال .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون ﴾ [يونس : 77] .

هو لَفْتٌ لنا أن السحر نوع من التخييل ، وليس حقيقةً واقعةً .

ولذلك قال الحق سبحانه في موضع آخر من القرآن .

﴿ سحروا أَعْيُنَ الناس ﴾ [الأعراف : 116] .

وقال الحق سبحانه أيضاً :

﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ [طه : 66] .

إذن فالسحر هو تخييل فقط وليس تغييراً للحقيقة .

ولأن معجزة موسى عليه السلام تحدَّت كل القدرات ؛ لذلك أعلن فرعون التعبئة العامة بين كل من له علاقة بالسحر ، الذي هم متفوقون فيه ، أو حتى من لهم شبهة معرفة بالسحر .

(186/367)

ولأن السحر مجرد تخييل ، وجدنا السحرة حين اجتمعوا وألقوا حبالهم وعصيهم ، ثم ألقى موسى عصاه ، فإذا بعصاه قد تحولت إلى حية تلقف ما صنعوا ، وهنا ماذا فعل

السحرة ؟

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة طه :

﴿ فَأُلْقِيَ السحرة سُجَّداً قالوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى ﴾ [طه : 70] .

لأن الساحر يرى ما يفعله على حقيقته ، وهم خيَّلوا لأعين الناس ، لكنهم يرون حبالهم مجرد حبال أو عصيهم مجرد عصى .

أما عصا موسى عليه السلام فلم تكن تخييلاً ، بل وجدها السحرة حية حقيقية ، ولقفت بالفعل ما صنعوا ؛ ولذلك خرُّوا ساجدين ، وأعلنوا الإيمان برب موسى وهارون .

هم إذن لم يعلنوا الإيمان بموسى وهارون ، بل أعلنوا الإيمان :

﴿ بِرَبِّ هَارُونَ وموسى ﴾ [طه : 70] .

لأنهم عرفوا بالتجربة أن ما ألقاه موسى ليس سحراً ، بل هو مِنْ فعل خالق أعلى .

وكان ثبات موسى عليه السلام في تلك اللحظة نابعاً من التدريب الذي تلقَّاه من ربه ، فقد سأله الحق سبحانه :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي ﴾ [طه : 1718] .

وقد أجمل موسى وفصَّل في الرد على الحق سبحانه ؛ إيناساً وإطالة للأنس بالله تعالى ، وحين رأى أنه أطال الإيناس أوجز وقال بأدب :

﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخرى ﴾ [طه : 18] .

إذن : فقد أدركته أولاً شهوة الأنس بالله تعالى ، وأدرك ثانياً أدب التخاطب مع الله تعالى ، ودرَّبه الحق سبحانه على مسألة العصا حين أمره أولاً أن يلقيها ، فصارت أمامه حية تسعى ، ولو كانت من جنس السحر لما أوجس منها خيفة ولرآها مجرد عصا .

إذن : فالفرق بين معجزة موسى وسحرة فرعون ، أن سحرة فرعون سحروا أعين الناس وخُيِّل إلى الناس من سحرهم أن عصيَّهم وحبالهم تسعى ، لكن معجزة موسى عليه السلام في إلقاء العصا ، عرفوا هم بالتجربة أن تلك العصا قد تغيرت حقيقتها .

(187/367)

والعصا كما نعلم أصلها فرع من شجرة ، وكان باستطاعة الحق سبحانه وتعالى أن يجعلها تتحول إلى شجرة مثمرة ، لكنها كانت ستظل نباتاً .

وشاء الحق سبحانه أن ينقلها إلى المرتبة الأعلى من النبات ؛ وهي المرحلة الحيوانية ، فصارت حية تلقف كل ما ألقاه السحرة .

ويقول الحق سحبانه بعد ذلك : ﴿ قالوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا ﴾

وهنا نجد سحرة فرعون ينسبون مجيء معجزة تحول العصا إلى حية ، ينسبونها لموسى

عليه السلام رغم أن موسى عليه السلام قد نسب مجيء المعجزة إلى الله تعالى .

وكان واجب المرسل إليه فرعون وملئه أن ينظر إلى ما جاء به الرسول ، لا إلى شخصية الرسول .

ولو قال فرعون لموسى : " جيْءَ بك " لكان معنى ذلك أن فرعون يعلن الإيمان بأن هناك إلهاً أعلى ، ولكن فرعون لم يؤمن لحظتها ؛ لذلك جاء قوله : ﴿ أَجِئْتَنَا ﴾ فنسب المجيء على لسان فرعون لموسى عليه السلام .

ولماذا المجيء ؟

يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه :

﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [يونس : 78] .

والالتفات هو تحويل الوجه عن شيء مواجه له ، وما دام الإنسان بصدد شيء ؛ فكل نظره واتجاهه يكون إليه ، وكان قوم فرعون على فساد وضلال ، وليس أمامهم إلا ذلك الفساد وذلك الضلال .

وجاء موسى عليه السلام ؛ ليصرف وجوههم عن ذلك الفساد والضلال ، فقالوا :

﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [يونس : 78] .

وهكذا يكشفون حقيقة موقفهم ، فقد كانوا يقلدون آباءهم ، والتقليد يريح المقلِّد ، فلا يُعْمِل عقله أو فكره في شيء ليقتنع به ، ويبني عليه سلوكه .

والمثل العامي يصور هذا الموقف بعمق شديد حين يقول : " مثل الأطرش في الزفة " أي : أن فاقد السمع لا يسمع ما يقال من أي جمهرة ، بل يسير مع الناس حيث تسير ؛ ولا يعرف له اتجاهاً .

(188/367)

والمقلِّد إنما يعطل فكره ، ولا يختار بين البدائل ، ولا يميز الصواب ليفعله ، ولا يعرف الخطأ فيتجنَّبه .

وفرعون وملؤه كانوا على ضلال ، هو نفس ضلال الآباء ، والضلال لا يكلف الإنسان تعب التفكير ومشقة الاختيار ، بل قد يحقق شهوات عاجلة .

أما تمييز الصواب من الخطأ واتباع منهج السماء ، فهو يحجب الشهوة ، ويلزم الإنسان بعدم الانفلات عكس الضلال الذي يطيل أمد الشهوة .

إذن : فالمقلد بين حالتين :

الحالة الأولى : أنه لا يُعْمِل عقله ، بل يفعل مثل من سبقوه ، أو مثل من يحيا بينهم .

والحالة الثانية : أنه رأى أن ما يفعله الناس لا يلزمه بتكليف ، ولكن الرسول الذي يأتي إنما يلزمه بمنهج ، فلا يكسب على سبيل المثال إلا من حلال ، ولا يفعل منكراً ، ولا يذم أحداً ،

وهكذا يقيد المنهج حركته ، لكن إن اتبع حركة آبائه الضالين ، فالحركة تتسع ناحية الشهوات .

ولذلك أقول دائماً : إن مسألة التقليد هذه يجب أن تلفت إلى قانون التربية ، فالنشء ما دام لم يصل إلى البلوغ فأنت تلاحظ أنه بلا ذاتية ويقلد الآباء ، لكن فور أن تتكون له ذاتية يبدأ في التمرد ، وقد يقول للآباء : أنتم لكم تقاليد قديمة لا تصلح لهذا الزمان ، لكن إن تشرَّب النشء القيم الدينية الصحيحة ؛ فسيمتثل لقانون الحق ، ويحجز نفسه عن الشهوات .

ونحن نجد أبناء الأسر التي لا تتبع منهج الله في تربية الأبناء وهم يعانون من أبنائهم حين يتسلط عليهم أقران السوء ، فيتجهون إلى ما يوسع دائرة الشهوات من إدمان وغير ذلك من المفاسد .

لكن أبناء الأسر الملتزمة يراعون منهج الله تعالى ؛ فلا يقلدون آحداً من أهل السوء ؛ لأن ضمير الواحد منهم قد عرف التمييز بين الخطأ والصواب .

(189/367)

ثم إن تقليد الآباء قد يجعل الأبناء مجرد نسخ مكررة من آبائهم ، أما تدريب وتربية الأبناء على إعمال العقل في كل الأمور ، فهذه هي التنشئة التي تتطور بها المجتمعات إلى الأفضل إن

اتبع الآباء منهج الله تعالى ، وتتكون ذاتية الابن على ضوء منهج الحق سبحانه ، فلا يتمرد الابن متهجاً إلى الشر ، بل قد يتمرد إلى تطوير الصالح ليزيده صلاحاً .

التقليد إذن يحتاج إلى بحث دقيق ؛ لأن الإنسان الذي سوف تقلده ، لن يكن مسئولاً عنك ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ يا أَيُّهَا الناس اتقوا رَبَّكُمْ واخشوا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ [لقمان : 33] .

إذن : فأمر الابن يجب أن يكون نابعاً من ذاته ، وكذلك أمر الأب ، وعلى كل إنسان أن يُعْمِل عقله بين البدائل .

ولذلك تجد القرآن الكريم يقول على ألسنة مَنْ قلَّدوا الآباء :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَآ أَنزَلَ الله قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ ﴾ [البقرة : 170] .

ثم يرد عليهم الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : 170] .

فإذا كانت المسألة مسألة تقليد ، فلماذا يتعلم الابن ؟ ولماذا لا ينام الأبناء على الأرض ولا يشترون أسرَّة ؟ ولماذا ينجذبون إلى التطور في الأشياء والأدوات التي تسهِّل الحياة ؟

فالتقليد هو إلغاء العقل والفكر ، وفي إلغائهما إلغاء التطور والتقدم نحو الأفضل .

إذن : فالقرآن يحثنا على أن نستخدم العقل ؛ لنختار بين البدائل ، وإذا كان المنهج قد جاء

من السماء ، فَلْتَهْتَدِ بما جاء لك ممن هو فوقك ، وهذا الاهتداء المختار هو السُّمو نحو الحياة الفاضلة .

يقول الحق سبحانه :

(190/367)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَآ أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرسول قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَآ ﴾ [المائدة : 104]

أي : أنهم أعلنوا أنهم في غير حاجة للمنهج السماوي فَردَّ عليهم القرآن :

﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة : 104] .

وهكذا نجد أن القرآن قد جاء بموقفين في آيتين مختلفتين عن المقلّدين :

الآية الأولى : هي التي يقول فيها الحق سبحانه وتعالى :

﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءنَآ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : 170] .

والآية الثانية : هي قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَآ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة :

104] .

وهم في هذه الآية أعلنوا الاكتفاء بما كان عليه آباؤهم .

وهناك فارق بين الآيتين ، فالعاقل غير من لا يعلم ؛ لأن العاقل قادر على الاستنباط ، ولكن من لا يعلم فهو يأخذ من استنباط غيره .

إذن : فالذين اكتفوا بما عند آبائهم ، وقالوا :

﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ ﴾ [المائدة : 104] .

هؤلاء هم الذين غالوا في الاعتزاز بما كان عند آبائهم ؛ لذلك جاء في آبائهم القول بأنهم لا يعلمون .

أي : ليس لهم فكر ولا علم على الإطلاق ، بل يعيشون في ظلمات من الجهل .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه :

﴿ قالوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الكبرياء فِي الأرض ﴾ [يونس : 78] .

أي : هل جئت لتصرفنا ، وتحوِّل وجوهنا أو وجهتنا أو طريقنا وتأخذنا عن وجهة آبائنا الذين نقلدهم ؛ لتأخذ أنت وأخوك الكبرياء في الأرض ؟

وهكذا يتضح أنهم يعتقدون أن الكبرياء الذي لهم في الأرض قد تحقق لهم بتقليدهم آباءهم ، وهم يحبون الحفاظ عليه ، والأمر هنا يشمل نقطتين :

الأولى : هي تَرْكُ ما وجدوا عليه الآباء .

والثانية : هي الكبرياء والعظمة في الأرض .

ومثال ذلك : حين يقول مقاتل لآخر : " ارْمِ سيفك " وهي تختلف عن قوله : " هات سيفك " ، فَرَمْيُ السيف تجريد من القوة ، لكن أخذ السيف يعني إضافة سيف آخر إلى ما يملكه المقاتل الذي أمر بذلك .

وهم هنا وجدوا في دعوة موسى عليه السلام مصيبة مركبة .

الأولى : هي ترك عقيدة الآباء .

والثانية : هي سلب الكبرياء ، أي : السلطة الزمنية والجاه والسيادة والعظمة والائتمار ، والمصالح المقضية ، فكل واحد من بطانة الفرعون يأخذ حظه حسب اقترابه من الفرعون .

ولذلك أعلنوا عدم الإيمان ، وقالوا ما يُنهي به الحق سبحانه الآية الكريمة التي نحن بصددها :

﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : 78] .

أي : أن قوم فرعون والملأ أقرُّوا بما حرصوا عليه من مكاسب الدنيا والكبرياء فيها ،

ورفضوا الإيمان بما جاء به موسى وهارون عليهما السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(192/367)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (76) ﴾

وقرأ مجاهد وابن جبير والأعمش " لساحر " اسم فاعل ، والإِشارة ب " هذا " حينئذٍ إلى موسى ، أُشير إليه لتقدُّم ذكره ، وفي قراءةِ الجماعةِ المشارُ إليه الشيءُ الذي جاء به موسى من قَلْبِ العصا حَيَّةً وإخراج يده بيضاء كالشمس . ويجوز أن يُشارَ ب " هذا " في قراءةِ ابن جبير إلى المعنى الذي جاء به موسى مبالغةً ، حيث وَصَفوا المعاني بصفاتِ الأعيانِ كقولهم : " شعرٌ شاعرٌ " و " جَدَّ جَدُّه " .

﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَتَقُولُونَ ﴾ : في معمولِ هذا القولِ وجهان/ ، أحدهما : أنه مذكورٌ ، وهو الجملةُ من قوله : " أسحرٌ هذا " إلى آخره ، كأنهم قالوا : أجئتما بالسحر تطلبانِ به الفلاحَ

ولا يفلح الساحرون ، كقولِ موسى على نبيّنا وعليه وعلى سائر الأنبياء أفضلُ الصلاة والسلام للسحرة : ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السحر إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾ . والثاني : أن معموله محذوفٌ ، وهو مدلولٌ عليه بما تقدَّم ذكرُه ، وهو : إن هذا لسحرٌ مبين . ومعمولُ القول يُحذف للدلالةِ عليه كثيراً ، كما يُحذف نفسُ القولِ كثيراً ، ومثلُ الآية في حَذْفِ المقول قولُ الشاعر :

2616 لَنحن الأُلى قُلْتُمْ فأَنَّى مُلِئْتُمُ . . . برؤيتنا قبلَ اهتمامٍ بكمْ رُعْبا

(193/367)

وفي كتاب سيبويه : " متى رأيت أو قلت زيداً منطلقاً " على إعمال الأول ، وحَذْفِ معمولِ القول ، ويجوز إعمالُ القولِ بمعنى الحكاية به فيقال : " متى رأيت أو قلت زيد منطلق " ، وقيل : القول في الآية بمعنى العَيْب والطعن ، والمعنى : أتعيبون الحق وتَطْعنون فيه ، وكان مِنْ حَقِّكم تعظيمُه والإذعانُ له مِنْ قولهم : " فلان يخاف القالة " ، و " بين الناس تقاوُلٌ " ، إذا قال بعضهم لبعض ما يسوءُه ، ونَحْوُ القولِ الذكرُ في قوله : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ [الأنبياء : 60] وكلُّ هذا ملخَّصٌ من كلام الزمخشري .

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ

لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (78) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ : اللامُ متعلقةٌ بالمجيء أي : أجئت لهذا الغرض ، أنكروا عليه مجيئَه لهذه العلة . واللَّفْتُ : اللَّيُّ والصَرْفُ ، لَفَتَه عن كذا أي : صَرَفَه ولواه عنه . وقال الأزهري : " لَفَتَ الشيءَ وفَتَلَه : لواه ، وهذا من المقلوب " قلت : ولا يدعى فيه قَلْبٌ حتى يَرْجَعَ أحدُ اللفظين في الاستعمال على الآخر ، ولذلك لم يَجْعلوا جَذَبَ وجَبَذَ وحَمِدَ ومَدَحَ من هذا القبيل لتساويهما . ومطاوعُ لَفَتَ : التَفَتَ . وقيل : انفتل ، وكأنهم استَغْنَوا بمطاوع " فَتَلَ " عن مطاوع لَفَتَ ، وامرأة لَفُوت : أي : تَلْتَفِتُ لولدها عن زوجها إذا كان الولد لغيره ، واللَّفِيْتَةُ : ما يَغْلُظُ من العَصِيدة .

(194/367)

قوله : ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الكبرياء ﴾ الكِبْرياء : اسم كان ، و " لكم " الخبر ، و " في الأرض " : جَوَّز فيها أبو البقاء خمسةَ أوجه أحدها : أن تكونَ متعلقةً بنفس الكبرياء . الثاني : أن يُعَلَّق بنفس " تكون " . الثالث : أن يتعلَّقَ بالاستقرار في " لكم " لوقوعه خبراً . الرابع : أن يكونَ حالاً من " الكبرياء " . الخامس : أن يكون حالاً من الضمير في " لكما " لتحمُّلِه إياه . والكِبْرياء مصدرٌ على وزنِ فِعْلِياء ، ومعناها العظمة . قال عديّ ابن الرِّقاع :

2617 سُؤْدُدٌ غيرُ فاحِشٍ لا يُدا . . . نِيه تَجْبارَةٌ ولا كِبْرِيا

وقال ابن الرقيات :

2618 مُلْكُه مُلْكُ رأفةٍ ليس فيه . . . جَبَروتٌ منهُ ولا كِبْرِياءُ

يعني : ليس هو ما عليه الملوكُ من التجبُّر والتعظيم .

والجمهورُ على " تكون " بالتأنيث مراعاةً لتأنيث اللفظ . وقرأ ابن مسعود والحسن وإسماعيل وأبو عمرو وعاصم في روايةٍ : " ويكون " بالياء من تحتُ ، لأنه تأنيثٌ مجازي .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 247. 248 ﴾

(195/367)

فروق لغوية دقيقة :

الفرق بين الكبر والتيه والجبرية والزهور وبين ما يخالف ذلك من التذلل والخضوع والخشوع والهون وما بسبيل ذلك

الفرق بين الكبر والتيه

أن الكبر هو إظهار عظيم الشأن وهو في صفات الله تعالى مدح لأن شأنه عظيم وفي صفاتنا ذم لن شأننا صغير وهل أهل للعظمة ولسنا لها بأهل والشأن ههنا معنى صفاته التي هي في

أعلى مراتب التعظيم ويستحيل مساواة الأصفر له فيها على وجه من الوجوه والكبير الشخص والكبير في السن والكبير في الشرف والعلم يمكن مساواة الصغير له أما في السن فبتضاعف مدة البقاء في الشخص تتاعف أجزاوه وأما بالعلم فباكتساب مثل ذلك العلم والتيه أصله الحيرة والضلال وإنما سمي المتكبر تائها على وجه التشبيه بالضلال والتحير ولا يوصف الله به والتيه من الأرض ما يتحير فيه وفي القرآن (يتيهون في الأرض) أي يتحيرون

الفرق بين الكبر والكبرياء

أن الكبر ما ذكرناه والكبرياء هي العز والملك وليست من الكبر في شيء والشاهد قوله تعالى (وتكون لكما الكبرياء في الأرض) يعني الملك والسلطان والعزة وأما التكبر فهو إظهار الكبر مثل التشجع إظهار الشجاعة إلا أنه في صفات الله تعالى بمعنى أنه يحق له أن يعتقد أنه الكبير وهو على معنى قولهم تقدس

وتعالى لا على ترفع علينا وتظيم وقيل المتكبر في صفاته بمعنى أنه المتكبر عن ظلم عبادة

(196/367)

الفرق بين الكبر والجبرية والجبروت

أن الجبرية أبلغ من الكبر وكذلك الجبروت ويدل على هذا فخامة لفظها وفخامة اللفظ تدل

على فخامة المعنى في ما يجري هذا المجرى ولهذا قال أهل العربية الملكوت أبلغ من الملك لفخامة لفظه وكذلك الطاغوت أبلغ من الطاغي لفخامة لفظه ولكن كثر استعمال الطاغوت حتى سمي كل ما عبد من دون الله طاغوتا وسمي الشيطان به لشدة طغيانة وكل من جاوز الحد في ضرب أو معصية من الشر والمكروه فقد طغى وتجبر أبلغ من تكبر وقال بعض العلماء تجبر الرجل إذا تعظم بالقهر وهذا يؤيد ما قلناه من انه أبلغ من تكبر لأن التكبر لا يتضمن معنى القهر والجبار القهار والجبار العظيم في قوله تعالى (إن فيها قوما جبارين) والجبار المتسلط في قوله تعالى (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) قالوا قتالين والإجبار الإكراه وجبر النقص إتمامة وجبر المصيبة رفعا بالنعمة والجبارة خشب الجبر واجتبر واتجبر تعظم بالقهر والجبار الذي لا أرش فيه وقيل الجبار في صفات الله تعالى بمعنى أنه لا يبالي بالأذى وأصله في النخلة التي فاتت اليد ويقال تجبر الرجل مالا إذا أصاب مالا وتجبر النبت إذا نبت في يابسة الرطب وقال ابن عطاء الجبار في أسماء الله تعالى جل اسمه بمعنى أنه يجبر الكسر والجبرية مصدر منسوب إلى الجبروت بحذف الواو والتاء والجبروات أيضا يجري مجرى المصادر ومعناه المبالقة في التجبر

الفرق بين الكبر والزهو

أن الكبر إظهار عظم الشأن وهو فينا خاصة رفع النفس فوق الاستحقاق والزهو على ما يقضيه الاستعمال رفع شيء إياها من مال أو جاه وما أشبه ذلك ألا ترى أنه يقال زها

الرجل وهو مزهو كأن شيئا زهاه أي رفع قدره عنده وهو من قولك زهت الريح الشيء إذا رفعته والزهو التزيد في الكلام

الفرق بين الزهو والنخوة

أن النخوة هي أن ينصب رأسه من الكبر ولهذا يقال في رأسه نخو ويتصرف في العربية كتصرف الزهو فيقال نخا الرجل فهو منخو إلا أنه لم يسمع نخاه كذا كما يقال زهاه كذا

الفرق بين النخوة والخنزوانة

(197/367)

أن الخنزوانه هي أن يشمخ أنفه من الكبر ويفتح منخره ولهذا يقال في أنفه خنزواله ولا يقال في أنفه نخوة ويقال أيضا في رأسه خنزوانه إذا مال رأسه من الكبر وشبهها بأمالة أنفه

الفرق بين العجب والكبر

أن العجب بالشيء شدة السرور به حتى لا يعادله شيء عند صاحبه تقول هو معجب بفلانة إذا كان شديد السرور بها وهو معجب بنفسه إذا كان مسرورا بخصالها ولهذا يقال أعجبه كما يقال سر به فليسي العجب من الكبر في شيء وقال علي بن عيسى العجب عقد النفس على فضيلة لها ينبغي أن يتعجب منها وليست هي لها

الفرق بين الاستكبار والاستنكاف

أن في الاستنكاف معنى الأنفة وقد يكون الاستكبار طلبها الكبير من غير أنفه وقال تعالى (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر) أي يسا تنكف عن الاقرار بالعبودية ويستكبر عن الاذعان بالطاعة

الفرق بين الخشوع والخضوع

أن الخشوع على ما قيل فعل يرى فاعله أن من يخضع له فوقه وأنه أعظم منه والخشوع في الكلام خاصة

والشاهد قوله تعالى (وخشعت الأصوات للرحمن) وقيل هما من أفعال القلوب وقال ابن دريد ياقل خضع الرجل للمرأة وأخضع إذا ألان كلامه لها قال والخضاضع المطأطىء رأسه وعنقه وفي التنزيل (فظلت أعناقهم لها خاضعين) وعند بعضهم أن الخشوع لا يكون غلا مع خوف الخاشع المخشوع له ولا يكون تكلفا ولهذا يضاف إلى القلب فيقال خشع قلبه وأصله البس ومنه يقال قف خاشع للذي تغلب عليه السهولة والخضوع هو التطامن والتطأطؤ ولا يقتضي أن يكون معه خوف ولهذا لا يجوز إضافته إلى القلب فيقال خضع قلبه وقد يجوز أن يخضع الإنسان تكلفا من غير أن يعتقد أن المخضوع له فوقه ولا يكون الخشوع كذلك وقال بعضهم الخضوع قريب المعنى من الخشوع إلا أن الخضوع في البدن

والإقرار بالاستجداء والخشوع في الصوت

الفرق بين التواضع والتذلل

(198/367)

أن التذلل إظهار العجز عن مقاومة من يتذلل له والتواضع إظهار قدرة من يتواضع له سواء كان ذا قدرة على التواضع أو لا ألا ترى أنه يقال الملك متواضع لخدمة أي يعاملهم معاملة من له عليهم قدرة ولا يقال يتذلل لهم لن التذلل إظهار العجز عن مقاومة المتذلل له وأنه قاهر وليست هذه صفة الملك مع خدمة

الفرق بين التذلل والذل

أن التذلل فعل الموصوف به وهو إدخال النفس في الذل كالتحلم إدخال النفس في الحلم والذليل الفعول به الذل من قبل غيره في الحقيقة وإن كان من جهة اللفظ فاعلا ولهذا يمدح الرجل بأنه متذلل ولا يمدح بأنه ذليل لأن تذلله لغيره اعترافه له والاعتراف حسن ويقال العلماء متذللون لله تعالى ولا يقال أذلاء له سبحانه

الفرق بين الذل والضعة

أن الضعة لا تكون إلا بفعل الإنسان بنفسه ولا يكون بفعل غيره وضعيا كما يكون بعفل غيره

ذليلا وإذا

غلبه غيره قيل هو ذليل ولم يقل هو وضيع ويجوز أن يكون ذليلا لأنه يستحق الذل كالمؤمن يصير في ذل الكفر فيعيش به ذليلا وهو عزيز في المعنى فلا يجوز أن يكون الوضيع رفيعا

الفرق بين الذل والصغار

أن الصغار هو الاعتراف بالذل والإقرار به وإظهار صغر وخلافه الكبر وهو إظهار عظم الشأن وفي القرآن (سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله) وذلك أن العصاة بالآخرة مقرون بالذل معترفون به ويجوز أن يكون ذليل لا يعترف بالذل

الفرق بين الذل والخزي

أن الخزي ذل مع افتضاح وقيل هو الانقماع لقح الفعل والخزاية الاستحياء لأنه انقماع عن الشيء لما فيه من العيب قال بان درستويه الخزي الإقامة على السوء خزي يخزى خزيا وإذا استحيا من سوء فعله أو فعل به قيل خزي يخزى خزاية لأنهما في معنى واحد وليس ذلك بشيء لأن الأقامة على السوء والاستحياء من السوء ليسا بمعنى واحد

الفرق بين الضراعة والذل

(199/367)

أن الضراعة مشتقة من الضرع والضرع معرض لحالبه والشارب منه فالضارع هو المنقاد الذي لا امتناع به ومنه التضرع في الدعاء والسؤال وغيرهما ومنه الشريع الذي ذكره سبحانه وتعالى في كتابه إنما هو من طعام وذل لا منفعة فيه لآكله كما وصفه الله تعالى بقوله (لا يسمن ولا يغني من جوع) ويجوم ان يقال التضرع هو أن يميل إصبعه يمينا وشمالا خوفا وذلا ومنه سمي الضرع ضرعا لميل اللبن اليه والمضارعة المشابهة لأنها ميل إلى الشبه مثل المقاربة

الفرق بين الخضوع والذل

أن الخضوع ما ذكرناه والذل

الانقياد كرها ونقيضه العز وهو الإباء والامتناع والانقياد على كره وفاعله ذليل والذل والانقياد طوعا وفاعله ذلول

الفرق بين الخضوع والإخبات

أن المخبت هو المطمئن بالإيمان وقيل هو المجتهد بالعبادة وقيل الملازم للطاعة والسكون وهو من أسماء الممدوح مثل المؤمن والمتقي وليس كذلك الخضوع لأنه يكون مدحا وذما وأصل الإخبارت أن يصير إلى خبت تقول أخبت إذا صار إلى خبت وهو الأرض المستوية الواسعة كما تقول أنجد إذا صار إلى نجد فالإخبات على ما يوجبه الاشتقاق هو الخضوع

المسمر على استواء

الفرق بين الإذلال والإهانة

(200/367)

أن إذلال الرجلت للرجل هنا أن يجعله منقادا على الكره أو في حكم المنقاد والاهانة أن يجعله صغير الأمر لا يبالى به والشاهد قولك استهان به أي لم يبال به ولم يلتفت اليه والإذال لا يكون إلا من الأعلى للأدنى والاستهانة تكون من النظير للنظير ونقيض الإذلال ا لإعزاز ونقيض الإهانة الإكرام فليس أحدهما من الآخر في شيء إلا أنه لما كان الذل يتبع الهوان سمي الهوان ذلا وإذلال أحدنا لغيره غلبته له على وجه يظهر ويشتهر ألا ترى أنه إذا غلبه في خلوة لم يقل أنه أذله ويجوز أن يقال إن إهانة أحدنا صاحبه وهو تعريف الغير أنه غير مستعصب عليه وإذلاله غلبته عليه لا غير وقال بعضهم لا يجوز أن يذل الله تعالى العبد ابتداء لأن ذلك ظلم ولكن يذله عقوبة ألا ترى أنه من قاد غيره على كره منت غيره استحقاق فقد ظلمه ويجوز أن يهينه ابتداء بأنه يجعله فقيرا فلا يلفت اليه ولا يبالي به وعندنا أن نقيض الإهانة الإكرام على ما ذكرنا فكما لا يكون الإكرام من الله إلا ثوابا فكذلك لا تكون الإهانة إلا عقابا والهوان نقيض الكرامة والإهانة تدل على العداوة وكذلك العز

يدل على العداوة والبراءة والهوان مأخوذ من تهوين القدر والاستخفاف مأخوذ من خفة الوزن والألم يقع للعقوبة ويقع للمعارضة والإهانة لا تقع إلا عقوبة ويقال يستدل على نجابه الصبي بمحبته الكرامة

وقد قيل الذلة الضعف عن المقاومة ونقيضها العزة وهي القوة على الغلبة ومنه الذلول وهو المقود من غير صعوبة لأنه ينقاد انقياد الضعيف عن المقاومة وأما الذليل فانه ينقاد على مشقة

الفرق بين الذليل والمهين والمذعن

أن المهين هو المستضعف وفي القرآن (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين)

(201/367)

وفيه (من سلاسلة من ماء مهين) قال أهل التفسير أراد الضعيف قال المفضل هو فعيل منالمهانة يقال مهن يمهن مهانة ومهنتة مهنا وأنا ماهن وهو مهون ومهين ويقال هو من المهنة وهي العمل وامتهنته امتهانا إذا ابتذلته ومن ثم قيل للخادم ماهن والجمع مهنة ومهان وأما الإذعان في العربية فهو الإسراع في الطاعة وليس هو من الذل والهون في شيء

الفرق بين الحقير والصغير

أن الحقير من كل شيء ما نقص عن المقدار المعهود لجنسه يقال هذه دجاجة حقيرة إذا كانت ناقصة الخلق عن مقادير الدجاج ويكون الصغر في السن وفي الحجم تقول طفل صغير وحجر صغير ولا يقال حجر حقير لأن الحجارة ليس لها قدر معلوم فإذا نقص شيء منها عنه سمي حقير كما أن الدجاج والحجل وما أشبهها لها أقدار معلومة فإذا نقص شيء من جملتها عنه مسي حقيرا والصغير يكون صغيرا بالإضافة إلى ما هو أكبر منه وسواء كان من جنسه أو لا فالكوز صغير بالإضافة إلى الجرة والجمل صغير بالإضافة إلى الفيل ولا يقل للجمل صغير على الإطق وأنما يقول هو صغير بجنب الفيل

الفرق بين اليسير والقليل

أن القلة تقتضي نقصان العدد يقال قوم قليل وقليلون ومن القرآن (شرذمة قليلون) يريد أن عددهم

ينقص عن عدة غيرهم وهي نقيض الكثرة وليست الكثرة إلا زيادة العدد وهي في غيره استعارة وتشبيه واليسير من الأشياء ما يتيسر تحصيله أو طلبه ولا يقتضي ما يقتضيه القليل من نقصان العدد ألا ترى أنه يقال عدد قليل ولا يقال عدد يسير ولكن يقال مال يسير لأن جمع مثله يتيسر فإن استعمل اليسير في موضع القليل فقد يجري اسم الشيء على غيره إذا قرب منه

الفرق بين الكثير والوافر

أن الكثرة زيادة العدد والوفر اجتماع آخر الشيء حتى يكثر حجمه ألا ترى أنه يقال كردوس وافر والكردوس عظم عليه لحمت ولا يقال كردوس كثير وتقول حظ وافر ولا تقول كثير وأنما تقول حظوظ كثيرة ورجال كثيرة ولا يقال رجل كثيرة فهذا يدل على أن الكثرة لا تصح إلى في ما له عدد وما لا يصح أن يعد لا تصح لا تصح فيه الكثير إلا على استعارة وتوسع

الفرق بين الجم والكثير أن الجم الكثير المجتمع ومنه قيل جمه البئر لاجتماعها وقال أهل اللغة جملة البئر الماء المجتمع فيها والجملة من الشعر سميت جمة لاجتماعها واجممت الفرس إذا أرحته يتجمع قوته وأجم الشيء إذا قرب كانه قصد الاجتماع معك ويجوز أن يكون كثيرا غير مجتمع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الفروق اللغوية صـ 260 . 267 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيات

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (76) ﴾

ما زادَهم الحقُّ سبحانه بياناً إلا ازدادوا طغياناً ، وذلك أنه تعالى أجرى سُنَّتَه في المردودين عن معرفته أنه لا يزيد في الحجج هدًى إلا ويزيد في قلوبهم عَمَىً ، ثم خفى عليهم قصود النبيين صلوات الله عليهم أجمعين .

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء : 35] : نظروا من حيث كانوا لم يعرفوا طعماً غير ما ذاقوا ، وكذا صفةُ مَنْ أَقصتْه السوابقُ ، وردَّته المشيئة .

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (78) ﴾

ركنوا إلى تقليد آبائهم فيما عليه كانوا ، واستحبُّوا استدامة ما عليه كانوا . . . فلحقهم شؤمُ العقيدةِ وسوءُ الطريقة حتى توهموا أن الأنبياءَ عليهم السلام إنما دَعَوْهم إلى الله لتكونَ لهم الكبرياءُ على عباد الله ، ولم يعلموا أنهم إنما دَعَوْهم إلى الله بأمر الله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 110 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما لبسوا بوصفه بما هم به متصفون ، أرادوا الزيادة في التلبيس بما يوهم أن ما أتى به سحر تمكن معارضته إيقافاً للناس عن تباعه ، فقال تعالى حكاية عطفاً على قوله : ﴿ قالوا أجئتنا ﴾ : ﴿ وقال فرعون ﴾ إرادة المناظرة لما أتى به موسى عليه السلام ﴿ ائتوني بكل ساحر عليم ﴾ أي بالغ في علم السحر لئلا يفوت شيء من السحر بتأخر البعض ، وقراءة حمزة والكسائي بصيغة فعال دالة على زيادة لزعمه أقل من سياق الشعراء كما مضى في الأعراف .

(205/367)

ولما كان التقدير : فامتثلوا أمره وجمعوهم ، دل على قرب اجتماعهم بالفاء في قوله : ﴿ فلما جاء السحرة ﴾ أي كل من في أرض مصر منهم ﴿ قال لهم موسى ﴾ مزيلاً لهذا الإيهام ﴿ ألقوا ﴾ جميع ﴿ ما أنتم ملقون ﴾ أي راسخون في صنعة إلقائه ، إشارة إلى أن ما جاؤوا به ليس أهلاً لأن يلقى إليه بال ﴿ فلما ألقوا ﴾ أي وقع منهم الإلقاء بحبالهم وعصيهم على إثر مقالاته وخيلوا بسحرهم لعيون الناس ما زلزل عقولهم ﴿ قال موسى ﴾ منكراً عليهم ﴿ ما جئتم به ﴾ ثم بين أنه ما استفهم عنه جهلاً بل احتقاراً وإنكاراً ، وزاد في بيان كل من الأمرين بقوله : ﴿ السحر ﴾ لأنه استفهام أيضاً سواء قطعت الهمزة ومدت كما في قراءة أبي عمرو وأبي جعفر أوجعلت همزة وصل كما في قراءة الباقين ، فإن همزة الاستفهام مقدرة ، والتعريف إما للعهد وإما للحقيقة وهو أقرب ، ويجوز في قراءة الجماعة أن يكون خبراً لما يقصد به الحصر ، أي هو السحر لا ما نسبتموه إليّ ؛ ثم استأنف بيان ما حقره به فقال : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له إحاطة العلم والقدرة ﴿ سيبطله ﴾ أي عن قريب بوعد لا خلف فيه ؛ ثم علل ذلك بما بين أنه فساد فقال : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ لا يصلح ﴾ أي وفي وقت من الأوقات ﴿ عمل المفسدين ﴾ أي العريقين في الفساد بأن لا ينفع بعملهم ولا يديمه ؛ ثم عطف عليه بيان إصلاحه عمل المصلحين فقال : ﴿ ويحق ﴾ أي يثبت إثباتاً عظيماً ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ الحق ﴾ أي الشيء الذي له الثبات صفة لازمة ؛ ولما كان في مقام تحقيرهم ، دل على ذلك بتكرير الاسم الجامع الأعظم .

وأشار إلى ما له من الصفات العلى بقوله : ﴿ بكلماته ﴾ أي الأزلية التي لها ثبات الأعظم ، وزاد في العظمة بقوله : ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ أي العريقون في قطع ما أمر الله به أن يوصل ، فكان كما قال عليه السلام بطل سحرهم ، واضمحل مكرهم ، وحق الحق - كما بين في سورة الأعراف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 471.472 ﴾

(206/367)

فصل

قال الفخر :

واعلم أن القوم لما ذكروا هذه المعاني حاولوا بعد ذلك ، وأرادوا أن يعارضوا معجزة موسى عليه السلام بأنواع من السحر ، ليظهروا عند الناس أن ما أتى به موسى من باب السحر ، فجمع فرعون السحرة وأحضرهم ، ﴿ قَالَ لَهُمْ موسى أَلْقُواْ مَا أَنتُمْ مُّلْقُونَ ﴾ .

فإن قيل : كيف أمرهم بالكفر والسحر والأمر بالكفر كفر ؟

قلنا : إنه عليه السلام أمرهم بإلقاء الحبال والعصي ، ليظهر للخلق أن ما أتوا به عمل فاسد وسعي باطل ، لا على طريق أنه عليه السلام أمرهم بالسحر ، فلما ألقوا حبالهم وعصيهم قال لهم موسى ما جئتم به هو السحر الباطل ، والغرض منه أن القوم قالوا لموسى : إن ما

جئت به سحر ، فذكر موسى عليه السلام أن ما ذكرتموه باطل ، بل الحق أن الذي جئتم به هو السحر والتمويه الذي يظهر بطلانه ، ثم أخبرهم بأن الله تعالى يحق الحق ويبطل الباطل ، وقد أخبر الله تعالى في سائر السور أنه كيف أبطل ذلك السحر ، وذلك بسبب أن ذلك الثعبان قد تلقف كل تلك الحبال والعصي .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السحر ﴾ ما ههنا موصولة بمعنى الذي وهي مرتفعة بالابتداء ، وخبرها السحر ، قال الفراء : وإنما قال : ﴿ السحر ﴾ بالألف واللام ، لأنه جواب كلام سبق ألا ترى أنهم قالوا : لما جاءهم موسى هذا سحر ، فقال لهم موسى : بل ما جئتم به السحر ، فوجب دخول الألف واللام ، لأن النكرة إذا عادت عادت معرفة ، يقول الرجل لغيره : لقيت رجلاً فيقول له من الرجل فيعيده بالألف واللام ، ولو قال له من رجل لم يقع في فهمه أنه سأله عن الرجل الذي ذكره له .

وقرأ أبو عمرو : ﴿ السحر ﴾ بالاستفهام ، وعلى هذه القراءة ما استفهامية مرتفع بالابتداء ، وجئتم به في موضع الخبر كأنه قيل : أي شيء جئتم به .

ثم قال على وجه التوبيخ والتقريع : ﴿ السحر ﴾ كقوله تعالى :

﴿ أأنت قُلتَ لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة : 116] والسحر بدل من المبتدأ ، ولزم أن يلحقه الاستفهام ليساوي المبدل منه في أنه استفهام ، كما تقول كم مالك أعشرون أم ثلاثون ؟ فجعلت أعشرون بدلاً من كم ، ولا يلزم أن يضمر للسحر خبر ، لأنك إذا أبدلته من المبتدأ صار في موضعه وصار ما كان خبراً عن المبدل منه خبراً عنه .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾ أي سيهلكه ويظهر فضيحة صاحبه ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدين ﴾ أي لا يقويه ولا يكمله .

ثم قال : ﴿ وَيُحِقُّ اللهُ الحق ﴾ ومعنى إحقاق الحق إظهارُه وتقويتُه .

وقوله : ﴿ بكلماته ﴾ أي بوعده موسى .

وقيل بما سبق من قضائه وقدره ، وفي كلمات الله أبحاث غامضة عميقة عالية ، وقد ذكرناها في بعض مواضع من هذا الكتاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 115.114 ﴾

(208/367)

وقال ابن عطية :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾

يخبر أن فرعون قال لخدمته ومتصرفيه : ﴿ ائتوني بكل ساحر ﴾ ، هذه قراءة جمهور الناس ، وقرأ طلحة بن مصرف ويحيى بن وثاب وعيسى " بكل سحار " على المبالغة ، قال أبو حاتم : لسنا نقرأ " سحار " إلا في سورة الشعراء ، فروي أنهم أتوه بسحرة الفرما وغيرها من بلاد مصر حسبما قد ذكر في غير هذه الآية ، فلما ورد السحرة باستعدادهم للمعارضة خيّروا موسى كما ذكر في غير هذه الآية ، فقال لهم عن أمر الله : ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فلما ألقوا ﴾ الآية ، المعنى فلما ألقوا حبالهم وعصيهم وخيلوا بها وظنوا أنهم قد ظهروا قال لهم موسى هذه المقالة ، ، وقرأ السبعة سوى أبي عمرو ﴿ السحر ﴾ وهي قراءة جمهور الناس ، وقرأ أبو عمرو ومجاهد وأصحابه وابن القعقاع ﴿ به السحر ﴾ بألف الاستفهام ممدودة قبل ﴿ السحر ﴾ .

(209/367)

فأما من قرأ ﴿ السحر ﴾ بغير ألف استفهام قبله ف ﴿ ما ﴾ في موضع رفع على الابتداء وهي بمعنى الذي وصلتها قوله ﴿ جئتم به ﴾ والعائد الضمير في ﴿ به ﴾

وخبرها ﴿ السحر ﴾ ، ويؤيد هذه القراءة والتأويل أن في مصحف ابن مسعود " ما جئتم به سحر " ، وكذلك قرأها الأعمش وهي قراءة أبي بن كعب ، " ما أتيتم به سحر " ، والتعريف هنا في السحر أرتب لأنه قد تقدم منكراً في قولهم ﴿ إن هذا لسحر ﴾ [يونس : 76] فجاء هنا بلام العهد كما يقال في أول الرسالة ، سلام عليك وفي آخرها والسلام عليك ، ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ استفهاماً في موضع رفع بالابتداء و ﴿ جئتم به ﴾ الخبر و ﴿ السحر ﴾ خبر ابتداء تقديره هو السحر إن الله سيبطله ، ووجه استفهامه هذا هو التقرير والتوبيخ ، ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ في موضع نصب على معنى أي شيء جئتم و ﴿ السحر ﴾ مرفوع على خبر الابتداء تقدير الكلام أي شيء جئتم به هو السحر ، ﴿ إن الله سيبطله ﴾ ، وأما من قرأ الاستفهام والمد قبل ﴿ السحر ﴾ ف ﴿ ما ﴾ استفهام رفع بالابتداء و ﴿ جئتم به ﴾ الخبر ، وهذا على جهة التقدير ، وقوله : ﴿ السحر ﴾ استفهام أيضاً كذلك ، وهو بدل من الاستفهام الأول ، ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ في موضع نصب بمضمر تفسيره ﴿ جئتم به ﴾ تقديره أي شيء جئتم به السحر ، وقوله ﴿ إن الله سيبطله ﴾ إيجاب عن عدة من الله تعالى ، وقوله ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ ، يصح أن يكون من كلام موسى عليه السلام ، ويصح أن يكون ابتداء خبر من الله تعالى ، وقوله ﴿ ويحق الله الحق ﴾ الآية ، يحتمل أن يكون من كلام موسى عليه السلام ، ويحتمل أن يكون من إخبار الله عز وجل ، وكون ذلك كله من كلام موسى أقرب

وهو الذي ذكر الطبري ، وأما قوله ﴿ بكلماته ﴾ فمعناه بكلماته السابقة الأزلية في الوعد بذلك ، قال ابن سلام ﴿ بكلماته ﴾ بقوله : لا تخف ومعنى ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ وإن كره المجرمون والمجرم : المجترم الراكب للخطر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(210/367)

وقال القرطبى :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (79) ﴾

إنما قاله لما رأى العصا واليد البيضاء واعتقد أنهما سحر .

وقرأ حمزة والكسائيّ وابن وَثّاب والأعمش "سحار" .

وقد تقدم في الأعراف القول فيهما .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80) ﴾

أي اطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعِصِيكم .

وقد تقدم في الأعراف القول في هذا مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا قَالَ موسى مَا جِئْتُمْ بِهِ السحر ﴾

تكون "مَا" في موضع رفع بالابتداء ، والخبر "جِئتم بِهِ" والتقدير : أي شيء جِئْتُمْ به ، على التوبيخ والتصغير لما جاؤوا به من السحر .

وقراءة أبي عمرو "آلّحْرُ" على الاستفهام على إضمار مبتدأ والتقدير أهو السحر .

ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف ، التقدير : السحر جئتم به .

ولا تكون "ما" على قراءة من استفهم بمعنى الذي ، إذ لا خبر لها .

وقرأ الباقون "السِّحْرُ" على الخبر ، ودليل هذه القراءة قراءة ابن مسعود : "مَا جِئْتُمْ بِهِ سِحْرٌ" .

وقراءة أُبَيّ : "ما أتيتم به سحر" ؛ ف "ما" بمعنى الذي ، و "جئتم به" الصلة ، وموضع "ما" رفع بالابتداء ، والسحر خبر الابتداء .

ولا تكون "ما" إذا جعلتها بمعنى الذي نصباً لأن الصلة لا تعمل في الموصول .

وأجاز الفراء نصب السحر بجئتم ، وتكون ما للشرط ، وجئتم في موضع جزم بما والفاء محذوفة ؛ التقدير : فإن الله سيبطله .

ويجوز أن ينصب السحر على المصدر ، أي ما جئتم به سحراً ، ثم دخلت الألف واللام زائدتين ، فلا يحتاج على هذا التقدير إلى حذف الفاء .

واختار هذا القول النحاس ، وقال : حذف الفاء في المجازاة لا يجيزه كثير من النحويين إلا في ضرورة الشعر ؛ كما قال :

من يفعل الحسنات اللَّه يشكرها . . .

بل ربما قال بعضهم : إنه لا يجوز ألبتة .

(211/367)

وسمعت علي بن سليمان يقول : حدثني محمد بن يزيد قال حدثني المازِنيّ قال سمعت الأصمعيّ يقول : غيّر النحويون هذا البيت ، وإنما الرواية :

من يفعل الخير فالرحمن يشكره . . .

وسمعت عليّ بن سليمان يقول : حذف الفاء في المجازاة جائز .

قال : والدليل على ذلك ﴿ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : 30] .

"وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم" قراءتان مشهورتان معروفتان .

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدين ﴾ يعني السحر .

قال ابن عباس : من أخذ مضجعه من الليل ثم تلا هذه الآية .

﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السحر إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ إِنَّ الله لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدين ﴾ لم يضره كيد ساحر .

ولا تكتب على مسحور إلا دفع الله عنه السحر .

قوله تعالى : ﴿ وَيُحِقُّ اللهُ الحق ﴾ أي يبيّنه ويوضحه .

﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أي بكلامه وحججه وبراهينه .

وقيل : بعداته بالنصر .

﴿ وَلَوْ كَرِهَ المجرمون ﴾ من آل فرعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(212/367)

وقال الخازن :

﴿ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم ﴾

يعني أن فرعون أراد أن يعارض معجزة موسى بأنواع من التلبيس أن ما أتى به موسى سحر

﴿ فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ إنما أمرهم موسى بإلقاء ما معهم من الحبال والعصي التي فيها سحرهم ليظهر الحق ويبطل الباطل ويتبين أن ما أتوا به فاسد .

﴿ فلما ألقوا ﴾ يعني ما معهم من الحبال والعصي ﴿ قال موسى ما جئتم به السحر ﴾

يعني الذي جئتم به هو السحر الباطل وهذا على سبيل التوبيخ لهم ﴿ إن الله سيبطله ﴾

يعني يكمله ويظهر فضيحة صاحبه ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ يعني لا يقويه ولا يكمله ولا يحسنه ﴿ ويحق الله الحق ﴾ يعني ويظهر الله الحق ويقويه ويعليه ﴿ بكلماته ﴾ يعني وعده الصادق لموسى أنه يظهره وقيل بما سبق من قضائه وقدره لموسى أنه يغلب السحرة ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(213/367)

وقال أبو حيان :

وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم .

فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون .

فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين .

ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ أجئتنا خطاب لموسى وحده ، لأنه هو الذي ظهرت على يديه معجزة العصا واليد .

لتصرفنا وتلوينا عن ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة غير الله ، واتخاذ إله دونه .

والكبرياء مصدر .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وأكثر المتأولين : المراد به هنا الملك ، إذ الملوك

موصوفون بالكبر ، ولذلك قيل للملك الجبار ، ووصف بالصد والشرس .

وقال ابن الرقيات في مصعب بن الزبير :

ملكه ملك رأفة ليس فيه . . .

جبروت منه ولا كبرياء

يعني ما عليه الملوك من ذلك .

وقال ابن الرقاع :

سؤدد غير فاحش لا يداني . . .

ه تجبارة ولا كبرياء

وقال الأعمش : الكبرياء العظمة .

وقال ابن زيد : العلو .

وقال الضحاك أيضاً : الطاعة ، والأرض هنا أرض مصر .

وقرأ ابن مسعود ، وإسماعيل ، والحسن فيما زعم خارجة ، وأبو عمرو ، وعاصم : بخلاف عنهما ، وتكون بالتاء لمجاز تأنيث الكبرياء ، والجمهور بالياء لمراعاة اللفظ ، والمعنى : أنهم قالوا مقصودك في ذكره إلينا بما جئت ، هو أنْ ننتقل من دين آبائنا إلى ما تأمر به ونطيعك ، ويكون لكما العلو والملك علينا بطاعتنا لك ، فنصير أتباعاً لك تاركين دين آبائنا ، وهذا مقصود لا نراه ، فلا نصدقك فيما جئت به إذ غرضك إنما هو موافقتك على

ما أنت عليه ، واستعلاؤك علينا .

فالسبب الأول هو التقليد ، والثاني الجد في الرئاسة حتى لا تكونوا تبعاً .

واقتضى هذان السببان اللذان توهموهما مقصوداً التصريح بانتفاء الإيمان الذي هو سبب لحصول السببين .

ويجوز أن يقصدوا الذم بأنهما إنْ ملكا أرض مصر تكبرا وتجبرا كما قال القبطي : إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض .

(214/367)

ولما ادعوا أنّ ما جاء به موسى هو سحر ، أخذوا في معارضته بأنواع من السحر ، ليظهر لسائر الناس أنّ ما أتى به موسى من باب السحر .

والمخاطب بقوله : ائتوني ، خدمة فرعون والمتصرفون بين يديه .

وقرأ ابن مصرف ، وابن وثاب ، وعيسى ، وحمزة ، والكسائي : بكل سحار على المبالغة .

وفي قوله : ألقوا ما أنتم ملقون ، استطالة عليهم وعدم مبالاة بهم .

وفي إيهام ما أنتم ملقون ، تخسيس له وتقليل ، وإعلام أنه لا شيء يلتفت إليه .

قال أبو عبد الله الرازي : كيف أمرهم ، فالكفر والسحر والأمر بالكفر كفر ؟ قلنا : إنه عليه الصلاة والسلام أمرهم بإلقاء الحبال والعصى ليظهر للخلق أن ما ألقوا عمل فاسد وسعى باطل ، لا على طريق أنه عليه السلام أمرهم بالسحر انتهى .

وقرأ أبو عمرو ، ومجاهد وأصحابه ، وابن القعقاع : بهمزة الاستفهام في قوله : آلسحر ممدودة ، وباقي السبعة والجمهور بهمزة الوصل ، فعلى الاستفهام قالوا : يجوز أن تكون ما استفهامية مبتدأ ، والسحر بدل منها .

وأن تكون منصوبة بمضمر تفسيره جئتم به ، والسحر خبر مبتدأ محذوف .

ويجوز عندي في هذا الوجه أن تكون ما موصولة مبتدأة ، وجملة الاستفهام خبر ، إذ التقدير : أهو السحر ، أو آلسحر هو ، فهو الرباط كما تقول : الذي جاءك أزيد هو ؟ وعلى همزة الوصل جاز أن نكون ما موصولة مبتدأة ، والخبر السحر ، ويدل عليه قراءة عبد الله والأعمش : سحر .

وقراءة أبيّ ما أتيتم به سحر .

ويجوز عندي أن تكون في هذا الوجه استفهامية في موضع رفع بالابتداء ، أو في موضع نصب على الاشتغال ، وهو استفهام على سبيل التحقير والتعليل لما جاءوا به ، والسحر خبر مبتدأ محذوف أي : هو السحر .

قال ابن عطية : والتعريف هنا في السحر ارتب ، لأنه قد تقدم منكراً في قولهم : إن هذا

لسحر ، فجاء هنا بلام العهد كما يقال : أول الرسالة سلام عليك ، وفي آخرها والسلام عليك انتهى .

وهذا أخذه من الفراء .

(215/367)

قال الفراء : وإنما قال السحر بالألف واللام ، لأن النكرة إذا أعيدت أعيدت بالألف واللام ، ولو قال له من رجل لم يقع في وهمه أنه يسأله عن الرجل الذي ذكر له انتهى .

وما ذكره هنا في السحر ليس هو من باب تقدم النكرة ، ثم أخبر عنها بعد ذلك ، لأن شرط هذا أن يكون المعرّف بالألف واللام هو النكرة المتقدم ، ولا يكون غيره كما قال تعالى : ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول ﴾ وتقول : زارني رجل فأكرمت الرجل ، ولما كان إياه جاز أن يأتي بالضمير بدله فتقول : فأكرمته .

والسحر هنا ليس هو السحر الذي هو في قولهم : إن هذا لسحر ، لأن الذي أخبروا عنه بأنه سحر هو ما ظهر على يدي موسى عليه السلام من معجزة العصا ، والسحر الذي في قول موسى إنما هو سحرهم الذي جاؤوا به ، فقد اختلف المدلولان وقالوا هم عن معجزة موسى وقال موسى عما جاؤوا به ، ولذلك لا يجوز أن يأتي هنا بالضمير بدل السحر ،

فيكون عائداً على قولهم السحر .

والظاهر أنّ الجمل بعده من كلام موسى عليه السلام .

وسيبطله يمحقه ، بحيث يذهب أو يظهر بطلانه بإظهار المعجزة على الشعوذة .

وقيل : هذه الجمل من كلام الله تعالى .

ومعنى بكلماته ، بقضاياه السابقة في وعده .

وقال ابن سلام : بكلماته بقوله : ﴿ لا تخف إنك انت الأعلى ﴾ وقيل بكلماته بحججه وبراهينه وقرىء بكلمته على التوحيد أي بأمره ومشيئته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(216/367)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾

توحيدُ الفعلِ لأن الأمرَ من وظائف فرعونَ أي قال لملئه يأمرُهم بترتيب مبادي إلزامِهما عليهما السلام الفعل بعد اليأسِ من إلزامهما عليهما السلام بالفعل بعد اليأسِ من إلزامهما بالقول : ﴿ ائتونى بِكُلّ ساحر عَلِيمٍ ﴾ بفنون السحر حاذقٍ ماهرٍ فيه ، وقرىء سحار

﴿ فَلَمَّا جَاء السحرة ﴾ عطف على مقدر يستدعيه المقامُ قد حذف إيذاناً بسرعة امتثالِهم لأمر فرعونَ كما هو شأنُ الفاء الفصيحة في كل مقام أي فأتَوا به فلما جاؤا ﴿ قَالَ لَهُمْ موسى ﴾ لكن لا في ابتداء مجيئِهم بل بعد ما قالوا له عليه السلام ما حُكي عنهم في السور الأُخَرِ من قولهم :

(217/367)

﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الملقين ﴾ ونحو ذلك ﴿ أَلْقُواْ مَا أَنتُمْ مُّلْقُونَ ﴾ أي ملقون له كائناً ما كان من أصناف السحر ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ ﴾ ما ألقَوْا من العِصِيّ والحبالِ واسترهبوا الناسَ وجاؤوا بسحر عظيم ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ موسى ﴾ غيرَ مكترثٍ بهم وبما صنعوا ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السحر ﴾ ما موصولةٌ وقعت مبتدأ والسحرُ خبرُه أي هو السحرُ لا ما سماه فرعونُ وقومه من آيات الله سبحانه أو هو من جنس السحرِ يُريهم أن حالَه بيّن لا يُعبأ به كأنه قال : ما جئتم به مما لا ينبغي أن يجاء به ، وقرىء أالسحر على الاستفهام فما استفهاميةٌ أي أيُّ شيء جئتم به أهو السحرُ الذي يعرِف حالَه كلُّ أحدٍ ولا يتصدى له عاقلٌ ؟ وقرىء ما جئتم به سحرٌ وقرىء ما أتيتم به سحرٌ ودلالتُهما على المعنى الثاني في القراءة المشهورة أظهرُ ﴿ إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ ﴾ أي سيمحقه بالكلية بما يُظهره على

يدي من المعجزة فلا يبقى له أثرٌ أصلاً أو سيظهر بطلانُه للناس والسين للتأكيد ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدين ﴾ أي عملَ جنسِ المفسدين على الإطلاق فيدخل فيه السحرُ دخولاً أولياً أو عملُكم فيكون من باب وضعِ المظهرِ موضعَ المضمرِ للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعارِ بعلة الحكم ، وليس المرادُ بعدم إصلاحِ عملِهم عدمَ جعل فسادِهم صلاحاً بل عدمَ إثباتِه وإتمامِه أي لا يُثبته ولا يُكمله ولا يُديمه بل يمحقه ويُهلكه ويسلّط عليه الدمارَ ، والجملةُ تعليلٌ لما سبق من قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾ والكلُّ اعتراضٌ تذييليٌّ وفيه دليلٌ على أن السحر إفسادٌ وتمويهٌ لا حقيقةٌ له .

(218/367)

﴿ وَيُحِقُّ اللهُ الحق ﴾ عطفٌ على قوله : سيبطله أي يثبته ويقوّيه ، وإظهارُ الاسم الجليلِ في المقامين الأخيرين لإلقاء الروعةِ وتربيةِ المهابةِ ﴿ بكلماته ﴾ بأوامره وقضاياه وقرىء بكلمته ﴿ وَلَوْ كَرِهَ المجرمون ﴾ ذلك والمرادُ بهم كلُّ من اتصف بالإجرام من السحَرة وغيرِهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(219/367)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾

أسند الفعل إليه وحده لأن الأمر من وظائفه دون الملأ وهذا بخلاف الأفعال السابقة من الاستكبار ونحوه فإنها مما تسند إليه وإلى ملئه ، لكن الظاهر أنه غير داخل في القائلين ﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ﴾ [يونس : 78] لأنه عليه اللعنة لم يكن يظهر عبادة أحد كما كان يفعله ملؤه وسائر قومه ، أي قال لملئه يأمرهم بترتيب مبادي الالزام بالفعل بعد اليأس عن الالزام بالقول ﴿ ائتونى بِكُلّ ساحر عَلِيمٍ ﴾ بفنون السحر حاذق ماهر فيه .

وقرأ حمزة .

والكسائي ﴿ ساحر ﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَاء السحرة ﴾ عطف على مقدر يستدعيه المقام قد حذف إيذاناً بسرعة امتثالهم لومر كما هو شأن الفاء الفصيحة ، وقد نص على نظير ذلك في قوله سبحانه : ﴿ فَقُلْنَا اضرب بّعَصَاكَ الحجر فانفجرت ﴾ [البقرة : 60] أي فأتوا به فلما جاؤوا ﴿ قَالَ لَهُمْ موسى أَلْقُواْ مَا أَنتُمْ مُّلْقُونَ ﴾ أي ما ثبتم واستقر رأيكم على إلقائه كائناً ما كان من أصنف السحر ، وأصل الالقاء طرح الشيء حيث تلقاه أي تراه ثم صار في العرف أسماً لكل طرح ، وكان هذا القول منه عليه السلام بعد ما قالوا له ما حكى عنهم في السور الأخر

من قولهم : ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الملقين ﴾ [الأعراف : 115] ونحو ذلك ولم يكن في إبتداء مجيئهم ، و ﴿ مَا ﴾ موصولة والجملة بعدها صلة والعائد محذوف أي ملقون إياه ، ولا يخفى ما في الإبهام من التحقير والاشعار بعدم المبالاة ، والمراد أمرهم بتقديم ما صمموا على فعله ليظهر إبطاله وليس المراد الأمر بالسحر والرضا به .

(220/367)

﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ ﴾ ما ألقوا من العصى والحبال واسترهبوا الناس وجاؤوا بسحر عظيم ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ موسى ﴾ غير مكترث بهم وبما صنعوا ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السحر ﴾ ﴿ مَا ﴾ موصولة وقعت مبتدأ و ﴿ السحر ﴾ خبر وأل فيه للجنس والتعريف لإفادة القصر إفراداً أي الذي جئتم به هو السحر لا الذي سماه فرعون وملؤه من آيات الله تعالى سحراً وهو للجنس ، ونقل عن الفراء أن أل للعهد ، لتقدم السحر في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لساحر ﴾ [يونس : 76] ورد بأن شرط كونها للعهد اتحاد المتقدم والمتأخر ذاتاً كما في ﴿ أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً فعصى فِرْعَوْنُ الرسول ﴾ [المزمل : 15 ، 16] ولا اتحاد فيما نحن فيه فإن السحر المتقدم ما جاء به موسى عليه السلام وهذا ما جاء به السحرة . ومن الناس من منع اشتراط الاتحاد الذاتي مدعياً أن الاتحاد في الجنس كاف فقد قالوا في

قوله تعالى : ﴿ والسلام على ﴾ [مريم : 33] إن أل للعهد مع أن السلام الواقع على عيسى عليه السلام غير السلام الواقع على يحيى عليه السلام ذاتاً ، والظاهر اشتراط ذلك وعدم كفاية الاتحاد في الجنس وإلا لصح في رأيت رجلاً وأكرمت الرجل إذا كان الأول زيداً والثاني عمراً مثلاً أن يقال : إن أل للعه ، لأن الاتحاد في الجنس ظاهر ولم نجد من يقوله بل لا أظن أحداً تحدثه نفسه بذلك وما في الآية من هذا القبيل بل المغايرة بين المتقدم والمتأخر أظهر إذ الأول سحر ادعائي والثاني حقيقي ، و ﴿ السلام ﴾ فيما نقوا متحد وتعدد من وقع عليه لا يجعله متعدداً في العرف والتدقيق الفلسفي لا يلتفت إليه في مثل ذلك .

وقد ذكر بعض المحققين أن القول يكون التعريف للعهد مع دعوى استفادة القصر منه مما يتنافيان لأن القصر إنما يكون إذا كان التعريف للجنس .

(221/367)

نعم إذا لم يرد بالنكرة المذكورة أولاً معين ثم عرفت لا ينافي التعريف الجنسية لأن النكرة تساوي تعريف الجنس فحينئذ لا ينافي تعريف العهد القصر وان كان كلامهم يخالفه ظاهراً فليحرر انتهى .

وأقول : دعوى الفراء العهد هنا مما لا ينبغي أن يلتفت إليه ، ولعله أراد الجنس وأن عبر

بالعهد بناء على ما ذكره الجلال السيوطي في همع الهوامع نقلاً عن ابن عصفور أنه قال : لا يبعد عندي أن يسمى الألف واللام اللتان لتعريف الجنس عهديتين لأن الأجناس عند العقلاء معلومة مذ فهموها والعهد تقدم المعرفة .

وادعى أبو الحجاج يوسف بن معزوز أن أل لا تكون إلا عهدية وتأوله بنحو ما ذكر إلا أن ظاهر التعليل لا يساعد ذلك .

وقرأ عبد الله ﴿ ساحر ﴾ بالتنكير ، وأبى ﴿ مَّا ءاتَيْتُم بِهِ ساحر ﴾ والكلام على ذلك مفيد للقصر أيضاً لكن بواسطة التعريض لوقوعه في مقابلة قولهم :

﴿ إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس : 76] وجوز في ﴿ مَا ﴾ في جميع هذا القراآت أن تكون استفهامية و﴿ السحر ﴾ خبر مبتدأ محذوف .

وقرأ أبو عمرو .

وأبو جعفر ﴿ السحر ﴾ بقطع الألف ومدها على الاستفهام فما استفهامية مرفوعة على الابتداء و﴿ جِئْتُمْ بِهِ ﴾ خبرها و﴿ السحر ﴾ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف ، أي شيء جسيم جئتم به أهو السحر أو السحر هو ، وقد يجعل السحر بدلاً من ﴿ مَا ﴾ كما تقول ما عندك أدينار أم درهم ، وقد تجعل ﴿ مَا ﴾ نصباً بفعل محذوف يقدر بعدها أي أي شيء أتيتم به و﴿ جِئْتُمْ بِهِ ﴾ مفسر له وفي ﴿ السحر ﴾ الوجهان الأولان .

وجوز أن تكون موصولة مبتدأ والجملة الاسمية أي أهو السحر أو السحر هو خبره ، وفيه الأخبار بالجملة الإنشائية ، ولا يجوز أن تكون على هذا التقدير منصوبة بفعل محذوف يفسره المذكور لأن ما لا يعمل لا يفسر عاملاً .

(222/367)

﴿ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾ أي سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدي من المعجزة فلا يبقى له أثر أصلاً أو سيظهر بطلانه وفساده للناس ، والسين للتأكيد ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدين ﴾ أي جنسهم على الإطلاق فيدخل فيه السحرة دخولاً أولياً ، ويجوز أن يراد بالمفسدين المخاطبون فيكون من وضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل عليهم بالافساد والاشعار بعلة الحكم ، والجملة تذييل لتعليل ما قبلها وتأكيده ، والمراد بعدم إصلاح ذلك عدم إثباته أو عدم تقويته بالتأييد الإلهي لا عدم جعل الفاسد صالحاً لظهور أن ذلك مما لا يكون أي أنه سبحانه لا يثبت عمل المفسدين ولا يديمه بل يزيله ويمحقه أو لا يقويه ولا يؤيده بل يظهر بطلانه ويجعله معلوماً .

واستدل بالآية على أن السحر إفساد وتمويه لا حقيقة له .

وأنت تعلم أن في اطلاق القول بأن السحر لا حقيقة له بحثاً ، والحق أن منه ما له حقيقة ومنه

ما هو تخيل باطل ويسمى شعبذة وشعوذة .

﴿ وَيُحِقُّ اللهُ الحق ﴾ أي يثبته ويقويه وهو عطف على قوله سبحانه : ﴿ سَيُبْطِلُهُ ﴾ [يونس : 81] وإظهار الاسم الجليل في المقامين لإلقاء الروعة وتربية المهابة ﴿ بكلماته ﴾ أي بأوامره وقضاياه ، وعن الحسن أي بوعده النصر لمن جاء به وهو سبحانه لا يخلف ذلك ، وعن الجبائي أي بما ينزله مبيناً لمعاني الآيات التي أتى بها نبيه عليه السلام .

وقرىء ﴿ بكلماته ﴾ وفسرت بالأمر واحد الأوامر حسبما فسرت الكلمات بالأوامر وأريد منها الجنس فيتطابق القراءتان ، وقيل : يحتمل أن يراد بها قول كن وأن يراد بها الأمر واحد الأمور ويراد بالكلمات الأمور والشؤون ﴿ وَلَوْ كَرِهَ المجرمون ﴾ ذلك ، والمراد بهم كل من اتصف بالإجرام من السحرة وغيرهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(223/367)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾

جملة : ﴿ وقال فرعون ﴾ عطف على جملة : ﴿ قالوا إنّ هذا لسحر مبين ﴾ [يونس :

76] ، فهذه الجملة في حكم جواب ثان لحرف (لَما) حكي أولاً ما تلقَّى به فرعون وملؤُه دعوة موسى ومعجزتَه من منع أن يكون ما جاء به تأييداً من عند الله .

ثم حُكي ثانياً ما تلقى به فرعون خاصةً تلك الدعوةَ من محاولة تأييد قولهم : ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ [يونس : 76] ليثبتوا أنهم قادرون على الإتيان بمثلها مما تَحصيل أسبابه من خصائص فرعون ، لما فيه من الأمر لخاصة الأمة بالاستعداد لإبطال ما يخشى منه .

والمخاطب بقوله : ﴿ إيتوني ﴾ هم ملأ فرعون وخاصتُه الذين بيدهم تنفيذ أمره .

وأمر بإحضار جميع السحرة المتمكنين في علم السحر لأنهم أبصر بدقائقه ، وأقدر على إظهار ما يفوق خوارق موسى في زعمه ، فحضورهم مغن عن حضور السحرة الضعفاء في علم السحر لأن عملهم مظنة أن لا يوازي ما أظهره موسى من المعجزة فإذا أتوا بما هو دون معجزة موسى كان ذلك مروجاً لدعوة موسى بين دهماء الأمة .

والعموم في قوله : ﴿ بكل ساحر عليم ﴾ عموم عرفي ، أي بكل ساحر تعلمونه وتظفرون به ، أو أريد ﴿ بكل ﴾ معنى الكثرة ، كما تقدم في قوله : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكلّ آية ﴾ في سورة [البقرة : 45] .

وجملة : ﴿ فلما جاء السحرة ﴾ عطف على جملة : ﴿ وقال فرعون ﴾ ، عُطف مجيء السحرة وقول موسى لهم على جملة ﴿ قال فرعون ﴾ بفاء التعقيب للدلالة على الفور في إحضارهم وهو تعقيب بحسب المتعارف في الإسراع بِمثل الشيء المأمور به ،

والمعطوف في المعنى محذوف لأن الذي يعقُب قوله : ﴿ ائتوني بكل ساحر ﴾ هو إتيانهم بهم ، ولكن ذلك لقلة جدواه في الغرض الذي سيقت القصة لأجله حذف استغناء عنه بما يقتضيه ويدل عليه دلالة عقلية ولفظية من قوله : ﴿ جاء السحرة ﴾ على طريقة الإيجاز .

والتقدير : فأتوه بهم فلما جاءوا قال لهم موسى .

(224/367)

والتعريف في ﴿ السحرة ﴾ تعريف العهد الذكري .

وإنما أمرهم موسى بأن يبتدئوا بإلقاء سحرهم إظهاراً لقوة حجته لأن شأن المبتدىء بالعمل المتباري فيه أن يكون أمكن في ذلك العمل من مباريه ، ولا سيما الأعمال التي قوامها التمويه والترهيب ، والتي يتطلَّب المستنصر فيها السبق إلى تأثر الحاضرين وإعجابهم ، وقد ذكر القرآن في آيات أخرى أن السحرة خَيَّروا موسى بين أن يبتديء هو بإظهار معجزته وبين أن يبتدئوا ، وأن موسى اختار أن يكونوا المبتدئين .

وفعل الأمر في قوله : ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ مستعمل في التسوية المرادِ منها الاختيار وإظهار قلة الاكتراث بأحد الأمرين .

والإلقاء : رمي شيء في اليد إلى الأرض .

وإطلاق الإلقاء على عمل السحر لأن أكثر تصاريف السحرة في أعمالهم السحرية يكون برمي أشياء إلى الأرض .

وقد ورد في آيات كثيرة أنهم ألقوا حبالهم وعصيهم ، وأنها يخيَّل من سحرهم أنها تسعى ، وكان منتهى أعمال الساحر أن يخيل الجماد حياً .

و﴿ ما أنتم ملقون ﴾ قصد به التعميم البدلي ، أيّ شيء تلقونه ، وهذا زيادة في إظهار عدم الاكتراث بمبلغ سحرهم ، وتهيئة للملأ الحاضرين أن يعلموا أن الله مبطل سحرهم على يد رسوله .

ولا يشكل أن يأمرهم موسى بإلقاء السحر بأنه أمر بمعصية لأن القوم كانوا كافرين والكافر غير مخاطب بالشرائع الإلهية ، ولأن المقصود من الأمر بإلقائه إظهار بطلانه فذلك بمنزلة تقرير شبهة الملحد ممن يتصدى لإبطالها بعد تقريرها مثل طريقة عضد الدين الأيجي في كتابه "المواقف" .

(225/367)

وقد طوي ذكر صورة سحرهم في هذه الآية ، لأن الغرض من العبرة في هذه الآية وصف إصرار فرعون وملئه على الإعراض عن الدعوة ، وما لقيه المستضعفون الذين آمنوا بموسى عليه السلام من اعتلاء فرعون عليهم وكيف نصر الله رسوله والمستضعفين معه ، وكيف كانت لهم العاقبة الحسنى ولمن كفروا عاقبة السوء ، ليكونوا مثلاً للمكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم ولذلك لم يعرّج بالذّكر إلا على مقالة موسى عليه السلام حين رأى سحرهم الدالة على يقينه بربّه ووعده ، وبأن العاقبة للحق .

وذلك أهم في هذا المقام من ذكر اندحاض سحرهم تجاه معجزة موسى عليه السلام ، ولأجل هذا لم يذكر مفعول ﴿ ألقوا ﴾ لتنزيل فعل ﴿ ألقوا ﴾ منزلة اللازم ، لعدم تعلق الغرض ببيان مفعوله .

ومعنى ﴿ جئتم به ﴾ أظهرتموه لنا ، فالمجيء قد استعمل مجازاً في الإظهار ، لأن الذي يجيء بالشيء يظهره في المكان الذي جاءه ، فالملازمة عرفية .

وليس المراد أنهم جاؤوا من بقاع أخرى مصاحبين للسحر ، لأنه وإن كان كثير من السحرة أو كلِّهم قد أقبلوا من مدن عديدة ، غير أن ذلك التقدير لا يطرد في كل ما يعبر فيه بنحو : جاء بكذا ، فإنه وإن استقام في نحو ﴿ وجاءوا على قميصه بدَم كذب ﴾ [يوسف : 18] لا يستقيم في نحو ﴿ إنّ الذين جَاءوا بالإفك ﴾ [النور : 11] .

ونظم الكلام على هذا الأسلوب بجَعْلِ ﴿ ما جئتم ﴾ مسنداً إليه دون أن يجعل مفعولاً

لفعلِ ﴿ سيبطله ﴾ ، وبجَعْله اسماً مُبهماً ، ثُم تفسيره بجملة ﴿ جئتم به ﴾ ثم بيانه بعطف البيان لقصد الاهتمام بذكره والتشويق إلى معرفة الخبر ، وهو جملة ﴿ إن الله سيبطله ﴾ ثم مَجيء ضمير السحر مفعولاً لفعل ﴿ سيبطله ﴾ ، كل ذلك إطناب وتخريج على خلاف مقتضى الظاهر ، ليتقرر الإخبار بثبوت حقيقة في السحر له ويتمكَّن في أذهان السامعين فَضل تمكن ويقع الرعب في نفوسهم .

(226/367)

وقوله : ﴿ السحر ﴾ قرأه الجمهور بهمزة وصل في أوله هي همزة (ال) ، فتكون (ما) في قوله : ﴿ ما جئتم به ﴾ اسم موصول ، والسحرُ عطفَ بيان لاسم الموصول .

وقرأه أبو عمرو ، وأبو جعفر ﴿ آلسحر ﴾ بهمزة استفهام في أوله وبالمد لتسهيل الهمزة الثانية ، فتكون (ما) في قوله : ﴿ ما جئتم به ﴾ استفهامية ويكون (آلسحرَ) استفهاماً مبيناً لِ (ما) الاستفهامية .

وهو مستعم في التحقير .

والمعنى : أنه أمر هين يستطيعه ناس كثيرون .

و ﴿ إن الله سيبطله ﴾ خبر (ما) الموصولة على قراءة الجمهور ، واستئناف بياني على

قراءة أبي عمرو ومن وافقه وتأكيد الخبر بـ (إن) زيادة في إلقاء الرّوع في نفوسهم .

وإبطاله : إظهار أنه تخييل ليس بحقيقة ، لأن إظهار ذلك إبطال لما أريد منه ، أي أن الله سيبطل تأثيره على الناس بفضح سره ، وأشارت علامة الاستقبال إلى قرب إبطاله ، وقد حصل ذلك العلم لموسى عليه السلام بطريق الوحي الخاص في تلك القضية ، أو العام باندراجه تحت قاعدة كلية ، وهي مدلول ﴿ إن الله لا يصلح عملَ المفسدين ﴾ .

فجملة : ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ معترضة ، وهي تعليل لمضمون جملة ﴿ إن الله سيبطله ﴾ ، وتذييل للكلام بما فيه نفي الإصلاح .

وتعريف ﴿ المفسدين ﴾ بلام الجنس ، من التعميم في جنس الإصلاح المنفي وجنس المفسدين ليُعلم أن سحرهم هو من قبيل عمل المفسدين ، وإضافة ﴿ عمل ﴾ إلى ﴿ المفسدين ﴾ يؤذن بأنه عمل فاسد ، لأنه فعل مَنْ شأنُهم الإفساد فيكون نسجاً على منوالهم وسيرة على معتادهم ، والمراد بإصلاح عمل المفسدين الذي نفاه أنه لا يؤيده .

وليس المراد نفي تصييره صالحاً ، لأن ماهية الإفساد لا تقبل أن تصير صلاحاً حتى ينفى تصييرها كذلك عن الله ، وإنما إصلاحها هو إعطاؤها الصلاح ، فإذا نفى الله إصلاحها فذلك بتركها وشأنَها ، ومن شأن الفساد أن يتضاءل مع الزمان حتى يضمحل .

ولما قدم قوله : ﴿ إن الله سيبطله ﴾ عُلم أن المراد من نفي إصلاحه تسليط أسباب بطلانه عليه حتى يبطل تأثيره ، وأن عدم إصلاح أعمال أمثالهم هو إبطال أغراضهم منها كقوله تعالى : ﴿ ويُبطلَ الباطلَ ﴾ [الأنفال : 8] أي يظهرَ بطلانه .

وإنما كان السحرة مفسدين لأن قصدهم تضليل عقول الناس ليكونوا مسخرين لهم ولا يعلموا أسباب الأشياء فيبقوا عالة فيما تأمرهم السحرة ، ولا يهتدوا إلى إصلاح أنفسهم سبيلاً .

أما السحرة الذين خاطبهم موسى عليه السلام فإفسادهم أظهر لأنهم يحاولون إبطال دعوة الحق والدين القويم وترويج الشرك والضلالات .

وجملة : ﴿ ويُحق الله الحق ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ إن الله سيبطله ﴾ أي سيبطله ويحق الحق ، أي يثبت المعجزة .

والإحقاق : التثبيت .

ومنه سمِّي الحق حقاً لأنه الثابت .

وإظهار اسم الجلالة في هذه الجملة مع أن مقتضى الظاهر الإضمار لقصد تربية المهابة في نفوسهم .

والباء في ﴿ بكلماته ﴾ للسببية .

والكلمات : مستعارة لتعلق قدرته تعالى بالإيجاد وهو التعلق المعبر عنه بالتكوين الجاري على وفق إرادته وعلى وفق علمه .

وهي استعارة رشيقة ، لأن ذلك التعلق يشبه الكلام في أنه ينشأ عنه إدراك معنى ويدل على إرادة المتكلم ، وعلى علمه .

وجملة : ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ في موضع الحال ، و (لو) وصلية ، وهي تقتضي أن الحالة التي بعدها غاية فيما يُظن فيه تخلف حكم ما قبلها ، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ ولو افتدى به ﴾ في سورة [آل عمران : 91] ، فيكون غير ذلك من الأحوال أجدر وأولى بتحقيق الحكم السابق معه .

وإنما كانت كراهية المجرمين إحقاق الحق غاية لما يظن فيه تخلف الإحقاق لأن تلك الكراهية من شأنها أن تبعثهم على معارضة الحق الذي يسوءهم ومحاولة دحضه وهم جماعة أقوياء يصعب عليهم الصعب فأعلمهم أن الله خاذلهم .

وأراد (بالمجرمين) فرعون وملأه فعدل عن ضمير الخطاب إلى الاسم الظاهر لما فيه من وصفهم بالإجرام تعريضاً بهم .

وإنما لم يخاطبهم بصفة الإجرام بأن يقول : وإن كرهتم أيها المجرمون عدولاً عن مواجهتهم بالذم ، وقوفاً عند أمر الله تعالى إذ قال له : ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ [طه : 44] فأتى بالقضية في صورة قضية كلية وهو يريد أنهم من جزئياتها بدون تصريح بذلك .

وهذا بخلاف مقام النبي محمد صلى الله عليه وسلم إذ قال الله له : ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ [الزمر : 64] لأن ذلك كان بعد تكرير دعوتهم ، وموسى عليه السلام كان في ابتداء الدعوة .

ولأن المشركين كانوا محاولين من النبي أن يعبد آلهتهم ، فكان في مقام الإنكار بأبلغ الرد عليهم ، وموسى كان محاولاً فرعونَ وملأه أن يؤمنوا ، فكان في مقام الترغيب باللين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(229/367)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (79) ﴾

وكان فرعون يعلم تقدُّم السحرة في دولته ، ويكفي أنه شخصياً خَيَّل للناس أنه إله ، وجاء أمره أن يأتي أعوانه بالسحرة ، وفور أن قال الأمر جيء بالسحرة .

وأورد الحق سبحانه في الآية التي بعد ذلك . ﴿ فَلَمَّا جَآءَ السحرة ﴾

وكأن المسافة بين نطق فرعون بالأمر وبين تنفيذ الأمر هي أضيق مسافة وقتية ، وذلك حتى نفهم أن أمر صاحب السلطان لا يحتمل من الناس التأجيل أو التباطؤ في التنفيذ .

والقرآن حينما يعالج أمراً من الأمور فهو يعطي صورة دقيقة للواقع ، ولا يأتي بأشياء تفسد الصورة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَآءَ السحرة قَالَ لَهُمْ موسى أَلْقُواْ مَآ أَنتُمْ مُّلْقُونَ ﴾ [يونس : 80] .

وفي هذه الآية تلخيص للموقف كله ، فحين علم السحرة أن فرعون يحتاجهم في ورطة تتعلق بالحكم ، فهذه مسألة صعبة وقاسية ، وعليهم أن يسرعوا إليه .

ولم يأت الحق سبحانه هنا بالتفصيل الكامل لذلك الموقف ؛ لأن القصة تأتي بنقاطها المختلفة في مواضع أخرى من القرآن ، وكل آية توضح النقطة التي تأتي بذكرها .

لذلك لم يقل الحق سبحانه هنا : إن أعوان فرعون نادوا في المدائن ليأتي السحرة ، مثلما جاء في مواضع أخرى من القرآن .

ولم يقل لنا إن السحرة أرادوا أن يستفيدوا من هذه المسألة ، وقالوا للفرعون :

﴿ إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين ﴾ [الأعراف : 113] .

ووَضْع مثل هذا الشرط يوضح لنا طبيعة العلاقات في ذلك المجتمع ، فطلبهم للأجر ، يعني

أن عملهم مع الفرعون من قبل ذلك كان تسخيراً وبدون أجر ، ولما جاءتهم الفرصة ورأوا الفرعون في ازمة ؛ طالبوا بالأجر .

(230/367)

ووعدهم فرعون بالأجر ، وكذلك وعدهم أن يكونوا مقرَّبين ؛ لأنهم لو انتصروا بالسحر على معجزة موسى ؛ ففي ذلك العمل محافظة وصيانة للمُلْك ، ولا بد أن يصبحوا من البطانة المستفيدة ، ووعدهم الفرعون بذلك شحذاً لهمتهم ليبادروا بإبطال معجزة موسى ؛ ليستقر عرش الفرعون .

وشاء الحق سبحانه الإجمال هنا في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها وجاء ببقية اللقطات في المواضع الأخرى من القرآن .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَآءَ السحرة قَالَ لَهُمْ موسى أَلْقُواْ مَا أَنتُمْ مُّلْقُونَ ﴾ [يونس : 80] .

وألقى السحرة عِصيَّهم وحبالهم .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ موسى مَا جِئْتُمْ بِهِ السحر ﴾

ونحن نعلم أن الحق سبحانه هنا شاء الإجمال ، ولكنه بيَّن بالتفصيل ما حدث ، في آية

أخرى ، قال فيها سبحانه عن السحرة :

﴿ قَالُواْ يا موسى إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ الملقين ﴾ [الأعراف : 115] .

ونحن نعلم أن المواجهة تقتضي من كل خصم أن يدخل بالرعب على خصمه ؛ ليضعف معنوياته .

وهنا أوضح لهم موسى عليه السلام أن ما أتوا به هو سحر ومجرد تخييل .

وقد أعلم الحق سبحانه نبيه موسى عليه السلام أن عصاه ستصير حية حقيقية ، بينما ستكون عصيهم وحبالهم مجرد تخييل للعيون .

وقال لهم موسى عليه السلام حكم الله تعالى في ذلك التخييل :

﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السحر إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ إِنَّ الله لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدين ﴾ [يونس : 81]

.

(231/367)

وهكذا جاء القول الفصل الذي أنهى الأمر وأصدر الحكم فيما فعل فرعون ومَلَؤُه والسحرة ، فكل أعمالهم كانت تفسد في الأرض ، ولولا ذلك لما بعث الله سبحانه إليهم رسولاً مؤيَّداً بمعجزة من صنف ما برعوا فيه ، فهم كانوا قد برعوا في السحر ، فأرسل إليهم

الحق سبحانه معجزة حقيقية تلتهم ما صنعوا ، فإن كانوا قد برعوا في التخييل ، فالله سبحانه خلق الأكوان بكلمة "كُنْ" وهو سبحانه يخلق حقائق لا تخييلات .

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَيُحِقُّ اللهُ الحق بِكَلِمَاتِهِ ﴾

فالمسألة التي يشاؤها سبحانه تتحقق بكلمة "كن" فيكون الشيء .

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] .

و"كن فيكون" عبارة طويلة بعض الشيء عند وقوع المطلوب ، ولكن لا توجد عبارة أقصر منها عند البشر ؛ لأن الكاف والنون لهما زمن ، وما يشاؤه الله سبحانه لا يحتاج منه إلى زمن ، والمراد من الأمر "كن" أن الشيء يوجد قبل كلمة "كن" ؛ لأن كل موجود إنما يتحقق ويبرز بإرادة الله تعالى .

ويريد الحق سبحانه هنا أن يبيِّن لنا أن الحق إنما يأتي على ألسنة الرسل ، ومعجزاتهم دليل على رسالتهم ؛ ليضع أنوف المجرمين في الرَّغام ، وليريح العالم من إضلالهم ومن مفاسدهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(232/367)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (78) ﴾

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ لتلفتنا ﴾ قال : لتلوينا .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه ﴿ لتلفتنا ﴾ قال : لتصدنا عن آلهتنا .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وتكون لكما الكبرياء في الأرض ﴾ قال : العظمة والملك والسلطان .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبي سليم رضي الله عنه قال : بلغني أن هذه الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى ، يقرأ في إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور الآية التي في يونس ﴿ فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله ﴾ إلى قوله ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ وقوله ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾ [الأعراف : 118] إلى آخر أربع آيات وقوله ﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ [طه : 69] .

وأخرج ابن المنذر عن هرون رضي الله عنه قال : في حرف أبي بن كعب " ما أتيتم به سحر " وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه " ما جئتم به سحر " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(233/367)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (79) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ بِكُلِّ سَاحِرٍ ﴾ : قرأ الأخَوان " سَحَّار " وهي قراءةُ ابنِ مُصَرِّف وابن وثاب وعيسى بن عمر .

﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السحر ﴾ : قرأ أبو عمرو وحده دون باقي السبعة " آلسحرُ " بهمزة الاستفهام ، وبعدها ألف محضةٌ ، وهي بدل عن همزة الوصلِ الداخلةِ على لام التعريف ، ويجوز أن تُسَهَّل بينَ بينَ ، وقد تقدَّم تحقيق هذين الوجهين في قوله : ﴿ ءَآلذَّكَرَيْنِ

﴿ [الأنعام : 143] وهي قراءةُ مجاهدٍ وأصحابه وأبي جعفر . وقرأ باقي السبعة بهمزةِ وصلٍ تَسْقط في الدَّرْج . فأمَّا قراءة أبي عمرو ففيها أوجهٌ ، أحدها : أنَّ " ما " استفهاميةٌ في محلِّ رفعٍ بالابتداء ، و " جِئْتُمْ به " الخبرُ ، والتقديرُ : أيُّ شيءٍ جئتم ، كأنه استفهامُ إنكارٍ وتقليلٌ للشيءِ المُجَاء به . و " السحر " بدلٌ من اسم الاستفهام ، ولذلك أُعِيد معه أداتُه لما قرَّرْتُه في كتب النحو . الثاني : أن يكون " السحر " مبتدأً خبرُه محذوف ، تقديره : أهو السحر . الثالث : أن يكونَ مبتدأً محذوفَ الخبر تقديره : السحر هو . ذكر هذين الوجهين أبو البقاء ، وذكر الثاني مكي ، وفيهما بُعد . الرابع : أن تكونَ " ما " موصولةً بمعنى الذي ، وجئتم به صلتُها ، والموصولُ في محلِّ رفعٍ بالابتداء ، و " السحر " على وجهيه من كونِه خبرَ مبتدأ محذوف ، أو مبتدأً محذوفَ الخبر ، تقديره : الذي جئتم به/ أهو السحر ، أو الذي جئتم به السحر هو ، وهذا الضميرُ هو الرابط كقولك : الذي جاءك أزيدٌ هو ، قاله الشيخ .

(234/367)

قلت : قد منع مكي أن تكونَ " ما " موصولةً على قراءة أبي عمرو فقال : " وقد قرأ أبو عمرو " آلسحرُ " بالمد ، فعلى هذه القراءةِ تكون " ما " استفهاماً مبتدأ ، و " جئتم به "

الخبر ، و " السحر " خبرُ ابتداء محذوف ، أي : أهو السحر ، ولا يجوزُ أن تكونَ " ما " بمعنى الذي على هذه القراءةِ إذا لا خبر لها " . قلت : ليس كما ذكر ، بل خبرُها الجملةُ المقدَّرُ أحدُ جُزْأيها ، وكذلك الزمخشري وأبو البقاء لم يُجيزا كونَها موصولةً إلا في قراءة غيرِ أبي عمرو ، لكنهما لم يتعرَّضا لعدمِ جوازه .

الخامس : أن تكونَ " ما " استفهاميةً في محلِّ نصب بفعل مقدرٍ بعدها لأنَّ لها صدرَ الكلام ، و " جئتم به " مفسِّر لذلك الفعل المقدر ، وتكون المسألةُ حينئذٍ من باب الاشتغال ، والتقدير : أيَّ شيءٍ أَتَيْتُمْ جئتم به ، و " السحر " على ما تقدم ، ولو قرىء بنصب " السحر " على أنه بدلٌ مِنْ " ما " بهذا التقديرِ لكان له وجه ، لكنه لم يُقرأ به فيما عَلِمْت ، وسيأتي ما حكاه مكي عن الفراء مِنْ جواز نصبِه لمَدْرَكٍ آخرَ على أنها قراءةٌ منقولة [عن الفرَّاء]

.

وأمَّا قراءةُ الباقين ففيها أوجهٌ أيضاً ، أحدها : أن تكون " ما " بمعنى الذي في محلِّ رفعٍ بالابتداء ، و " جئتم به " صلةٌ وعائدُه ، و " السحرُ " خبرُه ، والتقدير : الذي جئتم به السحرُ ، ويؤيِّد هذا التقديرَ قراءةُ أُبَيّ وما في مصحفه : ﴿ ما أتيتم به سحرٌ ﴾ وقراءةُ عبد الله والأعمش ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السحر ﴾ .

الثاني : أن تكونَ " ما " استفهاميةً في محلِّ نصبٍ بإضمارِ فعل على ما تقرَّر ، و " السحر " خبر ابتداء مضمر أو مبتدأٌ مضمرُ الخبر . الثالث : أن تكونَ " ما " في محلِّ رفعٍ بالابتداءِ ، و " السحر " على ما تقدَّم مِنْ كونِه مبتدأً أو خبراً ، والجملةُ خبر " ما " الاستفهامية . قال الشيخ بعد ما ذكر الوجه الأول : " ويجوز عندي أن تكونَ في هذا الوجهِ استفهاميةً في موضع رفع بالابتداء ، أو في موضع نصبٍ على الاشتغال ، وهو استفهامٌ على سبيل التحقيرِ والتقليلِ لما جاؤوا به ، و " السحر " خبرُ مبتدأ محذوفٍ ، أي : هو السحر " . قلت : ظاهرُ عبارتِه أنه لم يَرَه غيرُه ، حيث قال " عندي " ، وهذا قد جوَّزه أبو البقاء ومكي . قال أبو البقاء : لمَّا ذكر قراءة غير أبي عمرو " ويُقرأ بلفظِ الخبر ، وفيه وجهان " ، ثم قال : " ويجوزُ أن تكونَ " ما " استفهاماً ، و " السحر " خبر مبتدأ محذوف " . وقال مكي في قراءةِ غيرِ أبي عمرو بعد ذِكره كونَ " ما " بمعنى الذي : " ويجوز أن تكونَ " ما " رفعاً بالابتداء وهي استفهامُ ، و " جئتم به " الخبر ، و " السحر " خبرُ مبتدأ محذوف ، أي : هو السحر ، ويجوز أن تكونَ " ما " في موضعِ نصبٍ على إضمارِ فعلٍ بعد " ما " تقديرُه : أيُّ شيء جئتم [به] ، و " السحرُ " خبر ابتداء محذوف " .

الرابع : أن تكونَ هذه القراءةُ كقراءة أبي عمرو في المعنى ، أي : إنها على نيةِ الاستفهام ، ولكن حُذِفَتْ أداتُه للعلم بها ، قال أبو البقاء : " ويُقرأ بلفظِ الخبر ، وفيه وجهان ، أحدُهما : أنه استفهامٌ في المعنى أيضاً : وحُذِفَتْ الهمزةُ للعِلْم بها " ، وعلى هذا الذي ذكره يكونُ الإِعرابُ على ما تقدم . واعلم أنَّك إذا جَعَلْتَ " ما " موصولةً بمعنى الذي امتنع نصبُها بفعلٍ مقدرٍ على الاشتغال . قال مكي : " ولا يجوز أن تكونَ " ما " بمعنى الذي في موضعِ نصبٍ لأن ما بعدها صلتُها ، والصلةُ لا تعملُ في الموصول ، ولا يكون تفسيراً للعامل في الموصول " ، وهو كلامٌ صحيح ، فتلخَّص من هذا أنها إذا كانَتْ استفهاميةً جاز أن تكونَ في محل رفع أو نصب ، وإذا كانت موصولةً تعيَّن أن يكون مَحَلُّها الرفع بالابتداء .

وقال مكي : " وأجاز الفراءُ نصبَ " السحر " ، تجعل " ما " شرطاً ، وتنصِبُ " السحرَ " على المصدر ، وتضمرُ الفاء مع " إن الله سيُبْطِله " ، وتجعلُ الألفَ واللامَ في " السحر " زائدتين ، وذلك كلُّه بعيدٌ ، وقد أجاز علي ابن سليمان حَذْفَ الفاءِ من جواب الشرط في الكلام ، واستدلَّ على جوازه بقوله تعالى : / ﴿ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : 30] ، ولم يُجِزْه غيره إلا في ضرورة شعر " . قلت : وإذا مَشَيْنا مع الفراء فتكون " ما " شرطاً يُراد بها المصدرُ ، تقديره : أيَّ سحر جئتم به فإن الله سيبطله ، ويُبَيِّن أن " ما " يراد بها السحر قولُه : " السحر " ، ولكن يَقْلَقُ قولُه : " إن نصب

" السحر " على المصدرية " ، فيكون تأويله أنه منصوبٌ على المصدرِ الواقعِ موقعَ الحال ، ولذلك قدّره بالنكرة ، وجَعَلَ أل مزيدةً منه .

(237/367)

وقد نُقِلَ عن الفراء أن هذه الألف واللام للتعريف ، وهو تعريف العهد ، قال الفراء : " وإنما قال " السحر " بالألف واللام لأنَّ النكرةَ إذا أُعيدت أعيدَتْ بالألِفِ واللام " ، يعني أن النكرةَ قد تَقَدَّمَتْ في قوله : ﴿ إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ، وبهذا شَرَحَه ابنُ عطية . قال ابن عطية : " والتعريفُ هنا في " السحر " أَرْتَبُ لأنه قد تقدَّم منكَّراً في قولهم : " إنَّ هذا لسِحْر " ، فجاء هنا بلام العهد ، كما يقال أول الرسالة " سلامٌ عليك " . قال الشيخ : " وما ذكراه هنا في " السحر " ليس مِنْ تقدُّم النكرة ، ثم أخبر عنها بعد ذلك ، لأنَّ شَرْطَ هذا أن يكون المعرَّفُ بأل هو المنكَّرَ المتقدِّمَ ، ولا يكون غيره ، كقوله تعالى : ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً فعصى فِرْعَوْنُ الرسول ﴾ [المزمل : 15-16] ، وتقول : " زارني رجلٌ فأكرمت الرجل " لَمَّا كان إياه جاز أن يُؤْتى بضميره بَدَلَه ، فتقول : فأكرمتُه ، والسحرُ هنا ليس هو السحرَ الذي في قولهم : " إنَّ هذا لسحر " لأن الذي أخبروا عنه بأنه سحرٌ هو ما ظهر على يَدَي موسى من معجزة العصا والسحر الذي في قولِ موسى ، إنما هو سحرهم

الذي جاؤوا به ، فقد اختلف المدلولان ، إذ قالوا هم عن معجزة موسى ، وقال موسى عَمَّا جاؤوا به ، ولذلك لا يجوز أن يُؤْتى هنا بالضمير بدلَ السحر ، فيكونَ عائداً على قولهم : " لسِحْر " .

(238/367)

قلت : والجوابُ أن الفراء وابن عطية إنما أراد السحر المتقدمَ الذِّكر في اللفظ ، وإن كان الثاني هو غيرَ عينِ الأول في المعنى ، ولكن لَمَّا أُطْلِق عليهما لفظ " السحر " جاز أن يُقال ذلك ، ويدلُّ على هذا أنهم قالوا في قوله تعالى : ﴿ والسلام عَلَيَّ ﴾ [مريم : 33] : إن الألفَ واللام للعهد لتقدُّم ذكر السلام في قوله تعالى : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ ﴾ [مريم : 15] ، وإن كان السلامُ الواقعُ على عيسى هو غيرَ السلام الواقع على يحيى ، لاختصاص كلِّ سلام بصاحبه من حيث اختصاصُه به ، وهذا النقل المذكورُ عن الفراء في الألف واللام ينافي ما نَقَله عنه مكيٌّ فيهما ، اللهم إلا أن يُقال : يُحتمل أن يكونَ له مقالتان ، وليس ببعيدٍ فإنه كلما كَثُر العلمُ اتسعت المقالاتُ .

وقوله : ﴿ المفسدين ﴾ مِنْ وقوع الظاهرِ موقعَ ضمير المخاطب إذ الأصلُ : لا يُصلح عملَكم ، فأبرزهم في هذه الصفةِ الذَّميمةِ شهادةً عليهم بها .

﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82) ﴾

وقرىء " بكلمته " بالتوحيد ، وقد تقدَّم نظيرُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 248. 254 ﴾

(239/367)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيات

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (79) ﴾

لما استعان في استدفاع ما استقبله بغير الله لم يلبث إلا يسيراً حتى تَبَرَّأَ منهم وتَوَعدَّهم بقوله : لأفعلنَّ ولأصنعنَّ ، وكذلك قصارى كل حجة وولاية إذا كانت في غير الله فإنها تؤول إلى العداوة والبغضة ، قال تعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [الزخرف : 67] .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) ﴾

أَمَرَهُم أمراً يُظْهِرُ به بُطْلاَنَهم ليُدخل الحقَّ على ما أتوا به من التمويه ، فلذلك قال موسى عليه

السلام : " إن الله سيبطله " ؛ فلمَّا التقمت عصا موسى – جميع ما جاءوا به من حِبَالِهم وعِصِيِّهم – حين قَلَبَها اللَّهُ حيَّةً . . عَلِمُوا أنَّ اللَّهَ أبطل تلك الأعيان وأفناها .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

من جملة ما أَحقَّه أن السَّحَرَةَ كان عندهم أنهم يَنْصُرون فرعون ويجيبونه فكانوا يُقْسِمون بِعِزَّته حيث قالوا " بِعِزَّةِ فرعونَ إنا لنحن الغالبون " وقال الحقُّ – سبحانه : بعزتي إنكم لمغلوبون ، فكان على ما قال تعالى : دون ما قالوه ، وفي معناه قالوا :

كم رَمَتْني بِأَسْهُم صائباتٍ . . . وتَعَمَّدْتُها بِسَهْمٍ فطاشا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 110 . 111 ﴾

(240/367)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والستون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/368)

الجزء الثامن والستون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 83 ﴾ من سورة يونس عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 92 ﴾ من نفس السورة

(4/368)

قوله تعالى ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما حكى سبحانه أن موسى عليه السلام أبان ما أبان من بطلان السحر وكونه إفساداً ، فثبت ما أتى به لمخالفته له ، أخبر تعالى – تسلية للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفطماً عن طلب الإجابة للمقترحات – أنه ما تسبب عن ذلك في أول الأمر عقب إبطال سحرهم من غير مهلة إلا إيمان ناس ضعفاء غير كثير ، فقال تعالى : ﴿ فما آمن ﴾ أي متبعاً ﴿ لموسى ﴾ أي بسبب ما فعل ، ليعلم أن الآيات ليست سبباً للهداية إلا لمن أردنا ذلك منه ؛ وبين أن الصغار أسرع إلى القبول بقوله : ﴿ إلا ذرية ﴾ أي شبانهم هم أهل لأن تذر فيهم البركة ﴿ من قومه ﴾ أي قوم موسى الذين لهم القدرة على القيام في المحاولة لما يريدونه ، والظاهر أنهم كانوا أيتاماً وأكثرهم – كما قاله مجاهد ﴿ على خوف ﴾ أي عظيم ﴿ من فرعون وملئهم ﴾ أي أشراف قوم الذرية ؛ ولما كان إنكار الملأ إنما هو بسبب فرعون أن يسلبهم رئاستهم ، انحصر الخوف فيه فأشار إلى ذلك بوحدة الضمير فقال : ﴿ أن يفتنهم ﴾ وأتبعه ما يوضح عذرهم بقوله مؤكداً تنزيلاً لقريش منزلة من يكذب بعلو فرعون لتكذيبهم لأن ينصر عليهم الضعفاء من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلوهم :

﴿ وإن فرعون لعال ﴾ أي غالب قاهر متمكن بما فتناه به من طاعة الناس له ﴿ في الأرض ﴾ أي أرض مصر التي هي بكثرة ما فيها من المرافق كأنها جميع الأرض ﴿ وإنه لمن المسرفين ﴾ أي العريقين في مجاوزة الحدود بظاهره وباطنه ، وإذا ضممت هذه الآية إلى قوله تعالى :

(5/368)

﴿ وإن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ [غافر : 43] كان قياساً بديهياً منتجاً إنتاجاً صريحاً قطعياً أن فرعون من أصحاب النار ، تكذيباً لأهل الوحدة في قولهم : إنه آمن ، ليهونوا المعاصي عند الناس فيحلوا بذلك عقائد أهل الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 472 . 473 ﴾

(6/368)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾

واعلم أنه تعالى بين فيما تقدم ما كان من موسى عليه السلام من المعجزات العظيمة وما ظهر من تلقف العصا لكل ما أحضروه من آلات السحر ، ثم إنه تعالى بين أنهم مع مشاهدة المعجزات العظيمة ما آمن به منهم إلا ذرية من قومه ، وإنما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان يغتم بسبب إعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر ، فبين أن له في هذا الباب بسائر الأنبياء أسوة ، لأن الذي ظهر من موسى عليه السلام كان في الإعجاز في مرأى العين أعظم ، ومع ذلك فما آمن به منهم إلا ذرية .

واختلفوا في المراد بالذرية على وجوه : الأول : أن الذرية ههنا معناها تقليل العدد .

قال ابن عباس : لفظ الذرية يعبر به عن القوم على وجه التحقير والتصغير ، ولا سبيل إلى حمله على التقدير على وجه الإهانة في هذا الموضع فوجب حمله على التصغير بمعنى قلة العدد .

الثاني : قال بعضهم : المراد أولاد من دعاهم ، لأن الآباء استمروا على الكفر ، إما لأن قلوب الأولاد ألين أو دواعيهم على الثبات على الكفر أخف .

الثالث : أن الذرية قوم كان آباؤهم من قوم فرعون وأمهاتهم من بني إسرائيل .

الرابع : الذرية من آل فرعون آسية امرأة فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطتها .

وأما الضمير في قوله : ﴿ مِن قَوْمِهِ ﴾ فقد اختلفوا أن المراد من قوم موسى أو من قوم فرعون

، لأن ذكرهما جميعاً قد تقدم والأظهر أنه عائد إلى موسى ، لأنه أقرب المذكورين ولأنه نقل أن الذين آمنوا به كانوا من بني إسرائيل .

أما قوله : ﴿ على خَوْفٍ مّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ ففيه أبحاث :

البحث الأول : أن أولئك الذين آمنوا بموسى كانوا خائفين من فرعون جداً ، لأنه كان شديد البطش وكان قد أظهر العداوة مع موسى ، فإذا علم ميل القوم إلى موسى كان يبالغ في إيذائهم ، فلهذا السبب كانوا خائفين منه .

(7/368)

البحث الثاني : إنما قال : ﴿ وَمَلَئِهِمْ ﴾ مع أن فرعون واحد لوجوه : الأول : أنه قد يعبر عن الواحد بلفظ الجمع ، والمراد التعظيم قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ [الحجر : 9] الثاني : أن المراد بفرعون آل فرعون .

الثالث : أن هذا من باب حذف المضاف كأنه أريد بفرعون آل فرعون .

ثم قال : ﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ أي يصرفهم عن دينهم بتسليط أنواع البلاء عليهم .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الارض ﴾ أي لغالب فيها قاهر ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ المسرفين ﴾ قيل : المراد أنه كثير القتل كثير التعذيب لمن يخالفه في أمر من الأمور ، والغرض منه بيان

السبب في كون أولئك المؤمنين خائفين ، وقيل : إنما كان مسرفاً لأنه كان من أخس العبيد فادعى الإلهية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 115.116 ﴾

(8/368)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَمَا ءَآمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذِرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾

فيه أربعة أوجه :

أحدها : أن الذرية القليل ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنهم الغلمان من بني إسرائيل لأن فرعون كان يذبحهم فأسرعوا إلى الإيمان بموسى ، قاله زيد بن أسلم .

الثالث : أنهم أولاد الزمن قاله مجاهد .

الرابع : أنهم قوم أمهاتهم من بني إسرائيل وآباؤهم من القبط .

ويحتمل خامساً : أن ذرية قوم موسى نساؤهم وولدانهم .

﴿ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِمْ ﴾ يعني وعظمائهم وأشرافهم .

﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن يعذبهم ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن يكرههم على استدامة ما هم عليه .

﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أي متجبر ، قاله السدي .

الثاني : باغ طاغ ، قاله ابن إسحاق .

﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ يعني في بغيه وطغيانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(9/368)

وقال ابن عطية :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾

المعنى فما صدق موسى ، ولفظة ﴿ آمن ﴾ تتعدى بالباء ، وتتعدى باللام وفي ضمن المعنى الباء ، واختلف المتأولون في عود الضمير الذي في ﴿ قومه ﴾ فقالت فرقة : هو عائد على موسى ، وقالت فرقة هو عائد على ﴿ فرعون ﴾ ، فمن قال إن العود على موسى قال معنى الآية وصف حال موسى في أول مبعثه أنه لم يؤمن به إلا فتيان وشباب

أكثرهم أولو آباء كانوا تحت خوف من فرعون وملأ بني إسرائيل ، فالضمير في " الملأ " كعائد على " الذرية " وتكون الفاء على هذا التأويل عاطفة جملة على جملة لا مرتبة ، وقال بعض القائلين بعود الضمير على موسى : إن معنى الآية أن قوماً أدركهم موسى ولم يؤمنوا به وإنما آمن ذريتهم بعد هلاكهم لطول الزمان ، قاله مجاد والأعمش ، وهذا قول غير واضح ، وإذا آمن قوم بعد موت آبائهم فلا معنى لتخصيصهم باسم الذرية ، وأيضاً فما روي من أخبار بني إسرائيل لا يعطي هذا ، وهيئة قوله ﴿ فما آمن ﴾ يعطي تقليل المؤمنين به لأنه نفى الإيمان ثم أوجبه للبعض ولو كان الأكثر مؤمناً لأوجب الإيمان أولاً ثم نفاه عن الأقل ، وعلى هذا الوجه يترجح قول ابن عباس في الذرية إنه القليل لا أنه أراد أن لفظة الذرية هي بمعنى القليل كما ظن مكي وغيره ، وقالت فرقة إنما سماهم ذرية لأن أمهاتهم كانت من بني إسرائيل وآباؤهم من القبط ، فكان يقال لهم الذرية كما قيل لفرس اليمن الأبناء وهم الفرس المنتقلون مع وهرز بسعاية سيف بن ذي يزن ، والأمر بكماله في السير ، وقال السدي كانوا سبعين أهل بيت من قوم فرعون .

(10/368)

قال القاضي أبو محمد : ومما يضعف عود الضمير على " موسى " أن المعروف من أخبار بني إسرائيل أنهم كانوا قوماً قد تقدمت فيهم النبوات وكانوا في مدة فرعون قد نالهم ذل مفرط وقد رجوا كشفه على يد مولود يخرج فيهم يكون نبياً ، فلما جاءهم موسى عليه السلام أصفقوا عليه واتبعوه ولم يحفظ قط أن طائفة من بني إسرائيل كفرت به فكيف تعطي هذه الآية أن الأقل منهم كان الذي آمن ، فالذي يترجح بحسب هذا أن الضمير عائد على " فرعون " ويؤيد ذلك أيضاً ما تقدم من محاورة موسى ورده عليهم وتوبيخهم على قولهم هذا سحر ، فذكر الله ذلك عنهم ، ثم قال ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية ﴾ من قوم فرعون الذين هذه أقوالهم ، وروي في ذلك أنه آمنت زوجة فرعون وخازنه وامرأة خازنه وشباب من قومه ، قال ابن عباس ، والسحرة أيضاً فإنهم معدودون في قوم فرعون وتكون القصة على هذا التأويل بعد ظهور الآية والتعجيز بالعصا ، وتكون الفاء مرتبة للمعاني ، التي عطفت ، ويعود الضمير في ﴿ ملئهم ﴾ على " الذرية " ، ولاعتقاد الفراء وغيره عود الضمير على موسى تخبطوا في عود الضمير في ﴿ ملئهم ﴾ ، فقال بعضهم : ذكر فرعون وهو الملك يتضمن الجماعة والجنود ، كما تقول جاء الخليفة وسافر الملك وأنت تريد جيوشه معه ، وقال الفراء : المعنى على خوف من آل فرعون وملئهم وهو من باب ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] .

قال القاضي أبو محمد : وهذا التنظير غير جيد لأن إسقاط المضاف في قوله ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] هو سائغ بسبب ما يعقل من أن " اسأل القرية " لا تسأل ، ففي الظاهر دليل على ما أضمر ، وأما ها هنا فالخوف من فرعون متمكن لا يحتاج معه إلى إضمار ، إما أنه ربما احتج أن الضمير المجموع في ﴿ ملئهم ﴾ يقتضي ذلك والخوف إنما يكون من الأفعال والأحداث التي للجثة ولكن لكثرة استعماله ولقصد الإيجاز أضيف إلى الأشخاص ، وقوله ﴿ أن يفتنهم ﴾ بدل من ﴿ فرعون ﴾ وهو بدل الاشتمال ، ف ﴿ أن ﴾ في موضع خفض ، ويصح أن تكون في موضع نصب على المفعول من أجله ، وقرأ الحسن والجراح ، ونبيح " أن يُفتنهم " بضم الياء ، ثم أخبر عن فرعون بالعلو في الأرض والإسراف في الأفعال والقتل والدعاوى ليتبين عذر الخائفين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(12/368)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَمَآ آمَنَ لموسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾

الهاء عائدة على موسى .

قال مجاهد : أي لم يؤمن منهم أحد ، وإنما آمن أولاد من أرسل موسى إليهم من بني إسرائيل ، لطول الزمان هلك الآباء وبقي الأبناء فآمنوا ؛ وهذا اختيار الطبري .

والذرية أعقاب الإنسان ، وقد تكثر .

وقيل : أراد بالذرية مؤمني بني إسرائيل .

قال ابن عباس : كانوا ستمائة ألف ، وذلك أن يعقوب عليه السلام دخل مصر في اثنين وسبعين إنساناً فتوالدوا بمصر حتى بلغوا ستمائة ألف .

وقال ابن عباس أيضاً : "مِنْ قَوْمِهِ" يعني من قوم فرعون ؛ منهم مؤمنُ آل فرعون وخازنُ فرعون وامرأته وماشطة ابنته وامرأة خازنه .

وقيل : هم أقوامٌ آباؤهم من القبط ، وأُمهاتهم من بني إسرائيل فسُمّوا ذرية كما يسمى أولاد الفُرس الذين توالدوا باليمن وبلاد العرب الأبناء ؛ لأن أُمهاتهم من غير جنس آبائهم ؛ قاله الفراء : وعلى هذا فالكناية في "قَوْمِهِ" ترجع إلى موسى للقرابة من جهة الأُمهات ، وإلى فرعون إذا كانوا من القبط .

قوله تعالى : ﴿ على خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ ﴾ لأنه كان مسلَّطاً عليهم عاتيا .

﴿ وَمَلَئِهِمْ ﴾ ولم يقل وملئه ؛ وعنه ستة أجوبة : أحدها أن فرعون لما كان جباراً أخبر عنه بفعل الجميع .

الثاني أن فرعون لما ذكر علم أن معه غيرَه ، فعاد الضمير عليه وعليهم ؛ وهذا أحد قولي الفرّاء .

الثالث أن تكون الجماعة سمّيت بفرعون مثل ثمود .

الرابع أن يكون التقدير : على خوف من آل فرعون ؛ فيكون من باب حذف المضاف مثل : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] وهو القول الثاني للفرّاء .

وهذا الجواب على مذهب سيبويه والخليل خطأ ، لا يجوز عندهما قامت هند ، وأنت تريد غلامها .

الخامس مذهب الأخفش سعيد أن يكون الضمير يعود على الذرية ، أي ملأ الذرية ؛ وهو اختيار الطبري .

السادس أن يكون الضمير يعود على قومه .

قال النحاس : وهذا الجواب كأنه أبلغها .

(13/368)

﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ وحّد "يَفْتِنَهُمْ" على الإخبار عن فرعون ، أي يصرفهم عن دينهم بالعقوبات ، وهو في موضع خفض على أنه بدل اشتمال .

ويجوز أن يكون في موضع نصب ب "خَوْفٍ" .

ولم ينصرف فرعون لأنه اسم أعجمي وهو معرفة .

﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأرض ﴾ أي عاتٍ متكبر .

﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ المسرفين ﴾ أي المجاوزين الحدّ في الكفر ؛ لأنه كان عبداً فادعى الربوبية .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(14/368)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ﴾

لما ذكر الله ما أتى به موسى عليه السلام من المعجزات العظيمة الباهرة أخبر الله سبحانه وتعالى أنه مع مشاهدة هذه المعجزات ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه وإنما ذكر الله هذا تسلية لنبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) لأنه كان كثير الاهتمام بإيمان قومه وكان يغتم بسبب إعراضهم عن الإيمان به واستمرارهم على الكفر والتكذيب فبين الله سبحانه وتعالى أن له أسوة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأن الذي جاء به موسى عليه السلام من المعجزات كان أمراً عظيماً ومع ذلك فما آمن معه إلا ذرية .

والذرية : اسم يقع على القليل من القوم ، قال ابن عباس : الذرية القليل وقيل المراد به التصغير وقلة العدد واختلفوا في هاء الكناية في قومه فقيل إنها راجعة إلى موسى وأراد بها قوم موسى وهم بنو إسرائيل الذين كانوا معه بمصر من أولاده .

قال مجاهد : هم أولاد يعقوب الذين أرسل إليه موسى هلك الآباء وبقي الأبناء وقيل هم قوم نجوا من قتل فرعون لما أمر بقتل أبناء بني إسرائيل كانت المرأة في بني إسرائيل إذا ولدت ابناً وهبته لقبطية خوفاً عليه من القتل فنشؤوا بين القبط فلما كان اليوم الذي غلب موسى فيه السحرة آمنوا به ، وقال ابن عباس : ذرية من قومه يعني من بني إسرائيل .

وقيل : إنها راجعة إلى فرعون يعني إلا ذرية من قوم فرعون .

روى عطية عن ابن عباس قال : هم ناس يسير من قوم فرعون آمنوا منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطة ابنته .

(15/368)

قال الفراء : سموا ذرية لأن آباءهم كانوا من القبط من آل فرعون وأمهاتهم من بني إسرائيل فكان الرجل يتبع أمه وأخواله في الإيمان وذلك ما يقال لأولاد فارس الذين دخلوا إلى اليمن الأبناء لأن أمهاتهم من غير جنس الآباء ﴿ على خوف فرعون وملئهم ﴾ الملأ :

الأشراف فعلى هذا يكون معنى الآية على خوف من فرعون ومن أشرافهم ، وهم ملأ الذرية لأنه كان آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل وقيل أراد بالملأ ملأ فرعون وإنما قال سبحانه وتعالى وملئهم بالجمع وفرعون واحد على سبيل التفخيم له ﴿ أن يفتنهم ﴾ أي يصرفهم ويصدهم عن الإيمان وإنما قال أن يفتنهم ولم يقل أن يفتنوهم لأن قوم فرعون كانوا على مراده وتابعين لأمره ﴿ وإن فرعون لعال في الأرض ﴾ يعني أنه لغالب قهار متكبر فيها ﴿ وإنه لمن المسرفين ﴾ يعني من المجاوزين الحد لأنه كان عبداً فادعى الربوبية وكان كثير القتل والتعذيب لبني إسرائيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(16/368)

وقال أبو السعود :

﴿ فَمَا ءامَنَ لموسى ﴾

معطوفٌ على مقدر قد فصل في مواقعَ أُخَرَ ، أي فألقى عصاه فإذا هي تلقَف ما يأفِكون الخ ، وإنما لم يذكر تعويلاً على ذلك وإيثاراً للإيجاز وإيذاناً بأن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ ﴾ مما لا يحتمل الخُلفَ أصلاً وعطفُه على ذلك بالفاء مع كونه عدماً مستمراً من قبيل ما في قوله عز وجل : ﴿ فاتبعوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ وما في قولك : وعظتُه فلم يتعظ وصِحتُ به فلم

ينزجرْ والسرُّ في ذلك أن الإتيانَ بالشيء بعد ورودِ ما يوجب الإقلاعَ عنه وإن كان استمراراً عليه لكنه بحسب العنوانِ فعلٌ جديدٌ وصنعٌ حادثٌ أي فما آمن له عليه السلام بمشاهدة تلك الآياتِ القاهرة ﴿ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ أي إلا أولادٌ من أولاد قومِه بني إسرائيلَ حيث دعا الآباءَ فلم يجيبوه خوفاً من فرعون وأجابتْه طائفةٌ من شبانهم ، وقيل : الضميرُ لفرعون والذريةُ طائفةٌ من شبانهم آمنوا به عليه السلام أو مؤمنُ آلِ فرعونَ وامرأتُه آسيةُ وخازنُه وامرأتُه وما شطتُه وهو بعيد ﴿ على خَوْفٍ ﴾ أي كائنين على خوف عظيم ﴿ مِن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِم ﴾ الضميرُ لفرعون والجمعُ لما هو المعتادُ في ضمائر العظماءِ ولا يأباه مقامُ بيانِ علوّه في الفساد وغلوّه في الشر والتسلطِ على العباد ، أو لأن المرادَ به آلُه كما يقال : ربيعةُ ومضرُ أو للذرية أو للقوم أي على خوف من فرعونَ ومن أشراف بني إسرائيلَ حيث كانوا يمنعون أعقابَهم خوفاً من فرعونَ عليهم وعلى أنفسهم ﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ أي يعذّبَهم وهو بدلُ اشتمالٍ أو مفعولُ خوفٍ فإن إعمالَ المصدرِ المنكّر كثيرٌ كما في قوله عز وجل : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ﴾ أو مفعولٌ له بعد حذفِ اللامِ ، وإسنادُ الفعلِ إلى فرعون خاصةً لأنه الآمرُ بالتعذيب ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ ﴾ لغالبٌ في أرض مصرَ ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ المسرفين ﴾ في الظلم والفسادِ بالقتلِ وسفكِ الدماءِ أو في الكبر والعتوّ حتى ادّعى الربوبيةَ واسترقَّ أسباطَ الأنبياءِ ، والجملتانِ اعتراضٌ تذييليٌّ مؤكدٌ لمضمون ما سبق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَمَا ءامَنَ لموسى ﴾

عطف على مقدر فصل في موضع آخر أي فألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون الخ ، وإنما لم يذكر تعويلاً على ذلك وإيثار للإيجاز وإيذاناً بأن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾ [يونس : 81] مما لا يحتمل الخلف أصلاً ، ولعل عطفه على ذلك بالفاء باعتبار الإيجاب الحادث الذي هو أحد مفهومي الحصر ، فانهم قالوا : معنى ما قام إلا زيد قام زيد ولم يقم غيره ، وبعضهم لم يعتبر ذلك وقال : إن عطفه بالفاء على ذلك مع كونه عدماً مستمراً من قبيل ما في قوله تعالى : ﴿ فاتبعوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ [هود : 97] وما في قولك : وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر ، والسر في ذلك أن الإتيان بالشيء بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه وإن كان استمراراً عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وضع حادث أي فما آمن عليه السلام في مبدى أمره ﴿ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ أي إلا أولاد بعض بني إسرائيل دعا عليه السلام الآباء فلم يجيبوه خوفاً من فرعون وأجابته طائفة من شبانهم ، فالمراد من الذرية الشبان لا الأطفال .

و ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض ، وجوز أن تكون للابتداء والتبعيض مستفاد من التنوين ، والضمير لموسى عليه السلام كما هو إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وأخرج ابن جرير عنه أن الضمير لفرعون وبه قال جمع ، فالمؤمنون من غير بني إسرائيل ومنهم زوجته آسية وماشطته ومؤمن آل فرعون والخازن وامرأته ، وفي إطلاق الذرية على هؤلاء نوع خفاء .

(18/368)

ورجح بعضهم ارجاع الضمير لموسى عليه السلام بأنه المحدث عنه وبأن المناس على القول الآخر الإضمار فيما بعد ، ورجح ابن عطية ارجاع الضمير لفرعون بأن المعروف في القصص أن بني إسرائيل كانوا في قهر فرعون وكانوا قد بشروا بأن خلاصهم على يد مولود يكون نبياً صفته كذا كذا فلما ظهر موسى عليه السلام اتبعوه ولم يعرف أن أحداً منهم خالفه فالظاهر القول الثاني ، وما ذكر من أن المحدث عنه موسى عليه السلام لا يخلو عن شيء ، فإن لقائل أن يقابل ذلك بأن الكلام في قوم فرعون لأنهم القائلون إنه ساحر ولأن وعظ أهل مكة وتخويفهم المسوق له الآيات قاض بأن المقصود هنا شرح أحوالهم .

وأنت تعلم أن للبحث في هذا مجالاً والمعروف بعد تسليم كونه معروفاً لا يضر القول الأول

لأن المراد حينئذ فما أظهر إيمانه وأعلن به الاذرية من بني إسرائيل دون غيرهم فانهم أخفوه ولم يظهروه ﴿ على خَوْفٍ ﴾ حال من ذرية و﴿ على ﴾ بمعنى مع كما قيل في قوله تا على : ﴿ وَءاتَى المال على حُبّهِ ﴾ [البقرة : 177] والتنوين للتعظيم أي كائنين مع خوف عظيم ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ الضمير لفرعون ، والجمع عند غير واحد على ما هو المعتاد في ضمائر العظماء .

ورد بأن الوارد في كلام العرب الجمع في ضمير المتكلم كنحن وضمير المخاطب كما في قوله تعالى : ﴿ رَبّ ارجعون ﴾ [المؤمنون : 99] وقوله

: ألا فارحموني يا اله محمد . . .

ولم ينقل في ضمير الغائب كما نقل عن الرضى ، وأجيب بأن الثعالبي .

والفارسي نقلاً في الغائب أيضاً والمثبت مقدم على النافي ، وبأنه لا يناسب تعظيم فرعون فإن كان على زعمه وزعم قومه فإنما يحسن في كلام ذكر أنه محكى عنهم وليس فليس .

(19/368)

ويجاب بأن المراد من التعظيم تنزيله منزلة المتعدد ، وكونه لا يناسب في حيز المنع ، لم لا يجوز أن يكون مناسباً لما فيه من الإشارة إلى مزيد عظم الخوف المتضمن زيادة مدح المؤمنين ؟

وقيل : إن ذلك وارد على عادتهم في محاوراتهم في مجرد جمع ضمير العظماء وإن لم يقصد التعظيم أصلاً فتأمله ، وجوز أن يكون الجمع لأن المراد من ﴿ فِرْعَوْنُ ﴾ آله كما يقال : ربيعة .

ومضر .

واعترض عليه بأن هذا إنما عرف في القبيلة وأبيها إذ يطلق اسم الأب عليهم وفرعون ليس من هذا القبيل ، على أنه قد قيل : إن اطلاق أبي نحو القبيلة عليها لا يجوز ما لم يسمع ويتحقق جعله علماً لها ، ألا تراهم لا يقولون : فلان من هاشم ولا من عبد المطلب بل من بني هاشم وبني عبد المطلب فكيف يراد من فرعون آله ولم يتحقق فيه جعله علماً لهم ، ودعوى التحقق هنا أول المسألة فالقول بأن الجمع لأن المراد به آله كربيعة ليس بشيء إلا أن يراد أن فرعون ونحوه من الملوك إذا ذكر خطر بالباب خطر أتباعه معه فعاد الضمير على ما في الذهن ، وتمثيله بما ذكر لأنه نظيره ف الجملة ، ثم إنه لا يخفى أنه إذا أريد من فرعون آله ينبغي أن يراد من ﴿ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ﴾ فرعون وآله على التغليب ، وقيل : إن الكلام على حذف مضاف أي آل فرعون فالضمير راجع إلى ذلك المحذوف ، وفيه أن الحذف يعتمد القرينة ولا قرينة هنا ، وضمير الجمع يحتمل رجوعه لغير ذلك المحذوف كما ستعلمه قريباً إن شاء الله تعالى فلا يصلح لأن يكون قرينة ، وأما أن المحذوف لا يعود إليه ضمير كما قال أبو البقاء فليس بذاك لأنه إن أريد أنه لا يعود إليه مطلقاً فغير صحيح ؛ وإن أريد إذا حذف

لقرينة فممنوع لأنه حينئذٍ في قوا المذكور ، وقد كثير عود الضمير إليه كذلك في كلام العرب ، وقريب من هذا القيل زعم أن هناك معطوفاً محذوفاً إليه يعود الضمير أي على خوف من فرعون وقومه وملئهم ، ويرد عليه أيضاً ما قيل : إن هذا الحذف ضعيف غير مطرد .

(20/368)

وقيل : الضمير للذرية أو للقوم أي على خوف من فرعون ومن أشراف بني إسرائيل حيث كانوا يمنعونهم خوفاً من فرعون عليهم أو على أنفسهم ، أو من أشراف القبط ورؤسائهم حيث كانوا يمنعونهم انتصاراً لفرعون ، ولعل المنساق إلى الذهن رجوعه إلى الذرية والجمع باعتبار المعنى ، ويؤول المعنى إلى أنهم آمنوا على خوف من فرعون ومن أشراف قومهم ﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ أي يبتليهم ويعذبهم ، وأصل الفتن كما قال الراغب إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته واستعمل في إدخال الإنسان النار كما في قوله سبحانه :

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النارِ يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات : 13] ويسمي ما يحصل منه العذاب فتنة ويستعمل في الاختيار وبمعنى البلاء والشدة وهو المراد هنا ، و﴿ إن ﴾ وما بعدها في تأويل مصدر وقع بدلاً من فرعون بدل اشتمال أي على خوف من فرعون فتنته ، ويجوز أن يكون مفعول ﴿ خوْفٍ ﴾ لأنه مصدر منكر كثر إعماله ، وقيل : إنه مفعول له والأصل لأن

يفتنهم فحذف الجار وهو مما يطرد فيه الحذف ، ولا يضر في مثل هذا عدم اتحاد فاعل المصدر والمعلل به على أن مذهب بعض الأئمة عدم اشتراط ذلك في جواز النصب وإليه مال الرضى وأيده بما ذكرناه في حواشينا على شرط القطر للمصنف ، وإسناد الفعل إلى فرعون خاصة لأنه مدار أمر التعذيب ، وفي الكلام استخدام في رأي حيث أريد من فرعون أولاً آله وثانياً هو وحده وأنت تعلم ما فيه .

﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ ﴾ أي لغالب قاهر في أرض مصر ، واستعمال العلو بالغلبة والقهر مجاز معروف ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ المسرفين ﴾ أي المتجاوزي الحد في الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء أو في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء عليهم السلام ، والجملتان اعتراض تذييلي مؤكد لمضمون ما سبق وفيهما من التأكيد ما لا يخفى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(21/368)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾

تفريع على ما تقدم من المحاورة ، أي فتفرع على ذلك أن فرعون وملأه لم يؤمنوا بموسى لأن

حصر المؤمنين في ذرية من قوم موسى يفيد أن غيرهم لم يؤمنوا وهو المقصود ، فكانت صيغة القصر في هذا المقام إيجازاً .

والتقدير : تفرع على ذلك تصميم على الإعراض .

وقد طوي ما حدث بين المحاورة وبين تصميمهم على الإعراض ، وهو إلقاء موسى عصاه والتقامُها ما ألقوه من سحرهم ، لعدم تعلق الغرض ببيان ذلك إذ المقصود الإفضاء إلى أنهم صمموا على الإعراض لأن ذلك محل تمثيل أعمالهم بحال مشركي أهل مكة .

وفعل ﴿ آمن ﴾ أصله (أَأْمن) بهمزتين : إحداهما أصلية في الكلمة لأن الكلمة مشتقة من الأمانة ، والثانية همزة مزيدة للتعدية ، أي جعله ذَا أمانة ، أي غير كاذب فصار فعل ﴿ آمن ﴾ بمعنى صدّق ، وحقه أن يعدى إلى المفعول بنفسه ولكن عدي باللام للتفرقة بين (آمن) بمعنى صدّق من الأمانة وبين (آمن) بمعنى جَعله في أمن ، أي لا خوف عليه منه .

وهذه اللام سماها ابنُ مالك لامَ التبيين وتبعه ابن هشام ، وهي تدخل على المفعول لتقوية معنى المفعولية ، ويؤكد قصد التقوية في مثل فعل (آمن) بمعنى صدّق دفعُ أن يلتبس بفعل (آمنه) إذا جعله في أمن وسيأتي في قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك ﴾ في سورة [الإسراء : 90] .

وقد يعدى بالباء لتضمنه معنى صدّق كما في قوله تعالى : ﴿ قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾ [يونس : 90] .

والذرية : الأبناء وتقدم في قوله : ﴿ ذُرية بعضها من بعض ﴾ في سورة [آل عمران : 34] .

أي فما آمن بما جاء به موسى إلا أبناء بني إسرائيل ولم تبلغ دعوته بقية قومه أو لم يؤمر بالتبليغ إليهم حينئذٍ .

(22/368)

و (على) في قوله : ﴿ على خوف من فرعون ﴾ بمعنى (مع) مثل وآتى المال على حبه أي آمنوا مع خوفهم ، وهي ظرف مستقر في موضع الحال من (ذرية) ، أي في حال خوفهم المتمكن منهم .

وهذا ثناء عليهم بأنهم آمنوا ولم يصدهم عن الإيمان خَوفهم من فرعون .

والمعنى : أنهم آمنوا عند ظهور معجزته ، أي أعلنوا الإيمان به في ذلك الموطن لأن الإيمان لا يعرف إلا بإظهاره ولا فائدة منه إلا ذلك الإظهار .

أي من الحاضرين في ذلك المشهد من بني إسرائيل فإن عادة هذه المجامع أن يغشاها الشباب واليافعون فعبر عنهم بالذرية أي الأبناء ، كما يُقال : الغلمان ، فيكونون قد آمنوا من تلقاء أنفسهم ، وكل هذا لا يقتضي أن بقية قومه كفروا به ، إذ يحتمل أن يكونوا آمنوا به بعد ذلك

لما بلغتهم دعوته لأنه يكون قد ابتدأ بدعوة فرعون مبادرة لامتثال الأمر من الله بقوله : ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴾

[طه : 43] فيكون المأمور به ابتداء هو دعوة فرعون وتخليص بني إسرائيل من الأسر .

و(الملأ) تقدم آنفاً في هذه القصة ، وأضيف الملأ إلى ضمير الجمع وهو عائد إلى الذرية ، أي على خوف من فرعون وعلى خوف من قومهم ، وهم بقية القوم الذين لم يحضروا ذلك المشهد خشية أن يغضبوا عليهم ويؤذوهم لإيمانهم بموسى لما يتوقعون من مؤاخذة فرعون بذلك جميع قبيلتهم على عادة الجبابرة في أخذ القبيلة بفعلة من بعض رجالها .

و(الفتن) ادخال الروع والاضطراب على العقل بسبب تسليط ما لا تستطيع النفس تحمله ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ في سورة [البقرة : 191] .

فهذا وجه تفسير الآية .

(23/368)

وجملة : وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين ﴾ في موضع الحال فهي عطف على قوله : ﴿ على خوف من فرعون ﴾ وهي تفيد معنى التعليل لخوفهم من فرعون ، أي أنهم محقون في خوفهم الشديد ، فبعد أن أثنى عَليهم بأنهم آمنوا في حال شدة الخوف زاد فبين

أنهم أحقاء بالخوف ، وفي هذا زيادة ثناء على قوة إيمانهم إذ آمنوا في حال خوفهم من الملك مع قدرته على أذاهم ، ومن مَلئهم ، أي قومهم ، وهو خوف شديد ، لأن آثاره تتطرق المرء في جميع أحواله حتى في خلوته وخويصته لشدة ملابسةِ قومه إياه في جميع تقلباته بحيث لا يجد مفراً منهم ، ثم اتبعه ببيان اتساع مقدرة فرعون بيان تجاوزه الحد في الجور ، ومَن هذه حالته لا يزَعه عن إلحاق الضر بأضداده وازع .

وتأكيد الخبر بـ (إن) للاهتمام بتحقيق بطش فرعون .

والعلو : مستعار للغلبة والاستبداد ، كقوله تعالى : ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ وقوله : ﴿ أن لا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين ﴾ [النمل : 31] .

والإسراف : تجاوز حد الاعتدال المعروف في فعل ، فهو تجاوز مذموم ، وأشهر موارده في الإنفاق ، ولم يذكر متعلَّق الإفراط فتعيَّن أن يكون إسرافاً فيما عُرف به ملوك زمانهم من الصفات المكروهة عند الناس الملازمة للملوك في العادة .

وقوله : ﴿ من المسرفين ﴾ أبلغ في وصفه بالإسراف من أن يقال : وإنه لَمُسرف لما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قد ضللتُ إذن وما أنا من المهتدين ﴾ في [الأنعام : 56] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(24/368)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾

وإذا كان السحرة وهم عُدَّة فرعون وعتاده لمواجهة موسى أعلنوا الإيمان ، فعاقبهم الفرعون وقال :

﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [طه : 71] .

فهذا يدل على أن فكرة الألوهية كانت ما تزال مسيطرة على عقله ؛ ولذلك خاف الناس من إعلان الإيمان ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَمَا آمَنَ لموسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ ﴾ [يونس : 83] .

وكلمة " ذرية " تفيد الصغار الذين لم تلمسهم خميرة من الفساد الذي كان منتشراً ، كما أن الصغار يتمتعون بطاقة من النقاء ، ويعيشون في خُلُوٍّ من المشاكل ، ولم يصلوا إلى مرتبة السيادة التي يُحْرَصُ عليها ، ومع ذلك فهم قد آمنوا :

﴿ على خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ﴾ [يونس : 83] .

وكلمة ﴿ على خَوْفٍ ﴾ تفيد الاستعلاء ، مثل قولنا : " على الفرس " أو " على الكرسي " ويكون المستعلي في هذه الحالة متمكّناً من المستعلى عليه " ؛ ومن يستعلي إنما يركب المستعلي ، ويحمل المستعلي العبء .

ولكن من استعمالات " على " أنها تأتي بمعنى " مع " .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ ﴾ [الإنسان : 8] .

أي : يطعمون الطعام مع حبه .

وحين يأتي الحق سبحانه بحرف مقام حرف آخر فلا بد من علة لذلك .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] .

جاء الحق سبحانه بالحرف " في " بدلاً من " على " ؛ ليدل على أن عملية الصلب ستكون تصليباً قوياً ، بحيث تدخل أجزاء المصلوب في المصلوب فيه .

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ ﴾ [الإنسان : 8] .

فكأنهم هم المستعلون على الحب ؛ ليذهب بهم حيث يريدون .

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ على خَوْفٍ ﴾ [يونس : 83] .

أي : أنهم فوق الخوف يسير بهم إلى دهاليز توقُّع الآلام .

وهم هنا آمنوا : ﴿ على خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس : 83] .

والكلام هنا من الحق الأعلى سبحانه يبيّن لنا أن الخوف ليس من فرعون ؛ لأن فرعون إنما يمارس التخويف بمن حوله ، فمثلهم مثل زُوَّار الفجر في أي دولة لا تقيم وزناً لكرامة الإنسان .

وفرعون في وضعه ومكانته لا يباشر التعذيب بنفسه ، بل يقوم به زبانيته .

والإشارة هنا تدل على الخوف من شيعة فرعون وملئهم .

وقال الحق سبحانه هنا : ﴿ يَفْتِنَهُمْ ﴾ ، ولم يقل : " يفتنوهم " ؛ ليدلنا على ملحظ أن الزبانية لا يصنعون التعذيب لشهوة عندهم ، بل يمارسون التعذيب لشهوة عند الفرعون .

وهكذا جاء الضمير مرة جمعاً ، ومرة مفرداً ، ليكون كل لفظ في القرآن جاذباً لمعناه .

وحين أراد المفسرون أن يوضحوا معنى (ذرية) قالوا : إن المقصود بها امرأة فرعون (آسية) ، وخازن فرعون ، وامرأة الخازن ، وماشطة فرعون ، ومَنْ آمن مِنْ قوم موسى عليه السلام وكتم إيمانه .

كل هؤلاء منعتهم خشية عذاب فرعون من إعلان الإيمان برسالة موسى ؛ لأن فرعون كان جَبَّاراً في الأرض ، مدّعياً للألوهية ، وإذا ما رأى فرعون إنساناً يخدش ادعاءه للألوهية ؛

فلا بد أن يبطش به بطشة فاتكة .

لذلك كانوا على خوف من هذا البطش ، فقد سبق وأن ذبح فرعون بواسطة زبانيته أبناء بني إسرائيل واستحيا نساؤهم ، وهم خافوا من هولاء الزبانية الذي نفَّذوا ما أراده فرعون

.

ولذلك جاء الضمير مرة تعبيراً عن الجمع في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَلَئِهِمْ ﴾ [يونس : 83] .

وجاء الضمير مفرداً معبراً عن فرعون الآمر في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس : 83] .

فهم خافوا أن يفتنهم فرعون بالتعذيب الذي يقوم به أعوانه .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

(26/368)

﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ المسرفين ﴾ [يونس : 83] .

والمسرف : هو الذي يتجاوز الحدود ، وهو قد تجاوز في إسرافه وادَّعى الألوهية .

وقد قال الحق سبحانه ما جاء على لسان فرعون :

﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] .

وقال الحق سبحانه أيضاً :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الملأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] .

وعلا فرعون في الأرض علوَّ طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين .

وقال الحق سبحانه على لسان فرعون :

﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهار تَجْرِي مِن تحتي ﴾ [الزخرف : 51] .

إذن : فقد كان فرعون مسرفاً أشد الإسراف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(27/368)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَا آمَنَ ﴾ : الفاءُ للتعقيب ، وفيها إشعارٌ بأن إيمانَهم لم يتأخر عن الإلقاء ، بل وقع عقيبه ، لأنَّ الفاءَ تفيد ذلك ، وقد تقدَّم توجيهُ تَعْدِيةِ " آمن " باللام . والضمير في "

قومه " فيه وجهان ، أحدهما : وهو الظاهرُ عودُه على موسى لأنه هو المحدَّث عنه ، ولأنه أقربُ مذكورٍ ، ولو عاد على فرعون لم يكرِّر لفظَه ظاهراً ، بل كان التركيب " على خوفٍ منه " ، وإلى هذا ذهب ابنُ عباس وغيرُه .

والثاني : أنه يعود على فرعون ، ويُروى عن ابن عباس أيضاً ، ورَجَّح ابنُ عطية هذا ، وضَعَّف الأول فقال : " ومما يُضَعِّف عودَ الضمير على موسى أن المعروفَ من أخبارِ بني إسرائيل أنهم كانوا قد فَشَتْ فيهم النبواتُ ، وكانوا قد نالهم ذلٌّ مُفْرِط ، وكانوا يَرْجُوْن كَشْفَه بظهورِ مولود ، فلمَّا جاءهم موسى أَصْفقوا عليه وتابعوه ، ولم يُحْفَظ أن طائفةً من بني إسرائيل كفرت بموسى ، فكيف تعطي هذه الآيةُ أنَّ الأقلَ منهم كان الذي آمن ؟ ، فالذين يَتَرَجَّح عَوْدُه على فرعون ، ويؤيِّده أيضاً ما تقدَّم مِنْ محاورة/ موسى ورَدِّه عليهم وتوبيخهم " .

قوله : ﴿ على خَوْفٍ ﴾ حال ، أي : آمنوا كائنين على خوف ، والضمير في " وملئهم " فيه أوجه ، أحدُها : أنه عائدٌ على الذرِّيَّة ، وهذا قولُ أبي الحسن واختيارُ ابن جرير ، أي : خوفٍ من مَلأ الذرية ، وهم أشرافُ بني إسرائيل .

الثاني : أنه يعودُ على قومِه بوجهيه ، أي : سواءٌ جَعَلْنا الضمير في " قومه " لموسى أو لفرعون ، أي : وملأ قوم موسى أو ملأ قوم فرعون .

الثالث : أن يعودَ على فرعون ، واعتُرِضَ على هذا بأنه كيف يعودُ ضميرُ جمعٍ على مفرد ؟ وقد اعتذر أبو البقاء عن ذلك بوجهين ، أحدُهما : أنَّ فرعونَ لمَّا كان عظيماً عندهم عاد الضمير عليه جميعاً ، كما يقول العظيم ، نحن نأمرُ ، وهذا فيه نظرٌ ، لأنه لو وَرَدَ ذلك مِنْ كلامهم مَحْكيّاً عنهم لاحتمل ذلك . والثاني : أنَّ فرعونَ صار اسماً لأتباعه ، كما أن ثمودَ اسمٌ للقبيلة كلها " . وقال مكي وجهين آخرين قريبين من هذين ، ولكنهما أخلصُ منهما ، قال : " إنما جُمع الضميرُ في " مَلَئهم " لأنه إخبار عن جبّار ، والجبّار يُخْبَر عنه بلفظِ الجمع ، وقيل : لَمَّا ذُكِرَ فرعونُ عُلِمَ أنَّ معه غيرَه ، فَرَجَع الضميرُ عليه وعلى مَنْ معه " . قلت : وقد تقدَّم نحوٌ مِنْ هذا عند قوله : ﴿ الذين قَالَ لَهُمُ الناس إِنَّ الناس ﴾ [آل عمران : 173] ، والمرادُ بالقائل نعيم بن مسعود ، لأنه لا يَخْلو من مُساعدٍ له على ذلك القول .

الرابع : أنْ يعودَ على مضافٍ محذوف وهو آل ، تقديره : على خوفٍ مِنْ آل فرعون ومَلَئهم ، قاله الفراء ، كما حُذِف في قوله

﴿ وَسْئَلِ القرية ﴾ [يوسف : 82] . قال أبو البقاء بعد أن حكى هذا ولم يَعْزُه لأحد : " وهذا عندنا غَلَط ، لأنَّ المحذوفَ لا يعود إليه ضمير ، إذ لو جاز ذلك لجاز أن يقول : " زيد قاموا " وأنت تريد " غلمان زيد قاموا " . قلت : قوله " لأن المحذوف لا يعودُ إليه ضمير " ممنوعٌ ، بل إذا حُذِف مضافٌ فللعرب فيه مذهبان : الالتفاتُ إليه وعَدَمُه وهو الأكثر ،

ويدل على ذلك أنه قد جَمَع بين الأمرين في قوله ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ [الأعراف : 4] أي : أهل قريةٍ ، ثم قال : " أو هم قائلون " وقد حَقَّقْتُ ذلك في موضعِه المشارِ إليه .

وقوله : " لجاز زيد قاموا " ليس نظيرَه ، فإنَّ فيه حَذْفاً من غيرِ دليلٍ بخلاف الآية .

(29/368)

وقال الشيخ بعد أن حكى كلامَ الفراء " ورُدَّ عليه بأن الخوفَ يُمكن مِنْ فرعون ، ولا يمكن سؤالُ القرية ، فلا يُحْذَفُ إلا ما دلَّ عليه الدليل ، وقد يقال : ويَدُلُّ على هذا المحذوفِ جَمْعُ الضمير في " ومَلَئِهم " . قلت : يعني أنهم رَدُّوا على الفراء بالفرق بين ﴿ وَسْئَلِ القرية ﴾ وبين هذه الآيةِ بأنَّ سؤالَ القرية غيرُ ممكنٍ فاضْطُرِرْنا إلى تقدير المضاف بخلاف الآية ، فإن الخوف تَمَكَّن مِنْ فرعونَ فلا اضطرارَ بنا يَدُلُّنا على مضاف محذوف . وجوابُ هذا أنَّ الحَذْفَ قد يكون لدليلٍ عقلي أو لفظي ، على أنه قيل في " واسأل القرية " إنه حقيقةٌ ، إذ يمكنُ النبيَّ أن يسألَ القريةَ فتجيبَه .

الخامس : أن ثمَّ معطوفاً محذوفاً حُذِف للدلالة عليه ، والدليل كُونُ المَلِك لا يكونُ وحدَه ، بل له حاشية وعساكر وجندٌ ، فكان التقدير : على خَوْفٍ مِنْ فرعون وقومه ومَلَئِهم ، أي : ملأ فرعون وقومه ، وهو منقولٌ عن الفراء أيضاً . قلت : حَذْفُ المعطوفِ قليلٌ في كلامهم

، ومنه عند بعضهم قولُه تعالى ﴿ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] أي : والبرد ، وقول الآخر :

2619 كأن الحصى مِنْ خلفها وأمامِها . . . إذا حَذَفَتْه رِجْلُها حَذْفُ أَعْسَرا

أي : ويدُها .

قوله : ﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه في محلِّ جرٍ على البدل مِنْ " فرعون " ، وهو بدلُ اشتمالٍ تقديره : على خوفٍ من فرعون فِتْنَتِه كقولك : " أعجبني زيد علْمُه " .

الثاني : أنه في موضعِ نصبٍ على المفعول به بالمصدر أي : خوفٍ فتنتَه ، وإعمالُ المصدرِ المنوَّنِ كثيرٌ كقوله : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ﴾ [البلد : 14-15] . وقولِ الآخر :

2620 فلولا رجاءُ النصرِ منك ورَهْبَةٌ . . . عقابَك قد كانوا لنا بالمَوارد

الثالث : أنه منصوبٌ على المفعول من أجله بعد حَذْفِ اللام ، ويَجْري فيها الخلافُ المشهورُ .

(30/368)

وقرأ الحسن ونبيح "يُفْتِنَهم" بضمِّ الياء وقد تقدَّم ذلك .

و"في الأرض" متعلقٌ ب "عالٍ" أي: قاهر فيها أو ظالم كقوله:

2621 فاعمِدْ لِما تَعْلُوا فمالك بالذي . . . لا تَسْتطيع من الأمور يَدانِ

أي: لِما تَقْهر . ويجوز أن يكون "في الأرض" متعلقاً بمحذوف لكونه صفة ل "عالٍ"

فيكون مرفوع المحل، ويُرَجِّح الأول قولُه: ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأرض ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 254. 257 ﴾

(31/368)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ﴾

أهل الحقيقة في كل وقتٍ قليلٌ عَدَدُهم، كبيرٌ عند الله خَطَرُهم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 111 ﴾

(32/368)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (86) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر خوفهم وعذرهم ، أتبعه ما يوجب طمأنينتهم ، وهو التوكل على الله الذي من راقبه تلاشى عنده كل عظيم ، فقال : ﴿ وقال موسى ﴾ أي لمن آمن به موطناً لهم على أن الجنة لا تنال إلا بمشقة عظيمة " يبتلى الناس على قدر إيمانهم " ﴿ يا قوم ﴾ فاستعطفهم بالتذكير بالقرب وهزهم إلى المعالي به فيهم من القوة ثم هيجهم وألهبهم على الثبات بقوله : ﴿ إن كنتم ﴾ أي كوناً هو في ثباته كالخلق الذي لا يزول ﴿ آمنتم بالله ﴾ وثبتهم بذكر الاسم الأعظم وما دل عليه من الصفات ، وأجاب الشرط بقوله : ﴿ فعليه ﴾ أي وحده لما علمتم من عظمته التي لا يداينها شيء سواه ﴿ توكلوا ﴾ وليظهر عليكم أثر التوكل من الطمأنينة والثبات والسكينة ﴿ إن كنتم ﴾ أي كوناً ثابتاً ﴿ مسلمين ﴾ جامعين إلى تصديق القلب إذعان الجوارح ؛ وجواب هذا الشرط ما دل عليه الماضي من قوله : ﴿ فعليه توكلوا ﴾ ﴿ فقالوا ﴾ أي على الفور كما يقتضيه الفاء ﴿ على الله ﴾ أي الذي

له العظمة كلها وحده ﴿ توكلنا ﴾ أي فوضنا أمورنا كلها إليه ﴿ ربنا ﴾ أي أيها الموجد لنا المحسن إلينا ﴿ لا تجعلنا فتنة ﴾ أي موضع مخالطة بما يميل ويحيل ﴿ للقوم الظالمين ﴾ أي لا تصبنا أنت بما يظنون به تهاونك بنا فيزدادوا نفرة عن دينك لظنهم أنا على الباطل ولا تسلطهم علينا مما يفتننا عن ديننا فيظنوا أنهم على الحق ﴿ ونجنا برحمتك ﴾ أي إكرامك لنا ﴿ من القوم ﴾ أي الأقوياء ﴿ الكافرين ﴾ أي العريقين في تغطية الأدلة ، وفي دعائهم هذا إشارة إلى أن أمر الدين أهم من أمر النفس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 474.473 ﴾

(33/368)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آَمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أن قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ ءامَنْتُمْ بالله فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إن كنتم مسلمين ﴾ جزاء معلق على شرطين

: أحدهما متقدم والآخر متأخر ، والفقهاء قالوا : المتأخر يجب أن يكون متقدماً والمتقدم يجب أن يكون متأخراً ومثاله أن يقول الرجل لامرأته : إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلمت زيداً وإنما كان الأمر كذلك ، لأن مجموع قوله : إن دخلت الدار فأنت طالق ، صار مشروطاً بقوله إن كلمت زيداً ، والمشروط متأخر عن الشرط ، وذلك يقتضي أن يكون المتأخر في اللفظ متقدماً في المعنى ، وأن يكون المتقدم في اللفظ متأخراً في المعنى والتقدير : كأنه يقول لامرأته حال ما كلمت زيداً إن دخلت الدار فأنت طالق ، فلو حصل هذا التعليق قبل إن كلمت زيداً لم يقع الطلاق .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ ءامَنْتُمْ بالله فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إن كنتم مسلمين ﴾ يقتضي أن يكون كونهم مسلمين شرطاً لأن يصيروا مخاطبين بقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ ءامَنْتُمْ بالله فعليه توكلوا ﴾ فكأنه تعالى يقول للمسلم حال إسلامه إن كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل ، والأمر كذلك ، لأن الإسلام عبارة عن الاستسلام ، وهو إشارة إلى الانقياد للتكاليف الصادرة عن الله تعالى وإظهار الخضوع وترك التمرد ، وأما الإيمان فهو عبارة عن صيرورة القلب عارفاً بأن واجب الوجود لذاته واحد وأن ما سواه محدث مخلوق تحت تدبيره وقهره وتصرفه ، وإذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إلى الله تعالى ويحصل في القلب نور التوكل على الله فهذه الآية من لطائف الأسرار ، والتوكل

على الله عبارة عن تفويض الأمور بالكلية إلى الله تعالى والاعتماد في كل الأحوال على الله تعالى .

(34/368)

واعلم أن من توكل على الله في كل المهمات كفاه الله تعالى كل الملمات لقوله : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : 3] .

المسألة الثانية :

أن هذا الذي أمر موسى قومه به وهو التوكل على الله هو الذي حكاه الله تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال : ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [يونس : 71] وعند هذا يظهر التفاوت بين الدرجتين لأن نوحاً عليه السلام وصف نفسه بالتوكل على الله تعالى ، وموسى عليه السلام أمر قومه بذلك فكان نوح عليه السلام تاماً ، وكان موسى عليه السلام فوق التمام .

المسألة الثالثة :

إنما قال : ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ ﴾ ولم يقل توكلوا عليه ، لأن الأول يفيد الحصر كأنه عليه السلام أمرهم بالتوكل عليه ونهاهم عن التوكل على الغير ، والأمر كذلك ، لأنه لما ثبت أن كل ما سواه فهو ملكه وملكه وتحت تصرفه وتسخيره وتحت حكمه وتدبيره ، امتنع في العقل أن

يتوكل الإنسان على غيره ، فلهذا السبب جاءت هذ الكلمة بهذه العبارة ، ثم بين تعالى أن موسى عليه السلام لما أمرهم بذلك قبلوا قوله : ﴿ فَقَالُواْ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي توكلنا عليه ، ولا نلتفت إلى أحد سواه ، ثم لما فعلوا ذلك اشتغلوا بالدعاء ، فطلبوا من الله تعالى شيئين : أحدهما : أن قالوا : ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ وفيه وجوه : الأول : أن المراد لا تفتن بنا فرعون وقومه لأنك لو سلطتهم علينا لوقع في قلوبهم أنا لو كنا على الحق لما سلطتهم علينا ، فيصير ذلك شبهة قوية في إصرارهم على الكفر فيصير تسليطهم علينا فتنة لهم .

الثاني : أنك لو سلطتهم علينا لاستوجبوا العقاب الشديد في الآخرة وذلك يكون فتنة لهم .

الثالث : ﴿ لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ أي موضع فتنة لهم ، أي موضع عذاب لهم .

(35/368)

الرابع : أن يكون المراد من الفتنة المفتون ، لأن إطلاق لفظ المصدر على المفعول جائز ، كالخلق بمعنى المخلوق ، والتكوين بمعنى المكون ، والمعنى : لا تجعلنا مفتونين ، أي لا تمكنهم من أن يحملونا بالظلم والقهر على أن ننصرف عن هذا الدين الحق الذي قبلناه ، وهذا التأويل متأكد بما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله :

﴿ فَمَا ءامَنَ لموسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ على خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس : 83] وأما المطلوب الثاني في هذا الدعاء فهو قوله تعالى : ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ القوم الكافرين ﴾ .

واعلم أن هذا الترتيب يدل على أنه كان اهتمام هؤلاء بأمر دينهم فوق اهتمامهم بأمر دنياهم ، وذلك لأنا إن حملنا قولهم : ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ على أنهم إن سلطوا على المسلمين صار ذلك شبهة لهم في أن هذا الدين باطل فتضرعوا إلى الله تعالى في أن يصون أولئك الكفار عن هذه الشبهة وقدموا هذا الدعاء على طلب النجاة لأنفسهم ، وذلك يدل على أن عنايتهم بمصالح دين أعدائهم فوق عنايتهم بمصالح أنفسهم وإن حملناه على أن لا يمكن الله تعالى أولئك الكفار من أن يحملوهم على ترك هذا الدين كان ذلك أيضاً دليلاً على أن اهتمامهم بمصالح أديانهم فوق اهتمامهم بمصالح أبدانهم وعلى جميع التقديرات فهذه لطيفة شريفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 116 . 118 ﴾

(36/368)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . فَقَالُواْ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : في الإسلام إليه .

الثاني : في الثقة به .

﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لا تسلطهم علينا فيفتنوننا ، قاله مجاهد .

الثاني : لا تسلطهم علينا فيفتتنون بنا لظنهم أنهم على حق ، قاله أبو الضحى وأبو مجلز .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(37/368)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وقال موسى - إلى - الكافرين ﴾

ابتداء حكاية قول موسى لجماعة بني إسرائيل المؤمنين منهم مؤنساً لهم ونادباً إلى التوكل على الله الذي بيده النصر ومسألة التوكل متشعبة للناس فيها خوضات ، والذي أقول : إن

التوكل الذي يأمرنا له هو مقترن بتسبب جميل على مقتضى الشرع ، وهو الذي في قوله صلى الله عليه وسلم " قيدها وتوكل " فقد جعله متوكلاً مع التقييد والنبي صلى الله عليه وسلم رأس المتوكلين وقد تسبب عمره كله ، وكذلك السلف كله ، فإن شذ متوكل فترك التسبب جملة فهي رتبة رفيعة ما لم يسرف بها إلى حد قتل نفسه وإهلاكها ، كمن يدخل غاراً خفياً يتوكل فيه فهذا ونحوه مكروه عند جماعة من العلماء ، وما روي من إقدام عامر بن قيس على الأسد ونحو ذلك كله ضعيف ، وللصحيح منه قرائن تسهله ، وللمسلمين أجمعين قال الله تعالى ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ [البقرة : 198] ، ولهم قال ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ [الأنفال : 2] ليس فيه أنهم يتركون التسبب جملة واحدة ولا حفظ عن عكاشة أنه ترك التسبب بل كان يغزو ويأخذ سهمه ، وأعني بذلك ترك التسبب في الغذاء ، وأما ترك التسبب في الطب فسهل وكثير من الناس جبل عليه دون نية وحسبة ، فكيف بمن يحتسب ، وقال لهم : ﴿ إن كنتم آمنتم ﴾ مع علمه بإيمانهم على جهة إقامة الحجة وتنبيه الأنفس و" إثارة الأنفة كما تقول ، إن كنت رجلاً فقاتل ، تخاطب بذلك رجلاً تريد إقامة نفسه ، وقوله ﴿ إن كنتم مسلمين ﴾ ، يريد أهل طاعة منضافة إلى الإيمان المشروط ، فذكر الإسلام فيه زيادة معنى ، ثم ذكر أنه أجاب بنو إسرائيل بنية التوكل على الله والنطق بذلك ، ثم دعوا في أن لا يجعلهم فتنة للظلمة ، والمعنى لا تنزل بنا بلاء

بأيديهم أو بغير ذلك مدة مجاورتنا لهم فيفتنون ويعتقدون إن إهلاكنا إنما هو بقصد منك لسوء ديننا وصلاح دينهم وأنهم أهل الحق ، قاله مجاهد وغيره .

(38/368)

قال القاضي أبو محمد : فهذا لدعاء على هذا التأويل يتضمن دفع فصلين ، أحدهما القتل والبلاء الذي توقعه المؤمنون ، والآخر ظهور الشرك باعتقاد أهله أنهم أهل الحق ، وفي ذلك فساد الأرض ، ونحو هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم ، " ليس الميت أبو امامة اليهود والمشركين يقولون : لو كان نبياً لم يمت صاحبه " ، ويحتمل اللفظ من التأويل وقد قالته فرقة : إن المعنى لا تفتنهم وتبتلهم بقتلنا فتعذبهم على ذلك في الآخرة وفي هذا التأويل قلق ، باقي الآية بيّن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز جـ 3 صـ ﴾

(39/368)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ موسى يا قوم إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ ﴾

أي صدّقتم .

﴿ بالله فَعَلَيْهِ توكلوا ﴾ أي اعتمدوا .

﴿ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ كرر الشرط تأكيداً ، وبيّن أن كمال الإيمان بتفويض الأمر إلى الله .

﴿ فَقَالُواْ على الله تَوَكَّلْنَا ﴾ أي أسلمنا أُمورنا إليه ، ورضينا بقضائه وقدره ، وانتهينا إلى أمره .

﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ أي لا تنصرهم علينا ، فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين ، أو لا تمتحنّا بأن تعذّبنا على أيديهم .

وقال مجاهد : المعنى لا تهلكنا بأيدي أعدائنا ، ولا تعذبنا بعذاب من عندك ، فيقول أعداؤنا لو كانوا على حق لم نسلَّط عليهم ؛ فيُفتنوا .

وقال أبو مِجْلَز وأبو الضُّحا : يعني لا تظهرهم علينا فيروْا أنهم خير منا فيزدادوا طغياناً .

قوله تعالى : ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ ﴾ أي خلّصنا .

﴿ مِنَ القوم الكافرين ﴾ أي من فرعون وقومه ، لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(40/368)

وقال الخازن :

﴿ وقال موسى ﴾

يعني لقومه ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ﴾ يعني .

فيه فثقوا ولأمره فسلموا فإنه ناصر أوليائه ومهلك أعدائه ﴿ إن كنتم مسلمين ﴾ يعني إن كنتم مستسلمين لأمره قيل إنما أعيد قوله إن كنتم مسلمين بعد قوله إن كنتم آمنتم بالله لإرادة إن كنتم موصوفين بالإيمان القلبي وبالإسلام الظاهري ودلت الآية على أن التوكل على الله والتفويض لأمره من كمال الإيمان وأن من كان يؤمن بالله فلا يتوكل إلا على الله لا على غيره ﴿ فقالوا ﴾ يعني قال قوم موسى مجيبين له ﴿ على الله توكلنا ﴾ يعني عليه اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا ربهم فقالوا ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ يعني لا تظهرهم علينا ولا تهلكنا بذنوبهم فيظنوا أنا لم نكن على الحق فيزدادوا طغياناً وكفراً وقال مجاهد : لا تعذبنا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون لو كانوا على حق لما عذبوا ويظنوا أنهم خير منا فيفتتنوا بذلك وقيل معناه لا تسلطهم علينا فيفتنونا ﴿ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ يعني وخلصنا برحمتك من أيدي قوم فرعون الكافرين لأنهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم في الأعمال الشاقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(41/368)

وقال أبو حيان فى الآيات :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾

الظاهر في الفاء من حيث أنّ مدلولها التعقيب أن هذا الإيمان الصادر من الذرية لم يتأخر عن قصة الإلقاء .

والظاهر أن الضمير في قومه عائد على موسى ، وأنه لا يعود على فرعون ، لأنّ موسى هو المحدث عنه في هذه الآية ، وهو أقرب مذكور .

ولأنه لو كان عائداً على فرعون لم يظهر لفظ فرعون ، وكان التركيب على خوف منه .

ومن ملإهم أن يفتنهم ، وهذا الإيمان من الذرية كان أول مبعثه إذ قد آمن به بنو إسرائيل قومه كلهم ، كان أولاً دعا الآباء فلم يجيبوه خوفاً من فرعون ، واجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف .

وقال مجاهد والأعمش : معنى الآية أنّ قوماً أدركهم موسى ولم يؤمنوا ، وإنما آمن ذراريهم بعد هلاكهم لطول الزمن .

قال ابن عطية : وهذا قول غير صحيح ، إذا آمن قوم بعد موت آبائهم ، فلا معنى لتخصيصهم باسم الذرية .

وأيضاً فما روي من أخبار بني إسرائيل لا يعطي هذا ، وينفيه قوله : فما آمن ، لأنه يعطي

تقليل المؤمنين به ، لأنه نفي الإيمان ثم أوجبه لبعضهم ، ولو كان الأكثر مؤمناً لأوجب الإيمان أولاً ثم نفاه عن الأقل ، وعلى هذا الوجه يتخرج قول ابن عباس في الذرية : إنه القليل ، إلا أنه أراد أنّ لفظ الذرية بمعنى القليل كما ظن مكيّ وغيره .

وقالت فرقة : إنما سماهم ذرية لأنّ أمهاتهم كانت من بني إسرائيل ، وإماؤهم من القبط .

رواه عكرمة عن ابن عباس : فكان يقال لهم الذرية كما قيل لفرس اليمن الأبناء ، وهم الفرس المنتقلون مع وهوز بسعاية سيف بن ذي يزن .

وممن ذهب إلى أن الضمير في قومه على موسى : ابن عباس قال : وكانوا ستمائة ألف ، وذلك أن يعقوب عليه السلام دخل مصر في اثنين وسبعين نفساً ، فتوالدوا بمصر حتى صاروا ستمائة ألف .

وقيل : الضمير في قومه يعود على فرعون ، روي أنه آمنت زوجة فرعون وخازنه وامرأة خازنه وشباب من قومه .

(42/368)

قال ابن عباس أيضاً : والسحرة أيضاً ، فإنهم معدودون في قوم فرعون .

وقال السدي : كانوا سبعين أهل بيت من قوم فرعون .

قال ابن عطية : ومما يضعف عود الضمير على موسى عليه السلام أنّ المعروف من أخبار بني إسرائيل أنهم كانوا قوماً قد فشت فيهم السوآت ، وكانوا في مدة فرعون قد نالهم ذل مفرط ، وقد رجوا كشفه على يد مولود يخرج فيهم يكون نبياً ، فلما جاءهم موسى عليه السلام أصفقوا عليه وبايعوه ، ولم يحفظ قط أن طائفة من بني إسرائيل كفرت به ، فكيف تعطى هذه الآية أنّ الأقل منهم كان الذي آمن ، فالذي يترجح بحسب هذا أنّ الضمير عائد على فرعون .

ويؤيد ذلك أيضاً ما تقدم من محاورة موسى ورده عليهم ، وتوبيخهم على قولهم هذا سحر ، فذكر الله ذلك عنهم ثم قال : فما آمن لموسى إلا ذرية من قوم فرعون الذي هذه أقوالهم .

وتكون القصة على هذا التأويل بعد ظهور الآية والتعجيز بالعصا ، وتكون الفاء مرتبة للمعاني التي عطفت انتهى .

ويمكن أن يكون معنى فما آمن أي : ما أظهر إيمانه وأعلن به إلا ذرية من قوم موسى ، فلا يدل ذلك على أنّ طائفة من بني إسرائيل كفرت به .

والظاهر عود الضمير في قوله : وملاهم ، على الذرية وقاله الأخفش ، واختاره الطبري أي : أخوف بني إسرائيل الذرية وهم أشراف بني إسرائيل إن كان الضمير في قومه عائداً على موسى ، لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفاً من فرعون على أنفسهم .

ويدل عليه قوله تعالى : أن يفتنهم أي يعذبهم .

وقال ابن عباس : أن يقتلهم .

وقيل : يعود على قومه أي : وملا قوم موسى ، أو قوم فرعون .

وقيل : يعود على المضاف المحذوف تقديره : على خوف من آل فرعون ، قاله الفراء .

كما حذف في ، ﴿ واسأل القرية ﴾ ورد عليه بأنّ الخوف يمكن من فرعون ، ولا يمكن سؤال القرية ، فلا يحذف إلا ما دل عليه الدليل .

وقد يقال : ويدل على هذا المحذوف جمع الضمير في وملاهم .

(43/368)

وقيل : ثم معطوف محذوف يدل عليه كون الملك لا يكون وحده ، بل له حاشية وأجناد ، وكأنه قيل : على خوف من فرعون وقومه وملاهم أي : ملا فرعون وقومه ، وقاله الفراء أيضاً : وقيل : لما كان ملكاً جباراً أخبر عنه بفعل الجميع .

وقيل : سميت الجماعة بفرعون مثل هود .

وأن يفتنهم بدل من فرعون بدل اشتمال أي : فتنته ، فكون في موضع جر ، ويجوز أن يكون في موضع نصب بخوف إما على التعليل ، وإما على أنه في موضع المفعول به ، أي : على خوف لأجل فتنته ، أو على خوف فتنته .

وقرأ الحسن وجراح ونبيح : يفتنهم بضم الياء من أفتن ، ولعال متجر أو باع ظالم ، أو متعال أو قاهر كما قال :

فاعمد لما تعلو فما لك بالذي . . .

لا تستطيع من الأمور يدان

أي لما تقهر أقوال متقاربة ، وإسرافه كونه كثير القتل والتعذيب .

وقيل : كونه من أخس العبيد فادعى الإلهية ، وهذا الإخبار مبين سبب خوف أولئك المؤمنين منه .

وفي الآية مسلاة للرسول (صلى الله عليه وسلم) بقلة من آمن لموسى ومن استجاب له مع ظهور ذلك المعجز الباهر ، ولم يؤمن له إلا ذرية من قومه ، وخطاب موسى عليه السلام لمن آمن بقوله : يا قوم ، دليل على أن المؤمنين الذرية كانوا من قومه ، وخاطبهم بذلك حين اشتد خوفهم مما توعدهم به فرعون من قتل الآباء وذبح الذرية .

وقيل : قال لهم ذلك حين قالوا إنا لمدركون .

وقيل : حين قالوا : أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قيل : والأول هو الصواب ، لأنّ جواب كل من القولين مذكور بعده وهو :

﴿ كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ وقوله : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ الآية وعلق توكلهم على شرطين : متقدم ، ومتأخر .

ومتى كان الشرطان لا يترتبان في الوجود فالشرط الثاني شرط في الأول ، فمن حيث هو شرط فيه يجب أن يكون متقدماً عليه .

(44/368)

فالإسلام هو الانقياد للتكاليف الصادرة من الله ، وإظهار الخضوع وترك التمرّد ، والإيمان عرفان القلب بالله تعالى ووحدانيته وسائر صفاته ، وأنّ ما سواه محدث تحت قهره وتدبيره .

وإذا حصل هذان الشرطان فوض العبد جميع أموره إلى الله تعالى ، واعتمد عليه في كل الأحوال .

وأدخل أنْ على فعلي الشرط وإن كانت في الأغلب إنما تدخل على غير المحقق مع علمه بإيمانهم على وجه إقامة الحجة وتنبيه الأنفس وإثارة الأنفة ، كما تقول : إن كنت رجلاً فقاتل ، تخاطب بذلك رجلاً تريد إقامة البينة .

وطول ابن عطية هنا في مسألة التوكل بما يوقف عليه في كتابه .

وأجابوا موسى عليه السلام بما أمرهم به من التوكل على الله لأنهم كانوا مخلصين في إيمانهم وإسلامهم ، ثم سألوا الله تعالى شيئين : أحدهما : أن لا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين .

قال الزمخشري : أي موضع فتنة لهم ، أي عذاب تعذبوننا أو تفتوننا عن ديننا ، أو فتنة لهم يفتنون بها ويقولون : لو كان هؤلاء على الحق ما أصيبوا .

وقال مجاهد وأبو مجلز وأبو الضحى وغيرهم : معنى القول الآخر قال : المعنى لا ينزل بنا ملأنا بأيديهم أو بغير ذلك مدة محاربتنا لهم فيفتنون ويعتقدون أنْ هلاكنا إنما هو بقصد منك لسوء ديننا وصلاح دينهم وأنهم أهل الحق .

وقالت فرقة : المعنى لا نفتنهم ونبتليهم بقتلنا وإذايتنا فنعذبهم على ذلك في الآخرة .

قال ابن عطية : وفي هذا التأويل قلق .

وقال ابن الكلبي : لا تجعلنا فتنة بتقتير الرزق علينا وبسطه لهم .

والآخر : ينجيهم من الكافرين أي : من تسخيرهم واستعبادهم .

والذي يظهر أنهم سألوا الله تعالى أنْ لا يفتنوا عن دينهم ، وأن يخلصوا من الكفار ، فقدموا ما كان عندهم أهم وهو سلامة دينهم لهم ، وأخروا سلامة أنفسهم ، إذ الاهتمام بمصالح الدين آكد من الاهتمام بمصالح الأبدان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(45/368)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾

لما رأى تخوّفَ المؤمنين منه ﴿ يا قوم إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ ﴾ أي صدقتم به وبآياته ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ ﴾ وبه ثِقوا ولا تخافوا أحداً غيرَه فإنه كافيكم كلَّ شرَ وضُرّ ﴿ إِن كُنْتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ مستسلمين لقضاءِ الله تعالى مخلِصين له ، وليس هذا من تعليق الحُكمِ بشرطين فإن المعلَّقَ بالإيمان وجوبُ التوكلِ عليه تعالى فإنه المقتضي له ، والمشروط بالإسلام وجودُه فإنه لا يتحقق مع التخليد ، ونظيرُه : إنْ أحسنَ إليك زيدٌ فأحسنْ إليه إن قدرتَ عليه ﴿ فَقَالُواْ ﴾ مجيبين له عليه السلام من غير تعلثم في ذلك ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ لأنهم كانوا مؤمنين مخلِصين ثم دعَوا ربَّهم قائلين : ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ﴾ أي موقعَ فتنةٍ ﴿ لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ أي لا تسلِّطْهم علينا حتى يعذّبونا أو يفتنونا عن ديننا أو يُفتَتنوا بنا ويقولوا : لو كان هؤلاء على الحق لَما أصيبوا وقوله تعالى : ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ القوم الكافرين ﴾ دعاءٌ منهم بالإنجاء من سوء جوارِهم وشؤمِ مصاحبتِهم بعد الإنجاءِ من ظلمهم ، عبّر عنهم بالكفر بعدما وُصفوا بالظلم ، وفي ترتيب الدعاءِ على التوكل تلويحٌ بأن الداعي حقُّه أن يبنيَ دعاءَه على التوكل على الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(46/368)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾

لما رأى تخوف المؤمنين ﴿ يا قوم إِن كُنتُمْ ءامَنْتُمْ بالله ﴾ أي صدقتم به وبآياته ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ ﴾ أي اعتمدوا لا على أحد سواه فإنه سبحانه كافيكم كل شر وضر .

﴿ إِن كُنْتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ أي مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له ، وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين بل من تعليق شيئين بشرطين لأنه علق وجوب التوكل المفهوم من الأمر وتقديم المتعلق بالإيمان فإنه المقتضى له وعلق نفس التوكل ووجوده بالإسلام والإخلاص لأنه لا يتحقق مع التخليط ، ونظير ذلك إن دعاك زيد فأجبه إن قدرت عليه فإن وجوب الإجابة معلق بالدعوة ونفس الدعوة معلقة بالقدرة ، وحاصله إن كنتم آمنتم بالله فيجب عليكم التوكل عليه سبحانه فافعلوه واتصفوا به إن كنتم مستسلمين له تعالى .

وهذا النوع على ما في "الكشف" يفيد مبالغة في ترتب الجزاء على الشرط على نحو إن دخلت الدار فأنت طالق إن كنت زوجتي وجعله بعضهم من باب التعليق بشرطين المقتضى لتقدم الشرط الثاني على الأول في الوجود حتى لو قال : إن كلمت زيداً فأنت طالق إن دخلت الدار لم تطلق ما لم تدخل قبل الكلام لأن الشرط الثاني شرط للأول فيلزم تقدمه عليه ، وقرره بأن ههنا ثلاثة أشياء : الإيمان .

والتوكل .

والإسلام ، والمراد بالإيمان التصديق وبالتوكل إسناد الأمور إليه عز وجل ، وبالإسلام تسليم النفس إليه سبحانه وقطع الأسباب فعلق التوكل بالتصديق بعد تعليقه بالإسلام لأن الجزاء معلق بالشرط الأول وتفسير للجزاء الثاني كأنه قيل : إن كنتم مصدقين بالله تعالى وآياته فخصوه سبحانه بإسناد جميع الأمور إليه وذلك لا يتحصل إلا بعد أن تكونوا مخلصين لله تبارك وتعالى مستسلمين بأنفسكم له سبحانه ليس للشيطان فيكم نصيب وإلا فاتركوا أمر التوكل .

ويعلم منه أن ليس لكل أحد من المؤمنين الخوض في التوكل بل للآحاد منهم وأن مقام التوكل دون مقام التسليم والأكثر على الأول ولعله أدق نظراً .

(47/368)

﴿ فَقَالُواْ ﴾ مجيبين له عليه السلام من غير تلعثم وبلع ريق في ذلك ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ لا على غيره سبحانه ويؤخذ من هذا القصر والتعبير بالماضي دون نتوكل أنهم كانوا مؤمنين مخلصين ، قيل : ولذا أجيب دعاؤهم ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ أي موضع فتنة وعذاب لهم بأن تسلطهم علينا فيعذبونا أو يفتنونا عن ديننا أو يفتنوا بنا ويقولوا : لو

كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا .

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ القوم الكافرين ﴾

دعاء بالإنجاء من سوء جوارهم وسوء صنيعهم بعد الإنجاء من ظلمهم ، ولذا عبر عنهم بالكفر بعدما وصفوا بالظلم ففيه وضع المظهر موضع المضمر ، وجوز أن يراد من القوم الظالمين الملأ الذين تخوفوا منهم ومن القوم الكافرين ما يعمهم وغيرهم ، وفي تقديم التوكل على الدعاء وإن كان بياناً لامتثال أمر موسى عليه السلام لهم به تلويح بأن الداعي حقه أن يبني دعاءه على التوكل على الله تعالى فإنه أرجى للإجابة ولا يتوهمن أن التوكل مناف للدعاء لأنه أحد الأسباب للمقصود والتوكل قطع الأسباب لأن المراد بذاك قطع النظر عن الأسباب العادية وقصره على مسببها عز وجل واعتقاد أن الأمر مربوط بمشيئته سبحانه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وقد صرحوا أن الشخص إذا تعاطى الأسباب معتقداً ذلك يعد متوكلاً أيضاً ، ومثل التوكل في عدم المنافاة للدعاء على ما تشعر به الآية الاستسلام .

نعم في قول بعضهم : إن الاستسلام من صفات إبراهيم عليه السلام وكان من آثاره ترك الدعاء حين ألقى في النار واكتفاؤه عليه السلام بالعلم المشار إليه بقوله : حسبي من سؤالي علمه بحالي ما يشعر بالمنافاة ومن عرف المقامات وأمعن النظر هان عليه أمر الجمع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(48/368)

وقال القاسمي :

﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾

أي : تطميناً لقلوبهم ، وإزالة للخوف عنهم : ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ ﴾ أي : فإليه أسندوا أمركم في العصمة مما تخافون ، وبه ثقوا فإنه كافيكم ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : من الآية 3] ، وقوله : ﴿ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ أي : مخلصين وجوهكم له .

قال القاشاني : جعل التوكل من لوازم الإسلام ، وهو إسلام الوجه لله تعالى ، أي : إن كمل إيمانكم ويقينكم ، بحيث أثر في نفوسكم ، وجعلها خالصة لله ؛ لزم التوكل عليه . وإن أريد (الإسلام) بمعنى الانقياد ، كان شرطاً في التوكل ، لا ملزوماً له ، وحينئذ يكون معناه : إن صح إيمانكم يقيناً فعليه توكلوا ، بشرط أن تكونوا منقادين . كما تقول : إن كرهت هذا الشجر فاقلعه إن قدرت – انتهى – .

(49/368)

وقال الكرخي : قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ أي : منقادين لأمره ، فقوله : ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ ﴾ جواب الشرط الأول ، والشرط الثاني وهو : ﴿ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ شرط في الأول ، وذلك أن الشرطين متى لم يترتبا في الوجود ، فالشرط الثاني شرط في الأول . ولذلك لم يجب تقديمه على الأول . قال الفقهاء : المتأخر يجب أن يكون متقدماً ، والمتقدم يجب أن يكون متأخراً ، مثاله : قول الرجل لامرأته : إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلمت زيداً ، فمجموع قوله : (إن دخلت الدار فأنت طالق) مشروط (إن كلمت زيداً) والمشروط متأخر عن الشرط ، وذلك يقتضي أن يكون المتأخر في اللفظ متأخراً في المعنى ، فكأنه يقول لامرأته : حال ما كلمت زيداً إن دخلت الدار فأنت طالق ، فلو حصل هذا المعلق قبل إن كلمت زيداً لم يقع الطلاق . فقوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم ﴾ الخ يقتضي أن يكون كونهم مسلمين شرطاً لأن يصيروا مخاطبين بقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ ﴾ فكأنه تعالى يقول للمسلم حال إسلامه : إن كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل . والأمر كذلك ، لأن الإسلام عبارة عن الاستسلام وهو الانقياد لتكاليف الله ، وترك التمرد والإيمان عبارة عن معرفة القلب بأن واجب الوجود لذاته واحد ، وما سواه محدث تحت تدبيره وقهره . وإذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إليه تعالى ، ويحصل في القلب نور التوكل على الله تعالى . انتهى .

﴿ فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : موضع فتنة لهم ، أي : عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا . قال الحاكم : دلت على حسن السؤال بالنجاة من الظلمة .

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي : من كيدهم ، ومن شؤم مشاهدتهم ، والعبودية لهم .

قال القاضي : وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي له أن يتوكل أولاً لتجاب دعوته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 56. 58 ﴾

(51/368)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴾

عطف بقية القصة على أولها فهو عطف على جملة ﴿ وقال فرعون ﴾ [يونس : 79] ، وهذا خطاب موسى لجميع قومه وهم بنو إسرائيل الذين بمصر ، وهو يدل على أنه خاطبهم بذلك بعد أن دعاهم وآمنوا به كما يؤذن به قوله : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله ﴾ .

والغرض منه تثبيت الذين آمنوا به في حضرة فرعون على توكلهم ، وأمْرُ مَن عداهم الذين خاف ذريتُهم أن يؤنبوهم على إظهار الإيمان بأن لا يُجبّنوا أبناءهم ، وأن لا يخشوا فرعون ، ولذلك قال : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ﴾ .

والمعنى : إن كنتم آمنتم بالله حقاً كما أظهرتْه أقوالكم فعليه اعتمدوا في نصركم ودفع الضر عنكم ولا تعتمدوا في ذلك على أنفسكم بمصانعة فرعون ولا على فرعون بإظهار الولاء له .

وأراد إثارة صدق إيمانهم وإلهابَ قلوبهم بجعل إيمانهم معلقاً بالشرط محتمل الوقوع ، حيث تخوفوا من فرعون أن يفتنهم فأرادوا أن يكتموا إيمانهم تقية من فرعون وملئهم ، وإنما جَعل عدم اكتراثهم ببطش فرعون علامة على إيمانهم لأن الدعوة في أول أمرها لا تتقوم إلا بإظهار متبعيها جماعتَهم ، فلا تغتفر فيها التقية حينئذٍ .

وبذلك عمل المسلمون الأولون مثل بلال ، وعمار ، وأبي بكر ، فأعلنوا الإيمان وتحملوا الأذى ، وإنما سوغت التقية للآحاد من المؤمنين بعد تقوم جامعة الإيمان فذلك محل قوله تعالى : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ [النحل : 106] .

فتقديم المجرور على متعلقه في قوله : ﴿ فعليه توكلوا ﴾ لإفادة القصر ، وهو قصر إضافي يفسره قوله : ﴿ على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ﴾ [يونس : 83] ، فآل المعنى

إلى نهيهم عن مخافة فرعون .

والتوكلُ : تقدم آنفاً في قصة نوح .

(52/368)

وجملة : ﴿ إن كنتم مسلمين ﴾ شرط ثان مؤكد لشرط ﴿ إن كنتم آمنتم بالله ﴾ ، فحصل من مجموع الجملتين أن حصول هذا التوكل متوقف على حصول إيمانهم وإسلامهم ، لمزيد الاعتناء بالتوكل وأنه ملازم للإيمان والإسلام ، ومبين أيضاً للشرط الأول ، أي إن كان إيمانكم إيمان مسلم لله ، أي مخلص له غير شائب إياه بتردد في قدرة الله ولا في أن وعده حق ، فَحصَل من مجموع الشرطين ما يقتضي تعليق كل من الشرطين على الشرط الآخر .

وهذا من مسألة تعليق الشرط على الشرط ، والإيمان : تصديق الرسول فيما جاء به وهو عمل قلبي ، ولا يعتبر شرعاً إلا مع الإسلام ، والإسلامُ : النطق بما يدل على الإيمان ولا يعتبر شرعاً إلا مع الإيمان ، فالإيمان انفعال قلبي نفساني ، والإسلام عمل جسماني ، وهما متلازمان في الاعتداد بهما في اتّباع الدين إذ لا يعلم حصول تصديق القلب إلا بالقول والطاعة ، وإذ لا يكون القول حقاً إلا إذا وافق ما في النفس ، قال تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تومنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾

[الحجرات : 14] .

وقد ورد ذلك صريحاً في حديث سؤال جبريل في "الصحيحين" .

وليس المراد أنهم إن لم يتوكلوا كانوا مؤمنين غير مسلمين ، ولا أنهم إن توكلوا كانوا مسلمين غير مؤمنين ، لأن ذلك لا يساعد عليه التدين بالدين .

ومن ثم كان قوله : ﴿ فعليه توكلوا ﴾ جواباً للشرطين كليهما .

أي يقدر للشرط الثاني جواب مماثل لجواب الشرط الأول .

هذا هو محمل الآية وما حاوله كثير من المفسرين خروج عن مهيع الكلام .

وقد كان صادق إيمانهم مع نور الأمر النبوي الذي واجههم به نبيئهم مسرعاً بهم إلى التجرد عن التخوف والمصانعة ، وإلى عقد العزم على التوكل على الله ، فلذلك بادروا بجوابه بكلمة ﴿ على الله توكلنا ﴾ مشتملة على خصوصية القصر المقتضي تجردهم عن التوكل على غير الله تعالى .

(53/368)

وأشير إلى مبادرتهم بأن عطفت جملة قولهم ذلك على مقالة موسى بفاء التعقيب خلافاً للأسلوب الغالب في حكاية جمل الأقوال الجارية في المحاورات أن تكون غير معطوفة ،

فخولف مقتضى الظاهر لهذه النكتة .

ثم ذَيّلوا كلمتهم بالتوجه إلى الله بسؤالهم منه أن يقيهم ضر فرعون ، ناظرين في ذلك إلى مصلحة الدين قبل مصلحتهم لأنهم إن تمكن الكفرة من إهلاكهم أو تعذيبهم قويت شوكة أنصار الكفار فيقولون في أنفسهم : لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ما أصابهم فيفتتن بذلك عامةُ الكفرة ويظنون أن دينهم الحق .

والفتنة : تقدم تفسيرها آنفاً .

وسموا ذلك فتنة لأنها تزيد الناس توغلا في الكفر ، والكفر فتنة .

والفتنة مصدر .

فمعنى سؤالهم أن لا يجعلهم الله فتنة هو أن لا يجعلهم سبب فتنة ، فتعدية فعل ﴿ تجعلنا ﴾ إلى ضميرهم المخبر عنه بفتنة تعدية على طريقة المجاز العقلي ، وليس الخبر بفتنة من الإخبار بالمصدر إذ لا يفرضون أن يكونوا فاتنين ولا يسمح المقام بأنهم أرادوا لا تجعلنا مفتونين للقوم الظالمين .

ووصفوا الكفار بـ ﴿ الظالمين ﴾ لأن الشرك ظلم ، ولأنه يشعر بأنهم تلبسوا بأنواع الظلم : ظلم أنفسهم ، وظلم الخلائق ، ثم سألوا ما فيه صلاحهم فطلبوا النجاة من القوم الكافرين ، أي من بطشهم وإضرارهم .

وزيادة ﴿ برحمتك ﴾ للتبرؤ من الإدلال بإيمانهم لأن المنة لله عليهم ، قال تعالى : ﴿ قل لا

تمنوا علي إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ﴾ [الحجرات : 17] .

وذكر لفظ القوم في قوله : ﴿ للقوم الظالمين ﴾ وقوله : ﴿ من القوم الكافرين ﴾ للوجه الذي أشرنا إليه في أواسط البقرة ، وفي هذه السورة غير مرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(54/368)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آَمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84) ﴾

وهنا شرطان ، في قوله تعالى :

﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بالله ﴾ [يونس : 84] .

وجاء جواب هذا الشرط في قوله سبحانه :

﴿ فَعَلَيْهِ توكلوا ﴾ [يونس : 84] .

ثم جاء بشرط آخر هو : ﴿ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس : 84] .

وهكذا جاء الشرط الأول وجوابه ، ثم جاء شرط آخر ، وهذا الشرط الآخر هو الشرط

الأول وهو الإسلام لله ؛ لأن الإيمان بالله يقتضي الإسلام وأن يكونوا مسلمين .

ومثال ذلك في حياتنا : حين يريد ناظر إحدى المدارس أن يعاقب تلميذاً خالف أوامر المدرسة ونظمها ، ويستعطف التلميذ الناظر ، فيرد الناظر على هذا الاستعطاف بقوله : " إن جئت يوم السبت القادم قَبِلتك في المدرسة إن كان معك وليُّ أمرك ؛ ومجيء ولي الأمر هنا مرتبط بالموعد الذي حدده الناظر لعودة التلميذ لصفوف الدراسة ، وهكذا نجد أن الشرط الآخر مرتبط بالشرط الأول .

وهنا يتجلَّى ذلك في قول الحق سبحانه :

﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس : 84] .

والإيمان كما نعلم عملية وجدانية قلبية ، والإسلام عملية ظاهرية ، فمرة ينفذ الفرد تعاليم الإسلام ، وقد ينفك مرة أخرى من تنفيذ التعاليم رغم إيمانه بالله ، ومرة تجد واحداً ينفذ تعاليم الإسلام نفاقاً من غير رصيد من إيمان .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ [البقرة : 25] .

ونجده سبحانه يبيّن هذا الأمر بتحديد قاطع في قوله تعالى :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا ﴾ [الحجرات : 14] .

والإيمان عملية قلبية ؛ لذلك يأتي الأمر الإلهي :

﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : 14]

.

(55/368)

أي : أنكم تؤدون فروض الإسلام الظاهرية ، لكن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بالله فَعَلَيْهِ توكلوا ﴾ [يونس : 84] .

وهكذا نرى أن التوكل مطلوب الإيمان ، وأن يُسلم الإنسان زمامه في كل أمر إلى مَنْ آمن به ؛ ولذلك لا ينفع الإيمان إلا بالإسلام ، فإن كنتم مسلمين مع إيمانكم فتوكلوا على الله تعالى .

لكن إن كنتم قد آمنتم فقط ولم تسلموا الزمام لله في التكاليف إلى الله في " افعل " و " لا تفعل " ، فهذا التوكل لا يصلح .

وهكذا يتأكد لنا ما قلناه من قبل من أنك إذا رأيت أسلوباً فيه شرط تقدم ، وجاء جواب بعد الشرط ، ثم جاء شرط آخر ، فاعلم أن الشرط الأخير هو المقدَّم ، لأنه شرط في الشرط الأول ، وبالمثل هنا فإن التوكل لن ينشأ إلا بالإسلام مع الإيمان .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ فَقَالُواْ على الله تَوَكَّلْنَا ﴾

أي : أنهم استجابوا لدعوة موسى عليه السلام بمجرد قولهم : ﴿ على الله تَوَكَّلْنَا ﴾ .

وإذا تقدم الجار على المجرور فمعنى ذلك قَصْر وحَصْر الأمر ، وهنا قصر وحصر التوكل على الله تعالى ، ولا توكل على سواه .

ويأتي بعد ذلك دعاؤهم :

﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ [يونس : 85] .

والفتنة : اختبار ، وهي كما قلنا من قبل ليست مذمومة في ذاتها ، بل المذموم أن تكون النتيجة في غير صالح من يمر بالفتنة .

ويقال : فتنت الذهب ، أي : صهرت الذهب ، واستخلصته من كل الشوائب ، ونحن نعلم أن صُنَّاع الذهب يخلطونه بعناصر أخرى ؛ ليكون متماسكاً ؛ لأن الذهب غير المخلوط بعناصر أخرى لا يتماسك .

والفتنة التي قالوا فيها :

﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ [يونس : 85] .

هي فتنة الخوف من أن يرتد بعضهم عن الإيمان لو انتصر عليهم فرعون وعذَّبهم ، وكأنهم يقولون : يا رب لا تسلّط علينا فرعون بعذاب شديد .

هذا إن كانوا مفتونين ، فماذا إن كانوا هم الفاتنين ؟

إنهم في هذه الحالة لو لم يتبعوا الدين التتبع الحقيقي لما علم فرعون وآله أن هؤلاء الذين أعلنوا الإيمان هم مسلمون بحق ، وهم لو انحرفوا عن الدين لقال عنهم آل فرعون : إنهم ليسوا أهل إيمان حقيقي .

ونجد سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو أبو الأنبياء وله قدره العظيم في النبوة ، يقول :

﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [الممتحنة : 5] .

ودعوة إبراهيم عليه السلام تعلمنا ضرورة التمسك بتعاليم الدين ؛ حتى لا ينظر أحد إلى المسلم أو المؤمن ويقول : هذا هو من يعلن الإيمان ويتصرف عكس تعاليم دينه .

ولذلك كان سيدنا إبراهيم عليه السلام يؤدي الأوامر بأكثر مما يطلب منه ، ويقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة : 124] .

أي : أنه كان يتم كل عمل بنية وإتقان ؛ لأنه أسوة ، فلم يقم بعمل إيماني بمظهر سطحي .

إذن : فإن كانوا هم المفتونين ، فهم يدفعون الفتنة عن أنفسهم ، وإن كانوا هم الفاتنين ؛ فعليهم التمسك بتعاليم الدين ؛ حتى لا يتهمهم أحد بالتقصير في أمور دينهم ، فيزداد الكافرون كفراً وضلالاً .

وجاء قول الحق سبحانه :

﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ [يونس : 85] .

ليدل على انشغالهم بأمر الدين ، فاتنين أو مفتونين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ القوم الكافرين ﴾

وهنا توضح الآية الكريمة أنهم إن كانوا مشغولين بأمر الغير من الكافرين فهذا يعني أنهم طمعوا في إيمان العدو ؛ لعل هذا العدو يعود إلى رشد الإيمان .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " .

وهم أرادوا إيمان العدو رغم أنه ظالم .

(57/368)

وهكذا يعلّم الحق سبحانه وتعالى الخلق أنه من حُمْق العداوة أن يدعو الإنسان على عدوِّه بالشر ؛ لأن الذي يتعبك من عدوك هو شرُّه ، ومن صالحك أن تدعو له بالخير ؛ لأن هذا الخير سيتعدى إليك .

وعلى المؤمن أن يدعو لعدوِّه بالهداية ، لأنه حين يهتدي ؛ فلسوف يتعدَّى لانفع إليك ، وهذه

من مميزات الإيمان أن نفعه يتعدَّى إلى الغَيْر .

وهم حين دعوا ألاَّ يجعلهم الله فتنةً للقوم الظالمين ، فإن ذلك يوضّح لنا أن الظلم درجاتٌ ، وأن فرعون وملأه كانوا في قمة الظلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] .

فقمة الظلم أن تأخذ حَقَّ الغير وتعطيه لغير صاحب الحق . وفرعون وملؤه أشركوا بالله سبحانه وتعالى فظن فرعون أنه إله ، وصدَّقه من حوله .

فقمة الظلم هو الشرك بالله سبحانه ، ثم بعد ذلك يتنزل إلى الظلم في الكبائر ، ثم في الصغائر

.

وقولهم في دعائهم للحق سبحانه :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ القوم الكافرين ﴾ [يونس : 86] .

أي : اجعلنا بنجوةٍ من هؤلاء .

وكان الذي يخيف الأقدمين هو سيول المياه ، حين تتدفَّق ، ولا ينجو إلا مَنْ كان في ربوةٍ عالية والنجوة هي المكان المرتفع وهذا هو أصل كلمة " النجاة " .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسانهم :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ القوم الكافرين ﴾ [يونس : 86] .

والرحمة هي الوقاية من أن يجيء الداء .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ [الإسراء : 82] .

والشفاء إذا وُجد الدّاء ، والرحمة هي ألاَّ يجيء الداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(58/368)

" فصل "

قال السيوطى :

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية ﴾ قال : الذرية القليل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ذرية من قومه ﴾ قال : من بني إسرائيل .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ﴾ قال : أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات

آباؤهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت الذرية التي آمنت بموسى من أناس بني إسرائيل من قوم فرعون ، منهم امرأة فرعون ، ومؤمن آل فرعون ، وخازن فرعون ، وامرأة خازنه .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور ونعيم بن حماد في الفتن وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ قال : لا تسلطهم علينا فيفتنونا .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ قال : لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون ولا بعذاب من عندك ، فيقول قوم فرعون : لو كانوا على الحق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنون بنا .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن أبي قلابة رضي الله عنه في قول موسى عليه السلام ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ قال : سأل ربه أن لا يظهر علينا عدوّنا فيحسبون أنهم أولى بالعدل فيفتنون بذلك .

وأخرج ابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي مجلز في قوله ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ قال : لا تظهرهم علينا فيروا أنهم خير منا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(59/368)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴾ : جوابُ الشرط الأول ، والشرطُ الثاني وهو إن كنتم مسلمين شرطٌ في الأول ، وذلك أن الشرطين متى لم يترتبا في الوجود فالشرطُ الثاني شرطٌ في الأول ، ولذلك يجب تقدُّمُه على الأول ، وقد تقدَّم تحقيقُ ذلك . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 258 ﴾

(60/368)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيات

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84) ﴾

بيَّن أن الإيمان ليس من حيث الأقوال . . بل لا بد فيه صدق الأحوال قصداً .

وحقيقةُ التوكل تَوَسُّلٌ تقديمُه مُتَّصِلٌ ، ثم يعلم أنه بفضله – سبحانه – تَحْصُلُ نجاتُه ، لا بما يأتي به من التكلُّف – هذه هي حقيقة التوكل .

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) ﴾

تبرأنا مما مِنَّا نَ الحوْل والمُنَّة ، وتحققنا بما منك من الطوْل والمِنَّة .

فلا تجعلنا عرضةً لسهام أحكامك في عقوبتك بانتقامك ، وارحمنا بلطفك وإكرامك ، ونجِّنا مِمَّنْ غَضِبْتَ عليهم فأَذْلَلْتَهم ، وبِكَيِّ فراقك وسَمْتَهُم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 112 ﴾

(61/368)

قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أجابوه إلى إظهار الاعتماد عليه سبحانه وفوضوا الأمور إليه ، أتبعه ما يزيدهم

طمأنينة من التوطن في أرض العدو إشارة إلى عدم المبالاة به ، لأنه روي أنه كانت لهم متعبدات يجتمعون فيها ، فلما بعث موسى عليه السلام أخربها فرعون ، فأمر الله تعالى أن تجعل في بيوتهم لئلا يطلع عليهم الكفرة فقال تعالى عاطفاً على قوله : ﴿ وقال موسى ﴾ ﴿ وأوحينا ﴾ أي بما لنا من العظمة البالغة ﴿ إلى موسى وأخيه ﴾ أي الذي طلب مؤازرته ومعارضته ﴿ أن تبوءا ﴾ أي اتخذا ﴿ لقومكما بمصر ﴾ وهي ما بين البحر إلى أقصى أسوان والإسكندرية منها ﴿ بيوتاً ﴾ تكون لهم مرجعاً يرجعون إليه ويأوون إليه ﴿ واجعلوا ﴾ أي أنتما ومن معكما من قومكما ﴿ بيوتكم قبلة ﴾ أي مصلى لتتعبدوا فيها مستترين عن الأعداء تخفيفاً من أسباب الخلاف ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أي بجميع حدودها وأركانها مستخفين ممن يؤذيكم جمعاً بين آلتي النصر : الصبر والصلاة ، وتمرناً على الدين وتثبيتاً له في القلب .

ولما كان الاجتماع فيما تقدم أضخم وأعز وأعظم ، وكان واجب على الأمة كوجوبه على الإمام جمع فيه ، وكان إسناده البشارة عن الملك إلى صاحب الشريعة أثبت لأمره وأظهر لعظمته وأثبت في قلوب أصحابه وأقر لأعينهم ، أفرد في قوله : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أي الراسخين في الإيمان من أخيك وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 474 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾

اعلم أنه لما شرح خوف المؤمنين من الكافرين وما ظهر منهم من التوكل على الله تعالى أتبعه بأن أمر موسى وهارون باتخاذ المساجد والإقبال على الصلوات يقال : تبوأ المكان ، أي اتخذه مبوأ كقوله توطنه إذا اتخذه موطناً ، والمعنى : اجعلا بمصر بيوتاً لقومكما ومرجعاً ترجعون إليه للعبادة والصلاة .

ثم قال : ﴿ واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ وفيه أبحاث :

البحث الأول : من الناس من قال : المراد من البيوت المساجد كما في قوله تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فيها اسمه ﴾ [النور : 36] ومنهم من قال : المراد مطلق البيوت ، أما الأولون فقد فسروا القبلة بالجانب الذي يستقبل في الصلاة ، ثم قالوا : والمراد من قوله : ﴿ واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ أي اجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لأجل الصلاة ، وقال الفراء : واجعلوا بيوتكم قبلة ، أي إلى القبلة ، وقال ابن الأنباري : واجعلوا بيوتكم قبلة أي قبلاً يعني مساجد فأطلق لفظ الوحدان ، والمراد الجمع ، واختلفوا في أن هذه القبلة أين كانت ؟ فظاهر أن لفظ القرآن لا يدل على تعيينه ، إلا أنه نقل عن ابن عباس أنه قال :

كانت الكعبة قبلة موسى عليه السلام .

وكان الحسن يقول : الكعبة قبلة كل الأنبياء ، وإنما وقع العدول عنها بأمر الله تعالى في أيام الرسول عليه السلام بعد الهجرة .

وقال آخرون : كانت تلك القبلة جهة بيت المقدس .

وأما القائلون بأن المراد من لفظ البيوت المذكورة في هذه الآية مطلق البيت ، فهؤلاء لهم في تفسير قوله : ﴿ قِبْلَةً ﴾ وجهان : الأول : المراد بجعل تلك البيوت قبلة أي متقابلة ، والمقصود منه حصول الجمعية واعتضاد البعض بالبضع .

وقال آخرون : المراد واجعلوا دوركم قبلة ، أي صلوا في بيوتكم .

(63/368)

البحث الثاني : أنه تعالى خص موسى وهارون في أول هذه الآية بالخطاب فقال : ﴿ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ ثم عمم هذا الخطاب فقال : ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ والسبب فيه أنه تعالى أمر موسى وهارون أن يتبوآ لقومهما بيوتاً للعبادة ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء ، ثم جاء الخطاب بعد ذلك عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأن ذلك واجب على الكل ، ثم خص موسى عليه السلام في آخر الكلام بالخطاب فقال :

﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ وذلك لأن الغرض الأصلي من جميع العبادات حصول هذه البشارة ، فخص الله تعالى موسى بها ، ليدل بذلك على أن الأصل في الرسالة هو موسى عليه السلام وأن هارون تبع له .

البحث الثالث : ذكر المفسرون في كيفية هذه الواقعة وجوهاً ثلاثة : الأول : أن موسى عليه السلام ومن معه كانوا في أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم خفية من الكفرة ، لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم ، كما كان المؤمنون على هذه الحالة في أول الإسلام في مكة .

الثاني : قيل : إنه تعالى لما أرسل موسى إليهم أمر فرعون بتخريب مساجد بني إسرائيل ومنعهم من الصلاة ، فأمرهم الله تعالى أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفاً من فرعون .

الثالث : أنه تعالى لما أرسل موسى إليهم وأظهر فرعون تلك العداوة الشديدة أمر الله تعالى موسى وهارون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الأعداء وتكفل تعالى أنه يصونهم عن شر الأعداء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 118 . 119 ﴾

(64/368)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً ﴾ .

يعني تخيّرا واتخذا لهم بيوتاً يسكنونها ، ومنه قول الراجز :

نحن بنو عدنان ليس شك . . . تبوأ المجد بنا والملك

وفي قوله ﴿ بِمِصْرَ ﴾ قولان :

أحدهما : أنها الإسكندرية ، وهو قول مجاهد .

الثاني : أنه البلد المسمى مصر ، قاله الضحاك .

وفي قوله ﴿ بُيُوتاً ﴾ وجهان :

أحدهما : قصوراً ، قاله مجاهد .

الثاني : مساجد ، قاله الضحاك .

﴿ وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : واجعلوها مساجد تصلون فيها ، لأنهم كانوا يخافون فرعون أن يصلّوا في كنائسهم ومساجدهم ، قاله الضحاك وابن زيد والنخعي .

الثاني : واجعلوا مساجدكم قِبل الكعبة ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .

الثالث : واجعلوا بيوتكم التي بالشام قبلة لكم في الصلاة فهي قبلة اليهود إلى اليوم قاله ابن بحر .

الرابع : واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضاً ، قاله سعيد بن جبير .

﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في بيوتكم لتأمنوا فرعون .

الثاني : إلى قبلة مكة لتصح صلاتكم .

﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال سعيد بن جبير : بشرهم بالنصر في الدنيا ، وبالجنة في الآخرة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(65/368)

وقال ابن عطية :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾

روي أن فرعون أخاف بني إسرائيل وهدم لهم مواضع كانوا اتخذوها للصلاة ونحو هذا ، فأوحى الله إلى موسى وهارون أن اتخذا وتخيرا لبني إسرائيل بيوتاً بمصر ، قال مجاهد : ﴿ مصر ﴾ في هذه الآية الإسكندرية ، ومصر ما بين البحر إلى أسوان ، والإسكندرية من أرض مصر ، و ﴿ تبوّآ ﴾ معناه كما قلنا تخيراً واتخذا ، وهي لفظة مستعملة في الأماكن وما يشبه بها ، ومن ذلك قول الشاعر : [الطويل]

لها أمرها حتى إذا ما تبوأت . . . لأنحامها مرعى تبوأ مضجعا

وهذا البيت للراعي وبه سمى المراعي ومنه قول امرىء القيس : [الكامل]

يتبوأون مقاعداً لقتالكم . . . كليوثِ غابٍ ليلهن زئير

وقرأ الناس " تبوّآ " بهمزة على تقدير تبوعا ، وقرأ حفص في رواية هبيرة " تبويا " وهذا تسهيل ليس بقياسي ، ولو جرى على القياس لكان بين الهمزة والألف ، قوله ﴿ قبلة ﴾ ومعناه مساجد ، قاله ابن عباس والربيع والضحاك والنخعي وغيرهم ، قالوا : خافوا فأمروا بالصلاة في بيوتهم ، وقيل يقابل بعضها بعضاً ، قاله سعيد بن جبير والأول أصوب ، وقيل معناه متوجهة إلى القبلة ، قاله ابن عباس ، ومن هذا حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خير بيوتكم ما استقبل به القبلة " ، وقوله ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ خطاب لبني إسرائيل هذا قبل نزول التوراة لأنها لم تنزل إلا بعد إجازة البحر ، وقوله ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أمر لموسى عليه السلام ، وقال مكي والطبري هو أمر لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا غير متمكن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(66/368)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً ﴾

فيه خمس مسائل :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا ﴾ أي اتخذا .

﴿ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً ﴾ يقال : بوّأت زيداً مكاناً ، وبوّأت لزيد مكاناً .

والمبوَّأ المنزل الملزوم ؛ ومنه بوّأه الله منزلاً ، أي ألزمه إياه وأسكنه ؛ ومنه الحديث : " من كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار " قال الراجز :

نحن بنو عدنان ليس شك . . .

تبوّأ المجد بنا والملك

ومصر في هذه الآية هي الإسكندرية ؛ في قول مجاهد .

وقال الضحاك : إنه البلد المسمى مصر ، ومصر ما بين البحر إلى أُسوان ، والإسكندرية من أرض مصر .

الثانية قوله تعالى : ﴿ واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ قال أكثر المفسرين : كان بنو إسرائيل لا يصلّون إلا في مساجدهم وكنائسهم وكانت ظاهرة ، فلما أُرسل موسى أمر فرعونُ بمساجد بني إسرائيل فخرّبت كلها ومنعوا من الصلاة ؛ فأوحى الله إلى موسى وهارون أن اتخذا وتخيّرا لبني إسرائيل بيوتاً بمصر ، أي مساجد ، ولم يرد المنازل المسكونة .

هذا قول إبراهيم وابن زيد والرّبيع وأبي مالك وابن عباس وغيرهم .

وروي عن ابن عباس وسعيد بن جُبَير أن المعنى : واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضاً .

والقول الأوّل أصح ؛ أي اجعلوا مساجدكم إلى القِبلة ؛ قيل : بيت المقدس ، وهي قبلة اليهود إلى اليوم ؛ قاله ابن بحر .

وقيل الكعبة .

عن ابن عباس قال : وكانت الكعبة قِبلة موسى ومن معه ، وهذا يدلّ على أن القبلة في الصلاة كانت شرعاً لموسى عليه السلام ، ولم تخل الصلاة عن شرط الطهارة وستر العورة واستقبال القبلة ؛ فإن ذلك أبلغ في التكليف وأوفر للعبادة .

(67/368)

وقيل : المراد صلّوا في بيوتكم سرّاً لتأمنوا ؛ وذلك حين أخافهم فرعون فأمِروا بالصبر واتخاذ المساجد في البيوت ، والإقدام على الصلاة ، والدعاء إلى أن ينجز الله وعده ، وهو المراد بقوله : ﴿ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ استعينوا بالله واصبروا ﴾ [الأعراف : 128] الآية .

وكان من دينهم أنهم لا يصلون إلا في البِيَع والكنائس ما داموا على أمن ، فإذا خافوا فقد أذن

لهم أن يصلوا في بيوتهم .

قال ابن العربي : والأوّل أظهر القولين ؛ لأن الثاني دعوى .

قلت : قوله : "دعوى" صحيح ؛ فإن في الصحيح قوله عليه السلام : " جعلت لي الأرض مسجداً وطَهوراً " وهذا مما خُصّ به دون الأنبياء ؛ فنحن بحمد الله نصلِّي في المساجد والبيوت ، وحيث أدركتنا الصلاة ؛ إلا أن النافلة في المنازل أفضل منها في المساجد ، حتى الركوع قبل الجمعة وبعدها .

وقبل الصلوات المفروضات وبعدها ؛ إذ النوافل يحصل فيها الرياء ، والفرائض لا يحصل فيها ذلك ، وكلما خلَص العمل من الرياء كان أوزن وأزلف عند الله سبحانه وتعالى .

روى مسلم عن " عبد الله بن شقيق قال : سألت عائشة عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تطوّعه قالت : "كان يصلّي في بيتي قبل الظهر أربعاً ، ثم يخرج فيصلّي بالناس ، ثم يدخل فيصلّي ركعتين ، وكان يصلّي بالناس المغرب ، ثم يدخل فيصلي ركعتين ، ثم يصلِّي بالناس العشاء ، ويدخل بيتي فيصلي ركعتين . . .

" "

الحديث .

وعن ابن عمر قال : صلّيت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل الظهر سجدتين وبعدها سجدتين وبعد المغرب سجدتين ؛ فأما المغرب والعشاء والجمعة فصليت مع النبيّ صلى

الله عليه وسلم في بيته .

وروى أبو داود عن كعب بن عُجْرة .

" أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أتى مسجد بني الأشهل فصلى فيه المغرب ؛ فلما قضْوا صلاتهم رآهم يسبحون بعدها فقال : "هذه صلاة البيوت" " .

(68/368)

الثالثة واختلف العلماء من هذا الباب في قيام رمضان ، هل إيقاعه في البيت أفضل أو في المسجد ؟ فذهب مالك إلى أنه في البيت أفضل لمن قوِي عليه ، وبه قال أبو يوسف وبعض أصحاب الشافعي .

وذهب ابن عبد الحكم وأحمد وبعض أصحاب الشافعي إلى أن حضورها في الجماعة أفضل .

وقال الليث : لو قام الناس في بيوتهم ولم يقم أحد في المسجد لا ينبغي أن يخرجوا إليه .

والحجة لمالك ومن قال بقوله قولُه صلى الله عليه وسلم في حديث زيد بن ثابت : " فعليكم بالصلاة في بيوتكم فإن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة " خرّجه البخاريّ .

احتج المخالف بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد صلاّها في الجماعة في المسجد ، ثم

أخبر بالمانع الذي منع منه على الدوام على ذلك ، وهو خشية أن تفرض عليهم فلذلك قال لهم : " فعليكم بالصلاة في بيوتكم " ثم إن الصحابة كانوا يصلونها في المسجد أوزاعاً متفرقين ، إلى أن جمعهم عمر على قارىء واحد فاستقر الأمر على ذلك وثبت سُنّة .

الرابعة وإذا تنزلنا على أنه كان أُبيح لهم أن يصلوا في بيوتهم إذا خافوا على أنفسهم فيستدلّ به على أن المعذور بالخوف وغيره يجوز له ترك الجماعة والجمعة .

والعذر الذي يبيح له ذلك كالمرض الحابس ، أو خوف زيادته ، أو خوف جور السلطان في مال أو بدن دون القضاء عليه بحق .

والمطرُ الوابل مع الوحل عذر إن لم ينقطع ، ومن له وليّ حميم قد حضرته الوفاة ولم يكن عنده من يمرّضه ؛ وقد فعل ذلك ابن عمر .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ قيل : الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل لموسى عليه السلام ، وهو أظهر ، أي بشر بني إسرائيل بأن الله سيظهرهم على عدوّهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(69/368)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه ﴾ هارون ﴿ أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً ﴾ يعني اتخذا لقومكما بمصر بيوتاً للصلاة فيها يقال تبوأ فلان لنفسه بيتاً إذا اتخذه مباءة أي وطناً والمعنى اجعلا بمصر لقومكما بيوتاً ترجعون إليها للصلاة والعبادة ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ اختلف أهل التفسير في معنى هذه البيوت والقبلة فمنهم من قال أراد بالبيوت المساجد التي يصلى فيها وفسروا القبلة بالجانب الذي يستقبل في الصلاة فعلى هذا يكون معنى الكلام واجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لأجل الصلاة وقيل معناه اجعلوا بيوتكم إلى القبلة .

واختلفوا في هذه القبلة ، وظاهر القرآن لا يدل على تعيينها إلا أنه قد نقل عن ابن عباس أنه قال : كانت الكعبة قبلة لموسى وهارون ، وهو قول مجاهد أيضاً قال ابن عباس : قالت بنو إسرائيل لموسى لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة فأذن الله لهم أن يصلوا في بيوتهم وأن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة وقيل كانت القبلة إلى جهة المقدس .

وقيل : أراد مطلق البيوت وعلى هذا يكون معنى قوله واجعلوا بيوتكم قبلة أي مقابلة يعني يقابل بعضها بعضاً وقيل معناه واجعلوا في بيوتكم قبلة تصلون إليها .

فإن قلت : إنه سبحانه وتعالى خص موسى وهرون بالخطاب في أول الآية بقوله سبحانه وتعالى : وأخيه أن تبوآ لقومكما ثم إنه عم بهذا الخطاب فقال تعالى : واجعلوا بيوتكم قبلة

فما السبب فيه .

قلت : إنه سبحانه وتعالى أمر موسى وهارون بأن يتبوءا قومهما بيوتاً للعبادة وذلك مما يخص به الأنبياء فخصا بالخطاب لذلك .

(70/368)

ثم لما كانت العبادة عامة تجب على الكافة عمَّ بالخطاب الجميع فقال تعالى : واجعلوا بيوتكم قبلة ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ يعني في بيوتكم وذلك حين خاف موسى ومن آمن معه من بني إسرائيل من فرعون وقومه إذا صلوا في الكنائس والبيع الجامعة أن يؤذهم فأمرهم الله سبحانه وتعالى أن يصلوا في بيوتهم خفية من فرعون وقومه ، وقيل : كانت بنو إسرائيل لا يصلون إلا في الكنائس الجامعة وكانت ظاهرة فلما أرسل موسى أمر فرعون بتخريب تلك الكنائس ومنعهم من الصلاة فيها فأمروا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفاً من فرعون .

وقيل : إن الله سبحانه وتعالى لما أرسل موسى وهارون وأظهرهما على فرعون أمرهم باتخاذ المساجد ظاهرة على رغم الأعداء وتكفل لهم بصونهم من شرهم وهو قوله

سبحانه وتعالى : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ يعني بأنه لا يصل إليهم مكروه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(71/368)

وقال أبو حيان :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾

لم يصرح باسم أخيه لأنه قد تقدّم أولاً في قوله : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون ﴾

وتبوآ اتخذا مباءة أي مرجعاً للعبادة والصلاة كما تقول : توطن اتخذ موطناً ، والظاهر اتخاذ البيوت بمصر .

قال الضحاك : وهي مصر المحروسة ، ومصر من البحر إلى أسوان ، والاسكندرية من أرض مصر .

وقال مجاهد : هي الاسكندرية ، وكان فرعون قد استولى على بني إسرائيل خرب مساجدهم ومواضع عباداتهم ، ومنعهم من الصلوات ، وكلفهم الأعمال الشاقة .

وكانوا في أول أمرهم مأمورين بأنْ يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم ، فيردوهم ويفتنوهم عن دينهم ، كما كان المؤمنون على ذلك في أول الإسلام .

وقرأ حفص في رواية هبيرة : تبويا بالياء ، وهذا تسهيل غير قياسي ، ولو جرى على القياس لكان بين الهمزة والألف ، والظاهر أنّ المأمور بأنْ يجعل قبلة هي المأمور بتبوئها .

ومعنى قبلة مساجد : أمروا بأن يتخذوا بيوتهم مساجد قاله : النخعي ، وابن زيد ، وروي عن ابن عباس .

وعن ابن عباس أيضاً : واجعلوا بيوتكم قبل القبلة ، وعنه أيضاً : قبل مكة .

وقال مجاهد وقتادة ومقاتل والفراء : أمروا بأن يجعلوها مستقبلة الكعبة .

وعن ابن عباس أيضاً وابن جبير : قبلة يقابل بعضها بعضاً .

وأقيموا الصلاة وهذا قبل نزول التوراة ، لأنها لم تنزل إلا بعد إجارة البحر .

وبشر المؤمنين يعني : بالنصر في الدنيا وبالجنة في الآخرة ، وهو أمر لموسى عليه السلام أن يتبوآ لقومهما ويختاراها للعبادة ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء .

ثم نسق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأن ذلك واجب على الجمهور ، ثم خص موسى عليه السلام بالتبشير الذي هو الغرض تعظيماً له وللمبشر به .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(72/368)

وقال أبو السعود :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى موسى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءا ﴾

أنْ مفسرةٌ لأنّ في الوحي معنى القولِ أي اتخذا مَباءةً ﴿ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ تسكُنون فيها وترجِعون إليها للعبادة ﴿ واجعلوا ﴾ أنتما وقومكما ﴿ بُيُوتكُمْ ﴾ تلك ﴿ قِبْلَةَ ﴾ مصلّىً وقيل : مساجدَ متوجهةً نحو القِبلة يعني الكعبةَ فإن موسى عليه السلام كان يصلي إليها ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ ﴾ أي فيها ، أُمروا بذلك في أول أمرهم لئلا يظهرَ عليهم الكفرةُ فيؤذوهم ويفتِنوهم عن دينهم ﴿ وَبَشّرِ المؤمنين ﴾ بالنصرة في الدنيا إجابةً لدعوتهم والجنةِ في العقبى ، وإنما ثُنّيَ الضميرُ أولاً لأن التبوُّؤَ للقوم واتخاذَ المعابد مما يتولاه رؤساءُ القوم بتشاور ، ثم جُمع لأن جعلَ البيوتِ مساجدَ والصلاةَ فيها مما يفعله كلُّ أحدٍ ، ثم وُحّد لأن بشارةَ الأمةِ وظيفةُ صاحبِ الشريعة ، ووضعُ المؤمنين موضعَ ضميرِ القوم لمدحهم بالإيمان والإشعار بأنه المدارُ في التبشير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(73/368)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى موسى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءا ﴾

﴿ إن ﴾ مفسرة لأن في الوحي معنى القول ، ويحتمل أن تكون مصدرية ؛ والتبوؤ اتخاذ المباءة أي المنزل كالتوطن اتخاذ الوطن ، والجمهور على تحقيق الهمزة ومنهم من قرأ ﴿ تبوياً ﴾ ﴿ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ فجعلها ياء وهي مبدلة من الهمزة تخفيفاً ، والفعل على ما قيل مما يتعدى لواحد فيقال : تبوأ زيد كذا لكن إذا أدخلت اللام على الفاعل فقيل : تبوأ لزيد كذا تعدى لما كان فاعلاً باللام فيتعدى لاثنين ، وخرجت الآية على ذلك فلقومكما أحد المفعولين ، وقيل : هو متعد لواحد و ﴿ لِقَوْمِكُمَا ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً من البيوت ، واللام على الوجهين غير زائدة .

وقال أبو علي : هو متعد بنفسه لاثنين واللام زائدة كما في ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ [النمل : 72] وفعل وتفعل قد يكونان بمعنى مثل علقتها وتعلقتها ، والتقدير بوئا قومكما بيوتاً يسكنون فيها أو يرجعون إليها للعبادة .

و ﴿ مِصْرَ ﴾ غير منصرف لأنه مؤنث معرفة ولو صرفته لخفته كما صرفت هنداً لكان جائزاً ، والجار متعلق بتبوآ وجوز أن يكون حالاً من ﴿ بُيُوتًا ﴾ أو من قومكما أو من ضمير الفاعل في ﴿ تبوآ ﴾ أي مصلى ، وقيل : مساجد متوجهة نحو القبلة يعني الكعبة فإن موسى عليه السلام كان يصلي إليها ، وعلى التفسيرين تكون القبلة مجازاً فيما فسرت

به بعلاقة اللزوم أو الكلية والجزئية ، والاختلاف في المراد هنا ناظر للاختلاف في أن تلك البيوت المتخذة هل للسكنى أو للصلاة فإن كان الأول فالقبلة مجاز عن المصلى وإن كان الثاني فهي مجاز عن المساجد .

(74/368)

واعترض القول بحمل القبلة على المساجد المتوجهة إلى الكعبة بأن المنصوص عليه في الحديث الصحيح أن اليهود تستقبل الصخرة والنصارى مطلع الشمس ولم يشتهر أن موسى عليه السلام كان يستقبل الكعبة في صلاته فالقول به غريب ، وأغرب منه ما قاله العلائي : من أن الأنبياء عليهم السلام كانت قبلتهم كلهم الكعبة ، قيل : وجعل البيوت مصلى ينافيه ما في الحديث " جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً " من أن الأمم السالفة كانوا لا يصلون إلا في كنائسهم ، وأجيب عن هذا بأن محله إذا لم يضطروا فإذا اضطروا جازت لهم الصلاة في بيوتهم كما رخص لنا صلاة الخوف ، فإن فرعون لعنه الله تعالى خرب مساجدهم ومنعهم من الصلاة فأوحى إليهم أن صلوا في بيوتكم كما روي عن ابن عباس .

(75/368)

وابن جبير ، وقد يقال : إنه لا منافاة أصلاً بناءً على أن المراد تعيين البيوت للصلاة وعدم صلاحة الصلاة في غيرها فيكون حكمها إذ ذاك حكم الكنائس اليوم وما هو من الخصائص صحة الصلاة في أي مكان من الأرض وعدم تعين موضع منها لذلك فلا حاجة إلى ما يقال : من أن اعتبار جعل الأرض كلها مسجداً خصوصية بالنظر إلى ما استقرت عليه شريعة موسى عليه السلام من تعين الصلاة في الكنائس وعدم جوازها في أي مكان أراده المصلى من الأرض ، وما تقدم من استقبال من تعين الصلاة في الكنائس وعدم جوازها في أي مكان أراده المصلي من الأرض ، وما تقدم من استقبال اليهود الصخرة فالمشهور أنه كان في بيت المقدس وأما قبل بعد نزول التوراة فكانوا يستقبلون التابوت وكان يوضع في قبة موسى عليه السلام ، على أنه قد قيل : إن الاستقبال في بيت المقدس كان للتابوت أيضاً وكانوا يضعونه على الصخرة فيكون استقباله استقبالها ، وأما استقبالهم في مصر فيحتمل أنه كان للكعبة كما روي عن الحسن وما في الحديث محمول على آخر أحوالهم ، ويحتمل أنه كان للصخرة حسبما هو اليوم ويحتمل غير ذلك والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ، وقيل : معنى ﴿ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ ﴾ متقابلة ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أي اجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضاً ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ﴾ فيها ، قيل : أمروا بذلك في أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذونهم ويفتنونهم في دينهم ، وهو مبني

على أن المراد بالبيوت المساكن أما لو أريد بها المساجد فلا يصح كما لا يخفى ، ولعل التوجيه على ذلك هو أنهم أمروا بالصلاة ليستعينوا ببركتها على مقصودهم فقد قال سبحانه :

(76/368)

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [البقرة : 45] وهي في المساجد أفضل فتكون أرجى للنفع ﴿ وَبَشّرِ المؤمنين ﴾ بحصول مقصودهم ، وقيل : بالنصرة في الدنيا إجابة لدعوتهم والجنة في العقبى ، وإنما ثنى الضمير أولاً لأن التبوأ للقوم واتخاذ المعابد مما يتولاه رؤساء القوم بتشاور ، ثم جمع ثانياً لأن جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما يفعله كل أحد مع أن في إدخال موسى وهارون عليهما السلام مع القوم في الأمرين المذكورين ترغيباً لهم في الامتثال ، ثم وحد ثالثاً لأن بشارة الأمة وظيفة صاحب الشريعة وهي من الأعظم أسر وأوقع في النفس ، ووضع المؤمنين موضع ضمير القوم لمدحهم بالإيمان وللإشعار بأنه المدار في التبشير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(77/368)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾

يجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿ وقال موسى يا قوم ﴾ [يونس : 84] ، ويجوز أن يكون عطفَ قصة على قصة ، أي على مجموع الكلام السابق ، لأن مجموعه قصص هي حكاية أطوار لقصة موسى وقومه .

ووقع الوحي بهذا الأمر إلى موسى وهارون عليهما السلام لأنه من الأعمال الراجعة إلى تدبير أمر الأمة ، فيمكن الاشتراك فيها بين الرسول ومُؤَازره .

والتبَوُّؤ : اتخاذ مكان يسكنه ، وهو تفعل من البَوْء ، أي الرجوع ، كأنّ صاحب المسكن يُكلف نفسه الرجوع إلى محل سَكنه ولو كان تباعد عنه في شؤون اكتسابه بالسير إلى السوق أو الصيد أو الاحتطاب أو قطف الثمار أو نحو ذلك ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ تُبَوّىء المؤمنين مَقاعد للقتال ﴾ في [آل عمران : 121] .

فمعنى تَبَوّءا لقومكما ﴾ اجعلا قومكما متبوئينَ بيوتاً .

وفاعل هذا الفعل في الأصل هو الساكن بالمباءة ، وإنما أسند هنا إلى ضمير موسى وهارون عليهما السلام على طريقة المجاز العقلي ، إذ كانا سبب تَبَوّؤ قومهما للبيوت .

والقرينة قوله : ﴿ لقومكما ﴾ إذ جعل التبوؤ لأجل القوم .

ومعنى تبوؤ البيوت لقومهما أن يأمرا قومهما باتخاذ البيوت على الوصف الذي يأمرانهم به .

وإذ قد كان لبني إسرائيل ديار في مصر من قبل ، إذ لا يكونون قاطنين مصر بدون مساكن ، وقد كانوا ساكنين أرض (جَاسان) قرب مدينة (منفيس) قاعدة المملكة يومئذٍ في جنوب البلاد المصرية ، كما بيناه في سورة البقرة ، لا جرم أن تكون البيوت المأمور بتبوئها غير البيوت التي كانوا ساكنيها .

واضطرب المفسرون في المراد من هذه البيوت وذكروا روايات غير ملائمة لحالة القوم يومئذٍ .

فقيل : أريد بالبيوت بيوت العبادة أي مساجد يصلون فيها ، وربما حمل على هذا التفسير من تأوّله وقوعُ قوله : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ عقبه .

(78/368)

وهذا بعيد لأن الله علم أن بني إسرائيل مفارقون مصر قريباً بإذنه .

وقيل : البيوت بيوت السكنى وأمسكوا عن المقصود من هذه البيوت .

وهذا القول هو المناسب للتبوؤ لأن التبوؤ السكنى ، والمناسب أيضاً لإطلاق البيوت ، وكونها بمصر .

فالذي يظهر بناء عليه أن هذه البيوت خيام أو أخصاص أمرهم الله باتخاذها تهيئة للارتحال وهي غير ديارهم التي كانوا يسكنونها في (جاسان) قرب مدينة فرعون وقد جاء في التوراة ما يشهد بهذا التأويل في الفصل الرابع من سفر الخروج : إن الله أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل إلى البادية ليعملوا عيد الفصح ثلاثة أيام وأن ذلك أولُ ما سأله موسى من فرعون ، وأن فرعون منعهم من ذلك ، وأن موسى كرر طلب ذلك من فرعون كلّ ذلك يمنعه كما في الفصل السابع والفصل الثامن من سفر الخروج ، وقد صار لهم ذلك عيداً بعد خروجهم .

وقوله : ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ أي هذه الخيام أو الأخصاص التي تتخذونها تجعلونها مفتوحة إلى القبلة .

قاله ابن عطية عن ابن عباس .

والقِبلة : اسم في العربية لجهة الكعبة .

وتلك الجهة هي ما بين المشرق والمغرب لأن قبلة بلاد مصر كقبلة المدينة ما بين المشرق والمغرب وهي الجنوب ، فيجوز أن يكون التعبير عن تلك الجهة بالقبلة في الآية حكاية لتعبير موسى عنها بما يدل على معنى التوجه إلى الجهة التي يصلون إليها ، وهي قبلة إبراهيم ، فيكون أمرُ بني إسرائيل يومئذٍ جارياً على الملة الحنيفية قبل أن ينسخ بالاستقبال إلى صخرة القدس ويجوز أن يكون موسى قد عبر بما يفيد معنى الجنوب فحكيت عبارته في القرآن

باللفظ المرادف له الشائع في التعبير عن الجنوب عند العرب وهو كلمة قبلة .

والحكمة في جعل البيوت إلى القبلة أن الشمس تدخلها من أبوابها في غالب أوقات النهار في جميع الفصول وفي ذلك منافع كثيرة

(79/368)

والذين فسروا البيوت بأنها بيوت السكنى فسروا قبلة : إما بمعنى متقابلة ، وإما بمعنى اجعلوا بيوتكم محل صلاتكم ، وكلا التفسيرين بعيد عن الاستعمال .

وأما الذين تأولوا البيوت بالمساجد فقد فسروا القبلة بأنها قبلة الصلاة ، أي جهة الكعبة .

وعن ابن عباس : كانت الكعبة قبلة موسى .

وعن الحسن : كانت الكعبة قبلة كل الأنبياء .

وهذا التفسير يلائم تركيب ﴿ اجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ لأن التركيب اقتضى أن المجعول قبلة هو البيوت أنفسها لا أن تجعل الصلاة فيها إلى جهة القبلة فإذا افتقدنا التأويلات كلها لا نجدها إلا مفككة متعسفة خلا التفسير الذي عولنا عليه ، وقد اختلفوا فيه فهدانا الله إليه .

وأسند فعل ﴿ اجعلوا ﴾ إلى ضمير الجماعة لأن ذلك الجعل من عمل موسى وأخيه

وقومهما إذ كل أحد مكلف بأن يجعل بيته قبلة .

وأمْرهم بإقامة الصلاة ، أي التي فرضها الله عليهم على لسان موسى ، والتي كانوا يصلونها من قبل مجيء موسى اتباعاً لإبراهيم عليه السلام وأبنائه .

والظاهر أن الداعي إلى أمرهم بإقامة الصلاة أن اتخاذ البيوت كان في حالة رحيل فكانت حالتهم مظنة الشغل عن إقامة الصلوات فلذلك أمروا بالمحافظة على إقامة الصلاة في مدة رحلتهم .

وعَطْفُ جملة : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ على ما قبلها يؤذن بأن ما أمروا به من اتخاذ البيوت أمر بحالة مشعرة بترقب أخطار وتخوف فإنهم قالوا : ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة ﴾ [يونس : 85] فأمر موسى أن يبشرهم بحسن العاقبة ، وأنهم منصورون على عدوهم وناجون منه والمؤمنون هم قوم موسى الذين ذكروا في قوله : ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ﴾ [يونس : 83] وفي قوله : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ﴾ [يونس : 84 ، 85] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(80/368)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾

وأوضحنا من قبل أن موسى وهارون عليهما السلام رسولان برسالة واحدة ، وأن الوَحْي قد جاء للاثنين برسالة واحدة .

فالحق سبحانه ساعة يختار نبيّاً رسولاً ، فإنما يختاره بتكوينٍ وفطرةٍ تؤهّله لحَمْل الرسالة النطق بمرادات الله تعالى .

وإذا كان الخَلْق قد صنعوا آلات ذاتية الحركة من مواد جامدة لا فكر لها ولا رَوِيّة ، مثل الساعة التي تُؤذِّن ، أو المذياع يذيع في توقيت محدد ، إذا كان البشر قد صنعوا ذلك فما بالنا بالله سبحانه الخالق لكل الخلق والكون ومرسل الرسل ؟

إنه سبحانه وتعالى يختار رسله بحيث يسمح تكوين الرسول أن يؤدي المهمة الموكولة إليه في أي ظرف من الظروف .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى وَأَخِيهِ ﴾ [يونس : 87] .

يبيِّن لنا أن الوحي شمل كلاً من موسى وهارون عليهما السلام ، بحيث إذا جاء موقف من المواقف يقتضي أن يتكلم فيه موسى ، فهارون أيضاً يمكن أن يتكلم في نفس الأمر ؛ لأن الشحنة الإيمانية واحدة ، والمنهج واحد .

وقد حدث ذلك بعد أن أغرق فرعون وقومه ، وخلا لهم الجو ، فجاء لهم الأمر أن يستقروا في مصر ، وأن يكون لهم فيها بيوت .

ولكن لنا أن نسأل :

هل فرعون هذا هو شخص غرق وانتهى ؟

لا . . إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو تصنيف لوظيفة ، وكان لقب كل حاكم لمصر قديماً هو " فرعون " ؛ لذلك لا داعي أن نشغل أنفسنا : هل هو تحتمس الأول ؟ أو رمسيس ؟ أو ما إلى ذلك ؟ فهب أن فرعون المعنيَّ هنا قد غرق ، ألا يعني ذلك مجيء فرعون جديد ؟

نحن نعلم من التاريخ أن الأسر الحاكمة توالت ، وكانوا فراعنة ، وكان منهم من يضطهد المؤمنين ، ولا بد أن يكون خليفة الفرعون أشد ضراوةً وأكثر شحنةً ضد هؤلاء القوم .

وقول الحق سبحانه وتعالى في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

(81/368)

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً ﴾ [يونس : 87] .

نجد فيه كلمة " مصر " وهي إذا أطلقت يُفهم منها أنها " الإقليم " .

ونحن هنا في بلدنا جعلنا كلمة " مصر " علماً على الإقليم الممتد من البحر المتوسط إلى حدود السودان ، أي : وادي النيل .

ومرة أخرى جعلنا من " مصر " أسماً لعاصمة وادي النيل .

ونحن نقول أيضاً عن محطة القطارات في القاهرة : " محطة مصر " .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا ﴾ [يونس : 87] .

نفهم منه أن التبؤُ هو اتخاذ مكان يعتبر مباءةً ؛ أي : مرجعاً يبوء الإنسان إليه .

التبؤُّ إذن هو التوطن في مكان ما ، والإنسان إذا اتخذ مكاناً كوطن له فهو يعود إليه إن ذهب إلى أي بلد لفترة .

ويعتبر الخروج من الوطن مجرد رحلة تقتضي العودة ، وكذلك البيت بالنسبة للإنسان ؛ فالواحد منا يطوف طوال النهار في الحقل أو المصنع أو المكتب ، وبعد ذلك يعود إلى البيت للبيتوتة .

والبيوت التي أوصى الله سبحانه وتعالى بإقامتها لقوم موسى وهارون عليهما السلام كان لها شرط هو قول الحق سبحانه :

﴿ واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ [يونس : 87] .

والقِبلة هي المتجَه الذي نصلي إليه .

ومثال ذلك : المسجد ، وهو قبلة مَنْ هو خارجه ، وساعة ينادي المؤذن للصلاة يكون المسجد هو قبلتنا التي نذهب إليها ، وحين ندخل المسجد نتجه داخله إلى القلبة ، واتجاهنا إلى القبلة هو الذي يتحكم في وضعنا الصفِّي .

والأمر هنا من الحق سبحانه :

﴿ واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصلاة ﴾ [يونس : 87] .

(82/368)

فإقامة البيوت هنا مشروطة بأن يجعلوا بها قبلة لإقامة الصلاة بعيداً عن أعين الخصوم الذين يضطهونهم ، شأنهم شأن المسلمين الأوائل حينما كان الإسلام في أوليته ضعيفاً بمكة ، وكان المسلمون حين ذاك يصلون في قلب البيوت ، وهذا هو سر عدم الجهر بالصلاة نهاراً ، وعدم الجهر يفيد في ألا ينتبه الخصوم إلى مكان المصلين .

وأما الجهر بالصلاة ليلاً وفجراً ، فقد كان المقصود به أن يعلمهم كيفية قراءة القرآن .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ [يونس : 87] .

وقد يكون المقصود بذلك أن تكون البيوت متقابلة .

وإلى يومنا هذا أن نظرت إلى ساحات اليهود في أي بلد من بلاد الدنيا تجد أنهم يقطنون حيّاً واحداً ، ويرفضون أن يذوبوا في الأحياء الأخرى .

ففي كل بلد لهم حي يسكنون فيه ، ويسمى باسم " حي اليهود " . وكانت لهم في مصر " حارات " كل منها تسمى باسم " حارة اليهود " .

وقد شاء الحق سبحانه وتعالى ذلك وقال في كتابه العزيز :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة ﴾ [البقرة : 61] .

وهم يحتمون بتواجهم معاً ، فإن حدث أمر من الأمور يفزعهم ؛ يصبح من السهل عليهم أن يلتقوا :

أو ﴿ واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ [يونس : 87] .

أي : أن يكون تخطيط الأماكن والشوارع التي تُبنى عليها البيوت في اتجاه القبلة .

وأي خطأ معماري مثل الذي يوجد في تربيعة بناء مسجد الإمام الحسين بالقاهرة ، هذا الخطأ يوجب الاتجاه إلى اليمين قليلاً مما يسبب بعض الارتباك للمصلين ؛ لأن الانحراف قليلاً إلى اليمين في أثناء الصلاة يقتضي أن يقصر كل صف خلف الصف الآخر .

وحين نصلي في المسجد الحرام بمكة ، نجد بعضاً من المصلين يريدون مساواة الصفوف ، وأن تكون الصفوف مستقيمة ، فنجد من ينبه إلى أن الصف يعتدل بمقدار أطول أضلاع الكعبة ، ثم ينحي الصف .

وكذلك في الأدوار العليا التي أقيمت بالمسجد الحرام نجد الصفوف منحنية متجهة إلى الكعبة .

ولذلك أقول دائماً حين أصلي بالمسجد الحرام : إن معنى قول الإمام : " سووا صفوفكم " أي : اجعلا مناكبكم في مناكب بعضكم بعض ، أما خارج الكعبة فيكفي أن نتجه إلى الجهة التي فيها الكعبة ، ونحن خارج الكعبة لا نصلي لعين الكعبة ، ولكننا نصلي تجاه الكعبة ؛ لأننا لو كنا نصلي إلى عين الكعبة لما زاد طول الصف في أي مسجد عن اثني عشر متراً وربع المتر ، وهو أطول أضلاع الكعبة .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ [يونس : 87] .

أي : خططوا في إقامة البيوت أن تكون على القبلة ، وبعض الناس يحاولون ذلك ، لكن تخطيط الشوارع والأحياء لا يساعد على ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة ﴾ [يونس : 87] .

وهذا الأمر نفهم منه أن الصلاة فيها استدامة الولاء لله تعالى ، فنحن نشهد ألا إله إلا الله مرة واحدة في العمر ، ونُزكِّي إن كان عندنا مال مرة واحدة في السنة ، ونصوم إن لم نكن مرضى شهراً واحداً هو شهر رمضان ، ونحج إن استطعنا مرة واحدة في العمر .

ويبقى ركن الصلاة ، وهو يتكرر كل يوم خمس مرات ، وإن شاء الإنسان فَلْيُزِد ، وكأن الحق سبحانه وتعالى هنا ينبه إلى عماد الدين وهي الصلاة .

ولكن مَن الذي اختار المكان في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؟ هل هو موسى وأخوه هارون ؟ أم أن الخطاب لكل القوم .

نلحظ هنا أن الأمر بالتبوّء هو لموسى وهارون عليهما السلام أما الأمر بالجعل فهو مطلوب من موسى وهارون والأتباع ؛ لذلك جاء الجعل هنا بصيغة الجمع .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ [يونس : 87] .

وفي هذا تنبيه وإشارة إلى أن موسى هو الأصل في الرسالة ؛ لذلك جاء له الأمر بأن يحمل البشارة للمؤمنين .

ونلحظ هنا في هذه الآية أن الحق سبحانه جاء بالتثنية في التبوء ، وجاء بالجمع في جعل البيوت ، ثم جاء بالمفرد في نهاية الآية لينبهنا إلى أن موسى عليه السلام هو الأصل في الرسالة إلى بني إسرائيل .

والبشرى على الأعمال الصالحة تعني : التبشير بالجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(85/368)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾

أخرج أبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تَبَوَّءا لقومكما بمصر بيوتاً ﴾ قال : ذلك حين منعهم فرعون الصلاة ، وأمروا أن يجعلوا مساجدهم في بيوتهم ، وأن يوجهوها نحو القبلة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ أن تبوّءا لقومكما بمصر بيوتاً ﴾ قال : مصر الاسكندرية .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ قال : كانوا لا يصلون إلا في البِيَع ، حتى خافوا من آل فرعون فأمروا أن يصلوا في بيوتهم .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ قال : أُمِروا أن يتخذوا في بيوتهم مساجد .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانوا يفرقون من فرعون وقومه أن يصلوا فقال ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ . قال : قبل الكعبة ، وذكر أن آدم عليه السلام فمن بعده كانوا يصلون قبل الكعبة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ قال : يقابل بعضها بعضاً .

وأخرج ابن عساكر عن أبي رافع رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب فقال : إن الله أمر موسى وهرون أن يتبوءا لقومهما بيوتاً ، وأمرهما أن لا يبيت في مسجدهما جنب ، ولا يقربوا فيه النساء إلا هرون وذريته ، ولا يحل لأحد أن يقرب النساء في مسجدي هذا ، ولا يبيت فيه جنب إلا علي وذريته " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَن تَبَوَّءَا ﴾ : يجوز في " أَنْ " أن تكون المفسِّرة ؛ لأنه قد تقدَّمها ما هو بمعنى القول وهو الإيحاء ، ويجوز أن تكونَ المصدرية فتكونَ في موضع نصب بأوحينا مفعولاً به أي : أَوْحَيْنا إليهما التبوُّءَ .

والجمهورُ على الهمزة في " تبوَّآ " . وقرأ حفص " تَبَوَّيا " بياءٍ خالصة ، وهي بدلٌ عن الهمزة ، وهو تخفيفٌ غيرُ قياسي ، إذ قياسُ تخفيفِ مثلِ هذه الهمزة أن تكونَ بين الهمزة والألف ، وقد أنكر هذه الروايةَ عن حفص جماعةٌ من القراء ، وقد خَصَّها بعضُهم بحالةِ الوقف ، وهو الذي لم يَحْكِ أبو عمرو الداني والشاطبي غيرَه . وبعضُهم يُطْلق إبدالَها عنه ياءً وصلاً ووقفاً ، وعلى الجملةِ فهي قراءةٌ ضعيفة في العربية وفي الرواية ، وتركتُ نصوصَ أهل القراءة خوفَ السآمة ، واستغناءً بما وضَعْتُه في " شرح القصيد " .

والتبوُّءُ : النزولُ والرجوعُ ، وقد تقدَّم تحقيق المادة في قوله ﴿ تُبَوِّئُ المؤمنين ﴾ [آل

عمران : 121] .

قوله : ﴿ لِقَوْمِكُمَا ﴾ يجوزُ أن تكونَ اللامُ زائدةً في المفعول الأول ، و " بيوتاً " مفعولٌ ثان بمعنى بَوِّآ قومكما بيوتاً ، أي : أنْزِلوهم ، وفَعَّل وتفعَّل بمعنىً مثل " عَلَّقَها " و " تَعَلَّقها " قاله أبو البقاء . وفيه ضعفٌ من حيث إنه زِيدت اللام ، والعاملُ غير فرع ، ولم يتقدَّم المعمول . الثاني : أنها غير زائدة ، وفيها حينئذ وجهان ، أحدهما : أنها حالٌ من " البيوت " . والثاني : أنها وما بعدها مفعول " تَبَوَّآ " .

(87/368)

قوله : ﴿ بِمِصْرَ ﴾ جَوَّز فيه أبو البقاء أوجهاً ، أحدها : أنه متعلِّق ب " تَبَوَّآ " ، وهو الظاهرُ . الثاني : أنه حالٌ من ضمير " تبوَّآء " ، واستضعفه ، ولم يبيِّن وجهَ ضعفِهِ لوضوحه . الثالث : أنه حالٌ من " البيوت " . الرابع : أنه حالٌ من " لِقومكما " ، وقد ثنى الضميرَ في " تبوَّآ " وجمع في قوله " واجعلوا " و " أقيموا " ، وأفرد في قوله : " وبشِّر " ؛ لأن الأولَ أمرٌ لهما ، والثاني لهما ولقومهما ، والثالث لموسى فقط ؛ لأن أخاه تَبَعٌ له ، ولمَّا كان فِعْلُ البِشارة شريفاً خَصَّ به موسى لأنه هو الأصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 258.259 ﴾

(88/368)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87) ﴾

مَهّدْ إليهم لعبادتنا مَحَالَّ وهي نفوسهم ، ولمعارفنا منازلَ وهي قلوبهم ، ولمحبتنا مواضعَ وهي أرواحهم ، ولمشاهدتنا معاهِدَ وهي أسرارهم ؛ فنفوس العابدين بيوت الخدمة ، وقلوب العارفين أوطان الحشمة ، وأرواح المهيمين مشاهد المحبة ، وأسار الموحدين منازل الهيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 112 ﴾

(89/368)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (75) ﴾

قوله : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم ﴾ معطوف على قوله : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً ﴾ والضمير في : ﴿ من بعدهم ﴾ ، راجع إلى الرسل المتقدّم ذكرهم ، وخصّ موسى وهارون بالذكر مع دخولهما تحت الرسل لمزيد شرفهما ، وخطر شأن ما جرى بينهما وبين فرعون ، والمراد بالملأ : الأشراف ، والمراد بالآيات : المعجزات ، وهي التسع المذكورة في الكتاب العزيز ﴿ فاستكبروا ﴾ عن قبولها ، ولم يتواضعوا لها ، ويذعنوا لما اشتملت عليه من المعجزات الموجبة لتصديق ما جاء بها .

﴿ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ أي : كانوا ذوي إجرام عظام ، وآثام كبيرة ، فبسبب ذلك اجترءوا على ردّها ؛ لأن الذنوب تحول بين صاحبها وبين إدراك الحق ، وإبصار الصواب .

قيل : وهذه الجملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها .

(90/368)

قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : فلما جاء فرعون وملأه الحق من عند الله ، وهو : المعجزات ، لم يؤمنوا بها بل حملوها على السحر مكابرة

منهم ، فردّ عليهم موسى قائلاً : ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا ﴾ قيل : في الكلام حذف ، والتقدير : أتقولون للحقّ سحر فلا تقولوا ذلك ، ثم استأنف إنكاراً آخر من جهة نفسه فقال : ﴿ أَسِحْرٌ هذا ﴾ فحذف قولهم الأوّل اكتفاء بالثاني ، والملجىء إلى هذا أنهم لم يستفهموه عن السحر حتى يحكي ما قالوه بقوله : ﴿ أَسِحْرٌ هذا ﴾ بل هم قاطعون بأنه سحر ؛ لأنهم قالوا : ﴿ إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فحينئذ لا يكون قوله : ﴿ أَسِحْرٌ هذا ﴾ من قولهم ، وقال الأخفش : هو من قولهم ، وفيه نظر لما قدّمنا ، وقيل معنى : ﴿ أَتَقُولُونَ ﴾ : أتعيبون الحقّ وتطعنون فيه ، وكان عليكم أن تذعنوا له ، ثم قال أسحر هذا ، منكراً لما قالوه .

وقيل : إن مفعول ﴿ أَتَقُولُونَ ﴾ محذوف ، وهو ما دلّ عليه قولهم : ﴿ إِنَّ هذا لساحر ﴾ والتقدير : أتقولون ما تقولون ، يعني : قولهم إن هذا لسحر مبين ، ثم قيل : أسحر هذا ، وعلى هذا التقدير والتقدير الأوّل فتكون جملة ﴿ أَسِحْرٌ هذا ﴾ مستأنفة من جهة موسى عليه السلام ، والاستفهام : للتقريع والتوبيخ ، بعد الجملة الأولى المستأنفة الواقعة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : ماذا قال لهم موسى لما قالوا إن هذا لسحر مبين ؟ فقيل : قال : أتقولون للحق لما جاءكم ، على طريقة الاستفهام الإنكاري ، والمعنى : أتقولون للحق لما جاءكم إنّ هذا لسحر مبين ، وهو أبعد شيء من السحر .

ثم أنكر عليهم ، وقرّعهم ، ووبخهم ، فقال : ﴿ أَسِحْرٌ هذا ﴾ فجاء موسى عليه السلام بإنكار بعد إنكار ، وتوبيخ بعد توبيخ ، وتجهيل بعد تجهيل ، وجملة : ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون ﴾ في محل نصب على الحال : أي أتقولون للحق إنه سحر ، والحال : أنه لا يفلح الساحرون ، فلا يظفرون بمطلوب ، ولا يفوزون بخير ، ولا ينجون من مكروه ، فكيف يقع في هذا من هو مرسل من عند الله ، وقد أيده بالمعجزات والبراهين الواضحة ؟

وجملة : ﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قالوا بعد أن قال لهم موسى ما قال ؟ وفي هذا ما يدلّ على أنهم انقطعوا عن الدليل ، وعجزوا عن إبراز الحجة ، ولم يجحدوا ما يجيبون به عما أورده عليهم ، بل لجئوا إلى ما يلجأ إليه أهل الجهل والبلادة ، وهو : الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم من الكفر ، وضموا إلى ذلك ما هو غرضهم وغاية مطلبهم ، وسبب مكابرتهم للحق ، وجحودهم للآيات البينة ، وهو الرياسة الدنيوية التي خافوا عليها ، وظنوا أنها ستذهب عنهم إن آمنوا ، وكم بقي على الباطل ، وهو يعلم أنه باطل بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم في سابق الدهر ولاحقه ، فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر ، ومنهم من حبسه عن الخروج إلى السنة من البدعة ، وإلى الرواية الصحيحة من الرأي البحت ، يقال : لفته لفتاً : إذا صرفه عن الشيء ولواه عنه ، ومنه قول الشاعر :

تلفت نحو الحيّ حتى رأيتني . . . وجعت من الإصغاء ليتاً وأخدعا

أي : تريد أن تصرفنا عن الشيء الذي وجدنا عليه آباءنا ، وهو عبادة الأصنام ، والمراد بالكبرياء : الملك ، قال الزجاج : سمي الملك كبرياء ؛ لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا ؛ وقيل سمي بذلك ؛ لأن الملك يتكبر .

(92/368)

والحاصل : أنهم عللوا عدم قبولهم دعوة موسى بأمرين : التمسك بالتقليد للآباء ، والحرص على الرياسة الدنيوية ؛ لأنهم إذا أجابوا النبي وصدّقوه صارت مقاليد أمر أمته إليه ولم يبق للملك رئاسة تامة ؛ لأن التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك هم بالسياسات والعادات ، ثم قالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ تصريحاً منهم بالتكذيب ، وقطعاً للطمع في إيمانهم ، وقد أفرد الخطاب لموسى في قولهم : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ ، ثم جمعوا بينه وبين هارون في الخطاب في قولهم : ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ووجه ذلك أنهم أسندوا المجيء والصرف عن طريق آبائهم إلى موسى ، لكونه المقصود بالرسالة المبلغ عن الله ما شرعه لهم ، وجمعوا بينهما في الضميرين الآخرين ؛ لأن الكبرياء شامل لهما في زعمهم ، ولكون ترك الإيمان بموسى يستلزم ترك الإيمان بهارون ، وقد مرّت القصة في

الأعراف .

قوله : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائتونى بِكُلِّ ساحر عَلِيمٍ ﴾ قال هكذا لما رأى اليد البيضاء والعصا ، لأنه اعتقد أنهما من السحر ، فأمر قومه بأن يأتوه بكل ساحر عليم ، هكذا قرأ حمزة والكسائي ، وابن وثاب ، والأعمش "سحار" .

وقرأ الباقون : ﴿ ساحر ﴾ وقد تقدّم الكلام على هذا في الأعراف ، والسحار صيغة مبالغة : أي كثير السحر ، كثير العلم بعمله وأنواعه ﴿ فَلَمَّا جَاء السحرة ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير هكذا : وقال فرعون ائتوني بكل سحار عليم ، فأتوا بهم إليه ، فلما جاء السحرة ، فتكون الفاء للعطف على المقدّر المحذوف .

(93/368)

قوله : ﴿ قَالَ لَهُمْ موسى أَلْقُواْ مَا أَنتُمْ مُّلْقُونَ ﴾ أي : قال لهم هذه المقالة بعد أن قالوا له : إما أن تلقي ، وإما أن نكون نحن الملقون : أي اطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعصيكم ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ ﴾ ما ألقوه من ذلك ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ موسى مَا جِئْتُمْ بِهِ السحر ﴾ أي : الذي جئتم به السحر ، على أن " ما " موصولة مبتدأ والخبر السحر ؛ والمعنى : أنه سحر ، لا أنه آية من آيات الله .

وأجاز الفراء نصب السحر ب ﴿ جئتم ﴾ ، وتكون " ما " شرطية ، والشرط : " جئتم " ، والجزاء : ﴿ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾ على تقدير الفاء : أي فإن الله سيبطله ؛ وقيل : إن السحر منتصب على المصدر : أي ما جئتم به سحراً ، ثم دخلت الألف واللام ، فلا يحتاج على هذا إلى حذف الفاء ، واختاره النحاس .

وقال : حذف الفاء في المجازاة لا يجيزه كثير من النحويين إلا في ضرورة الشعر .

وقرأ أبو عمرو ، وأبو جعفر "آلسحر" على أن الهمزة للاستفهام ، والتقدير : أهو السحر ، فتكون " ما " على هذه القراءة استفهامية .

وقرأ أبيّ "ما أتيتم به سحر إن الله سيبطله" أي : سيمحقه ، فيصير باطلاً بما يظهره على يديّ من الآيات المعجزة ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدين ﴾ أي : عمل هذا الجنس ، فيشمل كل من يصدق عليه أنه مفسد ، ويدخل فيه السحر والسحرة دخولاً أوّلياً ، والواو في ﴿ وَيُحِقُّ اللهُ الحق ﴾ للعطف على سيبطله ، أي يبينه ويوضحه ﴿ بكلماته ﴾ التي أنزلها في كتبه على أنبيائه ، لاشتمالها على الحجج والبراهين ﴿ وَلَوْ كَرِهَ المجرمون ﴾ من آل فرعون ، أو المجرمون على العموم ، ويدخل تحتهم آل فرعون دخولاً أوّلياً ، والإجرام : الآثام .

قوله : ﴿ فَمَا ءامَنَ لموسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ الضمير يرجع إلى موسى : أي من قوم

موسى ، وهم طائفة من ذراري بني إسرائيل .

وقيل : المراد : طائفة من ذراري فرعون ، فيكون الضمير عائداً على فرعون .

(94/368)

قيل : ومنهم مؤمن آل فرعون وامرأته ، وماشطة ابنته ، وامرأة خازنه .

وقيل : هم قوم آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل ، روي هذا عن الفراء ﴿ على خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِم ﴾ الضمير لفرعون ، وجمع لأنه لما كان جباراً جمعوا ضميره تعظيماً له .

وقيل : إن قوم فرعون سموا بفرعون مثل ثمود ، فرجع الضمير إليهم بهذا الاعتبار .

وقيل : إنه عائد على مضاف محذوف ، والتقدير : على خوف من آل فرعون ، وروي هذا عن الفراء .

ومنع ذلك الخليل ، وسيبويه ، فلا يجوز عندهما : قامت هند وأنت تريد غلامها .

وروي عن الأخفش أن الضمير يعود على الذرية ، وقوّاه النحاس : ﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ أي : يصرفهم عن دينهم بالعذاب الذي كان ينزله بهم ، وهو بدل اشتمال .

ويجوز أن يكون في موضع نصب بالمصدر ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ ﴾ أي : عات

متكبر، متغلب على أرض مصر ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ المسرفين ﴾ المجاوزين للحد في الكفر، وما يفعله من القتل والصلب، وتنويع العقوبات.

قوله: ﴿ وَقَالَ موسى يا قَوْمِ إِن كُنتُمْ ءامَنْتُمْ بالله فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنْتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ قيل: إن هذا من باب التكرير للشرط، فشرط في التوكل على الله الإيمان به والإسلام: أي الاستسلام لقضائه وقدره.

وقيل: إن هذا ليس من تعليق الحكم بشرطين بل المعلق بالإيمان هو وجوب التوكل، والمشروط بالإسلام وجوده، والمعنى: أن يسلموا أنفسهم لله: أي يجعلوها له سالمة خالصة لا حظّ للشيطان فيها؛ لأن التوكل لا يكون مع التخليط.

(95/368)

قال في الكشاف: ونظيره في الكلام: إن ضربك زيد فاضربه، إن كانت لك به قوّة ﴿ فَقَالُواْ ﴾ أي: قوم موسى مجيبين له ﴿ عَلَى الله تَوَكَّلْنَا ﴾ ثم دعوا الله مخلصين، فقالوا: ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ﴾ أي: موضع فتنة ﴿ لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ والمعنى: لا تسلطهم علينا، فيعذبونا حتى يفتنونا عن ديننا، ولا تجعلنا فتنة لهم، يفتنون بنا غيرنا، فيقولون لهم: لو كان هؤلاء على حق لما سلطنا عليهم وعذبناهم، وعلى المعنى الأوّل: تكون الفتنة

بمعنى المفتون .

ولما قدّموا التضرّع إلى الله سبحانه في أن يصون دينهم عن الفساد ، أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم ، فقالوا : ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ القوم الكافرين ﴾ وفي هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم .

قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى موسى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ " أن " هي المفسرة لأن في الإيحاء معنى القول أن تبوّآ : أي : اتخذوا لقومكما بمصر بيوتاً ؛ يقال : بوّأت زيداً مكاناً ، وبوّأت لزيد مكاناً ، والمبوأ : المنزل الملزوم ، ومنه بوّأه الله منزلاً : أي ألزمه إياه ، وأسكنه فيه ، ومنه الحديث : " من كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار " ومنه قول الراجز :

نحن بنو عدنان ليس شك . . . تبوّأ المجد بنا والملك

قيل : ومصر في هذه الآية هي الإسكندرية ، وقيل : هي مصر المعروفة ، لا الإسكندرية ﴿ واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ أي : متوجهة إلى جهة القبلة ، قيل : والمراد بالبيوت هنا : المساجد ، وإليه ذهب جماعة من السلف .

وقيل المراد بالبيوت : التي يسكنون فيها ، أمروا بأن يجعلوها منا قبلة ، والمراد بالقبلة على القول الأوّل : هي جهة بيت المقدس ، وهو : قبلة اليهود إلى اليوم .

وقيل : جهة الكعبة ، وأنها كانت قبلة موسى ومن معه ؛ وقيل : المراد أنهم يجعلون بيتهم مستقبلة للقبلة ، ليصلوا فيها سرّاً لئلا يصيبهم من الكفار معرّة بسبب الصلاة ، ومما يؤيد هذا قوله : ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة ﴾ أي : التي أمركم الله بإقامتها ، فإنه يفيد أن القبلة هي قبلة الصلاة ، إما في المساجد أو في البيوت ، لا جعل البيوت متقابلة ، وإنما جعل الخطاب في أوّل الكلام مع موسى وهارون ، ثم جعله لهما ولقومهما في قوله : ﴿ واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصلاة ﴾ ثم أفرد موسى بالخطاب بعد ذلك ، فقال : ﴿ وَبَشّرِ المؤمنين ﴾ لأن اختيار المكان مفوّض إلى الأنبياء ، ثم جعل عاماً في استقبال القبلة وإقامة الصلاة ، لأن ذلك واجب على الجميع لا يختص بالأنبياء ، ثم جعل خاصاً بموسى ؛ لأنه الأصل في الرسالة ، وهارون تابع له ، فكان ذلك تعظيماً للبشارة وللمبشر بها .

وقيل : إن الخطاب في ﴿ وبشّر المؤمنين ﴾ لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، على طريقة الالتفات والاعتراض ، والأوّل : أولى .

وقد أخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ لِتَلْفِتَنَا ﴾ قال : لتلوينا .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السديّ ، قال : لتصدّنا عن آلهتنا ، وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الكبرياء فِى الأرض ﴾ قال :

العظمة والملك والسلطان .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ فَمَا ءامَنَ لموسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ ﴾ قال : الذرية : القليل .

وأخرج هؤلاء ، عنه ، في قوله : ﴿ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ قال : من بني إسرائيل .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، قال : هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم .

(97/368)

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس ، قال : كانت الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون منهم : امرأة فرعون ، ومؤمن آل فرعون ، وخازن فرعون ، وامرأة خازنه .

وأخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، ونعيم بن حماد في الفتن ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ قال : لا تسلطهم علينا فيفتنونا .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عنه ، قال في تفسير الآية

: لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون ، ولا بعذاب من عندك ، فيقول قوم فرعون : لو كانوا على الحق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنون بنا .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن أبي قلابة ، في الآية قال : سأل ربه ألا يظهر علينا عدوّنا ، فيحسبون أنهم أولى بالعدل فيفتنون بذلك .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن أبي مجلز ، نحوه .

وأخرج أبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى موسى وَأَخِيهِ ﴾ الآية .

قال ذلك حين منعهم فرعون الصلاة ، فأمروا أن يجعلوا مساجدهم في بيوتهم ، وأن يوجهوها نحو القبلة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ ﴾ قال : مصر : الإسكندرية .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في الآية قال : كانوا لا يصلون إلا في البيع حتى خافوا من آل فرعون ، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم .

وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، في الآية قال : أمروا أن يتخذوا في بيوتهم مساجد .

وأخرج أبو الشيخ ، عن أبي سنان ، قال : القبلة : الكعبة ، وذكر أن آدم فمن بعده كانوا

يصلون قبل الكعبة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ قال : يقابل بعضها بعضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(98/368)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (88) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (89) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ختم ببشارة من دل على إيمانهم إسلامهم بفعل ما يدل على هوان أمر العدو ، وكان هلاك المشانىء من أعظم البشائر ، وكان ضلال فرعون وقومه بالزينة والمال إضلالاً لغيرهم ، سأل موسى عليه السلام إزاله ذلك كله للراحة من شره ، فقال تعالى حاكياً عنه :

﴿ وقال موسى ﴾ أي بعد طول دعائه لفرعون وإظهار المعجزات لديه وطول تكبره على

أمر الله وتجبره على المستضعفين من عباده ، ولما كان من أعظم أهل الاصطفاء ، أسقط الأداة تسنناً بهم ، وأشار بصفة الإحسان إلى أن هلاك أعدائهم أعظم إحسان إليهم فقال : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا ﴿ إنك ﴾ أكد لما للجهال من إنكار أن يكون عطاء الملك الأعظم سبباً للإهانة ﴿ آتيت فرعون وملأه ﴾ أي أشراف قومه على ما هم فيه من الكفر والكبر ﴿ زينة ﴾ أي عظيمة يتزينون بها من الحلية واللباس وغيرهما ﴿ وأموالاً ﴾ أي كثيرة من الذهب والفضة وغيرهما ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ روي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه كان لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت ؛ ثم بين غايتها لهم فقال مفتتحاً بالنداء باسم الرب ليعيذه وأتباعه من مثل حالهم : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها الموجد لنا المحسن إلينا والمدبر لأمورنا ﴿ ليضلوا ﴾ في أنفسهم ويضلوا غيرهم ﴿ عن سبيلك ﴾ أي الطريق الواسعة التي نهجتها للوصول إلى رحمتك .

ولما بين أن مآلهم الضلال ، دعا عليهم فقال مفتتحاً أيضاً بالنداء باسم الرب ثالثاً لأن ذلك من أمارات الإجابة كما أُشير إليه في آخر آل عمران وإشارة إلى أنهم لا صلاح لهم بدون هلاكهم وهلاكها : ﴿ ربنا اطمس ﴾ أي أوقع الطمس وهو التسوية بين المطموس وبين غيره مما ليس له نفعه ﴿ على أموالهم ﴾ .

ولما كان قد رأى منهم من التكبر على الله والتكذيب لآياته والتعذيب لأوليائه ما لا يشفي غيظه منه إلا إدامة شقائهم دنيا وأخرى ، وكان عالماً بأن قدرة الله على إبقائهم على الكفر مع تحسيرهم بسلب المال كقدرته على ذلك باستدراجهم إليه بالمال ، قال : ﴿ واشدد ﴾ أي شداً ظاهراً لكل أحد - بما أشار إليه الفك مستعلياً ﴿ على قلوبهم ﴾ قال ابن عباس : اطبع عليها وامنعها من الإيمان ، وأجاب الدعاء بقوله : ﴿ فلا يؤمنوا ﴾ أي ليتسبب عن ذلك الشد عدم إيمانهم إذا رأوا مبادىء العذاب الطمس ﴿ حتى يروا ﴾ أي بأعينهم ﴿ العذاب الأليم ﴾ حيث لا ينفعهم الإيمان فيكونوا جامعين ذل النفوس المطلوب منهم اليوم ليفيدهم العز الدائم إلى شدة الغضب بوضع الشيء في غير موضعه المنتج لدوام ذلهم بالعقاب ؛ وهذه الآية منبهة على أن الرضى بكفر خاص لا يستلزم استحسان الكفر من حيث هو كفر ؛ قال الإمام الحليمي في كتاب شعب الإيمان المسمى بالمنهاج : وإذا تمنى مسلم كفر مسلم فهذا على وجهين : أحدهما أن يتمناه له كما يتمنى الصديق لصديقه الشيء يستحسنه فيحب أن يكون له فيه نصيب ، فهذا كفر لأن استحسان الكفر كفر ، والآخر أن يتمناه له كما يتمنى لعدوه الشيء يستفظعه - فيجب أن يقع فيه ، فهذا ليس بكفر ، تمنى موسى صلوات الله عليه وسلامه بعد أن أجهده فرعون ألا يؤمن فرعون وملأه ليحق عليهم العذاب ، وزاد على ذلك أن دعا الله تبارك وتعالى فلم

ينكر تعالى ذلك عليه لعلمه أن شدته على فرعون وغلظته عليه لما رآه من عتوه وتجبره هي التي حملته على ذلك ، فمن كان في معناه فله حكمه ؛ وقد نقل ذلك عنه الزركشي في حرف الثاء من قواعده مرتضياً له ، ونقل عنه أيضاً أنه قال : ولو كان في قلب مسلم على كافر فأسلم فحزن المسلم لذلك وتمنى لو عاد إلى الكفر لا يكفر ، لأن استقباحه الكفر هو الذي حمله على تمنيه واستحسانه الإسلام هو الحامل لله على كراهته ؛ ونقل عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام أنه لو قتل عدو

(100/368)

للإنسان ظلماً ففرح هل يأثم ! إن فرح بكونه عصى الله فيه فنعم ، وإن فرح بكونه خلص من شره فلا بأس لاختلاف سببي الفرح – انتهى .

ويؤيده ما روى البيهقي في دلائل النبوة بسنده عن مقسم مرسلاً أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا عل عتبة بن أبي وقاص يوم أحد حين كسر رباعيته ودمي وجهه فقال : " اللهم لا تحل عليه الحول حتى يموت كافراً ! " فما حال عليه الحول حتى مات كافراً إلى النار ، ومسألة أن الرضى بالكفر كفر نقلها الشيخان عن المتولي وسكتا عليها ، ولكن قال الشيخ محيي الدين في شرح المهذب : إن ذلك إفراط ، فما تقدم من التفصيل عن الحليمي وابن عبد

السلام هو المعتمد ، والمسألة في أصل الروضة .

فإنه قال : لو قال لمسلم : سلبه الله الإيمان ، أو لكافر : رزقه الله الإيمان ، فليس بكفر لأنه ليس رضى بالكفر لكنه دعاء عليه بتشديد الأمر والعقوبة ؛ قلت : ذكر القاضي حسين في الفتاوى وجهاً ضعيفاً أنه لو قال مسلم : سلبه الله الإيمان ، كفر – والله أعلم ، وحكى الوجهين عن القاضي في الأذكار وقال : إن الدعاء بذلك معصية .

ولما أخبر سبحانه عن دعائه عليه السلام أخبر بإجابته بقوله مستأنفاً : ﴿ قال ﴾ ولما كان الموضع محل التوقع للإجابة ، افتتحه بحرفه فقال : ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾ والبناء للمفعول أدل على القدرة وأوقع في النفس من جهة الدلالة على الفاعل بالاستدلال ، وثنى للإعلام بأن هارون عليه السلام مع موسى عليه السلام في هذا الدعاء ، لأنه معه كالشيء الواحد لا خلاف منه له أصلاً وإن كان غائباً ، وذلك كما بايع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن عثمان ـ رضى الله عنهم ـ في عمرة الحديبية فضرب بإحدى يديه على الأخرى وهو غائب في حاجة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكذا ضرب له في غزوة بدر بسهمه وأجره وكان غائباً .

(101/368)

ولما كانت الطاعة وانتظار الفرج وإن طال زمنه أعظم أسباب الإجابة ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ فاستقيما ﴾ أي فاثبتا على التعبد والتذلل والخضوع لربكما كما أن نوحاً عليه السلام ثبت على ذلك وطال زمنه جداً واشتد أذاه ولم يضجر ؛ ولما كان الصبر شديداً . أكد قوله : ﴿ ولا تتبِعان ﴾ بالاستعجال أو الفترة عن الشكر ﴿ سبيل الذين لا يعلمون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 475. 477 ﴾

(102/368)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾

اعلم أن موسى لما بالغ في إظهار المعجزات الظاهرة القاهرة ورأى القوم مصرين على الجحود والعناد والإنكار ، أخذ يدعو عليهم ، ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولاً سبب إقدامه على تلك الجرائم ، وكان جرمهم هو أنهم لأجل حبهم الدنيا تركوا الدين ، فلهذا السبب قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ ءاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً ﴾ والزينة

عبارة عن الصحة والجمال واللباس والدواب ، وأثاث البيت والمال ما يزيد على هذه الأشياء من الصامت والناطق .

ثم قال : ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ حمزة والكسائي وعاصم ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ بضم الياء وقرأ الباقون بفتح الياء .

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يضل الناس ويريد إضلالهم وتقريره من وجهين :

الأول : أن اللام في قوله : ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ لام التعليل ، والمعنى : أن موسى قال يا رب العزة إنك أعطيتهم هذه الزينة والأموال لأجل أن يضلوا ، فدل هذا على أنه تعالى قد يريد إضلال المكلفين .

الثاني : أنه قال : ﴿واشدد على قُلُوبِهِمْ﴾ فقال الله تعالى : ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا﴾ وذلك أيضاً يدل على المقصود .

قال القاضي : لا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية ما ذكرتم ويدل عليه وجوه : الأول : أنه ثبت أنه تعالى منزه عن فعل القبيح وإرادة الكفر قبيحة .

والثاني : أنه لو أراد ذلك لكان الكفار مطيعين لله تعالى بسبب كفرهم ، لأنه لا معنى للطاعة إلا الإتيان بما يوافق الإرادة ولو كانوا كذلك لما استحقوا الدعاء عليهم بطمس الأموال وشد القلوب ، والثالث : أنا لو جوزنا أن يريد إضلال العباد ، لجوزنا أن يبعث الأنبياء عليهم السلام للدعاء إلى الضلال ، ولجاز أن يقوي الكذابين الضالين المضلين بإظهار المعجزات عليهم ، وفيه هدم الدين وإبطال الثقة بالقرآن والرابع : أنه لا يجوز أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه : 44] وأن يقول : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 130] ثم إنه تعالى أراد الضلالة منهم وأعطاهم النعم لكي يضلوا ، لأن ذلك كالمناقضة ، فلا بد من حمل أحدهما على موافقة الآخر .

الخامس : أنه لا يجوز أن يقال : إن موسى عليه السلام دعا ربه بأن يطمس على أموالهم لأجل أن لا يؤمنوا مع تشدده في إرادة الإيمان .

واعلم أنا بالغنا في تكثير هذه الوجوه في مواضع كثيرة من هذا الكتاب .

وإذا ثبت هذا فنقول : وجب تأويل هذه الكلمة وذلك من وجوه : الأول : أن اللام في قوله ﴿ لِيُضِلُّوا ﴾ لام العاقبة كقوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص : 8] ولما كانت عاقبة قوم فرعون هو الضلال ، وقد أعلمه الله تعالى ، لا جرم عبر

عن هذا المعنى بهذا اللفظ .

الثاني : أن قوله : ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ أي لئلا يضلوا عن سبيلك ، فحذف لا لدلالة المعقول عليه كقوله : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ [النساء : 176] والمراد أن لا تضلوا ، وكقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ بلى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة ﴾ [الأعراف : 172] والمراد لئلا تقولوا ، ومثل هذا الحذف كثير في الكلام .

(104/368)

الثالث : أن يكون موسى عليه السلام ذكر ذلك على سبيل التعجب المقرون بالإنكار والتقدير كأنك آتيتهم ذلك الغرض فإنهم لا ينفقون هذه الأموال إلا فيه وكأنه قال : آتيتهم زينة وأموالاً لأجل أن يضلوا عن سبيل الله ثم حذف حرف الاستفهام كما في قول الشاعر :

كذبتك عينك أم رأيت بواسط . . غلس الظلام من الربا ب خيالا

أراد أكذبتك فكذا ههنا .

الرابع : قال بعضهم : هذه اللام لام الدعاء وهي لام مكسورة تجزم المستقل ويفتتح بها الكلام ، فيقال ليغفر الله للمؤمنين وليعذب الله الكافرين ، والمعنى ربنا ابتلهم بالضلال عن سبيلك .

الخامس : أن هذه اللام لام التعليل لكن بحسب ظاهر الأمر لا في نفس الحقيقة وتقريره أنه تعالى لما أعطاهم هذه الأموال وصارت تلك الأموال سبباً لمزيد البغي والكفر ، أشبهت هذه الحالة حالة من أعطى المال لأجل الإضلال فورد هذا الكلام بلفظ التعليل لأجل هذا المعنى .

السادس : بينا في تفسير قوله تعالى : ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ﴾ [البقرة : 26] في أول سورة البقرة إن الضلال قد جاء في القرآن بمعنى الهلاك يقال : الماء في اللبن أي هلك فيه .

إذا ثبت هذا فنقول : قوله : ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ معناه : ليهلكون ويموتوا ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَموالهم وَلاَ أولادهم إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياة الدنيا ﴾ [التوبة : 55] فهذا جملة ما قيل في هذا الباب .

واعلم أنا قد أجبنا عن هذه الوجوه مراراً كثيرة في هذا الكتاب ، ولا بأس بأن نعيد بعضها في هذا المقام فنقول : الذي يدل على أن حصول الإضلال من الله تعالى وجوه : الأول : أن العبد لا يقصد إلا حصول الهداية ، فلما لم تحصل الهداية بل حصل الضلال الذي لا يريده ، علمنا أن حصوله ليس من العبد بل من الله تعالى .

فإن قالوا : إنه ظن بهذا الضلال أنه هدى ؟ فلا جرم قد أوقعه وأدخله في الوجود فنقول : فعلى هذا يكون إقدامه على تحصيل هذا الجهل بسبب الجهل السابق ، فلو كان حصول ذلك الجهل السابق بسبب جهل آخر لزم التسلسل وهو محال ، فثبت أن هذه الجهالات والضلالات لا بد من انتهائها إلى جهل أول وضلال أول ، وذلك لا يمكن أن يكون بإحداث العبد وتكوينه لأنه كرهه وإنما أراد ضده ، فوجب أن يكون من الله تعالى .

الثاني : أنه تعالى لما خلق الخلق بحيث يحبون المال والجاه حباً شديداً لا يمكنه إزالة هذا الحب عن نفسه ألبتة ، وكان حصول هذا الحب يوجب الاعراض عمن يستخدمه ويوجب التكبر عليه وترك الالتفات إلى قوله وذلك يوجب الكفر ، فهذه الأشياء بعضها يتأدى إلى البعض تأدياً على سبيل اللزوم وجب أن يكون فاعل هذا الكفر هو الذي خلق الإنسان مجبولاً على حب المال والجاء .

الثالث : وهو الحجة الكبرى أن القدرة بالنسبة إلى الضدين على السوية ، فلا يترجح أحد الطرفين على الثاني إلا لمرجح ، وذلك المرجح ليس من العبد وإلا لعاد الكلام فيه ، فلا بد وأن يكون من الله تعالى ، وإذا كان كذلك كانت الهداية والإضلال من الله تعالى .

الرابع : أنه تعالى أعطى فرعون وقومه زينة وأموالاً وقوى حب ذلك المال والجاه في قلوبهم . وأودع في طباعهم نفرة شديدة عن خدمة موسى عليه السلام والانقياد له ، لا سيما وكان فرعون كالمنعم في حقه والمربي له والنفرة عن خدمة من هذا شأنه راسخة في القلوب ، وكل

ذلك يوجب إعراضهم عن قبول دعوة موسى عليه السلام وإصرارهم على إنكار صدقه ، فثبت بالدليل العقلي أن إعطاء الله تعالى فرعون وقومه زينة الدنيا وأموال الدنيا لا بد وأن يكون موجباً لضلالهم فثبت أن ما أشعر به ظاهر اللفظ فقد ثبت صحته بالعقل الصريح فكيف يمكن ترك ظاهر اللفظ في مثل هذا المقام وكيف يحسن حمل الكلام على الوجوه المتكلفة الضعيفة جداً .

(106/368)

إذا عرفت هذا فنقول : أما الوجه الأول : وهو حمل اللام على لام العاقبة فضعيف ، لأن موسى عليه السلام ما كان عالماً بالعواقب .

فإن قالوا : إن الله تعالى أخبره بذلك ؟

قلنا : فلما أخبر الله عنهم أنهم لا يؤمنون كان صدور الإيمان منهم محالاً ، لأن ذلك يستلزم انقلاب خبر الله كذباً وهو محال والمفضى إلى المحال محال .

وأما الوجه الثاني : وهو قولهم يحمل قوله ﴿ ليضلوا عن سبيلك ﴾ على أن المراد لئلا يضلوا عن سبيلك فنقول : إن هذا التأويل ذكره أبو علي الجبائي في تفسيره .

وأقول : إنه لما شرع في تفسيره قوله تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك

من سيئة فمن نفسك ﴾ [النساء : 79] ثم نقل عن بعض أصحابنا أنه قرأ ﴿ فمن نفسك ﴾ على سبيل الاستفهام بمعنى الإنكار ، ثم إنه استبعد هذه القراءة وقال إنها تقتضي تحريف القرآن وتغييره وتفتح باب تأويلات الباطنية وبالغ في إنكار تلك القراءة وهذا الوجه الذي ذكره ههنا شر من ذلك ، لأنه قلب النفي إثباتاً والإثبات نفياً وتجويزه يفتح باب أن لا يبقى الاعتماد على القرآن لا في نفيه ولا في إثباته وحينئذ يبطل القرآن بالكلية هذا بعينه هو الجواب عن قوله المراد منه الاستفهام بمعنى الإنكار ، فإن تجويزه يوجب تجويز مثله في سائر المواطن ، فلعله تعالى إنما قال :

﴿ أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ [البقرة : 43] على سبيل الإنكار والتعجب وأما بقية الجوابات فلا يخفى ضعفها .

ثم إنه تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه قال : ﴿ رَبَّنَا اطمس على أموالهم ﴾ وذكرنا معنى الطمس عند قوله تعالى : ﴿ مّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً ﴾ [النساء : 47] والطمس هو المسخ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : بلغنا أن الدراهم والدنانير ، صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأنصافاً وأثلاثاً ، وجعل سكرهم حجارة .

ثم قال : ﴿ واشدد على قُلُوبِهِمْ ﴾ ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان .

قال الواحدي : وهذا دليل على أن الله تعالى يفعل ذلك بمن يشاء ، ولولا ذلك لما حسن من موسى عليه السلام هذا السؤال .

ثم قال : ﴿ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الاليم ﴾ وفيه وجهان : أحدهما : أنه يجوز أن يكون معطوفاً على قوله : ﴿ لِيُضِلُّواْ ﴾ والتقدير : ربنا ليضلوا عن سبيلك فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم وقوله : ﴿ رَبَّنَا اطمس على أموالهم واشدد على قُلُوبِهِمْ ﴾ يكون اعتراضاً .

والثاني : يجوز أن يكون جواباً لقوله : ﴿ واشدد ﴾ والتقدير : اطبع على قلوبهم وقسها حتى لا يؤمنوا ، فإنها تستحق ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا ﴾ وفيه وجهان : الأول : قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أن موسى كان يدعو وهارون كان يؤمن ، فلذلك قال : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا ﴾ وذلك لأن من يقول عند دعاء الداعي آمين فهو أيضاً داع ، لأن قوله آمين تأويله استجب فهو سائل كما أن الداعي سائل أيضاً .

الثاني : لا يبعد أن يكون كل واحد منهما ، ذكر هذا الدعاء غاية ما في الباب أن يقال : إنه

تعالى حكى هذا الدعاء عن موسى بقوله : ﴿ وَقَالَ موسى رَبَّنَا إِنَّكَ ءاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً ﴾ إلا أن هذا لا ينافي أن يكون هارون قد ذكر ذلك الدعاء أيضاً .

وأما قوله : ﴿ فاستقيما ﴾ يعني فاستقيما على الدعوة والرسالة ، والزيادة في إلزام الحجة فقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا قليلاً فلا تستعجلا ، قال ابن جُرَيْج : إن فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة .

وأما قوله : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ففيه بحثان :

(108/368)

البحث الأول : المعنى : لا تتبعان سبيل الجاهلين الذين يظنون أنه متى كان الدعاء مجاباً كان المقصود حاصلاً في الحال ، فربما أجاب الله تعالى دعاء إنسان في مطلوبه ، إلا أنه إنما يوصله إليه في وقته المقدر ، والاستعجال لا يصدر إلا من الجهال ، وهذا كما قال لنوح عليه السلام : ﴿ إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ [هود : 46] .

واعلم أن هذا النهي لا يدل على أن ذلك قد صدر من موسى عليه السلام كما أن قوله : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] لا يدل على صدور الشرك منه .

البحث الثاني : قال الزجاج : قوله : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعَانِّ ﴾ موضعه جزم ، والتقدير : ولا تتبعا ،

إلا أن النون الشديدة دخلت على النهي مؤكدة وكسرت لسكونها ، وسكون النون التي قبلها فاختير لها الكسرة ، لأنها بعد الألف تشبه نون التثنية ، وقرأ ابن عامر ﴿ وَلاَ تَتَّبِعَانِّ ﴾ بتخفيف النون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 119 .

123 ﴾

(109/368)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ﴾

أي أهلكها ، قاله قتادة . فذكر لنا أن زروعهم وأموالهم صارت حجارة منقوشة ، قاله الضحاك .

﴿ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : بالضلالة ليهلكوا كفاراً فينالهم عذاب الآخرة ، قاله مجاهد .

الثاني : بإعمائها عن الرشد .

الثالث : بالموت ، قاله ابن بحر .

الرابع : اجعلها قاسية .

﴿ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ قال ابن عباس هو الغرق .

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ قال أبو العالية والربيع : دعا موسى وأمّن هارون فسمي هارون وقد أمّن على الدعاء داعياً ، والتأمين على الدعاء أن يقول آمين .

واختلف في معنى آمين بعد الدعاء وبعد فاتحة الكتاب في الصلاة على ثلاثة أقاويل :

أحدها : معناه اللهم استجب ، قاله الحسن .

الثاني : أن آمين اسم من أسماء الله تعالى ، قاله مجاهد ، قال ابن قتيبة وفيه حرف النداء مضمر وتقديره يا آمين استجب دعاءنا .

الثالث : ما رواه سعيد عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " آمين خَاتَمُ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ " يعني أنها تمنع من وصول الأذى والضرر كما يمنع الختم من الوصول إلى المختوم عليه .

وفرق ابن عباس في معنى آمين بين وروده بعد الدعاء وبين وروده بعد فاتحة الكتاب فقال : معناه بعد الدعاء : اللهم استجب ، ومعناه بعد الفاتحة : كذلك فليكن .

قال محمد بن علي وابن جريج : وأخّر فرعون بعد إجابته دعوتهما أربعين سنة .

﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فامضيا لأمري فخرجا في قومهم ، قاله السدي .

الثاني : فاستقيما في دعوتكما على فرعون وقومه ، وحكاه علي بن عيسى .

وقيل : إنه لا يجوز أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن لأن دعاءه موجب لحلول الانتقام وقد يجوز أن يكون فيهم من يتوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(110/368)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى ﴿ وقال موسى ﴾ الآية

غضب من موسى على القبط ودعاء عليهم فقدم للدعاء تقرير نعم الله عليهم وكفرهم بها ، و ﴿ آتيت ﴾ معناه أعطيت وملكت ، وتكرر قوله ﴿ ربنا ﴾ استغاثة كما يقول الداعي بالله ، وقوله ﴿ ليضلوا ﴾ يحتمل أن يكون لام كي على بابها على معنى آتيتهم الأموال إملاء لهم واستدراجاً فكان الإيتاء كي يضلوا ويحتمل أن تكون لام الصيرورة والعاقبة ، كما قال ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزناً ﴾ [القصص : 8] والمعنى آتيتهم ذلك فصار أمرهم إلى كذا ، وروي عن الحسن أنه قال : هو دعاء ويحتمل أن يكون المعنى على جهة الاستفهام أي ربنا ليضلوا فعلت ذلك ، وفي تقرير الشنعة عليهم .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والحسن والأعرج وشيبة وأبو جعفر ومجاهد وأبو رجاء وأهل مكة : " ليَضلوا " بفتح الياء على معنى ليضلوا في أنفسهم ، وقرأ عاصم وحمزة

والكسائي والأعمش وقتادة وعيسى والحسن والأعرج بخلاف عنه " ليُضلوا " بضم الياء على معنى ليضلوا غيرهم ، وقرأ الشعبي " لِيضلوا " بكسر الياء ، وقرأ الشعبي أيضاً وغير " اطمُس " بضم الميم ، وقرأت فرقة " اطمِس " بكسر الميم وهما لغتان ، وطمس يطمس ويطمُس ، قال أبو حاتم : وقراءة الناس بكسر الميم والضم لغة مشهورة ، معناه عف وغيره وهو من طموس الأثر والعين وطمس الوجوه ومنه قول كعب بن زهير : [البسيط]

من كل نضاخه الذفرى إذا عرفت . . . عرضتها طامس الأعلام مجهول

(111/368)

وروي أنهم حين دعا موسى بهذه الدعوة رجع سكرهم حجارة وزادهم ودنانيرهم وحبوبهم من الأطعمة رجعت حجارة ، قاله محمد بن كعب القرظي وقتادة وابن زيد ، قاله مجاهد وغيره ، معناه أهلكها ودمرها ، وروي أن الطمسة من آيات موسى التسع ، وقوله ﴿ اشدد على قلوبهم ﴾ بمعنى اطبع واختم عليهم بالكفر ، قاله مجاهد والضحاك ، ولما أشار عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل أسرى بدر شبهه بموسى في دعائه على قومه الذين بعث إليهم في هذه الآية وبنوح في قوله ﴿ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ [نوح : 26] . وقوله ﴿ فلا يؤمنوا ﴾ مذهب الأخفش وغيره أن

الفعل منصوب عطفاً على قوله ﴿ ليضلوا ﴾ ، وقيل هو منصوب في جواب الأمر ، وقال الفراء والكسائي : هو مجزوم على الدعاء ومنه قول الشاعر [الأعشى] : [الطويل]

فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى . . . ولا تلقني إلاَّ وأنفُكَ راغمُ

وجعل رؤية العذاب نهاية وغاية ، وذلك لعلمه من قبل الله أن المؤمن عند رؤية العذاب لا ينفعه إيمانه في ذلك الوقت ولا يخرجه من كفره ، ثم أجاب الله هذه الدعوة في فرعون نفسه ، قال ابن عباس : ﴿ العذاب ﴾ هنا الغرق ، وقرأ الناس " دعوتكما " ، وقرأ السدي والضحاك " دعواتكما " ، وروي عن ابن جريج ومحمد بن علي والضحاك أن الدعوة لم تظهر إجابتها إلا بعد أربعين سنة ، وحينئذ كان الغرق .

قال القاضي أبو محمد : وأعلما أن دعاءهما صادق مقدوراً ، وهذا معنى إجابة الدعاء ، وقيل لهما ﴿ لا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ أي في أن تستعجلا قضائي فإن وعدي لا خلف له ، وقوله ﴿ دعوتكما ﴾ ولم يتقدم الدعاء إلا لموسى ، وروي أن هارون كان يؤمِّن على دعاء موسى ، قاله محمد بن كعب القرظي ، نسب الدعوة إليهما ، وقيل كنّى عن الواحد بلفظ التثنية كما قال " قفا نبكي " ونحو هذا .

(112/368)

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف لأن الآية تتضمن بعد مخاطبتهما من غير شيء ، قال علي بن سليمان قول موسى : ﴿ ربنا ﴾ دال على أنهما دعوا معاً ، وقوله ﴿ فاستقيما ﴾ أي على ما أمرتما به من الدعاء إلى الله ، وأمر بالاستقامة وهما على الإدامة والتمادي ، وقرأ نافع والناس " تتّبعانّ " بشد التاء والنون على النهي ، وقرأ ابن عامر وابن ذكوان " تتبعانّ " بتخفيف التاء وشد النون ، وقرأ ابن ذكوان أيضاً : " تتّبعانِ " بشد التاء وتخفيف النون وكسرها ، وقرأت فرقة " تَتبعانْ " بتخفيفها وسكون النون رواه الأخفش الدمشقي عن أصحابه عن ابن عامر ، فأما شد النون فهي النون الثقيلة حذفت معها نون التثنية للجزم كما تحذف معها الضمة في لتفعلنّ بعد ألف التثنية وأما تخفيفها فيصح أن تكون الثقيلة خففت ويصح أن تكون نون التثنية ويكون الكلام خبراً معناه الأمر ، أي لا ينبغي أن تتبعا ، قال أبو علي : إن شئت جعلته حالاً من استقيما كأنه قال غير متبعين . قال القاضي أبو محمد : والعطف يمانع في هذا فتأمله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(113/368)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ موسى رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ ﴾ "آتَيْتَ" أي أعطيت .

﴿ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحياة الدنيا ﴾ أي مال الدنيا ، وكان لهم من فُسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن الذهب والفضة والزّبرجد والزّمرد والياقوت .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ اختلف في هذه اللام ، وأصح ما قيل فيها وهو قول الخليل وسيبويه أنها لام العاقبة والصيرورة ؛ وفي الخبر : " إن لله تعالى مَلَكا ينادي كلّ يوم لِدُوا للموت وابنوا للخراب " أي لما كان عاقبة أمرهم إلى الضلال صار كأنه أعطاهم ليضِلّوا .

وقيل : هي لام كيّ ، أي أعطيتهم لكي يضلوا ويَبْطَروا ويتكبروا .

وقيل : هي لام أجْل ، أي أعطيتهم لأجل إعراضهم عنك فلم يخافوا أن تعرض عنهم .

وزعم قوم أن المعنى : أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا ، فحذفت لا كما قال عز وجل : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ [النساء : 176] .

والمعنى : لأن لا تضلوا .

قال النحاس : ظاهر هذا الجواب حسن ، إلا أن العرب لا تحذف "لا" إلا مع أن ؛ فموّه صاحب هذا الجواب بقوله عز وجل : ﴿ أَن تَضِلُّواْ ﴾ .

وقيل : اللام للدعاء ، أي ابتلهم بالضلال عن سبيلك ؛ لأن بعده : "اطمس عَلَى أَمْوَالِهِمْ واشدد" .

وقيل : الفعل معنى المصدر أي إضلالهم ؛ كقوله عز وجل : ﴿ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ﴾ .

قرأ الكوفيون : "لِيُضِلُّوا" بضم الياء من الإضلال ، وفتحها الباقون .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ ﴾ أي عاقبهم على كفرهم بإهلاك أموالهم .

قال الزجاج : طَمْسُ الشيء إذهابه عن صورته .

قال ابن عباس ومحمد بن كعب : صارت أموالهم ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأثلاثا وأنصافاً ، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد بعد .

وقال قتادة : بلغنا أن أموالهم وزروعهم صارت حجارة .

(114/368)

وقال مجاهد وعطية : أهلكها حتى لا تُرَى ؛ يقال : عين مطموسة ، وطُمس الموضع إذا عفا ودرَس .

وقال ابن زيد : صارت دنانيرهم ودراهمهم وفرشهم وكل شيء لهم حجارة .

محمد بن كعب : وكان الرجل منهم يكون مع أهله في فراشه وقد صارا حجرين ؛ قال : وسألني عمر بن عبد العزيز فذكرت ذلك له فدعا بخريطة أُصيبت بمصر فأخرج منها الفواكه والدراهم والدنانير وإنها لحجارة .

وقال السدّي : وكانت إحدى الآيات التسع .

﴿ واشدد على قُلُوبِهِمْ ﴾ .

قال ابن عباس : أي امنعهم الإيمان .

وقيل : قَسِّها واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان ؛ والمعنى واحد .

﴿ فَلاَ يُؤْمِنُواْ ﴾ قيل : هو عطف على قوله : "لِيَضِلُّوا" أي آتيتهم النعم ليضلوا ولا يؤمنوا ؛ قاله الزجاج والمبرد .

وعلى هذا لا يكون فيه من معنى الدعاء شيء .

وقوله : ﴿ رَبَّنَا اطمس ﴾ ﴿ واشدد ﴾ كلام معترَض .

وقال الفراء والكسائي وأبو عبيدة : هو دعاء ، فهو في موضع جزم عندهم ؛ أي اللهم فلا يؤمنوا ، أي فلا آمنوا .

ومنه قول الأعشى :

فلا ينبسطْ من بين عينَيْك ما انزوى . . .

ولا تَلْقَني إلا وأنفُك راغِمُ

أي لا انبسط .

ومن قال "لِيَضِلّوا" دعاء أي ابتلهم بالضلال قال : عطف عليه "فَلاَ يُؤْمِنُوا" .

وقيل : هو في موضع نصب لأنه جواب الأمر ؛ أي واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا .

وهذا قول الأخفش والفراء أيضاً ، وأنشد الفراء :

يا ناق سيري عَنَقاً فسيحا . . .

إلى سليمان فنستريحا

فعلى هذا حذفت النون لأنه منصوب .

﴿ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ قال ابن عباس : هو الغرق .

(115/368)

وقد استشكل بعض الناس هذه الآية فقال : كيف دعا عليهم وحكم الرسل استدعاء إيمان قومهم ؛ فالجواب أنه لا يجوز أن يدعو نبيّ على قومه إلا بإذن من الله ، وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن ؛ دليله قوله لنوح عليه السلام : ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾ [هود : 36] وعند ذلك قال : ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [نوح : 26] الآية .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا ﴾

قال أبو العالية : دعا موسى وأمّن هارون ؛ فسمى هارون وقد أمّن على الدعاء داعياً .

والتأمين على الدعاء أن يقول آمين ؛ فقولك آمين دعاء ، أي يا رب استجب لي .

وقيل : دعا هارون مع موسى أيضاً .

وقال أهل المعاني : ربما خاطبت العرب الواحد بخطاب الاثنين ؛ قال الشاعر :

فقلت لصاحبي لا تُعجلانا . . .

بنزعٍ أُصوله فاجتز شِيحا

وهذا على أن آمين ليس بدعاء ، وأن هارون لم يدع .

قال النحاس : سمعت عليّ بن سليمان يقول : الدليل على أن الدعاء لهما قول موسى عليه السلام "ربنا" ولم يقل رب .

وقرأ عليّ والسُّلَمِيّ "دعواتُكما" بالجمع .

وقرأ ابن السَّمَيقَع "أجبتُ دعوتَكما" خبراً عن الله تعالى ، ونصب دعوة بعده .

وتقدم القول في "آمين" في آخر الفاتحة مستوفًى .

وهو مما خص به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهارون وموسى عليهما السلام .

روى أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله قد أعطى أُمّتي ثلاثاً لم تُعْط أحداً قبلهم السلام وهي تحية أهل الجنة وصفوف الملائكة وآمين إلا ما كان من موسى وهارون " ذكره الترمذي الحكيم في نوادر الأُصول .

وقد تقدّم في الفاتحة .

قوله تعالى : ﴿ فاستقيما ﴾ قال الفرّاء وغيره : أمر بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه من دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان ، إلى أن يأتيهما تأويل الإجابة .

(116/368)

قال محمد بن عليّ وابن جريج : مكث فرعون وقومه بعد هذه الإجابة أربعين سنة ثم أهلكوا .

وقيل : "استقيما" أي على الدعاء ؛ والاستقامة في الدعاء ترك الاستعجال في حصول المقصود ، ولا يسقط الاستعجال من القلب إلا باستِقامة السكينة فيه ، ولا تكون تلك السكينة إلا بالرضا الحسن لجميع ما يبدو من الغيب .

﴿ وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ بتشديد النون في موضع جزم على النهي ، والنون للتوكيد وحركت لالتقاء الساكنين واختير لها الكسر لأنها أشبهت نون الاثنين .

وقرأ ابن ذَكْوَان بتخفيف النون على النفي .

وقيل : هو حال من استقيما ؛ أي استقيما غير متَّبعَين ، والمعنى : لا تسلكا طريق من لا يعلم حقيقة وعدي ووعيدي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(117/368)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ﴾ ل

ما أتى موسى عليه السلام بالمعجزات الباهرات ورأى أن القوم مصرون على الكفر والعناد والإنكار لما جاء به أخذ في الدعاء عليهم ومن حق من يدعو على الغير ان يذكر أولاً سبب إقدامه على الجرائم التي كانت سبب إصراره على ما يوجب الدعاء عليه .

ولما كان سبب كفرهم وعنادهم هو حب الدنيا وزينتها لا جرم أن موسى لما أخذ في الدعاء قدم هذه المقالة فقال ﴿ ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ﴾ والزنية عبارة عما يتزين به اللباس والدواب والغلمان وأثاث البيت الفاخر والأشياء الجميلة والمال ما زاد على هذه الأشياء من الصامت ونحوه ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ اختلفوا في هذه اللام فقال الفراء : هي لام كي فعلى هذا يكون المعنى ربنا إنك جعلت هذه الأموال سبب لضلالهم لأنهم بطروا وطغوا في الأرض واستكبروا عن الإيمان .

وقال الأحفش : إنما هي لما يؤول إليه الأمر والمعنى إنك أتيت فرعون وملأه زينة في الحياة الدنيا فضلوا فعلى هذا هي لام العاقبة يعني فكان عاقبتهم الضلال ، وقال ابن الأنباري :

هي لام الدعاء وهي لام مكسورة تحزم المستقبل ويفتتح بها الكلام فيكون المعنى ربنا إنك ابتليتهم بالضلال عن سبيلك ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ الطمس : إزالة أثر الشيء بالمحو .

ومعنى اطمس على أموالهم أزال صورها وهيئاتها .

وقال مجاهد : أهلكها وقال أكثر المفسرين : امسخها وغيرها عن هيئتها ، قال قتادة : بلغنا أن أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم صارت حجارة ، وقال محمد بن كعب القرظي : صارت صورهم حجارة وكان الرجل مع أهله في فراشه فصار حجرين والمرأة قائمة تخبز فصارت حجراً وهذا فيه ضعف لأن موسى عليه السلام دعى على أموالهم ولم يدع على أنفسهم بالمسخ .

(118/368)

وقال ابن عباس : بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأنصافاً وأثلاثاً .

وقيل إن عمر بن عبد العزيز دعا بخريطة فيها شيء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة منقوشة والجوزة مشقوقة وهي حجارة .

قال السدي : مسخ الله أموالهم حجارة النخل والثمار والدقيق والأطعمة هذا الطمس هو أحد الآيات التسع التي أوتيها موسى عليه السلام ﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ يعني اربط على قلوبهم واطبع عليها وقسها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان ؛ قال الواحدي : وهذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى يفعل ذلك لمن يشاء ولولا ذلك لما جسر موسى عليه السلام على هذا السؤال ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ يعني الغرق قاله ابن عباس وقال ابن عباس في رواية أخرى عنه : قال موسى قبل أن يأتي فرعون ربنا اشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فاستجاب الله له دعاءه فحال بين فرعون وبين الإيمان حتى أدركه الغرق فلم ينفعه الإيمان .

قال بعض العلماء : إنما دعا عليهم موسى بهذا الدعاء لما علم أن سابق قضاء الله وقدره فيهم أنهم لا يؤمنون ذلك أن الله سبحانه وتعالى كتب عليهم في الأزل أنهم لا يؤمنون فوافق دعاء موسى ما قدر وقضى عليهم .

﴿ قال ﴾ الله لموسى وهارون ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾ إنما نسب الدعاء إليهما وأن الداعي هو موسى وحده لأن هارون عليه السلام كان يؤمن والتأمين دعاء لأنه طلب وسؤال أيضاً ومعناه اللهم استجب فصار بذلك شريك موسى في الدعاء فلذلك قال تعالى قد أجيب دعوتكما ﴿ فاستقيما ﴾ يعني على تبليغ الرسالة وامضيا لأمري إلى أن يأتيهم

العذاب ﴿ ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ يعني ولا تسلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وعدي فإن وعدي لا خلف فيه ووعدي نازل بفرعون وقومه فلا تستعجلا .

قيل : كان بين دعاء موسى عليه السلام وبين الإجابة أربعون سنة .

(119/368)

قال الإمام فخر الدين الرازي : واعلم أن هذا النهي لا يدل على أن ذلك قد صدر من موسى وهارون كما أن قوله لئن أشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(120/368)

وقال أبو حيان :

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

لما بالغ موسى عليه السلام في إظهار المعجزات وهم مصرون على العناد واشتد أذاهم عليه وعلى من آمن معه ، وهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفراً ، وعلى الإنذار إلا

استكباراً .

أو علم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا الغي والضلال ، أو علم ذلك بوحي من الله تعالى ، دعا الله تعالى عليهم بما علم أنه لا يكون غيره كما تقول : لعن الله إبليس وأخزى الكفرة .

كما دعا نوح على قومه حين أوحى إليه ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ وقدم بين يدي الدعاء ما آتاهم الله من النعمة في الدنيا وكان ذلك سبباً للإيمان به ولشكر نعمه ، فجعوا ذلك سبباً لجحوده ولكفر نعمه .

والزينة عبارة عما يتزين به ويتحسن من الملبوس والمركوب والأثاث والمال ، ما يزيد على ذلك من الصامت والناطق .

قال المؤرخون والمفسرون : كان لهم فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن الذهب والفضة والزبرجد والياقوت .

وفي تكرار ربنا توكيد للدعاء والاستغاثة ، واللام في ليضلوا الظاهر أنها لام كي على معنى : آتيتهم ما آتيتهم على سبيل الاستدراج ، فكان الإتيان لكي يضلوا .

ويحتمل أن تكون لام الصيرورة والعاقبة كقوله : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ وكما قال الشاعر :

وللمنايا تربي كل مرضعة . . .

وللخراب يجد الناس عمراناً

وقال الحسن : هو دعاء عليهم ، وبهذا بدأ الزمخشري قال : كأنه قال ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال ، وليكونوا ضلالاً ، وليطبع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا .

ويبعد أن يكون دعاء قراءة من قرأ ليضلوا بضم الياء ، إذ يبعد أن يدعو بأن يكونوا مضلين غيرهم ، وهي قراءة الكوفيين ، وقتادة والأعمش ، وعيسى ، والحسن ، والأعرج بخلاف عنهما .

(121/368)

وقرأ الحرميان ، والعربيان ، ومجاهد ، وأبو رجاء ، والأعرج ، وشيبة ، وأبو جعفر ، وأهل مكة : بفتحها .

وقرأ الشعبي بكسرها ، ولى بين الكسرات الثلاث .

وقيل : لا محذوفة ، التقدير لئلا يضلوا عن سبيلك قاله : أبو علي الجبائي .

وقرأ أبو الفضل الرقاشي : أإنك آتيت على الاستفهام .

ولما تقدم ذكر الأموال وهي أعز ما ادخر دعا بالطموس عليها وهي التعفية والتغيير أو الإهلاك .

قال ابن عباس ، ومحمد بن كعب : صارت دراهمهم حجارة منقوشة صحاحاً وأثلاثاً وأنصافاً ، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم ينتفع بها أحد بعد .

وقال قتادة : بلغنا أن أموالهم وزروعهم صارت حجارة .

وقال مجاهد وعطية : أهلكها حتى لا ترى .

وقال ابن زيد : صارت دنانيرهم ودراهمهم وفرشهم وكل شيء لهم حجارة .

قال محمد بن كعب : سألني عمر بن عبد العزيز فذكرت ذلك له ، فدعا بخريطة أصيبت بمصر فأخرج منها الفواكه والدراهم والدنانير ، وأنها الحجارة .

وقال قتادة ، والضحاك ، وأبو صالح ، والقرطبي : جعل سكرهم حجارة .

وقال السدي : مسخ الله الثمار والنخل والأطعمة حجارة .

وقال شيخنا أبو عبد الله محمد بن سليمان المقدسي عرف بابن النقيب وهو جامع كتاب التحرير والتحبير في هذا الكتاب : أخبرني جماعة من الصالحين كان شغلهم السياحة أنهم عاينوا بجبال مصر وبراريها حجارة على هيئة الدنانير والدراهم ، وفيها آثار النقش ، وعلى هيئة الفلوس ، وعلى هيئة البطيخ العبد لاويّ ، وهيئة البطيخ الأخضر ، وعلى هيئة الخيار ، وعلى هيئة القثاء ، وحجارة مطولة رقيقة معوجة على هيئة النقوش ، وربما رأوا على صورة الشجر .

واشدد على قلوبهم : وقال ابن عباس ومقاتل والفراء والزجاج اطبع عليها وامنعها من

الإيمان .

وقال ابن عباس أيضاً والضحاك : أهلكهم كفاراً .

وقال مجاهد : اشدد عليها بالضلالة .

وقال ابن قتيبة : قس قلوبهم .

وقال ابن بحر : اشدد عليها بالموت .

(122/368)

وقال الكرماني : أي لا يجدوا سلواً عن أموالهم ، ولا صبراً على ذهابها .

وقرأ الشعبي وفرقة : اطمُس بضم الميم ، وهي لغة مشهورة .

فلا يؤمنوا مجزوم على أنه دعاء عند الكسائي والفراء ، كما قال الأعشى :

فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى . . .

ولا تُلفينّ إلا وأنفك راغم

ومنصوب على أنه جواب اشدد بدأ به الزمخشري ، ومعطوف على ليضلوا على أنه

منصوب قاله : الأخفش وغيره .

وما بينهما اعتراض ، أو على أنه مجزوم على قول من قال : إن لام ليضلوا لام الدعاء ، وكان

رؤية العذاب غاية ونهاية ، لأن الإيمان إذ ذاك لا ينفع ولا تخرج من الكفر ، وكان العذاب الأليم غرقهم .

وقال ابن عباس : قال محمد بن كعب : كان موسى يدعو وهارون يؤمن ، فنسبت الدعوة إليهما .

ويمكن أن يكونا دعوا ، ويبعد قول من قال : كنى عن الواحد بلفظ التثنية ، لأن الآية تضمنت بعد مخاطبتهما في غير شيء .

وروي عن ابن جريج ، ومحمد بن علي ، والضحاك : أن الدعوة لم تظهر إجابتها إلا بعد أربعين سنة ، وأعلما أن دعاءهما صادف مقدوراً ، وهذا معنى إجابة الدعاء .

وقيل لهما : لا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون أي في أن تستعجلا قضائي ، فإن وعدي لا خلف له .

وقرأ السلمي والضحاك : دعواتكما على الجمع .

وقرأ ابن السميقع : قد أجبت دعوتكما خبراً عن الله تعالى ، ونصب دعوة والربيع دعوتيكما ، وهذا يؤكد قول من قال : إن هارون دعا مع موسى .

وقراءة دعوتيكما تدل على أنه قرأ قد أجبت على أنه فعل وفاعل ، ثم أمرا بالاستقامة ، والمعنى : الديمومة عليها وعلى ما أمرتما به من الدعوة إلى الله تعالى ، وإلزام حجة الله .

وقرأ الجمهور : تتبعان بتشديد التاء والنون ، وابن عباس وابن ذكوان بتخفيف التاء وشد النون ، وابن ذكوان أيضاً بتشديد التاء وتخفيف النون ، وفرقة بتخفيف التاء وسكون النون ، وروى ذلك الأخفش الدمشقي عن أصحابه عن ابن عامر ، فأما شد النون فعلى أنها نون التوكيد الشديدة لحقت فعل النهي المتصل به ضمير الاثنين ، وأما تخفيفها مكسورة فقيل : هي نون التوكيد الخفيفة ، وكسرت كما كسرت الشديدة .

وقد حكى النحويون كسر النون الخفيفة في مثل هذا عن العرب ، ومذهب سيبويه والكسائي أنها لا تدخل هنا الخفيفة ، ويونس والفراء يريان ذلك .

وقيل : النون المكسورة الخفيفة هي علامة الرفع ، والفعل منفي ، والمراد منه النهي ، أو هو خبر في موضع الحال أي : غير متبعين قاله الفارسي .

والذين لا يعلمون فرعون وقومه قاله : ابن عباس .

أو الذين يستعجلون القضاء قبل مجيئه ، ذكره أبو سليمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(124/368)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ موسى رَبَّنَا إِنَّكَ ءاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً ﴾

أي ما يُتزيَّن به من اللباس والمراكبِ ونحوِها ﴿ وَأَمْوَالاً ﴾ وأنواعاً كثيرةً من المال ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِك ﴾ دعاءٌ عليهم بلفظ الأمرِ بما عُلم بممارسة أحوالِهم أنه لا يكون غيرُه ، كقولك : لعن الله إبليسَ ، وقيل : اللامُ للعاقبة وهي متعلقةٌ بآتيتَ أو للعلة لأن إيتاءَ النعم على الكفر استدراجٌ وتثبيت على الضلال ولأنهم لما جعلوها ذريعةً إلى الضلال فكأنهم أُوتوها ليُضلوا فيكون ربَّنا تكريراً للأول تأكيداً أو تنبيهاً على أن المقصودَ عرضُ ضلالِهم وكفرانِهم تقدمةً لقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اطمس على أموالهم ﴾ الطمسُ المحوُ وقرىء بضم الميم أي أهلكْها ﴿ واشدد على قُلُوبِهِمْ ﴾ أي اجعلها قاسيةً واطبَع عليها حتى لا تنشرحَ للإيمان كما هو قضيةُ شأنهم ﴿ فَلاَ يُؤْمِنُواْ ﴾ جوابٌ للدعاء أو دعاءٌ بلفظ النهي أو عطفٌ على ليضلوا وما بينهما دعاء معترض ﴿ حتى يَرَوُاْ العذاب الاليم ﴾ أي يعاينوه ويوقنوا به بحيث لا ينفعهم ذلك إذ ذاك ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا ﴾ يعني موسى وهارون عليهما السلام لأنه كان يؤمن كما يشعر به إضافةُ الرب إلى ضمير المتكلم مع الغير في المواقعِ الثلاثةِ ﴿ فاستقيما ﴾ فاثبُتا على ما أنتما عليه من الدعوة وإلزام الحجةِ ولا تستعجلا فإن ما طلبتما كائنٌ في وقته لا محالة . (روي أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة) .

﴿ وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي بعادات الله سبحانه في تعليق الأمور بالحكم والمصالح أو سبيل الجهلةِ في الاستعجال أو عدمِ الوثوق بوعد الله تعالى وقرىء بالنون الخفيفةِ وكسرِها لالتقاء الساكنين ، ولا تتْبعانِ من تبع ولا تتّبعانِ أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(125/368)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ موسى رَبَّنَا إِنَّكَ ءاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلاَهُ زِينَةً ﴾

أي ما يتزين به من اللباس والمراكب ونحوها وتستعمل مصدراً ﴿ وَأَمْوَالاً ﴾ أنواعاً كثيرة من المال كما يشعر به الجمع والتنوين ، وذكر ذلك بعد الزينة من ذكر العام بعد الخاص للشمول ، وقد يحمل على ما عداه بقرينة المقابلة ، وفسر بعضهم الزينة بالجمال وصحة البدن وطول القامة ونحوه ﴿ وَقَالَ موسى رَبَّنَا إِنَّكَ ءاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلاَهُ ﴾ أي لكي يضلوا عنها وهو تعليل للإيتاء السابق ، والكلام إخبار من موصى عليه السلام بأن الله تعالى إنما أمدهم بالزينة والأموال استدراجاً ليزدادوا إثماً وضلالة كما أخبر سبحانه عن أمثالهم بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمَاً ﴾ [آل عمران : 178] وإلى كون اللام

للتعليل ذهب الفراء والظاهر أنه حقيقة فيكون ذلك الضلال مراد الله تعالى ، ولا يلزم ما قاله المعتزلة من أنه إذا كان مراداً يلزم أن يكونوا مطيعين به بناءً على أن الإرادة أمر أو مستلزم له لما أنه قد تبين بطلان هذا المبنى في الكلام ، وقدر بعضهم حذراً من ذلك لئلا يضلوا كما قدر في ﴿ شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ ﴾ [الأعراف : 172] شهدنا أن لا تقولوا ولا حاجة إليه ، وقال الأخفش : اللام للعاقبة فيكون ذلك إخباراً منه عليه السلام لممارسته لهم وتفرسه بهم أو لعلمهم بالوحي على ما قيل بأن عاقبة ذلك الإيتاء الضلال .

(126/368)

والفرق بين التعليل المجازي وهذا إن قلنا بأنه معنى مجازي أيضاً أن في التعليل ذكر ما هو سبب لكن لم يكن إيتاؤه لكونه سبباً وفي لام العاقبة لم يذكر سبب أصلاً وهي كاستعارة أحد الضدين للآخر ، وقال ابن الأنباري : إنها للدعاء ولا مغمز على موسى عليه السلام في الدعاء عليهم بالضلال إما لأنه عليه السلام علم بالممارسة أو نحوها أنه كائن لا محالة فدعا به وحاصله أنه دعاء بما لا يكون إلا ذلك فهو تصريح بما جرى قضاء الله تعالى به ، ونحوه لعن الله تعالى الشيطان وإما لأنه ليس بدعاء حقيقة ، وليس النظر إلى تنجيز المسؤول وعدمه بل النظر إلى وصفهم بالعتو وإبلاء عذره عليه السلام في الدعوة فهو كناية

إيمائية على هذا ، وما قيل : هذا شهادة بسوء حالهم بطريق الكناية في الكناية لأن الضلال رديف الإضلال وهو منع اللطف فكني بالضلال عن الإضلال والإضلال رديف كونهم كالمطبوع عليهم فكان هذا كشفاً وبياناً لحالهم بطريق الكناية فهو على ما فيه شيء عنه غني لأن الطبع مصرح به بعد بل النظر ههنا إلى الزبدة والخلاصة من هذه المطالب كلها ، ويشعر كلام الزمخشري باختيار كونها للدعاء ، وفي الانتصاف أنه اعتزال أدق من دبيب النمل يكاد الاطلاع عليه يكون كشفاً ، والظاهر أنها للتعليل ، وقال صاحب الفرائد : لولا التعليل لم يتجه قوله : ﴿ وَقَالَ موسى رَبَّنَا إِنَّكَ ءاتَيْتَ ﴾ ولم ينتظم .

وأورد عليه أيضاً أنه ينافي غرض البعثة وهو الدعوة إلى الإيمان والهدى ، ولا يخفى أن دفع هذا يعلم مما قدمنا آنفاً .

(127/368)

وأما وجه انتظام الكلام فهو كما قال غير واحد : إن موسى عليه السلام ذكر قوله : ﴿ وَقَالَ موسى ﴾ الخ تمهيداً للتخلص إلى الدعاء عليهم أي إنك أوليتهم هذه النعمة ليعبدوك ويشكروك فما زادهم ذلك إلا طغياناً وكفراً وإذا كانت الحال هذه فليضلوا عن سبيلك ولو دعا ابتداءً لم يحسن إذ ربما لم يعذر فقدم الشكاية منهم والنعي بسوء صنيعهم ليتسلق منه

إلى الدعاء مع مراعاة تلازم الكلام من إيراد الأدعية منسوقة نسقاً واحداً وعدم الاحتياج إلى الاعتذار عن تكرير النداء كما احتاج القول بالتعليل إلى الاعتذار عنه بأنه للتأكيد وللإشارة إلى أن المقصود عرض ضلالهم وكفرانهم تقدمة للدعاء عليهم بعد .

وادعى الطيبى أنه لا مجال للقول بالاعتراض لأنه إنما يحسن موقعه إذا التذت النفس بسماعه ، ولذا عيب قول النابغة

: لعل زياداً لا أبا لك غافل . . .

وفي كلامه ميل إلى القول بأن اللام للدعاء وهو لدى المنصف خلاف الظاهر ، وما ذكروه له لا يفيده ظهوراً .

وقرىء ﴿ لِيُضِلُّواْ ﴾ بضم الياء وفتحها ﴿ رَبَّنَا اطمس على أموالهم ﴾ أي أهلكها كما قال مجاهد ، فالطمس بمعنى الإهلاك ، وفعله من باب ضرب ودخل ، ويشهد له قراءة ﴿ اطمس ﴾ بضم الميم ، ويتعدى ولا يتعدى ، وجاء بمعنى محو الأثر والتغيير وبهذا فسره أكثر المفسرين قالوا : المعنى ربنا غيرها عن جهة نفعها إلى جهة لا ينتفع بها .

وأنت تعلم أن تغييرها عن جهة نفعها إهلاك لها أيضاً فلا ينافي ما أخرجه ابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ عن الضحاك أنه بعد هذا الدعاء صارت دراهمهم ودنانيرهم ونحاسهم وحديدهم حجارة منقوشة .

وعن محمد القرظي قال : سألني عمر بن عبد العزيز عن هذه الآية فأخبرته أن الله تعالى

طمس على أموال فرعون وآل فرعون حتى صارت حجارة فقال عمر : مكانك حتى آتيك فدعا بكيس مختوم ففكه فإذا فيه البيضة مشقوقة وهي حجارة وكذا الدراهم والدنانير وأشباه ذلك .

(128/368)

وفي رواية عنه أنه صار سكرهم حجارة وأن الرجل بينما هو مع أهله إذ صارا حجرين وبينما المرأة قائمة تخبز إذ صارت كذلك ، وهذا مما لا يكاد يصح أصلاً وليس في الآية ما يشير إليه بوجه ، وعندي أن أخبار تغيير أموالهم إلى الحجارة لا تخلو عن وهن فلا يعول عليها ، ولعل الأولى أن يراد من طمسها إتلافها منهم على أتم وجه ، والمراد بالأموال ما يشمل الزينة من الملابس والمراكب وغيرها ﴿ واشدد على قُلُوبِهِمْ ﴾ أي أجعلها قاسية واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان كما هو قضية شأنهم ﴿ فَلاَ يُؤْمِنُواْ ﴾ جواب للدعاء أعني ﴿ اشدد ﴾ دون ﴿ اطمس ﴾ فهو منصوب ، ويحتمل أن يكون دعاء بلفظ النهي نحو إلهي لا تعذبني فهو مجزوم ، وجوز أن يكون عطفاً على ﴿ لِيُضِلُّواْ ﴾ وما بينهما دعاء معترض فهو حينئذٍ منصوب أو مجزوم حسبما علمت من الخلاف في اللام ﴿ حتى يَرَوُاْ العذاب الاليم ﴾ أي يعاينوه ويوقنوا به بحيث لا ينفعهم ذلك إذ ذاك ، والمراد به جنس

العذاب الأليم .

وأخرج غير واحد عن ابن عباس تفسيره بالغرق .

(129/368)

واستدل بعضهم بالآية على أن الدعاء على شخص بالكفر لا يعد كفراً إذا لم يكن على وجه الاستيجاز والاستحسان للكفر بل كان على وجه التمني لينتقم الله تعالى من ذلك الشخص أشد انتقام ، وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام خواهر زاده ، فقولهم : الرضا بكفر الغير كفر ليس على إطلاقه عنده بل هو مقيد بما إذا كان على وجه الاستحسان ، لكن قال صاحب الذخيرة : قد عثرنا على رواية عن أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه أن الرضا بكفر الغير كفر من غير تفصيل ، والمنقول عن علم الهدى أبي منصور الماتريدي التفصيل ففي المسألة اختلاف ، قيل : والمعول عليه أن الرضا بالكفر من حيث أنه كفر كفر وأن الرضا به لا من هذه الحيثية بل من حيثية كونه سبباً للعذاب الأليم أو كونه أثراً من آثار قضاء الله تعالى وقدره مثلاً ليس بكفر وبهذا يندفع التنافي بين قولهم : الرضا بالكفر كفر ، وقولهم : الرضا بالقضاء واجب بناءً على حمل القضاء فيه على المقضي ، وعلى هذا لا يتأتى ما قيل : إن رضا العبد بكفر نفسه كفر بلا شبهة على إطلاقه بل يجري فيه التفصيل السابق في

الرضا بكفر الغير أيضاً ، ومن هذا التحقيق يعلم ما في قولهم : إن من جاءه كافر ليسلم فقال له : اصبر حتى أتوضأ أو أخره يكفر لرضاه بكفره في زمان من النظر ، ويؤيده ما في الحديث الصحيح في فتح مكة أن ابن أبي سرح أتى به عثمان رضي الله تعالى عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله بايعه فكف صلى الله عليه وسلم يده عن بيعته ونظر إليه ثلاث مرات كل ذلك يأبى أن يبايعه فبايعه بعد الثلاث ثم أقبل صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقال : أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله ؟ قالوا : وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك ألا أومأت إلينا بعينك فقال عليه الصلاة والسلام : إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين ، وقد أخرجه ابن أبي شيبة ، وأبو داود .

والنسائي .

(130/368)

وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص وهو معروف في السير فإنه ظاهر في أن التوقف مطلقاً ليس كما قالوه كفراً فليتأمل .

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا ﴾

هو خطاب لموسى وهارون عليهما السلام ، وظاهره أن هارون عليه السلام دعا بمثل ما دعا موسى عليه السلام حقيقة لكن اكتفى بنقل دعاء موسى عليه السلام لكونه الرسول بالاستقلال عن نقل دعائه وأشرك بالبشارة إظهاراً لشرفه عليه السلام ، ويحتمل أنه لم يدع حقيقة لكن أضيفت الدعوة إليه أيضاً بناءً على أن دعوة موسى في حكم دعوته لمكان كونه تابعاً ووزيراً له ، والذي تضافرت به الآثار أنه عليه السلام كان يؤمن لدعاء أخيه والتأمين دعاء ، فإن معنى آمين استجب وليس اسماً من أسمائه تعالى كما يروونه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، قيل : ولكونه دعاء استحب الحنفية الإسرار به ، وفيه نظر لأن الظاهر أن مدار استحباب الإسرار والجهر ليس كونه دعاءً فإن الشافعية استحبوا الجهر به مع أن المشهور عنهم أنهم قائلون أيضاً بكونه دعاء ، وظاهر كلام بعض المحققين أن إضافة الرب إلى ضمير المتكلم مع الغير في المواقع الثلاثة تشعر بأنه عليه السلام كان يؤمن لدعاء موسى عليه السلام ولا يخفى ما في ذلك الإشعار من الخفاء .

وقرىء ﴿ دعواتكما ﴾ بالجمع ووجهه ظاهر ﴿ دَّعْوَتُكُمَا فاستقيما ﴾ فامضيا لأمري واثبتا على ما أنتم عليه من الدعوة وإلزام الحجة ولا تستعجلاً فإن ما طلبتماه كائن في وقته لا محالة .

(131/368)

أخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : يزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة ، وأخرج ابن جرير عن ابن جريج مثله ، وأخرج الترمذي عن مجاهد أن الدعوة أجيبت بعد أربعين سنة ولم يذكر الزعم ﴿ وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ بعادات الله تعالى في تعليق الأمور بالحكم والمصالح أو سبيل الجهلة في عدم الوثوق بوعد الله سبحانه ، والنهي لا يقتضي صحة وقوع المنهي عنه فقد كثر نهي الشخص عما يستحيل وقوعه منه ، ولعل الغرض منه هنا مجرد تأكيد أمر الوعد وإفادة أن في تأخير إنجازه حكماً إلهية .

وعن ابن عامر أنه قرأ ﴿ وَلاَ تَتَّبِعَانِّ ﴾ بالنون الخفيفة المكسورة لالتقاء الساكنين ، ووجه ذلك ابن الحاجب بأن ﴿ لا ﴾ نافية والنون علامة الرفع ، والجملة إما في موضع الحال من الضمير المرفوع في استقيما كأنه قيل : استقيما غير متبعين ، والجملة المضارعية المنفية بلا الواقعة حالاً يجوز اقترانها بالواو وعدمه خلافاً لمن زعم وجوب عدم الاقتران بالواو إلا أن يقدر مبتدأ ، وإما معطوفة على الجملة الطلبية التي قبلها وهي وإن كانت خبرية لفظاً إلا أنها طلبية معنى لأن المراد منها النهي كما في قوله تعالى : ﴿ تُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ [الصف : 11] و﴿ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ الله ﴾

[البقرة : 83] والنهي المخرج بصورة الخبر أبلغ من النهي المخرج بصورته ، ويجوز أن تعتبر الجملة مستأنفة للإخبار بأنهما لا يتبعان سبيل الجاهلين ، ومن الناس من جعل ﴿ لا ﴾ في قراءة العامة نافية أيضاً وهو ضعيف لأن النفي لا يؤكد على الصحيح ، وقيل : ﴿ لا ﴾ ناهية والنون نون التوكيد الخفيفة كسرت لالتقاء الساكنين وهو تخريج لين فإن الكسائي وسيبويه لا يجيزانه لأنهما يمنعان وقوع الخفيفة بعد الألف سواء كانت ألف التثنية أو الألف الفاصلة بين نون الإناث ونون التوكيد نحو هل تضربنان يا نسوة ، وأيضاً النون الخفيفة إذا لقيها ساكن لزم حذفها عند الجمهور ولا يجوز تحريكها ، لكن يونس .

والفراء أجازا ذلك وفيه عنهما روايتان إبقاؤها ساكنة لأن الألف لخفتها بمنزلة الفتحة وكسرها على أصل التقاء الساكنين وعلى هذا يتم ذاك التخريج .

وقيل : إن هذه النون هي نون التوكيد الثقيلة إلا أنها خففت وهو كما ترى ، وعنه أيضاً ﴿ وَلَا تَتْبَعَانِّ ﴾ بتخفيف التاء الثانية وسكونها وبالنون المشددة من تبع الثلاثي ، وأيضاً ﴿ وَلَا تَتَّبِعَانِّ ﴾ وهي كالأولى إلا أن النون ساكنة على إحدى الروايتين عمن تقدم في تسكين

النون الخفيفة بعد الألف على الأصل واغتفار التقاء الساكنين إذا كان الأول ألفاً كما في محياي.

(133/368)

ثم اعلم أنه اشتهر في تعليل كسر النون في قراءة العامة بأنه لالتقاء الساكنين وظاهره أنه بذلك زال التقاء الساكنين وليس كذلك إذ الساكنان هما الألف والنون الأولى ولا شيء منهما بمتحرك وإنما المتحرك النون الثانية، ومن هنا قال بعض محققي النحاة: إن أصل التحريك ليتأتى الإدغام وكونه بالكسر تشبيهاً بنون التثنية، والتقاء الساكنين أعني الألف والنون الأولى غير مضر لما قالوا من جوازه إذا كان الأول حرف مد والثاني مدغماً في مثله كما في دابة لارتفاع اللسان بهما معاً حينئذٍ وقد حقق ذلك في موضعه فليراجع هذا والله تعالى أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(134/368)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : 42] أشار سبحانه إلى أنهم يستمعون لكن حكمهم حكم الأصم في عدم الانتفاع وذلك لعدم استعدادهم حقيقة أو حكماً بأن كان ولكن حجب نوره رسوخ الهيآت المظلمة ؛ وكذا يقال فيما بعد ، ثم إنه تعالى رفع ما يتوهم من أن كونهم في تلك الحالة ظلم منه سبحانه لهم بقوله جل شأنه : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئًا ﴾ بسلب حواسهم وعقولهم مثلاً ﴿ ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس : 44] حيث طلب استعدادهم الغير المجعول ذلك ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النهار ﴾ لذهولهم بتكاثف ظلمات المعاصي على قلوبهم ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ بحكم سابقة الصحبة وداعية الهوى اللازمة للجنسية الأصلية ، وهذا التعارف قد يبقى إذا اتحذوا في الوجهة واتفقوا في المقصد وقد لا يبقى وذلك إذا اختلفت الأهواء وتباينت الآراء فحينئذٍ تتفاوت الهيئات المستفادة من لواحق النشأة فيقع التناكر وعوارض العادة

﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَاء الله وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس : 45] لما ينتفعون به ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ من جنسهم ليتمكنوا من الاستفاضة منه ﴿ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ بإنجاء من اهتدى به وإثابته وإهلاك من أعرض عنه وتعذيبه لظهور أسباب ذلك بوجوده ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس : 47] فيعاملوا بخلاف ما يستحقون ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ [يونس : 48] إنكار للقيامة لاحتجابهم بما هم فيه من الكثافة ﴿ قُل لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرّا إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾ [يونس : 49] سلب لاستقلاله في التأثير وبيان لأنه لا يملك إلا ما أذن الله تعالى فيه ، وهذا نوع من توحيد الأفعال وفيه إرشاد لهم بأنه لا يملك استعجال ما وعدهم به ﴿ تُرْجَعُونَ يا أيها الناس قَدْ جَاءتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي تزكية لنفوسكم بالوعد والوعيد والزجر عن الذنوب المتسببة للعقاب والتحريض على الطاعة الموجبة بفضل الله تعالى للثواب ﴿ وَشِفَاء لِمَا فِي الصدور ﴾ أي دواء للقلوب من أمراضها التي هي أشد من أمراض الأبدان كالشك والنفاق والحسد والحقد وأمثال ذلك بتعليم الحقائق والحكم الموجبة لليقين والتصفية والتهيء لتجليات الصفات الحقة ﴿ وهدى ﴾ لأرواحكم إلى الشهود الذاتي ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ [يونس : 57] بإفاضة الكمالات اللائقة بكل مقام من المقامات الثلاثة بعد حصول الاستعداد في مقام النفس بالموعظة ومقام القلب بالتصفية ومقام الروح بالهداية للمؤمنين بالتصديق أولاً ثم باليقين ثانياً ثم بالعيان ثالثاً .

وذكر بعضهم الموعظة للمريدين والشفاء للمحبين والهدى للعارفين والرحمة للمستأنسين والكل مؤمنون إلا أن مراتب الإيمان متفاوتة والخطاب في الآية لهم وفيها إقامة الظاهر مقام المضمر ، ويقال : إنه سبحانه بدأ بالموعظة لمريض حبه لأنها معجون لإسهال شهواته فإذا تطهر عن ذلك يسقيه شراب ألطافه فيكون ذلك شفاء له مما به فإذا شفي يغذيه بهدايته إلى نفسه فإذا كمل بصحبته يطهره بمياه رحمته من وسخ المرض ودرن الامتحان ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ ﴾ بتوفيقه للقبول في المقامات ﴿ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ بالمواهب الخلقية والعملية والكشفية فيها ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ لا بالأمور الفانية القليلة المقدار الدنية القدر ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : 58] من الخسائس والمحقرات ، وفسر بعضهم الفضل بانكشاف صباح الأزل لعيون أرواح المريدين وزيادة وضوحه في لحظة حتى تطلع شموس الصفات . وأقمار الذات فيطيرون في أنوار ذلك بأجنحة الجذبات إلى حيث شاء الله تعالى والرحمة بتتابع مواجيد الغيوب للقلوب بنعت التفريد بلا انقطاع ، ومن هنا قال ضرغام أجمة التصوف أبو بكر الشبلي قدس سره : وقتي سرمد وبحري بلا شاطىء ؛ وقيل : فضله الوصال ورحمته الوقاية عن الانفصال ، وقيل : فضله إلقاء نيران المحبة في قلوب المريدين

ورحمته جذبه أرواح المشتاقين ، وقيل : فضله سبحانه على العارفين كشف الذات وعلى المحبين كشف الصفات وعلى المريدين كشف أنوار الآيات ورحمته جل شأنه على العارفين العناية وعلى المحبين الكفاية وعلى المريدين الرعاية .

(137/368)

وقال الجنيد : فضل الله تعالى في الابتداء ورحمته في الانتهاء وهو مناسب لما قلنا ، وقال الكتاني : فضل الله تعالى النعم الظاهرة ورحمته النعم الباطنة وقيل غير ذلك ، ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُمْ ﴾ أي أخبروني ما أنزل الله سبحانه من رزق معنوي كالمعارف الحقانية وكالآداب الشرعية ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَامًا ﴾ كالقسم الأول حيث أنكرتموه على أهله ورميتموه بالزندقة ﴿ وَحَلاَلاً ﴾ كالقسم الثاني حيث قبلتموه ﴿ قُلِ اللهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ في الحكم بالتحليل والتحريم ﴿ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 59] في ذلك ، ثم أنه سبحانه أوعد المفترين بقوله عز من قائل : ﴿ وَمَا ظَنُّ الذين يَفْتَرُونَ ﴾ الخ ، ففي الآية إشارة إلى سوء حال المنكرين على من تحلى بالمعارف الإلهية ، ولعل منشأ ذلك زعمهم انحصار العلم فيما عندهم ولم يعلموا أن وراء علومهم علوماً لا تحصى يمن الله تعالى بها على من يشاء ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ [طه : 114] إشارة إلى ذلك

فما أولاهم بأن يقال لهم : ﴿ مَا أُوتِيتُمْ مِّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 85] ومن العجيب أنهم إذا سمعوا شيئاً من أهل الله تعالى مخالفاً لما عليه مجتهدوهم ردوه وقالوا : زيغ وضلال واعتمدوا في ذلك على مجرد تلك المخالفة ظناً منهم أن الحق منحصر فيما جاء به أحد أولئك المجتهدين مع أن الاختلاف لم يزل قائماً بينهم على ساق .

(138/368)

على أنه قد يقال لهم : ما يدريكم أن هذا القائل الذي سمعتم منه ما سمعتم وأنكرتموه أنه مجتهد أيضاً كسائر مجتهديكم ؟ فإن قالوا : إن للمجتهد شروطاً معلومة وهي غير موجودة فيه قلنا : هذه الشروط التي وضعت للمجتهد في دين الله تعالى هل هي منقولة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صريحاً أو صنعتموها أنتم من تلقاء أنفسكم أو صنعها المجتهد ؟ فإن كانت منقولة عن الرسول عليه الصلاة والسلام فأتوا بها واتلوها وصححوا نقلها إن كنتم صادقين وهيهات ذاك ، وإن كان الواضع لها أنتم وأنتم أجهل من ابن يوم فهي رد عليكم ولا حباً ولا كرامة على أن في اعتبارها أخذاً بكلام من ليس مجتهداً وأنتم لا تجوزونه ، وإن كان الواضع لها المجتهد فإثبات كونه مجتهداً متوقف على اعتبار تلك الشروط واعتبار تلك الشروط متوقف على إثبات كونه مجتهداً وهل هذا إلا دور وهو محال لو تعقلونه ، وأيضاً لم

لا يجوز أن تكون تلك الشروط شروطاً للمجتهد النقلي وهناك مجتهد آخر شرطه تصفية النفس وتزكيتها وتخلقها بالخلق الرباني وتهيؤها واستعدادها لقبول العلم من الله تعالى ؟ وأي مانع من أن يخلق الله تعالى العلم فيمن صفت نفسه وتهيأت بالفقر واللجأ إلى الله تعالى وصدق عزمه في الأخذ ولم يتكل على حوله وقوته كما يخلقه فيمن استوفى شروط الاجتهاد عندكم فاجتهد وصرف فكره ونظره ؟ والقول بأنه سبحانه إنما يخلق العلم في هذا دون ذاك حجر على الله تعالى وخروج عن الإنصاف كما لا يخفى ، فلا ينبغي للمصنف العارف بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده إلا أن يسلم لمن ظهرت فيه آثار التصفية والتهيء وسطعت عليه أنوار التخلق بالخلق الرباني ما أتى به ولو لم يأت به مجتهد ما لم يخالف ما علم مجيئه من الدين بالضرورة ، ويأبى الله تعالى أن يأتي ذلك بمثل ما ذكر .

(139/368)

لكن ذكر مولانا الإمام الرباني ومجدد الألف الثاني قدس سره في بعض مكتوباته الفارسية أنه لا يجوز تقليد أهل الكشف في كشفهم لأن الكشف لا يكون حجة على الغير وملزماً له ، وقد يقال : ليس في هذا أكثر من منع تقليد أهل الكشف ، ومحل النزاع الإنكار عليهم

ورميهم والعياذ بالله تعالى بالزندقة وليس في الكلام أدنى رائحة منه كما لا يخفى ﴿ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ﴾ [البقرة : 342] بصنفي العلمين وإفاضتهما بعد تهيئة الاستعداد لقبولهما ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [يونس : 60] ذلك ولا يعرفون قدره فيمنعون عن الزيادة ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْإن وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فيه ﴾ إخبار منه تعالى بعظيم اطلاعه سبحانه على الخواطر وما يجري في الضمائر فلا يخفى عليه جل شأنه خاطر ولا ضمير ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ [الملك : 14] ثم أخبر جل وعلا عن سلطان إحاطته على كل ذرة من العرش إلى ما تحت الثرى بقوله تبارك اسمه : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرض وَلاَ فِى السماء ﴾ [يونس : 61] أي إن علمه سبحانه محيط بما في العالم السفلي والعلوي فكل ذرة من ذراته داخلة في حيطة علمه كيف لا وكلها قائمة به جل شأنه ينظر إلى كل في كل آن نظر الحفظ والرعاية ولولا ذلك لهلكت الذرات واضمحلت سائر الموجودات ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ إذ لم يبق منهم بقية يخاف بسببها من حرمان ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : 62] لامتناع فوات شيء من الكمالات واللذات منهم ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ الإيمان الحقيقي ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : 63] بقاياهم وظهور تلوناتهم ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا ﴾ بوجود الاستقامة والأخلاق المبشرة بجنة النفوس ﴿ وَفِي الآخرة ﴾

بظهور أنوار الصفات والحقائق عليهم المبشرة بجنة القلوب ؛ والظاهر أن الموصول بيان للأولياء ، فالولي هو المؤمن المتقي على الكمال ولهم في تعريفه عبارات شتى تقدم بعضها . وفي الفتوحات : هو الذي تولاه الله تعالى بنصرته في مقام مجاهدته الأعداء الأربعة الهوى والنفس والشيطان والدنيا ، وفيها تقسيم الأولياء إلى عدة أقسام منها الأقطاب والأوتاد والإبدال والنقباء والنخباء وقد ورد ذلك مرفوعاً وموقوفاً من حديث عمر بن الخطاب .

وعلي بن أبي طالب .

وأنس .

وحذيفة بن اليمان .

وعبادة بن الصامت .

وابن عباس .

وعبد الله بن عمر .

وابن مسعود .

وعوف بن مالك .

ومعاذ بن جبل .

وواثلة بن الأسقع .

وأبي سعيد الخدري .

وأبي هريرة .

وأبي الدرداء .

وأم سلمة ، ومن مرسل الحسن .

وعطاء .

وبكر بن خنيس ، ومن الآثار عن التابعين ومن بعدهم ما لا يحصى .

(141/368)

وقد ذكر ذلك الجلال السيوطي في رسالة مستقلة له وشيد أركانه ، وأنكره كما قدمنا بعضهم والحق مع المثبتين ، وأنا والحمد لله تعالى منهم وإن كنت لم أشيد قبل أركان ذلك ، والأئمة والحواريون والرجبيون والختم والملامية والفقراء وسقيط الرفرف ابن ساقط العرش والأمناء والمحدثون إلى غير ذلك ، وعد الشيخ الأكبر قدس سره منهم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والبيان الذي في الآية صادق عليهم عليهم السلام على أتم

وجه ، ونسب إليه رضي الله تعالى عنه القول بتفضيل الولي على النبي والرسول وخاض فيه كثير من المنكرين حتى كفروه وحاشاه بسبب ذلك ، وقد صرح في غير موضع من فتوحاته وكذا من سائر تأليفاته بما ينافي هذا القول حسبما فهمه المنكرون ، وقد ذكر في كتاب القربة أنه ينبغي لمن سمع لفظة من عارف متحقق مبهمة كأن يقول الولاية هي النبوة الكبرى أو الولي العارف مرتبته فوق مرتبة الرسول أن يتحقق المراد منها ولا يبادر بالطعن ، ثم ذكر في بيان ما ذكر ما نصه : اعلم أنه لا اعتبار للشخص من حيث ما هو إنسان فلا فضل ولا شرف في الجنس بالحكم الذاتي وإنما يقع التفاضل بالمراتب ، فالأنبياء صلوات الله تعالى عليهم ما فضلوا الخلق إلا بها ، فالنبي صلى الله عليه وسلم له مرتبة الولاية والمعرفة والرسالة ومرتبة الولاية والمعرفة دائمة الوجود ومرتبة الرسالة منقطعة فإنها تنقطع بالتبليغ والفضل للدائم الباقي ، والولي العارف مقيم عنده سبحانه والرسول خارج وحالة الإقامة أعلى من حالة الخروج ، فهو صلى الله عليه وسلم من حيثية كونه ولياً وعارفاً أعلى وأشرف من حيثية كونه رسولاً وهو صلى الله عليه وسلم الشخص بعينه واختلفت مراتبه لا أن الولي منا أرفع من الرسول نعوذ بالله تعالى من الخذلان ، فعلى هذا الحد يقول تلك الكلمة أصحاب الكشف والوجود إذ لا اعتبار عندنا إلا للمقامات ولا تكلم إلا فيها لا في الأشخاص ، فإن الكلام في الأشخاص قد يكون بعض الأوقات

غيبة ، والكلام على المقامات والأحوال من صفات الرجال ، ولنا في كل حظ شرب معلوم ورزق مقسوم انتهى ، وهو صريح في أنه قدس سره لا يقول هو ولا غيره من الطائفة بأن الولي أفضل من النبي حسبما ينسب إليه ، وقد نقل الشعراني عنه أنه قال : فتح لي قدر خرم إبرة من مقام النبوة تجلياً لا دخولاً فكدت أحترق ، فينبغي تأويل جميع ما يوهم القول بذلك كإخباره في كتابه التجليات وغيره باجتماعه ببعض الأنبياء عليهم السلام وإفادته لهم من العلم ما ليس عندهم .

وكقول الشيخ عبد القادر الجيلي قدس سره وقد تقدم : يا معاشر الأنبياء أوتيتم الألقاب وأوتينا ما لم تؤتوه إلى غير ذلك ، فإن اعتقاد أفضلية ولي من الأولياء على نبي من الأنبياء كفر عظيم وضلال بعيد ، ولو ساغ تفضيل ولي على نبي لفضل الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه على أحد من الأنبياء لأنه أرفع الأولياء قدراً كما ذهب إليه أهل السنة ونص عليه الشيخ قدس سره في كتاب القربة أيضاً مع أنه لم يفضل كذلك بل فضل على من عداهم كما نطق به "ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين أفضل من أبي بكر الصديق" فمتى لم يفضل الصديق وهو الذي وقر في صدره ما وقر ونال من الكمال ما لا يحصر فكيف يفضل غيره ؟ .

وفضل كثير من الشيعة علياً كرم الله تعالى وجهه وكذا أولاده الأئمة الطاهرين رضي الله

تعالى عنهم أجمعين على كثير من الأنبياء والمرسلين من أولي العزم وغيرهم ولا مستند لهم في ذلك إلا أخبار كاذبة وأفكار غير صائبة .

(143/368)

وبالجملة متى رأينا الشخص مؤمناً متقياً حكمنا عليه بالولاية نظراً لظاهر الحال ووجب علينا معاملته بما هو أهله من التوقير والاحترام غير غالين فيه بتفضيله على رسول أو نبي أو نحو ذلك مما عليه العوام اليوم في معاملة من يعتقدونه ولياً التي هي أشبه شيء بمعاملة المشركين من يعتقدونه إلهاً نسأل الله تعالى العفو والعافية ، ولا يشترط فيه صدور كرامة على يده كما يشترط في الرسول صدور معجزة ، ويكفيه الاستقامة كرامة كما يدل عليه ما اشتهر عن أبي يزيد قدس سره ، بل الولي الكامل لا التفات له إليها ولا يود صدورها على يده إلا إذا تضمنت مصلحة للمسلمين خاصة أو عامة .

وفي "الجواهر" و"الدر" للشعراني سمعت شيخنا يقول : إذا زل الولي ولم يرجع لوقته عوقب بالحجاب ، وهو أن يحبب إليه إظهار خرق العوائد المسماة في لسان العامة كرامات فيظهر بها ويقول : لو كنت مؤاخذاً بهذه الذلة لقبض عني التصريف وغاب عنه أن ذلك استدراج بل ولو سلم من الزلة فالواجب خوفه من المكر والاستدراج ، وقال بعضهم : الكرامة حيض

الرجال ومن اغتر بالكرامات بالكرى مات .

وأضر الكرامات للولي ما أوجب الشهرة فإن الشهرة آفة ، وقد نقل عن الخواص أنها تنقص مرتبة الكمال ، وأيد ذلك بالأثر المشهور خص بالبلاء من عرفه الناس .

نعم ذكر في أسرار القرآن أن الولاية لا تتم إلا بأربع مقامات .

الأول : مقام المحبة .

والثاني : مقام الشوق .

والثالث : مقام العشق .

والرابع : مقام المعرفة ، ولا تكون المحبة إلا بكشف الجمال ولا يكون الشوق إلا باستنشاق نسيم الوصال ولا يكون العشق إلا بدنو الأنوار ولا تكون المعرفة إلا بالصحبة ، وتتحقق الصحبة بكشف الألوهية مع ظهور أنوار الصفات ، ولحصول ذلك آثار وعلامات مذكورة فيه فليراجعه من أرادها ؛ والكلام في هذا المقام كثير وكتب القوم ملأى منه وما ذكرناه كفاية لغرضنا .

(144/368)

وأحسن ما يعتمد عليه في معرفة الولي اتباع الشريعة الغراء وسلوك المحجة البيضاء فمن خرج عنها قيد شبر بعد عن الولاية بمراحل فلا ينبغي أن يطلق عليه اسم الولي ولو أتى بألف ألف خارق ، فالولي الشرعي اليوم أعز من الكبريت الأحمر ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أما الخيام فإنها كخيامهم . . .

وأرى نساء الحي غير نسائها

﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ﴾ [يونس : 64] أي لما سبق لهم في الأزل من حسن العناية ، أولاً تبديل لحقائقه سبحانه الواردة عليهم وأسمائه تعالى المنكشفة لهم وأحكام تجلياته جل وعلا النازلة بهم ، أو لا تبديل لفطرهم التي فطرهم عليها ، ويقال لكل محدث كلمة لأنه أثر الكلمة ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أي لا تتأثر به ﴿ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ لا يملك أحد سواه منها شيئاً فسيكفيكهم الله تعالى ويقهرهم و﴿ هُوَ السميع ﴾ لأقوالهم ﴿ العليم ﴾ [يونس : 65] بما ينبغي أن يفعل بهم .

(145/368)

﴿ أَلا إِنَّ للَّهِ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ أي إن كل من في ذلك تحت ملكه سبحانه وتصرفه وقهره لا يقدرون على شيء من غير إذنه فهو كالتأكيد لما أفادته الآية

السابقة أو أن من فيها الملائكة والثقلين الذين هم أشرف الممكنات عبيد له سبحانه لا يصلح أحد منهم للربوبية فما لا يعقل أحقل بأن لا يصلح لذلك فهو كالدليل على قوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ [يونس : 66] إلا ما يتوهمونه ويتخيلونه شريكاً ولا شركة له في الحقيقة ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ إشارة إلى سكون العشاق والمشتاقين في الليل إذا مد أطنابه ونشر جلبابه وميلهم إلى مناجاة محبوبهم وانجذابهم إلى مشاهدة مطلوبهم وتلذذهم بما يرد عليهم من الواردات الإلهية واستغراقهم بأنواع التجليات الربانية ، ومن هنا قال بعضهم : لولا الليل لما أحببت البقاء في الدنيا ، وهذه حالة عشاق الحضرة وهم العشاق الحقيقيون نفعنا الله تعالى بهم ، وأنشد بعض المجازيين :

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى . . .

ويجمعني بالليل والهم جامع

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا . . .

لي الليل هزتني إليك المضاجع

﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ أي ألبسه سربال أنوار القدرة لتقضوا فيها حاجاتكم الضرورية ، وقيل : الإشارة بذلك إلى ليل الجسم ونهار الروح أي جعل لكم ليل الجسم لتسكنوا فيه ونهار الروح لتبصروا به حقائق الأشياء وما تهتدون به

﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [يونس : 67] كلام الله تعالى فيقيمون بواطنه وحدوده ويطلعون به على صفاته وأسمائه سبحانه ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَدًا ﴾ أي معلولاً يجانسه ﴿ سبحانه ﴾ أي أنزهه جل وعلا من ذلك ﴿ هُوَ الغنى ﴾ الذي وجوده بذاته وبه وجود كل شيء وذلك ينافي الغني وأكد غناه جل شأنه بقوله تعالى : ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات ﴾ [يونس : 68] الخ ، وقوله سبحانه : ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ [يونس : 71] الخ أمر له صلى الله عليه وسلم أن يتلو عليهم نبأ نوح عليه السلام في صحة توكله على الله تعالى ونظره إلى قومه وشركائهم بعين الغنى وعدم المبالاة بهم وبمكايدهم ليعتبروا به حاله عليه الصلاة والسلام فإن الأنبياء عليهم السلام في ملة التوحيد والقيام بالله تعالى وعدم الالتفات إلى الخلق سواء ، أو أمر له صلى الله عليه وسلم بأن يتلو نبأ نوح مع قومه ليتعظ قومه وينزجروا عما هم عليه مما يفضي إلى إهلاكهم ﴿ وَقَالَ موسى يا فرعون قَوْمِ أَن كُنتُمْ ءامَنْتُمْ بالله ﴾ أي إيماناً حقيقياً ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنْتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس : 84] أي منقادين ، أي إن صح إيمانكم يقيناً فعليه توكلوا بشرط أن لا يكون لكم فعل ولا تروا لأنفسكم ولا لغيركم قوة ولا تأثيراً بل تكونوا منقادين كالميت بين يدي مغسله ، فإن شرط

صحة التوكل فناء بقايا الأفعال والقوى ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا فاستقيما ﴾ [يونس : 89] أي على ما أنتما عليه من الدعوة شكراً لتلك الإجابة ، وقيل : أي استقيما على معرفتكما مقام السؤال وهو مقام الرضوان والبسط ليستجاب لكما بعد إذا دعوتما فإن من لم يعرف مقام السؤال قد يوقعه في غير مقامه فيسيء الأدب فلا يستجاب له ، وقيل : إن هذا عتاب لهما عليهما السلام أي قد أجيب دعوتكما لضعفكما عن تحمل وارد امتحاني فاستقيما بعد ذلك على تحمل بلائي والصبر فيه فإنه اللائق

(147/368)

بشأنكما ، وقد قيل : المعرفة تقتضي الرضا بالقضاء والسكون في البلاء ، وقيل : أي استقيما في دعائكما والاستقامة في الدعاء على ما قال ذو النون المصري أن لا يغضب الداعي لتأخير الإجابة ولا يسأل سؤال خصوص نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحب ويرضى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 10 صـ ﴾

(148/368)

وقال القاسمي :

﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾

أي : يدعو الله تعالى في إذهاب عزة فرعون : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً ﴾ أي : ما يتزين به من اللباس والمراكب والحلي : ﴿ وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ أي : بالتكبر عليك وعلى آياتك ورسلك . وقوله : ﴿ لِيُضِلُّوا ﴾ متعلق بـ : ﴿ آتَيْتَ ﴾ ، وأعيد : ﴿ رَبَّنَا ﴾ توكيداً ، و (لام) : ﴿ لِيُضِلُّوا ﴾ لام العاقبة والصيرورة . أي : آتيتهم النعم المذكورة ليشكروها ويتبعوا سبيلك ، فكان عاقبة أمرهم أنهم كفروا وضلوا عن سبيلك ، وتجويز جعل اللام للعلة استدراجاً ، أو لام الدعاء عليهم بذلك – توسع في غير متسع ، ونبو عن لطف المساق وسره فإن موسى لما رأى القوم مصرين على الكفر والعناد أخذ في الدعاء عليهم ، ومن حق من يدعو على الغير أن يقدم بين يدي دعائه ما دفعه واضطره إلى الابتهال ؛ لتحق إجابته ، ولذا بين أولاً ضلالهم عن السبيل بكفرانهم للنعم ، وعتوهم على المحسن بها تمهيداً لقوله : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ﴾ أي : أهلكها ؛ لأنهم يستعينون بنعمتك على معصيتك . وأصل (الطمس) محو الأثر والتغير : ﴿ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : اجعلها قاسية ، واطبع عليها ، حتى لا تنشرح للإيمان : ﴿ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ أي : يعاينوه ويوقنوا به ، بحيث لا ينفعهم ذلك إذ ذاك ، وقوله : ﴿ فَلاَ يُؤْمِنُواْ ﴾ جواب للدعاء ، أو دعاء بلفظ النهي .

(149/368)

قال ابن كثير : هذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنه لا خير فيهم ، ولا يجيء منهم شيء . كما دعا نوح عليه السلام فقال : ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : 26 – 27] ، ولهذا استجاب تعالى لموسى فيهم هذه الدعوة التي شركه فيها أخوه هارون كما أخبر بقوله سبحانه :

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [89] .

﴿ قَالَ ﴾ تعالى : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ﴾ أي : على أمري ، ولا تعجلا ، فإن مطلوبكما كائن في وقته لا محالة : ﴿ وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : في الاستعجال أو عدم الوثوق بوعده تعالى ، أو يعني فرعون وقومه بقوله سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 58 . 59 ﴾

(150/368)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ) .

هَذِهِ قِصَّةُ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مَعَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ مُلَخَّصَةً هُنَا فِي 19 آيَةً مُفَصَّلَةً مُرَتَّبَةً كَمَا نُبَيِّنُهُ فِي تَفْسِيرِهَا ، وَهَذِهِ الْأَرْبَعُ مِنْهَا فِي اسْتِكْبَارِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ عَنِ الْإِيمَانِ وَزَعْمِهِمْ أَنَّ آيَاتِ اللهِ لِمُوسَى مِنَ السِّحْرِ ، وَتَعْلِيلِ تَكْذِيبِهِمْ لَهُ بِأَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا : أَنَّ اتِّبَاعَهُ تَحْوِيلٌ لَهُمْ عَنِ التَّقَالِيدِ الْمَوْرُوثَةِ عَنِ الْآبَاءِ ، وَالثَّانِي : أَنَّهُ يَسْلُبُ سُلْطَانَهُمْ مِنْهُمْ وَيَنْفَرِدُ هُوَ وَأَخُوهُ بِمَا يَتَمَتَّعُونَ بِهِ مِنَ الْكِبْرِيَاءِ فِي الْأَرْضِ ، وَهَذَا بِمَعْنَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ الْمُخْتَصَرَةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ . وَهَاكَ تَفْسِيرَهُنَّ بِالِاخْتِصَارِ :

(151/368)

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) أَيْ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ أُولَئِكَ الرُّسُلِ - الَّذِينَ بَعَثْنَاهُمْ إِلَى أَقْوَامِهِمْ - مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ مِصْرَ وَأَشْرَافِ قَوْمِهِ الَّذِينَ هُمْ أَرْكَانُ دَوْلَتِهِ ، وَإِلَى قَوْمِهِمُ الْقِبْطِ بِالتَّبَعِ لَهُمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَعْبَدِينَ لَهُمْ يَكْفُرُونَ بِكُفْرِهِمْ ، وَيُؤْمِنُونَ بِإِيمَانِهِمْ أَنْ آمَنُوا (بِآيَاتِنَا) أَيْ بَعَثْنَاهُمَا مُؤَيِّدَيْنِ بِآيَاتِنَا التِّسْعِ الْمُفَصَّلَةِ فِي سُورَةِ

الْأَعْرَافِ وَغَيْرِهَا (فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ) أَيْ فَاسْتَكْبَرَ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ ، أَيْ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِيمَانِ كِبْرًا وَعُلُوًّا مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ ، لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ سَعَةِ الْعِلْمِ وَصِنَاعَةِ السِّحْرِ ، وَكَانُوا

قَوْمًا رَاسِخِينَ فِي الْإِجْرَامِ وَهُوَ الظُّلْمُ وَالْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّمْلِ : (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) (27 : 14) .

(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ) وَهُوَ آيَاتُنَا الدَّالَّةُ عَلَى الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ (مِنْ عِنْدِنَا) وَوَحْيِنَا

(152/368)

إِلَى مُوسَى كَمَا هُوَ مُفَصَّلٌ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ وَغَيْرِهَا ، الْمُبْطِلِ لِادِّعَاءِ فِرْعَوْنَ لَهُمَا بِقَوْلِهِ : (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) (79 : 24) وَقَوْلِهِ : (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) (28 : 38) (قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ) أَيْ أَقْسَمُوا إِنَّ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ إِنَّمَا هُوَ سِحْرٌ بَيِّنٌ ظَاهِرٌ ، وَإِنَّمَا السِّحْرُ صِنَاعَةٌ بَاطِلَةٌ هُمْ أَحْذَقُ النَّاسِ بِهَا ، فَكَيْفَ يَتَّبِعُونَ مَنْ جَاءَ يُنَازِعُهُمْ سُلْطَانَهُمْ بِهَا ، فَمَاذَا قَالَ لَهُمْ مُوسَى ؟ .

(153/368)

(قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ) أَيْ قَالَ لَهُمْ مُتَعَجِّبًا مِنْ قَوْلِهِمْ أَتَقُولُونَ هَذَا الَّذِي قُلْتُمْ لِلْحَقِّ الظَّاهِرِ ، الَّذِي هُوَ أَبْعَدُ الْأَشْيَاءِ عَنْ كَيْدِ السِّحْرِ الْبَاطِلِ ، لَمَّا جَاءَكُمْ وَعَرَفْتُمُوهُ وَاسْتَيْقَنَتْهُ أَنْفُسُكُمْ ، حَذَفَ مَقُولَ الْقَوْلِ لِدَلَالَةِ مَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ وَهُوَ قَوْلُهُمْ : (إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ) وَكَذَا مَا بَعْدَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ مُنْكِرًا لَهُ مُتَعَجِّبًا مِنْهُ : (أَسِحْرٌ هَذَا) أَيْ إِنَّ هَذَا الَّذِي تَرَوْنَهُ مِنْ آيَاتِ اللهِ بِأَعْيُنِكُمْ ، وَتَرْجُفُ مِنْ عَظَمَتِهِ قُلُوبُكُمْ ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ سِحْرًا مِنْ جِنْسِ مَا تَصْنَعُهُ أَيْدِيكُمْ ، (وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ) أَيْ وَالْحَالُ الْمَعْرُوفُ عِنْدَكُمْ أَنَّ السَّاحِرِينَ لَا يَفُوزُونَ فِي أُمُورِ الْجِدِّ الْعَمَلِيَّةِ مِنْ دَعْوَةِ دِينٍ وَتَأْسِيسِ مُلْكٍ وَقَلْبِ نِظَامٍ ، وَهُوَ مَا تَتَّهِمُونَنِي بِهِ عَلَى ضَعْفِي وَقُوَّتِكُمْ ، لِأَنَّ السِّحْرَ أُمُورُ شَعْوَذَةٍ وَتَخْيِيلٍ ، لَا تَلْبَثُ أَنْ تَفْتَضِحَ وَتَزُولَ ، يَدُلُّ عَلَى هَذَا جَوَابُهُمْ لَهُ :

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ) هَذَا اسْتِفْهَامُ تَوْرِيطٍ وَتَقْرِيرٍ ، تُجَاهَ مَا أَوْرَدَهُ مُوسَى مِنَ اسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِ وَالتَّعْجِيبِ ، فَحَوَاهُ أَتُقِرُّ وَتَعْتَرِفُ بِأَنَّكَ جِئْتَنَا لِتَصْرِفَنَا وَتَحَوِّلَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ

آبَاءَنَا وَأَجْدَادَنَا مِنَ الدِّينِ الْقَوْمِيِّ الْوَطَنِيِّ لِنَتَّبِعَ دِينَكَ وَتَكُونَ لَكَ وَلِأَخِيكَ كِبْرِيَاءُ الرِّيَاسَةِ الدِّينِيَّةِ ، وَمَا يَتْبَعُهَا مِنْ كِبْرِيَاءِ الْمُلْكِ وَالْعَظَمَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ التَّابِعَةِ لَهَا فِي أَرْضِ مِصْرَ كُلِّهَا ؟ يَعْنُونَ أَنَّهُ لَا غَرَضَ لَكَ مِنْ دَعْوَتِكَ إِلَّا هَذَا وَإِنْ لَمْ تَعْتَرِفْ بِهِ اعْتِرَافًا . جَعَلُوا الْخِطَابَ الْخَاصَّ بِالدَّعْوَةِ وَالْغَرَضَ مِنْهَا لِمُوسَى لِأَنَّهُ هُوَ الدَّاعِي لَهُمْ بِالذَّاتِ وَأَشْرَكُوا مَعَهُ أَخَاهُ فِي ثَمَرَةِ الدَّعْوَةِ وَفَائِدَتِهَا لِأَنَّهَا تَكُونُ مُشْتَرَكَةً بَيْنَهُمَا بِالضَّرُورَةِ (وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ) أَيْ وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ لَكُمَا اتِّبَاعَ إِيمَانٍ وَإِذْعَانٍ فِيمَا يُخْرِجُنَا مِنْ دِينِ آبَائِنَا الَّذِي تُقَلِّدُهُ عَامَّتُنَا ، وَيَسْلُبُنَا مُلْكَنَا الَّذِي تَتَمَتَّعُ بِكِبْرِيَائِهِ خَاصَّتُنَا – وَهُمُ الْمَلِكُ وَأَرْكَانُ دَوْلَتِهِ وَبِطَانَتُهُ وَحَوَاشِيهِ – وَهَذَانِ الْأَمْرَانِ هُمَا اللَّذَانِ كَانَا يَمْنَعَانِ جَمِيعَ الْأَقْوَامِ مِنَ اتِّبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُصْلِحِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ .

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) .

(155/368)

هَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ فِي خُلَاصَةِ مَا قَاوَمَ بِهِ فِرْعَوْنُ دَعْوَةَ مُوسَى لِتَأْيِيدِ ادِّعَائِهِ أَنَّهُ سَاحِرٌ وَصَرْفِ قَوْمِهِ عَنِ اتِّبَاعِهِ لِعَدَمِ تَمْيِيزِهِمْ بَيْنَ السِّحْرِ وَآيَاتِ اللهِ لَهُ .

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ) أَيْ ذَاكَ مَا قَالَهُ مَلَأُ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى وَأَخِيهِ بِحَضْرَتِهِ ، وَقَالَ فِرْعَوْنُ بَعْدَ مَا رَأَوْا مِنْ إِصْرَارِ مُوسَى عَلَى دَعْوَتِهِ ، وَعَدَمِ مُبَالَاتِهِ بِالتَّصْرِيحِ لَهُ بِمَا يَدْعُونَ أَوْ يَظُنُّونَ مِنْ مُرَادِهِ : (ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ وَاسِعِ الْعِلْمِ رَاسِخٍ فِيهِ مُتْقِنٍ لِلسِّحْرِ بِالْعَمَلِ كَمَا عَبَّرَ عَنْهُ فِي آيَةٍ أُخْرَى (بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ) (6 : 37) .

(فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ) الْمَطْلُوبُونَ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذُكِرَ (قَالَ لَهُمْ مُوسَى) بَعْدَ أَنْ خَيَّرُوهُ بَيْنَ أَنْ يُلْقِيَ مَا عِنْدَهُ أَوَّلًا أَوْ يُلْقُوا هُمْ مَا عِنْدَهُمْ كَمَا هُوَ مُبَيَّنٌ فِي سُورَتَيِ الْأَعْرَافِ وَطَهَ (أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ) لِيَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ إِبْطَالُ الْبَاطِلِ وَإِظْهَارُ الْحَقِّ .

(156/368)

(فَلَمَّا أَلْقَوْا) مَا أَلْقَوْهُ مِنْ حِبَالِهِمْ وَعِصِيِّهِمُ الصِّنَاعِيَّةِ السِّحْرِيَّةِ (قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ) أَيْ هَذَا الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ وَأَلْقَيْتُمُوهُ أَمَامَنَا هُوَ السِّحْرُ لَا مَا جِئْتُ بِهِ مِنْ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى وَسَمَّاهُ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ سِحْرًا (إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ) أَيْ سَيُظْهِرُ بُطْلَانَهُ لِلنَّاسِ وَأَنَّهُ صِنَاعَةٌ خَادِعَةٌ ، لَا آيَةٌ خَارِقَةٌ صَادِعَةٌ ، فَالْجُمْلَةُ اسْتِئْنَافِيَّةٌ لِبَيَانِ مَا يُوقِنُ بِهِ مُوسَى مِنْ مَآلِ هَذَا

السِّحْرِ ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ خَبَرًا لِمَا قَبْلَهَا وَيَكُونَ التَّقْدِيرُ : مَا جِئْتُمْ بِهِ الَّذِي هُوَ السِّحْرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَعَلَّلَ حُكْمَهُ بِقَوْلِهِ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) وَهُوَ قَاعِدَةٌ عَامَّةٌ مُبَيِّنَةٌ لِسُنَّةِ اللَّهِ فِي تَنَازُعِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ ، وَيَدْخُلُ فِيهَا سِحْرُهُمْ فَإِنَّهُ بَاطِلٌ وَفَسَادٌ ، أَيْ لَا يَجْعَلُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ صَالِحًا ، وَالسِّحْرُ مِنْ عَمَلِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ الْمُفْسِدِينَ .

(وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ) أَيْ يُثْبِتُ الْحَقَّ الَّذِي فِيهِ صَلَاحُ الْخَلْقِ ، وَيَنْصُرُهُ عَلَى مَا يُعَارِضُهُ مِنَ الْبَاطِلِ بِكَلِمَاتِهِ التَّكْوِينِيَّةِ وَهِيَ مُقْتَضَى إِرَادَتِهِ ، وَكَلِمَاتِهِ التَّشْرِيعِيَّةِ الَّتِي يُوحِيهَا إِلَى رُسُلِهِ

وَمِنْهَا وَعْدُهُ بِنَصْرِي عَلَى فِرْعَوْنَ وَإِنْقَاذِ قَوْمِي مِنْ عُبُودِيَّتِهِ وَظُلْمِهِ (وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) كَفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ . وَقَدْ سَبَقَ تَفْسِيرُ مِثْلِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ (8 : 7 ، 8) .

(157/368)

(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ

الْكَافِرِينَ

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) .

هَذِهِ الْآيَاتُ الْخَمْسُ فِي بَيَانِ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِ مُوسَى مَعَ قَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ أَرْسَلَهُ اللهُ لِيُخْرِجَهُمْ مِنْ مِصْرَ ، فِي إِثْرِ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ مَعَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ .

(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ) الْمُتَبَادَرُ إِلَى فَهْمِي أَنَّ عَطْفَ هَذِهِ الْجُمْلَةِ عَلَى مَا قَبْلَهَا بِالْفَاءِ لِإِفَادَةِ السَّبَبِيَّةِ أَوِ التَّفْرِيعِ ، أَيْ إِنَّ إِصْرَارَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ عَلَى الْكُفْرِ بِمُوسَى بَعْدَ خَيْبَةِ السَّحَرَةِ وَظُهُورِ حَقِّهِ عَلَى بَاطِلِهِمْ ، ثُمَّ عَزْمَهُ عَلَى قَتْلِهِ كَمَا أَنْبَأَ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) (40 : 26) يَعْنِي بِالْفَسَادِ الثَّوْرَةَ وَالْخُرُوجَ عَلَى السُّلْطَانِ – كَمَا قَتَلَ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ السَّحَرَةِ .

(158/368)

كُلُّ هَذَا أَوْقَعَ الْخَوْفَ وَالرُّعْبَ فِي قُلُوبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمِ مُوسَى ، فَمَا آمَنَ لَهُ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ وَهُمُ الْأَحْدَاثُ مِنَ الْمُرَاهِقِينَ وَالشُّبَّانُ ، وَقِيلَ : قَوْمُ فِرْعَوْنَ ، وَلَكِنَّ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْهُمْ

كَانَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ، وَلَا يُقَالُ آمَنَ لَهُ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَهُ مُؤْمِنًا ، وَلَمْ يَكُونُوا صِغَارًا ، وَالذُّرِّيَّةُ فِي اللُّغَةِ الصِّغَارُ مِنَ الْأَوْلَادِ ، قَالَ الرَّاغِبُ : وَإِنْ كَانَ يَقَعُ عَلَى الصِّغَارِ وَالْكِبَارِ مَعًا فِي التَّعَارُفِ وَيُسْتَعْمَلُ لِلْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ وَأَصْلُهُ الْجَمْعُ . (عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ) أَيْ آمَنُوا عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ، أَيْ أَشْرَافِ قَوْمِهِمُ الْجُبَنَاءِ الْمُرَائِينَ الَّذِينَ هُمْ عُرَفَاؤُهُمْ عِنْدَ

(159/368)

فِرْعَوْنَ فِيمَا يَطْلُبُ هُوَ مِنْهُمْ ، فَإِنَّ الْمُلُوكَ يَسْتَذِلُّونَ الشُّعُوبَ وَيَسْتَعْبِدُونَهُمْ بِرُؤَسَاءَ وَعُرَفَاءَ مِنْهُمْ وَقِيلَ : مَلَأُ فِرْعَوْنَ وَجَمْعُ ضَمِيرِهِ لِلتَّعْظِيمِ ، عَلَى خَوْفٍ مِنْهُ أَنْ يَفْتِنَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ لِمُوسَى وَاتِّبَاعِ دِينِهِ بِالتَّعْذِيبِ وَالْإِرْهَاقِ . الْفُتُونُ : الِابْتِلَاءُ وَالِاخْتِبَارُ الشَّدِيدُ لِلْحَمْلِ عَلَى الشَّيْءِ أَوْ عَلَى تَرْكِهِ وَاسْتُعْمِلَ فِي الِاضْطِهَادِ وَالتَّعْذِيبِ لِلِارْتِدَادِ عَنِ الدِّينِ بِكَثْرَةٍ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ) (8 : 39) (وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ) أَيْ وَالْحَالُ أَنَّ فِرْعَوْنَ عَاتٍ شَدِيدُ الْعُتُوِّ ، مُسْتَبِدٌّ غَالِبٌ قَوِيُّ الْقَهْرِ فِي أَرْضِ مِصْرَ فَهُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يُخَافَ مِنْهُ ، فَالْمُرَادُ بِعُلُوِّهِ قَهْرُهُ وَاسْتِبْدَادُهُ كَمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ:

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ

سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ) (7 :127) (وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ) أَيِ الْمُتَجَاوِزِينَ حُدُودَ الرَّحْمَةِ وَالْعَدْلِ ، إِلَى الظُّلْمِ وَالْقَتْلِ ، وَالْعُدْوَانِ وَالْبَغْيِ ، وَغَمْطِ الْحَقِّ وَاحْتِقَارِ الْخَلْقِ وَهُوَ مَعْنَى الْكِبْرِيَاءِ .

(160/368)

(وَقَالَ مُوسَى) لِمَنْ آمَنَ مِنْ قَوْمِهِ وَقَدْ رَأَى خَوْفَهُمْ مِنَ الْفِتْنَةِ وَالِاضْطِهَادِ مُرْشِدًا وَمُثَبِّتًا لَهُمْ : (يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) أَيْ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ حَقَّ الْإِيمَانِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ، وَبِوَعْدِهِ فَثِقُوا ، إِنْ كُنْتُمْ فِي إِيمَانِكُمْ مُسْتَسْلِمِينَ مُذْعِنِينَ بِالْفِعْلِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْإِيمَانُ يَقِينًا إِذَا صَدَّقَهُ الْعَمَلُ وَهُوَ الْإِسْلَامُ ، وَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى إِيمَانِ جَمِيعِ قَوْمِهِ كَمَا قِيلَ ، فَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ غَيْرُ الْإِيمَانِ لِمُوسَى الْمُتَضَمِّنِ لِمَعْنَى الْإِسْلَامِ وَالِاتِّبَاعِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ : (إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) وَهُمْ قَدْ طَلَبُوا مِنْهُ بَعْدَ نَجَاتِهِمْ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ آلِهَةً مِنَ الْأَصْنَامِ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ الْمَصْنُوعَ وَعَبَدُوهُ .

(161/368)

(فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أَيْ فَامْتَثَلُوا الْأَمْرَ ، إِذْ عَلِمُوا أَنَّهُ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ إِنْجَازُ الْوَعْدِ ، وَصَرَّحُوا بِهِ فِي الْقَوْلِ ، مَعَ الدُّعَاءِ بِأَنْ يَحْفَظَهُمْ مِنْ فِتْنَةِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ بِالْفِعْلِ ، فَإِنَّ التَّوَكُّلَ عَلَى اللهِ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مَقَامَاتِ الْإِيمَانِ لَا يَكْمُلُ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى الشَّدَائِدِ ، وَالدُّعَاءَ لَا يَصِحُّ وَلَا يُقْبَلُ فَيُسْتَجَابُ إِلَّا إِذَا كَانَ مَسْبُوقًا أَوْ مُقَارِنًا لِاتِّخَاذِ الْأَسْبَابِ ، وَهُوَ أَنْ تَعْمَلَ مَا تَسْتَطِيعُ ، وَتَطْلُبَ مِنَ اللهِ أَنْ يُسَخِّرَ لَكَ مَا لَا تَسْتَطِيعُ ، وَلَفْظُ (فِتْنَةٍ) هُنَا يَحْتَمِلُ مَعْنَى الْفَاتِنِ وَالْمَفْتُونِ فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا : رَبَّنَا لَا تُسَلِّطْهُمْ عَلَيْنَا فَيَفْتِنُونَا ، وَلَا تَفْتِنَّا بِهِمْ فَنَتَوَلَّى عَنِ اتِّبَاعِ نَبِيِّنَا ، أَوْ نَضْعُفَ فِيهِ فِرَارًا مِنْ شِدَّةِ ظُلْمِهِمْ لَنَا ، وَلَا تَفْتِنْهُمْ بِنَا فَيَزْدَادُوا كُفْرًا وَعِنَادًا وَظُلْمًا بِظُهُورِهِمْ عَلَيْنَا ، وَيَظُنُّوا أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَأَنَّنَا عَلَى الْبَاطِلِ وَمِنَ الْمَعْقُولِ وَالثَّابِتِ بِالتَّجَارِبِ أَنَّ سُوءَ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلِ الْحَقِّ فِي أَيِّ حَالٍ مِنْ ضَعْفٍ أَوْ فَقْرٍ أَوْ عَمَلٍ مَذْمُومٍ ، يَجْعَلُهُمْ مَوْضِعًا أَوْ مَوْضُوعًا لِافْتِتَانِ الْكُفَّارِ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ بِهِمْ بِاعْتِقَادِ أَنَّهُمْ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا

(162/368)

أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا) (6 : 53) وَقَالَ : (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ) (25 : 20) فَكَيْفَ إِذَا خَذَلَ أَهْلَ الْحَقِّ حَقُّهُمْ ، وَكَفَرُوا نِعْمَةَ رَبِّهِمْ ؟ .

(وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) أَيْ نَجِّنَا مِنْ سُلْطَانِهِمْ وَحُكْمِهِمْ لِأَنَّ حُكْمَ الْكَافِرِ لَا يُطَاقُ ، وَمِثْلُ هَذَا الدُّعَاءِ فِي جُمْلَتِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سِيَاقِ التَّأَسِّي بِإِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ فِي أَقْوَالِهِمْ لِقَوْمِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَتَوَكُّلِهِمْ : (رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (60 : 4 ، 5) وَمَا أَجْدَرَ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ بِهَذِهِ الْأُسْوَةِ وَتَجْدِيدِ الْإِنَابَةِ ، وَتَكْرَارُ هَذَا الدُّعَاءِ خَاشِعِينَ مُعْتَبِرِينَ مُسْتَعْبِرِينَ فَقَدْ أَصْبَحُوا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

(163/368)

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا) يُقَالُ تَبَوَّأَ الدَّارَ : اتَّخَذَهَا مُبَوَّءًا أَوْ مَبَاءَةً أَيْ مَسْكَنًا ثَابِتًا وَمَلْجَأً يَبُوءُ إِلَيْهِ ، أَيْ يَرْجِعُ كُلَّمَا فَارَقَهُ لِحَاجَةٍ ، وَبَوَّأَهَا غَيْرُهُ ، وَقَوْلُهُ : (أَنْ تَبَوَّآ) تَفْسِيرٌ لِأَوْحَيْنَا لِأَنَّهُ بِمَعْنَى قُلْنَا لَهُمَا : اتَّخِذُوا لِقَوْمِكُمَا بُيُوتًا فِي مِصْرَ تَكُونُ مَسَاكِنَ وَمَلَاجِئَ يَبُوءُونَ إِلَيْهَا وَيَعْتَصِمُونَ بِهَا . (وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً) أَيْ مُتَقَابِلَةً فِي وِجْهَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَالْقِبْلَةُ فِي اللُّغَةِ مَا يُقَابِلُ الْإِنْسَانَ وَيَكُونُ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ وَمِنْهُ قِبْلَةُ الصَّلَاةِ وَهِيَ أَخَصُّ وَيَصِحُّ الْجَمْعُ هُنَا بَيْنَ الْمَعْنَيَيْنِ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) أَيْ فِيهَا مُتَوَجِّهِينَ إِلَى وِجْهَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ لِأَنَّ الِاتِّحَادَ فِي الِاتِّجَاهِ يُسَاعِدُ عَلَى اتِّحَادِ الْقُلُوبِ كَمَا قَالَ

النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي حِكْمَةِ تَسْوِيَةِ الصُّفُوفِ فِي الصَّلَاةِ (وَلَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ) وَحِكْمَةُ هَذَا أَنْ يَكُونُوا مُسْتَعِدِّينَ لِتَبْلِيغِهِمَا إيَّاهُمْ مَا يُهِمُّهُمْ وَيَعْنِيهِمْ مِمَّا بُعِثَا لِأَجْلِهِ ، وَهُوَ إنْجَاؤُهُمْ مِنْ عَذَابِ فِرْعَوْنَ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ بِلَادِهِ . وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْجِهَةِ الَّتِي أُمِرُوا بِاسْتِقْبَالِهَا وَالتَّوَجُّهِ إلَيْهَا فِي الصَّلَاةِ وَهِيَ لَا تُعْلَمُ إلَّا بِنَصٍّ : (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) بِحِفْظِ اللَّهِ إيَّاهُمْ مِنْ فِتْنَةِ فِرْعَوْنَ وَمَلْئِهِ الظَّالِمِينَ لَهُمْ وَتَنْجِيَتِهِمْ مِنْ

(164/368)

ظُلْمِهِمْ . خَصَّ اللَّهُ مُوسَى بِهَذَا الْأَمْرِ (التَّبْشِيرِ) لِأَنَّهُ مِنْ أَمْرِ الْوَحْيِ وَالتَّبْلِيغِ الْمَنُوطِ بِهِ ، وَأَشْرَكَ هَارُونَ مَعَهُ فِي الْأَمْرِ الَّذِي قَبْلَهُ لِأَنَّهُ تَدْبِيرٌ عَمَلِيٌّ هُوَ وَزِيرُهُ الْمُسَاعِدُ لَهُ عَلَى تَنْفِيذِهِ

.

(وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) .

هَاتَانِ الْآيَتَانِ هُمَا الرَّابِطَتَانِ بَيْنَ سِيرَةِ مُوسَى وَهَارُونَ مَعَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ فِي مِصْرَ ، وَبَيْنَ مَا

انْتَهَتْ إِلَيْهِ مِنْ نَصْرِ اللهِ لَهُ عَلَيْهِ وَإِنْجَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ ظُلْمِهِ . وَإِهْلَاكِهِ عِقَابًا لَهُ كَمَا وَقَعَ لِنُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ .

(165/368)

(وَقَالَ مُوسَى) بَعْدَ أَنْ أَعَدَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ إِعْدَادًا دِينِيًّا دُنْيَوِيًّا ، مُتَوَجِّهًا إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي إِتْمَامِ الْأَمْرِ ، بَعْدَ قِيَامِهِ بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ هُوَ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ مِنَ الْأَسْبَابِ : (رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أَيْ إِنَّكَ أَعْطَيْتَ فِرْعَوْنَ وَأَشْرَافَ قَوْمِهِ وَكُبَرَاءَهُمْ دُونَ دُهَمَائِهِمْ - مِنَ الصُّنَّاعِ وَالزُّرَّاعِ وَالْجُنْدِ وَالْخَدَمِ - زِينَةً مِنَ الْحُلِيِّ وَالْحُلَلِ وَالْآنِيَةِ وَالْمَاعُونِ وَالْأَثَاثِ وَالرِّيَاشِ ، وَأَمْوَالًا كَثِيرَةَ الْأَنْوَاعِ وَالْمَقَادِيرِ ، يَتَمَتَّعُونَ بِهَا وَيُنْفِقُونَ مِنْهَا فِي حُظُوظِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَظَمَةِ الْبَاطِلَةِ وَالشَّهَوَاتِ الْبَدَنِيَّةِ بِدُونِ حِسَابٍ (رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ) أَيْ لِتَكُونَ عَاقِبَةُ هَذَا الْعَطَاءِ إِضْلَالَ عِبَادِكَ عَنْ سَبِيلِكَ الْمُوَصِّلَةِ إِلَى مَرْضَاتِكَ بِاتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، ذَلِكَ بِأَنَّ الزِّينَةَ سَبَبُ الْكِبْرِ وَالْخُيَلَاءِ وَالطُّغْيَانِ عَلَى النَّاسِ ، وَكَثْرَةَ الْأَمْوَالِ تُمَكِّنُهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَتُخْضِعُ رِقَابَ النَّاسِ لَهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) (96 : 6 ، 7) وَذَلِكَ دَأْبُ فَرَاعِنَةِ مِصْرَ ، بِهِ تَشْهَدُ آثَارُهُمْ وَرِكَازُهُمُ الَّتِي لَا تَزَالُ تُسْتَخْرَجُ

مِنْ بِرَابِيهِمْ وَنَوَاوِيسِ قُبُورِهِمْ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا الَّذِي أَكْتُبُ فِيهِ تَفْسِيرَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَتُحْفَظُ فِي دَارِ الْآثَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَيُوجَدُ مِثْلُهَا دُورٌ أُخْرَى فِي عَوَاصِمِ بِلَادِ الْإِفْرِنْجِ مَلْأَى بِأَمْثَالِهَا ، فَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ : (لِيُضِلُّوا) تُسَمَّى لَامَ الْعَاقِبَةِ وَالصَّيْرُورَةِ وَهِيَ الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ مَا بَعْدَهَا أَثَرٌ وَغَايَةٌ فِعْلِيَّةٌ لِمُتَعَلِّقِهَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ بِالْفِعْلِ لَا بِالسَّبَبِيَّةِ وَلَا بِقَصْدِ فَاعِلِ الْفِعْلِ الَّذِي تَتَعَلَّقُ بِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) (28 : 8) وَيُمَيِّزُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ لَامِ كَيِ الدَّالَّةِ عَلَى عِلَّةِ الْفِعْلِ بِالْقَرِينَةِ ، وَجَعَلَهَا بَعْضُهُمْ هُنَا مِنْهَا وَحَمَلُوهَا عَلَى الِاسْتِدْرَاجِ ، أَيْ آتَيْتُهُمْ ذَلِكَ لِكَيْ يُضِلُّوا النَّاسَ فَيَسْتَحِقُّوا الْعِقَابَ وَقَدْ يُعَزِّزُهُ قَوْلُهُ : (رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ) يُقَالُ : طَمَسَ الْأَثَرُ وَطَمَسَتْهُ الرِّيحُ إِذَا زَالَ حَتَّى لَا يُرَى أَوْ لَا يُعْرَفَ (وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ) (36 : 66) وَهُوَ يَصْدُقُ بِالْعَمَى وَبِعَدَمِ الِانْتِفَاعِ بِهَا كَمَا سَبَقَ قَرِيبًا فِي قَوْلِهِ: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ) (43) وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْعَمَى هُنَا عَمَى الْبَصِيرَةِ لَا الْبَصَرِ وَالْمَعْنَى هُنَا : رَبَّنَا امْحَقْ أَمْوَالَهُمْ بِالْآفَاتِ الَّتِي تُصِيبُ حَرْثَهُمْ وَأَنْعَامَهُمْ وَتُنْقِصُ

مَكَاسِبَهُمْ وَثَمَرَاتِهِمْ وَغَلَّاتِهِمْ فَيَذُوقُوا ذُلَّ الْحَاجَةِ (وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ) أَيِ اطْبَعْ عَلَيْهَا ، وَزِدْهَا قَسَاوَةً وَإِصْرَارًا

وَعِنَادًا ، حَتَّى يَسْتَحِقُّوا تَعْجِيلَ عِقَابِكَ فَتُعَاقِبَهُمْ (فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) هَذَا جَوَابٌ لِلدُّعَاءِ أَوْ دُعَاءٌ آخَرُ بِلَفْظِ النَّهْيِ مُتَمِّمٌ لَهُ . وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ مُوسَى دَعَا بِهَذَا الدُّعَاءِ وَأَمَّنَ هَارُونُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كَمَا هُوَ الْمُعْتَادُ ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمَا بِقَوْلِهِ :

(قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا) أَيْ قُبِلَتْ ، وَإِذَا قُبِلَتْ نُفِّذَتْ (فَاسْتَقِيمَا) عَلَى مَا أَنْتُمَا عَلَيْهِ مِنْ دَعْوَةِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِلَى الْحَقِّ ، وَمِنْ إِعْدَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَامْضِيَا لِأَمْرِي وَهُوَ الِاسْتِقَامَةُ (وَلَا تَتَّبِعَانِّ

سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) أَيْ وَلَا تَسْلُكَانِ طَرِيقَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ سُنَّتِي فِي خَلْقِي وَإِنْجَازِ وَعْدِي لِرُسُلِي ، فَتَسْتَعْجِلَا الْأَمْرَ قَبْلَ أَوَانِهِ ، وَتَسْتَبْطِئَا وُقُوعَهُ فِي إِبَّانِهِ .

(168/368)

هَذَا - وَإِنَّ فِي قِصَّةِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ فِي سِفْرِ الْخُرُوجِ مَا يُفَسِّرُ اسْتِجَابَةَ هَذَا الدُّعَاءِ ، بِمَا يُوَافِقُ مَا قُلْنَاهُ هُنَا مِنْ إِرْسَالِ اللَّهِ النَّوَازِلَ عَلَى مِصْرَ وَأَهْلِهَا ، وَلُجُوءِ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ إِلَى مُوسَى

عِنْدَ كُلِّ نَازِلَةٍ مِنْهَا لِيَدْعُوَ رَبَّهُ فَيَكْشِفَهَا عَنْهُمْ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ، حَتَّى إِذَا مَا كَشَفَهَا قَسَّى الرَّبُّ قَلْبَ فِرْعَوْنَ فَأَصَرَّ عَلَى كُفْرِهِ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا هَذَا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ) . إِلَى قَوْلِهِ : (وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) (7 : 133 : 136) مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ ، وَمِنْهُ تَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا خَالَفَهَا مِنْ أَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ فِي مَعْنَى الطَّمْسِ عَلَى أَمْوَالِهِمْ فَهُوَ مِنْ أَبَاطِيلِ الرِّوَايَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ ، الَّتِي كَانَ مِنْ مَقَاصِدِ كَعْبِ الْأَحْبَارِ) وَأَمْثَالِهِ مِنْهَا (كَمَا نَرَى) صَدَّ الْيَهُودِ عَنِ الْإِسْلَامِ ، بِمَا يَرْوُونَهُ فِي تَفْسِيرِ الْمُسْلِمِينَ لِلْقُرْآنِ مُخَالِفًا لِمَا هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ وَعِنْدَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي وَقَائِعَ عَمَلِيَّةٍ وَأُمُورٍ حِسِّيَّةٍ .

(169/368)

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ) .

هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ فِي بَيَانِ الْعِبْرَةِ بِآخِرِ الْقِصَّةِ ، وَمَا كَانَ مِنْ عَاقِبَةِ تَأْيِيدِ اللَّهِ لِمُوسَى وَأَخِيهِ

الضَّعِيفَيْنِ بِأَنْفُسِهِمَا ، عَلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ أَعْظَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ قُوَّةً وَدَوْلَةً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 380. 388 ﴾

(170/368)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾

عطف بقية ما جرى في القصة مما فيه عبرة وموعظة .

وهذا مقدمة لخبر خروج موسى ومَن معه من أرض مصر .

فهذه المقدمة لتعريف كرامة موسى عليه السلام على ربه بأن استجاب له دعاءه ، وأنفذ برسالته مُراده تعالى من إنقاذ بني إسرائيل من الاستعباد .

ومهَّد موسى لدعائه تمهيداً يدل على أن ما سأله من الله لزجر فرعون وملئه إنما هو لمصلحة الدين لا للانتقام منه لقومه ولنفسه ، فسأل الله سلب النعمة عن فرعون وملئه وحلولَ العذاب بهم لخضد شوكتهم وتذليل تجبرهم ليرجعوا عن ضلالهم ويسهل قبولهم الإيمان .

ولما كانت النعمة مغرية بالطغيان لأهل الجهالة والخباثة جعل موسى إمداد فرعون بالنعمة

مغرياً لفرعون بالاسترسال على الإعراض عن الدين فكان دعاء موسى عليهم استصلاحاً لهم وتطلباً لإيمانهم بوسائل التشديد عليهم ، ولكن الله علم من قلوبهم ما لم يعلمه موسى وقضى عليهم بالاستئصال .

وافتتح الدعاءُ بالنداء لمناسبته لمقام الدعاء .

ونودي الله بوصف الربوبية تذللاً لإظهار العبودية .

وقوله : ﴿ إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً ﴾ توطئة للدعاء عليهم فليس المقصود به حقيقة الإخبار ضرورة أن موسى يوقن بأن الله يعلم ذلك فتعين أن الخبر مستعمل في التمهيد لطلب سلب النعمة عنهم في قوله : ﴿ ليضلوا عن سبيلك ﴾ .

ثم الانتقال إلى الدعاء بسلب ما أوتوه .

فاقتران الخبر بحرف (إنّ) في قوله : ﴿ إنَّك آتيت فرعون ﴾ الخ مقصود به الاهتمام بهذا المعنى الذي استعمل فيه الخبر إذ ليس المقام مقام دفع تردد أو دفع إنكار .

وقد تردد المفسرون في محل اللام في قوله : ﴿ ليضلوا عن سبيلك ﴾ .

والذي سلكه أهل التدقيق منهم أن اللام لام العاقبة .

(171/368)

ونُقل ذلك عن نحاة البصرة : الخليل وسيبويه ، والأخفش ، وأصحابهما ، على نحو اللام في قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ [القصص : 8] فاللام الموضوعة للتعليل مستعارة لمعنى الترتب والتعقيب الموضوع له فاء التعقيب على طريقة الاستعارة التبعية في متعلق معنى الحرف فشبه ترتب الشيء على شيء آخر ليس علةً فيه بترتب المعلول على العلة للمبالغة في قوة الترتب حتى صار كأنه مقصود لمن ظهر عنده أثره ، فالمعنى : إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً فضلوا بذلك وأضلوا .

وللمفسرين وجوه خمسة أخرى:

أحدها : أن يكون للتعليل ، وأن المعنى : إنك فعلت ذلك استدراجاً لهم ، ونسب إلى الفراء ، وفسر به الطبري .

الثاني : أن الكلام على حذف حرف ، والتقدير : لئَلا يضلوا عن سبيلك أي فضلُّوا . حكاه الفخر .

الثالث : أن اللام لام الدعاء .

روي هذا عن الحسن .

واقتصر عليه في "الكشاف" .

وقاله ابن الأنباري .

وهو أبعد الوجوه وأثقلها .

الرابع : أن يكون على حذف همزة الاستفهام .

والتقدير : أليضلوا عن سبيلك آتيناهم زينة وأموالاً تقريراً للشنعة عليهم ، قاله ابن عطية .

ويكون الاستفهام مستعملاً في التعجب ، قاله الفخر .

الخامس : تأويل معنى الضلال بأنه الهلاك ، قاله الفخر .

وهي وجوه ضعيفة متفاوتة الضعف فلا نطيل بتقريرها .

والزينة : ما يتزين به الناس ، وما يحسن في أنظارهم من طرائف الدنيا ، كالحلي والجواهر والمباني الضخمة .

قال تعالى : ﴿ زيِّن للناس حب الشهوات ﴾ [آل عمران : 14] وقال : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 46] وقال : ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ [النحل : 6] .

والأموال : ما به قوام المعاش ، فالزينة تلهيهم عن اتباع المواعظ ، وتعظّم شأنهم في أنظار قومهم ، والأموال يسخِّرون بها الرعيَّة لطاعتهم ، وقد كان للفراعنة من سعة الرزق ورفاعية العيش ما سار ذكره في الآفاق .

(172/368)

وظهرت مُثل منه في أهرامهم ونواويسهم .

وأعيد النداء بين الجملة المعلِّلة والجملة المعلَّلة لتأكيد التذلل والتعرض للإجابة ولإظهار التبرؤ من قَصد الاعتراض .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، ويعقوب ﴿ ليَضلوا ﴾ بفتح الياء .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي بضم الياء على معنى سعيهم في تضليل الناس .

والمعنى الحاصل من القراءتين متحد لأنهم إذا ضَلوا في أنفسهم وهم قادة قومهم كان ضلالهم تضليلاً لغيرهم ، وكذلك إذا أضلوا الناس فإنهم ما أضلوهم إلا وهم ضالون مثلهم .

وقد علمت آنفاً أن الزينة سبب ضلالهم والأموال سبب إضلال الناس .

وأعيد النداء ثالثَ مرة ؛ لزيادة تأكيد التوجه والتضرع .

وجملة : ﴿ اطمس على أموالهم ﴾ هي المقصود من هذا الكلام ، والنداء يقوم مقام وصل الجملة بما قبلها بمنزلة حرف العطف .

والطمْس : المَحْو والإزالة .

وقد تقدم في قوله : ﴿ من قبل أن نَطْمس وجوهاً ﴾ في سورة [النساء : 47] .

وفعله يتعدى بنفسه كما في آية سورة النساء ، ويُعدى بحرف (على) كما هنا .

وقوله تعالى : ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ﴾ في سورة [يس : 66] .

ولعل تعديته بـ (على) لإرادة تمكن الفعل من المفعول ، أو لتضمين الطمس معنى الاعتلاء بآلة المحو والإزالة ، فطمس الأموال إتلافها وإهلاكها .

وأما قوله : واشدد ﴾ فأحسب أنه مشتق من الشد ، وهو العسر .

ومنه الشدة للمصيبة والتحرج ، ولو أريد غير ذلك لقيل : واطبع ، أو واختم ، أو نحوهما ، فيكون شدّ بمعنى أدخل الشدّ أو استعمله مثل جَد في كلامه ، أي استعمَل الجد .

وحرف (على) مستعار لمعنى الظرفية استعارة تبعية لإفادة تمكن الشدة .

والمعنى : أدخل الشدة في قلوبهم .

والقلوب : النفوس والعقول .

والمعنى : أنه يدعو عليهم بالأنكاد والأحزان التي تجعل قلوبهم في ضيق وحرج أي اجعلهم في عناء وبلبلة بال ما داموا في الكفر .

(173/368)

وهذا حرص منه عليه السلام على وسائل هدايتهم رجاء أنهم إذا زالت عنهم النعم وضاقت صدورهم بكروب الحياة تفكروا في سبب ذلك ، فعجّلوا بالتّوبة إلى الله كما هو

معتاد النفوس الغافلة قال تعالى : ﴿ وإذا مسّ الإنسان ضر دعا ربَّه منيباً إليه ﴾ [الزمر : 8] .

ويجوز أن يكون ﴿ اشدد ﴾ من الشد ، وهو الهجوم .

يقال : شد عليه ، إذا هجم ، وذلك أن قلوبهم في حالة النعمة والدعة آمنة ساكنة فدعا الله أن يشد عليهم بعذابه ، تمثيلاً لحال إصابة نفوسهم بالأكدار والأحزان بحال من يَشُد على عدوّه ليقتله وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وأجْلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ [الإسراء : 64] أي طوّعهم لحكمك وسَخّرهم .

وبهذا يظهر أن موقع الفاء في قوله : ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ أن تكون فاء السببية في جواب الدعاء ، أي افعَلْ بهم ذلك ليؤمنوا .

والفعل منصوب بأن مضمرة إضماراً واجباً بعد فاء السببية .

فقوله : ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب ﴾ في قوة أن يقال : فيؤمنوا حين يرون العذاب لا قَبْل ذلك .

وإنما عدل عن إيقاع جواب الدعاء بصيغة إثبات الإيمان ، إلى إيراده بصيغة نفي مُغيّا بغاية هي رؤية العذاب سلوكاً لأسلوب بديع في نظم الكلام لأنه أراد أن يجمع بين ترتيب الجواب على الدعاء وبين ما استبان له من طبع نفوسهم بطبع أنهم لا تنفع فيهم الحجج وأن قساوة قلوبهم وشراسة نفوسهم لا تذللها إلا الآلام الجسدية والنفسانية ، وكل ذلك علاجٌ بما هو

مظنة إيصالهم من طرق الضغط والشدة حيث لم تُجْد فيهم وسائل الحجة ، فقال : ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ أي أن شأنهم ذلك ، وهذا إيجاز بديع إذ جمع في هذا التركيب جواب الدعاء وبيانَ علة الدعاء عليهم بذلك .

وأصل الكلام : فيؤمنوا فإنهم لا يؤمنون إلا إذا رأوا العذاب الأليم .

والمقصود من جواب فعل الدعاء هو غاية الجواب التي بعد حتى ، فتلك هي مصب الجواب .

(174/368)

وهذا الوجه في تفسير الآية وجه لا ترهقه غبرة الإشكال ، ولا يعسر معه المنال ، ويجوز أن يكون قوله : ﴿ فلا يومنوا ﴾ الخ عطفاً على قوله : ﴿ ليضلوا عن سبيلك ﴾ وجملة الدعاء بينهما معترضة .

والمعنى : ليضلوا عن سبيلك فيستمر ضلالهم حتى يروا العذاب الأليم .

وهذا تأويل المبرد والزجاج .

والمراد بالعذاب الأليم عذاب الفقر والجوع وعذاب النكد في النفس .

والرؤية مستعملة في الإحساس على وجه المجاز المرسل ، أو مستعملة كناية عن حلول

العذاب بهم لأن المشاهدة ملازمة لحلول الشيء المشاهد .

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (89) ﴾

جواب من الله لكلام موسى جرى على طريقة حكاية المحاورات أنْ لا تعطف جملها كما تقدم غير مرة .

وافتتاح الجملة بـ ﴿ قد ﴾ والفعل الماضي يفيد تحقيق الحصول في المستقبل ، فشبه بالمضي .

وأضيفت الدعوة إلى ضمير التثنية المخاطب به موسى وهارون وإن كانت الدعوة إنما حكيت عن موسى عليه السلام وحدَه لأن موسى عليه السلام دعا لما كان هارون مواطئاً له وقائلاً بمثله لأن دعوتهما واحدة .

وقيل : كان موسى عليه السلام يدعو وهارون عليه السلام يؤمّن .

ومعنى إجابة الدعوة إعطاء ما سأله موسى ربّه أن يسلب عن فرعون وملئه النعم ، ويواليَ عليهم المصائب حتى يسأموا مقاومةَ دعوة موسى وتنحطّ غلواؤهم ، قال تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنينَ ونقصٍ من الثمرات لعلهم يذّكرون ﴾ [الأعراف : 130] وقال : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ﴾ [الأعراف : 133] .

وفرع على إجابة دعوتهما أمرهما بالاستقامة ، فعلم أن الاستقامة شكر على الكرامة فإن

إجابة الله دعوة عبده إحسانٌ للعبد وإكرام وتلك نعمة عظيمة تستحق الشكر عليها وأعظم الشكر طاعة المنعم .

(175/368)

وإذ قد كان موسى وهارون مستقيمين ، وناهيك باستقامة النبوءة كان أمرهما بالاستقامة مستعملاً في الأمر بالدوام عليها .

وأعقب حثهما على الاستقامة بالنهي عن اتباع طريق الذين لا يعلمون وإن كان ذلك مشمولاً للاستقامة تنبيهاً على توخي السلامة من العدول عن طريق الحق اهتماماً بالتحذير من الفساد .

والاستقامة : حقيقتها الاعتدال ، وهي ضد الاعوجاج ، وهي مستعملة كثيراً في معنى ملازمة الحق والرشد ، لأنه شاع تشبيه الضلال والفساد بالاعوجاج والالتواء .

وقيل للحق : طريق مستقيم .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] ، فكان أمرهما بالاستقامة جامعاً لجميع خصال الخير والصلاح .

وفي حديث أبي عَمْرَةَ الثقفي قال : قلت : يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه

أحداً غيرك .

قال : قل : آمنت بالله ثم استقم .

ومن الاستقامة أن يستمرا على الدعوة إلى الدين ولا يضجرا .

والسبيل : الطريق ، وهو هنا مستعمل للسيرة والعمل الغالب .

وقوله : ﴿ ولا تتبعان ﴾ قرأه الجمهور بتشديد النون مكسورة .

وهما نونان : إحداهما نون المثنى والأخرى نون التوكيد .

وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر ﴿ ولا تتبعان ﴾ بنون خفيفة مكسورة .

وهي نون رفع المثنى لا نون التوكيد ، فتعين أن تكون (لا) على هاته القراءة نافية غير ناهية ، والجملة في موضع الحال والواو واو الحال ، لأن جملة الحال المضارعة المفتتحة بحرف نفي يجوز اقترانها بالواو وعدمُه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(176/368)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾

والزينة : هي الأمر الزائد عن ضروريات الحياة ومقوماتها الأولى ، فاستبقاء الحياة يكون بالمأكل لأي غذاء يسدُّ الجوع ، وبالمشرب الذي يروي العطش .

أما إن كان الطعام منوّعاً فهذا من ترف الحياة ، ومن ترف الحياة الملابس التي لا تستر العورة فقط ، بل بالزي الذي يتميز بجودة النسج والتصميم والتفصيل .

وكذلك من ترف الحياة المكان الذي ينام فيه الإنسان ، بحيث يتم تأثيثه بفاخر الرياش ، ولكن الضرورة في النوم يكفي فيها مكان على الأرض ، وأي فراش يقي من برودة الأرض أو حرارتها .

إذن : فالزائد عن الضرورات هو زينة الحياة ، والزينة تأتي من الأموال ، والرصيد الأصيل في الأموال هو الذهب ، ثم تأخذ الفضة المرتبة الثانية .

ومن مقومات الاقتصاد أن الذهب يعتبر قيمة الرصيد لغنى أية دولة ، مهما اكتشفوا من أحجار أغلى من الذهب .

وهذه الأحجار الكريمة كالماس مثلاً إن كُسِرت أو خُدِشت تقل قيمتها ، لكن الذهب مهما تفتَّت فأنت تعيد صَهْرَه ، فتستخلَص ذهباً مُجمَّعاً .

وكان الفراعنة الأقدمون يحكمون مصر حتى منابع النيل ، وكانوا يسخِّرون الناس في كل الأعمال ، وحتى استخراج الذهب سواء من المناجم أو من غربلة رمال بعض الجبال لاستخلاص الذهب منها .

وأنت قد تستطيع استخلاص الذهب من أماكن معينة ، ولكن الفرق دائماً إنما يكون في القيمة الاقتصادية لاستخراج الذهب ، فحين يكون المنجم وفير العطاء ، فيه كثير من عروق الذهب ، هنا يصبح استخراج الذهب مسألة مريحة اقتصادياً .

أما إن كانت التكلفة أعلى من القيمة الاقتصادية للذهب المستخرج ، فلا أحد يستخرج هذا الذهب .

(177/368)

وأنت إن نظرت إلى زينة الفراعنة تجد قناع " توت عنخ آمون " آية في الجمال ، وكذلك كانت قصورهم في قمة الرفاهية ، ويكفي أن ترى الألوان التي صنعت منها دهانات الحوائط في تلك الأيام ؛ لتعرف دقة الصنعة ومدى الترف ، الذي هو أكثر بكثير من الضرورات .

وفي هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ موسى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحياة الدنيا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ [يونس : 88] .

وهم لم يَضِلُّوا فقط بل أرادوا أن يُضِلّوا غيرهم ؛ لذلك تحملوا وِزْر ضلالهم ، ووزر إضلال غيرهم .

فهل أعطاهم الله سبحانه المال والزينة للضلال والإضلال ؟

لا ، فليس ذلك علة العطاء ، ولكن هناك لام العاقبة ، مثلما تعطي أنت إبنك عشرة جنيهات وتقول له : افعل بها ما تريد ، وأرجو أن تتصرف فيها تصرفاً يعود عليك بالخير .

وقد ينزل هذا الابن ليشتري شيئاً غير مفيد ولا يشتري مثلاً كتباً تفيده .

هنا أنت أعطيت هذا الابن قوة شرائية لكنه لم يحسن التصرف فيها ، وغاية الاختيار هَدَتْه إلى اللعب . وهذا ما يسمى لام العاقبة ، ولام العاقبة لا يكون المقصود بها سبب الفعل ، ولكنها تأتي لبيان عاقبة الفعل .

وحين أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينجي موسى عليه السلام ، في طفولته من القتل أوحى إلى أم موسى عليهما السلام بقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ [القصص : 7] .

ولا توجد أم تُقبل على تنفيذ مثل هذا الأمر ؛ لأنه موت محقق ؛ لأن الابن إن خُطف أو فُقِد فهذا كله موت مظنون ، أما إلقاؤه في الماء فليس فيه موت مظنون ، بل موت مؤكد ، إن لم يُنجِّه الله تعالى .

ولكن أم موسى لإيمانها بالله فعلت ما أوحى به الله سبحانه وتعالى لها ؛ لأن الوارد من الله تعالى لا يجد في الفطرة منازعاً له .

أما نزغات الشيطان فهي تجد ألف منازع لها في النفس ، وكذلك هواجس النفس .

ولذلك نفَّذت أم موسى ما أوحى الله تعالى به إليها ، وإن كان مخالفاً للعقل والمنطق .

وحين التقطه آل فرعون ، وقد كانوا يقتلون الأطفال ، وألقى الحق سبحانه وتعالى محبة موسى في قلوبهم ، قال :

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه : 39] .

فهم ساعة رؤيتهم لموسى عليه السلام وهو طفل ، أحبُّوه فلم يقتلوه ، وهكذا نفذت مشيئة الله تعالى ووعده لأمه :

﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين ﴾ [القصص : 7] .

أي : أن لموسى عليه السلام مهمة مسبقة أرادها له الحق سبحانه .

ولذلك نجد أن هناك أوامر متتابعة جاء بها القرآن الكريم في مسألة إلقاء أم موسى لابنها ، فقال الحق سبحانه :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلى أُمِّكَ مَا يوحى * أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل ﴾ [طه : 3839] .

وكلها أوامر من الحق سبحانه ، فتراه زوجة فرعون فتقول لزوجها :

﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ [القصص : 9] .

فهل كان فرعون يعلم أن هذا الطفل الذي التقطه سيكون عدوّاً له ؟

لا ، لقد التقطه وأعطاه حياة الترف ؛ ليكون قُرَّة عين له ، وهذه علة الالتقاط ، ولكن العاقبة انتهت إلى أن يكون عدوّاً ؛ ولو كانت العلة هي العداوة لما التقطه فرعون أو لقتله لحظة الالتقاط .

ولذلك يترك الحق سبحانه وتعالى في كونه أشياء تكسر مكر البشر ؛ فأخذه فرعون وربَّاه ، وكانت العاقبة غير ما كان يتوقع فرعون .

وقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصددها : ﴿ لِيُضِلُّواْ ﴾ نفهم منه أن سبحانه وتعالى لم يُعْطِهم المال ليضلوا ، ولكنهم هم الذين اختاروا الضلال .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى الكثير من الناس مالاً وجاهاً وأرادوا به الخير ، وهكذا نرى اختيار الإنسان ، إن له أن يضل أو يهتدي .

وقد قال موسى عليه السلام تنفيساً عن نفسه :

(179/368)

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحياة الدنيا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ ﴾ [يونس : 88] .

ومعنى الطمس أي : إخفاء المعالم ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا على أَدْبَارِهَآ ﴾ [النساء : 47] .

ومعنى الطمس هنا : إخفاء معالم تلك الوجوه ؛ فتكون قطعة واحدة بلا جبهة أو حواجب أو عينين أو أنف أو شفاه أو ذقن .

إذن : فالطمس هو إهلاك الصورة التي بها الشيء . ودعوة موسى عليه السلام هنا :

﴿ اطمس على أَمْوَالِهِمْ ﴾ [يونس : 88] .

أي : امسخها .

وقال بعض الرواة أنها مُسخت ، فمن كان يملك بعضاً من سبائك الذهب وجدها حجارة ، ومن كان يملك أحجاراً كريمة كالماس وجدها زجاجاً .

أو أن ﴿ اطمس على أَمْوَالِهِمْ ﴾ [يونس : 88] .

أي : أذهبهما ؛ لأن الأموال كانت وسيلة إضلال .

وقوله عليه السلام بعد ذلك :

﴿ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ [يونس : 88] .

أي : أحْكِمْ يا رب الأربطة على تلك القلوب ؛ فلا يخرج ما فيها من كفر ، ولا يَدخل ما هو خارجها من الإيمان ؛ لأن هؤلاء قد افتروا افتراءً عظيماً ، وأن تظل الأربطة على قلوبهم ؛ حتى يروا العذاب الأليم .

ولماذا دعا موسى عليه السلام على آل فرعون هذا الدعاء ، ولم يَدْعُ مثلما دعا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : " اللهم اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون "

والإجابة : لا بد أن الحق سبحانه وتعالى قد أطلعه على أن هؤلاء قوم لن تفلح فيهم دعوة الإيمان .

وكان خوف موسى عليه السلام لا من ضلال قوم فرعون ، ولكن من استمرار إضلالهم لغيرهم .

إذن : فقد دعا عليهم موسى عليه السلام بما جاء في هذه الآية :

(180/368)

﴿ رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ [يونس : 88] .

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ [غافر : 85] .

وهكذا يتبين لنا الفارق بين إيمان الإلجاء والقصر وبين إيمان الاختيار .

فحين يأتي الرسول داعياً إلى الإيمان يصبح من حق السامع لدعوته أن يؤمن أو أن يكفر ؛ لأن

الله تعالى قد خلق الإنسان وله حق الأختيار ، أما إيمان الإلجاء والقصر فهو لاينفع الإنسان

.

ومثال ذلك : فرعون ، فساعة أن جاءه العذاب أعلن الإيمان . فالحق سبحانه وتعالى يقول

:

﴿ حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ [يونس : 90] .

وإذا كان موسى عليه السلام قد دعا على قوم فرعون ، فقد سبقه نوح عليه السلام في مثل هذا الدعاء مما أورده القرآن في قوله :

﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يلدوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح : 2627] .

واستجاب الحق سبحانه لدعوة موسى عليه السلام . ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا فاستقيما ﴾

ويلاحظ أن الذي دعا هو موسى عليه السلام ، ولكن قوله سبحانه : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس : 89] يدل على أن هارون عليه السلام ، قد دعا مع موسى .

وقد قلنا من قبل : إننا إن نظرنا إلى الإصالة في الرسالة لوجدنا موسى عليه السلام هو

الأصيل فيها ، وجاء هارون ليشد عضده ، وإن نظرنا إلى طبيعة الاثنين فكل منهما رسول ، والاثنان لهما رسالة واحدة .

(181/368)

وما دام الحق سبحانه قد ارسل الاثنين لمهمة واحدة ، فإن انفعل واحد منهما لشيء فلا بد أن ينفعل الآخر لنفس الشيء ؛ لذلك فلا يوجد ما يمنع أن هارون ساعة سمع أخاه داعياً بمثل هذا الدعاء ، قد دعا هو أيضاً بالدعاء نفسه ، أو أنه أي : هارون قد دعا بهذا الدعاء سِرّاً .

والدعاء معناه : أنك تفزع إلى من يقدر على تحقيق ما لا تقدر عليه ، فأنت لا تدعو إلا في أمر عَزَّتْ عليك أسبابه ؛ فتقول : إن لي ربّاً أومن به ، وهو يقدر على الأسباب لأنه خالق الأسباب ، وقادر على أن يعطى بلا أسباب ، والمؤمن الحق يستقبل الأحداث ، لا بأسبابه ، ولكن بقدرة مَنْ آمن به ، وهو المسبِّب الأعلى سبحانه .

ولذلك تجد موسى عليه السلام ومعه قومه حين وصلوا إلى شاطىء البحر ، وكان من خلفهم قوم فرعون يطاردونهم ، فقال قوم موسى :

﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : 61] .

فَرَدَّ موسى عليه السلام :

﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62] .

أي : لا ترتّبوا الأمر بترتيب البشر ؛ لأن معي رب البشر ، فجاءه الإنقاذ :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلى موسى أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾

[الشعراء : 63] .

إذن : فالدعاء إنما يكون فزعاً إلى من يقدر على أمر لا تقدر عليه .

والموضوع الذي كان يشغل موسى وهارون عليهما السلام هو بقاء آل فرعون على ضلالهم وإصرارهم على إضلال غيرهم ، فلا بد أن يدعو كل منهما نفس الدعاء ، ومثل هذا نجده في غير الرسل ونسميه " التخاطر " ، أي : التقاء الخواطر في لحظة واحدة .

(182/368)

ومثال ذلك في التاريخ الإسلامي ، لحظة أن كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مشغولاً بالتفكير في جيش المسلمين المقاتل في إحدى المعارك ، وكان عمر في المدينة يخطب على المنبر ، فإذا به يقول فجأة : " يا سارية الجبل " وهي كلمة لا موضع لها في منطق الخطبة ، ولكن كان فكره مشغولاً بالقائد الذي يحارب ، وسمع القائد وهو على البعد ، الأمر ؛

فانحاز إلى الجبل .

ويقال في هذه المسألة : إن الخاطر قد شغل مع الخاطر ، مثلما تطلب أحداً في الهاتف فيرد عليك الشخص الذي تريد الكلام معه قائلاً : لقد كنت على وشك أن أتصل بك هاتفيّاً ، وهذا يعني أن الخاطرين قد انضبطا معاً .

وإذا كان هذا ما يحدث في حياتنا العادية ، فما بالنا بما يحدث في الأمور الصفائية ؛ وفي أرقى درجاتها وهي النبوة ؟

أو أن الذي دعا هو موسى وما كان هارون إلا مؤمّناً ، والمؤمّن هو أحد الداعيين ، وما دام الحق سبحانه قد قَبِل دعوة موسى عليه السلام ، فقد قَبِل أيضاً دعوة المؤمّن معه .

ويظن بعض الناس أن إجابة الدعوة هي تحقيق المطلوب فور الدعاء ، ولكن الحقيقة أن إجابة الدعوة هي موافقة على الطلب ، أما ميعاد إنجاز الطلب ، فقد يتأجل بعض الوقت ، مثلما حدث مع دعوة موسى عليه السلام على فرعون وملئه ، فحين دعا موسى ، وأمّن هارون ، جاءت إجابة الدعاء : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس : 89] بعد أربعين عاماً ، ويحقق الله سبحانه الطمس على المال .

فالسماء ليست موظفة عند من يدعو ، وتقبل أي دعاء ، ولكن قبول الدعوة يقتضي تحديد الميعاد الذي تنفذ فيه .

وهذه أمور من مشيئة الله سبحانه ؛ فالحق سبحانه وتعالى منزّه عن أن يكون منفِّذاً لدعاء

ما ، ولكنه هو الذي بيده مقاليد كل أمر ، فإذا ما أجيبت دعوة ما ، فهو سبحانه بمشيئته يضع تنفيذ الدعوة في الميعاد الملائم ؛ لأنها لو أجيبت على الفور فقد تضر .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

(183/368)

﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ [الإسراء : 11] .

لذلك يحدد الحق سبحانه ميعاد تطبيق الدعوة في مجال التنفيذ والواقع .

وهو سبحانه وتعالى يقول :

﴿ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء : 37] .

والإنسان يعرف أنه قد يكون قد دعا بأشياء ، فحقق الله سبحانه الدعاء وكان شرّاً ، وكم من شيء يدعو به الإنسان ولم يحققه الله تعالى وكان عدم تحقيقه خيراً .

إذنك فالقدرة العليا رقيبة علينا ، وتعلم ما في صالحنا ؛ لأننا لسنا آلهة تأمر بتنفيذ الدعوات ، بل فوقنا الحكيم الأعلى سبحانه :

ولذلك نقول في بيان قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهِ لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس : 11] .

لأن الإنسان قد يدعو بالشر على نفسه ، ألا تسمع أمّاً تدعو على ابنها أو ابنتها رغم حبها لهما ، فلو استجاب الله لدعائها على أولادها الذين تحبهم أليس في ذلك شر بالنسبة للأم .

والولد قد يقول لأمه مغاضباً : يا رب تحدث لي حادثة ؛ حتى تستريحي مني . فهَبْ أن الله استجاب لهذا الدعاء ، أيرضي ذلك من دعا على نفسه أو يرضي أمه ؟

طبعاً لا ؛ فإذا كان الله سبحانه قد أبطأ عليك بدعاء الشر فهذا خير لك ، فعليك أن تأخذ إبطاء الله سبحانه عليك بدعاء الخير على أنه خير لك .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام :

﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا فاستقيما وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : 89]

.

(184/368)

أي : ابقيا على الطريق السوي ، ولا تُدْخِلا نفسيكما فيما لا علم لكما به . أليس الحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق وَأَنتَ أَحْكَمُ الحاكمين * قَالَ يا نوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِني أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ [هود : 4546] .

أي : كُنْ مؤدَّباً مع ربك حين تدعو وتنفِّس عن نفسك ، ودَعْ لحكمة الحكيم الإجابة أو عدمها ، وقد تكون الإجابة فورية أو مؤجَّلة إلى حين أوانها ، وكلاهما خير . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(185/368)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ يقول : دمر على أموالهم وأهلكها ﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ قال : إطبع ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ وهو الغرق .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه قال : سألني عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن قوله ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ فأخبرته أن الله طمس على أموال فرعون وآل فرعون حتى صارت حجارة . فقال عمر :

كما أنت حتى آتيك . فدعا بكيس مختوم ففكه فإذا فيه الفضة مقطوعة كأنها الحجارة ، والدنانير والدراهم وأشباه ذلك من الأموال حجارة كلها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ اطمس على أموالهم ﴾ قال : أهلكها ﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ قال : بالضلالة ﴿ فلا يؤمنوا ﴾ بالله فيما يرون من الآيات ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ قال : بلغنا أن زروعهم وأموالهم تحوّلت حجارة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ قال : صارت دنانيرهم ودراهمهم ونحاسهم وحديدهم حجارة منقوشة ﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ يقول : أهلكهم كفاراً .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي العالية رضي الله عنه في قوله ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ قال : صارت حجارة .

وأخرج أبو الشيخ عن القرظي رضي الله عنه في قوله ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ قال : اجعل سكرهم حجارة .

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (89) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قد أجيبت دعوتكما . قال : فاستجاب ربه له وحال بين فرعون وبين الإيمان .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان موسى عليه السلام إذا دعا أمن هرون على دعائه يقول : آمين . قال أبو هريرة رضي الله عنه : وهو اسم من أسماء الله تعالى ، فذلك قوله ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾ قال : دعا موسى عليه السلام وأمن هرون .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة رضي الله عنه قال : كان موسى عليه السلام يدعو ويؤمن هرون عليه السلام ، فذلك قوله ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه قال : كان موسى يدعو وهرون يؤمن ، والداعي والمؤمن شريكان .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : دعا موسى وأمن هرون .

وأخرج ابن جرير عن أبي صالح وأبي العالية والربيع مثله .

أخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه قال : كان هرون عليه السلام يقول : آمين . فقال

الله ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾ فصار التأمين دعوة صار شريكه فيها .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : يزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج . مثله .

وأخرج الحكيم الترمذي عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ قال قد أجيبت دعوتكما ﴾ قال : بعد أربعين سنة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنه ﴿ فاستقيما ﴾ فامضيا لأمري وهي الاستقامة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(187/368)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيُضِلُّواْ ﴾ : في هذه اللامِ ثلاثةُ أوجه ، أحدها : أنها لامُ العلة ، والمعنى :

أنك أتيتَهم ما أتيتهم على سبيل الاستدراج فكان الإِيتاءُ لهذه العلة . والثاني : أنها لام الصيرورة والعاقبة كقوله : ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص : 8] . وقولِه :

2622 لِدُوا للموت وابنُوا للخراب . . . . . .

وقولِه :

2623 فللموتِ تَغْذو الوالداتُ سِخالَها . . . كما لخرابِ الدُّوْرِ تُبْنَى المساكنُ

وقوله :

2624 وللمنايا تُرَبِّي كلُّ مُرْضِعَةٍ . . . وللخرابِ يَجِدُّ الناسُ عِمْرانا

والثالث : أنها للدعاء عليهم بذلك ، كأنه قال : ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال وليكونوا ضُلاَّلاً ، وإليه ذهب الحسن البصري وبدأ به الزمخشري . وقد استُبْعِد هذا التأويلُ بقراءة الكوفيين " لِيُضِلُّوا " بضم الياء فإنه يَبْعُد أن يَدْعُوَ عليهم بأن يُضِلُّوا غيرهم ، وقرأ الباقون بفتحها ، وقرأ الشعبي بكسرها ، فوالى بين ثلاث كسَرات إحداها في ياء . وقرأ [أبو] الفضل الرياشي " أإنك أَتَيْتَ " على الاستفهام . وقال الجبائي : إنَّ " لا " مقدرةٌ بين اللام والفعل تقديره : لئلا يَضِلوا " ، ورأيُ البصريين في مثل هذا تقديرُ " كراهةَ " أي : كراهة أن يَضِلُّوا .

قوله : ﴿ فَلاَ يُؤْمِنُواْ ﴾ يحتمل النصبَ والجزم ، فالنصب من وجهين ، أحدُهما : عطفُه على " ليضلُّوا " . والثاني : نصبه على جواب الدعاء في قوله " اطمِسْ " . والجزم على أنَّ " لا " للدعاء كقولك : " لا تعذِّبْني يا رب " وهو قريبٌ من معنى " ليُضلوا " في كونِه دعاءً ، هذا في جانب شبه النهي ، وذلك في جانب شبه الأمر ، و " حتى يَرَوا " غايةٌ لنفي إيمانهم ، والأول قول الأخفش ، والثاني بدأ به الزمخشري ، والثالث قول الكسائي والفراء ، وأنشد قولَ الشاعر :

2625 فلا يَنْبَسِطْ من بين عينِك ما انزوى . . . ولا تَلْقَني إلا وأنفُكَ راغِمُ

وعلى القول بأنه معطوفٌ على " ليَضِلُّوا " يكون ما بينهما اعتراضاً .

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (89) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا ﴾ : الضمير لموسى وهرون ، وفي التفسير : كان موسى يدعو وهرون يُؤَمِّن ، فنسب الدعاء إليهما . وقال بعضُهم : المرادُ موسى وحدَه ، ولكن كنى عن الواحد بضمير الاثنين . وقرأ السلميُّ والضحاك " دَعَواتكما " على/الجمع . وقرأ ابن السَّمَيْفَع " قد أَجَبْتُ دعوتكما " بتاء المتكلم وهو الباري تعالى ، و " دعوتَكما " نصب على المفعول به . وقرأ الربيع " أَجَبْتُ دَعْوَتَيْكما " بتاء المتكلم أيضاً . ودَعْوَتَيْكما تثنيةٌ ، وهي تدلُّ لمن قال : إن هرون شارك موسى في الدعاء .

(189/368)

قوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعَآنِّ ﴾ قرأ العامة بتشديد التاء والنون ، وقرأ حفص بتخفيف النونِ مكسورةً مع تشديد التاء وتخفيفها ، وللقُرَّاء في ذلك كلامٌ مضطربٌ بالنسبة للنقل عنه . فأمَّا قراءةُ العامَّة ف " لا " فيها للنهي ولذلك أَكَّد الفعلَ بعدها ، ويَضْعُف أن تكونَ نافيةً لأنَّ تأكيدَ المنفيِّ ضعيفٌ ، ولا ضرورة بنا إلى ادِّعائه ، وإن كان بعضُهم قد ادعى ذلك في قولِه : ﴿ لَّا تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ ﴾ [الأنفال : 25] لضرورةٍ دَعَتْ إلى ذلك هناك ، وقد تقدَّم تحريرُه ودليلُه في موضعه ، وعلى الصحيح تكون هذه جملةَ نهيٍ معطوفةً على جملة أمر .

(190/368)

وأمَّا قراءة حفص ف " لا " تحتمل أن تكون للنفي وأن تكونَ للنهي . فإن كانت للنفي كانت النونُ نونَ رفعٍ ، والجملةُ حينئذٍ فيها أوجه ، أحدُها : أنها في موضع الحال أي : فاستقيما غيرَ مُتَّبِعَيْنِ ، إلا أنَّ هذا معترَض بما قَدَّمْتُه غيرَ مرة مِنْ أنَّ المضارع المنفي ب " لا " كالمثبت

في كونِه لا تباشره واوُ الحال ، إلا أنْ يُقدَّر قبلَه مبتدأ فتكونَ الجملةُ اسميةً أي : وأنتما لا تَتَّبعان . والثاني : أنه نفيٌ في معنى النهي كقولِه تعالى : ﴿ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ ﴾ [البقرة : 83] . الثالث : أنه خبرٌ محضٌ مستأنف لا تَعَلُّقَ له بما قبله ، والمعنى : أنهما أُخْبِرا بأنهما لا يتَّبعانِ سبيل الذين لا يعلمون ، وإن كانت للنهي كانت النونُ للتوكيد ، وهي الخفيفة ، وهذا لا يَراه سيبويه والكسائي ، أعني وقوعَ النونِ الخفيفة بعد الألف ، سواءً كانت الألفُ ألفَ تثنية أو ألفَ فصلٍ بين نونِ الإناث ونونِ التوكيد نحو : " هل تَضْرِبْنان يا نسوة " . وقد أجاز يونس والفراء وقوعَ الخفيفةِ بعد الألف وعلى قولِهما تتخرَّج القراءةُ . وقيل : أصلُها التشديد وإنما خُفِّفت للثقل فيها كقولهم : " رُبَ " في " رُبَّ " . وأمَّا تشديدُ التاء وتخفيفُها فلغتان مِن اتَّبع يَتَّبع وتَبع يَتْبَع ، وقد تقدم هل هما بمعنى واحد أو مختلفان في المعنى ؟ وملخصُه أنَّ تَبِعه بشيءٍ : خَلَفه ، واتَّبَعَه كذلك ، إلا أنه حاذاه في المَشْي ، وأَتْبعه : لحقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 259 . 262 ﴾

(191/368)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾

لما يَئِس من إجابتهم حين دعاهم إلى الله دعا عليهم بإنزال السُّخْطَة وإذاقة الفرقة . ومن المعلوم أنّ الأنبياء – عليهم السلام – مِنْ حقهم العصمة ، فإذا دعا موسى عليهم بمثل هذه الجملة لم يكن ذلك إلا بإذن من قِبَل الله تعالى في الحقيقة .

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (89) ﴾

الاستقامةُ في الدعاء تَرْكُ الاستعجال في حصول المقصود ، ولا يَسْقُطُ الاستعجالُ من القلب إلا بوجدان السكينة فيه ، ولا تكون تلك السكينة إلا بِحُسْن الرضاء بجميع ما يبدو من الغيب .

ويقال ينبغي للعبد أن يستقلَّ بالله ما أمكنه فعند هذا يقلُّ دعاؤه . ثم إذا دعاه بإشارة من الغيب – في جوازه – فالواجب ألا يستعجل ، وأن يكون ساكِنَ الجأشِ .

ويقال من شرط الدعاء صِدْقُ الافتقار في الابتداء ، ثم حُسْنُ الانتظار في الانتهاء ، وكمال هذا الرضا بجريان الأقدار بما يبدو من المسار والمضار .

ويقال الاستقامة في الدعاء سقوط التقاضي على الغيب والخمود عن الاستعجال بحسن الثقة وجميل الظن .

ويقال في الآية تنبيهٌ على أنَّ للأمورِ آجالاً معلومة ، فإذا جاء الوقت فلا تأخير للمقسوم في الوقت المعلوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 113 ﴾

(192/368)

قوله تعالى ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أمر بالتأني الذي هو نتيجة العلم ، عطف على ذلك الإخبار بالاستجابة قوله :

﴿ وجاوزنا ﴾ أي فعلنا بعظمتنا في إجازتهم فعل المناظر للآخر المباري له ، ودل بإلصاق الباء بهم على مصاحبته سبحانه لهم دلالة على رضاه بفعلهم فقال : ﴿ ببني إسرائيل ﴾ أي عبدنا المخلص لنا ﴿ البحر ﴾ إعلاماً بأنه أمرهم بالخروج من مصر وأنجز لهم ما وعد فأهلك فرعون وملأه باتباعهم سبيل من لا يعلم بطيشهم وعدم صبرهم ، ونجى بني

إسرائيل بصبرهم وخضوعهم ؛ والالتفات من الغيبة إلى التكلم لما في هذه المجاوزة ومقدماتها ولواحقها من مظاهر العظمة ونفوذ الأوامر ومضاء الأحكام ؛ وبين سبحانه كيفية إظهار استجابة الدعوة بقوله مسبباً عن المجاوزة : ﴿ فأتبعهم ﴾ أي بني إسرائيل ﴿ فرعون وجنوده ﴾ أي أوقعوا تبعهم أي حملوا نفوسهم على تبعهم ، وهو السير في أثرهم ، واتبعه – إذا سبقه فلحقه ، ويقال : تبعه في الخير واتبعه في الشر .

(193/368)

ولما أفهم ذلك ، صرح به فقال : ﴿ بغياً ﴾ أي تعدياً للحق واستهانة بهم ﴿ وعدواً ﴾ أي ظلماً وتجاوزاً للحد .

ولما كان فاعل ذلك جديراً بأن يرجع عما سلكه من الوعورة ، عجب منه في تماديه فقال – عاطفاً على ما تقديره : واستمر يتمادى في ذلك – : ﴿ حتى ﴾ ولما كانت رؤية انفراج البحر عن مواضع سيرهم مظنة تحقق رجوع الماء إلى مواضعه فيغرق ، عبر بأداة التحقق فقال : ﴿ إذا أدركه ﴾ أي قهره وأحاط به ﴿ الغرق ﴾ أي الموت بالماء كما سأل موسى في أنه لا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم ﴿ قال آمنت ﴾ أي أوقعت إيمان الداعي لي من التكذيب ؛ ثم علل إيمانه بقوله مبدلاً من ﴿ آمنت ﴾ في قراءة حمزة والكسائي بالكسر

مؤكداً من شدة الجزع : ﴿ أنه ﴾ وعلى تقدير الباء تعليلاً في قراءة الجماعة أي معترفاً بأنه ﴿ لا إله إلا الذي ﴾ ويجوز أن يكون أوقع ﴿ آمنت ﴾ على ﴿ أنه ﴾ وما بعدها - أي ﴿ آمنت ﴾ نفي الإلهية عن كل شيء غير من استثنيه من أن أعبره أو أرجع عنه .

(194/368)

ولما كان قد تحقق الهالك وعلم أنه لا نجاة إلا بالصدق ، اراد الإعلام بغاية صدقه فقال : ﴿ آمنت ﴾ أي أوقعت التصديق معترفة ﴿ به بنو إسراءيل ﴾ فعينه تعييناً أزال الاحتمال ؛ ثم قال : ﴿ وأنا من المسلمين ﴾ فكرر قبول ما كان دعي إليه فأباه استكباراً ، وعبر بما دل على ادعاء الرسوخ فيه بياناً لأنه ذل ذلاً لم يبق معه شيء من ذلك الكبر ولم ينفعه ذلك لفوات شرطه ، فاتصل ذله ذلك بذل الخزي في البرزخ وما بعده ، وقد كانت المرة الواحدة كافية له عند وجود الشرط ، وزاده تعالى ذلاً بالإيئاس من الفلاح بقوله على لسان الحال أو جبريل عليه السلام أو ملك الموت أو غيره من الجنود عليهم السلام : ﴿ آلآن ﴾ أي أتجيب إلى ما دعيت إليه في هذا الحين الذي لا ينفع فيه الإجابة لفوات الإيمان بالغيب الذي لا يصح أن يقع اسم الإيمان إلا عليه ﴿ وقد ﴾ أي والحال أنك قد ﴿ عصيت ﴾ أي بالكفر ﴿ قبل ﴾ أي في جميع زمان الدعوة الذي قبل هذا الوقت ، ومعصية الملك توجب

الأخذ والغضب كيف كانت ، فكيف وهي بالكفر ! ﴿ وكنت ﴾ أي كوناً جبلياً ﴿ من المفسدين ﴾ أي العريقين في الفساد والإفساد ؛ ثم أكده – بدل شماتة الأعداء به الذين كانوا عنده أقل شيء وأحقره – بقوله مسبباً عما تضمنه ذلك الإنكار من الإذلال بالإهلاك إشارة إلى أن الماء أحاط به وصار يرتفع قليلاً قليلاً حتى امتد زمن التوبيخ : ﴿ فاليوم ننجيك ﴾ أي تنجية عظيمة .

(195/368)

ولما كان ذلك ساراً وكانت المساءة بما يفهم السرور إنكاء ، قال دالاً على أن ذلك يعد نزع روحه : ﴿ ببدنك ﴾ أي من غير روح وهو كامل لم ينقص منه شيء حتى لا يدخل في معرفتك لبس ﴿ لتكون ﴾ أي كوناً هو في غاية الثبات ﴿ لمن خلفك ﴾ أي يتأخر عنك في الحياة من بني إسرائيل وغيرهم ﴿ آية ﴾ في أنك عبد ضعيف حقير ، لست برب فضلاً عن أن تكون أعلى ويعرفوا أن من عصى الملك أخذ وأن كان أقوى الناس وأكثرهم جنوداً ، وقد ادعى بعض الملحدين إيمانه بهذه الآية إرادة لما يعيذ الله منه من حل العقد الواجب من أن فرعون من أكفر الكفرة بإجماع أهل الملل ليهون للناس الاجتراء على المعاصي ، وادعى أنه لا نص في القرآن على أنه من أهل النار وضل عن الصرائح التي في القرآن في ذلك في غير

موضع وعن أن قوله تعالى :

﴿ وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين ﴾ [يونس : 83] مع قوله تعالى : ﴿ وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ [غافر : 43] قياس قطعي الدلالة بديهي النص على أنه من أهل النار ، والآية - كما ترى - دليل على قوله : ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ﴾ - الآية ، لو كان فرعون مثل قريش ، فكيف ولا نسبة لهم منه في شدة الاستكبار التابعة لكثرة الجموع ونفوذ الكلمة بضخامة الملك وعز السلطان والقوة بالأموال والأعوان ، وقد وري أن جبريل عليه السلام كان أتاه بفتيا في عبد نشأ في نعمة سيده فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه ، فكتب فرعون جزاء العبد الخارج عن طاعة سيده الكافر نعماءه أن يغرق في البحر ، فلما ألجمه الغرق ناوله جبريل عليه السلام خطه فعرفه .

(196/368)

ولما لم يعمل فرعون وآله بمقتضى ما رأوا من الآيات ، كان حكمهم حكم الغافلين عنها ، فكان التقدير : ولقد غفلوا عما جاءهم من الآيات ﴿ وإن كثيراً ﴾ أكده لأن مثله ينبغي - لبعده عن الصواب - أن لا يصدق أن أحداً يقع فيه ﴿ من الناس ﴾ أي وهم من لم يصل إلى حد أول أسنان أهل الإيمان لما عندهم من النوس - وهو الاضطراب - والأنس بأنفسهم

﴿ عن آياتنا ﴾ أي على ما لها من العظمة ﴿ لغافلون ﴾ والإصلاح : تقويم العمل على ما ينفع بدلاً مما يضر ؛ وإحقاق الحق : إظهاره وتمكينه بالدلائل الواضحة حتى يرجع الطاعن عنه حسيراً والمناصب له مفلولاً ؛ والإسراف : الإبعاد في مجاوزة الحق ؛ والفتنة : البلية ، وهي معاملة تظهر الأمور الباطنة ؛ والنجاة : الخلاص مما فيه المخافة ، ونظيرها السلامة ، وعلقوا النجاة بالرحمة لأنها إنعام على المحتاج بما تطلع إليه النفوس العباد ، فهو على أوكد ما يكون من الدعاء إلى الصلاح ؛ والوحي : إلقاء المعنى إلى النفس في خفاء ، والإيحاء والإيماء والإشارة نظائر ، ولا يجوز أن تطلق الصفة بالوحي إلا لنبي ؛ وتبوأ : اتخذ ، وأصله الرجوع ، فالمتبوأ : المنزل ، لأنه يرجع إليه للمقام فيه : والطمس : محو الأثر فهو تغير إلى الدثور والدروس ؛ والإجابة : موافقة الدعوة فيما طلب بها لوقوعها على تلك الصفة ؛ والدعوة : طلب الفعل بصيغة الأمر ، وقد تكون بالماضي ؛ والمجاوزة : الخروج عن الحد من إحدى الجهات ؛ والبحر : مستقر الماء الواسع بحيث لا يدرك طرفيه من كان في وسطه ، وهو مأخوذ من الاتساع ؛ والاتباع : اللحاق بالأول ؛ والبغي : طلب الاستعلاء بغير حق ؛ والآن : فصل الزمانين الماضي والمستقبل ، ومع أنه إشارة إلى الحاضر ، ولهذا بنى كما بنى " ذا " ؛ والبدن : مسكن روح الحيوان على صورته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 480.477 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾

اعلم أن تفسير اللفظ في قوله : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إسرائيل البحر ﴾ [الأعراف : 138] مذكور في سورة الأعراف ، والمعنى : أنه تعالى لما أجاب دعاءهما أمر بني إسرائيل بالخروج من مصر في الوقت المعلوم ويسر لهم أسبابه ، وفرعون كان غافلاً عن ذلك ، فلما سمع أنهم خرجوا وعزموا على مفارقة مملكته خرج على عقبهم وقوله : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ ﴾ أي لحقهم يقال : أتبعه حتى لحقه ، وقوله : ﴿ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ البغي طلب الاستعلاء بغير حق ، والعدو الظلم ، روي أن موسى عليه السلام لما خرج مع قومه وصلوا إلى طرف البحر وقرب فرعون مع عسكره منهم ، فوقعوا في خوف شديد ، لأنهم صاروا بين بحر مغرق وجند مهلك ، فأنعم الله عليهم بأن أظهر لهم طريقاً في البحر على ما ذكر الله تعالى هذه القصة بتمامها في سائر السور ، ثم إن موسى عليه السلام مع أصحابه دخلوا وخرجوا وأبقى الله تعالى ذلك الطريق يبساً ، ليطمع فرعون وجوده في التمكن من العبور ، فلما دخل مع جمعه أغرقه الله تعالى بأن أوصل أجزاء الماء ببعضها وأزال الفلق ، فهو معنى قوله : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ﴾ وبين ما كان في قلوبهم من البغي وهي محبة الإفراط في قتلهم وظلمهم ، والعدو

وهو تجاوز الحد ، ثم ذكر تعالى أنه لما أدركه الغرق أظهر كلمة الإخلاص ظناً منه أنه ينجيه من تلك الآفة ، وههنا سؤالان :

السؤال الأول : أن الإنسان إذا وقع في الغرق لا يمكنه أن يتلفظ بهذا اللفظ فكيف حكى الله تعالى عنه أنه ذكر ذلك ؟

(198/368)

والجواب : من وجهين : الأول : أن مذهبنا أن الكلام الحقيقي هو كلام النفس لا كلام اللسان ، فهو إنما ذكر هذا الكلام بالنفس ، لا بكلام اللسان ، ويمكن أن يستدل بهذه الآية على إثبات كلام النفس لأنه تعالى حكى عنه أنه قال هذا الكلام ، وثبت بالدليل أنه ما قاله باللسان ، فوجب الاعتراف بثبوت كلام غير كلام اللسان وهو المطلوب .

الثاني : أن يكون المراد من الغرق مقدماته .

السؤال الثاني : أنه آمن ثلاث مرات أولها قوله : ﴿ ءامَنتُ ﴾ وثانيها قوله : ﴿ لا إله إلاَّ الذى ءامَنَتْ بِهِ بَنواْ إسرائيل ﴾ وثالثها قوله : ﴿ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ فما السبب في عدم القبول والله تعالى متعال عن أن يلحقه غيظ وحقد حتى يقال : إنه لأجل ذلك الحقد لم يقبل منه هذا الإقرار ؟

والجواب : العلماء ذكروا فيه وجوهاً :

الوجه الأول : أنه إنما آمن عند نزول العذاب ، والإيمان في هذا الوقت غير مقبول ، لأن عند نزول العذاب يصير الحال وقت الإلجاء ، وفي هذا الحال لا تكون التوبة مقبولة ، ولهذا السبب قال تعالى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ [غافر : 85] .

الوجه الثاني : هو أنه إنما ذكر هذه الكلمة ليتوسل بها إلى دفع تلك البلية الحاضرة والمحنة الناجزة ، فما كان مقصوده من هذه الكلمة الإقرار بوحدانية الله تعالى ، والاعتراف بعزة الربوبية وذلة العبودية ، وعلى هذا التقدير فما كان ذكر هذه الكلمة مقروناً بالإخلاص ، فلهذا السبب ما كان مقبولاً .

(199/368)

الوجه الثالث : هو أن ذلك الإقرار كان مبنياً على محض التقليد ، ألا ترى أنه قال : ﴿ لا إله إِلاَّ الذى ءامَنَتْ بِهِ بَنوا إسرائيل ﴾ فكأنه اعترف بأنه لا يعرف الله ، إلا أنه سمع من بني إسرائيل أن للعالم إلهاً ، فهو أقر بذلك الإله الذي سمع من بني إسرائيل أنهم أقروا بوجوده ، فكان هذا محض التقليد ، فلهذا السبب لم تصر الكلمة مقبولة منه ، ومزيد التحقيق فيه أن فرعون على ما بيناه في سورة طه كان من الدهرية ، وكان من المنكرين لوجود الصانع تعالى ،

ومثل هذا الاعتقاد الفاحش لا تزول ظلمته ، إلا بنور الحجج القطعية ، والدلائل اليقينية ، وأما بالتقليد المحض فهو لا يفيد ، لأنه يكون ضماً لظلمة التقليد إلى ظلمة الجهل السابق .

الوجه الرابع : رأيت في بعض الكتب أن بعض أقوام من بني إسرائيل لما جاوزوا البحر اشتغلوا بعبادة العجل ، فلما قال فرعون ﴿ آمنتُ أَنَّهُ لا إله إلاَّ الذى آمنتْ بِهِ بَنواْ إسرائيل ﴾ انصرف ذلك إلى العجل الذي آمنوا بعبادته في ذلك الوقت ، فكانت هذه الكلمة في حقه سبباً لزيادة الكفر .

الوجه الخامس : أن اليهود كانت قلوبهم مائلة إلى التشبيه والتجسيم ولهذا السبب اشتغلوا بعبادة العجل لظنهم أنه تعالى حل في جسد ذلك العجل ونزل فيه ، فلما كان الأمر كذلك وقال فرعون ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾ فكأنه آمن بالإله الموصوف بالجسمية والحلول والنزول ، وكل من اعتقد ذلك كان كافراً فلهذا السبب ما صح إيمان فرعون .

الوجه السادس : لعل الإيمان إنما كان يتم بالإقرار بوحدانية الله تعالى ، والإقرار بنبوة موسى عليه السلام .

فههنا لما أقر فرعون بالوحدانية ولم يقر بالنبوة لا جرم لم يصح إيمانه .

ونظيره أن الواحد من الكفار لو قال ألف مرة أشهد أن لا إله إلا الله فإنه لا يصح إيمان إلا إذا قال معه وأشهد أن محمداً رسول الله ، فكذا ههنا .

الوجه السابع : روى صاحب "الكشاف" أن جبريل عليه السلام أتى فرعون بفتيا فيها ما قول الأمير في عبد نشأ في مال مولاه ونعمته ، فكفر نعمته وجحد حقه ، وادعى السيادة دونه ، فكتب فرعون فيها يقول أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر بنعمته أن يغرق في البحر ، ثم إن فرعون لما غرق رفع جبريل عليه السلام فتياه إليه .

أما قوله تعالى : ﴿ ءالْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين ﴾ ففيه سؤالات :

السؤال الأول : من القائل له ﴿ ءالْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ .

الجواب : الأخبار دالة على أن قائل هذا القول هو جبريل ، وإنما ذكر قوله : ﴿ وَكُنتَ مِنَ المفسدين ﴾ في مقابلة قوله : ﴿ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ ومن الناس من قال : إن قائل هذا القول هو الله تعالى ، لأنه ذكر بعده ﴿ فاليوم نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ وهذا الكلام ليس إلا كلام الله تعالى .

السؤال الثاني : ظاهر اللفظ يدل على أنه إنما لم تقبل توبته للمعصية المتقدمة والفساد السابق ، وصحة هذا التعليل لا تمنع من قبول التوبة .

والجواب : مذهب أصحابنا أن قبول التوبة غير واجب عقلاً ، وأحد دلائلهم على صحة ذلك هذه الآية .

وأيضاً فالتعليل ما وقع بمجرد المعصية السابقة ، بل بتلك المعصية مع كونه من المفسدين .

السؤال الثالث : هل يصح أن جبريل عليه السلام أخذ يملأ فمه من الطين لئلا يتوب غضباً عليه .

(201/368)

والجواب : الأقرب أنه لا يصح ، لأن في تلك الحالة إما أن يقال التكليف كان ثابتاً أو ما كان ثابتاً ، فإن كان ثابتاً لم يجز على جبريل عليه السلام أن يمنعه من التوبة ، بل يجب عليه أن يعينه على التوبة وعلى كل طاعة ، لقوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى البر والتقوى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإثم والعدوان ﴾ [المائدة : 2] وأيضاً فلو منعه بما ذكروه لكانت التوبة ممكنة ، لأن الأخرس قد يتوب بأن يندم بقلبه ويعزم على ترك معاودة القبيح ، وحينئذ لا يبقى لما فعله جبريل عليه السلام فائدة ، وأيضاً لو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقائه على الكفر ، والرضا بالكفر كفر ، وأيضاً فكيف يليق بالله تعالى أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ [طه : 44] ثم يأمر جبريل عليه السلام بأن

يمنعه من الإيمان ، ولو قيل : إن جبريل عليه السلام إنما فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله تعالى ، فهذا يبطله قول جبريل ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم : 64] وقوله تعالى في صفتهم : ﴿ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : 28] وقوله : ﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 27] وأما إن قيل : إن التكليف كان زائلاً عن فرعون في ذلك الوقت ، فحينئذ لا يبقى لهذا الفعل الذي نسب جبريل إليه فائدة أصلاً .

ثم قال تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ وفيه وجوه : الأول : ﴿ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أي نلقيك بنجوة من الأرض وهي المكان المرتفع .

الثاني : نخرجك من البحر ونخلصك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ، ولكن بعد أن تغرق .

وقوله : ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ في موضع الحال ، أي في الحال التي أنت فيه حينئذ لا روح فيك .

الثالث : أن هذا وعد له بالنجاة على سبيل التهكم ، كما في قوله : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

[آل عمران : 21] كأنه قيل له ننجيك لكن هذه النجاة إنما تحصل لبدنك لا لروحك ، ومثل هذا الكلام قد يذكر على سبيل الاستهزاء كما يقال : نعتقك ولكن بعد الموت ، ونخلصك من السجن ولكن بعد أن تموت .

الرابع : قرأ بعضهم ﴿ نُنَجّيكَ ﴾ بالحاء المهملة ، أي نلقيك بناحية مما يلي البحر ، وذلك أنه طرح بعد الغرق بجانب من جوانب البحر .

قال كعب : رماه الماء إلى الساحل كأنه ثور .

وأما قوله : ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ ففيه وجوه : الأول : ما ذكرنا أنه في موضع الحال ، أي في الحال التي كنت بدناً محضاً من غير روح .

الثاني : المراد ننجيك ببدنك كاملاً سوياً لم تتغير .

الثالث : ﴿ نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أي نخرجك من البحر عرياناً من غير لباس .

الرابع : ﴿ نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أي بدرعك ، قال الليث : البدن هو الدرع الذي يكون قصير الكمين ، فقوله : ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ أي بدرعك ، وهذا منقول عن ابن عباس قال : كان عليه درع من ذهب يعرف بها ، فأخرجه الله من الماء مع ذلك الدرع ليعرف .

أقول : إن صح هذا فقد كان ذلك معجزة لموسى عليه السلام .

وأما قوله : ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ ففيه وجوه : الأول : أن قوماً ممن اعتقدوا فيه الإلهية لما لم يشاهدوا غرقه كذبوا بذلك وزعموا أن مثله لا يموت ، فأظهر الله تعالى أمره بأن

أخرجه من الماء بصورته حتى شاهدوه وزالت الشبهة عن قلوبهم .

وقيل كان مطرحه على ممر بني إسرائيل .

الثاني : لا يبعد أنه تعالى أراد أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة بعد ما سمعوا منه قوله ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] ليكون ذلك زجراً للخلق عن مثل طريقته ، ويعرفوا أنه كان بالأمس في نهاية الجلالة والعظمة ثم آل أمره إلى ما يرون .

الثالث : قرأ بعضهم ﴿ لِمَنْ خَلَقَكَ ﴾ بالقاف أي لتكون لخالقك آية كسائر آياته .

(203/368)

الرابع : أنه تعالى لما أغرقه مع جميع قومه ثم إنه تعالى ما أخرج أحداً منهم من قعر البحر ، بل خصه بالإخراج كان تخصيصه بهذه الحالة العجيبة دالاً على كمال قدرة الله تعالى وعلى صدق موسى عليه السلام في دعوى النبوة .

وأما قوله : ﴿ وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ فالأظهر أنه تعالى لما ذكر قصة موسى وفرعون وذكر حال عاقبة فرعون وختم ذلك بهذا الكلام وخاطب به محمداً عليه الصلاة والسلام فيكون ذلك زاجراً لأمته عن الإعراض عن الدلائل ، وباعثاً لهم على التأمل فيها والاعتبار بها ، فإن المقصود من ذكر هذه القصص حصول الاعتبار ، كما قال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الالباب ﴾ [يوسف : 111] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 123.126 ﴾

(204/368)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾

معنى ننجيك نلقيك على نجوة من الأرض ، والنجوة المكان المرتفع وقوله تعالى ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني بجسدك من غير روح ، قاله مجاهد .

الثاني : بدرعك ، وكان له درع من حديد يعرف بها ، قاله أبو صخر ، وكان من تخلف من قوم فرعون ينكر غرقه .

وقرأ يزيد اليزيدي ﴿ نُنَجِّيكَ ﴾ بالحاء غير معجمة وحكاها علقمة عن ابن مسعود . أن يكون على ناحية من البحر حتى يراه بنو إسرائيل ، وكان قصير أحمر كأنه ثور .

﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ يعني لمن بعدك عبرة وموعظة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾

قرأ الحسن بن أبي الحسن " وجوّزنا " بشد الواو ، وطرح الألف ، ويشبه عندي أن يكون " جاوزنا " كتب في بعض المصاحف بغير ألف ، وتقدم القول في صورة جوازهم في البقرة والأعراف ، وقرأ جمهور الناس " فأتبعهم " لأنه يقال تبع وأتبع بمعنى واحد ، وقرأ قتادة والحسن " فاتّبعهم " بشد التاء ، قال أبو حاتم : القراءة " أتبع " بقطع الألف لأنها تتضمن الإدراك ، و" اتّبع " بشد التاء هي طلب الأثر سواء أدرك أو لم يدرك ، وروي أن بني إسرائيل الذين جاوزوا البحر كانوا ستمائة ألف ، وكان يعقوب قد استقر أولاً بمصر في نيف على السبعين ألفاً من ذريته فتناسلوا حتى بلغوا وقت موسى العدد المذكور ، وروي أن فرعون كان في ثمانمائة ألف أدهم حاشى ما يناسبها من ألوان الخيل ، وروي أقل من هذه الأعداد .

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله ضعيف ، والذي تقتضيه ألفاظ القرآن أن بني اسرائيل كان لهم جمع كثير في نفسه قليل بالإضافة إلى قوم فرعون المتبعين ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والكوفيون وجماعة ﴿ عدواً ﴾ على مثال غزا غزاً ، وقرأ الحسن وقتادة " غزواً " على مثال علا علواً ، وقوله ﴿ أدركه الغرق ﴾ أي في البحر ، وروي في ذلك أن فرعون لما انتهى إلى البحر فوجده قد انفرق ومشى فيه بنو إسرائيل ، قال لقومه إنما انفلق بأمري وكان على فرس ذكر فبعث الله جبريل على فرس أنثى وديق فدخل بها البحر ولج فرس فرعون وراءه وحثت الجيوش خلفه فلما رأى الانفراق يثبت له استمر ، وبعث ميكائيل يسوق الناس حتى حصل جميعهم في البحر ، فانطبق عليهم حينئذ ، فلما عاين فرعون قال ما حكى عنه في هذه الآية ، قرأ الجمهور الناس " أنه " بفتح الألف ، ويحتمل أن تكون في موضع نصب ، ويحتمل أن تكون في موضع خفض على إسقاط الباء ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو " إنه " بكسر الألف ، إما على إضمار الفعل أي آمنت فقلت إنه ، وإما على أن يتم الكلام في قوله ﴿ آمنت ﴾ ثم يتبدىء إيجاب " إنه " وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن جبريل عليه السلام قال ما أبغضت أحداً بغضي لفرعون ، ولقد سمعته يقول ﴿ آمنت ﴾ الآية ، فأخذت من حال البحر فملأت فمه مخافة أن تلحقه رحمة الله " وفي بعض الطرق : " مخافة أن يقول لا إله إلا الله فتلحقه الرحمة " .

قال القاضي أبو محمد : فانظر إلى كلام فرعون ففيه مجهلة وتلعثم ، ولا عذر لأحد في جهل هذا وإنما العذر فيما لا سبيل إلى علمه كقول علي رضي الله عنه ، " أهللت بإهلال كإهلال النبي صلى الله عليه وسلم " ، والحال الطين ، كذا في الغريب المصنف وغيره ، والأثر بهذا كثير مختلف اللفظ والمعنى واحد ، وفعل جبريل عليه السلام هذا يشبه أن يكون لأنه اعتقد تجويز المغفرة للتائب وإن عاين ولم يكن عنده قبل إعلام من الله تعالى أن التوبة بعد المعاينة غير نافعة ، وقوله تعالى ﴿ الآن وقد عصيت ﴾ الآية ، قال أبو علي : اعلم أن لام المعرفة إذا دخلت على كلمة أولها الهمزة فخففت الهمزة فإن في تخفيفها وجهين : أحدهما أن تحذف وتلقى حركتها على اللام وتقر همزة الوصل فيه فيقال الحمر وقد حكى ذلك سيبويه ، وحكى أبو عثمان عن أبي الحسن أن ناساً يقولون لحمر فيحذفون الهمزة التي للوصل فمن ذلك قول الشاعر : [الطويل]

وقد كنت تخفي حب سمراء حقبة . . . فبح لان منها بالذي أنت بائح

قرأ نافع في رواية ورش لم يختلف عنه " الآن " بمد الهمزة وفتح اللام ، وقرأ الباقون بمد الهمزة وسكون اللام وهمز الثانية ، وقرأت فرقة " الآن " بقصر الهمزة وفتح اللام وتخفيف الثانية وقرأ جمهور الناس " ألْأن " بقصر الأولى وسكون اللام وهمز الثانية .

قال القاضي أبو محمد : وقراءات التخفيف في الهمزة تترتب على ما قال أبو علي فتأمله ، فإن الأولى على لغة من يقول الحمر ، وهذا على جهة التوبيخ له والإعلان بالنقمة منه ، وهذا اللفظ يحتمل أن يكون مسموعاً لفرعون من قول ملك موصل عن الله وكيف شاء الله ، ويحتمل أن كون معنى هذا الكلام معنى حاله وصورة خزيه ، وهذه الآية نص في رد توبة المعاين ، وقوله تعالى ﴿ فاليوم ننجيك ﴾ الآية ، يقوي ما ذكرناه من أنها صورة الحال لأن هذه الألفاظ إنما قيلت بعد فرقة ، وسبب هذه المقالة على ما روي أن بني إسرائيل بعد عندهم غرق فرعون وهلاكه لعظمه عندهم ، وكذب بعضهم أن يكون فرعون يموت فنجي على نجوة من الأرض حتى رآه جميعهم ميتاً كأنه ثور أحمر ، وتحققوا غرقه ، وقرأت فرقة " فاليوم ننجيك " وقالت فرقة معناه من النجاة أي من غمرات البحر والماء ، وقال جماعة معناه نلقيك على نجوة من الأرض وهي ما ارتفع منها ، ومنه قول أوس بن حجر : [البسيط]

فمن بعقوته كمن بنجوته . . . والمستكن كمن يمشي بقرواح

وقرأ يعقوب " ننْجِيك " بسكون النون وتخفيف الجيم ، وقرأ أبي بن كعب " ننحّيك " بالحاء

المشددة من التنحية ، وهي قراءة محمد بن السميفع اليماني ويزيد البريدي ، وقالت فرقة : معنى ﴿ ببدنك ﴾ بدرعك ، وقالت فرقة معناه بشخصك وقرأت فرقة " بندائك " أي بقولك ﴿ آمنت ﴾ الخ الآية ، ويشبه أن يكتب بندائك بغير ألف في بعض المصاحف ، ومعنى الآية أنا نجعلك آية مع ندائك الذي لا ينفع ، وقرأت فرقة هي الجمهور " خلفك " أي من أتى بعدك ، وقرأت فرقة " خلقك " المعنى يجعلك الله آية له في عباده ، ثم بيّن عز وجل العظة لعباده بقوله ﴿ وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ وهذا خبر في ضمنه توعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(209/368)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا ببني إِسْرَائِيلَ البحر ﴾

تقدّم القول فيه في "البقرة" في قوله : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر ﴾ [البقرة : 50] .

وقرأ الحسن "وجوّزنا" وهما لغتان .

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ﴾ يقال : تبِع وأتبع بمعنًى واحد ، إذا لحقه وأدركه .

واتبع (بالتشديد) إذا سار خلفه .

وقال الأصمعي : أتبعه (بقطع الألف) إذا لحقه وأدركه ، واتبعه (بوصل الألف) إذا اتبع أثره ، أدركه أو لم يدركه .

وكذلك قال أبو زيد .

وقرأ قتادة "فاتبعهم" بوصل الألف .

وقيل : "اتبعه" (بوصل الألف) في الأمر اقتدى به .

وأتبعه (بقطع الألف) خيراً أو شراً ؛ هذا قول أبي عمرو .

وقد قيل هما بمعنًى واحد .

فخرج موسى ببني إسرائيل وهم ستمائة ألف وعشرون ألفاً ، وتبعه فرعون مُصْبِحاً في ألفي ألف وستمائة ألف .

وقد تقدّم .

﴿ بَغْياً ﴾ نصب على الحال .

﴿ وَعَدْواً ﴾ معطوف عليه ؛ أي في حال بَغْيٍ واعتداء وظلم ؛ يقال : عدا يعدو عَدْواً ؛ مثل غزا يغزو غزْواً .

وقرأ الحسن "وعُدوّا" بضم العين والدال وتشديد الواو ؛ مثل عُلا يعلو عُلُوّاً .

وقال المفسرون : "بغياً" طلباً للاستعلاء بغير حق في القول ، "وعدواً" في الفعل ؛ فهما نصب على المفعول له .

﴿ حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق ﴾ أي ناله ووصله .

﴿ قَالَ آمَنتُ ﴾ أي صدّقت .

﴿ أَنَّهُ ﴾ أي بأنه .

﴿ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ ﴾ فلما حذف الخافض تعدّى الفعل فنصب .

وقرىء بالكسر ، أي صرت مؤمناً ثم استأنف .

وزعم أبو حاتم أن القول محذوف ، أي آمنت فقلت إنه ، والإيمان لا ينفع حينئذ ؛ والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس ، وأما بعدها وبعد المخالطة فلا تقبل ، حسب ما تقدّم في "النساء" بيانه .

(210/368)

ويقال : إن فرعون هاب دخول البحر وكان على حصان أدهَم ولم يكن في خيل فرعون فرس أُنثى ؛ فجاء جبريل على فرس وَدِيق أي شَهِيّ في صورة هامان وقال له : تقدّم ، ثم خاض البحر فتبعها حصان فرعون ، وميكائيل يسوقهم لا يشذّ منهم أحد ، فلما صار آخرهم في البحر وهَمّ أوّلهم أن يخرج انطبق عليهم البحر ، وألجم فرعونَ الغرقُ فقال : آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل ؛ فدس جبريل في فمه حال البحر ، وروى الترمذي عن ابن عباس أن

النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لما أغرق الله فرعون قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسّه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة " قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

حال البحر : الطين الأسود الذي يكون في أرضه ؛ قاله أهل اللغة .

وعن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه ذكر : " أن جبريل جعل يدسّ في فيّ فرعون الطين خشية أن يقول لا إله إلا الله فيرحمه الله أو خشية أن يرحمه "

قال : هذا حديث حسن غريب صحيح .

وقال عَون بن عبد الله : بلغني أن جبريل قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ما ولد إبليسُ أبغَض إليّ من فرعون ، فإنه لما أدركه الغرق قال : "آمنت" الآية ، فخشيت أن يقولها فيرحم ، فأخذت تربة أو طينة فحشوتها في فيه .

وقيل : إنما فُعل هذا به عقوبة له على عظيم ما كان يأتي .

(211/368)

وقال كعب الأحبار : أمسك الله نيل مصر عن الجَرْي في زمانه ، فقالت له القبط : إن كنت ربنا فأجْرِ لنا الماء ؛ فركب وأمر بجنوده قائداً قائداً وجعلوا يقفون على درجاتهم وقفز

حيث لا يرونه ونزل عن دابته ولبس ثياباً له أُخرى وسجد وتضرّع لله تعالى فأجرى الله له الماء ، فأتاه جبريل وهو وحده في هيئة مُسْتَفْتٍ وقال : ما يقول الأمير في رجل له عبد قد نشأ في نعمته لا سند له غيره ، فكفر نعمه وجحد حقّه وادعى السيادة دونه ؛ فكتب فرعون ؛ يقول أبو العباس الوليد بن مصعب بن الرّيان جزاؤه أن يغرّق في البحر ؛ فأخذه جبريل ومرّ فلما أدركه الغرق ناوله جبريل عليه السلام خطّه .

وقد مضى هذا في "البقرة" عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس مسنداً ؛ وكان هذا في يوم عاشوراء على ما تقدّم بيانه في "البقرة" أيضاً فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ أي من الموحدين المستسلمين بالانقياد والطاعة .

﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) ﴾

قيل : هو من قول الله تعالى .

وقيل : هو من قول جبريل .

وقيل : ميكائيل ، صلوات الله عليهما ، أو غيرهما من الملائكة له صلوات الله عليهم .

وقيل : هو من قول فرعون في نفسه ، ولم يكن ثَمّ قول باللسان بل وقع ذلك في قلبه فقال في نفسه ما قال : حيث لم تنفعه الندامة ؛ ونظيره .

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله ﴾ [الإنسان : 9] أثنى عليهم الرب بما في ضميرهم لا أنهم قالوا ذلك بلفظهم ، والكلام الحقيقي كلام القلب .

قوله تعالى : ﴿ فاليوم نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾

أي نلْقيك على نَجْوة من الأرض .

وذلك أن بني إسرائيل لم يصدّقوا أن فرعون غَرِق ، وقالوا : هو أعظم شأناً من ذلك ، فألقاه الله على نَجْوة من الأرض ، أي مكان مرتفع من البحر حتى شاهدوه .

قال أوس بن حَجَر يصف مطراً :

فَمن بعَقْوَته كمن بنَجْوَته . . .

والْمُسْتَكِنّ كمنْ يَمْشِي بِقِرْواحِ

(212/368)

وقرأ اليزيديّ وابن السَّمَيْقَع "ننحّيك" بالحاء من التنحية ، وحكاها علقمة عن ابن مسعود ؛ أي تكون على ناحية من البحر .

قال ابن جريج : فرمى به على ساحل البحر حتى رآه بنو إسرائيل ، وكان قصيراً أحمر كأنه ثور .

وحكى علقمة عن عبد الله أنه قرأ "بندائك" من النداء .

قال أبو بكر الأنباريّ : وليس بمخالف لهجاء مصحفنا ، إذ سبيله أن يكتب بياء وكاف

بعد الدال ؛ لأن الألف تسقط من ندائك في ترتيب خط المصحف كما سقط من الظلمات والسموات ، فإذا وقع بها الحذف استوى هجاء بدنك وندائك ، على أن هذه القراءة مرغوب عنها لشذوذها وخلافها ما عليه عامّة المسلمين ؛ والقراءة سُنّة يأخذها آخر عن أوّل ، وفي معناها نقص عن تأويل قراءتنا ، إذ ليس فيها للدرع ذكر ، الذي تتابعت الآثار بأن بني إسرائيل اختلفوا في غرق فرعون ، وسألوا الله تعالى أن يريهم إياه غريقاً فألقوه على نَجوة من الأرض ببدنه وهو درعه التي يلبسها في الحروب .

قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي : وكان درعه من لؤلؤ منظوم .

وقيل : من الذهب وكان يعرف بها .

وقيل : من حديد ؛ قاله أبو صخر : والبدن الدرع القصيرة .

وأنشد أبو عبيدة للأعشى :

وبيضاء كالنِّهْي مَوْضُونة . . .

لها قَوْنَسٌ فوق جَيْب البَدَنْ

وأنشد أيضاً لعمرو بن معد يكرب :

ومضى نساؤهُم بكل مُفاضةٍ . . .

جَدْلاَء سابغةٍ وبالأبدان

وقال كعب بن مالك :

ترى الأبدان فيها مسبَغات . . .

على الأبطال واليَلَب الحِصينا

أراد بالأبدان الدروع ، واليلب الدروع اليمانية ، كانت تتخذ من الجلود يخرز بعضها إلى بعض ؛ وهو اسم جنس ، الواحد يلبة .

قال عمرو بن كلثوم :

علينا البيضُ واليَلَبُ اليمانِيّ . . .

وأسيافٌ يَقُمن ويَنْحَنِينا

وقيل : "ببدنك" بجسد لا روح فيه ؛ قاله مجاهد : قال الأخفش : وأما قول من قال بدرعك فليس بشيء .

(213/368)

قال أبو بكر : لأنهم لما ضرعوا إلى الله يسألونه مشاهدة فرعون غريقا أبرزه لهم فرأُوا جسداً لا روح فيه ، فلما رأته بنو إسرائيل قالوا نعم ! يا موسى هذا فرعون وقد غرِق ؛ فخرج الشك من قلوبهم وابتلع البحر فرعون كما كان .

فعلى هذا "نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ" احتمل معنيين : أحدهما نلقيك على نَجْوة من الأرض .

والثاني نظهر جسدك الذي لا روح فيه .

والقراءة الشاذة "بندائك" يرجع معناها إلى معنى قراءة الجماعة ، لأن النداء يفسر تفسيرين ، أحدهما نلقيك بصياحك بكلمة التوبة ، وقولِك بعد أن أغلق بابها ومضى وقت قبولها : "آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِله إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ" على موضع رفيع .

والآخر فاليوم نعزِلك عن غامض البحر بندائك لمّا قلت أنا ربكم الأعلى ؛ فكانت تنجيته بالبدن معاقبةً من رب العالمين له على ما فَرَط من كفره الذي منه نداؤه الذي افترى فيه وبُهت ، وادعى القدرة والأمر الذي يعلم أنه كاذب فيه وعاجز عنه وغير مستحق له .

قال أبو بكر الأنباريّ : فقراءتنا تتضمن ما في القراءة الشاذة من المعاني وتزيد عليها .

قوله تعالى : ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ أي لبني إسرائيل ولمن بقي من قوم فرعون ممن لم يدركه الغرق ولم ينته إليه هذا الخبر .

﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ أي معرضون عن تأمّل آياتنا والتفكر فيها .

وقرىء "لمن خَلَفك" (بفتح اللام) ؛ أي لمن بقي بعدك يخلفك في أرضك .

وقرأ عليّ بن أبي طالب "لمن خلقك" بالقاف ؛ أي تكون آية لخالقك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ﴾

أي : وقطعنا ببني إسرائيل البحر وعبرناهم إياه حتى جاوزوه وعبروه ﴿ فأتبعهم فرعون وجنوده ﴾ يعني لحقهم وأدركهم ﴿ بغياً وعدواً ﴾ أي ظلماً وعدواناً وقيل البغي طلب الاستعلاء بغير حق والعدو الظلم وقيل بغياً في القول وعدواً في الفعل .

قال أهل التفسير : اجتمع يعقوب وبنوه إلى يوسف وهم اثنان وسبعون وخرجوا مع موسى من مصر وهم ستمائة ألف وذلك أنه لما أجاب الله دعاء موسى وهارون أمرهما بالخروج ببني إسرائيل من مصر في الوقت الذي أمرهما أن يخرجا فيه بهم ويسر لهم أسباب الخروج وكان فرعون غافلاً فلما سمع بخروجهم ومفارقتهم مملكته خرج بجنوده في طلبهم فلما أدركهم قالوا لموسى أين المخلص والمخرج البحر أمامنا وفرعون وراءنا وقد كنا نلقى من فرعون البلاء العظيم فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وكشف الله عن وجه الأرض وألبس لهم البحر فلحقهم فرعون وكان على حصان أدهم وكان معه في عسكره ثمانمائة ألف حصان على لون حصانه سوى سائر الألوان وكان مقدمهم جبريل وكان على فرس أنثى وديق وميكائيل بسقوهم حتى لا يشد منهم أحد فلما خرج آخر بني إسرائيل من البحر دنا جبريل

بفرسه فلما وجد الحصان ريح الأنثى لم يملك فرعون من أمره شيئاً فنزل البحر وتبعه جنوده حتى إذا اكتملوا جميعاً في البحر وهمّ أولهم بالخروج التطم البحر عليهم فلما أدرك فرعون الغرق أتى بكلمة الإخلاص ظناً منه أنها تنجيه من الهلاك وهو قوله تعالى : ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال ﴾ يعني فرعون ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ قال ابن عباس : لم يقبل الله إيمانه عند نزول العذاب به وقد كان في مهل .

(215/368)

قال العلماء : إيمانه غير مقبول وذلك أن الإيمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبولين ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ وقيل : إنه قال هذه الكلمة ليتوصل بها إلى دفع ما نزل به من البلية الحاضرة ، ولم يكن قصده بها الإقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف له بالربوبية لا جرم لم ينفعه ما قال في ذلك الوقت .

وقيل : إن فرعون كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع الخالق سبحانه وتعالى : فلهذا قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل فلم ينفعه ذلك لحصول الشك في إيمانه ولما رجع فرعون إلى الإيمان والتوبة حين إغلق بابهما بحضور الموت ومعاينة الملائكة قيل له .

﴿ آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾

يعني الآن تتوب وقد أضعت التوبة في وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية ، والمخاطب لفرعون بهذا هو جبريل عليه السلام وقيل الملائكة .

وقيل : إن القائل لذلك هو الله تعالى عرف فرعون قبح صنعه وما كان عليه من الفساد في الأرض ويدل على هذا القول قوله سبحانه وتعالى فاليوم ننجيك ببدنك ، والقول الأول أشهر ويعضده ما روي عن ابن عباس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " لما أغرق الله فرعون قال آمنت أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل يا محمد فلو رأتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة " أخرجه الترمذي ، وقال حديث حسن .

وفي رواية أخرى عنه عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : ذكر أحدهما عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه ذكر أن جبريل عليه السلام جعل يدس في فيّ فرعون الطين خشية أن يقول لا إله إلا الله فيرحمه الله أو خشية أن يرحمه الله أخرجه الترمذي ، وقال حديث حسن صحيح .

(فصل : في الكلام على هذا الحديث)

(216/368)

لأنه في الظاهر مشكل فيحتاج إلى بيان وإيضاح فنقول قد ورد هذا الحديث على طريقين مختلفين عن ابن عباس ، ففي الطريق الأول عن ابن زيد بن جدعان وهو وإن كان قد ضعفه يحيى بن معين وغيره فإنه كان شيخاً نبيلاً صدوقاً ولكنه كان سيئ الحفظ ويغلط وقد احتمل الناس حديثه وإنما يخشى من حديثه إذا لم يتابع عليه أو خالفه فيه الثقات وكلاهما منتف في هذا الحديث لأن في الطريق الآخر شعبة عن عدي بن ثابت عن سعيد بن جبير وهذا الإسناد على شرط البخاري ، ورواه أيضاً شعبة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير وعطاء بن السائب ثقة قد أخرج له مسلم فهو على شرط مسلم وإن كان عطاء قد تكلم فيه من قبل اختلاطه فإنما يخاف منه ما انفرد به أو خولف فيه وكلاهما منتف فقد علم بهذا أن لهذا الحديث أصلاً وأن رواته ثقات ليس فيهم متهم وإن كان فيهم من هو سيئ الحفظ فقد تابعه عليه غيره .

فإن قلت ففي الحديث الثاني شك في رفعه إنما هو جزم بأن أحد الرجلين رفعه وشك شعبة في تعيينه هل هو عطاء بن السائب أو عدي بن ثابت وكلاهما ثقة فإذا رفعه أحدهما وشك في تعيينه لم يكن هذا علة في الحديث وقوله من حال البحر أي من طين البحر كما في الرواية الأخرى .

(فصل)

ووجه إشكاله ما اعترض به الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره فقال : هل يصح أن جبريل

أخذ يملأ فمه بالطين لئلا يتوب غضباً عليه والجواب الأقرب أنه لا يصح لأن في تلك الحالة ، إما أن يقال : التكليف هل كان ثابتاً أم لا فإن كان ثابتاً لا يجوز لجبريل أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه أن يعينه على التوبة وعلى كل طاعة وإن كان التكليف زائلاً عن فرعون في ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى لهذا الذي نسب إلى جبريل فائدة وأيضاً لو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر وأيضاً فكيف يليق بجلال الله أن يأمر جبريل بأن يمنعه من الإيمان .

(217/368)

ولو قيل : إن جبريل فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله فهذا يبطله قول جبريل وما نتنزل إلا بأمر ربك فهذا وجه الإشكال الذي أورده الإمام على هذا الحديث في كلام أكثر من هذا ، والجواب عن هذا الاعتراض أن الحديث قد ثبت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) فلا اعتراض عليه لأحد .

وأما قول الإمام : إن التكليف هل كان ثابتاً في تلك الحالة أم لا فإن كان ثابتاً لم يجز لجبريل أن يمنعه من التوبة فإن هذا القول لا يستقيم على أصل المثبتين للقدر القائلين بخلق الأفعال لله وأن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وهذا قول أهل السنة المثبتين للقدر ، فإنهم يقولون

إن الله يحول بين الكافر والإيمان ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه قلب أفئدتهم مثل تركهم الإيمان به أول مرة ، وهكذا فعل بفرعون منعه من الإيمان عند الموت جزاء على تركه الإيمان أولاً فدس الطين في فم فرعون من جنس الطبع والختم على القلب ومنع الإيمان وصون الكافر عنه وذلك جزاء على كفره السابق وهذا قول طائفة من المثبتين للقدر القائلين بخلق الأفعال لله .

ومن المنكرين لخلق الأفعال من اعترف أيضاً أن الله سبحانه وتعالى يفعل هذا عقوبة للعبد على كفره السابق فيحسن منه أن يضله ويطبع على قلبه ويمنعه من الإيمان .

فأما قصة جبريل عليه السلام مع فرعون فإنها من هذا الباب فإن غاية ما يقال فيه إن الله سبحانه وتعالى منع فرعون من الإيمان وحال بينه وبينه عقوبة له على كفره السابق ورده للإيمان لما جاءه .

وأما فعل جبريل من دس الطين في فيه فإنما فعل ذلك بأمر الله لا من تلقاء نفسه .

(218/368)

فأما قول الإمام لم يجز لجبريل أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه أن يعينه عليها وعلى كل طاعة هذا إذا كان تكليف جبريل كتكليفنا يجب عليه ما يجب علينا .

وأما إذا كان جبريل إنما يفعل أمره الله به والله سبحانه وتعالى هو الذي منع فرعون من الإيمان وجبريل منفذ لأمر الله فكيف لا يجوز له منع من منعه الله من التوبة وكيف يجب عليه إعانة من لم يعنه الله بل قد حكم عليه وأخبر عنه أنه لا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم حين لا ينفعه الإيمان .

وقد يقال : إن جبريل عليه السلام إما أن يتصرف بأمر الله فلا يفعل إلا ما أمر الله به وإما أن يفعل ما يشاء من تلقاء نفسه لا بأمر الله وعلى هذين التقديرين فلا يجب عليه إعانة فرعون على التوبة ولا يحرم عليه منعه منها لأنه إنما يجب عليه فعل ما أمر به ويحرم عليه فعل ما نهي عنه والله سبحانه وتعالى لم يخبر أنه أمره بإعانة فرعون ولا حرم عليه منعه من التوبة وليست الملائكة مكلفين كتكليفنا .

وقوله وإن كان التكليف زائلاً عن فرعون في ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى هذا الذي نسب إلى جبريل فائدة فجوابه أن يقال إن للناس في تعليل أفعال الله قولين أحدهما أن أفعاله لا تعلل وعلى هذا التقدير فلا يريد هذا السؤال أصلاً وقد زال الإشكال .

(219/368)

والقول الثاني : إن أفعاله تبارك وتعالى لها غاية بحسب المصالح لأجلها فعلها وكذا أوامره ونواهيه لها غاية محمودة محبوبة لأجلها أمر بها ونهى عنها وعلى هذا التقدير قد يقال لما قال فرعون آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وقد علم جبريل أنه ممن حقت عليه كلمة العذاب وأن إيمانه لا ينفعه دس الطين في فيه لتحقق معاينته للموت فلا تكون تلك الكلمة نافعة له وأنه وإن كان قالها في وقت لا ينفعه فدس الطين في فيه تحقيقاً لهذا المنع والفائدة فيه تعجيل ما قد قضي عليه وسد الباب عند سداً محماً بحيث لا يبقى للرحمة فيه منفذ ولا يبقى من عمره زمن يتسع للإيمان فإن موسى عليه السلام لما دعا ربه بأن فرعون لا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم والإيمان عند رؤية العذاب غير نافع أجاب الله دعاءه .

فلما قال فرعون تلك الكلمة عند معاينة الغرق استعجل جبريل فدس الطين في فيه ليأس من الحياة ولا تنفعه تلك الكلمة وتحقق إجابة الدعوة التي وعد الله موسى بقوله قد أجيبت دعوتكما فيكون سعي جبريل في تكميل ما سبق في حكم الله أنه يفعله فيكون سعي جبريل في مرضاة الله سبحانه وتعالى منفذاً لما أمره به وقدره وقضاه على فرعون .

وأما قوله : لو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر ، فجوابه ما تقدم من أن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وجبريل إنما يتصرف بأمر الله ولا يفعل إلا ما أمره الله به وإذا كان جبريل قد فعل ما أمره الله به ونفذه فإنما رضي بالأمر لا

بالمأمور به فأي كفر يكون هنا وأيضاً فإن الرضا بالكفر إنما يكون كفراً في حقنا لأنا مأمورون بإزالته بحسب الإمكان فإذا أقررنا الكافر على كفره ورضينا به كان كفراً في حقنا لمخالفتنا ما أمرنا به .

(220/368)

وأما من ليس مأموراً كأمرنا ولا مكلفاً كتكليفنا بل يفعل ما يأمره به ربه فإنه إذا نفذ ما أمره به لم يكن راضياً بالكفر ولا يكون كفراً في حقه وعلى هذا التقدير فإن جبريل لما دس الطين في في فرعون كان ساخطاً لكفره غير راض به والله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد خيرها وشرها وهو غير راض بالكفر فغاية أمر جبريل مع فرعون أن يكون منفذاً لقضاء الله وقدره في فرعون من الكفر وهو ساخط له غير راض به وقوله كيف يليق بجلال الله أن يأمر جبريل بأن يمنعه من الإيمان فجوابه أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل وأما قوله وإن قيل إن جبريل إنما فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله فجوابه أنه إنما فعل ذلك بأمر الله منفذاً لأمر الله والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك ﴾ أي نلقيك على نجوة من الأرض وهي المكان المرتفع .

قال أهل التفسير : لما أغرق الله سبحانه وتعالى فرعون وقومه أخبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه فقالت بنو إسرائيل ما مات فرعون وإنما قالوا ذلك لعظمته عندهم وما حصل في قلوبهم من الرعب لأجله فأمر الله البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيراً كأنه ثور فرآه بنو إسرائيل فعرفوه فمن ذلك الوقت لا يقبل الماء ميتاً أبداً ، ومعنى قوله ببدنك يعني نلقيك وأنت جسد لا روح فيه وقيل هذا الخطاب على سبيل التهكم والاستهزاء كأنه قيل له ننجيك ولكن هذه النجاة إنما تحصل لبدنك لا لروحك .

(221/368)

وقيل : أراد بالبدن الدرع وكان لفرعون درع من ذهب مرصع بالجواهر ، يعرف به فلما رأوه في درعه ذلك عرفوه ﴿ لتكون لمن خلفك آية ﴾ يعني عبرة وموعظة ، وذلك أنهم ادعوا أن مثل فرعون لا يموت أبداً فأظهره الله لهم حتى يشاهدوه وهو ميت لتزول الشبهة من قلوبهم ويعتبروا به لأنه كان في غاية العظمة فصار إلى نهاية الخسة والذلة ملقى على الأرض لا يهابه أحد ﴿ وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(222/368)

وقال أبو حيان :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾

قرأ الحسن وجوَّزنا بتشديد الواو ، وتقدّم الكلام في الباء في ببني إسرائيل ، وكم كان الذين جازوا مع موسى عليه السلام في سورة الأعراف .

وقرأ الحسن وقتادة فاتبعهم بتشديد التاء .

وقرأ الجمهور : وجاوزنا فاتبعهم رباعياً ، قال الزمخشري : وليس من جوز الذي في بيت الأعشى :

وإذا تجوزها جبال قبيلة . . .

لأنه لو كان منه لكان حقه أن يقال : وجوزنا ببني إسرائيل في البحر كما قال :

كما جوز السبكي في الباب فينق . . .

انتهى

وقال الحوفي : تبع واتبع بمعنى واحد .

وقال الزمخشري : فاتبعهم لحقهم ، يقال : تبعه حتى اتبعه .

وفي اللوامح : تبعه إذا مشى خلفه ، واتبعه كذلك ، إلا أنه حاذاه في المشي واتبعه لحقه ، ومنه العامة يعني : ومنه قراءة العامة فاتبعهم وجنود فرعون قيل : ألف ألف وستمائة

ألف .

وقيل : غير ذلك .

وقرأ الحسن : وعدوا على وزن علو ، وتقدمت في الإنعام .

وعدوا وعدوّا من العدوان ، واتباع فرعون هو في مجاوزة البحر .

روي أن فرعون لما انتهى إلى البحر فوجده قد انفرق ومضى فيه بنو إسرائيل قال لقومه : إنما انفلق بأمري ، وكان على فرس ذكر فبعث الله إليه جبريل عليه السلام على فرس أنثى ، ودنوا فدخل بها البحر ولج فرس فرعون وراءه وجنب الجيوش خلفه ، فلما رأى أنّ الانفراق ثبت له استمر ، وبعث الله ميكائيل عليه السلام يسوق الناس حتى حصل جميعهم في البحر فانطبق عليهم .

وقرأ الجمهور : أنه بفتح الهمزة على حذف الباء .

وقرأ الكسائي وحمزة : بكسرها على الاستئناف ابتداء كلام ، أو بدلاً من آمنت ، أو على إضمار القول أي : قائلاً إنه .

ولما لحقه من الدهش ما لحقه كرر المعنى بثلاث عبارات ، إما على سبيل التلعثم إذ ذلك مقام تحار فيه القلوب ، أو حرصاً على القبول ولم يقبل الله منه إذ فاته وقت القبول وهو حالة الاختيار وبقاء التكليف ، والتوبة بعد المعاينة لا تنفع .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده ﴾ وتقدم الخلاف في قراءة آلآن في قوله : ﴿ آلآن وقد كنتم ﴾ والمعنى : أتؤمن الساعة في حال الاضطرار حين أدركك الغرق وأيست من نفسك ؟ قيل : قال ذلك حين ألجمه الغرق .

وقيل : بعد أنْ غرق في نفسه .

قال الزمخشري : والذي يحكى أنه حين قال : آمنت ، أخذ جبريل من حال البحر فدسه في فيه ، فللغضب في الله تعالى على حال الكافر في وقت قد علم أن إيمانه لا ينفعه .

وأما ما يضم إليه من قولهم خشيت أن تدركه رحمة الله تعالى فمن زيادات الباهتين لله تعالى وملائكته ، وفيه جهالتان : إحداهما : أنّ الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس ، فحال البحر لا يمنعه .

والآخر : أن من كره الإيمان للكافر وأحب بقاءه على الكفر فهو كافر ، لأنّ الرضا بالكفر كفر .

والظاهر أن قوله : آلآن إلى آخره من كلام الله له على لسان ملك .

فقيل : هو جبريل .

وقيل : ميكائيل .

وقيل : غيرهما ، لخطابه فاليوم ننجيك .

وقيل : من قول فرعون في نفسه وإفساده وإضلاله الناس ، ودعواه الربوبية .

﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾

فاليوم ننجيك الظاهر أنه خبر .

وقيل : هو استفهام فيه تهديد أي : أفاليوم ننجيك ؟ فهلا كان الإيمان قبل الإشراف على الهلاك ، وهذا بعيد لحذف همزة الاستفهام ولقوله : لتكون لمن خلفك لآية ، لأنّ التعليل لا يناسب هنا الاستفهام .

قال ابن عباس : ننجيك نلقيك بنجوة من الأرض وهي المكان المرتفع ، وببدنك بدرعك ، وكان من لؤلؤ منظوم لا مثال له .

وقيل : من ذهب .

وقيل : من حديد وفيها سلاسل من ذهب .

والبدن بدن الإنسان ، والبدن الدرع القصيرة .

قال :

ترى الأبدان فيها مسبغات . . .

على الأبطال والكلب الحصينا

يعني : الدروع .

وقال عمرو بن معدي كرب :

أعاذل شكتي بدني وسيفي . . .

وكل مقلص سلس القياد

(224/368)

وكانت له درع من ذهب يعرف بها ، وقيل : نلقيك ببدنك عرياناً ليس عليك ثياب ولا سلاح ، وذلك أبلغ في إهانته .

وقيل : نخرجك صحيحاً لم يأكلك شيء من الدواب .

وقيل : بدناً بلا روح قاله مجاهد .

وقيل : نخرجك من ملكك وحيداً فريداً .

وقيل : نلقيك في البحر من النجاء ، وهو ما سلخته عن الشاة أو ألقيته عن نفسك من ثياب أو سلاح .

وقيل : نتركك حتى تغرق ، والنجاء الترك .

وقيل : نجعلك علامة ، والنجاء العلامة .

وقيل : نغرقك من قولهم : نجى البحر أقواماً إذا أغرقهم .

وقال الكرماني : يحتمل أن يكون من النجاة وهو الإسراع أي : نسرع بهلاكك .

وقيل : معنى ببدنك بصورتك التي تعرف بها ، وكان قصيراً أشقر أزرق قريب اللحية من القامة ، ولم يكن في بني إسرائيل شبيه له يعرفونه بصورته ، وببدنك إذا عنى به الجثة تأكيد كما تقول : قال فلان بلسانه وجاء بنفسه .

وقرأ يعقوب : ننجيك مخففاً مضارع أنجى .

وقرأ أبيّ ، وابن السميقع ، ويزيد البربري : ننحيك بالحاء المهملة من التنحية .

ورويت عن ابن مسعود أي : نلقيك بناحية مما يلي البحر .

قال كعب : رماه البحر إلى الساحل كأنه ثور .

وقرأ أبو حنيفة : بأبدانك أي بدروعك ، أو جعل كل جزء من البدن بدناً كقولهم : شابت مفارقه .

وقرأ ابن مسعود ، وابن السميقع : بندائك مكان ببدنك ، أي : بدعائك ، أي بقولك آمنت إلى آخره .

لنجعلك آية مع ندائك الذي لا ينفع ، أو بما ناديت به في قومك .

ونادى فرعون في قومه فحشر فنادى فقال : أنا ربكم الأعلى ، ويا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري .

ولما كذبت بنو إسرائيل بغرق فرعون رمى به البحر على ساحله حتى رأوه قصيراً أحمر

كأنه ثور .

لمن خلفك لمن وراءك علامة وهم بنو إسرائيل ، وكان في أنفسهم أن فرعون أعظم شأناً من أن يغرق ، وكان مطرحه على ممر بني إسرائيل حتى قيل لمن خلفك آية .

وقيل : لمن يأتي بعدك من القرون ، وقيل : لمن بقي من قبط مصر وغيرهم .

(225/368)

وقرىء : لمن خلفك بفتح اللام أي : من الجبابرة والفراعنة ليتعظوا بذلك ، ويحذروا أن يصيبهم ما أصابك إذا فعلوا فعلك .

ومعنى كونه آية : أن يظهر للناس عبوديته ومهانته ، أو ليكون عبرة يعتبر بها الأمم .

وقرأت فرقة : لمن خلقك من الخلق وهو الله تعالى أي : ليجعلك الله آية له في عباده .

وقيل : المعنى ليكون طرحك على الساحل وحدك ، وتمييزك من بين المغرقين لئلا يشتبه على الناس أمرك ، ولئلا يقولوا لادعائك العظمة : إنَّ مثله لا يغرق ولا يموت ، آية من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره ، وإنّ كثيراً من الناس ظاهره الناس كافة ، قاله الحسن .

وقال مقاتل : من أهل مكة عن آياتنا أي : العلامات الدالة على الوحدانية وغيرها من

صفنات العلى ، لغافلون لا يتدبرون ، وهذا خبر في ضمنه توعد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(226/368)

وقال أبو السعود :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إسراءيل البحر ﴾

هو من جاوز المكانَ إذا تخطاه وخلفه والباء للتعدية أي جعلناهم مجاوزين البحرَ بأن جعلناه يبساً وحفِظناهم حتى بلغوا الشط وقرىء جوّزنا وهو من التجويز المرادفِ للمجاوزة لا مما هو بمعنى التنفيذ نحو ما وقع في قول الأعشى :

(227/368)

كما جوّز السّكِّيَّ في الباب فيتقُ . . . وإلا لقيل : وجوزنا بني إسرائيلَ في البحر ولخلا النظمُ الكريم عن الإيذان بانفصالهم عن البحر وبمقارنة العنايةِ الإلهية لهم عنَوا الجوازَ كما هو المشهور في الفرق بين أذهبه وذهَب به ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ ﴾ يقال : تبِعتُه حتى أتبعتُه إذا كان

سبقك فسبقتَه أي أدركهم ولحِقهم ﴿ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ﴾ حتى تراءت الفئتان وكاد يجتمع الجمعان ﴿ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ ظلماً واعتداءً أي باغين وعادين أو للبغي والعدوان وقرىء وعدواً وذلك أن موسى عليه السلام خرج ببني إسرائيلَ على حين غفلةٍ من فرعون فلما سمع به تبِعهم حتى لحِقهم ووصل إلى الساحل وهم قد خرجوا من البحر ومسلُكهم باق على حاله يبَساً فسلكه بجنوده أجمعين فلما دخل آخرُهم وهم أولُهم بالخروج غشِيهم من اليم ما غشيهم ﴿ حتى إِذَا أَدْرَكَهُ الغرق ﴾ أي لحِقه وألجمه ﴿ قَالَ ءامَنتُ أَنَّهُ ﴾ أي بأنه والضميرُ للشأن وقرىء أنه على الاستئناف بدلاً من آمنت وتفسيراً له ﴿ لا إله إِلاَّ الذى ءامَنَتْ بِهِ بَنواْ إسراءيل ﴾ لم يقل كما قاله السحرةُ : آمنا بربّ العالمين ربِّ موسى وهارون بل عبر عنه تعالى بالموصول وجعل صلتُه إيمانَ بني إسرائيل به تعالى للإشعار برجوعه عن الاستعصاء وباتباعه لمن كان يستتبعهم طمعاً في القبَول والانتظامِ معهم في سلك النجاة ﴿ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ أي الذين أسلموا نفوسَهم لله أي جعلوها سالمةً خالصةً له تعالى وأراد بهم إما بني إسرائيلَ خاصةً وأما الجنسَ وهم داخلون فيه دخولاً أولياً ، والجملةُ على الأول عطفٌ على آمنت ، وإيثار الاسميةِ لادعاء الدوامِ والاستمرارِ وعلى الثاني يحتمل الحاليةَ أيضاً من ضمير المتكلمِ أي آمنتُ مخلصاً لله منتظماً في سلك الراسخين فيه ، ولقد كُرِّر المعنى الواحد بثلاث عباراتٍ حرصاً على القبول المفضي إلى النجاة وهيهاتَ هيهاتَ بعد ما فات وأتى ما هو آتٍ .

(228/368)

﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) ﴾

(229/368)

وقوله عز وجل : ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ ﴾ مقولٌ لقول مقدرٍ معطوفٍ على قال أي فقيل : آلآن ، وهو إلى قوله تعالى : ﴿ ءَايَةً ﴾ حكايةٌ لما جرى منه سبحانه من الغضب على المخذول ومقابلة ما أظهره بالرد على وجه الإنكارِ التوبيخيِّ على تأخيره وتقريعِه بالعصيان والإفساد وغير ذلك وفي حذف الفعل المذكورِ وإبرازِ الخبرِ المحكيِّ في صورة الإنشاءِ من الدِلالة على عظم السخطِ وشدةِ الغضبِ ما لا يخفى كما يُفصح عنه ما روي من أن جبريل دس فاه عند ذلك بحال البحر وسده به فإنه تأكيدٌ للرد القوليّ بالرد الفعليِّ ولا ينافيه تعليلُه بمخافة إدراكِ الرحمةِ فيما نقل أنه قال للنبي عليهما السلام : فلو رأيتَني يا محمدُ وأنا آخذٌ من حال البحرِ فأدُسّه في فيه مخافةَ أن تدركه الرحمةُ إذ المرادُ بها الرحمةُ الدنيويةُ أي النجاة التي هي طِلْبةُ المخذولِ وليس من ضرورة إدراكِها صحةُ الإيمان كما في إيقان قومِ يونسَ عليه السلام حتى

يلزمَ كراهتُه ما لا يتصور في شأن جبريلَ عليه السلام من الرضا بالكفر إذ لا استحالةَ في ترتيب هذه الرحمةِ على مجرد التفوّه بكلمة الإيمانِ وإن كان ذلك في حالة البأسِ واليأس فيحمل دسُّه عليه السلام على سد باب الاحتمالِ البعيد لكمال الغيظِ وشدةِ الحرْدِ فتدبر والله الموفق ، وحقُّ العاملِ في الظرف أن يقدر مؤخراً ليتوجه الإنكارُ والتوبيخُ إلى تأخير الإيمانِ إلى حد يمتنعُ قبولُه فيه أي الآن نؤمن حين يئستَ من الحياة وأيقنتَ بالممات وقوله عز وعلا : ﴿ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ حال من فاعل الفعل المقدَّر جيء به لتشديد التوبيخِ والتقريعِ على تأخير الإيمانِ إلى هذا الآن ببيان أنه لم يكن تأخيرُه لعدم بلوغِ الدعوةِ إليه ولا للتأمل والتدبر في دلائله وآياتِه ولا لشيء آخرَ مما عسى يُعدُّ عذراً في التأخير بل كان ذلك على طريقة الردِّ والاستعصاءِ والإفساد فإن قوله تعالى : ﴿ وَكُنتَ مِنَ المفسدين ﴾ عطفٌ على عصيت داخلٌ في حيز

(230/368)

الحال أي وكنت من الغالين في الضلال والإضلالِ عن الإيمان كقوله تعالى : ﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله زدناهم عَذَابًا فَوْقَ العذاب بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ فهذا عبارةٌ عن

فساده الراجعِ إلى نفسه والساري إلى غيره من الظلم والتعدي وصدِّ بني إسرائيلَ عن الإيمان والأولُ عن عصيانه الخاصِّ به .

(231/368)

﴿ فاليوم نُنَجّيكَ ﴾ أي نخرجك مما وقع فيه قومُك من قعر البحرِ ونجعلك طافياً وفي التعبير عنه بالتنجية تلويحٌ بأن مرادَه بالإيمان هو النجاةُ كما مر وتهكمٌ به ، أو نلقيك على نجوة من الأرض ليراك بنو إسرائيلَ وقرىء نُنْجيك من الإنجاء ونُنَحّيك بالحاء من التنحية أو نلقيك بناحية الساحل ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ في موضع الحالِ من ضمير المخاطَب أي ننجيك ملابساً ببدنك فقط لا مع روحك كما هو مطلوبُك فهو تخييبٌ له وحسمٌ لأطماعه بالمرة أو عارياً عن اللباس أو كاملاً سوياً أو بدِرْعك وكانت له دروعٌ من الذهب يعرف بها وقرىء بأبدانك أي بأجزاء بدنك كلها كقولهم : هوى بأجرامه أو بدروعك كأنه كان مُظاهِراً بينها ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءايَةً ﴾ لمن وراءك علامةً وهم بنو إسرائيلَ إذ كان في نفوسهم من عظمته ما خُيِّل أنه لا يهلك حتى يُروى أنهم لم يصدقوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عاينوه مطروحاً على ممرهم من الساحل أو تكون لمن يأتي بعدك من الأمم إذا سمعوا مآلَ أمرِك ممن شاهدك عبرةً ونكالاً من الطغيان أو حجةً تدلهم على أن الإنسانَ وإن

بلغ الغايةَ القصوى من عظم الشأنِ وعلوِّ الكبرياء وقوةِ السلطان فهو مملوكٌ مقهورٌ بعيد عن مظانّ الربوبيةِ وقرىء لمن خَلَفك فعلاً ماضياً أي لمن خلفك من الجبابرة ، وقرىء لمن خلقك بالقاف أي لتكون لخالقك آيةً كسائر الآيات فإن إفرادَه سبحانه إياك بالإلقاء إلى الساحل دليلٌ على أنه قصد منه كشفَ تزويرِك وإماطةَ الشبهةِ في أمرك وبرهانٌ نيّرٌ على كمال علمِه وقدرتِه وحكمتِه وإرادتِه ، وهذا الوجهُ محتملٌ على القراءة المشهورة أيضاً وفي تعليل تنجيته بما ذكر إيذانٌ بأنها ليست لإعزازه أو لفائدة أخرى عائدةٍ إليه بل لكمال الاستهانة به وتفضيحِه على رؤوس الأشهاد وزيادةِ تفظيعِ حالِه كمن يُقتل ثم يُجرُّ جسدُه في الأسواق أو يدار برأسه في البلاد ، واللامُ الأولى متعلقةٌ بننجّيك

(232/368)

والثانيةُ بمحذوف وقع حالاً من آية أي كائنةً لمن خلفك ﴿ وَإِن كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ لا يتفكرون بها ولا يعتبرون بها وهو اعتراضٌ تذييليٌّ جيء به عند الحكايةِ تقريراً لفحوى الكلامِ المحكيِّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(233/368)

وقال الآلوسى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾

من جاوز المكان إذا قطعه وتخطاه ، وهو متعد إلى المفعول الأول الذي كان فاعلاً في الأصل بالباء وإلى الثاني بنفسه ، والمعنى جعلناهم مجاوزين البحر بأن جعلناه يبساً وحفظناهم حتى بلغوا الشط .

وقرأ الحسن ﴿ وجاوزنا ﴾ بالتضعيف ، وفعل بمعنى فاعل فهو من التجويز المرادف للمجاوزة بالمعنى السابق وليس بمعنى نفذ لأنه لا يحتاج إلى التعدية بالباء ويتعدى إلى المفعول الثاني بفي كما في قوله

: ولا بد من جار يجيز سبيلها . . .

كما جوز السكي في الباب فيتق

فكان الواجب هنا من حيث اللغة أن يقال : وجوزنا بني إسرائيل البحر أي نفذناهم وأدخلناهم فيه ؛ وفي الآية إشارة إلى انفصالهم عن البحر وإلى مقارنة العناية الإلهية لهم عند الجواز كما هو المشهور في الفرق بين أذهبه وذهب به ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ ﴾ قال الراغب : يقال تبعه وأتبعه إذا قفا أثره إما بالجسم أو بالارتسام والائتمار وظاهره أن الفعلين بمعنى .

وقال بعض المحققين : يقال تبعته حتى أتبعته إذا كان سبقك فلحقته ، فالمعنى هنا أدركهم

ولحقهم ﴿ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ﴾ حتى تراءت الفئتان وكاد يجتمع الجمعان ﴿ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ أي ظلماً واعتداءً ، وهما مصدران منصوبان على الحال بتأويل اسم الفاعل أي باغين وعادين أو على المفعولية لأجله أي للبغي والعدوان .

(234/368)

وقرأ الحسن ﴿ وَعَدْوًا ﴾ بضم العين والدال وتشديد الواو ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى لما أخبر موسى وهارون عليهما السلام بإجابة دعوتهما أمر موسى عليه السلام بإخراج بني إسرائيل من مصر ليلاً وكانوا كما ذكره غير واحد ستمائة ألف فخرج بهم على حين غفلة من فرعون وملئه فلما أحس بذلك خرج هو وجنوده على أثرهم مسرعين فالتقت القوم فإذا الطامة الكبرى وراءهم فقالوا : يا موسى هذا فرعون وجنوده وراءنا وهذا البحر أمامنا فكيف الخلاص فأوحى الله تعالى إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق اثني عشر فرقاً كل فرق كالطود العظيم وصار لكل سبط طريق فسلكوا ووصل فرعون ومن معه إلى الساحل وهم قد خرجوا من البحر ومسلكهم باق على حاله فسلكه بمن معه أجمعين فلما دخل آخرهم وهم أولهم بالخروج غشيهم من اليم ما غشيهم ﴿ حتى إِذَا أَدْرَكَهُ الغرق ﴾ أي لحقه ، والمراد بلحوقه إياه وقوعه فيه وتلبسه بأوائله ،

وقيل : معنى أدركه قارب إدراكه كجاء الشتاء فتأهب لأن حقيقة اللحوق تمنعه من القول الذي قصه سبحانه بقوله جل شأنه : ﴿ قَالَ ءامَنتُ ﴾ الخ ، ومن الناس من أبقى الإدراك على ظاهره وحمل القول على النفسي وزعم أن الآية دليل على ثبوت الكلام النفسي ، ونظر فيه بأن قيام الاحتمال يبطل صحة الاستدلال ، وأياً ما كان فليس المراد الإخبار بإيمان سابق كما قيل بل إنشاء إيمان ﴿ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذى ءامَنَتْ بِهِ بَنواْ إسرائيل ﴾ أي بأنه ، وقدر الجار لأن الإيمان وكذا الكفر متعد بالباء ومحل مدخوله بعد حذفه الجر أو النصب فيه خلاف شهير وجعله متعدياً بنفسه فلا تقدير لأنه في أصل وضعه كذلك مخالفة للاستعمال المشهور فيه .

(235/368)

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ أَنَّهُ ﴾ بالكسر على إضمار القول أي وقال إنه أو على الاستئناف لبيان إيمانه أو الإبدال من جملة آمنت ؛ والجملة الاسمية يجوز إبدالها من الفعلية ، والاستئناف على البدلية باعتبار المحكي لا الحكاية لأن الكلام في الأول ، والجملة الأولى في كلامه مستأنفة والمبدل من المستأنف مستأنف والضمير للشأن ، وعبر عنه تعالى بالموصول وجعل صلته إيمان بني إسرائيل به تعالى ولم يقل كما قال السحرة : ﴿ بِرَبِّ العالمين

رَبّ رَبّ موسى وهارون ﴾ [الأعراف : 121 ، 122] للإشعار برجوعه عن الاستعصاء واتباعه لمن كان يستتبعهم طمعاً في القبول والانتظام معهم في سلك النجاة ﴿ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ أي الذين أسلموا نفوسهم لله تعالى أي جعلوها خالصة سالمة له سبحانه ، وأراد بهم أما بني إسرائيل خاصة وإما الجنس وهم إذ ذاك داخلون دخولاً أولياً ، والظاهر أن الجملة على التقديرين معطوفة على جملة ﴿ ءامَنتُ ﴾ وإيثار الاسمية لادعاء الدوام والاستمرار .

وقيل : إنها على الأول معطوفة وعلى الثاني تحتمل الحالية أيضاً من ضمير المتكلم أي آمنت مخلصاً لله تعالى منتظماً في سلك الراسخين في ذلك ، ولقد كرر المعنى الواحد بثلاث عبارات وبالغ ما بالغ حرصاً على القبول المقتضي للنجاة وليت بعض ذلك قد كان حين ينفعه الإيمان وذلك قبل اليأس ، فإن إيمان اليأس غير مقبول كما عليه الأئمة الفحول .

(236/368)

﴿ ءالآنَ ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ ، والظرف متعلق بمحذوف يقدر مؤخراً أي الآن تؤمن حين يئست من الحياة وأيقنت بالممات ، وقدر مؤخراً ليتوجه الإنكار والتوبيخ إلى تأخير الإيمان إلى حد يمتنع قبوله فيه ، والكلام على تقدير القول أي فقيل له ذلك وهو

معطوف على ﴿ قَالَ ﴾ [يونس : 90] وهذا إلى ﴿ ءَايَةً ﴾ [يونس : 92] حكاية لما جرى منه سبحانه من الغضب على المحذوف ومقابلة ما أظهره بالرد الشنيع وتقريعه بالعصيان والإفساد إلى غير ذلك ، وفي حذف الفعل المذكور وإبراز الخبر المحكي في صورة الإنشاء من الدلالة على عظم السخط وشدة الغضب ما لا يخفى .

والقائل له ذلك قيل : هو الله تعالى ، وقيل : هو جبريل عليه السلام ، وقيل : إنه ميكائيل عليه السلام .

فقد أخرج أبو الشيخ عن أبي أمامة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي جبريل عليه السلام : "ما أبغضت شيئاً من خلق الله تعالى ما أبغضت إبليس يوم أمر بالسجود فأبى أن يسجد وما أبغضت شيئاً أشد بغضاً من فرعون فلما كان يوم الغرق خفت أن يعتصم بكلمة الإخلاص فينجو فأخذت قبضة من حمأة فضربت بها في فيه فوجدت الله تعالى عليه أشد غضباً مني فأمر ميكائيل فأتاه فقال آلآن " الخ وما تضمنه هذا الخبر من فعل جبريل عليه السلام جاء في غير ما خبر .

ومن ذلك ما أخرجه الطيالسي .

وابن حبان .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن مردويه .

والبيهقي في الشعب .

والترمذي .

والحاكم وصححاه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي جبريل : لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في في فرعون مخافة أن تدركه الرحمة " .

واستشكل هذا التعليل .

وفي "الكشاف" أن ذلك من زيادات الباهتين لله تعالى وملائكته عليهم السلام : وفيه جهالتان : إحداهما : أن الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس فحال البحر لا يمنعه .

(237/368)

والأخرى : أن من كره إيمان الكافر وأحب بقاءه على الكفر فهو كافر لأن الرضا بالكفر كفر ، وارتضاه ابن المنير قائلاً : لقد أنكر منكراً وغضب لله تعالى وملائكته عليهم السلام كما يجب لهم ، والجمهور على خلافه لصحة الحديث عند الأئمة الثقات كالترمذي المقدم على المحدثين بعد مسلم .

وغيره .

وقد خاضوا في بيان المراد منه بحيث لا يبقى فيه إشكال .

ففي إرشاد العقل السليم أن المراد بالرحمة الرحمة الدنيوية أي النجاة التي هي طلبة المخذوف وليس من ضرورة إدراكها صحة الإيمان كما في إيمان قوم يونس عليه السلام حتى يلزم من كراهته ما لا يتصور في شأن جبريل عليه السلام من الرضا بالكفر إذ لا استحالة في ترتب هذه الرحمة على مجرد التفوه بكلمة الإيمان وإن كان ذلك في حالة البأس واليأس فيحمل دسه عليه السلام على سد باب الاحتمال البعيد لكمال الغيظ وشدة الحرد انتهى .

ولا يخفى أن حمل الرحمة على الرحمة الدنيوية بعيد ويكاد يأبى عنه ما أخرجه ابن جرير . والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي جبريل عليه السلام : لو رأيتني يا محمد وأنا أغط فرعون بإحدى يدي وأدس من الحال في فيه مخافة أن تدركه رحمة الله تعالى فيغفر له " فإنه رتب فيه المغفرة على إدراك الرحمة وهو ظاهر في أنه ليس المراد بها الرحمة الدنيوية لأن المغفرة لا تترتب عليها وإنما يترتب عليها النجاة .

وقال بعض المحققين : إنما فعل جبريل عليه السلام ما فعل غضباً عليه لما صدر منه وخوفاً أنه إذا كرر ذلك ربما قبل منه على سبيل خرق العادة لسعة بحر الرحمة الذي يستغرق كل شيء ، وأما الرضا بالكفر فالحق أنه ليس بكفر مطلقاً بل إذا استحسن وإنما الكفر رضاه بكفر نفسه كما في التأويلات لعلم الهدى انتهى ، وقد تقدم آنفاً ما يتعلق بهذه المسألة فتذكره فما في العهد من قدم ، نعم قيل : إن الرضا بكفر نفسه إنما يكون وهو كافر فلا معنى لعده كفراً والكفر حاصل قبله ، وهو على ما له وما عليه بحث آخر لا يضر فيما نحن فيه .

والطيبي بعد أن أجاب بما أجاب أردف ذلك بقوله : على أنه ليس للعقل مجال في مثل هذا النقل الصحيح إلا التسليم ونسبة القصور إلى النفس ، وقد يقال : إن الخبر متى خالف صريح العقل أو تضمن نسبة ما لا يتصور شرعاً في حق شخص إليه ولم يمكن تأويله على وجه يوافق حكم العقل ويندفع به نسبة النقص لا يكون صحيحاً ، واتهام الراوي بما يوهن أمر روايته أهون من اتهام العقل الصريح ونسبة النقص إليه دون نسبة النقص إلى من شهد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بعصمته وكماله فتأمل والله تعالى الموفق ، وقوله سبحانه : ﴿ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ في موضع الحال من فاعل الفعل .

العامل في الظرف جيء به لتشديد التوبيخ والتقريع على تأخير الإيمان إلى هذا الآن ببيان أنه لم يكن تأخيره لما عسى يعد عذراً بل كان ذلك على طريقة الرد والاستعصاء والإفساد

فإن قوله تعالى : ﴿ وَكُنتَ مِنَ المفسدين ﴾ عطف على ﴿ عَصَيْتُ ﴾ داخل في حيز الحال والتحقيق أي وقد كنت من المفسدين الغالين في الضلال والإضلال عن الإيمان فهذا عبارة عن فساده الراجع إلى نفسه والساري إلى غيره من الظلم والتعدي وصد بني إسرائيل عن السبيل والأول عن عصيانه الخاص به

وقوله جل شأنه :

﴿ فاليوم نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾

(239/368)

تهكم به وتخييب له وحسم لأطماعه بالمرة ، والمراد فاليوم نخرجك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافياً ملابساً ببدنك عارياً عن الروح إلا أنه عبر عن ذلك بالتنجية مجازاً ، وجعل الجار والمجرور في موضع الحال من ضمير المخاطب لذلك مع ما فيه من التلويح بأن مراده بالإيمان هو النجاة ، وقيل : معنى الحال عارياً عن اللباس أو تام الأعضاء كاملها .

وجعل بعض الأفاضل الكلام على التجريد ، وجوز أن يكون الباء زائدة وبدنك بدل بعض من ضمير المخاطب كأنه قيل : ننجي بدنك ، وجعل الباء للآلة ليكون على وزان قولك

أخذته بيدك ونظرته بعينك إيذاناً بحصول هذا المطلوب البعيد التناول وجه لكنه غير وجيه كما لا يخفى ، وقيل : التنجية الإلقاء على النجوة وهي المكان المرتفع ، قيل : وسمي به لنجاته عن السيل ، وإلى هذا ذهب يونس بن حبيب النحوي ، فقد أخرج ابن الأنباري . وأبو الشيخ عنه أنه قال : المعنى نجعلك على نجوة من الأرض كي يراك بنو إسرائيل فيعرفوا أنك قدمت ، وجاء تفسير البدن بالدرع ، وروي ذلك عن محمد بن كعب .

وأبي ، وكانت له درع من ذهب يعرف بها ، وفي رواية أنها كانت من لؤلؤ .

وأخرج ابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ عن أبي جهضم موسى بن سالم أنه كان لفرعون شيء يلبسه يقال له البدن يتلألأ ، وقرأ يعقوب ﴿ نُنَجّيكَ ﴾ من باب الأفعال وهو بمعنى التفعيل بمعنييه السابقين ، وأخرج ابن الأنباري عن محمد بن السميقع اليماني .

ويزيد البربري أنهما قرآ ﴿ ننحيك ﴾ بالحاء المهملة ونسبت إلى أبي بن كعب .

وأبي السمال أي نجعلك في ناحية ونلقيك على الساحل .

وقرأ أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه ﴿ بأبدانك ﴾ على صيغة الجمع بجعل كل عضو بمنزلة البدن فأطلق الكل على الجزء مجازاً وعلى هذا جمع الإجرام في قوله : وكم موطن لولاي طحت كما هوى . . .

بإجرامه من قلة النيق منهوي

أو بإرادة دروعك بناءً على أن المخذول كان لابساً درعاً على درع .

(240/368)

وأخرج ابن الأنباري عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قرأ ﴿ بندائك ﴾ أي بدعائك ﴿ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءايَةً ﴾ أي لتكون لمن يأتي بعدك من الأمم إذا سمعوا حال أمرك ممن شاهد حالك وما عراك عبرة ونكالاً من الطغيان أو حجة تدلهم على أن الإنسان وإن بلغ الغاية القصوى من عظم الشأن وعلو الكبرياء وقوة السلطان فهو مملوك مقهور بعيد عن مظان الألوهية والربوبية ، وقيل : المراد بمن خلفه من بقي بعده من بني إسرائيل فهو مملوك مقهور بعيد عن مظان الألوهية والربوبية ، وقيل : المراد بمن خلفه من بقي بعده من بني إسرائيل أي لتكون لهم علامة على صدق موسى عليه السلام إذ كان في نفوسهم من عظمته ما خيل إليهم أنه لا يهلك فكذبوا لذلك خبر موسى عليه السلام بهلاكه حتى عاينوه على ممرهم من الساحل أحمر قصيراً كأنه ثور وروي هذا عن مجاهد .

وقرىء ﴿ لِمَنْ خَلْفَكَ ﴾ فعلاً ماضياً أي حل مكانك ، ونسب إلى ابن السميقع .

وأبي السمال أنهما أيضاً قرآ ﴿ لِمَنْ خَلَقَكَ ﴾ بفتح اللام والقاف أي لتكون لخالقك آية

كسائر الآيات فإن إفراده سبحانه إياك بالإلقاء إلى الساحل دليل على أنه قصد منه جل شأنه لكشف تزويرك وإماطة الشبهات في أمرك وبرهان نير على كمال علمه وقدرته وحكمته وإرادته وهو معنى لا بأس به يصح أن توجه به الآية على القراءة المشهورة أيضاً . ذكر في النشر أن مما لا يوثق بنقله قراءة ابن السميقع .

(241/368)

وأبي السمال ﴿ ننحيك ﴾ بالحاء و ﴿ لِمَنْ خَلَقَكَ ﴾ بالقاف ، وفي تعليل تنجيته بما ذكر كما قاله بعض المحققين إيذان بأنها ليست لاعزازه أو لفائدة أخرى عائدة إليه بل لكمال الاستهانة به وتفضيحه على رؤوس الأشهاد وزيادة تفظيع حاله كمن يقتل ثم يجر جسده في الأسواق ويطرح جيفة في الميدان أو يدار برأسه في النواحي والبلدان ، واللام الأولى متعلقة بالفعل قبلها والثانية بمحذوف وقع حالاً من ﴿ ءايَةً ﴾ أي كائنة لمن خلفك ، وجاد الرد على هذا المحذوف على طرز ما أتى به في قوله : ﴿ آمنت أنه ﴾ [يونس : 90] الخ في اشتماله على المبالغة كما لا يخفى على من تفكر في الآية ، وقد قرر فحوى المحكي بقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الناس عَنْ ءاياتنا لغافلون ﴾ أي لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ، وهو اعتراض تذييلي جيء به عند الحكاية لذلك ، ولهذه الآية وأشباهها وقع الإجماع

على كفر المخذول وعدم قبول إيمانه ، ويشهد لذلك أيضاً ما رواه ابن عدي .

والطبراني من أنه صلى الله عليه وسلم قال : " خلق الله تعالى يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً وخلق فرعون في بطن أمه كافراً " فهو من أهل النار المخلدين فيها بلا ريب وبذلك قال الشيخ الأكبر قدس سره في أول كتابه الفتوحات في الباب الثاني والستين منه حيث ذكر أن الذين خلذهم الله تعالى من العباد جعلهم طائفتين ، طائفة لا تضرهم الذنوب التي وقعت منهم واليهم الإشارة بقوله تعالى : ﴿ واللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً ﴾ [البقرة : 268] وهؤلاء لا تمسهم النار بما تاب الله تعالى عليه واستغفار الملأ الأعلى ودعائهم لهم .

وقسم الطائفة الأخرى إلى قسمين قسم أخرجهم من النار بالشفاعة وهم طائفة من المؤمنين وأهل التوحيد ماتوا ولم تكفر عنهم خطاياهم ، وقسم آخر أبقاهم في النار وهم المجرمون خاصة الذين يقال لهم يوم القيامة :

(242/368)

﴿ وامتازوا اليوم أَيُّهَا المجرمون ﴾ [يس : 59] ولهم يقال : أهل النار لأنهم الذين يعمرونها ، وهم على أربع طوائف كلهم في النار لا يخرجون منها .

الطائفة الأولى المتكبرون على الله تعالى كفرعون وأشباهه ممن ادعى الربوبية لنفسه ونفاها

عن الله تعالى فقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص : 38] وقال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الاعلى ﴾ [النازعات : 24] يريد به ما في السماء غيري وكذلك نمروذ وغيره .

والثانية المشركون وهم الذين أثبتوا الله تعالى إلا أنهم جعلوا معه آلهة أخرى وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : 3] والثالثة المعطلة وهم الذين نفوا إلا له جملة واحدة فلم يثبتوا للعالم الها أصلاً .

والرابعة المنافقون وهم الذين أظهروا الإيمان للقهر الذي حكم عليهم وهم في نفوسهم على ما هم عليه من اعتقاد إحدى هذه الطوائف الثلاث فهؤلاء الأصناف الأربعة هم أهل النار الذين لا يخرجون منها من الجن والانس انتهى .

وهو صريح فيما قلنا إلا أنه ذهب في موضع آخر من الكتاب المذكور إلى خلافه فقال في الباب السابع والستين ومائة ما حاصله :

(243/368)

إن الله تعالى لما علم أنه قد طبع على كل قلب مظهر للجبروت والكبرياء وأن فرعون في نفسه أذل الاذلاء أمر موسى وهارون عليهما السلام أن يعاملاه بالرحمة واللين لمناسبة باطنه واستنزال ظاهره من جبروته وكبريائه فقال سبحانه : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ

يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ [طه : 44] ولعل وعسى من الله تعالى واجبتان فتذكر بما يقابله من اللين والمسكنة ما هو عليه في باطنه ليكون الظاهر والباطن على السواء فما زالت تلك الخميرة معه تعمل في باطنه مع الترجي الإلهي الواجب فيه وقوع المترجى ويتقوى حكمها إلى حين انقطاع يأسه من أتباعه وحال الغرق بينه وبين اطماعه لجأ إلى ما كان مستتراً في باطنه من الذلة والافتقار ليتحقق عند المؤمنين وقوع الرجاء الإلهي فقال : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ [يونس : 90] فرفع الاشكال من الاشكال كما قالت السحرة لما آمنت : ﴿ بِرَبِّ العالمين رَبِّ رَبِّ موسى وهارون ﴾ [الأعراف : 121 ، 122] أي الذي يدعوان إليه فجاءت بذلك لدفع الارتياب ورفع الأشكال ، وقوله : ﴿ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ خطاب منه للحق تعالى لعلمه أنه سبحانه يسمعه ويراه فخاطبه الحق بلسان الغيب وسمعه الآن أظهرت ما قد كنت تعلمه ﴿ وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ ل [يونس : 91] أتباعك ، وما قال له وَأَنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فهي كلمة بشرى له عرفنا بها لنرجو رحمته مع إسرافنا وإجرامنا ثم قال سبحانه : ﴿ فاليوم نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءايَةً ﴾ يعني لتكون النجاة لمن يأتي بعدك آية أي علامة إذا قال ما قلته تكون له النجاة مثل ما كانت لك ، وما في الآية أن بأس الآخرة لا يرتفع وأن إيمانه لم يقبل وإنما فيها أن بأس الدنيا لا يرتفع عمن نزل به إذا آمن في حال نزوله الأقوم يونس عليه السلام فقوله سبحانه : ﴿ فاليوم نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ بمعنى أن العذاب

(244/368)

لا يتعلق إلا بظاهرهك وقد أريت الخلق نجاته من العذاب فكان ابتداء الغرق عذاباً فصار الموت فيه شهادة خالصة بريئة لم يتخللها معصية فقبض على أفضل عمل وهو التلفظ بالإيمان كل ذلك حتى لا يقنط أحد من رحمة الله تعالى والأعمال بخواتيمها فلم يزل الإيمان بالله تعالى يجول في باطنه وقد حال الطابع الإلهي الذاتي في الخلق بين الكبرياء واللطائف الإنسانية فلم يدخلها قط كبرياء ، وأما قوله تعالى :

(245/368)

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُم لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ [غافر : 85] فكلام محقق في غاية الوضوح فإن النافع هو الله تعالى فما نفعهم إلا هو سبحانه ، وقوله عز وجل : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ [غافر : 85] فيعني بذلك الإيمان عند رؤية البأس الغير المعتاد ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [الرعد : 15] فغاية هذا الإيمان أن يكون كرهاً وقد أضافه الحق سبحانه إليه والكراهة محلها

القلب والإيمان كذلك والله تعالى لا يأخذ العبد بالأعمال الشاقة عليه من حيث ما يجده من المشقة فيها بل يضاعف له فيها الأجر ، وأما في هذا الموطن فالمشقة منه بعيدة بل جاء طوعاً في إيمانه وما عاش بعد ذلك بل قبض ولم يؤخر لئلا يرجع إلى ما كان عليه من الدعوى ولو قبض ركاب البحر الذين قال سبحانه فيهم : ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : 67] عند نجاتهم لماتوا موحدين وقد حصلت لهم النجاة ، ثم قوله تعالى في تتميم قصته هذه : ﴿ فاليوم نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءايَةً ﴾ على معنى قد ظهرت نجاتك آية أي علامة على حصول النجاة فغفل أكثر الناس عن هذه الآية فقضوا على المؤمن بالشقاء ، وأما قوله تعالى : ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النار ﴾ [هود : 98] فليس فيه أنه يدخلها معهم بل قال جل وعلا : ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ [غافر : 46] ولم يقل أدخلوا فرعون وآله ، ورحمة الله تعالى أوسع من أن لا يقبل إيمان المضطر وأي اضطرار أعظم من اضطرار فرعون في حال الغرق ؟ والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السوء ﴾ [النمل : 62] فقرن للمضطر إذ دعاه بالإجابة وكشف السوء عنه ، وهذا آمن من لله تا على خالصاً وما دعاه في البقاء في الحياة الدنيا خوفاً من العوارض وأن يحال بينه وبين هذا الإخلاص الذي جاءه في هذه الحال

فرجح جانب لقاء الله تعالى على البقاء بالتلفظ بالإيمان وجعل ذلك الغرق نكال الآخرة والأولى فلم يكن عذابه أكثر من غم الماء الاجاج وقبضه على أحسن صفة ، وهذا هو الذي يعطيه ظاهر اللفظ وهو معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [النازعات : 26] يعني في أخذه نكال الآخرة والأولى .

(247/368)

وقدم سبحانه : ذكر الآخرة على الأولى ليعلم أن ذلك العذاب أعني عذاب الغرق هو نكال الآخرة وهذا هو الفصل العظيم انتهى ، وهو نص في إيمانه بل في كونه من الشهداء بناء على أن الموت غرقاً شهادة للمؤمنين كما أجمع عليه أئمة الدين على خلاف في موت من قصر في تعلم السباحة غريقاً هل يهد شهادة أم لا ؟ فإن بعض الشافعية ذهب إلى أن المقصر المذكور إذا مات غريقاً مات عاصياً لا شهيداً ، وإنما الشهيد من مات كذلك وكان عارفاً بالسباحة أو غير مقصر في تعلمها لكن لم يتعلم وكأن الشيخ قدس سره لا يقول بهذا التفصيل أو كان يعلم أن فرعون كان ممن يعلم السباحة أو ممن لم يقصر في تعلمها أو أنه يقول : إن الإيمان كفر عنه كل معصية قبله ومن جملة ذلك معصية التقصير مثلاً التي هي دون قوله : ﴿ آٱلْـَٔانَ

رَبُّكُمُ الاعلى ﴾ [النازعات : 24] و ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِى ﴾ [القصص : 38] بألف ألف مرتبة لكن لا أدري هل الغريق شهيد في شريعة موسى عليه السلام كما هو كذلك في شريعتنا أم هذا هلأمر من خواص هذه الشريعة التي أنعم الله تعالى على أهلها بما أنعم كرامة لنبيها صلى الله عليه وسلم ، وقد ذهب قدس سره في كتابه فصوص الحكم إلى نحو ما ذهب إليه أخيراً في كتابه الفتوحات ، وقد اعترض عليه بذلك غير واحد وهو عندي ليس بأعظم من قوله قدس سره بإيمان قوم نوح عليه السلام وكثير من اضرابهم ونجاتهم يوم القيامة وقد نص على ذلك في الفصوص ، والعجب أنه لم يكثر معترضوه في ذلك كثرتهم في القول بإيمان فرعون ؛ وقد انتصر له بعض الناس ومنهم في المشهور الجلال الدواني وله رسالة في ذلك أتى فيها بما لا يعد شيئاً عند أصاغر الطلبة ، لكن في تاريخ حلب للفاضل الحلبي كما قال مولانا الشهاب أنها ليست للجلال وإنما هي لرجل يسمى محمد بن هلال النحوي وقد ردها القزويني وشنع عليه وقال : إنما مثله مثل رجل خامل الذكر لما قدم مكة بال في زمزم ليشتهر بين الناس ، وفي المثل

خالف تعرف ، ويؤيد كونها ليست للجلال أنه شافعي المذهب كما يشهد لذلك حاشيته على الأنوار .

وفي فناوي ابن حجر أن بعض فقهائنا كفر من ذهب إلى إيمان فرعون مع ما عليه تلك الرسالة من اختلال العبارة وظهور الركاكة وعدم مشابهتها لسائر تأليفاته ، ولولا خوف الاطالة لسردتها عليك ، وبالجملة ظواهر الآي صريحة في كفر فرعون وعدم قبول إيمانه ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مّن مساكنهم وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أعمالهم فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ وقارون وَفِرْعَوْنَ وهامان وَلَقَدْ جَاءهُمْ موسى بالبينات فاستكبروا فِى الأرض وَمَا كَانُواْ سابقين فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾

[العنكبوت : 38-40] فإنه ظاهر في استمرار فرعون على الكفر والمعاصي الموجبة لما حل به كما يدل عليه التعبير بكان والفعل المضارع ومع الإيمان لا استمرار ، على أن نظمه في سلك من ذكر معه ظاهر أيضاً في المدعى .

وألحق بعضهم بذلك قوله تعالى : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لّى وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ [طه : 39] بناء على أن ﴿ عَدُوٌّ ﴾ صفة مشبهة وهي للثبوت فيدل على ثبوت عداوته لله تعالى وعداوته لرسوله عليه السلام وثبوت احدى العداوتين كاف في سوء حاله خلافاً لمن وهم ، وقد

صرحوا أيضاً بأن إيمان البأس واليأس غير مقبول ولا شك أن إيمان المخذول كان من ذلك القبيل وإنكاره مكابرة ، وقد حكى إجماع الأئمة المجتهدين على عدم القابول ومستندهم فيه الكاتب والسنة ، وما ينقل عن الإمام مالك من القبول لم يثبت عند المطلعين على أقوال المجتهدين واختلافاتهم .

(249/368)

نعم صرح الإمام القاضي عبد الصمد من ساداتنا الحنفية في تفسيره بأن مذهب الصوفية أن الإيمان ينتفع به ولو عند معاينة العذاب ، وهذا الإمام متقدم على الشيخ الأكبر قدس سره بنحو مائة سنة ، وحينئذ تشكل حكاية الإجماع إلا أن يقال : بعدم تسليم صحة ذلك عن الصوفية الذين هم من أهل الاجتهاد المعول عليهم لما فيه من المخالفة للأدلة الظاهرة في عدم النفع فلا يخل ذلك بالإجماع بالاجماع .

(250/368)

وفي الزواجر أنه على تقدير التسليم لا يضرنا ذلك في دعوى إجماع الأمة على كفر فرعون لأنا لم نحكم بكفره لأجل إيمانه عند البأس فحسب بل لما انضم إليه من أنه لم يؤمن بالله تعالى إيماناً صحيحياً بل كان تقليداً محضاً بدليل قوله : ﴿ لا إله إلاَّ الذى ءامَنَتْ إسرائيل ﴾ [يونس : 90] فكأنه اعترف بأنه لا يعرف الله تعالى وإنما سمع من بني إسرائيل أن للعالم إلهاً فآمن بذلك الإله الذي سمع بني إسرائيل يقرون بوجوده وهذا هو محض التقليد الذي لا يقبل لا سيما من مثل فرعون الذي كان دهرياً منكراً لوجود الصانع فإنه لا بد له من برهان قطعي يزيل ما هو عليه من الاعتقاد الخبيث البالغ نهاية القبح والفحش ، وأيضاً لا بد في إسلام الدهري ونحوه ممن كان قد دان بشيء أن يقر ببطلان ذلك الشيء الذي كفر به فلو قال : آمنت بالذي لا إله غيره لم يكن مسلماً ، وفرعون لم يعترف ببطلان ما كان كفر به من نفى الصانع وادعاء الإلهية لنفسه الخبيثة ، وقوله : ﴿ لا إله إلاَّ الذى ءامَنَتْ إسرائيل ﴾ [يونس : 90] لا يدري ما الذي أراد به فلذا صرح الأئمة بأن آمن بالذي لا إله غيره لا يحصل الإيمان للاحتمال فكذا ما قاله ، وعلى التنزل فالإجماع منعقد على أن الإيمان بالله تعالى مع عدم الإيمان بالرسول لا يصح فلو سلمنا أن فرعون آمن بالله تعالى إيماناً صحيحاً فهو لم يؤمن بموسى عليه السلام ولا تعرض له أصلاً فلم يكن إيمانه نافعاً ، ألا ترى أن الكافر لو قال ألوفاً من المرات أشهد أن لا إله إلا الله أو إلا الذي آمن به المسلمون لا يكون مؤمناً حتى يقول وان محمداً رسول الله .

(251/368)

والسحرة تعرضوا في إيمانهم للإيمان بموسى عليه السلام بقولهم : ﴿ بِرَبِّ العالمين رَبِّ رَبِّ موسى وهارون ﴾ [الأعراف : 121-122] فلا يقال : إن إيمان فرعون على طرز إيمانهم لذلك على أن إيمانهم حين آمنوا كان بمعجزة موسى عليه السلام والإيمان بالله تعالى مع الإيمان بمعجزة الرسول إيمان بالرسول فهم آمنوا .

وسى عليه السلام بخلاف فرعون فإنه لم يتعرض للإيمان به عليه السلام أصلاً بل في ذكره بني إسرائيل دونه مع أنه الرسول العارف بالاله وما يليق به والهادي إلى طريقه إشارة ما إلى بقائه على كفره به .

(252/368)

وما ذكره الشيخ الأكبر قدس سره في توجيه آية ﴿ حتى إِذَا أَدْرَكَهُ الغرق ﴾ [يونس : 90] الخ خارج عن ذوق الكلام العربي وتجشم تكلف لا معنى له ، ويرشد إلى بعض ذلك أنه قدس سره حمل قوله تعالى : ﴿ ءالْئَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ ﴾ [يونس : 91] الخ على على

العتب والبشرى ، مع أنه لا يخفى أنه لو صح إيمانه وإسلامه لكان الأنسب بمقام الفضل الذي إليه طمح نظر الشيخ أن يقال له : الآن نقبلك ونكرمك لاستلزام صحة إيمانه رضا الحق عنه ومن وقع له الرضا لا يخاطب بمثل ذلك الخطاب كما لا يخفى على من له وقوف على أساليب كلام العرب ومحاوراتهم ، وأيضاً كيف يخاطب من محا الإيمان عصيانه وافساده بما هو ظاهر في التأنيب المحض والتقريع الصرف والتوبيخ البحت فما ذلك إلا لإقامة أعظم نواميس الغضب عليه وتذكيره بقبائحه التي قدمها وإعلامه بأنها هي التي منعته عند النطق بالإيمان إلى حيث لا ينفعه وكذا تأويله ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُم ﴾ [غافر : 85] بأن النافع هو الله تعالى مع أن اصطلاح الكتاب والسنة نسبة الأشياء إلى أسبابها إيجاباً وسلباً ، فإذا قيل : لا ينفع الإيمان فليس معناه الشرعي إلا الحكم عليه بأنه باطل لا يعتد به ؛ وأي معنى سوغ تخصيص نفع الله تعالى بهذه الحالة التي هي حالة وقوع العذاب مع النظر إلى ما هو الواقع من أن الله تعالى هو النافع حقيقة في كل وقت ولو نفعهم لما استأصلهم بالعذاب ، وقوله تعالى : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [غافر : 78] دليل واضح على أن المراد ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُم ﴾ [غافر : 85] أنهم باقون مع ذلك الإيمان على الكفر إلى غير ذلك مما لا يخفى على النظر في كلامه قدس سره ، فالذي ينبغي أن يعول عليه ما ذهب أولا إليه ، وقد قالوا : إذا اختلف كلام إمام يؤخذ منه بما يوافق الأدلة الظاهرة ويعرض عما

خالفها ، ولا شك أن ما ذهب إليه أولاً هو الموافق لذلك ، على أنه لو لم يكن له قدس سره إلا

(253/368)

القول بقبول إيمانه لا يلزمنا اتباعه في ذلك والأخذ به لمخالفته ما دل عليه الكتاب والسنة وشهدت به أئمة الصحابة والتابعين فمن بعدهم من المجتهدين ، وجلالة قائله لا توجب القبول ، فقد قال مالك .

وغيره : ما من أحد إلا مأخوذ من قوله ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن على كرم الله تعالى وجهه : لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال ، وكأن الشيخ قدس سره قال ذلك من طريق النظر والنظر يخطىء ويصيب ، ومن علم أن للنبي عليه الصلاة والسلام اجتهاداً جاء الوحي بخلافه لم يستعظم ما قيل في الشيخ وان كان هو هو على أنه لو كان قال ذلك من طريق الكشف إلا أنه أبدي الاستدلال تفهيماً وإرشاداً إلى أن فهمه لم يخالف ما يدل عليه الكاتب لم يلزمنا أيضاً تقليده بل قد مر عن الإمام الرباني قدس سره أنه لا يجوز تقليد الكشف ، وصرح غير واحد بأنه ليس بحجة على الغير كالإلهام ولا يثبت به حكم شرعي .

وأنت تعلم أنه لو كان كل من القولين من طريق الكشف يلزم انقسام الكشف إلى صواب وخطأ كالنظر ضرورة عدم اجتماع الإيجاب والسلب على الكذب ولا على الصدق وهو ظاهر ، وقد قال بعضهم : بالانقسام ويخفى وجهه ، ومن الناس من أول كلام الشيخ المثبت لقبول الإيمان بأن المراد بفرعون فيه النفس الأمارة وبموسى وهارون المأمورين بالقول اللين موسى الروح وهارون القلب وأخذ يقرر الكلام على هذا السنن ، ولا يخفى أن ارتكاب ذلك على ما فيه من التكلف الظاهر الكلف في كلام الشيخ ما يأباه ، ولعله خلاف مطمح نظره ولذلك لم يرتكبه أجلة أصحابه بل أبقوا كلامه على ظاهره وهو الظاهر ، واكفار بعض المنكرين له فيه ضلال وأي ضلال وظلم عظيم موجب للنكال ، فإن له قدس سره في ذلك مستنداً كغيره المقابل له وان اختلفا في القوة والضعف ، على أن الوقوف على حقيقة هذه المسألة ليس مما كلفنا به فلا يضر الجهل بها في الدين والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ ﴾

أي : لحقهم : ﴿ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً ﴾ أي : لأجل البغي عليهم والاعتداء : ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ﴾ يرجو النجاة من الغرق : ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام لما رغب إلى فرعون أن يطلق الإسرائيليين من عبوديته ، ويأذن لهم بالسراح إلى فلسطين ليعبدوا ربهم ، أبى وتمرد ، فضربه الله وقومه بالآيات التسع ، كما تقدم في سورة (الأعراف) فأذن لموسى وشعبه بالخروج من مصر ، فارتحل بنو إسرائيل جميعاً بمواشيهم وأثاثهم ، ثم ندم فرعون وملؤه على إطلاقهم من خدمتهم ، فاشتد فرعون وجنوده في أثرهم ليردهم ، فأدركهم وهم نازلون عند البحر ، فرهب الإسرائيليون من مقدمه ، وضجوا إلى موسى فسكن روعهم ، وأعلمهم ما يشاهدون من نجاتهم ، وهلاك عدوهم ، وأوحى تعالى إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر ، فانشق ، ودخل بنو إسرائيل في وسطه على اليبس الذي جعله تعالى آية كبرى ، ونفذوا منه إلى شاطئه ، وتبعهم فرعون وجنوده ، حتى إذا توسطوا البحر ، مد موسى يده على البحر ، فارتد إلى ما كان عليه ، وغرق فرعون بمن معه . ولما أحس بالغرق ، لاذ إلى الإيمان يبغي النجاة ، فقيل له :

﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [91] .

﴿ آلآنَ ﴾ أي : تؤمن وتسلم لتنجو من الغرق : ﴿ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ أي : كفرت بالله من قبل الغرق : ﴿ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أي : الضلال والإضلال ، والظلم والعتو .

(256/368)

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾

أي : نخرجك من البحر بجسدك الذي لا روح فيه ، فرآه بنو إسرائيل ملقى على شاطئ البحر ميتاً ، وفي التعبير عن إخراجه من القعر إلى الشاطئ (بالتنجية) التي هي الخلاص من المكروه تهكم واستهزاء ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ﴾ من الأمم الكافرة : ﴿ آيَةً ﴾ أي : عبرة من الطغيان والتمرد على أوامره تعالى ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ أي : لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها .

تنبيه :

قال الشهاب الخفاجي في " العناية " : لا يقبل إيمان المرء حال اليأس والاحتضار ، كما يدل عليه صريح الآية : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ [غافر : من الآية 85] ، وأما ما وقع في " الفصوص " من صحة إيمانه ، وأن قوله : ﴿ آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ ﴾ إيمان بموسى عليه السلام ؛ فمخالف للنص والإجماع ، وإن ذهب إلى ظاهره الجلال

الدواني رحمه الله . وله رسالة فيه طالعتها ، وكنت أتعجب منها حتى رأيت في " تاريخ حلب " للفاضل الحلبي أنها ليست له ، وإنما هي لرجل يسمى محمد بن هلال النحوي .

وقد ردها القزويني ، وشنع عليه وقال : إنما مثاله مثال رجل خامل الذكر ، لما قدم مكة بال في زمزم ليشتهر بين الناس ، كما في المثل (خالف تعرف) وفي " فتاوى ابن حجر رحمه الله " أن بعض فقهائنا كفَّر من ذهب إلى إيمان فرعون ، ولذا قيل : إن المراد بفرعون (في كلامه) النفس الأمارة ، وهذا كله مما لا حاجة إليه – انتهى كلام الشهاب – .

أقول : ذكر شيخنا العطار رحمه الله في كتابه " الفتح المبين في رد اعتراض المعترض على محي الدين " خاتمة في بطلان ما نسب إلى هذا العارف من القول بصحة إيمان فرعون ونجاته ، قال رحمه الله :

(257/368)

ليعلم أنه شاع فيما بين أهل العلم بأن حضرة محي الدين رضي الله عنه قال بإيمان فرعون ونجاته ، والحال أنه ليس كذلك ، كما ستطلع عليه من النقل عنه ، بحث في صحة القول بإيمان فرعون ونجاته وعدمها ، حيث الأخذ من الآيات القرآنية ، فكان ذلك منه مجرد بحث في الدليل لا غير ، وما كان هذا قولاً بإيمانه قطعياً ، وقد بنى مسألة نجاة فرعون

وإيمانه على أصلين من أصوله ، وافقه عليهما جم غفير من العلماء الأعلام .

الأصل الأول – في بيان حقيقة إيمان اليأس : فإيمان اليأس عنده ، وعند جم غفير من العلماء هو ما كان عند مشاهدة العذاب البرزخي ، كحال المحتضر لا غير ، ففي هذه الحالة لا ينفع الإيمان ، وهذا متفق عليه بين أهل العلم . وذهب قوم إلى أن إيمان اليأس ما كان عند رؤية العذاب دنيوياً أو أخروياً ، فالإيمان في أي : حالة من الحالتين لا ينفع . وعند هذا العارف وجماعة : أن رؤية العذاب الدنيوي لا تمنع صحة الإيمان ، وإن أوجبت الهلاك في الدنيا ، فإن سنة الله قاضية بأن يتحتم وقوع الهلاك الدنيوي لمن رأى هذا العذاب وإن آمن ونجا من عذاب الآخرة ، إلا قوم يونس ، فإنه تعالى نجاهم منه ، كما ذكره تعالى .

(258/368)

الأصل الثاني – من أصوله رضي الله عنه : أن من حقت عليه الكلمة لا يتلفظ بمادة الإيمان بقصد الإيمان بقصد الإيمان ، وإن تلفظ بها لا يقصده ، فلا بد من تكذيب الله تعالى له ، ولو بالحكاية عنه كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة : من الآية 14] ، وكما قال : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا ﴾ [الحجرات : من الآية 14] ، فكذبهم تعالى في دعواهم . وهذا الأصل مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : 96 - 97] ، فكلمة : ﴿ حَتَّى ﴾ للغاية ، فغيًّا تعالى إيمانهم إلى حين رؤية العذاب الأليم ، وهو الأخروي لا غير ، فإنه هو الذي يوصف بالأليم . ونفى تعالى عنهم وقوع الإيمان قبل ذلك ، فوقوعه منهم قبله قصداً محال بنص هذه الآية .

إذا تقرر هذان الأصلان ، فلنرجع إلى ما قاله هذا الحبر في شأن فرعون في " الفتوحات المكية " وفي " الفصوص " . فالذي ذكره في " الفتوحات " عن ذكره طبقات أهل النار فيها : هو أن فرعون من أهل النار ، حيث قال في هذا البحث : كفرعون وأضرابه ، فخص له ولهم من النار طبقة مخصوصة يؤبدون فيها . وأشار إلى كفره في موضع آخر منها عند ذكره هذا الحديث ، وهو : < أعوذ بك منك > قال : استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقام الاتحاد الذي كان عليه فرعون وهو قوله : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات : من الآية 24] ، وعلى هذه الإشارة وما تقدم يكون فرعون كافراً عنده ، كما هو عند عامة الخلق ، وعلى هذا لا إشكال ولا كلام .

(259/368)

بقي القول على إيمان فرعون ونجاته من حيث الدليل ، وهو مجرد بحث مع الذين ذهبوا إلى كفره قطعياً ، وليس لهم هذا القطع ، لما أن الدليل القرآني يعطي خلافه ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ ﴾ الآية ، فذكر فرعون هنا الإيمان ثلاث مرات : اثنتان في الجناب الإلهي ، والأخيرة تعمه ، والإيمان بموسى حيث قال : ﴿ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ولم يكن مسلماً إلا من جمع بين الإيمان بالله وبرسوله .

ثم قال شيخنا رحمه الله : وفي " الفتوحات " و " الفصوص " ما حاصله : أن إيمانه لم يكن عند اليأس ، لا على مذهبه ومذهب من وافقه ، ولا على مذهب غيره . أما الأول فلأن إيمانه كان عند رؤية العذاب الدنيوي ، لا عند احتضاره ، والإيمان عند رؤية العذاب الدنيوي لا يعد يأساً عنده وعند جمع . وأما على الثاني ، فلأن قول فرعون ما كان عند يأسه من الحياة الدنيوية ، فإنه علم أن من آمن بما آمن به قوم موسى كان له المشاركة في الطريق اليبس التي كانت للمؤمنين ، وقد شاركهم في إيمانهم فكان الغالب على ظنه أو يقينه المعاملة الخاصة بالمؤمنين والمشاهدة له ، وما علم سنة الله في خلقه بأنه لا بد من الهلاك الدنيوي لمن كانت حالته كذلك ، والهلاك في الدنيا لا يدل على عدم النجاة في الآخرة ، وهو ظاهر . وعلى هذا فإيمانه لم يكن حال اليأس على المذهبين ، فالأول بيقين ، والثاني بحسب ما يظهر ، ولا بعد بأنه كان طامعاً في النجاة بيقين ، لعموم المشاركة . هذا وإن مذهب هذا العارف الخاص به هو البناء على اتساع الرحمة الإلهية ، والأخذ بالظواهر من

الآيات ، ومع ذلك فلما ذكر البحث في شأن إيمان فرعون ونجاته ، مع من قال بخلافهما ، قال : إن الوقف في شأن إيمان فرعون هو الأسلم ، لما شاع عند الخلق عامة من شقائه ، وهذا منه صريح في أنه كان باحثاً في إيمانه ونجاته من ظاهر اللفظ القرآني بحثاً لا جازماً بهما - انتهى ملخصاً - . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 59.62 ﴾

(260/368)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾

معطوفة على جملة ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تَبَوَّءا لقومكما بمصر بيوتاً ﴾ [يونس : 87] عطف الغرض على التمهيد ، أي ، أمرناهما باتخاذ تلك البيوت تهيئة للسفر ومجاوزة البحر .

وجاوزنا ، أي قطعنا بهم البحر ، والباء للتعدية ، أي أقطعناهم البحر بمعنى جعلناهم قاطعين البحر .

وتقدم نظيره في سورة الأعراف [138] .

ومجاوزتهم البحر تقتضي خوضهم فيه ، وذلك أن الله جعل لهم طرائق في البحر يُمرون

منها .

و﴿ أتبعهم ﴾ بمعنى لحقهم .

يقال : تَبعه فأَتْبَعَه إذا سار خلفه فأدركه .

ومنه ﴿ فأتبعَه شهابٌ ثاقب ﴾ [الصافات : 10] .

وقيل : أتبع مُرادف تبع .

والبغي : الظلم ، مصدر بغى .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ والإثم البغيَ بغير الحق ﴾ في [الأعراف : 33] .

والعَدْو : مصدر عدا .

وهو تجاوز الحد في الظلم ، وهو مسوق لتأكيد البغي .

وإنما عطف لما فيه من زيادة المعنى في الظلم باعتبار اشتقاق فعل عدا .

والمعنى : أن فرعون دخل البحر يتقصّى آثارهم فسار في تلك الطرائق يريد الإحاطة بهم ومنْعَهم من السفر ، وإنما كان اتباعه إياهم ظلماً وعُدواناً إذ ليس له فيه شائبة حق ، لأن بني إسرائيل أرادوا مفارقة بلاد فرعون وليست مفارقة أحد بلده محظورة إن لم يكن لأحد عليه حق في البقاء ، فإن لذي الوطن حقاً في الإقامة في وطنه فإذا رام مغادرة وطنه فقد تخلى عن حق له ، وللإنسان أن يتخلى عن حقه ، فلذلك كان الخَلع في الجاهلية عقاباً ، وكان النفي والتغريب في الإسلام عقوبة لا تقع إلا بموجب شرعي ، وكان الإمساك بالمكان

عقاباً ، ومنه السجن ، فليس الخروج من الوطن طوعاً بعُدوان .

فلما رام فرعون منع بني إسرائيل من الخروج وشدّ للحاق بهم لردهم كرهاً كان في ذلك ظالماً معتدياً ، لأنه يبتغي بذلك إكراههم على البقاء ولأن غرضه من ذلك تسخيرهم .

وحتى ﴿ ابتدائية لوقوع ﴿ إذا ﴾ الفُجائية بعدها .

(261/368)

وهي غاية للإتباع ، أي استمر إتباعه إياهم إلى وقت إدراك الغرق إياه ، كل ذلك لا يفتأ يجدّ في إدراكهم إلى أن أنجى الله بني إسرائيل فاخترقوا البحر ، ورد الله غمرة الماء على فرعون وجنوده ، فغرقوا وهلك فرعون غريقاً ، فمنتهى الغاية هو الزمان المستفاد من (إذا) ، والجملة المضافة هي إليها وفي ذلك إيجاز حذفٍ .

والتقدير : حتى أدركه الغرق فإذا أدركه الغرق قال آمنت ، لأن الكلام مسوق لكون الغاية وهي إدراك الغرق إياه فعند ذلك انتهى الإتباع ، وليست الغاية هي قوله : ﴿ آمنت ﴾ وإن كان الأمران متقارنين .

والإدراك : اللحاق وانتهاء السير .

وهو يؤذن بأن الغرق دنا منه تدريجياً بهول البحر ومصارعته الموج ، وهو يأمل النجاة منه ،

وأنه لم يُظهر الإيمان حتى أيس من النجاة وأيقن بالموت ، وذلك لتصلبه في الكفر .

وتركيب الجملة إيجاز ، لأنها قامت مقام خمس جمل:

جملة : تفيد أن فرعون حاول اللحاق ببني إسرائيل إلى أقصى أحوال الإمكان والطمع في اللحاق .

وجملة : تفيد أنه لم يلحقهم .

وهاتان مستفادان من (حتى) ، وهاتان منَّة على بني إسرائيل .

وجملة : تفيد أنه غمره الماء فغرق ، وهذه مستفادة من قوله : ﴿ أدركه الغرق ﴾ وهي عقوبة له وكرامة لموسى عليه السلام .

وجملة : تفيد أنه لم يسعه إلا الإيمان بالله لأنه قهرته أدلة الإيمان .

وهذه مستفادة من ربط جملة إيمانه بالظرف في قوله : ﴿ إذا أدركه الغرق ﴾ .

وهذه منقبة للإيمان وأن الحق يغلب الباطل في النهاية .

وجملة : تفيد أنه مَا آمن حتى أيس من النجاة لتصلبه في الكفر ومع ذلك غلبه الله .

وهذه موعظة للكافرين وعزة لله تعالى .

(262/368)

وقد بُني نظم الكلام على جملة : ﴿ إذا أدركه الغرق ﴾ ، وجعل ما معها كالوسيلة إليها ، فجعلت (حتى) لبيان غاية الإتْبَاع وجعلت الغاية أن قال : ﴿ آمنتُ ﴾ لأن إتباعه بني إسرائيل كان مندفعاً إليه بدافع حنقه عليهم لأجل الدين الذي جاء به رسولهم ليخرجهم من أرضه ، فكانت غايتُه إيمانَه بحقهم .

ولذلك قال : ﴿ الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾ ليفيد مع اعترافه بالله تصويبه لبني إسرائيل فيما هُدوا إليه ، فجعل الصلة طريقاً لمعرفته بالله ، ولعدم علمه بالصفات المختصة بالله إلا ما تضمنته الصلة إذ لم يتبصر في دعوة موسى تمام التبصر ، ولذلك احتاج أن يزيد ﴿ وأنا من المسلمين ﴾ لأنه كان يسمع من موسى دعوتَه لأنْ يكون مسلماً فنطق بما كان يسمعه وجعل نفسه من زمرة الذين يحق عليهم ذلك الوصف ، ولذلك لم يقل : أسلمتُ ، بل قال أنا من المسلمين ، أي يلزمني ما التزموه .

جاء بإيمانه مجملاً لضيق الوقت عن التفصيل ولعدم معرفته تفصيله .

وسيأتي قريباً في تفسير الآية التي بعد هذه تحقيق صفة غرق فرعون ، وما كان في بقاء بدنه بعد غرقه .

وقرأ الجمهور ﴿ آمنتُ أَنه ﴾ بفتح همزة (أنه) على تقدير باء الجر محذوفة .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف بكسر الهمزة على اعتبار (إنّ) واقعة في أول جملة ، وأنّ جملتها بدل من جملة ﴿ آمنت ﴾ بحذف متعلق فعل ﴿ آمنت ﴾ لأن جملة البدل تدل

عليه .

﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

مقول لقول حذف لدلالة المقام عليه ، تقديره : قال الله .

وهو جواب لقوله : ﴿ آمنت ﴾ [يونس : 90] لأنه قصد بقوله ذلك طلبَ الإنجاء من الغرق اعترافاً لله بالربوبية ، فكأنه وجه إليه كلاماً .

فأجابه الله بكلام .

(263/368)

وقال الله هذا الكلام له على لسان الملَك الموكل بتعذيبه تأييساً له من النجاة في الدنيا وفي الآخرة ، تلك النجاة التي هي مأمولة حين قال : ﴿ آمنت ﴾ [يونس : 90] إلى آخره ، فإنه ما آمن إلا وقد تحقق بجميع ما قاله موسى ، وعلم أن ما حل به كان بسبب غضب الله ، ورجا من اعترافه له بالوحدانية أن يعفو عنه وينجيه من الغرق .

ويدل على ذلك قول الله عقب كلامه ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك ﴾ كما سيأتي .

والاستفهام في ﴿ ألآن ﴾ إنكاري .

والآن : ظرف لفعل محذوف دل عليه قوله : ﴿ آمنتُ ﴾ [يونس : 90] تقديره : الآن

تؤمن ، أي هذا الوقت .

ويقدر الفعل مؤخراً ، لأن الظرف دل عليه ، ولأن محط الإنكار هو الظرف .

والإنكار مؤذن بأن الوقت الذي عُلق به الإنكار ليس وقتاً ينفع فيه الإيمان لأن الاستفهام الإنكاري في قوة النفي ، فيكون المعنى : لا إيمان الآن .

والمنفي هو إيمانٌ ينجي مَن حصل منه في الدنيا والآخرة .

وإنما لم ينفعه إيمانه لأنه جاء به في وقت حصول الموت .

وهو وقت لا يقبل فيه إيمان الكافر ولا توبة العاصي ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبتُ الآن ولا الذين يموتون وهم كفّار ﴾ [النساء : 18] .

و(الآن) اسم ظرف للزمان الحاضر . . .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ الآن خفَّف الله عنكم ﴾ في سورة [الأنفال : 66] .

وجملة : وقد عصيتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين ﴾ في موضع الحال من معمول (تؤمن) المحذوف ، وهي موكدة لما في الاستفهام من معنى الإنكار ، فإن إيمانه في ذلك الحين منكر ، ويزيده إنكاراً أن صاحبه كان عاصياً لله ومفسداً للدين الذي أرسله الله إليه ، ومفسداً في الأرض بالجور والظلم والتمويه بالسحر .

وصيغة : ﴿ كنتَ من المفسدين ﴾ أبلغ في الوصف بالإفساد من : وكنتَ مُفسداً ، كما تقدم آنفاً ، وبمقدار ما قدّمه من الآثام والفساد يشدّد عليه العذاب .

(264/368)

والفاء التي في قوله : ﴿ فاليوم ﴾ فاء الفصيحة ، تفصح عن شرط مقدر في الكلام يدل عليه السياق .

والمعنى : فإن رمتَ بإيمانك بعد فوات وقته أن أُنجيك من الغرق فاليوم ننجيك ببدنك ، والكلام جار مجرى التهكم ، فإطلاق الإنجاء على إخراجه من البحر استعارة تهكمية . وليس مسوغها التهكم المحض كما هو الغالب في نوعها ، بل فيها علاقة المشابهة ، لأن إخراجه إلى البر كاملاً بشكّته يشبه الإنجاء ، ولكنه ضد الإنجاء ، فكان بالمشابهة ، استعارة ، وبالضدية تهكماً ، والمجرور في قوله : ﴿ ببدنك ﴾ حال .

والأظهر أن الباء من قوله : ﴿ ببدنك ﴾ مزيدة للتأكيد ، أي تأكيد آية إنجاء الجسد ، فيكون قوله : (بدنك) في معنى البدل المطابق من الكاف في ﴿ ننجيك ﴾ كزيادة الباء في قول الحريري : "فإذا هو أبو زيد بعينه ومَينه" .

والبدَن : الجسم بدون روح وهذا احتراس من أن يظن المراد الإنجاء من الغرق .

والمعنى : ننجيك وأنت جسم .

كما يقال : دخلت عليه فإذا هو جثة ، لأنه لو لم يكن المقصود الاقتصار على تلك الحالة لما كان داع للبليغ أن يزيد ذلك القيد ، فإن كل زيادة في كلام البليغ يقصد منها معنى زائد ، وإلا لكانت حشوا في الكلام والكلام البليغ موزون ، ولغة العرب مبنية على أساس الإيجاز .

و ﴿ لمن خلفك ﴾ أي من وراءك .

والوراء : هنا مستعمل في معنى المتأخر والباقي ، أي من ليسوا معك .

والمراد بهم من يخلفه من الفراعنة ومن معهم من الكهنة والوزراء ، أي لتكون ذاته آية على أن الله غالب من أشركوا به ، وأن الله أعظم وأقهر من فرعون وآلهته في اعتقاد القبط ، إذ يرون فرعون الإله عندهم طريحاً على شاطيء البحر غريقاً .

فتلك ميتة لا يستطيعون معها الدجل بأنه رفع إلى السماء ، أو أنه لم يزل يتابع بني إسرائيل ، أو نحو ذلك من التكاذيب لأنهم كانوا يزعمون أن فرعون لا يُغلب ، وأن الفراعنة حين يموتون إنما ينقلون إلى دار الخلود .

(265/368)

ولذلك كانوا يموّهون على الناس فيبنون له البيوت في الأهرام ويودعون بها لباسه وطعامه ورياشه وأنفَس الأشياء عنده ، فموته بالغرق وهو يُتبع أعداءه ميتَة لا تُوَوّلُ بشيء من ذلك ، فلذلك جعل كونه آية لمن خلفه علة لإخراجه من غمرة الماء ميتاً كاملاً ، فهم مضطرون إلى الاعتراف بأنه غرق إذا نظروا في تلك الآية .

ولم يعدم فرعون فائدة من إيمانه ، فإن الله بحكمته قدر له الخروج من غمرات الماء ، فلم يبق في الماء أكلة للحيتان ولكن لفظته الأمواج ، وتلك حالة أقل خزياً من حالات سائر جيشه بها ظهر نفع ما له بما حصل لنفسه من الإيمان في آخر أحواله .

وكلمة ﴿ فاليوم ﴾ مستعملة في معنى (الآن) لأن اسم اليوم أطلق على جزء من زمن الحال مجازاً بعلاقة الكلية والجزئية .

وجملة : ﴿ وإنّ كثيراً من النّاس عن آياتنا لغافلون ﴾ تذييل لموعظة المشركين ، والواو اعتراضية ، أو واو الحال .

والمراد منه : دفع توهم النقص عن آيات الله عندما يحرم كثير من الناس الاهتداء بها ، فهي في ذاتها دلائل هدى سواء انتفع بها بعض الناس أم لم ينتفعوا فالتقصير منهم .

واعلم أن هذه الآية أصرح آية في القرآن دلالةً على أن فرعون الذي أرسل إليه موسى والذي أتبع بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر قد أصابه الغرق .

وقد أشارت إليه آية سورة الأعراف وآية سورة البقرة .

وفرعون هذا هو منفطاح الثاني ، ويقال له (مَيْرنْبَتَا) بياء فارسية أو (منفتاح) ، أو (منيفتا) وهو ابن رعمسيس الثاني المعروف عند اليونان باسم (سَيْزُوسْتريس) ، من ملوك العائلة التاسعة عشرة من الأسر الفرعونية ، وكانوا في حدود سنة 1491 قبل المسيح .

قال ابن جُريج : كان فرعون هذا قصيراً أحمر فلا نشك في أن منفطاح الثاني مات غريقاً في البحر ، وأنه خرجت جثته بعد الغرق فدُفن في وادي الملوك في صعيد مصر .

(266/368)

فذكر المنقبون عن الآثار أنه وجد قبرُه هناك ، وذلك يومىء إلى قوله تعالى : ﴿ فاليومَ نُنَجّيك ببدنك لتكونَ لمن خلفك آية ﴾ .

ووجود قبر له إن صح بوجه محقق ، لا ينافي أن يكون مات غريقاً ، وإن كان مؤرخو القبط لم يتعرضوا لصفة موته ، وما ذلك إلا لأن الكهنة أجمعوا على إخفائها كيلا يتطرق الشك إلى الأمة فيما يمجد به الكهنة كل فرعون من صفات بنوة الآلهة .

وخلفتْه في ملك مصر ابنته المسماة (طوسير) لأنه تركها وابناً صغيراً .

وقد جاء ذكر غرق فرعون في التوراة في الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج بعبارات

مختلفة الصراحة والإغلاق .

ومن دقائق القرآن قوله تعالى : ﴿ فاليوم نُنجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ﴾ وهي عبارة لم يأت مثلها فيما كتب من أخبار فرعون ، وإنها لمن الإعجاز العلمي في القرآن إذ كانت الآية منطبقة على الواقع التاريخي .

والظاهر أن الأمواج أَلْقَت جثّته على الساحل الغربي من البحر الأحمر فعثر عليه الذين خرجوا يتقصون آثاره ممن بقُوا بعده بمدينة مصر لما استبطأوا رجوعه ورجوع جيشه ، فرفعوه إلى المدينة وكان عبرة لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(267/368)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾

قال الحق سبحانه :

﴿ وَجَاوَزْنَا ببني إِسْرَائِيلَ البحر ﴾ [يونس : 90] لأن الاجتياز لم يكن بأسباب بشرية ، بل بفعل يخرج من أسباب البشر ، فلو أن موسى عليه السلام قد حفر نفقاً تحت الماء ، أو لو كان قد ركب سفناً هو وقومه لكان لهم مشاركة في اجتياز البحر ، لكن المجاوزة كانت

بأسباب غير ملوحظة بالنسبة للبشر ، فالحق سبحانه هو الذي أوحى لموسى :

﴿ أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر ﴾ [الشعراء : 63] .

ومياه البحر كأية مياه أخرى تخضع لقانون السيولة ، والاستطراق هو وسيلة السيولة ، وهي عكس التجمد الذي يتسم بالتحيز .

والاستطراق هو الذي قامت عليه أساليب نقل المياه من صهاريج المياه التي تكون في الأغلب أعلى من طول أي منزل ، ويتم ضخ المياه إليها ؛ لتتوزع من بعد ذلك حسب نظرية الأواني المستطرقة على المنازل ، أما إذا كانت هناك بناية أعلى طولاً من الصهريج ، هنا يقوم سكان المبنى بتركيب مضخة لرفع المياه إلى الأدوار العالية .

وإذا كان قانون البحر هو السيولة والاستطراق ، فكيف يتم قطع هذا الاستطراق ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ [الشعراء : 63] .

فكيف تحول الماء إلى جبال يفصل بينها سراديب وطرق يسير فيها موسى عليه السلام وقومه ؟

كيف يسير موسى وقومه مطمئنين ؟

لا بد أنها معية الله سبحانه التي تحميه ، وهي تفسير لقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62] .

ورغم ذلك يتبعهم فرعون وجنوده لعله يدركهم ، وأراد سيدنا موسى عليه السلام بمجرد نجاحه في العبور هو وقومه أن يضرب البحر بعصاه ؛ ليعود إلى قانون السيولة ، ولو فعل ذلك لما سمح لفرعون وجنوده أن يسيروا في الممرات التي بين المياه التي تحولت إلى جبال ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد غير ذلك ، فقد أراد الحق سبحانه أن ينجي ويهلك بالشيء الواحد ، فأوحى لموسى عليه لسلام :

﴿ واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان : 24] .

أي : اترك البحر على حاله ؛ فينخدع فرعون وجنوده ، وما إن ينزل آخر جندي منهم إلى الممر بين جبال الماء ؛ سيعود البحر إلى حالة السيولة فيغرق فرعون وجنوده ، وينجو موسى وقومه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ﴾ [يونس : 90] .

فهل كان هذا الإتباع دليل إرادة الشر ؟

أكان من الممكن أن تكون نية الفرعون أن يدعو موسى وقومه إلى العودة إلى مصر ليستقروا

فيها ؟

لا ، لم تكن هذه نية الفرعون ؛ لذلك قال الحق سبحانه عن هذا الإتباع : ﴿ بَغْياً وَعَدْواً ﴾ [يونس : 90] .

أي : أنه اتباع رغبة في الانتقام والإذلال والعدوان .

ويصور القرآن الكريم لحظة غرق فرعون بقوله :

﴿ حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق قَالَ آمَنتُ ﴾ [يونس : 90] .

والإدراك : قصد للمدرك أن يلحق بالشيء ، والغرق معنى ، فكيف يتحول المعنى إلى شيء يلاحق الفرعون ؟

نعم ، فكأن الغرق جندي من الجنود ، وله عقل ينفعل ؛ فيجري إلى الأحداث :

﴿ حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ [يونس : 90] .

والإيمان إذا أطلق فهو الإيمان بالقوة العليا ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات : 14] .

لأن الإيمان يتطلب انقياد القلب ، والإسلام يقتضي اتباع أركان الإسلام ، فالإيمان كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قل آمنت بالله ثم استقم " . وفي هذا القول ذكر محدد بأن الإيمان إنما يكون لله الأعلى .

لكن لو قلت مثلاً : " آمنت أنك رجل طيب " فهذا إيمان له متعلق ، أما إذا ذُكِر الإيمان بإطلاق فهو ينصرف إلى الإيمان بالله تعالى ؛ ولذلك قال الله سبحانه للأعراب :

﴿ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات : 14] .

وهنا يأتي القول على لسان فرعون :

﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ [يونس : 90] .

والخلاف هنا كان بين الفرعون كجهة كفر ، وبين موسى وهارون وقومهما كجهة إيمان ، وأعلن فرعون إيمانه ، وقال أيضاً :

﴿ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ [يونس : 90] .

ولم يقبل الله ذلك منه بدليل قوله الحق سبحانه : ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾

وهذا يعني : أتقول إنك آمنت الآن وإنك من المسلمين . إن قولك هذا مردود ؛ لأنه جاء في غير وقته ، فهناك فرق بين إيمان الإجْبار وإيمان الاختيار ، أتقول الآن آمنت وأنت قد عصيت من قبل ، وكنت تفسد في الأرض .

وكان من الممكن أن يقبل الله سبحانه منه إيمانه وهو في نجوة بعيدة عن الشر الذي حاق به

.

فالحق سبحانه لا يقبل إيمان أحد بلغت روحه الحلقوم ، فهذا إيمان إجبار ، لا إيمان اختيار

.

ولو كان المطلوب إيمان الإجبار لأجبر الحق سبحانه الخلق كلهم على أن يؤمنوا ، ولما استطاع أحد أن يكفر بالله تعالى ، وأمامنا الكون كله خاضع لإمره الله سبحانه وتعالى ولا يتأبى فيه أحد على الله تعالى .

وقدرة الحق عز وجل المطلقة قادرة على إجبار البشر على الإيمان ، لكنها تثبت طلاقة القدرة ، ولا تثبت المحبوبية للمعبود .

وهذه المحبوبية للمعبود لا تثبت إلا إذا كان لك خيار في أن تؤمن أو لا تؤمن . والله سبحانه يريد إيمان الاختيار .

(270/368)

إذن : فالمردود من فرعون ليس القول ، ولكن زمن القول .

ويقال : إنها رُدَّتْ ولم تُقبل رغم أنه قالها ثلاث مرات لأن قوم موسى في ذلك الوقت كانوا قد دخلوا في مرحلة التجسيم لذات الله وادعوا معاذ الله أن الله تعالى عما يقولون جلس على

صخرة وأنزل رِجْليه في حوض ماء ، وكان يلعب مع الحوت . . إلى آخر الخرافات التي ابتدعها بنو إسرائيل .

وحين أعلن فرعون أنه آمن بالإله الذي آمنت به بنو إسرائيل ، فهذا يعني أنه لم يؤمن بالإله الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك . ﴿ فاليوم نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ﴾

ونحن نعرف أن الإنسان مكوَّن من بدن ، وهو الهيكل المادي المصوَّر على تلك الصورة التي نعرفها ، وهناك الروح التي في البدن ، وبها تكون الحركة والحياة .

وساعة نقول : " بدن " ، فافهم أنها مجردة عن الروح ، مثلما نقول : جسد . وإذا أطلقت كلمة " جسد " فمعناها الهيكل المادي المجرد من الروح .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ [ص : 34] .

وكان سيدنا سليمان عليه السلام يستمتع بما آتاه الله سبحانه من الملك ما لا ينبغي لأحد من بعده ، وسخَّر له الجن والرياح وعلّمه كل اللغات ، وكان صاحب الأوامر والنواهي والهيمنة ، ثم وجد نفسه قاعداً على كرسيه بلا حراك وبلا روح ، ويقدر عليه أي واحد من الرعية ، ثم أعاد الله له روحه إلى جسده ، وهو ما يقوله الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص : 34] .

أي : أنه أفاق لنفسه ، فعلم أن كل ما يملكه هو أمر مُفاضٌ عليه ، لا أمر نابع من ذاته .

وهنا في الآية الكريمة التي نحن بصددها الآن يقول الحق سبحانه :

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ [يونس : 92] .

وبالله ، لو لم يأمر الحق البحر بأن يلفظ جثمان فرعون ، أما كان من الجائز أن يقولوا : إنه إله ، وإنه سيرجع مرة أخرى ؟

(271/368)

ولكن الحق سبحانه قد شاء أن يلفظ البحر جثمانه كما يلفظ جيفة أي حيوان غارق ؛ حتى لا يكون هناك شك في أن هذا الفرعون قد غرق ، وحتى ينظر من بقي من قومه إلى حقيقته ، فيعرفوا أنه مجرد بشر ، ويصبح عبرة للجميع ، بعد أن كان جباراً مسرفاً طاغية يقول لهم :

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] .

وبعض من باحثي التاريخ يقول : إن فرعون المقصود هو " تحتمس " ، وإنهم حلَّلوا بعضاً من جثمانه ، فوجدوا به آثار مياه مالحة .

ونحن نقول : إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو توصيف لوظيفة ، ولعل أجساد

الفراعين المحنطه تقول لنا : إن علة حفظ الأبدان هي عبرة ؛ وليتعظ كل إنسان ويرى كيف انهارت الحضارات ، وكيف بقيت تلك الأبدان آية نعتبر بها .

وقد تعرض القرآن لمسألة الفرعون ، فقال الحق سبحانه :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ﴾ [الفجر : 10] .

ويقول سبحانه في نفس السورة عن كل جبار مفسد :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ [الفجر : 14] .

ونلحظ أن كلام الحق سبحانه عن فرعون في سورة الفجر كان كلاماً يضمُّ إلى جانب حضارة الفراعنة حضارات أخرى قديمة ، مثل حضارة عاد وحضارة ثمود .

وكذلك تكلم الحق سبحانه عن الفرعون في أثناء لقطات قصة موسى عليه السلام ، ولكن الكلام يختلف في قصة يوسف عليه السلام ، فلا تأتي وظيفة الفرعون ، بل يحدثنا الحق سبحانه عن وظائف أخرى ، هي وظية " عزيز مصر " أي : رئيس وزرائها ويحدثنا الله سبحانه عن ملك مصر بقوله :

﴿ وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ ﴾ [يوسف : 50] .

ولم يُكْتَشَف الفارق بين وظيفة " الفرعون " ووظيفة " الملك " في التاريخ المصري إلا بعد أن جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر وفك " شامبليون " رموز اللغة الهيروغليفيه من خلال نقوش حجر " رشيد " ، فعرفنا أن حكام مصر القديمة كانوا يسمون " الفراعنة " إلا في فترة كانت فيها مصر تحت حكم " ملوك الرعاة " أو " الهكسوس " الذين أغاروا على مصر ، وحكموها حكماً ملكياً وقضوا على حكم الفراعنة ، ثم عاد الفراعنة إلى حكم مصر بعد أن خلصوها من سيطرة " الهكسوس " .

وهكذا نجد أن إشارة القرآن في قصة يوسف عليه السلام كانت إلى الملك ، ولم يأت فيها بذكر فرعون ، وهذا دليل على أن القرآن قد سبق بعلمه أي اكتشاف ، وكلما جاء اكتشاف جديد أو ابتكار حقيقي ، نجده يؤيد كتاب الله .

ويُنهي الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس : 92] .

وهذا القول يوضح أن هناك من يغفل عن الآيات ، وهناك من لا يغفل عنها ، وينظر إلى تلك الآيات ويتأملها ويتدبرها ، ويتساءل عن جدوى كل شيء ، فيصل إلى ابتكارات واختراعات ينتفع بها الإنسان ، أُذِن بميلادها عند البحث عنها ؛ لتستبين عظمة الله في خلقه .

وحين ينظر الإنسان في تلك الابتكارات سيجدها وليدة أفكار مَنْ نظروا بإمعان ،

وامتلكوا قدرة الاستنباط ، ولو لم يغفل الناس عن النظر في آيات الكون ، والسموات والأرض ، لزادت الابتكارات والاختراعات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105] .

(273/368)

وحين ننظر إلى مكتشف قانون الجاذبية " نيوتن " الذي رأى ثمرة تفاح تسقط من شجرتها ، نجد أن هناك عشرات الآلاف أو الملايين من البشر شاهدوا من قبله مشهد سقوط ثمرة من على شجرة ، ولكن نيوتن وحده هو الذي تفكر وتدبر ما يحدث أمامه إلى أن أهتدى إلى اكتشاف قانون الجاذبية .

وجاء من بعد نيوتن من بنى سفن القضاء التي تستفيد من هذا القانون وغيره .

وكذلك نجد من صَمَّم الغواصات ، والبواخر العملاقة التي تشبه المدن العائمة ، هؤلاء اعتمدوا على من اكتشف قانون " الطفو " وقاعدة " أرشميدس " الذي لاحظ أنه كلما غطس شيءٌ في المياه ، ارتفع الماء بنفس حجم الشيء الغاطس فيه .

كل هؤلاء اكتشفوا ولم يخلقوا أسراراً كانت موجودة في الكون ، وهم تميَّزوا بالانتباه لها .

وكذلك العالم الذي اكتشف " البنسلين " قد لاحظ أن أصيصاً من المواد العضوية كانت تنزل منه قطرات من الماء العفن ، ورأى الحشرات التي تقترب من هذا الماء تموت ، فأخذ عينة من هذا العفن وأخذ يُجري عليها بعض التجارب في معمله إلى أن اكتشف " البنسلين " .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105] .

فكأنهم لو لم يعرضوا لاستنبطوا من آيات الكون الشيء الكثير .

وكذلك القصص التي تأتي في القرآن ، إنما جاءت ليعتبر الناس ويتأملوا ، فحين يرسل الله رسولاً مؤيَّداً بمعجزة منه لا يقدر عليها البشر ؛ فعلى الناس أن يسلّموا ويقولوا : " آمنا " ، لا أن يظلوا في حالة إعادة للتجارب السابقة ؛ لأن ارتقاءات البشر في الأمور المادية قد تواصلت ؛ لأن كل جيل من العلماء يأخذ نتائج العلم التي توصل إليها مَنْ سبقوه ، فلماذا لا يحدث هذا في الأمور العقدية ؟

ولو أن الناس بدأوا من حيث انتهى غيرهم ؛ لوجدنا الكل مؤمناً بالله تعالى ، ولأخذ كل مولود الأمر من حيث انتهى أبوه ، ولَوصَل خير آدم إلى كل من وُلِدَ بعد ذلك ، لكن آفة البشر أن الإنسان يريد أن يجرب بنفسه .

ونحن نجد ذلك في أمور ضارة مثل : الخمر ، نجدها ضارة لكل من يقرب منها ، فإذا حرَّمها الدين وجدنا من يتساءل : لماذا تُحرَّم ؟

وكذلك التدخين ؛ نجد من يجربه رغم أن التجارب السابقة أثبتت أضراره البالغة ، ولو أخذ كل إنسان تجارب السابقين عليه ؛ فهو يصل عمره بعمر الآخرين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(275/368)

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ حَتَّى إذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْت ﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ بَعْدَ " حَتَّى " هُوَ الشَّرْطُ أَوْ الْجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّةُ بِكَمَالِهَا لَا الْجَزَاءُ وَحْدَهُ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ إلَّا إيمَانَ فِرْعَوْنَ

وَأَبْيَنُ مِنْهُ قَوْله تَعَالَى ﴿ حَتَّى إذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ فَإِنَّ " فَسَيَعْلَمُونَ " هُوَ الْغَايَةُ . انْتَهَى . انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 64 ﴾

(276/368)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه قال : العدو والعلو والعتوّ في كتاب الله تجبر .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما خرج آخر أصحاب موسى ودخل آخر أصحاب فرعون ، أوحى إلى البحر أن أطبق عليهم ، فخرجت اصبع فرعون بلا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل . قال جبريل عليه السلام : فعرفت أن الرب رحيم وخفت أن تدركه الرحمة فدمسته بجناحي ، وقلت ﴿ ءَآلآن وقد عصيت قبل ﴾ فلما خرج موسى وأصحابه قال : من تخلف في المدائن من قوم فرعون ، ما غرق فرعون ولا أصحابه ولكنهم في جزائر البحر يتصيدون ، فأوحى إلى البحر أن الفظ فرعون عرياناً ،

فلفظه عرياناً أصلع أخنس قصيراً ، فهو قوله ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ﴾ لمن قال : إن فرعون لم يغرق ، وكانت نجاته عبرة لم تكن نجاة عافية ، ثم أوحى إلى البحر أن الفظ ما فيك ، فلفظهم على الساحل وكان البحر لا يلفظ غريقاً يبقى في بطنه حتى يأكله السمك ، فليس يقبل البحر غريقاً إلى يوم القيامة .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما أغرق الله عز وجل فرعون ﴿ قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾ قال لي جبريل : يا محمد لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة " .

وأخرج الطيالسي والترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قال لي جبريل : لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيِّ فرعون مخافة أن تدركه الرحمة " " .

(277/368)

وأخرج ابن مردويه عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن جبريل عليه السلام قال : لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه حتى لا يتابع الدعاء لما أعلم من فضل رحمة الله " .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه " عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " قال لي جبريل : ما كان على الأرض شيء أبغض إليَّ من فرعون ، فلما آمن جعلت احشو فاه حمأة وأنا أغطه خشية أن تدركه الرحمة " " .

وأخرج ابن جرير والبيهقي في شعب الإِيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قال لي جبريل : يا محمد لو رأيتني وأنا أغط فرعون بإحدى يدي وأدس من الحال في فيه مخافة أن تدركه الرحمة فيغفر له " " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال لي جبريل : ما غضب ربك على أحد غضبه على فرعون إذ قال : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص : 38] ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : 24] فلما أدركه الغرق استغاث وأقبلت احشو فاه مخافة أن تدركه الرحمة " .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : كانت عمامة جبريل عليه السلام يوم غرق فرعون سوداء .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم " قال لي جبريل : ما أبغضت شيئاً من خلق الله ما أبغضت إبليس يوم أمِرَ بالسجود فأبى أن يسجد ، وما أبغضت شيئاً أشد بغضاً من فرعون ، فلما كان يوم الغرق خفت أن يعتصم بكلمة الاخلاص فينجو ، فأخذت قبضة من حمأة فضربت بها في فيه فوجدت الله عليه أشد غضباً مني ، فأمر ميكائيل فأنبه وقال ﴿ ءَآلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال : بعث الله إليه ميكائيل ليعيره فقال ﴿ ءَآلآن وقد عصيت قبل ﴾ .

(278/368)

وأخرج ابن المنذر والطبراني في الأوسط عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : أخبرت أن فرعون كان أثرم .

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92) ﴾

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك ﴾ قال : أنجى الله فرعون لبني إسرائيل من البحر فنظروا إليه بعد ما غرق .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك ﴾ قال : بجسدك ، كذب بعض بني إسرائيل بموت فرعون فألقي على ساحل البحر حتى يراه بنو إسرائيل أحمر قصيراً كأنه ثور .

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن كعب رضي الله عنه ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك ﴾ قال : جسده ألقاه البحر على الساحل .

وأخرج ابن الأنباري عن محمد بن كعب رضي الله عنه في قوله ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك ﴾ قال : بدرعك ، وكانت درعه من لؤلؤ يلاقي فيه الحروب .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي صخر رضي الله عنه في قوله ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك ﴾ قال : البدن الدرع الحديد .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي جهيم موسى بن سالم رضي الله عنه في قوله ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك ﴾ قال : كان لفرعون شيء يلبسه يقال له البدن يتلألأ .

وأخرج ابن الأنباري وأبو الشيخ عن يونس بن حبيب النحوي رضي الله عنه في قوله ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك ﴾ قال : نجعلك على نجوة من الأرض كي ينظروا فيعرفوا أنك قدمت .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فاليوم

ننجيك ببدنك . . . ﴾ الآية . قال : لما أغرق الله فرعون لم تصدق طائفة من الناس بذلك ، فأخرجه الله ليكون عظة وآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ لتكون لمن خلفك آية ﴾ قال : لبني إسرائيل .

(279/368)

وأخرج ابن الأنباري عن ابن مسعود أنه قرأ " فاليوم ننجيك بندائك " .

وأخرج ابن الأنباري عن محمد بن السميقع اليماني ويزيد البربري أنهما قرآ " فاليوم ننحيك ببدنك " بحاء غير معجمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(280/368)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا ببني ﴾ : قد تقدَّم الكلام فيه . وقرأ الحسن " وجَوَّزْنا " بتشديدِ الواو ، قال الزمخشري : " وجَوَّزْنا : مِنْ أجاز المكان وجاوَزَه وجَوَّزه ، وليس مِنْ جَوَّز الذي في بيت الأعشى :

2626 وإذا تُجَوِّزُها حبالُ قبيلة . . . أَخَذْتَ من الأخرى إليك حبالَها

لأنه لو كان منه لكان حَقُّه أن يقال : وجَوَّزْنا بني إسرائيل في البحر كما قال :

2627 . . . . . كما جَوَّز السَّكِّيَّ في الباب فَيْتَقُ

يعني أن فَعَّل بمعنى فاعَلَ وأَفْعَل ، وليس التضعيفُ للتعدية ، إذ لو كان كذلك لتعدَّى بنفسه كما في البيت المشار إليه دون الباء .

وقرأ الحسن " فاتَّبَعَهُم " بالتشديد ، وقد تقدم الفرق .

قوله : ﴿ بَغْياً وَعَدْواً ﴾ يجوز أن يكونا مفعولين مِنْ أجلهما أي : لأجلِ البَغْي والعَدْوِ ، وشروطُ النصب متوفرةٌ ، ويجوز أن يكونا مصدرين في موضع الحال أي : باغين متعدِّين .

وقرأ الحسن " وعُدُوَّاً " بضم العين والدال المشددة ، وقد تقدَّم ذلك في سورة الأنعام .

قوله : ﴿ حتى إِذَآ ﴾ غايةٌ لاتِّباعه .

قوله : ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ ﴾ قرأ الأخَوان بكسر إنَّ وفيها أوجه ، أحدها : أنها استئنافُ إخبار ، فلذلك كُسِرت لوقوعِها ابتداءَ كلام . والثاني : أنه على إضمار القول أي : فقال إنه ، ويكون هذا القولُ مفسراً لقوله آمنت . والثالث : أن تكون هذه الجملةُ بدلاً من قوله : " آمنت " ، وإبدالُ الجملةِ الاسمية من الفعلية جائزٌ لأنها في معناها ، وحينئذ تكون مكسورةً لأنها محكيَّة ب " قال " هذا الظاهر . والرابع : أن " آمنتُ " ضُمِّن معنى القول لأنه قولٌ . وقال الزمخشري : "كَرَّر المخذولُ المعنى الواحدَ ثلاثَ مرات في ثلاث عبارات حِرْصاً على القبول " يعني أنه قال : " آمنتُ " ، فهذه مرة ، وقال : ﴿ أَنَّهُ لا إله إلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ ﴾ فهذه ثانيةٌ ، وقال : ﴿ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ فهذه ثالثةٌ ، والمعنى واحد " وهذا جنوحٌ منه إلى الاستئنافِ في " إنه " .

وقرأ الباقون بفتحِها وفيها أوجهٌ أيضاً ، أحدُها : أنها في محلِّ نصب على المفعولِ به أي : آمَنْتُ توحيدَ ، لأنه بمعنى صدَّقْتُ . الثاني : أنها في موضع نصبٍ بعد إسقاط الجارِّ أي : لأنه . الثالث : أنها في محل جر بذلك الجارِّ وقد عَرَفْتَ ما فيه من الخلاف .

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الآنَ ﴾ : منصوبٌ بمحذوفٍ أي : آمنْتَ الآن ، أو/ أنوِّمن الآن . وقوله : "

وقد عَصَيْتَ "جملةٌ حالية ، وقد تقدَّم نظيرُ ذلك قريباً .

قوله : ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ فيه وجهان ، أحدُهما : أنها باءُ المصاحبةِ بمعنى مصاحباً لبدنك وهي الدِّرْع ، وفي التفسير : لم يُصَدِّقوا بغرقه ، وكانت له دِرْعٌ تُعْرَفُ فأُلقي بنَجْوة من الأرض وعليه دِرْعُه ليعرفوه ، والعربُ تطلِقُ البدنَ على الدرع ، قال عمرو بن معد يكرب :

(282/368)

2628 أعاذِلُ شِكَّتي بدني وسيفي . . . وكلّ مُقَلَّصٍ سَلِس القِيادِ

وقال آخر :

2629 ترى الأبدانَ فيها مُسْبَغَاتٍ . . . على الأبطالِ واليَلَبَ الحصينا

وقيل : ببدنك أي عُرْيانَ لا شيءَ عليه ، وقيل : بدناً بلا روح .

والثاني : أن تكونَ سببيةً على سبيل المجاز ؛ لأنَّ بدنه سبب في تنجيته ، وذلك على قراءةِ ابن مسعود وابن السَّمَيْفَع "بندائك" من النداء وهو الدعاءِ أي : بما نادى به في قومه من كفرانه في قوله ﴿ ونادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ﴾ [الزخرف : 51] ﴿ فَحَشَرَ فنادى فَقَالَ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 23-24] ﴿ يا أَيُّهَا الملأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] .

وقرأ يعقوب " نُنْجِيْك " مخففاً مِنْ أنجاه . وقرأ أبو حنيفة " بأبدانك " جمعاً : إمَّا على إرادة الأدْراع لأنه كان يلبس كثيراً منها خوفاً على نفسِه ، أو جعل كلَّ جزء مِنْ بدنه بدناً كقوله : " شابت مَفارِقُه " قال :

2630 . . . . . شابَ المَفارِقُ واكتَسَيْنَ قَتِيرا

وقرأ ابن مسعود وابن السَّمَيْفَع ويزيد البربري " نُنَحّيْكَ " بالحاء المهملةِ من التَّنْحِيَة أي : نُلْقيك بناحيةٍ فيما يلي البحر ، وفي التفسير : أنَّه رماه إلى ساحل البحر كالثور . وهل ننجّيك من النجاة بمعنى نُبْعدك ممَّا وقع فيه قومُك مِنْ قعر البحر وهو تهكُّم بهم ، أو مِنْ ألقاه على نَجْوة أي : رَبْوة مرتفعة ، أو مِن النجاة وهو التَّرْكُ أو من النجاء وهو العلامة ، وكلُّ هذه معانٍ لائقة بالقصة . والظاهر أن قوله : " فاليوم نُنَجّيك " خبرٌ محض . وزعم بعضهم أنه على نية همزة الاستفهام وفيه بُعْدٌ لحَذْفِها من غيرِ دليل ، ولأنَّ التعليلَ بقوله " لتكونَ " لا يناسب الاستفهام .

(283/368)

و "لتكون" متعلّقٌ ب "نُنَجّيك" و "آية" أي: علامة، و "لمَنْ خلفك" في محلِّ نصبٍ على الحال مِنْ "آية" لأنه في الأصلِ صفةٌ لها. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 266.262﴾

(284/368)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيات

قال عليه الرحمة:

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) ﴾

حَمَلَتْ العِزَّةُ فِرعونَ على تَقَحُّمِ البحر على إثرهم، فلمَّا تحقَّقَ الهلاكُ حَمَلَتْه ضرورةُ الحِيلةِ على الاستعاذة، فلم ينفَعه ذلك لفوات وقت الاختيار.

ويقال لما شهد صوْلَةَ التقدير أفاق من سُكْرِ الغلطة، لكن: "بعد شهود البَاسْ لا ينفع التخاشعُ والابتئاسْ".

﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) ﴾

أَبْعَدَ طولِ الإمهال، والاصرار على ذميم الأفعال، والرَّكْضِ في ميدان الاغترار، وانقضاء

وقت الاعتذار ؟ ! هيهات ! لقد استوجَبْتَ أن تُرَدَّ في وجهك ، فلا لِعُذْرِك قَبُولٌ ، ولا لَكَ إلى ما ترومه وصولٌ .

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92) ﴾

لَنُشْهِرَنَّ تعذيبَكَ ، ونُظْهِرَنَّ - لِمَنْ استبصر - تأديبَك ، لِتكونَ لِمَنْ خَلْفَكَ عِبْرة ، وتزدادَ حين أَفَقْتَ أَسَفًا وحسرةً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 114 ﴾

(285/368)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (68) ﴾

ثمّ رجع إلى ذِكْرِ كُفَّار مَكَّةَ فقال تعالى : ﴿ قَالُواْ اتخذ الله وَلَدًا ﴾ ، حين قالوا : الملائكة بنات الله تعالى ، ﴿ سبحانه ﴾ نَزَّهَ نفسه عن الولد ، ﴿ هُوَ الغنى ﴾ عن الولد ، ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ مِنَ الخلق ، سمّاهم عبيده وإماءه ﴿ إِنْ عِندَكُمْ مّن

سُلْطَانٍ بهذا ﴾ يعني : ما عندكم من حُجَّة بهذا القول ، ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ بغير حجةٍ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكذب ﴾ بأنَّ له ولداً ﴿ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ .

يعني : لا يأمنون من عذابه ، ولا ينجون منه .

﴿ متاع ﴾ يعني : منفعتهم ﴿ فِى الدنيا ﴾ قليل ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ ، يعني : مصيرهم في الآخرة ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العذاب الشديد بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ .

بكفرهم .

قوله تعالى : ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ فإن لم تعتبروا بذلك ، فاتْلُ عليهم ، يعني : اقرأ عليهم خبر نوح في القرآن ، ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يا قوم قَوْمٍ أَن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني : عظم ، وثَقُلَ ﴿ مَّقَامِى ﴾ طول مقامي فيكم ﴿ وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ الله ﴾ يعني : وعظي لكم بالله تعالى .

وعظته بالله تعالى ما ذُكِرَ في سورة نوح ، وهو قوله : ﴿ فَقُلْتُ استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ [نوح : 10] إلى قوله : ﴿ الذى خَلَقَ سَبْعَ سماوات طِبَاقاً مَّا ترى فِى خَلْقِ الرحمن مِن تفاوت فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ [لملك : 3] الآية .

فلمَّا وعظهم بذلك أرادوا قتله، حين قالوا: ﴿ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يا نوح لَتَكُونَنَّ مِنَ المرجومين ﴾ أي من المقتولين بالحجارة.

فقال لهم نوح: ﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِى ﴾ فيكم وعظتي لكم ﴿ فَعَلَى الله تَوَكَّلْتُ ﴾ أي وثقت، وفوَّضت أمري إلى الله تعالى، ﴿ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ ﴾ يعني: كيدكم.

ويقال: قولكم، وعملكم؛ ﴿ وَشُرَكَاءكُمْ ﴾ يعني: وادعوا شركاءكم ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقضوا إِلَىَّ ﴾ أي: امضوا إليَّ ﴿ وَلاَ تُنظِرُونَ ﴾ أي: ولا تمهلون.

ويقال: اقضوا ما أنتم قاضون، واستعينوا بآلهتكم.

ويقال: اعملوا بما في أنفسكم من الشَّرِّ.

وروي عن نافع أنه قرأ: ﴿ فَأَجْمِعُواْ ﴾ بالوصل والجزم، مِنْ جمعت.

وقرأ الباقون: ﴿ فَأَجْمِعُواْ ﴾ بالقطع من الإجماع.

وقرأ الحسن البصريُّ، ويعقوب الحَضْرَمِيُّ: ﴿ شُرَكَاءكُمْ ﴾ أي: أين شركاؤكم ليجمعوا أمرهم معكم، ويعينوكم؟ ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ يقول: أظهروا أمركم فلا تكتموه.

يعني: القتل.

وقال القتبِيُّ: الغُمَّةُ والغَمُّ واحد، كما يقال: كُرْبَةٌ وكَرْبٌ.

أي : لا يكن أمركم غمّاً عليكم ﴿ ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ ﴾ أي : اعملوا بما تريدون ، كقوله : ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ على مَا جَآءَنَا مِنَ البينات والذى فَطَرَنَا فاقض مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هذه الحياة الدنيآ ﴾ [طه : 72] .

(287/368)

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ يعني : أعرضتم وأبيتم عن الإيمان ، وأبيتم أن تقبلوا ما أتيتكم به ، وأمرتكم به ، ونهيتكم عنه ، ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾ يعني : ما سألتكم بذلك أجراً في الدُّنيا ومعناه : إن أعرضتم عن الإيمان لا يضرُّني لأنِّي لا أطلب منكم بذلك أجراً في الدِّين ، ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى الله ﴾ ما ثوابي إلاّ على الله ، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ يعني : وأُمرتُ أن أستقيم على التَّوحيد مع المسلمين .

قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ بالعذاب ، بأنَّه غير نازلٍ بهم ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الفلك ﴾ من الغرق ، ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ ﴾ يعني : خلفاء من بعد هلاكِ كُفَّارهم ، ﴿ فَكَذَّبُوهُ فأنجيناه والذين مَعَهُ ﴾ يعني : كذَّبوا نوحاً بما أتاهم به ، ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ كيف كان آخرُ أمرِ مَنْ أنذرهم الرُّسلُ فلم يؤمنوا .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد هلاك قوم نوح ﴿ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ ﴾ ،

مثل : هود ، وصالح ، وإبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، عليهم السلام ﴿ موسى بالبينات ﴾ يعني : بالأمر والنهي .

ويقال : بالآيات والعلامات ، ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ قال مقاتل : يعني : ما كان كُفَّار مكة ليصدّقوا بالعذاب أنه نازل بهم ، كما لم يصدق به أوائلهم من قبل كفار مكة .

وقال الكَلْبِي : فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به عند الميثاق ، حين أخرجهم من صلب آدم .

وقال : وما كانوا ليؤمنوا ، يعني : أُولئك القوم بعد ما كان دعاهم الرُّسل بما كذبوا به من قبل أن يأتيهم الرُّسل ﴿ كَذَلِكَ نَطْبَعُ على قُلوبِ المعتدين ﴾ يعني : نختم على قلوب المعتدين من الحلال والحرام .

ويقال صار تكذيبهم طبعاً على قلوبهم ، فمنعهم عن الإيمان .

(288/368)

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم ﴾ من بعد الرُّسل ﴿ موسى وهارون إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بآياتنا ﴾ التّسع ﴿ فاستكبروا ﴾ يعني : تكبَّروا عن الإيمان ﴿ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ يعني : مشركين .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُمُ الحق ﴾ يعني : ظهر لهم الحقُّ ﴿ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني : الَّذي أتيتنا به كذب بَيِّنٌ ، ف ﴿ قَالَ موسى أَتَقُولُونَ لِلْحَقّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هذا ﴾ وفي الآية مضمر ، ومعناه : أتقولون للحقّ لما جاءكم إنَّه سحر ؟ ثمَّ قال : أسِحْرٌ هذا ؟ يعني : أيكون مثل هذا سحراً ؟ فليس ذلك بسحر ، ولكنَّ ذلك علامة للنُّبوَّة ، ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون ﴾ في الدُّنيا والآخرة .

ويقال : لا ظفر لهم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا ﴾ يعني : قال فرعون وقومه لموسى عليه السلام ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ ؟ يعني : لتصرفنا ، وتصدنا ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا ﴾ يقول : عما كان يعبد آباؤنا ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الكبرياء ﴾ يعني : السُّلطان والشَّرف والمُلْكُ ﴿ فِى الأرض ﴾ ، يعني : في أرض مصر ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني : بمصدّقين بأنَّكما رسولا ربِّ العالمين .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ يعني : حاذق بالسِّحر .

قرأ حمزة والكساني : يعني : حاذق بالسِّحر .

قرأ حمزة والكساني : ﴿ سَحَّارٍ ﴾ ، على معنى المبالغة ، وقرأ الباقون : ﴿ ساحر ﴾

﴿ فَلَمَّا جَاء السحرة قَالَ لَهُمْ موسى أَلْقُواْ مَا أَنتُمْ مُّلْقُونَ ﴾ يعني : اطرحوا ما في أيديكم من العِصِيّ والحبال ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ ﴾ ما معهم من الحبال والعِصِيّ إلى الأرض ﴿ قَالَ موسى مَا جِئْتُمْ بِهِ السحر ﴾ يعني : العمل الذي عملتم به هو السِّحر ﴿ إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ ﴾ يعني : سيهلكه ﴿ إِنَّ الله لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدين ﴾ يعني : لا يرضى عمل المفسدين .

قرأ أبو عمرو : السِّحر ، بالمدّ على وجه الاستفهام ، ويكون معناه : ﴿ قَالَ موسى مَا جِئْتُمْ بِهِ ﴾ يَعني ما الَّذي جئتم به ؟ وتمَّ الكلام .

ثم قال : ﴿ السحر إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ إِنَّ الله لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدين ﴾ يعني : عمل السحرة .

قوله تعالى : ﴿ وَيُحِقُّ الله الحق بكلماته ﴾ يعني : يظهر دينه الإسلام بتحقيقه ، ونصرته ﴿ وَلَوْ كَرِهَ المجرمون ﴾ يعني : فرعون وقومه .

قال الله تعالى : ﴿ فَمَا ءامَنَ لموسى ﴾ يعني : ما صدَّق بموسى ﴿ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ يعني : قبيلته من قومه الذين كانت أمَّهاتهم من بني إسرائيل ، وآباؤهم من القبط .

وروى مقاتل ، عن ابن عباس أنه قال : ﴿ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ ، يعني : من قوم موسى عليه السلام وهم بنو إسرائيل ، وهم ستمائة ألف .

قال : وكان يعقوب حين ركب إلى مصر من كنعان في اثنين وسبعين إنساناً ، فتوالدوا بمصر حتّى بلغوا ستمائة ألف .

(290/368)

ويقال : ﴿ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ ، يعني : خربيل وهو الذي قال في آية أُخرى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانه أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّىَ الله وَقَدْ جَآءَكُمْ بالبينات مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كاذبا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صادقا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذى يَعِدُكُمْ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : 28] .

ثم قال : ﴿ على خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ ﴾ يعني : فما آمن لموسى عليه السلام خوفاً من فرعون ﴿ وَمَلَئِهِمْ ﴾ إشارة إلى فرعون بلفظ الجماعة ، كقوله : ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فاعلموا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ الله وَأَن لاَّ إله إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود : 14] يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم خاصة ﴿ أَن يَقْتُلَهُمْ ﴾ يعني : يقتلهم ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأرض ﴾ يعني : لَعات .

ويقال : الغالب ، ويقال : المخالف ، والمتكبر في أرض مصر ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ المسرفين ﴾ يعني : لمن المشركين .

روى موسى بن عبيدة ، عن محمد بن المنكدر ، قال : عاش فرعون ثلاثمائة سنة ، منها مائتين وعشرين سنة لم ير مكروهاً ، ودعاه موسى عليه السلام ثمانين سنة .

﴿ وَقَالَ موسى يا فرعون قَوْمِ أَن كُنتُمْ ءامَنْتُمْ بالله فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنْتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ يعني : ثقوا بالله تعالى ، وذلك حين قالوا له :

﴿ قالوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأرض فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 129] فلما قال لهم هذا موسى عليه السلام ﴿ قَالُواْ عَلَى الله تَوَكَّلْنَا ﴾ يعني : فوّضنا أمرنا إليه ، ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ﴾ بَلِيَّةً وَعِبْرَةً ﴾ لّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ .

(291/368)

يعني : لا تنصرهم علينا .

قال مجاهد : يعني : لا تعذّبنا بأيدي فرعون ، ولا بعذاب من عندك ، فيقولوا : لو كانوا على الحقّ ، ما عُذّبوا وما سُلّطْنَا عليهم ، فَيُفْتَنُوا بنا ، ﴿ وَنَجّنَا بِرَحْمَتِكَ ﴾ يعني : بنعمتك ﴿ مِنَ القوم الكافرين ﴾ يعني : فرعون وقومه .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى موسى وَأَخِيهِ ﴾ هارون ، وذلك لما منعهم فرعون ،

وقومه الصَّلاة علانية ، وخرّبوا مساجدهم ﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بُيُوتًا ﴾ يعني : اتّخذوا لقومكما بمصر مساجد في جوف البيوت ﴿ واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ يعني : مساجد فتصلون فيها .

ويقال : حَوِّلُوا بيوتكم نحو القبلة .

وقال مجاهد : كانوا يصلون في البِيَعِ ، فأمرهم أن يصلوا في البيوت .

وقال إبراهيم النخْعِيُّ : كانوا خائفين ، فأمرهم بالصَّلاة في بيوتهم .

وكان إبراهيم النخعِيّ خائفاً من الحجَّاج ، وكان يصلي في بيته .

ثم قال ﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ ﴾ يعني : أَتِمُّوها بركوعها ، وسجودها ولم يأمرهم بالزكاة ، لأن فرعون عليه اللَّعنة قد استعبدهم ، وأخذ أموالهم ، فلم يكن لهم مال يجب عليهم الزَّكاة فيه .

ثم قال للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ يعني : المصدِّقين بتوحيد الله تعالى بالجنة .

قرأ عاصم في رواية حفص : ﴿ أن تبويا ﴾ بالياء بلا همز ، لأنه كره الهمزة بين حرفين فجعلها ياء .

وقرأ الباقون بغير ياء بالهمزة ، إلا أنه روي عن حمزة أنه كان لا يهمز .

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ موسى رَبَّنَا إِنَّكَ ءاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ ﴾ ، وذلك أن أهل مصر لما عُذِّبُوا بالطُّوفان والجراد والسنين ، قالوا : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرجز قَالُواْ يا موسى ادع لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بنى إسراءيل ﴾ [الأعراف : 134] ، ثمّ نكثوا العهد ولم يؤمنوا ، فغضب موسى عليهم ، ودعا الله تعالى عليهم ، وقال : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ ءاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ ﴾ يعني : الأشراف من قومه ﴿ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِى الحياة الدنيا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ ﴾ يعني : أعطيتهم ليضلوا ﴿ عَن سَبِيلِكَ ﴾ عن دينك الإسلام .

قرأ أهل الكوفة ، وعاصم ، وحمزة الكسائي : ﴿ لِيُضِلُّواْ ﴾ بضم الياء .

يعني : لِيُضلُّوا النّاس ويصرفونهم عن دينهم .

وقرأ الباقون : ﴿ لِيَضِلُّواْ ﴾ بنصب الياء .

يعني : يرجعون عن دينك ويمتنعون جملة واحدة عنه .

﴿ رَبَّنَا اطمس على أموالهم ﴾ يعني : غيِّر دراهمهم ودنانيرهم ، وذلك حين وعد فرعون بأن يؤمن ، ويرسل معه بني إسرائيل ، ثم نقض العهد ، فدعا عليهم موسى عليه السلام وروى معمر عن قتادة في قوله : ﴿ رَبَّنَا اطمس على أموالهم ﴾ قال : بلغنا أنَّ حروثاً لهم صارت حجارة .

وعن السّدي أنه قال : صارت دراهمهم ودنانيرهم حجارة .

وعن أبي العالية الرِّياحيّ أنه قال : صارت أموالهم حجارة وقال مجاهد ، في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اطمس على أموالهم ﴾ يعني : أهلكها .

وقال القتبي في قوله : ﴿ رَبَّنَا اطمس على أموالهم ﴾ أي اقسمها .

ويقال : اطبع قلوبهم وأمتهم على الكفر ، فلا توفقهم للإيمان لكي لا يؤمنوا ﴿ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الاليم ﴾ وهو الغرق .

ودعا موسى عليه السلام وَأَمَّن هارون عليه السلام ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا ﴾ قال محمد بن كعب القرظي : دعا موسى ، وأمَّن هارون .

(293/368)

وعن أبي العالية ، وعكرمة وأبي صالح مثله .

وعن أبي هريرة مثله .

وعن أنس بن مالك أنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَعْطَانِي خِصَالاً ثَلاثاً : أَعْطَانِي صَلاةً بِالصُّفُوفِ ، وَأَعْطَانِي تَحِيَّةً هِيَ تَحِيَّةُ أَهْلِ الجَنَّةِ ، وَأَعْطَانِي التَّأْمِينَ ، وَلَمْ يُعْطِ أَحَداً مِنَ النَّبِيِّينَ قَبْلِي ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ اللهُ تَعَالَى أَعطاهُ لِهَارُونَ ،

يَدْعُو مُوسَى ، وَيُؤَمِّنُ هَارُونُ " .

قال مقاتل : فمكث موسى بعد هذه الدعوة أربعين سنة ، وهكذا روى الضَّحَّاك أن الإجابة ظهرت بعد أربعين سنة .

وقال بعضهم : بعد أربعين يوماً .

وقال بعضهم : هذا الدعاء حين خرج موسى ببني إسرائيل ، وأيس من إيمانهم .

ثم قال تعالى : ﴿ فاستقيما ﴾ أي : على الرِّسالة والدَّعوة ﴿ وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : طريق فرعون ، وآله من أهل مصر .

وروى ابن ذكوان ، عن ابن عامر ، أنه قرأ : ﴿ تَتَّبِعَانِّ ﴾ بجزم التاء ونصب الباء .

وقرأ الباقون : ﴿ تَتَّبِعَانِّ ﴾ بنصب التاء ، والتشديد ، وكسر الباء .

ومعناهما واحد وهذه النون أُدْخِلَتْ مؤكدة .

ثمّ قال تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إسراءيل البحر ﴾ ، يعني : بحر قلزم .

ويقال : هو نهر مصر ، وهو النيل .

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ﴾ يعني : لحقهم .

وقال القتبي : أتبعت القوم : أي لحقتهم ، وتبعتهم : كنت في أثرهم .

ثمَّ قال : ﴿ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ يعني : تكبُّراً وَعَدواً ، يعني : ظلماً .

ويقال : بغياً في المقالة حيث قال : ﴿ إن هَؤُلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ وَعدواً : يعني : اعتدوا

عليهم وأرادوا قتلهم ﴿ حتى إِذَا أَدْرَكَهُ الغرق ﴾ يعني : كربة الموت .

ويقال : ألجمه الماء .

(294/368)

ويقال : بلغه الموت والأجل ، وذلك أن بني إسرائيل لما رأوا فرعون ومن معه ، قالوا : هذا فرعون ، وقد كنا نلقى منه ما نلقى ، فكيف بنا وأين المخرج في البحر ؟ فأوحى الله إلى موسى ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ [الشعراء : 63] فضرب ، فصار اثني عشر طريقاً يابساً .

فلمّا انتهى فرعون إلى البحر ، فرآه قد يبس فقال لقومه : إن البحر قد يبس خوفاً مني فصدّقوه ، وهو قوله : ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هدى ﴾ [طه : 79] ولما جاوز قوم موسى ، ودخل قوم فرعون ، فلما هَمَّ أولهم أن يخرج من البحر ، ودخل آخرهم ، طم عليهم البحر فغرّقهم و ﴿ قَالَ ﴾ فرعون عند ذلك : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إسراءيل البحر فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا إسراءيل ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي : ﴿ أَنَّهُ ﴾ بالكسر على معنى الابتداء الباقون بالنصب ، على معنى البناء .

يعني : صدّقت بأنه لا إله إلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴿ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ على

دينهم .

ويقال : أنا من المخلصين على التوحيد .

قال الله تعالى : ﴿ ءالْئَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ يعني : أتُؤمن في هذا الوقت حين عاينت العذاب ، وقد عصيت قبل نزول العذاب ؟ وهذا موافق لقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التوبة لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنِّى تُبْتُ الان وَلاَ الذين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أولئك أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [النساء : 18] الآية .

ويقال : إن جبريل هو الذي قال له : ﴿ ءالْئَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ ، ﴿ وَكُنتَ مِنَ المفسدين ﴾ يعني : من الكافرين .

(295/368)

قال الفقيه أبو الليث ، حدثنا الفقيه أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا نصر بن يحيى ، قال : حدثنا أبو مطيع ، عن الحسن بن دينار ، عن حميد بن هلال ، قال : كان جبريل عليه السلام يناجي النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له ذات يوم : يا محمد ما غاظني عبد من عباد الله تعالى مثلما غاظني فرعون .

لّما أدركه الغرق ، قَالَ : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إسراءيل البحر فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا

وَعَدْوًا إسراءيل ﴾ فخشيت أن تدركه الرحمة ، فضربت بيدي إلى البحر ، فأخذت كفاً من حمئه ، وربما قال : من طينه ، فكبسته في فيه ، فما نبس بكلمة .

قوله تعالى : ﴿ فاليوم نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أي نخرجك من البحر بجسدك .

وقال أبو عبيدة : نلقيك على نجوة من الأرض ، والنجوة من الأرض : ما ارتفع منها ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءايَةً ﴾ يعني : عبرة لمن بعدك من الكفَّار ، لكيلا يدّعوا الربوبية .

وقال قتادة : لمّا أغرق الله فرعون ، لم تصدق طائفة من الناس بذلك ، فأخرجه الله تعالى ليكون لهم عظة وآية .

﴿ فاليوم نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ﴾ يعني : عن هلاك فرعون ﴿ لغافلون ﴾ فلا يخافون ، ولا يعتبرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(296/368)

وقال الثعلبى فى الآيات السابقة:

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (68) ﴾

﴿ قَالُواْ ﴾ يعني المشركين ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ هو قولهم : الملائكة بنات الله ﴿

سُبْحَانَهُ هُوَ الغني ﴾ عن خلقهما ﴿ إِنْ عِندَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بِهَاذَآ ﴾ [ما عندكم من حجة] وبرهان بهذا ، إنما سميتموها جهلاً بها سلطاناً [ولا يمكن] التمسك بها ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكذب لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ .

قال الكلبي : لا يؤمنون ، وقيل : لا ينجون ، وقيل : لا يفوزون ، وقيل : لا يبقون في الدنيا ولكن ﴿ مَتَاعٌ فِي الدنيا ﴾ يتمتعون به متاعاً وينتفعون به إلى وقت انقضاء أجلهم ، ومتاع رفع بإضمار أي لهم متاع ، قاله الأخفش ، وقال الكسائي : متاع في الدنيا .

﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العذاب الشديد بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ .

﴿ واتل عَلَيْهِمْ ﴾ اقرأ يا محمد على أهل مكة ﴿ نَبَأَ ﴾ خبر ﴿ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ ولد وأهل ﴿ يا قوم إِن كَانَ كَبُرَ ﴾ عظُم وثقل وشق ﴿ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي ﴾ فلو شق مكثي بين أظهركم ﴿ وَتَذْكِيرِي ﴾ ووعظي إياكم ﴿ بِآيَاتِ الله ﴾ بحججه وبيناته فعزمتم على قتلي أو طردي ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فبالله وثقت ﴿ فأجمعوا ﴾ قرأه العامة بقطع الألف وكسر الميم أي فأعدوا وأبرموا وأحكموا ﴿ أَمْرَكُمْ ﴾ فاعزموا عليه . قال المؤرخ : أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه ، وأنشد :

يا ليت شعري والمنى لا تنفع . . . هل أغدون يوماً وأمري مجمع

وقرأ الأعرج والجحدري موصولة مفتوحة الميم من الجمع اعتباراً بقوله فجمع كيده ، وقال أبو معاذ : ويجوز أن يكون بمعنى وأجمعوا أي فأجمعوا واحد يقال : جمعت وأجمعت بمعنى واحد .

قال أبو ذؤيب : [عزم عليه كأنه جمع نفسه له ، والأمر مجمع] ﴿ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ فيه إضمار أي : وادعوا شركاءكم أي آلهتكم فاستعينوا ، وكذلك في مصحف أُبي ؛ وادعوا شركاءكم ، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وعيسى وسلام ويعقوب : وشركاؤكم رفعاً على معنى : فأجمعوا أمركم أنتم وشركاؤكم ، أي وليجمع معكم شركاؤكم ، واختار أبو عبيد وأبو حاتم النصب لموافقة الكتاب وذلك أنه ليس فيه واو .

﴿ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ أي خفياً مظلماً ملتبساً مبهماً من قولهم : غمّ الهلال على الناس إذا أشكل عليهم فلم يتبيّنوه ، قال طرفة :

لعمرك ما أمري عليّ بغمّة . . . نهاري وما ليلي عليَّ بسرمد

وقيل : هو من الغمّ لأن الصدر يضيق فلا يتبين صاحبه لأمره مصدراً ينفرج عنه ما بقلبه ، قالت الخنساء :

وذي كربة راخى ابن عمرو خناقه . . . وغمته عن وجهه فتجلت

﴿ ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ ﴾ أي آمنوا إلى ما في أنفسكم أو افرغوا منه ، يقال : قضى فلان إذا مات ومضى وقضى منه إذا فرغ منه .

(298/368)

وقال الضحاك : يعني انهضوا إليَّ ، وحكى الفراء عن بعض القرّاء : افضوا إليَّ بالفاء ، أي توجهوا حتى تصلوا إليَّ ، كما يقال أنصت [الخلائق] إلى فلان وأفضى إلى الوجه ﴿ وَلاَ تُنظِرُونَ ﴾ ولا تؤمرون ، وهذا إخبار من الله تعالى عن نبيه نوح (عليه السلام) أنه كان من نصر الله واثقاً ومن كيد قومه وبوائقهم غير خائف علماً منه بأنهم وآلهتهم لا تنفع ولا تضر شيئاً إلاّ أن يشاء الله ، وتعزية لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وتقوية لقلبه ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أعرضتم عن قولي وأبيتم أن تقبلوا نصحي ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُمْ ﴾ على الدعوة وتبليغ الرسالة من أجل جعل وعوض ﴿ مِّنْ أَجْرٍ ﴾ ما جزائي وثوابي ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين * فَكَذَّبُوهُ ﴾ يعني نوحاً ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الفلك وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ ﴾ سكان الأرض خلفاً عن الهالكين ﴿ وَأَغْرَقْنَا الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ﴾ يعني [أخزى] من الذين أنذرتهم الرسل ولم يؤمنوا ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد نوح ﴿ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُمْ بالبينات ﴾ بالآيات

والأمر والنهي ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ ليصدقوا ﴿ بِمَا كَذَّبُواْ ﴾ بما كذبت ﴿ بِهِ ﴾ وأنّهم ﴿ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ ﴾ نختم ﴿ على قُلوبِ المعتدين ﴾ المجاوزين الحلال إلى الحرام ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد نوح ﴿ وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ يعني أفراد قومه ﴿ بِآيَاتِنَا فاستكبروا وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَآءَهُمُ ﴾ يعني فرعون وقومه ﴿ الحق مِنْ عِندِنَا قالوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ * قَالَ موسى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا ﴾ تقدير الكلام : أتقولون للحق لما جاءكم سحراً سحر هذا الحذف السحر

(299/368)

الأول ، فدلالة الكلام عليه كقوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرةِ لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ [الإسراء : 7] المعنى : يغشاكم ليسوؤا وجوهكم .

وقال ذو الرمّة :

فلما لبسن الليل أو حين نصبت . . . له من خذا آذانها وهو جانح

أي : أو حين أقبل ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون * قالوا ﴾ يعني فرعون وقومه ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ لتلوينا وتصرفنا ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ من الدين ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الكبرياء ﴾ الملك والسلطان ﴿ فِي الأرض ﴾ أرض (مصر) ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ

* وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائتوني بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَآءَ السحرة قَالَ لَهُمْ موسى أَلْقُواْ مَآ أَنتُمْ مُّلْقُونَ * فَلَمَّآ أَلْقَواْ قَالَ موسى مَا جِئْتُمْ بِهِ السحر ﴾ أي الذي جئتم به السحر .

وقراءة مجاهد وأبو عمر وأبو جعفر : السحر بالمد على الإستفهام ، ودليل قراءة العامة قراءة ابن مسعود : ما جئتم به السحر وقراءة أُبيّ : ما أتيتم به سحر ﴿ إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ إِنَّ الله لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدين * وَيُحِقُّ الله الحق بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ المجرمون * فَمَآ آمَنَ لموسى ﴾ لم يصدق موسى مهما آتاهم من الحجج ﴿ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ فقال قوم : هي راجعة إلى موسى وأراد بهم مؤمني بني سرائيل .

قال ابن عباس : كانوا ستمائة ألف وذلك أن يعقوب (عليه السلام) دخل مصر في اثني وسبعين إنساناً فتوالدوا بمصر حتى بلغوا ستمائة ألف .

وقال مجاهد : أراد بهم أولاد الذين أرسل إليهم موسى إلى بني إسرائيل لطول الزمان هلك الآباء وبقي الأبناء ، وقال آخرون : الهاء راجعة إلى فرعون .

روى عطية عن ابن عباس : هم ناس يسير من قوم فرعون آمنوا منهم امرأة فرعون ، ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه وماشطته .

(300/368)

وروي عن ابن عباس من وجه آخر : أنهم سبعون أهل بيت من القبط من آل فرعون وأمهاتهم من بني إسرائيل فجعل الرجل يتبع أمه وأخواله .

قال الفراء : وإنما سموا ذرية لأن آباءهم كانوا من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل ، كما يقال لأولاد أهل فارس الذين انتقلوا إلى اليمن الأبناء ، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم والذرية العقب من الصغار والكبار ﴿ على خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ﴾ يريد الكناية في قومه إلى فرعون ، ردّ الكناية في قوله : وملائهم ، إلى الذرية ، ومن رد الكناية إلى موسى يكون : إلى ملأ فرعون .

قال الفراء : وإنما قال : ﴿ وَمَلَئِهِمْ ﴾ بالجمع وفرعون واحد لأن الملك إذا ذكر ذهب الوهم إليه وإلى أصحابه .

[فيكون من باب حذف المضاف] وذكر وهب بن منبه ، [أنه] إليه وإلى عصابته كما يقال : قدم الخليفة تريد والذين معه ، ويجوز أن يكون أراد بفرعون آل فرعون [كقوله تعالى] : ﴿ وسْئَلِ القرية ﴾ [يوسف : 82] و ﴿ يا أيها النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ [الطلاق : 1] ﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ بصرفهم عن دينهم ، ولم يقل : يفتنوهم ؛ لأنّه أخبر أنّ فرعون وقومه كانوا على [الضلال] . ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرض وَإِنَّهُ لَمِنَ المسرفين ﴾ [من المجاوزين الحدّ في العصيان والكفر] لأنّه كان قد ادّعى الربوبية ﴿ وَقَالَ موسى ﴾ لمؤمني قومه : ﴿ يا قوم إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بالله فَعَلَيْهِ توكلوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ ﴿ فَقَالُواْ على الله تَوَكَّلْنَا ﴾ .

ثم دعوا فقالوا : ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ قال أبو مجلز : [ربّنا لا تظهر فرعون وقومه] علينا فيروا أنّهم خير منا فيزدادوا طغياناً . وقال عطية : لا تسلّطهم علينا فيسيئون ويقتلون . وقال مجاهد : لا تعذّبنا بأيدي قوم [ظالمين ولا تعذّبنا] بعذاب من عندك ، فيقول قوم فرعون : لو كانوا على حق لما عُذّبوا ، ولا تسلّطنا عليهم فيفتتنوا ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ القوم الكافرين * وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى وَأَخِيهِ ﴾ [أمرناهما] ﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً ﴾ يقال : تبوّأ فلان لنفسه بيتاً [والمبوأ المنزل ومنه بوّأه الله منزلا] إذا اتخذه له .

﴿ واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ قال أكثر المفسّرين : كانت بنو إسرائيل لا يصلّون إلاّ في كنائسهم وبيعهم ، وكانت ظاهرة ، فلما أُرسل موسى أَمرَ فرعون بمساجد بني إسرائيل فخرّبت ، ومنعهم من الصلاة ، فأُمروا أن يتّخذوا مساجد لهم يصلّون فيها خوفاً من فرعون ، وهذا قول إبراهيم وابن زيد والربيع وهي كذلك ، ورواية عكرمة عن ابن عباس . قال مجاهد وخلف : [قال موسى] لمن معه من قوم فرعون أن صلّوا إلى الكنائس الجامعة ، فأُمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة للكعبة فيصلّون فيها سرّاً . ومعنى البيوت هنا [

يكون] المساجد .

وتقدير الآية : واجعلوا بيوتكم إلى القبلة . وهذا رواية ابن جريج عن ابن عباس ، قال : كانت الكعبة قبلة موسى ومن معه . قال سعيد بن جبير : معناه : واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضاً ، والقبلة الوجهة .

﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ يا محمد .

(302/368)

﴿ وَقَالَ موسى رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً ﴾ من متاع الدنيا وأثاثها . مقاتل : شارة حسنة ، لقوله : ﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ [القصص : 79] ﴿ وَأَمْوَالاً فِي الحياة الدنيا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ . اختلفوا في هذه اللام فقال بعضهم هي لام (كي) ومعناه [أعطيتهم لكي يضلّوا ويبطروا ويتكبّروا] لتفتنهم بها فيضلّوا ويُضلّوا إملاءً منك ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقاً * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن : 16-17] ، وقيل : هي لام العاقبة ولام الصيرورة يعني أعطاهم ليضلّوا [. . . . .] آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ، وقيل : هي لام أي آتيتهم لأجل ضلالهم عقوبة لهم كقوله : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ إِذَا انقلبتم إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ﴾ [التوبة : 95] أي لأجل

إعراضكم عنهم ، ولم يحلفوا لتعرض عنهم .

﴿ رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ ﴾ ، قال عطية ومجاهد : أعفها ، فالطمس : المحو والتعفية ، وقال أكثر المفسرين : امسخها وغيّرها عن هيئتها ، قال محمد بن كعب القرضي : جعل سكّتهم حجارة ، وقال قتادة : بلغنا أن زروعهم صارت حجارة ، وقال ابن عباس : إن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأثلاثاً وأنصافاً . قال ابن زيد : صارت حجارة ذهبهم ، ودراهمهم وعدسهم وكل شيء ، وقال السدّي : مسخ الله أموالهم حجارة ، النخل والثمار والدقيق والأطعمة ، وكانت احدى الآيات التسع .

﴿ واشدد على قُلُوبِهِمْ ﴾ يعني : واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان .

﴿ فَلاَيُؤْمِنُواْ ﴾ قيل : هو نصب جواب الدعاء بالفاء ، وقيل : عطف على قوله : [ليُضلوا] .

(303/368)

قال الفراء : هو دعاء ومحله جزم كأنه : اللهم فلا يؤمنوا وقيل : معناه فلا آمنوا . ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا ﴾ [وقرأ علي والسملي : "دعواتكما" بالجمع وقرأ ابن السميفع : قد أجبت دعوتكما] خبراً عن الله تعالى .

كقول الأعشى :

فقلت لصاحبي لا تعجلانا . . . بنزع أصوله واجتز شيحاً

﴿ فاستقيما ﴾ على الرسالة والدعوة ، وامضيا لأمري إلى أن يأتيهم عقاب الله .

قال ابن جريج : مكث فرعون بعد هذا الدعاء أربعين سنة .

﴿ وَلَا تَتَّبِعَآنِّ ﴾ نهي بالنون الثقيلة ومحله جزم ويقال في الواحد لا تتبعَنْ ، فيفتح النون لالتقاء الساكنين ، وتكسر في التثنية لهذه العلة . وقرأ ابن عامر بتخفيف النون لأن نون التوكيد تُثقّل وتخفف .

﴿ سَبِيلَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : ولا تسلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وعدي فتستعجلان قضائي ؛ فإن قضائي ووعدي لا خلف لهما ، ووعيدي نازل بفرعون وقومه .

﴿ وَجَاوَزْنَا ببني إِسْرَائِيلَ البحر ﴾ الآية ، وذلك أنّ الله تعالى أمر موسى (عليه السلام) أن يخرج ببني إسرائيل من مصر و [تَبَعا] بنو إسرائيل من القبط [فأخرجهم] بعلة عرس لهم وسرى بهم موسى وهم ستمائة ألف وعشرون ألفاً لا يُعدّ فيهم ابن سبعين سنة ولا ابن عشرين سنة ، [إلى البحر وقال لكما] القبط تلك الليلة ، فتتبعوا بني إسرائيل حتى أصبحوا وهو قوله : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ [الشعراء : 60] بعدما دفنوا أولادهم ، فلمّا بلغ فرعون ركب [البحر] ومعه ألف ألف وستمائة ألف .

قال محمد بن كعب : كان في عسكر فرعون مائة ألف حصان أدهم سوى سائر الشهبان ، وكان [. . . . .] وكان هارون على مقدمة بني إسرائيل وموسى في الساقة ، فلمّا انتهوا إلى البحر وقربت منهم مقدمة فرعون مائة ألف رجل ، كلٌّ قد غطّى أعلى رأسه ببيضة وبيده حربة ، وفرعون خلفهم في الدميم ، فقالت بنو إسرائيل لموسى : أين ما وعدتنا ؟ هذا البحر أمامنا [إن عبرناه] غَرِقنا وفرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا ، ولقد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا .

فقال موسى : عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعلمون ، وقال : كلا إنّ معي ربي سيهدين ، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فلم ينفلق وقال : أنا أقدم منك وأشد خلقاً ، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن كنه وقل : انفلق أبا خالد بإذن الله عزّ وجل ، ففعل ذلك فانفلق البحر وصار اثنا عشر طريقاً لكل سبط طريق . وكشف الله عن وجه الأرض فصارت يابسة وارتفع بين كل طريقين جبل .

وكانوا بني عمّ لا يرى بعضهم بعضاً ولا يسمع بعضهم كلام بعض ، فقال كل فريق : قد غرق أصحابنا فأوحى الله تعالى إلى الجبال من الماء تشبّكي فتشبكت وصارت فيه شبه

الخروق فجعل ينظر بعضهم إلى بعض .

فلمّا وصل فرعون بجنوده إلى البحر ورأوا البحر بتلك الهيئة قال فرعون : ها بني البحر ، وها بوا دخول البحر ، وكان فرعون على حصان أدهم ولم يكن في خيل فرعون فرس أنثى ، فجاء جبرئيل على فرس وديق وخاض البحر وميكائيل يسوقهم ، لا يشذ رجل منهم إلاّ ضمّه إليهم .

(305/368)

فلما شمّ أدهم فرعون ريح فرس جبرئيل ، وفرعون لا يراه انْسَلّ خلف فرس جبريل ولم يملك فرعون من أمره شيئاً واقتضمت الخيول في الماء ، فلما دخل آخرهم البحر وهمّ أولهم أن يخرج انطبق الماء عليهم ، فلمّا أدرك فرعون الغرق : ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ ﴾ فدسّ جبرئيل في فيه من حمأة البحر ، وقال : ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ .

قال أبو بكر الوراق : قال الله لموسى وهارون : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ [طه : 44] حين لم ينفعْه تذكّره وخشيته .

قال كعب : لمّا أمسك نيل مصر عن الجري قالت القبط لفرعون : [إن كنت ربّنا فأجرِ لنا

الماء] ، فركب وأمر جنوده بالركوب وكان مناديه ينادي كل ساعة : ليقف فلان بجنوده قائداً قائداً فجعلوا يقفون على درجاتهم [وقفز] حتى بقي هو وخاصته ، فأمرهم بالوقوف حتى بقي في حُجّابه وخُدّامه ، فأمرهم بالوقوف وتقدّم وحده بحيث لا يرونه [ونزل عن دابته] ولبس ثياباً أُخر وسجد وتضرع إلى الله ، فأجرى الله تعالى له الماء فأتاه جبرئيل وحده في هيئة مستفت وقال : ما يقول الأمير في رجل له عبد قد نشأ في نعمته لا سيد له غيره ، فكفر نعمته وجحد حقّه وادعى السيادة دونه ؟ [فكتب فرعون : جزاؤه أن يغرق في البحر] .

فلمّا أخبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه قالت بنو إسرائيل : ما مات فرعون ولا يموت أبداً ، فأمر الله تعالى بالبحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصير كأنه ثور فتراءاه بنو إسرائيل ، فمن ذلك الوقت لا يقبل الماء ميتاً أبداً ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا ﴾ أي قطعنا ببني إسرائيل البحر حتى جازوه ، وقرأ الحسن [وجوزنا ، وهما لغتان] .

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ ﴾ فأدركهم ، يقال : تبعه وأتبعه إذا أدركه ولحقه ، واتّبعه بالتشديد إذا سار خلفه [واقتدى به] ﴿ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ﴾ .

(306/368)

﴿ بَغْياً وَعَدْواً ﴾ ظلماً واعتداءً ، يقال : عدا يعدو عدواً مثل : غزا يغزو غزواً ، وقرأ الحسن [عُدوّاً] بضم العين وتشديد الواو مثل : علا يعلو عُلوّاً . قال المفسرون : بغياً في القول وعدواً في الفعل .

﴿ حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق ﴾ أي أحاط به ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف إنّه بالكسر أي آمنت وقلت : إنّه ، وهي قراءة عبد الله . وقرأ الآخرون : أنّ بالفتح لوقوع آمنت عليها ، وهي اختيار أبو عبيد وأبي حاتم .

﴿ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ قال جبرئيل ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين ﴾ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال لي جبرئيل : ما أبغضت أحداً من عباد الله إلاّ أنا أبغضت عبدين أحدهما من الجنّ والآخر من الأنس ، فأما من الجنّ فإبليس حين أبى بالسجود لآدم وأما من الإنس ففرعون حين قال : أنا ربكم الأعلى ، ولو رأيتني يا محمد وأنا أدسّ الطين في فيه مخافة أن تدركه الرحمة " .

﴿ فاليوم نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أي نجعلك على نجوة من الأرض وهي النجو : المكان المرتفع ، قال أوس بن حجر :

فمن بعقوته كمن بنجوته . . . والمستكنّ كمن يمشي بقرواح

﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ بجسدك لا روح فيك . وقال مجاهد والكسائي : البدن هاهنا الدرع وكان

دارعاً . قال الأعشى :

وبيضاء كالنهى موضونة . . . لها قونس فوق جيب البدى

وقرأ عبد الله : فاليوم ننجيك ببدنك ، أي نلقيك على ناحية البحر . وقيل : شعرك .

﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ عبرة وعظة . وقرأ علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) : لمن خلقك (بالقاف) ، أي تكون آية لخالقك .

﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس ﴾ قال مقاتل : يعني أهل مكة ، قال الحسن : هي عامة .

﴿ عَنْ آيَاتِنَا ﴾ عن الإيمان بآياتنا ﴿ لَغَافِلُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(307/368)

وقال ابن الجوزى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ قال ابن عباس : يعني أهل مكة ، جعلوا الملائكة بنات الله .

قوله تعالى : ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه له عما قالوا .

﴿ هو الغني ﴾ عن الزوجة والولد .

﴿ إِن عندكم ﴾ أي : ما عندكم ﴿ من سلطان ﴾ أي : حجة بما تقولون .

قوله تعالى : ﴿ لا يفلحون ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : لا يبقون في الدنيا .

والثاني : لا يسعدون في العاقبة .

والثالث : لا يفوزون .

قال الزجاج : وهذا وقف التمام ، وقوله ﴿ متاع في الدنيا ﴾ مرفوع على معنى : ذلك متاع في الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح ﴾ فيه دليل على نبوّته ، حيث أخبر عن قصص الأنبياء ولم يكن يقرأ الكتب ، وتحريضٌ على الصبر ، وموعظةٌ لقومه بذكر قوم نوح وما حلَّ بهم من العقوبة بالتكذيب .

قوله تعالى : ﴿ إِن كان كَبُرَ ﴾ أي : عَظُم وشَقَّ ﴿ عليكم مقامي ﴾ أي : طول مكثي .

وقرأ أبو مجلز ، وأبو رجاء ، وأبو الجوزاء "مُقامي" برفع الميم .

﴿ وتذكيري ﴾ وعظي .

﴿ فعلى الله توكلت ﴾ في نصرتي ودفع شركم عني .

﴿ فأجمعوا أمركم ﴾ قرأ الجمهور : "فأجمعوا" بالهمز وكسر الميم ، من "أجمعتُ" .

وروى الأصمعي عن نافع : "فاجمعوا" بفتح الميم ، مِن "جمعت" .

ومعنى "أجمعوا أمركم" : أحكِموا أمركم واعزموا عليه .

قال المؤرِّج : "أجمعت الأمر" أفصح من "أجمعت عليه" ، وأنشد :

يا ليتَ شِعري والمنى لا تنفَعُ . . .

هل أَغْدُوَنْ يوماً وأَمري مُجْمَعُ

فأما رواية الأصمعي ، فقال أبو علي : يجوز أن يكون معناها : اجمعوا ذوي الأمر منكم ، أي : رؤساءكم .

ويجوز أن يكون جعل الأمر ما كانوا يجمعونه من كيدهم الذي يكيدون به ، فيكون كقوله : ﴿ فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً ﴾ [طه : 64] .

قوله تعالى : ﴿ وشركاءكم ﴾ قال الفراء وابن قتيبة : المعنى : وادعوا شركاءكم .

وقال الزجاج : الواو هاهنا بمعنى "مع" ، فالمعنى : مع شركائكم .

(308/368)

تقول : لو تُركت الناقة وفصيلها لرضعها ، أي : مع فصيلها وقرأ يعقوب "وشركاؤكم" بالرفع .

قوله تعالى : ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غُمّة ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لا يكن أمركم مكتوماً ، قاله ابن عباس .

والثاني : غماً عليكم ، كما تقول : كرب وكربة ، قاله ابن قتيبة .

وذكر الزجاج القولين .

وفي قوله : ﴿ ثم اقضوا إِليَّ ﴾ قولان :

أحدهما : ثم أقضوا إِليَّ ما في أنفسكم ، قاله مجاهد .

والثاني : افعلوا ما تريدون ، قاله الزجاج ، وابن قتيبة .

وقال ابن الأنباري : معناه : اقضوا إِليَّ بمكروهكم وما توعدونني به ، كما تقول العرب : قد قضى فلان ، يريدون : مات ومضى .

قوله تعالى : ﴿ فإن تولَّيتم ﴾ أي : أعرضتم عن الإِيمان .

﴿ فما سألتكم من أجر ﴾ أي : لم يكن دعائي إِياكم طمعاً في أموالكم .

قوله تعالى : ﴿ إِن أجريَ ﴾ حرّك هذه الياء ابن عامر ، وأبو عمرو ، ونافع ، وحفص عن عاصم ، وأسكنها الباقون .

قوله تعالى : ﴿ وجعلناهم خلائف ﴾ أي : جعلنا الذين نَجَوْا مع نوح خَلَفاً ممن هلك .

قوله تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعده ﴾ أي : من بعد نوح ﴿ رسلاً إِلى قومهم ﴾ قال ابن عباس : يريد إِبراهيم وهوداً وصالحاً ولوطاً وشعيباً .

﴿ فجاؤوهم بالبينات ﴾ أي : بان لهم أنهم رسل الله .

﴿ فما كانوا ﴾ أي : أولئك الأقوام ﴿ ليؤمنوا بما كذَّبوا ﴾ يعني الذين قبلهم .

والمراد : أن المتأخرين مَضَواْ على سَنَن المتقدّمين في التكذيب .

وقال مقاتل : فما كانوا ليؤمنوا بما كذَّبوا به من العذاب من قبل نزوله .

قوله تعالى : ﴿ كذلك نطبع ﴾ أي : كما طبعنا على قلوب أولئك ، ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ يعني المتجاوزين ما أُمروا به .

قوله تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم ﴾ يعني الرسل الذين أُرسلوا بعد نوح .

قوله تعالى : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا ﴾ وهو ما جاء به موسى من الآيات .

(309/368)

قوله تعالى : ﴿ أسحر هذا ﴾ قال الزجاج : المعنى : أتقولون للحق لما جاءكم هذا اللفظ ، وهو قولهم : ﴿ إِنَّ هذا لسحرٌ مبين ﴾ .

ثم قررهم فقال : ﴿ أسحر هذا ﴾ ؟ .

قال ابن الأنباري : إنما أدخلوا الألف على جهة تفظيع الأمر ، كما يقول الرجل إذا نظر إلى الكسوة الفاخرة : أكسوة هذه ؟ يريد بالاستفهام تعظيمها ، وتأتي الرجلَ جائزةٌ ، فيقول : أحقٌّ ما أرى ؟ معظِّماً لما ورد عليه .

وقال غيره : تقدير الكلام : أتقولون للحق لما جاءكم : هو سحر ؟ أسحر هذا ؟ فحذف السحر الأول اكتفاءً بدلالة الكلام عليه ، كقوله : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم ﴾ [الإسراء : 8] المعنى : بعثناهم ليسوؤوا وجوهَكم .

قوله تعالى : ﴿ أجئتنا لتلفتنا ﴾ قال ابن قتيبة : لتصرفنا .

يقال : لفتُّ فلاناً عن كذا : إذا صرفته .

ومنه الالتفات ، وهو الانصراف عما كنت مقبلاً عليه .

قوله تعالى : ﴿ وتكونَ لكما الكبرياء في الأرض ﴾ وروى أبان ، وزيد عن يعقوب ﴿ ويكون لكما ﴾ بالياء .

وفي المراد بالكبرياء ثلاثة أقوال : أحدها : الملك والشرف ، قاله ابن عباس .

والثاني : الطاعة ، قاله الضحاك .

والثالث : العلوّ ، قاله ابن زيد .

قال ابن عباس : والأرض هاهنا ، أرض مصر .

قوله تعالى : ﴿ بكل ساحر ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف "بكل سحَّار" بتشديد الحاء وتأخير الألف .

قوله تعالى : ﴿ ما جئتم به السحرُ ﴾ قرأ الأكثرون "السحرُ" بغير مدّ ، على لفظ الخبر ، والمعنى : الذي جئتم به من الحبال والعصيّ ، هو السحر ، وهذا ردٌّ لقولهم للحق : هذا

سحر ، فتقديره : الذي جئتم به السحر ، فدخلت الألف واللام ، لأن النكرة إذا عادت ، عادت معرفة ، كما تقول : رأيت رجلاً ، فقال لي الرجل .

وقرأ مجاهد ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر ، وأبان عن عاصم ، وأبو حاتم عن يعقوب "آلسحر" بمدّ الألف ، استفهاماً .

قال الزجاج : والمعنى : أي شيء جئتم به ؟ أسحر هو ؟ على جهة التوبيخ لهم .

(310/368)

وقال ابن الأنباري : هذا الاستفهام معناه التعظيم للسحر ، لا على سبيل الاستفهام عن الشيء الذي يُجهل ، وذلك مثل قول الإنسان في الخطأ الذي يستعظمه من إنسان : أَخَطَأٌ هذا ؟ أي : هو عظيم الشأن في الخطأ .

والعرب تستفهم عما هو معلوم عندها ، قال امرؤ القيس :

أغرَّكِ مِنّي أنّ حُبَّكِ قاتلي . . .
وأنَّك مهما تأمري القلبَ يَفْعَلِ

وقال قيس بن ذريح :

أراجعةٌ يالُبنَ أيامُنا الأُلى . . .

بذي الطَّلح أم لا ما لَهُنَّ رجوعُ

فاستفهم وهو يعلم أنهن لا يرجعن .

قوله تعالى : ﴿ إِن الله سيبطله ﴾ أي : يهلكه ، ويُظهر فضيحتكم ، ﴿ إِن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ لا يجعل عملهم نافعاً لهم .

﴿ ويُحقُّ الله الحقَّ ﴾ أي : يظهره ويمكّنه ، ﴿ بكلماته ﴾ بما سبق من وعده بذلك .

قوله تعالى : ﴿ فما آمن لموسى إِلا ذرية ﴾ في المراد بالذرّية ها هنا ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المراد بالذرّية : القليل ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم أولاد الذين أُرسل إِليهم موسى ، مات آباؤهم لطول الزمان ، وآمنوا هم ، قاله مجاهد .

وقال ابن زيد : هم الذين نشؤوا مع موسى حين كفَّ فرعون عن ذبح الغلمان .

قال ابن الأنباري : وإِنما قيل لهؤلاء : "ذرية" لأنهم أولاد الذين بُعث إِليهم موسى ، وإِن كانوا بالغين .

والثالث : أنهم قوم ، أُمهاتهم من بني إِسرائيل ، وآباؤهم من القبط ، قاله مقاتل ، واختاره الفراء .

قال : وإِنما سُمُّوا ذريةً كما قيل لأولاد فارس : الأبناء ، لأن أُمهاتهم من غير جنس آبائهم .

وفي هاء "قومه" قولان :

أحدهما : أنها تعود إلى موسى ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : إلى فرعون ، رواه أبو صالح عن ابن عباس فعلى القول الأول يكون قوله : ﴿ على خوفٍ من فرعونَ وملئهم ﴾ أي : وملأ فرعون .

(311/368)

قال الفراء : وإنما قال : "وملئهم" بالجمع ، وفرعون واحد ، لأن الملك إذا ذُكر ذهب الوهم إليه وإلى من معه ، تقول : قدم الخليفة فكثر الناس ، تريد : بمن معه .

وقد يجوز أن يريد بفرعون : آل فرعون ، كقوله : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] .

وعلى القول الثاني : يرجع ذِكر الملأ إلى الذرية .

قال ابن جرير : وهذا أصح ، لأنه كان في الذرِّيةَ من أبوه قبطي وأُمُّه إسرائيلية ، فهو مع فرعون على موسى .

قوله تعالى : ﴿ أن يفتِنهم ﴾ يعني فرعون ، ولم يقل : يفتنوهم ، لأن قومه كانوا على مَن كان عليه .

وفي هذه الفتنة قولان :

أحدهما : أنها القتل ، قاله ابن عباس .

والثاني : التعذيب ، قاله ابن جرير .

قوله تعالى : ﴿ وإن فرعون لعالٍ في الأرض ﴾ قال ابن عباس : متطاول في أرض مصر ﴿ وإنَّه لمن المسرفين ﴾ حين كان عبداً فادّعى الربوبيَّة .

قوله تعالى : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكَّلوا ﴾ لما شكا بنوا إسرائيل إلى موسى ما يهددّهم به فرعون من ذبح أولادهم ، واستحياء نسائهم ، قال لهم هذا .

وفي قوله : ﴿ لا تجعلنا فتنة ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : لا تهلكنا بعذاب على أيدي قوم فرعون ، ولا بعذاب من قِبَلك ، فيقول قوم فرعون : لو كانوا على حق ما عُذِّبوا ولا سُلِّطْنا عليهم .

والثاني : لا تسلِّطهم علينا فيفتنونا ، والقولان مرويان عن مجاهد .

والثالث : لا تسلِّطهم علينا فيفتتنون بنا ، لظنهم أنهم على حق ، قاله أبو الضحى ، وأبو مجلز .

قوله تعالى : ﴿ أن تبوّآ لقومكما بمصر بيوتاً ﴾ قال المفسرون : لما أُرسل موسى ، أَمر فرعونُ بمساجد بني إسرائيل فخُرِّبت كلُّها ، ومُنعوا من الصلاة ، وكانوا لا يصلُّون إلا في الكنائس ؛ فأُمروا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلُّون فيها خوفاً من فرعون .

و"تبوّآ" معناه : اتخِذا ، وقد شرحناه في [الأعراف : 74] .

وفي المراد بمصر قولان :

أحدهما : أنه البلد المعروف بمصر ، قاله الضحاك .

(312/368)

والثاني : أنه الاسكندرية ، قاله مجاهد .

وفي البيوت قولان :

أحدهما : أنها المساجد ، قاله الضحاك ،

والثاني : القصور ، قاله مجاهد .

وفي قوله : ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ أربعة أقوال :

أحدها : اجعلوها مساجد ، رواه مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك عن ابن عباس ، وبه قال النخعي ، وابن زيد .

وقد ذكرنا أن فرعون أمر بهدم مساجدهم ، فقيل لهم : اجعلوا بيوتكم قبلة بدلا من المساجد .

والثاني : اجعلوها قِبَل القبلة ، رواه العوفي عن ابن عباس .

وروى الضحاك عن ابن عباس ، قال : قِبَل مكة .

وقال مجاهد : أُمروا أن يجعلوها مستقبلة الكعبة ، وبه قال مقاتل ، وقتادة ، والفراء .

والثالث : اجعلوها يقابل بعضها بعضاً ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال سعيد بن جبير .

والرابع : واجعلوا بيوتكم التي بالشام قبلةً لكم في الصلاة ، فهي قبلة اليهود إلى اليوم ، قاله ابن بحر .

فإن قيل : البيوت جمع ، فكيف قال "قبلة" على التوحيد ؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري ، فقال : من قال : المراد بالقبلة الكعبة ، قال : وحّدت القبلة لتوحيد الكعبة .

قال : ويجوز أن يكون أراد : اجعلوا بيوتكم قِبَلاً ، فاكتفى بالواحد عن الجمع ، كما قال العباس بن مرداس :

فقلنا أَسْلِمُوا إنّا أخوكم . . .

فقد برئت من الإِحن الصُّدورُ

يريد : إنا إخوتكم .

ويجوز أن يكون وحّد "قبلة" لانه أجراها مجرى المصدر ، فيكون المعنى : واجعلوا بيوتكم إقبالاً على الله ، وقصداً لما كنتم تستعملونه في المساجد .

ويجوز أن يكون وحَّدها ، والمعنى : واجعلوا بيوتكم شيئاً قبلة ، ومكاناً قبلة ، ومحلة قبلة .

قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ قال ابن عباس : أتموا الصلاة ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أنت يا محمد .

قال سعيد بن جبير : بشِّرهم بالنصر في الدنيا ، وبالجنة في الآخرة .

(313/368)

قوله تعالى : ﴿ ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً ﴾ قال ابن عباس : كان لهم من لدن فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن ذهب وفضة وزبرجد وياقوت .

قوله تعالى : ﴿ ليَضلُّوا عن سبيلك ﴾ وفي لام "ليَضِلُّوا" أربعة أقوال :

أحدها : أنها لام "كي" والمعنى : آتيتهم ذلك كي يضلوا ، وهذا قول الفراء .

والثاني : أنها لام العاقبة ، والمعنى إنك آتيتهم ذلك فأصارهم إلى الضلال ، ومثله قوله : ﴿ ليكون لهم عدوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص : 8] أي : آل أمرهم إلى أن صار لهم عدواً ، لا أنهم قصدوا ذلك ، وهذا كما تقول للذي كسب مالاً فأدّاه إلى الهلاك : إنما كسب فلان لحتفه ، وهو لم يكسب المال طلباً للحتف ، وأنشدوا :

وللمنايا تُرَبِّي كلُّ مُرْضِعَةٍ . . .

وللخراب يُجِدُّ الناسُ عمرانا

وقال آخر :

وللموتِ تغذُو الوالداتُ سِخالَها . . .

كما لخراب الدُّور تُبنى المساكِنُ

وقال آخر :

فإن يكُنِ الموتُ أفناهم . . .

فللموت ما تَلِدُ الوالده

أراد : عاقبة الأمر ومصيره إلى ذلك ، هذا قول الزجاج .

والثالث : أنها لام الدعاء ، والمعنى : ربنا ابتلهم بالضلال عن سبيلك ، ذكره ابن الأنباري .

والرابع : أنها لام أجْل ، فالمعنى : آتيتهم لأجل ضلالتهم عقوبةً منك لهم ، ومثله قوله : ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتُعرضوا عنهم ﴾

[التوبة : 95] أي : لأجل إعراضكم ، حكاه بعض المفسرين .

وقرأ أهل الكوفة إلا المفضل ، وزيد ، وأبو حاتم عن يعقوب "ليُضِلُّوا" بضم الياء ، أي ليُضلُّوا غيرهم .

قوله تعالى : ﴿ ربنا اطمس ﴾ روى الحلبي عن عبد الوارث : "اطمُس" بضم الميم ، ﴿ على أموالهم ﴾ وفيه قولان :

أحدهما : أنها جُعلت حجارة ، رواه مجاهد عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والضحاك ،

وأبو صالح ، والفراء .

وقال القرظي : جُعِل سُكَّرهُم حجارة .

وقال ابن زيد : صار ذهبهم ودراهمهم وعدسهم وكل شيء لهم حجارة .

(314/368)

وقال مجاهد : مسخ الله النخل والثمار والأطعمة حجارة ، فكانت إِحدى الآيات التسع .

وقال الزجاج : تطميس الشيء : إِذهابه عن صورته والانتفاعِ به على الحال الأولى التي كان عليها .

والثاني : أنها هلكت ، فالمعنى : أهلكْ أموالهم ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة ، ومنه يقال : طُمست عينه ، أي : ذهبتْ ، وطُمس الطريق : إِذا عفا ودرس .

وفي قوله : ﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ أربعة أقوال :

أحدها : اطبع عليها ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل ، والفراء ، والزجاج .

والثاني : أهلكهم كفاراً ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك .

والثالث : اشدد عليها بالضلالة ، قاله مجاهد .

والرابع : أن معناه قسِّ قلوبهم ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ فلا يؤمنوا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه دُعَاءٌ عليهم أيضاً ، كأنه قال : اللهم فلا يؤمنوا ، قاله الفراء ، وأبو عبيدة ، والزجاج .

وقال ابن الأنباري : معناه : فلا آمنوا ، قال الأعشى :

فلا ينْبَسِطْ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْكَ ما انْزَوى . . .

ولا تَلْقني إلاّ وأنفُكَ راغِمُ

معناه : لا أنبسط ، ولا لقيتني .

والثاني : أنه عطف على قوله : ﴿ ليَضلُّوا عن سبيلك ﴾ ، فالمعنى : أنك آتيتهم ليَضلُّوا فلا يؤمنوا ، حكاه الزجاج عن المبرِّد .

قوله تعالى : ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ قال ابن عباس : هو الغرق ، وكان موسى يدعو ، وهارون يؤمِّن ، فقال الله تعالى : ﴿ قد أُجيبتْ دعوتُكما ﴾ ، وكان بين الدعاء والإِجابة أربعون سنة .

فإن قيل : كيف قال : ﴿ دعوتكما ﴾ وهما دعوتان ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أن الدعوة تقع على دعوتين وعلى دَعَواتٍ وكلامٍ يطول كما بيَّنَّا في [الأعراف : 158] أن الكلمة تقع على كلمات ، قال الشاعر :

وكان دعا دعوةً قومَه . . .

هلمَّ إلى أمركم قد صُرِم

فأوقع "دعوة" على ألفاظ بيَّنها آخر بيته .

(315/368)

والثاني : أن يكون المعنى : قد أُجيبت دعواتكما ، فاكتفى بالواحد من ذِكر الجميع ، ذكر الجوابين ابن الأنباري .

وقد روى حماد بن سلمة عن عاصم أنه قرأ "دَعَواتُكما" بالألف وفتح العين .

والثالث : أن موسى هو الذي دعا ، فالدعوة له ، غير أنه لما أمَّن هارون ، أُشرك بينهما في الدعوة ، لأن التأمين على الدعوة منها .

وفي قوله : ﴿ فاستقيما ﴾ أَربعة أقوال :

أحدها : فاستقيما على الرسالة وما أمرتكما به ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : فاستقيما على دعاء فرعون وقومه إلى طاعة الله ، قاله ابن جرير .

والثالث : فاستقيما في دعائكما على فرعون وقومه .

والرابع : فاستقيما على ديني ، ذكرهما أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : ﴿ ولا تتبعانِّ ﴾ قرأ الأكثرون بتشديد تاء "تتَّبعانِّ" .

وقرأ ابن عامر بتخفيفها مع الاتفاق على تشديد نون "تتَّبعانّ" ، إلا أن النون الشديدة دخلت للنهي مؤكِّدة ، وكُسرت لسكونها وسكون النون التي قبلها ، واختير لها الكسر لأنها بعد الألف ، فشُبهت بنون الاثنين .

قال أبو علي : ومن خفض النون أمكن أن يكون خفف النون الثقيلة ، فإن شئت كان على لفظ الخبر ، والمعنى الأمر ، كقوله : ﴿ يتربَّصْنَ بأنفسهن ﴾ [البقرة : 228 و 234] و ﴿ لا تضارَّ والدة ﴾ [البقرة : 233] أي : لا ينبغي ذلك ، وإن شئت جعلته حالاً من قوله : ﴿ فاستقيما ﴾ تقديره : استقيما غير متَّبعَين .

وفي المراد بسبيل الذين لا يعلمون قولان :

أحدهما : أنهم فرعون وقومه ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : الذين يستعجلون القضاء قبل مجيئه ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

فإن قيل : كيف جاز أن يدعوَ موسى على قومه ؟

فالجواب : أن بعضهم يقول : كان ذلك بوحي ، وهو قول صحيح ، لأنه لا يُظن بنبيّ أن يُقدِم على مثل ذلك إلا عن إذن من الله عز وجل ، لأن دعاءه سبب للانتقام .

قوله تعالى : ﴿ فأتبعهم فرعون وجنوده ﴾ قال أبو عبيدة : أتبعهم وتبعهم سواء .

وقال ابن قتيبة : أتبعهم : لحقهم .

﴿ بغياً وعَدْواً ﴾ أي : ظلماً .

وقرأ الحسن ﴿ فاتَّبعهم ﴾ بالتشديد ، وكذلك شددوا ﴿ وعُدُوّاً ﴾ مع ضم العين .

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر "أنه" بفتح الألف ، والمعنى : آمنت بأنه ، فلما حُذف حرف الجر ، وصل الفعل إلى "أنَّ" فنُصب .

وقرأ حمزة والكسائي "إنه" بكسر الألف ، فحملوه على القول المضمر ، كأنه قال : آمنت ، فقلت : إنه .

قال ابن عباس : لم يقبل الله إيمانه عند رؤية العذاب .

قال ابن الأنباري : جنح فرعون إلى التوبة حين أُغلق بابها لحضور الموت ومعاينة الملائكة ، فقيل له : ﴿ آلآن ﴾ أي : الآن تتوب وقد أضعت التوبة في وقتها ، وكنت من المفسدين بالدعاء إلى عبادة غير الله عز وجل ؟ والمخاطِب له بهذا كان جبريل .

وجاء في الحديث أن جبريل جعل يدسُّ الطين في فم فرعون خشية أن يُغفرَ له .

قال الضحاك ابن قيس : اذكروا الله في الرَّخاء يذكركم في الشدة ، إن يونس عليه السلام كان عبداً صالحاً ، وكان يذكر الله ، فلما وقع في بطن الحوت سأل الله ، فقال الله : ﴿ فلولا

أَنَّه كان من المسبّحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ [الصافات : 143] ، وإن فرعون كان عبداً طاغياً ناسياً لذِكر الله تعالى ، فلما أدركه الغرق قال : آمنت ، فقال الله : ﴿ الآن وقد عصيت قبلُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فاليوم ننجّيك ﴾ وقرأ يعقوب "نُنْجيك" مخففة .

قال اللغويون ، منهم يونس وأبو عبيدة ، نُلقيك على نجوة من الأرض ، أي ارتفاع ، ليصير عَلَماً أنه قد غرق .

وقرأ ابن السميفع "ننحّيك" بحاء .

وفي سبب إخراجه من البحر بعد غرقه ثلاثة أقوال :

(317/368)

أحدها : أن موسى وأصحابه لما خرجوا ، قال من بقي من المدائن من قوم فرعون : ما أُغرق فرعون ، ولكنه هو وأصحابه يتصيدون في جزائر البحر ، فأوحى الله إلى البحر أن الفظ فرعون عرياناً ، فكانت نجاةَ عِبرةٍ ، وأوحى الله تعالى إلى البحر : أن الفظ ما فيك ، فلفظهم البحر بالساحل ، ولم يكن يلفظ غريقاً ، فصار لا يقبل غريقاً إلى يوم القيامة ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أن أصحاب موسى قالوا : إنا نخاف أن يكون فرعون ما غرق ، ولا نؤمن بهلاكه ، فدعا موسى ربه ، فأخرجه حتى أيقنوا بهلاكه ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وإلى نحوه ذهب قيس بن عُبَاد ، وعبد الله بن شداد ، والسدي ، ومقاتل .

وقال السدي : لما قال بنو إسرائيل : لم يغرق فرعون ، دعا موسى ، فخرج فرعون في ستمائة ألف وعشرين ألفاً عليهم الحديد ، فأخذته بنو إسرائيل يمثّلون به .

وذكر غيره أنه إنما أخرج من البحر وحده دون أصحابه .

وقال ابن جريج : كذَّب بعض بني إسرائيل بغرقه ، فرمى به البحر على ساحل البحر حتى رآه بنو إسرائيل قُصَيّراً أحمر كأنه ثور .

وقال أبو سليمان : عرفه بنو إسرائيل بدرع كان له من لؤلؤ لم يكن لأحد مثلها .

فأما وجهه فقد غيَّره سخط الله تعالى .

والثالث : أنه كان يدَّعي أنه ربٌّ ، وكان يعبده قوم ، فبيَّن الله تعالى أمره ، فأغرقه وأصحابه ، ثم أخرجه من بينهم ، قاله الزجاج .

وفي قوله : ﴿ ببدنك ﴾ أربعة أقوال :

أحدها : بجسدك من غير روح ، قاله مجاهد .

وذِكر البدن دليل على عدم الروح .

والثاني : بدرعك ، قاله أبو صخر .

وقد ذكرنا أنه كانت له درع من لؤلؤ ، وقيل : من ذهب ، فعُرِف بدرعه .

والثالث : نلقيك عرياناً ، قاله الزجاج .

والرابع : ننجّيك وحدك ، قاله ابن قتيبة .

وفي قوله : ﴿ لتكون لمن خلفك آية ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : لتكون لمن بعدك في النكال آية لئلا يقولوا مثل مقالتك ، فإنك لو كنتِ إلهاً ما غرقت ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

(318/368)

قال أبو عبيدة : "خلفك" بمعنى بعدك ، والآية : العلامة .

والثاني : لتكون لبني إِسرائيل آية ، قاله السدي .

والثالث : لمن تخلّف من قومه ، لأنهم أنكروا غرقه على ما ذكرنا في أول الآية ، فخرج في معنى الآية قولان :

أحدهما : عبرة للناس .

والثاني : علامة تدل على غرقه .

وقال الزجاج : الآية أنه كان يدّعي أنه ربٌّ ، فبان أمره ، وأخرج من بين أصحابه لما غرقوا .

وقرأ ابن السميفع ، وابو المتوكل ، وأبو الجوزاء ﴿ لمن خلقك ﴾ بالقاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(319/368)

فصل

قال الزمخشرى فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53) ﴾

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ ويستخبرونك فيقولون أَحَقٌّ هُوَ وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء . وقرأ الأعمش : آلحق هو ، وهو أدخل في الاستهزاء ، لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل . وذلك أنّ اللام للجنس ، فكأنه قيل : أهو الحق لا الباطل ؟ أو أهو الذي سميتموه الحق ، والضمير للعذاب الموعود . وإِي بمعنى «نعم» في القسم خاصة ، كما كان «هل» بمعنى «قد» في الاستفهام خاصة . وسمعتهم يقولون في التصديق : إيوَ ، فيصلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ بفائتين العذاب ، وهو لاحق بهم لا محالة .

[سورة يونس (10) : الآيات 54 إلى 56]

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَقُضِيَ

بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (54) أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (55) هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56)

ظَلَمَتْ صفة لنفس على : ولو أنّ لكل نفس ظالمة ما فِي الْأَرْضِ أى ما في الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها وجميع منافعها على كثرتها لَافْتَدَتْ بِهِ لجعلته فدية لها . يقال : فداه فافتدى . ويقال : افتداه أيضاً بمعنى فداه وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوه ولم يخطر ببالهم ، وعاينوا من شدّة الأمر وتفاقمه ما سلبهم قواهم وبهرهم ، فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا ولا ما يفعله الجازع ، سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب ، كما ترى المقدّم للصلب يثخنه ما دهمه من فظاعة الخطب ، ويغلب حتى لا ينبس بكلمة «1» ويبقى جامداً مبهوتاً . وقيل أسرّ رؤساؤهم الندامة من سفلتهم الذين أضلوهم ، حياء منهم وخوفا من توبيخهم . وقيل : أسروها أخلصوها ، إما لأن إخفاءها إخلاصها ، وإما من قولهم : سرّ الشيء ، لخالصه . وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة . وقيل : أسروا الندامة : أظهروها ، من قولهم : أسر الشيء وأشره إذا أظهره . وليس هناك تجلد وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ أى بين الظالمين والمظلومين ، دل على ذلك ذكر الظلم . ثم أتبع ذلك الإعلام بأنّ له الملك كله ، وأنه

---

(1) . قوله «لا ينبس بكلمة» أى لا يتكلم . أفاده الصحاح . (ع)

المثيب المعاقب ، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق . وهو القادر على الإحياء والإماتة ، لا يقدر عليهما غيره ، وإلى حسابه وجزائه المرجع ، ليعلم أن الأمر كذلك ، فيخاف ويرجى ، ولا يغتر به المغترون .

[سورة يونس (10) : الآيات 57 إلى 58]

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58)

قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ أى قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد وَهو شِفاءٌ أى دواء لِما فِي صدوركم من العقائد الفاسدة ودعاء إلى الحق وَرَحْمَةٌ لمن آمن به منكم . أصل الكلام : بفضل اللّه وبرحمته فليفرحوا ، فبذلك فليفرحوا .

والتكرير للتأكيد والتقرير ، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا ، فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه ، والفاء داخلة لمعنى الشرط ، كأنه قيل :

إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح، فإنه لا مفروح به أحق منهما . ويجوز أن يراد : بفضل اللّه وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا . ويجوز أن يراد : قد جاءتكم موعظة بفضل اللّه وبرحمته ، فبذلك : فبمجيئها فليفرحوا . وقرئ فليفرحوا ، بالتاء وهو الأصل والقياس ، وهي قراءة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيما روى . وعنه «1» «لتأخذوا مضاجعكم «2»

» قالها في بعض الغزوات .

وفي قراءة أبيّ : فافرحوا هُوَ راجع إلى ذلك . وقرئ : مما تجمعون ، بالياء والتاء . وعن أبيّ بن كعب أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم تلا قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فقال «بكتاب اللّه والإسلام «3»» وقيل «فضله» الإسلام «ورحمته» ما وعد عليه .

[سورة يونس (10) : الآيات 59 إلى 60]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59) وَما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (60)

---

(1) . هذا طرف من حديث أخرجه الترمذي من حديث معاذ بن جبل قال «أبطأ عنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في صلاة الفجر حتى كادت الشمس تطلع ثم خرج فأقيمت الصلاة فصلى بنا صلاة تجوزها فلما سلم قال : فما أنتم على مصافكم -

الحديث» .

(2) . قوله «لتأخذوا مضاجعكم» لعل الرواية «مصافكم» . (ع)

(3) . أخرجه ابن أبى شيبة من طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ فذكره . وعن أبى سعيد كذلك أخرجه الطبري ، وروى ابن مردويه من حديث أنس قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «قل بفضل اللّه وبرحمته» قال : بفضل اللّه القرآن وبرحمته أن جعلكم من الملة» .

(321/368)

أَرَأَيْتُمْ أخبرونى . وما أَنْزَلَ اللَّهُ «ما» في موضع النصب بأنزل ، أو ب أرأيتم ، في معنى : أخبرونيه فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالًا أى أنزله اللّه رزقا حلالا كله فبعضتموه وقلتم : هذا حلال وهذا حرام وكقولهم هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ، ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ متعلق ب أرأيتم . وقل : تكرير للتوكيد . والمعنى : أخبرونى اللّه أذن لكم في التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه ، أم تتكذبون على اللّه في نسبة ذلك إليه . ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار ، وأم منقطعة بمعنى : بل أتفترون على اللّه ، تقريرا للافتراء . وكفى بهذه الآية زاجرة زجراً بليغاً عن التجوز فيما

يسئل عنه من الأحكام. وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان، ومن لم يوقن فليتق اللّه وليصمت، وإلا فهو مفتر على اللّه يَوْمَ الْقِيامَةِ منصوب بالظنّ، وهو ظنّ واقع فيه، يعنى: أى شيء ظنّ المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم فيه وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة، وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره. وقرأ عيسى بن عمر: وما ظنّ، على لفظ الفعل. ومعناه: وأى ظنّ ظنوا يوم القيامة. وجيء به على لفظ الماضي لأنه كائن فكأن قد كان إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ حيث أنعم عليهم بالعقل ورحمهم بالوحي وتعليم الحلال والحرام وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا إليه.

[سورة يونس (10): آية 61]

وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ (61)

وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ «ما» نافية والخطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، والشأن: الأمر، وأصله الهمز بمعنى القصد، من شأنت شأنه إذا قصدت قصده. والضمير في مِنْهُ للشأن لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، بل هو معظم شأنه

، أو للتنزيل ، كأنه قيل : وما تتلو من التنزيل من قرآن ، لأنّ كلّ جزء منه قرآن ، والإضمار قبل الذكر تفخيم له . أو للّه عزّ وجل . وما تَعْمَلُونَ أنتم جميعاً مِنْ عَمَلٍ أىّ عمل كان

(322/368)

إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً شاهدين رقباء نحصي عليكم إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ من أفاض في الأمر إذا اندفع فيه وَما يَعْزُبُ قرئ بالضم والكسر : وما يبعد وما يغيب ، ومنه : الروض العازب وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ القراءة بالنصب والرفع ، والوجه النصب على نفى الجنس ، والرفع على الابتداء ليكون كلاما برأسه ، وفي العطف على محل مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ أو على لفظ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فتحاً في موضع الجرّ لامتناع الصرف : إشكال ، لأنّ قولك «لا يعزب عنه شيء إلا في كتاب» مشكل . فإن قلت : لم قدّمت الأرض على السماء ، بخلاف قوله في سورة سبأ عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ؟ قلت :

حق السماء أن تقدم على الأرض ، ولكنه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ، ووصل بذلك قوله لا يَعْزُبُ عَنْهُ لاءم ذلك أن قدّم الأرض على السماء ، على أنّ العطف بالواو حكمه حكم التثنية .

[سورة يونس (10) : الآيات 62 إلى 64]

أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64)

أَوْلِياءَ اللَّهِ الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة. وقد فسر ذلك في قوله الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ فهو توليهم إياه هُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ

فهو توليه إياهم. وعن سعيد بن جبير أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سُئل: من أولياء اللّه؟

فقال: «هم الذين يذكر اللّه برؤيتهم «1» يعنى السمت والهيئة. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه:

الإخبات والسكينة. وقيل: هم المتحابون في اللّه. وعن عمر رضى اللّه عنه: سمعت النبىّ صلى اللّه عليه وسلم يقول «إنّ من عباد اللّه عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من اللّه» قالوا يا رسول اللّه، خبرنا من هم وما أعمالهم؟ فلعلنا نحبهم، قال: «هم قوم تحابوا في اللّه على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فو اللّه إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس»

---

(1). أخرجه ابن أبى شيبة من رواية أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبى المغيرة عنه به وابن مردويه من طريق يحيى الحمامي عن يعقوب السهمي عن جعفر كذلك ووصله

النسائي والبزار من رواية محمد بن سعيد بن سابق عن يعقوب بذكر ابن عباس . قال : سئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن أولياء اللّه قال : الذين إذا رأوا ذكر اللّه . قال البزار : رواه غير محمد عن يعقوب بغير ذكر ابن عباس .

(323/368)

ثم قرأ الآية «1» الَّذِينَ آمَنُوا نصب أو رفع على المدح أو على وصف الأولياء أو على الابتداء والخبر لهم البشرى ، والبشرى في الدنيا ما بشر اللّه به المؤمنين المتقين في غير مكان من كتابه ، وعن النبيّ صلى اللّه عليه وسلم «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له «2»» وعنه عليه الصلاة والسلام : ذهبت النبوّة وبقيت المبشرات : وقيل : هي محبة الناس له والذكر الحسن . وعن أبى ذر : قلت : لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : الرجل يعمل العمل للّه ويحبه الناس فقال «تلك عاجل بشرى المؤمن «3»» وعن عطاء : لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة . قال اللّه تعالى تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ وأمّا البشرى في الآخرة فتلقى الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة ، وما يرون من بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم وما يقرؤن منها ، وغير ذلك من البشارات

---

(1) . أخرجه إسحاق بن راهويه والطبري وأبو نعيم في أوائل الحلية والبيهقي في الشعب من رواية جرير عن عمارة بن غزية عن أبى زرعة عن عمر به . قال البيهقي : أبو زرعة عن عمر مرسل . ورواه ابن مردويه من وجه آخر يذكر أبى هريرة بين أبى زرعة وعمر ورواه النسائي وابن حبان من وجه آخر عن أبى زرعة عن أبى هريرة . فلم يذكر عمر . وفي الباب عن أنس أخرجه ابن عدى والعقيلي والبيهقي في الشعب أيضا في العاشر منه وفيه واقد بن سلامة عن يزيد الرقاشي . وهما ضعيفان . وعن أبى الدرداء أخرجه الطبراني وفيه فرج بن فضالة وهو ساقط . وعن أبى مالك الأشعرى . أخرجه عبد الرزاق ومن طريقه الطبراني والبيهقي وفيه شهر بن حوشب وعن ابن عمر أخرجه الحاكم من رواية زياد بن خيثمة عنه . وعن العلاء بن زياد مرسلا . أخرجه ابن أبى شيبة في مصنفه .

(2) . أخرجه الترمذي وابن ماجة والحاكم والبيهقي وأحمد وإسحاق من طريق أبى سلمة عن عبادة بن الصامت قال :

سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن قوله هُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، قال : هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له» رجاله ثقات : إلا أنه معلول ، فان أبا سلمة لم يسمع من عبادة ، وقد أخرجه الترمذي والحاكم أيضا عن أبى سلمة قال : نبئت عن عبادة ، وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية حميد بن عبد الرحمن المرسى عن عبادة .

وأخرجه الترمذي أيضا وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى والطبراني والبيهقي من

طريق عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر : سألت أبا الدرداء عن قول اللّه تعالى هُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا

قال سألت عنها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له ، زاد بعضهم «وفي الآخرة الجنة» قال ابن أبى حاتم عن أبيه : هذا الرجل لا يعرف .

وفي الباب عن ابن مسعود أخرجه ابن مردويه بلفظ «سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فذكر مثل حديث عبادة ، وعن جابر بن عبد اللّه بن رباب أخرجه البزار وابن عدى ومن طريق الكلبي عن أبى صالح عنه مرفوعا في قوله تعالى هُمُ الْبُشْرى

- الحديث . وعن جابر أخرجه ابن مردويه من رواية جابر الجعفي عن أبى جعفر عن جابر . قال : جابر هذا هو ابن رباب . كذا قال فأخطأ . وقد أخرجه من وجه آخر عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر عن أبى هريرة أخرجه الطبري وابن مردويه من رواية عمار بن محمد عن الأعمش عن أبى صالح عنه . قيل : انفرد به عمار . لكن أخرجه النسائي في الكنى من رواية إسحاق بن عبد الرحمن بن عمر :

أن الأعمش حدثه ، فذكره . وقال : أبو إسحاق لا أعرفه . والحديث خطأ . وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أخرجه النسائي وأبو يعلى من رواية دراج عن عبد الرحمن بن جبير عنه . وزاد «الرؤيا جزء من تسعة وأربعين جزآ من النبوة .

(3) . أخرجه مسلم بلفظ «فتحبه وتحمده الناس عليه» .

تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ

لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده ، كقوله تعالى ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وِلكَ

إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين ، وكلتا الجملتين اعتراض ،

[سورة يونس (10) : آية 65]

وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65)

وَلا يَحْزُنْكَ وقرئ : ولا يحزنك ، من أحزنه قَوْلُهُمْ تكذيبهم لك ، وتهديدهم ، وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك ، وسائر ما يتكلمون به في شأنك إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ استئناف بمعنى التعليل ، كأنه قيل : مالى لا أحزن ؟ فقيل ، إنّ العزة للّه جميعاً ، أى إن الغلبة والقهر في ملكة اللّه جميعاً ، لا يملك أحد شيئاً منها لا هم ولا غيرهم ، فهو يغلبهم وينصرك عليهم كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي . إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وقرأ أبو حيوة . أن العزة ، بالفتح بمعنى : لأن العزة على صريح التعليل . ومن جعله بدلا من قولهم ثم أنكره ، فالمنكر هو تخريجه ، لا ما أنكر من القراءة به هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ يسمع ما يقولون . ويعلم ما يدبرون ويعزمون عليه . وهو مكافئهم بذلك .

[سورة يونس (10) : آية 66]

أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (66)

مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ يعنى العقلاء المميزين وهم الملائكة والثقلان ، وإنما خصهم ، ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفي ملكته فهم عبيد كلهم ، وهو سبحانه وتعالى ، ربهم ولا يصلح أحد منهم للربوبية ، ولا أن يكون شريكا له فيها ، فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له نداً وشريكا ، وليدلّ على أنّ من اتخذ غيره ربا من ملك أو إنسى فضلا عن صنم أو غير ذلك ، فهو مبطل تابع لما أدّى إليه التقليد وترك النظر . ومعنى : وما يتبعون شركاء ، أى : وما يتبعون حقيقة الشركاء وإن كانوا يسمونها شركاء ، لأنّ شركة اللّه في الربوبية محال إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ظنهم أنها شركاء وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ يحزرون ويقدرون أن تكون شركاء تقديراً باطلا . ويجوز أن يكون وَما يَتَّبِعُ في معنى الاستفهام ، يعنى : وأى شيء يتبعون . وشُرَكاءَ على هذا نصب بيدعون ، وعلى الأوّل بيتبع . وكان حقه . وما يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء شركاء ، فاقتصر على أحدهما للدلالة . ويجوز أن تكون «ما» موصولة معطوفة على «من» كأنه قيل : وللّه ما يتبعه الذين يدعون من دون اللّه شركاء ، أى :

وله شركاؤهم . وقرأ على بن أبى طالب رضى اللّه عنه : تدعون ، بالتاء ، ووجهه أن

يحمل وَما يَتَّبِعُ على الاستفهام ، أى : وأى شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين ، يعنى :

(325/368)

أنهم يتبعون اللّه ويطيعونه ، فما لكم لا تفعلون مثل فعلهم ؟ كقوله تعالى أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ثم صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقال : إن يتبع هؤلاء المشركون إلا الظن ، ولا يتبعون ما يتبع الملائكة والنبيون من الحق .

[سورة يونس (10) : آية 67]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67)

ثم نبه على عظيم قدرته ونعمته الشاملة لعباده التي يستحق بها أن يوحدوه بالعبادة ، بأنه جعل لهم الليل مظلماً ليسكنوا فيه مما يقاسون في نهارهم من تعب التردّد في المعاش ، والنهار مضيئاً يبصرون فيه مطالب أرزاقهم ومكاسبهم لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ سماع معتبر مدّكر .

[سورة يونس (10) : آية 68]

قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (68)

سُبْحانَهُ تنزيه له عن اتخاذ الولد ، وتعجب من كلمتهم الحمقاء هُوَ الْغَنِيُّ علة لنفى الولد لأنّ ما يطلب به الولد من يلد ، وما يطلبه له السبب في كله الحاجة ، فمن الحاجة منتفية عنه كان الولد عنه منتفيا لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولدا إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بهذا ما عندكم من حجة بهذا القول والباء حقها أن تتعلق بقوله :

إِنْ عِنْدَكُمْ على أن يجعل القول مكاناً للسلطان ، كقولك . ما عندكم بأرضكم موز ، كأنه قيل : إن عندكم فيما تقولون سلطان أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ لما نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالمين ، فدلّ على أنّ كل قول لا برهان عليه لقائله فذاك جهل وليس يعلم .

[سورة يونس (10) : الآيات 69 إلى 70]

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (69) مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (70)

يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ بإضافة الولد إليه مَتاعٌ فِي الدُّنْيا أى افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا ، وذلك حيث يقيمون رياستهم في الكفر ومناصبة النبي صلى اللّه عليه وسلم بالتظاهر به ، ثم يلقون الشقاء المؤبد بعده .

[سورة يونس (10) : الآيات 71 إلى 73]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَتَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73)

كَبُرَ عَلَيْكُمْ عظم عليكم وشق وثقل. ومنها قوله تعالى وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ ويقال: تعاظمه الأمر مَقامِي مكاني، يعنى نفسه، كما تقول: فعلت كذا لمكان فلان: وفلان ثقيل الظل. ومنه وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ بمعنى خاف ربه. أو قيامي «1» ومكثي بين أظهركم مدداً طوالا ألف سنة إلا خمسين عاماً. أو مقامي «2» وتذكيري، لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم، ليكون مكانهم بيناً وكلامهم مسموعا، كما يحكى عن عيسى صلوات اللّه عليه أنه كان يعظ الحواريين قائماً وهم قعود فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ من أجمع الأمر وأزمعه، إذا نواه وعزم عليه. قال:

هَلْ أَغْدُوَنْ يَوْماً وَأَمْرِي مُجْمَعُ «3»

والواو بمعنى «مع» يعنى: فأجمعوا أمركم مع شركائكم. وقرأ الحسن: وشركاؤكم بالرفع،

عطفا على الضمير المتصل ، وجاز من غير تأكيد بالمنفصل لقيام الفاصل مقامه لطول الكلام ، كما تقول : اضرب زيداً وعمرو . وقرئ : فاجمعوا من الجمع . وشركاءكم نصب للعطف على المفعول ، أو لأنّ الواو بمعنى «مع» وفي قراءة أبيّ : فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم . فإن قلت :

كيف جاز إسناد الإجماع إلى الشركاء ؟ قلت : على وجه التهكم ، كقوله قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ . فإن قلت : ما معنى الأمرين ؟ أمرهم الذي يجمعونه ، وأمرهم الذي لا يكون عليهم غمة ؟ قلت : أمّا الأمر الأوّل فالقصد إلى إهلاكه ، يعنى : فأجمعوا ما تريدون من إهلاكى واحتشدوا فيه وابذلوا وسعكم في كيدي . وإنما قال ذلك إظهارا لقلة مبالاته وثقته بما وعده

---

(1) . قوله «أو قيامي ومكثي» لعله أو مقامي بالضم . (ع)

(2) . قوله «أو مقامي وتذكيري» لعل هذا أو قيامي . (ع)

(3) يا ليت شعري والحوادث جمة هل أغدون يوما وأمرى مجمع

قوله «و الحوادث جمة» أى كثيرة . جملة اعتراضية . وأغدون : مؤكد بالنون الخفيفة . وأمرى مجمع : أى منوي مجزوم بامتثاله . أو المعنى : وشملى مجتمع بعد تفرقه ، وهي جملة حالية مغنية عن خبر أغدون . أو خبرها . وزيدت الواو لتوكيد الربط . وأجمع يتعلق بالمعقول ، وجمع يتعلق بالمحسوس .

ربه من كلاءته وعصمته إياه ، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلا . وأما الثاني ففيه وجهان ،

أحدهما :

أن يراد مصاحبتهم له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم ، يعنى

:

ثم أهلكونى لئلا يكون عيشكم بسببي غصة وحالكم عليكم غمة : أى غما وهما . والغم والغمة ، كالكرب والكربة . والثاني أن يراد به ما أريد بالأمر الأول ، والغمة السترة من غمه إذا ستره .

ومنها قوله عليه السلام «ولا غمة في فرائض اللّه» «1» أى لا تستر ، ولكن يجاهر بها ،

يعنى :

ولا يكن قصدكم إلى إهلاكى مستورا «2» عليكم ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهروننى به

ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ ذلك الأمر الذي تريدون بى ، أى : أدوا إلىَّ قطعه وتصحيحه ، كقوله تعالى

وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أو أدّوا إلىّ ما هو حق عليكم عندكم من هلاكى كما يقضى الرجل

غريمه وَلا تُنْظِرُونِ ولا تمهلوني . وقرئ : ثم أفضوا إلىّ ، بالفاء بمعنى : ثم انتهوا إلىّ بشرّكم .

وقيل هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى الفضاء ، أى أصحروا به إلىّ وأبرزوه لي فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فإن أعرضتم عن تذكيري ونصيحتي فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فما كان عندي ما ينفركم عنى وتتهموني لأجله من طمع في أموالكم وطلب أجر على عظتكم إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة أى : ما نصحتكم إلا لوجه اللّه ، لا لغرض من أغراض الدنيا وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئا ولا يطلبون به دنيا ، يريد : أنذلك مقتضى الإسلام ، والذي كل مسلم مأمور به . والمراد أن يجعل الحجة لازمة لهم ويبرئ ساحته ، فذكر أن توليهم لم يكن تفريط منه في سوق الأمر معهم على الطريق الذي يجب أن يساق عليه ، وإنما ذلك لعنادهم وتمرّدهم لا غير فَكَذَّبُوهُ فتموا على تكذيبه «3» وكان تكذيبهم له في آخر المدّة المتطاولة كتكذيبهم في أوّلها ، وذلك عند مشارفة الهلاك بالطوفان وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ يخلفون الهالكين بالغرق كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ تعظيم لما جرى عليهم ، وتحذير لمن أنذرهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن مثله ، وتسلية له .

[سورة يونس (10) : آية 74]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74)

مِنْ بَعْدِهِ من بعد نوح رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ يعنى هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ

(1) . هو طرف من حديث وائل بن حجر في كتاب النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى الأقيال ، وفيه : «ولا يوصم في الدين ولا غمة في فرائض اللّه» وقال : الغمة السترة ، أى لا تستر في فرائض اللّه ، بل ظاهر بها . [. . . . .]

(2) . قوله «مستورا عليكم» لعله أراد ملتبسا ، فلذا قال عليكم ، كما أشار إليه النسفي . (ع)

(3) . قوله «فتموا على تكذيبه» أى استمروا . أفاده الصحاح . (ع)

(328/368)

بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا فما كان إيمانهم إلا ممتنعاً كالمحال لشدّة شكيمتهم في الكفر وتصميمهم عليه بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق . فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها ، كأن لم يبعث إليهم أحد كَذلِكَ نَطْبَعُ مثل ذلك الطبع المحكم نطبع عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم ، لأنّ الخذلان يتبعه . ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به .

[سورة يونس (10) : الآيات 75 إلى 78]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَهارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (75) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (76) قالَ مُوسى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77) قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ (78)

مِنْ بَعْدِهِمْ من بعد الرسل بِآياتِنا بالآيات التسع فَاسْتَكْبَرُوا عن قبولها ، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ، ويتعظموا عن تقبلها وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ كفاراً ذوى آثام عظام ، فلذلك استكبروا عنها واجترءوا على ردّها فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا فلما عرفوا أنه هو الحق ، وأنه من عند اللّه ، لا من قبل موسى وهرون قالُوا لحبهم الشهوات إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ وهم يعلمون أنّ الحق أبعد شيء من السحر الذي ليس إلا تمويهاً وباطلا . فإن قلت : هم قطعوا بقولهم إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ على أنه سحر ، «1» فكيف قيل لهم : أتقولون أسحر هذا ؟ قلت : فيه أوجه : أن يكون معنى قوله أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ أتعيبونه وتطعنون فيه . وكان عليكم أن تذعنوا له وتعظموه ، من قولهم : فلان يخاف القالة ، وبين الناس تقاول إذا قال بعضهم لبعض ما يسوؤه ، ونحو القول : الذكر ، في قوله سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ثم قال أَسِحْرٌ هذا فأنكر ما قالوه في عيبه والطعن عليه ، وأن يحذف مفعول أتقولون وهو ما دل عليه قولهم إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ كأنه قيل . أتقولون ما تقولون ، يعنى قولهم : إن هذا لسحر مبين ، ثم قيل : أسحر هذا ؟ وأن يكون جملة قوله أَسِحْرٌ هذا وَلا يُفْلِحُ

السَّاحِرُونَ حكاية لكلامهم ، كأنهم قالوا : أَجِئْتما بالسحر تطلبان به الفلاح وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ كما قال

---

(1) . قال محمود : «إن قلت هم قطعوا بقولهم إن هذا لسحر مبين على أنه سحر . . . الخ» قال أحمد : وفي الفرق بين الوجهين غموض ، وإيضاحه أن القول على الوجه الأول وقع كناية عن العيب ، فلا يتقاضى مفعولا وفي الثاني على أنه يطلب مفعولا والله أعلم .

(329/368)

موسى للسحرة : ما جئتم به السحر ، إنّ اللّه سيبطله لِتَلْفِتَنا لتصرفنا . واللفت والفتل : أخوان ، ومطاوعهما الالتفات والانفتال عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا يعنون عبادة الأصنام وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ أى الملك ، لأنّ الملوك موصوفون بالكبر . ولذلك قيل للملك : الجبار ، ووصف بالصيد والشوس ، ولذلك وصف ابن الرقيات مصعباً في قوله :

مُلْكُهُ مُلْكُ رَأْفَةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ مِنْهُ وَلَا كِبْرِيَاءُ «1»

ينفى ما عليه الملوك من ذلك . ويجوز أن يقصدوا ذمّهما وأنهما إن ملكا أرض مصر تجبرا وتكبرا ، كما قال القبطي لموسى عليه السلام : إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ أى مصدّقين لكما فيما جئتما به . وقرئ : يطبع ، ويكون لكما ، بالياء .

[سورة يونس (10) : الآيات 79 إلى 82]

وَقالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80) فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82)

ما جِئْتُمْ بِهِ ما موصولة واقعة مبتدأ . والسِّحْرُ خبر ، أى الذي جئتم به هو السحر «2»

---

(1) . لعبد اللّه بن قيس الرقيات . وقيل : لقيس الرقيات يمدح مصعبا ، سمى قيس الرقيات لأنه اتفق له أنه تزوج عدة نسوة ، كل منهن تسمى رقية . وملك : وصف كحذر ، فلذلك نصب «ملك رأفة» على المصدر . وروى «ملكه ملك» على المبتدأ والخبر . وضمير «فيه» للمصدر ، أى : ليس في ملكه جبروت منه ، أى من مصعب . ويحتمل أن الضميرين له . والجبروت : مبالغة في الجبر والقهر ، أى : ليس فيه ذلك كغيره ، فهو أعظم الملوك .

(2) . قال محمود : «ما موصولة مبتدأ ، والسحر خبر أى الذي جئتم به . . . الخ» قال أحمد : وليس المراد في القراءة الأولى الاخبار بأن ما جاءوا به سحر خاصة ، ولكن مع تنزيه ما جاء به عن كونه سحراً . وإنما يستفاد ذلك مما في هذا النظم المخصوص من إفادة الحصر ، ولو مرت بخاطر الامام أبى المعالي في مسألة تحريمة التكبير لم يعدل عن الاستشهاد بها على إفادة هذا النظم الحصر ، فانا نعلم أن موسى عليه السلام حيث أطلقه فإنما أراد

إضافة السحر إلى ما جاءوا به محصوراً فيه ، حتى لا يتعدى إلى الحق الذي جاء به هو منه شيء . وأما القراءة الثانية ففيها – والله أعلم – إرشاد إلى أن قول موسى عليه السلام أولا أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا حكاية لقولهم ، ويكون أَسِحْرٌ هذا هو الذي قالوه ، ولا يناقض ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ وذلك إما لأنهم قالوا الأمرين جميعاً : بدءوا بالاستفهام على سبيل الاستهتار بالحق والاستهزاء بكونه حقاً ، والاستهزاء بالحق إنكار له ، بل قد يكون الاستفهام في بعض المواطن أبت من الاخبار . ألا ترى أنهم يقولون في قوله : أأنت أم سالم ، أبلغ في البت من قوله : مخبرا أنت أم سالم ؟ ثم ثنوا بصيغة الخبر الخاصة بيت الإنكار ودعوى أنه سحر فقالوا : إن هذا لسحر مبين ، فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثاني ، ووبخهم موسى على قولهم الأول . ومعنى العبارتين ومآلهما واحد . وإما أن لا يكونوا قالوا سوى أَسِحْرٌ هذا على سبيل الإنكار حسبما تقدم ، فحكاه الله تعالى عنهم بمآله ، لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار وبت القول أنه سحر . وحكى موسى عليه السلام قولهم بلفظه ، ولم يؤده بعبارة أخرى . وحكاية القصص المتلوة في الكتاب العزيز بصيغ مختلفة لا محمل لها سوى أنها معان منقولة إلى اللغة العربية ، فيترجم عنها بالألفاظ المترادفة المتساوية المعاني .

وحاصل هذا البحث : أن قول موسى عليه السلام أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا إنما حكى فيه قولهم ، ويرشد إلى ذلك أنه كافأهم عند ما أتوا بالسحر بمثل مقالتهم

مستفهما ، فقال : ما جئتم به آلسحر ؟ على قراءة الاستفهام قرضاً بوفاء على السواء ، والذي يحقق لك أن الاستفهام والاخبار في مثل هذا المعنى مؤداهما واحد : أن اللّه تعالى حكى قول موسى عليه السلام ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ على الوجهين : الخبر والاستفهام ، على ما اقتضته القراءتان ، وهو قول واحد دل على أن مؤدى الأمرين واحد ضرورة صدق الخبر . وإنما حمل الزمخشري على تأويل القول بالتعييب ، أو إضمار مفعول تقولون . استشكالا لوقوع الاستفهام محكياً بالقول ، والمحكي أولا عنهم الخبر . وقد أوضحنا أنه لا تنافر ولا تنافى بين الأمرين ، فشد بهذا الفصل عرى التمسك ، فانه من دقائق النكت . واللّه الموفق .

(330/368)

لا الذي سماه فرعون وقومه سحراً من آيات اللّه . وقرئ : آلسحر ، على الاستفهام . فعلى هذه القراءة «ما» استفهامية ، أى : أىّ شيء جئتم به ، أهو السحر ؟ وقرأ عبد اللّه : ما جئتم به سحر .

وقرأ أبىّ : ما أتيتم به سحر . والمعنى : لا ما أتيت به إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ سيمحقه أو يظهر بطلانه بإظهار المعجزة على الشعوذة لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ لا يثبته ولا يديمه ، ولكن

يسلط عليه الدمار ويُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ ويثبته بِكَلِماتِهِ بأوامره وقضاياه. وقرئ: بكلمته، بأمره ومشيئته.

[سورة يونس (10): آية 83]

فَما آمَنَ لِمُوسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83)

فَما آمَنَ لِمُوسى في أوّل أمره إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ إلا طائفة من ذراري بنى إسرائيل، كأنه قيل: إلا أولاد من أولاد قومه. وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون، وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف. وقيل: الضمير في قومه لفرعون، والذرية: مؤمن آل فرعون، وآسية امرأته، وخازنه، وامرأة خازنه، وماشطته. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله وَمَلَائِهِمْ؟ قلت: إلى فرعون، بمعنى آل فرعون، كما يقال: ربيعة ومضر. أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون له. ويجوز أن يرجع إلى الذرية، أى على خوف من فرعون وخوف من أشراف بنى إسرائيل، لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم. ويدل عليه قوله أَنْ يَفْتِنَهُمْ يريد أن يعذبهم وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ لغالب فيها قاهر وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ في الظلم والفساد، وفي الكبر والعتوّ، بادعائه الربوبية.

[سورة يونس (10) : الآيات 84 إلى 86]

وَقالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84) فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (86)

إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ صدقتم به وبآياته فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا فإليه أسندوا أمركم في العصمة من فرعون. ثم شرط في التوكل الإسلام، وهو أن يسلموا نفوسهم للّه، أى يجعلوها له سالمة خالصة لا حظّ للشيطان فيها، لأن التوكل لا يكون مع التخليط. ونظيره في الكلام: إن ضربك زيد فاضربه، إن كانت بك قوّة فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا إنما قالوا ذلك، لأنّ القوم كانوا مخلصين، لا جرم أنّ اللّه سبحانه قبل توكلهم، وأجاب دعاءهم، ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه، وجعلهم خلفاء في أرضه، فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه والتفويض إليه، فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً موضع فتنة لهم، أى: عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا. أو فتنة لهم يفتتنون بنا ويقولون: لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا.

[سورة يونس (10) : آية 87]

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87)

تبوّأ المكان: اتخذه مباءة، كقولك: توطنه، إذا اتخذه وطناً. والمعنى اجعلا بمصر بيوتاً

من بيوته «1» مباءة لقومكما ومرجعاً يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ تلك قِبْلَةً أى مساجد متوجهة نحو القبلة وهي الكعبة ، وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة ، وكانوا في أوّل أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة ، لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم ، كما كان المؤمنون على ذلك في أوّل الإسلام بمكة .

فإن قلت :

كيف نوّع الخطاب ، فثنى أوّلا ، ثم جمع ، ثم وحد آخراً . قلت : خوطب موسى وهرون عليهما السلام أن يتبوآ لقومهما بيوتا ، ويختاراها للعبادة ، وذلك مما يفوّض إلى الأنبياء . ثم سيق الخطاب عامّاً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأنّ ذلك واجب على الجمهور ، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض ، تعظيما لها وللمبشر بها .

[سورة يونس (10) : آية 88]

وَقالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (88)

---

(1) . قوله «بمصر بيوتا من بيوته» لعل الضمير لمصر . (ع)

الزينة : ما يتزين به من لباس أو حلى أو فرش أو أثاث أو غير ذلك . وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : كانت لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت . فإن قلت : ما معنى قوله رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ؟ قلت : هو دعاء بلفظ الأمر «1» ، كقوله رَبَّنَا اطْمِسْ ، وَاشْدُدْ ، وذلك أنه لما عرض عليهم آيات اللّه وبيناته عرضا مكرّرا وردّد عليهم النصائح والمواعظ زماناً طويلا ، وحذرهم عذاب اللّه وانتقامه ، وأنذرهم عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال المبين ، ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفراً ، وعلى الإنذار إلا استكبارا ، وعن النصيحة «2» إلا نبوّا ، ولم يبق له مطمع فيهم ، وعلم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا الغى والضلال ، وأنّ إيمانهم كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة ، أو علم ذلك بوحي من اللّه - اشتد غضبه عليهم ، وأفرط مقته وكراهته لحالهم ، فدعا اللّه عليهم بما علم أنه لا يكون غيره ، كما تقول : لعن اللّه إبليس ، وأخزى اللّه الكفرة ، مع علمك أنه لا يكون غير ذلك ، وليشهد عليهم بأنه لم يبق له فيهم حيلة ، وأنهم لا يستأهلون إلا أن يخذلوا ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون «3» فيه ، كأنه قال : ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال .

وليكونوا ضلالا ، «4» وليطبع اللّه على قلوبهم فلا يؤمنوا وما علىّ منهم ، هم أحق بذلك وأحق ، كما يقوله الأب المشفق لولده الشاطر إذا ما لم يقبل منه ، حسرة على ما فاته من قبول نصيحته ، وحرداً «5» عليه ، لا أن يريد خلاعته واتباعه هواه . ومعنى الشدّ على القلوب . الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان فَلا يُؤْمِنُوا جواب للدعاء الذي هو «اشدد» أو دعاء بلفظ النهى ، وقد

---

(1) . قال محمود : «قلت هو دعاء بلفظ الأمر . . . الخ» قال أحمد : وهذا من اعتزاله الخفي الذي هو أدق من دبيب النمل ، يكاد الاطلاع عليه أن يكون كشفا . ووجه ذلك أنه علم أن الظاهر بل والباطن أن اللام التعليل ، وأن الفعل منصوب بها ، ومعنى ذلك إخبار موسى عليه السلام بأن اللّه إنما أمدهم بالزينة والأموال وما يتبعهما من النعم استدراجا ليزدادوا إثما وضلالة ، كما أخبر تعالى عن أمثالهم بقوله إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وهذا المعنى منتظم على جعل اللام التعليل ، والزمخشري بنى على القاعدة الفاسدة في استحالة ذلك على اللّه تعالى ، لاعتقاده أن من الجور أن يملى لهم في الضلالة ويعاقبهم عليها ، فهو متبتل لما يرد من الآيات بعمل الحيلة في تأويلها وردها إلى معتقده وجعلها تبعا له ، كما تقدم له في تأويل قوله لِيَزْدادُوا إِثْماً وكأين من آية غراء رام أن يسترغرتها ويطفئ نورها بأمثال هذه التأويلات الرديئة لفظاً وعقداً ، ويأبى اللّه إلا أن يتم نوره ، ثم لا يسعه إلا أن يحمل موسى عليه السلام على أمثال هذه المعتقدات ، ولقد برأه اللّه وكان عند اللّه وجيها .

(2) . قوله «و عن النصيحة» لعله وعلى (ع)

(3) . قوله «يتسكعون» في الصحاح: «التسكع» التمادي في الباطل . (ع)

(4) . قوله «و ليكونوا ضلالا» هذا على قراءة «ليضلوا» بفتح الياء . والقراءة المشهورة لِيُضِلُّوا بضمها .

وعبارة النسفي : ليضلوا الناس عن طاعتك اه (ع)

(5) . قوله «و حرداً عليه» في الصحاح: الحرد - بالتحريك : الغضب . (ع)

(333/368)

حملت اللام في ليضلوا على التعليل ، على أنهم جعلوا نعمة اللّه سبباً في الضلال ، فكأنهم أوتوها ليضلوا . وقوله فَلا يُؤْمِنُوا عطف على ليضلوا . وقوله رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ دعاء معترض بين المعطوف والمعطوف عليه . وقرأ الفضل الرقاشي : أإنك آتيت ؟

على الاستفهام ، واطمس بضم الميم .

[سورة يونس (10) : آية 89]

قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (89)

قرئ: دعواتكما. قيل: كان موسى يدعو وهرون يؤمّن. ويجوز أن يكونا جميعاً يدعوان. والمعنى: إنّ دعاءكما مستجاب، وما طلبتما كائن ولكن في وقته فَاسْتَقِيما فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجة، فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف عام إلا قليلا ولا تستعجلا. قال ابن جريج: فمكث موسى بعد الدعاء أربعين سنة وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ أى لا تتبعا طريق الجهلة بعادة اللّه في تعليقه الأمور بالمصالح، ولا تعجلا فإن العجلة ليست بمصلحة. وهذا كما قال لنوح عليه السلام إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ وقرئ: ولا تتبعان، بالنون الخفيفة، وكسرها لالتقاء الساكنين تشبيهاً بنون التثنية، وبتخفيف التاء من تبع.

[سورة يونس (10): آية 90]

وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)

قرأ الحسن: وجوزنا من أجاز المكان وجوزه وجاوزه، وليس من جوز الذي في بيت الأعشى:

وَإِذَا تَجَوَّزْنَا حِبَالَ قَبِيلَةٍ «1»

---

(1) وإذا تجوزنا حبال قبيلة أخذت من الأخرى إليك حبالا

للأعشى. وشبه عهود الأمان التي يأخذها من القبيلة يتوثق ويتوصل بها إلى أخرى بالحبال

، يجامع التوثق بكل على طريق التصريحية . أى : وإذا تجشمنا مجاوزة عهود قبيلة وتكلفنا مجاوزة محل أمانها ، فايقاع التجوز على الحبال :

مجاز عقلى ، أخذت ناقتي من القبيلة الأخرى حال كونها ذاهبة إليك حبالا ، أى عهوداً للتوصل القبيلة الأخرى ، وهكذا . وإسناد الأخذ لها مجاز عقلى ، ويكفى في الملابسة مجاورتها له حين الفعل . وإنما أسنده إليها للمبالغة ، وتخييل أنها تعرف الممدوح وفضله ، فهي المسافرة إليه بنفسها . وروى يجوزها . وجبال بالجيم ، فمعنى أخذت :

قطعت من أرض القبيلة الأخرى بالسير إليك جبالا غير تلك . وعلى كل ، ففيه دليل على صعوبة الطريق .

(334/368)

لأنه لو كان منه لكان حقه أن يقال وجوّزنا بنى إسرائيل في البحر كما قال :

كَمَا جَوَّزَ السَّكِّيَّ فِى الْبَابِ فَيْتَقُ «1»

فَأَتْبَعَهُمْ فلحقهم . يقال : تبعته حتى أتبعته . وقرأ الحسن : وعدوّا «2» . وقرئ : أنه بالفتح على حذف الياء التي هي صلة الإيمان ، وإنه بالكسر على الاستئناف بدلا من آمنت . كرر المخذول المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول ، ثم

لم يقبل منه حيث أخطأ وقته. وقاله حين لم يبق له اختيار قط، وكانت المرّة الواحدة كافية في حال الاختيار وعند بقاء التكليف.

[سورة يونس (10): الآيات 91 إلى 92]

آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ (92)

آلْآنَ أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق «3» وأيست من نفسك.

قيل: قال ذلك حين ألجمه الغرق يعنى حين أوشك أن يغرق. وقيل: قاله بعد أن غرق في نفسه.

والذي يحكى أنه حين قال آمَنَتْ أخذ جبريل من حال البحر «4» فدسه في فيه، فللغضب للّه على الكافر في وقت قد علم أنّ إيمانه لا ينفعه. وأمّا ما يضم إليه من قولهم: خشية أن تدركه رحمة اللّه فمن زيادات الباهتين «5» للّه وملائكته: وفيه جهالتان، إحداهما: أنّ الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس، فحال البحر لا يمنعه. والأخرى: أنّ من كره إيمان الكافر وأحب بقاءه على الكفر فهو كافر

---

(1) ولا بد من جار يجيز سبيلها كما جوز السكى في الباب فيتق

للأعشى يصف مفازة الغزل فيها المحلق عن بنى عكاظ كما يأتى قريباً. يقول: ولا بد لمريد قطعها من جار: أى قريب منها يعين المسافر على سلوك سبيلها. وجازه يجوزه: سلكه.

وأجازه يجيزه : أسلكه . وكذا جوزه يجوزه بالتشديد فيهما . والسكى : المسمار ، نسبة السك ، وهو تضبيب الباب وتسميره . والفيتق : النجار ، لأنه يفتق الخشب بالمسمار . ويروى : كما سلك السكى ، أى : لا يعد من معين ، ينفذه فيها كما أنفذ النجار المسمار في الباب .

وعبر بالماضي ليدل على أن المشبه به معهود للسامع .

(2) . قوله : «وقرأ الحسن وعدوا» في الصحاح : عدا عدوا وعدوا وعداء اه . وقد مر في قوله تعالى فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً (ع) [. . . . .]

(3) . قال محمود : «معناه أتؤمن الساعة في وقت اضطرارك حين أدركك الغرق . . . الخ» قال أحمد : ولقد أنكر منكراً ، وغضب للّه ولملائكته كما يجب لهم ، واللّه الموفق .

(4) . قوله «من حال البحر فدسه» أى طينه الأسود . أفاده الصحاح . وفي الحديث «قال جبريل يا محمد فلو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه» كذا في الخازن . (ع)

(5) . قوله «الباهتين للّه» في الصحاح «بهته» إذا قال عليه ما لم يفعله . (ع)

لأن الرضا بالكفر كفر «1» مِنَ الْمُفْسِدِينَ من الضالين المضلين عن الإيمان ، كقوله الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ وروى أنّ جبريل عليه السلام أتاه بفتيا : ما قول الأمير في عبد لرجل نشأ في ماله ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادّعى السيادة دونه ؟ فكتب فرعون فيه : يقول أبو العباس الوليد بن مصعب : جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماه أن يغرق في البحر ، فلما ألجمه الغرق ناوله جبريل خطه فعرفه نُنَجِّيكَ بالتشديد والتخفيف : نبعدك مما وقع فيه قومك من قعر البحر . وقيل : نلقيك بنجوة من الأرض . وقرئ ننحيك ، بالحاء : نلقيك بناحية مما يلي البحر ، وذلك أنه طرح بعد الغرق بجانب البحر قال كعب : رماه الماء إلى الساحل كأنه ثور

بِبَدَنِكَ في موضع الحال ، أى :

في الحال التي لا روح فيك ، وإنما أنت بدن ، أو ببدنك كاملا سويا لم ينقص منه شيء ولم يتغير .

أو عرياناً لست إلا بدناً من غير لباس . أو بدرعك . قال عمرو بن معد يكرب :

---

(1) . قوله «والذي يحكى» . . . إلى قوله «لأن الرضا بالكفر» هذا إفراط منه في الجهل بالمنقول والغض من أهله . فان الحديث صحيح الزيادات ، وقد أخرجه الترمذي

وصححه ، والنسائي وابن حبان والحاكم وإسحاق والبزار وأبو داود والطيالسي كلهم من رواية شعبة عن عدى بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رفعه أحدهما إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم قال «إن جبريل كان يدس في فم فرعون الطين مخافة أن يقول لا إله إلا اللّه فيرحمه اللّه» لفظ الترمذي والباقين نحوه ، وله طريق أخرى أخرجها أحمد وإسحاق وعبد بن حميد والبزار والطبراني من رواية حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس ، بلفظ «لما أغرق اللّه فرعون قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل : يا محمد فلو رأيتنى وأنا آخذ الطين من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة ، وله طريق أخرى أخرجها يحيى بن عبد الحميد الحمانى في مسنده عن أبى خالد الأحمر عن عمرو بن يعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال جبريل عليه السلام النبي صلى اللّه عليه وسلم : وذكر فرعون «فلقد رأيتنى وأنا لأكبر فمه بالحمأة مخافة أن تدركه الرحمة ، وفي الباب عن أبى هريرة أخرجه الطبري وابن أبى حاتم والبيهقي في الشعب في السادس والخمسين وابن مردويه من طريق عتبة بن سعيد عن كثير بن زاذان عن أبى حازم عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال قال لي جبريل «لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فرعون مخافة أن يقول ربى اللّه ، فتدركه رحمة اللّه» وعن ابن عمر رضى اللّه عنهما سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول قال لي جبريل : يا محمد ما غضب ربك على أحد غضبه

على فرعون إذ قال : ما علمت لكم من إله غيرى . وإذ نادى فقال : أنا ربكم الأعلى . فلما أدركه الغرق استغاث وأقبلت أحشو فاه مخافة أن تدركه الرحمة» أخرجه الطبراني وابن مردويه من رواية محمد بن سليمان بن أبى ضمرة عن عبد اللّه بن أبى قيس عنه ، قلت : وأما الوجهان اللذان ذكرهما الزمخشري ، فالحديث توجيه وجيه ، لا يلزم منه ما ذكره الزمخشري ، وذلك أن فرعون كان كافراً كفر عناد ، ألا ترى إلى قصته حيث توقف النيل ، وكيف توجه منفرداً وأظهر أنه مخلص ، فأجرى له النيل ، ثم تمادى على طغيانه وكفره فخشي جبريل أن يعاود تلك العادة فيظهر الإخلاص بلسانه فتدركه رحمة اللّه فيؤخره في الدنيا فيستمر على غيه وطغيانه فدس في فمه الطين ، ليمنعه التكلم بما يقتضى ذلك ، هذا وجه الحديث .

ولا يلزم منه جهل ولا رضا بكفر بل الجهل كل الجهل ممن اعترض على المنقول الصحيح برأيه الفاسد وأيضاً فايمانه في تلك الحالة على تقدير أنه كان صدقا بقلبه لا يقبل لأنه وقع في حال الاضطرار ولذلك عقب في الآية بقوله تعالى آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وفيه إشارة في قوله تعالى فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا .

(336/368)

أَعَاذِلُ شكَّتِي بَدَنِي وَسَيْفِي وَكُلُّ مُقَلّصٍ سَلِسُ الْقِيَادِ «1»

وكانت له درع من ذهب يعرف بها . وقرأ أبو حنيفة رحمه اللّه : بأبدانك وهو على وجهين :

إما أن يكون مثل قولهم : هوى بأجرامه ، يعنى : ببدنك كله وافياً بأجزائه . أو يريد : بدروعك كأنه كان مظاهراً بينها لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً لمن وراءك من الناس علامة ، وهم بنو إسرائيل ، وكان في أنفسهم أن فرعون أعظم شأناً من أن يغرق . وروى أنهم قالوا : ما مات فرعون ولا يموت أبداً . وقيل : أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدّقوه ، فألقاه اللّه على الساحل حتى عاينوه ، وكأن مطرحه كان على ممرّ من بنى إسرائيل حتى قيل : لمن خلفك . وقيل : لِمَنْ خَلْفَكَ لمن يأتى بعدك من القرون . ومعنى كونه آية : أن تظهر للناس عبوديته ومهانته ، وأنّ ما كان يدّعيه من الربوبية باطل محال ، وأنه مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره إلى ما ترون لعصيانه ربه عز وجل ، فما الظنّ بغيره ، أو لتكون عبرة تعتبر بها الأمم بعدك ، فلا يجترئوا على نحو ما اجترأت عليه إذا سمعوا بحالك وبهوانك على اللّه . وقرئ : لمن خلقك ، بالقاف : أى لتكون لخالقك آية كسائر آياته . ويجوز أن يراد : ليكون طرحك على الساحل وحدك وتمييزك من بين المغرقين - لئلا يشتبه على الناس أمرك ، ولئلا يقولوا - لادعائك العظمة إنّ مثله لا يغرق ولا يموت - آية من آيات اللّه التي لا يقدر عليها غيره ، وليعلموا أنَّ ذلك تعمد منه لإماطة الشبهة في أمرك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشاف حـ 2 صـ 352. 396 ﴾

---

(1) . لعمرو بن معديكرب ، وكانت له درع من ذهب تعرفه بها العرب . يقول : يا عاذلة ، إن سلاحي درعي وسيفي وفرسي المكتنز اللحم المدبج الخلق . وقيل : المقلص الطويل القوائم الهين القود . ويروى : سهل القياد .

والمعنى واحد . وإطلاق البدن على الدرع في الأصل مجاز علاقته المجاورة أو المحلية ، وأتى بأداة العموم في الفرس لأنه الذي يكثر تغييره .

(337/368)

وقال الإمام نظام الدين النيسابوري :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92) ﴾

التفسير : لما بالغ في تقرير الدلائل والبينات والجواب عن الشبهات شرع في قصص الأنبياء

المتقدمين ، لأن نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب أقرب إلى انشراح الصدور ودفع الملال مع أن في ذكرها تسلية للرسول وعبرة للمعتبر إلى غير ذلك من الفوائد التي سبق ذكرها في " الأعراف " . ومعنى كبر ثقل وشق كقوله : ﴿ وإنها لكبيرة ﴾ [البقرة : 45] وفي مقامي وجوه منها : أنه زيادة كقولك : فعلت كذا لمكان فلان أي لأجله ، وكقوله تعالى :

(338/368)

﴿ ولمن خاف مقام ربه ﴾ [الرحمن : 46] أي ربه ومثله قولهم : فلان ثقيل الظل . ومنها أن يراد به المكث أي شق عليكم مكثي بين أظهركم مدداً طوالاً ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ولا شك أن من ألف طريقة ويدعى إلى خلافها ولا سيما إذا تكرر الدعاء كان ذلك موجباً للتنفر والثقل ، وخاصة إذا كانت تلك الطريقة مقتضاة النفس والطبيعة الداعيتين إلى اللذات العاجلة . ومنها أن يكون المقام بمعنى القيام لأنهم كانوا يقومون على أرجلهم في الوعظ والتذكير ليكون مكانهم بيناً وكلامهم مسموعاً كما يحكى عن عيسى عليه السلام أنه كان يعظ الحواريين قائماً وهم قعود . وجواب الشرط إما قوله : ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ أي إن شدة بغضكم لي تحملكم على الإقدام على إيذائي وأنا لا أقابل ذلك الشر بالتوكل على الله فإن ذلك هجيراي قديماً وحديثاً وإما قوله : ﴿ فأجمعوا ﴾ وقوله : ﴿ فعلى الله

توكلت ﴾ اعتراض كقولك : إن كنت أنكرت عليّ شيئاً فالله حسبي فاعمل ما تريد . ولا يحسن أن يقال : إن الفاء الثانية عاطفة للاختلاف طلباً وخبراً ، ومعنى ﴿ فأجمعوا أمركم ﴾ اعزموا عليه من أجمع الأمر إذا نواه وعزم عليه قاله الفراء . وقال أبو الهيثم : أجمع أمره أي جعله جميعاً بعد ما كان متفرقاً وتفرقه أنه يقول مرة أفعل كذا ومرة أفعل كذا ، فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه أي جعله جميعاً . فهذا هو الأصل في الإجماع ثم صار بمعنى العزم حتى وصل ب " على " فقيل : أجمعت على الأمر أي عزمت عليه والفصيح أجمعت الأمر ، والمراد بالأمر وجوه مكرهم وكيدهم . وانتصب ﴿ شركاءكم ﴾ على المفعول معه أي مع شركائكم . ومن قرأ بالرفع جعله عطفاً على الضمير المتصل ، وإنما يحسن ذلك من غير تأكيد بالمنفصل للفصل . والمراد بالشركاء إما من هم على مثل قولهم ودينهم ، وإما الأصنام . وحسن إسناد الإجماع إليهم على وجه التهكم كقوله : ﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون ﴾ [الأعراف : 195] واعلم أنه عليه السلام قال في أول الأمر ﴿

(339/368)

فعلى الله توكلت ﴾ ليدل على أنه واثق بوعد الله جازم بأن تهديدهم إياه بالقتل لا يضره ، ثم أورد عليهم ما يدل على صحة دعواه فقال : ﴿ فأجمعوا أمركم ﴾ كأنه قال : حصلوا

كل ما تقدرون عليه من الأسباب المؤدية الى مطلوبكم غير مقتصرين على ذلك بل ضامين إلى أنفسكم شركاءكم الذين تزعمون أن حالكم يقوى بمكانهم . ثم ضم إلى ذلك قيداً آخر فقال : ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ قال أبو الهيثم : أي مبهماً من قولهم غم علينا الهلال فهو مغموم أي التبس . وقال الليث : لقي غمة من أمره إذا لم يهتد له . وقال الزجاج : أي ليكن أمركم الذي أجمعتموه ظاهراً منكشفاً أي تجاهروني بالإهلاك . ويحتمل أن يراد بهذا الأمر العيش والحال أي أهلكوني لئلا يكون عيشكم بسببي غصة وحالكم عليكم غمة أي غماً وهماً والغم والغمة كالكرب والكربة .

(340/368)

ثم زاد قيداً آخر فقال : ﴿ ثم اقضوا إليّ ﴾ ذلك الأمر الذي تريدون بي أي أدوا إليّ قطعه واحكموا بصحته وإمضائه . وعن القفال أن فيه تضميناً والمعنى ألقوا إليّ ما استقر عليه رأيكم محكماً مفروغاً منه . ثم ختم الكلام بقوله : ﴿ ولا تنظرون ﴾ أي عجلوا ذلك بأشد ما تقدرون عليه من غير إهمال ، ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عمن بلغ في التوكل الغاية القصوى . ثم بين أن كل ما أتى به فإن ذلك فارغ من الطمع الدنيوي والغرض الخسيس فقال : ﴿ فإن توليتم ﴾ أعرضتم عن نصحي وتذكيري ﴿ فما سألتكم من

أجر ﴾ فما كان عندي ما ينفركم عني وتتهمونني لأجله من طمع أو غرض عاجل ﴿ إن أجري ﴾ ليس أجري ﴿ إلا على الله ﴾ أي ما نصحتكم إلا لوجهه ولا يثيبني إلا هو. وفي الآية نكتة كأنه أراد أنه لا يخاف منهم بوجه من الوجوه لا بإيصال الشر وذلك قوله: ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ إلى آخره. ولا بانقطاع الخير منهم وذلك قوله: ﴿ فإن توليتم ﴾ الآية. ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ أي سواء قبلتم دين الإسلام أو لم تقبلوه فأنا مأمور بأن أكون على دين الإسلام، أو مأمور بالاستسلام لكل ما ألقى من قبل هذه الدعوة. ﴿ فكذبوه ﴾ بقوا على تكذيبهم إلى آخر المدة المتطاولة. ﴿ فنجيناه ومن معه في الفلك ﴾ قد ذكرنا في "الأعراف" الفرق بين هذه العبارة وبين ما هنالك ﴿ وجعلناهم خلائف ﴾ يخلفون الهالكين بالطوفان ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ تعظيم لشأن إهلاكهم وتحذير لغيرهم وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ثم بعثنا من بعده ﴾ من بعد نوح ﴿ رسلاً ﴾ كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب ﴿ فجاؤوهم بالبينات ﴾ بالحجج الواضحات والمعجزات الباهرات ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ الآية وقد مر تفسيرها في أواسط الأعراف إلا أنه زيد ههنا لفظة "به" فقيل: لتناسب ما قبله وهو ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ وكذلك في "الأعراف" راعى المناسبة لأن ما قبله ﴿ ولكن كذبوا ﴾ [الآية: 96]

بغير الباء ﴿ ثم بعثنا من بعدهم ﴾ بعد الرسل أو الأمم ﴿ بآياتنا ﴾ يعني الآيات التسع ﴿ فاستكبروا ﴾ عن قبولها ﴿ وكانوا قوماً مجرمين ﴾ كفاراً ذوي آثام ولذلك اجترأوا على رد الآيات . أما قوله : ﴿ أسحر هذا ﴾ فليس بمقول لقوله : ﴿ أتقولون ﴾ لأنهم قطعوا في قوله : ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ بأنه سحر ، وما استفهموا ولكن الوجه فيه أن يقال : إن القول ههنا بمعنى الطعن والعيب كالذكر في قوله : ﴿ سمعنا فتى يذكرهم ﴾ [الأنبياء : 60] ومنه قولهم : فلان يخاف القالة أي مطاعن الناس فكأنه قال : أتعيبون الحق وتطعنون فيه ؟ ثم أنكر عليهم قولهم فقال : ﴿ أسحر هذا ﴾ أو يقال : مفعول تقولون محذوف وهو قولهم ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ أو يقال : جملة قوله ﴿ أسحر هذا ﴾ ﴿ ولا يفلح الساحرون ﴾ حكاية لكلامهم كأنهم قالوا منكرين لما جاءا به أجئتما بالسحر تطلبان به الفلاح ولا يفلح السحرة ، لأن حاصل صنيعهم تخييل وتمويه ﴿ قالوا أجئتنا لتلفتنا ﴾ التركيب يدل على الالتواء ومنه الفتل والالتفات " افتعال " من اللفت وهو الصرف واللي ﴿ وتكون لكما الكبرياء في الأرض ﴾ أي الملك والعز في أرض مصر .

قال الزجاج : سمى الملك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا . وأيضاً فالنبي صلى الله عليه وسلم إذا اعترف القوم بصدقه صارت مقاليد أمر أمته إليه وصار أكبر القوم . وقيل : لأن الملوك موصوفون بالكبر والحاصل أنهم عللوا عدم قبولهم دعوة موسى بأمرين : التمسك بالتقليد وهو عبادة آبائهم الأصنام ، والحرص في طلب الدنيا والجد في بقاء الرياسة . ويجوز أن يقصدوا ذمهما وأنهما إن ملكا أرض مصر تجبرا وتكبرا . ثم صرحوا بالتكذيب قائلين ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ ثم حاولوا المعارضة وقد مرت تلك القصة في " الأعراف " . أما قوله : ﴿ ما جئتم به ﴾ فمعناه الذي جئتم به هو السحر لا الذي سماه فرعون وقومه سحراً من آيات الله . قال الفراء : وإنما قال السحر بالألف واللام لأنه جواب الكلام الذي سبق كأنهم قالوا لموسى ما جئت به سحر . فقال موسى : بل ما جئتم به السحر . فوجب دخول الألف واللام لأن النكرة إذا عادت عادت معرفة . يقول الرجل لغيره : لقيت رجلاً . فيقول له : من الرجل ؟ ولو قال : من رجل ؟ لم يقع في وهمه أنه يسأل عن الرجل الذي ذكره . ومن قرأ ﴿ آلسحر ﴾ بالاستفهام فما استفهامية مبتدأ و ﴿ جئتم به ﴾ خبره كأنه قيل أي شيء جئتم به . ثم قال على وجه التوبيخ السحر أي أهو لسحر أو آلسحر جئتم به ﴿ إن الله سيبطله ﴾ بإظهار المعجزة عليه ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ لا يؤيده بجميل الخاتمة ﴿ ويحق الله الحق ﴾ يثبته ﴿ بكلماته ﴾ بمواعيده أو بما سبق من قضائه أو بأوامره ﴿ فما آمن لموسى ﴾ أي في أول أمره ﴿ إلا

ذرّية من قومه ﴾ قال ابن عباس : لفظة الذرية يعبر بها عن القوم على وجه التحقير ، ولا ريب أن المراد ههنا ليس هو الإهانة ، فالمراد التصغير بمعنى قلة العدد . وقيل : المراد أولاد من أولاد قومه كأنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفاً من فرعون ، وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف من فرعون أن يصرفهم عن دينهم بتسليط أنواع البلاء عليهم . وقيل : إن الذرية أقوام

(343/368)

كان آباؤهم من قوم فرعون وأمهاتهم من بني إسرائيل . وقيل : الذرية مؤمن آل فرعون وآسية امرأته وخازنه وامرأة خازنه وماشطته ، فالضمير في ﴿ قومه ﴾ على هذا لفرعون وعوده إلى موسى أظهر لأنه أقرب المذكورين ، ولما نقل أن الذين آمنوا به كانوا من بني إسرائيل والضمير في ﴿ ملئهم ﴾ إما لفرعون على جهة التعظيم لأنه ذو أصحاب يأتمرون له ، أو المراد آل فرعون بحذف المضاف ، أو للذرية يعني أشراف بني إسرائيل لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم يدل على ذلك قوله : ﴿ أن يفتنهم ﴾ أي يعذبهم فرعون .

(344/368)

ثم أكد أسباب الخوف بقوله : ﴿ وإن فرعون لعال ﴾ لغالب ﴿ في الأرض ﴾ أرض مصر ﴿ وإنه لمن المسرفين ﴾ في القتل والتعذيب أو لمن المجاوزين الحد لأنه من أخس العبيد فادعى الربوبية العليا ﴿ وقال موسى ﴾ تثبيتاً لقومه ﴿ إن كنتم آمنتم بالله ﴾ صدقتم به وبآياته ﴿ فعليه توكلوا ﴾ خصوه بتفويض أموركم إليه ﴿ إن كنتم مسلمين ﴾ قال لعلماء : المؤخر في مثل هذه السورة مقدم في المعنى نظيره : إن ضربك زيد فاضربه إن كانت بك قوة . والمراد إن كانت بك قوة فإن ضربك زيد فاضربه فكأنه قيل لهم في حال إسلامهم إن كنتم منقادين لتكاليف ربكم بالإخلاص مصدقين له بالتحقيق عارفين بأنه واجب الوجود لذاته وما سواه محدث مخلوق مقهور تحت حكمه وتدبيره ، ففوضوا جميع أموركم إليه وحده . ﴿ فقالوا ﴾ مؤتمرين لموسى ﴿ على الله توكلنا ﴾ ثم اشتغلوا بالدعاء قائلين ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة ﴾ أي موضع فتنة لهم . والمراد بالفتنة تعذيبهم أو صرفهم عن دينهم ، أو المراد لا تفتن بنا فرعون وقومه لأنك لو سلطتهم علينا صار ذلك شبهة لهم في أنا لسنا على الحق . ويجوز أن تكون الفتنة بمعنى المفتون أي لا تجعلنا مفتونين بأن تمكنهم من صرفنا عن الدين الحق ، ولما قدموا التضرع إلى الله في أن يصون دينهم عن الفساد أتبعوه سؤال عصمة أنفسهم فقال : ﴿ ونجنا ﴾ الآية . وفي ذلك دليل على أن عنايتهم بمصالح الدين فوق اهتمامهم بمصالح النفس ، وهكذا يجب أن تكون عقيدة كل

مسلم والله الموفق . ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً ﴾ تبوّأ بالمكان اتخذه مباءة ومرجعاً مثل توطنه إذا اتخذه وطناً . واختلف المفسرون في البيوت فمنهم من ذهب إلى أنها المساجد كقوله : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ [النور : 36] فالمراد من قوله : ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ أن يجعل تلك البيوت مساجد متوجهة نحو القبلة وهي جهة بيت المقدس أو الكعبة على ما نقل عن ابن عباس : وقال الحسن : الكعبة قبلة كل الأنبياء :

(345/368)

وإنما وقع العدول عنه بأمر الله تعالى في أيام نبينا صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة . ومنهم من قال : إنها مطلق البيوت . ثم قيل : المراد واجعلوا دوركم قبلة أي صلوا في بيوتكم . وقيل : المراد اجعلوا بيوتكم متقابلة ، أما السبب في اتخاذ هذه البيوت فأن يصلوا في بيوتهم خفية خيفة من الكفرة كما كان المؤمنون على ذلك في أول الإسلام بمكة ، أو المقصود الجمعية واعتضاد البعض بالبعض . وقيل : على التفسير الأول لما أظهر فرعون العداوة الشديدة أمر الله موسى وهارون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الأعداء وتكفل أن يصونهم عن شرهم .

وإنما ثنى الخطاب أوّلاً ثم جمع لأن اختيار المكان للعبادة مما يفوض إلى الأنبياء فخوطب موسى وهارون بذلك ، ثم جعل الخطاب عاماً لهما ولقومهما لأن استقبال القبلة وإقامة الصلاة واجب على الجمهور . ثم خص موسى عليه السلام بالتبشير في قوله : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ لأن الغرض الأصلي من جميع العبادات هو هذه البشارة فلم تكن لائقة إلا بحال موسى الذي هو الأصل في الرسالة ، وفيه تعظيم لشأن البشارة والمبشر (قال الضعيف مؤلف الكتاب) قد سنح في خاطري وقت هذه الكتابة أن الخطاب في قوله : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ لنبينا صلى الله عليه وسلم على طريقة الالتفات والاعتراض . ومضمون البشارة أنه جعلت الأرض كلها لهذه الأمة مسجداً وطهوراً دون سار الأمم فإنهم أمروا باتخاذ موضع يرجعون إليه ألبتة للعبادة والله أعلم بمراده . ثم إن موسى عليه السلام لما بالغ في إظهار المعجزات القاهرة ، ورأى القوم مصرين على الجحود والإنكار أخذ يدعو عليهم ، ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أوّلاً سبب الدعاء عليه فلهذا ﴿ قال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً ﴾ فالزينة عبارة عن الصحة والجمال واللباس والدواب وأثاث البيت والأموال ما يزيد على ذلك من الصامت والناطق . عن ابن عباس

كانت لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة . قالت الأشاعرة : اللام في قوله : ﴿ ليضلوا ﴾ لام التعليل كأن موسى عليه السلام قال : يا رب إنك أعطيتهم هذه الزينة والأموال لأجل أن يضلوا ، ففيه دلالة على أنه تعالى تسبب لضلالهم وأراد منهم ذلك وإلا لم يهيىء أسبابه . ثم شرع في الدعاء عليهم بالطمس على أموالهم . والطمس المحو أو المسخ كما مر في سورة النساء في قوله سبحانه : ﴿ من قبل أن نطمس وجوهاً ﴾ [النساء : 47] وبالشد على قلوبهم ومعناه الاستيثاق والختم . وقالت المعتزلة : قوله ﴿ ليضلوا ﴾ دعاء بلفظ الأمر للغائب ، دعا عليهم بثلاثة أمور : بالضلال وبالطمس وبالشد .

(347/368)

كأنه لما علم بالتجربة وطول الصحبة أن إيمانهم كالمحال أو علم ذلك بالوحي اشتد غضبه عليهم فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره قائلاً ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال وليطبع الله على قلوبهم كما يقول الأب المشفق لولده إذا لم يقبل نصحه واستمر على غيه . سلمنا أن قوله : ﴿ ليضلوا ﴾ ليس دعاء عليهم لكن اللام فيه للعاقبة كقوله : " لدوا للموت " . سلمنا أن اللام للتعليل لكنهم جعلوا الله سبباً في الضلال فكأنهم أوتوها ليضلوا .

ولم لا يجوز أن يكون " لا " مقدرة أي لئلا يضلوا كقوله : ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ [النساء : 176] أي أن لا تضلوا ، أو يكون حرف الاستفهام مقدراً في آتيت على سبيل التعجب .

(348/368)

أما قوله تعالى : ﴿ فلا يؤمنوا ﴾ فإما أن يكون معطوفاً على قوله : ﴿ ليضلوا ﴾ على التفاسير كلها وما بينهما اعتراض ، وإما أن يكون جواباً لقوله ﴿ واشدد ﴾ ويجوز أن يكون دعاء بلفظ النهي معطوفاً على ﴿ اشدد ﴾ . ﴿ قال قد أجيبت دعوتكما ﴾ أضاف الدعوة إليهما لأن موسى كان يدعو وهارون يؤمن ، ويجوز أن يكونا جميعاً يدعوان إلا أنه خص موسى بالذكر في الآية لأصالته في الرسالة ، والمعنى أن دعاءكما مستجاب وما طلبتما كائن ولكن في وقته ﴿ فاستقيما ﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه من التبليغ والإنذار زيادة في إلزام الحجة ، ولا تستعجلا فقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا قليلا . قال ابن جريج : فمكث موسى بعد الدعاء أربعين سنة يدعوهم إلى الله ﴿ ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون ﴾ أن الاستعجال لا يفيد في اجابة الدعاء فقد يستجاب الدعاء ولكن يظهر الأثر بعد حين . ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ﴾ قد مرت تلك القصة في أوائل سورة البقرة

في قوله : ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ [البقرة : 50] الآية ، ومعنى قوله : ﴿ فأتبعهم ﴾ لحقهم . يقال : تبعه حتى أتبعه ، والبغي الإفراط في الظلم والعدو ومجاوزة الحد وفي الآية سؤال وهو أن فرعون تاب ثلاثة مرات إحدها قوله : ﴿ آمنت ﴾ وثانيتها ﴿ أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾ وثالثتها ﴿ وأنا من المسلمين ﴾ فلم تقبل توبته . والجواب من وجوه : الأول أنه إيمان اليائس وأنه لا يقبل لأن الإلجاء ينافي التكليف . الثاني أنها لم تكن مقرونة بالإخلاص وإنما كانت لدفع البلية الحاضرة والمحنة الناجزة . الثالث أن ذلك التوحيد كان مبنياً على محض التقليد والمخذول كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع ، ومثل هذا الاعتقاد الفاحش لا تزول ظلمته إلا بنور الحجة القطعية . الرابع ما روي أن بعض بني إسرائيل لما جاوز البحر اشتغلوا بعبادة العجل فلعله أراد الإيمان بذلك العجل الذي آمنوا بعبادته في ذلك الوقت ، وكانت هذه الكلمة سبباً

(349/368)

لزيادة الكفر . الخامس أن أكثر اليهود يميلون إلى التجسيم والتشبيه ولذلك عبدوا العجل فكأنه ما آمن إلا بالإله الموصوف بالجسمية والحلول والنزول . السادس لعل الإيمان إنما يتم بالإقرار بوحدانية الله تعالى وبنبوة موسى كما أنه لو قيل ألف مرة لا إله إلا الله لم يصح إيمان إلا

إذا قرن به محمد رسول الله إلى الناس كافة . السابع يروى أن جبريل عليه السلام أتى فرعون بفتيا ما قول الأمير في عبد نشأ في مال مولاه ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه ؟ فكتب فرعون فيه يقول أبو العباس الوليد بن مصعب : جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعمته أن يغرق في البحر ، ثم إن فرعون لما غرق دفع جبريل إليه خطه فعرفه . أما قوله ﴿ آلآن ﴾ فالمشهور من الأخبار أنه قول جبريل . وقيل : إنه قول الله سبحانه والتقدير : أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين ألجمك الغرق وأدركك .

(350/368)

وقوله : ﴿ وكنت من المفسدين ﴾ في مقابلة قوله : ﴿ وأنا من المسلمين ﴾ يروى أن جبريل أخذ يملأ فاه بالطين حين قال : ﴿ آمنت ﴾ لئلا يتوب غضباً عليه ، والأقرب عند العلماء أن هذا الخبر غير صحيح لأنه إن قال ذلك حين بقاء التكليف لم يجز على جبريل أن يمنعه من التوبة بل يجب أن يحثه عليها أو على كل طاعة لقوله تعالى : ﴿ وتعاونوا ﴾ [المائدة : 2] ولو منعه لكانت التوبة ممكنة لأن الأخرس قد يتوب بأن يعزم بقلبه على ترك المعاودة إلى القبيح ، ولو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر . وكيف يليق به سبحانه أن يقول لموسى وهارون ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ [طه : 44

] ثم يأمر جبريل بمنعه عن الإيمان . ولو قيل إن جبريل فعل ذلك من تلقاء نفسه كان منفياً لقوله : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ [مريم : 64] ﴿ لا يسبقونه بالقول ﴾ [الأنبياء : 27] وإن كان قال ذلك بعد زوال التكليف فلم يكن لما فعل جبريل فائدة اللهم إلا أن يقال : إنه دس حال البحر في فيه في وقت لا ينفعه إيمانه غضباً لله على الكافر . قوله : ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك ﴾ فيه أقوال منها : أن معناه نخرجك من البحر ونخلصك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ولكن بعد أن تغرق . وقوله : ﴿ ببدنك ﴾ في موضع الحال أي في الحال التي لا روح فيك وإنما أنت بدن . قال كعب : رماه الماء إلى الساحل كأنه ثور ، أو المراد ببدنك كاملاً سوياً لم ينقص منه شيء ولم يتغير ، أو عرياناً لست إلا بدناً وفيه نوع تهكم كأنه قيل : ننجيك لكن هذه النجاة إنما تحصل لبدنك لا لروحك كما يقال : نعتقك أو نخلصك من السجن ولكن بعد أن تموت . وقيل : ننجيك ببدنك أي نلقيك بنجوة من الأرض وهي المكان المرتفع . وقيل : ببدنك أي بدرعك . قال الليث : البدن الدرع القصير الكمين . عن ابن عباس قال : كان عليه درع من ذهب يعرف بها فأخرجه الله من الماء مع ذلك الدرع ليعرف ، فإن صحت هذه الرواية كانت معجزة لموسى عليه

السلام . وأما قوله : ﴿ لتكون لمن خلفك آية ﴾ فقيل : إن قوماً اعتقدوا في إلهيته وزعموا أن مثله لا يموت فأظهر الله تعالى أمره بأن أخرجه من الماء بصورته حتى يشاهدوه . وزالت الشبهة عن قلوبهم وكانت مطروحة على ممر من بني إسرائيل فلهذا قيل : ﴿ لمن خلفك ﴾ وقيل : إنه تعالى أراد أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والإهانة بعد ما سمعوا منه قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : 24] ليكون ذلك زجراً للعابرين عن مثل طريقته ، ويعرفوا أنه كان بالأمس في نهاية الجلالة ثم آل أمره إلى ما آل ، فلا يجترأوا على نحو ما اجترأ عليه . وقيل : المراد ليكون طرحك بالساحل وحدك دون المغرقين آية من آيات الله للأمم الآتية ، ثم زجر هذه الأمة عن ترك النظر في الدلائل وحثهم على التأمل والاعتبار فقال ﴿ وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 609.602 ﴾

(352/368)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾

لما بالغ موسى عليه السلام في إظهار المعجزات ، وإقامة الحجج البيّنات ، ولم يكن لذلك تأثير في من أرسل إليهم ، دعا عليهم بعد أن بيّن سبب إصرارهم على الكفر ، وتمسكهم بالجحود والعناد ، فقال مبيناً للسبب أوّلاً : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ ءاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِى الحياة الدنيا ﴾ قد تقدّم أن الملأ : هم الأشراف .

والزينة : اسم لكل ما يتزين به ، من ملبوس ومركوب ، وحلية وفراش وسلاح ، وغير ذلك ، ثم كرّر النداء للتأكيد فقال : ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ .

وقد اختلف في هذه اللام الداخلة على الفعل ، فقال الخليل وسيبويه : إنها لام العاقبة والصيرورة .

والمعنى : أنه لما كان عاقبة أمرهم الضلال ، صار كأنه سبحانه أعطاهم ما أعطاهم من النعم ليضلوا ، فتكون اللام على هذا متعلقة بآتيت ؛ وقيل : إنها لام كي : أي أعطيتهم لكي يضلوا .

وقال قوم : إن المعنى أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا .

فحذفت لا كما قال سبحانه : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ [النساء : 176] .

قال النحاس : ظاهر هذا الجواب حسن إلا أن العرب لا تحذف لا إلا مع أن ، فموّه صاحب هذا التأويل بالاستدلال بقوله : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ ، وقيل اللام للدعاء عليهم .

والمعنى ، ابتلهم بالهلاك عن سبيلك ، واستدلّ هذا القائل بقوله سبحانه بعد هذا : ﴿

اطمس ﴾ و ﴿ اشدد ﴾ .

وقد أطال صاحب الكشاف في تقرير هذا بما لا طائل تحته ، والقول الأوّل هو : الأولى .

وقرأ الكوفيون "ليضلوا" بضم حرف المضارعة : أي يوقعوا الإضلال على غيرهم .

وقرأ الباقون بالفتح : أي يضلون في أنفسهم ﴿ رَبَّنَا اطمس على أموالهم ﴾ .

(353/368)

قال الزجاج : طمس الشيء : إذهابه عن صورته ؛ والمعنى : الدعاء عليهم بأن يمحق الله أموالهم ، ويهلكها وقرىء بضم الميم من اطمس ﴿ واشدد على قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : اجعلها قاسية مطبوعة لا تقبل الحق ، ولا تنشرح للإيمان .

قوله : ﴿ فَلاَ يُؤْمِنُواْ ﴾ قال المبرد والزجاج : هو معطوف على ﴿ ليضلوا ﴾ ، والمعنى : آتيتهم النعم ، ليضلوا ولا يؤمنوا ، ويكون ما بين المعطوف والمعطوف عليه اعتراضاً .

وقال الفراء ، والكسائي ، وأبو عبيدة : هو دعاء بلفظ النهي ، والتقدير : اللهمّ فلا يؤمنوا ، ومنه قول الأعشى :

فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى . . . ولا تلقني إلا وأنفك راغم

وقال الأخفش : إنه جواب الأمر : أي اطمس واشدد ، فلا يؤمنوا ، فيكون منصوباً .

وروي هذا عن الفراء أيضاً ، ومنه :

يا ناق سيري عنقاً فسيحا . . . إلى سليمان فنستريحا

﴿ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ أي : لا يحصل منهم الإيمان إلا مع المعاينة لما يعذبهم الله به ، وعند ذلك لا ينفع إيمانهم .

وقد استشكل بعض أهل العلم ما في هذه الآية من الدعاء على هؤلاء ، وقال : إن الرسل إنما تطلب هداية قومهم وإيمانهم .

وأجيب بأنه لا يجوز لنبيّ أن يدعو على قومه إلا بإذن الله سبحانه ، وإنما يأذن الله بذلك لعلمه بأنه ليس فيهم من يؤمن ، ولهذا لما أعلم الله نوحاً عليه السلام بأنه لا يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، قال :

﴿ رَّبّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [نوح : 26] .

(354/368)

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا فاستقيما ﴾ جعل الدعوة ها هنا مضافة إلى موسى وهارون ، وفيما تقدّم أضافها إلى موسى وحده ، فقيل : إن هارون كان يؤمّن على دعاء موسى ، فسمي ها هنا داعياً ، وإن كان الداعي موسى وحده ، ففي أوّل الكلام أضاف

الدعاء إلى موسى لكونه الداعي ، وها هنا أضافه إليهما تنزيلاً للمؤمن منزلة الداعي ، ويجوز أن يكونا جميعاً داعيين ، ولكن أضاف الدعاء إلى موسى في أوّل الكلام لأصالته في الرسالة .

قال النحاس : سمعت عليّ بن سليمان يقول : الدليل على أن الدعاء لهما ، قول موسى ﴿ ربنا ﴾ ولم يقل : رب .

وقرأ عليّ والسلمي "دعاؤكما" وقرأ ابن السميفع "دعواكما" .

والاستقامة : الثبات على ما هما عليه من الدعاء إلى الله .

قال الفراء وغيره : أمر بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه ، على دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان إلى أن يأتيهما تأويل الإجابة أربعين سنة ، ثم أهلكوا .

وقيل : معنى الاستقامة : ترك الاستعجال ولزوم السكينة ، والرضا والتسليم لما يقضي به الله سبحانه .

قوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الذين لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بتشديد النون للتأكيد ، وحرّكت بالكسر لكونه الأصل ، ولكونها أشبهت نون التثنية .

وقرأ ابن ذكوان بتخفيف النون على النفي لا على النهي .

وقرىء بتخفيف الفوقية الثانية من ﴿ تتبعان ﴾ ، والمعنى : النهي لهما عن سلوك طريقة من لا يعلم بعادة الله سبحانه في إجراء الأمور على ما تقتضيه المصالح ، تعجيلاً وتأجيلاً .

قوله : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إسراءيل البحر ﴾ هو من جاوز المكان : إذا خلفه وتخطاه ، والباء للتعدية : أي جعلناهم مجاوزين البحر ، حتى بلغوا الشط ؛ لأن الله سبحانه جعل البحر يبساً فمرّوا فيه حتى خرجوا منه إلى البرّ .

(355/368)

وقد تقدّم تفسير هذا في سورة البقرة في قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر ﴾ [البقرة : 50] وقرأ الحسن "وجوّزنا" وهما لغتان ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ﴾ يقال : تبع وأتبع بمعنى واحد ، إذا لحقه .

وقال الأصمعي : يقال : أتبعه بقطع الألف ، إذا لحقه وأدركه ، واتبعه بوصل الألف : إذا اتبع أثره أدركه ، أو لم يدركه .

وكذا قال أبو زيد .

وقال أبو عمرو : إنّ اتبعه بالوصل : اقتدى به ، وانتصاب بغياً وعدواً على الحال ، والبغي : الظلم ، والعدو : الاعتداء ، ويجوز أن يكون انتصابهما على العلة : أي للبغي والعدو .

وقرأ الحسن "وعدوا" بضم العين والدال وتشديد الواو ، مثل علا يعلو علوّاً ، وقيل إن البغي : طلب الاستعلاء في القول بغير حق ، والعدو : في الفعل ﴿ حتى إِذَا أَدْرَكَهُ الغرق ﴾ أي

: ناله ووصله وألجمه .

وذلك أن موسى خرج ببني إسرائيل على حين غفلة من فرعون ، فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده ، ففرق الله البحر لموسى وبني إسرائيل ، فمشوا فيه حتى خرجوا من الجانب الآخر ، وتبعهم فرعون ، والبحر باق على الحالة التي كان عليها عند مضيّ موسى ومن معه ، فلما تكامل دخول جنود فرعون ، وكادوا أن يخرجوا من الجانب الآخر ، انطبق عليهم فغرقوا كما حكى الله سبحانه ذلك ﴿ قَالَ ءامَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذى ءامَنَتْ بِهِ بَنواْ إسراءيل ﴾ أي : صدّقت أنه بفتح الهمزة على أن الأصل بأنه ، فحذفت الباء ، والضمير للشأن .

وقرىء بكسر إنّ على الاستئناف ، وزعم أبو حاتم أن القول محذوف : أي آمنت ، فقلت : إنه ، ولم ينفعه هذا الإيمان أنه وقع منه بعد إدراك الغرق كله ، كما تقدّم في النساء ، ولم يقل للعين : آمنت بالله أو بربّ العالمين ، بل قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ، لأنه بقي فيه عرق من دعوى الإلهية .

(356/368)

قوله : ﴿ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ أي : المستسلمين لأمر الله ، المنقادين له ، الذين يوحدونه وينفون ما سواه ، وهذه الجملة إما في محل نصب على الحال أو معطوفة على آمنت .

قوله : ﴿ الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ هو مقول قول مقدّر معطوف على ﴿ قال آمنت ﴾ : أي فقيل له : أتؤمن الآن ؟ وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة ؟ فقيل : هي من قول الله سبحانه ، وقيل : من قول جبريل ، وقيل : من قول ميكائيل ، وقيل : من قول فرعون ، قال ذلك في نفسه لنفسه .

وجملة ﴿ وقد عصيت قبل ﴾ : في محل نصب على الحال من فاعل الفعل المقدّر بعد القول المقدر ، وهو أتؤمن الآن ، والمعنى : إنكار الإيمان منه عند أن ألجمه الغرق ، والحال أنه قد عصى الله من قبل ، والمقصود التقريع والتوبيخ له .

وجملة ﴿ وكنت من المفسدين ﴾ معطوفة على عصيت داخلة في الحال ، أي : كنت من المفسدين في الأرض بضلالك عن الحق ، وإضلالك لغيرك .

قوله : ﴿ فاليوم نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ قرىء "ننجيك" بالتخفيف ، والجمهور على التثقيل . وقرأ اليزيدي : "ننحيك" بالحاء المهملة من التنحية ، وحكاها علقمة عن ابن مسعود ؛ ومعنى ﴿ ننجيك ﴾ بالجيم : نلقيك على نجوة من الأرض ، وذلك أن بني إسرائيل لم يصدّقوا أن فرعون غرق ، وقالوا : هو أعظم شأناً من ذاك ، فألقاه الله على نجوة من الأرض ، أي : مكان مرتفع من الأرض حتى شاهدوه .

وقيل : المعنى : نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب في قعر البحر ، ونجعلك طافياً ليشاهدوك ميتاً بالغرق ، ومعنى " ننحيك " بالمهملة : نطرحك على ناحية من الأرض ، وروي عن ابن مسعود أنه قرأ "بأبدانك" .

وقد اختلف المفسرون في معنى ببدنك ، فقيل : معناه : بجسدك بعد سلب الروح منه .

وقيل : معناه : بدرعك ، والدرع يسمى بدناً ، ومنه قول كعب بن مالك :

ترى الأبدان فيها مسبغات . . . على الأبطال واليلب الحصينا

أراد بالأبدان : الدروع ، وقال عمرو بن معدي كرب :

(357/368)

ومضى نساؤهم بكل مُضاضة . . . جدلاء سابغة وبالأبدان

أي بدروع سابغة ، ودروع قصيرة : وهي التي يقال لها : أبدان كما قال أبو عبيدة .

وقال الأخفش : وأما قول من قال : بدرعك ، فليس بشيء ، ورجح أن البدن المراد به هنا الجسد .

قوله : ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ هذا تعليل لتنجيته ببدنه ، وفي ذلك دليل على أنه لم يظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلة لا سوى ، والمراد بالآية : العلامة ، أي لتكون لمن

خلفك من الناس علامة يعرفون بها هلاكك ، وأنك لست كما تدّعي ، ويندفع عنهم الشك في كونك قد صرت ميتاً بالغرق .

وقيل : المراد ليكون طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك آية من آيات الله ، يعتبر بها الناس ، أو يعتبر بها من سيأتي من الأمم إذا سمعوا ذلك ، حتى يحذروا من التكبر والتجبر والتمرّد على الله سبحانه ، فإن هذا الذي بلغ إلى ما بلغ إليه من دعوى الإلهية ، واستمرّ على ذلك دهراً طويلاً كانت له هذه العاقبة القبيحة .

وقرىء "لمن خلفك" على صيغة الفعل الماضي أي : لمن يأتي بعدك من القرون ، أو من خلفك في الرياسة أو في السكون في المسكن الذي كنت تسكنه ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس عَنْ آيَاتِنَا ﴾ التي توجب الاعتبار والتفكر ، وتوقظ من سنة الغفلة ﴿ لغافلون ﴾ عما توجبه الآيات ، وهذه الجملة تذييلية .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ رَبَّنَا اطمس على أموالهم ﴾ يقول : دمر على أموالهم وأهلكها ﴿ واشدد على قُلُوبِهِمْ ﴾ قال : اطبع : ﴿ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ وهو الغرق .

(358/368)

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن محمد بن كعب القرظي ، قال : سألني عمر ابن عبد العزيز ، عن قوله : ﴿ رَبَّنَا اطمس على أموالهم ﴾ فأخبرته أن الله طمس على أموال فرعون وآل فرعون ، حتى صارت حجارة ، فقال عمر : كما أنت حتى آتيك ، فدعا بكيس مختوم ففكه ، فإذا فيه الفضة مقطوعة كأنها الحجارة والدنانير والدراهم ، وأشباه ذلك من الأموال حجارة كلها .

وقد روي أن أموالهم تحوّلت حجارة من طريق جماعة من السلف .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، قال : ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾ ، قال : فاستجاب له ، وحال بين فرعون وبين الإيمان .

وأخرج أبو الشيخ ، عن أبي هريرة قال : كان موسى إذا دعا أمّن هارون على دعائه يقول آمين .

قال أبو هريرة : وهو اسم من أسماء الله ، فذلك قوله : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن عباس ، نحوه .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن عكرمة نحوه .

وأخرج سعيد بن منصور ، عن محمد بن كعب القرظي ، نحوه أيضاً .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس ، قال : يزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن جريج ، مثله .

وأخرج الحكيم الترمذي ، عن مجاهد ، نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن ابن عباس ، فاستقيما : فامضيا لأمري ، وهي الاستقامة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عكرمة ، قال : العدو والعتوّ والعلوّ في كتاب الله : التجبر .

(359/368)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، قال : لما خرج آخر أصحاب موسى ودخل آخر أصحاب فرعون ، أوحى الله إلى البحر أن انطبق عليهم ، فخرجت أصبع فرعون بلا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ، قال جبريل : فعرفت أن الربّ رحيم ، وخفت أن تدركه الرحمة ، فرمسته بجناحي وقلت : آلآن وقد عصيت قبل ؟ فلما خرج موسى وأصحابه قال من تخلّف من قوم فرعون : ما غرق فرعون ولا أصحابه ، ولكنهم في جزائر البحر يتصيدون ، فأوحى الله إلى البحر أن اللفظ فرعون عرياناً ، فلفظه عرياناً أصلع أخينس قصيراً فهو قوله : ﴿ فاليوم نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءايَةً ﴾ لمن قال : إن فرعون لم يغرق ، وكأن نجاة غيره لم تكن نجاة عافية ، ثم أوحى الله إلى البحر أن الفظ ما فيك ،

فلفظهم على الساحل ، وكان البحر لا يلفظ غريقاً في بطنه حتى يأكله السمك ، فليس يقبل البحر غريقاً إلى يوم القيامة .

وأخرج أحمد ، والترمذي وحسنه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أغرق الله فرعون فقال : ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيل ﴾ قال لي جبريل : يا محمد لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة " وقد روى هذا الحديث الترمذي من غير وجه ، وقال : حسن صحيح غريب ، وصححه أيضاً الحاكم .

وروي عن ابن عباس ، مرفوعاً من طرق أخرى .

وأخرج الطبراني في الأوسط ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " قال لي جبريل : ما كان على الأرض شيء أبغض إليّ من فرعون ، فلما آمن جعلت أحشو فاه حمأة وأنا أغطه خشية أن تدركه الرحمة " وأخرج ابن جرير ، والبيهقي ، من حديث أبي هريرة مرفوعاً نحوه .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عمر ، مرفوعاً نحوه أيضاً .

(360/368)

وأخرج أبو الشيخ ، عن أبي أمامة ، مرفوعاً نحوه أيضاً ، وفي إسناد حديث أبي هريرة رجل مجهول ، وباقي رجاله ثقات .

والعجب كل العجب ممن لا علم له بفنّ الرواية من المفسرين ، ولا يكاد يميز بين أصح الصحيح من الحديث وأكذب الكذب منه ، كيف يتجارى على الكلام في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والحكم ببطلان ما صح منها ، ويرسل لسانه وقلمه بالجهل البحت ، والقصور الفاضح الذي يضحك منه ، كل من له أدنى ممارسة لفن الحديث ، فيا مسكين مالك ولهذا الشأن الذي لست منه في شيء ؟ ألا تستر نفسك وتربع على ضلعك ، وتعرف بأنك بهذا العلم من أجهل الجاهلين ، وتشتغل بما هو علمك الذي لا تجاوزه ، وحاصلك الذي ليس لك غيره ، وهو علم اللغة وتوابعه من العلوم الآلية ، ولقد صار صاحب الكشاف رحمه الله ، بسبب ما يتعرّض له في تفسيره من علم الحديث الذي ليس هو منه في ورد ، ولا صدر ، سخرة للساخرين وعبرة للمعتبرين ، فتارة يروي في كتابه الموضوعات ، وهو لا يدري أنها موضوعات ، وتارة يتعرض لردّ ما صح ، ويجزم بأنه من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم والبهت عليه ، وقد يكون في الصحيحين وغيرهما ، مما يلتحق بهما من رواية جماعة من الصحابة بأسانيد كلها أئمة ثقات أثبات حجج ، وأدنى نصيب من عقل يحجر صاحبه عن التكلم في علم لا يعلمه ، ولا يدري به أقلّ

دراية ، وإن كان ذلك العلم من علوم الاصطلاح التي يتواضع عليها طائفة من الناس ، ويصطلحون على أمور فيما بينهم ، فما بالك بعلم السنة الذي هو قسيم كتاب الله ، وقائله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وراويه عنه خير القرون ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، وكل حرف من حروفه وكلمة من كلماته يثبت بها شرع عامّ ، لجميع أهل الإسلام .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ فاليوم نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ قال : أنجى الله فرعون لبني إسرائيل من البحر فنظروا إليه بعد ما غرق .

(361/368)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في الآية قال : بجسدك ، قال : كذب بعض بني إسرائيل بموت فرعون ، فألقى على ساحل البحر حتى يراه بنو إسرائيل : أحمر قصيراً كأنه ثور .

وأخرج ابن الأنباري ، عن محمد بن كعب ، في قوله : ﴿ فاليوم نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ قال : بدرعك ، وكان درعه من لؤلؤة يلاقي فيها الحروب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(362/368)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح ﴾ الروح ﴿ إذ قال لقومه ﴾ وهم القلب والسمع والنفس وصفاتها ﴿ يا قوم إن كان ﴾ عظم ﴿ عليكم مقامي ﴾ في الأخلاق الحميدة الروحانية ودعائي إلى الله ببراهينه الواضحة ﴿ فما سألتكم من أجر ﴾ من حظ من حظوظ مشاربكم الدنيوية ما حظي إلا من مواهب الله وشهود جماله . و ﴿ جعلناهم خلائف ﴾ خلفاء الله في أرضه وباقي التأويل كما مر في " الأعراف " . وهكذا في قصة موسى ﴿ ولا يفلح الساحرون ﴾ لأن الفلاح هو الخلاص عن قيد الوجود المجازي . ﴿ ويحق الله الحق ﴾ أي الذكر ﴿ بكلماته ﴾ وهي لا إله إلا الله ﴿ ولو كره ﴾ أهل الهوى والنفوس الأمارة ﴿ فما آمن لموسى ﴾ القلب إلا صفاته أو بعض صفات فرعون النفس بتبديل أخلاقها الذميمة بالأخلاق الحميدة القلبية ﴿ على خوف من فرعون ﴾ النفس والهوى والدنيا وشهواتها أن يصرفهم إلى حالها الطبيعية التي جبلت عليها . ﴿ وأوحينا إلى موسى ﴾ القلب وهارون السر أن هيئا لصفاتكما بمصر عالم الروح مقامات ومنازل لا في عالم النفس السفلي . واجعلوا تلك المقامات متوجهة إلى طلب الحق . ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أديموا العروج من المقامات الروحانية إلى المواصلات الربانية ﴿ ليضلوا عن سبيلك

﴿ ليكون عاقبة أمرهم أن ينقطعوا أو يقطعوا بتلك الملاذ عن السير في طلبك ﴾ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ بمحقها وتحقيرها في نظرهم ﴾ واشدد ﴾ طريق النظر إلى الدنيا وما فيها ﴾ على قلوبهم ﴾ واجعل همتهم عليه في طلبك والنظر إليك فقط ﴾ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ فإن النفس وصفاتها لا يؤمنون بالآخرة وطلب الحق حتى يذيقهم ألم الفطام عن الدنيا ومشتهياتها . ﴿ سبيل الذين لا يعلمون ﴾ طريق الوصول إلى الله ولا يعرفون قدره ﴾ وجاوزنا ببنى إسرائيل ﴾ هم القلب والسر وصفاتها . والبحر بحر الروحانية الملكوتية ﴾ فأتبعهم فرعون ﴾ النفس وصفاتها بعد الفطام عن شوائب عالم الملك قهراً وقسراً ، حتى إذا هبت رياح اللطف وتموجت بحار الفضل واستغرق موسى

(363/368)

القلب وصفاته في لجي بحر الوصال ، وبلغت أفواج أمواجه إلى ساحل البشرية ، أدرك فرعون النفس الغرق فاستمسك بعروة ذلك الفريق : ﴿ آمنت ﴾ ومن أمارات أجنبية فرعون النفس من عالم الروح أنه لم يتمسك بحبل التوحيد والمعرفة بيد الصدق والاستقلال ، ولم يقل آمنت بالله الذي لا إله إلا هو وإنما تمسك بين الاضطراب والتقليد فقال : ﴿ لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾ ﴿ ننجيك ببدنك ﴾ أي نخلصك مع قالبك من بحر

الضلالة لتكون دليلاً على كمال قدرتنا وعنايتنا . وإن من اتبع خواص عبادنا نجعله من أهل النجاة والدرجات بعد أن كان من أهل الهلاك والدركات والله حسبنا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 609.610 ﴾

(364/368)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

﴿ قالوا ﴾ أي : اليهود والنصارى ومن زعم أنّ الملائكة بنات الله ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ قال الله تعالى : ﴿ سبحانه ﴾ أي : تنزيهاً له عن الولد ﴿ هو الغنيّ ﴾ عن كل أحد ، وإنما يطلب الولد من يحتاج إليه ، ثم بين تعالى غناه بقوله تعالى : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ من ناطق وصامت ملكاً وخلقاً ، ولما بين تعالى بالدليل الواضح امتناع ما أضافوا إليه عطف بالإنكار والتوبيخ فقال : ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ عندكم من سلطان ﴾ أي : حجة ﴿ بهذا ﴾ أي : الذي تقولونه ، ثم بالغ تعالى في ذلك الإنكار عليهم بقوله تعالى : ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ حقيقته وصحته ، وتضيفون إليه ما لا يجوز إضافته إليه تعالى جهلاً منكم ، والاستفهام للتوبيخ .

﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين يختلقون على الله الكذب فيقولون عليه الباطل ويزعمون أنّ

له ولداً ﴿ إنَّ الذين يفترون ﴾ أي : يتعمدون ﴿ على الله الكذب لا يفلحون ﴾ أي : لا ينجحون في سعيهم ولا يفوزون بمطلوبهم بل خابوا وخسروا ، فإنهم لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة ، ومن الناس من إذا فاز بشيء من المطالب العاجلة والمقاصد الخسيسة ظنّ أنه قد فاز بالمقصد ، والله سبحانه وتعالى أزال هذا الخيال بأن قال:

﴿ متاع في الدنيا ﴾ وفيه إضمار تقديره : لهم متاع في الدنيا ، على أنه مبتدأ خبره محذوف ، ويصح أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف تقديره : افتراؤهم متاع في الدنيا يقيمون به رياستهم في الكفر أو حياتهم أو تقلبهم متاع في الدنيا وهو أيام يسيرة بالنسبة إلى طول بقائهم في العذاب ﴿ ثم إلينا مرجعهم ﴾ بالموت ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد ﴾ بعد الموت ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ كانوا يكفرون ﴾ ولما ذكر سبحانه وتعالى في هذه السورة من أحوال كفار قريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد شرع بعد ذلك في قصص الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم وذكر الله تعالى منهم في هذه السورة ثلاث قصص:

(365/368)

القصة الأولى : قصة نوح عليه السلام المذكورة بقوله تعالى:

﴿ واتل ﴾ يا محمد ﴿ عليهم ﴾ أي : كفار قريش ﴿ نبأ ﴾ أي : خبر ﴿ نوح ﴾ وذلك

ليكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه أسوة ممن سلف من الأنبياء ، فإنه كان صلى الله عليه وسلم إذا سمع أنّ معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كان إلا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه ، كما يقال : المصيبة إذا عمت خفت ، ولأنّ الكفار إذا سمعوا هذه القصص ، وعلموا أنّ الجهال وإن بالغوا في إيذاء الأنبياء المتقدّمين ، إلا أنّ الله تعالى أعلنهم بالآخرة ونصرهم وأيدهم وقهر أعداءهم ؛ كان سماع هؤلاء الكفار لأمثال هذه القصص سبباً لانكسار قلوبهم ووقوع الخوف والوجل في صدورهم ، ولأنّ الكلام إذا طال تقريراً في نوع من أنواع العلوم فربما حصل نوع من أنواع الملالة ، فإذا انتقل الإنسان من ذلك الفن من العلم إلى فن آخر شرح صدره ، وطاب قلبه ، ووجد في نفسه رغبة جديدة وقوّة حادثة وميلاً قوياً ؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم لما لم يتعلم علماً ولم يطالع كتاباً ثم ذكر هذه القصص من غير تفاوت ، ومن غير زيادة ، ومن غير نقصان ؛ دل ذلك على أنه صلى الله عليه وسلم إنما عرفها بالوحي والتنزيل ويبدل من نبأ نوح ﴿ إذ قال لقومه ﴾ وهم بنو قابيل ﴿ يا قوم إن كان كبر ﴾ أي : شق وعظم ﴿ عليكم مقامي ﴾ أي : لبثي فيكم ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴿ وتذكيري ﴾ أي : وعظي إياكم ﴿ بآيات الله ﴾ أي : بحجته وبيناته ، فعزمتم على قتلي وطردي ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ أي : فهو حسبي وثقتي أو قيامي على الدعوة ؛ لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بيناً ، وكلامهم مسموعاً كما يحكى عن عيسى عليه السلام أنه كان يعظ الحواريين قائماً وهم

قعود .

﴿

(366/368)

فأجمعوا أمركم ﴾ أي : فاعزموا على أمر تفعلونه في أذاي بالإهلاك أو غيره

﴿ وشركاءكم ﴾ أي : وادعو شركاءكم أو الواو وبمعنى مع ، أي : مع شركائكم وهي الأصنام ، وإنما حثهم على الاستعانة بها بناء على مذهبهم الفاسد ، واعتقادهم أنها تضرّ وتنفع مع اعتقاده أنها جماد لا تضرّ ولا تنفع تبكيتاً وتوبيخاً لهم . ﴿ ثم لا يكن أمركم ﴾ أي : الذي تقصدوني به ﴿ عليكم غمة ﴾ أي : مستوراً من غمه إذا ستره ، بل أظهروه وجاهروني مجاهرة ، فإنه لا معارضة لي بغير الله الذي يستوي عنده السرّ والجهر ﴿ ثم اقضوا إليّ ﴾ أي : امضوا ما في أنفسكم وافرغوا منه ، يقال : قضى فلان إذا مات ، ومضى وقضى دينه إذا فرغ منه . وقيل : معناه توجهوا إليّ بالقتل والمكروه . وقيل : فاقضوا ما أنتم قاضون ، وهذا مثل قول السحرة لفرعون : ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ أي : اعمل ما أنت عامل . ﴿ ولا تنظرون ﴾ أي : ولا تؤخرون بعد إعلامكم إياي ما أنتم عليه ، وإنما قال ذلك إظهاراً لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلامه وعصمته ، وأنهم لن يجدوا إليه

سبيلاً ﴿ فإن توليتم ﴾ أي : أعرضتم عن تذكيري ﴿ فما سألتكم من أجر ﴾ أي : من جعل وعوض على تبليغ الرسالة ، فينفركم عني وتتهموني لأجله من طمع في أموالكم ، وطلب أجر على عظتكم ، ومتى كان الإنسان فارغاً عن الطمع كان قوله أقوى تأثيراً في القلب ﴿ إن أجري إلا على الله ﴾ وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة ، أي : ما أنصحكم إلا لوجه الله تعالى لا لغرض من أغراض الدنيا . وهكذا ينبغي لكل من ينفع الناس بعلم أو إرشاد إلى طريق الله تعالى ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ أي : إني مأمور بالاستسلام لكل مكروه يصل إليّ منكم لأجل هذه الدعوة ، وقيل : بدين الإسلام وأنا ماض فيه غير تاركٍ له قبلتموه أو لم تقبلوه .

(367/368)

﴿ فكذبوه ﴾ أي : أصرّوا على تكذيبه ، بعدما ألزمهم الحجة ، وبين أن توليتهم ليست إلا لعنادهم وتمردهم لا جرم حقت عليهم كلمة العذاب ﴿ فنجيناه ﴾ من الغرق ﴿ ومن معه في الفلك ﴾ أي : السفينة وكانوا ثمانين ﴿ وجعلناهم ﴾ أي : الذين أنجيناهم معه في الفلك ﴿ خلائف ﴾ في الأرض يخلفون الهالكين بالغرق ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ بالطوفان ، وقوله تعالى : ﴿ فانظر ﴾ أي : أيها الإنسان أو يا محمد ﴿ كيف كان عاقبة

المنذرين ﴾ تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله وتسلية له ، وهذه القصة إذا سمعها من صدّق النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن كذب به كان زجراً للمكلفين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح ، وتكون داعية للمؤمنين على الثبات على الإيمان ليصلوا إلى مثل ما وصل إليه قوم نوح ، وهذه الطريقة في الترغيب والتحذير إذا جرت على سبيل الحكاية عمن تقدّم كانت أبلغ من الوعيد المبتدأ ، ولهذا الوجه أكثر تعالى ذكر أقاصيص الأنبياء عليهم السلام .

﴿ ثم بعثنا من بعده ﴾ أي : نوح ﴿ رسلاً إلى قومهم ﴾ لم يسم هنا تعالى من كان بعد نوح من الرسل ، وقد كان بعده هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب صلوت الله وسلامه عليهم . ﴿ فجاؤوهم بالبينات ﴾ أي : بالمعجزات الواضحات التي تدل على صدقهم . ﴿ فما كانوا ليؤمنوا ﴾ أي : فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدّه عنادهم وخذلان الله تعالى إياهم ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ كذبوا به من قبل ﴾ أي : أنهم كانوا قبل بعثة الرسل إليهم أهل جاهلية مكذبين بالحق ، فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها كأن لم يبعث إليهم أحد ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل ما طبعنا على هؤلاء بسبب تكذيبهم الرسل ﴿ نطبع ﴾ أي : نختم ﴿ على قلوب المعتدين ﴾ في كل زمن لكل من تعمد العدول فيما لا يحلّ له ، فلا يقبل الإيمان لانهماكهم في الضلال واتباعهم المألوف . وفي أمثال ذلك دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد .

القصة الثانية : قصة موسى عليه السلام المذكورة بقوله تعالى:

﴿ ثم بعثنا من بعدهم ﴾ أي : هؤلاء الرسل ﴿ موسى وهارون إلى فرعون وملئه ﴾ أي : أشراف قومه وغيرهم تبع لهم ، فهو مرسل إلى الجميع ﴿ بآياتنا ﴾ التسع

﴿ فاستكبروا ﴾ عن اتباعها والإيمان بها ، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبيينها ويتعظموا عن قبولها ﴿ وكانوا قوماً مجرمين ﴾ أي : كفاراً ذوي آثام عظام ، فلذلك استكبروا عنها واجترؤوا عن ردّها .

﴿ فلما جاءهم الحق ﴾ أي : جاء فرعون وقومه ﴿ من عندنا ﴾ أي : الذي جاء به موسى من عند ربه ، وعرفوا أنه ليس من عند موسى وهارون لتظاهر المعجزات الظاهرات المزيحة للشك ﴿ قالوا ﴾ أي : غير متأملين له ولا ناظرين في أمره لفرط تمرّدهم ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ أي : بين ظاهر يعرفه كل أحد ، وهم يعلمون أنّ الحق أبعد شيء من السحر الذي لا يظهر إلا على كافر أو فاسق ، وقوله تعالى:

﴿ قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ﴾ فيه حذف تقديره : أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر أسحر هذا ، فحذف السحر الأوّل اكتفاء بدلالة الكلام عليه ، ثم قال

أسحر هذا ؟ وهو استفهام على سبيل الإنكار بمعنى أنه ليس بسحر ، ثم احتج على صحة قوله تعالى فقال : ﴿ ولا يفلح الساحرون ﴾ فإنه لو كان سحراً لاضمحل ولم يبطل سحر السحرة ، فقلب العصا حية ، وفلق البحر معلوم بالضرورة أنه ليس من باب التمويه والتخييل ، فثبت أنه ليس بسحر ﴿ قالوا ﴾ أي : قوم فرعون لموسى ﴿ أجئتنا لتلفتنا ﴾ أي : لتردّنا وتصرفنا واللفت والفتل أخوان ﴿ عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ أي : من الدين وعبادة الأصنام ، ثم قالوا لموسى وهارون ﴿ وتكون لكما الكبرياء ﴾ أي : الملك والعز ﴿ في الأرض ﴾ أي : أرض مصر . قال الزجاج : سمى الملك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا ، وأيضاً الملوك موصوفون بالكبر ، ولهذا وصف ابن الرقيات مصعباً في قوله:

*ملكه ملك رأفة ليس فيه ** جبروت منه ولا كبرياء

(369/368)

ينفي ما عليه الملوك من ذلك ، ويجوز أن يقصدوا بذلك ذمهما ، وأنهما إن ملكا أرض مصر تجبرا وتكبرا ، كما قال القبطي لموسى عليه السلام : ﴿ إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ﴾ (القصص ،) . ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ أي : بمصدقين فيما جئتما به . ﴿ وقال فرعون ﴾ لقومه إرادة للمناظرة لما أتى به موسى عليه السلام ﴿ ائتوني بكل

ساحر عليم ﴾ أي : بالغ في علم السحر لئلا يفوت شيء من السحر بتأخر البعض . وقرأ حمزة والكسائي بغير ألف بين السين والحاء ، وتشديد الحاء مفتوحة وألف بعدها بصيغة فعال دالّ على زيادة قلق فرعون ، والباقون بألف بعد السين وتخفيف الحاء مكسورة ولا ألف بعدها .

﴿ فلما جاء السحرة ﴾ أي : كل من في أرض مصر ، منهم قالوا لموسى : إمّا أن تلقي وإمّا أن نكون نحن الملقين ﴿ قال لهم موسى ألقوا ﴾ جميع ﴿ ما أنتم ملقون ﴾ فإن قيل : كيف أمرهم بالكفر والسحر والأمر بالكفر كفر ؟

أجيب : بأنه إنما أمرهم بإلقاء ما معهم من الحبال والعصيّ التي معهم ليظهر للخلق ، إنما أتوا به عمل فاسد وسعي باطل لا على طريق أنه عليه السلام أمرهم بالسحر .

(370/368)

﴿ فلما ألقوا ﴾ ما معهم من الحبال والعصيّ وخيلوا لسحرهم أعين الناس أنها تسعى ﴿ قال موسى ﴾ منكرا عليهم ﴿ ما جئتم به السحر ﴾ قرأه أبو عمرو بهمزتين الأولى همزة الاستفهام فهي مفتوحة والثانية همزة وصل ، وله فيها وجهان : التسهيل والبدل ، فما استفهامية مبتدأ . وجئتم به خبرها ، والسحر بدل منه ، وقرأ الباقون بهمزة وصل

فتسقط في الوصل ، أي : الذي جئتم به هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه سحراً ، ثم أخبره موسى عليه السلام بقوله : ﴿ إن الله سيبطله ﴾ أي : يهلكه ويظهر فضيحة صاحبه ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ أي : لا يثبته ولا يقوّيه . وقول البيضاوي : وفيه دليل على أن السحر إفساد وتمويه لا حقيقة له محمول على ما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات والأدوية وإلا فله حقيقة فهو حق عند أهل السنة ، وهو علم بكيفية استعدادات تقتدر بها النفوس البشرية على ظهور التأثير في عالم العناصر ﴿ ويحق ﴾ أي : يثبت ويظهر ﴿ الله الحق بكلماته ﴾ أي : بقضائه ووعده الصادق لموسى عليه السلام . وقد أخبر الله تعالى في غير هذه السورة أنه كيف أبطل ذلك السحر ، وذلك بسبب أن ذلك الثعبان قد تلقف تلك الحبال والعصيّ ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ . ولما بين تعالى أن قوم موسى شاهدوا هذه المعجزات ومع ذلك لم يؤمن منهم إلا القليل كما قال تعالى:

(371/368)

﴿ فما آمن لموسى إلا ذريّة من قومه ﴾ وإنما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه كان يغتمّ بسبب إعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر بين تعالى أنّ له في هذا الباب بسائر الأنبياء أسوة ؛ لأنّ الذي ظهر من موسى عليه السلام من المعجزات كان

أمراً عظيماً ، ومع ذلك فما آمن له إلا ذرية من قومه ، والذرية اسم يقع على القليل ، من القوم . قال ابن عباس : الذرية القليل ، والهاء التي في قومه راجعة إلى موسى ، أي : فما آمن من قومه إلا طائفة من ذراري بني اسرائيل ، كأنه قيل إلا أولاد قومه ، وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفاً من فرعون ، وإجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف . وقيل : راجعة إلى فرعون ، والذرية : امرأته آسية ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه وماشطته ﴿ على خوف من فرعون وملئهم ﴾ أي : خوف منه ؛ لأنه كان شديد البطش ، وكان قد أظهر العداوة مع موسى ، وإذا علم ميل القوم إلى موسى ، كان يبالغ في إيذائهم ، فلهذا السبب كانوا خائفين منه ومن أشراف قومه ، والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظمة ؛ لأنه ذو أصحاب يأتمرون به . وقيل : المراد بفرعون آله . كما يقال ربيعة ومضر . ﴿ أن يفتنهم ﴾ أي : يصرفهم ويصدّهم عن الإيمان ﴿ وإنّ فرعون لعال ﴾ أي : متكبر قاهر ﴿ في الأرض ﴾ أي : أرض مصر ﴿ وإنه لمن المسرفين ﴾ أي : المجاوزين الحدّ ، فإنه كان من أخس العبيد وادّعى الربوبية ، وكان كثير القتل والتعذيب لبني إسرائيل .

﴿ وقال موسى ﴾ لقومه ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله ﴾ أي : صدقتم به وبآياته ﴿ فعليه توكلوا ﴾ أي : ثقوا به واعتمدوا عليه فإنه ناصر أوليائه ومهلك أعدائه ﴿ إن كنتم مسلمين ﴾ أي : مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له . وقيل : إن كنتم آمنتم بالقلب وأسلمتم بالظاهر .

﴿ فقالوا ﴾ مجيبين له ﴿ على الله توكلنا ﴾ أي : عليه اعتمدنا لا على غيره ، ثم دعوا ربهم فقالوا ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ أي : لا تسلطهم علينا فيفتنوننا .

(372/368)

﴿ ونجنا ﴾ أي : خلصنا ﴿ برحمتك من القوم الكافرين ﴾ أي : من أيدي قوم فرعون ؛ لأنهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم في الأعمال الشاقة ، وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا مخلصين ، لا جرم أنّ الله تعالى قبل توكلهم ، وأجاب دعاءهم ونجاهم ، وأهلك من كانوا يخافونه ، وجعلهم خلفاء في الأرض . وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أنّ الداعي ينبغي أن يتوكل أوّلاً لتجاب دعوته . ولما شرح الله تعالى خوف المؤمنين من الكافرين وما ظهر فيهم من التوكل على الله تعالى أتبعه بأن أمر موسى وهارون عليهما السلام باتخاذ البيوت بقوله تعالى:

﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه ﴾ أي : الذي طلب مؤازرته ومعاضدته ﴿ أن تبوّأا ﴾ أي : اتخذا ﴿ لقومكما بمصر بيوتاً ﴾ تسكنون فيها أو ترجعون إليها للعبادة ﴿ واجعلوا ﴾ أنتما وقومكما ﴿ بيوتكم ﴾ أي : تلك البيوت ﴿ قبلة ﴾ مصلى أو مساجد كما في قوله تعالى : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾ (النور ،) موجهة نحو القبلة ، أي :

الكعبة ، وكان موسى عليه السلام يصلي إليها . وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بيوتاً وبيوتكم برفع الباء ، والباقون بالخفض ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ فيها ذكر المفسرون في كيفية هذه الواقعة وجوهاً ثلاثة:

الأوّل : أنّ موسى عليه السلام ومن معه كانوا في أوّل أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم ويؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المؤمنون على هذه الحالة في أوّل الإسلام بمكة .

الثاني : أنه قيل : إنه تعالى لما أرسل موسى إليهم أمر فوعون بتخريب مساجد بني اسرائيل ومنعهم من الصلاة فأمرهم الله تعالى أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفاً من فرعون .

(373/368)

الثالث : أنه تعالى لما أرسل موسى إليهم وأظهر فرعون تلك العداوة الشديدة أمر الله تعالى موسى وهارون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الأعداء ، وتكفل الله تعالى بأن يصونهم من شرّ الأعداء ، وقد خص الله تعالى موسى وهارون في أوّل هذه الآية بالخطاب بقوله تعالى : ﴿ أن تبوّآ لقومكما ﴾ لأنّ التبوء للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤوس القوم

للتشاور ، ثم عمم هذا الخطاب فقال : واجعلوا بيوتكم قبلة ؛ لأن جعل البيوت مساجد وإقامة الصلاة مما ينبغي أن يفعله كل أحد ، ثم خص موسى عليه السلام في آخر الكلام بالخطاب فقال تعالى : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أي : بالنصر في الدنيا والجنة في العقبى ؛ لأنّ الغرض الأصلي من جميع العبادات حصول هذه البشارة ، فخص الله تعالى موسى بها ليدل بذلك على أن الأصل في الرسالة هو موسى عليه السلام ، وأنّ هارون عليه السلام تبع له ، ثم إنّ موسى عليه السلام لما بالغ في إظهار المعجزات القاهرة الظاهرة ورأى القوم مصرّين على الجحد والعناد والإنكار أخذ يدعو عليهم ، ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أوّلاً سبب إقدامه على الجرائم وكان جرمهم هو لأجل حبهم الدنيا يزكو ﴿ و ﴾ لهذا السبب ﴿ قال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه ﴾ أي : أشراف قومه على ما هم عليه من الكفر والكبر ﴿ زينة ﴾ أي : عظيمة يتزينون بها من الحلية واللباس وغيرهما من الدواب والغلمان وأثاث البيت الفاخر ونحو ذلك . ﴿ وأموالاً ﴾ أي : كثيرة من الذهب والفضة وغيرهما ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كان لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت ، ثم بيّن غايتها لهم فقال مفتتحاً بالنداء باسم الرب : ليعيذه وأتباعه من مثل حالهم .

﴿ ربنا ﴾ أي : يا ربنا آتيتهم ذلك ﴿ ليضلوا ﴾ أي : في خاصة أنفسهم ويضلوا غيرهم

﴿ عن سبيلك ﴾ أي : دينك واللام للعاقبة وهي متعلقة بآتيت كقوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّا وحزناً ﴾

(374/368)

(القصص ،) وقيل:

لام كي ، أي : آتيتهم كي تفتنهم . وقيل : هو دعاء عليهم بما علم من ممارسة أحوالهم أنه لا يكون غير ذلك . وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بضم الياء والباقون بالفتح ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ أي : امسخها وغيرها عن هيئتها . قال قتادة : صارت أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم حجارة . وقال محمد بن كعب : جعل سكرهم حجارة . وقال ابن عباس : بلغنا أنّ الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأنصافاً وأثلاثاً وأرباعاً ، ودعا عمر بن عبد العزيز بخريطة فيها أشياء من بقايا آل فرعون ، فأخرج منها البيضة مشقوقة والجوزة مشقوقة ، وإنها كالحجر . قال السدّي : مسخ الله تعالى أموالهم حجارة والنخيل والثمار والدقيق والأطعمة فكانت إحدى الآيات التسع

﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ أي : اطبع عليها واستوثق حتى لا تنشرح للإيمان وقوله : ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ جواب للدعاء ، أو دعاء بلفظ النهي أو عطف

على ليضلوا ، وما بينهما دعاء معترض . وقوله تعالى : ﴿ قال قد أجيبت دعوتكما ﴾ فيه وجهان:

الأوّل : قال ابن عباس : إنّ موسى كان يدعو وهارون كان يؤمّن فلذلك قال : دعوتكما ، وذلك أنّ من يقول عند دعاء الداعي آمين فهو أيضاً داع ؛ لأنّ قوله آمين تأويله : استجب ، فهو سائل كما أنّ الداعي سائل أيضاً .

(375/368)

الثاني : أن يكون كل منها ذكر هذا . غاية ما في الباب أن يقال : إنه تعالى حكى هذا الدعاء عن موسى بقوله تعالى : ﴿ وقال موسى ربنا ﴾ وهذا لا ينافي أن يكون هارون قد ذكر الدعاء أيضاً . وأمّا قوله تعالى : ﴿ فاستقيما ﴾ فمعناه اثبتا على الدعوة والرسالة والزيادة في الزام الحجة فقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً فلا تستعجلا . قال ابن جريج : إنّ فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة . ﴿ ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ أي : الجاهلين الذين يظنون أنه متى كان الدعاء مجاباً كان المقصود حاصلاً في الحال فربما أجاب الله تعالى دعاء الإنسان في مطلوبه إلا أنه إنما ربما يوصله إليه في وقته المقدور ، والاستعجال لا يصدر إلا من الجهال ، وهذا كما قال تعالى لنوح عليه الصلاة

والسلام : ﴿ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ (هود ،) وهذا النهي لا يدل على أن ذلك قد صدر من موسى عليه السلام ، كما أنّ قوله تعالى : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ (الزمر ،) لا يدل على صدور الشرك منه صلى الله عليه وسلم وقرأ ابن ذكوان بتخفيف النون ، والباقون بتشديدها ؛ لأنّ نون التوكيد تثقل وتخفف . ولما أجاب الله تعالى دعاءهما أمر بني اسرائيل وكانوا ستمائة ألف بالخروج من مصر في الوقت المعلوم ، ويسر لهم أسبابه وفرعون كان غافلاً عن ذلك ، فلما سمع أنهم خرجوا وعزموا على مفارقة مملكته خرج في عقبهم كما قال تعالى:

(376/368)

﴿ وجاوزنا ﴾ أي : قطعنا ﴿ ببني اسرائيل ﴾ أي : عَبَدَنَا المخلص لنا ﴿ البحر ﴾ حتى بلغوا الشط حافظين لهم ﴿ فأتبعهم فرعون وجنوده ﴾ أي : لحقهم وأدركهم يقال : تبعه وأتبعه إذا أدركه ولحقه ﴿ بغياً وعدواً ﴾ أي : ظلماً وعدواناً . وقيل : بغياً في القول وعدواً في الفعل ، فلما أدركهم فرعون قالوا لموسى : أين المخلص والمخرج ، البحر أمامنا وفرعون وراءنا ، قد كنا نلقى من فرعون البلاء العظيم ، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق لموسى وقومه فكان كل فرق كالطود العظيم ، وكشف

عنه وجه الأرض ، وانتشر لهم البحر ، فلما وصل فرعون إلى البحر هابوا دخوله ، وكان فرعون على حصان أدهم وكان معه في عسكره ثمانمائة ألف حصان على لون حصانه ، وميكائيل يسوقهم حتى لم يشذ منهم أحد ، فلما خرج آخر بني اسرائيل من البحر تقدّمهم جبريل على فرس وخاض البحر ، فلما وجد الحصان ريح الأنثى لم يملك فرعون من أمره شيئاً ، فنزل البحر وأتبعه جنوده ، حتى إذا كملوا جميعاً في البحر وهمّ أوّلهم بالخروج التطم البحر عليهم ، فلما أتاه الغرق أتى بكلمة الإخلاص كما قال تعالى : ﴿ حتى إذا أدركه الغرق ﴾ أي : لحقه ﴿ قال آمنت أنه ﴾ أي : بأنه ﴿ لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ . فإن قيل : إنه آمن ثلاث مرات أولها قوله : آمنت . وثانيها : قوله لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل . وثالثها : قوله وأنا من المسلمين . فما السبب في عدم القبول ؟ أجاب : العلماء عن ذلك بأجوبة منها : أنه إنما آمن عند نزول العذاب ، والإيمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبول ، ويدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ (غافر ،) ودس جبريل في فيه من حما البحر مخافة أن تناله الرحمة وقال له ﴿ آلآن ﴾ تؤمن ﴿ وقد عصيت قبل ﴾ وضيعت التوبة في وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية ﴿ وكنت من المفسدين ﴾ بضلالك وإضلالك عن الإيمان والتوبة حتى أغلق بابها

بحضور الموت

ومعاينة الملائكة ، وإنما قال له : وكنت من المفسدين في مقابلة قوله وأنا من المسلمين ، ومنها أنّ فرعون إنما قال هذه الكلمة ليتوصل بها إلى دفع ما نزل به من البلية الحاضرة ، ولم يكن قصده الإقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف له بالربوبية ، فلم ينفعه ما قال في ذلك الوقت ، ومنها : أنّ فرعون كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع الخالق سبحانه وتعالى ولذلك قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل ، فلم ينفعه ذلك لحصول الشك في إيمانه ، ومثل هذا الاعتقاد الفاسد لا تزول ظلمته إلا بنور الحجة القطعية والدلائل اليقينية .

ومنها : ما روي في بعض الكتب أنّ بعض أقوام بني اسرائيل لما جاوزوا البحر اشتغلوا بعبادة العجل فلما قال فرعون : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل انصرف ذلك إلى العجل الذي آمنوا بعبادته في ذلك الوقت فكانت هذه الكلمة في حقه سبباً لزيادة الكفر ، ومنها : أنّ الإيمان إنما كان يتم بالإقرار بوحدانية الله تعالى وبالإقرار بنبوّة موسى عليه السلام ، وفرعون لم يقرّ بالنبوّة فلم يصح إيمانه ، ونظيره أن الواحد من الكفار لو قال ألف مرّة أشهد أن لا إله إلا الله فإنه لا يصح إيمانه إلا إذا قال معه : وأشهد أنّ محمداً رسول الله فكذا هنا . ومنها : أنّ جبريل عليه السلام أتى فرعون بفتوى ، ما قول الأمير في عبد نشأ في مال مولاه ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادّعى السيادة دونه ؟ فكتب فرعون فيه يقول : أبو

العباس الوليد بن مصعب : جزاء العبد الخارج عن سيده الكافر بنعمته أن يغرّق في البحر ، ثم أنّ فرعون لما غرق رفع جبريل عليه السلام إليه خطه . فإن قيل : فما فائدة دس جبريل في فم فرعون ذلك ؛ لأنه في تلك الحالة إمّا أن يكون التكليف ثابتاً أم لا ؟ فإنّ كان فكيف يمنعه من التوبة ، وإن كان غير مكلف فلا فائدة في ذلك ؟

(378/368)

أجيب : بأنَّ التكليف كان ثابتاً وجبريل عليه السلام لم يفعل ذلك من قبل نفسه فإنه عبد مأمور ، والله تعالى يفعل ما يشاء كما قال تعالى : ﴿ فإنّ الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ (فاطر ،) . وقال تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أوّل مرّة ﴾ (الأنعام ،) وهكذا فعل بفرعون ، منعه من الإيمان عند الموت جزاء على تركه الإيمان أوّلاً ، فدس الحما في فم فرعون من جنس الختم والطبع على القلب ، ومن الناس من قال : قائل هذا القول هو الله تعالى ؛ لأنه ذكر بعده .

﴿ فاليوم ننجيك ﴾ أي : نخرجك من البحر ﴿ ببدنك ﴾ أي : جسمك الذي لا روح فيه كاملاً سوياً لم يتغير ، أو نخرجك من البحر عرياناً من غير لباس ، أو أنّ المراد بالبدن الدرع . قال الليث : البدن هو الدرع الذي يكون قصير الكمين ، وهذا منقول عن ابن عباس قال :

كان عليه درع من ذهب يعرف ، به فأخرجه الله تعالى من الماء مع ذلك الدرع ليعرف ﴿ لتكون لمن خلفك ﴾ أي : بعدك ﴿ آية ﴾ أي : عبرة فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك . وعن ابن عباس : أنّ بعض بني اسرائيل شكوا في موته ، فأخرج لهم ليروه ويشاهده الخلق على ذلك الذلّ والمهانة بعد ما سمعوا منه قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ليعلموا أنّ دعواه كانت باطلة ، وأن ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره إلى ما يرون لعصيانه ربه ﴿ وإنّ كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ أي : لا يعتبرون بها ، وهذا الكلام ليس إلا كلام الله تعالى ، ولكن القول الأوّل أشهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 37.54 ﴾

(379/368)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والستون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/369)

الجزء التاسع والستون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 93 ﴾ من سورة يونس عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 101 ﴾ من نفس السورة

(4/369)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر تعالى عاقبة أمر فرعون وقومه وأنهم لم ينتفعوا بما جاءهم من البينات مع ما كان فيها من جلي البيان وفي بعضها من الشدائد والامتحان حتى كان آخرها أنه لما رأى مبدأ الهلاك من انفراق البحر لم يزعه عن لجاجه غفلة منه عن عاقبته .

(5/369)

وختمها بالإخبار بكثرة الغفلة إشارة إلى أن هذا الخلق في غير القبط أيضاً ، أتبع ذلك ذكر خاتمة أمر بني إسرائيل فيما خولهم فيه بعد الإنجاء من النعم المقتضي للعلم القطعي بأنه لا إله غيره ، وأن من خالفه كان على خطر الهلاك ، وأنهم – مع مشاهدتهم الآيات الآتيه بسببهم إلى فرعون – آتاهم من الآيات الخاصة بهم المنجزة لصدق وعده سبحانه لآبائهم ما فيه غاية الإحسان إليهم والإكرام لهم ، وأنهم كانوا تحت يد فرعون على طريق واحد ، ليس بينهم خلاف ، وما اختلفوا فصاروا فرقاً في الاعتقادات وأحزاباً في الديانات حتى

جاءهم العلم الموضح من الله ، فكان المقتضي لاجتماعهم على الله مفرقاً لهم على سبيل الشيطان لخبث سرائرهم وسوء ضمائرهم وقوفاً مع الشاهد الزائل وجموداً مع المحسوس الفاني ونسياناً للغائب الثابت والمعلوم المتيقن ، كل ذلك لأنا قضينا به فالأمر تابع لما نريد ، لا لما يأمر به وينهى عنه ، فكان أعظم زاجر عن طلب الآيات وظن أنها توجب له الرد على الغوايات ، فقال تعالى : ﴿ ولقد بوأنا ﴾ أي أسكنا بما لنا من العظمة التي تنقطع الأعناق دون عليائها وتتضاءل ثواقب الأفكار عن إحصائها ﴿ بني إسراءيل ﴾ مسكناً هو أهل لأن يرجع إليه من خرج عنه ، وهو المراد بقوله : ﴿ مبوأ صدق ﴾ أي في الأرض المقدسة لأن وعدنا كان قد تقدم لهم بها وعادة العرب أنها إذا مدحت الشيء أضافته إلى الصدق لأنه مع ثباته حبيب إلى كل نفس ويصدق ما يظن به من الخير .

ولما كان المنزل لا يطيب إلا بالرزق ، وكان التعبير عنه بالمبوإ دالاً على الرزق بدلالة الالتزام ، صرح به فقال : ﴿ ورزقناهم ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ من الطيبات ﴾ أي الحسية حلاء واشتهاء من الفواكة والحبوب والألبان والأعسال وغيرها .

والمعنوية من الشريعة والكتاب والمعارف كما تقدم وعدنا لآبائهم بذلك .

(6/369)

ولما كانوا كغيرهم إذا كانوا على أمور يتواضعون عليها تقاربوا فيها وتوافقوا ، وإذا كانوا على حدود حدها لهم المحسن إليهم وحده لم يلبثوا أن يختلفوا عابهم الله بذلك فقال : ﴿ فما ﴾ أي فتسبب عن صدقنا لهم في الوعد أنهم ما ﴿ اختلفوا ﴾ أي أوقعوا الخلف المفضي إلى جعل كل منهم صاحبه خلفه ووراء ظهره .

واستهان به ﴿ حتى جاءهم العلم ﴾ الموجب لاجتماعهم على كلمة واحدة لما له من الضبط حتى يكون أتباعه على قلب واحد .

فكأنه قيل : فماذا يفعل بهم ؟ لا هم بعقولهم ينتفعون ولا بما جاءهم من الحق يرجعون ؟ فقيل مؤكداً لإنكار العرب البعث : ﴿ إن ربك ﴾ أي المحسن إليك بإصاء الأنبياء بك ووصفك في كتبهم وجعلك صاحب لواء الحمد في القيامة ﴿ يقضي بينهم ﴾ .

ولما كان هذا تهديداً عظيماً ، زاده هولاً وعظمة بقوله : ﴿ يوم القيامة ﴾ أي الذي هو أعظم الأيام ﴿ فيما كانوا ﴾ أي بأفعالهم الجبلية ﴿ فيه يختلفون ﴾ فيميز الحق من الباطل ، والصديق من الزنديق ، ويسكن كلاًّ داره .

ذكر بعض ما في التوراة من المن عليهم بالأرض المقدسة : قال قي أثناء السفر الخامس : قد رأت أعينكم جميع أعمال الله العظيمة التي عمل ، فاحفظوا جميع الوصايا التي أمركم الله بها اليوم لتدخلوا الأرض التي تجوزون إليها لترثوها وتطول أعماركم في الأرض التي أقسم الله لآبائكم أن يعطيهم ويرثها نسلهم الأرض التي تغل السمن والعسل .

لأن الأرض التي تدخلونها لترثوها ليست مثل أرض مصر التي خرجتم منها التي كنتم تحتاجون فيها أن تستقوا بأرجلكم وتسقوها مثل بساتين السقي ، ولكن الأرض التي تجوزون إليها لترثوها هي أرض الجبال والصحارى ، وإنما تشرب من مطر السماء . يتعاهدها الله ربكم في كل حين ، وعينا الله ربنا فيها منذ أول السنة إلى آخر السنة .

(7/369)

فإن أنتم سمعتم الأحكام التي آمركم بها اليوم وتتقون الله ربكم وتعبدونه من كل قلوبكم وأنفسكم يديم نظره إليكم ، ويمطر لكم في الخريف والربيع جميعاً ، وتستغلون طعاماً وشراباً وزيتاً ، وينبت في حرثكم عشباً لمواشيكم ، وتأكلون وتشبعون ، احفظوا أن لا تخدع قلوبكم وتروغوا إلى الآلهة الأخرى وتسجدوا لها وتعبدوها فيشتد غضب الرب عليكم ، ويمنع السماء من المطر والأرض من غلاتها ، وتهلكوا سريعاً من الأرض التي يعطيكم الله ربكم ، بل اجعلوا هذه الآيات في قلوبكم ، وصيروها ميسماً بين أعينكم ، وعلموها بينكم أن يتكلموا بها في حضوركم وفي سفركم ، وإذا رقدتم وإذا قمتم ، واكتبوها على معاقم بيوتكم وأبوابكم لتطول أعماركم وأعمار أولادكم في الأرض التي أقسم الله لآبائكم أن يعطيهم .

وإن أنتم حفظتم هذه الوصايا كلها وعملتم بها وأحببتم الله ربكم وسرتم في طرقه ولحقتم بعبادته يهلك الرب الملوك كلها من بين أيديكم وترثون شعوباً أعظم وأعز منكم ، وكل بلاد تطأها أقدامكم تكون لكم بين البرية ولبنان ومن النهر إلى الفرات : النهر الأكبر ، وتكون تخومكم عند البحر الآخر ، ولا يقدر أحد أن يقاومكم ، ويلقي الله ربكم خوفكم وفزعكم على كل الأرض التي تطؤونها كما قال لكم الرب : انظروا ! إني أتلوا عليكم دعاء ولعناً ، أما الدعاء فتصيرون إليه إن أنتم حفظتم وصايا الله ربكم ، وأما اللعن فيدرككم إن أنتم لم تسمعوا وصايا الله ربكم وزغتم عن الطريق الذي أمركم به اليوم وتبعتم آلهة أخرى لم تعرفوها ، وإذا أدخلكم الله ربكم إلى الأرض التي تدخلونها لترثوها اتلوا الدعاء على جبل حوريب واللعن على جبل من حيالها في مجاز الأردن خلف الطريق عند مغارب الشمس في أرض الكنعانين الذين يسكنون المغرب بإزاء الجبال وجبال بلوط – وفي نسخة : مرج ممري ، لأنكم تجوزون الأردن لتدخلوا وترثوا الأرض التي يعطيكم الله ربكم وتسكنونها وتحفظون وتعملون بجميع الوصايا التي آمركم بها اليوم – انتهى .

وفي سفر يوشع بن نون عليه السلام : ولما كان بعد موسى عبد الله قال الله ليوشع ابن نون

خادم موسى عليهما السلام : موسى عبدي مات ، والآن فقم فاعبر هذا الأردن أنت ، وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لبني إسرائيل ، كل موضع تطؤه أرجلكم لكم أعطيته ، كما قلت لموسى عبدي .

من البر وهذه للبنان وإلى النهر الكبير نهر الفرات كل أرض الذاعرين ، لا يقف أحد قدامك طول ايام حياتك ، كما كنت مع موسى أكون معك ، لا أدعك ولا أتركك ، اشتد وتأيد ، فإنك أنت تنحل هذا الشعب الأرض التي قسمت لآبائهم لإعطاء ذلك لهم ، لا يزول درس كتاب هذا الشريعة من فيك .

وتلهج به نهاراً وليلاً لكي تحفظ للعمل بجميع المكتوب .

فحينئذ تنجح طرقك .

(9/369)

وحينئذ ترشد ، أليس قد أوصيتك ؟ اشتد وتأيد ، ولا ترهب ولا تنذعر ، لأن معك الله ربك في جميع ما تسير فيه ، ووصى يوشع عرفاء القوم قائلاً : جوزوا في وسط العسكر ووصّوا القوم قائلين لهم : أعدوا لكم زاداً فإنكم بعد ثلاثة أيام عابرون هذا الأردن للدخول لإرث الأرض التي الله ربكم معطيها لكم ، اذكروا ذكر القول الذي أمركم به موسى

عبد الله قائلاً : الله ربكم مريحكم بما أعطاكم هذه الأرض ، نساءكم وأطفالكم ومواشيكم تجلسون في مدنكم التي أعطاكم موسى عبد الله في مجاز الأردن وأنتم تجورون محزومي الخواطر إلى أن يريح الله إخوتكم كما أراحكم فترثوا أيضاً الأرض التي ربكم معطيكم ، حينئذ ترجعون إلى أرض حوزكم التي أعطاكم موسى عبد الله في مجاز الأردن مشرق الشمس ، فأجابوا يوشع قائلين : جميع ما أوصيتنا به نعمل ، كل موضع ترسلنا نمضي كجميع ما قبلنا من موسى كذاك نقبل منك .

إذا كان الله معك كما كان مع موسى ، كل إنسان يخالف أمرك ولا يقبل كلامك كجميع ما تأمره به يقتل .

فاشتد وتأيد ، فبعث يوشع بن نون من الكافرين رجلين جاسوسين في خفية قائلاً : امضيا ! انظرا الأرض كلها مع أريحا ، فمضيا ودخلا إلى بيت امرأة سواقة اسمها راحاب واضطجعا ثمَّ ، فقيل لملك أريحا : هوذا أناس من بني إسرائيل قد جاؤوا إلى هنا الليلة لجس البلد .

فأرسل ملك أريحا إلى راحاب قائلاً : أخرجي القوم الجائين إليك الذين دخلوا دارك .

فإنهم لجس جميع البلد جاؤوا .

فأخذت المرأة الرجلين فأخفت أمرهما وقالت : كذاك كان القوم جاؤوا إليّ ولم أعلم من أين هم ؟ وكان عند إغلاق الباب في الظلام .

ثم خرج القوم ولم أعلم أين مضوا ؟ اطلبوهم بسرعة فإنكم تلحقونهم ؛ ثم أصعدتهما إلى السطح وظهرتهما في فش الكتان .

والقوم طلبوهما في طريق الأردن إلى المعابر – وفي نسخة : إلى المخاضات – ولباب أغلقوا بعد ما خرج الطالبون خلفهما .

(10/369)

وهما قبل أن يناما صعدت إليهما راحاب إلى السطح فقالت لهما : قد علمت أن الله سلم إليكم البلد ، وأنه قد وقعت هيبتكم علينا .

وقد ماج جميع سكان البلد من قبلكم .

وإنا قد سمعنا أن الله أيبس لكم بحر القلزم عقب خروجكم من مصر وما عملتم بملكي الأمورانيين الذي في مجاز الأردن : سيحون وعوج اللذين اصطلمتموهما ، فعند ما سمعنا ذابت قلوبنا ولم يثبت أيضاً روح في واحد منا من جهتكم ، فإن الله ربكم هو إله من في السماوات من فوق ومن على الأرض من تحت ، والآن فاحلفوا باسم الله إذ قد عملت معكما فضلاً ، فتعملاً أيضاً أنتما مع أهل أبي فضلاً ، وتعطياني علامة هي حق .

لتستبقوا أبي وأمي وإخوتي وجميع من التصق بهم ، وتخلصوا أنفسنا من القتل .

فقالا لها : نبذل أنفسنا دونكم للموت إن لم تخبروا بخبرنا هذا .

فيكون عند التسليم الله لنا البلد نعمل معك فضلاً وأمانة فأحدرتهما بالحبل من داخل الطاقة إذ منزلها في حائط السور .

وفي السور هي ساكنة .

وقالت لهما : سيرا إلى الجبل كيلا يلقاكما الطالبون ، وبعد ذلك سيرا : لطريقكما ، فقالا لها : أبرياء نحن من قسمك هذا الذي استقسمتنا إن لم تفعلي ما نقول لك ، هوذا نحن داخلون إلى البلد فاعقدي خصلة خيط من القرمز في الطاقة التي أخبرتنا منها .

وأبوك وأمك وإخوتك وكل بيت أبيك تضمين إليك المنزل ، فيكون كل من يخرج من أبواب منزلك إلى خارج دمه في عنقه ونحن أبرياء ، وكل من يكون معك في المنزل دمه في أعناقنا إن بطشت به يد .

وإن أخبرت بخبرنا هذا فنحن أبرياء من قسمك الذي استقسمتنا ، فقالت : كما قلتما ، فأطلقتهما ومضيا ، وعقدت خصلة القرمز في الطاقة ، فمضيا إلى الجبل وجلسا ثم ثلاثة أيام إلى أن رجع الطالبون ولم يجدوهما .

(11/369)

ورجع الرسولان وانحدرا من الجبل وجازا الأردن وجاءا إلى يوشع بن نون وقصا له كل ما وافاهما وقالا ليوشع : إن الله دفع بأيدينا كل الأرض ، وقد ماج جميع ساكنها منا ؛ وأدلج يوشع بالغداة ورحلوا من الكفرين ، وجاؤوا إلى الأردن هو وجميع بني إسرائيل وباتوا ثم قبل أن يجوزوا .

فلما كان بعد ثلاثة أيام جاز النقباء في وسط العسكر وأمروا القوم قائلين لهم : عند نظركم صندوق عهد الله ربكم والأئمة اللاويين حاملين له أنتم ترحلون من موضعكم وتمشون خلفه ، لكن بينكم وبينه بعد مقدار ألفي ذارع بالمساحة ، لا تقربوا منه لأجل أن تعرفوا الطريق التي تمشون فيها إذ لم تمشوا فيها أمس وأول أمس .

وقال يوشع للقوم : استعدوا فإن غداً يعمل الله في وسطكم عجائب ، وقال يوشع للأئمة : احملوا صندوق العهد وجوزوا قدام القوم .

فحملوا صندوق العهد وساروا قدام القوم ، وقال الله ليوشع : هذا اليوم ابتدىء بتعظيم اسمك بحضرة جميع إسرائيل لكي يعلموا أنني كما كنت مع موسى أكون معك ؛ وقال يوشع لبني إسرائيل : تقدموا هاهنا وأسمعوا الله ربكم ؛ قال يوشع : بهذه الخلة تعرفون أن قادراً حياً لذاته في وسطكم ، وأن قارضاً يقرض من قدامكم قبائل الأمم : الكنعانيين والذاعرين – وفي نسخة : الحاثبين المنسوبين إلى حاث جدهم – والحويين أي الفصحاء البلغاء – وفي نسخة : المجتمعين إلى الحي – والربضيين والفلاحين والأمورانيين – أي الرؤساء –

واليبوسيين – أي الجبارين القاهرين ، ها هوذا صندوق العهد ، سيد كل الأرض جائز قدامكم في الأردن والآن خذوا لكم اثني عشر رجلاً من أسباط إسرائيل : رجلاً واحداً من كل سبط ، ويكون عند قرار أقدام أرجل الأئمة حاملي صندوق العهد سيد كل الأرض في مياه الأردن من الأمر العظيم أنه تنقطع مياه الأردن المنحدرة من فوق وتقف طوداً واحداً كأنها في زق محصورة .

(12/369)

ولما ارتحل الشعب وقطعوا خيمه ليجوزوا الأردن سار الكهنة الذين حملوا التابوت أمام الشعب ، فلما انتهوا إلى الأردن وكان ممتلئاً يفيض كل أيام الحصاد انشق الأردن وقام الماء الذي كان ينحدر من فوق كأنه في زق ناحيته ، وتباعد عن قرية إدام التي عند صريم جداً ، والذي كان يجري إلى البحر العربي الذي يدعى بحر الملح انشق وحار وانقطع ، وجاز الشعب حيال أريحا ، وقام الكهنة الذيم حملوا تابوت العهد في الأردن يابساً حتى عبر جميع الشعب بحر الأردن ؛ فلما جاز الشعب جميعاً قال الرب ليوشع : اعمد إلى اثني عشر رجلاً من الشعب : من كل سبط رجل واحد ، وقل لهم : خذوا من هاهنا من جوف الأردن من تحت أقدام الكهنة اثني عشر حجراً وعبروها معكم وانصبوها في موضع المبيت الذي

تبيتون فيه الليلة ، فأمرهم يوشع بذلك وأن يحمل كل رجل حجره على عاتقه ، فأخذوها إلى موضع مبيتهم ونصبوها هناك ، فمكثت الحجارة – التي أخذوها من الأردن من تحت أقدام الكهنة الذين حملوا التابوت – موضوعة هناك إلى اليوم ؛ والكهنة الذين حملوا التابوت كانوا قياماً حتى تمت جميع الأقوال التي أمر الرب يشوع أن يقص على الشعب كما أوصى موسى يشوع ، وعجل الشعب على المجاز وجازوا ، فما جاز جميع الشعب وجاز الكهنة الذين كانوا حاملين التابوت أمام الشعب وجاز بنو روبال وبنو جاد ونصف سبط منسا ، وهم متسلحون أمام إخوتهم – كما أمر موسى – أربعون ألفاً ذوو قوة ، جازوا أمام الرب إلى قاع أريحا للمحاربة .

(13/369)

في ذلك اليوم عظم يشوع عند جميع بني إسرائيل وفرقوه كفرقهم من موسى طول أيام حياته ، وقال الرب ليشوع : مر الكهنة الذين حملوا تابوت الشهادة يصعدوا من الأردن ، فأمرهم ، فلما صعدوا رجع ماء الأردن إلى مواضعه أول ما استقرت أقدام الكهنة في الشط وجرى في سواحل الأردن كما كان أولاً ، فصعدوا من الأردن في عشر خلت من الشهر الأول – قلت : وهو نيسان على ما قال بعض فضلاء اليهود – ونزلوا الجلجال أقصى مشارق أريحا

، فأما الاثنا عشر حجراً التي أخذوها من الأردن فنصبها يشوع في الجلجال ، وقال يشوع لبني إسرائيل : إذا سألكم بنوكم غداً وقالوا لكم : ما هذه الحجارة ؟ قولوا لهم : إن بني إسرائيل فلق له هذا الأردن فجازوه يابساً ، لأن الله ربكم يبَّس ما الأردن أمامهم حتى جازوه كما فعل الله ربكم ببحر سوف الذي يبسه أمامنا حتى جزناه ليعلم جميع شعوب الأرض أن يد الرب قوية ، وتتقوا الله ربكم كل الأيام .

فلما سمع جميع ملوك الأمورانيين الذين في جانب الأردن الغربي وجميع ملوك الكنعانيين الذين على شاطىء البحر أن الرب يبس ماء الأردن أمام بني إسرائيل حتى جازوا ، فزعت قلوبهم ولم يبق فيهم رمق فزعاً من بني إسرائيل وفي ذلك الزمان قال الرب ليشوع : اتخذ سيفاً من طوران واختن بني إسرائيل ثانية ، فختن بني إسرائيل ثانية في أكمة الغلف ، والذي ختن يشوع جميع الذكورة الذين كانوا ولدوا في البرية حين خرجوا من أرض مصر ، لأن جميع الرجال الأبطال المقاتلة هلكوا في البرية لأنهم لم يطيعوا الله ربهم وكانوا كلهم مختتنين ، فأقسم الرب عليهم أن لا يريهم الأرض التي وعد آباءهم أن يعطيهموها الأرض التي تفل السمن والعسل ، فبنوهم الذين كانوا من بعدهم هم الذين ختن يشوع لأنهم كانوا غلفاً .

(14/369)

فلما ختن جميع الشعب مكثوا مواضعهم في المعسكر حتى برئوا ، وقال الرب ليشوع : اليوم صرفت عنكم عار أهل مصر ، ودعا اسم ذلك الموضع جلجالاً ، ونزل بنو إسرائيل الجلجال وعلموا فصحاً في أربعة عشر يوماً من الشهر الأول عند المساء في قاع أريحا وأكلوا من بر الأرض بعد الفصح وأكلوا في ذلك اليوم فطيراً وسنبلاً مقلواً .

وارتفع المن عن بني إسرائيل منذ ذلك اليوم حيث أكلوا من بر الأرض ولم ينزل المن لبني إسرائيل بعد ذلك اليوم وأكلوا من بر الأرض وغلات أرض كنعان في تلك السنة .

(15/369)

وبينا كان يشوع في قاع أريحا قائماً إذ نظر رجلاً قائماً إزاءه مخترطاً سيفه ممسكه بيده ، فاقبل يشوع إليه وقال له : أنت منا أم من أعدائنا ؟ قال : أنا سيد أجناد الرب ، الآن أتيتك ، فخر يشوع ساجداً على وجهه على الأرض وقال : ما الذي يقول السيد لعبده ؟ قال : اخلع خفيك عن قدميك ، فإن الموضع الذي أنت قائم فيه طاهر ، ففعل يشوع ذلك ؛ وكان بنو إسرائيل قد حاصروا أريحا ، ولم يكن يقدر أحد من أهلها يدخل ولا يخرج ، قال الرب ليوشع : انظر ! إني قد دفعت في يدك أريحا وملكها وكل أجنادها ، فليحط بالمدينة جميع رجال المقاتلة ، ودوروا حول المدينة مرة في اليوم ، وافعلوا ذلك ستة أيام ، ويحمل سبعة من

الكهنة سبعة أبواق ويهتفون أمام التابوت ، حتى إذا كان اليوم السابع دوروا حول المدينة سبع مرات ويهتف الكهنة بالقرون ، فإذا هتفت الأبواق وسمعتهم أصواتها يهتف جميع الشعب بأعلى أصواتهم صوتاً شديداً ، فيقع سور المدينة مكانه ، ويصعد الشعب كل إنسان حياله ، فدعا يشوع الكهنة وقال لهم : احملوا تابوت الرب عهد الرب ويحمل سبعة من الكهنة سبعة قرون وينفخون فيها أمام تابوت الرب ، ثم قال للشعب : دوروا حول المدينة ، والمتسلحون يجوزون أمام تابوت الرب ، فحمل سبعة من الكهنة سبعة قرون وهتفوا أمام تابوت الرب فلم يزالوا ينفخون في القرون ، والذين كانوا يحملون التابوت يتبعون أصحاب الأبواق والمتسلحون يسيرون أمام الكهنة الذي يهتفون بالقون ويسيرون أمام التابوت .

وقال يشوع للشعب : لا تهتفوا ، ولا تسمعوا أصواتكم ، ولا تخرج كلمة من أفواهكم إلى اليوم الذي آمركم أن تهتفوا .

(16/369)

فدارت الجماعة بالتابوت كل يوم مرة كما أمرهم يشوع ، فلما كان اليوم السابع أدلجوا سحراً وأحاطوا بالمدينة كسنتهم ولكن في ذلك اليوم السابع داروا حولها سبع مرات ، وفي المرة

السابعة هتف الكهنة بالقرون وقال يشوع للشعب : اهتفوا لأن الرب قد دفع المدينة في أيديكم ، ولكن صيروا هذه المدينة وكل ما فيها حريمة للرب ، لا يمسه إنسان منكم ، وأبقوا على راحاب الزانية – يعني القندقانية كما أخبرني بعض فضلائهم ، ويؤيده التعبير عنها فيما مضى بالسواقة والله أعلم – وعلى كل من معها في بيتها لأنها غيبت الدسيسين اللذين أرسلنا ، فأما أنتم فاحتفظوا من الحرام ، ولا تنجسوا أنفسكم بأكل الحرام ، فتصيروا عسكر بني إسرائيل حراماً ، فنفخوا في القرون فلما سمع الشعب صوت الأبواق ضجوا كلهم واحدة شديدة جداً ، فوقع سور المدينة فصعد الشعب إلى المدينة كل إنسان حياله ، فافتتحوها وقتلوا كل من فيها رجالها ونساءها والمشيخة والصبيان والثيران والحمير والغنم ، قتلوها بالسيف ، وأما الرجلان اللذان اجتسا الأرض فقال لهم يشوع : ادخلا إلى بيت المرأة الزانية – يعني الفندقانية كما مضى – فأخرجاها وأخرجا كل من معها في البيت كما حلفتما لها ، ففعلوا وأنزلوهم خارج عسكر بني إسرائيل وأحرقوا المدينة وكل من فيها بالنار ، وأحيى يشوع الزانية ووالديها وكل من معها ، وأقسم يشوع في ذلك الزمان ولعن وقال : ملعوناً يكون أمام الرب الرجل الذي يقوم يبني مدينة أريحا هذه ، وكان الرب بعونه مع يشوع ونصره ، وشاع خبره في الأرض كلها ، وأثم بنو إسرائيل وتناولوا من الحرام ، وذلك لأن عاجار ابن كرمي بن زبدي بن زرح من قبيلة يهودا نحر وأخذ من الحرام وغيب في خيمته ، فاشتد غضب الرب على بني إسرائيل ، ثم أرسل يشوع رجالاً إلى عاي التي عند بيت آون

من مشارق بيت إل ليجتسوها ، فقالوا له : إنه يجزىء في أخذها ألفان أو ثلاثة لأن أهلها قليل ، فصعدوا فحاربوهم عند باب المدينة

(17/369)

فانهزم بنو إسرائيل وجرح منهم جرحى كثير - فذكر القصة في سجود يشوع وانزعاجه وإخبار الله تعالى إياه أن قومه غلّوا ، ثم أمره بالقرعة حتى خرج الذي عنده الغلول وهو عاجار ، وكان غلوله طنفسة بابلية ومائتي مثقال فضة وسبيكة من ذهب فيها خمسون مثقالاً ، فأخرجه يشوع مع كل شيء هو له ، وقد مضى ذلك في البقرة عند ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ [البقرة : 98] وتقدم في المائدة فتح بعض بلاد بيت المقدس بأعجوبة أخرى واستمروا هكذا يفتحونها بلداً بعد بلد ، ويقتلون من جبابرتها عدداً بعد عدد ، ويرون في ذلك من عجائب الأمور وبدائع المقدور ما يبقي على كر الآباد ومَر الدهور ، وهم في أثناء ذلك كل قليل يكفرون وينقضون العهود ولا يشكرون كما هو مبين في سفر يوشع بن نون ، وقد مضى شيء منه في المائدة عند قوله تعالى ﴿ فعموا وصموا ﴾ [المائدة : 71] - الآية ، كل ذلك بعد أن جاءهم من العلم ما لا تدخله مرية لا

يخالطه شك ولا يدنو منه لبس ، فتبارك من له الأمر كله ، لا مضل لمن هدى ولا هادي لمن يضله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 480.487 ﴾

(18/369)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ وأنا ﴾ مثل ﴿ أنشانا ﴾ و ﴿ نجعل ﴾ بالنون : يحيى وحماد . الآخرون بالياء التحتانية . ﴿ ثم ننجي ﴾ من الإنجاء : نصر وروح ويزيد . ﴿ ننجي المؤمنين ﴾ من الإنجاء أيضاً : علي وسهل ويعقوب وحفص والمفضل . الآخرون بالتشديد فيهما .

الوقوف : ﴿ الطيبات ﴾ ج للابتداء بالنفي مع الفاء ﴿ العلم ﴾ ط ﴿ يختلفون ﴾ ه ﴿ من قبلك ﴾ ج لانقطاع النظم مع اتفاق المعنى ﴿ الممترين ﴾ ه لا للعطف ﴿ الخاسرين ﴾ ه ﴿ لا يؤمنون ﴾ ه لا لتعلق لو بما قبلها ﴿ الأليم ﴾ ه ﴿ يونس ﴾ ط ﴿ حين ﴾ ه ﴿ جميعاً ﴾ ط ﴿ مؤمنين ﴾ ه ﴿ بإذن الله ﴾ ط أي وهو يجعل ﴿ لا يعقلون ﴾ ه ﴿ والأرض ﴾ ط للفصل بين الاستخبار والإخبار . ﴿ لا يؤمنون ﴾ ه ﴿

من قبلهم ﴾ ط ﴿ من المنتظرين ﴾ ه ﴿ كذلك ﴾ ج لاحتمال يراد ننجيهم كإنجاء الرسل أو يكون الوقف على ﴿ آمنوا ﴾ والتقدير ننجي المؤمنين إنجاء كذلك و ﴿ حقا علينا ﴾ اعتراض. ﴿ المؤمنين ﴾ ه ﴿ يتوفاكم ﴾ ج لاحتمال أن يراد وقد أمرت ﴿ المؤمنين ﴾ ه لا للعطف ﴿ حنيفاً ﴾ ج للعطف مع زيادة نون التأكيد المؤذن بالاستئناف ﴿ المشركين ﴾ ه ﴿ ولا يضرك ﴾ ج للابتداء بالشرط مع الفاء ﴿ الظالمين ﴾ ه ﴿ إلا هو ﴾ ج للعطف مع حق الفصل بين المتضادين ﴿ لفضله ﴾ ط ﴿ من عباده ﴾ ط ﴿ الرحيم ﴾ ه ﴿ من ربكم ﴾ ج ﴿ لنفسه ﴾ ج ﴿ عليها ﴾ ج للعطف مع النفي ﴿ بوكيل ﴾ ه ط ﴿ يحكم الله ﴾ ج لاحتمال العطف والاستئناف ﴿ الحاكمين ﴾ ه.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 611 ﴾

(19/369)

فصل

قال الفخر:

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر ما وقع عليه الختم في واقعة فرعون وجنوده، ذكر أيضاً في هذه الآية ما

وقع عليه الختم في أمر بني إسرائيل ، وههنا بحثان :

البحث الأول : أن قوله : ﴿ بَوَّأْنَا بَنِى إِسرائيل مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ أي أسكناهم مكان صدق أي مكاناً محموداً ، وقوله : ﴿ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ فيه وجهان : الأول : يجوز أن يكون مبوأ صدق مصدراً ، أي بوأناهم تبوأ صدق .

الثاني : أن يكون المعنى منزلاً صالحاً مرضياً ، وإنما وصف المبوأ بكونه صدقاً ، لأن عادة العرب أنها إذا مدحت شيئاً أضافته إلى الصدق تقول : رجل صدق ، وقدم صدق .

قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء : 80] والسبب فيه أن ذلك الشيء إذا كان كاملاً في وقت صالحاً للغرض المطلوب منه ، فكل ما يظن فيه من الخير ، فإنه لا بد وأن يصدق ذلك الظن .

البحث الثاني : اختلفوا في أن المراد ببني إسرائيل في هذه الآية أهم اليهود الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام أم الذين كانوا في زمن محمد عليه السلام .

أما القول الأول : فقد قال به قوم ودليلهم أنه تعالى لما ذكر هذه الآية عقيب قصة موسى عليه السلام كان حمل هذه الآية على أحوالهم أولى ، وعلى هذا التقدير : كان المراد بقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِى إِسرائيل مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ الشام ومصر ، وتلك البلاد فإنها بلاد كثيرة الخصب .

قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى الذى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء : 1] والمراد من قوله : ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مّنَ الطيبات ﴾ تلك المنافع ، وأيضاً المراد منها أنه تعالى أورث بني إسرائيل جميع ما كان تحت أيدي قوم فرعون من الناطق والصامت والحرث والنسل ، كما قال : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ [الأعراف : 137] .

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَا اختلفوا حتى جَاءهُمُ العلم ﴾ والمراد أن قوم موسى عليه السلام بقوا على ملة واحدة ومقالة واحدة من غير اختلاف حتى قرؤا التوراة ، فحينئذ تنبهوا للمسائل والمطالب ووقع الاختلاف بينهم .

ثم بين تعالى أن هذا النوع من الاختلاف لا بد وأن يبقى في دار الدنيا ، وأنه تعالى يقضي بينهم يوم القيامة .

وأما القول الثاني : وهو أن المراد ببني إسرائيل في هذه الآية اليهود الذين كانوا في زمان محمد عليه الصلاة والسلام فهذا قال به قوم عظيم من المفسرين .

قال ابن عباس : وهم قريظة والنضير وبنو قينقاع أنزلناهم منزل صدق ما بين المدينة والشام ورزقناهم من الطيبات ، والمراد ما في تلك البلاد من الرطب والتمر التي ليس مثلها طيباً في البلاد ، ثم إنهم بقوا على دينهم ، ولم يظهر فيهم الاختلاف حتى جاءهم العلم ، والمراد من

العلم القرآن النازل على محمد عليه الصلاة والسلام ، وإنما سماه علماً ، لأنه سبب العلم وتسمية السبب باسم المسبب مجاز مشهور .

وفي كون القرآن سبباً لحدوث الاختلاف وجهان : الأول : أن اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد عليه الصلاة والسلام ويفتخرون به على سائر الناس ، فلما بعثه الله تعالى كذبوه حسداً وبغياً وإيثاراً لبقاء الرياسة وآمن به طائفة منهم ، فبهذا الطريق صار نزول القرآن سبباً لحدوث الاختلاف فيهم .

(21/369)

الثاني : أن يقال : إن هذه الطائفة من بني إسرائيل كانوا قبل نزول القرآن كفاراً محضاً بالكلية وبقوا على هذه الحالة حتى جاءهم العلم ، فعند ذلك اختلفوا فآمن قوم وبقي أقوام آخرون على كفرهم .

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فالمراد منه أن هذا النوع من الاختلاف لا حيلة في إزالته في دار الدنيا ، وأنه تعالى في الآخرة يقضي بينهم ، فيتميز المحق من المبطل والصديق من الزنديق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 127 . 128 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أنه الشام وبيت المقدس ، قاله قتادة .

الثاني : أنه مصر والشام : قاله الضحاك .

وفي قوله : ﴿ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ تأويلان :

أحدهما : أنه كالصدق في الفضل .

والثاني : أنه تصدق به عليهم .

ويحتمل تأويلاً ثالثاً : أنه وعدهم إياه فكان وَعْدُه وعْد صدق .

﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ يعني وأحللنا لهم من الخيرات الطيبة .

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَآءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ يعني أن بني إسرائيل ما اختلفوا أن محمداً نبي .

﴿ حَتَّى جَآءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ وفيه وجهان :

أحدهما : حتى جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم الذي كانوا يعلمون أنه نبي ، وتقديره

حتى جاءهم المعلوم ، قاله ابن بحر وابن جرير الطبري .

والثاني : حتى جاءهم القرآن ، قاله ابن زيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(23/369)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾

المعنى لقد اخترنا لبني إسرائيل أحسن اختيار وحللناهم من الأماكن أحسن محل ، و ﴿ مبوأ صدق ﴾ أي يصدق فيه ظن قاصده وساكنه وأهله ، ويعني بهذه الآية إحلال بلاد الشام وبيت المقدس ، قاله قتادة وابن زيد ، وقيل بلاد مصر والشام ، قاله الضحاك ، والأول أصح بحسب ما حفظ من أنهم لن يعودوا إلى مصر ، على أن القرآن كذلك ﴿ وأورثناها بني إسرائيل ﴾ [الشعراء : 59] يعني ما ترك القبط من جنات وعيون وغير ذلك ، وقد يحتمل أن يكون ﴿ أورثناها ﴾ [الشعراء : 59] معناه الحالة من النعمة وإن لم يكن في قطر واحد ، وقوله ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ يحتمل معنيين أحدهما فما اختلفوا في نبوة محمد وانتظاره حتى جاءهم وبان علمه وأمره فاختلفوا حينئذ .

قال القاضي أبو محمد : وهذا التخصيص هو الذي وقع في كتب المتأولين ، وهذا التأويل يحتاج إلى سند والتأويل الآخر الذي يحتمله اللفظ أن بني إسرائيل لم يكن لهم اختلاف على موسى في أول حاله فلما جاءهم العلم والأوامر وغرق فرعون اختلفوا .

قال القاضي أبو محمد : فمعنى الآية مذمة ذلك الصدر من بني إسرائيل ، ثم أوجب الله بعد ذلك أنه ﴿ يقضي بينهم ﴾ ويفصل بعقاب من يعاقب ورحمة من يرحم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(24/369)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بني إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾

أي منزل صدق محمود مختار ، يعني مصر .

وقيل : الأُرْدُنّ وفلسطين .

وقال الضحاك : هي مصر والشأم .

﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات ﴾ أي من الثمار وغيرها .

وقال ابن عباس ؛ يعني قُرِيظة والنَّضير وأهل عصر النبيّ صلى الله عليه وسلم من بني

إسرائيل ؛ فإنهم كانوا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وينتظرون خروجه ، ثم لما خرج حسدوه ؛ ولهذا قال : ﴿ فَمَا اختلفوا ﴾ أي في أمر محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ حتى جَآءَهُمُ العلم ﴾ أي القرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم .

والعلم بمعنى المعلوم ؛ لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه ؛ قاله ابن جرير الطبري .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أي يحكم بينهم ويفصل .

﴿ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ في الدنيا ، فيثيب الطائع ويعاقب العاصي .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(25/369)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ﴾

يعني أسكناهم مكان صدق وأنزلناهم منزل صدق بعد خروجهم من البحر وإغراق عدوهم فرعون .

والمعنى : أنزلناهم منزلاً محموداً صالحاً وإنما وصف المكان بالصدق لأن عادة العرب إذا مدحت شيئاً أضافته إلى الصدق تقول العرب : هذا رجل صدق وقدم صدق والسبب

فيه أن الشيء إذا كان كاملاً صالحاً ، لا بد أن يصدق الظن فيه وفي المراد بالمكان الذي بوءوا قولان أحدهما أنه مصر فيكون المراد : إن الله أورث بني إسرائيل جميع ما كان تحت أيدي فرعون وقومه من ناطق وصامت وزرع وغيره .

والقول الثاني : إنه أرض الشام والقدس والأردن لأنها بلاد الخصب والخير والبركة ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ يعني تلك المنافع والخيرات التي رزقهم الله تعالى : ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ يعني فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني إسرائيل حتى جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك أنهم كانوا قبل مبعث النبي (صلى الله عليه وسلم) مقرين به مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوباً عندهم فلما بعث الله محمداً (صلى الله عليه وسلم) واختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وكفر به بعضهم بغياً وحسداً .

فعلى هذا المعنى يكون المراد من العلم المعلوم والمعنى فما اختلفوا حتى جاءهم المعلوم الذي كانوا يعلمونه حقاً فوضع العلم مكان العلوم وقيل المراد من العلم القرآن النازل على محمد (صلى الله عليه وسلم) وإنما سماه علماً لأنه سبب العلم وتسمية السبب بالمسبب مجاز مشهور وفي كون القرآن سبباً لحدوث الاختلاف وجهان :

الأول : أن اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد (صلى الله عليه وسلم) وصفته ونعته

ويفتخرون بذلك على المشركين ، فلما بعث كذبوه بغياً وحسداً وإيثاراً لبقاء الرياسة لهم فآمن به طائفة قليلة وكفر به غالبهم .

(26/369)

والوجه الثاني : أن اليهود كانوا على دين واحد قبل نزول القرآن فلما نزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) آمن به طائفة وكفر به آخرون .

وقوله تعالى : ﴿ إن ربك ﴾ يعني يا محمد ﴿ يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ يعني من أمرك وأمر نبوتك في الدنيا فيدخل من آمن بك الجنة ومن كفر بك وجحد نبوتك النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(27/369)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾

لما ذكر تعالى ما جرى لفرعون وأتباعه من الهلاك ، ذكر ما أحسن به لبني إسرائيل وما امتن

به عليهم ، إذ كان بنو إسرائيل قد أخرجوا من مساكنهم خائفين من فرعون ، فذكر تعالى أنه اختار لهم من الأماكن أحسنها .

والظاهر أنّ بني إسرائيل هم الذين كانوا آمنوا بموسى ونجوا من الغرق ، وسياق الآيات يشهد لهم .

وقيل : هم الذين كانوا بحضرة النبي (صلى الله عليه وسلم) من بني إسرائيل قريظة والنضير وبني قينقاع ، وانتصب مبوأ صدق على أنه مفعول ثان لبوأنا كقوله : ﴿ لنبوئنهم من الجنة غرفاً ﴾ وقيل : يجوز أن يكون مصدراً .

ومعنى صدق أي : فضل وكرامة ومنة ﴿ في مقعد صدق ﴾ وقيل : مكان صدق الوعد ، وكان وعدهم فصدقهم وعده .

وقيل : صدق تصدّق به عليهم ، لأن الصدقة والبر من الصدق .

وقيل : صدق فيه ظن قاصده وساكنه .

وقيل : منزلاً صالحاً مرضياً ، وعن ابن عباس : هو الأردن وفلسطين .

وقال الضحاك وابن زيد ، وقتادة : الشام وبيت المقدس .

وقال مقاتل : بيت المقدس .

وعن الضحاك أيضاً : مصر ، وعنه أيضاً : مصر والشام .

قال ابن عطية : والأصح أنه الشام وبيت المقدس بحسب ما حفظ من أنهم لم يعودوا إلى

مصر ، على أنه في القرآن كذلك .

﴿ وأورثناها بني إسرائيل ﴾ يعني ما ترك القبط من جنات وعيون وغير ذلك .

وقد يحتمل أن يكون وأورثناها معناها الحالة من النعمة وإن لم تكن في قطر واحد انتهى .

وقيل : ما بين المدينة والشام من أرض يثرب ذكره علي بن أحمد النيسابوري ، وهذا على قول من قال : إن بني إسرائيل هم الذين بحضرة النبي (صلى الله عليه وسلم) .

ولما ذكر أنه بوّأهم مبوّأ صدق ذكر امتنانه عليهم بما رزقهم من الطيبات وهي : المآكل المستلذات ، أو الحلال ، فما اختلفوا أي : كانوا على ملة واحدة وطريقة واحدة مع موسى عليه السلام في أول حاله ، حتى جاءهم العلم أي : علم التوراة فاختلفوا ، وهذا ذم لهم .

(28/369)

أي أن سبب الإيقاف هو العلم ، فصار عندهم سبب الاختلاف ، فتشعبوا شعباً بعدما قرؤوا التوراة .

وقيل : العلم بمعنى المعلوم ، وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) ، لأن رسالته كانت معلومة عندهم مكتوبة في التوراة ، وكانوا يستفتحون به أي : يستنصرون ، وكانوا قبل مجيئه إلى المدينة مجمعين على نبوّته يستنصرون به في الحروب يقولون : اللهم بحرمة النبي المبعوث في

آخر الزمان انصرنا فينصرون ، فلما جاء قالوا : النبي الموعود به من ولد يعقوب ، وهذا من ولد إسماعيل ، فليس هو ذاك ، فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه .

وقيل : العلم القرآن ، واختلافهم قول بعضهم هو من كلام محمد ، وقول بعضهم من كلام الله وليس لنا إنما هو للعرب .

وصدق به قوم فآمنوا ، وهذا الاختلاف لا يمكن زواله في الدنيا ، وأنه تعالى يقضي فيه في الآخرة فيميز المحق من المبطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(29/369)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِى إسراءيل ﴾

كلامٌ مستأنَفٌ سيق لبيان النعم الفائضةِ عليهم إثرَ نعمةِ الإنجاء على الإجمال وإخلالهم بشكرها وأداءِ حقوقها أي أسكناهم وأنزلناهم بعد ما أنجيناهم وأهلكنا أعداءَهم ﴿ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ أي منزِلاً صالحاً مرْضياً وهو الشامُ ومصرُ ملكوهما بعد الفراعنةِ والعمالقةِ وتمكنوا في نواحيهما حسبما نطقَ به قولهُ تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مشارق الأرض ومغاربها التى بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مّنَ الطيبات ﴾ أي اللذائذ

﴿ فَمَا اختلفوا ﴾ في أمر دينهم ﴿ حتى جَاءهُمُ العلم ﴾ أي إلا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراةَ وعلمِهم بأحكامها أو في أمر محمدٍ عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فيميزُ بين المُحِق والمبطل بالإثابة والتعذيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(30/369)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

كلام مستأنف سيق لبيان النعم الفائضة عليهم أثر نعمة الانجاء على وجه الاجمال واخلالهم بشكرها ، وبوأ بمعنى أنزل كأباء والاسم منه البيئة بالكسر كما في القاموس ، وجاء بوأه منزلا وبوأه في منزل وكذا بوأت له مكاناً إذا سويته ، وهو مما يتعدى لواحد ولاثنين أي أنزلناهم بعد أن انجيناهم وأهلكنا أعداءهم ﴿ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ أي منزلاً صالحاً مرضياً وهو اسم مكان منصوب على الظرفية ، ويحتمل المصدرية بتقدير مضاف أي مكان مبوأ وبدونه ، وقد يجعل مفعولاً ثانياً ، وأصل الصدق ضد الكذب لكن جرت عادة العرب على أنهم إذا مدحوا شيئاً أضافوه إلى الصدق فقالوا : رجل صدق مثلاً إذا كان

كاملاً في صفته صالحاً للغرض المطلوب منه كأنهم لاحظوا أن كل ما يظن به فهو صادق ، والمراد بهذا المبوأ كما رواه ابن املنذر .

وغيره عن الضحاك الشام ومصر ، فإن بني إسرائيل الذين كانوا في زمان موسى عليه السلام وهم المرادون هنا ملكوا ذلك حسبما ذهب إليه جمع من الفضلاء .

وأخرج أبو الشيخ .

وغيره عن قتادة أن المراد به الشام وبيت المقدس واختاره بعضهم بناء على أن أولئك لم يعودوا إلى مصر بعد ذلك ، وأنت تعلم أنه ينبغي أن يراد ببني إسرائيل عن القولين ما يشمل ذريتهم بناء على أنهم ما دخلوا الشام في حياة موسى عليه السلام وإنما دخلها أبناؤهم وقد تقدم لك ما يتعلق بهذا المقام فتذكره .

(31/369)

وقيل : المراد به أطراف المدينة إلى جهة الشأم ، وببني اسرائيل بنو إسرائيل الذي كانوا على عهد نبينا عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات ﴾ أي اللذائذ ؛ قيل : وقد يفسر بالحلال ﴿ فَمَا اختلفوا ﴾ في أمور دينهم بل كانوا متبعين أمر رسولهم عليه السلام ﴿ حتى جَاءهُمُ العلم ﴾ أي إلا بعد ما علموا بقراءة التوراة والوقوف على

أحكامها ، وقيل : المعنى ما اختلفوا في أمر محمد صلى الله عليه وسلم إلا بعد ما علموا صدق نبوته بنعوته المذكورة في كتابهم وتظاهر معجزاته ، وهو ظاهر على القول الأخير في المراد من بني إسرائيل المبوئين ، وأما على القول الأول ففيه خفاء لأن أولئك المبوئين الذين كانوا في عصر موسى عليه السلام لم يختلفوا في أمر نبيا صلى الله عليه وسلم ضرورة لينسب إليهم ذلك الاختلاف حقيقة ، وليس هذا نظير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَنجيناكم مِّنْ ءالِ فِرْعَونَ ﴾ [الأعراف : 141] الآية ولا قوله سبحانه : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ عَبْدُ الله ﴾ [البقرة : 91] ليعتبر المجاز ، وزعم الطبرسي أن المعنى أنهم كانوا جميعاً على الكفر لم يختلفوا فيه حتى أرسل إليهم موسى عليه السلام ونزلت التوراة فيها حكم الله تعالى فمنهم من آمن ومنهم من أصر على كفره وليس بشيء أصلاً كما لا يخفى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فيميز بين المحق والمبطل بالإثابة والعقوبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(32/369)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ و ﴾

عطف على الجمل الماضية فإن جميع تلك الجمل مقصود منها موعظة الكفار من العرب بأحوال من سبقهم من الأمم في مشابهة كفرهم بكفرهم وبما حل بهم من أنواع العذاب جزاء كفرهم كما قال تعالى : ﴿ أكُفاركم خير من أولئكم ﴾ [القمر : 43] .

فلما ضرب الله مثل السوء أُتْبعَه بمثل الصلاح بحال الذين صدقوا الرسول واتبعوه ، وكيف كانت عاقبتهم الحسنى ليظهر الفرق بين مصيري فريقين جاءهم رسول فآمن به فريق وكفر به فريق ، ليكون ذلك ترغيباً للمشركين في الإيمان ، وبشارة للمؤمنين من أهل مكة .

فالمراد ببني إسرائيل القوم المتحدث عنهم بقوله : ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ﴾ [يونس : 91] الآية وترتيب الإخبار يقتضي أن الله بَوأهم مُبَوّأ صدق عقب مجاوزتهم البحر غرَقِ فرعون وجنوده ، فإنهم دخلوا بعد ذلك صحراء التيه وأمنوا على أنفسهم وأقبلوا على تزكية نفوسهم وإصلاح شؤونهم ، ورُزقوا المنّ والسَّلوى ، وأعطوا النصر على الأمم التي تعرضت لهم تحاول منعهم من امتلاك الأرض الطيبة .

فما زالوا يتدرّجون في مدارج الخير والإنعام فذلك مُبَوّأ الصدق .

والرزقُ : من الطيبات .

فمعنى ﴿ فما اختلفوا ﴾ أولئك ولا مَن خلفهم من أبنائهم وأخلافهم .

والتبوّؤ تقدم آنفاً ، والمُبَوّأ : مكان البَوْء ، أي الرجوع ، والمراد المسكن كما تقدم ، وإضافته إلى (صدق) من إضافة الموصوف إلى الصفة ، ويجوز أن يكون المبوّأ مصدراً ميمياً .

والصدق هنا بمعنى الخالص في نوعه .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ أنّ لهم قَدَمَ صدق عند ربهم ﴾ [يونس : 2] .

والمراد بمبوأ الصدق ما فتح الله عليهم من بلاد فلسطين وما فيها من خصب وثراء قال تعالى : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يُستَضعَفون مشارقَ الأرض ومغاربَها التي باركنا فيها وتمت كلمت ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ [الأعراف : 137] .

(33/369)

وتفريع قوله : ﴿ فما اختلفوا ﴾ على ﴿ بوأنا ﴾ وما عطف عليه تفريعُ ثناء عليهم بأنهم شكروا تلك النعمة ولم يكفروها كما كفرها المشركون الذين بوّأهم الله حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء ، فجعلوا لله شركاء ، ثم كفروا بالرسول المرسل إليهم .

فوقع في الكلام إيجاز حذف .

وتقدير معناه : فشكروا النعمة واتبعوا وصايا الأنبياء وما خالفوا ذلك إلا من بعد ما جاءهم العلم .

والاختلاف افتعال أريد به شدة التخالف ولا يعرف لمادة هذا المعنى فعل مجرد .

وهي مشتقة من الاسم الجامد وهو الخَلْف لمعنى الوراء فتعين أن زيادة التاء للمبالغة مثل (

اكتسب) مبالغة في (كسب) ، فيحمل على خلاف تشديد وهو مضادة ما جاء به الدين وما دعا إليه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو المناسب للسياق فإن الكلام ثناء مردف بغاية تؤذن أنّ ما بعد الغاية نهاية للثناء وإثبات للوم إذ قد نفى عنهم الاختلاف إلى غاية تؤذن بحصول الاختلاف منهم عند تلك الغاية فالذين لم يختلفوا هم الذين بوّأهم الله مُبوّأ صدق . وقد جاءوا بعدهم إلى أن جاء الذين اختلفوا على الأنبياء .

وهؤلاء ما صدق ضمير الرفع في قوله : ﴿ جاءهم العلم ﴾ [آل عمران : 19] .

وما جاءهم من العلم يجوز أن يكون ما جاءهم به الأنبياء من شرع الله فلم يعملوا بما جاؤوهم به ، وأعظم ذلك تكذيبهم بمحمد عليه الصلاة والسلام .

فعن ابن عباس : هم اليهود الذين كانوا في زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم كانوا قبل مبعثه مقرين بنبيء يأتي ، فلما جاءهم العلم ، وهو القرآن اختلفوا في تصديق محمد عليه الصلاة والسلام ، قال ابن عباس : هم قريظة والنضير وبنو قينقاع .

(34/369)

ويجوز أن يكون العلم هو القرآن ، وعلى هذا الوجه يكون معنى الآية كمعنى قوله : ﴿ إنّ الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً

بينهم ﴾ [آل عمران : 19] ، وقوله : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ [البينة : 4] فإن البينة هي محمد صلى الله عليه وسلم لأن قبل هذا قوله : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلوا صحفاً مطهّرة ﴾ [البينة : 1 ، 2] الآية .

وقال تعالى : ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ [البقرة : 89] .

وهذا المحمل هو المناسب لحرف (حتى) في قوله تعالى : ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ .

وتعقيبُ ﴿ فما اختلفوا ﴾ بالغاية يؤذن بأنّ ما بعد الغاية منتهى حالة الشكر ، أي فبقوا في ذلك المُبَوّأ ، وفي تلك النعمة ، حتى اختلفوا فسلبت نعمتهم فإن الله سلبهم أوطانهم .

وجملة : ﴿ إن ربّك يقضي بينهم يوم القيامة ﴾ تذييل وتوعد ، والمقصود منه : أن أولئك قوم مضَوا بما عملوا وأن أمرهم إلى ربهم كقوله : ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾ [البقرة : 134] ، وفيه إيماء إلى أن على الحاضرين اليوم أن يفكروا في وسائل الخلاص من الضلال والوقوع في المؤاخذة يوم القيامة .

و(بينَ) ظرفُ مكان للقضاء المأخوذ من فعل (يَقضي) ففعل القضاء كأنه متخلّل بينهم لأنه متعلق بتبيين المحق والمبطل .

وضمير ﴿ بينهم ﴾ عائد إلى ما يفهم من قوله : ﴿ فما اختلفوا ﴾ من وُجود مخالف (بكسر اللام) ومخالَف (بفتحها) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(35/369)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾

وكلمة " تبوأ " تعني إقامة مباءة أي : البيوت التي يكون فيها السكن الخاص ، وإذا أطلقت كلمة " مبوأ " فهي تعني الإقليم أو الوطن .

والوطن أنت تتحرك فيه وكذلك غيرك ، أما البيت فهو للإنسان وأسرته كسكن خاص .

أما الثري فقد يكون له جناح خاص في البيت ، وقد يخصص الثريُّ في منزله جناحاً لنفسه ، وآخر لولده وثالثاً لابنته .

أما غالبية الناس فكل أسرة تسكن في " شقة " قد تتكون من غرفة أو اثنتين أو ثلاثة حسب إمكانات الأسرة .

إذن : فيوجد فرق بين تبوُّء البيوت وتبوء المواطن ، فتبوُّء المواطن هو الوطن .

وسبق أن قال الحق سبحانه لموسى وهارون عليهما السلام :

﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً ﴾ [يونس : 87] .

هذا في التبوء الخاص ، أما في التبوء العام فهو يحتاج إلى قدرة الحق تعالى ، وهو سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بني إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ [يونس : 93] .

والحق سبحانه أتاح لهم ذلك في زمن موسى عليه السلام وأتاح لهم السكن في مصر والشام ، وهو سبحانه القائل :

﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء : 1] .

وما دام الحق سبحانه قد بارك حول فلا بد أن فيه خيراً كثراً ، ولا بد أن تكون الأرض التي حوله مُبوَّأً صدق .

وكلمة " الصدق " تعني جماع الخير والبر ؛ " ولذلك نجد الرسول صلى الله عليه وسلم حينما سئل : أيكون المؤمن جباناً ؟ قال : " نعم " وحين سئل : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال : " نعم " . وحين سئل أيكون المؤمن كذاباً ؟ قال : " لا " .

ولذلك فأنت تجد في الإسلام عقوبة على الزنا ، وعقوبة تقام على السارق ، أما الكذب فهو خصلة لا يقربها المسلم ؛ لأن عليه أن يكون صادقاً . وكل خصال الخير هي مُبوَّأ الصدق

.

ولذلك نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء : 80] .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَبَشِّرِ الذين آمنوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس : 2] .

وقول الحق سبحانه :

﴿ واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ﴾ [الشعراء : 84] .

أي : اجعل لي ذكرى حسنة فلا يقال فلان كان كاذباً ، وأما قدم الصدق فهي سوابق الخير التي يسعى إليها ؛ ولذلك كان الجزاء على الصدق هو ما يقول عنه الحق سبحانه :

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : 55] .

وهو مقعد عند مليك لا يبخل ، ولا يجلس في رحابه إلا من يحبه ، ولا يضن بخيره على من هم في رحابه .

ومقعد الصدق هو جزاء لمن استجاب له ربه فأدخله مدخل صدق ، وأخرجه مخرج صدق ، وجعل له لسان صدق ، وقدم صدق .

وبعد أن بوَّأ الحق سبحانه بني إسرائيل مُبوَّأً صدق ، في مصر والشام ، وبعد أن قال لهم :

﴿ اهبطوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [البقرة : 61] .

أي : أن الحق سبحانه حقق قوله :

﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات ﴾ [يونس : 93] .

وأنجاهم من فرعون ، وكان من المفترض أن تستقيم أمورهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا اختلفوا حتى جَآءَهُمُ العلم ﴾ [يونس : 93] .

والمقصود بذلك هو معرفتهم بعلامات الرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من ترقب مجيء النبي صلى الله عليه وسلم ليؤمن به ، ومنهم من تمادى في الطغيان ؛ لذلك قطَّعهم الله سبحانه في الارض أمماً .

وحين ننظر إلى دقة التعبير القرآني نجده يحدد مسألة التقطيع هذه ، فهم في كل أمة يمثلون قطعة ، أي : أنه سبحانه لم يُذِبْهم في الشعوب . بل لهم في كل بلد ذهبوا إليه مكانٌ خاصٌّ بهم ، ولا يذوبون في غيرهم .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسكنوا الأرض ﴾ [الإسراء : 104] .

وقد يقول أحد السطحيين : وهل هناك سكن في غير الأرض ؟

ونقول : لنا أن نلحظ أن الحق سبحانه لم يحدد لهم في أية بقعة من الأرض يسكنون ، فكأن الحق سبحانه قد بيَّن ما أصدره من حكم عليهم بالتقطيع في الأرض أمماً ؛ فهو سبحانه القائل :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً ﴾ [الأعراف : 168] .

وإذا كنا نراهم في أيامنا هذه وقد صار لهم وطن ، فاعلم أن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ [الإسراء : 4] .

وقد قال في آخر سورة الإسراء :

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسكنوا الأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ [الإسراء : 104] .

والمجيء بهم لفيفاً إنما يعني أن يجمعهم في وطن قومي لتأتي لهم الضربة القاصمة التي ذكرها الحق سبحانه في قوله :

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ المسجد كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً ﴾ [الإسراء : 7] .

لأننا لن نستطيع أن نحاربهم في كل بلد من البلاد التي قطَّعهم الله فيها ، لكنهم حين يجتمعون في مكان واحد ، إنما يسهل أن ينزل عليهم قضاء الله .

وحين ننظر إلى رحلتهم نجد أن " يثرب " كانت المكان الذي اتسع لهم بعد اضطهادات المجتمعات التي دخلوا إليها ، وحين اجتمعوا في يثرب صار لهم الجاه ؛ لأنهم أهل علم ، وأهل اقتصاد ، وأهل حرب .

وهم قد اجتمعوا في المدينة ؛ لأن المخلصين من أهل الكتاب أخبروهم أن هذه المدينة هي المهجر لنبي ورسول يأتي من العرب في آخر الزمان ؛ فمكثوا فيها انتظاراً له ، وكانوا يقولون لكفار قريش : " لقد أظل زمان يأتي فيه نبي نتبعه ، ونقتلكم فيه قَتل عاد وإرم " .

(38/369)

وكان من المفروض أن يؤمنوا برسالته صلى الله عليه وسلم ، لكنه إن أطل رسول الله صلى الله عليه وسلم بنور رسالته حتى أنكروه خوفاً على سلطتهم الزمنية .

وهو ما تقول عنه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ فَمَا اختلفوا حتى جَآءَهُمُ العلم ﴾ [يونس : 93] .

أي : أن علمهم بمجيء الرسول صلى الله عليه وسلم هو مصدر اختلافهم ، فمنهم من

سمعوا إشارات عنه صلى الله عليه وسلم وعرفوا علاماته صلى الله عليه وسلم ؛ فآمنوا به ، ومنهم من لم يؤمن به .

وهم لم يختلفوا من قبل وكانوا متفقين ، وتوعَّدوا المشركين من قريش . وما إن أهلَّ الرسول صلى الله عليه وسلم به " الأوس " و " الخزرج " أنه رسول من الله تعالى قد ظهر بمكة ، فقالت الأوس و الخزرج : إنه النبي الذي توعَّدتنا به يهود ، فهيا بنا لنذهب ونسبقهم إليه قبل أن يسبقونا ، فيقتلونا به .

فكأن اليهود هم الذين تسببوا في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ؛ لأن الأوس والخزرج سبقوهم إليه ؛ وهذا لنعلم كيف ينصر الله تعالى دينه بأعدائه .

ولذلك نجد أنهم في اختلافهم " يأتي عبد الله بن سلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن اليهود قوم بُهْتٌ ، وإذا أنا آمنت بك يا رسول الله سيقولون فيَّ ما يسيء إليَّ ؛ لذلك فقبل أن أعلن إسلامي اسألهم عنِّي .

وكان ابن سلام في ذلك يسلك سلوكاً يتناسب مع كونه يهودياً ، ولما اجتمع معشر اليهود ، سألهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ما تقولون في ابن سلام ؟

قالوا : حَبْرُنا وشيخنا وهو الورع فينا ، وبعد أن أثنوا عليه ثناء عظيماً ، قال ابن سلام : يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

وهنا بدأ اليهود يكيلون له السِّباب ، فقال ابن سلام : ألم أقُلْ لك يا رسول الله إنهم قوم بُهْت "

إذن : فمعنى قوله سبحانه :

﴿ فَمَا اختلفوا حتى جَآءَهُمُ العلم ﴾ [يونس : 93] .

(39/369)

أي : أن أناساً منهم بقوا على الباطل ، وأناساً منهم آمنوا بالرسول الحق صلى الله عليه وسلم .

وينهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس : 93] .

أي : أن الله سبحانه وتعالى سوف يقضي بن ما جاءوا في صف الإيمان ، وبين مَنْ بَقَوْا على اليهودية المتعصبة ضد الإيمان .

ونحن نلحظ أن كلمة ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ توضح أن الضمير عام ، لهؤلاء ولأولئك .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يقضي يوم القيامة بين المؤمنين والكافرين ، ويقضي أيضاً بين الكفارين ، فمنهم من كان ظالماً لكافر ، ومنه من كان مختلساً أو مرتشياً ، ومنهم من عمل على غير مقتضى دينه ؛ لذلك يقضي الله سبحانه بينهم .

والآية تفيد العموم في القضاء ماضياً وحاضراً ومستقبلاً بين كل مؤمن وكافر ، وبين كل تائب وعاصٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(40/369)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون " وفى سورة الجاثية : : "ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم منالطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون " للسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف الوارد فى هاتين السورتين وزيادة ما فى الوارد فى سورة الجاثية من الألفاظ مع اتحاد المعنى المقصود فى الموضعين من منحهم واختلافهم ؟

والجواب عن ذلك والله أعلم : أن آية يونس تقدم قبلها دعاء موسى عليه السلام على فرعون وملئه بقوله : "ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا . . . " الآية

فأجاب سبحانه دعاء نبيه وطمس على أموال آل فرعون وملئه وأغرقه وآله ونجى بنى إسرائيل من الغرق وقطع دابر عدوهم وأورث بنى إسرائيل أرضهم وديارهم يتبوؤن منها حيث شاؤوا فقال سبحانه معرفا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم : "ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق " أى مكناهم ومهدنا لهم أمرهم بإهلاك عدوهم وبما أورثناهم بعد ضعفهم من مشارق الأرض ومغاربها فبعد تمكن أمرهم واستحكام حالهم واستقرار أمر دينهم بما شاهدوه من الآيات وعظيم البراهين المعقبة لمن شاهدها اليقين اختلفوا جريا على ما سبق لهم ولغيرهم ممن أشار إليه قوله تعالى فى أول هذه السورة : "وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا " ويناسب هذا كله تناسبا لا توقف فى وضوحه ولم يتقدم فى السورة ما يستدعى من حالهم أكثر من هذا .

(41/369)

أما آية الجاثية فتقدم قبلها بسط الدلالة والبراهين من لدن قوله تعالى : " إن فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين " إلى ما تبع هذا من التنبيه بخلقها وما بث سبحانه فيهما من أصناف المخلوقات واختلاف الليل والنهار وتعاقبهما وإنزال الرزق من السماء وإحياء الأرض بعد موتها بما ينزل من الرزق اليها وتصريف الرياح ثم ذكر سبحانه أن هذه الآيات

إنما يعتبر بها ويهتدى بأنوارها من منحه الله تعالى العقل وهداه إلى الاعتبار فقال : "آيات لقوم يعقلون " ولم يرد ذكر هذه الجملة للاعتبار بها فى موضع من كتاب الله تعالى أوعب منها فى هذه السورة وفى سورة البقرة وهى هناك أوعب لذكر الفلك وجريها فى منافع العباد وتسخير السحاب بين السماء والأرض وذكر تصريف الرياح وقد أعقب ذكر هذه الآيات فى الموضعين بقوله فى سورة البقرة : "ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا " الآية إشارة إلى كفار العرب وسوء مرتكبهم وتعاميهم عن الاعتبار والاستدلال مع وضوح الأمر إذ لا يقبل العقل تكون هذه المخلوقات العظام بأنفسها ولا أن بعضها أوجد بعضا لتساويها فيما قام من دلائل الحدوث فلابد من صانع مريد مختار قادر منزه عن شبه هذه الجملة والا لافتقر إلى موجد آخر وذلك يؤدى إلى التسلل وهو محال عقلا والإثنينية ممتنعة عقلا : "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا " فتعين توحيد الموجد الحق وانه ليس كمثله شئ ولما كان الاستدلال بهذه الجمل المفصلة أوضع شئ أتبعها سبحانه بقوله : "فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون " ولكونه أبسط ما ذكر به من خوطب بالقرآن ثم لم يجد ذلك فى حق من سبق له الشقاء منهم الا المنافرة والمخالفة أعقبت بذكر من ترادفت وتوالت عليه الآيات وكثرت فى حقه الشواهد ثم لم يعقبه ذلك الا الاختلاف والعدول عن سلوك المنهج الواضح وهم الممتحنون بالاختلاف من بنى إسرائيل فقال تعالى : "ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على

العالمين وآتيناهم

بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم إن برك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون " فاقتضى ذلك ما قدم من بسط الآيات وواضح ما خصه تعالى من واضح الدلالات فى صدر هذه السورة بسط ما منحه بنو إسرائيل وما بين لهم مما أشار إليه قوله تعالى : " وآتيناهم بينات من الأمر " بعد ما ذكر ما أوتوه من الكاب والحكم وتوالى النبوة فيهم وكثرة الرسل منهم وما بسط لهم من الرزق وإدرار النعم فعتوا واعتدوا وقتلوا الأنبياء بغير حق لينفذ فيهم ما قدر على فاعلى ذلك منهم من ضرب الذلة والمسكنة ومسخهم قردة وخنازير ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم فلا يأتلف شملهم ولا تجتمع جماعاتهم إلى يوم القيامة ليعلم المعتبرون بالآيات أنه لا يجرى على أحد الا سابق سعادة ان قدرت له الا ان الانقياد للاعتبار والاذعان لموجب الدلالات عنوان رجاء والمنافرة لذلك عنوان مشقة وهما شاهدا حال والشأن كله فى الخواتم والكتاب والسنة موضحان لهذا الإجمال .

ولما لم يكن تقدم آية سورة يونس من الدلالات مثل ما بسط فى سورة الجاثية من الاعتبار لما

يناسبه الواقع فى الجاثية من الاطناب فنوسب الإيجاز بالايجاز والاطناب بالاطناب وجاء كل على ما يجب ويناسب مع اتحاد المقصود فى السورتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 248.250 ﴾

(43/369)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾

أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن قتادة رضي الله عنه في وقه ﴿ ولقد بوّأنا بني إسرائيل مبوّأ صدق ﴾ قال : بوّأهم الله الشام وبيت المقدس .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه في وقوله ﴿ مبوّأ صدق ﴾ قال : منازل صدق ، مصر والشام .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ فما اختلفوا حتى

جاءهم العلم ﴾ قال : العلم كتاب الله الذي أنزله ، وأمره الذي أمرهم به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(44/369)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ : يجوز أن يكونَ منصوباً على المصدر تقديرُه : بَوَّأناهم مُبَوَّأَ صِدْقٍ ، وأن يكونَ مكاناً أي : مكان تبوُّء صدق . وقرىء " لِمَنْ خَلَفَك " بفتح اللام جعله فعلاً ماضياً ، والمعنى : لِمَنْ خَلَفَك من الجبابرة ليتَّعِظوا بذلك . وقرىء " لِمَنْ خَلَقَك " بالقاف فعلاً ماضياً وهو الله تعالى أي : ليجعلك الله آيةً في عباده . ويجوز أن ينتصب " مُبَوَّأَ " على أنه مفعول ثانٍ كقوله تعالى : ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الجنة غُرَفاً ﴾ أي : لَنُنْزِلَنَّهُمْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 262 . 267 ﴾

(45/369)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾

أذْلَلْنَا لهم الأيام ، وأكثرنا لديهم الإنعامَ ، وأكرمنا لهم المقامَ ، وأتَحْنَا لهم فنونَ الحسناتِ ، وأدَمْنَا لهم جميع الخيراتِ . . . فلمَّا قابلوا النعمة بالكفران ، وأصَرُّوا على البَغْيِ والعدوان أذقناهم سوءَ العذاب ، وسَدَدْنا عليهم أبوابَ ما فتحنا لهم من التكريم والإيجاب ، وذلك جزاءُ مَنْ حَادَ عن طريق الوفاق ، وجَنَحَ إلى جانب الشِّقَاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 115 ﴾

(46/369)

قوله تعالى ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (95) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ما مضى – من الآيات هذه السورة المبينة أن من أريدت شقاوته لا ينفعه مشاهدة الآيات – سبباً لنفي الشك عنها وإثبات اليقين بمضامينها بما سلف من الأدلة على تلك المضامين غلى أن ختم ذلك بذم من عمل عمل الشاك بعد أن جاء ما يوجب اليقين من العلم ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما مضى في آخر التي قبلها أشفق الخلق لا سيما على العرب لا سيما على قومه منهم ، وكانت الوصية قد برزت من الجناب الإلهي له بما يوافق طبعه من بذل الجهد في ملاطفتهم ، كان ذلك جديراً بأن يحرك طبع البشر لتمني الإجابة لما يقترحون ، وكان طلب ذلك بعد الفطام عنه من أفعال الشك في الجملة فأريد صرف النفس عنه بالكلية ولو بالخطور في البال فقيل مسبباً عما قبله : ﴿ فإن كنت ﴾ أي يا أرحم الخلق ﴿ في شك ﴾ ولم يرد بهذا الكلام حقيقته – والله أعلم – بل تقوية اليقين وتأكيده ورسوخه وتأييده بأن هذا أمر قد عزم عليه وفرغ منه فلا يحتمل مراجعة ، وذلك لأن المعنى أن ثباتهم على الشقاوة أمر لا يعلم إلاّ من قبلنا ، وذلك بأحد أمرين : إما بواسطة الأمين جبرئيل بما يأتي به من الوحي عنا غضاً طرياً محفوظاً من الغير فلا تحريف فيه ولا تبديل ، وإما بواسطة أهل الكتاب عن أنبيائهم – وفي ذلك نزول درجتين مع تجويز التخويف والتبديل ، وهذا ما لا يرضاه ذو همة علية ونفس أبية – فالمعنى : أنا قد أخبرتك بأن الآيات لا تزيد المقضي

بشقائه إلاّ ضلالاً وأنا خبير بذلك ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ فلا تطلب إجابتي إياهم إلى ما يقترحون عليك رجاء إيمانهم فإنهم لا يؤمنون بذلك ﴿ فإن كنت ﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿ في شك ﴾ أي ولو قل ﴿ مما أنزلنا ﴾ أي بعظمتنا واصلاً على لسان الواسطة ﴿ إليك ﴾ في ذلك ﴿ فسئل ﴾ أي بسبب ذلك الشك ﴿ الذين يقرءون ﴾ أي متتابعين لذلك ﴿ الكتاب ﴾ أي السماوي من اليهود والنصارى ، فإنهم من الإحاطة بصحة ما أنزلنا إليك على حد عظيم .

(47/369)

ومن آمن منهم أو كان منصفاً جدير بأن يزداد من فاوضه في ذلك إيماناً ؛ ولما كانوا بعض من أوتي الكتاب في الزمن السالف ، أثبت الجار فقال : ﴿ من قبلك ﴾ وهم عن ذلك الخبر بمراحل ، فلا تجنح إلى سؤال غيري ، وهذا مضمون قوله تعالى مؤكداً آتياً بحرف التوقع لأن كلاًّ من الأمرين في أحق مواضعه : ﴿ لقد جآءك الحق ﴾ أي الثابت الكامل ثباته وهو إمضاء العدل فيهم ؛ وزاده تشريفاً وترغيباً فيه بقوله : ﴿ من ربك ﴾ أي المحسن إليك باصطفائك لذلك ، فلذا سيق مساق البيان له من غير واو ، فإذا ثبت أنه الحق أي الثابت أعلى الثبات تسبب عنه البعد من تزلزل من جاءه ، فناسب اتباعه بقوله : ﴿ فلا

تكونن ﴾ أكده لأنه حقيق بأن لا ينثني عنه أحد بوجه من الوجوه ﴿ من الممترين ﴾ أي الغافلين عن آيات الله فتطلب الفضل لأهل العدل ؛ قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : لا والله ! ما شك طرفة عين ولا سأل أحداً منهم .

(48/369)

ولما نهى عن ذلك لم يبق مما اقتضته القسمة العقلية إلاّ العناد ممن يمكن منه كما فعل بنو إسرائيل بعد مجيء العلم فأتبعه النهي عن مثل حالهم بقوله : ﴿ ولا تكونن ﴾ أي بوجه من الوجوه ، والمراد بهذا أتباعه ﴿ من الذين كذبوا ﴾ أي فعلوا فعل المكذب مستهينين ﴿ بآيات الله ﴾ أي التي لا أعظم منها بإضافتها إلى من لا أعظم منه ﴿ فتكون ﴾ أي كوناً راسخاً ﴿ من الخاسرين ﴾ بل اثبت على ما أنت عليه من اليقين والطمأنينة والثقة بالله والسكينة ، وهذا ونحوه مما غلظت فيه العبارة دلالة على مزيد قرب المخاطب وإن كان المراد غيره وعظيم منزلته ولطيف خصوصيته كما مضى بيانه عن الإمام أبي الحسن الحرالي رحمه الله في سورة براءة عند قوله تعالى ﴿ عفا الله عنك ﴾ [براءة : 43] - الآية ، وتغليظ العبارة فيه تأديب عظيم لتابعيه ؛ والشك : الوقوف بين النقيضين ، وهو من شك العود فيما ينفذ فيه ، لأنه يقف بذلك الشك بين جهتيه ؛ والإنزال : نقل الشيء من علو

إلى سفل ؛ والامتراء ؛ طلب التشكك مع ظهور الدليل ، من مري الضرع وهو مسحه ليدر .

ولما كان ما مضى من هذه الآيات وما كان من طرازها قاضياً بأنه لا تغني الآيات عنهم .

(49/369)

صرح به قوله تعالى : ﴿ إن الذين حقت ﴾ أي وجبت وثبتت ﴿ عليهم ﴾ أي بأنهم أشقياء ، وعبر بالاسم المفهم للإحسان إعلاماً بأنه ما أوجب عليهم العذاب إلاّ إحساناً إليه بما يقاسي من معالجتهم وغير ذلك من الحكمة فقال : ﴿ كلمت ربك ﴾ أي المحسن إليك في جميع أمرك ﴿ لا يؤمنون ﴾ أي لا قبول لهم لتجدد الإيمان ﴿ ولو جآءتهم كل آية ﴾ ونسبتها إلى قوله ﴿ لقد جاءك الحق ﴾ نسبة ﴿ لقد جاءك الحق ﴾ إلى ﴿ فإن كنت في شك ﴾ الآية في البيان المستفاد من حذف العاطف ، وإذا كان الكلام في معنى واحد كان بمنزلة الكلمة الواحدة فسمي بها ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ أي حين لا ينفعهم الإيمان لفوات شرطه كما لم ينفع فرعون لذلك ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ [الأحزاب : 92] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 487 .

489 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر من قبل اختلافهم عند ما جاءهم العلم أورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية ما يقوي قلبه في صحة القرآن والنبوة ، فقال تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّ مّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال الواحدي الشك في وضع اللغة ، ضم بعض الشيء إلى بعض ، يقال : شك الجواهر في العقد إذا ضم بعضها إلى بعض .

ويقال شككت الصيد إذا رميته فضممت يده أو رجله إلى رجله والشكائك من الهوادج ما شك بعضها ببعض والشكاك البيوت المصطفة والشكائك الأدعياء ، لأنهم يشكون أنفسهم إلى قوم ليسوا منهم ، أي يضمون ، وشك الرجل في السلاح ، إذا دخل فيه وضمه إلى نفسه وألزمه إياها ، فإذا قالوا : شك فلان في الأمور أرادوا أنه وقف نفسه بين شيئين ،

فيجوز هذا ، ويجوز هذا فهو يضم إلى ما يتوهمه شيئاً آخر خلافه .

المسألة الثانية :

اختلف المفسرون : في أن المخاطب بهذا الخطاب من هو ؟ فقيل النبي عليه الصلاة والسلام .

وقيل غيره ، أما من قال بالأول : فاختلفوا على وجوه .

الوجه الأول : أن الخطاب مع النبي عليه الصلاة والسلام في الظاهر ، والمراد غيره كقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى اتق الله وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين ﴾ [الأحزاب : 1] وكقوله : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] وكقوله : ﴿ يا عيسى ابن مَرْيَمَ أَءنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة : 116] ومن الأمثلة المشهورة : إياك أعني واسمعي يا جاره .

والذي يدل على صحة ما ذكرناه وجوه : الأول : قوله تعالى في آخر السورة ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِى شَكّ مّن دِينِى ﴾ [يونس : 104] فبين أن المذكور في أول الآية على سبيل الرمز ، هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح .

الثاني : أن الرسول لو كان شاكاً في نبوة نفسه لكان شك غيره في نبوته أولى وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية .

والثالث : أن بتقدير أن يكون شاكاً في نبوة نفسه ، فكيف يزول ذلك الشك بأخبار أهل الكتاب عن نبوته مع أنهم في الأكثر كفار ، وإن حصل فيهم من كان مؤمناً إلا أن قوله ليس بحجة لا سيما وقد تقرر أن ما في أيديهم من التوراة والإنجيل ، فالكل مصحف محرف ، فثبت أن الحق هو أن الخطاب ، وإن كان في الظاهر مع الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن المراد هو الأمة ، ومثل هذا معتاد ، فإن السلطان الكبير إذا كان له أمير ، وكان تحت راية ذلك الأمير جمع ، فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص ، فإنه لا يوجه خطابه عليهم ، بل يوجه ذلك الخطاب على ذلك الأمير الذي جعله أميراً عليهم ، ليكون ذلك أقوى تأثيراً في قلوبهم .

الوجه الثاني : أنه تعالى علم أن الرسول لم يشك في ذلك ، إلا أن المقصود أنه متى سمع هذا الكلام ، فإنه يصرح ويقول :

" يا رب لا أشك ولا أطلب الحجة من قول أهل الكتاب بل يكفيني ما أنزلته علي من الدلائل الظاهرة " ونظيره قوله تعالى للملائكة : ﴿ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ [سبأ : 40] والمقصود أن يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا : ﴿ سبحانك أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجن ﴾ [سبأ : 41] وكما قال لعيسى عليه السلام : ﴿ أَأَنت قُلتَ لِلنَّاسِ

اتخذوني وَأُمّيَ إلهين مِن دُونِ الله ﴾ [المائدة : 116] والمقصود منه أن يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة عن ذلك فكذا ههنا .

(52/369)

الوجه الثالث : هو أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان من البشر ، وكان حصول الخواطر المشوشة والأفكار المضطربة في قلبه من الجائزات ، وتلك الخواطر لا تندفع إلا بإيراد الدلائل وتقرير البينات ، فهو تعالى أنزل هذا النوع من التقريرات حتى أن بسببها تزول عن خاطره تلك الوساوس ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ [هود : 12] وأقول تمام التقرير في هذا الباب إن قوله : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّ ﴾ فافعل كذا وكذا قضية شرطية والقضية الشرطية لا إشعار فيها ألبتة بأن الشرط وقع أو لم يقع .

ولا بأن الجزاء وقع أو لم يقع ، بل ليس فيها إلا بيان أن ماهية ذلك الشرط مستلزمة لماهية ذلك الجزاء فقط ، والدليل عليه أنك إذا قلت إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين ، فهو كلام حق ، لأن معناه أن كون الخمسة زوجاً يستلزم كونها منقسمة بمتساويين ، ثم لا يدل هذا الكلام على أن الخمسة زوج ولا على أنها منقسمة بمتساويين

فكذا ههنا هذه الآية ، تدل على أنه لو حصل هذا الشك لكان الواجب فيه هو فعل كذا وكذا ، فأما إن هذا الشك وقع أو لم يقع ، فليس في الآية دلالة عليه ، والفائدة في إنزال هذه الآية على الرسول أن تكثير الدلائل وتقويتها مما يزيد في قوة اليقين وطمأنينة النفس وسكون الصدر ، ولهذا السبب أكثر الله في كتابه من تقرير دلائل التوحيد والنبوة .

(53/369)

والوجه الرابع : في تقرير هذا المعنى أن تقول : المقصود من ذكر هذا الكلام استمالة قلوب الكفار وتقريبهم من قبول الإيمان ، وذلك لأنهم طالبوه مرة بعد أخرى ، بما يدل على صحة نبوته وكأنهم استحيوا من تلك المعاودات والمطالبات ، وذلك الاستحياء صار مانعاً لهم عن قبول الإيمان فقال تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّ ﴾ من نبوتك فتمسك بالدلائل القلائل ، يعني أولى الناس بأن لا يشك في نبوته هو نفسه ، ثم مع هذا إن طلب هو من نفسه دليلاً على نبوة نفسه بعد ما سبق من الدلائل الباهرة والبينات القاهرة فإنه ليس فيه عيب ولا يحصل بسببه نقصان ، فإذا لم يستقبح منه ذلك في حق نفسه فلأن لا يستقبح من غيره طلب الدلائل كان أولى ، فثبت أن المقصود بهذا الكلام استمالة القوم وإزالة الحياء عنهم في تكثير المناظرات .

الوجه الخامس : أن يكون التقدير أنك لست شاكاً ألبتة ولو كنت شاكاً لكان لك طرق كثيرة في إزالة ذلك الشك كقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] والمعنى أنه لو فرض ذلك الممتنع واقعاً ، لزم منه المحال الفلاني فكذا ههنا .

ولو فرضنا وقوع هذا الشك فارجع إلى التوراة والإنجيل لتعرف بهما أن هذا الشك زائل وهذه الشبهة باطلة .

الوجه السادس : قال الزجاج : إن الله خاطب الرسول في قوله : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ ﴾ وهو شامل للخلق وهو كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النبى إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾ [الطلاق : 1] قال : وهذا أحسن الأقاويل ، قال القاضي : هذا بعيد لأنه متى كان الرسول داخلاً تحت هذا الخطاب فقد عاد السؤال ، سواء أريد معه غيره أو لم يرد وإن جاز أن يراد هو مع غيره ، فما الذي يمنع أن يراد بانفراده كما يقتضيه الظاهر ، ثم قال : ومثل هذا التأويل يدل على قلة التحصيل .

(54/369)

الوجه السابع : هو أن لفظ ﴿ إن ﴾ في قوله : ﴿ إِن كُنتَ فِى شَكٍّ ﴾ للنفي أي ما كنت في شك قبل يعني لا نأمرك بالسؤال لأنك شاك لكن لتزداد يقيناً كما ازداد إبراهيم عليه السلام

بمعاينة إحياء الموتى يقيناً .

وأما الوجه الثاني : وهو أن يقال هذا الخطاب ليس مع الرسول فتقريره أن الناس في زمانه كانوا فرقاً ثلاثة ، المصدقون به والمكذبون له والمتوقفون في أمره الشاكون فيه ، فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب فقال : إن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته ، وإنما وحد الله تعالى ذلك وهو يريد الجمع ، كما في قوله : ﴿ يا أيها الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم * الذى خَلَقَكَ ﴾ [الانفطار : 6 ، 7] و ﴿ يا أَيُّهَا الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾ [الانشقاق : 6] وقوله : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ ﴾ [الزمر : 49] ولم يرد في جميع هذه الآيات إنساناً بعينه ، بل المراد هو الجماعة فكذا ههنا ولما ذكر الله تعالى لهم ما يزيل ذلك الشك عنهم حذرهم من أن يلحقوا بالقسم الثاني وهم المكذبون فقال : ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الذين كَذَّبُواْ بآيات الله فَتَكُونَ مِنَ الخاسرين ﴾ .

المسألة الثالثة :

اختلفوا في أن المسؤول منه في قوله : ﴿ فَاسْأَلِ الذين يقرؤن الكتاب ﴾ من هم ؟ فقال المحققون هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، وعبد الله بن صوريا ، وتميم الداري ، وكعب الأحبار لأنهم هم الذين يوثق بخبرهم ، ومنهم من قال : الكل سواء كانوا من المسلمين أو من الكفار ، لأنهم إذا بلغوا عدد التواتر ثم قرؤا آية من التوراة والإنجيل ،

وتلك الآية دالة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فقد حصل الغرض .

فإن قيل : إذا كان مذهبكم أن هذه الكتب قد دخلها التحريف والتغيير ، فكيف يمكن التعويل عليها .

(55/369)

قلنا : إنهم إنما حرفوها بسبب إخفاء الآيات الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام فإن بقيت فيها آيات دالة على نبوته كان ذلك من أقوى الدلائل على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، لأنها لما بقيت مع توفر دواعيهم على إزالتها دل ذلك على أنها كانت في غاية الظهور ، وأما أن المقصود من ذلك السؤال معرفة أي الأشياء ، ففيه قولان : الأول : أنه القرآن ومعرفة نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أنه رجع ذلك إلى قوله تعالى : ﴿ فَمَا اختلفوا حتى جَاءهُمُ العلم ﴾ [يونس : 93] والأول أولى ، لأنه هو الأهم والحاجة إلى معرفته أتم .

واعلم أنه تعالى لما بين هذا الطريق قال بعده : ﴿ لَقَدْ جَاءكَ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الذين كَذَّبُواْ بآيات الله ﴾ أي فأثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك ، وانتفاء التكذيب بآيات الله ، ويجوز أن يكون ذلك على طريق التهييج وإظهار

التشدد ولذلك قال عليه الصلاة والسلام عند نزوله " لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق "

ثم قال : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الذين كَذَّبُواْ بآيات الله فتكون مّنَ الخاسرين ﴾ .

واعلم أن فرق المكلفين ثلاثة ، إما أن يكون من المصدقين بالرسول ، أو من المتوقفين في صدقه ، أو من المكذبين ، ولا شك أن أمر المتوقف أسهل من أمر المكذب ، لا جرم قد ذكر المتوقف بقوله : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ ثم أتبعه بذكر المكذب ، وبين أنه من الخاسرين ، ثم إنه تعالى لما فصل هذا التفصيل ، بين أن له عباداً قضى عليهم بالشقاء فلا يتغيرون وعباداً قضى لهم بالكرامة ، فلا يتغيرون ، فقال : ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(56/369)

قرأ نافع وابن عامر : ﴿ كلمات ﴾ على الجمع ، وقرأ الباقون : ﴿ كلمة ﴾ على لفظ الواحد ، وأقول إنها كلمات بحسب الكثرة النوعية أو الصنفية وكلمة واحدة بحسب الواحدة الجنسية .

المسألة الثانية :

المراد من هذه الكلمة حكم الله بذلك وإخباره عنه ، وخلقه في العبد مجموع القدرة والداعية ، الذي هو موجب لحصول ذلك الأثر ، أما الحكم والأخبار والعلم فظاهر ، وأما مجموع القدرة والداعي فظاهر أيضاً ، لأن القدرة لما كانت صالحة للطرفين لم يترجح أحد الجانبين على الآخر إلا لمرجح ، وذلك المرجح من الله تعالى قطعاً للتسلسل ، وعند حصول هذا المجموع يجب الفعل ، وقد احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في إثبات القضاء اللازم والقدر الواجب وهو حق وصدق ولا محيص عنه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حتى يَرَوُاْ العذاب الاليم ﴾ والمراد أنهم لا يؤمنون ألبتة ، ولو جاءتهم الدلائل التي لا حد لها ولا حصر ، وذلك لأن الدليل لا يهدي إلا بإعانة الله تعالى فإذا لم تحصل تلك الإعانة ضاعت تلك الدلائل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 17 صـ 128 . 131 ﴾

(57/369)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾

هذا خطاب من الله لنبيه يقول : إن كنت يا محمد في شك مما أنزلنا إليك ، وفيه وجهان :

أحدهما : في شك أنك رسول .

الثاني : في شك أنك مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل .

﴿ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه أراد مَنْ منهم مثل عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنه عنى أهل الصدق والتقوى منهم ، قاله الضحاك .

فإن قيل : فهل كان النبي صلى الله عليه وسلم شاكاً ؟

قيل قد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لاَ أَشُكُ وَلاَ أَسْأَلُ

" وفي معنى الكلام وجهان : أحدهما :

أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره من أمته ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ الآية [الطلاق : 1] .

والثاني : أنه خطاب ورد على عادة العرب في توليد القبول والتنبيه على أسباب الطاعة .

كقول الرجل لابنه : إن كنت ابني فبرّني ، ولعبده إن كنت مملوكي فامتثل أمري ، ولا يدل ذلك على شك الولد في أنه ابن أبيه ولا أن العبد شاك في أنه ملك لسيده .

﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ أي من الشاكّين .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : إن الذين وجبت عليهم كلمة ربك بالوعيد والغضب لا يؤمنون أبداً .

الثاني : إن الذين وقعت كلمته عليهم بنزول العذاب بهم لا يؤمنون أبداً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(58/369)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ فإن كنت في شك ﴾ الآية

قال بعض المتأولين وروي ذلك عن الحسن : أن ﴿ إن ﴾ نافية بمعنى ما والجمهور على أن ﴿ إن ﴾ شرطية ، والصواب في معنى الآية أنها مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد بها سواه من كل من يمكن أن يشك أو يعارض ، وقال قوم : الكلام بمنزلة قولك إن كنت ابني فبرَّني .

قال القاضي أبو محمد : وليس هذا المثال بجيد وإنما مثال هذه قوله تعالى لعيسى " أأنت قلت للناس اتخذوني " . وروي أن رجلاً سأل ابن عباس عما يحيك في الصدر من الشك فقال ما نجا من ذلك أحد ولا النبي صلى الله عليه وسلم حتى أنزل عليه ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وذكر الزهراوي أن هذه المقالة أنكرت أن يقولها ابن عباس وبذلك أقول ، لأن الخواطر لا ينجو منها أحد وهي خلاف الشك الذي يحال فيه عليه الاستشفاء بالسؤال ، و ﴿ الذين يقرأون الكتب من قبلك ﴾ هم من أسلم من بني إسرائيل كعبد الله بن سلام وغيره ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت هذه الآية : " أنا لا أشك ولا أسأل " وقرأ " فسل " دون همز الحسن وأبو جعفر وأهل المدينة وأبو عمرو وعيسى وعاصم ، وقرأ جمهور عظيم بالهمز ، ثم جزم الله الخبر بقوله ﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾ ، واللام في ﴿ لقد ﴾ لام قسم ، و ﴿ الممترين ﴾ معناه الشاكين الذين يحتاجون في اعتقادهم إلى المماراة فيها ، وقوله ﴿ مما أنزلنا إليك ﴾ يريد به من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في أمره إلا من بعد مجيئه ، وهذا قول أهل التأويل قاطبة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا هو الذي يشبه أن ترتجى إزالة الشك فيه من قبل أهل الكتاب ، ويحتمل اللفظ أن يريد بما أنزلنا جميع الشرع ولكنه بعيد بالمعنى لأن ذلك لا يعرف ويزول الشك فيه إلا بأدلة العقل لا بالسماع من مؤمني بني إسرائيل ، وقوله ﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا ﴾ الآية ، مما خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم والمراد سواه .

(59/369)

قال القاضي أبو محمد : ولهذا فائد ، ليس في مخاطبة الناس به وذلك شدة التخويف لأنه إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر من مثل هذا فغيره من الناس أولى أن يحذر ويتقي على نفسه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97) ﴾

جاء في هذا تحذير مردود وإعلام بسوء حال هؤلاء المحتوم عليهم ، والمعنى أن الله أوجب لهم سخه في الأزل وخلقهم لعذابه فلا يؤمنون ، ولو جاءهم كل بيان وكل وضوح إلا في الوقت الذي لا ينفعهم فيه إيمان ، كما صنع فرعون وأشباهه من الخلق وذلك وقت المعاينة ، وفي ضمن الألفاظ التحذير من هذه الحال وبعث الكل على المبادرة إلى الإيمان والفرار من سخط الله ، وقرأ أبو عمرو وعاصم والحسن وأبو رجاء "كلمة" بالإفراد ، وقرأ نافع وأهل المدينة "كلمات" بالجمع ، وقد تقدم ذكر هذه الترجمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(60/369)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾

الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد غيره ، أي لست في شك ولكنّ غيرك شك .

قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد : سمعت الإمامين ثعلباً والمبرد يقولان : معنى "فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ" أي قل يا محمد للكافر فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك .

﴿ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ ﴾ أي يا عابد الوثن إن كنت في شك من القرآن فاسأل من أسلم من اليهود ، يعنى عبد الله بن سَلاَم وأمثاله ؛ لأن عبدة الأوثان كانوا يقرّون لليهود أنهم أعلم منهم من أجل أنهم أصحاب كتاب ؛ فدعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن يسألوا من يقرّون بأنهم أعلم منهم ، هل يبعث الله برسول من بعد موسى .

وقال القُتَبِيّ : هذا خطاب لمن كان لا يقطع بتكذيب محمد ولا بتصديقه صلى الله عليه وسلم ، بل كان في شك .

وقيل : المراد بالخطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم لا غيره ، والمعنى : لو كنت يلحقك الشك فيما أخبرناك به فسألت أهل الكتاب لأزالوا عنك الشك .

وقيل : الشك ضيق الصدر ؛ أي إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر ، واسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك صَبْرَ الأنبياءِ من قبلك على أذى قومهم وكيف عاقبة أمرهم .

والشك في اللغة أصله الضيق ؛ يقال : شك الثوب أن ضمه بِخلال حتى يصير كالوعاء .

وكذلك السّفرة تُمدّ علائقها حتى تنقبض ؛ فالشك يقبض الصدر ويضمه حتى يضيق .

وقال الحسين بن الفضل : الفاء مع حروف الشرط لا توجب الفعل ولا تثبته ، والدليل عليه ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لما نزلت هذه الآية : " والله لا أشك ثم استأنف الكلام فقال لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ " أي الشاكين المرتابين .

(61/369)

﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِ الله فَتَكُونَ مِنَ الخاسرين ﴾ والخطاب في هاتين الآيتين للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد غيره .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ تقدّم القول فيه في هذه السورة .

قال قتادة : أي الذين حق عليهم غضبُ الله وسخطُه بمعصيتهم لا يؤمنون .

﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ أنّث "كلاًّ" على المعنى ؛ أي ولو جاءتهم الآيات .

﴿ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ فحينئذ يؤمنون ولا ينفعهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(62/369)

وقال الخازن :

﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ﴾

الشك في موضع اللغة خلاف اليقين والشك اعتدال النقيضين عند الإنسان لوجود أمارتين أو لعدم الأمارة والشك ضرب من الجهل وهو أخص منه فكل شك جهل وليس كل جهل شكاً فإذا قيل فلان شك في هذا الأمر فمعناه توقف فيه حتى يتبين له فيه الصواب أو خلافه وظاهر هذا الخطاب في قوله فإن كنت في شك أنه للنبي (صلى الله عليه وسلم) والمعنى فإن كنت يا محمد في شك مما أنزلنا إليك يعني من حقيقة ما أخبرناك به وأنزلناه يعني القرآن ﴿ فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ﴾ يعني علماء أهل الكتاب يخبرونك أنك مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل وأنك نبي يعرفونك بصفتك عندهم وقد توجه هاهنا سؤال واعتراض وهو أن يقال هل شك النبي (صلى الله عليه وسلم) فيما أنزل عليه أو في نبوته حتى يسأل أهل الكتاب عن ذلك وإذا كان شاكاً في نبوة نفسه كان غيره أولى

بالشك منه .

قلت : الجواب عن هذا السؤال والاعتراض ما قاله القاضي عياض في كتابه الشفاء فإنه أورد هذا السؤال ، ثم قال : احذر ثبت الله قلبك أن يخطر ببالك ما ذكره فيه بعض المفسرين عن ابن عباس أو غيره من إثبات شك النبي (صلى الله عليه وسلم) فيما أوحي إليه فإنه من البشر فمثل هذا لا يجوز عليه (صلى الله عليه وسلم) جملة بل قال ابن عباس : لم يشك النبي (صلى الله عليه وسلم) ولم يسأل .

ونحوه عن سعيد بن جبير والحسن البصري .

وحكي عن قتادة أنه قال : بلغنا أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " ما أشك ولا أسأل " وعامة المفسرين على هذا ، ثم كلام القاضي عياض رحمه الله ثم اختلفوا في معنى الآية ومن المخاطب بهذا الخطاب على قولين أحدهما أن الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) في الظاهر والمراد به غيره فهو كقوله لئن أشركت ليحبطن عملك ومعلوم أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يشرك فثبت أن المراد به غيره ومن أمثلة العرب :

إياك أعني واسمعي يا جارة .

(63/369)

فعلى هذا يكون معنى الآية قل يا محمد ، يا أيها الإنسان الشاك إن كنت في شك مما أنزلنا إليك على لسان رسولنا (صلى الله عليه وسلم) فاسأل الذين يقرؤون الكتاب يخبروك بصحته ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى في آخر هذه السورة قل يا أيها الناس إن كنتم في شك في ديني الآية فبين أن المذكور في هذه الآية على سبيل الرمز وهو المذكور في تلك الآية على سبيل التصريح وأيضاً لو كان النبي (صلى الله عليه وسلم) شاكاً في بنوته لكان غيره أولى بالشك في نبوته وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية معاذ الله من ذلك وقيل إن الله سبحانه وتعالى علم أن النبي لم يشك قط فيكون المراد بهذا التهييج فإنه (صلى الله عليه وسلم) إذا سمع هذا الكلام يقول

" لا أشك يا رب ولا أسأل أهل الكتاب بل أكتفي بما أنزلته علي من الدلائل الظاهرة " وقال الزجاج : إن الله خاطب الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قوله فإن كنت في شك وهو شامل للخلق فهو كقوله يا أيها النبي إذا طلقتم النساء وهذا وجه حسن لكن فيه بعد وهو أن يقال متى كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) داخلاً في هذا الخطاب كان الاعتراض موجوداً والسؤال وارداً ، وقيل : إن لفظة إن في قوله فإن كنت في شك للنفي ومعناه وما أنت في شك مما أنزلنا إليك حتى تسأل فلا تسأل ولئن سألت لازددت يقيناً .

والقول الثاني : إن هذا الخطاب ليس هو للنبي (صلى الله عليه وسلم) البتة ووجه هذا القول إن الناس كانوا في زمنه على ثلاث فرق فرقة له مصدقون وبه مؤمنون وفرقة على الضد من ذلك والفرقة الثالثة المتوقفون في أمره الشاكون فيه فخاطبهم الله بهذا الخطاب ، فقال : تمجد وتعالى : فإن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد (صلى الله عليه وسلم) فاسأل أهل الكتاب ليلوك على صحة نبوته وإنما وحد الله الضمير في قوله فإن كنت وهو يريد الجمع لأنه خطاب لجنس الإنسان كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ لم يرد في الآية إنساناً بعينه بل أراد الجمع واختلفوا في المسؤول عنه في قوله تعالى : ﴿ فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ﴾ من هم فقال المحققون من أهل التفسير : هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه لأنهم هم الموثوق بأخبارهم .

وقيل : المراد كل أهل الكتاب سواء مؤمنهم وكافرهم لأن المقصود من هذا السؤال الإخبار بصحة نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) أو أنه مكتوب عندهم صفته ونعته فإذا أخبروا بذلك فقد حصل المقصود والأول أصح .

وقال الضحاك يعني أهل التقوى وأهل الإيمان من أهل الكتاب ممن أدرك النبي (صلى الله عليه وسلم) ﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾ هذا كلام مبتدأ منقطع عما قبله وفيه معنى

القسم تقديره أسقم لقد جاءك الحق اليقين من الخير بأنك رسول الله حقاً وأن أهل الكتاب يعلمون صحة ذلك ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ يعني من الشاكين في صحة ما أنزلنا إليك ﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله ﴾ يعني بدلائله وبراهينه الواضحة ﴿ فتكون من الخاسرين ﴾ يعني الذين خسروا أنفسهم .

(65/369)

واعلم أن هذا كله على ما تقدم من أن ظاهره خطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) والمراد به غيره ممن عنده شك وارتياب فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يشك ولم يرتب ولم يكذب بآيات الله فثبت بهذا أن المراد به غيره والله أعلم .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ إن الذين حقت عليهم ﴾ يعني وجبت عليهم ﴿ كلمة ربك ﴾ يعني حكم ربك وهو قوله سبحانه وتعالى : وخلقت هؤلاء للنار ولا أبالي وقال قتادة : سخط ربك وقيل لعنة ربك وقيل هو ما قدره عليهم وقضاه في الأزل ﴿ لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ﴾ فإنهم لا يؤمنون بها ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ فحينئذ لا ينفعهم شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(66/369)

وقال أبو حيان :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

الظاهر أنّ إنْ شرطية .

وروي عن الحسن والحسين بن الفضل أنّ إنْ نافية .

قال الزمخشري : أي مما كنت في شك فسئل ، يعني : لا نأمرك بالسؤال لأنك شاك ، ولكن لتزداد يقيناً كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى انتهى .

وإذا كانت إن شرطية فذكروا أنها تدخل على الممكن وجوده ، أو المحقق وجوده ، المنبهم زمان وقوعه ، كقوله تعالى : ﴿ أفإن مت فهم الخالدون ﴾ والذي أقوله : إنّ إنْ الشرطية تقتضي تعليق شيء على شيء ، ولا تستلزم تحتم وقوعه ولا إمكانه ، بل قد يكون ذلك في المستحيل عقلاً كقوله تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ ومستحيل أن يكون له ولد ، فكذلك هذا مستحيل أن يكون في شك ، وفي المستحيل عادة كقوله تعالى : ﴿ فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ﴾ أي فافعل .

لكنّ وقوع إن للتعليق على المستحيل قليل ، وهذه الآية من ذلك .

ولما خفي هذا الوجه على أكثر الناس اختلفوا في تخريج هذه الآية ، فقال ابن عطية :

الصواب أنها مخاطبة للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، والمراد بها سواه من كل من يمكن أن يشك أو يعارض انتهى .

ولذلك جاء : ﴿ قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني ﴾ وقال قوم : الكلام بمنزلة قولك : إن كنت ابني فبرني ، وليس هذا المثال بجيد ، وإنما مثال هذه قوله تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿ أأنت قلت للناس ﴾ انتهى .

وهذا القول مروي عن الفراء .

قال الكرماني : واختاره جماعة ، وضعف بأنه يُصير تقدير الآية : أأنت في شك ؟ إذ ليس في الآية ما يدل على نفي الشك .

وقيل : كنى هنا بالشك عن الضيق أي : فإن كنت في ضيق من اختلافهم فيما أنزل إليك وتعنتهم عليك .

وقيل : كنى بالشاك عن العجب أي : فإن كنت في تعجب من عناد فرعون .

(67/369)

ومناسبة المجاز أنّ التعجب فيه تردد ، كما أن الشك تردد بين أمرين .

وقال الكسائي : معناه إن كنت في شك أنّ هذا عادتهم مع الأنبياء فسلهم كيف كان صبر

موسى عليه السلام حين اختلفوا عليه ؟ وقال الزمخشري : فإن كنت في شك بمعنى العرض والتمثيل ، كأنه قيل : فإن وقع لك شك مثلاً وخيل لك الشيطان خيالاً منه تقديراً فسئل الذين يقرؤون الكتاب ، والمعنى : أن الله تعالى قدم ذكر بني إسرائيل وهم قرأة الكتاب ، ووصفهم بأن العلم قد جاءهم ، لأنّ أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فأراد أن يؤكد عليهم بصحة القرآن وصحة نبوّة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ويبالغ في ذلك فقال تعالى : فإن وقع لك شك فرضاً وتقديراً وسبيل من خالجته شبهة في الدين أن يسارع إلى حلها وإماطتها ، إما بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلته ، وإما بمقادحة العلماء المنبهين على الحق انتهى .

وقيل أقوال غير هذه ، وقرأ يحيى وابراهيم : يقرؤون الكتب على الجمع .

والحق هنا : الإسلام ، أو القرآن ، أو النبوة ، أو الآيات ، والبراهين القاطعة ، أقوال : فاثبت ودم على ما أنت فيه من انتفاء المرية والتكذيب ، والخطاب للسامع غير الرسول .

وكثيراً ما يأتي الخطاب في ظاهره لشخص ، والمراد غيره ، وروي أنه عليه السلام قال : " لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق " وعن ابن عباس : والله ما شك طرفة عين ، ولا سأل أحداً منهم .

والامتراء التوقف في الشيء والشك فيه ، وأمره أسهل من أمر المكذب فبدىء به أولاً .

فنهى عنه ، واتبع بذكر المكذب ونهى أن يكون منهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97) ﴾

ذكر تعالى عباداً قضى عليهم بالشقاوة فلا تتغير ، والكلمة التي حقت عليهم قال قتادة : هي اللعنة والغضب .

(68/369)

وقيل : وعيده أنهم يصيرون إلى العذاب .

وقال الزمخشري : قول الله تعالى الذي كتب في اللوح وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفاراً فلا يكون غيره ، وتلك كتابة معلوم لا كتابة مقدر ومراد الله تعالى عن ذلك انتهى .

وكلامه أخيراً على طريقة الاعتزال .

وقال أبو عبد الله الرازي : المراد من هذه الكلمة كلم الله بذلك ، وإخباره عنه ، وخلقه في العبد مجموع القدرة ، والداعية وهو موجب لحصول ذلك الأمر .

وقال ابن عطية : المعنى أنّ الله أوجب لهم سخطه من الأزل وخلقهم لعذابه ، فلا يؤمنون ولو جاءهم كل بيان وكل وضوح إلا في الوقت الذي لا ينفعهم فيه الإيمان ، كما صنع فرعون وأشباهه ، وذلك وقت المعاينة .

وفي ضمن الألفاظ التحذير من هذه الحال ، وبعث كل على المبادرة إلى الإيمان والفرار من سخط الله .

ويجوز أن يكون العذاب الأليم عند تقطع أسبابهم يوم القيامة ، وتقدم الخلاف في قراءة كلمة بالإفراد وبالجمع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(69/369)

وقال النسفى :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ ﴾

لما قدم ذكر بني إسرائيل – وهم قراء الكتاب – ووصفهم بأن العلم قد جاءهم لأن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوب في التوراة والإنجيل وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، أراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن وبصحة نبوته صلى الله عليه وسلم ويبالغ في ذلك فقال : فإن وقع لك شك فرضاً وتقديراً ، وسبيل من خالجته شبهة أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلته أو بمباحثة العلماء فسل علماء أهل الكتاب فإنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك بحيث يصلحون لمراجعة مثلك فضلاً عن غيرك .

فالمراد وصف الأحبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله صلى الله عليه

وسلم لا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشك فيه ثم قال : ﴿ لَقَدْ جَاءكَ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ أي ثبت عندك بالآيات الواضحة والبراهين اللائحة أن ما أتاك هو الحق الذي لا مجال فيه للشك ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ الشاكين ولا وقف عليه للعطف .

(70/369)

﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الذين كَذَّبُواْ بآيات الله فَتَكُونَ مِنَ الخاسرين ﴾ أي فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله أو هو على طريقة التهييج والإلهاب كقوله ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً للكافرين ﴾ [القصص : 86] ﴿ وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءايات الله بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ [القصص : 87] ولزيادة التثبيت والعصمة ولذلك قال عليه السلام عند نزوله : " لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق " أو خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد أمته أي وإن كنتم في شك مما أنزلنا إليكم كقوله ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبينا ﴾ [النساء : 174] أو الخطاب لكل سامع يجوز عليه الشك كقول العرب «إذا عز أخوك فهن» أو «إن» للنفي أي فما كنت في شك فاسأل أي لا نأمرك بالسؤال لأنك شاك ولكن لتزداد يقينا كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى .

فإن قلت : إنما يجيء «إن» للنفي إذا كان بعده «إلا» كقوله : ﴿ إِنِ الكافرون إِلاَّ فِى

غُرُورٍ ﴾ [الملك : 20] قلت : ذاك غير لازم ألا ترى إلى قوله ﴿ إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ [فاطر : 41] فإن للنفي وليس بعده «إلا»

﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفاراً أو قوله ﴿ لأملأن جهنم ﴾ الآية ولا وقف على ﴿ لاَيُؤْمِنُونَ ﴾ لأن وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ ءايَةٍ ﴾ تتعلق بما قبلها ﴿ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ أي عند اليأس فيؤمنون ولا ينفعهم ، أو عند القيامة ولا يقبل منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 175.176 ﴾

(71/369)

وقال البيضاوى :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّ مّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾

من القصص على سبيل الفرض والتقدير . ﴿ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ ﴾ فإنه محقق عندهم ثابت في كتبهم على نحو ما ألقينا إليك ، والمراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما في الكتب المتقدمة وأن القرآن مصدق لما فيها ، أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إليه ، أو تهييج الرسول صلى الله عليه وسلم وزيادة تثبيته لا إمكان وقوع

الشك له ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : ﴿ لا أشك ولا أسأل ﴾ وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته أو لكل من يسمع أي إن كنت أيها السامع في شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك ، وفيه تنبيه على أن كل من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم . ﴿ لَقَدْ جَاءكَ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ واضحاً أنه لا مدخل للمرية فيه بالآيات القاطعة . ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ بالتزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقين .

﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الذين كَذَّبُواْ بآيات الله فَتَكُونَ مِنَ الخاسرين ﴾ أيضاً من باب التهييج والتثبيت وقطع الأطماع عنه كقوله ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً للكافرين . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 214.215 ﴾

(72/369)

وقال الثعالبى :

قوله عز وجل : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ . . . ﴾ الآية

الصوابُ في معنى الآية : أنها مخاطبةٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، والمراد بها سِوَاهُ مِنْ كُلِّ من يمكِنُ أن يشُكَّ أو يعارِض .

* ت * : ورُوينَا عن أبي داود سُلَيْمَانَ بْنِ الأَشْعَثِ ، قال : حدَّثنا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ، قال : حدَّثنا يزيدُ بن هَارُونَ ، قال : حدَّثنا محمَّد بنِ عَمْرٍو ، عن أَبي سَلَمَةَ ، عن أبي هُرَيْرَةَ رضي اللَّه عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، قال : " المِرَاءُ في القُرْآنِ كُفْرٌ " ، قال عِيَاض في «الشفا» : تأول بمعنى «الشك» ، وبمعنى «الجدَال» . انتهى .

﴿ الذين يَقْرَءُونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ ﴾ : من أسلم من أهْلِ الكتاب ، كابن سَلاَمٍ وغيره ، وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لَمَّا نزَلَتْ هذه الآية : « أَنَا لاَ أَشُكُّ وَلاَ أَسْأَلُ» ، ثم جزم سبحانه الخَبَر بقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ ، واللام في «لَقَدْ» لامُ قَسَم .

وقوله : ﴿ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ يريد به : من أَن بني إِسرائيل لم يختلفوا في أَمْرِه إِلا مِنْ بعد مجيئِهِ عَلَيْه السلام ؛ هذا قول أهل التأويل قاطبة .

قال * ع * : وهذا هو الذي يشبه أَنْ تُرْجَى إِزالةُ الشَّكِّ فيه مِنْ قِبَلِ أَهْلِ الكتاب ، ويَحتملُ اللفظُ أَنْ يريد ب ﴿ مَا أَنزَلْنَا ﴾ جميعَ الشرع .

(73/369)

ت : وهذا التأويلُ عندي أَبْيَنُ إذا لُخِّص ، وإن كان قد استبعده *ع* : ويكون المراد ب ﴿ مَا أَنزَلْنَا ﴾ : مَا ذكره سبحانه من قصصهم ، وذِكْرِ صفته عليه السلام ، وذكْرِ أنبيائهم وصِفَتِهم وسيرهم وسائِرِ أخبارهم الموافِقَةِ لِمَا في كتبهم المنزَّلة على أنبيائهم ؛ كالتوراة والإنجيل والزَّبور والصُّحُف ، وتكون هذه الآية تَنْظُرُ إلى قوله سبحانه : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يفترى ولكن تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ . . . ﴾ [يوسف : 111] ، فتأمَّله ، والله أعلم .

وأما قوله : هذا قولُ أهْلِ التأويل قاطبةً ، فليس كذلكَ ، وقد تكلَّم صاحب «الشفا» على الآية ، فأحْسَنَ ، ولفظهُ : واختلف في معنى الآية ، فقيلَ : المرادُ : قُلْ يا محمَّد للشاكِّ : ﴿ إن كُنتَ فِي شَكٍّ . . . ﴾ الآية ، قالوا : وفي السورة نَفْسِهَا ما دلَّ على هذا التأويل ، وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الناس إن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي . . . ﴾ الآية [يونس : 104] ، ثم قال عياضٌ : وقيل : إن هذا الشكَّ : الذي أُمِرَ غَيْرُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بسؤالِ الذين يقرؤون الكتاب عنه ، إنما هو في ما قصَّهُ اللَّه تعالى من أخبار الأمم ، لا فيما دعا إلَيْه من التوحيد والشريعة . انتهى .

وقوله سبحانه : ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الذين كَذَّبُواْ بآيات الله . . . ﴾ الآية : مما خوطِبَ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، والمراد سواه .

قال *ع* : ولهذا فائِدةٌ ليست في مخاطبة الناس به ، وذلك شدَّةَ التخويفِ ؛ لأنه إذا كان

رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم يُحَذِّرُ مِنْ مثل هذا ، فغيره من النَّاسِ أَوْلَى أَن يحذَّر ويتقى على نفسه .

(74/369)

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ : أي : حقَّ عليهم في الأزل وخلقهم لعذابه ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ إلا في الوقت الذي لا يَنْفَعهم فيه الإِيمان ؛ كما صنع فرعون وأشباهه ، وذلك وقتُ المُعَايَنَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(75/369)

وقال أبو السعود :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّ ﴾

أي في شك ما يسير على الفرْض والتقدير ، فإن مضمونَ الشرطيةِ إنما هو تعليقُ شيءٍ بشيء من غير تعرُّضٍ لإمكان شيءٍ منهما كيف لا وقد يكون كلاهما ممتنعاً كقوله عز وجل

: ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ ونظائرِهما ﴿ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ من القصص التي من جملتها قصةُ فرعون وقومِه وأخبارُ بني إسرائيلَ ﴿ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ ﴾ فإن ذلك محققٌ عندهم ثابتٌ في كتبهم حسبما ألقَينا إليك والمرادُ إظهارُ نبوتِه عليه السلام بشهادة الأحبارِ حسبما هو المسطورُ في كتبهم وإن لم يكن إليه حاجة أصلاً أو وصفُ أهلِ الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة نبوتِه عليه السلام أو تهييجه عليه السلام وزيادةِ تثبيتِه على ما هو عليه من اليقين لا تجويزِ صدورِ الشك منه عليه السلام ولذلك قال عليه السلام : " لا أشُكُّ ولا أسأَلُ " وقيل : المرادُ بالموصول مؤمنو أهلِ الكتاب كعبد اللَّه بن سلام وتميمٍ الداري وكعبٍ وأضرابِهم وقيل : الخطابُ للنبي عليه السلام والمرادُ أمتُه أو لكل من يسمع أي إن كنت أيها السامعُ في شك مما أنزلنا إليك على لسان نبيّنا ، وفيه تنبيهٌ على أن من خالجتْه شبهةٌ في الدين ينبغي أن يسارِعَ إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلمِ فاسأل الذين يقرؤون الكتاب ﴿ لَقَدْ جَاءكَ الحق ﴾ الذي لا محيدَ عنه ولا ريبَ في حقيته ﴿ مِن رّبّكَ ﴾ وظهرَ ذلك بالآيات القاطعةِ التي لا يحوم حولَها شائبةُ الارتيابِ ، وفي التعرّض لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من التشريف ما لا يخفى ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ بالتزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقينِ ودُمْ على ذلك كما كنت من قبل ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الذين كَذَّبُواْ بآيات الله ﴾ من باب التهييج والإلهابِ ، والمرادُ به إعلامُ أن التكذيبَ من القبح

والمحذوريةِ بحيث ينبغي أن يُنهى عنه من لا يُتصورُ إمكانُ صدورِه عنه فكيف بمن يمكن اتصافُه به وفيه قطعٌ لأطماع الكفرة ﴿ فَتَكُونَ ﴾ بذلك ﴿ مِّنَ الخاسرين ﴾ أنفساً وأعمالاً ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ ﴾ شروعٌ في بيان سرِّ إصرارِ الكفرة على ما هم عليه من الكفر والضلالِ أي ثبتت ووجبتْ بمقتضى المشيئةِ على الحكمة البالغة ﴿ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ حكمُه وقضاؤه بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في النار كقوله تعالى : ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنْى لاَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ إلى آخره ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أبداً إذ لا كذِبَ لكلامه ولا انتقاضَ لقضائه أي لا يؤمنون إيماناً نافعاً واقعاً في أوانه فيندرج فيهم المؤمنون عند معاينةِ العذابِ مثلَ فرعونَ باقياً عند الموتِ فيدخل فيهم المرتدون .

﴿ وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ ءايَةٍ ﴾

واضحةُ المدلولِ مقبولةٌ لدى العقولِ لأن سببَ إيمانِهم وهو تعلقُ إرادته تعالى به مفقودٌ لكنّ فقدانَه ليس لمنعٍ منه سبحانه مع استحقاقهم له بل لسوء اختيارِهم المتفرّعِ على عدم استعدادِهم لذلك ﴿ حتى يَرَوُاْ العذاب الاليم ﴾ كدأب آلِ فرعونَ وأضرابهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾

أي في شك ما يسير ، والخطاب قيل : له صلى الله عليه وسلم والمراد إن كنت في ذلك على سبيل الفرض والتقدير لأن الشك لا يتصور منه عليه الصلاة والسلام لانكشاف الغطاء له ولذا عبر بأن التي تسعمل غالباً فيما لا تحقق له حتى تسعمل في المستحيل عقلاً وعادة كما في قوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرحمن وَلَدٌ ﴾ [الزخرف : 81] وقوله تعالى : ﴿ فَإِنِ استطعت أَن تَبْتَغِىَ نَفَقَاً فِى الأرض ﴾ [الأنعام : 35] وصدق الشرطية لا يتوقف على وقوعها كما هو ظاهر ؛ والمراد بالموصول القصص ، أي إن كنت في شك من القصص المنزلة إليك التي من جملتها قصة فرعون وقومه وأخبار بني إسرائيل ﴿ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ ﴾ فإن ذلك محقق عندهم ثابت في كتبهم حسبما أنزلناه إليك ، وخصت القصص بالذكر لأن الأحكام المنزلة إليه عليه الصلاة والسلام ناسخة لأحكامهم مخالفة لها فلا يتصور سؤالهم عنها ، والمراد بالكتاب جنسه فيشمل التوراة والإنجيل وهو المروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، ويؤيده أنه قرىء ﴿ الكتاب ﴾ بالجمع ،

وفسر الموصول بمن لم يؤمن من أهل الكتاب لأن إخبارهم بما يوافق ما أنزل المترتب على السؤال أجدى في المقصود ، وفسره بعضهم بالمؤمنن منهم كعبد الله بن سلام .

وتميم الداري ونسب ذلك إلى ابن عباس .

والضحاك .

ومجاهد .

وتعقب بأن ابن سلام .

(78/369)

وغيره إنما أسلموا بالمدينة وهذه السورة مكية ، وينبغي أن يكون المراد الاستدلال على حقية المنزلة والاستشهاد بما في الكتب المتقدمة على ما ذكر وأن القرآن مصدق لها ، ومحصل ذلك أن الفائدة دفع الشك إن طرأ لأحد غيره صلى الله عليه وسلم بالبرهان أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة نبوته صلى الله عليه وسلم وتوبيخهم على ترك الإيمان أو تهييج الرسول عليه الصلاة والسلام وزيادة تثبيته ، وليس الغرض إمكان وقوع الشك له صلى الله عليه وسلم أصلا ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام حين جاءته الآية على ما أخرج عبد الرزاق .

وابن جرير عن قتادة : "لا أشك ولا أسأل" .

وزعم الزجاج أن ﴿ إن ﴾ نافية وقوله سبحانه : ﴿ فَاسْأَلِ ﴾ جواب شرط .

مقدر أي ما كنت في شك مما أنزلنا إليك فإن أردت أن تزداد يقيناً فاسأل وهو خلاف الظاهر وفيما ذكر غنى عنه ، ومثله ما قيل : إن الشك بمعنى الضيق والشدة بما يعاينه صلى الله عليه وسلم من تعنت قومه وأذاهم أي إن ضقت ذرعاً بما تلقى من أذى قومك وتعنتهم فاسأل أهل الكتاب كيف صبر الأنبياء عليهم السلام على أذى قومهم وتعنتهم فاصبر كذلك بل هو أبعد جداً من ذلك ، وقيل : الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته أو لكل من يسمع أي إن كنت أيها السامع في شك مما أنزلنا على لسان نبينا إليك فاسأل ، ﴿ فَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ على هذا نظير قوله سبحانه :

(79/369)

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ [النساء : 174] وفي جعل القراءة صلة الموصول إشارة إلى أن الجواب لا يتوقف على أكثر منها ، وفي الآية تنبيه على أن من خالجته شبهة في الدين ينبغي له مراجعة من يزيلها من أهل العلم بل المسارعة إلى ذلك حسبما تدل عليه الفاء الجزائية بناءاً على أنها تفيد التعقيب ﴿ لَقَدْ جَاءكَ الحق ﴾ الواضح الذي لا محيد عنه

ولا ريب في حقيته ﴿ مِن ربّكَ ﴾ القائم بما يصلح شأنك ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ أي بالتزلزل عما أنت عليه من الحزم واليقين ودم على ذلك كما كنت من قبل ، والامتراء الشك والتردد وهو أخف من التكذيب فلذا ذكر أولا ، وعقب بقوله سبحانه :

﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الذين كَذَّبُواْ بآيات الله ﴾

أي بشيء منها ﴿ فَتَكُونُ ﴾ بذلك ﴿ مّنَ الخاسرين ﴾ أنفساً وأعمالاً ، والتعبير بالخاسرين أظهر في التحذير من التعبير بالكافرين ، وفائدة النهي في الموضعين التهييج والإلهاب نظير ما مر ، والمراد بذلك اعلام أن الامتراء والتكذيب قد بلغا في القبح والمحذورية إلى حيث ينبغي أن ينهي عنهما من لا يمكن أن يتصف بهما فكيف بمن يكن اتصافه وفيه قطع لاطماع الكفرة .

﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ ﴾ الخ

بيان لمنشأ اصرار الكفرة على ما هم عليه من الكفر والضلال إلى حيث لا ينتفعون بالإيمان أي إن الذين ثبتت عليهم ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم ﴾ أي حكمه وقضاؤه المفسر عند الاشاعرة بإرادته تعالى الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال بأنهم يموتون على الكفر أو يخلدون في النار ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ إذ لا يمكن أن ينتقض قضاؤه سبحانه وتتخلف إرادته جل جلاله .

﴿ وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ ءايَةٍ ﴾

واضحة المدلول مقبولة لدى العقول ﴿ حتى يَرَوُاْ العذاب الاليم ﴾ الاغراق ونحوه وحينئذ يقال لهم الصيف ضيعت اللبن وفسر الزمخشري الكلمة بقول الله تعالى الذي كتبه في اللوح وأخبر سبحانه به الملائكة أنهم يموتون كفاراً وجعل تلك كتابة معلوم لا كتابة مقدر ومراد ، ولا ضير في تفسير الكلمة بذلك إلا أن جعل الكتابة كتابة معلوم لا كتابة مقدر ومراد مبني على مذهب الاعتزال ، والذي عليه أهل السنة أن أفعال العباد بأسرها معلومة له تعالى ومرادة ولا يكون إلا ما أراده سبحانه ، وعلمه عز شأنه وإرادته متوافقان ولا تجوز المخالفة بينهما ولا يتعلق علمه سبحانه إلا بما عليه الشيء في نفسه ولا يريد إلا ما علم ولا يقدر إلا ما يريد ولا جبر هناك ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين ، وفسره الملوى الكوراني في شرحه للمقدمات الأربع المذكورة في توضيح الأصول بأن العبد مجبور باختياره وفصله بما لا مزيد عليه ، وبإثبات الاستعداد وانه غير مجعول تتضح الحجة البالغة وبسط الكلام في علم الكلام ، وقد تقدم بعض ما ينفع في هذا المقام ، وإن أردت ما يطمئن به الخاطر وتنشرح له الضمائر فعليك برسائل ذلك المولى في هذا الشأن فإنها واضحة المسالك في تحصيل الإيقان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾

من قصص موسى وفرعون وبني إسرائيل : ﴿ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ ﴾ أي : التوراة : ﴿ مِن قَبْلِكَ ﴾ فإن عندهم على نحو ما أوحي إليك : ﴿ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ أي : الشاكين في أنه منزل من عنده .

تنبيه :

لا يفهم من هذه الآية ثبوت شك له صلوات الله عليه ، فإن صدق الشرطية لا يقتضي وقوعها ، كقولك . (إن كانت الخمسة زوجا ، كانت منقسمة بمتساويين) والسر في مثلها تكثير الدلائل وتقويتها ، لتزداد قوة اليقين ، وطمأنينة القلب ، وسكون الصدر ، ولذا أكثر تعالى في كتابه من تقرير أدلة التوحيد والنبوة والرجعة . أو السر هو الاستدلال على تحقيق ما قص ، والاستشهاد بما في الكتاب المتقدم ، وأن القرآن مصدق لما فيه ، أو وصف الأحبار بالرسوخ في العلم ، بصحة ما أنزل إلى رسول الله صلوات الله عليه ، تعريضاً بالمشركين ، أو تهييج الرسول صلوات الله عليه ، وتحريضه ليزداد يقيناً ، كما قال الخليل

صلوات الله عليه : ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة : من الآية 260] ، وقد روي أنه صلى الله عليه وسلم قال حين نزول الآية : < لا أشك ولا أسأل > أخرجه عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة – أو الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد غيره ، على حد : (إياك أعني واسمعي يا جارة) وفيه من قوة التأثير في القلوب ما لا مزيد عليه ، بمثابة ما لو خاطب سلطان عاملاً له على بلدته بحضور أهلها بوصاياه وأوامره الرهيبة ، فيكون ذلك أفعل في النفوس ، أو الخطاب لكل من يسمع . أي : إن كنت أيها السامع في شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك . . . وأيد هذا بقوله تعالى بعدُ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ﴾ [يونس : من الآية 104] ، فكأنه أشار إلى أن المذكور في أول الآية رمزاً هم المذكورون بعدُ صراحة ، وفي الآية تنبيه على أن كل من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بمقادحة العلماء المنبهين على الحق

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ هو أيضاً من باب التهييج والإلهاب والتثبيت ، وأجرى بعضهم ها هنا قاعدة فقال : النهي عن كل شيء إن كان لمن

تلبس به فمعناه تركه ، وإن كان لغيره فمعناه الثابت على عدمه ، وألا يصدر منه في المستقبل كما هنا – انتهى – أو يأتي الوجهان الأخيران قبل هنا أيضاً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي : قوله الكريم ، وأمره بعذابهم ، كما قال : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : من الآية 13] ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ أي : كدأب آل فرعون وأضرابهم . أي : وعند رؤية العذاب يرتفع التكليف فلا ينفعهم إيمانهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 63.65 ﴾

(83/369)

وقال الشيخ المراغى :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

المعنى الجملي

بعد أن قص سبحانه قصص الأنبياء السالفين وما لاقوه من أقوامهم من العناد والجحود والاستكبار والعتو ، وفى كل حال كان النصر حليف المؤمنين والخذلان نصيب الظالمين – قفّى على ذلك بذكر صدقه فيما قال ووعد وأوعد ، وكون ذلك سنة اللّه فى المكذبين قبل

، وسيكون ذلك فيهم من بعد وليس فى هذا سبيل للافتراء والشك وقد ساق ذلك بطريق التلطف فى الأسلوب ، فوجه الكلام إلى الرسول صلى اللّه عليه وسلم والمراد قومه فجاء على نحو قولهم : إياك أعنى واسمعي يا جارة ، وقد جاء مثل هذا فى قوله تعالى « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » وقوله : « يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ » .

الإيضاح

(فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ)

المراد بالكتاب جنسه أي الكتب السالفة كالتوراة والإنجيل ، أي فإن كنت أيها الرسول فى شك مما قلناه فى تلك الشواهد من قصة هود ونوح وموسى وغيرهم فرضا وتقديرا ، فاسأل الذين يقرءون كتب الأنبياء كاليهود والنصارى ، فإنهم يعلمون أن ما أنزلناه إليك حق لا يستطيعون إنكاره .

(84/369)

وقد جرت عادة العرب أن يقدّروا الشك فى الشيء ليبنوا عليه ما ينفى احتمال وقوعه فيقول أحدهم لابنه : إن كنت ابني فكن شجاعا ، وجاء من هذا قول المسيح عليه السلام مجيبا ربه تعالى عن سؤاله إياه « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ

سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ » فهو عليه السلام يعلم أنه لم يقله ولكنه يفرضه ليستدل على ذلك بأنه لو قاله لعلمه اللّه منه ، ويجرى العلماء فى محاوراتهم بينهم وبين نظرائهم

أو بينهم وبين تلاميذهم على هذا النمط ، فيشككونهم فيما لا شك فيه عندهم ، ليبنوا على ذلك أحكاما أخرى فيقولون : إن كانت الخمسة زوجا كانت منقسمة إلى متساويين أي إن كون الخمسة زوجا يستلزم ذلك ، وهذا لا يدل على أن الخمسة زوج وهكذا ما فى الآية فهو يدل على أنه لو حصل الشك لكان الواجب هو فعل كذا وكذا ، وليس فيها دليل على وقوعه .

(لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) الامتراء : الشك والتردد ، أي لقد جاءك الحق الواضح بأنك رسول اللّه ، وأن هؤلاء اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك ويجدون نعتك فى كتبهم ، فلا تكونن من الشاكين فى صحة ذلك .

وهذا النهى وما بعده يدلان على أن فرض الشك والسؤال فيما قبلهما تعريض بالشاكين والمكذبين له من قومه ممن لم تستنر بصيرتهم بنبوته صلى اللّه عليه وسلم فأظهروا الإيمان بألسنتهم ولم يثبت فى قلوبهم فهم فى شك فيه .

(وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

أي ولا تكونن أيها الرسول ممن كذب بآيات اللّه وحججه فى الأكوان مما يدل على وحدانيته وقدرته على إرسال الرسل لهداية البشر فتكونن ممن خسروا أنفسهم بالحرمان من الإيمان وما يتبعه من سعادة الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين ، فالشك والامتراء فيما أنزل إليك كالتكذيب بآيات اللّه جحودا بها وعنادا ، كلاهما سواء فى الخسران ، لحرمان الجميع من الهداية بها ، والوصول إلى السعادة فى الدارين .

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ) أي إن الذين ثبتت عليهم كلمة ربك بعذابهم بحسب سننه تعالى فى خلقه بفقدهم الاستعداد للاهتداء لا يؤمنون لرسوخهم فى الكفر والطغيان ، وإحاطة خطاياهم بهم ، وإعراضهم عن آيات اللّه التي خلقها فى الأكوان ، بما يرشد إلى وحدانيته وكمال قدرته .

(وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ) أي ولو جاءتهم كل آية من الآيات الكونية كآيات موسى عليه السلام التي اقترحوا مثلها عليك ، والآيات المنزلة عليك كآيات القرآن العقلية الدالة بإعجازها على أنها من عند اللّه وعلى حقّية ما تدعوهم إليه وتنذرهم به ، حتى يروا العذاب الأليم بأعينهم ويذوقوه حين ينزل بهم ، فيكون إيمانهم اضطرارا لا اختيارا منهم ، فلا يترتب عليه عمل منهم يطهرهم ويزكيهم ويقال لهم إذ ذاك « آلْآنَ وَقَدْ

كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 11 صـ 154 .
156 ﴾

(86/369)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ » .

لم يكن الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه فى شكّ مما أنزل عليه من ربه ، ولم يكن يطوف به أي طائف من الشكّ أو الامتراء ، أو التكذيب . . وكيف وهو يرى ملكوت السماء عيانا ؟ وكيف وقد ثبّت اللّه قلبه ، وأخلاه من كل وسواس ؟ . وهل يشك صاحب الرسالة فى رسالة تلقّاها من ربه ، وأقرأه إياها ملك كريم من ملائكته . . يغدو ويروح إليه أياما ، وشهورا ، وسنين ، وكيف يكون منه أثارة من شك أو تكذيب ؟ وهو الذي احتمل فى سبيل رسالته تلك ما لا تحتمل الجبال من ضر وأذى ؟ أيكون من شكّ أو تكذيب ، ممن يساوم على هذا الذي بين يديه بالمال والسلطان ، فيقول : « و اللّه لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أهلك فيه ما تركته ! » . .

وإذن فما تأويل ما نجد فى الآيتين الكريمتين ، من هذا الحديث الموجّه إلى النبي الكريم من

ربه سبحانه وتعالى ، من التحذير من أن يكون من الممترين أو من المكذبين ؟ . .

والجواب - والله أعلم - أن ذلك تعريض بأولئك الذين يكذبون بآيات الله ويمترون فيها ، من المشركين ، وأهل الكتاب ، ثم هو تهديد لهم ، ووعيد بالخيبة والخسران ، إن هم لم يبادروا ويأخذوا بحظهم من هذا الخير المرسل من الله ، إلى عباد الله ! . .

(87/369)

ومن جهة أخرى ، فإن خطاب النبي من ربه هذا الخطاب ، يضع النبي - صلوات الله وسلامه عليه - بضعه والناس جميعا على سواء بالنسبة للقرآن الكريم ، وأنه ليس له فيه شيء . . إنه من عند الله ، ومن كلام الله ، وليس من كلام النبي ، ولا من كلام أحد من البشر ، وإنه علم يحمل إلى الناس فى آيات الله وكلماته . وأنه إذا كان للناس أن يشكّوا فى هذا العلم ويضعوه موضع الاختبار فليشكّوا ، وانه إذا كان لهم أن يختلفوا على معطياته فيما بينهم فليختلفوا - ولكن على شريطة أن يكون ذلك فى سبيل الاهتداء إلى الحق والتعرف على ما يملأ العقل نورا به ، والقلب اطمئنانا وسكنا إليه . . وإلا فهو اختلاف يفرّق ولا يجمع ، ويضر ولا ينفع ، كاختلاف بنى إسرائيل حين جاءهم العلم . .

وإذن ، فالنبى - صلوات الله وسلامه عليه ، والناس جميعا - هم على سواء أمام تلك

الحقيقة العليا ، المنزلة من السماء . . ينظرون فيها ، ويتعرفون وجه الحق منها ، وأنه يمكن فرضا - وإن كان مستحيلا واقعا - أن يشكّ النبي فى هذا القرآن ، وأن يلقى نظرة فاحصة عليه ، ليتثبّت من الحقائق التي يدعى إلى الإيمان بها . . وهذا حق مشروع له ، كإنسان ، قبل ألا يكون نبيا . .

وفى هذا - كما قلنا - ردّ مفحم على المشركين والكافرين الذين يدّعون أن هذا القرآن من عند محمد ، ومن مقولاته . . إذ مستحيل فرضا وواقعا أن يشكّ إنسان فى قول صدر منه ، أو يمترى ويكذّب بقول ، يعرضه على الناس ، ويدعوهم إلى التصديق به ! ! - وفى قوله تعالى : « فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ » . . هو دعوة لأهل الكتاب أن ينظروا فى هذا الكتاب العجيب ، الذي يشكّ فيه صاحبه ، وواضعه ، كما يزعمون ! . .

إن ذلك إغراء لهم بدراسة هذا الكتاب وتفحّصه ، إذا كان كتابا شأن صاحبه معه ، هو هذا الشأن .

(88/369)

ولا تطلب الدعوة الإسلامية إليهم وإلى غيرهم من المنكرين المكذبين أكثر من أن ينظروا فى هذا الكتاب نظر تفحص ، وإمعان . .

وإنهم لو فعلوا ، لعرفوا أنه الحق من ربهم . . وأنه إذا كان هذا الكتاب منزّلا على محمد ، هو منزل إليهم أيضا . . كما يقول اللّه تبارك وتعالى : « قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ . . » (136 : البقرة) ومن جهة ثالثة ، فإننا إذ نقرأ قوله تعالى ، للنبى الكريم : « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ » . نلمح فى وجه الآية الكريمة دعوة إلى البحث والنظر ، وتقليب حقائق الأمور ، وعرضها على العقل ، ووزنها بميزانه ، قبل الأخذ بها ، وألّا يقبلها قبول استسلام وإذعان من غير اقتناع قائم على الدراسة والتأمل ، ومهما كانت ثقة الإنسان فى مصدرها ، فإن هذا لا يحرم العقل حقه من النظر فيها ، نظر بحث وتفحص !

. .

إن الشك - كما يقولون - هو أول مراتب اليقين . .

والمراد بالشك هنا هو الشك المثمر ، الذي يلقّح العقل بلقاح حب المعرفة والبحث عن الحقيقة ، وارتياد مظانّها ، وكشف وجهها سافرا مشرقا . . فهذا شك ولود للمعارف ، يضع بين يدى صاحبه محصولا وافرا من العلم الراسخ ، والحقائق الموثّقة . .

أما الشك الذي يصدر عن وسواس ووهم ، فهو داء ، يقيم صاحبه دائما على عداء مع كل حقيقة واردة ، أو علم مستحدث . . وهذا هو الشك الذي ينكره العلم ، كما يبغضه الدين ، ويبغض أهله . .

الشك الذي تتحدث عنه الآية الكريمة فى قوله تعالى : « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ » هو الشك الذي يدعو العقل إلى البحث الجادّ ، والنظر المدقق فى الحقيقة التي بين يديه ، فلا يهدأ ، ولا يستقر حتى يقع من الحقيقة على ما يملأ عقله وقلبه يقينا بها ، واطمئنانا إليها . . ولقد جاء قوله تعالى بعد ذلك : « فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ » . . ثم جاء قوله تعالى بعد هذا . : « لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ » تثبيتا لهذا اليقين الذي يقع فى القلب من النظر فى آيات اللّه . . ثم جاء بعد ذلك قوله تعالى : « فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » دعوة إلى تجنب الامتراء والجدل فى البحث عن الحقيقة . . فإن هذا الامتراء هو الآفة التي تمسك يد الإنسان عن أن تصل إلى حقيقة أبدا . . ثم جاء بعد ذلك قوله تعالى : « وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ » دعوة أخرى إلى تجنب التكذيب بالحقيقة حين يسفر وجهها . . فذلك من شأنه أن يحرم الإنسان ثمرة بحثه عنها ، وسعيه من أجل الحصول عليها . . وفى ذلك خسران أىّ خسران . .

فمراحل البحث عن الحقيقة ، كما تصورها الآيتان الكريمتان . . هى ثلاث مراحل :

مرحلة الشك . . وفيها يتجه المرء بوجوده كله ، إدراكا ، وشعورا ، ونيّة ـ للبحث عن

الحقيقة ، والعمل فى إخلاص ودأب على الوصول إليها . .

ومرحلة التمحيص لما يقع فى مجال النظر ، من حقائق ، تمحيصا معزولا عن المراء والجدل.

لمجرد الجدل . .

ومرحلة الأخذ بما يؤدّى إليه النظر من البحث والتمحيص . . سلوكا وعملا .

ولا شك أن هذه هى أقوم السبل ، وأعدل المناهج فى البحث عن الحقيقة في مجال العلم ،

والفنّ ، والدين . .

« واللّه يقول الحق وهو يهدى السبيل » . .

الآيات : (96.103) [سورة يونس (10) : الآيات 96 الى 103]

(90/369)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (96) ﴾

التفسير :

حقت عليهم : أي وقعت عليهم ، ووجبت . .

كلمة ربك : قضاؤه وحكمه الذي أوجبه وأوقعه عليهم . .

والآية الكريمة تشير إلى ما للّه سبحانه وتعالى من سلطان مطلق فى عباده ، يخلقهم كما

يشاء ، لما يشاء . . فتلك إرادته النافذة فيهم ، ومشيئته الحاكمة عليهم . .

وفى عباد اللّه ، من خلقهم اللّه لا يقبلون الإيمان ، ولا يكونون فى المؤمنين أبدا . . كما يقول سبحانه : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ » . .

(91/369)

وكما يقول النبي الكريم : « إن اللّه سبحانه خلق الخلق فقبض قبضة بيده وقال هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وقبض قبضة وقال هؤلاء للنار ولا أبالى . . رفعت الأقلام وجفّت الصحف »

فقال الصحابة : « يا رسول ألا نتّكل وندع العمل بقدرنا ؟ فقال صلى اللّه عليه وسلم : « اعملوا . فكلّ ميسّر لما خلق له . . فأهل الجنة للجنة ولها يعملون وأهل النار للنار ولها يعملون » .

« إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ »

إنهم لا يؤمنون أبدا إيمان اختيار ورضا ،

ولو جاءتهم كل آية قاهرة معجزة . . إن قدرهم يمسك بهم على ما أرادهم اللّه له ، ولن يتحولوا عنه . .

أما إيمانهم عند الموت ، أو عند مشاهدة أهوال يوم القيامة ، فلن يحسب إيمانا ، لأنه كما

قلنا إيمان المكره المضطر ، وإنه : « لا إكراه فى الدين » .

وهنا تثور فى النفس خواطر ، وتدور فى الرءوس تساؤلات .

لم هذه التفرقة بين الناس ، وهم جميعا عباد اللّه وصنعة يده . . فيكون فيهم السعيد والشقي ، بقدر مقدور عليه ، قبل أن يولد ؟

وعلى أي أساس قامت هذه التفرقة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ؟

فمواليد يولدون للجنة ، ومواليد يولدون للنار ؟

أسئلة كثيرة تدور هنا ، قلّ أن يكون إنسان فى الناس - إلا من عصم اللّه - لم تعرض له هذه القضية - قضية القضاء والقدر - فيلقاها مواجها ، أو مجانبا ، أو حذرا ، أو متخوفا . .

فالناس جميعا مبتلون بهذه المشكلة . . وإن اختلفت مواقفهم منها ، وتباينت نظراتهم إليها . .

وسيكون لنا موقف - إن شاء اللّه - مع هذه القضية ، نستعرض فيه بعضا من نظرات الناظرين إليها ، وما حصّلته تلك النظرات من خير أو شر .

ثم نعرض رأى « الإسلام » وموقف المسلم من هذه القضية . . انتهى انتهى . ا هـ ﴾

التفسير القرآنى للقرآن حـ 6 صـ 1078 . 1084 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

تفريع على سياق القصص التي جعلها الله مثلاً لأهل مكة وعظة بما حل بأمثالهم .

انتقل بهذا التفريع من أسلوب إلى أسلوب كلاهما تعريض بالمكذبين ، فالأسلوب السابق تعريض بالتحذير من أن يحل ما حل بالأمم المماثلة لهم ، وهذا الأسلوب الموالي تعريض لهم بشهادة أهل الكتاب على تلك الحوادث ، وما في الكتب السابقة من الأنباء برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فالمراد من ﴿ ما أنزلنا إليك ﴾ هو المنزل الذي تفرع عليه هذا الكلام وهو ما أنزل في هذه السورة من القصص .

ثم أن الآية تحتمل معنيين لا يستقيم ما سواهما ؛ أولهما : أن تبقى الظرفية التي دلت عليها (في) على حقيقتها ، ويكون الشك قد أطلق وأريد به أصحابه ، أي فإن كنت في قوم أهل شك مما أنزلنا إليك ، أي يشكون في وقوع هذه القصص ، كما يقال : دخل في الفتنة ، أي في أهلها .

ويكون معنى ﴿ فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ﴾ فاسأل أهل الكتاب سؤال تقرير وإشهاد عن صفة تلك الأخبار يخبروا بمثل ما أخبرتهم به ، فيزول الشك من نفوس أهل الشك إذ لا يحتمل تواطؤك مع أهل الكتاب على صفة واحدة لتلك الأخبار .

فالمقصود من الآية إقامة الحجة على المشركين بشهادة أهل الكتاب من اليهود والنصارى قطعاً لمعذرتهم .

وثانيهما : أن تكون (في) للظرفية المجازية كالتي في قوله تعالى : ﴿ فلا تكُ في مرية مما يعبد هؤلاء ﴾ [هود : 109] ويكون سوق هذه المحاورة إلى النبي صلى الله عليه وسلم على طريقة التعريض لقصد أن يسمع ذلك المشركون فيكون استقرار حاصل المحاورة في نفوسهم أمكن مما لو ألقي إليهم مواجهة .

(93/369)

وهذه طريقة في الإلقاء التعريضي يسلكها الحكماء وأصحاب الأخلاق متى كان توجيه الكلام إلى الذي يقصد به مظنة نفور كما في قوله تعالى : ﴿ لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكُونَنّ من الخاسرين ﴾ [الزمر : 65] أو كان في ذلك الإلقاء رفق بالذي يقصد سوق الكلام إليه كما في قصة الخصم من اللذين اختصما إلى داود المذكورة في سورة ص .

وكلا الاحتمالين يلاقي قوله : ﴿ فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ﴾ فإنه يقتضي أن المسؤول عنه مما لا يكتمه أهل الكتاب ، وأنهم يشهدون به ، وإنما يستقيم ذلك في القصص الموافقة لما في كتبهم فإنهم لا يتحرجون من إعلانها والشهادة بها .

وغير هذين الاحتمالين يعكر عليه بعض ما في الآية ، ويقتضي أن المخاطب النبي صلى الله عليه وسلم لمكان قوله : ﴿ من قبلك ﴾ .

وليس المراد بضمائر الخطاب كل من يصح أن يخاطب ، لأن قوله : ﴿ مما أنزلنا إليك ﴾ يناكد ذلك إلا بتعسف .

وإنما تكون جملة : ﴿ فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ﴾ جواباً للشرط باعتبار ما تفيده مادة السؤال من كونهم يجيبون بما يزيل الشك ، فبذلك يلتئم التلازم بين الشرط والجواب ، كما دلت عليه جملة : ﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ فاسأل ﴾ بهمزة وصل وسكون السين وهمزة بعد السين .

وقرأه ابن كثير والكسائي ﴿ فسَل ﴾ بفتح السين دون همزة الوصل وبحذف الهمزة التي بعد السين مخفف سَأل .

فجملة : ﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لجواب سؤال ناشىء عن الشرط وجوابه ، كأنّ السامع يقول : فإذا سألتهم ماذا يكون ، فقيل : لقد جاءك الحق من ربك .

ولما كان المقصود من ذلك علم السامعين بطريق التعريض لا علم الرسول عليه الصلاة والسلام لأنه ليس بمحل الحاجة لإعلامه بأنه على الحق قرنت الجملة بحرفي التأكيد ، وهما : لام القسم وقد ، لدفع إنكار المعرّض بهم .

وبذلك كان تفريع ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ تعريضاً أيضاً بالمشركين بأنهم بحيث يُحذر الكون منهم .

(94/369)

والامتراء : الشك فيما لا شبهة للشك فيه .

فهو أخص من الشك .

وكذلك عطف ﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله ﴾ وهو أصرح في التعريض بهم ﴿ فتكون من الخاسرين ﴾ .

وهذا يقتضي أنهم خاسرون .

ونظيره ﴿ لئن أشركت ليحبطنّ عملُك ولتكونّ من الخاسرين ﴾ [الزمر : 65] ،

وحاصل المعنى : فإن كنتم شاكين في صدق ما أنزلنا على محمد مما أصاب المكذبين قبلَكم فاسألوا أهل الكتاب يخبروكم بأن ذلك صدق ، لقد جاءكم الحق من رب محمد صلى الله عليه وسلم فلا تكونوا شاكّين ولا تكذبوا بآيات الله فتكونوا خاسرين .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97) ﴾

تبين تناسب هذه الآية مع التي قبلها بما فسرنا به الآية السابقة فإنه لما سبق التعريض إلى المشركين الشّاكّين في صدق النبي صلى الله عليه وسلم والاستشهاد عليهم في صدقه بشهادة أهل الكتاب أعقب ذلك بأنهم من زمرة الفرق الذين حقت عليهم كلمة الله أن لا يؤمنوا ، فهم لا تجدي فيهم الحجة لأنهم أهل مكابرة ، وليسوا طالبين للحق لأن الفطرة التي فطرت عليها عقولهم غيرُ قابلة لحقائق الإيمان ، فالذين لم يؤمنوا بما يجيء من الآيات هم ممن علم الله أنهم لا يؤمنون ، تلك أماراتهم .

وهذا مَسوق مساق التأييس من إيمانهم .

ومعنى (حقت) ثبتت .

و(على) للاستعلاء المجازي ، وهو تمكن الفعل الذي تعلقت به .

والمراد بكلمات الله : أمر التكوين ، وجمعت الكلمات بالنظر إلى أن متعلقها ناس كثيرون ، فكل واحد منهم تحق عليه كلمة .

وقرأ غير نافع ، وابن عامر ﴿ كلمةُ ربك ﴾ على مراعاة الجنس إذ تحق على كل أمة كلمة ، وهذا الكلام عظة للمشركين .

قال غيرهم : وتحذير من أن يكونوا مظهراً لمن حقت عليهم كلمة الشقوة وإنذار بوشك حلول العذاب بهم .

فالموصول على هذا التفسير مراد به معهود ، والجملة كلها مستأنفة ، و (إنّ) للتوكيد المقصود به التحقيق ، أي لا شك أن هؤلاء من أولئك فقد اتضح أمرهم واليأس من إيمانهم .

ويحتمل أن تجعل الجملة في موضع التعليل للقصص السابقة فتكون بمنزلة التذييل ، والموصول للعموم الجامع جميع الأمم التي هي بمثابة الأمم المتحدث عنهم وتكون (إن) لمجرد الاهتمام بالخبر ، فتفيد التعليل والربط ، وتغني عن فاء التفريع كالتي في قول بشار :

إن ذاك النجاح في التبكير

كما تقدم غير مرة ويكون في الآية تعريض آخر بالمشركين .

و(لو) وصلية للمبالغة ، أي لا يؤمنون ولو جاءتهم كلُّ آية فكيف إذا لم تجئهم إلا بعض الآيات .

و(كل) مستعملة في معنى الكثرة ، وهو استعمال كثير في القرآن .

كما سيأتي عند قوله تعالى : ﴿ وعلى كُلّ ضامر ﴾ في سورة الحج (31) وقوله : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ في سورة البقرة (27) ، أي ولو جاءتهم آيات كثيرة تشبه في الكثرة استغراق جميع الآيات الممكن وقوعها .

وقد تقدم نظير ذلك آنفاً .

ورؤية العذاب ، كناية عن حلوله بهم .

والمعنى : أنهم لا يؤمنون إلا حين لا ينفعهم الإيمان ، لأن نزول العذاب هو ابتداء مجازاتهم على كفرهم ، وليس بعد الشروع في المجازاة عفو .

ومن بركة هذا الدين أن الذين كفروا به قد هداهم الله قبل أن ينزل بهم عذاباً . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(96/369)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

والخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونحن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال من البداية إنه لا يشك في رسالته ، وحين وعده أهله بالسيادة قال :

" والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته " .

نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يضمر خطاب الأمة في خطاب رسوله صلى الله عليه وسلم

؛ لأن الأتباع حين يقرأون ويسمعون الخطاب وهو موجَّه بهذا الأسلوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فهم لن يستنكفوا عن أيِّ أمر يصدر إليهم .

ومثال ذلك : لو أن قائداً يصدر أمراً لاثنين من مساعديه اللذين يقودان مجموعتين من المقاتلين ، فيقول القائد الأعلى لكل منهما : إياك أن تفعل كذا أو تصنع كذا . والقائد الأعلى بتعليماته لا يقصد المساعدين له ، ولكنه يقصد كل مرءوسيهم من الجند .

وجاء الأمر هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لتفهم أمته أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان ليتأبَّى على أمر من أوامر الله ، بل هو صلى الله عليه وسلم ينفّذ كل ما يؤمر به بدقة ؛ وذلك من باب خطاب الأمة في شخصية رسولها صلى الله عليه وسلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ ﴾ [يونس : 94] .

هذا القول دليل على أن الذين عندهم علم بالكتاب من السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعرفون الحقائق الواضحة عن رسالته صلى الله عليه وسلم .

وإن الذين يكابرون ويكفرون برسول الله صلى الله عليه وسلم ورسالته إنما يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

وقد قال عبد الله بن سلام : " لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد " .

(97/369)

إذن : فالحق عندهم واضح مكتوبٌ في التوراة من بشارة به صلى الله عليه وسلم ، وهذا يثبت أنك يا محمد صادق في دعوتك ، بشهادة هؤلاء .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿ لَقَدْ جَآءَكَ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ [يونس : 94] .

والحق القادم من الله تعالى ثابت لا يتغير ؛ لأنه واقع ، والواقع لا يتعدد ، بل يأتي على صورة واحدة .

أما الكذب فيأتي على صور متعددة .

ولذلك فمهمة المحقِّق الدقيق أن يقلِّب أوجه الشهادات التي تقال أمامه في النيابة أو القضاء ؛ حتى يأتي حكمه مصيباً لا مدخل فيه لتناقض ، ولا يعتمد على تخيُّل أو أكاذيب .

وقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَآءَكَ الحق ﴾ [يونس : 94] .

إنما يدل على أن الذين قرأوا الكتاب قد عرفوا أنك رسول الله حقّاً ، ومنهم من ترك معسكر اليهودية ، وجاء إلى معسكر الإيمان بك ؛ لأن الحق الذي جاء لا دخل للبشرية فيه ، بل جاء من ربك :

﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ [يونس : 94] .

ومجيْ الخطاب بهذا الشكل ، هو كما قلت موجَّه إلى الأمَّة المؤمنة في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم .

والحق سحبانه يقول :

﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] .

هذا القول نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن غير المعقول أن يشرك النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل الآيات التي تحمل معاني التوجيه في الأمور المنزَّه عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصَّة بأمته .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِ الله فَتَكُونَ مِنَ الخاسرين ﴾ [يونس : 95] .

والقول الحكيم ساعة يوجّه إلى الخير قد يأتي بمقابلة من الشر ؛ لتتضح الأشياء بالمقارنة .

ونحن في حياتنا اليومية نجد الأب يقول لابنه : اجتهد في دروسك ، واستمع إلى مدرِّسيك جيّداً حتى تنجح ، فلا تكن مثل فلان الذي رسب ، والوالد في هذه الحالة يأتي بالإغراء الخيِّر ، ويصاحبه بمقابله ، وهو التحذير من الشر .

وقد قال الشاعر :

فالوَجْهُ مثلُ الصُّبحِ مُبْيَضٌّ . . . والشَّعْرُ مثلُ الليلِ مُسْوَدُّ

ضِدَّانِ لمَّا استجمعا حَسُنَا . . . والضِّدُّ يُظْهِر حُسنَهُ الضِّدُّ

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (95) ﴾

وآيات الله سبحانه كما نعرفها متعددة ؛ إما آيات كونية وهي الأصل في المعتقد الأول بأن خالقها هو الخالق الأعلى سبحانه ، وتُلْفِت هذه الآيات إلى بديع صُنْعه سبحانه ، ودقة تكوين خلقه ، وشمول قدرته .

وكذلك يُقصد بالآيات ؛ المعجزات المنزلة على الرسل عليهم السلام لتظهر صدق كل رسول في البلاغ عن الله تعالى .

وآيات القرآن الكريم التي تحمل منهج الله .

وهم كانوا يُكذِّبون بكل الآيات .

والخطاب في هذه الآية هو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وجاء معطوفاً على ما في الآية السابقة ، حيث يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ [يونس : 94] .

وكل ما يريد من مثل هذا القول لا يصح أن نفهم منه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الممكن أن يشك ، أو من المحتمل أن يكون من الذين كذَّبوا بآيات الله سبحانه وتعالى ولكن إيراد مثل هذا الأمر ، هو إيراد لدفع خواطر البشرية ، أيًا كانت تلك الخواطر ، فإذا وجدنا الخطاب المراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم في التنزيل ، فغاية المراد اعتدال موازين الفهم في أمّته تعليماً وتوجيهاً ؛ لأن المنهج مُنزّل عليه لتبليغه لأمته فهو شهيد على الأمم .

(99/369)

وإذا كانت الآية التي سبقت توضح : إن كنت في شك فاسأل ، فهو سبحانه يعطيه السؤال ؛ ليستمع منه إلى الجواب ، وليُسْمعه لكل الأمة ؛ الجواب القائل : أنا لا أشك ولا أسأل ، وحسبي ما أنزل الله سبحانه عليَّ .

ألم يَرِدْ في القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى يقول للملائكة يوم القيامة بمحضر من عبدوا الملائكة ، ويشير إلى هؤلاء الذين عبدوا الملائكة ومخاطباً ملائكته .

﴿ أهؤلاء إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ [سبأ : 40] .

ونحن نعلم أن الملائكة :

﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6] .

والحق سبحانه يعلم مسبقاً جواب الملائكة ، وهم يقولون :

﴿ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ﴾ [سبأ : 41] .

ولكنه سبحانه وتعالى أراد أن يُسْمِع من في الحشر كلهم جواب الملائكة وهم يستنكرون أن يعبدهم أحد من الخَلق ، فهؤلاء الخلق إنما عبدوا الجن .

إذن : فالسؤال جاء ؛ ليبين الرد عليه ، مثلما يرد عيسى عليه السلام حين يُعبد من بعض قومه ، ويسأله سبحانه عن ذلك :

﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إِلهين مِن دُونِ الله ﴾ [المائدة : 116] .

فيأتي الجواب :

﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة : 116] .

إذن : فالمراد أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : أنا لا أشك ولا أسأل .

والشك كما نعلم معناه : تساوي كفة النفي وكفة الإثبات ، فإن رجحت واحدة منهما فهذا ظن ، وتكون المرجوحة وَهْماً وافتراء وكذباً .

وكلمة " الشك " مأخوذة من مسألة حسية ، فنحن نرى الصيادين وهم يصعون كل سمكة

بعد اصطيادها في خيط يسمى " المشكاك " .

وكذلك نرى من يقوم ب (لضْم) العقود ، وهو يشك الحبة في الخيط .

من هذا نأخذ أن الشك معناه : ضَمُّ شيء إلى شيء ، ومنه الشكائك ، وهي البيوت المنتظمة بجانب بعضها البعض .

(100/369)

ومنه " شاك السلاح " أي : الذي ضَمَّ نفسه إلى الدرع .

فالشك هو ضم شيء إلى شيء ، وفي النسب تضم النفي والإثبات معاً ؛ لأنك غير قادر على أن ترجّح أحدهما .

وكل خطاب في الشك يأتي على هذا اللون .

والآية التي نحن بصددها تقول :

﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِ الله فَتَكُونَ مِنَ الخاسرين ﴾ [يونس : 95] .

ونحن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو نفسه آية من الآيات ، وهكذا نرى أن الخطاب مُوجَّه لأمته ، فمن المستحيل أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم من المكذِّبين لآيات الله سبحانه وتعالى لأن التكذيب بآيات الله تعالى يعني : إخراج الصدق إلى الكذب ،

وإخراج الواقع إلى غير الواقع .

والذين كذبوا بالآيات إما أنهم لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون بإله ولا يؤمنون برسول ، أو يؤمنون بإله ويؤمنون برسول ولا يؤمنون بما أنزِل على الرسول صلى الله عليه وسلم .

والذي يؤيد هذا وجود آية في آخر السورة يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الناس إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ [يونس : 104] .

فكأن الخطاب المقصود منه الأمة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ (96) ﴾

وهذا القول يوضح لنا أن الحق سبحانه وتعالى قد علم عِلْماً أزليّاً بأنهم لن يُوجِّهوا اختيارهم للإيمان .

فحكمه هنا لا ينفي عنهم مسئولية الاختيار ، ولكنه علم الله الأزلي بما سوف يفعلون ، ثم جاءوا إلى الاختيار فتحقق علم الله سبحانه وتعالى بهم من سلوكهم .

وحُكْمه سبحانه مبنيٌّ على الاختيار ، وهو حكم تقديري .

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى حين يأتي وزير الزراعة ، ويعلن أننا قدَّرنا محصول القطن هذا العام ، بحساب مساحة الأراضي المنزرعة قطناً ، وبالمتوسط المتوقع لكل فدان ، وقد يصيب الحكم ، وقد يخيب نتيجة العوامل والظروف الأخرى المحيطة بزراعة القطن ، فمن المحتمل أن يُصاب القطن بآفة من الآفات ، مثل : دودة اللوزة ، أو دودة الورقة .

إذن : ففي المجال البشري قد يصيب التقدير وقد يخطىء ؛ لأن الإنسان يُقدِّر بغير علم مُطْلق ، بل بعلم نسبي .

أما تقدير الحق سبحانه فهو تقدير أزلي ، وحين يُقدّر الحق سبحانه فلا بد من وقوع ما قدَّره .

ولذلك يجب أن نفرق بين قضاء حكم لازم قهري ليس للإنسان فيه تصرف ، وبين قدر قد قُدِّر من الله تعالى أن يفعله الإنسان باختياره ، وهذه هي عظمة علم الغيب .

ومثال ذلك : هو سلوك أبي لهب ، فقد نزل فيه قرآن يُتلَى :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد : 12] .

وقد نزلت السورة وأبو لهب على قيد الحياة ؛ لأن الحق سبحانه قد علم أزلاً أن خواطر أبي لهب لن تدفعه إلى الإيمان ، ولو أن أبا لهب امتلك ذرة من ذكاء لجاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أنت قلت عنِّي إنني سأصْلَى النار ، لكن ها أنذا أعلن أنني أشهد ألا إله

إلا الله وأشهد أنك رسول الله .

لكن ذلك الذكاء لم يكن يملكه أبو لهب ، فقد علم الله أزلاً أن خواطره لن تدفعه إلى الإسلام ، مثلما دفعت حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص . وكان إسلام هؤلاء رغم وقوفهم ضد النبي صلى الله عليه وسلم أمراً وارداً .

وقد يُقدِّر البشر التقدير ، لكن هذا التقدير إنما يتم حسب المعلومات المتاحة لهم ، ولا يملك إنسان علماً كونيّاً أزليّاً بتقديراته ، فعلمه محدود ، وقد يأتي الأمر على غير ما يُقدِّر ؛ لأن الإنسان لا يملك ما يقدر .

(102/369)

ولا يقولنَّ أحدٌ : إن الله يعاقب بعد أن قدَّر مسبقاً ؛ لأن تقدير الحق سبحانه نابع من علمه الأزلي ، وهم كانوا يتمتعون بحق الاختيار . والله سبحانه هو القائل :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : 124125] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97) ﴾

إذن : فمجيء الآيات وتكرارها لن يفيدهم في الاتجاه إلى الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيتوجهون باختيارهم إلى الكفر ؛ فقد قالوا من قبل ما أورده الحق سبحانه في كتابه العزيز :

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ ترقى فِي السمآء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 9093] .

وكأن الحق سبحانه يأمر رسوله أن يقول موضحاً : لستُ أنا الذي يُنزل الآيات ، بل الآيات من عند الله تعالى ، ثم يأتي القرآن بالسبب الذي لم تنزل به تلك الآيات التي طلبوها ، فيقول سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون ﴾ [الإسراء : 59] .

إذن : فقد نزلت آيات كثيرة لمن سبق في المعاندة والمعارضة ، ويقابل قضية عرض الإيمان عليه بكفر يملأ قلبه .

فإن كان هناك من يبحث عن الإيمان فليدخل على بحث الإيمان بدون مُعتقد سابق ، ولينظر إلى المسألة ، وما يسمح به قلبه فليُدخله فيه ؛ وبهذا الاختيار القلبي غير المشروط بمعتقد سابق هو قمة القبول .

وقد قال الحق سبحانه في الآيات السابقة كلاماً في الوحدانية ، وكلاماً في الآيات المعجزات ، وكلاماً في صدق النبوة ، وكلاماً عن القيامة ، وقصَّ لنا سبحانه بعضاً من قصص مواكب الرسل ، من نوح عليه السلام ، ثم فصَّل قليلاً في قصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتي من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام .

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه جاء بقصة نوح عليه السلام في إطناب ، ثم جاء بخبر عن رسل لم يَقُلْ لنا عنهم شيئاً ، ثم جاء بقصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتي من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام ، فالسورة تضم ثلاثاً من الرسالات : رسالة نوح ، ورسالة موسى وهارون ، ورسالة يونس : وهو الرسول الذي سُمِّيت السورة باسمه .

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء بهؤلاء الثلاثة في هذه السورة ؟

وأقول : لقد تعبنا كثيراً ، ومعنا كثير من المفسرين حتى نتلمَّس الحكمة في ذلك ، ولماذا لم

تأت في السورة قصة هود ، وثمود ، وشعيب ، وكان لا بد أن تكون هناك حكمة من ذلك .

هذه الحكمة فيما تجلى لنا أن الحق سبحانه وتعالى يعرض موكب الرسالة وموكب المعارضين لكل رسول ، والنتيجة التي انتهى إليها أمر الأعداء ، وكذلك النتيجة التي انتهى إليها أمر الرسول ومَنْ آمن به .

ونجد الذين ذكرهم الله سبحانه هنا قد أهلكوا إهلاكاً متحداً بنوع واحد في الجميع ، فإهلاك قوم نوح كان بالغرق ، وكذلك الإهلاك لقوم فرعون كان بالغرق ، وكذلك كانت قصة سيدنا يونس لها علاقة بالبحر ، فقد ابتلعه الحوت وجرى في البحر .

إذن فمَنْ ذُكِر هنا من الرسل كان له علاقة بالماء ، أما بقية الموكب الرسالي فلم تكن لهم علاقة بالماء .

(104/369)

ونحن نعرف أن الماء به الحياة ، وبه الإهلاك ؛ لأن واهب الحياة يهب الحياة بالشيء ، ويُهلك بالشيء نفسه . وكأن الحق سبحانه يبيِّن لنا الحكمة : أنا أهلكتُ بالغرق هناك ، ونجَّيْتُ من الغرق هنا .

إذن : فطلاقة القدرة الإلهية هي المستولية على هذه السورة ، كما تظهر طلاقة القدرة في

مجالات أخرى ، وبألوان أخرى .

وسُمِّيت هذه السورة باسم يونس ؛ لأن الحق سبحانه أرسله إلى أكثر من مائة ألف ، وهم الأمة الوحيدة في هذا المجال التي استثناها الحق سبحانه من الإهلاك ، فقد أغرق قوم نوح ، وأغرق قوم فرعون ؛ فكلاهما قد كذَّب الرسل ، ولكن قوم يونس أول ما رأوا البأس آمنوا فأنجاهم الله سبحانه .

وسُمِّيت السورة باسم من نجا ؛ لأنه عاد إلى الحق سبحانه قبل أن يعاين العذاب ، ولكنهم رأوا فقط بشائر العذاب ، فنجَّوا أنفسهم بالإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(105/369)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ﴾ قال :

لم يشك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسأل .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ﴾ قال : " ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا أشك ولا أسأل " .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ﴾ قال : التوراة والإنجيل الذين أدركوا محمداً صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب فآمنوا به يقول : سلهم إن كنت في شك بأنك مكتوب عندهم .

وأخرج أبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سماك الحنفي قال : قلت لابن عباس رضي الله عنهما إني أجد في نفسي ما لا أستطيع أن أتكلم به . فقال : شك ؟ قلت : نعم . قال : ما نجا من هذا أحد حتى نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك . . . ﴾ الآية . فإذا أحسست أو وجدت من ذلك شيئاً فقل ﴿ هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ [الحديد : 3] .

(106/369)

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن الحسن رضي الله عنه قال : خمسة أحرف في القرآن ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ [إبراهيم : 26] معناه وما كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾ [الأنبياء : 17] معناه ما كنا فاعلين ﴿ قل إن كان للرحمن ولد ﴾ [الزخرف : 81] معناه ما كان للرحمن ولد ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ﴾ [الأحقاف : 26] معناه في الذين ما مكناكم فيه ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ﴾ معناه فما كنت في شك .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن في قوله ﴿ فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ﴾ قال : سؤالك إياهم نظرك في كتابي كقولك : سل عن آل المهلب دورهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97) ﴾

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ﴾ قال : حق عليهم سخط الله بما عصوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ ﴾ : في " إنْ " هذه وجهان ، الظاهر منهما : أنها شرطيةٌ ، ثم استشكلوا على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكنْ في شك قط . قال الزمخشري : " فإن قلت كيف قال لرسوله : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ ﴾ مع قوله للكفرة : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [هود : 110] ؟ قلت : فرقٌ عظيم بين إثباته الشكَّ لهم على سبيل التوكيد والتحقيق ، وبين قوله : " فإن كنت " بمعنى الفَرَض والتمثيل " . وقال الشيخ : " وإذا كانت شرطيةً فقالوا : إنها تدخُل على الممكنِ وجودُه أو المحقَّقِ وجودُه المبهمِ زمنُ وقوعِه كقوله تعالى : ﴿ أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الخالدون ﴾ [الأنبياء : 34] . قال " والذي أقولُه إنَّ " إنْ " الشرطية تقتضي تعليق شيءٍ على شيء ، ولا تستلزمُ تحتُّمَ وقوعِه ولا إمكانَه ، بل قد يكون ذلك في المستحيل عقلاً كقولِه تعالى : ﴿ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ [الزخرف : 81] ، ومستحيلٌ أن يكونَ له ولدٌ فكذلك [هذا] ، مستحيلٌ أن يكون في شك ، وفي المستحيل عادةً كقوله تعالى : ﴿ فَإِن استطعت أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأرض ﴾ [الأنعام : 35] لكنَّ وقوعَها في تعليق المستحيل قليلٌ " . ثم قال : " ولمَّا خَفِي هذا الوجه على أكثر الناس اختلفوا في تخريج هذه الآية ، فقال ابن عطية : "

الصواب أنها مخاطبةٌ ، والمرادُ مَنْ سواه مِنْ أمته ممَّن يمكن أن يَشُكَّ أو يعارِض " . وقيل : كنى بالشك عن الضيق . وقيل : كنى به عن العجب ، ووجه المجاز فيه أن كلاً منهما فيه تَرَدُّد ، وقال الكسائي : إنْ كنت في شك أنَّ هذا عادتُهم مع الأنبياء فَسَلْهُمْ كيف كان صبر موسى عليه السلام ؟

(108/369)

الوجه الثاني مِنْ وجهي " إنْ " أنها نافية . قال الزمخشري : " أي : فما كنت في شك فاسأل ، يعني لا نأمرك بالسؤال لكونِك شاكًّا ولكن لتزداد يقيناً كما ازدادَ إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى . وهذا القولُ سبقه إليه الحسنُ البصري والحسين بن الفضل وكأنه فرارٌ من الإشكال المتقدّم في جَعْلها شرطيةً ، وقد تقدَّم جوابُه مِنْ وجوهٍ .

وقرأ يحيى وإبراهيم : "يَقْرؤون الكتب " بالجمع ، وهي مبينة أن المرادَ بالكتاب الجنسُ لا كتابٌ واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 267 . 268﴾

(109/369)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيات

قال عليه الرحمة :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

ما شكَّ – صلى الله عليه وسلم – فيما عليه أُنزِل ، ولا عن أحدٍ منهم ساءَل ، وإنما هذا الخطابُ على جهة التهويل ، والمقصود منه تنبيهُ القوم على ملازمة نهج السبيل .

ويقال صفة أهل الخصوص ملاحظة أنفسهم وأحوالهم بعين الاستصغار .

ويقال فإنْ تَنَزَّلْتَ منزلةَ أهلِ الأدب في تَرْكِ الملاحظات فَسَلْ عَمَّن أرسلنَا قَبْلَكَ فهل بَلَّغْنَا أحداً من منزلتك ؟ وهل خَصَصْنَا أحداً بمثل تخصيصك ؟ .

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (95) ﴾

ما كان منهياً عنه ، وكان قبيحاً فبالشرع كان قبيحاً ، فلا بدّ من ورود الأمر به حتى تكون منه طاعة وعبادة . وإنما لم يَجُزْ في صفته – صلى الله عليه وسلم – التكذيبُ بآياتِ الله ؛ لأنه نُهِيَ لا لكونه قبيحاً بالعقل حتى يقال كيف نُهِيَ عنه وكان ذلك بعيداً منه ؟

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) ﴾

فالأعداء حقَّتْ عليهم كلمةٌ بالعقاب ، والأولياء حقت عليهم كلمةٌ بالثوابِ ؛ فالكلمة أزليَّة ، والأحكام سابقة ، والأفعال في المستأنف على ممر الأوقات على موجب القضية

لاحقة ، فالذين نصيبهم من القسمة الشِقْوةُ لا يؤمِنون وإن شاهدوا كل دلالة ، وعاينوا كل معجزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 115.116 ﴾

(110/369)

قوله تعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (98) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا موضع أن يقال : إنما تطلب الآيات لما يرجى من تسبب الإيمان عنها ، تسبب عنه أن يجاب بقوله تعالى : ﴿ فلولا ﴾ أي فهلا ﴿ كانت قرية ﴾ أي واحدة من قرى الأمم الماضية التي أهلكناها ﴿ آمنت ﴾ أي آمن قومها عند إتيان الآيات أو عند رؤية أسباب العذاب ﴿ فنفعها ﴾ أي فتسبب عن إيمانها ذلك أنه نفعها - ﴿ إيمانها ﴾ ولما كان المعنى " لولا " النفي ، كان التقدير : لكن لم تؤمن قرية منهم إلاّ عند صدم العذاب كما فعل فرعون ، لو آمن عند رؤية البحر على حال الفلق أو عند توسطه وقبل انسيابه عليه قُبِل ، ولكنه ما آمن إلا بعد انهماره ومسه .

وذلك حين لا ينفع لفوات شرطه من الإيمان بالغيب ﴿ إلاّ قوم يونس ﴾ فإنهم آمنوا عند المخايل وقت بقاء التكليف فنفعهم ذلك فإنهم ﴿ لما آمنوا ﴾ ودل على أنه قد كان أظلهم بقوله : ﴿ كشفنا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ عنهم ﴾ أي حين إيمانهم ، روي أنه لم يبق بينهم وبين العذاب إلاّ قدر ميل ﴿ عذاب الخزي ﴾ أي الذي كان يوجب لهم لو برك عليهم هوان الدارين ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ أي فلم يأخذهم وقت رؤيتهم له ﴿ ومتعناهم ﴾ أي تمتيعاً عظيماً ﴿ إلى حين ﴾ وهو انقضاء آجالهم مفرقة كل واحد منهم في وقته المضروب له ، وما ذكرته في معنى الآية نقله القاضي أبو محمد إسحاق بن إبراهيم البستي في تفسيره المسند عن ابن أبي عمر قال : قال سفيان الثوري : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت ﴾ قال : فلم تكن قرية آمنت ، وهذا تفسير معنى الكلام ، وأما " لولا " فهو بمعنى هلا ، وهي على وجوه تحضيض وتأنيث ، أي توبيخ ، وهي هنا للتوبيخ .

ويجوز أن تكون استفهامية بمعنى " لولا " ، ويلزم كلا من المعنيين النفي ؛ والنفع : إيجاب اللذة بفعلها أو ما يؤدي إليها كالدواء الكريه المؤدي إلى اللذة ؛ والخزي هو أن يفضح صاحبه ، وهو وضع من القدر للغم الذي يلحق به ، وأصله التعب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 489 . 490 ﴾

(111/369)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين من قبل ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حتى يَرَوُاْ العذاب الاليم ﴾ [يونس : 96 ، 97] أتبعه بهذه الآية ، لأنها دالة على أن قوم يونس آمنوا بعد كفرهم وانتفعوا بذلك الإيمان ، وذلك يدل على أن الكفار فريقان : منهم من حكم عليه بخاتمة الكفر ، ومنهم من حكم عليه بخاتمة الإيمان وكل ما قضى الله به فهو واقع .

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في كلمة ﴿ لَوْلاَ ﴾ في هذه الآية طريقان :

الطريق الأول : أن معناه النفي ، روى الواحدي في "البسيط" قال : قال أبو مالك صاحب ابن عباس كل ما في كتاب الله تعالى من ذكر لولا ، فمعناه هلا ، إلا حرفين ، ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ ءامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ معناه فما كانت قرية آمنت ، فنفعها إيمانها ، وكذلك ﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ القرون مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [هود : 116] معناه ، فما كان من القرون ، فعلى هذا

تقدير الآية ، فما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس .

وانتصب قوله : ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ ﴾ على أنه استثناء منقطع عن الأول ، لأن أول الكلام جرى على القرية ، وإن كان المراد أهلها ووقع استثناء القول من القرية ، فكان كقوله :

وما بالربع من أحد . . ألاأواري

وقرىء أيضاً بالرفع على البدل .

الطريق الثاني : أن ﴿ لَوْلاَ ﴾ معناه هلا ، والمعنى هلا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت في الإيمان قبل معاينة العذاب إلا قوم يونس .

وظاهر اللفظ يقتضي استثناء قوم يونس من القرى ، إلا أن المعنى استثناء قوم يونس من أهل القرى ، وهو استثناء منقطع بمعنى ولكن قوم يونس لما آمنوا فعلنا بهم كذا وكذا .

المسألة الثانية :

(112/369)

روي أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضباً ، فلما فقدوه خافوا نزول العقاب ، فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة ، وكان يونس قال لهم إن أجلكم أربعون ليلة .

فقالوا : إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك ، فلما مضت خمس وثلاثون ليلة ظهر في السماء غيم أسود شديد السواد ، فظهر منه دخان شديد وهبط ذلك الدخان حتى وقع في المدينة وسود سطوحهم فخرجوا إلى الصحراء ، وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب وأولادها فحن بعضها إلى بعض فعلت الأصوات ، وكثرت التضرعات وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا إلى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم ، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود بلغ من توبتهم أن يردوا المظالم حتى أن الرجل كان يقلع الحجر بعد أن وضع عليه بناء أساسه فيرده إلى مالكه ، وقيل خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى ؟ فقال لهم قولوا يا حي حين لا حي .

ويا حي يا محيي الموتى ويا حي لا إله إلا أنت ، فقالوا فكشف الله العذاب عنهم ، وعن الفضل بن عباس أنهم قالوا : اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله .

المسألة الثالثة :

إن قال قائل إنه تعالى حكى عن فرعون أنه تاب في آخر الأمر ولم يقبل توبته وحكى عن قوم يونس أنهم تابوا وقبل توبتهم فما الفرق ؟

والجواب : أن فرعون إنما تاب بعد أن شاهد العذاب ، وأما قوم يونس فإنهم تابوا قبل ذلك

فإنهم لما ظهرت لهم أمارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل أن شاهدوا فظهر الفرق .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 132 . 133 ﴾

(113/369)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَا ﴾ والمراد بالقرية أهل القرية .

﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ وهم أهل نينوى من بلاد الموصل فإن يونس عليه السلام وعدهم بالعذاب بعد ثلاثة أيام ، فقالوا : انظروا يونس فإن خرج عنا فوعيده حق ، فلما خرج عنهم تحققوه ففزعوا إلى شيخ منهم فقال : توبوا وادعوا وقولوا يا حي حين لا حي ، ويا حي يا محيي الموتى ، ويا حي لا إله إلا أنت ، فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل والدة وولدها ، وخرجوا من قريتهم تائبين داعين فكشف الله عنهم العذاب كما قال تعالى :

﴿ . . . كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وفيه وجهان :

أحدهما : أنهم تابوا قبل أن يروا العذاب فلذلك قبل توبتهم ، ولو رأوه لم يقبلها كما لم يقبل من فرعون إيمانه لما أدركه الغرق .

الثاني : أنه تعالى خصهم بقبول التوبة بعد رؤية العذاب ، قال قتادة : كشف عنهم العذاب

بعد أن تدلى عليهم ولم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل .

﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : إلى أجلهم ، قاله السدي .

الثاني : إلى أن يصيرهم إلى الجنة أو النار ، قاله ابن عباس .

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : إن الحذر لا يرد القدر ، وإن الدعاء يرد القدر ، وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ ﴾ قال عليّ رضي الله عنه ذلك يوم عاشوراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(114/369)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ فلولا كانت قرية آمنت ﴾ الآية

في مصحف أبيّ وابن مسعود " فهلا " والمعنى فيهما واحد ، وأصل " لولا " في الكلام التحضيض أو الدلالة على منع أمر لوجود غيره ، فأما هذه فبعيدة عن هذه الآية لكنها من جملة التي هي للتحضيض بها ، أن يكون المحضض يريد من المخاطب فعل ذلك الشيء

الذي يخصه عليه ، وقد تجيء " لولا " ، وليس من قصد المخاطب أن يحض المخاطب على فعل ذلك الشيء فتكون حينئذ لمعنى توبيخ كقول جرير : [الطويل]

لولا الكمي المقنعا . . . وذلك أنه لم يقصد حضهم على عقر الكمي ، كقولك لرجل قد وقع في أمر صعب : لولا تحرزت ، وهذه الآية من هذا القبيل .

قال القاضي أبو محمد : ومفهوم من معنى الآية نفى إيمان أهل القرى ، ومعنى الآية فهلا آمن من أهل قرية وهم على مهل لم يلتبس العذاب بهم فيكون الإيمان نافعاً في هذه الحالة ، ثم استثنى قوم يونس ، فهو بحسب اللفظ استثناء منقطع ، وكذلك رسمه النحويون أجمع وهو بحسب المعنى متصل ، لأن تقديره ما آمن من أهل قرية إلا قوم يونس والنصب في قوله ﴿ إلا قوم ﴾ هو الوجه ، ولذلك أدخله سيبويه في باب ما لا يكون فيه إلا النصب ، وكذلك مع انقطاع الاستثناء ويشبه الآية قول النابغة :

(115/369)

إلا الأواري . . . وذلك هو حكم لفظ الآية ، وقالت فرقة : يجوز فيه الرفع وهذا اتصال الاستثناء ، وقال المهدوي : والرفع على البدل من ﴿ قرية ﴾ وروي في قصة قوم موسى : أن القوم لما كفروا أوحى الله إليه : أن أنذرهم بالعذاب الثلاثة ، ففعل فقالوا : هو رجل لا

يكذب فارقبوه ، فإن قام بين أظهركم فلا عليكم ، وإن ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لا شك ، فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا ودعوا الله وآمنوا ولبسوا المسوح وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم ، والعذاب منهم فيما روي عن ابن عبّاس على ثلثي ميل ، وروي عن علي ميل ، وقال ابن جبير غشيهم العذاب كما يغشي الثوب القبر فرفع الله عنهم العذاب فلما مضت الثلاثة وعلم يونس أن العذاب لم ينزل قال كيف أنصرف وقد وجدوني في كذب فذهب مغاضباً كما ذكر الله في هذه الآية .

قال القاضي أبو محمد : وذهب الطبري إلى أن قوم يونس خصوا من بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب ذكر ذلك عن جماعة من المفسرين وليس كذلك ، والمعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي تلبس العذب أو الموت بشخص الإنسان كقصة فرعون ، وأما قوم يونس فلم يصلوا هذا الحد ، وقرأ الحسن وطلحة بن مصرف وعيسى بن عمر وابن وثاب والأعمش " يونِس " بكسر النون وفيه للعرب ثلاث لغات ضم النون وفتحها وكسرها وكذلك في " يوسف " ، وقوله : ﴿ إلى حين ﴾ ، يريد إلى آجالهم المفروضة في الأزل ، وروي أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل ويقتضي ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم حين قال له إنه من أهل نينوى ، من قرية الرجل الصالح يونس بن متى الحديث ، الذي في السيرة لابن إسحاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ﴾

قال الأخفش والكسائي : أي فهلاّ .

وفي مصحف أُبَيّ وابن مسعود "فهلا" وأصل لولا في الكلام التحضيض أو الدلالة على منع أمر لوجود غيره .

ومفهومٌ من معنى الآية نفي إيمان أهل القرى ثم استثنى قوم يونس ؛ فهو بحسب اللفظ استثناء منقطع ، وهو بحسب المعنى متصل ؛ لأن تقديره ما آمن أهل قرية إلا قوم يونس .

والنصب في "قوم" هو الوجه ، وكذلك أدخله سيبويه في (باب ما لا يكون إلاّ منصوباً) .

قال النحاس : "إلا قوم يونس" نصب لأنه استثناء ليس من الأوّل ، أي لكن قوم يونس ؛ هذا قول الكسائي والأخفش والفراء .

ويجوز .

"إلا قومُ يونس" بالرفع ، ومن أحسن ما قيل في الرفع ما قاله أبو إسحاق الزجاج قال : يكون المعنى غيرُ قومِ يونس ، فلما جاء بإلاّ أعرب الاسم الذي بعدها بإعراب غير كما قال :

وكلُّ أخٍ مفارِقه أخوه . . .

لَعَمْرُ أبيك إلا الفَرْقدانِ

وروي في قصة قوم يونس عن جماعة من المفسرين : أن قوم يونس كانوا بِنينَوى من أرض المَوصل وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه فأَبَوْا ؛ فقيل : إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم ؛ فقيل له : أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاثٍ ففعل ، وقالوا : هو رجل لا يكذب فارقبوه فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم ، وإن ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لا شك ؛ فلما كان الليل تزوّد يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا ودعوا الله ولبسوا المُسوح وفرّقوا بين الأُمهات والأولاد من الناس والبهائم ، وردّوا المظالم في تلك الحالة .

وقال ابن مسعود : وكان الرجل يأتي الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه فيردّه ؛ والعذاب منهم فيما روي عن ابن عباس على ثلثي مِيل .

ورُوي على ميل .

وعن ابن عباس أنهم غشيتهم ظُلّة وفيها حمرة فلم تزل تدنو حتى وجدوا حرّها بين أكتافهم .

(117/369)

وقال ابن جبير : غشيهم العذاب كما يغشي الثوب القبر ، فلما صحت توبتهم رفع الله عنهم العذاب .

وقال الطبري : خص قوم يونس من بين سائر الأُمم بأن تيب عليهم بعد معاينة العذاب ؛ وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين .

وقال الزجاج : إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأُوا العلامة التي تدلّ على العذاب ، ولو رأُوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان .

قلت : قول الزجاج حسن : فإن المعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون ، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على أثر قصة فرعون لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك ، وقوم يونس تابوا قبل ذلك .

ويَعْضُد هذا قوله عليه السلام : " إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر "

والغرغرة الحشرجة ، وذلك هو حال التلبس بالموت ، وأما قبل ذلك فلا .

والله أعلم .

وقد روى معنى ما قلناه عن ابن مسعود ، أن يونس لما وعدهم العذاب إلى ثلاثة أيام خرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا وفرقوا بين الأُمهات والأولاد ؛ وهذا يدلّ على أن توبتهم قبل رؤية علامة العذاب .

وسيأتي مسنداً مبيّناً في سورة "والصافات" إن شاء الله تعالى .

ويكون معنى ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزي ﴾ أي العذاب الذي وعدهم به يونس أنه ينزل بهم ، لا أنهم رأُوه عِيانا ولا مخايلة ؛ وعلى هذا لا إشكال ولا تعارض ولا خصوص ، والله أعلم .

وبالجملة فكان أهل نينوى في سابق العلم من السعداء .

ورُوي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال : إن الحذر لا يردّ القدر ، وإن الدعاء ليرد القدر .

وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدنيا ﴾ .

قال علي رضي الله عنه : وذلك يوم عاشوراء .

قوله تعالى : ﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ ﴾ قيل : إلى أجلهم ؛ قاله السُّدّي وقيل : إلى أن يصيروا إلى الجنة أو إلى النار ، قاله ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(118/369)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فلولا ﴾ يعني فهلا ﴿ كانت قرية ﴾ وقيل معناه فما كانت قرية وقيل لم تكن قرية لأن في الاستفهام معنى الحجة والمراد هل كانت قرية ﴿ آمنت ﴾ يعني

عند معاينة العذاب ﴿ فنفعها إيمانها ﴾ يعني في حال اليأس ﴿ إلا قوم يونس ﴾ هذا استثناء منقطع يعني لكن قوم يونس فإنهم آمنوا فنفعهم إيمانهم في ذلك الوقت وهو قوله ﴿ لما آمنوا ﴾ يعني لما أخلصوا الإيمان ﴿ كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ يعني إلى وقت انقضاء آجالهم واختلفوا في قوم يونس هل رأوا العذاب عياناً أم لا فقال بعضهم رأوا دليل العذاب فآمنوا ؛ وقال الأكثرون إنهم رأوا العذاب عياناً بدليل قوله كشفنا عنهم عذاب الخزي والكشف لا يكون إلا بعد الوقوع أو إذا قرب وقوعه .

(ذكر القصة في ذلك)

على ما ذكره عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير ووهب وغيرهم قالوا : إن قوم يونس كانوا بقرية نينوى من أرض الموصل وكانوا أهل كفر وشرك فأرسل الله سبحانه وتعالى إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإيمان بالله وترك عبادة الأصنام فدعاهم فأبوا عليه فقيل له أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث فأخبرهم بذلك فقالوا إنا لم نجرب عليه كذباً قط فانظروا فإن بات فيكم الليلة فليس بشيء وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم فلما كان جوف الليل خرج يونس من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم .

قال ابن عباس : إن العذاب كان أهبط على قوم يونس حتى لم يكن بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل فلما دعوا كشف الله عنهم ذلك .

(119/369)

وقال مقاتل : قدر ميل ، وقال سعيد بن جبير : غشي قوم يونس العذاب كما يغشى الثوب القبر ، وقال وهب : غامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً فهبط حتى غشي مدينتهم واسودت أسطحتهم فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك فطلبوا نبيهم يونس عليه السلام فلم يجدوه فقذف الله سبحانه وتعالى في قلوبهم فخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم فلبسوا المسوح وأظهروا الإسلام والتوبة وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب فحن البعض إلى البعض فحن الأولاد إلى الأمهات والأمهات إلى الأولاد وعلت الأصوات وعجوا جميعاً إلى الله وتضرعوا إليه وقالوا آمنا بما جاء به يونس وتابوا إلى الله وأخلصوا النية فرحمهم ربهم فاستجاب دعاءهم وكشف عنهم ما نزل بهم من العذاب بعد ما أظلهم وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء وكان يوم الجمعة .

قال ابن مسعود : بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم فيما بينهم حتى أن كان الرجل ليأتي إلى الجر وقد وضع أساس بنيانه عليه فيقلعه فيرده .

وروى الطبري بسنده عن أبي الجلد خيلان قال : لما غشي قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا له إنه قد نزل بنا العذاب فما ترى قال قالوا يا حي حين لا حي ويا حي محيي الموتى ويا حي لا إله إلا أنت فقالوها فكشف الله عنهم العذاب ومتعوا إلى حين .

وقال الفضيل بن عياض : إنهم قالوا اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم وأجل فافعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله ، قال : وخرج يونس وجعل ينتظر العذاب فلم ير شيئاً فقيل له ارجع إلى قومك قال وكيف أرجع إليهم فيجدوني كذاباً وكان من كذب ولا بينة له قال فانصرف عنهم مغاضباً فالتقمه الحوت وستأتي القصة في سورة والصافات إن شاء الله تعالى فإن قلت كيف كشف العذاب عن قوم يونس بعد ما نزل بهم وقبل توبتهم ولم يكشف العذاب عن فرعون حين آمن ولم يقبل توبته .

قلت : أجاب العلماء عن هذا بأجوبة :

(120/369)

أحدهما : أن ذلك كان خاصاً بقوم يونس والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

الجواب الثاني : أن فرعون ما آمن إلا بعد ما باشر العذاب وهو وقت اليأس من الحياة وقوم

يونس دنا منم العذاب ولم ينزل بهم ولم يباشرهم فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية .

الجواب الثالث : أن الله علم صدق نياتهم في التوبة فقبل توبتهم بخلاف فرعون فإنه ما صدق في إيمانهم ولا أخلص فلم يقبل منه إيمانه والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(121/369)

وقال أبو حيان :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾

لولا هنا هي التحضيضية التي صحبها التوبيخ ، وكثيراً ما جاءت في القرآن للتحضيض ، فهي بمعنى هلا .

وقرأ أبي وعبد الله فهلا ، وكذا هو في مصحفيهما ، والتحضيض أن يريد الإنسان فعل الشيء الذي يحض عليه ، وإذا كانت للتوبيخ فلا يريد المتكلم الحض على ذلك الشيء ، كقول الشاعر :

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم . . .

بني ضوطري لولا الكمى المقنعا

لم يقصد حضهم على عقر الكمى المقنع ، وهنا وبخهم على ترك الإيمان النافع .

والمعنى : فهلا آمن أهل القرية وهم على مهل لم يلتبس العذاب بهم ، فيكون الإيمان نافعاً لهم في هذه الحال .

وقوم منصوب على الاستثناء المنقطع ، وهو قول سيبويه والكسائي والفراء والأخفش ، إذ ليسوا مندرجين تحت لفظ قرية .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون متصلاً ، والجملة في معنى النفي كأنه قيل : ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس .

وقال ابن عطية : هو بحسب اللفظ استثناء منقطع ، وكذلك رسمه النحويون ، وهو بحسب المعنى متصل ، لأنّ تقديره ما آمن أهل قرية إلا قوم يونس ، والنصب هو الوجه ، ولذلك أدخله سيبويه في باب ما لا يكون فيه إلا النصب ، وذلك مع انقطاع الاستثناء .

وقالت فرقة : يجوز فيه الرفع ، وهذا مع اتصال الاستثناء .

وقال المهدوي : والرفع على البدل من قرية ، وقال الزمخشري : وقرىء بالرفع على البدل عن الحرمي والكسائي ، وتقدم الخلاف في قراءة يونس بضم النون وكسرها ، وذكر جواز فتحها .

وقوم يونس : هم أهل نينوي من بلاد الموصل ، كانوا يعبدون الأصنام ، فبعث الله إليهم يونس

فأقاموا على تكذيبه سبع سنين ، وتوعدهم العذاب بعد ثلاثة أيام .

وقيل : بعد أربعين يوماً .

وذكر المفسرون قصة قوم يونس وتفاصيل فيها ، وفي كيفية عذابهم الله أعلم بصحة ذلك ، ويوقف على ذلك في كتبهم .

(122/369)

وقال الطبري : وذكره عن جماعة أن قوم يونس خصوا من بين الأمم بأن ينب عليهم بعد معاينة العذاب .

وقال الزجاج : هؤلاء دنا منهم العذاب ولم يباشرهم كما باشر فرعون ، فكانوا كالمريض الذي يخاف الموت ويرجو العافية ، فأما الذي يباشره العذاب فلا توبة له .

وقال ابن الأنباري : علم منهم صدق النيات بخلاف من تقدمهم من الهالكين .

قال السدي : إلى حين ، إلى وقت انقضاء آجالهم .

وقيل : إلى يوم القيامة ، وروي عن ابن عباس .

ولعله لا يصح ، فعلى هذا يكونون باقين أحياء ، وسترهم الله عن الناس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال الثعالبى :

وقوله سبحانه : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ . . . ﴾ الآية

وفي مصحف أُبيٍّ وابنِ مسعودٍ : «فَهَلاَّ» ، والمعنى فيهما واحدٌ ، وأصل «لولا» التحضيضُ ، أو الدلالةُ على مَنْعِ أَمرٍ لوجودِ غيرِهِ ، ومعنى الآية : فَهَلاَّ آمَنَ أَهْلُ قريةٍ ، وهم على مَهَلٍ لم يتلبَّس العذابُ بهم ، فيكون الإيمان نافعاً لهم في هذا الحال ، ثم استثنى قومَ يُونُسَ ، فهو بحَسَبِ اللفظ استثناء منقطعٌ ، وهو بحسب المعنَى متَّصلٌ لأن تقديره : ما آمن أَهْلُ قريةٍ إلا قَوْمُ يُونُسَ ، وروي في قصَّة قوم يونُسَ : أن القوم لَمَّا كَفَروا ، أي : تمادَوْا على كفرهم ، أوحَى اللَّه تعالى إليه ؛ أَنْ أَنذِرْهم بالعذاب لثالثة ، فَفَعَلَ ، فقالوا : هو رَجُلٌ لا يَكْذِب ، فارقبوه فإِن أَقام بَيْنَ أَظْهُركم ، فلا عليكم ، وإِن ارتحل عنكم ، فهو نزولُ العَذَابِ لا شَكَّ فيه ، فلَمَّا كان الليلُ ، تزوَّدَ يُونُسُ ، وخَرَجَ عنهم ، فأصبحوا فَلَمْ يجدُوهُ ، فتابوا ودَعُوا اللَّه ، وآمنُوا ، ولَبِسُوا المُسُوحَ ، وفَرَّقوا بين الأُمَّهات والأولادِ من النَّاسِ والبهائمِ ، وكان العذَابُ فيما رُوِيَ عن ابن عباس : على ثُلُثَيْ مِيلٍ منهم ، وروي : على مِيلٍ ، وقال ابن جبير : غشيهمُ العذابُ ؛ كما يَغْشَى الثوبُ القَبْرَ ، فرفَعَ اللَّه عنهم العذابَ ، فلمَا مضَتِ

الثالثة ، وعَلِمَ يونُسُ أن العذاب لم يَنْزِلْ بهم ، قال : كَيْفَ أنصَرِفُ ، وقد وجَدُوني في كَذِبٍ ، فذهب مغاضباً ؛ كما ذكر اللَّه سبحانه في غير هذه الآية ، وذهب الطبريُّ إلى أَنَّ قوم يونُسَ خُصُّوا من بين الأُمَمِ بأَنْ تِيبَ عليهم مِنْ بَعْد معاينة العذاب ، وذكر ذلك عن جماعة من المفسّرين ، وليس كذلك ، والمعاينةُ التي لا تَنْفَعُ التوبةُ معها هي تلبُّس العذاب أو الموتِ بشَخْصِ الإنسانِ ، كقصَّة فرعون ، وأمَّا قوم يونس فلم يَصِلُوا هذا الحَدّ .

* ت * : وما قاله الطبريُّ عندي أبْيَنُ ، ﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ ﴾ : يريد : إلى آجالهم المقدَّرة في الأزل ، وروي أن قوم يونس كانوا ب«نِينَوَى» من أرض المَوْصِلِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(124/369)

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ ﴾

كلامٌ مستأنفٌ لتقرير ما سبق من استحالة إيمانِ من حقت عليهم كلمتُه تعالى لسوءِ اختيارِهم مع تمكنهم من التدارك فيكونُ الاستثناءُ الآتي بياناً لكون قومِ يونسَ عليه السلام ممن لم يحِقَّ عليه الكلمةُ لاهتدائهم إلى التدارك في وقته ولولا بمعنى هلاّ وقرىء كذلك أي فهلاّ

كانت ﴿ قَرْيَةٌ ﴾ من القرى المهلَكة ﴿ ءامَنتْ ﴾ قبل معاينةِ العذابِ ولم تؤخّرْ إيمانَها إلى حين معاينتِه كما فعل فرعونُ وقومُه ﴿ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ بأن يقبَله الله تعالى منها ويكشِفَ بسببه العذابَ عنها ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ ﴾ استثناءٌ منقطعٌ أي لكن قومُ يونسَ ﴿ لَمَّا ءامَنُواْ ﴾ أولَ ما رأوا أمارةَ العذابِ ولم يؤخّروا إلى حلوله ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزى فِى الحياة الدنيا ﴾ بعد ما أظلهم وكاد يحِلّ بهم ويجوز أن تكونَ الجملةُ في معنى النفي كما يُفصح عنه حرفُ التحضيض فيكون الاستثناءُ متصلاً إذِ المرادُ بالقرى أهاليها كأنه قيل : ما آمنت طائفةٌ من الأمم الماضيةِ فينفعهم إيمانُهم إلا قومَ يونس عليه السلام فيكون قوله تعالى : ﴿ لَمَّا ءامَنُواْ ﴾ استئنافاً لبيان نفعِ إيمانِهم ويؤيده قراءةُ الرفعِ على البدلية ﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ ﴾ بمتاع الدنيا بعد كشفِ العذاب عنهم ﴿ إلى حِينٍ ﴾ مقدرٍ لهم في علم الله سبحانه .

رُوي أن يونسَ عليه السلام بُعث إلى نينوى من أرض الموْصِل فكذبوه فذهب عنهم مغاضباً فلما فقَدوه خافوا نزولَ العذاب فلبِسوا المُسوحَ وعجّوا أربعين ليلةً وقيل : قال لهم يونسُ عليه السلام : أجلُكم أربعون ليلةً فقالوا : إن رأينا أسبابَ الهلاك آمنّا بك فلما مضَتْ خمسٌ وثلاثون أغامت السماء غيماً أسودَ هائلاً يدخّن دُخاناً شديداً ثم يهبِط حتى يغشى مدينتَهم ويسودّ سطوحُهم فلبِسوا المسوحَ وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائِهم وصِبيانهم وداوبّهم وفرقوا بين النساء والصبيان والدواب وأولادِها فحنّ بعضُها إلى بعض وعلت

(125/369)

الأصواتُ والعجيجُ وأظهروا الإيمانَ والتوبةَ وتضرَّعوا إلى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم وكان ذلك يومَ عاشوراءَ يومَ الجمعة . وعن ابن مسعود رضي الله عنه بلغ من توبتهم أن ترادّوا المظالمَ حتى إن الرجل كان يقتلع الحجرَ وقد وضع عليه أساسَ بنائه فيرده إلى صاحبه وقيل : خرجوا إلى شيخ من بقية علمائِهم فقالوا : قد نزل بنا العذابُ فما ترى فقال لهم : قولوا : يا حيُّ حين لا حيَّ ويا حيُّ محييَ الموتى ويا حيُّ لا إله إلا أنت فقالوا ، فكشف عنهم . وعن الفضيل بن عياض قالوا : إن ذنوبَنا قد عظُمت وجلّت وأنت أعظمُ منها وأجلُّ افعل بنا ما أنت أهلُه ولا تفعلْ بنا ما نحن أهلُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(126/369)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ ﴾

كلام مستأنف لتقرير هلاكهم و﴿ لَوْلاَ ﴾ هنا تحضيضية فيها معنى التوبيخ كهلاً ومثلها ما في قول الفرزدق

: تعدون عقر النيب أفضل مجدكم . . .

بني ضوطري لولا الكمى المقنعا

ويشهد لذلك قراءة أبي .

وابن مسعود رضي الله تعالى عنهما ﴿ فهلا ﴾ ، والتوبيخ على ما نقل عن السفاقسي على ترك الإيمان المذكور بعد ؛ ﴿ المدينة وكَانَ ﴾ كما اختاره بعض المحققين ناقصة ، وقوله تعالى : ﴿ قَرْيَةٌ ﴾ اسمها ، وجملة قوله سبحانه : ﴿ ءامَنتُ ﴾ خبرها ، وقوله جل شأنه : ﴿ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ معطوف على الخبر ، أي فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكت هلاك الاستئصال آمنت قبل معاينة العذاب ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينته كما أخر فرعون إيمانه فمنعها ذلك بأن يقبله الله تعالى منها ويكشف بسببه العذاب عنها ، وذهب السمين وغيره إلى أنها تامة ﴿ وقرية ﴾ فاعلها وجملة ﴿ قَالَ ءامَنتُ ﴾ صفة ﴿ ونفعها ﴾ معطوفة عليها .

وتعقب بأنه يلزم حينئذ أن يكون التحضيض والتوبيخ على الوجود مع أنه ليس بمراد .

وأجيب بأنه لا مانع من أن يكون التحضيض على الصفة وحينئذ لا غبار على ما قيل ، وأياً ما كان فالمراد بالقرية أهلها مجازاً شائعاً والقرينة هنا أظهر من أن تخفى ، وقوله تبارك

وتعالى : ﴿ إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ ﴾ استثناء منقطع كما قال الزجاج .

وسيبويه .

والكسائي .

وأكثر النحاة أي لكن قوم يونس ﴿ لَمَّا ءامَنُواْ ﴾ عند ما رأوا أمارات العذاب ولم يؤخروا إلى حلوله ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمُ ذلك الخزى ﴾ أي الذل والهوان ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم ﴾ بعد ما أظلهم وكاد ينزل بهم ﴿ وَمَتَّعْنَهُمْ ﴾ بمتاع الدنيا بعد كشف العذاب عنهم ﴿ ومتاع إلى حِينٍ ﴾ أي زمان من الدهر مقدر لهم في علم الله تعالى .

(127/369)

ونقل عن ابن عباس أن المراد إلى يوم القيامة فهم اليوم أحياء إلا أن الله تعالى سترهم عن الناس على حد ما يقال في الخضر عليه السلام ، ورأيت في بعض الكتب ما يوافقه إلا أنه ذكر فيه أنهم يظهرون أيام المهدي ويكونون من جملة انصاره ثم يموتون والكل مما لا صحة له .

وقال آخرون : الاستثناء متصل ، ويراد من القرية أهلها المشرفون على الهلاك .

وقيل : العاصون ويعتبر النفي الذي يشعر به التحضيض وهو مشعر بالأمر أيضاً ولذا جعلوه في حكمه إلا أنه لا يصح اعتباره على تقدير الاتصال لما يلزمه من كون الإيمان من المستثنين

غير مطلوب وهو غير مطلوب بل فاسد ، وقيل : لا مانع من ذلك على ذلك التقدير لأن أهل القرى محضوضون على الإيمان النافع وليس قوم يونس محضوضين عليه لأنهم آمنوا ، والذوق يأبي إلا اعتبار النفي فقط حال اعتبار الاتصال ، ويكون قوله سبحانه : ﴿ لَمَّا ءامَنُواْ ﴾ استشنافاً لبيان نفع إيمانهم .

وقرىء ﴿ إِلاَّ قَوْمَ ﴾ بالرفع على البدل من قرية المراد بها أهلها ، وأيد بذلك القول بالاتصال واعتبار النفي لأن البدل لا يكون إلا في غير الموجب ، وخرج بعضهم هذه القراءة على أن ﴿ إِلا ﴾ بمعنى غير وهي صفة ظهر إعرابها فيما بعدها كما في قوله على رأي

.

وكل أخ مفارقه أخوه . . .

لعمر أبيك إلا الفرقدان

(128/369)

وظاهر كلامهم ان الاستثناء مطلقاً من قرية ، وعن الزمخشري أنه على الأول من القرية لا من الضمير في ﴿ ءامَنتُ ﴾ وعلل بأن المنقطع بمعنى لكن فيتوسط بين الكلامين المتغايرين فلا يعتمد ما لا يستقل ولأنه لا مدخل للوصف أعني الإيمان في المستثنى منه فالاستثناء عن

أصل الكلام ، وأما على الثاني فهو استثناء من الضمير من حيث المعنى جعل في اللفظ منه أو من القرية إذ لا فرق في قولك : كان القوم منطلقين إلا زيداً بين جعله من الاسم أو من الضمير في الخبر لأن الحكم إنما يتم بالخبر ، وإنما الفرق في نحو ضربت القوم العالمين إلا زيداً ، ثم قال : ونظير هذا في الوجهين قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ [الحجر : 58 ، 59] ووجه ذلك ظاهر .

وفي الكشف أن وجه الشبه اختلاف معنى الهلاك على الوجهين كاختلاف معنى الإرسال هنالك على الوجهين ، وكأنه عني بالهلاك المأخوذ قيداً في قوله فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكناها فتدبر .

وفي ﴿ يُونُسَ ﴾ لغات تثليث النون مهموزاً وغير مهموز والمتواتر منها الضم بلا همز .

(129/369)

وكانت من قصة هؤلاء القوم على ما روي عن غير واحد أن يونس عليه السلام بعث إلى أهل نينوي من أرض الموصل وكانوا أهل كفر وشرك فدعاهم إلى الإيمان بالله تعالى وحده وترك ما يعبدون من الأصنام فأبوا عليه وكذبوه فأخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث فلما كانت الليلة الثالثة ذهب عنهم من جوف الليل فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان

فوق رؤوسهم ليس بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل ، وجاء أنه غامت السماء غيما أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً فهبط حتى غشى مدينتهم واسودت أسدحتهم فلما أيقنوا بالهلاك طلبوا نبيهم فلم يجدوه فخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة وفرقوا بين الوالدة وولدها من الناس والدواب فحن البعض إلى البعض وعلت الأصوات وعجوا جميعا وتضرعوا إليه تعالى وأخلصوا النية فرحمهم ربهم واستجاب دعاءهم وكشف عنهم ما نزل بهم من العذاب وكان ذلك يوم عاشوراء وكان يوم الجمعة .

قال ابن مسعود : إنه بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم فيما بينهم حتى إن كان الرجل ليأتي إلى الحجر قد وضع أساس بنيانه عليه فيقعله ويرده إلى صاحبه ، وجاء في رواية عن قتادة أنهم عجوا إلى الله تعالى أربعين صباحاً حتى كشف ما نزل بهم ، وأخرج أحمد في الزهد . وابن جرير .

(130/369)

وغيرهم عن ابن غيلان قال : لما غشي قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا : ما ترى ؟ قال : قولوا : يا حي حين لا حي ويا حي محيي الموتى ويا حي لا إله إلا

أنت فقالوها فكشف عنهم العذاب ، وقال الفضيل بن عياض : قالوا : اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم وأجل فافعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله ، وكان يونس عليه السلام إذ ذهب عنهم قعد في الطريق يسأل الخبر كما جاء مرفوعاً فمر به رجل فقال له : ما فعل قوم يونس ؟ فحدثه بما صنعوا فقال : لا أرجع إلى قوم قد كذبتهم وانطلق مغاضباً حسبما قصه الله تعالى في غير هذا الموضع مما سيأتي إن شاء الله تعالى ، وظاهر الآية يستدعي أن القوم شاهدوا العذاب لمكان ﴿ كَشَفْنَا ﴾ وهو الذي يقتضيه أكثر الإخبار وإليه ذهب كثير من المفسرين ، ونفع الإيمان لهم بعد المشاهدة من خصوصياتهم فإن إيمان الكفار بعد مشاهدة ما وعدوا به إيمان بأس غير نافع لارتفاع التكليف حينئذٍ وعادة الله إهلاكهم من غير إمهال كما أهلك فرعون ، والقول بأنه بقي حياً إلى ما شاء الله تعالى وسكن أرض الموصل من مفتريات اليهود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(131/369)

وقال القاسمى :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ﴾

أي : فهلا كانت قرية من القرى المهلكة آمنت قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينته ، كما فعل فرعون ، وفي هذا التخصيص معنى التوبيخ ﴿ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ بأن يقبله الله منها ، ويكشف عنها بسببه العذاب ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ ﴾ أي : لكنّ قومه : ﴿ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ أي : إلى آجالهم

.

هذا ، وقد جوز أن تكون الجملة في معنى النفي ، لتضمن حرف التحضيض معناه ، فيكون الاستثناء متصلاً ؛ لأن المراد من القرى أهاليها ، كأنه قال : ما آمن أهل قرية من القرى العاصية فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس . ويؤيده قراءة الرفع على البدل .

(132/369)

روي أن يونس عليه السلام بعثه الله إلى نينوى ، من أرض الموصل ، وكانت مدينة عظيمة ، مسيرة ثلاثة أيام ، وهي قصبة بلاد الآشوريين ، بانيها آشور أو نينوس بن نمرود ، وكلاهما من أولاد بني نوح ، وكانت من أقدم مدن العالم وأشهرها ، والمؤرخون الوثنيون يصفونها بأن ارتفاع أسوارها كان مائة قدم ، ودائراتها ستون ميلاً ، وهي محصنة بألف وخمسمائة قلعة ، طول الواحدة منهن مائتا قدم . قيل : أهلها كانوا يبلغون نحو ستمائة ألف . وخلفاء نمرود

في هذه المدينة دأبوا على تحسينها ، وتوسيع بنائها ، وقويت شوكة الآشوريين في تلك الأيام حتى خضع لهم أكثر ممالك آسيا ، فتجبروا وتمردوا ، وكانوا كلما ظفروا في غاراتهم يستغرقون في النهب والمظالم ، فأرسل الله تعالى إليهم يونس عليه السلام ، واسمه في العبرية (يونان) ، لينذرهم بأنهم لكفرهم واقترافهم الموبقات سيحل بهم العذاب بعد أربعين يوماً فتنقلب بهم نينوى . ثم خرج يونس من بينهم فأصحر ، فلما فقدوه وبلغ أميرهم قول يونس ؛ تخوفوا نزول العذاب الذي أُنذروا به ، فقذف الله في قلب أميرهم الإيمان والتوبة ، فنزل عن عرشه ، وألقى عنه حلته ، والتف بمسح ، وجلس على التراب ، وآمن بالله ، وآمن أهل نينوى كلهم ، وأمر أن ينادى بنينوى بالصيام ، فلا يذوق أحد طعاماً ولا شراباً ، ولا ترعى البهائم ولا تسقى ، وأن يلبس الناس المسوح ، صغيرهم وكبيرهم ، وأن يجتمعوا في صعيد واحد ، يجهرون بتسبيح الله والإنابة إليه ، والاستغفار له ، والتوبة عما أسلفوا من الظلم والجرم ، وأن يحضروا أطفالهم وذويهم ومواشيهم معهم . ففعلوا وتضرعوا إلى الله واستكانوا لجلاله ، وسألوه أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم . فلما علم منهم الصدق من قلوبهم ، والتوبة والندامة على ما مضى منهم ، كشف عنهم العذاب ورحمهم . وسيأتي في (سورة الصافات) زيادة في نبأ يونس عما هنا .

تنبيهات :

الأول : يروي بعض المفسرين هنا أن العذاب تدلى عليهم وغشيهم ، وجعل يدور على رؤوسهم ، وغامت السماء غيماً أسود ، ونحو هذا . وليس في التنزيل بيان لهذا ، ولا في صحيح السنة ، وكأن من زعمه فهمه من لفظ : ﴿ كَشَفْنَا ﴾ ، ولا صراحة فيه .

قال القرطبي : معنى : ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ ﴾ أي : العذاب الذي وعدهم يونس أن ينزل أنه بهم لا أنهم رأوه حينئذ ، فلا خصوصية ، أي : كما روي عن قتادة أن هذا الكشف لم يكن لأمة من الأمم إلا لقوم يونس خاصة ، فإنه لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا علامته .

الثاني : في الآية إشارة إلى أنه لم يوحد قرية آمنت بأجمعها بنبيها المرسل إليها من سائر القرى ، إثر بعثته وإنذاره ، إلا قوم يونس ، والبقية دأبهم التكذيب ، وكلهم أو أكثرهم كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 23] .

وفي الحديث الصحيح : < عرض علي الأنبياء ، فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس ، والنبي معه الرجل ، والنبي معه الرجلان ، والنبي ليس معه أحد > .

الثالث : أخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه قال : إن الحذر لا يرد القدر ، وإن الدعاء يرد القدر ، وذلك في كتاب الله : ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا ﴾ الآية .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : الدعاء يرد القضاء ، وقد نزل من السماء . اقرؤوا إن شئتم : ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ ﴾ الآية .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة مرفوعاً ، في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ ﴾ قال عليه السلام : < دعوا > - كذا في " الإكليل " - . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 65.67 ﴾

(134/369)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ)

(135/369)

يُقَالُ : جَازَ الْمَكَانَ وَجَاوَزَهُ وَتَجَاوَزَهُ إِذَا ذَهَبَ فِيهِ وَقَطَعَهُ حَتَّى خَلَّفَهُ وَرَاءَهُ . وَأَصْلُهُ مِنْ جَوْزِ الطَّرِيقِ وَنَحْوِهِ وَهُوَ وَسَطُهُ ، وَتَسْمِيَةُ الْجَوْزَاءِ مَأْخُوذَةٌ مِنْ تَعَرُّضِهَا فِي جَوْزِ السَّمَاءِ أَيْ وَسَطِهَا ، وَمُجَاوَزَةُ اللهِ الْبَحْرَ بِهِمْ عِبَارَةٌ عَنْ كَوْنِهِمْ جَاوَزُوهُ بِمَعُونَتِهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ

وَحِفْظِهِ ، إِذْ كَانَ آيَةً مِنْ آيَاتِهِ لِنَبِيِّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِفَرْقِهِ تَعَالَى بِهِمُ الْبَحْرَ وَانْفِلَاقِهِ لَهُمْ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَالْأَعْرَافِ : (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا) أَيْ لَحِقَهُمْ فَأَدْرَكَهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا عَلَيْهِمْ لِيَفْتِكَ بِهِمْ ، أَوْ يُعِيدَهُمْ إِلَى مِصْرَ حَيْثُ يَتَعَبَّدُهُمْ وَيَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ (حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ) أَيْ فَخَاضَ الْبَحْرَ وَرَاءَهُمْ حَتَّى إِذَا وَصَلَ إِلَى حَدِّ الْغَرَقِ: (قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ) أَيْ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَغْرَقَ ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْبَحْرَ لَمْ يُطْبِقْ عَلَيْهِ دُفْعَةً وَاحِدَةً: آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ بِالْحَقِّ إِلَّا الرَّبُّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ جَمَاعَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِدَعْوَةِ مُوسَى : (وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) أَيْ وَأَنَا فَرْدٌ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُذْعِنِينَ لَهُ الْمُنْقَادِينَ لِأَمْرِهِ ، وَبَعْدَ مَا كَانَ مِنْ كُفْرِ الْجُحُودِ بِآيَاتِهِ وَالْعِنَادِ لِرَسُولِهِ . يَعْنِي أَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ الْإِيمَانِ الَّذِي هُوَ التَّصْدِيقُ بِالْقَلْبِ ، وَالْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ الْإِذْعَانُ وَالْخُضُوعُ بِالْفِعْلِ ، بِدُونِ

(136/369)

امْتِيَازٍ لِعَظَمَةِ الْمُلْكِ ، وَكَانَ مِنْ قَبْلُ جَاحِدًا ، أَيْ مُصَدِّقًا غَيْرَ مُذْعِنٍ وَلَا خَاضِعٍ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِيهِ وَفِي آلِهِ: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) (27 : 14) يَعْنِي آيَاتِ مُوسَى . وَهَذِهِ هِيَ الْعَاقِبَةُ ، وَقَدْ أُجِيبَ فِيهَا فِرْعَوْنُ عَنْ دَعْوَاهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى الَّذِي يَعْرِفُ بِلِسَانِ الْحَالِ أَوْ بِقَوْلِ جِبْرِيلَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) :

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) أَيْ أَتُسْلِمُ الْآنَ أَوْ تَدَّعِي الْإِسْلَامَ وَإِذْعَانَ الطَّاعَةِ وَالِانْقِيَادِ ، حَيْثُ لَا مَحَلَّ لَهُ وَلَا إِمْكَانَ ، بِمَا حَالَ دُونَهُ مِنَ الْهَلَاكِ ، وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَهُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ الظَّالِمِينَ لِلْعِبَادِ ، وَالْمُرَادُ : أَنَّ دَعْوَى الْإِسْلَامِ الْآنَ بَاطِلَةٌ ، وَالْإِيمَانَ بِدُونِ الْإِسْلَامِ مَعَ إِمْكَانِهِ لَا يُقْبَلُ ،

فَكَيْفَ يُقْبَلُ وَقَدْ صَارَ اضْطِرَارًا لَا مَعْنَى لِقَبُولِهِ ; لِأَنَّهُ انْفِعَالٌ لَا فِعْلٌ لِصَاحِبِهِ ، وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ إِسْلَامَهُ كَانَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

أَتَتْ وَحِيَاضُ الْمَوْتِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا . . . وَجَادَتْ بِوَصْلٍ حِينَ لَا يَنْفَعُ الْوَصْلُ

(137/369)

وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذَا الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْمُكَذِّبِينَ بِوَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَعِيدِهِ بِمَا كَانَ يَحْمِلُهُمْ عَلَى اسْتِعْجَالِ عَذَابِهِ: (أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) (51) وَسَيَأْتِي بَعْدَ بِضْعِ آيَاتٍ مِنْهَا أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَنْفَعُ عِنْدَ وُقُوعِ عَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ الَّذِي هُوَ نِهَايَةُ أَجَلِ الْقَوْمِ ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ عِنْدَ مَوْتِ الشَّخْصِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ

(138/369)

تَعَالَى : (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ) (4 : 18) وَمِنَ الْبَدِيهِيِّ أَنَّ التَّوْبَةَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ إِنَّمَا تَنْفَعُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الطَّاعَةِ . عَلَى أَنَّ الْيَائِسَ مِنَ الشَّيْءِ بِالْفِعْلِ ، لَا يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا فِي ادِّعَائِهِ إِيَّاهُ أَوْ طَلَبِهِ لَهُ بِالْقَوْلِ ، وَلَعَلَّ فِرْعَوْنَ أَرَادَ بِقَوْلِهِ حِينَئِذٍ أَنَّهُ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ مُوَطِّنٌ نَفْسَهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ إِنْ نَجَّاهُ اللهُ تَعَالَى ، وَأَنَّهُ كَانَ يَرْجُو بِهَذَا أَنْ يُنَجِّيَهُ اللهُ تَعَالَى كَمَا نَجَّاهُ وَقَوْمَهُ مِنْ كُلِّ نَازِلَةٍ مِنْ عَذَابِ اللهِ حَلَّتْ بِهِ وَبِقَوْمِهِ ، إِذْ كَانَ يَقُولُ لِمُوسَى : (ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (7 : 134) وَلَكِنَّ تِلْكَ النَّوَازِلَ إِنَّمَا كَانَتْ لِأَجْلِ إِرْسَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ مُوسَى فَهِيَ غَايَتُهَا ، وَلَمْ تَكُنْ عِقَابًا عَلَى الْإِصْرَارِ عَلَى كُفْرِ الْجُحُودِ وَالْعِنَادِ ، الَّذِي هُوَ شَرُّ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَأَدَلُّهَا عَلَى خُبْثِ طَوِيَّةِ صَاحِبِهِ ، كَهَذَا الْعِقَابِ الْأَخِيرِ بَعْدَ نَجَاةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْهُ رَغْمَ أَنْفِهِ .

(139/369)

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً) قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ : يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِفِرْعَوْنَ : فَالْيَوْمَ نَجْعَلُكَ عَلَى نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ بِبَدَنِكَ ، يَنْظُرُ إِلَيْكَ مَنْ كَذَّبَ بِهَلَاكِكَ) لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً) يَقُولُ: لِتَكُونَ لِمَنْ بَعْدَكَ مِنَ النَّاسِ عِبْرَةً يَعْتَبِرُونَ بِكَ فَيَنْزَجِرُونَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ وَالْكُفْرِ بِهِ ، وَالسَّعْيِ فِي أَرْضِهِ بِالْفَسَادِ . وَالنَّجْوَةُ : الْمَوْضِعُ الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ وَمِنْهُ قَوْلُ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ :

فَمَنْ بِعَقْوَتِهِ كَمَنْ بِنَجْوَتِهِ . . . وَالْمُسَتَّكِنُّ كَمَنْ يَمْشِي بِقِرْوَاحِ

(140/369)

ثُمَّ ذَكَرَ رُوَاتِهِ عَمَّنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ . وَقَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : سُمِّيَ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ نَجْوَةً وَنَجَاةً وَزَادَ بَعْضُهُمْ : مَنْجًى - لِأَنَّ مَنْ عَلَيْهِ يَنْجُو مِنَ السَّيْلِ ، وَإِنَّمَا دَفَعَهُ وَدَفَعَهُمْ إِلَى تَفْسِيرِ الْآيَةِ بِهَذَا الْوَجْهِ مِنَ اللُّغَةِ أَنَّ إِنْجَاءَ الْإِنْسَانِ مِنَ الْغَرَقِ إِنَّمَا يَكُونُ بِخُرُوجِهِ حَيًّا بِبَدَنِهِ وَنَفْسِهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا فِي إِنْجَاءِ نُوحٍ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ، وَكُلُّ اسْتِعْمَالِهِ فِي الْقُرْآنِ بِمَعْنَى النَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ كَإِنْجَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ التَّعْبِيرَ بِالتَّنْجِيَةِ تَهَكُّمٌ بِهِ ، وَإِنَّ الْحِكْمَةَ بِذِكْرِ الْبَدَنِ أَنَّهُ يُخْرِجُ جَسَدَهُ سَالِمًا لِيُعْرَفَ ، وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْبَدَنِ الدِّرْعُ فَهُوَ مِنْ أَسْمَائِهَا فِي اللُّغَةِ ، وَإِنَّمَا مَحَلُّ الْعِبْرَةِ أَنْ يَلْفِظَهُ الْبَحْرُ بِبَدَنِهِ لِيُعْرَفَ فَيَعْتَبِرَ بَنُو

إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ قِيلَ إِنَّهُمْ شَكُّوا فِي غَرَقِهِ ، وَيَعْتَبِرَ الْقِبْطُ الَّذِينَ عَبَدُوهُ ، وَلِذَلِكَ قِيلَ : إِنَّ دِرْعَهُ كَانَتْ مَعْرُوفَةً وَإِنَّهَا مِنَ الْمُذَّهَبِ ، أَوْ كَانَ لَهُ فَوْقَ دِرْعِ الزَّرَدِ دِرْعٌ أُخْرَى مِنَ الذَّهَبِ ، وَلَكِنَّ الدُّرُوعَ تَقْتَضِي رُسُوبَ الْغَرِيقِ فِي الْبَحْرِ إِلَّا أَنْ يَجْرُفَهُ الْمَوْجُ . وَأَمَّا الْعِبْرَةُ لِمَنْ بَعْدَهُ فَهِيَ أَعَمُّ : هِيَ مَا سِيقَتِ الْقِصَّةُ لِأَجْلِهِ مِنْ كَوْنِهَا شَاهِدًا كَالَّتِي قَبْلَهَا عَلَى صِدْقِ وَعْدِ اللهِ لِرُسُلِهِ وَوَعِيدِهِ لِأَعْدَائِهِمْ ، كَطُغَاةِ مَكَّةَ الَّتِي أُنْزِلَتْ

(141/369)

هَذِهِ الْآيَاتُ بَلْ هَذِهِ السُّورَةُ كُلُّهَا لِإِقَامَةِ حُجَجِ اللهِ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ قَبْلَ غَيْرِهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ بَلَغَتْهُ الدَّعْوَةُ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ) تَعْرِيضٌ بِهِمْ وَأَكَّدَهُ هَذَا التَّأْكِيدَ لِمَا تَقْتَضِيهِ شِدَّةُ الْغَفْلَةِ مِنْ قُوَّةِ التَّنْبِيهِ ، أَيْ إِنَّهُمْ لَشَدِيدُو الْغَفْلَةِ عَنْهَا عَلَى شِدَّةِ ظُهُورِهَا فَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِي أَسْبَابِهَا وَنَتَائِجِهَا وَحِكَمِ اللهِ فِيهَا ، وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا ، وَإِنَّمَا يَمُرُّونَ عَلَيْهَا مُعْرِضِينَ كَمَا يَمُرُّونَ عَلَى مَسَارِحِ الْأَنْعَامِ ، وَفِيهِ ذَمٌّ لِلْغَفْلَةِ ، وَعَدَمِ التَّفَكُّرِ فِي أَسْبَابِ الْحَوَادِثِ وَعَوَاقِبِهَا وَاسْتِبَانَةِ سُنَنِ اللهِ فِيهَا ، لِلِاعْتِبَارِ وَالِاتِّعَاظِ بِهَا . وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ الْقُرْآنِ مِنْهُمْ ، كَلَّا إِنَّهُ حُجَّةٌ عَلَى الْغَافِلِينَ بَرِيءٌ مِنْهُمْ .

(وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) .

(142/369)

هَذِهِ الْآيَةُ خَاتِمَةُ هَذِهِ الْقِصَّةِ ، وَمُنْتَهَى الْعِبْرَةِ فِيهَا لِمُكَذِّبِي مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْجَاحِدِينَ مِنْ قَوْمِهِ الْمَغْرُورِينَ بِقُوَّتِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ وَثَرْوَتِهِمْ ، فِي مُوسَى وَالْجَاحِدِينَ لِآيَاتِهِ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَقَدْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ عَدَدًا وَأَشَدَّ قُوَّةً ، وَأَعْظَمَ زِينَةً وَأَوْفَرَ ثَرْوَةً ، وَسُنَّةُ اللَّهِ فِي مُوسَى وَمَنْ قَبْلَهُ وَاحِدَةٌ ، وَقِصَّتُهُ كَقِصَّةِ نُوحٍ فِي الْعَاقِبَةِ وَأَمَّا نَصْرُ اللَّهِ لِمُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ وَإِنْجَازُ وَعْدِهِ لَهُ ، قَدْ جَرَى عَلَى وَجْهٍ أَتَمَّ وَأَكْمَلَ فِي غَايَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَرِيبًا فِي صُورَتِهِ ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَهْلَكَ أَكْثَرَ زُعَمَاءِ أَعْدَائِهِ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَخْضَعَ لَهُ الْآخَرِينَ ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لِأَتْبَاعِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْطَاهُمْ أَعْظَمَ مُلْكٍ فِي الْعَالَمِينَ ، وَمِنْهُ مَا كَانَ أُعْطِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَهُوَ فِلَسْطِينُ . قَالَ : (وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ) قُلْنَا آنِفًا : إِنَّ الْمُبَوَّأَ مَكَانُ الْإِقَامَةِ الْأَمِينُ . وَأُضِيفَ إِلَى الصِّدْقِ لِدَلَالَتِهِ عَلَى صِدْقِ وَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ بِهِ وَهُوَ مَنْزِلُهُمْ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ الْجَنُوبِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِفِلَسْطِينَ (وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) فِيهِ ، وَهِيَ الَّتِي أُشِيرَ إِلَيْهَا فِي وَصْفِ أَرْضِهَا مِنْ كُتُبِهِمْ بِأَنَّهَا تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا ، وَمَا فِيهَا مِنَ

الْغَلَّاتِ وَالثَّمَرَاتِ وَالْأَنْعَامِ ، وَكَذَا صَيْدُ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا مِنْ قَبْلُ مَا كَانَ مِنْ وَعْدِ اللهِ لَهُمْ

(143/369)

بِهَذِهِ الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ عَلَى لِسَانِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَمِنْ أُولُولَةِ هَذِهِ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْعَرَبِ ، بَعْدَ حِرْمَانِ الْيَهُودِ مِنْهُ تَصْدِيقًا لِوَعِيدِ أَنْبِيَائِهِمْ لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِنِعَمِ اللهِ تَعَالَى أَوَّلًا ثُمَّ بِكُفْرِهِمْ بِعِيسَى ، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي وَعَدَهُمْ بِهِ عَلَى لِسَانِهِ وَلِسَانِ مَنْ قَبْلَهُ ، كَمَا تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَأُشِيرُ إِلَيْهِ هُنَا بِقَوْلِهِ : (فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ)

عَلَى قَوْلِ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْعِلْمِ هَنَا مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَوْ رِسَالَتُهُ أَوِ الْقُرْآنُ الَّذِي هُوَ أَكْمَلُ وَأَتَمُّ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ عِلْمِ الدِّينِ ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سِيَاقِ الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ : (لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ) (4 : 166) وَقَوْلِهِ : (فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ) (11 : 14) وَقَوْلِهِ : (بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ) (7 : 52) فَقَدْ كَانُوا مُتَّفِقِينَ عَلَى بِشَارَةِ أَنْبِيَائِهِمْ بِهِ قَبْلَ بَعْثَتِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .

(144/369)

وَقَالَ آخَرُونَ وَهُوَ الْأَظْهَرُ : إِنَّ الْمُرَادَ هَنَا عِلْمُ الدِّينِ مُطْلَقًا ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِيهِ كَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ أُوتُوا الْكُتُبَ مِنْ وُجُوهٍ فَصَّلْنَاهَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْعَامَّةِ فِي الِاخْتِلَافِ وَهِيَ (2 : 213) وَفِي الْآيَةِ 19 مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَمَا هِيَ بِبَعِيدٍ (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) إِذْ جَعَلُوا الدَّوَاءَ عَيْنَ الدَّاءِ فِي أَمْرِ الدِّينِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابُ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ فَاخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ بَغْيًا بَيْنَهُمْ .

(فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) .

هَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ فَذْلَكَةُ هَذَا السِّيَاقِ الَّذِي كَانَ ذِكْرُ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ شَوَاهِدَ فِيهِ ، وَهِيَ تَقْرِيرُ صِدْقِ الْقُرْآنِ فِي دَعْوَتِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ، وَكَوْنِهِ لَا مَجَالَ لِلِامْتِرَاءِ فِيهِ ، وَبَيَانِ الدَّاعِيَةِ النَّفْسِيَّةِ لِلْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِهِ ، وَتَوْجِيهِ الِاعْتِبَارِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ مَقْرُونًا بِالْإِنْذَارِ ، بِأُسْلُوبِ التَّعْرِيضِ وَالتَّلَطُّفِ فِي الْعِبَارَةِ ، عَلَى حَدِّ : إِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةُ : (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ) أَيْ فَإِنْ كُنْتَ أَيُّهَا الرَّسُولُ فِي

(145/369)

شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا فِي هَذِهِ الشَّوَاهِدِ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى وَنُوحٍ وَغَيْرِهِمَا عَلَى سَبِيلِ الْفَرْضِ وَالتَّقْدِيرِ ، الَّذِي ذُكِرَ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي تَقْدِيرِ الشَّكِّ فِي الشَّيْءِ لِيَبْنِيَ عَلَيْهِ مَا يَنْفِي احْتِمَالَ وُقُوعِهِ أَوْ ثُبُوتِهِ أَمْرًا أَوْ نَهْيًا أَوْ خَبَرًا ، كَقَوْلِ أَحَدِهِمْ لِابْنِهِ : إنْ كُنْتَ ابْنِي فَكُنْ شُجَاعًا أَوْ فَلَا تَكُنْ بَخِيلًا ، أَوْ فَإِنَّكَ سَتَكُونُ أَوْ سَتَفْعَلُ كَذَا – بَلْ يَفْرِضُونَ سُؤَالَ الدِّيَارِ وَالْأَطْلَالِ أَيْضًا مِنْهُ قَوْلُ الْمَسِيحِ فِي جَوَابِ سُؤَالِ اللَّهِ تَعَالَى إيَّاهُ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ) (5 : 116) وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّةُ مَحِلُّ الشَّاهِدِ ، فَهُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ يَفْرِضُهُ لِيَسْتَدِلَّ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ لَوْ قَالَهُ لَعَلِمَهُ اللَّهُ مِنْهُ .

(146/369)

وَبَعْضُ الْعُلَمَاءِ يَجْرِي عَلَى هَذَا الْأُسْلُوبِ فَيُشَكِّكُ تِلْمِيذَهُ أَوْ مُنَاظِرَهُ فِيمَا لَا شَكَّ فِيهِ عِنْدَهُمَا لِيَبْنِيَ عَلَيْهِ حُكْمًا آخَرَ . وَيَجِبُ فِي مِثْلِ هَذَا أَنْ يَكُونَ فِعْلُ الشَّرْطِ بِـ (إنْ) الَّتِي

وُضِعَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى عَدَمِ وُقُوعِهِ أَوْ تَنْزِيلِهِ مَنْزِلَةَ مَا لَا يَقَعُ ، دُونَ (إِذَا) الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ الْأَصْلَ فِي فِعْلِ شَرْطِهَا الْوُقُوعُ (فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ) هَذَا جَوَابُ الشَّرْطِ الْمُقَدَّرِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَمْ يَشُكَّ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَمْ يَسْأَلْ ، وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَاهُ فَهْمًا لُغَوِيًّا ، وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ خَبَرًا قَالَ : ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : (لَا أَشُكُّ وَلَا أَسْأَلُ) وَلَمْ يُسَمِّ الصَّحَابِيَّ الَّذِي ذَكَرَهُ فَهُوَ مُرْسَلٌ ، وَالْمُرَادُ بِالْكِتَابِ جِنْسُهُ ، أَيْ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ كُتُبَ الْأَنْبِيَاءِ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مِنَ الشَّوَاهِدِ حَقٌّ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِنْكَارَهُ ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ الْمُرَادَ سُؤَالُ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ ، وَتَمِيمٍ الدَّارِيِّ مِنْ عُلَمَاءِ النَّصَارَى وَلَا حَاجَةَ إِلَيْهِ ، وَالْآيَةُ بَلِ السُّورَةُ نَزَلَتْ فِي مَكَّةَ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ . وَمِمَّا يُؤَكِّدُ كَوْنَ السُّؤَالِ مَفْرُوضًا فَرْضًا قَوْلُهُ : (لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) فَهَذِهِ

(147/369)

الشَّهَادَةُ الْمُؤَكَّدَةُ بِالْقَسَمِ مِنْ رَبِّهِ ، تَجْتَثُّ احْتِمَالَ إِرَادَةِ الشَّكِّ وَالسُّؤَالِ بِالْفِعْلِ مِنْ أَصْلِهِ ، وَيَزِيدُهَا تَأْكِيدًا قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) أَيْ مِنْ فَرِيقِ

الشَّاكِّينَ الَّذِينَ يَحْتَاجُونَ إِلَى السُّؤَالِ ، وَهَذَا النَّهْيُ وَالَّذِي بَعْدَهُ يَدُلَّانِ عَلَى أَنَّ فَرْضَ وُقُوعِ الشَّكِّ وَالسُّؤَالِ فِيمَا قَبْلَهُمَا عَنْهُ تَعْرِيضٌ بِالشَّاكِّينَ الْمُمْتَرِينَ وَالْمُكَذِّبِينَ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ قَوْمِهِ .

(وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) يَعْنِي أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ فَهُوَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْحِرْمَانِ مِنَ الْإِيمَانِ وَمَا يَتْبَعُهُ مِنْ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، (ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) ، وَإِنْ فُرِضَ أَنَّهُ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، وَرَحْمَتُهُ لِلْعَالَمِينَ ، وَأَنَّ الْمُمْتَرِينَ الشَّاكِّينَ فِيمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ كَالْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتٍ بِهَا ، وَمَا لَهُ مِنْ رِبْحِ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لِلْمُؤْتَمَرِ الْمُنْتَهِي وَالْمُرَادُ غَيْرُهُ عَلَى سَبِيلِ التَّعْرِيضِ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (34 : 24 ، 25)

وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا مُوقِعٌ وَتَأْثِيرٌ خَاصٌّ فِي اسْتِمَالَةِ الْكَافِرِينَ إِلَى التَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ فِي مَضْمُونِ الدَّعْوَةِ .

(148/369)

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ) أَيْ إِنَّ الَّذِينَ ثَبَتَتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ مِنْ رَبِّكَ وَهِيَ كَلِمَةُ التَّكْوِينِ الدَّالَّةُ عَلَى سُنَّتِهِ فِيمَنْ فَقَدُوا الِاسْتِعْدَادَ لِلِاهْتِدَاءِ ، (لَا يُؤْمِنُونَ) لِرُسُوخِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ ، وَإِحَاطَةِ خَطَايَاهُمْ وَجَهَالَاتِهِمْ بِهِمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْ آيَاتِ الْإِيمَانِ ، هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ : (لَا يُؤْمِنُونَ) لَا أَنَّهُ تَعَالَى مَنَعَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ مَنْعًا خَلْقِيًّا قَهْرِيًّا لَا كَسْبَ لَهُمْ فِيهِ وَلَا اخْتِيَارَ . وَهَذَا بِمَعْنَى الْآيَةِ 33 مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا .

(وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ) مِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ كَآيَاتِ مُوسَى الَّتِي اقْتَرَحُوهَا عَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ ، وَالْآيَاتُ الْمُنَزَّلَةُ كَآيَاتِ هَذَا الْقُرْآنِ الْعِلْمِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الدَّالَّةِ بِإِعْجَازِهَا عَلَى كَوْنِهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَعَلَى حَقِّيَّةِ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ وَتُنْذِرُهُمْ إِيَّاهُ (حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) بِأَعْيُنِهِمْ ، وَيَذُوقُوهُ بِوُقُوعِهِ بِهِمْ ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ إِيمَانُهُمُ اضْطِرَارِيًّا لَا يُعَدُّ فِعْلًا مِنْ أَفْعَالِهِمْ ، وَلَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ عَمَلٌ يُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّي أَنْفُسَهُمْ ، بَلْ يُقَالُ لَهُمْ : (آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) (51) كَمَا قِيلَ لِفِرْعَوْنَ : (آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (91) .

(فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) .

هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ تَفْرِيعٌ عَلَى اللَّوَاتِي قَبْلَهُنَّ ، وَتَكْمِيلٌ لَهُنَّ فِي بَيَانِ سُنَّةِ اللَّهِ فِي الْأُمَمِ مَعَ رُسُلِهِمْ وَفِي خَلْقِ الْبَشَرِ مُسْتَعِدِّينَ لِلْأُمُورِ الْمُتَضَادَّةِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ ، وَفِي تَعَلُّقِ مَشِيئَةِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ بِأَفْعَالِهِ وَأَفْعَالِ عِبَادِهِ وَوُقُوعِهَا عَلَى وَفْقِهِمَا .

(فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا) لَوْلَا هَذِهِ لِلتَّخْصِيصِ كَمَا قَالَ أَئِمَّةُ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ ،

(150/369)

وَالْمُرَادُ بِالْقَرْيَةِ أَهْلُهَا وَهُمْ أَقْوَامُ الْأَنْبِيَاءِ ، فَإِنَّهُمْ كُلَّهُمْ بُعِثُوا فِي أَهْلِ الْحَضَارَةِ وَالْعُمْرَانِ دُونَ الْبَادِيَةِ ، أَيْ فَهَلَّا كَانَ أَهْلُ قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى أَقْوَامِ أُولَئِكَ الرُّسُلِ آمَنَتْ بِدَعْوَتِهِمْ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، (فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا) قَبْلَ وُقُوعِ الْعَذَابِ الَّذِي أُنْذِرُوا بِهِ ، أَيْ أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ قَوْمٌ مِنْهُمْ بِرُمَّتِهِمْ فَإِنَّ التَّخْصِيصَ يَسْتَلْزِمُ الْجَحْدَ (إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا) قَبْلَ وُقُوعِ الْعَذَابِ بِهِمْ بِالْفِعْلِ ، وَكَانُوا عَلِمُوا بِقُرْبِهِ مِنْ خُرُوجِ نَبِيِّهِمْ مِنْ بَيْنِهِمْ وَرُوِيَ أَنَّهُمْ رَأَوْا عَلَامَاتِهِ ، وَيَجُوزُ فِي هَذَا

الِاسْتِثْنَاءِ الِاتِّصَالُ وَالِانْفِصَالُ (كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أَيْ صَرَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ فِي الدُّنْيَا لِأَنَّ نَبِيَّهُمْ خَرَجَ بِدُونِ إِذْنِ اللهِ تَعَالَى لَهُ ، فَلَمْ تَتِمَّ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَلَا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ، وَقَدِ اسْتَدَلُّوا بِذَهَابِهِ مُغَاضِبًا لَهُمْ عَلَى قُرْبِ وُقُوعِ الْعَذَابِ

(151/369)

كَمَا أَنْذَرَهُمْ فَتَابُوا وَآمَنُوا فَكَشَفْنَاهُ عَنْهُمْ (وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) أَيْ وَمَتَّعْنَاهُمْ بِمَنَافِعِهَا إِلَى زَمَنٍ مَعْلُومٍ هُوَ عُمْرُهُمُ الطَّبِيعِيُّ الَّذِي يَعِيشُهُ كُلٌّ مِنْهُمْ بِحَسْبِ سُنَّتِهِ تَعَالَى فِي اسْتِعْدَادِ بِنْيَتِهِ وَمَعِيشَتِهِ . وَقَدْ فَصَّلْنَا الْكَلَامَ فِي الْأَجَلِ الَّذِي يُسَمَّى الطَّبِيعِيَّ وَغَيْرِهِ فِي تَفْسِيرِ : (ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ) (6 : 2) مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، وَلَا مَحَلَّ لِلْبَحْثِ عَنْ تَعْذِيبِهِمْ فِي الْآخِرَةِ كَمَا فَعَلَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فَإِنَّ شَهَادَةَ اللهِ تَعَالَى لَهُمْ بِالْإِيمَانِ النَّافِعِ ظَاهِرَةٌ فِي قَبُولِهِ مِنْهُمْ ، صَرِيحَةٌ فِي أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَلَى سَابِقِ كُفْرِهِمْ ، وَإِنَّمَا يُجْزَوْنَ بِغَيْرِهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ بَعْدَ الْإِيمَانِ .

هَذَا الَّذِي فَسَّرْنَا بِهِ الْآيَةَ هُوَ الْمُتَبَادَرُ مِنْ عِبَارَتِهَا ، وَالْمُوَافِقُ لِلسِّيَاقِ وَلِسُنَّةِ اللهِ تَعَالَى فِي أَقْوَامِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِأَهْلِ مَكَّةَ وَإِنْذَارُهُمْ ، وَحَضٌّ عَلَى أَنْ يَكُونُوا كَقَوْمِ

يُونُسَ الَّذِينَ اسْتَحَقُّوا عَذَابَ الْخِزْيِ بِعِنَادِهِمْ ، حَتَّى إِذَا أَنْذَرَهُمْ نَبِيُّهُمْ قُرْبَ وُقُوعِهِ وَخَرَجَ مِنْ بَيْنِهِمُ اعْتَبَرُوا وَآمَنُوا قَبْلَ الْيَأْسِ ، وَحُلُولِ الْبَأْسِ وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مَا ثَبَتَ مِنْ خَبَرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَفْسِيرِ سُورَتَيِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّافَّاتِ ، وَهُوَ مُوَافِقٌ فِي جُمْلَتِهِ لِمَا عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 388. 394 ﴾

(152/369)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾

الفاء لتفريع التغليط على امتناع أهل القرى من الإيمان بالرسل قبل أن ينزل بهم العذاب على الإخبار بأن الذين حقت عليهم كلمة الله أن لا يؤمنوا لا يؤمنون حتى يروا العذاب فإن أهل القرى من جملة الذين حقت عليهم الكلمة بأن لا يؤمنوا .

والغرض من ذكر أهل القرى التعريض بالمقصود ، وهم أهل مكة فإنهم أهل قرية فكان ذلك كالتخلص بالتعريض إلى المخصوصين به ، وللإفضاء به إلى ذكر قوم يونس فإنهم أهل قرية .

و(لولا) حرف يرد لمعان منها التوبيخ ، وهو هنا مستعمل في لازم التوبيخ كناية عن التغليط ، لأن أهل القرى قد انقضوا ، وذلك أن أصل معنى (لولا) التحضيض ، وهو طلب الفعل

بحَثّ ، فإذا دخلت على فعل قد فات وقوعه كانت مستعملة في التغليط والتنديم والتوبيخ على تفويته ، ويكون ما بعدها في هذا الاستعمال فعل مضي مثل قوله تعالى : ﴿ ولَولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ﴾ [النور : 16] .

وإذا توجه الكلام الذي فيه (لولا) إلى غير صاحب الفعل الذي دخلت عليه كانت مستعملة في التعجيب من حال المتحدث عنه ، كقوله : ﴿ لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ﴾ [النور : 13] وقوله : ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ﴾ [الأنعام : 43] وهذه الآية أصرح في ذلك لوجود (كان) الدالة على المضي والانقضاء .

والمقصود : التعريض بأن مشركي أهل مكة يوشك أن يكونوا على سنَن أهل القرى .

قال تعالى : ﴿ ما آمنتْ قبلهم من قرية أهلكناها أفَهُم يؤمنون ﴾ [الأنبياء : 6] ، ونظير هذه الآية استعمالاً ومعنى قوله تعالى : ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولُوا بقيّة ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم ﴾ [هود : 116] ، وذلك تعريض بتحريض أهل مكة على الإيمان قبل نزول العذاب .

(153/369)

والمستخلص من الروايات الواردة في قوم يونس أنهم بادروا إلى الإيمان بعد أن فارقهم يونس ، توقعاً لنزول العذاب ، وقبل أن ينزل بهم العذاب ، وذلك دليل على أن معاملة الله إياهم ليست مخالفة لما عامل به غيرهم من أهل القرى ، وأن ليست لقوم يونس خصوصية ، وبذلك لا يكون استثنائهم استثناءاً منقطعاً .

وإذ كان الكلام تغليطاً لأهل القرى المعرضين عن دعوة الرسل ، وتعريضاً بالتحذير مما وقعوا فيه .

كان الكلام إثباتاً صريحاً ووقوع قرية وهو نكرة في مساق الإثبات أفاد العموم بقرينة السياق مثل قول الحريري : "يا أهل ذا المغْنَى وقيتم ضُراً" أي كل ضر لا ضراً معيناً ، وبقرينة الاستثناء فإنه معيار العموم ، وهذا الاستثناء من كلام موجب فلذلك انتصب قوله : ﴿ إلا قومَ يونس ﴾ فهذا وجه تفسير الآية .

وجرى عليه كلام العُكبري في "إعراب القرآن" ، والكواشي في "التخليص" وجمهور المفسرين جعلوا جملة : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت ﴾ في قوة المنفية ، وجعلوا الاستثناء منقطعاً منصوباً ولا داعي إلى ذلك .

وجملة : ﴿ لمّا آمنوا ﴾ مستأنفة لتفصيل مجمَل معنى الاستثناء .

وفي الآية إيماء إلى أن أهل مكة يعاملهم الله معاملة قوم يونس إذ آمنوا عند رؤية العذاب .

وذلك حالهم عندما تسامعوا بقدوم جيش غزوة الفتح الذي لا قبل لهم به عدة وعُدة ،

فيكاد يحل بهم عذاب استئصال لولا أنهم عجّلوا بالإيمان يوم الفتح .

فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم " أنتُم الطلقاء "

وقوم يونس هم أهل قرية نَيْنَوَى من بلاد العراق .

وهم خليط من الأشوريين واليهود الذين كانوا في أسر ملوك بابل بعد بختنصر .

وكانت بعثة يونس إليهم في أول القرى الثامن قبل المسيح .

وقد تقدم ذكر يونس وترجمته في سورة الأنعام .

ولما كذّبه أهل نَيْنَوَى توعدهم بخسف مدينتهم بعد أربعين يوماً ، وخرج من المدينة غاضباً عليهم ، فلمّا خرج خافوا نزول العذاب بهم فتابوا وآمنوا بالله فقبل الله إيمانهم ولم يعذّبهم .

(154/369)

والمذكور أنهم رأوا غيماً أسود بعد مضي خمسة وثلاثين يوماً من حين توعدهم يونس عليه السلام بحلول العذاب فعلموا أنه مقدمة العذاب فآمنوا وخضعوا لله تعالى فأمسك عنهم العذاب .

وسيجيء ذكر ما حل بيونس عليه السلام في خروجه ذلك من ابتلاع الحوت إياه في سورة الأنبياء .

والكشف : إزالة ما هو ساتر لشيء ، وهو هنا مجاز في الرفع .

والمراد : تقدير الرفع وإبطال العذاب قبل وقوعه فعبر عنه بالكشف تنزيلاً لمقاربة الوقوع منزلة الوقوع .

والخزي : الإهانة والذل .

وإضافة العذاب إلى الخزي يجوز كونها بيانية لأن العذاب كله خزي ، إذ هو حالة من الهلاك غير معتادة فإذا قدرها الله لقوم فقد أراد إذلالهم ، ويجوز أن تكون الإضافة حقيقية للتخصيص ، ويكون المراد من الخزي الحالة المتصورة من حلوله .

وهي شناعة الحالة لمن يشاهدهم مثل الخسف والحرق والغرق ، وأشنع الخزي ما كان بأيدي أناس مثلهم ، وهو عذاب السيف الذي حل بصناديد قريش يوم بدر ، والذي كاد أن يحل بجميع قريش يوم فتح مكة فنجاهم الله منه كما نجّى قوم يونس .

و﴿ في الحياة الدنيا ﴾ صفة ل ﴿ عذاب الخزي ﴾ للإشارة إلى أن العذاب الذي يحل بالأمم الكافرة هو عقاب في الدنيا وبعده عقاب في الآخرة ، وأن الأمم التي لم تعذب في الدنيا قد أدخر لها عذاب الآخرة .

والتمتيع : الإمهال .

وإبهام ﴿ حين ﴾ لأنه مختلف باختلاف آجال أحادهم ، والمراد به التمتيع بالحياة لا بكشف العذاب ، لأنهم بعد موتهم ناجون من العذاب إذ كانوا قد آمنوا وأخلصوا .

ولعل الحكمة في نجاة قوم يونس تتمثل في أمرين:

أحدهما : أن الله علم أن تكذيبهم يونس عليه السلام في ابتداء دعوته لم يكن ناشئاً عن تصميم على الكفر واستخفاف بعظمة الله ، ولكنه كان شكاً في صدق يونس عليه السّلام .

(155/369)

ولعل ذلك أنهم كانوا على بقية من شريعة موسى عليه السّلام وإنما حرّفوا وحادوا عن طريق الإيمان مما يعلمه الله ، فإن في نَيْنَوَى كثيراً من أسرى بني إسرائيل الذين كانوا في أسر الأشوريين كما علمت آنفاً ، فلما أوعدهم يونس عليه السّلام بالعذاب بعد أربعين يوماً ورأوا أماراته بعد خمسة وثلاثين يوماً اهتدَوا وآمنوا إيماناً خالصاً .

وثانيهما : أن يونس عليه السّلام لمّا صدرت منه فلتة المغاضبة كان قد خلط في دعوته شيئاً من حظ النفس وإن كان لفائدة الدين ، فقدر الله إيمان قومه لعلمه كمال الإيمان والصبر والتسليم لله ، وهذا عتاب وتأديب بينه وبين ربه ، ولذلك حذّر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمةَ من توهم أنّ ما جرى ليونس عليه السّلام من المغاضبة والمعاقبة ينقص من قدره فقال صلى الله عليه وسلم " لا ينبغي لأحد أن يقول أنَا خير من يونس بن متّى " يعني في

صحة الرسالة لا في التفاضل فيها .

وقد كان حال أهل مكة كحال قوم يونس إذ بادروا إلى الإيمان بمجرد دخول جيش الفتح مكة وقبل أن يقعُوا في قبضة الأسر ، ولذلك لم ينج منهم عبدُ الله بن خطل ، لأنه لم يأت مُؤمناً قبل أن يتمكن منه المسلمون ولم ينفعه التعلق بأستار الكعبة لأن ذلك التعلق ليس بإيمان وإنما هو من شعار العوذ في الجاهلية بما أبطله الإسلام إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم " إن الحرم لا يعيذ عاصياً " وقد بيّنّا في آخر سورة غافر (84) عند قوله تعالى : ﴿ فلمّا رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ﴾ إلى آخر السورة فانظره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(156/369)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾

وهكذا يبيِّن لنا الحق سبحانه أن هناك كثيراً من القرى لم تؤمن إلا وقت العذاب ، فلم ينفع أياً منهم هذا الإيمان ، ولكن قوم يونس قبل أن تأتي بشائر العذاب والبأس أعلنوا الإيمان فَقَبِل الحق سبحانه إيمانهم ؛ لأنه سبحانه لا يظلم عباده .

فمَنْ وصل إلى العذاب ، وأعلن الإيمان من قلب العذاب لا يُقبَلُ منه ، ومن أحس واستشفَّ بواكير العذاب وآمن فالحق سبحانه وتعالى يقبله .

وكلمة " لولا " إذا سمعتها فمثلها مثل " لوما " ، وإذا دخلت " لولا " على جملة اسمية فلها حكم يختلف عن حكمها لو دخلت على جملة فعلية ، فحين تدخل على جملة اسمية مثل : " لولا زيد عندك لأتيتك " تفيد أن امتناع المجيء هو بسبب وجود زيد ، لكنها إن دخلت على جملة فعلية فيقال عنها : " أداة تحضيض وحَثّ " مثل قول الحق سبحانه : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين ﴾ [التوبة : 122] .

أي : أنه كان يجب أن ينفر من كل طائفة عدد ليتدارسوا أمور الدين .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا :

﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ﴾ [يونس : 98] .

أي : أنه لو أن هناك قرية آمنت قبل أن ينزل بها العذاب لأنجيناها كما أنجينا قوم يونس ، أو كنا نحب أن يحدث الإيمان من قرية قبل أن يأتيها العذاب .

إذن : فقوم يونس هنا مُسْتثنون ؛ لأنهم آمنوا قبل أن يأتيهم العذاب .

وهناك آية أخرى تتعلق بهذه القصة ، يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات : 143144] .

أي : أن الذي منع يونس عليه السلام أن يظل في بطن الحوت إلى يوم البعث هو التسبيح .

وهنا يبيّن الحق سبحانه الاستثناء الذي حدث لقوم يونس حين يقول :

(157/369)

﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدنيا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ ﴾ [يونس : 98] .

أي : أن الإيمان نفع قرية قوم يونس قبل أن يقع بهم العذاب .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدنيا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ ﴾ [يونس : 98] .

ونحن نعلم أن كلمة " قرية " تعني : مكاناً مُهيّأ ، أهله متوطنون فيه ، فإذا ما مَرَّ عليهم زائر في أي وقت وجد عندهم قرىً أي : وجبة طعام .

ونحن نجد من يقول عن الموطن كثير السكان كلمة " بلد " ، وهؤلاء من يملكون طعاماً دائماً ، أما من يكونون قلة قليلة في موطن ففي الغالب ليس عندهم من الطعام إلا القليل الذي يكفيهم ويكفي الزائر لمرة واحدة .

وتسمى مكة المكرمة " أم القرى " ؛ لأن كل القرى تزورها .

وقرية قوم يونس اسمها " نينوى " قد حكى عنها النبي صلى الله عليه وسلم في قصة الذهاب للطائف ، وهي قرية العبد الصالح يونس بن مَتَّى ، وهي في العراق ناحية الموصل ، ويونس هو من قال عنه الله سبحانه :

﴿ وَذَا النونِ إذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً ﴾ [الأنبياء : 87] .

وكلمة " مغاضب " غير كلمة " غاضب " ، فالغاضب هو الذي يغضب دون أن يُغضبه أحد ، لكن المغاضب هو من أغضبه غيره .

وكذلك كلمة " هجر " ، ومهاجر ، فالمهاجر هو من أجبره أناس على أن يهاجر ، لكن من هجر هو من ذهب طواعية بعيداً .

والمغاضبة إذن تكون من جهتين ، وتسمى " مفاعلة " .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَذَا النونِ إذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فنادى فِي الظلمات أَن لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : 87] .

وسُمِّي سيدنا يونس عليه السلام بذى النون ؛ لأن اسمه اقترن بالحوت الذي ابتلعه .

وكلنا نعرف القصة ، حينما دعا قومه إلى الإيمان وكفروا به في البداية ؛ لأن الرسول حين يجيء إنما يجيء ليقوِّم الحياة الفاسدة ؛ فيضطهده من يعيشون على الفساد ؛ لأنهم يريدون الاحتفاظ بالجبروت الذي يسمح لهم بالسرقة والاختلاس وإرواء أهواء النفس ، فلما فعلوا ذلك مع سيدنا يونس عليه السلام خرج مغاضباً ، أي : أنهم أغضبوه .

والمغاضبة كما قلنا من المفاعلة وتحتاج إلى عنصرين ، مثلما أوضحنا أن الهجرة أيضاً مفاعلة ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يهجر مكة ، بل ألجأه قومه إلى أن يهاجر ، فكان لهم مدخل في الفعل .

وأبو الطيب المتنبي يقول في هذا المعنى :

إذَا ترحَّلت عن قومٍ وقد قَدروا . . . ألاَّ تُغادِرهم فَالرَّاحِلون هُمُ

أي : إن كنت تعيش مع قوم ، وأردت أن تفارقهم وقد قدروا أن تعيش معهم ، فالذي رحل حقيقة هم هؤلاء القوم .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد خروج يونس مغاضباً :

﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ [الأنبياء : 87] .

أي : أنه رجَّح أن الحق سبحانه لن يُضيِّق عليه الأرض الواسعة ، وسيهيىء له مكاناً آخر غير مكان المائة الألف أو يزيدون الذين بعثه الله تعالى إليهم .

وكان من المفروض أن يتحمل الأذى الصادر منهم تجاهه ، لكن هذا الظن والظن ترجيح حكم يدلنا على أن معارضة دعوته كانت شديدة تُحْفِظ وتملأ القلب بالألم والتعب .

وكان عليه أن يُوطِّن نفسه على مواجهة مشقات الدعوة .

والقرية التي أرسِل إليها يونس عليه السلام هي قرية : " نينوى " ، وهي التي جاء ذكرها في أثناء حوار بين النبي صلى الله عليه وسلم والغلام النصراني " عداس " الذي قابله صلى الله عليه وسلم في طريق عودته من الطائف .

" وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد ذهب إلى الطائف ليطلب من أهلها النصرة بعد أن آذاه قومه في مكة فلم يجد النصير ، وجلس النبي صلى الله عليه وسلم قريباً من حائط بستان .

(159/369)

فلما رآه صاحبا البستان عتبة وشيبة ابنا ربيعة وما لقي من السفهاء ؛ تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً ، يقال له عَدَّاس ، فقالا له : خُذْ قِطْفاً من هذا العنب ، فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عَدَّاس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال له : كُلْ ، فلما وضع رسول

الله صلى الله عليه وسلم فيه يده ، قال : باسم الله ، ثم أكل ، فنظر عداس في وجهه ، ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ومنْ أهل أيِّ البلاد أنت يا عدّاس ، وما دينك ؟ " . قال : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى " ؛ فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متَّى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي " ، فأكبَّ عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقبِّل رأسه ويديه وقدميه .

ولما سأل صاحبا البستان عدّاساً عن صنيعه هذا . قال لهما : لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي " .

ونحن نعلم أن العبد الصالح يونس عليه السلام قد تأثر وحزن وغضب من عدم استجابة قومه لرسالته الإيمانية ، إلى أن رأوا غَيْماً يملأ السماء وعواصف ، والقى الله تعالى في خواطرهم أن هذه العواصف هي بداية عذاب الله لهم ؛ فَهُرعوا إلى ذوي الرأي فيهم ، فاشاروا عليهم بأن هذه هي بوادر العذاب ، وقالوا لهم : عليكم بإرضاء يونس ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي أرسله ، فآمِنوا به ليكشف عنك الغُمَّة .

وهُرع الناس إلى الإيمان بالحي الذي لا يموت ، الحيُّ حين لا حيَّ ، والقيوم والمُحيي والمميت

.

وذهب قوم يونس عليه السلام لاسترضائه ؛ وحين رضي عنهم بدأوا ينظرون في المظالم التي ارتكبوها ، حتى إن الرجل منهم كان ينقض ويهدم جداريته ؛ لأنه فيه حجراً قد اختلسه من جار له .

وكشف الله سبحانه وتعالى عنهم العذاب ، وهنا يقول سبحانه :

﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدنيا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ ﴾ [يونس : 98] .

ومن لوازم قصة يونس عليه السلام ، ليست المغاضبة فقط ، بل قصته مع الحوت ، فقد كان عليه السلام بعد مغاضبته لقومه قد ركب سفينة ، فلعبت بها الأمواج فاضطربت اضطراباً شديداً ، وأشرفت على الغرق بركابها ؛ فألقوا الأمتعة في البحر ؛ لتخِفَّ بهم السفينة ؛ فاستمر اضطرابها ، فاقترعوا على أن يلقوا إلى البحر من تقع عليه القرعة ، فوقعت القرعة على نبي الله يونس عليه السلام .

مثلما نركب مصعداً ، فنجد الضوء الأحمر وقد أضاء إنذاراً لنا بأن الحمولة زائدة ، وأن المصعد لن يعمل فيخرج منه واحد أو أكثر حتى يتبقى العدد المسموح به ، وعادة يكون الخارج من أحسن الموجودين خُلقاً ، لأنهم أرادوا تسهيل أعمال الآخرين .

كذلك كان الأمر مع السفينة التي ركبها يونس عليه السلام ، كادت أن تغرق ، فاقترعوا ، وصار على يونس أن ينزل إلى البحر .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ المدحضين ﴾ [الصافات : 141] .

ونزل يونس عليه السلام إلى البحر فالتقمه الحوت وابتلعه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن وجود سيدنا يونس عليه السلام في بطن الحوت :

﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات : 143144] .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدنيا ﴾ [يونس : 98] .

(161/369)

وعذاب الخزي في الحياة الدنيا يمكن أن تراه مُجسَّداً فيمن افترى وتكبَّر على الناس ، ثم يراه الناس في هوان ومذلة ، هذا هو عذاب الخزي في الدنيا ، ولا بد أن عذاب الآخرة أخْزَى وأشَدُّ .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [يونس : 98] .

أي : أنهم نَجَوْا من الهلاك بالعذاب إلى أن انتهت آجالهم بالموت الطبيعي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(162/369)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه قال : بلغني أن في حرف ابن مسعود رضي الله عنه " فهلا كانت قرية آمنت " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك رضي الله عنه في قوله ﴿ فلولا كانت قرية آمنت ﴾ يقول : فما كانت قرية آمنت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك رضي الله عنه قال : كل ما في القرآن فلولا فهو فهلا إلا في

حرفين في يونس ﴿ فلولا كانت قرية آمنت ﴾ والآخر ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم ﴾ [هود : 116] .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فلولا كانت قرية آمنت ﴾ قال : فلم تكن قرية آمنت .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فلولا كانت قرية آمنت . . . ﴾ الآية . يقول : لم يكن هذا في الأمم قبل قوم يونس لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين عاينت العذاب إلا قوم يونس عليه السلام فاستثنى الله قوم يونس ، وذكر لنا أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل ، فلما فقدوا نبيهم عليه السلام قذف الله تعالى في قلوبهم التوبة فلبسوا المسوح ، وأخرجوا المواشي ، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ، فعجوا إلى الله أربعين صباحاً ، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم ، كشف عنهم العذاب بعد ما تدلى عليهم لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فلولا كانت قرية آمنت . . . ﴾ الآية . قال : لم تكن قرية آمنت فنفعها الإِيمان إذا نزل بها بأس الله . إلا قرية : يونس .

وأخرج ابن مردويه " عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " في قوله ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا ﴾ قال : لما دعوا " " .

وأخرج ابن أبي حاتم واللالكائي في السنة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : إن الحذر لا يرد القدر وإن الدعاء يرد القدر ، وذلك في كتاب الله : ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن الدعاء ليرد القضاء وقد نزل من السماء ، اقرأوا إن شئتم ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم ﴾ فدعوا صرف عنهم العذاب .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن يونس دعا قومه فلما أبوا أن يجيبوه وعدهم العذاب فقال : إنه يأتيكم يوم كذا وكذا . ثم خرج عنهم – وكانت الأنبياء عليهم السلام إذا وعدت قومها العذاب خرجت – فلما أظلهم العذاب خرجوا ففرقوا بين المرأة وولدها ، وبين السخلة وأولادها ، وخرجوا يعجبون إلى الله علم الله منهم الصدق فتاب عليهم وصرف عنهم العذاب ، وقعد يونس في الطريق يسأل عن الخبر ، فمر به رجل فقال : ما فعل قوم يونس ؟ فحدثه بما صنعوا فقال : لا أرجع إلى قوم قد كذبتهم . وانطلق مغاضباً يعني مراغماً " .

وأخرج أحمد في الزهد وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن العذاب كان هبط على قوم يونس حتى لم يكن بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل ، فلما دعوا كشف الله عنهم .

وأخرج أحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : غشي قوم يونس العذاب كما يغشى القبر بالثوب إذا أدخل فيه صاحبه ، وأمطرت السماء دماً .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد في الزهد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا ﴾ قال : بلغنا أنهم خرجوا فنزلوا على تل وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ، فدعوا الله أربعين ليلة حتى تاب عليهم .

(164/369)

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه قال : تيب على قوم يونس عليه السلام يوم عاشوراء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال : بعث يونس عليه السلام إلى قرية يقال لها على شاطىء دجلة .

وأخرج أحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي الخلد رضي الله عنه

قال : لما غشي قوم يونس عليه السلام العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا له : ما ترى ؟ قال : قولوا يا حي حين لا حي ، ويا حي محيي الموت ، ويا حي لا إله إلا أنت . فقالوا فكشف عنهم العذاب .

وأخرج ابن النجار عن عائشة رضي الله عنهما قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا ينجي حذر من قدر ، وأن الدعاء يدفع من البلاء ، وقد قال الله في كتابه ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ " .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما دعا يونس على قومه أوحى الله إليه أن العذاب مصبحهم . فقالوا : ما كذب يونس وليصحبنا العذاب ، فتعالوا حتى نخرج سخال كل شيء فنجعلها مع أولادنا فلعل الله أن يرحمهم . فأخرجوا النساء معهن الولدان ، وأخرجوا الإِبل معها فصلانها ، وأخرجوا البقر معها عجاجيلها ، وأخرجوا الغنم معها سخالها فجعلوه إمامهم ، وأقبل العذاب فلما أن رأوه جأروا إلى الله ودعوا ، وبكى النساء والولدان ، ورغت الإِبل وفصلانها ، وخارت البقر وعجاجيلها ، وثغت الغنم وسخالها ، فرحمهم الله فصرف عنهم العذاب إلى جبال آمد ، فهم يعذبون حتى الساعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا ﴾ : " لولا " هنا تحضيضية وفيها معنى التوبيخ ، كقول الفرزدق :

2631 تَعُدُّون عقر النيبِ أفضل مَجْدِكُمْ . . . بني ضَوْطَرى لولا الكَمِيَّ المقنَّعا

وفي مصحف أُبَي وعبد الله وقرأ كذلك " فهلاَّ " وهي نصٌّ في التحضيض . و " كانت " هنا تامة ، و " آمنَتْ " صفة لقرية ، و " فَنَفَعَها " نسقٌ على الصفة .

قوله : ﴿ إِلاَّ قَوْمَ ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أنه استثناء منقطعٌ وإليه ذهبَ سيبويه والكسائي والأخفش/ والفراء ، ولذلك أدخله سيبويه في باب ما لا يكون فيه إلا النصبُ لانقطاعِه ، وإنما كان منقطعاً ؛ لأن ما بعد " إلا " لا يندرجُ تحت لفظ " قرية " . والثاني : أنه متصل . قال الزمخشري : " استثناءٌ من القرى لأن المرادَ أهاليها ، ويجوز أن يكون متصلاً ، والجملةُ في معنى النفي كأنه قيل : ما آمنت قريةٌ من القرى الهالكة إلا قوم يونس " . وقال ابن عطية : " هو بحسب اللفظ استثناءٌ منقطع ، وكذلك رسمه النحويون ، وهو بحسبِ المعنى متصلٌ لأن تقديره : ما آمنَ أهل قريةٍ إلا قومَ يونس " . قلت : وتقديرُ هذا المضافِ هو الذي صَحَّح كونَه استثناء متصلاً ، وكذلك قال أبو البقاء ومكي وابن عطية

وغيرهُم . وأمَّا الزمخشري فإن ظاهرَ عبارتِه أنَّ المصحّحَ لكونه متصلاً كونُ الكلام في معنى النفي ، وليس كذلك بل المسوّغِ كونُ القرى يراد بها أهاليها من بابِ إطلاق المحلِّ على الحالِّ ، وهو أحد الأوجهِ المذكورة في قوله : ﴿ وَسْئَلِ القرية ﴾ [يوسف : 82] .

(166/369)

وقرأت فرقة : " إلا قومُ " بالرفع . قال الزمخشري " وقُرِىء بالرفعِ على البدل ، رُوي ذلك عن الجرميّ والكسائي . وقال المهدوي : " والرفعُ على البدل من " قرية " . فظاهر هاتين العبارتين أنها قراءةٌ منقولةٌ ، وظاهرُ قول مكي وأبي البقاء أنها ليسَتْ قراءة ، وإنما ذلك من الجائز ، وجعلا الرفعَ على وجهٍ آخرَ غيرِ البدل وهو كونُ " إلا " بمعنى : " غير " في وقوعها صفةً . قال مكي : " ويجوزُ الرفعُ على أن تُجْعل " إلا " بمعنى " غير " صفةً للأهل المحذوفين في المعنى ثم يُعْرَبَ ما بعد " إلا " بإعراب " غير " لو ظهَرَتْ في موضع " إلا " . وقال أبو البقاء : وأظنه أخذه منه " ولو كان قد قُرِىء بالرفع لكانت " إلا " فيه بمنزلة " غير " فتكون صفة " . وقد تقدم أن في نون يونس ثلاث قراءات قُرِىء بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 268 . 270 ﴾

(167/369)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (98) ﴾

قومُ يونس تداركتْهم الرحمةُ أزليةُ فيما أجرى من توفيقِ التضرع ، فَكَشَفَ عنهم العذابَ ، وصَرَفَ عنهم ما أظلَّ عليهم من العقوبة بعد ما عاينوا من تلك الأبواب ؛ فبرحمته وصلوا إلى تضرعهم ، لا بتضرعهم وصلوا إلى رحمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 116 ﴾

(168/369)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (99) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (100) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ما مضى ربما أوجب اعتقاد أن إيمان مثل أولئك محال جاءت هذه الآية في مقام الاحتراس منه مع البيان لأن حرص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على إيمانهم لا ينفع ومبالغته في إزالة الشبهات وتقرير الدلائل لا تفيد إلاّ بمشيئة الله تعالى لتوفيقهم وهدايتهم ، ولو كان ذلك وحده كافياً لآمنوا بهذا السورة فإنها أزالت شبهاتهم وبينت ضلالاتهم وحققت بقصتي نوح وموسى عليهما السلام ضعفهم ووهن مدافعاتهم فقال تعالى : ﴿ ولو شآء ﴾ أي إيمان الناس ﴿ ربك ﴾ أي المحسن إليك بإقبال من أقبل لعلمه الخير فيه وإدبار من أدبر لعدم قابليته للخير ﴿ لآمن من في الأرض ﴾ من الكفار .

(169/369)

ولما كان هذا ظاهراً في الكل ، صرح به مؤكداً لأن المقام يقتضيه فقال : ﴿ كلهم جميعاً ﴾ أي مجتمعين في آن واحد لا يختلفون في شيء منه ، ولكن لم يشأ ذلك وأنت لحرصك على امتثال أوامري ووصيتي لك باللطف بخلقي الموافق لما جبلتك عليه من الخير تريد ذلك ﴿ أفأنت تكره الناس ﴾ أي الذين لم يرد الله إيمانهم مع ما طبعهم عليه من الاضطراب ﴿ حتى يكونوا ﴾ أي كوناً جبلياً ﴿ مؤمنين ﴾ أي راسخين في الإيمان ، وإيلاء الاستفهام

الاسم مقدماً على الفعل للإعلام بأن الفعل – وهو هنا الإكراه – ممكن من غير ذلك الاسم وهو هنا الله وحده القادر على تحويل الطباع فإن قدرته قاهرة لكل شيء ومشيئته نافذة في كل شيء مع الدلالة على أن وقوع خلاف المشيئة مستحيل لا يمكن لغيره تعالى بإكراه ولا غيره ، والمشيئة معنى يكون به الفعل مراداً أخذت من الشيء ، والمراد بالآية تخفيف ما يلحق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من التحسر للحرص على إيمانهم ﴿ وما كان ﴾ أي وما ينبغي ولا يتأتى ﴿ لنفس ﴾ أي واحدة فما فوقها ﴿ أن تؤمن ﴾ أي يقع منها إيمان في وقت ما ﴿ إلاّ بإذن الله ﴾ أي بإرادة الملك الأعلى الذي له الخلق والأمر وتمكينه ، فيجعل الثبات والطمأنينة – اللازمين للإيمان الذي هو أبعد شيء عن السحر – على الذين ينتفعون بعقولهم فيلزمون معالي الأخلاق التي هي ثمرات للإيمان ﴿ ويجعل الرجس ﴾ أي الاضطراب والتزلزل الذي يلزمه التكذيب الذي هو أشبه شيء بالسحر لأنه تخييل ما لا حقيقة له والقذر والقباحة والغضب والعقاب الناشيء عنه .

(170/369)

ولما كان ما في هذه السورة من الدلائل قد وصل في البيان إلى حد لا يحتاج فيه إلى غير مجرد العقل قال : ﴿ على الذين لا يعقلون ﴾ أي لا يوجد لهم عقل ، فهم لذلك لا ينتفعون بالآيات

وهم يدعون أنهم أعقل الناس فيتساقطون في مساوىء الأخلاق وهم يدعون أنهم أبعد الناس عنها ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ؛ والنفس : خاصة الشيء التي لو بطل ما سواها لم يبطل ذلك الشيء ، ونفسه وذاته واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 490 . 491 ﴾

(171/369)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾

اعلم أن هذه السورة من أولها إلى هذا الموضع في بيان حكاية شبهات الكفار في إنكار النبوة مع الجواب عنها ، وكانت إحدى شبهاتهم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يهددهم بنزول العذاب مع الكافرين ، وبعد اتباعه إن الله ينصرهم ويعلي شأنهم ويقوي جانبهم ، ثم إن الكفار ما رأوا ذلك فجعلوا ذلك شبهة في الطعن في نبوته ، وكانوا يبالغون في استعجال ذلك العذاب على سبيل السخرية ، ثم إن الله سبحانه وتعالى بين أن تأخير الموعود به لا يقدح في صحة الوعد ، ثم ضرب لهذا أمثلة وهي واقعة نوح وواقعة موسى عليهما السلام

مع فرعون وامتدت هذه البيانات إلى هذه المقامات ، ثم في هذه الآية بين أن جد الرسول في دخولهم في الإيمان لا ينفع ومبالغته في تقرير الدلائل ، وفي الجواب عن الشبهات لا تفيد ، لأن الإيمان لا يحصل إلا بتخليق الله تعالى ومشيئته وإرشاده وهدايته ، فإذا لم يحصل هذا المعنى لم يحصل الإيمان ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(172/369)

احتج أصحابنا على صحة قولهم بأن جميع الكائنات بمشيئة الله تعالى ، فقالوا كلمة (لو) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره ، فقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ ﴾ يقتضي أنه ما حصلت تلك المشيئة وما حصل إيمان أهل الأرض بالكلية فدل هذا على أنه تعالى ما أراد إيمان الكل ، أجاب الجبائي والقاضي وغيرهما بأن المراد مشيئة الإلجاء ، أي لو شاء الله أن يلجئهم إلى الإيمان لقدر عليه ولصح ذلك منه ، ولكنه ما فعل ذلك ، لأن الإيمان الصادر من العبد على سبيل الإلجاء لا ينفعه ولا يفيده فائدة ، ثم قال الجبائي : ومعنى إلجاء الله تعالى إياهم إلى ذلك ، أن يعرفهم اضطراراً أنهم لو حاولوا تركه ، حال الله بينهم وبين ذلك وعند هذا لا بد وأن يفعلوا ما ألجئوا إليه كما أن من علم منا أنه إن حاول قتل

ملك فإنه يمنعه منه قهراً لم يكن تركه لذلك الفعل سبباً لاستحقاق المدح والثواب فكذا ههنا .

واعلم أن هذا الكلام ضعيف وبيانه من وجوه : الأول : أن الكافر كان قادراً على الكفر فهل كان قادراً على الإيمان ، أو ما كان قادراً عليه ؟ فإن قدر على الكفر ولم يقدر على الإيمان فحينئذ تكون القدرة على الكفر مستلزمة للكفر ، فإذا كان خالق تلك القدرة هو الله تعالى لزم أن يقال إنه تعالى خلق فيه قدرة مستلزمة للكفر فوجب أن يقال إنه أراد منه الكفر وأما إن كانت القدرة صالحة للضدين كما هو مذهب القوم ، فرجحان أحد الطرفين على الآخر إن لم يتوقف على المرجح فقد حصل الرجحان لا لمرجح وهذا باطل ، وإن توقف على مرجح فذلك المرجح إما أن يكون من العبد أو من الله فإن كان من العبد عاد التقسيم فيه ولزم التسلسل وهو محال ، وإن كان من الله تعالى فحينئذ يكون مجموع تلك القدرة مع تلك الداعية موجباً لذلك الكفر فإذا كان خالق القدرة والداعية هو الله تعالى فحينئذ عاد الإلزام .

(173/369)

الثاني : أن قوله : ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ ﴾ لا يجوز حمله على مشيئة الإلجاء ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يطلب أن يحصل لهم إيمان لا يفيدهم في الآخرة ، فبين تعالى أنه لا قدرة للرسول على تحصيل هذا الإيمان ، ثم قال : ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ فوجب أن يكون المراد من الإيمان المذكور في هذه الآية هو هذا الإيمان النافع حتى يكون الكلام منتظماً ، فأما حمل اللفظ على مشيئة القهر والإلجاء فإنه لا يليق بهذا الموضع .

الثالث : المراد بهذا الإلجاء ، إما أن يكون هو أن يظهر له آيات هائلة يعظم خوفه عند رؤيتها ، ثم يأتي بالإيمان عندها .

وإما أن يكون المراد خلق الإيمان فيهم .

والأول باطل ، لأنه تعالى بين فيما قبل هذه الآية أن إنزال هذه الآيات لا يفيد وهو قوله : ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ ءايَةٍ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ [يونس : 96 ، 97] وقال أيضاً : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملئكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ [الأنعام : 111] وإن كان المراد هو الثاني لم يكن هذا الإلجاء إلى الإيمان ، بل كان ذلك عبارة عن خلق الإيمان فيهم ، ثم يقال لكنه ما خلق الإيمان فيهم ، فدل على أنه ما أراد حصول الإيمان لهم وهذا عين مذهبنا .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا الكلام قال : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ والمعنى أنه لا قدرة لك على التصرف في أحد ، والمقصود منه بيان أن القدرة القاهرة والمشيئة النافذة ليست إلا للحق سبحانه وتعالى .

المسألة الثانية :

(174/369)

احتج أصحابنا على صحة قولهم أنه لا حكم للأشياء قبل ورود الشرع بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ قالوا وجه الاستدلال به أن الإذن عبارة عن الإطلاق في الفعل ورفع الحرج وصريح هذه الآية يدل على أنه قبل حصول هذا المعنى ليس له أن يقدم على هذا الإيمان ، ثم قالوا : والذي يدل عليه من جهة العقل وجوه : الأول : أن معرفة الله تعالى والاشتغال بشكره والثناء عليه لا يدل العقل على حصول نفع فيه ، فوجب أن لا يجب ذلك بحسب العقل ، بيان الأول أن ذلك النفع إما أن يكون عائداً إلى المشكور أو إلى الشاكر والأول باطل لأن في الشاهد المشكور ينتفع بالشكر فيسره الشكر ويسوءه الكفران ، فلا جرم كان الشكر حسناً والكفران قبيحاً ، أما الله سبحانه فإنه لا يسره الشكر ولا يسوءه الكفران ، فلا ينتفع بهذا الشكر أصلاً .

والثاني : أيضاً باطل لأن الشاكر يتعب في الحال بذلك الشكر ويبذل الخدمة مع أن المشكور لا ينتفع به ألبتة ولا يمكن أن يقال إن ذلك الشكر علة الثواب ، لأن الاستحقاق على الله تعالى محال فإن الاستحقاق على الغير إنما يعقل إذا كان ذلك الغير بحيث لو لم يعط لأوجب امتناعه من إعطاء ذلك الحق حصول نقصان في حقه ، ولما كان الحق سبحانه منزهاً عن النقصان والزيادة لم يعقل ذلك في حقه ، فثبت أن الاشتغال بالإيمان وبالشكر ، لا يفيد نفعاً بحسب العقل المحض وما كان كذلك امتنع أن يكون العقل موجباً له ، فثبت بهذا البرهان القاطع صحة قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ قال القاضي : المراد أن الإيمان لا يصدر عنه إلا بعلم الله أو بتكليفه أو بإقداره عليه .

وجوابنا : أن حمل الإذن على ما ذكرتم ترك للظاهر وذلك لا يجوز ، لا سيما وقد بينا أن الدليل القاطع العقلي يقوي قولنا .

المسألة الثالثة :

قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ وَنَجْعَلُ ﴾ بالنون وقرأ الباقون بالياء كناية عن اسم الله تعالى .

المسألة الرابعة :

احتج أصحابنا على صحة قولهم بأن خالق الكفر والإيمان هو الله تعالى بقوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُ الرجس عَلَى الذين لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ وتقريره أن الرجس قد يراد به العمل القبيح قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهِ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرجس أَهْلَ البيت وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب : 33] والمراد من الرجس ههنا العمل القبيح ، سواء كان كفراً أو معصية ، وبالتطهير نقل العبد من رجس الكفر والمعصية إلى طهارة الإيمان والطاعة ، فلما ذكر الله تعالى فيما قبل هذه الآية أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله تعالى وتخليقه ، ذكر بعده أن الرجس لا يحصل إلا بتخليقه وتكوينه .

والرجس الذي يقابل الإيمان ليس إلا الكفر ، فثبت دلالة هذه الآية على أن الكفر والإيمان من الله تعالى .

أجاب أبو علي الفارسي النحوي عنه فقال : الرجس ، يحتمل وجهين آخرين : أحدهما : أن يكون المراد منه العذاب ، فقوله : ﴿ وَيَجْعَلُ الرجس عَلَى الذين لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أي يلحق العذاب بهم كما قال : ﴿ وَيُعَذِّبَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ [الفتح : 6] والثاني : أنه تعالى يحكم عليهم بأنهم رجس كما قال : ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ ﴾ [التوبة : 28] والمعنى أن الطهارة الثابتة للمسلمين لم تحصل لهم .

والجواب : أنا قد بينا بالدليل العقلي أن الجهل لا يمكن أن يكون فعلاً للعبد لأنه لا يريده ولا

يقصد إلى تكوينه ، وإنما يريد ضده ، وإنما قصد إلى تحصيل ضده ، فلو كان به لما حصل إلا ما قصده وأوردنا السؤالات على هذه الحجة وأجبنا عنها فيما سلف من هذا الكتاب .

(176/369)

وأما حمل الرجس على العذاب ، فهو باطل ، لأن الرجس عبارة عن الفاسد المستقذر المستكره ، فحمل هذا اللفظ على جهلهم وكفرهم أولى من حمله على عذاب الله مع كونه حقاً صدقاً صواباً ، وأما حمل لفظ الرجس على حكم الله برجاستهم ، فهو في غاية البعد ، لأن حكم الله تعالى بذلك صفته ، فكيف يجوز أن يقال إن صفة الله رجس ، فثبت أن الحجة التي ذكرناها ظاهرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 133 . 135 ﴾

(177/369)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه إلا بأمر الله تعالى ، قاله الحسن .

الثاني : إلا بمعونة الله .

الثالث : إلا بإعلام الله سبل الهدى والضلالات .

﴿ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : أن الرجس السخط ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه العذاب ، قاله الفراء .

الثالث : أنه الإثم ، قاله سعيد بن جبيرٍ .

الرابع : أنه ما لا خير فيه ، قاله مجاهد .

الخامس : أنه الشيطان ، قاله قتادة .

وقوله : ﴿ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ يعني لا يعقلون عن الله تعالى أمره ونهيه ويحتمل أنهم الذين لا يعتبرون بحججه ودلائله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(178/369)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾

المعنى أن هذا الذي تقدم إنما كان جميعه بقضاء الله عليهم ومشيئته فيهم ، ولو شاء الله لكان الجميع مؤمناً فلا تأسف أنت يا محمد على كفر من لم يؤمن بك ، وادع ولا عليك فالأمر محتوم ، أفتريد أنت أن تكره الناس بإدخال الإيمان في قلوبهم وتضطرهم إلى ذلك والله عز وجل قد شاء غيره .

قال القاضي أبو محمد : فهذا التأويل الآية عليه محكمة أي ادع وقاتل من خالفك ، وإيمان من آمن مصروف إلى المشيئة وقالت فرقة : المعنى أفأنت تكره الناس بالقتال حتى يدخلوا في الإيمان ، وزعمت أن هذه الآية في صدر الإسلام وأنها منسوخة بآية السيف ، والآية على كلا التأويلين رادة على المعتزلة ، وقوله تعالى : ﴿ كلهم جميعاً ﴾ تأكيد وهو من فصيح الكلام ، و ﴿ جميعاً ﴾ حال مؤكدة ، ونحوه قوله ﴿ لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ [النحل : 51] وقوله تعالى : ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ الآية ، رد إلى الله تعالى وإلى أن الحول والقوة لله ، في إيمان من يؤمن وكون الرجس على الكفار ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر " ونجعل الرجس " بنون العظمة ، وقرأ الباقون وحفص عن عاصم : " ويجعل " بالياء وقرأ الأعمش : " ويجعل " الله الرجس " ، و ﴿ الرجس ﴾ يكون بمعنى العذاب كالرجز ، ويكون بمعنى القذر والنجاسة ذكره أبو علي هنا وغيره وهو في هذه الآية بمعنى العذاب ،

و﴿ لا يعقلون ﴾ يريد آيات الله وحجج الشرع. ومعنى "الإذن" في هذه الآية الإرادة والتقدير لذلك، فهو العلم والتمكين. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(179/369)

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾

أي لاضطرهم إليه.

"كُلُّهُمْ" تأكيد ل "من".

"جَمِيعاً" عند سيبويه نصب على الحال.

وقال الأخفش: جاء بقوله جميعاً بعد كل تأكيداً؛ كقوله: ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ إلهين اثنين ﴾ [النحل: 51].

قوله تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس: كان النبيّ صلى الله عليه وسلم حريصاً على إيمان جميع الناس؛ فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذِّكر الأوّل، ولا يضلّ إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأوّل.

وقيل: المراد بالناس هنا أبو طالب؛ وهو عن ابن عباس أيضاً.

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ "ما" نفي ؛ أي ما ينبغي أن تؤمن نفس إلا بقضائه وقدره ومشيئته وإرادته .

﴿ وَيَجْعَلُ الرجس ﴾ وقرأ الحسن وأبو بكر والمفضل "ونجعل" بالنون على التعظيم .

والرِّجس : العذاب ؛ بضم الراء وكسرها لغتان .

﴿ عَلَى الذين لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أمر الله عز وجل ونهيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(180/369)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾

يقول الله لنبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) لآمن بك وصدقك من في الأرض كلهم جميعاً ولكن لم يشأ أن يصدقك ويؤمن بك إلا من سبقت له السعادة في الأزل قال ابن عباس : إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يحرص أن يؤمن به جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله أنه لا يؤمن به إلا من سبقت له من السعادة في الذكر الأول ولم يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول وفي هذا تسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) لأنه كان

حريصاً على إيمانهم كلهم فأخبره الله أنه لا يؤمن به إلا من سبقت له العناية الأزلية فلا تتعب نفسك على إيمانهم وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ يعني ليس إيمانهم إليك حتى تكرههم عليه أو تحرص عليه إنما إيمان المؤمن وإضلال الكافر بمشيئتنا وقضائنا وقدرنا ليس ذلك لأحد سوانا ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ يعني وما كان ينبغي لنفس خلقها الله تعالى أن تؤمن وتصدق إلا بقضاء الله لها بالإيمان فإن هدايتها إلى الله وهو الهادي المضل .

وقال ابن عباس : معنى بإذن الله ، بأمر الله وقال عطاء : بمشيئة الله قوله تعالى : ﴿ ويجعل ﴾ قرئ بالنون على سبيل التعظيم أي ونجعل نحن وقرئ بالياء ومعناه ويجعل الله ﴿ الرجس ﴾ يعني العذاب ، وقال ابن عباس : يعني السخط ﴿ على الذين لا يعقلون ﴾ يعني لا يفهمون عن الله أمره ونهيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(181/369)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾

قيل : نزلت في أبي طالب ، لأنه (صلى الله عليه وسلم) أسف بموته على ملة عبد المطلب

وكان حريصاً على إيمانه .

ولما كان أحرص الناس على هدايتهم وأسعى في وصول الخير إليهم والفوز بالإيمان منهم وأكثر اجتهاداً في نجاة العالمين من العذاب ، أخبره تعالى أنه خلق أهلاً للسعادة وأهلاً للشقاوة ، وأنه لو أراد إيمانهم كلهم لفعل ، وأنه لا قدرة لأحد على التصرف في أحد .

والمقصود بيان أنّ القدرة القاهرة والمشيئة النافذة ليست إلا له تعالى .

وتقديم الاسم في الاستفهام على الفعل يدل على إمكان حصول الفعل ، لكن من غير ذلك الاسم فللّه تعالى أن يكره الناس على الإيمان لو شاء ، وليس ذلك لغيره .

وقال الزمخشري : ولو شاء ربك مشيئة القسر والإلجاء لآمن من في الأرض كلهم على وجه الإحاطة والشمول جميعاً ، مجتمعين على الإيمان ، مطبقين عليه ، لا يختلفون ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ أفأنت تكره الناس ﴾ يعني إنما يقدر على إكراههم واضطرارهم على الإيمان هؤلاء أنت .

وإتلاء الاسم حرف الاستفهام للإعلام بأنّ الإكراه ممكن مقدور عليه ، وإنما الشان في المكره من هو ، وما هو إلا هو وحده ولا يشارك فيه ، لأنه تعالى هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان ، وذلك غير مستطاع للبشير انتهى .

وقوله : مشيئة القسر والإلجاء هو مذهب المعتزلة .

وقال ابن عطية : المعنى أنّ هذا الذي تقدم ذكره إنما كان جميعه بقضاء الله عليهم ومشيئته

فيهم ، ولو شاء الله لكان الجميع مؤمناً ، فلا تتأسف أنت يا محمد على كفر من لم يؤمن بك ، وادع ولا عليك ، فالأمر محتوم .

أتريد أنت أن تكره الناس بإدخال الإيمان في قلوبهم ، وتضطرهم إلى ذلك والله عز وجل قد شاء غيره ؟ فهذا التأويل الآية عليه محكمة أي : ادع وقاتل من خالفك ، وإيمان من آمن مصروف إلى المشيئة .

(182/369)

وقالت فرقة : المعنى أفأنت تكره الناس بالقتال حتى يدخلوا في الإيمان ؟ وزعمت أن هذه الآية في صدر الإسلام ، وأنها منسوخة بآية السيف ، والآية على كلا التأويلين رادة على المعتزلة انتهى .

ولذلك ذهب الزمخشري إلى تفسير المشيئة بمشيئة القسر والإلجاء ، وهو تفسير الجبائي والقاضي .

ومعنى إلا بإذن الله .

أي بإرادته وتقديره لذلك والتمكن منه .

وقال الزمخشري : بتسهيله وهو منح الإلطاف .

ويجعل الرجس : وهو الخذلان على الذين لا يعقلون ، وهم المصرون على الكفر .

وسمى الخذلان رجساً وهو العذاب ، لأنه سببه انتهى .

وهو على طريق الاعتزال .

وقال ابن عباس : الرجس السخط ، وعنه الإثم والعذوان .

وقال مجاهد : ما لا خير فيه .

وقال الحسن ، وأبو عبيدة ، والزجاج : العذاب .

وقال الفراء : العذاب والغضب .

وقال الحسن أيضاً : الكفر .

وقال قتادة : الشيطان ، وقد تقدّم تفسيره ، ولكن نقلنا ما قاله العلماء هنا .

وقرأ أبو بكر ، وزيد بن علي : ونجعل بالنون ، وقرأ الأعمش : ويجعل الله الرجز بالزاي .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(183/369)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ ﴾

تحقيقٌ لدروان إيمانِ كافةِ المكلفين وجوداً وعدماً على قُطب مشيئتِه تعالى مطلقاً إثرَ بيانِ تبعيةِ كفرِ الكفرةِ لكلمته ومفعولُ المشيئة محذوفٌ لوجود ما يقتضيه من وقوعها شرطاً وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاء وأن لا يكونَ في تعلقها به غرابةٌ كما هو المشهورُ أي لو شاء سبحانه إيمانَ من في الأرض من الثقلين لآمن ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ بحيث لا يشِذّ عنهم أحد ﴿ جَمِيعاً ﴾ مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه لكنه لا يشاؤه لكونه مخالفاً للحِكمة التي عليها بُنيَ أساسُ التكوين والتشريع وفيه دِلالةٌ على أنه من شاء الله إيمانَه يؤمن لا محالة ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس ﴾ على ما لم يشأ الله منهم حسبما ينبىء عنه حرفُ الامتناعِ في الشرطية والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل : أربُّك لا يشاء ذلك فأنت تُكرههم ﴿ حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فيكون الإنكارُ متوجهاً إلى ترتيب الإكراهِ المذكورِ على عدم مشيئته تعالى ويجوز أن تكون الفاء لترتيب الإنكارِ على عدم مشيئته تعالى بناء على أن الهمزة متأخرة في الاعتبار وإنما قدمت لاقتضائها الصدارة كما هو رأيُ الجمهورِ وأياً ما كان فالمشيئةُ على إطلاقها إذ لا فائدةَ بل لا وجهَ لاعتبار عدمِ مشيئة الإلجاءِ خاصة في إنكار الترتيبِ عليه أو ترتيب الإنكارِ عليه وفي إيلاء الاسم حرف الاستفهام إيذان بأن الإكراهَ أمرٌ ممكنٌ لكن الشأنَ في المكرَه مَنْ هو وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه لأنه القادرُ على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرهم إلى الإيمان وذلك غيرُ مستطاعٍ للبشر وفيه إيذانٌ باعتبار الإلجاءِ في المشيئة كما أشير إليه ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ ﴾ بيانٌ

لتبعية إيمانِ النفوس المؤمنةِ لمشيئته تعالى وجوداً بعد بيانِ الدوران الكليّ عليها وجوداً وعدماً أي ما صح وما استقام لنفس من النفوس التي علم الله تعالى أنها تؤمنُ ﴿ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ أي بتسهيله ومنحِه للألطاف

(184/369)

وإنما خُصت النفسُ بمن ذُكر ولم يُجعل من قبيل قولِه تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ لأن الاستثناءَ مفرَّغٌ من أعم الأحوال أي ما كان لنفس أن تؤمن في حال من أحوالها إلا حالَ كونِها ملابسةً بإذنه تعالى فلا بد من كون الإيمانِ مما يؤول إليه حالُها كما أن الموتَ مآلٌ لكل نفس بحيث لا محيصَ لها عنه فلا بد من تخصيص النفسِ بمن ذكر فإن النفوسَ التي علم الله أنها لا تؤمنُ ليس لها حالٌ تؤمن فيها حتى يستثنى تلك الحال من غيرها ﴿ وَيَجْعَلُ الرجس ﴾ أي الكفر بقرينة ما قبله عبر عنه بالرجس الذي هو عبارةٌ عن القبيح المستقذَر المستكرَه لكونه علماً في القبح والاستكراه وقيل : هو العذاب أو الخِذلان المؤدي إليه وقرىء بنون العظمة وقرىء بالزاي أي يجعل الكفرَ ويبقيه ﴿ عَلَى الذين لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات أو لا يعقلون دلائله وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع فلا يحصُل لهم الهدايةُ التي عبّر عنها بالإذن فيبقَون مغمورين بقبائح

الكفرِ والضلال أو مقهورين بالعذاب والنّكال والجملةُ معطوفةٌ على مقدر ينسحب عليه النظمُ الكريم كأنه قيل : فيأذن لهم بمنح الألطافِ ويجعل الخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(185/369)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾

تحقيق لدوران إيمان جميع المكلفين وجوداً وعدماً على قطب مشيئته سبحانه مطلقاً بعد بيان تبعية كفر الكفرة لكلمته ، ومفعول المشيئة هنا محذوف حسب المعهود في نظائره أي لو شاء سبحانه إيمان من في الأرض من الثقلين لآمن ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ بحيث لا يشذ منهم أحد ﴿ جَمِيعاً ﴾ أي مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه لكنه لم يشأ ذلك لأنه سبحانه لا يشاء إلا ما يعلم ولا يعلم إلا ما له ثبوت في نفسه فيما لا ثبوت له أصلاً لا يعلم وما لا يعلم لا يشاء ، وإلى هذا التعليل ذهب الكوراني عليه الرحمة وأطال الكلام في تحريره والذب عنه في غير ما رسالة ، والجمهور على أنه سبحانه لا يشاؤه لكونه مخالفاً للحكمة التي عليها بناء أساس التكوين والتشريع .

والآية حجة على المعتزلة الزاعمين أن الله تعالى شاء الإيمان من جميع الخلق فلم يؤمن إلا بعضهم ، والمشيئة عندهم قسمان تفويضية يجوز تخلف الشيء عنها وقسرية لا يجوز التخلف عنها وحملوا ما في الآية على هذا الأخير ، فالمعنى عندهم لو شاء ربك مشيئة الجاء وقسر إيمان الثقلين لآمنوا لكنه سبحانه لم يشأ كذلك بل أمرهم بالإيمان وخلق لهم اختياراً له ولضده وفوض الأمر إليهم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وهذا ديدنهم في كل ما ورد عليهم من الآيات الظاهرة في إبطال ما هم عليه ، وفيه أنه لا قرينة على التقييد مع أن قوله سبحانه : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس ﴾ يأباه فيما قيل ، فإن الهمزة للإنكار وهي لصدارتها مقدمة من تأخير على ما عليه الجمهور والفاء للتفريع والمقصود تفرع الإنكار على ما قبل ولا فائدة بل لا وجه لاعتبار مشيئة القسر والإلجاء خاصة في تفرع الإنكار ، وقيل : إن الهمزة في موضعها والعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل : أربك لا يشاء ذلك فأنت تكرهه ﴿ حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ والإنكار متوجه إلى ترتيب الإكراه المذكور على عدم مشيئته تعالى والإباء هو الإباء فلا بد من حمل المشيئة على إطلاقها ، والمراد بالناس من طبع عليهم أو الجميع مبالغة ، وجوز في ﴿ أَنتَ ﴾ أن يكون فاعلاً

بمقدر يفسره ما بعده وأن يكون مبتدأ خبره الجملة بعده ويعدونه فاعلاً معنوياً ، وتقديمه لتقوية حكم الإنكار كما ذهب إليه الشريف قدس سره في "شرح المفتاح" وذكر فيه أن المقصود إنكار صدور الفعل من المخاطب لا إنكار كونه هو الفاعل مع تقرر أصل الفعل ، وقيل : إن التقديم للتخصيص ففيه إيذان بأن الإكراه أمر ممكن لكن الشأن في المكره من هو وما هو إلا سبحانه وحده لا يشارك فيه لأنه جل شأنه القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرهم إلى الإيمان وذلك غير مستطاع للبشر .

(187/369)

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ ﴾ بيان لتبعية إيمان النفوس التي علم الله تعالى إيمانها لمشيئته تعالى وجوداً وعدماً بعد بيان الدوران الكلي عليها كذلك ، وقيل : هو تقرير لما يدل عليه الكلام السابق من أن خلاف المشيئة مستحيل أي ما صح وما استقام لنفس من النفوس التي علم الله تعالى أنها تؤمن ﴿ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أي بمشيئته وإرادته سبحانه ، والأصل في الإذن بالشيء الإعلام بإجازته والرخصة فيه ورفع الحجر عنه ، وجعلوا ما ذكر من لوازمه كالتسهيل الذي ذكره بعضهم في تفسيره ، وخصصت النفس بالصفة المذكورة ولم تجعل من قبيل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [آل عمران : 145] قيل

لأن الاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي ما كان لنفس أن تؤمن في حال من أحوالها إلا حال كونها ملابسة بإذنه سبحانه فلا بد من كون الإيمان مما يؤول إليه حالها كما أن الموت حال لكل نفس لا محيص لها عنه فلا بد من التخصيص بما ذكر ، فإن النفوس التي علم الله تعالى أنها لا تؤمن ليس لها حال تؤمن فيها حتى تستثني تلك الحال من غيرها انتهى ، وقد يقال : إن هذا الاستثناء بالنظر إلى النفس التي علم الله تعالى أنها لا تؤمن مفيد لعدم إيمانها على أتم وجه على حد ما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الاخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : 23] فكأنه قيل : ما كان لنفس علم الله تعالى أنها لا تؤمن أن تؤمن في حال من الأحوال كسلامة العقل وصحة البدن وغيرهما إلا في حال ملابستها إذن الله تعالى وإرادته أن تؤمن وهي تابعة لعلمه بذلك وعلمه به محال لأنه قد علم نقيضه فيلزم انقلاب العلم جهلاً فتكون إرادته ذلك محالاً فيكون إيمانها محالاً إذ الموقوف على المحال محال .

(188/369)

وفي "الحواشي الشهابية" أن ﴿ مَا كَانَ ﴾ إن كان بمعنى ما وجد احتاج إلى تقييد النفس بمن علم أنها تؤمن وإن كان بمعنى ما صح لا يحتاج إليه ولذا ذكره من ذكره وتركه من تركه وفيه خفاء فتأمل ﴿ وَيَجْعَلُ الرجس ﴾ أي الكفر كما في قوله تعالى : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا

إلى رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة : 125] بقرينة ما قبله ، وأصله الشيء الفاسد المستقذر وعبر عنه بذلك لكونه علماً في الفساد والاستقذار ، وقيل : المراد به العذاب وعبر عنه بذلك لاشتراكهما في الاستكراه والتنفر ، وأن إرادة الكفر منه باعتبار أنه نقل أولاً عن المستقذر إلى العذاب للاشتراك فيما ذكر ثم أطلق على الكفر لأنه سببه فيكون مجازاً في المرتبة الثانية ، واختار الإمام التفسير الأول تحاشياً مما في إطلاق المستقذر على عذاب الله تعالى من الاستقذار وبعض الثاني لما أن كلمة ﴿ على ﴾ في قوله تعالى : ﴿ عَلَى الذين لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أي لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات أو لا يعقلون دلائله وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع تأبى الأول .

وتعقب بأن المعنى يقدره عليهم فلا إباء ، ويفسر ﴿ الذين لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ بما يكون به تأسيساً كما سمعت في تفسيره ، ومنه تعلم أن الفعل منزل منزلة اللازم أوله مفعول مقدر ، وقد يفرق بين التفسيرين بأنهم على الأول لم يسلبوا قوة النظر لكنهم لم يوفقوا لذلك وعلى الثاني بخلافه والأمر الآتي ظاهر في الأول ، والجملة معطوفة على مقدر كأنه قيل : فيأذن لهم بالإيمان ويجعل الخ أو فيأذن لبعضهم بذلك ويجعل الخ .

وقرىء ﴿ الرجز ﴾ بالزاي ؛ وقرأ حماد .

ويحيى عن أبي بكر ﴿ وَنَجْعَلُ ﴾ بالنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾

عطف على جملة ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ﴾ [يونس : 97]

لتسلية النبي صلى الله عليه وسلم على ما لقيه من قومه .

وهذا تذييل لما تقدم من مشابهة حال قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم بحال قوم نوح

وقوم موسى وقوم يونس .

وهذه الجملة كالمقدمة الكلية للجملة التي بعدها ، وهي جملة : ﴿ أفأنت تكره ﴾

المفرعة على الجملة الأولى ، وهي المقصود من التسلية .

والناس : العرب ، أو أهل مكة منهم ، وذلك إيماء إلى أنهم المقصود من سوق القصص

الماضية كما بيّنّاه عند قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح ﴾ [يونس : 71] .

والتأكيد بـ ﴿ كلهم ﴾ للتنصيص على العموم المستفاد من (مَن) الموصولة فإنها للعموم ،

والتأكيد بـ ﴿ جميعاً ﴾ لزيادة رفع احتمال العموم العرفي دون الحقيقي .

والمعنى : لو شاء الله لجعل مدارك الناس متساوية منساقة إلى الخير ، فكانوا سواء في قبول

الهدى والنظر الصحيح .

و(لو) تقتضي انتفاء جوابها لانتفاء شرطها .

فالمعنى : لكنه لم يشأ ذلك ، فاقتضت حكمته أن خلق عقول الناس متأثرة ومنفعلة بمؤثرات التفاوت في إدراك الحقائق فلم يتواطؤا على الإيمان ، وما كان لنفس أن تؤمن إلا إذا استكملت خلقة عقلها ما يهيئها للنظر الصحيح وحسن الوعي لدعوة الخير ومغالبة الهدى في الاعتراف بالحق .

وجملة : ﴿ أفأنت تكره الناس ﴾ الخ مفرّعة على التي قبلها ، لأنّه لما تقرر أن الله لم تتعلق مشيئته باتفاق الناس على الإيمان بالله تفرع على ذلك إنكار ما هو كالمحاولة لتحصيل إيمانهم جميعاً .

والاستفهام في ﴿ أفأنت تُكره الناس ﴾ إنكاري ، فنزّل النبي صلى الله عليه وسلم لحرصه على إيمان أهل مكة وحثيث سعيه لذلك بكل وسيلة صالحة منزلة من يحاول إكراههم على الإيمان حتى ترتب على ذلك التنزيل إنكاره عليه .

(190/369)

ولأجل كون هذا الحرص الشديد هو محل التنزيل ومصب الإنكار وقع تقديم المسند إليه على المسند الفعلي ، فقيل : ﴿ أفأنت تُكره الناس ﴾ دون أن يقال : أفتكره الناس ، أو أفأنت مُكره الناس ، لأن تقديم المسند إليه على مثل هذا المسند يفيد تقوي الحكم فيفيد تقوية صدور الإكراه من النبي صلى الله عليه وسلم لتكون تلك التقوية محل الإنكار .

وهذا تعريض بالثناء على النبي ومعذرة له على عدم استجابتهم إياه ، ومَن بلغ المجهود حق له العذر .

وليس تقديم المسند إليه هنا مفيداً للتخصيص ، أي القصر ، لأن المقام غير صالح لاعتبار القصر ، إذ مجرد تنزيل النبي صلى الله عليه وسلم منزلة من يستطيع إكراه الناس على الإيمان كاف في الإشارة إلى تشبيه حرصه على إيمانهم بحرص من يستطيع إكراههم عليه .

فما وقع في "الكشاف" من الإشارة إلى معنى الاختصاص غير وجيه ، لأن قرينة التقوي واضحة كما أشار إليه السكاكي .

والإكراه : الإلجاء والقسر .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (100) ﴾

عطف على جملة : ﴿ أفأنت تكره الناس ﴾ [يونس : 99] لتقرير مضمونها لأن مضمونها إنكار أن يقدر النبي صلى الله عليه وسلم على إلجاء الناس إلى الإيمان لأن الله هو الذي يقدر على ذلك .

ويجوز أن تكون الواو للحال من ضمير المخاطب ، أي كيف يمكنك أن تكره الناس على الإيمان والحال أنه لا تستطيع نفس أن تؤمن إلا بإذن الله لها بالإيمان .

والإذن : هنا إذن تكوين وتقدير .

فهو خلْق النفس مستعدة لقبول الحق مميزة بين الحق والباطل ، والصلاح والفساد ، متوصلة بالنظر الصحيح إلى معرفة ما ينبغي أن يُتبع وما لا ينبغي ، متمكنة بصحة الإرادة من زجر داعية الهوى والأعراض العاجلة ومن اتباع داعية الحق والعاقبة الدائمة حتى إذا وُجه إليها الإرشاد حصل فيها الهدى .

(191/369)

ويومىء إلى هذا المعنى من الإذن قوله في مقابله ﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ فقابَلَ هذه الحالة بحالة الذين لا يعقلون فعلم أن حالة الإيمان حالة من يعقلون ، فبينت آية ﴿ ولو شاء ربك لآمن مَن في الأرض ﴾ [يونس : 99] أن إيمان من لم يؤمن هو لعدم مشيئة الله إيمانه .

وبينت هذه الآية أن إيمان من آمن هو بمشيئة الله إيمانه ، وكلاهما راجع إلى تقدير التكوين في النفوس والعقول .

والرجس : حقيقته الخبث والفساد .

وأطلق هنا على الكفر ، لأنه خبث نفساني ، والقرينة مقابلته بالإيمان كالمقابلة التي في قوله : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً إلى قوله : ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ [التوبة : 124 ، 125] .

والمعنى : ويوقع الكفر على الذين لا يعقلون .

والمراد نفي العقل المستقيم ، أي الذين لا تهتدي عقولهم إلى إدراك الحق ولا يستعملون عقولهم بالنظر في الأدلة .

و ﴿ على ﴾ للاستعلاء المجازي المستعمل في التمكن .

وقرأ الجمهور ﴿ ويجعل الرجس ﴾ بياء الغيبة ، والضمير عائد إلى اسم الجلالة الذي قبله .

وقرأه أبو بكر عن عاصم ﴿ ونجعل ﴾ بنون العظمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(192/369)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾

والحق سبحانه وتعالى يبيِّن لنا أنه إن قامت معركة بين نبي مرسل ومعه المؤمنون به ، وبين من كفروا به ، فلا بد أن يُنزِل الحق سبحانه العذاب بمن كفروا .

وإياك أن تفهم أن الحق سبحانه إلى يحتاج عبادة الناس ؛ لان الله عَزَّ وجل قديم أزليٌّ بكل صفات الكمال فيه قبل أن يخلق الخلق ، وبكماله خلق الخلق ، وقوته سبحانه وتعالى في ذاته ، وهو خالق من قبل أن يخلق لخلق ، ورازق قبل أن يخلق الزرق والمرزوق ، والخلق من آثار صفات الكمال فيه ، وهو الذي أوجد كل شيء من عدم .

ولذلك يُسمّون صفاته سبحانه وتعالى صفات الذات ؛ لأنها موجودة فيه من قبل أن يوجد متعلقها .

فحين تقول : حيٌّ ، ومُحْيٍ ، فليس معنى ذلك أن الله تعالى موصوف ب " مُحْيٍ " بعد أن وجد مَنْ يحييه ، لا ، إنه مُحيٍ ، وبهذه الصفة أحيا .

ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُنزَّه عن كل تشبيه : قد نرى المصوِّر أو الرسام الذي صنع لوحة جميلة ، هنا نرى أثر موهبة الرسم التي مارسها ، واللوحة ليست إلا أثراً لهذه الموهبة

.

الحق سبحانه وتعالى إذن له كل صفات الكمال قبل أن يخلق الخلق ، وبصفات الكمال خَلَق

الخَلْق .

فإياك أن تفهم أن هناك أمراً قد جَدَّ على الله تعالى ، فلا شيء يجِدُّ على الحق سبحانه ، وهو سبحانه لا ينتفع من خلقه بل هو الذي ينفعهم .

ونحن نعلم أن الإيمان مطلوب من الإنسان ، وهو الجنس الظاهر لنا ونحن منه ، ومطلوب من جنس آخر أخبرنا عنه الله تبارك وتعالى وهو الجن .

وأما بقية الكون فمُسبِّح مؤمن بالله تعالى ، والكون عوالم لا حصر لها ، ولكلٍّ نظام لا يحيد عنه .

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يُدخِل الثقلين الإنس والجن في نظام التسخير ما عَزَّ عليه ذلك ؛ لكن هذا التسخير يثبت له القدرة ولا يثبت له المحبوبية .

(193/369)

ولذلك ترك الحق سبحانه الإنسان مختاراً ليؤمن أو لا يؤمن ، وهذا ما يثبت له المحبوبية إن جئته مؤمناً ، وهذا يختلف عن إيمان القَسْر والقهر ، فالإيمان المطلوب من الإنسان أو الجن هو إيمان الاختيار .

وأما إيمان القسر والقهر ، فكل ما في الكون من عوالم مؤمن بالحق سبحانه ، مُسبِّح له .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] .

وهذا ليس تسبيح دلالة ورمز ، بل هو تسبيح حقيقي ، بدليل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] .

فإن فقَّهك الله تعالى في لغاتهم لعلمت تسبيح الكائنات ، بدليل أنه عَلَّم سليمان عليه السلام منطق الطير ، وسمع النملة تقول :

﴿ يا أَيُّهَا النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : 18] .

والهدهد قال لسليمان عليه السلام ما رآه عن بلقيس ملكة سبأ :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ الله وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : 24] .

إذن : فكل ما في الكون مُسبِّح لله تعالى ، يسير على منهجه سبحانه ما عدا المختار من الثقلين : الإنسان والجان ؛ لأن كلاً منهما فيه عقلٌ ، وله مَيْزة الاختيار بين البدائل .

ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أن خلق للإنسان الاختيار حتى يذهب المؤمن إليه اختياراً ، ولو شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجبر الإنسان على الإيمان لَفعلَ .

أقول ذلك حتى لا يقولن أحد : ولماذا كل هذه المسائل من خَلْق وإرسال رُسل ، وتكذيب

أناس ، ثم إهلاك المكذِّبين ؟

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

(194/369)

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : 99] .

إذن : فالحق سبحانه خلق الإنسان وسخَّر له كل الأجناس ، ولم يجبره على الإيمان ، بل يقول سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3] .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مُحبّاً مخلصاً لقومه وعشيرته ، وذاق حلاوة الإيمان ، وحزن لأنهم لم يؤمنوا ، فينبهه الحق سبحانه وتعالى أن عليه مهمة البلاغ فقط ، فلا يكلّف نفسه شَططاً .

والحق سبحانه وتعالى شاء أن يجعل للإنسان حقَّ الاختيار وسخَّر له الكون ، ومن الناس من يؤمن ، ومن الناس من يكفر ، بل ومن المؤمنين من يطيع مرة ، ويعصي أخرى ، وهذه هي مشيئة الحق ليتوازن الكون ، فكل صفة خيِّرة إنْ وجد من يعارض فيها فهذا ما شاءه الله

سبحانه وتعالى للإنسان ، فلا تحزن يا رسول الله ؛ فالحق سبحانه وتعالى شاء ذلك .

وإنْ غضب واحد من أن الآخرين لم يعترفوا بصفاته الطيبة نقول له : إن الحق سبحانه هو خالق الكون وهو الرازق ، قد كفروا به وألحدوا ، وجعلوا له شركاء ، فتَخلَّقوا بأخلاق الله ؟

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : 99] .

إنه سبحانه وتعالى يريد إيمان المحبة وإيمان الاختيار .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾

هكذا يُبيِّن لنا الحق سبحانه أن أحداً لا يؤمن إلا بإذن من الله تعالى ؛ لأن معنى أن تؤمن أن يكون إيمانك إيمان فطرة نتيجة تفكُّر في سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجَاج ، وبحار تَزْخر ، ورياح تَصْفِر ، كل ذلك يدل على وجود الخالق سبحانه .

لكن أَتَرَكَ الله سبحانه وتعالى الناس للفطرة ؟

لا ، بل أرسل سبحانه لهم الرسل ليذكِّروهم بالآيات الموجودة في الكون ، ولينتبه الغافل ؛ لأنه سبحانه لا يريد أن يأخذ الناس على حين غفلة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ [الأنعام : 131] .

لذلك ينبههم الحق سبحانه بأن هناك أشياء كان يجب أن تُذكر ، وكأن الحق سبحانه يُبيِّن لنا : إياكم أن تفهموا أن أحداً يخرج عن مُلكي إلا بإرادتي ، فأنا بخلقي له مختاراً سمحت له أن يكفر أو يؤمن ، وسمحت له أن يطيع أو أن يعصي .

كل ذلك من أجل أن يثبت لي صفة المحبوبية .

لذلك فلا أحد يؤمن إلا بإذن الله سبحانه وتعالى ، ولا أحد يكفر إلا بإذنه سبحانه ؛ لأن مَنْ خلقه مختاراً عَلِمَ برضاء منه بما يكون من المخلوق ، فالكافر لم يكفر قهراً ، والمؤمن لم يؤمن قهراً من الله سبحانه .

وساعةَ يأتي الرسول ليعرض قضية الإيمان ، يتذكر الإنسان إيمان الفطرة ويقول : لقد جاء هذا الرسول بهذا المنهج ليعدِّل لي حياتي ، فلا بد أن أرْهِفَ له السمع .

وساعة يُقْبِل العبد على الله تعالى ، فسبحانه يأذن له أن يدخل إلى حظيرة الإيمانَ .

إن العبد مِنَّا إذا ما ذهب للقاء عبد مثله له سيادة وجاه ، ويدرك العبد صاحب السيادة والجاه بفضل من الله السبب الذي جاء من أجله العبد الآخر ؛ فيقول صاحب السيادة

لمعاونيه : لا تُدْخِلوه . وهو يقول ذلك ؛ لأن الله سبحانه أطلعه على ما في قلب العبد الآخر من غلٍّ ومن حقدٍ ومن نفاق .

أما إذا دقَّ بابه عبد آخر ، فتجده يأمر معاونيه أنْ يُدخلوه وأن يفسحوا له ؛ لأنه علم بما في قلبه من محبة ورغبة في صِدْق اللقاء والمودة .

إذا كان هذا يحدث بين العباد ، وهم كلهم أغيار ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى ؟

والله سبحانه هو القائل في حديث قدسي : " من ذكرني في نفسه ذكرتُه في ملأ خير منه " .

ما بالنا بالعبد إذا دخل على الإيمان بالله غير مشحون بعقيدة عدا الله .

(196/369)

إذن : أَقْبِلْ على الله سبحانه وعلى ذكر الله ، وأنت إنْ ذكرت الله في نفسك ، فالله يذكرك فيه نفسه ، وإن ذكرته في ملأ ذكرك في ملأ خير منه ، فالملأ الذي ستذكره فيه ملأ خَطَّاءٌ ، والله سبحانه سيذكرك في ملأ طاهر .

ويقول الحق سبحانه في ذات الحديث القدسي :

" إنْ تقرَّب إليَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً " .

والذراع أطول من الشِّبر .

ويقول : " وإن أتاني يمشي أتيته هرولة " .

فالمشي قد يُتعب العبد ، لذلك يُسرع إليه الحق عز وجل ، وهو سبحانه بكل ربوبيته ما إنْ يعلمْ أن عبداً قد صفا قلبه من خصومة الله تعالى في شيء ، حتى يفتح أمامه أبواب محبته سبحانه ، فيحبِّب فيه خلقه ، ويجعل له مدخل صدق في كل أمر ومخرج صدق من كل ضيق ، وهو الحق القائل :

﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17] .

ونلحظ أن الحق سبحانه يؤكد في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها أنه لو شاء لآمن مَنْ في الأرض جميعاً ؛ ليبيِّن لنا أنه حتى إبليس الذي دخل في جدالٍ مع الله ، لو شاء الحق سبحانه لآمن إبليس .

وجاء الحق سبحانه بهذا التأكيد ؛ لِيُحْكِمَ الأمرَ حول كل خَلْقه ومخلوقاته ، فلا يشذ منهم أحد .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : 99] .

أراد الحق سبحانه أن يُنبِّه رسوله صلى الله عليه وسلم وكل المؤمنين أنه :

﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين ﴾ [البقرة : 256] .

لأن مطلوبات الدين ليست هي المطلوبات الظاهرة فقط التي تقع عليها العين ، فهناك

مطلوبات أخرى مستترة ، فَهَبْ إنك أكرهت قالباً أتستطيع أن تُكرِه قلباً ؟

والحق سبحانه وتعالى يريد قلوباً لا قوالب .

(197/369)

وهكذا لا يصلح الإكراه في قضية الدين ، ولكن على الإنسان ألاَّ يسحب الإكراه إلى غير موضعه أو مجاله ؛ لأنك قد تجد مسلماً لا يصلّي فينهره صديقه ، فيردّ : لا إكراه في الدين . وهذا استخدام غير صحيح واستدلال خاطىء ؛ لأن الإكراه في الدين إنما يكون ممنوعاً في القضية العقدية الأولى .

ولكن مَنْ أعلن أنه مسلم ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فهذا إعلان بالالتزام بكل أحكام الإسلام ، وهو محسوب على الإسلام ، فإنْ أخلْ بحكمٍ من أحكام الإسلام فلا بد من محاسبته .

ولا إكراه في الدين ، فيما يخصُّ القضية العقدية الأولى ، وأنت حُرٌّ في أن تدخل إلى الإسلام أو لا تدخل ، فإنْ دخلت الإسلام فأنت ملتزم باحكام الإسلام ؛ لأنك آمنت به وصِرْتَ محسوباً عليه ، واحفظ حدود الإسلام ولا تكسرها ؛ لأنك على سبيل المثال لا قدر الله إن سرقت ؛ تُقطع يدك ، وإنْ زنيت تُرجَم أو تُجلد ، وإنْ شربت الخمر تُجلد ؛ لأنك قبلتَ

قواعد الإسلام وشريعته .

وإنْ رأى واحدٌ مسلماً يسرق ، فلا يقولن إن الإسلام يُسرِّق ، ولكن إن رآه يُعاقَب ، فهو يعرف أن الإسلام يعاقب مَنْ يجرم .

إذن : ف ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين ﴾ [البقرة : 256] .

تخص المنع عن الإكراه على أصل الدين ، ولكن بعد أن تؤمن فأنت ملتزم بفرعيات الدين ، وتعاقب إنْ خرجتَ على الحدود .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " مَيَلُ القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا اسْتَقَوْا من الماء مرُّوا على مَنْ فوقهم فقالوا : لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خُرْقاً ولم نُؤذِ مَنْ فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وأن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعاً " .

إذن : فالالتزام بفروع الدين أمر واجب ممن دخل الدين دون إكراه ، وإنْ خدش حكماً من الأحكام يُعاقب .

(198/369)

وهناك ما هو أشدُّ من ذلك ، وهو حكم مَنْ ارتد عن الإسلام ، وهو القتل .

وقد يقول قائل : إن هذا الإمر يمثل الوحشية . فنقول له : إن من التزم بالدين ، إنما قد علم بداية أنه إنْ آمن ثم ارتد ، فسوف يُقتَل ؛ ولذلك فليس له أن يدخل إلى الإسلام إلا بيقين الإيمان .

وهذا الشرط للدين ؛ لا على الدين . فلا تدخل على الدين إلا وأنت متيقّن أن أوامر الدين فوق شهواتك ، واعلمْ أنك إنْ دخلتَ على الدين ثم تَخلَّيْتَ عنه فسوف تُقْتَل ، وفي هذا تصعيب لأمر دخول الدين ، فلا يدخله أحد إلا وهو واثق من يقينه الإيماني ، وهذا أمر محسوب للدين لا ضد الدين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَجْعَلُ الرجس عَلَى الذين لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : 100] .

والرجس : هو العذاب ، وهو الذنب ، ويجعله الحق سبحانه وتعالى على الذين لا يعقلون ؛ لأن قضية الدين إذا طُرِحَتْ على العقل بدون هَوىً ؛ لا بُدَّ أن ينتهي العقل إلى الإيمان .

ولذلك تجد القمم الفكرية حين يدرسون الدين ؛ فهم يتجهون إلى الإسلام ؛ لأنه هو الدين الذي يشفي الغُلَّة ، أما الذين أخذوا الدين كميراث عن الآباء ، فهم يظلون على حالهم .

وبعض القمم الفكرية في العالم التي اتجهت إلى اعتناق الإسلام ، لم تتجه إليه بسبب رؤيتهم لسلوك المسلمين ؛ لأن سلوك المنسوبين للإسلام في زماننا قد ابتعد عن الدين .

ولذلك فقد اتجهت تلك القمم الفكرية للإسلام إلى دراسة مبادىء الإسلام ، وفرّقوا بين مبادىء الدين ، وبين المنتمين للدين ، وهذا إنصاف في البحث العقلي ؛ لأن الدين حين يُجرِّم عملاً ، فليس في ذلك التجريم إذْنٌ من الدين بحدوث مثل هذا الفعل المجرم ، بدليل تقدير العقاب حسب خطورة الجريمة .

فالحق سبحانه قد قال :

﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : 38] .

(199/369)

إنه الإذن باحتمال ارتكاب السرقة ، وكذلك الأمر بالنسبة للزنا ، وغير ذلك من الجرائم التي جعل لها الحق سبحانه عقوبات تتناسب مع الضرر الواقع على النفس أو المجتمع من وقوعها ، فإذا رأيت مسلماً يسرق ، فتذكَّر العقاب الذي أوقعه الإسلام على السارق ، وإنْ رأيتَ مسلماً يزني ، فَتذكَّر العقوبة التي حددها الحق سبحانه للزاني .

وهكذا الحال في جميع الجرائم .

وكبار المفكرين العالميين الذين يتجهون إلى الإسلام إنما يدرسون مبادىء الدين مفصولة عن سلوك المسلمين المعاصرين ، الذين ابتعدوا عن مبادىء الدين الحنيف .

وها هو ذا " جينو " المفكر الفرنسي يقول : " الحمد لله الذي هداني للإسلام قبل أن أعرف المسلمين ، فلو كنتُ قد عرفتُ المسلمين قبل الإسلام لكان هناك احتمال لزلزلة في النفس تجعلني أتردد في الدخول إلى هذا الدين الرفيع المقام " .

إذن : فإعمال العقل الراقي لا بد أن يؤدي إلى الإسلام لأنه فطرة الله ، والإسلام يُنمِّيها ، ويرتقي بها ، والعقل هو مَنَاطُ التكليف .

والرجس والذنب والعذاب كله إنما يقع على الذين لا يُعْمِلون عقولهم ، وإعمال العقل المتعقل للقيم ينفي الرجس ؛ لأنهم سيُقبلون على التدين بإذن الله تعالى لهم أن يدخلوا على الإيمان به .

وإذا سألني سائل : ما هو العقل ؟ وما هو مَنَاطُ التكليف ؟

نجد أن كلمة " عقل " مأخوذة من عِقَال البعير ، وهو ما يُشَدُّ على رُكْبته حتى لا ينهض ، ويظل سكاناً ، وحين يريد صاحبه أن يُنهضه فهو يفكُّ العقال .

وأهل الخليج يضعون على رؤوسهم غطاء للرأس (غُتْرة) ويثبتونه بنسيج مغزول على هيئة حلقتين ، ويسمون هاتين الحلقتين " العقال " ؛ لأنه يمنع غطاء الرأس من أن يحركه الهواء ، أو يُطيّره .

إذن : فالعقل أراده الله سبحانه لنا ليحجزنا عن الانطلاق والفوضى في تحقيق شهوات النفس ؛ لأنه سبحانه قد خلق النفس البشرية ، ويعلم أنها تحب الشهوات العاجلة ، فأراد سبحانه للإنسان أن يكبح جماح تلك الشهوات بالعقل .

فحين يفكر الإنسان في تحقيق الشهوة العاجلة ، يجد عقله وهو يهمس له : إنك ستستمتع بالشهوة العاجلة دقائق ، وأنت قد تأخذها من غيرك ؛ من محارمه أو من ماله ، فهل تسمح لغيرك أن يأخذ شهوته العاجلة منك ؟

إذن : عليك أن تعلم أن العقل إنما أراده الله سبحانه لك ليعقلك عن الحركة التي فيها هَوى ، وتحقق بها شهوة ليست لك ، ومغبَّتها متعبة .

ويخطىء مَنْ يظن أن العقل يفتح الباب أمام الانطلاق اللا مسئول باسم الحرية ، ونقول لمن يظن مثل هذا الظن : إن العقل هو مَنَاطُ التكليف ، وهو الذي يوضِّح لك آفاق المسئولية في كل سلوك .

ومن عدالة الحق سبحانه أنه لم يكلِّف المجنون ؛ لأن حكم المجنون على الأشياء والأفعال هو حكم غير طبيعي ؛ لأنه يفتقد آلة الاختيار بين البدائل .

وكذلك لم يكلف الله سبحانه مَنْ لي ينضج بالبلوغ ؛ لأنه غير مُسْتوفٍ للمَلَكات ، ولم تستوِ لديه القدرة على إنجاب مثيل له .

وقد ضربنا من قبل المثل بالثمرة ، وقلنا : إنه لا يقال إن الثمرة نضجت وصار طَعْمها مقبولاً مستساغاً إلا إذا أصبحت البذرة التي فيها قادرة على أن تنبت منها شجرة إن زرعناها في الأرض .

وأنت مثلاً حين تقطع البطيخة ، وتجد لُبَّها أبيض اللون فأنت لا تأكلها ، وتحرص على أن تأكل البطيخة ذات البذر الذي صار أسود اللون ؛ لأنه دليل نُضْج البطيخة ، وأنت حين تأخذ هذا اللبَّ وتزرعه ينتج لك بطيخاً .

إذن : فاكتمال الإنسان بالبلوغ يتيح لعقله أن يَزِنَ السلوك قبل الإقدام عليه ، والتكليف إنما يكون للعاقل البالغ غير المكرة بقوةٍ تقهره على أن يفعل ما لا يعقله .

أما قبل البلوغ فالتكليف ليس من الله ، بل من الأسرة ، لتدربه على الطاعة .

(201/369)

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنا : " مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين ، وفرِّقوا بينهم في المضاجع " .

وهنا نجد أن الذي يأمر هو الأب وليس الله ، والذي يعاقب هو الأب ، وليس الله ، وما إن يصل الابن إلى مرحلة البلوغ يبدأ تكليفه من الله .

أما إذا جاء مَنْ يُكْرِهه على أن يرتكب معصية بقوة تفوق قوته كأن يمسك (مسدساً) ويقول له : إن لم تشرب الخمر أطلقتُ عليك النار ، فهنا يرفع عنه التكليف .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث الشريف : " إن الله تجاوز عن أمتي : الخطأ ، والنسيان ، وما اسْتُكرِهوا عليه " .

فالعقل إذن هو مناط التكليف ، وعمله أن يختار بين البدائل في كل شيء ، ففي الطعام مثلاً نجد مَنْ يهوى وضع (الشطة) فوق الطعام ؛ لأنها تفتح شهيته للطعام ، وبعد أن يأكل نجده صارخاً من الحموضة ، ويطلب المهضِّمات ، وقد لا تفلح معه ، بل وقد تُفسد له الغشاء المخاطي الموجود على جدار المعدة لحمايتها ، فَرُبَّ أكْلة منعتْ أكلات ؛ ولذلك نجد عقله يقول له : احذر من هذا اللون من المشهيات ؛ لأنه ضارٌّ بك .

وهكذا نجد العقل هو الذي يوضح للإنسان نتائج كل فعل ، وهو الذي يدفع إلى التأني والإجادة في العمل ؛ ليكون ناتج العمل مفيداً لك ولغيرك باستمرار ، ولم يأتِ العقل للإنسان ليستمرىء به الخطأ والخطايا .

وهكذا نجد أن العقل يدرك ويختار السلوك الملائم لكل موقف ، بل إن العقل يدعو الإنسان إلى الإيمان حتى في مرحلة ما قبل التكليف ، فحين يتأمل الإنسان بعقله هذا الكون لا بُدَّ أن يقوده التأمل إلى الاعتراف بجميل صنيع الخالق سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (99) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ﴾ : يجوز في " أنت " وجهان أحدهما : أن يرتفعَ بفعلٍ مقدرٍ مفسَّرٍ بالظاهر بعده وهو الأرجح ؛ لأن الاسمَ قد ولي أداةً هي بالفعل أولى . والثاني : أنه مبتدأ والجملة بعده خبرُه ، وقد عُرِف ما في ذلك من كون الهمزة مقدمةً على العاطف أو ثَمَّ جملةٌ محذوفة كما هو رأي الزمخشري . وفائدة إيلاءِ الاسمِ للاستفهام إعلامٌ بأن الإِكراه ممكنٌ مقدورٌ عليه ، وإنما الشأنُ في المُكْرِه مَنْ هو ؟ وما هو إلا هو وحده لا يشاركه فيه غيرُه . و " حتى " غايةٌ للإِكراه .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ ﴾ : كقوله : " أن تموتَ " وقد تقدَّم ذلك في آل عمران .

قوله : ﴿ وَيَجْعَلُ ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بنون العظمة . والباقون بياء الغيبة وهو الله

تعالى . وقرأ الأعمش فصرَّح به ﴿ ويجعل اللَّهُ الرِّجْزَ ﴾ بالزاي دون السين ، وقد تقدَّم هل هما بمعنى أو بينهما فرقٌ ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 270 .

271 ﴾

(203/369)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾

كيف يعتصي عليه سبحانه مرادٌ – والذي يبقي شيءٌ عن مراده ساهٍ أو مغلوبٌ ؟ والذي يستحق جلالَ العِزَّة لا يفوته مطلوب .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (100) ﴾

لا يمكن حَمْل الإذن في هذه الآية إلا على معنى المشيئة ؛ لأنه للكافة بالإيمان ، والذي هو مأمورٌ بالشيء لا يقال إنه غير مأذون فيه . ولا يجوز حملُ هذه الآية على معنى أنه لا يُؤْمِنُ أحدٌ إلا إذا ألجأه الحقُّ إلى الإيمان واضطره – لأنَّ موجبَ ذلك ألا يكون أحدٌ في العَالَم مؤمناً بالاختيار ، وذلك خطأ ، فدلَّ على أنه أراد به إلا أنْ يشاءَ اللَّهُ أنْ يُؤمِنَ هو طوعاً . ولا

يجوز بمقتضى هذا أنه يريد من أحدٍ أن يؤمِن طوعاً ثم لا يؤمِن ؛ لأنه يُبْطِلُ فائدةَ الآية ، فَصَحَّ قولُ أهل السُّنَّة بأنَّ ما شاءَ اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ2 صـ116.117 ﴾

(204/369)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾

قوله : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا ﴾ هذا من جملة ما عدّده الله سبحانه من النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل ، ومعنى ﴿ بوّأنا ﴾ : أسكنا ، يقال بوّأت زيداً منزلاً : أسكنته فيه ، والمبوأ اسم مكان أو مصدر ، وإضافته إلى الصدق على ما جرت عليه قاعدة العرب ، فإنهم كانوا إذا مدحوا شيئاً أضافوه إلى الصدق ، والمراد به هنا : المنزل المحمود المختار ، قيل : هو أرض مصر .

وقيل : الأردن وفلسطين .

وقيل : الشام ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات ﴾ أي : المستلذات من الرزق ﴿ فَمَا اختلفوا ﴾ في أمر دينهم ، وتشعبوا فيه شعباً بعد ما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفة ﴿ حتى جَاءهُمُ العلم ﴾ أي : لم يقع منهم الاختلاف في الدين إلا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة ، وعلمهم بأحكامها ، وما اشتملت عليه من الأخبار بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : المعنى : أنهم لم يختلفوا حتى جاءهم العلم ، وهو القرآن النازل على نبينا صلى الله عليه وسلم ، فاختلفوا في نعته وصفته ، وآمن به من آمن منهم ، وكفر به من كفر . فيكون المراد بالمختلفين على القول الأوّل هم : اليهود بعد أن أنزلت عليهم التوراة وعلموا بها ، وعلى القول الثاني هم : اليهود المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، والمحقّ بعمله بالحق ، والمبطل بعمله بالباطل .

(205/369)

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّ مّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ الشك في أصل اللغة : ضم الشيء بعضه إلى بعض ، ومنه شك الجوهر في العقد ، والشاك كأنه يضم إلى ما يتوهمه شيئاً آخر خلافه ، فيتردّد ويتحير ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد غيره ، كما ورد في القرآن في

غير موضع .

قال أبو عمر ، محمد بن عبد الواحد ، الزاهد : سمعت الإمامين ثعلباً والمبرد يقولان : معنى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّ ﴾ أي : قل يا محمد للكافر : فإن كنت في شك ﴿ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ ﴾ يعني : مسلمي أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأمثاله ، وقد كان عبدة الأوثان يعترفون لليهود بالعلم ، ويقرّون بأنهم أعلم منهم ، فأمر الله سبحانه نبيه أن يرشد الشاكين فيما أنزله الله إليه من القرآن أن يسألوا أهل الكتاب الذين قد أسلموا ، فإنهم سيخبرونهم بأنه كتاب الله حقاً ، وأن هذا رسوله ، وأن التوراة شاهدة بذلك ناطقة به ، وفي هذا الوجه مع حسنه مخالفة للظاهر .

وقال القتيبي : المراد بهذه الآية : من كان من الكفار غير قاطع بتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا بتصديقه ، بل كان في شك .

وقيل : المراد بالخطاب : النبي صلى الله عليه وسلم لا غيره .

والمعنى : لو كنت ممن يلحقه الشك فيما أخبرناك به فسألت أهل الكتاب لأزالوا عنك الشك .

وقيل : الشك هو ضيق الصدر : أي إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء ، فاصبر واسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك بصبر من قبلك من الأنبياء على أذى قومهم .

وقيل : معنى الآية : الفرض والتقدير ، كأنه قال له : فإن وقع لك شك مثلاً وخيل لك

الشيطان خيالاً منه تقديراً .

فاسأل الذين يقرءون الكتاب ، فإنهم سيخبرونك عن نبوّتك وما نزل عليك ، ويعترفون بذلك ، لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم ، وقد زال فيمن أسلم منهم ما كان مقتضياً للكتم عندهم .

(206/369)

قوله : ﴿ لَقَدْ جَاءكَ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ في هذا بيان ما يقلع الشك من أصله ويذهب به بجملته ، وهو شهادة الله سبحانه بأن هذا الذي وقع الشك فيه على اختلاف التفاسير في الشاك هو الحق الذي لا يخالطه باطل ، ولا تشوبه شبهة ، ثم عقبه بالنهي للنبي صلى الله عليه وسلم عن الامتراء فيما أنزل الله عليه ، بل يستمر على ما هو عليه من اليقين وانتفاء الشك .

ويمكن أن يكون هذا النهي له تعريضاً لغيره ، كما في مواطن من الكتاب العزيز ، وهكذا القول في نهيه صلى الله عليه وسلم عن التكذيب بآيات الله ، فإن الظاهر فيه التعريض ، ولا سيما بعد تعقيبه بقوله : ﴿ فَتَكُونَ مِنَ الخاسرين ﴾ وفي هذا التعريض من الزجر للممترين والمكذبين ما هو أبلغ وأوقع من النهي لهم أنفسهم ؛ لأنه إذا كان بحيث ينهى عنه من لا يتصوّر

صدوره عنه ، فكيف بمن يمكن منه ذلك .

قوله : ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ قد تقدّم مثله في هذه السورة ، والمعنى : أنه حق عليهم قضاء الله وقدره بأنهم يصرّون على الكفر ، ويموتون عليه ، لا يقع منهم الإيمان بحال من الأحوال ، وإن وقع منهم ما صورته صورة الإيمان ، كمن يؤمن منهم عند معاينة العذاب ، فهو في حكم العدم ﴿ وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ ءايَةٍ ﴾ من الآيات التكوينية والتنزيلية ، فإن ذلك لا ينفعهم ، لأن الله سبحانه قد طبع على قلوبهم ، وحق منه القول عليهم ﴿ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ فيقع منهم ما صورته صورة الإيمان ، وليس بإيمان ، ولا يترتب عليه شيء من أحكامه .

(207/369)

قوله : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ ءامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ "لولا" هذه هي التحضيضية التي بمعنى هلا ، كما قال الأخفش والكسائي وغيرهما ، ويدل على ذلك ما في مصحف أبيّ وابن مسعود "فهلا قرية" ، والمعنى : فهلا قرية واحدة من هذه القرى التي أهلكناها آمنت إيماناً معتدّاً به ، وذلك بأن يكون خالصاً لله قبل معاينة عذابه ، ولم يؤخره كما أخره فرعون ، والاستثناء بقوله : ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ ﴾ منقطع ، وهو استثناء من القرى لأن المراد أهلها :

والمعنى : لكن قوم يونس ﴿ لَمَّا ءامَنُواْ ﴾ إيماناً معتدّاً به قبل معاينة العذاب ، أو عند أوّل المعاينة قبل حلوله بهم ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزى ﴾ وقد قال بأن هذا الاستثناء منقطع : جماعة من الأئمة منهم : الكسائي ، والأخفش ، والفراء ؛ وقيل : يجوز أن يكون متصلاً ، والجملة في معنى النفي ، كأنه قيل : ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس ، وانتصابه على أصل الاستثناء ، وقرىء بالرفع على البدل .

وقال الزجاج في توجيه الرفع : يكون المعنى : غير قوم يونس ، ولكن حملت إلا عليها وتعذر جعل الإعراب عليها ، فأعرب الاسم الذي بعدها بإعراب غيره .

قال ابن جرير : خص قوم يونس من بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب .

وحكى ذلك عن جماعة من المفسرين .

وقال الزجاج : إنه لم يقع العذاب ، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب ، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان ، وهذا أولى من قول ابن جرير .

والمراد بعذاب الخزي الذي كشفه الله عنهم ، وهو : العذاب الذي كان قد وعدهم يونس أنه سينزل عليهم ولم يروه .

أو الذي قد رأوا علاماته دون عينه ﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ ﴾ أي : بعد كشف العذاب عنهم ، متعهم الله في الدنيا إلى حين معلوم ، قدره لهم .

ثم بين سبحانه أن الإيمان وضده كلاهما بمشيئة الله وتقديره ، فقال : ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ ﴾ بحيث لا يخرج عنهم أحد ﴿ جَمِيعاً ﴾ مجتمعين على الإيمان ، لا يتفرّقون فيه ويختلفون ، ولكنه لم يشأ ذلك لكونه مخالفاً للمصلحة التي أرادها الله سبحانه ، وانتصاب جميعاً على الحال كما قال سيبويه .

قال الأخفش : جاء بقوله ﴿ جميعاً ﴾ بعد ﴿ كلهم ﴾ للتأكيد كقوله : ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ إلهين اثنين ﴾ [النحل : 51] ولما كان النبيّ صلى الله عليه وسلم حريصاً على إيمان جميع الناس ، أخبره الله بأن ذلك لا يكون ؛ لأن مشيئته الجارية على الحكمة البالغة ، والمصالح الراجحة ، لا تقتضي ذلك ، فقال : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فإن ذلك ليس في وسعك يا محمد ، ولا داخل تحت قدرتك ، وفي هذا تسلية له صلى الله عليه وسلم ، ودفع لما يضيق به صدره من طلب صلاح الكل ، الذي لو كان لم يكن صلاحاً محققاً بل يكون إلى الفساد أقرب ، ولله الحكمة البالغة .

ثم بين سبحانه ما تقدم بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ أي : ما صح ، وما استقام لنفس من الأنفس أن تؤمن بالله إلا بإذنه : أي بتسهيله وتيسيره ومشيئته ؛ لذلك فلا يقع غير ما يشاؤه كائناً ما كان ﴿ وَيَجْعَلُ الرجس عَلَى الذين لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أي : العذاب ، أو الكفر ، أو الخذلان الذي هو سبب العذاب .

وقرأ الحسن وأبو بكر والمفضل "ونجعل" بالنون .

وفي الرجس لغتان : ضم الراء وكسرها ، والمراد بالذين لا يعقلون : هم الكفار الذين لا يتعقلون حجج الله ، ولا يتفكرون في آياته ، ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الأدلة .

وقد أخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن عساكر ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِى إسراءيل مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ قال : بوّأهم الله الشام وبيت المقدس .

(209/369)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الضحاك قال : منازل صدق مصر والشام .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن ابن زيد ، في قوله : ﴿ فَمَا اختلفوا حتى جَاءهُمُ العلم ﴾ قال : العلم : كتاب الله الذي أنزله ، وأمره الذي أمرهم به .

وقد ورد في الحديث أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، وهو في السنن والمسانيد ، والكلام فيه يطول .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والضياء في المختارة ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّ ﴾ الآية ، قال : لم يشك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يسأل .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، عن قتادة ، قال : ذكر لنا أن رسول الله قال : " لا أشك ولا أسأل " وهو مرسل .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ ﴾ قال : التوراة والإنجيل الذين أدركوا محمداً من أهل الكتاب وآمنوا به ، يقول : سلهم إن كنت في شك بأنك مكتوب عندهم .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ قال : حق عليهم سخط الله بما عصوه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي مالك ، في قوله : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ ءامَنَتْ ﴾ يقول : فما كانت قرية آمنت .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في الآية قال : لم يكن هذا في الأمم قبل قوم يونس لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين عاينت العذاب إلا قوم

يونس ، فاستثنى الله قوم يونس .

قال : وذكر لنا أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل .

(210/369)

فلما فقدوا نبيهم قذف الله في قلوبهم التوبة ، فلبسوا المسوح وأخرجوا المواشي ، وفرّقوا بين كل بهيمة وولدها ، فعجوا إلى الله أربعين صباحاً ، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم ، كشف عنهم العذاب بعد ما تدلّى عليهم لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : إن يونس دعا قومه ، فلما أبوا أن يجيبوه وعدهم العذاب .

فقال : إنه يأتيكم يوم كذا وكذا ، ثم خرج عنهم ، وكانت الأنبياء إذا وعدت قومها العذاب خرجت ، فلما أظلهم العذاب خرجوا ، ففرقوا بين المرأة وولدها ، وبين السخلة وولدها . وخرجوا يعجون إلى الله ، وعلم الله منهم الصدق فتاب عليهم ، وصرف عنهم العذاب ، وقعد يونس في الطريق يسأل عن الخبر ، فمرّ به رجل فقال : ما فعل قوم يونس ؟ فحدّثه بما صنعوا ، فقال : لا أرجع إلى قوم قد كذبتهم ، وانطلق مغاضبا : يعني مراغماً .

وأخرج أحمد في الزهد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن سعيد بن جبير ، قال : غشى قوم يونس العذاب كما يغشى القبر بالثوب إذا دخل فيه صاحبه ومطرت السماء دماً .

وأخرج أحمد في الزهد ، وابن جرير ، عن ابن عباس ، أن العذاب كان هبط على قوم يونس لم يكن بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل ، فلما دعوا كشفه الله عنهم .

وأخرج أحمد في الزهد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن أبي الجلد ، قال : لما غشى قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم .

فقالوا له ما ترى ؟ قال : قولوا : يا حيّ حين لا حيّ ، ويا حيّ محيي الموتى ، ويا حيّ لا إله إلا أنت ، فقالوا فكشف عنهم العذاب .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَيَجْعَلُ الرجس ﴾ قال : السخط .

وأخرج أبو الشيخ ، عن قتادة ، قال : الرجس : الشيطان ، والرجس : العذاب .

(211/369)

قوله تعالى ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (101) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقرر ما مضى من النهي عن الإصغاء إليهم في طلب الآيات ، وختم بتعليق الأمر بمجرد المشيئة ، كان كأنه قيل : فماذا يقال لهم إذا طلبوا ؟ فقال : ﴿ قل ﴾ أي يا أشرف الخلق لهم غير مهتم بأمرهم ومنبهاً لهم على إبطال مذهب الجبر المتعلق أصحابه بنحو هذه الآية ، لأن المشيئة مغيبة والعبد مأمور ببذل الجهد في الطاعة بما له من القدرة والاختبار .

ولما أمر بهذا الفكر فكان ربما ظن لأجله أن للإنسان قدرة مستقلة ، نبه على مذهب أهل السنة القائل بالكسب الذي هو – كما قال الإمام علي - رضى الله عنهم - – أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض ، فقال معلماً أن من حكم بشقائه لا ينفعه شيء : ﴿ انظروا ﴾ أي بأبصاركم وبصائركم لتخرجوا بالانتفاع بالعقل عن عداد البهائم ؛ قال الإمام : ولو أن الإنسان تفكر في كيفية حكمة الله تعالى في خلق جناح بعوضة لانقطاع فكره قبل أن يصل إلى أول مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد ، فلذلك أبهم في قوله : ﴿ ماذا ﴾ أي الذي ﴿ في السماوات والأرض ﴾ أي من الآيات وواضح الدلالات التي أخرجتموها – بإلفكم لها – عن عداد الآيات ، وهي عند التأمل من أعظم خوارق العادات ، وقال الإمام : فكأنه

سبحانه نبه على القاعدة الكليه حتى ينتبه لأقسامها ، وقال أبو حيان أخذاً من الإمام : السبيل إلى معرفته تعالى هو بالتفكر في مصنوعاته ، ففي العالم العلوي في حركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها والكواكب وما يختص بذلك من المنافع والفوائد ، وفي العالم السفلي في أحوال العناصر والمعادن والنبات والحيوان وخصوصاً حال الإنسان – انتهى .

(212/369)

ولما كان ما فيها من الآيات في غايه الدلالة ، نبه سبحانه على أن التوقف عن الإيمان بعد التنبيه على كيفية الاستدلال معاندة فقال : ﴿ وما ﴾ وهي نافية أو استفهامية ﴿ تغني الآيات ﴾ أي وإن كانت في غاية الوضوح ﴿ والنذر ﴾ أي والإنذارات أو الرسل المنذرون ﴿ عن قوم ﴾ أي وإن كانت فيهم قوة ﴿ لا يؤمنون ﴾ أي للحكم بشقائهم ، فكان ذلك سبباً لتهديدهم بقوله : ﴿ فهل ينتظرون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 492.491 ﴾

(213/369)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ عاصم وحمزة ﴿ قُلِ انظروا ﴾ بكسر اللام لالتقاء الساكنين والأصل فيه الكسر ، والباقون بضمها نقلوا حركة الهمزة إلى اللام .

المسألة الثانية :

اعلم أنه تعالى لما بين في الآيات السالفة أن الإيمان لا يحصل إلا بتخليق الله تعالى ومشيئته ، أمر بالنظر والاستدلال في الدلائل حتى لا يتوهم أن الحق هو الجبر المحض .

فقال : ﴿ قُلِ انظروا مَاذَا فِى السموات والأرض ﴾ .

واعلم أن هذا يدل على مطلوبين : الأول : أنه لا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بالتدبر في الدلائل كما قال عليه الصلاة والسلام : " تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق " والثاني : وهو أن الدلائل إما أن تكون من عالم السموات أو من عالم الأرض ، أما الدلائل السماوية ، فهي حركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب ، وما يختص به كل واحد منها من المنافع والفوائد ، وأما الدلائل الأرضية ، فهي النظر في أحوال

العناصر العلوية ، وفي أحوال المعادن وأحوال النبات وأحوال الإنسان خاصة ، ثم ينقسم كل واحد من هذه الأجناس إلى أنواع لا نهاية لها .

ولو أن الإنسان أخذ يتفكر في كيفية حكمة الله سبحانه في تخليق جناح بعوضة لانقطع عقله قبل أن يصل إلى أقل مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد .

(214/369)

ولا شك أن الله سبحانه أكثر من ذكر هذه الدلائل في القرآن المجيد ، فلهذا السبب ذكر قوله : ﴿ قُلِ انظروا مَاذَا فِى السموات والأرض ﴾ ولم يذكر التفصيل ، فكأنه تعالى نبه على القاعدة الكلية ، حتى أن العاقل يتنبه لأقسامها وحينئذ يشرع في تفصيل حكمة كل واحد منها بقدر القوة العقلية والبشرية ، ثم إنه تعالى لما أمر بهذا التفكر والتأمل بين بعد ذلك أن هذا التفكر والتدبر في هذه الآيات لا ينفع في حق من حكم الله تعالى عليه في الأزل بالشقاء والضلال ، فقال : ﴿ وَمَا تُغْنِى الآيات والنذر عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال النحويون : ﴿ مَا ﴾ في هذا الموضع تحتمل وجهين : الأول : أن تكون نفياً بمعنى أن هذه الآيات والنذر لا تفيد الفائدة في حق من حكم الله عليه بأنه لا يؤمن ، كقولك : ما يغني

عنك المال إذا لم تنفق .

والثاني : أن تكون استفهاماً كقولك : أي شيء يغني عنهم ، وهو استفهام بمعنى الإنكار .

المسألة الثانية :

الآيات هي الدلائل ، والنذر الرسل المنذرون أو الإنذارات .

المسألة الثالثة :

قرىء ﴿ وَمَا يُغْنِى ﴾ بالياء من تحت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 136.135 ﴾

(215/369)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ قل انظروا في السماوات والأرض ﴾

هذه الآية أمر للكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع وغير ذلك من آيات السماوات وأفلاكها وكواكبها وسحابها ونحو ذلك ، والأرض ونباتها ومعادنها وغير ذلك ، المعنى : انظروا في ذلك بالواجب فهو ينهاكم إلى المعرفة بالله والإيمان بالله والإيمان بوحدانيته ، وقرأ أبو عبد الرحمن والعامة بالبصرة ، " قلِ انظروا " بكسر اللام ، وقرأ نافع

وأهل المدينة : " قلُ انظروا " بضم اللام ، ثم أعلم في آخر الآية أن النظر في الآيات والسماع من النذر وهم الأنبياء لا يغني إلا بمشيئة الله ، وأن ذلك غير نافع لقوم قد قضى الله أنهم لا يؤمنون ، وهذا على أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية ، ويجوز أن يعد استفهاماً على جهة التقرير الذي في ضمنه نفي وقوع الغناء ، وفي الآية على هذا توبيخ لحاضري رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين ، وقوله : ﴿ الآيات والنذر ﴾ ، حصر طريقي تعريف الله تعالى عباده ، ويحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ وما تغني ﴾ ، مفعولة بقوله ﴿ انظروا ﴾ معطوفة على قوله : ﴿ ماذا ﴾ ، أي تأملوا قدر غناء الآيات والنذر عن الكفار إذا قبلوا ذلك كفعل قوم يونس فإنه يرفع بالعذاب في الدنيا والآخرة وينجي من المهلكات ، فالآية على هذا تحريض على الإيمان .

قال القاضي أبو محمد : وتجوز اللفظ على هذا التأويل إنما هو في قوله ﴿ لا يؤمنون ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(216/369)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلِ انظروا مَاذَا فِي السماوات والأرض ﴾

أمرٌ للكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدّالة على الصانع والقادر على الكمال .

وقد تقدّم القول في هذا المعنى في غير موضع مستوفى .

﴿ وَمَا تُغْنِي ﴾ "ما" نفي ؛ أي ولن تغنى .

وقيل : استفهامية ؛ التقدير أيّ شيء تغني .

﴿ الآيَاتُ ﴾ أي الدّلالات .

﴿ والنُّذُرُ ﴾ أي الرسل ، جمع نذير ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم .

﴿ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي عمن سبق له في علم الله أنه لا يؤمن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(217/369)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ قل انظروا ﴾

أي : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات انظروا يعني انظروا بقلوبكم نظر اعتبار وتفكر وتدبر ﴿ ماذا في السموات والأرض ﴾ يعني : ماذا خلق الله في السموات والأرض من الآيات الدالة على وحدانيته ففي السموات الشمس والقمر وهما دليلان على

النهار والليل والنجوم سخرها طالعة وغاربة وإنزال المطر من السماء وفي الأرض الجبال والبحار والمعادن والأنهار والأشجار والنبات كل ذلك آية دالة على وحدانية الله تعالى وأنه خالقها كما قال الشاعر :

وفي كل شيء له آية . . .

تدل على أنه واحد

﴿ وما تغني الآيات والنذر ﴾ يعني الرسل ﴿ عن قوم لا يؤمنون ﴾ وهذا في حق أقوام علم الله أنهم لا يؤمنون لما سبق لهم في الأزل من الشقاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(218/369)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ مخاطِباً لأهل مكةَ بعثاً لهم على التدبر في ملكوت السمواتِ والأرض وما فيهما من تعاجيب الآياتِ الأنفسية والآفاقية ليتضحَ لك أنهم من الذين لا يعقِلون وحقّت عليهم الكلمة ﴿ انظروا ﴾ أي تفكروا وقرىء بنقل حركةِ الهمزةِ إلى لام قل ﴿ مَاذَا فِى

السموات والأرض ﴾ أي أيُّ شيءٍ بديعٍ فيهما من عجائب صُنعه الدالةِ على وحدته وكمالِ قدرتِه على أن ماذا جعل بالتركيب اسماً واحداً مغلّباً فيه الاستفهامُ على اسم الإشارةِ فهو مبتدأٌ خبرُه الظرفُ ويجوز أن يكون (ما) مبتدأ وذا بمعنى الذي والظرفُ صلته والجملةُ خبرٌ للمبتدأ وعلى التقديرين فالمبتدأ والخبرُ في محل النصبِ بإسقاط الخافضِ وفعلُ النظر معلقٌ بالاستفهام ﴿ وَمَا تُغْنِى ﴾ أي ما تنفع وقرىء بالتذكير ﴿ الآيات ﴾ وهي التي عبر عنها بقوله تعالى : ﴿ مَاذَا فِى السموات والأرض ﴾ ﴿ والنذر ﴾ جمع نذير على أنه فاعل بمعنى منذر أو على أنه مصدر أي لا تنفع الآيات والرسل المنذرون أو الإنذارات ﴿ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ في علم الله تعالى وحكمه فما نافية والجملة إما حالية أو اعتراضية ويجوز كون ما استفهاميةً إنكاريةً في موضع النصبِ على المصدرية أي أي إغناء تغني الخ ، فالجملة حينئذ اعتراضية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(219/369)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلِ انظروا ﴾

خطاب لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم أن يأمر الكفرة الذين هو عليه الصلاة والسلام بين ظهرانيهم بالتفكر في ملكوت السموات والأرض وما فيهما من عجائب الآيات الآفاقية والأنفسية ليتضح له صلى الله عليه وسلم أنهم من الذين لا يعقلون ؛ وكأنه متعلق بما عنده ، وتعليقه بقوله سبحانه : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس ﴾ [يونس : 99] الخ على معنى لا تكره الناس على الإيمان ولكن اؤمرهم بما يتوصل به إليه عادة من النظر لا يخلو عن النظر ، وقيل : إنه تعالى لما أفاد فيما تقدم أن الإيمان ولكن أؤمرهم بما يتوصل به إليه عادة من النظر لا يخلو عن النظر ، وقيل : إنه تعالى لما أفاد فيما تقدم أن الإيمان بخلقه سبحانه وأنه لا يؤمن من يؤمن إلا من بعد إذنه وأن الذين حقت عليهم الكلمة لا يؤمنون أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يأمر بالنظر لئلا يزهد فيه بعد تلك الإفادة ، وأرى الأول أولى ، وجاء ضم لام قل وكسرها وهما قراءتان سبعيتان ، وقوله سبحانه : ﴿ مَاذَا فِى السموات والأرض ﴾ في محل نصب بإسقاط الخافض لأن الفعل قبله معلق بالاستفهام لأن ﴿ مَا ﴾ استفهامية وهي مبتدأ و ﴿ ذَا ﴾ بمعنى الذي والظرف صلته وهو خبر المبتدأ ، ويجوز أن يكون ﴿ مَاذَا ﴾ كله اسم استفهام مبتدأ والظرف خبره أي أي شيء بديع في السموات والأرض من عجائب صنعته تعالى الدالة على وحدته وكمال قدرته جل شأنه .

وجوز أن يكون ﴿ مَاذَا ﴾ كله موصولاً بمعنى الذي وهو في محل نصب بالفعل قبله ،

وضعفه السمين بأنه لا يخلو حينئذٍ من أن يكون النظر قلبياً كما هو الظاهر فيعدى بفي وأن يكون بصرياً فيعدى بإلى .

(220/369)

﴿ وَمَا تُغْنِى الآيات والنذر عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي ما تكفيهم وما تنفعهم ، وقرىء بالتذكير ، والمراد بالآيات ما أشير إليه بقوله سبحانه : ﴿ مَاذَا فِى السموات والأرض ﴾ ففيه إقامة الظاهر مقام المضمر ﴿ والنذر ﴾ جمع نذير بمعنى منذر أي الرسل المنذرون أو بمعنى إنذار أي الإنذارات ، وجمع لإرادة الأنواع ، وجوز أن يكون ﴿ النذر ﴾ نفسه مصدراً بمعنى الإنذار ، والمراد بهؤلاء القوم المطبوع على قلوبهم أي لا يؤمنون في علم الله تعالى وحكمه و ﴿ مَا ﴾ نافية والجملة اعتراضية ، وجوز أن تكون في موضع الحال من ضمير ﴿ قُلْ ﴾ وفي القلب من جعلها حالاً من ضمير ﴿ انظروا ﴾ شيء فانظروا ، ويتعين كونها اعتراضية إذا جعلت ﴿ مَا ﴾ استفهامية إنكارية ، وهي حينئذٍ في موضع النصب على المصدرية للفعل بعدها أو على أنه مفعول به له ، والمفعول على هذا وكذا على احتمال النفي محذوف إن لم ينزل الفعل منزلة اللازم أي ما تغنى شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

استئناف ناشىء عن قوله : ﴿ ولو شاء ربك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس ﴾ [يونس : 99] الخ .

قسّم الناس إلى قسمين : مؤمنين وكافرين ، أي فادعهم إلى النظر في دلائل الوحدانية والإرشاد إلى تحصيل أسباب الإيمان ودفع غشاوات الكفر ، وذلك بالإرشاد إلى النظر والاستدلال بما هو حول الإنسان من أحوال الموجودات وتصاريفها الدالة على الوحدانية ، مثل أجرام الكواكب ، وتقادير مسيرها ، وأحوال النور والظلمة والرياح والسحاب والمطر ، وكذلك البحار والجبال .

وافتتحت الجملة بـ ﴿ قل ﴾ للاهتمام بمضمونها .

وقد عمم ما في السماوات والأرض لتتوجه كلّ نفس إلى ما هو أقرب إليها وأيسر استدلالاً عليه لديها .

والنظر : هنا مستعمل فيما يصلح للنظر القلبي والنظر البصري ، ولذلك عدل عن إعماله

عمل أحد الفعلين لكيلا يتمحض له ، فَجيءَ بعده بالاستفهام المعلّق لكلا الفعلين بحيث أصبح حمل النظر على كليهما على حد السواء فصار صالحاً للمعنيين الحقيقي والمجازي ، وذلك من مقاصد القرآن .

و﴿ ماذا ﴾ بمعنى ما الذي ، و (ما) استفهام ، و (ذا) أصله اسم إشارة ، وهو إذا وقع بعد (ما) قَام مقام اسم موصول .

و﴿ في السماوات والأرض ﴾ قائم مقام صلة الموصول .

وأصل وضع التركيب : مَا هذا في السماوات والأرض ، أي ما المشار إليه حال كونه في السماوات والأرض ، فكثر استعماله حتى صار في معنى : ما الذي .

والمقصود : انظروا ما يدلكم على جواب هذا الاستفهام ، فكل شيء له حالة فهو مراد بالنظر العقلي بتركيبه في صورة مفعولين ، نحو : انظروا الشمس طالعة ، وانظروا السحاب ممطراً ، وهكذا ، وكل شيء هو في ذاته آية فهو مراد بالنظر البصري نحو : انظروا إنبات الأرض بعد جدبها فهو آية على وقوع البعث .

(222/369)

ف (ذا) لما قام مقام اسم الموصول صار من صيغ العموم تشمل جميع الأجرام وأعراضها الدالة على وحدانية الله وحكمته ، وأخص ذلك التأمل في خُلق النبي صلى الله عليه وسلم ونشأة دعوته ، والنظر فيما جاء به .

فكل ذلك دلائل على كماله وصدقه .

وقد طوي في الكلام جواب الأمر لوقوع الأمر عقب أسباب الإيمان ، فالتقدير : انظروا تَرَوا آيات مُوصّلة إلى الإيمان .

وجملة : ﴿ وما تغني الآيات ﴾ معترضة ذيلت بها جملة : ﴿ انظروا ماذا في السماوات والأرض ﴾ فيجوز أن تكون متممة لمقول القول مما أُمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم ويجوز أن تكون استئناف كلام من الله تعالى .

والمعنى أبلغهم ما أمرت بتبليغه إليهم وليست تغني الآيات عن قوم لا يؤمنون ، أي الذين جعل الله نفوسهم لا تؤمن ، ولما كان قوله : ﴿ انظروا ماذا في السماوات والأرض ﴾ مفيداً أن ذلك آيات كما تقدم حَسُن وقع التعبير عنها بالآيات هنا ، فمعنى ﴿ وما تغني الآيات ﴾ : وما يغني ما في السماوات والأرض عن قوم لا يؤمنون ، فكان التعبير بالآيات كالإظهار في مقام الإضمار .

وزيدت (النذر) فعطفت على الآيات لزيادة التعميم في هذه الجملة حتى تكون أوسع دلالة من التي قبلها لتكون كالتذييل لها ، وذلك أن القرآن جاء للناس بالاستدلال وبالتخويف ثم

سجل على هذا الفريق بأنه لا تنجع فيه الآيات والأدلة ولا النذر والمخوفات .

ولفظ ﴿ قوم لا يؤمنون ﴾ يفيد أن انتفاء الإيمان عنهم وصف عرفوا به وأنه مستقر من نفوسهم ، لأن اجتلاب لفظ ﴿ قوم ﴾ هنا مع صحة حلول غيره محله يشير إلى أن الوصف المذكور بعده من مقومات قوميتهم لأنه صار من خصائصهم ، بخلاف ما لو قيل : عمن لا يؤمنون .

ألا ترى إلى قول العنبري :

قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم

طاروا إليه زَرافات ووُحدانا . . .

أي قوم هذه سجيتهم .

(223/369)

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ﴾ إلى قوله : ﴿ لآياتٍ لقوم يعقلون ﴾ في سورة البقرة (164) .

وتقدم في هذه السورة غير مرة آنفاً .

وهو هنا أبدع لأنه عدل به عن الإضمار .

وهذا من بدائع الإعجاز هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(224/369)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

وهنا يُحدِّثنا الحق سبحانه عن عالم المُلْك الذي تراه ، ولا يتكلم عن عالم الملكوت الذي يغيب عنك ، وكأنك إن اقتنعت بعالم الملك ، وقلت : إن لهذا العالم خالقاً إلهاً قادراً قوياً ، وتؤمن به ؛ هنا تهبُّ عليك نفحات الغيب ؛ لتصل إلى عالم الملكوت ؛ لأنك اكتشفت في داخلك أمانتك مع نفسك ، وأعلنت إيمانك بالخالق سبحانه ، ورأيت جميل صُنْعه في السماء والكواكب ، وأعجبْتَ بدقة نظام سَيْر تلك الكواكب .

وترى التوقيت الدقيق لظهور الشمس والقمر ومواعيد الخسوف الكلي أو الجزئي ، وتُبهر بدقة المنظِّم الخالق سبحانه وتعالى ، ولن تجد زحام مرور بين الكواكب يعطل القمر أو يعطل الأرض ، ولن يتوقف كوكب ما لنفاد وقوده ، بل كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ اليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [

يس : 40] .

ونحن في حياتنا حين نرى دقة الصنعة بكثير فيما هو أقل من السماء والشمس والقمر ، فنحن نكرِّم الصانع ، وقد أكرمت البشرية مصمِّم التلغراف ، ومصمم جهاز التليفزيون ، فما بالنا بخالق الكون كله سبحانه .

ويكفي أن نعلم أن الشمس تبعد عنا مسافة ثماني دقائق ضوئية ، والثانية الضوئية تساوي ثلاثمائة ألف كيلوا متر ، وهي شمس واحدة تراها ، غير آلاف الشموس الأخرى في المجرَّات الأولى ، وكل مجرَّة فيها ملايين من المجموعات الشمسية ، ويكفي أن تعلم أن الحق سبحانه قد أقسم بالشمس ، وقال عن كوكب الشِّعْرى :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشعرى ﴾ [النجم : 49] .

لأن كوكب الشعرى أكبر من الشمس .

(225/369)

وحين تتأمل السموات والأرض تجد في الأرض جبالاً شامخة ، وتمر عليها فتُدْهش من دقة التكوين ودقة التماسك ، وتجد في داخلها نفائس ومعادن بدرجات متفاوتة ، وقد تجد أسطع الجبال مُكوَّنة من مواد خصبة بشكل هشٍّ ، فإذا ما نزل عليها المطر ، فهو يصحبها

معه إلى الأرض ؛ لأنها تكون مجرد ذرات كذرات برادة الحديد ، وتتخلل الأرض التي شقَّقتها حرارة الشمس .

والمثل الواضح على ذلك هو ما كان يحمله النيل من غِرِيْن في أثناء الفيضان إلى الدلتا قبل بناء السد العالي ، وكانت مياه النيل في أيام الفيضان تشبه مادة " الطحينة " من فرط امتزاجها بذرات الغِرْين ، وفي مثل هذا الغرين يوجد الخِصْب الذي نأخذ منه الأقوات .

ولو أن الجبال كلها كانت هشَّة التكوين ، لأزالها المطر مرة واحدة ، وجعلها مجرد مسافة نصف متر مضاف لسطح الأرض ، ولاختفى الخصب من الأرض بعد سنوات ، لكن شاء الحق سبحانه أن يجعل الجبال متماسكة ، وجعل سطحها فقط هو الهش لينزل المطر في كل عام مرة ؛ ليحمل الخصب إلى الأرض .

ومَنْ يتأمل هندسة التكوين في الاقتيات يجد الجبال مخازن للقوت .

فالبشر يحتاجون إلى الحديد ليصنعوا منه ما يفيدهم ، سواء أكان آلات لحرث الأرض ، أو أي آلات أخرى تساعد في تجميل الحياة ، وتجد الحديد مخزوناً في الجبال .

وكذلك نجد المواد الأخرى مثل الفوسفات أو المنجنيز ، أو الرخام ، أو الفيروز أو الغازات .

إذن : فالمطمور في الجبال إما للاقتيات ، أو وسيلة إلى الاقتيات ، أو وسيلة للتَّرف فوق الاقتيات .

وحين ينزل المطر فوق الجبال فهو يأخذ الخِصْب من الطبقة الهشَّة على سطح الجبال وتبقى المواد الأخرى كثروات للناس ، ففي إفريقيا مثلاً توجد مناجم للفحم والماس ، وفي بلاد أخرى تجد عود الطيب ، وهو عبارة عن جذور أشجار .

(226/369)

وأنت لو شققت الأرض كقطاع من محيط الأرض إلى المركز تجد الأرض الخصبة مع الصحراء ، مع المياه ، مع الجبال ، متساوية في الخير مع القطاع المقابل للقطاع الأول .

وقد تختلف نوعيات العطاء من موقع إلى آخر على الأرض ، فأنت لو حسبت مثلاً ما أعطاه المطر للنيل من خِصْب الجبال من يوم أن خلق الله عز وجل النيل في أرض وادي النيل في إفريقيا ، وحسبت ما أعطاه النفط (البترول) ، في صحراء الإمارات مثلاً ، ستجد أن عطاء النيل يتساوى مع عطاء البترول ، رغم أن اكتشاف البترول قد تَمَّ حديثاً .

وكل قُوتٍ محسوب من مخازن القوت ، وكل قوت له زمن ، فهناك زمن للفحم ، وزمن للبترول ، كل ذلك بنظام هندسي أنشأه الحكيم الأعلى سبحانه .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ في مجال النظر في السموات وفي الأرض ، فهذه دعوة لتأمل عجائب السموات والأرض .

ومن تلك العجائب أن الجبال الشاهقة لها قمة ، ولها قاعدة ، مثلها مثل الهرم ، وتجد الوديان على العكس من الجبال ؛ لأن الوادي يكون بين جبلين ، وتجد رأس الوادي في أسفله ، ورأس الجبل في قمته .

وحين ينزل المطر فهو يمرُّ برأس الجبل الضيق ؛ ليصل إلى أسفل قاع الوادي الضيق ، وكلما نزل المطر فهو يأخذ من سطح الجبل ؛ ليملأ مساحة الوادي المتسعة ، وكلما ازداد الخلق ، زاد الله سبحانه رقعة الاقتيات .

ومثال ذلك تجده في الغِرْيَن القادم من منابع النيل ؛ ليأتي إلى وادي النيل والدلتا ، وكانت هذه الدلتا من قبل مجرد مستنقعات مالحة ، وشاء الحق سبحانه أن تتحول إلى أرض خصبة .

وحين نتأمل ذلك نرى أن كل شيء في الكون قد أوجده الحق سبحانه بحساب .

والذي يفسد الكون هو أننا لا نقوم بتكثير ما تكاثر ، بل ننتظر إلى أن تزدحم الأرض بمن عليها ، ثم نفكر في استصلاح أراضٍ جديدة ، وكان يجب أن نفعل ذلك من قبل .

(227/369)

وكلما نزل المطر على الجبال فهي تتخلخل وتظهر ما فيها من معادن ، يكشفها الإنسان ويُعْمِل عقله في استخدامها .

والمؤمن حين يرى ذلك يزداد إيماناً ، وكلما طبَّق المؤمن حُكْماً تكليفياً مأموراً به ، يجد نور الإيمان وهو يشرق في قلبه .

وليُجرِّب أي مسلم هذه التجربة ، فليجرب أن يعيش أسبوعاً في ضوء منهج الله سبحانه وتعالى ، ثم يَزِنْ نفسه ويُقيِّمها ليعرف الفارق بين أول الأسبوع وآخر الأسبوع ، سيكتشف في هذا الأسبوع أنه يصلي في مواقيت الصلاة ، وسيجد أنه يعرق في عمله ليكسب حلالاً ، وسيجد أنه يصرف ماله في حلال .

زنْ نفسك يقينياً في آخر الأسبوع ستجد أن نفسك قد شفَّت شفافية رائعة ؛ لتجد ضوء ونور الإيمان وهو يصنع انسجاماً بينك وبين الكون كله في أبسط التفاصيل وأعقدها أيضاً .

ومثال ذلك : إنك قد تجد الرجل من هؤلاء الذين أسبغ عليهم تطبيقُ منهج الله الشفافيةَ تسأله زوجته : ماذا نطبخ اليوم ؟ فيقول لها : فَلْنقْضِ اليوم بما بقي من طعام أمس ، ثم يُفَاجأ بقريب له يزوره من الريف ، وقد جاءه ومعه الخير .

لقد وصل الرجل إلى درجة من الشفافية تجعله منسجماً مع الكون كله ، فيصله رزق الله تعالى له من أيِّ مكان .

وتجد الشفافية أيضاً في أعقد الأمور ، ألمَ يَقُلْ يعقوب عليه السلام :

﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : 94] .

وكان إخوة يوسف عليه السلام ما زالوا على أبواب مصر خارجين منها للقاء أبيهم ، حاملين قميصَ يوسف ، الذي أوصاهم يوسف بإلقائه على وجه أبيه ليرتد إليه بصره .

لقد جاءت ريح يوسف عليه السلام لأبيه يعقوب ؛ لأن يعقوب عليه السلام قد عاش في انسجام مع الكون ، ولا توجد مُضارة بينه وبين الكون .

(228/369)

والمثال الحيّ لذلك هو فرح لكون لمجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم مولده ، لقد فرح الكون بمقدم الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الكون عابد مُسبِّح لله سبحانه ، فحين يأتي مَنْ يدعو العباد إلى التوحيد لا بُدَّ أن يفرح الكون ، أما مَنْ يَعْصِ الله تعالى ، فالكون كله يكرهه ويلعنه ، ويتلاعن الاثنان .

وقد فرح الكون بمجيء الرسول الذي أراد الله سبحانه أن تنزل عليه الرسالة الإلهية ليعتدل ميزان الإنسان مع الكون .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ انظروا مَاذَا فِي السماوات والأرض ﴾ [يونس : 101] .

والكون كله أمامهم ، فلماذا لا ينظرون ؟ إنهم يبصُرون ولا يستبصرون ، مثل الذي يسمع ولا يسمع ؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا تُغْنِي الآيات والنذر عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : 101] .

إذن : فعدم إيمانهم أفقدهم البصيرة والتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(229/369)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (100) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ويجعل الرجس ﴾ قال : السخط .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ ويجعل الرجس ﴾ قال : الرجس الشيطان ، والرجس العذاب .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم ﴾ يقول : عند قوم لا يؤمنون نسخت قوله ﴿ حكمة بالغة فما تغني النذر ﴾ [القمر : 5] .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ قال : وقائع الله في الذين خلوا من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع في قوله ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ قال : خوّفهم الله عذابه ونقمته وعقوبته ، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك أمر نجى الله رسله والذين آمنوا فقال ﴿ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(230/369)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَاذَا فِي السماوات ﴾ : يجوز أن يكون " ماذا " كله استفهاماً مبتدأ ، و "

في السموات " خبرُه أي : أيُّ شيءٍ في السموات ؟ ويجوزُ أن تكونَ " ما " مبتدأً و " ذا " بمعنى الذي ، و " في السموات " صلتُه وهو خبرُ المبتدأ ، وعلى التقديرين فالمبتدأُ وخبرُه في محلِّ نصبٍ بإسقاط الخافضِ ؛ لأن الفعلَ قبله مُعَلَّقٌ بالاستفهام ، ويجوزُ على ضَعْفٍ أن يكونَ " ماذا " كله موصولاً بمعنى الذي وهو في محل نصب ب " انظروا " . ووجهُ ضعفِه أنه لا يخلو : إمَّا أن يكونَ النظر بمعنى البصر فيعدى ب " إلى " ، وإمَّا أن يكونَ قلبيًّا فيعدَّى ب " في " وقد تقدَّم الكلام في " ماذا " .

قوله : ﴿ وَمَا تُغْنِي ﴾ ، يجوز في " ما " أن تكون استفهامية ، وهي واقعةٌ موقعَ المصدر أي : أيَّ غَناءٍ تُغْني الآيات ؟ ويجوز أن تكونَ نافيةً ، وهذا هو الظاهر . وقال ابن عطية : ويحتمل أن تكونَ " ما " في قوله : " وما تغني " مفعولةً بقوله : " انظروا " ، معطوفةً على قوله : " ماذا " أي : تأمَّلوا قَدْرَ غَناء الآيات والنُّذُر عن الكفار " . قال الشيخ : " وفيه ضعفٌ ، وفي قوله : " معطوفة على " ماذا " تجوُّزٌ ، يعني أن الجملةَ الاستفهامية التي هي ﴿ مَاذَا فِي السماوات ﴾ في موضع المفعول ، إلا أن " ماذا " وحده منصوب ب " انظروا " فتكون " ماذا " موصولةً ، و " انظروا " بصرية لما تقدم " يعني لِما تقدم مِنْ أنه لو كانت بصرية لتعدَّتْ ب " إلى " .

و " النُّذُرُ " يجوز أن يكونَ جمعَ نذير ، والمراد به المصدر فيكونَ التقدير : وما تُغْني الآيات

والإِنذارات ، وأن يكونَ جمعَ " نذير " مراداً به اسمَ الفاعل بمعنى مُنْذِر فيكون التقدير : والمنذرون وهم الرسل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 271.272 ﴾

(231/369)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى نظر)

النَّظَرُ : تأَمُّل الشىءِ بالعَيْن ، وكذلك النَّظَرانُ بالتّحريك ، وقد نَظَرْتُ إلى الشىءِ .

والنظر أَيضاً : تقليب البَصِيرة لإِدراك الشىءِ ورؤيته ، وقد يُراد به التأَمّل والفَحْص ، وقد يُراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفَحْص ، وقد يُراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفَحْص .

وقوله تعالى : ﴿ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ أَى تأَمّلوا .

واستعمالُ النَّظَر فى البَصِر أَكثر استعمالاً عند العامّة ، وفى البَصِيرة أَكثر عند الخاصّة ، ويقال : نَظَرْتُ إلى كذا : إذا مَدَدْت طَرْفَك إِلَيْه رَأَيْتَه أَو لم تَرَه ، ونظرتُ إليه : إذا رأَيتَه وتَدَبَّرته ، قال تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ .

ونَظَرْت فى كذا : تأَمَّلْته/ قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾

يراد به الحثّ على تأمُّل حكمته فى خَلْقها .

ونَظَرُ الله إلى عباده هو إحسانُه إليهم ، وإفاضةُ نِعَمِه عليهم .

قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

وفى الصّحيحين : "ثلاثةٌ لا يكلّمُهُم الله ولا يَنْظُرُ إليهم : شَيْخٌ زانٍ ، ومَلِكٌ كذّاب ، وعَائلٌ مُسْتَكبرٌ" .

والنَّظَرُ أيضاً : الانْتظارُ قال تعالى : ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ ، ﴿ وَانْتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ ، ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ وقوله : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ فنَفَى الإنظارَ عنهم إشارةً إلى ما نبّه عليه بقوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ أى غير منتظرين .

(232/369)

وقوله : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ قال الزجّاج : فيه اختصار تقديره أَرِنى نَفْسَك أَنْظُرْ إليك .

قال ابن عبّاس : أَعْطِنى النَّظر أَنْظُرْ إليك .

فإِنْ قيل كيف سأَل الرؤيةَ وقد عَلِم أَنَّ الله لا يُرَى فى الدّنيا ؟ قال الحسن : هاج به الشوقُ فسأَل .

وقيل : سأَل ظنّاً منه أَنه يُرَى فى الدنيا فقال الله : لن تَرانى ، أَى فى الدّنيا أَو فى الحال ، فإِنَّه كان يسأَل الرّؤية فى الحال .

ولن ليست للتأْبيد كقوله ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً ﴾ ، ثم أَخبر عنهم أَنهم يتمنَّونْ الموت فى الآخِرة ، كما قال : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ﴿ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ ثمّ تعليق الرّؤية بمُكن وهو استقرارُ الجبل يمنع استحالَة الرّؤية .

ويُستعمل النظر أَيضاً فى التَّحَيُّر فى الأَمر نحو قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ ، ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ ، ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ كلّ ذلك نظرٌ عن تَحيُّرٍ دالٍّ على قِلَّة الغَناءِ .

وقوله : ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ ، قيل : تُشاهِدُون ، وقيل : تَعْتَبِرون ، قال :

نَظَرَ الدّهرُ إِليهم فابتهل

قال أَبو القاسم : ثانى مفعولى أَرنى محذوف ، أَى أَرنى نَفْسَك أَنْظُر إِليك : فإِنْ قلت : الرؤية عن النظر ، فكيف قيل أَرنى أَنظر إِليك ؟ قلت : معنى أَرِنى نَفْسَك : اجعلنى متمكّنا من رُؤيتك بأَن تَتَدَلَّى لى فأَنظر إِليك وأَراك ، ولمَّا علم أَنّ المطلوب الرّؤية لا النظر أُجيب بلَنْ

ترانى دون لن تَنْظر .

والنَّظِيرُ : المِثْلُ ، والجمع : نُظَراءُ ، وأَصلُه المُناظِر كأَنّ كلّ واحدِ منهما ينظرُ إلى صاحبه فيُباريه .

والمُناظَرَة : المُباحَثَةُ والمُباراةُ فى النَّظر ، واستحْضار كل ما يَراه ببَصِيرته .

والنَّظَر : البَحْثُ وهو أَعمّ من القِياس ، لأَنّ كلّ قياس نَظَرٌ ، وليس كُلُّ نَظَر قياساً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 82.84 ﴾

(233/369)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (101) ﴾

الأدلة – وإنْ كانت ظاهرة – فما تغْنِي إذا كانت البصائر مسدودةً ، كما أن الشموسَ – وإن كانت طالعة – فما تُغْنِي إذا كانت الأبصار عن الإدراك بالعمى مردودة ، كما قيل :

وما انتفاعُ أخي الدنيا بمقلته . . . إذا استوَتْ عنده الأنوارُ والظُّلَمُ ؟ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 117 ﴾

(234/369)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السبعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/370)

الجزء السبعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 102 ﴾ من سورة يونس عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 109 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/370)

قوله تعالى ﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (102) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (103) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ فهل ينتظرون ﴾ أي بجميع قواهم في تكذيبهم للرسول وتخلفهم عن الإيمان ﴿ إلا ﴾ أي أياماً أي وقائع ﴿ مثل أيام ﴾ أي وقائع ﴿ الذين خلوا ﴾ ولما كان أهل الأيام الهائلة بعض

من كان قبل ، أتى بالجار فقال : ﴿ من قبلهم ﴾ أي من مكذبي الأمم وهم القبط وقوم نوح ومن طوي بينهما من الأمم ، أي من حقوق الكلمة عليهم فنحل بهم بأسنا ثم ننجيكم لإيمانكم كما كنا نحل بأولئك إذا كذبوا رسلنا ، ثم ننجي الرسل ومن آمن بهم حقاً علينا ذلك للعدل بين العباد .

ولما تقدمت الإشارة إلى أن الكلمة حقت على الكافرين بعدم الإيمان والرجس الذي هو العقاب ، زاد في تهديدهم بالاعتراض بما سببه عن فعلهم فعل من ينتظر العذاب بقوله : ﴿ قل فانتظروا ﴾ أي بجميع جهدكم ما ترونه واقعاً بكم بسبب ما تقرر عندكم مما كان يقع بالماضين في أيام الله ، وزاد التحذير استئنافه قوله مؤكداً لما لهم من التكذيب : ﴿ إني ﴾ وأعلمهم بالنصفة بقوله : ﴿ معكم من المنتظرين ﴾ .

(5/370)

ولما كان التقدير : فإنا كنا في أيام الذين خلوا نوقع الرجس بالمكذبين ، عطف عليه بياناً لم كان يفعل بالرسل وأتباعهم إذا أهلك الظالمين قوله : ﴿ ثم ننجي ﴾ أي تنجية عظيمة وننجيهم إنجاء عظيماً وجاء به مضارعاً حكاية للأحوال الماضية وتصويراً لها تحذيراً لهم من مثلها وإعلاماً بأنه كذلك يفعل بهذا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأتباعه ـ رضى الله

عنهم-م ، وأشار بأداة التراخي إلى طول زمان الابتلاء وعظيم رتبة التنجية ، وحذف مقابل الإنجاء لأن المقام بعد آية ﴿ ألا إن أولياء الله ﴾ ناظر إلى البشارة أكثر من النظر إلى النذارة ﴿ رسلنا ﴾ أي الذين عظمتهم من عظمتنا ﴿ والذين آمنوا ﴾ أي بالرسل وهم معهم في زمانهم ولو كانوا في أدنى درجات الإيمان تشريفاً للرسل فإنهم بصدد الرسوخ بملازمتهم ؛ ثم وصل بذلك تشريفاً للراسخين وترغيباً في مثل حالهم قوله : ﴿ كذلك ﴾ أي كما حق علينا إهلاك الكافرين هذا الإهلاك العظيم ﴿ حقاً علينا ﴾ أي بما أوجبناه على جنابنا الأعظم ﴿ ننج المؤمنين ﴾ أي العريقين في الإيمان ولو كانوا بعد موت الرسل تنجية عظيمة وتنجيهم إنجاء عظيماً ، فالآية من الاحتباك لما أشارت إليه القراءتان بالتخفيف والتثقيل ، أو يكون ذلك بني على سؤال من لعله يقول : هل حقوق النجاة مختص بالرسل ومن معهم ؟ فقيل : لا ، بل ﴿ كذلك ﴾ أي الحقوق ﴿ حقاً علينا ﴾ على ما لنا من العظمة ﴿ ننج المؤمنين ﴾ في كل زمن وإن لم يكن بين ظهرانيهم رسول ، لأن العلة الاتصاف بالإيمان الثابت ، فيكون الكاف مبتدأ " وننج " خبره ؛ والنظر : طلب المعنى بالقلب من جهة الذكر كما يطلب إدراك المحسوس بالعين ؛ والغنى : حصول ما ينافي الضر وصفة النقص ، ونقيضه الحاجة ؛ والنذر : جمع نذير ، من النذارة وهي الإعلام بموضع المخافة ليقع به السلامة ؛ والانتظار : الثبات لتوقع ما يكون من الحال ؛ والمثل إن كان من الجنس فهو ما سد مسد غيره من الحس ، وإن كان من غيره فالمراد ما كان فيه معنى يقرب

به

من غيره كقربه من جنسه كتشبيه أعمال الكافر بالسراب ؛ والنجاة من النجوة وهي الارتفاع من الهلاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 492 . 493 ﴾

(6/370)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

واعلم أن المعنى هل ينتظرون إلا أياماً مثل أيام الأمم الماضية ، والمراد أن الأنبياء المتقدمين عليهم السلام كانوا يتوعدون كفار زمانهم بمجيء أيام مشتملة على أنواع العذاب ، وهم كانوا يكذبون بها ويستعجلونها على سبيل السخرية ، وكذلك الكفار الذين كانوا في زمان الرسول عليه الصلاة والسلام هكذا كانوا يفعلون .

ثم إنه تعالى أمره بأن يقول لهم : ﴿ فانتظروا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ المنتظرين ﴾ ثم إنه تعالى قال : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا والذين ءامَنُواْ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ الكسائي في رواية نصير ﴿ نُنَجّى ﴾ خفيفة ، وقرأ الباقون : مشددة وهما لغتان وكذلك في قوله : ﴿ نُنجِى المؤمنين ﴾ .

المسألة الثانية :

(ثم) حرف عطف ، وتقدير الكلام كانت عادتنا فيما مضى أن نهلكهم سريعاً ثم ننجي رسلنا .

المسألة الثالثة :

لما أمر الرسول في الآية الأولى أن يوافق الكفار في انتظار العذاب ذكر التفصيل فقال : العذاب لا ينزل إلا على الكفار وأما الرسول وأتباعه فهم أهل النجاة .

ثم قال : ﴿ كَذَلِكَ حَقّا عَلَيْنَا نُنجِى المؤمنين ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" : أي مثل ذلك الإنجاء ننصر المؤمنين ونهلك المشركين وحقاً علينا اعتراض ، يعني حق ذلك علينا حقاً .

المسألة الثانية :

قال القاضي قوله : ﴿ حَقّاً عَلَيْنَا ﴾ المراد به الوجوب ، لأن تخليص الرسول والمؤمنين من العذاب إلى الثواب واجب ولولاه لما حسن من الله تعالى أن يلزمهم الأفعال الشاقة وإذا ثبت وجوبه لهذا السبب جرى مجرى قضاء الدين للسبب المتقدم .

والجواب : أنا نقول إنه حق بسبب الوعد والحكم ، ولا نقول إنه حق بسبب الاستحقاق ، لما ثبت أن العبد لا يستحق على خالقه شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 136.137 ﴾

(7/370)

وقال ابن عطية :

﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

هذا وعيد وحض على الإيمان ، أي إذا لجوا في الكفر حل بهم العذاب ، وإذا آمنوا نجوا ، هذه سنة الله في الأمم الخالية ، فهل عند هؤلاء غير ذلك . وهو استفهام بمعنى التوقيف ، وفي قوله ﴿ قل فانتظروا ﴾ مهادنة ما ، وهي من جملة ما نسخه القتال ، وقوله ﴿ ننجي رسلنا ﴾ الآية ، لما كان العذاب لم تحصر مدته وكان النبي والمؤمنون بين أظهر الكفرة وقع التصريح بأن عادة الله سلفت بإنجاء رسله ومتبعيهم ، فالتخويف على هذا أشد ، وكلهم قرأ " ننجّي " مشددة الجيم إلا الكسائي وحفصاً عن عاصم فإنهما قرأ " ننْجِي " بسكون النون وتخفيف الجيم ، وقرأ عاصم في سورة الأنبياء في بعض ما روي عنه " نُجي " بضم النون وحذف الثانية وشد الجيم ، كأن النون أدغمت فيها ، وهي قراءة لا وجه لها ، ذكر

ذلك الزجاج. وحكى أبو حاتم نحوها عن الأعمش، وخط المصحف في هذه اللفظة " ننج " بجيم مطلقة دون ياء وكذلك قرأ الكسائي في سورة مريم ﴿ ثم ننْجِي الذين اتقوا ﴾ [مريم : 72] بسكون النون وتخفيف الجيم، والباقون بفتح النون وشد الجيم، والكاف في قوله ﴿ كذلك ﴾ يصح أن تكون في موضع رفع، ويصح أن تكون في موضع نصب نعتاً لمصدر محذوف. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(8/370)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

الأيام هنا بمعنى الوقائع ؛ يقال : فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعهم .

قال قتادة : يعني وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم .

والعرب تسمي العذاب أياماً والنِّعم أياماً ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله ﴾ [إبراهيم : 5] .

وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام .

﴿ فانتظروا ﴾ أي تربصوا ؛ وهذا تهديد ووعيد .

﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المنتظرين ﴾ أي المتربصين لموعد ربي .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ ﴾ أي من سنتنا إذا أنزلنا بقوم عذاباً أخرجنا من بينهم الرسل والمؤمنين ، و "ثُمَّ" معناه ثم اعلموا أنا ننجي رسلنا .

﴿ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا ﴾ أي واجباً علينا ؛ لأنه أخبر ولا خُلف في خبره .

وقرأ يعقوب .

"ثم نُنْجي" مخففاً .

وقرأ الكسائي وحفص ويعقوب .

"ننجي المؤمنين" مخففاً ؛ وشدّد الباقون ؛ وهما لغتان فصيحتان : أنجى يُنجِي إنجاء ، ونَجَّى يُنَجِّي تنجية بمعنًى واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(9/370)

وقال الخازن :

﴿ فهل ينتظرون ﴾

يعني مشركي مكة ﴿ إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ يعني من مضى من قبلهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل قال قتادة يعني وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود .

والعرب تسمي العذاب أياماً والنعم أياماً كقوله تعالى وذكرهم بأيام الله والمعنى فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك يا محمد إلا يوماً يعاينون فيه العذاب مثل ما فعلنا بالأمم السالفة المكذبة أهلكناهم جميعاً فإن كانوا ينتظرون ذلك العذاب ف ﴿ قل فانتظروا ﴾ يعني : قل لهم يا محمد فانتظروا العذاب ﴿ إني معكم من المنتظرين ﴾ يعني : هلاككم ، قال الربيع بن أنس : خوفهم عذابه ونقمته ثم أخبرهم أنه إذا وقع ذلك بهم أنجى الله رسله والذين آمنوا معهم من ذلك العذاب وهو قوله تعالى : ﴿ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا ﴾ يعني من العذاب والهلاك ﴿ كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين ﴾ يعني كما أنجينا رسلنا ، والذين آمنوا معهم من الهلاك كذلك ننجيك يا محمد والذين آمنوا معك وصدقوك من الهلاك والعذاب .

قال بعض المتكلمين : المراد بقوله حقاً علينا الوجوب لأن تخليص الرسول والمؤمنين من العذاب واجب وأجيب عن هذا بأنه حق واجب من حيث الوعد والحكم لا أنه واجب بسبب الاستحقاق لأنه قد ثبت أن العبد لا يستحق على خالقه شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(10/370)

وقال أبو حيان فى الآيات :

﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

أمر تعالى بالفكر فيما أودعه تعالى في السموات والأرض ، إذ السبيل إلى معرفته تعالى هو بالتفكر في مصنوعاته ، ففي العالم العلوي في حركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها والكواكب ، وما يختص بذلك من المنافع والفوائد ، وفي العالم السفلي في أحوال العناصر والمعادن والنبات والحيوان ، وخصوصاً حال الإنسان .

وكثيراً ما ذكر الله تعالى في كتابه الحض على الفكر في مخلوقاته تعالى وقال : ماذا في السموات والأرض تنبيهاً على القاعدة الكلية ، والعاقل يتنبه لتفاصيلها وأقسامها .

ثم لما أمر بالنظر أخبر أنه من لا يؤمن لا تغنيه الآيات .

والنذر جمع نذير ، إما مصدر فمعناه الإنذارات ، وإما بمعنى منذر فمعناه المنذرون والرسل .

وما الظاهر أنها للنفي ، ويجوز أن تكون استفهاماً أي : وأي شيء تغني الآيات وهي الدلائل ؟ وهو استفهام على جهة التقرير .

وفي الآية توبيخ لحاضري رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من المشركين .

وقرأ الحرميان ، والعربيان ، والكسائي : قل انظروا بضم اللام ، وقرىء : وما تغني بالتاء ، وهي قراءة الجمهور وبالياء .

وماذا يحتمل أن يكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداء ، والخبر في السموات .

ويحتمل أن يكون الخبر ذا بمعنى الذي ، وصلته في السموات .

وانظروا معلقة ، فالجملة الابتدائية في موضع نصب ، ويبعد أن تكون ماذا كله موصولاً بمعنى الذي ، ويكون مفعولاً لقوله : انظروا ، لأنه إن كانت بصرية تعدت بإلى ، وإن كانت قلبية تعدت بفي .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن تكون ما في قوله : وما تغني ، مفعولة لقوله : انظروا ، معطوفة على قوله : ماذا أي : تأملوا نذر غنى الآيات .

والنذر عن الكفار إذا قبلوا ذلك ، كفعل قوم يونس ، فإنه يرفع العذاب في الدنيا والآخرة وينجي من الهلكات .

(11/370)

والآية على هذا تحريض على الإيمان ، وتجوز اللفظ على هذا التأويل ، إنما هو في قوله : لا يؤمنون انتهى .

وهذا احتمال فيه ضعف .

وفي قوله : مفعولة معطوفة على قوله ماذا ، تجوز يعني أنّ الجملة الاستفهامية التي هي ماذا

في السموات والأرض في موضع المفعول ، لأنّ ماذا منصوب وحده بانظروا ، فيكون ماذا موصولة .

وانظروا بصرية لما تقدم ، والأيام هنا وقائع الله فيم ، كما يقال أيام العرب لوقائعها .

وفي الاستفهام تقرير وتوعد ، وحض على الإيمان ، والمعنى : إذا لجوا في الكفر حل بهم العذاب ، وإذا آمنوا نجوا ، هذه سنة الله في الأمم الخالية .

قل فانتظروا أمر تهديد أي : انتظروا ما يحل بكم كما حل بمن قبلكم من مكذبي الرسل .

(12/370)

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (103) ﴾

لما تقدم قوله : فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ، وكان ذلك مشعراً بما حل بالأمم الماضية المكذبة ومضرحاً بهلاكهم في غير ما آية ، أخبر تعالى عن حكاية حالهم الماضية فقال : ثم ننجي رسلنا ، والمعنى : إن الذين خلوا أهلكناهم لما كذبوا الرسل ، ثم نجينا الرسل والمؤمنين .

ولذلك قال الزمخشري : ثم ننجي معطوف على كلام محذوف يدل عليه إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ، كأنه قيل : نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا على مثل الحكايات الماضية .

والظاهر أن كذلك في موضع نصب تقديره : مثل ذلك الإنجاء الذي نجينا الرسل ومؤمنيهم ، ننجي من آمن بك يا محمد ، ويكون حقاً على تقدير : حق ذلك حقاً .

وقال أبو البقاء : يجوز أن يكون حقاً بدلاً من المحذوف النائب عنه الكاف تقديره : إنجاء مثل ذلك حقاً .

وأجاز أن يكون كذلك ، وحقاً منصوبين بننجي التي بعدهما ، وأن يكون كذلك منصوباً بننجي الأولى ، وحقاً بننجي الثانية ، وأجاز هو تابعاً لابن عطية أن تكون الكاف في موضع رفع ، وقدره الأمر كذلك : وحقاً منصوب بما بعدها .

وقال الزمخشري مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم ونهلك المشركين ، وحقاً علينا اعتراض يعني حق ذلك علينا حقاً .

قال القاضي : حقاً علينا المراد به الوجوب ، لأن تخليص الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين من العذاب إلى الثواب واجب ، ولولاه ما حسن من الله أن يلزمهم : الأفعال الشاقة .

وإذا ثبت لهذا السبب جرى مجرى قضاء الدين للسبب المتقدّم ، وأجيب بأنه حق . بحسب الوعد والحكم لا بحسب الاستحقاق ، لما ثبت أن العبد لا يستحق على خالقه شيئاً .

وقرأ الكسائي ، وحفص : ننجي المؤمنين بالتخفيف مضارع أنجى ، وخط المصحف ننج بغير ياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(13/370)

وقال أبو السعود :

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ ﴾

أي مشركوا مكة وأضرابهم ﴿ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الذين خَلَوْاْ ﴾ أي إلا يوماً مثل أيام الذين خلوا ﴿ مِن قَبْلِهِمُ ﴾ من مشركي الأممِ الماضية أي مثل وقائعهم ونزول بأس الله بهم إذ لا يستحقون غيره من قولهم أيام العرب لوقائعها ﴿ قُلْ ﴾ تهديداً لهم ﴿ فانتظروا ﴾ ما هو عاقبتكم ﴿ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ المنتظرين ﴾ لذلك ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا ﴾ بالتشديد وقرىء بالتخفيف وهو عطفٌ على مقدر يدل عليه قوله : مثل أيام الذين خلَوا وما بينهما اعتراضٌ جيء به مسارعةً إلى التهديد ومبالغة في تشديد الوعيد كأنه قيل : أهلكنا الأمم نجينا رسلنا المرسلة إليهم .

﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ وصيغةُ الاستقبالِ لحكاية الأحوالِ الماضية لتهويل أمرها باستحضار صورِها وتأخيرُ حكايةِ التنجيةِ عن حكاية الإهلاكِ على عكس ما في قوله

تعالى : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الفلك ﴾ الخ ، ونظائِره الواردةِ في مواقعَ عديدة ليتصل به قولُه عز وجل : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الإنجاء ﴿ حَقّاً عَلَيْنَا ﴾ اعتراض بين العامل والمعمول أي حق ذلك حقاً وقيل : بدل من المحذوف الذي ناب عنه كذلك أي إنجاء مثل ذلك حقاً والكاف متعلقة بقوله تعالى : ﴿ نُنَجِّى المؤمنين ﴾ أي من كل شدة وعذاب والجملة تذييل لما قبلها مقرر لمضمونه والمرادُ بالمؤمنين إما الجنسُ المتناول للرسل عليهم السلام وإما الأتباعُ فقط وإنما لم يذكر إنجاء الرسل إيذاناً بعدم الحاجة إليه وأياً ما كان ففيه تنبيهٌ على أن مدارَ النجاة هو الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(14/370)

وقال الآلوسى :

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ ﴾

أي هؤلاء المأمورون بالنظر من مشركي مكة وأشرافهم ﴿ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الذين خَلَوْاْ ﴾ أي مثل وقائعهم ونزول بأس الله تعالى بهم إذ لا يستحقون غير ذلك ، وجاء استعمال الأيام في الوقائع كقولهم : أيام العرب ، وهو مجاز مشهور من التعبير بالزمان عما وقع فيه كما يقال :

المغرب للصلاة الواقعة فيه ، والمراد بالموصول المشركون من الأمم الماضية ﴿ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ متعلق بخلوا جيء به للتأكيد والإيماء بأنهم سيخلون كما خلوا ﴿ قُلْ ﴾ تهديداً لهم ﴿ فانتظروا ﴾ ذلك ﴿ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ المنتظرين ﴾ إياه فمتعلق الانتظار واحد بالذات وهو الظاهر وجوز أن يكون مختلفاً بالذات متحداً بالجنس أي فانتظروا إهلاكي إني معكم من المنتظرين هلاككم .

﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا ﴾ بالتشديد ، وعن الكسائي .

ويعقوب بالتخفيف ، وهو عطف على مقدر يدل عليه قوله سبحانه : ﴿ مِثْلَ أَيَّامِ الذين خَلَوْاْ ﴾ [يونس : 102] وما بينهما اعتراض جيء به مسارعة إلى التهديد ومبالغة في تشديد الوعيد كأنه قيل : نهلك الأمم ثم ننجي المرسل إليهم ﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ بهم ، وعبر بالمضارع لحكاية الحال الماضية لتهويل أمرها باستحضار صورها ، وتأخير حكاية التنجية عن حكاية الإهلاك على عكس ما جاء في غير موضع ليتصل به قوله سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ المؤمنين ﴾ أي ننجيهم إنجاء كذلك الإنجاء الذي كان لمن قبلهم على أن الإشارة إلى الإنجاء ، والجار والمجرور متعلق بمقدر وقع صفة لمصدر محذوف .

وجوز أن يكون الكاف في محل نصب بمعنى مثل سادة مسد المفعول المطلق .

ويحتمل عند بعض أن يكون في موقع الحال من الإنجاء الذي تضمنه ﴿ نُنَجّى ﴾ بتأويل نفعل الإنجاء حال كونه مثل ذلك الإنجاء وأن يكون في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك ، و ﴿ حَقّاً ﴾ نصب بفعله المقدر أي حق ذلك حقاً ، والجملة اعتراض بين العامل والمعمول على تقدير أن يكون ﴿ كذلك ﴾ معمولاً للفعل المذكور بعد ، وفائدتها الاهتمام بالإنجاء وبيان أنه كائن لا محالة وهو المراد بالحق ، ويجوز أن يراد به الواجب ، ومعنى كون الإنجاء واجباً أنه كالأمر الواجب عليه تعالى وإلا فلا وجوب حقيقة عليه سبحانه ، وقد صرح بأن الجملة اعتراضية غير واحد من المعربين ويستفاد منه أنه لا بأس الجملة الاعتراضية إذا بقي شيء من متعلقاتها ، وجوز أن يكون بدلاً من الكاف التي هي بمعنى مثل أو من المحذوف الذي نابت عنه .

وقيل : إن ﴿ كذلك ﴾ منصوب بننجي الأول و ﴿ حَقّاً ﴾ منصوب بالثاني وهو خلاف الظاهر ، والمراد بالمؤمنين إما الجنس المتناول للرسل عليهم السلام وأتباعهم وإما الأتباع فقط ، وإنما لم يذكر إنجاء الرسل إيذاناً بعدم الحاجة إليه ، وأياً ما كان ففيه تنبيه على أن مدار الإنجاء هو الإيمان ، وجيء بهذه الجملة تذييلاً لما قبلها مقرراً لمضمونه . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ روح المعاني حـ 11 صـ ﴾

(16/370)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا)

أَيْ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ الْحَرِيصُ عَلَى إِيمَانِ النَّاسِ - أَنْ يُؤْمِنَ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا لَا يَشِذُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ لَآمَنُوا ، بِأَنْ يُلْجِئَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ إِلْجَاءً ، وَيُوجِرَهُ فِي قُلُوبِهِمْ إِيجَارًا ، وَلَوْ شَاءَ لَخَلَقَهُمْ مُؤْمِنِينَ طَائِعِينَ كَالْمَلَائِكَةِ لَا اسْتِعْدَادَ فِي فِطْرَتِهِمْ لِغَيْرِ الْإِيمَانِ ، وَفِي مَعْنَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا) (6 : 107) وَقَوْلُهُ : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً) (11 : 118) وَالْمَعْنَى الْجَامِعُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَلَّا يَخْلُقَ هَذَا النَّوْعَ الْمُسَمَّى بِالْإِنْسَانِ الْمُسْتَعِدِّ بِفِطْرَتِهِ لِلْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، الَّذِي يُرَجِّحُ أَحَدَ الْأُمُورِ الْمُمْكِنَةِ الْمُسْتَطَاعَةِ لَهُ عَلَى مَا يُقَابِلُهُ وَيُخَالِفُهُ بِإِرَادَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ ، لَفَعَلَ ذَلِكَ وَلَمَا وُجِدَ الْإِنْسَانُ فِي الْأَرْضِ ، وَلَكِنِ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَخْلُقَ هَذَا النَّوْعَ الْعَجِيبَ

(17/370)

وَيَجْعَلَهُ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي قِصَّةِ آدَمَ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَفِي آيَاتٍ أُخْرَى ، هَكَذَا خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ ، مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ كَمَا تَقَدَّمَ : (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) أَيْ إِنَّ هَذَا لَيْسَ فِي اسْتِطَاعَتِكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ ، وَلَا مِنْ وَظَائِفِ الرِّسَالَةِ الَّتِي بُعِثْتَ بِهَا أَنْتَ وَسَائِرُ الرُّسُلِ : (إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ) (42 : 48) (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ) (50 : 45) وَهَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي أَنَّ الدِّينَ لَا يَكُونُ بِالْإِكْرَاهِ أَيْ لَا يُمْكِنُ لِلْبَشَرِ وَلَا يُسْتَطَاعُ ، ثُمَّ نَزَلَ عِنْدَ التَّنْفِيذِ (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) (2 : 256) أَيْ لَا يَجُوزُ وَلَا يَصِحُّ بِهِ ، وَذَكَرْنَا فِي تَفْسِيرِنَا سَبَبَ نُزُولِهَا ، وَهُوَ عَزْمُ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَنْعِ أَوْلَادٍ لَهُمْ كَانُوا تَهَوَّدُوا مِنَ الْجَلَاءِ مَعَ بَنِي النَّضِيرِ مِنَ الْحِجَازِ ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأَنْ يُخَيِّرُوهُمْ وَأَجْمَعَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ إِيمَانَ الْمُكْرَهِ بَاطِلٌ لَا يَصِحُّ ، لَكِنَّ نَصَارَى الْإِفْرِنْجِ وَمُقَلِّدِيهِمْ مِنْ أَهْلِ الشَّرْقِ لَا يَسْتَحُونَ مِنَ افْتِرَاءِ الْكَذِبِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَمِنْهُ رَمْيُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يُكْرِهُونَ النَّاسَ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَيُخَيِّرُونَهُمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّيْفِ يَقُطُّ رِقَابَهُمْ ، عَلَى حَدِّ الْمَثَلِ : (رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَّتْ) .

(18/370)

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) أَيْ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ وَلَا مِنْ شَأْنِهَا فِيمَا أُشِيرَ إِلَيْهِ مِنَ اسْتِقْلَالِهَا فِي أَفْعَالِهَا ، وَلَا مِمَّا أَعْطَاهَا اللَّهُ مِنَ الِاخْتِيَارِ فِيمَا هَدَاهَا مِنَ النَّجْدَيْنِ ، وَمَا أَلْهَمَهَا مِنْ فُجُورِهَا وَتَقْوَاهَا الْفِطْرِيَّيْنِ ، أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِرَادَةِ اللَّهِ وَمُقْتَضَى سُنَّتِهِ فِي اسْتِطَاعَةِ التَّرْجِيحِ بَيْنَ الْمُتَعَارِضَيْنِ ، فَهِيَ مُخْتَارَةٌ فِي دَائِرَةِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ ، وَلَكِنَّهَا غَيْرُ مُسْتَقِلَّةٍ فِي اخْتِيَارِهِمْ أَتَمَّ الِاسْتِقْلَالِ ، بَلْ مُقَيَّدَةٌ بِنِظَامِ السُّنَنِ وَالْأَقْدَارِ ، فَالْمَنْفِيُّ هُوَ اسْتِطَاعَةُ الْخُرُوجِ عَنْ هَذَا النِّظَامِ الْعَامِّ ، لَا الِاسْتِطَاعَةُ الْخَاصَّةُ الْمُوَافِقَةُ لَهُ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) (3 : 145) أَيْ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ الْمُوَافِقَةِ لِحِكْمَتِهِ وَسُنَّتِهِ فِي أَسْبَابِ الْمَوْتِ ، فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِلْمَوْتِ شَهِيدًا أَوْ مُنْتَحِرًا بِمَا يَتَرَاءَى لَهُ مِنْ أَسْبَابِهِ ، ثُمَّ لَا يَمُوتُ بِهَا لِنَقْصِهَا أَوْ لِمُعَارِضٍ مُنَافٍ فِي نِظَامِ الْقَدَرِ الَّذِي لَا يُحِيطُ بِهِ عِلْمًا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، وَمَعْنَى الْإِذْنِ فِي اللُّغَةِ الْإِعْلَامُ بِالرُّخْصَةِ فِي الْأَمْرِ أَيْ تَسْهِيلُهُ وَعَدَمُ الْمَانِعِ مِنْهُ .

(19/370)

(وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) هَذَا عَطْفٌ عَلَى مَحْذُوفٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَذْكُورُ دَلَالَةَ الضِّدِّ عَلَى الضِّدِّ أَوِ النَّقِيضِ عَلَى النَّقِيضِ ، أَيْ وَإِذْ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ بِإِذْنِهِ وَتَيْسِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ

الَّتِي تَجْرِي بِقَدَرِهِ وَسُنَّتِهِ ، فَهُوَ يَجْعَلُ الْإِذْنَ وَتَيْسِيرَ الْإِيمَانِ لِلَّذِينَ يَعْقِلُونَ آيَاتِهِ فِي كِتَابِهِ وَفِي خَلْقِهِ ، وَيُوَازِنُونَ بَيْنَ الْأُمُورِ فَيَخْتَارُونَ خَيْرَ الْأَعْمَالِ عَلَى شَرِّهَا ، وَيُرَجِّحُونَ نَفْعَهَا عَلَى ضُرِّهَا بِإِذْنِهِ وَتَيْسِيرِهِ ، (وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ) أَيِ الْخِذْلَانَ وَالْخِزْيَ الْمُرَجِّحَ لِلْكُفْرِ وَالْفُجُورِ ، (عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) وَلَا يَتَدَبَّرُونَ فَهُمْ لِأَفَنِ رَأْيِهِمْ ، وَاتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ ، يَخْتَارُونَ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْفُجُورَ عَلَى التَّقْوَى ، وَتَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ آيَاتِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ وَفِي الْكَلَامِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنْ أَوَاخِرِ سُورَةِ التَّوْبَةِ ، أَنَّ الرِّجْسَ لَفْظٌ يُعَبِّرُ عَنْ أَقْبَحِ الْخُبْثِ الْمَعْنَوِيِّ الَّذِي هُوَ مَبْعَثُ الشَّرِّ وَالْإِثْمِ .

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ) .

(20/370)

هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ إِرْشَادٌ لِلْعُقَلَاءِ الَّذِينَ يَفْهَمُونَ مِمَّا قَبْلَهَا أَنَّ سُنَّةَ اللهِ تَعَالَى فِي نَوْعِ الْإِنْسَانِ ، أَنْ خَلَقَهُ مُسْتَعِدًّا لِلْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَلَهُ الِاخْتِيَارُ لِنَفْسِهِ ، وَأَنَّ الرَّسُولَ الْحَرِيصَ عَلَى إِيمَانِ النَّاسِ لَا يَقْدِرُ عَلَى جَعْلِهِمْ مُؤْمِنِينَ ، لِأَنَّ اللهَ الْقَادِرَ عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَشَأْ أَنْ

يَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى الْإِيمَانِ وَحْدَهُ وَلَا عَلَى الْكُفْرِ وَحْدَهُ ، وَإِنَّمَا جَعَلَ مَدَارَ سَعَادَتِهِمْ عَلَى حُسْنِ اسْتِعْمَالِ عُقُولِهِمْ بِاخْتِيَارِهِمْ فِي التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ ، وَمَا الرَّسُولُ إِلَّا بَشِيرٌ

وَنَذِيرٌ يُبَيِّنُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ لِلْعَقْلِ الْمُسْتَنِيرِ ، فَالدِّينُ مُسَاعِدٌ لِلْعَقْلِ عَلَى حُسْنِ الِاخْتِيَارِ إِذَا أَحْسَنَ النَّظَرَ وَالتَّفْكِيرَ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَأْمُرُ بِهِمَا بِمِثْلِ قَوْلِهِ : (

(21/370)

قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِقَوْمِكَ الَّذِينَ تَحْرِصُ عَلَى هُدَاهُمْ : انْظُرُوا بِعُيُونِ أَبْصَارِكُمْ وَبَصَائِرِكُمْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ ، وَالنِّظَامِ الدَّقِيقِ وَالْعَجِيبِ فِي شَمْسِهَا وَقَمَرِهَا ، وَكَوَاكِبِهَا وَنُجُومِهَا ، وَبُرُوجِهَا وَمَنَازِلِهَا ، وَلَيْلِهَا وَنَهَارِهَا ، وَسَحَابِهَا وَمَطَرِهَا ، وَهَوَائِهَا وَمَائِهَا ، وَبِحَارِهَا وَأَنْهَارِهَا ، وَأَشْجَارِهَا وَثِمَارِهَا ، وَأَنْوَاعِ حَيَوَانَاتِهَا الْبَرِّيَّةِ وَالْبَحْرِيَّةِ ، فَفِي كُلِّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُبْصِرُونَ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ عَلَى عِلْمِ خَالِقِهَا وَقُدْرَتِهِ ، وَمَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَوَحْدَةُ النِّظَامِ فِي جُمْلَتِهَا وَفِي كُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا هُوَ الْآيَةُ الْكُبْرَى عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ ، ثُمَّ انْظُرُوا مَاذَا فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْهَا ، كَمَا قَالَ : (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا

تُبْصِرُونَ) (51 : 20 و21) إِنَّهُ يُرِيكُمْ كُلَّ هَذِهِ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) يَجُوزُ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ النَّفْيُ وَالِاسْتِفْهَامُ ، وَالنُّذُرُ فِيهَا جَمْعُ نَذِيرٍ أَوْ إِنْذَارٍ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةَ عَلَى ظُهُورِ دَلَالَتِهَا ، وَالنُّذُرَ التَّشْرِيعِيَّةَ عَلَى بَلَاغَةِ حُجَّتِهَا ، لَا فَائِدَةَ فِيهِمَا وَلَا غِنَى لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ

(22/370)

بِاللَّهِ عَنِ الْإِيمَانِ الَّذِي يَهْدِيهِمْ إِلَى الِاعْتِبَارِ بِالْآيَاتِ ، وَالِاسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ أَكْمَلَ الدَّلَالَةِ مِنْ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَمَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَالِاعْتِبَارِ بِسُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ ، فَفَائِدَةُ الْإِيمَانِ الْأُولَى تَوْجِيهُ عَقْلِ الْإِنْسَانِ إِلَى حُسْنِ الْقَصْدِ فِي نَظَرِهِ فِي الْآيَاتِ ، وَالِاسْتِفَادَةِ مِنْهَا فِيمَا يُزَكِّي نَفْسَهُ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ ، وَيَرْفَعُهَا عَنْ أَرْجَاسِ الْأُمُورِ وَسَفْسَافِهَا ، وَبِهَذَا تَفْهَمُ مَعْنَى جَعْلِ الرِّجْسِ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ الْمَجَانِينَ الْفَاقِدِينَ لِغَرِيزَةِ الْعَقْلِ ، بَلِ الْمُرَادُ بِهِ الَّذِينَ لَا يَسْتَعْمِلُونَ الْعَقْلَ فِي أَفْضَلِ مَا هُوَ مُسْتَعِدٌّ لَهُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ ، الَّتِي تَجْعَلُهُمْ أَهْلًا لِإِتْمَامِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ وَكَرَامَتِهِ ، بِالْتِزَامِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، وَإِيثَارِ الْخَيْرِ عَلَى الشَّرِّ .

(23/370)

(فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ) أَيْ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَمَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ مِنْ سُنَّتِنَا فِي الْخَلْقِ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الرُّسُلِ ، فَهَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، أَيْ وَقَائِعَهُمْ مَعَ رُسُلِهِمْ مِمَّا بَلَغَهُمْ مَبْدَؤُهُ وَغَايَتُهُ ، أَيْ مَا ثَمَّ شَيْءٌ آخَرُ يُنْتَظَرُ (قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) أَيْ قُلْ لَهُمْ مُنْذِرًا وَمُهَدِّدًا : إِذًا فَانْتَظِرُوا مَا سَيَكُونُ مِنْ عَاقِبَتِكُمْ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ، عَلَى بَيِّنَةٍ مِمَّا وَعَدَ اللَّهُ وَصَدَقَ وَعْدَهُ لِلْمُرْسَلِينَ ، وَإِنَّ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى الْجُحُودِ وَالْعِنَادِ سَيَكُونُونَ كَمُعَانِدِيهِمْ مِنَ الْهَالِكِينَ .

(24/370)

(ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا) هَذَا التَّعْبِيرُ مِنْ أَعْجَبِ إِيجَازِ الْقُرْآنِ الْمُعْجِزِ الَّذِي انْفَرَدَ بِهِ فِي الْعَطْفِ عَلَى مَحْذُوفٍ ، وَهُوَ ذِكْرُ شَيْءٍ يَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَمْرٍ عَامٍّ كَسُنَّةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ تُسْتَنْبَطُ مِنْ قِصَّةٍ أَوْ قِصَصٍ وَاقِعَةٍ ، ثُمَّ يَأْتِي بِجُمْلَةٍ مَعْطُوفَةٍ لَا يَصِحُّ عَطْفُهَا عَلَى مَا قَبْلَهَا مِنَ الْجُمَلِ ، فَيَتَبَادَرُ إِلَى الذِّهْنِ وُجُوبُ عَطْفِهَا عَلَى ذَلِكَ الْأَمْرِ الْعَامِّ ، بِحَرْفِ الْعَطْفِ الْمُنَاسِبِ لِلْمَقَامِ ، بِحَيْثُ يُسْتَغْنَى بِهِ عَنْ ذِكْرِهِ ، وَتَقْدِيرُهُ هُنَا : تِلْكَ سُنَّتُنَا فِي

رُسُلِنَا مَعَ قَوْمِهِمْ: يُبَلِّغُونَهُمُ الدَّعْوَةَ ، وَيُقِيمُونَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ ، وَيُنْذِرُونَهُمْ سُوءَ عَاقِبَةِ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ ، فَيُؤْمِنُ بَعْضٌ وَيُصِرُّ الْآخَرُونَ ، فَنُهْلِكُ الْمُكَذِّبِينَ ، ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ (كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ) أَيْ كَذَلِكَ الْإِنْجَاءُ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ مَعَكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ ، وَنُهْلِكُ الْمُصِرِّينَ عَلَى تَكْذِيبِكَ ، وَعْدًا حَقًّا عَلَيْنَا لَا نُخْلِفُهُ (سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا) (17 : 77) وَقَدْ صَدَقَ وَعْدُهُ كَمَا قَالَ .

(25/370)

قَرَأَ الْجُمْهُورُ : (نُنَجِّي رُسُلَنَا) بِالتَّشْدِيدِ مِنَ التَّنْجِيَةِ إِلَّا فِي رِوَايَةٍ عَنْ يَعْقُوبَ بِالتَّخْفِيفِ مُخْتَلَفٌ فِيهَا ، وَقَرَأَ الْكِسَائِيُّ وَحَفْصٌ وَيَعْقُوبُ (نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) بِالتَّخْفِيفِ مِنَ الْإِنْجَاءِ ، وَالْبَاقُونَ بِالتَّشْدِيدِ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ ، إِلَّا أَنَّ التَّشْدِيدَ يَدُلُّ عَلَى الْمُبَالَغَةِ أَوِ التَّكْرَارِ ، وَهُوَ الْأَنْسَبُ فِي الْأُولَى لِكَثْرَةِ الْأَقْوَامِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 394 . 397 ﴾

(26/370)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

تفريع على جملة ﴿ ما تغني الآيات والنذر ﴾ [يونس : 101] باعتبار ما اشتملت عليه من ذكر النُذُر .

فهي خطاب من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أي يتفرع على انتفاء انتفاعهم بالآيات والنذر وعلى إصْرارهم أنْ يُسأل عنهم : ماذا ينتظرون ، ويجاب بأنهم ما ينتظرون إلا مِثل ما حلّ بمن قبلهم ممن سِيقت قصصهم في الآيات الماضية ، ووقع الاستفهام بـ ﴿ هل ﴾ لإفادتها تحقيق السؤال وهو باعتبار تحقيق المسؤول عنه وأنه جدير بالجواب بالتحْقيق .

والاستفهام مجاز تهكمي إنكاري ، نزلوا منزلة من ينتظرون شيئاً يأتيهم ليؤمنوا ، وليس ثمة شيء يصلح لأن ينتظروه إلا أن ينتظروا حلول مثل أيام الذين خلوا من قبلهم التي هلكوا فيها .

وضمن الاستفهام معنى النفي بقرينة الاستثناء المفرَّغ .

والتقدير : فهل ينتظرون شيئاً مَا ينتظرون إلاّ مثل أيام الذين خلوا من قبلهم .

وأطلقت الأيام على ما يقع فيها من الأحداث العظيمة .

ومن هذا إطلاق "أيام العرب" على الوقائع الواقعة فيها .

وجملة : ﴿ قل فانتظروا ﴾ مفرعة على جملة : ﴿ فهل ينتظرون ﴾ .

وفصل بين المفرّع والمفرّع عليه بـ ﴿ قُل ﴾ لزيادة الاهتمام .

ولينتقل من مخاطبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم قومه وبذلك يصير التفريع بين كلامين مختلفَي القائل شبيهاً بعطف التلقين الذي في قوله تعالى : ﴿ قال ومن ذريتي ﴾ [البقرة : 124] .

على أن الاختلاف بين كلام الله وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم في مقام الوحي والتبليغ اختلاف ضعيف لأنهما آئلان إلى كلام واحد .

وهذا موقع غريب لفاء التفريع .

(27/370)

وبهذا النسج حصل إيجاز بديع لأنه بالتفريع اعتبر ناشئاً عن كلام الله تعالى فكأنّ الله بلغه النبي صلى الله عليه وسلم ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يبلّغه قومه فليس له فيه إلاّ التبليغ ، وهو يتضمن وعد الله نبيئه بأنه يرى ما ينتظرهم من العذاب ، فهو وعيد وهو يتضمن النصر عليهم .

وسيصرح بذلك في قوله : ﴿ ثم ننجي رسلنا ﴾ .

وجملة : ﴿ إني معكم من المنتظرين ﴾ استئناف بياني ناشىء عن جملة : ﴿ انتظروا ﴾ لأنها تثير سؤال سائل يقول : ها نحن أولاء ننتظر وأنت ماذا تفعل .

وهذا مستعمل كناية عن ترقبه النصر إذ لا يظن به أنه ينتظر سوءاً فتعين أنه ينتظر من ذلك ضد ما يحصل لهم ، فالمعية في أصل الانتظار لا في الحاصل بالانتظار .

و(مع) حال مؤكدة .

و﴿ من المنتظرين ﴾ خبر (إنّ) ومفاده مفاد (مع) إذ ما صدق المنتظرين هم المخاطبون المنتظرون .

و﴿ ثم ننجّي رسلنا ﴾ عطف على جملة : ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا ﴾ لأن مثل تلك الأيام يومُ عذاب .

ولما كانوا مهددين بعذاب يحل بموضع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عجل الله البشارة للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأنه ينجيهم من ذلك العذاب بقدرته كما أنجى الرسل من قبله .

وجملة : ﴿ كذلك حقاً علينا ننجِّي المؤمنين ﴾ تذييل .

والإشارة بـ ﴿ كذلك ﴾ إلى الإنجاء المستفاد من ﴿ ثم ننجِّي ﴾ .

و﴿ حقّاً علينا ﴾ جملة معترضة لأن المصدر بدل من الفعل ، أي حق ذلك علينا حقاً .

وجعله اللّهُ حقاً عليه تحقيقاً للتفضل به والكرامة حتى صار كالحق عليه .

وقرأ الجمهور ﴿ نُنَجّي المؤمنين ﴾ بفتح النون الثانية وتشديد الجيم على وزان ﴿ ننجي رسلنا ﴾ .

وقرأ الكسائي ، وحفص عن عاصم ﴿ نُنْجي المؤمنين ﴾ بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم من الإنجاء .

فالمخالفة بينه وبين نظيره الذي قبله تفنن ، والمعنى واحد .

وكتب في المصحف ﴿ ننج المؤمنين ﴾ بدون ياء بعد الجيم على صورة النطق بها للالتقاء الساكنيْن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(28/370)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

وهؤلاء الذين لا يؤمنون يظلون في طغيانهم يعمهون ، وكأنهم ينتظرون أن تتكرر معهم أحداث الذين سبقوا ولم يؤمنوا ، لقد جاءهم الرسول ببيان ككل المكذِّبين السابقين .

ونحن نعلم أن اليوم هو وحدة من وحدات الزمن ، وبعده الأسبوع ، وبعد الأسبوع نجد الشهر ، ثم نجد السنة ، وكلما ارتقى الإنسان قسَّم اليوم إلى ساعات ، وقسَّم الساعات إلى

دقائق ، وقسَّم الدقائق إلى ثوانٍ .

ولكما تقدمت الأحداث في الزمن نجد المقاييس تزداد دقة ، واليوم كما قلنا جعله الله سبحانه وتعالى وحدة من وحدات الزمن ، وهو مُكوَّن من ليل ونهار .

ولكن قد يُذكر اليوم ويُراد به ما حدث فيه من أحداث مُلْفِتة ، مثلما نقول : " يوم ذى قَرَد " و " يوم حنين " و " يوم أحُد " .

إذن : فقد يكون المقصود باليوم الحدث البارز الذي حدث فيه ، وحين ننظر في التاريخ ، ونجد كتاباً اسمه " تاريخ أيام العرب " ، فنجد " يوم بُعَاث " و " يوم أوطاس " وكل يوم يمثل حرباً .

إذن : فاليوم ظرف زمني ، ولكن قد يُقصَد به الحدث الذي كان في مثل هذا اليوم .

ومثال ذلك أنك قد تجد من أهل الزمن المعاصر مَنْ عاش في أزمنة سابقة فيتذكر الأيام الخوالي ويقول : كانت الأسعار قديماً منخفضة ، وكان كل شيء مُتوفراً ، فيسمع مَنْ يرد عليه قائلاً : لقد كانت أياماً ، أي : أنها أيام حدث الرخاء فيها .

إذن : فقد يُنسَب اليوم إلى الحدث الذي وقع فيه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الذين خَلَوْاْ ﴾ [يونس : 102] .

والذين خلوا منهم قوم نوح عليه السلام وقد أغرقهم الله سبحانه ، وقوم فرعون الذين

أغرقهم الله تعالى أيضاً .

والله سبحانه هو القائل :

(29/370)

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 40] .

وهذه أيام حدثت فيها أحداث يعلمونها ، فهل هم ينتظرون أياماً مثل هذه ؟

بالطبع ما كان يصحُّ لهم أن يستمرئوا الكفر ، حتى لا تتكرر معهم مآسٍ كالتي حدثت لمن سبقهم إلى الكفر .

ونحن نجد في العامية المثل الفطري الذي ينطق بإيمان الفطرة ، فتسمع من يقول : " لك يوم يا ظالم " أي : أن اليوم الذي ينتقم فيه الله تعالى من الظالم يصبح يوماً مشهوراً ؛ لأن الظالم إنما يفتري على خلق الله ؛ لذلك يأتي له الحق سبحانه بحدث ضخم يصيبه فيه الله تعالى ويذيقه مجموع ما ظلم الناسَ به .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ فانتظروا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المنتظرين ﴾ [يونس : 102] .

وقوله هنا : ﴿ فانتظروا ﴾ فيه تهديد ، وقوله : ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المنتظرين ﴾ [يونس : 102] فيه بشارة ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم سينتظر هذا اليوم ليرى عذابهم ، أما هو صلى الله عليه وسلم فسوف يتحقق له النصر في هذا اليوم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ ﴾

والحق سبحانه قد أنْجى مِنْ قَبْل رُسله ومَنْ أمنوا بهم ، لتبقى معالم للحق والخير .

ومن ضمن معالم الخير والحق لا بد أن تظل معالم الشر ، لأنه لولا مجيء الشر بالأحداث لتي تعَضُّ لناس لما استشرف الناس إلى الخير .

ونحن نقول دائماً : إن الألم الذي يصيب المريض هو جندي من جنود العافية ؛ لأنه ينبه الإنسان إلى أن هناك خللاً يجب أن يبحث له عن تشخيص عند الطبيب ، وأن يجد علاجاً له .

والألم يوجد في ساعات اليقظة والوعي ، ولكنه يختفي في أثناء النوم ، وفي النوع رَدْع ذاتيٌّ للألم .

(30/370)

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ المؤمنين ﴾ [يونس : 103] .

هذا القول يقرر البقاء لعناصر الخير في الدنيا .

وكلما زاد الناس في الإلحاد زاد الله تعالى في المدد ، ففي أيِّ بلد يُفْترى فيها على الإيمان ويُظلم المؤمنون ، ويكثر الطغاة ؛ تجد فيها بعض الناس منقطعين إلى الله تعالى ، لتفهُّم حقيقة القيم ، وحين تضيق الدنيا بالظلمة والطغاة تجدهم يذهبون إلى هؤلاء المنقطعين لله ، ويسألونهم أن يدعوا لهم .

وقد ألزم الحق سبحانه وتعالى هنا نفسه بأن يُنجِي المؤمنين في قوله سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ المؤمنين ﴾ [يونس : 103] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(31/370)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (103) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ﴾ : قال الزمخشري : " هو معطوفٌ على كلامٍ محذوف يدلُّ عليه " إلا مثلَ أيامِ الذين خَلَوا من قبلهم " كأنه قيل : نُهْلك الأمم ثم ننجّي رسلَنا ، معطوفٌ على حكايةِ الأحوال الماضية .

قوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ في هذه الكاف وجهان ، أظهرهُما : أنه في محلِّ نصب تقديرُه : مثلَ ذلك الإنجاء الذي نَجَّينا الرسلَ ومؤمنيهم ننجي مَنْ آمن بك يا محمد . والثاني : أنها في/ محل رفع على خبر ابتداء مضمر ، وقدَّره ابن عطية وأبو البقاء بقولك : الأمر كذلك .

قوله : ﴿ حَقّاً ﴾ فيه أوجه ، أحدها : أن يكون منصوباً بفعل مقدر أي : حَقَّ ذلك حقاً . والثاني : أن يكون بدلاً من المحذوف النائب عنه الكافُ تقديره : إنجاءً مثل ذلك حقاً والثالث : أن يكونَ "كذلك" و "حقاً" منصوبين ب "نُنْجِ" الذي بعدهما . والرابع : أن يكونَ "كذلك" منصوباً ب "نُنَجِّي" الأولى ، و "حقاً" ب "نُنْج" الثانية . وقال الزمخشري : " مثلَ ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم ونهلك المشركين ، و "حَقّاً علينا" اعتراض ، يعني حَقَّ ذلك علينا حقاً " .

وقرأ الكسائي وحفص "نُنْجي المؤمنين" مخففاً مِنْ أنجى يقال : أنجى ونجى كأَبْدَلَ وبَدَّل ، وجمهورُ القراء لم ينقلوا الخلافَ إلا في هذا دون قوله : ﴿ فاليوم نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ [يونس : 92] ودونَ قوله : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا ﴾ . وقد نقل أبو علي الأهوازي الخلافَ فيهما

أيضاً ، ورُسِم في المصاحف " نُنْجِ " بجيمٍ دون ياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 272. 273 ﴾

(32/370)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (102) ﴾

تَمَنّي الطاف أنوارِ الحقيقةِ تعَنّ في تسويل ، واستنادٌ إلى غير تحصيل ، وتمادٍ في تضليل .

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (103) ﴾

حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض فقوله تعالى : ﴿ عَلَيْنَا ﴾ ها هنا معناها " منّا " فلا شيء يجب على الله لكونه إلهاً مَلِكاً ، فيجب الشيءُ من الله –لصدقه– ولا يجب عليه –لِعِزّته .

وكما لا يجوز أن يَدْخُلَ نبيٌّ من الأنبياء – عليهم السلام – في النار لا يجوز أن يُخلَّدَ واحدٌ من

المؤمنين في النار لأنه أخبر أنه يُنَجِّي الرسلَ والمؤمنين جميعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ2 صـ 117.118 ﴾

(33/370)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾

سبقت الإشارة في هذه السورة إلى القرون الخالية ، وما كان من عاقبة تكذيبهم لرسلهم ، واستخلاف من بعدهم لاختبارهم : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزي القوم المجرمين ، ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ كما سبقت الإشارة بأن لكل أمة رسولاً فإذا جاءهم رسولهم قضي بينهم بالقسط : ﴿ ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ .

فالآن يأخذ السياق في جولة تفصيلية لهاتين الإشارتين ، فيسوق طرفاً من قصة نوح مع قومه

، وطرفاً من قصة موسى مع فرعون وملئه ، تتحقق فيهما عاقبة التكذيب ، والقضاء في أمر الأمة بعد مجيء رسولها ، وإبلاغها رسالته ، وتحذيرها عاقبة المخالفة .

كذلك تجيء إشارة عابرة لقصة يونس الذي آمنت قريته بعد أن كاد يحل بها العذاب ، فرفع عنها ونجت منه بالإيمان . . وهي لمسة من ناحية أخرى تزين الإيمان للمكذبين ، لعلهم يتقون العذاب الذي ينذرون . ولا تكون عاقبتهم كعاقبة قوم نوح وقوم موسى المهلكين .

وقد انتهى الدرس الماضي بتكليف الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يعلن عاقبة الذين يفترون على الله الكذب وينسبون إليه شركاء : ﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع في الدنيا ، ثم إلينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ وذلك بعد تطمين الرسول : ﴿ ولا يحزنك قولهم . إن العزة لله جميعاً ﴾ وبأن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

(34/370)

واستمر السياق بتكليف جديد : أن يقص عليهم - صلى الله عليه وسلم - نبأ نوح فيما يختص بتحديه لقومه ثم ما كان من نجاته ومن آمنوا معه واستخلافهم في الأرض ، وهلاك المكذبين وهم أقوى وأكثر عدداً .

والمناسبة ظاهرة لإيراد هذا القصص بالنسبة لسياق السورة ، وبالنسبة لهذه المعاني القريبة قبلها . والقصص في القرآن يجيء في السياق ليؤدي وظيفة فيه ؛ ويتكرر في المواضع المختلفة بأساليب تتفق مع مواضعه من السياق ، والحلقات التي تعرض منه في موضع تفي بحاجة ذلك الموضع ، وقد يعرض غيرها من القصة الواحدة في موضع آخر ، لأن هذا الموضع تناسبه حلقة أخرى من القصة . وسنرى فيما يعرض من قصتي نوح وموسى ويونس هنا وفي طريقة العرض مناسبة ذلك لموقف المشركين في مكة من النبي - صلى الله عليه وسلم - والقلة المؤمنة معه ، واعتزاز هذه القلة المؤمنة بإيمانها في وجه الكثرة والقوة والسلطان . كما سنجد المناسبة بين القصص والتعقيبات التي تتخلله وتتلوه .

﴿ واتل عليهم نبأ نوح ، إذ قال لقومه : يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون .

فإن توليتم فما سألتكم من أجر . إن أجري إلا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين .

فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك ، وجعلناهم خلائف ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ . .

(35/370)

إن الحلقة التي تعرض هنا من قصة نوح ، هي الحلقة الأخيرة : حلقة التحدي الأخير ، بعد الإنذار الطويل والتذكير الطويل والتكذيب الطويل . ولا يذكر في هذه الحلقة موضوع السفينة ولا من ركب فيها ولا الطوفان ، ولا التفصيلات في تلك الحلقة ، لأن الهدف هو إبراز التحدي والاستعانة بالله وحده ، ونجاة الرسول ومن معه وهم قلة ، وهلاك المكذبين له وهم كثرة وقوة . لذلك يختصر السياق هنا تفصيلات القصة إلى حلقة واحدة . ويختصر تفصيلات الحلقة الواحدة إلى نتائجها الأخيرة ، لأن هذا هو مقتضى السياق في هذا الموضع .

﴿ واتل عليهم نبأ نوح ، إذ قال لقومه : يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة . ثم اقضوا إلي ولا تنظرون ﴾ . .

إن كان الأمر قد بلغ منكم مبلغ الضيق ، فلم تعودوا تتحملون بقائي فيكم ودعوتي لكم ؛ وتذكيري لكم بآيات الله . فأنتم وما تريدون . وأنا ماض في طريقي لا أعتمد إلا على الله :

﴿ فعلى الله توكلت ﴾ . .

عليه وحده فهو حسبي دون النصراء والأولياء .

﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ . .

وتدبروا مصادر أمركم وموارده ، وخذوا أهبتكم متضامنين :

﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ . .

بل ليكن الموقف واضحاً في نفوسكم ، وما تعتزمونه مقرراً لا لبس فيه ولا غموض ، ولا تردد فيه ولا رجعة .

﴿ ثم اقضوا إلي ﴾ . .

فنفذوا ما اعتزمتم بشأني وما دبرتم ، بعد الروية ووزن الأمور كلها والتصميم الذي لا تردد فيه . .

﴿ ولا تنظرون ﴾ . .

ولا تمهلوني للأهبة والاستعداد ، فكل استعدادي ، هو اعتمادي على الله وحده دون سواه .

إنه التحدي الصريح المثير ، الذي لا يقوله القائل إلا وهو مالئ يديه من قوته ، واثق كل الوثوق من عدته ، حتى ليغري خصومه بنفسه ، ويحرضهم بمثيرات القول على أن يهاجموه ! فماذا كان وراء نوح من القوة والعدة ؟ وماذا كان معه من قوى الأرض جميعاً ؟

(36/370)

كان معه الإيمان . . القوة التي تتصاغر أمامها القوى ، وتتضاءل أمامها الكثرة ، ويعجز أمامها التدبير . وكان وراءه الله الذي لا يدع أولياءه لأولياء الشيطان !

إنه الإيمان بالله وحده ذلك الذي يصل صاحبه بمصدر القوة الكبرى المسيطرة على هذا الكون بما فيه ومن فيه . فليس هذا التحدي غروراً ، وليس كذلك تهوراً ، وليس انتحاراً . إنما هو تحدي القوة الحقيقية الكبرى للقوى الهزيلة الفانية التي تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان .

وأصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة في رسل الله . . وإنه لينبغي لهم أن تمتلئ قلوبهم بالثقة حتى تفيض . وإن لهم أن يتوكلوا على الله وحده في وجه الطاغوت أياً كان !

ولن يضرهم الطاغوت إلاَّ أذى – ابتلاء من الله لا عجزاً منه سبحانه عن نصرة أوليائه ، ولا تركاً لهم ليسلمهم إلى أعدائه .

ولكنه الابتلاء الذي يمحص القلوب والصفوف . ثم تعود الكرة للمؤمنين . ويحق وعد الله لهم بالنصر والتمكين .

والله سبحانه يقص قصة عبده نوح وهو يتحدى قوى الطاغوت في زمانه هذا التحدي الواضح الصريح . فلنمض مع القصة لنرى نهايتها عن قريب .

﴿ فإن توليتم فما سألتكم من أجر . إن أجري إلا على الله . وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ . .

فإن أعرضتم عني وابتعدتم ، فأنتم وشأنكم ، فما كنت أسألكم أجراً على الهداية ، فينقص أجري بتوليكم :

﴿ إن أجري إلا على الله ﴾ . .

ولن يزحزحني هذا عن عقيدتي ، فقد أمرت أن أسلم نفسي كلها لله :

﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ . .

وأنا عندما أمرت به . . من المسلمين . .

فماذا كان ؟

﴿ فكذبوه . فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف . وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ . .

هكذا باختصار . نجاته هو ومن معه في الفلك – وهم المؤمنون . واستخلافهم في الأرض على قلتهم . وإغراق المكذبين على قوتهم وكثرتهم :

﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ . .

لينظر من ينظر ﴿ عاقبة المنذرين ﴾ المكذبين وليتعظ من يتعظ بعاقبة المؤمنين الناجين .

(37/370)

ويعجل السياق بإعلان نجاة نوح ومن معه ، لأن نوحاً والقلة المؤمنة كانوا يواجهون خطر التحدي للكثرة الكافرة . فلم تكن النتيجة مجرد هلاك هذه الكثرة ، بل كان قبلها نجاة القلة من جميع الأخطار ؛ واستخلافها في الأرض ، تعيد تعميرها وتجديد الحياة فيها ، وتأدية الدور الرئيسي فترة من الزمان .

هذه سنة الله في الأرض . وهذا وعده لأوليائه فيها . . فإذا طال الطريق على العصبة المؤمنة مرة ، فيجب أن تعلم أن هذا هو الطريق ، وأن تستيقن أن العاقبة والاستخلاف للمؤمنين ، وألا تستعجل وعد الله حتى يجيء وهي ماضية في الطريق . . والله لا يخدع أولياءه – سبحانه – ولا يعجز عن نصرهم بقوته ، ولا يسلمهم كذلك لأعدائه . . ولكنه يعلمهم ويدربهم ويزودهم – في الابتلاء – بزاد الطريق . .

وفي اختصار وإجمال يشير السياق إلى الرسل بعد نوح ، وما جاءوا به من البينات والخوارق وكيف تلقاها المكذبون الضالون :

﴿ ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ، كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ . .

فهؤلاء الرسل جاءوا قومهم بالبينات . والنص يقول : إنهم ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل . . وهذا يحتمل أنهم بعد مجيء الآيات ظلوا يكذبون كما كانوا قبلها يكذبون . فلم تحولهم الآيات عن عنادهم . كما يحتمل أن المكذبين جماعة واحدة على اختلاف أجيالهم

، لأنهم ذوو طبيعة واحدة . فهؤلاء ما كان يمكن أن يؤمنوا بما كذب به أسلاف لهم ، أو بما كذبوا هم به في أشخاص هؤلاء الأسلاف ! فهم منهم ، طبيعتهم واحدة ، وموقفهم تجاه البينات واحد .

لا يفتحون لها قلوبهم ، ولا يتدبرونها بعقولهم . وهم معتدون متجاوزون حد الاعتدال والاستقامة على طريق الهدى ، ذلك أنهم يعطلون مداركهم التي أعطاها الله لهم ليتدبروا بها ويتبينوا . وبمثل هذا التعطيل ، تغلق قلوبهم وتوصد منافذها :

﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ . .

(38/370)

حسب سنة الله القديمة في أن القلب الذي يغلقه صاحبه ينطبع على هذا ويجمد ويتحجر ، فلا يعود صالحاً للتلقي والاستقبال . . لا أن الله يغلق هذه القلوب ليمنعها ابتداء من الاهتداء . فإنما هي السنة تتحقق مقتضياتها في جميع الأحوال .

فأما قصة موسى فيبدؤها السياق هنا من مرحلة التكذيب والتحدي ، وينهيها عند غرق فرعون وجنوده ، على نطاق أوسع مما في قصة نوح ، ملماً بالمواقف ذات الشبة بموقف المشركين في مكة من الرسول - صلى الله عليه وسلم - وموقف القلة المؤمنة التي معه .

وهذه الحلقة المعروضة هنا من قصة موسى ، مقسمة إلى خمسة مواقف ، يليها تعقيب يتضمن العبرة من عرضها في هذه السورة على النحو الذي عرضت به . . وهذه المواقف الخمسة تتتابع في السياق على هذا النحو :

﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا ، فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : إن هذا لسحر مبين . قال موسى : أتقولون للحق لما جاءكم ، أسحر هذا ؟ ولا يفلح الساحرون . قالوا : أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لكما الكبرياء في الأرض ؟ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ . .

والآيات التي بعث بها موسى إلى فرعون وملئه هي الآيات التسع المذكورة في سورة الأعراف . ولكنها لا تذكر هنا ولا تفصل لأن السياق لا يقتضيها ، والإجمال في هذا الموضع يغني . والمهم هو تلقي فرعون وملئه لآيات الله :

﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ . .

﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا ﴾ . .

بهذا التحديد . . ﴿ من عندنا ﴾ . . ليصور شناعة الجريمة فيما قالوه عن هذا الحق الصادر من عند الله :

﴿ قالوا : إن هذا لسحر مبين ﴾ . .

بهذا التوكيد المتبجح الذي لا يستند مع هذا إلى دليل . . ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ . .

كأنها جملة واحدة يتعارف عليها المكذبون في جميع العصور ! فهكذا قال مشركو قريش ، كما حكي عنهم في مطلع السورة ، على تباعد الزمان والمكان ، وعلى بعد ما بين معجزات موسى ومعجزة القرآن !

(39/370)

﴿ قال موسى : أتقولون للحق لما جاءكم . أسحر هذا ؟ ولا يفلح الساحرون ﴾ . .

وقد حذف من استنكار موسى الأول ما دل عليه الثاني . فكأنه قال لهم : أتقولون للحق لما جاءكم : هذا سحر ؟ أسحر هذا ؟ وفي السؤال الأول استنكار لوصف الحق بالسحر ، وفي السؤال الثاني تعجيب من أن يقول أحد عن هذا إنه سحر . فالسحر لا يستهدف هداية الناس ، ولا يتضمن عقيدة ، وليس له فكرة معينة عن الألوهية وعلاقة الخلق بالخالق ؛ ولا يتضمن منهاجاً تنظيمياً للحياة . فما يختلط السحر بهذا ولا يلتبس . وما كان الساحرون ليؤدوا عملاً يستهدف مثل هذه الأغراض ، ويحقق مثل هذا الاتجاه ؛ وما كانوا ليفلحوا وكل عملهم تخييل وتزييف .

وهنا يكشف الملأ عن حقيقة الدوافع التي تصدهم عن التسليم بآيات الله :

﴿ قالوا : أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لكما الكبرياء في الأرض ؟ وما

نحن لكما بمؤمنين ﴾ . .

وإذن فهو الخوف من تحطيم معتقداتهم الموروثة ، التي يقوم عليها نظامهم السياسي والاقتصادي . وهو الخوف على السلطان في الأرض ، هذا السلطان الذي يستمدونه من خرافات عقائدهم الموروثة .

(40/370)

إنها العلة القديمة الجديدة ، التي تدفع بالطغاة إلى مقاومة الدعوات ، وانتحال شتى المعاذير ، ورمي الدعاة بأشنع التهم ، والفجور في مقاومة الدعوات والدعاة . . إنها هي ﴿ الكبرياء في الأرض ﴾ وما تقوم عليه من معتقدات باطلة يحرص المتجبرون على بقائها متحجرة في قلوب الجماهير ، بكل ما فيها من زيف ، وبكل ما فيها من فساد ، وبكل ما فيها من أوهام وخرافات . لأن تفتح القلوب للعقيدة الصحيحة ، واستنارة العقول بالنور الجديد ، خطر على القيم الموروثة ، وخطر على مكانة الطغاة ورهبتهم في قلوب الجماهير ، وخطر على القواعد التي تقوم عليها هذه الرهبة وتستند . إنها الخوف على السلطان القائم على الأوهام والأصنام ! وعلى تعبيد الناس لأرباب من دون الله . . ودعوة الإسلام – على أيدي الرسل جميعاً – إنما تستهدف تقرير ربوبية الله وحده للعالمين ؛ وتنحية الأرباب

الزائفة التي تغتصب حقوق الألوهية وخصائصها ، وتزاولها في حياة الناس . وما كانت هذه الأرباب المستخفة للجماهير لتدع كلمة الحق والهدى تصل إلى هذه الجماهير . ما كانت لتدع الإعلان العام الذي يحمله الإسلام بربوبية الله وحده للعالمين وتحرير رقاب البشر من العبودية للعباد . . ما كانت لتدع هذا الإعلان العام يصل إلى الجماهير ؛ وهي تعلم أنه إعلان بالثورة على ربوبيتهم ، والانقلاب على سلطانهم ، والانقضاض على ملكهم ، والانطلاق إلى فضاء الحرية الكريمة اللائقة بالإنسان !

إنها هي هي العلة القديمة الجديدة كلما قام من يدعو إلى الله رب العالمين !

وما كان رجال من أذكياء قريش مثلاً ليخطئوا إدراك في رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من صدق وسمو ، وما في عقيدة الشرك من تهافت وفساد . ولكنهم كانوا يخشون على مكانتهم الموروثة ، القائمة على ما في تلك العقيدة من خرافات وتقاليد . كما خشي الملأ من قوم فرعون على سلطانهم في الأرض ، فقالوا متبجحين :

﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ !

(41/370)

وتعلق فرعون وملؤه بحكاية السحر ، وأرادوا – في أغلب الظن – أن يغرقوا الجماهير بها ، بأن يعقدوا حلقة للسحرة يتحدون بها موسى وما معه من آيات تشبه السحر في ظاهرها ، ليخرجوا منها في النهاية بأن موسى ليس إلا ساحراً ماهراً . وبذلك ينتهي الخطر الذي يخشونه على معتقداتهم الموروثة ، وعلى سلطانهم في الأرض ، وهو الأساس . . ونرجح أن هذه كانت الدوافع الحقيقية لمهرجان السحرة ، بعد ما أفصح القوم عن شعورهم بالخطر الحقيقي الذي يتوقعونه :

﴿ وقال فرعون : ائتوني بكل ساحر عليم .

فلما جاء السحرة قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون . فلما ألقوا قال موسى : ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ . .

ونلاحظ هنا اختصاراً في موقف المباراة ، لأن نهايته هي المقصودة . وفي قولة موسى : ﴿ ما جئتم به السحر ﴾ . .

رد على تهمة السحر التي وجهت إليه . فالسحر هو هذا الذي يصنعه هؤلاء ، لأنه ليس أكثر من تخييل وسحر للأنظار لا هدف له إلا اللعب بالعقول ، لا تصحبه دعوة ، ولا تقوم عليه حركة . فهذا هو السحر لا آيات الله التي جاءهم بها حقاً من عند الله . . وفي قوله : ﴿ إن الله سيبطله ﴾ . .

تتجلى ثقة المؤمن الواثق بربه ، المطمئن إلى أن ربه لا يرضى أن ينجح السحر وهو عمل غير صالح :

﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ . .

الذين يضللون الناس بالسحر ، أو الملأ الذين جاءوا بالسحرة بنية الفساد والإبقاء على الضلال :

﴿ ويحق الله الحق بكلماته ﴾ . .

كلماته التكوينية ﴿ كن فيكون ﴾ . .

وهي تعبير عن توجه المشيئة . أو كلماته التي هي آياته وبيناته :

﴿ ولو كره المجرمون ﴾ . .

فإن كراهتهم لا تعطل مشيئة الله ، ولا تقف دون آياته .

وقد كان . . وبطل السحر وعلا الحق . . ولكن السياق يختصر المشاهد هنا ؛ لأنها ليست مقصودة في هذا المجال .

(42/370)

ويسدل الستار هنا ليرفع على موسى ومن آمن معه وهم قليل من شباب القوم لا من شيوخهم ! . وهذا إحدى عبر القصة المقصودة .

﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ، على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم . وإن فرعون لعال في الأرض . وإنه لمن المسرفين . وقال موسى : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقالوا : على الله توكلنا ، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين . وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة ، وبشر المؤمنين ﴾ .

ويفيد هذا النص أن الذين أظهروا إيمانهم وانضمامهم لموسى بن بني إسرائيل كانوا هم الفتيان الصغار ، لا مجموعة الشعب الإسرائيلي . وأن هؤلاء الفتيان كان يخشى من فتنتهم وردهم عن اتباع موسى ، خوفاً من فرعون وتأثير كبار قومهم ذوي المصالح عند أصحاب السلطان ، والأذلاء الذين يلوذون بكل صاحب سلطة وبخاصة من إسرائيل . وقد كان فرعون ذا سلطة ضخمة وجبروت ، كما كان مسرفاً في الطغيان ، لا يقف عند حد ، ولا يتحرج من إجراء قاس .

وهنا لا بد من إيمان يرجح المخاوف ، ويطمئن القلوب ، ويثبتها على الحق الذي تنحاز إليه :

﴿ وقال موسى : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ . .

فالتوكل على الله دلالة الإيمان ومقتضاه . وعنصر القوة الذي يضاف إلى رصيد القلة الضعيفة أمام الجبروت الطاغي فإذا هي أقوى وأثبت .

وقد ذكر لهم موسى الإيمان والإسلام . وجعل التوكل على الله مقتضى هذا وذاك . . مقتضى الاعتقاد في الله ، ومقتضى إسلام النفس له خالصة والعمل بما يريد .

واستجاب المؤمنون لهتاف الإيمان على لسان نبيهم :

﴿ فقالوا : على الله توكلنا ﴾ . .

ومن ثم توجهوا إلى الله بالدعاء :

﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ . .

(43/370)

والدعاء بألا يجعلهم الله فتنة للقوم الظالمين مقصود به ألا يمكن القوم الظالمين منهم ، فيظن القوم أن تمكنهم من المؤمنين بالله دليل على أن عقيدتهم هم أصح ولذلك انتصروا وهزم المؤمنون ! ويكون هذا استدراجاً لهم من الله وفتنة ليلجوا في ضلالهم . فالمؤمنون يدعون الله أن يعصمهم من تسلط الظالمين عليهم ولو لاستدراج الظالمين . والآية الثانية أصرح في النتيجة المطلوبة :

﴿ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ . .

ودعاؤهم الله ألا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين ، وأن ينجيهم برحمته من القوم الكافرين ، لا ينافي الاتكال على الله والتقوِّي به . بل هو أدل على التوجه بالاتكال والاعتماد إلى الله .

والمؤمن لا يتمنى البلاء ، ولكن يثبت عند اللقاء .

وعقب هذا التميز ، وفي فترة الانتظار بعد الجولة الأولى ، وإيمان من آمن بموسى ، أوحى الله إليه وإلى هارون أن يتخذا لبني إسرائيل بيوتاً خاصة بهم ، وذلك لفرزهم وتنظيمهم استعداداً للرحيل من مصر في الوقت المختار ؛ وكلفهم تطهير بيوتهم ، وتزكية نفوسهم ، والاستبشار بنصر الله :

﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة ، وبشر المؤمنين ﴾ . .

وتلك هي التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية . وهما معاً ضروريتان للأفراد والجماعات ، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات . ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية ، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة ، وأن الأداة الحربية في يد الجندي الخائر العقيدة لا تساوي شيئاً كثيراً في ساعة الشدة .

وهذه التجربة التي يعرضها الله على العصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة ، ليست خاصة ببني إسرائيل ، فهي تجربة إيمانية خالصة . وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع الجاهلي ، وقد عمت الفتنة وتجبر الطاغوت ، وفسد الناس ، وأنتنت البيئة – وكذلك كان الحال على عهد فرعون في هذه الفترة – وهنا يرشدهم الله إلى أمور :

* اعتزال الجاهلية بنتنها وفسادها وشرها – ما أمكن في ذلك – وتجمع العصبة المؤمنة الخيرة النظيفة على نفسها ، لتطهرها وتزكيها ، وتدربها وتنظمها ، حتى يأتي وعد الله لها .

* اعتزال معابد الجاهلية واتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد . تحس فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي ؛ وتزاول فيها عبادتها لربها على نهج صحيح ؛ وتزاول بالعبادة ذاتها نوعاً من التنظيم في جو العبادة الطهور .

واتجه موسى – عليه السلام – إلى ربه ، وقد يئس من فرعون وملئه أن يكون فيهم خير ، وأن تكون قد بقيت فيهم بقية ، وأن يرجى لهم صلاح .

اتجه إليه يدعو على فرعون وملئه ، الذين يملكون المال والزينة ، تضعف إزاءهما قلوب الكثيرين ، فتنتهي إلى التهاوي أمام الجاه والمال ، وإلى الضلال . . اتجه موسى إلى ربه يدعوه أن يدمر هذه الأموال ، وأن يشد على قلوب أهلها فلا يؤمنوا إلا حيث لا ينفعهم إيمان .

فاستجاب الله الدعاء :

﴿ وقال موسى : ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا . ربنا ليضلوا عن سبيلك . ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال : قد أجيبت دعوتكما ، فاستقيما ، ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ . .

﴿ ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ﴾ . .

(45/370)

ينشأ عنها إضلال الناس عن سبيلك ، إما بالإغراء الذي يحدثه مظهر النعمة في نفوس الآخرين . وإما بالقوة التي يمنحها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم . ووجود النعمة في أيدي المفسدين لا شك يزعزع كثيراً من القلوب التي لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار ، وأنها كذلك ليست شيئاً ذا قيمة إلى جانب فضل الله في الدنيا والآخرة . وموسى يتحدث هنا عن الواقع المشهود في عامة الناس . ويطلب لوقف هذا الإضلال ، ولتجريد القوة الباغية المضلة من وسائل البغي والإغراء ، أن يطمس الله على هذه الأموال بتدميرها والذهاب بها ، بحيث لا ينتفع بها أصحابها . أما دعاؤه بأن يشد الله على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، فهو

دعاء من يئس من صلاح هذه القلوب ، ومن أن يكون لها توبة أو إنابة . دعاء بأن يزيدها الله قسوة واستغلاقاً حتى يأتيهم العذاب ، وعندئذ لن يقبل منهم الإيمان ؛ لأن الإيمان عند حلول العذاب لا يقبل ، ولا يدل على توبة حقيقية باختيار الإنسان .

﴿ قال : قد أجيبت دعوتكما ﴾ . .

كتبت لها الإجابة وقضي الأمر .

﴿ فاستقيما ﴾ . .

في طريقكما وعلى هداكما حتى يأتي الأجل :

﴿ ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ . .

فيخبطوا على غير علم ، ويترددوا في الخطط والتدبيرات ، ويقلقوا على المصير ، ولا يعرفوا إن كانوا يسيرون في الطريق الهادي أم هم ضلوا السبيل .

والمشهد التالي هو مشهد التنفيذ .

﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ، فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً ، حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟ ! فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ . .

إنه الموقف الحاسم والمشهد الأخير في قصة التحدي والتكذيب . والسياق يعرضه مختصراً مجملاً ، لأن الغرض من سياقة هذه الحلقة من القصة في هذه السورة هو بيان هذه الخاتمة . بيان رعاية الله وحمايته لأوليائه ، وإنزال العذاب والهلاك بأعدائه ، الذين يغفلون عن آياته الكونية وآياته مع رسله حتى تأخذهم الآية التي لا ينفع بعدها ندم ولا توبة .

وهو مصداق ما سبق في السورة من وعيد للمكذبين في قوله تعالى : ﴿ ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون . ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل : لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون قل : أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ، ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ أثم إذا ما وقع آمنتم به ؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون ؟ ! ﴾ فهنا يأتي القصص لصدق ذلك الوعيد :

﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ﴾ . .

بقيادتنا وهدايتنا ورعايتنا . ولهذا الإسناد في هذا الموضع دلالته . .

﴿ فأتبعهم فرعون وجنوده ﴾ . .

لا اهتداء وإيماناً ، ولا دفاعاً مشروعاً . ولكن :

﴿ بغياً وعدواً ﴾ . .

وتجاوزاً للحد وطغياناً . .

ومن مشهد البغي والعدو مباشرة إلى مشهد الغرق في ومضة :

﴿ حتى إذا أدركه الغرق ﴾ . .

وعاين الموت ، ولم يعد يملك نجاة . .

﴿ قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ . .

لقد سقطت عن فرعون الباغي العادي المتجبر الطاغي . . كل أرديته التي تنفخ فيه فتظهره لقومه ولنفسه قوة هائلة مخيفة ، ولقد تضاءل وتصاغر واستخذى . فهو لا يكتفي بأن يعلن إيمانه بأن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل . فيزيد في استسلام . .

﴿ وأنا من المسلمين ﴾ . .

المسلِّمينّ !

﴿ آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟ ! ﴾ . .

آلآن حيث لا اختيار ولا فرار ؟ آلآن وقد سبق العصيان والاستكبار ؟ آلآن ؟ !

﴿ فاليوم ننجيك ببدنك ﴾ . .

لا تأكله الأسماك ، ولا يذهب منكراً مع التيار لا يعرف للناس . ذلك ليدرك من وراءك من الجماهير كيف كان مصيرك :

﴿ لتكون لمن خلفك آية ﴾ . .

يتعظون بها ويعتبرون ، ويرون عاقبة التصدي لقوة الله ووعيده بالتكذيب :

﴿ وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ . .

لا يوجهون إليها قلوبهم وعقولهم ، ولا يتدبرونها في الآفاق وفي أنفسهم .

ويسدل الستار على المشهد النهائي في المأساة . مأساة البغي والفساد والتحدي والعصيان . . ويعقب السياق بلمحة سريعة عن مآل بني إسرائيل بعدها ، تستغرق ما حدث في أجيال :

﴿ ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ، ورزقناهم من الطيبات ، فما اختلفوا حتى جاءهم العلم . إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ . .

والمبوأ : مكان الإقامة الأمين . وإضافته إلى الصدق تزيده أماناً وثباتاً واستقراراً كثبات الصدق الذي لا يضطرب ولا يتزعزع اضطراب الكذب وتزعزع الافتراء . ولقد طاب المقام فترة لبني إسرائيل بعد تجارب طويلة ، لا يذكرها السياق هنا لأنها ليست من مقاصده ، وتمتعوا بطيبات من الرزق حلال ، حتى فسقوا عن أمر الله فحرمت عليهم .

والسياق لا يذكر هنا إلا اختلافهم بعد وفاق . اختلافهم في دينهم ودنياهم ، لا على جهل

ولكن بعد أن جاءهم العلم ، وبسبب هذا العلم ، واستخدامه في التأويلات الباطلة .

ولما كان المقام هنا مقام نصرة الإيمان وخذلان الطغيان ، فإن السياق لا يطيل في عرض ما وقع بعد ذلك من بني إسرائيل ، ولا يفصل خلافهم بعد ما جاءهم العلم . ولكن يطوي هذه الصفحة ، ويكلها بما فيها لله في يوم القيامة :

﴿ إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ . .

فيبقى للقصة جلالها ، ويظل للمشهد الأخير تأثيره . .

وهكذا ندرك لماذا يساق القصص القرآني ، وكيف يساق في كل موضع من مواضعه .

فليس هو مجرد حكايات تروى ، ولكنه لمسات وإيحاءات مقدرة تقديراً .

(48/370)

بعد ذلك يجيء التعقيب على هذه الخاتمة لقصة موسى وقصة نوح من قبلها ، يبدأ خطاباً إلى رسول - صلى الله عليه وسلم - تثبيتاً بما حدث للرسل قبله ، وبياناً لعلة تكذيب قومه له ، أن ليس ما ينقصهم هو الآيات والبينات ، إنما هي سنة الله في المكذبين من قبلهم ، وسنة الله في خلق الإنسان باستعداداته للخير والشر والهدى والضلال . . وفي الطريق يلم إلمامة سريعة بقصة يونس وإيمان قومه به بعد أن كاد العذاب ينزل بهم ، فرد عنهم . لعل فيها

حافزاً للمكذبين قبل فوات الأوان . . وينتهي بالخلاصة المستفادة من ذلك القصص كله . أن سنة الله التي مضت في الأولين ماضيه في الآخرين : عذاب وهلاك للمكذبين . ونجاة وخلاص للرسل ومن معهم من المؤمنين . حقاً كتبه الله على نفسه . وجعله سنة ماضية لا تتخلف ولا تحيد :

﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين . ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين . إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ، فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ، إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ومتعناهم إلى حين . ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ! وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون . قل : انظروا ماذا في السماوات والأرض ، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ، فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ؟ قل : فانتظروا إني معكم من المنتظرين . ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا ، كذلك حقا علينا ننج المؤمنين ﴾ . .

لقد كان آخر الحديث عن بني إسرائيل ، وهم من أهل الكتاب ، وهم يعرفون قصة نوح مع قومه وقصة موسى مع فرعون ، يقرأونها في كتابهم . فهنا يتوجه الخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - إن كان في شك مما أنزل إليه ، من هذا القصص أو غيره ، فليسأل الذين يقرأون الكتاب من قبله .

فلديهم عنه علم ، مما يقرأون :

﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ .

ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يكن في شك مما أنزل الله إليه . أو كما روي عنه - عليه الصلاة والسلام - " لا أشك ولا أسأل " ففيم إذن هذا القول له أن يسأل إن كان في شك . والتعقيب عليه : ﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾ وفي هذا ما يكفيه لليقين ؟

ولكن هذا التوجيه يشي بما كان وراءه من شدة الموقف وتأزمه في مكة بعد حادث الإسراء ، وقد ارتد بعض من أسلموا لعدم تصديقه . وبعد موت خديجة وأبي طالب ، واشتداد الأذى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ؛ وبعد تجمد الدعوة تقريباً في مكة بسبب موقف قريش العنيد . . وكل هذه ملابسات تلقي ظلالها على قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيسري عنه ربه بهذا التوكيد ، بعد ذلك القصص الموحى . .

ثم إنه تعريض بالشاكين الممترين المكذبين :

﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ﴾ .

وهذا التعريض يترك الفرصة لمن يريد منهم أن يرجع ليرجع ؛ لأنه إذا كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - مأذوناً في أن يسأل إن كان في شك ، ثم هو لا يسأل ولا يشك ، فهو إذن على يقين مما جاء به أنه الحق . وفي هذا إيحاء للآخرين ألا يترددوا ، وألا يكونوا ﴿ من الممترين ﴾ . .

ثم إنه المنهج الذي يضعه الله لهذه الأمة فيما لا تستوثق منه . . أن تسأل أهل الذكر . . ولو كان من أخص خصائص العقيدة ؛ لأن المسلم مكلف أن يستيقن من عقيدته وشريعته ، وألا يعتمد على التقليد دون تثبت ويقين .

(50/370)

ثم أيكون هناك تعارض بين إباحة هذا السؤال عند الشك وبين قوله : ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ ؟ . . ليس هنالك تعارض ، لأن المنهي عنه هو الشك والبقاء على الشك ؛ بحيث يصبح صفة دائمة . . ﴿ من الممترين ﴾ . . ولا يتحرك صاحبها للوصول إلى يقين . وهي حالة رديئة لا تنتهي إلى معرفة ، ولا تحفز إلى استفادة ، ولا تئول إلى يقين .

وبعد فإذا كان ما جاء إلى الرسول هو الحق الذي لا مرية فيه ، فما تعليل إصرار قوم على التكذيب ولجاجهم فيه ؟ تعليله أن كلمة الله وسنته قد اقتضت أن من لا يأخذ بأسباب الهدى لا يهتدي ، ومن لا يفتح بصيرته على النور لا يراه ، ومن يعطل مداركه لا ينتفع بوظيفتها ، فتكون نهايته إلى الضلال ، مهما تكن الآيات والبينات ، لأنه لا يفيد شيئاً من الآيات والبينات . وعندئذ تكون كلمة الله وسنته قد حقت عليهم وتحققت فيهم :

﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ .

.

فلا ينفعهم الإيمان حينئذ لأنه لم يجئ عن اختيار . ولم تعد هنالك فرصة لتحقيق مدلوله في الحياة . ومنذ هنيهة كان أمامنا مشهد يصدق هذا . مشهد فرعون حين أدركه الغرق يقول : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ . . فيقال له : ﴿ الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟ ! ﴾ .

وعند هذا الموقف الذي تظهر فيه حتمية سنن الله العامة ، وانتهاؤها إلى نهايتها المرسومة ، متى تعرض الإنسان لها باختياره ، تفتح نافذة مضيئة بآخر شعاع من أشعة الأمل في النجاة . ذلك أن يعود المكذبون عن تكذيبهم قبيل وقوع العذاب :

﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ! إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ . .

(51/370)

وهو تحضيض ينسحب على الماضي ، فيفيد أن مدلوله لم يقع . . ﴿ فلولا كانت قرية آمنت ﴾ من هذه القرى التي مر ذكرها . ولكن القرى لم تؤمن . إنما آمنت منهم قلة ، فكانت الصفة الغالبة هي صفة عدم الإيمان . . ذلك فيما عدا قرية واحدة – والقرية : القوم ، والتسمية هكذا إيذان بأن الرسالات كانت في قرى الحضر ولم تكن في محلات البدو – ولا يفصل السياق هنا قصة يونس وقومه ، إنما يشير إلى خاتمتها هذه الإشارة ؛ لأن الخاتمة وحدها هي المقصودة هنا . فلا نزيدها نحن تفصيلاً . وحسبنا أن ندرك أن قوم يونس كان عذاب مخز يتهددهم ، فلما آمنوا في اللحظة الأخيرة قبل وقوعه كشف عنهم العذاب ، وتركوا يتمتعون بالحياة إلى أجل . ولو لم يؤمنوا لحل العذاب بهم وفاقاً لسنة الله المترتبة آثارها على تصرفات خلقه . . حسبنا هذا لندرك أمرين هامين :

أولهما : الإهابة بالمكذبين أن يتعلقوا بخيوط النجاة الأخيرة ، فلعلهم ناجون كما نجا قوم يونس من عذاب الخزي في الحياة الدنيا . وهو الغرض المباشر من سياقة القصة هذا

المساق . .

وثانيهما : أن سنة الله لم تتعطل ولم تقف بكشف هذا العذاب ، وترك قوم يونس يتمتعون فترة أخرى . بل مضت ونفذت . لأن مقتضى سنة الله كان أن يحل العذاب بهم لو أصروا على تكذيبهم حتى يجيء . فلما عدلوا قبل مجيئه جرت السنة بإنجائهم نتيجة لهذا العدول . فلا جبرية إذن في تصرفات الناس ، ولكن الجبرية في ترتيب آثارها عليها .

ومن ثم ترد القاعدة الكلية في الكفر والإيمان :

﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ . .

ولو شاء ربك لخلق هذا الجنس البشري خلقة أخرى ، فجعله لا يعرف إلا طريقاً واحداً هو طريق الإيمان كالملائكة مثلاً . أو لجعل له استعداداً واحداً يقود جميع أفراده إلى الإيمان .

(52/370)

ولو شاء كذلك لأجبر الناس جميعاً وقهرهم عليه ، حتى لا تكون لهم إرادة في اختياره .

ولكن حكمة الخالق التي قد ندرك بعض مراميها وقد لا ندرك ، دون أن ينفي عدم إدراكنا

لها وجودها . هذه الحكمة اقتضت خلقة هذا الكائن البشري باستعداد للخير وللشر وللهدى والضلال . ومنحته القدرة على اختيار هذا الطريق أو ذاك . وقدرت أنه إذا أحسن استخدام مواهبه اللدنية من حواس ومشاعر ومدارك ، ووجهها إلى إدراك دلائل الهدى في الكون والنفس وما يجيء به الرسل من آيات وبينات ، فإنه يؤمن ويهتدي بهذا الإيمان إلى طريق الخلاص . وعلى العكس حين يعطل مواهبه ويغلق مداركه ويسترها عن دلائل الإيمان يقسو قلبه ، ويستغلق عقله ، وينتهي بذلك إلى التكذيب أو الجحود ، فإلى ما قدره الله للمكذبين الجاحدين من جزاء . .

فالإيمان إذن متروك للاختيار . لا يكره الرسول عليه أحداً . لأنه لا مجال للإكراه في مشاعر القلب وتوجهات الضمير :

﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ ﴾ . .

وهو سؤال للأنكار ، فإن هذا الإكراه لا يكون :

﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ :

وفق سنته الماضية التي بيناها . فلا تصل إلى الإيمان وقد سارت في الطريق الآخر الذي لا يؤدي إليه . لا أنها تريد الإيمان وتسلك طريقه ثم تمنع عنه ، فهذا ليس المقصود بالنص . بل المقصود أنها لا تصل إلى الإيمان إلا إذا سارت وفق إذان الله وسنته في الوصول إليه من طريقه المرسوم بالسنة العامة . وعندئذ يهديها الله ويقع لها الإيمان بإذنه . فلا شيء يتم

وقوعه إلا بقدر خاص به . إنما الناس يسيرون في الطريق . فيقدر الله لهم عاقبة الطريق ، ويوقعها بالفعل جزاء ما جاهدوا في الله ليهتدوا . .

ويدل على هذا عقب الآية :

﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ . .

(53/370)

فالذين عطلوا عقولهم عن التدبر ، يجعل الرجس عليهم . والرجس أبشع الدنس الروحي ، فهؤلاء ينالهم ذلك الرجس بسبب تعطيلهم لمداركهم عن التعقل والتدبر ، وانتهاؤهم بهذا إلى التكذيب والكفران .

ويزيد الأمر إيضاحاً بأن الآيات والنذر لا تغني عن الذين لا يؤمنون ؛ لأنهم لا يتدبرونها وهي معروضة أمامهم في السماوات والأرض :

﴿ قل : انظروا ماذا في السماوات والأرض . وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ . .

وسواء كان عقب الآية استفهاماً أو تقريراً . فمؤداه واحد . فإن ما في السماوات والأرض حافل بالآيات ؛ ولكن الآيات والنذر لا تفيد الذين لا يؤمنون ، لأنهم من قبل لم يلقوا بالا إليها

، ولم يتدبروها . .

وقبل أن نمضي إلى نهاية الشوط نقف لحظة أمام قوله تعالى :

﴿ قل : انظروا ماذا في السماوات والأرض . وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ . .

إن المخاطبين بهذا القرآن أول مرة ، لم يكن لديهم من المعرفة العلمية بما في السماوات والأرض إلا القليل . ولكن الحقيقة الواقعة التي أشرنا إليها مراراً ، هي أن بين الفطرة البشرية وبين هذا الكون الذي نعيش فيه لغة خفية غنية ! وأن هذه الفطرة تسمع لهذا الكون – حين تتفتح وتستيقظ – وتسمع منه الكثير !

والمنهج القرآني في تكوين التصور الإسلامي في الإدراك البشري يتكئ على ما في السماوات والأرض ، ويستلهم هذا الكون ؛ ويوجه إليه النظر والسمع والقلب والعقل .

. وذلك دون أن يخل بطبيعة التناسق والتوازن فيه ؛ ودون أن يجعل من هذا الكون إلهاً يؤثر في الإنسان أثر الله ! كما يجدف بذلك الماديون المطموسون ، ويسمون ذلك التجديف مذهباً " علمياً " يقيمون عليه نظاماً اجتماعياً يسمونه : " الاشتراكية العلمية " والعلم الصحيح من ذلك التجديف كله بريء !

والنظر إلى ما في السماوات والأرض يمد القلب والعقل بزاد من المشاعر والتأملات ؛ وزاد من الاستجابات والتأثرات ؛ وزاد من سعة الشعور بالوجود ؛ وزاد من التعاطف مع هذا الوجود . . وذلك كله في الطريق إلى امتلاء الكينونة البشرية بالإيقاعات الكونية الموحية بوجود الله ، وبجلال الله ، وبتدبير الله ، وبسلطان الله ، وبحكمة الله ، وعلم الله . . .

ويمضي الزمن ، وتنمو معارف الإنسان العلمية عن هذا الكون ، فإن كان هذا الإنسان مهتدياً بنور الله إلى جوار هذه المعارف العلمية ، زادته هذه المعارف من الزاد الذي تحصله الكينونة البشرية من التأمل في هذا الكون ، والأنس به ، والتعرف عليه ، والتجاوب معه ، والاشتراك معه في تسبيحه بحمد الله : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ ولا يفقه تسبيح كل شيء بحمد الله إلا الموصول قلبه بالله . . وأَما إن كانت هذه المعارف العلمية غير مصحوبة ببشاشة الإيمان ونوره ، فإنها تقود الأشقياء إلى مزيد من الشقوة ، حين تقودهم إلى مزيد من البعد عن الله ؛ والحرمان من بشاشة الإيمان ونوره ورفرفته وريّاه !

﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ !

وماذا تجدي الآيات والنذر إذا استغلقت القلوب ، وتجمدت العقول ، وتعطلت أجهزة

الاستقبال والتلقي في الفطرة ؛ واحتجب الكائن الإنساني بجملته عن هذا الوجود ، فلم يسمع إيقاعات حمده وتسبيحه ؟ !

(55/370)

" إن المنهج القرآني في التعريف بحقيقة الألوهية يجعل الكون والحياة معرضاً رائعاً تتجلى فيه هذه الحقيقة . . تتجلى فيه بآثارها الفاعلة ، وتملأ بوجودها وحضورها جوانب الكينونة الإنسانية المدركة . . إن هذا المنهج لا يجعل " وجود الله " سبحانه قضية يجادل عنها . فالوجود الإلهي يفعم القلب البشري – من خلال الرؤية القرآنية والمشاهدة الواقعية على السواء – بحيث لا يبقى هنالك مجال للجدل حوله . إنما يتجه المنهج القرآني مباشرة إلى الحديث عن آثار هذا الوجود في الكون كله ؛ وإلى الحديث عن مقتضياته كذلك في الضمير البشري والحياة البشرية .

" والمنهج القرآني في اتباعه لهذه الخطة إنما يعتمد على حقيقة أساسية في التكوين البشري . فالله هو الذي خلق وهو أعلم بمن خلق : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ والفطرة البشرية بها حاجة ذاتية إلى التدين ، وإلى الاعتقاد بإله . بل إنها حين تصح وتستقيم تجد في أعماقها اتجاهاً إلى إله واحد ، وإحساساً قوياً بوجود

هذا الإله الواحد . ووظيفة العقيدة الصحيحة ليست هي إنشاء هذا الشعور بالحاجة إلى إله والتوجه إليه ، فهذا مركوز في الفطرة . ولكن وظيفتها هي تصحيح تصور الإنسان لإلهه ، وتعريفه بالإله الحق الذي لا إله غيره . تعريفه بحقيقته وصفاته ، لا تعريفه بوجوده وإثباته . ثم تعريفه بمقتضيات الألوهية في حياته – وهي الربوبية والقوامة والحاكمية – والشك في حقيقة الوجود الإلهي أو إنكاره هو بذاته دليل قاطع على اختلال بين في الكينونة البشرية ، وعلى تعطل أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية فيها . وهذا التعطل لا يعالج – إذن – بالجدل . وليس هذا هو طريق العلاج !

(56/370)

" إن هذا الكون ، كون مؤمن مسلم ، يعرف بارئه ويخضع له ، ويسبح بحمده كل شيء فيه وكل حي – عدا بعض الأناسي ! – و " الإنسان " يعيش في هذا الكون الذي تتجاوب جنباته بأصداء الإيمان والإسلام ، وأصداء التسبيح والسجود . وذرات كيانه ذاته وخلاياه تشارك في هذه الأصداء ؛ وتخضع في حركتها الطبيعية الفطرية للنواميس التي قدرها الله . فالكائن الذي لا تستشعر فطرته هذه الأصداء كلها ؛ ولا تحس إيقاع النواميس الإلهية فيها هي ذاتها ، ولا تلتقط أجهزته الفطرية تلك الموجات الكونية ، كائن

معطلة فيه أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية . ومن ثم لا يكون هنالك سبيل إلى قلبه وعقله بالجدل ، إنما يكون السبيل إلى علاجه هو محاولة تنبيه أجهزة الاستقبال والاستجابة فيه ، واستجاشة كوامن الفطرة في كيانه ، لعلها تتحرك ، وتأخذ في العمل من جديد " .

ولفت الحس والقلب والعقل للنظر إلى ما في السماوات والأرض ، وسيلة من وسائل المنهج القرآني لاستحياء القلب الإنساني ؛ لعله ينبض ويتحرك ، ويتلقى ويستجيب .

ولكن أولئك المكذبين من الجاهليين العرب – وأمثالهم – لا يتدبرون ولا يستجيبون . .

فماذا ينتظرون ؟

إن سنة الله لا تتخلف ، وعاقبة المكذبين معروفة ، وليس لهم أن يتوقعوا من سنة الله أن تتخلف . وقد يُنظرهم الله فلا يأخذهم بعذاب الاستئصال ، ولكن الذين يصرون على التكذيب لا بد لهم من النكال :

﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ؟ ﴾ . . ﴿ قل : فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ . . وهو التهديد الذي ينهي الجدل ، ولكنه يخلع القلوب .

ويختم هذا المقطع من السياق بالنتيجة الأخيرة لكل رسالة ولكل تكذيب ، وبالعبرة الأخيرة من ذلك القصص وذلك التعقيب :

﴿ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا . كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين ﴾ . .

إنها الكلمة التي كتبها الله على نفسه : أن تبقى البذرة المؤمنة وتنبت وتنجو بعد كل إيذاء

وكل خطر ، وبعد كل تكذيب وكل تعذيب . .

هكذا كان - والقصص المروي في السورة شاهد - وهكذا يكون . . فليطمئن المؤمنون .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1809 . 1824 ﴾

(57/370)

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقدم الفطام عن الميل يطلب الآيات ، وكان طلبهم لها إنما هو على وجه الشك ، وإن لم يكن على ذلك الوجه فإنه فعل الشاك غالباً وتقدمت أجوبة لهم ، وختم ذلك بتهديدهم وبشارة المؤمنين الموجبة لثباتهم ، ناسبه كل المناسبة أن اتبعت الأمر بجواب آخر دال على ثباته - صلى الله عليه وسلم - وأنه مظهر دينه رضي من رضي وسخط من سخط ، لأن البيان قد وصل إلى غايته في قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس ﴾ أي الذين هم في حيز الاضطراب ، لم ترقهم هممهم إلى رتبة الثبات ﴿ إن كنتم ﴾ أي كوناً هو كالجبلة منغمسين

﴿ في شك ﴾ كائن ﴿ من ﴾ جهة ﴿ ديني ﴾ تطلبون لنزوله - بعد تكفل العقل بالدلالة عليه - إنزال الآيات ، فأنا لست على شك من صحة ديني وبطلان دينكم فاعرضوه على عقلوكم وانظروا ما فيه من الحكم مستحضرين ما لدينكم من الوهي الذي تقدم بيانه في قوله تعالى

﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق ﴾ [يونس : 59] ونحوه ﴿ فلا أعبد ﴾ أي الآن ولا في المستقبل الزمان ﴿ الذين تعبدون ﴾ أي الآن أو بعد الآن ﴿ من دون الله ﴾ أي الملك الأعظم لعدم قدرتهم على شيء من ضري ، فلا تطمعوا في أنه يحصل لي شك بسبب حصول الشك لكم ، فإذاً لا أعبد غير الله أصلاً .

ولما كان سلب عبادته عن غيره ليس صريحاً في إثباتها له قال : ﴿ ولكن أعبد الله ﴾ أي الجامع لأوصاف الكمال عبادة مستمرة ؛ ثم وصفه بما يوجب الحذر منه ويدل على كمال قدرته ﴿ الذي يتوفاكم ﴾ بانتزاع أرواحكم التي لا شيء عندكم يعدلها .

(58/370)

فلا تطمعون - عند إرادته لنزعها - في المحاولة لتوجيه دفاع عن ذلك .

وفي هذا الوصف - مع ما فيه من الترهيب - إشارة إلى الدلالة على الإبداء والإعادة ،

فكأنه قيل : الذي أوجدكم من عدم كما أنتم به مقرون بعد مكم بعد هذا الإيجاد وأنتم صاغرون ، فثبت قطعاً أنه قادر على إعادتكم بعد هذا الإعدام بطريق الأولي فاحذروه لتعبدوه كما أعبده فإنه قد أمرني بذلك وأنتم تعرفون غائلة الملك إذا خولف ، وقال ﴿ إن كنتم في شك ﴾ مع أنهم يصرحون ببطلان دينه ، لأنهم في حكم الشاك لاضطرابهم عند ورود الآيات ، أو لأن فيهم الشاك فغلب لأنه أقرب إلى الحيز ؛ والشك : وقوف بين المعنى ونقيضه ، وضده الاعتقاد فإنه قطع بصحة المعنى دون نقيضه ، وعبر ب " من " إشارة إلى أن فعلهم ذلك ابتدأ من الدين ، ولو عبر ب " في " لأفهم أنهم دخلوا فيه لأنهم في الشك والشك في الدين ، والظرف لظرف الشيء ظرف لذلك الشيء ، وترك العطف إشارة إلى أن كل جواب منها كاف على حياله .

ولما قرر ما هو الحقيق بطريق العقل ، أتبعه بما رود من النقل بتأييده وإيجابه بقوله : ﴿ وأمرت ﴾ أي بأمر جازم ماض ممن لا أمر لأحد معه ، وعظم المأمور به بجعله عمدة الكلام بإقامته مقام الفاعل فقال : ﴿ أن أكون ﴾ أي دائماً كوناً جبلياً ، ولما كان السياق لما يحتمل الشك من الأمر الباطن ، عبر بالإيمان الذي هو للقلب فقال : ﴿ من المؤمنين ﴾ أي الراسخين في هذا الوصف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 493 . 495 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ / واعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل على أقصى الغايات وأبلغ النهايات ، أمر رسوله بإظهار دينه وبإظهار المباينة عن المشركين ، لكي تزول الشكوك والشبهات في أمره وتخرج عبادة الله من طريقة السر إلى الإظهار فقال : ﴿ قُلْ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِى شَكّ مّن دِينِى ﴾ واعلم أن ظاهر هذه الآية يدل على أن هؤلاء الكفار ما كانوا يعرفون دين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي الخبر إنهم كانوا يقولون فيه قد صبأ وهو صابىء فأمر الله تعالى أن يبين لهم أنه على دين إبراهيم حنيفاً مسلماً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبراهيم كَانَ أُمَّةً قانتا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل : 120] ولقوله : ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السموات والأرض حَنِيفاً ﴾ [الأنعام : 79] ولقوله : ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الكافرون : 2] والمعنى : أنكم إن كنتم لا تعرفون ديني فأنا أبينه لكم على سبيل التفصيل ثم ذكر فيه أموراً .

فالقيد الأول : قوله : ﴿ فَلاَ أَعْبُدُ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ وإنما وجب تقديم هذا النفي لما ذكرنا أن إزالة النقوش الفاسدة عن اللوح لا بد وأن تكون مقدمة على إثبات النقوش الصحيحة في ذلك اللوح ، وإنما وجب هذا النفي لأن العبادة غاية التعظيم وهي لا

تليق إلا بمن حصلت له غاية الجلال والإكرام ، وأما الأوثان فإنها أحجار والإنسان أشرف حالاً منها ، وكيف يليق بالأشرف أن يشتغل بعبادة الأخس .

القيد الثاني : قوله : ﴿ ولكن أَعْبُدُ الله الذى يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ والمقصود أنه لما بين أنه يجب ترك عبادة غير الله ، بين أنه يجب الاشتغال بعبادة الله .

فإن قيل : ما الحكمة في ذكر المعبود الحق في هذا المقام بهذه الصفة وهي قوله : ﴿ الذى يتوفاكم ﴾ .

(60/370)

قلنا فيه وجوه الأول : يحتمل أن يكون المراد أني أعبد الله الذي خلقكم أولاً ثم يتوفاكم ثانياً ثم يعيدكم ثالثاً ، وهذه المراتب الثلاثة قد قررناها في القرآن مراراً وأطواراً فههنا اكتفى بذكر التوفي منها لكونه منبهاً على البواقي .

الثاني : أن الموت أشد الأشياء مهابة ، فنخص هذا الوصف بالذكر في هذا المقام ، ليكون أقوى في الزجر والردع .

الثالث : أنهم لما استعجلوا نزول العذاب قال تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فانتظروا إِنِّى مَعَكُمْ مِّنَ المنتظرين * ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا والذين ءامَنُواْ ﴾ [

يونس : 102 ، 103] فهذه الآية تدل على أنه تعالى يهلك أولئك الكفار ويبقي المؤمنين ويقوي دولتهم فلما كان قريب العهد بذكر هذا الكلام لا جرم قال ههنا : ﴿ ولكن أَعْبُدُ الله الذى يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ وهو إشارة إلى ما قرره وبينه في تلك الآية كأنه يقول : أعبد ذلك الذي وعدني بإهلاكهم وبإبقائي .

والقيد الثالث : من الأمور المذكورة في هذه الآية قوله : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ واعلم أنه لما ذكر العبادة وهي من جنس أعمال الجوارح انتقل منها إلى الإيمان والمعرفة ، وهذا يدل على أنه ما لم يصر الظاهر مزيناً بالأعمال الصالحة ، فإنه لا يحصل في القلب نور الإيمان والمعرفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 137.138 ﴾

(61/370)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس ﴾ الآية

مخاطبة عامة للناس أجمعين إلى يوم القيامة يدخل تحتها كل من اتصف بالشك في دين الإسلام ، وهذه الآية يتسق معناها بمحذوفات يدل عليها هذا الظاهر الوجيز ، والمعنى إن كنتم في شك من ديني فأنتم لا تعبدون الله فاقتضت فصاحة الكلام وإيجازه اختصار هذا

كله ، ثم صرح بمعبوده وخص من أوصافه ﴿ الذي يتوفاكم ﴾ لما فيها من التذكير للموت وقرع النفوس به ، والمصير إلى الله بعده والفقد للأصنام التي كانوا يعتقدونها ضارة ونافعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(62/370)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الناس ﴾

يريد كفار مكة .

﴿ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي ﴾ أي في ريب من دين الإسلام الذي أدعوكم إليه .

﴿ فَلاَ أَعْبُدُ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ من الأوثان التي لا تعقل .

﴿ ولكن أَعْبُدُ الله الذي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ أي يميتكم ويقبض أرواحكم .

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ أي المصدّقين بآيات ربهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(63/370)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قل يا أيها الناس ﴾

الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) أي قل يا محمد لهؤلاء الذين أرسلتك إليهم فشكوا في أمرك ولم يؤمنوا بك ﴿ إن كنتم في شك من ديني ﴾ يعني الذي أدعوكم إليه وإنما حصل الشك لبعضهم في أمره (صلى الله عليه وسلم) لما رأى الآيات التي كانت تظهر على يد النبي (صلى الله عليه وسلم) فحصل له الاضطراب والشك فقال إن كنتم في شك من ديني الذي أدعوكم إليه فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه لأنه دين إبراهيم عليه السلام وأنتم من ذريته وتعرفونه ولا تشكون فيه وإنما ينبغي لكم أن تشكوا في عبادتكم لهذا الأصنام التي لا أصل لها البتة فإن أصررتم على ما أنتم عليه ﴿ فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ﴾ يعني هذه الأوثان وإنما وجب تقديم هذا النفي لأن العبادة هي غاية التعظيم للمعبود فلا تليق لأخس الأشياء وهي الحجارة التي لا تنفع لمن عبدها ولا تضر لمن تركها ولكن تليق العبادة لمن بيده النفع والضر وهو قادر على الإماتة والإحياء وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم ﴾ والحكمة في وصف الله سبحانه وتعالى في هذا المقام بهذه الصفة أن المراد أن الذي يستحق العبادة أعبده أنا وأنتم هو الذي خلقكم أولاً ولم تكونوا شيئاً ثم يميتكم ثانياً ثم يحييكم بعد الموت ثالثاً ، فاكتفى بذكر الوفاة تنبيهاً على

الباقي ، وقيل : لما كان الموت أشد الأشياء على النفس ذكر في هذا المقام ليكون أقوى في الزجر والردع وقيل إنهم لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله ولكن أعبد الله الذي هو قادر على إهلاككم ونصري عليكم ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ يعني وأمرني ربي أن أكون من المصدقين بما جاء من عنده قيل لما ذكر العبادة وهي من أعمال الجوارح أتبعها بذكر الإيمان لأنه من أعمال القلوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(64/370)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ ﴾ لجمهور المشركين ﴿ يا أَيُّهَا الناس ﴾ أوثر الخطاب باسم الجنس مصدراً بحرف التنبيه تعميماً للتبليغ وإظهاراً لكمال العناية بشأن ما بلغ إليهم ﴿ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى ﴾ الذي أتعبّد الله عز وجل به وأدعوكم إليه ولم تعلموا ما هو وما صفتُه ﴿ فَلاَ أَعْبُدُ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ في وقت من الأوقات ﴿ ولكن أَعْبُدُ الله الذى يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ ثم يَفعل بكم ما يفعل من فنون العذاب أي فاعلموا أنه تخصيصُ العبادةِ به ورفضُ عبادةِ ما سواه من الأصنام وغيرِها مما تعبدونه جهلاً ، وتقديمُ تركِ عبادةِ الغير على عبادته تعالى لتقدم التخليةِ على التحلية كما في كلمة التوحيد ، وللإيذان بالمخالفة من أول الأمر أو إن

كنتم في شك من صحة ديني وسَدادِه فاعلموا أن خلاصتَه إخلاصُ العبادة لمن بيده الإيجادُ والإعدام دون ما هو بمعزل منهما من الأصنام فاعرِضوها على عقولكم وأجيلوا فيها أفكارَكم وانظُروا فيها بعين الإنصافِ لتعلموا أنه حقٌّ لا ريب فيه بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحةِ للإيذان بأن أقصى ما يمكن عروضُه للعاقل في هذا الباب هو الشكُّ في صحته ، وأما القطعُ بعدمها فمما لا سبيلَ إليه وإن كنتم في شك من ثباتي على الدين فاعلموا أني لا أتركه أبداً ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ بما دل عليه العقلُ ونطق به الوحيُ وهو تصريحٌ بأن ما هو عليه من دين التوحيدِ ليس بطريق العقلِ الصِّرْفِ بل بالإمداد السماويِّ والتوفيق الإلهي ، وحذفُ حرفِ الجر من (أن) يجوز أن يكون من باب الحذفِ المطردِ مع أنْ وأنّ ، وأن يكون خاصاً بفعل الأمرِ كما في قوله :

أمرتُك الخيرَ فافعلْ ما أُمِرْت به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(65/370)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لجميع من شك في دينك وكفر بك ﴿ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا الناس ﴾ أوثر الخطاب

باسم الجنس مصدراً بحرف التنبيه تعميماً للتبليغ وإظهاراً لكمال العناية بشأن ما بلغ إليهم ﴿ إِن كُنتُمْ فِى شَكّ مّن دِينِى ﴾ الذي أعبد الله تعالى به وأدعوكم إليه ولم تعلموا ما هو ولا صفته حتى قلتم إنه صبا .

﴿ فَلاَ أَعْبُدُ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ في وقت من الأوقات ﴿ ولكن أَعْبُدُ الله الذى ﴾ ثم يفعل بكم ما يفعل من فنون العذاب ، وجعل هذه الجملة باعتبار مضمونها جواباً بتأويل الإخبار وإلا فلا ترتب لها على الشرط بحسب الظاهر ، فالمعنى إن كنتم في شك من ذلك فأخبركم أنه تخصيص العبادة به تعالى ورفض عبادة ما سواه من الأصنام وغيرها مما تعبدونه جهلاً ، وقد كثر جعل الإخبار بمفهوم الجملة جزاء نحو إن أكرمتني اليوم فقد أكرمتك أمس ، وعلى هذا الطرز قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مّن نّعْمَةٍ فَمِنَ الله ﴾ [النحل : 53] فإن استقرار النعمة ليس سبباً لحصولها من الله تعالى بل الأمر بالعكس ، وإنما سبب للإخبار بحصولها منه تعالى كما قرره ابن الحاجب .

(66/370)

وقد يكون المعنى إن كنتم في شك من صحة ديني وسداده فأخبركم أن خلاصته العبادة لا له هذا شأنه دون ما تعبدونه مما هو بمعزل عن ذلك الشأن فأعرضوا ذلك على عقولكم

وأجيلوا فيه أفكاركم وانظروا بعين الإنصاف لتعلموا صحته وحقيته ، وذكر بعضهم أنه لا يحتاج على هذا إلى جعل المسبب الإخبار والإعلام بل يعتبر الجزاء الأمر بعرض ما ذكر على عقولهم والتفكر فيه ، والأظهر اعتبار كون الإخبار جزاء كما في المعنى الأول ، والتعبير عما هم عليه بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة للإيذان بأن أقصى ما يمكن عروضه للعاقل في هذا الباب هو الشك في الصحة وأما القطع بعدمها فما لا سبيل إليه ، وقيل : لا نسلم أنهم كانوا قاطعين .

بل كانوا في شك واضطراب عند رؤية المعجزات ، وجيء بإن للإشارة إلا أنه مما لا ينبغي أن يكون لوجود ما يزيله .

(67/370)

وجوز أن يكون المعنى إن كنتم في شك من ديني ومما أنا عليه أأثبت عليه أم أتركه وأوافقكم فلا تحدثوا أنفسكم بالمحال ولا تشكوا في أمري واقطعوا عني أطماعكم واعلموا أني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولا أختار الضلالة على الهدى كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أهل أَيُّهَا الكافرون لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الكافرون : 1 ، 2] ولا يخفى أن ما قبل أوفق بالمقام ، وتقديم ترك عبادة غير الله تعالى على عبادته سبحانه لتقدم التخلية على التحلية

كما في كلمة التوحيد والإيذان بالمخالفة من أول الأمر ، وتخصيص التوفي من بين سائر صفات الأفعال بالذكر متعلقاً بهم للتخويف فإنه لا شيء أشد عليهم من الموت ، وقيل : المراد أعبد الله الذي خلقكم ثم يتوفاكم ثم يعيدكم وفيه إيماء إلى الحشر الذي ينكرونه وهو من أمهات أصول الدين ثم حذف الطرفان وأبقى الوسط ليدل عليهما فإنهما قد كثر اقترانهما به في القرآن ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ أي أوجب الله تعالى على ذلك فوجوب الإيمان بالله تعالى شرعي كسائر الواجبات ، وذكر المولى صدر الشريعة أن للشرعي معنيين ما يتوقف على الشرع كوجوب الصلاة والصوم ، وما ورد به الشرع ولا يتوقف على الشرع كوجوب الإيمان بالله سبحانه ووجوب تصديقه صلى الله عليه وسلم فإنه لا يتوقف على الشرع فهو ليس بشرعي بالمعنى الأول ، وذلك لأن ثبوت الشرع موقوف على الإيمان بوجود الباري تعالى وعلمه وقدرته وكلامه ، وعلى التصديق بنبوة النبي عليه الصلاة والسلام بدلالة معجزاته فلو توقف شيء من هذه الأحكام على الشرع لزم الدور ، ولقائل أن يمنع توقف الشرع على وجوب الإيمان ونحوه سواء أريد بالشرع خطاب الله تعالى أو شريعة النبي صلى الله عليه وسلم وتوقف التصديق بثبوت شرع النبي صلى الله عليه وسلم على الإيمان بالله تعالى وصفاته وعلى التصديق بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم ودلالة معجزاته لا يقتضي توقفه على وجوب الإيمان

والتصديق ولا على العلم بوجوبهما غايته أنه يتوقف على نفس الإيمان والتصديق وهو غير مفيد لتوقفه على وجوب الإيمان والتصديق ولا مناف لتوقف وجوب الإيمان ونحوه على الشرع كما هو المذهب عندهم من أن لا وجوب إلا بالسمع ، وقول الزمخشري هنا : إنه عليه الصلاة والسلام أمر بالعقل والوحي لا يخلو عن نزغة اعتزالية كما هو دأبه في كثير من المواضع ، ومن قال من المفسرين منا : إنه وجب على ذلك بالعقل والسمع أراد بالعقل التابع لما سمع بالشرع فلا تبعية ، والكلام على حذف الجار أي أمرت بأن أكون ، وحذفه من أن وأن مطرد وإن قطع النظر عن ذلك فالحذف بعد أمر مسموع عن العرب كقوله

: أمرتك الخير فافعل ما أمرت به . . .

فقد تركتك ذا مال وذا نشب

وأدخل بعضهم هذه الجملة في الجزاء وليس بمتعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(69/370)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

هذه الجملة متصلة المعنى بجملة : ﴿ قُل انظروا ماذا في السماوات والأرض ﴾ [يونس : 101] ، إذ المقصود من النظر المأمور به هُنالك النظرُ للاستدلال على إثبات الوحدانية ، فإن جحودهم إيّاها هو الذي أقدمهم على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : إن الله بعثه بإثباتها وأبطل الإشراك ، فلما أمرهم بالنظر المؤدي إلى إثبات انفراده تعالى بالإلهية أعقبه بأن يخبرهم بأنهم إن استمروا على الشك فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فإن الرسول صلى الله عليه وسلم ثابت على ما جاء به وأن دلائل صحة دينه بينة للناظرين .

والمراد ب"الناس" في هذا الخطاب المشركون من أهل مكة ، أو جميع أمة الدعوة الذين لمَّا يستجيبوا للدعوة .

و(في) من قوله : ﴿ في شك ﴾ للظرفية المجازية المستعملة في التمكن تشبيهاً لتمكن الصفة بتمكن الظرف من المظروف من جهة الإحاطة .

وعلق الظرف بذات الدين ، والمراد الشك في حالة من أحواله وهي الحالة الملتبسة بهم أعني حالة حقيته .

و(من) في قوله : ﴿ من ديني ﴾ للابتداء المجازي ، أي شككٍ آتٍ من ديني .

وهو ابتداء يَؤول إلى معنى السببية ، أي إن كنتم شاكين شكاً سببه ديني ، أي يتعلق بحقيته ، لأن الشك يُحمل في كل مقام على ما يناسبه ، كقوله : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ﴾ [يونس : 94] .

وقد تقدم آنفاً .

وقوله : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نَزّلنا على عبدنا ﴾ [البقرة : 23] .

والشك في الدين هو الشك في كونه حقاً ، وكونِه من عند الله .

وإنما يكون هذا الشك عند عدم تصور حقيقة هذا الدين بالكنه وعدم الاستدلال عليه ، فالشك في صدقه يستلزم الشك في ماهيته لأنهم لو أدركوا كنهه لمَا شكُّوا في حقيته .

(70/370)

وجملة : ﴿ فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ﴾ واقعة موقع جواب الشرط ودالة عليه في المعنى .

فالتقدير الجواب : فأنا على يقين من فساد دينكم ، فلا أتبعه ، فلا أعبد الذين تعبدونهم ولكن أعبد الله .

ولما كان مضمون هذه الجملة هو أصل دين الإسلام .

فيجوز أن يكون في الآية معنى ثان ، أي إن كنتم في شك من معرفة هذا الدين فخلاصته أني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكني أعبد الله وحده ، فيكون في معنى قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ﴾ [الكافرون : 1 ، 2] ثم قوله : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ [الكافرون : 6] فيتأتى في هذه الآية غرضان .

فيكون المراد بالناس في قوله : ﴿ قل يا أيها الناس ﴾ جميع أمة الدعوة الذين لم يُسلموا . والذين يعبدونهم الأصنام .

وعوملت الأصنام معاملة العقلاء فأطلق عليها اسم الموصول الذي لجماعة العقلاء مجاراة لما يعتقدونه فيها من العقل والتدبير .

ونظير هذا في القرآن كثير .

واختيار صلة التوفّي هنا في نعت اسم الجلالة لما فيها من الدلالة على كمال التصرف في المخلوق فإن المشركين لم يبلغ بهم الإشراك إلى ادعاء أن الأصنام تُحيي وتميت .

واختيار ذلك من بين الصفات الخاصة بالله تعالى تعريض بتذكيرهم بأنهم مُعَرَّضون للموت فيقصّرون من طغيانهم .

والجمع بين نفي أن يَعبد الأصنام ، وبين إثبات أنه يعبد الله ؛ يقوم مقام صيغة القصر لو قال : فلا أعبد إلا اللّهَ ، فوجه العدول عن صيغة القصر : أنّ شأنَها أن يطوى فيها الطرف المنفي للاستغناء عنه بالطرف المثبَت لأنه المقصود .

وذلك حين يكون الغرض الأصلي هو طرف الإثبات ، فأما إذا كان طرف النفي هو الأهم كما هنا وهو إبطال عبادة الأصنام أوّلاً عدل على صيغة القصر إلى ذكر صيغتي نفي وإثبات .

فهو إطناب اقتضاه المقام ، كقول عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي أو السموأل :

تسيل على حد الظُبَات نفوسنا

وليست على غير الظُبات تسيل . . .

(71/370)

و ﴿ أمرت ﴾ عطف على جملة : ﴿ فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ﴾ .

و ﴿ أن أكون ﴾ متعلق بـ ﴿ أمرت ﴾ بحذف حرف الجر .

وهو الباء التي هي لتعدية فعل (أمرت) ، و (أن) مصدرية لأن نصب الفعل المضارع بعدها يعين أنها مصدرية ويمنع احتمال أنها تفسيرية .

وأريد بالمؤمنين عقائب هذا اللقب الذين آمنوا بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبالقرآن والبعث فإذا أطلق لفظ المؤمنين انصرف إلى القوم الذين اتصفوا بالإسلام ، ولذلك لا يقدر للمؤمنين متعلق .

وفي جعل النبي صلى الله عليه وسلم من جملة المؤمنين تشريف لهذا الجمع وتنويه به . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(72/370)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

والشَّكُّ معناه : وضعُ أمرين في كِفَّتين متساويتين .

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يعرض على الكافرين قضية الدين ، وأن يضعوها في كفة ، ويضعوا في الكفة المقابلة ما يؤمنون به .

ويترك لهم الحكم في هذا الأمر .

هم إذن في شك : هل هذا الدين صحيح أم فاسد ؟

وعَرْض الرسول صلى الله عليه وسلم لأمر الدين للحكم عليه ، يعني : أن أمر الدين ملحوظ أيضاً عند أيِّ كافر ، وهو ينتبه أحياناً إلى قيمة الدين .

فإن كنتم في شكٍّ من الدين الذي أنزِلَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهل ينتصر الرسول صلى الله عليه وسلم ومَنْ معه عليهم ، أم تكون لهم الغلبة ؟

وحين يعرض الرسول صلى الله عليه وسلم أمر الدين عليهم ، ويترك لهم الحكم ، فهذه ثقة منه صلى الله عليه وسلم بأن قضايا دينه إنْ نظر إليها الإنسان ليحكم فيها ، فلا بد أن يلتجىء الإنسان إلى الإيمان .

ويحسم الحق سبحانه وتعالى أمر قضية الشرك به ، ويستمر أمره إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول :

﴿ فَلاَ أَعْبُدُ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ولكن أَعْبُدُ الله ﴾ [يونس : 104] .

أي : أنه صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يعبد الشركاء وأن يعبد الله ؛ لأنه لن يعبد إلا الله ﴿ ولكن أَعْبُدُ الله ﴾ [يونس : 104] .

ثم جاء سبحانه بالدليل الذي لا مراء فيه ، الدليل القوي ، وهو أن الحق سبحانه وتعالى وحده هو المستحق للعبادة ؛ لأنه ﴿ الذي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ ، ولا يوجد مَنْ يقدر أو يتأبى على قَدَر الله سبحانه حين يُميته .

وهنا قضيتان :

الأولى : قضية العبادة في قوله سبحانه : ﴿ فَلاَ أَعْبُدُ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ولكن أَعْبُدُ الله الذي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ [يونس : 104] .

وكان لا بُدّ أن يأتي أمر المسألتين معاً : مسألة عدم عبادة الرسول لمن هم من دون الله ، ومسألة تخصيص الله تعالى وحده بالعبادة .

والفصل واضح بما يُحدّد قطع العلاقات بين معسكر الإيمان ومعسكر الشرك ، كما أورده الحق سبحانه في قوله :

﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون : 16] .

والذين يقولون : إن في سورة (الكافرون) تكراراً لا يلتفتون إلى أن هذا الأمر تأكيد لقطع العلاقات ؛ ليستمر هذا القطع في كل الزمن ، فهو ليس قطعاً مؤقّتاً للعلاقات .

وهذا أول قَطْع للعلاقات في الإسلام ، بصورة حاسمة ليست فيها أية فرصة للتفاهم أو للمساومة ، ويظل كل معسكر على حاله .

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة النصر :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله والفتح * وَرَأَيْتَ الناس يَدْخُلُونَ فِي دِينِ الله أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾

[النصر : 13] .

هنا يتأكد الأمر ، فبعد أن قطع الرسول صلى الله عليه وسلم العلاقات مع معسكر الشرك ،

جاء نصر الله سبحانه وتعالى وفَتْحه ، فَهُرِع الناس من معسكر الشرك إلى معسكر الإيمان

.

هم إذن الذين جاءوا إلى الإيمان . . هذه هي القضية الأولى :

﴿ فَلاَ أَعْبُدُ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ولكن أَعْبُدُ الله ﴾ [يونس : 104] .

وهم كانوا يعبدون الأصنام المصنوعة من الحجارة .

وأنت إذا نظرتَ إلى الأجناس في الوجود ، فأكرمها هو الإنسان الذي سخَّر له الحق سبحانه بقية الأجناس لتكون في خدمته .

والجنس الأقل من الإنسان هو الحيوان .

ثم يأتي الجنس الأقل مرتبةً من الإنسان والحيوان ، وهو النبات .

(74/370)

ثم يأتي الجماد كأدنى الأجناس مرتبةً ، وهم قد اتخذوا من أدنى الأجناس آلهة ، وهذه هي قمة الخيبة .

وتأتي القضية الثانية في قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [يونس : 104] فإذا كان رسول الله صلى الله عليه

وسلم قد رفض العبادة لمن هُمْ دون الله سبحانه ، فمعنى ذلك أنه لن يعبد سوى الله تعالى

.

وليس هذا موقفاً سلبياً ، بل هو قمة الإيجاب ؛ لأن العبادة تقتضي استقبال منهج الله بأن يطيع أوامره ، ويجتنب نواهيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(75/370)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " وأمرت أن أكون من المؤمنين " وفى سورة النمل : "وأمرت أن أكون من المسلمين " للسائل أن يسأل عن الفرق الموجب لافتراق الوصفين فى الآيتين .

والجواب أن الآية الأولى قد ورد قبلها قوله تعالى : " ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله " وبعد هذا : "وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون " وبعد هذا كذلك : "حقا علينا ننجلا المؤمنين " وبعد هذا الآية المذكورة من قوله : "وأمرت أن أكون من المؤمنين " وتناسب هذا كله بين .

ثم من المعلوم ان اسم الإيمان إنما يقع لغة على التصديق وعلى هذا يطلقه الأشعرية ومنه : "وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين " ثم قد يتسع فى إطلاقه فيوقع على التصديق والاستسلام ومنه : "وأمرت أن أكون من المؤمنين " والأصل فى اسم الإسلام وقوعه على الاستسلام والتزام الأعمال الظاهرة ثم يتسع فيه فيطلق على مجموع التصديق والاعتقاد والاستسلام ومنه : "وأمرت أن أكون من المسلمين " وقد يختص كل من الاسمين بمسماه من غير اتساع ومنه قوله تعالى : " قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا " وفى حديث سؤال جبريل عليه السلام : "ما الاسلام ؟ قال ان تشهد ان لا اله الا الله وأنى رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت إليه سبيلا قال صدقت فما الايمان ؟ قال : أن تؤمن بالله . . .

"الحديث فوقع فيه التفصيل إجراء على أصل التسمية فإذا تقرر هذا فاعلم ان ما تقدم قبل آية يونس من تكرار اسم الإيمان لم يكن ليلائمه إطلاق اسم الإسلام لأن رتبة الإيمان فوق رتبة الإسلام ومقامه أعلى وهذا على إطلاق كل واحد من الاسمين على مسماه لغة وعلى رعى التفصيل فكأن يكون عكس الترقى إلى الأعلى أبدا فلا يمكن فى آية يونس الا ما وردت عليه .

أما آية النمل فإن قبلها قوله : "إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها الله وله كل شئ" وقوله : "وله كل شئ" يقتضى تسليم كل شئ له والتبرى من توهم شريك أو نظير فناسب هذا قوله : "وأمرت أن أكون من المسلمين" وجاء كل على ما يجب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 250. 251 ﴾

(77/370)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَا أَعْبُدُ ﴾ : جواب الشرط ، والفعل خبر ابتداء مضمر تقديره : فأنا لا أعبد ، ولو وقع المضارعُ منفياً ب " لا " دون فاء لَجُزِمَ ، ولكنه مع الفاءِ يُرْفَع على ما ذكرت لك ، وكذا لو لم يُنْفَ ب " لا " كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ [المائدة : 95] . أي : فهو ينتقم .

قوله : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ ﴾ ، قال الزمخشري : " أصله بأن أكونَ " ، فحُذِفَ الجارُّ ،

وهذا الحذفُ يحتمل أن يكونَ مِنَ الحذف المطَّرد الذي هو حَذْفُ الحروفِ الجارَّةِ مع أَنْ [وأنَّ] ، وأن يكونَ مِن الحذفِ غيرِ المطرد وهو قوله :

2632 أَمَرْتُكَ الخيرَ . . . . . .

. . . . . .

﴿ فاصدعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر : 94] . قلت : يعني بغيرِ المطَّرد أنَّ حذفَ حرف الجر مسموعٌ في أفعالٍ لا يجوز القياسُ عليها وهي : أمر واستغفر ، وقد ذكرتُها فيما تقدَّم ، وأشار بقوله : " أمرتك " إلى البيت المشهور :

أَمَرْتُك الخيرَ فافعلْ ما أُمِرْت به . . . . . .

. . .

وقد قاس ذلك بعضُ النحويين ، ولكن يُشترط أن يتعيَّن ذلك الحرف ويتعيَّن موضعُه أيضاً ، وهو رأي علي بن سليمان فيُجيز " بريتُ القلمَ السكين " بخلاف " صَكَكْت الحجرَ بالخشبة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 273 . 274 ﴾

(78/370)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾

إن كنتم غطاء الرَّيب فأنا في ضياءِ مِنَ الغيب ، إنْ كنتم في ظلمة الجهل فأنا في شموس الوَصْلِ ، إن كنتم في سدفة الضَّلالة فأنا في خلعة الرسالة وعلى أنوار الدلالة .

ويقال قد تميزنا على مفرق الطريق : فأنتم وقعتم في وهدة العِوَجِ ، وأنَا ثابتٌ على سَوَاء النَّهَجْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 118 ﴾

(79/370)

قوله تعالى ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (106) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

﴿ وأن أقم ﴾ أي أيها الرسول ﴿ وجهك ﴾ أي كليتك على سبيل الإخلاص الذي لا

شوب فيه ﴿ للدين ﴾ فوصل أولاً كلمه " أن " بمعنى الأمر أي ﴿ أن أكون ﴾ دون " أكن " وثانياً بلفظه وهو ﴿ أقم ﴾ جمعاً بين الأسلوبين ، وكلاهما بمعنى المصدر ، وخص الثاني بذلك لطوله لأنه كالتفصيل للأول فالخطاب فيه أوكد وألذ ، وقوله : ﴿ حنيفاً ﴾ حال من فاعل " أقم " ومعناه : مسلماً ميالاً مع الدليل - كما أوضحته في البقرة ، أي أجمع بين الإيمان بالقلب والإسلام بالجوارح ﴿ ولا تكونن ﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿ من المشركين ﴾ الذين هم على ضد صفة الإسلام من الجفاء والغلظة والجمود والقسوة .

ولما نهاه عن الشرك ، أكده بما هو كالتعليل له بما يلزمه من العبث بالخضوع لما لا ضر فيه ولا نفع بقوله تعالى : ﴿ ولا تدع ﴾ أي في رتبة من الرتب الكائنة ﴿ من دون الله ﴾ أي الذي بيده كل شيء ﴿ ما لا ينفعك ﴾ أي إن فعلت شيئاً من ذلك فأتاك بأسنا ﴿ ولا يضرك ﴾ أي إن أقمت على طاعتنا مع نصرنا ﴿ فإن فعلت ﴾ أي شيئاً مما نهيناك عنه ﴿ فإنك إذاً ﴾ إذا دعوت ذلك الغير بسبب ذلك ﴿ من الظالمين ﴾ أي العريقين في وضع الدعوة في غير محلها لأن ما هو كذلك في غاية البعد عن منصب الإلهية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 494 . 495 ﴾

(80/370)

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

الواو في قوله : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ حرف عطف وفي المعطوف عليه وجهان : الأول : أن قوله : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ ﴾ قائم مقام قوله وقيل لي كن من المؤمنين ثم عطف عليه ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ الثاني : أن قوله : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ قائم مقام قوله : ﴿ وَأُمِرْتُ ﴾ بإقامة الوجه ، فصار التقدير وأمرت بأن أكون من المؤمنين وبإقامة الوجه للدين حنيفاً .

المسألة الثانية :

إقامة الوجه كناية عن توجيه العقل بالكلية إلى طلب الدين ، لأن من يريد أن ينظر إلى شيء نظراً بالاستقصاء ، فإنه يقيم وجهه في مقابلته بحيث لا يصرفه عنه لا بالقليل ولا بالكثير ، لأنه لو صرفه عنه ، ولو بالقليل فقد بطلت تلك المقابلة ، وإذا بطلت تلك المقابلة ، فقد اختل الأبصار ، فلهذا السبب حسن جعل إقامة الوجه للدين كناية عن صرف العقل بالكلية إلى طلب الدين ، وقوله : ﴿ حَنِيفاً ﴾ أي مائلاً إليه ميلاً كلياً معرضاً عما سواه إعراضاً كلياً ، وحاصل هذا الكلام هو الإخلاص التام ، وترك الالتفات إلى غيره ، فقوله

أولاً : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ إشارة إلى تحصيل أصل الإيمان ، وقوله : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ حَنِيفاً ﴾ إشارة إلى الاستغراق في نور الإيمان والإعراض بالكلية عما سواه .

والقيد الخامس : قوله : ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ .

واعلم أنه لا يمكن أن يكون هذا نهياً عن عبادة الأوثان ، لأن ذلك صار مذكوراً بقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ فَلاَ أَعْبُدُ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ فوجب حمل هذا الكلام على فائدة زائدة وهو أن من عرف مولاه ، فلو التفت بعد ذلك إلى غيره كان ذلك شركاً ، وهذا هو الذي تسميه أصحاب القلوب بالشرك الخفي .

(81/370)

والقيد السادس : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ ﴾ والممكن لذاته معدوم بالنظر إلى ذاته وموجود بإيجاد الحق ، وإذا كان كذلك فما سوى الحق فلا وجود له إلا إيجاد الحق ، وعلى هذا التقدير فلا نافع إلا الحق ولا ضار إلا الحق ، فكل شيء هالك إلا وجهه وإذا كان كذلك ، فلا حكم إلا لله ولا رجوع في الدارين إلا إلى الله .

ثم قال في آخر الآية : ﴿ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظالمين ﴾ يعني لو اشتغلت بطلب المنفعة

والمضرة من غير الله فأنت من الظالمين ، لأن الظلم عبارة عن وضع الشيء في غير موضعه ، فإذا كان ما سوى الحق معزولاً عن التصرف ، كانت إضافة التصرف إلى ما سوى الحق وضعاً للشيء في غير موضعه فيكون ظلماً .

فإن قيل : فطلب الشبع من الأكل والري من الشرب هل يقدح في ذلك الإخلاص ؟

قلنا : لا لأن وجود الخبز وصفاته كلها بإيجاد الله وتكوينه ، وطلب الانتفاع بشيء خلقه الله للانتفاع به لا يكون منافياً للرجوع بالكلية إلى الله ، إلا أن شرط هذا الإخلاص أن لا يقع بصر عقله على شيء من هذه الموجودات إلا ويشاهد بعين عقله أنها معدومة بذواتها وموجودة بإيجاد الحق وهالكة بأنفسها وباقية بإبقاء الحق ، فحينئذ يرى ما سوى الحق عدماً محضاً بحسب أنفسها ويرى نور وجوده وفيض إحسانه عالياً علي الكل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 138.139 ﴾

(82/370)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِينِ حَنِيفاً ﴾

أي استقم بإقبال وجهك على ما أمرت به من الدين حنيفاً ، وقيل أنه أراد بالوجه النفس .

و﴿ حَنِيفاً ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : أي حاجاً ، قاله ابن عباس والحسن والضحاك وعطية والسدي .

الثاني : متبعاً ، قاله مجاهد .

الثالث : مستقيماً ، قاله محمد بن كعب .

الرابع : مخلصاً ، قاله عطاء .

الخامس : مؤمناً بالرسل كلهم ، قاله أبو قلابة قال حمزة بن عبد المطلب :

حمدت الله حين هدى فؤادي . . . من الإشراك للدين الحنيف

السادس : سابقاً إلى الطاعة ، مأخوذ من الحنف في الرجلين وهو أن تسبق إحداهما

الأخرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(83/370)

وقال ابن عطية :

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾

المعنى : قيل لي : كن من المؤمنين وأقم وجهك للدين ، ثم جاءت العبارة بهذا الترتيب ، و"

الوجه " في هذه الآية بمعنى المنحى والمقصد ، أي اجعل طريقك واعتمالك للدين والشرع ،

و﴿ حنيفاً ﴾ معناه : مستقيماً على قول من قال ، الحنف الاستقامة ، وجعل تسمية المعوج القدم أحنف على جهة التفاؤل . ومن قال الحنف الميل جعل ﴿ حنيفاً ﴾ ها هنا مائلاً عن حال الكفرة وطريقهم ، و﴿ حنيفاً ﴾ نصب على الحال ، وقوله ﴿ ولا تدع ﴾ معناه قيل لي : ﴿ ولا تدع ﴾ فهو عطف على ﴿ أقم ﴾ ، وهذا الأمر والمخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم إذا كانت هكذا فإحرى أن يتحرز من ذلك غيره ، وما لا ينفع ولا يضر هو الأصنام والأوثان ، والظالم الذي يضع الشيء في غير موضعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(84/370)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ ﴾

"أن" عطف على "أَنْ أَكُونَ" أي قيل لي كن من المؤمنين وأقم وجهك .

قال ابن عباس : عملك ، وقيل : نفسك ؛ أي استقم بإقبالك على ما أمرت به من الدين .

"حَنِيفاً" أي قويماً به مائلاً عن كل دين .

قال حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه :

حمِدت اللَّه حين هدى فؤادي . . .

من الإشراك للدين الحنيف

وقد مضى في "الأنعام" اشتقاقه والحمد للَّه .

﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ أي وقيل لي ولا تشرك ؛ والخطاب له والمراد غيره ؛ وكذلك قوله : "وَلاَ تَدْعُ" أي لا تعبد .

"مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ" إن عبدته .

"وَلاَ يَضُرُّكَ" إن عصيته .

"فَإِنْ فَعَلْتَ" أي عبدت غير الله .

"فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ" أي الواضعين العبادة في غير موضعها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(85/370)

وقال الخازن :

﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ﴾

الواو في قوله وأن أقم واو عطف معناه وأمرت أن أقيم وجهي يعني أقم نفسك على دين

الإسلام حنيفاً يعني مستقيماً عليه غير معوج عنه إلى دين آخر ، وقيل معناه أقم عملك على الدين الحنيفي وقيل أراد بقوله وأن أقم وجهك للدين صرف نفسه بكليته إلى طلب الدين الحنيفي غير مائل عنه ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ يعني ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه غيره فيهلك وقيل إن النهي عن عبادة الأوثان قد تقدم في الآية المتقدمة فوجب حمل هذا النهي على معنى زائد وهو أن من عرف الله وعرف جميع أسمائه وصفاته وأنه المستحق للعبادة لا غيره فلا ينبغي له أن يلتفت إلى غيره بالكلية وهذا هو الذي تسميه أصحاب القلوب بالشكر الخفي ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ﴾ يعني إن عبدته ودعوته ﴿ ولا يضرك ﴾ يعني إن تركت عبادته ﴿ فإن فعلت ﴾ يعني ما نهيتك عنه فعبدت غيري أو طلبت النفع ودفع الضر من غيري ﴿ فإنك إذاً من الظالمين ﴾ يعني لنفسك لأنك وضعت العبادة في غير موضعها وهذا الخطاب وإن كان في الظاهر للنبي (صلى الله عليه وسلم) فالمراد به غيره لأنه (صلى الله عليه وسلم) لم يدع من دون الله شيئاً البتة فيكون المعنى ولا تدع أيها الإنسان من دون الله ما لا ينفعك ، الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(86/370)

وقال أبو السعود :

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾

عطفٌ على أن أكونَ خلا أن صلةَ أن محكيةٌ بصيغة الأمرِ ولا ضيرَ في ذلك لأن مناطَ جوازِ وصلها بصيغ الأفعال دلالتُها على المصدر ، وذلك لا يختلف بالخبرية والطلبيةِ ، ووجوبُ كونِ الصلةِ خبريةً في الموصول الاسميّ إنما هو للتوصل إلى وصف المعارفِ بالجمل وهي لا توصف إلا بالجمل الخبرية ، وليس الموصولُ الحرفيُّ كذلك أي وأُمرتُ بالاستقامة في الدين والاستبدادِ فيه بأداء المأمورِ به والانتهاءِ عن المنهيِّ عنه أو باستقبال القبلةِ في الصلاة وعدمِ الالتفات إلى اليمين والشمال ﴿ حَنِيفاً ﴾ حالٌ من الدين أو الوجه أي مائلاً عن الأديان الباطلة ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ عطفٌ على أقم داخلٌ تحت الأمرِ أي لا تكونن منهم اعتقاداً ولا عملاً وقوله عز وعلا : ﴿ وَلَا تَدْعُ ﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الناس ﴾ غير داخل تحت الأمر وقيل : على ما قبله من النهي والوجهُ هو الأولُ لأن ما بعده من الجمل إلى آخر الآيتين متسقةٌ لا يمكن فصلُ بعضِها عن بعض كما ترى ولا وجهَ لإدراج الكلِّ تحت الأمرِ ، وهو تأكيدٌ للنهي المذكورِ وتفصيلٌ لما أجمل فيه إظهاراً لكمال العنايةِ بالأمر وكشفاً عن وجه بُطلان ما عليه المشركون أي لا تدْعُ ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿ مَا لَا يَنفَعُكَ ﴾ إذا دعوتَه بدفع مكروهٍ أو جلبِ محبوب ﴿ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ إذا تركتَه بسلب المحبوبِ دفعاً أو رفعاً أو بإيقاع المكروهِ ، وتقديمُ النفعِ على

الضرر غنيٌّ عن بيان السبب ﴿ فَإِن فَعَلْتَ ﴾ أي ما نُهيتَ عنه من دعاء ما لا ينفع ولا يضر ، كنّى به عنه تنويهاً لشأنه عليه السلام وتنبيهاً على رفعة مكانِه من أن يُنسَب إليه عبادةُ غير الله سبحانه ولو في ضمن الجملةِ الشرطية ﴿ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظالمين ﴾ جزاءٌ للشرط وجوابٌ لسؤال من يسأل عن تَبِعة ما نُهي عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(87/370)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾

عطف كما قال غير واحد على ﴿ أَنْ أَكُونَ ﴾ [يونس : 104] واعترض بأن ﴿ إن ﴾ في المعطوف عليه مصدرية بلا كلام لعملها النصب والتي في جانب المعطوف لا يصح أن تكون كذلك لوقوع الأمر بعدها ، وكذا لا يصح أن تكون مفسرة لعطفها على المصدرية ولأنه يلزم دخول الباء المقدرة عليها والمفسرة لا يدخل عليها ذلك ، ودفع ذلك باختيار كونها مصدرية ووقوع الأمر بعدها لا يضر في ذلك ، فقد نقل عن سيبويه أنه يجوز وصلها به ، ولا فرق في صلة الموصول الحرفي بين الطلب والخبر لأنه إنما منع في الموصول الإسمي لأنه

وضع للتوصل به إلى وصف المعارف بالجمل والجمل الطلبية لا تكون صفة ، والمقصود من أن هذه يذكر بعدها ما يدل على المصدر الذي تأول به وهو يحصل بكل فعل ، وكون تأويله يزيل معنى الأمر المقصود منه مدفوع بأنه يؤول كما أشرنا إليه فيما مر بالأمر بالإقامة إذ كما يؤخذ المصدر من المادة قد يؤخذ من الصيغة مع أنه لا حاجة إليه هنا لدلالة قوله تعالى : ﴿ أُمِرْتُ ﴾ [يونس : 104] عليه ، وفي "الفرائد" أنه يجوز أن يقدر وأوحى إلى أن أقم ، وتعقبه الطيبي بأن هذا سائغ إعراباً إلا أن في ذلك العطف فائدة معنوية وهي أن ﴿ وَأَنْ أَقِمْ ﴾ الخ كالتفسير ﴿ لأن أكون ﴾ [يونس : 104] الخ على أسلوب أعجبني زيد وكرمه داخل معه في حكم المأمور فلو قدر ذلك فات غرض التفسير وتكون الجملة مستقلة معطوفة على مثلها ، وفيه تأمل لجواز أن تكون هذه الجملة مفسرة للجملة المعطوفة هي عليها ، وقدر أبو حيان ذلك وزعم أن ﴿ إن ﴾ حينئذٍ يجوز أن تكون مصدرية وأن تكون مفسرة لأن في الفعل المقدر معنى القول دون حروفه وأنه على ذلك يزول قلق العطف ويكون الخطاب في ﴿ وَجْهَكَ ﴾ في محله ، ورد بأن الجملة المفسرة لا يجوز حذفها ، وأما صحة وقوع المصدرية فاعلاً أو مفعولاً فليس بلازم ولا قلق في العطف الذي عناه ، وأمر الخطاب سهل لأنه لملاحظة المحكي والأمر المذكور معه .

وإقامة الوجه للدين كناية عن توجيه النفس بالكلية إلى عبادته تعالى والإعراض عمن سواه ، فإن من أراد أن ينظر إلى شيء نظر استقصاء يقيم وجهه في مقابلته بحيث لا يلتفت يميناً ولا شمالاً إذ لو التفت بطلت المقابلة ، والظاهر أن الوجه على هذا على ظاهره ويجوز أن يراد به الذات ، والمراد اصرف ذاتك وكليتك للدين واجتهد بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح ، فاللام صلة ﴿ أَقِمِ ﴾ وقيل : الوجه على ظاهره وإقامته توجيهه للقبلة أي استقبل القبلة ولا تلتفت إلى اليمين أو الشمال ، فاللام للتعليل وليس بذاك ، ومثله القول بأن ذلك كناية عن صرف العقل بالكلية إلى طلب الدين ﴿ حَنِيفاً ﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة ، وهو حال إما من الوجه أو من الدين ، وعلى الأول : تكون حالاً مؤكدة لأن إقامة الوجه تضمنت التوجه إلى الحق والإعراض عن الباطل ، وعلى الثاني : قيل تكون حالاً منتقلة وفيه نظر ، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿ أَقِمِ ﴾ ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ عطف على ﴿ أَقِمِ ﴾ داخل تحت الأمر وفيه تأكيد له أي لا تكونن منهم اعتقاداً ولا عملاً .

﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ الله ﴾

استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿ مَا لاَ يَنفَعُكَ ﴾ بنفسه إذا دعوته بدفع مكروه أو جلب محبوب ﴿ وَلاَ يَضُرُّكَ ﴾ إذا تركته بسلب المحبوب دفعاً أو رفعاً أو بإيقاع المكروه ، والجملة قيل

معطوفة على جملة النهي قبلها ، واختار بعض المحققين عطفها على قوله سبحانه : ﴿ قُلْ يا أهل أَيُّهَا الناس ﴾ [يونس : 104] فهي غير داخلة تحت الأمر لأن ما بعدها من الجمل إلى آخر الآيتين متسقة لا يمكن فصل بعضها عن بعض ولا وجه لإدراج الكل تحت الأمر .

(89/370)

وأنت تعلم أنه لو قدر فعل الإيحاء في ﴿ وَأَنْ أَقِمْ ﴾ [يونس : 105] كما فعل أبو حيان وصاحب الفرائد لا مانع من العطف كما هو الظاهر على جملة النهي المعطوفة على الجملة الأولى وإدراج جميع المتسقات تحت الإيحاء ، وقد يرجح ذلك التقدير بأنه لا يحتاج معه إلى ارتكاب خلاف الظاهر من العطف على البعيد ، وقيل : لا حاجة إلى تقدير الإيحاء والعطف كما قيل والأمر السابق بمعنى الوحي كأنه قيل : وأوحى إلى أن أكون الخ والاندراج حينئذٍ مما لا بأس به وهو كما ترى ولا أظنك تقبله ﴿ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظالمين ﴾ أي معدوداً في عدادهم ، والفعل كناية عن الدعاء كأنه قيل : فإن دعوت ما لا ينفع ولا يضر ، وكني عن ذلك على ما قيل تنويهاً لشأنه عليه الصلاة والسلام وتنبيهاً على رفعة مكانه صلى الله عليه وسلم من أن ينسب إليه عبادة غير الله تعالى ولو في ضمن الجملة الشرطية . والكلام في فائدة نحو النهي المذكور قد مر آنفاً ، وجواب الشرط على ما في النهي جملة ﴿

فَإِنَّكَ ﴾ وخبرها أعني ﴿ مِنَ الظالمين ﴾ وتوسطت ﴿ إِذاً ﴾ بين الاسم والخبر مع أن رتبتها بعد الخبر رعاية للفاصلة .

وفي "الكشاف" أن ﴿ إِذاً ﴾ جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر كأن سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان فجعل من الظالمين لأنه لا ظلم أعظم من الشرك ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] وهذه عبارة النحويين ، وفسرت كما قال الشهاب : بأن المراد أنها تدل على أن ما بعدها مسبب عن شرط محقق أو مقدر وجواب عن كلام محقق أو مقدر .

(90/370)

وقد ذكر الجلال السيوطي عليه الرحمة في "جمع الجوامع" بعد أن بين أن إذا الظرفية قد يحذف جزء الجملة التي أضيفت هي إليها أو كلها فيعوض عنه التنوين وتكسر للساكنين لا للإعراب خلافاً للأخفش وقد تفتح أن شيخه الكافيجي ألحق بها ﴿ أَذِنَ ﴾ ، ثم قال في شرحه "همع الهوامع" : وقد أشرت بقولي : وألحق شيخنا بها في ذلك ﴿ أَذِنَ ﴾ إلى مسألة غريبة قل من تعرض لها ؛ وذلك أني سمعت شيخنا عليه الرحمة يقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لخاسرون ﴾ [المؤمنون : 34] ليست ﴿ أَذِنَ ﴾

هذه الكلمة المعهودة وإنما هي إذاً الشرطية حذفت جملتها التي يضاف إليها وعوض عنها التنوين كما في يومئذٍ وكنت أستحسن هذا جداً وأظن أن الشيخ لا سلف له في ذلك حتى رأيت بعض المتأخرين جنح إلى ما جنح إليه الشيخ ، وقد أوسعت الكلام في ذلك في حاشية المغني انتهى .

وأنت تعلم أن الآية التي ذكرها كالآية التي نحن فيها وما ذكره مما يميل إليه القلب ولا أرى فيه بأساً ولعله أولى مما قاله صاحب الكشاف ومتبعوه فليحمل ما في الآية عليه ، وكان كثيراً ما يخطر لي ذلك إلا أني لم أكد أقدم على إثباته حتى رأيته لغيري ممن لا ينكر فضله فأثبته حامداً لله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(91/370)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾

موقع هذه الجملة مُعضل لأن الواو عاطفة على محالة ، ووقعت بعدها (أنْ) .

فالأظهر أن تكون (أنْ) مصدرية ، فوقوع فعل الطلب بعدها غير مألوف لأن حق صلة (أنْ) أن تكون جملة خبرية .

قال في "الكشاف" : قد سوغ سيبويه أن توصف (أن) بالأمر والنهي ، لأن الغرض وصل (أن) بما تكون معه في معنى المصدر ، وفعلا الأمر والنهي دالان على المصدر لأنه غيرهما من الأفعال أ هـ .

يشير إلى ما في "كتاب سيبويه" "بابٌ تكون (أنْ) فيه بمنزلة (أيْ) " .

فالمعنى : وأمرت بإقامة وجهي للدين حنيفاً ، ويكون العطف عطف مفرد على مفرد .

وقيل الواو عطفتْ فعلاً مقدّراً يدل عليه فعل (أمرت) .

والتقدير : وأوحي إلي ، وتكون (أنْ) مفسرة للفعل المقدر ، لأنه فيه معنى القول دون حروفه .

وعندي : أن أسلوب نظم الآية على هذا الوجه لم يقع إلا لمقتضًى بلاغي ، فلا بد من أن يكون لصيغة ﴿ أقم وجهك ﴾ خصوصية في هذا المقام ، فلنُعرض عمّا وقع في "الكشاف" وعن جعل الآية مثالاً لما سوغه سيبويه ولنجعل الواو متوسعاً في استعمالها بأن استعملت نائبة مَناب الفعل الذي عَطفت عليه ، أي فعلَ ﴿ أمرت ﴾ [يونس : 104] دون قصد تشريكها لمعطوفها مع المعطوف عليه بل استعملت لمجرد تكريره .

والتقديرُ : أمرت أنْ أقم وجهك فتكون (أن) تفسيراً لما في الواو من تقدير لفظ فعل (أمرْت) لقصد حكاية اللفظ الذي أمره الله به بلفظه ، وليتأتّى عطف ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ عليه .

وهذا من عطف الجمل لا من عطف المفردات ، وقد سبق مثل هذا عند قوله تعالى : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ﴾ في سورة [العقود : 49] ، وهو هنا أوْعب .

والإقامة : جعل الشيء قائماً .

وهي هنا مستعارة لإفراد الوجه بالتوجه إلى شيء معين لا يترك وجهه ينثني إلى شيء آخر .

(92/370)

واللام للعلة ، أي لأجل الدين ، فيصير المعنى : محّض وجهك للدين لا تجعل لغير الدين شريكاً في توجهك .

وهذه التمثيلية كناية عن توجيه نفسه بأسرها لأجل ما أمره الله به من التبليغ وإرشاد الأمة وإصلاحها .

وقريب منه قوله : ﴿ أسلمت وجهي لله ﴾ في سورة [آل عمران : 20] .

و﴿ حنيفاً ﴾ حال من ﴿ الدين ﴾ وهو دين التوحيد ، لأنه حنف أي مال عن الآلهة وتمحض لله .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ في سورة [البقرة : 135] .

نهي مؤكد لمعنى الأمر الذي قبله تصريحاً بمعنى ﴿ حنيفاً ﴾ .

وتأكيد الفعل المنهي عنه بنون التوكيد للمبالغة في النهي عنه اعتناء بالتبرّؤ من الشرك .

وقد تقدم غير مرة أن قوله : ﴿ من المشركين ﴾ ونحوَه أبلغ في الاتصاف من نحو : لا تكن مشركاً ، لما فيه من التبرؤ من الطائفة ذات نحلة الإشراك .

﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (106) ﴾

عطف على ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ [يونس : 105] .

ولم يؤكد الفعل بنون التوكيد ؛ لئلا يمنع وجودها من حذف حرف العلة بأن حذفه تخفيف وفصاحة ، ولأن النهي لما اقترن بما يومىء إلى التعليل كان فيه غنية عن تأكيده لأن الموصول في قوله : ﴿ ما لا يَنفعك ولا يضرك ﴾ يومىء إلى وجه النهي عن دعائك ، إذ دعاء أمثالها لا يقصده العاقل .

و﴿ من دون الله ﴾ اعتراض بين فعل ﴿ تدع ﴾ ومفعوله ، وهو إدماج للحث على دعائه الله .

وتفريع ﴿ فإن فعلت ﴾ على النهيين للإشارة إلى أنه لا معذرة لمن يأتي ما نهي عنه بعد أن أكد نهيه وبينت علته ، فمن فعله فقد ظلم نفسه واعتدى على حق ربه .

وأكّد الكون من الظالمين على ذلك التقدير بـ (إنّ) لزيادة التحذير ، وأُتي بـ (إذن) للإشارة إلى سؤال مقدر كأن سائلاً سأل : فإن فعلت فماذا يكون ؟ .

(93/370)

وفي قوله : ﴿ من الظالمين ﴾ من تأكيدٍ مثل ما تقدم في قوله : ﴿ من المشركين ﴾ [يونس : 105] ونظائره .

والمقصود من هذا الفرض تنبيه الناس على فظاعة عظم هذا الفعل حتى لو فعله أشرف المخلوقين لكان من الظالمين ، على حد قوله تعالى : ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [الزمر : 65] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(94/370)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105) ﴾

وما دام الخطاب مُوجَّهاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو ككل خطاب مِنَ الحقِّ سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم ، إنما ينطوي على الأمر لكل مؤمن .

وإذا ما عبد المؤمن الله سبحانه فهو يستقبل أحكامه ؛ ولذلك يأتي الأمر هنا بألا يلتفت وجه الإنسان المؤمن إلى غير الله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾ [يونس : 105] .

فلا يلتفت في العبادة يميناً ولا يساراً ، فما دام المؤمن يعبد الله ولا يبعد غيره ، فليعلم المؤمن أن هناك أيضاً شِرْكاً خفياً ، كأن يعبد الإنسان مَنْ هم أقوى أو أغنى منه ، وغير ذلك من الأشخاص التي يُفتن بها الإنسان .

ونحن عرفنا من قبل قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ [النساء : 125] .

والحنف أصله ميل في الساق ، وتجد البعض من الناس حين يسيرون تظهر سيقانهم متباعدة ، وأقدامهم مُلْتَفَّة ، هذا اعوجاج في التكوين .

أما المقصود هنا بكلمة (حنيفاً) أي : معوج عن الطريق المعوج ، أي : أنه يسير باستقامة .

ولكن : لماذا يأتي مثل هذا التعبير ؟

لأن الدين لا يجيء برسول جديد ومعجزة جديدة ، إلا إذا كان الفساد قد عَمَّ ؛ فيأتي الدين

؛ ليدعو الناس إلى الميل عن هذا الفساد . وفي هذا اعتدال لسلوك الأفراد والمجتمع .

ويحذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن نقع في الشرك الخفي بعد الإيمان بالله تعالى

.

ويأتي الكلام عن هذا الشرك الثاني في قول الحق سبحانه :

﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ [يونس : 105] .

وهذا الشرك الثاني هو أقل مرحلة من شرك العبادة ، ولكن أن تجعل لإنسان أو لأيِّ شيء مع الله عملاً .

(95/370)

فإن رأيت مثلاً للطبيب أو للدواء عملاً ، فَقُل لنفسك : إن الطبيب هو مَنْ يصف الدواء كمعالج ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يشفي ، بدليل أن الطبيب قد يخطىء مرة ، ويأمر بدواء تحدث منه مضاعفات ضارة للمريض .

وعلى المؤمن ألا يُفتنَ في أيِّ سبب من الأسباب .

ونذكر مثالاً آخر لذلك ، وهو أن بلداً من البلاد ذات الرقعة الزراعية المتسعة أعلنت في أحد الأعوام أنها زرعت مساحة كبيرة من الأراضي بالقمح بما يكفي كل سكان الكرة

الأرضية ، ونبتت السنابل وأينعتْ ، ثم جاءتها ريح عاصف أفسدت محصول القمح ، فاضطرت تلك الدولة أن تستورد قمحها من دول أخرى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾

والمشرك من هؤلاء لحظة أنْ عبدَ الصنم ودعاه من دون الله تعالى ، فهل استجاب له ؟

وحين عبده هل قال الصنم له : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ؟

إن الأصنام التي اتخذها المشركون آلهة لم يكُنْ لها منهج ، ولا أحد منها ينفع أو يضر ، وحين يجيْ النفع لا يعرف الصنم كيف يمنعه ، وحين يجيء الضُّر لا يقدر الصنم أن يدفعه .

إذن : فمَنْ يدعو من دون الله سبحانه وتعالى هو دعاء لمن لا ينفع ولا يضر .

ومَنْ يفعل ذلك يكون من الظالمين ؛ لأن الظلم هو إعطاء حقٍّ لغير ذي حق ، سواء أكان في القمة ، أو في غير القمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(96/370)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ ﴾ : يجوز أن يكونَ على إضمار فعل أي : وأُوحي إليَّ أَنْ أقم . ثم لك في " أنْ " وجهان ، أحدهما : أن تكونَ تفسيريةً لتلك الجملةِ المقدرة ، كذا قاله الشيخ وفيه نظرٌ ، إذ المفسَّرُ لا يجوز حَذْفُه ، وقد رَدَّ هو بذلك في موضعٍ غير هذا . والثاني : أن تكونَ المصدرية فتكون هي وما في حَيِّزها في محل رفع بذلك الفعل المقدر . ويحتمل أن تكون " أن " مصدريةً فقط ، وهي على هذا معمولةٌ لقوله : " أمرْتُ " مراعى فيها معنى الكلام ، لأنَّ قوله : " أن أكون " كونٌ من أكوان المؤمنين ، ووصْلُ " أَنْ " بصيغة الأمرِ جائزٌ ، وقد تقدم تحرير بذلك .

وقال الزمخشري : " فإن قلت : عَطْفُ قولِه : " وأَنْ أقم " على " أن أكونَ " فيه إشكالٌ ؛ لأن " أنْ " لا تخلو : إمَّا أَنْ تكونَ التي للعبارة ، أو التي تكونُ مع الفعل في تأويل المصدر ، فلا يَصِحُّ أن تكونَ التي للعبارة وإن كان الأمر ممَّا يتضمَّن معنى القول ؛ لأن عطفَها على الموصولة يأبى ذلك ، والقولُ بكونِها موصولةً مثلَ الأولى لا يساعدُ عليه لفظُ الأمر وهو " أَقِمْ " ؛ لأنَ الصلة حقُّها أن تكونَ جملةً تحتمل الصدق والكذب . قلت : قد سَوَّغ سيبويه أن توصلَ " أنْ " بالأمر والنهي ، وشَبَّهَ ذلك بقولهم : " أنت الذي تفعل " على الخطابِ لأن الغرضَ وَصْلُها بما تكونُ معه في تأويل المصدر ، والأمرُ والنهيُ دالاَّن على المصدر دلالةَ غيرهما من

الأفعال " . قلت : قد قدَّمْتُ الإِشكال في ذلك وهو أنه إذا قُدِّرَتْ بالمصدرِ فاتت الدلالةُ على الأمر والنهي .

(97/370)

ورجَّح الشيخُ كونَها مصدريةً على إضمار فعل كما تقدم تقريره قال : " ليزولَ قَلَقُ العطفِ لوجود الكاف ، إذ لو كان " وأنْ أَقِمْ " عطفاً على " أن أكون " لكان التركيب " وجهي " بياء المتكلم ، ومراعاةُ المعنى فيه ضَعْفٌ ، وإضمارُ الفعل أكثر " .

قوله : ﴿ حَنِيفاً ﴾ يجوز أن يكونَ حالاً من " الذين " ، وأن يكون حالاً من فاعل " أَقِمْ " أو مفعوله .

﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (106) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ ﴾ : يجوز أن تكونَ هذه الجملةُ استئنافيةً ، ويجوز أن تكونَ عطفاً على جملة الأمر وهي : " أَقِمْ " / فتكونَ داخلةً في صلة " أنْ " بوجهيها ، أعني كونَها تفسيريةً أو مصدريةً وقد تقدَّم تحريره . وقوله : ﴿ مَا لَا يَنفَعُكَ ﴾ يجوز أن تكون نكرةً موصوفةً ، وأن تكونَ موصولةً .

قوله : ﴿ فَإِنَّكَ ﴾ هو جواب الشرط و " إذن " حرفُ جوابٍ توسَّطت بين الاسمِ والخبر ، ورُتْبَتُها التأخيرُ عن الخبر ، وإنما وُسِّطَتْ رَعْياً للفواصل . وقال الزمخشري : " إذن " جواب الشرط وجوابٌ لسؤال مقدر ، كأن سائلاً سأل عن تَبِعة عبادة الأوثان " . وفي جَعْله " إذن " جزاءً للشرط نظرٌ ، إذ جوابُ الشرط محصورٌ في أشياءَ ليس هذا منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 274. 275 ﴾

(98/370)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الإقامة)

وقد وردت فى القرآن على ستَّة أَوجهٍ :

الأَوّل : بمعنى الإِتمام ﴿ وَأَقِيمُوا الصَلاَة ﴾ أَى أَتِمّوها بحقوقها وحدودها .

الثانى : بمعنى استقبال القبلة : ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ أَى استقبلوها بها القبلة .

الثالث : بمعنى الإِخلاص فى الدّيانَة : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾ أَى أَخْلِص .

الرّابع : بمعنى عمل الفرائض ، وشرائع الكِتاب : ﴿ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ ﴾ أَى عمِلوا بها .

الخامس : بمعنى التسوية ، والعمارة : ﴿ جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ أَى سوّاه وعَمَره .

السّادس : بمعنى الاستقرار فى الوطن : ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 186 ﴾

(99/370)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105) ﴾

أي أَخْلِصْ قلبَك للدّين ، وجَرِّدْ قلبَكَ عن إثبات كلِّ ما لَحِقَه قهرُ التكوين ، وكُنْ مائلاً عن الزيغ والبدع ، وداخِلاً في جُمْلَةِ مَنْ أخلص في الحقيقة .

﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (106) ﴾

لا تعبدْ ما لا تنفعكَ عِبَادتُه ولا تَضُرُّكَ عبادتُه ، وتلك صفة كل ما يعبْد من دون الله .

واستعانة الخَلْق بالخَلْق تمحيقٌ للوقتِ بلا طائلٍ ؛ فَمَنْ لا يَمْلكُ لِنَفْسِه ضَرّاً ولا نَفْعاً كيف يستعين به مَنْ هو في مثل حاله ؟ وإذا انضاف الضعيفُ إلى الضعيف ازدادَ الضعفُ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 118.119 ﴾

(100/370)

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم قال تعالى عاطفاً على قوله ﴿ فإن فعلت ﴾ : ﴿ وإن يمسسك الله ﴾ أي الذي لا راد لأمره ﴿ بضر ﴾ أي أيّ ضر كان على أي وجه كان وإن كان ظاهراً جداً بما أنبأ عنه الإظهار ﴿ فلا كاشف له ﴾ أي أصلاً بوجه من الوجوه ﴿ إلا هو ﴾ لأنه أراده وما أراده لا يكون غيره فلا ترج سواه في أن يبذله بخير ، وعبر بالمس لأنه أخوف ﴿ وإن يردك ﴾ أي مطلق إرادة ﴿ بخير فلا ﴾ أي أصابك لا محالة فإنه لا ﴿ رآد ﴾ ونبه على أنه لا يجب عليه سبحانه شيء بأن وضع مكان الضمير قوله : ﴿ لفضله ﴾ أي عمن يريده به كما يفعل

بعض العاتين من أتباع ملوك الدنيا في رد بعض ما يريدون ، بل هو بحيث لا ينطق أحد إلا بإذنه فلا تخش غيره ، فالآيه من الاحتباك : ذكر المس أولاً دليلاً على إرادته ثانياً ، والإرادة ثانياً دليلاً على حذفها أولاً ، ولم يستثن في الإرادة كما استثنى في الكشف لأن دفع المراد محال ، وعبر بالإرادة في الخير وبالمس في الضير تنبيهاً على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مراد بالخير بالذات وبالضر بالعرض تطييباً لقلبه لما تكرر في هذه السورة من الإخبار بإحقاق العذاب على الفاسقين والإيئاس من الظالمين ، فلما تقرر ذلك حسن موقع قوله مبيناً لحال ذلك الفضل : ﴿ يصيب به ﴾ أي بذلك الفضل أو بالذي تقدم من الخير والضير ﴿ من يشاء ﴾ أي كائناً من كان من أدنى وأعلى ، وبين العلة في كونهم مقهورين بقوله : ﴿ من عباده ﴾ وهذا كله إشارة إلى أن ما أوجب الإعراض عن معبوداتهم بانسلاله عنها أوجب الإقبال عليه بثبوته له واختصاصه به ، وختم الآية بقوله : ﴿ وهو الغفور ﴾ أي البليغ الستر للذنوب ﴿ الرحيم ﴾ أي البالغ في الإكرام إشارة إلى أن إصابته بالخير لا يمكن أن يكون إلا فضلاً منه بعد الستر للذنوب والرحمة للضعف ، فهو الحقيق بأن يعبد ؛ والمس : اجتماع التباين من غير نقص ، ونظيره المطابقة ، والمجامعة نقيضها المباينة ؛ والكشف : رفع الستار ، جعل الضر كأنه مانع من إدراك الإنسان وساتر له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 495 . 496 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه سبحانه وتعالى قرر في آخر هذه السورة أن جميع الممكنات مستندة إليه وجميع الكائنات محتاجة إليه ، والعقول والهة فيه ، والرحمة والجود والوجود فائض منه .

واعلم أن الشيء إما أن يكون ضاراً وإما أن يكون نافعاً ، وإما أن يكون لا ضاراً ولا نافعاً ، وهذان القسمان مشتركان في اسم الخير ، ولما كان الضر أمراً وجودياً لا جرم قال فيه : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ ﴾ ولما كان الخير قد يكون وجودياً وقد يكون عدمياً ، لا جرم لم يذكر لفظ الإمساس فيه بل قال : ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ والآية دالة على أن الضر والخير واقعان بقدرة الله تعالى وبقضائه فيدخل فيه الكفر والإيمان والطاعة والعصيان والسرور والآفات والخيرات والآلام واللذات والراحات والجراحات ، فبين سبحانه وتعالى أنه إن قضى لأحد شراً فلا كاشف له إلا هو ، وإن قضى لأحد خيراً فلا راد لفضله ألبتة ثم في الآية دقيقة أخرى ، وهي أنه تعالى رجح جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة أوجه :

الأول : أنه تعالى لما ذكر إمساس الضر بين أنه لا كاشف له إلا هو ، وذلك يدل على أنه تعالى يزيل المضار ، لأن الاستثناء من النفي إثبات ، ولما ذكر الخير لم يقل بأنه يدفعه بل قال إنه لا راد لفضله ، وذلك يدل على أن الخير مطلوب بالذات ، وأن الشر مطلوب بالعرض كما قال النبي صلى الله عليه وسلم رواية عن رب العزة أنه قال : " سبقت رحمتي غضبي " الثاني : أنه تعالى قال في صفة الخير : ﴿يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ﴾ وذلك يدل على أن جانب الخير والرحمة أقوى وأغلب .

(102/370)

والثالث : أنه قال : ﴿وَهُوَ الغفور الرحيم﴾ وهذا أيضاً يدل على قوة جانب الرحمة وحاصل الكلام في هذه الآية أنه سبحانه وتعالى بين أنه منفرد بالخلق والإيجاد والتكوين والإبداع ، وأنه لا موجد سواه ولا معبود إلا إياه ، ثم نبه على أن الخير مراد بالذات ، والشر مراد بالعرض وتحت هذا الباب أسرار عميقة ، فهذا ما نقوله في هذه الآية .

المسألة الثانية :

قال المفسرون : إنه تعالى لما بين في الآية الأولى في صفة الأصنام أنها لا تضر ولا تنفع ، بين في هذه الآية أنها لا تقدر أيضاً على دفع الضرر الواصل من الغير ، وعلى الخير الواصل من

الغير .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمُ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ﴾ يعني بمرض وفقر فلا دافع له إلا هو .

وأما قوله : ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ فقال الواحدي : هو من المقلوب معناه وإن يرد بك الخير ولكنه لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز إبدال كل واحد منهما بالآخر ، وأقول التقديم في اللفظ يدل على زيادة العناية فقوله : ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ يدل على أن المقصود هو الإنسان وسائر الخيرات مخلوقة لأجله ، فهذه الدقيقة لا تستفاد إلا من هذا التركيب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 139 . 140 ﴾

(103/370)

وقال ابن عطية :

، قوله ﴿ وإن يمسسك الله بضر ﴾ الآية

مقصد هذه الآية أن الحول والقوة لله ، ويبين ذلك للناس بما يحسونه من أنفسهم ، و" الضر " لفظ جامع لكل ما يكرهه الإنسان كان ذلك في ماله أو في بدنه ، وهذه الآية مظهرة فساد حال الأصنام ، لكن كل مميز أدنى ميز يعرف يقيناً أنها لا تكشف ضرّاً ولا تجلب نفعاً ،

وقوله ﴿ وإن يردك بخير ﴾ لفظ تام العموم ، وخصص النبي صلى الله عليه وسلم الفقه بالذكر في قوله " من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين " وهو على جهة التشريف للفقه ، وقوله تعالى : ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ ترجية وبسط ووعد ما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(104/370)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ ﴾

أي يصبك به .

﴿ فَلاَ كَاشِفَ ﴾ أي لا دافع ﴿ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ أي يصبك برخاء ونعمة : ﴿ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ ﴾ أي بكل ما أراد من الخير والشر .

﴿ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الغفور ﴾ لذنوب عباده وخطاياهم ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بأوليائه في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(105/370)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وإن يمسسك الله بضر ﴾

يعني وإن يصبك الله بشدة وبلاء ﴿ فلا كاشف له ﴾ يعني لذلك الضر الي أنزل بك ﴿ إلا هو ﴾ لا غيره ﴿ وإن يردك بخير ﴾ يعني بسعة ورخاء ﴿ فلا راد لفضله ﴾ يعين فلا دافع لرزقه ﴿ يصيب به ﴾ يعني : بكل واحد من الضر والخير ﴿ من يشاء من عباده ﴾ قيل إن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الأوثان وبين أنها لا تقدر على نفع ولا ضر بين تعالى أنه هو القادر على ذلك كله ، وأن جميع الكائنات محتاجة إليه وجميع الممكنات مستندة إليه لأنه هو القادر على كل شيء وأنه ذو الجود والكرم والرحمة ولهذا المعنى ختم الآية بقوله ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ وفي الآية لطيفة أخرى وهي أن الله سبحانه وتعالى رجح جانب الخير على جانب الشر وذلك أنه تعالى لما ذكر إمساس الضر بين أنه لا كاشف له إلا هو وذلك يدل على أنه سبحانه وتعالى يزيل جميع المضار ويكشفها لأن الاستثناء من النفي إثبات .

ولما ذكر الخير قال فيه فلا راد لفضله يعني أن جميع الخيرات منه فلا يقدر أحد على ردها لأنه هو الذي يفيض جميع الخيرات على عباده وعضده بقوله وهو الغفور يعني الساتر لذنوب عباده الرحيم يعني بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

خطاب لأهل مكة يقول : إن كنتم لا تعرفون ما أنا عليه فأنا أبينه لكم ، فبدأ أولاً بالانتفاء من عبادة ما يعبدون من الأصنام تسفيهاً لآرائهم ، وأثبت ثانياً من الذي يعبده وهو الله الذي يتوفاكم .

وفي ذكر هذا الوصف الوسط الدال على التوفي .

دلالة على البدء وهو الخلق ، وعلى الإعادة ، فكأنه أشار إلى أنه يعبد الله الذي خلقكم ويتوفاكم ويعيدكم ، وكثيراً ما صرح في القرآن بهذه الأطوار الثلاثة ، وكان التصريح بهذا الوصف لما فيه من التذكير بالموت وإرهاب النفوس به ، وصيرورتهم إلى الله بعده ، فهو الجدير بأنْ يخاف ويتقي ويعبد لا الحجارة التي تعبدونها .

وأمرت أن أكون من المؤمنين لما ذكر أنه يعبد الله ، وكانت العبادة أغلب ما عليها عمل الجوارح ، أخبر أنه أمر بأن يكون من المصدقين بالله الموحدين له ، المفرد له بالعبادة ، وانتقل

من عمل الجوارح إلى نور المعرفة ، وطابق الباطن الظاهر .

قال الزمخشري : يعني أن الله تعالى أمرني بما ركب فيّ من العقل ، وبما أوحي إليّ في كتابه .

(107/370)

وقيل معناه إن كنتم في شك من ديني ومما أنا عليه ، أأثبت أم أتركه وأوافقكم ، فلا تحدثوا أنفسكم بالمحال ، ولا تشكوا في أمري ، واقطعوا عني أطماعكم ، واعلموا أني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولا أختار الضلالة على الهدى كقوله : ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ﴾ وأمرت أن أكون أصله : بأن أكون ، فحذف الجار وهذا الحذف يحتمل أن يكون من الحذف المطرد الذي هو حذف الحروف الجارة ، مع أنّ وأنّ يكون من الحذف غير المطرد وهو قوله : أمرتك الخير ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ انتهى يعني بالحذف غير المطرد وهو قوله : أمرتك الخير ، إنه لا يحذف حرف الجر من المفعول الثاني إلا في أفعال محصورة سماعاً لا قياساً وهي : اختار ، واستغفر ، وأمر ، وسمى ، ولبى ، ودعا بمعنى سمى ، وزوّج ، وصدّق ، خلافاً لمن قاس الحذف بحرف الجر من المفعول الثاني ، حيث يعني الحرف وموضع الحذف نحو : بريت القلم بالسكين ، فيجيز السكين بالنصب .

وجواب إن كنتم في شك قوله : فلا أعبد ، والتقدير : فأنا لا أعبد ، لأنّ الفعل المنفي بلا إذا

وقع جواباً انجزم ، فإذا دخلت عليه الفاء علم أنه على إضمار المبتدأ .

وكذلك لو ارتفع دون لا لقوله .

ومن عاد فينتقم الله منه أي : فهو ينتقم الله منه .

وتضمن قوله : فلا أعبد ، معنى فأنا مخالفكم .

وأن أقم يحتمل أنْ تكون معمولة لقوله : وأمرت ، مراعى فيها المعنى .

لأن معنى قوله أنْ أكون كن من المؤمنين ، فتكون أن مصدرية صلتها الأمر .

وقد أجاز ذلك النحويون ، فلم يلتزموا في صلتها ما التزم في صلات الأسماء الموصولة من كونها لا تكون إلا خبرية بشروطها المذكورة في النحو .

(108/370)

ويحتمل أن تكون على إضمار فعل أي : وأوحي إليّ أن أقم ، فاحتمل أن تكون مصدرية ، واحتمل أن تكون حرف تفسير ، لأن الجملة المقدرة فيها معنى القول وإضمار الفعل أولى ، ليزول قلق العطف لوجود الكاف ، إذ لو كان وأنّ أقم عطفاً على أن أكون ، لكان التركيب وجهي بياء المتكلم ومراعاة المعنى فيه ضعف ، وإضمار الفعل أكثر من مراعاة العطف على المعنى .

والوجه هنا المنحى ، والمقصد أي : استقم للدين ولا تحد عنه ، وكنى بذلك عن صرف العقل بالكلية إلى طلب الدين .

وحنيفاً : حال من الضمير في أقم ، أو من المفعول .

وأجاز الزمخشري أن تكون حالاً من الدين ، ولا تدع يحتمل أن يكون استئناف نهي ، ويحتمل أن يكون معطوفاً على أقم ، فيكون في حيز أن على قسميها من كونها مصدرية ، وكونها حرف تفسير .

وإذا كان دعاء الأصنام منهياً عنه فأحرى أن ينهي عن عبادتها ، فإن فعلت كنى بالفعل عن الدعاء إيجازاً أي : فإن دعوت ما لا ينفعك ولا يضرك .

وجواب الشرط فإنك وخبرها ، وتوسطت إذاً بين اسم إنّ والخبر ، ورتبتها بعد الخبر ، لكنْ روعي في ذلك الفاصلة .

قال الحوفي : الفاء جواب الشرط ، وإذا متوسطة لا عمل لها يراد بها في هذا إذا كان ذلك هذا تفسير ، المعنى لا يجيء على معنى الجواب انتهى .

وقال الزمخشري : إذا جواب الشرط ، وجواب لجواب مقدر كان سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان ، وجعل من الظالمين لأنه لا ظلم أعظم من الشرك ، ﴿ إنّ الشرك لظلم عظيم ﴾ انتهى .

وكلامه في إذا يحتاج إلى تأمل ، وقد تقدم لنا الكلام فيها مشبعاً في سورة البقرة .

ولما وقع النهي عن دعاء الأصنام وهي لا تضر ولا تنفع ، ذكر أن الحول والقوة والنفع والضر ليس ذلك إلا لله ، وأنه تعالى هو المنفرد بذلك ، وأتى في الضر بلفظ المس ، وفي الخير بلفظ الإرادة ، وطابق بين الضر والخير مطابقة معنوية لا لفظية ، لأنّ مقابل الضر النفع ومقابل الخير الشر ، فجاءت لفظة الضر ألطف وأخص من لفظة الشر ، وجاءت لفظة الخير أتم من لفظة النفع ، ولفظة المس أوجز من لفظ الإرادة وأنص على الإصابة وأنسب لقوله : فلا كاشف له إلا هو ، ولفظ الإرادة أدل على الحصول في وقت الخطاب وفي غيره وأنسب للفظ الخير ، وإن كان المس والإرادة معناهما الإصابة .

وجاء جواب : وإن يمسسك بنفي عام وإيجاب ، وجاء جواب : وإن يردك بنفي عام ، لأنّ ما أراده لا يرده رادّ لا هو ولا غيره ، لأن إرادته قديمة لا تتغير ، فلذلك لم يجيء التركيب فلا رادّ له إلا هو .

والمس من حيث هو فعل صفة فعل يوقعه ويرفعه بخلاف الإرادة ، فإنها صفة ذات ، وجاء فلا رادّ لفضله سمى الخير فضلاً إشعاراً بأنّ الخيور من الله تعالى ، هي صادرة على سبيل الفضل والإحسان والتفضل .

ثم اتسع في الإخبار عن الفضل والخير فقال : يصيب به من يشاء من عباده ، ثم أخبر بالصفتين الدالتين على عدم المؤاخذة وهما : الغفور الذي يستر ويصفح عن الذنوب ، والرحيم الذي رحمته سبقت غضبه .

ولما تقدم قوله : ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فأخر الضر ، ناسب أن تكون البداءة بجملة الشرط المتعلقة بالضر .

وأيضاً فإنه لما كان الكفار يتوقع منهم الضر للمؤمنين والنفع لا يرجى منهم ، كان تقديم جملة الضر آكد في الإخبار فبدىء بها .

(110/370)

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : لم ذكر المس في أحدهما ، والإرادة في الثاني ؟ (قلت) : كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً : الإرادة ، والإصابة في كل واحد من الضر والخير ، وأنه لا رادّ لما يريد منهما ، ولا مزيل لما يصيب به منهما ، فأوجز الكلام بأنّ ذكر المس وهو الإصابة في أحدهما ، والإرادة في الإنجاز ، ليدل بما ذكر على ما ترك على أنه قد كرر الإصابة في الخير في قوله : يصيب به من يشاء من عباده ، والمراد بالمشيئة المصلحة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(111/370)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ ﴾

تقريرٌ لما أورد في حيز الصلة من سلب النفعِ من الأصنام وتصويرٌ لاختصاصه به سبحانه ﴿ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ ﴾ عنك كائناً من كان وما كان ﴿ إِلاَّ هُوَ ﴾ وحده فيثبت عدمُ كشفِ الأصنامِ بالطريق البرهاني وهو بيانٌ لعدم النفعِ برفع المكروهِ المستلزِمِ لعدم النفعِ بجلب المحبوبِ استلزاماً ظاهراً فإن رفعَ المكروهِ أدنى مراتبِ النفعِ فإذا انتفى انتفى النفعُ بالكلية .

(112/370)

﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ تحقيقٌ لسلب الضررِ الواردِ في حيز الصلةِ ، أي إن يُرِدْ أن يصيبَك بخير ﴿ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ الذي من جملته ما أرادك به من الخير فهو دليلٌ على جواب الشرطِ لا نفسُ الجواب ، وفيه إيذانٌ بأن فيضانَ الخير منه تعالى بطريق التفضّل من غير

استحقاقٍ عليه سبحانه أي لا أحدَ يقدِر على رده كائناً ما كان فيدخل فيه الأصنامُ دخولاً أولياً وهو بيانٌ لعدم ضرِّها بدفع المحبوبِ قبلَ وقوعِه المستلزمِ لعدم ضُرِّها برفعه أو بإيقاع المكروهِ استلزاماً جلياً ، ولعل ذكرَ الإرادةِ مع الخير والمسِّ مع الضر مع تلازم الأمرين للإيذان بأن الخيرَ مُراد بالذات وأن الضرَّ إنما يَمسُّ من يَمَسّه لما يوجبه من الدواعي الخارجيةِ لا بالقصد الأوليّ أو أريد معنى الفعلين في كلٍ من الضر والخير وأنه لا رادَّ لما يريد منهما ولا مزيلَ لما يصيب به منهما فأوجزَ الكلامَ بأن ذكرَ في أحدهما المسَّ وفي الآخر الإرادةَ ليدل بما ذكر في كل جانبٍ على ما تُرك في الجانب الآخر على أنه قد صرّح بالإصابة حيث قيل : ﴿ يُصَيبُ بِهِ ﴾ إظهاراً لكمال العنايةِ بجانب الخير كما ينبىء عنه تركُ الاستثناءِ فيه أي يصيب بفضله الواسعِ المنتظمِ لما أرادك به من الخير ، وجعلُ الفضلِ عبارةً عن ذلك الخير بعينه على أن يكون من باب وضعِ المُظهرِ في موضع المُضمَرِ لما ذُكر من الفائدة يأباه قوله عز وجل : ﴿ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ فإن ذلك ينادي بعموم الفضل ، وقوله عز قائلاً : ﴿ وَهُوَ الغفور الرحيم ﴾ تذييلٌ لقوله تعالى : ﴿ يُصَيبُ بِهِ ﴾ الخ ، مقرِّرٌ لمضمونه ، والكلُّ تذييلٌ للشرطية الأخيرةِ محققٌ لمضمونها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(113/370)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ ﴾

تقرير لما أورد في حيز الصلة من سلب النفع من المعبودات الباطلة وتصوير لاختصاصه به سبحانه أي وإن يصبك بسوء ما ﴿ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ ﴾ عنك كائناً من كان وما كان ﴿ إِلاَّ هُوَ ﴾ وحده فثبت عدم كشف الأصنام بالطريق البرهاني ، وهو بيان لعدم النفع برفع المكروه المستلزم لعدم النفع بجلب المحبوب استلزاماً ظاهراً ، فإن رفع المكروه أدنى مراتب النفع فإذا انتفى انتفى النفع بالكلية ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ تحقيق لسلب الضرر الوارد في حيز الصلة أي إن يرد أن يصيبك بخير ﴿ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ الذي من جملته ما أرادك به من الخير ، فهو دليل على جواب الشرط لا نفس الجواب ، وفيه إيذان بأن فيضان الخير منه تعالى بطريق التفضل والكرم من غير استحقاق عليه سبحانه أي لا أحد يقدر على رده كائناً من كان فيدخل فيه الأصنام دخولاً أولياً ، وهو بيان لعدم ضرها بدفع المحبوب قبل وقوعه المستلزم لعدم ضرها برفعه أو بإيقاع المكروه استلزاماً جلياً ؛ ولعل ذكره الإرادة مع الخير والمس مع الضر مع تلازم الأمرين لأن ما يريده سبحانه يصيب وما يصيب لا يكون إلا بإرادته تعالى للإيذان بأن الخير مقصود لله تعالى بالذات والضر إنما يقع جزاء على الأعمال وليس مقصوداً بالذات ، ويحتمل أنه أريد معنى الفعلين في كل من الخير والضر لاقتضاء المقام

تأكيد كل من الترغيب والترهيب إلا أنه قصد الإيجاز في الكلام فذكر في أحدهما المس وفي الآخر الإرادة ليدل بما ذكر في كل جانب على ما ترك في الجانب الآخر ، ففي الآية نوع من البديع يسمى احتباكاً وقد تقدم في غير آية ، ولم يستثن سبحانه في جانب الخير إظهاراً لكمال العناية به وينبىء عن ذلك قوله تعالى : ﴿ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ حيث صرح جل شأنه بالإصابة بالفضل المنتظم لما أراد من الخير ، وقيل : إنما لم يستثن جل وعلا في ذلك لأنه قد فرض فيه أن تعلق الخير به واقع بإرادته تعالى وصحة الاستثناء تكون

(114/370)

بإرادة ضده في ذلك الوقت وهو محال ، وهذا بخلاف مس الضر فإن إرادة كشفه لا تستلزم المحال وهو تعلق الإرادتين بالضدين في وقت واحد ، وفي العدول عن يرد بك الخير إلى ما في النظم الجليل إيماء كما قيل إلى أن المقصود هو الإنسان وسائر الخيرات مخلوقة لأجله ، وما أشرنا إليه من رجوع ضمير ﴿ بِهِ ﴾ إلى الفضل هو الظاهر المناسب ، وجوز رجوعه لما ذكر وليس بذاك ، وحمل الفضل على العموم أولاً وآخراً حسبما علمت هو الذي ذهب إليه بعض المحققين راداً على من جعله عبارة عن ذلك الخير بعينه على أن يكون الإتيان به أولاً ظاهراً من باب وضع المظهر موضع المضمر إظهاراً لما ذكر من الفائدة بأن قوله سبحانه :

﴿ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ يأبى ذلك لأنه ينادي بالعموم ، ويجوز عندي أن يكون الكلام من باب عندي درهم ونصفه ، وقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ الغفور الرحيم ﴾ تذييل لقوله تعالى : ﴿ يُصَيبُ بِهِ ﴾ الخ مقرر لمضمونه والكل تذييل للشرطية الأخيرة مقرر لمضمونها .

وذكر الإمام في هذه الآيات أن قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ [يونس : 105] لا يمكن أن يكون نهياً عن عبادة الأوثان لأن ذلك مذكور في قوله سبحانه أول الآية : ﴿ لاَ أَعْبُدُ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ [يونس : 104] فلا بد من حمل هذا الكلام على ما فيه فائدة زائدة وهي أن من عرف مولاه لو التفت بعد ذلك إلى غيره كان ذلك شركاً وهو الذي يسميه أصحاب القلوب بالشرك الخفي ، ويجعل قوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ ﴾ [يونس : 106] إشارة إلى مقام هو آخر درجات العارفين لأن ما سوى الحق ممكن لذاته موجود بإيجاده والممكن لذاته معدوم بالنظر إلى ذاته وموجود بإيجاب الحق وحينئذٍ فلا نافع إلا الحق ولا ضار إلا هو وكل شيء هالك إلا وجهه وإذا كان كذلك فلا رجوع إلا إليه عز شأنه في الدارين .

(115/370)

ومعنى ﴿ فَإِن فَعَلْتَ ﴾ [يونس : 106] الخ فإن اشتغلت بطلب المنفعة والمضرة من غير الله تعالى فأنت من الظالمين أي الواضعين للشيء في غير موضعه إذ ما سوى الله تعالى معزول عن التصرف فإضافة التصرف إليه وضع للشيء في غير موضعه وهو الظلم ، وطلب الانتفاع بالأشياء التي خلقها الله تعالى للانتفاع بها من الطعام والشراب ونحوهما لا ينافي الرجوع بالكلية إلى الله تعالى بشرط أن يكون بصر العقل عند التوجه إلى شيء من ذلك مشاهداً لقدرة الله تعالى وجوده وإحسانه في إيجاد تلك الموجودات وإيداع تلك المنافع فيها مع الجزم بأنها في أنفسها وذواتها معدومة وهالكة ولا وجود لها ولا بقاء ولا تأثير إلا بإيجاد الله تعالى وإبقائه وإفاضة ما فيها من الخواص عليها بجوده وإحسانه ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ الله ﴾ الخ تقرير لأن جميع الممكنات مستندة إليه سبحانه وتعالى وإنه لا معول إلا عليه عز شأنه ، وهو كلام حسن بيد أن زعمه أن قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ [يونس : 105] لا يمكن أن يكون نهياً عن عبادة الأوثان الخ لا يخفى ما فيه .

وقد ذكر نحو هذا الكلام في الآيات ساداتنا الصوفية ، ففي أسرار القرآن أنه سبحانه خوف نبيه صلى الله عليه وسلم من الالتفات إلى غيره في اقباله عليه سبحانه بقوله : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ أي من الطالبين غيري والمؤثرين على جمال مشاهدتي ما لا يليق من الحدثان ، وقد ذكروا أن إقامة الملة الحنيفية بتصحيح المعرفة وهو لا يكون إلا بترك

النظر إلى ما سوى الحق جل جلاله ، ثم أنه تعالى زاد تأكيداً للإقبال عليه والاعراض عما سواه بقوله جل شأنه :

﴿ وَلاَ تَدْعُ ﴾ [يونس : 106] الخ حيث أشار فيه إلى أن من طلب النفع أو الضر من غيره تعالى فهو ظالم أي واضع للربوبية في غير موضعها .

(116/370)

ومن هنا قال شقيق البلخي : الظالم من طلب نفعه ممن لا يملك نفع نفسه واستدفع الضر ممن لا يملك الدفاع عن نفسه ومن عجز عن إقامة نفسه كيف يقيم غيره ، وقرر ذلك بقوله تعالى : وإن يمسسك الخ .

ومن ذلك قال ابن عطاء : إنه تعالى قطع على عباده الرهبة والرغبة إلا منه وإليه بإعلامه أنه الضار النافع ؛ وقد يكون الضر إشارة إلى الحجاب والخير إشارة إلى كشف الجمال أي إن يمسسك الله بضر الحجاب فلا كاشف لضرك إلا هو بظهور أنوار وصاله وإن يردك بكشف جماله فلا راد لفضل وصاله من سبب وعلة فإن المختص في الازل بالوصال لا يحتجب بشيء من الأشياء لأنه في الفضل السابق مصون من جريان القهر ﴿ هذا ﴾ ولعله مغن

عن الكلام من باب الإشارة في الآيات حسبما هو العادة في الكتاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(117/370)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مَنْ دُونِ اللَّهِ) .

هَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ وَالْآيَتَانِ اللَّتَانِ بَعْدَهَا خَتْمٌ لِلسُّورَةِ بِالنِّدَاءِ الْعَامِّ ، فِي الدَّعْوَةِ إِلَى عَقِيدَةِ الْإِسْلَامِ ، أَجْمَلَتْ أَمْرًا وَنَهْيًا وَخَبَرًا فِي خَاتِمَتِهَا ، كَمَا فَصَّلَتْ فِي جُمْلَتِهَا ، قَالَ تَعَالَى : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي) أَيْ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ صِحَّةِ دِينِيَ الَّذِي دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ ، أَوْ مِنْ ثَبَاتِي وَاسْتِقَامَتِي عَلَيْهِ ، وَتَرْجُونَ تَحْوِيلِي عَنْهُ (فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أَيْ فَلَا أَعْبُدُ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ ، وَلَا حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ، أَحَدًا مِنَ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ غَيْرَ اللَّهِ ، مَنْ مَلَكٍ أَوْ بَشَرٍ ; أَوْ كَوْكَبٍ أَوْ شَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ ، مِمَّا اتَّخَذْتُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ (وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ) أَيْ يَقْبِضُكُمْ إِلَيْهِ بِالْمَوْتِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فَيُحَاسِبُكُمْ وَيَجْزِيكُمْ ، وَلَا يَفْعَلُ أَحَدٌ غَيْرُهُ هَذَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا قَالَ : (إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي) وَشَرْطُهُ يَدُلُّ عَلَى الشَّكِّ فِي شَكِّهِمْ وَهُوَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا

يَشُكُّ فِيهِ ، لِأَنَّهُ نَزَلَ دِينُهُ مَنْزِلَةَ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَشُكُّوا فِيهِ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ ، وَتَأَلُّقِ نُورِهِ ، كَمَا بَيَّنَّا مِثْلَهُ فِي تَفْسِيرِ : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى

(118/370)

عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) (2 : 23) الْآيَةَ وَمَا بَعْدَهَا . وَوَصْفُ اللهِ بِتَوَفِّيهِمْ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، لِتَذْكِيرِ كُلٍّ مِنْهُمْ بِمَا لَا يَشُكُّ فِيهِ مِنْ عَاقِبَةِ أَمْرِهِ ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ كَمَا وَعَدَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) الَّذِينَ وَعَدَهُمُ اللهُ بِالنَّجَاةِ مِنْ عَذَابِهِ ، وَبِنَصْرِهِمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَأَعْدَائِهِ ، وَاسْتِخْلَافِهِمْ فِي أَرْضِهِ ، وَإِنَّهُ لَإِيجَازٌ بَلِيغٌ .

(119/370)

(وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا) أَيْ أُمِرْتُ بِأَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَبِأَنْ أُقِيمَ وَجْهِي لِلدِّينِ الْقَيِّمِ الَّذِي لَا عِوَجَ فِيهِ حَالَةَ كَوْنِي حَنِيفًا ، أَيْ مَائِلًا عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالْبَاطِلِ ، وَلَكِنِ اخْتِيرَ هُنَا صِيغَةُ الطَّلَبِ وَفِيمَا قَبْلَهُ الْخَبَرُ ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ الْخَبَرَ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِعَلَاقَةِ هَذَا الْأَمْرِ بِالْمَاضِي وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، الْمَوْعُودِينَ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ سُنَّةِ اللهِ فِي النَّبِيِّينَ ،

وَالطَّلَبُ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِعَلَاقَتِهِ هُوَ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهِ مِنَ النَّهْيِ بِالْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ ، مِنْ دَعْوَةِ هَذَا الدِّينِ الْمُوَجَّهَةِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ وَسَائِرِ النَّاسِ – وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا فِي الْإِعْرَابِ كَمَا حَقَّقَهُ سِيبَوَيْهِ وَغَيْرُهُ – وَإِقَامَةُ الْوَجْهِ لِلدِّينِ هُنَا وَفِي سُورَةِ الرُّومِ (30 – 43) عِبَارَةٌ عَنِ التَّوَجُّهِ فِيهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ فِي الدُّعَاءِ وَغَيْرِهِ بِدُونِ الْتِفَاتٍ إِلَى غَيْرِهِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ تَوَجُّهُ الْقَلْبِ ، وَفِي مَعْنَاهُ: (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا) (6 : 79) وَمِثْلُهُ إِسْلَامُ الْوَجْهِ لِلَّهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (2 : 112) وَآلِ عِمْرَانَ (3 : 20) وَالنِّسَاءِ (4 : 125) وَإِسْلَامُهُ إِلَى اللهِ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ (31 : 22) وَكَذَا تَوْجِيهُ الْوَجْهِ الْحِسِّيِّ إِلَى الْقِبْلَةِ فِي آيَاتِهَا وَهُوَ الْأَصْلُ فِي اللُّغَةِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ وِجْهَةُ الْإِنْسَانِ ، فَمَنْ تَوَجَّهَ قَلْبُهُ فِي عِبَادَةٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ (وَلَا سِيَّمَا مُخِّ الْعِبَادَةِ وَرُوحِهَا وَهُوَ

(120/370)

الدُّعَاءُ) إِلَى غَيْرِ اللهِ فَهُوَ عَابِدٌ لَهُ مُشْرِكٌ بِاللهِ ، وَأَكَّدَهُ بِالنَّهْيِ عَنْ ضِدِّهِ مَعْطُوفًا عَلَيْهِ فَقَالَ : (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أَصْحَابِ الدِّيَانَاتِ الْوَثَنِيَّةِ الْبَاطِلَةِ ، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى حِجَابًا مِنَ الْوُسَطَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالشُّفَعَاءِ يُوَجِّهُونَ قُلُوبَهُمْ إِلَيْهِمْ عِنْدَ الشِّدَّةِ تُصِيبُهُمْ ، وَالْحَاجَةِ الَّتِي تَسْتَعْصِي عَلَى كَسْبِهِمْ ، وَوُجُوهَهُمْ وَجُمْلَتَهُمْ إِلَى صُوَرِهِمْ وَتَمَاثِيلِهِمْ فِي

هَيَاكِلِهِمْ ، أَوْ قُبُورِهِمْ فِي مَعَابِدِهِمْ ، وَيَدْعُونَهُمْ لِقَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ إِمَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِمَّا بِشَفَاعَتِهِمْ وَوَسَاطَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ثُمَّ بَيَّنَ هَذَا بِالْإِشَارَةِ إِلَى سَبَبِهِ عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ وَالنَّهْيِ عَنْ مِثْلِهِ مَعْطُوفًا عَلَيْهِ فَقَالَ :

(121/370)

(وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ) أَيْ وَلَا تَدْعُ غَيْرَهُ تَعَالَى (دُعَاءَ عِبَادَةٍ ، وَهُوَ مَا فِيهِ مَعْنَى الْقُرْبَةِ وَالْجَرْيِ عَلَى غَيْرِ الْمُعْتَادِ فِي طَلَبِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ) لَا عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِقْلَالِ ، وَلَا عَلَى سَبِيلِ الِاشْتِرَاكِ بِوَسَاطَةِ الشُّفَعَاءِ - مَا لَا يَنْفَعُكَ إِنْ دَعَوْتَهُ لَا بِنَفْسِهِ وَلَا بِوَسَاطَتِهِ ، وَلَا يَضُرُّكَ إِنْ تَرَكْتَ دُعَاءَهُ وَلَا إِنْ دَعَوْتَ غَيْرَهُ (فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ) أَيْ فَإِنْ فَعَلْتَ هَذَا بِأَنْ دَعَوْتَ غَيْرَهُ فَإِنَّكَ أَيُّهَا الْفَاعِلُ فِي هَذِهِ الْحَالِ مِنْ طَغَامَةِ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمُ الظُّلْمَ الْأَكْبَرَ ، وَهُوَ الشِّرْكُ الَّذِي فَسَّرَ بِهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَوْلَهُ تَعَالَى : إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (31 : 13) فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ دُعَاءُ اللَّهِ وَحْدَهُ هُوَ أَعْظَمُ الْعِبَادَةِ وَمُخُّهَا - كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ - كَانَ دُعَاءُ غَيْرِهِ هُوَ مُعْظَمُ الشِّرْكِ وَمُخُّهُ ، كَمَا كَرَّرْنَا التَّصْرِيحَ بِهِ بِتَكْرَارِ تَفْسِيرِ الْآيَاتِ النَّاهِيَةِ عَنْهُ ، وَمِنْهَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) (218)

وَقَوْلُهُ: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) (49) وَقَوْلُهُ قَبْلَهُمَا : (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا) (12)

(122/370)

وَقَوْلُهُ فِي أَهْلِ الْفُلْكِ (السَّفِينَةِ) الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ إِحَاطَةِ الْخَطَرِ بِهِمْ : (دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) (22) .

وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ مُتَفَرِّقَةٌ فِي السُّوَرِ ، كُرِّرَتْ لِأَجْلِ انْتِزَاعِ هَذَا الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ مِنْ قُلُوبِ الْجُمْهُورِ الْأَكْبَرِ ، وَقَدِ انْتُزِعَ مِنْ قُلُوبِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَكَانَ جُلُّ عِبَادَتِهِمْ تَكْرَارُ تِلَاوَتِهِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ، وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، ثُمَّ عَادَ بَقَضِّهِ وَقَضِيضِهِ إِلَى الَّذِينَ هَجَرُوا تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ وَهُمْ يَدَّعُونَ الْإِسْلَامَ ، وَأَكْثَرُهُمْ يَتَلَقَّوْنَ عَقَائِدَهُمْ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ وَالْمُعَاشِرِينَ ، وَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ مِنَ الْخُرَافِيِّينَ الْأُمِّيِّينَ ، الْجَاهِلِينَ ، وَأَكْثَرُ الْقَارِئِينَ مِنْهُمْ عَلَى قِلَّتِهِمْ يَأْخُذُونَهَا مِنْ كُتُبٍ مُقَلِّدَةٍ مُتَأَخِّرِي الْمُتَكَلِّمِينَ الْجَدَلِيَّةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ الْخُرَافِيَّةِ ، وَلَا يَكَادُ مَسْجِدٌ مِنْ مَسَاجِدِهِمْ يَخْلُو مِنْ قَبْرٍ مُشْرِفٍ مَشِيدٍ ، تُوقَدُ عَلَيْهِ السُّرُجُ وَالْمَصَابِيحُ ، وَقَدْ لَعَنَ الرَّسُولُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَاعِلِيهَا ، وَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ ، فِي

كُلِّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ ، يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَحْيَاءٌ يُقِيمُونَ فِيهَا ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِمْ بِالْهَدَايَا وَالنُّذُورِ مِنَ الْأُمِّيِّينَ ، وَبِعَرَائِضِ

(123/370)

الِاسْتِغَاثَةِ وَالدُّعَاءِ مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ ، لِيَكْشِفُوا عَنْهُمُ الضُّرَّ ، وَيَهَبُوا لَهُمْ مَا يَرْجُونَ مِنَ النَّفْعِ ، وَمِنْ أَمَامِهِمْ وَوَرَائِهِمْ عَمَائِمُ مُكَوَّرَةٌ ، وَلِحًى طَوِيلَةٌ أَوْ مُقَصَّرَةٌ ، يُسَمُّونَ شِرْكَهُمُ الْأَكْبَرَ تَوَسُّلًا ، وَاسْتِغَاثَتَهُمُ اسْتِشْفَاعًا ، وَنُذُورَهُمْ لِغَيْرِ اللهِ صَدَقَاتٍ مَشْرُوعَةً ، وَطَوَافَهُمْ بِالْقُبُورِ الْمَعْبُودَةِ زِيَارَاتٍ مَقْبُولَةً ، وَيَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةَ ، بَلْ يُحَرِّفُونَهَا عَنْ مَوَاضِعِهَا ، بِزَعْمِهِمْ أَنَّهَا خَاصَّةٌ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، وَالنُّذُورِ لِلْأَوْثَانِ ، وَالتَّعْظِيمِ لِلصُّلْبَانِ ، كَأَنَّ الْإِشْرَاكَ بِاللهِ جَائِزٌ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ بِبَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ دُونَ بَعْضٍ ، وَمِنَ الْبَلَاءِ الْأَكْبَرِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ بِمِصْرَ أَنْ أَصْدَرَتْ لَهُمْ مَشْيَخَةُ الْأَزْهَرِ الرَّسْمِيَّةُ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَجَلَّةً رَسْمِيَّةً دِينِيَّةً ، تُفْتِيهِمْ بِشَرْعِيَّةِ كُلِّ هَذِهِ الْبِدَعِ الشِّرْكِيَّةِ الْقُبُورِيَّةِ ، سَمَّتْهَا (نُورَ الْإِسْلَامِ) وَأَلَّفَ لَهُمْ أَحَدُ خُطَبَاءِ الْفِتْنَةِ كِتَابًا فِي هَذَا وَاطَأَهُ عَلَيْهِ وَأَمْضَاهُ لَهُ سَبْعُونَ عَالِمًا مِنْ عُلَمَاءِ الْأَزْهَرِ بِزَعْمِهِ ، بَلْ طُبِعَ فِي طُرَّتِهِ خَوَاتِمَ بَعْضِهِمْ وَتَوَاقِيعَ آخَرِينَ مِنْهُمْ بِخُطُوطِهِمْ وَذَكَرَ جَمِيعَ أَسْمَائِهِمْ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ، وَبِهِ وَحْدَهُ الْمُسْتَعَانُ لِإِنْقَاذِ الْإِسْلَامِ مِنْ هَذَا الطُّغْيَانِ ،

وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْتَجُّ عَلَى نَفْعِ هَذَا الدُّعَاءِ لِغَيْرِ اللهِ بِالتَّجَارِبِ ، كَمَا يَحْتَجُّ الْهُنُودُ الْوَثَنِيُّونَ وَالنَّصَارَى

(124/370)

، فَهُوَ مُشْتَرَكُ الْإِلْزَامِ وَقَدْ أَبْطَلَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ :

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ) هَذِهِ الْآيَةُ مُؤَكِّدَةٌ لِمَا قَبْلَهَا دَاحِضَةٌ لِشُبْهَةِ الَّذِينَ يَدْعُونَ غَيْرَ اللهِ بِأَنَّهُمْ طَالَمَا اسْتَفَادُوا مِنْ دُعَائِهِمْ وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِمْ فَشُفِيَتْ أَمْرَاضُهُمْ ، وَكُبِتَتْ أَعْدَاؤُهُمْ ، وَكُشِفَ الضُّرُّ عَنْهُمْ ، وَأُسْدِيَ الْخَيْرُ إِلَيْهِمْ ، يَقُولُ تَعَالَى لِكُلِّ مُخَاطَبٍ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ إِلَى تَوْحِيدِ الْإِسْلَامِ ، بِكَلَامِ اللهِ وَتَبْلِيغِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ: (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ)

أَيُّهَا الْإِنْسَانُ (بِضُرٍّ) كَمَرَضٍ يُصِيبُكَ بِمُخَالَفَةِ سُنَنِهِ فِي حِفْظِ الصِّحَّةِ ، أَوْ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالثَّمَرَاتِ بِأَسْبَابِهِ لَكَ فِيهِ عِبْرَةٌ ، أَوْ ظُلْمٍ يَقَعُ عَلَيْكَ مِنَ الْحُكَّامِ الْمُسْتَبِدِّينَ ، أَوْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ الْمُعْتَدِينَ (فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ) وَقَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا يَعْرِفُهُ خَلْقُهُ بِتَجَارِبِهِمْ ، كَكَشْفِ الْأَمْرَاضِ بِمَعْرِفَةِ أَسْبَابِهَا ، وَخَوَاصِّ الْعَقَاقِيرِ الَّتِي تُدَاوَى بِهَا ، وَتَجَارِبِ الْأَعْمَالِ الْجِرَاحِيَّةِ الَّتِي يُزَاوِلُهَا أَهْلُهَا ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَطْلُبَهَا مِنْ أَسْبَابِهَا ، وَتَكِلَ أَعْمَالَهَا إِلَى أَرْبَابِهَا ،

وَتَأْتِيَ سَائِرَ الْبُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا ، مَعَ الْإِيمَانِ وَالشُّكْرِ لِمُسَخِّرِهَا ، فَإِنْ جَهِلْتَ الْأَسْبَابَ أَوْ أَعْيَاكَ أَمْرُهَا ، فَتَوَجَّهْ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ ، وَادْعُهُ مُخْلِصًا لَهُ

(125/370)

الدِّينَ مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ وَحْدَهُ ، يُسَخِّرْ لَكَ مَا شَاءَ أَوْ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ ، أَوْ يَشْفِكَ مِنْ مَرَضِكَ بِمَحْضِ فَضْلِهِ ، كَمَا ضَرَبَ لَكَ الْأَمْثَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ كِتَابِهِ (وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ) يَهَبْهُ بِتَسْخِيرِ أَسْبَابِهِ لَكَ ، وَبِغَيْرِ سَبَبٍ وَلَا سَعْيٍ مِنْكَ ، (فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) أَيْ فَلَا أَحَدَ وَلَا شَيْءَ يَرُدُّ فَضْلَهُ الَّذِي تَتَعَلَّقُ بِهِ إِرَادَتُهُ ، فَمَا شَاءَ كَانَ حَتْمًا ، فَلَا تَرْجُ الْخَيْرَ وَالنَّفْعَ إِلَّا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَا تَخَفْ رَدَّ مَا يُرِيدُهُ لَكَ مِنْ أَحَدٍ غَيْرِهِ (يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) يُصِيبُ بِالْخَيْرِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِكَسْبٍ وَبِغَيْرِ كَسْبٍ وَبِسَبَبٍ مِمَّا قَدَّرَهُ فِي السُّنَنِ الْعَامَّةِ وَبِغَيْرِ سَبَبٍ ، فَفَضْلُهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ عَامٌّ بِعُمُومِ رَحْمَتِهِ ، بِخِلَافِ الضُّرِّ فَإِنَّهُ لَا يَقَعُ إِلَّا بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ الْخَاصَّةِ بِكَسْبِ الْعَبْدِ ، أَوِ الْعَامَّةِ فِي نِظَامِ الْخَلْقِ ، فَالْأَوَّلُ مَعْلُومٌ كَالْأَمْرَاضِ الَّتِي تَعْرِضُ بِتَرْكِ أَسْبَابِ الصِّحَّةِ وَالْوِقَايَةِ جَهْلًا أَوْ تَقْصِيرًا ، وَفَسَادِ الْعُمْرَانِ وَسُقُوطِ الدُّوَلِ الَّذِي يَقَعُ بِتَرْكِ الْعَدْلِ ، وَكَثْرَةِ الْفِسْقِ وَالظُّلْمِ ، وَالثَّانِي كَالضَّرَرِ الَّذِي يَعْرِضُ مِنْ كَثْرَةِ الْأَمْطَارِ ، وَطُغْيَانِ الْبِحَارِ وَالْأَنْهَارِ ، وَزَلَازِلِ الْأَرْضِ وَصَوَاعِقِ السَّمَاءِ (وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) وَلَوْلَا

مَغْفِرَتُهُ الْوَاسِعَةُ وَرَحْمَتُهُ الْعَامَّةُ لَأَهْلَكَ جَمِيعَ النَّاسِ بِذُنُوبِهِمْ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ

(126/370)

فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (42 : 30) (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ) (35 : 45) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 402.398 ﴾

(127/370)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾

عطف على جملة : ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴾ [يونس : 106] لقصد التعريض بإبطال عقيدة المشركين أن الأصنام شفعاء عند الله ، فلما أبطلت الآية السابقة أن تكون الأصنام نافعة أو ضارة ، وكان إسناد النفع أو الضر أكثر ما يقع على

معنى صدورهما من فاعلهما ابتداء ، ولا يتبادر من ذلك الإسناد معنى الوساطة في تحصيلهما من فاعل ، عقبت جملة ﴿ ولا تدْعُ من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴾ [يونس : 106] بهذه الجملة للإعلام بأن إرادة الله النفع أو الضر لأحد لا يستطيع غيره أن يصرفه عنها أو يتعرض فيها إلا من جعل الله له ذلك بدعاء أو شفاعة .

ووجه عطفها على الجملة السابقة لما بينهما من تغاير في المعنى بالتفصيل والزيادة ، وبصيغتي العموم في قوله : ﴿ فلا كاشف له إلا هو ﴾ وفي قوله : ﴿ فلا رادَّ لفضله ﴾ الداخل فيهما أصنامهم وهي المقصودة ، كما صُرح به في قوله تعالى في سورة [الزمر : 38] ﴿ أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن مُمسكات رحمته ﴾

وتوجيهُ الخطاب للنبيء لأنه أولى الناس بالخير ونفي الضر .

فيعلم أن غيره أولى بهذا الحكم وهذا المقصود .

والمس : حقيقته وضع اليد على جسم لاختبار ملمسه ، وقد يطلق على الإصابة مجازاً مرسلاً .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان ﴾ في آخر سورة [الأعراف : 201] .

والإرادة بالخير : تقديرُه والقصدُ إليه .

ولما كان الذي لا يعجزه شيء ولا يتردد علمه فإذا أراد شيئاً فعله ، فإطلاق الإرادة هنا كناية عن الإصابة كما يدل عليه قوله بعده : يصيب به من يشاء من عباده ﴾ .

(128/370)

وقد عبر بالمس في موضع الإرادة في نظيرها في سورة [الأنعام : 17] ﴿ وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ﴾ ولكن عبر هنا بالإرادة مبالغة في سلب المقدرة عمن يريد معارضة مراده تعالى كائناً من كان بحيث لا يستطيع التعرض لله في خيره ولو كان بمجرد إرادته قبل حصول فعله ، فإن التعرض حينئذٍ أهون لأن الدفع أسهل من الرفع ، وأما آية سورة الأنعام فسياقها في بيان قدرة الله تعالى لا في تنزيهه عن المعارض والمعاند .

والفضل : هو الخير ، ولذلك فإيقاعه موقع الضمير للدلالة على أن الخير الواصل إلى الناس فضل من الله لا استحقاق لهم به لأنهم عبيد إليه يصيبهم بما يشاء .

وتنكير (ضُر) و (خير) للنوعية الصالحة للقلة والكثرة .

وكل من جملة ؛ فلا كاشف له إلا هو ﴾ وجملة : ﴿ فلا رادَّ لفضله ﴾ جواب للشرط المذكور معها ، وليس الجواب بمحذوف .

وجملة : ﴿ يصيب به من يشاء من عباده ﴾ واقعة موقع البيان لما قبلها والحوصلة له ،

فلذلك فصلت عنها .

والضمير المجرور بالباء عائد إلى الخير ، فيكون امتناناً وحثاً على التعرض لمرضاة الله حتى يكون مما حقت عليهم مشيئة الله أن يصيبهم بالخير ؛ أو يعودُ إلى ما تقدم من الضر ، والضمير باعتبار أنه مذكور فيكون تخويفاً وتبشيراً وتحذيراً وترغيباً .

وقد أجملت المشيئة هنا ولم تبين أسبابها ليسلك لها الناس كل مسلك يأملون منه تحصيلها في العطاء وكل مسلك يتقون بوقعهم فيها في الحرمان .

والإصابة : اتصال شيء بآخر ووروده عليه ، وهي في معنى المس المتقدم ، فقوله : ﴿ يصيب به من يشاء ﴾ هو في معنى قوله في سورة [الأنعام : 17] ﴿ وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ﴾

والتذييل بجملة : وهو الغفور الرحيم ﴾ يشير إلى أن إعطاء الخير فضل من الله ورحمة وتجاوز منه تعالى عن سيئات عباده الصالحين ، وتقصيرهم وغفلاتهم ، فلو شاء لما تجاوز لهم عن شيء من ذلك فتورطوا كلهم .

(129/370)

ولولا غفرانه لَما كانوا أهلاً لإصابة الخير ، لأنهم مع تفاوتهم في الكمال لا يخلون من قصور عن الفضل الخالد الذي هو الكمال عند الله ، كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : " إني ليُغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة "

ويشير أيضاً إلى أن الله قد تجاوز عن كثير من سيئات عباده المسْرفين ولم يؤاخذهم إلا بما لا يرضى عنه بحال كما قال : ﴿ ولا يرضَى لعباده الكفر ﴾ [الزمر : 7] ، وأنه لولا تجاوزه عن كثير لمسهم الله بضر شديد في الدنيا والآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(130/370)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾

هذا كلام الربوبية المستغنية عن الخلق ، فالله سبحانه وتعالى خلق الناس ، ودعاهم إلى الإيمان به ، وأن يحبوه ؛ لأنه يحبهم ، ويعطيهم ، ولا يأخذ منهم ؛ لأنه في غِنىً عن كل خلقه .

ويأتي الكلام عن الضُّر هنا بالمسِّ ، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ﴾ [يونس : 107] .

ونحن نعلم أن هناك " مساً " و " لمساً " و " إصابة " .

وقوله سبحانه هنا عن الضر يشير إلى مجرد المسِّ ، أي : الضر البسيط ، ولا تَقُلْ : إن الضر ما دام صغيراً فالخلق يقدرون عليه ، فلا أحد يقدر على الضر أو النفع ، قَلَّ الضر أم كَبُر ، وكَثُر النفع أو قَلَّ ، إلا بإذن من الله تعالى .

والحق سبحانه وتعالى يذكر الضر هنا بالمسّ ، أي : أهو الالتصاقات ، ولا يكشفه إلا الله سبحانه وتعالى .

ومن عظمته جَلَّ وعلا أنه ذكر مع المس بالضر ، الكشفَ عنه ، وهذه هي الرحمة .

ثم يأتي سبحانه بالمقابل ، وهو " الخير " ، وحين يتحدث عنه الحق سبحانه ، يؤكد أنه لا يرده .

ونحن نجد كلمة ﴿ يُصَيبُ ﴾ في وَصْف مجيْ الخير للإنسان ، فالحق سبحانه يصيب به من يشاء مِنْ عباده .

ويُنهي الحق سبحانه وتعالى الآية بهذه النهاية الجميلة في قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الغفور الرحيم ﴾ [يونس : 107] .

وهكذا تتضح لنا صورة جلال الخير المتجلي على العباد ، ففي الشر جاء به مسّاً ، ويكشفه ، وفي الخير يصيب به العباد ، ولا يمنعه .

والله تعالى هو الغفور الرحيم ؛ لأنه سبحانه لو عامل الناس حتى المؤمنين منهم بما يفعلون

لعاقبهم ، ولكنه سبحانه غفور ورحيم ؛ لأن رحمته سبقت غضبه ؛ ولذلك نجده سبحانه في آيات النعمة يقول :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل : 18] .

(131/370)

وجاء الحق سبحانه بالشكِّ ، فقال ﴿ إِن ﴾ ولم يقل : " إذا تعدون نعمة الله " ؛ لأن أمر لن يحدث ، كما أن الإقبال على العَدّ هو مظنَّة أنه يمكن أن يحصي ؛ فقد تُعدُّ النقود ، وقد يَعدّ الناظر طلاب المدرسة ، لكن أحداً لا يستطيع أن يُعدّ أو يُحصى حبَّات الرمال مثلاً .

وقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل : 18] .

وهذا شَكٌّ في أن تعدوا نِعمة الله .

ومن العجيب أن العدَّ يقتضي التجمع ، والجمع لأشياء كثيرة ، ولكنه سبحانه جاء هنا بكلمة مفردة هي ﴿ نِعْمَةَ ﴾ ولم يقل : " نِعَم " فكأن كل نعمة واحدة مطمور فيها نِعَمٌ شتَّى

.

إذن : فلن نستطيع أن نعدَّ النِّعَم المطمورة في نعمة واحدة .

وجاء الحق سبحانه بذكر عَدِّ النعم في آيتين :

الآية الأولى تقول :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : 34] .

والآية الثانية تقول :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَآ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[النحل : 18] .

وصَدْر الآيتين واحد ، ولكن عَجُزَ كل منهما مختلف ، ففي الآية الأولى : ﴿ إِنَّ الإِنسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : 34] .

وفي الآية الثانية : ﴿ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 18] .

لأن النعمة لها مُنْعِم ؛ ومُنْعَم عليه ، والمنعَم عليه بذنوبه لا يستحق النعمة ؛ لأنه ظلوم وكفار ، ولكن المنعم سبحانه وتعالى غفور ورحيم ، ففي آية جاء مَلْحظ المنعِم ، وفي آية أخرى جاء ملحظ المنعَم عليه .

ومن ناحية المنعَم عليه نجده ظَلُوماً كَفَّاراً ؛ لأنه يأخذ النعمة ، ولا يشكر الله عليها .

ألم تَقُلْ السماء : يارب ! ائذن لي أن أسقط كِسَفاً على ابن آدم ؛ فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك .

وقالت الأرض : ائذن لي أن أخسف بابن آدم ؛ فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك .

وقالت الجبال : ائذن لي أن أسقط على ابن آدم .

(132/370)

وقال البحر : ائذن لي أن أغرق ابن آدم الذي طَعِم خيرك ، ومنع شُكْرك .

هذا هو الكون الغيور على الله تعالى يريد أن يعاقب الإنسان ، لكن الله سبحانه رب الجميع يقول : " دعوني وعبادي ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(133/370)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾

أخرج أبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وإن يردك بخير ﴾ يقول : بعافية .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه قال : ثلاث آيات وجدتها في كتاب الله تعالى اكتفيت بها عن جميع الخلائق ، قوله ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله ﴾ .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن عامر بن قيس رضي الله عنه قال : ثلاث آيات في كتاب الله اكتفيت بهن عن جميع الخلائق : أولهن ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله ﴾ والثانية ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له ﴾ [فاطر : 2] والثالثة ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ [هود : 6] .

وأخرج أبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإِيمان وابن عساكر عن أنس رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اطلبوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات رحمة الله تعالى فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده ، وسلوه أن يستر عوراتكم ، ويؤمن من روعاتكم " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي الدرداء رضي الله عنه موقوفاً . مثله سواء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ﴾ : قد تقدَّم ما في ذلك من صناعة البديع في سورة الأنعام . وقال هنا في جواب الشرط الأول بنفي عام وإيجاب ، وفي جواب الثاني بنفي عام دونَ إيجاب ، لأنَّ ما أراده لا يَرُدُّه رادٌّ ، لا هو ولا غيره ؛ لأن إرادتَه قديمةٌ لا تتغيَّر ، فلذلك لم يَجِيْء التركيب فلا رادَّ له إلا هو ، هذه عبارةُ الشيخ ، وفيها نظرٌ ، وكأنه يقول بخلاف الكشف فإنه هو الفاعل لذلك وحدَه دون غيره بخلافِ إرادته تعالى ، فإنها لا يُتَصَوَّر فيها الوقوعُ على خلافها ، وهي مسألةٌ خلافية بين أهل السنة والاعتزال . قال الزمخشري : " فإن قلت : لِمَ ذُكِر المَسُّ في أحدهما والإرادةُ في الثاني ؟ قلت : كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً : الإرادة والإصابة في كلِّ واحد من الضُّر والخير ، وأنه لا رادَّ لِما يريده منهما ، ولا مُزيلَ لما يُصيب به منهما ، فأوجزَ الكلام بأنْ ذكرَ المَسَّ وهو الإصابةُ في أحدهما والإرادة في الآخر ليدلَّ بما ذَكَرَ على ما تَرَك ، على أنه قد ذَكَر الإصابة في الخير في قوله : ﴿ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 276 ﴾

(135/370)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾

كما تفرَّد بإبداع الضُرِّ واختراعه فلا شريكَ يُعْضِدُه . . . كذلك توحَّدَ بكشف الضُرِّ وصَرْفِه فلا نصيرَ يُنْجِدُه .

ويقال هوَّنَ على المؤمن الضرّ إليه بقوله : ﴿ وَإِن يَمْسسْكَ اللّهُ بِضُرٍ ﴾ حيث أضافه إلى نفسه ، والحنظل يُسْتَلذُّ مِنْ كفِّ مَنْ تحبه .

وفرَّقَ بين الضُرِّ والخير بإضافة الضرّ إليه فقال : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍ ﴾ ولم يقل : وإنْ يُرِدْكَ بضرٍ – وإنْ كان ذلك الضرُّ صادراً عن إرادته – وفي ذلك من حيث اللفظ دِقّة .

ويقال : عَذُبَ الضرّ حيث كان نفعه ؛ فلمَّا أوجب مقاساة الضُرِّ من الحرَبَ أبدل مكانَه السرورَ والطَّرَب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 119 ﴾

(136/370)

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (108) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (109) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كثرت في هذه السورة الأوامر والنواهي والأجوبة بسبب ما يقترحونه على وجه التعنت ، وختم بأن من دعا غيره كان راسخاً في الظلم لا مجير له منه ، ختم ذلك بجواب معلم بأن فائدة الطاعة ليست راجعة إلا إليهم ، وضرر النفور ليس عائداً إلا عليهم فقال تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس ﴾ أي غاية كل من له قابلية التحرك والاضطراب ﴿ قد جاءكم الحق ﴾ أي الكامل بهذا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا الكتاب ، وذلكم خير عظيم أصابكم الله به ، وزاد الرغبة فيه بقوله : ﴿ من ربكم ﴾ أي المحسن إليكم ﴿ فمن ﴾ أي فتسبب عن ذلك أنه من ﴿ اهتدى ﴾ أي آمن بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعمل بما في الكتاب ﴿ فإنما يهتدي لنفسه ﴾ أي لأنه تبع الحق الثابت وترك الباطل الزائل فأنقذ نفسه من النار وأوجب لها الجنة ﴿ ومن ضل ﴾ أي كفر بهما أو بشيء منهما ﴿ فإنما يضل عليها ﴾ لأنه ترك الباقي وتمسك بما ليس في يده منه شيء لأنه فانٍ فقد غر نفسه ﴿ وما أنا ﴾ ولما كان السياق لنفي تصرفه فيهم وأن ذلك إنما هو إلى الله تعالى ، كان

تقديم ضميرهم أهم فقال : ﴿ عليكم بوكيل ﴾ فيطلب مني حفظكم مما يؤدي إلى الهلاك ومنعه عنكم كما يطلب من الوكيل .

(137/370)

ولما كان أكثر ذلك وعظاً لهم وتذكيراً ختمه بأمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما يفعله في خاصة نفسه أجابوا أو لمن يجيبوا ، فقال عطفاً على قوله ﴿ قل يا أيها الناس ﴾ :

﴿ واتبع ﴾ أي بجميع جهدك ﴿ ما يوحى إليك ﴾ وبناه للمفعول لأن ذلك كان بعد أن تقررت عصمته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلم أن كل ما يأتيه من عند الله ، فكان ذلك أمكن في أمره باتباع كل ما يأتيه منه سبحانه وفي الإيذان بأنه لا ينطق عن الهوى

﴿ واصبر ﴾ في تبليغ الرسالة على ما أصابك في ذلك من عظيم الضرر وبليغ الخطر من ضلال من لم يهتد وإعراضه وجفوته وأذاه ﴿ حتى يحكم الله ﴾ أي الملك الأعظم بين من ضل من أمتك ومن اهتدى ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ خير الحاكمين ﴾ لأنه يوقع الحكم في أولى مواقعه وأحقها وأحسنها وأعدلها ، وهو المطلع على السرائر فاعمل أنت بما تؤمر به وبشر وأنذر وأخبر وادع إلى الله بجميع ما أمرك به واترك المدعوين حتى يأمرك فيهم بأمره ؛ قال الزمخشري : وروى أنها لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

الأنصار قال : " إنكم ستجدون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني " وتبعه على ذلك أبو حيان وغيره ، فإن صح فالسر فيه – والله أعلم – أنه لما أعلمت هذه الآية أن من اتبع الوحي ابتلى بما ينبغي الصبر عليه وأفهمت أن من كان له أشد اتباعاً كان أشد بلاء ، وكان الأنصار - رضى الله عنهم - م أجمعين أحق بهذا الوصف من غيرهم من حيث إنهم كانوا أول قبيلة جمعها الإيمان ومن حيث كانوا له أسهل قياداً وألين عريكة مع كونهم لم يتقدم لهم عشرة بالنبي - صلى الله عليه وسلم - ولا خبرة بأحواله توجب لهم من اتباعه ما يوجب لمن كان من بني عمه قريش يخالطه ويأنس به ويرى منه معالي الأخلاق وكريم الشمائل ما يوفر داعيته على اتباعه ، فلما كان ذلك كذلك ، خص النبي - صلى الله عليه وسلم - الأنصار - رضى الله عنهم - لهذا الأمر ، فتفضيلهم في ذلك من الجهتين المذكورتين فلا يتوهم تفضيلهم على

(138/370)

المهاجرين بل المهاجرون أفضل لأنهم جمعوا إلى النصرة الهجرة مع أن أكثرهم له من قرب النسب من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والسبق في الإسلام حظ وافر .

هذا ما ظهر لي من مناسبته على تقدير الصحة .

والذي في الصحيح عن أنس - رضى الله عنهم - " أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أراد أن

يقطع للأنصار من البحرين فقالت الأنصار : حتى تقطع لإخواننا من المهاجرين مثل الذي تقطع لنا ، وقال : سترون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني " فهذا فيه أن السبب حرصهم على الإنصاف وهو يدل على أن المنصف يقل إنصاف الناس له وهو أمر مستقرى :

والوحي : إلقاء المعنى غلى النفس في خفاء .

وهو هنا ما يجيء به الملك إلى النبي عليهما السلام عن الله تعالى فيلقيه إليه على اختصاصه به من غير أن يرى ذلك سواه من الناس ؛ والصبر : تجرع مرارة الامتناع من المشتهي إلى الوقت الذي ينبغي فيه تعاطيه ويعين عليه العلم بعاقبته وكثرة الفكر في الخبر الذي ينال به ، واعتياد الصبر في خصلة يسهل الصبر في خصلة أخرى لأن الخير يدعو إلى الخير فتمكن الإنسان في خصلة يصير له ملكة تدعوه إلى ما شاكلها ، وقد ختم سبحانه السورة بما ابتدأها به من أمر الكتاب والإشارة إلى الإرشاد لما ينفع من ثمرة إنزاله وهو العمل بما دل عليه أو أشار إليه إلى أن ينجلي الحكيم الذي انزله للحكم في الدنيا أو في الآخرة بما لا مرد له مما برزت به مواعيده الصادقة في كلماته التامة ، وهذا لعينه هو أول التي بعدها ، فكان ختم هذه السورة وسطاً بين أولها وأول التي تليها ، ففيه رد المقطع على المطلع وتتبع لما استتبع والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 496 . 497 ﴾

(139/370)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

واعلم أنه تعالى لما قرر الدلائل المذكورة في التوحيد والنبوة والمعاد وزين آخر هذه السورة بهذه البيانات الدالة على كونه تعالى مستبداً بالخلق والإبداع والتكوين والاختراع ، ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية ، وفي تفسيرها وجهان : الأول : أنه من حكم له في الأزل بالاهتداء ، فسيقع له ذلك ، ومن حكم له بالضلال فكذلك ولا حيلة في دفعه .

الثاني : وهو الكلام اللائق بالمعتزلة قال القاضي : إنه تعالى بين أنه أكمل الشريعة وأزاح العلة وقطع المعذرة ﴿ فَمَنُ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ فلا يجب علي من السعي في إيصالكم إلى الثواب العظيم ، وفي تخليصكم من العذاب الأليم أزيد مما فعلت .

قال ابن عباس : هذه الآية منسوخة بآية القتال .

ثم إنه تعالى ختم هذه الخاتمة بخاتمة أخرى لطيفة فقال : ﴿ واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ واصبر حتى يَحْكُمَ الله وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ .

والمعنى أنه تعالى أمره باتباع الوحي والتنزيل ، فإن وصل إليه بسبب ذلك الاتباع مكروه فليصبر عليه إلى أن يحكم الله فيه وهو خير الحاكمين .

وأنشد بعضهم في الصبر شعراً فقال :

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبري . . وأصبر حتى يحكم الله في أمري

أصبر حتى يعلم الصبر أنني . . صبرت على شيء أمر من الصبر

تم تفسير هذه السورة والله أعلم بمراده بأسرار كتابه بعون الله وحسن توفيقه .

يقول جامع هذا الكتاب : ختمت تفسير هذه السورة يوم السبت من شهر الله الأصم رجب سنة إحدى وستمائة وكنت ضيق الصدر كثير الحزن بسبب وفاة الولد الصالح محمد أفاض الله على روحه وجسده أنواء المغفرة والرحمة ، وأنا ألتمس من كل من يقرأ هذا الكتاب وينتفع به من المسلمين أن يخص ذلك المسكين بالدعاء والرحمة والغفران والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 140 . 141 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : القرآن .

الثاني : الرسول صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ فيه وجهان محتملان :

أحدهما : فمن اهتدى لقبول الحق فإنما يهتدي بخلاص نفسه .

الثاني : فمن اهتدى إلى معرفة الحق فإنما يهتدي بعقله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(142/370)

وقال ابن عطية :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

هذه مخاطبة لجميع الكفار مستمرة مدى الدهر ، ﴿ الحق ﴾ هو القرآن والشرع الذي

جاء به محمد ، ﴿ فمن اهتدى ﴾ ، أي اتبع الحق وتدين به فإنما يسعى لنفسه لأنه يوجب لها رحمة الله ، ويدفع عذابه ، ﴿ ومن ضل ﴾ أي حاد عن طريق الحق ولم ينظر بعين الحقيقة وكفر بالله عز وجل فيضل ذلك ، وقوله ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ ، أي لست بآخذكم ولا بد بالإيمان وإنما أنا مبلغ ، وهذه الآية منسوخة بالقتال ، وقوله ﴿ واتبع ما يوحى إليك ﴾ الآية معناه : اتبع ما رسمه لك شرعك وما أعلمك الله به من نصرته لك ، ﴿ واصبر ﴾ على شقاء الرسالة وما ينالك في الله من الآذى ، وقوله ﴿ حتى يحكم الله ﴾ وعد للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يغلبهم - كما وقع - تقتضيه قوة اللفظ ، وهذا الصبر منسوخ بالقتال ، وهذه السورة مكية وقد تقدم ذكر هذا في أولها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(143/370)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الناس قَدْ جَآءَكُمُ الحق ﴾

أي القرآن .

وقيل : الرسول صلى الله عليه وسلم .

﴿ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهتدى ﴾ أي صدّق محمداً وآمن بما جاء به .

﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ أي لخلاص نفسه .

﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ أي ترك الرسول والقرآن واتبع الأصنام والأوثان .

﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي وبال ذلك على نفسه .

﴿ وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي بحفيظ أحفظ أعمالكم إنما أنا رسول .

قال ابن عباس : نسختها آية السيف .

قوله تعالى : ﴿ واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ واصبر ﴾ قيل : نسخ بآية القتال .

وقيل : ليس منسوخاً ؛ ومعناه اصبر على الطاعة وعن المعصية .

وقال ابن عباس : لما نزلت " جمع النبيّ صلى الله عليه وسلم الأنصار ولم يجمع معهم غيرهم فقال : "إنكم ستجدون بعدي أَثَرَةً فاصبروا حتى تلقوني على الحوض" " وعن أنس بمثل ذلك ؛ ثم قال أنس : فلم يصبروا فأمرهم بالصبر كما أمره الله تعالى ؛ وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن حسان :

ألا أبلغ معاوية بن حرب . . .

أمير المؤمنين نَثَا كلامي

بأنا صابرون ومنظروكم . . .

إلى يوم التغابن والخصام

﴿ حتى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ ابتداء وخبر؛ لأنه عز وجل لا يحكم إلا بالحق. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(144/370)

وقال الخازن:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ﴾ يعني القرآن والإسلام وقيل الحق هو محمد (صلى الله عليه وسلم) جاء بالحق من الله ﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴾ لأن نفع ذلك يرجع إليه ﴿ ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ أي على نفسه لأن وباله راجع إليه فمن حكم الله له بالاهتداء في الأزل انتفع ومن حكم عليه بالضلالة ضل ولم ينتفع بشيء أبداً ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ يعني وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم وقال ابن عباس: هذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿ واتبع ما يوحى إليك ﴾ يعني الأمر الذي يوحيه الله إليك يا محمد ﴿ واصبر ﴾ يعني على أذى من خالفك من كفار مكة وهم قومك ﴿ حتى يحكم الله ﴾ يعني ينصرك عليهم بإظهار دينك ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى حكم بنصر نبيه وإظهار دينه

وبقتل المشركين وأخذ الجزية من أهل الكتاب ، وفيه ذلهم وصغارهم والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(145/370)

وقال أبو حيان :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

الحق : القرآن ، أو الرسول ، أو دين الإسلام ، ثلاثة أقوال والمعنى : فإنما ثواب هدايته حاصل له ، ووبال ضلاله عليه ، والهداية والضلال واقعان بإرادة الله تعالى من العبد ، هذا مذهب أهل السنة .

وأن من حكم له في الأزل بالاهتداء فسيقع ذلك ، وأنَّ من حكم له بالضلال فكذلك ولا حيلة في ذلك .

وقال القاضي : إنه تعالى بيّن أنه أكمل الشريعة وأزاح العلة وقطع المعذرة ، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ، فلا يجب عليّ من السعي في إيصالكم إلى الثواب العظيم ، وفي تخليصكم من العذاب الأليم ، أزيد مما فعلت .

وقال الزمخشري : لم يبق لكم عذر ولا على الله تعالى حجة ، فمن اختار الهدى واتباع الحق

فما نفع باختياره إلا نفسه ، ومن آثر الضلال فما ضر إلا نفسه .

واللام وعلى على معنى النفع والضر ، وكل إليهم الأمر بعد إزاحة العلل وإبانة الحق .

وفيه حث على إتيان الهدى واطراح الضلال مع ذلك ، وما أنا عليكم بوكيل بحفيظ موكول إليّ أمركم وحملكم على ما أريد ، إنما أنا بشير ونذير انتهى .

وكلامه تذييل كلام القاضي ، وهو جار على مذهب المعتزلة .

وأمره تعالى نبيه باتباع ما يوحى إليه أمر بالديمومة وبالصبر على ما ينالك في الله من أذى الكفار وإعراضهم ، وغيا الأمر بالصبر بقوله : حتى يحكم الله وهو وعد منه تعالى بإعلاء كلمته ونصره على أعدائه كما وقع .

وذهب ابن عباس وجماعة إلى أنّ قوله : وما أنا عليكم بوكيل واصبر ، منسوخ بآية السيف .

وذهب جماعة إلى أنه محكم ، وحملوا وما أنا عليكم بوكيل على أنه ليس بحفيظ على أعمالهم ليجازيهم عليها ، بل ذلك لله .

وقوله : واصبر على ، الصبر على طاعة الله وحمل أثقال النبوة وأداء الرسالة ، وعلى هذا لا تعارض بين هاتين الآيتين وبين آية السيف ، وإلى هذا مال المحققون .

وروي أنه لما نزلت : واصبر ، جمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الأنصار فقال : " إنكم ستجدون بعدي اثرة فاصبروا حتى تلقوني " قال الزمخشري : يعني أنّي أمرت في هذه الآية بالصبر على ما سامني الكفرة ، فصبرت واصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة .

قال أنس : فلم نصبر ، ثم ذكر حكاية جرت بين أبي قتادة ومعاوية رضي الله عنهما يوقف عليها من كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(147/370)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ ﴾ مخاطباً لأولئك الكفرةِ بعد ما بلّغتهم ما أوحيَ إليك ﴿ يا أيها الناس قَدْ جَاءكُمُ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ وهو القرآنُ العظيمُ المشتمِلُ على محاسن الأحكامِ التي من جملتها ما مر آنفاً من أصول الدينِ واطلعتم على ما في تضاعيفه من البينات والهدى ولم يبقَ عذرٌ ﴿ فَمَنُ اهتدى ﴾ بالإيمان به والعملِ بما في مطاويه ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ﴾ أي منفعةُ اهتدائِه لها خاصة ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ بالكفر به والإعراض عنه ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾

أي فوبالُ الضلالِ مقصورٌ عليها ، والمرادُ تنزيهُ ساحةِ الرسالةِ عن شائبة غرضٍ عائد إليه عليه السلام من جلب نفعٍ أو دفع ضرَ كما يلوح به إسنادُ المجيء إلى الحق من غير إشعارٍ بكون ذلك بواسطته ﴿ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ بحفيظ موصولٍ إلى أمركم وإنما أنا بشيرٌ ونذير .

﴿ واتبع ﴾ اعتقاداً وعملاً وتبليغاً ﴿ مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾ على نهج التجددِ والاستمرارِ من الحق المذكورِ المتأكّدِ يوماً فيوماً ، وفي التعبير عن بلوغه إليهم بالمجيء وإليه عليه السلام بالوحي تنبيهٌ على ما بين المرتبتين من التنائي ﴿ واصبر ﴾ على ما يعتريك من مشاقِّ التبليغِ ﴿ حتى يَحْكُمَ الله ﴾ بالنُصرة عليهم أو بالأمر بالقتال ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه لاطّلاعه على السرائر اطّلاعَه على الظواهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(148/370)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ يا أيها الرسول مخاطباً لأولئك الكفرة بعد ما بلغتهم ما أوحى إليك أو للمكلفين

مطلقاً كما قال الطبرسي ﴿ قُلْ يا أيها الناس قَدْ جَاءكُمُ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ وهو القرآن العظيم الظاهر الدلالة المشتمل على محاسن الأحكام التي من جملتها ما مر آنفا من أصول الدين واطلعتم على ما في تضاعيفه من البينات والهدى ولم يبق لكم عذر ، وقيل : المراد من الحق النبي صلى الله عليه وسلم وفيه من المبالغة ما لا يخفى .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد أن ﴿ الحق ﴾ هو ما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ يُمْسِكُ ﴾ [يونس : 107] الخ وهو كما ترى ﴿ فَمَنُ اهتدى ﴾ بالإيمان والمتابعة ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ﴾ أي منفعة اهتدائه لها ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ بالكفر والاعراض ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي فوبال ضلاله عليها ، قيل : والمراد تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد إليه عليه الصلاة والسلام من جلب نفع ودفع ضر ، ويلوح إليه إسناد المجيء إلى الحق من غير اشعار بكون ذلك بواسطته صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي بحفيظ موكول إلى أمركم وإنما أنا بشير ونذير ، وفي الآية إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام لا يجبرهم على الإيمان ولا يكرههم عليه وإنما عليه البلاغ ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها منسوخة بآية السيف .

(149/370)

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾

﴿ واتبع ﴾ في جميع شؤونك من الاعتقاد والعمل والتبليغ ﴿ مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾ على نهج التجدد والاستمرار ، والتعبير عن بلوغ الحق المفسر بالقرآن إليهم بالمجيء وإليه صلى الله عليه وسلم بالوحي تنبيه على ما بين المرتبتين من التنافي ، وإذا أريد من الحق ما قيل فالأمر ظاهر جداً ﴿ واصبر ﴾ على ما يعتريك من مشاق التبليغ وأذى من ضل ﴿ حتى يَحْكُمَ الله ﴾ بالنصرة عليه أو بالأمر بالقتال ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه تعالى لاطلاعه على السرائر كاطلاعه على الظواهر ، وغيره جل شأنه من الحاكمين إنما يطلع على الظواهر فيقع الخطأ في حكمه ، ولا يخفى ما في هذه الآيات من الموعظة الحسنة وتسلية النبي صلى الله عليه وسلم ووعد للمؤمنين والوعيد للكافرين والحمد لله تعالى رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين الذي يؤنس ذكره قلوب الموحدين وعلى آله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(150/370)

وقال صاحب المنار :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

هَذَا النِّدَاءُ خَاتِمَةُ الْبَلَاغِ لِلنَّاسِ كَافَّةً ، بِمُقْتَضَى بِعْثَةِ الرَّسُولِ الْعَامَّةِ ، وَهُوَ إِجْمَالٌ لِمَا فُصِّلَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَسَائِرِ السُّوَرِ الْمُبَارَكَةِ .

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ) أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ مُخَاطِبًا لِجَمِيعِ الْبَشَرِ ، مَنْ حَضَرَ مِنْهُمْ فَسَمِعَ هَذِهِ الدَّعْوَةَ مِنْكَ ، وَمَنْ سَتَبْلُغُهُ عَنْكَ : قَدْ

(151/370)

جَاءَكُمُ الْحَقُّ الْمُبَيِّنُ لِحَقِيقَةِ الدِّينِ مِنْ رَبِّكُمْ ، بِوَحْيِهِ إِلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ ، وَهُوَ الَّذِي افْتُتِحَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِهِ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا الْحَقُّ مَجْهُولًا خَفِيًّا عَنْكُمْ ، بِمَا جَهِلَ بَعْضُكُمْ مِنْ دَعْوَةِ الرُّسُلِ الْأَقْدَمِينَ ، وَمَا حَرَّفَ بَعْضُكُمْ وَجَهِلَ وَبَدَّلَ وَتَأَوَّلَ مِنْ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ ، وَفَصَّلَهُ لَكُمْ هَذَا الْكِتَابُ الْعَرَبِيُّ الْمُبِينُ (فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ) أَيْ فَمَنِ اهْتَدَى بِمَا جَاءَ بِهِ هَذَا الرَّسُولُ فِي هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، فَإِنَّمَا فَائِدَةُ اهْتِدَائِهِ لِنَفْسِهِ ؛ لِأَنَّهُ يَنَالُ بِهِ السَّعَادَةَ فِي دُنْيَاهُ وَدِينِهِ ، دُونَ عَمَلِ غَيْرِهِ ، وَلَا فِدَائِهِ وَلَا تَأْثِيرِهِ (وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) أَيْ وَمَنْ ضَلَّ عَنْ هَذَا الْحَقِّ بِإِعْرَاضِهِ عَنْ آيَاتِهِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ، وَحُجَجِهِ فِيهِ بِآيَاتِهِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ ، فَإِنَّمَا وَبَالُ ضَلَالِهِ عَلَى نَفْسِهِ بِمَا يَفُوتُهُ مِنْ فَوَائِدِ الِاهْتِدَاءِ فِي الدُّنْيَا ، وَمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى كُفْرِهِ وَجَرَائِمِهِ

فِي الْآخِرَةِ (وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) أَيْ وَمَا أَنَا بِمُوَكَّلٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ بِأُمُورِكُمْ ، وَلَا مُسَيْطِرٍ عَلَيْكُمْ فَأُكْرِهَكُمْ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَأَمْنَعَكُمْ بِقُوَّتِي مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ ، وَلَيْسَ عَلَيَّ هُدَاكُمْ ، وَلَا أَمْلِكُ نَفْعَكُمْ وَلَا ضَرَّكُمْ ، وَإِنَّمَا أَنَا بَشِيرٌ لِمَنِ اهْتَدَى ، وَنَذِيرٌ لِمَنْ ضَلَّ وَغَوَى ، وَقَدْ أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ .

(152/370)

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ) فِي هَذَا الْقُرْآنِ عِلْمًا وَعَمَلًا وَتَعْلِيمًا (وَاصْبِرْ) كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ عَلَى مَا يُصِيبُكَ مِنَ الْأَذَى فِي ذَاتِ اللهِ ، وَالْجِهَادِ بِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ (حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ) بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمُكَذِّبِينَ ، وَيُنْجِزَ لَكَ مَا وَعَدَكَ ، (وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) أَيْ كُلُّ مَنْ يَقَعُ مِنْهُمْ حُكْمٌ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَحْكُمُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَغَيْرُهُ قَدْ يَحْكُمُ بِالْبَاطِلِ لِجَهْلِهِ الْحَقَّ أَوْ لِمُخَالَفَتِهِ لَهُ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى . وَقَدِ امْتَثَلَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَمْرَ رَبِّهِ ، وَصَبَرَ حَتَّى حَكَمَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ ، وَأَنْجَزَ وَعْدَهُ لَهُ وَلِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَاسْتَخْلَفَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمُ الْأَئِمَّةَ الْوَارِثِينَ ، مُدَّةَ إِقَامَتِهِمْ لِهَذَا الدِّينِ ، فَجَزَاهُ اللهُ عَنْ أُمَّتِهِ أَفْضَلَ مَا جَزَى نَبِيًّا عَنْ قَوْمِهِ ، وَجَعَلَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ كِتَابِ رَبِّهِ ، وَسُنَّتِهِ الْمُبَيِّنَةِ لَهُ ، عِلْمًا وَعَمَلًا ، وَإِرْشَادًا وَتَعْلِيمًا ، وَصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحَابَتِهِ وَمَنِ اتَّبَعَهُ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

(تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ يُونُسَ بِفَضْلِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ تَفْصِيلًا)

وَيَلِيهِ بَيَانُ مَا فِيهَا مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْقَوَاعِدِ إِجْمَالًا

الْخُلَاصَةُ الْإِجْمَالِيَّةُ لِسُورَةِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَفِيهَا سِتَّةُ أَبْوَابٍ

(153/370)

(جَمِيعُ آيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي أُصُولِ عَقَائِدِ الْإِسْلَامِ الَّتِي كَانَ يُنْكِرُهَا مُشْرِكُو الْعَرَبِ ، وَهِيَ : تَوْحِيدُ اللهِ تَعَالَى ، وَالْوَحْيُ وَالرِّسَالَةُ ، وَالْبَعْثُ وَالْجَزَاءُ ، وَمَا يُنَاسِبُ هَذِهِ الثَّلَاثَ وَيُمِدُّهَا مِنْ صِفَاتِهِ تَعَالَى وَأَفْعَالِهِ وَتَنْزِيهِهِ وَآيَاتِهِ وَسُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ ، وَشُؤُونُ الْبَشَرِ فِي صِفَاتِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، وَمُحَاجَّةُ مُشْرِكِي مَكَّةَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَلَا سِيَّمَا هِدَايَةِ الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وَالْعِبْرَةُ بِأَحْوَالِ الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ ، فَهِيَ كَسُورَةِ الْأَنْعَامِ فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ إِلَّا أَنَّهَا أَكْثَرُ مِنْهَا وَمِنْ سَائِرِ السُّوَرِ إِثْبَاتًا لِلْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ ، وَتَحَدِّيًا بِالْقُرْآنِ وَبَيَانًا لِإِعْجَازِهِ وَحَقِّيَّتِهِ وَصِدْقِ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ، وَهَذِهِ الْمَقَاصِدُ أَوِ الْعَقَائِدُ مُكَرَّرَةٌ فِيهَا بِالْأُسْلُوبِ الْبَدِيعِ ، وَالنَّظْمِ الْبَلِيغِ ، بِحَيْثُ يَحْدُثُ فِي نَفْسِ سَامِعِهَا وَقَارِئِهَا أَرْوَعُ الْإِقْنَاعِ وَالتَّأْثِيرِ ، مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ بِمَا فِيهِ مِنَ التَّكْرِيرِ ، وَإِنَّنِي أُوجِزُ فِي

تَلْخِيصِ هَذِهِ الْأُصُولِ فِي أَبْوَابِهَا ؛ لِمَا سَبَقَ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ بَسْطِهَا فِي مَبَاحِثِ الْوَحْيِ مِنْ تَفْسِيرِ أَوَّلِ السُّورَةِ ، وَلَا سِيَّمَا مَسَائِلِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ ، وَإِثْبَاتِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الَّتِي امْتَازَتْ بِهَا عَلَى سَائِرِ السُّوَرِ) .

الْبَابُ الْأَوَّلُ

(154/370)

(فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَصِفَاتِ عَظَمَتِهِ وَعُلُوِّهِ ، وَتَدْبِيرِهِ لِأُمُورِ عِبَادِهِ ، وَتَصَرُّفِهِ فِيهِمْ وَفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ ، وَعِلْمِهِ بِشُؤُونِهِمْ ، وَتَنْزِيهِهِ عَنْ ظُلْمِهِمْ ، وَعَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ أَوْهَامِهِمْ ، وَفِي آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى مَا ذُكِرَ كُلِّهِ وَفِيهِ ثَلَاثَةُ فُصُولٍ)

(الْفَصْلُ الْأَوَّلُ : فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ)

أَجْمَعُ الْآيَاتِ فِي هَذَا التَّوْحِيدِ الْآيَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، الَّتِي خَاطَبَتِ النَّاسَ بِأَنَّ رَبَّهُمْ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَطْوَارًا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ أَيْ أَزْمِنَةٍ ، تَمَّ فِيهَا خَلْقُهَا وَتَكْوِينُهَا فَكَانَتْ مُلْكًا عَظِيمًا ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى عَرْشِ هَذَا الْمُلْكِ الِاسْتِوَاءَ اللَّائِقَ بِهِ ، الدَّالَّ عَلَى عُلُوِّهِ الْمُطْلَقِ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَإِحَاطَتِهِ بِهِ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَتَدْبِيرِ الْأَمْرِ فِيهِ بِمَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ، بِغَيْرِ حَدٍّ وَلَا تَشْبِيهٍ ، وَلَا شَرِيكٍ لَهُ فِي الْخَلْقِ

وَالتَّقْدِيرِ ، وَلَا فِي التَّصَرُّفِ وَالتَّدْبِيرِ ، مَا مِنْ شَفِيعٍ عِنْدَهُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ، فَلَهُ وَحْدَهُ الْأَمْرُ ، وَبِيَدِهِ النَّفْعُ وَالضُّرُّ .

بَعْدَ تَقْرِيرِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ قَالَ تَعَالَى مُحْتَجًّا بِهَا عَلَى تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ : (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ) 3 أَيْ فَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ ، وَلَا تَعْبُدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ بِطَلَبِ شَفَاعَةٍ وَلَا دُعَاءٍ

(155/370)

وَلَا مَا دُونَهُمَا مِنْ مَظَاهِرِ الْعِبَادَةِ ; إِذْ لَا رَبَّ لَكُمْ غَيْرُهُ ، وَإِنَّمَا تَجِبُ الْعِبَادَةُ لِرَبِّ الْعِبَادِ دُونَ غَيْرِهِ . وَاسْتَدَلَّ عَلَى تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ بِمَا فِي الْآيَاتِ 3 - 6 مِنَ الْآيَاتِ (الدَّلَائِلِ) الْكَوْنِيَّةِ .

ثُمَّ عَادَ إِلَى تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ وَهُوَ الْعِبَادَةُ الْخَاصَّةُ فِي الْآيَةِ : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) (18) وَدَحَضَ هَذَا الْقَوْلَ مُنَزِّهًا نَفْسَهُ عَنْ هَذَا الشِّرْكِ .

ثُمَّ احْتَجَّ عَلَى بُطْلَانِ شِرْكِهِمْ هَذَا بِمَا فِي الْآيَتَيْنِ 22 و23 مِنْ ضَرْبِ مَثَلٍ لَهُمْ يَعْرِفُونَهُ بِالتَّجْرِبَةِ ; لِوُقُوعِهِ لِكَثِيرٍ مِنْهُمْ فِي أَزْمِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ إِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ وَعَصَفَتْ بِهِمُ الرِّيحُ ، وَهَاجَ بِهِمُ الْبَحْرُ وَأَشْرَفُوا عَلَى الْهَلَاكِ ، يَدْعُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ،

وَيَنْسَوْنَ عِنْدَ شِدَّةِ الْخَطَرِ مَا كَانُوا يُشْرِكُونَ بِهِ مِنَ الشُّفَعَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ .

ثُمَّ عَادَ إِلَى التَّذْكِيرِ بِالْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الرُّبُوبِيَّةِ فِي الْآيَاتِ 31 - 36 وَإِلَى تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ فِي الْآيَةِ : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) (49) .

(156/370)

ثُمَّ عَادَ إِلَى التَّذْكِيرِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ فِي سِيَاقٍ آخَرَ فَبَيَّنَ فِي الْآيَةِ 55 أَنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَأَنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَتَّبِعُونَ شُرَكَاءَ لِلَّهِ إِذْ لَا شُرَكَاءَ لَهُ ، مَا يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَالْخَرْصَ .

ثُمَّ بَيَّنَ فِي الْآيَتَيْنِ 71 و85 أَنَّ كَمَالَ التَّوْحِيدِ فِي التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ .

وَمِنْ شُئُونِ الرَّبِّ وَحَقِّهِ عَلَى عِبَادِهِ التَّشْرِيعُ الدِّينِيُّ ، وَقَدْ بَيَّنَ فِي الْآيَةِ 15 وَالْآيَةِ 109 أَنَّ الرَّسُولَ مُتَّبِعٌ لِمَا يُوحَى إِلَيْهِ عَمَلًا وَتَبْلِيغًا ، لَا مُشَرِّعٌ مُسْتَقِلٌّ فِيهِ وَلَا مُتَحَوِّلٌ عَنْهُ .

وَفِي الْآيَتَيْنِ 59 و60 أَنَّ جَمِيعَ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ وَأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّزْقِ فَهُوَ حَلَالٌ لَهُمْ ، لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ حَقٌّ أَنْ يُحَرِّمَهُ عَلَيْهِمْ لِذَاتِهِ تَحْرِيمًا دِينِيًّا . وَأَنَّ مَنْ تَحَكَّمَ فِيهِ بِالتَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ فَهُوَ مُعْتَدٍ عَلَى حَقِّهِ تَعَالَى مُفْتَرٍ عَلَيْهِ .

(الْفَصْلُ الثَّانِي : فِي صِفَاتِ الذَّاتِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَشِيئَةِ وَالْعِزَّةِ وَالرَّحْمَةِ)

أَمَّا الْعِلْمُ فَحَسْبُكَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ) (61) إِلَخْ . فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا وَتَأَمَّلْ عَجَائِبَ بَلَاغَتِهَا ، وَإِحَاطَتَهَا بِعَظَائِمِ الْأُمُورِ وَصَغَائِرِهَا ، وَظَوَاهِرِ الْأَعْمَالِ وَخَفَايَاهَا ، وَذَرَّاتِ الْوُجُودِ قَرِيبِهَا وَبَعِيدِهَا جَلِيِّهَا وَخَفِيِّهَا ، وَمَا تُدْرِكُهُ الْمَشَاعِرُ وَمَا لَا تُدْرِكُهُ مِنْ خَلَايَا مَرْكَبَاتِهَا وَدَقَائِقِ بَسَائِطِهَا . وَتَدَبَّرْ تَعَلُّقَ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى بِهَا كُلِّهَا ، وَكِتَابَتَهُ لَهَا مِنْ قَبْلِ إِيجَادِهَا ، وَشُهُودَهُ إِيَّاكَ فِي كُلِّ مَا تَكُونُ فِيهِ مِنْهَا ، تَجِدْهُ رَافِعًا لَكَ إِلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانِ .

ثُمَّ تَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي الَّذِينَ يُشْرِكُونَ بِاللهِ غَيْرَهُ بِمَا يَرْجُونَ مِنْ نَفْعِهِمْ لَهُمْ ، وَكَشْفِهِمُ الضُّرَّ عَنْهُمْ بِشَفَاعَتِهِمْ عِنْدَهُ تَعَالَى مِنَ الْآيَةِ: (قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) (18) تَعْلَمْ مِقْدَارَ جَهْلِ الْإِنْسَانِ وَجِنَايَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ ، بِمَا يَقُولُهُ عَلَى اللهِ تَعَالَى بِغَيْرِ عِلْمٍ ، مِنْ تَصْغِيرِ أَمْرِ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَالشِّرْكِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ بِالتَّوَجُّهِ فِي الدُّعَاءِ وَالرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ إِلَى غَيْرِهِ تَعَالَى بِمَا هُوَ عَيْنُ الشِّرْكِ بِهِ كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا .

وَأَمَّا صِفَةُ الْمَشِيئَةِ فَتَأَمَّلْ فِيهَا أَمْرَهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ الْأَعْظَمِ فِي الْآيَةِ : (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ) (16) إلَخْ . وَفِي الْآيَةِ : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) (49) تَعْلَمْ مِنْهُ قَدْرَ إيمَانِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِمَشِيئَةِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ انْظُرْ قَوْلَهُ تَعَالَى لَهُ : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا) (99) تَعْلَمْ مِنْهُ كَيْفَ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَخْلُقَ الْمُكَلَّفِينَ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مُخْتَلِفِي الِاسْتِعْدَادِ لِلْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَأَنَّ مَا وَهَبَهُ مِنَ الْمَشِيئَةِ وَالِاسْتِطَاعَةِ لِأَعْظَمِهِمْ قَدْرًا وَفَضْلًا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ مُقْتَضَى مَشِيئَتِهِ وَسُنَنِهِ فِي نِظَامِ خَلْقِهِ ، وَيُؤَكِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَهُ : (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) (100) وَهُوَ بَيَانٌ لِسُنَّتِهِ الَّتِي اقْتَضَتْهَا مَشِيئَتُهُ فِي اخْتِيَارِهِمْ لِكُلٍّ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ ، وَمَا يَسْتَلْزِمَانِ مِنْ عَمَلِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ .

(159/370)

وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُ فِيمَا يُصِيبُهُمْ مِنْ ضُرٍّ وَنَفْعٍ وَخَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَكَوْنِ كُلٍّ مِنْهُمَا بِالْأَسْبَابِ الْمُقَيَّدَةِ بِسُنَنِهِ فِي الْخَلْقِ بِمُقْتَضَى إرَادَتِهِ : (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إلَّا هُوَ) (107) الْآيَةَ : فَلَا يَقْدِرُ الْأَوْلِيَاءُ وَمَنْ يُسَمُّونَهُمُ الشُّفَعَاءَ عَلَى النَّفْعِ وَلَا عَلَى الضُّرِّ مِنْ غَيْرِ أَسْبَابِهِمَا الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَ جَمِيعِ النَّاسِ ، وَإِنَّمَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ وَاضِعُ السُّنَنِ وَالْأَسْبَابِ وَحْدَهُ ،

وَالْمُرَادُ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْآيَاتِ سَدُّ ذَرَائِعِ الشِّرْكِ وَإِعْتَاقُ الْبَشَرِ مِنْ رِقِّهِ ، بِاعْتِمَادِهِمْ فِي أُمُورِهِمْ عَلَى مَا وَهَبَهُمْ مِنَ الْقُوَى ، وَطَلَبُ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِهِ الَّتِي سَخَّرَهَا اللهُ لَهُمْ ، وَالتَّوَجُّهُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ فِي تَسْخِيرِ مَا يَعْجِزُونَ عَنْهُ ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ نَرَى مَنْ سَرَتْ إِلَيْهِمْ عَدْوَى الْوَثَنِيَّةِ مِنْ أَهْلِهَا ، يَتَوَجَّهُونَ إِلَى غَيْرِهِ تَعَالَى مِنَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ الْمُعْتَقَدِينَ فِيمَا لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ بِكَسْبِهِمْ ، وَفِيمَا هُوَ مِنْ كَسْبِهِمْ أَيْضًا . وَلَكِنَّهُمْ يَجْهَلُونَ قُدْرَتَهُمْ أَوْ قُدْرَةَ أَمْثَالِهِمْ كَالْأَطِبَّاءِ عَلَيْهِ ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ مُعْتَقَدِيهِمْ – الْمُتَصَرِّفِينَ فِي الْكَوْنِ بِزَعْمِهِمْ – أَقْرَبُ مَنَالًا ، كَمَا بَسَطْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ كُلِّ هَذِهِ الْآيَاتِ وَأَمْثَالِهَا مُكَرَّرًا اتِّبَاعًا لِكِتَابِهِ تَعَالَى .

(160/370)

وَأَمَّا صِفَةُ الْعِزَّةِ فَلَيْسَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ذِكْرٌ لَهَا إِلَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (65) وَمَعْنَاهَا الْمَنَعَةُ وَالْقُوَّةُ الَّتِي شَأْنُهَا أَنْ يَغْلِبَ صَاحِبُهَا وَلَا يُغْلَبَ عَلَى أَمْرِهِ ، وَيَنَالَ خَصْمُهُ مِنْهُ . وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَعْتَزُّونَ بِكَثْرَتِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ وَثَرْوَتِهِمْ تُجَاهَ قِلَّةِ الْمُؤْمِنِينَ وَضَعْفِهِمْ وَفَقْرِهِمْ ، فَيَطْعَنُونَ فِي الرَّسُولِ وَفِي الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ فَيَحْزُنُهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَا يَقُولُونَ ، فَنَهَاهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ هَذَا الْحُزْنِ وَعَلَّلَهُ بِأَنَّ الْعِزَّةَ الْحَقَّ هِيَ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، فَهُوَ يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَقَدْ كَتَبَهَا لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ كَمَا

بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ ذَكَرَ السَّمْعَ وَالْعِلْمَ ؛ لِتَذْكِيرِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِسَمْعِهِ تَعَالَى لِأَقْوَالِهِمْ ، كَإِحَاطَتِهِ عِلْمًا بِأَعْمَالِهِمْ ، فَهُوَ قَدِيرٌ عَلَى إِعْزَازِهِ وَإِذْلَالِهِمْ .

وَأَمَّا صِفَةُ الرَّحْمَةِ فَقَدْ جَاءَتْ مُقْتَرِنَةً بِالْمَغْفِرَةِ فِي فَاصِلَةِ الْآيَةِ 107 النَّاطِقَةِ بِانْفِرَادِهِ تَعَالَى بِكَشْفِ الضُّرِّ وَإِرَادَةِ الْخَيْرِ كَمَا تَقَدَّمَ .

(161/370)

وَذُكِرَتِ الرَّحْمَةُ بِآثَارِهَا وَمُتَعَلَّقَاتِهَا فِي الرِّزْقِ مِنَ الْآيَةِ 21 . وَفِي خَصَائِصِ الْقُرْآنِ التَّشْرِيعِيَّةِ مِنَ الْآيَةِ 57 وَفِيمَا يَعُمُّهُمَا مِنَ الْآيَةِ 58 وَفِي التَّنْبِيهِ مِنَ الظُّلْمِ وَحُكْمِ الْكَافِرِينَ فِي الْآيَةِ 86 فَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يَعُمَّنَا بِأَنْوَاعِ رَحْمَتِهِ كُلِّهَا وَيَجْعَلَنَا مِنَ الشَّاكِرِينَ .

(الْفَصْلُ الثَّالِثُ : فِي تَقْدِيسِهِ تَعَالَى وَتَنْزِيهِهِ وَغِنَاهُ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ)

نَزَّهَ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ فِي مَوَاضِعَ : (أَوَّلُهَا) أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ شُفَعَاءُ يَنْفَعُونَ مَنْ يَشْفَعُونَ لَهُمْ أَوْ يَكْشِفُونَ الضُّرَّ عَنْهُمْ ، فَيَكُونَ لِتَأْثِيرِهِمْ شِرْكٌ فِي أَفْعَالِهِ تَعَالَى .

وَهَذِهِ شُبْهَةُ شِرْكِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ ، وَقَدْ فَشَا فِي أَكْثَرِ النَّصَارَى وَكَذَا جُهَلَاءِ الْمُسْلِمِينَ كَمَا بَيَّنَّاهُ تَكْرَارًا ، وَهُوَ نَصُّ قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ 18 : (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

وَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الشِّرْكِ أَيْضًا بِقَوْلِهِ : (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ) (68) الْآيَةَ .

وَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَبَيَّنَ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي الْآيَاتِ 44 و47 و52 و54 .

(الْفَصْلُ الرَّابِعُ : فِي أَفْعَالِهِ تَعَالَى وَآيَاتِهِ فِي التَّقْدِيرِ وَالتَّدْبِيرِ وَالرِّزْقِ)

وَنُجْمِلُهَا فِي عِشْرِينَ مَسْأَلَةً

(1) خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، أَيْ أَزْمِنَةٍ يُحَدِّدُ كُلًّا مِنْهَا طَوْرٌ مِنْ أَطْوَارِ التَّكْوِينِ .

(162/370)

---

(2) اسْتِوَاؤُهُ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا الْخَلْقِ عَلَى عَرْشِهِ يُدَبِّرُ أَمْرَ مُلْكِهِ ، وَالْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّ لِلْعَالَمِ فِي جُمْلَتِهِ عَرْشًا هُوَ مَرْكَزُ التَّدْبِيرِ وَالنِّظَامِ الْعَامِّ لَهُ . (رَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَةِ الثَّالِثَةِ فِي بَيَانِهِمَا وَمَا نُحِيلُ عَلَيْهِ فِي مَعْنَاهُمَا) .

(3) بَدْءُ الْخَلْقِ ثُمَّ إِعَادَتُهُ فِي الْآيَتَيْنِ 4 و34 .

(4 – 6) جَعْلُ الشَّمْسِ ضِيَاءً وَالْقَمَرِ نُورًا وَتَقْدِيرُهُ مَنَازِلَ وَحِكْمَةُ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ الْخَامِسَةِ

.

(7) اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي الْآيَةِ السَّادِسَةِ ، وَبَيَانُ حِكْمَةِ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ 67 .

(8) مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي زِينَتِهَا وَغُرُورِ النَّاسِ بِهَا وَزَوَالِهَا فِي الْآيَةِ 24 .

(9) إِنْزَالُ الرِّزْقِ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فِي الْآيَتَيْنِ 31 و59 .

(10) مِلْكُ السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ فِي 31 أَيْضًا .

(11) إِخْرَاجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَالْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ فِيهَا (31) .

(12) تَدْبِيرُ أَمْرِ الْخَلْقِ فِي الْآيَتَيْنِ 3 و31 .

(13) كَوْنُ خَلْقِهِ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ضِيَاءً وَنُورًا وَحُسْبَانًا بِالْحَقِّ لَا عَبَثًا ، فِي الْآيَةِ 5 .

(14) هِدَايَتُهُ تَعَالَى إِلَى الْحَقِّ ، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ فِي الْآيَتَيْنِ 35 و36 ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فِي 32 ، وَأَنَّهُ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ فِي 82 .

(15) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، أَيْ مِنْ غَيْرِ الْعُقَلَاءِ فِي الْآيَةِ 55 .

(16) لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْعُقَلَاءِ فِي الْآيَةِ 66 .

(17) الْأَمْرُ بِنَظَرِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالِاعْتِبَارِ بِهِمَا فِي الْآيَةِ 101 .

(18) سُرْعَةُ مَكْرِهِ تَعَالَى مِنْ إِحْبَاطِ مَكْرِ الْمَاكِرِينَ ، وَالْإِمْلَاءُ لِلظَّالِمِينَ ، فِي الْآيَةِ 21 .

(19 و20) تَسْيِيرُهُ تَعَالَى لِلنَّاسِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَإِنْجَاؤُهُمْ مِنَ الْغَرَقِ بَعْدَ الْيَأْسِ فِي الْآيَتَيْنِ 22 ، 33 .

فَهَذِهِ الْآيَاتُ الْمُنَزَّلَةُ ، وَالْمُرْشِدَةُ إِلَى النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ ، تَدُلُّ عَلَى عِنَايَةِ هَذَا الدِّينِ بِالْعِلْمِ بِكُلِّ مَا خَلَقَ اللهُ ، وَمَا أَوْدَعَ فِيهِ مِنَ الْحِكَمِ وَالْمَنَافِعِ لِلنَّاسِ ، لِيَزْدَادُوا فِي كُلِّ يَوْمٍ عِلْمًا بِدُنْيَاهُمْ ، وَعِرْفَانًا وَإِيمَانًا بِرَبِّهِمْ ، كُلَّمَا رَتَّلُوا كِتَابَهُ ، وَتَدَبَّرُوا آيَاتِهِ : (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (38 : 29) فَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ خِيَارِهِمْ وَأَبْرَارِهِمْ .

الْبَابُ الثَّانِي

فِي الْوَحْيِ الْمُحَمَّدِيِّ وَهُوَ الْقُرْآنُ

الْقُرْآنُ مِنْ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى ، وَإِنَّمَا فَتَحْنَا لَهُ بَابًا خَاصًّا وَلَمْ نَذْكُرْهُ فِي صِفَاتِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْبَابِ الْأَوَّلِ ؛ لِأَنَّ مَا وَرَدَ فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ لَيْسَ مِنْ نَاحِيَةِ كَوْنِهِ صِفَةً لَهُ ، بَلْ مِنْ نَاحِيَةِ كَوْنِهِ كِتَابًا مُنَزَّلًا مِنْ عِنْدِهِ لِهِدَايَةِ خَلْقِهِ . وَعَقِيدَةُ الْإِيمَانِ بِكُتُبِهِ تَعَالَى فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِهِ وَالْإِيمَانِ بِرُسُلِهِ ، وَنُلَخِّصُ مَا يَخْتَصُّ بِالْقُرْآنِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ فِي عَشْرِ مَسَائِلَ .

(1) افْتَتَحَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ بِالْإِشَارَةِ إِلَى كِتَابِهِ الْحَكِيمِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى مِنْهَا ، وَثَنَّى فِي الَّتِي تَلِيهَا بِالْإِنْكَارِ عَلَى النَّاسِ عَجَبَهُمْ مِنْ وَحْيِهِ إِلَى بَشَرٍ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ هَادِيًا لَهُمْ نَذِيرًا وَبَشِيرًا . وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ دَلَائِلَ هَذَا الْوَحْيِ بِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ اللَّفْظِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ ، وَتَفْنِيدَ شُبُهَاتِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُ وَحْيٌ فَاضَ مِنْ نَفْسِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَعَقْلِهِ الْبَاطِنِ عَلَى لِسَانِهِ بِإِسْهَابٍ وَإِطْنَابٍ ، فَكَانَ ذَلِكَ مُصَنَّفًا مُسْتَقِلًّا مُسْتَنْبَطًا مِنْ جُمْلَةِ الْقُرْآنِ وَعُلُومِهِ وَتَأْثِيرِهِ فِي الْعَالَمِ ، فَنُشِيرُ إِلَى مَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْهُ بِالْإِيجَازِ .

(2) فِي الْآيَةِ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ مِنْهَا اقْتِرَاحُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَأْتِيَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا الْقُرْآنِ أَوْ أَنْ يُبَدِّلَهُ ، وَمَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُجِيبَهُمْ بِهِ مِنْ عَجْزِهِ عَنْ تَبْدِيلِهِ أَوِ الْإِتْيَانِ بِغَيْرِهِ ، وَكَوْنِهِ لَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِهِ فِيهِ إِلَّا اتِّبَاعَ مَا يُوحَى إِلَيْهِ مِنْ تَبْلِيغِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ (وَمِثْلُهُ فِي آخِرِ السُّورَةِ) .

(165/370)

(3 و4) فِي الْآيَةِ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا بَلَّغَهُمْ هَذَا الْقُرْآنَ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى وَتَسْخِيرِهِ ، فَلَوْ شَاءَ تَعَالَى أَلَّا يَتْلُوَهُ عَلَيْهِمْ لَمَا تَلَاهُ ، وَلَوْ شَاءَ تَعَالَى أَلَّا

يُدْرِيهِمْ وَلَا يُعْلِمُهُمْ بِهِ لَمَا أَدْرَاهُمْ : فَهُوَ الَّذِي أَقْرَأَهُ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَارِئًا : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ) (96 : 1) وَ (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى) (87 : 6) وَهُوَ الَّذِي عَلَّمَهُ وَجَعَلَهُ مُعَلِّمًا (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ) (4 : 113) وَ (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) (42 : 52) إِلَخْ .

(166/370)

---

(5) أَنَّهُ أَيَّدَ هَذَا بِالْحُجَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الْقَاطِعَةِ ، وَهُوَ أَنَّهُ قَدْ لَبِثَ فِيهِمْ عُمُرًا طَوِيلًا مِنْ قَبْلِهِ ، وَهُوَ سِنُّ الْإِدْرَاكِ وَالصِّبَا فَالشَّبَابِ حَتَّى بَلَغَ أُشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، لَا يَقْرَأُ وَلَا يُقْرِئُ ، وَلَا يَتَعَلَّمُ وَلَا يُعَلِّمُ ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِهَا (أَيِ الْآيَةِ 16) أَنَّهُ ثَبَتَ عِنْدَ حُكَمَاءِ التَّارِيخِ بِالتَّجَارِبِ وَالِاسْتِقْرَاءِ أَنَّ جَمِيعَ مَعَارِفِ الْبَشَرِ الْكَسْبِيَّةِ وَاسْتِعْدَادَهُمْ لِلْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، إِنَّمَا يَظْهَرَانِ وَيَبْلُغَانِ أَوْجَ قُوَّتِهِمَا مِنَ النَّشْأَةِ الْأُولَى إِلَى مُنْتَصَفِ الْعُشْرِ الثَّالِثِ مِنَ الْعُمُرِ ، وَلَا يَكُونُ بَعْدَهُ إِلَّا التَّمْحِيصُ وَالتَّكْمِيلُ وَمُحَمَّدٌ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ عِلْمٌ وَلَا بَيَانٌ وَلَا عَمَلٌ إِصْلَاحِيٌّ عَامٌّ دِينِيٌّ أَوْ دُنْيَوِيٌّ إِلَّا بِهَذَا الْوَحْيِ الَّذِي فُوجِئَ بِهِ بَعْدَ اسْتِكْمَالِ الْأَرْبَعِينَ ، وَيَلِيهَا فِي الْآيَةِ 17 أَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ ظُلْمًا لِنَفْسِهِ مَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَأَنَّهُ مِنَ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ لَا يُفْلِحُونَ ، فَهَلْ يَرْتَكِبُ هَذَا الظُّلْمَ مَنْ يَعْلَمُ هَذَا ؟ وَلِمَاذَا يَرْتَكِبُهُ وَقَدْ

عَرَفَ قُبْحَهُ كَبِيرًا ، بَعْدَ أَنْ نَشَأَ عَلَى الْتِزَامِ الصِّدْقِ صَغِيرًا ، وَاشْتُهِرَ بِهِ وَبِالْوَفَاءِ عِنْدَ الْمُعَاشِرِينَ ، حَتَّى لَقَّبُوهُ بِالْأَمِينِ ؟ .

(6) فِي الْآيَةِ الثَّامِنَةِ وَالثَّلَاثِينَ حِكَايَةٌ عَنِ الْمُشْرِكِينَ : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ)

(167/370)

وَأَمْرُهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ بِتَحَدِّيهِمْ بِالْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، وَدَعْوَةِ مَنِ اسْتَطَاعُوا مِنْ دُونِ اللهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ

بِعِلْمِهِ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ ، وَإِلَّا كَانُوا كَاذِبِينَ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُ افْتَرَاهُ ; إِذْ لَا يُعْقَلُ أَنْ يَفْتَرِيَ الْإِنْسَانُ مَا هُوَ عَاجِزٌ كَغَيْرِهِ عَنْهُ ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِهَا مَعْنَى التَّحَدِّي وَالْعَجْزِ ، وَمَوْضُوعَ الْإِعْجَازِ اللَّفْظِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ ، وَهَلْ يَدْخُلُ فِيهِ قِصَارُ السُّوَرِ مُطْلَقًا أَوْ مُقَيَّدًا ؟ (رَاجِعْ تَفْسِيرَهَا تَجِدْ فِيهِ مَا لَا تَجِدُهُ فِي غَيْرِهِ) .

(7 و8) فِي الْآيَةِ 39 ذَكَرَ إِضْرَابَهُمْ عَنِ التَّكْذِيبِ الْمُطْلَقِ الَّذِي يَتَضَمَّنُهُ ذَلِكَ الْقَوْلُ ، إِلَى التَّكْذِيبِ الْمُقَيَّدِ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ، وَفِي الْآيَةِ 40 كَوْنُهُمْ فَرِيقَيْنِ : مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَفِي تَفْسِيرِ الْأُولَى مِنْهُمَا تَحْقِيقُ مَعْنَى تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ ، وَخَطَأُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ الَّذِينَ اطَّلَعْنَا عَلَى كُتُبِهِمْ فِي فَهْمِ التَّأْوِيلِ بِحَمْلِهِ عَلَى التَّأْوِيلِ الِاصْطِلَاحِيِّ عِنْدَ

عُلَمَاءِ الْكَلَامِ وَالْأُصُولِ ، حَاشَ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ .

(9) فِي الْآيَةِ 57 بَيَانُ أَنْوَاعِ إِرْشَادِ الْقُرْآنِ وَإِصْلَاحِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) .

(168/370)

---

(10) فِي الْآيَتَيْنِ 108 و109 وَهُمَا خَاتِمَةُ السُّورَةِ خُلَاصَةُ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ ، وَمَوْضُوعُ الْأُولَى فِي خِطَابِ النَّاسِ كَافَّةً أَنَّهُ قَدْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَهُمْ مُخْتَارُونَ فِي الِاهْتِدَاءِ بِهِ وَالضَّلَالِ عَنْهُ ، وَمَوْضُوعُ الثَّانِيَةِ أَمْرُ الرَّسُولِ بِاتِّبَاعِ مَا يُوحَى إِلَيْهِ تَبْلِيغًا وَعَمَلًا ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْمَسْأَلَةِ الثَّانِيَةِ .

الْبَابُ الثَّالِثُ

فِي النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ وَفِيهِ فَصْلَانِ

(الْفَصْلُ الْأَوَّلُ : فِي الرِّسَالَةِ الْعَامَّةِ وَالرُّسُلِ الْأَوَّلِينَ وَفِيهِ سَبْعُ مَسَائِلَ)

(1) فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ السُّورَةِ إِثْبَاتُ وَحْيِ الرِّسَالَةِ ، وَأَنَّ الرُّسُلَ رِجَالٌ مِنَ النَّاسِ ، وَأَنَّ وَظِيفَتَهُمُ الْإِنْذَارُ وَالتَّبْشِيرُ ، وَأَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ الْبَشَرُ رُسُلًا لِلَّهِ تَعَالَى ، وَكَانُوا يُسَمُّونَ آيَاتِ الرَّسُولِ إِلَيْهِمْ سِحْرًا وَيُسَمُّونَهُ سَاحِرًا .

(2) فِي الْآيَةِ 13 أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَهْلَكَ الْقُرُونَ (الْأُمَمَ) الْقَدِيمَةَ لَمَّا ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالشِّرْكِ وَالْإِجْرَامِ ، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ فِي التَّبْلِيغِ عَنِ اللهِ تَعَالَى وَلَمْ يُؤْمِنُوا فَجَزَاهُمْ بِإِجْرَامِهِمْ .

(3) فِي الْآيَةِ 49 أَنَّ الرَّسُولَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِ ، لِأَنَّ هَذَا لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَالرُّسُلُ فِيهِ كَغَيْرِهِمْ كَمَا تَرَى فِي آيَاتِ تَوْحِيدِهِ .

(169/370)

---

(4) فِي الْآيَةِ 47 أَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ، فَلَيْسَتِ الرِّسَالَةُ خَاصَّةً بِبَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا يَدَّعُونَ ، وَلَا بِهِمْ وَبِالْعَرَبِ كَمَا تَوَهَّمَ آخَرُونَ ، وَالشُّبْهَةُ عَلَى هَذِهِ الْكُلِّيَّةِ أَنَّ أَكْثَرَ أُمَمِ الْأَرْضِ وَثَنِيَّةٌ وَتَوَارِيخُهَا عَرِيقَةٌ فِي ذَلِكَ ، كَقُدَمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ وَالْكَلْدَانِيِّينَ وَالْأَشُورِيِّينَ وَالْفُرْسِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ وَشُعُوبِ الْإِفْرِنْجِ الْقَدِيمَةِ وَكَذَا قُدَمَاءِ أَمْرِيكَةَ .

وَجَوَابُهَا أَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْأُمَمِ لَهَا أَدْيَانٌ قَائِمَةٌ عَلَى الْأَرْكَانِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي بُعِثَ بِهَا جَمِيعُ الرُّسُلِ الْأَوَّلِينَ ، وَهِيَ الْإِيمَانُ بِاللهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ، وَقَدْ طَرَأَتْ عَلَى كُلٍّ مِنْهَا التَّقَالِيدُ الْوَثَنِيَّةُ طُرُوءًا كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَبَاحِثِ الْوَحْيِ ، وَشَوَاهِدُ ذَلِكَ ظَاهِرَةٌ فِي آخِرِ هَذِهِ الْأُمَمِ حَتَّى الْمُسْلِمِينَ .

(5) فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَيْضًا أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ عَانَدَهُ قَوْمُهُ قَضَى اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، وَالْآيَاتُ الَّتِي بَعْدَهَا فِي تَكْذِيبِ قَوْمِ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَسَتُذْكَرُ فِي الْفَصْلِ الثَّانِي .

(170/370)

---

(6) مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى هَذَا قِصَّةُ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ فِي خُلَاصَةِ دَعْوَتِهِ لَهُمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى تَكْذِيبِهِ ، وَإِهْلَاكِ اللهِ إِيَّاهُمْ بِالْغَرَقِ ، وَإِنْجَاءِ نُوحٍ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ، وَجَعْلِهِمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ، وَهِيَ فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ 71 - 73 وَيَلِيهَا آيَةٌ وَاحِدَةٌ فِي الرُّسُلِ الَّذِينَ بُعِثُوا بَعْدَهُ إِجْمَالًا ، وَيَلِيهَا قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، وَغَايَتُهَا أَنَّهُ تَعَالَى أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ وَمَنْ أَتْبَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَهُ بِالْغَرَقِ ، وَأَنْجَى مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَجَعَلَهُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ إِلَى حِينٍ ، وَهِيَ فِي الْآيَاتِ 75 - 93 وَسَنُبَيِّنُ مَا فِي هَاتَيْنِ الْقِصَّتَيْنِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْعِبَرِ فِي قَصَصِ الرُّسُلِ مِنْ تَفْسِيرِ سُورَةِ هُودٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) .

(7) فِي الْآيَةِ 98 الْعِبْرَةُ لِأَهْلِ مَكَّةَ بِقَوْمِ يُونُسَ ، بِأَنَّهُمُ اسْتَحَقُّوا عَذَابَ الْخِزْيِ وَالِاسْتِئْصَالِ بِعِنَادِهِمْ لِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ كَمَا اسْتَحَقَّهُ قَوْمُ يُونُسَ ، وَأَنَّهُمْ إِذَا آمَنُوا قَبْلَ وُقُوعِ هَذَا الْعَذَابِ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ كَمَا نَفَعَ قَوْمَ يُونُسَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ .

(الْفَصْلُ الثَّانِي : فِي رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -)

وَسِيرَتِهِ مَعَ قَوْمِهِ وَعَاصِمَةِ بِلَادِهِ ، وَنَجْعَلُ آيَاتِهِ فِي أَحَدَ عَشَرَ نَوْعًا

(171/370)

---

(1) فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ أَنَّ الْكَافِرِينَ أَنْكَرُوا دَعْوَةَ نُبُوَّتِهِ ، وَعَجِبُوا مِنْهَا أَنْ كَانَ رَجُلًا مِنْهُمْ يُوحَى إِلَيْهِ ، وَسَمَّوْا آيَتَهُ سِحْرًا وَنَبَزُوهُ بِلَقَبِ سَاحِرٍ مُبِينٍ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْوَحْيِ وَعَلَى الرِّسَالَةِ الْعَامَّةِ فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ ، وَالْآيَةُ نَزَلَتْ فِيهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَشُبْهَةُ السِّحْرِ لَا تُخِيلُ (أَيْ لَا تَشْتَبِهُ ؛ مِنْ أَخَالَ الْأَمْرُ إِذَا أَشْكَلَ وَاشْتَبَهَ) فِي الْقُرْآنِ كَالْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ ، وَإِنَّمَا قَالُوهُ تَكَلُّفًا وَعِنَادًا .

(2) فِي الْآيَةِ 15 أَنَّهُمُ اقْتَرَحُوا عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي أَعْجَزَهُمْ أَمْرُهُ أَوْ أَنْ يُبَدِّلَهُ ، وَفِي الْآيَةِ 16 الرَّدُّ عَلَيْهِمْ بِمَا تَقَدَّمَ مُفَصَّلًا ، وَيَلِيهَا تَأْيِيدُ الرَّدِّ .

(3) فِي الْآيَةِ 20 اقْتِرَاحُهُمْ عَلَيْهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ كَوْنِيَّةٍ وَجَوَابُهُ لَهُمْ : وَفِي الْآيَتَيْنِ 96 ، 97 أَنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللَّهِ بِفَقْدِهِمُ الِاسْتِعْدَادَ لِلْإِيمَانِ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ كَوْنِيَّةٍ مِمَّا اقْتَرَحُوا وَمِمَّا لَمْ يَقْتَرِحُوا .

(172/370)

(4) فِي الْآيَةِ 37 بَيَانُ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُفْتَرًى مِنْ دُونِ اللهِ ; إِذْ لَا يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ ، وَأَنَّهُ تَصْدِيقٌ لِمَا تَقَدَّمَهُ مِنْ دَعْوَةِ الرُّسُلِ ، وَتَفْصِيلٌ لِمَا أُجْمِلَ فِيمَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ ، فَهُوَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا رَيْبَ فِيهِ ; لِأَنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا كَانَ يَدْرِي شَيْئًا مِمَّا نَزَلَ فِيهِ .

(5) فِي الْآيَةِ 38 تَحَدِّي الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا افْتَرَاهُ ، وَهُوَ مُطَالَبَتُهُمْ بِالْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، وَاسْتِعَانَتُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِمَنْ يَسْتَطِيعُونَ اسْتِعَانَتَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَى .

(6) فِي الْآيَةِ 39 الْإِضْرَابُ عَنِ التَّكْذِيبِ الْمُطْلَقِ إِلَى التَّكْذِيبِ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، وَهُوَ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ بِقِسْمَيْهِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْأُخْرَوِيِّ .

(7) فِي الْآيَاتِ 40 - 45 أَنَّ مِنْ أُولَئِكَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمُنَاقَشَةُ الْمُكَذِّبِينَ ، وَوَصْفُ حَالِ مَنْ فَقَدُوا الِاسْتِعْدَادَ لِلْإِيمَانِ بِحَيْثُ لَا يَعْقِلُونَ الدَّلَائِلَ السَّمْعِيَّةَ وَلَا الْبَصَرِيَّةَ ، وَإِبْهَامُ أَمْرِ مَا وُعِدُوا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ هَلْ يَقَعُ فِي حَيَاتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَوْ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، وَحِكْمَةُ هَذَا الْإِبْهَامِ لَهُ وَاسْتِعْجَالُهُمْ بِهِ ،

(173/370)

وَكَوْنُهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ عِنْدَ وُقُوعِهِ فَلَا يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ يَوْمَئِذٍ - وَسُؤَالُهُمْ : أَحَقٌّ هُوَ ؟ وَجَوَابُهُمْ بِالْقَسَمِ : (إِنَّهُ لَحَقٌّ) لِأَنَّ وَعْدَ اللهِ كُلَّهُ حَقٌّ ، وَفِي تَفْسِيرِنَا لَهُ بَيَانُ قِلَّةِ الْكَذِبِ فِي الْعَرَبِ ، وَاحْتِرَامُ الْقَسَمِ بِاللهِ تَعَالَى ، وَاشْتِهَارُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ فِيهِمْ مِنْ صِغَرِهِ .

(8) بَعْدَ أَنْ أَيَّدَ اللهُ دَعْوَتَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِقِصَّتَيْ نُوحٍ وَمُوسَى بِالْإِيجَازِ مُفَصَّلَةً ، وَذَكَرَ مَنْ بَيْنَهُمَا بِالْإِشَارَةِ الْمُجْمَلَةِ ، أَخْبَرَهُ أَنَّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَوْ أَنَّهُ كَانَ فِي شَكٍّ مِنْهُ وَسَأَلَهُمْ لَأَجَابُوا : إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِ ، وَهَذَا تَأْكِيدٌ لِكَوْنِهِ لَا مَوْضِعَ لِلِامْتِرَاءِ بِهِ .

(174/370)

---

(9) كَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُحْزِنُهُ تَكْذِيبُ قَوْمِهِ لَهُ وَكُفْرُهُمْ بِمَا جَاءَ بِهِ ، فَنَهَاهُ اللهُ عَنْ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ 65 وَكَانَ يَتَمَنَّى إِيمَانَهُمْ كُلَّهُمْ فَجَاءَهُ فِي الْآيَاتِ 96 - 101 بَيَانُ سُنَّةِ اللهِ فِي اخْتِلَافِ اسْتِعْدَادِ النَّاسِ لِلْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ ، وَأَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُمْ كُلَّهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَلَكَانُوا غَيْرَ هَذَا النَّوْعِ مِنْ خَلْقِ اللهِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشَأْ ، وَإِذَنْ لَا يَقْدِرُ الرَّسُولُ وَلَا غَيْرُهُ عَلَى إِكْرَاهِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَأَنَّ الْآيَاتِ لَا تَنْفَعُ إِلَّا الْمُسْتَعِدِّينَ لِلْإِيمَانِ وَالصَّلَاحِ ، وَأَنَّ النَّجَاةَ لِرُسُلِ اللهِ وَمَنْ

آمَنَ بِهِمْ بِمُقْتَضَى سُنَّتِهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ .

(10) خَتَمَ السُّورَةَ مِنَ الْآيَةِ 104 - 109 بِتَجْدِيدِ الدَّعْوَةِ إِلَى تَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ وَالْعُبُودِيَّةِ الْمَحْضِ ، وَكَوْنِ الْحَقِّ قَدْ تَبَيَّنَ ، فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَعَلَيْهَا ، وَإِنَّمَا الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُبَلِّغٌ لَا وَكِيلٌ لِلَّهِ مُتَصَرِّفٌ فِي أَمْرِ عِبَادِهِ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَنْتَظِرَ حُكْمَهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .

(175/370)

---

(11) إِعْلَامُهُ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ فِي الْآيَةِ 14 بِأَنَّهُ جَعَلَهُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا بَعْدَ إِهْلَاكِ أَكْثَرِ الْقُرُونِ الْأُولَى مِنْ أَقْوَامِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُعَانِدِينَ لِرُسُلِهِمْ ، وَتَحْرِيفِ آخَرِينَ لِأَدْيَانِهِمْ ، وَنَسْخِهِ تَعَالَى لِمَا بَقِيَ مِنْهَا بِبِعْثَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَأَنَّهُ يَخْتَبِرُهُمْ بِهَذِهِ الْخِلَافَةِ فَيَجْزِيهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ فِيهَا ، وَأَخَّرْنَا هَذَا لِأَنَّهُ ثَمَرَةُ إِجَابَةِ الدَّعْوَةِ فِي الدُّنْيَا كَمَا وَعَدَهُمْ وَأَنْجَزَ وَعْدَهُ لَهُمْ بِشَرْطِهِ فِي الْآيَةِ (24 : 55) مِنْ سُورَةِ النُّورِ .

الْبَابُ الرَّابِعُ

فِي الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، وَنُلَخِّصُ آيَاتِهِ فِي بِضْعَةِ أَنْوَاعٍ

(1) الْآيَةُ الرَّابِعَةُ ذِكْرُ رُجُوعِ النَّاسِ جَمِيعًا إِلَى اللهِ رَبِّهِمُ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ بِأَجْنَاسِهِ وَأَنْوَاعِهِ

الْمُخْتَلِفَةِ ، ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ بِالْقِسْطِ ، وَالْكَافِرِينَ بِمَا ذَكَرَهُ إِجْمَالًا ، وَبَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِهَا كَوْنَهُ بِالْقِسْطِ أَيْضًا كَمَا تَرَى بَيَانَهُ فِي النَّوْعِ الرَّابِعِ ، وَكَوْنَ جَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُضَاعَفُ كَمَا ذُكِرَ فِي غَيْرِهَا .

(2) فِي الْآيَاتِ 7 – 11 تَفْصِيلٌ لِجَزَاءِ الْفَرِيقَيْنِ ، مَعَ تَعْلِيلٍ طَبِيعِيٍّ عَقْلِيٍّ لِتَأْثِيرِ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ فِي الْأَنْفُسِ ، وِفَاقًا لِلْقَاعِدَةِ الَّتِي قَرَّرْنَاهَا مِرَارًا مِنْ أَنَّ جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَثَرٌ لَازِمٌ لِسِيرَتِهَا فِي الدُّنْيَا ، بِجَعْلِهَا أَهْلًا بِطَبْعِهَا وَصِفَاتِهَا لِجِوَارِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ أَوْ لِسُخْطِهِ .

(176/370)

---

(3) فِي الْآيَاتِ 24 – 30 تَفْصِيلٌ آخَرُ مُوَضَّحٌ بِضَرْبِ الْمَثَلِ ، فِيهِ تَصْرِيحٌ بِالزِّيَادَةِ فِي جَزَاءِ الْمُحْسِنِينَ عَمَّا يَسْتَحِقُّونَ ، وَكَوْنُ جَزَاءِ الْمُسِيئِينَ بِالْمِثْلِ ، وَكَوْنُ كُلِّ نَفْسٍ تَبْلُو فِي الْآخِرَةِ مَا أَسْلَفَتْ فِي الدُّنْيَا ، لَا يَنْفَعُ أَحَدٌ أَحَدًا بِنَفْسِهِ وَلَا بِعَمَلِهِ .

(4) فِي الْآيَاتِ 45 – 56 سِيَاقٌ رَابِعٌ مُفْتَتَحٌ بِالتَّذْكِيرِ بِيَوْمِ الْحَشْرِ ، وَتَقْدِيرِ النَّاسِ لِمُدَّةِ لُبْثِهِمْ فِي الدُّنْيَا بِسَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ ، وَخُسْرَانِ الْمُكَذِّبِينَ بِلِقَاءِ اللهِ ، وَتَأْكِيدِ وَعْدِ اللهِ بِهِ ، وَاسْتِبْطَائِهِمْ لَهُ ، وَاسْتِعْجَالِهِمْ بِهِ ، وَاسْتِنْبَائِهِمُ الرَّسُولَ : أَحَقٌّ هُوَ ؟ وَحَالِهِمْ عِنْدَ وُقُوعِهِ ، وَتَمَنِّيهِمُ الِافْتِدَاءَ مِنْهُ بِكُلِّ مَا فِي الْأَرْضِ ، وَإِسْرَارِهِمُ النَّدَامَةَ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْعَذَابِ ، وَالْقَضَاءِ

بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) وَهَذَا الْأَخِيرُ فِي الْآيَتَيْنِ 47 و54 .

(5) فِي الْآيَاتِ 62 – 64 ذِكْرُ أَوْلِيَاءِ اللهِ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ ، (وَأَنَّهُمْ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ، وَأَنَّ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

(6) فِي الْآيَتَيْنِ 69 و70 ذِكْرُ الْمُفْتَرِينَ عَلَى اللهِ وَكَوْنِهِمْ لَا يُفْلِحُونَ ، لَهُمْ مَتَاعٌ قَلِيلٌ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ إِلَى اللهِ فَيُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ .

(7) فِي الْآيَةِ 93 عَقِبَ قِصَّةِ مُوسَى مَعَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَنَجَاةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ ،

(177/370)

أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ، وَأَنَّ اللهَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

إِذَا عَدَدْتَ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا فِي الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَجَدْتَهَا تَبْلُغُ زُهَاءَ الثُّلُثِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَلَكِنَّكَ لَا تَشْعُرُ عِنْدَمَا تَقْرَأُ السُّورَةَ أَنَّكَ تُكَرِّرُ مَعْنًى وَاحِدًا فِيهَا يَبْلُغُ هَذَا الْقَدْرَ مِنْهَا ، وَإِنَّمَا يَسْتَقِرُّ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَلْبِكَ وَيَمْلَؤُهُ إِيمَانًا بِلِقَاءِ اللهِ تَعَالَى ، وَالْخَوْفِ مِنْ حِسَابِهِ وَعِقَابِهِ ، وَالرَّجَاءِ فِي عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ وَثَوَابِهِ ، وَمَا كَانَ التَّكْرَارُ إِلَّا لِأَجْلِ هَذَا ، فَهَلْ

يَسْتَطِيعُ أَبْلَغُ الْبَشَرِ أَنْ يَأْتِيَ بِكَلَامٍ كَهَذَا ؟ لَا لَا .

الْبَابُ الْخَامِسُ

فِي صِفَاتِ الْبَشَرِ وَخَلَائِقِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، وَسُنَنِ اللهِ فِيهَا وَهِيَ نَوْعَانِ

(النَّوْعُ الْأَوَّلُ : الصِّفَاتُ الذَّمِيمَةُ الَّتِي تَجِبُ مُعَالَجَتُهَا بِالتَّهْذِيبِ الدِّينِيِّ)

(الْأُولَى : الْعَجَلُ وَالِاسْتِعْجَالُ) قَالَ اللهُ تَعَالَى : (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ) (21 : 37) وَقَالَ : (وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) (17 : 11) وَمِنْ شَوَاهِدِ هَذِهِ الْغَرِيزَةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) (11) وَمِنْهَا اسْتِعْجَالُهُمْ بِالْعَذَابِ الَّذِي وَعَدَهُمُ اللهُ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَمَا تَرَاهُ فِي سِيَاقِهِ مِنَ الْآيَتَيْنِ 50 و51 .

(178/370)

(الثَّانِيَةُ : الظُّلْمُ) قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (14 : 34) وَقَالَ فِي آيَةِ الْأَمَانَةِ : (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) (33 : 72) وَمِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى هَذِهِ الْخَلِيقَةِ أَوِ الشِّيمَةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَا تَرَاهُ فِي الْآيَاتِ 44 و85 و106 .

(الثَّالِثَةُ : الْكُفْرُ بِاللهِ وَبِنِعَمِهِ) قَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْإِنْسَانِ مِنْ سُورَتِهِ سُورَةِ الدَّهْرِ : (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (76 : 3) وَوَصَفَهُ بِالْكُفُورِ فِي سُورِ الْإِسْرَاءِ وَالْحَجِّ وَالشُّورَى ، وَبِالْكَفَّارِ (بِالْفَتْحِ لِلْمُبَالَغَةِ) فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ وَذُكِرَتْ آنِفًا ، وَلَكِنَّ ذِكْرَ الْكُفْرِ بِلَفْظِهِ وَمُشْتَقَّاتِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ قَلِيلٌ ، ذُكِرَ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ الْكَافِرُونَ بِالْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ ، وَفِي الْآيَةِ الرَّابِعَةِ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْآخِرَةِ

بِكُفْرِهِمْ ، وَذُكِرَ فِي الْآيَةِ 86 فِي دُعَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالنَّجَاةِ مِنْ حُكْمِ الْكَافِرِينَ .

وَأَمَّا ذِكْرُهُ بِالْمَعْنَى فَهُوَ كَثِيرٌ فِيهَا ، فَمِنْهُ مَا هُوَ بِلَفْظِ التَّكْذِيبِ وَعَدَمِ الرَّجَاءِ بِلِقَاءِ اللهِ ، وَمَا هُوَ بِلَازِمِهِ مِنَ الْفِسْقِ وَالْإِجْرَامِ وَالْبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ وَالِاسْتِكْبَارِ ، وَكَذَا الظُّلْمِ الَّذِي خَصَصْنَاهُ بِالذِّكْرِ .

(الرَّابِعَةُ : الشِّرْكُ بِاللهِ تَعَالَى) وَهُوَ عَادَةٌ صَارَتْ وِرَاثِيَّةً فِي الْأُمَمِ ، وَذُكِرَ فِي الْآيَاتِ 18 و28 و34 و35 و66 و71 وَهُوَ أَخَصُّ مِنْ كُلِّ مَا تَقَدَّمَ .

(179/370)

(الْخَامِسَةُ : الْجَهْلُ وَاتِّبَاعُ الظَّنِّ وَالْخَرْصِ) الْأَصْلُ فِي هَذِهِ الْخَلِيقَةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الْإِنْسَانَ جَاهِلًا لَا يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ ضَرُورِيَّاتِ حَيَاتِهِ ، حَتَّى إِنَّ غَرَائِزَهُ الْخِلْقِيَّةَ أَضْعَفُ مِنْ

غَرَائِزِ الْحَشَرَاتِ وَالْعَجْمَاوَاتِ ، وَجَعَلَ عِمَادَ أَمْرِهِ عَلَى التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ التَّدْرِيجِيِّ ، وَنُصُوصُ الْقُرْآنِ فِي هَذَا مَعْرُوفَةٌ كَقَوْلِهِ : (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا) (16 : 78) وَآيَةِ الْأَمَانَةِ وَتَقَدَّمَ ذِكْرُهَا فِي الظُّلَمِ . وَالنَّصُّ الصَّرِيحُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) (36) وَقَوْلُهُ : (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) (66) .

(180/370)

(السَّادِسَةُ : الطَّبْعُ عَلَى الْقُلُوبِ) وَالْإِعْرَاضُ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ مِمَّا يُدْرَكُ بِالسَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ ، حَتَّى لَا تَعُودَ تَقْبَلُ مَا يُخَالِفُ تَقَالِيدَهَا الْمَوْرُوثَةَ وَالرَّاسِخَةَ بِمُقْتَضَى الْعَمَلِ ، وَهُوَ نَصُّ قَوْلِهِ تَعَالَى : (كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ) (74) فَهُوَ صَرِيحٌ فِي كَوْنِهِ نَتِيجَةً مَعْلُولَةً لِاعْتِدَاءِ حُدُودِ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ كَمَا تَرَاهُ مُفَصَّلًا فِي تَفْسِيرِهَا ، لَا كَمَا يَفْهَمُهُ الْكَثِيرُونَ مِنَ الْجَبْرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ الصُّرَحَاءِ وَالْمُتَأَوِّلِينَ ، وَغَايَةُ هَذِهِ النَّتِيجَةِ الْقَلْبِيَّةِ النَّفْسِيَّةِ فِي الدُّنْيَا الْحِرْمَانُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمُقْتَضَى كَلِمَةِ اللَّهِ فِي نِظَامِ التَّكْوِينِ ، وَمَا بَيَّنَهُ مِنْ كَلِمَةِ التَّكْلِيفِ ، لِعَدَمِ الِانْتِفَاعِ بِالْآيَاتِ الْمُرْشِدَةِ لِلْفِطْرَةِ إِلَى الْهِدَايَةِ ، وَمَا هُوَ تَرَاهُ فِي الْآيَاتِ 23 و66 – 101 .

(السَّابِعَةُ : الْغُرُورُ وَالْبَطَرُ بِالرَّخَاءِ وَالنِّعَمِ) فَهُمْ فِي أَثْنَائِهَا يَمْكُرُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَيُشْرِكُونَ

بِهِ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ ، حَتَّى إِذَا أَصَابَتْهُمُ الشَّدَائِدُ تَذَكَّرُوا وَأَخْلَصُوا فِي دُعَائِهِ ، فَإِذَا كَشَفَهَا عَنْهُمْ عَادُوا إِلَى شِرْكِهِمْ وَفَسَادِهِمْ ، كَمَا تَرَاهُ فِي الْآيَاتِ 21 - 23 و88 .

(181/370)

نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ فِي أَوَائِلِ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ بِمَكَّةَ ، وَأَكْثَرُ أَهْلِهَا مُشْرِكُونَ مُعَانِدُونَ كَافِرُونَ ظَالِمُونَ مُجْرِمُونَ جَاهِلُونَ ، مُسْتَكْبِرَةٌ رُؤَسَاؤُهُمْ ، مُقَلِّدَةٌ دُهَمَاؤُهُمْ ، فَكَانَ مُقْتَضَى هَذَا تَقْدِيمَ الْإِنْذَارِ فِيهَا عَلَى التَّبْشِيرِ كَمَا تَرَاهُ فِي أَوَّلِهَا ; وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُهَا فِي بَيَانِ الصِّفَاتِ وَالْخَلَائِقِ وَالْعَادَاتِ الْقَبِيحَةِ الضَّارَّةِ وَهُوَ النَّوْعُ الْأَوَّلُ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَكَانَ النَّوْعُ الثَّانِي مِمَّا يُعْلَمُ أَكْثَرُهُ بِالِاسْتِنْبَاطِ ، وَكَوْنِ أَصْلِ غَرَائِزِ الْإِنْسَانِ الِاسْتِعْدَادُ لِلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَكَوْنِهِ مُخْتَارًا فِي كُلٍّ مِنْهُمَا ، وَكَوْنِهِ فُطِرَ عَلَى تَرْجِيحِ مَا يَثْبُتُ عِنْدَهُ أَنَّهُ خَيْرٌ لَهُ بِالدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ ،

أَوِ التَّجَارِبِ الْعَمَلِيَّةِ ، وَكَوْنِ الدِّينِ مُؤَيِّدًا لِلْعَقْلِ ، حَتَّى لَا يَغْلِبَ عَلَيْهِ الْهَوَى وَالْجَهْلُ .

(182/370)

فَتَأَمَّلِ الْأَصْلَ فِي تَكْوِينِ الْأُمَمِ وَوَحْدَتِهَا فِي فِطْرَتِهَا ، ثُمَّ طُرُوءَ الِاخْتِلَافِ عَلَيْهَا فِي الْآيَةِ 19 - ثُمَّ انْظُرْ فِي مُقَدِّمَةِ الدَّعْوَةِ الْعَامَّةِ إلَى النَّاسِ كَافَّةً فِي آخِرِ السُّورَةِ مِنَ الْآيَةِ 99 - 103 وَهِيَ صَرِيحَةٌ فِي اسْتِعْدَادِهِمُ الْمَذْكُورِ ، وَكَوْنِهِ اخْتِيَارِيًّا لَا إكْرَاهَ فِيهِ ، وَتَعْبِيرُهُ عَنْ سُنَّةِ اللَّهِ فِي تَرْجِيحِهِمُ الرِّجْسَ عَلَى تَزْكِيَةِ النَّفْسِ بِجَعْلِهِ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ، وَلَا يَهْتَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِسُنَّتِهِ فِيمَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ أَقْوَامِ الرُّسُلِ ، وَكَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ وَعَاقِبَةُ الرُّسُلِ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُمْ .

ثُمَّ تَأَمَّلْ خُلَاصَةَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ مِنْ خِطَابِ النَّاسِ فِي الْآيَةِ 104 إلَى آخِرِ السُّورَةِ ، مِنْ إقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الشَّاكِّينَ فِي دِينِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَوْنِ الشَّكِّ جَهْلًا ، وَكَوْنِهِمْ إنَّمَا يَعْبُدُونَ وَهْمًا ، وَكَوْنِ مَا يَدْعُوهُمْ إلَيْهِ هُوَ مُقْتَضَى الْفِطْرَةِ الْحَنِيفِيَّةِ ، وَكَوْنِهِمْ يَعْبُدُونَ مَنْ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، وَكَوْنِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ هُوَ الْحَقَّ ، وَكَوْنِهِمْ مُخْتَارِينَ فِي الِاهْتِدَاءِ وَالضَّلَالِ ، وَكَوْنِ مَا يَخْتَارُونَهُ إمَّا لِأَنْفُسِهِمْ وَإِمَّا عَلَيْهَا ، وَكَوْنِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَيْسَ مُوَكَّلًا بِهِدَايَتِهِمْ وَلَا مُسَيْطِرًا عَلَيْهِمْ .

(183/370)

وَهَذِهِ الْخُلَاصَةُ إِجْمَالٌ لِمَا تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهُ فِي السُّورَةِ وَغَيْرِهَا ، فَارْجِعْ إِلَى تَذْكِيرِهِمْ بِالدَّلَائِلِ الْكَوْنِيَّةِ فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ الَّتِي تُشِيرُ إِلَى أَنَّهَا مَغْرُوسَةٌ فِي أَعْمَاقِ أَنْفُسِهِمْ ، وَبِالدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ بِقَوْلِهِ فِي الْخَامِسَةِ : (يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) وَفِي السَّادِسَةِ (لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ) وَخِطَابِهِ فِي الْآيَةِ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ لِلْعَقْلِ بِقَوْلِهِ : (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) وَفِي الرَّابِعَةِ وَالْعِشْرِينَ لِلْفِكْرِ بِقَوْلِهِ : (كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) ثُمَّ ارْجِعْ إِلَى قَوْلِهِ بَعْدَ إِقَامَةِ طَائِفَةٍ مِنَ الدَّلَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ الْكَوْنِيَّةِ : (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ) الْآيَاتِ 35 - 39 ، ثُمَّ إِلَى بَيَانِهِ لَهُمْ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ أُصُولِ التَّزْكِيَةِ وَالتَّهْذِيبِ الْأَرْبَعَةِ فِي الْآيَةِ 57 وَمَا بَعْدَهَا - وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْصِيلُ ذَلِكَ وَمَا فِي مَعْنَاهُ فِي الْفُصُولِ السَّابِقَةِ .

(الْبَابُ السَّادِسُ)

فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ الَّتِي هِيَ الرُّكْنُ الثَّالِثُ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ (عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) وَمَا يُقَابِلُهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الْعَامَّةِ ، وَأَخَّرْنَاهُ لِأَنَّهُ الثَّمَرَةُ وَالنَّتِيجَةُ وَهُوَ قِسْمَانِ :

(الْقِسْمُ الْأَوَّلُ : الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ)

(1) قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الرَّابِعَةِ : (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ) وَالصَّالِحَاتُ مَا تَصْلُحُ بِهِ أَنْفُسُ الْأَفْرَادِ وَنِظَامُ الِاجْتِمَاعِ فِي الْبُيُوتِ وَالْأُمَّةِ وَالدَّوْلَةِ ، هَذَا هُوَ الرُّكْنُ الثَّالِثُ مِمَّا جَاءَ بِهِ جَمِيعُ رُسُلِ اللَّهِ مُجْمَلًا ، وَفُصِّلَ فِي كُلِّ مِلَّةٍ بِحَسْبِ مَا كَانَ مِنَ الِاسْتِعْدَادِ فِيهَا ، وَكُلُّ عَمَلٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ الدِّينِيَّةِ أَوِ الْمُعَامَلَاتِ الْمَدَنِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ لَا يُؤَدِّي إِلَى الصَّلَاحِ أَوِ الْإِصْلَاحِ فَهُوَ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَإِمَّا فَاسِدٌ فِي أَصْلِهِ ، وَإِمَّا أُدِّيَ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهِ

.

(2) قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ) (9) وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِهَا عَلَاقَةَ الْإِيمَانِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَكَوْنَ كُلٍّ مِنْهُمَا يَمُدُّ الْآخَرَ وَيَسْتَمِدُّ مِنْهُ ، وَمَنْ لَمْ يَفْقَهْ هَذَا وَيَتَوَخَّهُ لَمْ يَفْقَهْ فِي دِينِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ بِهِ صَالِحًا يَسْتَحِقُّ الْجَزَاءَ الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا قَبْلَهَا ، وَفِي أَمْثَالِهِمَا مِنْ طُولَى السُّورِ وَمِئِينِهَا وَمُفَصَّلِهَا حَتَّى أَقْصَرِهَا (وَهِيَ سُورَةُ وَالْعَصْرِ) وَيُؤَيِّدُ هَذَا اتِّحَادُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ فِي الْمَاصَدَقِ وَإِنِ اخْتَلَفَا فِي الْمَفْهُومِ كَمَا تَرَى فِي الْآيَتَيْنِ 84 و90 ، فَمَفْهُومُ الْإِيمَانِ التَّصْدِيقُ الْإِذْعَانِيُّ الْجَازِمُ بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنَ الدِّينِ ، وَهُوَ يَسْتَلْزِمُ الْعَمَلَ بِهِ ،

(185/370)

وَمَفْهُومُ الْإِسْلَامِ التَّسْلِيمُ وَالِانْقِيَادُ بِالْفِعْلِ وَهُوَ الْعَمَلُ بِمُقْتَضَى الْإِيمَانِ ، وَلَا يَصِحُّ فَيَكُونُ إِسْلَامًا إِلَّا بِهِ .

(3) قَوْلُهُ تَعَالَى : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) (26) ظَاهِرٌ فِي دَلَالَةِ الزِّيَادَةِ عَلَى مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ مُضَاعَفَةِ هَذَا الْجَزَاءِ .

(4) قَوْلُهُ تَعَالَى فِي التَّعْرِيفِ بِأَوْلِيَائِهِ : (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (63) فَالتَّقْوَى جِمَاعُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْحَسَنَةِ مَعَ اتِّقَاءِ الْأَعْمَالِ الْفَاسِدَةِ السَّيِّئَةِ ، كَمَا فَصَّلْنَاهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ أَبْسَطُهَا وَأَظْهَرُهَا تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) (8 : 29) الْآيَةَ .

(5) قَوْلُهُ حِكَايَةً لِوَصِيَّةِ مُوسَى لِقَوْمِهِ : (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (87) .

(الْقِسْمُ الثَّانِي : فِي السَّيِّئَاتِ وَفِي الْأَعْمَالِ الْمُطْلَقَةِ بِقِسْمَيْهَا)

(6) قَوْلُهُ تَعَالَى فِي مُنْكِرِي الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، الرَّاضِينَ الْمُطْمَئِنِّينَ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَحْدَهَا غَافِلِينَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ فِيهَا : (أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (8) .

(7) قَوْلُهُ فِيمَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَيَدْعُونَهُ فِي الضَّرَّاءِ وَيَنْسَوْنَهُ فِي السَّرَّاءِ : (كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (12) .

(8) قَوْلُهُ بَعْدَ بَيَانِ بَغْيِ النَّاسِ فِي السَّرَّاءِ وَغُرُورِهِمْ بِمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَوْنِ وَبَالِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي الْآيَاتِ 21 – 23 (وَهِيَ بِمَعْنَى مَا قَبْلَهَا) : (ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (23) .

(9) قَوْلُهُ : (إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (15)

.

(10) قَوْلُهُ : (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا) (27) الْآيَةَ .

(11) قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ : (ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) (52) .

(12) قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ : (إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) (81) .

(13) قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْأَعْمَالِ الْمُطْلَقَةِ بِقِسْمَيْهَا : (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (14) .

(14) قَوْلُهُ تَعَالَى بِمَعْنَى مَا قَبْلَهُ أَيْضًا : (وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) (41) .

(15) قَوْلُهُ تَعَالَى بِمَعْنَى مَا قَبْلَهُ أَيْضًا : (وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ) (61) .

(16) قَوْلُهُ فِي الْوَصِيَّةِ الْعَامَّةِ مِنَ الدَّعْوَةِ الْعَامَّةِ مِنْ خَاتِمَةِ السُّورَةِ : (فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) (108) .

فَنَسْأَلُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُصْلِحَ أَعْمَالَنَا ، وَيَجْعَلَ خَيْرَهَا خَوَاتِيمَهَا .

(187/370)

وَهَذَا آخِرُ مَا نَخْتِمُ بِهِ خُلَاصَةَ هَذِهِ السُّورَةِ الْبَلِيغَةِ ، وَنَضْرَعُ إِلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُوَفِّقَنَا لِإِتْمَامِ تَفْسِيرِ كِتَابِهِ الْحَكِيمِ مُطَوَّلًا وَمُخْتَصَرًا ، مُفَصَّلًا وَمُجْمَلًا ، كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ بَيَانِ الْحَقِّ ، وَهِدَايَةِ الْخَلْقِ ، وَلَهُ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ فِي كُلِّ فَاتِحَةٍ وَخَاتِمَةٍ .

وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّ الرَّحْمَةِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَالْمُهْتَدِينَ مِنْ خَلْقِهِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المنار جـ 11 صـ 402.76 ﴾

(188/370)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

استئناف ابتدائي هو كذيل لما مضى في السورة كلها وحوصلة لما جرى من الاستدلال والمجادلة والتخويف والترغيب ، ولذلك جاء ما في هذه الجملة كلاماً جامعاً وموادعة قاطعة .

وافتتاحها بـ ﴿ قل ﴾ للتنبيه على أنه تبليغ عن الله تعالى فهو جدير بالتلقي .

وافتتاح المقول بالنداء لاستيعاء سماعهم لأهمية ما سيقال لهم ، والخطاب لجميع الناس من مؤمن وكافر ، والمقصود منه ابتداءً المشركون ، ولذلك أطيل الكلام في شأنهم ، وقد ذكر معهم من اهتدى تشريفاً لهم .

وأكد الخبر بحرف ﴿ قد ﴾ تسجيلاً عليهم بأن ما فيه الحق قد أبلغ إليهم وتحقيقاً لكونه حقاً .

والحق : هو الدين الذي جاء به القرآن ، ووصفه بـ ﴿ من ربكم ﴾ للتنويه بأنه حق مبين لا يخلطه باطل ولا ريب ، فهو معصوم من ذلك .

واختيار وصف الرب المضاف إلى ضمير ﴿ الناس ﴾ على اسم الجلالة للتنبيه على أنه إرشاد من الذي يحب صلاح عباده ويدعوهم إلى ما فيه نفعهم شأن من يربّ ، أي يسوس ويدبر .

وتفريع جملة : ﴿ فمن اهتدى ﴾ على جملة : ﴿ قد جاءكم ﴾ للإشارة إلى أن مجيء الحق الواضح يترتب عليه أن إتباعه غنم لمتبعه وليس مزية له على الله ، ليتوصل من ذلك

إلى أن المعرض عنه قد ظلم نفسه ، ورتب عليها تبعة الإعراض .

واللام في قوله : ﴿ لنفسه ﴾ دالة على أن الاهتداء نعمة وغنى وأن الإعراض ضر على صاحبه .

(189/370)

ووجه الإتيان بطريقتي الحصر في ﴿ فإنما يهتدي لنفسه ﴾ وفي ﴿ فإنما يضل عليها ﴾ للرد على المشركين إذ كانوا يتمطَّون في الاقتراح فيقولون : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ [الإسراء : 90] ونحو ذلك مما يفيد أنهم يمنون عليه لو أسلموا ، وكان بعضهم يظهر أنه يغيظ النبي صلى الله عليه وسلم بالبقاء على الكفر فكان القصر مفيداً أن اهتداءه مقصور على تعلق اهتدائه بمعنى اللام في قوله : ﴿ لنفسه ﴾ أي بفائدة نفسه لا يتجاوزه إلى التعلق بفائدتي .

وأن ضلاله مقصور على التعلق بمعنى على نفسه ، أي لمضرتها لا يتجاوزه إلى التعلق بمضرتي .

وجملة ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ معطوفة على جملة ﴿ من اهتدى ﴾ فهي داخلة في حيز التفريع ، وإتمام للمفرع ، لأنه إذا كان اهتداء المهتدي لنفسه وضلال الضال على نفسه

تحقق أن النبي صلى الله عليه وسلم غير مأمور من الله بأكثر من التبليغ وأنه لا نفع لنفسه في اهتدائهم ولا يضره ضلالهم ، فلا يحسبوا حرصه لنفع نفسه أو دفع ضر عنها حتى يتمطّوا ويشترطوا ، وأنه ناصح لهم ومبلغ ما في اتباعه خيرهم والإعراض عنه ضُرُّهم .

والإتيان بالجملة الاسمية المنفية للدلالة على دوام انتفاء ذلك الحكم وثباته في سائر الأحوال .

ومعنى الوكيل : الموكول إليه تحصيل الأمر .

و ﴿ عليكم ﴾ بمعنى على اهتدائكم فدخل حرف الجر على الذات والمراد بعض أحوالها بقرينة المقام .

(190/370)

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾

عطف على ﴿ قل ﴾ أي بلغ الناس ذلك القول ﴿ واتّبع ما يوحى إليك ﴾ ، أي اتبع في نفسك وأصحابك ما يوحى إليك .

و ﴿ اصبر ﴾ أي على معاندة الذين لم يؤمنوا بقرينة الغاية بقوله : ﴿ حتى يحكم الله ﴾ فإنها غاية لهذا الصبر الخاص لا لمطلق الصبر .

ولما كان الحكم يقتضي فريقين حذف متعلقه تعويلاً على قرينة السياق ، أي حتى يحكم الله بينك وبينهم .

وجملة : ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ ثناء وتذييل لما فيه من العمُوم ، أي وهو خير الحاكمين بين كل خصمين في هذه القضية وفي غيرها ، فالتعريف في ﴿ الحاكمين ﴾ للاستغراق بقرينة التذييل .

و ﴿ خير ﴾ تفضيل ، أصله أخير فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال .

والأخيرية من الحاكمين أخيرية وفَاء الإنصاف في إعطاء الحقوق .

وهي هنا كناية عن معاقبة الظالم ، لأن الأمر بالصبر مشعر بأن المأمور به معتدًى عليه ، ففي الإخبار بأن الله خير الحاكمين إيماء بأن الله ناصر رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على الذين كذبوا وعاندوا .

وهذا كلام جامع فيه براعة المقطع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(191/370)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

إذن : فالحق سبحانه لم يُقصِّر مع الخلق ، فقد خلق لكم العقول ، وكان يكفي أن تفكّروا بها لتؤمنوا من غير مجيء رسول ، وكان على هذه العقول أن تفكر في القويِّ الذي خلق الكون كله ، بل هي التي تسعى لتطلب أن يرسل لها القويّ رسولاً بما يطلبه سبحانه من عباده ، فإذا ما جاء رسول ليخبرهم أنه رسول من الله ويحمل البلاغ منه ، كان يجب أن تستشرف آذانهم لما يقول .

إذن : كان على العباد أن يهتدوا بعقولهم ؛ ولذلك نجد أن الفلاسفة حين بحثوا عن المعرفة ، قالوا : إن هناك " فلسفة مادية " تحاول أن تتعرف على مادية الكون ، وهناك " فلسفة ميتافيزيقية " تبحث عما وراء المادة .

فَمَنْ أعلمَ الفلاسفة إذن أن هناك شيئاً وراء المادة .

وكأن العقل مجرد ساعةً يرى نُظُم الكون الدقيقة كان يجب أن يقول : إن وراء الكون الواضح المُحَسِّ قوة خفية .

ولم يذهب الفلاسفة إلى البحث فيما وراء المادة ، إلا لأنهم أخذوا من المادة أن وراءها شيئاً مستوراً .

والمستور الذي وراء المادة هو الذي يعلن عن نفسه ، فهو أمر لا نعرفه بالعقل .

وقديماً ضربنا مثلاً في ذلك ، وقلنا : هَبْ أننا جالسون في حجرة ، ودقَّ جرس الباب ، فعلم كل مَنْ في الحجرة أن طارقاً بالباب ، ولم يختلف أحد منهم على تلك الحقيقة .

وهذا ما قاله الفلاسفة حين أقرُّوا بوجود قوة وراء المادة ، ولكنهم تجاوزوا مهمتهم ، وأرادوا أن يُعرِّفونا ماهية أو حقيقة هذه القوة ، ولم يلتفتوا إلى الحقيقة البديهية التي تؤكد أن هذه القوة لا يمكن أن تُعْرَف بالعقل ؛ لأننا ما دُمْنا قد عرفنا أن بالباب طارقاً يدق ؛ فنحن لا نقول من هو ، ولا نترك المسألة للظن ، بل نتركه هو الذي يحدد لنا مَنْ هو ، وماذا يطلب ؟ لأن عليه هو أن يخبر عن نفسه .

اطلبوا منه أن يعلن عن اسمه وصفاته ، وهذه المسائل لا يمكن أن نعرفها بالعقل .

(192/370)

إذن : فخطأ الفلاسفة أنهم لم يقفوا عند تعقُّل أن هناك قوة من وراء المادة ، وأرادوا أن ينتقلوا من التعقُّل إلى التصور ، والتصورات ، لا تأتي بالعقل ، بل بالإخبار .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الناس قَدْ جَآءَكُمُ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [يونس : 108] .

والحق كما نعلم هو الشيء الثابت الذي لا يتغير أبداً ، وأن يأتي الحق من الرب الذي يتولى التربية بعد أن خلق من عدم وأمدَّ من عُدْم ، ولا يكلفنا بتكاليف الإيمان إلا بعد البلوغ ، وخلق الكون كله ، وجعلنا خلفاء فيه .

وهو إذن مأمون علينا ، فإذا جاء الحق منه سبحانه وتعالى ، فلماذا لا نجعل المنهج من ضمن التربية ؟

لماذا أخذنا تربية المأكل والملبس وسيادة الأجناس ؟

كان يجب إذن أن نأخذ من المربِّي سبحانه وتعالى المنهج الذي ندير به حركة الحياة ؛ فلا نفسدها .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ جَآءَكُمُ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [يونس : 108] .

فمعنى ذلك أنه لا عُذْر لأحد أن يقول : " لم يُبلغْني أحدٌ بمراد الله " ، فقد ترك الحق سبحانه العقول لتتعقل ، لا أن تتصور .

وجاء التصوُّر للبلاغ عن الله تعالى ، حين أرسل الحق سبحانه رسولاً يقول : أنا رسول من الله ، وهو القوة التي خلقت الكون ، وكان علينا أن نقول للرسول بعد أن تَصْدُق معجزته : أهلاً ، فأنت مَنْ كنا نبحث عنه ، فَقُل لنا : ماذا تريد القوة العليا أن تبلغنا به ؟

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ فَمَنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ [يونس : 108] .

لأن حصيلة هدايته لا تعود على مَنْ خلقه وهداه ، بل تعود عليه هو نفسه انسجاماً مع الكون ، وإصلاحاً لذات النفس ، وراحة بال ، واطمئناناً ، وانتباهاً لتعمير الكون بما لا

يفسد فيه ، وهذا الحال عكس ما يعيشه مَنْ ضل عن الهداية .

ويقول الحق سبحانه عن هذا الصنف من الناس :

﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [يونس : 108] .

(193/370)

وكلمة ﴿ ضَلَّ ﴾ تدل على أن الإنسان الذي يضل كانت به بداية هداية ، لكنه ضَلَّ عنها

.

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس : 108] .

وأنت لا توكِّل إنساناً إلا لأن وقتك لا يسع ، وكذلك قدرتك وعلمك وحركتك ، وهنا يُبلغ الرسول القوم : أنا لا أقدر أن أدفع عنكم الضلال ، أو أجبركم على الهداية ؛ لأني لست وكيلاً عليكم ، بل عليَّ فقط مهمة البلاغ عن الله سبحانه وتعالى ، وهذا البلاغ إن استمعتم إليه بخلاء القلب من غيره ، تهتدوا .

وإذا اهتديتم ؛ فالخير لكم ؛ لأن الجزاء سيكون خلوداً في نعيم تأخذونه مقابل تطبيق المنهج الذي ضيَّق على شهوات النفس ، ولكنه يهدي حياة نعيم لا يفوته الإنسان ، ولا تفوت النعم فيه الإنسان .

وإذا كان الإنسان مِنَّا يقبل أن يتعب ؛ ليتعلَّم حرفة أو عملاً أو صنعة أو مهنة ؛ ليسكب الإنسان من إتقان هذا العمل بقية عمره .

أليس على هذا الإنسان أن يُقبِل على العبادة التي تصلح باله ، وتسرع به إلى الغاية انسجاماً مع النفس ، ومع المجتمع ، وتقويماً وتهذيباً لشهوات النفس ، وينال من بعد ذلك خلود النعيم في الآخرة .

أما من يستكثر على نفسه الجدَّ والاجتهاد في تحصيل العلم ، أو تعلُّم مهنة أو حرفة ، فهو يحيا في ضيق وعدم ارتقاء ، فهو لا يبذل جهداً في التعلّم .

ونرى مَنْ يتعلم ويبذل الجهد ، وهو يرتقي في المستوى الاجتماعي والاقتصادي ؛ ليصل إلى درجة الدكتوراة مثلاً أو التخصص الدقيق الذي يأتي له بسعَة الرزق .

وكلما كانت الثمرة التي يريدها الإنسان أينع وأطول عمراً كانت الخدمة من أجلها أطول .

وقارن بين خدمتك لدينك في الدنيا بما ينتظرك من نعيم الآخرة ؛ وسوف تجد المسافة بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة شاسعاً ، ولا مقارنة .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [يونس : 108] .

نجد فيه كلمة ﴿ عَلَيْهَا ﴾ وهي تفيد الاستعلاء على النفس ، أي : أنك بالضلال والعياذ بالله تستعلي على نفسك ، وتركب رأسك إلى الهاوية .

وفي المقابل تجد قول الحق سبحانه :

﴿ فَمَنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ [يونس : 108] .

وتجد " اللام " هنا تفيد المِلْك ؛ لذلك يقال : " فلان له " و " فلان عليه " .

(195/370)

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾

وإذا كان الحق سبحانه قد أورد على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ يا أَيُّهَا الناس قَدْ جَاءَكُمُ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [يونس : 108] .

فهذا يعني البلاغ بمنهج الله تعالى النظري ، ولا بُدَّ أن يثق الناس في المنهج ، بأن يكون الرسول هو أول المنفذين للمنهج ، لأنه معاذ الله لو غشَّ الناس جميعاً لما غشَّ نفسه .

إذن : فبعد البلاغ عن الحق سبحانه ، وتعريف الناس بأن الهداية لا يعود نفعها على الحق ، بل هي للإنسان ، فيملك نفسه ؛ ويملك زمام حياته ، فيسير براحة البال في الدنيا إلى نعيم

الآخرة ، وأن الضلال لا يعود إلا باستعلاء الإنسان على نفسه ؛ ليركبها إلى موارد التهلكة .

والرسول صلى الله عليه وسلم ليس وكيلاً عنكم ، يأتي لكم بالخير حين لا تعملون خيراً ، ولا يصرف عنكم الشر وأنتم تعملون ما يستوجب الشر .

ولذلك كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون هو النموذج والأسوة .

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ واليوم الآخر وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب : 21] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾ [يونس : 109] .

أي : عليك أن تكون الأسوة ، وحين تتَّبع ما يُوحَى إليك ؛ ستجد عقبات ممن يعيشون على الفساد ، ولا يرضيهم أن يوجد الإصلاح ، فَوطِّن العزم على أن تتبع ما يوحى إليك ، وأن تصبر .

ومجيء الأمر بالصبر دليل على أن هناك عقبات كثيرة ، وعليك أن تصبر وتعطي النموذج لغيرك ، والثقة في أنه لو لم يكن هناك خير في اتباع المنهج لما صبرت عليه ؛ حتى يأتي حكم الله ﴿ واصبر حتى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ [يونس : 109] .

وليس هناك أعدل ولا أحكم من الله سبحانه وتعالى .

وهذه السورة التي تُخْتَم بهذه الآية الكريمة ، تعرضت لقضية الإيمان بالله ، قمة في عقيدة لإله واحد يجب أن نأخذ البلاغ منه سبحانه ؛ لأنه الرب الذي خلق من عَدَم ، وأمدَّ من عُدْم ، ولم يكلِّفنا إلا بعد مرور سنوات الطفولة وإلى البلوغ ؛ حتى يتأكد أن المكلَّف يستحق أن يُكلَّف بعد أن انتفع بخيرات الوجود كله ، وتثبَّت من صدق الربوبية .

ومعنى الربوبية هو التربية ، وأن يتولى المربِّي المربَّى إلى أن يبلغ حَدَّ الكمال المرجوّ منه .

وقد صدقتْ هذه القضية في الكون .

إذن : نستمع إلى الرب سبحانه وتعالى الذي خلق ، حين يُبيِّن لنا مهمتنا في الحياة بمنهج تستقيم به حركة الحياة ، ويستقيم أمر الإنسان مع الغاية التي يعرفها قبل أن يخطو أي خطوة .

ومن المحال أن يخلق الله سبحانه وتعالى المخلوق ثم يُضيِّعه ، بل لا بد أن يضع له قانون صيانة نفسه ؛ لأن كل صنعة إنما يضع قانونها ويحدد الغاية لها مَنْ صنعها ، فإذا ما خالفنا ذلك نكون قد أحَلْنا وغيَّرنا الأمور ، وأدخلنا العالم في متاهات ، وصار لكل امرىء غاية ، ولكل امرىء منهج ، ولكل عقل فكر ، ولَصار الكون متضارباً ؛ لأن الأهواء ستتضارب ، فتضعف قوة الأفراد ؛ لأن الصراع بين الأنداد يُضعِف قوة الفرد عن معالجة الأمر الذي يجب أن يعالجه .

فأراد الله سبحانه وتعالى توحيداً في العقيدة ، وتوحيداً في المنهج .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مثلاً تطبيقياً في مواكب الرسالات ، فذكر لنا في هذه السورة قصة نوح عليه السلام وقصة موسى وهارون عليهما السلام وذكر بينهما القصص الأخرى .

ثم ذكر قضية يونس عليه السلام .

ثم ختم السورة بقوله سبحانه :

﴿ واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾ [يونس : 109] .

بلاغاً عن الله تعالى .

وما دُمْتَ تبلّغ ، وأمتك أمة محسوبة إلى قيام الساعة أنها وارثة النبوة ، ولم تَعُدْ هناك نبوة بعدك يا محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً .

(197/370)

وأراد الحق سبحانه لأمتك أن يحملوا الدعوة للمنهج الذي نزل إليك .

إذن : فرسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون شهيداً بأنه قد بلّغ ، ويجب أن تكون أمته شهيدة بأنها بلغت ، وأوصلت رسالة الله إلى الدنيا ، وهذا شرف مهمة أمة محمد صلى

الله عليه وسلم .

ولم يكن لأمة غيرها مثل هذا الشرف ؛ فقد كان الأمر قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن دعوة أيِّ رسول تفتُر ، وتبهت تكاليفه ، ويغفل عنها الناس ، فيرسل الله سبحانه وتعالى رسولاً ، ولكن الأمر اختلف بعد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، فلم تَعُدْ هناك نبوة ، ولا رسالة ، ولكن صار هناك مَنْ يحملون منهج الله تعالى .

والرسول صلى الله عليه وسلم هو الأسوة ؟ لأنه مُبلغ منهج الله ، وهو أسوة في تطبيق قانون صيانة الإنسان وحركته ، ونموذج تطبيقي حتى لا يكلف الناس فوق ما تطيقه إنسانيتهم ؛ ولذلك كان يُصِر على أنه بشر ، وأوضح القرآن الكريم ذلك بلا أدنى غموض :

﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [فصلت : 6] .

ليؤكد صدق الأسوة ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لو لم يكن بشراً وطلب من الناس أن يفعلوا مثله لقالوا : لن نستطيع لأنك لست مثلنا .

ولذلك نلحظ أن القرآن يؤكد على بشرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه صلى الله عليه وسلم يزيد عن البشر باصطفاء الله سبحانه له ؛ ليكون رسولاً يُوحَى إليه ، فمهمته الرسالية الأولى أن يُبلغ هذا الوحي ، والمهمة الثانية أن يؤكد بسلوكه أنه مقتنع بهذا الوحي ويُطبِّقه على نفسه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] .

(198/370)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من ناحية الثراء أقلَّ الناس مالاً ، وهو غير متكبر ، ولا جبَّار ، وهو كنموذج سلوكي تتوازن فيه وبه كل الفضائل ؛ فلم يطلب لنفسه شيئاً ، بل إنه منع أقاربه وأهله من حقوق أقرها لغيرهم من المسلمين ، فأقاربه لم يُعطهم الحق في أن يرثوا شيئاً مما يملكه بعد وفاته وقد حرمهم ؛ ليكون كل عمل صادر منه صلى الله عليه وسلم أو ممن ينتسبون بالقرابة إليه هو عمل خالص لوجه الله تعالى .

وهذا السلوك هو عكس سلوك الرئاسات البشرية ، أو السلطات الزمنية ، فهذه الرئاسات أو تلك السلطات تفيض أول ما تفيض على نفسها بالخير ، ثم تفيضه على الدوائر القريبة منها حسب أقطار القرب ؛ فالقريب جداً يأخذ أولاً وكثيراً ، ومَنْ يبعد في القرابة يأخذ الأقل حسب درجة بُعْده .

لكن الذي في دائرة القرابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ حتى ما يأخذه الفقير في أمة محمد عليه السلاة والسلام ، وكأن الله سبحانه وتعالى يدلنا بذلك على أنه من العيب

أن يكون الإنسان منسوباً لآل بيت النبوة ، ويكون موضعاً لأخذ الزكاة .

إذن : فالاتِّباع الذي أمر الله تعالى به ، هو اتباع الوحي بلاغاً ، واتباع ما يُوحَى به تطبيقاً ، وسيتطلب هذا مواجهة متاعب كثيرة ، وسيلقى عقبات من الجبابرة المنتفعين بالفساد في الأرض ، فلا بُدَّ أن يصادموا هذه الدعوات ؛ ليحافظوا على سلطاتهم الزمنية ، فيأمر الحق سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يصبر ، وفي الأمر بالصبر إشارة إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم مُقْبِل على عقبات فَلْيُعِدّ نفسه لتحمُّل هذه العقبات بالبصر

.

وفي آية أخرى يأمره الحق سبحانه وتعالى أن يصبر ويصابر هو والمؤمنون . . يقول سبحانه :

﴿ اصبروا وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ [آل عمران : 200] .

(199/370)

أي : إن صبرت ، فقد يصبر خَصْمك أيضاً ، وهنا عليك أن تصابره ، وكلمة " اصبر " توضح أن دعاة منهج الحق سبحانه لا بد أن يتعرضوا لمتاعب ، وإلا ما كانت هناك ضرورة لأن يجيء ، فلو كان العالم مستقيم الحركة ، فما ضرورة المنهج إذن ؟

ولكن المنهج قد جاء ؛ لأن الفساد قد عَمَّ الكون ، ويحتاج إلى إصلاح ، وإلى مواجهة المفسدين ، وهذا ما يرهق الداعين إلى الله تعالى ، وليُوطّن كل داعية نفسه على ذلك ، ما دام قد قام ليدعو إلى منهج الحق سبحانه وتعالى .

وكل داع إلى الله لا يصيبه أذى ، فهذا يُنقص من حظه في ميراث النبوة ؛ لأن الذي يأتي له الأذى هو الذي يأخذ حظاً من ميراث النبوة ، فالأذى لا يجيء إلا بمقدار خطورة الداعي إلى الله سبحانه على الفساد والمفسدين ، وهم الذين تجتمعون ضده .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " نضَّر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلَّغها ، فرُبَّ حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه " .

إذن : فنحن أمة محمد صلى الله عليه وسلم قد ورثنا منه البلاغ ، وورثنا منه الأسوة الحسنة :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ واليوم الآخر وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً ﴾

[الأحزاب : 21] .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾ [يونس : 109] .

هو دليل على أن الوحي بصدد الإنزال ؛ لأن الوحي لم ينزل بالقرآن دَفْعة واحدة ، فقد كان

الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم طوال حياته .

وهكذا تكون حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي مقام الاستقبال للوحي .

وقول الحق سبحانه :

﴿ واصبر حتى يَحْكُمَ الله ﴾ [يونس : 109] .

يوضح لنا أنه سبحانه قد وضع حدّاً تؤمل فيه أن الأمر لن يظل صبراً ، وأن القضية ستُحسم من قريب بحكم من الله تعالى .

(200/370)

كلمة ﴿ يَحْكُمَ ﴾ توضح أن هناك فريقين ؛ كُلٌّ يدَّعي أنه على حق ، ثم يأتي مَنْ يفصل في القضية ، والحجة إما الإقرار أو الشهود ، وبطبيعة الحال لن يُقِرَّ الكفار بكفرهم ، والشهود قد يكونون عُدولاً ، أو يكونون ممن يُدارونَ فِسْقهم في ظاهر العدالة . فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الحاكم ، فهو لا يحتاج إلى شهود ؛ لأنه خير الشاهدين ، والله سبحانه لا يحكم فقط دون قدرة إنفاذ الحكم ، لا بل هو يحكم وينفذ .

إذن : فهو سبحانه قد شهد وحكم ونفَّذ ، ولا توجد قوة تقف أمام قدرة الله تعالى ، أو تقف أمام حكم الله عز وجل .

ونحن في زماننا نرى القُوى وهي تختلف ، فنجد القويَّ من الدول وقد تسلَّط على الضعيف ، فيلجأ الضعيف إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، ويصدر كل منهما قرارات ، وحتى لو افترضنا عدالة الحكم ، فأين قوة التنفيذ ؟ إنها غير موجودة .

ولكن قدرة الحق الأعلى سبحانه هي قدرة خير الحاكمين ، لأنه هو سبحانه الذي يشهد ، وهو سبحانه لا يحتاج إلى مَنْ يُدلِّس عليه في الشهادة ؛ لأنك إن عمَّيت على قضاء الأرض ، فلن تُعمَّى على قضاء السماء .

وبعد ذلك يحكم الحق سبحانه حُكْماً لا هوى فيه ؛ لأن آفة الأحكام أن يدخلها الهوى فتميل ، والحق سبحانه لا هوى له ؛ لأنه لا مصلحة له عند العباد ، فهو الخالق عز وجل ، ولن يأخذ مصلحة من مخلوق .

ويطمئنا الحق سبحانه على أن رسوله صلى الله عليه وسلم أيضاً لا ينطق عن الهوى .

فيقول رب العزة سبحانه :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى ﴾ [النجم : 34] .

أي : اطمئنوا إلى حكمه ؛ لأنه لا ينطق عن هوى فليس في نفسه ما يريد تحقيقه إلا دعوة الخلق إلى حُسْن عبادة الخالق سبحانه .

وقد يقول قائل : ولكن الحق عز وجل عدَّل للرسول بعضاً من الأحكام .

ونقول : لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهد ببشريته فيما لم يُنزِل الله فيه حُكْماً ، وحين يُنزِل الله حُكْماً ، فهو صلى الله عليه وسلم ينزل على أمر الله تعالى ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه سلم يحكم حتى فيما اجتهد فيه عن هوى ، بل حكم بما رآه عدلاً ، وحين يُنزِل الحق سبحانه وتعالى حُكْماً مغايراً فهو يبلغ المسلمين ويُعدّل من الحكم .

إذن : فالتعديل للحكم هو قمة الأمانة مع البلاغة عن الله سبحانه وتعالى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقبل على الحكم في أمر لم ينزل فيه حكم من الله ، فهو قد حكم بما عنده من الرأي ، فيبلغ صلى الله عليه وسلم الحكم من الله ، والذي عدّل له ليس مساوياً له بل هو خالقه .

ثم إن الذي أخبرنا أن الله سبحانه قد عدّل له هو النبي صلى الله عليه وسلم ، فهل يوجد مَنْ يُضعِف مركز كلمته ، ويبلغ أن الحكم الذي صدر منه قد عُدِّل له ؟ ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي استقبل الوحي تحلّى بأمانة البلاغ عن الله ، وهو الذي نقل لنا عتاب ربه له .

وهذه قمة الصدق في البلاغ عن الله ، وكان اجتهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم محصوراً في الأمور التي لم يصدر فيها حكم من الله ، وكان في ذلك أسوة حسنة لنا لنتجرأ ونجتهد .

" وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى اليمن فقال : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله . قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أجتهد رأيي لا آلو . قال : وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدري ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يُرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

(202/370)

والحق سبحانه وتعالى خير الحاكمين ؛ لأنه الشاهد الذي يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور ، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية ، ولا هوى له ، وهو الذي يصدر الحكم بمطلق عدله وبفضله ، وهو القادر على إنفاذ ما يحكم به ، ولا توجد قوة تُجير عليه ، ولا يوجد حاكم بقادر على كل هذا إلا الله سبحانه .

وشاء الحق عز وجل أن يكرِّم المؤمنين الذين يحكمون بين الناس بأن جعل ذاته ضمنية بتفوق الخيرية على الحاكمين .

وواقع الأمر أن هناك بشراً يحكمون غيرهم ، ولكن الحق سبحانه حكم بأنه خيرهم ، فمن

الحاكمين مَنْ قد يُدلس عليه غيره ، ومن الممكن أن يدخل الهوى في أحكام هؤلاء الحاكمين ، لكنه سبحانه لا تَخْفى عليه خافية ، ولا يمكن أن يدخل الهوى إلى حكمه ، وأحكامه نافذة بطلاقة قدرته سبحانه ؛ لذلك فهو خير الحاكمين إطلاقاً .

وإذا سمعت جمعاً يدخل الله ذاته مع خلقه فيه ؛ فاعلم أن ذلك إيذان بأن تأخذ من واقع ما تشهد حقيقة مَنْ لا تشهد ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] .

ويقول تعالى :

﴿ واللهُ خَيْرُ الرازقين ﴾ [الجمعة : 11] .

ويقول تعالى :

﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين ﴾ [الأنبياء : 89] .

ويقول تعالى :

﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ [التين : 8] .

وكلما وجدت جَمْعاً أدخل الله ذاته مع عباده ممن لهم هذا الوصف ، فهذا يَدلُّك على أن الموصوفين معه لهم تلك الصفات المذكورة ، ولكنه سبحانه وتعالى أزليٌّ مُطْلق الصفات ، وهم أحداث وأغيار تنتابهم القوة والتغيُّر والضعف .

وتجد الله سبحانه وتعالى وهو يَصِفُ نفسه بأنه :

﴿ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] .

وكلنا نعلم أن الله سبحانه هو خالق كل شيء من عدم ، ولكن هناك من الخلق مَنْ يخلق شيئاً من موجود ؛ ولذلك فالله سبحانه وتعالى هو أحسن الخالقين .

والحق سبحانه يصف نفسه بأنه :

(203/370)

﴿ خَيْرُ الرازقين ﴾ [الجمعة : 11] .

والرزق هو ما به يُنتفع ، وقد يأتي لك وليُّ أمرك بالمأكل والمشرب والملبس ، ويعطيك ما تنتفع به ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الرزق في الكون كله .

ويقول الحق سبحانه واصفاً نفسه :

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ الله والله خَيْرُ الماكرين ﴾ [آل عمران : 54] .

والإنسان حين يمكر قد يُدارِي مسألة ، ويغفل عن ركن فيها ، لكن الله تعالى لا يغفل عن شيء .

إذن : فالخيرية في الحكم لها نصيب من طلاقة قدرة الله تعالى ، ونحن عرفنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين حكم في بعض الأحكام وعدّلها له الله سبحانه وتعالى ، لم يكن

لله تعالى حكم قبل أن يحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومثال ذلك : " قصة زيد بن حارثة ، وكان مولى أو عبداً لخديجة بن خويلد رضي الله عنها ، ووهبته لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم علم أهله الذين كانوا يبحثون عنه أنه في مكة ، وكان قد خُطف صغيراً من بلده وبيع في مكة ، كعادة العرب في الجاهلية مع الرقيق ، فلما علموا بذلك ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستردوا ابنهم ، فقال لهم رسول الله : " والله إني لأخَيِّره ، فإن اختاركم فخذوه ، وإن اختارني فهو لي " .

فاختار زيد أن يبقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن رسول الله بعد ذلك ليفرِّط فيه ؛ فأعطاه شرف البنوَّة ، فأسماه زيد بن محمد " .

وهكذا رأى النبي صلى الله عليه وسلم في التبنِّي وسيلة تكريم ، ولكن الله عز وجل يريد أمراً غير هذا ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ولكن رَّسُولَ الله وَخَاتَمَ النبيين وَكَانَ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ [الأحزاب : 40] .

(204/370)

لأن الأبوة بالتبنّي قد تُحِدث خَلْطاً في الأنساب ، فالابن بالتبني له حق الزواج من ابنة مَنْ تبنَّاه ، فكيف نمنع عنه هذا الحق ، والابن بالتبني قد تحرم عليه زوجة مَنْ تبناه إن رحل عنها أو طلقها .

لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يحفظ للأنساب حقوقها ومسئولياتها ، فقال سبحانه :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ولكن رَّسُولَ الله وَخَاتَمَ النبيين ﴾ [الأحزاب : 40] .

ومهمته صلى الله عليه وسلم كرسول من الله بالنسبة لكم أفضل من الأبوة لكم .

وقال الحق سبحانه في تعديل حكم التبني :

﴿ ادعوهم لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله ﴾ [الأحزاب : 5] ؟

وهذا رَدٌّ لحكم من رسول الله بتكريم لرسول الله ، فما صنعه محمد صلى الله عليه وسلم عَدْلٌ وقسْط بعُرْف البشر ، لكن حكم الله سبحانه وتعالى هو الأقسط والأعدلَ ، فينتهي بذلك نسب زيد بن محمد ، ويعود إلى نسبه الفعلي " زيد بن حارثة " .

وحتى لا يؤثر هذا الأمر في نفس زيد ، نجد الحق سبحانه وتعالى يكرمه تكريماً لم يُكرِّمه لصحابي غيره ، فهو الصحابي الوحيد الذي ذُكِر اسمه بالشخص والعَلَم في القرآن ، فقال الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قضى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ [الأحزاب : 37] .

وصار اسم " زيد " كلمة في القرآن تُتْلَى ويُجْهَر بها في الصلاة ، فإذا كان قد نفي عنه النسب إلى محمد صلى الله عليه وسلم فقد أعطاه ذِكْراً ثانياً خالداً في القرآن المحفوظ ، ومنحه بذلك شرفاً كبيراً .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ واصبر حتى يَحْكُمَ الله وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ [يونس : 109] .

يفيد أن حكم الله تعالى أعمُّ من أن يكون حكماً في الدنيا أو الآخرة فقط ، فحكم الله سبحانه في الدنيا نَصْرٌ لدين الله ، ومَنْ مات من المؤمنين أو الكفار لهم حكم آخر .

(205/370)

وختم الله تعالى سورة يونس بهذا الحكم ، وأهدى الله سبحانه كل مؤمن بيونس كنبي من أنبياء الله تعالى قضية عندما ذهب مغاضباً ، قال فيه الحق سبحانه :

﴿ وَذَا النون إذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فنادى فِي الظلمات أَن لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : 87] .

وأهداه الحق سبحانه وساماً بقوله :

﴿ فاستجبنا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم ﴾ [الأنبياء : 88] .

وأشركنا الحق سبحانه وتعالى في هذا الوسام بقوله تعالى :

﴿ وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ [الأنبياء : 88] .

وهكذا أسدى إلينا سيدنا يونس جميلاً كبيراً ، حين هداه الله إلى قوله :

﴿ لاَّ إله إلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : 87] .

واستجاب الله تعالى لدعائه ، وأنجاه من الغَمِّ ، وهو أعنف جنود الله ؛ لأن الشيء الذي يضايقك هو الذي لا تستطيع له دَفْعاً .

ولذلك يقول : إن العدو كلما لَطُفَ عَنُفَ ؛ لأن العدو إن كان ضخم الحجم ، تكون الوقاية منه أسهل من العدو الصغير سريع الحركة ، فإن كان العدو ضخماً ، فالإنسان يرى ضخامته من على البُعْد ، فيجري منه الإنسان أو يختبىء ، لكن إن كان العدو ثعباناً رفيعاً مثلاً فقد لا يراه الإنسان ، وقد لا يستطيع الفرار منه ، وإنْ كان ميكروباً أو فيروساً لا يُرى بالعين المجرَّدة ؛ فهو أعنفُ قدرةً وقوةً في مهاجمة الإنسان .

إذن : كل مُتْعب في الدنيا من الممكن أن تحتاط منه إلا ما يتلصَّص عليك بدقَّة ولُطْف ؛ فإنَك لا تعرف مدخله .

ونحن نسمع أن فلاناً قد أصيب بمرض ما ، لأنه أخذ عدوى من فيروس ما ، هذا الإنسان لا يعرف متى اخترق الفيروس جسده ، لكنه فوجىء بأعراض المرض تظهر عليه بعد كمون الفيروس في جسده لأسبوعين ، وهكذا نجد أن العدو كلما لَطُفَ عَنُفَ .

والغمُّ من أشد وأقسى أنواع البلاء ، وكلنا نعرف قصة الإمام علي كرَّم الله وجهه وهو المشهور بالفُتْيا ، وكان الناس يستفتونه فيما يعجزون عن العثور على حل له ، واجتمع بعض من الناس وقالوا : نريد أن نجمع بعض الأشياء الصعبة ونسأله عنها لنختبره ، فلما اجتمعوا قالوا لعليٍّ كرم الله وجهه : نريد أن نستعرض كون الله تعالى ، فقد جلسنا معاً لنعرف أقوى ما خلق الله ، واختلفنا فقال كل واحد اسم القوة على حَسْب ما يراها .

لم يتروَّ على بن أبي طالب ، ولم يَقُلْ كلاماً مَسْروداً بحيث إن وقف ، لا يطالبه أحد بزيادة ، بل حدَّد من الجملة الأولى عدد القوى حسب ترتيبها وقوتها ، حتى تطابق العدد على المعدود ، وهذا دليل على أنه مُسْتحضِرٌ للقضية استحضار الواثق . وفرد أصابع يديه وقال :

أشدُّ جنود الله عشرة : الجبال الرواسي ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح تقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح ، يستتر بالثوب أو الشيء ويمضي لحاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْر ، والهمُّ يغلب النوم ، فأشد جنود الله سبحانه الهَمُّ .

هكذا قال سيدنا علي بن أبي طالب ، فالهمُ والغمُّ من أشد جنود الله تعالى ، وكان سيدنا يونس عليه السلام سبباً في أن قدَّم الله سبحانه لكل مؤمن به إلى أن تقوم الساعة مَنْجىً من الهمِّ والغمِّ بالدعاء الذي ألهمه ليونس عليه السلام في قوله تعالى :

﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين * فاستجبنا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ [الأنبياء : 8788] .

(207/370)

وهكذا تعدَّتْ " النجاة من الغم " من الخصوصية إلى العمومية ، وقد أخذها جعفر الصادق رضي الله عنه وجعل منها " تذكرة طبية " للمؤمن حتى يستقبل أحداث الحياة كلها ، في كل جوانبها المفزعة ؛ لأن الإنسان يهدده الخوف مما يعلم .

أما الهم فلا يعرف الإنسان فيه سبب الخطر ، ولا يعلم الإنسان مكر الناس به ؛ لأن الإنسان لا يعلم ما بَيَّتوا له .

وشغل الإنسان بأمر الدنيا وأن يكون منعَّماً ومرفَّهاً في كل أمور الحياة ، يجعله عُرْضة للهموم .

وكان سيدنا جعفر الصادق له بصر وبصيرة بآيات القرآن ومتعلقاتها ، فقال : " عجبت لمن

خالف ولم يفزع إلى قول الحق سبحانه :

﴿ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوكيل ﴾ [آل عمران : 173] .

ولا يُتعجب لمن يخيفه شيء إلا إذا كان عند المتعجب شيء يزيل الخوف .

فمن عنده صداع يمكنه أن يعالجه بالأسبرين ، أما الخوف فقد وصف سيدنا جعفر دواءه ، بقول الله سبحانه :

﴿ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوكيل ﴾ [آل عمران : 173] .

فذلك هو الدرع من كل خوف .

ويقدم جعفر الصادق لنا السبب فيقول : لأن الله سبحانه قال عقبها :

﴿ فانقلبوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سواء ﴾ [آل عمران : 174] .

أي : أن سيدنا جعفراً جاء بالحيثية من نفس القرآن ، وأضاف جعفر الصادق : "

وعجبت لمن اغتمَّ وهو الموضوع الذي نبحثه الآن ولم يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : 87] .

فإني سمعت الله تعالى بعقبها يقول :

﴿ فاستجبنا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ [الأنبياء : 88] .

وعجبت لمن مُكِر به كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر : 44] .

لأني سمعت الله تعالى بعقبها يقول :

(208/370)

﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ [غافر : 45] .

وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [الكهف : 39] .

لأني سمعت الله تعالى بعقبها يقول :

﴿ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ﴾ [الكهف : 40] .

وهكذا وجد جعفر الصادق رضي الله عنه في كتاب الله أربع آيات لأربع حالات نفسية تصيب البشر ، وجاء مع كل حالة دليلها من القرآن الكريم .

وقول الحق سبحانه وتعالى في آخر سورة يونس :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ ﴾ [يونس : 109] .

مناسب لقوله سبحانه في الآية الأولى من السورة التي تليها :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : 1] .

لأن الوحي كتاب أحكمت آياته حقاً وصدقاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(209/370)

فائدة

قال التسترى :

قوله : ﴿ واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ واصبر ﴾ [109] قال : أجرى الله في الخلق أحكامه ، وأيدهم على اتباعها بفضله وقدرته ، ودلَّهم على رشدهم بقوله : ﴿ واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ واصبر ﴾ [109] فالصبر على الاتباع ترك تدبير النفس ، ففيه النجاة عاجلاً من رعونات النفس ، وآجلاً من حياء المخالفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 77 ﴾

(210/370)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما انا عليكم بوكيل " وفى سورة النمل : "فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنرين " فورد فى الأولى عقب قوله "ومن ضل " قوله "فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل " وفى الثانية عقب قوله "ومن ضل " قوله "فقل إنما أنا من المنذرين " فللسائل أن يسأل عن الفرق ؟

والجواب أن آية يونس مرتبطة بقوله تعالى فيما قبلها : "ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " فلما تقدمها هذا ومعناه هو المعنى المراد فى قوله تعالى فى سورة الزمر : "وما أنت عليهم بوكيل " فقيل هنا على لسانه صلى الله عليه وسلم : "وما انا عليكم بوكيل " وتناسب ذلك وارتبط ارتباطا لا يلائم الموضع خلافه والله أعلم .

وأما آية النمل فإنها راجعة إلى قوله تعالى فيما تقدمها : "فتوكل على الله إنك على الحق المبين إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون " فناسب هذا أتم مناسبة قوله تعالى : " ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين " ولم يكن قوله : "فقل إنما أنا من المنذرين " ليناسب

المتقدم فى سورة يونس ولا قوله : "وما أنا عليكم بوكيل " ليلائم ما تقدم هنا والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 251.252 ﴾

(211/370)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ : يجوز أن يتعلَّقَ ب " جاءكم " و " مِنْ " لابتداء الغاية مجازاً ، ويجوز أن يكونَ حالاً من " الحق " .

قوله : ﴿ فَمَنُ اهتدى ﴾ " ومَنْ ضَلَّ " يجوز أن تكون " مَنْ " شرطاً ، فالفاءُ واجبةُ الدخول ، وأن تكونَ موصولةً فالفاءُ جائزتُه .

قوله : ﴿ وَمَا أَنَاْ ﴾ ، يجوزُ أن تكون الحجازية أو التميميةَّ ؛ لخفاء النصب في الخبر .

وباقيها واضح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 276 ﴾

(212/370)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

مَنْ استبصر رَبِحَ رُشْدَ نفسِه ، ومَنْ ضلَّ فقد زاغ عن قَصْدِه ؛ فهذا بلاءٌ اكتسب ، وذلك ضياء وشِفاء اجتلب .

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (109) ﴾

قِفْ عند جريان أحكامنا ، وانسلِخْ عن مرادِك بالكلية ، ليُجْرِيَ عليك ما يريد ، والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 119 . 120 ﴾

(213/370)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93) ﴾

يعني : أنزلنا بني إسرائيل ﴿ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ يعني : منزل صدق ، وهو أرض مصر ، وذلك أن الله تعالى قد وعد لهم بأن يورِّثهم أرض مصر ، فلما غرق فرعون ، رجع موسى عليه السلام ببني إسرائيل ، إلى أرض مصر ، فنزلوا بها وسكنوا الدِّيار .

ويقال : مبوأ صدق يعني : أرضاً كريمة ، يعني : أرض أردن وفلسطين .

ويقال : منزل حسن .

وقال قتادة : أرض الشام .

ويقال : الأرض المقدسة .

﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات ﴾ يعني : من ميراث أهل مصر ، وأهل الشام .

﴿ فَمَا اختلفوا حتى جَاءهُمُ العلم ﴾ فما اختلفوا في الدين حتى جاءهم البيان ، يعني : جاءهم موسى عليه السلام بعلم التوراة ، فاختلفوا من بعد يوشع بن نون .

ويقال فما اختلفوا في أمر محمد صلى الله عليه وسلم حتى جاءهم العلم ، يعني : خرج النبي صلى الله عليه وسلم وجاءهم بالقرآن ، لأنهم لم يزالوا مؤمنين به ، وذلك أنهم يجدونه مكتوباً عندهم ، فلما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم جحدوا به بعد العلم .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من الذين آمن بعضهم ، وكفر بعضهم .

قوله تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّ مّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ من القرآن ، ﴿ فَاسْأَلِ الذين

يَقْرَءونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ ﴾ يعني : مؤمني أهل التوراة .

وذلك أن كُفّار قريش ، قالوا : إنّ هذا الوحي يلقيه إليه الشيطان ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّ مّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ فسيخبرونك أنه مكتوب عندهم في التوراة .

(214/370)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا أسْأَلُ أحَداً ، وَلا أشُكُّ فِيهِ ، بَلْ أشْهَدُ أنَهُ الحَقُّ " .

وقال القتبي : فيه تأويلان ، أحدهما : أن تكون المخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد فيه غيره من الشّكّاك ، لأن القرآن نزل عليه بمذاهب العرب وهم يخاطبون الرجل بشيء ، ويريدون به غيره ، كما قالوا : إيّاك أعني واسمعي يا جارية .

وكقوله : ﴿ يا أَيُّهَا النبى اتق الله وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين إِنَّ الله كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [الأحزاب : 1] أراد به الأمة ، يدل عليه قوله تعالى في آخره : ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ الله فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلقى إِلَيْكُمُ السلام لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحياة الدنيا فَعِنْدَ الله مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كذلك كُنتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ الله عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ [النساء : 94] .

وكقوله : ﴿ وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : 45] .

ووجه آخر : أن النّاس كانوا على ثلاث مراتب ، منهم من كان مؤمناً ، ومنهم من كان كافراً ، ومنهم من كان شاكاً ، وإنَّما خاطب بهذا الشَّاكَّ .

ثم قال : ﴿ لَقَدْ جَاءكَ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ يعني : القرآن ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ يعني : من الشاكين ، ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الذين كَذَّبُواْ بآيات الله ﴾ يعني : بالكتاب ، وبالرسالات ﴿ فَتَكُونَ مِنَ الخاسرين ﴾ ، يعني : من المغبونين .

(215/370)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ ، يعني : وجبت عليهم كلمة ربك بالسخط ، وقدّر عليهم الكفر ، ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : لا يُصَدّقونَ بالقرآن أنه من الله تعالى ، ﴿ وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ ءايَةٍ ﴾ يعني : علامة ﴿ حتى يَرَوُاْ العذاب الاليم ﴾ يعني : الهلاك في الدُّنيا ، والعذاب في الآخرة .

قرأ نافع ، وابن عامر : ﴿ كلمات رَبَّكَ ﴾ وقرأ الباقون : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ ءامَنَتْ ﴾ يقول : لم يكن أهل قرية كافرة آمنت عند نزول

العذاب ﴿ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ وقبل منها الإيمان ، ودفع عنهم العذاب ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ ﴾ .

قال مقاتل : فلولا ، على ثلاثة أوجه : الأول يعني : فلم ، مثل قوله : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ ءامَنَتْ ﴾ ﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ القرون ﴾ .

الثاني : فلولا يعني : فهلاّ كقوله : ﴿ فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ولكن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : 43] ﴿ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ [الواقعة : 86] والثالث : فلولا يعني : فلوما ، كقوله :

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأمن أَوِ الخوف أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرسول وإلى أُوْلِى الأمر مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الذين يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشيطان إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء : 83] ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين ﴾ [الصافات : 143] .

ويقال : فلولا ها هنا ، بمعنى فهلا كانت قرية آمنت ، فنفعها إيمانها .

ومعناه فهلاّ آمنت في وقت ينفعها إيمانها .

(216/370)

فأعلم الله تعالى ، أن الإيمان لا ينفع عند نزول العذاب ، ثمّ قال : ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ ﴾ معناه : لكن قوم يونس ﴿ لَمَّا ءامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ ﴾ يعني : آمنوا قبل المعاينة ، فكشفنا عنهم .

وروى ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قال : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ كما نفع قوم يونس .

وعن قتادة : إنَّ قوم يونس عليه السلام خرجوا ونزلوا على تل ، فدعوا الله تعالى أربعين ليلة ، حتى تاب الله عليهم .

وروي عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم أنَّ يونس بعثه الله تعالى إلى قومه ، فدعاهم إلى عبادة الله تعالى ، وترك ما هم فيه من الكفر ، فأبوا ، فدعا ربه فقال : يا رب قد دعوتهم ، فأبوا .

فأوحى الله تعالى إليه أن ادعهم ، فإن أجابوك وإلا فأعلمهم أن العذاب يأتيهم إلى ثلاثة أيام . فدعاهم فلم يجيبوه ، فأخبرهم بالعذاب ، فقالوا : ما جربنا عليه كذباً مذ كان معنا ، فإن لم يلبث معكم ، وخرج من عندكم ، فاحتالوا لأنفسكم .

فلمّا كان بعض الليل خرج يونس من بينهم ، فلما كان اليوم الثالث رأوا حمرة وسواداً في السماء ، كهيئة النار والدخان ، فظنُّوا أن العذاب نازل بهم ، فجعلوا يطلبون يونس عليه السلام فلم يجدوه ، فلما كان آخر النهار أيسوا من يونس .

وجعل يهبط السواد والحمرة ، فقال قائل منهم : إن لم تجدوا يونس عليه السلام فإنكم تجدون رب يونس ، فادعوه ، وتضرعوا إليه .

فخرجوا من القرية إلى الصحراء ، وأخرجوا النساء والصبيان والبهائم ، وفرقوا بين كل

إنسان وولده ، وبين كل بهيمة وولدها ، ثمّ عجوا إلى الله تعالى مؤمنين ، مصدقين .

وارتفعت أصوات الرجال والنساء والصبيان ، وخوار البهائم وأولادها ، واختلطت الأصوات ، وقربت منهم الحمرة والدخان ، حتى غشي السواد سطوحهم ، وبلغهم حرُّ النار .

(217/370)

فلما عرف الله تعالى منهم صدق التوبة ، رفع عنهم العذاب بعد ما كان غشيهم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ ءامَنَتْ ﴾ يعني : لم يكن أهل قرية آمَنَتْ ﴿ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ عند نزول العذاب ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ ءامَنَتْ فَنَفَعَهَا ﴾ يعني : صدّقوا بالألسن والقلوب ، عرف الله تعالى منهم الصدق ، ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمُ ﴾ يعني : رفعنا وصرفنا .

﴿ عَذَابَ الخزى فِى الحياة الدنيا ﴾ يعني : عذاب الهون ، ﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ ﴾ يعني : إلى منتهى آجالهم .

وفي هذه الآية تخويف وتهديد لكفار مكة ، ولجميع الكفار إلى يوم القيامة ، أنهم إن لم يؤمنوا ينزل بهم العذاب ، فلا ينفعهم إيمانهم عند نزول العذاب .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِى الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ يعني : وفّقهم لذلك

وهداهم .

ويقال : في الآية مضمر .

ومعناه : ولو شاء ربك أن يؤمنوا ، لآمنوا كلهم جميعاً .

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس ﴾ يعني : الكفار ﴿ حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ويقال : هو عمه أبو طالب .

ولها وجه آخر : ولو شاء ربك ، لأراهم علامة لأضطروا إلى الإيمان ، كما فعل بقوم يونس ، ولكن لم يفعل ذلك لأن الدنيا دار ابتلاء ومحنة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ يعني : بإرادة الله تعالى ، وتوفيقه ﴿ وَيَجْعَلُ الرجس ﴾ يعني : الكفر ﴿ عَلَى الذين لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ يعني : يترك حلاوة الكفر في قلوب الذين لا يرغبون في الإيمان .

ويقال : ويجعل الرجس ، يعني : الإثم .

ويقال : الرجس يعني : العذاب .

قرأ عاصم ، في رواية أبي بكر : ﴿ وَنَجْعَلُ الرجس ﴾ بالنون ، وقرأ الباقون : ﴿ وَيَجْعَلَ ﴾ بالياء .

ثمّ أخبر أنه لا عذر لمن تخلّف عن الإيمان ؛ لأنه قد بيّن العلامات ، وهو قوله : ﴿ قُلِ انظروا مَاذَا فِى السموات ﴾ من الدلائل ، من الشمس ، والقمر ، والنجوم ، ﴿ وَ ﴾ ما في ﴿ وَفِى الأرض ﴾ ، من الجبال ، والبحار ، والأشجار ، والثمار ، فاعتبروا به .

ثم قال حين لم يعتبروا به : ﴿ وَمَا تُغْنِى الآيات ﴾ ما تنفع العلامات ، التي في السموات والأرض ﴿ والنذر ﴾ يعني : الرسل ﴿ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : لا يرغبون في الإيمان ، ولا يطلبون الحق .

وقال أبو العالية : لا تنفع الآيات والرسل عن قوم قد قُدِّر عليهم أنهم لا يؤمنون .

ويقال : عَنْ ها هنا صلة ، ومعناه : وما تغني الآيات والنذر قوماً لا يؤمنون ، يعني : علم الله في الأزل أنهم لا يؤمنون .

ثم خَوَّفَهُمْ فقال تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : أن يصيبهم العذاب ، مثل ما أصاب الأمم الخالية .

﴿ قُلْ فانتظروا ﴾ يعني : انتظروا العذاب ﴿ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ المنتظرين ﴾ .

ويقال انتظروا لهلاكي ، فإني معكم من المنتظرين بهلاككم .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا ﴾ يعني : أنجيناهم من العذاب والهلاك ، ﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ معهم .

انصرف هذا إلى قوله : ﴿ مِثْلَ أَيَّامِ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ثُمَّ نُنَجّى رُسُلَنَا ﴾ يعني :

أنجيناهم من العذاب ، والذين آمنوا .

يعني : أنجيناهم معهم .

ومعناه : إذا جاءهم العذاب ينجي الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم ، ومن آمن معه ،

كما أنجى سائر الرسل ، والذين آمنوا معهم .

﴿ كَذَلِكَ حَقّا عَلَيْنَا ﴾ يعني : هكذا واجب علينا ﴿ نُنجِ المؤمنين ﴾ من العذاب .

قرأ الكسائي ، وعاصم في رواية حفص : ﴿ ثُمَّ نُنَجّى ﴾ .

بجزم النون وتخفيف الجيم ، وقرأ الباقون : ﴿ نُنَجّى ﴾ بالنصب والتشديد .

وكذلك في قوله ﴿ نُنجِ ﴾ الْمُؤْمِنِينَ ومعناها واحد : نجيته ، وأنجيته .

(219/370)

ثم قال عز وجل : ﴿ قُلْ يا أهل أَيُّهَا الناس ﴾ يعني : يا أهل مكة ، وذلك حين دعوه إلى دين

آبائهم ، فقال : ﴿ إِن كُنتُمْ فِى شَكّ مّن دِينِى ﴾ الإسلام ، وترجون أن أرجع إلى دينكم ،

وأترك هذا الدين فلا أفعل ذلك .

وهو قوله : ﴿ فَلاَ أَعْبُدُ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ من الآلهة ، ويقال ، معناه : إن كنتم

في شك من ديني ، فأنا مستيقن في دينكم ومعبودكم أنهما باطلان ، ﴿ فَلاَ أَعْبُدُ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ .

﴿ ولكن أَعْبُدُ الله ﴾ يعني : أوحده وأطيعه ﴿ الذى يتوفاكم ﴾ يعني : يميتكم عند انقضاء آجالكم ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ يعني : من الموقنين على دينهم ، ولا أرجع عن ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ يعني : إنَّ الله تعالى ، قال لي في القرآن : أن أخلص عملك ودينك ﴿ لِلدّينِ حَنِيفاً ﴾ يعني : استقم على التوحيد مخلصاً ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ أو يقال : وأمرت أن أكون من المسلمين .

إلى ها هنا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك للكفار ، وقد تمّ الكلام إلى هذا الموضع .

ثم قال للنبي صلى الله عليه وسلم بهذا أمرتك ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ حَنِيفاً ﴾ يعني : وأمرتك أن تخلص عملك دينك للدين حنيفاً ، يعني : استقم على ذلك .

والحنف في اللغة ، هو الميل والإقبال إلى شيء ، لا يرجع عنه أبداً ، لهذا سُمِّيَ الرجل أحنف ، إذا كان أصابع رجليه مائلاً بعضها إلى بعض .

ثمّ قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ الله ﴾ يعني : لا تعبد غير الله ﴿ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ ﴾ يعني : ما لا ينفعك إن عبدته ، ولا يضرك إن عصيته ، وتركتَ عبادته ، ﴿ فَإِن فَعَلْتَ

﴿ ذلك ، يعني : فإن عبدت غير الله ﴿ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظالمين ﴾ يعني : من الضَّارِّين بنفسك .

(220/370)

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ ﴾ يعني : إن يُصِبْكَ الله بشدة أو بلاء ﴿ فَلاَ كاشف لَهُ إِلاَّ هُوَ ﴾ ، يعني : لا دافع لذلك الضر إلا هو .

يعني : لا تقدر الأصنام على دفع الضر عنك ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ يعني : إن يُصِبْكَ بسعة في الرزق وصحة في الجسم ، ﴿ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ يعني : لا مانع لعطائه .

﴿ يُصِيبُ بِهِ ﴾ يعني : بالفضل ﴿ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ مَنْ كان أهلاً لذلك .

﴿ وَهُوَ الغفور ﴾ لذنوب المؤمنين ، ﴿ الرحيم ﴾ بهم .

فأعلم الله تعالى أنه كاشف الضر ، ومعطي الفضل في الدنيا ، وهو الغفور للمؤمنين ، الرحيم بقبول حسناتهم .

قال الفقيه أبو الليث ، حدثنا محمد بن الفضل ، قال : حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا إبراهيم بن يوسف ، قال : حدثنا شيخ بصري عن الحسن ، أنه قال : قال عامر بن عبد قيس : ما أبالي ما أصابني من الدنيا وما فاتني منها ، بعد ثلاث آيات ذكرهن الله تعالى في

كتابه قوله : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ [فاطر : 2] وقوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : 6] .

(221/370)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أهل أَيُّهَا الناس ﴾ يعني : يا أهل مكة ﴿ قَدْ جَاءكُمُ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم والقرآن ، ﴿ فَمَنُ اهتدى ﴾ يعني : من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ﴾ يعني : ثوابه لنفسه ، ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ يعني : ومن كفر ولم يؤمن ، ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ يعني : جنايته على نفسه ، وإثم الضلالة على نفسه ، ﴿ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ يعني : لست عليكم بمسلط ، وهذا قبل الأمر بالقتال .

ثم قال تعالى : ﴿ واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾ يعني : إن لم يصدقوك ، فاعمل بما أنزل إليك من القرآن ، ﴿ واصبر ﴾ على تكذيبهم ، ﴿ حتى يَحْكُمَ الله ﴾ يعني : يقضي الله تعالى بعذابهم ، في الدنيا وفي الآخرة ، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ يعني : أعدل العادلين .

ويقال : واصبر حتى يحكم الله ، يعني : حتى يأمر الله المؤمنين بقتالهم .

ويقال : ﴿ فَمَنُ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ﴾ يعني : من اجتهد حتى اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ يعني : ومن تغافل عن الحق حتى ضل فعقوبته عليها والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(222/370)

وقال الثعلبى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا ﴾ أنزلنا ﴿ بني إِسْرَائِيلَ ﴾ بعد هلاك فرعون ﴿ مُبَوَّأَ ﴾ منزل ﴿ صِدْقٍ ﴾ يعني خير ، وقيل الأردن وفلسطين وهي : الأرض المقدسة التي بارك الله فيها لإبراهيم وذريته . الضحاك : هي مصر والشام .

﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات ﴾ الحلالات .

﴿ فَمَا اختلفوا ﴾ يعني اليهود الذين كانوا على عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ حتى جَآءَهُمُ العلم ﴾ البيان بأن محمداً صلى الله عليه وسلم يقول صدقاً ودينه حق .

وقيل : العلم بمعنى المعلوم لقولهم للمخلوق : خلق ، وللمقدور : قدر ، وهذا [. . . . . فتم طرف الأمر ، قال الله . . . . .] ، ومعنى الآية فما اختلفوا في محمد حتى

جاءهم المعلوم وهو كون محمد صلى الله عليه وسلم نبياً لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من الدين .

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ ، الآية ، وقد أكثر العلماء في تفسير معنى الآية ، قال مقاتل : قالت كفار مكة : إنما ألقى هذا الوحي على لسان محمد شيطان ، فأنزل الله تعالى :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يعني القرآن .

﴿ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ ﴾ يخبرونك أنه مكتوب عندهم في التوراة رسولا نبياً .

وقيل : الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره من الشاكّين به ، كما ذهب العرب في خطابهم الرجل بالشيء ويريدون به غيره ، كقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي اتق الله ﴾ [الأحزاب : 1] كأن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به المؤمنون ، ويدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ [النساء : 94] [الأحزاب : 2] ولم يقل : تعمل .

(223/370)

قال المفسرون : كان الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : آمنا بالله بلسانهم ، ومنهم كافر مكذّب لا يرى إلاّ أن ما جاء به باطل ، أو شاكّ في الأمر لا يدري كيف هو يقدّم رجلا ويؤخّر أخرى ، فخاطب الله هذا الصنف من الناس فقال : ﴿ فَإِن كُنتَ ﴾ أيها الإنسان ﴿ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ من الهدى على لسان محمد (صلى الله عليه وسلم) .

﴿ فَاسْأَلِ ﴾ الأكابر من علماء أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلاّم ، وسلمان الفارسي ، وتميم الداري وأشباههم فيشهدوا على صدقه ، ولم يرد المعاندين منهم .

وقيل : إنْ بمعنى (ما) ، وتقديره : فما كنت في شك مما أنزلنا إليك ، فاسألوا يا معاشر الناس أنتم دون النبي . كما قال : ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ [إبراهيم : 46] بمعنى وما كان مكرهم .

وقيل : إنّ الله علم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشكّ ولكنّه أراد أن يأخذ الرسول بقوله لا أشك ولا [أماري] إدامةً للحجة على الشاكّين من قومه كما يقول لعيسى : ﴿ ءَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله ﴾ [المائدة : 116] وهو يعلم أنه لم يقل ذلك ، بدليل قوله :

﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة : 116] إدامة للحجة على النصارى .

وقال الفرّاء : علم الله تعالى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير شاكّ ، فقال له : فإن كنتَ في شكّ ، وهذا كما تقول لغلامك الذي لا تشك في ملكك إياه : إن كنت عبدي فأطعني ، أو تقول لابنك : إن كنت ابني فبرّني .

وقال عبد العزيز بن يحيى الكناني : الشاك في الشيء يضيق به صدراً ، فيقال لضيِّق الصدر شاك ، يقول : إن ضقت ذرعاً بما تعاين من تعنتهم وأذاهم فاصبر ، واسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك يخبروك كيف صبر الأنبياء على أذى [قومهم] وكيف كان عاقبة أمرهم من النصر والتمكين .

(224/370)

وسمعت أبا القاسم الحسن بن محمد بن حبيب سمعت أبا بكر محمد بن محمد بن أحمد القطان في [ذلك :] كان جائزاً على الرسول صلى الله عليه وسلم وسوسة الشيطان لأن المجاهدة في ردّها يستحق عليها عظيم الثواب والله [. . . . .] وكان يضيق صدره من ذلك والله أعلم . وقال الحسين بن الفضل مع [حيث] الشرط لا يثبت الفعل .

والدليل عليه ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت هذه الآية : " والله لا

أشك ولا أسأل " .

ثم أفتى [وزوّدنا] بالكلام فقال : ﴿ لَقَدْ جَآءَكَ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين * وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِ الله ﴾ القرآن .

﴿ فَتَكُونَ مِنَ الخاسرين ﴾ [الذين تحبط أعمالهم] ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ لعنته إياهم [لنفاقهم] ، قال ابن عباس : ينزل بك السخط ، وقال : إن الله خلق الخلق [فمنهم شقي ومنهم] سعيد ، فمن كان سعيداً لا يكفر إلاّ ريثما يراجع الإيمان ومن كان شقياً لا يؤمن إلاّ ريثما يراجع الكفر ، وإنما العمل [. . .] وقرأ أهل المدينة : [كلمات] جمعاً .

﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ دلالة ﴿ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ قال الأخفش : أنّث فعل [كل] لأنها مضافة إلى مؤنث ، ولفظة كل للمذكر والمؤنث سواء .

﴿ فَلَوْلاَ ﴾ أي فهلاّ ، وكذلك هي في حرف عبد الله وأُبي ، قال الشاعر :

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم . . . [بني ضوطري] لولا الكميّ المقنعا

أي فهلاّ .

وقرأ في الآية : (فلا تكن قرية) لأن في الاستفهام ضرباً من الجحد .

﴿ آمَنَتْ ﴾ عند معاينتها العذاب ﴿ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَا ﴾ في وقت اليأس ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ ﴾ فإنّهم نفعهم إيمانهم في ذلك الوقت لما علم من صدقهم . قال أهل النحو : قومَ منصوب على الاستثناء المنقطع ، وإن شئت قلت من جنسها لأن القوم مستثنى من القرية ، ومنجون من الهالكين ، وتقديره : لكن قوم يونس كقول النابغة :

وقفت فيها أُصيلاناً أسائلها . . . أعيت جواباً وما بالربع من أحد

ألا الأواري لأياً ما أبينها . . . والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد

وفي يونس ست لغات ، ضم النون ، وقرأ [. . .] بضمّ الياء لكثرة من قرأ بها ، وقرأ طلحة والأعمش والحميري وعيسى بكسر النون ، وعن بعضهم بفتح النون ، وروى أبو قرظة الأنصاري عن العرب همزة مع الضمة والكسرة والفتحة .

﴿ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدنيا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ ﴾ وهو وقت انقضاء آجالهم ، قال بعضهم : إنّما نفعهم إيمانهم في وقت اليأس لأن آجالهم بقى منها بقية فنجوا لما بقي من آجالهم ، فأما إيمان من انقضى أجله فغير نافع عند حضور العذاب .

وقصة الآية على ما ذكره عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير والسدّي ووهب وغيرهم أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه فدعاهم فأبوا ، فقيل له : أخبرهم أن العذاب يجيئهم إلى ثلاث ، فأخبرهم

بذلك فقالوا : إنّا لم نجرِّب عليه كذباً فانظروا ، فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم ، فلمّا كان في جوف الليل خرج ماشياً من بين ظهرانيهم فلمّا أصبحوا تغشّاهم العذاب كما يغشي الثوب القصير إذا أدخل فيه صاحبه .

(226/370)

قال مقاتل : كان العذاب فوق رؤوسهم قدر ميل . قال ابن عباس : قدر ثلثي ميل . قال وهب : غامت السماء غيماً أسود هائلا يدخل دخاناً شديداً ، وهبط حتى غشى مدينتهم واسودّت سطوحهم ، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك فطلبوا نبيّهم فلم يجدوه ، فقذف الله في قلوبهم التوبة فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابّهم ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة وأخلصوا النية ، وفرّقوا بين كل والدة وولدها من الناس والأنعام ، فحنّ بعضهم إلى بعض ، وعلت أصواتهم واختلطت أصواتها بأصواتهم وحنينها بحنينهم ، وعجوا وضجوا إلى الله تعالى وقالوا : آمنّا بما جاء به يونس ، فرحمهم ربّهم واستجاب دعاءهم ، وكشف عنهم العذاب بعد ما أظلّهم وتدلّى إلى سمعهم ، وذلك يوم عاشوراء .

قال ابن مسعود : بلغ من توبة أهل نينوى أن ترادّوا المظالم بينهم حتى أن كان الرجل ليأتي

الحجر وقد وضع عليه أساس فيقلعه ويردّه .

وروى صالح المري عن أبي عمران الجوني عن أبي الجلد ، قال : لما غشى قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم ، فقالوا له : قد نزل بنا العذاب فما ترى ؟ فقال : قولوا : يا حيّ حين لا حي ويا حي [يا] محيي الموتى ، ويا حي لا إله إلاّ أنت ، فقالوها ، فكشف عنهم العذاب ومُتّعوا إلى حين .

قالوا : وكان يونس (عليه السلام) وعدهم العذلب فخرج ينتظر العذاب وهلاك قومه فلم يرَ شيئاً ، وكان من كذب ولم تكن له بيّنة قتل ، فقال يونس لما كشف عنهم العذاب : كيف أرجع إلى قومي وقد كذبتهم ؟ فانطلق عاتباً على ربه ، مغاضباً لقومه فأتى البحر [فإذ سفينة قد شحنت] فركب السفينة [لوحده] بغير أجر ، فلمّا دخلها وقفت السفينة ، والسفن تسير يميناً وشمالا قالوا : ما لسفينتكم ؟ قال يونس : إنّ فيها عبداً آبقاً ولا تجري ما لم تلقوه ، فقالوا : وأنت يا نبي العبد فلا نلقيك ، فاقترعوا فوقعت القرعة عليه ثلاثاً فوقع في الماء ووكل عليه حوت فابتلعه .

(227/370)

قال ابن مسعود : فابتلعه الحوت وجرى به حتى أتاه إلى قرار الأرض ، وكان في بطنه أربعين ليلة فسمع تسبيح الحصى فنادى في الظلمات أن لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فاستجاب الله له فأمر الحوت فنبذه على ساحل البحر [عرياناً] ، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين ، فجعل يستظلّ بها ، ووكل الله به سخلا يشرب من لبنها ، فيبست الشجرة فبكى عليها ، فأوحى الله إليه : تبكي على شجرة يبست ، ولا تبكي على مائة ألف إنسان أُهلكهم فخرج يونس فإذا هو بغلام يرعى ، فقال : من أنت يا غلام ؟ قال : من قوم يونس ، قال : إذا رجعت إليهم فأخبرهم أنك لقيت يونس ، قال الغلام : إن كنت يونس فقد تعلم أنه لم يكن لي بينة ، [فإنْ] قلت : فمن يشهد لي ؟ قال يونس : يشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة ، قال الغلام : أراهما ؟ قال يونس : إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له ، قالا : نعم . فرجع الغلام إلى قومه ، فقال للملك : إني قد لقيت يونس وهو يقرأ عليكم السلام ، وكان له أخوة وكان في منعة فأمر الملك بقتله ، فقال : إنّ لي بينة فانسلّوا معه إلى البقعة والشجرة ، فقال الغلام : أنشدكما هل أشهدكما يونس ؟ قالا : نعم ، فرجع القوم مذعورين ، وقالوا للملك : شهد له الشجرة والأرض ، فأخذ الملك بيد الغلام فأجلسه في مجلسه ، وقال : أنت أحق بهذا المكان مني ، قال ابن مسعود : فأقام لهم أميراً فيهم ذلك الغلام أربعين سنة .

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ ﴾ يا محمد ﴿ لآمَنَ مَن فِي الأَرض كُلُّهُمْ جَمِيعا ﴾ قال الحسين بن

الفضل : لأضطرّهم إلى الإيمان . قال الأخفش : جاء بقوله : (جميعاً) مع (كل) تأكيداً كقوله : ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [النحل : 51] .

(228/370)

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصاً على أن يؤمن جميع الناس ويبايعوه على الهدى ، فأخبره الله تعالى أنّه لا يؤمن إلاّ من سبق له من الله سعادة في الكتاب الأول ، ولا يضلّ إلاّ من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ ﴾ قال الحسن : وما ينبغي لنفس . وقال المبرد : معناه وما كنت لتؤمن إلاّ بإذن الله . قال ابن عباس : بأمر الله . وقال عطاء : بمشيئة الله ، كقوله : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ [البقرة : 102] . وقال الكوفي : ما سبق من قضائه . وقال [الدّاني] : بعلمه وتوفيقه .

﴿ وَيَجْعَلُ ﴾ أي ويجعل الله ، وقرأ الحسن وعاصم بالنون ﴿ الرجس ﴾ العذاب والسخط . وقرأ الأعمش الرجز بالزاي ﴿ عَلَى الذين لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ حجج الله في التوحيد والنبوة .

﴿ قُلِ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين السائليك الآيات ﴿ انظروا مَاذَا فِي السماوات ﴾ من الشمس والقمر والنجوم ﴿ والأرض ﴾ من الجبال والبحار والأنهار والأشجار وغيرها من الآيات ثم قال : ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيات والنذر عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ في علم الله .

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ ﴾ يعني مشركي مكة ﴿ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الذين خَلَوْاْ ﴾ مضوا ﴿ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الذين مضوا . قال قتادة : يعني وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود ، والعرب تسمي العذاب والنعيم : أياماً ، كقوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله ﴾ [إبراهيم : 5] وكل ما مضى عليك من خير أو شر فهو أيام .

﴿ قُلْ فانتظروا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المنتظرين * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ ﴾ معهم عند نزول العذاب ، كذلك كما أنجيناهم .

(229/370)

﴿ كَذَلِكَ حَقّاً ﴾ واجباً ، ﴿ عَلَيْنَا ﴾ غير شك ، ﴿ نُنجِ المؤمنين ﴾ بك يا محمد .

وقرأ يعقوب : ننجي رسلنا بالتخفيف ، وقرأ الكسائي وحفص : ننجي المؤمنين بالتخفيف وشدّدهما الآخرون ، وهما لغتان فصيحتان أنجى يُنجي إنجاءً ونجّى ينجّي تنجية بمعنى واحد .

﴿ قُلْ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي ﴾ الذي أدعوكم إليه .

﴿ فَلاَ أَعْبُدُ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ من الأوثان التي لا تعقل ولا تفعل ولا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع ﴿ ولكن أَعْبُدُ الله الذي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ تقدير أن يسلم ويقبض أرواحهم .

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المؤمنين * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ قال ابن عباس : عملك . وقيل : نفسك ، أي استقم على الدين ﴿ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر : " لم أعبد ربي بالرهبانية وأن خير الدين الحنيفية السهلة " .

﴿ وَلاَ تَدْعُ ﴾ تعبد ﴿ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكَ ﴾ إن أطعته ﴿ وَلاَ يَضُرُّكَ ﴾ إن عصيته ﴿ فَإِن فَعَلْتَ ﴾ فعبدت غير الله ﴿ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظالمين ﴾ الضارّين لأنفسهم ، الواضعين العبادة في غير موضعها ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ ﴾ يصبْك الله ببلاء وشدّة ﴿ فَلاَ كَاشِفَ ﴾ دافع ﴿ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ رخاء ونعمة ﴿ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ ﴾ فلا مانع لرزقه .

﴿ يُصِيبُ بِهِ ﴾ واحد من الضر والخير ﴿ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الغفور الرحيم * قُلْ يا أيها الناس قَدْ جَآءَكُمُ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني القرآن فيه البيان .

﴿ فَمَنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ [أي له ثواب اهتدائه] ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ

عَلَيْهَا ﴾ فعلى نفسه جنا ﴿ وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ بكفيل وحفيظ يحفظ أعمالكم .

قال ابن عباس : نسختها آية القتال .

(230/370)

﴿ واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ واصبر حتى يَحْكُمَ الله ﴾ من نصرك وقهر أعدائك وإظهار دينه ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ .

قال الحسن : لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار وقد تجمع خيرتهم فقال : " إنكم ستجدون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني " قال أنس : فلم نصبر . فأمرهم بالصبر كما أمره الله به .

وقال عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب : لما قدم معاوية المدينة تلقّته الأنصار وتخلّف أبو قتادة ودخل عليه بعد فقال : مالك لا تلقنا ؟ قال : لم تكن عندنا دواب ، قال : فأين النواضح ؟ قال : ربطناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فاصبروا حتى تلقوني " ، قالوا : إذاً نصبر ، ففي ذلك قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

ألا أبلغ معاوية بن حرب . . . أمير المؤمنين ثنا كلام

فإنّا صابرون ومنظروكم . . . إلى يوم التغابنوالخصام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(231/370)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد بوّأنا بني إسرائيل ﴾

أي : أنزلناهم منزل صدق ، أي منزلاً كريما .

وفي المراد ببني إسرائيل قولان :

أحدهما : أصحاب موسى .

والثاني : قريظة والنضير .

وفي المراد بالمنزل الذي أُنزلوه خمسة أقوال .

أحدها : أنه الأردن ، وفلسطين ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : الشام ، وبيت المقدس ، قاله الضحاك وقتادة .

والثالث : مصر ، روي عن الضحاك أيضاً .

والرابع : بيت المقدس ، قاله مقاتل .

والخامس : ما بين المدينة والشام من أرض يثرب ، ذكره علي بن أحمد النيسابوري .

والمراد بالطيبات : ما أُحل لهم من الخيرات الطيبة .

﴿ فما اختلفوا ﴾ يعني بني إسرائيل .

قال ابن عباس : ما اختلفوا في محمد ، لم يزالوا به مصدّقين ، ﴿ حتى جاءهم العلم ﴾ يعني : القرآن ، وروي عنه : حتى جاءهم العلم ، يعني محمداً .

فعلى هذا يكون العلم ها هنا : عبارة عن المعلوم .

وبيان هذا أنه لما جاءهم ، اختلفوا في تصديقه ، وكفر به أكثرهم بغياً وحسداً بعد أن كانوا مجتمعين على تصديقه قبل ظهوره .

قوله تعالى : ﴿ فإن كنتَ في شك ﴾ في تأويل هذه الآية ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره من الشاكّين ، بدليل قوله في آخر السورة : ﴿ إن كنتم في شكٍّ من ديني ﴾ [يونس 105] ، ومثله قوله ﴿ يا أيها النَّبيُّ اتَّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ [الأحزاب 2] ثم قال : ﴿ بما تعملون خبيراً ﴾ [الأحزاب 3] ولم يقل : بما تعمل ، وهذا قول الأكثرين .

والثاني : أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو المراد به .

ثم في المعنى قولان :

أحدهما : أنه خوطب بذلك وإن لم يكن في شك ، لأنه من المستفيض في لغة العرب أن يقول

الرجل لولده : إن كنت ابني فبِرَّني ، ولعبده : إِن كنت عبدي فأطعني ، وهذا اختيار الفراء .

وقال ابن عباس : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم في شك ، ولا سأل .

(232/370)

والثاني : أن تكون "إِن" بمعنى "ما" فالمعنى : ما كنت في شك ﴿ فاسأل ﴾ ، المعنى : لسنا نريد أن نأمرك أن تسأل لأنك شاكّ ، ولكن لتزداد بصيرة ، ذكره الزجاج .

والثالث : أن الخطاب للشاكّين ، فالمعنى : إِن كنت أيها الإِنسان في شك مما أُنزل إليك على لسان محمد ، فَسَلْ ، روي عن ابن قتيبة .

وفي الذي أنزل إِليه قولان .

أحدهما : أنه أُنزل إِليه أنه رسول الله .

والثاني : أنه مكتوب عندهم في التوراة والإِنجيل .

قوله تعالى : ﴿ فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ﴾ وهم اليهود والنصارى .

وفي الذين أُمر بسؤالهم منهم قولان :

أحدهما : من آمن ، كعبد الله بن سلام ، قاله ابن عباس ، ومجاهد في آخرين .

والثاني : أهل الصدق منهم ، قاله الضحاك ، وهو يرجع إِلى الأول ، لأنه لا يَصْدق إلا من آمن .

قوله تعالى : ﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾ هذا كلام مستأنف .

قوله تعالى : ﴿ إِن الذين حقت ﴾ أي : وجبت ﴿ عليهم كلمةُ رَبِّك ﴾ أي : قوله .

وبماذا حقت الكلمة عليهم ، فيه أربعة أقوال :

أحدها : باللعنة .

والثاني : بنزول العذاب .

والثالث : بالسَّخط .

والرابع : بالنقمة .

قوله تعالى : ﴿ ولو جاءتهم كل آية ﴾ قال الأخفش : إِنما أَنَّث فعل "كل" لأنه أضافه إلى "آية" وهي مؤنثة .

قوله تعالى : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت ﴾ أي : أهل قرية .

وفي "لولا" قولان :

أحدهما : أنه بمعنى : لم تكن قرية آمنت ﴿ فنفعها إِيمانها ﴾ أي : قُبِلَ منها ﴿ إلا قوم يونس ﴾ ، قاله ابن عباس .

وقال قتادة : لم يكن هذا لأمة آمنت عند نزول العذاب ، إِلا لقوم يونس .

والثاني : أنها بمعنى : فهلاّ ، قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة ، والزجاج .

قال الزجاج : والمعنى : فهلاّ كانت قرية آمنت في وقت نفعها إيمانها ، إلا قوم يونس ؟ و "إلا" هاهنا استثناء ليس من الأول ، كأنه قال : لكن قومُ يونس .

(233/370)

قال الفراء : نُصب القوم على الانقطاع مما قبله ، ألا ترى أن "ما" بعد "إلا" في الجحد يتبع ما قبلها ؟ تقول : ما قام أحد إلا أخوك ، فإذا قلت : ما فيها أحد إلا كلباً أو حماراً ، نصبتَ ، لانقطاعهم من الجنس ، كذلك كان قوم يونس منقطعين من غيرهم من أمم الأنبياء ، ولو كان الاستثناء وقع على طائفة منهم لكان رفعاً .

وذكر ابن الأنباري في قوله : "إلا" قولين آخرين :

أحدهما : أنها بمعنى الواو ، والمعنى : وقوم يونس لما آمنوا فعلنا بهم كذا وكذا ، وهذا مروي عن أبي عبيدة ، والفراء ينكره .

والثاني : أن الاستثناء من الآية التي قبل هذه ، تقديره : حتى يروا العذاب الأليم إلا قوم يونس ، فالاستثناء على هذا متصل غير منقطع .

قوله تعالى : ﴿ كشفنا عنهم ﴾ أي صرفنا عنهم ﴿ عذاب الخزي ﴾ أي : عذاب

الهوان والذل ﴿ ومتعناهم إلى حين ﴾ أي : إِلى حين آجالهم .

الإِشارة إِلى شرح قصتهم .

ذكر أهل العلم بالسِّيَر والتفسير أن قوم يونس كانوا ب "نينوى" من أرض الموصل ، فأرسل الله عز وجل إليهم يونس يدعوهم إلى الله ويأمرهم بترك الأصنام ، فأبوا ، فأخبرهم أن العذاب مصبِّحهم بعد ثلاث ، فلما تغشَّاهم العذاب ، قال ابن عباس ، وأنس : لم يبق بين العذاب وبينهم إِلا قدر ثلثي ميل ، وقال مقاتل : قدر ميل ، وقال أبو صالح عن ابن عباس : وجدوا حرَّ العذاب على أكتافهم ، وقال سعيد بن جبير : غشيهم العذاب كما يغشى الثوبُ القبرَ ، وقال بعضهم : غامت السماء غيماً أسود يُظهر دخاناً شديداً ، فغشي مدينتهم ، واسودَّت سطوحهم ، فلما أيقنوا بالهلاك لبسوا المسوح ، وحَثَوْا على رؤوسهم الرماد ، وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والأنعام ، وعجُّوا إِلى الله بالتوبة الصادقة ، وقالوا آمنا : بما جاء به يونس ، فاستجاب الله منهم .

قال ابن مسعود : بلغ من توبتهم أن ترادَّوا المظالم بينهم ، حتى ان كان الرجل ليأتي إلى الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيقلعه ، فيرده .

(234/370)

وقال أبو الجَلْد : لما غشيهم العذاب ، مشَوا إلى شيخ من بقية علمائهم ، فقالوا : ما ترى ؟ قال : قولوا : يا حيُّ حين لا حيَّ ، يا حيُّ مُحيي الموتى ، يا حيُّ لا إله إلا أنت ، فقالوها : فكُشف العذاب عنهم .

قال مقاتل : عجّوا إلى الله أربعين ليلة ، فكُشف العذاب عنهم .

وكانت التوبة عليهم في يوم عاشوراء يوم الجمعة .

قال : وكان يونس قد خرج من بين أظهرهم ، فقيل له : ارجع إليهم ، فقال : كيف أرجع إليهم فيجدوني كاذبا ؟ وكان مَن يكذب بينهم ولا بيّنة له يُقتَل ، فانصرف مغاضباً ، فالتقمه الحوت .

وقال أبو صالح عن ابن عباس : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له : شَعيا ، فقيل له : ائت فلاناً الملِك ، فقل له يبعث إلى بني إسرائيل نبياً قوياً أميناً ، وكان في مملكته خمسة من الأنبياء ، فقال الملك ليونس : اذهب إليهم ، فقال : ابعث غيري ، فعزم عليه أن يذهب ، فأتى بحر الروم ، فركب سفينة ، فالتقمه الحوت ، فلما خرج من بطنها أُمر أن ينطلق إلى قومه ، فانطلق نذيراً لهم ، فأَبَوْا عليه ، فوعدهم بالعذاب ، وخرج ، فلما تابوا رُفع عنهم .

والقول الأول أثبت عند العلماء ، وأنه إنما التقمه الحوت بعد إنذاره لهم وتوبتهم .

وسيأتي شرح قصته في التقام الحوت إياه في مكانه إن شاء الله تعالى [الصافات : 143

].

فإن قيل : كيف كُشف العذاب عن قوم يونس بعد إتيانه إليهم ، ولم يُكشَف عن فرعون حين آمن ؟

فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أن ذلك كان خاصاً لهم كما ذكرنا في أول الآية .

والثاني : أن فرعون باشره العذاب ، وهؤلاء دنا منهم ولم يباشرهم ، فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية ، فأما الذي يعاين ، فلا توبة ، له ذكره الزجاج .

والثالث : أن الله تعالى علم منهم صدق النيات ، بخلاف مَن تقدَّمهم من الهالكين ، ذكره ابن الأنباري .

(235/370)

قوله تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض ﴾ قال ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصاً على إيمان جميع الناس ، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة .

قال الأخفش : جاء بقوله : "جميعا" مع "كل" تأكيداً كقوله : ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين

اثنين ﴾ [النحل : 51]

قوله تعالى : ﴿ أفأنت تُكره الناس ﴾ قال المفسرون ، منهم مقاتل : هذا منسوخ بآية السيف ، والصحيح أنه ليس ها هنا نسخ ، لأن الإِكراه على الإِيمان لا يصح ، لأنه عمل القلب .

قوله تعالى : ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إِلا بإذن الله ﴾ فيه ستة أقوال .

أحدها : بقضاء الله وقدره .

والثاني : بأمر الله ، رُويا عن ابن عباس .

والثالث : بمشيئة الله ، قاله عطاء .

والرابع : إِلا أن يأذن الله في ذلك ، قاله مقاتل .

والخامس : بعلم الله .

والسادس : بتوفيق الله ، ذكرهما الزجاج ، وابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ ويجعلُ الرجس ﴾ أي : ويجعل الله الرجسَ .

وروى أبو بكر عن عاصم "ونجعل الرجس" بالنون .

وفيه خمسة أقوال :

أحدها : أنه السخط ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : الإِثم والعدوان ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أنه مالا خير فيه ، قاله مجاهد .

والرابع : العذاب ، قاله الحسن ، وأبو عبيدة ، والزجاج.

والخامس : العذاب والغضب ، قاله الفراء .

قوله تعالى : ﴿ على الذين لا يعقلون ﴾ أي : لا يعقلون عن الله أمره ونهيه .

وقيل : لا يعقلون حججه ودلائل توحيده .

قوله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ قال المفسرون : قل للمشركين الذي يسألونك الآيات على توحيد الله انظروا بالتفكر والاعتبار ماذا في السموات والأرض من الآيات والعبر التي تدل على وحدانيته ونفاذ قدرته كالشمس ، والقمر ، والنجوم ، والجبال ، والشجر ، وكلُّ هذا يقتضي خالقاً مدبراً .

﴿ وما تُغني الآيات والنُّذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ في علم الله .

(236/370)

قوله تعالى : ﴿ فهل ينتظرون ﴾ قال ابن عباس : يعني كفار قريش .

﴿ إلا مثل ايام الذين خَلَوْا من قبلهم ﴾ قال ابن الأنباري : أي : مثل وقائع الله بمن سلف قبلهم ، والعرب تكني بالأيام عن الشرور والحروب ، وقد تقصد بها أيامَ السرور والأفراح

إِذا قام دليل بذلك .

قوله تعالى : ﴿ قل فانتظروا ﴾ هلاكي ﴿ إِني معكم من المنتظرين ﴾ لنزول العذاب بكم .

﴿ ثم نُنَجِّي رُسُلَنا والذين آمنوا ﴾ من العذاب إِذا نزل ، فلم يَهلك قوم قط إِلا نجا نبيهم والذين آمنوا معه .

قوله تعالى : ﴿ كذلك حقاً علينا نُنْجي المؤمنين ﴾ وقرأ يعقوب ، وحفص ، والكسائي في قراءته وروايته عن أبي بكر : "ننجِ المؤمنين" بالتخفيف .

ثم في هذا الإِنجاء قولان :

أحدهما : ننجيهم من العذاب إِذا نزل بالمكذِّبين ، قاله الربيع بن أنس .

والثاني : ننجيهم في الآخرة من النار ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس ﴾ قال ابن عباس : يعني أهل مكة ﴿ إِن كنتم في شك من ديني ﴾ الإِسلام ﴿ فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ﴾ وهي الأصنام ﴿ ولكن أعبد الله الذي ﴾ يقدر أن يميتكم .

وقال ابن جرير : معنى الآية : لا ينبغي لكم أن تشكُّوا في ديني ، لأني أعبد الله الذي يميت وينفع ويضر ، ولا تُستَنكرُ عبادة مَنْ يفعل هذا ، وإِنما ينبغي لكم أن تشكُّوا وتُنكروا ما أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا تضرُّ ولا تنفعُ .

فإن قيل : لم قال : ﴿ الذي يتوفَّاكم ﴾ ولم يقل : "الذي خلقكم" ؟

فالجواب : أن هذا يتضمن تهديدهم ، لأن ميعاد عذابهم الوفاة .

قوله تعالى : ﴿ وأن أقم وجهك ﴾ المعنى : وأُمرت أن أقم وجهك ، وفيه قولان .

أحدهما : أخلص عملك .

والثاني : استقم باقبالك على ما أُمرت به بوجهك .

وفي المراد بالحنيف ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه المتَّبِع ، قاله مجاهد .

والثاني : المُخلِص ، قاله عطاء .

والثالث : المستقيم ، قاله القرظي .

(237/370)

قوله تعالى : ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ﴾ إن دعوته ﴿ ولا يضرك ﴾ إن تركتَ عبادته .

و"الظالم" الذي يضع الشيء في غير موضعه .

قوله تعالى : ﴿ وإن يمسسك الله بضر ﴾ أي : بشدة وبلاءٍ ﴿ فلا كاشف ﴾ لذلك ﴾

إِلاّ هو ﴾ دون ما يعبده المشركون من الأصنام .

وإِن يصبك بخير ، أي : برخاء ونعمة وعافية ، فلا يقدر أحد أن يمنعك إِياه .

﴿ يصيب به ﴾ أي : بكل واحد من الضُّر والخير .

قوله تعالى : ﴿ قد جاءكم الحق من ربكم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه القرآن .

والثاني : محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ ومن ضلَّ فإنما يَضِلُّ عليها ﴾ أي : فإنما يكون وبال ضلاله على نفسه .

قوله تعالى : ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ أي : في منعكم من اعتقاد الباطل ، والمعنى : لست بحفيظ عليكم من الهلاك كما يحفظ الوكيل المتاع من الهلاك .

قال ابن عباس : وهذه منسوخة بآية القتال ، والتي بعدها أيضاً ، وهي قوله : ﴿ واصبر حتى يحكم الله ﴾ لأن الله تعالى حكم بقتل المشركين ، والجزيةِ على أهل الكتاب ، والصحيح : أنه ليس ها هنا نسخ .

أما الآية الأولى ، فقد ذكرنا الكلام عليها في نظيرتها في [الأنعام : 107] .

وأما الثانية ، فقد ذكرنا نظيرتها في سورة [البقرة : 109] قوله : ﴿ فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

فصل

قال الزمخشرى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ﴾

مُبَوَّأَ صِدْقٍ منزلا صالحاً مرضيا وهو مصر والشام فَمَا اخْتَلَفُوا في دينهم وما تشعبوا فيه شعباً إلا من بعد ما قرأُوا التوراة وكسبوا العلم بدين الحق ولزمهم الثبات عليه واتحاد الكلمة ، وعلموا أن الاختلاف فيه تفرّق عنه . وقيل هو العلم بمحمد صلى اللّه عليه وسلم واختلاف بنى إسرائيل ، وهم أهل الكتاب ، اختلافهم في صفته ونعته ، وأنه هو أم ليس به . بعد ما جاءهم العلم والبيان أنه هو لم يرتابوا فيه . كما قال اللّه تعالى الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ .

(239/370)

[سورة يونس (10) : الآيات 94 إلى 95]

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ

الْخاسِرِينَ (95)

فإن قلت : كيف قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ مع قوله في الكفرة وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ « 1 » قلت : فرق عظيم بين قوله إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ بإثبات الشك لهم على سبيل التأكيد والتحقيق ، وبين قوله فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ بمعنى الفرض والتمثيل ، كأنه قيل : فإن وقع لك شك مثلا وخيل لك الشيطان خبالا منه تقديراً فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ والمعنى : أن اللّه عز وجل قدم ذكر بنى إسرائيل وهم قرأة الكتاب ، ووصفهم بأنّ العلم قد جاءهم ، لأنّ أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن وصحة نبوّة محمد عليه السلام ، ويبالغ في ذلك ، فقال : فإن وقع لك شك فرضا وتقديراً - وسبيل من خالجته شبهة في الدين أن يسارع إلى حلها وإماطتها ، إما بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلته ، وإما بمقادحة العلماء المنبهين على الحق - فسل علماء أهل الكتاب ، يعنى : أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك وقتلها علماً بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ومساآتهم فضلا عن غيرك ، فالغرض وصف الأحبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول اللّه ، لا وصف رسول اللّه بالشك فيه ، ثم قال لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ أى ثبت عندك بالآيات والبراهين القاطعة أنّ ما أتاك هو الحق الذي لا مدخل فيه للمرية فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ، وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ أى فاثبت ودم على ما

أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات اللّه . ويجوز أن يكون على طريقة التهييج والإلهاب ، كقوله فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ .

وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ولزيادة التثبيت والعصمة ، ولذلك قال عليه السلام عند نزوله «لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق «2»» وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : لا واللّه ، ما شك طرفة عين ، ولا سأل

---

(1) . قال محمود : «إن قلت كيف قال له عليه السلام : فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مع قوله في الكفرة وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ . . . الخ ؟ قال أحمد : ولو قال هذا المفسر : إن نفى الشك عنه عليه الصلاة والسلام توطئة لأمره بالسؤال لتقوم حجته على المسئولين لا ليستفيد بسؤالهم علما لمزيد تعين الإبراء بقوله له قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ فأمر بالسؤال والجواب جميعا - لكان أقوم وأسلم ، واللّه أعلم .

(2) . أخرجه عبد الرزاق ، ومن طريقه الطبري عن معمر عن قتادة في هذه الآية ، قال : بلغنا أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «لا أشك ولا أسأل» .

أحداً منهم ، وقيل خوطب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمراد خطاب أمته . ومعناه : فإن كنتم في شك مما أنزلنا إليكم ، كقوله وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً وقيل : الخطاب للسامع ممن يجوز عليه الشك ، كقول العرب : إذا عز أخوك فهن . وقيل : «إن» للنفي ، أى : فما كنت في شك فاسأل ، يعنى : لا نأمرك بالسؤال لأنك شاك ، ولكن لتزداد يقينا ، كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينه إحياء الموتى . وقرئ : فاسأل الذين يقرؤن الكتب .

[سورة يونس (10) : الآيات 96 إلى 97]

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (97)

حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ثبت عليهم قول اللّه الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفاراً فلا يكون غيره . وتلك كتابة معلوم لا كتابة مقدّر ومراد «1» تعالى اللّه عن ذلك .

[سورة يونس (10) : آية 98]

فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (98)

فَلَوْلا كانَتْ فهلا كانت قَرْيَةٌ واحدة من القرى التي أهلكناها ، تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان قبل المعاينة وقت بقاء التكليف ، ولم تؤخر كما أخر فرعون إلى أن أخذ بمخنقه

فَنَفَعَهَا إِيمانُها بأن يقبله اللّه منها لوقوعه في وقت الاختيار . وقرأ أبيّ .

وعبد اللّه : فهلا كانت إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ استثناء من القرى ، لأنّ المراد أهاليها ، وهو استثناء منقطع بمعنى : ولكن قوم يونس لما آمنوا . ويجوز أن يكون متصلا والجملة في معنى النفي ، كأنه قيل : ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس ، وانتصابه على أصل الاستثناء .

وقرئ بالرفع على البدل ، هكذا روى عن الجرمي والكسائي . روى أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه ، فذهب عنهم مغاضباً ، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب ، فلبسوا المسوح ، وعجوا»

أربعين ليلة . وقيل : قال لهم يونس : إن أجلكم أربعون ليلة ، فقالوا :

إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك ، فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيما أسود هائلا يدخن دخاناً شديداً ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسوّد سطوحهم فلبسوا المسوح وبرزوا إلى

---

(1) . قوله «لا كتابة مقدر ومراد» مبنى على مذهب المعتزلة أن اللّه لا يريد الشر .

وذهب أهل السنة إلى أنه تعالى يريد كل كائن خيرا كان أو شرا . (ع)

(2) . قوله «وعجوا» أى رفعوا أصواتهم . أفاده الصحاح . (ع)

الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ، وفرّقوا بين النساء والصبيان ، وبين الدواب وأولادها ، فحنّ بعضها على بعض ، وعلت الأصوات والعجيج ، وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا ، فرحمهم اللّه وكشف عنهم ، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة . وعن ابن مسعود : بلغ من توبتهم أن ترادّوا المظالم ، حتى إنّ الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيردّه ، وقيل : خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا : قد نزل بنا العذاب فما ترى ؟ فقال لهم : قولوا «يا حىّ حين لا حىّ ، ويا حىّ محيى الموتى ، ويا حىّ لا إله إلا أنت» فقالوها فكشف عنهم . وعن الفضيل بن عياض : قالوا : «اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت ، وأنت أعظم منها وأجل ، افعل بنا ما أنت أهله ، ولا تفعل بنا ما نحن أهله» .

[سورة يونس (10) : آية 99]

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (99)

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ مشيئة القسر «1» والإلجاء «2» لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ على وجه الإحاطة والشمول جَمِيعاً مجتمعين على الإيمان مطبقين عليه لا يختلفون فيه . ألا ترى إلى قوله أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ يعنى إنما يقدر على إكراههم واضطرارهم إلى الإيمان هو لا أنت .

وإيلاء الاسم حرف الاستفهام ، للإعلام بأن الإكراه ممكن مقدور عليه ، وإنما الشأن في المكره من هو ؟ وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه ، لأنه هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرّون عنده إلى الإيمان ، وذلك غير مستطاع للبشر .

[سورة يونس (10) : آية 100]

وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (100)

---

(1) . قوله «مشيئة القسر» هذا مذهب المعتزلة ، وذلك أنهم أوجبوا على اللّه الصلاح والأصلح ، وإيمان الكل أصلح ، لكن الآية تخالف مذهبهم فقالوا : إنه تعالى أراد إيمان الكل إرادة تخيير العباد ، فلم يلزم وقوع المراد ، ولو أراده إرادة إجبار لوقع ، وأهل السنة لم يوجبوا على اللّه شيئا ، ولزوم وقوع المراد لا ينافي تخيير العباد ، لما لهم من الكسب في أفعالهم الاختيارية وإن كان فاعلها في الحقيقة هو اللّه ، كما تقرر في التوحيد . (ع)

(2) . قال محمود : «المراد مشيئة القسر والإلجاء» قال أحمد : وهذا من دسه الاعتزال مخلسا ، وخلط الباطل بالحق مدلسا . ولما علم أن الآية تقتضي عدم مشيئة اللّه تعالى لايمان الخلق بصيغة الكلية ، وأنه إنما شاء ذلك ممن آمن لا ممن كفر - إذ مقتضى «لولا» امتناع ، وكان ذلك راد لمعتقده الفاسد ، إذ يزعمون أن اللّه تعالى شاء الايمان من جميع أهل الأرض ، فلم يؤمن إلا بعضهم - أخذ يحرف مشيئة الايمان إلى مشيئة القسر والإلجاء ، ليتم له أن المشيئة المرادة في الآية لم تقع ، إلا أنا نوافقه على أن اللّه تعالى ما قسر الخلق ولا سلب

اختيارهم ، بل أمرهم بالايمان وخلق لهم اختيارا له وقصداً ، وهذا كما ترى لا يعد في التأويل . بل هو أجدر بالتعطيل ، فوجب رده وإقرار الظاهر على حاله ، نعوذ باللّه من زيغ الشيطان وإضلاله ، واللّه الموفق .

(242/370)

وَما كانَ لِنَفْسٍ يعنى من النفوس التي علم أنها تؤمن إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أى بتسهيله وهو منح الألطاف وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ قابل الإذن بالرجس وهو الخذلان «1» ، والنفس المعلوم إيمانها بالذين لا يعقلون وهم المصرون على الكفر ، كقوله صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ وسمى الخذلان رجسا وهو العذاب لأنه سببه . وقرئ : الرجز ، بالزاي . وقرئ ونجعل ، بالنون .

[سورة يونس (10) : آية 101]

قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (101)

ما ذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ من الآيات والعبر وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ والرسل المنذرون ، أو الإنذارات عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ لا يتوقع إيمانهم ، وهم الذين لا يعقلون وقرئ : وما يغنى ، بالياء ، و«ما» نافية ، أو استفهامية .

[سورة يونس (10) : الآيات 102 إلى 103]

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (102) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (103)

أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ وقائع اللّه تعالى فيهم ، كما يقال «أيام العرب» لوقائعها ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا معطوف على كلام محذوف يدل عليه قوله إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ كأنه قيل : نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا ، على حكاية الأحوال الماضية وَالَّذِينَ آمَنُوا ومن آمن معهم ، كذلك نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم ، ونهلك المشركين .

وحَقًّا عَلَيْنا اعتراض ، يعنى : حقّ ذلك علينا حقاً . وقرئ : ننجّ ، بالتشديد .

[سورة يونس (10) : آية 104]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104)

يا أَيُّهَا النَّاسُ يا أهل مكة إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي وصحته وسداده ، فهذا دينى فاسمعوا وصفه ، واعرضوه على عقولكم ، وانظروا فيه بعين الإنصاف ، لتعلموا أنه دين

---

(1) . قوله «و هو الخذلان» تأويل الرجس بالخذلان على مذهب المعتزلة ، وعلى مذهب أهل السنة لا حاجة إلى تأويله . (ع)

لا مدخل فيه للشك ، وهو أنى لا أعبد الحجارة التي تعبدونها من دون من هو إلهكم وخالقكم وَلكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وإنما وصفه بالتوفى ، ليريهم أنه الحقيق بأن يخاف ويتقى ، فيعبد دون مالا يقدر على شيء وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يعنى أنّ اللّه أمرنى بذلك ، بما ركب فىّ من العقل ، وبما أوحى إلىّ في كتابه . وقيل : معناه إن كنتم في شك من دينى ومما أنا عليه - أثبت عليه أم أتركه وأوافقكم - فلا تحدّثوا أنفسكم بالمحال ولا تشكوا في أمرى ، واقطعوا غنى أطماعكم ، واعلموا أنى لا أعبد الذين تعبدون من دون اللّه ، ولا أختار الضلالة على الهدى ، كقوله قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ ، لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ . أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أصله :

بأن أكون ، فحذف الجار ، وهذا الحذف يحتمل أن يكون من الحذف المطرد الذي هو حذف الحروف الجارّة مع «إن» و«أن» . وأن يكون من الحذف غير المطرد ، وهو قوله :

أمرتك الخير فاصدع بما تؤمر .

[سورة يونس (10) : آية 105]

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105)

فإن قلت ، عطفُ قوله وَأَنْ أَقِمْ على أَنْ أَكُونَ فيه إشكال ، لأنّ «أن» لا تخلو من أن تكون التي للعبارة ، أو التي تكون مع الفعل في تأويل المصدر ، فلا يصح أن تكون للعبارة وإن كان الأمر مما يتضمن معنى القول ، لأنّ عطفها على الموصولة يأبى ذلك . والقول بكونها موصولة مثل الأولى ، لا يساعد عليه لفظ الأمر ، وهو أَقِمْ لأنّ الصلة حقها أن تكون جملة تحتمل الصدق والكذب . قلت : قد سوّغ سيبويه أن توصل «أن» بالأمر والنهى ، وشبه ذلك بقولهم :

أنت الذي تفعل ، على الخطاب ، لأنّ الغرض وصلها بما تكون معه في معنى المصدر . والأمر والنهى دالان على المصدر دلالة غيرهما من الأفعال أَقِمْ وَجْهَكَ استقم إليه ولا تلتفت يميناً ولا شمالا . وحَنِيفاً حال من الدين ، أو من الوجه .

[سورة يونس (10) : آية 106]

وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ (106)

فَإِنْ فَعَلْتَ معناه : فإن دعوت من دون اللّه ما لا ينفعك ولا يضرّك ، فكنى عنه بالفعل إيجازاً فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ إذاً جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدّر ، كأنّ سائلا سأل عن تبعة عبادة الأوثان . وجعل من الظالمين ، لأنه لا ظلم أعظم من الشرك ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

[سورة يونس (10) : آية 107]

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107)

(244/370)

أتبع النهى عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر ، أنّ اللّه عزّ وجلّ هو الضارّ النافع ، الذي إن أصابك بضرّ لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد ، فكيف بالجماد الذي لا شعور به . وكذلك إن أرادك بخير لم يردّ أحد ما يريده بك من فضله وإحسانه ، فكيف بالأوثان ؟ فهو الحقيق إذاً بأن توجه إليه العبادة دونها ، وهو أبلغ من قوله إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ ، أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ . فان قلت : لم ذكر المس في أحدهما ، والإرادة في الثاني ؟ قلت : كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً : الإرادة والإصابة في كل واحد من الضرّ والخير ، وأنه لا رادّ لما يريده منهما ، ولا مزيل لما يصيب به منهما ، فأوجز الكلام بأن ذكر المسّ وهو الإصابة في أحدهما ، والإرادة في الآخر ، ليدلّ بما ذكر على ما ترك ، على أنه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله تعالى يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ والمراد بالمشيئة : مشيئة المصلحة .

[سورة يونس (10) : آية 108]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (108)

قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ فلم يبق لكم عذر ولا على اللّه حجة ، فمن اختار الهدى واتباع الحق فما نفع باختياره إلا نفسه ، ومن آثر الضلال فما ضرّ إلا نفسه ، واللام وعلى : دلا على معنى النفع والضر . وكل إليهم الأمر بعد إبانة الحق وإزاحة العلل . وفيه حث على إيثار الهدى واطراح الضلال مع ذلك وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ بحفيظ موكول إلىّ أمركم وحملكم على ما أريد ، إنما أنا بشير ونذير .

[سورة يونس (10) : آية 109]

وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (109)

وَاصْبِرْ على دعوتهم واحتمال أذاهم وإعراضهم حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لك بالنصرة عليهم والغلبة . وروى أنها لما نزلت جمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الأنصار فقال «إنكم ستجدون بعدي أثرة ، فاصبروا حتى تلقوني «1»» يعنى أنى أُمرت في هذه الآية بالصبر على ما سامتنى الكفرة فصبرت فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة ، قال أنس : فلم نصبر . وروى أنّ أبا قتادة تخلف عن تلقى معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الأنصار ، ثم دخل عليه من بعد ، فقال له : مالك لم تتلقنا ؟ قال : لم تكن عندنا دواب . قال : فأين النواضح ؟ قال : قطعناها

(1) . ذكره الثعلبي عن أنس بغير سند . والقصة المذكورة متفق عليها من حديث عبد اللّه بن زيد في أثناء حديث ، ومن حديث أسيد بن حضير ، ليس فيه كون الآية سبب ذلك ، بل سببه قسمة غنائم حنين .

(245/370)

في طلبك وطلب أبيك يوم بدر ، وقد قال صلى اللّه عليه وسلم : يا معشر الأنصار ، إنكم ستلقون بعدي أثره . قال معاوية : فما ذا قال ؟ قال : قال «فاصبروا حتى تلقوني» قال فاصبر . قال : إذن نصبر . فقال عبد الرحمن بن حسان «1» :

أَلَا أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ أَمِيرَ الظَّالِمِينَ نَثَا كَلَامِي

بِأَنَّا صَابِرُونَ فَمُنْظِرُوكُمْ إِلَى يَوْمِ التَّغَابُنِ وَالْخِصَامِ «2»

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة يونس أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به ، وبعدد من غرق مع فرعون «3» . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشاف حـ 2 صـ 369. 376 ﴾

---

(1) . أخرجه إسحاق بن راهويه . ومن طريقه الحاكم والبيهقي عن عبد الرزاق عن معمر عن ابن عقيل أن معاوية لما قدم المدينة لقيه أبو قتادة الأنصارى : فقال معاوية تلقانا الناس

كلهم غيركم يا معشر الأنصار فما يمنعكم أن تلقوني ؟

قال : لم تكن لنا دواب . فقال معاوية : فأين النواضح . قال أبو قتادة . عقرناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر .

ثم قال أبو قتادة : إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : أما إنكم سترون بعدي أثرة .

قال معاوية : فما أمركم ؟ قال :

أمرنا أن نصبر حتى تلقاه . قال : فاصبروا حتى تلقوه . فقال عبد الرحمن بن حسان حين بلغه ذلك – فذكر البيتين .

وقال : يا أمير المؤمنين . [. . . . .]

(2) . لعبد الرحمن بن حسان ، حين دخل معاوية بن أبى سفيان بن حرب المدينة ، فتلقته الأنصار وتخلف أبو قتادة ، ثم دخل عليه فقال له : مالك تخلفت ؟ فقال : لم يكن عندنا دواب . قال : فأين النواضح ؟ قال : قطعناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر ، وقد قال صلى اللّه عليه وسلم : يا معشر الأنصار ستلقون بعدي أثرة . قال معاوية ، فما ذا قال ؟ قال : فاصبروا حتى تلقوني . قال : فاصبروا . قال : إذا نصبر . والثناء يقال للخير ، وقد يقال الشر . والنثا :

خاص بالشر . وروى «نثا كلامى» ومنظروكم : ممهلوكم . أى أنت وقومك . والتغابن : ظهور الغبن العمال في تجارات الأعمال . والخصام : المخاصمة والمجادلة ، أى إلى يوم

القيامة .

(3) . تقدم إسناده في آل عمران . ويأتي في آخر القرآن .

(246/370)

وقال الإمام نظام الدين النيسابوري :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾

التفسير : لما ذكر ما وقع عليه الختم في واقعة فرعون وجنوده أراد أن يذكر ما وقع عليه الختم في واقعة بني إسرائيل فقال : ﴿ ولقد بوأنا ﴾ أي أسكناهم مسكن صدق أو إسكان صدق فيكون المبوأ اسم مكان أو مصدراً ، والعرب إذا مدحت شيئاً أضافته إلى الصدق ليعلم أن كل ما يظن به من الخير ويطلب منه فإنه يصدق ذلك الظن ويوجد فيه فيكون المعنى منزلاً صالحاً مرضياً . والمراد ببني إسرائيل إما اليهود الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام فمبوّأ الصدق الشام ومصر وما يدانيها فإنها بلاد كثيرة الخصب غزيرة الأرزاق ومع ذلك فقد أورثهم الله جميع ما كان تحت تصرف فرعون وقومه من الناطق والصامت ﴿ فما اختلفوا ﴾ في دينهم وما تشعبوا فيه شعباً وكانوا على طريقة واحدة حتى قرأوا التوراة

فقابلوها بضد المقصود منها وبدلوا الاتفاق بالاختلاف وأحدثوا المذاهب المتعددة ، وإما اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى هذا ذهب جم غفير من المفسرين . عن ابن عباس : هم قريظة والنضير وبنو قينقاع ، أنزلناهم منزل الصدق ما بين المدينة والشام ورزقناهم من طيبات تلك البلاد رطباً وتمراً ليس في غيرها ، فبقوا على دينهم ولم يظهر فيهم الاختلاف حتى جاءهم سبب العلم وهو القرآن النازل على محمد صلى الله عليه وسلم فاختلفوا في نعته وصفته ، وآمن به قوم وبقي على الكفر آخرون .

(247/370)

وبالجملة فالله تعالى يقضي بين المحقين منهم والمبطلين في يوم الجزاء لأن دار التكليف ليست دار القضاء . ولما بيّن كيفية اختلاف اليهود في شأن كتابهم أو في شأن رسوله حقق حقيقته وحقيقة ما أنزل عليه بقوله : ﴿ فإن كنت في شك ﴾ والشك في اللغة ضم الشيء بعضه إلى بعض ومنه شك الجوهر في العقد ، وشككته بالرمح أي خرقته وانتظمته ، والشكيكة الفرقة من الناس ، والشكاك البيوت المصطفة . والشاك يضم إلى ما يتوهمه شيئاً آخر خلافه ، والخطاب فيه للرسول في الظاهر والمراد أمته كقوله : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم ﴾ [الطلاق : 1] والدليل عليه قوله بعيد ذلك ﴿ قل يا أيها الناس إن كنتم في شك

من ديني ﴾ ولأنه لو كان شاكاً في شأنه لكان غيره بالشك أولى . ويمكن أن يقال : الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم حقيقة ولكن ورد على سبيل الفرض والتمثيل كأنه قيل : فإن وقع لك شك مثلاً والقضية الشرطية لا إشعار فيها ألبتة بوقوع الشرط ولا عدم وقوعه ، بل المراد استلزام الأول للثاني على تقدير وقوع الأول . وقد يكونان محالين كقول القائل : إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين . وفيه من الفوائد الإرشاد إلى طلب الدلائل لأجل مزيد اليقين وحصول الطمأنينة ، وفيه استمالة لأمته والحث لهم على السؤال عما كانوا منه في شك ، وفيه أن أهل الكتاب من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك بحيث يصلحون لمراجعة مثلك فضلاً عن غيرك فيكون الغرض وصف الأحبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى الرسول لا وصف الرسول بالشك ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم عند نزوله : لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق . وعن ابن عباس : لا والله ما شك طرفة عين ولا سأل أحداً منهم . وقيل : " إن " نافية أي فما كنت في شك يعني لا نأمرك بالسؤال لأنك شاك ولكن لتزداد يقيناً . وقيل : الخطاب لكل سامع يتأتى منه الشك . ومن المسؤول منه قال المحققون : هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وعبد الله بن صوريا وتميم

الداري وكعب الأحبار لأنهم هم الذين يوثق بخبرهم . ومنهم من قال : الكل سواء لأنهم إذا بلغوا حد التواتر وقرأوا آية من التوراة والإنجيل تدل على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فقد حصل الغرض ، لأن تلك الآية لما بقيت مع توفر دواعيهم على تحريف نعته كانت من أقوى الدلائل . والظاهر أن المقصود من السؤال معرفة حقيقة القرآن وصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لقوله : ﴿ مما أنزلنا إليك ﴾ وقيل : السؤال راجع إلى قوله : ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ . ثم إنه سبحانه لما بين الطريق المزيل للشك شهد بحقيته فقال : ﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾ ثم إن فرق المكلفين بعد المصدقين إما متوقفون في صدقه وإما مكذبون فنهى الفريقين مخاطباً في الظاهر لنبيه قائلاً ﴿ فلا تكونن من الممترين ولا تكونن ﴾ الآية .

(249/370)

والمراد فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية وانتفاء التكذيب ، وفيه من التهييج والبعث على اليقين والتصديق ما فيه . ثم لما زجر كل فريق عما زجر بين أن له عباداً قضى عليهم بالشقاء وعباداً ختم لهم بالحسنى فلا يتغيرون عن حالهم ألبتة . أما الأولون فأشار إليهم بقوله : ﴿ إن الذين حقت ﴾ الآية . وقد مر مثله في هذه السورة . وقالت المعتزلة :

إن عدم إيمان هذا الفريق إلى حين وقوع اليأس وموتهم على الكفر مكتوب عند الله وثبت عليهم قوله في الأزل بما يجري عليهم ، لكنها كتابة معلوم لا كتابة مقدر ومراد . وقالت الأشاعرة : كلمته حكمة وإرادته وخلقه فيهم الكفر ، وقد مر أمثال هذه الأبحاث مراراً كثيرة . وأما الآخرون فذلك قوله : ﴿ فلولا كانت ﴾ أي فهلا حصلت ﴿ قرية ﴾ واحدة ﴿ آمنت ﴾ تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان قبل معاينة العذاب ﴿ فنفعها إيمانها ﴾ لوقوعه في وقت الاختيار والتكليف دون أوان اليأس والاضطرار ﴿ إلا قوم يونس ﴾ هو استثناء منقطع أي ولكن قوم يونس لأن أول الكلام جرى على القرية وإن كان المراد أهلها . وقيل : إن " لولا " في هذا المقام بمعنى النفي كأنه قيل : ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس . يروى أن يونس صلى الله عليه وسلم بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضباً كما سيجيء في سورة الأنبياء ، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة . وقيل : قال لهم يونس إن أجلكم أربعون ليلة فقالوا : إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك ، فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسوّد سطوحهم ، فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرّقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب وأولادها ، فحنّ بعضها إلى بعض وعلت الأصوات والعجيج

وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا فرحمهم وكشف عنهم وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة .

وعن ابن

(250/370)

مسعود : بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم حتى إن الرجل منهم كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده . وقيل : خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا : قد نزل بنا العذاب فما ترى ؟ فقال لهم : قولوا يا حي حين لا حي ويا حي محيي الموتى ويا حي لا إله إلا أنت ، فقالوها فكشف عنهم ومتعوا بالإيمان والأعمال الصالحة وبالخيرات الدنيوية إلى حين انقضاء آجالهم . وعن الفضيل بن عياض قالوا : اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل ، افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله . ثم بيّن أن الإيمان وضده كلاهما بمشيئة الله وتقديره فقال : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ قالت الأشاعرة : هذه القضية تفيد الشمول والإحاطة لكنه ما حصل إيمان أهل الأرض بالكلية فدل هذا على أنه تعالى ما أراد إيمان الكل .

(251/370)

وأول المعتزلة المشيئة بمشيئة الإلجاء والقسر . وأجيب بأن الكلام في الإيمان الذي كان يطلبه النبي منهم وهو الإيمان المنوط به التكليف لا الإيمان القسري الذي لا ينتفع به المكلف ، فلو حمل الإيمان المذكور في الآية وكذا المشيئة على إيمان الإلجاء ومشيئة القسر لم ينتظم الكلام . ثم ذكر أن القدرة القاهرة والمشيئة النافذة ليست إلا للحق سبحانه وتعالى فقال : ﴿ أفأنت تكره ﴾ فأولى الاسم حرف الاستفهام للإعلام بأن الإكراه ممكن مقدور عليه ، وإنما الكلام في المكره من هو وما هو إلا الله وحده . فحمل المعتزلة هذا الإكراه على الإلجاء ومعناه أن يفعل في قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان . وحمل الأشاعرة الإكراه على خلق الإيمان ومعناه أنه قادر على خلق الإيمان والكفر فيهم لا أنت بدليل قوله : ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس ﴾ أي الكفر والفسق ﴿ على الذين لا يعقلون ﴾ وفسر المعتزلة الإذن بمنح الألطاف والرجس بالخذلان ، لأن الرجس هو العذاب والخذلان سببه ، وخصصوا النفس بالنفس المعلوم إيمانها والذين لا يعقلون يعني المصرين على الكفر . واستدلت الأشاعرة بقوله : ﴿ وما كان لنفس ﴾ على أنه لا حكم للأشياء قبل ورود الشرع لأن الإذن عبارة عن الإطلاق في الفعل ورفع الحجر . وإذا كان أصل الشرع – وهو الإيمان بإذن الله – فما ترتب عليه أولى . أجابت المعتزلة بأن المراد بالإذن التوفيق والتسهيل والألطاف . ولما بين أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله تعالى أمر بالنظر

والاستدلال بالدلائل السماوية والأرضية حتى لا يتوهم أن الحق هو الجبر المحض فقال : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ أي شيء فيهما من الآيات والعبر . ثم ذكر أن التفكر والتدبر في هذه الدلائل لا ينفع في حكم الله عليه في الأزل بالشقاء فقال : ﴿ وما تغني ﴾ يحتمل أن تكون " ما " نافية أي لا تفيد هذه ﴿ الآيات والنذر ﴾ وهي جمع نذير صفة أو مصدر في حق المحكوم عليهم بعدم

(252/370)

الإيمان . وأن تكون ﴿ استفهامية للإنكار بمعنى أي شيء يغني عنهم ؟ ثم قال : ﴿ فهل ينتظرون ﴾ والمراد أن الأنبياء المتقدمين كانوا يتوعدون كفار زمانهم بأيام مشتملة على أنواع العذاب أو بوقائع الله فيهم وهم يكذبونهم ويسخرون منهم ، وكذلك كان يفعل الكفار المعاصرون للرسول صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه ﴿ قل فانتظروا ﴾ وفيه تهديد ووعيد بأنه سينزل بهؤلاء مثل ما أنزل بأولئك من الإهلاك بعد إنجاء الرسول وأتباعه كما حكى تلك الأحوال الماضية بقوله : ﴿ ثم ننجي رسلنا ﴾ الآية . قالت المعتزلة : ﴿ حقاً علينا ﴾ المراد به الوجوب والاستحقاق إذ لا يحسن تعذيب الرسول والمؤمنين .

(253/370)

وقالت الأشاعرة : إنه حق بحسب الوعد والحكم فإن العبد لا يستحق على خالقه شيئاً .

ثم أمر رسوله بإظهار التباين الصريح بين طريقته وطريقة المشركين فقال : ﴿ قل يا أيها الناس ﴾ والمعنى يا أهل مكة إن كنتم لا تعرفون ديني فاعلموا أني مبرأ عن أديانكم الباطلة ﴿ ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم ﴾ وتخصيص هذا الوصف لأنه يدل على الخلق أوّلاً وعلى الإعادة ثانياً كما مر مراراً ، أو لأن الموت أشد الأحوال مهابة في القلوب فكان أقوى في الزجر والردع ، أو لأنه قد قدم ذكر الإهلاك والوقائع النازلة بالأمم الخالية فكأنه قال : أعبد الله الذي وعدني بإهلاككم وإنجائي . وفي الآية إشارة إلى أنه لن يوافقهم في دينهم كيلا يشكوا في أمره ويقطعوا أطماعهم عنه . ولما ذكر أنه لا يعبد إلا الله بين أنه مأمور بالإيمان والمعرفة فقال : ﴿ وأمرت أن أكون ﴾ أي بأن أكون ﴿ من المؤمنين ﴾ ثم عطف عليه قوله : ﴿ وأن أقم وجهك ﴾ ولا تدع نظراً إلى المعنى كأنه قيل له : كن مؤمناً ثم أقم ولا تدع ، أو المراد وأمرت بكذا وأوحي إلي أن أقم . قال في الكشاف : قد سوغ سيبويه أن يوصل " أن " بالأمر والنهي وشبه ذلك بقولهم : أنت الذي تفعل على الخطاب لأن الغرض وصلها بما يكون معه في معنى المصدر ، والأمر والنهي دالان على المصدر دلالة غيرهما من الأفعال ، ومعنى ﴿ أقم وجهك ﴾ استقم إليه ولا تلتفت يميناً ولا شمالاً . و ﴿ حنيفاً ﴾ حال من ﴿ الدين ﴾ أو من الوجه . قال المحققون : الوجه ههنا وجه العقل أو المراد توجه الكلية

إلى طلب الدين كمن يريد أن ينظر إلى شيء نظراً تاماً فإنه يقيم وجهه في مقابلته لا يصرفه عنه . ثم أكد الأمر بالنهي عن ضده فقال : ﴿ ولا تكونن من المشركين ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت ﴾ أي فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، وكنى عنه بالفعل للاختصار . و " إذا " جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر كأن سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان وجعل من

(254/370)

الظالمين لأن إضافة التصرف بالاستقلال إلى ما سوى مدبر الكل وضع للشيء في غير موضعه . ثم صرح بأنه مبدأ الكائنات ومنتهى الحاجات لا غيره فقال : ﴿ وإن يمسسك الله ﴾ الآية . وقد مر تفسير مثلها في أول سورة الأنعام . قال الواحدي : ﴿ وإن يردك بخير ﴾ من القلب وأصله وإن يرد بك الخير ، ولكنه لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز إبدال كل واحد منهما بالآخر . وأقول في تخصيص الإرادة بجانب الخير والمس بجانب الشر دليل على أن الخير يصدر عنه سبحانه بالذات والشر بالعرض . ثم ختم السورة بما يستدل به على قضائه وقدره في الهداية والضلال فقال : ﴿ قل يا أيها الناس ﴾ الآية .

وفسرها الأشاعرة بأن من حكم له في الأزل بالاهتداء فسيقع له ذلك ، وإن من حكم له

بالضلال فكذلك ولا حيلة في دفعه كما مر في سورة الأنعام ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ﴾ [الأنعام : 104] الآية . وقالت المعتزلة : المراد أنه بين الشريعة وأزاح العلة وقطع المعذرة ، فمن اختار الهدى فما نفع باختياره إلا نفسه ، ومن آثر الضلال فلا يعود وباله إلا على نفسه . يروى عن ابن عباس أن الآية منسوخة بآية القتال ولا يخفى ضعفه . ثم أمره باتباع الوحي والتنزيل فإن وصل إليه بسبب الاتباع مكروه فليصبر عليه إلى أن يحكم الله وهو خير الحاكمين . ولبعضهم في الصبر :

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبري . . . وأصبر حتى يحكم الله في أمري

سأصبر حتى يعلم الصبر أنني . . . صبرت على شيء أمر من الصبر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 616.611 ﴾

(255/370)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

﴿ ولقد بوّأنا ﴾ أي : أنزلنا ﴿ بني اسرائيل مبوّأ صدق ﴾ أي : منزلاً صالحاً مرضياً وهو مصر والشام ، وإنما وصف المكان بالصدق ؛ لأنّ عادة العرب إذا مدحت شيئاً أضافته إلى الصدق ، تقول العرب : هذا رجل صدق وقدم صدق ، والسبب فيه أنّ الشيء إذا

كان كاملاً صالحاً لا بدّ أن يصدق الظنّ فيه . وقيل : أرض الشام والفرس والأردن ؛ لأنها بلاد الخصب والخير والبركة ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أي : الحلالات المستلذات من الفواكه والحبوب والألبان والأعسال وغيرها ، فأورث تعالى بني إسرائيل جميع ما كان تحت أيدي فرعون وقومه من الناطق والصامت والحرث والنسل كما قال تعالى : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ﴾ (الأعراف/) .

﴿ فما اختلفوا ﴾ أي : هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني اسرائيل في أمر دينهم ﴿ حتى جاءهم العلم ﴾ أي : جاءهم ما كانوا به عالمين ، وذلك أنهم كانوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم مقرين به مجمعين على نبوّته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوباً عندهم ، وكانوا يخبرون بمبعثه وصفته ونعته ويفتخرون بذلك على المشركين ، فلما بعث صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه ، فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه ، وكفر به بعضهم بغياً وحسداً وإيثاراً لبقاء الرياسة ، وأنهم ما اختلفوا في دينهم إلا من بعد ما قرؤوا التوراة وعلموا أحكامها ﴿ إن ربك ﴾ يا محمد ﴿ يقضي بينهم يوم القيامة ﴾ أي : الذي هو أعظم الأيام ﴿ فيما كانوا ﴾ أي : بأفعالهم الجبلية ﴿ فيه يختلفون ﴾ أي : فيتميز الحق من الباطل والصديق من الزنديق ويسكن كلا داره ، واختلف المفسرون فيمن المخاطب بقوله تعالى:

﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب ﴾ أي : التوراة ﴿ من قبلك ﴾ أي : فإنه ثابت عندهم يخبرونك بصدقه ، فقيل : هو النبيّ صلى الله عليه وسلم في الظاهر ، والمراد أمته كقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبيّ اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ (الأحزاب ،) وقوله تعالى : ﴿ لئن أشركت ليحبطنّ عملك ﴾ (الزمر ،) . وقوله تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلهين من دون الله ﴾ (المائدة ،) ومن الأمثلة المشهورة : إياك أعني واسمعي يا جارة ، والذي يدل على صحة ذلك وجوه : الأوّل : قوله تعالى في آخر السورة : ﴿ يا أيها الناس ﴾ فبين أنّ ذلك المذكور في أوّل الآية على سبيل الرمز هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح . الثاني : أنه صلى الله عليه وسلم لو كان شاكاً في نبوّة نفسه لكان شك غيره في نبوته أولى ، وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية ، الثالث : إذا قدر أن يكون شاكاً في نبوّة نفسه ، فكيف يزول ذلك الشك بإخبار أهل الكتاب عن نبوّته مع أنهم في الأكثر كفار ؟ فثبت أنّ الخطاب وإن كان في الظاهر معه صلى الله عليه وسلم إلا أنّ المراد هو الأمّة ، ومثل هذا معتاد فإنّ السلطان إذا كان له أمير وتحت راية ذلك الأمير جمع ، فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص فإنه لا يوجه خطابه عليهم بل يوجه ذلك الخطاب على ذلك الأمير الذي جعله أميراً عليهم ليكون ذلك أشدّ تأثيراً في قلوبهم ، وقيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم على حقيقته ولكن

الله تعالى علم أنه صلى الله عليه وسلم لا يشك في ذلك إلا أن المقصود أنه متى سمع هذا الكلام فإنه يصرّح ويقول : يا رب لا أشك ولا أطلب الحجة من قول أهل الكتاب بل أكتفي بما أنزلته عليّ من الدلائل الظاهرة ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم "لا أشك ولا أسأل أحداً منهم" ، ونظير هذا قوله للملائكة : ﴿ أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾ (سبأ ،) والمقصود أن يصرّحوا بالجواب الحق ويقولوا سبحانك أنت

(257/370)

ولينا من

دونهم بل كانوا يعبدون الجنّ . وكما قال تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلهين ﴾ (المائدة ،) والمقصود منه أن يصرّح عيسى عليه السلام بالبراءة من ذلك فكذلك هنا . وقرأ ابن كثير والكسائي بنقل حركة الهمزة إلى السين والباقون بالهمزة وسكون السين . وقيل الخطاب لكل من يسمع ، أي : إن كنت أيها السامع في شك مما أنزلنا على لسان نبينا إليك . وفيه تنبيه على أنّ من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم ، وأظهر هذه الأقوال أوّلها ، وهذه الأقوال تجري في قوله تعالى : ﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾ أي : الآيات القاطعة لا مدخل للمرية فيه ﴿ فلا تكونن من

الممترين ﴾ أي : الشاكين فيه ، وفي قوله تعالى:

﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ﴾ أي : الذين خسروا أنفسهم

﴿ إنّ الذين حقت عليهم كلمة ربك ﴾ أي : ثبت عليهم قوله تعالى الذي كتبه في اللوح المحفوظ وأخبر به الملائكة أنهم ﴿ لا يؤمنون ﴾ أي : يموتون كفاراً فلا يكون غيره ، إذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه .

﴿ ولو جاءتهم كل آية ﴾ فإنّ السبب الأصلي لإيمانهم وهو تعلق إرادة الله تعالى به مفقود ، فإنّ الدليل لا يهدي إلا بإعانة الله تعالى ، وإذا لم تحصل تلك الإعانة ضاعت تلك الدلائل ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ فحينئذٍ لا ينفعهم الإيمان كما لم ينفع فرعون . وقرأ نافع وابن عامر كلمات بألف بعد الميم على الجمع ، والباقون بغير ألف على الإفراد .

القصة الثالثة : قصة يونس عليه السلام المذكورة بقوله تعالى:

وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾

(258/370)

﴿ فلولا ﴾ أي : فهلا ﴿ كانت قرية ﴾ واحدة من قرى الأمم الماضية التي أهلكناها ﴿ آمنت ﴾ أي : آمن أهلها عند إتيان الآيات أو عند رؤية أسباب العذاب ﴿ فنفعها ﴾ أي : فتسبب عن إيمانها ذلك أنه نفعها ﴿ إيمانها ﴾ بأن تقبله الله تعالى منها وكشف العذاب عنها ، وقوله تعالى : ﴿ إلا قوم يونس ﴾ استثناء منقطع بمعنى لكن قوم يونس ﴿ لما آمنوا ﴾ أي : لما أخلصوا الإيمان أوّل ما رأوا آية العذاب ولم يؤخروه إلى حلوله ﴿ كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ﴾ ويجوز أن يكون متصلاً ، والجملة في معنى النفي لتضمن حرف التحضيض معناه كأنه قيل : ما آمن أهل قرية من القرى الهالكة فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس ﴿ ومتعناهم إلى حين ﴾ أي : إلى انقضاء آجالهم . روي عن ابن مسعود وغيره : أنّ قوم يونس كانوا بأرض نينوى من أرض الموصل ، فأرسل الله تعالى إليهم يونس عليه السلام ، يدعوهم إلى الإيمان فدعاهم فأبوا فقيل له : إنّ العذاب مصبحهم إلى ثلاثة أيام فأخبرهم بذلك فقالوا : إنا لم نجرب عليك كذباً ، فانظروا فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء ، وإن لم يبت فاعلموا أنّ العذاب مصبحكم .

(259/370)

فلما كان في جوف تلك الليلة خرج يونس عليه السلام من بين أظهرهم ، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم قدر ميل . وقال وهب : غامت السماء غيماً عظيماً ، أسود هائلاً يدخن دخاناً عظيماً فهبط حتى غشى مدينتهم واسودّت سطوحهم ، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك ، فطلبوا يونس بينهم فلم يجدوه ، وقذف الله تعالى في قلوبهم التوبة ، فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وأولادهم ودوابهم ولبسوا المسوح ، وأظهروا الإيمان والتوبة ، وأخلصوا النية ، وفرّقوا بين كل والدة وولدها من النساء والدواب فحنّ بعضها إلى بعض ، وعلت أصواتها واختلطت بأصواتهم ، وعجوا وتضرّعوا إلى الله تعالى وقالوا آمنا بما جاء به يونس عليه السلام ، فرحمهم الله تعالى ، واستجاب دعاءهم ، وكشف عنهم العذاب بعد ما أظلهم . وكل ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة ، وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه بلغ من توبتهم أن ترادّوا المظالم حتى أنّ الرجل كان يقلع الحجر وكان قد وضع عليه أساس بنيانه فيردّه ، وقيل : خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا : قد نزل بنا العذاب فما ترى ؟ فقال لهم : قولوا يا حيّ حين لا حيّ ، ويا حيّ محيي الموتى ، ويا حيّ لا إله إلا أنت . فقالوها ، فكشف عنهم . وعن الفضيل بن عياض : اللَّهمَّ إنّ ذنوبنا قد عظمت وجلت ، وأنت أعظم منها وأجل ، افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله ، وستأتي بقية القصة إن شاء الله تعالى في سورة والصافات .

فإن قيل : قد حكى الله تعالى عن فرعون أنه تاب في آخر الأمر ولم يقبل توبته ، وحكى عن قوم يونس أنهم آمنوا وقبل توبتهم ، فما الفرق بين الحالين ؟

(260/370)

أجيب : بأنّ فرعون إنما تاب بعد أن شاهد العذاب وهو وقت اليأس من الحياة ، أمّا قوم يونس فإنهم تابوا قبل ذلك ، فإنهم لما ظهرت أمارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل أن ينزل بهم ولم يباشرهم ، فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية ، وإنّ الله تعالى قد علم صدق نياتهم في التوبة فقبل توبتهم بخلاف فرعون فإنه لم يصدق في إيمانه ولا أخلص فلم يقبل منه . قال الله تعالى:

﴿ ولو شاء ربك ﴾ يا محمد ﴿ لآمن ﴾ بك وصدّقك ﴿ من في الأرض كلهم ﴾ بحيث لم يشذ منهم أحد ﴿ جميعاً ﴾ أي : مجتمعين على ذلك في آن واحد لا يختلفون في شيء منه ولكن لم يشأ أن يصدّقك ويؤمن بك إلا من سبقت له السعادة في الأزل ، وفي هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم فإنه كان حريصاً على إيمانهم كلهم ، فأخبر الله تعالى أنه لا يؤمن به إلا من سبقت له السعادة الأزلية فلا تتعب نفسك على إيمانهم . وهو قوله تعالى :

﴿ أفأنت تكره الناس ﴾ أي : الذين لم يرد الله إيمانهم ﴿ حتى يكونوا مؤمنين ﴾ أي : ليس

إيمانهم إليك حتى تكرههم عليه وتحرص عليه ، إنما إيمان المؤمن وإضلال الكافر بمشيئة الله تعالى وقضائه وليس لأحد ذلك سواه . كما قال تعالى : ﴿ وما كان ﴾ أي : وما ينبغي وما يتأتى ﴿ لنفس ﴾ أي : واحدة فما فوقها ﴿ أن تؤمن ﴾ أي : يقع منها إيمان في وقت مّا ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي : بإرادته لها بالإيمان ، فإنّ هدايتها إلى الله فهو المهدي والمضل . وقال ابن عباس بأمر الله . وقال عطاء : بمشيئة الله . ﴿ ويجعل ﴾ الله ﴿ الرجس ﴾ أي : العذاب والخذلان فإنه سببه . وقرأ شعبة وحده بالنون ﴿ على الذين لا يعقلون ﴾ أي : لا يتدبرون في آيات الله تعالى ، فينتفعوا بها وهم يدعون أنهم أعقل الناس ويتساقطون في مساوئ الأخلاق وهم يدعون أنهم أبعد الناس عنها ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات . ولما بين الله تعالى في الآيات السابقة أنّ الإيمان لا يحصل إلا بتخليق الله تعالى ومشيئته أمر بالنظر والاستدلال في الدلائل بقوله تعالى:

(261/370)

﴿ قل انظروا ﴾ أي : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات ﴿ ماذا ﴾ أي : الذي ﴿ في السموات والأرض ﴾ من الآيات وواضح الدلالات من عجائب صنعه ليدلكم على وحدته وكمال قدرته ، ففي العالم العلوي الشمس والقمر وهما دليلان على الليل

والنهار والنجوم وحركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها ، والكواكب وما يختص بذلك من المنافع ، وفي العالم السفلي الجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوان ، وأخصها حال الإنسان . كل ذلك من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى ، وانه خالقها ، كما قال القائل:

*وفي كل شيء له آية** تدل على أنه واحد

وقرأ عاصم وحمزة في الوصل بكسر اللام والباقون بضمها ، وأمّا الهمزة من انظروا فكل القراء يبتدؤون بالضم ﴿ وما تغني الآيات ﴾ أي : وإن كانت في غاية الوضوح ﴿ والنذر ﴾ جمع نذير ، أي : الرسل ﴿ عن قوم لا يؤمنون ﴾ في علم الله تعالى وحكمه .

تنبيه : قال النحويون : ما هنا تحتمل وجهين الأوّل : أن تكون نفياً بمعنى أنّ هذه الآيات والنذر لا تفيد الفائدة في حق من حكم الله تعالى عليه بأنه لا يؤمن كقولك : لا يغني عنك المال إذا لم تنفق . والثاني : أن تكون استفهاماً كقولك ، أي : شيء يغني عنهم ، وهو استفهام بمعنى الإنكار .

﴿ فهل ﴾ أي : ما ﴿ ينتظرون ﴾ أي : أهل مكة بتكذيبك ﴿ إلا ﴾ أياماً ، أي : وقائع ﴿ مثل أيام ﴾ أي : وقائع ﴿ الذين خلوا من قبلهم ﴾ أي : من مكذبي الأمم كالقبط وقوم نوح وما انطوى بينهما من الأمم ، أي : مثل وقائعهم من العذاب ﴿ قل ﴾ أي : قل لهم يا محمد ﴿ فانتظروا ﴾ أي : العذاب ﴿ إني معكم من المنتظرين ﴾ أي : لنزول العذاب بكم . وقوله تعالى:

﴿ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا ﴾ عطف على محذوف ، دل عليه قوله تعالى : ﴿ إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ كأنه قيل : لنهلك الأمم ثم ننجي رسلنا ومن آمن بهم على حكاية الأحوال الماضية . وقرأ أبو عمرو وحده بسكون السين ﴿ كذلك ﴾ أي : كما نجينا رسلنا والذين آمنوا معهم من الهلاك ﴿ حقاً علينا ننج المؤمنين ﴾ أي : ننجيك يا محمد ومن آمن معك وصدّقك من الهلاك والعذاب . فإن قيل : قوله تعالى حقاً يقتضي الوجوب والله تعالى لا يجب عليه شيء . أجيب : بأنَّ ذلك حق بحسب الوعد والحكم لا أنه حق بحسب الاستحقاق . لما ثبت أنّ العبد لا يستحق على خالقه شيئاً وهو اعتراض بين المشبه والمشبه به ونصب بفعله المقدّر ، وقيل بدل من ذلك . وقرأ حفص والكسائي بسكون النون الثانية والباقون بفتحها . وأمّا الوقف عليها فجميع القراء يقفون على الجيم ؛ لأنها مرسومة في المصحف بالجيم بلا ياء ، فهي في القرآن وقفاً ووصلاً بلا ياء لجميع القراء . ولما ذكر تعالى الدلائل على أقصى الغايات وأبلغ النهايات أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بإظهار دينه فقال:

﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ يا أيها الناس ﴾ أي : الذين أرسلت إليهم فشكوا في أمرك ولم يؤمنوا بك ﴿ إن كنتم في شك من ديني ﴾ أي : الذي أدعوكم إليه أنه حق وأصررتم على ذلك وعبدتم الأصنام التي لا تضرّ ولا تنفع ﴿ فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ﴾ أي : غيره وهو الأصنام التي لا قدرة لها على شيء ﴿ ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم ﴾ بقبض أرواحكم التي لا شيء عندكم يعدلها ، فإنه الذي يستحق العبادة ، وإنما خص الله تعالى هذه الصفة للتهديد . وقيل : إنهم لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله : ولكن أعبد الله الذي هو قادر على إهلاككم ونصري عليكم . ﴿ وأمرت أن ﴾ أي : بأن ﴿ أكون من المؤمنين ﴾ أي : المصدّقين بما جاء من عند الله . وقيل : إنه لما ذكر العبادة وهي من أعمال الجوارح أتبعها بذكر الإيمان لأنه من أعمال القلوب . فإن قيل : كيف قال في شك وهم كفار يعتقدون بطلان ما جاء به ؟

أجيب : بأنه كان فيهم شاكون أو أنهم لما رأوا الآيات اضطربوا وشكوا في أمره صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى:

﴿ وأن أقم وجهك للدين ﴾ عطف على أن أكون ، غير أن صلة أن محكية بصيغة الأمر ولا فرق بينهما في الغرض ؛ لأنّ المقصود وصلها بما تضمن معنى المصدر ليدل معه عليه ، وصيغ الأفعال كلها كذلك سواء الخبر منها والطلب ، والمعنى : وأمرت بالاستقامة في الدين

والاستعداد فيه بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح ، أو في الصلاة باستقبال القبلة وقوله : ﴿ حنيفاً ﴾ حال من فاعل أقم أو من الدين أو من الوجه ، ومعناه : مائلاً مع الدين غير معوج عنه إلى دين آخر وقوله تعالى : ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ أي : ممن يشرك بالله في عبادته غيره فتهلك ، خطاباً للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمّته ، أي : ولا تكونن أيها الإنسان وكذا قوله تعالى:

(264/370)

﴿ ولا تدع ﴾ أي : تعبد ﴿ من دون الله ﴾ أي : غيره ﴿ ما لا ينفعك ﴾ أي : إن عبدته ﴿ ولا يضرّك ﴾ إن لم تعبده ﴿ فإن فعلت ﴾ ذلك ﴿ فإنك إذاً من الظالمين ﴾ لنفسك ؛ لأنك وضعت العبادة في غير موضعها ، والظلم : وضع الشيء في غير محله ، فإذا كان ما سوى الحق معزولاً عن التصرّف كان إضافة التصرّف إلى ما سوى الحق وضعاً للشيء في غير موضعه فيكون ظلماً .

ولما ذكر الله تعالى الأوثان وبيّن أنها لا تقدر على ضرّ ولا نفع بيّن تعالى أنه هو القادر على كل شيء وأنه ذو الجود والكرم والرحمة بقوله تعالى:

(265/370)

﴿ وإن يمسسك ﴾ أي : يصبك ﴿ الله بضرَ ﴾ كفقر ومرض ﴿ فلا كاشف ﴾ أي : لا دافع ﴿ له إلا هو ﴾ لأنه الذي أنزله بك ﴿ وإن يردك بخير ﴾ كرخاء وصحة ﴿ فلا رادّ ﴾ أي : دافع ﴿ لفضله ﴾ أي : الذي أرادك به ﴿ يصيب به ﴾ أي : بالخير ﴿ من يشاء من عباده وهو الغفور ﴾ أي : البليغ الستر للذنوب ﴿ الرحيم ﴾ أي : البالغ في الإكرام . وقرأ أبو عمرو وقالون والكسائي بسكون الهاء ، والباقون بالضم ، فرجح سبحانه وتعالى جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة أوجه : الأوّل : أنه تعالى لما ذكر إمساس الضر بين أنه لا كاشف له إلا هو ، وذلك يدل على أنه تعالى يزيل المضار ؛ لأنّ الاستثناء من النفي إثبات ، ولما ذكر الخير لم يقل بأنه يدفعه بل قال : إنه لا راد لفضله ، وذلك يدل على أنّ الخير مطلوب بالذات وأنّ الشر مطلوب بالعرض كما قال صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى أنه قال : "سبقت رحمتي غضبي" . الثاني : أنه سبحانه وتعالى قال في صفة الخير يصيب به من يشاء من عباده ، وذلك يدل على أن جانب الخير أقوى وأغلب . الثالث : أنه تعالى قال ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ وهذا أيضاً يدل على قوّة جانب الرحمة . وحاصل الكلام في هذه الآية : أنه سبحانه وتعالى بيّن أنه منفرد بالخلق والإيجاد والتكوين والإبداع وأنه لا موجد سواه ولا معبود إلا إياه ، وأنّ جميع الممكنات مسندة إليه وجميع الكائنات محتاجة (إليه) ، فالأيدي مرفوعة إليه ، والحاجات منتهية إليه ، والعقول والهة فيه

، والرحمة والجود فائض منه . ولما قرر تعالى الدلائل المذكورة في التوحيد والنبوّة والمعاد ، وزين أمر هذه السورة بهذه البيانات الدالة على كونه تعالى مبتدئاً بالخلق والإبداع والتكوين والاختراع ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية لئلا يبقى لأحدٍ عذر بقوله تعالى:

(266/370)

﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ يا أيها الناس ﴾ أي : الذين أرسلت إليهم ﴿ قد جاءكم الحق من ربكم ﴾ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالحق من الله تعالى والقرآن فلم يبق لكم عذر ﴿ فمن اهتدى ﴾ أي : آمن بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وعمل بما في الكتاب ﴿ فإنما يهتدي لنفسه ﴾ لأنه اتبع الحق الثابت وترك الباطل الزائل ، فأنقذ نفسه من النار وأوجب لها الجنة فثواب اهتدائه له ﴿ ومن ضلّ ﴾ أي : كفر بها أو بشيء منها ﴿ فإنما يضل عليها ﴾ أي : على نفسه ؛ لأنّ وبال ضلاله عليها ؛ لأنّ من ترك الباقي وتمسك بما ليس في يده منه شيء فقد غر نفسه . ثم قال صلى الله عليه وسلم ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ أي : حفيظ ، أي : موكول إليّ أمركم وإنما أنا بشير ونذير . قال ابن عباس : وهذه الآية منسوخة بآية السيف . قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم

﴿ واتبع ﴾ يا محمد ﴿ ما يوحى إليك ﴾ بالامتثال والتبليغ ﴿ واصبر ﴾ أي : على

دعوتهم وتحمل أذيتهم ﴿ حتى يحكم الله ﴾ أي : بنصرك عليهم وإظهار دينك أو بالأمر بالقتال ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه تعالى لاطلاعه على السرائر كاطلاعه على الظواهر ، فحكم بقتل المشركين والجزية على أهل الكتاب يعطونها عن يد وهم صاغرون . وأنشد بعضهم في الصبر:

*سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبري ** وأصبر حتى يحكم الله في أمري

*سأصبر حتى يعلم الصبر أنني ** صبرت على شيء أمرُ من الجمر

وروي أنّ أبا قتادة تخلف عن تلقي معاوية حين قدم المدينة ، وقد تلقته الأنصار ، ثم دخل المدينة فقال له : ما لك لم تتلقنا ؟ قال : لم يكن عندنا دواب . قال : فأين النواضح ؟ قال : قطعناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر . وقد قال صلى الله عليه وسلم "يا معشر الأنصار إنكم ستلقون بعدي أثرة" . قال معاوية : فماذا قال ؟ قال : "فاصبروا حتى تلقوني" قال : فاصبر . قال : إذاً نصبر . فقال عبد الرحمن بن حسان:

*ألا أبلغ معاوية بن حرب ** أمير الظالمين ثنا كلامي

*بأنا صابرون فمنظروكم ** إلى يوم التغابن والخصام

وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة يونس أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق يونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون" حديث موضوع. انتهى انتهى. اهـ ﴿السراج المنير حـ 3 صـ 54.62﴾

(268/370)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة:

﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (101) ﴾

قوله: ﴿ قُلِ انظروا مَاذَا فِى السموات والأرض ﴾: لما بين سبحانه أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله، أمر بالنظر والاستدلال بالدلائل السماوية والأرضية، والمراد بالنظر: التفكر والاعتبار، أي قل يا محمد للكفار: تفكروا واعتبروا بما في السموات والأرض من المصنوعات الدالة على الصانع ووحدته، وكمال قدرته.

و﴿ ماذا ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿ في السموات والأرض ﴾.

أو المبتدأ "ما"، و"ذا" بمعنى الذي، و﴿ في السموات والأرض ﴾ صلته، والموصول

وصلته خبر المبتدأ ، أي : أيّ شيء الذي في السموات والأرض ، وعلى التقديرين فالجملة في محل نصب بالفعل الذي قبلها .

ثم ذكر سبحانه أن التفكر والتدبر في هذه الدلائل لا ينفع في حق من استحكمت شقاوته ، فقال : ﴿ وَمَا تُغْنِى الآيات والنذر ﴾ أي : ما تنفع على أن ما نافية ، ويجوز أن تكون استفهامية : أي : أيّ شيء ينفع ، والآيات هي التي عبر عنها بقوله : ﴿ مَاذَا فِى السموات والأرض ﴾ والنذر : جمع نذير ، وهم : الرسل أو جمع إنذار ، وهو المصدر ﴿ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ في علم الله سبحانه ؛ والمعنى : أن من كان هكذا لا يجدى فيه شيء ، ولا يدفعه عن الكفر دافع .

(269/370)

قوله : ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : فهل ينتظر هؤلاء الكفار المعاصرون لمحمد صلى الله عليه وسلم إلا مثل وقائع الله سبحانه بالكفار الذين خلوا من قبل هؤلاء ، فقد كان الأنبياء المتقدّمون يتوعدون كفار زمانهم بأيام مشتملة على أنواع العذاب ، وهم يكذبونهم ويصممون على الكفر ، حتى ينزل الله عليهم عذابه ، ويحلّ بهم انتقامه ، ثم قال : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار المعاصرين لك ﴿ فانتظروا ﴾ أي :

تربصوا لوعد ربكم ، إني معكم من المتربصين لوعد ربي ، وفي هذا تهديد شديد ، ووعيد بالغ بأنه سينزل بهؤلاء ما نزل بأولئك من الإهلاك ، وثم في قوله : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا ﴾ للعطف على مقدّر يدلّ عليه ما قبله ، كأنه قيل أهلكنا الأمم ثم نجينا رسلنا المرسلين إليهم .

وقرأ يعقوب ثم "ننجى" مخففاً .

وقرأ كذلك أيضاً في ﴿ حَقّا عَلَيْنَا نُنجِ المؤمنين ﴾ .

وروي كذلك عن الكسائي وحفص في الثانية .

وقرأ الباقون بالتشديد ، وهما لغتان فصيحتان : أنجى ينجى إنجاء ، ونجى ينجى تنجية بمعنى واحد ﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ معطوف على رسلنا : أي : نجيناهم ونجينا الذين آمنوا ، والتعبير بلفظ الفعل المستقبل لاستحضار صورة الحال الماضية تهويلاً لأمرها ﴿ كَذَلِكَ حَقّا عَلَيْنَا ﴾ أي : حق ذلك علينا حقاً ، أو إنجاء مثل ذلك الانجاء حقاً ﴿ نُنجِ المؤمنين ﴾ من عذابنا للكفار ، والمراد بالمؤمنين : الجنس ، فيدخل في ذلك الرسل وأتباعهم ، أو يكون خاصاً بالمؤمنين ، وهم أتباع الرسل ؛ لأن الرسل داخلون في ذلك بالأولى .

قوله : ﴿ قُلْ يا أَهْلَ أَيُّهَا الناس إِن كُنتُمْ فِى شَكّ مّن دِينِى ﴾ أمر سبحانه رسوله بأن يظهر التباين بين طريقته وطريقة المشركين ، مخاطباً لجميع الناس ، أو للكفار منهم ، أو لأهل مكة على الخصوص بقوله : إن كنتم في شك من ديني الذي أنا عليه ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، ولم تعلموا بحقيقته ولا عرفتم صحته ، وأنه الدين الحق الذي لا دين غيره ، فاعلموا أني بريء من أديانكم التي أنتم عليها ﴿ فَلاَ أَعْبُدُ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ في حال من الأحوال ﴿ ولكن أَعْبُدُ الله الذى يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ أي أخصه بالعبادة ، لا أعبد غيره من معبوداتكم من الأصنام وغيرها ، وخصّ صفة المتوفى من بين الصفات لما في ذلك من التهديد لهم : أي : أعبد الله الذي يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد ، ولكونه يدل على الخلق أوّلاً ، وعلى الإعادة ثانياً ، ولكونه أشدّ الأحوال مهابة في القلوب ، ولكونه قد تقدّم ذكر الإهلاك ، والوقائع النازلة بالكفار من الأمم السابقة ، فكأنه قال : أعبد الله الذي وعدني بإهلاككم .

ولما ذكر أنه لا يعبد إلا الله ، بين أنه مأمور بالإيمان فقال : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ أي : بأن أكون من جنس من آمن بالله ، وأخلص له الدين .

وجملة : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ ﴾ معطوفة على جملة ﴿ أَنْ أَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ ولا يمنع من ذلك كون المعطوف بصيغة الأمر ؛ لأن المقصود من "أن" الدلالة على المصدر ، وذلك لا يختلف بالخبرية والإنشائية ، أو يكون المعطوف عليه في معنى الإنشاء ؛ كأنه قيل :

كن مؤمناً ثم أقم ؛ والمعنى : أن الله سبحانه أمره بالاستقامة في الدين والثبات فيه ، وعدم التزلزل عنه بحال من الأحوال .

وخص الوجه ؛ لأنه أشرف الأعضاء ، أو أمره باستقبال القبلة في الصلاة ، وعدم التحوّل عنها .

(271/370)

و ﴿ حنيفاً ﴾ حال من الدين ، أو من الوجه : أي مائلاً عن كل دين من الأديان إلى دين الإسلام .

ثم أكد الأمر المتقدّم للنهي عن ضدّه ، فقال : ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ وهو معطوف على ﴿ أقم ﴾ ، وهو من باب التعريض لغيره صلى الله عليه وسلم .

قوله : ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ ﴾ معطوف على ﴿ قُلْ يا أَهْلَ الكِتَابِ ﴾ غير داخل تحت الأمر ، وقيل : معطوف على ﴿ ولا تكونن ﴾ أي : لا تدع من دون الله على حال من الأحوال ما لا ينفعك ولا يضرّك بشيء من النفع والضرّ إن دعوته ، ودعاء من كان هكذا لا يجلب نفعاً ، ولا يقدر على ضرّ ضائع لا يفعله عاقل على تقدير أنه لا يوجد من يقدر على النفع والضرّ غيره ، فكيف إذا كان موجوداً ؟ فإن العدول عن دعاء

القادر إلى دعاء غير القادر أقبح وأقبح ﴿ فَإِن فَعَلْتَ ﴾ أي : فإن دعوت ، ولكنه كنى عن القول بالفعل ﴿ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظالمين ﴾ هذا جزاء الشرط ، أي فإن دعوت من دون الله مالا ينفعك ولا يضرّك ، فإنك في عداد الظالمين لأنفسهم .

والمقصود من هذا الخطاب التعريض لغيره صلى الله عليه وسلم .

وجملة ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ ﴾ إلى آخرها مقرّرة لمضمون ما قبلها .

والمعنى : أن الله سبحانه هو الضار النافع .

فإن أنزل بعبده ضراً لم يستطع أحد أن يكشفه كائناً من كان ، بل هو المختص بكشفه كما اختصّ بإنزاله ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ أيّ : خير كان لم يستطع أحد أن يدفعه عنك ، ويحول بينك وبينه كائناً من كان ، وعبر بالفضل مكان الخير للإرشاد إلى أنه يتفضل على عباده بما لا يستحقونه بأعمالهم .

قال الواحدي : إن قوله : ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ هو من القلب ، وأصله وإن يرد بك الخير ، ولكن لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز أن يكون كل واحد منهما مكان لآخر .

(272/370)

قال النيسابوري : وفي تخصيص الإرادة بجانب الخير ، والمسّ بجانب الشرّ دليل على أن الخير يصدر عنه سبحانه بالذات ، والشرّ بالعرض .

قلت : وفي هذا نظر ، فإن المسّ هو أمر وراء الإرادة ، فهو مستلزم لها ، والضمير في ﴿ يصيب به ﴾ راجع إلى فضله : أي يصيب بفضله من يشاء من عباده .

وجملة : ﴿ وَهُوَ الغفور الرحيم ﴾ تذييلية .

ثم ختم هذه السورة بما يستدل به على قضائه وقدره ، فقال : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الناس قَدْ جَاءكُمُ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أي : القرآن ﴿ فَمَنُ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي : منفعة اهتدائه مختصة به ، وضرر كفره مقصور عليه لا يتعدّاه ، وليس لله حاجة في شيء من ذلك ، ولا غرض يعود إليه ﴿ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي : بحفيظ يحفظ أموركم ، وتوكل إليه ، إنما أنا بشير ونذير .

ثم أمره الله سبحانه أن يتبع ما أوحاه إليه من الأوامر والنواهي التي يشرعها الله له ، ولأمته ، ثم أمره بالصبر على أذى الكفار ، وما يلاقيه من مشاقّ التبليغ ، وما يعانيه من تلوّن أخلاق المشركين وتعجرفهم ، وجعل ذلك الصبر ممتداً إلى غاية هي قوله : ﴿ حتى يَحْكُمَ الله وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ أي : يحكم الله بينه وبينهم في الدنيا بالنصر له عليهم ، وفي الآخرة بعذابهم بالنار ، وهم يشاهدونه صلى الله عليه وسلم هو وأمته ، المتبعون له المؤمنون به ، العاملون بما يأمرهم به ، المنتهون عما ينهاهم عنه ، يتقلبون في نعيم الجنة الذي لا ينفد ، ولا

يمكن وصفه ، ولا يوقف على أدنى مزاياه .

وقد أخرج أبو الشيخ ، عن السديّ في قوله : ﴿ وَمَا تُغْنِى الآيات والنذر عَن قَوْمٍ ﴾ يقول : عند قوم ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ نسخت قوله : ﴿ حِكْمَةٌ بالغة فَمَا تُغْنِى النذر ﴾ [القمر : 5] .

(273/370)

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ قال : وقائع الله في الذين خلوا من قبلهم ، قوم نوح ، وعاد ، وثمود .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن الربيع في الآية قال : خوّفهم عذابه ونقمته وعقوبته ، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك أمر نجى الله رسله والذين آمنوا ، فقال : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا والذين ءامَنُواْ ﴾ الآية .

وأخرج أبو الشيخ ، عن السديّ ، في قوله : ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ يقول : بعافية .

وأخرج البيهقي في الشعب ، عن عامر بن قيس ، قال : ثلاث آيات في كتاب الله اكتفيت بهنّ عن جميع الخلائق : أوّلهنّ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ

فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ ، والثانية : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ ﴾ [فاطر : 2] ، والثالثة : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : 6] .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الحسن ، نحوه .

وأخرج أبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ قال : هو الحق المذكور في قوله : ﴿ قَدْ جَاءكُمُ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، في قوله : ﴿ واصبر حتى يَحْكُمَ الله ﴾ قال : هذا منسوخ ، أمره بجهادهم والغلظة عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(274/370)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104) ﴾

هذة خاتمة السورة ، وخاتمة المطاف لتلك الجولات في شتى الآفاق ، تلك الجولات التي نحس أننا عائدون منها بعد سياحات طويلة في آفاق الكون ، وجوانب النفس ، وعوالم

الفكر والشعور والتأملات . عائدون منها في مثل الإجهاد من طول التطواف ، وضخامة الجني ، وامتلاء الوطاب !

هذه خاتمة السورة التي تضمنت تلك الجولات حول العقيدة في مسائلها الرئيسية الكبيرة : توحيد الربوبية والقوامة والحاكمية ، ونفي الشركاء والشفعاء ، ورجعة الأمر كله إلى الله ، وسننه المقدرة التي لا يملك أحد تحويلها ولا تبديلها . والوحي وصدقه ، والحق الخالص الذي جاء به . والبعث واليوم الآخر والقسط في الجزاء . . .

هذه القواعد الرئيسية للعقيدة التي دار حولها سياق السورة كله ، وسيقت القصص لإيضاحها ، وضربت الأمثال لبيانها . .

ها هي ذي كلها تلخص في هذه الخاتمة ، ويكلف الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يعلنها للناس إعلاناً عاماً ، وأن يلقي إليهم بالكلمة الأخيرة الحاسمة : أنه ماض في خطته ، مستقيم على طريقته ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

﴿ قل : يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم ، وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ . .

قل : يا أيها الناس جميعاً ، وإن كان الذين يتلقون الخطاب إذ ذاك هم مشركي قريش ، إن كنتم في شك من أن ديني الذي أدعوكم إليه هو الحق ، فإن هذا لا يحولني عن يقيني ، ولا

يجعلني أعبد آلهتكم التي تعبدونها من دون الله . .

﴿ ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم ﴾ . .

(275/370)

أعبد الله الذي يملك آجالكم وأعماركم . وإبراز هذه الصفة لله هنا له قيمته وله دلالته ، فهو تذكير لهم بقهر الله فوقهم ، وانتهاء آجالهم إليه ، فهو أولى بالعبادة من تلك الآلهة التي لا تحيي ولا تميت . .

﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ . .

فأنا عند الأمر لا أتعداه .

﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين ﴾ . .

وهنا يتحول السياق من الحكاية إلى الأمر المباشر ، كأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتلقاه في مشهد حاضر للجميع . وهذا أقوى وأعمق تأثيراً . ﴿ أقم وجهك للدين حنيفاً ﴾ متوجهاً إليه خالصاً له ، موقوفاً عليه ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ زيادة في توكيد معنى الاستقامة للدين ، ولمعنى أن يكون من المؤمنين ، عن طريق النهي المباشر عن الشرك بعد الأمر المباشر بالإيمان .

﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك . فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين ﴾ . .

لا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك من هؤلاء الشركاء والشفعاء ، الذين يدعوهم المشركون لجلب النفع ودفع الضر . فإن فعلت فإنك إذن من هؤلاء المشركين ! فميزان الله لا يحابي وعدله لا يلين .

.

﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم ﴾ . .

فالضر نتيجة لازمة لسنة الله الجارية حين يتعرض الإنسان لأسبابه ، والخير كذلك . .

فإن مسك الله بضر عن طريق جريان سنته فلن يكشفه عنك إنسان ، إنما يكشف باتباع سنته ، وترك الأسباب المؤدية إلى الضر إن كانت معلومة ، أو الالتجاء إلى الله ليهديك إلى تركها إن كانت مجهولة . وإن أراد بك الخير ثمرة لعملك وفق سنته فلن يرد هذا الفضل عنك أحد من خلقه . فهذا الفضل يصيب من عباده من يتصلون بأسبابه وفق مشيئته العامة وسنته الماضية . ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ الذي يغفر ما مضى متى وقعت التوبة ، ويرحم عباده فيكفر عنهم سيئاتهم بتوبتهم وعملهم الصالح وعودتهم إلى الصراط المستقيم .

هذه خلاصة العقيدة كلها ، مما تضمنته السورة ، يكلف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعلنهما للناس ، ويوجه إليه الخطاب بها كأنما على مشهد منهم . وهم هم المقصودون بها . إنما هو أسلوب من التوجيه الموحي المؤثر على النفوس ، ويقف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بها في وجه القوة والكثرة ؛ ووجه الرواسب الجاهلية ، ووجه التاريخ الموغل بالمشركين في الشرك . . يعلنها في قوة وفي صراحة وهو في عدد قليل من المؤمنين في مكة ، والقوة الظاهرة كلها للمشركين . .

ولكنها الدعوة وتكاليفها ، والحق وما ينبغي له من قوة ومن يقين .

ومن ثم يكون الإعلان الأخير للناس :

﴿ قل : يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل ﴾ . .

فهو الإعلان الأخير ، والكلمة الفاصلة ، والمفاصلة الكاملة ، ولكل أن يختار لنفسه . فهذا هو الحق قد جاءهم من ربهم .

﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ . .

وليس الرسول موكلاً بالناس يسوقهم إلى الهدى سوقاً ، إنما هو مبلغ ، وهم موكولون إلى إرادتهم وإلى اختيارهم وإلى تبعاتهم ، وإلى قدر الله بهم في النهاية .

والختام خطاب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ باتباع ما أمر به ، والصبر على ما يلقاه حتى يحكم الله بما قدره وقضاه :

﴿ واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾ . .

وهو الختام المناسب الذي يلتقي مع مطلع السورة ، ويتناسق مع محتوياتها بجملتها على طريقة القرآن في التصوير والتنسيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1824 . 1829 ﴾

(277/370)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ولقد بوأنا بني إسرائيل ﴾ يعني متولدات الروح العلوي من القلب والسر دون النفس لأنها من البنات لا من البنين ﴿ مبوأ صدق ﴾ منزلاً علياً في العالم النوراني ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ من الفيض الرباني الفائض على الروح لأن الروح مستوٍ على عرش القلب ، فكل ما فاض من صفة الروحانية على الروح يفيض الروح على القلب والسر ، فما اختلف القلب والسر حتى جاءهم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم : فمن قبلها صار

مقبولا ، ومن ردها كان مردوداً . وبوجه آخر ﴿ مبوأ صدق ﴾ بين الأصبعين من أصابع الرحمن ﴿ فما اختلفوا ﴾ حتى أدركهم علم الله الأزلي بالسعادة والشقاء ﴿ فإن كنت في شك ﴾ خلق الإنسان ضعيفاً ، فإذا انفتح عليه أبواب الكرامات وهبت رياح السعادات فربما ظن أنه مما يخادع به الأطفال فلا يدري هل هو من كرامة الاجتباء أو من وخامة الابتلاء ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم من خصوصية ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾ [الكهف : 110] يرتع في هذه الرياض وباختصاص ﴿ يوحي إلي ﴾ [الكهف : 110] يسقى بكساسات المناولات من تلك الحياض . فشك عند سكره أنها من شهود التلوين أو من كشوف التمكين ، فأدركته العناية الأزلية فأكرم بخطاب ﴿ لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن ﴾ بل كان هذا النهي نهي التكوين فما كان ممترياً ولهذا قال : والله لا أشك ولا أسأل . ﴿ إلا مثل أيام الذين خلوا ﴾ من أنه كل ميسر لما خلق له ﴿ قل فانتظروا ﴾ ظهور ما قدر لكم ﴿ ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم ﴾ بالفناء عن النفس وصفاتها حنيفاً طاهراً عن لوث الالتفات إلى ما سواه والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 616 ﴾

(278/370)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة يونس (10) : آية 53]

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (يستنبئون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل و (الكاف) ضمير مفعول به (الهمزة) للاستفهام (حقّ) خبر مقدم مرفوع " 1 " ، (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (إي) حرف جواب (الواو) واو القسم (ربّ) مجرور بالواو وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على آخره متعلّق بفعل أقسم المقدّر و (الياء) ضمير مضاف إليه (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و (الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) لام القسم " 2 " ، (حقّ) خبر إنّ مرفوع (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع اسم ما (الباء) حرف جرّ زائد (معجزين) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " يستنبئونك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " حقّ هو " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل يستنبئون المعلّق بالاستفهام .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " (أقسم) بربّي . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) أو مبتدأ معتمد على استفهام ، و (هو) فاعل للمصدر سدّ مسدّ الخبر .

(2) وهي اللام المزحلقة في غير القسم .

(279/370)

وجملة : " إنّه لحقّ " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " ما أنتم بمعجزين " لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم

الفوائد

- إي بالكسر والسكون :

ورد في هذه الآية قوله تعالى قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ف (إي) هي حرف جواب . وسنبين ما أورده ابن هشام عنها :

هي حرف جواب بمعنى (نعم) فيكون لتصديق المخبر ، ولإعلام المستخبر ، ولوعد الطالب ، فتقع بعد : قام زيد ، وهل قام زيد ، واضرب زيدا ونحو هنّ ، كما تقع نعم بعد هن ، وزعم ابن الحاجب أنها تقع بعد الاستفهام كقوله تعالى وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ولا تقع عند الجميع إلا قبل القسم كما في الآية " إِي وَرَبِّي "

[سورة يونس (10) : آية 54]

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (54)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لو) شرط غير جازم (أنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – (لكلّ) جارّ ومجرور خبر مقدّم (نفس) مضاف إليه مجرور (ظلمت) فعل ماض . . و (التاء) للتأنيث ، والفاعل هي أي كلّ نفس (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب اسم أنّ مؤخّر (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما .

والمصدر المؤوّل (أنّ لكلّ . . . ما في الأرض) في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت أي ثبت وجود . .

(اللام) واقعة في جواب لو (افتدت) مثل ظلمت (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (افتدت) ، (الواو) عاطفة (أسرّوا) فعل ماض وفاعله (الندامة) مفعول به منصوب (لمّا) ظرف بمعنى حين فيه معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب المقدّر (رأوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . والواو فاعل (العذاب) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (قضي . . . لا يظلمون) مرّ إعرابها " 1 " .

جملة : " (ثبت) امتلاك ما في الأرض " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ظلمت . . . " في محلّ جرّ نعت لنفس .

وجملة : " افتدت " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " أسرّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة " 2 " .

وجملة : " رأوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

وجملة : " قضي بينهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " هم لا يظلمون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " لا يظلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

[سورة يونس (10) : آية 55]

أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (55)

الإعراب :

(ألا) أداة تنبيه (إنّ) حرف مشبه بالفعل (للّه) جارّ ومجرور

---

(1) في الآية (47) من هذه السورة .

(2) أو استئنافيّة إذا كان الإسرار في الآخرة .

خبر مقدّم (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب اسم إنّ (في السموات) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما (الواو) عاطفة (الأرض) معطوف على السموات مجرور (ألا إنّ) مثل الأولى (وعد) اسم إنّ منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (حقّ) خبر إنّ مرفوع (الواو) عاطفة (لكنّ) مثل إنّ (أكثر) اسم لكنّ منصوب و (هم) ضمير مضاف إليه (لا) نافية (يعلمون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " إنّ للّه ما في السموات " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ وعد اللّه حقّ " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لكنّ أكثرهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ وعد اللّه حقّ .

وجملة : " لا يعلمون " في محلّ رفع خبر لكنّ .

[سورة يونس (10) : آية 56]

هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56)

الإعراب :

(هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يحيي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء والفاعل هو (الواو) عاطفة (يميت) مثل يحيي (الواو) عاطفة (إلى) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ترجعون) وهو مضارع مبنيّ للمجهول

مرفوع والواو نائب الفاعل .

جملة : " هو يحيي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(281/370)

وجملة : " يحيي . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ هو .

وجملة : " يميت . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر .

وجملة : " ترجعون " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

[سورة يونس (10) : آية 57]

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57)

الإعراب :

(يا) أداة نداء (أيّ) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب و (ها) حرف تنبيه (الناس) بدل من أيّ تبعه في الرفع لفظا - أو عطف بيان - (قد) حرف تحقيق (جاءت) فعل ماض . . و (التاء) للتأنيث و (كم) ضمير مفعول به (موعظة) فاعل مرفوع (من ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لموعظة " 1 " ، و (كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة

(شفاء) معطوف على موعظة مرفوع (اللام) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بنعت لشفاء " 2 " (في الصدور) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما (الواو) عاطفة في الموضعين (هدى ، رحمة) اسمان معطوفان بحرفي العطف على موعظة مرفوعان ، وعلامة الرفع في (هدى) الضمّة المقدّرة على الألف (للمؤمنين) جارّ ومجرور متعلّق برحمة وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " النداء يأيّها . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جاءتكم موعظة . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

الصرف :

(شفاء) ، مصدر سماعيّ لفعل شفى يشفي باب ضرب ، ثمّ جعل وصفا للمبالغة ، أو هو اسم لما يشفي كالدواء ، وزنه فعال بكسر الفاء ، وفيه إعلال أو إبدال بقلب حرف العلّة همزة ، أصله شفاي ، فلمّا تطرّفت الياء بعد ألف ساكنة قلبت همزة .

---

(1) أو متعلّق بـ (جاءتكم) إذا كان (من) لابتداء الغاية . . والتركيب مجازيّ .

(2) هذا إذا كان (شفاء) اسما بمعنى دواء . . وإذا كان مصدرا فإن (اللام) زائدة للتقوية و (ما) في محلّ نصب مفعول به لشفاء .

الفوائد

ورد في هذه الآية قوله تعالى قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ نحن هنا بصدد الاسم (هدى) وهو معطوف على موعظة مرفوع مثلها بالضمة المقدرة على الألف المحذوفة لفظا للتنوين ولكنها مثبتة خطا ، وقد يتوهم متوهم أن التنوين على الألف حركة إعراب ، فهو ليس كذلك وإنما هو دليل على الألف المحذوفة ، وبيانا لهذه الناحية نقول : إذا تجرد الاسم المقصور من التعريف بأل ، وتجرد من الإضافة ، فانه ينون في جميع حالات الإعراب ، وتقدر الحركات على ألفه المحذوفة بسبب التنوين ، ومعلوم بأن هذه الألف محذوفة لفظا ومثبتة كتابة لكننا في الإعراب نعتبرها محذوفة ، أما إذا لم ينون ، الاسم المقصور ، وذلك في حالة مجيئه مضافا أو معرفا (بأل) فإننا نعربه بحركات مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر .

[سورة يونس (10) : آية 58]

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (بفضل) جارّ ومجرور متعلّق بفعل محذوف دلّ عليه المذكور بعده أي : يحسن الفرح بمجيء فضل اللّه " 1 " ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور

(الواو) عاطفة (برحمة) جارّ ومجرور متعلّق بما تعلّق به (بفضل) فهو معطوف عليه و (الهاء) مضاف إليه (الفاء) زائدة للربط بما قبلها (الباء) حرف جرّ (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ بدل من (فضل اللّه) بإعادة الجارّ . . و (اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب (الفاء) هي الفصيحة لإفادة معنى السببيّة " 2 " ،

---

(1) وفي الكلام حذف مضاف كما هو ظاهر . . أو متعلّق بفعل جاءتكم موعظة مقدّر بعد قل .

(2) من الواضح أن الفاء إذا أفادت معنى السببيّة خرجت عن العطف الصريح ، لهذا يصحّ عطف الخبر على الإنشاء بها وبالعكس . [. . . . .]

(اللام) لام الأمر (يفرحوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون والواو فاعل (هو) ضمير منفصل مبتدأ (خير) خبر مرفوع " 1 " ، (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ ، متعلّق بخير " 2 " ، (يجمعون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : (يحسن الفرح) بفضل اللّه " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يفرحوا . . . " في محلّ نصب معطوفة مقول القول " 3 " : أو هي جواب شرط مقدّر أي : إن جاءهم الفضل والرحمة من اللّه فليفرحوا . . أو إن فرحوا لشيء فليفرحوا بسبب فضل اللّه . . .

وجملة : " هو خير . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يجمعون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

[سورة يونس (10) : آية 59]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59)

الإعراب :

(قل أرأيتم) مرّ إعرابها " 4 " أي أخبروني . . (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به أوّل " 5 " (أنزل) فعل ماض (اللّه)

---

(1) والضمير المبتدأ يعود على الفرح المفهوم من سياق الآية .

(2) والعائد محذوف . . أو هو حرف مصدريّ ، والمصدر المؤوّل في محلّ جر بـ (من) وليس ثمّة عائد .

(3) وفي الكلام حذف مضاف كما هو ظاهر . . أو متعلّق بفعل جاءتكم موعظة مقدّر بعد قل .

(4) في الآية (50) من هذه السورة .

(5) أعربها بعضهم اسم استفهام مفعول به لفعل أنزل ، أو مبتدأ على تقدير حذف المفعول أي أنزله ، والجملة سدّت مسدّ مفعولي أرأيتم .

(284/370)

فاعل مرفوع (اللام) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنزل) ، (من رزق) جارّ ومجرور حال من العائد المحذوف (الفاء) عاطفة (جعلتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (تم) ضمير فاعل (من) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (جعلتم) " 1 " ، و (من) للتبعيض (حراما) مفعول به منصوب (حلالا) معطوف بالواو على (حراما) منصوب (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (الهمزة) للاستفهام (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (أذن) فعل ماض ، والفاعل هو (لكم) مثل الأول متعلّق بـ (أذن) ، (أم) هي المنقطعة بمعنى بل للإضراب الانتقاليّ (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تفترون) وهو مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أرأيتم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنزل اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " جعلتم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " قل " لا محلّ لها استئنافيّة مؤكّدة للأولى .

وجملة : " اللّه أذن . . . " في محلّ نصب مقول القول " 2 " .

وجملة : " أذن لكم . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " تفترون " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(حراما) ، مصدر حرم يحرم باب فرح وباب كرم ، استعمل صفة للمبالغة وزنه فعال بفتح الفاء .

---

(1) أو متعلّق بمحذوف مفعول به ثان لـ (جعل) .

(2) والمفعول الثاني لفعل أرأيتم محذوف دلّ عليه الكلام المذكور بعده ، والتقدير : أرأيتم ما أنزل اللّه لكم . . . من أمركم بهذا التحريم والتحليل ؟

البلاغة

المجاز : في قوله تعالى " قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ " فاستعمال أنزل فيما ذكر مجاز من اطلاق المسبب على السبب ، وجوز أن يكون الإسناد مجازيا بأن أسند الإنزال إلى الرزق لأنه سببه كالمطر منزل .

[سورة يونس (10) : آية 60]

وَما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (60)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (ظنّ) خبر مرفوع (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (يفترون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يفترون) ، (الكذب) مفعول به منصوب " 1 " ، (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بظنّ (القيامة) مضاف إليه مجرور (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (اللام) هي المزحلقة تفيد التوكيد (ذو) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو (فضل) مضاف إليه مجرور (على الناس) جارّ ومجرور متعلّق بفضل (الواو) عاطفة (لكنّ) مثل إنّ للاستدراك (أكثر) اسم لكنّ منصوب و (هم) ضمير مضاف إليه (لا) نافية (يشكرون) مثل يفترون .

جملة: "ما ظنّ . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يفترون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: "إنّ اللّه لذو . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لكنّ أكثرهم لا يشكرون "لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف الأخيرة.

---

(1) أو هو مفعول مطلق . . انظر الآية (50) من سورة النساء .

وجملة: "لا يشكرون "في محلّ رفع خبر لكنّ.

[سورة يونس (10) : آية 61]

وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ (61)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية في المواضع الثلاثة (تكون) مضارع ناقص " 1 " مرفوع، واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (في شأن) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر (الواو)

عاطفة (تتلو) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الواو ، والفاعل أنت (من) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تتلو) ، والضمير يعود إلى اللّه ، ومن ابتدائيّة " 2 " ، (من) حرف جرّ زائد (قرآن) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (إلا) أداة حصر (كنّا) فعل ماض ناقص مبني على السكون . .

و(نا) اسمه (على) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (شهودا) وهو خبر كنّا منصوب (إذ) ظرف للزمن الماضي متعلّق بـ (شهودا) ، (تفيضون) مضارع مرفوع والواو فاعل (فيه) مثل منه متعلّق بـ (تفيضون) ، (الواو) عاطفة (يعزب) مضارع منفي مرفوع (عن ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يعزب) ، و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (من) حرف جرّ زائد (مثقال) مجرور لفظا مرفوع محلّا فاعل يعزب (ذرّة) مضاف إليه مجرور (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ (مثقال

---

(1) أو تام ، والفاعل أنت و (في شأن) متعلّق به .

(2) يجوز أن يعود الضمير على الشأن و (من) تعليليّة . . أي تتلو قرآنا من أجل الشأن الذي نزل بك .

ذرّة) ، (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (في السماء) جارّ ومجرور متعلّق بما تعلّق بـ (في الأرض) فهو معطوف عليه (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي " 1 " (أصغر) معطوف على مثقال ذرّة لفظا مجرور مثله ، وعلامة الجرّ الفتحة لامتناعه من الصرف للوصفيّة ووزن أفعل (من) حرف جرّ (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بأصغر . . و (اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب (الواو) عاطفة (لا أكبر) مثل لا أصغر (إلّا) بمعنى لكن للاستثناء المنقطع (في كتاب) جارّ ومجرور خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أي كلّ الأشياء (مبين) نعت لكتاب مجرور .

جملة : " ما تكون في شأن . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما تتلو . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " لا تعملون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " كنّا عليكم . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " تفيضون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ما يعزب . . من مثقال . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : (هو) في كتاب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(شأن) ، مصدر سماعيّ لفعل شأنت أشأن باب فتح ، وهو بمعنى اسم المفعول ، وزنه فعل

بفتح فسكون.

(شهودا) ، جمع شاهد أو شهيد ، الأول اسم فاعل ، والثاني صفة مشبهة.

---

(1) هي عند الزمخشريّ نافية للجنس اسمها أصغر وخبرها في كتاب و (إلّا) حينئذ أداة حصر وهو توجيه جيّد لوجود قراءة (أصغر) بالرفع على الابتداء.

(288/370)

(أصغر) ، اسم تفضيل من صغر الثلاثيّ ، وزنه أفعل.

(أكبر) ، اسم تفضيل من كبر الثلاثيّ ، وزنه أفعل وانظر الآية (217) من سورة البقرة.

البلاغة

- في قوله سبحانه وتعالى " وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ " حيث قدمت الأرض على السماء ، بخلاف قوله في سورة سبأ " عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ " وحق السماء أن تقدم على الأرض ، ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ، ووصل بذلك قوله " لا يَعْزُبُ عَنْهُ " لاءم ذلك تقديم الأرض على السماء.

[سورة يونس (10) : الآيات 62 إلى 64]

أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64)

الإعراب :

(289/370)

(ألا) أداة تنبيه (إنّ) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – (أولياء) اسم إنّ منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (لا) نافية مهملة " 1 " ، (خوف) مبتدأ مرفوع " 2 " ، (على) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (هم) ضمير منفصل مبتدأ (يحزنون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

---

(1) يجوز أن تكون عاملة عمل ليس و (خوف) اسم لا و (عليهم) خبرها .

(2) جاء نكرة لأنه معتمد على نفي .

(290/370)

جملة : " إنّ أولياء اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا خوف عليهم " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " لا هم يحزنون " في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر .

وجملة : " يحزنون " في محلّ رفع خبر المبتدأ هم .

(الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت لأولياء " 1 " ، (آمنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (الواو) عاطفة (كانوا) ماض ناقص – ناسخ – والواو اسم كان (يتّقون) مثل يحزنون .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " كانوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " يتّقون " في محلّ نصب خبر كانوا .

(اللام) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (البشرى) مبتدأ مؤخّر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (في الحياة) جارّ ومجرور متعلّق بالبشرى " 2 " ، (الدنيا) نعت للحياة مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (في الآخرة) مثل في الحياة إعرابا وتعليقا فهو معطوف عليه (لا) نافية للجنس (تبديل) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (لكلمات) جارّ ومجرور خبر لا (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ . .

و(اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب (هو) ضمير فصل " 3 " ، (الفوز) خبر اسم

---

(1) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم . . أو مبتدأ خبره جملة : لهم البشرى الآتية . .

أو خبر ثان لـ (إنّ) . [. . . . .]

(2) أو متعلّق بمحذوف حال من البشرى ، والعامل الاستقرار الذي تعلّق بـ (لهم) .

(3) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره الفوز ، والجملة الاسميّة خبر ذلك .

(291/370)

الإشارة مرفوع (العظيم) نعت للفوز مرفوع .

وجملة : " لهم البشرى " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لا تبديل لكلمات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ذلك هو الفوز . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(تبديل) ، مصدر قياسيّ لفعل بدّل الرباعيّ ، وزنه تفعيل .

الفوائد

- مفهوم الوليّ :

اختلف العلماء فيمن يستحق هذا الاسم ، فقال ابن عباس :

هم الذين يذكر اللّه لرؤيتهم ، و

روى الطبري بسنده عن سعيد بن جبير مرسلا قال : سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلم عن أولياء اللّه فقال : هم الذين إذا رؤوا ذكر اللّه .

وقال ابن زيد : هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ، ولن يتقبل الإيمان إلا بالتقوى ، وقال قوم : هم المتحابون في اللّه ، ويدل على ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلم إن من عباد اللّه لأناسا ما هم أنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من اللّه . قالوا : يا رسول اللّه من هم ؟ قال هم قوم تحابّوا في اللّه على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فو اللّه إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، وقرأ هذه الآية : أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ .

وقال أبو بكر الأصم : أولياء اللّه هم الذين تولى اللّه هدايتهم ، وتولوا القيام بحق العبودية للّه والدعوة إليه .

[سورة يونس (10) : آية 65]

وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لا) ناهية جازمة (يحزن) مضارع مجزوم

و(الكاف) ضمير مفعول به (قول) فاعل مرفوع و (هم) ضمير مضاف إليه (إنّ العزّة) مثل إنّ أولياء "

، (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بخبر إنّ (جميعا) حال من العزّة " 2 " منصوبة (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (السميع) خبر مرفوع (العليم) خبر ثان مرفوع.

جملة : " لا يحزنك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " إنّ العزّة للّه " لا محلّ لها استئنافيّة - أو تعليليّة " 3 " .

وجملة : " هو السميع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة.

[سورة يونس (10) : آية 66]

أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (66)

الإعراب :

(ألا إنّ) مرّ إعرابها " 4 " ، (للّه) جارّ ومجرور خبر إنّ مقدّم (من) اسم موصول مبنيّ في

محلّ نصب اسم إنّ (في السموات) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة من (الواو) عاطفة (من في الأرض) مثل من في السموات ومعطوف عليه (الواو) عاطفة (ما) نافية " 5 " ، (يتّبع)

---

(1) في الآية (62) من هذه السورة .

(2) أجاز الجمل في حاشيته أن يكون توكيدا للعزّة ، ولم يؤنث لفظ (جميعا) لأنه على وزن فعيل يستوي فيه التذكير والتأنيث .

(3) مقول القول محذوف أي : لست مرسلا ، أو غيره .

(4) في الآية (62) من هذه السورة .

---

(5) أي إنّ الذين جعلوهم آلهة وأشركوهم مع اللّه في الربوبيّة ليسوا شركاء حقيقة إذ الشركة في الألوهية مستحيلة وإن كانوا أطلقوا عليهم اسم شركاء . ويجوز أن يكون (ما) اسم استفهام في محلّ نصب مفعول به عامله يتّبع . . وشركاء مفعول يدعون أي : وأيّ شيء يتّبع أولئك الذين يدعون مع اللّه إلها آخر ، إنّهم لا يتّبعون شيئا . . وأجاز الزمخشريّ أن يكون (ما) اسم موصول في محلّ نصب

مضارع مرفوع (الذين) موصول في محلّ رفع فاعل (يدعون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (من دون) جارّ ومجرور حال من شركاء ، أو من المفعول المحذوف لـ (يدعون) أي أصناما أو آلهة ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (شركاء) مفعول به لـ (يدعون) " 1 " منصوب (إن) نافية (يتّبعون) مثل يدعون (إلّا) أداة حصر (الظنّ) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (إن) مثل الأولى (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (إلّا) مثل الأولى (يخرصون) مثل يدعون .

جملة : " إنّ للّه من في السموات " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما يتّبع الذين . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة " 2 " .

وجملة : " يدعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " إن يتّبعون إلّا الظنّ " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " إن هم إلّا يخرصون " لا محلّ لها معطوفة على جملة يتّبعون . . .

وجملة : " يخرصون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الفوائد

- إن النافية :

وردت في هذه الآية إن النافية في قوله تعالى وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أي

معطوف على اسم إنّ أي وللّه الشركاء الذين يتّبعهم الذين يدعون من دون اللّه . .

وأجاز غيره أن يكون (ما) موصولا في محلّ رفع مبتدأ والخبر محذوف أي: الذي يتّبعه هؤلاء . . باطل.

(1) أو مفعول به لفعل يتّبع، ومفعول يدعون محذوف تقديره آلهة.

(2) أو هي استئنافيّة إن أعرب (ما) اسم استفهام . . وهي صلة (ما) إن أعرب اسم موصول.

(294/370)

وما هم إلا يخرصون. وسنوضح ما يتعلق بها. (إن) النافية تدخل على الجملة الاسمية كقوله تعالى إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ أي وما أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به، فحذف المبتدأ وبقيت صفته.

كما أنها تدخل على الجملة الفعلية كقوله تعالى إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِناثاً.

وقول بعضهم: لا تأتي إن النافية إلا وبعدها إلا كهذه الآيات، أو لمّا المشددة التي بمعناها كقوله تعالى إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ أي ما كل نفس إلا عليها حافظ. هذا القول مردود بدليل قوله تعالى إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ ولقد

اجتمعت الشرطية والنافية في قوله تعالى إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ أي ولئن زالتا ما أمسكهما من أحد من بعده. وجمهور النحاة على أنها مهملة وهذا قول سيبويه والفراء وأجاز الكسائي والمبرّد إعمالها عمل ليس، وسمع من أهل العالية إعمالها عمل ليس في قولهم: "إن أحد خيرا من أحد إلا بالعافية".

[سورة يونس (10): آية 67]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67)

الإعراب:

(295/370)

(هو) ضمير منفصل مبتدأ (الذي) اسم موصول في محلّ رفع خبر (جعل) فعل ماض، والفاعل هو وهو العائد (اللام) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (جعل)، و (اللام) للتمليك (الليل) مفعول به منصوب (اللام) لام التعليل (تسكنوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وعلامة النصب حذف النون.. والواو فاعل.

والمصدر المؤوّل (أن تسكنوا) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جعل) "1".

---

(1) جعل بمعنى خلق ولهذا اكتفى بالمفعول الواحد . . أمّا (مبصرا) فهو حال ، وقد يكون مفعولا ثانيا إذا كان الفعل بمعنى صير ، والمفعول الثاني لـ (جعل) الأول محذوف أي : جعل الليل مظلما .

(296/370)

(الواو) عاطفة (النهار) مفعول به لفعل محذوف دلّ عليه ما قبله أي :

جعل النهار . . (مبصرا) حال " 1 " منصوبة (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (في) حرف جرّ (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم . .

و(اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب (لآيات) لام الابتداء للتوكيد ، واسم إنّ منصوب وعلامة النصب الكسرة (لقوم) جارّ ومجرور نعت لآيات (يسمعون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جعل لكم الليل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " تسكنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

وجملة : " (جعل) النهار . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعل الأولى .

وجملة : " إنّ في ذلك لآيات . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يسمعون " في محلّ جرّ نعت لقوم .

الصرف :

(مبصرا) ، اسم فاعل من أبصر الرباعيّ وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين .

البلاغة

المجاز العقلي : في قوله تعالى " وَالنَّهارَ مُبْصِراً " اسناد الأبصار إلى النهار مجازي كالذي في قول جرير :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السّرى ونمت وما ليل المطيّ بنائم

وقولهم : - نهاره صائم -

---

(1) انظر الحاشية (1) في الصفحة السابقة .

[سورة يونس (10) : آية 68]

قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (68)

الإعراب :

(قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (اتّخذ) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (ولدا) مفعول به منصوب " 1 " ، (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف و (الهاء) ضمير مضاف إليه (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (الغنيّ) خبر مرفوع (اللام) حرف جر و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (في السموات) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما (الواو) عاطفة (ما في الأرض) مثل ما في السموات ومعطوف عليه (إن) حرف ناف (عند) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر مقدّم و (كم) ضمير مضاف إليه (من) حرف جرّ زائدة (سلطان) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (الباء) حرف جرّ (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بنعت لسلطان (الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (تقولون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تقولون) بتضمينه معنى تفترون (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به ، والعائد محذوف " 2 " ، (لا) نافية (تعلمون) مثل تقولون .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اتّخذ اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) تعدى الفعل بمفعول واحد لأنه ضمّن معنى تبنّى .

(2) يجوز أن يكون (ما) نكرة موصوفة ، والجملة صفة . [. . . . .]

(298/370)

وجملة : (نسبح) سبحانه " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة .

وجملة : " هو الغنيّ . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " له ما في السموات . . " لا محلّ لها استئناف بياني أو تعليليّة .

وجملة : " إن عندكم من سلطان " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تقولون . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تعلمون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

[سورة يونس (10) : آية 69]

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (69)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (الذين) موصول في محلّ نصب اسم إنّ (يفترون) مثل تقولون " 1 " ، (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يفترون) ، (الكذب)

مفعول به منصوب " 2 " ، (لا يفلحون) مثل لا تعلمون " 3 " .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ الذين . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يفترون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا يفلحون " في محل رفع خبر إنّ .

[سورة يونس (10) : آية 70]

مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (70)

الإعراب :

(متاع) خبر لمبتدأ محذوف تقديره افتراؤهم (في الدنيا) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لمتاع ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة

(1 ، 3) في الآية السابقة (68) .

(2) انظر الآيات (50) من سورة النساء و (103) من سورة المائدة و (60) من هذه السورة .

على الألف (ثمّ) حرف عطف (إلى) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (مرجع) مبتدأ مؤخّر مرفوع و (هم) ضمير مضاف إليه (ثمّ) مثل الأول (نذيق) مضارع مرفوع و (هم) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (العذاب) مفعول به ثان منصوب (الشديد) نعت للعذاب منصوب (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ (كانوا) فعل ماض ناقص – ناسخ – واسمه (يكفرون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (نذيق) أي بسبب كفرهم .

جملة : " (ذاك) متاع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(300/370)

وجملة : " إلينا مرجعهم " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " نذيقهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " كانوا . . . " لا محل لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يكفرون " في محلّ نصب خبر كانوا .

]

سورة يونس (10) : الآيات 71 إلى 76]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَتَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73) ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74) ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَهارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (75)

فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (76)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اتل) فعل أمر مبني على حذف حرف العلّة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (على) حرف جر و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (اتل) ، (نبأ) مفعول به منصوب (نوح) مضاف إليه مجرور (إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بنبإ (قال) فعل ماض والفاعل هو (لقوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قال) ، و (الهاء) ضمير مضاف إليه (يا) أداة نداء (قوم) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على آخره ، و (الياء) المحذوفة للتخفيف مضاف إليه (إن) حرف شرط جازم (كان) فعل ماض ناقص – ناسخ – في محلّ جزم فعل الشرط ، واسمه ضمير الشأن " 1 " ، (كبر) مثل قال (عليكم) مثل عليهم متعلّق بـ (كبر) (مقامي) فاعل كبر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء و (الياء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (تذكيري) مثل مقامي ومعطوف عليه (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بتذكيري (اللّه) لفظ

---

(1) أو ضمير مستتر وجوبا تقديره هو يعود إلى (مقامي) لأن في الكلام تنازعا بين فعلي (كان ، كبر) هذا وقد يكون الفعل (كان) زائدا للتزيين لا يفيد اتصاف الاسم بالخبر في الزمن الماضي ، وعلى هذا فإن (كبر) هو فعل الشرط.

الجلالة مضاف إليه مجرور (الفاء) رابطة لجواب الشرط (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (توكّلت) وهو فعل ماض وفاعله (الفاء) عاطفة (أجمعوا) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف النون والواو فاعل (أمر) مفعول به منصوب و (كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (شركاء) معطوف على أمر منصوب مثله " 1 " ، و (كم) مثل الأول (ثمّ) حرف عطف (لا) ناهية جازمة (يكن) مضارع ناقص مجزوم (أمر) اسم يكن مرفوع و (كم) مثل الأول (عليكم) مثل عليهم متعلّق بـ (غمّة) وهو خبر يكن منصوب (ثمّ) مثل الأول (اقضوا) مثل أجمعوا (إلى) حرف جرّ و (الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (اقضوا) ، (الواو) عاطفة (لا) مثل الأول (تنظروا) مضارع مجزوم بلا وعلامة الجزم حذف النون والواو فاعل و (النون) نون الوقاية و (الياء) المحذوفة للتخفيف ضمير مفعول به .

جملة : " اتل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قال . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يا قوم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إن كان . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " كبر عليكم مقامي " في محلّ نصب خبر كان .

وجملة : " على اللّه توكّلت " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره أنا والجملة الاسميّة في محلّ جزم جواب الشرط " 2 " .

وجملة : " أجمعوا . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة جواب الشرط .

---

(1) وهو على حذف مضاف أي أمر شركائكم . . وأجاز بعضهم – أبو عليّ الفارسيّ وتبعه ابن هشام – نصبه على أنه مفعول معه عامله أجمعوا أي : أجمعوا أمركم مع شركائكم .

(2) يجوز أن تكون الجملة اعتراضيّة برغم دخول الفاء ، وجواب الشرط جملة أجمعوا لأن توكّل نوح لا يتوقّف على الشرط .

(303/370)

وجملة : " لا يكن أمركم . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة أجمعوا . . .

وجملة : " اقضوا . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا يكن أمركم .

وجملة : " لا تنظرون " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا يكن أمركم .

(الفاء) عاطفة (إن تولّيتم) مثل إن كان . . و (تم) فاعل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (ما) نافية (سألت) فعل ماض وفاعله و (كم) ضمير مفعول به (من) حرف جرّ زائد (أجر) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به ثان (إن) حرف ناف (أجري) مبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء . . و (الياء) مضاف إليه (إلّا) أداة حصر (على

اللّه) جارّ ومجرور خبر المبتدأ (الواو) عاطفة (أمرت) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على السكون . . و (التاء) ضمير في محلّ رفع نائب الفاعل (أن) حرف مصدريّ (أكون) مضارع ناقص منصوب . . واسمه ضمير مستتر تقديره أنا (من المسلمين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر أكون ، وعلامة الجرّ الياء .

والمصدر المؤوّل (أن أكون) في محلّ نصب مفعول به لفعل أمرت أي : أمرت كوني مسلما " 1 " .

وجملة : " تولّيتم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء السابق .

وجملة : " ما سألتكم . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

---

(1) أو هو في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (أمرت) ، أي : أمرت بأن أكون . . . .

(304/370)

وجملة : " إن أجري إلّا على اللّه " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " أمرت . . . " لا محلّ لها معطوفة على التعليلية .

وجملة : " أكون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) (الفاء) عاطفة في الموضعين (كذّبوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . .

والواو فاعل و (الهاء) ضمير مفعول به (نجّينا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (نا) فاعل و (الهاء) مثل الأول (الواو) عاطفة (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب معطوف على ضمير المفعول في (نجّيناه) ، (مع) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة من و (الهاء) ضمير مضاف إليه (في الفلك) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف الصلة " 1 " ، (الواو) حاليّة (جعلناهم) مثل نجّيناه (خلائف) مفعول به ثان منصوب ومنع من التنوين لأنه على صيغة منتهى الجموع (الواو) عاطفة (أغرقنا) مثل نجّينا (الذين) موصول في محلّ نصب مفعول به (كذّبوا) مثل الأول (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كذّبوا) ، و (نا) ضمير مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (انظر) فعل أمر ، والفاعل أنت " 2 " ، (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب خبر كان مقدّم ، (كان) فعل ماض ناقص – ناسخ – (عاقبة) اسم كان مرفوع (المنذرين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : "كذّبوه . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة قال في قوله ، إذ قال .

وجملة : " نجّيناه . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة كذّبوه .

وجملة : " جعلناهم . . " في محلّ نصب حال من الموصول بتقديره قد .

وجملة : " أغرقنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة نجّينا .

---

(1) يجوز أن يتعلق بـ (نجّيناه) ، أي وقع الإنجاء في هذا المكان .

(2) يجوز أن يكون الخطاب للرسول أو للمستمع .

وجملة : "كذّبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أنظر . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن وعيت قصة قوم نوح فانظر . . .

وجملة : "كان عاقبة . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام كيف .

(ثمّ) حرف عطف (بعثنا) مثل نجّينا (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (بعثنا) ، و (الهاء) مضاف إليه (رسلا) مفعول به منصوب (إلى قومهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (بعثنا) . . و (هم) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (جاؤوا) مثل كذّبوا و (هم) ضمير مفعول به (بالبيّنات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جاءوهم) " 1 " ، (الفاء) عاطفة (ما) نافية (كانوا) فعل ماض ناقص – ناسخ . . . والواو اسم كان (اللام) لام الجحود – أو الإنكار – (يؤمنوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود ، وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يؤمنوا) ، (كذّبوا) مثل الأول (الباء) حرف جر و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (كذّبوا) ، (من) حرف جرّ (قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (كذّبوا) " 2 " .

والمصدر المؤوّل (أن يؤمنوا) في محلّ جرّ باللام متعلّق بمحذوف خبر كانوا . أي ما كانوا مؤهّلين للإيمان .

(الكاف) حرف جر (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نطبع . . و (اللام) لبعد ، و (الكاف) للخطاب (نطبع) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن للتعظيم (على قلوب) جارّ ومجرور

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من فاعل (جاؤوا) ، أي متلبّسين بالبيّنات .

(2) أي من قبل بعث الرسل إليهم ، وبعد أن جاءهم الرسل بالبيّنات .

(306/370)

متعلّق بـ (نطبع) ، (المعتدين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " بعثنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أغرقنا . . .

وجملة : " جاءوهم . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة بعثنا .

وجملة : " ما كانوا ليؤمنوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة جاءوهم .

وجملة : " يؤمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " كذّبوا به " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " نطبع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(ثمّ بعثنا من بعدهم موسى) مثل ثمّ بعثنا من بعده رسلا . . وعلامة النصب في موسى الفتحة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (هارون) معطوف على موسى منصوب (إلى فرعون) جارّ ومجرور متعلّق بـ (بعثنا) ، وعلامة الجرّ الفتحة (الواو) عاطفة (ملئه) معطوف على فرعون مجرور . .

و(الهاء) مضاف إليه (بآياتنا) مثل السابق متعلّق بـ (بعثنا) (الفاء) عاطفة (استكبروا) مثل كذّبوا (الواو) عاطفة (كانوا) مثل الأول (قوما) خبر كان منصوب (مجرمين) نعت لـ (قوما) منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة : " بعثنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ما كانوا ليؤمنوا .

وجملة : " استكبروا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة بعثنا .

وجملة : " كانوا قوما . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة استكبروا .

(الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين فيه معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (قالوا) ، (جاء) فعل ماض و (هم) ضمير مفعول به (الحقّ) فاعل مرفوع (من عند) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جاء) ، و (نا) ضمير مضاف إليه (قالوا) مثل كذّبوا (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبني في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) المزحلقة تفيد التوكيد (سحر) خبر إنّ مرفوع (مبين) نعت لسحر

مرفوع.

وجملة : " جاءهم الحقّ . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " إنّ هذا لسحر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

(تذكير) ، مصدر قياسيّ لفعل ذكّر الرباعيّ ، وزنه تفعيل بزيادة التاء على الماضي وتخفيف الكاف وإضافة ياء قبل الآخر .

(غمّة) ، الاسم من غمّ عليه الأمر بالبناء للمجهول بمعنى خفي واستعجم ، واستعمل استعمال الصفة المشتقة بمعنى خفيّ ومبهم . وزنه فعلة بضمّ فسكون .

(المنذرين) ، جمع المنذر – بفتح الذال – اسم مفعول من أنذر الرباعيّ المبنيّ للمجهول ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين .

(307/370)

البلاغة

1 – الكناية الإيمائية : في قوله تعالى " يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي " أي نفسي ، على أنه

في الأصل اسم مكان وأريد منه النفس بطريق الكناية الإيمائية كما يقال : المجلس السامي .

2 – الاستعارة المكنية : في قوله تعالى " ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ " .

أي أدوا إلي ذلك الأمر الذي تريدون ولا تمهلوني ، على أن القضاء من قضى دينه إذا أداه ، وفيه استعارة مكنية ، والقضاء تخييل ، شبه الأمر المحذوف بالدين ثم حذف المشبه به وأخذ شيئًا من خصائصه وهو القضاء .

الفوائد

1 – ورد في هذه الآية قوله تعالى فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ورد خلاف بين النحويين في إعراب (وَشُرَكَاءَكُمْ) وسنورد أوجه الإعراب كما أوردها ابن هشام فقال : وشركاءكم بالنصب فتحتمل الواو أن تكون عاطفة مفردا على مفرد بتقدير مضاف أي وأمر شركاءكم ، أوجملة على جملة بتقدير فعل أي واجمعوا شركاءكم باعتبار أن همزة الفعل المقدرة همزة وصل .

وموجب التقدير بالوجهين أن أجمع يستعمل للمعاني كقولك : أجمعوا على قول كذا . بخلاف جمع فإنه مشترك بين الذوات والمعاني بدليل قوله تعالى فَجَمَعَ كَيْدَهُ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ وهناك قراءة برفع الشركاء عطفا على واو الجماعة في (أجمعوا) .

وأورد أبو البقاء العكبري ، وجها آخر باعتبار الواو للمعية و (شركاءكم) مفعول معه .

2 – موافقة المبنى للمعنى :

ورد في هذه الآية موقف نوح عليه الصلاة والسلام من قومه وكلنا يعلم بأنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الخير والهدى ولكنه لم يجد منهم إلا الصدود والإعراض لذلك كان خطابه لهم في هذه الآية يعكس موقفه النفسي منهم بعد أن استيأس وعلم أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن لذا كانت الآية بنفسها المديد وحروف العطف المتتالية وجملها الطويلة تعكس ضجره عليه الصلاة والسلام منهم وبهذا يتوافق المعنى والمبنى ويعكسان الحالة النفسية بأبلغ عبارة وأورع بيان .

[سورة يونس (10) : آية 77]

قالَ مُوسى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77)

الإعراب :

(قال موسى) فعل وفاعل وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة

على الألف (الهمزة) للاستفهام الإنكاري التوبيخيّ (تقولون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (للحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تقولون) " 1 " ، (لمّا جاءكم) مثل لمّا جاءهم " 2 " ، ومقول القول محذوف تقديره : إنّه لسحر (الهمزة) مثل الأولى (سحر) خبر مقدّم مرفوع

(ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (الواو) حاليّة (لا) نافية

(يفلح) مضارع مرفوع (الساحرون) فاعل مرفوع والواو علامة الرفع .

جملة : " قال موسى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تقولون . . . " في محلّ نصب مقول القول " 3 " .

وجملة : " جاءكم . . . " في محلّ جرّ بإضافة (لمّا) إليها " 4 " .

وجملة : " أسحر هذا " لا محلّ لها استئنافيّة داخلة في حيّز القول الأول .

وجملة : " لا يفلح الساحرون " في محلّ نصب حال من ضمير المخاطبين والرابط الواو .

الصرف :

(الساحرون) ، جمع الساحر ، اسم فاعل من سحر الثلاثيّ وزنه فاعل .

الفوائد

- حذف المفعول :

ورد في هذه الآية قوله تعالى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا يقول أبو البقاء العكبري في مفعول (أ تقولون) بأنه محذوف ، أي أتقولون له هو سحر فجملة هو سحر المقدرة في محل نصب مفعول به للفعل أ تقولون ، هذا وقد عقد ابن

---

(1) أي في شأن الحقّ ولأجله .

(2) في الآية السابقة (76) .

(3) لقول موسى . . أمّا قولهم فمحذوف دلّ عليه جملة الإنكار ، والتقدير هذا سحر أو إنه لسحر – كما ذكر –

(4) هذا الظرف مجرّد من الشرط فلا جواب له . [. . . . .]

(309/370)

هشام فصلا لهذه الناحية وبينها بقوله : يكثر حذف المفعول بعد لو شئت كقوله تعالى فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أي فلو شاء هدايتكم . وبعد نفي العلم ونحوه ، كقوله تعالى أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَلكِنْ لا يَعْلَمُونَ أي لا يعلمون أنهم سفهاء ، وعائدا على الاسم الموصول كقوله تعالى أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا أي بعثه . وما يعود على الموصوف ، كقول جرير :

أبحت حمى تهامة بعد نجد وما شيء حميت بمستباح

والتقدير وما شيء حميته .

وكذلك ما يعود على المخبر عنه دونهما كقول امرئ القيس :

فأقبلت زحفا على الركبتين فثوب نسيت وثوب أجرّ

والتقدير فثوب نسيته وثوب أجره .

وورد في مواضع متفرقة كقوله تعالى فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ أي فمن لم يجد الرقبة (أي

عتق عبد) وقوله تعالى فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً أي فمن لم يستطع الصوم .

ويكثر حذفه في الفواصل كقوله تعالى وَما قَلى أي وما قلاك . ويجوز حذف مفعولي أعطى كقوله تعالى فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وثانيهما فقط كقوله تعالى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ وأولهما فقط - خلافا للسهيلي - كقوله تعالى حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ أي يعطوكم الجزية .

[سورة يونس (10) : آية 78]

(310/370)

قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ (78)

الإعراب :

(قالوا) فعل ماض وفاعله (الهمزة) للاستفهام (جئت) فعل ماض وفاعله و (نا) ضمير مفعول به (اللام) لام التعليل (تلفت) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل أنت (نا) مثل الأول (عن) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (تلفت) ، (وجدنا) فعل ماض وفاعله (على) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من آباء " 1 " ، (آباء) مفعول به منصوب و (نا) مضاف إليه (الواو) عاطفة (تكون) مضارع

ناقص منصوب معطوف على (تلفت) ، (اللام) حرف جرّ و (كما) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للناقص (الكبرياء) اسم تكون مرفوع (في الأرض) جارّ ومجرور حال من الكبرياء " 2 " ، (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (نحن) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع اسم ما (لكما) مثل الأول متعلّق بمؤمنين (الباء) حرف جرّ زائد (مؤمنين) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما ، وعلامة الجرّ الياء .

والمصدر المؤوّل (أن تلفتنا) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جئتنا) .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جئتنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تلفتنا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " وجدنا " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تكون لكما الكبرياء " لا محلّ لها معطوفة على جملة تلفتنا .

وجملة : " ما نحن . . بمؤمنين " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول " 3 " .

الصرف :

(الكبرياء) ، مصدر سماعيّ لفعل كبر يكبر باب فرح وزنه فعلياء بكسر الفاء ، وقصد بها الملك في الآية الكريمة لأنه أكبر ما يطلب في الدنيا .

البلاغة

المجاز المرسل : في قوله تعالى " قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ " .

---

(1) أو مفعول به ثان لفعل وجدنا المتعدي إلى مفعولين .

(2) أو متعلق بالكبرياء . . أو بحال من ضمير الخاطب في (لكما) .

(3) يجوز أن تكون الجملة حالا من ضمير الخطاب في (لكما) .

(311/370)

أي ويكون لك أنت وأخوك الملك ، فعبّر بالكبرياء وأراد الملك لأنه مسبب عنه . فالعلاقة المسببية .

[سورة يونس (10) : الآيات 79 إلى 86]

وَقالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80) فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82) فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83)

وَقالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84) فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (86)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (قال) فعل ماض (فرعون) فاعل مرفوع ، ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة (ائتوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل و (النون) للوقاية و (الياء) ضمير مفعول به (بكلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ائتوا) ، (ساحر) مضاف إليه مجرور (عليم) نعت لساحر مجرور .

(312/370)

جملة : " قال فرعون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ائتوني . . . " في محلّ نصب مقول القول .

(الفاء) عاطفة (لمّا جاء السحرة) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (قال . .

---

(1) في الآية (76) من هذه السورة .

(313/370)

موسى) مرّ إعرابها " 1 " ، (اللام) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (قال) ، (ألقوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (ملقون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

وجملة : " جاء السحرة . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجملة الشرط وفعله وجوابه معطوفة على جملة مقدّرة أي فأتوه فلمّا أتى السحرة . . .

وجملة : " قال لهم موسى . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " ألقوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنتم ملقون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) ، والعائد محذوف .

(الفاء) عاطفة (لمّا ألقوا قال موسى) مثل نظيرها المتقدّمة (ألقوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . .

والواو فاعل (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 2 " ، (جئتم) فعل ماض مبنيّ على السكون ، وفاعله (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (جئتم) ، (السحر) خبر المبتدأ ما . (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (السين) حرف استقبال (يبطل) مضارع مرفوع ، والفاعل هو و (الهاء) ضمير مفعول به

(إنّ اللّه) مثل الأولى (لا) نافية (يصلح) مثل يبطل (عمل) مفعول به منصوب (المفسدين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

---

(1) في الآية (77) من هذه السورة .

(314/370)

---

(2) أو هو اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ - وهو اختيار أبي حيّان - أو في محلّ نصب مفعول به على الاشتغال و (السحر) خبر لمبتدأ محذوف أي هو السحر . . وجملة هو السحر بدل من الجملة الاستفهاميّة ما جئتم به ؟ ويجوز أن يكون (السحر) بدلا من (ما) بتقدير همزة الاستفهام وهو مرفوع .

وجملة : " لما ألقوا قال موسى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لما جاء السحرة .

وجملة : " ألقوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قال موسى . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " ما جئتم به السحر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " جئتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) " 1 " .

وجملة : " إنّ اللّه سيبطله " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " سيبطله " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " إنّ اللّه . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " لا يصلح عمل . . . " في محلّ رفع خبر إنّ (الثاني) .

(الواو) عاطفة (يحقّ) مضارع مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الحقّ) مفعول به منصوب بتضمينه معنى يظهر (بكلمات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يحقّ) ، و (الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) حاليّة (لو) حرف شرط غير جازم (كره) فعل ماض (المجرمون) فاعل مرفوع ، وعلامة الرفع الواو .

وجملة : " يحقّ اللّه الحقّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ اللّه سيبطله .

وجملة : " كره المجرمون " في محلّ نصب حال من الحقّ والرابط الواو .

(الفاء) عاطفة (ما) نافية (آمن) فعل ماض (لموسى) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آمن) بتضمينه معنى انقاد واستسلم وعلامة الجرّ الفتحة المقدّرة على الألف (إلّا) أداة حصر (ذرّيّة) فاعل مرفوع (من قوم) جارّ ومجرور نعت لذرّيّة و (الهاء) مضاف إليه ويعود إلى موسى أو إلى فرعون على خلاف في

---

(1) أو خبر لـ (ما) الاستفهاميّة .

ذلك " 1 " ، (على خوف) جارّ ومجرور حال من ذرّية أي خائفين من فرعون (من فرعون) جارّ ومجرور متعلّق بخوف ، وعلامة الجرّ الفتحة (الواو) عاطفة (ملئهم) معطوف على فرعون . . ومضاف إليه " 2 " ، (أن) حرف مصدريّ (يفتن) مضارع منصوب و (هم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو أي فرعون . والمصدر المؤوّل (أن يفتنهم) في محلّ جرّ بدل من فرعون بدل اشتمال " 3 " .

(الواو) اعتراضيّة (إنّ فرعون) مثل إنّ اللّه (اللام) المزحلقة (عال) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة لأنه اسم منقوص منوّن (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بعال (الواو) عاطفة (إنّه لمن المسرفين) مثل إنّ اللّه لعال . . الاسم ضمير والخبر جارّ ومجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " ما آمن . . إلّا ذرّية " لا محلّ لها معطوفة على جملة : لما ألقوا قال .

وجملة : " يفتنهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة : " إنّ فرعون لعال " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " إنّه لمن المسرفين " لا محلّ لها معطوفة على الاعتراضيّة .

(الواو) عاطفة (قال موسى) مثل قال فرعون ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة (يا) حرف نداء (قوم

(1) قال ابن حيّان : " إنّ الضمير في قومه عائد على موسى ولا يعود على فرعون لأن موسى هو المحدّث عنه في هذه الآية وهو أقرب مذكور ولو كان عائدا على فرعون لكان التركيب : على خوف منه ومن ملئهم . . " 1 ه ، ومن القائلين بعود الضمير على فرعون ابن عطيّة . .

(2) عود هذا الضمير فيه خلاف أيضا . قال بعضهم : إنّه يعود على معنى قوم فرعون ، وقال آخرون يعود على الذرّية . .

(3) أو في محلّ نصب مفعول به للمصدر خوف .

(316/370)

إن) مرّ إعرابها " 1 " ، (كنتم) فعل ماض ناقص – ناسخ – في محلّ جزم فعل الشرط . . و (تم) اسم كان (آمنتم) فعل ماض وفاعله (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آمنتم) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (على) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (توكّلوا) وهو أمر مبني على حذف النون . .

والواو فاعل (إن كنتم) مثل الأول (مسلمين) خبر كنتم منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة النداء اعتراضية " 2 " .

وجملة : " قال موسى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما آمن . . .

وجملة : " إن كنتم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " آمنتم باللّه " في محلّ نصب خبر كنتم .

وجملة : " توكّلوا " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " كنتم مسلمين " لا محلّ لها استئناف لتأكيد الشرط الأول وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب الشرط الأول .

(الفاء) عاطفة (قالوا) فعل ماض وفاعله (على اللّه) مثل الأول متعلّق بـ (توكّلنا) وهو فعل ماض وفاعله (ربّ) منادى مضاف منصوب – حذف منه أداة النداء – و (نا) ضمير مضاف إليه (لا) ناهية جازمة دعائيّة (تجعل) مضارع مجزوم و (نا) ضمير مفعول به ، والفاعل أنت (فتنة) مفعول به ثان منصوب (للقوم) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لفتنة (الظالمين) نعت للقوم مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال موسى .

وجملة : " توكّلنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) في الآية (71) من هذه السورة .

(2) أو هي مقول القول ، وجملة إن كنتم . . لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة النداء : " ربّنا " لا محلّ لها استئناف في حيز القول .

وجملة : " لا تجعلنا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

(الواو) عاطفة (نجّ) فعل أمر دعائيّ ، والفاعل أنت ، وهو مبنيّ على حذف حرف العلّة و (نا) ضمير مفعول به (برحمة) جارّ ومجرور حال من مفعول نجّنا و (الكاف) ضمير مضاف إليه (من القوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نجّنا) ، (الكافرين) نعت للقوم مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " نجّنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تجعلنا . . .

الصرف :

(ملقون) ، جمع الملقي ، اسم فاعل من ألقى الرباعيّ ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين . . وفيه إعلال بالحذف لمناسبة الجمع فهو اسم منقوص ، حذفت الياء لالتقاء الساكنين ، أصله الملقيون ، استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت حركتها إلى القاف بعد تسكينها ، فلما اجتمع ساكنان حذفت الياء فأصبح الملقون وزنه المفعون .

(عال) اسم فاعل من علا يعلو الثلاثيّ وزنه فاع ، فيه إعلال بالقلب وإعلال بالحذف ، لفظه

مع (ال) العالي ، أصله العالو بكسر اللام ، كسر ما قبل الواو الساكنة ، للحركة المقدّرة ، فقلبت الواو ياء - إعلال بالقلب - ولما حذف (ال) التعريف وأريد تنوينه التقى سكون العلّة مع سكون التنوين فحذفت الياء لالتقاء الساكنين ، والتنوين المذكور هو تنوين العوض لا تنوين التمكين ، أي عوض من الياء المحذوفة .

(نجّنا) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء ، مضارعه ينجّي ، فلمّا انتقل إلى الأمر بني على حذف حرف العلّة ، وزنه فعّنا .

البلاغة

المجاز والاعتراض التذييلي : في قوله تعالى " وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ "

استعمال العلو بالغلبة والقهر مجاز معروف ، والجملتان اعتراض تذييلي مؤكد لمضمون ما سبق وفيهما من التأكيد ما لا يخفى .

[سورة يونس (10) : الآيات 87 إلى 88]

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87) وَقالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (88)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (أوحينا) فعل ماض مبنيّ على السكون . .

و(نا) ضمير فاعل للتعظيم (إلى موسى) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أوحينا) ، وعلامة الجرّ الفتحة المقدّرة على الألف فهو ممنوع من الصرف (الواو) عاطفة (أخي) معطوف على موسى مجرور وعلامة الجرّ الياء و (الهاء) ضمير مضاف إليه (أن) حرف تفسير " 1 " ، (تبّوأا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . .

و(الألف) ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل (لقوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تبّوأا) ، و (كما) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (بمصر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تبوّأا) " 2 " ، وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف (بيوتا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (اجعلوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (بيوت) مفعول به أوّل منصوب و (كم) ضمير مضاف إليه (قبلة) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (أقيموا الصلاة) مثل

---

(1) أو حرف مصدريّ ، وهو والفعل بعده مصدر مؤوّل في محلّ نصب مفعول به عامله

أوحينا أي أوحينا إليهما التبوّء .

(2) يجوز أن يكون حالا من (بيوتا) – نعت تقدّم على المنعوت – أو حال من فاعل تبوّأا وفيه ضعف على رأي أبي البقاء العكبريّ . [. . . . .]

(319/370)

اجعلوا بيوت (الواو) عاطفة (بشّر) فعل أمر ، والفاعل أنت (المؤمنين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " أوحينا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تبوّأا . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " اجعلوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الجملة التفسيريّة .

وجملة : " أقيموا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الجملة التفسيريّة .

وجملة : " بشرّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على الجملة التفسيريّة .

(الواو) عاطفة (قال موسى) مرّ إعرابها " 1 " ، (ربّنا) مثل السابقة " 2 " ، (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و (الكاف) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (آتيت) فعل ماض وفاعله (فرعون) مفعول به منصوب وامتنع من التنوين للعلمية والعجمة (الواو) عاطفة (ملأ) معطوف على

فرعون منصوب و (الهاء) ضمير مضاف إليه (زينة) مفعول به ثان منصوب (أموالا) معطوف بالواو على زينة منصوب (في الحياة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آتيت) ، (الدنيا) نعت للحياة مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (ربّنا) مثل السابقة " 3 " ، (اللام) لام العاقبة (يضلّوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (عن سبيل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يضلوا) ، و (الكاف) مضاف إليه (ربّنا) مثل السابقة " 4 " ، (اطمس) فعل أمر دعائيّ ، والفاعل أنت (على أموال) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اطمس) ، و (هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (اشدد على قلوبهم) مثل اطمس على أموالهم (الفاء) فاء السببيّة " 5 " ، (لا) نافية (يؤمنوا) مضارع

---

(1) في الآية (84) من هذه السورة .

(2 ، 3 ، 4) في الآية (85) من هذه السورة .

(5) يجوز أن تكون عاطفة عطفت فعل (لا يؤمنوا) على (يضلوا) . . وما بينهما دعاء معترض . . ويجوز أن يكون (لا) حرف نهي دعائي والفعل مجزوم بحرف النهي .

منصوب بأن مضمرة بعد الفاء ، وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (حتّى) حرف غاية وجرّ (يروا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (العذاب) مفعول به منصوب (الأليم) نعت للعذاب منصوب .

والمصدر المؤوّل (أن يضلّوا) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (آتيت) .

والمصدر المؤوّل (أن يؤمنوا) معطوف على مصدر متصيّد من الدعاء السابق أي ليكن منك شدّ على قلوبهم فعدم إيمان منهم .

والمصدر المؤوّل (أن يروا . .) في محلّ جرّ (حتّى) متعلّق بـ (اشدد) .

وجملة : " قال موسى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أوحينا إلى موسى . . .

وجملة : " النداء وجوابها " في محلّ نصب مقول القول " 1 " .

وجملة : " إنّك آتيت . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " آتيت فرعون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " النداء الثانية " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " يضلّوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " ربّنا . . الثالثة " لا محلّ لها استئنافيّة في حيّز القول " 2 " .

وجملة : " اطمس . . . " لا محلّ لها جواب النداء الثالث .

وجملة : " اشدد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اطمس .

وجملة : " يؤمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر الثاني .

(1 ، 2) أو اعتراضيّة للاسترحام والدعاء .

(321/370)

وجملة : " يروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر الثالث .

[سورة يونس (10) : آية 89]

قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (89)

الإعراب :

(قال) فعل ماض ، والفاعل هو أي اللّه (قد) حرف تحقيق (أجيبت) فعل ماض مبني للمجهول . و (التاء) للتأنيث (دعوة) نائب الفاعل مرفوع و (كما) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (استقيما) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . و (الألف) ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تتّبعانّ) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون فهو من الأفعال الخمسة . . و (الألف) فاعل ، و (النون) نون التوكيد الثقيلة " 1 " ، (سبيل) مفعول به منصوب (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (لا) نافية (يعلمون) مضارع مرفوع . . والواو ضمير متّصل في محلّ

رفع فاعل .

جملة : " قال . . . " لا محلّ استئناف بيانيّ .

وجملة : " أجيبت دعوتكما " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " استقيما " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي تنبها فاستقيما . . .

وجملة : " لا تتّبعانّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة استقيما .

وجملة : " لا يعلمون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

---

(1) الفعل المسند إليه ألف الاثنين أو واو الجماعة أو ياء المخاطبة إذا دخلته نون التوكيد يكون معربا ، وتكون النون مكسورة مشدّدة مع ألف الاثنين . هذا ويجوز أن تكون (لا) نافية والفعل حينئذ مرفوع بثبوت النون ، وقد حذفت لتوالي الأمثال . . والجملة مستأنفة .

(322/370)

الصرف :

(دعوة) ، مصدر سماعيّ لفعل دعا يدعو بمعنى الدعاء ، وزنه فعلة بفتح فسكون .

البلاغة

التنويع في الخطاب : فقد نوع سبحانه في خطابهم ، فثنى أولا ، ثم جمع ، ثم وحد آخرا .

والسر في ذلك أن موسى وهارون خوطبا بأن يتبوءا لقومهما بيوتا ويختاراها للعبادة ، ثم سيق الخطاب عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد للصلاة فيها ، لأن ذلك واجب على الجمهور ، ثم خص آخرا موسى بالبشارة التي هي الغرض الأسمى تعظيما لها وللمبشر بها .

الفوائد

- توكيد الفعل بالنون :

ورد في هذه الآية قوله تعالى وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ فالفعل (وَلَا تَتَّبِعَانِّ) قد دخلت على آخره نون التوكيد الثقلية وإدخال هذه النون يكون على المضارع والأمر ولا تدخل على الماضي . وهناك قاعدة دقيقة في توكيد الفعل سنوضحها فيما يلي :

1 - إذا كان المضارع مسندا للاسم الظاهر أو ضمير الواحد فتح ما قبل النون ، سواء كان الفعل صحيحا أو ناقصا ، فنقول : لينصرنّ علي وليدعونّ ، وليرمينّ ، وليسعينّ .

2 - وإن كان مسندا لألف الاثنين كسرت نون التوكيد بعد الألف ، فنقول :

لينصرنّ ، وليدعوانّ ، وليرميانّ ، وليسعيانّ .

3 - وإن كان مسندا لواو الجماعة ضم ما قبل النون وحذف من الناقص آخره مطلقا ، وحذفت أيضا واو الجماعة ، إلا في المعتل بالألف فتبقى محركة بحركة مجانسة لها فنقول :

لينصرنّ ، وليدعنّ ، وليرمنّ ، وليسعونّ .

4 - وإن كان مسندا لياء المخاطبة كسر ما قبل النون وحذفت من الناقص آخره مطلقا ، وحذفت أيضا ياء المخاطبة إلا في المعتل بالألف فتبقى بحركة مجانسة لها فتقول : لتنصرنّ ، ولتدعنّ ، ولترمنّ ، ولتسعينّ .

5 - وإن كان مسندا لنون النسوة زيدت ألف بين النونين وكسرت نون التوكيد فتقول : لينصرنانّ ، ليدعونانّ ، ليرمينانّ ، ليسعينانّ . وكالمضارع في ذلك الأمر فتقول : انصرنّ ، ادعونّ ، ارمينّ ، اسعينّ وهلم جرا .

[سورة يونس (10) : الآيات 90 إلى 92]

(323/370)

وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ (92)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (جاوزنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . .

و(نا) ضمير في محلّ رفع فاعل (ببني) جارّ ومجرور متعلق بـ (جاوزنا) " 1 " ، وعلامة الجرّ الياء فهو ملحق بجمع المذكّر السالم (إسرائيل) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (البحر) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (أتبع) فعل ماض و (هم) ضمير مفعول به (فرعون) فاعل مرفوع ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة (جنود) معطوف على فرعون بالواو مرفوع و (الهاء) مضاف إليه (بغيا) مفعول لأجله منصوب " 2 " ، (عدوا) معطوف على (بغيا) بالواو منصوب (حتى) حرف ابتداء (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بـ (قال) ، (أدرك) فعل ماض و (الهاء) ضمير

---

(1) الباء هنا للتعدية أي : أجزنا بني إسرائيل البحر .

(2) أو هو مصدر في موضع الحال أي باغين .

(324/370)

مفعول به (الغرق) فاعل مرفوع (قال) مثل أدرك ، والفاعل هو (آمنت) فعل ماض وفاعله (أنّ) حرف مشبّه بالفعل ناسخ – للتوكيد و (الهاء) ضمير الشأن في محلّ نصب اسم أنّ (لا) نافية للجنس (إله) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب وخبر لا محذوف تقديره موجود أو معبود بحقّ (إلّا) حرف للاستثناء (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع بدل من

الضمير المستكنّ في الخبر " 1 " (آمنت) فعل ماض . . و (التاء) للتأنيث (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (آمنت) ، (بنو) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو فهو ملحق بجمع المذكّر السالم (إسرائيل) مثل الأول .

والمصدر المؤوّل (أنّه لا إله . . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (آمنت) أي : آمنت بأنّه لا إله إلّا . . .

(الواو) عاطفة (أنا) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (من المسلمين) جارّ ومجرور خبر المبتدأ وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " جاوزنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أتبعهم فرعون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جاوزنا .

وجملة : " أدركه الغرق " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " آمنت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا إله إلّا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " آمنت به بنو . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " أنا من المسلمين " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

---

(1) أعرب بدلا لأن الجملة قبل أداة الاستثناء منفيّة . . ويجوز في الموصول أن يكون في محلّ نصب على الاستثناء .

(325/370)

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (الآن) ظرف زمان مبنيّ على الفتح في محلّ نصب متعلّق بفعل محذوف تقديره تؤمن (الواو) واو الحال (قد) حرف تحقيق (عصيت) مثل آمنت (قبل) ظرف مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب متعلّق بـ (عصيت) ، (الواو) عاطفة (كنت) فعل ماض ناقص . . و (التاء) ضمير اسم كان في محلّ رفع (من المفسدين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر كان ، وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " (تؤمن) الآن . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر هو استئناف بياني .

وجملة : " قد عصيت " في محلّ نصب حال من الفاعل في (تؤمن) .

وجملة : "كنت من المفسدين " في محلّ نصب معطوفة على جملة الحال .

(الفاء) عاطفة (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (ننجيك) وهو مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء و (الكاف) ضمير مفعول به . . والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (ببدن) جارّ ومجرور حال من ضمير الخطاب و (الكاف) مضاف إليه

(اللام) للتعليل (تكون) مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ، واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (اللام) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بحال من آية – نعت تقدّم على المنعوت – (آية) خبر تكون منصوب و (خلف) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة من و (الكاف) مثل الأخير .

والمصدر المؤوّل (أن تكون) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (ننجيك) .

(الواو) اعتراضيّة (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – (كثيرا) اسم إنّ منصوب (من الناس) جارّ ومجرور نعت لـ (كثيرا) ، (عن آيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (غافلون) ، و(نا) ضمير مضاف إليه (اللام) هي المزحلقة

تفيد التوكيد (غافلون) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

وجملة : " ننجيك . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " تكون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

(326/370)

وجملة : " إنّ كثيرا من الناس . . . " لا محلّ لها اعتراض تذييلي لتقرير الكلام المحكيّ .

الصرف :

(الغرق) ، مصدر سماعيّ لفعل غرق يغرق باب فرح ، وزنه فعل بفتحتين .

البلاغة

التورية : في قوله تعالى " فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ " إذا فسر البدن بالدرع . أما إذا فسر بالجسم ، فيكون المعنى ننجيك في الحال التي لا روح فيك ، وإنما أنت بدن ، أما تفسير البدن بالدرع فيدل عليه قول عمرو بن معد يكرب :

أعاذل شكّتي بدني وسيفي وكلّ مقلّص سلس القياد

وكانت لفرعون درع من ذهب يعرف بها ، وعندئذ صح في البدن التورية ، وهي أن البدن في القريب الظاهر بمعنى الجسم ، وفي البعيد الخفي بمعنى الدرع ، ومراده الخفي ، فإن نجاة فرعون أي خروجه من البحر بعد الغرق بدرعه أعجب آية من خروجه مجردا . والتورية باختصار هي : أن يذكر المتكلم لفظا مفردا له معنيان : قريب ظاهر غير مراد ، وبعيد خفي هو المراد .

[سورة يونس (10) : آية 93]

وَلَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدر (قد) حرف

تحقيق (بوأنا) مثل جاوزنا " 1 " ، (بني) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء (إسرائيل) مثل السابق " 2 " ، (مبوّأ) مفعول به منصوب " 3 " ، (صدق) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (رزقنا) مثل جاوزنا " 4 " ، و (هم) ضمير مفعول به (من الطّيبات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (رزقنا) (الفاء) عاطفة (ما) نافية (اختلفوا) فعل ماض وفاعله (حتى) حرف غاية وجرّ (جاء) فعل ماض و (هم) مثل الأخير (العلم) فاعل مرفوع (إنّ ربّ) مثل إنّ كثيرا " 5 " ، و (الكاف) ضمير مضاف إليه (يقضي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل هو (بين) ظرف منصوب متعلّق بـ (يقضي) ، و (هم) ضمير مضاف إليه (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يقضي) ، (القيامة) مضاف إليه مجرور (في) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يقضي) ، (كانوا) فعل ماض ناقص – ناسخ – والواو اسم كان (في) مثل الأول و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يختلفون) وهو مضارع مرفوع . . والواو فاعل . والمصدر المؤوّل (أن جاءهم) في محلّ جرّ متعلّق بـ (اختلفوا) .

جملة : " بوّأنا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " رزقناهم . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : " ما اختلفوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة رزقناهم .

وجملة : " جاءهم العلم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

وجملة : " إنّ ربك يقضي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة بيانيّة .

(1 ، 2 ، 4) في الآية (90) من هذه السورة .

(3) بتضمين (بوّأ) معنى أنزل . . ويجوز أن يكون مفعولا مطلقا على أنه مصدر ميميّ . . أو هو ظرف متعلّق بـ (بوّأنا) على أنه اسم مكان .

(5) في الآية (92) من هذه السورة .

وجملة : " يقضي . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " كانوا فيه يختلفون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يختلفون " في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف :

(مبوّأ) ، مصدر ميميّ - أو اسم مكان - ويصح أخذ الاعتبارين في الآية . . وزنه مفعّل

بضمّ الميم وفتح العين .

[سورة يونس (10) : آية 94]

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (إن) حرف شرط جازم (كنت) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و (التاء) اسم كان (في شكّ) جارّ ومجرور خبر كنت (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بنعت لشكّ (أنزلنا) مثل جاوزنا " 1 " ، (إلى) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنزلنا) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (اسأل) فعل أمر ، والفاعل أنت (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يقرءون) مثل يختلفون " 2 " ، (الكتاب) مفعول به منصوب (من قبل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يقرءون) ، و (الكاف) ضمير مضاف إليه (لقد جاء) مثل بوّأنا مبني على الفتحة " 3 " ، و (الكاف) ضمير مفعول به (الحقّ) فاعل مرفوع (من ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جاء) (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدر (لا) ناهية جازمة (تكونّ) مضارع ناقص مبنيّ على الفتح في محلّ جزم . . . و (النون) نون التوكيد ، واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (من الممترين) جارّ ومجرور خبر

---

(1) في الآية (90) من هذه السورة.

(2 ، 3) في الآية السابقة (93) .

(329/370)

تكوننّ ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : "كنت في شكّ . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنزلنا " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " اسأل . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " يقرءون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " جاءك الحقّ . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " لا تكوننّ من الممترين " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إذا وعيته فلا تكوننّ

. . . .

الفوائد

هل يشك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلم بما أنزل إليه ؟ ورد حول هذه الآية سؤال واعتراض . وهو أن يقال : هل شك النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلم فيما أنزل عليه في نبوته

حتى يسأل ؟

وإذا كان شاكا في نبوة نفسه ، كان غيره أولى بالشك منه . والجواب عن هذا السؤال ما قاله القاضي عياض في كتابه الشفاء : احذر ثبّت اللّه قلبك أن يخطر ببالك ما ذكره بعض المفسرين عن ابن عباس أو غيره من إثبات هذا الشك للنبي (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) - فيما أوحي إليه - فإنه من البشر ، فمثل هذا لا يجوز عليه (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) جملة . بل قد قال ابن عباس : لم يشك النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلم ، ولم يسأل . ونحوه عن سعيد بن جبير والحسن البصري .

وحكي عن قتادة أنه قال : بلغنا أن النبي صلّى عليه وآله وسلم قال عند نزول هذه الآية : ما أشك ولا أسأل . وعامة المفسرين على هذا ، تم كلام القاضي عياض رحمه اللّه تعالى .

ثم اختلفوا في معنى الآية ومن المخاطب على قولين : أحدهما أن الخطاب للنبي صلّى اللّه عليه وآله وسلم في الظاهر والمراد به غيره ، فهو كقوله (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) ومعلوم أن النبي (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) لم يشرك ، فثبت أن المراد به غيره .

ومن أمثلة العرب " إياك أعني واسمعي يا جارة " ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى في آخر هذه السورة قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ، وقيل : إن

اللّه سبحانه وتعالى علم أن النبي (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) لم يشك قط ، فيكون المراد بهذا التهييج فإنه صلّى اللّه عليه وآله وسلم إذا سمع هذا الكلام يقول : لا أشك يا رب ولا أسأل . وقال الزجاج إن اللّه خاطب الرسول (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) في قوله (فإن كنت في شك) وهو شامل للخلق ، فهو كقوله يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ . وهذا وجه حسن . ولكن فيه بعد لاندراج النبي (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) في هذا الخطاب وبقاء الاعتراض قائما . والقول الآخر أن هذا الخطاب ليس هو للنبي (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) البتة ، ووجه هذا القول أن الناس كانوا في زمنه ثلاث فرق : مصدقا به ، ومكذبا له ، وشاكا ، فخاطب تعالى الفرقة الثالثة بهذا الكلام ، واللّه أعلم .

واختلفوا في المسؤول عنه في قوله تعالى في هذه الآية فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ فقال المحققون من أهل التفسير : هم الذين آمنوا من أهل الكتاب ، كعبد اللّه بن سلام وأصحابه ، لأنهم هم الموثوق بأخبارهم .

[سورة يونس (10) : آية 95]

وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ (95)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (لا تكونن) مثل السابقة " 1 " ، (من) حرف جرّ (الذين) موصول في محلّ

جرّ متعلّق بخبر تكونن (كذّبوا) فعل ماض وفاعله (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كذّبوا) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الفاء) فاء السببيّة (تكون) مضارع ناقص - ناسخ - منصوب بأن مضمرة بعد الفاء ، واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (من الخاسرين) مثل من الممترين " 2 " .

والمصدر المؤوّل (أن تكون) معطوف على مصدر متصيّد من النبي السابق أي لا يكن منك كذب بآيات اللّه فخسران .

جملة : " لا تكوننّ . . . " معطوفة على جملة لا تكوننّ من الممترين " 3 " .

وجملة : " كذّبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

(1 ، 2 ، 3) في الآية (94) . [. . . . .]

(331/370)

وجملة : " تكون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

[سورة يونس (10) : الآيات 96 إلى 98]

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (97) فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ

عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (98)

الإعراب :

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل (الذين) موصول في محل نصب اسم إنّ (حقّت) فعل ماض . . و (التاء) للتأنيث (على) حرف جر و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (حقّت) ، (كلمة) فاعل مرفوع (ربّ) مضاف إليه مجرور و (الكاف) في محلّ جرّ بالإضافة (لا) نافية (يؤمنون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " إنّ الذين حقّت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " حقّت . . كلمة . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا يؤمنون " في محلّ رفع خبر إنّ .

(الواو) واو الحال (لو) حرف شرط غير جازم (جاءت) مثل حقّت و (هم) ضمير مفعول به (كلّ) فاعل مرفوع (آية) مضاف إليه مجرور (حتى) حرف غاية وجرّ (يروا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . .

والواو فاعل (العذاب) مفعول به منصوب (الأليم) نعت للعذاب منصوب .

والمصدر المؤوّل (أن يروا) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (لا يؤمنون) .

وجملة : " جاءتهم كلّ آية . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يؤمنون . .

وجواب لو محذوف دلّ عليه ما قبله .

وجملة : " يروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

(332/370)

(الفاء) عاطفة (لولا) حرف تحضيض بمعنى هلّا فيه معنى التوبيخ (كانت) فعل ماض ناقص " 1 " و (التاء) للتأنيث (قرية) اسم كانت مرفوع (آمنت) مثل حقّت " 2 " ، (الفاء) عاطفة (نفع) فعل ماض و (ها) ضمير مفعول به (إيمان) فاعل مرفوع و (ها) مضاف إليه (إلّا) أداة استثناء (قوم) مستثنى منصوب " 3 " (يونس) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (لما) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بـ (كشفنا) ، (آمنوا) فعل ماض وفاعله (كشفنا) فعل ماض وفاعله (عن) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (كشفنا) ، (عذاب) مفعول به منصوب (الخزي) مضاف إليه مجرور (في الحياة) جارّ ومجرور متعلّق بعذاب " 4 " ، (الدنيا) نعت للحياة مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (متّعنا) مثل كشفنا و (هم) ضمير مفعول به (إلى حين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (متّعناهم) .

جملة : " لولا كانت قرية . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف المتقدّم .

وجملة : " آمنت . . . " في محلّ نصب خبر كانت " 5 " .

وجملة : " نفعها إيمانها " في محلّ نصب معطوفة على جملة آمنت .

---

(1) أو تام فاعله (قرية) ، وجملة آمنت نعت لقرية . . ولفظ قرية مجاز مرسل قصد به أهلها .

(2) في الآية (96) من هذه السورة .

(3) قيل : الاستثناء منقطع لأن القوم ليس من جنس القرية . . وقيل بل هو متصل لأنه قصد بالقرية أهلها .

(4) أو بحال منه .

(5) أو هي نعت لقرية ، وجملة نفعها إيمانها خبر كانت بزيادة الفاء في الخبر .

(333/370)

وجملة : " آمنوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " كشفنا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " متّعناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

الصرف :

(يونس) ، اسم أعجميّ ، جاء في لسان العرب : " يونس – بضمّ النون وفتحها وكسرها – ثلاث لغات – اسم رجل ، وحكي فيه الهمز أيضا " أ ه .

الفوائد

– إعجاز القرآن :

في هاتين الآيتين وجه من وجوه إعجاز كتاب اللّه عز وجل ، فهو يثبت فيهما :

أن الذين حقت عليهم كلمة الكفر لا يؤمنون أبدا ، ولا يعترفون بصدق الإسلام حتى يروا العذاب الأليم يوم القيامة ، ووجه الإعجاز أننا نرى بأعيننا طائفة من الناس تلجّ في الكفر وتمعن به ، وأنها لا تؤمن أبدا مهما بيّنت لها من حجة ودليل وإقناع ، وتبقى مصرة على الكفر ، حتى لو أريتها اللّه جهرة لقالت : هذا سحر وبطلان ، وهذه الفئة لا تختص بزمن دون زمن ، بل هي قائمة من لدن آدم وذريته إلى قيام الساعة ، فإذا رأيت إنسانا يلجّ في الكفر ولا يقتنع أبدا بالإسلام وهو الحق ، فهذا دليل صدق القرآن الكريم ، وأنه من عند اللّه عز وجل الذي خلق الإنسان ويعلم ما هو عليه .

– ذكر قصة قوم يونس :

ذكر ذلك عبد اللّه بن مسعود وسعيد بن جبير ووهب وغيرهم ، قالوا : إن قوم يونس كانوا بقرية بنينوى من أرض الموصل ، وكانوا أهل كفر وشرك ، فأرسل اللّه سبحانه إليهم يونس عليه الصلاة والسلام ، يدعوهم إلى الإيمان باللّه ، فأبوا عليه فقيل له : أخبرهم أن العذاب

مصبحهم إلى ثلاث ، فأخبرهم بذلك ، فقالوا : إنا لم نجرب عليه كذبا قط ، فانظروا ، فإن بات فيكم الليلة فليس بشيء ، وإن لم يبت فاعلموا

(334/370)

أن العذاب مصبحكم فلما كان جوف الليل ، خرج يونس من بين أظهرهم ، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب ، فكان فوق رؤوسهم . قال ابن عباس : إن العذاب كان أهبط على قوم يونس ، حتى لم يكن بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل ، فلما دعوا كشف اللّه عنهم ذلك ، وقال سعيد بن جبير : غشي قوم يونس العذاب كما يغشى الثوب القبر ، وقال وهب : عند ما غشيهم العذاب خرجوا بأطفالهم وبهائمهم ونسائهم إلى الصحراء ، ولبسوا المسوح ، وأعلنوا الإسلام والتوبة ، وكانوا صادقين ، فرحمهم ربهم ، واستجاب دعاءهم ، وكشف عنهم ما نزل بهم . فهذا من عظيم رحمة اللّه بعباده ، وأنه يقبل التوبة ويعفو عن السيئات ، ولا يصب سوط عذابه إلا على قوم لا يرجى إيمانهم .

- ورد في هذه الآية قوله تعالى فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ فقد وردت آراء حول (لولا) في هذه الآية ، وقد تكلم ابن هشام في هذا الموضوع فقال : وذكر الهروي أن لولا تكون نافية بمنزلة لم ، وجعل منه (لولا) الواردة في هذه الآية ، والظاهر أن المعنى على

التوبيخ ، أي فهلّا كانت قرية واحدة من القرى المهلكة ثابت عن الكفر قبل مجيء العذاب فنفعها ذلك ، وهو تفسير الأخفش والكسائي والفراء وعلي بن عيسى والنحاس ، ويؤيده قراءة أبيّ وعبد اللّه (فهلّا كانت) . ويلزم من هذا المعنى النفي ، لأن التوبيخ يقتضي عدم الوقوع ، وقد يتوهم أن الزمخشري قائل بأنها للنفي لقوله : والاستثناء منقطع بمعنى لكن ، ويجوز كونه متصلا والجملة في معنى النفي كأنه قيل : " ما آمنت " ولعله إنما أراد وما ذكرنا ، ولهذا قال : والجملة في معنى النفي ولم يقل : " ولولا للنفي " ، وقد أجمعت السبعة (أي القراء) على النصب في (إلا قوم) فدل على أن الكلام موجب ، ولكن فيه رائحة غير الإيجاب ، كقول الأخطل :

وبالصريمة منزل منزل خلق عاف تغيّر إلا النؤي والوتد

(335/370)

عاف : دارس (خرب) . النؤي : حفرة حول الخباء تمنع عنه الماء . وفي هذا البيت رائحة النفي لأن تغير بمعنى لم يبق على حاله .

[سورة يونس (10) : الآيات 99 إلى 100]

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

(99) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (100)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لو شاء) مثل لو جاء " 1 " ، (ربّ) فاعل مرفوع و (الكاف) ضمير مضاف إليه (اللام) رابطة لجواب لو (آمن) فعل ماض (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة من (كلّ) توكيد معنويّ لاسم الموصول تبعه في الرفع و (هم) ضمير مضاف إليه (جميعا) حال مؤكّدة من اسم الموصول منصوبة (الهمزة) للاستفهام (الفاء) عاطفة (أنت) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 2 " ، (تكره) مضارع مرفوع والفاعل أنت (الناس) مفعول به منصوب (حتّى) حرف غاية وجرّ (يكونوا) مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد حتّى . . والواو ضمير اسم كان (مؤمنين) خبر منصوب وعلامة النصب الياء .

والمصدر المؤوّل (أن يكونوا . .) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (تكره) .

جملة : " لو شاء ربّك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمن من في الأرض " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " أنت تكره . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافية .

وجملة : " تكره الناس . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ أنت .

---

(1) في الآية (97) من هذه السورة .

(2) أو فاعل لفعل محذوف يفسّره المذكور على أسلوب الاشتغال أي : أ تكره (أنت) الناس . . . ذلك لأن همزة الاستفهام أعلق بالفعل منها بالاسم .

(336/370)

وجملة : " يكونوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

(الواو) عاطفة (ما) نافية (كان) فعل ماض ناقص – ناسخ – " 1 " ، (لنفس) جار ومجرور خبر مقدّم " 2 " ، (أن) حرف مصدريّ ونصب (تؤمن) مضارع منصوب ، والفاعل هي .

والمصدر المؤوّل (أن تؤمن) في محلّ رفع اسم كان مؤخّر .

(إلّا) أداة حصر (بإذن) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من فاعل تؤمن أي إلّا ملتبسة بإذن اللّه (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور .

(الواو) عاطفة (يجعل) مضارع مرفوع والفاعل هو (الرجس) مفعول به منصوب (على) حرف جرّ (الذين) موصول في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول ثان لفعل يجعل (لا) نافية (يعقلون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

وجملة : " ما كان لنفس . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة شاء ربّك .

وجملة : " تؤمن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " يجعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدرة أي فيأذن لبعض في الإيمان ويجعل . . . إلخ.

وجملة : " لا يعقلون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

[سورة يونس (10) : آية 101]

قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (101)

---

(1) يجوز أن يكون تامّا بمعنى صحّ أو استقام ، والفاعل هو المصدر المؤوّل .

(2) أو متعلّق بالفعل التام كان .

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (انظروا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (ماذا) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (في السموات) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ (الواو) عاطفة (الأرض) معطوف على السموات مجرور (الواو) اعتراضيّة (ما) نافية " 2 " ، (تغني) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، (الآيات)

فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (النذر) معطوف على الآيات مرفوع (عن قوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تغني) ، (لا يؤمنون) مثل لا يعقلون " 3 " .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " انظروا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ماذا في السموات . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام .

وجملة : " تغني الآيات " لا محلّ لها اعتراض تذييلي للجملة السابقة .

وجملة : " لا يؤمنون " في محلّ جرّ نعت لقوم .

[سورة يونس (10) : آية 102]

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (102)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (ينتظرون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل و (هل) استفهاميّة بمعنى النفي (إلّا) أداة حصر (مثل) مفعول به منصوب (أيّام) مضاف إليه مجرور (الذين) موصول في محلّ جرّ مضاف إليه (خلوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء

---

(1) أو (ما) اسم استفهام مبتدأ و (ذا) اسم موصول خبر و (في السموات) صلة .

(2) أو اسم استفهام في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر أي : أيّ غناء

(3) في الآية السابقة (100) .

(338/370)

الساكنين . . والواو فاعل (من قبل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خلوا) ، و (هم) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (قل) مثل المتقدّم " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (انتظروا) مثل انظروا " 2 " ، (إنّ) حرف مشبه بالفعل و (الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (مع) ظرف منصوب متعلّق بالمنتظرين و (كم) ضمير مضاف إليه (من المنتظرين) جارّ ومجرور خبر إنّ .

جملة : " هل ينتظرون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " .

وجملة : " خلوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " انتظروا . . . " جواب شرط مقدّر أي إن كنتم تنتظرون ذلك فانتظروا . . .

وجملة الشرط والجواب في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّي معكم من المنتظرين " لا محلّ لها في حكم التعليليّة .

[سورة يونس (10) : آية 103]

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (103)

الإعراب :

(ثمّ) حرف عطف (ننجي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل نحن للتعظيم (رسل) مفعول به منصوب و (نا) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (الذين) موصول في محلّ نصب معطوف على رسل (آمنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (الكاف) حرف جرّ (ذلك) اسم اشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق

(1 ، 2) في الآية السابقة (101) .

(3) يجوز أن يكون في محلّ جزم جواب شرط جازم مقدّر أي : إن كانت النذر لا تغنيهم فهل ينتظرون مثل أيام من خلو . . . . ؟ [. . . . .]

بمحذوف مفعول مطلق عامله ننجي . . و (اللام) للبعد و (الكاف) للخطاب (حقّا) مفعول مطلق لفعل محذوف أي حقّ ذلك حقّا " 1 " ، (على) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (حقّا) ، (ننجي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ،

وقد حذفت الياء برسم المصحف لأنها سقطت لفظا لالتقاء الساكنين ، والفاعل نحن للتعظيم (المؤمنين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " ننجي . . . " معطوفة على كلام مقدّر أي : نهلك الأمم ثمّ ننجي رسلنا .

وجملة : " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " (حقّ) حقا . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " ننجي (الثانية) " لا محلّ لها استئنافيّة .

البلاغة

التشبيه التمثيلي : في قوله تعالى " كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ " أي مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم ، ونهلك المشركين ، فقد شبه نجاة من بقي من المؤمنين بنجاة من مضى ، ووجه الشبه استحقاق كل منهم النجاة .

[سورة يونس (10) : الآيات 104 إلى 106]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105) وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ (106)

---

(1) يجوز أن يكون بدلا من المصدر الذي تعلّق به (كذلك) .

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (يا) أداة نداء (أيّ) منادى نكرة مقصودة مبني على الضمّ في محلّ نصب و (ها) حرف تنبيه (الناس) بدل من أيّ – أو عطف بيان – تبعه في الرفع لفظا (أن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . والواو اسم كان (في شكّ) جارّ ومجرور خبر كنتم (من ديني) جارّ ومجرور متعلّق بشك ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء . . و (الياء) ضمير مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) نافية (أعبد) مضارع مرفوع ، والفاعل أنا (الذين) موصول في محلّ نصب مفعول به (تعبدون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (من دون) جارّ ومجرور حال من العائد المحذوف أي تعبدونه كائنا من دون اللّه (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (لكن) حرف للاستدراك لا عمل له (أعبد اللّه) مثل أعبد الذين (الذي) موصول في محلّ نصب نعت للفظ الجلالة (يتوفّى) فعل مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة و (كم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (الواو) عاطفة (أمرت) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على السكون . . و (التاء) نائب الفاعل (أن)

حرف مصدريّ ونصب (أكون) مضارع ناقص - ناسخ - واسمه ضمير مستتر تقديره أنا

(من المؤمنين) جارّ ومجرور خبر أكون ، وعلامة الجر الياء .

والمصدر المؤوّل (أن أكون) في محل جرّ بحرف جر محذوف متعلّق بـ (أمرت) ، أي بأن أكون

" 1 " .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة : " النداء . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إن كنتم في شك " لا محلّ لها جواب النداء .

---

(1) يجوز أن يكون المصدر المؤوّل مفعولا به لفعل أمرت .

(341/370)

وجملة : " لا أعبد . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " تعبدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أعبد اللّه " في محل جزم معطوفة على جملة لا أعبد .

وجملة : " يتوفّاكم " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " أمرت . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا أعبد .

وجملة : "أكون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

(الواو) عاطفة (أن) حرف تفسير " 1 " بإضمار فعل أي أوحي إليّ أن . . . (أقم) فعل أمر ، والفاعل أنت (وجه) مفعول به منصوب و (الكاف) ضمير مضاف إليه (للدين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أقم) ، (حنيفا) حال منصوبة من ضمير الفاعل في أقم ، أو من الدين

(الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تكوننّ) مضارع ناقص مبنيّ على الفتح في محل جزم . . و (النون) نون التوكيد ، واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (من المشركين) جارّ ومجرور خبر تكونن ، وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : "أقم . . . "لا محلّ لها تفسيريّة . . والجملة المقدّرة : أوحي إليّ . . في محلّ جزم معطوفة على جملة لا أعبد . . .

وجملة : "لا تكونن . . . "لا محلّ لها معطوفة على التفسيريّة .

(الواو) عاطف (لا) ناهية جازمة (تدع) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلّة ، والفاعل أنت (من دون) جارّ ومجرور حال من الموصول ما (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (لا) نافية (ينفع) مضارع مرفوع و (الكاف) ضمير مفعول به ، والفاعل أنت (الواو) عاطفة (لا يضرّك) مثل لا ينفعك ،

---

(1) أو حرف مصدريّ ، والمصدر المؤوّل نائب الفاعل لفعل أوحي اليّ ، أو قيل لي .

(الفاء) استئنافيّة (إن) حرف شرط جازم (فعلت) فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط . . و (التاء) فاعل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و (الكاف) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (إذا) حرف جواب لا عمل له (من الظالمين) جارّ ومجرور متعلّق بخبر إنّ ، وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " لا تدع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أقم " 1 " .

وجملة : " لا ينفعك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " لا يضرّك " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " إن فعلت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّك . . من الظالمين " في محلّ جزم جواب الشرط الجازم .

الصرف :

(تدع) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، أصله تدعو ، وزنه تفع .

الفوائد

ورد في هذه الآية قوله تعالى وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ فقد أورد جلّ وعلا صفة

(التوفي) في هذه الآية ، وسنورد الحكمة من ذلك كما قاله المفسرون : إن المراد أن الذي يستحق العبادة فأعبده أنا وأنتم ، هو الذي خلقكم أولا ولم تكونوا شيئا ، ثم يميتكم ثانيا ، ثم يحييكم بعد الموت . فاكتفى بذكر الوفاة تنبيها على الباقي ، وأن المحيي والمميت أولى بالعبادة من غيره وقيل : لما كان الموت أشدّ الأشياء على النفس ، ذكر في هذا المقام ، ليكون أقوى في الزجر والردع وقيل : إنه لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله : ولكن أعبد اللّه الذي هو قادر على إهلاككم ونصري عليكم فهذا من إعجاز كلام اللّه عز وجل ، وأنه ما من كلمة إلا ووضعت في موضعها .

---

(1) أو هي معطوفة على جملة قل يأيها الناس . . ويجوز أن تكون استئنافيّة .

[سورة يونس (10) : آية 107]

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107)

" 1 "

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (يمسس) مضارع مجزم فعل الشرط و (الكاف) ضمير مفعول به (اللّه) فاعل مرفوع (بضرّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يمسس) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) نافية للجنس (كاشف) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (اللام) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر لا (إلّا) حرف استثناء (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع بدل من الضمير المستكنّ في الخبر – أو من محلّ لا واسمها – (الواو) عاطفة (إن يردك بخير فلا رادّ لفضله) مثل إن يمسسك . . كاشف له ، والهاء الأخيرة مضاف إليه (يصيب) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (به) مثل له متعلّق بـ (يصيب) ، (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يشاء) مثل يصيب . . والمفعول محذوف أي إصابته أو ضرّه (من عباد) جارّ ومجرور متعلّق بحال من العائد المحذوف و (الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (هو) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (الغفور) خبر مرفوع (الرحيم) خبر ثان مرفوع .

جملة : " يمسسك اللّه " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا كاشف له . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " يردك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يمسسك اللّه .

وجملة : " لا رادّ . . . " في محلّ جزم جواب الشرط الثاني .

---

(1) انظر الآية (17) من سورة الأنعام .

وجملة: "يصيب به . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "يشاء . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة: "هو الغفور . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة يصيب.

الصرف:

(رادّ) ، اسم فاعل من ردّ الثلاثيّ ، وزنه فاعل وأدغمت العين مع اللام فجاءت عينه ساكنة.

[سورة يونس (10) : الآيات 108 إلى 109]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (108) وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (109)

الإعراب:

(قل يأيها الناس) مرّ إعرابها " 1 " ، (قد) حرف تحقيق (جاء) فعل ماض و (كم) ضمير مفعول به (الحقّ) فاعل مرفوع (من ربّ) جارّ ومجرور متعلق بـ (جاءكم) " 2 " ، و (كم)

ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (اهتدى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف ، والفاعل هو (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّما) كافّة ومكفوفة (يهتدي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف ، والفاعل هو (لنفس) جارّ ومجرور متعلق بـ (يهتدي) ، (والهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (من ضلّ . . . يضل) مثل نظيرها (على) حرف جر و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يضلّ) بتضمينه معنى يجرّ الوبال عليها (الواو) عاطفة (ما) نافية حجازيّة عاملة عمل ليس

---

(1) في الآية (104) من هذه السورة .

(2) أو متعلّق بحال من الحقّ .

(أنا) ضمير منفصل في محلّ رفع اسم ما (عليكم) مثل عليها متعلّق بوكيل (الباء) حرف جرّ زائد و (وكيل) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يأيها الناس " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قد جاءكم الحقّ . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " من اهتدى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " اهتدى . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " إنّما يهتدي . . . " في محلّ جزم جواب الشرط .

وجملة : " من ضلّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من اهتدى .

(346/370)

وجملة : " ضلّ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

وجملة : " إنّما يضلّ عليها " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " ما أنا . . بوكيل " لا محل لها معطوفة على جملة جواب النداء .

(الواو) عاطفة (اتّبع) فعل أمر ، والفاعل أنت (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يوحى) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد ، (إلى) حرف جرّ و (الكاف) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بـ (يوحى) ، (الواو) عاطفة (اصبر) مثل اتّبع (حتّى) حرف غاية وجرّ

(يحكم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى (اللَّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الواو) استئنافيّة (هو خير) مثل هو الغفور " 3 " ، (الحاكمين) مضاف

(1 ، 2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(3) في الآية (107) من هذه السورة .

إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

والمصدر المؤوّل (أن يحكم . .) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (اصبر) .

وجملة : " اتّبع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قل .

وجملة : " يوحى إليك . . . " لا محل لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " اصبر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اتّبع .

ويحكم اللَّه " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " هو خير . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

الصرف :

(الحاكمين) ، جمع الحاكم ، اسم فاعل من حكم الثلاثيّ ، وزنه فاعل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿الجدول حـ 11 صـ 145. 211﴾

---

(1) أو هي في محلّ نصب حال من لفظ الجلالة.

(348/370)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

[سورة يونس (10): الآيات 53 إلى 56]

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (54) أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (55) هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56)

اللغة:

(الاستنباء): طلب النبأ الذي هو الخبر.

(الافتداء) إيقاع الشيء بدل غيره لدفع المكروه به يقال فداه يفديه فدية وفداء وافتداه وفاداه مفاداة، وافتدي يجوز أن يكون متعديا وأن يكون لازما فإذا كان مطاوعا لمتعدّ كان لازما تقول فديته فافتدى وإن لم يكن مطاوعا يكون بمعنى فدى فيتعدى لواحد والفعل هنا

يحتمل الوجهين فإن جعلناه متعديا فمفعوله محذوف تقديره لافتدت به نفسها .

(أَسَرُّوا النَّدامَةَ) : قيل أسر من الأضداد يستعمل بمعنى أظهر ويستعمل بمعنى أخفى وهو المشهور في اللغة وهو في الآية يحتمل الوجهين .

الاعراب :

(349/370)

(وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي) ويستنبئونك فعل مضارع وفاعل ومفعول به وأحق : الهمزة للاستفهام الانكاري المشوب بالاستهزاء وحق خبر مقدم وهو مبتدأ مؤخر والجملة في محل نصب مفعول به لستنبئونك وقيل الجملة في محل نصب بيقولون وتكون يستنبئونك متعدية لواحد وأصل استنبأ أن يتعدى إلى مفعولين أحدهما ب " عن " تقول استنبأت زيدا عن عمرو أي طلبت منه أن ينبئني عن عمرو . وقل فعل أمر وإي حرف جواب وسترد أحرف الجواب في باب الفوائد وربي الواو للقسم وربي مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم المحذوف . (إِنَّهُ لَحَقٌّ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) إن واسمها واللام المزحلقة والواو حرف عطف على جواب القسم أو استئنافية مسوقة لبيان عدم خلوصهم من

عذاب اللّه بوجه من الوجوه وما حجازية وأنتم اسمها والباء حرف جر زائد ومعجزين خبرها في

(350/370)

محل نصب محلا ومجرور بالياء الزائدة لفظا . (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ) الواو استئنافية ولو شرطية امتناعية على ما هو الكثير فيها وأن حرف مشبه بالفعل ولكل خبر أن المقدم ونفس مضاف اليه وجملة ظلمت صفة لنفس وما اسم موصول في محل نصب اسم أن وأن وما في حيزها فاعل لفعل محذوف أي لو ثبت ذلك ، وفي الأرض صلة ما واللام واقعة في جواب لو وافتدت به جملة فعلية لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم . (وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ) الواو عاطفة وأسروا الندامة فعل وفاعل ومفعول به ولما رابطة أو حينية وجملة رأوا مضاف إليها أو صلة والواو فاعل والعذاب مفعول به والمعنى أنهم بهتوا وشدهوا لرؤيتهم ما لم يكن يدور لهم بخلد أو يخطر لهم على بال فانطووا على مضض وحاذروا بوحة المتجلد ولم يملكوا سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب وقيل أسروا الندامة أظهروها من قولهم أسر الشيء وأشره إذا أظهره قال هذا أبو عبيدة والجبائي وأنكر الأزهري أن يكون بمعنى الإظهار وقال إنه غلط محض لأن ما يكون

بمعنى الإظهار يكون بالشين المثلثة . (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) يجوز أن يكون الكلام مستأنفا وأن يكون معطوفا ، وقضي فعل ماض بالبناء للمجهول ونائب الفاعل مستتر وبينهم ظرف متعلق بقضي وبالقسط حال وهم الواو عاطفة وجملة لا يظلمون خبر . (أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) ألا كلمة تستعمل في التنبيه ويفتتح بها الكلام فتسمى استفتاحية وأصلها لا ، دخل عليها حرف الاستفهام تقريرا وتذكيرا فصارت تنبيها وكسرت إن بعد ألا لأن ألا يستأنف ما بعدها لينبه بها على معنى الابتداء ولذلك يقع بعدها الأمر والدعاء كقول امرئ القيس :

ألا عم صباحا أيها الطّلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي

(351/370)

و للّه خبر إن المقدم وما اسمها المؤخر وفي السموات والأرض صلة (أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) ألا تأكيد لألا الأولى وقد صدرت الجملتان بحرفي التنبيه للدلالة على التحقيق والتسجيل لمضمونهما وإن واسمها وحق خبرها . (وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) الواو حالية أو استئنافية ولكن واسمها وجملة لا يعلمون خبرها . (هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) هو مبتدأ وجملة يحيي خبر وجملة يميت عطف واليه جار ومجرور متعلقان بترجعون .

الفوائد :

حروف الجواب :

حروف الإيجاب أو الجواب أو التصديق هي : نعم وبلى وأجل وجير وإي وإن ، وقد تقدم القول في بعضها ونتكلم هنا عن إي وإن فأما إي فحرف إيجاب لا يستعمل إلا في القسم قال اللّه تعالى " قل إي وربي لتبعثن " وهمزتها مكسورة والياء فيها ساكنة قال الزمخشري : " وسمعتهم يقولون إيو فيصلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده " وقال غيره : " ومنه قول الناس في الجواب إي واللّه وقولهم " إيوه " فالواو للقسم والهاء مأخوذة من اللّه " فقول العامة " إيوه " صحيح لا غبار عليه .

حروف التنبيه :

هي : ها وألا وأما ، ومعنى هذه الحروف تنبيه المخاطب إلى

ما تحدثه به فإذا قلت هذا عبد اللّه منطلقا فالتقدير انظر اليه منطلقا أو انتبه عليه منطلقا

فأنت تنبه المخاطب لعبد اللّه حال انطلاقه وقال النابغة :

ها إنّ تا عذره إن لم تكن نفعت فإن صاحبها قد تاه في البلد

فأدخل ها التي للتنبيه على إن والعذر والمعذرة والعذرى واحد والعذرة بالكسر كالركبة والجلسة بمعنى الحالة قال آخر :

تقبّل عذرتي وحبا بدهم يصمّ حنينها سمع المنادي

وأكثر ما تدخل ها على أسماء الاشارة والضمائر كقولك هذا وهذه وهأنذا وها أنت ذا وها هي ذه وما أشبه ذلك وإنما كثر التنبيه في هذه الأسماء المبهمة لتحريك النفس على طلب بعينه إذ لم تكن علامة تعريف في لفظه والفرق بين ألا وأما أن أما للحال وألا للاستقبال فتقول أما ان زيدا عاقل تريد أنه عاقل على الحقيقة لا على المجاز فأما قول الهذلي :

أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الأمر

فأدخل أما على حرف القسم كأنه ينبه المخاطب على استماع قسمه وتحقيق المقسم عليه وقد يحذفون الألف عن أما فيقولون أم والله وفي كلام هجرس بن كليب " أم وسيفي وزريه ، ورمحي ونصليه ، وفرسي وأذنيه ، لا يدع الرجل قاتل أبيه وهو ينظر اليه " .

[سورة يونس (10) : الآيات 57 إلى 61]

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58) قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59) وَما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى

النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (60) وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (61)

الإعراب :

)

(353/370)

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) قد حرف تحقيق وجاءتكم موعظة فعل ومفعول به وفاعل ومن ربكم صفة لموعظة وتكون من للتبعيض ، أو متعلقة بجاءتكم فتكون للابتداء . (وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

وشفاء عطف على موعظة وشفاء هو في الأصل مصدر جعل وصفا للمبالغة أو هو اسم لما يشفى به ويتداوى ، ولما في الصدور يجوز أن يكون صفة لشفاء فيتعلق بمحذوف وان تكون اللام زائدة في المفعول به وفي الصدور صلة ما ، وهدى ورحمة معطوفان أيضا وللمؤمنين صفة . (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) الباء متعلقة بمحذوف وأصل الكلام ليفرحوا بفضل اللّه وبرحمته فبذلك ثم قدم الجار والمجرور

على الفعل لإفادة الحصر ثم أدخلت الفاء لإفادة معنى السببية فصار بفضل اللّه وبرحمته فليفرحوا ثم قال فبذلك فليفرحوا للتأكيد والتقرير ثم حذف الفعل الأول لدلالة الثاني عليه والفاء الأولى جزائية والثانية للسببية ثم قالوا الفاء الداخلة على بذلك زائدة وبذلك بدل من بفضل والأولى أن تكون عاطفة وبذلك عطف على بفضل اللّه وذلك أصح من جعلها زائدة أما الفاء الداخلة على فليفرحوا فهي الفصيحة لأنها داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل إن فرحوا بشيء فليخصوها بالفرح أو لأنزل وجملة أنزل صلة والعائد محذوف أي أنزله اللّه ويجوز أن تكون ما استفهامية في محل نصب بأنزل وهي حينئذ معلقة لأرأيتم عن العمل ويجوز أن تكون استفهامية في محل رفع بالابتداء وجملة آللّه أذن لكم خبر ولكم متعلقان بأنزل ومن رزق حال .

)

(354/370)

فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ) فجعلتم عطف على أنزل وجعلتم فعل وفاعل ومنه متعلقان بجعلتم وحراما مفعول جعلتم وحلالا عطف ، آللّه الهمزة للاستفهام الانكاري واللّه

مبتدأ وجملة أذن خبره ولكم متعلقان بأذن ، أم منقطعة بمعنى بل أو متصلة أي آللّه أذن لكم أم تكذبون عليه ولعل اتصالها أظهر وعلى اللّه جار ومجرور متعلقان بيفترون . (وَما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ) الواو عاطفة وما استفهامية مبتدأ وظن خبرها والذين مضاف اليه وجملة يفترون صلة وعلى اللّه متعلقان بيفترون والكذب مفعول به ويوم القيامة ظرف متعلق بالظن والمعنى أي شيء ظن المفترين في ذلك اليوم أنه صانع بهم فمفعولا الظن سدت مسدهما أن المقدرة وما بعدها . (إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ) إن واسمها واللام المزحلقة وذو فضل خبرها وعلى الناس متعلقان بفضل ولكن الواو حالية أو استئنافية ولكن واسمها وجملة لا يشكرون خبرها . (وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ) الواو عاطفة وما نافية وتكون فعل مضارع ناقص واسمها مستتر أي أنت ، وفي شأن خبر تكون ، وما : الواو عاطفة وما نافية تتلو فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنت ومنه متعلقان بتتلو والضمير يعود إلى القرآن أو إلى الشأن فتكون من تعليلية أي من أجل الشأن الذي كنت مسترسلا فيه ومن زائدة وقرآن مفعول به محلا أي وما تتلون من التنزيل من قرآن لأن كل جزء منه قرآن والإضمار قبل الذكر تفخيم .

(355/370)

(وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ) ولا تعملون عطف على ما تقدم ومن حرف جر زائد وعمل مفعول به محلا أو مفعول مطلق وإلا أداة حصر وكنا كان واسمها وعليكم متعلقان بقوله شهودا أي شاهدين وشهودا خبر كنا ، وشهود جمع شاهد وكذلك إشهاد ، وإذ ظرف لما مضى متعلق بشهودا وجملة تفيضون مضافة للظرف وفيه متعلقان بتفيضون . (وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ) الواو حرف عطف وما نافية وعن ربك

جار ومجرور متعلقان بيعزب ومن حرف جر زائد ومثقال ذرة فاعل يعزب محلا وفي الأرض حال من مثقال ذرة أو صفة ولا في السماء عطف . (وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما تقدم ولا نافية للجنس وأصغر اسمها ومن ذلك متعلقان بأصغر ولا أكبر عطف على ولا أصغر وإلا أداة حصر وفي كتاب مبين خبر لا ومبين صفة لكتاب .

(356/370)

وعبارة ابن هشام في المغني : " وأما قوله تعالى : وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر " فظاهر الأمر جواز كون أصغر وأكبر

معطوفين على لفظ مثقال أو على محله وجوز كون لا مع الفتح تبرئة ومع الرفع مهملة أو عاملة عمل ليس ويقوي العطف انه لم يقرأ في سورة سبأ في قوله سبحانه وتعالى : " عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة " الآية إلا بالرفع لما لم يوجد الخفض في لفظ مثقال ولكن يشكل عليه ثبوت العزوب عند ثبوت الكتاب كما انك إذا قلت ما مررت برجل إلا في الدار كان إخبارا بثبوت مرورك برجل في الدار وإذا امتنع هذا تعين ان الوقف على السماء وان وما بعدها مستأنف وإذا ثبت ذلك في سورة يونس قلنا به في سورة سبأ وان الوقف على الأرض وانه انما لم يجيء فيه الفتح اتباعا للنقل وجوز بعضهم العطف فيهما على أن لا يكون معنى يعزب يخفى بل يخرج إلى الوجود .

البلاغة :

في قوله تعالى : " وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء " تقديم الأرض في الذكر على السماء ومن حقها التأخير

لأن الأرض جزء من السماء وما فيها من أفلاك ونجوم سوابح وهو جزء ضئيل جدا من حقه التأخير ولكنه جنح إلى تقديمه لأنه في معرض حديثه عن الأرض وذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ومعايشهم ووصل ذلك بقوله وما يعزب ، لاءم بينهما ليلي المعنى المعنى فإن قيل قد جاء تقديم الأرض على السماء في الذكر في مواضع كثيرة من القرآن قلنا : إذا جاءت مقدمة في الذكر فلا بد لذلك من سبب اقتضاه وإن خفي

ذلك السبب وقد يستنبطه بعض الباحثين دون بعض وسيأتي من غرائب التقديم والتأخير ما يدهش العقول في مواضعه من هذا الكتاب .

الفوائد :

(357/370)

في قوله تعالى " إلا في كتاب مبين " إشكال واضح ، إذ ما حقيقة هذا الاستثناء ؟ وهل هو متصل أو منقطع ؟ إن في جعله متصلا إشكالا لأنه يصير المعنى إلا في كتاب فيعزب وهو فاسد فالأولى جعله منقطعا وإلا بمعنى لكن والمعنى لا يعزب عن ربك شيء لكن جميع الأشياء في كتاب وقد حاول الفخر الرازي جعله متصلا بعبارة طويلة محصلها أنه جعله استثناء مفرغا من أعم الأحوال فقال وهو حال من أصغر وأكبر وهو في قوة المتصل ولا يقال فيه متصل ولا منقطع .

[سورة يونس (10) : الآيات 62 إلى 65]

أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64) وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65)

اللغة :

)

(358/370)

الولي) ضد العدو فهو المحب ومحبة العباد للّه طاعتهم له ومحبته لهم إكرامه إياهم وعلى الأولى يكون فعيل بمعنى فاعل وعلى الثاني بمعنى مفعول فهو مشترك بينهما ، هذا وقد تقصينا جميع التراكيب في الكلمات التي فاؤها وعينها ولامها واو ولاما وياء ، فرأيناها تنحصر في الدلالة على معنى القرب والدنو يقال وليه وليا : دنا منه وأوليته إياه : أدنيته منه وكل مما يليك وجلست مما يليه وسقط الوليّ وهو المطر الذي يلي الوسمي وقد وليت الأرض وهي موليّة وولي الأمر وتوّلاه وهو وليه ومولاه وهو وليّ اليتيم ووليّ القتيل وهم أولياؤه وولي ولاية ، وهو والي البلد وهم ولاته ، ورحم اللّه ولاة العدل ، واستولى عليه وهذا مولاي : ابن عمي ، وهم مواليّ ، ومولاي : سيدي وعبدي ، ومولى بيّن الولاية سيد ناصر وهو أولى به ووالاه موالاة ، ووالى بين الشيئين وهما على الولاء وتقول العرب : وال غنمك من غنمي أي اعزالها وميزها وإذا كانت الغنم ضأنا ومعزى قيل والها قال ذو الرمة :

يوالي إذا اصطكّ الخصوم أمامه وجوه القضايا من وجوه المظالم

وولاه ركنه " فولّ وجهك شطر المسجد الحرام " وتوليته :

جعلته وليا " ومن يتولهم منكم فإنه منهم " وتولاك اللّه بحفظه ووضع الوليّة على الراحلة

وهي البرذعة قال أبو زبيد :

كالبلايا رؤسها في الولايا ما نحات السّموم حرّ الخدود

وولّى عني وتولى و" أولى لك " ويل لك ، واستولى على الغاية وهذا من الغريب بمكان .

الاعراب :

(أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) ألا حرف تنبيه يستفتح بها الكلام مركبة من الهمزة ولا النافية مغيرة عن معناها الأول إلى التنبيه ، وإن أولياء اللّه إن واسمها ولا نافية خوف مبتدأ وساغ الابتداء به لنفيه وعليهم خبر ولا الواو حرف عطف ولا نافية وهم مبتدأ وجملة يحزنون خبر .

)

(359/370)

الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ) الذين آمنوا يحتمل موضعه ثلاثة أوجه متساوية الأرجحية الأول النصب على أنه صفة أولياء اللّه والثاني الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هم الذين

آمنوا والثالث الرفع على الابتداء والخبر جملة لهم البشرى الآتية ، وجملة آمنوا صلة وكانوا يتقون عطف على الصلة وجملة يتقون خبر كانوا .

هُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا)

لهم خبر مقدم والبشرى مبتدأ مؤخر وفي الحياة متعلق بمحذوف حال من البشرى والعامل في الحال الاستقرار في لهم والدنيا صفة للحياة وجملة لهم البشرى إما مستأنفة وإن جعلت الذين مبتدأ كانت في محل رفع خبر .

فِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ)

وفي الآخرة عطف على في الحياة الدنيا ولا نافية للجنس وتبديل اسمها ولكلمات اللّه خبر لا .

ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

ذلك مبتدأ وهو مبتدأ ثان والفوز خبر هو والجملة خبر ذلك والعظيم صفة الفوز والجملتان معترضتان (وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) الواو حرف عطف ولا ناهية ويحزنك فعل مضارع مجزوم بلا والكاف مفعول به وقولهم فاعل وإن واسمها وكسرت همزتها لأن الجملة مستأنفة بمعنى التعليل لعزة اللّه ولا يجوز أن تكون كسرت لأنها وقعت بعد القول لأنه يصير حكاية عنهم وان النبي صلى اللّه عليه وسلم تحزّن لذلك وهذا كفر وللّه خبر إن وجميعا حال من العزة ويجوز أن يكون توكيدا ولم يؤنث بالتاء لأن فعيلا يستوي

فيه المذكر والمؤنث وهو مبتدأ والسميع خبره الأول والعليم خبره الثاني .

[سورة يونس (10) : الآيات 66 إلى 67]

(360/370)

أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (66) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67)

اللغة :

(يَخْرُصُونَ) أصل معنى الخرص الحزر أي التخمين والتقدير ويستعمل بمعنى الكذب لغلبته في مثله وفي المصباح : خرصت النخل خرصا من باب قتل حزرت ثمره والاسم الخرص بالكسر وخرص الكافر خرصا كذب فهو خارص وخرّاص .

الاعراب :

(أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) ألا حرف تنبيه وقد تقدمت الاشارة إليه وإن حرف مشبّه بالفعل ولله خبرها المقدم ومن اسمها المؤخر وخص العقلاء بالذكر تضخيما لأنهم إذا كانوا له وداخلين في ملكه فما وراءهم مما لا يعقل أولى أن لا يكون له ندا

وشريكا وفي السموات صلة من ومن في الأرض عطف على من في السموات .

)

(361/370)

وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ) ما نافية ويتبع الذين فعل مضارع وفاعل وجملة يدعون صلة ومن دون اللّه حال من شركاء لتقدمه عليه وشركاء مفعول به ليتبع ومفعول يدعون محذوف لفهم المعنى والتقدير وما يتبع الذين من دون اللّه آلهة شركاء أي وما يتبعون حقيقة الشركاء وان كانوا يسمّونها شركاء لأن شركة اللّه في الربوبية محال إن يتبعون إلا ظنهم أنهم شركاء ، ويجوز أن تكون ما استفهامية وتكون حينئذ منصوبة بما بعدها أي ما يتبع والى هذا الاعراب جنح أبو البقاء ويجوز أن تكون ما موصولة معطوفة على من كأنه يقول واللّه ما يتبعه الذين يدعون من دون اللّه شركاء أي وله شركاؤهم ويجوز أن تكون ما الموصولة هذه في محل رفع بالابتداء والخبر محذوف تقديره والذي يتبعه المشركون باطل فهذه أربعة أوجه أوردناها لتقاربها في الأرجحية وإن كان الأول أسهلها .

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) إن نافية ويتبعون فعل وفاعل وإلا أداة حصر والظن مفعول به وإن نافية أيضا وهم مبتدأ وإلا أداة حصر وجملة يخرصون خبرهم .

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً) هو مبتدأ والذي خبر وجملة جعل صلة الموصول ثم الجعل إن كان بمعنى الإبداع والخلق نصب مفعولا واحدا وان كان بمعنى التصيير نصب مفعولين وعلى كل لكم متعلق بجعل والليل مفعول به لتسكنوا اللام للتعليل وتسكنوا منصوب بأن مضمرة والجار والمجرور إما مفعول لاجله أو مفعول به ثان وفيه متعلق بتسكنوا والنهار عطف على الليل ومبصرا إما حال وإما مفعول به ثان كما تقدم (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) إن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبر مقدم لإن واللام المزحلقة وآيات اسم ان المؤخر ولقوم صفة لآيات وجملة يسمعون صفة القوم.

البلاغة:

(362/370)

في قوله " والنهار مبصرا " مجاز عقلي فان إسناد الابصار إلى النهار غير حقيقي وقد تقدم أن المجاز العقلي هو اسناد الفعل أو شبهه إلى غير ما هو له على حد قول أبي تمام:

تكاد عطاياه يجنّ جنونها إذا لم يعوذها بنغمة طالب

ويجوز أن يجري على أنه استعاره مكنية إذا قصد التشبيه، ومنه قول جرير:

لقد لمتنا يا أم غالب في السّرى ونمت وما ليل المطيّ بنائم

[سورة يونس (10) : الآيات 68 إلى 70]

قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (68) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (69) مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (70)

الإعراب :

(قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ) قالوا فعل وفاعل واتخذ اللّه ولدا فعل وفاعل ومفعول به والجملة مقول القول وسبحانه مفعول مطلق الفعل محذوف .

(هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) هو مبتدأ والغني خبره وله خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر وفي السموات صلة وما في الأرض عطف على ما في السموات .

(إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا) إن نافية وعندكم ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم ومن حرف جر زائد وسلطان مبتدأ مؤخر مرفوع محلا مجرور لفظا وبهذا صفة لسلطان

(أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ) الهمزة للاستفهام الانكاري وتقولون فعل مضارع وفاعل وعلى اللّه متعلق بتقولون وما مفعول به وجملة لا تعلمون صلة .

)

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ) قل فعل أمر وفاعله أنت وإن الذين إن واسمها وجملة يفترون صلة الذين وعلى اللّه متعلق بيفترون والكذب مفعول به وجملة لا يفلحون خبر إن.

(مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ) متاع خبر لمبتدأ محذوف أي ذاك أو هو وفي الدنيا صفة ويجوز أن يكون متاع مبتدأ وخبره محذوف والتقدير لهم متاع وساغ الابتداء به لوصفه وثم حرف عطف وتراخ وإلينا خبر مقدم ومرجعهم مبتدأ مؤخر ثم حرف عطف أيضا ونذيقهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به أول والعذاب مفعول به ثان والشديد صفة وبما الباء حرف جر للسببية وما مصدرية أي بسبب كونهم كافرون والجار والمجرور متعلقان بنذيقهم.

[سورة يونس (10) : الآيات 71 إلى 73]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَتَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73)

اللغة :

(فَأَجْمِعُوا) يقال أجمع الأمر وأزمعه إذا نواه وعزم عليه قال

(364/370)

المؤرج : أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه وقال أبو الهيثم أجمع أمره إذا جعله جمعا بعد ما كان متفرقا (الغمة) ضيق الأمر من غمة إذا ستره ومنها قوله (صلى اللّه عليه وسلم) : " ولا غمة في فرائض اللّه " وغم الهلال إذا حال من دونه غيم يحجب رؤيته .

الاعراب :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ) واتل فعل أمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله أنت وعليهم متعلقان باتل ونبأ مفعول به ونوح مضاف اليه وإذ ظرف لما مضى من الزمن في محل نصب بدل من نبأ بدل اشتمال أو متعلق به ، ولا معنى لقول أبي البقاء انه حال من نبأ كما لا يجوز تعليقه بالفعل وهو اتل لفساد المعنى لأن أتل مستقبل والظرف ماض وجملة قال لقومه مضافة للظرف (يا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ) يا حرف نداء وقوم منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة وقد تقدم بحثه وان شرطية وكان فعل الشرط واسمها ضمير الشأن المحذوف وجملة كبر عليكم مقامي خبرها والمراد

بتكبير المقام تعاظم الشقة ، والمقام بالفتح المنزلة والمكانة قال تعالى : " ولمن خاف مقام ربه جنتان " والمقام بالضم الاقامة والقيام على الدعوة خلال مدة اللبث لأنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، وتذكيري عطف على مقامي وبآيات اللّه متعلقان بتذكيري فعلى اللّه الفاء رابطة والجار والمجرور متعلقان بتوكلت .

(فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ) الفاء الفصيحة وأجمعوا فعل أمر والواو فاعل وأمركم مفعول به لأنه يتعدى بنفسه وبالحرف كما

تقدم في باب اللغة وشركاءكم الواو للمعية وشركاءكم مفعول معه نص على ذلك سيبويه وأنشد :

فكونوا أنتم وبني أبيكم مكان الكليتين من الطحال

وقال النحاس : في نصب الشركاء على قراءة الجمهور ثلاثة أوجه :

(365/370)

الأول : بمعنى وادعوا شركاءكم قاله الكسائي والفراء أي ادعوهم لنصرتكم فهو على هذا منصوب بفعل مضمر .

الثاني : وقال محمد بن يزيد المبرد هو معطوف على المعنى كما قال الشاعر :

يا ليت زوجك في الوغى متقلدا سيفا ورمحا

والرمح لا يتقلد به لكنه محمول كالسيف .

الثالث : وقال الزجاج : المعنى مع شركائكم فالواو على هذا واو مع وأما على قراءة أجمعوا بهمزة وصل فالعطف ظاهر أي أجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم وأما توجيه قراءة الرفع فعلى عطف الشركاء على الضمير المرفوع في أجمعوا وحسن هذا العطف مع عدم التأكيد بمنفصل كما هو المعتبر في ذلك .

(ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً) ثم حرف عطف وتراخ ولا ناهية ويكن مجزومة بلا وأمركم اسم يكن ويكن حال لأنه كان صفة في الأصل وتقدمت وغمة خبر يكن (ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ) ثم حرف عطف كما تقدم واقضوا فعل أمر وفاعل وإلي متعلق به ولا : الواو عاطفة ولا ناهية وتنظرون أصله تنظروني مجزوم بلا حذفت النون للجازم وحذفت ياء المتكلم للفواصل أي لا تمهلوني .

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ) الفاء استئنافية وإن شرطية وتوليتم فعل وفاعل في محل جزم فعل الشرط والفاء رابطة وما نافية وسألتكم فعل وفاعل ومن زائدة وأجر مفعول به محلا .

(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) إن نافية وأجري مبتدأ وإلا أداة حصر وعلى الله خبر ، وأمرت : الواو عاطفة وأمرت فعل ماض مبني للمجهول والتاء نائب

فاعل ، وأن أكون : أن وما في حيزها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض أي بأن أكون .

)

(366/370)

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ) الفاء عاطفة على ما تقدم وكذبوه فعل وفاعل ومفعول به ، فنجيناه عطف على كذبوه ومن اسم موصول معطوف على الهاء والظرف متعلق بمحذوف هو الصلة أي استقروا معه في السفينة وفي الفلك جار ومجرور متعلقان بنجيناه أو في الاستقرار الذي هو الصلة أي والذين استقروا معه في الفلك وجعلناهم خلائف فعل وفاعل ومفعولاه . (وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) وأغرقنا عطف على نجيناه ونا فاعل والذين مفعول به وجملة كذبوا بآياتنا صلة وبآياتنا متعلقان بكذبوا . (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ) الفاء استئنافية وانظر فعل أمر وفاعله مستتر وكيف اسم استفهام خبر كان مقدم وعاقبة اسمها والمنذرين مضاف اليه .

البلاغة :

1- المجاز العقلي في قوله تعالى "كبر عليكم مقامي " فقد أسند الكبر إلى المقام والمقام هو كناية عن النفس لأن المكان من لوازمه .

2- الاستعارة المكنية في قوله تعالى " ثم اقضوا إلي " أي نفذوا ذلك الأمر أو أدوا إلى ذلك الأمر ، شبه الأمر المحذوف بالدين ثم حذف المشبه به وأخذ شيئا من خصائصه وهو القضاء يقال قضى فلان دينه أي أداه .

[سورة يونس (10) : الآيات 74 إلى 78]

(367/370)

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74) ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَهارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (75) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (76) قالَ مُوسى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77) قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ (78)

الإعراب :

(ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ) عطف على قصة نوح ، وبعثنا وفاعل ومن بعده حال

ورسلا مفعول به والى قومهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة . (فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ)

(368/370)

الفاء عاطفة وجاءوهم فعل وفاعل ومفعول به وبالبينات متعلقان بجاءوهم والفاء عاطفة وما نافية وكان واسمها واللام لام الجحود ويؤمنوا منصوب بأن مضمرة بعدها واللام ومدخولها خبر كان وبما متعلقان بيؤمنوا وجملة كذبوا صلة وبه متعلقان بكذبوا ومن قبل حال وبنيت قبل على الضم لانقطاعها عن الاضافة لفظا لا معنى . (كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ) الكاف في محل نصب صفة لمصدر محذوف أي مثل ذلك الطبع نطبع وعلى قلوب المعتدين جار ومجرور متعلقان بنطبع . (ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَهارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ بِآياتِنا) عطف قصة على قصة أيضا من باب عطف الخاص على العام ، ومن بعدهم حال وموسى مفعول به لبعثنا وهارون معطوف على موسى والى فرعون متعلقان ببعثنا وملئه عطف على فرعون وبآياتنا متعلقان بمحذوف حال أي ملتبسين بآياتنا التسع التي سيصرّح بها في سورة " الإسراء " وهي قوله تعالى : " ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات " وقد تقدم منها ثمانية في سورة " الأعراف " اثنتان في قوله " فألقى موسى

عصاه " وقوله : " ونزع يده " وواحدة في قوله " ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين " وخمسة في قوله " فأرسلنا عليهم الطوفان " وستأتي التاسعة في هذه السورة في قوله " ربنا اطمس على أموالهم " أي امسخها حجارة كما سيأتي في حينه .

)

فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ) الفاء عاطفة واستكبروا فعل وفاعل وكانوا كان واسمها وقوما خبرها ومجرمين صفة . (فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا) الفاء عاطفة ولما حينية أو رابطة وجملة جاءهم مضافة أو لا محل لها والحقّ فاعل ومن عندنا متعلقان بجاءهم .

(قالُوا : إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ) جملة قالوا لا محل وإن واسمها واللام المزحلقة وسحر خبر إن ومبين صفة . (قالَ مُوسى : أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ)

(369/370)

قال موسى فعل وفاعل والهمزة للاستفهام وتقولون فعل مضارع وفاعل وللحق جار ومجرور متعلقان بتقولون ولما حينية وجملة جاءكم مضافة ، أسحر الهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي وسحر خبر مقدم وهذا مبتدأ مؤخر والجملة مقول القول ولا الواو للحال ولا نافية ويفلح الساحرون فعل مضارع وفاعل والجملة حالية . (قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا

عَلَيْهِ آباءَنا) قالوا فعل وفاعل والهمزة للاستفهام البياني الذي يستفرغ فيه المكابر المعاند حججه المتهافتة ليبرر إصرار على اللجاج والمواربة والعناد وجملة أجئتنا مقول القول وهو فعل وفاعل ومفعول به ولتلفتنا اللام للتعليل وتلفت فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وعما متعلقان بتلفتنا وجملة وجدنا صلة وعليه متعلقان بمحذوف حال تقديره عاكفين وآباءنا مفعول به . (وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ) الواو عاطفة وتكون فعل مضارع ناقص ولكما خبرها المقدم والكبرياء اسمها المؤخر وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أي ممتدة والكبرياء مصدر على وزن فعلياء ومعناها العظمة وقيل الملك لأن الملوك موصوفون بالكبر ولذلك قيل للملك الجبار ، قال بشار بن برد :

إذا الملك الجبار صعّر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

ووصفوا بالصيد والشوس ولذلك وصف ابن الرقيات مصعبا في قوله :

ملكه ملك رأفة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

ينفي ما عليه الملوك من ذلك .

(وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ) الواو عاطفة وما حجازية ونحن اسمها وبمؤمنين الباء زائدة ومؤمنين خبر ما محلا .

الفوائد :

قال ابن هشام في صدد حديثه عن حذف المفعول : " ومن غريبه حذف المقول وبقاء القول نحو : قال موسى : أتقولون للحق لما جاءكم ، أي هو سحر بدليل أسحر هذا " .

(370/370)

وهذا القول فيه شيء كثير من الغموض وقد تعقبه الدسوقي فقال : " ما ذكره المصنف أحد أوجه ذكرها في الكشاف وعبارته : فإن قلت : هم قطعوا بقولهم : إن هذا لسحر مبين على أنه سحر فكيف قيل لهم أتقولون أسحر هذا ؟ قلت فيه أوجه أن يكون معنى قوله أتقولون للحق : أتعيبونه وتطعنون فيه وكان عليكم أن تذعنوا له وتعظموه ، من قولهم فلان يخاف القالة وبين الناس تقاول إذا قال بعضهم لبعض ما يسوءه ونحو القول الذكر في قوله : سمعنا فتى يذكرهم ثم قال : أسحر هذا فأنكر ما قالوه في عيبه والطعن عليه وان يحذف مفعول أتقولون وهو ما دل عليه قولهم إن هذا لسحر مبين كأنه قيل : أتقولون ما تقولون يعني قولهم أن هذا لسحر مبين ثم قيل أسحر هذا وان يكون جملة قوله أسحر هذا ولا يفلح الساحرون حكاية لكلامهم كأنهم قالوا أجئتما بالسحر تطلبان به الفلاح " انتهى ما قاله الزمخشري وقد تصرف به الدسوقي تصرفا مخلا ولهذا آثرنا نقل ما قاله الزمخشري بنصه من الكشاف ومع ذلك لا يخلو من غموض ، وإيضاحه : ان القول على الوجه الاول وقع

كناية عن العيب فلا يتقاضى مفعولا وفي الثاني على انه يطلب مفعولا والذي نراه أن سؤال ابن هشام غير وارد واعتراض الزمخشري وتكلفه الاجابة عنه

(371/370)

غير وارد أيضا ولهذا ضربنا صفحا في الاعراب عن هذا كله وأحسن من الجميع عبارة أبي السعود وهي : " قال موسى : أي قال جملا ثلاثا الأولى أتقولون للحق لما جاءكم والثانية أسحر هذا والثلاثة ولا يفلح الساحرون وقوله للحق أي في شأنه ولأجله وقوله : لما جاءكم أي حين مجيئه إياكم من أول الأمر من غير تأمل وتدبّر هذا مما ينافي القول المذكور وقوله : انه لسحر هذا مقول القول فحذف لدلالة ما قبله عليه واشارة إلى انه لا يتفوه به وقوله : أسحر هذا مبتدأ وخبر وهو استفهام إنكار مستأنف من جهته عليه السلام تكذيبا لقولهم وتوبيخا إثر توبيخ وتجهيلا بعد تجهيل وقوله ولا يفلح الساحرون جملة حالية من ضمير المخاطبين والرابط هو الواو بلا ضمير كما في قول من قال : " جاء الشتاء ولست أملك عدة " أي أتقولون للحق إنه لسحر والحال انه لا يفلح فاعله أي لا يظفر بمطلوب ولا ينجو من مكروه فكيف يمكن صدوره عن مثلي من المؤيدين من العزيز الحكيم " .

[سورة يونس (10) : الآيات 79 إلى 82]

وَقالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80) فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82)

الإعراب :

(وَقالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ) الواو عاطفة لتتساوق

(372/370)

فصول القصة وقال فرعون فعل وفاعل وائتوني فعل أمر وفاعل ومفعول به وبكل متعلقان بائتوني وساحر مضاف اليه وعليم صفة . (فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ) الفاء عاطفة على محذوف أي فأتوا بالسحرة ، وجملة قال لهم موسى لا محل لها وألقوا فعل أمر وفاعل وما اسم موصول مفعول به وأنتم مبتدأ وملقون خبر والجملة الاسمية صلة الموصول وجملة ألقوا مقول القول . (فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ) ما اسم موصول مبتدأ وجملة جئتم به صلة والسحر خبر وفي قراءة آلسحر بهمزتين همزة استفهام وهمزة أل فتكون ما استفهامية في محل رفع مبتدأ وجئتم به الخبر والتقدير أي شيء جئتم به كأنه استفهام انكار وتقليل لما جاءوا به والسحر بدل من اسم الاستفهام لذلك أعيدت معه

أداته أو يكون السحر خبرا لمبتدأ محذوف أي أهو السحر (إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) إن واسمها وجملة سيبطله خبرها وإن واسمها وجملة لا يصلح خبرها وإن الثانية للتعليل وعمل المفسدين مفعول به . (وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) الواو عاطفة ويحق اللّه فعل وفاعل والحق مفعول به وبكلماته متعلقان بيحق ولو الواو حالية ولو وصلية وكره المجرمون فعل وفاعل .

[سورة يونس (10) : الآيات 83 إلى 86]

فَما آمَنَ لِمُوسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83) وَقالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84) فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (86)

(373/370)

الاعراب :

)

فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ) الفاء عاطفة على محذوف يفهم من السياق ومما فصّل

في مواضع أخر أي فألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون وما نافية وآمن فعل ماض ولموسى متعلق به وإلا أداة حصر وذرية فاعل ومن قومه صفة . (عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ) على بمعنى مع وهي مع مجرورها في محل نصب على الحال ، ومن فرعون جار ومجرور متعلقان بخوف وملئهم عطف على فرعون وانما أعاد الضمير اليه جمعا لأنه بمعنى آل فرعون كما يقال ربيعة ومضر ، أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون بأمره ، وأن يفتنهم أن وما في حيزها بدل اشتمال من فرعون أي على خوف من فتنة فرعون أو مفعول لأجله بعد حذف اللام . (وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ) الواو اعتراضية وهذه الجملة والتي بعدها اعتراض تذييلي وان واسمها واللام المزحلقة وعال خبر ان مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بعال وانه الواو اعتراضية أيضا وان واسمها واللام المزحلقة ومن المسرفين خبر إن . (وَقالَ مُوسى : يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) يا قوم يا حرف نداء وقوم منادى مضاف لياء المتكلم وقد تقدم حكمه ونزيد هنا أن حذف الياء أقوى من إثباتها لقوة النداء على التغيير وإن شرطية وكنتم في محل جزم فعل الشرط والتاء اسم كان وجملة آمنتم خبر كنتم وبالله جار ومجرور متعلقان بآمنتم ، فعليه :

الفاء رابطة لجواب الشرط وعليه متعلقان بتوكلوا وتوكلوا فعل أمر وفاعل وإن شرطية وكنتم مسلمين كان واسمها وخبرها وجواب الشرط محذوف وكرر الجملة توكيدا وسيأتي في باب الفوائد تحقيق تعليق الحكم بشرطين . (فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا) الفاء للعطف وقالوا فعل وفاعل وعلى اللّه جار ومجرور متعلقان بتوكلنا وتوكلنا فعل وفاعل (رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) ربنا منادى مضاف وحرف النداء محذوف ولا ناهية وتجعلنا فعل مضارع مجزوم بلا ونا مفعول به أول وفتنة مفعول به ثان وللقوم صفة والظالمين صفة لقوم . (وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) الواو عاطفة ونج فعل أمر مبني على حذف حرف العلة ونا مفعول به وبرحمتك متعلقان بمحذوف حال ومن القوم متعلقان بنجنا والكافرين صفة لقوم .

الفوائد :

متى لم يترتب الشرطان في الوجود فالشرط الثاني شرط في الأول ولذلك لم يجب تقديمه على الاول وقد بنى الفقهاء على ذلك حكما طريفا وهو أن يقول الرجل لامرأته : إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلمت زيدا فمجموع قوله إن دخلت الدار فأنت طالق مشروط بقوله :

إن كلمت زيدا والمشروط متأخر عن الشرط وذلك يقتضي أن يكون المتأخر في اللفظ

متقدما في المعنى وأن يكون المتقدم في اللفظ متأخرا في المعنى فكأنه يقول لامرأته حالما كلمت زيدا إن دخلت الدار فأنت طالق فلو حصل هذا المعلق قبل إن كلمت زيدا لم يقع الطلاق وفي الآية التي نحن بصددها قوله : إن كنتم آمنتم باللّه فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ، يقتضي أن يكون كونهم مسلمين شرطا لأن يصيروا مخاطبين

(375/370)

بقوله إن كنتم آمنتم باللّه فعليه توكلوا فكأنه تعالى يقول للمسلم حال إسلامه إن كنت من المؤمنين باللّه فعلى اللّه توكل والأمر كذلك لان الإسلام عبارة عن الاستسلام وهو الانقياد لتكاليف اللّه وترك التمرد والايمان عبارة عن معرفة القلب بأن واجب الوجود لذاته واحد وما سواه محدث تحت تدبيره وقهره فاذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إلى اللّه تعالى ويحصل في القلب نور التوكل على اللّه .

[سورة يونس (10) : الآيات 87 إلى 89]

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87) وَقالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا

يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (88) قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (89)

اللغة :

(تَبَوَّءا) : تبوّأ المكان : اتخذه مباءة كقولك توطنه إذا اتخذه

وطنا وبوأت له بيتا أي اتخذته وقال أبو علي : إن تبوأ فعل يتعدى إلى مفعولين .

(اطْمِسْ) : الطمس : إزالة أثر الشيء بالمحو وطمست الريح آثار الديار والطمس تغير إلى

الدثور والدروس قال كعب بن زهير :

من كل نضّاخة الذّفرى إذا عرقت عرضتها طامس الأعلام مجهول

الاعراب :

)

(376/370)

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً) الواو استئنافية وأوحينا فعل وفاعل والى موسى جار ومجرور متعلقان بأوحينا وأخيه عطف على موسى وأن يجوز أن تكون مفسرة لأنه قد تقدمها ما هو بمعنى القول دون حروفه وهو الإيحاء ويجوز أن تكون

مصدرية على بابها وهي مع مدخولها في موضع نصب مفعول أوحينا أي أوحينا إليهما التبوّء ولقومكما متعلقان بتبوءا وباعتبارها مفعولا ثانيا وبمصر حال وبيوتا مفعول تبوأا وجوز أبو البقاء أن يتعلق بتبوءا . (وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) واجعلوا عطف على تبوأا وبيوتكم مفعول اجعلوا الاول وقبلة مفعول اجعلوا الثاني وأقيموا الصلاة عطف وهو فعل أمر وفاعل ومفعول به وبشر المؤمنين عطف أيضا وسيأتي في باب البلاغة سر تنويع الخطاب . (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) قال موسى فعل وفاعل وربنا منادى مضاف حذف منه حرف النداء وإن وسمها وجملة آتيت خبر إن وفرعون مفعول به وملأه عطف على فرعون وزينة مفعول

(377/370)

به ثان وأموالا عطف على زينة وفي الحياة الدنيا صفة لزينة (رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ) ربنا منادى مضاف وأعيد للتوكيد واللام لام الصيرورة والعاقبة أي آتيتهم النعم المذكورة ليشكروها ويتبعوا سبيلك فكان عاقبة أمرهم أنهم كفروها وضلوا عن سبيلك ويجوز أن تكون لام العلة والمعنى أنك آتيتهم ما آتيتهم على سبيل الاستدراج فكان الإيتاء لهذه العلة وقال الحسن البصري : هي لام الدعاء عليهم بأن يبقوا على ما هم عليه من الضلال ، وعن

سبيلك جار ومجرور متعلقان بيضلوا (رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ)

اطمس فعل أمر وفاعله أنت وعلى قلوبهم جار ومجرور متعلقان باطمس واشدد على

قلوبهم عطف على اطمس على أموالهم . (فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ) يحتمل

يؤمنوا النصب والجزم فالنصب بأن مضمرة بعد فاء السببية العاطفة أو العطف على قوله

ليضلوا فلا يؤمنوا واختاره المبرد وعلى هذا يكون قوله : ربنا اطمس على أموالهم واشدد

على قلوبهم اعتراضا ، والجزم على وجه الدعاء عليهم على أن لا التي بسميها النحاة ناهية

وهي بالنسبة إلى اللّه تعالى لام الدعاء ومثله بيت الأعشى .

فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى ولا تلقني إلا وأنفك راغم

وحتى حرف غاية وجر ويروا مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى والواو فاعل

والعذاب مفعول به والأليم صفة . (قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما) جملة قد أجيبت مقول القول

ودعوتكما نائب فاعل .

(فَاسْتَقِيما وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) الفاء الفصيحة واستقيما فعل أمر والالف

فاعل ولا تتبعان الواو عاطفة ولا ناهية وتتبعان فعل

(378/370)

مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون وألف الاثنين فاعل والنون المشددة هي نون التوكيد الثقيلة وكسرت لوقوعها بعد ألف الاثنين وقرأ حفص تتبعان بتخفيف النون مكسورة مع تشديد التاء فتحتمل أن تكون لا للنفي وأن تكون للنهي فإن كانت للنفي كانت النون نون رفع والجملة اسمية أي وأنتما لا تتبعان أو انه خبر محض مستأنف لا تعلق له بما بعده ، وإن كانت للنهي كانت النون للتوكيد وهي الخفيفة ، وسبيل مفعول به والذين مضاف اليه وجملة لا يعلمون صلة .

البلاغة :

التنويع في الخطاب ، فقد نوع سبحانه في خطابهم فثنى أولا ثم جمع ثم وحد آخرا والسر في ذلك أن موسى وهارون خوطبا بأن يتبوأا لقومهما بيوتا ويختاراها للعبادة ثم سيق الخطاب عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد للصلاة فيها لأن ذلك واجب على الجمهور ثم خص آخرا موسى بالبشارة التي هي الغرض الاسمى تعظيما لها وللمبشر بها .

[سورة يونس (10) : الآيات 90 إلى 92]

وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ (92)

اللغة :

(وَجاوَزْنا) : هو من جاوز المكان إذا تخطاه وخلفه وراءه .

)

(379/370)

فَأَتْبَعَهُمْ) : في المختار تبعه من باب طرب وسلم إذا مشى خلفه أو مرّ به فمضى معه وكذا اتّبعه وهو افتعل وأتبعه على أفعل إذا كان قد سبقه فلحقه . وقال الأخفش : تبعه وأتبعه مثل ردفه وأردفه وحكى أبو عبيدة عن الكسائي : أنه قال : إذا أريد بهم انه اتبعهم خيرا أو شرا قالوا بقطع الهمزة وإذا أريد به أنه اقتدى بهم واتبع أثرهم قالوا بتشديد التاء ووصل الهمزة .

(بَغْياً) : البغي : طلب الاستعلاء بغير الحق .

(عَدْواً) : في الصحاح للجوهري : عدا عدوا وعدوّا وعداء ، وفي القاموس والتاج وعدوانا وعدوانا وعدوى عليه ظلمه ويقال :

" ما عداما بدا " أي ما الذي صرفك عني بعد ما بدا منك .

(نُنَجِّيكَ) : من النجوة وهي الأرض التي لا يعلوها السيل وأصلها من الارتفاع .

الاعراب :

(وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة

(380/370)

مسوقة لبيان ما آل اليه أمر فرعون وقومه ، وجاوزنا فعل وفاعل وببني إسرائيل متعلقان بجاوزنا والباء للتعدية أي جعلناهم مجاوزين البحر والبحر مفعول به . (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً) فأتبعهم الفاء عاطفة وأتبعهم فعل ومفعول به وفرعون فاعل وجنوده عطف على فرعون وبغيا مفعول لأجله وعدوا معطوف عليه ويجوز أن يكونا مصدرين في موضع الحال أي باغين معتدين . (حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) حتى حرف غاية لاتباعه وإذا ظرف مستقبل وأدركه الغرق فعل ومفعول به وفاعل والجملة في محل جر بالإضافة وجملة قال لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وجملة آمنت مقول القول وأن وما في حيزها في موضع نصب بنزع الخافض والجار والمجرور صلة آمنت ولا إله إلا الذي تقدم القول فيها مشبعا وجملة آمنت صلة الذي وبه متعلقان بآمنت وبنوا إسرائيل فاعل آمنت وأنا الواو عاطفة وأنا مبتدأ ومن المسلمين خبر (آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) آلآن الهمزة للاستفهام والآن

ظرف متعلق بمحذوف وتقديره الآن آمنت ، وقد الواو للحال وقد حرف تحقيق وعصيت فعل وفاعل وقبل ظرف مبني على الضم لانقطاعه عن الاضافة لفظا لا معنى وكنت من المفسدين عطف على عصيت وكنت كان واسمها ومن المفسدين خبرها . (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً) الفاء استئنافية واليوم ظرف متعلق بننجيك وببدنك حال من الكاف أي مصاحبا لبدنك وسيأتي مزيد بحث عنها في باب البلاغة ولتكون اللام للتعليل وتكون منصوب بأن مضمرة واسم تكون مستتر تقديره أنت وآية خبرها ولمن خلفك حال والظرف متعلق بالاستقرار الذي هو صلة الموصول . (

وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنا لَغافِلُونَ) الواو اعتراضية والجملة اعتراض تذييلي

(381/370)

جيء به عقب الحكاية وان واسمها ومن الناس صفة لكثيرا وعن آياتنا متعلقان بغافلون واللام المزحلقة وغافلون خبر إن .

البلاغة :

في الآية تورية إذا فسر البدن بالدرع أما إذا فسر بالجسم فيكون المعنى ننجيك في الحال التي لا روح فيك وانما أنت بدن أو ببدنك كاملا سويا لم ينقص منه شيء أما تفسير البدن بالدرع

فيدل عليه قول عمرو بن معدي كرب :

أعاذل شكتي بدني وسيفي وكل مقلّص سلس القياد

وكانت لفرعون درع من ذهب يعرف بها ، وعندئذ صح في البدن التورية وهي ان البدن في القريب الظاهر بمعنى الجسم وفي البعيد الخفي بمعنى الدرع ومراده البعيد الخفي فان نجاة فرعون أي خروجه من البحر بعد الغرق بدرعه أعجب آية من خروجه مجردا والتورية في القرآن قليلة وسترد مواضعها في حينها ونتحدث عنها هنا باختصار فنقول :

تعريف التورية : التورية هي أن يذكر المتكلم لفظا مفردا له معنيان : قريب ظاهر غير مراد وبعيد خفي هو المراد . وتنقسم إلى أربعة أقسام :

1 – التورية المجردة وسميت بذلك لتجردها من اللوازم وهي قسمان أيضا :

آ – المجردة التي ذكر معها لازم المورّى به وهو المعنى القريب ولازم المورّى عنه وهو المعنى البعيد كقول مجير الدين بن تميم :

وليلة بتّ أسقى في غياهبها راحا تسلّ شبابي من يد الهرم

ما زلت أشربها حتى نظرت إلى غزالة الصبح ترعى رجس الظلم

فالصبح من لوازم الغزالة الشمسية والرعي من لوازم الغزالة الوحشية .

ب – المجردة التي لم يذكر معها لازم من لوازم المورّى به ولا لازم من لوازم المورّى عنه كقول بعضهم في سنة كان فيها شهر كانون معتدلا فأزهرت الأرض :

كأن نيسان أهدى من ملابسه لشهر كانون أنواعا من الحلل

أو الغزالة من طول المدى خرفت فما تفرق بين الجدي والحمل

فالتورية هنا مجردة إذ لم يذكر الشاعر شيئا من لوازم المورى به أو لوازم المورى عنه .

(382/370)

2- التورية المرشحة : وهي التي ذكر فيها لازم من لوازم المورى به كقول القائل :

يا سيدا حاز لطفا له البرايا عبيد

أنت الحسين ولكن جفاك فينا يزيد

فإن ذكر الحسين لازم لكون يزيد اسما علما بعد احتماله للفعل المضارع الذي هو معناه

المقصود المورّى عنه ولابن خطيب داريا في حمص :

مدينة حمص كعبة الحسن أصبحت يطوف بها دان ويسعى بها قاصي

له حلة من نبتها سندسية تعلق في أذيال أستارها العاصي

فإن ذكر التعلق بأذيال الكعبة هنا على سبيل الاستعارة ترشيح للعاصي من العصيان كما

سبق ، وقد رد بعضهم على ابن خطيب داريا فقال :

مدينة حمص لم تكن قط كعبة يطوف بها دان ويسعى بها قاصي

ولكنها للّهو والقصف حانة ألم تنظروها كيف جاورها العاصي

3- التورية المبينة : هي التي ذكر فيها لازم من لوازم المورى عنه ومن أمثلتها ما يحكى أن نقيب الأشراف ببغداد كان يهوى غلاما اسمه صدقة أخذه ابن المنير الطرابلسي يوما وأضافه وجلسوا في طبقة وإذا بالشريف أتى إليهم مستخفيا وقال لهم :

يا من هم في الطبقة هل عندكم من شفقة ؟

قد جاءكم متيّم يطلب منكم " صدقه "

فأجابه ابن المنير في الحال :

يا من أتانا سرقه بمهجة محترقة

جدّك يا ذا لم يجز أخذك منا " صدقه "

فخجل وذهب عنهما والشاهد في قول الشريف " متيم " يرشح المعنى المورى عنه في صدقة وهو اسم محبوبه والمعنى الثاني ظاهر وهو الصلة للفقراء .

4- التورية المهيئة : وهي التي لا يتهيأ معها في الكلام تورية إلا باللفظ قبله أو الذي بعده كقول الدماميني :

يا عذولي في مغن مطرب حرّك الأوتار لما سفرا

لم تهز العطف منه طربا عند ما تسمع منه وترا

فإن لفظة تسمع هيأت قوله " وترا " للتورية بالرؤية وهو المعنى البعيد وأما المعنى القريب

فأحد الأوتار للطنبور .

الفوائد :

(383/370)

(الآن) ظرف زمان للوقت الذي أنت فيه مبني على الفتح ويجوز أن يدخله من حروف الجر من والى وحتى ومذ ومنذ مبنيا معهن على الفتح ويكون في موضع الجر .

[سورة يونس (10) : الآيات 93 إلى 97]

وَلَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93) فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ (95) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (97)

اللغة :

(مُبَوَّأَ صِدْقٍ) اسم مكان أي مكان صدق والمعنى وأنزلناهم منزلا محمودا ويجوز أن يكون مصدرا .

(الامتراء) طلب الشك مع ظهور الدليل وهو من مرى الضرع وهو مسحه ليدرّ .

الاعراب :

)

وَلَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لبيان النعم التي أفاضها اللّه على بني إسرائيل بعد انجائهم واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وبوأنا فعل وفاعل وبني إسرائيل مفعول به ومبوأ صدق مفعول به ثان لبوأ أو مفعول مطلق إن كانت مبوأ مصدرا (وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ) ورزقناهم عطف على بوأنا وهو فعل وفاعل ومفعول به ومن الطيبات متعلقان برزقناهم ، فما : الفاء عاطفة وما نافية واختلفوا

(384/370)

فعل وفاعل وحتى حرف غاية وجر وجاءهم العلم فعل ومفعول به وفاعل والمراد بالاختلاف ما تعاورهم من شكوك بعد مجيء الرسول محمد صلى اللّه عليه وسلم وتضافر معجزاته (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) إن واسمها وجملة يقضي خبرها وبينهم متعلقان بيقضي ويوم القيامة ظرف متعلق بيقضي أيضا وفيما

متعلقان بمحذوف حال أي فاصلا فيما ، وجملة كانوا صلة ما وكان والواو اسمها وفيه متعلقان بيختلفون وجملة يختلفون خبر كانوا (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ) الفاء استئنافية وإن شرطية وكنت كان واسمها والفعل في محل جزم فعل الشرط وفي شك خبرها ومما متعلقان بمحذوف صفة لشك وجملة أنزلنا إليك صلة ما (فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ) الفاء رابطة واسأل فعل أمر وفاعله أنت والذين مفعول به وجملة يقرءون الكتاب صلة ومن قبلك حال (لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) اللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وجاءك الحق فعل ومفعول به وفاعل ومن ربك متعلقان بجاءك والفاء عاطفة ولا ناهية وتكونن مجزوم بلا محلا لأنه مبني واسمها مستتر تقديره أنت ومن الممترين خبرها (وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ) تقدم اعرابها (فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ) الفاء سببية وتكون مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية ومن الخاسرين خبرها وسيأتي في باب الفوائد ما قاله العلماء في هذه الآية (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ) إن واسمها وجملة حقت صلة وعليهم متعلقان بحقت وكلمة فاعل وربك مضاف لكلمة وجملة لا يؤمنون خبر إن (وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ) الواو حالية ولو شرطية وجاءتهم كل آية فاعل و

حتى غاية النفي ويروا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى والواو فاعل والعذاب مفعول به والرؤية

عينية ولذلك نصبت مفعولا واحدا فقط والأليم صفة وجواب لو محذوف أي فلا ينفعهم ايمانهم حينئذ كما لم ينفع فرعون .

الفوائد :

قال الزجاج : إن هذه الآية قد كثر سؤال الناس عنها وخوضهم فيها وفي السورة ما يدل على بيانها فان اللّه سبحانه يخاطب النبي وذلك الخطاب شامل للخلق فالمعنى فان كنتم في شك فاسألوا ، والدليل عليه قوله في آخر السورة : " يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون اللّه ولكن أعبد اللّه الذي يتوفاكم " الآية فأعلم اللّه سبحانه أن نبيه ليس في شك ومثل هذه قوله " يا أيها النبي إذا طلقتم النساء " فقال طلقتم والخطاب للنبي (صلى اللّه عليه وسلم) وحده قال أبو عمرو ومحمد بن عبد الواحد الزاهد : سمعت الإمامين ثعلبا والمبرد يقولان : معنى فإن كنت في شك أي قل يا محمد للكافر فإن كنت في شك .

وقال الفراء : إن الخطاب لرسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) وان لم يشك وعلم اللّه أنه غير شاك ولكن الكلام خرج مخرج التقرير والإفهام كما يقول الابن لأبيه ، إن كنت والدي

فتعطف علي أو لولده إن كنت ابني فأطعني يريد بذلك المبالغة وربما خرجوا في المبالغة إلى ما يستحيل كقولهم : بكت السماء لموت فلان أي لو كانت السماء تبكي على ميت لبكت عليه وكذلك يكون ها هنا المعنى لو كنت ممن يشك فشككت فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك .

وقال الزمخشري : إن أمر رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم

(386/370)

فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن وحجة نبوة محمد عليه السلام ويبالغ في ذلك فقال : فإن وقع لك شك فرضا وتقديرا – وسبيل من خالجته شبهة في الدين أن يسارع إلى حلها واماطتها اما بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلّته وإما بمقادحة العلماء المنبّهين إلى الحق – فسل علماء أهل الكتاب .

وقال أبو حيان : " والذي أقوله : أنّ إن الشرطية تقتضي تعليق شيء على شيء ولا تستلزم تحتيم وقوعه وإمكانه بل قد يكون ذلك في المستحيل عقلا كقوله تعالى : " قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين " ومستحيل أن يكون له ولد فكذلك هذا مستحيل أن يكون

في شك وفي المستحيل عادة كقوله : " فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية " أي فافعل ، لكن وقوع " إن " للتعليق على المستحيل قليل وهذه الآية من ذلك ولما خفي هذا الوجه على أكثر الناس اختلفوا في تخريج هذه الآية " .

[سورة يونس (10) : الآيات 98 إلى 100]

فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (98) وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (99) وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (100)

الاعراب :

)

(387/370)

فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ) الفاء استئنافية ولو لا تحضيضيّة وهذا التحضيض فيه معنى التوبيخ والنفي وقد تقدمت الاشارة إلى حروف التحضيض ، وكانت قرية فعل وفاعل لأن كان هنا تامة وجملة آمنت صفة لقرية (فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ) الفاء عاطفة ونفعها

معطوف على الصفة عطف المسبب على السبب وإيمانها فاعل نفعها والجملة قد تقوم مقام الصفة للنكرة وإلا قوم يونس استثناء متصل واقع على المعنى لا على ظاهر اللفظ فكأنه قال : هلّا آمن أهل قرية والجميع مشتركون في العقاب وقوم يونس مستثنى من الجميع ومثل هذا الاستثناء قوله تعالى : " فلو لا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم " وقال الزجاج إلا قوم يونس استثناء منقطع وتقديره لكن قوم يونس لما آمنوا ومثله قول النابغة :

وقفت فيها أصيلا كي اسائلها عيّت جوابا وما بالربع من أحد

إلا الأواري لأيا ما أبيّنها والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد

ويونس مضاف اليه ممنوع من الصّرف للعلمية والعجمية (لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ) لما حينية أو رابطة وآمنوا فعل وفاعل وجملة كشفنا لا محل لها وعنهم متعلقان بكشفنا وعذاب الخزي مفعول به وفي الحياة متعلقان بمحذوف حال والدنيا صفة ومتعناهم عطف على كشفنا وإلى حين متعلقان بمتعناهم (وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً) الواو استئنافية ولو شرطية وشاء ربك فعل وفاعل لآمن وللام واقعة في جواب لو وجملة

آمن لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ومن فاعل آمن وفي الأرض صلة من وكلهم توكيد لمن وجميعا نصب على الحال من " من " (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة وأنت مبتدأ والجملة بعده خبر وقد مر معنا أن الهمزة مقدمة على العاطف أو ثم جملة محذوفة ، وحتى حرف تعليل وجر ويكونوا منصوب بأن مضمرة بعد حتى ومؤمنين خبر يكونوا (وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) الواو عاطفة وما نافية وكان فعل ماض ناقص ولنفس خبرها المقدم وأن المصدرية وما في حيزّها اسمها المؤخر وإلا أداة حصر وبإذن اللّه متعلقان بتؤمن (وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ) ويجعل معطوفة على مقدر كأنه قيل فيأذن لبعضهم في الايمان ويجعل ، ويجعل مضارع والرجس مفعوله وعلى الذين متعلقان بيجعل وجملة لا يعقلون صلة .

[سورة يونس (10) : الآيات 101 إلى 103]

قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (101) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (102) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (103)

اللغة :

(النظر) : طلب الشيء من جهة الفكر كما يطلب إدراكه بالعين والمعنى تأملوا تأمل

اعتبار .

(النُّذُرُ) : جمع نذير وهو صاحب النذارة .

الاعراب :

)

(389/370)

قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) قل فعل أمر وجملة انظروا مقول القول وما ذا يحتمل أن تكون ما استفهامية مبتدأ وذا اسم موصول خبر وتكون الجملة في محل نصب لتعليق العامل وهو انظروا عنها بالاستفهام ويحتمل أن تكون ماذا بتمامها استفهاما في محل رفع مبتدأ وفي السموات خبره وعلى الأول يكون الجار والمجرور متعلقين بمحذوف هو الصلة للموصول أي ما الذي استقر في السموات والأرض . (وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) هذه الجملة إما حالية من الواو في انظروا كأنه قيل انظروا والحال أن النظر لا ينفعكم ، وإما معترضة وما نافية أو استفهامية في محل نصب على أنها مفعول مطلق لتغني أي : أي غناء تغني ، والآيات فاعل والنذر عطف على الآيات وعن قوم جار ومجرور متعلقان بتغني وجملة لا يؤمنون صفة لقوم . (فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ) الفاء

استئنافية وهل حرف استفهام وينتظرون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وإلا أداة حصر ومثل مفعول ينتظرون وأيام مضاف اليه والذين مضاف لأيام وجملة خلوا صلة ومن قبلهم متعلقان بخلوا أو بمحذوف حال . (قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) قل فعل

أمر والفاء الفصيحة وانتظروا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وإن واسمها ومن المنتظرين خبرها والظرف متعلق بمحذوف حال .

(390/370)

(ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا) ثم حرف عطف للترتيب والتراخي وننجي فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره نحن والجملة عطف على كلام محذوف تقديره نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا على حكاية الأحوال الماضية ورسلنا مفعول به والذين عطف على رسلنا وجملة آمنوا صلة . (كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ) الكاف في محل نصب صفة لمصدر محذوف أي إنجاء مثل ذلك الانجاء فهي مفعول مطلق والعامل فيه ننجي المؤمنين ولك أن تجعل الكاف في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف وقدّروه بقولهم الأمر كذلك ، وحقا نصب على المصدر أي يحق حقا ويجوز أن يعرب نصبا على الحال وإن كان لفظه لفظ المصدر وأورد

جامع العلوم الضرير النحوي وجها طريفا وهو أن ينصب على البدلية من كذلك وعلينا متعلقان بحقا وننجي فعل مضارع والمؤمنين مفعول به .

البلاغة :

التشبيه التمثيلي في قوله كذلك ننجي إلخ فقد شبه نجاة من بقي من المؤمنين بنجاة من مضى في أنه واجب لهم وحق على اللّه . ووجه الشبه استحقاق كل منهم بالنجاة .

[سورة يونس (10) : الآيات 104 إلى 109]

(391/370)

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105) وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ (106) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107) قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (108)

وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (109)

الإعراب :

(قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي) قل فعل أمر ويا أيها الناس تقدم إعرابها كثيرا وإن شرطية وكنتم فعل الشرط وهي كان واسمها وفي شك خبرها ومن ديني صفة لشك . (فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) الفاء رابطة لجواب الشرط ولا نافية وأعبد فعل مضارع فاعله أنا والذين مفعول أعبد وجملة تعبدون صلة ومن دون اللّه حال . (وَلكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ) الواو عاطفة ولكن حرف استدراك لا عمل لها وأعبد فعل مضارع وفاعله أنا ولفظ الجلالة مفعوله والذي صفة وجملة يتوفاكم صلة . (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(392/370)

الواو عاطفة وأمرت فعل ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل وأن وما في حيزها في موضع نصب بنزع الخافض أي بأن أكون والجار والمجرور متعلقان بأمرت واسم أكون مستتر تقديره أنا ومن المؤمنين خبر أكون . (وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً) الواو عاطفة وأن وما في حيزها عطف على ما قبلها كأنه قيل : وقيل لي وأقم ، ولكن يشكل اعراب المصدر لأن

عطفه على أن أكون فيه إشكال لامتناع عطف الإنشاء على الخبر ولكن سيبويه سوغ أن توصل أن بالأمر والنهي وشبه ذلك بقولهم أنت الذي تفعل على الخطاب لأن الغرض وصلها بما تكون معه بمعنى المصدر ، والأمر والنهي دالان على المصدر دلالة غيرهما من الأفعال . وقد لخص البيضاوي ما أفاض فيه سيبويه قال : " وان أقم عطف على أن أكون غير أن صلة أن محكية بصيغة الأمر ولا ضير في ذلك لأن مناط جواز وصلها بصيغ كل الأفعال دلالتها على المصدر وذلك لا يختلف بالخبرية والطلبية ووجوب كون الصلة خبرية في الموصول الاسمي إنما هو للتوصل إلى وصف المعارف بالجمل وهي لا توصف إلا بالجمل الخبرية وليس الموصول الحرفي كذلك " وهو تلخيص لما قاله الزمخشري أيضا وجرى عليه أبو السعود أما غيرهما فاختار أن " أن " المصدرية وما في حيزها في محل رفع بفعل مقدر أي : وقيل لي ، ولا نرى هذا الرأي . أما السمين شهاب الدين الحلبي فقال ما نصه : " قوله وأن أقم يجوز أن يكون على إضمار فعل أي وأوحي إليّ أن أقم ثم لك في أن وجهان أحدهما أن تكون تفسيرية لتلك الجملة المقدّرة وفيه نظر لأن المفسر لا يجوز حذفه والثاني أن تكون مصدرية فتكون هي وما في حيزها في محل رفع بذلك الفعل المقدر .

(393/370)

و أقم فعل أمر ووجهك مفعول به وللدين متعلقان بأقم وحنيفا حال من الدين أو من الوجه .

(وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) الواو عاطفة ولا ناهية وتكونن فعل مضارع مبني لاتصاله بنون التوكيد في محل جزم بلا واسم تكونن مستتر تقديره أنت ومن المشركين خبرها .

(وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ) الواو عاطفة ولا ناهية وتدع مضارع مجزوم بلا والفاعل أنت ومن دون اللّه حال وما موصول مفعول به وجملة لا ينفعك صلة وجملة ولا يضرك عطف على لا ينفعك .

(فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ) الفاء عاطفة وان شرطية وفعلت في محل جزم فعل الشرط والفاء رابطة وان واسمها واذن حرف جواب وجزاء مهمل ومن الظالمين خبر إن .

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ) الواو عاطفة وان شرطية ويمسسك فعل الشرط والكاف مفعول به واللّه فاعل وبضر جار ومجرور متعلقان بيمسسك والفاء رابطة ولا نافية للجنس وكاشف اسمها مبني على الفتح وله متعلقان بكاشف والخبر محذوف ويجوز أن يكون له هو الخبر أي كائن له وإلا أداة حصر وهو بدل من الخبر المحذوف على ما تقدم في " لا إله إلا اللّه " .

)

(394/370)

وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ) الواو عاطفة وان شرطية ويردك فعل الشرط مجزوم والكاف مفعول به وبخير متعلقان بيردك والفاء رابطة ولا نافية للجنس وراد اسمها ولفضله متعلقان براد والخبر محذوف ويجوز أن يكون الجار والمجرور هو الخبر كما تقدم. (يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) جملة يصيب استئنافية والفاعل هو وبه جار ومجرور متعلقان بيصيب ومن مفعول يصيب وجملة يشاء صلة ومن عباده حال، وهو الواو استئنافية وهو مبتدأ والغفور خبر أول والرحيم خبر ثان. (قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ) قد جاءكم الحق فعل ومفعول به وفاعل ومن ربكم متعلقان بجاءكم.

(فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ) الفاء الفصيحة ومن شرطية أو موصولية مبتدأ واهتدى فعل الشرط والجملة صلة الموصول والفاء رابطة وانما كافة ومكفوفة ويهتدي فعل مضارع والفاعل هو ولنفسه متعلقان بيهتدي. (وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها) تقدم اعراب مماثلتها. (وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) الواو استئنافية وما نافية حجازية وأنا اسمها وعليكم متعلقان بوكيل ووكيل خبر ما الحجازية محلا. (وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ) الواو استئنافية لاستبعاد عطف الإنشاء على الخبر واتبع فعل أمر وفاعله أنت وما مفعول به وجملة يوحى صلة وإليك متعلقان بيوحى. (وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ) واصبر فعل أمر

معطوف على اتبع وحتى حرف غاية وجر ويحكم اللّه منصوب بأن مضمرة بعد حتى واللّه فاعله وهو الواو استئنافية وهو مبتدأ وخير الحاكمين خبره. انتهى انتهى. ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 4 صـ 259. 308﴾

(395/370)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والسبعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/371)

الجزء الحادى والسبعون بعد الثلاثمائة

(سورة هود عليه السلام)

(4/371)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة هود عليه السلام)

(5/371)

فصل

قال القرطبى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة هود عليه السلام

مكية إلا الآيات 12 ، 17 ، 114 فمدنية وآياتها 123 نزلت بعد يونس . مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية ؛ وهي قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ [هود : 114] . وأسند أبو محمد الدارمي في مسنده عن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اقرؤوا سورة هود يوم الجمعة" . وروى الترمذي عن ابن عباس قال قال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله قد شبت ! قال : " شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت" . قال : هذا حديث حسن غريب ، وقد روي شيء من هذا مرسلا . وأخرجه الترمذي الحكيم أبو عبد الله في "نوادر الأصول" : حدثنا سفيان بن وكيع قال حدثنا محمد بن بشر عن علي بن صالح عن أبي إسحاق عن أبي جحيفة قال : قالوا يا رسول الله نراك قد شبت ! قال : "شيبتني هود وأخواتها " . قال أبو عبد الله : فالفزع يورث الشيب وذلك أن الفزع يذهل النفس فينشف رطوبة الجسد ، وتحت كل شعرة منبع ، ومنه يعرق ، فإذا انتشف الفزع رطوبته يبست المنابع فيبس الشعر وابيض ؛ كما ترى الزرع الأخضر بسقائه ، فإذا ذهب

سقاؤه يبس فابيض ؛ وإنما يبيض شعر الشيخ لذهاب رطوبته ويبس جلده ، فالنفس تذهل بوعيد الله ، وأهوال ما جاء به الخبر عن الله ، فتذبل ، وينشف ماءها ذلك الوعيد والهول الذي جاء به ؛ فمنه تشيب . وقال الله تعالى : ﴿يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾ [المزمل : 17] فإنما شابوا من الفزع . وأما سورة "هود" فلما ذكر الأمم ، وما حل بهم من عاجل بأس الله تعالى ، فأهل اليقين إذا تلوها تراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطش بأعدائه ، فلو ماتوا من الفزع لحق لهم ، ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يلطف بهم في تلك الأحايين حتى يقرؤوا كلامه . وأما أخواتها فما أشبهها من السور ؛ مثل ﴿الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة : 1] و ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ [المعارج : 1] و ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير : 1]

(6/371)

و ﴿الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة : 1] ، ففي تلاوة هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانه وبطشه فتذهل منه النفوس ، وتشيب منه الرؤوس . [قلت] وقد قيل : إن الذي شيب النبي صلى الله عليه وسلم من سورة "هود" قوله : ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود : 112] على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى . وقال يزيد بن أبان : رأيت رسول الله صلى

الله عليه وسلم في منامي فقرأت عليه سورة "هود" فلما ختمتها قال : "يا يزيد هذه القراءة فأين البكاء" . قال علماؤنا : قال أبو جعفر النحاس : يقال هذه هود فاعلم بغير تنوين على أنه اسم للسورة ؛ لأنك لو سميت امرأة بزيد . لم تصرف ؛ وهذا قول الخليل وسيبويه . وعيسي ابن عمر يقول : هذه هود بالتنوين على أنه اسم للسورة ؛ وكذا إن سمى امرأة بزيد ؛ لأنه لما سكن وسطه خف فصرف ، فإن أردت الحذف صرفت على قول الجميع ، فقلت : هذه هود وأنت تريد سورة هود ؛ قال سيبويه : والدليل على هذا أنك تقول هذه الرحمن ، فلولا أنك تريد هذه سورة الرحمن ما قلت هذه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ 3.1 ﴾

(7/371)

وقال الآلوسى :سورة هود عليه السلام مكية

11 - كما أخرج ذلك ابن النحاس في تاريخه وأبو الشيخ وابن مردويه منطرق عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما ولم يستثنيا منها شيئا وإلى ذلك ذهب الجمهور وإستثنى بعضهم منها ثلاث آيات فعلك تارك أفمن كان على بينة من ربه

أقم الصلاة طرفي النهار وروي استثناء الثالثة عن قتادة قال الجلال السيوطي : ودليله من عدة طرق أنها نزلت بالمدينة في حق أبي اليسر وهي كما قال الداني في كتاب العدد مائة وإحدى وعشرون آية في المدني الأخير وإثنتان فيالمدني الأول وثلاث في الكوفي ووجه إتصالها بسورة يونس عليه السلام أنه ذكر في سورة يونس قصة نوح عليه السلام مختصرة جدا مجملة فشرحت في هذه السورة وبسطت فيها ما لم تبسط في غيرها من السور ولا سورة الأعراف على طولها ولا سورة إنا أرسلنا نوحا التي أفردت لقصته فكانت هذه السورة شرحا لما أجمل في تلك السورة وبسطا له ثم إن مطلعها شديد الإرتباط بمطلع تلك فإن قوله تعالى هنا : الر كتاب أحكمت آياته نظير قوله سبحانه هناك : الر تلك آيات الكتاب الحكيم بل بين مطلع هذ هوختام تلك شدة إرتباط أيضا حيث ختمت بنفي الشرك وإتباع الوحي وأفتتحت هذه ببيان الوحي والتحذير من الشرك وورد في فضلها ما ورد فقد أخرج الدارمي وأبو داود في مراسيله والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهم عن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأوا هودا يوم الجمعة وأخرج الترمذي وحسنه وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في البعث والنشور من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو بكر رضيالله تعالى عنه : يا رسول الله قد شبت قال : شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت وأخرج ابن عساكر منطريق يزيد الرقاشي عن أنس عن الصديق رضي الله تعالى عنه أنه قال : يا رسول الله أسرع إليك

الشيب قال : أجل شيبتني سورة هود وأخواتها الواقعة والقارعة والحاقة وإذا الشمس كورت وسأل سائل : :

(8/371)

وقد جاء في بعض الروايات أيضا أن عمر رضي الله تعالى عنه قال لهعليه الصلاة والسلام : أسرع إليك الشيب يا رسول الله فأجابه بنحو ما ذكر إلا أنه ذكر من الأخوات الواقعة وعم وإذا الشمس كورت وفي روايةأخرى عن سعد بن أبي وقاص قال : قلت يا رسول الله لقد شبت فقال : شيبتني هود والواقعة إلى

(9/371)

آخر ما في خبر عمر وفي بعضها الإقتصار على شيبتني هود وأخواتها وفي بعض آخر بزيادة وما فعل بالأمم من قبلي وقد أخرج ذلك ابنعساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه رضي الله تعالى عنهما مرفوعا

وأخرج ابن مردويه وغيره عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

قالله أصحابه : أسرع إليك الشيب فقال : شيبتني هود وأخواتها من المفصل والواقعة وكل ذلك يدل على خطرها وعظم ما إشتملت عليه وأشارت إليه وهو الذي صار سببا لإسراع الشيب إليه صلى الله تعالى عليه وسلم وفسره بعضهم بذكر يوم القيامة وقصص الأمم ويشهد له بعض الآثار وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي علي الشتري قال : رأيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المنام : فقلت يا رسول الله روي عنك أنك قلت : شيبتني هود قال : نعم فقلت : ما الذي شيبك منها قصص الأنبياء عليهم السلام وهلاك الأمم قال : لا ولكن قوله تعالى : فاستقم كما أمرت وهذا هو الذي اعتمد عليه بعض السادة الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم وبينه بما بينه والحق أن الذي شيبه صلى الله تعالى عليه وسلم ما تضمنته هذه السورة أعم من هذا الأمر وغيره مما عظم أمره على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمقتضى علمه الجليل ومقامه الرفيع وهذا هو المنقدح لذهن السامع ولذلك لم يسأله صلى الله عليه وسلم أصحابه عما شيبه منها ومن أخواتها بل إكتفوا بما يتبادر من أمثال ذلك الكلام

(10/371)

ودعوى أن المتبادر لهم رضي الله تعالى عنهم ما خفي على أبي علي فلذلك لم يسألوا على تقدير تسليمها يبقى أنهم لم يسألوا عما شيبه عليه الصلاة والسلام من الأخوات مع أنه ليس فيها إلا ذكر يوم القيامة وهلاكا لأمم دون ذلك الأمر وكونهم علموا أن المشيب فيها ذلك وفي أخواتها شيء آخر هو ذكر يوم القيامة وهلاك الأمم يأباه ما في خبر أبي علي من نفيه صلى الله عليه وسلم وكون ما ذكر مشيبا مفهوما ما من سورة دون أخرى لا يخفى حاله وبالجملة لا ينبغي التعويل على هذه الرواية وإن سلم أنها صحت عن أبي علي وإتهام الرائي بعدم الحفظ أو بعدم تحقيق المرئي أهون من القول بصحة الرؤية والتكلف لتوجيه ما فيها وسيأتي في آخر السورة إن شاء الله تعالى تمام الكلام في هذا المقام فليفهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ 302.303 ﴾

(11/371)

" فصل فى فضل السورة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

يُذكر فيه حديثان ساقطا الإسناد : حديث أُبيّ : من قرأَ سورة هود أُعطِيَ من الأَجر بعدد مَنْ صدّق نوحاً ، وهوداً ، وصالحاً ، ولوطاً ، وشعيباً ، وموسى ، وهارون ، وبعدد

مَنْ كذَّبهم ، ويعطيه بعددهم أَلف أَلف مدينة فيها من الفوز والنعيم ما يعجز عن ذكره الملائكة ولا يعلم إِلاَّ الرَّبُ الغفورُ الودود الشكور ، وحديث عليّ : يا عليّ مَن قرأَ سورة هود يخرج من الدّنيا كما يخرج يحيى بن زكريّا طاهراً مطهّراً ، وكان فى الجنَّة رفيق يحيى ، وله بكلِّ آية قرأَها ثوابُ أُمِّ يحيى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 254 ﴾

---

(1) قال الزيلعى : رَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الموضوعات من طَرِيق أبي بكر بن أبي دَاوُد السجسْتَانِي حَدثنَا مُحَمَّد بن عَاصِم حَدثنَا شَبَابَة بن سوار حَدثنَا مخلد عبد الْوَاحِد عَن عَلّي بن زيد بن جدعَان وَعَطَاء بن أبي مَيْمُونَة عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه الْمُتَقَدّمين فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط أخبرنَا الْأُسْتَاذ أَبُو عُثْمَان سعيد بن مُحَمَّد الزَّعْفَرَانِي حَدثنَا أَبُو عَمْرو مُحَمَّد بن جَعْفَر بن مطر الْعدْل أَنا إِبْرَاهِيم بن شريك الْأَسدي حَدثنَا أَحْمد بن عبد الله بن يُونُس حَدثنَا سَلام بن سليم الْمَدَائِنِي حَدثنَا هَارُون ابْن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . الر كتاب أحكمت)

هذه السّورة مكِّيَة بالإِجماع .

وعدد آياتها مائة واثنتان وعشرون عند الشّاميّين ، وإِحدى وعشرون عند المكّيين والبصريّين ، وثلاث وعشرون عند الكوفيّين .

وكلماتها أَلف وتسعمائة وإِحدى عشرة كلمة .

وحروفها سبعة آلاف وستمائة وخمس .

والآيات المختلف فيها سبع ﴿ بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ، ﴿ فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ، ﴿ مِنْ سِجِّيْلٍ ﴾ ؛ ﴿ مَنْضُوْدٌ ﴾ ، ﴿ إِنَّا عَامِلُوْنَ ﴾ ، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ ﴾ ، ﴿ مُخْتَلِفِيْنَ ﴾ .

مجموع فواصلها (ق ص د ت ل ن ظ م ط ب ر ز د) يجمعها قولك (قصدْت لنظم طبرْزَد) .

وسمّيت سورة هود لاشتمالها على قصّة هود – عليه السّلام – وتفاصيلها .

المقصود الإِجمالىّ من السّورة : بيان حقيقة القرآن ، واطِّلاع الحقّ سبحانه على سرائر الخلق وضمائرهم ، وضمانُه تعالى لأَرزاق الحيوانات ، والإِشارة إِلى تخليف العَرْش ،

وابتداءِ حاله ، وتفاوت أَحوالى الكفَّار ، وأَقوالهم وتحدّى المُعْرِضِين عن العُقْبى ، ولعن الظَّالمين ، وطردهم ، وقصّة أَهل الكفر والإِيمان ، وتفصيل قصّة نوح ، وبشارة الملائكة لإِبراهيم وسارة بإِسحاق ، وحديث لوط ، وإِهلاك قومه ، وذكر شُعَيْب ، ومناظرة قومه إِيَّاه ، والإِشارة إِلى قصّة موسى وفرعون ، وبيان أَن فرعون يكون مقدّم قومه إِلى جهنَّم ، وذكر جميع [أَحوال] القيامة ، وتفضيل الفريقين والطريقين ، وأَمر الرّسول صلَّى الله عليه وسلَّم بالاستقامة ، والتَّجنُّب من أَهل الظُّلم والضَّلال ، والمحافظة على الصّلوات الخمس ، والطَّهارة ، وذكر الرّحمة فى اختلاف الأُمّة ، وبيان القصص ، وأَنباءِ الرسل .

لتثبيت قلب النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، والأَمر بالتَّوكُّل على الله فى كلِّ حال .

الناسخ والمنسوخ :

(13/371)

المنسوخ فى هذه السّورة ثلاث آيات ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ م ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ ن ﴿ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ م آية السّيف ن ﴿ وَانْتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ م آية السّيف ن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 246 . 248 ﴾

(14/371)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة هود عليه السلام

998 - مسألة :

قوله تعالى : (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ)

ما معناهما : وهل التفصيل غير الإحكام ؟ .

جوابه :

معناه : أحكمت آياته في اللوح المحفوظ ، ثم فصلت في إنزالها

على النبى - صلى الله عليه وسلم - بحسب الحاجة والمصلحة ذلك الوقت .

999 - مسألة :

قوله تعالى : (إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2)

هنا ، وفى الأحزاب والبقرة وحم السجدة قدم البشارة ؟

جوابه :

لما قال هنا (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) ناسب تقديم النذارة على عبادة غير الله تعالى ، وفى الأحزاب والبقرة كان الخطاب له ، فناسب كرامته تقديم البشارة ، وكذلك في (حم)

ناسب ذكر "الرحمة ووصف الكتاب" تقديم البشارة والله أعلم .

200 - مسألة :

قوله تعالى : (إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) . وقال : (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) .

ما فائدة السعي وهو مضمون ؟

جوابه :

أنه تكفل برزقها على الوجه المعتاد والمشروع لمصالح العالم

وعمارة الدنيا وكما يخلق الولد على الوجه المعتاد من الوطىء وغيره ، وإن كان قادرا على

إيجاده اختراعا أوليا .

201 - مسألة :

قوله تعالى : (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ) وفى حم السجدة : (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ) .

جوابه :

أن آية هود تقدمها : (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ) فأغنى عن إعادتها

ثانيا ، ولم يتقدم ذلك في

حم السجدة فذكرها .

202 - مسألة :

قوله تعالى : (فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ)

جوابه :

(15/371)

أن ذلك الخطاب يجوز من النبى - صلى الله عليه وسلم - للكفار أي فإن لم يستجيبوا لكم من دعوتموهم فاعلموا ، فيكون من تمام خطاب النبي - صلى الله عليه وسلم - لهم .

ويجوز أن يكون الشرط خطابا من الله تعالى للمؤمنين ،

ويكون قوله تعالى (فَاعْلَمُوا) أي فدوموا على علمكم ،

ويعنى بعلم الله : بإذنه ، أو بعلمه بالغيوب وبمعلوماته .

203 - مسألة :

قوله تعالى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا) الآية . وقال في آل عمران في يوم أحد : (مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا) الآية وهم أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - ؟ .

جوابه :

من وجوه : قيل : هو عام ومعناه خاص في الكفار من أهل الكتاب والربانيين وغيرهم .

وقيل : هو في العصاة من المؤمنين ، ويكون قوله تعالى :

(لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ) إن جازاهم على ذلك ،

لكنه يعفو عنهم إذا شاء .

وقيل : المراد من كان يريد الدنيا فقط خاصة دون الآخرة

لعدم إيمانه بها أو إهماله لشأنها .

204 – مسألة :

قوله تعالى : (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ)

أين خبره ؟ .

جوابه :

هو محذوف لدلالة الكلام عليه ، وهو كثير في القرآن جريا على عادة كلام العرب لفهم المعنى

منه تقديره : كمن هو ضال كفور .

205 – مسألة :

قوله تعالى : (قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي) والشرط لا يكون إلا مستقبلا ؟ .

جوابه :

أن تقديره إن بنت ، أو بان أو صح أني افتريته فعلي إجرامي

206 – مسألة :

قوله تعالى في قصة عاد ومدين : (ولَمَّا) بالواو وفى قصة ثمود وقوم لوط بالفاء ؟ .

جوابه :

قصة صالح ولوط جاءتا في سياق الوعد المؤقت بالعذاب فناسب "الفاء" الدالة على سببية الوعد لما جاء . وقصة عاد ومدين جاءتا مبتدأتين غير مسببتين عن وعد مؤقت لسابق فجاءا بواو العطف على الجملة التي قبلها .

207 – مسألة :

(16/371)

قوله تعالى : (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ) .

وفى الحجر : (وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65))

استثنى امرأته فى هود ولم يستثنها في الحجر ، وفى الحجر خاصة (وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ) ؟ .

جوابه :

أنه تقدم في الحجر : (إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلَّا امْرَأَتَهُ)

فأغنى عن إعادة استثنائيا ، ولم يتقدم ذلك في هود ، فذكرها

فيها .

وأما قوله تعالى : ((وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ) فليكون

وراء أهله في السير فيتحقق نجاتهم مما أصاب قومه فيتحقق ما

وعده به الملائكة الرسل إليه .

208 – مسألة :

قوله تعالى : (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) .

وفى الحجر : (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73)) ؟ .

جوابه :

أن ابتداء عذابهم الصبح ، وآخره لشروق الشمس ، فعبر هنا

عن ابتداء العذاب ، وفى الحجر عن انتهائه بالشروق والإشراق ، والله أعلم .

209 – مسألة :

قوله تعالى : (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ) وفى

العنكبوت : (فَقَالَ يَا قَوْمِ) ؟ .

جوابه :

أن سياق ما تقدم من قصص الأنبياء خال عن "الفاء"

في مثل ذلك ، وآية العنكبوت تقدمها القصص بالفاء في مثله ،

قال تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ) (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ) (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ) ، فناسب سياق

ذلك فقال بالفاء هنا .

210 - مسألة :

قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا) وفى قصة صالح ولوط : ((فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا) بالفاء ؟ .

جوابه :

أن شعيبا لم يوقت لهم العذاب ، ولا توعدهم بسرعته ، فجاء بالواو لأنه غير منتظر .

(17/371)

وفى قصة صالح ولوط وقت لهما العذاب ، فصالح قال : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام وفى لوط : إن موعدهم الصبح ، فجاءت بالفاء المؤذنة بالسبب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 208.214﴾

(18/371)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ ﴾ بحذف النّون ، والجمع ، وفى القصص ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ ﴾ عدّت هذه الآية من المتشابه فى فصلي : أَحدهما حذف النّون من ﴿ فَإِلَّم ﴾ فى هذه السّورة وإِثباتها فى غيرها .

وهذا من فَصْل الخَطِّ .

وذُكر فى موضعه .

والثَّانى جمع الخطاب ههنا ، وتوحيده فى القصص ؛ لأَنَّ ما فى هذه السّورة خطاب للكفَّار ، والفعل لمن استطعتم ، وما فى القصص خطاب للنَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم ، والفعل للكفَّار .

قوله : ﴿ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ سبق .

قوله : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴾ ، وفى النَّحل : ﴿ هُمُ الْخَاسِرونَ ﴾ ؛ لأَنَّ هؤلاءِ صدُّوا عن سبيل الله ، وصَدُّوا غيرهم ، فضَلُّوا وأَضَلُّوا ؛ فهم الأَخسرون يضاعف لهم العذابُ ، وفى النَّحل صدُّوا ، فهم الخاسرون .

قال الإِمام : لأَنَّ ما قبلها فى هذه السّورة ، (يبصرون ، يفترون) لا يعتمدان على أَلف بينهما ، وفى النحل (الكافرون والغافلون) فللموافقة بين الفواصل جاءَ فى هذه السّورة :

الأَخسرون وفى النَّحل : الخاسرون .

قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ ﴾ بالفاءِ وبعده : ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ ﴾ بالفاءِ وهو القياس .

وقد سبق .

قوله : ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ ﴾ وبعده ﴿ وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ وبعدهما ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً ﴾ ؛ لأَنَّ (عنده) وإِن كان ظرفاً فهو اسم فذكر فى الأُولى بالصّريح ، والثانية والثالثة بالكناية ؛ لتقدم ذكره .

فلمّا كُنى عنه قد ذم ؛ لأَنَّ الكناية يتقدّم عليها الاسم الظَّاهر نحو ضرب زيد عمراً فإِن كنيت عن عمرو قدّمته ؛ نحو عمرو ضربه زيد .

وكذلك زيد أَعطانى درهماً من ماله ، فإِن كنيت عن المال قلت : المالُ زيدٌ أَعطانى منه درهماً .

(19/371)

قال الإِمام : لمّا وقع ﴿ آتَانِي رَحْمَةً ﴾ فى جواب كلام فيه ثلاث أَفعال كلُّها متعدّ إِلى مفعولين ليس بينهما حائل بجارّ ومجرور وهو قوله : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ

اتَّبَعَكَ ﴾ و ﴿ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِيْنَ ﴾ أُجرى الجوابُ مُجراه ، فجُمع بين المفعولين من غير حائل .

وأَمّا الثانى فقد وقع فى جواب كلام قد حِيل بينهما بجارٍّ ومجرور ، وهو قوله : ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً ﴾ ؛ لأَنَّ خبر كان بمنزلة المفعول ، لذلك حيل فى الجواب بين المفعولين بالجارّ والمجرور .

قوله : ﴿ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾ فى قِصّة نُوح ، وفى غيرها ﴿ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ ﴾ لأَنَّ فى قصّة نوح وقع بعدها (خزائن) ولفظ الال للخزائن أَليق .

قوله : ﴿ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ وفى الأَنعام : ﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ ؛ لأَنَّ [ما] فى الأَنعام آخر الكلام [بدأَ] فيه بالخطاب ، وخَتَم به ، وليس [ما] فى هذه السّورة آخر الكلام ، بل آخره ﴿ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ ﴾ فبدأَ بالخطاب وخَتَم به فى السّورتين .

قوله : ﴿ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً ﴾ وفى التَّوبة) ﴿ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً ﴾ ذُكر هذا فى المتشابه ، وليس منه ؛ لأَنَّ قوله : ﴿ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً ﴾ عَطْف على قوله : ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي ﴾ ، فهو مرفوع ، وفى التَّوبة معطوف على ﴿ يُعَذِّبْكُمْ وَيَسْتَبْدِلْ ﴾ وهما مجزومان ، فهو مجزوم .

قوله : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً ﴾ فى قصّة هود وشعيب بالواو ، وفى قصّة صالح ولوط : (فلمّا) بالفاءِ ؛ لأَنَّ العذاب فى قصّة هود وشعَيب تأَخَّر عن وقت الوعيد ؛ فإِنَّ فى قصّة هود : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ وفى قصّة شعيب ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ﴾ والتَّخويف قارنه التسويف ، فجاءَ بالواو والمهلة ، وفى قصّة صالح ولوط وقع العذاب عقِيب الوعيد ؛ فإِنَّ قصّة صالح) ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ﴾ ، وفى قصّة لوط : ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ فجاءَ بالفاءِ للتَّعجيل والتَّعقيب .

قوله : ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هذه الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ وفى قصّة موسى : ﴿ فِي هذه لَعْنَةً ﴾ ؛ لأَنَّه لمّا ذكر فى الآية الأُولى الصّفة والموصوف اقتصر فى الثَّانية على الموصوف ؛ للعلم به والاكتفاءِ بما فيه .

قوله ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ وبعده ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ ؛ لموافقة الفواصل . ومثله ﴿ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ ، وفى التَّوبة ﴿ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ للرَّوِىّ فى السّورتين .

قوله : ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [وفى إبراهيم ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾] ؛ لأَنَّ فى هذه السّورة جاءَ على الأَصل (وتدعونا) خطاب مفر ، وفى إبراهيم لمّا وقع بعده (تدعوننا) بنونين ، لأَنه خطاب جمع ، حذف النّون استثقالاً للجمع بين النّونات ، ولأَنَّ فى سورة إبراهيم اقترن بضمير قد غيّر ما قبله بحذف الحركة ، وهو الضّمير المرفوع فى قوله : (كفرنا) ، فغيّر ما قبله فى (إنّا) بحذف النُّون ، وفى هود اقترن ضمير لم يغيّر ما قبله ، وهو الضمير المنصوب ، والضّمير المجرور فى قوله : ﴿ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أَتَنْهَانَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ فصحّ كما صحّ .

قوله : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ ﴾ ثمّ قال ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ ﴾ التذكير والتأْنيث حَسَنان ، لكنَّ التذكير أَخفّ فى الأُولى .

وفى الأُخْرى وافق ما بعدها وهو ﴿ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ قال : الإمام : لمّا جاءَت فى قصّة شُعَيْب مرّةً الرّجْفة ، ومرّة الظُّلّة ، ومرّة الصّيحة ، ازداد التّأْنيث حُسْناً .

قوله : ﴿ فِي دِيَارِهِمْ ﴾ فى موضعين فى هذه السّورة فحسب ، لأَنّه اتصل بالصّيحة ، وكانت من السماءِ ، فازدادت على الرّجْفة ؛ لأَنّها الزلزلة ، وهى تختصّ بجزء من الأَرض فجُمعت مع الصّيحة ، وأُفردت مع الرّجفة .

قوله : ﴿ إِنَّ ثَمُودًا ﴾ بالتنوين ذكر فى المتشابه .

وثمود من الثَّمْد ، وهو الماء القليل ، جُعل اسم قبيلة ، فهو منصرف من وجه ، وممنوع من وجه ، فصرفوه فى حالة النَّصب ؛ لأَنَّه أَخف أَحوال الاسم ، ومنعوه فى حالة الرّفع ؛ لأَنَّهُ أَثقل أَحوال الاسم ، وجاز الوجهان فى الجرّ ؛ لأَنَّه واسطة بين الخِفَّة والثِّقَل .

(22/371)

قوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ ﴾ وفى القصص : ﴿ مُهْلِكَ الْقُرَى ﴾ ؛ لأَنَّ الله سبحانه وتعالى نفى الظُّلم عن نفسه بأَبلغ لفظ يستعمل فى النفى ؛ لأَنَّ هذه اللَّام لام الجحود ، ولا يظهر بعدها (أَنْ) ولا يقع بعدها المصدر ، ويختصّ بكان ، ولم يكن ، ومعناه : ما فعلت فيما مضى ، ولا أَفعل فى الحال ، ولا أَفعل فى المستقبل ، (وكان) الغايةَ فى النَّفى ، وفى القصص لم يكن صريحُ ظلم ، فاكتفى بذكر اسم الفاعل ، وهو لأَحد الأَزمنة غير معيّن ، ثمّ نفاه .

قوله : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ استثنى فى هذه السّورة من الأَهل قوله : ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ ولم يستثن فى الحجْر اكتفاءً بما قبله ، وهو قوله : ﴿ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا امْرَأَتَهُ ﴾ فهذا الاستثناءُ الَّذى انفردتْ به سورة الحِجْر قام مقام الاستثناءِ من قوله : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ وزاد فى

الحجر ﴿ وَاتَّبَعَ أَدْبَارَهُمْ ﴾ ؛ لأَنَّه إِذا ساقهم وكان من ورائهم علم بنجاتهم ولا يخفى عليه حالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 248.254 ﴾

(23/371)

وقال العلامة الكَرْماني رحمه الله :

سورة هود

204 - قوله تعالى فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا 14 بحذف النون والجمع وفي القصص فإن لم بإثبات النون لك فاعلم 13 على الواحد عدت هذه الآية من المتشابه في فصلين أحدهما حذف النون من فإن لم في هذه السورة وإثباتها في غيرها وهذا من فعل الخط وقد ذكرته في كتابة المصاحف والثاني جمع الخطاب ههنا وتوحيده في القصص لأن ما في هذه السورة خطاب للكفار والفعل يعود لمن استطعتم وما في القصص خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والفعل للكفار

205 - قوله وهم بالآخرة هم كافرون 19 سبق

206 - قوله لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون 22 وفي النحل هم الخاسرون 109 لأن هؤلاء صدوا عن سبيل الله وصدوا غيرهم فضلوا فهم الأخسرون يضاعف لهم

العذاب وفي النحل صدوا فهم الخاسرون قال الخطيب لأن ما قبلها في هذه السورة يبصرون 20 يفترون 21 لا يعتمدان على ألف بينهما وفي النحل الكافرون 83 و والغافلون 108 فللموافقة بين الفواصل جاء في هذه السورة الأخسرون وفي النحل الخاسرون

207 - قوله ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير 25 بالفاء وبعده فقال الملأ 27 بالفاء وهو القياس وقد سبق

208 - قوله وآتاني رحمة من عنده 28 وبعده وآتاني منه رحمة

63 - وبعدهما ورزقني منه رزقا حسنا 88 لأن عنده وإن كان ظرفا فهو اسم فذكر الأولى بالصريح والثانية والثالثة بالكناية لتقدم ذكره فلما كنى عنه قدمه لأن الكناية يتقدم عليها الظاهر نحو ضرب زيد عمرا فإن كنيت عن عمر قدمته نحو عمرو ضرب زيد وكذلك زيد أعطاني درهما من ماله فإن كنيت عن المال قلت المال زيد أعطاني منه درهما قال الخطيب لما وقع آتاني رحمة 28 في جواب كلام فيه ثلاثة أفعال كلها متعد إلى مفعولين ليس بينهما حائل بجار ومجرور وهو قوله ما نراك إلا بشرا مثلنا 27 وما نراك اتبعك 27 بل نظنكم كاذبين 27 أجرى الجواب مجراه فجمع بين المفعولين من غير حائل

(24/371)

وأما الثاني فقد وقع في جواب كلام قد حيل بينهما بجار ومجرور وهو قوله قد كنت فينا مرجوا 62 لأن خبر كان بمنزلة المفعول كذلك حيل في الجواب بين المفعولين بالجار والمجرور

209 – قوله يا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله 29 في قصة نوح وفي غيرها أجرا إن أجري لأن في قصة نوح وقع بعدها خزائن 31 ولفظ المال بالخزائن أليق

210 – قوله ولا أقول إني ملك 31 وفي الأنعام ولا أقول لكم إني ملك 50 لأن في الأنعام آخر الكلام فيه جاء بالخطاب وختم به وليس في هذه السورة آخر الكلام بل آخره تزدرى أعينكم 31 فبدأ بالخطاب وختم به في السورتين

211 – قوله ولا تضرونه شيئا 57 وفي التوبة ولا تضروه شيئا 39 ذكر هذا في المتشابه وليس منه لأن قوله ولا تضرونه شيئا عطف على قوله ويستخلف ربي 57 فهو مرفوع وفي التوبة معطوف على يعذبكم يستبدل 39 وهما مجزومان فهو مجزوم

212 – قوله ولما جاء أمرنا نجينا هودا 58 94 في قصة هود وشعيب بالواو وفي قصة صالح ولوط فلما 66 82 بالفاء لأن العذاب في قصة هود وشعيب تأخر عن وقت الوعيد فإن في قصة هود فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم 57 وفي قصة شعيب سوف تعلمون 93 والتخويف قارنه التسويف فجاء بالواو المهملة وفي قصة صالح ولوط وقع العذاب عقيب الوعيد فإن في قصة صالح تمتعوا في داركم ثلاثة أيام 65 وفي قصة لوط أليس الصبح بقريب 81 فجاء الفاء للتعجيل والتعقيب

213 - قوله وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة 60 وفي قصة موسى في هذه لعنة 99 لأنه لما ذكر في الآية الأولى الصفة والموصوف اقتصر في الثانية على الموصوف للعلم والاكتفاء بما قبله

214 - قوله إن ربي قريب مجيب 61 وبعده إن ربي رحيم ودود 90 لموافقة الفواصل ومثله لحليم أواه منيب 75 وفي التوبة لأواه حليم 114 للروي في السورتين

(25/371)

---

215 - قوله وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب 62 وفي إبراهيم وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب 9 لأنه في السورتين جاء على الأصل وتدعونا خطاب مفرد وفي إبراهيم لما وقع بعده تدعوننا بنونين لأنه

خطاب جمع حذف منه النون استثقالا للجمع بين النونات ولأن في إبراهيم اقترن بضمير قد غير ما قبله بحذف الحركة وهو الضمير المرفوع في قوله كفرنا فغير ما قبله في إننا بحذف النون وفي هود اقترن بضمير لم يغير ما قبله وهو الضمير المنصوب والضمير المجرور في قوله فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا 62 فصح كما صح

216 - قوله وأخذ الذين ظلموا الصيحة 67 ثم قال وأخذت الذين ظلموا 94 التذكير والتأنيث حسنان لكن التذكير أخف في الأولى بحذف حرف منه وفي الأخرى وافق ما

بعدها وهو كما بعدت ثمود 95

قال الخطيب لما جاءت في قصة شعيب مرة الرجفة ومرة الظلة ومرة الصيحة ازاداد التأنيث حسنا

217 – قوله في ديارهم 67 94 في موضعين في هذه السورة لأنه اتصل بالصيحة وكانت من السماء فازدادت على الرجفة لأنها الزلزلة وهي تختص بجزء من الأرض فجمعت مع الصيحة وأفردت مع الرجفة

218 – قوله إن ثمودا 68 بالتنوين ذكر في المتشابه فقلت ثمود من الثمد وهو الماء القليل جعل اسم قبيلة فهو منصرف من وجه وغير منصرف من وجه فصرفوه في حال النصب لأنه أخف أحوال

الاسم ولم يصرفوه في حال الرفع لأنه أثقل أحوال الاسم وجاز الوجهان في الجر لأنه واسطة بين الخفة والثقل

219 – قوله وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون 117 وفي القصص مهلك القرى 59 لأن الله تعالى نفى الظلم عن نفسه بأبلغ لفظ يستعمل في النفي لأن هذه اللام لام الجحود وتظهر بعدها أن ولا يقع بعدها المصدر وتختص بكان معناه ما فعلت فيما مضى ولا أفعل في الحال ولا أفعل في المستقبل فكان الغاية في النفي وما في القصص لم يكن صريح ظلم فاكتفى بذكر اسم الفاعل وهو أحد الأزمنة غير معين ثم نفاه

(26/371)

---

220 - قوله فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك 81 وفي الحجر بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد 65 استثنى في هذه السورة من الأهل قوله إلا امرأتك 81 ولم يستثن في الحجر اكتفاء بما قبله وهو قوله إلى قوم مجرمين إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته 58 60 فهذا الاستثناء الذي تفردت به سورة الحجر قام مقام الاستثناء من قوله فأسر بأهلك بقطع من الليل وزاد في الحجر واتبع أدبارهم 65 لأنه إذا ساقهم وكان من ورائهم علم بنجاتهم ولا يخفى عليه حالهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أسرار التكرار فى القرآن صـ ﴾

(27/371)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة هود

سميت في جميع المصاحف وكتب التفسير والسنة سورة هود ، ولا يعرف لها اسم غير ذلك ، وكذلك وردت هذه التسمية عن النبيء صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عباس أن أبا بكر قال : " طيا رسول الله قد شبت ، قال : شيبتني هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت " .

رواه الترمذي بسند حسن في كتاب التفسير من سورة الواقعة .

وروي من طرق أخرى بألفاظ متقاربة يزيد بعضها على بعض .

وسميت باسم هود لتكرر اسمه فيها خمس مرات ، ولأن ما حكي عنه فيها أطول مما حكي عنه في غيرها ، ولأن عادا وصفوا فيها بأنهم قوم هود في قوله : ﴿ أَلَا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود : 60] ، وقد تقدم في تسمية سورة يونس وجه آخر للتسمية ينطبق على هذه وهو تمييزها من بين السور ذوات الافتتاح ب ﴿ الر ﴾ .

وهي مكية كلها عند الجمهور .

وروي ذلك عن ابن عباس وابن الزبير ، وقتادة إلا آية واحدة وهي ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ إلى قوله : ﴿ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود : 114] .

وقال ابن عطية : هي مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة .

وهي قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ ﴾ [هود : 12] ، وقوله : ﴿ أَفَمَنْ

كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ قيل نزلت في عبد الله بن سلام ، وقوله : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ [هود : 114] الآية .

قيل نزلت في قصة أبي اليسر كما سيأتي ، والأصح أنها كلها مكية وأن ما روي من أسباب النزول في بعض آيها توهم لاشتباه الاستدلال بها في قصة بأنها نزلت حينئذ كما يأتي ، على أن الآية الأولى من هذه الثلاث واضح أنها مكية .

نزلت هذه السورة بعد سورة يونس وقبل سورة يوسف .

وقد عدت الثانية والخمسين في ترتيب نزول السور .

(28/371)

ونقل ابن عطية في أثناء تفسير هذه السورة أنها نزلت قبل سورة يونس لأن التحدي فيها وقع بعشر سور وفي سورة يونس وقع التحدي بسورة ، وسيأتي بيان هذا .

وقد عدت آياتها مائة وإحدى وعشرين في العدد المدني الأخير .

وكانت آياتها معدودة في المدني الأول مائة واثنتين وعشرين ، وهي كذلك في عدد أهل الشام وفي عدد أهل البصرة وأهل الكوفة مائة وثلاث وعشرون .

وأغراضها : ابتدأت بالإيماء إلى التحدي لمعارضة القرآن بما تومئ إليه الحروف المقطعة في أول السورة .

وبا تلائها بالتنويه بالقرآن .

وبالنهي عن عبادة غير الله تعالى .

وبأن الرسول عليه الصلاة والسلام نذير للمشركين بعذاب يوم عظيم وبشير للمؤمنين بمتاع حسن إلى أجل مسمى .

وإثبات الحشر .

والإعلام بأن الله مطلع على خفايا الناس .

وأن الله مدبر أمور كل حي على الأرض .

وخلق العوالم بعد أن لم تكن .

وأن مرجع الناس إليه ، وأنه ما خلقهم إلا للجزاء .

وتثبيت النبيء صلى الله عليه وسلم وتسليته عما يقوله المشركون وما يقترحونه من آيات على وفق هواهم ﴿ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ [هود : 12] .

وأن حسبهم آية القرآن الذي تحداهم بمعارضته فعجزوا عن معارضته فتبين خذلانهم فهم أحقاء بالخسارة في الآخرة .

وضرب مثل لفريقي المؤمنين والمشركين .

وذكر نظرائهم من الأمم البائدة من قوم نوح وتفصيل ما حل بهم وعاد وثمود ، وإبراهيم ، وقوم لوط ، ومدين ، ورسالة موسى ، تعريضا بما في جميع ذلك من العبر وما ينبغي منه الحذر فإن أولئك لم تنفعهم آلهتهم التي يدعونها .

وأن في تلك الأنباء عظة للمتبعين بسيرهم .

وأن ملاك ضلال الضالين عدم خوفهم عذاب الله في الآخرة فلا شك في أن مشركي العرب صائرون إلى ما صار إليه أولئك .

وانفردت هذه السورة بتفصيل حادث الطوفان وغيضه .

(29/371)

ثم عرض باستئناس النبيء صلى الله عليه وسلم وتسليته باختلاف قوم موسى في الكتاب الذي أوتيه فما على الرسول وأتباعه إلا أن يستقيم فيما أمره الله وأن لا يركنوا إلى المشركين ، وأن عليهم بالصلاة والصبر والمضي في الدعوة إلى الصلاح فإنه لا هلاك مع الصلاح .

وقد تخلل ذلك عظات وعبر والأمر بإقامة الصلاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير جـ 11 صـ 197. 199﴾

(30/371)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة هود

الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2)

والآية 114 واردة في سياق تسرية عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بما كان من الاختلاف على موسى من قبل . وتوجيهه للاستقامة كما أمر هو ومن تاب معه , وعدم الركون إلى الذين ظلموا [أي أشركوا] والاستعانة بالصلاة وبالصبر على مواجهة تلك الفترة العصيبة . . وتتوارد الآيات هكذا : ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه , ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم , وإنهم لفي شك منه مريب [110] وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم , إنه بما يعملون خبير [111] فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا , إنه بما تعملون بصير [112] ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار , وما لكم من دون الله من أولياء , ثم لا تنصرون [113] وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل , إن الحسنات يذهبن السيئات , ذلك ذكرى للذاكرين [114] واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين [115] . . وواضح أن الآية قطعة من السياق المكي , موضوعا وجوا وعبارة . .

لقد نزلت السورة بجملتها بعد يونس . ونزلت يونس بعد الإسراء . وهذا يحدد معالم الفترة التي نزلت فيها ; وهي من أحرج الفترات وأشقها كما قلنا في تاريخ الدعوة بمكة . فقد سبقها موت أبي طالب وخديجة ; وجرأة المشركين على ما لم يكونوا ليجرؤوا عليه في حياة أبي طالب - وخاصة بعد حادث الإسراء وغرابته , واستهزاء المشركين به , وارتداد بعض من كانوا أسلموا قبله - مع وحشة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من خديجة - رضي الله عنها - في الوقت الذي تجرأت فيه قريش عليه وعلى دعوته ; وبلغت الحرب المعلنة عليه وعلى دعوته أقسى وأقصى مداها ; وتجمدت حركة الدعوة حتى ما كاد يدخل في الإسلام أحد من مكة وما حولها . . وذلك قبيل أن يفتح الله على رسوله وعلى القلة المسلمة معه ببيعة العقبة الأولى ثم الثانية . .

قال ابن إسحاق: ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد , فتتابعت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المصائب بهلك خديجة - وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها - وبهلك عمه أبي طالب - وكان له عضدا وحرزا في أمره , ومنعة وناصرا على قومه - وذلك قبل مهاجرته إلى المدينة بثلاث سنين . فلما هلك أبو طالب

نالت قريش من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب , حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش , فنثر على رأسه ترابا .

قال ابن إسحاق: فحدثني هشام بن عروة , عن أبيه عروة بن الزبير , قال: لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذلك التراب , دخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بيته والتراب على رأسه , فقامت إليه إحدى بناته , فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي . ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول لها : " لا تبكي يا بنية , فإن الله مانع أباك " قال: ويقول بين ذلك: " ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب " .

(32/371)

وقال المقريزي في إمتاع الأسماع: فعظمت المصيبة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بموتهما وسماه "عام الحزن" وقال: " ما نالت قريش مني شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب " لأنه لم يكن في عشيرته وأعمامه حاميا له ولا ذابا عنه غيره .

ففي هذه الفترة نزلت سورة هود ويونس قبلها , وقبلهما سورة الإسراء وسورة الفرقان وكلها تحمل طابع هذه الفترة ; وتحدث عن مدى تحدي قريش وتعديها .

وآثار هذه الفترة وجوها وظلالها واضحة في جو السورة وظلالها وموضوعاتها !

وبخاصة ما يتعلق بتثبيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والذين معه على الحق ; والتسرية عنه مما يساور قلبه من الوحشة والضيق والغربة في المجتمع الجاهلي .

وقد برز طابع هذه الفترة ومقتضياتها في السورة في سمات عدة نشير إلى بعض منها :

فمن ذلك استعراض السورة لحركة العقيدة الإسلامية في التاريخ البشري كله , من لدن نوح - عليه السلام - إلى عهد محمد - عليه الصلاة والسلام - وتقرير أنها قامت على حقائق أساسية واحدة: هي الدينونة لله وحده بلا شريك , والعبودية له وحده بلا منازع ; والتلقي في هذه الدينونة والعبودية عن رسل الله وحدهم على مدار التاريخ . مع الاعتقاد بأن الحياة الدنيا إنما هي دار ابتلاء لا دار جزاء ; وأن الجزاء إنما يكون في الآخرة ; وأن حرية الاختيار التي أعطاها الله للإنسان ليختار الهدى أو الضلال هي مناط هذا الابتلاء .

ولقد جاء محمد عليه الصلاة والسلام ومعه (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) . . أما مضمون هذا الكتاب الأساسي فهو: (ألا تعبدوا إلا الله , إنني لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى , ويؤت كل ذي فضل فضله , وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير) . . .

ولكن هذه لم تكن دعوة مبتدعة ولا قولا غير مسبوق . . لقد قالها من قبل نوح وهود وصالح وشعيب وموسى وغيرهم: (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه , إني لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله , إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) . . (وإلى عاد أخاهم هودا قال: يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون . يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني , أفلا تعقلون ? ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه , يرسل السماء عليكم مدرارا , ويزدكم قوة إلى قوتكم . . ولا تتولوا مجرمين) . . (وإلى ثمود أخاهم صالحا , قال: يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره , هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها , فاستغفروه ثم توبوا إليه , إن ربي قريب مجيب) . . (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال . يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره , ولا تنقصوا المكيال والميزان , إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط , ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ) . .

فكلهم إذن قال هذه الكلمة الواحدة ودعا بهذه الدعوة الثابتة . .

ومن ذلك عرض مواقف الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – وهم يتلقون الإعراض والتكذيب , والسخرية والاستهزاء , والتهديد والإيذاء , بالصبر والثقة واليقين بما معهم من

الحق , وفي نصر الله الذي لا شك آت ; ثم تصديق العواقب في الدنيا - وفي الآخرة كذلك - لظن الرسل الكرام بوليهم القادر العظيم , بالتدمير على المكذبين , وبالنجاة للمؤمنين:

(34/371)

ففي قصة نوح نجد هذا المشهد : (فقال الملأ الذين كفروا من قومه:ما نراك إلا بشرا مثلنا , وما نراك) (اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي , وما نرى لكم علينا من فضل , بل نظنكم كاذبين . . قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم , أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ? ويا قوم لا أسألكم عليه مالا , إن أجري إلا على الله , وما أنا بطارد الذين آمنوا , إنهم ملاقو ربهم . ولكني أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم ? أفلا تذكرون ? ولا أقول لكم عندي خزائن الله , ولا أعلم الغيب , ولا أقول:إني ملك , ولا أقول للذين تزدري أعينكم:لن يؤتيهم الله خيرا , الله أعلم بما في أنفسهم , إني إذن لمن الظالمين . قالوا:يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا , فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال:إنما يأتيكم به الله - إن شاء - وما أنتم بمعجزين) .

. ثم يجيء مشهد الطوفان وهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين .

وفي قصة هود نجد هذا المشهد : (قالوا:يا هود ما جئتنا ببينة , وما نحن بتاركي آلهتنا عن

قولك , وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول:إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . . قال:إني أشهد الله , واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه , فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم , ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها , إن ربي على صراط مستقيم , فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم , ويستخلف ربي قوما غيركم , ولا تضرونه شيئا , إن ربي على كل شيء حفيظ) . . ثم تجيء العاقبة: (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله , واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة , ألا إن عادا كفروا ربهم , ألا بعدا لعاد قوم هود !) .

(35/371)

وفي قصة صالح نجد هذا المشهد : (قالوا:يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا , أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ? وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب . قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة , فمن ينصرني من الله إن عصيته ? فما تزيدونني غير تخسير) . . ثم تجيء العاقبة بعد عقر الناقة والتكذيب: فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ , إن ربك هو القوي العزيز , وأخذ الذين ظلموا

الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها , ألا إن ثمود كفروا ربهم , ألا بعدا لثمود ! . .

وفي قصة شعيب نجد هذا المشهد : قالوا : يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد ! قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا ؟ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه , إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت , وما توفيقي إلا بالله , عليه توكلت وإليه أنيب . ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح , وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه , إن ربي رحيم ودود . قالوا : يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول , وإنا لنراك فينا ضعيفا , ولولا رهطك لرجمناك , وما أنت علينا بعزيز . قال : يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ؟ إن ربي بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل , سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب , وارتقبوا إني معكم رقيب . . ثم تجيء الخاتمة : (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا , وأخذت الذين ظلموا الصيحة , فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها , ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود !) . .

ومن ذلك التعقيب على هذا القصص بتوجيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى دلالته: والتسرية عنه بما أصاب إخوانه الكرام قبله ; وبما أولاهم الله من رعايته ونصره ; وتوجيهه (صلى الله عليه وسلم) إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما فاصل الرسل الكرام أقوامهم على الحق الذي أرسلوا به . . وذلك إلى التنويه بدلالة هذا القصص ذاته على صدق دعواه في الوحي والرسالة .

فبعد نهاية قصة نوح نجد هذا التعقيب: (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك , ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا , فاصبر , إن العاقبة للمتقين) .

وفي نهاية القصص الوارد في السورة نجد هذا التعقيب الطويل إلى ختام السورة: (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم , فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك , وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة , إن أخذه أليم شديد) . . .

(ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ; ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم , وإنهم لفي شك منه مريب . وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم , إنه بما يعملون خبير . فاستقم كما أمرت ومن تاب معك , ولا تطغوا , إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار , وما لكم من دون الله من أولياء , ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفي النهار

وزلفا من الليل , إن الحسنات يذهبن السيئات , ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) . . . (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك , وجاءك في هذه الحق , وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السماوات والأرض , وإليه يرجع الأمر كله , فاعبده , وتوكل عليه , وما ربك بغافل عما تعملون) . .

(37/371)

وهكذا يتجلى لنا الجانب الحركي في التوجيه القرآني ? وهكذا نرى القرآن يواجه واقع الدعوة والحركة في كل مرحلة بالتوجيه المكافيء للموقف ; وهكذا نجد القصص في القرآن يواجه مقتضيات الحركة والمعركة مع الجاهلية في مراحلها المختلفة مواجهة حية فاعلة , شأنه شأن بقية السورة التي يجيء فيها ; ونجده في الوقت ذاته متناسقا مع سياق السورة وجوها وموضوعها , متوافيا مع أهدافها , مصدقا في عالم الواقع لما تقرره من توجيهات وأحكام وإيحاءات تقريرية .

ولقد جاء في التعريف بسورة يونس من قبل في الجزء الحادي عشر:

"ولقد كان آخر عهدنا – في هذه الظلال – بالقرآن المكي سورة الأنعام وسورة الأعراف

متواليتين في ترتيب المصحف – وإن لم تكونا متواليتين في ترتيب النزول – ثم جاءت الأنفال والتوبة بجوهما وطبيعتهما وموضوعاتهما المدنية الخاصة – فالآن إذ نعود إلى القرآن المكي نجد سورتي يونس وهود متواليتين في ترتيب المصحف وفي ترتيب النزول أيضا . .

والعجيب أن هناك شبها كبيرا بين هاتين السورتين وهاتين , في الموضوع , وفي طريقة عرض هذا الموضوع كذلك ! فسورة الأنعام تتناول حقيقة العقيدة ذاتها وتواجه الجاهلية بها ; وتفند هذه الجاهلية , عقيدة وشعورا , وعبادة وعملا . بينما سورة الأعراف تتناول حركة هذه العقيدة في الأرض , وقصتها في مواجهة الجاهلية على مدار التاريخ . وكذلك نحن هنا مع سورتي يونس وهود . . في شبه كبير في الموضوع وفي طريقة العرض أيضا . . إلا أن سورة الأنعام تنفرد عن سورة يونس بارتفاع وضخامة في الإيقاع , وسرعة وقوة في النبض , ولألاء شديد في التصوير والحركة . . بينما تمضي سورة يونسفي إيقاع رخي , ونبض هادئ , وسلاسة وديعة ! . . فأما هود فهي شديدة الشبه بالأعراف موضوعا وعرضا وإيقاعا ونبضا . . ثم تبقى لكل سورة شخصيتها الخاصة , وملامحها المميزة , بعد كل هذا التشابه والاختلاف" . .

فالآن نفصل هذه الإشارة المجملة:

إن سورة يونس تحتوي على جانب من القصص مجمل . . إشارة إلى قصة نوح , وإشارة إلى الرسل من بعده , وشيء من التفصيل في قصة موسى , وإشارة مجملة إلى قصة يونس . . ولكن القصص إنما يجيء في السورة شاهدا ومثالا لتصديق الحقائق الاعتقاديه التي تستهدفها السورة .

أما سورة هود فالقصص فيها هو جسم السورة . وهو إن جاء شاهدا ومثالا لتصديق الحقائق الاعتقاديه التي تستهدفها ; إلا أنه يبدو فيه أن استعراض حركة العقيدة الربانية في التاريخ البشري هو الهدف الواضح البارز .

لذلك نجد تركيب السورة يحتوي على ثلاثة قطاعات متميزة:

القطاع الأول يتضمن حقائق العقيدة في مقدمة السورة ويشغل حيزا محدودا .

والقطاع الثاني يتضمن حركة هذه الحقيقة في التاريخ ويشغل معظم سياق السورة .

والقطاع الثالث يتضمن التعقيب على هذه الحركة في حيز كذلك محدود . .

وواضح أن قطاعات السورة بجملتها تتعاون وتتناسق في تقرير الحقائق الاعتقادية الأساسية التي يستهدفها سياق السورة كله ; وأن كل قطاع منها يقرر هذه الحقائق وفق طبيعته وطريقة تناوله لهذه الحقائق . وهي تختلف بين التقرير والقصص والتوجيه

وهذه الحقائق الأساسية التي تستهدف السورة تقريرها هي:

أن ما جاء به النبي (صلى الله عليه وسلم) وما جاء به الرسل من قبله حقيقة واحدة موحى بها من الله – سبحانه – وهي تقوم على الدينونة لله وحده بلا شريك . والتلقي في هذه الدينونة عن رسل الله وحدهم كذلك . والمفاصلة بين الناس على أساس هذه الحقيقة:

ففي مقدمة السورة تجيء هذه الآيات عن حقيقة دعوة رسول الله – (صلى الله عليه وسلم) :

ألر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ألا تعبدوا إلا الله , إنني لكم منه نذير وبشير . . (أم يقولون:افتراه ? قل:فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله , وأن لا إله إلا هو , فهل أنتم مسلمون ?) .

(39/371)

وفي قصص الرسل يرد عن حقيقة دعوتهم ; وعن المفاصلة بينهم وبين قومهم وأهلهم على أساس العقيدة:

ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه , إني لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله , إني أخاف عليكم

عذاب يوم أليم .

(قال: يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم , أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟) . .

(ونادى نوح ربه فقال: رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين .

قال: يا نوح) (إنه ليس من أهلك , إنه عمل غير صالح , فلا تسألن ما ليس لك به علم , إني أعظك أن تكون من الجاهلين) .

وإلى عاد أخاهم هودا قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون . .

وإلى ثمود أخاهم صالحا , قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره , هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب . .

قال: يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة , فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فما تزيدونني غير تخسير . .

(وإلى مدين أخاهم شعيبا , قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . . .) .

(قال: يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا . . .) .

وفي التعقيب ترد هذه الآيات عن حقيقة الدعوة وعن المفاصلة بين الناس على أساسها :

(ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء , ثم لا تنصرون)

. .

(ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله , فاعبده وتوكل عليه , وما ربك بغافل عما تعملون) .

وهكذا تلتقي قطاعات السورة الثلاثة على تقرير هذه الحقيقة .

ولكي يدين الناس لله وحده بالربوبية , فإن السورة تتولى تعريفهم به سبحانه , وتقرر كذلك أنهم في قبضته في هذه الدنيا ; وأنهم راجعون إليه يوم القيامة ليجزيهم الجزاء الأخير . .

وتتوافى مقاطع السورة الثلاثة في تقرير هذه الحقيقة كذلك .

في المقدمة يجيء :

(40/371)

ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه , ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون , إنه عليم بذات الصدور . وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها , ويعلم مستقرها ومستودعها , كل في كتاب مبين , وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام , وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا , ولئن قلت: إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا: إن هذا إلا سحر مبين . ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن: ما يحبسه ? ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم , وحاق بهم ما كانوا به

يستهزئون . .

(من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار , وحبط ما صنعوا فيها , وباطل ما كانوا يعملون) . .

وفي قصص الرسل تجيء أمثال هذه التعريفات:

(إني توكلت على الله ربي وربكم , ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم , ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا , إن ربي على كل شيء حفيظ) . .

وإلى ثمود أخاهم صالحا . قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها , فاستغفروه ثم توبوا إليه , إن ربي قريب مجيب . .

وفي التعقيب يجيء:

(وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذه أليم شديد) . .

(وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم , إنه بما يعملون خبير) .

(41/371)

(وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون . ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة , ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك , ولذلك خلقهم , وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) . . وهكذا تتوافى قطاعات السورة الثلاثة كذلك على التعريف بحقيقة الألوهية وحقيقة الآخرة في سياقها . وهي لا تستهدف إثبات وجود الله – سبحانه – إنما تستهدف تقرير ربوبية الله وحده في حياة البشر , كما أنها مقررة في نظام الكون . . فقضية الألوهية لم تكن محل خلاف ; إنما قضية الربوبية هي التي كانت تواجهها الرسالات ; وهي التي كانت تواجهها الرسالة الأخيرة . إنها قضية الدينونة لله وحده بلا شريك ; والخضوع لله وحده بلا منازع . ورد أمر الناس كلهم إلى سلطانه وقضائه وشريعته وأمره . كما هو واضح من هذه المقتطفات من قطاعات السورة جميعا .

وفي سبيل إنشاء تلك الحقائق الاعتقادية في الضمائر , وتثبيتها في النفوس , وتعميقها في الكيان البشري , وبث الحياة النابضة الدافعة فيها بحيث تستحيل قوة إيجابية موحية , مكيفة للمشاعر والتصورات والأعمال والحركات . . في سبيل إنشاء تلك الحقائق على هذا النحو وفي هذا المستوى يحتوي سياق السورة على شتى المؤثرات الموحية والإيقاعات التي تلمس أوتار الكيان البشري كلها في عمق واستجاشة , وهو يعرض هذه الحقائق ويفصلها . .

يحتوي الكثير من الترغيب والترهيب . . الترغيب في خير الدنيا والآخرة لمن يستجيب

لداعي الدينونة لله وحده بلا شريك , وما تحمله للبشرية من خير وصلاح ونماء . .

والترهيب بالحرمان من خير الدنيا أو الآخرة ; وبالعذاب في الدنيا أو في الآخرة لمن يعرضون عن هذا الداعي , ويسلكون طريق الطواغيت حيث يسلمونهم في الآخرة إلى جهنم , التي يقودون لها أتباعهم في الآخرة جزاء ما استسلم لقيادتهم هؤلاء الأتباع في الدنيا ; ورضوا بالدينونة لهم دون الدينونة لله تعالى . وهذه نماذج من الترهيب والترغيب:

(42/371)

(. . . ألا تعبدوا إلا الله , إنني لكم منه نذير وبشير , وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى , ويؤت كل ذي فضل فضله . وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم , وهو على كل شيء قدير) . .

(من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها , وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار , وحبط ما صنعوا فيها , وباطل ما كانوا يعملون) . .

أفمن كان على بينة من ربه , ويتلوه شاهد منه , ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ? أولئك يؤمنون به , ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده , فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك , ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ? أولئك يعرضون

على ربهم , ويقول الأشهاد :هؤلاء الذين كذبوا على ربهم , ألا لعنة الله على الظالمين .

الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا , وهم بالآخرة هم كافرون . أولئك لم يكونوا

معجزين في الأرض , وما كان لهم من دون الله من أولياء , يضاعف لهم العذاب , ما كانوا

يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون . أولئك الذين خسروا أنفسهم , وضل عنهم ما كانوا

يفترون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات

وأخبتوا إلى

ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير

والسميع , هل يستويان مثلا ? أفلا تذكرون ?) .

(ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه , يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ,

ولا تتولوا مجرمين) . . . (فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم , ويستخلف ربي

قوما غيركم , ولا تضرونه شيئا , إن ربي على كل شيء حفيظ) . .

(43/371)

ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه , فاتبعوا أمر فرعون , وما أمر

فرعون برشيد . يقدم قومه يوم القيامة , فأوردهم النار , وبئس الورد المورود . واتبعوا في

هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ! . . .

. . . الخ . . . الخ . .

ويحتوي السياق ذلك القصص الطويل الذي يصدق ذلك الترغيب والترهيب في حركة العقيدة على مدار التاريخ ; من مصارع المكذبين ونجاة المؤمنين – على النحو الذي سبق في بعض المقتطفات – ويبرز مشهد الطوفان بصفة خاصة ; ويبلغ نبض السورة أعلى مستواه في ثنايا هذا المشهد الكوني الفريد :

وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن , فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا , ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه , قال:إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه , ويحل عليه عذاب مقيم . حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا :احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك – إلا من سبق عليه القول – ومن آمن , وما آمن معه إلا قليل . وقال:اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم . وهي تجري بهم في موج كالجبال , ونادى نوح ابنه – وكان في معزل – يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال:سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ! قال:لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم , وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل:يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء

أقلعي وغيض الماء , وقضي الأمر واستوت على الجودي , وقيل: بعدا للقوم الظالمين . . . الخ . . . الخ . . . الخ . . .

(44/371)

ويحتوي بعض صور النفس البشرية في مواجهة الأحداث الجارية بالنعماء والبأساء ; فيرفع للمكذبين المستعجلين بالعذاب , المتحدين للنذر في استهتار . . يرفع لهم صور أنفسهم وهم في مواجهة ما يستعجلون به حين يحل بهم ; وفي الحسرات التي تصيب أنفسهم على تقلب الأحداث بهم ; وفوت النعمة وإفلاتها من أيديهم ; وفي البطر والغرور والانخداع بكشف الضر وفيض النعمة من جديد :

ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن: ما يحبسه ? ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم . وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة , ثم نزعناها منه , إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن: ذهب السيئات عني , إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات , أولئك لهم مغفرة وأجر كبير . . .

ويحتوي شيئا من مشاهد القيامة ; وصور المكذبين فيها ; ومواجهتهم لربهم الذي كذبوا بوحيه وتولوا عن رسله ; وما يجدونه يومئذ من خزي ; لا ينصرهم منه أرباب ولا شفعاء :

ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟ أولئك يعرضون على ربهم , ويقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ! ألا لعنة الله عى الظالمين ! الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا , وهم بالآخرة هم كافرون . أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض , وما كان لهم من دون الله من أولياء , يضاعف لهم العذاب , ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون , أولئك الذين خسروا أنفسهم , وضل عنهم ما كانوا يفترون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون) .

(45/371)

(إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة , ذلك يوم مجموع له الناس , وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه , فمنهم شقي وسعيد . فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض - إلا ما شاء ربك - إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض - إلا ما شاء ربك - عطاء غير مجذوذ) .

ومن المؤثرات التي ترتجف لها القلوب ما يصوره السياق من حضور الله سبحانه واطلاعه على ما يخفي البشر من ذوات الصدور ; بينما هم غارون لا يستشعرون حضوره سبحانه

, ولا علمه المحيط ; ولا يحسون قهره للخلائق وإحاطته بها جميعا , وهم – الذين يكذبون – في قبضته كسائر الخلائق ; من حيث لا يشعرون: (إلى الله مرجعكم , وهو على كل شيء قدير . ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ! ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون , إنه عليم بذات الصدور . وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها , ويعلم مستقرها ومستودعها , كل في كتاب مبين) . .

(إني توكلت على الله ربي وربكم , ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها , إن ربي على صراط مستقيم) .

ومن المؤثرات الموحية في سياق السورة كذلك , استعراض موكب الإيمان . بقيادة الرسل الكرام , على مدار الزمان . وكل منهم يواجه الجاهلية الضالة بكلمة الحق الواحدة الحاسمة الجازمة , في صراحة وفي صرامة , وفي ثقة وطمأنينة ويقين . . وقد مر جانب من هذا الاستعراض في المقتطفات السابقة , والبقية ستأتي في موضعها في تفسير السورة . ومما لا شك فيه أن وحدة موقف الرسل الكرام , ووحدة الحقيقة التي يواجهون بها الجاهلية على مدار الزمان ; ووحدة العبارات المحكية عنهم التي تتضمن هذه الحقيقة . . يحمل في طياته ما يحمل من قوة وإيقاع وإيحاء . .

وحسبنا في تقديم السورة هذه الإشارات المجملة حتى نلتقي بنصوص السورة مفصلة . .

والله المستعان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 1839 . 1848 ﴾

وقال الشيخ الصابونى :

سورة هود

مكية وآياتها ثلاث وعشرون ومائة

بين يدي السورة

* سورة هود مكية وهي تعنى بأصول العقيدة الإسلامية (التوحيد ، الرسالة ، البعث والجزاء) وقد عرضت لقصص الأنبياء بالتفصيل تسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) على ما يلقاه من أذى المشركين ، لاسيما بعد تلك الفترة العصيبة التي مرت عليه بعد وفاة عمه (أبي طالب وزوجه " خديجة " فكانت الآيات تتنزل عليه ، وهي تقص عليه ما حدث لإِخوانه الرسل أنواع الابتلاء ، ليتأسى بهم في الصبر والثبات .

* ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد القرآن العظيم ، الذي أحكمت آياته ، فلا يتطرق إليه خلل ولا تناقض ، لأنه تنزيل الحكيم العليم ، الذي لا تخفى عليه خافية من مصالح العباد

* ثم عرضت لعناصر الدعوة الإسلامية ، عن طريق الحجج العقّليه ، مع الموازنة بين المؤمنين : ، فريق الهدى) و (فريق الضلال) وضربت مثلا للفريقين ، وضحت به الفارق

الهائل بين المؤمنين والكافرين ، وفرقت بينهما كما تفرق الشمس بين الظلمات والنور مثل الفريقين كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع ، هل يستون مثلا ؟ أفلا تذكرون ؟ .

* ثم تحدثت عن الرسل الكرام مبتدئة بقصة " نوح " عليه السلام أب البشر الثاني ، لأنه لم ينج من الطوفان إلا نوح والمؤمنون الذين ركبوا معه في السفينة ، وغرق كل من على وجه الأرض ، وهو أطول الأنبياء عمرا ، وأكثرهم بلاء وصبرا .

(47/371)

---

* ثم ذكرت قصة (هود) عليه السلام الذي سميت السورة الكريمة باسمه ، تخليدا لجهوده الكريمة في الدعوة إلى الله ، فقد أرسل الله تعالى إلى قوم (عاد) العتاة المتجبرين ، الذين اغتروا بقوة أجسامهم وقالوا : من أشد منا قوة ؟ فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية ، وقد أسهبت الآيات في الحديث عنهم ، بقصد العظة والعبرة للمتكبرين المتجبرين " وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد " إلى قوله . . ألآ إن عادا كفروا ربهم ، ألا بعدا لعاد قوم هود " . " ثم تلتها قصة نبي الله " صالح " ثم قصة " شعيب " ثم قصة " موسى وهارون " ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ثم جاء التعقيب المباشر بما في هذه القصص من العبر والعظات ، في إهلاك الله تعالى للظالمين " ذلك

من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . " إلى قوله تعالى : " وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد "

* وختمت السورة الكريمة ببيان الحكمة من ذكر قصص المرسلين ، وذلك للاعتبار بما حدث للمكذبين في العصور السالفة ، ولتثبيت قلب النبي (صلى الله عليه وسلم) أمام تلك الشدائد والأهوال " وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظةِ وذكرى للمؤمنين . . " إلى قوله : فأعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون ، وهكذا تختم السورة بالتوحيد كما بدأت به ، ليتناسق البدء مع الختام ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 2 صـ 5.6 ﴾

(48/371)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة هود

(الر) تقدم أن قلنا إنها حرف تنبيه كألا وتقرأ بأسمائها ساكنة فيقال : (ألف لام ، را)

وإحكام البناء كالقصر والحصن : إتقانه حتى لا يقع فيه خلل ، وتفصيل العقد بالفرائد :

جعل خرزة أو مرجانة بلون بين كل خرزتين من لون آخر ، والمتاع :

كل ما ينتفع به فى المعيشة وحاجة البيوت ، والأجل المسمى : هو العمر المقدر .

ثنى الشيء : عطف بعضه على بعض فطواه ، وإثناء الثوب : إطواؤه ، وثناه عنه :

لواه وحوّله ، وثناه عليه : أطبقه وطواه ليخفيه فيه ، وثنى عنانه عنّى : تحول وأعرض ،

والاستخفاء : محاولة الخفاء ، واستغشى الثوب تغطّى به كما قال حكاية عن نوح عليه

السلام : " وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ

وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً " .

الدابة : اسم لكل نسمة حية تدبّ على الأرض زحفا ، أو على قوائم ثنتين فأكثر ، وغلب

عرفا على ما يركب من الخيل والبغال والحمير ، والدبّ والدبيب : الانتقال لخفيف البطيء

كدبيب الطفل والشيخ المسنّ والعقرب والمستقر : مكان الاستقرار من الأرض ،

والمستودع : حيث كان مودعا قبل الاستقرار فى صلب أو رحم أو بيضة ، والعرش :

مركز نظام الملك ومصدر التدبير ، والبلاء : الاختبار والامتحان ، والأمة :

الطائفة أو المدة من الزمن كما قال تعالى : " وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ " وأصلها الجماعة من نوع واحد

أو دين واحد أو زمن واحد ، مصروفا عنهم : أي مدفوعا ومحبوسا ، وحاق :

نزل وأحاط .

الإذاقة هنا : الإعطاء القليل ، والنزع : السلب والحرمان ، واليئوس : شديد اليأس من عود تلك النعمة ، والكفور : كثير الكفران والجحود لما سلف عليه من النعم ، والنعماء والنعمة والنّعمى : الخير والمنفعة ، ويقابلها الضراء والضّر ، وفرح : بطر مغتر بهذه النعمة ، فخور : متعاظم على الناس بما أوتى من النعم ، مشغول بذلك عن القيام بشكرها .

لعل هنا للاستفهام الإنكارى الذي يفيد النهى ، وضيق الصدر : يراد به الغم والحزن ، والكنز : ما يدّخر من المال فى الأرض ، والوكيل : الرقيب الحفيظ للأمور ، الموكّل بحراستها ، والاستجابة للداعى : إجابته ، والإسلام : الإذعان والخضوع والانقياد :

نوف إليهم : أي نوصّل إليهم ، ولا يبخسون : لا ينقصون ، وحبط : أي فسد وبطل ولم ينتفعوا به .

البينة : ما يتبين به الحق كالبرهان فى الأمور العقلية ، والنصوص فى الأمور النقلية ، والتجارب فى الأمور الحسية ، والشهادة فى القضاء ، ويتلوه : يتبعه ، والشاهد : هو القرآن ، والموعد : مكان الوعد وهى النار يردها كما قال : " لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ " والمرية : الشك

الأشهاد : واحدهم شاهد ، واللعنة : الطرد من الرحمة ، والصدّ عن سبيل اللّه :

الصرف عنه ، والعوج : الالتواء ، ومعجزين فى الأرض ، أي لا يمكنهم أن يهربوا من عذابه ، وضل : أي غاب ، ولا جرم : أي حقا ، وأخبتوا : أي خشعوا وخضعوا وأصله من الخبت ، وهو الأرض المطمئنة .

الملأ : الأشراف والزعماء وأراذل : واحدهم أرذل ، وهو الخسيس الدنيء ، وبادى الرأى : أي ظاهره قبل التأمل فى باطنه ، وفضل : أي زيادة .

أرأيتم : أي أخبرونى ، والبينة . ما يتبين به الحق ، وعميت : أخفيت ، وطرده : أبعده ونحّاه ، وتجهلون : أي تسفهون عليهم ، وهو من الجهالة التي تضادّ العقل والحلم ، وتذكرون أصله تتذكرون ، وزرى على فلان زراية : عابه واستهزأ به .

(50/371)

أصل الجدال . هو الصراع وإسقاط المرء صاحبه على الجدالة وهى الأرض الصّلبة ثم استعمل فى المخاصمة والمنازعة بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب ، والنصح : تحرّى الخير والصلاح للمنصوح له ، والإخلاص فيه قولا وعملا ، والإغواء : الإيقاع فى الغى ، وهو الفساد الحسى والمعنوي ، والإجرام : الفعل القبيح الضارّ الذي يستحق فاعله العقاب .

ابتأس : اشتد بؤسه وحزنه ، والفلك : السفينة ، ويطلق على الواحد والجمع ، والمراد بالأعين هنا : شدة الحفظ والحراسة ، وسخر منه : استهزا به ، ويخزيه : يذله ويفضحه : ومقيم : أي دائم

الفور والفوران : الارتفاع القوى ، يقال فى الماء إذا نبع وجرى ، وإذا غلا وارتفع ، والمراد منه هنا اشتداد غضب اللّه على أولئك المشركين الظالمين لأنفسهم وللناس ، وحلول وقت انتقامه منهم ، والتنور : ما يخبز فيه الخبز ، اتفقت فيه لغة العرب والعجم وأهل بيت الرجل : نساؤه وأولاده وأزواجهم ، ومجريها ومرساها : أي إجراؤها وإرساؤها ، ومعزل : أي مكان عزلة وانفراد ، وآوى : أي ألجأ ، وعصمه : حفظه ، والبلع : ازدراد الطعام والشراب بسرعة ، وغاض الماء غار فى الأرض ونضب ، والجودي : جبل بالموصل .

أعمرته الأرض واستعمرته إياها : إذا فوضت إليه عمارتها ، والريب ، الظن والشك يقال رابنى الشيء يريبنى : إذا جعلك شاكا ، وغير تخسير : أي غير إيقاع فى الخسران باستبدال الشرك بالتوحيد .

الآية : المعجزة الدالة على صدق نبوته ، وذروها : اتركوها ، وعقر الناقة بالسيف : قطع قوائمها به أو نحرها ، والتمتع : التلذذ بالمنافع ، والدار : البلد كما يقال ديار بكر : أي بلادهم ، وكذب فلانا حديثا وكذبه الحديث : أي كذب عليه فيه ، والوعد :

خبر موقوت كأن الواعد قال للموعود إننى أفي به فى وقته ، فإن وفى فقد صدق ولم يكذ به ، وأصل الأخذ : التناول باليد ، ثم استعمل فى الأشياء المعنوية كأخذ الميثاق

(51/371)

والعهد وفى الإهلاك ، والصيحة : الصوت الشديد والمراد بها هنا صيحة الصاعقة ، وجاثمين : أي ساقطين على وجوههم مصعوفين لم ينج منهم أحد ، وغنى بالمكان : أقام فيه .

فما لبث : أي ما أبطأ ، وحنيذ : أي مشوىّ بالرضف وهى الحجارة المحماة ، ولا تصل إليه : أي لا تمتد للتناول ، ونكره وأنكره : ضد عرفه ، وأوجس القلب فزعا : أحسّ به ، ولوط : هو ذلك النبي الكريم ، وهو ابن أخى إبراهيم وأول من آمن به ، ويا ويلتنا : أصلها يا ويلى : وهى كلمة تقال حين يفجأ الإنسان أمر مهمّ من بليّة أو فجيعه أو فضيحة على جهة التعجب منه أو الاستنكار له أو الشكوى منه ، والبعل : الزوج وجمعه بعولة ، وأمر اللّه : قدرته وحكمته ، وحميد : أي تحمد أفعاله ، ومجيد : أي كثير الخير والإحسان الروع : (بالفتح) الخوف والفزع : (وبالضم) النفس ، والحليم : الذي لا يحب المعاجلة بعقاب ، والأوّاه : الكثير التأوه مما يسوء ويؤلم ، والمنيب الذي يرجع إلى اللّه فى كل أمر ،

وغير مردود : أي غير مدفوع لا بجدال ولا بشفاعة .

سيء بهم : أي وقع فيما ساءه وغمه بمجيئهم ، الذرع والذراع : منتهى الطاقة ، يقال مالى به ذرع ولا ذراع : أي مالى به طاقة ، ويقال ضقت بالأمر ذرعا إذا صعب عليك احتماله ، والعصيب : الشديد الأذى ، ويقال هرع وأهرع (بالبناء للمفعول) : إذا حمل على الإسراع ، وقال الكسائي لا يكون الإهراع إلا إسراعا مع رعدة من برد أو غضب أو حمّى أو شهوة ، ولا تخزون : أي لا تخجلوني ، والضيف يطلق على الواحد والجمع ، والرشيد : ذو الرشد والعقل ، لو أن لى بكم قوة : أي على الدفع بنفسي ، أو آوى إلى ركن شديد من أرباب العصبيات القوية الذين يحمون اللاجئين ويجيرون المستجيرين

السرى : (بالضم) والإسراء فى الليل : كالسير فى النهار ، والقطع من الليل :

الطائفة منه ، والسجيل : الطين المتحجر كما جاء فى الآية الأخرى " حِجارَةً مِنْ طِينٍ " .

(52/371)

وقال الراغب : هو حجر وطين مختلط أصله فارسىّ فعرّب ، ومنضود : أي وضع بعضه على بعض وأعد لعذابهم ، ومسومة : أي لها سومة (بالضم) أو علامة خاصة فى علم ربك .

الحليم : ذو الأناة والتروّى الذي لا يتعجل بأمر قبل الثقة من فائدته ، والرشيد :
الذي لا يأمر إلا بما استبان له من الخير والرشد ، والمخالفة : أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر فى قوله أو فعله أو حاله ، يقال خالفنى فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مولّ عنه ، وخالفنى عنه إذا ولى عنه وأنت قاصد له ، وأناب إلى اللّه : رجع إليه ، وجرم الذنب أو المال : كسبه ، ورحيم : عظيم الرحمة للمستغفرين ، ودود : كثير اللطف والإحسان إليهم .

الفقه : الفهم الدقيق المؤثّر فى النفس الباعث على العمل ، والرهط : الجماعة من الثلاثة إلى السبعة أو العشرة ، لرجمناك : لقتلناك بالرمي بالحجارة ، بعزيز : أي ذى عزة ومنعة ، واتخذه ظهريا (بالكسر والتشديد) أي جعله نسيا منسيا لا يذكر كأنه غير موجود ، ومحيط : أي محص ما تعملون ، وعلى مكانتكم : على غاية تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ، يقال مكُن مكانة : إذا تمكن أبلغ تمكن ، وارتقبوا :
أي وانتظروا ، والصيحة : أي صيحة العذاب ، وجاثمين : أي باركين على ركبهم مكبّين على وجوههم ، وغنى بالمكان : أقام به ، وبعدا : أي هلاكا لهم .

الآيات : هى الآيات التسع المعدودة فى سورة الإسراء والمفصّلة فى سورة الأعراف وغيرها ، والسلطان المبين : هو ما آتاه اللّه من الحجة البالغة فى محاوراته مع فرعون

وملئه ، والملأ : أشراف القوم وزعماؤهم ، وما أمر فرعون : أي ما شأنه وتصرفه ، برشيد : أي بذي رشد وهدى ، وقدم يقدم (كنصر ينصر) : تقدم ، فأوردهم النار :

(53/371)

أي أدخلهم إياها ، والورد بلوغ الماء فى مورده من نهر وغيره ، والمورود : الماء والمراد به هنا النار ، وأتبعوا : أي وألحقت به لعنة ، والرفد : (بالكسر) : العطاء والعون فيقال رفده وأرفده : أعانه وأعطاه ، والمرفود : المعطى .

طرف الشيء : الطائفة منه والنهاية ، فطرفا النهار : الغدو والعشى . وروى عن الحسن وقتادة والضحاك أنهما صلاة الصبح والعصر ، والزلف واحدها زلفة وهى الطائفة من أول الليل لقربها من النهار ، وقال الحسن : هما زلفتان صلاة المغرب وصلاة العشاء ، وذكرى : عبرة وعظة ، وللذاكرين : أي المعتبرين المتعظين .

لولا : كلمة تفيد التحضيض والحث على الفعل ، والقرون واحدهم قرن : وهو الجيل من الناس ، قيل هو ثمانون سنة ، وقيل سبعون ، وشاع تقديره بمائة سنة ، والبقية : ما يبقى من الشيء بعد ذهاب أكثره ، واستعمل كثيرا فى الأنفع والأصلح ، لأن العادة قد جرت بأن الناس ينفقون أردأ ما عندهم ويستبقون الأجود ، ويقال أترفته النعمة أي أبطرته

وأفسدته ، وكلمة ربك : أي قضاؤه وأمر

القص : تتبع أثر الشيء للإحاطة به كما قال تعالى : " وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ " والنبأ : الخبر الهام ، ونثبت : أي نقوّى ونجعل فؤادك راسخا كالجبل ، على مكانتكم : أي على تمكنكم واستطاعتكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 11 صـ 168 : حـ 12 صـ 99 ﴾ . باختصار .

(54/371)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة هود وهي مكية 1 - من ذلك قوله جل وعز الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت (آية 1)

المعنى هو كتاب أحكمت آياته قال الحسن أحكمت بالأمر والنهي ثم فصلت بالثواب والعقاب وقال قتادة أحكمها والله من الباطل ثم فصلها بعلمه وبين حلالها وحرامها والطاعة والمعصية وقال مجاهد فصلت فسرت وقيل أحكمت فلا ينسخها شئ بعدها ثم فصلت أنزلت شيئا بعد شئ

ومن أحسنها قول قتادة أي احكمها من الخلل والباطل ثم قال جل وعز من لدن حكيم خبير قال قتادة أي من عند حكيم خبير 2 - ثم قال جل وعز ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير (آية 2) يجوز أن يكون المعنى بأن لا تعبدوا إلا الله ويجوز أن يكون المعنى لئلا تعبدوا ويجوز أن يكون المعنى أمرتم أن لا تعبدوا إلا الله 3 - وقوله جل وعز وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى (آية 3) يمتعكم يعمركم وقيل لا يهلككم وأصل الإمتاع الإطالة ومنه أمتع الله بك ومتع

قال قتادة إلى أجل مسمى أي إلى الموت

4 - وقوله جل وعز ويؤت كل ذي فضل فضله (آية 3) أي من كان له عمل صالح أوتي ثوابه

5 - وقوله جل وعز ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه (آية 5) قال عبد الله بن شداد كان أحدهم يمر بالنبي صلى الله عليه وسلم فيثني صدره ويتغشى ثوبه كراهة أن يراه النبي صلى الله عليه وسلم وقال أبو رزين كان الرجل يضطجع على شقه ويتغشى ثوبه ليستخفي وقال مجاهد يثنون صدورهم شكا وامتراء ليستخفوا منه أي من الله إن استطاعوا وقال الحسن يعني حديث النفس فأعلم الله جل وعز أنهم حين يستغشون ثيابهم في ظلمة الليل وفي أجواف بيوتهم يعلم تلك

الساعة ما يسرون وما يعلنون قال أبو جعفر وهذه المعاني متقاربة أي يسرون عداوة النبي صلى الله عليه وسلم ويطوون ومن صحيح ما فيه ما حدثناه علي بن الحسين قال قال الزعفراني حدثنا حجاج قال ابن جريج أخبرني محمد بن عباد بن جعفر أنه سمع ابن عباس يقرأ ألا إنهم تثنوني صدورهم قال سألته عنه فقال كان ناس يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم ويروى أن بعضهم قال أغلقت بابي وارخيت كما ستري وتغشيت هو ثوبي وثنيت صدري فمن يعلم بي فأعلم الله جل وعز أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون ونظيره ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ومن قرأ تثنوني صدورهم وهي قراءة ابن عباس ذهب إلى

معنى التكثير كما يقال احلولى الشئ وليست تثنوني حتى يثنوها فالمعنى يؤول إلى ذاك 6 – وقوله جل وعز وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها (آية 6) يقال لكل ما دب من الناس وغيرهم داب ودابة على المبالغة تأنيث على الصفة والخلقة 7 – وقوله جل وعز ويعلم مستقرها ومستودعها (آية 6) قال عبد الله بن مسعود مستقرها في الرحم ومستودعها في الأرض التي تموت فيها وقال مقسم عن عبد الله بن عباس مستقرها حيث تأوي إليه ومستودعها حيث تموت في الأرض

وقيل مستقرها ما يستقر عليه عملها ومستودعها ما تصير إليه وقال سعيد بن جبير عن

ابن عباس مستقرها في الرحم

ومستودعها في الصلب 8 - وقوله جل وعز وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام (آية 7) فخبر جل وعز ان من قدر على هذا لا يعجزه شئ 9 - ثم قال جل وعز وكان عرشه على الماء (آية 7) قال سعيد بن جبير سألت ابن عباس على أي شئ كان الماء ولم يخلق سماء ولا أرضا فقال على متن الريح 10 - ثم قال جل وعز ليبلوكم ايكم أحسن عملا (ى ية 7) أي ليختبركم فيظهر منكم ما يجازيكم عليه لأنه إنما يجازي على الفعل وإن كان قد علمه قبل

(56/371)

---

11 - وقوله عز وجل ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين (آية 7) ويقرأ ساحر قال أبو جعفر قال أبو إسحاق والسحر عندهم باطل فكأنهم قالوا إن هذا إلا باطل 12 - وقوله جل وعز ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة (آية 8) قال ابن عباس أي إلى أجل معدود وقال مجاهد أي إلى حين 13 - وقوله جل وعز وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون (آية 8) أي جزاء استهزائهم والمعنى أحاط بهم العذاب

14 - وقوله جل وعز ولئن أذقنا الإنسان (آية 9) أي الكفار منا رحمة أي رزقا 15 - وقوله جل وعز إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات (آية 11) استثناء ليس من الأول بمعنى لكن ويجوز أن يكون استثناء من الهاء لأن تقديره إن الإنسان والانسان الجنس 16 - وقوله جل وعز أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك (آية 12) أي كراهة أن يقولوا ثم قال تعالى إنما أنت نذير أي إنما عليك أن تنذرهم وليس عليك أن تأتيهم من الآيات بما اقترحوا 17 - وقوله جل وعز قل فأتوا بعشر سور مثله (آية 13) المعنى كل سورة منها مثل سورة منه وادعوا من

استطعتم من دون الله أي ليعينكم 18 - وقوله جل وعز من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون (آية 15) قال الضحاك يعنى المشركين إذا عملوا عملا جوزوا عليه في الدنيا وقال سعيد بن جبير من عمل عملا يريد به غير الله جوزي به في الدنيا

وقال مجاهد من عمل عملا ولم يتقبل منه أعطي ثوابه في الدنيا قال أبو جعفر وأحسنها قول الضحاك لقوله بعد ذلك أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار قال مجاهد لا يبخسون لا ينقصون

19 – وقوله جل وعز افمن كان على بينة من ربه (آية 17) قال عكرمة وإبراهيم ومنصور يعني النبي صلى الله عليه وسلم ويتلوه شاهد منه جبريل عليه السلام وقال ابن عباس ومجاهد وإبراهيم شاهد منه أي جبريل صلى الله عليه وسلم وقال الحسن شاهد منه يعني لسانه وقال الضحاك أفمن كان على بينة من ربه محمد صلى الله عليه وسلم ويتلوه شاهد منه أي من الله وهو جبريل عليه السلام وقال أبو جعفر حدثني سعيد بن موسى بقرقيسيا قال نا نخلد بن مالك عن محمد بن سلمة عن خصيف أفمن كان على بينة من ربه قال النبي صلى الله عليه وسلم ويتلوه شاهد منه قال

جبريل عليه السلام قال أبو جعفر تكون الهاء في ربه للنبي صلى الله عليه وسلم وفي يتلوه تعود على البينة لأن البينة والبيان واحد وفي منه

تعود على اسم الله جل وعز وقول الحسن يحتمل المعنى أي ولسانه يعبر عنه ويميز ويجوز أن تكون الهاء في منه تعود على من وقيل الشاهد القرآن ويتلوه يكون بعده تاليا شاهدا ومن قبله أي ومن قبل الشاهد وقد قيل أفمن كان على بينة من ربه يعني به النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون واستشهد صاحب هذا القول بقوله أولئك يؤمنون به والمعنى على القول الأول أفمن كان على بينة من ربه كالذي يريد الحياة الدنيا وزينتها 20 – ثم قال جل وعز ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة (آية 17) أي يصدقه

وقيل هو معطوف على الشاهد أي ويتلوه كتاب موسى وقال مجاهد في قوله ومن قبله كتاب موسى التوراة 21 - ثم قال جل وعز ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده (آيه 17) قال قتادة الأحزاب أهل الملل كلهم وقال سعيد بن جبير كنت إذا وجدت الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم صحيحا أصبت مصداقه في كتاب الله فأفكرت في قول النبي صلى الله عليه وسلم ليس يسمع بي أحد فلا يؤمن بي ولا يهودي ولا نصراني إلا دخل النار فطلبت مصداقه في كتاب الله فإذا هو

(58/371)

ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده والأحزاب أهل الأديان كلها لأنهم يتحاربون 22 - وقوله جل وعز ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم (آية 18) قال الضحاك الأشهاد الأنبياء والمرسلون قال الله جل وعز فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وقال مجاهد الأشهاد الملائكة وقال سفيان سألت الأعمش عن الأشهاد فقال هم الملائكة 23 - وقوله جل وعز يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون (آية 20)

قال قتادة ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا خبرا فينتفعوا به ولا يبصرون خيرا فيأخذوا به وحكى الفراء عن بعض المفسرين أن المعنى يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع ولا يعقلون وذهب إلى أن هذا مثل قولهم جزيته فعله وبفعله ومن أحسن ما قيل فيه وهو معنى قول ابن عباس إن المعنى لا يستطيعون أن يسمعوا الحق سماع منتفع ولا يبصرونه بصر

مهتد لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين وقد روي عنه ما كانوا يستطيعون السمع يعني الآلهة 24 - وقوله جل وعز مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع (آية 24)

قال الضحاك الأصمى عنه والصم مثل للكافر والبصير والسميع مثل للمؤمن قال أبو جعفر وهذا قول حسن يدل عليه قوله تعالى هل يستويان مثلا فدل هذا على أن هذا لاثنين 25 - وقوله جل وعز فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا (آية 27) الملأ الرؤساء والأراذل الأشرار الذين ليسوا برؤوساء واحدهم أرذل 26 - وقوله جل وعز بادي الرأي (آية 27) ويقرأ بادئ الرأي بالهمز فمعنى المهموز ابتداء الرأي أي إنما اتبعوك ولم يفكروا ولم ينظروا ولو فكروا لم يتبعوك ومعنى الذي ليس بمهموز اتبعوك في ظاهر الرأي وباطنهم على خلاف ذلك

يقال بدا يبدو إذا ظهر ويحتمل أن يكون معناه اتبعوك في ظاهر الرأي ولم يفكروا في باطنه وعاقبته فيكون على هذا القول بمعنى المهموز 27 – وقوله جل وعز قال يا قوم ارأيتم إن كنت على بينة من ربي (آية 28) أي على يقين وبيان وهذا جواب لهم لأنهم عابوا من اتبعه فقال أرأيتم إن كنت على بينة من ربي أي فإذا كنت على بينة من ربي فمن اتبعني فهو بصير ومغفور له 28 – ثم قال جل وعز وآتاني رحمة من عنده (آية 28)

قال الفراء يعني الرسالة لأنها نعمة ورحمة 29 – ثم قال جل وعز فعميت عليكم (آية 28) أي لم تفهموها يقال عميت عن كذا وعمي علي كذا أي لم أفهمه والمعنى فعميت الرحمة ويقرأ فعميت فقيل هو مثل دخل الخف في رجلي مجاز إلا أن الرحمة هي التي تعمى وصاحبها يعمى وقال ابن جريج وآتاني رحمة من عنده الإسلام والهدى والحكم والنبوة 30 – ثم قال جل وعز أنلزمكموها وأنتم لها كارهون (آية 28) أي أنوجبها إن عليكم وأنتم كارهون لفهمها

31 – ثم قال الله جل وعز وما أنا بطارد الذين آمنوا (آية 29)

فدل بهذا على أنهم سألوه أن يطردهم 32 – ثم قال جل وعز إنهم ملاقوا ربهم (آية 29) أي فيجازي من طردهم على ما فعل قال الفراء معنى من ينصرني من يمنعني 33 – ثم قال جل وعز ولا أقول للذين تزدري أعينكم (آية 31) معنى تزدري تستقل وتستخس يقال

زريت على الرجل إذا عبته واستخسست إلا فعله وأزريت به إذا قصرت به والمعنى إنكم قلتم إن هؤلاء اتبعوني في ظاهر الرأي وإنما أدعو إلى توحيد الله جل وعز فمن اتبعني قبلته وليس علي ما غاب

(60/371)

---

34 - وقوله جل وعز قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (آية 32) وقرأ ابن عباس فأكثرت جدلنا والجدال والجدل المبالغة في الخصومة وقال مجاهد جادلتنا أي ماريتنا قال الزجاج ومعنى إن كان الله يريد أن يغويكم أي يضلكم ويهلككم وقيل يخيبكم وقال محمد بن جرير يغويكم يهلككم بعذابه حكى عن طي أصبح فلان غاويا أي مريضا واغويته فيه أهلكته ومنه فسوف يلقون غيا

35 - وقوله جل وعز أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي (آية 35) أي إن اختلقته فعلي إثم الاختلاق وأنا برئ مما تجرمون أي من تكذيبكم ومن قرأ أجرامي بفتح الهمزة ذهب إلى جمع جرم 36 - وقوله جل وعز وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن (آيه 36) قال الضحاك فدعا عليهم أي لما أخبر بهذا قال إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا 37 - ثم قال جل وعز فلا تبتئس بما كانوا يفعلون (آية

36) قال مجاهد وقتادة أي فلا تحزن

قال أبو جعفر وهو عند أهل اللغة حزن مع استكانة 38 - وقوله جل وعز ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه (آية 38) يروى أنهم كانوا يمرون به وهو يصنع الفلك فيقولون هذا الذي كان يزعم أنه نبي قد صار نجارا 39 - ثم قال جل وعز قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون (آية 38) أي إن تستجهلونا فنحن نستجهلكم كما استجهلتمونا صلى 40 - ثم قال جل وعز فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل

عليه عذاب مقيم (آية 39) أي من يؤول أمره إلى هذا فهو الجاهل 41 - وقوله جل وعز حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور (آية 40) روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال أي وطلع

(61/371)

الفجر كأنه يذهب إلى تنوير الصبح قال عبد الله بن عباس التنور وجه الأرض وكانت علامة بين نوح وربه جل وعز أي إذا رايت الماء قد فار على وجه الأرض فاركب أنت وأصحابك السفينة وقال قتادة التنور أعلى الأرض واشرفها وكان ذلك علامة له وكان

مجاهد يذهب إلى أنه تنور الخابز وقال الشعبي جاء الماء من ناحية الكوفة قال أبو جعفر وهذه الأقوال ليست بمتناقضة لأن الله قد خبرنا ان الماء قد جاء من السماء والأرض فقال ففتحنا أبواب

السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة 42 - وقوله جل وعز قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين (آية 40) قال مجاهد أي ذكرا وأنثى وقال قتادة أي من كل صنفين والزوج في اللغة واحد معه آخر لا يستغني عنه يقال عندي زوجان من الخفاف وما أشبه ذلك 43 - ثم قال جل وعز وأهلك إلا من سبق عليه القول (آية 40) أي إلا من سبق عليه القول بالهلاك

ثم قال جل وعز ومن آمن أي واحمل من آمن 44 - ثم قال جل وعز وما ى من معه إلا قليل (آية 40) يروى عن ابن عباس أنه قال حمل معه ثمانين وقال قتادة ما آمن معه إلا ثمانية خمسة بنين وثلاث نسوة 45 - وقوله جل وعز وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها (آية 41) أي بالله إجراؤها وارساؤها ومن قرأ مجداها وقال أنه ذهب إلى ان المعنى جريها ورسوها أي ثباتها وروي عن أبي رجاء العطاردي أنه قرأ باسم الله مجريها ومرسيها على النعت

46 - وقوله جل وعز ونادى نوح ابنه وكان في معزل (آية 42)

قال عبد الله بن عباس ما بغت امرأة نبي قط وكان ابنه وقال سعيد بن جبير هو ابنه لأن الله عز وجل خبرنا بذلك وقال عكرمة إن شئتم حلفت لكم أنه ابنه وقال الضحاك هو ابنه قال الله جل وعز ونادى نوح ابنه وقال مجاهد ليس هو ابنه ويبين ذلك قول الله تبارك وتعالى فلا تسألني ما ليس لك به علم قال الحسن لم يكن ابنه وإنما ولد على فراشه فنسب إليه والقول الأول ابين وأصح لجلالة من قاله وأن قوله إنه ليس من أهلك ليس مما ينفي عنه انه ابنه وقد قال الضحاك معناه ليس من أهل دينك ولا من أهل ولايتك

وقال سفيان معناه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم قال أبو جعفر وهذان القولان حسنان في اللغة والأول أولى وروى أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قرأ ونادى نوح ابنه وكان في معزل يريد ابنها ثم حذف الألف ومثل هذا لا يجوز عند أهل العربية علمته ويجوز أن يكون معنى وكان في معزل أي في معزل عن دين أبيه ويكون في معزل عن السفينة وهذا أشبه ومعنى يعصمني يمنعني

47 - وقوله جل وعز قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم (آية 43) فيه قولان أحدهما أنه استثناء ليس من الأول والآخر أنه على النسبة فيكون المعنى لا معصوم كما قال من ماء دافق أي مدفوق وذكر محمد بن جرير قولا ثالثا وزعم أنه أولى ما قيل فيه فقال لا مانع اليوم من أمر الله الذي قد نزل بالخلق من الغرق والهلاك إلا من رحم أي إلا الله كما تقول

لا منجي اليوم إلا الله فمن في موضع رفع ولا تجعل عاصم بمعنى معصوم ولا إلا بمعنى لكن

48 - ثم قال جل وعز وحال بينهما الموج فكان من المغرقين (آية 43)

قال الفراء أي حال بين ابن نوح وبين الجبل الماء فكان من المغرقين 49 وقوله جل وعز وقيل

يا ارض ابلعي ماءك (آية 44) قال قتادة أي ابلعي كل ماء عليك ويا سماء أقلعي أي لا

تمطري وهو ثم قال جل وعز وغيض الماء (آية 44) قال مجاهد أي نقص

(63/371)

وقال قتادة أي ذهب ثم قال جل وعز وقضي الأمر أي قضي الأمر بهلاكهم ثم قال واستوت

على الجودي (آية 44) قال الضحاك هو جبل الموصل 50 - وقوله جل وعز إنه عمل غير

صالح (آية 46) في معناه أقوال

منها ان المعنى انه ذو عمل غير صالح وقيل إن عمله عمل غير صالح وقال قتادة معناه إن

سؤالك إياي ما ليس لك به علم في قوله سآوي إلى جبل يعصمني من الماء عمل غير صالح

وهذا عمل غير صالح قال أبو جعفر وهذا أحسن ما قيل فيه لأن عبد الله بن مسعود قرأ إنه

عمل غير صالح أن تسألني ما ليس لك به علم 51 - وقوله جل وعز قيل يا نوح اهبط بسلام

منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك (آية 48) قال محمد بن كعب قد دخل في هذا كل

مؤمن إلى يوم القيامة ودخل في قوله وأمم سنمتعهم كل فاجر إلى يوم القيامة

وقال الضحاك نحوا من هذا إلا أنه بخلاف هذه الألفاظ وتقديره في العربية على مذهبه

على ذرية أمم ممن معك وذرية أمم سنمتعهم ثم حذف كما قال واسأل القرية 52 - ثم قال

جل وعز تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تلمها أنت ولا قومك من قبل هذا (آية

49) أي ما أوحيناه إليك من خبر نوح لم تكن تعلمه أنت ولا قومك لأنهم ليسوا أهل كتاب

53 - وقوله جل وعز يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني (آية

51) قال مجاهد أي خلقني 54 - وقوله جل وعز ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه

يرسل السماء عليكم مدرارا (آية 52) يروى أنهم كانوا اصحاب زروع وعمارة وكانوا

يسكنون

رمالا بين الشام واليمن فبعثت عليهم الريح فكانت تدخل في أنوفهم وتخرج من أدبارهم

فتقطعهم ومدرارا على التكثير أي يتبع بعضها بعضا 55 - ثم قال جل وعز ويزدكم قوة إلى

قوتكم (آية 52) قال مجاهد أي شدة إلى شدتكم وقال غيره كانوا قد أقاموا ثلاث سنين لا

يولد لهم 56 - وقوله جل وعز إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء

(آية 54) قال مجاهد اصابتك بسوء أي بجنون بسبك إياها ويقال عراه واعتراه واعتره إذا ألم به ومنه وأطعموا القانع والمعتر وقال الشاعر

أتيتك عاريا خلقا ثيابي على خوف تظن بي الظنون المعنى ما نقول إلا اصابك بعض آلهتنا بجنون لسبك إياها 57 – وقوله عز وجل قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون (آية 55) وهذا من علامات النبوة أن يكون الرسول وحده يقول لقومه فكيدوني جميعا وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لقريش وقال نوح صلى الله عليه وسلم فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة

58 – ثم قال جل وعز إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها (آية 56) أي هي في قبضته وتنالها قدرته

59 – ثم قال جل وعز إن ربي على صراط مستقيم (آية 56) قال مجاهد أي على الحق أي يجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته لا يظلم أحدا ولا يقبل إلا الإيمان به قال أبو جعفر والصراط في اللغة المنهاج الواضح

والمعنى إن الله جل ثناؤه وإن كان يقدر على كل شيء فإنه لا يأخذهم إلا بالحق 60 – وقوله جل وعز ولا تضرونه شيئا (آية 57) أي لا تقدرون له على ضرره إذا أراد إهلاككم وقيل لا يضره هلاككم إذا أهلككم أي لا تنقصونه شيئا لأنه سواء عنده أكنتم أم لم تكونوا

61 – ثم قال جل وعز إن ربي على كل شيء حفيظ (آية 57) أي يحفظني من أن ينالني

بسوء 62 - وقوله جل وعز واتبعوا أمر كل جبار عنيد (آية 59)

العنيد والعنود والعاند المدافع بغير حق 63 - ثم قال جل وعز وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة (آية 60) أي والحقوا ومعنى فما تزيدونني غير تخسير غير تخسير لكم إذا ازددتم كفرا 64 - وقوله جل وعز ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية (آية 64) يروى أنها خرجت من صخرة 65 - وقوله جل وعز فيأخذكم عذاب قريب (آية 64) أي قريب ممن مسها 66 - وقوله جل وعز فاصبحوا في ديارهم جاثمين (آية 67)

قال قتادة أي ميتين

(65/371)

---

67 - وقوله جل وعز كأن لم يغنوا فيها (آية 68) قال قتادة أي كأن لم يعيشوا فيها قال الأصمعي المغاني المنازل قال غيره غنيت بالمكان إذا نزلت به والمعنى كأن لن يقيموا فيها في سرور وغبطة 68 - وقوله جل وعز ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى (آية 69) أي بالبشرى بالولد 69 - ثم قال جل وعز قالوا سلاما قال سلام (آية 69) ويقرأ قال سلم قال الفراء سلم وسلام واحد كما يقال حل وحلال 70 - ثم قال جل وعز فما لبث أن جاء بعجل حنيذ (آية 69)

روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال هو النضيج وكذلك قال قتادة وقال الضحاك هو الموقد عليه حتى ينضج وقول أبو عبيدة حينذ بمعنى محنوذ أي مشوي يقال حنذت فرسي أي عرقته والمعنى فما ابطأ إذ تضيفوه بأن جاءهم بعجل ثم حذف الباء من أن وقيل الرسل جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام بالبشرى البشارة بإسحاق

وقيل البشارة بهلاك قوم لوط 71 - وقوله جل وعز فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم (آية 70)

يقال نكر وأنكر واستنكر بمعنى قال قتادة كان الضيف إذا نزل ولم يأكل رأوا أنه لم يأت بخير وأنه قد أتى بشر 72 - ثم قال جل وعز وأوجس منهم خيفة (آية 70) أي أضمر قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط أي أرسلنا بالعذاب وامرأته قائمة وهو قاعد 73 - وقوله تعالى فضحكت فبشرنا ها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب (آية 71) فيه أقوال أحسنها انهح صلى الله عليه وسلم لما لم يأكلوا نكرهم وخافهم فلما قالوا لا تخف وخبروه أنهم رسل فرح بذلك فضحكت امرأته سرورا بفرحه

وروى الفراء أن بعض المفسرين قال المعنى فبشرناهم بإسحاق فضحكت قال أبو جعفر وهذا القول لا يصح لأن التقديم والتأخير لا يكون في الفاء وقيل فضحكت فحاضت

وهذا قول لا يعرف ولا يصح وقيل إنها كانت قالت له أحسب أن هؤلاء القوم سينزل بهم عذاب فضم لوطا إليك فلما جاء الرسل بما قالته سرت به فضحكت وهذا إن صح إسناد فهو حسن وقال قتادة ضحكت من غفلة القوم وقد أتاهم العذاب 74 - وقوله جل وعز ومن وراء إسحاق يعقوب (آية 71) قال الشعبي الوراء ولد الولد

وقال بعض أهل النظر في هذا دليل على أن إسماعيل هو الذبيح لأنها بشرت بانها تعيش حتى يولد إسحاق وحتى يولد لإسحاق يعقوب وكيف يؤمر بذبحه وقد بشرت بان يولد له 75 - وقوله جل وعز قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا (آية 72) قال الفراء يروى أنه كان لها حين بشرت ثمان وتسعون سنة وإبراهيم أكبر منها بسنة 76 - وقوله جل وعز فلما ذهب عن إبراهيم الروع (آية 74) قال قتادة أي الفزع وقوله جل وعز وجاءته البشرى (آية 74) قال قتادة بشروه بأنهم إنما أتوا بالعذاب إلى قوم لوط وأنه لا يخاف

قال معمر وقال غير قتادة بشروه بإسحاق

وروى حميد بن هلال عن جندب عن حذيفة قال المجادلة ها هنا أنه قال لهم أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين أتهلكونهم قالوا لا قال فإن كان فيهم أربعون قالوا لا قال فإن كان فيهم ثلاثون قالوا لا قال فإن كان فيهم عشرون قالوا لا قال فإن كان فيهم عشرة أو خمسة

شك حميد قالوا لا قال قتادة نحوا منه قال فقال يعني إبراهيم قوم ليس فيهم عشر من المسلمين لا خير فيهم قال عبد الرحمن بن سمرة كانوا اربعمائة الف 77 - وقوله جل وعز ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم (آية 77) أي ساءه مجيئهم لما يعرف من قومه وروي أنهم أتوه واستضافوه إذا فقام معهم وكانوا قد أمروا أن لا

(67/371)

يهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث شهادات فقال لهم إن قومي شر خلق الله ثلاث مرات 78 - ثم قال جل وعز وضاق بهم ذرعا (آية 77) قال أبو العباس يقال ضقت بالأمر ذرعا إذا لم تجد في قدرتك القيام به وهو مأخوذ من الذراع لأن فيها القوة 79 - ثم قال جل وعز وقال هذا يوم عصيب (آية 77) قال مجاهد أي شديد وذلك يعرف في اللغة يقال وذلك يعرف في اللغة يقال عصيب وعصبصب للشديد المنكر

80 - وقوله جل وعز وجاءه قومه يهرعون إليه (آية 78) قال ابن عباس أي يسرعون وقال مجاهد يهرولون في المشي وقال أهل اللغة يقال أهرع إذا جاء مسرعا وكان مع ذلك يرعد 81 - وقوله جل وعز قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم (آية 78) فيه أقوال أحسنها قول مجاهد قال يريد نساء أمته ويقوة فقال قول الله جل وعز وأزواجه أمهاتهم

ويروى أن أبي بن كعب وابن مسعود قرءا وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم وقيل المعنى هؤلاء بناتي إن اسلمتم وقيل كان في ملتهم جائز أن يتزوج الكافر المسلمة وقال عكرمة لم يعرض عليهم بناته ولا بنات أمته وإنما قال لهم هذا لينصرفوا

82 - وقوله جل وعز قال لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد (آية 80) قال مجاهد يعني العشيرة 83 - وقوله جل وعز فأسر بأهلك بقطع من الليل (آية 81)

قال قتادة أي بطائفة من الليل يقال سرى واسري إذا سار بالليل فإن قيل السرى لا يكون إلا بالليل فما معنى بقطع من الليل فالجواب أنه لو لم يقل بقطع من الليل جاز أن يكون أوله 84 - وقوله جل وعز ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك (آية 81) المعنى فاسر بأهلك إلا امرأتك ويروى أنها في بعض القراءات كذا وقرأ أبو عمرو إلا امرأتك بالرفع

(68/371)

---

85 - وقوله جل وعز وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل (آية 82) فيه أقوال قال مجاهد هو بالفارسية أي أولها حجارة وآخرها طين وقال قتادة أي من طين وقال أبو جعفر وهذان القولان حسنان وإنما ذهب مجاهد إلى أن أصله بالفارسية ثم أعرب قال أبو جعفر وإنما استحسناه لأنه قال في موضع آخر حجارة من طين قال أبو عبيدة السجيل الشديد وأنشد

ضربا تواصى بها لأبطال أي سجينا ورد عليه هذا القول عبد الله بن مسلم وقال هذا سجين وذاك سجيل وكيف يستشهد به قال أبو جعفر وهذا الرد لا يلزم لأن أبا عبيدة ذهب إلى

أن اللام بدل من النون لقرب إحداهما من الأخرى وقول أبي عبيدة يرد من جهة أخرى وهي أنه لو كان على قوله لكان حجارة سجيلا لأنه لا يقال حجارة من شديد لأن شديدا نعت وقوله جل وعز منضود أي بعضه يعلو بعضا يقال نضدت المتاع واللبن إذا جعلت بعضه على بعض فهو منضود ونضيد قال الشاعر خلت سبيل أتي كان يحبسه ورفعته إلى السجفين فالنضد ويقال سجيل من قولهم أسجلت إذا أعطيت ويقال هو من السجل كأنه مما كتب عليهم وقدر أن يصيبهم قال أبو جعفر وأبو إسحاق يستحسن هذا القول قال ويدل عليه قوله تعالى إن كتاب الفجار لفي سجين وما أدراك ما

سجين كتاب مرقوم وسجين وسجيل واحد 86 – وقوله جل ذكره مسومة عند ربك (آية 83) قال مجاهد أي معلمة

قال أبو جعفر ويقال سومت الشئ إذا علمته ويروى أنه كان عليها أمثال الخواتيم وقال الحسن معلمة وفيها دليل أنها ليست من حجارة الدنيا وانها مما عذب به ويقال سومت الشئ إذا أرسلته إرسالا إلا أنه لم يقل هذا في هذا الحرف 87 – ثم قال جل وعز وما هي من الظالمين ببعيد (آية 83) قال مجاهد يرهب بهذا قريشا وقال غيره المعنى من ظالمي

هذه الأمة قال أبو جعفر والقولان يرجعان إلى معنى واحد وقيل وما هي ممن عمل قوم لوط ببعيد 88 - وقوله جل وعز وإلى مدين أخاهم شعيبا (آية 84)

(69/371)

المعنى وإلى أهل مدين وقوله تعالى ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير (آية 84) قال الحسن كان سعرهم رخيصا والذي توجه اللغة أن يكون عاما 89 - وقوله جل وعز بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين (آية 86) قال الحسن حظكم من الله جل وعز قال مجاهد أي طاعة الله

قال أبو جعفر والمعنى ما يبقي له ثوابه 90 - وقوله جل وعز قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا (آية 87)

قال سفيان عن الأعمش أي قراءتك ودل بهذا على أنهم كانوا كفارا ثم قال أن أو نفعل في أموالنا ما نشاء روي عن زيد بن أسلم أنه قال كان مما نهاهم عنه حذف الدراهم وقيل معنى أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إذا تراضينا فيما بيننا بالبخس فلم تمنعنا منه قال أبو جعفر قال أبو إسحاق معنى إنك لأنت الحليم الرشيد على السخرية وقال غيره معناه إنك لأنت الحليم الرشيد عند نفسك 91 - وقوله جل وعز قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة

من ربي ورزقني منه رزقا حسنا (آية 88) قيل حلالا وقيل ما وفق له من الطاعة

92 - ثم قال جل وعز وما أريد ان أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه (آية 88) قال قتادة أي ليس أنهاكم عن شئ وأركبه

ومعنى وإليه أنيب وإليه أرجع 93 - وقوله جل وعز ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي (آية 89) قال قتادة أي لا يحملنكم قال أبو جعفر والشقاق في اللغة العداوة كأنه يصير في شق غير شقه 94 - وقوله جل وعز وما قوم لوط منكم ببعيد (آية 89) يقال إن أقرب الإهلاكات ثنا التي عرفوها إهلاك قوم لوط أي فالعظة به لكم فيها بينة بقربه منكم 59 - وقوله جل وعز قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا (آية 91) قال سفيان بلغنا أنه كان مصابا ببصره

(70/371)

قال أبو جعفر وحكى أهل اللغة ان حمير تقول للأعمى ضعيف أي قد ضعف بذهاب بصره كما يقال له ضرير أي قد ضر بذهاب بصره كما يقال مكفوف أي قد كف عن النظر بذهاب بصر 96 - وقوله جل وعز ولولا رهطك لرجمناك (آية 91) أي ولولا عشيرتك لقتلناك بالرجم قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله أي أنتم تزعمون أنكم تتركون قتلي من

أجل عشيرتي ولا تخافون من الله جل وعز في ردكم أمره ويقال إن رهطه كانوا على ملتهم فلذلك أظهروا الميل إليهم

97 – وقوله جل وعز واتخذتموه وراءكم ظهريا (آية 92) قال مجاهد أي تركتم ما جئتكم به

قال أهل اللغة المعنى واتخذتم أمر الله وراءكم ظهريا يقال اتخذته ظهريا وجعلت حاجته بظهر أي إذا لم تعن بذلك 98 – وقوله جل وعز وأخذت الذين ظلموا الصيحة (آية 93) يروى ان جبرائيل صلى الله عليه وسلم صاح بهم صيحة فماتوا أجمعون وبين هذا قوله تعالى فأصبحوا في ديارهم جاثمين أي ميتين لا حراك لهم 99 – ثم قال جل وعز كأن لم يغنوا فيها (آية 94) قال قتادة أي كان لم يعيشوا فيها قال أبو جعفر وقد ذكرناه فيما تقدم وهو مأخوذ من الصوت لأنه إنما يقال مغنى للمنزل إذا كان أهله فيه 100 – ثم قال جل وعز ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود (آية 95)

يقال بعد يبعد إذا هلك ومن النأي بعد يبعد 101 – وقوله جل وعز ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (آية 96) السلطان الحجة ومن هذا قيل للوالي سلطان لأنه حجة الله جل وعز في الأرض

ويقال إنه مأخوذ من السليط وهو ما يضاء به 102 – وقوله جل وعز ويوم القيامة بئس

الرفد المرفود (آية 99) قال مجاهد زيدوا لعنة يوم القيامة قال أبو جعفر والرفد في اللغة المعونة والأعطاء والمعنى الذي يقوم لهم مقام المعونة اللعن والتقدير بئس الرفد رفد المرفود

(71/371)

---

103 - وقوله جل وعز ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد (آية 100) قال قتادة القائم ما كان خاويا على عروشه والحصيد ما لا اثر له 104 - وقوله جل وعز وما زادوهم غير تتبيب (آية 101) قال مجاهد وقتادة غير تخسير قال أبو جعفر وكذلك هو عند أهل اللغة ومنه تبت يدا أبي لهب 105 - وقوله جل وعز يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذن (آية 105) وقد قال في موضع آخر واقبل بعضهم على بعض يتساءلون

ففي هذا جوابان أحدهما أنه مثل قوله هذا يوم لا ينطقون

والمعنى لا ينطقون بحجة لهم كما يقال لمن تكلم كثيرا بغير حجة بينة لم يأت بشئ ولم يتكلم بشئ والجواب الآخر أن ذلك اليوم فيه أهوال وشدائد فمرة يمنعون من الكلام ومرة يؤذن لهم فعلى هذا لا تكلم نفس إلا بإذنه 106 - وقوله جل وعز فمنهم شقي وسعيد (آية 105) روى عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر عن عمر قال لما نزلت فمنهم شقي وسعيد قلت يا رسول الله فعلام نعمل أعلى شئ قد فرغ منه أم على شئ لم يفرغ منه قال بلى

على شئ قد فرغ منه يا عمر وجرت به الأقلام ولكن كل ميسر لما خلق له

107 - وقوله جل وعز فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك (آية 107) في هذا أجوبة منها أن العرب خوطبت على ما تعرف وتستعمل وهم يقولون لا أكلمك ما اختلف الليل والنهار وما دامت السماوات والأرض يريدون بذلك الأبد ويكون معنى إلا ما شاء ربك سوى ما شاء ربك من زيادة أهل النار في العذاب وأهل الجنة في النعيم وقد صح أنهم يزادون روى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم

أنه قال قال الله جل وعز أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما أطلعتم ثم قرأ أبو هريرة فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين

(72/371)

وقيل معنى إلا معنى سوى ايضا إلا أن المعنى سوى ما شاء ربك من الزيادة في الخلود وهذان قولان حسنان لأنه معروف في اللغة أن يقال لك عندي كذا وكذا إلا كذا وسوى كذا وغير كذا وحكى سيبويه لو كان معي رجل إلا زيد فهذا بمعنى سوى وغير وحكى الكوفيون لك عندي الف إلا ألفين ويعبر عن إلا في مثل هذا أنها بمعنى سوى وغير ولكن

والمعاني متقاربة وقيل هذا استثناء لأنهم يقيمون في قبورهم فالمعنى على هذا إلا ما شاء ربك من مقامهم في قبورهم وقيل هذا استثناء لأن قوما من الموحدين يدخلون النار ثم تخرجون منها فالمعنى على هذا خالدين في النار ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك من إخراج من شاء برحمته وشفاعة

النبي صلى الله عليه وسلم وقال جابر بن عبد الله في قوله عز وجل عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا إنه الشفاعة ويكون المعنى في أهل الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك من دخول قوم النار وخروجهم إلى الجنة حدثنا أحمد بن محمد الأزدي قال حدثنا أحمد بن داود بن موسى البصري المعروف بالمكي قال نا شيبان بن فروخ قال نا أبو هلال قال نا قتادة في هذه الآية وأما الذين شقوا ففي النار إلى قوله فعال لما يريد فقال عند هذا حدثنا أنس ابن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار قال قتادة لا نقول كما يقول أهل حروراء وقيل في هذا قول خامس وهو أن المعنى خالدين فيها

أبدا ثم قال إلا ما شاء ربك فخاطبهم على ما يعرفون من الاستثناء ورد الأمر إلى الله جل جلاله كما قال تعالى لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين وقد بين هذا بقوله عطاء غير مجذوذ قال مجاهد أي غير مقطوع قال أبو جعفر وذلك معروف في اللغة يقال جذذت الشئ أي قطعته وقد قيل في هذه الآية قول سادس يكون الاستثناء لمقامهم في عرصة

القيامة وقال قتادة تبدل هذه السماء وهذه الأرض فالمعنى خالدين فيها ما دامت تلمك هذا السماء وتلك الأرض

(73/371)

المبدلتان ثم من هاتين

108 - وقوله جل وعز وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص (آية 109) روى سفيان عن جابر عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال ما كتب لهم من خير أو شر 109 - وقوله جل وعز ولولا كلمة سبقت من ربك (آية 110) أي بالتأخير إلى يوم القيامة لقضي بينهم يعني في الدنيا 110 - وقوله جل ذكره ولا تركنوا إلى الذين ظلمو فتمسكم النار (آية 113) قال عكرمة أي تودوهم وتطيعوهم 111 - وقوله جل وعز وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل (آية 114) قال الحسن طرفا النهار الصبح والعصر وزلفا من الليل المغرب والعشاء قال النبي صلى الله عليه وسلم هما زلفتا الليل

وروى سفيان عن منصور عن مجاهد قال طرفا النهار الصبح والظهر والعصر وزلفا من الليل العشاء والعتمة وروى حجاج عن ابن جريج عن مجاهد وزلفا من الليل قال ساعة من الليل إلى العتمة وقول مجاهد الأول احسن لأنه يجتمع به الصلوات

الخمس ولأن ابن عباس قال في قوله تعالى إن الحسنات يذهبن السيئات يعني الصلوات الخمس وروى علقمة والأسود عن عبد الله أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني وجدت امرأة في بستان فقبلتها والتزمتها ونلت منها كل شئ إلا الجماع فافعل في ما شئت فانزل الله جل وعز وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات فقال معاذ بن جبل يا رسول الله أخاص له أم عام للناس فقال بل عام والمعروف من قراءة مجاهد وزلفى بضم الزاي وبحرف التأنيث وقرأ ابن محيصن بهذه القراءة إلا أنه نون في الإدراج ويقرأ وزلفا من الليل وهو واحد مثل الحلم والقراءة المشهورة وزلفا وأنشد سيبويه طي الليالي زلفا فزلفا سماوة الهلال حتى احقوقفا وهو جمع زلفة وهو ساعة تقرب من أخرى ومنه الزلفة ومنه سميت مزدلفة لأنها منزلة تقرب من عرفة 112 - وقوله جل وعز فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية

(آية 116) قيل أولوا طاعة

(74/371)

وقيل أولو تمييز وقيل أولو حظ من الله جل وعز 113 - وقوله جل وعز واتبع الذين ظلموا ما أترفو ولا فيه (آية 116) قال مجاهد من تملكهم وتجبرهم وتركهم الحق 114 - وقوله

جل وعز ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة (آية 118) أي على دين واحد 115 -

ثم قال جل وعز ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم (آية 119) قال أبو

جعفر وهذه الآية من المشكل وقد قيل فيها أقوال روى عبد الكريم الجزري عن مجاهد انه

قال وللرحمة خلقهم

وكذلك قال قتادة وروي عن الحسن فيها أقوال منها أنه قال وللاختلاف خلقهم ومنها أنه

يقال وللرحمة خلقهم ومنها أنه قال خلقهم للجنة والنار والشقاء والسعادة

وقيل هذا القول الذي عليه أهل السنة وهو أبينها وأجمعها والذي رواه عبد الكريم عن

مجاهد ليس بناقض له لأنه قد بينه حجاج في روايته عن ابن جريج عن مجاهد انه قال في قول

الله جل وعز ولا يزالون مختلفين قال أهل الباطل إلا من

رحم ربك قال أهل الحق ولذلك خلقهم قال للرحمة خلق أهل الجنة قال أبو جعفر فهذا قول

بين مفسر ومن قال أيضا خلقهم للاختلاف فليس بناقض لهذا لأنه يذهب إلى ان المعنى

وخلق أهل الباطل للاختلاف وأبينها قول الحسن الذي ذكرناه ويكون المعنى ولا يزال أهل

الباطل مختلفين في دينهم إلا من رحم الله وأهل الإسلام لا يختلفون في دينهم ولذلك خلق أهل

السعادة للسعادة وأهل الشقاء للشقاء وبين هذا قوله جل وعز وتمت كلمة ربك لأملأن

جهنم من الجنة والناس أجمعين (آية 119) وقيل التقدير ينهون عن الفساد في الأرض

ولذلك خلقهم 116 - وقوله جل وعز وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك (آية 120) أي تزيدك به تثبيتا كما قال جل ذكره قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي

(75/371)

---

117 - ثم قال جل وعز وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين (آية 120) قال أبو موسى وابن عباس والحسن ومجاهد في هذه الحق في هذه السورة وقال شعبة سمعت قتادة يقول في هذه الدنيا وهذا القول حسن إلا أنه يعارض بان ذلك يقال قد جاءه الحق في هذه السورة وغيرها وإن كان هذا لا يلزم لأنه لم ينف شيئا ألا ترى أنه يقال فلان في الحق إذا جاءه الموت ولا يراد به انه كان في باطل فتكون هذه السورة خصت بهذا توكيدا لما فيها من القصص والمواعظ

118 - وقوله جل وعز وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون (آية 121) أي عاملون ما أنتم عليه وهذا تهديد ووعيد ألا ترى ان بعده وانتظروا إنا منتظرون إلى قوله وما ربك بغافل عما تعملون تمت سورة هود . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 3 صـ 325.392 ﴾

(76/371)

وقال الفراء :

ومن سورة هود

قوله : الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ [1] .

رفعت الكتاب بالهجاء الذي قبله ، كأنك قلت : حروف الهجاء هذا القرآن . وإن شئت أضمرت له ما يرفعه كأنك قلت : الر هذا الكتاب .

وقوله (ثُمَّ فُصِّلَتْ) بالحلال والحرام . والأمر والنهى . لذلك جاء قوله (أَلَّا تَعْبُدُوا) [2] ثم قال (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ) [3] .

أي فصّلت آياته ألّا تعبدوا وأن استغفروا . فأن فى موضع نصب بإلقائك الخافض «1» .

وقوله : أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ [5] .

نزلت فى بعض من كان يلقى النبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم بما يحبّ ، وينطوى له على العداوة والبغض . فذلك الثنى هو الإخفاء . وقال اللّه تبارك وتعالى ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم اللّه ما يخفون من عداوة محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم .

(حدّثنا محمد قال) «2» حدّثنا الفرّاء قال : وحدّثنى الثقة عبد اللّه بن المبارك عن ابن جريج «3» عن رجل أظنّه عطاء عن ابن عبّاس أنه قرأ (تثنونى صدورهم) وهو فى العربيّة بمنزلة تنثنى كما قال عنترة :

(1) وهو الباء والأصل : بألا تعبدوا . . وأن استغفروا . وانظر الطبري .

(2) سقط ما بين القوسين فى ا . ومحمد هو ابن الجهم راوى الكتاب .

(3) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج المكي توفى سنة 149 ه . وانظر غاية النهاية تحت رقم 1959 .

(77/371)

وقولك للشىء الذي لا تناله إذا ما هو احلولى ألا ليت ذاليا «1»

وهو من الفعل : افعوعلت .

وقوله : وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا [6] فمستقرّها : حيث تأوى ليلا أو نهارا .

ومستودعها :

موضعها الذي تموت فيه أو تدفن .

وقوله : لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا ساحر مبين [7] .

(وسِحْرٌ مُبِينٌ) . فمن قال : (ساحر «2» مبين) ذهب إلى النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم من قولهم . ومن قال : (سِحْرٌ) ذهب إلى الكلام .

(حدّثنا «3» محمد قال) حدّثنا الفرّاء قال : وحدّثنى أبو إسرائيل «4» عن الأعمش

عن أبى رزين «5» عن عبد اللّه بن مسعود أنه قرأ فى ثلاثة مواضع ساحر : فى آخر المائدة «6» وفى يونس «7» وفى الصفّ «8» .

قال الفراء : ولم يذكر الذي «9» فى هود . وكان يحيى بن وثّاب يقرأ فى أربعة مواضع ويجعل هذا رابعا يعنى فى هود .

وقوله : إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا [11] فى موضع نصب بالاستثناء من قوله : (وَلَئِنْ «10» أَذَقْناهُ) يعنى

---

(1) قبله مطلع القصيدة . وهو :

ألا قاتل اللّه الطلول البواليا وقاتل ذكراك السنين الخواليا

وانظر مختار الشعر الجاهلى 380 .

(2) الأولى : (ساحر) قراءة حمزة والكسائي وخلف والثانية : (سحر) قراءة الباقين .

(3) سقط ما بين القوسين فى ا .

(4) هو إسماعيل بن خليفة الكوفي مات سنة 169 ه . وانظر الخلاصة . [. . . . .]

(5) هو لقيط بن صبرة . وهو من الصحابة كما فى الخلاصة .

(6) فى الآية 110 .

(7) ورد فى يونس فى الآيات 2 ، 76 ، 79 .

(8) فى الآية 6 .

(9) . 2 : «التي»

(10) فى الآية 10

(78/371)

الإنسان ثم استثنى من الإنسان لأنه فى معنى الناس ، كما قال تبارك وتعالى : (وَالْعَصْرِ «1» إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا) فاستثنى كثيرا من لفظ واحد لأنه تأويل جماع.

وقوله - عزّ وجلّ - : فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ [12] .

يقول : يضيق صدرك بما نوحيه إليك فلا تلقيه إليهم مخافة أن يقولوا : لولا أنزل عليك كنز .

فأن فى قوله : (أَنْ يَقُولُوا) دليل على ذلك . وهى بمنزلة قوله : (يُبَيِّنُ «2» اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا) و(من) تحسن فيها ثم تلقى ، فتكون فى موضع نصب كما قال - عز وجل : (يَجْعَلُونَ «3» أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ) ألا ترى أن (من) تحسن فى الحذر ، فإذا ألقيت انتصب بالفعل لا بإلقاء (من) كقول الشاعر «4» :

وأغفر عوراء الكريم اصطناعه وأعرض عن ذات اللّئيم تكرّما

وقوله : قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ [13] ثم قال جلّ ذكره : (فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ)

[14] ولم يقل : لك وقد قال فى أوّل الكلام (قل) ولم يقل : قولوا وهو بمنزلة قوله : (عَلى «5» خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ) .

وقوله : مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها [15] ثم قال : (نُوَفِّ) لأن المعنى فيها بعد كان . وكان «6» قد يبطل فى المعنى لأن القائل يقول : إن كنت تعطينى سألتك ، فيكون كقولك : إن

---

(1) فى أول سورة العصر .

(2) خاتمة سورة النساء .

(3) الآية 19 سورة البقرة .

(4) هو حاتم الطائي . وهو من قصيدة يتمدح فيها بمكارم الأخلاق . وقوله : «اصطناعه» فالرواية المشهورة : «ادخاره» والعوراء الكلمة القبيحة . وانظر الخزانة فى الشاهد التاسع والسبعين بعد المائة .

(5) الآية 83 سورة يونس . وهو يريد بالتمثيل أنه إذا أسند إلى الرئيس فعل ذهب الوهم إلى من معه . وانظر ص 476 ج 1 من هذا الكتاب .

(6) فى ا : «كأن كان» يريد أن (كان) في الآية فى حكم المزيدة ، فكأن فعل الشرط (يريد) فهو مضارع كالجواب فقد توافقا من هذه الجهة .

أعطيتنى سألتك . وأكثر ما يأتى الجزاء على أن يتّفق هو وجوابه . فإن قلت : إن تفعل أفعل فهذا حسن . وإن قلت : إن فعلت أفعل كان مستجازا . والكلام إن فعلت فعلت .

وقد قال فى إجازته زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو نال أسباب السّماء بسلّم «1»

وقوله : (وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ) يقول : من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجّل له ثوابه ولم يبخس أي لم ينقص فى الدنيا .

وقوله : [أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ [17] (فالذى على «2» البيّنة من ربّه محمد صلّى اللّه عليه وسلم . وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ) يعنى جبريل «3» عليه السلام يتلو القرآن ، الهاء للقرآن .

وتبيان ذلك : ويتلو القرآن شاهد من اللّه (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى) رفعت الكتاب بمن .

ولو «4» نصبت على : ويتلو من قبله كتاب موسى (إِماماً) منصوب على «5» القطع من (كِتابُ مُوسى) فى الوجهين . وقد قيل فى قوله : (وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ) : يعنى الإنجيل يتلو القرآن ، وإن كان قد أنزل قبله . يذهب إلى أنه يتلوه بالتصديق . ثم قال : ومن قبل الإنجيل

كتاب موسى .

ولم يأت لقوله : (أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ) جواب «6» بيّن كقوله فى سورة محمد صلّى اللّه عليه وسلم : (أَ فَمَنْ كانَ»

عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ) وربما تركت العرب جواب

---

(1) هو من معلقته .

(2) سقط ما بين القوسين فى ش ، ج [. . . . .]

(3) فى ا : «جبرئيل» وهو لغة فيه .

(4) جواب لو محذوف أي لجاز .

(5) أي على الحال .

(6) والجواب المحذوف أو الخبر : كمن كان يريد الدنيا كما فى البيضاوي .

(7) الآية 14

(80/371)

الشيء المعروف معناه وإن ترك الجواب قال الشاعر «1» :

فأقسم لو شيء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

وقال اللّه – تبارك وتعالى وهو أصدق من قول الشاعر – : (وَلَوْ أَنَّ «2» قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ) فلم يؤت «3» له بجواب واللّه أعلم . وقد يفسّره بعض النحويّين يعنى أن جوابه «4» : (وهم يكفرون ولو أنّ قرآنا) والأوّل أشبه بالصواب . ومثله : (وَلَوْ تَرى «5» إِذِ الْمُجْرِمُونَ) (وَلَوْ يَرَى «6» الَّذِينَ ظَلَمُوا) وقوله فى الزمر : (أَمَّنْ «7» هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ) ولم يؤت له بجواب . وكفى «8» قوله : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) من ذلك . فهذا ممّا ترك جوابه ، وكفي منه ما بعده ، كذلك قال فى هود : (مَثَلُ «9» الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا) ولم يقل : هل يستوون . وذلك أن الأعمى والأصمّ من صفة واحد والبصير والسّميع من صفة واحد كقول القائل : مررت بالعاقل واللبيب وهو يعنى واحدا . وقال الشاعر «10» :

وما أدرى إذا يمّمت وجها أريد الخير أيّهما يلينى

ألخير الذي أنا أبتغيه أم الشر الذي لا يأتلينى

---

(1) أي امرؤ القيس . يريد : لو شىء أتانا رسوله سواك دفعناه بدليل قوله : ولكن لم نجد لك مدفعا . وفي الديوان 242 : «أجدك لو شىء . . .»

(2) الآية 31 سورة الرعد .

(3) أي أن الجواب محذوف . وهو (لكان هذا القرآن) .

(4) هذا على أن جواب الشرط قد يتقدم وهو مذهب كوفى . وعند غيرهم أنه دليل الجواب .

(5) الآية 12 سورة السجدة . والجواب محذوف تقديره : لرأيت أمرا فظيعا .

(6) الآية 93 سورة الأنعام والجواب محذوف تقديره : لرأيت أمرا عظيما .

(7) الآية 9 سورة الزمر .

(8) فالجواب تقديره : كالعاصى . والمراد نفى استوائهما كما نفى استواء الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

(9) فى الآية 24 [. . . . .]

(10) انظر ص 231 من الجزء الأول من هذا الكتاب .

(81/371)

قال : أيهما وإنما ذكر الخير وحده لأن المعنى يعرف : أن المبتغى للخير متّق للشرّ وكذلك قول اللّه جل ذكره : (سَرابِيلَ «1» تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ) [أي] وتقى البرد . وهو كذلك وإن لم يذكر .

وقوله : (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ) فيقال : من أصناف الكفّار . ويقال :

إن كلّ كافر حزب .

وقوله : وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ [20] .

هم رءوس الكفرة الذين يضلّون . وقوله : (ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ) على وجهين . فسّره بعض المفسّرين : يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السّمع «2» ولا يفعلون . فالباء حينئذ كان ينبغى لها أن تدخل ، لأنه قال : (وَلَهُمْ «3» عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ) فى غير موضع من التنزيل أدخلت فيه الباء ، وسقوطها جائز كقولك «4» فى الكلام : بأحسن ما كانوا يعملون وأحسن ما كانوا يعملون . وتقول فى الكلام : لأجزينّك بما عملت ، وما عملت . ويقال : ما كانوا يستطيعون السّمع وما كانوا يبصرون : أي أضلّهم اللّه عن ذلك فى اللوح المحفوظ .

وقوله : (لا جَرَمَ أَنَّهُمْ) [22] كلمة كانت فى الأصل بمنزلة لا بدّ أنّك قائم ولا محالة أنّك ذاهب ، فجرت على ذلك ، وكثر استعمالهم إيّاها ، حتّى صارت بمنزلة حقّا ألا ترى أن العرب تقول :

لا جرم لآتينك ، لا جرم قد أحسنت . وكذلك فسّرها المفسّرون بمعنى الحقّ . وأصلها من جرمت

---

(1) الآية 81 سورة النحل .

(2) سقط في ا .

(3) الآية 10 سورة البقرة.

(4) الأولى: كقوله تعالى. فإن الاستعمالين واردان فى الكتاب العزيز فالأول فى الآية 96 سورة النحل، والثاني فى الآية 7 سورة العنكبوت.

(82/371)

أي كسبت الذنب وجرّمته. وليس قول من قال إن جرمت كقولك: حققت أو حققت بشىء وإنما لبّس على قائله قول الشاعر «1»:

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جرمت فزارة بعدها أن تغضبا

فرفعوا (فزارة) قالوا: نجعل الفعل لفزاره كأنه بمنزلة حقّ لها أو حقّ لها أن تغضب وفزارة منصوبة فى قول الفراء أي جرمتهم الطعنة أن يغضبوا.

ولكثرتها فى الكلام حذفت منها الميم فبنو فزارة يقولون: لا جر أنك قائم. وتوصل من أوّلها بذا، أنشدنى بعض بنى كلاب:

إن كلابا والدي لاذا جرم لأهدرنّ اليوم هدرا صادقا «2»

هدر المعنّى ذى الشقاشيق اللهم «3» وموضع أن مرفوع كقوله:

أحقّا عباد اللّه جرأة محلق علىّ وقد أعييت عاد وتبّعا

وقوله : وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ [23] .

معناه : تخشّعوا لربّهم وإلى ربّهم . وربّما جعلت العرب (إلى) فى موضع اللام . وقد قال اللّه عزّ

---

(1) هو أسماء بن الضريبة . وقيل : عطية بن عفيف . وقوله : «أن تغضبا» كذا فى الأصول . والرواية :

«يغضبوا» وقبله :

يا كرز إنك قد قبلت بفارس بطل إذا هاب الكماة وجببوا

كان كرز قد طعن أبا عيينة حصن بن حذيفة الفزاري فى يوم الحاجر فقتل به فرثاه الشاعر . وقوله : «جببوا» أي فروا ونفروا من القتال . وانظر الخزانة 4/ 310 ، واللسان فى المادة .

(2) «هدرا صادقا» كذا فى الأصول ، وهو لا يستقيم فى الرجز المعروف عن العرب . وقد كتبها بعض الفضلاء «هدرا فى النعم» ولم أقف على سنده . وهدر البعير ترديد صوته فى حنجرته .

(3) المعنى : فحل الإبل الذي حبس أو رغب عن ضرابه . والشقاشيق جمع شقشقة وهى كالرئة تخرج من فم البعير إذا هاج واغتلم . وأصله الشقاشق فزاد الياء . واللهم : الذي يلتهم كل شىء : يفتخر أنه من كلاب ، وأنه سيصول في أقرانه كما يصول الفحل الهائج

وجلّ : (بِأَنَّ «1» رَبَّكَ أَوْحى لَها) وقال : (الْحَمْدُ «2» لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا) وقال : (يَهْدِيهِمْ «3» إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً) وقال : (فَأَوْحى «4» إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ) وقد يجوز فى العربيّة أن تقول : فلان يخبت إلى اللّه تريد : يفعل ذلك بوجهه إلى اللّه لأن معنى الإخبات الخشوع ، فيقول : يفعله بوجهه إلى اللّه وللّه . وجاء فى التفسير : وأخبتوا فرقا «5» من اللّه فمن يشاكل معنى اللام ومعنى إلى إذا أردت به لمكان هذا ومن أجل هذا .

وقوله : (ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا) [27] رفعت الأراذل بالاتّباع «6» وقد وقع الفعل فى أوّل الكلام على اسمه . ولا تكاد العرب تجعل المردود بإلّا إلا على المبتدأ لا على راجع ذكره . وهو جائز . فمن البيّن الذي لا نظر فيه أن تقول : ما قام أحد إلّا زيد . وإن قلت : ما أحد قام إلا زيد فرفعت زيدا بما عاد فى فعل أحد فهو قليل وهو جائز . وإنما بعد على المبتدأ لأنه كناية ، والكناية لا يفرق فيها بين أحد وبين عبد اللّه ، فلمّا قبح أن تقول : ما قام هو إلّا زيد ، وحسن : ما قام أحد إلا زيد تبيّن ذلك لأن أحدا كأنّه ليس فى الكلام فحسن الردّ على الفعل . ولا يقال للمعرفة أو الكناية أحد إذ شاكل «7» المعرفة كأنه «8» ليس فى الكلام ألا ترى أنك تقول ما مررت بأحد إلا بزيد (فكأنك «9»

قلت : ما مررت إلا بزيد) لأن أحدا لا يتصوّر فى الوهم أنه معمود «10» له . وقبيح أن تقول : ليس أحد مررت به إلّا بزيد لأن الهاء لها صورة كصورة

---

(1) الآية 5 سورة الزلزلة

(2) الآية 43 سورة الأعراف

(3) الآية 175 سورة النساء

(4) الآية 13 سورة إبراهيم

(5) أي خوفا

(6) الظاهر أنه يريد أنه مرفوع فى المعنى بالاتباع في قوله : «اتبعك» يريد أنه فاعل الاتباع فى الحقيقة وإن كان الفعل واقعا على (الذين) اسم الموصول فهو اسمه . [. . . . .]

(7) أي الكناية

(8) أي كأن أحدا .

(9) سقط ما بين القوسين فى ش .

(10) في ا : «مصمود» والصمد والصمد : القصد

المعرفة ، وأنت لا تقول : ما قمت إلا زيد فهذا وجه قبحه . كذلك قال : (ما نَراكَ) ثم كأنه حذف (نراك) وقال : (ما اتّبعك إلا الذين هم أراذلنا) فان على هذا ما ورد عليك إن شاء اللّه :

(بادِيَ الرَّأْيِ) لا تهمز (بادِيَ) لأن المعنى فيما يظهر لنا [و«1»] يبدو . ولو قرأت «2» (بادىء «3» الرأى) فهمزت تريد أوّل الرأى لكان صوابا . أنشدنى بعضهم :

أضحى لخالى شبهى بادى بدى وصار للفحل لسانى ويدى «4»

فلم يهمز ومثله مما تقوله العرب فى معنى ابدأ بهذا أوّل ، ثم يقولون . ابدأ بهذا آثرا ما وآثر ذى أثير (وأثير «5» ذى أثير) وإثر ذى أثير ، وابدأ بهذا أوّل ذات يدين وأدنى دنىّ .

وأنشدونا :

فقالوا ما تريد فقلت ألهو إلى الإصباح آثر ذى أثير «6»

وقوله : بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ [27] مثل قوله (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ «7» إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ) لأنهم كذّبوا نوحا وحده ، وخرج على جهة الجمع ، وقوله (فَإِلَّمْ «8» يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ) فلكم أريد بها النبىّ صلّى اللّه عليه وسلم . وقوله : (فَاعْلَمُوا) ليست للنبى صلّى اللّه عليه وسلم . إنما هى لكفّار مكّة ألا ترى أنه قال (فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

وقوله : (وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ) .

---

(1) زيادة من اللسان فى (بدأ) و(بدا) .

(2) قرأ بالهمز أبو عمرو .

(3) كذا في ا . وفى ش ، ج : «بادى بابتداء الرأى» وفيها تحريف .

(4) فى ا : «شبه» فى مكان «شبهى» يريد أن ظاهره فى الشبه لخاله ، فى الفعل باليد أو اللسان فهو ينزع إلى الفحل أي إلى أبيه ، وفي اللسان (بدا) أنه تعدى شرخ الشباب وصارت أعماله أعمال الفحولة والكهول .

(5) ما بين القوسين فى ب .

(6) هذا البيت من قصيدة لعروة بن الورد . كان قد سبى امرأة من كنانة وعاشرها مدة طويلة حتى كان له منها ولد . ثم عرفها أهلها وافتدوها منه بمال وتحينوا سكره فى ذلك ، فلما أيقن أنه سيفارقها طلب أن يلهو بها ليلته . وانظر الأغانى (الدار) 3/ 87 .

(7) أول سورة الطلاق .

(8) الآية 14 سورة هود .

(85/371)

يعنى الرسالة . وهى نعمة ورحمة . وقوله : (فعمّيت عليكم) قرأها يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة «1» . وهى فى قراءة أبىّ (فعمّاها عليكم) وسمعت العرب تقول : قد

عمّى عليّ الخبر وعمى عليّ بمعنى واحد . وهذا ممّا حوّلت العرب الفعل إليه وليس له ، وهو فى الأصل لغيره ألا ترى أن الرجل الذي يعمى عن الخبر أو يعمّى عنه ، ولكنّه فى جوازه مثل قول العرب :

دخل الخاتم فى يدى والخفّ فى رجلى ، وأنت تعلم أن الرجل التي تدخل فى الخفّ والأصبع فى الخاتم . فاستخفّوا بذلك إذا «2» كان المعنى معروفا لا يكون لذا فى حال ، ولذا فى حال إنما هو لواحد . فاستجازوا ذلك لهذا . وقرأه العامّة (فعميت) وقوله (أَنُلْزِمُكُمُوها) العرب تسكّن الميم التي من اللزوم فيقولون : أنلزمكموها . وذلك أن الحركات قد توالت فسكنت الميم لحركتها وحركتين بعدها وأنها مرفوعة ، فلو كانت منصوبة لم يستثقل فتخفّف . إنما يستثقلون كسرة بعدها ضمة أو ضمة بعدها كسرة أو كسرتين متواليتين أو ضمّتين متواليتين . فأمّا الضمّتان فقوله : (لاَ يَحْزُنُهُمُ «3») جزموا النون لأن قبلها ضمة فخفّفت كما قال (رسل) «4» فأمّا الكسرتان فمثل قوله الإبل إذا خفّفت .

وأمّا الضمّة والكسرة فمثل قول الشاعر :

وناع يخبّرنا بمهلك سيّد تقطّع «5» من وجد عليه الأنامل

وإن شئت تقطّع . وقوله فى الكسرتين :

إذا اعوججن قلت صاحب قوّم «6»

---

(1) وكذلك قرأها الكسائي وحفص عن عاصم .

(2) ا : «إذ» [. . . . .]

(3) الآية 103 سورة الأنبياء .

(4) ب : «وأما» .

(5) ضبط فى ا : «تقطع» بصيغة الماضي .

(6) هذا رجز بعده :

بالدون أمثال السفين العوم

قال الأعلم : «والدو : الصحراء . وأراد بأمثال السفين رواحل محملة تقطع الصحراء قطع السفين البحر» وانظر سيبوية 2/ 297 .

(86/371)

يريد صاحبى فإنما يستثقل الضمّ والكسر لأن لمخرجيهما مؤونة على اللسان والشفتين تنطمّ «1» الرفعة بهما فيثقل الضمّة ويمال أحد الشّدقين إلى الكسرة فترى ذلك ثقيلا .

والفتحة تخرج من خرق الفم بلا كلفة .

وقوله : وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ

[30] .

يقول : من يمنعنى من اللّه . وكذلك كلّ «2» ما كان فى القرآن منه فالنصر على جهة المنع .

وقوله : فَعَلَيَّ إِجْرامِي [35] .

يقول : فعليّ إثمى . وجاء فى التفسير فعليّ آثامي ، فلو قرئت : أجرامى على التفسير كان صوابا .

وأنشدنى أبو الجراح :

لا تجعلونى كذوى الأجرام الدّهمسيّين ذوى ضرغام «3»

فجمع الجرم أجراما . ومثل ذلك (وَاللَّهُ «4» يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ) و(أسرارهم) وقد قرئ بهما «5» . ومنه (وَمِنَ «6» اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجُودِ) و(أدبار السّجود) فمن قال : (إدبار) أراد المصدر . ومن قال (أسرار) أراد جمع السّر .

وقوله : (فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ) [36] يقول : (لا تستكن ولا تحزن) .

وقوله : (بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا) [37] كقوله (ارْجِعُونِ «7») يخرج على الجمع ومعناه واحد على ما فسّرت لك من قوله (بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ) لنوح وحده ، و(عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ) .

---

(1) ش : «وضم» .

(2) سقط فى ا .

(3) «الدهمسيين» نسبة إلى الدهمسة وهى السرار أي الذين يتسترون لخبثهم . وضرغام

علم . يريد آل هذا الرجل .

(4) الآية 26 سورة محمد .

(5) قرأ بكسر الهمزة حفص وحمزة والكسائي وخلف . وقرأ الباقون بفتحها .

(6) الآية 40 سورة ق . قرأ نافع وابن كثير وحمزة وأبو جعفر وخلف بكسر الهمزة ، والباقون بفتحها .

(7) الآية 99 سورة المؤمنين .

(87/371)

وقوله : وَفارَ التَّنُّورُ [40] هو تنّور الخابز : إذا فار الماء من أحرّ مكان فى دارك فهى آية العذاب فأسر بأهلك . وقوله (مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) والذكر والأنثى من كل نوع زوجان . وقوله (وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) حمل معه امرأة له سوى التي هلكت ، وثلاثة بنين ونسوتهم ، وثمانين إنسانا سوى ذلك . فذلك قوله (وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) و(الثمانون «1») هو القليل .

وقوله : وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ [41] (إن شئت جعلت مجراها ومرساها) فى موضع رفع بالياء كما تقول : إجراؤها وإرساؤها بسم اللّه وبأمر اللّه . وإن شئت جعلت (بِسْمِ

اللَّهِ) ابتداء مكتفيا بنفسه ، كقول القائل عند الذبيحة أو عند ابتداء المأكل وشبهه : بسم اللّه ويكون (مجريها ومرسيها) فى موضع نصب يريد بسم اللّه فى مجراها وفى مرساها .

وسمعت العرب تقول :

الحمد للّه سرارك «2» وإهلالك «3» ، وسمع منهم الحمد للّه ما إهلالك إلى سرارك يريدون ما بين إهلالك إلى سرارك .

والمجرى والمرسى ترفع ميميهما قرأ بذلك إبراهيم النخعىّ والحسن وأهل المدينة . حدّثنا محمد قال :

حدّثنا الفراء قال : حدّثنا أبو معاوية «4» عن الأعمش عن مسلم «5» بن صبيح عن مسروق أنه قرأها (مَجْراها) بفتح الميم و(مرسها) بضم الميم . قال : وحدّثنا الفراء قال حدثنا أبو معاوية وغيره عن الأعمش عن رجل قد سمّاه عن عرفجة أنه سمع عبد اللّه بن مسعود قرأها (مجراها) بفتح الميم ورفع الميم من مرسيها .

وقرأ مجاهد (مجريها ومرسيها) يجعله من صفات اللّه عزّ وجلّ ، فيكون فى موضع خفض فى الإعراب لأنه معرفة . ويكون نصبا لأن مثله قد يكون نكرة لحسن الألف واللام فيهما ألا ترى

---

(1) ب : «فالثمانون) .

(2) سرار القمر خفاؤه فى أواخر الشهر . وإهلاله حيث يظهر هلاله . يقال هذا عند

رؤية الهلال.

(3) سرار القمر خفاؤه فى أواخر الشهر. وإهلاله حيث يظهر هلاله. يقال هذا عند رؤية الهلال. [.....]

(4) هو محمد بن خازم الضرير مات سنة 195 ه كما فى الخلاصة.

(5) هو أبو الضحى العطار الكوفي توفى فى خلافة عمر بن عبد العزيز كما فى الخلاصة.

(88/371)

أنك تقول فى الكلام: بسم اللّه المجريها والمرساها. فإذا نزعت منه الألف واللام نصبته «1». ويدلّك على نكرته قوله: (هذا «2» عارِضٌ مُمْطِرُنا) وقوله: (فَلَمَّا رَأَوْهُ «3» عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ) فأضافوه إلى معرفة، وجعلوه نعتا لنكرة. وقال الشاعر «4»:

يا ربّ عابطنا لو كان يأملكم لاقى مباعدة منكم وحرمانا

وقال الآخر:

ويا رب هاجى منقر يبتغى به ليكرم لمّا أعوزته المكارم

وسمع الكسائىّ أعرابيّا يقول بعد الفطر: ربّ صائمه لن يصومه وقائمه لن يقومه.

وقوله: (سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ [43] (قالَ) نوح عليه السلام (لا عاصِمَ الْيَوْمَ

مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ) فمن فى موضع نصب لأن المعصوم خلاف للعاصم والمرحوم معصوم. فكأنه نصبه بمنزلة قوله (ما لَهُمْ بِهِ «5» مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِّ) ومن استجاز رفع الاتباع أو الرفع فى قوله:

وبلد ليس به «6» أنيس إلّا اليعافير وإلّا العيس

لم يجزله الرفع فى (من) لأن الذي قال: (إلّا اليعافير) جعل أنيس البرّ اليعافير والوحوش، وكذلك قوله (إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِّ) يقول: علمهم ظنّ وأنت لا يجوز لك فى وجه أن تقول: المعصوم عاصم.

ولكن لو جعلت العاصم فى تأويل معصوم كأنك قلت: لا معصوم اليوم من أمر اللّه لجاز رفع (من) ولا تنكرنّ أن يخرج المفعول على فاعل ألا ترى قوله (مِنْ «7» ماءٍ دافِقٍ) فمعناه واللّه أعلم: مدفوق

---

(1) على أنه سال.

(2) الآية 24 سورة الأحقاف.

(3) الآية 24 سورة الأحقاف.

(4) هو جرير من قصيدة يهجو فيها الأخطل

(5) الآية 157 سورة النساء.

(6) فى ا: «بلد ليس بها» وبلد محرف عن بلدة كما هى رواية سيبويه 1/ 365.

واليعافير أولاد الظباء واحدها يعفور . والعيس بقر الوحش لبياضها .

(7) الآية 6 سورة الطارق .

(89/371)

وقوله (فِي عِيشَةٍ «1» راضِيَةٍ) معناها مرضيّة ، وقال الشاعر «2» :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

معناه المكسوّ . تستدلّ على ذلك أنك تقول : رضيت هذه المعيشة ولا تقول : رضيت ودفق الماء ولا تقول : دفق ، وتقول كسى العريان ولا تقول : كسا . ويقرأ (إلّا من رحم) أيضا «3» .

ولو قيل لا عاصم اليوم من أمر اللّه إلّا من رحم كأنّك «4» قلت : لا يعصم «5» اللّه اليوم إلّا من رحم ولم نسمع «6» أحدا قرأ به .

وقوله : (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) [44] وهو جبل بجضنين «7» من أرض الموصل ياؤه مشدّدة وقد حدّثت أنّ بعض «8» القراء قرأ (على الجودي) بإرسال الياء . فإن تكن صحيحة فهى مما كثر به الكلام عند أهله فخفّف ، أو يكون قد سمّى بفعل أنثى مثل حطىّ وأصرّى وصرّى ، ثم أدخلت عليه الألف واللام . أنشدنى بعضهم - وهو المفضّل - :

وكفرت قوما هم هدوك لأقدمى إذ كان زجر أبيك سأسأ واربق «9»

---

(1) الآية 21 سورة الحاقة .

(2) هو الحطيئة . والبيت من قصيدة يهجو فيها الزبرقان بن بدر التميمي .

(3) سقط فى ا .

(4) كذا فى ا . وفى شىء : «فإنك» . ويصح أن يكون جواب لو بإسقاط الفاء .

(5) ب : «يعصم» . [. . . . .]

(6) فى الكشاف أنه قرىء به . ولم يذكر القارئ .

(7) كذا فى الأصول . ولم أقف عليه فى البلدان . وقد يكون : «بحصنين» تثنيه حصن لما يتحصن به . وفى القاموس أن حصنين بلد وقلعة بوادي لية ولية فى بلاد العرب وليس فى الموصل . ولم يعين البلد ولم يعرف أين هوه .

(8) هو الأعمش برواية المطوعى كما فى الإتحاف .

(9) «أقدمى» يقولها الفارس لفرسه يأمرها بالإقدام فى الحرب ، وفى الحديث فى يوم بدر أنه سمع صوت يقول :

أقدم حيزوم وحيزوم فرس جبريل عليه السلام ، وقد جعل هذا زجرا والمعروف فى زجر الفرس اجدم . وسأسأ زجر الحمار . يقول كفرت قوما علموك الغزو ورشحوك للسيادة ، وقد كنت قبل تركب الحمار وترعى الغنم . وقوله : اربق أي اربط الغنم فى حبل يجمعها .

وأنشدنى بعض بنى أسد :

لمّا رأيت أنها فى حطّى وفتكت فى كذبى ولطّى «1»

والعرب إذا جعلت مثل حطّى وأشباهه اسما فأرادوا أن يغيّروه عن مذهب الفعل حوّلوا الياء ألفا فقالوا :

حطّا ، أصرّا ، وصرّا . وكذلك ما كان من أسماء العجم آخره ياء مثل ماهى وشاهى وشنىّ حوّلوه إلى ألف فقالوا : ماها وشاها وشنّا . وأنشدنا «2» بعضهم :

أتانا حماس بابن ماها يسوقه لتبغيه خيرا وليس بفاعل

(وَحالَ «3» بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ) أي حال بين ابن نوح وبين الجبل الماء .

وقوله : (يا أَرْضُ «4» ابْلَعِي) يقال بلعت وبلعت .

وقوله : يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ [46] الذي وعدتك أن أنجيهم ثم قال عزّ وجلّ :

(إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ) (وعامّة القراء «5» عليه) حدّثنا محمد قال حدثنا الفراء قال : وحدّثنى حبّان «6» عن الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عباس بذلك يقول : سؤالك إيّاى ما ليس لك به علم عمل غير صالح . وعامّة القراء عليه . (حدثنا «7» الفرّاء) قال :

وحدثنى «8» أبو اسحق الشيبانىّ قال حدثنى أبو روق «9» عن محمد «10»

---

(1) تقدم هذا الرجز ببعض تغيير مع صلة له فى الجزء الأول ص 369 .

(2) ا : «أنشد» .

(3) هذا فى الآية 43 .

(4) فى الآية 44 .

(5) سقط ما بين القوسين فى ا .

(6) ش : «حسان» .

(7) سقط ما بين القوسين فى ش .

(8) هو سليمان بن أبى سليمان فيروز مات سنة 138 كما فى الخلاصة .

(9) هو عطية بن الحارث الهمداني الكوفي كما فى الخلاصة .

(10) كانت وفاته سنة 131 ه. [. . . . .]

(91/371)

بن حجادة عن أبيه عن عائشة قالت سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم «1» يقرأ (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ) (حدثنا «2» الفراء) قال وحدثنى «3» ابن أبى يحيى عن رجل

قد سمّاه قال ، لا أراه إلا ثابتا البنانىّ عن شهر بن حوشب عن أمّ سلمة قالت : قلت يا رسول اللّه : كيف أقرؤها ؟ قال (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ) وقوله : (فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) ويقرأ : تسألنّى بإثبات الياء وتشديد النون ويجوز أن تقرأ (فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ) بنصب النون ، ولا توقعها إلّا على (ما) وليس فيها ياء فى الكتاب والقراء قد اختلفوا فيما يكون فى آخره الياء وتحذف فى الكتاب : فبعضهم يثبتها ، وبعضهم يلقيها من ذلك (أَكْرَمَنِ) «4» و(أَهانَنِ) «5» (فما آتان «6» اللّه) وهو كثير فى القرآن .

وقوله : (بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ) [48] يعنى ذرّيّة من معه من أهل السعادة . ثم قال : (وَأُمَمٌ) من أهل الشقاء (سَنُمَتِّعُهُمْ) ولو كانت (وأمما سنمتّعهم) نصبا لجاز توقع عليهم «7» (سَنُمَتِّعُهُمْ) كما قال (فَرِيقاً «8» هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ) .

وقوله : (تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ [49]) يصلح مكانها (ذلك) مثل قوله (ذلِكَ «9» مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ) والعرب تفعل «10» هذا فى مصادر الفعل إذا لم يذكر مثل قولك : قد قدم فلان ، فيقول الآخر : قد فرحت بها وبه . فمن أنّث ذهب بها إلى القدمة ، ومن ذكّر ذهب إلى القدوم .

وهو مثل قوله (ثُمَّ تابُوا «11» مِنْ بَعْدِها وَآمَنُوا) .

---

(1) وهى قراءة الكسائي

(2) ش : «حدثنى به»

(3) ش : «حدثنى به»

(4) الآية 15 سورة الفجر

(5) الآية 16 سورة الفجر

(6) الآية 36 سورة النمل

(7) ش : «أن توقع»

(8) الآية 30 سورة الأعراف

(9) الآية 100 سورة هود

(10) ش : «مثل هذا»

(11) الآية 153 سورة الأعراف

(92/371)

وقوله : (ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ) يقول : لم يكن علم نوح والأمم بعده من علمك ولا علم قومك (مِنْ قَبْلِ هذا) يعنى القرآن .

وقوله : يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً [52] يقول : يجعلها تدرّ عليكم عند الحاجة إلى

المطر ، لا أن تدرّ ليلا ونهارا . وقوله (وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ) ذكروا أنه كان انقطع عنهم الولد ثلاث سنين . وقال (قُوَّةً) لأن الولد والمال قوة .

وقوله : إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ [54] كذّبوه ثم جعلوه مختلطا «1» وادّعوا أنّ آلهتهم هى التي خبلته لعيبه آلهتهم . فهنالك قال : إنى أشهد اللّه وأشهدكم أنى برىء منها .

وقوله : وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً [57] رفع : لأنه جاء بعد الفاء . ولو جزم كان كما قال (مَنْ «2» يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ) كان «3» صوابا . وفى قراءة عبد اللّه (ولا تنقصوه) جزما .

ومعنى لا تضرّوه يقول : هلاككم إذا أهلككم لا ينقصه شيئا .

و(عاد) مجرى «4» فى كل القرآن لم يختلف فيه . وقد يترك إجراؤه ، يجعل اسما للأمّة التي هو منها ، كما قال الشاعر :

أحقّا عباد اللّه جرأة محلق علىّ وقد أعييت عاد وتبّعا

وسمع الكسائىّ بعض العرب يقول : إن عاد وتبّع أمّتان .

وقوله : وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً [64] .

نصبت صالحا وهودا وما كان على هذا اللفظ بإضمار (أرسلنا) .

---

(1) يقال : اختلط : ؟؟؟ عقله .

(2) الآية 186 سورة الأعراف . والجزم قراءة حمزة والكسائي وخلف كما فى

الاتحاف .

(3) هذه الجملة بدل من قوله : «كان كما قال . .» [. . . . .]

(4) أي مصروف

(93/371)

وقد اختلف القراء فى (ثمود) فمنهم من أجراه فى كلّ حال . ومنهم من لم يجره فى حال .

حدّثنا محمد قال : حدثنا الفراء قال : حدّثنى قيس عن أبى إسحق عن عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد النخعىّ عن أبيه أنه كان لا يجرى (ثمود) فى شىء من القرآن (فقرأ «1» بذلك حمزة) ومنهم من أجرى (ثمود) فى النصب لأنها مكتوبة بالألف فى كل القرآن إلا فى موضع واحد (وَآتَيْنا «2» ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً) فأخذ بذلك الكسائىّ فأجراها فى النصب ولم يجرها فى الخفض ولا فى الرفع إلّا فى حرف واحد : قوله (أَلا إِنَّ «3» ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ) فسألوه «4» عن ذلك فقال :

قرئت فى الخفض «5» من الجرى وقبيح أن يجتمع الحرف مرتين فى موضعين ثم يختلف ، فأجريته لقربه منه .

وقوله : كَفَرُوا رَبَّهُمْ [68] جاء فى التفسير : كفروا نعمة ربهم . والعرب تقول : كفرتك .

وكفرت بك ، وشكرتك وشكرت بك وشكرت لك . وقال الكسائىّ : سمعت العرب تقول :

شكرت باللّه كقولهم : كفرت باللّه .

وقوله : فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ [63] يقول : فما تزيدوننى غير تخسير لكم وتضليل لكم ، أي كلّما اعتذرتم بشىء هو يزيدكم تخسيرا . وليس غير تخسير لى أنا . وهو كقولك للرجل ما تزيدنى إلّا غضبا أي غضبا عليك .

وقوله : سَلاماً قالَ سَلامٌ [69] قرأها «6» يحيى ابن وثّاب وإبراهيم النخعىّ . وذكر عن النبي صلى اللّه عليه وسلّم أنه قرأ بها . وهو فى المعنى سلام كما قالوا حلّ وحلال ، وحرم وحرام لأن

---

(1) سقط ما بين القوسين فى ا

(2) الآية 59 سورة الإسراء

(3) الآية 68 سورة هود

(4) ا : «فسألته»

(5) كذا فى الأصول . والأولى : «النصب»

(6) وهى قراءة حمزة والكسائي

التفسير جاء : سلّموا عليه فردّ عليهم . فترى أن معنى سلّم وسلام واحد والله أعلم .

وأنشدنى بعض العرب :

مررنا فقلنا إيه سلّم فسلّمت كما اكتلّ بالبرق الغمام اللوائح «1»

فهذا دليل على أنهم سلّموا فردّت عليهم . وقرأه العامّة (قالوا سلاما قال سلام) نصب الأول ورفع الثاني . ولو كانا جميعا رفعا ونصبا كان صوابا . فمن رفع أضمر (عليكم) وإن لم يظهرها كما قال الشاعر :

فقلنا السلام فاتّقت من أميرها فما كان إلّا ومؤها بالحواجب «2»

والعرب تقول : التقينا فقلنا : سلام سلام . وحجّة أخرى فى رفعه الآخر «3» أن القوم سلّموا ، فقال حين أنكرهم : هو سلام إن شاء اللّه فمن أنتم لإنكاره إيّاهم . وهو وجه حسن . ويقال فى هذا المعنى : نحن سلّم لأن التسليم لا يكون من قوم عدوّ . وقوله : (فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) أن فى موضع نصب توقع «4» (لبث) عليها ، كأنّك قلت : فما أبطأ عن مجيئه بعجل : فلمّا ألقيت الصفة وقع الفعل عليها . وقد تكون رفعا تجعل لبث فعلا لأن كأنك قلت فما أبطأ مجيئه «5» بعجل حنيذ : والحنيذ : ما حفرت له فى الأرض

ثم غممته . وهو من فعل أهل البادية معروف . وهو محنوذ فى الأصل «6» فقيل : حنيذ ، كما قيل : طبيخ للمطبوخ ، وقتيل للمقتول .

وقوله : فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ [70] أي إلى الطعام . وذلك أنها كانت

---

(1) إيه : طلب للحديث . واكتل الغمام : تبسم وهو تكشفه بضوء البرق

(2) أميرها : الذي له عليها الولاية والأمر يريد زوجها ، ومؤها : إشارتها

(3) ش : «الأخرى» أي الكلمة الأخيرة

(4) ا : «بوقوع»

(5) فى الأصول : «عن مجيئه» وهو سهو من الناسخ

(6) ش : «الأرض»

(95/371)

سنّة فى زمانهم إذا ورد عليهم القوم فأتوا بالطعام فلم يمسّوه ظنّوا أنّهم عدوّ أو لصوص . فهناك أوجس فى نفسه خيفة فرأوا ذلك فى وجهه ، فقالوا : لا تخف ، فضحكت عند ذلك امرأته وكانت قائمة وهو قاعد (وكذلك هى فى قراءة عبد اللّه : وامرأته قائمة وهو قاعد) مثبتة «1» فضحكت فبشرت بعد الضحك . وإنما ضحكت سرورا بالأمن

«2» فأتبعوها البشرى بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب .

وقد يقول بعض المفسّرين : هذا مقدّم ومؤخّر . والمعنى فيه : فبشّرناها بإسحاق فضحكت بعد البشارة وهو ممّا قد يحتمله الكلام والله أعلم بصوابه . وأما قوله (فَضَحِكَتْ) : حاضت فلم نسمعه من ثقة وقوله (يعقوب) يرفع وينصب وكان حمزة ينوى به «3» الخفض يريد : ومن وراء إسحاق بيعقوب .

ولا يجوز الخفض إلّا بإظهار الباء . ويعقوب هاهنا ولد الولد والنصب فى يعقوب بمنزلة قول الشاعر «4»

جئنى بمثل بنى بدر لقومهم أو مثل أسرة منظور بن سيّار

أو عامر بن طفيل فى مركّبه أو حارثا يوم نادى القوم يا حار

وأنشدنى بعض بنى باهلة :

لو جيت بالخبز له ميسّرا والبيض مطبوخا معا والسّكّرا «5»

لم يرضه ذلك حتى يسكرا

---

(1) سقط ما بين القوسين فى ش [. . . . .]

(2) كذا فى ش . وفى الطبري : «بالأمن منهم لما قالوا لابراهيم : لا تخف «وفى ا : «بالأمر»

(3) ا : «بها» أي بالكلمة

(4) هو جرير والبيتان من قصيدة فى ديوانه يهجو فيها الأخطل وبين البيت الأول والثاني بيت فى الديوان 242 وهو :

أو مثل آل زهير والقنا قيض والخيل فى رهج منها وإعصار

وقد ورد البيت الأول فى الكتاب لسيبوية 1/ 48

(5) فى الأصول : «بالخير» فى مكان «بالخبز» والظاهر ما أثبت

(96/371)

فنصب على قولك : وجئت بالسكّر ، فلمّا لم يظهر الفعل مع الواو نصب كما تأمر الرجل بالمرور على أخيه فتقول : أخاك أخاك تريد : امرر به .

وقوله : هؤُلاءِ بَناتِي [78] قال بعضهم : بنات نفسه . ويقال : بنات قومه . وذلك جائز فى العربيّة لأن اللّه عزّ وجل قال (النَّبِيُّ «1» أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ) وهو فى بعض القراءة (وهو أب لهم) فهذا من ذلك .

وقوله : يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً [72] وفى قراءة عبد اللّه (شيخ) فذكروا أنها كانت بنت ثمان وتسعين سنة ، وكان عليه السّلام أكبر منها بسنة . ويقال فى قوله (رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ) البركات : السعادة .

وقوله : فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ [74] ولم يقل : جادلنا . ومثله فى الكلام لا يأتى إلّا بفعل ماض كقولك . فلمّا أتانى أتيته . وقد يجوز فلمّا أتانى أثب عليه كأنه قال : أقبلت أثب عليه . وجداله إيّاهم أنه حين ذهب عنه الخوف قال : ما خطبكم أيّها المرسلون ، فلمّا أخبروه أنهم يريدون قوم لوط قال : أتهلكون قوما فيهم لوط قالوا : نحن أعلم بمن فيها .

وقوله أَوَّاهٌ [75] دعّاء ويقال : هو الذي يتأوّه من الذنوب . فإذا كانت من يتأوّه «2» من الذنوب فهى من أوّه له وهى لغة فى بنى عامر أنشدنى أبو الجراح :

فأوّه من الذكرى إذا ما ذكرتها ومن بعد أرض بيننا وسماء

---

(1) الآية 6 سورة الأحزاب

(2) أي من هذا الفعل وفى ا : «ممن»

أوّه على فعّل يقول فى يفعل «1» : يتأوّه . ويجوز فى الكلام لمن قال : أوّه مقصورا «2» أن يقول فى يتفعّل يتأوّى ولا يقولها بالهاء .

وقوله : لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ [80] يقول : إلى عشيرة .

وقوله : فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ [81] قراءتنا من أسريت بنصب الألف وهمزها . وقراءة أهل «3» المدينة (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ) من سريت . وقوله : (بِقِطْعٍ) يقول : بظلمة من آخر الليل .

وقوله : (إِلَّا امْرَأَتَكَ) منصوبة بالاستثناء : فأسر بأهلك إلا امرأتك . وقد كان الحسن يرفعها «4» يعطفها على (أَحَدٌ) «5» أي لا يلتفت منكم أحد إلّا امرأتك وليس فى قراءة عبد اللّه (وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ) وقوله :

(إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) .

لمّا أتوا لوطا أخبروه أن قومهم «6» هالكون من غد فى الصبح ، فقال لهم لوط : الآن الآن .

فقالت الملائكة : أليس الصبح بقريب .

وقوله : مِنْ سِجِّيلٍ [82] يقال : من طين قد طبخ حتى صار بمنزلة الأرحاء (مَنْضُودٍ) يقول :

يتلو بعضه بعضا عليهم . فذلك نضده .

وقوله : مُسَوَّمَةً [83] زعموا أنها كانت مخطّطة بحمرة وسواد فى بياض ، فذلك تسويمها أي

---

(1) يريد المضارع . والأولى : «يتفعل» كالذى بعده

(2) ش : «مهموزا» ويريد بالقصر سكون الهاء وحبسها عن الحركة والهاء فى هذه

الصيغة للسكت فلذلك جاء المضارع: يتأوى، بخلاف الصيغة الأولى

(3) سقط ما بين القوسين فى ا

(4) كذا فى الأصول. والأولى: «قومه»

(5) هى قراءة نافع وابن كثير وأبى جعفر

(6) هى أيضا قراءة «ابن كثير وأبى عمرو»

(98/371)

علامتها «1». ثم قال (مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) يقول: من ظالمى أمّتك يا محمد. ويقال «2»: ما هى من الظالمين يعنى قوم لوط الّذى لم يكن تخطئهم.

وقوله: إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ [84] يقول: كثيرة أموالكم فلا تنقصوا المكيال وأموالكم كثيرة يقال رخيصة أسعاركم (ويقال «3»): مدّهنين «4» حسنة سحنتكم.

وقوله: بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ [86].

يقول: ما أبقى لكم من الحلال خير لكم، ويقال بقيّة اللّه خير لكم أي مراقبة اللّه خير لكم.

وقوله: أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ويقرأ (أ صلاتك «5» تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل [87] معناه: أو تأمرك أن نترك أن تفعل (فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا) فأن مردودة «6» على

(نترك) .

وفيها وجه آخر تجعل الأمر كالنهى كأنه قال : أصلواتك تأمرك بذا وتنهانا عن ذا . وهى حينئذ مردودة على (أن) الأولى لا إضمار فيه كأنك قلت : تنهانا أن نفعل فى أموالنا ما نشاء كما تقول :

أضربك أن تسيئ كأنه قال : أنهاك بالضرب عن الإساءة . وتقرأ (أو أن نفعل فى أموالنا ما تشاء) و(نشاء) «7» جميعا .

---

(1) ب : «علاماتها»

(2) ا : «بل» [. . . . .]

(3) سقط ما بين القوسين في ا

(4) هذا الضبط من ا . والادهان استعمال الدهن أو التطلى به ، وكان المعنى من الأول فان الدهن علامة الخصب ، مقتضى الذي فى القاموس ضبطه : «مدهنين» بفتح الدال وتشديد الدال المفتوحة اسم مفعول من دهنه ، وهم الذين تظهر عليهم آثار النعيم

(5) هى قراءة حفص وحمزة والكسائي وخلف كما فى الإتحاف

(6) يريد أنها متعلقة بنترك لا بتأمر

(7) فى الكشاف أنها قراءة ابن أبى عبلة

وقوله : (إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) استهزاء منهم به .

وقوله : لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي [89] .

يقول : لا تحملنكم عداوتى أن يصيبكم . وقد يكون : لا يكسبنكم . وقوله : (وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ) يقول : إنما هلكوا بالأمس قريبا . ويقال : إن دارهم منكم قريبة وقريب .

وقوله : أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا [92] : رميتم بأمر اللّه وراء ظهوركم كما تقول : تعظّمون أمر رهطى وتتركون أن تعظّموا اللّه وتخافوه .

وقوله : مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ [93] (من) فى موضع رفع إذا جعلتها استفهاما . ترفعها بعائد ذكرها . وكذلك قوله (وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ) وإنما أدخلت العرب (هو) فى قوله (وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ) لأنهم لا يقولون : من قائم ولا من قاعد ، إنما كلامهم : من يقوم ومن قام أو من القائم ، فلمّا لم يقولوه لمعرفة أو لفعل أو يفعل أدخلوا هو مع قائم ليكونا جميعا فى مقام فعل ويفعل لأنهما يقومان مقام اثنين . وقد يجوز فى الشعر وأشباهه من قائم قال الشاعر»

:

من شارب مربح بالكأس نادمنى لا بالحصور ولا فيها بسوّار

وربما تهيّبت العرب أن يستقبلوا من بنكرة فيخفضونها فيقولون : من رجل يتصدّق فيخفضونه على تأويل : هل من رجل يتصدّق . وقد أنشدونا هذا البيت خفضا ورفعا :

من رسول إلى الثريّا ثأنى ضقت ذرعا بهجرها والكتاب «2»

---

(1) هو الأخطل . والحصور : البخيل الممسك . والسوار : الذي تسور الخمرة فى رأسه سريعا فهو يعربد ويثب على من يشاربه . ويروى : «وشارب» . ويروى : «بسآر» والسآر : الذي يسئر فى الشراب أي يبقى منه

(2) من أبيات لعمر بن أبى ربيعة وانظر الديوان 430

(100/371)

وإن جعلتهما من ومن «1» فى موضع (الذي) نصبت كقوله (يعلم «2» المفسد من المصلح) وكقوله (وَلَمَّا يَعْلَمِ «3» اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) .

وقوله : مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ [100] فالحصيد كالزرع المحصود . ويقال : حصدهم بالسّيف كما يحصد الزرع .

وقوله : يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ [105] كتب بغير الياء وهو فى موضع رفع ، فإن أثبتّ فيه الياء إذا وصلت القراءة كان صوابا . وإن حذفتها فى القطع والوصل كان صوابا . قد قرأ بذلك

«4» القرّاء فمر حذفها . إذا وصل قال : الياء ساكنة ، وكلّ ياء أو واو تسكنان وما قبل الواو مضموم وما قبل الياء مكسور فإن العرب تحذفهما وتجتزئ بالضمة من الواو ، وبالكسرة من الياء وأنشد فى بعضهم :

كفّاك كفّ ما تليق درهما جودا وأخرى تعط بالسيف الدما «5»

ومن وصل بالياء وسكت بحذفها قال : هى إذا وصلت فى موضع رفع فأثبتها وهى إذا سكتّ عليها تسكن فحذفتها . كما قيل : لم يرم ولم يقض . ومثله قوله : (ما كُنَّا «6» نَبْغِ) كتبت بحذف الياء فالوجه فيها أن تثبت الياء إذا وصلت وتحذفها إذا وقفت . والوجه الآخر أن تحذفها فى القطع والوصل ، قرأ بذلك حمزة . وهو جائز .

---

(1) هما بدلان من الضمير فى (جعلتهما) يريد : (مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ) . وهذا مقابل قوله فيما سبق : «فى موضع إذا جعلتها استفهاما»

(2) الآية 220 سورة البقرة

(3) الآية 142 سورة آل عمران

(4) قرأ بإ الّتى فى (لَيُوَفِّيَنَّهُمْ) لاما دخلت على نيّة يمين فيها : فيما بين ما وصلتها كما تقول هذا من ليذهبنّ ، وعندى ما لغيره خير منه .

---

(1) شروع فى الجواب عن السؤال [. . . . .]

(2) سقط فى ا

(3) زيادة من تفسير الطبري فى روايته لعبارة الفراء

(4) سقط ما بين القوسين فى ا

(5) الآية 3 سورة النساء

(101/371)

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾

وقوله: ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ . . . ﴾

فالزفير أوّل نهيق الحمار وشبهه ، والشهيق من آخره .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾

وقوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ . . . ، ﴾

يقول القائل: ما هَذا الاسْتثناء وقد وعد الله أَهْل النار الخلود وأهلَ الجنّة الخلود ؟ ففى ذلك مضيان أحدهما أن تجعله استثناء يَسْتثنيه ولاَ يفعله ؛ كقولك: والله لأضربنّكَ إلاّ أن

أرى غير ذلك ، وعزيمتُك على ضَربه ، فكذلك قال ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ ولا يشاؤه والله أعلم ، والقول الآخر أن العرب إذا استثنت شيئاً كبيراً مع مثله أو مع ما هو أكبر منه كان مَعْنى إلاَّ ومعنى الواو سواء ، فمن ذلك قوله ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ والأَرْضُ ﴾ سِوَى ما يشاء من زيادة الخلود فيجعل (إلاَّ) مكان (سِوَى) فيصلح . وكأنّه قال: خالدين فيها مقدار ما كانت السَّموات وكانت الأرض سوى ما زادهم من الخلود (و) الأبد . ومثله فى الكلام أن تقول: لى عَليكَ ألف إلاَّ الألفين اللذين من قِبَل فلان ؛ أفلا ترى أَنه فى المعنى: لى عَليكَ سوى الألفين . وهذا أحَبّ الوجهين إليَّ ، لأنَّ الله عزّ وجل لا خُلْف لوعده ، فقد وصل الاستثناء بقوله ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ فاسْتدل عَلى أَن الاستثناء لهم بالخلود غير منقطِع عنهم .

﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ . . . ﴾

قرأت القراء بتشديد (لَمَّا) وتخفيفِها وتشديد إن وتخفيفها ، فمنْ قال ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَمَا ﴾ جعل (ما) اسماً للناس كما قال ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ ثم جَعَل اللام التى فيها جَوابا لإنّ ، وجَعَل اللام الَّتى فى (لَيُوَفِّيَنَّهُمْ) لا ما دخلت عَلى نيّة يمين فيهَا : فيما بين ما وصلتها ؛ كما تقول هذا مَن لَيذهبنَّ ، وعندى ما لَغَيْرُهُ خير منه .

ومثله (وَإِنَّ «1» مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ) وأمّا من شدّد (لمّا) فإنه - والله أعلم - أراد : لمن ما ليوفّينّهم ، فلمّا اجتمعت ثلاث «2» ميمات حذف واحدة فبقيت اثنتان فأدغمت فى صاحبتها كما قال الشاعر :

وإنى لمّا أصدر الأمر وجهه إذا هو أعيا بالسبيل مصادره «3»

ثم يخفّف «4» كما قرأ بعض القراء (والبغي «5» يعظكم) بحذف الياء (عند «6» الياء) أنشدنى الكسائىّ :

وأشمتّ الغداة بنا فأضحوا لدىّ تباشرون بما لقينا

معناه (لدىّ «7») يتباشرون فحذف لاجتماع الياءات ومثله :

كأنّ من آخرها القادم مخرم نجد قارع المخارم «8»

أراد : إلى القادم فحذف اللام عند اللام . وأمّا من جعل (لمّا) بمنزلة إلّا فإنه وجه لا نعرفه وقد قالت العرب : بالله لمّا قمت عنا ، وإلّا قمت عنا ، فأمّا فى الاستثناء فلم يقولوه فى شعر ولا غيره ألا ترى أنّ ذلك لو جاز لسمعت فى الكلام : ذهب الناس لمّا زيدا .

وأمّا الذين خفّفوا (إن) فإنهم نصبوا كلا ب (ليوفّينّهم) ، وقالوا : كأنّا قلنا : وإن ليوفّينّهم

---

(1) الآية 72 سورة النساء

(2) وذلك أن نون (من) تقلب ميما

(3) «بالسبيل» كذا فى الأصول. وفى الطبري: «بالنهيل» ويبدو أنه الصواب. وعليه ففى العبارة قلب أي أعيا النبيل الحاذق بمصادره.

(4) أي فى البيت فيروى: «وإنى لما» كما هو فى الطبري.

(5) الآية 90 سورة النحل

(6) سقط ما بين القوسين فى ا

(7) سقط ما بين القوسين فى ا

(8) ورد فى اللسان فى (قدم). وقادم الرحل: الخشبة التي فى مقدم كور البعير بمنزلة قربوس السرج ومخرم الأكمة والجبل منقطعه، وهى أفواه الفجاج. والفارع العالي.

(103/371)

كلّا. وهو وجه لا أشتهيه. لأن اللام إنما «1» يقع الفعل الذي بعدها على شىء قبله فلو رفعت كلّ لصلح ذلك كما يصلح أن تقول: إن زيد لقائم ولا يصلح أن تقول: إن زيدا لأضرب لأن تأويلها كقولك: ما زيدا إلّا أضرب فهذا خطأ فى إلّا وفى اللام.

وقرأ الزهرىّ (وإنّ كلّا لمّا ليوفّينّهم) ينوّنها فجعل اللمّ «2» شديدا كما قال (وَتَأْكُلُونَ «3»

التُّراثَ أَكْلًا لَمًّا) فيكون فى الكلام بمنزلة قولك : وانّ كلا حقّا ليوفينّهم ، وإن كلا شديدا ليوفينّهم . وإذا عجّلت العرب باللام فى غير موضعها أعادوها إليه كقولك : إنّ زيدا لإليك لمحسن ، كان موقع اللام فى المحسن «4» ، فلمّا أدخلت فى إليك أعيدت فى المحسن ومثله قول الشاعر :

ولو أنّ قومى لم يكونوا أعزّة لبعد لقد لاقيت لا بدّ مصرعا «5»

أدخلها فى (بعد) وليس بموضعها ومثله قول أبى الجرّاح : إنى لبحمد اللّه لصالح .

وقوله : زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ [114] بضمّ اللام تجعله واحدا مثل الحلم . والزلف جمع زلفة وزلف وهى قراءة العامّة وهى ساعة من الليل ومعناه : طرفى النهار وصلاة الليل المفروضة : المغرب والعشاء وصلاة الفجر ، وطرفى النهار : الظهر والعصر .

وقوله : فَلَوْلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ [116] يقول لم يكن منهم «6» أحد كذلك إلّا قليلا أي هؤلاء كانوا ينهون فنجوا . وهو استثناء على الانقطاع ممّا قبله كما قال عزّ وجل (إِلَّا «7» قَوْمَ يُونُسَ) ولو كان رفعا كان صوابا . وقوله : (وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ)

---

(1) كذا فى الأصول . والمناسب : «لا» أو الأصل : «على شىء بعده» وقد يكون الأصل : «على شىء هو قبله» على كل شىء الفعل قبله . وراجع الطبري .

(2) ا : «اللام» [. . . . .]

(3) الآية 19 سورة الفجر .

(4) ا : «لمحسن»

(5) فى الطبري : «مصرعى»

(6) فى الأصول : «منكم» والمناسب ما أثبت

(7) الآية 98 سورة يونس .

(104/371)

بقول : اتّبعوا فى دنياهم ما عوّدوا من النعيم وإيثار اللذّات على أمر الآخرة . ويقال : اتّبعوا ذنوبهم وأعمالهم السّيّئة إلى النار .

وقوله : وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ [117] .

يقول : لم يكن ليهلكهم وهم مصلحون فيكون ذلك ظلما . ويقال : لم يكن ليهلكهم وهم يتعاطون الحقّ فيما بينهم وإن كانوا مشركين والظلم الشرك .

وقوله : وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ [118] إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ [119] يقول : (لا يَزالُونَ) يعنى أهل الباطل (إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ) أهل الحقّ (وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ) يقول : للشقاء وللسعادة . ويقال : (وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ) : للاختلاف والرحمة .

وقوله : وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ [119] : صار قوله عزّ وجلّ (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) يمينا كما تقول : حلفى لأضربنّك ، وبدا لى لأضربنّك . وكلّ فعل كان تأويله كتأويل بلغني ، وقيل لى ، وانتهى إلىّ ، فإن اللام وأن تصلحان فيه . فتقول : قد بدا لى لأضربنّك ، وبد الى أن أضربك . فلو كان : وتمّت كلمة ربك أن يملأ جهنم كان صوابا وكذلك (ثُمَّ بَدا لَهُمْ «1» مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ) ولو كان أن يسجنوه كان صوابا .

وقال : (وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ [120]) فى «2» هذه السورة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 3 . 31 ﴾

---

(1) الآية 35 سورة يوسف

(2) يذكر وجه تأنيث اسم الإشارة وأن المراد السورة

(105/371)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة هود

(أحكمت) [1] بالأمر والنهي (ثم فصلت) بالوعد والوعيد . (ألا تعبدوا) [2] أي: فصلت لئلا تعبدوا . و(استغفروا ربكم) [3] من الذنوب السالفة و(توبوا) من الآنفة .

(ويؤت كل ذي فضل فضله) إعلام بتفاوت الدرجات في الآخرة ، وترغيب في العمل لها .

(يثنون صدورهم) [5] كانوا إذا مروا برسول الله ثنوا صدورهم وتغشوا بثيابهم لئلا يروه . وقيل: (يثنون) يطوونها على البغض له والجحد به . كما قيل في معناه: 524- طويت الحشا منها على كل كربة

تاد (1) ولم أجمع على منية يدا . (ويعلم مستقرها ومستودعها) [6] حياتها وموتها . وقيل: (مستقرها) في الرحم ، (ومستودعها) في الصلب .

(وكان عرشه على الماء) [7] أي: بنية ما بناه/على الماء . وذلك أعجب وأدل على القدرة القاهرة ، والصفة الباهرة ، يقال عرش يعرش عرشاً ، وأصل العرش في اللغة: خشبات يوضع عليها ثمام يستظل به الساقي قال الراجز: 525- أكل عام عرشها مقيلي . 526- حتى ترى المئزر ذا الفضول . 527- مثل جناح [السبد] الغسيل .

(إلى أمة معدودة) [8] إلى أجل محدود .

(نوف إليهم أعمالهم) [15] أي من [أراد] الدنيا ، وفاه الله ثواب حسناته في الدنيا . وقيل: إنها في المنافقين الذين غزول طلباً للمغانم . (أفمن كان على بينة من ربه) [17] فيه حذف [الخبر] ، من حاله هذه كمن هو في ضلال . والبينة: القرآن . وقيل: ما ركز [في] العقل من الاستدلال على التوحيد . (ويتلوه شاهد) على هذا القول ما يتضمنه القرآن من الحجج فهو شاهد للعقل .

(1) هكذا فى الأصل ولم أستطع تبينها .

وعلى القول الأول: ما يتضمنه العقل من وجوه الأدلة فهو شاهد للقرآن والأولى: حمل الشاهد على القرآن ، أو على النبي عليه السلام ليعود ما بعده من الضمائر إلى واحد منهما . أعني قوله: (ومن قبله كتب موسى) ، وقوله: (ومن يكفر به) ، (فلا تك في مرية منه) . (ويبغونها عوجاً) [19] وقيل: يؤولون القرآن تأويلاً باطلاً . وتكرير (هم) في قوله: (هم كافرون) ، لتقرير التحذير ، وتأكيد القول ، كقول الهذلي: 528- رفوني وقالوا يا خويلد لا ترع فقلت [وأنكرت] الوجوه هم هم .

529- فعاديت شيئاً [والدريس] كأنما يزعزعه وعك من الموم مردم . (ما كانوا يستطيعون السمع) [20] أي: استماع الحق والاعتبار به بغضاً له ، كقوله: (إنك لن تستطيع معي صبراً) ، أي: لا تفعله . (لا جرم) [22] أي: حقاً .

وقيل: (لا جرم) لابد ، والجرم: القطع ، أي: لا قطع قاطع أن يكون كذا . (وأخبتوا إلى ربهم) [23] تخشعوا له واطمأنوا به . (بادي الرأي) [27] بالهمز: أول الرأي ، وبغير الهمز: ظاهر الرأي .

وفي معنى الأول قول الخطابي: 531- ولولا الهوى أبصرت [رائي] ومن يثق بأول رائيه فليس بعاقل. 532- وذو النصح أهدى فيكم [لي] نصيحة ولكنما أهدى إلى غير قابل. وفي معنى الثاني قول الآخر: 533- غموض الحق حين تذب عنه يقلل ناصر الرجل المحق 534- فضل عن الدقيق عقول قوم فيقضي للمجل على [المدق].

ونصب بادي الرأي، أي: في بادي الرأي، ويجوز كونه ظرفاً للرؤية والاتباع والأرذال. (وما أنا بطارد الذين ءامنوا) [29] أي: الذين قالوا لهم الأراذل: [لأنهم] (ملاقوا ربهم). (إن كان الله يريد أن يغويكم) [34] مجازاةً على كفركم.

وقيل: يحرمكم من رحمته. ومنه قوله تعالى: (فسوف يلقون غياً) أي: خيبة وحرماناً. قال المرقش: 535- ومن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً. (فلا تبتئس) [36] فلا تحزن ولا تأسف، من البأساء. (واصنع الفلك بأعيننا) [37].

(107/371)

أي: حفظنا حفظ من يرى. ([و] وحينا) أي: تعليمنا من أمرنا. (وفار التنور) [40] قال مجاهد: فار الماء من مكان النار آيةً للعذاب.

وقال ابن عباس: التنور وجه الأرض. وعن علي: أنه [فار] من الكوفة/ثم طبق الأرض،

وأن التنور من تنوير الصبح ، [فكما] أن الصبح إذا نور ملأ الآفاق ، فكذلك ذلك الماء لما سال عم الأرض .

وقيل: إنه على طريقة المثل ، أي: اشتد غضب الله عليهم ، وحل عذابه بهم ، كقوله عليه السلام: "الآن حمي الوطيس" . وكقول الشاعر: 536- تفور علينا قدرهم [فنديمها] ونفثؤها عنا إ[ذا] حميها [غلا] .

وكقول الفرزدق: 537- وقدر فثأنا غليها بعدما غلت وأخرى حششنا بالعوالي

[توّقف] . (من كل زوجين اثنين) أي: ذكر وأنثى في حال ازدواجهما . [والزوج واحد له شكل ، والاثنان زوجان] ولذلك حسن لفظ اثنين بعد زوجين . (مجراها ومرساها) أي: إجراؤها ، وإرساؤها ، بمعنى المصدر .

[و]يجوز بمعنى الوقت ، كالممسى والمصبح ، أي: بسم الله وقت إجرائها وإرسائها ، وإنما لم يجز مرساها بالفتح ، وإن قرئ مجرايها بالفتح لأنه يقال: [جرت] السفينة مجرى ، وأرساها الملاح مرسى ، لأنها إذا أخذت في الجري لا ترسو بنفسها . [يا أرض ابلعي ماءك) [44] أي: تشربي في سرعة بخلاف العادة ، ليكون أدل على القدرة ، وأشد في العبرة . (ويا سماء أقلعي) أي: لا تمطري . (وغيض الماء) .

نقص ، يقال: غاض الماء وغضته . (إنه عمل غير صالح) [46] أي: ذو عمل ، أو عمله عمل غير صالح فحذف . وقيل: إنه لا حذف فيه وإنما هو على مجاز المبالغة والكثرة في

مثل قولك: الشعر زهير، والجود حاتم. وقيل: إن الكناية في (إنه) راجعة إلى السؤال، أي: سؤالك/نجاته عمل غير صالح.

وقراءة (إنه عمل غير صالح) أي: فعل سوءاً. (إن ربي على صراط مستقيم) [56] أي: على الحق والعدل. (واستعمركم فيها) [61] جعلكم عمارها، وهذا يدل أن الله يريد عمارة الأرض، لا التخلي والتبتل.

(108/371)

وقيل: معناه جعلها لكم مدة أعماركم، فاستعمر بمعنى أعمره داره عمرى، إذا جعلها له مدة عمره. وقيل: أطال أعماركم فيها بمنزلة عمركم. وكانت ثمود طويلة الأعمار، فكانت إذا بنت من المدر انهدم وصاحبه حي فاتخذوا البيوت من الجبال. (فما تزيدونني غير تخسير) [63] أي: لا تزيدونني لو اتبعت دين آبائكم غير خساري. وقيل: غير خساركم حين أنكرتم تركي دينكم. (جاثمين) [67] هلكى ساقطين على الوجوه والركب. (قالوا سلاماً) [69] على وجه التحية. فـ(قال سلام).

أجابهم بمثل تحيتهم. ونصب الأول بإيقاع القول، أو بالمصدر من غير لفظ الفعل، لأن السلام قول، ورفع الثاني على تقدير: وعليكم سلام، أو على الحكاية كقوله: (قل الحمد

لله) . والحنيذ: الحار عن أبي علقمة النحوي. [وقيل]: المشوي بالرضف في الحجارة المحماة. قال:

538- إذا ما [ا]عتبطنا اللحم للطالب القرى حنذناه حتى يمكن اللحم آكله. (نكرهم) [70] أنكرهم وقد جمعهما الأعشى: 539- وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا (وأوجس) أحس، وقيل: أضمر.

(فضحكت) [71] أي: تعجبا من غرة قوم لوط وغفلتهم عما يحل بساحتهم. وقيل: تعجباً من إحياء الحنيذ حين مسحه جبريل عليه السلام. وقيل: كان ضحكها سروراً بالولد، كأنه على التقديم/والتأخير. أي: فبشرناها بإسحاق ويعقوب فضحكت. وقيل: بل سروراً بالسلامة من عذاب القوم، فوصلوها بسرور آخر، وهو البشارة بإسحاق. ومن قال: إن ضحكت: حاضت، لروعة ما سمعت من عذاب القوم. أو حاضت مع الكبر لتوقن بالولد. وارتفاع (يعقوب) بالابتداء، وخبره: الظرف المقدم عليه، أي: ويعقوب من بعد إسحاق. وقيل: إن الحال مقدر فيه، أي: فبشرناها بإسحاق آتياً من ورائه يعقوب. ومن نصب "يعقوب"، فهو يعطفه على موضع إسحاق، إلا أن [الفصل]

بين العطف والمعطوف [قبيح] . والأولى: تقدير فعل آخر ، أي: فبشرناها وزدناها من وراء إسحاق يعقوب ، قال [الراجز]: 540- لو جئت بالتمر له ميسراً 541- والبيض مطبوخاً معاً والسكرا . (قالت ياويلتى) [72] قالت ذلك على عادة النساء إذا عجبن من شيء . (يجادلنا في قوم لوط) [74]

يراجع القول فيهم ، إن فيها لوطاً وإنكم تحلون بهم العذاب أم [تحرفونهم] . والأواه: الدعاء . وقيل: كثير التأوه من خوف الله . (يوم عصيب) [77] شديد ، يعصب بالشر . (يهرعون) [78] يسرعون ، من الأفعال التي [يرفع] فيها الفعل بالفاعل . ومثله: أولع و[أرعد] وزهي .

(هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) أي: لو تزوجتم بهن . وقيل: أراد بهن نساء أمته ، فكل نبي أبو أمته . (ركن شديد) [80] عشيرة منيعة . (سجيل) [82] حجارة صلبة . قيل: إنها معربة "سنك" و"كل" .

وقيل: إنه فعيل من السجل وهو الإرسال . (منضود) أي: نضد وجمع بعضه فوق بعض . (مسومة) [83] معلمة باسم من ترمى به . (عند ربك) في خزانته التي لا يملكها غيره ولا يتصرف فيها سواه . وإنما رجم بهذه الحجارة من قوم [لوط] من كان غائباً عن [المؤتفكات] مدائنهم . (لرجمناك) [91]

لرميناك بالحجارة . وقيل: [لشتمناك] . (واتخذتموه وراءكم ظهرياً) [92] أي: منسياً ، من قوله: (وكان الكافر على ربه ظهيراً) ، أي: ذليلاً هيناً بمنزلة الشيء المنسي . وقيل: نبذتهم ثم أمره [وراء] ظهوركم . وقيل: إنه من قولهم: ظهرت به ، أي: أعرضت عنه ووليته ظهري . قال: 542- تقول بنتي وقد قربت مرتحلاً يا أبتا أنت والأنصاب مقتول .

543- خلفتنا بين قوم يظهرون بنا أموالهم عازب عنا ومشغول . وقيل: إنه من قولهم: جعلت حاجته بظهر ، قال: 544- تميم بن قيس لا تكونن حاجتي بظهر ولا يعيا عليك جوابها . (يقدم قومه) [98] يتقدمهم .

(110/371)

وقيل: يمشي على قدمه . (بئس الرفد المرفود) [99] أي: بئس العطية النار بعد الغرق بالماء . وقال أبو عبيدة: معناه بئس العون المعان . وعن الأصمعي: الرفد ما في القدح من الشراب ، والرفد -بالفتح-: القدح . (منها قائم وحصيد) [100] أي: عامر وخراب . وقيل: قائم الرسم دارس العين .

[التتبيب] والتباب: الهلاك ، عن قتادة . والخسران ، عن مجاهد . الزفير: الصوت في الحلق . والشهيق: في الصدر . قال الراجز: 545- حشرج في الجوف صهيلاً أو شهق

546- حتى يقال ناهق وما نهق .

وقيل: إن الشهيق أمد من شاهق الجبل . والزفير: أنكر من الزفر ، وهو/الحمل العظيم على الظهر . (إلا ما شاء ربك) [107] . أي: من أهل التوحيد فيخرجهم من النار ، وقيل: إلا ما شاء ربك من أهل التوحيد أن لا يدخلهم فيها ولا يخلدهم . وقيل: معناه أنتم خالدون فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من الزيادة عليها فيكون (إلا) بمعنى "سوى" .

قال الفراء: "هذا كقولك: عليك ألف درهم إلا ألفي القرض" . فألفان زيادة بلا شك ، إذ الكثير لا يستثنى من القليل . وقيل: إلا ما شاء ربك من مدة كونهم في الدنيا وفي البرزخ الذي هو ما بين الحياة والموت ، ووقوفهم في العرصات . وتعليق الخلود بدوام السموات والأرض والمراد أبداً على عادة العرب في أمثاله . قال زيد الخيل: 547- لعمرك ما أخشى التصعلك ما بقى على الأرض قيسي يسوق الأباعرا .

وقال كثير: 548- فأقسمت لا أنساك ما عشت ليلة وإن شحطت دار وشط مزارها

549- وما استن رقراق السراب وما جرى ببيض الربى إنسيها ونوارها . (غير مجذوذ) [108] غير مقطوع . (فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء) [109] أي: لا تشك في [كفرهم] . (وإن كلاً لما ليوفينهم) [111] "لما" بالتشديد بمعنى "إلا" كقوله: (إن كل نفس لما عليها حافظ) .

ألا ترى أنه في القسم كذلك ، تقول: "نشدتك الله لما فعلت" ، أي: إلا فعلت ، يبين ذلك أن "لم" و"لا" كلتاهما للنفي فضمت إلى إحداهما "ما" ، وإلى الأخرى "إن" وهما أيضاً للنفي فتقاربتا وتعاقبتا . والفراء يقول: "إنه لما ليوفينهم" فحذفت إحدى الميمات لكثرتها" .

والزجاج يقول: إنها من لممت الشيء: إذا جمعته ، إلا أنها لم تصرف/نحو: تترى وشتى ، كأنه: وإن كلاً جميعاً ليوفينهم .

والسراج يقول: (لما) فيه معنى الظرف وقد دخل الكلام اختصار ، كأنه: وإن كلاً لما بعثوا ليوفينهم ربك أعمالهم . ومن إشكال هذا الموضع ، ما حكي عن الكسائي -وحمده على ذلك أبو علي- أنه قال: "ليس بتشديد (لما) علم ، وإنما نقرأ كما أقرئنا" . وأما (لما) بالتخفيف فعلى أن "ما" بمعنى "من" كما في قوله: (فانكحوا ما طاب لكم) ، أي: وإن كلاً لمن ليوفينهم .

وقيل: بل هو وإن كلاً لليوفينهم ، واللام الأولى: لام التأكيد دخل على خبر إن ، والثانية: لام القسم ، فاحتيج إلى فاصل بينهما ففصل بـ"ما" التي تدخل كثيراً في الكلام زيادة . والفرق بين لام التأكيد والقسم ، أن لام التأكيد تدخل على المستقبل .

زلف الليل: ساعاته. قال العجاج: 550- ناج طواه [الأين] مما وجفا 551- طي الليالي زلفاً فرزلفا 552- سماوة الهلال حتى احقوقفا. (فلولا كان) [116] أي: فهلا كان، أي: فلم يكن في القرون التي أهلكوا. (أولوا بقية) [يبقون] على أنفسهم وقومهم من عذاب الله. (إلا قليلاً ممن أنجينا)

استثناء منقطع، لأنه إيجاب لم يتقدمه نفي، وإنما تقدمه تهجين لهم، وتوبيخ لمن يسلك مسلكهم. (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا) أي: ما عودوا من نعيم الدنيا. وموضعه رفع، أي: هلكوا وتبعتهم آثارهم وديارهم. (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم) [117] أي: [بظلم] منه، تعالى [عنه]. (ولا يزالون مختلفين) [118] أي: في الآراء والديانات. (إلا من رحم ربك) [119] من أهل الحق.

(112/371)

وقيل: مختلفين في الأحوال من الغنى والفقر، والعناء/والدعة، ليأتلفوا في المصالح بذلك الاختلاف، (إلا من رحم ربك) بالرضى والقناعة. وقال ابن بحر: (مختلفين) يخلف بعضهم بعضاً من قولهم: ما اختلف الجديدان، كما يقال: قتل واقتتل، وشغل واشتغل. (ولذلك خلقهم) قيل: [للاختلاف] وقيل: للرحمة.

ولم يؤنث ذلك ، لأن الرحمة هنا بمعنى المصدر ، أي: خلقهم ليرحمهم ، [قالت] الخنساء:

553- فذلك يا هند الرزية فاعلمي ونيران حرب حين شب وقودها .

[تمت سورة هود] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 690.651.651 ﴾

(113/371)

وقال الأخفش :

سورة هود

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

قال ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ وقال بعضهم (تَثْنَوْنِي صُدُورُهم) جعله على "تَفْعَوْعِلُ" مثل "تَعْجَوْجِلُ" وهي قراءة الاعمش* .

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

وقال ﴿ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾ و"الأُمَّةُ": الحِين كما قال (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا

الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَائِكَ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

وقال ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ [10] إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ فجعله خارجا من أوّلِ الكلام على معنى "ولكنّ" وقد فعلوا هذا فيما هو من أوّلِ الكلام فنصبوا . قال الشاعر: [من البسيط وهو الشاهد الحادي والثلاثون بعد المئتين]:

يا صاحِبَيَّ أَلا لاحَيَّ بالوادِي * إِلاَّ عَبيداً قُعُوداً بَيْنَ أَوْتادِ

فتنشده العرب نصبا .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ﴾

وقال ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ ﴾ فـ(كانَ) في موضع جزم وجوابها (نُوَفِّ) .

(114/371)

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَائِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾

وقال ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾ على خبر المعرفة .

وقال ﴿ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ وقال بعضهم (مُرْيَةٍ) تكسر وتضم وهما لغتان.

وقال ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ وأضمر الخبر.

وقال ﴿ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ فجعل النار هي الموعد وانما الموعد فيها كما تقول العرب "الليلةُ الهِلالُ" ومثلها (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) [81].

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾

وقال ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ ﴾ يقول "كَمَثَلِ [134] الأَعْمى والأَصَمِّ".

﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾

وقال ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ أَيّ: في ظاهر الرأي. وليس بمهموز لأَنَّهُ من "بَدا" "يَبْدُو" أَيْ: ظَهَر. وقال بعضهم (بادِىء الرَّأْيِ) أَيْ: فيما يُبْدَأُ بِهِ مِنَ الرَّأي.

﴿ قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

وقال ﴿ قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ وقال بعضهم (جَدَلْنا) وهما لغتان.

(115/371)

﴿ حَتَّى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾

وقال ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ فجعل الزوجين الضربين الذكور والأَناث .

وزعم يونس ان قول الشاعر : [من الطويل وهو الشاهد الثاني والثلاثون بعد المئتين] :

وَأَنْتَ امْرُؤٌ تَعْدُو عَلَى كُلِّ غرّةٍ * فَتُخْطِىءُ فِيها مَرَّةً وَتُصِيبُ

يعني الذئب فهذا أشد من ذلك .

﴿ وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[وقال] ﴿ وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ اذا جعلت من "أَجْرَيْتُ" و"أَرْسَيْتُ" وقال بعضهم (مَجْراها ومَرساها) اذا جعلت من "جَرَيت" وقال بعضهم (مُجْرِيها ومُرْسِيها) لانه أراد ان يجعل ذلك صفة لله عز وجل .

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾

وقال ﴿ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي ﴾ فقطع (سَآوِى) لأَنَّهُ "أَفْعَلُ" وهو يعني نفسه . وقال ﴿ لاَعَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ ويجوز أن يكون على "لاذا عِصْمَةٍ" أَيْ: مَعْصُوم ويكون (إِلاَّ مَنْ رَحِمَ) رفعا بدلاً من العاصِم .

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ وَيَا سَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَآءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

(116/371)

وقال ﴿ وَغِيضَ الْمَآءُ ﴾ لأنك تقول "غِضْتُهُ" فـ"أَنَا أَغِيضُهُ" وتقول: "غَاضَتْهُ الأَرْحَامُ" فـ"هِيَ تَغِيضُهُ" وقال ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ ﴾ . وأما (الجُودِيُّ) فثقل لانها ياء النسبة فكأنه أضيف الى "الجُود" كقولك: "البَصْرِيّ" و"الكُوفِيّ" .

﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

وقال ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ منوّن لانه حين قال – والله اعلم – ﴿ لاَ تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ كان في [134 ب] معنى "أَنْ تَسْأَلَنِي" فقال ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ وقال بعضهم (عَمِلَ غَيْرَ صالِحٍ) وبه نقرأ .

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وقال ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ رفع على الابتداء نحو قولك "ضَرَبْتُ زَيْداً وعَمْرُو لقيتُه" على

الابتداء .

﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

وقال ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا ﴾ على الحكاية تقول: "ما أَقُولُ إِلا": "ضَرَبَكَ عَمْرٌو" و"ما أَقُولُ إِلاّ: "قامَ زَيْدٌ" .

﴿ وَيَاقَوْمِ هَاذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾

وقال ﴿ هَاذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ نصب على خبر المعرفة .

(117/371)

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾

وقال ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ فأضاف (خِزْي) الى "اليوم" فجره وأضاف "اليوم" الى "إذ" فجره . وقال بعضهم (يَوْمَئِذٍ) فنصب لانه جعله اسما واحدا وجعل الاعراب في الاخر .

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ ﴾

وقال ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ كتابها بالالف في المصحف وانما صرفت لانه جعل "ثمودَ" اسم الحي أو اسم أبيهم . ومن لم يصرف جعله اسم القبيلة . وقد قرىء هذا غير مصروف . وانما قرىء منه مصروفا ما كانت فيه الالف . وبذلك نقرأ . وقد يجوز صرف هذا كله في جميع القرآن والكلام لانه اذا كان اسم الحي أو الاب فهو اسم مذكر ينبغي أن يصرف .

﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾

وقال ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ لأنك تقول "نَكِرْتُ الرجل" و"أَنْكَرْتُهُ" .

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾

وقال ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ رفع على الابتداء وقد فتح على ﴿ وَبِيَعْقُوبَ مِنْ وراءِ إِسْحاقَ ﴾ ولكن لا ينصرف .

﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾

(118/371)

وقال ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾ فاذا وقفت قلت (يا وليتاه) لأن هذه الألف خفيفة وهي مثل الف الندبة ؛ فلطفت من ان يكون في السكت وجعلت بعدها الهاء ليكون أبين لها وأبعد للصوت . وذلك ان الألف اذا كانت بين حرفين كان لها صدى كنحو الصوت يكون في [135] جوف الشيء فيتردد فيه فيكون اكثر وابين . ولا تقف على ذا الحرف في القرآن كراهية خلاف الكتاب . وقد ذكر أنه يوقف على ألف الندبة فان كان هذا صحيحا وقفت على الالف .

وقال ﴿ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً ﴾ وفي قراءة ابن مسعود (شَيْخٌ) ويكون على ان تقول "هُوَ شيخ" كأنه فسر بعدما مضى الكلام الأول او يكون اخبر عنهما خبرا واحداً كنحو قولك "هذا أَخْضَرُ أَحْمَرُ" او على ان تجعل قولها (بعلي) بدلاً من (هذا) فيكون مبتدأ ويصير "الشيخ" خبره وقال الشاعر: [من الرجز وهو الشاهد الثاني والعشرون]:

مَنْ يَكُ ذَا بَتٍّ فَهذا بَتِّي * مُقَيِّظٌ مُصَيِّفٌ مُشَتِّي

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾

وقال ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ وهو الفزَع . ويقال "أَفْرخ رَوَعُكَ" و "أُلْقِيَ في رُوعي" أي: في خَلَدي . [فـ] "الرُوْعُ" القَلْبُ والعَقْلُ . و "الرَّوْعُ": الفزَع .

﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هؤلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾

وقال ﴿ هؤلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ رفع ، وكان عيسى يقول (هُنَّ أَطْهَرَ لكم) وهذا لا يكون انما ينصب خبر الفعل الذي لا يستغني عن خبر اذا كان بين الاسم وخبره هذه الأسماء المضمرة التي تسمى الفصل يعني: "هِيَ" و"هُوَ" وَ"هُنَّ" وزعموا أن النصب قراءة الحسن ايضا .

(119/371)

وقال ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ لأَنَّ "الضَيْفَ": يكون واحدا ويكون جماعة. تقول: "هؤلاء [135 ب] ضَيْفي" هذا ضَيْفي كما تقول: "هَؤُلاءِ جُنُبٌ" و"هذا جُنُبٌ" ، و"هؤلاء عَدُوٌّ" و"هذا عَدُوٌّ" .

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾

وقال ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ وأَضْمَرَ "لكان" .

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾

وقال ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ يقول ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ نصب . وقال بعضهم (إِلَّا امْرَأَتُكَ) رفع وحمله على الالتفات . اي لا يلتفت منكم الا امرأتك .

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾

وقال ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ [82] مُّسَوَّمَةً ﴾ نصب بالتنوين .

فـ"المَنْضُودُ" من صفة "السِّجِّيل" ، و"المُسَوَّمَةُ" من صفة "الحجارَة" فلذلك انتصب .

﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾

(120/371)

وقال ﴿ أَصلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ يقول "أَنْ* نَتْرُكَ وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشاءُ" وليس المعنى "أَصلاتُكَ تأمُرُكَ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشاءُ" لأنه ليس بذا امرهم . وقال بعضهم (تَشاءُ) وذلك اذا عنوا شعيبا .

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَآءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾

وقال ﴿ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ يريد "ومحصود" كـ"الجريح" و"المجروح" .

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾

وقال ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ لأَنَّهُ مَصْدَرَ "تَبَّبُوهُم" "تَتْبِيبا" .

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾

وقال ﴿ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ ومعناه "تتفعّل" فكان الاصل ان تكون "تَتَكَلَّمُ" ولكنهم استثقلوا اجتماع التاءين فحذفوا الاخرة منهما لانها هي التي تعتل فهي احقهما بالحذف ، ونحو (تَذَكَّرُون) يسكنها الادغام فان قيل: "فهلا ادغمت التاء ها هنا في الذال وجعلت قبلها الف وصل كما قلت: "اِذَّكَّرُوا" فلأن هذه الألف انما تقع في الامر وفي كلّ فعل معناه [136] "فعل" فأما "يَفْعَلُ" و"تَفْعَلُ" فلا .

﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

وقال ﴿ وَأَنَّ كُلاًّ ﴾ ثقيلة وقال [136 ب] أهُل المدينة (وإِنْ كُلاًّ) خففوا (إِنْ) وأعملوها كما تعلم "لَمْ يَكُ" وقد خففتها من "يَكُنْ" ﴿ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ فاللام التي مع (ما) هي اللام التي تدخل بعد "أن" واللام الاخرة للقسم .

(121/371)

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

وقال ﴿ وَلاَ تَطْغَوْا ﴾ من "طَغَوْتَ" "تَطْغَا" مثل "مَحَوْتَ" "تَمْحا" .

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

وقال ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا ﴾ لانها من "رَكَنَ" "يَرْكَنُ" وان شئت قلت "وَلَا تَرْكُنُوا" وجعلتها من "رَكَنَ" "يَرْكُنُ" .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾

وقال ﴿ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ فحرّك الياء لانها ساكنة لقيها حرف ساكن لأن أكثر ما يحرّك الساكن بالكسر نحو ﴿ صَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾ .

وقال ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ لانها جماعة تقول "زُلْفَة" و"زُلُفَاتٌ" و"زُلُفٌ" .

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَاذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وقال ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ ﴾ على "نقص" ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (كلاّ) .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

[وقال] ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ اذا لم يجعل النبيَّ صلى الله عليه فيهم

وقال بعضهم (تَعْمَلُون) لانه عنى النبيَّ صلى الله عليه معهم او قال له "قل لهم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ " .

المعاني الواردة في آيات سورة (يوسف)

(122/371)

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هذا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

وقال ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يقول ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ بوحينا ﴿ إِلَيْكَ هذا الْقُرْآنَ ﴾ وجعل (ما) اسما للفعل وجعل (أَوْحَيْنا) صلة .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يا أَبتِ إِنّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾

وقال ﴿ إِنّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ فكرر الفعل وقد يستغني باحدهما . وهذا على لغة الذين قالوا "ضَرَبْتُ زَيْداً ضَرَبْتُهُ" وهو توكيد مثل ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ وقال بعضهم (أَحَدَ عْشَرَ) واسكن العين وكذلك (تِسْعَةَ عْشَرَ) الى العشرين لما طال الاسم وكثرت متحركاته اسكنوا . ولم يسكنوا في قولهم

"اثْنَيْ عَشَرَ" و"اثْنَتا عَشْرَةَ" للحرف الساكن الذي قبل العين وحركة العين في هذا كله هو الاصل.

وأَمَّا قوله ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ فانه لما جعلهم كمن يعقل في السجود والطواعية جعلهم كالانس في تذكيرهم اذا جمعهم كما قال ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ . وقال الشاعر: [من الخفيف وهوة الشاهد الثالث والثلاثون بعد المئتين]:

صَدَّها مَنْطِقُ الدَّجاجِ عَنِ القَصْدِ * وَضَرْبُ الناقُوسِ فَاجْتُنِبا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 1 صـ 380.392 ﴾

(123/371)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة هود

مكية كلها

1 - أُحْكِمَتْ آياتُهُ فلم تنسخ .

ثُمَّ فُصِّلَتْ بالحلال والحرام . ويقال : فصّلت : أنزلت شيئًا بعد شيء ولم تنزل جملة .

مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أي من عند حكيم خبير .

3 - يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً أي يعمّركم. وأصل الإمتاع: الإطالة.

يقال: أمتع اللّه بك، ومتّع اللّه بك إمتاعا ومتاعا. والشيء الطويل: ماتع.

ويقال: جبل ماتع. وقد متع النّهار: إذا تطاول.

5 - يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ أي يطوون ما فيها ويسترونه «1» لِيَسْتَخْفُوا بذلك من اللّه.

أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ أي يستترون بها ويتغشّونها.

---

(1) أخرج ابن جرير وغيره عن عبد اللّه بن شداد قال: كان أحدهم إذا مر بالنبي صلّى اللّه عليه وسلم ثنى صدره لكي لا يراه فنزلت.

(124/371)

---

6 - وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها قال ابن مسعود: مستقرها:

الأرحام. ومستودعها: الأرض التي تموت فيها.

8 - إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ «1»: أي إلى حين بغير توقيت. فأما قوله:

وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ فيقال: بعد سبع سنين.

9 - لَيَؤُسٌ فعول من يئست. أي قنوط.

10 - ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي أي البلايا.

15 - مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها أي نؤتهم ثواب أعمالهم لها فيها .

وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ أي لا ينقصون .

17 - أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ مفسر في كتاب «المشكل» .

22 - لا جَرَمَ حقا .

23 - وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أي تواضعوا لربهم . والإخبات : التواضع والوقار .

27 - أَراذِلُنا شرارنا . جمع أرذل . يقال : رجل رذل وقد رذل رذالة ورذولة .

بادِيَ الرَّأْيِ أي ظاهر الرأي . بغير همز . من قولك : بدا لي ما كان خفيّا : أي ظهر . ومن همزه جعله : أوّل الرأي . من بدأت في الأمر فأنا أبدأ .

---

(1) أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : لما نزل : اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ قال ناس : إن الساعة قد اقتربت فتناهوا ، فتناهي القوم قليلا ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء ، فأنزل اللّه : وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ الآية .

28 – أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي أي على يقين وبيان .

فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أي عميتم عن ذلك . يقال : عمي عليّ هذا الأمر . إذا لم أفهمه ، وعميت عنه ، بمعنى .

أَنُلْزِمُكُمُوها أي نوجبها عليكم ونأخذكم بفهمها وأنتم تكرهون ذلك ؟ ! .

35 – قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ أي اختلقته .

فَعَلَيَّ إِجْرامِي أي جرم ذلك الاختلاق – إن كنت فعلت .

وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ فِي التكذيب .

37 – والْفُلْكَ السفينة . وجمعها فلك ، مثل الواحد .

40 – مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ أي من كلّ ذكر وأنثى اثنين .

وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ أي سبق القول بهلكته .

41 – مَجْراها : مسيرها .

وَمُرْساها حيث ترسي وترسو أيضا . أي تقف .

43 – يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ أي يمنعني منه .

قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ لا معصوم اليوم مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ومثله مِنْ ماءٍ دافِقٍ [سورة الطارق آية : 6] بمعنى مدفوق .

44 – وَغِيضَ الْماءُ أي نقص . يقال : غاض الماء وغضته . أي نقص ونقصته .

وَقُضِيَ الْأَمْرُ أي فرغ منه فغرق من غرق ، ونجا من نجا .

والْجُودِيّ : جبل بالجزيرة .

46 - إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ لمخالفته إياك . وهذا كما يقول الرجل لابنه إذا خالفه : اذهب فلست منك ولست مني . لا يريد به دفع نسبه . أي قد فارقتك .

(126/371)

---

50 - وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً

جعله أخاهم : لأنه منهم .

54 - إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ أي أصابك بخبل يقال : عراني كذا وكذا واعتراني : إذا ألم بي . ومنه قيل لمن أتاك يطلب نائلك : عار . ومنه قول النباغة :

أتيتك عاريا خلقا ثيابي على خوف تظنّ بي الظنون

59 - (عنيد) العنيد والعنود والعاند : المعارض لك بالخلاف عليك .

60 - وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً أي ألحقوا .

63 - فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ أي غير نقصان .

69 - بِعِجْلٍ حَنِيذٍ أي مشويّ . يقال : حنذت الجمل : إذا شويته في خدّ من الأرض

بالرّضف ، وهي الحجارة المحماة . وفي الحديث : أن خالد بن الوليد أكل مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فأتي بضب محنوذ .

70 - فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ أي إلى العجل ، يريد رآهم لا يأكلون .

نَكِرَهُمْ أنكرهم . يقال : نكرتك ، وأنكرتك ، واستنكرتك .

وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً أي أضمر في نفسه خوفا .

71 - فَضَحِكَتْ قال عكرمة : حاضت ، من قولهم : ضحكت الأرنب : إذا حاضت .

وغيره من المفسرين يجعله الضحك بعينه . وكذلك هو في التوراة ، وقرأت فيها : «أنها حين بشّرت بالغلام ضحكت في نفسها وقالت : من بعد ما بليت أعود شابة ، وسيدي إبراهيم قد شاخ ؟ فقال اللّه لإبراهيم عليه السلام : لم ضحكت سرا - وسرا اسمها في التوراة . يعني سارة - وقالت أحقّ

(127/371)

أن ألد وقد كبرت ؟ فجحدت سرّا وقالت : لم أضحك . من أجل أنها خشيت . فقال : بلى لقد ضحكت» .

وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ أي بعد إسحاق . قال أبو عبيدة :

الوراء : ولد الولد .

سِيءَ بِهِمْ فعل ، من السوء .

77 – وَقالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ أي شديد . يقال : يوم عصيب وعصبصب .

78 – وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ أي يسرعون إليه . يقال : أهرع الرجل : إذا أسرع على لفظ ما لم يسمّ فاعله ، كما يقال : أرعد . ويقال :

جاء القوم : يهرعون ، وهي رعدة تحلّ بهم حتى تذهب عندها عقولهم من الفزع والخوف إذا أسرعوا .

هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ أي تزوجوهن فهنّ أطهر لكم .

فِي ضَيْفِي أي في أضيافي . والواحد يدل على الجمع . كما يقال : هؤلاء رسولي ووكيلي قبل ، فنستحقّهن .

«قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق» أي : لم تتزوجهن قبل فنستحقّهن .

80 – أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ أي عشيرة .

81 – فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ أي سر بهم ليلا .

بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ أي ببقية تبقى من آخره . والقطع والقطعة : شيء واحد .

82 - حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ يذهب بعض المفسرين إلى أنها «سنك وكل» بالفارسية ويعتيره بقوله عز وجل: حِجارَةً مِنْ طِينٍ [سورة

(128/371)

الذاريات آية: 33] يعني الآجرّ. كذلك قال ابن عباس.

وقال أبو عبيدة: السجيل: الشديد. وأنشد لابن مقبل.

ضربا تواصى به الأبطال سجّينا وقال: يريد ضربا شديدا.

ولست أدري ما سجيل من سجين. وذاك باللام وهذا بالنون. وإنما سجين في بيت ابن مقبل «فعّيل» من سجنت. أي حبست. كأنه قال:

ضرب يثبت صاحبه بمكانه. أي يحبسه مقتولا أو مقاربا للقتل. و«فعّيل» لما دام منه العمل. كقولك: رجل فسّيق وسكّير وسكّيت: إذا أدام منه الفسق والسكر والسكوت. وكذلك «سجّين». هو ضرب يدوم منه الإثبات والحبس.

وبعض الرواة يرويه «سخّين» - من السّخونة - أي ضربا سخنا.

مَنْضُودٍ بعضه على بعض كما تنضد الثياب، وكما نضد اللبن.

83 - مُسَوَّمَةً معلمة بمثل الخواتيم. والسّومة: العلامة.

86 - بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ أي ما أبقى اللّه لكم من حلال الرزق خير من التّطفيف .

87 - أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ ؟ أي دينك . ويقال : قراءتك .

89 - لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أي لا يكسبّنكم ويجرّ عليكم شقاقي أي عداوتي ، أن تهلكوا .

91 - وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ أي قتلناك . وكانوا يقتلون رجما .

فسمّي القتل رجما . ومثله قوله : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ [سورة يس آية : 13] .

92 - وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا أي لم تلتفتوا إلى ما جئتكم به

(129/371)

عند ، تقول العرب : جعلتني ضهريّا وجعلت حاجتي منك بظهر ، إذا أعرضت عنه وعن حاجته .

93 - وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ أي انتظروا إني معكم منتظر .

95 - أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ يقال : بعد يبعد ، إذا كان بعد هلكة . وبعد يبعد : إذا نأى

99 - الرِّفْدُ : العطية . يقال : رفدته أرفده ، إذا أعطيته وأعنته .

والْمَرْفُودُ المعطي . كما تقول : بئس العطاء والمعطي .

100 - ذِلكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى أي من أخبار الأمم .

مِنْها قائِمٌ أي ظاهر للعين .

وَحَصِيدٌ قد أبيد وحصد .

101 - وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ أي غير تخسير . ومنه قوله عز وجل : تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ [سورة المسد آية : 1] أي خسرت .

107 - خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ مبين في كتاب «المشكل» .

108 - غَيْرَ مَجْذُوذٍ أي غير مقطوع . يقال : جذذت وجددت وجذفت وجدفت ، إذا قطعت .

110 - وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ أي نظرة لهم إلى يوم الدين .

لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ في الدنيا .

112 - فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ أي أمض على ما أمرت به .

114 - وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ أي ساعة بعد ساعة . واحدتها زلفة . ومنه يقال : أزلفني كذا

عندك ، أي أدناني . والمزدلف : المنازل والدّرج .

وكذلك الزّلف . قال العجّاج .

(130/371)

طيّ الليالي زلفا فزلفا سماوة الهلال حتّى احقوقفا

116 - فَلَوْلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أي فهلا .

أُولُوا بَقِيَّةٍ أي أولوا بقيّة من دين . يقال : [قوم] لهم بقية وفيهم بقيّة . إذا كانت بهم مسكة وفيهم خير .

وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ ما أعطوا من الأموال ، أي آثروه واتبعوه ففتنوا به .

118 - وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ في دينهم .

119 - إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ فإن دينهم واحد لا يختلفون .

وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ يعني لرحمته خلق الذين لا يختلفون في دينهم .

وقد ذهب قوم إلى أنه للاختلاف خلقهم اللّه . واللّه أعلم بما أراد .

120 - وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ أي في هذه السورة .

121 - اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ أي على مواضعكم واثبتوا إِنَّا عامِلُونَ .

122 - وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ تهديد ووعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ182.175 ﴾

(131/371)

وقال الغزنوى :

ومن سورة هود

1 أُحْكِمَتْ : بالأمر والنهي ، ثُمَّ فُصِّلَتْ : بالوعد والوعيد «1» ، أو أحكمت آياته من الباطل ثم فصلت بالأحكام «2» .

2 أَلَّا تَعْبُدُوا : فصلت لئلا تعبدوا «3» .

[43/ب] 3 وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ : من الذنوب السالفة ثم توبوا من/ الآنفة ، أو اطلبوا المغفرة ثم توصّلوا «4» إليها بالتوبة ، فالمغفرة أول في الطلب وآخر في السبب «5» .

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (15/ 225 ، 226) عن الحسن .

ونقله النحاس في معاني القرآن : 3/ 327 ، والماوردي في تفسيره : 2/ 202 عن الحسن .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 4/ 399 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم ، وابن المنذر

، وأبي الشيخ عن الحسن رحمه اللّه .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 15/ 226 عن قتادة .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 4/ 399 ، وزاد نسبته إلى ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ عن قتادة رحمه اللّه .

(3) معاني القرآن للفراء : 2/ 3 ، وتفسير الطبري : 15/ 228 ، والمحرر الوجيز : 7/ 235 .

(4) في «ج» : توسلوا .

(5) الوجهان في تفسير الماوردي : 2/ 203 ، ونص كلام الماوردي هناك :

«أحدهما : استغفروه من سالف ذنوبكم ثم توبوا إليه من المستأنف متى وقع منكم .

قال بعض الصلحاء : الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين .

الثاني : أنه قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب والتوبة هي السبب إليها ، فالمغفرة أول في الطلب وآخر في السبب» .

وانظر هذا المعنى في زاد المسير : 4/ 75 ، وتفسير الفخر الرازي : (17/ 188 ، 189) ، وتفسير القرطبي : 9/ 3 .

5 يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ : الثني : الإخفاء ، ثناه يثنيه ، أي : يكتمون ما في صدورهم «1» .

وروى هشيم «2» عن عبد اللّه بن شدّاد «3» قال : كان أحدهم إذا مرّ برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ثنى صدره وتغشّى بثوبه حتى لا يراه النبي «4» عليه السلام .

6 وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا : حياتها وموتها «5» .

7 وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ : بنية ما بناه ، وذلك أعجب «6» .

وأصل العرش «7» خشبات توضع عليها ثمام «8» يستظل بها الساقي والضال .

---

(1) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 201 ، والكشاف : 2/ 258 ، وزاد المسير : 4/ 77 ، وتفسير القرطبي : 9/ 5 .

(2) هو هشيم - بضم الهاء - ، ابن بشير - بفتح الباء وكسر الشين المعجمة - بن القاسم بن دينار السّلمي ، أبو معاوية الواسطي .

ترجم له الحافظ في التقريب : 574 ، وقال : «ثقة ثبت كثير التدليس والإرسال الخفي ، من السابعة ، مات سنة ثلاث وثمانين ، وقد قارب الثمانين» .

وانظر ترجمته في تاريخ بغداد : 14/ 85 ، وتذكرة الحفاظ : 1/ 248 ، وسير أعلام النبلاء :

.287/8

(3) هو عبد اللّه بن شدّاد بن الهاد اللّيثي ، أبو الوليد ، المدني ثم الكوفي ولد في زمن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ومات بالكوفة مقتولا سنة إحدى وثمانين للهجرة ، وقيل بعدها ، ذكره العجلي من كبار التابعين الثقات .

ترجمته في سير أعلام النبلاء : 3/ 488 ، وتقريب التهذيب : 307 .

(4) أخرجه الطبري في تفسيره : 15/ 234 .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 4/ 400 ، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ عن عبد اللّه بن شداد .

(5) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 15/ 243 عن الربيع بن أنس .

(6) قال الفخر الرازي في تفسيره : 17/ 195 : «فإن البناء الضعيف إذا لم يؤسس على أرض صلبة لم يثبت ، فكيف بهذا الأمر العظيم إذا بسط على الماء» .

(7) تهذيب اللغة : 1/ 414 ، واللسان : 6/ 315 (عرش) .

(8) المراد ب «الثمام» : العيدان قال الجوهري : «الثمام : نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص ، وربما حشي وسدّ به خصاص البيوت ، الواحدة ثمامة» .

الصحاح : 5/ 1881 (ثمم) ، وانظر اللسان : 12/ 81 (ثمم) . [. . . . .]

لِيَبْلُوَكُمْ : أنه خلق الخلق ليظهر إحسان المحسن فهو الغرض من الخلق .

8 إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ : أجل محدود «1» ، وبلغة أزد شنوءة : سنين معلومة «2» .

12 فَلَعَلَّكَ تارِكٌ : أي : لعظم ما يرد عليك من تخليطهم يتوهّم أنهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه من أمر ربك «3» .

وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ : أحسن من «ضيّق» لأنه عارض ، ولأنه أشكل ب «تارك» .

14 فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ : الخطاب للمؤمنين ، أي : لم يجبكم الكافرون إلى ما تحدثوهم .

ويجوز الخطاب للمشركين ، أي : لم يستجب لكم من دعوتموه ليعينكم .

فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ : أنه حق من عنده .

وقيل : بِعِلْمِ اللَّهِ : بمواقع تأليفه في علوّ طبقته .

15 نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ : أي : من أراد الدنيا وفّاه اللّه ثواب حسناته

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 285 ، وتفسير الطبري : (15/ 252 ، 253) ، ومعاني الزجاج : 3/ 40 ، وتفسير البغوي : 2/ 375 ، وتفسير القرطبي : 9/ 9 .

(2) ينظر كتاب لغات القبائل الواردة في القرآن لأبي عبيد : 131 .

(3) نص هذا القول في زاد المسير : 4/ 82 .

قال ابن عطية في المحرر الوجيز : 7/ 249 : «سبب هذه الآية أن كفار قريش قالوا : يا محمد ، لو تركت سب آلهتنا وتسفيه آبائنا لجالسناك واتبعناك . قالوا : ايت بقرآن غير هذا أو بدله ، ونحو هذا من الأقوال ، فخاطب اللّه تعالى نبيّه صلّى اللّه عليه وسلّم على هذه الصورة من المخاطبة ، ووقفه بها توقيفا رادا على أقوالهم ومبطلا لها ، وليس المعنى أنه صلّى اللّه عليه وسلّم همّ بشيء من هذا فزجر عنه ، فإنه لم يرد قط ترك شيء مما أوحى إليه ، ولا ضاق صدره ، وإنما كان يضيق صدره بأقوالهم وأفعالهم وبعدهم عن الإيمان» .

(134/371)

في الدنيا ، وهو أن يصل الكافر رحما ، أو يعطي سائلا فيجازى بسعة في الرزق .

16 وَحَبِطَ ما صَنَعُوا : فسد ، حبط بطنه : فسد بالمطعم الوبيء «1» .

17 أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ : أي : القرآن «2» ، أو ما ركز في العقل من دلائل التّوحيد «3» . وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ : ما تضمنه القرآن فهو شاهد العقل ، وعلى [القول] «4» الأول ما تضمنه العقل فهو شاهد القرآن «5» .

19 وَيَبْغُونَها عِوَجاً : يريدون غير الإسلام دينا «6» ، أو يؤولون القرآن تأويلا باطلا «7» .

20 ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ : استماع الحق ، بغضا له .

22 لا جَرَمَ : لا بد «8» ، والجرم : القطع ، / أي : لا قاطع عنه ولا مانع [44/ا] أنهم في الآخرة هم الأخسرون .

23 وَأَخْبَتُوا : اطمأنوا عن خشوع «9» .

---

(1) الصحاح : 3/ 1118 ، واللسان : 7/ 270 (حبط) .

(2) ذكر الماوردي هذا القول في تفسيره : 2/ 206 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 85 عن عبد الرحمن بن زيد .

وذكره الفخر الرازي في تفسيره : 17/ 209 دون عزو .

(3) ذكر نحوه الماوردي في تفسيره : 2/ 206 عن ابن بحر .

(4) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» .

(5) تفسير الماوردي : 2/ 207 ، والمحرر الوجيز : 7/ 258 ، وزاد المسير : 4/ 86 ، وتفسير القرطبي : 9/ 17 .

(6) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 2/ 208 عن أبي مالك .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 4/ 413 ، وعزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم عن أبي مالك أيضا .

(7) ذكره الماوردي في تفسيره : 2/ 208 عن علي بن عيسى .

(8) معاني القرآن للفراء : 2/ 8 ، وتفسير الماوردي : 2/ 208 ، وزاد المسير : 4/ 91.

(9) معاني القرآن للفراء : 2/ 9 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 286 ، وتفسير الطبري :

15/ 290 ، وتفسير القرطبي : 9/ 21 .

(135/371)

---

26 إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ : وإن كان عذاب الكافر يقينا لأنه لا يدرى إلى أي شيء يؤول حالهم من إيمان أو كفر ، وهذا الوجه ألطف وأقرب في الدعوة .

27 بادِيَ «1» الرَّأْيِ : أول الرأي ، وبغير الهمز ظاهر الرأي ، ونصبه على الظرف ، أي : في بادئ الرأي ، ويجوز ظرفا «2» للرؤية وللأتباع وللأرذال .

29 وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا : أي الذين قيل لهم «الأرذال» ، لأنهم ملاقو ربهم «3» .

34 إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ : مجازاة على كفركم ، أو يحرمكم من رحمته «4» .

36 فَلا تَبْتَئِسْ : لا تحزن ولا تأسف ، من «البأساء» «5» .

37 وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا : بحفظنا «6» ، حفظ من يعاين ، وَوَحْيِنا :

---

(1) بالهمز قراءة أبي عمرو ، وقرأ باقي السبعة بادِيَ الرَّأْيِ بغير همز .

السبعة لابن مجاهد : 332 ، والتبصرة لمكي : 222 .

وانظر توجيه القراءتين في : معاني الفراء : 2/ 11 ، ومجاز أبي عبيدة : 1/ 287 ،

والكشف لمكي : 1/ 526 ، والبحر المحيط : 5/ 215 .

(2) المحرر الوجيز : 7/ 272 ، والبيان لابن الأنباري : 2/ 11 ، والتبيان للعكبري :

2/ 695 ، والبحر المحيط : 5/ 215 ، والدر المصون : (6/ 310 ، 311) .

[. . . . .]

(3) قال الماوردي في تفسيره : 2/ 210 : «يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون قال ذلك على وجه الإعظام لهم بلقاء اللّه تعالى .

الثاني : على وجه الاختصام بأني لو فعلت ذلك لخاصموني عند اللّه» .

(4) تفسير الفخر الرازي : (17/ 227 ، 228) .

(5) قال الطبري في تفسيره : 15/ 306 : «و هو «تفتعل» من «البؤس» ، يقال : ابتأس

فلان بالأمر يبتئس ابتئاسا» .

وفي اللسان : 6/ 21 (بأس) : «و البأساء والمبأسة : كالبؤس» .

وانظر مفردات الراغب : 66 .

(6) ينظر معاني القرآن للزجاج : 3/ 50 ، وتفسير الماوردي : 2/ 212 .

تعليمنا وأمرنا «1» .

40 وَفارَ التَّنُّورُ : فار الماء من مكان النار آية للعذاب «2» .

وقيل «3» : التنور وجه الأرض من «تنوير الصبح» «4» ، فكما أن الصبح إذا نور طبق الآفاق ، فكذلك ذلك الماء .

وقيل : إنه مثل شدة غضب اللّه عليهم ، كقوله عليه السلام : «الآن

---

(1) عن تفسير الماوردي : 2/ 212 ، ونص كلام الماوردي هناك : وَوَحْيِنا فيه وجهان :

أحدهما : وأمرنا لك أن تصنعها .

الثاني : وتعليمنا لك كيف تصنعها» .

وأخرج الطبري في تفسيره : 15/ 309 عن مجاهد في قوله تعالى : وَوَحْيِنا قال : كما نأمرك .

وانظر المحرر الوجيز : 7/ 288 ، وزاد المسير : 4/ 101 .

(2) ذكر المؤلف - رحمه اللّه - هذا القول في وضح البرهان : 1/ 434 عن مجاهد .

وفي معاني الفراء : 2/ 14 : «إذا فار الماء من أحرّ مكان في دارك فهي آية للعذاب فأسر بأهلك» .

(3) أخرجه الطبري في تفسيره : 15/ 318 عن ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك .

وذكره الزجاج في معاني القرآن : 3/ 51 ، والنحاس في معانيه : 3/ 348 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 214 عن ابن عباس ، وابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 105 عن ابن عباس ، وعكرمة ، والزهري .

ووصفه ابن كثير في تفسيره : 4/ 254 بأنه أظهر .

(4) ظاهر هذا الكلام أنه متعلق بما قبله ، وهو قول آخر كما أخرجه الطبري في تفسيره : (15/ 318 ، 319) عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ، ونقله الماوردي في تفسيره :

2/ 214 عن علي أيضا .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 4/ 423 ، وزاد نسبته إلى أبي الشيخ ، وابن أبي حاتم عن علي رضي اللّه عنه .

وعقّب النحاس على هذه الأقوال بقوله : «و هذه الأقوال ليست بمتناقضة ، لأن اللّه قد خبرنا أن الماء قد جاء من السماء والأرض ، فقال : فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً .

فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة» .

انظر معاني القرآن : 3/ 348 .

(137/371)

حمي الوطيس» «1» .

مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ : أي : ذكر وأنثى في حال ازدواجهما ، والزوج واحد له شكل ، والاثنان زوجان ، تقول : عندي زوجان من الخفّ «2» .

41 مَجْراها وَمُرْساها : إجراؤها وإرساؤها ، بمعنى المصدر «3» ، أو بمعنى الوقت «4» كالمسي والمصبح ، ولم يجز «مرسيها» «5» بالفتح وإن قريء «مجريها» «6» لأن السفينة تجري ولا ترسو إلا إذا أرساها الملّاح.

---

(1) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : 3/ 1399 ، كتاب الجهاد والسير ، باب «في غزوة حنين» واللفظ فيه : «هذا حين حمي الوطيس» .

وقال القاضي عياض في مشارق الأنوار : 2/ 285 : «و قوله : حمي الوطيس هو التنور ، واستعاره لشدة الحرب ، ويقال إنه من كلامه الذي لم يسبق إليه صلّى اللّه عليه وسلّم وعلى آله» .

(2) عن معاني القرآن للزجاج: 3/ 51 ، ونص كلامه : «أي من كل شيء ، والزوج في كلام العرب واحد ويجوز أن يكون معه واحد ، والاثنان يقال لهما : «زوجان» ، يقول الرجل :

عليّ زوجان من الخفاف ، وتقول : عندي زوجان من الطير ، وإنما تريد ذكرا أو أنثى فقط» .

وانظر تفسير الطبري : (15/ 322 ، 323) ، ومعاني القرآن للنحاس : 3/ 349 ، وزاد المسير : 4/ 106 .

(3) بمعنى المصدر الميمي ذي الأصل الرباعي من أجريته مجرى وإجراء .

(4) على الظرفية ، والتقدير : اركبوا فيها مسمّين وقت جريانها ورسوها .

وهذا التوجيه والذي قبله على قراءة ابن كثير ، ونافع ، وأبي عمرو ، وابن عامر ، وأبي بكر عن عاصم ، بضم الميمين في «مجراها ومرساها» .

السبعة لابن مجاهد : 333 ، والتبصرة لمكي : 223 .

وانظر توجيه هذه القراءة في معاني القرآن للزجاج: 3/ 52 ، وإعراب القرآن للنحاس : 2/ 283 ، والكشف لمكي : 1/ 528 ، والبحر المحيط : 5/ 225 ، والدر المصون :

6/ 325 .

(5) أي لا يجوز إمالة الياء في «مرسيها» ، لأن أصل الألف واو بخلاف «مجريها» فإن أصل الألف ياء .

قال مكي في الكشف : 1/ 528 : «وقد أجمعوا على الضم في «مرساها» من «أرسيت» . . . » .

(6) بفتح الميم والإمالة ، وهي قراءة حمزة ، والكسائي ، وعاصم في رواية حفص .

السبعة لابن مجاهد : 333 ، والتبصرة لمكي : 223 ، والتيسير للداني : 124 .

[. . . . .]

(138/371)

---

42 وَكانَ فِي مَعْزِلٍ : أي من السفينة «1» ، وهو الموضع المنقطع عن غيره .

ارْكَبْ مَعَنا : دعاه إلى الركوب لأنه كان ينافق بإظهار الإيمان ، أو دعاه على شريطة الإيمان .

44 يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ : تشرّبي «2» في سرعة بخلاف العادة فهو أدلّ على القدرة وأشد في العبرة .

وَيا سَماءُ أَقْلِعِي : لا تمطري «3» ، وَغِيضَ الْماءُ : نقص ، غاض الماء وغضته «4» .

46 إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ : ذو عمل «5» ، أو عمله عمل غير صالح «6» ، أو سؤالك هذا غير صالح «7» .

---

(1) ذكره الزجاج في معاني القرآن : 2/ 54 : «وقال : «يجوز أن يكون كان في معزل من دينه ، أي : دين أبيه . ويجوز أن يكون – وهو أشبه – أن يكون في معزل من السفينة» .

وانظر هذا القول في معاني القرآن للنحاس : 3/ 352 ، وزاد المسير : 4/ 110 .

(2) تفسير الطبري : 15/ 334 ، والمحرر الوجيز : 7/ 305 .

(3) تفسير الطبري : 15/ 334 ، وتفسير الماوردي : 2/ 216 ، وزاد المسير : 4/ 111 .

قال الماوردي : «من قولهم : أقلع عن الشيء إذا تركه» .

(4) غريب القرآن وتفسيره لليزيدي : 174 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 204 ، ومعاني الزجاج : 3/ 55 ، والمفردات للراغب : 368 .

(5) ذكره الزجاج في معاني القرآن : 3/ 55 ، والنحاس في معانيه : 3/ 355 .

ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 114 عن الزجاج.

قال الآلوسي في روح المعاني : 12/ 69 : «وأصله إنه ذو عمل فاسد ، فحذف «ذو» للمبالغة بجعله عين عمله لمداومته عليه ، ولا يقدّر المضاف لأنه حينئذ تفوت المبالغة المقصودة منه . . .» .

(6) ذكره النحاس في معاني القرآن : 3/ 355 دون عزو .

(7) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 15/ 347 عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وإبراهيم ، ورجحه الطبري .

وكذا النحاس في معانيه : 3/ 355 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 114 .

(139/371)

[44/ب] وقراءة عَمَلٌ «1» غَيْرُ صالِحٍ : فعل سوءا/ .

50 ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ : أبو عمرو «2» يختار حمل الصّفة على الموضع «3» لأن فيها معنى الاستثناء ، كأنه : مالكم إلا هو ، أي : لكم هو .

56 إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ : على الحق والعدل «4» ، أو فيه حذف أي : يدل على صراط مستقيم «5» .

59 وَعَصَوْا رُسُلَهُ : لأن الرسل قد قامت عليهم حجة دعوتهم ، وأنهم عصوا هودا «6» .

---

(1) «عمل» بفتح العين ، وكسر الميم ، وفتح اللام ، و«غير» بفتح الراء وهي قراءة الكسائي كما في السبعة لابن مجاهد : 334 ، والتبصرة لمكي : 223 ، والتيسير للداني

: 125 .

(2) أبو عمرو بن العلاء : (70 - 154 ه) .

هو زبان بن عمار التميمي البصري ، أبو عمرو .

الإمام اللغوي الأديب ، أحد القراء السّبعة .

أخباره في طبقات النحويين للزبيدي : 35 ، ووفيات الأعيان : 3/ 466 ، ومعرفة القراء الكبار : 1/ 100 .

(3) قرأ أبو عمرو برفع «غير» ، وكذا باقي السبعة إلا الكسائي فقد قرأ بالخفض .

السبعة لابن مجاهد : 284 ، وحجة القراءات : 286 ، والتبصرة لمكي : 203 .

قال العكبري في التبيان : 1/ 577 : «و «غيره» بالرفع فيه وجهان :

أحدهما : هو صفة ل «إله» على الموضع .

والثاني : هو بدل من الموضع ، مثل : لا إله إلا اللّه» .

وانظر مشكل إعراب القرآن : 1/ 367 ، والكشف لمكي : 1/ 467 ، والبحر المحيط :

4/ 320 .

(4) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 15/ 364 عن مجاهد .

ونقله النحاس في معاني القرآن : 3/ 359 ، والماوردي في تفسيره : 2/ 218 ، وابن

الجوزي في زاد المسير : 4/ 118 عن مجاهد أيضا .

(5) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 118 ، والفخر الرازي في تفسيره : 18/ 14 دون عزو .

(6) قال ابن عطية في المحرر الوجيز : 7/ 327 : «و ذلك أن في تكذيب رسول واحد تكذيب سائر الرسل وعصيانهم ، إذ النبوات كلها مجمعة على الإيمان باللّه والإقرار بربوبيته» .

(140/371)

---

61 وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها : جعلكم عمّارها «1» ، فيدل على أن اللّه يريد عمارة الأرض لا التبتّل .

وقيل «2» : جعلها لكم مدة أعماركم ، بمعنى : أعمره داره عمرى «3» .

وقيل «4» : أطال أعماركم فيها بمنزلة عمّركم ، وكانت ثمود طويلة الأعمار ، فاتخذوا البيوت من الجبال .

63 إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي : جواب إِنْ فاء فَمَنْ يَنْصُرُنِي ، وجواب إِنْ الثانية مستغنى عنه بالأول بتقدير : إن عصيته فمن ينصرني ؟ ! ومعنى الكلام : أعلمتم من ينصرني من

اللّه إن عصيته بعد بينة من ربي ونعمة .

فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ : أي : غير تخسيري لو اتّبعت دين آبائكم ، أو غير تخسيركم حيث «5» أنكرتم تركي دينكم .

67 جاثِمِينَ : هلكى ساقطين على الوجوه والركب «6» .

69 قالُوا سَلاماً : سلمت سلاما ، قالَ سَلامٌ : أي : وعليكم سلام «7» .

---

(1) هذا قول أبي عبيدة في مجاز القرآن : 1/ 291 ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 123 عن أبي عبيدة . والقرطبي في تفسيره : 9/ 56 . [. . . . .]

(2) ذكره الطبري في تفسيره : 15/ 368 ، والماوردي في تفسيره : 2/ 218 عن مجاهد .

وكذا ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 123 .

(3) في تفسير الطبري : «من قولهم : «أعمر فلان فلانا داره ، وهي له عمرى» و«عمرى» بضم العين وسكون الميم ، مصدر مثل «رجعي» .

يقال : أعمره الدار إذا جعله يسكن الدار مدة عمره .

اللسان : 4/ 603 (عمر) .

(4) نقله الماوردي في تفسيره : 2/ 218 عن الضحاك ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير :

4/ 123 ، والقرطبي في تفسيره : 9/ 56 .

(5) في «ج» : حين .

(6) عن تفسير الماوردي : 2/ 219 ، وينظر تفسير الطبري : 15/ 381 ، وتحفة الأريب : 89 .

(7) تفسير الطبري : 15/ 382 .

(141/371)

و«الحنيذ»»

المشوي بالرّضاف «2» حتى يقطر عرقا ، من حناذ الخيل ، وهو أن يظاهر عليها جلّ «3» فوق جلّ لتعرق .

70 وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً : أحسّ وأضمر «4» لأنه رآهم شبّانا أقوياء ولم [يتحرمون] «5» بطعامه ؟ وكان ينزل طرفا بمنزلة الأشراف بالأطراف .

71 فَضَحِكَتْ : تعجّبا من غرّة قوم لوط «6» ، أو من إحياء العجل الحنيذ «7» ، أو سرورا بالولد - على التقديم والتأخير - أي : فبشرناها فضحكت «8»

---

(1) ينظر مجاز القرآن : 1/ 292 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 205 ، وتفسير

الطبري :

15/ 383 ، ومعاني الزجاج : 3/ 61 ، واللسان : 3/ 484 (حنذ) .

(2) الرّضف : الحجارة التي حميت بالشمس أو النار .

اللسان : 9/ 121 (رضف) .

(3) الجلّ : بضم الجيم ، ما تلبس الدابة لتصان به .

الصحاح : 4/ 1658 ، واللسان : 11/ 119 (جلل) .

(4) تفسير الطبري : 15/ 389 ، ومعاني الزجاج : 3/ 61 ، ومعاني القرآن للنحاس : 3/ 363 .

(5) في الأصل ونسخة «ك» : «يتحرموا» ، والمثبت في النص هو الصواب ، ولعل الناسخ قرأها «لم» فجزم الفعل .

(6) أي من غفلتهم ومما أتاهم من العذاب .

وقد أخرج عبد الرزاق هذا القول في تفسيره : 239 ، والطبري في تفسيره : 15/ 390 عن قتادة .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 4/ 451 وزاد نسبته إلى ابن المنذر ، وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة .

ورجح الطبري هذا القول في تفسيره : 15/ 394 فقال : «و أولى الأقوال التي ذكرت في

ذلك بالصواب ، قول من قال : معنى قوله : فَضَحِكَتْ ، فعجبت من غفلة قوم لوط عمّا قد أحاط بهم من عذاب اللّه وغفلتهم عنه .

وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب ، لأنه ذكر عقيب قولهم لإبراهيم : لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ ، فإذا كان ذلك كذلك ، وكان لا وجه للضحك والتعجب من قولهم لإبراهيم : لا تَخَفْ ، كان الضحك والتعجب إنما هو من أمر قوم لوط» .

(7) أورده الماوردي في تفسيره : 2/ 223 عن عون بن أبي شداد ، والفخر الرازي في تفسيره :

18/ 27 دون عزو .

(8) ذكره الفراء في معاني القرآن : 2/ 22 ، والطبري في تفسيره : 15/ 391 .

وقال النحاس في معانيه : 3/ 364 : «و هذا القول لا يصح ، لأن التقديم والتأخير لا يكون في الفاء» . [. . . . .]

(142/371)

أو ضحكت لسرورها بأمن زوجها فأتبعوها بسرور آخر وهو البشارة بالولد «1» .

ومن قال إن «ضحكت» : حاضت «2» ، فلعله من ضحاك الطّلعة «3» انشقاقها

«4» .

فإنما حاضت لروعة ما سمعت من العذاب ، أو حاضت مع الكبر لتوقن بالولد «5» .

72 قالَتْ يا وَيْلَتى : على عادة النساء إذا عجبن ، وألف وَيْلَتى ألف

---

(1) معاني القرآن للفراء : 2/ 22 ، وتفسير الطبري : 15/ 392 ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 131 عن الفراء .

(2) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره : 239 عن عكرمة ، وذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن :

205 عن عكرمة أيضا .

وأخرجه الطبري في تفسيره : 15/ 392 عن مجاهد .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 4/ 451 ، وعزا إخراجه إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

قال الفراء في معانيه : 2/ 22 : «وأما قوله : فَضَحِكَتْ : حاضت فلم نسمعه من ثقة» .

وقال الزجاج في معاني القرآن : 3/ 62 : «فأما من قال : ضحكت : حاضت ، فليس بشيء» .

ووصفه النحاس في معانيه : 3/ 364 بقوله : «وهذا قول لا يعرف ولا يصح» .

(3) في «ج» : الكمامة .

(4) جاء في اللسان : 10/ 460 (ضحك) : «و الضّحك : طلع النخل حين ينشق ، وقال ثعلب :

هو ما في جوف الطلعة . . . » .

(5) قال الماوردي في تفسيره : 2/ 222 : «فإن حمل تأويله على الحيض ففي سبب حيضها وجهان :

أحدهما : أنه وافق عادتها فخافت ظهور دمها وأرادت شدادة فتحيرت مع حضور الرسل .

والقول الثاني : ذعرت وخافت فتعجل حيضها قبل وقته ، وقد تتغير عادة الحيض باختلاف الأحوال وتغير الطباع .

ويحتمل قولا ثالثا : أن يكون الحيض بشيرا بالولادة لأن من لم تحض لا تلد» .

(143/371)

ندبة «1» ، أو منقلبة من ياء الإضافة «2» .

[45/أ] 73 أَتَعْجَبِينَ : ألف تنبيه في صيغة الاستفهام ، / ولم يجز التعجب من أمر اللّه إذا عرف سببه وهو قدرته على كل شيء .

رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ : دعاء لهم ، أو تذكير بذلك عليهم «3» .

74 يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ : يراجع القول فيهم مع رسلنا «إنّ فيها لوطا» «4» .

و«الأوّاه» «5» : كثير التأوّه من خوف اللّه «6» ، وقيل «7» : كثير الدعاء .

«حليم» : كان - عليه السّلام - يحتمل ممن آذاه ولا يتسرع إلى مكافأته .

77 ذَرْعاً : أي : وسعا «8» ، وذرع النّاقة : خطوها ، ومذارعها :

قوائمها «9» .

---

(1) اختاره الطبري في تفسيره : 15/ 399 .

(2) ذكره الزجاج في معاني القرآن : 3/ 63 ، وقال : «و الأصل : «يا ويلتي» فأبدل من الياء والكسرة الألف ، لأن الفتح والألف أخف من الياء والكسرة» .

واختاره النحاس في إعراب القرآن : 2/ 293 ، والزمخشري في الكشاف : 2/ 281 ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 7/ 348 ، وأبو حيان في البحر المحيط : 5/ 244 .

(3) قال ابن عطية في المحرر الوجيز : 7/ 351 : «يحتمل اللّفظ أن يكون دعاء وأن يكون إخبارا ، وكونه إخبارا أشرف ، لأن ذلك يقتضي حصول الرحمة والبركة لهم ، وكونه دعاء إنما يقتضي أنه أمر يترجى ولم يتحصل بعد» .

وينظر تفسير البغوي : 2/ 393 ، وزاد المسير : 4/ 133 ، وتفسير القرطبي : 9/ 71 .

(4) هذا بعض آية : 32 من سورة العنكبوت .

(5) من قوله تعالى : إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ [آية : 75] .

(6) معاني القرآن للفراء : 2/ 23 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 193 ، ومعاني الزجاج:

3/ 65 .

(7) رجحه الطبري في تفسيره : 14/ 532 ، وذكره الزجاج في معاني القرآن : 2/ 473 .

(8) المحرر الوجيز : 7/ 357 ، وزاد المسير : 4/ 136 ، وتذكرة الأريب : 1/ 252 ، وتفسير القرطبي : 9/ 74 .

(9) في اللسان : 8/ 95 (ذرع) : «مذراع الدابة : قائمتها تذرع بها إلى الأرض ، ومذرعها : ما بين ركبتها إلى إبطها . . .» . [. . . . .]

(144/371)

يَوْمٌ عَصِيبٌ : عصيب بالشر . عصب يومنا يعصب عصابة «1» .

78 يُهْرَعُونَ : يسرعون «2» من الأفعال التي يرفع فيها الفعل بالفاعل ، ومثله : أولع وأرعد

وزهي «3» .

وَمِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ : ألفوا الفاحشة فجاهروا بها .

هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ : لو تزوجتم بهن «4» ، أو أراد نساء أمّته .

وكلّ نبيّ أبو أمّته وأزواجه أمّهاتهم «5» .

---

(1) عن غريب القرآن وتفسيره لليزيدي : 177 ، وتفسير الطبري : 15/ 409 .

قال ابن عطية في المحرر الوجيز : (7/ 357 ، 358) : «و «عصيب» بناء اسم فاعل معناه :

يعصب الناس بالشر كما يعصب الخابط السّلمة (ضرب من الشجر) إذا أراد خبطها ونفض ورقها . . . ف «عصيب» بالجملة : في موضع شديد وصعب الوطأة» .

وانظر تفسير القرطبي : 9/ 74 ، والدر المصون : 6/ 361 .

(2) قال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 206 : «يقال : أهرع الرجل : إذا أسرع على لفظ ما لم يسم فاعله ، كما يقال : أرعد .

ويقال : جاء القوم يهرعون ، وهي رعدة تحل بهم حتى تذهب عندها عقولهم من الفزع والخوف إذا أسرعوا» .

(3) زاد المسير : 4/ 137 ، وتفسير الفخر الرازي : 18/ 32 ، وتفسير القرطبي : 9/ 75 ، وفي تهذيب اللّغة : 6/ 371 : «زهى فلان : إذا أعجب بنفسه» .

(4) قال الماوردي في تفسيره : 2/ 226 : «فإن قيل كيف يزوجهم ببناته مع كفر قومه وإيمان بناته ؟ قيل عن هذا ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنه كان في شريعة لوط يجوز تزويج الكافر بالمؤمنة ، وكان هذا في صدر الإسلام جائزا حتى نسخ ، قاله الحسن .

الثاني : أنه يزوجهم على شرط الإيمان كما هو مشروط بعقد النكاح .

الثالث : أنه قال ذلك ترغيبا في الحلال وتنبيها على المباح . . . » .

وانظر معاني القرآن للزجاج : 3/ 67 ، ومعاني النحاس : 3/ 368 ، وتفسير الفخر الرازي :

18/ 34 .

(5) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 15/ 414 عن مجاهد .

ونقله النحاس في معاني القرآن : 3/ 368 ، والماوردي في تفسيره : 2/ 226 عن مجاهد أيضا .

وهذا القول باطل من وجوه :

الأول : النبي ليس أبا لأمته ولا أزواجه أمهاتهم وإنما هو أب للمؤمنين وأزواجه أمهات للمؤمنين .

الثاني : عرضه بناته عليهم ليس على إطلاقه وإنما هو تنبيه إلى الحلال بشرطه .

الثالث : أن قوله : بَناتِي لا يلزم منه أن تكفي للجميع ، وإنما تنبيه إلى الفطرة التي خلق الإنسان عليها لحفظ النسل وبدأ ببناته للترغيب والتنبيه إلى الفطرة التي تجاهلوها بعصيانهم وفسوقهم ، وهي كما تتحقق في بناته تتحقق في سائر البنات لكن بالنسبة لبناته هو المالك لعصمتهن فبدأ بهن . وكيف يدعى أبوة لا يسلم الخصم بأبوته ، ومن يريد إحجاج خصمه فلا بد أن يبدأ بمقدمة مسلمة منه ليبني عليها حكمه ، وإلّا لقالوا : ومن أعطاك هذا الحق ؟ .

ويؤيد ذلك أيضا قولهم : «ما لنا في بناتك من حق» وإلا فقالوا : وهل هن بناتك حتى تعرضهن علينا ؟ ويكون فيه أيضا إجراء الحق على ظاهره دون حاجة إلى تأويل .

وينظر أضواء البيان : (3/ 34 ، 35) .

(145/371)

---

79 ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ : من حاجة «1» ، فجعلوا تناول ما لا حاجة فيه كتناول ما لا حق فيه .

80 رُكْنٍ شَدِيدٍ : عشيرة منيعة «2» .

81 بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ : نصف الليل ، كأنه قطع بنصفين «3» .

وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ : أي : إلى ماله ومتاعه لئلا يفترهم عن

---

(1) تفسير الماوردي : 2/ 227 ، وزاد المسير : 4/ 139 .

قال الفخر الرازي في تفسيره : 18/ 35 : «وفيه وجوه :

الأول : ما لنا في بناتك من حاجة ولا شهوة ، والتقدير أن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق ، فلهذا السبب جعل نفي الحق كناية عن نفي الحاجة .

الثاني : أن نجري اللفظ على ظاهره ، فنقول : معناه إنهن لسن لنا بأزواج ولا حق لنا فيهن ألبتة . ولا يميل أيضا طبعنا إليهن فكيف قيامهن مقام العمل الذي نريده وهو إشارة إلى العمل الخبيث .

الثالث : ما لنا في بناتك من حق لأنك دعوتنا إلى نكاحهن بشرط الإيمان ونحن لا نجيبك إلى ذلك فلا يكون لنا فيهن حق» .

(2) معاني القرآن للفراء : 2/ 24 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 294 ، وتفسير الطبري :

15/ 418 ، وتفسير الماوردي : 2/ 227 ، وتفسير الفخر الرازي : 18/ 36 .

(3) عن تفسير الماوردي : 2/ 228 .

وانظر تفسير الفخر الرازي : 18/ 37 ، وتفسير القرطبي : 9/ 80 .

الخروج «1» ، وإلا ففي لفتة النّظر عبرة .

82 سِجِّيلٍ : حجارة صلبة «2» ، قيل : إنها معربة «سنك» و«كل» «3» ، بل هو «فعيل» مثل السّجل في الإرسال «4» .

والسّجل : الدّلو «5» ، وقيل : من أسجلته : أرسلته من السّجل والإرسال «6» .

مَنْضُودٍ : نضد : جمع «7» .

83 مُسَوَّمَةً : معلمة باسم من يرمى به «8» .

---

(1) ذكر الماوردي هذا القول في تفسيره : 2/ 228 ، وقال : «حكاه علي بن عيسى» .

وانظر تفسير الفخر الرازي : 18/ 37 ، وتفسير القرطبي : 9/ 80 .

(2) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 296 ، وتفسير الطبري : 15/ 433 ، وتفسير الماوردي :

2/ 230 .

(3) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 207 ، وتفسير الطبري : 15/ 433 .

وينظر المعرّب للجواليقي : 229 ، والمهذّب للسيوطي : 96 .

(4) ذكره الطبريّ في تفسيره : 15/ 435 .

وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه اللّه : «والذي أراه أرجح وأصح ، أنها عربية ، لأنها لو كانت معرّبة عن «سنك» و«كل» بمعنى : حجارة وطين ، لما جاءت وصفا للحجارة ، لأن لفظها حينئذ يدل على الحجارة ، فلا يوصف الشيء بنفسه» .

راجع هامش المعرّب : 229 .

(5) في تهذيب اللغة للأزهري : 10/ 584 : «وهو الدّلو ملآن ماء ، ولا يقال له وهو فارغ :

سجل ولا ذنوب» .

وانظر اللسان : 11/ 325 (سجل) .

(6) تهذيب اللّغة : 10/ 586 ، واللسان : 11/ 326 (سجل) .

وفي تفسير الماوردي : 2/ 230 : «يقال : أسجلته أي : أرسلته ، ومنه سمي الدلو سجلا لإرساله في البئر فكأن «السجيل» هو المرسل عليهم» . [. . . . .]

(7) ينظر غريب القرآن لليزيدي : 177 ، ومعاني النحاس : 3/ 371 ، والصحاح : 2/ 544 ، واللسان : 3/ 424 (نضد) .

(8) نقله ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 146 ، والفخر الرازي في تفسيره : 18/ 40 عن الربيع .

وذكره الماوردي في تفسيره : 2/ 230 ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 7/ 373 ، والقرطبي في تفسيره : 9/ 83 ، وابن كثير في تفسيره : 4/ 271 دون عزو .

(147/371)

عِنْدَ رَبِّكَ : في خزانته التي لا يملكها غيره ، رجم بهذه الحجارة من غاب عن المؤتفكات «1» .

وقيل «2» : رجموا أولا ثم قلبت المدائن .

وفي الحديث «3» : «أن جبريل - عليه السّلام - أخذ بعروتها الوسطى ثم حرجم بعضها على بعض «4» ، ثم أتبع شذّاذ «5» القوم صخرا من سجّيل» .

يقال : حرجم الطعام : أكله بعنف .

وعن زيد «6» بن أسلم : أن السّجيل السماء الدنيا ، والسّجين الأرض

---

(1) المؤتفكات : سمّيت بذلك للانتقال والانقلاب .

وقيل : المؤتفكة مدينة بقرب سلمية بالشام .

معجم البلدان : 5/ 219 ، ومراصد الاطلاع : 3/ 1329 ، والروض المعطار : 566 .

(2) لم أقف على هذا القول ، ويدفعه ظاهر الآية الذي يفيد بأنهم عوقبوا بالرجم بعد أن قلبت المدائن بهم ، قال تعالى : فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ، وعلى هذا الترتيب جرت التفاسير .

ينظر تفسير الطبري : (15/ 441 ، 442) ، وتفسير الماوردي : 2/ 229 ، وتفسير النسفي :

2/ 200 ، والبحر المحيط : 5/ 249 ، والدر المنثور : 4/ . 463

(3) أخرج نحوه الطبري في تفسيره : (15/ 441 ، 442) عن قتادة والسدي .

وذكره ابن كثير في تفسيره : 4/ 271 عن قتادة .

قال الشوكاني في فتح القدير : 2/ 517 : «وقد ذكر المفسرون روايات وقصصا في كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخالفة ، وليس في ذكرها فائدة لا سيما وبين من قال بشيء من ذلك وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له في مثله إسناد صحيح ، وذلك مأخوذ عن أهل الكتاب ، وحالهم في الرواية معروف ، وقد أمرنا بأنا لا نصدقهم ولا نكذبهم . . .» .

(4) ينظر الصحاح : 5/ 1898 (حرجم) ، والنهاية : 1/ 362 .

(5) أي ما تفرق منهم .

(6) هو زيد بن أسلم العدوي ، المدني ، الإمام التابعي ، الفقيه الثقة .

روى عن جماعة من الصحابة ، وأرسل عن جابر ، وأبي هريرة ، وأبي سعيد الخدري ،

وعائشة ، وعلي رضي اللّه عنهم . وروى عنه مالك بن أنس ، وابن جريج وغيرهما .

قال عنه الحافظ ابن حجر : «ثقة عالم ، وكان يرسل ، من الثالثة ، مات سنة ست وثلاثين ومائة» ، وذكره في المرتبة الأولى من المدلسين الذين يقبل حديثهم .

ترجمته في الكاشف : 1/ 336 ، وتقريب التهذيب : 222 ، وتعريف أهل التقديس لابن حجر : 37 .

(148/371)

السفلى «1» .

91 لَرَجَمْناكَ : لرميناك بالحجارة ، أو لشتمناك «2» .

92 وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا : منسيا ، كقوله «3» : وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً : [أي] «4» ذليلا هيّنا كالشيء المنسي «5» ، أو نبذتم أمره وراء ظهوركم . / . [45/ ب] ظهرت به : أعرضت [عنه] «6» وولّيته ظهري «7» .

93 اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ : تهديد بصيغة الأمر ، أي : كأنكم أمرتم بأن تكونوا كذلك كافرين ، والمكانة : التمكن من العمل «8» .

98 يَقْدُمُ قَوْمَهُ : يتقدمهم «9» ، أو يمشي على قدمه .

---

(1) الأثر في تفسير الطبري : 15/ 434 عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بلفظ : «السماء الدنيا اسمها «سجيل» ، وهي التي أنزل اللّه على قوم لوط» .

كذا ورد في تفسير الماوردي : 2/ 230 ، والمحرر الوجيز : 7/ 370 ، وزاد المسير : 4/ 144 ، وتفسير الفخر الرازي : 18/ 39 ، وتفسير القرطبي : 9/ 82 - كلهم - عن ابن زيد .

وقد ضعّف ابن عطية هذا القول في المحرر الوجيز : 7/ 371 فقال : «و هذا ضعيف» .

ويرده وصفه ب «منضود» .

(2) نقله ابن عطية في المحرر الوجيز : 7/ 385 عن ابن زيد .

وذكره الماوردي في تفسيره : 2/ 235 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 153 ، والفخر الرازي في تفسيره : 18/ 51 ، وتفسير القرطبي : 9/ 91 دون عزو .

(3) سورة الفرقان : آية : 55 .

(4) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» .

(5) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 77 ، ومفردات الراغب : 317 ، واللسان : 4/ 522 (ظهر) .

(6) عن نسخة «ج» . [. . . . .]

(7) اللسان : (4/ 522 ، 523) (ظهر) .

(8) تفسير الطبري : 15/ 463 ، وتفسير الفخر الرازي : 18/ 52 .

(9) في معاني القرآن للزجاج : 3/ 76 : «يقال : قدمت القوم أقدمهم قدما وقدوما إذا تقدمتهم ، أي يقدمهم إلى النار ، ويدل على ذلك قوله : فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ .

(149/371)

---

99 بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ : بئس العطية النار بعد الغرق «1» .

والرّفد : العون على الأمر «2» ، وارتفدت منه : أصبت من كسبه .

100 قائِمٌ وَحَصِيدٌ : عامر وخراب «3» ، أو قائم على بنائه وإن خلا من أهله .

وَحَصِيدٌ : مطموس العين والأثر «4» .

والتتبيب «5» والتباب : الهلاك ، وقيل «6» : الخسران .

و«الزّفير» «7» الصّوت في الحلق ، والشّهيق في الصدر «8» ، فالشّهيق

---

(1) ذكره الماوردي هذا القول في تفسيره : 2/ 336 عن الكلبي .

وعزاه ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 156 إلى الكلبي ومقاتل .

قال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 208 : «الرّفد : العطية ، يقال : رفدته أرفده ، إذا أعطيته وأعنته .

والْمَرْفُودُ المعطي . كما تقول : بئس العطاء والمعطي» .

(2) في مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 298 : «مجازه : العون المعان ، يقال : رفدته عند الأمير ، أي أعنته ، وهو من كل خير وعون ، وهو مكسور الأول ، وإذا فتحت أوله فهو القدح الضخم . . .» .

وانظر تفسير الطبري : 15/ 468 ، ومعاني القرآن للزجاج : 3/ 77 .

(3) تفسير الطبري : 15/ 470 ، وتفسير الماوردي : 2/ 337 .

(4) تفسير الطبري : 15/ 471 ، ومعاني القرآن للنحاس : 3/ 379 .

(5) من قوله تعالى : وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ [آية : 101] .

(6) ورد هذان المعنيان في اللّغة .

ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 299 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 209 ، ومعاني القرآن للزجاج : 3/ 77 ، ومعاني النحاس : 3/ 379 ، وتهذيب اللغة : 14/ 256 ، والصحاح : 1/ 90 ، واللسان : 1/ 226 (تبب) .

(7) من قوله تعالى : فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ [آية : 106] .

(8) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 15/ 480 عن أبي العالية . ونقله الماوردي

في تفسيره :

2/ 238 عن الربيع بن أنس . وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 159 ، وقال : «رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال أبو العالية ، والربيع بن أنس» .

(150/371)

أمدّ من شاهق الجبل ، والزّفير أنكر من «الزّفر» وهو الحمل العظيم «1» .

107 إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ : أي : من أهل التوحيد حتى تلحقهم رحمة اللّه «2» أو ما شاء ربك من الزيادة عليها ، ويستدل بهذا في قوله : لك عليّ ألف إلّا ألفين على أنه إقرار بثلاثة آلاف ، لأنه استثناء زائد من ناقص ، كأنّه [قال] «3» : لك عليّ ألف سوى ألفين «4» .

108 وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا : من قرأ : سُعِدُوا «5» فعلى حذف الزيادة من أسعدوا ، ك مجنون ومحبوب ، والفعل أجنّه وأحبّه «6» .

غَيْرَ مَجْذُوذٍ : غير مقطوع «7» .

---

(1) في تفسير الماوردي : 2/ 238 ، عن علي بن عيسى قال : «الزفير تردد النفس من شدة الحزن ، مأخوذ من «الزفر» وهو الحمل على الظهر لشدته ، والشهيق النفس الطويل الممتد ، مأخوذ من قولهم : جبل شاهق ، أي : طويل» .

وانظر هذا القول في زاد المسير : 4/ 159 ، وتفسير القرطبي : (9/ 98 ، 99) ، واللسان :

4/ 325 (زفر) .

(2) ذكره ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن : 77 وقال : «وهو أن يكون الاستثناء من الخلود مكث أهل الذنوب من المسلمين في النار حتى تلحقهم رحمة اللّه ، وشفاعة رسوله ، فيخرجوا منها إلى الجنة . فكأنه قال سبحانه : خالدين في النار ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من إخراج المذنبين المسلمين إلى الجنة وخالدين في الجنة ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من إدخال المذنبين النار مدة من المدد ، ثم يصيرون إلى الجنة .

(3) عن نسخة «ج» . [. . . . .]

(4) عن معاني القرآن للزجاج : 3/ 79 ، ونحوه في معاني الفراء : 2/ 28 .

وانظر معاني النحاس : 3/ 382 ، والدر المصون : 6/ 394 .

(5) بضم السين ، قراءة حمزة ، والكسائي ، وعاصم في رواية حفص .

السبعة لابن مجاهد : 339 ، والتبصرة لمكي : 225 ، والتيسير للداني : 126 .

(6) تفسير الطبري : 15/ 486 ، والكشف لمكي : 1/ 536 ، والبيان لابن الأنباري : 2/ 28 ، والتبيان للعكبري : 2/ 715 .

(7) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 299 ، وغريب القرآن لليزيدي : 178 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 210 ، والمفردات للراغب : 90 .

(151/371)

---

109 فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ : لا تشك في كفرهم .

111 وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ : بالتشديد «1» بمعنى : «إلّا» «2» ، كقوله «3» : لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ لأن «لم» و«لا» للنفي فضمّت إلى إحداهما «ما» وإلى الأخرى «إن» وهما أيضا للنفي ، فكان سواء ، وكان «لمّا» .

قال الفراء «4» : أصله «لمن ما» ، فأدغم النون فصار «ممّا» فخفف وأدغم الميم المفتوحة ليوفينهم وما بمعنى من فحذفت إحدى الميمات لكثرتها .

أو هي من لممت الشّيء : جمعته «5» ، ولم يصرف مثل : «شتى»

---

(1) بتخفيف «إن» وتشديد «لمّا» وهي قراءة عاصم في رواية شعبة .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 339 ، والتبصرة لمكي : 225 ، والتيسير للداني : 126

وقد ذكر السمين الحلبي في الدر المصون : 6/ 409 هذا الوجه في توجيه هذه القراءة ضمن ثمانية أوجه أوردها في ذلك .

(2) اختاره الزجاج في معاني القرآن : 3/ 81 .

وذكر الفراء هذا الوجه في معاني القرآن : 2/ 29 ، وقال : وأما من جعل «لمّا» بمنزلة «إلّا» فإنه وجه لا نعرفه . وقد قالت العرب : بالله لمّا قمت عنا ، وإلا قمت عنا ، فأما في الاستثناء فلم يقولوه في شعر ولا في غيره ألا ترى أن ذلك لو جاز لسمعت في الكلام : ذهب الناس لمّا زيدا» .

ورده – أيضا – الطبري في تفسيره : 15/ 496 ، والسمين الحلبي في الدر المصون : 6/ 409 .

(3) سورة الطارق : آية : 4 .

(4) معاني القرآن : 2/ 29 .

وقد رد الزجاج هذا القول في معاني القرآن : 3/ 81 فقال : «و هذا القول ليس بشيء ، لأن «من» لا يجوز حذفها لأنها اسم على حرفين .

ونقل ابن عطية في المحرر الوجيز : 7/ 410 تضعيف أبي علي الفارسي لقول الفراء ونصه : «و هذا ضعيف ، وقد اجتمع في هذه السورة ميمات أكثر من هذه في قوله : أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ولم يدغم هناك فأحرى ألّا يدغم هنا» .

(5) ذكره النحاس في إعراب القرآن : 2/ 306 عن أبي عبيد القاسم بن سلام .

وانظر هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 3/ 82 ، والمحرر الوجيز : 7/ 411 .

و«تترى» ، أي : وإن كلا جميعا ليوفينهم ، أو «لمّا» فيه معنى الظرف «1» وقد دخل الكلام اختصار ، كأنه : وإنّ كلّا لمّا بعثوا ليوفينهم ربك أعمالهم ولإشكال هذا الموضع قال الكسائي «2» : ليس لي بتشديد لَمَّا علم ، وإنّما نقرأ كما أقرئنا .

وأمّا لما بالتخفيف «3» ف «ما» بمعنى «من» «4» ، كقوله «5» :

فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ ، أو هو لام القسم دخلت على «ما» التي [46/أ] للتوكيد «6» .

«زلف «7» اللّيل» : ساعاته «8» .

116 فَلَوْلا كانَ : فهلّا كان ، تعجيب وتوبيخ .

إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنا : استثناء منقطع لأنه إيجاب لم يتقدمه نفي «9» .

---

(1) بمعنى حين ، وهو نظير قوله تعالى : إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا [يونس : آية : 98] .

وقوله : فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ [الصافات : آية : 103] .

ينظر رصف المباني : 354 .

(2) ينظر قول الكسائي في حجة القراءات : (352 ، 353) ، والكشف لمكي : 1/ 538 ، ومشكل إعراب القرآن : 1/ 375 ، والمحرر الوجيز : 7/ 411 ، والبيان لابن

الأنباري :

2/ 29 ، والدر المصون : 6/ 414 .

(3) وهي قراءة ابن كثير ، ونافع ، وأبي عمرو ، والكسائي .

السبعة لابن مجاهد : 339 ، وإعراب القرآن للنحاس : (2/ 304 ، 305) .

(4) ذكره الفراء في معاني القرآن : 2/ 28 ، والطبري في تفسيره : 15/ 497 .

وانظر حجة القراءات : 350 ، وتفسير القرطبي : 9/ 105 ، والدر المصون : 6/ 412 .

قال أبو حيان في البحر : 5/ 367 : «وهذا وجه حسن ومن إيقاع «ما» على من يعقل . . .» .

(5) سورة النساء : آية : 3 . [. . . . .]

(6) الكشاف : 2/ 295 ، والبحر المحيط : 5/ 267 ، والدر المصون : 6/ 412 .

(7) من قوله تعالى : وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ [آية : 114] .

(8) معاني القرآن للفراء : 2/ 30 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 300 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 210 ، وتفسير الطبري : 15/ 505 .

(9) قال الزجاج في معاني القرآن : 3/ 83 : «المعنى : لكنّ قليلاً ممّن أنجينا منهم من نهى عن الفساد» .

وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ : هلكوا وتبعتهم آثارهم وديارهم .

117 لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ : أي : بظلم منه ، تعالى عنه .

118 وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ : أي : في الآراء والديانات «1» .

119 إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ : من أهل الحق «2» ، أو مختلفين في الأحوال «3» ليأتلفوا بالاختلاف إلا من رحم ربك بالرضا والقناعة .

وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ : للاختلاف «4» ، أو للرحمة «5» ، ولم يؤنث على معنى المصدر ، أي : خلقهم ليرحمهم .

120 وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ : في هذه السورة «6» ، . . . . . .

---

(1) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره : 15/ 131 عن عطاء ، والحسن .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 242 عن مجاهد ، وعطاء .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (15/ 532 ، 533) عن ابن عباس ، ومجاهد .

(3) من الفقر والغنى ، ذكره المؤلف في كتابه وضح البرهان : 1/ 447 .

وأخرجه الطبري في تفسيره : 15/ 534 عن الحسن .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 242 ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 7/ 424 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 172 عن الحسن .

قال ابن عطية : «وهذا قول بعيد معناه من معنى الآية» .

(4) أخرجه الطبري في تفسيره : 15/ 535 عن الحسن .

ورجحه بقوله : «لأن اللّه جل ذكره ذكر صنفين من خلقه : أحدهما أهل اختلاف وباطل ، والآخر أهل حق ، ثمّ عقّب ذلك بقوله : وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ ، فعمّ بقوله : وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ ، صفة الصنفين ، فأخبر عن كل فريق منهما أنه ميسّر لما خلق له . . . » .

(5) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (15/ 536 ، 537) عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وعكرمة ، والضحاك .

(6) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (15/ 540 - 542) عن أبي موسى ، وابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وأبي العالية ، والربيع بن أنس .

واختاره الفراء في معانيه : 2/ 30 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 211 ، والزجاج في معاني القرآن : 3/ 84 .

ورجحه الطبري في تفسيره : 15/ 543 ، وقال : «لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن -

---

وقيل «1» : في هذه الدنيا .

121 اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ : على ما أنتم عليه «2» ، أو على شاكلتكم التي تمكنتم عليها .

123 وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ : قال عليه السلام : «من أحبّ «3» أن يكون أقوى النّاس فليتوكل على اللّه» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 1 صـ 406. 429 ﴾

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (15/ 542 ، 543) عن قتادة .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 243 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 173 عن الحسن ، وقتادة .

(2) معاني القرآن للنحاس : 3/ 392 ، والكشاف : 2/ 299 ، وزاد المسير : 4/ 174 .

(3) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل على اللّه : 44 ، والحاكم في المستدرك : 4/ 270 ، كتاب الأدب ، وأبو نعيم في الحلية : 3/ 218 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما مرفوعا .

وفي إسناد ابن أبي الدنيا عبد الرحيم بن زيد العمّي ، وهو ضعيف جدا ، وكذبه ابن معين ، كما في تقريب التهذيب : 354 .

وفي إسناد الحاكم هشام بن زياد ، وصفه الذهبي في التلخيص بقوله : «متروك» ، وفيه أيضا محمد بن معاوية ، قال عنه الذهبي : كذبه الدارقطني ، ثم قال : «فبطل الحديث» .

وأورد المناوي هذا الأثر في فيض القدير : 6/ 150 ، وزاد نسبته إلى إسحاق بن راهويه ، وعبد بن حميد ، وأبي يعلى ، والطبراني ، والبيهقي في الزهد من طريق هشام .

(155/371)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة هود

عدد 2 - 52 - 11

نزلت بمكة بعد سورة يونس عدا آيتي 13/ 14 وآية 114 فإنها نزلت بالمدينة ، وهي مئة وثلاث وعشرون آية ، وألف وستمئة كلمة وتسعة آلاف وخمسمائة حرفا ، وقد بينا الآيات بما بدئت به أول سورة يونس المارة ، وختمت بما ختمت به سورة النمل المارة في ج 1 .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "الر" اسم للسورة وللقرآن وإشارة لأسماء اللّه الحسنى وصفاته أي بعضها ، وقال بعض المفسرين معناه أنا اللّه أرى ، وقد تقدم ما فيه من البحث الوافي أول سورة الأعراف والسور المصدرة بالحروف المنقطعة المارة في ج 1 وفي السورة قبلها وقولنا اللّه أعلم بمراده بما فيها أحسن ما قيل فى معناها لأنها عبارة عن رموز بين اللّه ورسوله لا يعلمهما غيرهما على الحقيقة ، وهكذا حكم الآيات المتشابهات في هذا القرآن العظيم إذ يوكل معناها إلى اللّه ، قال الإمام الرباني الشيخ نعمة اللّه بن محمود النخجواني في تفسيره الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية في تفسير هذه اللفظة : أيها الإنسان الأحق الأليق لإعلاء لوامع أنوار الإلهية وارتفاع رايات رموز أسرار الربوبية بين الأنام بالبيان والتبيان هذا "كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ" إحكاما مبرما لا تنسخ ولا يطرأ عليها تبديل أو تعديل إذ لا كتاب بعده ، وقد نسخت آياته أكثر أحكام الكتب القديمة وعدلتها إلى أحسن نظما وأخف عبئا وأعظم أجرا ، وإني لأعجب ممن يقرأ هذه الآية ويقول بالنسخ إذ ما بعد الاحكام إلا التسليم بجميع ما جاء فيه .

(156/371)

واعلم أن الر تقرا كما هو الأصل بتفخيم الراء وهكذا في كل راء مفتوحة أو كان ما قبلها مفتوحا ولا عبرة بالحرف الساكن بينهما أي بينهما وما قبلها لأنه حاجز غير حصين "ثُمَّ فُصِّلَتْ" تفصيلا بديعا ونظمت تنظيما رصينا فبيّنت الحلال من الحرام والحق من الباطل أكمل بيان وأتم تبيان وأوضحت القصص والأخبار أحسن إيضاح ، وهذا الإحكام والتفصيل واقع ومنزل "مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ 1 " بأفعاله عليهم بأقواله يضع الأشياء مواضعها بما يصلح أحوال عباده شاهد لما يقع منهم وقد أمركم أيها الناس "أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ"

(157/371)

وحده لا شيء ولا أحد أبدا ، وأن هنا مفسرة على ما جرينا عليه وهو أحسن من جعلها على تقدير اللام كما مشى عليه بعض المفسرين ، والمعنى على الأول أن اللّه الذي أنزل هذا الكتاب وأحكم آياته وفصلها أمركم أن لا تعبدوا غيره وذلك لما في التفصيل من معنى القول دون حروفه ، وعلى الثاني تكون مصدرية وتقدر اللام معها تعليلا وعليها يكون المعنى هذا كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا اللّه ، ويجوز أن تكون هذه الجملة مبتدأة للإغراء على التوحيد أي الأمر بالتبري عن عبادة غير اللّه تعالى أي الزموا التوحيد واتركوا

عبادة الغير وارجعوا إلى اللّه ربي وربكم "إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ" أي يقول اللّه تعالى يا محمد قل لقومك إنني أيها العصاة "نَذِيرٌ" لكم من عقاب اللّه تعالى "وَبَشِيرٌ 2" لكم أيها الطائعون بثوابه "وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ" مما اقترفتموه من الذنوب واخترقتموه من العيوب "ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ" بعدها عما سلف منكم حال حياتكم من كل ما يغضب اللّه فإذا فعلتم ذلك فإن اللّه تعالى "يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً" في هذه الدنيا بسعة الرزق والعافية والعزّ "إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى" عنده ، واعلم أن ما جاء في الحديث الشريف : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر لا يرد على هذه الآية لأنها سجن المؤمن بالنسبة لما أعده اللّه تعالى له في الآخرة من النعيم المقيم فكل ما أعطاه له في هذه الدنيا من النعم لا يعد شيئا بجانبه على أن ما يصيبه فيها من البلاء يكون مكفرا لذنوبه كي يلقى ربه وليس عليه ذنب يستوجب المجازاة وهذا لطف من اللّه بعباده المؤمنين ، وكذلك الكافر فإن الدنيا له جنة بالنسبة لما أعده له من العذاب الأليم في الآخرة ، فكل ما يصيبه في الدنيا من النعيم لا يوازيه عذاب ثانية واحدة من عذابها وأن ما يناله من الخير فيها فهو بمقابل حسناته التي يعملها كصلة رحم وإقراء ضيف وشبههما كي يلقى اللّه تعالى

وليس له حسنة تستحق الجزاء الحسن وهذا زيادة في شؤمه وعذابه "وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ" زيادة من عمل صالح "فَضْلَهُ" جزاءه لا يبخس منه شيئًا أبدا ، قال أبو العالية من كثرت طاعاته في الدنيا زادت حسناته ودرجاته في الجنة لأن الدرجات تكون على قدر الأعمال ، وقال ابن مسعود : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات ، فإن عوقب بالسيئة في الدنيا بقيت له عشر حسنات وإن لم يعاقب بها بالدنيا أخذ من حسناته العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول ابن مسعود ملك من غلبت آحاده أعشاره .

فعلى العاقل

أن يكثر من الخير إبان شبابه وسعته ، لأنه قد يعجز في الكبر والفقر عن القيام بما يريده من القربات ، ولهذا قال الحافظ :

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس شيىء دريس كالجديد من الثياب

"وَإِنْ تَوَلَّوْا" تتولوا وتعرضوا عن ما جئتكم به من الهدى وأسديت لكم من النصح والتوجيه والإرشاد "فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ" بمقتضى الشفقة والرحمة أن يحيط بكم "عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ 3" هو يوم الجزاء على الأعمال يوم مهول لا أعظم منه .

واعلم أن كل عمل منعم عليه في الآخرة منعم على صاحبه في الدنيا أيضا بتزيين عمله في

نظره وراحة ضميره إليه وتعلقه برضاء ربه ، ورجاء ثوابه عليه ، واطمئنان نفسه فيه ، وانشراح قلبه له ، وثناء الناس عليه ، وترغيب الغير لمثله ، وضرب المثل فيه بالخير والسماحة والعمل الطيب والفعل الحسن ، كما أن كل عمل معذب عليه في الآخرة معذب ضمير صاحبه عليه في الدنيا بقبح صورته في نظره وسوء تصوّر عمله في قلبه ، وإن كان ذاق لذته الظاهرة الزائلة بجينها وضيق صدره لما وقع بعد قضاء شهوته الحيوانية وتخوفه من سوء عاقبته إن كان له وجدان أو دين ، وندمه على ما فرط منه وحسرته على تفريطه ، وذم الناس له وتحذيرهم من عمله ، وضرب مثل السوء به .

(159/371)

مطلب كل ما ينعم عليه العبد في الدنيا ينعم عليه في الآخرة وبالعكس :

روى الإمام أحمد بن حنبل والدارمي رحمهما اللّه بإسناد حسن في سنديهما عن وابصة بن معبد رضي اللّه عنه دفين الرقة من أعمال دير الزور – سابقا – ، قال أتيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال جئت تسأل عن البر ؟ قلت نعم (وهذا من الإخبار بالغيب لأنه صلى اللّه عليه وسلم أخبره بما جاء يسأل عنه قبل أن يبديه له) قال استفت قلبك ، البر ما اطمأنت

إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك بالفاء وفي رواية بالقاف – فعلى الأول من الفتيا وهي الجواز والرخصة والثاني من الإقتاء وهو الإرضاء ، أي وإن أرضوك فلا تركن لقولهم .

وروى مسلم عن النواس بن سمعان رضي اللّه عنه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : البرّ حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس .

وروى الترمذي والنسائي عن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب سبط رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وريحانته رضي اللّه عنهما قال حفظت من رسول اللّه : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك .

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال : قال صلى اللّه عليه وسلم من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه .

(160/371)

قال تعالى "إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ" أيها الناس بعد الموت "جميعا" بركم وفاجركم "وَهُوَ" الذي أحياكم في الدنيا وأماتكم فيها ويحييكم ثانيا يوم القيامة ذلك الإله الواحد المتجلي في الآفاق بكمال الاستقلال والاستحقاق هو "عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ 4" لا يعجزه شيء "أَلَا إِنَّهُمْ"

أولئك الكفرة عند سماع آيات اللّه المنزلة عليك يا أكمل الرسل من ربك الملك الجبار القهار العلام "يَثْنُونَ" يلوون ويعطفون ويصرفون عنك "صُدُورَهُمْ" يزوّرونها عن رؤيتك وينحرفون بكليتهم عنك ويخفون ما فيها من عداوتك ، يقال أزوّر عنه وثنى عنه لأن من يقبل على الشيء يقبل بصدره ، ومن يدبر يزوّر وينحرف بصدره ويطوي كشحه ، وهذه الآية في معرض الجواب عما تقدم من الترغيب والترهيب فكأن أولئك الكفرة بعد ما سمعوا من حضرة الرسول ذلك القول العظيم الإلهي الذي تخر له صم الجبال تمادوا في كفرهم وأصروا على ضلالهم ودارموا على إعراضهم المشار إليه بقوله (فإن تولوا) الجملة المارة في الآية 3 ، وإنما خص الصدور بالازورار لأن ما فيها مكتوم ، فكأنهم يظهرون له خلاف ما يبطنون ، يدل عليه قوله تعالى "لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ" صلى اللّه عليه وسلم واللّه لا تخفى عليه خافية فإنه جلت عظمته يخبر نبيّه بما يقع منهم ظاهرا وباطنا "أَلَا" تنبيه ثان لما بعده بأنه شيء يهتم له ويجب الاعتناء به ، وهو أن اللّه يعلم كل ما يقع منهم حتى أنهم "حِينَ" وقت وزمن "يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ" فيه فيغطون بها رءوسهم كراهية رؤية من تخطب

رؤيته صلى اللّه عليه وسلم وكراهية سماع قوله الذي يشتاق إليه الجماد لا لأمر آخر ، قاتلهم اللّه ، فإنه تعالى يعلم قبل وقوعه منهم بأنهم فاعلوه وهؤلاء مثلهم مثل قوم نوح عليه السلام إذ أخبر اللّه عنهم حينما يتكلم معهم نوح عليه السلام بقوله (جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ) لئلا يسمعوا كلامه (وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ) لئلا يروه كما سيأتي في الآية 7 من سورته الآتية تشابهت قلوبهم ، أخزاهم اللّه الذي "يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ" في أنفسهم "وَما يُعْلِنُونَ" من كلامهم كما هو عالم من قبل ما يقع منهم سرا وجهرا قبل وقوعه "إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ 5" بما فيها من الأسرار المستكنة فكيف يخفى عليه حال هؤلاء ؟ ! وفي هذه الآية دليل على أنه تعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها بل قبل وجودها الخارجي وهو مما لا ينكره أحد إلا بعض المعتزلة القائلين بأنه تعالى يعلم الأشياء بعد حدوثها ، تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا ، لما فيه من تشبيهه بخلقه ، لأن العلم بالشيء بعد حدوثه يعلمه بعض خلقه فلا مزية فيه ، وهذا كقول بعضهم إن الإسراء وقع مناما لأنه قد يقع لبعض خلقه من غير نكير ، قال ابن عباس نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر ، وكان يلقى رسول اللّه بما يحب ويطوي بقلبه عليه ما يكره ، وما قيل إنها نزلت في بعض المنافقين الذين كانوا يلقونه صلى اللّه عليه وسلم بوجه منطلق ويبطنون له غير ذلك لا يتجه ، لأن هذه السورة مكية والآية كذلك ، والنفاق إنما ظهر في المدينة وهم فيها لا شك يقع منهم ذلك وأكثر ، ولذلك سموا منافقين وهذه الآية تنطبق عليهم ، إلا أنها لم تنزل بحقهم ، اللهم إلا إذا

كان هذا من قبيل الإخبار بالغيب عن شيء لم يقع ، لعلمه تعالى بوقوعه فيما بعد ، فيكون جائزا ، ومثله كثير في القرآن ، لأنه من جملة معجزاته صلى اللّه عليه وسلم ومعجزات القرآن العظيم ، وهو من قبيل ما تأخر

(162/371)

حكمه عن نزوله ، راجع أول سورة الطارق المارة في ج 1 ، قال تعالى "وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ" اسم لكل حيوان دب على وجه الأرض أي مشى عليها ، ويطلق على ذوات الأربع عرفا ، والمراد هنا ما هو عام للإنسان وغيره "إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها" تفضلا منه وتكرما لا واجبا "وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها" وبقاءها في عالم الشهادة ، ومقدار ثباتها فيه وانفكاكها عنه ، ومكامنها ومساكنها ، ومحل وكرها الذي تأوي إليه في الأرض والبحار والجبال والهواء وغيرها ، "وَمُسْتَوْدَعَها" قبل خروجها إلى عالم الظهور وقبل استقرارها في الأصلاب والأرحام والبيوض وغيرها ، وبعد انعدامها من المحلات التي تدفن فيها أو تضمحل بها ، وما قيل إن تفسير المستودع بهذا لا يلائم

تكفل اللّه بأرزاقها إذ لا مجال له ولا حاجة للرزق فيه مردود ، لأن المراد بالتكفل مدة بقائها في برزخ المادة واحتياجها للرزق ، فتنتهي مدته بالأجل المقدر لكل دابة ، فكأنه قيل إن اللّه

تعالى متكفل برزق كل دابة ، ويعلم مكانها أول ما تحتاج إلى الرزق ومكانها آخر ما تحتاج إليه .

ولهذا البحث صلة في الآية 98 من سورة الأنعام الآتية ، وقد ألمعنا إليه في الآية 9 من سورة مريم المارة في ج 1 "كُلٌّ" من الدواب دوّن اسمه ورزقه ومستقره ومستودعه ، وما يطرأ عليه في مدة أجله "فِي كِتَابٍ مُبِينٍ 6" ظاهر مثبت فيه كل شيء قبل خلقه وبعد خلقه ، وموضح فيه آجال الأشياء ومصيرها بعد موتها وانعدامها بأي صورة كانت وتكون ، والدبّ مأخوذ من الدبيب وهو الشيء الخفيف وعليه قوله :

زعمتني شيخا ولست بشيخ إنما الشيخ من يدب دبيبا

(163/371)

ويفهم من هذه الآية أن اللّه تعالى يسوق رزق كل دابة إليها دون أن تسعى إليه بمقتضى تكفله لها بدليل قوله تعالى (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) الآية 22 من الذاريات الآتية ، وقوله صلى اللّه عليه وسلم : لو توكلتم على اللّه لحق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا .

وما جاء في الخبر : لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا اللّه وأجملوا في

الطلب .

ونؤذن أيضا في حمل العباد على التوكل ، إلا أنه لا يمنع من مباشرة الأسباب ، مع العلم بأن اللّه تعالى هو المسبب لها وجاء في الخبر : (اعقل وتوكل) وقال تعالى (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) الآية 16 من سورة الملك الآتية ، ففيهما إيذان بتعاطي الأسباب مع التوكل على اللّه ، إلا أنه لا ينبغي أن يعتقد عدم حصول الرزق بدون مباشرة سبب ، فإنه تعالى يرزق كثيرا من خلقه دون مباشرة الأسباب أصلا ، فقد جاء في بعض الأخبار أن موسى عليه السلام عند نزول الوحي تعلق قلبه بأحوال أهله

إذ أمره اللّه تعالى بالاشتغال بتبليغ الرسالة إلى من يعلم عتوه له وعناده وبغضه له بسبب قتل الرجل من قومه قاتله اللّه ولم يحسب قتل الألوف من قبله من قوم موسى ، فأمره اللّه تعالى أن يضرب صخرة بعصاه ، فضربها فانشقت عن صخرة ثانية ، فضربها فانشقت عن صخرة ثالثة ، فضربها فانشقت عن دودة كالذرة ، وفي فمها شيء يجري مجرى الغذاء لها ، وسمعها تقول سبحان من يراني ويسمع كلامي ويعرف مكاني ولا ينساني ، فتنبه موسى عليه السلام لذلك وصرف نظره عن ذكر أهله .

وما أحسن قول ابن أذينة :

لقد علمت وما الإسراف من خلقي إن الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى إليه فيعييني تطلبه ولو أقمت أتاني لا يعنيني

و قد صدقه اللّه تعالى حيث وقد على هشام بن عبد الملك ، فلما رآه قرّعه بقوله هذا فقال له وتشد رحلك من المدينة إلى الشام بطلب الرزق ، فتركه ورجع ، فلما غاب عنه ندم هشام على ما وقع منه نحوه ، وكانوا يخشون الشعراء حفظا لكرامتهم ، لأن الشاعر قد لا يترك عادته من الهجاء كما لا يتركها في المدح ، ولهذا قال صلى اللّه عليه وسلم : ذبوا بأموالكم عن أعراضكم ، فأرسل بجائزته إليه من دمشق إلى المدينة ، فلما رأى أنه أرسلها رغما عنه دون طلب منه ، قال للرسول قل له قد صدقت في قولي ولو أراد اللّه لما بعثك بها من الشام إلى المدينة ، فأخبر الرسول هشام بن عبد الملك بما قاله ابن أذينة فسمعه ورجع عن كلامه .

مطلب إرسال الرزق عفوا وكون العرش على الماء وكيفية الخلق :

ولا ينبغي لمثله أن يفعل ذلك ، ويوجد أخبار وآثار كثيرة في هذا الشأن ، وقد ألغى أمر الأسباب إلغاء تاما القائل :

مثل الرزق الذي تطلبه مثل الظل الذي يمشي معك

أنت لا تدركه متبعا وإذا وليت عنه تبعك

وهذا يكون بحسب مكابرة الأشخاص واعتقاداتهم ، وبالجملة فينبغي الوثوق باللّه وربط القلب به فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وتشير هذه الآية أيضا إلى

(165/371)

أن الحرام رزق وإلا فمن يأكل طول عمره حراما يلزم أن لا يكون مرزوقا ، وهو خلاف الواقع ، وقدمنا ما يتعلق في هذا عند الآية 59 من سورة يونس المارة وما يتعلق بالكسب في الآية 20 من سورة المزمل ، والآيتين 40/ 39 من سورة والنجم ، وفي الآية 13 من سورة فاطر المارات في ج 1 ، قال تعالى "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ" راجع تفسيرها في الآية 60 من سورة الفرقان المارة في ج 1 وفيها ما يرشدك إلى المواقع الأخرى التي تعرضنا فيها للبحث عما فيها ، وله صلة في الآية 9 من سورة فصلت الآتية "وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ" قبل خلق السموات والأرض ، فتدل هذه الآية على أن العرش والماء خلقا قبل السموات والأرض ، وفي وقوف العرش على الماء مع عظمته اعتبار لأهل الأفكار ، وفيه من كمال القدرة ما فيه ، لأن البناء الضعيف إذا لم يكن له أساس على أرض صلبة لم يثبت فكيف بهذا الخلق العظيم قد وضع على الماء ، ولم يخرج عن حيّزه الطبيعي ؟ ولا يقال كيف ، لأن افعال اللّه تعالى لا تعلل وقدرته لا تضاهى كما قدمنا في الآية 92 من سورة

يونس المارة ، روى مسلم عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول كتب اللّه مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء .

وأخرج الطيالسي وأحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي رزين العقيلي قال : قلت يا رسول اللّه أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض ؟ قال كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء ، وخلق عرشه على الماء .

(166/371)

وروى البخاري عن عمران بن حصين قال دخلت على النبي صلى اللّه عليه وسلم وعقلت ناقتي بالباب ، فأتى ناس من تميم فقال اقبلوا البشرى يا بني تميم ، فقالوا بشرتنا فأعطنا ، فتغير وجه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ثم دخل ناس من أهل اليمن فقال اقبلوا البشر يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم ، قالوا قبلنا يا رسول اللّه ، ثم قالوا جئنا نتفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر ما كان ؟ قال كان اللّه سبحانه وتعالى ولم يكن معه شيء ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء ، ثم أتاني

رجل فقال يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت ، فانطلقت أطلبها ، فإذا السراب يقطع دونها ، وأيم اللّه لوددت أنها ذهبت ولم أقم .

هذا ومعنى كان اللّه ولم يكن معه شيء ، يعني لا الماء ولا العرش ولا غيرهما ، ومعنى كان عرشه على الماء ، يعني خلق الماء وخلق العرش فوقه ، ومعنى العماء سحاب رقيق ليس معه شيء ، ومعنى قوله ليس فوقه هواء أي ليس فوق العماء هواء ، وكذلك وما تحته هواء ، وفي رواية في عمى بالقصر لا بالمد ، وعليه يكون المعنى أن لا شيء ثابت في ذلك ، لأنه من عمى معرفته عن الخلق أي كان قبل أن يخلق خلقه ، ولم يكن شيء غيره ، ويكون معنى ما فوقه هواء ليس فوق العمى هواء ولا تحته هواء ، لأنه لا شيء ، وإذا كان لا شيء فليس يثبت له هواء بوجه ما .

(167/371)

وقيل العمى كل أمر لا يدركه الفطن واللّه أعلم ، لأن هذا التأويل على كلام العرب المعقول عنهم ، وإلا فلا أحد يدري كيف كان ذلك العماء ، فيجب الإيمان به بلا تكييف ، لأن الأمور المتشابهة ينبغي الإيمان بها حسب ظاهرها والوقوف عندها ، وذلك طريق السلامة ، راجع الآية 5 من سورة طه المارة في ج 1 تجد ما يسرك "لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

عَمَلًا" في هذه الدنيا وأكثر ورعا عن محارم اللّه ، وأعظم شكرا لنعمائه ، وأحسن تفكرا في موضوعاته ، وأشدّ تدبرا في مكوناته أي لهذا خلقها وخلق ما فيها من الخلق الذي من جملته أنتم أيها العقلاء ، ورتب فيها ما تحتاجون إليه من بدء وجودكم وأسباب معايشكم ، وأودع فيها ما تستدلون به على بدائع مكوناته ، وتعتبرون بها على ما يقع من مقدراته ليعاملكم معاملة المختبر الممتحن فيرى المحسن منكم لخلقه ويجازيه على إحسانه ، والمسيء التصرف في ذلك فيعاقبه على إساءته ، وإلا فهو عالم بالصالح والطالح قبل إيجادهما "وَلَئِنْ قُلْتَ" يا سيد الرسل لكفار قومك "إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ" أحياء كحياتكم هذه فتسألون عما عملتم وتحاسبون عما وقع منكم في الدنيا ، فيثاب المؤمن على إيمانه ويعاقب الكافر على كفره "لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا" الذي يقوله محمد ويزعم أنه من القرآن الذي أنزل عليه من ربه ما هو "إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ 7" ظاهر خداعه باطل لا أصل له ، يريد به أن نقول ما يقوله من الحياة بعد الموت وعبادة الإله الواحد ليغرينا به ، قال تعالى "وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ"

(168/371)

الذي وعدناك بإنزاله عليهم يا سيد الرسل عند عدم قبولهم ما تتلوه عليهم من وحينا "إِلى أُمَّةٍ" آجال وجماعة من الأوقات "مَعْدُودَةٍ" قلائل معلومة محدودة لأن الدنيا كلها قليلة بالنسبة إلى الآخرة ، ويطلق لفظ الأمة على الجماعة من الناس ، فكأنه تعالى قوله يقول لو أخرناهم بمقدار حياة أمة وانقراضها ومجيء أمة أخرى "لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ" ما يمنع العذاب الذي توعدنا به يا محمد من النزول استهزاء وسخرية بك يا أكمل الرسل ، لشدة جهلهم وعدم علمهم أن لمقدراتنا كلها آجالا مقدرة لا تقدم ولا تؤخر عما هو مدون في علمنا الأزلي ، ولكن قل لهم إنه نازل بهم لا محالة ، ثم صدّر الخطاب بأداة التنبيه المار ذكرها في الآية الخامسة من هذه السورة فقال "أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ" بوجه من الوجوه لأن أجل اللّه إذا حل لا يحول وهو مهلكهم البتة .

مطلب أداة التنبيه وجواز تقديم خبر ليس عليها :

واستدل جمهور البصريين على جواز تقديم خبر ليس عليها كما يجوز تقديمه على اسمها بلا خلاف ، لأن يوم منصوب بمصروفا الذي هو خبرها ، ولا عبرة لمن ادعى عدم الجواز بعد أن وقع في كتاب اللّه تعالى ، قال في البحر : تتبعت دواوين العرب فلم أظفر بتقديم خبر ليس عليها ، ولا تقديم معموله إلا ما دل عليه ظاهر هذه الآية وقول الشاعر :

فيأبى فما يزداد إلا لجاجة وكنت أبيا في الخنى لست أقدم

فإنه مقدم عليها ، قال تعالى "وَحاقَ بِهِمْ" أحاط بهم من جميع جهاتهم ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ 8" أي العذاب المعبر عنه بما من كل جوانبهم فلا محيص لهم للتخلص منه ، وأصل (حاقَ) حقّ مثل زل وزال وذم وذام ، وجاء بمعنى الماضي لتحقق وقوعه ، وإلا فالمقام يستدعي مجيئه مستقلا لعدم وقوعه بعد (ان يحيق بهم) وجاء بيستهزئون مكان يستعجلون ، لأن استعجالهم بطلب نزول العذاب كان بطريق السخرية ، لأنهم غير مصدقين به قال تعالى "وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً" من صحة وسعة وأمن بحيث يجد لذّتها ، ولذلك عبّر بالإذاقة عن الإعطاء والإيصال "ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ" لعدم قيامه بشكرها ، قال عليه الصلاة والسلام اشكروا النعم لا تكفروها ، فإنها إن زالت فهيهات أن تعود .

فالعاقل يقدر النعمة حال تلبسه بها ، والجاهل لا يقدرها حتى تسلب منه بالمرض والضّيق والخوف فإذ ذاك يندم ولات حين مندم ، وعبّر عن السلب بالنزع إشعارا بشدة تعلقه بها وإيذانا بزيادة حرصه عليها "إِنَّهُ لَيَؤُسٌ" من عودها إليه قنوط الرجاء من فضل اللّه ، لعدم صبره وتوكله عليه وثقته به ، ولو كان متوكلا وثقا باللّه لقيدها بالشكر ولكنه "كَفُورٌ 9" لما أسلفه اللّه من النعم شديد الجحود لها كأن لم ينعم عليه بشيء ، لأن الضيق بعد سعة الرزق ، والمرض بعد الصحة ، والخوف بعد الأمن صعب جدا ، لا يقدر من يصبر عليه كل أحد ، أجارنا اللّه من ذلك .

قال تعالى "وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ" وأرهقته "لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي" تباعد عني كل ما يسوءني من فقر ومرض وخوف وذل ، فيأمن مكر اللّه إذ يغيب عن باله زوالها إذا لم يؤد شكرها ويصرفها مصارفها ولم يضفها إلى اللّه تعالى بل إلى الصدقة والعادة والكد ، ولهذا فقد ذمه اللّه بقوله عز قوله "إِنَّهُ لَفَرِحٌ" بما ناله من ذلك الخير "فَخُورٌ 10" به على غيره ، ولم يخطر بباله أن ذلك كله من ربه .

واعلم أن للفرح لذة في القلب تحصل بنيل المراد ، واليئوس والفخور والكفور ، أحمد مبالغة تدل على الكثرة والفخر والتطاول على الناس بما عنده من المعاقب والمال والنشب والرياش والرياسة ، واللام في لئن في الآيات الأربع المارة موطئة للقسم ، وجوابه سادس جواب الشرط كما في قوله :

لئن عاد لي عبد العزيز بمثلها وأمكنني منها إذا لا أقيلها

برفع أقيلها لأن إذن هنا حرف جواب وجزاء فقط ، إذ فصلت لا النافية بينها وبين الفعل ، وشرط النصب بها عدم الفصل والتصدير وكون الفعل بعدها مستقبلا ولم يغتفر بالفصل بينها وبين الفعل إلا بالقسم كقوله :

إذن والله نرميهم بحرب يشيب الطفل من قبل المشيب

لأن الفصل بغير القسم يمنع تسلط الناصب ، وعليه قول أبي محجن الثقفي رحمه الله :

إذا مت فادفنّي إلى أصل كرمة تروي عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفنّي في الفلاة فإنني أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

بالرفع لعدم تسلط الناصب بسبب الفصل بلا ، وإنما قلت رحمه الله لأنه تاب توبة نصوحا في حرب القادسية ، وسنأتي على قصته في غير هذا الموضع .

قال تعالى "إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا" على الشدائد والمصائب وأيقنوا أن الله تعالى سيبدل عسرهم يسرا ، وخسرهم نفعا ، وخوفهم أمنا ، وذلّهم عزّا ، فإن هؤلاء يسندون كل ما يصيبهم إلى ربهم ويعلمون أن الخير برضاه والشر بقضاه .

(171/371)

واعلم أن هذا الاستثناء متصل من الإنسان إذا أردنا بالإنسان الهار ذكره في الآية المتقدمة الجنس ، وأل فيه للاستغراق ، ومنقطع إذا أردنا به الإنسان الكافر ، وأل فيه للعهد .

قال ابن عباس المراد كافر معين وهو الوليد بن المغيرة أو عبد الله بن أمية المخزومي .

على أن الإطلاق أولى ، فيدخل فيه المذكوران وغيرهم ، ولا مندوحة عندي في تخصيص

هذين الكافرين وأضرابهما في نزول آيات اللّه ، وهم أصغر من ذلك ، والأحسن أن يجنح المفسر إلى عدم تقييد أو تخصيص آيات اللّه بإنسان أو شيء إلا إذا كان هناك مقيد أو مخصص ، وإلا فالإطلاق والتعميم أولى وأحسن للذين فقهوا معنى الآيات "وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" مع صبرهم وداوموا عليها حال عسرهم ويسرهم وشكروا اللّه تعالى على ما آتاهم من فضله من النعم ورجوا منه دوامها وصبروا وحمدوا عند زوالها "أُولَئِكَ" الذين هذه صفاتهم "لَهُمْ مَغْفِرَةٌ" عظيمة لذنوبهم مهما كانت ، لأن الغفور لا يعظم عليه شيء "وَ" لهم بعد هذه المغفرة "أَجْرٌ كَبِيرٌ 11" لا أكبر منه وهو الجنة ، وقد وصف اللّه تعالى ثوابهم بالكبر لما يحتوي عليه من النعيم السرمدي ولاشتماله على رضاء اللّه .

هذا ولما تمادى الكفرة على طلب اقتراح الآيات من حضرة الرسول تعنتا لا استرشادا ، لأنهم لو كانوا مستهدين لكفتهم آية واحدة ولما داوموا على استهانتهم بحضرة الرسول وعدم اعتبارهم ما يتلوه عليهم من القرآن الحكيم ، ضاق صدره الشريف من ذلك ، واشتد ضيقه لما يرى من ضحكهم وسخريتهم واستهزائهم عليه وعلى ربه وكتابه ، وخاف أن يلحقه ملل من الإدمان على وعظهم هيّجه

اللّه تعالى والهب في قلبه التشدد بأداء الرسالة وطرح المبالاة بردهم ما يلقيه إليهم من الوحي ، فقال جل جلاله "فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ" من هذا القرآن مخافة عدم قبولهم به "وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ" من عتو كفرة قومك ، فلا تتلوه عليهم ولا تبلغهم أحكامه . قال ضائق لمشاكلة تارك ، وليدل على أن الضيق عارض له لأنه صلى اللّه عليه وسلم أفسح الناس صدرا وأوسعهم خلقا ، كيف لا وقد مدحه ربه بقوله عز قوله (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) الآية 5 من سورة نون المارة في ج 1 ، وقوله تعالى (فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ) الآية 160 من آل عمران الآتية في ج 3 .

مطلب في اسم الفاعل والآيتين المدنيتين والتحدي بالقرآن :

إلا أن الضيق يطرأ عليه أحيانا بسبب ما يلاقي من قومه ، ولأن كل صفة مشبهة إذا قصد بها الحدوث تحول إلى فاعل ، فتقول في سيد وجواد وسمين سائد وجائد وسامن مثلا ، وعلى هذا قول اللص إذ يصف السجن :

بمنزلة أما اللئيم فامن بها وكرام الناس باد شحوبها

فعلى هذا أن كل ما يبنى من الثلاثي للثبوت والاستقرار على غير وزن فاعل يرد إليه إن أريد به معنى الحدوث من غير توقف على سماع ، وما قيل إن العدول من ضيّق إلى ضائق لمجرد مشاركة تارك ليس بشيء ، ولا يوجد في القرآن اسم فاعل من ضاق على وزن ضائق إلا هذا كما لا يوجد فيه فعل خماسي أصالة .

(173/371)

واعلم أن ما قاله بعض المفسرين من أن النبي صلى اللّه عليه وسلم همّ أن يدع سبّ آلهتهم ظاهرا حينما قالوا له (ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ) بما ليس فيه سبّ آلهتنا ولا مخالفة آبائنا كما تقدم في الآية 15 من سورة يونس المارة غير سديد وحاشاه من ذلك ، لأنه صلى اللّه عليه وسلم معصوم من الإخبار مما أمر بتبليغه أن يبلغه بخلاف ما هو لا خطأ ولا عمدا ، ولا سهوا ولا غلطا ، ومعصوم أيضا أن يسكت عن شيء منه أو يكتمه ، لأنه محتم عليه أن يبلغ ما أنزل إليه كما أنزل حرفيا ، وإن اللّه تعالى عاصمه من كيد كل كائد كما سيمر عليك في الآية 70 من المائدة في ج 3 ، وقد

(174/371)

أجمعت العلماء على ذلك ، لأن تجويز ترك شيء من القرآن يؤدي إلى الشك في أداء الشريعة والتكاليف المطلوبة من البشر ، إذ المقصود من إرسال الرسل تبليغ وحي اللّه للمرسل إليهم ، فإذا لم يحصل فقد فاتت الفائدة المتوخاة من إرسالهم ، وهم معصومون من ذلك كله ،

راجع آخر سورة والنجم المارة في ج 1 تجد ما يطمئن إليه ضميرك ويشرح له صدرك في هذا البحث "أَنْ يَقُولُوا" أي لعلك تترك تبليغ بعض الوحي مخافة قولهم "لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ" مال كثير يستغني به عن السعي ويجلب الناس بسبب بثه إليهم ، الكنز هو ما يدخر من المال ولا يكون إلا كثيرا ، وعبروا بالإنزال دون الإعطاء أو الحصول ، لأن مرادهم التعجيز يكون ذلك على خلاف العادة ، لأن الكنوز إنما تكون في الأرض فتستخرج منها لا أنها تنزل من السماء "أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ" يصدق كل ما يقوله لنا إنه من عند ربه حتى نصدقه ، وإلا بمجرد كلامه فلا ، لأنا نعلم أنه مختلقه من من نفسه أو يتعلمه من الغير أو يسمعه من خرافات الأولين ، يقول اللّه تعالى لحبيبه إذا صارحوك بهذه الأقوال التافهة فأعرض عنهم "إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ" لهم من عذاب اللّه واللّه شاهد على رسالتك فلست بحاجة إلى المال الذي فيه مطمع قومك ولا إلى الملك ليشهد لك على وحينا ، ولست بوكيل على إيمانهم "وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ 12" بما فيه أنت وقومك ، قال ابن عباس إن هذا القول والقول في سورة يونس الآية 5 المارة قالته طائفة من الكفرة ، أي عبد اللّه المخزومي ورفقاؤه من الضلال وإن حضرة الرسول قال لكل منهم لا أقدر على شيء من ذلك ، فنزلت تلك الآية هناك وهذه هنا .

وأول الآيتين المدنيتين 13/ 14 في هذه السورة هو قوله تعالى "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ" اختلق محمد هذا القرآن ونسبه إلى اللّه "قُلْ" يا سيد الرسل لهؤلاء المفترين "فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ" أي تحداهم يا محمد بذلك، لأنهم عرب مثلك، والقرآن باللغة العربية، فقل إذا كنتم تزعمون أني افتريته فافتروا عشر سور مثله، وكان نزل من القرآن عند هذه الحادثة جميع السور المكية وهي ست وثمانون سورة، وقسم من المدني، لأن هذه الحادثة وقعت في المدينة، وهاتين الآيتين نزلت فيها متأخرتين

(176/371)

عن سورتها المكية التي عددها بحسب النزول، اثنتان وخمسون سورة، فتراهم عاجزين عن الإتيان ببعض سورة من مثل هذا القرآن مهما بلغوا في الفصاحة، لأن كلام الخلق لا يضاهي كلام الخالق، وقد ذكرنا في سورة يونس المارّة عند قوله تعالى (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) الآية 38 أن معناها هناك مثل جميع ما نزل، فلما عجزوا تحداهم الآن بعشر سور، وقيل معناها هناك في الإخبار بالغيب والأحكام والوعد والوعيد لا بسورة واحدة، ومثلها الآية 88 من سورة الإسراء المارة في ج 1، ومعناها هنا في الفصاحة والبلاغة من غير إخبار

عن غيب ولا ذكر حكم ولا وعد ولا وعيد ، ولهذا فلا دليل لمن قال إن هود نزلت قبل يونس ، لأنه تحداهم بعشر سور فلما عجزوا تحداهم بسورة واحدة ، تأمل وقد بينا أن يونس نزلت قبل هود على ما عليه الجمهور ، وهود بعدها بالتنزيل وفي ترتيب القرآن أيضا ، فضلا عن أن هذه الآية والتي بعدها مدنيتان ، وأن بينها وبين آية يونس سنين وأشهرا وأياما ، هذا ولما تحداهم بهذا الكلام أمره أن يقول لهم "وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ" من شركائكم وأعوانكم وأمثالكم من كل خلقه ليساعدوكم على الإتيان بذلك "إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ 13" أنه مفترى ، ولا تكرار في هذه الآية وآية يونس لأن هذه مدنية وبعشر سور ، وتلك مكية ، و

بكل سوره النازلة وآية البقرة عدد 23 بخلافها كما سيأتي في تفسيرها في ج 3 .

وقد بينا عند تفسير آية يونس ما هو أوضح من هذا فراجعه .

(177/371)

قال تعالى "فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ" جاء الضمير بالجمع تعظيما لحضرة الرسول وطبعا لم ولن يستجيبوا لأنهم أقل من ذلك "فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ" هذا القرآن كله يا محمد عليكم "بِعِلْمِ اللَّهِ" تعالى بواسطة أمينه جبريل عليه السلام ليس بمفترى ، لأنكم وجميع الخلق لا تقدرون على

الإتيان بسورة منه ، ولا آية معجزة أيضا "وَأَنْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ" وحده الإله القادر على إنزاله وجعله معجزا للخلق أجمع ، فقل لعامة الكفار هو كلام اللّه "فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ 14" مذعنون له منقادون لعظمته ، خاضعون لأوامره ونواهيه .

وبعد إظهاركم العجز عن ما تحداكم به لم يبق شائبة شبهة بأنه من عند غير اللّه بل من عند اللّه حقيقة ، وأن ما أنتم عليه من الشرك والإنكار باطل ،

فاتركوا هذه المكابرة والعناد وآمنوا باللّه ورسوله .

انتهت الآيتان المدنيتان .

قال تعالى "مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها" بأعماله الحسنة فيها ونيته الصادقة ، ورضي باستبدال الباقي بالفاني والدائم بالمنقطع "نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها" كاملة زائدة "وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ 15" شيئا منها ولا ينقصون نقيرا والضميران عائدان للحياة الدنيا ، الثاني مؤكد للأول ، لأن البخس لا يكون إلا في الدنيا من أولى الأمر ، ونجس الآخرة ناشىء عن التقصير في الأعمال الصالحة .

نزلت هذه الآية في كل من عمل عملا يبتغي به غير اللّه ، والبخس نقص الحق على سبيل الظلم من أيّ كان ، وجاء هنا على ظاهر الحال محافظة على صور الأعمال ومبالغة في نفي النقص ، فكأنه نقص لحقوقهم التي يزعمونها ، وفعل يبخسون هذا لم يكرر في القرآن .

هذا ، وما أخرجه النحاس في ناسخه عن ابن عباس بأن هذه الآية منسوخة بآية (مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ) الآية 18 من سورة الإسراء المارة في ج 1 ، مردود من وجهين : الأول أن هذه من الأخبار والأخبار لا يدخلها النسخ كما نوهنا به في الآية 41 من سورة يونس المارة ، الثاني أن آية الإسراء مقدمة على هذه بالنزول ، والمقدم لا ينسخ المؤخر كما بيناه في بحث الناسخ والمنسوخ في المقدمة ج 1 ، فلا معنى للقول بالنسخ البتة "أُولئِكَ" الذين وصفوا أعلاه هم "الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ" لأنهم استوفوا ثواب أعمالهم في الدنيا وقد عملوها لأجلها "وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها" من الخير لأنهم صنعوه للسمعة والرياء فلم يقصدوا فيه رضاء اللّه ، فكافأهم عليه في الدنيا لأن عمل الخير لا بد وأن يكون له ثواب لا يعدمه فاعله بمقتضى قوله تعالى (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ) الآية 7 من سورة الزلزلة في ج 3 .

مطلب العمل لغير اللّه والآية المدنية الثالثة وعود الضمير في منه :

قال تعالى "وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ 16" في الدنيا من الخير أي في الآخرة لأنه كان لغير اللّه ولمكافأتهم عليه فيها ، والباطل لا ثواب له في الآخرة .

أخرج مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : قال اللّه تبارك

وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه .

وأخرج الترمذي عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من تعلم علما لغير اللّه أو أراد به غير اللّه فليتبوأ مقعده من النار .

وأخرج أبو داود عن أبي هريرة قال :

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من تعلم علما مما يبتغى به وجه اللّه ، لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة .

أي ريحها .

(179/371)

وما قيل إن هذه الآية نزلت في اليهود لا دليل له لأنها مكية وليست من المستثنيات والآية مطلقة وسبب نزولها ما ذكرناه آنفا ، أما الآية المدنية الثالثة فهي قوله تعالى "أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ" وأراد بأعماله الصالحة وجه اللّه تعالى ابتغاء ثوابه لأنه يعمل مخلصا على برهان ناصع وحجة واضحة دالة على طريق الحق والصواب فيما يأتيه ويذره لأن البيّنة هي الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة ، وتطلق على الدليل مطلقا وهاؤها للمبالغة وتنوينها للتعظيم ، أي بينة عظيمة الشان ، والمراد بها هنا القرآن المعبر عنه بالبيّنة ولذلك

ذكر الضمير هنا بتأويل البينة بالبرهان أو القرآن أي الذي يعمل على هذا النور ليس كمن وصف بالآية المتقدمة من الذين يعملون على جهل وظلمة "وَيَتْلُوهُ" أي القرآن الموصوف بما تقدم "شاهِدٌ مِنْهُ" أي يتبع هذا القرآن دليل منه وهو الإعجاز في نظمه وإخباره بالغيب دليل كاف على أنه من عند اللّه تعالى "وَمِنْ قَبْلِهِ" أي القرآن ، وذكر الضمير تأكيدا لأنه يكون المراد به هو هو "كِتابُ مُوسى " أي التوراة الجليلة لا الصحف المنزلة عليه قبلها لعدم إطلاق لفظ الكتاب عليها فهي شاهدة بصحته أنه من عند اللّه لأنه يخبر عما قبلها ، وهذا كاف في الاستشهاد بكونه "إِماماً" في الدين والأحكام يقتدي به المهتدون "وَرَحْمَةً" عظيمة ونعمة كبرى لمن أنزل عليهم واتبعوه وعملوا بما فيه واهتدوا بهديه ، لأن التوراة الجلية أول كتاب اشتمل على الأحكام والشرائع التي لا بد للبشر منها إذ الكتب والصحف قبلها كانت تحتوي على التوحيد والإيمان واعتقاد بالنبوة فقط ، لذلك يقال لها صحف ولا يطلق عليها لفظ الكتاب إلا مجازا ، وقد يجوز أن تتطرق الصحف لبعض الأحكام ، راجع الآيتين 36/ 37 من سورة والنجم المارتين في ج 1 "أُولئِكَ" الذين اقتدوا في التوراة وعملوا فيها

من أهل الكتابين المخلصين الذين لا يكابرون ولا يعاندون ولا يبدلون ولا يغيرون شيئًا منها برأيهم مما يكون مخالفا لمراد اللّه تعالى ولما أنزله على رسلهم ولا يكتمون الحق المشار إليهم بأنهم على بينة من ربهم "يُؤْمِنُونَ بِهِ" أي القرآن لأنه يشتمل على ما في التوراة "وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ" الذين تحزّبوا على حضرة الرسول من أهل مكة وأهل الكتابين وغيرهم "فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ" يوم القيامة ومصيره فيها ، والموعد مكان الوعد قال حسان :

أوردتموها حياض الموت ضاحية فالنار موعدها والموت لا فيها

"فَلا تَكُ" أيها الإنسان الكامل "فِي مِرْيَةٍ" شك أو شبهة "مِنْهُ" بأنه من غير اللّه بل هو حقا من عنده راجع الآية 94 من سورة يونس المارة "إِنَّهُ" أي هذا القرآن "الْحَقُّ" الصريح الواقع الواضح "مِنْ رَبِّكَ الذي رباك في أمر دينك ودنياك وفضلك على من سواك "وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ 17 " أنه من عند اللّه لكثافة الرين الغاشي قلوبهم ولشدة عنادهم ومكابرتهم وعتوهم ، واختلاف انكارهم ، ونظير هذه الآية الآية 28 من سورة الأحقاف الآتية .

(181/371)

هذا ، واعلم أن بعض المفسرين أعاد ضمير منه الأول إلى محمد صلى اللّه عليه وسلم وقال إن الشاهد هو علي كرم اللّه وجهه ، لاتصاله بحضرة الرسول ، مستدلا بما قاله جابر بن عبد اللّه قال علي بن أبي طالب ما من رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه الآية والآيتان ، فقال له رجل وأنت أي آية نزلت فيك ؟ فقال عليه السلام ما تقرأ الآية التي في هود (وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ) أي من النبي صلى اللّه عليه وسلم والمراد تشريفه عليه السلام وهو المشرف على جميع الناس بعد الأنبياء ، كيف لا وهو ابن عمه وبمنزلة هرون من موسى ، وهو ختنه ، وهو الذي فداه بنفسه يوم الهجرة ، إلا أن سياق التنزيل يأباه ، وهذا الخبر أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه ، ولا يكاد يصح ، ويرده ما روي عن محمد بن الحنفية ، قال قلت لأبي (يعني عليا) أأنت التالي ، قال وما تعني بالتالي ؟ قلت قوله سبحانه (وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ) قال وددت أني هو ، ولكنه لسان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني في الأوسط ، ووجه هذا القول أن اللسان .

يعرب عن الجنان ويظهره ، فجعل كالشاهد له ، لأنه آلة البيان ، وبه يتلى القرآن وتظهر فصاحته وبلاغته ودلالته على الغيب ، قال محمود الآلوسي عليه الرحمة : إن في تقرير الاستدلال على أن المراد بالشاهد علي عليه السلام ضعفا وركاكة بلغت القصوى .

ونقل أبو حيان أن هذا الشاهد هو أبو بكر رضي اللّه عنه مستدلا بقوله تعالى (وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ) الآية 32 من سورة الزمر الآتية ، وفيها بحث نفيس فراجعه .

(182/371)

ويعني بالذي جاء بالصدق محمدا صلى اللّه عليه وسلم ، والذي صدق به أبا بكر رضي اللّه عنه ، لأنه كان الثاني بالغار ، والثاني بالإمامة والخلافة ، وكان من النبي صلى اللّه عليه وسلم بمنزلة السمع والبصر ، ويجعل عود الضمير للنبي بهذا المعنى لقوله صلى اللّه عليه وسلم (إنهما يعني أبا بكر وعمر) منى بمنزلة السمع والبصر ، نعم إنهما كانا كذلك وإن عليا كرم اللّه وجهه أقرب منهما لكن اختصاصهما أو أحدهما في هذه الآية بعيد ولم يرد القائل إلا تعزيز مكانتهما وتعظيمهما ، وهما عظيمان عزيزان من دون هذا ، ومن غير أن تقروا لهما ما هو خلاف الواقع ، فمكانتهما عند اللّه وعند خلقه عظيمة بهذا وبغيره وهما عند الناس معظمان به وبدونه ، على أن هناك أقوال أخر بأن الشاهد هو جبريل عليه السلام أو هو ملك آخر أو هو الإنجيل لأنه يتلوه في التصديق نبوة محمد صلى اللّه عليه وسلم ، لكن وجود نزولها قبل القرآن يأبى الركون إلى القول به ، والقول الأول الذي جرينا عليه هو الصحيح ، لمناسبته سياق التنزيل وقبوله من كبار المفسرين ، كأبي السعود وأضرابه ،

وناهيك بمفتى الثقلين قدوة ، وإنما نقلنا تلك الأقوال – وإن كنا لا نراها – للوقوف على صحتها وعدمه ، وليعلم القارئ بالاطلاع عليها أننا لم نغفل شيئا مما له مساس بالمعاني ولا بالألفاظ .

هذا ، والله أعلم .

(183/371)

انتهت الآية المدنية الثالثة ، وهذه الآيات كغيرها من المدنيات واقعة بين ما قبلها وما بعدها كالمعترضة ، قال تعالى "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً" لا أحد أظلم منه البتة ، ولا أشد تعديا ، ولا أكثر تجاوزا ، لأن الكذب في نفسه كبيرة ، وهو مجانب للإيمان فيما بين الناس ، فكيف بالكذب على الله تعالى ؟ فهو من أعظم الكبائر كما تشير إليه هذه الآية "أُولَئِكَ" المفترون الكذب على الله "يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ" في الموقف العظيم يوم القيامة "وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ" الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم وغيرهم أو الأنبياء أو أهل الموقف حين يسألون عن ذلك

"هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ" في الدنيا ، وهذا التشهير والفضيحة يكونان لكل من كذب على الله ، وحينئذ يلعنهم أهل الموقف حينما يسمعون قول الله تعالى "أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى

الظَّالِمِينَ 18 " فيتنبه لذلك من لم يلعنهم ، فيلعنهم أيضا .

وهذه الجملة يحتمل أن تكون من كلام الأشهاد بالنظر لظاهرها ، والأشهاد جمع شاهد وشهود ، ويجمع على شهداء ، فيكون جمع الجمع ، وقد جاءت بلفظ الجمع في القرآن ، وكلاهما بمعنى واحد ، إلا أن الأخير أبلغ من الأول .

(184/371)

روى البخاري ومسلم عن صفوان بن محرز المازني قال : بينما ابن عمر يطوف بالبيت إذ عرض له رجل ، فقال يا أبا عبد الرحمن أخبرني ما سمعت من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في النجوى ، قال سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول يدنو المؤمن من ربّه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه ، تعرف ذنب كذا وكذا ، فيقول أعرف مرتين ، فيقول سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته ، وفي رواية ثم تطوى صحيفة حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد ، وفي رواية فينادي بهم على رءوس الأشهاد من الخلق (هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) الآية المارة .

وقيل إنه من كلام اللّه تعالى ، والأول أولى بالمقام .

ثم وصف اللّه تعالى هؤلاء الظالمين أنفسهم بالكذب عليه فقال "الَّذِينَ يَصُدُّونَ" الناس ويمنعونهم "عَنْ" اتباع "سَبِيلِ اللَّهِ" ويحولون دون سلوكه "وَيَبْغُونَهَا" الطريق المعدلة المستقيمة المؤدية إلى الإيمان السويّ "عِوَجاً" مائلة عن السواء منحرفة عن الإستواء ، بإلقاء الشبهات في قلوب الناس وقلب معاني الدلائل الدالة على صحة دين الإسلام "وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ 19" جاحدون وجودها منكرون البعث بعد الموت ، وكرر لفظ هم تأكيدا لكفرهم "أُولئِكَ" الصادون الناس عن الإيمان المنكرون النشأة الآخرة الطالبون منهج السبل المضلة "لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ" الإله القدير العليم ، ومهما ضربوا "فِي الْأَرْضِ" لا يفلتون عن قبضة الرّب ، ولا يتمكنون من الهرب إذا أراد عذابهم للانتقام منهم "وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ" يقدرون على تخليصهم أو يدافعون

(185/371)

عنهم ويقونهم من عذاب اللّه إذا أراد إيقاعه فيهم ، ولكنه تعالى يمهلهم في الدنيا ليزدادوا إثما ويأخذوا ما هو مقدر لهم في الأزل من رزق حرام وعمل سيىء حتى لا يبقى لهم شيء في الدنيا ثم يميتهم و "يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ" في الآخرة على عدم إيمانهم وصدّهم الناس عن الإيمان ومنعهم من سلوك الطريق المستقيم وإنكارهم الآخرة ، لأنهم صموا في الدنيا عن

سماع هذا الحق و"ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ" لما يبلغهم نبيهم من وحي اللّه "وَما كانُوا يُبْصِرُونَ 20" نهج السلام لينتفعوا به ، وقد حرموا فوائد هاتين الحاستين التي منحها اللّه الإنسان ليستعملها في طلب الخير ودفع الشر ، مع أن الحيوانات العجم تستفيد منها بدفع ما يضرهم برؤية أو سماع

"أُولئِكَ"

الذين هذه صفتهم هم "الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ"

بإبدالهم عبادة النافع الضار بعبادة الأوثان التي لا تضرّ ولا تنفع "وَضَلَّ عَنْهُمْ"

بسبب صفقتهم الخاسرة "ما كانُوا يَفْتَرُونَ

21" في الدنيا على أنفسهم وغيرهم من أن الأوثان أو ما يعبدونهم من الملائكة وغيرهم يشفعون لهم في الآخرة "لا جَرَمَ" لا محالة حقا وجرم في الأصل فعل ماضي بمعنى كسب ، قال الشاعر :

نصبنا رأسه في جذع نخل بما جرمت يداه وما اعتدينا

و تأتي بمعنى حقا كما هنا أي مع لا وهي اسم لا ، أي حقا "أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ 22" لأنهم باعوا الجنة بالنار واستبدلوا المخلوق بالخالق ، فلا أخسر منهم أبدا ، وهذا هو الخسران المبين ، قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا" بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر "وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" ضميمة على إيمانهم "وَأَخْبَتُوا" خشعوا وخضعوا لله وأنابوا واطمأنوا له فرجعوا "إِلى رَبِّهِمْ" وانقطعوا لعبادته وهذا إشارة إلى أعمال القلوب كما أن العمل إشارة إلى أعمال الجوارح ، لأن الأولى لا تنفع في الآخرة بدون الثانية ولا تقبل "أُولئِكَ" الذين هذا نعتهم "أَصْحابُ الْجَنَّةِ" في الدار الآخرة جزاء إيمانهم وإخلاصهم "هُمْ فِيها خالِدُونَ 23" دائبون آمنون لا يخرجون منها أبدا "مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ" أصحاب النار المذكورين أولا "كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَ" مثل أصحاب الجنة المذكورين أخيرا كا "الْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ"

(187/371)

على سبيل المقابلة أحد أبواب البديع وهي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم بما يقابل كل منهما من أضداد ، فيعود الأول إلى الأول والثاني على الثاني بطريق اللّف والنشر المرتب ، فانظروا أيها الناس "هَلْ يَسْتَوِيانِ" هذان الصنفان الأولان مع الصنفين الآخرين "مَثَلًا" كلا ، لا يستويان ، فقل لهم يا سيد الرسل "أَ فَلا تَذَكَّرُونَ 24" معاني هذا المثل ومغزاه فتنتفعون به

، وبعد أن بين تعالى ما يدل على توحيده وأحوال المؤمنين والكافرين وموقفهم مع حضرة الرسول بين أنبيه أخبار من تقدم من الأنبياء مع أقوامهم بقوله جل قوله "وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ" ليرشدهم إلى سلوك طريقه ، فقال لهم "إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ 25" أخوفكم عقاب اللّه وأحذركم من الإشراك به وآمركم "أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ" وحده فهو المستحق للعبادة "إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ" إن لم تتركوا عبادة الأوثان وترجعوا لطاعة الرحمن "عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ 26" شديد عذابه وصف اليوم بالألم لوقوعه فيه "فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ" يا نوح "إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا" مالك ميزة علينا بشيء فكيف تريد أن تستأثر بطاعتنا إليك "وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا" أسافلنا من الحاكة والإسكافية وأشباههم ذرى الحرف الخسيسة الذين أطاعوك "بادِيَ الرَّأْيِ" دون تدبر وتفكر على وهلة بما طليت عليهم من فصاحة لسانك ولين جانبك ، ولو أنهم ذوو مكانة عندنا أو أنهم تمعنوا في الأمر الذي دعوتهم إليه وتصوروا العواقب لما اتبعوك حالا وتركوا دين آبائهم ، ثم تجاءروا عليه ، قاتلهم اللّه ، فقالوا له جهارا "وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ" في مال أو جاه أو شرف أو غيره من المميزات التي توجب طاعتك ، لا أنت ولا من اتبعك السوقة الذين لا نرضى مجالستهم ، فكيف تريد أن ننقاد لك وتكون لك السلطة علينا .

وجوابكم هذا لحضرته على غاية من الجهل وسوء الأدب ، لأن الرفعة في الدين ومتابعة الرسل لا تكون بالشرف والسمعة والصيت والرياسة الدنيوية ، وأن الدعوة إلى اللّه للبشر لا تكون إلا من بشر مثلهم اختصه اللّه تعالى وشرفه برسالته ، لأن الفضيلة المعتبرة عند اللّه هي الإيمان به والانقياد لأوامره والاجتناب عن مناهيه

(189/371)

لا بما ذكروه من الأمور الدنيوية وشرف الصنعة ، وما هذا الجواب منهم إلا لفرط جهلهم وتوغلهم في الدنيا وملاذها وانهماكهم في شهواتهم ، ولذلك ختموا كلامهم بقولهم "بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ 27" في هذه الدعوى أنت وأتباعك ، وإن تصديقهم لك عبارة عن مواطئة تمهيد للحصول على الرياسة علينا "قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي" فيما بشرتكم به وأنذرتكم منه واضحة شاهدة على صدقي "وَآتانِي" الذي أرسلني إليكم "رَحْمَةً" هديا ومعرفة ونبوة ورسالة "مِنْ عِنْدِهِ" وهو إله الكل "فَعُمِّيَتْ" ألبست وأخفيت "عَلَيْكُمْ" فلم تهدكم ولم تهتدوا إليها ، لأن الحجة كما تكون بصيرة ومبصرة تكون عماء وعمها ، وإن الأعمى والأعمه كما أنه لا يهتدي لا يقدر أن يهدي غيره ، لذلك لا نقدر على

إلزامكم بها "أَنُلْزِمُكُمُوها" قسرا وجبرا "وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ 28" نافرون عنها ، كلا لا نستطيع على ذلك إذ لا إكراه في قبول الدين بل يجب الإقدام عليه والإقبال إليه طوعا برغبته ومحبته "وَيا قَوْمِ" تدبروا ما أقوله لكم وانظروا عاقبته وتلقوه بحسن نية ، واعلموا أني "لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالًا" لتظنوا بي طمعا ولا رياسة لتشتبهوا فيّ من أجلها أو تشكّوا أن إنذاري لكم لأمور دنيوية كلا "إِنْ أَجرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ" الذي أرسلني ، وأن ما أبذله إليكم من النصح وأسديه لكم من الإرشاد لمجرد هدايتكم لطريق اللّه وحمايتكم من عذابه المترتب على إصراركم على الكفر "وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا" بي وصدقوني من أجل قولكم أنهم أراذل خسيسو الحرفة ، فقراء وضيعون بالحسب والنسب ، فهذا كله لا يمنعي من قبول إيمانهم ، ولا يجوز لي أن أتباعد عنهم "إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ" بعد الموت ، فيشكونني إليه ، فيعاقبني على طردهم ، لأن وظيفتي قبول إيمان من يؤمن مهما كان ، وإن الإيمان سيجعل لهم

شرفا وحسبا أعلى عند اللّه مما أنتم عليه "وَلكِنِّي أَراكُمْ" يا قوم بأقوالكم هذه وتطاولكم عليّ "قَوْماً تَجْهَلُونَ 29" عظمة اللّه الذي عنده أكرم الناس أتقاهم لمحارمه وأخوفهم من عذابه ، لا الأكثرون أموالا والأكبرون جاها والأحسنون حرفة ، ولا العالون نسبا وحسبا

، فالمؤمن الحقير بأعينكم خير عند اللّه من العظيم الكافر ، فارتكزوا على الحكمة ولا تتسافهوا بإطالة اللسان على المؤمنين مهما كانوا ، فهم أحسن منكم عندي وعند اللّه ، لأنكم لا تعلمون ما ينبغي أن يعلم .

هذا وقد يأتي لفظ الجهل بمعنى التعدي على الغير ، ومنه قول صاحب المعلقة :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين

وقدمنا في الآية 111 من الشعراء في ج 1 أن خسة الصنعة لا تضر مع الإيمان ، وكم من صاحب صنعة خسيسة هو عند اللّه أفضل من كثير من خلقه ، راجع الآية 113 من سورة الحجرات في ج 3 "وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ" يوم الجزاء ويحول دون تعذيبي والانتقام مني "إِنْ طَرَدْتُهُمْ" الآن بعد أن أظهروا الإيمان باللّه وأخلصوا دينهم له "أَفَلَا تَذَكَّرُونَ 30" عاقبة أمر الذين يطردون المؤمنين ، فتنبهوا عما أنتم فيه من الاستكبار والضاد ، ونبهوا أنفسكم وغيركم ، وأعرضوا عن مجادلتكم هذه التافهة ، وآمنوا مثلهم لتفوزوا بخيري الدنيا والآخرة .

مطلب تبرؤ الأنبياء من الحول والقوة وكون الإرادة غير الأمر وصنع السفينة :

"وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ" فاتبعوني لأعطيكم منها .

وأدعي الفضل بها عليكم ، وهذا جواب لقولهم (وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ) المار ذكره "وَلا" أقول لكم إني "أَعْلَمُ الْغَيْبَ" لأصدق ما ذكرتموه في حق المؤمنين بأن إيمانهم عن غير تدبّر وتفكر ، فما لي حق بذلك ، وما عليّ إلا قبول الإيمان على ظاهره ، والله يتولى السرائر "وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ" وهو جواب على قولهم (ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا) المار آنفا ، لأني في الحقيقة بشر مثلكم ولكن الله فضلني عليكم برسالته فقط ، ولا دليل في هذه الآية على أن الملك أفضل من البشر على الإطلاق ، لأن قول نوح عليه السلام هذا بمقابلة قولهم له كما مرّ ، لأنهم كانوا يظنون أن الرسل لا يكونون من البشر لقرب عهدهم من بعضهم وتفشي أخبار الملائكة بينهم من يوم أمرهم بالسجود لآدم عليه السلام ، فلهذا قال لهم :

(وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ) ولم يرد أن درجة الملائكة أفضل من درجة الأنبياء ، وقدمنا في الآية 70 من الإسراء في ج 1 ما يتعلق في هذا البحث فراجعه "وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ"

(192/371)

تحتقرها وتستصغرها وتتصورها بأنهم أراذل (وكلمة تزدري لم تكرر في القرآن) حيث "لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً" رزقا في الدنيا لهوانهم عليه نزولا عند هواكم ، فعسى الله أن يؤتيهم خير

الدنيا والآخرة ، لإيمانهم به وتصديقهم لرسوله وصبرهم على الفقر والذل اللذين تفتقدونهم بهما ، فأعرضوا عنهم أيها القوم "اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ" من صدق الاعتقاد وخلوص الإيمان ، وهذا جواب لقولهم آنفا ما معناه أنهم لم يتبعوك رغبة في دينك بل لكونهم فقراء لا وزن لهم عند أحد فاطردهم ليتبعك الأشراف فإنهم لا يتنازلون أن يجالسوهم ويكونوا من أتباعك معهم ، وهذا مثل قول قريش لمحمد صلى اللّه عليه وسلم في الآية 50/ 52 من سورة الأنعام والآية 28 من سورة الكهف الآتيتين ، وهكذا فقد تشابهت قلوبهم كما أخبر اللّه عنهم في الآية 167 من سورة البقرة ج 3 من زمن نوح إلى زمن محمد صلى اللّه عليه وسلم فإنك تجد محاورتهم للأنبياء على وتيرة واحدة "إِنِّي إِذاً" إذا قبلت قولكم وطردتهم "لَمِنَ الظَّالِمِينَ 31" لهم ولنفسي أيضا ، وإني لا أرضى بالظلم فكيف أفعله ، كما ليس لي أن أكذّب ظاهر إيمانهم ولا أبطله ، لأن اللّه يعلم ما في ضمائرهم "قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا" بما أوتيت من بلاغة في القول وقوة في المحاججة وفصاحة في البرهان ، وإنا لا نؤمن بك مهما أسرفت في النصح وبذلت من الرشد الذي تزعم أنه لصالحنا "فَأْتِنا بِما تَعِدُنا" به من عذاب ربك وأنزله علينا "إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ 22" فيما تهددنا به من وعيدك ، لأنا قد مللنا من تكرار قولك إنك رسول اللّه وإن لك ربا ينصرك علينا ويعذّبنا إن لم نؤمن بك ونتبعك "قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ" الذي كفرتم به وهو "إِنْ

شاءَ" أنزله بكم عاجلا وإن شاء أخره وليس لي أن أقدم شيئا أو أؤخره خيرا كان أو شرا ، لأني بشر مثلكم "وَما

(193/371)

أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ 33" اللّه العظيم القادر ، ولا فائتين عذابه .

ولا تقدرون على الهرب من قبضته "وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ" مهما بالغت فيه وأدمته "إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ" فيما أنتم عليه ، ويضلكم عن هداه بما يجعله فيكم من البغي والطغيان .

وفي هذه الآية دليل على أن الإرادة غير الأمر كما قدمناه في الآية 98 من سورة يونس المارة ، أما ما ذكرناه في الآية 12 منها فهو في حق تزيين الأعمال وكونها من اللّه .

واعلم أن إرادة اللّه تعالى مما يصح تعلقها بالإغواء والتزيين والإضلال حق ، وأن وقوع خلاف مراده ممتنع محال ، وأما المعتزلة القائلون بضدّ هذا فقد وقعوا في حيص بيض منها ، واختلفوا في تأويلها ، فمنهم من أولها بالإهلاك ، ومنهم من لجأ إلى المجاز عن تركهم ، ومنهم من جعل إن نافية ، وكلها أقوال أرهى من بيت العنكبوت ، لأن الآية صريحة لا تقبل التأويل .

والحق أن يقولوا معنا بأن ذلك المهدي المضل المزين "هُوَ رَبُّكُمْ" الذي خلقكم ورباكم في هذه الدنيا "وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ 34" في الآخرة فيجاري المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ" أي الوحي الذي يتلوه عليهم كما تقول كفار مكة لك يا أكرم الرسل ، لأنهم قاتلهم الله جاءوا على وتيرة واحدة بالاحتجاج والتكذيب والمجادلة مع جميع الرسل ، ولهذا قال تعالى في الآية 168 من سورة البقرة في ج 3 ، تشابهت قوبهم "قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي" جمع جرم ، وهو اقتراف السوء ، يقال أجرم فلان إذا فعل الجرم أي الذنب الكبير ، ويقال لفاعله مجرم ، أي عليّ إثم إجرامي "وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ 35" أنتم في إسنادكم الافتراء إليّ لأنه جرم عظيم ، وهذا آخر محاورة سيدنا نوح مع قومه في هذه السورة ، وما قيل إن آية (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) المارة ترجع إلى كفار مكة وإنها معترضة بين محاورة نوح وقومه لا وجه له ، لأن السياق يدل على أنها من تمام محاورته ، والسياق يؤيد هذا ، قال تعالى "وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ" لا تحزن ولا تأيس عليهم ، فإني مهلكهم "بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ 36" بك يا رسولي من الأذى ، وبأنفسهم من الضلال والكفر .

قيل كانوا يضربون نوحا عليه السلام حين يدعوهم إلى اللّه ويدلهم على الهدى ويأمرهم بالرشاد حتي يغشى عليه ، فإذا أفاق يقول رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ، وهكذا كان سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم مع قومه ، يقابلهم بالدعاء لهم بالهداية .

هذا ، ولما تمادوا على ما هم عليه وهو ينتظرهم جيلا بعد جيل ولم ينجع بهم نصحه ، ولم يكفوا

(195/371)

عن أذاهم له ورأى كل جبل يظهر أنجس من الذي قبله ، وقد أيس من إيمانهم ، شكا أمره إلى اللّه بعد أن أقنطه من إيمانهم في هذه الآية ، دعا عليهم كما هو مذكور في سورته الآتية في الآية 26 فاستجاب سبحانه دعاءه ، وأوحى إليه بقوله "وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا" على مرأى منا لئلا تزيغ عن الصواب في كيفية صنعها المثبتة في أزلنا ، وذلك لأن اللّه تعالى كما خلق في عالم الذر جميع الناميات ، صور أيضا كل الجامدات ، فكان كل ما يظهر منها طبق ما هو مكون عنده في لوحه وكلمة (بِأَعْيُنِنا) جاءت هنا وفي الآية 14 من سورة القمر المارة في ج 1 ، "وَوَحْيِنا" أي اصنعها بمقتضى ما نأمرك به من عرضها وطولها وثخنها وارتفاعها وعمقها وهيئتها ومم يكونها ومقدار ما تستوعبه ، قال ابن عباس لم يعلم نوح كيف يصنعها

فأوحى اللّه إليه أن يجعلها مثل جؤجؤ الطائر ، "وَلَا تُخَاطِبْنِي" يا رسولي بعد انهاءك عملها وطوافها على وجه الماء الذي سأقدره لها "فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا" من قومك ولا تتشفع لأحد منهم ، ولا تسألن بتأخير عذابهم "إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ 37" حتما محكوم عليهم في الموت غرقا حكما مبرما قضي فيه أزلا وجف به القلم ، فلا سبيل إلى كفه "وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ" امتثالا لأمر ربّه حسبما أوحي له به .

(196/371)

قال الأخباريون : بعد أن سمع نوح من ربه ما سمع أقبل على عمل السفينة ، ولهي عن قومه بها ، فقلع الخشب وضرب الحديد ، ومحيا الإسفلت وهو القار ، أي القير الأسود ، واستحضر كل ما يحتاجه لعملها ، وباشر صنعها بيده بمقتضى ستراءى له من صورتها ، فصار لا يخطىء بشيء لأن العلم له هو اللّه ربه والعمل بجرأة النبوة كما فهمه من معنى الوحي وكيف يخطىء وهو أكمل البشر في زمانه ، وصنع الكامل لا يكون إلا كاملا ، وجعل يدأب على عملها وحده "وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ" ضحكوا من عمله واستهزءوا به ، ويقولون له صرت نجارا بعد أن كنت نبيا ، وكيف تصنع سفينة في أرض يبس من برية لا ماء فيها ، وذلك أنه بدأ عملها بعيدا عن قومه وعن الماء بوحي ربه ، وعادة

الرسل أنهم لا يسألون ربهم عند ما يأمرهم بشيء تأدبا ولعلمهم أنه لا يأمرهم إلا بما فيه فوزهم ، راجع الآية 62 من الشعراء المارة في ج 1 "قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا" على ما ترون من

(197/371)

عمل أمرني به ربي "فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ" إذا نجانا الله وعذبكم "كَما تَسْخَرُونَ 68" منا الآن ، قال هذا على سبيل الإزدواج في مشاكلة الكلام كما في قوله تعالى (وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها) الآية 40 من سورة الشورى الآتية ، لأن السخرية بمعناها المعلوم لا يليق صدورها من منصب النبوة ولما رآهم ازدادوا بالاستهتار به هددهم بقوله "فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ" غب عملكم هذا وسترون "مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ" في هذه الدنيا فيذله ويهينه ثم يهلكه ويدمّره "وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ 39" في الآخرة لا يتحول عنه ، وهو عذاب النار الدائم أنحن أم أنتم ، ثم ثابر على عمله ولم يعبا بهم حتى أكملها ، قالوا كانت بطول ثمانين ذراعا وعرض خمسين وارتفاع ثلاثين وهو عمقها بذراعه عليه السلام ، والذراع من رءوس الأصابع إلى المنكب ، وجعلها ثلاث طبقات : عليا ووسطى وسفلى ، وجعل فيها كوى ليطل منها إلى الخلاء وليرى بعضهم بعضا منها ، وكانت من خشب الساج ، وقال الحسن كان طولها ألفا ومئتي ذراع ، وعرضها ستمئة ، وقال غيره طولها ثلاثمائة ذراع ،

والأول أولى وأنسب وأوجه ، أما ما قيل إن صنعها استغرق ثلاثين سنة فإن صح فيكون للقول الثاني وجه ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، إذ لم يبين لنا ذلك ، والقرآن اقتصر على ذكرها فقط ، ولما أمر بركوبها عند انتهاء الأجل المقدر لإغراق قومه ، حمل عليه السلام أهله ومن آمن به ، ومن كل ذي روح زوجين اثنين فيها كما أمر ، وهذا ما يدل على عظمتها ، قالوا وقد جعل الله له علامة على ركوبها بقوله عزّ قوله "حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا" بإنفاد عذابهم ، وحان الوقت المقدر لإغراقهم في سابق علمه "وَفارَ التَّنُّورُ" بالماء إذ جعلناه علامة لقرب نزول العذاب لقوم نوح عليه السلام وإنجائه ومن آمن به أي أبق منتظرا ظهور هذه الأمارة فإذا رأيتها "قُلْنَا" لك اركب فيها أنت وأهلك ومن

(198/371)

آمن بك و"احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ" من أنواع الحيوان "زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ" واترك الباقين "وَأَهْلَكَ" احملهم أيضا ، ويدخل في الأهل من آمن به لأنهم صاروا من أهله لقول رسول الله سلمان منّا أهل البيت .

ويجعله من أهله إلا لإيمانه .

هذا ، واعلم أن التنور هو الذي يخبز به ، وهو بلغ

الفرس أيضا بهذا المعنى لا أنه فارسي في الأصل معرّب ، راجع الآية 18 من سورة الشعراء المارة في ج 1 ، والفور ان الغليان يعني نبع الماء إذا اشتدّ صار كأنه يفور كالماء في القدر على النار ، فإنه يفور عند اشتداد الحرارة ، واختلف في موقعه قيل بالكوفة ، وقيل بالهند ، وقيل في الجزيرة في عين وردة ، وقيل بالشام ، وفي كل هذه المواضع محل يسمى تنورا ، والأولى كونه في الجزيرة لقربها من جبل الجودي الذي استقرت عليه بنص القرآن كما سيأتي في الآية 43 لأنهم قالوا إنها رست بالمنطقة التي طافت منها ، ويوجد الآن في الجزيرة محل يسمى تينير وفوقه عين ماء عند جبل كوكب الآتي ذكره في الآية 43 المذكورة ، وما قيل إن التنور هو وجه الأرض أو هو طلوع الفجر ففيها صرف الحقيقة إلى المجاز دون مسوّغ ما ، والحق أنه التنور المعلوم بمعناه الحقيقي ، لأن الكلام إذا دار بين الحقيقة والمجاز كان حمله على الحقيقة أولى ولفظ التنور حقيقة هو الذي يخبز

(199/371)

فيه ، ومعنى الزوجين كل اثنين لا يستغنى أحدهما عن الآخر ، كالذكر والأنثى يقال لكل واحد منهما زوج ، وليس المراد بالزوج هنا ما يقابل الفرد ، ولأن المعنى من كل صنف زوجين ذكر وأنثى ، قالوا حشر اللّه له جميع الحيوانات فجعل يضرب بيديه عليها ، فتقع

الأنثى بيده اليسرى والذكر باليمنى ، فيعزلهم على حده ، وقد خصص عليه السلام الطبقة السفلى للوحوش والهوام ، والوسطى الدواب والأنعام ، والعليا لحضرته ومن معه والطير وما يحتاجونه من الزاد حسبما أمره اللّه ، وكان هذا بعد إكمال عمل السفينة طبقا لمراده وخاطبه جلّ خطابه أن أدخل فيها من شئت مما أمرتك "إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ" من أهلك وهو ابنه كنعان وزوجته واعلة فقط ، وذلك لسابق علمه بغرقهما مع الكفرة لما هو مدون بأزله اختيارهما الكفر على الإيمان حسب تقديره وإرادته ولا يقع في كونه خلاف مراده "وَمَنْ آمَنَ" عطف على وأهلك أي كل المؤمنين معك ، قال تعالى "وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ 40" جدا بالنسبة لكثرة قومه ، ولم يبين جل جلاله مقدارهم ولهذا تضاربت الأقوال في عددهم وأصحها أنهم ثمانون نسمة كما روي عن ابن عباس ، ويؤيد قوله وجود قرية بقرب الجودي الذي رست عليه السفينة مسماة بقرية الثمانين وهي معروفة الآن والجزيرة معروفة بجزيرة ابن عمر

(200/371)

"وَقالَ" الملك السلام مخاطبا رسوله نوحا عليه السلام ومن آمن معه "ارْكَبُوا فِيها" فقد آن إغراق الكفرة ، فأمر عليه السلام أن يستقر كل في طبقته ، ولما تم ذلك لم يعرف عليه السلام

كيف يمشيها على الماء فقال تعالى له ولصحبه إذا أردتم سيرها قولوا "بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها" فإنها تسير بإذن اللّه الذي نجاكم عليها "وَ" إذا أردتم إرساءها قولوا بسم اللّه "مُرْساها" فإنها تقف حالا وهذا تعليم من اللّه لعباده بأن من أراد أمرا فعليه أن يبدأه بذكر اللّه ليبارك له فيه وينجح بغايته المحمودة قالوا فصارت الأرض تنبع مياها غزيرة والسماء تمطر مياها وافرة مدة أربعين يوما بشدة وهم بالسفينة لم يبرحوا مكانهم ويشاهدون عظمة اللّه ، قال تعالى (فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ) الآية 11 (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) الآية 12 من سورة القمر المارة في ج 1 ، قالوا وارتفع الماء بالسفينة على أعلى جبل أربعين ذراعا فطافت بإذن اللّه بين عاصفة من الأمواج وصار سيدنا نوح عليه السلام إذا أراد إيقافها قال بسم اللّه مرساها فتقف ، وإذا أراد سيرها قال بسم اللّه مجراها فتسير مهما كان يحوطها من أمواج وعواصف ، ولم يحجه ربه إلى المرابط والمراسي والمجاديف والملاحين فقال عليه السلام شكرا لهذه النعمة "إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ 41" بمن تاب وأناب من عباده ، ومن رأفته يقبلهم إذا رجعوا إليه بعد كفرهم .

(201/371)

ثم وصف اللّه تعالى سرعة سيرها بقوله جل قوله "وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ" عظيم هائل لدلالة التنوين أي في غاية من الشدة والموج ما ارتفع من الماء بسبب اشتداد عصف الرياح وقد شبهه اللّه تعالى في عظمته "كَالْجِبالِ" وبهذا أنجى اللّه المؤمنين جميعا وأغرق الكافرين ولم يرحم منهم أحدا استجابة لدعوة نبيهم حتى أم الصبي التي ضرب بها المثل : قالوا لما مر الماء بالسكك من القرية خافت امرأة على ابنها من الغرق فصعدت به إلى الجبل وكلما ارتفع صعدت به حتى بلغت قمته ، فتناولها الماء فرفعت ولدها إلى حضنها فتناولها الماء فرفعته إلى رأسها فأدركها الماء فرفعته بيدها فوق رأسها فأخذها وإياه الماء فغرقا ، ولذلك قالوا لو رحم اللّه أحدا من قوم نوح لرحم أم الصبي "وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ" كنعان أثناء نبع الماء من الأرض ونزوله من

(202/371)

السماء "وَكانَ فِي مَعْزِلٍ" عنه لأنه لم يركب معه في السفينة وكان منعزلا عن المؤمنين بعيدا عنهم "يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا" بالسفينة لتنجو من الغرق الذي ألم بك في الدنيا ومن العذاب المقدر لك في الآخرة إن لم تؤمن وتتبعنا "وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ 42" فتهلك معهم غرقا الآن وتعذيبا غدا "قالَ" كنعان كلا لا أركب معكم ولا أغرق لأني "سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ

الْماءِ" بسبب ارتفاعه إذ لا يبلغه الماء مهما ارتفع ، وقد اختلف العلماء في هذا الجبل كما اختلفوا بالتنور فمن قال بالجزيرة وهو الأصوب كما نوهنا آنفا قال هو جبل كوكب وهو قريب من محل التنور قريبا من مجرى الخابور من الشرق الشمالي من جهة الحكة والذي يليه من الشرق الجنوبي جبل سنجار والذي يليه من الغرب الجنوبي جبل عبد العزيز والذي يليه من الشمال الغربي جبل ماردين وكلها بالجزيرة قريبة منه ، ومن قال إنه بالكوفة أو بالهند أو بالشام ذكر غير ذلك من الجبال الموجودة هناك والأول ينطبق على المعنى لأنه قال (إلى جبل) منكر منون وكل هذه الجبال يراها الرائي من موضع التنور الواقع في الجزيرة أما الأخر على الأقوال الأخرى فلا ندري هل يراها من كان عند التنور الذي فيها أم لا فكأنه قال إني سأعتصم بأحد هذه الجبال "قالَ" له أبوه عليه السلام لا تعتريا ولدي مما ترى من هذه الجبال ومن إغواء قومك فإنه "لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ" ولا مانع من عذابهو لا منجى من إهلاكه ولا يخلص من هذا الغرق "إِلَّا مَنْ رَحِمَ" اللّه منهم إركابهم هذه السفينة التي أمرني ربي بصنعها الذين لم يقدر إغراقهم ، وإن ما ترى من قولك وغيرهم فإنهم كلهم هالكون ولا زال يسديه النصح وهو بمانع حتى تباعدا عن بعضهما "وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ" بحيث لم يبق أحدهما يشاهد الآخر ولم يسمع صوته ولا يرى إشارته لأنه بعد ما طافت السفينة ارتفع ارتفاعا

هائلا وصار لشدة علوه كالسد بينهما وقد شبهه اللّه بالجبال آنفا لعظم ارتفاعه "فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ 43" معهم

طبقا لقضاء اللّه وقدره أزلا ، قال الأخباريون لما كثر الروث في السفينة لطول بقائها جارية على ظهر الماء أوحى اللّه إلى نوح أن اغمز ذنب الفيل ففعل فوقع خنزير وخنزيرة ومسح على الخنزير فوقعت منه فأرتان فأقبل الخنزيران على الروث فأكلوه وصار الفأر يفسد في السفينة ويقرض ما فيها ، فأوحى اللّه إلى نوح أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر فأكلاه إلا قليلا ودامت السفينة جارية ستة أشهر ، إذ ركب فيها لعشر من رجب وهبطت على الجودي يوم عاشوراء ، وتناهى الطوفان وخرجوا من السفينة وصاموا ذلك اليوم شكرا للّه تعالى ، وعمروا قرية هناك تسمى الآن سوق الثمانين وهي أول قرية عمرت على وجه الأرض بعد الطوفان .

مطلب المياه كلها من الأرض والبحر المكفوف :

وبعد أن تم مراد اللّه تعالى بإغراق الكفرة وإنجاء المؤمنين خاطب الأرض بقوله عز قوله "وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ" تشير هذه الآية على أن الماء كله من الأرض إذ أضافه إليها وهو موافق لقول من يقول أن الأمطار كلها من الأبخرة المتصاعدة من الأرض والبحار والأنهار وغيرها ، وهذا مما يعرفه العرب الأقدمون إذ يقولون إن الغيوم تلتقم الماء من البحر ثم تمطره ،

وعليه قوله :

شربن بماء البحر ثم ترفعت في لجج خضر لهن أجيج

وقال :

كالبحر يمطره السحاب وماله من عليه لأنه من مائه

(204/371)

راجع الآية 30 من سورة النازعات الآتية تجد ما يتعلق في هذا البحث ، وقال بعض العلماء المطر قسمان قسم من أبخرة الأرض والمياه وقسم من علم اللّه وذلك استنادا لما يقوله بعض العارفين بوجود بحر بين السماء والأرض يسمى المكفوف ينزل منه نوع من المطر ، يؤيد هذا ظاهر الآية 20 من سورة الزمر الآتية وهي قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ) وآية المؤمنين 18 الآتية أيضا وهي (وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ) وتقدم ما يدل على هذا في قصة المعراج أول سورة الإسراء المارة في ج 1 ، وعدم اطلاع الطبيعيين والفلكيين على هذا البحر لا يكون حجة على عدم وجوده ، لأن دعوى النّفي لا تثبت بالنفي بل بالإثبات .

واللّه تعالى قادر على أكثر من ذلك فلا

يستبعد شيء على اللّه تعالى وهو الخلاق العظيم ، ولا يخفى أن أكثر أقوال الطبيعيين والفلكيين مبنية على الظن والحدس لأنها أمور غير محسوسة ، والخطأ في الظن أكثر من صوابه وخاصة في غير المرئي ولا يعلم مكنونات اللّه إلا هو فعلى العاقل أن يؤمن بمثل هذه الأشياء لأن الإيمان بها لا يضره ، ولا يجحدها فإن الجحد لها قد يضره والتسليم أسلم وهو مذهب السلف الصالح وناهيك بهم قدوة "وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي" أمسكي عن القطر "وَغِيضَ الْمَاءُ" نقص ونضب إذ انقطع من السماء انهماره ومن الأرض انفجاره فغار وذهب ولعبت الرياح شرقا وغربا ، ونشفت الأرض وبست "وَقُضِيَ الْأَمْرُ" بإهلاك قوم نوح عليه السلام ومن قدر عليهم تبعا لهم ممن أراد اللّه تعالى إغراقه من غيرهم "وَاسْتَوَتْ" السفينة "عَلَى الْجُودِيِّ" جبل معروف الآن شمالي دجلة مما يقابل عين ديوار من أرض الجزيرة الواقعة جنوبي دجلة شمالي غربي الموصل "وَقِيلَ بُعْداً" وسحقا وهلاكا "لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ 44" وكلمة بعدا يقولها العرب إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك وعدم العودة ، فإنهم يقولون بعدا بعدا ، ولذلك خصوها بالسوء وهكذا كلما مرت هذه الكلمة يكون المراد منها ذلك المعنى ، وقال الأخباريون لما استقرت السفينة على الجودي بعث نوح عليه السلام

غرابا ليأتيه بخبر قومه فوقع على جيفة فلم يرجع اليه ، ثم بعث لحمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها ولطخت رجليها بالطين ، فعلم نوح أن الماء ذهب بالمرة ، فدعا على الغراب بالخوف فلذلك لا تراه يألف البيوت حتى لآن ، وطوق الحمامة بالخصرة في عنقها ، ودعا لها بالأمان ، فمن ذلك اليوم ألفت البيوت واعتاد الملوك إرسالها بالكتب إلى من تريد .

(206/371)

وهي كذلك حتى الآن لم يستغن عنها مع وجود الطائرات وغيرها وإذ نعمت النظر فلا تجد شيئا يستغرب الآن إلا وله أصل قبل ، وإذا تتبعت هذه المنشآت الحديثة لم تجدها بنت سنتها بل لا بد وقد سبق لها بحث أو عمل ، وإذا مر الفكر على عمل شيء أو بحث في أمر قد يستحيله عقل غيره أمعن نظره فيه وأفرغ تدبيره ، فجعل له أساسا حتى إذا لم يتوفق لا نجاره تركه لغيره ، وهكذا حتى استوت هذه المخترعات فظهرت لعالم الوجود ، وهي وإن كانت من صنع البشر إلا أنها من إلهام الله تعالى إياه قال تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) الآية 96 من الصافات الآتية ، وسيظهر لنا هذا القرآن ما تستبعده العقول مثل قول أبي الحسن الأشعري إن بالإمكان أن يرى أعمى الصين بقة الأندلس راجع الآية 38 من سورة الأنعام الآتية قالوا ومر نوح عليه السلام أثناء سيره بالسفينة على البيت الحرام ، وقد رفعه

اللّه تعالى من الغرق وبقي موضعه ، فطافت به السفينة سبعا حوله ، وأودع الحجر الأسود في جبل أبي قبيس .

قالوا ولم ينج من الغرق سوى عوج بن عنق ، لأنه حمل أخشاب السفينة من الشام إلى المحل التي هي فيه حال صنعها .

هذا ولا يقال كيف أغرق اللّه تعالى الأطفال والحيوان إذ لا ذنب لها ، لأنه تعالى مالك لها والمالك يتصرف بملكه كيفها يشاء ، ولأن هذا الإغراق مجرّد سبب للموت في حقهم ، وأي مجذور في إماتة من لا ذنب له بالنسبة إلى المحيي المميت الذي في كل لحظة يحيي أمما ويميت أمما بما يقدره من الحروب والطاعون والخسف وغيرها

(207/371)

بسبب ولا سبب حسب حكمته البالغة ، وهو الإله الفعال لما يريد الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ، ولا دافع لقدره ولا يسأل عما يفعل ؟ وما قيل إن اللّه تعالى أعقم أرحام النساء قبل الغرق بأربعين سنة كي لا يولد لهم ولد يهلك بسببهم ، ليس بسديد ، إذ لم يوجد ما يؤيده ويرد عليه إغراق الحيوانات والطيور وأولاد الأمم الأخرى الذين أصابهم الغرق وعمهم البلاء غير قوم نوح عليه السلام ، لأن مبدأ دعوته خاصة لقومه ونهايتها عامة كما

ذكرناه في الآية 74 من سورة يونس المارة ، ولا يوصف جل شأنه بظلم بتعميم العذاب ، لما قدمناه غير مرة ، وقالوا ان الحيوانات والطيور وقعت على قدمي نوح تلحسها راجية حملها معه بالسفينة ، ولم يفعل ، لأنه لم يؤمر بذلك .

وقالوا إن الطوفان عم وجه الأرض كلها ، وهناك أقوال بأنه عم جزيرة العرب وما بجوارها ، يريدون قارة آسيا كلها ، وان القرآن لم يذكر بأن الطوفان عم الأرض كلها ، وان قوله تعالى حكاية عن سيدنا نوح عليه السلام في دعائه (رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً) الآية 36 من سورته الآتية ، وأن اللّه تعالى أجاب دعاءه ، فلم يفهم منه أن إهلاكهم كان بالغرق مع قومه ، إذ يمكن أنه أهلكهم بغير طوفان ، فلا يكون دليلا قطعيا على إهلاكهم به ، ولم يرد فيه خبر أو حديث صحيح ، ولأن لفظ الأرض يطلق على إقليم منها كأرض مصر ، راجع الآيات 21 - 45 و56 من سورة يوسف الآتية ومثلها في سورة المؤمن وغيرها ، وإذ لم يرد حديث صحيح أيضا في ذلك ولا فيما نقلناه عن الأخباريين والقصاص ، فلا يحق لمجادل أن يجادل فيه ، وإن تنويه المؤرخين إذا لم يقصد بحديث لا عبرة به أيضا ، إذ لا يوجد تاريخ يعتمد عليه قبل التوراة التي هي أول كتاب استمدّ منه المؤرخون أقوالهم .

(208/371)

هذا وأما ما جاء في هذه القصة من حسن النظم وبداعة التركيب وبلاغة القول وفصاحة إيجازه واطنابه وخاصة هذه الآية 44 ، فحدّث ولا حرج ، لأن البشر عاجز عن وصفه ولله در القائل في التنزيل وما جمعت آياته :

وعلى تفنّن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

ورحم الله الأبوصيري حيث يقول :

آيات حق من الرحمن محدثة قديمة صفة الموصوف بالقدم

لم تقترن بزمان وهي تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن ارم

فما تعد ولا تحصى عجائبها ولا تسام على الإكثار بالسأم

مطلب في قوله تعالى انه ليس من أهلك وتفنيد قول من قال إنه ليس ابنه :

قال تعالى "وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ" بعد أن خرج من السفينة هو وأهله ومن معه وتذكر ابنه كنعان ووعد الله في الجاء أهله "فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي" وقد وعدتني بإنجائهم من الغرق "وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ" فلم أغرقته وأنت لا تخلف الميعاد ولم تستثنه "وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ 15" فاحكم لي بإنجاز وعدك ، لأنك العادل في الحكم للعالم مما تحكم .

قال هذا لأن الحاكم إذا حكم بالعدل ولم يعلم أنه عدل موافق للشرع بعد من أهل النار ، لأنه بمنزلة العوارف الذين يحكمون برأيهم وبالقياس على أحكام من سلف من أمثالهم ، لا يستند إلى كتاب سماوي أو تشريع نبوي أو قياس على أحدهما ، فحكمه حكم الجاهل

الذي يقضي بخلاف الحق ، ولهذا قيل قاضيان في النار وقاض في الجنة ، فالذي في الجنة قاضي عرف الحق وقضى به واللذان في النار هما الأولان ، ولا فضل لحاكم على

(209/371)

غيره إلا بالعلم والعدل ، ورب جاهل ظالم غشم في زماننا لقب بقاضي القضاة بمعنى أحكم الحاكمين كما لقب كافر بملك الملوك وهو مع كفره طاغ باغ ، وأكره الناس على الله من تلقب بهذا ، كما في الحديث الشريف إذ لا تليق هاتان الصفتان إلا برب العالمين "قالَ" تعالى "يا نُوحُ إِنَّهُ" ابنك الذي تذكرته وغرق مع من غرق "لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ" الذين هم على دينك وليس هو داخل بالوعد الذي وعدتكه "إِنَّهُ عَمَلٌ" بالتنوين وقرىء بكسر الميم فعلا ماضيا أي عمل عملا "غَيْرُ صالِحٍ" وعلى القراءة الثانية تقرأ غير بالنصب على أنها مفعولة لعمل ، وعلى القراءة الأولى وهي كون عمل مصدرا فتضم راء غير على أنها صفة للعمل ، ويكون المعنى هو نفسه عمل غير صالح لأنه مشرك كافر هذا مبالغة في ذمه لإقناع نوح عليه السلام بأنه ليس من أهله ، ولذلك أغرقته لكونه غير داخل في الوعد .

واعلم أن هذا القراءة جائزة لأنه لم يبدل ولم يغير منها حرف ، كما أنه لم يزد ولم ينقص من حروف الكلمة ، وإنما التبديل وقع في الإعراب فقط ، وكل ما كان على هذا من القراءات

لا بأس فيه ، أما ما يقع فيها تبديل أو نقص حرف أو زيادته فلا تجوز ولا تعد قراءة إذ هي تفسير لبعض الكلمات وردت من بعض الأصحاب أو كتبت على هامش مصاحفهم .

تدبر هذا واعلم أن أهل الرجل من يجمعه وإياهم نسب أو دين أو ما يجري مجراهما ، ولما حكمت الشريعة برفع حكم النسب في كثير من الأحكام بين المسلم والكافر ، قال سبحانه وتعالى منزل هذه الآية لشريعته الثابتة في أزله إنه ليس من أهلك الذين هم على طريقتك وملّتك ، لأنه لم يؤمن بك مثلهم ، ولهذا فإن صريح الآية أبانت أنه ليس من أهله ، وفي مثل هذا قال القائل :

لا ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهله

(210/371)

لأن مدار الأهلية هو القرابة الدّينية وقد انقطعت بالكفر ، ولذا لم يرث الكافر المؤمن ولا المؤمن الكافر ، ولا حجة بخبر سلمان منا أهل البيت فإن المراد به قرابة الدين وهي أقرب من النسب لكن في غير الإرث ، قال أبو فراس :

كانت مودة سلمان لنا نسبا ولم يكن بين نوح وابنه رحم

وقال الآخر :

لقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد خفض الشرك الحسيب أبا لهب

هذا ومن قال إنه ابن زوجته لا يلتفت إلى قوله بعد قول اللّه تعالى (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ) وقوله (يا بُنَيَّ) و(إِنَّ ابْنِي) والقول في هذا كالقول بأن آزر عم إبراهيم مع صراحة القرآن بأنه أبوه كما سيأتي في الآية 74 من سورة الأنعام.

أما ما قيل إنه من البغي والعياذ باللّه، فإنه قول باطل تتنزه ساحة الأنبياء عنه ويخشى على قائله الكفر، واستدلاله بقوله تعالى (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) أي من زوجتي لا من صلبي، استدلال واه لا قيمة له ولا عبرة به، كيف وقد سماه ابنه في الآيتين مرتين صراحة ولا بعد صراحة القرآن حاجة إلى تأويل أو كناية، وإنما قال عليه السلام من أهلي لأن اللّه تعالى وعده بإنجاء أهله وهو منهم على ظنه أن الكفر لم يخرجه من معنى الأهلية، لا لأنه كما زعم هذا القائل الجاهل بأحوال الأنبياء المبرئين من كل عيب مادي أو معنوي.

أما ما استبعده بعض المفسرين من أنه لا يكون ابن النبي كافرا فبعيد عن الحقيقة، لأن قابيل كافر وهو ابن آدم عليه السلام، وإبراهيم خليل اللّه أبوه كافر.

وقال ابن عباس ما بغت امرأة نبي قط، ولا يقال كيف طلب النجاة له وهو كافر، لأن رقة الأبوة والأمل من نوبته عند رؤية أهوال الإغراق دعتاه إلى مناداته لعله يسلم وينجو، وهذا من موجبات الدعوة للغير فضلا عن الولد.

قال تعالى "فَلا تَسْئَلْنِ" يا رسولي عن شيء "ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ" جاء لنهي في هذه الآية عام مندرج تحته النهي عن سؤاله بعدم إنجائه بدليل الفاء التفريعية ، وقد روي عن ابن عباس أنه قال :

ضمير إنه من قوله تعالى (إِنَّهُ عَمَلٌ) إلخ ، يعود إلى المسألة المستفادة من معنى السؤال ، أي مسألتك إياي يا نوح عن ابنك عمل غير صالح لا أرضاه لك ، كما رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه ، وفي رواية جرير سؤالك ما ليس لك به علم عمل غير صالح .

ويستدل بهاتين الروايتين اللتين لم تعلم صحتهما القائل بأنه ابن بغي ، ويقول إنما أعاد الضمير ابن عباس إلى المسألة حذرا من نسبة الزنى إلى من لا ينسب إليه ، وهو رضي اللّه عنه أجل قدرا من أن يخفى عليه ذلك المعنى أو يتصور من عود الضمير

إلى ابن نوح ما تصوره هذا الجاهل بقدر الأنبياء ، فيسند الضمير إلى من ليس له لئلا يتصور ما يلزم من ذلك المحذور ، كيف وهو حبر الأمة وأعلم الناس بمعاني كتاب اللّه بعد المنزل عليه ووحيه وخلفائه ، فعلى العاقل أن لا يلتفت إلى ترهات كهذه تلصق بأعظم الرجال لتؤخذ عنهم وهم منها براء ، ومن له مسكة من عقل أو لمعة من إيمان لا يصدق أقوالا كهذه بمجرد نقلها عنهم ، لأن كثيرا من الدساس يفعلون هذا ، قاتلهم اللّه وأخزاهم .

قال تعالى "إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ 46" لمثل هذا وأنت من أصفيائي وكان عليه السلام لا يعلم أن سؤاله هذا محظور عليه ، ولما علم مما أوحي إليه ربه أن طلبه نجاة ابنه وإدخاله في وعد ربه لا يرضى به ربه رجع واعتذر والتجأ إليه "قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ" بجوازه ورضائك به "وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي" جهلي هذا وخطئي بإقدامي على سؤالك شيئا لا يحق لي سؤاله ، ولا يجوز لي طلبه البتة "وَتَرْحَمْنِي" بالعصمة عن العود إلى مثلها برحمتك التي وسعت كل شيء "أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ 74" عملا واحرسني يا سيدي من أن أذهل عن شكر نعمتك ، فإن الذهول عنه عندها معاملة خاسرة توجب زوالها .

واعلم أن لا دلالة في هذه الآية على عدم عصمة الأنبياء ، لأن اللّه تعالى وعد نوحا بإنجاء أهله وقد اتبع ظاهر هذا الوعد فسأل نجاته ، فعاتبه اللّه تعالى على ما ليس له به علم من استثنائه من أهله في سابق علمه ، لأنه كافر مصر على كفره ، وبين له أنه ليس من أهله الذين وعده بنجاتهم ، وأعلمه بأنه هالك لا محالة مع قومه الظالمين أنفسهم ، ونهاه عن مخاطبته فيه ، وفي كل ما لا يعلمه مما يوقعه اللّه تعالى في ملكه ، فخاف عليه السلام من إقدامه على

سؤاله ذلك الذي لم يؤذن له به ، فلجأ إلى ربه وسأله المغفرة حالا عن هذا الذنب الذي ليس بذنب عند غير الأنبياء ، لأن العبد كلما ازداد قربا من اللّه تضاعفت خشيته منه ، وقد جاء عن سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم أنه قال أعلمكم باللّه وأخشاكم له أنا .

وذلك لقربه من ربه عز وجل ، لأن في ازدياد قربه ازدياد معرفته بربه ووقوفه على بعض عظمته وكبريائه ، فيزداد خوفه منه فيستعظم ما يقع منه مما يراه مخالفا للأدب ، ولهذا المعنى قيل إن حسنات الأبرار سيئات

(213/371)

المقربين ، وكما أن القرب من اللّه يكون سببا لكثرة أدبه معه فكذلك القريب من السلطان يكون أكثر من غيره أدبا وخوفا منه لما يرى من بطشه ولتأمين مقامه ومكانته عنده وعند الناس .

هذا وليس في الآيات ما يقتضي صدور ذنب أو معصية من نوح عليه السلام سوى تأويله وإقدامه على سؤال ربه بنجاة ابنه ، وهو مما لا يؤاخذ عليه ولا يستوجب العتبى إلا عتاب الأحباب ، وقد منا في الآية 121 من سورة طه في ج 1 ما يتعلق بعصمة الأنبياء ومعنى ما يصدر منهم فراجعه .

قال تعالى "قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ" بسفينتك على المحل الذي استقرت عليه وانزل إلى الأرض المستوية المعتدلة مما حول جبل الجودي "بِسَلامٍ" وأمان من الغرق وتحية "مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ" من ذرية أهل السفينة ، وهذه بشارة من اللّه تعالى إليهم بالنمو والخيرات وإلى قرون تجيء بعده ، قال تعالى (وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ) الآية 17 من سورة الصافات الآتية ، أي إلى يوم القيامة ، لأن الخليقة الموجودة الآن منسوبة إلى أولاده الثلاثة سام وحام ويافث ، ولهذا يسمى أبا البشر الثاني بعد الأب الأول آدم عليه السلام ، وبهذا يستدل القائل بأن الطوفان عم الأرض كلها ، وأن دعوة نوح شملت كل من كان عليها ، قال محمد بن كعب القرظي دخل في هذه البشارة كل مؤمن إلى يوم القيامة .

وإلى هنا للتمهت قصة نوح عليه السلام التي قصها علينا في كتابة .

(214/371)

ثم ابتدأ فقال "وَأُمَمٌ" كافرة يحدثون بعدك وينشأون ممن معك "سَنُمَتِّعُهُمْ" في هذه الدنيا بالسعة بالرزق والخفض في العيش والرفعة في الجاه مدة آجالهم "ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا" يوم القيامة جزاء أعمالهم السيئة "عَذابٌ أَلِيمٌ 48" وقال محمد المومى إليه دخل في هذا المتاع والعذاب كل كافر إلى يوم القيامة "تِلْكَ" القصّة التي قصصناها عليك يا محمد "مِنْ أَنْباءِ

الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ" في جملة الأخبار الغيبية "ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا" القرآن الذي جاءك به ذلك في جملة ما أنزلناه عليك منه ، ولا يقال إن هذه القصة معلومة في في التوراة أو غيرها من الكتب فكيف صح قوله (ما كُنْتَ تَعْلَمُها) إلخ ، لأنها كانت معروفة على الإجمال ، ومنها ما هو بطريق الرمز والإشارة ، أما على هذا التفصيل فلم يوجد إلا في القرآن ولم يرد ذكرها على هذا الوضوح إلا به ، ولأن حضرة الرسول أمي لم يقرأ ولم يكتب ولم يعلم ما في الكتب القديمة ، وكذلك قومه جلّهم أمّيّون ، ومنهم من لم يسمع بها أيضا ، لأن الجهالة باختيار الأمم السابقة وكيفية إهلاكهم غالبة عليهم ، فاندفع ما يقال وأخرس القائل .

"فَاصْبِرْ" يا سيد الرسل أنت ومن معك من المؤمنين على أذى قومك وتحمل جفاهم حتى يأتي وعد اللّه ، كما أن نوحا ومن بعده من الأنبياء صبروا حتى جاءهم وعد اللّه "إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ 49" ربهم الصابرين على ما يخبرهم به ، فيكون لهم النصر والفوز ، قال تعالى "وَإِلى عادٍ" أرسلنا "أَخاهُمْ هُوداً" في النسب ، لانه منهم لا في الدين الذي نسبه أقرب ولا في الهوى الذي هو تبع لما جاء به حضرة الرسول القائل (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) وأشار إليه ابن الفارض رحمه اللّه بقوله فيه :

كم نسب في الهوى بيننا أقرب من نسب من أبوي

و تقدم نسب سيدنا هود في الآية 65 من سورة الأعراف في ج 1 "قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ" يستحق العبادة "إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ 50" بعبادتكم غيره كاذبون بادعائكم أن الأصنام آلهة مختلقون ما تزعمون من الشريك له

"يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ" أي النصح الذي أسديه لكم وما أبلغه إليكم من رسالة ربي التي فيها هديكم وصلاحكم للخير وخلاصكم من الشر "أَجْراً" جعلا ولا أجرة آخذها منكم لقاءه ، لتظنوا أن لي فيكم طمعا ما "إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي" خلقني فهو الذي يرزقني في الدنيا ويثيبني في الآخرة "أَ فَلا تَعْقِلُونَ 51" وعظي وتأخذون بقولي الذي أبذله لكم مجانا ، وهل شيء أنفى للتهمة من هذا فكيف لا تقبلون رشدي ؟ واعلم أنه ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول لأن شأنهم الرشد والنصح ، وأن مما يمحضها للقبول هو حسم الطمع .

وما دام الرسول لا يريد ولا يتوقع شيئا من هداه المادة يجب أن يركن إليه ويجاب دعاؤه ، وإذا كان الناصح يجنح إلى المادة أو يتوهم منه طلبها من المنصوح له لا ينجح بدعوته ولا تنفع هدايته "وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ"

مما أنتم عليه من الكفر وآمنوا به وحده "ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ" من الشرك ودواعيه ، واخضعوا لعظمته وأنيبوا إليه "يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً" تباعا المرة بعد المرة ، أي ينزل عليكم

ماءها ، إذ تطلق عليه لأنه نازل منها بالنسبة لما نرى وقيل في هذا المعنى :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

(216/371)

و الضمير في رعيناه يعود للغيث المتسبب عن نزول المطر ، لأنه هو الذي يرعى لا المطر نفسه ، وإنما وعدهم بالغيث لأن بلادهم أجدبت ثلاث سنين متوالية وذهب عنها خصبها بسبب عكوفهم على الأوثان وجنوحهم عن الواحد الديان وردهم دعوة رسوله ، فوعدهم إذا هم آمنوا أن يرحمهم اللّه ويعيد لهم أرضهم خصبة كما كانت قبل المحل "وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ" وذلك أن اللّه تعالى غضب عليهم فأعقم نساءهم كما أمحل أرضهم ، فوعدهم نبيهم بأنهم إذا آمنوا يعيد أرحام نسائهم إلى النتاج كما كانت عليه قبل أيضا ، فيزداد عددهم وتقوى شكيتهم فتزداد قوتهم في المال والولد والرزق "وَلا تَتَوَلَّوْا" عني وتعرضوا عن نصحي فتكونوا قوما "مُجْرِمِينَ 52" متلبسين الإثم مصدر أجرم إذا أذنب وجنى ويأتي على فلة من جرم وعليه قوله :

طريد عشيرة ورهين ذنب بما جرمت يدي وجنى لساني

"قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ" واضحة وبرهان ناصع وحجة ظاهرة ودليل قاطع على

صحة قولك "وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ" المجرد عن المعجزة وتقول العرب حتى الآن (جئتني بإثمك) أي بلا شيء معك غير الكلام المجرد ، وإذا كنت كذلك فلا نتبعك "وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ 53" فيما تقول أو تأتي به "إِنْ نَقُولُ" أي ما نقول "إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ" بجنون لأنك تسبّها فخبلتك انتقاما لكراهتها ففسد عقلك "قالَ" ألكم آلهة تفعل شيئا معاذ اللّه "إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ" على ما أقوله لكم "وَاشْهَدُوا" أنتم علي بأني أحقر آلهتكم وأجهلكم بعبادتها و"أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ 54" شيئا "مِنْ دُونِهِ" أي الإله الواحد الذي لا شريك له "فَكِيدُونِي جَمِيعاً"

(217/371)

أنتم وشركاؤكم "ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ 55" ولا تمهلوني لحظة واحدة إن صح قولكم إن لآلهتكم قدرة على إضرار من ينالها بسوء أو يصد عن عبادتها ، وقد صار حتكم وأشهدتكم وتحديتكم فلا تتسامحوا معي مثقال ذرة ، وهذا الحزم والعزم البالغان الغاية القصوى من معجزاته صلى اللّه عليه وسلم لأنه كان وحيدا فيهم ولم يهبهم على ما هم عليه من الجبروت لما هو عليه من الثقة باللّه ، ثم كر عليهم بالتحدي فقال "إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ" بقصد التعريض بهم والتقريع بأوثانهم التي يزعمونها آلهة بأنها ليست برب لهم ولا يتوكل

عليها وإن ربهم ورب شركائهم هو اللّه ربه ورب كل شيء "ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها" مالكها وقاهرها وميسرها لما خلقت له وفاقا لسابق علمه بها ، لأن من أخذت بشعر مقدم رأسه فقد قهرته والناصية هي مقدم الرأس ، وأطلق على الشعر النابت فيها للمجاورة ، وإنما خصها بالذكر لأن العرب إذا وصفوا إنسانا بالذل قالوا ناصيته بيد فلان ، وكانوا إذا أسروا أسيرا وأرادوا إطلاقه جزّوا ناصيته ليمنّوا عليه ويفخروا بذلك ، فخاطبهم اللّه تعالى بما يعرفون ، ثم أكد لهم ذلك بقوله عز قوله "إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ 56" يسير فيه خلقه كلا بما يناسبه بحسب فطرته التي فطر عليها أزلا كما هو مدون في لوحه ، لا تبديل لخلق اللّه ، وهو جل شأنه عدل لا يضيع عنده معتصم ، ولا يفوته ظالم ، مطلع على أمور عباده ، مجاز لهم بمقتضى أعمالهم ، كالواقف على الجادة ليحفظها ويدفع الضرر عن المارين بها بالنسبة لما تعرفون .

(218/371)

وهذا كقوله تعالى (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ) الآية 14 من سورة والفجر ، قال تعالى "فَإِنْ تَوَلَّوْا" عنك وأعرضوا عن نصحك ولم يؤمنوا فقل لهم "فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ" من اللّه "إِلَيْكُمْ" وقمت بما أوجبه علي من تبشيركم وإنذاركم ، فإن لم تسمعوا وتطيعوا فلا بد من

إهلاككم "وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ" لإعمار أرضه وخلافته فيها "وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً" بتوليتكم عن طاعته وإنما تضرون أنفسكم "إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ 57" ومن جملة الأشياء أنا فإنه لا محالة حافظي من تعديكم بمقتضى وعده إياي بذلك وهو لا يخلف الميعاد وكل هذا لم ينجع بهم وبقوا مصرين على كفرهم فحق عليهم العذاب ، قال تعالى "وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا"

(219/371)

بإهلاكهم وحل أوانه المقدر لإنزاله بهم "نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ" وهم على ما قيل أربعة آلاف "بِرَحْمَةٍ مِنَّا" ورأفة بهم ، لأن البلاء إذا نزل بمدينة أو قوم عم الكافر والمؤمن ، ولكن كرما منه تعالى وفضلا قد أنجى المؤمنين من عذاب الدنيا الذي أوقعه بقومهم عقوبة مقدمة ولعذاب الآخرة أشدّ وأخزى وأدوم "وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ 58" في الآخرة كما أنجيناهم من عذاب الدنيا ، ووصفه بالغلظة لأنه عظيم بالنسبة لعذاب الدنيا ، وكان إهلاكهم بالريح الشديدة مدة سبع ليال وثمانية أيام حسوما نحسات كما ذكر اللّه ، راجع قصتهم مفصّلة في الآية 72 من سورة الأعراف في ج 1 ، وأشير إليها اجمالا في أكثر السور ، وقد صادف ذكرها الآن خلال الأيام المذكورة المسماة عندنا بالعجوز والحسوم ، إذ أن

هذا اليوم من أوسطها يوم الخميس في 27 شباط سنة 928 ، وهذا من جملة الصدف التي وافقت تفسير بعض الآيات المشار إليها في هذا التفسير قال تعالى "وَتِلْكَ" القبيلة المهلكة هي "عادٌ" وسبب إهلاكهم هو أنهم "جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ" هودا فمن قبله "وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ 59" من رؤسائهم المتمردين على اللّه المترفعين عن قبول الحق عنادا "وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً" رديفا إلى لعنتهم في الآخرة الملمع إليها بقوله تعالى "وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ" أتبعهم لعنة أيضا ، وحذفت من الأخيرة لدلالة الأولى عليها راجع الآية 30 من سورة آل عمران ج 3 ، وبين سبب هاتين اللعنتين بقوله "أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ" ولم يشكروا نعمه "أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ 60" عطف بيان على عاد لأن عادا قبيلتان قبيلة هود وقبيلة عاد إرم أي العماليق المار ذكرهم في الآية 8 من سورة والفجر في ج 1 ، فقال تعالى هنا قوم هود ليزول الاشتباه أي أهلكوا هلاكا أي هلاك ، فسحقا لهم

(220/371)

و بعدا لا يدرى مداه ، بدليل التكرار ، لأن العنة معناها البعد أيضا فكررها بعبارتين مختلفتين دلالة على نهاية التأكيد ، كما أن تكرار التنبيه بألا مع النداء المستتر بالدعاء عليهم يدل على التهويل وتفظيع حالهم ، ويبعث على الاعتبار بهم والحذر من أفعالهم ،

قال تعالى "وَإِلى ثَمُودَ" أرسلنا "أَخاهُمْ صالِحاً" بالنسب أيضا لأنه منهم و قد مر نسبه أيضا في الآية 73 من سورة الأعراف في ج 1 ، وهم سكان الحجر وثمود اسم للقبيلة والثمد الماء القليل "قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ" البتة "هُوَ" الذي "أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ" وحده لا شريك له "وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها" فأطال أعماركم وجعلكم سكانها وعمارها .

مطلب سبب طول العمر وبقاء الحكم كثيرا عند البعض :

قالوا كان أحدهم يعيش كثيرا وتتراوح أعمارهم ما بين ثلاثمائة وألف سنة ، وكان قوم عاد كذلك ، وسئل نبي من أنبياء زمانهم عن سبب طول أعمارهم ، فقال لأنهم عمروا البلاد وعاش بها العباد .

وقيل إن اللّه أوحى لنبي من أنبيائهم بهذا ، وقال معاوية لرجل أحيا أرضا آخر عمره ما حملك على هذا ؟ قال قول القائل :

ليس الفتى بفتى يستفاد به ولا يكون له في الأرض آثار

وسئل عن بقاء حكمهم ، فقال لأنهم لا يولون إلا ذوي العقول ، ولا يحكمون إلا ذوي الأصول ، ولا يعاقبون إلا بقدر الذنب لا بقدر البغض ، ولا يكافئون إلا بقدر العمل لا بقدر المحبة ، وقيل إن هذين السؤالين وقعا على ملوك الفرس واللّه أعلم .

"فَاسْتَغْفِرُوهُ" عما سلف منكم من الذنوب "ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ" توبة نصوحا لا عودة فيها وأطيعوه وآمنوا به "إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ" رحمته من عباده المؤمنين لا يحول بينه وبينهم حائل "مُجِيبٌ 61" لدعائهم قابل رجوعهم غافر لما كان منهم "قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا" بأن تسعدنا ونفخر بك ، لأنك ذو حسب ونسب فينا ، ولأنّك تعين الضعيف وتبر الفقير وتحترم الناس ، وكنا نطمع بك تأييد ديننا أيضا مع السيادة علينا "قَبْلَ هَذَا" القول الذي صدر منك حيث أسأتنا به وخيّبت آمالنا فيك "أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا" من الآلهة وقد عاش أسلافنا عليها لا لا تفعل هذا ، فإن أملنا بك غيره "وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ" من عبادة إلهك وحده دون آلهتنا "مُرِيبٍ 62" يوقعنا في مرية من أمرك وما تدعونا إليه ، والريبة قلق النفس وانتفاء الطمأنينة والوقوع في الشبهة والركون إلى التهمة "قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ

إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً"

(222/371)

لآتيها لكم وتشاركوني في منافعها ، إذ أمرني أن أدعوكم إليها لإرشادكم إلى الهدى فإذا لم أفعل "فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ" الذي شرفني بالرسالة إليكم وأوجب علي إنذاركم بالكف عن الكفر "إِنْ عَصَيْتُهُ" بعد تبليغكم رسالته وتبشيركم بجنة دائمة النعيم إذا أجبتم دعوتي وآمنتم بربي "فَما تَزِيدُونَنِي" بما ذكرتم من تعجبكم عن نهيي إياكم من عبادة الأوثان "غَيْرَ تَخْسِيرٍ 63" بنسبتكم إياي إلى الخسارة أو نسبتي إياكم إلى الخسران ، أي لا تفيدوني غير العلم بخسارتكم مما أدعوكم إليه من الرشد وسلوك طريق الصواب ، أما أنا فلست خسرانا شيئا إلا خسارتكم وحرمانكم من فضل الله تعالى الذي وعدة لكم إن اتبعتموني ورفضتم ما أنتم عليه ، فقالوا له إن كنت صادقا فآتنا بآية تدل على صدقك ، فقال لهم سلوا ما شئتم ، قالوا أن تخرج لنا ناقة من هذه الصخرة لصخرة كانت عندهم ، قال ربه ، فأجابه فقال "وَيا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً" عظيمة واضحة على صدقي كما طلبتم "فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ" من نباته كسائر أنعامه لتدرّ لكم اللبن فتشربونه مجانا دون أن أكافئكم مؤنتها "وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ" بأن تضربوها أو تعقروها ، لأنكم إذا فعلتم بها شيئا "فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ 64" في الدنيا لأنها من آيات الله وهو يغتار لآياته إن أهينت ، فخالفوا أمره رغم تحذيرهم مغبة مخالفته وتهديدهم بعقاب الله إن هم مسوها بسوء ، فأقدموا عليها "فَعَقَرُوها فَقالَ" لهم نبيهم أما وقد فعلتم ذلك "تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ" وفي آخرها يحل بكم عذاب الله إذ أخبرني بأنكم لا تعيشون في الدنيا غيرها لمخالفتكم أمري والدار تطلق

على البلد وعلى الساحة جمع دارة وسوح قال أمية بن الصلت :

له داع بمكة مشتعل وآخر فوق دارته ينادي

(223/371)

و تطلق على الدنيا أيضا ، والمشتعل الرجل الطويل الخفيف اللطيف ، فقالوا له أمهلنا أكثر من ذلك على طريق الاستهزاء فقال لهم "ذِلِكَ" الوعيد الذي أخبرتكم به "وَعْدٌ" صادق لا يبدل ولا يغير ، لأنه صادر من الإله العظيم ، فافعلوا ما شئتم فإنه "غَيْرُ مَكْذُوبٍ 65" فيه أبدا وستجدون عاقبة سخريتكم

(224/371)

هذه ، قال تعالى "فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا" بإهلاكهم وانقضى أجلهم المقدر عليه أزلا أنزلناه بهم و "نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ" منه "بِرَحْمَةٍ" وفضل ولطف "مِنَّا وَ" نجيناهم (مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ" أي ذلّه وهوانه إذ لا أخزى ممن كان هلاكه بغضب اللّه وانتقامه وقرىء (يَوْمِئِذٍ) بفتح الميم لأنه أضيف إلى غير متمكن ، وهكذا إذا أضيف إلى الفعل فيكون مبنيا

على الفتح أيضا ، وقد وقع عليهم العذاب بشدة "إِنَّ رَبَّكَ" يا أكرم الرسل الذي يخبرك بحوادث من قبلك "هُوَ الْقَوِيُّ" على هذا الإهلاك الفظيع لأعدائه ، وإنجاء أوليائه وأحبابه ، الذين يحتفظون بدينه وينصرون عباده ويحفظون فقراءه ، وهو "الْعَزِيزُ 66" الغالب الذي لا يضاهيه أحد ولا يفلت من عذابه أحد "وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ" من قبل ملائكة اللّه والظاهر انه إسرافيل لأنه الموكل بصيحة القيامة وهي صيحة عظيمة دونها كل صوت صاعقة وكل شيء في الأرض فتقطعت قلوبهم من هولها فهلكوا جميعا وسبب إهلاكهم بالصيحة ، لأنهم لم يرقّوا لصياح نبيهم وصياح فصيل الناقة ، ولم يرحموا ثغاءه ، ولم تلن قلوبهم لصياح أمه حين عقروها ، والجزاء من جنس العمل "فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ 67" على ركبهم قعودا خامدين صرعى هالكين لا حراك بهم "كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها" ولم يتوطنوا في الدنيا ولم يقيموا بها ولم يسكنوها أبدا ، يقال غنى بالمكان إذا أتاه وأقام به ثم نبه تعالى على سبب إهلاكهم بقوله عز قوله "أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ" بعد إنعامه عليهم وإجابة طلبهم ألا بعدا لثمود 68 تقدم مثله آنفا وذكرنا القصة مفصلة في الآية 79 من الأعراف في ج 1 ، قال تعالى "وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى " بأن يأتيه ولد وحفيد والرسل هم الملائكة فلما دخلوا عليه "قالُوا سَلاماً" كأنه قيل له ما قالت الرسل لأن

في مجيئهم مظنة لسؤال السامع بهم ، لأنهم غالبا يأتون بالعذاب تنفيذا لأمر اللّه ، فأجابهم إبراهيم بما ذكر اللّه "قالَ سَلامٌ" عليكم إذ ظنّهم ضيوفا ، وكان عادته إقراء الضيف بدليل قوله تعالى "فَما لَبِثَ" تأخر وأبطا إلا "أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ 69" مشوي وكان عليه السلام اعتاد أن يلف العجل كله بالعجين ويشويه بالتنور وهو من أحسن أنواع الأكل لا يعدله شيء من الأطعمة عند من يحسن عمله ، وفي تقديم العجل كله إشارة إلى استحباب تقديم الأكل إلى الضيفان بزيادة عن كفايتهم ، ومنه عليه السلام أخذت عادة تقديم الذبيحة كلها إلى الضيوف والإسراع بتقديم القري لاحتمال أنهم جياع ، وذلك من آداب الضيافة لما فيها من الاعتناء بالضيف ، وهذا من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ، ومن دلائل الإيمان .

مطلب إقراء الضيف ومعنى الضحك وحقيقته :

روى البخاري ومسلم عن ابن شريح قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه .

ورويا عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت ، ومن كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه .

وفي خبر آخر قال صلى اللّه عليه وسلم : من ذبح لضيفه كانت فداءه من النار .

ومن السنة تلقي الضيف بطلاقة وجه ، لأن البشاشة خير من القري ، وأن يبالغ في خدمته بنسبته ، لأن زيادة التواضع تخاسس ، والعرب لا شك لا تألو جهدا في هذا الشأن ، حتى أن أحدهم ليستدين ويكرم ضيفه ، إلا أن التكليف للضيف بغير المستطاع مكروه ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : أنا وأتقياء أمتي براء من التكلف ، وقد جاء عن أنس وغيره من الأصحاب أنهم كانوا يقدمون الكسرة اليابة وحشف التمر ويقولون ما ندري أيها أعظم وزرا الذي يحتقر ما قدم إليه أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه ، وأن يخدمهم بنفسه ، كما فعل إبراهيم عليه السلام ، ويظهر لهم السرور ويأكل معهم ، ويطيل الحديث على الأكل ، ولا ينظر إلى أكلهم ، ويكرم دوابهم وخدمهم إن كان ذلك ليزدادوا سرورا ، ومن السنة أن يحدث أضيافه بما يسرهم ، وأن يقدم الألوان دفعة واحدة ، أو يخبرهم بها ليأكل مما يشتهيه ، وأن يشيعهم إلى باب الدار إن كانوا من أهل البلد ، وإلى آخره إن كانوا غرباء عنه ، ولهذا البحث صلة في الآية 44 من سورة الذاريات ، والآية 5 من سورة الحجر الآتيتين ، قال تعالى "فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ" أي العجل المقدم إليهم ،

وهذا يدل على أنه عليه السلام لا يعرفهم أنهم ملائكة وإلا لما قدم إليهم شيئا لأنه يعلم أن

الملائكة لا يأكلون ، وهذا كاف للرد على من قال إنه يعرفهم ، ويؤيد عدم معرفته لهم قوله تعالى "نَكِرَهُمْ" خاف منهم ، لأن الضيف إذا مس الطعام أمنه المضيف وإلا خاف منه وحذره ، ولهذا قال تعالى "وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً" في قلبه لأن الوجس رعب القلب ولهذا فإن من خال أنه يعرفهم فقد أخطأ المرمى ويؤكد خطأه قوله تعالى حكاية عنهم "قالُوا لا تَخَفْ" يا إبراهيم إذ عرفوا خوفه من هيولاء فأمنوه وبينوا له أنفسهم ليسكن روعه ، فقالوا نحن رسل ربك "إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى " إهلاك "قَوْمِ لُوطٍ 70" لتجاوزهم عليه

(227/371)

"وَ" كان "امْرَأَتُهُ" سارة بنت عمه بتشديد الراء وتخفيفه كما ذكره صاحب الجمل على الجلالين "قائِمَةٌ" بالرفع على أن الواو من (وَامْرَأَتُهُ) للحال أي حاضرة في خدمتهم ، لأن النساء إذ ذاك لا يحتجبن ، ولا سيما العجائز ، وما قيل إنها كانت وراء الستر وهو ما يسمونه الآن عرب البادية (خدرة) وهي بساط ثخين كبير يوضع فاصلا ما بين مقعد الرجال ومقر النساء في بيوت الشعر في البوادي والقرى .

والحجاب من خصائص هذه الأمة ، أما حرمة النظر فلا ، إذ جاء في الإنجيل من نظر إلى أجنبية يشتهيها فهو يزني .

قال تعالى حكاية عن سارة رضي اللّه عنها "فَضَحِكَتْ" سرورا بزوال الخوف الذي توقعته من عدم أكلهم ، ومن فسره هنا بمعنى الحيض ، فقد صرفه عن معناه الحقيقي ، وإن كثيرا من العلماء أنكروا مجيء الضحك بمعنى الحيض ، وما استدل به بعضهم من قوله :

تضحك الضبع لقتلي هذيل وترى الذئب بها يستهل

وقول الآخر :

تضحك الضبع من دماء سليم إذ رأتها على الحراب تمور

بأن الضحك فيها بمعنى الحيض خطأ بين ، لأن الشاعر أراد أنها تكشر بأنيابها عند أكل اللحم ، فمن زعم أن كثرها هذا ضحك أي حيض فقد سها ولم يفرق بين الريم والمها ، ولو أراده تعالى لقال حاضت لأنه لفظ جاء ذكره مرارا في سورة البقرة والطلاق فلا يقال لم يذكره لأنه مستهجن ، هذا وحقيقة الضحك انبساط

الوجه من سرور النفس ويستعمل في السرور المجرد في التعجب وسميت مقدمات الأسنان ضواحك لبدوها عند الضحك ، وما قاله بعض اللّغويين ان ضحكت بمعنى حاضت ، واستدل ببعض أقوال العرب فجائز ، إلا أنه فيما نحن بصدده هنا لا ينطق على المعنى المراد ، واللّه أعلم .

قالوا إن إبراهيم عليه السلام قال لضيفانه لما ذا لا تأكلون ؟ فقالوا له لا تأكل طعاما بلا ثمن ،

فقال ثمنه ذكر اللّه أوله ، وحمده آخره ، فقال جبريل لميكائيل حق لهذا أن يتخذه ربه خليلا .

(228/371)

قالوا وضحكت سارة تعجبا لأنها وزوجها يخدمونهم بأنفسهما وهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام الذي هو من أحسن الأطعمة إذ ذاك ، وقد يكون الآن أيضا من أحسنها عند كثير من الناس ، وقيل إنها ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم ، والصحيح الأول ، لأنها لا تعرف سبب مجيئهم أولا حتى تضحك تعجبا من ذلك ، ومن قال إنها ضحكت بالبشارة من أن يكون لها ولد وحفيد على كبر سنها ، فهو سابق لأوانه ، لأن الملائكة لم تذكر هذه البشارة أولا .

قال تعالى "فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ" ولد لإبراهيم منها "وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ" 71 حفيدا لها من ابنها اسحق ، وفي هذه الآية بشارة أخرى بطول عمرهما حتى يريا ولدهما يكبر ويتزوج ويأتيه ولد ، وإنما خصّت بالبشارة دون إبراهيم ، مع أنها لهما جميعا لأن النساء أشدّ فرحا وأعظم سرورا بذلك من الرجل ، ولأن إبراهيم له ولد من جاريتها هاجر ، وهو إسماعيل عليه السلام جد نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم وسائر الأنبياء

من اسحق أي من إبراهيم ، فما بعد ، أما من تقدمه كهود وصالح وغيرهما ممن لم يقصه اللّه علينا ، فإنهم من سيدنا نوح عليه السلام وهو ومن تقدمه كإدريس وشيث وغيرهما من آدم عليه السلام "قالَتْ يا وَيْلَتى "كلمة يستعملها الناس عند رؤية أو سماع ما يتعجب منه مثل يا عجباه نداء ندبة "و أصلها (ويلتي) فأبدل الألف من ياء المتكلم للمضاف "أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ "كيف يكون هذا زاعمة أنه من المحال بالنسبة لمثلها ، لأنها كانت بنت تسعين سنة على ما قالوا "وَهذا بَعْلِي شَيْخاً" زوجي مسنا كبيرا قالوا كان ابن مئة وعشرين سنة ، والبعل هو المستعلي على غيره ، ولما كان الزوج مستعليا على المرأة قائما بأمرها سمي بعلا ، قال تعالى (الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ)

(229/371)

الآية 34 من سورة النساء ج 3 ، والشيخ لغة من بلغ سن الأربعين ، واصطلاحا من بلغ رتبة أهل الفضل ولو صغيرا ، وبعد أن استفهمت استفهام تعجب واستبعاد أكدته بقولها "إِنَّ هذا" الذي أخبرتموني به "لَشَيْءٌ عَجِيبٌ 72" مخالف للعادة ، إذ لا يتصور أن مثلي يلد لمثله ، ولا يتوهم ذلك أصلا ، ولم يكن تعجبها هذا من قدرة اللّه تعالى ، لانها تعلم أنه أقدر على أكثر من ذلك ، كيف وقد نجى زوجها من النار ومن كيد النمرود وحفظها من

الجبار الذي أراد أخذها من زوجها ، وإنما تعجبت من حالها وحال زوجها بالنسبة للبشارة ليس إلا ، "قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ" الذي يخرج الحي من الميت والميت من الحي ويحي الأرض بعد موتها كلا ، لا تعجبي فإن اللّه أقدر على أن يجعل العجوز مثلك تلد من الشيخ الذي هو مثل زوجك ، فقالت لا عجب من أمر اللّه ، وإنما من أمري وأمر بعلي ، فلما أعجبهم كلامها دعوا لهما بما ذكر اللّه ، وهو "رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ" آل إبراهيم "إِنَّهُ حَمِيدٌ" على أفعاله كلها ومنها تعجيل النعم وتأجيل النّقم "مَجِيدٌ 73" شريف منيع لا يرام كريم جواد واسع العطاء ، وإن كلمة مجيد كررت في القرآن أربع مرات فقط هنا وفي أول ق وفي الآيتين 15/ 21 من سورة البروج المارتين في ج 1 ، قال تعالى "فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ" الخوف الذي نشأ من عدم إقدامهم على أكله "وَجاءَتْهُ الْبُشْرى" بالولد والحفيد ، المتضمنة إطالة عمره بعد هرمه شرع "يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ 74" لانه لما علم أنهم ملائكة اللّه وعلم

(230/371)

أن مجيئهم لإهلاك قوم لوط سبب مساوئهم الخبيثة وتعديهم على نبيهم ، قال لهم أرأيتم لو كان في مدائن لوط خمسون مؤمنا أتهلكونها ؟ قالوا له لا ، ثم لم يزل بهم حتى قال مؤمن

واحد قالوا لا ، كما في بحث التكوين ص 18 من التوراة ، قال لهم إن فيها لوطّا ، قالوا نحن أعلم بمن فيها وإنا لننجينه بأمر اللّه وأهله إلا امرأته ، ونظير هذا في الآية 32 من سورة العنكبوت الآتية ، ثم طلب تأخير العذاب عنهم علّهم يؤمنون ، فبين اللّه تعالى أن الذي حمل إبراهم على هذه المجادلة مع الملائكة ما هو مجبول عليه من الشفقة على عباد اللّه ، ومشرب فيه من الصفات

(231/371)

التي ذكرها اللّه بقوله "إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ" لا يحب تعجيل العقوبة على من يسيء إليه ، كثير الاحتمال للأذى ، صفوح عن زلة غيره ، عفو على من اعتدى عليه "أَوَّاهٌ" كثير التأوه والتحسر خوفا من اللّه "مُنِيبٌ 75" رجاع إلى اللّه رقيق القلب شديد الرأفة عظيم الإخبات إلى ربه كبير الرحمة بعباد اللّه ، فهذه الصفات الجليلة حملته على الاستغفار لأبية كما أدت به إلى طلب تأخير العذاب عن قوم لوط ، لأن الكامل لا يقصر خيره على الأقارب فقط بل يعم من عرف ومن لم يعرف ، ولما كان الأمر بالإهلاك لا محيص عنه مقضيا مبرما بعلم اللّه جفّ القلم به في اللوح المحفوظ ، خاطبه ربه عز وجل لأن الملائكة لا تقدر أن ترده لعلمهم بقربه من اللّه واتخاذه خليلا له ، قال عز قوله "يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا" الأمر لا

تطلب تأخير عذاب جفت به الصحف عن أمري واترك رسلنا وشأنهم في تنفيذه "إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ" الذي لا راد له "وَإِنَّهُمْ" قوم لوط البغاة الذين تجاوزوا حدود اللّه بشيء لم يسبقوا به ، ولو لا هم لم يعرف "آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ 76" بدعاء ولا جدال ولا بطريق من الطرق ، فسكت إبراهيم وترك جدال الملائكة لما عرف أن الأمر مقطوع به من عند اللّه لا حول لأحد ولا طول بتأخيره عن وقته طرفة عين ، فخرج الملائكة من عنده وتوجهوا إلى قرى لوط وكان بينهما أربعة فراسخ .

مطلب قصة لوط عليه السلام وعرض بناته على أشراف قومه لتخليص ضيوفه الكرام :

(232/371)

قال تعالى "وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ" عليه السلام وحزن لأنه رآهم بصفة رجال حسان مرد ، وخاف عليهم من تعدي قومه "وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً" صدرا ولم تكرر هذه الكلمة في القرآن ، والذرع الوسع تقول العرب ليس هذا في يدي أي في وسعي ، والذراع من اليد مر ذكره في الآية 39 المارة ويقولون ضاق فلان ذرعا إذا وقع في مكروه لا يطيق الخروج منه ، لأن الذرع يوضع موضع الطاقة ، والمعنى ضاق بمكانهم صدره عليه السلام لأنهم

اعتادوا القبائح وعمل الفاحشة مع كل من قدروا عليه من المارين في قريتهم وغيرها ، لا يراعون

(233/371)

حرمة أحد ولا يذعنون لنهيه ، وإنما قلق باله عليه السلام لظنه أنهم من الإنس ولعلمه أنه لا يقدر على تخليصهم من مراودة قومه الخبثاء "وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ 77" شديد ، كأنه قد عصب وربط بالشر والبلاء ، ولم تتكرر هذه الكلمة أيضا بالقرآن ، روي أن اللّه تعالى قال للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم أربع شهادات باستحقاقهم الإهلاك ، فقام عليه السلام واستقبلهم على ما هو عليه من الكرب ، ومشى معهم إلى منزله الخاص بالضيفان ، وقال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية ، قالوا وما أمرهم ؟ فقص عليهم حالتهم الخبيثة مع الناس وبعضهم وقال أشهد باللّه أنهم لشر أهل قرية في الأرض ، وكررها أربع مرات لشدة تأثره منهم ، وكلما قالها مرة يقول جبريل لرفقائه اشهدوا ، فدخلوا معه المنزل ولم يعلم بهم أحد من قومه ، وقد عجب هو عليه السلام من أمرهم كيف دخلوا ولم يتعرضهم أحد ، ولم يعلم أنهم ملائكة ، والملائكة يوجدون بالمحل الذي يريدونه بمثل البرق فمن أين يتوصل إليهم الناس ، فلما رأتهم امرأته التي هي من أهل القرية خرجت فأخبرت

قومها بهم ، فلما سمعوا قولها بادروا وتوافدوا على بيت لوط ، قال تعالى "وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ" يسرعون المشي نحوه ، والهرع مشى بين الخبب والهرولة والجمز فصاروا من كثرتهم كأنهم يدفعون دفعا "وَمِنْ قَبْلُ" مجيئهم هذا "كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ" الفعلات الخبيثات وهي إتيانهم الرجال ، فتلقاهم لوط و"قالَ يا قَوْمِ" اتركوا ضيفاني لا تعتدوا عليهم وإن كنتم لا تراعون خاطري وتقصدون فضيحتي ولا بد لكم مما عزمتم عليه فدونكم "هؤُلاءِ بَناتِي" اللاتي كنتم تخطبونهن مني وكنت أمتنع من زواجهن لكم لأنكم على غير ديني ، وهذا الخطاب لملأ قومه عليه السلام الذين كانوا خطبوهن منه قبل هذه الحادثة ، وقد فداهنّ للمحافظة على ضيفانه ، وقال لهم "هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ" مما أنتم قادمون عليه و

(234/371)

قاصدون فعله فإني أفتدي أضيافي بهن وأوافق الآن على زواجهن لكم أيها الوجهاء ، فادفعوا قومكم وانصروني واحموا أضيافي منهم ، وكان في شريعته عليه السلام جواز زواج المسلمة من الكافر ، وكان امتناعه من زواجهن لأشرافهم بقصد جلبهم للإيمان به ، واستدامت هذه الشريعة لزمن محمد صلى اللّه عليه وسلم

إذ زوج بنته زينب لأبي العاص وهو كافر ورقية إلى عتبة وهو كافر حتى نزل الوحي بالمنع

في المدينة المنورة ، فحرم زواج المؤمنة بالكافر ، ولا تزال الحرمة حتى الآن كما سيأتي بيانه في الآية 230 من البقرة في ج 3 ، وستدوم هذه الشريعة المطهرة إن شاء اللّه إلى يوم القيامة ، وعلى هذا يظهر أن الامتناع من إعطائهن إلى أشراف قومه هو ما ذكرنا لأنه يرى عدم كفاءتهم لهن لما هم عليه من العمل القبيح ، لا لأجل منع شرعي غيره ، وإنما بادرهم بهذا الكلام ليكفوا عن أضيافه ، وإن كان ليس من المروءة أن يعرض الرجل بنته على غيره ليتزوج بها لا سيما وهم كفار وهو نبي مكرم على اللّه ، ولا يليق بمنصبه الشريف ذلك ، ولكن للضرورة أحكام والضرورات تبيح المحظورات ، وتفسير البنات ببناته نفسه عليه السلام جاء على الحقيقة وموافق لسياق التنزيل ، أما من قال إن المراد ببناته نساؤهم لأن النبي كالوالد والأمة كالولد له ولهذا أضافهن لنفسه ، لأن كل نبي أب لأمته ، فهو قول وجيه إلا أن المراد حينئذ المجاز لا الحقيقة ، ولا يصرف القول إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة ، وإن من رأي أن الأخذ بالمجاز هنا متعذر لعدم الصارف فسر بما فسرناه عملا بحقيقة اللفظ وظاهر القرآن ، وإلا فلا ، لأن المعتل معتل أبدا مهما علّلته ، والضمير لا يرتاح إلى ما به علّة دون أن يقف على الصارف أو المانع ، وقد مر في الآية 47 ما يتعلق بمثل هذا

فراجعه ، إلا أنه لما كان القوم كثيرين وبناته ثلاثا أو اثنتين وللفظ يؤيد الأول وليس يكفين كبار قومه رأي بعض المفسرين الأخذ بالمجاز أشبه من الحقيقة استنادا إلى هذا التعليل العليل ، ويكون قوله لنسائهم بناتي مبالغة في التودد إليهم والتواضع هم وإظهارا لشدة امتعاضه مما أوردوه عليه طعما في أن يستحيوا منه ويرقوا له ، فيتركوا ضيوفه عند سماع قوله هذا مع ظهور الأمر عنده واستقرار العلم عندهم ، إذ لا مناكحة بينه وبينهم ، فأقول هذا هو المناسب ويجوز القول به أنه هو الصحيح لولا قوله تعالى الآتي في الآية التالية لأنه صريح بأنهن بناته نفسه ، وأنه إذا صاهرهم بهن فيكونون أصهاره وهم وجوه قومهم حماة له من تعدي الآخرين ، وقد يوجد كبير واحد يحمي من ألف وأكثر إذ ليس شيء بألف مثله إلا الإنسان وهو بحاجة للنصرة لما ذكرنا أنه غريب عنهم لا علاقة معهم إلا بمصاهرتهم ، هذا ولا يقال إنه يفهم من قوله تعالى هن أطهر لكم أن إتيان الرجال طاهر لأنه جاء بأفعل التفضيل ، وكلما كان كذلك يؤذن بوجود رائحة الأفضلية في المفضول أيضا كما تقول فلان أعلم من فلان فإنه يقتضي وجود علم ما بالمفضول لأن الكلام خرج مخرج المقابلة وله نظائر كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم لما قال المشركون يوم أحد (أعل هبل) ثم قالوا إن لنا العزى ولا عزى لكم ، قال لأصحابه ردوا عليهم فقالوا ما نقول يا رسول الله ؟ قال قولوا الله أعلى وأجل ، وقولوا الله مولانا ولا مولى لكم .

إذ لا مماثلة بين اللّه تعالى والصنم فضلا عن المفاضلة ، ومنها قوله تعالى (أَ ذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ) الآية 26 من سورة الصافات الآتية ، ومعلوم أن شجرة الزّقوم لا خير فيها البتة حتى يظن التفاضل بينها وبين المشار إليه وهو الفوز العظيم بنعيم الجنة ، فأفعل فيها مجاز وهو عبارة عن كلام جار مجرى ما في الخبرين والآية ، لأنه من المعلوم أن إتيان الرجال محرم نجس فمن أين تناله الطهارة ليتصور ما يزعم من مفهوم الآية ، فتنبه أرشدك اللّه لعلو مكارم الأخلاق وارتفاع محاسن الآداب .

قال تعالى "فَاتَّقُوا اللَّهَ" أيها الناس وآثروا الطاهر النقي على النجس الخبيث "وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي" تسوؤني فيه وتفضحوني بما تريدونه منهم فتهينوني وتذلوني أمامهم وجاء في الآية 71 من سورة الحجر الآتية (إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ) أي ما آمركم به وأنهاكم عنه أو إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فاقضوها فيما أحل لكم واتركوا الحرام الذي في عاقبته خذلانكم "أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ 78" سديد العقل صحيح الرأي يفعل الجميل ويكف عن القبيح ، وهذا الاستفهام للتعجب أي إنكم على كثرتكم وادعائكم العقل السليم ما فيكم واحد يسمع قولي ويزجر قومه عن ذلك "قالُوا" معرضين عن قبول النصح غير مبالين بكرامة نبيهم "لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ" في نكاحهن لأنك تزعم أننا لسنا بأكفاء لهن لإيمانهن بك وكفرنا ولما نحن عليه من الفعل الذي تكرهه ، هذا على القول الأول الذي جرينا عليه

وهو المقبول وعليه المعول ، وعلى القول الثاني فإن صاحبه يفسر الحق في هذه الآية الصريحة بأنهن بناته نفسه بالشهوة ، أي مالنا شهوة في وقاع

(237/371)

النساء ، أي نسائنا الذين تزعم أنهن بناتك وما لنا حاجة بهن ، وهو لعمري بعيد والأخذ به غير سديد ، لأن هذه الآية كانت فصل الخطاب لا تقبل التأويل ويبطل معها كل دليل "وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ 79" وهو إتيان الذكور دون النساء فلما رأى إصرارهم ورأى نفسه ضعيفا تجاههم "قالَ" عليه السلام متأثرا متحسرا آسفا "لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً" على مقاومتكم لدفعتكم بنفسي عن أضيافي وأهلكتكم دون أن أمكنكم منهم "أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ 80" من قبيلة أو عشيرة يمنعوني منكم إذا أوقعت فيكم مكروها لفعلت وفعلت ومنعتكم من الوصول إلى داري .

تمنى هذا عليه السلام لانشغال فكره بأضيافه وقومه ، وإلا فهو يأوي إلى ركن أشد من كل ركن ، روى البخلوي ومسلم عن أبي هريرة قال :

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يرحم اللّه لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبته .

وقال أبو هريرة ما بعث اللّه نبيّا بعده إلا في منعة من عشيرته .

ومعنى الركن في الحديث هو اللّه تعالى ، فلا ركن يضاهي عظمة ركنه ، ولا بأس يعادل شدة بأسه ، ولا قوة تقابل كبير قوته ، ومن كان اعتماده على اللّه لم يبال بشيء ، ومن اعتمد على الخلق ذل ، وقيل :

إذا كان غير اللّه للمرء عدة أتته الرزايا من وجوه الفوائد

(238/371)

و معناه في الأصل الناصية من البيت أو الجبل ، ومن قال إن أو هنا بمعنى بل أي قال سيدنا لوط بل آوي إلى ركن شديد ، ينافيه الحال ، واستغراب سيد الرجال قوله وعده منه بادرة ، فقال الحديث السالف الذكر ، ولو كان يعلم أن ذلك قصد لوط لما ذكر هذا الحديث ، وإن مما يدحض هذا القول الآية التالية ومجيء أو بمعنى بل في بعض المواقع لا يفيد أنها هنا بمعناها ، ثم أغلق لوط بابه وصار يدافع قومه ويناظرهم ويناشدهم اللّه من ورائه ، وهم لا يلتفتون إليه ، ويعالجون فتح الباب ليدخلوا عليه ويتسلطوا على أضيافه ، وهو عليه السلام أقوى منهم على الانفراد ، ولكن الكثرة تغلب الشجعان ، فلما رأت الملائكة ما يقاسيه لوط من

الكرب بسببهم وهم ينتظرون الساعة المقدرة لإهلاكهم

"قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ" أرسلنا لإهلاكهم ، فتنح عن الباب واتركنا وإياهم ، وإنك

(239/371)

تلجأ إلى ركن شديد ، فإنهم "لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ" لأن اللّه حافظك منهم ، ولن يستطيعوا علينا ، فإن اللّه سلطنا عليهم ، فبعد صراحة هذه الآية يطرح قول كل من يقول إن أو بمعنى بل ، ويكذبه ، إذ لو كانت أو بمعنى بل فلا حاجة للإتيان بها ، ولا محل لقول الملائكة إنا رسل ربك ، أي ناصروك عليهم ، قالوا فترك الباب لما عرفهم أنهم ملائكة ، فدخلوا يتسابقون إلى الملائكة ، ولما أرادوا مد أيديهم إليهم تحوّلوا إلى صورتهم الحقيقة ، واستأذن جبريل ربّه رب العزة في عقوبتهم ، إذ جاء أجلها ، لأنهم لا يقدرون أن ينفذوا شيئا أرسلوا إلى تنفيذه إلا بعد الاستئذان ، لأنه قد يعفو عن العقوبة وهو الذي لا يسأل عما يفعل ، فأذن لهم ، فضربهم ضربة واحدة بجناحه ، فطمس أعينهم ، فانطلقوا عميا يركب بعضهم بعضا ويقولون النجاة النجاة ، فإن في بيت لوط سحرة ! وجاء في رواية أخرى أنهم كسروا الباب ودخلوا فلطمهم جبريل فطمس أعينهم ، فقالوا وهم هاربون يا لوط جئتنا بسحرة ، وتوعدوه ، فأوجس في نفسه خيفة منهم إذ قال سيذهب هؤلاء ويذرونني لا ناصر لي ،

لأني غريب عنهم ، فعندها قال جبريل لا تخف والتفت هو وجماعته إلى لوط وقالوا "فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ" قرىء أسر بالقطع والوصل من الإسراء وهما بمعنى واحد ، وقيل إن أسرى سار أول الليل وسرى آخره ، ولا يقال في النهار إلا سار كما بيناه أول سورة الإسراء المارة في ج 1 ، "بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ" آخره أو شدة ظلمته ، قال مالك بن كنانة :

وقائمة تقوم بقطع ليل على رحل أهانته شعوب

(240/371)

يؤيد هذا التفسير قوله تعالى (إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ) الآية 34 من من سورة القمر المارة في ج 1 ، والسحر آخر الليل وأشده ظلمة ، وأصل القطع القطعة من الشيء ، لذلك قال ابن عباس طائفة من الليل ، وقال قتادة بعد صدر منه "وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ" وراءه وضمير منكم يعود على أهله ، وقوله لا يلتفت من تسمية النوع وهو من بديع النكات ، إذ أن المتأخرين من أهل البديع زعموا أنهم اخترعوا نوعا من البديع لم يكن قبل وسمّوه تسمية النوع ، وهو أن يؤتى بشيء من البديع ويذكر اسمه على سبيل التورية كقوله في البديعية في الاستخدام :

واستخدموا العين مني فهي جارية وكم سمعت بها في يوم بينهم

ويتبجحوا في ذلك ولم يعلموا وجوده في كتاب اللّه الذي لم يغفل شيئًا في مثل هذه الآية ، وإن علومهم وعلوم من تقدمهم مستقاة من هذا القرآن العظيم الذي يقول اللّه تعالى فيه (ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ) الآية 38 من الأنعام الآتية فلم يترك شيئًا من أفعال وأعمال الأولين والآخرين ، قال الأبوصيري رحمه اللّه :

لم تقترن بزمان وهي تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن ارم

فلا تعد ولا تحصى عجائبها ولا تسام على الإكثار بالسأم

ثم استثنى من أهله عليه السلام فقال "إِلَّا امْرَأَتَكَ" بالنصب على الاستثناء المتصل من أهلك ، وبالرفع على البدلية من أحد ، أي اتركها لا تأخذها معك "إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ" من العذاب فهي هالكة معهم لرضائها بفعلهم ، فلم تمنعهم ولم تزجرهم وكانت تخبرهم بمن يأتي عنده ، حتى إنها أخبرتهم بحضور الملائكة ظنا منها أنهم بشر ، ولم يروهم حين مجيئهم ، وذلك لأنهم لا يمشون مشي البشر ، إذ يصلون إلى المحل الذي يريدونه بلحظة ، فلا يحس إلا وهم أمام من يقصدونه ، قال لوط متى ينزل فيهم العذاب قالوا له "إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ"

(241/371)

قال لهم أريد أسرع من ذلك قالوا له إن الوقت المقدر لإهلاكهم هو الصبح "أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ 81" ولم يكن بيننا وبينه إلا هذا الليل المضل ، وقرئ الصبح بضم الباء ، وعي لغة جائزة لأنها ليست بحركة إعراب ، أما حركة الإعراب كحركة الميم في أنلزمكموها وأضرابها فلا يجوز فيها الإسكان بداعي الخفة إلا ضرورة كقوله :

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من اللّه ولا واغل

بإسكان الباء من أشرب للخفة ضرورة ، وقول الآخر :

وناع يخبرنا بمهلك سيد تقطع من وجد عليه الأنامل

بإسكان باء يخبرنا ، أما الإسكان لتوالي الحركات فقد أجازه بعضهم بلا ضرورة مثل (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمانات إِلى أَهْلِها) الآية 58 من سورة النساء ج 3 ، وأمثال كثير ، وكان سيبويه يخفف الحركة ويختلها ، قالوا وهو الحق ، ولما دخل الليل تهيأ لوط وهيأ أهله ، ثم أخذهم وترك زوجته ، وأوصاهم بعدم

الالتفات وراءهم ، امتثالا للأمر قال تعالى "فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا" حان وقته بعذابهم "جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها" إذ أدخل جبريل عليه السلام جناحه تحت قراهم الخمس ، ورفعها حتى

بلغ بها عنان السماء ، وهم نائمون لم ينتبه أحد منهم ولم يكفأ لهم إناء وقلبها بهم ، فسمعت امرأته وهي لاحقة بلوط وأهله راكضة خلفهم (هوة العذاب) الهوة صوت انهدام الجدار هنا صوت انقلاب القرى ، فالتفتت ورافعا فهلكت ، وهذه الحكمة من منعهم من الالتفات إلى الوراء ، إذ قدر اللّه إهلاك من يلتفت منهم وراءه ، قال تعالى "وَأَمْطَرْنا عَلَيْها" أي القرى المقوبة "حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ" حتى لا يبقى منهم أحد ممن كان سارجا عن القرى وآتيا إليها ، فمن شذ عنها فلم يهلك بالخسف هلك بالحجارة مثل امرأة لوط المار ذكرها ، ومعنى سجيل الطين لقوله تعالى في الآية 33 من الذاريات (حِجارَةً مِنْ طِينٍ) والقرآن يفسر بعضه وفي الفارسية أصلها سنك ، راجع الآية 82 من الشعراء المارة في ج 1 ، وهذه كالسندس والإستبرق وغيرها .

(243/371)

فإنها كلمات عربية استعملها الغير ، لأن العرب نطقت بها قبل القرآن "مَنْضُودٍ 82" متتابع نعت لسجيل مأخوذ من النضد وهو وضع الشيء بعضه على بعض فعلا ، أو كون بعضه فوق بعض خلقة ، مثله في قوله تعالى (وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ) الآية 29 في الواقعة المارة في ج 1 "مُسَوَّمَةً" نعت ثان أي معلمة بعلامة العذاب لا تشبه حجارة الدنيا ، قالوا كان مكتوبا على

كل واحدة منها اسم من تهلكه ، ولا عجب لأنها "عِنْدَ رَبِّكَ" القادر على كل شيء وهي من جملة ما في خزائنه التي لا يطلع على ما فيها ولا يملكها غيره ، أو أنها ساقطة من لدنه من مكان لا يعلمه غيره ، وضمير الخطاب هذا يعود إلى سيد المخاطبين على طريق الالتفات وتقدمت القصة مفصلة في الآية 84 من الأعراف المارة في ج 1 ، ولهذا قال تعالى "وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ 83" أي من قومك يا محمد المتغالين في الظلم ، بل هي قريبة منهم إذا أصروا على ظلمهم ولا شك أنا نوقع بهم ما أوقعناه بغيرهم من العذاب ، وفي الآية تهديد لكل ظالم لأن الذي أهلك اللّه به شذاذ قوم لوط من الحجارة لا يبعد أن يرمي العرب أهل الظلم كافة ، قال تعالى "وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً" تقدم نسبه بالأعراف

(244/371)

"قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ" في سعة من الرزق موسرين غير محتاجين لأكل أموال الناس باطلا بالخلسة "وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ 84" بكم وباله لا يترك منكم أحدا ، ويبدل اللّه خصبكم قحطا ، وسعتكم ضيقا ، ورخصكم غلاء ، فيسلب نعمكم كلها ويحل بكم نقمه إن لم تتوبوا من عملكم هذا ، وذكرنا في الآية 85 من الأعراف أن مدين أحد أولاد إبراهيم عليه السلام ،

وأنه بنى المدينة هذه فسمّاها باسمه ، والمراد أهلها ، ثم أكد عليهم بما يزيد في زجرهم بقوله "وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ" العدل ، بتقويم لسان الميزان ومكانه وتسوية المكيال من كل أطرافه ، وفائدة التصريح بالأمر بالإيفاء مع أن النهي الوارد في الآية السابقة يستلزمه ، لأن النهي عن الشيء عين الأمر بضده أو مستلزم له تضمنا أو التزاما ، لأن الخلاف بمقتضى اللفظ ، لا أن التحريم والوجوب ينفك عن مقابلة الضدّ .

النعي بما كانوا عليه من القبح وهو النقص مبالغته بالكسف ، ثم الأمر بالضد مبالغته في الترغيب وإشعارا بأنه مطلوب أصالة وتبعا مع الإشعار بتبعية الكفر عكسا ، وتقييده بالقسط يفيد أن الفضل الزائد يكون محرمّا أيضا كالنقص ، لأن النقص سرقة من المشتري والزيادة سرقة من البائع ، وهذا ما هو واقع ببعض بلادنا ، ولا مانع ولا وازع ، لأن من الكيالين والملتزمين للباحات التي يباع بها الحبوب وغيرها يفعلون ذلك على علم ومرأى من الحكومة ، فنسأل اللّه أن يبصّر المؤمنين بعيوبهم ويرشدهم للسداد والصواب في كل أمورهم "وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ" أي لا تنقصوا أموالهم ، وفيه معنى التكرار لما سبق أيضا تحذيرا من عاقبة الأمر

و مبالغة بالتأكيد ، لأن التكرار مرتين يفيد شدّة الاهتمام والعناية بالمنهي عنه أو المأمور به ، فكيف إذا كان ثلاثا "وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ 85" وهذا تذييل وتتميم لما تقدم من الأمر والنهي .

واعلم أن العثي يعم تنقيص الحقوق كلها ، لأن معناه مطلق الفساد ، وإنما أكّده بلفظ من معناه إعلاما بأن فعلهم هذا قبيح بذاته ، مشين لهم ، فيه مفسدة لمصالح دينهم وأمر آخرتهم ، ولهذا يقول "بَقِيَّتُ اللَّهِ" التي أبقاها لكم من الحلال في

الدنيا وانتظار الثواب على تركككم الحرام بالآخرة "خَيْرٌ لَكُمْ" مما تسرقونه بالتطفيف إذا بعتم والزيادة إذا اشتريتم "إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ 86" بالله المنتقم منكم بالدنيا وإن أمهلكم فإنه سينتقم منكم بالآخرة ، وإني أتقدم لكم بالنصيحة ابتغاء بقاء نعمكم وخوفا من سلبها إذا أصررتم على ما أنتم عليه (وكلمة بقية) لم تكرر في القرآن "وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ 87" لأموالكم وأنفسكم ولا أقدر أن أنمّيها لكم مع ما أنتم عليه من نقص الكيل والوزن ، لأن الله نهانا عن ذلك ، ولست بحفيظ أيضا على أعمالكم كي أجازيكم عليها ، لأن ذلك كله بيد الله وحده وإنما أنا ناصح ومنذر لكم بأن تحفظوا نعمكم بأداء شكرها وإعطاء حقها "قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ" بما ليس في وسعك وعهدتك من أفاعيل غيرك .

هذا وإن قصدهم بهذا الاستفهام الإنكاري التهكم والتعريض بركاكة رأيه وحاشاه من ذلك ، كيف وهو خطيب الأنبياء ، وإنما خصوا الصلاة دون بقية أحكام الإيمان لأنه عليه

السلام كان أكثر صلاة ممن تقدم من الأنبياء ، وكان قومه ينتقدونه بذلك ويقولون له ما تفيدك هذه الصلاة ؟ فيقول هم إنها تنهى عن القبائح كلها وتأمر بمحاسن الأخلاق ، ومن هنا قوله صلى اللّه عليه وسلم : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من اللّه إلا بعدا .

(246/371)

لأن اللّه تعالى يقول (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) الآية 25 من العنكبوت الآتية ، أي أن صلاتك هذه تأمرك "أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا" من الأوثان "أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا" من النقص والزيادة "إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ 88" في زعمك وزعم أصحابك فلما ذا ابتدعت هذا علينا فلو كنت كذلك لما كان يجوز لك أن تشق عصا قومك ، ولا يجدر بك أن تخالفهم وتسفه عاداتهم .

هذا إذا كان وصفهم له بتلك الصفتين على الحقيقة ، وإذا كانوا يريدون الاستهزاء فيكون المراد ضدهما أي السفيه الضال الغاوي ، لأن العرب تصف الشيء بضده فتقول للديغ سليم ، وللأعمى بصير ، وللفلاة المهلكة مفازة ، وهكذا "قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي" تقدم مثلها "وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً" حلالا بفضله ورحمته من غير نجس وتطفيف ، وكان عليه السلام كثير النعم كثير الخير ، وفي هذه الجملة

معنى الاستفهام ، أي إذا كنت كذلك فهل يمكن أن أخالف أمره وأوافق هواكم وأكتم عليكم ما أمرني به ربي أن أبلغه إليكم كلا لا أقصد ذلك "وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ" فاسبقكم لفعله وأستبد به دونكم مع اعترافكم بكمال عقلي وحسن سجيّتي وإني أختار لكم ما أختاره لنفسي وأنهاكم عما أنزه نفسي عن اقترافه ولا أفعل شيئا قط وأنا أنهى عنه إذ لا يليق بالرجل ذلك ، وعليه قوله :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

"إِنْ أُرِيدُ" لا أريد قط فيما آمركم به وأنهاكم عنه شيئا "إِلَّا الْإِصْلاحَ" لكم بنصحي وموعظتي فيما بيني وبينكم وبين ربي وربكم "مَا اسْتَطَعْتُ" من جهدي وما دمت متمكنّا من الإصلاح فإني لا آلو فيه جهدا ، وسأبذل قصارى وسعي برشدكم وهدايتكم من غير إبصار ولا إكراه .

(247/371)

هذا واعلم أن شأن هذه الأجوبة الثلاثة المبينة على مراعاة حقوق ثلاثة مطلوبة لكل من يأمر وينهى ، فالأول حق اللّه تعالى ، والثاني حق النفس ، والثالث حق الناس ، تدبر قوله البالغ ذروة المعنى والبلاغة وقمة الفقه والفصاحة "وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ" لا أفعل شيئا أو

أتركه إلا بمعونة اللّه وتأييده ، لأنه هو الموفق لطرق الخير والطاعة واجتناب سبل الشر والعصيان ، والتوفيق تسهيل اللّه تعالى على عبده ما يعسر عليه وتيسير ما يصعب "عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ" في أموري كلها "وَإِلَيْهِ أُنِيبُ 89" أرجع خاضعا خاشعا إليه فيما ينزل بي من الخير فأحمده عليه ، ومن الشر فألجا إليه في دفعه ، وقد طلب عليه السلام التوفيق من ربه لإصابة الحق فيما يأتي ويذر والاستعانة به على مجامع أمره ، مظهرا بهذا عدم مبالاته بكفار قومه مهما قالوا أو فعلوا ، ثم كر على قومه فقال "وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ" لا يوقعنكم في الجزم ويكسبنكم إياه "شِقَاقِي" خلافي معكم وتحملكم عداوتي لأجل خيركم "أَنْ يُصِيبَكُمْ" بسببه عذاب عاجل في هذه الدنيا جزاء كفركم وفعلكم السيء فيحل بكم "مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ" من الإهلاك غرقا "أَوْ قَوْمَ هُودٍ" من التدمير بالريح العاصف "أَوْ قَوْمَ صالِحٍ" من الموت بالصيحة "وَما قَوْمُ لُوطٍ"

الذين أهلكوا بالخسف والرجم بالحجارة "مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ 90" لقرب عهد إهلاكهم منكم وهم جيرانكم بالسكن ، وقد حل بهم ما لم يحل بغيرهم ، كما أن جرمهم لم يقترفه غيرهم ، فاتعظوا بهم "وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ" تقدم مثله "إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ" بعباده إذا تابوا وأنابوا "وَدُودٌ 90" بهم كثير الرأفة والمحبة لإيمانهم به ليكونوا قريبين منه

"قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ" لأن اللّه أصمهم وأعمى أبصارهم عن سماع الحق ورؤيته ، وإلا فهل يوجد أنصح كلاما مما خاطبهم به وأبلغ معنى في النفس ، وهو أحسن الخلق مراجعة إلى قومه ، ولكن قولهم هذا والعياذ باللّه من الطبع على القلب والختم على الفؤاد ، ومن يضلل اللّه فما له من هاد ، وانظر لسخافة قولهم "وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً" يتعذر عليك منعنا مما نحن عليه لكبر سنك وضعف بصرك ، وإذا أردنا أن نوقع فيك مكروها فلا تقدر على صدنا منه ولكنّا نحترمك لأجل عشيرتك ولم يقولوا للّه الذي أرسلك ، قاتلهم اللّه ، لأنهم ينظرون إلى ظاهر الدنيا ، وهو عليه السلام كان قويا في عشيرته ولهذا قالوا "وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ" بالحجارة حتى تموت "وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ 92" بعد أن أهنتنا وأهنت ديننا فلا نحترمك ولا نكرمك ، وقتلك علينا هين ، وما قيل إن المراد بعزيز كونه أعمى لا يصح في المعنى ، ونحن ذكرنا في قصته في الآية 85 من سورة الأعراف المارة في ج 1 أن القول بعماه لا صحة له ، لأن اللّه لم يبعث نبيا أعمى ولا من به زمانة ، ولهذا البحث صلة في الآية 84 من سورة يوسف الآتية "قالَ يا قَوْمِ أَرَهْطِي" جماعتي وعشيرتي "أَعَزُّ عَلَيْكُمْ" أهيب وأمنع "مِنَ اللَّهِ" فتكرموني لعزّتهم ولا تكرموني لأجل اللّه الذي خلقكم ورزقكم "وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا" كالشيء الملقى إلى الوراء مثل قدح الراكب ، لا تلتفتوا إليه إلا عند الحاجة "إِنَّ رَبِّي" الذي نبذتموه خلفكم ونسيتموه

"بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ 93" لا يخفى عليه شيء من أعمالكم الظاهرة والباطنة ، وفي هذه الجملة تهديد عظيم ، لأنهم راعوا جانب الرهط ولم يراعوا جناب اللّه ، ولم يعلموا أنه سيعاقبهم على ذلك ، ثم أكّد التهديد بوعيد أشدّ منه فقال "وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ"

(249/371)

و قدرتكم مما تنوونه لي من الشر من كل ما تتمكنون عليه "إِنِّي عامِلٌ" ما أتمكن عليه بقدر ما يؤيدني به اللّه من النصر ويمكنني من القدرة ، فابذلوا أنتم غاية جهدكم في شقاقي وأقصى طاقتكم في عدواني وإني لا أزال أثابر على عمل الخير لكم وترغيبكم لطاعته لعلكم تتنبهون فترجعون إليه ، وإن أصررتم فمصيركم إليه يوم القيامة وهناك "سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ" أنا أم أنتم "وَارْتَقِبُوا" نزول العذاب بكم فقد قرب أوانه "إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ 94" لنزوله منتظر عاقبة أمركم وما يحل بكم من الذلة والإهانة مترقب نتيجة وعيدي لكم ونصرتي عليكم ، قال تعالى "وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا" المحتوم المقدر لنزول العذاب فيهم وانتهى أمد إمهالهم للإيمان "نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا" وفضل ، لأن عادتنا إنجاء المؤمنين ونصرتهم "وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ" من أحد ملائكة اللّه العظام جبريل أو غيره كإسرافيل وميكائيل لأن هؤلاء هم الموكلون بتنفيذ مهام

الأمور وعظائمها بأمر اللّه تعالى "فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ 95" على ركبهم من هول سماعها ، فماتوا جميعا حالة كونهم لاطين في الأرض ملازمين لها في أمكنتهم التي كانوا عليها حين الصيحة ، لأنها أماتتهم حالّا بحيث لم يتحرك أحد من مكانه لهول الصيحة "كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها" في قرية مدين ولم يسكنوها ولم يعمروها وصاروا نسيا منسيا .

(250/371)

فتنبهوا أيها الكفرة وسارعوا بالتوبة إلى ربكم قبل أن يحل بكم ما حلّ بهم "أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ" قوم شعيب وسحقا لهم "كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ 96" قوم صالح لأنهم أهلكوا بالصيحة أيضا مثلهم ولم تعذب أمتان بعذاب واحد غيرهما إلا أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من تحتهم وقوم شعيب من فوقهم ، وما قيل إن الصيحة نوع من العذاب ، لأن العرب تقول صاح بهم الزمان إذا هلكوا ، مستدلين بقول امرئ القيس :

فدع نهبا صيح في حجرته ولكن حديث ما حديث الرواحل

ليس بسديد لما فيه من صرف الكلام عن ظاهره دون مبرر ولمنافاته لما جاء في سورة الأعراف بلفظ الرجفة الحاصلة لهم من خوف الصيحة راجع الآية 91 منها

ج 1 ، وبعدت قرئت بضم العين كما في الآية ، وقرئت بالكسر ، وعليه قوله :

يقولون لا تبعد وهم يدفنوني وأين مكان البعد إلا مكانيا

(251/371)

من بعد يبعد بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع ومعناها على كلا القراءتين الهلاك ، والقصة مفصلة في الآية 93 من الأعراف المارة في ج ، قال تعالى "وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ 97" سميت الحجج والبراهين سلطانا لأن صاحبها يقهر من لا شيء له منها ، كالسلطان بالنسبة لرعيته "إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ" لإرشادهم وهدايتهم باتباعه ، ولكنهم لم يلتفتوا إليه "فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ" الطاغية وكيف يتبعونه وينقادون لأمره "وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ 98" لأنه ضال وكافر وأمره ضلال وكفر غير محمود العاقبة لأنه لا يدعو إلى هدى وسترونه "يَقْدُمُ قَوْمَهُ" إلى النار "يَوْمَ الْقِيامَةِ" وهم وراءه "فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ" أدخلهم فيها لأنه كما كان أمامهم في الضلال في الدنيا حتى أغرقهم في البحر يكون أمامهم في الآخرة حتى يدخلهم جهنم "وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ 99" النار لأن القصد من الورد تسكين ألم العطش والنار ضده فاستعمل في ورود النار على سبيل الفظاعة ، لأنه شبه فرعون بالفارط الذي يتقدم الواردين إلى الماء وأتباعه بالواردين والماء بالنار والعياذ بالله ، "وَأُتْبِعُوا

فِي هذِهِ الدنيا لَعْنَةً" طردا وبعدا من الرحمة "وَيَوْمَ الْقِيامَةِ" لعنة أخرى أفظع من لعنة الدنيا وسيقال لهم "بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ 100" العون المعان بترادف اللغتين لأن كل شيء جعلته عونا لآخر وأسندت به شيئا فقد ردفته ، ولهذا اخترنا تأويل الرفد بالعون على تفسيره بالبطاء الذي هو من معناه أيضا لملاءمة المقام ، إذ لكل مقام مقال "ذِلِكَ" الذي قصصناه عليك يا سيد الرسل من أخبار نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام مع أقوامهم ، وكيفية إهلاكهم لما أصروا على كفرهم ولم يطيعوهم كله "مِنْ أَنْباءِ الْقُرى" السابقة "نَقُصُّهُ عَلَيْكَ" لتخبر به قومك

(252/371)

فينتبهوا من غفلتهم ويتعظوا بما حل بهم علهم يرجعوا عن غبهم ، ولتسلي نفسك وتتأسى بما تأسى به إخوانك الأنبياء قبلك ، لئلا يضيق صدرك مما يجابهونك به ، ولتعلمهم أنهم إذا لم يؤمنوا ويرجعوا إلى اللّه فيصيبهم ما أصابهم من

العذاب ، وما عليك إلا أن تحذرهم سوء العاقبة وتذكر لهم أحوال أسلافهم وآثارهم "مِنْها" أي القرى المهلك أهلها أثرها "قائِمٌ" لم يزل إذ أن قسما من بنائها باق وجدران أكثرها قائمة واقفة على حالها "وَحَصِيدٌ 101" ومنها خراب مندثر محي أثرها بالكلية لطول

الزمن على تركها بلا سكن ، كالأرض المحصود زرعها التي كأنها لم تزرع قبل ، وأطلقت العرب لفظ الحصيد على الفناء كما قيل :

والناس في قسم المنية بينهم كالزرع منه قائم وحصيد

قال تعالى "وَما ظَلَمْناهُمْ" بما أوقعنا فيهم من العذاب المهلك "وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ" بإصرارهم على الكفر ورفض نصح الرسل حتى ماتوا مشركين بالله كفّارا منكري الآخرة "فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ" أوثانهم "الَّتِي يَدْعُونَ" يعبدونها ويستغيثون بها عند المحن ويرجون نصرتها "مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ" ولم ترد بأسه عنهم في الدنيا "لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ" بإهلاكهم "وَما زادُوهُمْ" في الآخرة عند استشفاعهم بهم "غَيْرَ تَتْبِيبٍ 102" تدمير وتخسير وتب بمعنى خسر وتبّه غيره أوقعه في الخسران ، أي أن عبادتهم للأصنام فضلا عن أنهم لم تفدهم شيئا فقد أهلكتهم فوق إهلاكهم حتى دمّروا تدميرا ، قال بشر ابن أبي حاتم :

هم جدعوا الألوف فأذهبوه وهم تركوا بني سعد تبابا

"وَكَذَلِكَ" مثل ذلك الأحد العظيم : "أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ" حالة كون أهلها كافرين عتاة "إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ 103 "كما علمت من كيبة أخذ الأمم لكذبة لرسلها ، روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إن اللّه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته :

ثم قرأ هذه لآية .

وحكم هذه الآية عام في كل ظالم إلى يوم القيامة ، ألا فليحذر الظالمون هذه العاقبة السيئة ويتداركوا أنفسهم بالتوبة وإرجاع المظالم إلى أهلها ، كي لا يعرضوا أنفسهم لغضب اللّه فيدخلوا في هذا الوعيد الشديد المؤلم "إِنَّ فِي ذَلِكَ" الأخذ والإهلاك "لَآيَةً" عظيمة وعبرة كبيرة "لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ" لأنه إذا علم ما وقع في الدنيا على المجرمين اتعظ وعمل لما يقي نفسه من مثله ،

ومن العذاب الأخروي المعد لهم الذي لا يقاس بعذاب الدنيا ، لأنه بالنسبة لعذاب الآخرة قليل من كثير "ذَلِكَ" اليوم الذي يكون فيه عذاب الآخرة "يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ" لأجل الحساب أولهم وآخرهم برهم وفاجرهم "وَذَلِكَ" اليوم العظيم "يَوْمٌ مَشْهُودٌ 104 فيه أنواع العذاب مما لا تطيقه الصنم الرّواسي ومن أنواع النعيم ما تبتهج به النفوس وكل منهما مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، والمعنى كثر شاهد و ذلك اليوم فحذف الجار وصار المجرور مفصولا على التوسع في الجار والمجرور ووصل الفعل إلى

الضمير إجراء له مجرى المفعول به لأن الضمير لا يجوز نصبة على الظرفية والجار لا يعمل بعد حذفه فيكون من باب الحذف ولإيصال وهو كثير في كلام العرب ويكون في الاسم كمشترك وفي الفعل كقوله :

ويوم شهدناه سليما وعامرا قليل سوى طعن الدراك نوافله

(254/371)

وفي رواية النهال بدل الدراك أي مشترك فيه وشهدنا فيه ، والمعنى أن الخلائق كلهم يشاهدون ذلك الموقف المهول ليس أهل الأرضين فقط بل أهل السموات جميعهم أيضا "وَمَا نُؤَخِّرُهُ" أي ذلك اليوم الذي يجمع فيه الخلق كلهم "إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ 105 سنبينه وشهوره وأيامه ولحظاته كما هو في علمنا لا يطلع عليه أحد "يَوْمَ يَأْتِ" أجل ذلك اليوم بانتهاء الأمد المضروب له عند اللّه الذي لا يتخطاه .

مطلب في ضمير يأت والجمع بين الآيات المتعارضة ومعنى الاستثناء في أهل الجنة والنار :

وقد أعدنا ضمير يأت إلى الأجل خلافا لبعض المفسرين ، وقد منع بعضهم عوده إلى اليوم محتجا بأن تعرف اليوم بالإتيان يأبى تعرف الإتيان به ، لأن إتيان اليوم لا ينفك عن يوم الإتيان ، وأعاده للجزاء الذي يقع فيه وبعضهم أعاده للّه تعالى .

وليعلم أن منع عوده لليوم ممنوع لأن كل زمان له شأن يعتبر تجدده كالعيد وعاشوراء والنيروز والساعة مثال يجري مجرى الزمان وإن كان في نفسه زمانا فباعتبار تغير الجهتين صحت الإضافة والإسناد كما يصح أن يقال يوم تقوم الساعة ويوم يأتي العيد والعيد في يوم كذا فالأولى زمان وضميره أعني فاعل الفعل

(255/371)

زماني وعود الضمير للجزاء لا وجه له لعدم ذكره سابقا وعود الضمير على ما لم يكن موجودا إذا لم يكن معلوما أو لم يسبق له ذكر لا يجوز ، وعوده للّه تعالى غير سديد لأنه جل شأنه هو المتكلم والضمير لا يعود لنفس المتكلم في مثله وكذلك الحال على قراءة يؤخره بالياء لا يتجه عود الضمير إليه تعالى بل ضمير يؤخره يعود إليه تعالى ، وحذف ياء يأت وصلا ووقفا جائز للتخفيف كما في لا أدر ولا أبال وأثبتها النحويان ونافع بالوصل وابن كثير بالوصل والوقف وباقي السبعة بالحذف في الحالتين لأن الإجذاء بالكسرة عن الياء كثير لا سيما في لغة بل "لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ" مطلقا أو بما يتعلق بالشفاعة بدليل قوله عز قوله "إِلَّا بِإِذْنِهِ" أدبا واحتراما من جهة ولشدة الخوف وطول زمنه من جهة أخرى ، وهذه الآية وإن كانت ظاهرا تتعارض مع قوله تعالى (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها) الآية 111 من سورة

النحل ، وقوله تعالى (ما كُنَّا مُشْرِكِينَ) الآية 24 من سورة الأنعام الآتيتين وغيرهما من الآيات الدالة على وجود التكلم والخصام يوم الموقف ، إلا أنه لا معارضة في الحقيقة لأن يوم القيامة يوم طويل تختلف فيه أحوال أهله فتارة يسكتون ومرة يجادلون وطورا يتعاتبون وأخرى يجحدون ويحجمون عن الكلام لما تأخذهم الدهشة من هيبة الموقف فكأنهم ألجموا بألجمة محكمة لا يستطيعون معها التكلم وبعضا يؤذن لهم بالكلام وإبداء للعذر وقد ينسح لهم بالكلام فينكرون ما عزي إليهم كما أوضحناه في الآيتين 35 26 من سورة الأعراف وما قبلها والآية 109 من سورة طه والآية 27 من سورة فاطر المارات في ج 1 ، وللبحث صلة في الآية 19 فما بعدها من سورة فصلت والآية 21 من سورة إبراهيم الآتيتين ، لهذا جاز التوفيق بين الآيات المتعارضات لصرف كل منها لما يناسبها وهذا هو وجه الجمع بينها فلا تعارض من حيث المعنى ولا تنافي من جهة الحكم ولا تباين

(256/371)

من حيث اللفظ هذا على أن منع التكلم مطلقا ، أما إذا كان منع التكلم مما يتعلق بالشفاعة فلا معارضة لا من حيث الظاهر ولا من جهة الحقيقة ، لأن الشفاعة لا تكون لأحد إلا بإذن اللّه ومن تكلم بإذنه كان مأمورا بالتكلم ولا يقال لمثله أنه تكلم من تلقاء نفسه "فَمِنْهُمْ

شَقِيٌّ" بسوء عمله "وَسَعِيدٌ 106" بحسنه أي ينقسمون إلى قسمين

لا ثالث لهما وقدمنا في الآية 41 فما بعدها من سورة الأعراف فيما يتعلق بها فراجعه ثم

بين ما لكل منها فقال "فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا" بحكم اللّه الأزلي لما هم عليه من الكفر "فَفِي النَّارِ

لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ" مد النفس وإخراجه من الصدر وترديده فيه حتى تنتفخ منه الضلوع

"وَشَهِيقٌ 107" رد النفس وإرجاعه إلى الصدر وهما معروفان عند العرب قال الشماخ

في حمار وحشي :

بعيد مدى التطريب أول صوته زفير ويتلوه شهيق محشرج

"خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ" في الآخرة لأنهما في الدنيا زائلتان قال تعالى

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ) الآية 49 من سورة إبراهيم الآتية ، وكل ما

علاك فأظلت فهو سماء وكل ما استقرت عليه قدماك فهو أرض ، وهذا كلام يؤذن بالتأبيد

وبعلم بدوام الشر .

(257/371)

جريا على عادة العرب ، فإنهم يقولون لا آتيك ما دامت السموات والأرض ، وما دام الملوان

، وتعاقب النيران ، وتخالف الجديدان ، يكنون بذلك التأبيد ، وهذا الخلود المحتم في النار

للكافرين ينفي صرف الدوام للسموات والأرض الموجودة الآن "إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ" لبعض عصاة المؤمنين الذين يدخلهم النار جزاء اقترافهم عظائم الذنوب ثم يخرجهم منها إن شاء فيكون الاستثناء منقطعا ، لأنه من غير جنس المستثنى منه ، لأن الذين أخرجوا من النار بعد تعذيبهم فيها موقتا سعداء في الحقيقة ، وقد استثناهم اللّه تعالى من الأشقياء ، يدل على هذا ما أخرجه البخاري ومسلم عن جابر قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إن اللّه سبحانه وتعالى يخرج قوما من النار بالشفاعة فيدخلهم الجنة .

وفي رواية يخرج ناسا من النار فيدخلهم الجنة .

وروى البخاري عن عمران بن حصين أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال يخرج قوم من النار بالشفاعة فيدخلون الجنة يسمون الجهنميين "إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ 108" لا معارض له ولا راد لإرادته "وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ" لهم فيها بهجة وسرور ، وقرىء سقوا بالبناء للفاعل ، وسعدوا للمفعول ، وقرىء بالمفعول والفاعل "خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ" وهم قوم من العارفين المخلصين وينقلهم ربهم إلى مأوى أكبر وأجل منها وهو المقام الذي يرون به ربهم

عز وجل ، فيحل رضوانه عليهم ويتجلى لهم فيه ، وعليه يكون الاستثناء متصلا ، لأنهم من السعداء ولو تفاوتت درجاتهم ، ويكون الاستثناء منقطعا إذ أرجع إلى مدة لبث المستثنين من النار قبل دخولهم الجنة ، فلا يكون خلودهم فيها كامل ، بالنسبة لأمثالهم ، لأنهم لم يدخلوها ابتداء "عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ 109" غير مقطوع بل هو مستمر أبدا دائم سرمدا هذا ما شاءه اللّه لأهل الجنة أللهم اجعلنا من أهلها ولم يخبرنا بما شاءه لاهل النار ، روى ابن مسعود عن أبي هريرة وعمرو بن العاص قال : ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد ، فإذا صح هذا يحمل على إخلاء أماكن المؤمنين الذين استحقوا النار من النار بعد إخراجهم منها ، أو على إخراج الكفار من النار إلى الزمهرير ، إذ ثبت بالدليل الصحيح القاطع وإجماع أهل السنة والجماعة خلود المؤمنين بالجنة والكافرين بالنار وإخراج جميع الموحّدين من النار وإدخالهم الجنة .

وقال بعضهم إن العصاة لا يخرجون ، ويرد قولهم ما نقلناه في الأحاديث الصحيحة ، ولا حجة لهم إلا الطعن بصحتها ولن يتيسر لهم فعلا .

هذا ، وقد أخرج ابن المنذر عن الحسن قال : قال عمر رضي اللّه عنه لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون فيه وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن إبراهيم قال : ما في القرآن آية أرجى لأهل النار من هذه الآية يريد الاستثناء الوارد فيها .

وليعلم أن السعادة هي معاونة الأمور الإلهية للإنسان ومساعدته على فعل الخير والصلاح

وتيسيره لها ، وهذه السعادة الدنيوية تؤول إلى السعادة الأخروية التي نهايتها الجنة ، والشقاوة علي خذلان العبد وانهماكه فيما حرم اللّه عليه وتماديه في موارد البغي والطغيان ، وهذه الشقاوة الدنيوية توصله إلى الشقاوة الأخروية التي غايتها النار وفاقا لما هو في علم اللّه الأزلي .

(259/371)

روى البخاري ومسلم عن علي كرم اللّه وجهه قال : كنا في جنارة في بقيع الفرقد (مقبرة أهل المدينة) فاتانا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس وجعل ينكث (يضرب الأرض) بمخصرته (وهي عصاة كالسوط رأسها يشبه القوس للزناد) ثم قال ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار ، فقالوا يا رسول اللّه أفلا نتكل على كتابنا ؟ فقال اعملوا فكل ميسّر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسيصير لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسيصير لعمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ (فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى) الآية 5 فما بعدها من سورة والليل المارة في ج 1 ، وقد ذكرنا ما يتعلق في هذا في سورة والعصر المارة في ج 1 فراجعه .

هذا وهناك أقوال أخر في الاستثناء الآنف الذكر في حق الفريقين أعرضنا عن ذكرها لمضاربة بعضها لبعض فضلا عن كثرتها ، وفائدة دفع توهم كون الخلود أمرا واجبا عليه تعالى لا يمكن له نقضه ، وهو جل شأنه ما عليه واجب وغاية ما فيه إرشاد العباد إلى تفويض الأمور إليه تعالى وإعلامهم بأنها منوطة بمشيئته يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا حق لأحد عليه ولا يجب شيء عليه (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ) الجملة من الآية المارة ، فإذا شاء تعذيب أهل الجنة فعل وإذا شاء تنعيم أهل النار فعل ، لا منازع له ، له الخلق والأمر ، ولا يبعد أن يكون هذا الاستثناء على نمط الاستثناء الذي ندب إليه الشرع في كل كلام على نحو قوله تعالى (لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) الآية 28 من سورة الفتح في ج 3 استثناء في واجب وهو في حكم الشرط كأنه قيل إن شاء ربك فليس يحتاج أن يوصف بمتصل أو منقطع ، وذكرنا في الآية 19 من الفرقان والآية 72 من مريم المارتين في ج 1 ، دحض قول من يقول إن مرتكب الكبيرة يخلد في النار فراجعه ، وقد أخرج الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال :

لما نزلت (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) قلت يا رسول اللّه فعلام نعمل على شيء قد فرغ منه أو

على شيء لم يفرغ منه ؟ قال بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر ولكن كل ميسر لما خلق له .

(261/371)

وأخرج الترمذي والنسائي عن ابن عمر رضي اللّه عنهما قال : خرج علينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وفي يده كتابان فقال أتدرون ما هذان الكتابان قلنا لا يا رسول اللّه أما تخبرنا ؟ فقال الذي بيده اليمنى هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وآبائهم وقبائلهم ثم أجملهم على آخرهم فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبدا ، ثم قال الذي بشماله هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وآبائهم وقبائلهم ثم أجملهم على آخرهم فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبدا ، ثم قال للذي بشماله هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وآبائهم وقبائلهم ثم أجملهم على آخرهم فلا يزداد فيهم و لا ينقص منهم أبدا ، فقال أصحابه ففيم العمل يا رسول اللّه إن كان أمر قد فرغ منه فقال سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل ثم قال صلى اللّه عليه وسلم بيده هكذا فنبذهما وقال فرغ ربكم من العباد فريق في الجنة وفريق في السعير ، وجاء في حديث آخر الشقي من شقي في

بطن أمه والسعيد من سعد في بطن أمه وحمل معناه على ظهور الأمر للملك الموكل بالنطفة وإلا فالأمر قبل ذلك .

واعلم أن في هذه الآية من أنواع البديع صفة الجمع مع التفريق والتقسيم ، أما الجمع ففي قوله تعالى (يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ) فإن النفس كما تقدر عامة لكونها نكرة في سياق النفي وكل نكرة جاءت في سياق النفي تعم .

وأما التفريق ففي قوله تعالى (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) وأما التقسيم ففي قوله تعالى (فَأَمَّا الَّذِينَ) إلخ الآية (وَأَمَّا الَّذِينَ) إلخ ، وعليه جاء قول الشريف القيرواني :

لمختلفي الحاجات جمع ببابه فهذا له فنّ وهذا له فنّ

فللخامل العليا وللمعدم الغنى وللمذنب العتبى وللخائف الأمن

(262/371)

و أمثاله كثير ، هذا وقد جاءت الأفعال في الآية بالماضي مع أنها في الواقع مستقبلة إشارة إلى تحقيق وقوعها كما ذكرنا في مثلها غير مرة ، قال تعالى "فَلا تَكُ" يا سيد الرسل "فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ" الكفرة من الأصنام "ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ" من الأوثان قبلهم وهو مستندهم في عبادتها لا غير لأن غاية ما يحتجون به هو أنهم رأوا آباءهم تعبدها

فعبدوها فلا تتعب نفسك فيهم أو تشك في أمرهم "وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ" من العذاب تاما كاملا كما أوفيناه لأسلافهم "غَيْرَ مَنْقُوصٍ 110" إذا أصروا على ما هم عليه على أنا سنوفيهم رزقهم الدنيوي كاملا أيضا ليستوفوا تمام أجلهم فيها وفي هذه الآية إشارة إلى مزيد فضل اللّه على عصاته إذ لم يقطع شيئا من رزقهم مع ما هم عليه من الكفر على أن معنى النصيب يدل على أن المقصود به رزق الدنيا لأنه مما يطلب ويراد والعذاب بمعزل عن ذلك ويؤكد هذا قوله تعالى (وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا) الآية 76 من القصص المارة في ج 1 ، وقال بعض المفسرين : المراد بنصيبهم عذابهم في الدنيا و الآخرة ، قال تعالى "وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ" إذ صدق به بعض قومه وكذبه آخرون كما فعل قومك معك فلا تضجر من تكذيبهم فلك أسوة بمن قبلك "وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ" بتأخير العذاب عن منكري حقك لأجل معلوم عندنا محدود لا يبدل ولا يغير "لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ" حال تكذيبهم وكذلك الأمم السابقة فقد أمهلوا لانقضاء آجالهم المعينة عندنا "وَإِنَّهُمْ" لا يزالون "لَفِي شَكٍّ مِنْهُ" بأنه أي القرآن بدليل سبق كتاب موسى عليه السلام بأنه من عند اللّه منزل عليك أو أنهم في شك "مُرِيبٍ 111" من نزول العذاب بهم وقد أوقعهم هذا الشك في الرية بنزوله وتوهموا عدم صحته

"وَإِنَّ كُلًّا" من الفريقين المختلفين المصدق منهم والمكذب (والتنوين في كلا يسمى تنوين العوض لأنه عوض عن المضاف) "لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ" أي والله ليوفينهم جزاء أعمالهم فاللام فيه للقسم فيثيب المصدق الجنة والمكذب النار ، ولما هنا بمعنى إلا مثلها في قوله تعالى في الآية 4 من سورة الطارق المارة في ج 1 وهي (كل نفس لما عليها حافظ) وقرىء لما بالتنوين بمعنى جميع مثلها في قوله تعالى (أكلا لّما) الآية 19 من سورة الفجر المارة في ج 1 أيضا ، وقد تكون ظرفا بمعنى حين وعليه يكون المعنى وإن كلا حين يبعثوا ليوفينهم جزاء أعمالهم دون حاجة إلى الإثبات "إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ 112" لا يخفى عليه شيء من عملهم ، وفي هذه الآية وعد وبشارة للمصدقين ووعيد وتهديد للمكذبين .

مطلب في الاستقامة والتقوى والورع وما يتفرع عنهما :

قال تعالى يا سيد الرسل "فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ" من الاستقامة التي أمرناك بها لا تعدل عنها قيد شعرة فهي طريق توفيقك لما وعدناك به من النصر والظفر وهذا أمر تأكيدي بطلب المثابرة والدوام على الحالة الأولى كقولك للقائم قم حتى آتيك ، أي دم على ما أنت عليه "وَمَنْ تابَ مَعَكَ" وآمن بك وبما أنزل عليك ، فعليهم أيضا أن يلازموا الاستقامة ويداوموا عليها .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ

روغان الثعلب .

وروى مسلم عن سفيان بن عبد اللّه الثقفي قال : قلت يا رسول اللّه قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ، قال : قل آمنت باللّه ثم استقم .

(264/371)

فالاستقامة كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق ، كالتقوى فإنها كلمة جامعة لكل خير ، وكالورع فإنها كلمة جامعة لكل بر ، فالاستقامة تشمل العقائد والأعمال المشتركة بينه صلى اللّه عليه وسلم وبين سائر المؤمنين ، بل وبين الخلق أجمع ، وتشمل الأمور الخاصة به عليه السلام من تبليغ الأحكام والقيام بوظائف النبوة وتحمل أعباء الرسالة وغير ذلك ، وقالوا إن التوسط بين الإفراط والتفريط بحيث لا يكون ميل لأحد الجانبين قيد عرض شعرة مما لا يحصل إلا بالافتقار إلى اللّه تعالى ، ونفي الحول والقوة بالكلية ، ومثلوا الأمر المتوسط بين ذينك الطرفين بالشيء الموجود غير المدرك الذي يكون بين ضوء الشمس والظل ، فإنه ليس بشمس ولا ظل ، بل هو أمر فاصل بينهما ، ولعمري إن ذلك لدقيق ، راجع الآية 25 من سورة الفرقان في ج 1 ولذلك قالوا لا يطيق الاستقامة إلا من أيد بالمشاهدات القوية والأنوار السنية ، ثم عصم بالتثبت بالحق .

قال تعالى (وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) الآية 75 من الإسراء في ج 1 ، وجعل بعض العارفين الصراط الذي هو أرق من الشعرة واحد من السيف إشارة إلى هذا النهج المتوسط ، ومما يدل على شدة هذا الأمر ما أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية قال صلى اللّه عليه وسلم شمروا شمروا ، وما رئي بعدها ضاحكا .

وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه قال : ما نزلت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم آية أشد من هذه الآية ولا أشق .

واستدل بعض المفسرين على عسر الاستقامة بما شاع من قوله صلى اللّه عليه وسلم شيبتني هود .

كما أخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال شيبتني هود وأخواتها وما فعل بالأمم قبل .

(265/371)

وذلك لأن مبنى هذه السورة على إرشاده تعالى شأنه نبيه صلى اللّه عليه وسلم إلى كيفية الدعوة من مبدئها إلى آخرها ، وإلى ما يعزى لمن تصدى لهذه المرتبة العظيمة من الشدائد ،

واحتماله لما يترتب عليه من الفوائد ، وهي أي هذه السورة الجليلة جامعة لإرشاده صلى اللّه عليه وسلم من مفتتح أمره إلى مختتمه ، وهذه الآية كالفذلكة لها فحينما نزلت هذه السورة هاله ما فيها من الشدائد ، وخاف من عدم القيام بأعبائها ، حتى إذا لقي اللّه تعالى في يوم الجزاء ربما مسّه نصيب من السؤال عنها ، فذكر القيامة في تلك السور أي هود وإخوتها كآل حميم وغيرها ، يخوفه هولها لاحتمال تفريطه فيما أرشده اللّه تعالى له فيها ، وقد كررت الجملة الأولى من هذه الآية في الآية 14 من سورة الشورى الآتية ، وهذا لا ينافي عصمته عليه السلام وقربه من ربه ، لكونه الأعلم باللّه والأخوف منه ، فالخوف منها يذكره بما تضمنته هذه السورة ، فكأنها هي المشيبة له من بينها ، ولذا بدأ بها في جميع الروايات ، ولما كانت تلك الآية فذلكة لها كانت هي المشيبة في الحقيقة واللّه أعلم .

وسنأتي على تتمة هذا البحث في الآية الآتية إن شاء اللّه ثم خاطب جل خطابه الخلق أجمع بقوله "وَلَا تَطْغَوْا" أيها الناس فتخرجوا عن حدود اللّه ، ولا تعلوا في الدين أيها المؤمنون فتتجاوزوا عما أمرتم به ونهيتم عنه فتغلبوا ولا تخالفوا أيها الناس أوامر اللّه فتعصوه في شيء ما ، ولا تنحرفوا بإفراط ولا تفريط ، فكلاهما ذميم ، وسماء اللّه طغيانا تغليظا أو تغليبا لحال سائر المؤمنين على حاله صلى اللّه عليه وسلم "إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ 113" قال ابن عباس ما نزلت آية على رسول اللّه أشد عليه من هذه الآية ، ولذلك قال شيبتني

هود وأخواتها الحافة والواقعة والنبأ والغاشية والمرسلات وكورت وآل حم ، لكثرة ما فيها من ذكر القيامة والبعث والحساب والجنة والنار .

(266/371)

واعلم أن هذه الآية الكريمة تؤذن بوجوب اتباع المنصوص عليه من الأحكام الشرعية دون انحراف ، وان أعمال العقل الصرفة بما يخالف المشروع طغيان وضلال ، أما العمل بمقتضى الاجتهاد التابع لعلل النصوص الشرعية فهو من باب الاستقامة بمقتضى النصوص الآمرة بالاجتهاد .

مطلب الزجر عن مخالطة الظالم وأن الدين بين لامين والآية المدنية والصلوات الخمس :

قال تعالى "وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا" أنفسهم بمخالطتهم ، أي لا تميلوا أيها المؤمنون إلى الظالمين ، ولا تحبوهم ، ولا ترضوا بأعمالهم المؤدية إلى غضب اللّه ولا تطيعوهم فيما يخالف دينكم ، فإنكم إن فعلتم شيئا من هذا "فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ" وتذيب أعضاءكم بحرها ، لأن الركون إليهم رضا بأعمالهم التي قد تؤدي إلى الكفر ،

ولا شك أن الرضا بالكفر كفر ، والمحبة للشيء إلحاق به .

قال تعالى (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) الآية 35 من التوبة في ج 3 ، قال الحسن : جعل اللّه

الدّين بين لامين (ولا تطغوا ولا تركنوا) .

وقال سفيان : في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك ، لأنهم يداهنونهم ويسكنون عن مظالمهم .

وقال الأوزاعي ما من شيء أبغض إلى اللّه من عالم يزور عاملا .

وقال صلى اللّه عليه وسلم : من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى اللّه في أرضه .

وسئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية هل يسقى شربة ماء ، فقال لا ، فقيل له إنه يموت ، فقال دعه يموت .

(267/371)

أي إن كان انقضاء أجله معلق على عدم إعطائه هذه الشربة فدعه يموت وإلا فلا يموت وله شيء في الدنيا حتى نسمة الهواء إلا يستوفيها ، فقد جعله رحمه اللّه أدنى حالا من أدنى حيوان ، إذ النصوص الشرعية تقضي على من عنده ماء واحتاج للوضوء به وعنده كلب ظمآن بأن يسقي ما عنده من الماء ذلك الكلب ويتيمم بالتراب ، إذ في كل كبد حراء أجر ، وذلك اجتهاد من سفيان رضي اللّه عنه ، وهو أن بقاء الحيوان لا ضرر فيه على أحد ، وأن بقاء الظالم فيه ضرر ، ولهذا رجح الحيوان عليه .

وروي عن الموفق أبي أحمد بن طلحة العباسي ، أنه صلى خلف الإمام فلما قرأ هذه الآية غشي عليه ، فلما أفاق قيل له ما بالك ؟ فقال هذا فيمن ركن إلى من ظلم فكيف بالظالم نفسه ! لذلك ينبغي هجرهم وعدم التزيي بزيهم ، وعدم زيارتهم ، لما فيها من تعظيم ، وهو حرام ، وينبغي لمن لا يخاف من شرهم أن يهبنهم ولا يجالسهم إلا لمعذرة شرعية ، ولقضاء مصلحة من لا ناصر له .

هذا ، واعلم أن خطاب اللّه تعالى حضرة رسوله بهذين النهيين بعد الأمر بالاستقامة للتثبت عليها والتأكيد على ملازمتها لأنه من مقتضاها .

والحث على الدوام والثبات عليها من واجبات المسلمين لبعضهم وعلى بعضهم ، وانه يجب على كل فرد أن يتحلى بها في بيعه وشرائه ، وأكله وشربه ، ولبسه ومحبته ، ومع أصحابه ، وسائر معاملاته مع ربه وأهله والناس أجمعين ، فإن الدين المعاملة أي حسنها وسلامتها من الشوائب ، لأن المراد من جملتها عماد الدين حسن المعاملة ، كما أن الدين النصيحة للّه ولرسوله والناس أجمعين ، لأن المعاملة والنصيحة جزء عظيم من أمور الدين لا معظمه ، مثل الحج عرفة ،

(268/371)

لأن الوقوف بعرفات معظم الحج ، وبغيره لا يسقط الفرض ، بل هذا من قبيل الناس تميم ، والمال الإبل ، والطعام اللحم ، إلى غير ذلك ، فإذا تحلّى العاقل بالصفات المارة في معنى الاستقامة دخل في قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) الآية 30 من فصلت الآتية ، فمثل هؤلاء يموتون ميتة سعيدة هنيئة ، ويخاطبون ربهم دلالا ، فيقولون له يا ربنا ما حال أولادنا بعدنا ؟ فيقال لهم "نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا"

عليهم نتولاهم بذاتنا بعدكم "وَفِي الْآخِرَةِ"

نتولاكم وإياهم في جنتنا " (وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ)

من جميع الملاذ (وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ)

من كل ما تريدونه وتقر أعينكم به ، قال تعالى "وَما لَكُمْ" إذا لم تستقيموا على الطاعة والعمل الصالح وتجتنبوا الطغيان والركون إلى الظلمة "مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ" يمنعونكم من عذابه إذا حل بكم في الدنيا والآخرة "ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ 114 " أبدا ولا تظفرون بمطلوبكم ولا تفوزون بنجاح مهماتكم ، ولا شك أن هذا الخطاب مقصود به المؤمنون كما ذكر آنفا ، وأنه تغليظ أو تغليب لحال المؤمنين عليه صلى اللّه عليه وسلم وإلا فهو معصوم من الطغيان ومن الركون إلى الظلمة والظلم كليته وجزئه .

وهذه الآية المدنية الأخيرة من هذه السورة قال تعالى "وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ" غدوة وعشية ، فدخل فيها الصبح والظهر والعصر "وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ" أقرب ساعاته وزلف بمعنى قرب فيدخل فيه المغرب والعشاء "إِنَّ الْحَسَناتِ" التي أعظمها الصلوات الخمس "يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ" على اختلاف أنواعها بمنه وكرمه إذا شاء وأراد "ذلِكَ" إشارة إلى قوله استقم فما بعده "ذِكْرى" عظيمة لمن يتذكر وعظة كبيرة لمن يتعظ في مغزى الأمرين والنّهيين المارين وفيها نفع جليل "لِلذَّاكِرِينَ 115" اللّه تعالى في جميع أحوالهم ، لأن ذكر اللّه يمنع من مخالفته .

روى البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة ، وفي رواية أصاب منها كل شيء إلا الجماع ، فأتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فذكر له ذلك فنزلت هذه الآية ، وكانت هذه الحادثة في المدينة ، فقال الرجل هو هو أبو اليسر الأنصاري يا رسول اللّه الي هذه الآية ؟ قال لمن عمل بها من أمتي .

وفي رواية قال رجل

من القوم يا نبي اللّه هذه له خاصة ؟ قال بل للناس كافة .

وهذا مما يؤيد أن الأسباب لا تقيد الآيات فإنها وإن نزلت بمعين فمعناها يبقى عاما شاملا غيره .

هذا وما ذكرناه قبلا بمناسبة الآيات المدنيات بأنها كالعترضة قبلها وبين ما بعدها لا يمنع أن تشير إلى ما قبلها من الآيات كهذه ، لأنها لم تأت إلا لمناسبة ، وكذلك الآيات المكيات في السور المدنيات ، وكذلك بين السور .

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن .

زاد في رواية : ما لم يغش الكبائر .

وزاد في أخرى : ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر .

وروى البخاري عن جابر قال : قال صلّى اللّه عليه وسلم مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات .

(270/371)

قال الحسن وما يبقى من الدرن .

وروى الترمذي عن أبي ذر جندب بن جنادة وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي اللّه عنهما عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال :

اتق اللّه حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن .

وقال العلماء الصلوات والأعمال الصالحة تكفر الذنوب الصغائر ، استنباطا من هذه الأحاديث .

أما الآية فهي عامة للصنفين ، إلا أن جمهور العلماء خصّوها بالصغائر ، وقالوا أما الكبائر فلا يكفرها إلا التوبة النصوح .

وسنأتي على ذكرها في سورة التحريم في ج 3 إن شاء اللّه تعالى القائل "وَاصْبِرْ" يا أكرم الرسل على أذى قومك وما تلاقيه منهم وعلى القيام بما أمرت به من الاستقامة وأداء ما افترضته عليك ، وأحسن لمن أساء إليك "فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ 116" لأنفسهم ولربهم بالإحسان إلى عباده والناس أجمعين ، بل يجازيهم عليه جزاء حسنا وافيا .

وانظر رعاك اللّه إلى بلاغة هذه الآيات الجليلة (وكل آياته جليلة ، إلا أن بعضها أبلغ من بعض ، كما أن منها الحسن والأحسن) راجع الآية 5 من سورة يوسف والآية 55 من الزمر الآتيتين ، كيف أفرد بخطابه جل خطابه أوامر أفعال الخير لحضرة الرسول ، وإن كانت في المعنى عامة له ولأمته ، وجمع أوامر النهي لصرفها لامته تعظيما لشأنه وإجلالا لقدره ، وكل منها يفيد المعنى المطلوب .

قال تعالى "فَلَوْلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ" الذين أهلكناهم "مِنْ قَبْلِكُمْ" يا أمة

محمد ، وكلمة لولا للتحضيض وكذلك أخواتها لوما ولو وأما ولما وإذا وكلما ، وكل منها يقيد الشرط ويحتاج للجواب ، لكنها لا تجزم ، وكلمات التحضيض كهذه تختص بالمضارع ، وكذلك أحرف العرض كألا وأما ، أما إذا كانت للتوبيخ والتذميم فتختص بالماضي كقوله تعالى (لَوْلا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ) وقوله (لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ) الآيتين 12/16 من سورة النور في ج 3 ، وغيرها كثير في القرآن أما كلما ولما فلا تدخلان إلا على الماضي هذا واسم كان المارة "أُولُوا بَقِيَّةٍ" من فضل وخير وتقى ورأي سديد وعقل رشيد ، وأطلقت البقية على هذه الألفاظ لأن الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله فيصطفيه لنفسه ويدخره ، ومن هنا يقال فلان من بقية القوم أي خيارهم ، وعليه فسّر بيت الحماسة :

إن تذنبوا ثم يأتيني بقيتكم فما على مذنب عندكم فوت

ويقال في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا ، وقرىء بقية على وزن صورة مصدر بقي يبقى كرضي يرضى بمعنى راقب وانتظر ، وعليه يكون المعنى فهلا كان لهم ذو ابقاء لنفسهم وصيانة لها عما يوجب سخط اللّه وعقابه "يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ" ويقيمون العدل فيها لما أهلكناهم ولكن لم يكن فيهم جماعة من أولى النهى والدين ينهى عن الفساد ، وفي هذه الآية تعجب من اللّه لرسوله وأمته بأن الأمم السالفة لم يكن فيهم من يزجر عن المعاصي ويحذر من عاقبة السوء ، ومثل هؤلاء في عداد من قال اللّه تعالى فيهم (كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ

مُنكَرٍ فَعَلُوهُ) الآية 78 من سورة المائدة ج 3 ، ولو كان لرفعوا عن قومهم العذاب وإنما أهلكوا لعدم وجود من يأمر بمعروف وينهى عن منكر ، وإيذان بأن أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيهم من يقوم بذلك ، كيف لا وقد قال صلى الله عليه وسلم : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله أي بقيام الساعة .

(272/371)

ولهذا لم يهلكهم إهلاك الأمم المكذبة استئصالا "إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنا" استثناء منقطع ، أي لكن قليلا منهم وهم الذين آمنوا بالرسل أنجيناهم مع رسلهم ، لأنهم كانوا عونا لهم في النهي عن الفساد وسائرهم تاركون له ، ومن في قوله ممن للبيان لا للتبعيض ، لأن النجاة للناهين وحدهم بدليل قوله (أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا)
الآية 165 من الأعراف في ج 1 "وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ" من النعم وترفهوا فيه من الشهوات وحب الرياسة ، ورفضوا الأمر بالمعروف ونبذوا النهي عن المنكر ، وأعرضوا عن حق الله فجعلوه ظهريا .

والترف التوسع في النعمة ، وقد يتعدى به إلى ما لا يحل ، قال تعالى (وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها)

الآية 16 من الإسراء في ج 1 "وَكَانُوا مُجْرِمِينَ 117" بعملهم ذلك فحكم اللّه عليهم بالعذاب لارتكابهم الجرائم وأعظمهم الكفر .

قال تعالى "وَمَا كَانَ رَبُّكَ" يا سيد الرسل "لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ" منه والتنوين للتفخيم والإيذان بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم ويراد منه تنزيه اللّه تعالى عن ذلك على أبلغ وجه ، وإلا فلا ظلم منه أصلا فيما يفعله بعباده ، كائنا ما كان لما علم مما مر من قاعدة أهل السنة والجماعة الملمع إليها في الآية 92 من سورة يونس المارة وفي مواضع كثيرة في الجزء الأول .

مطلب لا يجوز نسبة الظلم إلى اللّه وأن الأمر غير الإرادة :

واعلم أنه لا يجوز نسبة الظلم إلى اللّه تعالى بوجه من الوجوه ، لأن ذلك محال ، قال صاحب الزبد :

وله أن يؤلم الأطفالا ووصفه بالظالم استحالا

(273/371)

لأن الكل ملكه ولا يعد المتصرف بملكه ظالما كيفما كان تصرفه "وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ 118" في أعمالهم ولكن يهلكهم لكفرهم وركوبهم المعاصي والإفساد فيها ، وقال بعضهم إن الظلم هنا يراد به الشرك ، وعليه يكون المعنى أنه لا يهلك أهل القرى بسبب الشرك الذي هو

أعظم مناوأة للوحدانية إذا كانوا مصلحين في معاملتهم أنفسهم ، وغيرهم ، ويجرون الحقوق لأهلها ، ويتحاشون مضرة أنفسهم ومضرة الناس ، والواو في صدر الجملة للحال .

واعلم أن المراد بالإهلاك على الوجهين عذاب الاستئصال في الدنيا ، أما عذاب الآخرة فلا مناص منه ، ومن هنا قال بعض الفقهاء إن حقوق اللّه مبنيّة على المسامحة إذ قد يشملها عفوه الضافي وكرمه الوافي ، وحقوق العباد مبنية على المشاححة أي التضييق والتشديد .

وعليه جاء المثل :

الملك يبقى مع الكفر والمعاصي ، ولا يبقى مع الظلم والجور .

وهذان أي قول الفقهاء والمثل مأخوذان مما رواه الطبراني وابن مردويه وأبو الشيخ والديلمي عن جرير قال سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يسأل عن تفسير هذه الآية (وَما كانَ رَبُّكَ) إلخ ، فقال : وأهلها ينصف بعضهم بعضا .

وأخرج هذا الحديث ابن أبي حاتم والخرائطي في مساوئ الأخلاق عن جرير موقوفا ، ولم أقف على صحته .

(274/371)

قال تعالى "وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ" يا أكرم الرسل "لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً" على دين واحد وشريعة واحدة ، لكنه جل أمره لم يشأ ، كما أنه تعالى قال (وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها) الآية 13 من سورة السجدة الآتية ، ولكنه لم يشأ أيضا ، إذ لا يفعل أحد الطاعة إلا بمشيئته ورضاه ، ولا يقدر على فعل المعصية إلا بمشيئته وقضاه ، ولهذا قال "وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ" باعتقادهم أديانا شتى وشرائع مختلفة وعبادات متباينة "إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ" منهم ، فإنهم يتفقون على دين واحد وعبادة واحدة وشريعة واحدة ، كما يأمرهم نبيهم وكتابهم المنزل إليه من ربهم "وَلِذلِكَ" لأجل بقائهم مختلفين "خَلَقَهُمْ" ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير كما هو في علمه الأزلي ، لأن الخلق من توابع الإرادة التابعة للعلم التابع للمعلوم في نفسه ، والتعذيب والإثابة ليس إلا لأمر أفيض على المعذب والمثاب بحسب الاستعداد الأصلي ، وربما يرجع هذا في الآخرة إلى أن التعذيب والإثابة اللذين هما من توابع ذلك الاستعداد الذي عليه المعذب والمثاب في نفسه ، ومن هنا قالوا إن المعصية والطاعة أمّارتان على الشقاوة والسعادة لا مقتضيان لها ، فيندفع قول القائل بأنه إذا كان خلقهم لذلك فلم يعذبهم ، واستدل في هذه الآية على أن الأمر غير الإرادة ، وأنه تعالى لم يرد الإيمان به من كل ، وأن ما أراده سبحانه بحسب وقوعه ، وقدمنا في الآية 12 من سورة يونس المارة ما يتعلق في هذا البحث فراجعه .

وذكر بعض العارفين أن منشأ تشبيب سورة هود له صلى اللّه عليه وسلم اشتمالها على

أمره بالاستقامة على الدعوة مع إخباره بأنه سبحانه إنما خلق الناس للاختلاف ، وأنه لا يشاء اجتماعهم على دين واحد ، وقد حقت "وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ" على ذلك الوجه ، ونفذ قضاؤه بالوعد للسعداء بالجنة ، والوعيد للأشقياء

(275/371)

بالنار ، طبقا لما هو مدون في كتابه ، وحق أمره بذلك ، وهو قوله للملائكة أزلا وعزتي وجلالي "لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ" الهاء فيها للمبالغة ، وهي والجن بمعنى واحد ، أما من قال إن الجن يقع على الواحد فتكون الجنة جمعا له ويكون من الجموع التي يفرق بين مفردها وجمعها بالهاء مثل كمأة فليس بشيء ، لأن الحق أنه اسم جمع لا واحد له من لفظه والكمأة جمعها أكمؤ قال .

ولقد جنيتكم أكموء عساقلا ولقد نهيتكم عن نبات الأوبر

"وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" 119 من عصاتهم كما سبقت كلمته بملء الجنة من تقاتهم لما علم شرعا أن العذاب والوعيد مخصوصان بالكافرين والمصرين على المعاصي بدليل قوله تعالى في الآية 18 من الأعراف المارة في ج 1 (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) .

والنعيم والوعد مخصوصان بالمؤمنين لقوله تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ

جنات تجري) إلخ الآية 10 من سورة المائدة في ج 3 وهي مكررة كثيرا في القرآن باللفظ والمعنى ، والقرآن يفسر بعضه بعضا فما قيل إن ظاهر الآية يقضي بدخول الفريقين جهنم ، قول واه يخالف آيات اللّه وأخبار رسوله التي لا تقبل التأويل والتفسير ، وليس للرأي فيها مدخل ، ولهذا البحث صلة في الآية 14 من سورة السجدة الآتية فراجعه .

(276/371)

قال تعالى "وَكُلًّا" مفعول مقدم والتنوين للعوض عن المضاف إليه أي وكل نبأ "نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ" السالفين قبلك ، وهو بيان لكلا ويبدل منها قوله تعالى "ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ" نقوي به قلبك لتصبر على أذى قومك وتتأسي بأخبارهم معهم ليسهل عليك تحمل أذاهم "وَجاءَكَ" يا حبيبي "فِي هذِهِ" السورة العظيمة كما جاءك في غيرها من القصص "الْحَقُّ" الواضح الصريح الذي لا يغير ولا يبدل وكل ما جاء في القرآن فهو حق ثابت ، وخصصت هذه السّورة العظيمة كما جاءك في غيرها من القصص "الْحَقُّ" الواضح الصريح الذي لا يغير ولا يبدل وكل ما جاء في القرآن فهو حق ثابت ، وخصصت هذه السّورة به تشريفا وتكريما "وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ" 120 جاء فيها أيضا ، فإذا تذكر قومك أحوال الأمم السالفة وكيفة إهلاكهم وأسبابه واتعظوا وتذكروا وأخبتوا إلى ربهم

"وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ" من قومك وغيرهم ، لأنك مرسل لجميع الخلق بمقتضى الآية 158 من سورة الأعراف المارة في ج 1 وما ترشدك إليه من الآيات على سبيل التهديد

(277/371)

"اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ" حالتكم وما تتمكنون أن تعملوه ، وهذا الوعيد تهكم بسوء عاقبتهم إذا بقوا مصرين على ما هم عليه على حد قوله تعالى (اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ) الآية 47 من سورة فصلت الآتية "إِنَّا عامِلُونَ 121" دائبون على ما أمرنا به "وَانْتَظِرُوا" بنا ما تتصورونه أن يقع بكم من الدوائر "إِنَّا مُنْتَظِرُونَ 122" ما يحل بكم من العذاب وينتقم منكم كما انتقم ممن قبلكم أمثالكم المكذّبين "وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" من كل ما يقع فيها وفوقها وتحتها ، ومن كان كذلك فلا يخفى عليه شيء من أعمال من هو بينهما وأعلاهما وأسفلهما "وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ" فيما يتعلق فيكم وفي غيركم ، وعليه فلا بدّ من مصيركم إليه فينتقم من الكافر ، وينعم المؤمن ، ثم التفت إلى صفيّه محمد صلى اللّه عليه وسلم فقال عزّ قوله وأنت يا أكمل الرسل "فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ" فهو كافيك وكافلك ، وقد جاء في الحديث الشريف من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على اللّه تعالى .

ولا شك أنه صلى اللّه عليه وسلم متوكل على ربه حق التوكل ، وإنما يراد منه الدوام

والاستمرار ، أي فداوم على ما أنت عليه يا سيد الرسل ولا تبال بالذين لا يؤمنون بك ، ولا يضيق صدرك من تكذيبهم "وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ 123" أنت ومن آمن بك وأمتك كلهم مؤمنهم وكافرهم ، لأن أعمالكم جميعا يحصيها عليكم ويجازيكم عليها السيء بمثله والحسن بأمثاله .

وفي هذه الآية إشارة إلى أن العبد غير الموفق غافل عن عمله لا يدري ما يفعل به ، حتى إذا وقع أمر اللّه به انتبه فندم من حيث لا ينفعه الندم .

أجارنا اللّه من ذلك .

هذا واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 3 صـ 89.170 ﴾

(278/371)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والسبعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/372)

الجزء الثانى والسبعون بعد الثلاثمائة

فصل فى الوقف والابتداء

(4/372)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة هود عليه السلام

مكية إلا قوله " وأقم الصلاة " الآية وقيل إلا فلعلك تارك الآية وأولئك يؤمنون به الآية فمدني الر تقدم الكلام عليه في سورة البقرة إلا الله صالح وكذا فضله بل أصلح منه يوم كبير كاف قدير حسن وكذا ليستخفوا منه وقال أبو عمرو في الاولين تام وفي الثالث كاف وما يعلنون كاف بذات الصدور تام ومستودعها حسن وكذا مبين وقال أبو عمرو فيه تام أحسن عملا كاف وكذا سحر مبين ما يحسبه حسن وقال أبو عمرو كاف يستهزؤن كاف وكذا كفور والسيئات عني فخور كاف عند بعضهم قال لأن ما بعده في تقدير المبتدأ الصالحات حسن وأجر كبير كاف وقال أبو عمرو تام معه ملك أنت نذير كاف وكيل حسن وقال أبو عمرو كاف إن كنتم صادقين كاف إلا هو صالح مسلمون تام وكذا لا يبخسون إلا النار صالح ما صنعوا فيها حسن ما كانوا يعملون تام ورحمة حسن يؤمنون موعده كاف وكذا منه لا يؤمنون تام كذبا كاف وكذا على ربهم المراد به الثاني وهم كافرون من أولياء صالح وكذا العذاب يبصرون كاف أنفسهم مفهوم يفترون كاف الاخسرون تام الجنة صالح خالدون تام والسميع كاف وكذا مثلا تذكرون تام نوحا إلى قومه لمن قرأ أني لكم بالكسر بأضمار القول وليس بوقف لمن قرأه بالفتح يوم أليم كاف بادي الرأي صالح كاذبين حسن وكذا كارهون

على الله صالح تجهلون حسن إن طردتم كاف أفلا تكذرون حسن أني ملك لن يؤتيهم الله خيرا لطول الكلام وليس بجيد لأن قوله ولا أقول للذين تزدري أعينكم الخ جوابه إذا لمن الظالمين وقوله الله أعلم بما في أنفسهم اعتراض بينهما الظالمين تام من الصادقين حسن إن شاء كاف وكذا بمعجزين وان يغويكم واليه ترجعون حسن وقال أبو عمرو تام تجرمون تام ينعلون حسن ووحينا صالح مغرقون كاف سخروا منه صالح وكذا تسخرون فسوف تعملون ليس بوقف ولا آية لتعلق ما بعده به مقيم كاف ومن آمن تام وكذا إلا قليل ومرساها كاف رحيم حسن وكذا كالجبال وقال أبو عمرو في الأول تام مع الكافرين كاف من المغرقين حسن أقلعي كاف وكذا على الجودي الظالمين تام الحاكمين كاف وكذا من أهلك وغير صالح وما ليس لك به علم من

(5/372)

الجاهلين حسن لي به علم مفهوم من الخاسرين حسن وكذا ممن معك نوحيها إليك من قبل صالح للمتقين أخاهم هودا مفهوم مفترون حسن أجرا صالح وكذا فطرني أفلا تعقلون كاف وكذا مجرمين ببينة صالح بمؤمنين حسن بسوء كاف ثم لا تنظرون تام وكذا ربي وربكم آخذ بناصيتها كاف وكذا مستقيم وشيئا حفيظ حسن وكذا غليظ عنيد جائز ويوم القيامة

حسن كفروا ربهم كاف قوم هو تام أخاهم صالحا مفهوم من له غيره حسن توبوا إليه كاف
مجيب حسن مريب كاف إن عصيته حسن وقال أبو عمرو كاف وجوابه محذوف غير
تخسير كاف لكم آية جائز أرض الله كاف وكذا عذاب قريب ثلاثة أيام صالح مكذوب
كاف وكذا يومئذ والعزيز كأن لم يغنوا فيها حسن بعد الثمود تام قالوا سلاما كاف وكذا
حنيذ قالوا لاتخف صالح وكذا إلى قوم لوط وفضحكت وقال أبو عمرو في الثاني تام
فبشرناها بإسحاق كاف لمن قرأ يعقوب بالرفع بالابتداء دير ويعقوب من وراء إسحاق
وجائز لمن قرأه بالنصب حملا على المعنى والتقدير فبشرناها بإسحق ووهبنا لها يعقوب
من ورائه لأن البشارة في معنى الهبة كاف مجيد حسن في قوم لوط كاف منيب تام وكذا غير
مردود يوم عصيب حسن السيئات صالح في ضيفي كاف وكذا رشيد ما نريد حسن
شديد كاف لن يصلوا إليك مفهوم إلا أمرأتك كاف وكذا ما أصابهم وموعدهم الصبح
بقريب حسن عند ربك تام وكذا أخاهم ببعيد أخاهم شعيبا مفهوم من اله غيره جائز
والميزان كاف يوم محيط حسن مفسدين تام إن كنتم مؤمنين كاف بحفيظ حسن ما نشاء
كاف الرشيد حسن رزقا حسنا تام أنهاكم عنه كاف ما استطعت حسن إلا بالله كاف
واليه أنيب حسن أو قوم صالح تام ببعيد كاف ودود حسن ضعيفا جائز وكذا لرجمناك
بعزيز حسن ظهريا كاف محيط حسن أني عامل جائز وكذا كاذب سوف تعلمون ليس
بوقف ولا آية لما مر في نظيره رقيب حسن برحمة منا كاف كأن لم يغنوا فيها حسن بعدت

ثمود تام أمر فرعون حسن وكذا برشيد وقال أبو عمرو فيهما كاف فأوردهم النار كاف المورود حسن ويوم القيامة

(6/372)

كاف المرفود حسن وكذا حصيد أنفسهم صالح وكذا أمر ربك تتبيب كاف وكذا ظالمة شديد حسن الآخرة كاف له الناس صالح مشهود حسن معدود صالح إلا بأذنه كاف وكذا سعيد ما شاء ربك في الموضعين حسن وكذا الما يريد وغير مجذوذ هؤلاء تام من قبل حسن وقال أبو عمرو فيهما كاف والثاني أكفى منه غير منقوص تام فأختلفوا فيه حسن وكذا اذا لقضي بينهم وقال أبو عمرو فيهما كاف مريب تام ربك أعمالهم كاف بما يعملون خبير حسن ومن تاب معك كاف وكذا ولا تطغوا بصير تام فتمسكم النار حسن وقال أبو عمرو كاف من أولياء كاف ثم لا تنصرون حسن وقال أبو عمرو تام من الليل كاف وكذا السيئات للذاكرين حسن وكذا المحسنين وممن أنجينا منهم مجرمين تام وكذا مصلحون أمة واحدة حسن وقال أبو عمرو كاف خلقهم تام وكذا أجمعين فؤادك للمؤمنين حسن عاملون جائز منتظرون تام والأرض جائز وتوكل عليه حسن وقال أبو عمرو كاف آخر السورة تام . لقضي بينهم وقال أبو عمرو فيهما كاف مريب تام ربك أعمالهم كاف بما يعملون خبير

حسن ومن تاب معك كاف وكذا ولا تطغوا بصير تام فتمسكم النار حسن وقال أبو عمرو كاف من أولياء كاف ثم لا تنصرون حسن وقال أبو عمرو تام من الليل كاف وكذا السيئات للذاكرين حسن وكذا المحسنين وممن أنجينا منهم مجرمين تام وكذا مصلحون أمة واحدة حسن وقال أبو عمرو كاف خلقهم تام وكذا أجمعين فؤادك للمؤمنين حسن عاملون جائز منتظرون تام والأرض جائز وتوكل عليه حسن وقال أبو عمرو كاف آخر السورة تام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المقصد صـ 369 . 388 ﴾

(7/372)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة هود عليه السلام

مكية إلاَّ قوله وأقم الصلاة طرفي النهار الآية وقيل إلاَّ قوله فلعلك باخع تارك الآية وقوله أولئك يؤمنون به فمدني وهي مائة آية وإحدى وعشرون آية في المدني الأخير والمكي والبصري واثنتان في الأول والشامي وثلاث في الكوفي واختلافهم في سبع آيات إني بريء مما تشركون عدها الكوفي ولم يعدها الباقون يجادلنا في قوم لوط لم يعدها البصري وكلهم عدّ إلى قوم لوط من سجيل عدها المدني الأخير والمكي منضود لم يعدها المدني الأخير والمكي إن

كنتم مؤمنين عدها المدنيان والمكي ولا يزالون مختلفين لم يعدها المدنيان والمكي إنا عاملون لم يعدها المدني الأخير والمكي وكلمها ألف وتسعمائة وخمس عشرة كلمة وحروفها سبعة آلاف وخمسمائة وتسعة وستون حرفاً كحرف سورة يونس عليهما السلام وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً منها بإجماع ستة مواضع ، وما يعلنون ، فسوف تعلمون الأول ، وفار التنور ، فينا ضعيفاً ، سوف تعلمون الثاني ، ذلك يوم مجموع ،

الر (تام) إن جعل كتاب خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا كتاب كما قال الشاعر

وقائلة خولان فانكح فتاتهم وأكرومة الحيين خلو كما هيا

(8/372)

أراد هذه خولان وكذا إن جعل كتاب مبتدأ حذف خبره وليس بوقف إن جعل الر مبتدأ وكتاب خبره لأنَّه لا يفصل بين المبتدأ وخبره بالوقف وكذا إن جعلت الر مقسماً بها وما بعدها جواب ولا وقف من قوله كتاب أحكمت آياته إلى قوله إلاَّ الله فلا يوقف على خبير إن جعل موضع أن لا تعبدوا نصباً بفصلت أو بأحكمت لأنَّ أن بعده في محلها الحركات الثلاث الرفع والنصب والجر والعامل فيها إما فصلت وهو المشهور وإما أحكمت عند الكوفيين فتكون المسئلة من الأعمال لأنَّ المعنى أحكمت لئلاَّ تعبدوا أو فصلت لئلاَّ تعبدوا

فالرفع على أنها مبتدأ محذوف الخبر أو خبر مبتدأ محذوف أي تفصيله أن لا تعبدوا إلاَّ الله أو هو أن لا تعبدوا والنصب فصلت أن لا تعبدوا فتكون أن تفسيرية والجر فصلت بأن لا تعبدوا والوقف على خبير كاف إن رفع ما بعده مبتدأ وليس بوقف إن نصب تفسيراً لما قبله أو جر كما تقدم ومعنى أحكمت آياته بالفضل ثم فصلت بالعدل أو أحكمت آياته في قلوب العارفين ثم فصلت أحكامه على أبدان العارفين وخص بالإحكام في قوله منه آيات محكمات وعمم هنا لأنّه أوقع العموم بمعنى الخصوص كقولهم أكلنا طعام زيد يريدون بعضه قاله ابن الأنباري ولا يوقف على بشير لأنَّ قوله وأن استغفروا ربكم معطوف على ما قبله داخل في صلة أن

إلاَّ الله (حسن) وقيل كاف

فضله (كاف) للابتداء بعده بالشرط ومثله كبير

إلى الله مرجعكم (صالح) لاحتمال الواو بعده للحال والاستئناف

قدير (كاف)

منه (حسن) وقيل كاف

ثيابهم ليس بوقف لأنَّ عامل حين قوله بعد يعلم أي ألا يعلم سرّهم وعلنهم حين يفعلون كذا وهذا معنى واضح وقيل يجوز لئلاَّ يلزم تقييد علمه تعالى بسرّهم وعلنهم بهذا الوقت الخاص وهو تعالى عالم بذلك في كل وقت وهذا غير لازم لأنَّه إذا علم سرهم وعلنهم في

وقت التغشية التي يخفى السر فيها فأولى في غيرها وهذا بحسب العادة قاله السمين

وما يعلنون (كاف)

بذات الصدور (تام)

على الله رزقها (جائز)

(9/372)

ومستودعها (كاف)

مبين (تام) أي في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقها ومستقرها هو أيام حياتها ومستودعها هو القبر قاله الربيع ويدل على هذا التفسير قوله في وصف الجنة حسنت مستقراً ومقاماً وفي وصف النار إنَّها ساءت مستقراً ومقاماً قاله النكزاوي

أحسن عملاً (حسن)

سحر مبين (كاف)

ما يحبسه (حسن) وقيل كاف وقيل تام

مصروفاً عنهم (حسن) على استئناف ما بعده

يستهزؤن (تام)

كفور (كاف) ومثله السيآت عني و فخور على أنَّ الاستثناء منقطع بمعنى لكن الذين صبروا فالذين مبتدأ والخبر أولئك لهم مغفرة وهو قول الأخفش وقال الفراء هو متصل وعليه فلا يوقف على فخور بل على الصالحات وعلى قول الأخفش لا يوقف على الصالحات لفصله بين المبتدأ وخبره

كبير (تام)

معه ملك (حسن)

إنَّما أنت نذير (أحسن) منه

وكيل (كاف)

افتراه (جائز)

صادقين (كاف) رسموا جميعاً ما في كتاب الله من قوله فإن لم ينون إلاَّ قوله هنا فالم يستجيبوا لكم فهو بغير نون إجماعاً

بعلم الله ليس بوقف لاتساق الكلام ما بعده على ما قبله

مسلمون (تام)

لا يبخسون (كاف)

إلاَّ النار (حسن)

فيها (أحسن) منه على قراءة من رفع وباطل على الاستئناف خبره مقدم إن كان من

عطف الجمل ولفظة ما من قوله ما كانوا هي المبتدأ وإن كان باطل خبراً بعد خبر ارتفع ما بباطل على الفاعلية وهي قراءة العامة وليس بوقف على قراءة ابن مسعود وأنس وباطلاً بالنصب أي وكانوا يعملون باطلاً فيها وكذا ليس وقفاً لمن قرأ وبطل

يعملون (تام)

(10/372)

شاهد منه (كاف) وقيل تام أي ويتلو القرآن شاهد من الله تعالى وهو جبريل وهذا على قراءة العامة برفع كتاب ومن نصبه وبها قرأ محمد بن السائب الكلبي عطفاً على الهاء في يتلوه أي ويتلوا القرآن وكتاب موسى شاهد من الله وهو جبريل فوقفه ورحمة وعن عليّ كرم الله وجهه قال ما من رجل من قريش إلاَّ وقد نزلت فيه الآية والآيتان فقال رجل من قريش فأنت أي شيء نزل فيك فقال ويتلوه شاهد منه وقيل الشاهد لسانه صلى الله عليه وسلم وفي الشاهد أقوال كثيرة كلها توجب الوقف على منه

يؤمنون به (كاف) للابتداء بالشرط

موعده (حسن) ومثله في مرية منه على قراءة إنه بكسر الهمزة وليس بوقف لمن فتحها وهو عيسى بن عمر

من ربك الأولى وصله لحرف الاستدراك بعده

لا يؤمنون (تام)

كذباً (حسن) وقيل (كاف)

على ربهم (كاف) على استئناف ما بعده

على ربهم الثاني قال محمد بن جرير تم الكلام ثم قال الله تعالى ألا لعنة الله على الظالمين

فعلى قوله لا يوقف على الظالمين لأنَّ الله إنما لعن الظالمين الذين وصفهم خاصة بقوله الذين

يصدون عن سبيل الله الآية

كافرون (كاف)

في الأرض (حسن) للابتداء بالنفي

من أولياء (تام) عند نافع وكذا العذاب ثم يبتدأ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا

يبصرون أي لم يكونوا يستمعون القرآن ولا ما يأتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم لشدة

العداوة فلذلك كانت ما نفياً ولذلك حسن الوقف على العذاب وقيل ما بمعنى الذي ومعها

حرف جرّ محذوف أي يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع فلما حذفت الباء

تخفيفاً وصل الفعل فنصب وعلى هذا لا يوقف على العذاب

يبصرون (كاف) على القولين في ما

أنفسهم (جائز)

يفترون (كاف) لا وقف بين أنَّ لا ردّ لإنكارهم البعث وإنَّهم يستحقون النار كأنَّه قال حق وجوب النار لهم وقال الفراء جرم مع لا كلمة واحدة معناها لا بدّ فحينئذ لا يوقف على لا دون جرم

الأخسرون (تام)

أصحاب الجنة (جائز)

خالدون (تام)

والسميع (حسن)

(11/372)

مثلاً (أحسن) منه

تذكرون (تام)

إلى قومه (كاف) لمن قرأ إِنِّي لكم بكسر الهمزة على إضمار القول وبها قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة على أنَّ قوله أن لا تعبدوا إلاَّ الله متعلق بما بعد إِنِّي وليس بوقف لمن فتحها وجعلها متعلقة بأرسلنا وبفتحها قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي لأنَّ أن لا تعبدوا بدل من قوله إنَّي لكم

مبين (كاف) على أنَّ ما بعده في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف وليس بوقف إن جعل بدلاً مما قبله

إلاَّ الله (حسن)

أليم (كاف)

بادي الرأي (جائز) وقيل حسن للابتداء بالنفي

من فضل (أحسن) منه

كاذبين (كاف)

فعميت عليكم (حسن) قرأ الأخوان فعميت بضم العين وتشديد الميم والباقون بالفتح والتخفيف

لها كارهون (حسن) ومثله مالاً وكذا على الله على استئناف ما بعده وليس بوقف إن عطف على ما قبله

آمنوا (حسن)

ملاقو ربهم ليس بوقف لحرف الاستدراك بعده

تجهلون (كاف) وكذا إن طردتهم وكذا تذكرون

إنِّي ملك (جائز)

لن يؤتيهم الله خيراً (حسن) وقيل كاف وقيل تام وقيل ليس بوقف لأنَّ قوله ولا أقول للذين

تزدري أعينكم الخ جوابه إني إذاً لمن الظالمين وقوله الله أعلم بما في أنفسهم اعتراض بينهما جدالنا (جائز)

(12/372)

الصادقين (كاف) والوقف على إن شاء وبمعجزين و أن يغويكم أي يضلكم كلها وقوف كافية والوقف على أن أنصح لكم على أنَّ في الآية تقديماً وتأخيراً وتقدير الكلام إن كان الله يريد أن يغويكم لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم فجواب الشرط الأول محذوف أو الشرط الثاني هو جواب الشرط الأول قال أبو البقاء حكم الشرط إذا دخل على الشرط أن يكون الشرط الثاني والجواب جواباً للشرط الأول لأنَّ الشرط الثاني معمول للأول لأنَّه مقيد له نحو إن أتيتني إن كلمتني أكرمتك فقولك إن كلمتني أكرمتك جواب إن أتيتني وإذا كان كذلك صار الشرط مقدماً في الذكر مؤخراً في المعنى حتى أن أتاه ثم كلمه لم يجب الإكرام ولكن إن كلمه ثم أتاه وجب الإكرام على المرتضى من أقوال في توالي شرطين ثانيهما قيد للأول مع جواب واحد كقوله :

إن تستعينوا بنا إن تدعروا تجدوا منا معاقل عز زانها كرم

أي إن تستعينوا بنا مذعورين ومثله إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبيّ أن يستنكحها

وظاهر القصة يدل على عدم اشتراط تقدم الشرط الثاني على الأول وذلك أنَّ إرادته عليه الصلاة والسلام للنكاح إنَّما هو مرتب على هبة المرأة نفسها له وكذا الواقع في القصة لما وهبت أراد نكاحها ولم يرو أنَّه أراد نكاحها فوهبت وهو يحتاج إلى جواب اهـ سمين قال الزمخشري لا يسند إلى الله هذا الفعل ولا يوصف بمعناه وللمعتزلي أن يقول ولا يتعين أن تكون إن شرطية بل هي نافية والمعنى ما كان الله يريد أن يغويكم قال أبو حيان قلت لا أظن أحداً يرضى بهذه المقالة وإن كانت توافق مذهبه وقيل في الآية إضمار أي ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله في مقدوره إضلالكم فعلى هذا يوقف على لكم ثم يبتديء إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم أي فهو ربكم فيكون قد حذف الفاء في هذا القول من جواب الشرط كما قال الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشر بالشر عند الله مثلان

(13/372)

أي فالله يشكرها فعلى هذا القول لا يوقف على يغويكم لأنَّ ما بعده جواب الشرط وإنَّما أتى بإن الشرطية دون الواو لاختلاف الفاعل في المحلين وإنما سقنا هذا برمته لنفاسته لبيان هذا الوقف ولو أراد الإنسان استقصاء الكلام في بيانه لاستفرغ عمره ولم يحكم أمره انظر

السمين

وإليه ترجعون (كاف) لأنَّ أم بمعنى ألف الاستفهام

افتراه (حسن)

مما تجرمون (كاف)

من قد آمن ليس بوقف لمكان الفاء

يفعلون (كاف)

ووحينا (جائز)

ظلموا (حسن) على استئناف ما بعده لأنَّ أن كالتعليل لما قبلها

مغرقون (كاف)

سخروا منه (حسن) وقيل كاف لأنَّه جواب كلما وقوله قال مستأنف على تقدير سؤال سائل

كما تسخرون (كاف) ومثله فسوف تعلمون لأنَّ فسوف للتهديد فيبدأ بها الكلام لأنَّها لتأكيد الواقع إن جعلت من في محل رفع بالابتداء والخبر يخزيه وليس بوقف لمن جعلها في موضع نصب مفعولاً لقوله تعلمون وليست رأس آية لتعلق ما بعدها بما قبلها ولا يفصل بين العامل والمعمول بالوقف

مقيم (كاف) لأنَّ حتى للابتداء إذا كان بعدها إذا

التنور ليس بوقف لأنَّ قلنا جواب إذا

زوجين اثنين (جائز) ثم يبتديء وأهلك أي وأهلك الله من الهلاك جميع الخلائق إلاَّ من سبق عليه القول فما بعد الاستثناء خارج مما قبله يعني إبليس ومن آمن قاله أبو العلاء الهمداني وأهلك ليس بوقف لأنَّ الوقف يشعر بأنَّه أمر بحمل جميع أهله وتعلق الاستثناء أيضاً يوجب عدم الوقف

ومن آمن (تام) اتفاقاً للابتداء بالنفي وأيضاً من مفعول به عطف على مفعول احمل

إلاَّ قليل (أتم)

ومرساها (كاف) ومثله رحيم وكذا كالجبال

في معزل (حسن) إن جعل ما بعده على إضمار قول وليس بوقف إن جعل متصلاً بنادى

ومعنى في معزل أي من جانب من دين أبيه وقيل من السفينة

مع الكافرين (كاف)

من الماء (حسن)

من أمر الله (جائز) على أنَّ الاستثناء منقطع أي لكن من رحمة الله معصوم والصحيح أنَّه متصل

والوقف على من رحم (حسن) وقال أبو عمرو كاف وخبر لا محذوف أي لا عاصم موجود ولا يجوز أن يكون الخبر اليوم لأنَّ ظرف الزمان لا يكون خبراً عن الجثة ويجوز أن يكون الفاعل بمعنى المفعول والمفعول بمعنى الفاعل كقوله من ماء دافق أي مدفوق وعيشة راضية أي مرضية

من المغرقين (كاف) وكذا أقلعي

وغيض الماء (جائز) ومثله الأمر

واستوت على الجودي (كاف) والواو بعده للاستئناف لا للعطف لأنَّه فرغ من صفة الماء وجفافه

الظالمين (تام)

من أهلي (حسن)

وإنَّ وعدك الحق (أحسن) مما قبله

الحاكمين (كاف) ، وكذا ليس من أهلك (كاف) على قراءة من قرأ إنَّه عمل غير صالح برفع عمل وتنوينه وفتح الميم وبها قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وحمزة وابن عامر وذلك على أنَّ الضمير في إنَّه الثاني يعود إلى السؤال كأنَّه قال سؤالك يا نوح إياي أن أنجيه كافراً ما ليس لك به علم عمل غير صالح فعلى هذا يحسن الوقف على من أهلك ويحسن الابتداء

بما بعده لأنَّه منقطع مما قبله وليس بوقف على أنَّ الضمير في إنه عائد على ابن نوح والتقدير إنَّ ابنك ذو عمل غير صالح فحذف ذو وأقيم عمل مقامه كما تقول عبد الله إقبال وإدبار أي ذو إقبال وإدبار وليس بوقف أيضاً على قراءة الكسائي إنَّه عمل غير صالح بالفعل الماضي بكسر الميم وفتح اللام ونصب غير نعتاً لمصدر محذوف تقديره إنَّه عمل عملاً غير صالح فلا يوقف على من أهلك لأنَّ الضمير في إنَّه الثاني يعود على الضمير في إنَّه ليس من أهلك الأول فبعض الكلام متصل ببعضه فوصله بما قبله أولى لأنَّه مع ما قبله كلام واحد وهذا غاية في بيان هذا الوقف ولله الحمد

ما ليس لك به علم (كاف) على استئناف ما بعده ومثله الجاهلين

به علم (حسن) للابتداء بالشرط

من الخاسرين (كاف) ومثله ممن معك وقيل تام لأنَّ وأمم مبتدأ محذوف الصفة وهي المسوّغة للابتداء بالنكرة أي وأمم منهم أو مبتدأ ولا تقدر صفة والخبر سنمتعهم في التقديرين والمسوغ التفصيل

(15/372)

أليم (تام)

نوحيها إليك (حسن) ومثله من قبل هذا

وقوله فاصبر (أحسن) مما قبله للابتداء بإن

للمتقين (تام) لانتهاء القصة

أخاهم هوداً (جائز)

اعبدوا الله (حسن) ومثله غيره للابتداء بالنفي أي ما أنتم في عبادتكم الأوثان إلاَّ مفترون

0

ومفترون (كاف)

أجراً (حسن) ومثله فطرني وقيل كاف على استئناف الاستفهام

تعقلون (كاف)

ثم توبوا إليه ليس بوقف لأنَّ جواب الأمر لم يأت بعد وكذا لا يوقف على مدراراً لعطف ما

بعده على ما قبله والعطف يصير الشيئين كالشيء الواحد

إلى قوّتكم (كاف)

مجرمين (كاف)

ببينة (حسن) ومثله عن قولك

بمؤمنين (كاف) ومثله بسوء وقيل تام لأنَّه آخر كلامهم

من دونه (جائز)

ثم لا تنظرون (كاف) ومثله وربكم وكذا بناصيتها و مستقيم و إليكم كلها وقوف كافية

قوماً غيركم (جائز) لاستئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل حالاً

شيأً (كاف)

حفيظ (تام)

برحمة منا (جائز) لأنَّ التقدير وقد نجيناهم

غليظ (تام)

عنيد (كاف) وقيل تام

ويوم القيامة (كاف) للابتداء للاستفهام بعده ومثله كفروا ربهم

قوم هود (تام) لانتهاء القصة

أخاهم صالحاً (جائز) ومثله اعبدوا الله

غيره (حسن) على القراءتين رفعه نعت لا له على المحل وجره نعت له على اللفظ

واستعمركم فيها (جائز)

ثم توبوا إليه (كاف)

مجيب (تام)

قبل هذا (حسن) على استئناف الاستفهام وإن كان داخلاً في القول

آباؤنا (حسن)

مريب (كاف) ومثله إن عصيته وكذا غير تخسير

لكم آية (جائز) ومثله في أرض الله وقيل حسن

بسوء ليس بوقف لمكان الفاء

قريب (كاف)

فعقروها (جائز) ومثله ثلاثة أيام

مكذوب (كاف)

برحمة منا ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله

ومن خزي يومئذ (كاف) ومثله العزيز

جاثمين ليس بوقف إن جعل ما بعده نعتاً لما قبله أو بدلاً من الضمير في أصبحوا وإن جعلت

الكاف متعلقة بمحذوف كان تاماً

كأن لم يغنوا فيها (حسن) ومثله كفروا ربهم

لثمود (تام)

(16/372)

قالوا سلاماً (حسن) أي سداداً من القول والمعنى سلمنا سلاماً أو قولاً ذا سلامة لم يقصد به حكاية

قال سلام (جائز) وسلام خبر مبتدأ محذوف أي أمري وأمركم سلام أو مبتدأ محذوف الخبر أي عليكم سلام

حنيذ (كاف)

لا تخف (جائز) وقال نافع تام وخولف لأنَّ الكلام متصل

قوم لوط (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده جملة في موضع الحال

فضحكت (تام) على أنَّ لا تقديم في الكلام ولا تأخير ويكون المعنى أنهم لمَّا لم يأكلوا من طعام إبراهيم صلى الله عليه وسلم خافهم فلما تبينوا ذلك في وجهه قالوا لا تخف

فضحكت امرأته سروراً بالبشارة بزوال الخوف وهذا قول السدي والرسل هنا جبريل وميكائيل وإسرافيل ذكره جماعة من المفسرين وقال قتادة ضحكت من غفلة القوم وقد جاءهم العذاب وقال وهب ضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد وقد هرمت وقيل ضحكت حين أخبرتهم الملائكة إنَّهم رسل وقيل كانت قالت لإبراهيم سينزل بهؤلاء القوم عذاب فلما جاءت الرسل سرت بذلك وقيل ضحكت من إبراهيم إذ خاف من ثلاثة وهو يقوم بمائة رجل وقال مجاهد ضحكت بمعنى حاضت قال الفراء لم أسمعه من ثقة ووجهه

أنَّه كناية وقال الجمهور هو الضحك المعروف وقيل هو مجاز معبر به عن طلاقة الوجه وسروره بنجاة أخيها لوط وهلاك قومه

(17/372)

فبشرناها باسحق (كاف) لمن قرأ يعقوب بالرفع بالابتداء والتقدير ويعقوب من وراء اسحق وبها قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ونافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم أو رفع يعقوب على أنَّه فاعل أي واستقر لها من وراء اسحق يعقوب وجائز لمن قرأه بالنصب عطفاً على موضع باسحق أي فبشرناها بإسحق ووهبنا لها يعقوب ومراد من نصب لم يدخل يعقوب في البشارة لأنَّه يفسد أن ينسق على اسحق الأوّل لدخول من بينهما إذ لا يجوز مررت بعبد الله ومن بعده محمد ومن نصب لم يرد هذا الوجه وإنَّما أراد أن يضمر فعلاً ينصبه به كما تقول مررت بعبد الله ومن بعده محمداً على معنى وجزت من بعده محمداً وليس بوقف إن جرَّ يعقوب تقديراً والمعنى فبشرناها باسحق وبيعقوب وضعف للفصل بين واو العطف والمعطوف بالظرف وهذا بعيد والصحيح إنَّه منصوب بفعل مقدر دل عليه المظهر والتقدير وآتيناها من وراء اسحق يعقوب فيعقوب ليس مجروراً عطفاً على اسحق لأنَّه متى كان المعطوف عليه مجروراً أعيد مع المعطوف الجارّ

ومن وراء اسحق يعقوب (حسن) ومثله شيخاً

عجيب (كاف)

من أمر الله (حسن)

أهل البيت (كاف)

مجيد (تام)

وجاءته البشرى (صالح) على أنَّ جواب لما محذوف أي أقبل يجادلنا فيجادلنا حال من فاعل أقبل وليس بوقف إن جعل جوابها يجادلنا وكذا إن جعل يجادلنا حالاً من ضمير المفعول في جاءته

في قوم لوط (كاف) وقيل تام وهو رأس آية في غير البصري وذلك أنَّ لوطاً لم يعرف أنهم ملائكة وعلم من قومه ما هم عليه من إتيان الفاحشة لأنهم كانوا في أحسن حال فخاف عليهم وعلم أنَّه يحتاج إلى المدافعة عن أضيافه

منيب (تام)

أعرض عن هذا (حسن) ومثله أمر ربك

غير مردود (كاف) ومثله عصيب أي شديد

إليه (حسن) ومثله السيآت وكذا هن أطهر لكم

ضيفي (كاف) على استئناف الاستفهام

رشيد (كاف)

من حق (جائز)

ما نريد (حسن) وهو إتيان الذكورة

شديد (كاف) وجواب لو محذوف تقديره لبطشت بكم

(18/372)

لن يصلوا إليك (حسن) ومثله بقطع من الليل على قراءة من قرأ إلاَّ امرأتك بالرفع بدلاً من أحد وبها قرأ ابن كثير وأبو عمرو وليس بوقف لمن قرأ بالنصب استثناءً من قوله فأسر بأهلك وهي قراءة الباقين ويجوز نصبه استثناءً من واحد والوقف على الليل كما قريء ما فعلوه إلاَّ قليلاً بالنصب

إلاَّ امرأتك (حسن) على القراءتين قال قتادة والسدي خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فأتوا لوطاً نصف النهار وهو في أرض له يعمل فيها وقد قال الله لهم لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم فاستضافوه فانطلق بهم فلما مشى ساعة قال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرهم قال أشهد بالله لشر أهل قرية في الأرض عملاً فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد إلاَّ أهل بيت لوط عليه السلام فخرجت امرأته فأخبرت قومها وقالت إنَّ

في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط فجاء قومه يهرعون إليه أي يسرعون في المشي فقال لهم حين حضروا وظنوا أنَّهم غلمان هؤلاء بناتي هن أطهر لكم من نكاح الرجال يعني بالتزويج ولعله في ذلك الوقت كان تزويجه بناته من الكفرة جائز كما زوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته من عتبة بن أبي لهب والعاصي بن الربيع قبل الوحي وكانا كافرين وقيل أراد نساء أمته كما قريء في الشاذ النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم انتهى النكزاوي قال ابن عباس أغلق لوط بابه والملائكة معه وهم يعالجون سور الدار فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب بسببهم قالوا يا لوط إنَّا رسل ربك لن يصلوا إليك فافتح الباب ودعنا وإياهم ففتح الباب فاستأذن جبريل ربه في عقوبتهم فأذن له فقام في الصورة التي خلقه الله عليها فنشر جناحه وضرب وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم فانصرفوا وهم يقولون النجاة النجاة سحرونا

(19/372)

ما أصابهم (حسن) ومثله موعدهم الصبح فهو منقطع عما قبله وذلك أنه روي أنَّ الملائكة لما قالت للوط عليه السلام إنهم يهلكون في الصبح قال لهم لوط لا تؤخروهم إلى الصبح كأنه

يريد العجلة قالوا له أليس الصبح بقريب وإنَّما قربوا عليه لأنَّ قلوب الإبدال لا تحتمل

الانتظار 0

وبقريب (كاف)

منضود (حسن) إن نصب مسومة بفعل مقدر وليس بوقف إن نصب نعتاً للحجارة كأنه

قال وأمطرنا عليهم حجارة مسومة 0

عند ربك (كاف)

ببعيد (تام) لانتهاء القصة

أخاهم شعيباً (جائز) ومثله من إله غيره على القراءتين رفعه نعتاً لإله على المحل وجره نعت

له على اللفظ 0

والميزان (حسن) ومثله بخير أي برخص الأسعار 0

محيط (كاف)

بالقسط (حسن) ومثله أشياءهم

مفسدين (تام)

مؤمنين (كاف) ورسموا بقيت الله بالتاء المجرورة كما ترى 0

بحفيظ (حسن)

ما نشاء (كاف) ورسموا نشواء بواو وألف بعد الشين كما ترى 0

الرشيد (كاف)

رزقاً حسناً (تام) وفي الكلام حذف تقديره ورقني منه رزقاً حسناً أفتأمرونني أن أعصيه

مع هذه النعم التي له عليّ 0

أنهاكم عنه (تام)

ما استطعت (حسن)

إلاَّ بالله (كاف) ومثله أنيب 0

أو قوم صالح (حسن)

ببعيد (كاف)

ثم توبوا إليه (حسن)

ودود (كاف)

ضعيفاً (حسن) للابتداء بلولا ومثله لرجمناك 0

بعزيز (كاف) ومثله من الله فصلاً بين الاستخبار والإخبار 0

ظهرياً (كاف) ومثله محيط 0

إني عامل (حسن) ثم يبتديء سوف تعلمون لأَنَّه وعيد فهو منقطع عما قبله وتعلمون ليس

بوقف ولا رأس آية لأنَّ من في موضع نصب مفعول تعلمون وإن جعلت من في محل رفع

بالابتداء والخبر يخزيه قال الفضل بن العباس كان تاماً ورأس آية أيضاً على الاستئناف وردّ

بأَنه ليس رأس آية إجماعاً ويجوز أن تكون من استفهامية وما بعدها الخبر أي سوف تعلمون

الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب أم غيرهما 0

ومن هو كاذب (حسن) ومثله وارتقبوا

رقيب (كاف)

(20/372)

برحمة منا (حسن) ومثله جاثمين إن جعلت الكاف متعلقة بمحذوف وليس بوقف إن

جعلت ما بعدها متعلقاً بما قبلها بدلاً من جاثمين أو حالاً من الضمير في أصبحوا 0

كأن لم يغنوا فيها (حسن)

بعدت ثمود (تام)

وسلطان مبين ليس بوقف لأنَّ حرف الجر وما بعده موضعه نصب بأرسلنا 0

وملائه (جائز)

أمر فرعون (حسن) وقيل كاف 0

برشيد (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده في موضع الحال 0

يوم القيامة (جائز)

النار (حسن)

المورود (كاف)

لعنة ليس بوقف لأنَّ ويوم القيامة معطوف على موضع في هذه كأنه قال وألحقوا لعنة في الدنيا ولعنة يوم القيامة 0

ويوم القيامة (تام) ويبتديء بئس الرفد وقيل لعنة واحدة في الدنيا ويوم القيامة بئس ما يوعدون به فهي لعنة واحدة وهذا لا يصح لأَّنه يؤدي إلى إعمال بئس فيما تقدم عليها وذلك لا يجوز لعدم تصرفها أما لو تأخر لجاز 0

المرفود (كاف)

نقصه عليك (جائز)

وحصيد (كاف)

أنفسهم (حسن)

أمر ربك (كاف) وكذا تتبيب وكذا ظالمة

شديد (تام)

الآخرة (حسن)

مجموع ليس بوقف لأنَّ الناس مرفوع به كأنه قال مجموع الناس له أي فيه أي ستجمع له الناس 0

وله الناس (جائز)

مشهود (كاف)

معدود (جائز)

إلاَّ بإذنه (تام) عند نافع 0

وسعيد (كاف)

ففي النار (جائز)

وشهيق ليس بوقف لأنَّ خالدين حال مقدرة مما قبله والأرض ليس بوقف لحرف الاستثناء بعده 0

ما شاء ربك (كاف) ومثله فعال لما يريد وفي هذا الاستثناء أربعة عشر قولاً أظهرها أنَّه استثناء من قوله ففي النار وفي الجنة أي إلاَّ لزمان الذي شاءه الله فلا يكونون في النار ولا في الجنة وهو الزمان الذي يفصل الله فيه بين الخلق يوم القيامة لأنَّه زمان يخلوا فيه الشقي والسعيد من دخول النار والجنة أو أن إلاَّ بمعنى قد أي قد شاء ربك انظر السمين ففي الجنة ليس بوقف لأنَّ خالدين حال فلا يفصل بين الحال وذيها والأرض ليس بوقف لحرف الاستثناء بعده 0

إلاَّ ما شاء ربك الثاني (حسن) إن نصب عطاء بفعل مضمر أي يعطون عطاء وليس بوقف إن نصب بما قبله لأنَّ المصدر يعمل فيه معنى ما قبله ومعنى عطاءً إعطاء كنباتاً أي إنباتاً 0

غير مجذوذ (تام) ومثله هؤلاء للابتداء بالنفي 0

من قبل (كاف)

غير منقوص (تام)

فاختلف فيه (كاف) ومثله لقضي بينهم

مريب (تام) على قراءة من شدّد النون والميم وقريء إن مخففة ولا اسمها وإعمالها مخففة ثابت في لسان العرب ففي كتاب سيبويه إنَّ زيداً لمنطلق بتخفيف إن فبالتخفيف قرأ نافع وابن كثير وأبو بكر عن عاصم والباقون بالتشديد وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة لما هنا مشددة وفي يس وإن كلٌّ لما جميع لدينا وفي الزخرف وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا وفي الطارق إن كلُّ نفس لما عليها حافظ قال صاحب الكشاف أعجب كلمة كلمة لمَّا إن دخلت على ماض كانت ظرفاً وإن دخلت على مضارع كانت حرفاً جازماً نحو لمَّا يخرج وتكون اسماً مبنياً لاتحاده بين كونه اسماً وكونه حرفاً كمذ فإنه مبني حال الاسمية لمجيئه اسماً على صورة الحرف فكذلك لما 0

أعمالهم (كاف)

خبير (تام) للابتداء بعده بالأمر 0

ومن تاب معك (حسن)

ولا تطغوا (أحسن) مما قبله

بصير (تام) حكي عن بعض الصالحين أنَّه رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم في المنام فقال له يا رسول الله روي عنك أنك قلت شيبتني هود وأخواتها فما الذي شيبك في هود أقصص الأنبياء أو هلاك الأمم فقال لا ولكن قوله تعالى فاستقم كما أمرت أي لأنَّ الاستقامة درجة بها تمام الأمر وكماله وهي مقام لا يطيقه إلاَّ الأكابر قاله الفخر الرازي 0

فتمسكم النار (حسن) ومثله من أولياء

ثم لا تنصرون (تام)

من الليل (كاف) ومثله السيآت قال مجاهد الحسنات هي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر 0

للذاكرين (كاف)

واصبر (جائز)

المحسنين (تام)

ممن أنجينا منهم (حسن) ومثله فيه

مجرمين (تام) ومثله مصلحون أي ما كان الله ليهلكهم وهذه حالتهم 0

أمة واحدة (حسن)

(22/372)

خلقهم (تام) إن جعل قوله ولذلك خلقهم بمعنى وللاختلاف في الشقاء والسعادة خلقهم

وإنَّ قدرته بمعنى وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ولذلك خلقهم

على التقديم والتأخير كان الوقف على من رحم ربك كافياً وابتدأت ولذلك خلقهم إلى

أجمعين ويكون الوقف على أجمعين كافياً قاله النكزاوي 0

كلمة ربك ليس بوقف لأنَّ لأملأن تفسير للكلمة فلا يفصل بين المفسر والمفسر بالوقف 0

أجمعين (تام)

فؤادك (حسن)

الحق ليس بوقف لأنَّ وموعظة معطوفة على الحق 0

والوقف على وموعظة (حسن) إن جعل ما بعدها منصوباً بفعل مقدر أو جعل وذكرى

مبتدأ والخبر ما بعدها وليس بوقف إن رفع ما بعدها عطفاً عليها 0

للمؤمنين (كاف)

على مكانتكم (حسن)

عاملون (أحسن مما قبله)

وانتظروا (جائز)

منتظرون (تام)

والأرض (جائز) ومثله فاعبده

وتوكل عليه (كاف)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى في بيان الوقف والابتدا صـ 369 . 387 ﴾

(23/372)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة هود :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

من ذلك قراءة الناس : ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ 1 ، وقرأ : "فَصَلَتْ" بفتح الفاء والصاد خفيفة

عكرمة والضحاك والجحدري ، ورُويت عن ابن كثير2 .

قال أبو الفتح : معنى "فَصَلت" : أي صدَرت وانفصلت عنه ومنه ، وهو كقولك : قد فَصَل الأمير عن البلد : أي سار عنه .

ومن ذلك قراءة ابن عباس بخلاف مجاهد ويحيى بن يعمر3 ونصر بن عاصم وعبد الرحمن بن أفزى4 والجحدري وابن أبي إسحاق وأبي رَزِين5 وأبي جعفر محمد بن علي وعلي بن حسين وزيد بن علي وجعفر بن محمد والضحاك وأبي الأسود6 : "يَثْنُونِي صُدُورُهُم"7 على

---

1 سورة هود : 1 .

2 هو عبد الله بن كثير بن المطلب القرشي من بني عبد الدار ، وأبو معبد المكي ، إمام أهل مكة في القراءة . ولد بمكة سنة 45 ، وأخذ القراءة عرضاً عن عبد الله بن السائب ، وعرض أيضاً على مجاهد بن جبر ودرباس مولى عبد الله بن عباس . وروى القراءة عنه إسماعيل بن عبد الله القسط وحماد بن مسلمة والخليل بن أحمد وكثير غيرهم . وتوفي سنة 120 . طبقات ابن الجزري : 1/ 443 .

3 هو يحيى بن يعمر ، أبو سليمان العدواني البصري ، تابعي جليل . عرض على ابن عمر وابن عباس وأبي الأسود الدؤلي . وعرض عليه أبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي إسحاق . توفي سنة 90 . طبقات ابن الجزري : 2/ 381 .

4 كذا في نسختي الأصل ، وفي القاموس وتفسير البحر 5/ 202 : "أبزى" بالباء ، وهو من التابعين .

5 هو مسعود بن مالك ، ويقال : ابن عبد الله ، أبو رزين الكوفي ، وردت عنه الرواية في حروف القرآن . روى عن ابن مسعود وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنهما – وروى عنه الأعمش . "طبقات ابن الجزري : 2/ 296 .

6 هو ظالم بن عمرو بن سفيان أبو الأسود الدؤلي ، ثقة جليل ، أول من وضع مسائل في النحو بإشارة علي – رضي الله عنه – أخذ القراءة عرضاً عن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنهما – وروى القراءة عنه ابنه أبو حرب ويحيى بن يعمر . توفي بالبصرة سنة 69 . طبقات ابن الجزري : 1/ 345 .

7 سورة هود : 5 .

(24/372)

تفعوعل ، وقرأ : "تَثْنَوِنَّ صُدُورُهُمْ" ابن عباس بخلاف ، وقرأ : "تَثْنَئِنَّ صدورُهم" عروة الأعشى ، ورُويت عن عروة الأعشى أيضاً : "يَثْنؤنَّ صُدُورَهُمْ" ، ورُوي ذلك عن مجاهد أيضاً ، ورُوي عن ابن عباس : "تثْنوْنِ صُدُورُهُمْ" ، ورُوي عن سعيد بن جبير وأحسبها

وَهْمًا : "يُثْنُونَ صُدُورَهُمْ" بضم الياء والنون .

قال أبو الفتح : أما "تَثْنَوني" فتفعوعِل ، كما قال : وهذا من أبنية المبالغة لتكرير العين ؛ كقولك : أعشب البلد ، فإذا كثر فيه ذلك قيل : اعشوشب ، واخلولقت السماء للمطر : إذا قويت أمارةُ ذلك ، واغْدَوْدنَ الشعر : إذا طال واسترخى . أنشدنا أبو علي :

وقامت ترائيك مُغْدَوْدِنا إذا ما تنوء به آدها 1

وقرأت على أبي بكر محمد بن الحسن عن أبي العباس أحمد بن يحيى قول الشاعر :

لو كنت تعطِي حين تُسْأَلُ سامحتْ لك النفسُ واحلولاك كل خليل 2

وقال حُميد بن ثور :

فلما مضى عامَين بعد انفصاله عن الضرع واحلولى دِماثًا يَرودُها 3

فهذا أقوى معنى من استحلى .

وأما "تَثْنَئِنَّ" و "تَثْنَونِنَّ" ففيهما النظر ؛ فتثنئن تفعلِلَّ من لفظ الثِّنّ ومعناه ، وهو ما هشَّ وضعف من الكلأ . أنشد أبو زيد ورويناه عنه :

يأيها الفُصيِّل الْمُعَنِّي إنك ريَّان فصَمِّت عَنِّي

يكفي اللقوحَ أكلةٌ من ثِنّ 4

---

1 لحسان . وتنوء به : تنهض به مثقلة . وآدها : بلغ منها المجهود . الديوان : 36 ، والمنصف : 3/ 13 ، 30 .

2 انظر : اللسان "حلا" .

3 يروى : "أتى عامان" مكان "مضى عامين" ، مضى عامين كأنه من قولهم : مضى سبيله ، أو ضمن معنى طوى أو نحوه ، والدماث : جمع دمث ؛ وهو السهل اللين الكثير النبات من الأرض ، يرودها : يجيء فيها ويذهب . الديوان : 73 ، والكتاب : 2/ 242 .

4 يروى : "الفضيل ذا المعنى" ، و"تكفي" مكان "يكفي" . فصمت : فاصمت ، وبعده :

ولم يكن آثر عندي مني ولم تقم في المأتم المرن

اللسان "ثنن" .

(25/372)

وأصله : تثنانٌ ، فحركت الألف لسكونها وسكون النون الأولى ؛ فانقلبت همزة على ما مضى قبل ، وعليه قول دُكَين :

راكدةٌ مِخلاتُه ومحلبُه وجُلُّه حتى ابيأَضَّ ملبَبُه 1

يريد : ابياض ، فحرك الألف فهمزها على ما مضى ، والتقاء المعنيين أن "الثِّنَّ" : ما ضعف ولان من الكلأ ، فهو سريع إلى طالبه خفيف ، وغير معتاص على آكله ، وكذلك "صدروهم" مجيبة لهم إلى أن يثنوها ؛ ليستخفوا من الله سبحانه .

وأما "تَثْنونَّ" فإنها تفعوْعل من لفظ الثِّنّ ومعناه أيضًا ، وأصلها : تثنونِنُ ، فلزم الإدغام لتكرير العين إذ كان غير ملحق ، وكذلك قالوا : في مُفعوعل من رَددت مُرْدَودّ ، وأصلها : مُرْدَوْدِدُ . فلما لم يكن ملحقًا وجب إدغامه ؛ فنقلب الكسرة من الدال الأولى فأُلقيت "77و" على الواو ، وأُدغمت الدال في الدال فصار مُرْدودٌّ ، وكذلك أصل هذه : تَثْنَوْنِنُ ، فأسكنت النون الأولى ، ونقلت كسرتها على الواو ، فأُدغمت النون في النون فصار "تَثْنَونَّ" .

وذهب أبو إسحاق في قولهم : مصائب – بالهمز – إلى أن أصلها : مصاوب ، فهمزت الواو لانكسارها ، كما همزت في إسادة وإعاء ، فقياسه على هذا أن تكون "تثنئنَّ" أصلها : تثنونٌ ، فهمزت الواو لانكسارها ، وعلى أن مذهب أبي إسحاق هذا مردود عندنا غير أن قياسه أن يقول ما ذكرنا .

وأما "تَثْنَوْنِ صُدُورُهُمْ" بنون مكسورة من غير ياء ، ورفع "صدروهم" فإنه أراد الياء ، فحذفها تخفيفًا كالعادة في ذلك ، ولا سيما والكلمة طويلة بكونها على تفعوعل .

وأما "يَثْنَؤُنَّ صُدُورَهُمْ" بالنصب وبالهمزة المضمومة فَوْهم من حاكيه أو قارئه ؛ لأنه لا يقال : ثنأت كذا بمعنى تَثَنَيْتُه ، وكذلك "يُثْنُونَ صُدُورَهُمْ" ؛ لأنه لا يُعرف في اللغة أَثنيت كذا بمعنى ثَنيته ، إلا أن يكون معناه يجدونها منثنية ؛ كقولهم : أحمدته : وجدته محمودًا ، وأذممته : وجدته مذمومًا .

ومن ذلك قراءة أُبي وابن مسعود2 : "وباطِلًا ما كانوا يَعْمَلُون"3 .

---

1 الملبب : موضع اللبة ؛ وهو وسط الصدر .

2 هو عبد الله بن مسعود أبو عبد الرحمن الهذلي المكي ، أحد السابقين والبدريين والعلماء الكبار من الصحابة . عرض القرآن على النبي – صلى الله عليه وسلم – وعرض عليه الحارث بن قيس وزر بن حبيش وعبيد بن قيس وغيرهم . وهو أول من أفشى القرآن من فِي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وإليه تنتهي قراءة عاصم وحمزة والكسائي وخلف والأعمش . توفي بالمدينة آخر سنة 32 . طبقات القراء لابن الجزري : 1/ 458 .

3 سورة هود : 16 .

قال أبو الفتح : "باطلًا" منصوب بـ"يعملون" ، "ما" زائدة للتوكيد ؛ فكأنه قال : وباطلًا كانوا يعملون . ومن بعد ففي هذه القراءة دلالة على جواز تقديم خبر كان عليها ؛ كقولك : قائمًا كان زيد ، وواقفًا كان جعفر . ووجه الدلالة من ذلك أنه إنما يجوز وقوع المعمول بحيث يجوز وقوع العامل ، و"باطلًا" منصوب بـ"يعملون" ، والموضع إذن لـ"يعملون" لوقوع معموله متقدمًا

عليه ؛ فكأنه قال : ويعملون باطلًا كانوا .

ومثله قول الله تعالى : ﴿ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ ؟1 استدل أبو علي بذلك على جواز تقديم خبر كان عليها ؛ لأن "إياكم" معمول "يعبدون" ، وهو خبر كان ، وإنما يجوز وقوع المعمول فيه ؛ بحيث يجوز وقوع العامل على ما قدمناه .

وعلى نحو من ذلك ما استدل أبو علي على جواز تقديم خبر المبتدأ عليه بقول الشماخ :

كلا يومَي طُوَالة وصْلُ أروى ظَنُونٌ آنَ مُطَّرَحُ الظنُونِ2

فقال : "كلا" ظرف لقوله : "ظَنون" ، و"ظنون" خبر المبتدأ الذي هو "وصل أروى" ، فدل هذا على جواز تقديم "ظنون" على "وصل أروى" ؛ كأنه قال : ظنون في كلا هذين اليومين وصل أروى ؛ أي : هومتهم فيهما كليهما . وقد مضى نحو هذا .

ومن ذلك قراءة ابن عباس بخلاف وأيوب السختياني3 : "فَأَكْثَرْتَ جِدَلَنَا"4 .

قال أبو الفتح : الجدل اسم بمعنى الجِدال والمجادلة ، وأصل ج د ل في الكلام : القوة ، منه قولهم : غلام جادل : إذا ترعرع وقوي ، وركب فلان جَديلة رأيه : أي صمم عليه ولم يلن فيه . ومنه الأجدل للصقر ؛ وذلك لشدة خَلْقه ، وعليه بقية الباب . وكذلك الجِدال إنما هو الاقتواء5 على خصمك بالحجة ، قال الله عز وجل : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ 6 أي : مغالبة بالقول "77ظ" وتقويا .

---

1 سورة سبأ : 40 .

2 طوالة : بئر في ديار فزارة لبني مرة وغطفان . والظنون : كل ما لا يوثق به . ويريد : قد حان أن أترك الوصل الظنون وأطرحه . الأمالي : 2/ 32 ، والسمط : 663 ، ومعجم البلدان .

3 هو أيوب بن أبي تميمة كيسان أبو بكر السختياني البصري ، كان سيد العلماء وعلم الحفاظ ثبتًا من الأيقاظ ، له نحو ثمانمائة حديث . توفي سنة 131 . شذرات الذهب : 1/ 181 .

4 سورة هود : 32 .

5 اقتوى عليه : تشدد وكان ذا قوة .

6 سورة الكهف : 54 .

ونحو منه لفظًا قولهم : ظَبْي شادن : أي قد قوي واشتد ، والشين أخت الجيم ، والنون أخت اللام . ونحو منه قولهم : عطَوت الشيءَ : إذا تناولتَه ، وقالوا : أتيت عليه : إذا ملكتَه واشتملت عليه . والعين أخت الهمزة ، والطاء أخت التاء ، والواو أخت الياء . وهذا باب من اللغة لعله لو تُقرِّيَتْ لأَتى على أكثرها ، وقد أَتيتُ على كثير منه في كتاب

الخصائص[1] .

ولولا أن القراء لا ينبسطون في هذه الطريق لنبهت على كثير منه . لا ، بل إذا كان منتحلو هذا العلم والمترسمون به قلَّما تَطُوع[2] طباعهم لهذا الضرب منه ، وإن اضطروا إلى فهم شيء من جملته أظهروا التجاهل به ، ولم يشكروا الله عز وجل على ما لاح لهم وأعرض من طريقه ؛ جريًا على عادة مستوخَمة ، وإخلادًا إلى خليقة كرِهة مستوبَلة حسدًا يريهم[3] ونَغَلًا[4] يُجويهم . وما أقلهم مع ذلك عددًا ! وكذلك هم بحمد الله ولو ضوعفوا مددًا ، فما ظنك بالقراء لو جُشموا النظر فيه والتقري لغروره ومطاويه ؟ جعلنا الله ممن يأوي إلى طاعته ، وأودعنا أبدًا شكر نعمته .

ومن ذلك قراءة علي بن أبي طالب – عليه السلام – وعروة[5] بن الزبير وأبي جعفر محمد بن علي وأبي عبد الله جعفر بن محمد : "ونادَى نُوحٌ ابنَهَ"[6] ، ورُوي عنه عروة : "ابْنَها" . وقرأ : "ابْناه" ممدوة الألف السدي[7] على النداء ، وبلغني أنه على التَّرَثي[8] ، ورُوي عن ابن عباس : "نُوحٌ ابنَهْ" جزم .

قال أبو الفتح : أما "ابنَهَ" فإنه أراد ابنها ، كما يُروى عن عروة فيما قرأ : "ابنها" ؛ يعني : ابن امرأته ؛ لأنه قد جرى ذكرها في قوله سبحانه : ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾[9] ، فحذف الألف تخفيفًا ، كقراءة

---

1 الخصائص : 2/ 145 .

2 تطوع : تنقاد .

3 يفسد طويتهم ، من روى القيح جوفه : أي أفسده .

4 ونغلًا يجويهم : أي ضغنًا يفسد نفوسهم ويميل بها عن الجادة .

5 هو عروة بن الزبير بن العوام أبو عبد الله المدني . وردت الرواية عنه في حروف القرآن . روى عن أبويه وعائشة ، وروى عنه أولاده والزهري وجماعة . مات سنة 93 أو سنة 95 . طبقات ابن الجزري : 1/ 511 .

6 سورة هود : 42 .

7 هو إسماعيل بن عبد الرحمن ، تابعي حجازي الأصل . سكن الكوفة . وكان إمامًا عارفًا بالوقائع وأيام الناس . الأعلام : 1/ 313 .

8 الترثي : الندبة ، كما سيأتي .

9 سورة هود : 40 .

(28/372)

من قرأ : "يا أَبَتَ" 1 . قال أبو عثمان يريد : يا أبتاه ، وقد ذكرنا حذف الألف فيما مضى ، وأنشدنا البيت الذي أنشده أبو الحسن وابن الأعرابي جميعًا :

فلستُ بمدرِكٍ ما فات مني بلهفَ ولا بِلَيْتَ ولا لواني2

أراد : بهلفا ، وغَيَّره .

وقراءة السدي : "ابناه" يريد بها الندبة ، وهو معنى قولهم : "الترِّثي ، وهو على الحكاية ؛ أي قال له : يا ابناه ، على النداء . ولو أراد حقيقة الندبة لم يكن بُد من أحد الحرفين : يا ابناه ، أو وابناه ، كقولك فيها : وازيداه ، ويازيداه .

وأما "ابْنَهْ" بجزم الهاء ، فعلى اللغة التي ذكرناها لأزد السراة في نحو قوله :

ومِطْواي مشتاقان لَهُ أَرِقَانِ3

ومن قراءة الأعمش بخلاف : "على الْجُودِي" خفيف .

قال أبو الفتح : تخفيف ياءَي الإضافة قليل إلا في الشعر . أنشدنا أبو علي :

بَكِّي بعينكِ واكفَ القطر ابن الحواري العالي الذِّكْر4

يريد : "الحواريّ" . ورُوي عنهم : لا أكلمك حِيْرِيْ دهر بتخفف الياء ، يريد : حِيْرِيّ دهر ، وهذا في النثر ، فعليه قراءة الأعمش : "الْجُودِي" خفيفًا .

ومن ذلك قراءة محمد بن زياد5 الأعرابي : "فَضَحَكَتْ"6 فتحًا .

قال أبو الفتح : روى ابن مجاهد قال : قال أبو عبد الله بن الأعرابي : الضَّحْك : هو الحيض ، وأنشد "78و" :

ضَحْكُ الأرانب فوق الصفا كمثل دم الجوف يوم اللِّقا7

---

1 سورة يوسف : 4 ، وقرأ بهذه القراءة ابن عامر وأبو جعفر والأعرج. البحر : 5/ 279 ، والإتحاف : 158 .

2 انظر الصفحة 277 من هذا الجزء .

3 انظر الصفحة 244 من هذا الجزء .

4 لابن قيس الرقيات في رثاء مصعب بن الزبير . ويروى : "بدمعك" مكان "بعينك" . النوادر : 205 .

5 هو محمد بن زياد الأعرابي أبو عبد الله مولى العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس . كان ناسبًا نحويًّا كثير السماع رواية لأشعار القبائل كثير الحفظ . لم يكن بين الكوفيين أشبه برواية البصريين منه . توفي سنة 231 ، وقيل غير ذلك . إنباه الرواة : 3/ 128 وما بعدها .

6 سورة هود : 71 .

7 انظر : اللسان "ضحك" .

قال : وأنشد :

فجاءت بِمَزْجٍ لم يَرَ الناس مثله هو الضّحْك إلا أنه عمَل النحل 1

وبعد ، فليس في اللغة ضحَكَت ؛ وإنما هو ضَحِكت ؛ أي : حاضت . قال أحمد بن يحيى : ضحِكت وطَمِثت لوقتها ، والضَّحك : الشهد ؛ وهو الثلج ، وقال أحمد بن يحيى : وهو الطلع ، قال محمد بن الحسن : قلت لأبي حاتم في قوله :

تضحك الضبْع لقتلي هذيلٍ 2

قال : من أين لهم أن الضبُع تحيض ؟ وقال : يا بني ، إنما تكشِر للقتلى إذا رأتهم ، كما قالوا :

يضحك العَيْر إذا انتزع الصلِّيَانَة 3 .

ويقال فيه :

تضحك الضبْع لقتلَى هذيل

أي : تستبشر لقتلاهم لتأكلهم ، فيهِرُّ بعضها على بعض ، فجلعه ضحِكًا .

وترى الذئب لها 4 يستهلُّ

أي : يعوي ، فيستدعي الذئاب فرحًا بذلك .

ومن ذلك قراءة الأعمش : "وَهَذَا بَعْلِي شَيخ" 5 .

قال أبو الفتح : الرفع في "شيخ" من أربعة أوجه :

أحدها : أن يكون "شيخ" خبر مبتدأ محذوف ؛ كأنه قال : هذا شيخ ، والوقف إذن على

قوله: ﴿وَهَذَا بَعْلِي﴾؛ لأن الجملة هناك قد تمت، ثم استأنف جملة ثانية فقال: "هذا شيخ".

والثاني: أن يكون "بعلي" بدلًا من "هذا"، و"شيخ" هو الخبر.

---

1 لأبي ذؤيب الهذلي. ويروى: "فجاء" مكان "فجاءت"، وهو ما يقتضيه السياق، فضمير جاء لجانب الخمر التي يشبه بها طيبًا في صاحبته، والضحك: العسل. انظر: ديوان الهذليين: 1/ 42، واللسان "ضحك".

2 لتأبط شرًّا، وعجزه:

وترى الذئب بها يستهل

ويروى: "لها" مكان "بها"، وينسب البيت للعدواني أيضًا. انظر: الجمهرة: 2/ 167، واللسان "ضحك".

3 الصليانة: مفرد الصليان؛ وهو نبت.

4 رُوِي: "بها" مكان "لها" في الحاشية 2 من هذه الصفحة.

5 سورة هود: 72.

والثالث : أن يكون "شيخ" بدلًا من "بعلي" ، وكأنه قال : هذا شيخ ، كما كان التقدير فيما قبله : بعلي شيخ .

والرابع : أن يكون "بعلي" و"شيخ" جميعًا خبرًا عن هذا ؛ كقولك : هذا حُلو حامض ؛ أي : قد جمع الحلاوة والحموضة ، وكذلك هذا : أي قد جمع البعولة والشيخوخة .

فإن قلت : فهل تجيز أن يكون "بعلي" وصفًا "لـ"هذا" ؟ قيل : لا ؛ وذلك أن هذا ونحو من أسماء الإشارة لا يوصف بالمضاف ، ألا تراهم لم يجيزوا مررت بهذا ذي المال ، كما أجاوزا مررت بهذا الغلام ؟ وإذا لم يجز أن يكون "بعلي" وصفًا لـ"هذا" من حيث ذكرنا لم يجز أيضًا أن يكون عطف بيان له ؛ لأن صورة عطف البيان صورة الصفة ، فافهم ذلك .

وهنا وجه خامس : لكنه على قياس مذهب الكسائي ؛ وذلك أنه يعتقد في خبر المبتدأ أبدًا أن فيه ضميرًا وإن لم يكن مشتقًّا من الفعل ، نحو : زيد أخوك ، وهو يريد النسب ، فإذا كان كذلك فقياس مذهبه أن يكون "شيخ" بدلًا من الضمير في "بعلي" ؛ لأنه خبر عن "هذا" .

فإن قلت : فإن الكوفيين لا يُجيزون إبدال النكرة من المعرفة إلا إذا كان من لفظها ، نحو قول الله تعالى : ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ 1 ، وليس قبل "شيخ" معرفة من لفظه ، قيل : أجل ، إلا أن هذا اعتبار في الاسمين الملفوظ بكل واحد منهما ، فأما الضمير فيه فعلى قياس قول من استودعه إياه فلا لفظ له أيضًا فيعتبر خلافُه أو وفاقُه ، وإذا

سقط ذلك ساغ، وجاز إبدال النكرة منه لِما ذكرنا من تقديم لفظه المخالف للفظها .

ومن ذلك قراءة سعيد بن جبير والحسن بخلاف ومحمد بن مروان2 وعيسى الثقفي وابن إبي إسحاق : "هُنَّ أَطْهَرَ لَكُمْ"3 بالنصب .

قال أبو الفتح : ذكر سيبويه هذه القراءة وضعفها ، وقال فيها : احتَبى ابن مروان في لحنه4 ، وإنما قبح ذلك عنده ؛ لأنه ذهب إلى أنه جعل "هن" فصلًا ، وليست "78ظ" بين أحد الجزأين

---

1 سورة العلق : 15 ، 16 .

2 هو محمد بن مروان المدني القارئ ، وردت عنه الرواية في حروف القرآن . طبقات القراء لابن الجزري : 2/ 261 .

3 سورة هود : 78 .

4 ليس في الكتاب ذكر للآية ولا للقراءة المعزوة إلى ابن مروان ، وعبارته : "وأما أهل المدينة فينزلون "هو" هاهنا "يشير إلى مثاله : ما أظن أحدًا هو خير منك" بمنزلته من المعرفتين ، ويجعلونها فصلًا في هذا الموضع ، وزعم يونس أبا عمرو رآه لحنًا ، وقال : احتبى ابن مروان في هذه في اللحن" . الكتاب : 1/ 397 .

اللذين هما مبتدأ وخبر ونحو ذلك ، كقولك : ظننت زيدًا هو خيرًا منك ، وكان زيد هو القائم .

وأنا من بعدُ أرى أن لهذه القراءة وجهًا صحيحًا ؛ وهو أن تجعل "هن" أحد جزأي الجملة ، وتجعلها خبرًا لـ"بناتي" ، كقولك : زيد أخوك هو ، وتجعل "أطهر" حالًا من "هن" أو من "بناتي" ، والعامل فيه معنى الإشارة ، كقولك : هذا زيد هو قائمًا أو جالسًا ، أو نحو ذلك . فعلى هذا مجازه ، فأما على ما ذهب إليه سيبويه ففاسد كما قال .

ومن ذلك ما رواه الحلواني 1 عن قالون 2 عن شيبة : "أو آوِيَ" 3 بفتح الياء . ورُوي أيضًا عن أبي جعفر مثله . قال ابن مجاهد : ولا يجوز تحريك الياء هاهنا .

قال أبو الفتح : هذا الذي أنكره ابن مجاهد عندي سائغ 4 جائز ؛ وهو أن تعطف "آوِيَ" على "قوة" فكأنه قال : لو أن لي بكم قوة أو أُوِيًّا إلى ركن شديد . فإذا صرت إلى اعتقاد المصدر فقد وجب إضمار أن ونصب الفعل بها ، ومثله قول مَيْسُون بنت بَحْدَل الكلبية 5 :

للبسُ عباءة وتقرَّ عيني أحب إلى من لُبس الشفوف 6

فكأنها قالت : للبس عباءة وأن تقر عيني ؛ أي : لأن ألبس عباءة وتقر عيني أحب إلي من كذا ، وعليه بيت الكتاب أيضًا :

فلولا رجالٌ من رِزَامٍ أعزَّةٌ وآلُ سُبيعٍ أو أَسُوءك عَلْقَمَا 7

---

1 هو أحمد بن يزيد بن أزداذ ، ويقال : يزداذ الصفار الأستاذ أبو الحسن الحلواني . إمام كبير عارف صدوق متقن ضابط . قرأ بمكة على أحمد بن محمد القواس ، وبالمدينة على قالون ، وبالكوفة والعراق على خلف وخلاد وجعفر بن محمد الخشكني وغيرهم . وقرأ عليه الفضل بن شاذان وابنه العباس وكثير غيرهما . توفي سنة نيف وخمسين ومائتين . طبقات ابن الجزري : 1/ 149 .

2 هو عيسى بن مينا وردان مولى بني زهرة أبو موسى الملقب قالون قارئ المدينة ونحويها . يقال : إنه ربيب نافع ، وهو الذي سماه بقالون ومعناها بالرومية "جيد" لجودة قراءته . ولد سنة 120 ، وقرأ على نافع ، وعرض على عيسى بن وردان . ورى القراءة عنه إبراهيم بن الحسين الكسائي وإبراهيم بن محمد المدني وأحمد بن صالح المصري وأحمد بن يزيد الحلواني وغيرهم . توفي سنة 220 . طبقات ابن الجزري : 1/ 615 .

3 سورة هود : 80 .

4 في ك : ابن مجاهد سائغ .

5 كذا في الأصل بصيغة التصغير ، وفي هامشه : "قلت : صوابه الكلبية ، بصيغة المكبرة ؛ لأنه المعلوم حقًّا . وكتبه محققه محمد محمود بن التلاميد التركزي" .

6 يروى : "ولبس" . والعباءة : جبة الصوف . والشفوف : ثياب رقاق تصف البدن ،

واحدها شف بكسر الشين وفتحها . الكتاب : 1/ 426 ، والخزانة : 3/ 592 ، 621 .

7 للحصين بن الحمام المري . ويروى : "رزام بن مازن" ، و"رزام بن مالك" . والصواب : أن مالكًا هو ابن رزام لا أبوه ، وهو رزام بن مازن بن ثعلبة بن مسعد بن ذبيان . وسبيع هو ابن عمرو بن فتية . وعلقم هو علقمة بن عبيد بن فتية . الكتاب : 1/ 428 ، والمفضليات : 66 .

(32/372)

أي : أو أن أسوءَك ، فكأن قال : أو مساءَتي إياك ، فكذلك هذه القراءة : لو أن لي بكم قوة أو أُوِيًّا ؛ أي : أن آوِيَ إلى ركن شديد ، وهذا واضح .

ومن ذلك قراءة يحيى والأعمش : "يُجْرِمَنَّكُمْ" 1 .

قال أبو الفتح : جَرَم الرجل ذنبًا إذا كسَب الْجُرْم ، ثم ينقل فيقال : أَجْرَمْتُه ذنبًا إذا كسبته إياه ، فعليه جاء : "لَا يُجْرِمَنَّكُم" أي : لا يَكْسِبَنَّكم بُغْضُ القوم ترك العدل ، كما يدعو الإنسان الحِفْظَة2 والغضب إلى ما يَحوب3 فيه وينال من دينه .

ومن ذلك قراءة السلمي : "بَعُدَتْ ثَمُودُ" بضم العين4 .

قال أبو الفتح : أما بَعُدَ فيكون مع الخير والشر ، تقول : بَعُدَ عن الشر ، وبَعُدَ عن الخير ، ومصدرها البُعْدُ ، وأما بَعِدَ ففي

الشر خاصة ، يقال : بَعِدَ يَبْعَدُ بَعَدًا ، ومنه قولهم : أَبْعَدَهُ الله ، فهو منقول من بَعِدَ ؛ لأنه دعاء عليه ، فهو من بَعِدَ الموضوعة للشر . فقراءة السلمي هذه : "أَلا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعُدَتْ ثَمُودُ" متفقة الفعل مع مصدره ، وإنما السؤال عن قراءة الجماعة : ﴿ أَلا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ .

وطريق ذلك أن يكون البُعْدُ بمعنى اللعنة ، فيكون أبعده الله في معنى لعنه الله ، ومنه قوله :

ذَعَرْتُ به القَطَا وَنَفَيْتُ عنه مُقَامَ الذئب كالرجل اللَّعِين5

أي : مقام اللعين ؛ أي : الْمُبْعَد ، وعلى كل حال فالإبعاد للشيء نقص له وابتذال منه ، فقد يلتقي معنى بَعِدَ مع معنى بَعُدَ من هذا الموضع ، ألا ترى أنهم إذا أَدْنَوْا شيئًا من نفوسهم قالوا : هو الحبيب القريب ، فالقرب على كل حال من صفات المدح ، فنقيضه إذن من صفات الذم ،

---

1 سورة هود : 89 .

2 الحفظة : الحمية .

3 يحوب : يأثم ، والمصدر الحوب بفتح الحاء وتضم .

4 سورة هود : 95 .

5 للشماخ من قصيدة مدح بها عرابة بن أوس ، وقبله :

وماء قد وردت لوصل أروى عليه الطير كالورق اللَّجين

الورق اللجين : الذي ركب بعضه بعضاً فتلجن كما يتلجن بنات الخِطْمِي ويتلزج ، أو الورق الساقط من الشجر عند ضربه بالعصا ، وذعرت به : أي ذعرت فيه ، ونفيت عنه مقام الذئب : أي نفيت الذئب عن مقامه ، وخص القطا والذئب لأن القطا أهدى الطير ، والذئب أهدى السباع ، وهما السابقان إلى الماء ، واللعين : الطريد الذي خلعه أهله لكثرة جناياته . الخزانة : 2/ 222 وما بعدها .

(33/372)

ولهذا قالوا : حبذا زيد ، ولم يقولوا : حبذاك ؛ لأنه موضع بِشَارَة وتَحَفٍّ به ، فالقرب أولى به من البعد ؛ ولهذ قالوا فيمن يُصطفى : قد أدناه منه ، وقد قرُب من قلبه ، وعليه قال :

ودارٌ أنت ساكنها حبيب تَوَددُهَا إلى قلبي قريب "79و"

فهذا طريق قراءة الجماعة : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ ، وإن شئت كان من هذا الطَّرْز 1 ، وإن شئت كان من معنى اللعنة .

ومن ذلك قراءة الزهري وسليمان 2 بين أرقم : "لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ" 3 بالتنوين . ابن مسعود

والأعمش : "إِنْ كُلٌّ إِلَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ" .

قال أبو الفتح : أما "لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ" بالتنوين ، فإنه مصدر كالذي في قوله سبحانه : ﴿ وَيَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴾ 4 أي : أكلًا جامعًا لأجزاء المأكول ، فكذلك تقدير هذا : وإنّ كلا ليوفينهم ربك أعمالهم لَمًّا ؛ أي : توفية جامعة لأعمالهم جميعًا ، ومحصلة5 لأعمالهم تحصيلًا ، فهو كقولك : قيامًا لأقومن ، وقعودًا لأقعدن .

وأما "إِنْ كُلٌّ إِلَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ" فمعناه : ما كُلٌّ إلا والله ليوفينهم ، كقولك : ما زيد إلا لأضربنه ؛ أي : ما زيد إلا مستحق لأن يقال فيه هذا ، ويجوز فيه وجه ثانٍ ؛ وهو أن تكون "إن" مخففة من الثقيلة ، وتجعل "إلا" زائدة ، وقد جاء عنهم ذلك ، قال :

أرى الدهر إلا منجنونا بأهله وما طلب الحاجات إلا مُعَلَّلا6

---

1 النسق والطريقة .

2 هو سليمان بن أرقم أبو معاذ البصري مولى الأنصار ، وقيل : مولى قريش . روى عن الحسن البصري قراءته ، وهو ضعيف مجمع على ضعفه . روى الحروف عنه علي بن حمزة الكسائي . طبقات القراء لابن الجزري : 1/ 312 .

3 سورة هود : 111 .

4 سورة الفجر : 19 . و"يأكلون" بالياء قراءة أبي عمرو ويعقوب ، ووافقهما اليزيدي ، والباقون بالخطاب . وانظر : الإتحاف : 271 .

5 في ك : محصلة تحصيلًا .

6 الرواية المشهورة :

وما الدهر إلا منجنوبا بأهله وما طالب الحاجات إلا معذَّبا

وينسب إلى بعض الغرب . والمنجنون : الدولاب الذي يستقى عليه ، مؤنث . الخزانة : 2/ 129 .

(34/372)

أي : أرى الدهر منجنونًا بأهله يتقلب بهم ، فتارة يرفعهم ، وتارة يخفضهم . وعلى ذلك أيضًا تأولوا قول ذي الرمة :

حَراجيجُ ما تنفك إلا مُنَاخَةً على الْخَسف أو تَرْمي بها بلدًا فقرا 1

أي : ما تنفك مناخة ، وإلا زائدة .

ومن ذلك قراءة طلحة وقتادة والأشهب ، ورُويت عن أبي عمرو : "ولا تَرْكُنُوا" 2 بضم الكاف .

قال أبو الفتح : فيها لغتان : رَكِنَ يَرْكَنُ كعلم يعلم ، ورَكَنَ يَرْكُنُ كقتل يقتل ، وحُكي عنهم رَكَنَ يَرْكَنُ فَعَلَ يَفْعَل ، وهذا عند أبي بكر من اللغات المتداخلة ؛ كأن الذي يقول : رَكَنَ بفتح

الكاف سمع مضارع الذي يقول : رِكِن ، وهو يركَن ، فتركبت له لغة بين اللغتين ، وهي رَكَن يَرْكَن ، وقد ذكرنا في كتابنا الخصائص بابًا في تركيب اللغات3 .

وعليه كان أبو بكر يقول أيضًا في قولهم ضَفَن4 الرجل يَضْفِن : إن قائل ذلك سمع قولهم : ضَيْفَنَ5 ، وظاهر لفظ ذلك أن يكون فَيْعَلا ؛ لأنه أكثر في الكلام6 من فَعْلَن ؛ فصارت نون ضَيْفَن وإن كانت زائدة كأنها أصل لما ذكرناه . فلما استعمل الفعل منه جاء به على ذلك فقال : ضَفَن يَضْفِن ، فضَفَن يَضْفِن على حقيقة الأمر إنما هو فَلَن يَفْلِن ؛ لأن الضاد فاء والفاء لام ، وعين ضيف التي هي ياء محذوفة للشبهة الداخلة هناك من حيث ذكرنا ، وله نظائر .

---

1 حراجيج : جمع حرجوج ؛ وهي الناقة السمينة الطويلة على وجه الأرض . وفي ك : حراجيم ، وهو تحريف ، والخسف : الإذلال ، وهو أيضًا المبيت على غير علف . انظر : الديوان : 173 ، والكتاب : 1/ 428 ، والخزانة : 4/ 49 .

2 سورة هود : 113 .

3 الخصائص : 1/ 374 وما يليها .

4 ضفن اليهم : أتاهم يجلس إليهم .

5 الضيفن : مَن يجيء من الضيف متطفلًا .

6 في ك : كلامهم .

ومن ذلك قراءة يحيى والأعمش وطلحة بخلاف ورواه إسحاق الأزرق1 عن حمزة2 : "فَتِمَسَّكُمُ النَّارُ" .

قال أبو الفتح : هذه لغة تميم ، أن تكسر أول مضارع ما ثاني ماضيه مكسور ، نحو : علمت تِعْلَم ، وأنا إِعْلَم وهي تِعْلَم ، ونحن نِرْكَب ، وتقل الكسرة في الياء ، نحو : يِعْلَم ، ويِرْكَب ؛ استثقالًا للكسرة في الياء ، وكذلك ما في أول ماضيه همزة وصل مكسورة ، نحو : تِنْطَلِق ، ويوم تِسْوَدُّ وجوه وتِبْيَضُّ وجوه3 ، فكذلك "فَتِمَسَّكُمُ النَّارُ" .

فأما قولهم : أَبَيْتَ تِيبَي فإنما كسر أول مضارعه وعين ماضيه مفتوحة من قِبَل أن المضارع لما أتى على يَفْعَل – بفتح العين – صار كأن ماضيه مكسور العين حتى كأنه أَبِيَ ، وقد شرحنا ذلك في كتابنا المنصف .

ومن ذلك : "وزُلَفًا"4 بضم الزاي واللام ، قرأ بها أبو جعفر يزيد وطلحة بن مصرف بخلاف ، وعيسى وابن أبي إسحاق ، وقرأ : "وزُلْفًا" بضم الزاي ساكنة اللام ابن محيصن ومجاهد .

قال أبو الفتح : مَن قال : "79ظ" "زُلَفًا" بضم الزاي واللام جميعًا فواحدته زُلْفَة ، وكبُسُرة

وبُسُر فيمن ضم السين ، ومَن قرأ : "زُلَفًا" بسكون اللام فواحدته زُلْفَة ، إلا أنه جمعه جمع الأجناس المخلوقات ، كبُرَّة وبُرّ ، ودُرَّة ودُرّ ؛ وذلك أن الزُّلْفَة جنس من المخلوقات وإن لم يكن جوهرًا ، كما أن الدرة والبرة جوهر جنس من الجواهر . وعلى هذا أجاز أبو العباس في قولنا : ضربت ضربًا أن يكون جمع ضربة كحبة وحب ، ومثله قول الآخر :

حتى اتَّقَوْهَا بالسلام والتَّحِي

هو إسحاق بن يوسف بن يعقوب الأزرق أبو محمد الواسطي ، ويقال : الأنباري . ثقة كبير القدر ، قرأ على حمزة ، وروى القراءة عن أبي عمرو وحروف عاصم عن أبي بكر بن عياش ، وروى عن الأعمش وغيره ، وروى القراءة عنه إسماعيل بن إبراهيم بن هود والحسن بن علي الأبح وغيرهما . توفي سنة 195 ، وقيل : سنة 194 . طبقات القراء لابن الجزري : 1/ 158 .

2 هو حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الإمام الحبر ، أبو عمارة الكوفي التيمي مولاهم ، أحد القراء السبعة . ولد سنة 80 ، أخذ القراءة عرضًا عن سليمان الأعمش وحمران بن أعين وأبي إسحاق السبيعي وغيرهم ، قرأ عليه ورى القراءة عنه إبراهيم بن ادهم وإبراهيم بن إسحاق بن راشد ، وإسحاق بن يوسف الأزرق وكثير غيرهم . توفي سنة 156 ، وقيل غير ذلك . طبقات القراء لابن الجزري : 1/ 261 .

3 من قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ في سورة آل عمران : 106 .

4 سورة هود : 114 .

(36/372)

يريد : جمع تحية .

والزُّلَفَة : الطائفة من الليل . وأما قراءة الجماعة : ﴿وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ فعلى الظاهر ، نحو : غرفة وغرف ، وصُفَّة وصُفَف .

ومن ذلك قراءة جعفر بن محمد والعلاء بن سَيَابَة ، ورواه حسين الجعفي 1 عن أبي عمرو : "وَأُتْبِعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا" 2 بضم الهمزة ، وإسكان التاء ، وكسر الباء .

قال أبو الفتح : هو عندنا على حذف المضاف ؛ أي : أتبع الذين ظلموا جزاء ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ؛ أي : جزاء ما أُترفوا فيه وأجرموا فلم يشكروا ؛ بل أُترفوا فيه مجرمين ظالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 1 صـ 317.330﴾

---

1 هو الحسين بن علي بن فتح الإمام الحبر أبو عبد الله ، ويقال : أبو علي ، الجعفي مولاهم الكوفي الزاهد ، أحد الأعلام . قرأ على حمزة ، وروى القراءة عن أبي بكر بن عياش وأبي عمرو بن العلاء . وقرأ عليه أيوب بن المتوكل ، وروى عنه القراءة خلاد بن خالد وغيره ،

تُوفي في ذي القعدة سنة 203 عن أربع وثمانين سنة . طبقات القراء لابن الجزري : 1/ 248 .

2 سورة هود : 116 .

(37/372)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة هود مكية

وآيها مائة وعشرون وواحدة حرمي وبصري إلا المدني الأول وثنتان فيه وشامي وثلاث كوفي خلافها سبع مما تشركون كوفي وحمصي في قوم لوط حرمي وكوفي ودمشقي من سجيل مدني أخير ومكي منضود وإنا عاملون غيرهما إن كنتم مؤمنين حمصي وحرمي مختلفين غيره مشبه الفاصلة تسعة الر وما يعلنون إنما أنت نذير فسوف تعلمون سوف تعلمون وفار التنور فينا ضعيفا يوم مجموع وعكسه واحد كما تسخرون القراآت سكت على كل حرف من الر أبو جعفر وأمال راءها أبو عمرو وأبن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق وعن ابن محيصن يمتعكم بسكون الميم وتخفيف التاء من أمتع كقراءة ابن عامر فأمتعه وشدد البزي بخلفه وإن تولوا وعن ابن محيصن تولوا بضم التاء والواو واللام مبنيا

للمفعول على أنه فعل ماض وضم ثانية كأوله لكونه مفتتحا بتاء المطاوعة وضمت اللام أيضا وإن كان أصلها الكسر لأجل الواو بعدها والأصل توليوا كتدحرجوا حذفت ضمة الياء ثم الياء فبقي ما قبل واو الضمير مكسورا فضم لأجلال الواو فوزنه تفعوا بحذف لامه وفتح ياء الإضافة من إني أخاف نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وعن ابن محيصن ويعلم مستقرها ومستودعها ببناء الفعل للمفعول ورفع الاسمين وعن المطوعي أنكم مبعوثون بفتح الهمزة على أنها بمعنى لعل أو يضمن القول معنى ذكرت

وقرأ (إلا سحر) الآية 7 على وزن فاعل حمزة والكسائي وخلف والباقون سحر بلا ألف وفتح ياء الإضافة من عني أنه نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وعن الحسن والمطوعي يوف إليهم بياء الغيب والجمهور بنون العظمة وسبق ضم هاء لديهم و عليهم لحمزة ويعقوب وعن الحسن مرية بضم الميم لغة أسد وتميم

وقرأ ﴿ يضعف ﴾ الآية 20 بالتشديد والقصر ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب ومد لا جرم وسطا حمزة بخلفه للمبالغة

وأمال كالأعمى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

وقرأ (تذكرون) الآية 24 بتخفيف الذال حفص وحمزة والكسائي وخلف

واختلف في (إني لكم نذير) الآية 25 فنافع وابن عامر وعاصم وحمزة بكسر الهمزة على إضمار القول وافقهم الأعمش والباقون بالفتح على تقدير حرف الجر أي بأني وفتح ياء الإضافة من إني أخاف نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر

وأمال ما نريك و ما نري و لنريك أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق

وقرأ ﴿ بادىء ﴾ الآية 27 بالهمز أبو عمرو أي أول الرأي بلا روية وتأمل بل من أول وهلة والباقون بغير همز ويحتمل أن يكون كما ذكر وأن يكون من بدأ ظهر أي ظاهر الرأي دون باطنه أي لو تأمل لظهر وهو في المعنى كالأول وأدغم لام بل نظنكم الكسائي

وقرأ (أرأيتم) الآية 27 بتسهيل الثانية نافع وأبو جعفر وللأزرق أيضا إبدالها ألفا فيشبع المد وحذفها الكسائي

واختلف في (فعميت عليكم) الآية 28 هنا فقرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بضم العين وتشديد الميم أي عماها الله عليكم وقرأ به أبي وافقهم الأعمش والباقون بفتح العين وتخفيف الميم مبنيا للفاعل وهو ضمير أي خفيت وخرج بهنا موضع القصص المتفق على تخفيفه وفتح ياء الإضافة من أجري إلا نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر ومن ولكني أراكم نافع والبزي وأبو عمرو وأبو جعفر ومن إذا و نصحي إن أردت نافع وأبو عمرو

وأبو جعفر وخفف ذال تذكرون حفص وحمزة والكسائي وخلف وأدغم دال قد جادلتنا أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف

وقرأ (ترجعون) الآية 34 بفتح أوله وكسر الجيم يعقوب

وقرأ بريء بالإبدال مع الإدغام أبو جعفر بخلفه وبذلك وقف حمزة وهشام بخلفه وتجوز إشارة بالروم والإشمام وحكى الحذف ولا يصح

(39/372)

وقرأ جاء أمرنا بإسقاط الأولى قالون والبزي وأبو عمرو ورويس من طريق أبي الطيب قرأ ورش وأبو جعفر ورويس من غير طريق أبي الطيب بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية بين بين وللأزرق وجه ثان وهو إبدالها ألفا فيشبع المد وقرأ قنبل من طريق ابن شنبوذ بإسقاط الأولى ومن طريق غيره تحقيقها وتسهيل الثانية وبإبدالها كالأزرق والباقون بتحقيقهما اختلف فيمن كل زوجين) الآية 40 هنا وقد أفلح الآية 27 فحفص بتنوين كل فيهما على تقدير محذوف رضي عنه التنوين أي من كل حيوان وزوجين مفعول باحمل وافقه الحسن والمطوعي والباقون بغير بغير تنوين على إضافة كل إلى زوجين فاثنين مفعول احمل ومن كل زوجين محله نصب على الحال من المفعول كأنه كان صفة للنكرة فلما قدم عليها نصب حالا

واختلف في (مجراها) الآية 41 فحفص وحمزة والكسائي وخلف بفتح الميم مع الإمالة من جرى ثلاثي ولم يمل حفص في القرآن العزيز غيرها كما تقدم وافقهم الشنبوذي والباقون بالضم من أجرى أمالها منهم أبو عمرو وأبن ذكوان من طريق الصوري وقلله الأزرق وأمال مرساها حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق بخلفه على قاعدته كما صوبه في النشر وإن اقتضى كلام العنوان فتحها فقط وعن المطوعي فتح الميمين مع الإمالة من جرى ورسى وعن الحسن مجريها ومرسيها بياء ساكنة فيهما بدل الألف مع كسر الراء والسين اسما فاعلين من أجرى وأرسى بدلان من اسم الله تعالى

(40/372)

واختلف في (يا بني) الآية 42 هنا ويوسف الآية 5 وفي لقمان ثلاثة الآية 13 16 17 وفي الصافات الآية 102 فحفص بفتح الياء في الستة ذلك لأن أصل ابن بنو صغر على بنيو فاجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء وأدغمت فيها ثم لحقها ياء الإضافة فاستثقل اجتماعها مع الكسرة فقلبت ألفا ثم حذفت الألف اجتزاء عنها بالفتحة وقرأ أبو بكر هنا كذلك بالفتح وقرأ ابن كثير الأول من لقمان ( ) يا بني لا تشرك بالله (بسكون الياء مخففة واختلف عنه في الأخير منها ( ) يا بني أقم الصلاة (فرواه عنه البزي

كحفص ورواه عنه قنبل بالتخفيف مع السكون كالأول وافقه ابن محيصن على التخفيف فيهما وعن المطوعي كذلك في هود ولا خلاف عن ابن كثير في كسر الياء مشددة في الأوسط من لقمان (يا بني إنها) وبه قرأ الباقون في الستة وأدغم باء (اركب) الآية 42 في ميم (معنا) أبو عمرو والكسائي و يعقوب واختلف عن ابن كثير وعاصم وقالون وخلاد والوجهان صحيحان عن كل منهم والباقون بالإظهار وأشم قيل وغيض هشام والكسائي ورويس وقرأ يا سماء أقلعي بإبدال الثانية واو مفتوحة نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس وعن المطوعي الجودي بسكون الياء مخففة لغة فيه

واختلف في ( ) إنه عمل غير ( ) الآية 46 فالكسائي ويعقوب بكسر الميم وفتح اللام فعلا ماضيا من باب علم ونصب غير مفعولا به أو نعتا لمصدر محذوف أي عملا غير والضمير لابن نوح عليه السلام والباقون بفتح الميم ورفع اللام منونة على أنه خبر

إن وغير بالرفع صفة على معنى أنه ذو عمل أو جعل ذاته ذات العمل مبالغة في الذم على حد رجل عدل فالضمير حينئذ لابن نوح ويحتمل عوده لترك الركوب أي إن تركه لذلك وكونه مع الكافرين عمل غير صالح وأما من جعله عائدا إلى السؤال المفهوم من النداء ففيه خطر عظيم ينبغي تنزيه الرسل عنه ولذا ضعفه الزمخشري

واختلف في ﴿ فلا تسألن ﴾ الآية 46 فنافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر بفتح اللام وتشديد النون وفتحها منهم ابن كثير والداجوني عن هشام وافقهما ابن محيصن والباقون بإسكان اللام وتخفيف النون وكلهم كسر النون سوى ابن كثير والداجوني كما مر فوجه التشديد مع الفتح أنها المؤكدة ولذا بنى الفعل ومع الكسر أنها المؤكدة الخفيفة أدغمت في نون الوقاية ووجه التخفيف والكسر أنها نون الوقاية والفعل مجزوم بالناهية فسكنت اللام والياء مفعولة الأول ومن حذفها فللتخفيف وما مفعوله الثاني بتقدير عن واثبت الياء فيها وصلا أبو عمرو وابو جعفر وورش وفي الحالين يعقوب والوقف لحمزة بالنقل وأما بين بين فضعيف جدا يأتي موضع الكهف في محله إن شاء الله تعالى وفتح ياء الإضافة من إني أعظك وإني أعوذ بك نافع وابن كثير وابو عمرو وأبو جعفر واتفقوا على تسكين ترحمني أكن وتقدم إدغام تغفر لي لأبي عمرو بخلف عن الدوري وكذا إشمام قيل وقرأ من إله غيره بخفض الراء وكسر الهاء الكسائي وابو جعفر كما مر بالأعراف وفتح ياء الإضافة من أجري إلا نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر ومن فطرني أفلا نافع والبزي وأبو جعفر ومن إني أشهد الله نافع وأبو جعفر

وأمال اعتراك أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على برىء بالإبدال ثم الإدغام فقط لزيادة الياء وبذلك

قرأ أبو جعفر في الحالين بخلف عنه كما مر وأثبت الياء في لا تنظرون في الحالين يعقوب

واتفقوا على إثبات ياء فكيدوني للرسم

وقرأ (صراط) الآية 56 بالسين قنبل من طريق ابن مجاهد ورويس وبالإشمام خلف عن

حمزة وشدد البزي بخلفه تاء فإن تولوا وتقدم قريبا حكم جاء أمرنا

وأمال كل جبار أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه والدوري عن الكسائي وقلله الأزرق وعن

الأعمش وإلى ثمود بالكسر على إرادة الحي والجمهور على منع صرفه للعلمية والتأنيث

على إرادة القبيلة

(42/372)

وقرأ (من إله غيره) الآية 61 بخفض الراء الكسائي وأبو جعفر وذكر قريبا

وقرأ أرأيتم بتسهيل الثانية قالون والأصبهاني وأبو جعفر والأزرق وله إبدالها ألفا خالصة مع

إشباع المد وحذفها الكسائي ومر آنفا حكم جاء أمرنا

واختلف في (ومن خزي يومئذ) الآية 66 وفي سأل الأية 11 (عذاب يومئذ) فنافع

والكسائي وأبو جعفر بفتح الميم فيهما على أنها حركة بناء لإضافته إلى غير متمكن

وافقهم الشنبوذي والباقون بالكسر فيهما إجراء لليوم مجرى الأسماء فأعرب وإن أضيف

إلى إذ لجواز انفصاله عنها وأما (من فزع يومئذ) فيأتي في محله بالنمل إن شاء الله تعالى

واختلف في ﴿ (ألا إن ثمودا) ﴾ الآية 68 هنا وفي الفرقان الآية 38 ﴿ وعادا وثمودا) ﴾ وفي العنكبوت الآية 38 ( ) وثمود وقد (وفي النجم الآية 51 ( ) وثمود فما أبقى ( )

فحفص وحمزة وكذا يعقوب بغير تنوين في الأربعة للعلمية والتأنيث على إرادة القبيلة ويقفون بلا ألف كما جاء نصا عنهم وإن كانت مرسومة وافقهم الحسن وقرأ أبو بكر كذلك في النجم فقط والباقون بالتنوين مصروفا على إرادة الحي

واختلف في ( ) ألا بعدا لثمود ( ) الآية 68 فالكسائي بكسر الدال مع التنوين وافقه الأعمش والباقون بغير تنوين مع فتحها وأدغم دال ولقد جاءت أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف

وأمال جاء حمزة وخلف وابن ذكوان وهشام بخلفه وأسكن سين رسلنا أبو عمرو

(43/372)

واختلف في (قال سلام) الآية 69 هنا والذاريات الآية 25 فحمزة والكسائي بكسر السين وسكون اللام بلا ألف فيهما وقرأ الباقون وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب وخلف بفتح السين واللام وبألف بعدها فيهما وهما لغتان

كحرم وحرام وخرج بقيد قال قالوا سلاما اتفق عليه ما عدا الأعمش فعنه بالكسر والسكون فيهما ورفع الميمين والجمهور على نصب الميم في الحرفين الأولين من السورتين ورفع الثانيين منهما والنصب على المصدر أي سلمنا عليك سلاما أو بقالوا على معنى ذكروا سلاما ورفع الثاني أما خبر المحذوف أي أمركم أو جوابي أو مبتدأ حذف خبره أي وعليكم سلام

وأمال حرفي رأى ابن ذكوان وحمزة والكسائي وخلف والأكثرون عن الداجوني عن هشام وأبو بكر في رواية الجمهور عن يحيى وقللهما الأزرق وأمال الهمزة وفتح الراء أبو عمرو وتقدم تضعيف نقل الخلاف عن السوسي في الراء وأنه ليس من طرق الكتاب والباقون بفتحهما وبذلك قرأ الجمهور عن الحلواني عن هشام وكذا العليمي عن أبي بكر في رواية الجمهور أيضا وأما فتح الراء وإمالة الهمزة عن شعيب عن يحيى عنه فانفرادة كما مر لا يقرأ بها وإذا وقف عليها الأزرق هنا جازت له ثلاثة البدل لتقدم الهمز على حرف المد فإن وصلها بأيديهم تعين المد المشبع عملا بأقوى السببين وهو الهمز بعد حرف المد

واختلف في (يعقوب قالت) الآية 71 فحفص وابن عامر وحمزة بفتح الباء علامة جر عطفا على لفظ إسحاق أو نصب بفعل مقدر يفسره ما دل عليه الكلام أي ووهبنا يعقوب وافقهم المطوعي والباقون بالرفع على أنه مبتدأ خبره الظرف قبله وقرأ ومن وراء إسحاق بتسهيل الأولى قالون والبزي مع المد والقصر وقرأ ورش وأبو جعفر ورويس من غير طريق أبي الطيب بتسهيل الثانية وللأزرق وجه ثان وهو إبدالها ياء ساكنة من جنس سابقتها فيشبع المد للساكنين وقرأ أبو عمرو وقنبل من طريق ابن شنبوذ ورويس من طريق أبي الطيب بحذف الأولى مع المد والقصر ولقنبل من طريق الأكثرين تسهيل الثانية وإبدالها ياء كالأزرق فيكمل له ثلاثة اوجه والباقون بتحقيقهما

وأمال ﴿ يا ويلتي ﴾ الآية 72 حمزة والكسائي وخلف لأن الظاهر انقلاب ألفها عن ياء المتكلم وبالفتح والصغرى الأزرق والدوري عن أبي عمرو ووقف عليها رويس بهاء السكت بخلف عنه

وقرأ (أألد) الآية 72 بتسهيل الثانية وإدخال ألف قالون وابو عمرو وأبو جعفر وهشام من طريق الحلواني غير الجمال وقرأ ورش وابن كثير ورويس بتسهيلها بلا ألف وللأزرق وجه ثان وهو إبدالها ألفا مع القصر فقط لعروض حرف المد بالإبدال وضعف السبب بتقدمه وقرأ الجمال عن الحلواني عن هشام بالتحقيق مع الإدخال والوجه الثالث له التحقيق بلا إدخال من مشهور طرق الداجوني وبه قرأ الباقون وعن المطوعي شيخ بالرفع خبر بعد خبر

والجمهور على الحال من فاعل أألد أي كيف تقع الولادة في هاتين الحالتين أو العامل فيه معنى الإشارة ووقف على رحمت بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب وأدغم دال قد جاء أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وأسكن سين رسلنا أبو عمرو وأشم سين سيء بهم نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر ورويس ويوقف عليه لحمزة وهشام بخلفه بالإبدال ياء وبالإدغام ايضا إجراء للأصلي مجرى الزائد

(45/372)

وأمال وضاق حمزة وافقه الأعمش فقط وأثبت ياء ولا تخزون وصلا أبو عمرو وأبو جعفر وفي الحالين يعقوب وفتح ياء الإضافة من ضيفي أليس نافع وأبو عمرو وأبو جعفر

واختلف في فأسر هنا الآية 81 وفي الحجر الآية 65 وفي الدخان الآية 23 (فأسر بعبادي) وفي طه الآية 77 والشعراء الآية 52 (أن أسر) فنافع وابن كثير وأبو جعفر بهمزة وصل تثبت ابتداء مكسورة مع كسر نون إن للساكنين وافقهم ابن محيصن والباقون بهمزة قطع مفتوحة تثبت درجا وابتداء يقال سرى وأسرى للسير ليلا وقيل أسرى لأول الليل وسرى لآخره وأما سار فمختص بالنهار

واختلف في (إلا امرأتك) الآية 81 هنا فابن كثير وأبو عمرو برفع التاء بدل من أحد

واستشكل ذلك بأنه يلزم منه أنهم نهوا عن الالتفات إلا المرأة فإنها لم تنه عنه وهذا لا يجوز ولذا جعله في المغني مرفوعا بالابتداء والجملة بعده خبر والمستثنى الجملة قال ونظيره لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله وافقهم ابن محيصن واليزيدي والحسن والباقون بالنصب مستثنى من بأهلك وجعله في المغني استثناء منقطعا لئلا تكون قراءة الأكثرين مرجوحة على أن المراد بالأهل المؤمنون وإن لم يكونوا من أهل بيته ومر حكم جاء أمرنا وكذا من إله غيره وفتح ياء الإضافة من إني أراكم بخير نافع والبزي وأبو عمرو وابو جعفر ومر حكم إمالة أراكم وفتح الياء من إني أخاف نافع وابن كثير وابو عمرو وابو جعفر وعن المطوعي تبخسوا و تعثوا بكسر التاء فيهما وعن الحسن تقيت الله بالتاء المثناة فوق قال القاضي هي تقواه التي تكف عن المعاصي والجمهور بالموحدة أي ما أبقاه لكم من الحلال ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب والباقون بالتاء للرسم وقرأ ﴿ أصلواتك ﴾ الآية 87 بالإفراد حفص وحمزة والكسائي وكذا خلف ولا خلاف في رفع التاء هنا ومر بالتوبة

(46/372)

وقرأ (ما نشاء إنك) الآية 87 بتسهيل الثانية كالياء وبإبدالها واوا مكسورة نافع وابن كثير وابو عمرو وابو جعفر ورويس ونقل ابن شريح جعلها كالواو مردود كما مر ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على نشاء ونحوه مما رسم بالواو باثني عشر وجها تقدمت في أنبؤا ما كانوا بأول الأنعام وتقدم قريبا حكم أرأيتم وأمال أنهاكم عنه حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وغلظ الأزرق لام الإصلاح وفتح ياء الإضافة من توفيقي إلا بالله نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر وعن الأعمش ضم ياء (لا يجرمنكم) الآية 89 من أجرم وفتح ياء الإضافة من شقاقي أن نافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر ومن أرهطي أعز نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن ذكوان وأبو جعفر وهشام بخلفه وأظهر ذال اتخذتموه ابن كثير وحفص ورويس بخلفه

وقرأ ﴿ (مكاناتكم) ﴾ الآية 93 بالجمع أبو بكر ومر بالأنعام وتقدم حكم جاء أمرنا وأدغم تاء بعدت ثمود أبو عمرو وابن عامر بخلف عن ابن ذكوان فالإظهار طريق الصوري والإدغام طريق الأخفش وحمزة والكسائي

وأمال زادوهم حمزة وهشام وابن ذكوان بخلفهما

وأمال خاف حمزة وحده وأثبت ياء يأت لا تكلم وصلا نافع وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر وفي الحالين ابن كثير ويعقوب والباقون بالحذف فيهما لقصد التخفيف على حد لا أدر اكتفاء بالكسرة وشدد تاء لا تكلم وصلا البزي بخلفه وعن الحسن شقوا بضم الشين

استعمله متعديا يقال أشقاه الله وشقاه والجمهور بفتحها من شقى فعل قاصر

واختلف في (سعدوا) الآية 108 فحفص وحمزة والكسائي وكذا خلف بضم السين

بالبناء للمفعول من سعده الله بمعنى أسعده وافقهم الأعمش والباقون بفتحها مبنيا للفاعل

من اللازم وعن ابن محيصن لموفوهم بسكون الواو وتخفيف ألفاء من أوفى

(47/372)

واختلف في (وإن كلا) الآية 111 وفي لما هنا الآية 111 ويس الآية 32 والزخرف الآية

35 والطارق الآية 4 فنافع وابن كثير بتخفيف نون (إن) وميم (لما) هنا على أعمال أن

المخففة وهي لغة ثابتة سمع إن عمرا لمنطلق وأما لما فاللام فيها هي الداخلة في خبر إن وما

موصولة أو نكرة موصوفة ولام ليوفينهم لام القسم وجملة القسم مع جوابه صلة الموصول أو

صفة لما والتقدير على الأول وإن كلا للذين والله ليوفينهم وعلى الثاني وإن كلا الخلق أو

لفريق والله ليوفينهم والموصول أو الموصوف خبر لأن وافقهما ابن محيصن وقرأ أبو عمرو

والكسائي ويعقوب وخلف عن نفسه بتشديد (إن) وتخفيف (لما) قال في الدر وهي

واضحة جدا فإن المشددة عملت عملها واللام الأولى للابتداء دخلت على خبر أن

والثانية جواب قسم محذوف أي وإن كلا للذين والله ليوفينهم وافقهم اليزيدي وقرأ ابن عامر

وحفص وحمزة وأبو جعفر بتشديدهما فإن على حالها وأما لما فقيل أصلها لمن ما على أنها من الجارة دخلت على ما الموصولة أو الموصوفة أي لمن الذين والله الخ أو لمن خلق الله الخ أدغمت النون الساكنة في الميم على القاعدة فصار في اللفظ ثلاث ميمات فخففت الكلمة بحذف أحدها فصار اللفظ كما ترى وافقهم الشنبوذي وقرأ أبو بكر بتخفيف النون وتشديد الميم جعل إن نافية ولما كإلا وكلا منصوب بمفسر بقوله ليوفينهم أو بتقدير أمري وافقه الحسن وعن المطوعي تخفيف إن ورفع كل وتشديد لما على أن إن نافية وكل مبتدأ ولما بمعنى إلا وهي ظاهرة وحكم لما بالطارق حكم هود تشديدا وتخفيفا ويأتي موضع يس كالزخرف إن شاء الله تعالى

واختلف في (وزلفا) الآية 114 فأبو جعفر بضم اللام للاتباع جمع زلفة نحو بسرة وبسر بالضم وافقه الشنبوذي وعن الحسن وابن محيصن بإسكان اللام وعنه في وجه من المبهج ترك التنوين على وزن حبلى

(48/372)

واختلف فيبقية) الآية 116 فابن جماز بكسر الباء وإسكان القاف وتخفيف الياء والباقون بفتح الباء وكسر القاف وتشديد الياء وسهل همزة لأملان الثانية الأصبهاني عن

ورش وكذلك أبدل همزة فؤادك واوا مفتوحة وكذا فؤاد بسبحان وغيرها ولم يبدله الأزرق لكونه عين الكلمة لا فاءها

وقرأ ﴿ على مكاناتكم ﴾ الآية 121 بألف بعد النون على الجمع أبو بكر ومر بالأنعام

وقرأ (وإليه يرجع الأمر) الآية 123 بالبناء للمفعول نافع وحفص

وقرأ (تعملون) الآية 123 بالخطاب نافع وابن عامر وحفص وكذا أبو جعفر ويعقوب والباقون بالغيب كما مر بالأنعام

المرسوم إن ثمودا في الإمام وغيره بالألف فكيدوني بالياء كذلك وكتبوا الهمزة واوا في نشؤا إنك مع حذف الألف قبلها وزيادة ألف بعدها وكتبوا يا وليتي بالياء بدل الألف وفي مصحف أبي جاء أمر ربك بياء وألف بعد الجيم وكذا جاءتهم المسند إلى مؤنث متصل بضمير الغائبين وكذا كتب في المكي جاء مع ضمير المذكرين الغائبين المرفوع والمنصوب نحو جاءوا وجاءهم وكتب يوم يأتي بالياء في بعضها قال السمين وهو الوجه لأنها لام الكلمة وحذفت في بعضها اجتزاء بالكسرة عن الياء

(49/372)

المقطوع والموصول اتفق على قطع أن لا إله إلا هو وأن لا تعبدوا إلا الله وعلى وصل إن الشرطية بلم في فإلم يستجيبوا وعلى قطع ما عداها الهاء رحمت الله بالتاء بقيت الله كذلك هنا فخرج وبقية بالبقرة وبقية ينهون يا آت الإضافة ثمان عشرة (إني أخاف) الآية 3 26 84 ثلاث (إني أعظك) الآية 46 (إني أعوذ) الآية 47 (شقاقي إن) الآية 89 (عني إنه) الآية 10 (إني إذا) الآية 31 (نصحي إن) الآية 34 (ضيفي أليس) الآية 78 (أجري إلا) معا الآية 29 51 (أرهطي أعز) الآية 92 (فطرني أفلا) الآية 51 و (لكني أراكم) الآية 29 و (إني أراكم) الآية 84 (إني أشهد الله) الآية 54 (توفيقي إلا) الآية 88 الزوائد أربع (فلا تسئلن) الآية 46 (ثم لا تنظرون) الآية 55 و (لا تخزون) الآية 78 (يوم يأت) الآية 105 وذكر كل في محله. انتهى انتهى. اهـ ﴿إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعة عشر صـ 319. 328﴾

(50/372)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة هود "

" الر " سكت أبو جعفر على حروف الهجاء الثلاثة.

" حكيم خبير " أخفى أبو جعفر التنوين في الخاء مع الغنة ، وأظهره الباقون .

" منه نذير وبشير . وأن استغفروا ، إليه ، ويؤت . وهو ، منه ، يسرون " كله واضح .

" وإن تولوا " شدد البزي التاء وصلا مع بقاء إخفاء النون ، وخففها الباقون مع الإخفاء كذلك .

" فإني أخاف " فتح الياء المدنيان والبصري والمكي ، وأسكنها الباقون .

" بذات الصدور " آخر الربع .

الممال

" آية " للكسائي بلا خلاف عنه ، الناس لدوري البصري . جاءهم وجاءك وجاءتهم ، وشاء وجاءكم لابن ذكوان وخلف وحمزة ، الدنيا بالإمالة للأصحاب ، والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، يتوفاكم ، واهتدى ؛ ويوحى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه .

" الر " بالإمالة للبصري والشامي وشعبة والأخوين وخلف ، وبالتقليل لورش ، مسمى لدى الوقف بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلفه .

المدغم

" الصغير " لقد جاءك وقد جاءكم للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " الغرق قال ، هو وإن ، يصيب به ، يعلم ما يسرون .

" سحر مبين " قرأ الأخوان وخلف بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء ، والباقون بكسر السين وحذف الألف وإسكان الحاء ، ولا يخفى ما فيه من ترقيق الراء لورش .

" يأتيهم " إبداله ظاهر ، وضم يعقوب هاءه .

" يستهزءون " لا يخفى ما فيه لأبي جعفر في الحالين ، ولحمزة عند الوقف .

" منه " مسته . عليه ، افتراه . ويتلوه . فيه الصلة للمكي .

" ليؤس " فيه تثليث البدل لورش ، ولحمزة فيه وقفا تسهيل الهمزة بين بين والحذف فيصير النطق بواو ساكنة بعد الياء .

" عني أنه " فتح الياء المدنيان والبصري ، وأسكنها غيرهم .

" مغفرة ، نذير ، كافرون " فيه الترقيق لورش .

" إليهم " ضم الهاء حمزة ويعقوب .

" يضاعف " قرأ المكي والشامي وأبو جعفر ويعقوب بحذف الألف بعد الضاد وتشديد العين ، والباقون بإثبات الألف وتخفيف العين .

" خالدون " آخر الربع .

الممال

" يوحى " بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلفه ، وحاق لحمزة وحده ، جاء لابن ذكوان وخلف وحمزة ، افتراه وافترى بالإمالة للأصحاب والبصري ، والتقليل لورش .

الدنيا وموسى بالإمالة للأصحاب ، والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . الناس لدوري البصري .

المدغم

" الكبير " ويعلم مستقرها ؛ ومن أظلم ممن .

" تذكرون " معا خفف الذال حفص والأخوان وخلف وشددها غيرهم .

" إني لكم نذير " قرأ المكي والبصريان والكسائي وخلف ، في اختياره وأبو جعفر بفتح همزة إني ، والباقون بكسرها ، ورقق ورش راء نذير .

" إني أخاف " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري ، وأسكنها سواهم .

" بادي الرأي " قرأ أبو عمرو بهمزة مفتوحة بعد الدال ، وإذا وقف سكنها ، ولا إبدال فيها للسوسي لعدم أصالة سكونها والباقون بياء مفتوحة بعد الدال وأبدل همزة الرأي مطلقا السوسي وأبو جعفر ، وفي الوقف حمزة .

" أرأيتم " سبق في يونس .

" وآتاني " فيه لورش أربعة أوجه: قصر البدل مع فتح ذات الياء والتوسط مع التقليل والمد

معهما .

" فعميت " قرأ حفص والأخوان وخلف بضم العين وتشديد الميم ، والباقون بفتح العين وتخفيف الميم .

" أجري إلا " فتح الياء نافع والبصري والشامي وأبو جعفر وحفص ، وأسكنها غيرهم .

" ولكني أراكم " فتح الياء المدنيان والبزي والبصري ، وأسكنها غيرهم .

" من ينصرني " لا خلاف بين العشرة في ضم رائه ضمة كاملة .

" تزدري " لا خلاف بينهم في إسكان الياء في الحالين .

" يؤتيهم الله خيرا " إجرامي . سخروا ، ظلموا ، يأتيه . يخزيه " لا يخفى ما فيه .

" إني إذا . نصحي إن " فتح الياء فيهما المدنيان والبصري ، وأسكنها غيرهم .

" وإليه ترجعون " وصل المكي الهاء ، وقرأ يعقوب بفتح التاء وكسر الجيم ، والباقون بضم التاء وفتح الجيم .

" بريء " وقف حمزة وهشام بالإدغام مع السكون المحض والإشمام والروم .

" تبتئس " وقف حمزة بالتسهيل فقط .

" جاء أمرنا " قرأ قالون والبزي والبصري بإسقاط الهمزة الأولى مع المد والقصر لوقوع حرف المد قبل همز مغير بالإسقاط ، فكل من البزي والسوسي له وجهان على قصر المنفصل قبله . ولقالون والدوري ثلاثة أوجه: قصر المنفصل حتى إذا ، وعليه القصر والمد في جاء أمرنا ثم مد المنفصل وعليه المد فقط في جاء أمرنا وتقدم مثله ، وقرأ ورش وقنبل وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية بين بين . ولورش وقنبل إبدالها ألفا مع المد المشبع لالتقاء الساكنين .

" من كل زوجين " قرأ حفص بتنوين كل ، والباقون بتركه .

" قليل " آخر الربع .

الممال

كالأعمى ، وآتاني بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلفه . نراك معا ونرى وأراكم وافتراه بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش ، شاء وجاء لابن ذكوان وخلف وحمزة .

المدغم

" الصغير " بل نظنكم للكسائي ، قد جادلتنا للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " ويا قوم من ، أقول لكم ، أقول للذين ، أعلم بما .

" مجريها " قرأ حفص والأخوان وخلف بفتح الميم ، والباقون بضمها .

" وهي " أسكن الهاء قالون والبصري والكسائي وأبو جعفر ، وضمها غيرهم ووقف يعقوب بهاء السكت .

" يا بني " قرأ عاصم بفتح الياء ، والباقون بكسرها . ولا خلاف في تشديد الياء .

" سآوي إلى " أجمعوا على إسكان الياء .

" وقيل معا ، وغيض " قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام الكسرة الضم ، والباقون بالكسرة الكاملة .

" ويا سماء أقلعي " قرأ المدنيان والمكي والبصري ورويس بإبدال الهمزة الثانية واوا خالصة ، والباقون بتحقيقها ، وأجمعوا على تحقيق الأولى .

" عمل غير " قرأ الكسائي ويعقوب بكسر الميم وفتح اللام وحذف تنوينها ونصب راء غير ، والباقون بفتح الميم ورفع اللام وتنوينها ورفع راء غير .

(53/372)

" فلا تسألن " قرأ قالون والشامي بفتح اللام وتشديد النون مكسورة وحذف الياء في الحالين وورش وأبو جعفر كذلك إلا أنهما يثبتان الياء وصلا فقط . وابن كثير بفتح اللام وتشديد النون مفتوحة . وأبو عمرو ، ويعقوب بإسكان اللام وتخفيف النون مكسورة

وإثبات الياء بعدها وصلا لأبي عمرو وفي الحالين ليعقوب . والباقون كذلك لكنهم حذفوا الياء في الحالين وإذا وقف عليه حمزة فبالنقل فقط .

" إني أعظك ، إنى أعوذ ، عليه ، إليه ، أجري إلا ، استغفروا ، صراط " تقدم مثله قريبا .

" وترحمني أكن " اتفقوا على إسكان الياء في الحالين .

" من إله غيره " قرأ الكسائي وأبو جعفر بكسر الراء والهاء ، والباقون بضمهما ، وأخفى أبو جعفر التنوين مع الغنة ، وأظهره الباقون .

" فطرني أفلا " فتح الياء المدنيان والبزي ، وأسكنها غيرهم .

" مدرارا " أجمعوا على تفخيم الراء لوجود التكرار .

" بسوء " لحمزة وهشام أربعة أوجه . وقفا : النقل والإدغام ، وعلى كل السكون المحض والروم .

" إني أشهد الله " فتح الياء المدنيان وأسكنها سواهما .

" بريء " سبق قريبا .

" فكيدوني " لا خلاف في إشباع الياء وصلا ووقفا .

" تنظرون " أثبت الياء في الحالين يعقوب ، وحذفها غيره كذلك ، ورقق ورش راءه .

" فإن تولوا " حكمه حكم مثله أول هذه السورة .

" قوما غيركم " فيه الإخفاء لأبي جعفر ، والترقيق لورش .

" جاء أمرنا " تقدم آنفا .

" عذاب غليظ " فيه الإخفاء لأبي جعفر .

" قوم هود " آخر الربع .

الممال

" مجريها ، واعتراك " بالإمالة للأصحاب والبصري وبالتقليل لورش ، ووافق حفص المميلين في إمالة مجريها ولم يمل في القرآن الألف التي بعد الراء إلا في هذه الكلمة . الدنيا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . مرساها ونادى معا للأصحاب بالإمالة ولورش بالتقليل بخلف عنه ، الكافرين بالإمالة للبصري والدوري ورويس وبالتقليل لورش ، جبار بالإمالة للبصري والدوري وبالتقليل لورش ، جاء لحمزة وابن ذكوان وخلف .

المدغم

(54/372)

" الصغير " اركب معنا ، قرأه بالإظهار قالون والبزي وخلاد بخلف عنهم ، وقرأه بالإظهار بلا خلاف ورش وابن عامر وخلف عن حمزة وفي اختياره وأبو جعفر ، والباقون بالإدغام

قولا واحدا ، وهم قنبل والبصريان والكسائي وعاصم . تغفر لي للبصري . بخلف عن الدوري

" الكبير " قال لا عاصم ، اليوم من ، فقال رب ، قال رب ، نحن لك " ولا إدغام في كنت تعلمها ، لكون الأول تاء خطاب .

" من إله غيره " فاستغفروه . إليه . أرأيتم " منه ، غير ، جاء أمرنا . ظلموا . نكرهم جاء أمر ربك ، آتيهم عذاب غير " تقدم مرارا .

" فمن ينصرني " لا خلاف بين القراء في قراءته بالضمة الكاملة .

" ومن خزي يومئذ " أخفى أبو جعفر النون في الخاء مع الغنة وأظهرها غيره ، وقرأ هو ونافع والكسائي بفتح الميم ، والباقون بكسرها .

ولحمزة في الوقف عليها التسهيل فقط .

" ألا إن ثمود " قرأ حفص ويعقوب وحمزة بغير تنوين الدال ، والباقون بتنوينها . وكل من نون وقف بإبدال التنوين ألفا ، ومن لم ينون وقف على الدال ساكنة .

" ألا بعدا لثمود " قرأ الكسائي بخفض الدال مع التنوين ، والباقون بفتحها من غير تنوين ، وظاهر أن للكسائي عند الوقف أربعة أوجه: القصر والتوسط والطول والروم بالقصر . وأن لغيره الثلاثة الأولى فقط .

" رسلنا " أسكن اللام البصري وضمها غيره .

" قال سلام " قرأ الأخوان بكسر السين وإسكان اللام ، والباقون بفتح السين واللام وألف بعدها . وأما قالوا سلاما فاتفق العشرة على قراءته بفتح السين واللام وألف بعدها .

" رأى أيديهم " هو مد منفصل لجميع القراء ورش وغيره لأنه تحقق فيه سبب المنفصل وسبب البدل فعمل فيه بسبب المنفصل لكونه أقوى السببين . وهذا في حالة الوصل ، وأما إن وقف عليه فهو مد بدل لجميع القراء ولورش فيه حينئذ الأوجه الثلاثة .

(55/372)

" ومن وراء إسحاق " قرأ قالون والبزي بتسهيل الأولى مع المد والقصر ، والبصري بإسقاطها مع القصر والمد . وورش وقنبل وأبو جعفر ورويس بتسهيل الثانية بين بين ، ولورش وقنبل إبدال الثانية ياء مع المد المشبع للساكنين ، والباقون بتحقيقها .

" يعقوب " قرأ حفص وحمزة وابن عامر بنصب الباء ، والباقون برفعها .

" يا ويلتى " وقف رويس بهاء السكت مع المد المشبع للساكنين .

" ءألد " قرأ قالون والبصري وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية مع إدخال ألف الفصل بينها وبين الأولى ، وقرأ ابن كثير ورويس بتسهيلها من غير إدخال ؛ ولورش وجهان: الأول: كابن كثير ، والثاني: إبدالها ألفا مع القصر لعدم وجود ساكن بعدها . ولا يصير هذا من باب

آمنوا حرف المد عارض ناشئ من الإبدال ، ولهشام وجهان: تحقيق الثانية وتسهيلها وكل منهما مع الإدخال ، والباقون بتحقيقها من غير إدخال ولا خلاف بينهم في تحقيق الأولى .

" رحمت الله " رسم بالتاء المفتوحة فوقف عليه المكي والبصريان والكسائي بالهاء ، والباقون بالتاء .

" رسلنا " أسكن السين البصري ، وضمها غيره .

" سيىء " قرأ بإشمام كسرة السين الضم المدنيان والشامي والكسائي ورويس ، والباقون بالكسرة الخالصة . ولحمزة وهشام وقفا النقل والإدغام لأن الياء أصلية .

" السيئات " أبدل حمزة الهمزة ياء خالصة عند الوقف .

" هن " وقف يعقوب بهاء السكت .

" ولا تخزون " أثبت البصري وأبو جعفر الياء وصلا ، ويعقوب في الحالين ، وحذفها الباقون كذلك .

" ضيفي أليس " فتح المدنيان والبصري الياء ، وأسكنها غيرهم .

" فأسر " قرأ المدنيان والمكي بهمزة وصل فتسقط في حالة الدرج ، وحينئذ يصير النطق بسين ساكنة بعد الفاء ، والباقون بهمزة قطع مفتوحة بعد الفاء ، ويجوز على كلتا القراءتين تفخيم الراء وترقيقها في الوقف .

" إلا امرأتك " قرأ المكي والبصري برفع التاء ، والباقون بنصبها ، ولحمزة في الوقف عليها

التسهيل فقط .

" ببعيد " آخر الربع .

الممال

(56/372)

أتنهانا ، وآتاني بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . داركم وديارهم بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، لفظ جاء كله لابن ذكوان وخلف وحمزة ، بالبشرى والبشرى بالإمالة للأصحاب والبصري ، وبالتقليل لورش . رآى . بالإمالة لابن ذكوان وشعبة والأخوين وخلف في الراء والهمز معا وبإمالة الهمز فقط للبصري ، وأما إمالة الراء للسوسي بخلف عنه فليس من طريق الحرز فلا يقرأ به ، وبتقليل الراء والهمزة معا لورش . وتقدم ماله في البدل

" يا ويلتى " بالإمالة للأصحاب وبالتقليل للدوري عن البصري ، وورش بخلف عنه . ضاق لحمزة فقط .

المدغم

" الصغير " ولقد جاءت وقد جاء للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " غيره هو . خزي يومئذ ، أمر ربك ، أطهر لكم . لتعلم ما نريد ، قال لو ، رسل ربك .

" من إله غيره " أرأيتم ، منه ، عنه ، الإصلاح ، عليه وإليه ، واستغفروا ، كثيرا ، يأتيه يخزيه ، جاء أمرنا ، ظلموا ، ظلمناهم ، وبئس ، غير وهي ، لمن خاف ، كله جلي .

" إني أراكم " فتح الياء المدنيان والبزي والبصري ، وأسكنها سواهم .

" وإني أخاف " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري ، وأسكنها غيرهم .

" بقيت الله " رسم بالتاء فوقف عليه بالهاء المكي والبصريان والكسائي والباقون بالتاء .

" أصلواتك " قرأ حفص والأخوان وخلف بالإفراد ، والباقون بالجمع ، وفخم ورش لامه ، " نشاء إنك " جلي ولحمزة وهشام في الوقف عليه اثنا عشر وجها لأن الهمزة رسمت على واو ، تقدمت الأوجه في جزاؤا بالمائدة .

" وما توفيقي إلا " فتح الياء المدنيان والشامي والبصري وأسكنها سواهم .

" شقاقي أن " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري ، وأسكنها غيرهم .

" أرهطي أعز " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وابن ذكوان ، وأسكنها الباقون ، قال صاحب غيث النفع : كل من ذكرت له في هذه الياء حكما فهو متفق عليه إلا هشاما فلم يتفق عنه على الإسكان بل له الفتح أيضا وبه قطع أكثر القراء واقتصروا عليه في تآليفهم .

والمأخوذ به عند من يقرأ بما في التيسير والشاطبية الإسكان فقط ، مع أن الداني رحمه الله خرج فيه عن طريق التيسير وتبعه الشاطبي فالأولى القراءة بالوجهين لأن الوجهين صحيحان والفتح أكثر وأشهر وبه قرأ الداني على شيخه أبي الفتح وهو طريقه في رواية هشام والله أعلم . انتهى .

ولكن الذي يؤخذ من النشر أن هشاما ليس له من طريق التيسير إلا الإسكان فليتأمل .

" على مكانتكم " قرأ شعبة بألف بعد النون على الجمع ، والباقون بحذفها على الإفراد .

" آلهتهم ، من شيء " لورش أربعة أوجه: قصر البدل وتوسط اللين ثم توسطهما ثم مد البدل مع توسط اللين ومده .

" نؤخره " أبدل الهمزة واوا محضة ورش وأبو جعفر مطلقا وحمزة وقفا ورقق ورش الراء .

" يوم يأت " أبد الهمز مطلقا ورش السوسي وأبو جعفر وفي الوقف فقط حمزة وأثبت الياء وصلا المدنيان والبصري والكسائي وفي الحالين ابن كثير ويعقوب ، وحذفها الباقون في الحالين .

" لا تكلم " شدد البزي التاء وصلا مع المد الطويل للساكنين ، وخففها الباقون .

" فعال لما يريد " آخر الربع .

الممال

أراكم ، ولنراك والقرى معا بالإمالة للأصحاب والبصري ، وبالتقليل لورش ، موسى بالإمالة للأصحاب وبالتقليل للبصري وورش بخلف عنه . أنهاكم بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . جاء معا وشاء لابن ذكوان وحمزة وخلف ، زادوهم لحمزة وابن ذكوان بخلف عنه . ديارهم والنار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، خاف لحمزة وحده .

المدغم

" الصغير " واتخذتموه لغير حفص وابن كثير ورويس . بعدت ثمود للبصري والشامي والأخوين .

" الكبير " المرفود ذلك ، أمر ربك . الآخرة ذلك ، النار لهم .

" سعدوا " قرأ حفص والأخوان وخلف بضم السين ، والباقون بفتحها .

" غير معًا فيه ، منه ، ظلموا ، الصلاة ، مكانتكم ، وانتظروا ، منتظرون ، وإليه ، فاعبده " جلي كله .

(58/372)

" وإن كلا لما " قرأ نافع وابن كثير بتخفيف وإن لما . وأبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف عن نفسه بتشديد وإن تخفيف لما ، وابن عامر وحفص وحمزة وأبو جعفر بتشديدهما ، وشعبة بتخفيف وإن وتشديد لما .

" وزلفا " قرأ أبو جعفر بضم اللام ، والباقون بفتحها .

" بقية " قرأ ابن جماز بكسر الباء وإسكان القاف وتخفيف الياء ، والباقون بفتح الباء وكسر القاف وتشديد الياء .

" لأملأن " فيه لحمزة وقفا تسهيل الهمزة الثانية مع تحقيق الأولى وتسهيلها .

" فؤادك " لا إبدال فيه لورش لأن الهمزة عين الكلمة وفيه الأوجه الثلاثة في البدل ولحمزة فيه وقفا إبدال الهمزة واوا محضة .

" يرجع " قرأ نافع وحفص بضم الياء وفتح الجيم والباقون بفتح الياء وكسر الجيم .

" تعملون " قرأ المدنيان والشامي وحفص ويعقوب بتاء الخطاب والباقون بياء الغيبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البدور الزاهرة فى القراءات العشر المتواترة صـ 154.162 ﴾

(59/372)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة هود قوله تعالى إني لكم نذير مبين يقرا بفتح الهمزة وكسرها فالحجة لمن فتح أنه أراد ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه بأني لكم فلما حذف الباء وصل الفعل فعمل والحجة لمن كسر انه جعل الكلام تاما عند قوله إلى قومه ثم ابتدا مستأنفا فكسر قوله تعالى بادي الرأي يقرا بياء مفتوحة وبالهمز فالحجة لمن قرأه بالياء أنه أخذه من بدأ يبدأ إذا أخذ في فعل الشيء فإن وقف عليه واقف استوى المهموز فيه وغيره فكان بياء ساكنة لأن الهمزة تسكن في الوقف وقبلها كسرة فتقلب ياء والهمزة عند الوقف جائزة لا تمتنع لأنها حرف صحيح وإنما تسقط في الوقف إذا كان قبلها ساكن قوله تعالى فعميت عليكم يقرأ بضم العين والتشديد وبفتحها والتخفيف فالحجة لمن ضم وشدد أنه دل بذلك على بناء الفعل لما لم يسم فاعله ودليله أنها في حرف عبد الله وأبي فعماها عليكم والحجة لمن فتح وخفف انه جعل الفعل للرحمة ومعناهما قريب يريد فخفيت قوله تعالى من كل زوجين اثنين يقرأ بالتنوين والإضافة ها هنا وفي سورة المؤمنين فالحجة لمن نون أنه أراد من كل جنس ومن كل نوع زوجين فجعل التنوين دليلا على المراد والحجة لمن أضاف أنه أراد أن يجعل الزوجين محمولين وجمع بين سائر الأصناف وعنى بقوله زوجين ذكر وأنثى لأن كل اثنين لا ينتفع

بأحدهما إلا أن يكون صاحبه معه فكل واحد منهما زوج للآخر وأكد بقوله اثنين كما قال لا تتخذوا إلهين اثنين فأكد من غير لبس

(60/372)

قوله تعالى باسم الله مجراها يقرأ بضم الميم وفتحها وبالإمالة والتفخيم فالحجة لمن ضم أنه أراد المصدر من قولك أجرى يجري مجرى والحجة لمن فتح أنه أراد المصدر من قولك جرت مجرى فأما ضم الميم في مرساها فإجماع وفيه من الإمالة ما في قوله مجراها والحجة في ذلك مذكورة فيما سلف قوله تعالى يا بني اركب معنا يقرأ بكسر الياء وفتحها وبإدغام الباء في الميم وإظهارها فالحجة لمن كسر الياء أنه أضاف إلى نفسه فاجتمع في الاسم ثلاث ياءات ياء التصغير وياء الأصل وياء الإضافة فحذفت ياء الإضافة اجتزاء بالكسرة التي قبلها لأن النداء مختص بالحذف لكثرة استعماله والحجة لمن فتح أنه أراد يا بنياه فأسقط الألف والهاء وبقي الياء على فتحها ليدل بذلك على ما أسقط والحجة لمن أدغم مقاربة مخرج الحرفين وبناء الباء على السكون للأمر فحسن الإدغام لحسنه في قوله تعالى ودت طائفة والحجة لمن أظهر أنه أتى بالكلام على الأصل لأن الأصل الإظهار والإدغام فرع عليه قوله تعالى إنه عمل غير صالح يقرأ بالتنوين ورفع غير وبالفتح ونصب غير فالحجة لمن نون ورفع

غير أنه جعله اسما أخبر به عن إن ورفع غير إتباعا له على البدل ومعناه إن سؤالك إياي أن أنجي كافرا ليس من أهلك عمل غير صالح والحجة لمن فتح أنه جعله فعلا ماضيا وفاعله مستتر فيه وغير منصوب لأنه وصف قام مقام الموصوف ومعناه أنه عمل عملا غير صالح

قوله تعالى فلا تسألني يقرأ بإسكان اللام ونون وياء بعدها وبفتح اللام ونون شديدة وياء بعدها فالحجة لن أسكن اللام أنه جعل السكون علامة للجزم بالنهي والنون والياء كناية عن اسم الله تعالى في محل نصب والحجة لمن فتح اللام وشدد النون أنه أراد تأكيد النهي فالتقى ساكنان سكون اللام للجزم وسكون النون المدغمة

(61/372)

فحركت اللام لالتقاء الساكنين وبقيت النون على فتحها وقرأه بعض القراء بكسر النون والحجة له أنه خزل ياء الإضافة واجتزأ بالكسرة منها قوله تعالى ومن خزي يومئذ يقرأ وما شاكله في قوله من فزع يومئذ ومن عذاب يومئذ بالتنوين وفتح يوم وبترك التنوين وخفض يوم وببناء يوم مع ترك التنوين فالحجة لمن نون ونصب أنه اراد بالنصب خلاف المضاف لأن التنوين دليل والإضافة دليل ولا يجتمع دليلان في اسم واحد والحجة لمن ترك التنوين وأضاف أنه أتى به على قياس ما يجب للأسماء ولمن بناه مع ترك التنوين وجهان أحدهما أنه

جعل يوم مع إذ بمنزلة اسمين جعلا اسما واحدا فبناه على الفتح كما بني خمسة عشر والثاني أنه لما كانت إذ اسما للوقت الماضي واليوم من أسماء الأوقات أضفتهما إضافة الأوقات إلى الجمل كقولك جئتك يوم قام زيد فيكون كقولك جئتك إذ قام زيد فلما كانت إذ بهذه المثابة بني اليوم معها على الفتح لأنه غير متمكن من الظروف وجعل تنوين إذ عوضا من الفعل المحذوف بعدها لأن معناه يوم إذ قدم الحاج وما شاكل ذلك قوله تعالى ألا إن ثمودا كفروا ربهم يقرأ وما شاكله من الأسماء الأعجمية مصروفا وغير مصروف فلمن صرفه وجهان أحدهما أنه جعله اسم حي أو رئيس فصرفه والآخر أنه جعله فعولا من الثمد وهو الماء القليل فصرفه والحجة لمن لم يصرفه أنه جعله اسما للقبيلة فاجتمع فيه علتان فرعيتان منعتاه من الصرف إحداهما للتأنيث وهو فرع للتذكير والأخرى التعريف وهو فرع للتنكير والقراء مختلفون في هذه الأسماء وأكثرهم يتبع السواد فما كان فيه بألف أجراه وما كان بغير ألف منعه الإجراء

(62/372)

فأما قوله وآتينا ثمود الناقة فإنما ترك إجراؤه لاستقبال الألف واللام فطرح تنوينه كما قرءوا قل هو الله أحد الله الصمد قوله تعالى قالوا سلاما قال سلام يقرأ بإثبات الألف وفتح السين

وبكسرها وحذف الألف فالحجة لمن أثبت وفتح أنه جعله من التحية والسلام ومعناه تسلما منكم تسئما أو يريد تركناكم تركا فكأنه قال قالوا تركا فرد عليهم ترك ومنه قولهم لا تكن من فلان إلا سلاما تسلم معناه إلا مباينا له متاركا فالأول منصوب على المصدر والثاني مرفوع بالابتداء والحجة لمن حذف الألف وكسر السين أنه جعله من الصلح والمسالمة يريد قالوا نحن سلم قوله تعالى ومن وراء إسحق يعقوب يقرأ برفع الباء ونصبها فالحجة لمن رفع أنه أراد الابتداء وجعل الظرف خبرا مقدما كما تقول من ورائك زيد والحجة لمن نصب أنه رده بالواو على قوله وبشرناها وجعل البشارة بمعنى الهبة فكأنه قال ووهبنا لها من وراء إسحق يعقوب وكان بعض النحاة يقول هو في موضع خفض إلا أنه لا ينصرف وهذا بعيد لأنه عطفه على عاملين الباء ومن قوله تعالى فأسر بأهلك يقرأ بقطع الألف ووصلها فالحجة لمن قطع أنه أخذه من أسرى ودليله قوله تعالى سبحان الذي أسرى والحجة لمن وصل أنه أخذه من سرى وهما لغتان أسرى وسرى وبيت النابغة شاهد لهما

(63/372)

سرت عليه من الجوزاء سارية تزجى الشمال عليه جامد البرد ويروي أسرت عليه وقيل معنى اسرى سار من أول الليل وسرى سار من آخره قوله تعالى إلا امرأتك يقرا بالرفع

والنصب فالحجة لمن رفع أنه استثناها من قوله ولا يلتفت منكم أحد والحجة لمن نصب أنه استثناها من قوله فأسر بأهلك قوله تعالى وأما الذين سعدوا يقرأ بفتح السين وضمها فالحجة لمن فتحها أنه بنى الفعل لهم فرفعهم به والحجة لمن ضمها أنه بنى الفعل لما لم يسم فاعله وسعد يصلح أن يتعدى إلى مفعول وأن لا يتعدى كقولك سعد زيد وسعده الله وجبر زيد وجبره الله قال العجاج فأتى باللغتين قد جبر الدين الإله فجبر وعور الرحمن من ولى العور قوله تعالى وإن كلا لما ليوفينهم يقرأ بتشديد إن وتخفيفها فالحجة لمن شدد أنه أتى بالحرف على أصل ما بني عليه فنصب به الأسم والحجة لمن خفف أنه جعلها مخففة من المثقلة فأعملها عمل المثقلة لأنها مشبهة بالفعل فلما كان الفعل يحذف منه

(64/372)

فيعمل عمله تاما كقولك سل زيدا أو قل الحق كانت إن بهذه المثابة ولو رفع ما بعدها في التخفيف لكان وجها واحتج أنه لما كانت إن مشبهة بالفعل لفظا ومعنى عملت عمله والمشبه بالشيء أضعف من الشيء فلما خففت عاد الاسم بعدها إلى الابتداء والخبر لأنها عليه دخلت قوله تعالى لما ليوفينهم يقرا بتشديد الميم وتخفيفها فالحجة لمن خفف أنه جعل اللام داخلة على خبر إن وليوفينهم لام تحتها قسم مقدر وما صفة عن ذات الآدميين

كقولك إن عندي لما غيره خير منه والحجة لمن شدد إنه أراد لمن ما فقلب لفظ النون ميما ثم أدغمها في الميم بعد أن أسقط إحدى الميمات تخفيفا واختصارا لأنهن ثلاث في الأصل قوله تعالى وإليه يرجع الأمر كله يقرأ بفتح الياء وكسر الجيم وبضم الياء وفتح الجيم فالحجة لمن ضم أنه أراد يرد الأمر والحجة لمن فتح أنه أراد يصير الأمر ومعناهما قريب قوله تعالى وما ربك بغافل عما يعملون يقرأ بالياء والتاء وقدمنا من ذكره في نظائره ما يغني عن إعادته إن شاء الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 186 . 191 ﴾

(65/372)

وقال ابن زنجلة :

11 - سورة هود

ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله 25 و26

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي أني لكم نذير بفتح الألف المعنى ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه بالإنذار أن لا تعبدوا إلا الله أي أرسلنا بهذا الأمر

وقرأ الباقون بالكسر المعنى قال لهم إني لكم نذير وحجتهم قوله قال يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله لما أظهر القول ها هنا كان إضماره هناك أولى لأن القصة واحدة وما نراك

اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي 27

قرأ أبو عمرو بادئ الرأي بالهمز أي ابتداء الرأي أي اتبعوك ابتداء الرأي ولم يتدبروا ما قلت ولم يفكروا فيه ولو تفكروا وتدبروا لم يتبعوك

وقرأ الباقون بادي بغير همز من بدا يبدو إذا ظهر ويكون التفسير على نوعين في هذه القراءة أحدهما أن يكون اتبعوك في الظاهر وباطنهم على خلاف ذلك أي أنهم أظهروا الإسلام وابطنوا الكفر ويجوز أن يكون اتبعوك في ظاهر الراي ولم يتدبروا ما قلت ولم يفكروا فيه

قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم 28

قرأ حمزة والكسائي وحفص فعميت عليكم بضم العين وتشديد الميم أي أخفيت كما يقال عميت عليه الأمر حتى لا يبصره وحجتهم في حرف عبد الله فعماها عليكم وقيل إن في مصحف أبي فعماها عليكم فبان بما في حرف مصحف أبي أن الفعل مسند إلى الله وأنه هو الذي عماها فردت في قراءتنا إلى ما لم يسم فاعله والمعنى واحد والعرب تقول عمي على الخبر وهي مع ذلك ليس الفعل لها في الحقيقة وإنا استجازوها على مجاز كلام العرب فإذا ضممت العين كانت مفعولا بها غير مسمى فاعلها فاستوى حينئذ الكلام فلم يحتج إلى مجاز كلام العرب وترك المجاز إذا أمكن تركه أحسن وأولى وأخرى وهي أن ذلك أتى عقيب قوله وآتاني رحمة من عنده وذلك خبر من نوح أن الله تعالى خصه بالرحمة التي آتاها إياه فكذلك قوله فعميت خبر عن الله أنه هو الذي خذل من كفر به

قرأ أهل الحجاز والشام والبصرة وأبو بكر فعميت بفتح العين وتخفيف الميم أي فعميت البينة عليكم وحجتهم أن التي في القصص لم يختلف فيها مفتوحة العين قال الله تعالى فعميت عليهم الأنباء فهذه مثلها فكما يقال خفي علينا الخبر يقال عمي علي الأمر وهذا مما حولت العرب الفعل إليه وهو لغيره كقولهم دخل الخاتم في إصبعي والخف في رجلي ولا شك أن الرجل هي التي تدخل في الخف والإصبع في الخاتم

قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين 40

قرأ حفص عن عاصم من كل زوجين منونا أراد من كل شيء فحذف كما حذف من قوله ولكل وجهة أي ولكل صاحب ملة قبلة هو موليها لأن كلا و بعضا يقتضيان مضافا إليهما قوله زوجين على هذه القراءة مفعول به واثنين وصف له وتقدير الكلام قلنا احمل فيها زوجين اثنين من كل شيء أي من كل جنس ومن كل الحيوان

وقرأ الباقون من كل زوجين مضافا و اثنين نصب على أنه مفعول به المعنى فاحمل اثنين من كل زوج

بسم الله مجرها ومرسها 41

قرأ حمزة والكسائي وحفص باسم الله مجرها بفتح الميم وكسر الراء من جرت السفينة جريا ومجرى و قالوا إن معنى ذلك بسم الله حين تجري وحجتهم قوله بعدها وهي تجري بهم في موج كالجبال 42 ولم يقل وهي تجري فهذا أول دليل على صحة معنى مجراها بفتح الميم وإسناد إلى السفينة في اللفظ والمعنى

وقرأ الباقون مجراها ومرساها بضم الميمين أي بالله إجراؤها وبالله إرساؤها يقال أجريته مجرى وإجراء في معنى واحد وهما مصدران وحجتهم إجماع الجميع على ضم الميم في مرساها فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه

يا بني اركب معنا 42

قرأ عاصم يا بني اركب بفتح الياء وقرأ الباقون بالكسر

(67/372)

قال الزجاج كسرها من وجهين أحدهما أن الأصل يا بنيي والياء تحذف في النداء أعني ياء الإضافة وتبقى الكسرة تدل عليها ويجوز أن تحذف الياء لسكونها وسكون الراء من قوله اركب وتقر في الكتاب على ما هي في اللفظ والفتح من جهتين الأصل يا بنيا بالألف فتبدل الألف من ياء الإضافة العرب تقول يا غلاما أقبل ثم تحذف الألف لسكونها وسكون الراء

وتقر في الكتاب على ما هي في اللفظ ويجوز أن أن تحذف الألف للنداء كا تحذف ياء

الإضافة وإنما حذفت ياء الإضافة وألف الإضافة في النداء

كما تحذف التنوين لأن ياء الإضافة زيادة في الاسم كما أن التنوين زيادة

إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم 46

قرأ الكسائي إنه عمل غير صالح بنصب اللام والراء وحجته حديث أم سلمة قالت قلت يا

رسول الله كيف أقرأ عمل غير صالح أو عمل غير صالح فقال عمل غير صالح بالنصب

فالهاء في هذه القراءة عائدة على ابن نوح لأنه جرى ذكره قبل ذلك فكني عنه

وكان بعض أهل البصرة ينكر هذه القراءة فاحتج لذلك بأن العرب لا تقول عمل غير حسن

حتى تقول عمل عملا غير حسن وقد ذهب عنه وجه الصواب فيما حكاه لأن القرآن نزل

بخلاف قوله قال الله تعالى ومن تاب وعمل صالحا معناه ومن تاب وعمل عملا صالحا وقال

واعملوا صالحا ولم يقل عملا وقال في موضع آخر إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا وقال

ويتبع غير سبيل المؤمنين ولم يقل سبيلا غير سبيل المؤمنين فكذلك قوله إنه عمل غير صالح

معناه إنه عمل عملا غير صالح

وقرأ الباقون إنه عمل غير صالح بفتح الميم وضم اللام والراء وحجتهم ما روي في التفسير

جاء في قوله إنه عمل غير صالح

أي إن سؤالك إياي أن أنجي كافرا عمل غير صالح لأن نوحا قال رب إن ابني من أهلي 45

فقال الله تعالى إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم إن سؤالك إياي عمل غير صالح

وقيل ليس من أهلك أي من أهل دينك فالهاء في قراءتهم كناية عن السؤال ولم يجر له ذكر

ظاهر وذلك جائز فيا قد عرف موضعه أن يكني عنه أو جرى ما يدل عليه كقوله جل وعز

ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا فكنى عن البخل لأنه ذكر الذين

يبخلون اكتفاء به من ذكر البخل وكنى عنه وقال حتى توارت بالحجاب يعني الشمس وهذه

أعلام لا يجهل موضعها قال الشاعر . . . إذا نهي السفيه جرى إليه . . . وخالف

والسفيه إلى خلاف . . .

فقال جري إليه ولم يجر ذكر السفه ولكن لما ذكر السفيه دل على السفه

والسؤال في قصة نوح لم يجر له ذكر ولكنه لما ذكر إن ابني من أهلي دل على السؤال

وقال آخرون منهم الزجاج الهاء كناية عن ابن نوح أي

إنه ذو عمل غير صالح كما قال الشاعر . . . ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت . . . فإنما

هي إقبال وإدبار . . .

أي ذات إقبال وإدبار

قرأ ابن كثير فلا تسألن بفتح النون مع التشديد الأصل فلا تسأل جزما على النهي ثم دخلت

نون التوكيد ففتحت اللام لالتقاء الساكنين كما تقول لا تضربن ولا تشتمن أحدا الأصل لا تضرب ثم دخلت نون التوكيد فبني الكلام على الفتح لاجتماع الساكنين

قرأ أهل المدينة فلا تسألني بتشديد النون وإثبات الياء في الوصل الأصل فلا تسألنني فاجتمعت ثلاث نونات مثل ما اجتمعت في إنني وكأنني ثم حذفوا النون التي زيدت مع الياء فقيل إني وكذلك حذفت النون في قوله فلا تسألني

وقرأ قالون عن نافع وابن عامر فلا تسألن مكسورة النون مشددة من غير ياء الأصل كما ذكرنا إلا أنهم حذلوا الياء لأن الكسرة تدل على الياء

وقرأ أبو عمرو فلا تسألني بتخفيف النون وسكون اللام مثبتة الياء في الوصل النون مع الياء اسم المتكلم في موضع نصب والنون

(69/372)

إنما دخلت ليسلم سكون اللام قال عباس سألت أبا عمرو فقلت وقرأ بعض القراء فلا تسألن بفتح النون وأنا أقرأ فلا تسألني لقول الله تعالى رب إني أعوذ بك أن أسألك 47 قال أن أسألك يدل على أنه نهاه أن يسأله

وقرأ أهل الكوفة فلا تسألن خفيفة النون محذولة الياء وإنما حذفوا الياء اختصارا لأن

الكسرة تدل على الياء

ومن خزي يومئذ 66

قرأ نافع والكسائي ومن خزي يومئذ بفتح الميم جعلا يوم و إذ بمنزلة اسمين جعلا اسما واحدا كقولك خمسة عشرة وقيل إنما فتح لأن الإضافة لا تصح إلى الحروف ولا إلى الأفعال فلما كانت إضافة يوم إلى إذ غير محضة فتح وبني

وقرأ الباقون ومن خزي يومئذ بكسر الميم أجروا الإضافة إلى يوم مجراها إلى سائر الأسماء فكسروا اليوم على الإضافة كما يكسر المضاف إليه من سائر الأسماء وعلامة الإضافة سقوط التنوين من خزي

ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود 68

قرأ حمزة وحفص ألا إن ثمود كفروا ربهم بغير تنوين

وكذلك في الفرقان والعنكبوت والنجم ودخل معهما أبو بكر في النجم وقرأ الباقون بالتنوين فمن ترك التنوين جعله اسما لقبيلة فاجتمعت علتان التعريف والتأنيث فامتنع من الصرف ومن نون جعله اسما مذكرا لحي أو رئيس وحجتهم في ذلك المصحف لأنهن مكتوبات في المصحف بالألف وزاد الكسائي عليهم حرفا خامسا وهو قوله ألا بعدا لثمود منونا وقال إنما أجريت الثاني لقربه من الأول لأنه استقبح أن ينون اسما واحدا ويدع التنوين في آية واحدة ويخالف بين اللفظين وقد جود الكسائي فيما قال لأن أبا عمرو سئل لم شددت قوله

تعالى قل إن الله قادر أن ينزل آية وأنت تخفف ينزل في كل القرآن فقال لقربه من قوله قالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية

(70/372)

فإن سأل سائل فقال قوله وآتينا ثمود الناقة من موضع نصب فهلا نون كما نون سائر المنصوبات الجواب أن هذا الحرف كتب في المصحف بغير ألف والاسم المنون إذا استقبله ألف ولام جاز ترك التنوين كقوله قل هل هو الله أحد الله الصمد

قالوا سلما قال سلم 69

قرأ حمزة والكسائي قالوا سلاما قال سلم بكسر السين وفي الذاريات مثله جعلاه من السلم وهو الصلح أي أمري سلم لست مريدا غير السلامة والصلح قال الفراء المعنى نحن سلم لأن التسليم لا يكون من عدو وكأن الفراء ذهب إلى أن الملائكة لما سلموا عليه كان ذلك دليلا على براءتهم مما وقع في نفسه من أنهم عدو فقال لهم حينئذ نحن متسالمون آمنون إذ سلمتم علينا ويكون معنى قوله في الذاريات قوم منكرون أي غير معروفين في بلدنا وإن التسليم منكم منكر لأنه لا يعهده إلا ممن هو على دينه ولم يتقرر عنده أنهم منهم قالوا والدليل على أن الثاني بخلاف معنى الأول أن إعرابهما مختلف فلو كانت الثانية مخرجها مخرج

الأولى نصبت كما نصبت الأولى وقال قوم يجوز أن يكون معنى قوله سلم في معنى سلام كما قالوا حل وحلال وحرم وحرام قالوا والدليل على صحة ذلك أن التفسير ورد بأنهم سلموا عليه فرد عليهم

وقرأ الباقون قال سلام جعلوه من التسليم وحجتهم في ذلك أنه مجمعون على الأول أنه بألف وهو تسليم الملائكة فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه الأول نصب على المصدر على معنى سلمنا سلاما والثاني رفع على إضمار عليكم سلام ومن قرأ سلم أي أمري سلم

فبشرناه بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب 71

قرأ حمزة وابن عامر وحفص ومن وراء إسحاق يعقوب بالنصب وقرأ الباقون بالرفع

(71/372)

قال الزجاج فأما من قرأ ومن وراء إسحاق يعقوب في موضع نصب فمحمول على المعنى المعنى وهبنا لها إسحاق ووهبنا لها يعقوب ومن قرأ يعقوب فرفعه على ضربين أحدهما ابتداء مؤخر معناه التقديم والمعنى ويعقوب يحدث لها من وراء إسحاق ويجوز أن يكون مرفوعا بالفعل الذي يعمل في قوله من وراء كأنه قال ويثبت لها من وراء إسحاق يعقوب

فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك 81

قرأ نافع وابن كثير فاسر بأهلك بوصل الألف في كل القرآن من سرى يسري

وقرأ الباقون فأسر بقطع الألف وهما لغتان فصيحتان نزل بهما القرآن قال الله تعالى سبحان الذي أسرى بعبده وقال والليل إذ يسري يقال سريت وأسريت إذا سرت ليلا وقال آخرون منهم أبو عمرو الشيباني يقال سرى في أول الليل وأسرى من آخره

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك بالرفع على معنى ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فإنها ستلتفت فقوله امرأتك بدل من قوله أحد كقولك ما قام أحد إلا أبوك وما رأيت أحدا إلا أخاك وكان أبو عمرو يتأول أن لوطا كان سار بها في أهله وحجته ما روي عن ابن عباس أنه قال إنها سمعت الوجبة فالتفتت فأصابها العذاب

وقرأ الباقون امرأتك بالنصب استثناء من الإسراء وحجتهم ما روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا أمرأتك فدل ذلك ان الاستثناء كان من أهله الذين أمر بالإسراء بهم لا من أحد والمعنى في هذه القراءة أنه لم يخرج امرأته مع أهله وفي القراءة الأخرى أنه خرج بها فالتفتت فأصابتها الحجارة

أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا 87

قرأ حمزة والكسائي وحفص أصلاتك بغير واحد وحجتهم إجماع الجميع على التوحيد في قوله إن صلاتي ونسكي

وقرأ الباقون أصلواتك على الجمع وحجتهم أنها مكتوبة في المصحف بواو وكذلك في سورة براءة

يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه 105

(72/372)

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي يوم يأتي بالياء في الوصل وأثبتها ابن كثير في الوقف أيضا وحجتهم أنها مثبتة في المصحف

وقرأ الباقون بحذف الياء قال الخليل إن العرب تقول لا أدر فتحذف الياء وتجتزئ بالكسر إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال والأجود في النحو إثبات الياء

وأما الذين سعدوا ففي الجنة 108

قرأ حمزة والكسائي وحفص وأما الذين سعدوا بضم السين على ما لم يسم فاعله تقول سعد زيد لازما و سعده الله متعديا قال الكسائي سعد واسعد لغتان ومن ذلك رجل مسعود من سعد اعلم أن سعده الله قليل في الاستعمال ومصدره ومفعوله كثير لأن مسعودا في كلام العرب أكثر من مسعد و أسعده الله في كلامهم أكثر من سعده الله فقول مسعود يدل على جواز سعده الله وقراءتهم لا تكون إلا من سعده الله فغالب الاستعمال في المفعول

على الفعل الذي لا زيادة فيه هو سعد وغالب الاستعمال في الفعل هو اللفظ الذي بزيادة الميم وهو أسعد ومثله يقال أحب والاسم منه محب إلا أنه قل الاسم من أحب وإنما يقولون محبوب وكثر الفعل منه فيقال أحب وكثر الاسم من حب فيقولون محبوب وقل الفعل منه فلا يقال حب وكذلك سعد قل الفعل منه وكثر الاسم منه وقل الاسم من أسعد فلا يقال مسعد وكثر الفعل منه فيقال أسعد

وقرأ أهل الحجاز والبصرة والشام وأبو بكر وأما الذين سعدوا بفتح السين وحجتهم ذكرها اليزيدي فقال يقال ما سعد زيد حتى أسعده الله وهذه القراءة هي المختارة عند أهل اللغة يقال

سعد فلان وأسعده الله وأخرى وهي أنهم أجمعوا على فتح الشين في شقوا 106 ولم يقل شقوا فكان رد ما اختلفوا فيه إلى حكم ما أجمعوا عليه أولى ولو كانت بضم السين كان الأفصح أن يقال أسعدوا

وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم 111

(73/372)

وقرأ أبو عمرو والكسائي وإن كلا لما بتشديد إن وتخفيف لما وجهه بين وهو أنه نصب كلا ب إن و إن تقتضي أن تدخل على خبرها اللام أو على اسمه إذا حل محل الخبر فدخلت هذه اللام وهي لام الابتداء على الخبر في قوله وإن كلا لما وقد دخلت في الخبر لام أخرى وهي لام القسم وتختص بالدخول على الفعل ويلزمها في أكثر الأمر إحدى النونين فلما اجتمعت اللامان فصل بينهما ب ما فلام لما لام إن و ما دخلت للتوكيد ولم تغير المعنى ولا العمل واللام التي في ليوفينهم لام القسم

وقال أهل الكوفة في ما التي في لما وجهان أحدهما أن يكون بمعنى من أي وإن كلا لمن ليوفينهم ربك كما قال سبحانه فانكحوا ما طاب لكم من النساء وإن أكثر استعمال العرب لها في غير بني آدم والوجه الآخر أن يجعل ما التي في لما بمعنى ما التي تدخل صلة في الكلام ويلي هذا الوجه في البيان قراءة نافع وابن كثير

فأما تخفيف إن وترك النصب على حاله فلأن إن مشبهة بالفعل فإذا حذف التشديد بقي العمل على حاله وهي مخففة من

إن قال سيبويه حدثني من أثق به أنه سمع من العرب من يقول إن عمرا لمنطلق

فإن سأل سائل فقال إنما نصبت ب إن تشبيها بالفعل فإذا خففت زال شبه الفعل فلم نصبت بها

فالجواب أن من الأفعال ما يحذف منه فيعمل عمل التام كقولك لم يك زيد منطلقا فكذلك إن

جاز حذفها وإعمالها

وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص كلا لما بالتشديد فيها قال الكسائي من شدد إن و لما فالله أعلم بذلك وليس لي به علم وقال الفراء أما الذين شددوا فإنه والله أعلم لمما ثعلب يروي بكسر الميم لمن أراد لمن ما ليوفينهم فلما اجتمعت الميمات حذفت واحدة فبقيت ثنتان أدغمت واحدة في الأخرى كما قال الشاعر . . . وإني لمما أصدر الأمر وجهه . . . إذا هو أعيا بالسبيل مصادره . . .

وقال آخرون معنى ذلك وإن كلا لما بالتشديد أراد لما بالتنوين ولكن حذف منه التنوين كما حذف من قوله أرسلنا رسلنا تترى

(74/372)

قال الفراء وحدثت أن الزهري قرأ وإن كلا لما بالتنوين يجعل اللم شديدا كقوله أكلا لما أي شديدا فيكون

المعنى وإن كلا شديدا وحقا ليوفينهم أعمالهم بمنزلة قولك في الكلام وإن كلا حقا ليوفينهم

وقال آخرون منهم المازني إن أصلها لمما ثم شددت الميمين زيادة للتوكيد وكيلا يحذفها الإنسان ويشبهها بقوله فبما رحمة من الله فيقول وإن كلا ليوفينهم فيجتمع لامان فلهذا

شددت

قال الفراء وأما من جعل لما بمنزلة إلا فإنه وجه لا نعرفه كما لا يحسن إن زيدا إلا منطلق فكذلك لا يحسن وإن كلا إلا ليوفينهم شرح هذا أن إن إثبات للشيء وتحقيق له وإلا تحقيق أيضا وإيجاب وإنما تدخل نقضا لجحد قد تقدمها كقولك ما زيد إلا منطلق وكقوله إن كل نفس لما عليها حافظ أي ما كل نفس إلا عليها حافظ وفي قوله تعالى وإن كلا لما لم يتقدمه حرف جحد فيقول إن لما بمعنى إلا كما ذكرنا وإنما تقدم ها هنا إن التي للتحقيق فقد بطل قول من قال إن لما بمعنى إلا ووجهها ما قد ذكرنا عن أهل النحو

وقرأ أبو بكر وإن كلا خفيفة لما مشددة وإن مخففة من إن وقد ذكرنا أن العرب تقول إن عمرا لمنطلق ولا يجوز أن يجعل إن بمعنى التي تكون بمعنى الجحد لأنها قد نصبت وإن إذا كانت بمعنى الجحد لا تنصب

قال الكسائي من خفف إن وشدد لما لست أدري

والله أعلم بوجهه إنما نقرأ كما أقرئنا قال وذلك أن إن إذا نصبت بها وإن كانت مخففة كانت بمنزلتها مثقلة ولما إذا شددت كانت بمنزلة إلا قلت وجه هذه القراءة ما قد ذكرنا في قراءة حمزة وابن عامر والله أعلم

وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون 123

قرأ نافع وحفص وإليه يرجع الأمر بضم الياء على ما لم يسم فاعله أي يرد الأمر كله إليه

وقرأ الباقون يرجع أي يصير الأمر إليه وحجتهم قوله ألا إلى الله تصير الأمور ولم يقل تصار

قرأ نافع وابن عامر وحفص وما ربك بغافل عما تعملون بالتاء على الخطاب

وقرأ الباقون بالياء أي وما ربك بغافل عما يعمل هؤلاء المشركون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ حجة القراءات صـ 337 . 353 ﴾

(75/372)

أسئلة وأجوبة فى السورة الكريمة

قال الخطيب الإسكافى :

سورة هود عليه السلام

(105) الآية الأولى منها :

قوله تعالى : (لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون) (هود : 22) .

وقال في سورة النحل (109) : (لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون) .

للسائل أن يسأل عما خصص كل واحد من اللفظين بمكانه دون الآخر ؟

والجواب أن يقال : إن الآية التي في سورة هود قد تقدمها قوله : (. . . وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون)

(هود 20) وإنما قال : (يضاعف لهم العذاب) لأنه خبر عن قوم أخبر عنهم بالفعل الذي استحقوا به مضاعفة العذاب في قوله تعالى : (الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم الكافرون) (هود 19) فإذا صدوا هم عن الدين صدودا ، وصدوا غيرهم عنه صدا استحقوا تضعيف العذاب ، لأنهم ضلوا وأضلوا ، فهذا ل (الأخسرين) دون (الخاسرين) من طريق المعنى ، وها هنا ما يضامه من طريق اللفظ ، وهو أن ما قبله من الفواصل (يبصرون) (هود : 20) (وضل عنهم ما كانوا يفترون) (هود : 21) قبل نونه وواوه متحركان ، مستندان إلى ما قبلهما ، فاجتماع

المعنى الذي ذكرناه ، والتوفقة بين الفواصل التي بينا أوجبا اختيار (الأخسرين) في هذا الموضع على (الخاسرين) .

وأما التي في سورة النحل فإنها في آية لم يخبر فيها عن الكفار بأنهم مع ضلالهم أضلوا من سواهم ، وإنما قال فيهم : (ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله يهدي القوم الكافرين) (النحل : 107) فلم يذكر ما يوجب مضاعفة العذاب ، ثم كانت الفواصل التي حملت هذه عليها وزان (الكافرين) و (الغافلين) فاقتضى هذان الشيئان أن يقال : (هم الخاسرون) كما اقتضى السببان في الأولى المخالفان للسببين هنا أن قال : (الأخسرون) .

(106) الآية الثانية منها :

قوله تعالى في قصة نوح : (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده . . .) (هود : 28) .

وقال في قصة صالح عليه السلام في هذه السورة : (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة . . .) (هود : 23) .

للسائل أن يسأل عن مخاطبة النبيين نوح وصالح على نبينا وعليهما السلام .

قوميهما باللفظين تساويا إلا فيما اختلفا فيه من تقديم المفعول الثاني في الآية الأولى على الجار والمجرور ، وتأخيره عنهما في الآية الثانية ؟

والجواب أن يقال : إن المعنيين واحد في الموضعين ، وقول النبيين سواء لأمتيهما ، وإنما اختلفا بإخبار الله تعالى في موضع خبر قدم فيه المفعول الثاني على الجار والمجرور ، لإجراء هذا الفعل ومفعوليه على ما جرى عليه الفعل الذي قبله ، وهو : (. . . ما نراك إلا بشرا مثلنا . . .) (هود : 27) ف (بشرا) مفعول ثاني من/ (نراك) ، وقوله : (وما نراك اتبعك) (هود : 27) ، ف (اتبعك) في موضع المفعول الثاني من (نراك) ثم بعده : : (بل نظنكم كاذبين) هود : 27 فلما تقدمت أفعال ثلاثة كل واحد منها يتعدى إلى مفعولين ، والمفعول الثاني منهما لا يحجزه عن الأول معمول فيه ، كان إجراء هذا الفعل الذي هو : (وآتاني رحمة من عنده) مجرى تلك الأفعال التي وقعت (آتاني) في جوابها ، وجاءت من كلام نوح

عليه السلام في مقابلتها أولى .

وأما في قصة صالح عليه السلام فإنه بإزاء قول قومه له : (. . يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا . .) هود : 62 فوقع خبر كان الذي هو كالمفعول لها ، وقد تقدمه الجار والمجرور ، فجرى

جواب صالح عليه السلام فيما صار عبارة عنه من العربية مجرى الإبتداء في هذا المعنى ، فترجح في هذا المكان تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى : (وآتاني منه رحمة) على المفعول الثاني ، كما ترجح هناك تقديم المفعول الثاني على الجار والمجرور وكل جائز إلا أن كلامنا في الترجيح في الموضعين وفي هذا القدر كفاية والله أعلم .

(77/372)

---

107 الآية الثالثة منها

قوله تعالى في قصة سورة هود عليه السلام وذكر قومه : (وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود) هود : 60 .

وقال في قصة موسى عليه السلام في هذه السورة وإرساله إلى فرعون وملئه : (وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود) هود : 99 .

للسائل أن يسأل عن حذف (الدنيا) من الآية الثانية وإثباتها في الأولى ، وهل كان يجوز في الاختيار عكس ذلك ؟

والجواب أن الاولى أتى فيها بالموصوف والصفة جميعا ، وهو الأصل الأول ، ثم الاكتفاء بالصفة عن الموصوف بعده لقيام الدلالة على الموصوف ، فيجوز لذلك حذفه ، وإقامة الصفة مقامه .

ولما جاءت الآيتان في سورة واحدة وفيت الأولى ما هو بها أولى من الإجراء على الأصل ، والإتيان بالموصوف والوصف فقال تعالى : (في هذه الدنيا) واكتفى في الثانية لما قامت الدلالة على الموصوف بالصفة وحدها فقال : (وأتبعوا في هذه لعنة) .

108 الآية الرابعة منها

قوله تعالى في قصة صالح عليه السلام : (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب) هود : 62 .

وقال في سورة إبراهيم عليه السلام 9 : (وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب) .

للسائل أن يسأل فيقول : لم قال في الأولى : (وإننا لفي شك) على الأصل و (مما تدعونا) بنون واحدة ، وقال في الثانية : ((وإنا لفي شك) على التخفيف ، بحذف إحدى النونات وهي المتوسطة ، ثم جاء بعده : (تدعوننا) بنونين ؟

والجواب أن يقال : أما (تدعونا) في الأولى و (تدعوننا) في الثانية ، فلا يصح مكانهما غيرهما ، فلا يجوز في الأولى إلا نون واحدة ولا يجوز في الثانية إلا نونان اثنتان ، لأن الأولى خطاب

(78/372)

لصالح عليه السلام ، والنون مع الألف ضمير المتكلم ، وتدعو فعل واحد ، لا نون فيه ، وليس كذلك تدعوننا الثانية ، لأنه خطاب للرسل ، وهم جماعة ، ولا يقال لهم في حال الجمع إلا تدعوننا عند الرفع ، ولا تسقط النون إلا لناصب أو جازم ، نحو لن تدعونا ولم تدعونا فأما إذا رفعت خطاب الجماعة لم تكن إلا تدعوننا وهذا من مبادئ هذا العلم .

وأما (إننا) في الأولى ، و (إنا) في الثانية مع جواز اللفظين في كل مكان ، فلأن الضمير الذي دخلت عليه إن في هذا المكان هو على لفظ ضمير المنصوب المتصل بالفعل في قوله تعالى : (أتنهانا) وضمير المنصوب إذا اتصل بالفعل لم يغير له آخره كما يغير إذا اتصل به ضمير المرفوع ، نحو ضربنا تسكن

لصالح عليه السلام ، والنون مع الألف ضمير المتكلم ، وتدعو فعل واحد ، لا نون فيه ، وليس كذلك تدعوننا الثانية ، لأنه خطاب للرسل ، وهم جماعة ، ولا يقال لهم في حال

الجمع إلا تدعوننا عند الرفع ، ولا تسقط النون إلا لناصب أو جازم ، نحو لن تدعونا ولم تدعونا فأما إذا رفعت خطاب الجماعة لم تكن إلا تدعوننا وهذا من مبادئ هذا العلم .

وأما (إننا) في الأولى ، و (إنا) في الثانية مع جواز اللفظين في كل مكان ، فلأن الضمير الذي دخلت عليه إن في هذا المكان هو على لفظ ضمير المنصوب المتصل بالفعل في قوله تعالى : (أتنهانا) وضمير المنصوب إذا اتصل بالفعل لم يغير له آخره كما يغير إذا اتصل به ضمير المرفوع ، نحو ضربنا تسكن الباء لاتصالها ضمير الفاعلين بها ، ولا تسكنها لاتصال ضمير المفعولين بها ، إذا قلت : ضربنا فلما أشبه المنصوب ب إن المنصوب في ضربنا ، ولم ينازعه شبه الفاعل ، سلم لفظ إن عند اتصالها به ، ولم يلحقه حذف .

(79/372)

ولما كانت إنا في سورة إبراهيم وإن كانت منصوبة مشبهة للفظ الفاعل ، إذا قلت ضربنا بكونها على لفظها ، وبوقوعها موقع المرفوع المبتدأ ، وبأن هذا اللفظ المتقدم عليها في الآية التي قبلها هو ضمير المرفوع خلاف ما تقدم في الآية في سورة هود ، وهو قوله (كفرنا بما أرسلتم به) إبراهيم : 9 ، وقبل ذلك ضمير مرفوع على غير هذا اللفظ للذين لهم هذا اللفظ ، وهو الواو في قوله تعالى (فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به) ثم

قوله تعالى : (إنا كفرنا) حذفت منها النون تشبيها للضمير بعدها بالضمير المرفوع بعد الفعل ، وكما أن الفعل يلحقه حذف حركة عند اتصال هذا الضمير به ، وكان الضمير الذي يحذف من إن النون ، حذفت لينقص لفظها عند اتصاله بما هو كالضمير المرفوع لفظا ومعنى ، وموقعا ، حملا على ما تقدم ، عما يكون عليه إذا لم يواصله ، وجاءت تدعوننا على مقتضى الإعراب الواجب لها بنونين . فهذا فرق ما بين الموضعين .

109 الآية الخامسة منها

قوله تعالى في قصة صالح عليه السلام : (وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا ف ديارهم جاثمين) هود : 67 .

وقال في هذه السورة في قصة شعيب عليه السلام : (. . وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين) هود : 94 .

للسائل أن يسأل عن اختلاف الفعلين في اتصال علامة التأنيث بأحدهما ، وسقوطها من الآخر ، مع

أن الفاعل فى الموضعين شيء واحد وهو (الصيحة) مع أن الحاجز بين الفعل والفاعل في المكانين حاجز واحد ، وهو (الذين ظلموا) ؟

والجواب أن يقال : إن مثل هذا إذا جاء في كلام العرب سهل الكلام فيه ، لأنه يقال : حمل على المعنى ، والصيحة بمعنى الصياح ، كما أن قول الشاعر :

يا أيها الراكب المزجي مطيته سائل بني أسد ما هذه الصوت

حمل على المعنى إذ الصوت بمعنى الصيحة .

(80/372)

غير أن السؤال الذي بنيت الآيات لازم ، وهو أن يقال : فهل كان يجوز مكان أخذت أخذ في القرآن ؟ وهل لتخصيص قصة شعيب ب أخذت فائدة ليست لها قصة صالح عليه السلام .

والجواب عن هذا الموضع هو أن يقال : إن الله تعالى أخبر عن العذاب الذي أهلك به قوم شعيب عليه السلام بثلاثة ألفاظ :

منها (الرجفة) في سورة الأعراف فيقوله : (وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون* فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين* الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها) الأعراف : 90-32 وذكر ذلك قبله في مكان آخر .

ومنها (الصيحة) في سورة هود في قوله تعالى : (وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين) هود : 94 .

ومنها (الظلة) في سورة الشعراء 89 في قوله تعالى : (فأخذهم عذاب يوم الظلة) .

وفي التفسير أن هذه الثلاث جمعت لإهلاكهم واحدة بعد أخرى ، لأن الرجفة بدأت بهم فانزعجوا لها عن الكن إلى البراح ، فلما أصروا نال منهم حر الشمس وظهرت لهم ظلة تبادروا إليها ، وهي سحابة سكنوا إلى روح ظل تحتها فجاءت الصيحة فهمدوا لها .

فلما اجتمعت ثلاث أشياء مؤنثة الألفاظ في العبارة عن العذاب الذي أهلكوا به غلب التأنيث في هذا المكان على المكان الذي لم تتوال فيه هذه المؤنثات ، فلذلك جاء في قصة شعب : (وأخذت الذين ظلموا الصيحة) .

110 الآية الخامسة منها

قوله تعالى : (ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) هود : 68 .

للسائل أن يسأل عن صرف ثمود في قوله تعالى : (ألا إن ثمودا) ، ومنه الصرف بعد قوله تعالى : (ألا بعدا لثمود) وهل كان يجوز أن يمنع الصرف في اللفظ الأول ويصرف اللفظ الثاني ؟

والجواب أن يقال : الأول بالصرف أولى ، والثاني بالامتناع منه أحق ، لأنه في الأول ينحي به نحو الأب والأقربين من أولادهم في الكفر ، وإذا قصد هذا القصد انصرف هذا الاسم .

(81/372)

وفي الثاني قصد ذكر الإهلاك وكان للقبيلة بأسرها لما أصرت عليه من كفرها ، فنحى نحو القبيلة ، فمنع الصرف للتعريف والتأنيث الحاصلين فيما خرج عن أخف الأصلين ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) هود : 95 فالكفر من أولهم ، والإهلاك قصد به ذكر كلهم ، فكان معنى القبيلة به أولى . وبالله التوفيق .

111 الآية السابعة منها

قوله تعالى : قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك) هود : 81 .

وقال في سورة الحجر 65 : (فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون) .

للسائل أن يسأل عن شيئين في هذا المكان :

أحدهما : أن يقول : إنه استثنى في سورة هود من قوله تعالى (فأسر بأهلك بقطع من الليل) قوله : (إلا امرأتك) ولم يستثن ذلك في سورة الحجر ؟

والثاني : قوله تعالى في سورة الحجر : (. . واتبع أدبارهم) وتركه في سورة هود ؟

والجواب عن المسألة الأولى : أن الاستثناء في سورة الحجر أغنى منه قوله تعالى فيما حكى عن الرسل : (. . إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين* إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين* إلا امرأته إنها لمن الغابرين) الحجر : 58-60 ، فهذا الاستثناء الذي لم يقع مثله في سورة هود أغنى

عن الاستثناء في قوله : (فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك) .

والجواب عن المسألة الثانية أن يقال : إنه لما اقتص في هذه السورة بعض ما اقتص في الأحرى ، فذكر أن الرسل قالوا له : (إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) هود : 81 والمعنى : لن يصلوا إليك وإلى المؤمنين من أهلك ، قيد ذلك في قوله : (فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك) هود : 81 . بأن أمروه بإخراج أهله من بين أظهرهم ليلا من غير أن يعرج أحد منهم على شيء خلفه يعوقه عن المضي إلى حيث ما أمر به .

(82/372)

ولما قال في سورة الحجر : (إنا لمنجوهم أجمعين* إلا امرأته) اخبارا عن الرسل أنهم خاطبوا إبراهيم عليه السلام به ، ثم أخبر عن مخاطبتهم لوطا في هذه السورة بما يضاهي قولهم لإبراهيم

عليه السلام ، أردفوا قولهم له : (فأسر بأهلك) بقولهم : (واتبع أدبارهم) لأنه إذا ساقهم وكان من ورائهم كان تحقيقا لخبرهم أنهم منجوهم أجمعين ، فزيد : (واتبع أدبارهم) لأنه إذا ساقهم وكان من ورائهم كان من ورائهم كان تحقيقا لخبرهم أنهم منجوهم أجمعين ، فزيد :

(واتبع أدبارهم) لتجاوب مخاطبتهم له مخاطبتهم لإبراهيم عليه السلام بسببه .

112 الآية الثامنة منها

حكم هذه الآية يكون ذكرها في سورة الأعراف ، ثم لما تأخرت وجب أن تذكر في سورة العنكبوت ، إلا أنا رأيناها تتعلق بهذه السورة فذكرناها فيها ، وهي :

قوله تعالى : (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله) الأعراف : 85 ، هود : 84 .

ومثله في سورة العنكبوت ، يخالفه بزيادة الفاء ، وهو قوله : (وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله) العنكبوت : 36 .

ففي كل القرآن : (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله) وفي سورة العنكبوت خصوصا فقال .

للسائل أن يسأل عن اختصاص هذا المكان بالفاء ، وخلو المكانين قبله منها ؟

والجواب أن يقال : إن مفتتح قصص الأنبياء عليهم السلام في سورة الأعراف قوله تعالى : (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه) الأعراف : 59 وبعده : (وإلى عاد أخاهم هودا) الأعراف : 65 وبعده : (وإلى ثمود أخاهم صالحا) الأعراف : 73 ، وبعده : (وإلى مدين أخاهم شعيبا) الأعراف : 85 وكذلك في سورة هود على هذا النسق ، وإلا أن قصة نوح عليه

السلام مفتتحة بالواو : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه) هود : 25 وهي في سورة الأعراف بلا واو ، وقد ذكرنا السبب في ذلك .

(83/372)

فلما تساوت هذه المعطوفات على المعطوف عليها الأول ، فكان الفعل المضمر للمعطوف مثل المظهر أولا في التعلق بالمرسل والمرسل إليهم ، كعاد المرسل إليهم هود ، وكثمود المرسل إليهم صالح ، وكمدين المرسل إليهم شعيب عليه السلام جرى الجمع مجرى واحدا ، فكان التقدير : وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا ، وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا ، وأرسلنا إلى مدين شعيبا ، ولم يعترض بين القصص ما أضمر فيه ، خلاف ما أظهر قبل ، وهو : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه) هود : 25 .

وكان الأمر في ذلك في سورة العنكبوت مخالفا بعض المخالفة ، لأنه افتتحت القصة بقوله : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما) العنكبوت : 14 وجاءت بعدها قصة

(84/372)

إبراهيم ولوط عليهما السلام ، فلم تجريا على الفعل الأول في التعلق بالمرسل والمرسل إليهم كما كان ذلك في قصة هود وصالح عليهما السلام في السورتين ، بل جاء بعد قوله : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه) قوله : (وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه) العنكبوت : 16 وقوله : (ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) العنكبوت : 28 ، فلم يكن المعطوف على قصة نوح في هذه السورة كالمعطوف عليها فيما تقدم من سورتي الأعراف وهود ، ولم يتعد الفعل المضمر تعدي الفعل المظهر ، وكان جائزا أن يكون المعنى : واذكر إبراهيم إذ قال لقومه ، واذكر لوطا إذ قال لقومه ، ثم جاءت قصة شعيب عليه السلام فأجريت مجرى القصة الأولى التي هي قصة نوح عليه السلام في تعدي الفعل فيها إلى المرسل وإلى المرسل إليهم وقد تخلل ذلك ما ليس مثله من الأفعال المضمرة ، فجاء : (وإلى مدين أخاهم شعيبا) العنكبوت : 36 فأقيمت فيها دلالة على أن هذه القصة مجراه مجرى القصة البعيدة عنها دون القريبة منها وكانت الأولى يتساوى عطفها على ما قرب منها ، وبعد عنها لاستواء الفعل المظهر والمضمر ، فكانت تلك الدلالة التي تدل على أنها مردودة إلى القصة الأولى أن تتلقى بما تلقيت به تلك من الفاء مع صحة المعنى ، فلما كان : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة) العنكبوت : 14 قبل (وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله) العنكبوت : 36 تعلق ما بعدها بالفاء ، كما

كانت الفاء في قوله : (فلبث فيهم) لما ذكرنا .

113الآية التاسعة منها

قوله عز وجل : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين* إلى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد) هود : 96 -97 .

وقال في سورة المؤمن 23-24 : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين* إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب) .

(85/372)

وقال في سورة الزخرف 46 : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فقال إني رسول رب العالمين) .

للسائل أن يسأل فيقول : السلطان المبين من آيات الله ، فلم جاء في الآيتين المتقدمتين مع ذكر السلطان المبين ولم يجيء في الآية الأخيرة ، إلا الآيات وحدها ؟

والجواب أن يقال : إن الآيات : الأمارات التي يكتفي بها في صدق الرسل عليهم السلام ، وبها تقوم الحجة على من تبعث إليهم ، والسلطان المبين هو الحجج القاهرة التي تقهر القوم ، كأنواع العذاب

التي أنزلت على قوم موسى عليه السلام ، وكانت عند قوله .

فلما كان القصد في الآيتين المتقدمتين ذكر جملة أمرهم إلى منتهى حالهم من هلاك الأبد انطوت تلك الجملة على جميع ما احتج به عليهم إلى أن زال التكليف عنهم ، وأخبر عن مستقرهم من العقاب الدائم عليهم ألا ترى الكلام في الآية الأولى في سورة هود ينساق إلى قوله : (وما أمر فرعون برشيد *يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) هود : 97-98 ، وكذلك في الآية الثانية ينساق الكلام فيها إلى قوله : (وحاق بآل فرعون سوء العذاب* النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) غافر : 45- 46 فذكر في الآيتين جميع ما احتج به عليهم من الآيات التي سخروا بها عند رؤيتها ، والآيات التي فزعوا إلى مسألته عند مشاهدتها في كشفها لقوله تعالى : (ولما وقع لك) الأعراف : 134 .

(86/372)

وأما الآية الثالثة التي اقتصر فيها على ذكر آياتنا دون السلطان المبين وهي التي في سورة الزخرف 46-47 : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فقال إني رسول رب العالمين* فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون) فلم يكن القصد إلى ذكر جملة مما

عوملوا به في الدنيا وانتهائه بهم إلى عذاب الأخرى ، بل كان بعده : (وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون) الزخرف : 48 فاقتص ما عوملوا به حالا بعد حال إلى أن أهلكوا في الدنيا ، حيث قال : (فأغرقناهم أجمعين* فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) الزخرف : 55-56 .

فإن قيل : فقد قال تعالى : (ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين) المؤمنون : 45-46 ولم يذكر في هذه القصة أحوالهم المنتهية إلى عقاب الأبد .

قلت : أولا ليست الآية على سنن الآي التي ذكرنا مما افتتح بقوله : (ولقد أرسلنا) هود : 96 ، المؤمنون : 23 وهي إن افتتحت بقوله : (ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون) المؤمنون : 45 فإنها مثل الآيتين المتقدمتين في تضمنها ذكر الجملة من أحوالهم إلى ما كان من هلاكهم لقوله : (فكذبوهما فكانوا من المهلكين) المؤمنون : 48 والمهلكون في الحقيقة هم المعاقبون بالنار والخلود فيها ، نعوذ بالله منها .

فقد صار كل ما ذكر فيه مع آياتنا وسلطان مبين هو ما اشتمل على جملة ما عوملوا به إلى أن استقروا مقرهم من عذاب الله الدائم عليهم .

وحقيقة السلطان من السليط ، وهو الزيت الذي يضيء به السراج ، والسلطان : الحجة ، لأنها تضيء فتبين الحق من الباطل ، والسلطان الذي يملك الناس ضياء يدفع ظلام الظلم عنهم ، إذ كانوا لولا هو لصاروا من التغاور والتناهب في ظلام يتزايد ولا يتناقص ، كأنه ضياء يجلو ظلام الدنيا ، والآيات التي جاءت بعد التوراة والعصا واليد جاءت وقد أنارت وأوضحت عندهم الحق حتى سألوا أن يمهلوا ليؤمنوا إذا كشف عنهم ما أظلم ، فإن عادوا بعد كشفه جللهم .

114 الآية العاشرة منها

قوله تعالى : (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلكها مصلحون) هود 117 .

وقال في سورة القصص 59 : (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) .

للسائل أن يسأل عن الفرق بين قوله : (وما كان ربك ليهلك القرى) وبين قوله : (وما كنا مهلكي القرى) وكيف اختصت الآية التي في سورة هود بلفظ الفعل في خبر كان ، والأخريان بالاسم وهو مهلك ؟

والجواب عن ذلك أن يقال : إن هذه اللام تسمى لام الجحود ، ولا تخلوا منه ، وهي تخالف لام كي بأشياء .

منها : إن لام كي يصلح إظهار أن بعدها ، إذا قلت : جئت لتكرمني ، وهذه لا يصلح فيها ذلك ، لا تقول : ما كنت لأن أفعل .

ومنها : أن المصدر الواقع موقع أن مع الفعل يصح اللفظ به ، فتقول جئت للاكرام ، ولا يصح : ما كنت للاكرام .

ومنها أن اللام يصح حذفها والاتيان بأن لام كي تدخل على ما هو عذر في إنشاء الفعل ، فهذا وإن كان لفظه المستقبل فإنه مقارنة كان قد صار بمعنى الماضي ، كما تقول كان زيد يركب ، على حكاية الحال التي يستأنف فيها الركوب ويقول القائل : جئتك اليوم لتكرمني غدا ، فمتى علق بزمان لم يصح فيه الزمان الآخر . وكذلك : كان زيد فاعلا ، يصلح للماضي والحال ، وعلى معنى أنه كان على أن يفعل في أقرب الأوقات التي يستقبلها .

(88/372)

وليس كذلك معنى ما كنت لأفعل لأنه مبالغة في نفي هذا الفعل في أزمنة كلها ، ، والمعنى : كون هذا الفعل مناف لكوني ، فإذا جعلت السبب في نفي هذا الحدث كون المحدث ، والمحدث كونه فيما مضى ككونه فيما يستقبل ، وفيما هو للحال ، فالمعنى : لم يكن فيما مضى يقع مني هذا الفعل ولا

يقع فيما يستقبل ولا في الحال لسبب ينافي وجوده وهو كون الفاعل ، ولذلك لا يصح من الأفعال في هذا المكان غير ما يتصرف لفظه من كان .

وإذا كان كذلك وكان هذا نهاية ما يخاطب بع العرب في نفي الفعل ، وامتناع وقوعه خصه الله تعالى بالمكان الذي لا يقع ذلك منه أبدا ، ولم يقع منه قط ، وهو أنه لم يكن فيما مضى يهلك القرى ظالما لها مع صلاح أهلها ولا يفعله ، ولا يليق بعدله ، وهو منزه عنه تعالى الله عن ذلك .

وأما قوله تعالى : (ىوما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتننا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) القصص : 59 فإنه لم يكن فيها صريح ظلم ينسب إليه ، ولم يكن ملفوظا به ، فيؤتى باللفظ الأبلغ في نفيه ، كما كان في قوله : (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم) .

فإن قال : فلم ادعيت أن هذا أبلغ في الانتفاء من الظلم ؟

قلت : إن أول ما يستدل به أن من عرف كلام العرب يعقل من قول القائل : ما كنت لأظلمك ، وما كنت لأشتمك ، وما كنت لأذيك ، ما لا يعقله من قوله : ما كنت ظالما لك ، وما كنت شاتما لك ، لأن ذلك نفي الظلم والشتم في وقت دون وقت .

وإذا قال : ما كنت لأشتمك ، فكأنه قال : ما كنت بضام كوني شتيمة لك ، فجعل كونه منافيا لشتمه .

فإن قال : ما كنت لأشتمك ، فكأنه قال : ما كنت بضام كوني شتيمة لك ، فجعل كونه منافيا لشتمه .

فإن قال : فلماذا ألزم لفظة الاستقبال والنصب ؟

قلت : لأن التقدير : ما كنت في شيء من الأوقات بمستقبل شتمك ، وما كان كوني بضام شتمك ، وهذا مستمر أبدا بيني وبينك ، فكلما لم أشتمك لكوني كذلك لا أشتمك لكوني كذلك .

(89/372)

فإن قال : فلأي معنى لم يجز إظهار أن كما جاز في لام كي ؟

قلت : لأنها لو ظهرت لوجب أن يصح الاسم مكانها ، فلما ألزمت لفظة كنت وأكون وجب أن يكون النفي الداخل عليها خبرا ، أن كوني ينافي أن أفعل كذا ، وإني كما لم أحصل في حال وجودي على استئناف شتمك ، كذلك لا أحصل على هذه الصفة ، وهي الشروع في شتمك إذ كان وجودي هو الذي ينافيه ، وجب أن يحفظ لفظ المستقبل المنصوب ، فلم يكن بد من إضمار أن .

فإن قال : فهلا جوزت حذف اللام كما كان ذلك في لا كي ؟

قلت : لأن اللام ثباتها يسد عن الفعل المنصوب طرق العوامل ، فكأنها أقيمت مقام أن لأن اللام لا

تدخل إلا على الاسم في المعنى ، وهذا موضع خبر كان فحفظ لفظ الفعل لما ذكرنا ، وألزم الحرف المختص بالاسم ليدل به على أن الموضع موضع الاسم فافهمه .

فإن قال : فهذا الفعل الذي حفظت له لفظ الاستقبال والنصب ، كيف جاز أن يراد به الأزمنة ، وهو مختص بزمان واحد ؟

وكان يصلي ، تريد في الحال ، وتقول : قصدته وكان يركب ، تريد المستقبل ، وتقول : قصدته وكان قد ركب ، ولو قلت : قصدته فكان ركب لم يحسن حسنه مع قد التي تقرب من معنى المستقبل ، وعلى هذا حمل قوله تعالى : (أو جاءوهم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم) النساء : 90 في بعض الأقاويل ، فكان ذلك عائدا إلى لفظ المستقبل ، وما يجوز لقربه منه في المعنى ، فلذلك صلح النفي في الأول واستمراره في المستقبل وبالله التوفيق .

115 الآية الحادية عشرة منها

قد تأخرت عن مكانها من السورة ، لأنها سئل عنها بعد ما أمليت ما تقدم منها ، فذكرناها في آخرها لئلا تغير تراجم المسائل ، وترتيب الآي فيها .

فإن قال قائل : قوله تعالى في سورة هود 58 (ولما جاء أمرنا نجينا هودا) وفي آخر السورة في قصة شعيب : (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا) هود : 94 فعطف لما على ما قبلها بالواو ، وقال في قصتي صالح ولوط عليها السلام : (فلما جاء أمرنا نجينا صالحا) هود : 66 وقال : (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) هود : 82 نعطف لما بالفاء دون الواو ، وما الفرق الذي أوجب اختلاف حرفي العطف في المواضع الأربعة من هذه السورة ؟

والجواب أن يقال : إن هذا الحرف في قصة هود بعد خروج من خبر عنه ، هو حكاية لقوله إلى ما هو إخبار من الله تعالى عما كان من فعله ألا تراه قال تعالى : (قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون) هود : 54 إلى قوله : (فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا) هود : 57 أي : يهلككم ويقيم غيركم مقامكم فينزل بكم أكبر الضرر ، ولا تضرونه شيئا بعبادتكم غيره ، ثم قال : (ولما جاء امرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ) هود : 58 فلم يتقدم تخويف بقرب ما أوعدوا به ليدل على اتصال الثاني بالأول واقتضاء العطف بالفاء ، مكان العطف بالواو ، وكان الموضع موضع الواو ، لأن المراد الجمع بين الخبرين من دون ذكر ما يقلل الزمان بين الفعلين .

وكذلك قصة شيب لم يدل فيها على أنهم أوعدوا بعذاب قد أظلهم ، وقرب منهم ، وإنما

أخبر عز

وجل عن شعيب عليه السلام أنه قال لهم (اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب) هود : 93 فلم يتوعدهم بالاقتراب ، بل دعاهم إلى الارتقاب ، فالتخويف قارنه التسويف لقوله تعالى (سوف تعلمون) فكان الموضع موضع الواو لخروج ما قبله عما يقتضي اتصال الثاني به .

(91/372)

وليست كذلك الموضعان اللذان نسقا على الأول بالفاء ، وهما قوله تعالى في قصة صالح : (فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب * فلما جاء أرنا نجينا صالحا) هود : 65-66 وقوله في قصة لوط : (فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم احد إلا امرأته إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب* فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) هود 81-82 فكان ذلك بعقبه غير متراخ فاقتضى الفاء التي تدل على التعقيب واتصال ما بعدها بما قبلها من غير مهلة بينهما .

وكذلك جاء في سورة العنكبوت في قصة لوط في موضعين بالواو ، وهما على هذا السبيل : فالأول قوله بعد قصة لوط وقوله لقومه : (أئنكم لتأتون الفاحشة) العنكبوت : 28 إلى قوله

: (رب انصرني على القوم المفسدين) العنكبوت : 30 فاستنصر الله تعالى عليهم ، ولم يتوعدهم بقرب عذاب منهم ، وجاء بعده : (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) العنكبوت : 31 فخرج عما كان بين لوط وبين قومه إلى قصة هي بين إبراهيم عليه السلام والملائكة عليهم السلام لما أتوه بالبشرى ، وبإهلاك من في قرية لوط ، فنزل لوط فيما كان من محاورتهم لإبراهيم منزلة الغائب عنهم ، فكان الموضع موضع الواو لاختلاف القصتين وخلو الأولى عما قرب ما بين الحالين .

وكذلك قوله تعالى بعده : (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا . . .) العنكبوت : 33 خبر عن مجيء رسل الله عز وجل من الملائكة إلى لوط ، وارتياعه لهم وفزعه لمجيئهم ، وكان مجيئهم إلى ابراهيم عليه السلام مجيء البشرى لما قالوا (سلاما قال سلام) الذاريات : 25 فعطف هذه القصة على الأولى بالواو لاختلاف موردهما ، وأنه لم يكن في الأولى منهما ما يقتضي التصاق الثانية بها فتعطف عليها بالفاء .

انقضت سورة هود عليه السلام عن احدى عشرة آية واثنتي عشرة مسألة ، فكملت مائة وإحدى وخمسين مسألة والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ درة التنزيل صـ 157 . 170 ﴾

(92/372)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة هود عليه السلام

مكية وقد ذكر نظيرتها في المدني الأول والشامي ولا نظير لها في غيرهما

وكلمها ألف وتسع مئة وخمس عشرة كلمة

وحروفها سبعة آلاف وخمس مئة وسبعة وسبعون وستون حرفا كحروف يونس

وهي مئة وإحدى وعشرون آية في المدني الأخير والمكي والبصري واثنتان في المدني الأول والشامي وثلاث في الكوفي

اختلافها سبع آيات (﴿ إني بريء مما تشركون ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾) وهو الثاني لم يعدها البصري وعدها الباقون وكلهم عد (﴿ إلى قوم لوط ﴾) وهو الأول (﴿ من سجيل ﴾) عدها المدني الأخير والمكي ولم يعدها الباقون (﴿ منضود ﴾) لم يعدها المدني الأخير والمكي وعدها الباقون (﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾) عدها المدنيان والمكي ولم يعدها الباقون (﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾) لم يعدها المدنيان والمكي وعدها الباقون (﴿ إنا عاملون ﴾) لم يعدها المدني الأخير والمكي وعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع ستة مواضع (﴿ يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ فسوف تعلمون) الأول (﴿ وفار التنور ﴾ فينا ضعيفا) (﴿ سوف تعلمون ﴾) الثاني (﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾)

ورؤوس الآي

خبير

1 وبشير

2 كبير

3 قدير

4 الصدور

5 مبين

6 مبين

7 يستهزئون

8 كفور

9 فخور

10 كبير

11 وكيل

12 صادقين

13 مسلمون

14 لا يبخسون

15 يعملون

16 لا يؤمنون

17 الظالمين

18 كافرون

19 يبصرون

20 يفترون

21 الأخسرون

22 خالدون

23 تذكرون

24 مبين

25 أليم

26 كاذبين

27 كارهون

28 تجهلون

29 تذكرون

30 الظالمين

31 الصادقين

32 بمعجزين

33 ترجعون

34 تجرمون

35 يفعلون

36 مغرقون

37 تسخرون

38 مقيم

39 إلا قليل

40 رحيم

41 الكافرين

42 المغرقين

43 الظالمين

44 الحاكمين

45 الجاهلين

46 الخاسرين

47 أليم

48 للمتقين

49 مفترون

50 تعقلون

51 مجرمين

52 بمؤمنين

53 لا تنظرون

55 مستقيم

56 حفيظ

57 غليظ

58 عنيد

59 قوم هود

60 مجيب

61 مريب

62 تخسير

63 قريب

64 مكذوب

65 العزيز

66 جاثمين

67 لثمود

68 حنيذ

69 قوم لوط

70 يعقوب

71 عجيب

72 مجيد

73 قوم لوط

74 منيب

75 مردود

76 عصيب

77 رشيد

78 ما نريد

79 شديد

80 بقريب

81 سجيل

بحفيظ

86 الرشيد

87 أنيب

88 ببعيد

89 ودود

90 بعزيز

91 محيط

92 رقيب

93 جاثمين

94 ثمود

95 مبين

96 برشيد

97 المورود

98 المرفود

99 وحصيد

100 تتبيب

101 شديد

102 مشهود

103 معدود

104 وسعيد

105 وشهيق

106 لما يريد

107 مجذوذ

108 منقوص

109 مريب

110 خبير

111 بصير

112 لا تنصرون

113 للذاكرين

114 المحسنين

115 مجرمين

116 مصلحون

117 أجمعين

119 للمؤمنين

120 منتظرون

122 تعملون. انتهى انتهى. اهـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 165. 167﴾

(94/372)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى:

سورة هود عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إن جعلت هودا اسما للسورة لم تصرفه للتعريف والتأنيث ، ويجوز صرفه لسكون أوسطه عند قوم ، وعند آخرين لا يجوز صرفه بحال لأنه من تسمية المؤنث بالمذكر ، وإن جعلته للنبى عليه السلام صرفته .

قوله تعالى (كتاب) أي هذا كتاب ، ويجوز أن يكون خبر " الر " أي " الر " وأشباهها كتاب (ثم فصلت) الجمهور على الضم والتشديد ، ويقرأ بالتخفيف وتسمية الفاعل ، والمعنى: ثم فرقت كقوله " فلما فصل طالوت " أي فارق (من لدن) يجوز أن يكون صفة ، أي كائن من لدن ، ويجوز أن يكون مفعولا ، والعامل فيه فصلت ، وبنيت لدن وإن أضيفت ، لأن علة بنائها خروجها عن نظيرها ، لأن لدن بمعنى عند ، ولكن هي مخصوصة بملاصقة الشئ وشدة مقاربته ، وعند ليست كذلك بل هي للقريب وما بعد عنه وبمعنى الملك .

قوله تعالى (أن لا تعبدوا) في " أن " ثلاثة أوجه: أحدها هي مخففة من الثقيلة .

والثانى أنها الناصبة للفعل ، وعلى الوجهين موضعها رفع تقديره هي أن لا تعبدوا ، ويجوز أن يكون التقدير: بأن لا تعبدوا ، فيكون موضعها جرا أو نصبا على ما حكينا من الخلاف .

والوجه الثالث أن تكون " أن " بمعنى أي ، فلا يكون لها موضع ، ولا تعبدوا نهى ، و (منه) أي من الله ، والتقدير : نذير كائن منه ، فلما قدمه صار حالا ، ويجوز أن يتعلق بنذير ، ويكون التقدير : إنني لكم نذير من أجل عذابه .

قوله تعالى (وأن استغفروا) " أن " معطوفة على " أن " الأولى ، وهي مثلها ما ذكر (وإن تولوا) أي يتولوا .

قوله تعالى (يثنون) الجمهور على فتح الياء وضم النون ، وماضيه ثنى ، ويقرأ كذلك إلا أنه بضم الياء وماضيه أثنى ، ولا يعرف في اللغة إلا أن يقال معناه عرضوها للإثناء ، كما تقول أبعت الفرس إذا عرضته للبيع .

(95/372)

ويقرأ بالياء مفتوحة وسكون الثاء ونون مفتوحة وبعدها همزة مضمومة بعدها نون مفتوحة مشددة مثل يقرءون ، وهو من ثنيت ، إلا أنه قلب الياء واوا لانضمامها ثم همزها لانضمامها ، ويقرأ يثنوني مثل يعشوشب وهو يفعوعل من ثنيت ، والصدور فاعل .

ويقرأ كذلك إلا أنه بحذف الياء الأخيرة تخفيفا لطول الكلمة .

ويقرأ بفتح الياء والنون وهمزة مكسورة بعدها نون مرفوعة مشددة ، وأصل الكلمة يفعوعل

من الثنى ، إلا أنه أبدل الواو المكسورة همزة ، كما أبدلت في وسادة فقالوا إسادة ، وقيل أصلها يفعال مثل يحمار ، فأبدلت الألف همزة كما قالوا ابياض (ألا حين) العامل في الظرف محذوف: أي ألا حين يستغشون ثيابهم يستخفون ، ويجوز أن يكون ظرفا ليعلم .

قوله تعالى (مستقرها ومستودعها) مكانان ، ويجوز أن يكونا مصدرين كما قال الشاعر * ألم تعلم مسرحي القوافى * أي تسرحى .

قوله تعالى (ولئن) اللام لتوطئة القسم ، والقسم محذوف وجوابه (ليقولن) ومثله " ولئن أذقنا " وجواب القسم " إنه ليئوس " وسد القسم وجوابه مسد جواب الشرط .

قوله تعالى (ألا يوم يأتيهم) يوم ظرف ل (مصروفا) أي لا يصرف عنهم يوم يأتيهم ، وهذا يدل على جواز تقديم خبر ليس عليها .

وقال بعضهم: العامل فيه محذوف دل عليه الكلام: أي لا يصرف عنهم العذاب يوم يأتيهم ، واسم ليس مضمر فيها : أي ليس العذاب مصروفا .

قوله تعالى (لفرح) يقرأ بكسر الراء وضمها وهما لغتان ، مثل يقظ ويقظ وحذر وحذر .

قوله تعالى (إلا الذين صبروا) في موضع نصب وهو استثناء متصل ، والمستثنى منه الإنسان وقيل هو منفصل ، وقيل هو في موضع رفع على الابتداء ، و (أولئك لهم مغفرة) خبره .

قوله تعالى (وضائق به صدرك) صدرك مرفوع بضائق لأنه معتمد على المبتدإ وقيل هو

مبتدإ وضائق خبر مقدم ، وجاء ضائق على فاعل من ضاق يضيق (أن يقولوا) أي مخافة أن يقولوا ، وقيل لأن يقولوا : أي لان قالوا فهو بمعنى الماضي .

(96/372)

قوله تعالى (وباطل) خبر مقدم ، و (ما كانوا) المبتدإ والعائد محذوف: أي يعملونه ، وقرئ باطلا بالنصب ، والعامل فيه يعملون ، وما زائدة .

قوله تعالى (أفمن كان) في موضع رفع بالابتداء والخبر محذوف تقديره: أفمن كان على هذه الأشياء كغيره (ويتلوه) في الهاء عدة أوجه: أحدها يرجع على " من " وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، والتقدير: ويتلو محمدا : أي صدق محمد (شاهد منه) أي لسانه ، وقيل الشاهد جبريل عليه السلام ، والهاء في منه لله ،

وفى (من قبله) للنبى ، و (كتاب موسى) معطوف على الشاهد ، وقيل الشاهد الإنجيل ، والمعنى أن التوراة والإنجيل يتلوان محمدا صلى الله عليه وسلم في التصديق ، وقد فصل بين حرف العطف والمعطوف بقوله " من قبله " أي وكتاب موسى عليه السلام من قبله .

والوجه الثاني أن الهاء للقرآن: أي ويتلو القرآن شاهد من محمد صلى الله عليه وسلم وهو لسانه ، وقيل جبريل عليه السلام .

والثالث أنها تعود على البيان الذى دلت عليه البينة ، وقيل تمام الكلام عند قوله منه ومن قبله كتاب موسى عليه السلام ابتداء وخبر ، و (إماما ورحمة) حالان ، وقرئ كتاب موسى بالنصب: أي ويتلو كتاب موسى (في مرية) يقرأ بالكسر والضم وهما لغتان .

قوله تعالى (يضاعف لهم) مستأنف (ما كانوا) في " ما " ثلاثة أوجه: أحدها هي بمعنى الذى ، والمعنى: يضاعف لهم بما كانوا ، فلما حذف الحرف نصب .

والثانى هي مصدرية ، والتقدير: مدة ما كانوا يستطيعون .

والثالث هي نافية أي من شدة بغضهم له لم يستطيعوا الإصغاء إليه .

قوله تعالى (لاجرم) فيه أربعة أقوال: أحدها أن " لا " رد لكلام ماض: أي ليس الأمر كما زعموا ، وجرم فعل وفاعله مضمر فيه ، و (أنهم في الآخرة) في موضع نصب ، والتقدير: كسبهم قولهم خسرانهم في الآخرة .

والقول الثاني أن لاجرم كلمتان ركبتا وصارتا بمعنى حقا ، وأن في موضع رفع بأنه فاعل لحق: أي حق خسرانهم .

والثالث أن المعنى لا محالة خسرانهم ، فيكون في موضع رفع أيضا ، وقيل في موضع نصب أو جر إذ التقدير: لا محالة في خسرانهم .

والرابع أن المعنى لامنع من أنهم خسروا فهو في الإعراب كالذى قبله .

قوله تعالى (مثل الفريقين) مبتدأ ، والخبر (كالأعمى) والتقدير: كمثل الأعمى ، وأحد الفريقين الأعمى والأصم والآخر البصير والسميع (مثلا) تمييز .

قوله تعالى (إنى لكم) يقرأ بكسر الهمزة على تقدير: فقال إنى ، وبفتحها على تقدير: بأنى ، وهو في موضع نصب: أي أرسلناه بالإنذار: أي منذرا .

قوله تعالى (أن لا تعبدوا) هو مثل الذى في أول السورة .

قوله تعالى (ما نراك) يجوز أن يكون من رؤية العين ، وتكون الجملة بعدها في موضع الحال ، وقد معه مرادة ، ويجوز أن يكون من رؤية القلب ، فتكون الجملة في موضع المفعول الثاني .

والأراذل جمع أرذال ، وأرذال جمع رذل ، وقيل الواحد أرذل والجمع أراذل ، وجمع على هذه الزنة وإن كان وصفا لأنه غلب فصار كالأسماء ومعنى غلبته أنه لا يكاد يذكر الموصوف معه ، وهو مثل الأبطح والأبرق (بادى الرأى) يقرأ بهمزة بعد الدال ، وهو من بدأ يبدأ إذا فعل الشئ أولا ، ويقرأ بياء مفتوحة .

وفيه وجهان: أحدهما أن الهمزة أبدلت ياء لانكسار ما قبلها .

والثانى أنه من بدا يبدو إذا ظهر ، وبادى هنا ظرف ، وجاء على فاعل كما جاء على

فعيل نحو قريب وبعيد ، وهو مصدر مثل العافية والعاقبة ، وفى العامل فيه أربعة أوجه:

أحدها نراك أي فيما يظهر لنا من الرأى ، أو في أول رأينا .

فإن قيل ، ما قبل " إلا " إذا تم لا يعمل فيما بعدها كقولك: ما أعطيت أحدا إلا زيدا دينارا ، لأن إلا تعدى الفعل ولا تعديه إلا إلى واحد كالواو في باب المفعول معه ، قيل: جاز ذلك هنا لأن بادى ظرف أو كالظرف ، مثل جهد رأيى أنك ذاهب: أي في جهد رأيى ، والظروف يتسع فيها .

والوجه الثاني أن العامل فيه اتبعك: أي اتبعوك في أول الرأى أو فيما ظهر منه من غير أن يبحثوا .

(98/372)

والوجه الثالث أنه من تمام أراذلنا : أي الأراذل في رأينا .

والرابع أن العامل فيه محذوف: أي يقول ذاك في بادى الرأى به ، والرأى مهموز وغير مهموز .

قوله تعالى (رحمة من عنده) يجوز أن تكون من متعلقة بالفعل ، وأن تكون من نعت الرحمة

(فعميت) أي خفيت (عليكم) لانكم لم تنظروا فيها حق النظر

وقيل المعنى عميتم عنها كقولهم: أدخلت الخاتم في أصبعي ، ويقرأ بالتشديد والضم: أي

أبهمت عليكم عقوبة لكم ، و (أنلزمكموها) الماضي منه ألزمت ، وهو متعد إلى مفعولين ، ودخلت الواو هنا تتمة للميم ، وهو الأصل في ميم الجمع ، وقرئ بإسكان الميم الأولى فرارا من توالى الحركات .

قوله تعالى (تزدرى) الدال بدل من التاء ، وأصلها تزترى وهو يفتعل من زريت ، وأبدلت دالا لتجانس الزاى في الجهر ، والتاء مهموسة فلم تجتمع مع الزاى .

قوله تعالى (قد جادلتنا) الجمهور على إثبات الألف ، وكذلك (جدالنا) وقرئ " جدلتنا " فأكثرت جدلنا بغير ألف فيهما ، وهو بمعنى غلبتنا بالجدل .

قوله تعالى (إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله) حكم الشرط إذا دخل على الشرط أن يكون الشرط الثاني والجواب جوابا للشرط الأول كقولك إن أتيتني إن كلمتني أكرمتك ، فقولك إن كلمتني أكرمتك جواب إن أتيتني ، وإذا كان كذلك صار الشرط الأول في الذكر مؤخرا في المعنى حتى لو أتاه ثم كلمه لم يجب الإكراه ، ولكن إن كلمه ثم أتاه وجب إكرامه ، وعلة ذلك أن الجواب صار معوقا بالشرط الثاني ، وقد جاء في القرآن منه .

قوله تعالى " إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبي " .

قوله تعالى (فعلى إجرامي) يقرأ بكسر الهمزة وهو مصدر أجرم ، وفيه لغة أخرى " جرم " ويفتح الهمزة وهو جمع جرم .

قوله تعالى (إنه لن يؤمن) يقرأ بفتح الهمزة ، وإنه في موضع رفع بأوحى ويقرأ بكسرها ،

والتقدير: قيل إنه ، والمرفوع بأوحى .

قوله تعالى (إلى نوح إلا من قد آمن) استثناء من غير الجنس في المعنى ، وهو فاعل لن يؤمن .

(99/372)

قوله تعالى (بأعيننا) في موضع الحال من ضمير الفاعل في اصنع: أي محفوظا .

قوله تعالى (من كل زوجين اثنين) يقرأ كل بالإضافة ، وفيه وجهان: أحدهما أن مفعول احمل اثنين تقديره: احمل فيها اثنين من كل زوج ، فمن على هذا حال لأنها صفة للنكرة قدمت عليها .

والثانى أن " من " زائدة والمفعول "كل " واثنين توكيد ، وهذا على قول الأخفش ، ويقرأ " من كل " بالتنوين ، فعلى هذا مفعول احمل زوجين ، واثنين توكيد له ، ومن على هذا يجوز أن تتعلق باحمل ، وأن تكون حالا .

والتقدير: من كل شئ أو صنف (وأهلك) معطوف على المفعول ، و (إلا من سبق) استثناء متصل (ومن آمن) مفعول احمل أيضا .

قوله تعالى (بسم الله مجراها) مجراها مبتدأ ، وبسم الله خبره ، والجملة حال مقدرة ، وصاحبها الواو في اركبوا ، ويجوز أن ترفع مجراها بسم الله على أن تكون بسم الله حالا من

الواو في اركبوا ، ويجوز أن تكون الجملة حالا من الهاء تقديره: اركبوا فيها وجريانها بسم الله: وهى مقدرة أيضا ، قيل مجراها ومرساها ظرفا مكان

وبسم الله حال من الواو: أي مسمين موضع جريانها ، ويجوز أن يكون زمانا : أي وقت جريانها ، ويقرأ بضم الميم فيهما ، وهو مصدر أجريت مجرى ، وبفتحهما ، وهو مصدر جريت ورسيت ، ويقرأ بضم الميم وكسر الراء والسين وياء بعدهما ، وهو صفة لاسم الله عزوجل .

قوله تعالى (وهى تجرى بهم) يجوز أن تكون الجملة حالا من الضمير في بسم الله ، أي جريانها بسم الله ، وهى تجرى بهم ، ويجوز أن تكون مستأنفة ، وبهم حال من الضمير في تجرى: أي وهم فيها (نوح ابنه) الجمهور على ضم الهاء ، وهو الاصل ، وقرئ بإسكانها على إجراء الوصل مجرى الوقف ، ويقرأ ابنها يعنى ابن امرأته ، كأنه توهم إضافته إليها دونه لقوله " إنه ليس من أهلك " ويقرأ بفتح

(100/372)

الهاء من غير ألف وحذف الألف تخفيفا ، والفتحة تدل عليها ، ومثله " يا أبت " فيمن فتح ، ويقرأ " ابناه " على الترئى ليس بندبة ، ولأن الندبة لا تكون الهمزة (في معزل) بكسر الزاى

موضع وليس بمصدر ، وبفتحها مصدر ، ولم أعلم أحدا قرأ بالفتح (يا بنى) يقرأ بكسر الياء وأصله بنى بياء التصغير ، وياء هي لام الكلمة وأصلها واو عند قوم وياء عند آخرين ، والياء الثالثة ياء المتكلم ، ولكنها حذفت لدلالة الكسرة عليها فرارا من توالى الياءات ، ولأن النداء موضع تخفيف ، وقيل حذفت من اللفظ لالتقائها مع الراء في اركب ، ويقرأ بالفتح .

وفيه وجهان: أحدهما أنه أبدل الكسرة فتحة فانقلبت ياء الإضافة ألفا ، ثم حذفت الألف كما حذفت الياء مع الكسرة لأنها أصلها .

والثانى أن الألف حذفت من اللفظ لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى (لاعاصم اليوم) فيه ثلاثة أوجه: أحدها أنه اسم فاعل على بابه ، فعلى هذا يكون قوله تعالى (إلا من رحم) فيه وجهان: أحدهما هو استثناء متصل " ومن رحم " بمعنى الراحم: أي لاعاصم إلا الله والثانى أنه منقطع: أي لكن من رحمه الله يعصم .

الوجه الثاني أن عاصما بمعنى معصوم ، مثل " ماء دافق ": أي مدفوق ، فعلى هذا يكون الاستثناء متصلا: أي إلا من رحمه الله .

والثالث أن عاصما بمعنى ذا عصمة على النسب ، مثل حائض وطالق ، والاستثناء على هذا متصل أيضا ، فأما خبر لا فلا يجوز أن يكون اليوم ، لأن ظرف الزمان لا يكون خبرا عن الجثة ، بل الخبر من أمر الله ، واليوم معمول من أمر ، ولايجوز أن يكون اليوم معمول عاصم ،

إذ لو كان كذلك لنون .

قوله تعالى (على الجودى) بتشديد الياء وهو الأصل ، وقرئ بالتخفيف لاستثقال الياءين

(وغيض الماء) هذا الفعل يستعمل لازما ومتعديا ، فمن المتعدى

(101/372)

" وغيض الماء " ومن اللازم " وما تغيض الأرحام " ويجوز أن يكون هذا متعديا أيضا ، ويقال: غاض الماء وغضته ، و (بعدا) مصدر: أي وقيل بعد بعدا ، و (للقوم الظالمين) تبيين وتخصيص ، وليست اللام متعلقة بالمصدر .

قوله تعالى (إنه عمل) في الهاء ثلاثة أوجه: أحدها هي ضمير الابن: أي إنه ذو عمل .

والثانى أنها ضمير النداء ، والسؤال في ابنه: أي أن سؤالك فيه عمل غير صالح .

والثالث أنها ضمير الركوب ، وقد دل عليه اركب معنا ، ومن قرأ عمل على أنه فعل ماض فالهاء ضمير الابن لاغير (فلا تسألني) يقرأ بإثبات الياء على الأصل ، وبحذفها تخفيفا ، والكسرة تدل عليها ، ويقرأ بفتح اللام وتشديد النون على أنها نون التوكيد ، فمنهم من يكسرها ومنهم من يفتحها ، والمعنى واضح .

قوله تعالى (وإلا تغفر لى) الجزم بإن ، ولم يبطل عملها بلا ، لأن " لا " صارت كجزء من الفعل

، وهى غير عاملة في النفى ، وهى تنفى مافى المستقبل ، وليس كذلك " ما " فإنها تنفى مافى الحال ، ولذلك لم يجز أن تدخل إن عليها لأن إن الشرطية تختص بالمستقبل ، ومالنفى الحال .

قوله تعالى (قيل يا نوح) " يا " و " نوح " في موضع رفع لوقوعهما موقع الفاعل ، وقيل القائم مقام الفاعل مضمر ، والنداء مفسر له: أي قيل قول ، أو قيل هو يا نوح (بسلام وبركات) حالان من ضمير الفاعل (وأمم) معطوف على الضمير في اهبط تقديره: اهبط أنت وأمم ، وكان الفصل بينهما مغنيا عن التوكيد ، (سنمتعهم) نعت لأمم .

قوله تعالى (تلك من أنباء الغيب) هو مثل قوله تعالى في آل عمران " ذلك من أنباء الغيب " وقد ذكر إعرابه (ما كنت تعلمها) يجوز أن يكون حالا من ضمير المؤنث في نوحيها ، وأن يكون حالا من الكاف في إليك .

قوله تعالى (من إله غيره) قد ذكر في الأعراف .

قوله تعالى (مدرارا) حال من السماء ، ولم يؤنثه لوجهين: أحدهما أن السماء السحاب فذكر مدرارا على المعنى .

(102/372)

والثانى أن مفعالا للمبالغة ، وذلك يستوى فيه المؤنث والمذكر ، مثل فعول كصبور ، وفعيل كبغي (إلى قوتكم) إلى هنا محمولة

على المعنى ، ومعنى يزدكم يضف ، ويجوز أن يكون " إلى " صفة القوة فتتعلق بمحذوف ، أي قوة مضافة إلى قوتكم .

قوله تعالى (ما جئتنا ببينة) يجوز أن تتعلق الباء بجئت ، والتقدير : ما أظهرت بينة ، ويجوز أن تكون حالا : أي ومعك بينة أو محتجا ببينة .

قوله تعالى (إلا اعتراك) الجملة مفسرة لمصدر محذوف تقديره : إن نقول إلا قولا هو اعتراك ، ويجوز أن يكون موضعها نصبا : أي ما نذكر إلا هذا القول .

قوله تعالى (فإن تولوا) أي فإن تتولوا فحذف الثانية (يستخلف) الجمهور على الضم وهو معطوف على الجواب بالفاء ، وقد سكنه بعضهم على الموضع أو على التخفيف لتوالى الحركات .

قوله تعالى (كفروا ربهم) هو محمول على المعنى : أي جحدوا ربهم ، ويجوز أن يكون انتصب بما حذف الباء ، وقيل التقدير : كفروا نعمة ربهم : أي بطروها .

قوله تعالى (غير تخسير) الأقوى في المعنى أن يكون غير هنا استثناء في المعنى وهو مفعول ثان لتزيدوننى : أي فما تزيدونني إلا تخسيرا ، ويضعف أن تكون صفة لمحذوف إذ التقدير : فما تزيدونني شيئا غير تخسير ، وهو ضد المعنى .

قوله تعالى (من خزي يومئذ) يقرأ بكسر الميم على أنه معرب ، وانجراره بالإضافة وبفتحها على أنه مبنى مع " إذ " لأن " إذ " مبنى وظرف الزمان إذا أضيف إلى مبنى جاز أن يبنى لما في الظروف من الإبهام ، ولأن المضاف يكتسى كثيرا من أحوال المضاف إليه كالتعريف والاستفهام والعموم والجزاء ، وأما " إذ " فقد

تقدم ذكرها .

قوله تعالى (وأخذ الذين ظلموا الصيحة) في حذف التاء ثلاثة أوجه: أحدها أنه فصل بين الفعل والفاعل .

والثانى أن التأنيث غير حقيقي .

والثالث أن الصيحة بمعنى الصياح فحمل على المعنى .

(103/372)

قوله تعالى (كأن لم يغنوا فيها) قد ذكر في الأعراف (لثمود) يقرأ بالتنوين لأنه مذكر ، وهو حى أو أبو القبيلة ، وبحذف التنوين غير مصروف على أنها القبيلة .

قوله تعالى (بالبشرى) في موضع الحال من الرسل (قالوا سلاما) في نصبه وجهان: أحدهما هو مفعول به على المعنى كأنه قال: ذكروا سلاما .

والثانى هو

مصدر: أسلموا سلاما ، وأما (سلام) الثاني فمرفوع على وجهين: أحدهما هو خبر مبتدإ محذوف: أي أمرى سلام ، أو جوابي أو قولى .

والثانى هو المبتدإ والخبر محذوف: أي سلام عليكم ، وقد قرئ على غير هذا الوجه بشئ هو ظاهر في الإعراب (أن جاء) في موضعه ثلاثة أوجه: أحدها جر تقديره: عن أن جاء ، لأن لبث بمعنى تأخر .

والثانى نصب وفيه وجهان .

أحدهما أنه لما حذف حرف الجر وصل الفعل بنفسه ، والثاى هو محمول على المعنى: أي لم يترك الإتيان بعجل .

والثالث رفع على وجهين أيضا : أحدهما فاعل لبث .

أي فما أبطأ مجيئه ، والثانى أن " ما " بمعنى الذى ، وهو مبتدإ ، وأن جاء خبره تقديره: والذى لبثه إبراهيم عليه السلام قدر مجيئه ، أو مصدرية: أي لبثه مقدار مجيئه .

قوله تعالى (وامرأته قائمة) الجملة حال من ضمير الفاعل في أرسلنا (فضحكت) الجمهور على كسر الحاء ، وقرئ بفتحها والمعنى: حاضت ، يقال ضحكت الأرنب بفتح الحاء

(ومن وراء إسحاق يعقوب) يقرأ بالرفع وفيه

وجهان: أحدهما هو مبتدأ وما قبله الخبر .

والثانى هو مرفوع بالظرف ، ويقرأ بفتح الباء وفيه وجهان: أحدهما أن الفتحة هنا للنصب وفيه وجهان: أحدهما هو معطوف على موضع إسحاق ، والثانى هو منصوب بفعل محذوف دل عليه الكلام تقديره: ووهبنا له من وراء إسحاق يعقوب .

والوجه الثاني أن الفتحة للجر ، وهو معطوف على لفظ إسحاق: أي فبشرناها بإسحاق ويعقوب ، وفى وجهى العطف قد فصل بين يعقوب وبين الواو العاطفة بالظرف ، وهو ضعيف عند قوم ، وقد ذكرنا ذلك في سورة النساء .

(104/372)

قوله تعالى (وهذا بعلى شيخا) هذا مبتدأ ، وبعلى خبره ، وشيخا حال من بعلى مؤكدة ، إذ ليس الغرض الإعلام بأنه بعلها في حال شيخوخته دون غيرها ، والعامل في الحال معنى الإشارة والتنبيه أو أحدهما ، ويقرأ شيخ بالرفع ، وفيه عدة أوجه: أحدها أن يكون هذا مبتدأ ، وبعلى بدلا منه ، وشيخ الخبر .

والثانى أن يكون بعلى عطف بيان وشيخ الخبر .

والثالث أن يكون بعلى مبتدأ ثانيا ، وشيخ خبره ، والجملة خبر هذا .

والرابع أن يكون بعلى خبر المبتدإ ، وشيخ خبر مبتدإ محذوف: أي هو شيخ .

والخامس أن يكون شيخ خبرا ثانيا .

والسادس أن يكون بعلى وشيخ جميعا خبرا واحدا كما تقول: هذا حلو حامض ، والسابع أن يكون شيخ بدلا من بعلى .

قوله تعالى (أهل البيت) تقديره: يا أهل البيت ، أو يكون منصوبا على التعظيم والتخصيص: أي أعنى ، ولايجوز في الكلام جر مثل هذا على البدل ، لأن ضمير المخاطب لا يبدل منه إذا كان في غاية الوضوح (وجاءته البشرى) هو معطوف على ذهب ، ويجوز أن يكون حالا من إبراهيم ، وقد مرادة ، فأما جواب " لما " فيه وجهان: أحدهما هو محذوف تقديره: أقبل يجادلنا ، ويجادلنا على هذا

حال .

والثانى أنه يجادلنا ، وهو مستقبل بمعنى الماضي: أي جادلنا ، ويبعد أن يكون الجواب جاءته البشرى ، لأن ذلك يوجب زيادة الواو وهو ضعيف ، و (أواه) فعال من التأوه .

قوله تعالى (آتيهم) هو خبر إن ، و (عذاب) مرفوع به ، وقيل عذاب مبتدأ وآتيهم خبر مقدم ، وجوز ذلك أن عذابا وإن كان نكرة فقد وصف بقوله (غير مردود) وأن إضافة اسم الفاعل هاهنا لا تفيده التعريف إذ المراد به الاستقبال .

قوله تعالى (سئ بهم) القائم مقام الفاعل ضمير لوط ، و (ذرعا) تمييز ، و (يهرعون إليه) حال ، والماضي منه أهرع (هؤلاء) مبتدأ ، و (بناتى) عطف بيان أو بدل ، و (هن) فصل

، و (أطهر) الخبر ، ويجوز أن يكون هن مبتدأ ثانيا ، وأطهر خبره ، ويجوز أن يكون بناتى خبرا ، وهن أطهر مبتدأ وخبر .

وقرئ في الشاذ " أطهر " بالنصب .

(105/372)

وفيه وجهان: أحدهما أن يكون بناتى خبرا وهن فصلا ، وأطهر حالا .

والثانى أن يكون هن مبتدأ ، ولكم خبر ، وأطهر حال ، والعامل فيه ما فيهن من معنى التوكيد بتكرير المعنى ، وقيل العامل لكم لما فيه من معنى الاستقرار .

والضيف مصدر في الأصل وصف به ، فلذلك لم يثن ولم يجمع ، وقد جاء مجموعا يقال أضياف وضيوف وضيفان .

قوله تعالى (ما نريد) يجوز أن تكون " ما " بمعنى الذى ، فتكون نصبا بتعلم وهو بمعنى يعرف ، ويجوز أن تكون استفهاما في موضع نصب بنريد وعلمت معلقة .

قوله تعالى (أو آوى) يجوز أن يكون مستأنفا وأن يكون في موضع رفع خبر أن على المعنى تقديره: أو أنى آوى ، ويضعف أن يكون معطوفا على قوة ، إذ لو كان كذلك لكان منصوبا بإضمار أن ، وقد قرئ به والتقدير: أو أن آوى .

وبكم حال

من قوة ، وليس معمولا لها لأنها مصدر .

قوله تعالى (فأسر بأهلك) يقرأ بقطع الهمزة ووصلها وهما لغتان ، يقال أسرى وسرى (إلا امرأتك) يقرأ بالرفع على أنه بدل من أحد ، والنهي في اللفظ لأحد ، وهو في المعنى للوط: أي لاتمكن أحدا منهم من الالتفات إلا امرأتك ، ويقرأ بالنصب على أنه استثناء من أحد ، أو من أهل .

قوله تعالى (جعلنا عاليها) مفعول أول ، و (سافلها) ثان (من سجيل) صفة لحجارة ، و (منضود) نعت لسجيل ، و (مسومة) نعت لحجارة ، و (عند) معمول مسومة أو نعت لها ، و (هي) ضمير العقوبة ، و (بعيد) نعت لكان محذوف ، ويجوز أن يكون خبر هي ، ولم تؤنث لأن العقوبة والعقاب بمعنى: أي وما العقاب بعيدا من الظالمين .

(106/372)

قوله تعالى (أخاهم) مفعول فعل محذوف: أي وأرسلنا إلى مدين ، و (شعيبا) بدل ، و (تنقصوا) يتعدى إلى مفعول بنفسه ، وإلى آخر تارة بنفسه وتارة بحرف جر ، تقول: نقصت زيدا حقه ومن حقه ، وهو هاهنا كذلك: أي لا تنقصوا الناس من المكيال ، ويجوز أن يكون

هنا متعديا إلى واحد على المعنى: أي لاتعللوا وتطففوا ، و (محيط) نعت لليوم في اللفظ ، وللعذاب في المعنى ، وذهب قوم إلى أن التقدير: عذاب يوم محيط عذابه ، وهو بعيد لأن محيطا قد جرى على غير من هو له ، فيجب إبراز فاعله مضافا إلى ضمير الموصوف .

قوله تعالى (أو أن نفعل) في موضع نصب عطفا على ما يعبد ، والتقدير: أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نترك أن نفعل ، وليس بمعطوف على أن نترك إذ ليس المعنى: أصلواتك تأمرك أن تفعل في أموالنا .

قوله تعالى (لا يجرمنكم) يقرأ بفتح الياء وضمها ، وقد ذكر في المائدة ، وفاعله (شقاقي) و (أن يصيبكم) مفعول الثاني .

قوله تعالى (واتخذتموه) هي المتعدية إلى مفعولين ، و (ظهريا) المفعول الثاني .

ووراءكم يجوز أن يكون ظرفا لاتخذتم ، وأن يكون حالا من ظهريا .

قوله تعالى (فسوف تعلمون من يأتيه) هو مثل الذى في قصة نوح عليه السلام .

قوله تعالى (كما بعدت) يقرأ بكسر العين ، ومستقبله يبعد ، والمصدر بعدا بفتح العين فيهما : أي هلك ، ويقرأ بضم العين ومصدره البعد ، وهو من البعد في المكان .

قوله تعالى (يقدم قومه) هو مستأنف لا موضع له (فأوردهم) تقديره: فيوردهم ، وفاعل (بئس الورد المورود) نعت له ، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: بئس الورد النار ، ويجوز أن يكون المورود هو المخصوص بالذم .

قوله تعالى (ذلك من أنباء القرى) ابتداء وخبر ، و (نقصه) حال ، ويجوز أن يكون ذلك مفعولا به والناصب له محذوف: أي ونقص ذلك من أنباء القرى ، وفيه أوجه أخر قد ذكرت في قوله تعالى " ذلك من أنباء الغيب " في آل عمران (منها قائم) مبتدأ وخبر في موضع الحال من الهاء في نقصه (وحصيد) مبتدأ خبره محذوف: أي ومنها حصيد ، وهو بمعنى محصود .

قوله تعالى (إذا أخذ) ظرف ، والعامل فيه " أخذ ربك " .

قوله تعالى (ذلك) مبتدأ و (يوم) خبره ، و (مجموع) صفة يوم ، و (الناس) مرفوع بمجموع .

قوله تعالى (يوم يأتي) يوم ظرف ، والعامل فيه " تكلم " مقدرة ، والتقدير: لا تكلم نفس ، ويجوز أن يكون العامل فيه نفس وهو أجود ، ويجوز أن يكون مفعولا لفعل محذوف .

أي اذكروا يوم يأتي ويكون تكلم صفة له ، والعائد محذوف: أي لا تكلم فيه أو لا تكلمه ، ويجوز أن يكون منصوبا على إضمار أعنى ، وأما فاعل يأتي فضمير يرجع على قوله " يوم مجموع له الناس " ولا يرجع على يوم المضاف إلى يأتي ، لأن المضاف إليه كجزء من المضاف

، فلا يصح أن يكون الفاعل بعض الكلمة ، إذ ذلك يؤدى إلى إضافة الشئ إلى نفسه ، والجيد أثبات الياء ، إذ لا علة توجب حذفها ، وقد حذفها بعضهم اكتفاء بالكسرة عنها وشبه ذلك بالفواصل ونظير ذلك " ما كنا نبغ – والليل إذا يسر " (إلا بإذنه) قد ذكر نظيره في آية الكرسي .

قوله تعالى (لهم فيها زفير) الجملة في موضع الحال ، والعامل فيها الاستقرار الذى في النار أو في نفس الظرف ، ويجوز أن يكون حالا من النار (خالدين فيها) خالدين حال ، والعامل فيها لهم أو ما يتعلق به (ما دامت) .

في موضع نصب: أي مدة دوام السموات ، ودام هنا تامة (إلا ما شاء) في هذا الاستثناء قولان: أحدهما هو منقطع .

والثانى هو متصل .

(108/372)

ثم في " ما " وجهان: أحدهما هي بمعنى " من " والمعنى على هذا أن الأشقياء من الكفار والمؤمنين في النار ، والخارج منهم منها الموحدون ، وفى الآية الثانية يراد بالسعداء الموحدون ، ولكن يدخل منهم النار العصاة ثم يخرجون منها ، فمقتضى أول الآية أن يكون

كل الموحدين في الجنة من أول الامر .

ثم استثنى من هذا العموم العصاة فإنهم لا يدخلونها في أول الأمر .

والوجه الثاني أن " ما " على

بابها ، والمعنى: أن الأشقياء يستحقون النار من حين قيامهم من قبورهم: ولكنهم يؤخرون عن إدخالها مدة الموقف ، والسعداء يستحقون الجنة ويؤخرون عنها مدة الموقف ، وخالدين على هذا حال مقدرة ، وفيها في الموضعين تكرير عند قوم ، إذ الكلام يستقل بدونها .

وقال قوم: فيها يتعلق بخالدين وليست تكريرا ، وفى الأولى يتعلق بمحذوف و (عطاء) اسم مصدر: أي إعطاء ذلك ،

ويجوز أن يكون مفعولا لأن العطاء بمعنى المعطى .

سعدوا بفتح السين وهو الجيد ، وقرئ بضمها وهو ضعيف ، وقد ذكر فيها وجهان:

أحدهما أنه على حذف الزيادة أي أسعدوا ، وأسسه قولهم رجل مسعود .

والثانى أنه مما لازمه ، ومتعديه بلفظ واحد مثل شجا فاه وشجا فوه ، وكذلك سعدوا وسعدته ، وهو غير معروف في اللغة ولا هو مقيس .

قوله تعالى (غير منقوص) حال: أي وافيا .

قوله تعالى (وإن كلا) يقرأ بتشديد النون ونصب كل وهو الأصل ، ويقرأ بالتخفيف

والنصب وهو جيد ، لأن " إن " محمولة على الفعل ، والفعل يعمل بعد الحذف كما يعمل قبل الحذف نحو: لم يكن ولم يك ، وفى خبر " إن " على الوجهين وجهان: أحدهما (ليوفينهم) و " ما " خفيفة زائدة لتكون فاصلة بين لام إن ولام القسم كراهية تواليهما ، كما فصلوا بالألف بين النونات في قولهم: أحسنان عنى .

والثانى أن الخبر " ما " وهى نكرة: أي لخلق أو جمع .

(109/372)

ويقرأ بتشديد الميم مع نصب كل ، وفيها ثلاثة أوجه: أحدها أن الأصل لمن " ما " بكسر الميم الأولى ، وإن شئت بفتحها ، فأبدلت النون ميما وأدغمت ثم حذفت الميم الأولى كراهية التكرير ، وجاز حذف الأولى وإبقاء الساكنة لاتصال اللام بها وهى الخبر على هذين التقديرين .

الوجه الثاني أنه مصدر لم يلم إذا جمع ، لكنه أجرى الوصل مجرى الوقف ، وقد نونه قوم ، وانتصابه على الحال من ضمير المفعول في لنوفينهم وهو ضعيف .

الوجه الثالث أنه شدد ميم " ما " كما يشدد الحرف الموقوف عليه في بعض اللغات ، وهذا في غاية البعد ويقرأ و " إن " بتخفيف النون كل بالرفع وفيه وجهان: أحدهما أنها المخففة

واسمها محذوف ، وكل وخبرها خبر إن ، وعلى هذا تكون " لما " نكرة: أي خلق أو جمع على ما ذكرناه في قراءة النصب .

والثاني أن " إن " بمعنى " ما " و " لما " بمعنى " إلا " أي ما كل إلا ليوفينهم ، وقد قرئ به شاذ شاذا : ومن شدد فهو على ما تقدم ،

ولايجوز أن تكون " لما " بالتشديد حرف جزم ولا حينا لفساد المعنى .

قوله تعالى (ومن تاب) هو في موضع رفع عطفا على الفاعل في استقم ، ويجوز أن يكون نصبا مفعولا معه .

قوله تعالى (ولا تركنوا) يقرأ بفتح الكاف ، وماضيه على هذا ركن بكسرها وهى لغة ، وقيل ماضيه على هذا بفتح الكاف ، ولكنه جاء على فعل يفعل بالفتح فيهما وهو شاذ ، وقيل اللغتان متداخلتان ، وذاك أنه سمع ممن لغته الفتح في الماضي فتحها في المستقبل على لغة غيره فنطق بها على ذلك ، ويقرأ بضم الكاف وماضيه ركن بفتحها (فتمسكم) الجمهور على فتح التاء ، وقرئ بكسرها وهى لغة ، وقيل هي لغة في كل ماعين ماضيه مكسورة ولامه كعينه نحو مس أصله مسست ، وكسر أوله في المستقبل تنبيها على ذلك .

قوله تعالى (طرفي النهار) ظرف لأقم (وزلفا) بفتح اللام جمع زلفة مثل ظلمة وظلم ، ويقرأ بضمها .

وفيه وجهان: أحدهما أنه جمع زلفة أيضا ، وكانت اللام ساكنة مثل بسرة وبسر ، ولكنه أتبع الضم الضم .

(110/372)

والثاني هو جمع زلف وقد نطق به ، ويقرأ بسكون اللام وهو جمع زلفة على الأصل نحو بسرة وبسر ، أو هو مخفف من جمع زليف .

قوله تعالى (أولوا بقية) الجمهور على تشديد الياء وهو الأصل ، وقرئ بتخفيفها وهو مصدر بقي يبقى بقية كلقيته لقية ، فيجوز أن يكون على بابه ، ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى فعيل وهو بمعنى فاعل (في الأرض) حال من الفساد (واتبع) الجمهور على أنها همزة وصل وفتح التاء والباء : أي اتبعوا الشهوات ، وقرئ بضم الهمزة وقطعها وسكون التاء وكسر الباء ، والتقدير : جزاء ما أترفوا .

قوله تعالى (إلا من رحم) هو مستثنى من ضمير الفاعل في يزالون .

وذلك

يعود على الرحمة ، وقيل الاختلاف .

قوله تعالى (وكلا) هو منصوب (ب (نقص) ، و (من أنباء) صفة لكل ، و (ما نثبت) بدل من

كل أو هو رفع بإضمار هو ، ويجوز أن يكون مفعول نقص ويكون كلا حالا من " ما " أو من الهاء على مذهب من أجاز تقديم حال المجرور عليه أو من أنباء على هذا المذهب أيضا ، ويكون كلا بمعنى جميعا (في هذه) قيل في الدنيا وقيل في هذه السورة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 34. 47 ﴾

(111/372)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة هود

[سورة هود (11) : الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3)

(112/372)

"الر" حروف لا محل لها من الإعراب "كِتَابٌ" خبر لمبتدا محذوف تقديره هذا كتاب "أُحْكِمَتْ" ماض مبني للمجهول والتاء للتأنيث ، "آيَاتُهُ" نائب فاعل والهاء مضاف إليه والجملة صفة لكتاب "ثُمَّ" عاطفة "فُصِّلَتْ" معطوفة على أحكمت "مِنْ لَدُنْ" متعلقان بأحكمت "حَكِيمٍ" مضاف إليه "خَبِيرٍ" بدل "أَلَّا" أن الناصبة ولا نافية "تَعْبُدُوا" مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل ، "أَلَّا" أداة حصر "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "إِنَّنِي" إن واسمها والنون للوقاية "لَكُمْ" متعلقان بنذير "مِنْهُ" متعلقان بنذير "نَذِيرٌ" خبر إني "وَبَشِيرٌ" معطوف على نذير والجملة مستأنفة "وَأَنِ" الواو عاطفة وأن معطوفة على أن في قوله تعالى ألا تعبدوا "اسْتَغْفِرُوا" أمر والواو فاعل "رَبَّكُمْ" مفعول به والكاف مضاف إليه "ثُمَّ" عاطفة "تُوبُوا" معطوفة على استغفروا "إِلَيْهِ" متعلقان بتوبوا "يُمَتِّعْكُمْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب والكاف مفعول به والفاعل مستتر "مَتَاعاً" مفعول مطلق "حَسَناً" صفة "إِلَى أَجَلٍ" متعلقان بيمتعكم "مُسَمًّى" صفة لأجل مجرورة بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر "وَيُؤْتِ" الواو عاطفة ومضارع معطوف على يمتعكم وهو مجزوم مثله وعلامة جزمه حذف حرف العلة فاعله مستتر والجملة معطوفة "كُلَّ" مفعول به أول "ذِي" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه من الأسماء الخمسة . "فَضْلٍ" مضاف اليه "فَضْلَهُ" مفعول به ثان والهاء مضاف إليه "وَأَنِ" الواو استئنافية وما بعدها كلام مستأنف وإن شرطية

"تَوَلَّوْا" مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والجملة ابتدائية "فَإِنِّي" الفاء رابطة للجواب وان واسمها والجملة في محل جزم جواب الشرط "أَخافُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "عَلَيْكُمْ" متعلقان بأخاف "عَذابَ" مفعول به "يَوْمٍ" مضاف إليه "كَبِيرٍ" صفة.

[سورة هود (11) : الآيات 4 الى 6]

(113/372)

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4) أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (5) وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (6)

"إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ" الجار والمجرور متعلقان بخبر مقدم ومرجعكم مبتدأ مؤخر والكاف مضاف اليه والجملة مستأنفة "وَهُوَ" الواو حالية هو مبتدأ والجملة حالية "عَلى كُلِّ" متعلقان بالخبر "شَيْءٍ" مضاف إليه "قَدِيرٌ" خبر "أَلا" أداة تنبيه "إِنَّهُمْ" إن واسمها والجملة مستأنفة. "يَثْنُونَ" مضارع مرفوع بثبوت

(114/372)

النون والواو فاعل والجملة خبر "صُدُورَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "لِيَسْتَخْفُوا" اللام لام التعليل ، ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون . والواو فاعل واللام وما بعدها متعلقان بيثنون "مِنْهُ" متعلقان بيثنون "أَلَا" أداة تنبيه "حِينَ" ظرف زمان متعلق بيعلم "يَسْتَغْشُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مضاف إليه "ثِيَابَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف اليه "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر "ما يُسِرُّونَ" ما موصولية مفعول به والجملة مستأنفة "يُسِرُّونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة الموصول "وَما يُعْلِنُونَ" معطوفة على ما قبلها "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة مستأنفة "عَلِيمٌ" خبر "بِذاتِ" متعلقان بعليم "الصُّدُورِ" مضاف إليه "وَما" الواو استئنافية وما نافية "مِنْ" حرف جر زائد "دَابَّةٍ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بالخبر المحذوف "رِزْقُها" مبتدأ مؤخر والهاء مضاف إليه ، والجملة خبر دابة "وَيَعْلَمُ" الواو عاطفة ومضارع وفاعله مستتر والجملة معطوفة "مُسْتَقَرَّها" مفعول به منصوب والهاء مضاف إليه "وَمُسْتَوْدَعَها" معطوفة على مستقرها "كُلٌّ" مبتدأ "فِي كِتابٍ" متعلقان بالخبر المحذوف "مُبِينٍ" صفة لكتاب وجاز الابتداء بالنكرة لأنها تتضمن معنى العموم أي كل ذلك في كتاب .

[سورة هود (11) : الآيات 7 الى 8]

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (7) وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (8)

"وَهُوَ" الواو استئنافية ومبتدأ والجملة مستأنفة "الَّذِي" اسم موصول خبر "خَلَقَ السَّماواتِ" ماض ومفعوله المنصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم والفاعل مستتر "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات "فِي سِتَّةِ" متعلقان بخلق "أَيَّامٍ" مضاف اليه والجملة صلة "وَكانَ عَرْشُهُ" الواو عاطفة وكان واسمها والجملة معطوفة "عَلَى الْماءِ" متعلقان بالخبر المحذوف "لِيَبْلُوَكُمْ" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والكاف مفعوله الأول والفاعل مستتر وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر باللام ومتعلقان بخلق "أَيُّكُمْ" أي مبتدأ والكاف مضاف اليه "أَحْسَنُ" خبر "عَمَلًا" تمييز والجملة في محل نصب مفعول به ليبلوكم "وَلَئِنْ" الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وإن شرطية "قُلْتَ" ماض وفاعله والجملة ابتدائية "إِنَّكُمْ" إن واسمها والجملة مقول القول

"مَبْعُوثُونَ" خبر إن المرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بمبعوثون "الْمَوْتِ" مضاف اليه "لَيَقُولَنَّ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والنون حرف لا محل له والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم محذوف وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب

(116/372)

القسم "الَّذِينَ" اسم موصول فاعل "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِنْ" حرف نفي "هذا" الهاء للتنبيه واسم الإشارة مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "سِحْرٌ" خبر هذا "مُبِينٌ" صفة والجملة مقول القول "وَلَئِنْ" الواو عاطفة وما بعدها معطوفة على ما قبله "أَخَّرْنا" ماض وفاعله "عَنْهُمُ" متعلقان بأخرنا "الْعَذابَ" مفعول به والجملة ابتدائية "إِلى أُمَّةٍ" متعلقان بأخرنا "مَعْدُودَةٍ" صفة "لَيَقُولُنَّ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف ومضارع مرفوع وحذفت النون لكراهة توالي الأمثال وحذفت واو الجماعة التي هي فاعل لالتقاء الساكنين والضمة دليل عليها ولم يبن الفعل على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة لأنه فصل بينها وبين الفعل بواو الجماعة والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه "ما" اسم استفهام مبتدأ "يَحْبِسُهُ" مضارع والهاء مفعوله والفاعل

مستتر والجملة خبر وجملة ما يحبسه مقول القول "أَلا" حرف استفتاح وما بعدها كلام مستأنف "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بمصروفا "يَأْتِيهِمْ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والهاء مفعوله والفاعل مستتر والجملة مضاف اليه "لَيْسَ" ماض ناقص واسمها محذوف "مَصْرُوفاً" خبر ليس "عَنْهُمْ" متعلقان بمصروفا "وَحاقَ" الواو عاطفة وماض "بِهِمْ" متعلقان بحاق "ما" اسم موصول فاعل والجملة معطوفة "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة الموصول لا محل لها "بِهِ" متعلقان بيستهزئون "يَسْتَهْزِؤُنَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كانوا .

[سورة هود (11) : الآيات 9 الى 11]

(117/372)

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11)

"وَلَئِنْ" تقدمت في الآية السابقة "أَذَقْنَا" ماض وفاعله "الْإِنْسانَ" مفعول به "مِنَّا" حال "رَحْمَةً" مفعول به ثان "ثُمَّ" حرف عطف "نَزَعْناها" فعل ماض وفاعله ومفعوله "مِنْهُ"

متعلقان بالفعل "إِنَّهُ" إن واسمها "لَيَؤُسٌ" اللام المزحلقة اتصلت بخبر إن المرفوع "كَفُورٌ" خبر ثان "وَلَئِنْ" كسابقتها "أَذَقْناهُ نَعْماءَ" كسابقتها "بَعْدَ" ظرف زمان "ضَرَّاءَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "مَسَّتْهُ" ماض والتاء للتأنيث والهاء مفعول به والجملة صفة "لَيَقُولَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم والمضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب وحذف جواب الشرط لدلالة القسم عليه "ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي" ماض وفاعله والجار والمجرور متعلقان بالفعل والجملة مقول القول "إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ" إن واسمها وخبراها واللام المزحلقة "إِلَّا" حرف استثناء "الَّذِينَ" مستثنى "صَبَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "أُولئِكَ" مبتدأ "لَهُمْ" خبر مقدم "مَغْفِرَةٌ" مبتدأ مؤخر "وَأَجْرٌ" معطوف على مغفرة "كَبِيرٌ" صفة والجملة الاسمية في محل رفع خبر أولئك.

[سورة هود (11) : الآيات 12 الى 15]

(118/372)

فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (12) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ

سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (13) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ (15)

(119/372)

"فَلَعَلَّكَ" الفاء استئنافية ولعل واسمها "تارِكٌ" خبر والجملة مستأنفة "بَعْضَ" مفعول به لتارك "ما" موصولية مضاف إليه "يُوحى" مضارع مبني للمجهول مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر ونائب الفاعل مستتر والجملة صلة "إِلَيْكَ" متعلقان بيوحى "وَضائِقٌ" معطوف على تارك "بِهِ" متعلقان بضائق "صَدْرُكَ" فاعل لضائق "أَنْ" ناصبة "يَقُولُوا" مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون "لَوْلا" حرف تحضيض "أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ" ماض مبني للمجهول وكنز نائب فاعل والجملة مقول القول والجار والمجرور متعلقان بأنزل "أَوْ" عاطفة "جاءَ" ماض "مَعَهُ" ظرف مكان متعلق بجاء والهاء مضاف إليه "مَلَكٌ" فاعل والجملة معطوفة "إِنَّما" كافة ومكفوفة "أَنْتَ نَذِيرٌ" مبتدأ وخبر "وَاللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "عَلى كُلِّ" متعلقان بوكيل "شَيْءٍ" مضاف إليه "وَكِيلٌ" خبر "أَمْ" عاطفة "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة معطوفة "افْتَراهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة

مقول القول "قُلْ" أمر فاعله مستتر وجملته مستأنفة "فَأْتُوا" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله "بِعَشْرِ" متعلقان بفأتوا "سُوَرٍ" مضاف إليه "مِثْلِهِ" صفه "مُفْتَرَيَاتٍ" صفة "وَادْعُوا" الواو عاطفة وأمر وفاعله والجملة معطوفة "مَنِ اسْتَطَعْتُمْ" من اسم موصول مفعول به وماض وفاعله والجملة صفة "مِنْ دُونِ" متعلقان باستطعتم "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِنْ" شرطية "كُنْتُمْ" كان واسمها "صادِقِينَ" خبر والجملة ابتدائية لا محل لها وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله "فَإِلَّمْ" الفاء عاطفة وإن شرطية "لم" جازمة "يَسْتَجِيبُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة معطوفة "لَكُمْ" متعلقان بيستجيبوا والجملة ابتدائية لا محل لها "فَاعْلَمُوا" الفاء رابطة للجواب وأمر وفاعله والجملة في محل جزم جواب الشرط "أَنَّما" كافة ومكفوفة وسدت مسد مفعولي اعلموا

(120/372)

"أُنْزِلَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "بِعِلْمِ" متعلقان بأنزل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَأَنْ" مخففة من أنّ الثقيلة "لا" نافية للجنس تحل محل أن "إِلهَ" اسمها "إِلَّا" أداة حصر "هُوَ" توكيد للخبر المحذوف والجملة خبر أن "فَهَلْ" الفاء استئنافية وهل حرف استفهام "أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" مبتدأ وخبر الجملة مستأنفة "مَنْ" شرطية "كانَ" ماض ناقص

واسمها محذوف والجملة ابتدائية "يُرِيدُ الْحَياةَ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة خبر كان "الدُّنْيا" صفة "وَزِينَتَها" معطوف على الحياة والهاء مضاف إليه "نُوَفِّ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط بحذف حرف العلة وفاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط لم يقترن بالفاء "إِلَيْهِمْ" متعلقان بنوف وجملتا الشرط في محل رفع خبر من "أَعْمالَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "فِيها" متعلقان بنوف "وَهُمْ" الواو حالية ومبتدأ والجملة حالية "فِيها" متعلقان ببخسون "لا" نافية "يُبْخَسُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر.

[سورة هود (11) : الآيات 16 الى 18]

أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (16) أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (17) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18)

"أُولَئِكَ" اسم اشارة مبتدأ والكاف للخطاب "الَّذِينَ" اسم الموصول خبر والجملة مستأنفة "لَيْسَ" فعل ماض ناقص "لَهُمْ" "فِي الْآخِرَةِ" كلاهما متعلقان بالخبر المحذوف "إِلَّا" أداة حصر "النَّارُ" اسم ليس المؤخر والجملة صلة "وَحَبِطَ ما" الواو عاطفة وماض وما الموصولية فاعله والجملة معطوفة "صَنَعُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَباطِلٌ" الواو عاطفة وخبر مقدم "ما" موصولية مبتدأ والجملة معطوفة "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة "يَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة خبر كان "أَفَمَنْ" الهمزة للاستفهام والفاء استئنافية ومن اسم موصول مبتدأ وخبره محذوف "كانَ" كان واسمها محذوف "عَلى بَيِّنَةٍ" متعلقان بخبر كان المحذوف "مِنْ رَبِّهِ" متعلقان بمحذوف صفة لبينة والهاء مضاف إليه "وَيَتْلُوهُ" الواو عاطفة ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل والهاء مفعوله والجملة معطوفة "شاهِدٌ" فاعل مؤخر "مِنْهُ" متعلقان بشاهد "وَمِنْ قَبْلِهِ" الواو عاطفة ومتعلقان بالخبر المحذوف المقدم والهاء مضاف إليه "كِتابُ" مبتدأ "مُوسى" مضاف إليه والجملة معطوفة "إِماماً" حال "وَرَحْمَةً" معطوف على إماما "أُولَئِكَ" أولاء اسم اشارة مبتدأ والكاف للخطاب والجملة مستأنفة "يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر "بِهِ" متعلقان بيؤمنون "وَمَنْ" الواو عاطفة ومن اسم شرط جازم مبتدأ والجملة معطوفة "يَكْفُرْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وفاعله مستتر "بِهِ" متعلقان بيكفر

"مِنَ الْأَحْزابِ" متعلقان بمحذوف حال "فَالنَّارُ" الفاء رابطة للجواب والنار مبتدأ "مَوْعِدُهُ" خبر والهاء مضاف إليه والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط خبر من "فَلا" الفاء عاطفة ولا ناهية جازمة "تَكُ" مضارع مجزوم بالسكون المقدر على الحرف المحذوف واسمها محذوف "فِي مِرْيَةٍ" متعلقان

(122/372)

بالخبر المحذوف "مِنْهُ" ل خبر والجملة مقول القول "كَذَبُوا" ماض وفاعله "عَلى رَبِّهِمْ" متعلقان بكذبوا والجملة صلة "أَلا" أداة استفتاح وتنبيه "لَعْنَةُ" مبتدأ "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "عَلَى الظَّالِمِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة مقول القول لقول محذوف تقديره يقول اللّه ذلك للكافرين.

[سورة هود (11) : الآيات 19 الى 24]

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (19) أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ (20) أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (21) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (23)
مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ (24)

(123/372)

"الَّذِينَ" اسم موصول مبتدأ "يَصُدُّونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" متعلقان بيصدون ولفظ الجلالة مضاف إليه والجملة مستأنفة والجملة الفعلية خبر "وَيَبْغُونَها" الواو عاطفة ومضارع وفاعله ومفعوله "عِوَجاً" حال والجملة معطوفة "وَهُمْ" الواو عاطفة وهم مبتدأ "بِالْآخِرَةِ" متعلقان بكافرون "هُمْ" ضمير فصل "كافِرُونَ" خبر والجملة معطوفة "أُولئِكَ" أولاء اسم اشارة والكاف للخطاب والجملة مستأنفة "لَمْ" جازمة "يَكُونُوا" مضارع ناقص والواو اسمها "مُعْجِزِينَ" خبر منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمعجزين "وَما" الواو عاطفة وما نافية "كانَ لَهُمْ" كان والجار والمجرور متعلقان بالخبر المقدم "مِنْ دُونِ" متعلقان بالخبر المحذوف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور "مِنْ" حرف جر زائد "أَوْلِياءَ" مجرور لفظا مرفوع محلا اسم كان والجملة معطوفة "يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ" مضارع مبني للمجهول والعذاب نائب فاعل والجار والمجرور متعلقان بيضاعف والجملة مستأنفة "ما" نافية "كانُوا" كان واسمها والجملة

مستأنفة "يَسْتَطِيعُونَ" مضارع والواو فاعل والجملة خبر "السَّمْعَ" مفعول به "وَما كانُوا"

الواو عاطفة وما نافية وكان واسمها والجملة معطوفة "يُبْصِرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون

والواو فاعل والجملة خبر "أُولئِكَ الَّذِينَ"

أولاء اسم إشارة مبتدأ والكاف للخطاب واسم الموصول خبر "خَسِرُوا"

ماض وفاعله والجملة صلة "أَنْفُسَهُمْ"

مفعول به والهاء مضاف إليه "وَضَلَّ"

الواو عاطفة وماض "عَنْهُمْ"

متعلقان بضل "ما"

اسم موصول فاعل والجملة معطوفة "كانُوا"

كان واسمها والجملة صلة "يَفْتَرُونَ"

(124/372)

مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كانوا "لا جَرَمَ" لا نافية وجرم ماض

"أَنَّهُمْ" أن واسمها وهي في تأويل المصدر فاعل لجرم "فِي الْآخِرَةِ" متعلقان بمحذوف حال

"هُمُ" ضمير فصل "الْأَخْسَرُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم "إِنَّ الَّذِينَ" إن واسم

الموصول اسمها والجملة مستأنفة "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "وَأَخْبَتُوا" معطوف على ما قبله وإعرابه مثله "إِلى رَبِّهِمْ" متعلقان بأخبتوا والهاء مضاف إليه "أُولئِكَ" اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ والكاف للخطاب "أَصْحابُ" خبر والجملة خبر إن "الْجَنَّةِ" مضاف إليه "هُمْ" مبتدأ "فِيها" متعلقان بخالدون "خالِدُونَ" خبر هم والجملة مستأنفة "مَثَلُ" مبتدأ "الْفَرِيقَيْنِ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه مثنى "كَالْأَعْمى" متعلقان بالخبر المحذوف "وَالْأَصَمِّ" معطوف على الأعمى "وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ" عطف على ما سبق "هَلْ" حرف استفهام "يَسْتَوِيانِ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "أَفَلا" الهمزة للاستفهام والفاء استئنافية ولا نافية "تَذَكَّرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة مستأنفة.

[سورة هود (11) : الآيات 25 الى 28]

(125/372)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا وَما

نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (27) قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (28)

"وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام واقعة في جواب قسم وقد حرف تحقيق "أَرْسَلْنا نُوحاً" ماض وفاعله ومفعوله وجملة جواب القسم لا محل لها "إِلى قَوْمِهِ" متعلقان بأرسلنا "إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ" إن واسمها وخبرها والجار والمجرور متعلقان بنذير "مُبِينٌ" صفة لنذير والجملة مقول القول تقديره قال إني وجملة قال إلخ مستأنفة "إِلَّا" أن ناصبة ولا ناهية "تَعْبُدُوا" مضارع منصوب بحذف النون والواو فاعل "إِلَّا"

(126/372)

أداة حصر "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "إِنِّي" إن واسمها والجملة مستأنفة "أَخافُ" مضارع فاعله مستتر "عَلَيْكُمْ" متعلقان بأخاف والجملة خبر إني "عَذابَ" مفعول به "يَوْمٍ" مضاف إليه "أَلِيمٍ" صفة "فَقالَ الْمَلَأُ" الفاء استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "الَّذِينَ" اسم موصول صفة للملأ "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْ قَوْمِهِ" متعلقان بمحذوف حال "ما نَراكَ" ما نافية ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والكاف مفعول به

أول والفاعل مستتر والجملة مقول القول "إِلَّا" أداة حصر "بَشَراً" مفعول به ثان "مِثْلَنا" صفة ونا مضاف إليه والجملة مقول القول "وَما نَراكَ" الواو عاطفة وما نافية "نَراكَ" مضارع والكاف مفعوله وفاعله مستتر والجملة معطوفة "اتَّبَعَكَ" ماض والكاف مفعوله المقدم والجملة في محل نصب مفعول به ثان "إِلَّا" أداة حصر "الَّذِينَ" اسم موصول فاعل اتبعك "هُمْ أَراذِلُنا" مبتدأ وخبر ونا مضاف إليه والجملة صلة "بادِيَ" ظرف زمان متعلق باتبعك "الرَّأْيِ" مضاف إليه "وَما" الواو عاطفة وما نافية "نَرى" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر وفاعله مستتر والجملة معطوفة "لَكُمْ" متعلقان بنرى "مِنْ" حرف جر زائد "فَضْلٍ" مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به "بَلْ" حرف إضراب وعطف "نَظُنُّكُمْ" مضارع وفاعله مستتر والكاف مفعول به أول والجملة معطوفة "كاذِبِينَ" مفعوله الثاني منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "قالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "يا" أداة نداء "قَوْمِ" منادى مضاف منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة "أَرَأَيْتُمْ" الهمزة للاستفهام وماض وفاعله والجملة مقول القول "إِنْ" شرطية "كُنْتُ" كان واسمها والجملة ابتدائية "عَلى بَيِّنَةٍ" متعلقان بالخبر المحذوف "مِنْ رَبِّي" متعلقان ببينة "وَآتانِي" الواو

عاطفة وماض ومفعوله الأول وفاعله مستتر "رَحْمَةً" مفعول به ثان "مِنْ عِنْدِهِ" متعلقان بصفة لرحمة والهاء مضاف إليه "فَعُمِّيَتْ" الفاء عاطفة وماض مبني للمجهول والتاء للتأنيث ونائب الفاعل مستتر "عَلَيْكُمْ" متعلقان بعميت والجملة معطوفة "أَنُلْزِمُكُمُوها" الهمزة للاستفهام ومضارع والكاف والهاء مفعولاه والواو حرف للاشباع وفاعله مستتر "وَأَنْتُمْ" الواو حالية وأنتم مبتدأ "لَها" متعلقان بكارهون "كارِهُونَ" خبر والجملة حالية.

[سورة هود (11) : الآيات 29 الى 30]

وَيا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (29) وَيا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (30)

"وَيا قَوْمِ" الواو عاطفة ويا أداة نداء وقوم منادى مضاف منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة "لا" نافية "أَسْئَلُكُمْ" مضارع ومفعوله الأول وفاعله مستتر "عَلَيْهِ" متعلقان بحال محذوفة "مالاً" مفعول به ثان "إِنْ" حرف نفي "أَجرِيَ" مبتدأ مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها الحركة المناسبة والياء مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "عَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بعلى

متعلقان بالخبر المحذوف والجملة تعليل لا محل لها "وَما" الواو عاطفة وما تعمل عمل ليس "أَنَا" اسم ما "بِطارِدِ" الباء حرف جر زائد وطارد خبر مجرور لفظا منصوب محلا والجملة معطوفة "الَّذِينَ" اسم موصول مضاف إليه "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِنَّهُمْ مُلاقُوا" إن واسمها وخبرها المرفوع بالواو "رَبِّهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَلَكِنِّي" الواو عاطفة ولكن واسمها والجملة معطوفة "أَراكُمْ" ماض ومفعوله الأول وفاعله مستتر "قَوْماً" مفعول به والجملة خبر "تَجْهَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صفة لقوما "وَيا" الواو عاطفة ويا أداة نداء "قَوْمِ" منادى مضاف منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة منع من ظهورها الحركة المناسبة والجملة معطوفة "مَنْ" اسم استفهام مبتدأ "يَنْصُرُنِي" مضارع مرفوع والنون للوقاية والياء مفعول به والفاعل مستتر "مِنَ اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بمن متعلقان بينصرني والجملة خبر "إِنْ" شرطية "طَرَدْتُهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة ابتدائية "أَفَلا" الهمزة للاستفهام والفاء استئنافية ولا نافية "تَذَكَّرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله.

[سورة هود (11) : الآيات 31 الى 33]

وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31) قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33)

(129/372)

"وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "أَقُولُ" مضارع فاعله مستتر "لَكُمْ" متعلقان بأقول "عِنْدِي" ظرف مكان متعلق بالخبر المقدم والياء مضاف إليه "خَزائِنُ" مبتدأ "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة مقول القول "وَلا أَعْلَمُ" معطوف على ولا أقول وإعرابه مثله "الْغَيْبَ" مفعول به "وَلا أَقُولُ" معطوف على ما قبله "إِنِّي مَلَكٌ" إن واسمها وخبرها والجملة مقول القول "وَلا أَقُولُ" معطوف على ما سبق "لِلَّذِينَ" متعلقان بأقول "تَزْدَرِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل "أَعْيُنُكُمْ" فاعل مرفوع والكاف مضاف إليه والجملة صلة "لَنْ" حرف ناصب "يُؤْتِيَهُمُ" مضارع منصوب والهاء مفعوله الأول المقدم "اللَّهِ" لفظ الجلالة فاعل "خَيْراً" مفعول به ثان والجملة مقول القول "اللَّهُ أَعْلَمُ" لفظ الجلالة مبتدأ وأعلم خبر

"بِما" ما موصولية ومتعلقان بأعلم "فِي أَنْفُسِهِمْ" متعلقان بصلة الموصول المحذوفة "إِنِّي" إن واسمها والجملة تعليل لا محل لها "إِذاً" حرف جواب "لَمِنَ الظَّالِمِينَ" اللام المزحلقة والجار والمجرور متعلقان بالخبر المحذوف "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "يا نُوحُ" يا أداة نداء ونوح منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب والجملة مقول القول "قَدْ" حرف تحقيق "جادَلْتَنا" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول "فَأَكْثَرْتَ" الفاء عاطفة وماض وفاعله "جِدالَنا" مفعول به "فَأْتِنا" الفاء عاطفة وأمر ومفعوله وفاعله مستتر والجملة معطوفة

(130/372)

"بِما" ما موصولية ومتعلقان بأتنا "تَعِدُنا" مضارع مرفوع ونا مفعوله وفاعله مستتر والجملة صلة "إِنْ" شرطية "كُنْتَ" كان واسمها والجملة ابتدائية "مِنَ الصَّادِقِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله "قالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنَّما" كافة ومكفوفة "يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ" مضارع ومفعوله المقدم ولفظ الجلالة فاعله المؤخر والجار والمجرور متعلقان بيأتيكم والجملة مقول القول "إِنْ" شرطية "شاءَ" فعل الشرط ماض وفاعله مستتر والجملة ابتدائية وجواب الشرط محذوف "وَما" الواو حالية

وما نافية للجنس تعمل عمل ليس "أَنْتُمْ" اسم ما في محل رفع اسم ما "بِمُعْجِزِينَ" الباء زائدة "معجزين" خبر مجرور لفظا منصوب محلا والجملة حالية.

[سورة هود (11) : الآيات 34 الى 37]

وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35) وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37)

(131/372)

"وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي" مضارع ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والياء مضاف إليه والجملة معطوفة "إِنْ" شرطية "أَرَدْتُ" ماض وفاعله والجملة ابتدائية "أَنْ أَنْصَحَ" أن ناصبة ومضارع منصوب وفاعله مستتر "لَكُمْ" متعلقان بأنصح والجملة في محل نصب مفعول به "إِنْ" شرطية "كانَ اللَّهُ" كان ولفظ الجلالة اسمها والجملة ابتدائية "يُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر كان "إِنْ" ناصبة "يُغْوِيَكُمْ" مضارع منصوب ومفعوله وفاعله مستتر والجملة مفعول به ليريد "هُوَ رَبُّكُمْ" مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة "وَإِلَيْهِ"

متعلقان بترجعون "تُرْجَعُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة معطوفة "أَمْ" عاطفة "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "افْتَراهُ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة مقول القول "قُلْ" أمر وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنِ" شرطية "افْتَرَيْتُهُ" ماض وفاعله ومفعوله وهو فعل الشرط وجملته ابتدائية "فَعَلَيَّ" الفاء رابطة للجواب ومتعلقان بالخبر المقدم "إِجْرامِي" مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة والياء مضاف إليه والجملة في محل جزم جواب الشرط "وَأَنَا" الواو عاطفة وأنا مبتدأ "بَرِيءٌ" خبر والجملة معطوفة "مِمَّا" مؤلفة من حرف الجر وما الموصولية ومتعلقان بتجرمون "تُجْرِمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "وَأُوحِيَ" الواو عاطفة وماض مبني للمجهول والجملة معطوفة "إِلى نُوحٍ" متعلقان بأوحي "أَنَّهُ" أن واسمها والجملة في محل رفع نائب فاعل لأوحي "لَنْ يُؤْمِنَ" لن حرف ناصب ومضارع منصوب والجملة خبر أن "مِنْ قَوْمِكَ" متعلقان بيؤمن والكاف مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "مِنْ" اسم موصول

فاعل يؤمن والجملة خبر أنه "قَدْ" حرف تحقيق "آمَنَ" ماض وفاعله مستتر والجملة صلة "فَلا" الفاء الفصيحة ولا ناهية "تَبْتَئِسْ"

مضارع مجزوم وفاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "بِما" موصولية ومتعلقان بتبتئس "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة "يَفْعَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة خبر "وَاصْنَعِ الْفُلْكَ" الواو عاطفة وأمر ومفعوله وفاعله مستتر والجملة معطوفة "بِأَعْيُنِنا" متعلقان بمحذوف حال "وَوَحْيِنا" معطوف على أعيننا "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تُخاطِبْنِي" مضارع مجزوم والنون للوقاية والياء مفعول به وفاعله مستتر والجملة معطوفة "فِي الَّذِينَ" اسم الموصول مجرور بفي ومتعلقان بتخاطبني "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ" إن واسمها وخبرها والجملة تعليل لا محل لها .

[سورة هود (11) : الآيات 38 الى 40]

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (39) حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40)

"وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ" الواو استئنافية ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة استئنافية "وَكُلَّما" الواو حالية وكلما ظرف زمان يتضمن معنى الشرط متعلق بسخروا "مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ" ماض وفاعله والجار والمجرور متعلقان بمر والجملة مضاف إليه "سَخِرُوا" ماض وفاعله "مِنْهُ" متعلقان بسخروا والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "قالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنْ تَسْخَرُوا" إن شرطية ومضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والجملة ابتدائية "مِنَّا" متعلقان بتسخروا "فَإِنَّا" الفاء رابطة للجواب وإن واسمها والجملة في محل جزم جواب الشرط "نَسْخَرُ" مضارع وفاعله مستتر والجملة خبر إنا "مِنْكُمْ" متعلقان بنسخر "كَما" الكاف حرف جر وما موصولية في محل جر ومتعلقان بنسخر "تَسْخَرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "فَسَوْفَ" الفاء استئنافية سوف للاستقبال "تَعْلَمُونَ" مضارع والواو فاعل "مَنْ" موصولية مفعول به "يَأْتِيهِ عَذابٌ" مضارع ومفعوله وفاعله والجملة صلة "يُخْزِيهِ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة صفة لعذاب "وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ" مضارع وفاعله والجار والمجرور متعلقان بيحل "مُقِيمٌ" صفة "حَتَّى" حرف غاية وجر "إِذا" ظرف يتضمن معنى الشرط متعلق بقلنا "جاءَ أَمْرُنا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "وَفارَ التَّنُّورُ" معطوفة على ما قبلها "قُلْنَا" ماض وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "احْمِلْ" أمر وفاعله مستتر

والجملة مقول القول "فِيها" متعلقان باحمل "مِنْ كُلٍّ" متعلقان بمحذوف حال "زَوْجَيْنِ" مفعول به منصوب بالياء لأنه مثنى "اثْنَيْنِ" توكيد مجرور بالياء لأنه مثنى "وَأَهْلَكَ" معطوف على زوجين والكاف مضاف إليه "إِلَّا" أداة استثناء "مِنْ" اسم موصول مستثنى بإلا في محل نصب "سَبَقَ عَلَيْهِ

(134/372)

الْقَوْلُ" ماض وفاعله والجار والمجرور متعلقان بسبق والجملة صلة "وَمَنْ" اسم موصول معطوف على أهلك "آمَنَ" ماض وفاعله مستتر والجملة صلة "وَما" الواو استئنافية وما نافية "آمَنَ مَعَهُ" ماض فاعله مستتر والظرف متعلق به والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "إِلَّا" أداة حصر "قَلِيلٌ" فاعل.

[سورة هود (11) : الآيات 41 الى 43]

وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ وَكانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (42) قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43)

"وَقالَ" الواو استئنافية وماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "ارْكَبُوا" أمر وفاعله والجملة مقول القول "فِيها" متعلقان باركبوا "بِسْمِ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "مَجْراها" مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة مقول القول "وَمُرْساها" معطوف على مجراها "إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ" إن واسمها وخبراها والياء مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَهِيَ" الواو واو الحال وهي مبتدأ "تَجْرِي" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "بِهِمْ" متعلقان بتجري "فِي مَوْجٍ" متعلقان بتجري "كَالْجِبالِ" متعلقان بمحذوف صفة لموج "وَنادى" ماض "نُوحٌ" فاعل "ابْنَهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه "وَكانَ" الواو حالية وكان اسمها محذوف "فِي مَعْزِلٍ" متعلقان بمحذوف خبر والجملة حالية "يا" أداة نداء "بُنَيَّ" منادى وحذفت ياء المتكلم للتخفيف والجملة مقول القول "ارْكَبْ" أمر فاعله مستتر "مَعَنا" ظرف مكان متعلق باركب ونا مضاف إليه "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَكُنْ" مضارع ناقص مجزوم واسمها محذوف "مَعَ" ظرف مكان متعلق بالخبر المحذوف "الْكافِرِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة معطوفة "قالَ" ماض والجملة مستأنفة "سَآوِي" السين للاستقبال ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة

على الياء للثقل وفاعله مستتر والجملة مقول القول "إِلى جَبَلٍ" متعلقان بسآوي "يَعْصِمُنِي" مضارع مرفوع والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة صفة لجبل "مِنَ الْماءِ" متعلقان بيعصمني "قالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "لا" نافية للجنس تعمل عمل إن "عاصِمَ" اسمها "الْيَوْمَ" ظرف زمان متعلق بالخبر المحذوف "مِنْ أَمْرِ" متعلقان بالخبر المحذوف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِلَّا" أداة استثناء "مَنْ" اسم موصول في محل نصب على الاستثناء "رَحِمَ" ماض وفاعله مستتر و

(136/372)

الجملة صلة "وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ" الواو عاطفة وماض وفاعله وبينهما ظرف مكان متعلق بحال والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ" الفاء استئنافية وكان اسمها محذوف والجار والمجرور متعلقان بالخبر المحذوف والجملة مستأنفة.

[سورة هود (11) : الآيات 44 الى 46]

وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ (45) قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ

صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (46)

"وَقِيلَ" الواو عاطفة وماض مبني للمجهول والجملة معطوفة "يا" أداة نداء "أَرْضُ" منادى نكرة مقصود مبني على الضم في محل نصب على النداء والجملة مقول القول "ابْلَعِي" أمر مبني على حذف النون والياء فاعل "ماءَكِ" مفعول به والكاف مضاف إليه وجملتا النداء والأمر في محل رفع نائب فاعل "وَيا سَماءُ" معطوف على يا أرض "أَقْلِعِي" أمر وفاعله "وَغِيضَ الْماءُ" الواو عاطفة وماض مبني للمجهول ونائب فاعله والجملة معطوفة "وَقُضِيَ الْأَمْرُ" الواو عاطفة وماض مبني للمجهول ونائب فاعله والجملة معطوفة .

[سورة هود (11) : الآيات 47 الى 49]

(137/372)

قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ (47) قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة منصوب بالفتحة المقدرة على

(138/372)

ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف والجملة مقول القول "إنِّي" إن واسمها والجملة مقول القول "أَعُوذُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر إني "بِكَ" متعلقان بأعوذ "أَنْ" ناصبة "أَسْئَلَكَ" مضارع منصوب والكاف مفعوله الأول وفاعله مستتر وأن وما بعدها منصوب بنزع الخافض "ما" موصولية مفعول به ثان "لَيْسَ" فعل ماض ناقص "لِي" متعلقان بالخبر المقدم "بِهِ" متعلقان بعلم "عِلْمٌ" اسم ليس والجملة صلة "وَإِلَّا" الواو استئنافية وإن شرطية والجملة استئنافية "لا" نافية "تَغْفِرْ" مضارع مجزوم وهو فعل الشرط وفاعله مستتر والجملة ابتدائية "لِي" متعلقان بتغفر "وَتَرْحَمْنِي" معطوف على ما قبله والنون للوقاية والياء مفعول به "أَكُنْ" مضارع ناقص مجزوم لأنه جواب الشرط وجملته لا محل لها لأنها لم تقترن بالفاء واسمها محذوف "مِنَ الْخاسِرِينَ" متعلقان بالخبر "قِيلَ" ماض مبني للمجهول والجملة مستأنفة "يا" أداة نداء "نُوحُ" منادى مبني على الضم في محل نصب على النداء وجملته مقول القول "اهْبِطْ" أمر وفاعله مستتر والجملة مقول القول "بِسَلامٍ" متعلقان بحال محذوفة "مِنَّا"

متعلقان بسلام "وَبَرَكَاتٍ" معطوف على سلام "عَلَيْكَ" متعلقان ببركات "وَعَلى أُمَمٍ" معطوف على ما قبله "مِمَّنْ" من حرف جر ومن موصولية متعلقان بمحذوف صفة لأمم "مَعَكَ" ظرف مكان متعلق بصلة محذوفة والكاف مضاف إليه "وَأُمَمٌ" الواو استئنافية وأمم مبتدأ والجملة استئنافية "سَنُمَتِّعُهُمْ" السين للاستقبال ومضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة خبر "ثُمَّ يَمَسُّهُمْ" معطوف على ما قبله "مِنَّا" متعلقان بيمسهم "عَذابٌ" فاعل "أَلِيمٌ" صفة "تِلْكَ" اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "مِنْ أَنْباءِ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة مستأنفة "الْغَيْبِ" مضاف إليه "نُوحِيها" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة حالية "إِلَيْكَ" متعلقان بنوحيها "ما كُنْتَ" ما

(139/372)

نافية وكان واسمها والجملة مستأنفة "تَعْلَمُها" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر "أَنْتَ" توكيد "وَلا قَوْمُكَ" الواو عاطفة ولا زائدة وقومك معطوف على فاعل تعلمها "مِنْ قَبْلِ" متعلقان بمحذوف حال "هذا" الهاء للتنبيه وذا اسم إشارة ومضاف إليه "فَاصْبِرْ" الفاء استئنافية وأمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنَّ الْعاقِبَةَ" إن واسمها "لِلْمُتَّقِينَ" متعلقان بالخبر والجملة تعليل لا محل لها .

[سورة هود (11) : الآيات 50 الى 52]

وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (50) يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (51) وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52)

"وَإِلى عادٍ" الواو عاطفة ومتعلقان بفعل محذوف تقديره أرسلنا "أَخاهُمْ" مفعول به للفعل المحذوف ، منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة والهاء مضاف إليه "هُوداً" بدل من أخاهم "قالَ" ماض

(140/372)

و فاعله مستتر والجملة مستأنفة "يا" أداة نداء "قَوْمِ" منادى مضاف منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف "اعْبُدُوا" أمر وفاعله "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به وجملتا النداء وما بعدها مقول القول "ما" نافية "لَكُمْ" متعلقان بالخبر المقدم المحذوف "مِنْ" حرف جر زائد "إِلهٍ" مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ "غَيْرُهُ" صفة على المحل "إِنْ" نافية "أَنْتُمْ" مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "مُفْتَرُونَ" خبر والجملة مقول القول "يا قَوْمِ" سبق

إعرابها قريبا "لا" نافية "أَسْئَلُكُمْ" مضارع ومفعوله الأول وفاعله مستتر "عَلَيْهِ" متعلقان بأسألكم "أَجْراً" مفعول به ثان "إِنْ" حرف نفي "أَجْرِيَ" مبتدأ والياء مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "عَلَى الَّذِي" متعلقان بالخبر المحذوف "فَطَرَنِي" ماض والنون للوقاية والياء مفعول به والفاعل مستتر والجملة صلة لا محل لها "أَفَلا" الهمزة للاستفهام ولا نافية والفاء عاطفة "تَعْقِلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "وَيا قَوْمِ" معطوف على ما سبق وإعرابه مثله "اسْتَغْفِرُوا" أمر وفاعله والجملة مستأنفة "رَبَّكُمْ" مفعول به والكاف مضاف إليه "ثُمَّ تُوبُوا" معطوف على استغفروا "إِلَيْهِ" متعلقان بتوبوا "يُرْسِلِ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وفاعله مستتر "السَّماءَ" مفعول به "عَلَيْكُمْ" متعلقان بيرسل "مِدْراراً" حال "وَيَزِدْكُمْ" معطوف على يرسل والكاف مفعول به أول "قُوَّةً" مفعول به ثان والفاعل مستتر "إِلى قُوَّتِكُمْ" متعلقان بصفة محذوفة "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَتَوَلَّوْا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل "مُجْرِمِينَ" حال منصوبة بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة معطوفة.

[سورة هود (11) : الآيات 53 الى 55]

قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ (55)

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "يا" أداة نداء "هُودُ" منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب على النداء "ما" نافية "جِئْتَنا" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول "بِبَيِّنَةٍ" متعلقان بجئتنا "وَما" الواو عاطفة وما نافية تعمل عمل ليس "نَحْنُ" اسمها "بِتارِكِي" الباء حرف جر زائد وتاركي اسم مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما "آلِهَتِنا" مضاف إليه ونا مضاف إليه "عَنْ قَوْلِكَ" متعلقان بتاركي "وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ" إعرابها كإعراب سابقتها "إِنْ" حرف نفي "نَقُولُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِلَّا" أداة حصر "اعْتَراكَ" ماض ومفعوله المقدم "بَعْضُ" فاعل مؤخر "آلِهَتِنا" مضاف إليه ونا مضاف إليه والجملة مقول القول "بِسُوءٍ" متعلقان باعتراك "قالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنِّي" إن واسمها والجملة مقول القول "أُشْهِدُ اللَّهَ" ماض مبني للمجهول ولفظ الجلالة مفعول به والجملة خبر إني ونائب الفاعل مستتر "وَاشْهَدُوا" الواو عاطفة وأمر وفاعله والجملة

معطوفة "أَنِّي بَرِيءٌ" أن واسمها وخبرها في تأويل مصدر والجملة في محل نصب مفعول به لا شهدوا "مِمَّا" من حرف جر وما الموصولية متعلقان ببريء "تُشْرِكُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بمحذوف حال والهاء مضاف إليه "فَكِيدُونِي" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعل والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "جَمِيعاً" حال "ثُمَّ" عاطفة "لا" ناهية "تُنْظِرُونِ" مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعل والنون للوقاية والياء المحذوفة للتخفيف مفعول به والجملة معطوفة.

[سورة هود (11) : الآيات 56 الى 57]

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (56) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57)

"إِنِّي" إن واسمها والجملة مستأنفة "تَوَكَّلْتُ" ماض وفاعله والجملة خبر "عَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بعلى متعلقان بتوكلت "رَبِّي" بدل والياء مضاف إليه "وَرَبِّكُمْ" معطوف على ما قبله "ما" نافية "مِنْ دَابَّةٍ" من حرف جر زائد ودابة مبتدأ مجرور لفظا مرفوع محلا "إِلَّا" أداة حصر "هُوَ آخِذٌ" مبتدأ وخبر والجملة خبر دابة "بِناصِيَتِها" متعلقان بآخذ والها مضاف إليه "إِنَّ رَبِّي" إن واسمها والياء مضاف إليه والجملة مستأنفة "عَلى صِراطٍ" متعلقان بالخبر المحذوف "مُسْتَقِيمٍ" صفة "فَإِنْ" الفاء استئنافية وإن شرطية "تَوَلَّوْا" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والجملة ابتدائية وجملة إن إلخ استئنافية "فَقَدْ" الفاء رابطة للجواب وقد حرف تحقيق "أَبْلَغْتُكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة في محل جزم جواب الشرط "ما" اسم موصول مفعول به ثان "أُرْسِلْتُ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب الفاعل "بِهِ" متعلقان بأرسلت والجملة صلة "إِلَيْكُمْ" متعلقان بحال محذوفة "وَيَسْتَخْلِفُ" الواو استئنافية ومضارع مرفوع والجملة مستأنفة "رَبِّي" فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها الحركة المناسبة والياء مضاف إليه "قَوْماً" مفعول به "غَيْرَكُمْ" صفة والكاف مضاف إليه "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "تَضُرُّونَهُ" مضارع مرفوع والواو فاعل والهاء مفعول به أول والجملة معطوفة "شَيْئاً" مفعول به ثان "إِنَّ رَبِّي" إن واسمها والياء مضاف إليه "عَلى كُلِّ" متعلقان

بحفيظ "شَيْءٍ" مضاف إليه "حَفِيظٌ" خبر والجملة تعليل .

[سورة هود (11) : الآيات 58 الى 60]

(144/372)

وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (58) وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (60)

(145/372)

"وَلَمَّا" الواو استئنافية ولما الحينية ظرف زمان وهي أداة شرط غير جازمة "جاءَ أَمْرُنا" ماض وفاعله ونا مضاف إليه والجملة في محل جر مضاف إليه "نَجَّيْنا هُوداً" ماض وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "وَالَّذِينَ" اسم موصول معطوف على هودا "آمَنُوا" ماض وفاعله "مَعَهُ" متعلقان بآمنوا والجملة صلة "بِرَحْمَةٍ" متعلقان بنجينا "مِنَّا" متعلقان بصفة محذوفة لرحمة "وَنَجَّيْناهُمْ" الواو عاطفة وماض وفاعله

ومفعوله والجملة معطوفة "مِنْ عَذابٍ" متعلقان بنجيناهم "غَلِيظٍ" صفة "وَتِلْكَ عادٌ" الواو استئنافية وتلك اسم اشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب وعاد خبر والجملة مستأنفة "جَحَدُوا" ماض وفاعله والجملة صفة لعاد أو حال "بِآياتِ" متعلقان بجحدوا "رَبِّهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "وَعَصَوْا رُسُلَهُ" الواو عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "وَاتَّبَعُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "أَمْرَ" مفعول به "كُلِّ" مضاف إليه "جَبَّارٍ" مضاف إليه "عَنِيدٍ" صفة "وَأُتْبِعُوا" الواو عاطفة وماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة معطوفة "فِي هذِهِ" الها للتنبيه واسم الإشارة مجرور بفي ومتعلقان بأتبعوا "الدُّنْيا" بدل من اسم الاشارة مجرور بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر "لَعْنَةً" مفعول به "وَيَوْمَ" ظرف زمان متعلق بفعل أتبعوا المحذوف "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "أَلا" حرف تنبيه "إِنَّ عاداً" إن واسمها والجملة مستأنفة "كَفَرُوا رَبَّهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والهاء مضاف إليه والجملة خبر إن "أَلا" حرف تنبيه واستفتاح "بُعْداً" مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره بعدوا بعدا "لِعادٍ" متعلقان ببعدا "قَوْمِ" بدل من عاد "هُودٍ" مضاف إليه.

[سورة هود (11) : الآيات 61 الى 62]

وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (61) قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (62)

"وَإِلى ثَمُودَ" الواو عاطفة ومتعلقان بفعل محذوف تقديره أرسلنا والجملة معطوفة "أَخاهُمْ" مفعول به للفعل المحذوف والهاء مضاف إليه "صالِحاً" بدل من أخاهم "قالَ" ماض وفاعله محذوف والجملة مستأنفة "يا قَوْمِ" يا أداة نداء قوم منادى منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف "اعْبُدُوا" أمر والواو فاعل والجملة وما قبلها مقول القول "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "ما لَكُمْ" ما نافية لكم متعلقان بخبر محذوف "مِنْ" حرف جر زائد "إِلهٍ" مبتدأ والجملة مستأنفة "غَيْرُهُ" صفة لإله على المحل والهاء مضاف إليه "هُوَ" مبتدأ "أَنْشَأَكُمْ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة خبر هو "مِنَ الْأَرْضِ" متعلقان بأنشأكم "وَاسْتَعْمَرَكُمْ" معطوف على أنشأكم "فِيها" متعلقان باستعمركم "فَاسْتَغْفِرُوهُ" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم "ثُمَّ تُوبُوا" معطوف على ما قبله "إِلَيْهِ" متعلقان بتوبوا "إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ" إن

واسمها والياء مضاف إليه وقريب ومجيب خبراها والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة

(147/372)

"يا" أداة نداء "صالِحُ" منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب "قَدْ" حرف تحقيق "كُنْتَ" كان واسمها "فِينا" متعلقان بمرجوا "مَرْجُوًّا" خبر والجملة وما قبلها مقول القول "قَبْلَ" ظرف زمان متعلق بمرجوا "هذا" الها لتنبيه وذا اسم إشارة في محل جر مضاف إليه "أَتَنْهانا" الهمزة للاستفهام ومضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَنْ" حرف ناصب "نَعْبُدَ" مضارع منصوب فاعله مستتر وأن وما بعدها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض "ما" اسم موصول مفعول به "يَعْبُدُ" مضارع مرفوع "آباؤُنا" فاعل ونا مضاف إليه والجملة صلة "وَإِنَّنا" الواو استئنافية وإن واسمها "لَفِي شَكٍّ" اللام لام المزحلقة ومتعلقان بخبر محذوف والجملة مستأنفة "مِمَّا" من حرف جر وما اسم موصول متعلقان بشك "تَدْعُونا" مضارع ومفعوله والجملة صلة الموصول "إِلَيْهِ" متعلقان بتدعونا "مُرِيبٍ" صفة لشك.

[سورة هود (11) : الآيات 63 الى 64]

قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (63) وَيا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ (64)

(148/372)

"قالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "يا" أداة نداء "قَوْمِ" منادى منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة "أَرَأَيْتُمْ" الهمزة للاستفهام وماض وفاعله والجملة وما قبلها مقول القول "إِنْ" شرطية "كُنْتُ" كان واسمها والجملة ابتدائية "عَلى بَيِّنَةٍ" متعلقان بالخبر المحذوف "مِنْ رَبِّي" متعلقان بمحذوف صفة لبينة والياء مضاف إليه "وَآتانِي" الواو عاطفة وماض والنون للوقاية والياء مفعوله الأول وفاعله مستتر والجملة معطوفة "مِنْهُ" متعلقان بآتاني "رَحْمَةً" مفعول به ثان "فَمَنْ" الفاء رابطة للجواب ومن اسم استفهام مبتدأ والجملة في محل جزم جواب الشرط "يَنْصُرُنِي" مضارع مرفوع والنون للوقاية والياء في محل نصب مفعول به والفاعل مستتر والجملة خبر من "مِنَ اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بمن متعلقان بينصرني "إِنْ" شرطية "عَصَيْتُهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة ابتدائية وجوابه محذوف دل عليه ما قبله "فَما" الفاء استئنافية وما نافية "تَزِيدُونَنِي" مضارع

مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والنون للوقاية والياء مفعوله والجملة مستأنفة "غَيْرَ" مفعول به ثان "تَخْسِيرٍ" مضاف إليه "وَيا قَوْمِ" سبق إعرابها "هذِهِ" اسم إشارة مبتدأ "ناقَةُ" خبر "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "لَكُمْ" متعلقان بحال محذوفة "آيَةً" حال "فَذَرُوها" الفاء عاطفة وأمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "تَأْكُلْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب "فِي أَرْضِ" متعلقان بتأكل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَمَسُّوها" مضارع مجزوم بحذف النون وفاعله ومفعوله "بِسُوءٍ" متعلقان بتمسوها والجملة معطوفة "فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ" الفاء السببية ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية والكاف مفعوله المقدم وعذاب فاعله المؤخر "قَرِيبٌ" صفة لعذاب.

[سورة هود (11) : الآيات 65 الى 67]

فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65) فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (67)

"فَعَقَرُوها" الفاء استئنافية وماض وفاعله ومفعوله والجملة استئنافية "فَقالَ" الفاء عاطفة وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "تَمَتَّعُوا" أمر وفاعله والجملة مقول القول "فِي دارِكُمْ" متعلقان بتمتعوا والكاف مضاف إليه "ثَلاثَةَ" ظرف زمان متعلق بتمتعوا "أَيَّامٍ" مضاف إليه والجملة مقول القول "ذِلكَ" اسم اشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "وَعْدٌ" خبر "غَيْرُ" صفة لوعد "مَكْذُوبٍ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "فَلَمَّا" الفاء حرف عطف ولما الحينية ظرف زمان متعلق بجاء "جاءَ أَمْرُنا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "نَجَّيْنا صالِحاً" ماض وفاعله ومفعوله والجملة جواب لما لا محل لها من الإعراب "وَالَّذِينَ" اسم الموصول معطوف على صالحا "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مَعَهُ" ظرف مكان متعلق بآمنوا والهاء مضاف إليه "بِرَحْمَةٍ" متعلقان بمحذوف حال "مِنَّا" متعلقان بصفة محذوفة لرحمة "وَمِنْ خِزْيِ" معطوف على ما سبق ومتعلقان بفعل محذوف تقديره نجيناكم من خزي "يَوْمِئِذٍ" يوم مضاف إليه وإذ ظرف يتضمن معنى الشرط مضاف إليه "إِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها والكاف مضاف إليه والجملة استئنافية "هُوَ" ضمير فصل "الْقَوِيُّ" خبر إن الأول "الْعَزِيزُ" خبر ثان "وَأَخَذَ" الواو استئنافية وماض والجملة استئنافية "الَّذِينَ" اسم موصول مفعول به مقدم "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "الصَّيْحَةُ" فاعل مؤخر "فَأَصْبَحُوا" الفاء عاطفة وأصبح واسمها "فِي دِيارِهِمْ" متعلقان بجاثمين والهاء مضاف

إليه "جاثِمِينَ" خبر أصبحوا منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة معطوفة.

[سورة هود (11) : الآيات 68 الى 70]

(151/372)

كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ (68) وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ (70)

"كَأَنْ" مخففة من كأنّ واسمها ضمير الشأن محذوف والجملة مستأنفة "لَمْ" حرف نفي وجزم وقلب "يَغْنَوْا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل "فِيها" متعلقان بيغنوا والجملة خبر كأن "أَلا" حرف استفتاح وتنبيه "إِنَّ ثَمُودَ" إن واسمها والجملة مستأنفة "كَفَرُوا رَبَّهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والهاء مضاف إليه والجملة خبر "أَلا" أداة استفتاح وتنبيه "بُعْداً" مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره بعدوا بعدا "لِثَمُودَ" متعلقان ببعدا وثمود مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم المحذوف وقد حرف تحقيق "جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ" ماض وفاعله ومفعوله والتاء للتأنيث ونا

مضاف إليه والجملة واقعة بجواب القسم "بِالْبُشْرى " متعلقان بجاءت "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مقول

(152/372)

القول "سَلاماً" مفعول مطلق لفعل محذوف "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "سَلامٌ" مبتدأ وخبره محذوف تقديره عليكم والجملة مقول القول "فَما لَبِثَ" الفاء استئنافية وما نافية وماض والجملة استئنافية "أَنْ" ناصبة و"جاءَ" ماض وأن وما بعدها في محل رفع فاعل لبث "بِعِجْلٍ" متعلقان بجاء "حَنِيذٍ" صفة "فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما الحينية ظرف زمان "رَأى " ماض فاعله مستتر والجملة مضاف إليه "أَيْدِيَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "لا" نافية "تَصِلُ" مضارع فاعله مستتر "إِلَيْهِ" متعلقان بتصل والجملة استئنافية "نَكِرَهُمْ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "وَأَوْجَسَ" الواو عاطفة وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "مِنْهُمْ" متعلقان بحال محذوفة "خِيفَةً" مفعول لأجله "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "لا تَخَفْ" لا ناهية ومضارع مجزوم والفاعل مستتر والجملة مقول القول "إِنَّا" إن واسمها والجملة مقول القول "أُرْسِلْنا" ماض مبني للمجهول ونا نائب فاعل "إِلى قَوْمِ" متعلقان بأرسلنا "لُوطٍ"

مضاف إليه والجملة خبر إن .

[سورة هود (11) : الآيات 71 الى 73]

وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ (71) قالَتْ يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73)

(153/372)

"وَامْرَأَتُهُ" الواو استئنافية ومبتدأ والهاء مضاف إليه "قائِمَةٌ" خبر والجملة مستأنفة "فَضَحِكَتْ" الفاء عاطفة وماض والتاء للتأنيث والفاعل مستتر والجملة معطوفة "فَبَشَّرْناها" الفاء عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "بِإِسْحاقَ" الباء حرف جر واسحق مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف ومتعلقان ببشرناها "وَمِنْ وَراءِ" متعلقان بخبر مقدم محذوف "إِسْحاقَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "يَعْقُوبَ" مبتدأ مؤخر ، وفي قراءة النصب مفعول به لفعل محذوف والجملة معطوفة "قالَتْ" ماض والتاء للتأنيث والفاعل مستتر "يا" أداة نداء "وَيْلَتى" منادى مضاف وياء المتكلم انقلبت إلى ألف "أَأَلِدُ" الهمزة للاستفهام ومضارع فاعله مستتر والجملة مقول القول "وَأَنَا

عَجُوزٌ" مبتدأ وخبر والجملة حالية "وَهذا" الواو عاطفة والها للتنبيه وذا اسم إشارة مبتدأ "بَعْلِي" خبر مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة "شَيْخاً" حال "إِنَّ هذا" إن واسم الإشارة اسمها "لَشَيْءٌ" اللام المزحلقة وشيء خبر "عَجِيبٌ" صفة والجملة مستأنفة "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "أَتَعْجَبِينَ" الهمزة للاستفهام ومضارع مرفوع بثبوت النون والياء فاعل والجملة مقول القول "مِنْ أَمْرِ" متعلقان بتعجبين "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "رَحْمَتُ" مبتدأ "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَبَرَكاتُهُ" معطوف على رحمة والهاء مضاف إليه "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالخبر المحذوف "أَهْلَ" منادى منصوب بأداة نداء محذوفة يا "الْبَيْتِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ" إن واسمها وخبراها والجملة مستأنفة.

[سورة هود (11) : الآيات 74 الى 77]

(154/372)

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ

غَيْرُ مَرْدُودٍ (76) وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77)

(155/372)

"فَلَمَّا" الفاء عاطفة ولما الحينية ظرف زمان "ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ" ماض وفاعله والجار والمجرور متعلقان بذهب والجملة مضاف إليه "وَجاءَتْهُ الْبُشْرى" الواو عاطفة وماض ومفعوله وفاعله المؤخر المرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة معطوفة "يُجادِلُنا" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "فِي قَوْمِ" متعلقان بيجادلنا "لُوطٍ" مضاف إليه "إِنَّ إِبْراهِيمَ" إن واسمها والجملة مستأنفة "لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ" اللام المزحلقة وما بعدها أخبار لإن "يا" أداة نداء "إِبْراهِيمُ" منادى مبني على الضم في محل نصب على النداء والجملة لا محل لها "أَعْرِضْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "عَنْ هذا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة ومتعلقان بأعرض "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة مستأنفة "قَدْ" حرف تحقيق "جاءَ أَمْرُ" ماض وفاعله والجملة خبر "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "وَإِنَّهُمْ" الواو عاطفة وإن واسمها "آتِيهِمْ" خبر مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والهاء مضاف إليه "عَذابٌ" فاعل لآتيهم "غَيْرُ" صفة لعذاب "مَرْدُودٍ" مضاف إليه "وَ

لَمَّا" الواو استئنافية ولما الحينية ظرف زمان "جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً" ماض وفاعله ومفعوله ونا مضاف إليه والجملة مضاف إليه "سِيءَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "بِهِمْ" متعلقان بسيء والجملة لا محل لها لأنها جواب لما "وَضاقَ بِهِمْ" ماض فاعله مستتر والكلام معطوف على سيء بهم "ذَرْعاً" تمييز "وَقالَ" الواو عاطفة وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "هذا يَوْمٌ" الها للتنبيه وذا اسم إشارة مبتدأ ويوم خبره "عَصِيبٌ" صفة والجملة مقول القول.

[سورة هود (11) : الآيات 78 الى 80]

(156/372)

وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78) قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ (79) قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80)

"وَجاءَهُ قَوْمُهُ" الواو استئنافية وماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "يُهْرَعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة حالية "وَمِنْ

قَبْلُ" الواو حالية ومن حرف جر وقبل ظرف زمان مبني على الضم لانقطاعه عن الإضافة متعلقان بيعملون "كانُوا" كان واسمها والجملة مضاف إليه "يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ" مضارع مرفوع والواو فاعل والسيئات مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم والجملة خبر "قالَ" ماض فاعله مستتر "يا قَوْمِ" يا أداة نداء وقوم منادى منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة "هؤُلاءِ بَناتِي" الها للتنبيه واسم الإشارة مبتدأ وبناتي خبر مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء مضاف إليه والجملة مقول القول "هُنَّ أَطْهَرُ" مبتدأ وخبر الجملة خبر

(157/372)

ثان "لَكُمْ" متعلقان بأطهر "فَاتَّقُوا اللَّهَ" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لها "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تُخْزُونِ" مضارع مجزوم بلا والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة معطوفة "فِي ضَيْفِي" متعلقان بتخزوني "أَلَيْسَ" الهمزة للاستفهام وليس ماض ناقص "مِنْكُمْ" متعلقان بالخبر المقدم "رَجُلٌ" اسم ليس "رَشِيدٌ" صفة والجملة مستأنفة "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "عَلِمْتَ" ماض وفاعله "ما" نافية "لَنا" متعلقان بخبر مقدم "فِي بَناتِكَ"

متعلقان بالخبر المحذوف والكاف مضاف إليه "مِنْ" حرف جر زائد "حَقٍّ" مبتدأ مجرور لفظا مرفوع محلا والجملة مقول القول "وَإِنَّكَ" الواو حالية وإن واسمها والجملة حالية "لَتَعْلَمُ" اللام المزحلقة ومضارع فاعله مستتر والجملة خبر "ما" اسم موصول مفعول به "نُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "لَوْ" حرف يتضمن معنى الشرط والجملة مقول القول "أَنَّ" حرف مشبه بالفعل "لِي" متعلقان بالخبر المقدم لأن "بِكُمْ" متعلقان بالحال المحذوفة "قُوَّةً" اسم أن والصدر المؤول فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت والجملة لا محل لها "أَوْ" عاطفة "آوِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر والجملة معطوفة "إِلى رُكْنٍ" متعلقان بآوي "شَدِيدٍ" صفة.

[سورة هود (11) : الآيات 81 الى 83]

(158/372)

قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81) فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83)

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "يا" أداة نداء "لُوطُ" منادى مبني على الضم في محل نصب على النداء "إِنَّا رُسُلُ" إن واسمها والجملة وما قبلها مقول القول "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "لَنْ يَصِلُوا" لن ناصبة ومضارع منصوب بحذف النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "إِلَيْكَ" متعلقان بيصلوا "فَأَسْرِ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "بِأَهْلِكَ" متعلقان بأسر والكاف مضاف إليه "بِقِطْعٍ" متعلقان بمحذوف حال "مِنَ اللَّيْلِ" متعلقان بصفة لقطع "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "يَلْتَفِتْ" مضارع مجزوم بلا الناهية "مِنْكُمْ" متعلقان بيلتفت "أَحَدٌ" فاعل "إِلَّا" أداة استثناء "امْرَأَتَكَ" مستثنى بإلا والكاف مضاف إليه "إِنَّهُ" إن واسمها "مُصِيبُها" خبر مقدم والهاء مضاف إليه "ما" اسم موصول مبتدأ والجملة خبر إنه "أَصابَهُمْ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة صلة "إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ" إن واسمها وخبرها والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "أَلَيْسَ الصُّبْحُ" الهمزة للاستفهام وليس ماض ناقص والصبح اسمها "بِقَرِيبٍ" الباء حرف جر زائد وقريب خبر مجرور لفظا منصوب محلا "فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما الحينية ظرف زمان "جاءَ أَمْرُنا"

ماض وفاعله ونا مضاف إليه "جَعَلْنا عالِيَها" ماض وفاعله ومفعوله الأول والهاء مضاف إليه والجملة لا محل لها لأنها جواب لما "سافِلَها" مفعول به ثان

(160/372)

و الهاء مضاف إليه "وَأَمْطَرْنا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "عَلَيْها" متعلقان بأمطرنا "حِجارَةً" مفعول به "مِنْ سِجِّيلٍ" متعلقان بصفة لحجارة "مَنْضُودٍ" صفة ثانية لحجارة والجملة معطوفة "مُسَوَّمَةً" صفة لحجارة "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بمسومة "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "وَما" الواو استئنافية وما نافية تعمل عمل ليس "هِيَ" اسم ما "مِنَ الظَّالِمِينَ" متعلقان ببعيد "بِبَعِيدٍ" الباء حرف جر زائد وبعيد مجرور لفظا منصوب محلا خبرها والجملة مستأنفة.

[سورة هود (11) : الآيات 84 الى 85]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85)

"وَإِلى مَدْيَنَ" الواو استئنافية ومتعلقان بفعل محذوف تقديره أرسلنا إلى مدين "أَخاهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "شُعَيْباً" بدل "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "يا قَوْمِ" يا أداة نداء وقوم منصوب على النداء وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة "اعْبُدُوا اللَّهَ" أمر وفاعله ولفظ الجلالة مفعوله والجملة وما قبلها مقول القول "ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ" ما تعمل عمل ليس ولكم متعلقان بالخبر المقدم ومن حرف جر زائد وإله اسمها المجرور لفظا المرفوع محلا "غَيْرُهُ" صفة لإله والهاء مضاف إليه "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَنْقُصُوا" مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعل "الْمِكْيالَ" مفعول به "وَالْمِيزانَ" معطوف على المكيال والجملة معطوفة "إِنِّي" إن واسمها والجملة تعليل لا محل لها "أَراكُمْ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والكاف مفعول به والفاعل مستتر والجملة خبر "بِخَيْرٍ" متعلقان بأراكم "وَإِنِّي أَخافُ" معطوف على ما سبق "عَلَيْكُمْ" متعلقان بأخاف "عَذابَ" مفعول به "يَوْمٍ" مضاف إليه "مُحِيطٍ" صفة "وَيا" الواو عاطفة ويا أداة نداء "قَوْمِ" منادى منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة "أَوْفُوا" أمر وفاعله "الْمِكْيالَ" مفعول به "وَالْمِيزانَ" معطوف على المكيال "وَلا"

الواو عاطفة ولا ناهية "تَبْخَسُوا" مضارع مجزوم بحذف النون "النَّاسَ" مفعول به أول "أَشْياءَهُمْ" مفعول به ثان "وَلا تَعْثَوْا" معطوف على ولا تبخسوا "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بلا تعثوا "مُفْسِدِينَ" حال والجملة معطوفة.

[سورة هود (11) : الآيات 86 الى 88]

(162/372)

بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86) قالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87) قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88)

(163/372)

"بَقِيَّتُ" مبتدأ "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "خَيْرٌ" خبر والجملة مستأنفة "لَكُمْ" متعلقان بخير والجملة مستأنفة "إِنْ" شرطية "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة ابتدائية "مُؤْمِنِينَ" خبر وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله "وَما" الواو عاطفة وما نافية تعمل عمل ليس "أَنَا" اسمها "عَلَيْكُمْ" متعلقان بحفيظ "بِحَفِيظٍ" الباء زائدة وحفيظ خبر مجرور لفظا منصوب محلا "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "يا" أداة نداء "شُعَيْبُ" منادى مبني على الضم في محل نصب على النداء "أَصَلاتُكَ" الهمزة للاستفهام وصلاتك مبتدأ والكاف مضاف إليه "تَأْمُرُكَ" مضارع فاعله مستتر والكاف مفعوله والجملة خبر "أَنْ" ناصبة "نَتْرُكَ" مضارع منصوب وفاعله مستتر وأن وما بعدها منصوب بنزع الخافض "ما" موصولية مفعول به "يَعْبُدُ" مضارع مرفوع "آباؤُنا" فاعل ونا مضاف إليه والجملة صلة "أَوْ" عاطفة "أَنْ" ناصبة "نَفْعَلَ" مضارع منصوب وفاعله مستتر والجملة معطوفة "فِي أَمْوالِنا" متعلقان بنفعل ونا مضاف إليه "ما" موصولية مفعول به "نَشؤُا" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "إِنَّكَ" إن واسمها والجملة تعليل لا محل لها "لَأَنْتَ الْحَلِيمُ" اللام المزحلقة ومبتدأ وخبر الجملة خبر إنك "الرَّشِيدُ" خبر ثان "قالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "يا قَوْمِ" سبق إعرابها قريبا "أَرَأَيْتُمْ" الهمزة للاستفهام وماض وفاعله والجملة وما قبلها مقول القول "إِنْ" شرطية "كُنْتُ" كان واسمها والجملة ابتدائية لا محل لها "عَلى بَيِّنَةٍ" متعلقان بالخبر المحذوف "مِنْ رَبِّي" متعلقان ببينة والياء مضاف إليه "وَرَزَقَنِي" ماض

والنون للوقاية والياء مفعول به أول وفاعله مستتر "مِنْهُ" متعلقان برزقني "رِزْقاً" مفعول به ثان "حَسَناً" صفة والجملة معطوفة "وَما" الواو عاطفة وما نافية "أُرِيدُ" مضارع مرفوع وفاعله

(164/372)

مستتر "إِنْ" ناصبة "أُخالِفَكُمْ" مضارع منصوب والكاف مفعوله وفاعله مستتر والجملة مفعول به لأريد "إِلى ما" ما موصولية متعلقان بأخالفكم "أَنْهاكُمْ" ماض والكاف مفعول به والفاعل مستتر "عَنْهُ" متعلقان بأنهاكم والجملة صلة "إِنْ" حرف نفي "أُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر "إِلَّا" أداة حصر "الْإِصْلاحَ" مفعول به والجملة مستأنفة "ما" مصدرية "اسْتَطَعْتُ" ماض وفاعله، وما وما بعدها في محل نصب على الظرفية الزمانية "وَما" الواو استئنافية وما نافية "تَوْفِيقِي" مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "بِاللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بالباء متعلقان بالخبر المحذوف والجملة مستأنفة "عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ" الجار والمجرور متعلقان بتوكلت وماض وفاعله "وَإِلَيْهِ" الواو عاطفة متعلقان بأنيب "أُنِيبُ" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة.

[سورة هود (11) : الآيات 89 الى 92]

وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90) قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ (91) قالَ يا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92)

(165/372)

"وَيا قَوْمِ" الواو عاطفة ويا أداة نداء وقوم منادى منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والجملة معطوفة "لا" ناهية "يَجْرِمَنَّكُمْ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والكاف مفعوله "شِقاقِي" فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء مضاف إليه "أَنْ" ناصبة "يُصِيبَكُمْ" مضارع منصوب والكاف مفعوله وأن وما بعدها في محل نصب مفعول به ثان ليجرمنكم "مِثْلُ" فاعل مرفوع "ما" موصولية في محل جر مضاف إليه "أَصابَ" ماض وفاعل مستتر والجملة صلة "قَوْمِ" مفعول به "نُوحٍ" مضاف إليه "أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ" معطوف على ما قبله "وَما" الواو حالية وما نافية تعمل عمل ليس "قَوْمِ" اسمها "لُوطٍ" مضاف إليه "مِنْكُمْ" متعلقان ببعيد "بِبَعِيدٍ" الباء زائدة وبعيد

اسم مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما والجملة حالية "وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ" أمر وفاعله ومفعوله والكاف مضاف إليه والجملة مستأنفة "ثُمَّ" عاطفة "تُوبُوا" معطوف على استغفروا "إِلَيْهِ" متعلقان بتوبوا "إِنَّ رَبِّي" إن واسمها والياء مضاف إليه "رَحِيمٌ وَدُودٌ" خبرا إن والجملة تعليل لا محل لها "قَالُوا" أمر وفاعله "يا" أداة نداء "شُعَيْبُ" منادى مبني على الضم في محل نصب والجملة مقول القول "ما" نافية "نَفْقَهُ" مضارع مرفوع وفاعله مستتر "كَثِيراً" مفعول به والجملة مقول القول "مِمَّا" ما موصولية ومتعلقان بنفقه "تَقُولُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَإِنَّا" الواو حالية وإن واسمها ، والجملة حالية "لَنَراكَ" اللام المزحلقة ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والكاف مفعوله وفاعله مستتر والجملة خبر "فِينا" متعلقان بضعيفا "ضَعِيفاً" مفعول به "وَلَوْلا" الواو استئنافية ولو لا حرف امتناع لوجود "رَهْطُكَ" مبتدأ والكاف مضاف إليه والخبر محذوف والجملة استئنافية "لَرَجَمْناكَ" اللام واقعة في جواب لو لا

(166/372)

وماض وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "وَما" الواو عاطفة وما نافية تعمل عمل ليس "أَنْتَ" اسمها "عَلَيْنا" متعلقان بعزيز "بِعَزِيزٍ" الباء حرف

جر زائد وعزيز خبر مجرور لفظا منصوب محلا والجملة معطوفة "قالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "يا" أداة نداء "قَوْمِ" منادى منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة "أَرَهْطِي" الهمزة للاستفهام ورهطي مبتدأ "أَعَزُّ" خبر "عَلَيْكُمْ" متعلقان بأعز "مِنَ اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بمن متعلقان بأعز "وَاتَّخَذْتُمُوهُ" الواو واو الحال وماض وفاعله ومفعوله والواو للإشباع والجملة في محل نصب على الحال "وَراءَكُمْ" ظرف مكان متعلق باتخذتموه والكاف مضاف إليه "ظِهْرِيًّا" حال "إِنَّ رَبِّي" إن واسمها والياء مضاف إليه والجملة تعليل "بِما" ما موصولية ومتعلقان بمحيط "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "مُحِيطٌ" خبر إن.

[سورة هود (11) : الآيات 93 الى 96]

وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93) وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (94) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ (95) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (96)

"وَيا قَوْمِ" سبق إعرابها قريبا "اعْمَلُوا" أمر وفاعله "عَلى مَكانَتِكُمْ" متعلقان بحال محذوفة "إِنّي" إن واسمها والجملة تعليل "عامِلٌ" خبر والجملة مستأنفة "سَوْفَ" للتسويف "تَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "مَنْ" اسم موصول مفعول به "يَأْتِيهِ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والهاء مفعول به "عَذابٌ" فاعل مؤخر "يُخْزِيهِ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والهاء مفعول به والفاعل مستتر والجملة صفة لعذاب "وَمَنْ" الواو عاطفة ومن موصولية معطوفة على من الأولى "هُوَ" مبتدأ "كاذِبٌ" خبر والجملة صلة الموصول لا محل لها "وَارْتَقِبُوا" الواو عاطفة وأمر وفاعله والجملة معطوفة "إِنّي" إن واسمها "مَعَكُمْ" ظرف مكان متعلق برقيب والكاف مضاف إليه "رَقِيبٌ" خبر "وَلَمَّا" الواو استئنافية ولما الحينية ظرف زمان "جاءَ أَمْرُنا" ماض وفاعله ونا مضاف إليه والجملة مضاف إليه "نَجَّيْنا شُعَيْباً" ماض وفاعله ومفعوله والجملة جواب الشرط لا محل لها من الإعراب "وَالَّذِينَ" اسم الموصول معطوف على شعيبا "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مَعَهُ" ظرف مكان متعلق بنجينا والهاء مضاف إليه "بِرَحْمَةٍ" متعلقان بمحذوف حال "مِنَّا" متعلقان بمحذوف صفة لرحمة "وَأَخَذَتِ الَّذِينَ" الواو عاطفة وماض والتاء للتأنيث واسم موصول مفعول به مقدم "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "الصَّيْحَةُ" فاعل مؤخر "فَأَصْبَحُوا" الفاء عاطفة وأصبح واسمها "فِي دِيارِهِمْ" متعلقان بجاثمين والهاء مضاف إليه "جاثِمِينَ" خبر "كَأَنْ"

مخففة من كأنّ واسمها محذوف والجملة مستأنفة "لَمْ" حرف جازم "يَغْنَوْا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة خبر كأن "فِيها" متعلقان بيغنوا "أَلا" حرف استفتاح وتنبيه "بُعْداً" مفعول مطلق لفعل محذوف "لِمَدْيَنَ"

(168/372)

متعلقان ببعدا "كَما" الكاف حرف جر وما المصدرية وما وما بعدها في محل جر ومتعلقان بمحذوف صفة لبعد "بَعِدَتْ" ماض والتاء للتأنيث "ثَمُودُ" فاعل بعدت "وَلَقَدْ" الواو عاطفة واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "أَرْسَلْنا مُوسى" ماض وفاعله ومفعوله المنصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر والجملة معطوفة "بِآياتِنا" متعلقان بأرسلنا "وَسُلْطانٍ" معطوف على آياتنا "مُبِينٍ" صفة.

[سورة هود (11) : الآيات 97 الى 100]

إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (99) ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ (100)

(169/372)

"إِلى فِرْعَوْنَ" فرعون ممنوع من الصرف مجرور بالفتحة ومتعلقان بأرسلنا "وَمَلَائِهِ" معطوف على فرعون والهاء مضاف إليه "فَاتَّبَعُوا" الفاء عاطفة وماض وفاعله "أَمْرَ" مفعول به "فِرْعَوْنَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "وَما" الواو حالية وما نافية تعمل عمل ليس "أَمْرَ" اسم ما "فِرْعَوْنَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "بِرَشِيدٍ" الباء زائدة ورشيد خبر مجرور لفظا منصوب محلا والجملة حالية "يَقْدُمُ قَوْمَهُ" مضارع ومفعوله والهاء مضاف إليه وفاعله مستتر والجملة تعليل لا محل لها "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بيقدم "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "فَأَوْرَدَهُمُ" الفاء عاطفة وماض ومفعوله الأول وفاعله مستتر "النَّارَ" مفعول به ثان "وَبِئْسَ" الواو عاطفة وماض لإنشاء الذم "الْوِرْدُ" فاعل "الْمَوْرُودُ" صفة "وَأُتْبِعُوا" الواو استئنافية وماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة مستأنفة "فِي هذِهِ" الها للتنبيه وذا في محل جر بحرف الجر ومتعلقان بأتبعوا "لَعْنَةً" مفعول به والجملة مستأنفة "وَيَوْمَ" الواو عاطفة ويوم ظرف زمان متعلق بأتبعوا "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "بِئْسَ" ماض لإنشاء الذم "الرِّفْدُ" فاعل "الْمَرْفُودُ" صفة والجملة مستأنفة "ذلِكَ" ذا اسم إشارة مبتدأ والكاف للخطاب "مِنْ أَنْباءِ" متعلقان بالخبر المحذوف "الْقُرى" مضاف إليه "نَقُصُّهُ" مضارع والهاء مفعوله وفاعله مستتر والجملة خبر ثان "عَلَيْكَ" متعلقان بنقصه "مِنْها" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "قائِمٌ" مبتدأ مؤخر "وَحَصِيدٌ"

معطوف على قائم والجملة مستأنفة.

[سورة هود (11) : الآيات 101 الى 105]

(170/372)

وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101) وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103) وَما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (104) يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (105)

(171/372)

"وَما" الواو استئنافية وما نافية "ظَلَمْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة "وَلكِنْ" الواو حرف عطف ولكن حرف استدراك "ظَلَمُوا" ماض وفاعله "أَنْفُسَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "فَما" الفاء عاطفة وما نافية "أَغْنَتْ" ماض

والتاء للتأنيث "عَنْهُمْ" متعلقان بأغنت "آلِهَتُهُمُ" فاعل والهاء مضاف إليه "الَّتِي" اسم موصول صفة لآلهتهم "يَدْعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "مِنْ دُونِ" متعلقان بحال محذوفة "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "مِنْ" حرف جر زائد "شَيْءٍ" مفعول به مجرور لفظا منصوب محلا "لَمَّا" الحينية ظرف زمان "جاءَ أَمْرُ" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "وَما" الواو استئنافية وما نافية "ظَلَمْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة "وَلكِنْ" الواو حرف عطف ولكن حرف استدراك "ظَلَمُوا" ماض وفاعله "أَنْفُسَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "فَما" الفاء عاطفة وما نافية "أَغْنَتْ" ماض والتاء للتأنيث "عَنْهُمْ" متعلقان بأغنت "آلِهَتُهُمُ" فاعل والهاء مضاف إليه "الَّتِي" اسم موصول صفة لآلهتهم "يَدْعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "مِنْ دُونِ" متعلقان بحال محذوفة "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "مِنْ" حرف جر زائد "شَيْءٍ" مفعول به مجرور لفظا منصوب محلا "لَمَّا" الحينية ظرف زمان "جاءَ أَمْرُ" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "وَما" الواو استئنافية وما نافية "زادُوهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "غَيْرَ" مفعول به ثان "تَتْبِيبٍ" مضاف إليه والجملة مستأنفة

"وَكَذِلكَ" الواو استئنافية والكاف حرف جر وذا اسم إشارة في محل جر واللام للبعد والكاف للخطاب متعلقان بخبر مقدم محذوف "أَخْذُ" مبتدأ مؤخر "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه والجملة مستأنفة "إِذا" ظرف زمان يتضمن معنى الشرط "أَخْذُ" ماض فاعله مستتر والجملة مضاف إليه "الْقُرى" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر "وَهِيَ ظالِمَةٌ" الواو حالية ومبتدأ وخبر والجملة حالية "إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ" إن واسمها والهاء مضاف إليه وأليم خبر أول والجملة مستأنفة "شَدِيدٌ" خبر ثان "إِنَّ فِي ذلِكَ" إن واسم الإشارة مجرور بفي واللام للبعد والكاف للخطاب ومتعلقان بخبر محذوف مقدم "لَآيَةً" اللام المزحلقة وآية اسم إن المؤخر "لِمَنْ" اسم موصول في محل جر ومتعلقان بآية "خافَ" ماض فاعله مستتر "عَذابَ" مفعول به "الْآخِرَةِ" مضاف إليه والجملة صلة "ذلِكَ يَوْمٌ" اسم الإشارة مبتدأ ويوم خبر والجملة مستأنفة "مَجْمُوعٌ" صفة ليوم "لَهُ" متعلقان بمجموع "النَّاسُ" نائب فاعل لمجموع "وَذلِكَ" اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "يَوْمٌ" خبر والجملة معطوفة "مَشْهُودٌ" صفة ليوم والجملة معطوفة على ما سبق "وَما" الواو استئنافية وما نافية "نُؤَخِّرُهُ" مضارع مرفوع والهاء مفعول به وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِلَّا" أداة حصر "لِأَجَلٍ" متعلقان بنؤخره "مَعْدُودٍ" صفة "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بيأتي "يَأْتِ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والفاعل مستتر

والجملة مضاف إليه "لا تَكَلَّمُ" لا نافية ومضارع حذفت أحد تاءيه مرفوع "نَفْسٌ" فاعل "إِلَّا" أداة حصر "بِإِذْنِهِ" متعلقان بمحذوف حال "فَمِنْهُمْ" الفاء استئنافية ومتعلقان بخبر مقدم محذوف "شَقِيٌّ" مبتدأ مؤخر "وَسَعِيدٌ" معطوف على شقي.

[سورة هود (11) : الآيات 106 الى 108]

(173/372)

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106) خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (107) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108)

"فَأَمَّا" الفاء استئنافية وأما حرف تفصيل وشرط "الَّذِينَ" اسم موصول مبتدأ "شَقُوا" ماض والواو فاعل والجملة صلة "فَفِي النَّارِ" الفاء واقعة في جواب لما والجار والمجرور متعلقان بخبر الذين المحذوف "لَهُمْ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "فِيها" متعلقان بحال محذوفة "زَفِيرٌ" مبتدأ مؤخر "وَشَهِيقٌ" عطف "خالِدِينَ فِيها" حال والجار والجرور متعلقان بخالدين "ما دامَتِ السَّماواتُ" ما مصدرية ودامت فعل ماض تام والتاء للتأنيث

والسموات فاعل "وَالْأَرْضُ" معطوف على السموات "إِلَّا" أداة استثناء "ما" موصولية في محل نصب مستثنى بإلا "شاءَ رَبُّكَ" ماض وفاعله والكاف مضاف إليه والجملة صلة "إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ" إن واسمها وخبرها والكاف مضاف إليه والجملة استئنافية "لِما" ما موصولية ومتعلقان بفعال "يُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ" معطوفة على فأما الذين شقوا إلخ إعرابها مثلها "خالِدِينَ" حال "فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ" إعرابها تقدم "عَطاءً" مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره أعطوا عطاء "غَيْرَ" صفة عطاء "مَجْذُوذٍ" مضاف إليه.

[سورة هود (11) : الآيات 109 الى 110]

فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ ما يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (110)

"فَلا" الفاء استئنافية ولا ناهية "تَكُ" مضارع ناقص مجزوم بلا واسمها محذوف "فِي مِرْيَةٍ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة استئنافية "مِمَّا" من حرف جر وما موصولية ومتعلقان بصفة محذوفة لمرية "يَعْبُدُ" مضارع والجملة صلة "هؤُلاءِ" الها للتنبيه وأولاء اسم إشارة فاعل "ما يَعْبُدُونَ" ما نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة تعليل للنهي لا محل لها "إِلَّا" أداة حصر "كَما" الكاف جارة وما موصولية متعلقان بصفة محذوفة لمفعول مطلق محذوف التقدير إلا عبادة مثل "يَعْبُدُ آباؤُهُمْ" مضارع وفاعله والهاء مضاف إليه والجملة صلة "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بحال محذوف "وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ" الواو استئنافية وإن ونا المدغمة بها اسمها واللام المزحلقة وموفوهم خبرها والجملة مستأنفة "نَصِيبَهُمْ" مفعول به للمصدر موفوهم والهاء مضاف إليه "غَيْرَ" حال "مَنْقُوصٍ" مضاف إليه "وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام واقعة في جواب القسم المحذوف وقد حرف تحقيق "آتَيْنا" ماض وفاعله "مُوسَى" مفعول به أول "الْكِتابَ" مفعول به ثان "فَاخْتُلِفَ" الفاء عاطفة وماض مبني للمجهول "فِيهِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة "وَلَوْلا كَلِمَةٌ" الواو استئنافية ولولا حرف شرط غير جازم ومبتدأ خبره محذوف "سَبَقَتْ" ماض فاعله مستتر والتاء للتأنيث والجملة صفة لكلمة "مِنْ رَبِّكَ" متعلقان بسبقت والكاف مضاف إليه "لَقُضِيَ" اللام واقعة في جواب لولا وماض مبني للمجهول "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان متعلق بنائب الفاعل المحذوف

والهاء مضاف إليه والجملة جواب لو لا لا محل لها من الإعراب "وَإِنَّهُمْ" الواو حالية وإن واسمها والجملة حالية "لَفِي شَكٍّ" اللام المزحلقة ومتعلقان بالخبر المحذوف "مِنْهُ" متعلقان بشك "مُرِيبٍ" صفة لشك والجملة معطوفة.

[سورة هود (11) : الآيات 111 الى 113]

(176/372)

وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111) فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (113)

"وَإِنَّ كُلًّا" الواو مستأنفة وإن واسمها "لَمَّا" اللام المزحلقة وما موصولية خبر "لَيُوَفِّيَنَّهُمْ" اللام واقعة في جواب قسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والهاء مفعوله الأول "رَبُّكَ" فاعل

(177/372)

مؤخر والكاف مضاف إليه "أَعْمالَهُمْ" مفعول به ثان ليوفينهم والهاء مضاف إليه والجملة صلة "إِنَّهُ" إن واسمها "بِما" ما موصولية ومتعلقان بخبير "يَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "خَبِيرٌ" خبر إن "فَاسْتَقِمْ" الفاء استئنافية وأمر فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "كَما" الكاف حرف جر وما مصدرية "أُمِرْتَ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل والكاف وما بعدها في تأويل مصدر متعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق "وَمَنْ" الواو واو المعية ومن اسم موصول في محل نصب مفعول معه "تابَ" ماض وفاعله مستتر والجملة صلة "مَعَكَ" ظرف مكان متعلق بتاب والكاف مضاف إليه "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَطْغَوْا" مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والجملة معطوفة "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة مستأنفة "بِما" الباء حرف جر وما اسم موصول ومتعلقان ببصير "تَعْمَلُونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة "بَصِيرٌ" خبر "وَلا" الواو استئنافية ولا ناهية "تَرْكَنُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والجملة مستأنفة "إِلَى الَّذِينَ" الذين اسم موصول ومتعلقان بتركنوا "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ" الفاء فاء السببية ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية والكاف مفعوله "النَّارُ" فاعل والجملة معطوفة "وَما" الواو حالية وما نافية "لَكُمْ مِنْ دُونِ" كلاهما متعلقان بالخبر المقدم المحذوف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "مِنْ" حرف جر زائد "أَوْلِياءَ" مبتدأ مؤخر مجرور لفظا مرفوع محلا "ثُمَّ" حرف عطف "لا" نافية "تُنْصَرُونَ"

مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة معطوفة .

[سورة هود (11) : الآيات 114 الى 116]

(178/372)

وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ (114) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (115) فَلَوْلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانُوا مُجْرِمِينَ (116)

"وَأَقِمِ الصَّلاةَ" الواو عاطفة وأمر ومفعوله وفاعله مستتر والجملة معطوفة "طَرَفَيِ" ظرف زمان منصوب بالياء لأنه مثنى متعلق بأقم "النَّهارِ" مضاف إليه "وَزُلَفاً" معطوف على طرفي "مِنَ اللَّيْلِ" متعلقان بزلفا "إِنَّ الْحَسَناتِ" إن واسمها المنصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم والجملة تعليلية لا محل لها "يُذْهِبْنَ" مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة والنون فاعل والجملة خبر "السَّيِّئاتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "ذلِكَ" اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "ذِكْرى" خبر مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر "لِلذَّاكِرِينَ" متعلقان بذكرى "وَاصْبِرْ" الواو عاطفة وأمر فاعله

مستتر والجملة معطوفة "فَإِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها والجملة تعليل لا محل لها "لا يُضِيعُ" لا نافية ومضارع فاعله مستتر "أَجْرَ" مفعول به "الْمُحْسِنِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه

(179/372)

جمع مذكر سالم "فَلَوْلا" الفاء استئنافية ولولا حرف تحضيض "كانَ" ماض ناقص والجملة مستأنفة "مِنَ الْقُرُونِ" متعلقان بمحذوف حال "مِنْ قَبْلِكُمْ" متعلقان بمحذوف حال والكاف مضاف إليه "أُولُوا" اسم كان مرفوع بالواو لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "بَقِيَّةٍ" مضاف إليه "يَنْهَوْنَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كان "عَنِ الْفَسادِ" متعلقان بينهون "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفساد "إِلَّا" أداة استثناء "قَلِيلًا" مستثنى بإلا "مِمَّنْ" اسم موصول متعلقان بصفة محذوفة لقليلا "أَنْجَيْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْهُمْ" متعلقان بأنجينا "وَاتَّبَعَ" ماض وجملته معطوفة "الَّذِينَ" اسم موصول فاعل "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "ما" موصولية مفعول به "أُتْرِفُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة "فِيهِ" متعلقان بأترفوا "وَكانُوا مُجْرِمِينَ" كان واسمها وخبرها المنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة معطوفة.

[سورة هود (11) : الآيات 117 الى 120]

وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ (117) وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً
واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119) وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ
بِهِ فُؤادَكَ وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (120)

(180/372)

"وَما" الواو استئنافية وما نافية "كانَ رَبُّكَ" كان واسمها الكاف مضاف إليه والجملة مستأنفة "لِيُهْلِكَ" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن والكاف مفعوله الأول وفاعله مستتر "الْقُرى" مفعول به ثان "بِظُلْمٍ" متعلقان بيهلك ، أن وما بعدها متعلقان بخبر كان "وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ" الواو حالية ومبتدأ وخبر والهاء مضاف إليه والجملة حالية "وَلَوْ" الواو استئنافية ولو حرف شرط غير جازم "شاءَ رَبُّكَ" ماض وفاعله والكاف مضاف إليه والجملة لا محل لها "لَجَعَلَ النَّاسَ" اللام واقعة في جواب لو وماض ومفعوله الأول وفاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "أُمَّةً" مفعول به ثان "واحِدَةً" صفة "وَلا يَزالُونَ" الواو عاطفة ومضارع ناقص والواو اسمها "مُخْتَلِفِينَ" خبر منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة معطوفة "إِلَّا" أداة استثناء "مَنْ" اسم موصول في محل نصب على

الاستثناء "رَحِمَ رَبُّكَ" ماض وفاعله والكاف مضاف إليه والجملة صلة "وَلِذلِكَ" الواو استئنافية وذا اسم إشارة في محل جر باللام ومتعلقان بخلقهم "خَلَقَهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مستأنفة "وَتَمَّتْ كَلِمَةُ" الواو استئنافية وماض والتاء للتأنيث وكلمة فاعل والجملة مستأنفة "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "لَأَمْلَأَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وفاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم "جَهَنَّمَ" مفعول به "مِنَ الْجِنَّةِ" متعلقان بأملأن "وَالنَّاسِ" معطوف على الجنة "أَجْمَعِينَ" توكيد

(181/372)

مجرور بالياء "وَكُلًّا" الواو استئنافية وكلا مفعول به مقدم "نَقُصُّ" مضارع فاعله مستتر والجملة استئنافية "عَلَيْكَ" متعلقان بالفعل "مِنْ أَنْباءِ" متعلقان بنقص "الرُّسُلِ" مضاف إليه "ما" موصولية مفعول به "نُثَبِّتُ" مضارع مرفوع وفاعله مستتر "بِهِ" متعلقان بنثبت "فُؤادَكَ" مفعول به والكاف مضاف إليه "وَجاءَكَ" الواو استئنافية وماض ومفعوله والجملة مستأنفة "فِي هذِهِ" ذا اسم إشارة ومتعلقان بجاءك "الْحَقُّ" فاعل مؤخر "وَمَوْعِظَةٌ" معطوف على الحق "وَذِكْرى" معطوف على ما سبق وهو مرفوع بالضمة المقدرة على

الألف للتعذر "لِلْمُؤْمِنِينَ" متعلقان بذكرى.

[سورة هود (11) : الآيات 121 الى 123]

وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ (121) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (122) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123)

(182/372)

"وَقُلْ" الواو استئنافية وأمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "لِلَّذِينَ" اسم موصول متعلقان بقل "لا يُؤْمِنُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "اعْمَلُوا" أمر وفاعله والجملة مقول القول "عَلى مَكانَتِكُمْ" متعلقان باعملوا والكاف مضاف إليه "إِنَّا" إن ونا اسمها "عامِلُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم "وَلِلَّهِ" الواو استئنافية ومتعلقان بالخبر المقدم "غَيْبُ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "وَإِلَيْهِ" الواو عاطفة ومتعلقان بيرجع "يُرْجَعُ الْأَمْرُ" مضارع مبني للمجهول والأمر نائب فاعل "كُلُّهُ" توكيد والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "فَاعْبُدْهُ" الفاء الفصيحة وأمر ومفعوله والفاعل مستتر والجملة لا محل لها "وَتَوَكَّلْ" أمر فاعله مستتر

وهو معطوف على اعبده "عَلَيْهِ" متعلقان بتوكل "وَما" الواو مستأنفة وما نافية تعمل عمل ليس "رَبُّكَ" اسمها والكاف مضاف إليه "بِغافِلٍ" الباء زائدة وغافل خبر ما مجرور لفظا منصوب محلا والجملة مستأنفة "عَمَّا" عن حرف جر وما اسم موصول متعلقان بغافل "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة. انتهى انتهى. اهـ

﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 2 صـ 46. 77﴾

(183/372)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَة هود عَلَيْهِ السَّلَام

ذكر فِيهَا أحد عشر حَدِيثا

610 - الحَدِيث الأول

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه تَلا قَوْله تَعَالَى لِيَبْلُوكُمْ أَيكُم أحسن عملا فَقَالَ (أَيكُم أحسن عقلا وَأَوْرَع عَن محارم الله وأسرع فِي طَاعَة الله)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره فَقَالَ حَدثنَا عَن دَاوُد بن المحبر حَدثنَا عبد الْوَاحِد بن زيد

عَن كُلَيْب بن وَائِل عَن عبد الله بن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه تَلا قَوْله تَعَالَى

. . . إِلَى آخِره سَوَاء

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث الْحَارِث بن أبي أُسَامَة حَدثنَا دَاوُد بن المحبر بِهِ

ثمَّ وجدته فِي كتاب الْعقل لداود بن المحبر وَهُوَ جُزْء لطيف رَوَاهُ بِإِسْنَادِهِ الْمَذْكُور وَرَأَيْت

فِي حَاشِيَة عَلَيْهِ بِخَط بعض الْفُضَلَاء قَالَ عبد الْغَنِيّ قَالَ الدَّارَقُطْنِيّ كتاب الْعقل وَضعه

أَرْبَعَة وَضعه ميسرَة بن عبد ربه ثمَّ سَرقه دَاوُد ابْن المحبر مِنْهُ فَركبهُ بأسانيد غير ميسرَة

وَسَرَقَهُ عبد الْعَزِيز بن أبي رَجَاء فَركبهُ بأسانيد أخر ثمَّ سَرقه سُلَيْمَان بن عِيسَى السجْزِي

وَركبهُ بأسانيد أُخْرَى

وَأَعَادَهُ الْمُصَنّف فِي سُورَة تبَارك

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنِي أَحْمد بن الْحسن بن هَارُون الرَّازِيّ حَدثنَا الْحُسَيْن

بن هَارُون النَّيْسَابُورِي حَدثنَا مُحَمَّد بن أَشْرَس حَدثنَا سُلَيْمَان بن عِيسَى

حَدثنَا سُفْيَان الثَّوْرِيّ حَدثنَا كُلَيْب بن وَائِل عَن ابْن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

. . . فَذكره

وَرَوَاهُ فِي سُورَة الْملك أَيْضا من طَرِيق دَاوُد بن المحبر

611 - الْحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَن أَصْحَاب سفينة نوح كَانُوا ثَمَانِيَة نوح وَأَهله وَبَنوهُ الثَّلَاثَة سَام وَحَام وَيَافث وَنِسَاؤُهُمْ)

قلت غَرِيب

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره مَوْقُوفا عَلَى قَتَادَة فَقَالَ حَدثنَا بشر بن معَاذ حَدثنَا يزِيد بن هَارُون حَدثنَا سعيد بن أبي عرُوبَة عَن قَتَادَة قَالَ ذكر لنا أَنه لم يتم فِي السَّفِينَة إِلَّا نوح وَامْرَأَته وَبَنوهُ الثَّلَاثَة وَنِسَاؤُهُمْ فَجَمِيعهمْ ثَمَانِيَة انْتَهَى وَأَعَادَهُ فِي العنكبوت

612 - الْحَدِيث الثَّالِث رُوِيَ أَنه عَلَيْهِ السَّلَام زوج ابْنَتَيْهِ من عتبَة بن أبي لَهب وَأبي الْعَاص بن وَائِل قبل الْوَحْي وهما كَافِرَان

قلت رَوَى الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه فِي تَرْجَمَة زَيْنَب بنت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسَنَدِهِ إِلَى ابْن إِسْحَاق وَكَذَلِكَ ابْن هِشَام فِي السِّيرَة فِي غَزْوَة بدر الْكُبْرَى قَالَ كَانَ أَبُو الْعَاص بن الرّبيع من رجال مَكَّة الْمَعْدُودين مَالا وَأَمَانَة وَكَانَت خَدِيجَة خَالَته فَإِن أمه هَالة بنت خويلد أُخْت خَدِيجَة وَخَالَة زَيْنَب فَسَأَلَت خَدِيجَة رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أَن يُزَوجهُ زَيْنَب وَكَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَا يُخَالِفهَا وَذَلِكَ قبل أَن ينزل عَلَيْهِ فَلَمَّا أَكْرم الله نبيه بِالنُّبُوَّةِ وَآمَنت بِهِ خَدِيجَة وَبنَاته وَصَدَّقْنَهُ وَدَن بِدِينِهِ وَثَبت أَبُو الْعَاص عَلَى شركه وَكَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قد زوج عتبَة بن أبي لَهب ابْنَته رقية فَلَمَّا دَعَا رَسُول الله قُرَيْشًا إِلَى أَمر الله فَقَالَ بَعضهم لبَعض إِنَّكُم قد فَرَغْتُمْ مُحَمَّدًا من همه فَردُّوا عَلَيْهِ بَنَاته فاشغلوه بهن فَمَشَوْا إِلَى أبي الْعَاص بن الرّبيع فَقَالُوا لَهُ فَارق صَاحبَتك وَنحن نُزَوّجك أَي امْرَأَة شِئْت فَقَالَ لَا ها الله وَأَبَى عَلَيْهِم ثمَّ مَشوا إِلَى عتبَة بن أبي لَهب فَقَالُوا لَهُ مثل ذَلِك فَقَالَ لَهُم إِن زَوَّجْتُمُونِي بنت سعيد بن الْعَاص فَارَقت رقية فَزَوجُوهُ بهَا فَفَارَقَ رقية وَلم يكن عَدو الله دخل بهَا كَرَامَة لَهَا وَهَوَانًا لَهُ وَتَزَوجهَا بعده عُثْمَان بن عَفَّان وَفرق الْإِسْلَام بَين أبي الْعَاص بن الرّبيع وَزَيْنَب بنت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَلم تزل عَلَى إِسْلَامهَا وَهُوَ عَلَى شركه حَتَّى هَاجر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَى الْمَدِينَة وَهِي مُقِيمَة بِمَكَّة فَلَمَّا سَارَتْ قُرَيْش سَار فيهم أَبُو الْعَاص بن الرّبيع فأصيب فِي الْأَسَارَى يَوْم بدر مُخْتَصر

(186/372)

وَأخرج الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة عَن قَتَادَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم زوج ابْنَته أم كُلْثُوم فِي الْجَاهِلِيَّة عتيبة بن أبي لَهب وَزوج رقية لِأَخِيهِ عتبَة بن أبي لَهب فَلَمَّا جَاءَ الله بِالْإِسْلَامِ وَنزلت تبت يدا أبي لَهب سَأَلَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عتبَة بن أبي لَهب طَلَاق رقية وَسَأَلت رقية ذَلِك فَطلقهَا وطلق عتيبة أم كُلْثُوم فَتزَوج عُثْمَان بن عَفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْه رقية فَتُوُفِّيَتْ عِنْده وَلم تلد لَهُ وَتزَوج أَبُو الْعَاص بن الرّبيع زَيْنَب فَولدت لَهُ أُمَامَة مُخْتَصر

وَرَوَاهُ أَبُو نعيم فِي دَلَائِل النُّبُوَّة عَن الطَّبَرَانِيّ بِسَنَدِهِ إِلَى الْوَاقِدِيّ قَالَ كَانَت رقية بنت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قبل عُثْمَان عِنْد عتبَة بن أبي لَهب وَأم كُلْثُوم عِنْد عتيبة ابْن أبي لَهب زَوجهمَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِيَّاهُمَا فِي الْجَاهِلِيَّة

613 - الْحَدِيث الرَّابِع

قَالَ النَّبِي) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (رحم الله أخي لوطا كَانَ يأوي إِلَى ركن شَدِيد)

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي بَدْء الْخلق وَمُسلم فِي الْفَضَائِل من حَدِيث أبي سَلمَة وَسَعِيد بن الْمسيب عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (نَحن أَحَق من إِبْرَاهِيم إِذْ قَالَ رب أَرِنِي كَيفَ تحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَولم تؤمن قَالَ بلَى وَلَكِن لِيَطمَئِن قلبِي وَيرْحَم الله لوطا كَانَ يأوي إِلَى ركن شَدِيد وَلَو لَبِثت فِي السجْن مَا لبث يُوسُف لَأَجَبْت الدَّاعِي)

انْتَهَى

614 - الْحَدِيث الْخَامِس

(187/372)

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه سَأَلَ جِبْرِيل عَن قَوْله تَعَالَى وَمَا هِيَ من الظَّالِمين ببَعِيد فَقَالَ يَعْنِي ظالمي أمتك فَقَالَ (مَا من ظَالِم مِنْهُم إِلَّا وَهُوَ يعرض حجر يسْقط عَلَيْهِ من سَاعَة إِلَى سَاعَة)

قلت غَرِيب وَذكره الثَّعْلَبِيّ عَن أنس من غير سَنَد

615 - قَوْله عَن عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاصِ قَالَ لَيَأْتِيَن عَلَى جَهَنَّم يَوْم يصفق فِيهِ أَبْوَابهَا لَيْسَ فِيهَا أحد

قَالَ الْمُصَنّف بَلغنِي عَن بعض الضلال أَنه اغْتَرَّ بِهَذَا الْحَدِيث قَالَ فَاعْتَقد أَن الْكفَّار لَا يخلدُونَ فِي النَّار وَهَذَا إِن صَحَّ عَن ابْن الْعَاصِ فَمَعْنَاه أَنهم يخرجُون من حر النَّار إِلَى برد الزَّمْهَرِير

قلت رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده حَدثنَا مُحَمَّد بن بشير حَدثنَا أَبُو دَاوُد حَدثنَا شُعْبَة عَن أبي بلج عَن عَمْرو بن مَيْمُون عَن عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاصِ قَالَ يَأْتِي عَلَى النَّار زمَان يخْفق

أَبْوَابهَا لَيْسَ فِيهَا أحد يَعْنِي من الْمُوَحّدين

انْتَهَى وَسكت عَنهُ

وَقد رُوِيَ هَذَا مَرْفُوعا رَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل عَن الْعَلَاء بن زيد الثَّقَفِيّ عَن أنس قَالَ

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَيَأْتِيَن عَلَى جَهَنَّم يَوْم تَصْطَفِق أَبْوَابهَا

مَا فِيهَا من أمة مُحَمَّد أحد)

انْتَهَى وَأعله بِالْعَلَاءِ بن زيد وَقَالَ إِنَّه مُنكر الحَدِيث

وَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الموضوعات من حَدِيث جَعْفَر بن الزُّبَيْر عَن الْقَاسِم عَن أبي أُمَامَة

قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (يَأْتِي عَلَى جَهَنَّم يَوْم مَا فِيهَا من بني آدم أحد

يخْفق أَبْوَابهَا) يَعْنِي من الْمُوَحّدين

(188/372)

انْتَهَى ثمَّ قَالَ هَذَا حَدِيث مَوْضُوع وجعفر بن الزُّبَيْر قَالَ شُعْبَة كَانَ يكذب وَقَالَ البُخَارِيّ

وَالنَّسَائِيّ وَالدَّارَقُطْنِيّ مَتْرُوك

انْتَهَى كَلَامه

616 - الحَدِيث السَّادِس

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (شيبتني هود والواقعة وَأَخَوَاتهَا)

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَقَرِيب مِنْهُ مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي تَفْسِيره سُورَة الْوَاقِعَة من حَدِيث شَيبَان عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ أَبُو بكر يَا رَسُول الله قد شبت قَالَ (شيبتني هود والواقعة والمرسلات وَعم يتساءلون وَإِذا الشَّمْس كورت) انْتَهَى وَقَالَ حسن غَرِيب انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده ثمَّ قَالَ وَقد اخْتلف فِيهِ عَلَى أبي إِسْحَاق فَقَالَ شَيبَان عَن أبي إِسْحَاق عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس وَقَالَ عَلّي بن صَالح عَن أبي إِسْحَاق عَن أبي جُحَيْفَة وَقَالَ زَكَرِيَّا بن أبي زَائِدَة عَن أبي إِسْحَاق عَن مَسْرُوق أَن أَبَا بكر

وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية وَزَاد أَشْيَاء أُخْرَى

وَأما الدَّارَقُطْنِيّ فَإِنَّهُ أَطَالَ فِي ذَلِك تَطْوِيلًا كثيرا

وَحَدِيث الْكتاب رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره فِي سُورَة الْوَاقِعَة فَقَالَ

حَدثنَا أَحْمد بن مُحَمَّد بن زِيَاد حَدثنَا مُحَمَّد بن غَالب بن حَرْب حَدثنَا مُحَمَّد بن جَعْفَر الْوَرَكَانِي حَدثنَا حَمَّاد بن يَحْيَى الأبحر حَدثنَا ابْن عون عَن مُحَمَّد بن سِيرِين عَن عمرَان ابْن حُصَيْن قَالَ قيل يَا رَسُول الله أسْرع إِلَيْك الشيب

قَالَ (شيبتني هود والواقعة وَأَخَوَاتهَا)

انْتَهَى

617 - الحَدِيث السَّابِع

رُوِيَ أَن أَصْحَاب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالُوا لَهُ يَا رَسُول الله لقد أسْرع فِيك الشيب

فَقَالَ (شيبتني هود)

(189/372)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي الشَّمَائِل حَدثنَا سُفْيَان بن وَكِيع حَدثنَا مُحَمَّد بن بشر عَن عَلّي بن صَالح عَن أبي جُحَيْفَة قَالَ قيل لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لقد أسْرع فِيك الشيب . . . إِلَى آخِره وسُفْيَان بن وَكِيع قَالَ أَبُو زرْعَة كَانَ يتهم بِالْكَذِبِ وَقَالَ البُخَارِيّ كَانَ يَتَلَقَّن رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة أبي إِسْحَاق السبيعِي من حَدِيث مُحَمَّد ابْن عبد الله بن نمير ثَنَا مُحَمَّد بن بشير بِهِ سندا ومتنا

وَرَوَى الدَّارَقُطْنِيّ فِي أول كِتَابه الْعِلَل من حَدِيث أبي بكر بن عَيَّاش عَن أبي إِسْحَاق عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ أَبُو بكر يَا رَسُول الله لقد أسْرع إِلَيْك الشيب قَالَ (شيبتني هود وَأَخُوَّتهَا)

انْتَهَى وَتكلم عَلَى هَذَا الحَدِيث وَاخْتِلَاف طرقه وَأَلْفَاظه كلَاما طَويلا نَحْو الْأَرْبع وَرَقَات

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل عَن حَمَّاد بن يَحْيَى الأبحر عَن يزِيد الرقاشِي عَن أنس بن مَالك أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لَهُ أَصْحَابه لقد أسْرع إِلَيْك الشيب قَالَ (شيبتني هود وَأَخَوَاتهَا)

انْتَهَى قَالَ وَحَمَّاد بن يَحْيَى فِي حَدِيثه مَا لَا يُتَابع وَهُوَ مِمَّن يكْتب حَدِيثه

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات من حَدِيث أبي صَخْر عَن يزِيد الرقاشِي عَن أنس . . . فَذكره وَزَاد قَالُوا يَا رَسُول الله فَمَا أخواتها قَالَ (الْوَاقِعَة وَالْقَارِعَة وَسَأَلَ سَائل وَإِذا الشَّمْس كورت)

انْتَهَى

(190/372)

وَرَوَى الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة من حَدِيث عَطِيَّة الْعَوْفِيّ عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ قَالَ قَالَ عمر بن الْخطاب يَا رَسُول الله لقد أسْرع إِلَيْك الشيب فَقَالَ (شيبتني هود وَأَخَوَاتهَا الْوَاقِعَة وَعم يتساءلون وَإِذا الشَّمْس كورت)

انْتَهَى

618 - الْحَدِيث الثَّامِن

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من دَعَا لظَالِم بِالْبَقَاءِ فقد أحب أَن يعْصَى الله فِي أرضه)

قلت غَرِيب مَرْفُوعا وَذكره الْغَزالِيّ كَذَلِك مَرْفُوعا فِي موضِعين من كِتَابه إحْيَاء عُلُوم الدِّين وَلم نجده إِلَّا من قَول الْحسن رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب السَّادِس وَالسِّتِّينَ عَن عبد الله بن عمر الرقي عَن يُونُس بن عبيد سَمِعت الْحسن يَقُول . . . فَذكره

وَرَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية من قَول سُفْيَان الثَّوْرِيّ فِي تَرْجَمته

619 - الْحَدِيث التَّاسِع فِي الْحَدِيث (إِن الصَّلَاة إِلَى الصَّلَاة كَفَّارَة مَا بَينهمَا مَا اجْتنب الْكَبَائِر)

قلت هُوَ فِي مُسلم عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (الصَّلَوَات الْخمس وَالْجُمُعَة إِلَى الْجُمُعَة كَفَّارَات لما بَينهُنَّ مَا اجْتنبت الْكَبَائِر)

انْتَهَى أخرجه مُسلم أول الصَّلَاة

وَفِي الْجمع لعبد الْحق لم يُخرجهُ الْبُخَارِيّ

وَعند الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا الصَّلَاة الْمَكْتُوبَة إِلَى الصَّلَاة الْمَكْتُوبَة الَّتِي بعْدهَا كَفَّارَة لما بَينهمَا قَالَ صَحِيح لَا أعرف لَهُ عِلَّة

620 - الْحَدِيث الْعَاشِر

رُوِيَ فِي قَوْله تَعَالَى إِن الْحَسَنَات يذْهبن السَّيِّئَات أَنَّهَا نزلت فِي أبي الْيُسْر عَمْرو بن غزيَّة الْأَنْصَارِيّ وَذَلِكَ أَنه كَانَ يَبِيع التَّمْر فَأَتَتْهُ امْرَأَة فَأَعْجَبتهُ فَقَالَ لَهَا إِن فِي الْبَيْت أَجود من هَذَا التَّمْر فَذهب بهَا إِلَى بَيته فَضمهَا إِلَى نَفسه وَقبلهَا فَقَالَت لَهُ اتَّق الله فَتركهَا وَندم فَأَتَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَخْبرهُ بِمَا فعل فَقَالَ (انْتظر أَمر رَبِّي) فَلَمَّا صَلَّى صَلَاة الْعَصْر نزلت فَقَالَ لأبي الْيُسْر صليت مَعنا هَذِه الصَّلَاة قَالَ نعم قَالَ (اذْهَبْ فَإِنَّهَا كَفَّارَة لما فعلت)

وَرُوِيَ أَنه أَتَى أَبَا بكر فَقَالَ اسْتُرْ وَتب إِلَى الله فَأَتَى عمر فَقَالَ لَهُ مثل ذَلِك فَأَتَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَنزلت فَقَالَ عمر يَا رَسُول الله أَهَذا لَهُ خَاصَّة أم للنَّاس عَامَّة قَالَ (بل للنَّاس عَامَّة)

وَرُوِيَ أَنه عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ لَهُ (تَوَضَّأ وضُوءًا حسنا وصل رَكْعَتَيْن إِن الْحَسَنَات يذْهبن السَّيِّئَات)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ من حَدِيث قيس بن الرّبيع وَشريك عَن عُثْمَان بن عبد الله بن موهب عَن مُوسَى بن طَلْحَة عَن أبي الْيُسْر كَعْب بن عَمْرو قَالَ أَتَتْنِي امْرَأَة تبْتَاع تَمرا فَقلت

إِن فِي الْبَيْت تَمرا أطيب مِنْهُ فَدخلت معي فِي الْبَيْت فَأَهْوَيْت إِلَيْهَا فَقبلتهَا فَقَالَت اتَّق الله فَأتيت أَبَا بكر فَذكرت ذَلِك لَهُ فَقَالَ اسْتُرْ عَلَى نَفسك وَتب فَأتيت عمر فَقَالَ مثل ذَلِك فَأتيت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَذكرت ذَلِك لَهُ فَأَطْرَقَ طَويلا حَتَّى أُوحِي إِلَيْهِ أقِم الصَّلَاة طرفي

(192/372)

النَّهَار وَزلفًا من اللَّيْل) إِلَى قَوْله لِلذَّاكِرِينَ قَالَ أَبُو الْيُسْر فَأَتَيْته فقرأها عَلَي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ أَصْحَابه يَا رَسُول الله أَلِهَذَا خَاصَّة أم للنَّاس عَامَّة قَالَ (بل للنَّاس عَامَّة)

انْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن غَرِيب وَقيس ابْن الرّبيع ضعفه وَكِيع وَغَيره

وَقد رَوَاهُ شريك عَن ابْن موهب كَمَا رَوَاهُ قيس انْتَهَى

وَرَوَاهُ شريك عِنْد النَّسَائِيّ وَالْبَزَّار

وَرَوَاهُ بِسَنَد التِّرْمِذِيّ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه والطبري فِي تَفْسِيره وَرَوَاهُ الْبَزَّار بِسَنَد النَّسَائِيّ كلهم بِالْمَتْنِ الْمَذْكُور

قَالَ الْبَزَّار لَا نعلم رَوَاهُ عَن أبي الْيُسْر إِلَّا مُوسَى بن طَلْحَة وَلَا عَن مُوسَى إِلَّا عُثْمَان بن

موهب وَرَوَاهُ عَن عُثْمَان شريك وَقيس بن الرّبيع فَروينَاهُ عَن شريك لِأَنَّهُ أجل من قيس

انْتَهَى

وأصل الحَدِيث فِي الصَّحِيحَيْن رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي أَوَائِل مَوَاقِيت الصَّلَاة وَمُسلم فِي الرَّقَائِق

عَن ابْن مَسْعُود قَالَ جَاءَ رجل إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ إِنِّي عَالَجت امْرَأَة فِي

أَقْصَى الْمَدِينَة وَإِنِّي أصبت مِنْهَا مَا دون أَن أَمسهَا وَأَنا هَذَا فَاقْض فِي بِمَا شِئْت فَقَالَ لَهُ

عمر لقد سترك الله لَو سترت نَفسك فَلم يرد عَلَيْهِ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم شَيْئًا فَانْطَلق

الرجل فَأتبعهُ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم رجلا فَدَعَاهُ فَتلا عَلَيْهِ أَقِم الصَّلَاة طرفي النَّهَار

وَزلفًا من اللَّيْل إِلَى آخر الْآيَة فَقَالَ رجل من الْقَوْم يَا رَسُول الله أَله خَاصَّة أم للنَّاس عَامَّة فَقَالَ

(بل للنَّاس كَافَّة)

انْتَهَى

وَلَفظ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ هُوَ أقرب إِلَى لفظ الْكتاب

(193/372)

وَفِي مُسْند أَحْمد فَقَالَ عمر بن الْخطاب يَا رَسُول الله أَله وَحده أم للنَّاس كَافَّة

وَرَوَاهُ تَوَضَّأ وضُوءًا حسنا عِنْد الدَّارَقُطْنِيّ وَالْبَيْهَقِيّ فِي سُنَنهمَا وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه

وَسكت عَنهُ وَمن طَرِيق الدَّارَقُطْنِيّ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول كلهم من حَدِيث عبد الرَّحْمَن بن أبي لَيْلَى عَن معَاذ بن جبل أَنه كَانَ قَاعِدا عِنْد النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَهُ رجل فَقَالَ يَا رَسُول الله مَا تَقول فِي رجل أَصَاب من

امْرَأَة لَا تحل لَهُ فَلم يدع شَيْئا يُصِيبهُ الرجل من امْرَأَته إِلَّا أَصَابَهُ مِنْهَا غير أَنه لم يُجَامِعهَا فَقَالَ لَهُ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (تَوَضَّأ وضُوءًا حسنا ثمَّ صل) قَالَ فَأَنْزل الله الْآيَة فَقَالَ معَاذ أَهِي لَهُ خَاصَّة أم للْمُسلمين عَامَّة قَالَ (بل للْمُسلمين عَامَّة)

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ كَذَلِك لم يكن فِيهِ وضُوءًا حسنا وَلَفظه فَأمره النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن يتَوَضَّأ ويُصلي وَقَالَ هَذَا حَدِيث ضَعِيف لَيْسَ بِمُتَّصِل السَّنَد فَإِن عبد الرَّحْمَن بن أبي لَيْلَى لم يدْرك معَاذًا ومعاذ مَاتَ فِي خلَافَة عمر بن الْخطاب وَعمر قتل وَعبد الرَّحْمَن بن أبي لَيْلَى غُلَام صَغِير ابْن سِتّ سِنِين

انْتَهَى

وَأَبُو الْيُسْر هَذَا قَالَ الْقُرْطُبِيّ فِي شرح مُسلم اخْتلف فِي اسْمه فَقيل كَعْب بن عَمْرو وَقيل عَمْرو بن غزيَّة

(194/372)

قلت الْأَكْثَر عَلَى الأول هَكَذَا سَمَّاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَاقْتصر التِّرْمِذِيّ عَلَى أبي الْيُسْر وَزَاد النَّسَائِيّ ابْن عَمْرو لم يُسَمِّيَاهُ وَهُوَ كَذَلِك كَعْب بن عَمْرو فِي كتب الصَّحَابَة وَأَسْمَاء الرِّجَال وَالْمُصَنّف سَمَّاهُ عَمْرو بن غزيَّة تبعا لِلثَّعْلَبِي فَإِنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيره نزلت هَذِه الْآيَة فِي عَمْرو بن غزيَّة الْأَنْصَارِيّ

621 - الْحَدِيث الْحَادِي عشر

فِي الْحَدِيث بَقينَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَي رقبناه

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي الصَّلَاة عَن عَاصِم عَن حميد عَن معَاذ ابْن جبل قَالَ بَقينَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي صَلَاة الْعَتَمَة فَتَأَخر حَتَّى ظن الظَّان أَنه لَيْسَ بِخَارِج وَمنا من يَقُول صَلَّى حَتَّى خرج فَقَالُوا لَهُ فَقَالَ (أَعْتِمُوا بِهَذِهِ الصَّلَاة فَإِنَّكُم قد فضلْتُمْ بهَا عَلَى سَائِر الْأُمَم)

انْتَهَى

الْحَدِيث الثَّانِي عشر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من قَرَأَ سُورَة هود أعْطى من الْأَجر عشر حَسَنَات بِعَدَد من صدق بِنوح وَمن كذب وَهود وَصَالح وَشُعَيْب وَلُوط وَإِبْرَاهِيم وَمُوسَى وَكَانَ يَوْم الْقِيَامَة من السُّعَدَاء)

قلت رَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الموضوعات من طَرِيق أبي بكر بن أبي دَاوُد السجسْتَانِي حَدثنَا

مُحَمَّد بن عَاصِم حَدثنَا شَبابَة بن سوار حَدثنَا مخلد عبد الْوَاحِد عَن عَلّي بن زيد بن جدعَان وَعَطَاء بن أبي مَيْمُونَة عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه الْمُتَقَدّمين فِي آل عمرَان

(195/372)

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط أخبرنَا الْأُسْتَاذ أَبُو عُثْمَان سعيد بن مُحَمَّد الزَّعْفَرَانِي حَدثنَا أَبُو عَمْرو مُحَمَّد بن جَعْفَر بن مطر الْعدْل أَنا إِبْرَاهِيم بن شريك الْأَسدي حَدثنَا أَحْمد بن عبد الله بن يُونُس حَدثنَا سَلام بن سليم الْمَدَائِنِي حَدثنَا هَارُون ابْن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 2 صـ 145.155 ﴾

(196/372)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة هود

قوله تعالى : (مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ) ، الآية/ 15 .

معناه معنى قوله : إنما الأعمال بالنيات ، الحديث «1» .

ويدل ذلك على أن من صام في رمضان لا عن رمضان لا يقع عن رمضان ، ويدل على أن من توضأ للتبرد والتنظف لا يقع قربة عن جهة الصلاة .

وقوله تعالى : (وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) ، الآية/ 45 .

سمى ابنه من أهله ، وهذا يدل على أن من أوصى لأهله دخل تحته ابنه ، ومن تضمنه منزله وهو في عياله ، فدل قول نوح على ذلك ، وقال تعالى في آية أخرى :

(وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ، وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) «2» .

---

(1) أخرجه الامام البخاري والامام مسلم في صحيحيهما .

(2) سورة الصافات آية 75 - 76 .

فسمى جميع من تضمنه منزله من أهله .

وقوله عليه السلام ان ابني من أهلي : الذين وعدتني أن تنجيهم ، فأخبر اللّه تعالى أنه ليس من أهلك الذي وعدت أن أنجيهم .

وقد قيل : إنه لم يكن ابنه حقيقة ، وظاهر القرآن يدل على خلافه «1» .

وفيه دليل على أن حكم الاتفاق في الدين أقوى من النسب .

قوله تعالى : (وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها) ، الآية/ 61 .

يدل على وجوب عمارة الأرض ، فإن الاستعمار طلب العمارة ، والطلب المطلق من اللّه تعالى للوجوب .

قوله : (قالُوا سَلاماً) ، الآية/ 69 .

يدل على أن السلام الذي هو تحية الإسلام ، كان تحية الملائكة «2» .

قوله تعالى : (إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ) ، الآية/ 70 .

ثم ساق الكلام ، إلى أن قال : (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ) ، الآية/ 74 - حين قالوا : (إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ) ، الآية 70 ، لنهلكهم .

وقوله : (قالَ : إِنَّ فِيها لُوطاً – قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها) «3» :

وذلك يحتج به من يجوز تأخير البيان إلى وقت الحاجة ، لأن الملائكة أخبرت إبراهيم أنها تهلك قوم لوط ، ولم تبين المنجين منهم ، ومع ذلك إبراهيم عليه السلام جادلهم وقال : أتهلكونهم وفيهم كذا وكذا من المسلمين ،

---

(1) أنظر ما ذكره الامام الفخر الرازي حول هذه المسألة .

(2) أنظر تفسير الفخر ، وابن كثير ، والطبري لسورة هود آية 69

(3) سورة العنكبوت آية 32 .

وتعرف منهم أمر العذاب ، وأنه عذاب واقع بهم لا محالة ، أم يعفى عنهم إذا رجعوا ؟ وهذا دلالة لا محالة على جواز تأخير البيان إلى وقت الحاجة ، وهو بين حسن .

قوله تعالى : (أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا) ، الآية/ 87 .

يستدل به على أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وقد قيل : الصلاة هاهنا الدين ، فيستدل به على أن الصلاة تطلق بمعنى الدين «1» .

قوله تعالى : (وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ) ، الآية/ 113 .

يدل على النهي عن مجالس الظالمين ومؤانستهم ، والإنصات إليهم ، وهو مثل قوله تعالى :

(فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) «2» .

قوله تعالى : (وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ) ، الآية/ 114 .

عنى بطرفي النهار على قول ابن عباس : الفجر ، والعصر ، وعنى بقوله : زلفا من الليل المغرب والعشاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 225. 227﴾

---

(1) أنظر تفصيل هذا في تفسير الفخر الرازي ج 18 ص 43 .

(2) سورة الأنعام آية 68 .

(199/372)

وقال العلامة القنوجى :

سورة هود

وآياتها مائة وثلاث وعشرون آية

مكيّة في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر وغيرهم «1» .

قال ابن عباس وقتادة : إلا آية «2» ، وهي قوله : وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ .

وقال صلّى اللّه عليه وآله وسلّم : «اقرؤوا [هود] «3» يوم الجمعة» .

أخرجه الدارمي وأبو داود في «مراسيله» وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر والبيهقي في «الشعب» عن كعب «4» .

[الآية الأولى]

وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (113) .

وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا : فسّر الأئمة من رواة اللغة الركون : بمطلق الميل والسكون من غير تقييد بما قيد به صاحب «الكشاف» حيث قال : إن الركون هو الميل اليسير ، وهكذا فسّره المفسرون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد ، إلا من كان من المتقيدين بما ينقله صاحب «الكشاف» .

ومن المفسرين من ذكر في تفسيره للركون قيودا لم يذكرها أئمة اللغة .

---

(1) انظر : الطبري (11/ 122) ، وزاد المسير (4/ 74) .

(2) انظر : الطبري (11/ 123) ، زاد المسير (4/ 75) .

(3) ما بين [] حرّف لهود وهو خطأ واضح .

(4) إسناده ضعيف : رواه الدارمي (3404) ، وأبو داود في «مراسيله» (59) عن

كعب بن ماتع مرفوعا .

وعلته : إرسال كعب الأحبار فروايته للحديث مرسلا ، وانظر : التهذيب (8/ 193) .

(200/372)

قال القرطبي في «تفسيره» «1» : الركون حقيقة الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به ، ومن أئمة التابعين من فسّر الركون بما هو بعض من معناه اللغوي :

فروي عن قتادة وعكرمة في تفسير الآية : إن معناها لا تودوهم ولا تطيعوهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير الآية : الركون هنا الإدهان ، وذلك أن لا ينكر عليهم كفرهم .

وقال أبو العالية : معناه لا ترضوا أعمالهم «2» .

وقد اختلف أيضا الأئمة من المفسرين في هذه الآية : هل هي خاصة بالمشركين ؟

وأنهم المرادون بالذين ظلموا ؟ وقد روي ذلك عن ابن عباس .

وقيل : إنها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم ، وهذا هو الظاهر من الآية . ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار لعموم اللفظ لا لخصوص السبب .

فإن قلت : قد وردت الأدلة الصحيحة البالغة عدد التواتر ، الثابتة عن رسول اللّه صلّى

اللّه عليه وآله وسلّم ثبوتا لا يخفى على من له أدنى تمسك بالسنة المطهرة ، بوجوب طاعة الأئمة والسلاطين والأمراء حتى ورد في بعض ألفاظ الصحيح : «أطيعوا السلطان وإن كان عبدا حبشيا رأسه كالزبيبة» «3» .

وورد وجوب طاعتهم ما أقاموا الصلاة «4» ، وما لم يظهر منهم الكفر البواح «5» ، وما لم يأمروا بمعصية اللّه «6» .

---

(1) انظره في (9/ 108) .

(2) انظر : الطبري (12/ 128) ، الدر المنثور (3/ 351) . [. . . . .]

(3) حديث صحيح : رواه البخاري (2/ 184 ، 188) ، (13/ 121) ، ومسلم (12/ 225) ، عن أنس مرفوعا .

(4) حديث صحيح : رواه مسلم (12/ 244) عن عوف بن مالك مرفوعا ، وفيه : «لا ما أقاموا الصلاة» .

(5) حديث صحيح : رواه البخاري (13/ 5) ، ومسلم (12/ 228) ، عن عبادة مرفوعا وفيه : «إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من اللّه فيه برهان» .

(6) حديث صحيح : رواه البخاري (13/ 121 ، 122) ، ومسلم (12/ 226) ، عن عبد اللّه بن عمر مرفوعا قوله صلّى اللّه عليه وآله وسلّم : «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» .

وظاهر ذلك أنهم وإن بلغوا في الظلم إلى أعلى مرتبة ، وفعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به إلى الكفر البواح ، فإن طاعتهم واجبة ، حيث لم يكن ما أمروا به من معصية اللّه .

ومن جملة ما يأمرون به تولي الأعمال لهم والدخول في المناصب الدينية التي ليس الدخول فيها من معصية اللّه .

ومن جملة ما يأمرون به الجهاد وأخذ الحقوق الواجبة من الرعايا وإقامة الشريعة بين المتخاصمين منهم وإقامة الحدود على من وجبت عليه .

وبالجملة فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت أمرهم ونهيهم ، فكل ما يأمرون به مما لم يكن من معصية اللّه ، ولا بد في مثل هذا من المخالطة لهم والدخول عليهم ونحو ذلك مما لا بد منه ، ولا محيص عن هذا الذي ذكرناه من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة لتواتر الأدلة الواردة به بل وقد ورد به الكتاب العزيز : أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ [النساء : 59] ، بل ورد أنهم يعطون الذي لهم من الإطاعة وإن منعوا ما هو عليهم للرعايا ، كما في بعض الأحاديث الصحيحة : «أعطوهم الذي لهم واسألوا اللّه الذي لكم» «1» .

بل ورد الأمر بطاعة السلطان وبالغ في ذلك النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم حتى قال : «و إن أخذ مالك وضرب ظهرك» «2» .

وإن اعتبرنا مطلق الميل والسكون ، فمجرد هذه الطاعة المأمور بها مع ما يستلزمه من المخالطة عن ميل وسكون ، وإن اعتبرنا الميل والسكون ظاهرا وباطنا ، فلا يتناول النهي في هذه الآية من مال إليهم في الظاهر بأمر يقتضي ذلك شرعا ، كالطاعة أو للتقيّة مخافة الضرر منهم ، أو لجلب مصلحة عامة أو خاصة ، أو لدفع مفسدة عامة أو خاصة ، إذا لم يكن له ميل إليهم في الباطن ولا محبة ولا رضا بأفعالهم .

قلت : أما الطاعة على عمومها لجميع أقسامها - حيث لم تكن في معصية اللّه - فهي على فرض صدق مسمى الركون عليها مخصّصة لعموم النهي عنه ، ولا شك في هذا

---

(1) حديث صحيح : رواه الباري (6/ 612) ، (13/ 5) ، ومسلم (12/ 231 ، 232) عن ابن مسعود مرفوعا نحوه .

(2) حديث صحيح : رواه مسلم (12/ 237 ، 238) ، عن حذيفة مرفوعا .

ولا ريب ، فكل من أمروه ابتداء أن يدخل في شيء من الأعمال التي أمرها إليهم – مما لم يكن من معصية اللّه كالمناصب الدينية ونحوها – إذا وثق من نفسه بالقيام إلى ما وكل إليه فذلك واجب عليه ، فضلا عن أن يقال جائز له .

وأما ما ورد من النهي عن الدخول في الإمارة ، فذلك مقيد بعدم وقوع الأمر ممن تجب طاعته من الأئمة والسلاطين والأمراء ، جمعا بين الأدلة أو مع ضعف المأمور عن القيام بما أمر به ، كما ورد تعليل النهي عن الدخول في الإمارة بذلك في بعض الأحاديث الصحيحة «1» .

وأما مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة أو خاصة ، أو دفع مفسدة عامة أو خاصة ، مع كراهة ما هم عليه من الظلم وعدم ميل النفس إليها ، ومحبتها لهم ، وكراهة الموصلة لهم – لولا جلب تلك المصلحة ، أو دفع تلك المفسدة – فعلى فرض صدق مسمى الركون على هذا فهو مخصص بالأدلة الدالة على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد ، والأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، ولا تخفى على اللّه خافية .

وبالجملة : فمن ابتلي بمخالطة من فيه ظلم ، فعليه أن يزن أقواله وأفعاله وما يأتي وما يذر بميزان الشرع ، فإن زاغ عن ذلك فعلى نفسها براقش تجني ، ومن قدر على الفرار منهم ، قبل أن يؤمر من جهتهم بأمر يجب عليه طاعته فهو الأولى والأليق به .

يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين ، اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف

والناهين عن المنكر ، الذين لا يخافون فيك لومة لائم وقوّنا على ذلك ، ويسره لنا ، وأعنا عليه .

قال القرطبي في «تفسيره» «2» : وصحبة الظالم على التقيّة مستثناه من النهي بحال الاضطرار . انتهى .

وقال النيسابوري في «تفسيره» «3» : قال المحققون : الركون المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظلمة ، أو تحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم ومشاركتهم في شيء من تلك

---

(1) حديث صحيح : ما رواه مسلم (12/ 210) عن أبي ذر مرفوعا قوله صلّى اللّه عليه وآله وسلّم : «لا تأمرن اثنين ، ولا تولين مال يتيم» .

(2) انظره في (9/ 108) .

(3) المسمّى بالتيسير في عالم «التفسير» لعبد الملك بن هوازن - طبع بدار الغرب - بيروت 3 مجلدات .

الأبواب . فأما مداخلتهم لدفع ضرر أو اجتلاب مصلحة عاجلة فغير داخلة في الركون .

قال : وأقول : هذا من طريق المعاش والرخصة ، ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم

بالكلية . أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ [الزمر : 36] انتهى .

فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ : بسبب الركون إليهم وفيه إشارة إلى أن الظلمة أهل النار أو كالنار ،

ومصاحبة النار توجب لا محالة مس النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نيل المرام صـ 350 .

354 ﴾

(204/372)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة هود (11)

«الر» (1) ساكن ، مجازه مجاز فواتح سائر السور اللواتى مجازهن مجاز حروف التهجي ،

ومجازه فى المعنى . ابتداء فواتح سائر السور .

«الر كِتابٌ» (1) : مجازه مجاز المختصر الذي فيه ضمير ، كقوله : هذا كتاب .

«مِنْ لَدُنْ» (1) أي هذا قرآن من عند لدن ولدن ولدا سواء ولد .

«لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ» (5) والعرب تدخل «ألا» توكيدا وإيجابا

وتنبيها .

«وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها» (6) كل آكل فهو دابة ، ومجازه : وما دابة فى الأرض و«من» من حروف الزوائد .

«وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ» (8) أي إلى حين موقوت وأجل ، وفى آية أخرى : «وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ» (12/ 45) أي بعد حين .

«أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ» (8) ألا توكيد وإيجاب وتنبيه .

«وَحاقَ بِهِمْ» (8) أي نزل بهم وأصابهم .

(205/372)

«لَيَؤُسٌ كَفُورٌ» (9) مجازه : فعول من يئست . «1»

«وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ» (10) أي أمسناه نعماء .

«وَيَقُولُ الْأَشْهادُ» (18) «2» واحدهم شاهد بمنزلة صاحب والجميع أصحاب ، ويقول : بعضهم شهيد فى معنى شاهد بمنزلة شريف والجميع أشراف .

«أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» (18) مجازه : لعنة اللّه ، و«ألا» إيجاب وتوكيد وتنبيه .

«وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ» (23) مجازه : أنابوا إلى ربهم وتضرعوا إليه ، وخضعوا وتواضعوا

له .

---

(1) «ليؤس . . . يئست» : كذا فى البخاري ، قال ابن حجر : هو قول أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 263 .

(2) «الأشهاد» : فى البخاري : ويقال : الأشهاد واحده شاهد مثل صاحب وأصحاب قال ابن حجر : هو كلام أبى عبيدة أيضا واختلف فى المراد بهم هنا فقيل : الأنبياء ، وقيل . الملائكة (فتح الباري 8/ 266) .

(206/372)

«مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا» (24) مجازه : مثل الكافر وهو الأعمى الذي لا يبصر الهدى والحق ولا أمر اللّه وإن كان ينظر ، وهو الأصم الذي لا يسمع الحق ولا أمر اللّه وإن كان يسمع بأذنه والمؤمن وهو البصر أي المبصر الحق والهدى ، وهو السامع الذي يسمع أمر اللّه ويهتدى له ، ومجازه مجاز المختصر الذي فيه ضمير كقولك : مثل الفريقين كمثل الأعمى ، ثم رجع الوصف إلى مثل الكافر ومثل المؤمن فقال : «هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا» أي لا يستوى المثلان مثلا ، وليس موضع «هل» ها هنا موضع الاستفهام ولكن موضعها ها هنا موضع الإيجاب أنه لا يستويان ، وموضع تقرير وتخبير :

أن هذا ليس كذاك ، ولها فى غير هذا موضع آخر : موضع «قد» ، قال :

«هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً» (76/ 1) معناها : قد أتى على الإنسان .

«بادِيَ الرَّأْيِ» (27) «1» مهموز لأنه من بدأت عن أبى عمرو ، ومعناه :

أول الرأى ، ومن لم يهمز جعله ظاهر الرأى من بدا يبدو ، وقال [الراجز] :

---

(1) «بادى ، الرأى» : قرأ أبو عمرو بهمزة مفتوحة بعد الدل والباقون بياء مفتوحة . أنظر الداني 124 .

(207/372)

وقد علتنى ذرأة بادى بدى «1»

[فلم يهمز جعلها من بدا ، الذّراة الشّمط القليل فى سواد ، ملح ذرآنىّ : الكثير البياض وكبش أذرأ ، ونعجة ذرآء فى أذنها بياض شبه النّمش] .

«فَعَلَيَّ إِجْرامِي» (35) وهو مصدر أجرمت ، «2» وبعضهم يقول : جرمت تجرم ، وقال الهيردان السّعدىّ أحد لصوص بنى سعد :

طريد عشيرة ورهين ذنب بما جرمت يدى وجنى لسانى «3»

«الْفُلْكَ» (37) واحد وجميع وهى السفينة والسّفن مثل السلام واحدها السلامة مثل نعام ونعامة ، وقتاد وقتادة . «4»

---

(1) من أرجوزة لأبى نخيلة فى الأغانى 81/ 151 وهو فى الكتاب 2/ 50 والطبري 12/ 17 والجمهرة 2/ 312 والشنتمرى 1/ 54 واللسان والتاج (بداء ذرأ)

(2) «فعلى . . . جرمت» : هذا الكلام فى البخاري وقال ابن حجر : هو كلام أبى عبيدة وأنشد «طريد» البيت (فتح الباري 8/ 265) .

(3) : الهيردان : لعله الهيردان بن خطار بن حفص بن مجدع بن وابش بن عمير بن عبد شمس بن سعد ، كان لصا فهرب إلى المهلب بخراسان انظر ترجمته فى معجم المرزباني 488 . . والزبرقان الذي ورد اسمه فى الفروق هو الزبرقان بن بدر ابن امرئ القيس بن خلف بن بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم السعدي ، أنظر ترجمته فى الإصابة رقم 2768 . - والبيت فى الطبري 21/ 18 والقرطبي 9/ 29 بغير عزو ، وفى اللسان والتاج (جرم) على أنه من إنشاد أبى عبيدة وهو أيضا فى فتح الباري 88/ 265 . [. . . . .]

(4) «الفلك . . . والسفن» : وفى البخاري : الفلك والفلك واحد وهى السفينة والسفن . قال ابن حجر : كذا وقع لبعضهم بضم الفاء فيهما وسكون اللام فى الأولى وفتحها فى الثانية وللآخرين بفتحتين فى الأولى وبضم ثم بسكون فى الثانية ورجحه ابن

التين وقال : الأول واحد والثاني جمع مثل أسد وأسد ، قال عياض ولبعضهم بضم ثم سكون فيهما جميعا وهو الصواب ، والمراد أن الجمع والواحد بلفظ واحد ، وقد ورد ذلك فى القرآن ، فقد قال فى الواحد : «فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» ، وقال فى الجميع : «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ» والذي فى كلام أبى عبيدة الفلك واحد وجمع وهى السفينة والسفن . وهذا أوضح فى المراد (فتح الباري 8/ 266) .

(208/372)

«بِسْمِ اللَّهِ مَجْرٰاها» (41) أي مسيرها وهى من جرت بهم ، ومن قال :

مجراها جعله من أجريتها أنا ، قال لبيد :

وعمرت حرسا قبل مجرى داحس لو كان للنفس اللّجوج خلود «1»

[قوله : حرسا يعنى دهرا] ويقال : مجرى داحس .

«وَمُرْساها» (41) أي وقفها وهو مصدر أرسيتها أنا . «2»

«وَغِيضَ الْماءُ» (44) غاضت الأرض والماء ، وغاض الماء يغيض ، أي ذهب وقلّ .

---

(1) «مجراها . . . أرسيتها أنا» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/

.266

(2) : ديوانه 1/ 25 - وإصلاح المنطق 186 واللسان والتاج (جرى) .

(209/372)

«الْجُودِيِّ» (44) اسم جبل ، قال زيد بن عمرو بن نفيل العدوىّ :

وقبلنا سبّح الجودىّ والجمد «1»

«إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ» (54) وهو افتعلك من عروته ، أي صابك ، قال [أبو خراش . «2»

تذكّر دخلا عندنا وهو فاتك] من القوم يعروه اجتراء ومأثم «3»

«إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها» (56) مجازه إلا هو فى قبضته وملكه وسلطانه .

«أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» (59) «4» وهو العنود أيضا والعاند سواء وهو الجائر العادل عن الحق قال [الراجز] :

---

(1) : «زيد . . . العدوى» : والد سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة وقد اختلفوا فى كون زيد من الصحابة لأنه مات قبل البعثة ، انظر الأغانى 3/ 15 والإصابة 2/ 58 ، رقم 2908 - والبيت من الأبيات المختلف فى عزوها قال البغدادي :

واختلف شراح شواهده (كتاب سيبويه) - فأكثرهم قال: إنها لأمية بن أبى الصلت، وقال بعضهم: إنها ليزيد بن عمرو بن نفيل والصواب ما قدمناه (الخزانة 2/ 37). يعنى ترجيحه نسبة البيت إلى ورقة بن نوفل انظر البيت فى ديوان أمية بن أبى الصلت رقم 70 والكتاب 1/ 136 والشنتمرى 1/ 164 واللسان والتاج (جود).

(2) «اعتراك»: تفسير أبى عبيدة لهذه الكلمة فى البخاري، وأشار إليه ابن حجر بقوله: هو كلام أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 266).

(3): ديوان الهذليين 2/ 147.

(4) «عنيد»: فى البخاري: عنيد وعنود وعاند واحد، وهو تأكيد التجبر، قال ابن حجر: هو قول أبى عبيدة بمعناه، لكن قال: وهو العادل عن الحق (فتح الباري 8/ 266).

(210/372)

إنى كبير لا أطيق العنّدا «1»

يعنى من الإبل، ويقال عرق عاند، أي ضار لا يرقا، قال العجّاج:

مما ضرى العرق به الضّرىّ «2»

«هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ» (61) أي ابتدأكم فخلقكم منها .

«وَاسْتَعْمَرَكُمْ» (61) مجازه : جعلكم عمّار الأرض ، [يقال : اعمرته الدار ، أي جعلتها له أبدا وهى العمرى وأرقبته : أسكنته إيّاها إلى موته .]

«قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ» (69) ، قالوا : لا يتمكن فى النصب وله موضعان : موضع حكاية ، وموضع آخر يعمل فيما بعده فينصب ، فجاء قوله : قالوا سلاما ، منصوبا لأن قالوا : عمل فيه فنصب ، وجاء قوله «سلام» مرفوعا على الحكاية ، ولم يعمل فيه فينصبه .

---

(1) : هو مع أشطار أخرى فى الاقتضاب ص 415 بغير عزو ، والطبري 12/ 35 والجمهرة 2/ 283 .

(2) : ديوانه 71 - وتهذيب الألفاظ 107 .

(211/372)

«أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ» (69) فى موضع محنوذ وهو المشوىّ ، يقال : حنذت فرسى ، أي سخّنته وعرّقته ، «1» قال العجّاج :

ورهبا من حنذه أن يهرجا «2»

(1) «حنذت . . . وعرقته» حكى الطبري هذا الكلام، وقال: فقال بعض أهل البصرة: معنى المحنوذ المشوى، قال: ويقال . . . إلخ. واستشهد لقوله ببيت الراجز (12/ 40).

(2): ديوانه 9 - والطبري 12/ 40 واللسان (حنذ).

(212/372)

«نَكِرَهُمْ» (70) وأنكرهم سواء، قال الأعشى:

فأنكرتنى وما كان الذي نكرت من الحوادث إلّا الشّيب والصّلعا «1»

قال أبو عبيدة: قال يونس: قال أبو عمرو: «2» أبا الذي زدت هذا البيت فى شعر الأعشى إلى آخره فذهب فأتوب إلى اللّه منه، وكذلك استنكرهم.

«وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً» (70) أي أحسّ وأضمر فى نفسه خوفا.

«حَمِيدٌ مَجِيدٌ» (73) أي محمود ماجد.

«عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ» (74) أي الذّعر والفزع.

«مُنِيبٌ» (75) أي راجع تائب.

«سِيءَ بِهِمْ» (77) وهو فعل بهم السوء.

«هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ» (77) أي شديد ، يعصب الناس بالشر ، وقال [عدىّ بن زيد] :

---

(1) : ديوانه 72 - والطبري 12/ 41 والأغانى 16/ 18 والموشح 52 والصحاح واللسان والتاج (نكر) والقرطبي 9/ 67 وشواهد الكشاف 169 .

(2) «قال أبو عمرو . . . إلخ» : هذا الكلام منسوب لأبى عبيدة فى شرح ديوان الأعشى .

(213/372)

وكنت لزاز خصمك لم أعرّد وقد سلكوك فى يوم عصيب «1»

وقال :

يوم عصيب يعصب الأبطالا عصب القوىّ السّلم الطّوالا «2»

وقال :

وإنك إلا ترض بكر بن وائل يكن لك يوم بالعراق عصيب «3»

«يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ» (78) «4» أي يستحثون إليه ، قال :

بمعجلات نحوه مهارع «5»

«أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ» (80) من قولهم : آويت إليك وأنا آوى إليك أويّا والمعنى :

صرت إليك وانضممت ، «6» ومجاز الركن ها هنا عشيرة ، عزيزة ، كثيرة ، منيعة ، قال :

يأوى إلى ركن من الأركان فى عدد طيس ومجد بان «7»

الطيس : الكثير ، يقال : أتانا بلبن طيس وشراب طيس أي كثير .

---

(1) : فى الطبري 12/ 47 . [. . . . .]

(2) نسب الطبري هذا البيت إلى كعب بن جعيل (12/ 47) .

(3) فى الطبري 12/ 47 والقرطبي 9/ 74 .

(4) «أي . . . إليه» : روى صاحب اللسان هذا التفسير عن أبى عبيدة (هرع) .

(5) : فى الطبري 12/ 47 والقرطبي 9/ 7 .

(6) «آويت . . . وانضممت» : نقل الطبري (12/ 50) هذا الكلام برمته .

(7) : فى الطبري 13/ 50 .

(214/372)

«فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ» (81) يقال : سريت وأسريت به ، [قال النابغة الذّبيانىّ :

سرت عليه من الجوزاء سارية تزجى الشّمال عليه جامد البرد] «1»

ولا يكون إلا بالليل .

«فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ [بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ] إِلَّا امْرَأَتَكَ» منصوبة لأنها فى موضع مستثنى واحد من جميع فيخرجونه منهم ، يقال :

مررت بقومك إلّا زيدا وكان أبو عمرو بن العلاء يجعل مجازها على مجاز قوله :

لا يلتفت من أهلك إلّا امرأتك فإنها تلتفت فيرفعها على هذا المجاز [و السّرى بالليل ، قال لبيد :

فبأت وأسرى القوم آخر ليلهم وما كان وقّافا بغير معصّر] «2»

---

(1) ديوانه من الستة ص 6 واللسان والتاج (سرى) والقرطبي 9/ 79 .

(2) ديوانه 1/ 65 - والطبري 12/ 129 واللسان والتاج (سرى) .

(215/372)

«حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ» (82) وهو الشديد من الحجارة الصّلب ومن الضرب ، «1» قال :

ضربا تواصى به الأبطال سجّيلا «2»

وبعضهم يحوّل اللام نونا كقول النّابغة :

---

(1) «وهو . . . الضرب» : قال الطبري (12/ 54) : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من البصريين (يريد أبا عبيدة) يقول : السجيل هو الصلب الشديد من الحجارة ومن الضرب ويستشهد على ذلك بقول الشاعر . . . إلخ. وفى اللسان نقلا عن الأزهرى : قال أبو عبيدة : «من سجيل» تأويله كثيرة شديدة ، وقال :

إن مثل ذلك قول ابن مقبل ، وأنشد البيت ، ثم : قال : سجين وسجيل بمعنى واحد (سجل) . وحكى القرطبي (9/ 83) تفسيره هذا عنه ، وذكر إنشاده البيت .

وفى البخاري : سجيل الشديد الكثير ، سجيل وسجين واحد ، واللام والنون أختان ، وقال تميم بن مقبل : «ورجلة يضربون» البيت . قال ابن حجر : هو كلام أبى عبيدة بمعناه قال فى قوله تعالى : حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ . . . قال ابن مقبل ، فذكره قال قوله : سجيلا أي شديدا وبعضهم يحول اللام نونا ، وقال فى موضع آخر : السجيل الشديد الكثير ، وقد تعقبه ابن قتيبة بأنه لو كان بمعنى السجيل الشديد لما دخلت عليه «من» وكان يقول : حجارة سجيلا ، لأنه لا يقال : حجارة من شديد ، ويمكن أن يكون الموصوف حذف . وأنشد غير أبى عبيدة البيت المذكور فأبدل قوله ضاحية . . . إلخ (فتح الباري 8/ 265) .

(2) من قصيدة نونية لابن مقبل فى جمهرة الأشعار 160 - 163 وهو فى الطبري

12/ 54 والقرطبي 9/ 83 واللسان (سجل) وصدره :

ورجلة يضربون البيض ضاحية

(216/372)

بكل مدجّج كاللّيث يسمو على أوصال ذيّال رفنّ «1»

يريد رفلّ .

[«منضوض» (82) : بعضه على بعض] :

«مُسَوَّمَةً» (83) أي معلمة بالسيماء وكانت عليها أمثال الخواتيم .

«وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ» (84) مدين لا ينصرف لأنه اسم مؤنثة ، ومجازها مجاز المختصر الذي فيه ضمير : وإلى أهل مدين ، وفى القرآن مثله ، قال : «وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ» (12/ 82) أي أهل القرية «وسئل العير» أي من فى العير . «2»

---

(1) فى ديوانه من الستة رقم 39 وص 31 - وهو فى السمط أيضا له (179 و217) ونسب فى اللسان (رفن) إلى الجعدي ، قال البطليوسي فى الاقتضاب (339) : هذا البيت للنابغة الجعدي وهو من الشعر المنحول له .

(2) «وإلى مدين . . . من فى العير» : روى ابن حجر هذا الكلام عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 267) .

(217/372)

«وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا» (92) مجازه : ألقيتموه خلف ظهوركم فلم تلتفتوا إليه ، ويقال : للذى لا يقضى حاجتك ولا يلتفت إليها : ظهرت بحاجتي وجعلتها ظهريّة أي خلف ظهرك «1» وقال :

وجدنا بنى البرصاء من ولد الظّهر «2»

أي من الذين يظهرون بهم ولا يلتفتون إلى أرحامهم . «3»

«أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ» (96) مجازه : بعدا لأهل مدين ، ومجاز «ألا» مجاز التوكيد والتثبيت والتنبيه ونصب «بعدا» كما ينصبون المصادر التي فى مواضع الفعل كقولهم : بعدا وسحقا وسقيا ورعيا لك وأهلا وسهلا .

«الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ» (99) «4» مجازه مجاز العون المعان ، يقال : رفدته عند الأمير ، أي أعنته وهو من كل خير وعون ، وهو مكسور الأول وإذا فتحت أوله فهو القدح الضّخم قال الأعشى :

---

(1) «ويقال . . . ظهرك» : راجع الطبري 12/ 60 .

(2) : عجز بيت صدره :

فمن مبلغ أبناء مرة أننا

وهو لأرطأة بن سهية فى اللسان (ظهر) وفى الطبري غير مغزو 12/ 60 . [. . . . .]

(3) «أي . . . أرحامهم» : هكذا فى التاج (ظهر) .

(4) «الرفد المرفود» : فى البخاري : العون المعين ، رفدته أعنته . قال ابن حجر (8/ 227) : كذا وقع فيه . وقال أبو عبيدة : «الرفد المرفود» . . .

أعنته . قال الكرماني : وقع فى النسخة التي عندنا العون المعين والذي يدل عليه التفسير المعان .

(218/372)

ربّ رفد «1»

«غَيْرَ تَتْبِيبٍ» (102) أي تدمير وإهلاك وهو من قولهم : تبّبته وفى القرآن : «تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ» (18/ 1) ويقال : تبّا لك .

«عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» (109) أي غير مقطوع ، ويقال : جذذت اليمين أي الحلف ،

«جذّ الصّلّيانة» «2» أي حلف فقطعها ومنه جذذت الحبل إذ قطعته، ويقال: جذّ اللّه دابرهم، «3» أي قطع أصلهم وبقيّتهم.

«فِي مِرْيَةٍ» (110) أي فى شكّ، ويكسر أولها ويضمّ، ومرية الناقة مكسورة وهى درّتها، وكذلك مرية الفرس وهى أن تمرية بساق أو زجر أو سوط.

---

(1): مطلع بيت تمامه:

رب رفد هرقته ذلك اليوم وأسرى من معشر أقتال

فى ديوانه 13 - والطبري 12/ 63.

(2) «جذ الصليانة»: هذا مثل نصه: «جذها جذ العير الصليانة». وهو فى جمهرة الأمثال 1/ 226 والميداني 1/ 107 واللسان (جذذ) والفرائد 1/ 134.

والصليان بقل ربما اقتلعه العير من أصله إذا ارتعاه ووزنه فعيلان يضرب لمن يسرع الحلف من غير تمسكث. والهاء فى جذها: كناية عن اليمين.

(3) «جذ . . . دابرهم». مثل أيضا، وهو فى مجمع الأمثال للميدانى 1/ 119 والفرائد 1/ 149.

«وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» (113) أي لا تعدلوا ولا تنزعوا إليهم ولا تميلوا ، ويقال : ركنت إلى قولك أي أردته وأحببته وقبلته ، ومجاز «ظلموا» هاهنا : كفروا .

«وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ» (115) أي ساعات وواحدتها زلفة ، أي ساعة ومنزلة وقربة ومنها سميت المزدلفة ، قال العجّاج :

ناج طواه الأين مما وجفا طيّ اللّيالى زلفا فزلفا «1»

سماوة الهلال حتى احقوقفا «2»

[سماوته : شخصه وسماوة الرجل شخصه ، ووقع ، طيّ على ضمير فعل للمطى فيصير به فاعلا] .

«فَلَوْلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ» (117) مجازه : فهلا «3» كان من القرون الذين من قبلكم ذووا بقية ، أي يبقون و«يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ

---

(1) «وزلفا . . . فزلفا» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 268 .

(2) ديوانه 84 - والكتاب 1/ 150 والطبري 12/ 72 والصحاح واللسان والتاج (زلف) والشنتمرى 1/ 180 وفتح الباري .

(3) «فلولا . . . فهلا» : وفى البخاري : فلولا كان فهلا كان . قال ابن حجر : (8/ 267) وهو قول أبى عبيدة ، قال فى قوله تعالى : «فلولا» الآية إلى قوله «من القرون» .

فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ» منصوب لأنه استثناء من هؤلاء القرون وهم ممن أنجينا ، ومجازه : مجاز المختصر الذي فيه ضمير : فلو لا كان من القرون الذين كانوا من قبلكم .

«ما أُتْرِفُوا فِيهِ» (117) «1» أي ما تجبّروا وتكبّروا عن أمر اللّه وصدّوا عنه وكفروا ، قال :

تهدى رؤوس المترفين الصّدّاد إلى أمير المؤمنين الممتاد «2»

الممتاد من ماد يميد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 1 صـ 285. 301 ﴾

(1) «ما أترفوا . . . عنه» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 267) .

(2) البيت فى ديوان العجاج 40 - وفى الطبري 12/ 79 .

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «هود» عليه السلام

[سورة هود (11) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1)

قوله تعالى : الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ [1] وهذه استعارة . لأن آيات القرآن لما ورد فى بعضها ذكر الحلال والحرام ، واستمرت على ذلك بين وعد مقدم ، ووعيد مؤخر ، ونذارة مبتدأ بها ، وبشارة معقب بذكرها شبه القرآن- لذلك- بالعظائم المفصلة ، التي توافق فيها بين الأشكال تارة ، وتؤلف بين الأضداد تارة ليكون ذلك أحسن فى التنضيد ، وأبلغ فى الترصيف . وهذه من بدائع الاستعارات .

[سورة هود (11) : آية 5]

أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (5)

وقوله سبحانه : أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ، أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ [5] وهذه استعارة . لأن حقيقة الشيء لا تتأتى فى الصدور . والمراد

بذلك- واللّه أعلم- أنهم يثنون صدورهم على عداوة اللّه ورسوله ، صلّى اللّه عليه وآله .

وذلك كما يقول القائل : هذا الأمر فى طىّ ضميرى . أي قد اشتمل عليه قلبى . فيكون قوله تعالى : يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ بمنزلة قوله يطوون صدورهم .

ولفظ يثنون أعذب استماعا وأحسن مجازا .

وقيل أيضا : بل معنى ذلك أن المنافقين كانوا إذا اجتمعوا تخافتوا بينهم فى الكلام ، وحنوا ظهورهم تطامنا عند الحوار ، خوفا من رمق العيون ، ومراجم الظنون ، لوقوع ما يتفاوضونه فى أسماع المسلمين . فإذا انحنت ظهورهم ، انثنت صدورهم . فأعلمنا اللّه سبحانه أنهم وإن أغلقوا أبوابهم ، وأسدلوا ستورهم ، واستغشوا ثيابهم- بمعنى اشتملوا بها ، وبمعنى أدخلوا رءوسهم فيها على ما قاله بعضهم- فأنه تعالى يعلم غيب صدورهم ، ودخائل

(222/372)

قلوبهم ، ومرامز أعينهم ، ومحاذف «1» ألسنتهم .

[سورة هود (11) : الآيات 9 الى 10]

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ

ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10)

وقوله سبحانه وتعالى : وَلَئِنْ أَذَقْنَا «2» الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ [9] وهذه استعارة لأن إذاقة الرحمة ونزعها ليسا بحقيقة ها هنا . وإنما المراد بذلك أنا إذا رحمنا الإنسان بعد توبته من مواقعة [فى] «3» بعض الذنوب فقبلنا متابه ، وأسقطنا عقابه ، ثم واقع بعد ذلك ذنبا آخر ، واستحق أن نعاقبه وأن نزيل رحمتنا عنه ، يئس من الرحمة وقنط من المغفرة . وليس الأمر كذلك ، لأنه إذا عاود الإقلاع ، أمن الإيقاع .

وقد أخرج هذا الكلام مخرج الذم لمن يواقع المعصية ، فيقنط من قبول التوبة .

فمعنى أذقنا الإنسان منا رحمة . أي عرّفناه أنا قد رحمناه . إذ قد أوجبنا قبول التوبة إذا أخلص العبد فيها ، وأتى بها على شروطها وحدودها .

ومعنى ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ أي أزلنا عنه رحمتنا لأجل اقترافه المعصية التي اقترفها فى المانى «4» . وقد يجوز أن يكون المراد بالرحمة ها هنا – والله أعلم – النعمة والسرّاء . ويكون انتزاعها منه بمعنى إبداله بها الشدة والضرّاء ، إجراء له فى مضمار الابتلاء والاختبار ، أو مصلحة يكون معها أقرب إلى الإصلاح «5» والرشاد . ومما يقوّى ذلك قوله تعالى بعد هذه الآية : وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ [10]

---

(1) هكذا بالأصل . ولعلها مرامى الالسنة بالكلام كما يحذف بالحجر أي يرمى به

(2) فى الأصل «و إذا أذقنا» وهو تحريف من الناسخ الذي كثر تحريفه حتى فى النص القرآنى .

والصواب «و لئن أذقنا» .

(3) هذه اللفظة بالأصل . ولعلها زائدة لأن المعنى يستقيم بدونها ، ولهذا وضعناها بين حاصرتين .

(4) هكذا بالأصل ، ولم نهتد إلى تصويب لها .

(5) فى المتن : الإصلاح ، وقد غيرت فى الهامش إلى «الصلاح» بدلا منها .

(223/372)

[سورة هود (11) : آية 28]

قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (28)

وقوله سبحانه : وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ [28] الآية . وهذه استعارة . لأن الرحمة لا توصف بالعمى وإنما يوصف الناس بالعمى عن تمييز مواقعها ، وإدراك مواضعها . فلما وصفوا بالعمى عنها حسن أن يوصف بذلك فى القلب «1» . كما يقال :

أدخلت الخاتم فى أصبعى ، والمغفر فى رأسى . وإنما الأصبع دخلت فى الخاتم ، والرأس دخل فى المغفر . وقد يجوز أن يكون قوله سبحانه : فَعُمِّيَتْ «2» عَلَيْكُمْ .

بمعنى خفيت عليكم ، كما يقول القائل : قد عمى علىّ خبرهم . وعمى علىّ أثرهم . أي خفى عنى الأثر والخبر .

[سورة هود (11) : آية 31]

وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31)

وقوله سبحانه : وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ «3» تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً [31] . وهذه استعارة . كما يقول القائل : اقتحمت فلانا «4» عينى ، واحتقره طرفى .

إذا قبح فى منظر عينه خلقة ، وصغر دمامة . ليس أن العين على الحقيقة يكون منها الاحتقار ، أو يجوز عليها الاستصغار .

[سورة هود (11) : آية 34]

وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34)

وقوله سبحانه : وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ، إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ [34] وذكر الإغواء ها هنا من قبيل الاستعارة وإن لم يكن من صريحها . وكذلك لفظ

المكر ، والاستهزاء ، وما يجرى هذا المجرى . لأن المراد بمعاني هذه الألفاظ غير المراد بظواهرها . فالمتعارف من الإغواء هو الدعاء إلى الغى والضلال . وذلك غير جائز على اللّه سبحانه ، لقبحه وورود أمره بضده . والمراد إذن بالإغواء ها هنا تخييبه سبحانه

---

(1) ليس القلب هنا بمعنى الجارحة التي فى الجسم ، ولكنه القلب اللفظي والمعنوي ، كما تقول : أدخلت الخاتم فى الأصبع بدلا من أدخلت الأصبع فى الخاتم .

(2) فعميت بالتشديد هى قراءة الأعمش وحمزة والكسائي .

(3) فى الأصل «الذي» بصيغة المفرد ، وهو تحريف من الناسخ . والصواب» للذين بصيغة الجميع .

(4) فى الأصل : فلان وهو تحريف من الناسخ [. . . . .]

(224/372)

لهم من رحمته ، لكفرهم وذهابهم عن أمره . ومن الشاهد على ذلك قوله تعالى : «1» فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا . أي خيبة من الرحمة ، وارتكاسا فى النقمة . وقد جاء لفظ الإغواء والمراد به التخييب فى كثير من منثور كلامهم ، ومنظوم أشعارهم .

ويجوز أن يكون الإغواء ها هنا بمعنى الإهلاك لهم. ويجوز أن يكون بمعنى الحكم بالغواية عليهم.

[سورة هود (11): آية 37]

وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37)

وقوله سبحانه: وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا [37]. وهذه استعارة.

ومعناها: واصنع الفلك بأمرنا، ونحن نرعاك ونحفظك. ليس أنّ هناك عينا تلحظ، ولا لسانا يلفظ. وذلك كما يقول القائل: أنا بعين اللّه. أي بمكان من حفظ اللّه. ومن كلامهم للظّاعن المشيّع والحميم المودّع: صحبتك عين اللّه. أي رعاية اللّه وحفظه.

[سورة هود (11): آية 44]

وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44)

وقوله سبحانه: وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي، وَغِيضَ الْماءُ، وَقُضِيَ الْأَمْرُ [44]. الآية. وهذه استعارة. لأن الأرض والسماء لا يصح أن تؤمرا وتخاطبا. لأن الأمر والخطاب لا يكونان إلا لمن يعقل، ولا يتوجهان إلا لمن يعى ويفهم.

فالمراد إذن بذلك: الإخبار عن عظيم قدرة اللّه سبحانه، وسرعة مضى أمره، ونفاذ تدبيره.

نحو قوله : إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «2» .

وهذا إخبار عن وقوع أوامره من غير معاناة ولا كلفة ، ولا لغوب ولا مشقة .

---

(1) سورة مريم الآية رقم 59 .

(2) سورة النحل . آية رقم 40 .

وفى هذا الكلام أيضا فائدة أخرى لطيفة . وهو أن قوله سبحانه : يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ .

أبلغ من قوله : يا أرض اذهبي بمائك . لأن فى الابتلاع دليلا «1» على إذهاب الماء

بسرعة . ألا ترى أن قولك لغيرك : ابلع هذا الطعام ، أبلغ من قولك له :

كل هذا الطعام ، إذا أردت منه إيصاله إلى جوفه بسرعة ؟ وكذلك الكلام فى قوله سبحانه

:

وَيا سَماءُ أَقْلِعِي . لأن لفظ الإقلاع ها هنا أبلغ من لفظ الانجلاء . لأن فى الإقلاع أيضا معنى

الإسراع بإزالة السحاب ، كما قلنا فى الابتلاع . وذلك أدلّ على نفاذ القدرة ، وطواعية

الأمور ، من غير وقفة ولا لبثة ، هذا إلى ما فى المزاوجة بين اللفظين من البلاغة العجيبة ،

والفصاحة الشريفة . إذ يقول سبحانه : يا أرض ابلعي ، ويا سماء أقلعى : ومثل هذا فى

القرآن أكثر من أن يشار إليه.

[سورة هود (11) : آية 58]

وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (58)

وقوله سبحانه: وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ [58]. وهذه استعارة. لأن العذاب فى الحقيقة لا يوصف بالغلظ والدقة، لأنه الألم الذي يلحق الحي فى قلبه أو جسمه.

وإنما وصفه تعالى بالغلظ على طريقة كلام العرب، لأنهم يصفون الأمر الهين بالضئولة والدقة، كما يصفون الأمر الشاق بالغلظ والشدة، حملا لذلك على عرفهم فى المراعاة للشىء الغليظ الكثيف، وقلة الحفل بالشيء الدقيق الضئيل. ألا ترى إلى قولهم: عرض فلان دقيق، وقدره ضئيل؟ وإلى قولهم فى مقابلة ذلك: لقى فلان فلانا بكلام غليظ، وقول ثقيل.

وقد يجوز أيضا - والله أعلم - أن يكون المراد بعذاب غليظ ها هنا الصفة لعذاب الآخرة. والعذاب إنما يقع بالآلات المستعظمة والأعيان «2» المستفظعة، مثل مقامع الحديد، والحجارة

---

(1) فى الأصل «دليل» بالرفع وهو تحريف من الناسخ، لأنه اسم أن مؤخرا فهو واجب النصب.

(2) فى الأصل «كالأعيان» . ولا محل للتشبيه هنا بعد أن مثل بمقامع الحديد والحجارة المحماة بعد ذلك .

(226/372)

المحمّاة بالجحيم . فوصف سبحانه العذاب الغليظ ، لأنه واقع بالأشياء الغليظة ، والآلات الثقيلة ، فيكون ذلك مجازا من هذا الوجه .

ومما يقوّى أن المراد بقوله تعالى : وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ عذاب الآخرة ، قوله تعالى : وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا «1» وهذه النجاة من عذاب الدنيا . ثم قال تعالى : وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ فدلّ على أن النجاة من العذاب الأول غير النجاة من العذاب الآخر . وأن الأول عذاب الدنيا ، والثاني عذاب الآخرة ، لأن العطف بالواو يقضى بذلك ، وإلّا كان وجه الكلام : فلما جاء أمرنا نجّينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا من عذاب غليظ ، ولم يكن لقوله تعالى :

وَنَجَّيْناهُمْ ثانيا معنى .

[سورة هود (11) : آية 80]

قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80)

وقوله سبحانه حاكيا عن لوط عليه السلام : قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ [80] وهذه استعارة والمراد بها : لو كنت آوى إلى كثرة من قومى ، وعدد من أهلى . وجعلهم ركنا له ، لأن الإنسان يلجأ إلى قبيلته ، ويستند إلى أعوانه ومنعته ، كما يستند إلى ركن البناء الرصين ، والنضد الأمين «2» .

وجاء جواب لو ها هنا محذوفا . والمعنى ، لو أننى على هذه الصفة لحلت بينكم وبين ما هممتم به من الفساد وأردتموه من ذنوب فحشاء . والحذف ها هنا أبلغ ، لأنه يوهم المتوعّد بعظيم الجزاء ، وبغليظ النكال ، ويصرف وهمه الى ضروب العقاب ، ولا يقف به عند جنس من أجناس المخوفات المتوقعات .

---

(1) سورة هود . الآية رقم 58 .

(2) النضد من الجبل : ما تراكم منه . والجمع أنضاد .

وليس مخرج هذا الكلام من لوط عليه السلام ، على ما ظنّه من لا معرفة له ، وقدح فيه بأن قال : ألم يكن يأوى إلى اللّه سبحانه ؟ فما معنى هذا القول الذي قاله ؟ وذلك أن لوطا على ما ذكرنا إنما أراد الأعوان من قومه ، والأركان المستند إليهم من قبيلته ، وهو يعلم أن له من

معونة اللّه سبحانه أشد الأركان ، وأعز الأعوان ، إلا أن من تمام إزاحة العلة فى التكليف حضور الناصر ، وقرب المعاضد والمرافد .

[سورة هود (11) : الآيات 83 الى 84]

مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83) وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84)

وقوله سبحانه فى صفة الحجارة المرسلة على قوم لوط : مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ، وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ [83] وهذه استعارة . لأن حقيقة التسويم هى العلامات التي يعلّم بها الفرسان والأفراس فى الحرب ، للتمييز بين الشعارات ، والتفريق بين الجماعات .

قال اللّه سبحانه : يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ «1» وقرئ «2» مُسَوِّمِينَ بفتح الواو . وقال اللّه سبحانه : وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ «3» والمعنى أنه سبحانه لما جعل تلك الحجارة حربا لهم وأعوانا عليهم وصفها بوصف رجال «4» الحرب وخيولهم ، فكأنها مرسلة من عند اللّه ، أي من عند ملائكة اللّه الذين تولّوا الرمي بها ، إرسال الخيول المسوّمة على أعدائها ، وإن لم يكن هناك تسويم على الحقيقة .

وقد قال بعضهم : إن تلك الحجارة كانت على الحقيقة معلّمة بعلامات تدل على أنها أعدت للعذاب ، وأفردت للعقاب . وذلك أملأ للقلوب ، وأعظم فى الصدور .

(1) فى الأصل «يمددكم بخمسة آلاف . . .» بدون ذكر لفظة ربكم وقد أغفلها الناسخ غفر اللّه له جريا على عادته من الإغفال والإهمال. وهذه هى الآية رقم 125 من سورة آل عمران.

(2) مسومين بالفتح هى قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي ونافع أما مسومين بكسر الواو فهى قراءة أبى عمرو وابن كثير وعاصم.

(3) سورة آل عمران. الآية رقم 14.

(4) فى الأصل «الرجال الحرب» وهو تحريف من الناسخ.

(228/372)

وقوله سبحانه: «1» وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ [84].

وهذه استعارة من وجهين: أحدهما وصف اليوم بالإحاطة، وليس بجسم فيصح وصفه بذلك. والوجه الآخر: أن لفظ محيط ها هنا كان يجب أن يكون من نعت العذاب، فيكون منصوبا. فجعله- سبحانه- من نعت اليوم فجاء مجرورا، فأما وصف اليوم بالإحاطة- وإن لم يتأتّ فيه ذلك- فالمراد به- واللّه أعلم- أنّ العذاب لما كان يعمّ المستحقّين له فى يوم القيامة حسن وصف ذلك اليوم بأنه محيط بهم أي أنه كالسياج المضروب بينهم وبين

الخلاص من العذاب والإفلات من العقاب. وأما نقل نعت العذاب إلى نعت اليوم، فالوجه فيه أن العذاب لما كان واقعا فى ذلك اليوم كان ذلك اليوم كالمحيط به، لأنه ظرف لحلوله، ووقت لنزوله.

[سورة هود (11): الآيات 86 الى 87]

بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86) قالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87)

وقوله سبحانه: بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [86] وهذه استعارة. لأن حقيقة البقية تركة «2» شىء من شىء قد مضى، ولا يجوز إطلاقه على اللّه سبحانه. فإذن يجب أن يكون المراد غير هذه الحقيقة. وقد قيل فى معنى ذلك وجوه: أحدها بقية اللّه من نعمته خير لكم. وقد قيل: بقية اللّه طاعة اللّه، وذلك لأنها تبقى رضاه وثوابه أبدا ما بقيت. وقيل بقية اللّه أي عفو اللّه عنكم ورحمته بكم «3» بعد استحقاقكم العذاب، كما يقول العرب المتحاربون بعضهم لبعض، إذا استحرّ فيهم القتل، وأعضلهم الخطب: البقية! البقيّة! أي نسألكم البقية علينا والمكافأة لنا. والبقية هاهنا والإبقاء بمعنى واحد.

---

(1) فى الأصل «إنى أخاف عليكم» بدون واو وهى ناقصة من الناسخ.

(2) فى الأصل «تركه» بالهاء لا بالتاء المربوطة.

(3) فى الأصل «و رحمته لكم».

(229/372)

وقوله سبحانه: أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا، أَوْ أَنْ «1» نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا [87] وهذه استعارة. لأن الصلاة لا يصح منها الأمر على الحقيقة، وإنما أطلق عليها ذلك، لأنها بمنزلة الآمر بالخير، والناهي عن الشر.

وقيل: المراد بذلك: أدينك يأمرك بهذا؟ أي فى شريعتك ودينك الأمر بهذا؟ فإذا كان ذلك فى عقد الدين حسن أن يضاف الأمر به إلى الدين:

وفى هذا الكلام أيضا مجاز آخر. وهو أنه تعالى قال: أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا [87] وليس يصح على ظاهر الكلام أن يؤمر شعيب بأن يترك قومه شيئا هم عليه، وإنما المعنى- والله أعلم- أصلاتك تأمرك أن تأمرنا بترك ما يعبد آباؤنا؟ فاكتفى بذكر الأمر الأول عن ذكر الأمر الثاني، لأنه كالمعلوم من فحوى الكلام.

وهذا من غوامض أسرار القرآن.

[سورة هود (11): آية 92]

قالَ يا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92)

وقوله سبحانه: أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ، وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا [92]. فهذه استعارة. لأن اللّه سبحانه لا يجوز عليه أن يجعل ظهريا على الحقيقة. فالمراد أنكم جعلتم أمر اللّه سبحانه وراء ظهوركم. وهذا معروف فى لسان العرب أن يقول الرجل منهم لمن أغفل قضاء حاجته، أو ثنى عطفا على عذله وعتابه: جعلت حاجتى وراء ظهرك، وتركت مقالى دبر أذنك. أي لم تعن بحاجتي، ولم تصغ إلى معاتبتى.

[سورة هود (11): آية 94]

وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (94)

وقوله سبحانه وتعالى: وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ [94]. وهذه استعارة، لأن حقيقة الأخذ إنما يوصف بها الأجسام. والصيحة عرض من الأعراض، لأنها بعض الأصوات، إلا أنها أقوى للأسماع صكا وقرعا،

---

(1) فى الأصل «وأن نفعل . . .» وهو تحريف من الناسخ. [. . . . .]

وأبلغ فى القلوب وجلا وروعا . . والمراد أن هلاكهم لما كان عن الصيحة حسن أن يقال : إنها أخذتهم بمعنى ذهبت بنفوسهم ، وأتت على جمعهم .

[سورة هود (11) : الآيات 98 الى 100]

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (99) ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ (100)

وقوله تعالى : فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ، وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً ، وَيَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ [98- 99] فقوله تعالى : وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ وبِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ استعارتان . لأنه تعالى جعل فرعون فى تقدمه قومه إلى النار بمنزلة الفارط «1» المتقدم للوارد إلى الورد ، كما كان فى الدنيا متقدمهم إلى الضلالة ، وقائدهم إلى الغواية ، وجعل النار بمنزلة الماء الذي يورد ، ثم قال تعالى :

وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ لأنه ورد لا يجيز «2» ، الغصة ، ولا ينقع الغلة .

وقد اختلف العلماء فى قوله تعالى : وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ . وهل ذلك ذم لنار جهنم على الحقيقة أو المجاز ، فقال أبو على «3» محمد بن عبد الوهاب الجبّائى : ذلك على طريق المجاز ، والمعنى بئس وارد النار . وقال أبو القاسم البلخي «4» : بل ذلك على طريق

الحقيقة.

فأما قوله سبحانه: وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ [99] فإنما قلنا إنه استعارة، لأن حقيقة الرّفد العطية. يقال رفده يرفده رفدا ورفدا بفتح الراء وكسرها. ولكن اللعنة لما جعلت بدلا من الرفد لهم عند انتقالهم من

---

(1) الفارط: اسم فاعل من فرط بمعنى سبق وتقدم، انظر القاموس المحيط.

(2) هكذا بالأصل

(3) أبو على محمد الجبائي كان رأسا من رءوس المعتزلة وشيخ علماء الكلام فى عصره. وتنسب إليه طائفة «الجبائية» والجبائي نسبة إلى «جبى» من قرى البصرة. توفى سنة 303 ه. وذكر ابن حوقل فى «المسالك والممالك» أن جبى مدينة ورستاق عريض مشتبك العمائر بالنخل وقصب السكر وغيرهما، ومنها أبو على الجبائي الشيخ الجليل إمام المعتزلة ورئيس المتكلمين فى عصره.

(4) أبو القاسم البلخي هو عبد اللّه بن أحمد الكعبي، كان رأس طائفة من المعتزلة يقال لهم الكعبية.

والكعبي نسبة إلى بنى كعب، والبلخي نسبة إلى بلخ إحدى مدن خراسان. توفى سنة 317 ه.

دار إلى دار ، على عادة المنتجع المسترفد أو الرجل المتزود ، جاز أن يسمى رفدا ، على طريق المجاز ، كما قال تعالى : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ «1» والبشارة فى الأعم الأغلب إنما تكون بالخير لا بالشر . ولكن لما جعل إخبارهم باستحقاق العذاب فى موضع البشارة لغيرهم باستحقاق الثواب جاز أن يسمى فى ذلك بشارة .

وقوله سبحانه : ذِلكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ [100] .

وهذه استعارة . والمعنى : منها قائم البناء ، خال من الأهل ، ومنها منقوض الأبنية ، ملحق بالأرض ، تشبيها بالزرع المحصود . إلى هذا المعنى يومىء قوله تعالى : وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ «2» . وقوله سبحانه : وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها «3» . والعروش الأبنية . أي خالية من أهلها ، على ما فيها من بواقى أبنيتها .

وقد يجوز أن يكون ذلك كناية عن أهل القرى ، فكأنه سبحانه شبّه الأحياء الباقين بالزرع النامي ، وشبّه الأموات الهالكين بالزرع الذاوي . وذلك أحسن تمثيل ، وأوقع تشبيه .

[سورة هود (11) : آية 119]

إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ

(119)

وقوله سبحانه : وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [119] .

وهذه استعارة . والمراد ها هنا بتمام كلمة اللّه سبحانه صدق وعيده الذي تقدّم الخبر به ، وتمام وقوع مخبره مطابقا لخبره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 158 . 168 ﴾

---

(1) سورة آل عمران . الآية رقم 21 .

(2) سورة الحج . الآية رقم 45 .

(3) سورة البقرة . الآية رقم 259 .

(232/372)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة هود

بدأت سورة هود كما بدأت سور كثيرة بالحديث عن القرآن الكريم: "كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير" . ولا غرو فالكتاب العظيم قاعدة الإسلام ، وبرهان رسالته ، وسر خلوده ، وقد تلقاه الرسول ليبلغه إلى الناس كافة فيخرجهم من الشرك إلى

التوحيد ، ومن العوج إلى الاستقامة ، فالتشبث بالله وحده أساس النجاة: " ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير " . ويظهر أن عبء البلاغ شديد ، أحس الرسول معه بالمعاناة ، فقد جاء فى السنة: قال أبو بكر: سألت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : ما شيبك ؟ قال: شيبتنى هود وأخواتها . . ! ! . ترى ماذا فى هذه السورة ينبت الشيب ؟ لقد شرعت أبحث عن السبب ! فقلت: لعله مصارع الأمم التى ضلت فحاق بها الهلاك ؟ إن هذه المصارع قضها الله على نبيه فى سور أخرى فلم تحدث هذا الأثر ! . هل تنكر الناس للرسول وإشاحتهم عنه معرضين هو الذى شيبه ؟ فقد جاء فى هذه السورة: " ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور " . وقد استبعدت هذا السبب ، فإن الرسول أكبر من أن يهتز لصدود الجهلة ! . إذن ما لسبب ؟ إن هناك شيئا لاحظته فى هذه السورة لم ألحظه فى غيرها : كثرة التوجيهات التى تمس شخص الرسول ، وتتناوله بضمير الخطاب المفرد بين الفينة والفينة ، كأنما تشعره بما هو مكلف به من بلاغ . وذلك بدءا من قوله تعالى له: " فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل " فى هذه الآية وحدها خطاب تكرر الضمير فيه ثلاث مرات

متصلا ، ومرة واحدة منفصلا . .

وظل الأمر كذلك يتكرر على هذا النسق عشرات المرات - كما سنرى - حتى آخر آية فى السورة: " ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون " . عقب قصة نوح مع قومه ، وبعد هلاكهم بالطوفان جاءت هذه الآية خطابا للرسول الكريم: " تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين " . ثلاثة ضمائر متصلة غير الضمير المنفصل ، تتجه كلها إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وينضم إليها فى النهاية أمر بالصبر ، والعاقبة للتقوى ! . وفى أثناء القصة نفسها يتوقف السرد الدافق لتجىء هذه الآية: " أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون " . وحاشاه أن يفترى إنه الصادق الأمين ، وسيبقى إلى جانب الصدق حتى يكشف القدر عن أهدى الفريقين . . . ويحكى القرآن الكريم قصة عاد وكيف تحدَّت هودا وآذته ، ثم يقول رب العالمين : "ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ" ويتجه الخطاب بعدئذ إلى رسول الله: "وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد" . وما حدث لعاد حدث مثله لثمود ، واتجه الخطاب لرسول الله - صلى الله عليه

وسلم ـ يلفته إلى هذا المصير ، فى قوله تعالى: " فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز" . وبعد ما حل بقوم لوط من دمار زلزل مدينتهم بلغ الله نبيه هذا المصير بقوله: " فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد " والجملة الأخيرة تهديد للعرب الذين يمضون فى طريق الغواية دون متاب . وبعد هلاك مدين والفراعنة يقول الله لنبيه: " ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد " وتتكاثر ضمائر الخطاب فى أواخر السورة تكاثرا مثيرا حتى

لتبلغ ثمانية عشر ضميرا ، عدا الأوامر المصاحبة الكثيرة فما تظن وقع ذلك على فؤاد صاحب الرسالة ؟ ! .

ويبدأ ذلك من قوله تعالى: " وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب * وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد " . ويتكرر اسم الرب مضافا إلى ضمير الخطاب مرتين عند ذكر جزاء القيامة " فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير

وشهيق * خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد " ومرة ثالثة عند ذكر السعداء : " وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ" . ثم يقول الله له: " فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء . . . " ويذكره بقضائه السابق أن يرجى مجازاة الناس كلهم إلى يوم موعود : " ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم " وإلى أن يقع هذا اليوم الجامع فعلى صاحب الرسالة أن يصدع بما يؤمر ، وأن يتحمل آلام الاختبار وطول الانتظار ، وعلى من معه أن يتأسوا به فى هذا الصبر الطويل "فاستقم كما أمرت ومن تاب معك" ، " وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين" . وتتكرر ضمائر الخطاب كلما قاربت السورة الانتهاء ، وتدبر قول الله لرسوله: " وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون * ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين" . ألا يفسر هذا قول الرسول الكريم " شيبتنى هود وأخواتها " ؟ . المعصية العابرة لا تدمر المستقبل ، إنها تولد لتموت ، وقد يلحقها من الندم ما يمحو لها كل ذكرى حسنة . بل ربما كانت " لقاحا " يحصن من الوقوع فى مثيلاتها ، فنفعت من حيث ضرت ! . إن المعاصى التى تهلك الأمم هى التى تستقر فى النفس ولا تعبرها ! تستقر فيها لتكون

جزءا منها ، ولتكون بعدئذ جزءا من المجتمع الكبير ، لعلها تتحول إلى تقليد متبع أو إلى تشريع قائم ، فيكون البعد عنها مستغربا والنهى عنها جريمة ! ! . وتدبر كلام قوم لوط له: " . . . وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون " لقد أمسى التطهر منكرا والتدنس مألوفا .

والحضارات الفاجرة هى التى تهوى إلى هذا الدرك . وقد ظهرت أمارات السقوط على الحضارة المعاصرة فى جوانب شتى . . وأهلها بحاجة إلى من يقول لهم ما جاء فى صدر سورة هود: " . . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير * وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير" . إن الوعد المبذول للتائبين على عجل هو " مستوى معيشة حسن " ! ! والنفس تحب العيش الرغد ، ومع أن الحياة الدنيا دار ابتلاء ، والابتلاء يقتحم النفوس بالمزعجات ، إلا أن الله يطمئن عباده بأنه سوف يريحهم ويصلح بالهم إذا آمنوا به وأسلموا له وجوههم ! . وهذه العدة المبذولة لنا بذلت من قبلنا لعاد عندما قال لهم أخوهم هود : " ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين * قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين " . والذى

يسمع هذه الإجابة يحسب القوم أهل حوار عقلى ، وأنهم إذا شرح لهم الدليل تبعوا الدليل ! . والقوم لا علاقة لسلوكهم بعقل ! وأى ذكاء تنتظر عند عبدة الأصنام ؟ هل عبدوا الحجارة عن دليل ؟ لقد كانت إجابتهم من قبل لهود موضع استغراب عندما قالوا له وهو يدعوهم إلى عبادة الله الواحد : " إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين" فكان من رد الرجل الحليم عليهم : "قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين " . والقصص

(236/372)

تتكرر فى القرآن ، وفى كل واحدة منها ملحظ لا يرى فى الأخرى ، وإنما تعرف حقيقة القوم كاملة من الجمع بين شتى القصص فى صعيد واحد ، وهذا الصنيع يحتاج إلى علم خاص به . . . وفى سورة هود جاءت قصص الأولين ومصارعهم على النحو الذى تم فى سورة الأعراف ، لكنك تقرأ هنا تفاصيل عن قوم نوح لم ترد قط فى سورة الأعراف . تفاصيل استغرقت نحو صفحتين على حين لم تأخذ من سورة الأعراف إلا سطورا . ويشعر المرء بالروع من مناشدة نوح لربه أن يرد إليه ابنه الذى طاح: "ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين " .

كأنه يقول لله لقد وعدتنى أن تنجينى وأهلى ، وابنى أول أهلى فرُدُّه إلىَّ ! ! فكانت الإجابة الصارمة: " قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين" . وقد تبادر إلى بعض الأذهان أن امرأة نوح غشت رجلها وخانته وأتت بهذا الابن لغير رشدة وأدخلته فى نسب نوح وهو لا يدرى ! ! . وهذا رأى بعيد ، وهو غضاضة يصون الله أنبياءه منها . والصحيح أن امرأة نوح خانته بانضمامها إلى أهلها فى استهجان نبوة نوح وتكذيب رسالته ، فكانت بهذا الموقف من حزب الكافرين ، وكان ابنها يؤيد موقفها ويظاهر أعداء الله ويتلمس النجاة من الطوفان بالهرب إلى رأس جبل . وهيهات ! فإن الهلاك العائم طواه كما طوى غيره . وهذا معنى الآية: " قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم . . " إلخ . . وكان جواب نوح: "قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين * قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك . . . " . ودين الله على امتداد النبوات واختلافها ، من عهد نوح وإبراهيم إلى موسى وعيسى ومحمد يؤخر نسب الدم ويقدم نسب الإيمان ، ويجعل الحب والبغض فى

الله أساس التواصل أو التقاطع . . . وندع قوم نوح إلى قوم هود الذين رفضوا نبيهم ونفروا منه أشد نفور ، إنه لما رأى نفسه وحيدا أمام أناس مكابرين معاندين قال : " إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم " . وجاء العقاب الإلهي وكان شديدا حاسما . . فإذا العمالقة المغرورون بقواهم تحملهم الريح العقيم وتجلد بهم الأرض بعنف ، فإذا رءوسهم تطيح وأبدانهم تبقى " تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر * فكيف كان عذابي ونذر " ؟ أما هود والمؤمنون معه فكان لهم شأن آخر : " ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ " . وختمت القصة الكئيبة بهذا

(238/372)

التعقيب: " وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد * وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود " إن الأقوياء الفجرة عندما تحق عليهم كلمة الله يصبحون أهون من الذر ! ما تغنى عنهم قواهم شيئا أمام من بيده ملكوت السموات والأرض . لا أدرى ما دهى العرب العاربة حتى أجمعت على تكذيب الأنبياء واضطهاد أتباعهم ، فاستحقت الهلاك العام ، فسموا

العرب البائدة . . ؟ ! . ذكرنا نبأ عاد ، ونذكر الآن نبأ ثمود وموقفها من نبى الله صالح .

ويظهر أن نظام الطبقات الذى نجم أيام نوح ظهر على نحو أقوى بين جماعة ثمود ، وأن أغلب الذين تبعوا صالحا كانوا من المستضعفين: " قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون" ! ! . وذهاب المرء بنفسه رذيلة ، ويزداد السوء إذا ذهبت أمة بنفسها ! . والتعصب الجنسى ينشأ من هذا الكبر الأعمى . . . وهو من وراء النزعات القومية التى شاعت قديما وحديثا بين الناس . وهذا التعصب كامن فى الجنس الأبيض الذى يسكن أوربا وأمريكا الآن ، تظهره القوة ويخفيه الضعف . وقد كان موجودا فى الجاهلية العربية ، تلمحه فى قول عمرو بن كلثوم: ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا ! ! لماذا أيها المغرور ؟ وإذا كانت صيحة: ألمانيا فوق الجميع ، أو مصر فوق الجميع ، قد اختفت فإن الولاء الوطنى والصلف العلمى والانتفاع الشخصى تجمع كله وراء " القوميات الحديثة" فأمسى الارتباط بها فوق كل رباط ! ! ! . ولم يخلق الله الناس لهذه الدعاوى الفارغة ، ولذا يقول فى قصة ثمود: " وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب" . والواقع أن الخطاب لثمود يتناول البشر كلهم الذين

أنشأهم الله من الأرض ، ووظفهم فى عمرانها ، وكلفهم بعبادته فيها حينا من الدهر ، ثم يعودون بعدئذ إليه ليسألهم عما قدموا . .

ونحن نعلن دهشتنا لفريقين من الناس يملآن الأرض الآن: فريق لا يحسن تعمير الأرض ويعيش فيها مع الهمل ويزعم أنه مؤمن ! . وفريق استثار الأرض وامتلكها وغزا بعدها الفضاء ، وصلته بالله صفر أو فوق ذلك بقليل . . وثمود كانوا أشبه بالنوع الثانى ، وقال لهم نبيهم صالح: " واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين " . ولكن ثمود أعماها الطغيان والكبر فلم تشكر نعمة ولم ترع لله حقا : " فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز" . وجاءت مدين بعد ثمود ، فجمعت فى حياتها بين الفساد السياسى والفساد الاقتصادى . وقد رأينا فى سورة الأعراف أن الحرب المعلنة على الفساد السياسى كانت أبرز ، أما فى هود فإن التنديد بالعوج الاقتصادى كان أبرز . فى السورة الأولى طلب الله من أهل مدين أن يصبروا على الرأى الآخر ، وأن ينظروا فى أدلته ، وألا يتوعدوا أصحابه: " ولا تقعدوا

بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين " . لقد أنقسم الناس أمام دعوة شعيب قسمين: منهم من اقتنع بها ودخل فيها ، ومنهم من رفضها وخاصم أصحابها . ليكن ! ! دعوا الزمن يفصل فى هذه القضية ، ويحق الحق ويبطل الباطل ، ولا تهددوا أنتم المؤمنين بالنفى والتشريد ، وترغموهم على ترك ما آمنوا به: " وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين" . ولكن مدين آثرت الاستبداد الأعمى ، والفتنة الغبية : " قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في

ملتنا . . . . " . وفى سورة هود اتسم الخطاب الموجه إلى قوم شعيب بمحاربة الغش فى المعاملات الاقتصادية بعد محاربة الإشراك بالله: " وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط * ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين" .

وكان رد مدين على نبيها مزيجا من السخرية والتهكم : "قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد " . وهكذا رفضوا عقيدة التوحيد وأخلاق الصلاح والعفة والعدالة . فلما بقى النبى الصالح فى ميدان الخير يأمر وينهى قيل له: " . . . وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز" . وانتهت القصة بهلاك الفسدة الغاشين كما هلك من قبل غيرهم : " ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود" وأهلك الله الفراعنة فى حديث سوف نعرض لتفاصيله فى سورة أخرى ، ثم قال لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ : " وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين" . إن سورة هود فصلت أحوال الأمم مع رسلها ليعلم صاحب الرسالة الخاتمة أنه لا جديد فى تكذيب قريش له ، فالصراع بين الحق والباطل أزلى لا فكاك منه ، ولكن النتائج الحاسمة تنصف المؤمنين وتعز المتقين . قرأت كلاما عن الانفجار العظيم الذى بدأ به الكون ، ودارت بعده الأفلاك ، ومنح العالم سمته المعروف الآن . إن أعداد السنين التى صاحبت هذه النشأة تعجز العادين . خيل إلى ، أن هذه السنوات أكثر من حبات الرمال فى الصحراء الكبرى ! . قلت لنفسى: فما شأن خالقها المبدئ المعيد ؟ وكان الجواب: أن صفاته أزلية لا أول لها ولا آخر ! . ولاشك أن إبداع هذا العالم مدهش ! ولكن أوغل منه فى الإدهاش إبقاؤه وإمداده بحياته . إن خلق جنين واحد شىء كبير ، وأكبر منه إرسال

الغذاء إليه لينمو حتى يبلغ أشده ، أهو جنين واحد ؟ إن عالم الحيوان والنبات فوق الحصر " وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين" ! ! . قلت ـ وأنا أتضاءل فى نفسى ـ : ما أكون أنا ؟ وما يكون الكوكب الكبير الذى أحيا فوقه ؟ إن علماء الأحياء أفهمونى أن بين مشارق الكون ومغاربه آمادا بعيدة ! ! . وأجاب إيمانى بالله على هذا السؤال : إن رب العرش العظيم يستوى عنده قرب المكان

وبعده ، وطول الزمان وقصره ! وهو على عرشه معى بسمعه وبصره وقيوميته . وطمحت أفكارى إلى حد فوق طاقتها ، فتساءلت عن هذا العرش والاستواء ؟ وكان الجواب : إن الذى يجهل ما تحت قدمه لا يصلح له هذا التطاول . خير لك أن تعرف لماذا وجدت ، وأن تحقق الحكمة من وجودك ، فهذا أولى بك : " وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا . . " فلأحسن عملى ، ولأصقل

عقلى ، ولأزد نفسى ، ولأحقق ثمرة وجودى ، فهذا أولى وأجدى على . إن هذه الدنيا طريق إلى أخرى أهم وأبقى – وإن جهل كثيرون : " ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين" . إن الجهلة يستعجلون هذا العذاب: تكذيبا له أو استهانة به ! أفلا يؤمنون به إلا إذا لذع جلودهم ؟ فما قيمة الإيمان به بعد وقوعه ؟ " ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون" . مصيبة الإنسان أنه عبد لحظته الحاضرة ، وساعته العاجلة ، وأنه عندما يستنجد بربه لضر أصابه لا يكاد يستقبل النجدة المرسلة حتى ينسى ما كان ، ويجحد يد الرحمن " ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور * إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير" . البشر محتاجون إلى كتاب يعرفهم من أين جاءوا وإلى أين يصيرون ؟ ؟ . وهذا التعريف يؤتى ثمرته يوم يجىء دويا يخرق جدار الذهول ، وبليغا يصل إلى قاع الفؤاد ! أى: أعندما يجىء كتاب معجز للكل !

وفى السورة السابقة ـ سورة يونس ـ جاء التحدى بسورة واحدة أما فى السورة التى تلتها فقد جاء التحدى بعشر سور . وهذا ـ فيما نرى ـ زيادة فى قهر النفوس ، وإشعارها بالعجز ، فإن الذى ينهزم أمام ضربة واحدة يغرق وينهار إذا قيل له: أمامك عشر ضربات !

" أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله

مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون " ؟ .

إن محمدا كان يسير بين الناس مؤيدا بهذا البرهان الإلهى الحاسم ، ومن قبل هذا البرهان كانت نبوءات الكتب الأولى تشهد له ، فمن أرسخ منه قدما ؟ " أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون " .

ثم إن الكبار لا يكذبون على الناس فكيف يكذبون على الله ؟ وهل كذب أن يقال: إن الله واحد ، وإن لقاءه حتم ، وإن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم ، فأين يكون الصدق ؟ . كان هذا المهاد سابقا لتأريخ الأمم التى عرض عليها الدين فكفرت به ، لقد هلكت أمة بعد أخرى ، وآثارها بواق تدل عليها ، ومنها ما حصد فلم يبق له وسم ولا رسم . . لم هذا المصير الأشأم ؟ أما كان هناك أهل فكر واعتبار ينذرون ويحذرون " فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين * وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها

مصلحون " . على هذا النهج اللاجب سار محمد يدعو الأولين والآخرين ، بيد أن الناس كانوا ـ وما يزالون ـ منقسمين على أنفسهم لا تجمعهم راية الحق . ما أكثر المشارب والمذاهب التى تفرق بينهم ، وتجعل لكل واحد وجهة يرتضيها . كان ربك قديرا أن يجعلهم غير ذلك ، ولكن شاءت حكمته أن يدعهم وشأنهم " ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين" وهنا رأس آية ! كأن الاختلاف سنة طبيعية فى التكوين البشرى ، ثم قال : " . . . إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين " . كان ربنا يستطيع أن يخلقنا ملائكة لا تستطيع العصيان ، أو حيوانات معزولة عن التكليف ، ولكنه

جعلنا بشرا مختارين ، نستطيع الهبوط إلى سجين ، أو الصعود إلى عليين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 176.167 ﴾

(244/372)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والسبعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/373)

الجزء الثالث والسبعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة هود عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 8 ﴾ من نفس السورة

(4/373)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة هود

أقول: وجه وضعها بعد سورة يونس زيادة على الأوجه الستة السابقة: أن سورة يونس ذكر فيها قصة نوح مختصرة جداً ، مجملة ، فشرحت في هذه السورة وبسطت بما لم يبسطه في غيرها من السور ، ولا في سورة الأعراف على طولها ، ولا في سورة (إِنَّا أَرسَلنا نوحاً) التي أفردت لقصته فكانت هذه السورة شارحة لما أجمل في سورة يونس فإن قوله هناك: (واتبِع ما يوحى إِليك) هو عين قوله هنا : (كتابٌ أُحكِمَت آياتهُ ثُمَ فُصِلت مِن لدن حكيم خبير) فكان أول هود تفصيلاً لخاتمة يونس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أسرار ترتيب القرآن صـ 108 ﴾

قوله تعالى ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) أي الذي له تمام العلم وكمال الحكمة وجميه القدرة) الرحمن (لجميع خلقه بعموم البشارة والنذارة) الرحيم (لأهل ولايته بالحفظ في سلوك سبيله)

لما ختمت السورة التي قبلها - كما ترى - بالحث على اتباع الكتاب ولزومه والصبر على ما يتعقب ذلك من مرائر الضير المؤدية إلى مفاوز الخير اعتماداً على المتصف بالجلال والكبرياء والكمال .

ابتدئت هذه بوصفه بما يرغب فيه ، فقال بعد الإشارة إلى إعادة القرع بالتحدي على ما سلف في البقرة : ﴿ كتاب ﴾ أي عظيم جامع لكل خير ، ثم وصفه بقوله :

﴿ أحكمت ﴾ بناه للمفعول بياناً لأن إحكامه أمر قد فرغ منه على أيسر وجه عنه سبحانه وأتقن إتقاناً لا مزيد عليه ﴿ آياته ﴾ أي أتقنت إتقاناً لا نقص معه فلا ينقصها الذي

أنزلها بنسخها كلها بكتاب آخر ولا غيره ، ولا يستطيع غيره نقص شيء منها ولا الطعن في شيء من بلاغتها أو فصاحتها بشيء يقبل ، والمراد ب ﴿ محكمات ﴾ في آل عمران عدم التشابه .

(7/373)

ولما كان للتفصيل رتبة هي في غاية العظمة ، أتي بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم ﴾ أي وبعد هذه الرتبة العالية التي لم يشاركه في مجموعها كتاب جعلت له رتبة أعلى منها جداً بحيث لم يشاركه في شيء منها كتاب وذلك أنه ﴿ فصلت ﴾ أي جعلت لها - مع كونها مفصلة إلى حلال وحرام وقصص وأمثال - فواصل ونهايات تكون بها مفارقة لما بعدها وما قبلها ، يفهم منها علوم جمة ومعارف مهمة وإشارات إلى أحوال عالية ، وموارد عذبة صافية ، ومقامات من كل علة شافية ، كما تفصل القلائد بالفرائد ، وهذا التفصيل لم يشاركه في شيء منه شيء من الكتب السالفة ، بل هي مدمجة إدماجاً لا فواصل لها كما يعرف ذلك من طالعها ، ويكفي في معرفة ذلك ما سقته منها في تضاعيف هذا الكتاب ، وما أنسب ختام هذه الآية للإحكام والتفصيل بقوله : ﴿ من لدن ﴾ أي نزلت آياته محكمة مفصلة حال كونها مبتدئة من حضرة هي أغرب الحضرات الكائنة من إله ﴿ حكيم خبير ﴾

منتهية إليك وأنت أعلى الناس في كل وصف فلذلك لا يلحق إحكامها ولا تفصيلها ، أرسلناك به قائلاً : ﴿ ألا تعبدوا ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ إلا الله ﴾ أي الإله الأعظم .

(8/373)

ولما كان هذا معظم ما أرسل به ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومداره ، استأنف الإخبار بأنه أرسله سبحانه مؤكداً له لأجل إنكارهم فقال : ﴿ إنني ﴾ ولما كان إرساله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأجل رحمة العالمين ، قدم ضميرهم فقال : ﴿ لكم منه ﴾ أي خاصة ، ثم أجمل القرآن كله في وصفيه صلى الله عليه مسلم بقوله : مفدماً ما هو أنسب لختام التي قبلها بالصبر : ﴿ نذير وبشير ﴾ كامل في كل من الوصفين غاية الكمال ، وهذا التقدير يرشد إليه قوله تعالى أول التي قبلها ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾ [يونس : 2] مع إيضاحه لما عطف عليه قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه أن ﴾ [هود : 25] عطفناه عليه ، وإظهاره لفائدة عطفه كما سيأتي إن شاء الله تعالى ، ويرجح أن " لا " ناهية جازمة ل ﴿ تعبدوا ﴾ عطف ﴿ أن استغفروا ﴾ عليه ، فقد ظهر من تلويح هذا وتصريحه وتصريح ما في بقية السورة أن مقصودها وصف الكتاب بالإحكام والتفصيل بما يعجز الخلق لأنه من عند من هو شامل العلم كامل القدرة فهو بالغ الحكمة يعيد

الخلق للجزاء كما بدأهم للعمل فوجب إفراده بالعبادة وأن يمتثل جميع أمره ، ولا يترك شيء منه رجاء إقبال أحد ولا خوف إدباره ، ولا يخشى غيره .

ولا يركن إلى سواه ، على ذلك مضى جميع النبيين ودرج سائر المرسلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 498 . 499 ﴾

(9/373)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ وإن تولوا ﴾ بإظهار النون وتشديد التاء : البزي وابن فليح ﴿ فإني أخاف ﴾ بفتح الياء ، أبو عمرو وأبو جعفر ونافع وابن كثير . ﴿ عني إنه ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابو عمرو .

الوقوف : ﴿ آلر ﴾ ق كوفي ﴿ خبير ﴾ 5 لا بناء على أنّ ألا يتعلق بما قبله ﴿ إلا الله ﴾ ط ﴿ وبشير ﴾ 5 لا للعطف ﴿ فضله ﴾ ج ﴿ كبير ﴾ 5 ﴿ مرجعكم ﴾ ج لاحتمال الحال والاستئناف ﴿ قدير ﴾ 5 ﴿ منه ﴾ ط ﴿ ثيابهم ﴾ لا بناء على أن عامل ﴿ حين ﴾ قوله : ﴿ يعلم ﴾ ﴿ يعلنون ﴾ ج ﴿ الصدور ﴾ 5 ﴾

ومستودعها ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ عملاً ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ ما يحبسه ﴾ ط ﴿ يستهزؤون ﴾ 5 ﴿ منه ﴾ ج لحذف جواب ﴿ لئن ﴾ أي ليأسن. وقيل: جوابها إنه والأول أوجه ﴿ كفور ﴾ 5 ﴿ عني ﴾ ط ﴿ فخور ﴾ لا للاستثناء ﴿ الصالحات ﴾ ط ﴿ كبير ﴾ 5 ﴿ ملك ﴾ ط ﴿ نذير ﴾ 5 ﴿ وكيل ﴾ ه ط "أم" استفهام تقريع ﴿ افتراه ﴾ ط ﴿ صادقين ﴾ 5 ﴿ إلا هو ﴾ ج ط للاستفهام مع الفاء. ﴿ مسلمون ﴾ 5 ﴿ يبخسون ﴾ 5 ﴿ إلا النار ﴾ ز بناء على أن "ليس" بمنزلة حرف النفي والوصل أوجه لأن "ليس" فعل ماض وهو مع ما عطف عليه المجموع جزاء. ﴿ يعملون ﴾ 5 ﴿ رحمة ﴾ ط ﴿ يؤمنون به ﴾ ط ﴿ موعده ﴾ ج لاختلاف الجملتين مع الفاء ﴿ لا يؤمنون ﴾ 5 ﴿ كذباً ﴾ ط ﴿ على ربهم ﴾ الثاني ج لأن ما بعده يحتمل أن يكون من قول الاشهاد أو ابتداء إخبار. ﴿ الظالمين ﴾ 5 لا ﴿ عوجاً ﴾ ط ﴿ من أولياء ﴾ م لئلا يوهم أن ما بعده صفة أولياء ﴿ العذاب ﴾ ط ﴿ يبصرون ﴾ 5 ﴿ يفرون ﴾ 5 ﴿ الأخسرون ﴾ 5 ﴿ إلى ربهم ﴾ لا لأن ما بعده خبر "إن". ﴿ الجنة ﴾ ج ﴿ خالدون ﴾ 5 ﴿ والسميع ﴾ ط ﴿ مثلاً ﴾ ط ﴿ تذكرون ﴾ 5. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 4 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن قوله ﴿ الر ﴾ اسم للسورة وهو مبتدأ .

وقوله ﴿ كِتَابٌ ﴾ خبره ، وقوله : ﴿ أُحْكِمَتْ ءاياته ثم فُصلتْ ﴾ صفة للكتاب .

قال الزجاج : لا يجوز أن يقال : ﴿ الر ﴾ مبتدأ ، وقوله : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءاياته ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ خبر ، لأن ﴿ الر ﴾ ليس هو الموصوف بهذه الصفة وحده ؛ وهذا الاعتراض فاسد ، لأنه ليس من شرط كون الشيء مبتدأ أن يكون خبره محصوراً فيه ، ولا أدري كيف وقع للزجاج هذا السؤال ، ثم إن الزجاج اختار قولاً آخر وهو أن يكون التقدير : الر هذا كتاب أحكمت آياته ، وعندي أن هذا القول ضعيف لوجهين : الأول : أن على هذا التقدير يقع قوله : ﴿ الر ﴾ كلاماً باطلاً لا فائدة فيه ، والثاني : أنك إذا قلت هذا كتاب ، فقوله : "هذا" يكون إشارة إلى أقرب المذكورات ، وذلك هو قوله : ﴿ الر ﴾ فيصير حينئذ ﴿ الر ﴾ مخبراً عنه بأنه كتاب أحكمت آياته ، فيلزمه على هذا القول ما لم يرض به

في القول الأول ، فثبت أن الصواب ما ذكرناه .

المسألة الثانية :

في قوله : ﴿ أحكمت آياته ﴾ وجوه : الأول : ﴿ أحكمت آياته ﴾ نظمت نظماً رصيفاً محكماً لا يقع فيه نقص ولا خلل ، كالبناء المحكم المرصف .

الثاني : أن الإحكام عبارة عن منع الفساد من الشيء .

فقوله : ﴿ أحكمت آياته ﴾ أي لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع بها .

واعلم أن على هذا الوجه لا يكون كل الكتاب محكماً ، لأنه حصل فيه آيات منسوخة ، إلا أنه لما كان الغالب كذلك صح إطلاق هذا الوصف عليه إجراء للحكم الثابت في الغالب مجرى الحكم الثابت في الكل .

(11/373)

الثالث : قال صاحب "الكشاف" ﴿ أُحْكِمَتْ ﴾ يجوز أن يكون نقلاً بالهمزة من حكم بضم الكاف إذا صار حكيماً ، أي جعلت حكيمة ، كقوله : ﴿ آيات الكتاب الحكيم ﴾ [يونس : 1] الرابع : جعلت آياته محكمة في أمور : أحدها : أن معاني هذا الكتاب هي التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والمعاد ، وهذه المعاني لا تقبل النسخ ، فهي في غاية الإحكام

، وثانيها : أن الآيات الواردة فيه غير متناقضة ، والتناقض ضد الإحكام فإذا خلت آياته عن التناقض فقد حصل الإحكام .

وثالثها : أن ألفاظ هذه الآيات بلغت في الفصاحة والجزالة إلى حيث لا تقبل المعارضة ، وهذا أيضاً مشعر بالقوة والإحكام .

ورابعها : أن العلوم الدينية إما نظرية وإما عملية .

أما النظرية فهي معرفة الإله تعالى ومعرفة الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر ، وهذا الكتاب مشتمل على شرائف هذه العلوم ولطائفها ، وأما العملية فهي إما أن تكون عبارة عن تهذيب الأعمال الظاهرة وهو الفقه ، أو عن تهذيب الأحوال الباطنة وهي علم التصفية ورياضة النفس ، ولا نجد كتاباً في العالم يساوي هذا الكتاب في هذه المطالب ، فثبت أن هذا الكتاب مشتمل على أشرف المطالب الروحانية وأعلى المباحث الإلهية ، فكان كتاباً محكماً غير قابل للنقض والهدم .

وتمام الكلام في تفسير المحكم ذكرناه في تفسير قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى أَنزَلَ عَلَيْكَ الكتاب مِنْهُ آيات محكمات ﴾ [آل عمران : 7] .

المسألة الثالثة :

في قوله : ﴿ فُصِّلَتْ ﴾ وجوه : أحدها : أن هذا الكتاب فصل كما تفصل الدلائل بالفوائد الروحانية ، وهي دلائل التوحيد والنبوة والأحكام والمواعظ والقصص .

والثاني : أنها جعلت فصولاً سورة سورة ، وآية آية .

الثالث : ﴿ فُصِّلَتْ ﴾ بمعنى أنها فرقت في التنزيل وما نزلت جملة واحدة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ءايات مّفَصَّلاَتٍ ﴾ [الأعراف : 133] والمعنى مجيء هذه الآيات متفرقة متعاقبة .

(12/373)

الرابع : فصل ما يحتاج إليه العباد أي جعلت مبينة ملخصة .

الخامس : جعلت فصولاً حلالاً وحراماً ، وأمثالاً وترغيباً ، وترهيباً ومواعظ ، وأمراً ونهياً لكل معنى فيها فصل ، قد أفرد به غير مختلط بغيره حتى تستكمل فوائد كل واحد منها ، ويحصل الوقوف على كل باب واحد منها على الوجه الأكمل .

المسألة الرابعة :

معنى ﴿ ثُمَّ ﴾ في قوله : ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ ليس للتراخي في الوقت ، لكن في الحال كما تقول : هي محكمة أحسن الإحكام ، ثم مفصلة أحسن التفصيل ، وكما تقول : فلان كريم الأصل ثم كريم الفعل .

المسألة الخامسة :

قال صاحب "الكشاف" : قرىء ﴿ أُحْكِمَتْ ءاياته ثم فُصلتْ ﴾ أي أحكمتها أنا ثم فصلتها ، وعن عكرمة والضحاك ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ أي فرقت بين الحق والباطل .

المسألة السادسة :

احتج الجبائي بهذه الآية على أن القرآن محدث مخلوق من ثلاثة أوجه : الأول : قال المحكم : هو الذي أتقنه فاعله ، ولولا أن الله تعالى يحدث هذا القرآن وإلا لم يصح ذلك لأن الإحكام لا يكون إلا في الأفعال ، ولا يجوز أن يقال : كان موجوداً غير محكم ثم جعله الله محكماً ، لأن هذا يقتضي في بعضه الذي جعله محكماً أن يكون محدثاً ، ولم يقل أحد بأن القرآن بعضه قديم وبعضه محدث .

الثاني : أن قوله : ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ يدل على أنه حصل فيه انفصال وافتراق ، ويدل على أن ذلك الانفصال والافتراق إنما حصل بجعل جاعل ، وتكوين مكون ، وذلك أيضاً يدل على المطلوب .

الثالث : قوله : ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ والمراد من عنده ، والقديم لا يجوز أن يقال : إنه حصل من عند قديم آخر ، لأنهما لو كانا قديمين لم يكن القول بأن أحدهما حصل من عند الآخر أولى من العكس .

أجاب أصحابنا بأن هذه النعوت عائدة إلى هذه الحروف والأصوات ونحن معترفون بأنها

محدثة مخلوقة ، وإنما الذي ندعي قدمه أمر آخر سوى هذه الحروف والأصوات .

المسألة السابعة :

(13/373)

قال صاحب "الكشاف" قوله : ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ يحتمل وجوهاً : الأول : أنا ذكرنا أن قوله : ﴿ كِتَابٌ ﴾ خبر و ﴿ أُحْكِمَتْ ﴾ صفة لهذا الخبر ، وقوله : ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ صفة ثانية والتقدير : الر كتاب من لدن حكيم خبير .

والثاني : أن يكون خبراً بعد خبر والتقدير : الر من لدن حكيم خبير .

والثالث : أن يكون ذلك صفة لقوله : (أحكمت .

وفصلت) أي أحكمت وفصلت من لدن حكيم خبير ، وعلى هذا التقدير فقد حصل بين أول هذه الآية وبين آخرها نكتة لطيفة كأنه يقول أحكمت آياته من لدن حكيم وفصلت من لدن خبير عالم بكيفيات الأمور .

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾

اعلم أن في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن في قوله : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ وجوهاً : الأول : أن يكون مفعولاً له والتقدير : كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لأجل ألا تعبدوا إلا الله وأقول هذا التأويل يدل على أنه لا مقصود من هذا الكتاب الشريف إلا هذا الحرف الواحد ، فكل من صرف عمره إلى سائر المطالب ، فقد خاب وخسر .

الثاني : أن تكون (أن) مفسرة لأن في تفصيل الآيات معنى القول والحمل على هذا أولى ، لأن قوله : ﴿ وَأَنِ استغفروا ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا ﴾ فيجب أن يكون معناه : أي لا تعبدوا ليكون الأمر معطوفاً على النهي ، فإن كونه بمعنى لئلا تعبدوا يمنع عطف الأمر عليه .

والثالث : أن يكون التقدير : الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ليأمر الناس أن لا يعبدوا إلا الله ويقول لهم ، إنني لكم منه نذير وبشير ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

(14/373)

اعلم أن هذه الآية مشتملة على التكليف من وجوه : الأول : أنه تعالى أمر بأن لا يعبدوا إلا الله ، وإذا قلنا : الاستثناء من النفي إثبات ، كان معنى هذا الكلام النهي عن عبادة غير

الله تعالى ، والأمر بعبادة الله تعالى ، وذلك هو الحق ، لأنا بينا أن ما سوى الله فهو محدث مخلوق مربوب ، وإنما حصل بتكوين الله وإيجاده ، والعبادة عبارة عن إظهار الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل وهذا لا يليق إلا بالخالق المدبر الرحيم المحسن ، فثبت أن عبادة غير الله منكرة ، والإعراض عن عبادة الله منكر .

واعلم أن عبادة الله مشروطة بتحصيل معرفة الله تعالى قبل العبادة ، لأن من لا يعرف معبوده لا ينتفع بعبادته فكان الأمر بعبادة الله أمراً بتحصيل المعرفة أولاً .

ونظيره قوله تعالى في أول سورة البقرة : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربَّكُمُ ﴾ [البقرة : 21] ثم أتبعه بالدلائل الدالة على وجود الصانع وهو قوله : ﴿ الذى خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة : 21] إنما حسن ذلك لأن الأمر بالعبادة يتضمن الأمر بتحصيل المعرفة فلا جرم ذكر ما يدل على تحصيل المعرفة .

ثم قال : ﴿ إِنَّنِى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : أن الضمير في قوله : ﴿ مِنْهُ ﴾ عائد إلى الحكيم الخبير ، والمعنى : إنني لكم نذير وبشير من جهته .

البحث الثاني : أن قوله : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ الله ﴾ مشتمل على المنع عن عبادة غير الله ، وعلى الترغيب في عبادة الله تعالى ، فهو عليه الصلاة والسلام نذير على الأول بإلحاق العذاب الشديد لمن لم يأت بها وبشير على الثاني بإلحاق الثواب العظيم لمن أتى بها .

واعلم أنه صلى الله عليه وسلم ما بعث إلا لهذين الأمرين ، وهو الإنذار على فعل ما لا ينبغي ، والبشارة على فعل ما ينبغي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 145.142 ﴾

(15/373)

وقال الماوردى :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾

قوله عز وجل : ﴿ الر كِتَابٌ ﴾ يعني القرآن .

﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : أحكمت آياته بالأمر والنهي ثم فصلت بالثواب والعقاب ، قاله الحسن .

الثاني : أحكمت آياته من الباطل ثم فصلت بالحلال والحرام والطاعة والمعصية ، وهذا قول قتادة .

الثالث : أحكمت آياته بأن جعلت آيات هذه السورة كلها محكمة ثم فصلت بأن فسرت ، وهذا معنى قول مجاهد .

الرابع : أحكمت آياته للمعتبرين ، وفصلت آياته للمتقين . الخامس : أحكمت آياته في القلوب ، وفصلت أحكامه على الأبدان .

﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من عند حكيم في أفعاله ، خبير بمصالح عباده .

الثاني : حكيم بما أنزل ، خبير بمن يتقبل .

قوله عز وجل ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن كتبت في الكتاب ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ ﴾

الثاني : أنه أمر رسوله أن يقول للناس ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ .

﴿ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ قال ابن عباس : نذير من النار ، وبشير بالجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(16/373)

وقال ابن الجوزى :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾

فأما ﴿ آلر ﴾ فقد ذكرنا تفسيرها في سورة (يونس)

قال الفراء : و ﴿ كتاب ﴾ مرفوع بالهجاء الذي قبله ، كأنك قلت : حروف الهجاء هذا القرآن ، وإن شئت رفعته باضمار "هذا كتاب" ، والكتاب : القرآن .

وفي قوله : ﴿ أحكمت آياته ﴾ أربعة أقوال :

أحدها : أُحكمت فما تُنسخُ بكتاب كما نُسخت الكتب والشرائع ، قاله ابن عباس ، واختاره ابن قتيبة .

والثاني : أُحكمت بالأمر والنهي ، قاله الحسن ، وأبو العالية .

والثالث : أُحكمت عن الباطل ، أي : مُنعت ، قاله قتادة ، ومقاتل .

والرابع : أُحكمت بمعنى جُمعت ، قاله ابن زيد .

فإن قيل : كيف عمَّ الآيات هاهنا بالإحكام ، وخص بعضها في قوله : ﴿ منه آيات محكمات ﴾ [آل عمران : 8] ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أن الإحكام الذي عمَّ به هاهنا ، غير الذي خَصَّ به هناك .

وفي معنى الإحكام العامّ خمسة أقوال ، قد أسلفنا منها أربعة في قوله : ﴿ أُحكمت آياته ﴾ .

والخامس : أنه إعجاز النظم والبلاغة وتضمين الحِكَم المعجزة .

ومعنى الإحكام الخاص : زوال اللَّبْس ، واستواء السامعين في معرفة معنى الآية .

والجواب الثاني : أن الإحكام في الموضعين بمعنى واحد .

والمراد بقوله : ﴿ أُحكمت آياته ﴾ : أُحكم بعضها بالبيان الواضح ومنع الالتباس ، فأُوقعَ العمومُ على معنى الخصوص ، كما تقول العرب : قد أكلتُ طعام زيد ، يعنون : بعضَ طعامه ، ويقولون : قُتلنا وربِّ الكعبة ، يعنون : قُتل بعضنا ، ذكر ذلك ابن الأنباري .

وفي قوله : ﴿ ثم فصِّلت ﴾ ستة أقوال :

أحدها : فصِّلت بالحلال والحرام ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : فصِّلت بالثواب والعقاب ، رواه جسر بن فرقد عن الحسن .

والثالث : فصِّلت بالوعد والوعيد ، رواه أبو بكر الهذلي عن الحسن أيضاً .

والرابع : فصِّلت بمعنى فسِّرت ، قاله مجاهد .

(17/373)

والخامس : أُنزلت شيئاً بعد شيء ، ولم تنزل جملة ، ذكره ابن قتيبة .

والسادس : فصِّلت بجميع ما يُحتاج إليه من الدلالة على التوحيد ، وتثبيت نبوَّة الأنبياء ، وإقامة الشرائع ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ من لدن حكيم ﴾ أي : من عنده .

قوله تعالى : ﴿ ألاّ تعبُدوا إلا الله ﴾ قال الفراء .

المعنى : فصِّلت آياته بأن لا تعبدوا إِلا الله ﴿ وأن استغفروا ﴾ .

و"أن" في موضع النصب بالقائك الخافض .

وقال الزجاج : المعنى : آمركم أن لا تعبدوا [إِلا الله] وأن استغفروا .

قال مقاتل : والمراد بهذه العبادة : التوحيد .

والخطاب لكفار مكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(18/373)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ الر ﴾ .

تقدّم القول فيه .

﴿ كِتَابٌ ﴾ بمعنى هذا كتاب .

﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ في موضع رفع نعت لكتاب .

وأحسن ما قيل في معنى ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ قول قَتَادة ؛ أي جعلت محكمة كلّها لا خَلَل فيها ولا باطل .

والإحكام منع القول من الفساد ، أي نُظمت نظماً مُحْكَماً لا يلحقها تناقض ولا خَلَل .

وقال ابن عباس : أي لم ينسخها كتاب ، بخلاف التوراة والإنجيل .

وعلى هذا فالمعنى ؛ أُحكم بعض آياته بأن جعل ناسخاً غير منسوخ .

وقد تقدّم القول فيه .

وقد يقع اسم الجنس على النوع ؛ فيقال : أكلت طعام زيد ؛ أي بعض طعامه .

وقال الحسن وأبو العالية : ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ بالأمر والنهي .

﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب .

وقال قتادة : أحكمها الله من الباطل ، ثم فصّلها بالحلال والحرام .

مجاهد : أحكمت جملة ، ثم بُيِّنت بذكر آية آية بجميع ما يحتاج إليه من الدليل على التوحيد والنبوّة والبعث وغيرها .

وقيل : جمعت في اللوح المحفوظ ، ثم فصلت في التنزيل .

وقيل : " ﴿ فُصِّلت ﴾ أنزلت نَجْماً نَجْماً لتُتَدَبَّر .

وقرأ عكرمة "فَصَلَتْ" مخفّفاً أي حَكَمت بالحق .

﴿ مِن لَّدُنْ ﴾ أي من عند .

﴿ حَكِيمٍ ﴾ أي محكم للأمور .

﴿ خَبِيرٍ ﴾ بكل كائن وغير كائن .

قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تعبدوا إِلَّا الله ﴾ قال الكسائيّ والفرّاء .

أي بألا ؛ أي أحكمت ثم فصّلت بألا تعبدوا إلا الله .

قال الزجاج : لئلا ؛ أي أحكمت ثم فصّلت لئلا تعبدوا إلا الله .

قيل : أمر رسوله أن يقول للناس ألا تعبدوا إلا الله .

﴿ إِنَّنِي لَكُمْ مِّنْهُ ﴾ أي من الله .

﴿ نَذِيرٌ ﴾ أي مخوف من عذابه وسطوته لمن عصاه .

﴿ وَبَشِيرٌ ﴾ بالرضوان والجنة لمن أطاعه .

(19/373)

وقيل : هو من قول الله أوّلاً وآخراً ؛ أي لا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير ؛ أي الله نذير لكم من عبادة غيره ، كما قال : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : 28] . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(20/373)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ الر كتاب أحكمت آياته ﴾

قال ابن عباس : لم ينسخها كتاب كما نسخت هي الكتب والشرائع ﴿ ثم فصلت ﴾ يعني بينت وقال الحسن : أحكمت آياته بالآمر والنهي وفصلت بالثواب والعقاب وفي رواية عنه بالعكس ، قال : أحكمت بالثواب والعقاب وفصلت بالأمر والنهي ، وقال قتادة : أحكمها الله من الباطل ثم فصلها بعلمه فبين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته فيها وقيل : أحكمها الله فليس فيها تناقض ثم فصلها وبينها وقيل معناه نظمت آياته نظماً رصيناً محكماً بحيث لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم الذي ليس فيه خلل ثم فصلت آياته سورة سورة وقيل إن آيات هذا الكتاب دالة على التوحيد وصحة النبوة والمعاد وأحوال القيامة وكل ذلك لا يدخله النسخ ثم فصلت بدلائل الأحكام والمواعظ والقصص والإخبار عن المغيبات ، وقال مجاهد : فصلت بمعنى فسرت وثم في قوله ثم فصلت ليست هي للتراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول هي محكمة أحسن الإحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل فإن قلت كيف عم الآيات هنا بالأحكام وخص بعضها في قوله منه آيات محكمات .

قلت : إن الإحكام الذي عم به هنا غير الذي خص به هناك فمعنى الإحكام العام هنا أنه لا يتطرق إلى آياته التناقض والفساد كأحكام البناء فإن هذا الكتاب نسخ جميع الكتب المتقدمة عليه والمراد بالإحكام الخاص المذكور في قوله منه آيات محكمات أن بعض آياته

منسوخة نسخها بآيات منه أيضاً لم ينسخها غيره وقيل أحكمت آياته أي معظم آياته محكمة وإن كان قد دخل النسخ على البعض فأجرى الكل على البعض لأن الحكم للغالب وإجراء الكل على البعض مستعمل في كلامهم تقول أكلت طعام زيد وإنما أكلت بعضه .

وقوله تعالى : ﴿ من لدن حكيم ﴾ يعني أحكمت آيات الكتاب من عند حكيم في جميع أفعاله ﴿ خبير ﴾ يعني بأحوال عباده وما يصلحهم .

﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾

(21/373)

هذا مفعول له معناه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا الله والمراد بالعبادة التوحيد وخلع الأنداد والأصنام وما كانوا يعبدون والرجوع إلى الله تعالى وإلى عبادته والدخول في دين الإسلام ﴿ إنني لكم منه ﴾ أي : قل لهم يا محمد إنني لكم من عند الله ﴿ نذير ﴾ ينذركم عقابه إن ثبتم على كفركم ولم ترجعوا عنه ﴿ وبشير ﴾ يعني وأبشر بالثواب الجزيل لمن آمن بالله ورسوله وأطاع وأخلص العمل لله وحده . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(22/373)

وقال أبو حيان :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾

كتاب خبر مبتدأ محذوف يدل عليه ظهوره بعد هذه الحروف المقطعة كقوله : الم ذلك الكتاب ، وأحكمت صفة له .

ومعنى الإحكام : نظمه نظماً رضياً لا نقص فيه ولا خلل ، كالبناء المحكم .

وهو الموثق في الترصيف ، وعلى هذا فالهمزة في أحكمت ليست للنقل ، ويجوز أن تكون للنقل من حكم بضم الكاف إذا صار حكيماً ، فالمعنى : جعلت حكيمة كقولك : تلك آيات الكتاب الحكيم على أحد التأويلين في قوله : ﴿ الكتاب الحكيم ﴾ وقيل : من أحكمت الدابة إذا منعها من الجماح بوضع الحكمة عليها ، فالمعنى : منعت من النساء كما قال جرير :

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم . . .

إني أخاف عليكم أن أغضبا

وعن قتادة : أحكمت من الباطل .

قال ابن قتيبة : أحكمت أتقنت شبه ما يحكم من الأمور المتقنة الكاملة ، وبهذه الصفة كان القرآن في الأول ، ثم فصل بتقطيعه وتبيين أحكامه وأوامره عل محمد (صلى الله عليه

وسلم) فثم على بابها ، وهذه طريقة الإحكام والتفصيل .

إذ الإحكام صفة ذاتية ، والتفصيل إنما هو بحسب من يفصل له ، والكتاب أجمعه محكم مفصل ، والإحكام الذي هو ضد النسخ ، والتفصيل الذي هو خلاف الإجمال ، إنما يقالان مع ما ذكرناه باشتراك .

وحكى الطبري عن بعض المتأولين : أحكمت بالأمر والنهي ، وفصلت بالثواب والعقاب .

وعن بعضهم : أحكمت من الباطل ، وفصلت بالحلال والحرام ، ونحو هذا من التخصيص الذي هو صحيح المعنى ، ولكن لا يقتضيه اللفظ .

وقيل : فصلت معناه فسرت ، وقال الزمخشري : ثم فصلت كما تفصل القلائد بالدلائل من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص ، أو جعلت فصولاً سورة سورة وآية آية ، أو فرقت في التنزيل ولم تنزل جملة واحدة ، أو فصل بها ما يحتاج إليه العباد أي بيّن ولخص .

(23/373)

وقرأ عكرمة ، والضحاك ، والجحدري ، وزيد بن علي ، وابن كثير في رواية : ثم فصلت بفتحتين ، خفيفة على لزوم الفعل للآيات .

قال صاحب اللوامح : يعني انفصلت وصدرت .

وقال ابن عطية : فصلت بين المحق والمبطل من الناس ، أو نزلت إلى الناس كما تقول : فصل فلان بسفره .

قال الزمخشري : وقرىء أحكمت آياته ثم فصلت أي : أحكمتها أنا ، ثم فصلتها .

(فإن قلت) : ما معنى ؟ ثم (قلت) : ليس معناها التراخي في الوقت ولكن في الحال ، كما تقول : هي محكمة أحسن الأحكام ، ثم مفصلة أحسن التفصيل ، وفلان كريم الأصل ، ثم كريم الفعل انتهى .

يعني أنّ ثم جاءت لترتيب الإخبار لا لترتيب الوقوع في الزمان ، واحتمل من لدن أن يكون في موضع الصفة .

ومن أجاز تعداد الأخبار إذا لم تكن في معنى خبر واحد أجاز أن يكون خبراً بعد خبر .

قال الزمخشري : أن يكون صلة أحكمت وفصلت أي : من عنده إحكامها وتفصيلها .

وفيه طباق حسن ، لأنّ المعنى أحكمها حكيم وفصلها أي : بينها وشرحها خبير بكيفيات الأمور انتهى .

ولا يريد أن من لدن متعلق بالفعلين معاً من حيث صناعة الإعراب ، بل يريد أن ذلك من باب الاعمال ، فهي متعلقة بهما من حيث المعنى .

وأن لا تعبدوا يحتمل أن يكون أن حرف تفسير ، لأنّ في تفصيل الآيات معنى القول وهذا أظهر ، لأنه لا يحتاج إلى إضمار .

وقيل : التقدير لأنْ لا تعبدوا أو بأنْ لا تعبدوا ، فيكون مفعولاً من أجله ، ووصلت أنْ بالنهي .

وقيل : أنْ نصبت لا تعبدوا ، فالفعل خبر منفي .

وقيل : أنْ هي المخففة من الثقيلة ، وجملة النهي في موضع الخبر ، وفي هذه الأقوال العامل فصلت .

وأما من أعربه أنه بدل من لفظ آيات أو من موضعها ، أو التقدير : من النظر أنْ لا تعبدوا إلا الله ، أو في الكتاب ألا تعبدوا ، أو هي أنْ لا تعبدوا ، أو ضمن أنْ لا تعبدوا ، أو تفصله أنْ لا تعبدوا ، فهو بمعزل عن علم الإعراب .

(24/373)

والظاهر عود الضمير في منه إلى الله أي : إني لكم نذير من جهته وبشير ، فيكون في موضع الصفة ، فتعلق بمحذوف أي : كائن من جهته .

أو تعلق بنذير أي : أنذركم من عذابه إنْ كفرتم ، وأبشركم بثوابه إن آمنتم .

وقيل : يعود على الكتابة أي : نذير لكم من مخالفته ، وبشير منه لمن آمن وعمل به .

وقدم النذير لأن التخويف هو الأهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الر ﴾ محلُّه الرفعُ على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ ، وقيل : على أنه مبتدأٌ والأولُ هو الأظهرُ كما أشير إليه في سورة يونُسَ ، أو النصبُ بتقدير فعلٍ يناسب المقامَ نحو اذكُر أو اقرأ على تقدير كونِه اسماً للسورة على ما عليه إطباقُ الأكثرِ ، أو لا محلَّ له من الإعراب مسرودٌ على نمط التعديدِ حسبما فُصِّل في أخواته ، وقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ ﴾ خبرٌ له على الوجه الثاني ، ولمبتدأ محذوفٍ على الوجوه الباقيةِ ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ نُظمت نظماً مُتْقناً لا يعتريه خللٌ بوجه من الوجوه أو جُعلت حكيمةً لانطوائها على جلائل الحِكَم البالغةِ ودقائِقها أو مُنعت من النسخ بمعنى التغييرِ مطلقاً أو أُيِّدت بالحُجج القاطعةِ الدالةِ على كونها من عند الله عز وجل أو على ثبوتِ مدلولاتِها فالمرادُ بالآيات جميعُها أو على حقية ما تشتمل عليه من الأحكام الشرعيةِ فالمرادُ بها بعضُها المشتملُ عليها كما إذا فُسِّر الأحكامُ بالمنع من النسخ بمعنى تبديلِ الحُكمِ الشرعيِّ خاصةً ، وأما تفسيرُه بالمنع من الفساد أخذاً من

قولهم : أحكمتَ الدابة إذا وضعتَ عليها الحَكَمة لتمنعَها من الجِماح ففيه إيهامُ ما لا يكاد يليقُ بشأن الآياتِ الكريمةِ من التداعي إلى الفساد لولا المانع ، وفي إسناد الإحكامِ على الوجوه المذكورةِ إلى آيات الكتابِ دون نفسِه لا سيما على الوجوه الشاملةِ لكل آية منه من حسن الموقعِ والدِلالة على كونه في أقصى غاية منه ما لا يخفى ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ أي جُعلت فصولاً من الأحكام والدلائل والمواعظِ والقِصصِ أو فُصّل فيها مَهمّاتُ العبادِ في المعاش والمعادِ على الإسناد المجازيّ والتفسيرُ بجعلها آيةً آيةً لا يساعده ، لأن ذلك من الأوصاف الأوليةِ فلا يناسب عطفُه على أحكامها بكلمة التراخي ، وأما المعنيان الأوّلان فهما وإن كانا مع الأحكام زماناً حيث لم تزَل الآياتُ مُحكمةً مفصّلة لا أنها أُحكِمَتْ أو فُصِّلَت بعد أن لم

(26/373)

تكن كذلك ، إذ الفعلانِ من قَبيل قولِهم : سبحان من صغّر البَعوضَ وكبّر الفيلَ ، إلا أنهما حيث كانا من صفات الآياتِ باعتبار نسبةِ بعضِها إلى بعض على وجه يستتبعُ أحكاماً مخصوصةً وآثاراً معتدّاً بها ، وبملاحظة مصالحِ العبادِ ناسبَ أن يشار إلى تراخي رتبتِهما عن رتبة الإحكام ، وإن حُمل جعلُها آيةً آيةً على معنى تفريقِ بعضِها عن بعض يكونُ من

هذا القبيل إلا أنه ليس في مثابته في استتباع ما يستتبعه من الأحكام والآثارِ ، أو فُرّقت في التنزيل منجّمة بحسب المصالحِ فإن أريد تنزيلُها المنجَّمُ بالفعل فالتراخي زمانيٌّ وإن أريد جعلُها في نفسها بحيث يكون نزولُها منجّماً حسبما تقتضيهِ الحِكمةُ والمصلحةُ فهو رُتبيٌّ لأن ذلك وصفٌ لازمٌ لها حقيقٌ بأن يُرتَّبَ على وصف إحكامِها وقرىء أحكمتُ آياتِه ثم فصّلتُ على صيغة التكلم وعن عكرمة والضحاك ثم فصلت أي فرّقت بين الحق والباطل .

﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ صفةٌ للكتاب وُصف بها بعد ما وصُف بإحكام آياتِه وتفصيلِها الدالّين على رتبتِه من حيث الذاتُ إبانةً لجلالة شأنِه من حيث الإضافةُ ، أو خبرٌ للمبتدأ المذكور أو المحذوفِ ، أو صلةٌ للفعلين وفي بنائها للمفعول ثم إيرادِ الفاعلِ بعنوان الحِكمة البالغةِ والإحاطةِ بجلائلها ودقائِقها منكراً بالتنكير التفخيميّ وربطِهما به لا على النهج المعهودِ في إسناد الأفاعيلِ إلى فواعلها مع رعاية حسنِ الطباقِ من الجزالة والدلالة على فخامتهما وكونِهما على أكمل ما يكون ما لا يُكتنه كُنهُه .

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾

(27/373)

مفعولٌ له حُذف عنه اللامُ مع فقدان الشرطِ ، أعني كونَه فعلاً لفاعل الفعلِ المعللِ جرياً على سنن القياسِ المطّردِ في حذف حرفِ الجرّ مع أن المصدريةِ ، كأنه قيل : كتابٌ أُحكمت آياتُه ثم فُصّلت لئلا تعبدوا إلا الله ، أي لتتركُوا عبادةَ غيرِ الله عز وجل وتتمحّضوا في عبادته ، فإن الإحكامَ والتفصيلَ على ما فُصّل من المعاني مما يدعوهم إلى الإيمان والتوحيدِ وما يتفرع عليه من الطاعات قاطبةً . وقيل : أنْ مفسرةٌ لما في التفصيل من معنى القولِ أي قيل : لا تعبدوا إلا الله ﴿ إِنَّنِى لَكُمْ مِّنْهُ ﴾ من جهة الله تعالى ﴿ نَّذِيرٌ ﴾ أُنذركمَ عذابَه إن لم تتركوا ما أنتم عليه من الكفر وعبادةِ غيرِ الله تعالى ﴿ وَبَشِيرٌ ﴾ أبشركم بثوابه إن آمنتم به وتمحّضتم في عبادته ، ولمّا ذُكر شؤون الكتابِ من إحكام آياتِه وتفصيلِها وكونِ ذلك من قِبَل الله تعالى وأُورد معظمُ ما نُظم في سلك الغايةِ والأمرِ من التوحيد وتركِ الإشراك وُسِّط بينه وبين قرينيه أعني الاستغفارَ والتوبة ذِكرُ أن من نُزّل عليه ذلك الكتابُ مرسَلٌ من عند الله تعالى لتبليغ أحكامِه وترشيحِها بالمؤيدات من الوعد والوعيدِ للإيذان بأن التوحيدَ في أقصى مراتبِ الأهمية حتى أُفرد بالذكر وأُيِّد إيجابُه بالخطاب غِبَّ الكتابِ مع تلويح بأنه كما لا يتحقق في نفسه إلا مقارناً للحُكم برسالته عليه السلام كذلك في الذكر لا ينفكّ أحدُهما عن الآخر ، وقد رُوعيَ في سَوق الخطابِ بتقديم الإنذار على التبشير ما رُوعيَ في الكتاب من تقديم النفي على الإثبات والتخليةِ على التحليةِ لتجاوب أطرافِ الكلامِ ، ويجوز أن يكون قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ ﴾ كلاماً منقطعاً عما قبله

وارداً على لسانه عليه السلام إغراءً لهم على اختصاصه تعالى بالعبادة كأنه عليه السلام قال : " تركَ عبادةِ غيرِ الله " أي الزموه ، على معنى اتركوا عبادةَ غيرِ الله تركاً مستمراً إنني

(28/373)

لكم من جهة الله تعالى نذيرٌ وبشير ، أي نذير أنذركم من عقابه على تقدير استمرارِكم على الكفر وبشيرٌ أبشرّكم بثوابه على تقدير تركِكم له وتوحيدِكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(29/373)

وقال الآلوسى :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم الر ﴾

اسم للسورة على ما ذهب إليه الخليل .

وسيبويه .

وغيرهما أو للقرآن على ما روي عن الكلبي .

والسدى ، وقيل : إنها إشارة إلى اسم من أسمائه تعالى أو صفة من صفاته سبحانه ، وقيل : هي إقسام منه تعالى بما هو من أصول اللغات ومبادي كتبه المنزلة ومباني أسمائه الكريمة ، وقايل وقيل ، وقد تقدم الكلام فيما ينفعك هنا على أتم تفصيل ، واختار غير واحد من المتأخرين كونها اسماً للسورة وأنها خبر مبتدأ محذوف أي هذه السورة مسماة بالر وقيل : محلها الرفع على الابتداء أو النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اذكر أو اقرأ ، وقوله سبحانه : ﴿ كِتَابٌ ﴾ خبر لها على تقدير ابتدائيتها أو لمبتدأ محذوف على غيره من الوجوه ، والتنوين فيه للتعظيم أي كتاب عظيم الشأن جليل القدر ﴿ أُحْكِمَتْ ءاياته ﴾ أي نظمت نظماً محكماً لا يطرأ عليه اختلال فلا يكون فيه تناقض أو مخالفة للواقع والحكمة أو شيء مما يخل بفصاحته وبلاغته فالأحكام مستعار من إحكام البناء بمعنى اتقانه أو منعت من النسخ لبعضها أو لكلها بكتاب آخر كما وقع للكتب السالفة فالأحكام من أحكمه إذا منعه ؛ ويقال : أحكمت السفيه إذا منعته من السفاهة ، ومنه قول جرير

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم . . .

إني أخاف عليكم إن أغضبا

وقيل : المراد منعت من الفساد أخذاً من أحكمت الدابة إذا جعلت في فمها الحكمة وهي حديدة تجعل في فم الدابة تمنعها من الجماح ، فكأن ما فيها من بيان المبدأ والمعاد بمنزلة دابة

منعها الدلائل من الجماح ، ففي الكلام استعارة تمثيلية أو مكنية .

وتعقب بأن تشبيهها بالدابة مستهجن لا داعي إليه ، ولعل الذوف يفرق بين ذلك وبين تشبيهها بالجمل الأنوف الوارد في بعض الآثار لانقيادها مع المتأولين لكثرة وجوه احتمالاتها الموافقة لأغراضهم .

(30/373)

واعترض بعضهم على إرادة المنع من الفساد بأن فيه إيهام ما لا يكاد يليق بشأن الآيات الكريمة من التداعي إلى الفساد لولا المانع ، فالأول إذ يراد معنى المنع أن يراد المنع من النسخ ويراد من الكتاب القرآن وعدم نسخه كلا أو بعضاً على حسب ما أشرنا إليه ؛ وكون ذلك خلاف الظاهر في حيز المنع .

وادعى بعضهم أن المراد بالآيات آيات هذه السورة وكلها محكمة غير منسوخة بشيء أصلاً ، وروي ذلك عن ابن زيد وخولف فيه .

وادعى أن فيها من المنسوخ أربع آيات قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ واللهُ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود : 12] ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ [هود : 121] والتي تليها ونسخت جميعا بآية السيف و ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا

وَزِينَتَهَا ﴾ [هود : 51] الآية ونسخت بقوله سبحانه

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء : 18] ولا يخلو عن نظر ، ويجوز أن يكون المعنى منعت من الشبه بالحجج الباهرة وأيدت بالأدلة الظاهرة أو جعلت حكمية أي ذات حكمة لاشتمالها على أصول العقائد والأعمال الصالحة والنصائح والحكم ، والفعل على هذا منقول من حكم بالضم إذا صار حكيماً ، ومنه قول نمر بن تولب :

وأبغض بغيضك بغضاً رويدا . . .

إذا أنت حاولت أن تحكما

(31/373)

فقد قال الأصمعي : إن المعنى إذا حاولت أن تكون حكيماً ، وفي إسناد الإحكام على الوجوه المذكورة إلى الآيات دون الكتاب نفسه لا سيما إذا أريد ما يشمل كل آية آية من حسن الموقع والدلالة على كونه في أقصى غاياته ما لا يخفى ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ أي جعلت مفصلة كالعقد المفصل بالفرائد التي تجعل بين اللالىء ، ووجه جعلها كذلك اشتمالها على دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص أو فصل فيها مهمات العباد في المعاش والمعاد

على الإسناد المجازي أو جعلت فصلاً فصلاً من السور ويراد بالكتاب القرآن ، وقيل : يصح أن يراد به هذه السورة أيضاً على أن المعنى جعلت معاني آياتها في سور ولا يخفى أنه تكلف لا حاجة إليه .

أو فرقت في التنزيل فلم تنزل جملة بل نزلت نجماً نجماً على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، و﴿ ثُمَّ ﴾ على هذا ظاهرة في التراخي الزماني لما أن المتبادر من التنزيل المنجم فيه التنزيل المنجم بالفعل ، وإن أريد جعلها في نفسها بحيث يكون نزولها منجماً حسب الحكمة فهو رتبي لأن ذلك وصف لازم لها حقيق بأن يرتب على وصف أحكامها ، وهي على الأوجه الأول للتراخي الرتبي لا غير ، وقيل : للتراخي بين الأخبارين .

واعترض بأنه لا تراخي هناك إلا أن يراد بالتراخي الترتيب مجازاً أو يقال بوجوده باعتبار ابتداء الخبر الأول وانتهاء الثاني .

وأنت تعلم أن القول بالتراخي في الرتبة أولى خلا أن تراخى رتبة التفصيل بأحد المعنيين الأولين عن رتبة الأحكام أمر ظاهر وبالمعنى الثالث فيه نوع خفاء ، ولا يخفى عليك أن الاحتمالات في الآية الحاصلة من ضرب معاني الأحكام الأربعة في معاني التفصيل كذلك وضرب المجموع في احتمالات المراد بثم تبلغ اثنين وثلاثين أو ثمانية وأربعين احتمالاً ولا حجر .

والزمخشري ذكر للأحكام على ما في الكشف ثلاثة أوجه .

أخذه من أحكام البناء نظراً إلى التركب البالغ حد الإعجاز .

أو من الأحكام جعلها حكيمة .

(32/373)

أو جعلها ذات حكمة فيفيد معنى المنع من الفساد ، وللتفصيل أربعة .

جعلها كالقلائد المفصلة بالفرائد لما فيها من دلائل التوحيد وأخواتها ، وجعلها فصولاً سورة سورة وآية آية .

وتفريقها في التنزيل .

وتفصيل ما يحتاج إليه العباد وبيانه فيها روي هذا عن مجاهد ، وقال : إن معنى ﴿ ثُمَّ ﴾ ليس التراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول هي محكمة أحسن الإحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل ، وفلان كريم الأصل ثم كريم الفعل .

(33/373)

والظاهر أنه أراد أنها في جميع الاحتمالات كذلك ، وفيه أيضاً أنه إذا أريد بالإحكام أحد الأولين وبالتفصيل أحد الطرفين فالتراخي رتبي لأن الأحكام بالمعنى الأول راجع إلى اللفظ والتفصيل إلى المعنى ، وبالمعنى الثاني وإن كان معنوياً لكن التفصيل اكمال لما فيه من الإجمال ، وان أريد أحد الأوسطين فالتراخي على الحقيقة لأن الأحكام بالنظر إلى كل آية في نفسها وجعلها فصولاً بالنظر إلى بعضها مع بعض أو لأن كل آية مشتملة على جمل من الألفاظ المرصفة وهذا تراخ وجودي ، ولما كان الكلام من السائلات كان زمانياً أيضاً ، ولكن الزمخشري آثر التراخي في الحال مطلقاً حملا على التراخي في الأخبار في هذين الوجهين ليطابق اللفظ الوضع وليظهر وجه العدول من الفاء إلى ثم ، وإن أريد الثالث وبالتفصيل أحد الطرفين فرتبي وإلا فأخباري ، والأحسن أن يراد بالأحكام الأول وبالتفصيل أحد الطرفين وعليه ينطبق المطابقة بين ﴿ حيكم ﴾ ودخبير ﴾ و﴿ ﴾ و﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ﴾ و﴿ فُصِّلَتْ ﴾ ثم قال : ومنه ظهر أن التراخي في الحال يشمل التراخي الرتبي والأخباري انتهى فليتأمل ، وقرىء ﴿ أُحْكِمَتْ ﴾ بالبناء للفاعل المتكلم و﴿ فُصِّلَتْ ﴾ بفتحتين مع التخفيف وروي هذا عن ابن كثير ، والمعنى ثم فرقت بين الحق والباطل ، وقيل : ﴿ فُصِّلَتْ ﴾ هنا مثلها في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ العير ﴾ [يوسف : 94] أي انفصلت وصدرت ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ صفة لكتاب وصف بها بعد ما وصف بأحكام آياته وتفصيلها الداليت على علو مرتبته من حيث

الذات إبانة لجلالة شأنه من حيث الإضافة أو خبر ثان للمبتدأ الملفوظ أو المقدر أو هو معمول لأحد الفعلين على التنازع مع تعلقه بهما معنى أي من عنده أحكامها وتفصيلها واختار هذا في الكشف .

(34/373)

وفي الكشاف أن فيه طباقاً حسناً لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها أي بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور ففي الآية اللف والنشر ، وأصل الكلام على ما قال الطيبي : أحكم آياته الحكيم وفصلت الخبير ثم عدل عنه إلى أحكمت حكيم وفصلت خبير على حد قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والاصال رِجَالٌ ﴾ [النور : 36-37] على قراءة البناء للمفعول ، وقوله :

لبيك يزيد ضارع لخصومة . . .

ومختبط مما تطيح الطوائح

ثم إلى ما في النظم الجليل لما في الكناية من الحسن مع إفادة التعظيم البالغ الذي لا يصل إلى كنهه وصف الواصف لا سيما وقد جيء بالاسمين الجليلين منكرين بالتنكير التفخيمي ، و﴿ لَّدُنْ ﴾ من الظروف المبنية وهي لأول غاية زمان أو مكان ، والراد هنا الأخير مجازاً

، وينبت لشبهها بالحرف في لزومها استعمالاً واحداً وهي كونها مبدأ غاية وامتناع الأخبار بها وعنها ولا يبنى عليها المبتدأ بخلاف عند ولدي فانهما لا يلزمان استعمالاً واحداً بل يكونان لابتداء الغاية وغيرها ويبنى عليهما المبتدأ كما في قوله سبحانه :

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب ﴾ [الأنعام : 59] ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : 35] قيل : ولقوة شبهها بالحرف وخروجها عن نظائرها لا تعرب إذا أضيفت .

نعم جاء عن قيس اعرابها تشبيهاً بعند وعلى ذلك خرجت قراءة عاصم ﴿ بَأْسًا شَدِيدًا مّن لَّدُنْهُ ﴾ [الكهف : 2] بالجر واشمام الدال الساكنة الضم واقترانها بمن كما في الآية ، وكذا إضافتها إلى مفرد كيفما كان هو الغالب وقد تتجرد عن من وقد تضاف إلى جملة اسمية كقوله :

وتذكر نعماه لدن أنت يافع . . .

وفعلية كقوله :

صريح غوان راقهن ورقنه . . .

لدن شب حتى شاب سود الذوائب

ومنع ابن الدهان من إضافتها إلى الجملة وأول ما ورد من ذلك على تقدير أن المصدرية بدليل ظهورها معها في قوله :

وليت فلم تقطع لدن ان وليتنا . . .

قرابة ذي قربى ولاحق مسلم

(35/373)

ولا يخفى ما في التزام ذلك من التكلف لا سيما في مثل لدن أنت يافع وتتمحض للزمان إذا أضيفت إلى الجملة ، وجاء نصب غدوة بعدها في قوله :

لدن غدوة حتى دنت لغروب . . .

وخرج على التمييز ، وحكى الكوفيون رفعها بعدها وخرج على إضماء كان ، وفيها ثمان لغات .

فمنهم من يقول ﴿ لَّدُنْ ﴾ بفتح اللام وضم الدال وسكون النون وهي اللغة المشهورة ، وتخفف بحذف الضمة كما في عضد وحينئذ يتلقى ساكنان .

فمنهم من يحذف النون لذلك فيبقى لد بفتح اللام وسكون الدال .

ومنهم من لا يحذف ويحرك الدال فتحا فيقول ﴿ لَّدُنْ ﴾ بفتح اللام والدال وسكون النون .

ومنهم من لا يحذف ويحرك الدال كسرا فيقول ﴿ لَّدُنْ ﴾ بفتح اللام وكسر الدال وسكون

النون ومنهم من لا يحذف ويحرك النون بالكسر فيقول ﴿ لَّدُنْ ﴾ بفتح اللام وسكون الدال وكسر النون ، وقد يخفف بنقل ضمة الدال إلى اللام كما يقال في عضد عضد بضم العين وسكون الضاد على قلة ، وحينئذ يلتقي ساكنان أيضاً .

فمنهم من يحذف النون لذلك فيقول لد بضم اللام وسكون الدال .

ومنهم من لا يحذف ويحرك النون بالكسر فيقول ﴿ لَّدُنْ ﴾ بضم اللام وسكون الدال وكسر النون فهذه سبع لغات .

وجاء لد بحذف نون ﴿ لَّدُنْ ﴾ التي هي أم الجميع وبذلك تتم الثمانية ، ويدل على أن أصل لد لدن إنك إذا أضفته لمضمر جئت بالنون فتقول : من لدنك ولا يجوز من لدك كما نبه عليه سيبويه ، وذكر لها في همع الهوامع عشر لغات ما عدا اللغة القيسية فليراجع .

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2) ﴾

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ في موضع العلة للفعلين السابقين على جعل ﴿ إن ﴾ مصدرية وتقدير اللام معها كأنه قيل : كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا الله أي لتتركوا عبادة غيره عز وجل وتتمحضوا لعبادته سبحانه ، فإن الأحكام والتفصيل مما يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد وما يتفرع عليه من الطاعات قاطبة .

وجوز أن تكون مفسرة لما في التفصيل من معنى القول دون حروفه كأنه قيل : فصل وقال : لا تعبدوا إلا الله أو أمر أن لا تعبدوا إلا الله ، وقيل : إن هذا كلام منقطع عما قبله غير متصل به اتصالاً لفظياً بل هو ابتداء كلام قصد به الاغراء على التوحيد على لسانه صلى الله عليه وسلم و ﴿ إن ﴾ وما بعدها في حيز المفعول به لمقدر كأنه قيل : الزموا ترك عبادة غيره تعالى ، واحتمال أن يكون ما قبل أيضاً مفعولاً به بتقدير قل أول الكلام خلاف الظاهر ، ومثله احتمال كون ﴿ إن ﴾ والفعل في موقع المفعول المطلق ، وقد صرح بعض المحققين أن ذلك مما لا يحسن أو لا يجوز فلا ينبغي أن يلتفت إليه ﴿ إِنَّنِى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ ضمير الغائب المجرور لله تعالى و ﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية ، والجار والمجرور في الأصل صفة النكرة فلما قدم عليها صار حالا كما هو المعروف في أمثاله أي إني لكن من جهته تعالى نذير أنذركم عذابه أن لم تتركوا ما أنتم عليه من عبادة غيره سبحانه وبشير أبشركم ثوابه إن آمنتم وتمحضتم في عبادته عز وجل ، وجوز كون ﴿ مِنْ ﴾ صلة النذير والضمير إما له تعالى أيضاً ، والمعنى حينئذ على ما قال أبو البقاء نذير من أجل عذابه وإما للكتاب على معنى إني لكن نذير من مخالفته وبشير لمن آمن به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) ﴾

﴿ الر ﴾

تقدم القول على الحروف المقطعة الواقعة في أوائل السور في أول سورة البقرة وغيرها من نظرائها وما سورة يونس ببعيد .

﴿ كتاب أحكمت اياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾

القول في الافتتاح بقوله : ﴿ كتاب ﴾ وتنكيره مماثل لما في قوله : ﴿ كتاب أنزل إليك ﴾ في سورة [الأعراف : 2] .

والمعنى : أن القرآن كتاب من عند الله فلماذا يَعجب المشركون من ذلك ويكذبون به .

ف (كتاب) مبتدأ ، سوغ الابتداء ما فيه من التنكير للنوعية .

ومن لدن حكيم خبير ﴾ خبَر و ﴿ أحكمت آياته ﴾ صفة ل (كتاب) ، ولك أن تجعل ﴿ أحكمت آياته ﴾ صفة مخصصة ، وهي مسوغ الابتداء .

ولك أن تجعل (أحكمت) هو الخبر .

وتجعل ﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ ظرفاً لغواً متعلقاً بـ ﴿ أحكمت ﴾ و ﴿ فُصلت ﴾ .

والإحكام : إتقان الصنع ، مشتق من الحِكْمة بكسر الحاء وسكون الكاف .

وهي إتقان الأشياء بحيث تكون سالمة من الأخلال التي تعرض لنوعها ، أي جعلت آياته كاملة في نوع الكلام بحيث سلمت من مخالفة الواقع ومن أخلال المعنى واللفظ .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ منه آيات محكمات ﴾ في أول سورة [آل عمران : 7] .

وبهذا المعنى تنبىء المقابلة بقوله : من لدن حكيم ﴾ .

وآيات القرآن : الجمل المستقلة بمعانيها المختتمة بفواصل .

وقد تقدم وجه تسمية جمل القرآن بالآيات عند قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ في أوائل سورة [البقرة : 39] ، وفي المقدمة الثامنة من مقدمات هذا التفسير .

والتفصيل : التوضيح والبيان .

وهو مشتق من الفَصل بمعنى التفريق بين الشيء وغيره بما يميزه ، فصار كناية مشهورة عن البيان لما فيه من فصل المعاني .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ في سورة [الأنعام : 55] .

ونظيره : الفرق ، كنى به عن البيان فسمي القرآن فُرقاناً .

وعن الفصل فسمي يوم بَدر يوم الفرقان ، ومنه في ذكر ليلة القدر ﴿ فيها يُفرق كل أمر حكيم ﴾ [الدخان : 4] .

و(ثُم) للتراخي في الرتبة كما هو شأنها في عطف الجمل لما في التفصيل من الاهتمام لدى النفوس لأن العقول ترتاح إلى البيان والإيضاح .

و ﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ أي من عند الموصوف بإبداع الصنع لحكمته ، وإيضاح التبيين لقوة علمه .

والخبير : العالم بخفايا الأشياء ، وكلما كثرت الأشياء كانت الإحاطة بها أعز ، فالحكيم مقابل ل ﴿ أحْكمتْ ﴾ ، والخبير مقابل ل ﴿ فُصّلتْ ﴾ .

وهما وإن كانا متعلّق العلم ومتعلّق القدرة إذ القدرة لا تجري إلا على وفق العلم ، إلا أنه روعي في المقابلة الفعلُ الذي هو أثرُ إحدى الصفتين أشدُّ تبادُراً فيه للناس من الآخر وهذا من بليغ المزاوجة .

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2) ﴾

(أنْ) تفسيرية لما في معنى ﴿ أحكمت آياته ثُم فصلت ﴾ [هود : 1] من الدلالة على

أقوال محكمة ومفصلة فكأنه قيل : أوحي إليك في هذا الكتاب أن لا تعبدوا إلا الله ، فهذه الجملة تفسيرية لما أحكم من الآيات لأن النهي عن عبادة غير الله وإيجاب عبادة الله هو أصل الدين ، وإليه مرجع جميع الصفات التي ثبتت لله تعالى بالدليل ، وهو الذي يتفرع عنه جميع التفاصيل ، ولذلك تكرر الأمر بالتوحيد والاستدلال عليه في القرآن ، وأن أول آية نزلت كان فيها الأمرُ بملابسة اسم الله لأول قراءة القرآن في قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ [العلق : 1] .

والخطاب في ﴿ ألاَّ تعبدوا ﴾ وضمائر الخطاب التي بعده موجهة إلى الذين لم يؤمنوا وهم كل من يسمع هذا الكلام المأمور بإبلاغه إليهم .

وجملة : ﴿ إنني لكم منه نذير وبشير ﴾ معترضة بين جملة ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ [هود : 1] وجملة ﴿ وأن استغفروا ربكم ﴾ [هود : 3] الآية ، وهو اعتراض للتحذير من مخالفة النهي والتحريض على امتثاله .

(39/373)

ووقوع هذا الاعتراض عقب الجملة الأولى التي هي من الآيات المحكمات إشعارٌ بأن مضمونه من الآيات المحكمات وإن لم تكن الجملة تفسيرية وذلك لأن شأن الاعتراض أن

يكون مناسباً لما وقع بعده وناشئاً منه فإن مضمون البشير والنذير هو جامع عمل الرسول صلى الله عليه وسلم في رسالته فهو بشير لمن آمن وأطاع ، ونذير لمن أعرض وعصى ، وذلك أيضاً جامع للأصول المتعلقة بالرسالة وأحوال الرسل وما أخبروا به من الغيب فاندرج في ذلك العقائد السمعية ، وهذا عين الإحكام .

و(من) في قوله : ﴿ إنني لكم منه ﴾ ابتدائية ، أي أني نذير وبشير لكم جائياً من عند الله .

والجمع بين النذارة والبشارة لمقابلة ما تضمنته الجملة الأولى من طلب ترك عبادة غير الله بطريق النهي وطلب عبادة الله بطريق الاستثناء ، فالنذارة ترجع إلى الجزء الأول ، والبشارة ترجع إلى الجزء الثاني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(40/373)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) ﴾

اعلم أن العلماء اختلفوا في المراد بالحروف المقطعة في أوائل السور اختلافاً كثيراً ، واستقراء القرآن العظيم يرجح واحداً من تلك الأقوال ، وسنذكر الخلاف المذكور وما

يرجحه القرآن منه بالاستقراء فنقول ، وبالله جل وعلا نستعين :

قال بعض العلماء : هي مما استأثر الله تعالى بعلمه . كما بيناه في " آل عمران " وممن روي عنه هذا القول : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان . وعلي ، وابن مسعود – رضي الله عنهم – وعامر والشعبي ، وسفيان الثورين والربيع بن خيثم ، واختاره أبو حاتم بن حبان .

وقيل : هي أسماء للسور التي افتتحت بها . وممن قال هذا بهذا القول : عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . ويروى ما يدل لهذا القول عن مجاهد ، وقتادة ، وزيد بن أسلم . قال الزمخشري في تفسيره : وعليه إطباق الأكثر . ونقل عن سيبويه أنه نص عليه . ويعتضد هذا القول بما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿ الم ﴾ السجدة ، و ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ .

ويدل له أيضاً قول قاتل محمد السجاد بن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما يوم الجمل ، وهو شريح بن أبي أوفى العبسيز كما ذكره البخاري في صحيحه في أول سوة المؤمن :

يذكرني حاميم والرمح شاجر . . . فهلا تلا حاميم قبل التقدم

وحكى ابن إسحاق أن هذا البيت للأشتر النخعي قائلاً : إنه الذي قتل محمد بن طلحة المذكور . وذكر أبو مخنف : أنه لمدلج بن كعب السعدي . ويقال كعب بن مدلج . وذكر الزبير بن بكار أن الأكثر على أن الذي قتله عصام بن مقشعر . قال المرزباني : وهو الثبت ، وأنشد له البيت المذكور وقبله :

وأشعث قوام بآيات ربه . . . قليل الأذى فيما ترى العين مسلم

هتكت له بالرمح جيب قميصه . . . فخر صريعاً لليدين وللفم

على غير بالرمح جيب قميصه . . . فخر صريعاً لليدين وللفم

(41/373)

على غير شيء غير أن ليس تابعاً . . . علياً ومن لا يتبع الحق يندم

يذكرني حاميم . . . البيت . اه من فتح الباري .

فقوله : " يذكرني حاميم " ، بإعراب " حاميم " إعراب ما لا ينصرف - فيه دلالة على ما ذكرنا من أنه اسم للسورة .

وقيل : هي من اسماء الله تعالى . وممن قال بهذا : سالم بن عبد الله ، والشعبي ، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير ، وروي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما وعنه أيضاً : أنها أقسام أقسم الله بها . وهي من أسمائه . وروي نحوه عن عكرمة .

وقيل : هي حروف ، كل واحد منها من اسم من أسماءه جل وعلا . فالألف كم " الم " مثلاً : مفتاح اسم الله ، والام مفاتح اسمه اللطيف ، والميم : مفتح اسمه المجيد ، وهكذا .

ويروى هذا عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وأبي العاليه . واستدل لهذا القول بأن العرب

قد تطلق الحرف الواحد من الكلمة ، وتريد به جميع الكلمة كقول الزاجر :

قلت لها قفي فقالت لي قاف . . . لا تحسبي أنا نسيبنا الإيجاف

فقوله : " قاف " أي وقفت . وقول الآخر :

بالخير خيرات وإن شراً فا . . . ولا أريد الشر إلا أن تا

يعني : وإن شراً فشر ، ولا أريد الشر غلا أن تشاء . فاكتفى بالفاء والتاء عن بية الكلمتين .

قال القرطبي : وفي الحديث " من أعان على قتل مسلم بشطر كلم " الحديث . قال سفيان : هون يقول في أقتل : أ ق . إلى غير ما ذكرنا من الأقوال في فواتح السور ، وه نحو ثلاثين قولاً .

أما القول الذي يدل استقراء القرآن على رجحانه فهو : أن الحروف المقطعة ذكرت في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها . وحكى هذا القول الرازي في تفسيره عن المبرد ، وجمع من المحققين ، وحكاه القرطبي عن الفراء وقطرب ، ونصره الزمخشري في الكشاف .

(42/373)

قال ابن كثير : وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية ، وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي ، وحكاه لي ن ابن تيمية .

ووجه شهادة استقراء القرآن لهذا القول : أن السور التي افتتحت بالحوف المقطعة يذكر فيها دائماً عقب الحروف المقطعة الانتصار للقرآن وبيان إعجازه ، وأنه الحق الذي لا شك فيه .

وذكر ذلك بعدها دائماً دليل استقرائي على أن الحروف المقطعة قصد بها إظهار إعجاز القرآن ، وأنه حق .

(43/373)

قال تعالى في البقرة : ﴿ الم ﴾ [البقرة : 1] وأتبع ذلك بقوله ﴿ ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة : 2] وقال في آل عمران ﴿ الم ﴾ [آل عمران : 1] وأتبع ذلك بقوله : ﴿ الله لا إله إِلاَّ هُوَ الحي القيوم نَزَّلَ عَلَيْكَ الكتاب بالحق ﴾ [آل عمران : 2 -3] الآية . وقال في الأعراف : ﴿ المص ﴾ ثم قال ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْك ﴾ الآية . وقال في سورة يونس : ﴿ الر ﴾ ثم قال : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم ﴾ [يونس : 1] وقال في هذه السورة الكريمة الي نحن بصددها - أعني سورة هود ﴿ الر ﴾ ثم قال ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ

فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : 1] ، وقال في يوسف : ﴿ الر ﴾ ثم قال : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب المبين ﴾ [يوسف : 1] ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف : 2] الآية . وقال في الرعد : ﴿ المر ﴾ ثم قال : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب والذي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق ﴾ [الرعد : 1] ، وقال في سورة إبراهيم ﴿ الر ﴾ ثم قال ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [إبراهيم : 1] الآية . وقال في الحجر : ﴿ الر ﴾ ثم قال : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : 1] وقال في سورة طه ﴿ طه ﴾ [طه : 1] ثم قال : ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى ﴾ [طه : 2] وقال في الشعراء : ﴿ طسم ﴾ [الشعراء : 1] ثم قال ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب المبين لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾

(44/373)

[الشعراء : 2-3] الآية . وقال في النمل : ﴿ طس ﴾ ثم قال ﴿ تِلْكَ آيَاتُ القرآن وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : 1] وقال في القصص ﴿ طسم ﴾ [القصص : 1] ثم قال ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب المبين ﴾ [القصص : 2] ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ ﴾ [القصص : 3] الآية . وقال في لقمان ﴿ الم ﴾ [لقمان : 1] ثم قال ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب

الحكيم ﴾ [لقمان: 2] ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ [لقمان: 3] وقال في السجدة ﴿ الم ﴾ [السجدة: 1] ثم قال ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [السجدة: 2] وقال في يس ﴿ يس ﴾ [يس: 1] ثم قال ﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ [يس: 2] الآية وقال في ص ﴿ ص ﴾ ثم قال ﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ [ص: 1] الآية وقال في سورة المؤمن ﴿ حم ﴾ [المؤمن: 1] ثم قال ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [المؤمن: 2] الآية. وقال في فصلت ﴿ حم ﴾ [فصلت: 1] ثم قال ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: 2-3] الآية وقال في الزخرف ﴿ حم ﴾ [الزخرف: 1] ثم قال ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: 2-3] الآية وقال في الدخان ﴿ حم ﴾ [الدخان: 1] ثم قال ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ [الدخان: 2-3] الآية وقال في الجاثية ﴿ حم ﴾ [الجاثية: 1] ثم قال ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الجاثية: 2-3] وقال في الأحقاف ﴿ حم ﴾ [الأحقاف: 1] ثم قال ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ [الأحقاف: 2-3] الآية. وقال في سورة ق ﴿ ق ﴾ ثم قال ﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ [ق: 1] الآية.

وقد قدمنا كلا الأصوليين في الاحتجاج بالاستقراء بما أغنى عن إعادته هنا .

وإنما أخرنا الكلام على الحروف المقطعة مع أنه مرت سور مفتتحة بالحروف المقطعة كالبقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس . لأن الحروف المقطعة في القرآن المكي غالباً ، والبقرة ، وآل عمران مدنيتان والغالب له الحكم ، واخترنا لبيان ذلك هود . لأن دلالتها على المعنى المقصود في غاية الظهور والإيضاح . لأن قوله تعالى ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ بعد قوله ﴿ الر ﴾ واضح جداً فيما كرنا ، والعلم عند الله تعالى .

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2) ﴾

هذه الآية الكريمة فيها الدلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التي أنزل القرآن من أجلها : هي أن يعبد الله جل وعلا وحده ، ولا يشرك به في عبادته شيء ، لأنه قوله جل وعلا : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تعبدوا إِلَّا الله ﴾ الآية – صريح في أن آيات هذا الكتاب فصلت من عند الحكيم الخبير لأجل أن يعبد الله وحده ، سواء قلنا إن " أن " هي المفسرة . أو أن المصدر المنسبك منها ومن صلتها مفعول من أجله ، لأن ضابط " أن " المفسرة أن يكون ما قبلها متضمناً معنى القول ، ولا يكون فيه حروف القول .

ووجهه في هذه الآية أن قوله : ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ فيه معنى قول الله تعالى لذلك الإحكام والتفصيل دون حروف القول ، فيكون تفسير ذلك هو : ﴿ أَلَّا تعبدوا إِلَّا الله ﴾ .

(46/373)

وأما على القول بأن المصدر المنسبك من " أن " وصلتها مفعول له فالأمر واضح ، فمعنى الآية ، أن حاصل تفصيل القرآن هو أن يعبد الله تعالى وحدة ولا يشرك به شيء . ونظير هذا المعنى قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ [الأنبياء : 108] ومعلوم أن لفظه " إنما " من صيغ الحصر ، فكأن جميع ما أوحي إليه منحصر في معنى " لا إله إلا الله " لأن معناها . خلع جميع المعبودات غير الله جل وعلا في جميع أنواع العبادات ، وإفراده جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات ، فيدخل في ذلك جميع الأوامر والنواهي القولية والفعلية والاعتقادية .

والآيات الدالة على أن إرسال الرسل ، وإنزال الكتب لأجل أن يعبد الله وحده كثيرة جداً كقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ [النحل : 36] ، وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلَّا أَنَا فاعبدون

﴿ [الأنبياء : 25] ، وقوله : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : 45] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد أشرنا إلى هذا البحث في سورة الفاتحة ، وسنستقصي الكلام عليه إن شاء الله تعالى في سورة " النَّاس " ، لتكون خاتمة هذا الكتاب المبارك حسنى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(47/373)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) ﴾

وتبدأ الآية بحروف توقيفية مقطعة من الحروف التي تبدأ بها بعض سور القرآن الكريم ، اي : أن كل حرف من تلك الحروف يُنطَق بمفرده ، والحرف كما نعلم له اسم ، وله مسمى ، ونحن حين نكتب أو نتكلم نكتب أو ننطق بمسمى الحرف لا باسمه ولكن بعض سور القرآن الكريم تبدأ بحروف نقرأها باسم الحرف ، وما عداها يُنطق فيها بمسميات الحرف .

وإن أردنا معرفة الفارق بينهما ، فنحن نقرأ في أول سورة البقرة ونقول : " ألف . لام . ميم " رغم أنها مكتوبة : ﴿ الم ﴾ [البقرة : 1] .

إذن : فنحن ننطقها بمسميات الحروف عكس قراءتنا لقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : 1] .

ونحن ننطقها بأسماء الحروف . . لماذا ؟

لأن الرسول صلى الله عليه وسلم سمعها هكذا من جبريل عليه السلام ، والقرآن أصله سماع ، وأنت لا تقرأ قرآناً إلا إذا سمعت قرآناً ؛ لتعرف كيف تقرأ الحروف المقطعة بأسماء الحروف ، وتقرأ بقية الآيات بمسميات الحروف .

وكنا قديماً قبل أن نحفظ القرآن " نصحح " اللوح ، أي : أن يقرأ الفقيه أولاً ليُعلمنا كيف نقرأ قبل أن نحفظ .

والذي يُتعب الناس أنهم يريدون أن يقرأوا القرآن الكريم دون أن يجلسوا إلى فقيه أو دون أن يستمعوا إلى قارىء للقرآن .

ونقول لهم : إن القرآن ليس كتاباً عادياً نقرأه ، إن القرآن كتاب له خاصية مميزة ، فَصُور الحروف تختلف ، فمرة ننطق اسم الحرف ، ومرة نقرأ مسمى الحروف .

وقول الحق سبحانه : ﴿ الر ﴾ في أول سورة هود ؛ يجعلنا نلحظ أنه من العجيب في فواتح السور التي بدأت بهذه الحروف أن القرآن مبنيٌّ على الوصل دائماً ، فأنت لا تأتي إلى آخر الآية وتقف ، لا ، بل كل القرآن وَصْل ، مثلما نقرأ قول الله سبحانه :

﴿ مُدْهَآمَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ [الرحمن : 6466] .

وإن كان هناك فاصل بين كل آية وغيرها ، إلا أن الآيات كلها مبنية على الوصل .

وفي آخر سورة يونس يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ [يونس : 109] .

فلو لم تكن موصولة لنطقت الحرف الأخير مبنياً على السكون ، ولكنك تقرأه منصوباً بالفتحة . وهي موصولة بما بعدها (بسم الله الرحمن الرحيم) .

ومن العجيب أن فواتح السور مع أنها مكونة من حروف مبنية على الوصل إلا أننا نقرأ كل حرف موقوفاً ، فلا نقول : " ألفٌ لامٌ ميمٌ " بل نقول : " ألفْ لامْ ميمْ " .

وكذلك نقرأ في أول سورة مريم " كافْ هاءْ ياءْ عينْ صادْ " ، ولا نقرأ الحروف بتشكيلها الإعرابي ، وهذا يدل على أن لها حكمة لا نعرفها .

وفي القرآن الكريم آيات بُدئت بحرف واحد مثل قول الحق سبحانه :

﴿ ص والقرآن ذِي الذكر ﴾ [ص : 1] .

وقول الحق سبحانه :

﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ [ق : 1] .

وقول الحق سبحانه :

﴿ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : 1] .

ونلحظ أن الحرف في هذه السور ليس آية ، ولكنك تقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ حم ﴾ [الشورى : 1] .

وهي آية ، وكذلك تقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ عسق ﴾ [الشورى : 2] كآية مع أنها حروف مقطعة ، وتقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ كهيعص ﴾ [مريم : 1] كآية بمفردها .

وتقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ طه ﴾ [طه : 1] كآية بمفردها .

وكذلك تقرأ قول الحق : ﴿ يس ﴾ [يس : 1] كآية بأكملها .

وتجد أيضاً : ﴿ المص ﴾ [الأعراف : 1] كآية .

و ﴿ طسم ﴾ [" الشعراء : والقصص " : 1] كآية .

وتجد أيضاً ﴿ المر ﴾ [الرعد : 1] ملتحمة بما بعدها في آية واحدة .

وتقرأ في أول سورة النمل : ﴿ طس ﴾ [النمل : 1] ملتحمة بما بعدها في آية واحدة .

إذن : فالمسألة لا نسق لها ، ومعنى ذلك أن لكل موقف وكل حرف حِكمة ، والحكمة نجدها حين نتأمل العالم المادي في الحياة ، فنفطن إلى عبر الله سبحانه وتعالى في آيات الكون المحسَّة ، ويجد الدليل على صدق الله تعلى فيما لم نعلم .

ومثال ذلك : حين ينزل الإنسان في فندق راق فهو يجد لكل غرفة مفتاحاً ، وهذا المفتاح لا يفتح إلا باب غرفة واحدة ، ولكن في كل طابق من طوابق الفندق هناك مفتاح مع المسئول عن الطابق يسمى " سيد المفاتيح " وهو يفتح كل غرف الطابق ، وقد صنعوا ذلك ؛ حتى لا يفتح كل نزيل غرفة الآخر .

ومع التقدم العلمي جعلوا الآن لكل غرة بطاقة الكترونية ، ما إن يُدخلها الإنسان من فتحة معينة من باب الغرفة حتى ينفتح الباب ، وكل غرفة لها بطاقة معينة ، وأيضاً يوجد مع مسئول الطابق في الفندق بطاقة واحدة ، تفتح كل غرف الطابق .

وأنت حين تقرأ فواتح السور فافهم أن كل آية لها مفتاح ، وكل حرف في هذه الفواتح قد يشبه المفتاح ، وإن لم يكن معك المفتاح ذو الأسنان التي تفتح باب الغرفة ؛ فلن تنفتح لك السورة .

إذن : فكتاب الله له مفاتيح ، ونحن نقرأ حروفاً مُقطَّعة على أنها آية ، أو نقرأها كجزء من آية .

وتقول من قبل القراءة : " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " لتخلص نفسك من الأغيار

المناقضة لمنهج قائل القرآن ، ثم تضع البطاقة الخاصة مثل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ الم ﴾ [البقرة : 1] .

فينفتح لك باب البقرة .

وهكذا نعرف أن هناك مفتاحاً ، وأن هناك فاتحاً وخذ فواتح السور على أنها مفاتيح ، وكل مفتاح له شكل ونحت معين ، إن نقلته لسورة أخرى فهو لا يفتحها .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ الر ﴾ وهي مكونة من ثلاثة حروف ، مثل ﴿ الم ﴾ ، وقد وردت في خمس سور من القرآن الكريم هي : يونس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، والحجر .

(50/373)

ولكن ﴿ الم ﴾ تقرأ كآية ، ولكنها هنا من مقدمة سورة " هود " جزء من آية رغم أنك تقرأها مثلها مثل سورة يونس ، وسورة هود ، وسورة يوسف وسورة إبراهيم ، وتقرأها كآية .

وايضاً ﴿ المص ﴾ هي أربعة حروف تقرأها آية في سورة الأعراف ، وهناك أربعة حروف في أول سورة الرعد ، وتقرأها كجزء من آية في سورة الأعراف .

إذن : فليس هناك قانون لهذه الحروف التي في أوائل السور ، بل كل حرف له خصوصية لم تتكشف كل أسرارها بعد ، لهذا ذهب بعض المفسرين إلى قولهم " الله أعلم بمراده " .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ [هود : 1] .

والله سبحانه يقول مرة عن القرآن أنه : ﴿ كِتَابٌ ﴾ ومرة يقول :

﴿ قُرْآنٍ ﴾ [يونس : 61] .

والقرآن يُقرأ ، والكتاب يُكتب ، وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليدُلَّك على أن الحافظ للقرآن مكانان : صدور ، وسطور . فإن ضَلَّ الصدر ، تذكر السطر .

ولذلك " حين أراد المسلمون الأوائل جمع القرآن ، ومطابقة ما في الصدور على ما في السطور ، وضعوا أسساً لتلك العملية الدقيقة ، من أهمها ضرورة وجود شاهدين على كل آية ، ووقفوا عند آخر آيتين في سورة التوبة ، ولم يجدوا إلا شاهداً واحداً هو " خزيمة " ، وصدَّقوا " خزيمة " وكتبوا الآيتين عنه ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد منحه وساماً ، حين قال عنه : " من شهد له خزيمة فهو حسبه " .

إذن : فإطلاق صفة الكتاب على القرآن ، سببها أنه مكتوب ، وهو قرآن ؛ لأنه مقروء .

ولم تكن الكتابة في الأزمنة القديمة مسألة سهلة ، فلم يكن يُكتب إلا النفيس من الأعمال ، أو لأن القرآن كتاب ؛ لأنه في الأصل مكتوب في اللوح المحفوظ .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى واصفاً القرآن :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ [هود : 1] .

ومادة الحاء والكاف والميم تدل على أمر مُحسٍّ وهو إتقان البناء ، بحيث يمنع عنه الفساد ؛ فلا خلل فيه ، ولا تناقض ، ولا تعراض ولا انهيار .

(51/373)

ولا بد من توازن هندسي لكل فتحة في البناء ؛ حتى لا تكون الفتحات التي في البناء متوازية على خط واحد ، فتحدث شروخ في الجدران أو انهيار البناء كله . هذا هو إحكام البناء في عالم المحسَّات .

وشاء الحق سبحانه أن يصف القرآن ، وهو الجامع لكل المنهج بأنه :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ [هود : 1] .

فخذوا من هذا الإحكام ما يمنع فسادكم ؛ لأن القرآن جاء على هيئة تمنع الفساد فيه ، وعقد منع الفساد يكون الإصلاح والصلاح .

ولو نظرتَ إلى أن القرآن الكريم في اللوح المحفوظ ستجده قد نزل جملة واحدة ، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وجاء الوحي بعد ذلك حسب الأحداث التي تتطلب الأحكام

، وقد نثر الحق سبحانه في القرآن أحكاماً وفصولاً ونجوماً .

إذن : فالقرآن قد أحكِم أولاً ، ثم فُصِّل .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ [هود : 1] .

والفواصل الكبيرة في القرآن هي السور ، والفواصل الصغيرة هي الآيات ، وأراد المسلمون أن يشجعوا حفظ القرآن ، فقسموه إلى ثلاثن جزءاً ، وكل جزء قسموه إلى حزبين ، وكل حزب قسموه إلى أربعة أرباع ، لكن التفصيل الذي جاء لنا من القرآن أنه سور ، وكل سورة هي مجموعة من الآيات .

وقد يكون المعنى أن القرآن قد أحْكِمَ وفُصِّل ؛ لأنه نزل منهجاً جامعاً من الله سبحانه وتعالى .

وحين تنظر إليه تجده مُنَّوعاً ، فمرة يتكلم في العقيدة وقمتها ، ومرة يتكلم في النبوة وموكبها الرسالي ، والمعجزات ، ومرة يتكلم في الأحكام ، ومرة يتكلم في القصص ، والأخلاقيات ، والكونيات . ومرة يتكلم في علم الفرائض .

إذن : فهو مفصل في اللفظ أو في المعنى ، وهو يتناول معاني كثيرة ، وكل معنى تتطلبه العقيدة ، قمة في الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتناول الجزئيات حتى أدق التفاصيل .

أو أحكم نزولاً ؛ لأنه قد نزول مرة واحدة إلى السماء الدنيا ، ثم فُصِّل حسب الحَوادث ، وهذا أدْعَى إلى أن تتعلق النفس بكل نجم من نجوم القرآن حين ينزل وقت طلبه .

وأنت حين تُعِد لنفسك صيدلية صغيرة في البيت ، قد تأتي فيها بكل الأدوية ، لكن إن أصابك صداع ، فقد تفتش عن أقراص " الأسبرين " فلا تجدها . أما إذا أرسلت إلى الصيدلية الكبيرة ، فسوف تجد " الأسبرين " حين تحتاجه .

وكذلك حين تكون ظمآن ، قد تفتح ثلاجة بيتك فلا تجد زجاجة الماء رغم أنها أمامك ، وذلك بسبب لهفة العطش .

إذن : فنزول القرآن منجمعاً شاءه الحق سبحانه لتنتعش النفس الإنسانية وهي تعشق استقبال القرآن .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى الناس على مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ [الإسراء : 106] .

وقد جاء في القرآن على لسان الكافرين :

﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرآن جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [الفرقان : 32] .

فيكون الرد من الحق سبحانه :

﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان : 32] .

ولو كان القرآن قد نزل مرة واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما التفت الناس إلى كل ما جاء فيه ، ولكن شاء الحق سبحانه وتعالى أن ينزل القرآن مُنجَّماً على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليكون في كل نجم تثبيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المواقف المختلفة ، والرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك أمته من بعده في حاجة إلى تثبيتات متعددة حسب الأحداث التي تعترضهم ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان : 32] .

فساعة أن يسمع المؤمنون نجماً من نجوم القرآن ، يكونون أقدر على استيعابه وحفظه وتطبيق الأحكام التي جاءت فيه .

(53/373)

ولم يُنزل الحق سبحانه آية واحدة ، بل أنزل آياتٍ ، بدليل أنهم إن جاءوا بحكم ما ، فهو سبحانه وتعالى ينزل الحق في هذا الحكم وأكثر تفصيلاً ؛ ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالحق وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ [الفرقان : 33] .

ولو نزل القرآن جملة واحدة ، فكيف يعالج أسئلتهم التي جاءت في القرآن : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ ﴾ .

ويضرب الله مثلاً بالبعوضة ، فيتساءلون ساخرين : كيف يضرب الله مثلاً بالبعوضة .

فينزل قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة : 26] .

ولو كانوا عقلاء لتساءلوا : كيف ركَّب الحق سبحانه في هذا الكائن الضئيل البعوضة كل أجزاء الكائن الحي ؛ من محلِّ الغذاء إلى قدرة الهضم ، إلى محل التنفس ، إلى محل الدم ، إلى محل الأعصاب .

وكان يجب أن يأخذوا من هذا الخلق دلائل العظمة ؛ لأن عظمة الصنعة تكون في أمرين :

إما ضخامة الشيء المصنوع ، وإما أن يكون الشيء المصنوع تحت إدراك الحس .

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى أن الفنيين حين صنعوا ساعة " بج بن " التفت الناس إلى ضخامة تلك الساعة ، ودقة أدائها ، وحين صنع الفنيون في " سويسرا " ساعة دقيقة وصغيرة جداً في حجمها ، زاد إعجاب الناس بدقة الصنعة .

وهكذا نجد أن القدرة تتجلى في صناعة الشيء الكبير في الحجم ، أو صناعة الشيء الدقيق جداً ؛ فما بالنا بخالق الكون كله ، بأكبر ما فيه وأصغر ما فيه .

والحق سبحانه وتعالى يضرب المثل بالذبابة فيقول :

﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ ﴾ [الحج : 73] .

فول اجتمع الخلق المشركون أو المتجبرون وسألوا أصنامهم أن يخلقوا لهم ذبابة ، أو حتى لو حاولوا هم خَلْق ذبابة لما استطاعوا ، ولا يقتصر الأمر على ذلك العجز فقط ، بل يتعداه إلى عجز آخر :

(54/373)

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ [الحج : 73] .

فإن جاءت ذبابة على أي طعام ، وأخذت بعضاً من الطعام ، فهل يستطيع أحد أن يستخلص من الذبابة ما أخذته ؟

لا ، كذلك نرى ضعف الاثنين : الطالب والمطلوب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : 1] .

فالإحكام لا يتناقض مع التفصيل ؛ لأن الحق سبحانه هو الذي أحكم ، وهو سبحانه الذي فصَّل ، وهو سبحانه حكيم بما يناسب الإحكام ، وهو سبحانه خبير بما يناسب التفصيل

، بطلاقة غير متناهية .

وهو سبحانه حكيم يخلق الشيء مُحْكماً لا يتطرق إليه فساد ، وهو سبحانه خبير عنده علم بخفايا الأمور .

ويقول الحق سبحانه وتعالى في آية أخرى :

﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ [الأنعام : 103] .

فالله سبحانه لا تدركه عين ، وعينه سبحانه وتعالى لا تغفل عن أدق شيء وأخفى نية .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : 1] .

يبيّن لنا أن القرآن كلام الله القدير الذي بُني على الإحكام ، ونزل مُحْكماً جملة واحدة ، ثم جاءت الأحداث المناسبة لينزل من السماء الدنيا نجوماً مفصلة تناسب كل حدث .

وأحكام الكتاب ثم تفصيله له غاية ، هي الغاية من المنهج كله ، ويبيّنها الحق سبحانه في الآية التالية : ﴿ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله ﴾

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2) ﴾

إذن : فقد أحكمت آيات الكتاب وفصّلت لغاية هي : ألا نعبد إلا الله .

والعبادة هي طاعة العابد للمعبود فيما أمر ، وفيما نهى .

وهكذا نجد أن العبادة تقتضي وجود معبود له أمر وله نهي ، والمعبود الذي لا أمر له ولا نهي لا يستحق العبادة ، فهل مَنْ عَبَدَ الصنم تلقَّى من أمراً أو نهياً ؟

وهل مَنْ عَبَدَ الشمس تلقَّى منها أمراً أو نهياً ؟

إذن : فكلمة العبادة لكل ما هو غير الله هي عبادة باطلة ؛ لأن مثل تلك المعبودات لا أمر لها ولا نهي ، وفوق ذلك لا جزاء عندها على العمل الموافق لها أو المخالف لها .

والعبادة بدون منهج " افعل " و " لا تفعل " لا وجود لها ، وعبادة لا جزاء عليها ليست عبادة .

وهنا يجب أن نلحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَّا تعبدوا إِلَّا الله ﴾ [هود : 2] .

غير قوله سبحانه :

﴿ اعبدوا الله ﴾ [المائدة : 72] .

ولو أن الرسل تأتي الناس وهم غير ملتفتين إلى قوة يعبدونها ويقدسونها لكان على الرسل أن يقولوا للناس : ﴿ اعبدوا الله ﴾ [الأعراف : 59] .

ولكن هنا يقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَّا تعبدوا إِلَّا الله ﴾ [هود : 2] .

فكأنه سبحانه يواجه قوماً لهم عبادة متوجهة إلى غير من يستحق العبادة ؛ فيريد سبحانه

أولاً أن يُنهي هذه المسألة ، ثم يثبت العبادة لله .

إذن : فهنا نفي وإثبات ، مثل قولنا : " أشهد ألا إله إلا الله " ، هنا ننفي أولاً أن هناك إلهاً غير الله ، ونثبت الألوهية لله سبحانه .

وأنت لا تشهد هذه الشهادة إلا إذا وُجد قوم يشهدون أن هناك إلهاً غير الله تعالى ، ولو كانوا يشهدون بألوهية الإله الواحد الأحد سبحانه ؛ لكان الذهن خالياً من ضرورة أن نقول هذه الشهادة .

ولكن قول الحق سبحانه ﴿ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله ﴾ [هود : 2] .

معناه النفي أولاً للباطل ، وإذا نُفِي الباطل لا بد أن يأتي إثبات الحق ، حتى يكون كل شيء قائماً على أساس سليم .

ولذلك يقال : " درء المفسدة مقدَّم دائماً على جلب المنفعة " فالبداية ألا تعبد الأصنام ، ثم وجِّه العبادة إلى الله سبحانه .

(56/373)

وما دامت العبادة هي طاعة الأمر ، وطاعة النهي ، فهي إذن تشمل كل ما ورد فيه أمر ، وكل ما ورد فيه نهي .

وإنْ نظرت إلى الأوامر والنواهي لوجدتها تستوعب كل أقضية الحياة من قمة الشهادة بأن لا إله إلا الله ، إلى إماطة الأذى عن الطريق .

وكل حركة تتطلبها الحياة لإبقاء الصالح على صلاحه أو زيادة الصالح ليكون أصلح ، فهذه عبادة .

إذن : فالإسلام لا يعرف ما يقال عنه " أعمال دنيئة " ، و " أعمال شريفة " ولكنه يعرف أن هناك عاملاً دنيئاً وعاملاً شريفاً .

وكل عامل يعمل عملاً تتطلبه الحياة بقاء للصالح أو ترقية لصلاحه وعدم الإفساد ، فهذا عامل شريف ؛ وقيمة كل امرىء فيما يحسنه .

وهكذا نجد أن كلمة العبادة تستوعب كل أقضية الحياة ؛ لأن هناك أمراً بما يجب أن يكون ، وهناك نهياً عما يجب ألا يكون ، وما لم يرد فيه نهي لك الخيار في أن تفعله أو لا تفعله ، فإذا نظرت إلى نسبة ما تؤمر به ، ونظرت ألى ما تُنهى عنه بالنسبة لأعمال الحياة ، لوجدت أنها نسبة لا تتجاوز خمسة في المائة من كل أعمال الحياة ، ولكنها الأساس الذي تقوم عليه كل أوجه الحياة .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بُني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان " .

وأعداء الإسلام يحاولون أن يحددوا الدين في هذه الأركان الخمسة ، ولكن هذه الأركان

هي الأعمدة التي تقوم عليها عمارة الإسلام .

وأركان الإسلام هي إعلان استدامة الولاء لله تعالى ، وكل أمر من أمور الحياة هو مطلوب للدين ؛ لأنه يصلح الحياة .

وهكذا نجد أن العلم بالدين ضرورة لكل إنسان على الأرض ، أما العلوم الأخرى فهي مطلوبة لمن يتخصص فيها ويرتقي بها ليفيد الناس كلهم ، وكلما كان المتفوق من المسلمين كان ذلك تدعيماً لرفعة الإسلام .

(57/373)

إذن فالقاسم المشترك في الحياة هو العلم بالدين ، ولكن يجب أن نفهم هذه القضية على قدرها ، فلا يأتي إنسان لا يعرف صحيح الدين ليتكلم والعَوْل ، والرد ؛ لأن المسلم قد تمر حياته كلها ولا يحتاج رأياً في قضية التوريث ، أو أن يتعرف على المستحقين للميراث وأنصبتهم ، وغير ذلك .

وإن تعرَّض المسلم لقضية مثل هذه ، نقول له : أنت إذا تعرضت لقضية مثل هذه فاذهب إلى المختصين بهذا العلم ، وهم أهل الفقه والفتوى ، لأنك حين تتعرض لقضية صحية تذهب إلى الطبيب ، وحين تتعرض إلى قضية هندسية تذهب إلى المهندس ، وإن

تعرضت لعملية محاسبية تذهب إلى المحاسب ، فإن تعرضت إى أي أمر ديني ، فأنت تسأل عنه أهل الذكر .

وأنت إذا نظرت إلى العبادة ، تجد أنها تتطلب كل حركة في الحياة ، وسبق أن ضربت لذلك مثلاً وقلت : هَبْ أن إنساناً يصلي ، ولا يفعل شيئاً في الحياة غير الصلاة ، فمن أين له أن يشتري ثوباً يستر به عورته ما دام لا يعمل عملاً أخر غير الصلاة ، وهو إن أراد أن يشتري ثوباً ، فلا بد له من عمل يأخذ مقابله أجراً ، ويشتري الثوب من تاجر التجزئة ، الذي اشترى الأثواب من تاجر الجملة ، وتاجر الجملة اشتراها من المصنع ، في الدين ؛ لأن العلم بالدين يقتضي اللجوء إلى أهل الذكر .

فإن قيل : الدين للجميع ، نقول : صدقت بمعنى التدين للجميع ، أما العلم بالدين فله الدراسة المتفقهة .

وأهل الذكر أيضاً في العلوم الأخرى يقضون السنوات لتنمية دراساتهم ، كما في الطب أو الهندسة أو غيرهما ، وكذلك الأعمال المهنية تأخذ من الذي يتخصص فيها وقتاً وتتطلب جهداً ، فما بالنا بالذي يُصلح أسس إقامة الناس في الحياة ، وهو التفقه في الدين .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدين وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رجعوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : 122] .

فنحن لا نطلب من كل مسلم مثلاً أن يدرس المواريث ليعرف العَصبة وأصحاب الفروض ، وأولي الأرحام ، والمصنع قام بتفصيل الثياب بعد أن نسجها مصنع آخر ، والمصنع الآخر نسج الثياب من غزل القطن أو الصوف . والقطن جاء من الزراعة ، والصوف جاء من جز شعر الأغنام .

وهكذا تجد أن مجرد الوقوف أمام خالقك لتصلي يقتضي أن تكون مستور العورة في صلاتك ، هذا الستر يتطلب منك أن تتفاعل مع الحياة بالعمل .

وانظر لنفسك واسألها : ما أفطرتَ اليوم ؟

وأقلُّ إجابة هي : أفطرت برغيف وقليل من الملح ، وستجد أنك اشتريت الرغيف من البقال ، وجاء البقال بالرغيف من المخبز ، والمخبز جاء بالدقيق من المطحن ، والمطحن أنتج الدقيق بعد طحن الغلال التي جاءت من الحقل . وكذلك تمت صناعة ألات الطحن في مصانع أخرى قد تكون أجنبية .

وهكذا تمت صناعة الرغيف بسلسلة هائلة من العمليات ، فهناك الفلاح الذي حرث ، وهناك مصمم آلة الطحن الذي درس الهندسة ، وهناك عالم " الجيولوجيا " الذي درس

طبقات الأرض ليستخرج الحديد الخام من باطنها ، وهناك مصنع الحديد الذي صهر الحديد الخام ؛ ليستخلص منه الحديد النقي الصالح للتصنيع .

وهكذا تجد أن كل حركة في الحياة قد خدمت قضية دينك ، وخدمت وقوفك أمام خالقك لتصلي ، فلا تقل : " سأنقطع للعبادة " بمعنى أن تقصر حياتك على الصلاة فقط ، لأن كل حركة تصلح في الحياة هي عبادة ، وإن أردت ألا تعمل في الحياة ، فلا تنتفع بحركة عامل في الحياة . وإذا لم تنتفع بحركة أي عامل في الحياة ، فلن تقدر أن تصلي ، ولن تقدر أن يكون لك قوة لتصلي .

إذن فالعبادة هي كل حركة تتطلبها الحياة في ضوء " افعل " و " لا تفعل " .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [هود : 2] .

(59/373)

والنذير : هو من يُخبر بشرٍّ زمنه لم يجيء ، لتكون هناك فرصة لتلافي العمل الذي يُوقع في الشر ، والبشير هو من يبشّر بخير سيأتي إن سلك الإنسان الطريق إلى ذلك الخير .

إذن : الإنذار والبشارة هي أخبار تتعلق بأمر لم يجيء .

وفي الإنذار تخويف ونوع من التعليم ، وأنت حين تريد أن تجعل ابنك مُجداً في دراسته ؛ تقول له : إن لم تذاكر فسوف تكون كابن فلان الذي أصبح صعلوكاً تافهاً في الحياة .

إذن : فأنت تنذر ابنك ؛ ليتلافى من الآن العمل الذي يؤدي به إلى الفشل الدراسي .

وكذلك يبشر الإنسان ابنه أو أي إنسان آخر بالخير الذي ينتظره حين يسلك الطريق القويم .

إذن : فالعبادة هي كل حركة من حركات الحياة ما دام الإنسان مُتَّبعاً ما جاء بالمنهج الحق في ضوء " افعل " و " لا تفعل " ، وما لم يرد فيه " افعل " و " لا تفعل " فهو مباح .

وعلى الإنسان المسلم أن يُبصِّر نفسه ، ومن حوله بأن تنفيذ أي فعل في ضوء " افعل " هو العمل المباح ، وأن يمتنع عن أي فعل في ضوء " لا تفعل " ما دام الحق سبحانه وتعالى قد نهى عن مثل هذا الفعل ، وعلى المسلم تحرِّي الدقة في مدلول كل سلوك .

ونحن نعلم أن التكليفات الإيمانية قد تكون شاقة على النفس ، ومن اللازم أن نبيِّن للإنسان أن المشقة على النفس ستأتي له بخير كبير .

ومثال ذلك : حين نجد الفلاح وهو يحمل السماد العضوي من حظيرة البهائم ؛ ليضعه على ظهر الحمار ويذهب به إلى الحقل ؛ ليخلطه بالتربة ، وهو يعمل هذا العمل بما فيه من مشقة انتظاراً ليوم الحصاد .

ويبيِّن الحق سبحانه وتعالى هنا على لسان رسوله أن الأمر بعدم عبادة أي كائن غير الله ، هو أمر من الله سبحانه ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو نذير وبشير من الله .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَّا تعبدوا إِلَّا الله ﴾ [هود : 2] .

فيه نفي لعبادة غير الله ، وإثبات لعبودية الله تعالى .

(60/373)

وهذا يتوافق ويتسق مع الإنذار والبشارة ؛ لأن عبادة غير الله تقتضي نذيراً ، وعبادة الله في الإسلام تقتضي بشيراً .

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو خالق الإنسان ويعلم ضعف الإنسان ، ومعنى هذا الضعف أنه قد يستولي عليه النفع العاجل ، فيُذهبه عن خير آجلٍ أطول منه ، فيقع في بعض من غفلات النفس .

لذلك بيَّن الحق سبحانه أن من وقع في بعض غفلات النفس عليه أن يستغفر الله ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يبخل برحمته على أحدٍ من خلقه .

وإن طلب العبد المذنب مغفرة الله ، فسبحانه قد شرع التوبة ، وهي الرجوع عن المعصية إلى طاعة الله تعالى .

ولا يقع عبد في معصية إلا لأنه تأبَّى على منهج ربه ، فإذا ما تاب واستغفر ، فهو يعود إلى

منهج الله سبحانه ، ويعمل على ألا يقع في ذنب جديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(61/373)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) ﴾

قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ ﴾ : يجوز أن يكون خبراً ل " ألر " أَخْبر عن هذه الأحرفِ بأنها كتابٌ موصوفٌ ب كيتَ وكيتَ/ وأن يكون خبرَا ابتداءٍ مضمرٍ تقديرُه : ذلك كتابٌ ، يدلُّ على ذلك ظهوره في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الكتاب ﴾ [البقرة : 2] ، وقد تقدَّم في أولِ هذا التصنيف ما يكفيك في ذلك .

قوله : ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ في محلِّ رفعٍ صفةً ل " كتاب " ، والهمزةُ في " أُحْكِمَتْ " يجوز أن تكونَ للنقل مِنْ " حَكُمَ " بضم الكاف ، أي : صار حكيماً بمعنى جُعِلَتْ حكيمة ، كقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم ﴾ [لقمان : 2] . ويجوز أنْ يكونَ من قولهم : " أَحْكَمْتُ الدابة " إذا وَضَعْتَ عليها الحَكَمَةَ لمَنْعِها من الجِماح كقول جرير :

2633 أبني حَنِيْفَةَ أَحْكِموا سُفَهاءَكُمْ . . . إني أخافُ عليكمُ أَنْ أَغْضبا

فالمعنى أنها مُنِعَتْ من الفساد . ويجوز أَنْ يكونَ لغير النقل ، مِن الإِحكام وهو الإِتقان كالبناء المُحْكَمِ المُرْصَفِ ، والمعنى : أنهى نُظِمَتْ نَظْماً رصيناً متقناً .

(62/373)

قوله : ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ " ثم " على بابها مِن التراخي لأنها أُحكمَتْ ثم فُصِّلَتْ بحسب أسبابِ النزول . وقرأ عكرمة والضحاك والجحدري وزيد ابن علي وابن كثير في روايةٍ " فَصَلَتْ " بفتحتين خفيفةَ العين . قال أبو البقاء : " والمعنى : فَرَقَتْ ، كقوله : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ ﴾ [البقرة : 249] ، أي : فارق " . وفَسَّر هنا غيرُه بمعنى فَصَلَتْ بين المُحِقِّ والمُبْطِل وهو أحسنُ . وجعل الزمخشري " ثم " للترتيب في الإِخبار لا لترتيب الوقوع في الزمان فقال : " فإن قلت : ما معنى " ثم " ؟ قلت : ليس معناها التراخي في الوقت ولكن في الحال ، كما تقول : هي مُحْكَمَةٌ أحسنَ الإِحكام ثم مُفَصَّلَةٌ أحسنَ التفصيل ، وفلانٌ كريمٌ الأصل ثم كريمُ الفعل " وقُرِىء أيضاً : " أَحْكَمْتُ آياتِه ثم فَصَّلْتُ " بإسناد الفعلين إلى تاء المتكلم ونَصْبِ " آياته " مفعولاً بها ، أي : أحكمتُ أنا آياتِه ثم فَصَّلْتُها ، حكى هذه القراءةَ الزمخشري .

قوله : ﴿ مِن لَّدُنْ ﴾ يجوز أن تكونَ صفةً ثانيةً ل "كتاب" ، وأن تكون خبراً ثانياً عند مَنْ يرى جوازَ ذلك ، ويجوز أن تكون معمولةً لأحد الفعلين المتقدّمين أعني "أُحْكِمَتْ" أو "فُصِّلَتْ" ويكون ذلك من بابِ التنازع ، ويكون من إعمال الثاني ، إذ لو أَعْمل الأولَ لأضمر في الثاني ، وإليه نحا الزمخشري في [قوله] : "وأن يكون صلةَ "أُحْكِمت" و "فُصِّلَتْ" ، أي : من عندِ أحكامُها وتفصيلُها ، وفيه طباق حسن لأن المعنى : أحكمها حكيم وفصَّلها ، أي : شَرَحها وبيَّنها خبيرٌ بكيفيات الأمور" . قال الشيخ : "لا يريد أنَّ "مِنْ لدن" متعلقٌ بالفعلين معاً من حيث صناعةُ الإعراب بل يريد أن ذلك من بابِ الإعمال فهي متعلقةٌ بهما من حيث المعنى" وهو معنى قولِ أبي البقاء أيضاً "ويجوز أن يكونَ مفعولاً ، والعاملُ فيه "فُصِّلَتْ" .

(63/373)

قوله تعالى : ﴿ أَن لاَّ تعبدوا ﴾ : فيها أوجهٌ ، أحدُها : أن تكون مخففةً من الثقيلة ، و "لا تَعْبُدوا" جملةُ نهيٍ في محلِّ رفعٍ خبراً ل "أنْ" المخففةِ ، واسمُها على ما تقرَّر ضميرُ الأمرِ والشأنِ محذوفٌ . والثاني : أنها المصدريةُ الناصبة ، ووُصِلَتْ هنا بالنهي ويجوز أَنْ تكون "لا" نافيةً ، والفعلُ بعدها منصوبٌ ب "أَنْ" نفسها ، وعلى هذه التقادير ف "أَنْ"

: إمَّا في محل جر أو نصب أو رفع ، فالنصبُ والجرُّ على أنَّ الأصل : لأنْ لا تَعْبدوا ، أو بأن لا تعبدوا ، فلمَّا حُذِفَ الخافضُ جرى الخلافُ المشهور ، والعامل : إمَّا " فُصِّلَتْ " وهو المشهور ، وإمَّا " أُحْكِمَتْ " عند الكوفيين ، فتكون المسألة من الإعمال ، لأن المعنى : أُحْكِمَتْ لئلا تَعْبدوا أو بأن لا تعبدوا أو فُصِّلَتْ لأنْ لا تعبدوا ، أو بأن لا تعبدوا . وقيل : نصب بفعل مقدر تقديره ضَمَّن آيَ الكتابِ أن لا تعبدوا ، ف " أنْ لا تعبدوا " هو المفعولُ الثاني ل " ضَمَّن " والأولُ قام مقام الفاعل .

والرفعُ فمِنْ أوجه ، أحدها : أنها مبتدأٌ ، وخبرُها محذوفٌ فقيل : تقديرُه : مِن النظر أن لا تعبدوا إلا اللَّه . وقيل : تقديره : في الكتابِ أن لا تعبدوا إلا اللَّهَ . والثاني : خبرُ مبتدأ محذوف ، فقيل : تقديرُه : تفصيلُه أن لا تعبدوا إلا اللَّه . وقيل : تقديرُه : هي أن لا تعبدوا إلا اللَّه . والثالث : أنه مرفوعٌ على البدل من " آياته " قال الشيخ : " وأما مَنْ أعربه أنه بدل من لفظ " آيات " أو مِنْ موضعها " قلت : يعني أنها في الأصل مفعولٌ بها / فموضعُها نصبٌ وهي مسألةُ خلاف : هل يجوز أن يراعى أصلُ المفعولِ القائمِ مقامَ الفاعلِ فيُتبعَ لفظُه تارة وموضعُه أخرى فيُقال : " ضُرِبَتْ هندٌ العاقلة " بنصب " العاقلة " باعتبار المحلِّ ، ورفعِها باعتبار اللفظ ، أم لا ، مذهبان ، المشهورُ مراعاةُ اللفظِ فقط .

والثالث : أن تكونَ تفسيريةً ؛ لأن في تفصيلِ الآيات معنى القول ، فكأنه قيل : لا تعبدوا إلا اللَّه أو أَمَرَكم ، وهذا أظهرُ الأقوال ؛ لأنه لا يُحْوِج إلى إضمار .

قوله : " منه " في هذا الضمير وجهان : أحدهما وهو الظاهرُ أنه يعودُ على اللَّه تعالى ، أي : إنني لكم مِنْ جهة اللَّه نذيرٌ وبشير . قال الشيخ : " فيكون في موضع الصفةِ فيتعلَّقُ بمحذوفٍ ، أي : كائن من جهته " . وهذا على ظاهره ليس بجيد ؛ لأن الصفةَ لا تتقدمُ على الموصوف فكيف تُجعلِ صفةً ل " نذير " ؟ كأنه يريد أنه صفةٌ في الأصلِ لو تأخَّر ، ولكنْ لَمَّا تقدَّم صارَ حالاً ، وكذا صَرَّح به أبو البقاء ، فكان صوابه أن يقول : فيكون في موضع الحال ، والتقدير : كائناً مِنْ جهته . الثاني : أنه يعودُ على الكتاب ، أي : نذيرٌ لكم مِنْ مخالفته وبشيرٌ منه لمَنْ آمن وعمل صالحاً .

وفي متعلَّقِ هذا الجارِّ أيضاً وجهان ، أحدهما : أنه حال من " نذير " ، فيتعلَّق بمحذوف كما تقدم . والثاني : أنه متعلق بنفس " نذير " أي : أُنْذركم مِنْه ومِنْ عذابِه إنْ كفرتم ، وأبشِّركم بثوابه إنْ آمنتم . وقدَّم الإنذار لأنَّ التخويف أَهَمُّ إذ يحصُل به الانزجار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 277 . 281 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

بسم الله الرحمن الرحيم .

هذه كلمة استولت على عقول قوم فبصرتها ، وعلى قلوب آخرين فجردتها ، فالتي بصرتها فبنور برهانه ، والتي جردتها فبقهر سلطانه ، فعالم سلك سبيل بحثه واستدلاله فسكن لما طلعت نجوم عقله تحت ظلال إقباله ، وعارف تعرض إلى وصاله فطاح لما لاحت لمعة ممن تقدس بالإعلام باستحقاق جلاله .

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) ﴾

الألف إشارة إلى انفراده بالربوبية .

واللام إشارة إلى لُطْفِه بأهل التوحيد .

والراء إشارة إلى رحمته بكافة البَرِيَّةِ .

وهي في معنى القَسَم : أي أقسم بانفرادي بالربوبية ولطفي بمن عَرَفَني بالأحدية ، ورحمتي على كافة البرية – إنَّ هذا الكتابَ أُحْكِمَتْ آياتُه .

ومعنى ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ﴾ أي حُفِظَتْ عن التبديل والتغيير ، ثم فُصِّلتْ ببيان نعوتِ الحقِّ فيما يتصف به من جلال الصمدية ، وتعبَّد به الخْلقُ من أحكام العبودية ، ثم ما لاح

لقلوب الموحّدين والمحبين من لطائف القربة ، في عاجلِهم البُشْرى بما وَعَدَهم به من عزيز لقائه في آجلِهم ، وخصائصهم التي امتازوا بها عَمَّنْ سواهَم .

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2) ﴾

أي فصلَتْ آياتُه بألا تعبدوا إلا الله .

ويقال معناه في هذا الكتاب ألا تعبدوا إلا الله ، إني لكم " نذيرٌ " مبينٌ بالفرقة ، " وبشيرٌ " بدوام الوصلة ، (فالفرقة بل في عاجله واحداً) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 120 . 121 ﴾

(66/373)

قوله تعالى ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقدم أنه نذير وبشير .

أتبع ذلك بما يشمل الأمرين بقوله عطفاً على ﴿ ألا تعبدوا ﴾ مشيراً إلى أنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره : ﴿ وأن استغفروا ربكم ﴾ أي اطلبوا مع الإخلاص في العبادة أن يغفر لكم المحسن إليكم ما فرطتم فيه ؛ وأشار بأداة التراخي إلى علو رتبة التوبة وأن لا سبيل إلى طلب الغفران إلا بها فقال : ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ أي ارجعوا بالظاهر والباطن رجوعاً لا رجعة فيه وإن كان المراد بها الدوام فجليل رتبته غير خفي ﴿ يمتعكم ﴾ أي يمد في تلذيذكم بالعيش مداً ، من متع النهار : ارتفع ، والضحى : بلغ غايته ، وأمتعه الله بكذا : أبقاه وأنشأه إلى أن يبلغ شبابه ؛ ولما ، كان التمتيع – وهو المتاع البالغ فيه حتى لا يكون فيه كدر – لا يكون إلا في الجنة فلذلك جعل المصدر ﴿ متاعاً ﴾ وأنه وضع موضع " تمتيعاً " ، هذا المصدر ووصفه بقوله : ﴿ حسناً ﴾ ليدل على أنه أنهى ما يليق بهذه الدار ، ولقد كان ما أوتيه الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ م في زمن عمر ـ رضى الله عنهم ـ من الظفر بالإهداء وسعة الدنيا ورغد العيش كذلك ﴿ إلى ﴾ أي ممتداً إلى ﴿ أجل مسمى ﴾ أي في علمه إما بالموت لكل واحد أو بانقضاء ما ضربه من الأجل للنعمة التي أشار إليها ﴿ ويؤت كل ذي فضل ﴾ أي عمل فاضل ﴿ فضله ﴾ أي جزاء ما قصد بعمله على وجه التفضيل منه سبحانه فإنه لا يجب لأحد عليه شيء ، وهو مع ذلك على حسب التفضيل : الحسنة بعشرة أمثالها ؛ قال ابن مسعود : وهلك من غلبت آحاده عشراته .

ولما انقضى التبشير مجزوماً به ، أتبعه التحذير مخوفاً منه لطفاً بالعباد واستعطافاً لهم فقال : ﴿ وإن تولوا ﴾ اي تكلفوا أنفسكم ضد ما طبعها الله عليه من سلامة الفطرة وسهولة الانقياد من الإعراض ولو أدنى درجاته بما اشار إليه حذف التاء ﴿ فإني أخاف عليكم ﴾ أي والعاقل من أبعد عن المخاوف ﴿ عذاب يوم كبير ﴾ أي لكبر ما فيه من العذاب ممن قدر على إثباتكم ، وخص اسم الرب تذكيراً بما له من النعم في الإيجاد والإنشاء والتربية ؛ ولما كان الاستغفار – وهو طلب الغفران – مطلوباً في نفسه لكنه لا يعتبر إلا إذا قرن بالتوبة ، عطف عليه ب ﴿ ثم ﴾ إشارة إلى عظيم رتبتها وعلى منزلتها وإن كان المراد بها الدوام عليها فجليل رتبته غير خفي ، وفي التعبير عن العمل بالفضل إشارة إلى أنه لم يقع التكليف إلا بما في الوسع مع أنه من معالي الأخلاق ، لأن الفضل في الأصل ما فضل عن الإنسان وتعانيه من كريم الشمائل ، وما كان كذلك فهو في الذروة من الإحكام ، لأنه منع الفعل من الفساد ؛ والحكيم من الحكمة وهي العلم بما يجمع عليه مما يمنع الفعل من الفساد والنقض ، وبها يميز الحسن من القبيح والفاسد من الصحيح ، وقد أشارت الآية إلى أن الاستغفار والتوبة سبب السعة

﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ [المائدة : 66] وأن الإعراض سبب الضيق ، كما قال ـ صلى الله عليه وسلم

ـ : " إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه " ﴿ ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ إشارة إلى ثواب الآخرة ، فالتوبة سبب طيب العيش في الدنيا والآخرة .

وقال الإمام أبو جعفر ابن الزبير في كتابه في مناسبة هذه السورة للتي قبلها .

(68/373)

ولما كانت سورة يونس عليه السلام قد تضمنت – من آي التنبيه والتحريك للفطر ومن العظات والتخويف والتهديد والترهيب والترغيب وتقريع المشركين والجاحدين والقطع بهم والإعلام بالجريان على حكم السوابق ووجوب التفويض والتسليم – ما لم تشمل على مثله سورة لتكرر هذه الأغراض فيها ، وسبب تكرر ذلك فيها – والله أعلم – أنها أعقبت بها السبع الطوال ، وقد مر التنبيه على أن سورة الأنعام بها وقع استيفاء بيان حال المتنكبين عن الصراط المستقيم على اختلاط أحوالهم ، ثم استوفت سورة الأنعام ما وقعت الإحالة عليه من أحوال الأمم السالفة كما تقدم وبسطت ما أجمل من أمرهم ، ثم اتبع ذلك بخطاب المستجيبين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحذروا وأنذروا ، وكشف عن حال من تلبس بهم من عدوهم من المنافقين ، وتم المقصود من هذا في سورتي الأنفال وبراءة ، ثم عاد الخطاب إلى طريقة الدعاء إلى الله والتحذير من عذابه بعد بسط ما تقدم ، فكان

مظنة تأكيد التخويف والترهيب لإتيان ذلك بعد بسط حال وإيضاح أدلة ، فلهذا كانت سورة يونس مضمنة من هذا ما لم يضمن غيرها ، ألا ترى افتتاحها بقوله : ﴿ إن ربكم الله ﴾ [يونس : 3] الآيات .

ومناسبة هذا الافتتاح دعاء الخلق إلى الله في سورة البقرة بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ [البقرة : 21] ثم قد نبهوا هنا كما نبهوا هناك فقال تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله ﴾

(69/373)

[يونس : 38] ثم تأكدت المواعظ والزواجر والإشارات إلى أحوال المكذبين والمعاندين ، فمن التنبيه ﴿ إن ربكم الله ﴾ [يونس : 3] ، ﴿ هو الذي جعل الشمس ﴾ [سورة يونس ، آية : 5] ، ﴿ إن في اختلاف الليل والنهار ﴾ [سورة يونس ، آية : 6] ، ﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ [يونس : 34] ، ﴿ قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ﴾ [سورة يونس ، آية : 35] ، ﴿ قل انظروا ماذا في السماوات والأرض ﴾ [سورة يونس ، آية : 101] - إلى غير هذا ، وعلى هذا السنن تكررت العظات والأغراض المشار إليها في هذه السورة إلى قوله : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم الحق

من ربكم ﴾ [سورة يونس ، آية : 108] فحصل من سورة الأعراف والأنفال وبراءة ويونس تفصيل ما كان أجمل فيما تقدمها كما حصل مما تقدم تفصيل أحوال السالكين والمتنكبين ، فلما تقرر هذا كله أتبع المجموع بقوله : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ وتأمل مناسبة الإتيان بهذين الاسمين الكريمين وهما ﴿ الحكيم الخبير ﴾ ثم تأمل تلاؤم صدر السورة بقوله : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ﴾ [سورة يونس ، آية : 108] وقد كان تقدم قوله تعالى : ﴿ قد جاءتكم موعظة من ربكم ﴾ [يونس : 57] فأتبع قوله : ﴿ قد جاءكم الحق من ربكم ﴾ بقوله في صدر سورة هود ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت ﴾ [هود : 41] فكأنه في معرض بيان الحق والموعظة ، وإذا كانت محكمة مفصلة فحق لها أن تكون شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، وحق توبيخهم في قوله تعالى : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ [يونس : 39] والعجب في عمههم مع إحكامه وتفصيله ولكن ﴿ الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون ﴾ [يونس : 96] وتأمل قوله سبحانه آخر هذه السورة ﴿ وكلاًّ نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ [هود : 120] ، و ﴿ جاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ [هود : 120] فكل الكتاب حق وموعظة وذكرى ، وإنما الإشارة - والله أعلم - بما أراد

إلى ما تقرر الإيماء إليه من كمال بيان الصراط المستقيم وملتزمات متبعيه أخذاً وتركاً ، وذكر أحوال المتنكبين على شتى طرقهم ، واختلاف أهوائهم وغاياتهم وشرُّهم إبليس فإنه متبعهم والقائل لجميعهم في إخبار الله تعالى ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ [إبراهيم : 22] وقد بسط من أمره وقصته في البقرة والأعراف ما يسر على المؤمنين الحذر منه وعرفهم به وذكر اليهود والنصارى والمشركون والصابئون والمنافقون وغيرهم ، وفصل مرتكب كل فريق منهم كما استوعب ذكر أهل الصراط المستقيم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وفصل أحوالهم ابتداء وانتهاء والتزاماً وتركاً ما أوضح طريقهم ، وعين حزبهم وفريقهم ﴿ أولئك الذين هدى الله ﴾ [الأنعام : 90] وذكر أحوال الأمم مع أنبيائهم وأخذ كل من الأمم بذنبه مفصلاً ، وذكر ابتداء الخلق في قصة آدم عليه السلام وحال الملائكة في التسليم والإذعان وذكر فريق الجن من مؤمن وكافر وأمر الآخرة وانتهاء حال الخلائق واستقرارهم الأخروي وتكرير دعاء الخلق إلى الله تعالى طمعاً فيه ورحمة وإعلام الخلق بما هو علبه سبحانه وما يجب له من الصفات العلى والأسماء الحسنى ، ونبه العباد على الاعتبار وعملوا طرق الاستدلال ورغبوا ورهبوا وبشروا وأنذروا وأعلموا بافتقار المخلوقات بجملتها إليه سبحانه كما هو المتفرد بخلقهم إلى ما تخلل ذلك مما يعجز الخلائق عن حصره والإحاطة به

﴿ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴾ [الأحزاب : 4] فما تقدم هذا كله في السبع الطوال وما تلاها .

(71/373)

أعقب ذلك بقوله : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ [هود : 1] ثم أتبع هذا بالإيماء إلى فصول ثلاثة عليها مدار آي كتب ، وهي فصل الإلهية ، وفصل الرسالة ، وفصل التاكليف ، أما الأول فأشار إليه قوله : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ [هود : 2] وأما فصل الرسالة فأشار إليه قوله سبحانه : ﴿ إنني لكم منه نذير وبشير ﴾ [هود : 2] وأما فصل التالكيف فأشار إليه قوله سبحانه ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ [هود : 3] .

وهذه الفصول الثلاثة هي التي تدور عليها آي القرآن وعليها مدار السورة الكريمة ، فلما حصل استيفاء ذلك كله فيما تقدم ولم يبق وجه شبهة للمعاند ولا تعلق للجاحد واتضح الحق وبان قال سبحانه وتعالى : ﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾ [هود : 120] إشارة إلى كمال المقصود وبيان المطلوب واستيفاء التعريف بوضوح الطريق وقد وضح من هذا تلاء السورة الكريمة لما تقدمها ، ومما يشهد لهذا – والله أعلم – قوله تعالى : ﴿ أفمن كان على

بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ﴾ [هود : 17] وقوله تعالى : ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا ﴾ [هود : 112] فقد وضح طريقك وفاز بالفلاح حزبك وفريقك ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ [هود : 113] فقد عرفتم سبيلهم ومصيرهم فقد بان طريق الحق ، وكيف ينكب من جزم سلوكه من الخلق ! ونظيره قوله سبحانه ﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾ [هود : 120] عقب ما ذكر سبحانه ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ [غافر : 16] وقوله : ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ [الانفطار : 19] فتأمل ذلك والله المستعان – انتهى .

(72/373)

ولما خوف المنذرون باليوم الكبير كانوا كأنهم قالوا : ما هذا اليوم ؟ فكان الجواب : يوم يرجعون إليه ، ولما كانوا ربما حملوا الرجوع على مجرد الموت والصيرورة تراباً ، نبههم على أنه بغير المعنى الذي يتوهمه بل بمعنى إعادتهم كما كانوا فقال : ﴿ إلى الله ﴾ أي الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً وحده ﴿ مرجعكم ﴾ أي رجوعكم ووقته ومكانه لأجل الحساب لا إلى التراب ولا غيره ، وهو بكل شيء عليم ، ومنه بدؤكم لأخذ الزاد للمعاد ، وجعل فاصلة الآية حكماً على المراد فقال : ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ على كل شيء ﴾

أي ممكن ﴿ قدير ﴾ أي بالغ القدرة لأنهم يقرون بقدرته على أشياء هي أعظم من الإعادة ، فهو قادر على الإعادة كما قدر على البداءة ، فالآية من الاحتباك : ذكر المرجع أولاً دليلاً على المبدأ ثانياً ، وتمام القدرة ثانياً دليلاً على تمام العلم أولاً لأنهما متلازمان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 499 . 503 ﴾

(73/373)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾

المرتبة الثانية : من الأمور المذكورة في هذه الآية قوله : ﴿ وَأَنِ استغفروا رَبَّكُمْ ﴾ .

والمرتبة الثالثة : قوله : ﴿ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ واختلفوا في بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه :

الوجه الأول : أن معنى قوله : ﴿ وَأَنِ استغفروا ﴾ اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ، ثم بين الشيء الذي يطلب به ذلك وهو التوبة ، فقال : ﴿ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ لأن الداعي إلى التوبة والمحرض عليها هو الاستغفار الذي هو عبارة عن طلب المغفرة وهذا يدل على أنه لا سبيل

إلى طلب المغفرة من عند الله إلا بإظهار التوبة ، والأمر في الحقيقة كذلك ، لأن المذنب معرض عن طريق الحق ، والمعرض المتمادي في التباعد ما لم يرجع عن ذلك الإعراض لا يمكنه التوجه إلى المقصود بالذات ، فالمقصود بالذات هو التوجه إلى المطلوب إلا أن ذلك لا يمكن إلا بالإعراض عما يضاده ، فثبت أن الاستغفار مطلوب بالذات ، وأن التوبة مطلوبة لكونها من متممات الاستغفار ، وما كان آخراً في الحصول كان أولاً في الطلب ، فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة .

الوجه الثاني : في فائدة هذا الترتيب أن المراد : استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا إليه في المستأنف .

الوجه الثالث : وأن استغفروا من الشرك والمعاصي ، ثم توبوا من الأعمال الباطلة .

الوجه الرابع : الاستغفار طلب من الله لإزالة ما لا ينبغي والتوبة سعي من الإنسان في إزالة ما لا ينبغي ، فقدم الاستغفار ليدل على أن المرء يجب أن لا يطلب الشيء إلا من مولاه فإنه هو الذي يقدر على تحصيله ، ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لأنها عمل يأتي به الإنسان ويتوسل به إلى دفع المكروه والاستعانة بفضل الله تعالى مقدمة على الاستعانة بسعي النفس .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاثة ذكر بعدها ما يترتب عليها من الآثار النافعة والنتائج المطلوبة ، ومن المعلوم أن المطالب محصورة في نوعين ، لأنه إما أن يكون حصولها في الدنيا أو في الآخرة ، أما المنافع الدنيوية : فهي المراد من قوله : ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهذا يدل على أن المقبل على عبادة الله والمشتغل بها يبقى في الدنيا منتظم الحال مرفه البال ، وفي الآية سؤالات :

السؤال الأول : أليس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر " وقال أيضاً : " خص البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل " وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً واحدة لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ ﴾ [الزخرف : 33] فهذه النصوص دالة على أن نصيب المشتغل بالطاعات في الدنيا هو الشدة والبلية .

ومقتضى هذه الآية أن نصيب المشتغل بالطاعات الراحة في الدنيا فكيف الجمع بينهما ؟

الجواب : من وجوه .

الأول : المراد أنه تعالى لا يعذبهم بعذاب الاستئصال كما استأصل أهل القرى الذين كفروا .

الثاني : أنه تعالى يوصل إليهم الرزق كيف كان ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ [طه : 132] الثالث : وهو الأقوى عندي أن يقال إن المشتغل بعبادة الله وبمحبة الله مشتغل بحب شيء يمتنع تغيره وزواله وفناؤه ، فكل من كان إمعانه في ذلك الطريق أكثر وتوغله فيه أتم كان انقطاعه عن الخلق أتم وأكمل ، وكلما كان الكمال في هذا الباب أكثر ، كان الابتهاج والسرور أتم ، لأنه أمن من تغير مطلوبه ، وأمن من زوال محبوبه ، فأما من كان مشتغلاً بحب غير الله ، كان أبداً في ألم الخوف من فوات المحبوب وزواله ، فكان عيشه منغصاً وقلبه مضطرباً ، ولذلك قال الله تعالى في صفة المشتغلين بخدمته ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياة طَيِّبَةً ﴾ [النحل : 97] .

السؤال الثاني : هل يدل قوله : ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ على أن للعبد أجلين ، وأنه يقع في ذلك التقديم والتأخير ؟

والجواب : لا .

ومعنى الآية أنه تعالى حكم بأن هذا العبد لو اشتغل بالعبادة لكان أجله في الوقت الفلاني ، ولو أعرض عنها لكان أجله في وقت آخر ، لكنه تعالى عالم بأنه لو اشتغل بالعبادة أم لا فإن

أجله ليس إلا في ذلك الوقت المعين ، فثبت أن لكل إنسان أجلاً واحداً فقط .

السؤال الثالث : لم سمى منافع الدنيا بالمتاع ؟

الجواب : لأجل التنبيه على حقارتها وقلتها ، ونبه على كونها منقضية بقوله تعالى : ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية ، ثم لما بين تعالى ذلك قال : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ والمراد منه السعادات الأخروية ، وفيها لطائف وفوائد .

(76/373)

الفائدة الأولى : أن قوله : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ معناه ويؤت كل ذي فضل موجب فضله ومعلوله والأمر كذلك وذلك لأن الإنسان إذا كان في نهاية البعد عن الاشتغال بغير الله وكان في غاية الرغبة في تحصيل أسباب معرفة الله تعالى فحينئذ يصير قلبه فصاً لنقش الملكوت ومرآة يتجلى بها قدس اللاهوت ، إلا أن العلائق الجسدانية الظلمانية تكدر تلك الأنوار الروحانية ، فإذا زالت هذه العلائق أشرقت تلك الأنوار وتلألأت تلك الأضواء وتوالت موجبات السعادات ، فهذا هو المراد من قوله : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ .

الفائدة الثانية : أن هذا تنبيه على أن مراتب السعادات في الآخرة مختلفة وذلك لأنها مقدرة

بمقدار الدرجات الحاصلة في الدنيا ، فلما كان الإعراض عن غير الحق والإقبال على عبودية الحق درجات غير متناهية ، فكذلك مراتب السعادات الأخروية غير متناهية ، فلهذا السبب قال : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ .

الفائدة الثالثة : أنه تعالى قال في منافع الدنيا : ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعًا حَسَنًا ﴾ وقال في سعادات الآخرة ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ وذلك يدل على أن جميع خيرات الدنيا والآخرة ليس إلا منه وليس إلا بإيجاده وتكوينه وإعطاءه وجوده .

وكان الشيخ الإمام الوالد رحمه الله تعالى يقول : لولا الأسباب لما ارتاب مرتاب ، فأكثر الناس عقولهم ضعيفة واشتغال عقولهم بهذه الوسائط الفانية يعميها عن مشاهدة أن الكل منه ، فأما الذين توغلوا في المعارف الإلهية وخاضوا في بحار أنوار الحقيقة علموا أن ما سواه ممكن لذاته موجود بإيجاده ، فانقطع نظرهم عما سواه وعلموا أنه سبحانه وتعالى هو الضار والنافع والمعطي والمانع .

(77/373)

ثم إنه تعالى لما بين هذه الأحوال قال : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ والأمر كذلك ، لأن من اشتغل بعبادة غير الله صار في الدنيا أعمى ، ﴿ مَن كَانَ فِي هذه

أعمى فَهُوَ فِى الآخرة أعمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 72] والذي يبين ذلك أن من أقبل على طلب الدنيا ولذاتها وطيباتها قوي حبه لها ومال طبعه إليها وعظمت رغبته فيها ، فإذا مات بقي معه ذلك الحب الشديد والميل التام وصار عاجزاً عن الوصول إلى محبوبه ، فحينئذ يعظم البلاء ويتكامل الشقاء ، فهذا القدر المعلوم عندنا من عذاب ذلك اليوم ، وأما تفاصيل تلك الأحوال فهي غائبة عنا ما دمنا في هذه الحياة الدنيوية .

ثم بين أنه لا بد من الرجوع إلى الله تعالى بقوله : ﴿ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ على شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

واعلم أن قوله : ﴿ إلى الله مَرْجِعُكُمْ ﴾ فيه دقيقة ، وهي : أن هذا اللفظ يفيد الحصر ، يعني أن مرجعنا إلى الله لا إلى غيره ، فيدل هذا على أن لا مدبر ولا متصرف هناك إلا هو والأمر كذلك أيضاً في هذه الحياة الدنيوية ، إلا أن أقواماً اشتغلوا بالنظر إلى الوسائط فعجزوا عن الوصول إلى مسبب الأسباب ، فظنوا أنهم في دار الدنيا قادرون على شيء ، وأما في دار الآخرة ، فهذا الحال الفاسد زائل أيضاً ، فلهذا المعنى بين هذا الحصر بقوله : ﴿ إلى الله مَرْجِعُكُمْ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وأقول إن هذا تهديد عظيم من بعض الوجوه وبشارة عظيمة من سائر الوجوه .

أما إنه تهديد عظيم فلأن قوله تعالى : ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ يدل على أنه ليس مرجعنا إلا إليه ، وقوله : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يدل على أنه قادر على جميع المقدورات لا دافع لقضائه ولا مانع لمشيئته والرجوع إلى الحاكم الموصوف بهذه الصفة مع العيوب الكثيرة والذنوب العظيمة مشكل وأما أنه بشارة عظيمة فلأن ذلك يدل على قدرة غالبة وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف تام وعجز عظيم لهذا العبد ، والملك القاهر العالي الغالب إذا رأى عاجزاً مشرفاً على الهلاك فإنه يخلصه من الهلاك ، ومنه المثل المشهور : ملكت فاسجح .

يقول مصنف هذا الكتاب : قد أفنيت عمري في خدمة العلم والمطالعة للكتب ولا رجاء لي في شيء إلا أني في غاية الذلة والقصور والكريم إذا قدر غفر ، وأسألك يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين وساتر عيوب المعيوبين ومجيب دعوة المضطرين أن تفيض سجال رحمتك على ولدي وفلذة كبدي وأن تخلصنا بالفضل والتجاوز والجود والكرم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 145 . 147 ﴾

(79/373)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : استغفروه من سالف ذنوبكم ثم توبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم . قال بعض العلماء : الإستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين . الثاني : أنه قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب والتوبة هي السبب إليها ، فالمغفرة أولٌ في الطلب وآخر في السبب .

ويحتمل ثالثاً : أن المعنى استغفروه من الصغائر وتوبوا إليه من الكبائر ﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً ﴾ يعني في الدنيا وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه طيب النفس وسعة الرزق .

الثاني : أنه الرضا بالميسور ، والصبر على المقدور .

الثالث : أنه ترْك الخلق والإقبال على الحق ، قاله سهل بن عبد الله ويحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه الحلال الكافي .

الثاني : أنه الذي لا كد فيه ولا طلب .

الثالث : أنه المقترن بالصحة والعافية .

﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : إلى يوم القيامة ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : إلى يوم الموت ، قاله الحسن . الثالث : إلى وقت لا يعلمه إلا الله تعالى ، قاله ابن عباس .

﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يهديه إلى العمل الصالح ، قاله ابن عباس .

الثاني : يجازيه عليه في الآخرة ، على قول قتادة . ويجوز أن يجازيه عليه في الدنيا ، على قول مجاهد .

﴿ وَإِن تَوَلَّوْا ﴾ يعني عما أُمرتم له .

﴿ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ وفيه إضمار وتقدير : فقل لهم إني أخاف عليكم عذاب يوم كبير يعني يوم القيامة وصفه بذلك لكبر الأمور التي هي فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(80/373)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أن الاستغفار والتوبة هاهنا من الشرك ، قاله مقاتل .

والثاني : استغفروه من الذنوب السالفة ، ثم توبوا إليه من المستأنفة متى وقعت .

وذُكر عن الفراء أنه قال : "ثم" هاهنا بمعنى الواو .

قوله تعالى : ﴿ يمتعكم متاعاً حسناً ﴾ قال ابن عباس : يتفضل عليكم بالرزق والسَّعَة .

وقال ابن قتيبة : يُعمِّركْم .

وأصل الإِمتاع : الإِطالة ، يقال : أمتع الله بك ، ومتَّع الله بك ، إِمتاعاً ومتاعاً ، والشيء الطويل : ماتع ، يقال : جبل ماتع ، وقد متع النهار : إِذا تطاول .

وفي المراد بالأجل المسمى قولان .

أحدهما : أنه الموت ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وقتادة .

والثاني : أنه يوم القيامة ، قاله سعيد بن جبير .

قوله تعالى : ﴿ ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ في هاء الكناية قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى الله تعالى .

ثم في معنى الكلام قولان .

أحدهما : ويؤت كل ذي فضل من حسنةٍ وخيرٍ فضله ، وهو الجنة .

والثاني : يؤتيه فضله من الهداية إِلى العمل الصالح .

والثاني : أنها ترجع إلى العبد ، فيكون المعنى : ويؤت كل من زاد في إحسانه وطاعاته ثواب ذلك الفضل الذي زاده ، فيفضّله في الدنيا بالمنزلة الرفيعة ، وفي الآخرة بالثواب الجزيل .

قوله تعالى : ﴿ وإن تولَّوا ﴾ أي : تُعرضوا عما أُمرتم به .

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي ، وأبو مجلز ، وأبو رجاء : "وإن تُوَلُّوا" بضم التاء .

﴿ فإني أخاف عليكم ﴾ فيه إضمار "فقل" .

واليوم الكبير : يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(81/373)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ استغفروا ربَّكُمْ ﴾

عطف على الأوّل .

﴿ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة والعبادة .

قال الفرّاء : "ثم" هنا بمعنى الواو ؛ أي وتوبوا إليه ؛ لأن الاستغفار هو التوبة ، والتوبة هي الاستغفار .

وقيل : استغفروه من سالف ذنوبكم ، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم .

قال بعض الصلحاء : الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين .

وقد تقدّم هذا المعنى في "آل عمران" مستوفى .

وفي "البقرة" عند قوله : ﴿ وَلاَ تتخذوا آيَاتِ الله هُزُواً ﴾ .

وقيل : إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب ، والتوبة هي السبب إليها ؛ فالمغفرة أوّل في المطلوب وآخر في السبب .

ويحتمل أن يكون المعنى استغفروه من الصغائر ، وتوبوا إليه من الكبائر .

﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعاً حَسَناً ﴾ هذه ثمرة الاستغفار والتوبة ، أي يمتعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش ، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم .

وقيل : يمتّعكم يُعمِّركم ؛ وأصل الإمتاع الإطالة ، ومنه أَمتع اللَّهُ بك ومَتَّع .

وقال سهل بن عبد الله : المتاع الحسن ترك الْخَلق والإقبال على الحق .

وقيل : هو القناعة بالموجود ، وترك الحزن على المفقود .

﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قيل : هو الموت .

وقيل : القيامة .

وقيل : دخول الجنة .

والمتاع الحسن على هذا وقاية كلّ مكروه وأمرٍ مَخُوف ، مما يكون في القبر وغيره من أهوال القيامة وكُرَبها ؛ والأوّل أظهر ؛ لقوله في هذه السورة : ﴿ ويا قوم استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا

إِلَيْهِ يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود : 52] .

وهذا ينقطع بالموت وهو الأجل المسمى .

والله أعلم .

قال مقاتل : فأبوا فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فابتلوا بالقحط سبع سنين حتى أكلوا العظام المحرَقة والقَذَر والجيف والكلاب .

(82/373)

﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ أي يؤت كل ذي عمل من الأعمال الصالحات جزاء عمله .

وقيل : ويؤت كلّ من فضلت حسناته على سيئاته ﴿ فَضْلَهُ ﴾ أي الجنة ، وهي فضل الله ؛ فالكناية في قوله : ﴿ فَضْلَهُ ﴾ ترجع إلى الله تعالى .

وقال مجاهد : هو ما يحتسبه الإنسان من كلام يقوله بلسانه ، أو عمل يعمله بيده أو رجله ، أو ما تطوّع به من ماله فهو فضل الله ، يؤتيه ذلك إذا آمن ، ولا يتقبله منه إن كان كافراً .

﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فإني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ أي يوم القيامة ، وهو كبير لما فيه من الأهوال .

وقيل : اليوم الكبير هو يوم بدر وغيره : و ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ يجوز أن يكون ماضياً ويكون المعنى : وإن تولّوا فقل لهم إني أخاف عليكم .

ويجوز أن يكون مستقبلاً حذفت منه إحدى التاءين والمعنى : قل لهم إن تتولّوا فإني أخاف عليكم .

قوله تعالى : ﴿ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي بعد الموت .

﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من ثواب وعقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(83/373)

وقال الخازن :

﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾

اختلفوا في بيان الفرق بين هذين المرتبتين فقيل معناه اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم ارجعوا إليه لأن الاستغفار هو طلب الغفر وهو الستر والتوبة الرجوع عما كان فيه من شرك أو معصية إلى خلاف ذلك فلهذا السبب قدم الاستغفار على التوبة وقيل معناه استغفروا ربكم لسالف ذنوبكم ثم توبوا إليه في المستقبل وقال الفراء : ثم هنا بمعنى الواو لأن

الاستغفار والتوبة بمعنى واحد فذكرهما للتأكيد ﴿ يمتعكم متاعاً حسناً ﴾ يعني إنكم إذا فعلتم ما أمرتم به من الاستغفار والتوبة وأخلصتم العبادة لله بسط عليكم من الدنيا وأسباب الرزق ما تعيشون به في أمن وسعة وخير ، قال بعضهم : المتاع الحسن هو الرضا بالميسور والصبر على المقدور ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ يعني يمتعكم متاعاً حسناً إلى حين الموت ووقت انقضاء آجالكم .

فإن قلت قد ورد في الحديث ﴿ إن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ﴾ وقد يضيق على الرجل في بعض أوقاته حتى لا يجد ما ينفقه على نفسه وعياله فيكف الجمع مبين هذا وبين قوله سبحانه وتعالى يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى .

قلت أما قوله (صلى الله عليه وسلم) " الدنيا سجن المؤمن " فهو بالنسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم فإنه في سجن في الدنيا حتى يفضي إلى ذلك المعد له وأما كون الدنيا جنة الكافر فهو النسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من العذاب الأليم الدائم الذي لا ينقطع فهو في الدنيا في جنة حتى يفضي إلى ما أعد الله له في الآخرة وأما ما يضيق على الرجل المؤمن في بعض الأوقات فإنما ذلك لرفع الدرجات وتكفير السيئات وبيان الصبر عند المصيبات فعلى هذا يكون المؤمن في جميع أحواله في عيشة حسنة لأنه راض عن الله في جميع أحواله .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ أي ويعط كل ذي عمل صالح في الدنيا أجره وثوابه في الآخرة ، قال أبو العالية : من كثرت طاعاته في الدنيا زادت حسناته ودرجاته في الجنة لأن الدرجات تكون على قدر الأعمال ، وقال ابن عباس : من زادت حسناته على سيئاته دخل الجنة ومن زادت سيئاته دخل النار ومن استوت حسناته وسيئاته كان من الأعراف ثم يدخلون الجنة .

وقال ابن مسعود : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فإن عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من حسناته العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ثم يقول ابن مسعود : هلك من غلبت آحاده أعشاره وقيل معنى الآية من عمل لله وفقه الله في المستقبل لطاعته ﴿ وإن تولوا ﴾ يعني وإن أعرضوا عما جئتم به من الهدى ﴿ فإني أخاف عليكم ﴾ أي : فقل لهم يا محمد إني أخاف عليكم ﴿ عذاب يوم كبير ﴾ يعني : عذاب النار في الآخرة ﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ يعني في الآخرة فيثيب المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ يعني من إيصال الرزق إليكم في الدنيا وثوابكم وعقابكم في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وأنْ استغفروا ﴾

معطوف على أنْ لا تعبدوا ، نهي أو نفي أي : لا يعبد إلا الله .

وأمر بالاستغفار من الذنوب ، ثم بالتوبة ، وهما معنيان متباينان ، لأنّ الاستغفار طلب المغفرة وهي الستر ، والمعنى : أنه لا يبقى لها تبعة .

والتوبة الانسلاخ من المعاصي ، والندم على ما سلف منها ، والعزم على عدم العود إليها .

ومن قال : الاستغفار توبة ، جعل قوله : ثم توبوا ، بمعنى أخلصوا التوبة واستقيموا عليها .

قال ابن عطية : وثم مرتبة ، لأن الكافر أول ما ينيب ، فإنه في طلب مغفرة ربه ، فإذا تاب وتجرد من الكفر تم إيمانه .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : ما معنى ثمّ في قوله : ثم توبوا إليه ؟ (قلت) : معناه استغفروا من الشرك ، ثم ارجعوا إليه بالطاعة .

وقرأ الحسن ، وابن هرمز ، وزيد بن علي ، وابن محيصن : يمتعكم بالتخفيف من أمتع ، وانتصب متاعاً على أنه مصدر جاز على غير الفعل ، أو على أنه مفعول به .

لأنك تقول : متعت زيداً ثوباً ، والمتاع الحسن الرضا بالميسور والصبر على المقدور ، أو حسن العمل وقطع الأمل ، أو النعمة الكافية مع الصحة والعافية ، أو الحلال الذي لا طلب فيه ولا تعب ، أو لزوم القناعة وتوفيق الطاعة أقوال .

وقال الزمخشري : يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية ، وعيشة واسعة ، ونعمة متتابعة .

قال ابن عطية : وقيل هو فوائد الدنيا وزينتها ، وهذا ضعيف .

لأنّ الكفار يشاركون في ذلك أعظم مشاركة ، وربما زادوا على المسلمين في ذلك .

قال : ووصف المتاع بالحسن إنما هو لطيب عيش المؤمن برجائه في الله عز وجل ، وفي ثوابه وفرحه بالتقرب إليه بمفروضاته ، والسرور بمواعيده ، والكافر ليس في شيء من هذا ، والأجل المسمى هو أجل الموت قاله : ابن عباس والحسن .

وقال ابن جبير : يوم القيامة ، والضمير في فضله يحتمل أن يعود على الله تعالى أي : يعطي في الآخرة كل من كان له فضل في عمل الخير ، وزيادة ما تفضل به تعالى وزاده .

(86/373)

ويحتمل أن يعود على كل أي : جزاء ذلك الفضل الذي عمله في الدنيا لا يبخس منه شيء ، كما قال : ﴿ نوف إليهم أعمالهم ﴾ أي جزاءها .

والدرجات تتفاضل في الجنة بتفاضل الطاعات ، وتقدم أمران بينهما تراخ ، ورتب عليهما جوابان بينهما تراخ ، ترتب على الاستغفار التمتيع المتاع الحسن في الدنيا ، كما قال : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ الآية وترتب على التوبة إيتاء الفضل في الآخرة ، وناسب كل جواب لما وقع جواباً له ، لأنّ الاستغفار من الذنب أول حال الراجع إلى الله ، فناسب أن يرتب عليه حال الدنيا .

والتوبة هي المنجية من النار ، والتي تدخل الجنة ، فناسب أن يرتب عليها حال الآخرة .

والظاهر أنّ تولوا مضارع حذف منه التاء أي : وإنْ تتولوا .

وقيل : هو ماض للغائبين ، والتقدير قيل لهم : إني أخاف عليكم .

وقرأ اليماني ، وعيسى بن عمر : وإن تولوا بضم التاء واللام ، وفتح الواو ، مضارع وليّ ، والأولى مضارع أولى .

وفي كتاب اللوامح اليماني وعيسى البصرة : وإن تولوا بثلاث ضمات مرتباً للمفعول به ، وهو ضد التبري .

وقرأ الأعرج : تولوا بضم التاء واللام .

وسكون الواو ، مضارع أولى ، ووصف يوم بكبير وهو يوم القيامة لما يقع فيه من الأهوال .

وقيل : هو يوم بدر وغيره من الأيام التي رموا فيها بالخذلان والقتل والسبي والنهب وأبعد من ذهب إلى أنّ كبير صفة لعذاب ، وخفض على الجوار .

وباقي الآية تضمنت تهديداً عظيماً وصرحت بالبعث ، وذكر أنّ قدرته عامة لجميع ما يشاء ، ومن ذلك البعث ، فهو لا يعجزه ما شاء من عذابهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(87/373)

وقال أبو السعود :

ولما سيق إليهم حديثُ التوحيدِ وأُكد ذلك بخطاب الرسولِ صلى الله عليه وسلم على وجه الإنذارِ والتبشيرِ شُرع في ذكر ما هو من تتماته على وجه يتضمّن تفصيلَ ما أجمل وصف البشير والنذير فقيل :

﴿ وَأَنِ استغفروا ربَّكُمْ ﴾ وهو معطوفٌ على أن لا تعبدوا على ما ذكر من الوجهين فعلى الأول أنْ مصدريةٌ لجواز كون صلتِها أمراً أو نهياً كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ حَنِيفًا ﴾ لأن مدارَ جوازِ كونِها فعلاً إنما هو دلالتُه على المصدر وهو موجودٌ فيهما ، ووجوبِ كونِها خبريةً في صلة الموصول الاسميّ إنما هو للتوصل إلى وصف المعارفِ بالجمل

وهي لا توصف بها إلا إذا كانت خبريةً ، وأما الموصولُ الحرفيُّ فليس كذلك ، ولما كان الخبرُ والإنشاءُ في الدلالة على المصدر سواءً ساغ وقوعُ الأمرِ والنهي صلةً حسبما ساغ وقوعُ الفعلِ فيتجرد عند ذلك عن معنى الأمر والنهي نحوُ تجرّدِ الصلةِ الفعليةِ عن معنى المضيِّ والاستقبال ﴿ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ عطف على استغفروا والكلامُ فيه كالكلام فيه والمعنى فُعل ما فُعل من الإحكام والتفصيلِ لتخصّوا الله تعالى بالعبادة وتطلُبوا منه سَتر ما فرَط منكم من الشرك ثم ترجِعوا إليه بالطاعة أو تستمرّوا على ما أنتم عليه من التوحيد والاستغفارِ أو تستغفروا من الشرك وتتوبوا من المعاصي ، وعلى الثاني أنْ مفسرةٌ أي قيل في أثناء تفصيلِ الآياتِ : لا تعبدوا إلا الله واستغفِروه ثم توبوا إليه ، والتعرّضُ لوصف الربوبيةِ تلقينٌ للمخاطَبين وإرشادٌ لهم إلى طريق الابتهالِ في السؤال وترشيحٌ لما يعقُبه من التمتيع وإيتاءِ الفضلِ بقوله تعالى : ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعًا حَسَنًا ﴾ أي تمتيعاً ، وانتصابُه على أنه مصدرٌ حذف منه الزوائدُ كقوله تعالى :

(88/373)

﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرضِ نَبَاتاً ﴾ أو على أنه مفعولٌ به وهو اسمٌ لما يُتمتّع به من منافع الدنيا من الأموال والبنينَ وغيرِ ذلك ، والمعنى يُعيْشُكم عَيشاً مرضياً لا يفوتكم فيه شيءٌ مما تشتهون

ولا ينغصُه شيءٌ من المكدرات ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ مقدّرٍ عند الله عز وجل وهو آخرُ أعمارِكم ، ولما كان ذلك غايةً لا يطمح وراءَها طامحٌ جرى التمتيعُ إليها مجرى التأييدِ عادةً أو لا يهلككم بعذاب الاستئصال ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ ﴾ في الطاعة والعملِ ﴿ فَضْلَهُ ﴾ جزاءَ فضلِه إما في الدنيا أو في الآخرة ، وهذه تكملةٌ لما أُجمل من التمتيع إلى أجل مسمًّى وتبيينٌ لما عسى يعسُر فهمُ حكمتِه من بعض ما يتفق في الدنيا من تفاوت الحالِ بين العاملين ، فرب إنسانٍ له فضلُ طاعةٍ وعملٌ لا يُمتّع في الدنيا أكثرَ مما مُتّع آخرُ دونه في الفضل ، وربما يكون المفضولُ أكثرَ تمتيعاً فقيل : ويُعطِ كلَّ فاضلٍ جزاءَ فضلِه ، إما في الدنيا كما يتفق في بعض المواد وإما في الآخرة ، وذلك مما لا مرد له وهذا ضربُ تفصيلٍ لما أُجمل فيما سبق من البشارة ، ثم شرُع في الإنذار فقيل : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي تتولوا عما أُلقي إليكم من التوحيد والاستغفار والتوبةِ ، وإنما أُخّر عن البشارة جرياً على سنن تقدمِ الرحمةِ على الغضب أو لأن العذابَ قد علّق بالتولي عما ذكر من التوحيد والاستغفارِ والتوبةِ وذلك يستدعي سابقةَ ذكرِه ، وقرىء تُولّوا من ولى ﴿ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ بموجب الشفقة والرأفةِ أو أتوقع ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ هو القيامةُ وُصف بالكِبَر كما وصف بالعِظَم في قوله تعالى : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إما لكونه كذلك في نفسه أو وُصف بوصف ما يكون فيه كما وُصفَ بالثقل في قوله تعالى : ﴿ ثَقُلَتْ فِى السموات والأرض ﴾ وقيل : يومُ الشدائد وقد ابتلُوا بقَحطٍ أكلوا فيه الجيَفَ ،

وأياً ما كان ففي إضافةِ العذابِ إليه تهويلٌ وتفظيعٌ له .

﴿ إلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾

رجوعُكم بالموت ثم البعثِ للجزاء في مثل ذلك اليومِ لا إلى غيره ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيندرج في تلك الكلية قدرتُه على إماتتكم ثم بعثِكم وجزائكم فيعذبكم بأفانينِ العذابِ وهو تقريرٌ لما سلف من كِبر اليوم وتعليلٌ للخوف ، ولمّا أُلقيَ إليهم فحوى الكتابِ على لسان النبي صلى الله عليه وسلم وسيق إليهم ما ينبغي أن يُساقَ من الترغيب والترهيبِ وقع في ذهن السامعِ أنهم بعد ما سمِعوا مثلَ هذا المقالِ الذي تخِرُّ له صمُّ الجبالِ هل قابلوه بالإقبال أم تمادَوا فيما كانوا عليه من الإعراض والضلالِ ، فقيل مصدّراً بكلمة التنبيهِ إشعاراً بأن ما يعقبُها من هَناتهم أمرٌ يجب أن يُفهم ويتعجَّبَ منه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

قوله تعالى ﴿ وَأَنِ استغفروا ربّكُمْ ﴾ عطف على ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ الله ﴾ [هود : 2] سواء كان نهياً أو نفياً وفي ﴿ إن ﴾ الاحتمالان السابقان وقد علمت أن الحق أن ﴿ إن ﴾ المصدرية توصل بالأمر والنهي كما توصل بغيرهما ، وفي توسيط جملة ﴿ إِنِّي لَكُمْ ﴾ [هود : 2] الخ بين المتعاطفين ما لا يخفى من الإشارة إلى علو شأن التوحيد ورفعة قدر النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد روعي في تقديم الانذار على التبشير ما روعي في الخطاب من تقديم النفي على الإثبات والتخلية على التحلية لتتجاوب الأطراف ، والتعرض لوصف الربوبية تلقين للمخاطبين وأرشاد لهم إلى طريق الابتهال في السؤال وترشيح لما يذكر من التمتيع وإيتاء الفضل ، وقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ عطف على ﴿ استغفروا ﴾ واختلف في توجيه توسيط ﴿ ثُمَّ ﴾ بينهما مع أن الاستغفار بمعنى التوبة في العرف فقال الجبائي : إن المراد بالاستغفار هنا التوبة عما وقع من الذنوب وبالتوبة الاستغفار عما يقع منها بعد وقوعه أي استغفروا ربكم من ذنوبكم التي فعلتموها ثم توبوا إليه من ذنوب تفعلونها ، فكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ على ظاهرها من التراخي في الزمان ، وقال الفراء : إن ﴿ ثُمَّ ﴾ بمعنى الواو كما في قوله

بهز كهز الرديني . . .

جرى في الأنابيب ثم اضطرب

والعطف تفسيري ، وقيل : لا نسلم أن الاستغفار هو التوبة بل هو ترك المعصية والتوبة هي الرجوع إلى الطاعة ولئن سلم أنهما بمعنى فثم للتراخي في الرتبة ، والمراد بالتوبة الإخلاص فيها والاستمرار عليها وإلى هذا ذهب صاحب الفرائد .

وقال بعض المحققين : الاستغفار هو التوبة إلا أن المراد بالتوبة في جانب المعطوف التوصل إلى المطلوب مجازاً من إطلاق السبب على المسبب ، و﴿ ثُمَّ ﴾ على ظاهرها وهي قرينة على ذلك .

(91/373)

وأنت تعلم أن أصل معنى الاستغفار طلب الغفر أي الستر ومعنى التوبة الرجوع ، ويطلق الأول على طلب ستر الذنب من الله تعالى والعفو عنه والثاني على الندم عليه مع العزم على عدم العود فلا اتحاد بينهما بل ولا تلازم عقلاً ، لكن اشترط شرعاً لصحة ذلك الطلب وقبوله الندم على الذنب مع العزم على عدم العود إليه ، وجاء أيضاً استعمال الأول في الثاني ، والاحتياج إلى توجيه العطف على هذا ظاهر ، وأما على ذاك فلأن الظاهر أن المراد من الاستغفار المأمور به الاستغفار المسبوق بالتوبة بمعنى الندم فكأنه قيل : استغفروا ربكم بعد التوبة ثم توبوا إليه ولا شبهة في ظهور احتياجه إلى التوجيه حينئذ ،

والقلب يميل فيه إلى حمل الأمر الثاني على الإخلاص في التوبة والاستمرار عليها ، والتراخي عليه يجوز أن يكون رتبيا وأن يكون زمانياً كما لا يخفى ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعًا حَسَنًا ﴾ مجزوم بالطلب ، ونصب ﴿ متاعا ﴾ على أنه مفعول مطلق من غير لفظه كقوله تعالى :

﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرضِ نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] ويجوز أن يكون مفعولاً به على أنه اسم لما ينتفع به من منافع الدنيا من الأموال والبنين وغير ذلك ، والمعنى كما قيل يعشكم في أمن وراحة ، ولعل هذا لا ينافي كون الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ولا كون أشد الناس بلاء الامثل فالأمثل لأن المراد بالأمن أمنه من غير الله تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : 3] وبالراحة طيب عيشه برجاء الله تعالى والتقريب إليه حتى يعد المحنة منحة

وتعذيبكم عذب لدى وجوركم . . .

علي بما يقضي الهوى لكم عدل

(92/373)

وقال الزجاج : المراد يبقيكم ولا يستأصلكم بالعذاب كما استأصل أهل القرى الذين كفروا ، والخطاب لجميع الأمة بقطع النظر عن كل فرد فرد ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ مقدر عند الله تعالى وهو آخر أعماركم أو آخر أيام الدنيا كما يقتضيه كلام الزجاج ، ولا دلالة في الآية على أن للإنسان أجلين كما زعمه المعتزلة ﴿ وَيُؤْتِ ﴾ أي يعط ﴿ كُلَّ ذِي فَضْلٍ ﴾ أي زيادة في العمل الصالح ﴿ فَضْلَهُ ﴾ أي جزاء فضله في الدنيا أو في الآخرة لأن العمل لا يعطى ، وقد يقال : لا حاجة إلى تقدير المضاف ، والمراد المبالغة على حد ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ [الأنعام : 139] والضمير لكل ، ويجوز أن يعود إلى الرب ، والمراد بالفضل الأول ما أريد به أولا وبالثاني زيادة الثواب بقرينة أن الاعطاء ثواب وحينئذ يستغني عن التأويل .

واختار بعض المحققين التفسير الأول ثم قال : وهذه تكملة لما أجمل من التمتيع إلى أجل مسمى وتبيين لما عسى أن يعسر فهم حكمته من بعض ما يتفق في الدنيا من تفاوت الحال بين العاملين فرب إنسان له فضل طاعة وعمل لا يمتع في الدنيا أكثر مما متع آخر دونه في الفضل وربما يكون المفضول أكثر تمتيعاً فقيل : ويعط كل فاضل جزاء فضله أما في الدنيا كما يتفق في بعض المواد وإما في الآخرة وذلك مما لا مراد له انتهى .

ويفهم من كلام بعضهم عدم اعتبار الانفصال على أنه سبحانه ينعم على ذي الفضل في الدنيا والآخرة ولا يختص إحسانه باحدى الدارين ، ولا شك أن كل ذي عمل صالح منعم عليه في الآخرة بما يعلمه الله تعالى وكذا في الدنيا بتزيين العمل الصالح في قلبه والراحة حسب

تعليق الرجاء بربه ونحو ذلك ولا إشكال في ذلك كما هو ظاهر للمتأمّل ، وقيل : في الآية لفونشر فإن التمتيع مربت على الاستغفار وإيتاء الفضل مرتب على التوبة انتهى .

(93/373)

وايا مّا كان ففي الكلام ضرب تفصيل لما أجمل فيما سبق من البشارة ، ثم شرع في الإنذار بقوله سبحانه : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي تستمروا على الاعراض عما القى إليكم من التوحيد والاستغفار والتبوة ، وأصله تتولوا فهو مضارع مبدوإ بتاء الخطاب لأن ما بعده يقتضيه وحذفت منه إحدى التاءين كما فعل في أمثاله ، وقيل : إن ﴿ تَوَلَّوْاْ ﴾ ماض غائب فلا حذف ويقدر فيما بعد فقل لهم وهو خلاف الظاهر ، وأخر الانذار عن البشارة جريا على سنن تقدم الرحمة على الغضب أو ون العذاب قد علق بالتولي عما ذكر من التوحيد وما معه وذلك يستدعي سابقة ذكره .

وقرأ عيسى بن عمرو ، واليماني ﴿ تَوَلَّوْاْ ﴾ بضم التاء وفتح الواو وضم اللام وهو مضارع ولى من قولهم : ولى هاربا أي أدبر ﴿ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ بمقتضى الشفقة والرأفة أو أتوقع ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ هو يوم القيامة وصف بذلك لكبر ما يكون فيه ولذا وصف بالثقل أيضاً ، وجوز وصفه بالكبر لكونه كذلك في نفسه ، وقيل : المراد به زمان ابتلاهم الله

تعالى فيه في الدنيا ، وقد روي أنهم ابتلوا بقحط عظيم أكلوا فيه الجيف ، وأيا مّا كان ففي إضافة العذاب إليه تهويل وتفظيع له .

﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾

مصدر ميمي وكان قياسه فتح الجيم لأنه من باب ضرب وقياس مصدره الميمي ذلك كما علم من محله ، أي إليه تعالى رجوعكم بالموت ثم البعث للجزاء في مثل ذلك اليوم لا إلى غيره جميعاً لا يتخلف منكم أحد ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيندرج في تلك الكلية قدرته سبحانه على إماتتكم ثم بعثكم وجوزائكم فيعذبكم بأفانين العذاب ، وهذا تقرير وتأكيد لما سلف من ذكر اليوم وتعليل للخوف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(94/373)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾

عطف على جملة ﴿ لا تعبدوا إلا الله ﴾ [هود : 2] وهو تفسير ثان يرجع إلى ما في الجملة الأولى من لفظ التفصيل ، فهذا ابتداء التفصيل لأنه بيان وإرشاد لوسائل نبذ عبادة

ما عدا الله تعالى ، ودلائلُ على ذلك وأمثالٌ ونذر ، فالمقصود : تقسيم التفسير وهو وجه إعادة حرف التفسير في هذه الجملة وعدم الاكتفاء بالذي في الجملة المعطوف عليها .

والاستغفار : طلب المغفرة ، أي طلب عدم المؤاخذة بذنب مضى ، وذلك الندم .

والتوبة : الإقلاع عن عَمَل ذنب ، والعزمُ على أن لا يعود إليه .

و(ثُم) للترتيب الرتبي ، لأن الاعتراف بفساد ما هم فيه من عبادة الأصنام أهم من طلب المغفرة ، فإنّ تصحيح العزم على عدم العودة إليها هو مسمى التوبة ، وهذا ترغيب في نبذ عبادة الأصنام وبيان لما في ذلك من الفوائد في الدنيا والآخرة .

والمتاع : اسم مصدر التمتيع لما يُتمتع به ، أي يُنتفع .

ويطلق على منافع الدنيا .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ في سورة [الأعراف : 24] .

والحَسَن : تقييد لنوع المتاع بأنه الحَسن في نوعه ، أي خالصاً من المكدرات طويلاً بقاؤه لصاحبه كما دل عليه قوله : إلى أجل مسمى ﴾ .

والمراد بالمتاع : الإبقاءُ ، أي الحياة ، والمعنى أنه لا يستأصلهم .

ووصفه بالحسن لإفادة أنها حياة طيبة .

و﴿ إلى أجل ﴾ متعلق بـ ﴿ يمتعكم ﴾ وهو غاية للتمتيع ، وذلك موعظة وتنبيه على أن

هذا المتاع له نهاية ، فعلم أنه متاع الدنيا .

والمقصود بالأجَل : أجل كل واحد وهو نهاية حياته ، وهذا وعد بأنه نعمة باقية طول الحياة .

وجملة : ﴿ يُؤْت كل ذي فضل فضله ﴾ عطف على جملة : ﴿ يمتعكم ﴾ .

والإيتاء : الإعطاء ، وذلك يدل على أنه مِن المتاع الحسن ، فيعلم أنه إعطاء نعيم الآخرة .

(95/373)

والفضل : إعطاء الخير .

سمي فضلاً لأن الغالب أن فاعل الخير يفعله بما هو فاضل عن حاجته ، ثم تنوسي ذلك فصار الفضل بمعنى إعطاء الخير .

والفضل الأولُ : العمل الصالح ، بقرينة مقابلته بفضل الله الغني عن الناس .

والفضل الثاني المضاف إلى ضمير الجلالة هو ثواب الآخرة ، بقرينة مقابلته بالمتاع في الدنيا .

والمعنى : ويؤت الله فضلَه كلّ ذي فَضْل في عمله .

ولما علق الإيتاء بالفضلين علم أن مقدار الجزاء بقدر المَجْزي عليه ، لأنه علق بذي فضل وهو في قوة المشتق ، ففيه إشعار بالتعليل وبالتقدير .

وضبط ذلك لا يعلمه إلا الله ، وهو سر بين العبد وربه .

ونظير هذا مع اختلاف في التقديم والتأخير وزيادة بيانٍ ، قولُه تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينَّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : 97] .

عطف على ﴿ وأن استغفروا ربكم ﴾ فهو من تمام ما جاء تفسيراً ل ﴿ أحكمت آياته ثم فصلت ﴾ [هود : 1] وهو مما أوحي به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبلغه إلى الناس .

وتَولوا : أصلُه تَتولوا ، حذفت إحدى التائين تخفيفاً .

وتأكيد جملة الجزاء بـ ﴿ إن ﴾ وبكون المسند إليه فيها اسماً مخبراً عنه بالجملة الفعلية لقصد شدة تأكيد توقع العذاب .

وتنكير ﴿ يوم ﴾ للتهويل ، لتذهب نفوسهم للاحتمال الممكن أن يكون يوماً في الدنيا أو في الآخرة ، لأنهم كانوا ينكرون الحشر ، فتخويفهم بعذاب الدنيا أوْقع في نفوسهم .

وبذلك يكون تنكير ﴿ يوم ﴾ صالحاً لإيقاعه مقابلاً للجَزَاءيْن في قوله : ﴿ يُمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ ، فيقدّر السامع : إن توليتم فإني أخاف عليكم عذابين كما رجوت لكم إن استغفرتم ثوابين .

ووصفه بالكبير لزيادة تهويله ، والمراد بالكبر الكبر المعنوي ، وهو شدة ما يقع فيه ، أعني العذاب ، فوصف اليوم بالكبر مجاز عقلي .

(96/373)

﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4) ﴾

جملة في موضع التعليل للخوف عليهم ، فلذلك فصلت .

والمعنى : أنكم صائرون إلى الله ، أي إلى قدرته غير منفلتين منه فهو مجازيكم على توليّكم عن أمره .

فالمرجع : مصدر ميمي بمعنى الرجوع .

وهو مستعمل كناية عن لازمه العرفي وهو عدم الانفلات وإن طال الزمن ، وذلك شامل للرجوع بعد الموت .

وليس المراد إياه خاصة لأن قوله : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أنسب بالمصير الدنيوي لأنه المسلّم عندهم ، وأما المصير الأخروي فلو اعترفوا به لما كان هنالك قوي مقتض لزيادة ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ .

وتقديم المجرور على عامله للاهتمام والتقوي ، وليس المراد منه الحصر إذ هم لا يحسبون

أنهم مرجعون بعد الموت بله أن يرجعوا إلى غيره .

وجملة : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ ، أي فما ظنكم برجوعكم إلى القادر على كل شيء وقد عصيتُم أمره أليس يعذبكم عذاباً كبيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(97/373)

وقال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعاً حَسَناً إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ الآية .

هذه الآية الكريمة تدل على أن الاستغفار والتوبة إلى الله تعالى من الذنوب سبب لأن يمتع الله من فعل ذلك متاعاً حسناً إلى أجل مسمى . لأنه رتب ذلك على الاستغفار والتوبة ترتيب الجزاء على شرطه .

والظاهر أن المراد بالمتاع الحسن . سعة الرزق ، ورغد العيش ، والعافية في الدنيا ، وأن المراد بالأجل المسمى الموت ، ويد لذلك قوله تعالى في هذه السورة الكريمة عن نبيه هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام : ﴿ ويا قوم استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السمآء

عَلَيْكُمْ مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود : 52] وقوله تعالى عن نوح : ﴿ فَقُلْتُ استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السماء عَلَيْكُمْ مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح : 10-12] وقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : 97] الآية . وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السماء والأرض ﴾ [الأعراف : 96] الآية . وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التوراة والإنجيل وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة : 66] وقوله ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِب ﴾ [الطلاق : 2-3] إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(98/373)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾

وهكذا يبيّن الحق سبحانه أن على العبد أن يستغفر من ذنوبه السابقة التي وقع فيها ، وأن يتوب من الآن ، وأن يرجع إلى منهج الله تعالى ، لينال الفضل من الحق سبحانه .

المطلوب إذن من العبد أن يستغفر الله تعالى ، وأن يتوب إليه .

هذا هو مطلوب الله من العاصي ؛ لأن درء المفسدة مقدَّم على جلب المصلحة ، وحين يعجل العبد بالتوبة إلى الله تعالى فهو يعلم أن ذنباً قد وقع وتحقق منه ، وعليه ألا يؤجل التوبة إلى زمنٍ قادم ؛ لأنه لا يعلم إن كان سيبقى حياً أم لا .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنِ استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [هود : 3] .

والحق سبحانه يُجمل قضية اتباع منهجه في قوله تعالى :

﴿ فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ﴾ [طه : 123] .

وقال في موضع آخر :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : 97] .

فالحياة الطيبة في الدنيا وعدم الضلال والشقاء متحققان لمن اتبع منهج الله تعالى .

وظن بعض العلماء أن هذا القول يناقض في ظاهره قول النبي صلى الله عليه وسلم بأن " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر " و " إن أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل " .

وقال بعض العلماء : فكيف تقول : ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعاً حَسَناً ﴾ [هود : 3] .

هنا نقول : ما معنى المتاع ؟

المتاع : هو ما تستمتع به وتستقبله بسرور وانبساط .

ويعلم المؤمن أن كل مصيبة في الدنيا إنما يجزيه الله عليها حسن الجزاء ، ويستقبل هذا المؤمن قضاء الله تعالى بنفس راضية ؛ لأن ما يصيبه قد كتبه الله عليه ، وسوف يوافيه بما هو خير منه .

وهناك بعض من المؤمنين قد يطلبون زيادة الابتلاء .

(99/373)

إذن : فالمؤمن كل أمره خير ؛ وإياك أن تنظر إلى من أصابته الحياة بأية مصيبة على أنه مصاب حقاً ؛ لأن المصاب حقاً هو من حُرِم من الثواب .

ونحن نجد في القرآن قصة العبد الصالح الذي قتل غلاماً كان أبواه مؤمنين ، فخشي العبد الصالح أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، فهذا الولد كان فتنة ، ولعله كان سيدفع أبويه إلى كل محرم ، ويأتي لهما بالشقاء .

إذن : فالمؤمن الحق هو الذي يستحضر ثواب المصيبة لحظة وقوعها .

ومنَّا من قرأ قصة المؤمن الصالح الذي سار في الطريق من المدينة إلى دمشق ، فأصيبت رِجْله بجرح وتلوث هذا الجرح ، وامتلأ بالصديد مما يقال عنه في الاصطلاح الحديث " غرغرينة " وقرر الأطباء أن تُقطع رجله ، وحاولوا أن يعطوه " مُرَقِّداً " أي : مادة تُخدِّره ، وتغيب به عن الوعي ؛ ليتحمل ألم بتر الساق ، فرفض العبد الصالح وقال :

إني لا أحب أن أغفل عن ربي طرفة عين .

ومثل هذا العبد يعطيه الله سبحانه وتعالى طاقة على تحمُّل الألم ، لأنه يستحضر دائماً وجوده في معية الله ، ومفاضٌ عليه من قدرة الله وقوته سبحانه .

وحينما قطع الأطباء رجله ، وأرادوا أن يكفنوها وأن يدفنوها ، فطلب أن يراها قبل أن يفعلوا ذلك ، وأمسكها ليقول : اللهم إن كنت قد ابتليت في عضو ، فإني قد عوفيت في أعضاء .

إذن : فصاحب المصيبة حين يستحضر الجزاء عليها ، إنما يحيا في متعة ، ولذلك لا تتعجب حين يحمد أناس خالقهم على المصائب ؛ لأن الحمد يكون على النعمة ، والمصيبة قد تأتي للإنسان بنعمة أوسع مما أفقدته .

ولذلك نجد اثنين من العارفين بالله وقد أراد أن يتعالم كل منهما على الآخر ؛ فقال واحد منهما :

كيف حالكم في بلادكم أيها الفقراء ؟

والمقصود بالفقراء هم العُبَّاد الزاهدون ويعطون أغلب الوقت لعبادة الله تعالى فقال العبد الثاني :

حالنا في بلادنا إنْ أعطينا شكرنا ، وإنْ حُرمنا صبرنا .

فضحك العبد الأول وقال :

(100/373)

هذا حال الكلاب في " بلخ : أي : أن الكلب إن أعطيته يهز ذيله ، وإن منعه أحد فهو يصبر .

وسأل العبد الثاني العبد الأول :

وكيف حالكم أنتم ؟

فقال : نحن إن أعطينا آثرنا ، وإن حُرِمنا شركنا .

إذن : فكل مؤمن يعيش في منهج الله سبحانه وتعالى فهو يستحضر في كل أمر مؤلم وفي كل أمر متعب ، أن له جزاءً على ما ناله من التعب ؛ ثواباً عظيماً خالداً من الله سبحانه وتعالى .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعاً حَسَناً ﴾ [هود : 3] .

والحسن هنا له مقاييس ، يُقاس بها اعتبار الغاية ؛ فحين تضم الغاية إلى الفعل تعرف معنى الحسن .

ومثال ذلك : هو التلميذ الذي لا يترك كتبه ، بل حين يأتي وقت الطعام ، فهو يأكل وعيناه لا تفارقان الكتاب .

هذا التلميذ يستحضر متعة النجاح وحُسْنه ونعيم التفوق ، وهو تلميذ يشعر بالغاية وقت أداء الفعل .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود : 3] .

أي : يؤتى كل ذي فضل مجزول لمن لا فضل له ، فكأن الحق سبحانه يمنّي الفضل للعبد .

ومثال ذلك : الفلاح الذي يأخذ من مخزن غلاله إردباً من القمح ليبذره في الأرض ؛ ليزيده الله سبحانه وتعالى بزراعة هذا الإردب ، ويصبح الناتج خمسة عشر إردباً .

والفضل هو الأجر الزائد عن مساويه ، فمثلاً هناك فضل المال قد يكون عندك ، أي : زائد عن حاجتك ، وغيرك لا يملك مالاً يكفيه ، فإن تفضلت ببعض من الزائد عندك ، وأعطيته لمن لا مال عنده فأنت تستثمر هذا العطاء عند الله سبحانه وتعالى .

والحق سبحانه وتعالى قد يعطيك قوة ، فتعطى ما يزيد منها لعبد ضعيف .

وقد يكون الحق سبحانه قد أسبغ عليك فضلاً من الحلم ، فتعطى منه لمن أصابه السفه

وضيق الخلق .

إذن : فكل ما يوجد عند الإنسان من خصلة طيبة ليست عند غيره من الناس ، ويفيضها عليهم ، فهي تزيد عنده لأنها تربو عند الله ، وإن لم يُفِضْها على الغير فهي تنقص .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

(101/373)

﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم : 39] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى في الآية التي نحن بصدد خوطرنا عنها :

﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود : 3] .

وبعض من أهل المعرفة يفهم هذا القول الكريم بأن الإنسان الذي يفيض على غيره مما آتاه الله ، يعطيه الحق سبحانه بالزيادة ما يعوضه عن الذي نقص ، أو أنه سبحانه وتعالى يعطي كل صاحب فضلٍ فضل ربه ، وفضل الله تعالى فوق كل فضل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود : 3] .

فإن أعرضوا عنك فأبلغهم أنك تخاف عليهم من عذاب اليوم الآخر ، ويُوصف العذاب مرة بأنه كبير ، ويوصف مرة بأنه عظيم ، ويوصف مرة بأنه مهين ؛ لأنه عذاب لا ينتهي ويتنوع حسب ما يناسب المعذب ، فضلاً عن أن العذاب الذي يوجد في دنيا الأغيار هو عذاب يجري في ظل المظنة بأنه سينقضي ، أما عذاب اليوم الآخر فهو لا ينقضي بالنسبة للمشركين بالله أبداً .

ويقول الحق من بعد ذلك : ﴿ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾

أي : إلى الله مرجعكم في الإيجاد والإمداد ، والبداية والنهاية ، وبداية النهاية التي لا انتهاء معها وهي الآخرة ، فيثيب المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسيء على إساءته ، فيؤتي سبحانه لكل ذي عمل صالح في الدنيا أجره ، وثوابه في الآخرة .

ومن كثرت حسناته على سيئاته دخل الجنة ، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار

.

وفي الدنيا من زادت حسناته على سيئاته وعاش بين القبض والبسط .

والقبض والبسط هو إقبال على الله بتوبة وباعتراف بالذنب ، والإقرار بالذنب هو بداية التوبة .

ومن كثرت سيئاته على حسناته كان في ضنك العيش وقلق النفس .

ويؤتي الحق سبحانه كل ذي فضل فضله ، فمن عمل لله عز وجل ؛ وفقه الله فيما يستقبل على طاعته ، والذين أعرضوا يُخاف عليهم من عذاب يوم كبير .

﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [هود : 4] .

لأنه سبحانه القادر على الإيجاد وعلى الإمداد ، وعلى البداية والنهاية المحدودة ، وبداية الخلود إما إلى جنة وإما إلى نار ، فهو القادر على كل شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(103/373)

فائدة

قال التسترى :

قوله : ﴿ وَأَنِ استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ ﴾ [3] قال : الاستغفار هو الإجابة ، ثم الإنابة ثم التوبة ، ثم الاستغفار ؛ فالإجابة بالظاهر ، والإنابة بالقلب ، والتوبة مداومة الاستغفار من تقصيره فيها .

قوله : ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعاً حَسَناً ﴾ [3] قال : ترك الخلق والإقبال على الحق . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 78 ﴾

(104/373)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ الر كتاب أحكمت آياته ﴾ قال : هي كلها مكية محكمة يعني سورة هود ﴿ ثم فصلت ﴾ قال : ثم ذكر محمداً صلى الله عليه وسلم فحكم فيها بينه وبين من خالفه ، وقرأ مثل الفريقين الآية كلها ، ثم ذكر قوم نوح ، ثم قوم هود فكان هذا تفصيل ذلك وكان أوله محكماً . قال : وكان أبي رضي الله عنه يقول ذلك : يعني زيد بن أسلم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت ﴾ قال : أحكمت بالأمر والنهي ، وفصلت بالوعد

والوعيد .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ثم فصلت ﴾ قال : فسرت .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت ﴾ قال : أحكمها الله من الباطل ثم فصلها بعلمه فبين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته ، وفي قوله ﴿ من لدن حكيم ﴾ يعني من عند حكيم . وفي قوله ﴿ يمتعكم متاعاً حسناً ﴾ قال : فأنتم في ذلك المتاع فخذوه بطاعة الله ومعرفة حقه فإن الله منعم يحب الشاكرين ، وأهل الشكر في مزيد من الله وذلك قضاؤه الذي قضى ، وفي قوله ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ يعني الموت ، وفي قوله ﴿ ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ أي في الآخرة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ قال : ما احتسب به من ماله أو عمل بيديه أو رجليه أو كلامه ، أو ما تطوّل به من أمره كله .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ قال : يؤت كل ذي فضل في الإِسلام فضل الدرجات في الآخرة .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ قال : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات ، فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات ، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذت من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول : هلك من غلب آحاده أعشاره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(106/373)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ استغفروا ﴾ : فيها وجهان : أحدهما : أنه عطفٌ على " أنْ " الأولى سواءً كانت " لا " بعدها نفياً أو نهياً ، فتعودُ الأوجهُ المنقولةُ فيها إلى " أَنْ " هذه . والثاني : أن تكونَ منصوبةً على الإِغراء . قال الزمخشري في هذا الوجه : " ويجوز أن يكونَ كلاماً

مبتدأً منقطعاً عَمَّا قبلَه على لسان النبي صلى اللَّه عليه وسلم إغراءً منه على اختصاص اللَّه تعالى بالعبادة ، ويدل عليه قولُه : إني لكم منه نذيرٌ وبشير كأنه قال : تركَ عبادةَ غيرِ اللَّه إنني لكم منه نذيرٌ كقولِه تعالى : ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ [محمد : 4] .

قوله : ﴿ ثُمَّ توبوا ﴾ عطفٌ على ما قبلَه من الأمر بالاستغفار و " ثم " على بابِها من التراخي لأنه يستغفرُ أولاً ثم يتوبُ ويتجرَّدُ من ذلك الذنبِ المستغفَرِ منه . قال الزمخشري : " فإن قلتَ : ما معنى " ثم " في قوله ﴿ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ ﴾ ؟ قلت : معناه : استغفروا من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة ، أو استغفروا والاستغفارُ توبةٌ ثم أَخْلِصوا التوبةَ واستقيموا عليها كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ [الأحقاف : 13] . قلت : قوله : " أو استغفروا " إلى آخره يعني أن بعضَهم جَعَلَ الاستغفارَ والتوبةَ بمعنى واحد ، فلذلك احتاج إلى تأويل " توبوا " ب " أَخْلِصوا التوبة " .

قوله : ﴿ يُمَتِّعْكُمْ ﴾ جوابُ الأمر . وقد تقدَّم الخلافُ في الجازم : هل هو نفسُ الجملةِ الطلبية أو حرفُ شرطٍ مقدَّر . وقرأ الحسن وابن هرمز وزيد بن علي وابن محيصن " يُمْتِعْكم " بالتخفيف مِنْ أَمْتَعَ ، وقد تقدَّم أن نافعاً وابن عامر قرأ ﴿ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ﴾ [البقرة : 126] في البقرة بالتخفيف كهذه القراءة .

قوله : ﴿ مَّتَاعاً ﴾ في نصبه وجهان ، أحدهما : أنه منصوب على المصدرِ بحذفِ الزوائد ، إذ التقدير : تمتيعاً فهو كقوله : ﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرضِ نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] . والثاني : أنه ينتصبَ على المفعول به ، والمراد بالمتاعِ اسمُ ما يُتَمَتَّع به فهو كقولك : " متَّعْتُ زيداً أثواباً " .

قوله : ﴿ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ "كلَّ" مفعول أول ، و "فضلَه" مفعولٌ ثانٍ ، وقد تقدَّم للسهيلي خلافٌ في ذلك . والضمير في "فضله" يجوز أن يعودَ على اللَّه تعالى ، أي : يعطي كلَّ صاحب فضلٍ فضلَه ، أي : ثوابَه ، وأن يعودَ على لفظ كل ، أي : يعطي كلَّ صاحبِ فضلٍ جزاءَ فَضْلِهِ ، لا يَبْخَسُ منه شيئاً أي : جزاء عمله .

قوله : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ قرأ الجمهور "تَوَلَّوا" بفتح التاء والواو واللامِ المشددة ، وفيها احتمالان ، أحدهما : أن الفعلَ مضارعُ تَوَلَّى ، وحُذِف منه إحدى التاءين تخفيفاً نحو : تَنَزَّلُ ، وقد تقدَّم : أيتُهما المحذوفةُ ، وهذا هو الظاهر ، ولذلك جاء الخطاب في قوله " عليكم " . والثاني : أنه فعلٌ ماضٍ مسندٌ لضمير الغائبين ، وجاء الخطابُ على إضمار القول ، أي : فقل لهم : إني أخاف عليكم ، ولولا ذلك لكان التركيب : فإني أخاف عليهم .

وقرأ اليماني وعيسى بن عمر : " تُوَلُّوا " بضم التاء وفتح الواو وضم اللام ، وهو مضارعُ ولَّى كقولك زكَّى يزكِّي . ونقل صاحب " اللوامح " عن اليماني وعيسى : " وإن تُوُلُّوا " بثلاث ضمَّات مبنياً للمفعول . قلت : ولم يُبَيِّن ما هو ولا تصريفَه ؟ وهو فعلٌ ماضٍ ، ولما بُني للمفعول ضُمَّ أولُه على الفاعل ، وضُمَّ ثانيه أيضاً ؛ لأنه مفتتحٌ بتاءِ مطاوَعَةٍ/ وكلُّ ما افْتُتِح بتاءِ مطاوعةٍ ضُمَّ أولُه وثانيه ، وضُمَّت اللام أيضاً وإن كان أصلُها الكسرَ لأجل واو الضمير ، والأصل " تُوُلِّيُوا " نحو : تُدُحْرِجوا ، فاسْتُثْقِلت الضمةُ على الياء ، فحُذِفت فالتقى ساكنان ، فحُذِفت الياءُ لأنها أولهما ، فبقي ما قبل واوِ الضمير مكسوراً فَضُمَّ ليجانِسَ الضميرَ ، فصار وزنُه تُفُعُّوا بحَذْفِ لامِه ، والواوُ قائمةٌ مقامَ الفاعل .

وقرأ الأعرج " تُوْلُوا " بضم التاء وسكون الواو وضم اللام مضارعَ أَوْلَى ، وهذه القراءةُ لا يظهر لها معنى طائلٌ هنا ، والمفعولُ محذوفٌ يُقَدَّر لائقاً بالمعنى

و "كبير " صفةٌ ل " يوم " مبالغةً لما يقع فيه من الأهوال وقيل : بل "كبير " صفةٌ ل " عذاب " فهو منصوبٌ وإنما خُفِضَ على الجِوار كقولهم : " هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ " بجرِّ " خَرِبٍ " وهو صفةٌ ل " جُحر " وقولِ امرىء القيس :

2634 كأن ثَبِيراً في عَرانين وَبْله . . . كبيرُ أناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّل

بجر "مُزَمّل" وهو صفةٌ ل "كبيرُ" . وقد تقدَّمَ القولُ في ذلك مشبعاً في سورة المائدة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 281.284﴾

(109/373)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى متع)

مَتَع النهار يَمْتَع – كمنع يمنع – مُتُوعا : ارتفع .

والمانِع : الطويل من كل شىء .

وحَبْل ماتع : جيّد الفتل .

ونبيذ ماتع : شديد الحمرة .

وكل شىءٍ جيّد فهو ماتع .

والمتاع : السلعة ، والمتاع : المنفعة ، وما تمتَّعت به ، قال المسيَّب بن عَلَس :

*أَرحلتَ من سَلمَى بغير متاعِ * قبل العُطَاس ورُعتها بوَادع*

أَى قبل أَن ترى ما تكره .

وقال الليث : المتاع من أَمتعة البيت : ما يستمتع به الإِنسان فى حوائجه ، وكذلك كل شىء نحوه .

والدنيا متاع الغُرُور .

وقوله تعالى : ﴿ مَتَاعُ الْحَيَاةِ ﴾ أَى منفعتها التى لا تدوم ، وقال بعض العرب فى امرأَته يهجوها على كفران النعمة :

*لو جُمع الثُلاث والرُباع * وحِنطة الأَرض التى تُباع*

* لم تَرَهُ إِلاَّ هوَ المتاع *

الثُّلاث والرُّباع : أَحدهما كيل معلوم والآخر وزن معلوم ، يقول : لو جمع لها جميع ما يكال أَو يوزن لم تره هذه المرأَة إِلاَّ / مُتْعة قليلة .

وقولُه تعالى : ﴿ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ ﴾ ، أَى ذهب أَو فضة ، (أَوْ مَتَاع) أَى حديد وصُفْر ونحاس ورصاص .

والمتْعَة والمِتْعة – بالضم والكسر – : ما يُتبلَّغ به من الزاد ، والجمع : مُتَع ومِتَع ، كغُرَف وكِسَر .

ومتعة المرأَة إِذا طلَّقها زوجها متَّعها متعة فوصلها بشىءٍ من غير أَن يكون له لازماً ولكن سُنَّة ، ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ ﴾ .

ومتعة التزوّج : كان الرجل يتزوّج المرأَة يتمتَّع بها أَيّاماً ثم يخلِّى سبيلها ؛ وكان ذلك بمكَّة حين حجّ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ثلاثة أَيام ، ثم حرّمها الله إلى يوم القيامة .

كان الرجل يشارط المرأَة شَرْطاً على شىء بأَجل معلوم ، ويعطيها شيئاً فيستحل بذلك فرجها ، ثم يخلِّى سبيلها من غير تزوج ولا طلاق .

والمتعة فى الحج : أَن يضمّ الرجل عمرة إلى حِجّة .

(110/373)

والمُتْعة والمَتَاع : اسمان يقومان مقام المصدر الحقيقىّ ، وهو التمتيع .

وأَمتعه الله بكذا أَى متَّعه .

وقال أَبو زيد : أَمْتَعت بالشىء أَى تمتَّعت به .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ﴾ بالتخفيف .

وهى قراءَة ابن عامر ، أَى فأُؤخّره .

ومتَّع الشىء تمتيعاً طوّله .

ومتَّعه الله بكذا ، أَى أَبقاه وأَنسأَه إلى أَن ينتهى شبابه ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَى يُبْقِكم بقاء فى عافية إلى

وقت وفاتكم ، ولا يستأْصلكم بالعذاب كما استأْصل أَهل القرى الذين كفروا .

وقيل يعمّركم .

والتمتيع : التعمير .

ومثله قوله تعالى : ﴿ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ وقوله : ﴿ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ﴾ ، وهى قراءة مَن سوى ابن عامر ، أَى فأُؤخّره .

واستمتعت بالشىءِ وتمتَّعت بمعنى .

وقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ ﴾ ، قال الفرَّاءُ : رَضُوا بنصيبهم فى الدنيا مِن أَنصبائهم فى الآخرة ، وفعلتم أَنتم كما فعلوا ؛ ونحو ذلك قال الزجَّاج .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ ﴾ أَى انتفعتم به من وطئهن .

وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ﴾ يَقول : تردَّدوا ، وقيل : عِيشوا عَيْشاً صحيحاً ثلاثة أَيَّام ، وهذا الأَمر وعيد .

والله أَعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ تنبيهٌ على أَن لكل إِنسان من الدنيا تمتُّع مدّة معلومة .

وقوله : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ تنبيه أَن ذلك فى جنب الآخرة غير معتدّ به .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ ﴾ أَى طعامهم ، وقيل : وعاءَهم ، وكلاهما متاع ، وهما متلازمان ؛ فإِن الطعام كان فى الوعاءِ .

(111/373)

وكل موضع فى القرآن ذكر [فيه] تمتَّعوا فى الدنيا فإِنما هو على طريق التهدّد ، وذلك لما فيه من معنى التوسّع . والله أَعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 477 . 479 ﴾

(112/373)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ .

استغفروا ربّكم أولاً ثم توبوا إليه بعده .

والاستغفار طلب المغفرة ، يعني قبل أن تتوبوا اطلبوا منه المغفرة بحسن النَّظرة ، وحَمْل

الرجاء والثقة بأنه لا يُخَلِّد العاصِيَ في النار ، فلا محالةَ يُخْرِجُه منها . . . فابْتَدِثوا باستغفاركمْ ، ثم توبوا بِتَرْكِ أوزاركم ، والتَنَقّي عن إصراركم .

ويقال استغفروا في الحال مما سلف ، ثم إنْ أَلْمَمْتُم بزِلَّةٍ أخرى فتوبوا .

ويقال استغفروا في الحال ثم لا تعودوا إلى ارتكاب الزلة فاستديموا التوبة – إلى ما لِكم – مما أسلفتم من قبيح أعمالكم .

ويقال : ﴿ اسْتَغْفِرُوا ﴾ : الاستغفار هو التوبة ، والتنقي من جميع الذنوب ، ثم " توبوا " منْ تَوَهُّم أنكم تُجابُون بتوبتكم ، بل اعلموا أنه يُجيبكم بِكَرَمِه لا بأعمالكم .

ويقال " الاستغفار " : طَلَبُ حظوظكم مِنْ عَفونا . . فإذا فعلْتُم هذا فتوبوا عن طلب كل حظ ونصيب ، وارجعوا إلينا ، واكتفوا بنا ، راضين بما تحوزونه من التجاوز عنكم أو غير ذلك مما يخرجكم به .

قوله جلّ ذكره ﴿ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمّىً ﴾ .

أي نُعَيِّشكم عيشاً طيباً حسناً مباركاً .

ويقال هو إعطاء الكفاية مع زوال الحرص .

ويقال هو القناعة بالموجود .

ويقال هو ألا يخرجَه إلى مخلوق ، ولا يجعل لأحد عليه مِنَّةً لا سيما للئيم .

ويقال هو أن يوفقه لاصطناع المعروف إلى المستحقين .

ويقال هو أن تُقْضَى على يديه حوائج الناس .

ويقال هو ألا يُلِمَّ في حال شبابه بزَلَّةٍ ، وألا يتصفَ بأنه عن الله في غفلة .

ويقال هو أن يكون راضياً بما يجري عليه من نَوْعَي العسر واليسر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ .

(113/373)

مَنْ زادتْ حسناتُه على سيئاتِه أعطاه جزاءَ ما فَضَلَ له من الطاعات ، ومن زادت سيئاته على حسناته كافأه بما يستوجبه من زيادة السيئات . . . هذا بيان التفسير .

ويقال مَنْ فَضَّلَه بحسن توفيقه أوصله إلى ما يستوجبه من لطفه ويزيده . .

ويقال هو أن يستر عليه فضلَه حتى لا يلاحظ حالَه ومقامه ، بل ينظر إلى نفسه ، وما منه ومَا له . . . بعَيْن الاستحقار والاستصغار .

ويقال هو أن يرقيه عن التعريج في أوطان البشرية إلى طاعات شهود الأحدية ، ويُنقيّه عن (. . . . .) البشرية ، والتكدر بما يبدو من مفاجآت التقدير .

ويقال هو ألا يُوحِشَه شيء بما يجري في الوقت .

ويقال هو أن يُحَقِّقَ له ما تسمو إليه هِمَّتُه ، ويُبَلِّغَه فوق ما يستوجبه محلَّه .

﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4) ﴾

تنقطع الدعاوى عند الرجوع إلى الله ، وتنتفي الظنونُ ، ويحصل اليأسُ مِنْ غير الله بكل وجه ، ويبقى العبدُ بنعتِ الاضطرار ، والحقُّ يُجْرِي عليه ما سَبَقَتْ به القسمة من أنواع الأقدار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 121.123 ﴾

(114/373)

قوله تعالى ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقدم من التخويف والإطماع ما هو مظنة لإقبالهم ورهبهم على التولي بخصوصه ، فكان موضع أن يقال : هل أقبلوا ؟ فقيل : لا قال مبيناً أن التولي باطناً كالتوالي ظاهراً لأن الباطن هو العمدة ، مؤكداً لأنه امر لا يكاد أن يصدق ، والتأكيد أقعد في تبكيتهم : ﴿ ألا إنهم ﴾ أي الكفار المعاندين ﴿ يثنون صدورهم ﴾ أي يطوونها وينحرفون عن الحق على

غل من غيرِ إقبال لأن من أقبل على الشيء عليه بصدره ﴿ ليستخفوا منه ﴾ أي يريدون أن يوجدوا إخفاء سرهم على غاية ما يكون من أمره .

فإن كان مرادهم بالثني الاستتار من الله تعالى فالأمر في عود الضمير إليه سبحانه واضح ، وإن كان من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالاستخفاء منه استخفاء ممن أرسله ، ثم أعلم أن ذلك غير مغن عنهم لأنه يعلم سرهم وعلنهم في أخفى أحوالهم عندهم ، وهو حين استغشاهم ثيابهم ، فيغطون الوجوه التي تستقر عن بعض ما في القلوب للمتوسمين فقال : ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم ﴾ أي يوجدون غشيانها أي تغطيتها لرؤوسهم ، لاستخفاء كراهية لسماع كلام الله وأخبار رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ يعلم ما يسرون ﴾ أي يوقعون إسراره في أيّ وقت كان ومن أيّ نوع كان من غير بطء لتدبر أو تأمل ، ولما لم يكن بين علم السر والعلن ملازمة لاختصاص العلن بما يكون لغيبة أو اختلاف بأصوات ولفظ أو اختلاف لغة ونحو ذلك قال تصريحاً : ﴿ وما يعلنون ﴾ أي يوقعون إعلانه لا تفاوت في علمه بين إسرار وإعلان ، فلا وجه لاستخفائهم نفاقاً ، فإن سوق نفاقهم غير نافق عنده سبحانه .

ثم علله بما هو أدق من ذلك كله مع شموله للنوعين فقال : ﴿ إنه عليم ﴾ أي بالغ العلم جداً ﴿ بذات الصدور ﴾ أي بضمائر قلوبهم التي في دواخل صدورهم التي يثنونها من قبل أن يقع لهم إضمارها ، بل من قبل أن يخلقهم ؛ وأصل الثني العطف ، ومنه الاثنان – لعطف

أحدهما على الآخر ، والثناء – لعطف المناقب في المدح.

ولهذا لما قال العبد في الفاتحة ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ بعد الحمد قال الله تعالى : أثنى عليّ عبدي – كما في حديث " قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين " و الاستثناء – لعطف الثاني على الأول بالاستخراج منه ؛ والاستخفاء : طلب خفاء الشيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 503.504 ﴾

(115/373)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا ﴾ يعني عن عبادته وطاعته ﴿ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود : 3] بين بعده أن التولي عن ذلك باطناً كالتولي عنه ظاهراً فقال : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ ﴾ يعني الكفار من قوم محمد صلى الله عليه وسلم يثنون صدورهم ليستخفوا منه .

واعلم أنه تعالى حكى عن هؤلاء الكفار شيئين : الأول : أنهم يثنون صدورهم يقال : ثنيت

الشيء إذا عطفته وطويته ، وفي الآية وجهان :

الوجه الأول : روي أن طائفة من المشركين قالوا : إذا أغلقنا أبوابنا وأرسلنا ستورنا ، واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد ، فكيف يعلم بنا ؟ وعلى هذا التقدير : كان قوله : ﴿ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ كناية عن النفاق ، فكأنه قيل : يضمرون خلاف ما يظهرون ليستخفوا من الله تعالى ، ثم نبه بقوله : ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ على أنهم يستخفون منه حين يستغشون ثيابهم .

الوجه الثاني : روي أن بعض الكفار كان إذا مر به رسول الله ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه ، والتقدير كأنه قيل : إنهم يتصرفون عنه ليستخفوا منه حين يستغشون ثيابهم ، لئلا يسمعوا كلام رسول الله وما يتلو من القرآن ، وليقولوا في أنفسهم ما يشتهون من الطعن .

وقوله : ﴿ ألا ﴾ للتنبيه ، فنبه أولاً على أنهم ينصرفوا عنه ليستخفوا ثم كرر كلمة ﴿ ألا ﴾ للتنبيه على ذكر الاستخفاء لينبه على وقت استخفائهم ، وهو حين يستغشون ثيابهم ، كأنه قيل : ألا إنهم ينصرفون عنه ليستخفوا من الله ، ألا إنهم يستخفون حين يستغشون ثيابهم .

ثم ذكر أنه لا فائدة لهم في استخفائهم بقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 148 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾

فيه خمسة أقاويل :

أحدها : يثنون صدورهم على الكفر ليستخفوا من الله تعالى ، قاله مجاهد . الثاني : يثنونها على عداوة النبي صلى الله عليه وسلم ليخفوها عنه ، قاله الفراء والزجاج .

الثالث : يثنونها على ما أضمروه من حديث النفس ليخفوه عن الناس ، قاله الحسن . الرابع : أن المنافقين كانوا إذا مرّوا بالنبي صلى الله عليه وسلم غطوا رؤوسهم وثنوا صدورهم ليستخفوا منه فلا يعرفهم ، قاله أبو رزين .

الخامس : أن رجلاً قال إذا أغلقت بابي وضربت ستري وتغشيت ثوبي وثنيت صدري فمن يعلم بي ؟ فأعلمهم الله تعالى أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون .

﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ يعني يلبسون ثيابهم ويتغطون بها ، ومنه قول الخنساء :

أرعى النجوم وما كُلِّفتُ رعيتها . . . وتارةً أتغشّى فضل أطماري

وفي المراد ب ﴿ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ أربعة أقاويل :

أحدها : الليل يقصدون فيه إخفاء أسرارهم فيما يثنون صدورهم عليه . والله تعالى لا يخفى عليه ما يسرونه في الليل ولا ما يخفونه في صدروهم ، فكنى عن الليل باستغشاء ثيابهم لأنهم يتغطون بظلمته كما يتغطون إذا استغشوا ثيابهم .

الثاني : أن قوماً من الكفار كانوا لشدة بغضتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يستغشون ثيابهم يغطون بها وجوههم ويصمون بها آذنهم حتى لا يروا شخصه ولا يسمعوا كلامه ، وهو معنى قول قتادة .

الثالث : أن قوماً من المنافقين كانوا يظهرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم بألسنتهم أنهم على طاعته ومحبته ، وتشتمل قلوبهم على بغضه ومعصيته ، فجعل ما تشتمل عليه قلوبهم كالمستغشي بثيابه .

الرابع : أن قوماً من المسلمين كانوا يتنسكون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء ، فبين الله تعالى أن المنسك ما اشتملت قلوبهم عليه من معتقد وما أظهروه من قول وعمل .

(117/373)

ثم بيَّن ذلك فقال : ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ما يسرون في قلوبهم وما يعلنون بأفواههم .

الثاني : ما يسرون من الإيمان وما يعلنون من العبادات .

الثالث : ما يسرون من عمل الليل وما يعلنون من عمل النهار ، قاله ابن عباس .

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ قيل بأسرار الصدور . قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق الثقفي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(118/373)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ألا إِنهم يثنون صدورهم ﴾

في سبب نزولها خمسة أقوال :

أحدها : أنها نزلت في الأخنس بن شريق ، وكان يجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحلف إِنه ليحبّه ، ويضمر خلاف ما يُظهر له ، فنزلت فيه هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنها نزلت في ناس كانوا يستحيون أن يُفضوا إِلى السماء في الخلاء ومجامعة النساء ، فنزلت فيهم هذه الآية رواه محمد بن عباد عن ابن عباس .

والثالث : أنها نزلت في بعض المنافقين ، كان إِذا مرَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثنى

صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه لئلا يراه رسول الله ، قاله عبد الله بن شداد .

والرابع : أن طائفة من المشركين قالوا : إذا أغلقنا أبوابنا وأرخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد صلى الله عليه وسلم ، كيف يعلم بنا ؟ فأخبر الله عما كتموا ، ذكر زجاج .

والخامس : أنها نزلت في قوم كانوا لشدة عداوتهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم إذا سمعوا منه القرآن حنَوا صدورهم ، ونكسوا رؤوسهم ، وتغشوا ثيابهم ليبعد عنهم صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يدخل أسماعهم شيء من القرآن ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ يثنون صدورهم ﴾ يقال : ثنيت الشيء : إذا عطفته وطويته .

وفي معنى الكلام خمسة أقوال :

أحدها : يكتمون ما فيها من العداوة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : يثنون صدورهم على الكفر ، قاله مجاهد .

والثالث : يحنونها لئلا يسمعوا كتاب الله ، قاله قتادة .

والرابع : يثنونها إذا ناجى بعضهم بعضاً في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن زيد .

والخامس : يثنونها حياءً من الله تعالى ، وهو يخرَّج على ما حكينا عن ابن عباس .

قال ابن الأنباري : وكان ابن عباس يقرؤها "ألا إِنهم تَثْنَوْني صدورُهم" وفسرها أن ناساً كانوا يستحيون أن يُفضوا إِلى السماء في الخلاء ومجامعة النساء .

(119/373)

فَتَثْنَوْنِي : تفْعَوْعِلُ ، وهو فعل للصدور ، معناه : المبالغة في تثني الصدور ، كما تقول العرب : احلولى الشيء ، يحلَولي : إِذا بالغوا في وصفه بالحلاوة ، قال عنترة :

ألا قَاتَلَ اللهُ الطُّلُولَ البَوَالِيَا . . .

وقَاتَلَ ذِكْرَاكَ السنينَ الخَوَالِيَا

وقَوْلَكِ لِلشَّيْءِ الَّذِي لا تَنَالُهُ . . .

إِذا ما هُوَ احْلَوْلَى ألا لَيْتَ ذا ليا

فعلى هذا القول ، هو في حق المؤمنين ، وعلى بقية الأقوال ، هو في حق المنافقين .

وقد خُرِّج من هذه الأقوال في معنى ﴿ يثنون صدورهم ﴾ قولان :

أحدهما : أنه حقيقة في الصدور .

والثاني : أنه كتمان ما فيها .

قوله تعالى : ﴿ ليستخفوا منه ﴾ في هاء "منه" قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى الله تعالى .

والثاني : إلى رسوله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم ﴾ قال أبو عبيدة : العرب تدخل "ألا" توكيداً وإيجاباً وتنبيهاً .

قال ابن قتيبة : "يستغشون ثيابهم" أي : يتغشّونها ويستترون بها .

قال قتادة : أخفى ما يكون ابن آدم ، إذا حنى ظهره ، واستغشى ثيابه ، وأضمر همّه في نفسه .

قال ابن الأنباري : أعلم الله أنه يعلم سرائرهم كما يعلم مظهراتهم .

قوله تعالى : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ وقد شرحناه في [آل عمران : 119] .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(120/373)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾

أخبر عن معاداة المشركين للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ويظنون أنه تخفى على الله

أحوالهم .

﴿ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ أي يطوونها على عداوة المسلمين ففيه هذا الحذف ، قال ابن عباس : يخفون ما في صدورهم من الشَّحناء والعداوة ، ويظهرون خلافه .

نزلت في الأخنس بن شِريق ، وكان رجلاً حُلو الكلام حُلو المنطق ، يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب ، وينطوي له بقلبه على ما يسوء .

وقال مجاهد : ﴿ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ شكّاً وامتراء .

وقال الحسن : يثنونها على ما فيها من الكفر .

وقيل : نزلت في بعض المنافقين ، كان إذا مرّ بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ثَنَى صدره وظهره ، وطأطأ رأسه وغطّى وجهه ، لكيلا يراه النبيّ صلى الله عليه وسلم فيدعوه إلى الإيمان ؛ حكى معناه عن عبد الله بن شدّاد فالهاء في ﴿ مِنْهُ ﴾ تعود على النبي صلى الله عليه وسلم .

وقيل : قال المنافقون إذا غلقنا أبوابنا ، واستغشينا ثيابنا ، وثَنَينا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا ؟ فنزلت الآية .

وقيل : إن قوماً من المسلمين كانوا يَتَنَسَّكون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء ، فبيّن الله تعالى أن التَّنَسك ما اشتملت عليه قلوبهم من معتقد ، وأظهروه من قول وعمل .

وروى ابن جرير عن محمد بن عبّاد بن جعفر قال : سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول

: "أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنُونِي صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ" قال : كانوا لا يجامعون النساء ، ولا يأتون الغائط وهم يُفضون إلى السماء ، فنزلت هذه الآية .

وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس : "أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوِي صُدُورُهُمْ" بغير نون بعد الواو ، في وزن تنطوي ؛ ومعنى "تَثنوِي" والقراءتين الأخريين متقارب ؛ لأنها لا تَثْنوِي حتى يَثْنوها .

(121/373)

وقيل : كان بعضهم ينحني على بعض يسارّه في الطّعن على المسلمين ، وبلغ من جهلهم أن توهموا أن ذلك يخفى على الله تعالى .

"لِيَسْتَخْفُوا" أي ليتواروا عنه ؛ أي عن محمد أو عن الله .

﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ أي يُغطُّون رؤوسهم بثيابهم .

قال قَتَادة : أخفى ما يكون العبد إذا حَنَى ظهره ، واستغشى ثوبه ، وأضمر في نفسه هَمّه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(122/373)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ﴾

قال ابن عباس : نزلت في الأخنس بن شريق وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر وكان يلقى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بما يحب وينطوي بقلبه على ما يكره فنزلت ألا إنهم يثنون صدورهم يعني يخفون ما في صدورهم من الشحناء والعداوة من ثنيت الثوب إذا طويته .

وقال عبد الله بن شداد بن الهاد : نزلت في بعض المنافقين كان إذا مر برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كي لا يراه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقال قتادة : كانوا يحنون صدورهم كي لا يسمعوا كتاب الله تعالى ولا ذكره وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخي ستره ويحني ظهره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله ما في قلبي ، وقال السدي : يثنون صدورهم أي يعرضون بقلوبهم من قولهم ثنيت عناني ﴿ ليستخفوا منه ﴾ يعني من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال مجاهد من الله إن استطاعوا ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم ﴾ يعني يغطون رؤوسهم بثيابهم ﴿ يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ ومعنى الآية على ما قاله الأزهري : إن

الذين أضمروا عداوة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا يخفى علينا حالهم في كل حال وقد نقل عن ابن عباس غير هذا التفسير وهو ما أخرجه البخاري في إفراده عن محمد بن عياش بن جعفر المخزومي أنه سمع ابن عباس يقرأ : ألا إنهم يثنون صدورهم ، قال : فسألته عنها فقال كل أناس يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(123/373)

وقال أبو حيان :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾

نزلت في الأخنس بن شريق ، كان يجالس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويحلف أنه ليحبه ويضمر خلاف ما يظهر قاله ابن عباس .

وعنه أيضاً : في ناس كانوا يستحيون أن يفضوا إلى السماء في الخلاء ومجامعة النساء .

وقيل : في بعض المنافقين ، كان إذا مر بالرسول (صلى الله عليه وسلم) ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كي لا يرى الرسول قاله : عبد الله بن شدّاد .

وقيل : في طائفة قالوا إذا أغلقنا أبوابنا ، وأرخينا ستورنا ، واستغشينا ثيابنا ، وثنينا

صدورنا ، على عداوته كيف يعلم بنا ؟ ذكره الزجاج .

وقيل : فعلوا ذلك ليبعد عليهم صوت الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولا يدخل أسماعهم القرآن ذكره ابن الأنباري .

ويثنون مضارع ثنى قراءة الجمهور .

وقرأ سعيد بن جبير : يثنون بضم الياء مضارع أثنى صدورهم بالنصب .

قال صاحب اللوامح : ولا يعرف الاثناء في هذا الباب إلا أن يراد به وجدتها مثنية مثل أحمدته وأمجدته ، ولعله فتح النون وهذا مما فعل بهم ، فيكون نصب صدورهم بنزع الجار ، ويجوز على ذلك أن يكون صدورهم رفعاً على البدل بدل البعض من الكل .

وقال أبو البقاء : ماضية أثنى ، ولا يعرف في اللغة إلا أن يقال معناه : عرضوها للاثناء ، كما يقال : أبعت الفرس إذا عرضته للبيع .

وقرأ ابن عباس ، وعلي بن الحسين ، وابناه زيد ومحمد ، وابنه جعفر ، ومجاهد ، وابن يعمر ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن ابزي ، والجحدري ، وابن أبي إسحاق ، وأبو الأسود الدؤلي ، وأبو رزين ، والضحاك : تثنوني بالتاء مضارع اثنوني على وزن افعوعل نحو اعشوشب المكان صدورهم بالرفع ، بمعنى تنطوي صدورهم .

وقرأ أيضاً ابن عباس ، ومجاهد ، وابن يعمر ، وابن أبي إسحاق : يثنوني بالياء صدورهم بالرفع ، ذكر على معنى الجمع دون الجماعة .

وقرأ ابن عباس أيضاً ليثنون بلام التأكيد في خبر إنْ ، وحذف الياء تخفيفاً وصدورهم رفع .

وقرأ ابن عباس أيضاً ، وعروة ، وابن أبي أبزي ، والأعشى : يثنون ووزنه يفعوعل من الثن ، بنى منه افعوعل وهو ما هش وضعف من الكلأ ، وأصله يثنونن يريد مطاوعة نفوسهم للشيء ، كما ينثني الهش من النبات .

أو أراد ضعف إيمانهم ومرض قلوبهم وصدورهم بالرفع .

وقرأ عروة ومجاهد أيضاً : كذلك إلا أنه همز فقرأ يثنئن مثل يطمئن ، وصدورهم رفع ، وهذه مما استثقل فيه الكسر على الواو كما قيل : أشاح .

وقد قيل أن يثنئن يفعئل من الثن .

المتقدّم ، مثل تحمارّ وتصفارّ ، فحركت الألف لالتقائهما بالكسر ، فانقلبت همزة .

وقرأ الأعشى : يثنؤون مثل يفعلون مهموز اللام ، صدورهم بالنصب .

قال صاحب اللوامح : ولا أعرف وجهه لأنه يقال : ثنيت ، ولم أسمع ثنأت .

ويجوز أنه قلب الياء ألفاً على لغة من يقول : أعطأت في أعطيت ، ثم همز على لغة من يقول :

﴿ ولا الضالين ﴾ وقرأ ابن عباس : يثنوي بتقديم الثاء على النون ، وبغير نون بعد الواو على وزن ترعوي .

قال أبو حاتم : وهذه القراءة غلط لا تتجه انتهى .

وإنما قال ذلك لأنه لاحظ الواو في هذا الفعل لا يقال : ثنوته فانثوى كما يقال : رعوته أي كففته فارعوى فانكف ، ووزنه أفعل .

وقرأ نضير بن عاصم ، وابن يعمر ، وابن أبي إسحاق : يثنون بتقديم النون على الثاء ، فهذه عشر قراآت في هذه الكلمة .

والضمير في أنهم عائد على بعض من بحضرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الكفار أي : يطوون صدورهم على عدواته .

قال الزمخشري : يثنون صدورهم يزوّرون عن الحق وينحرفون عنه ، لأنّ من أقبل على الشيء استقبله بصدره ، ومن ازورّ عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه ليستخفوا منه ، يعني : ويريدون ليستخفوا من الله ، فلا يطلع رسوله والمؤمنين على ازورارهم .

ونظير إضمار يريدون ، لعود المعنى إلى إضماره الإضمار في قوله تعالى : ﴿ أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ﴾ معناه : فضرب فانفلق .

ومعنى ألا حين : يستغشون ثيابهم ويريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم أيضاً كراهة لاستماع كلام الله كقول نوح عليه السلام : ﴿ جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم ﴾ انتهى .

فالضمير في منه على قوله عائد على الله ، قال ابن عطية : وهذا هو الأفصح الأجزل في المعنى انتهى .

ويظهر من بعض أسباب النزول أنه عائد على الرسول (صلى الله عليه وسلم) كما قال ابن عطية .

قال : قيل : إنّ هذه الآية نزلت في الكفار الذين كانوا إذا لقيهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تطامنوا وثنوا صدورهم كالمتستر ، وردّوا إليه ظهورهم ، وغشوا وجوههم بثيابهم تباعداً منهم وكراهية للقائه ، وهم يظنون أنّ ذلك يخفى عليه أو عن الله تعالى فنزلت الآية انتهى .

فعلى هذا يكون ليستخفوا متعلقاً بقوله : يثنون ، وكذا قال الحوفي .

وقيل : هي استعارة للغل ، والحقد الذي كانوا ينطوون عليه كما تقول : فلان يطوي كشحه على عداوته ، ويثني صدره عليها ، فمعنى الآية : ألا إنهم يسرون العداوة ويتكتمون لها ،

ليخفي في ظنهم عن الله عز وجل ، وهو تعالى حين تغشيهم بثيابهم وإبلاغهم في التستر يعلم ما يسرون انتهى .

فعلى هذا يكون حين معمولاً لقوله : يعلم ، وكذا قاله الحوفي لا للمضمر الذي قدره الزمخشري وهو قوله : ويريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم .

وقال أبو البقاء : ألا حين العامل في الظرف محذوف أي : ألا حين يستغشون ثيابهم يستخفون ، ويجوز أن يكون ظرفاً ليعلم .

وقيل : كان بعضهم ينحني على بعض ليساره في الطعن على المسلمين ، وبلغ من جهلهم أنّ ذلك يخفى على الله تعالى .

قال قتادة : أخفى ما يكون إذا حتى ظهره واستغشى ثوبه ، وأضمر في نفسه همته .

وقال مجاهد : يطوونها على الكفر .

وقال ابن عباس : يخفون ما في صدورهم من الشحناء .

(126/373)

وقال قتادة : يخفون ليسمعوا كلام الله .

وقال ابن زيد : يكتمونها إذا ناجى بعضهم بعضاً في أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل : يثنونها حياءً من الله تعالى ، ومعنى يستغشون : يجعلونها أغشية .

ومنه قول الخنساء :

أرعى النجوم وما كلفت رعيتها . . .

وتارة أتغشى فضل أطماري

وقيل : المراد بالثياب الليل ، واستعيرت له لما بينهما من العلاقة بالستر ، لأن الليل يستر كما تستر الثياب ومنه قولهم : الليل أخفى للويل ، وقرأ ابن عباس : على حين يستغشون .

قال ابن عطية : ومن هذا الاستعمال قول النابغة :

على حين عاتبت المشيب على الصبا . . .

وقلت ألما أصح والشيب وازع

انتهى .

وقال ابن عباس : ما يسرون بقلوبهم ، وما يعلنون بأفواههم .

وقيل : ما يسرون بالليل وما يعلنون بالنهار .

وقال ابن الأنباري : معناه أنه يعلم سرائرهم كما يعلم مظهرانهم .

وقال الزمخشري : يعني أنه لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم ، فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء والله مطلع على ثنيهم صدورهم ، واستغشائهم بثيابهم ، ونفاقهم غير نافق عنده .

وقال صاحب التحرير : الذي يقتضيه سياق الآية أنه أراد بما يسرون ما انطوت عليه صدورهم من الشرك والنفاق والغل والحسد والبغض للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ، لأنّ ذلك كله من أعمال القلوب ، وأعمال القلوب خفيه جدًّا ، وأراد بما يعلنون ما يظهرونه من استدبارهم النبي (صلى الله عليه وسلم) وتغشية ثيابهم ، وسدّ آذانهم وهذه كلها أعمال ظاهرة لا تخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(127/373)

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾

يزْورُّون عن الحق وينحرفون عنه أي يستمرون على ما كانوا عليه من التولّي والإعراض لأن مَنْ أعرض عن شيء ثنى عنه صدرَه وطوى عنه كشحَه ، وهذا معنىً جزْلٌ مناسبٌ لما سبق ، وقد نحا نحوَه العلامةُ الزَّمَخْشَريُّ ولكن حيث لم يصلُح التولي سبيلاً للاستخفاء في قوله عز وجل : ﴿ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ﴾ التَجأ إلى إضمار الإرادةِ حيث قال : ويريدون ليستخفوا من الله تعالى فلا يُطْلِعَ رسولَه والمؤمنين على إعراضهم ، وجعلُه في قَوْد المعنى إليه من قبيل الإضمارِ في قوله تعالى : ﴿ اضرب بّعَصَاكَ البحر فانفلق ﴾ أي فضرب

فانفلق ، ولا يخفى أن انسياقَ الذهنِ إلى توسيط الإرادةِ بين ثنْيِ الصدورِ وبين الاستخفاءِ ليس كانسياقِه إلى توسيط الضربِ بين الأمرِ به وبين الانفلاقِ ، ولعل الأظهرَ أن معناه يعطِفون صدورَهم على ما فيها من الكفر والإعراضِ عن الحق وعداوةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بحيث يكون ذلك مخفياً مستوراً فيها كما تُعطف الثيابَ على ما فيها من الأشياء المستورةِ ، وإنما لم يذكرْ ذلك استهجاناً بذكره أو إيماءً إلى أن ظهورَه مغنٍ عن ذكره أو ليذهبَ ذهنُ السامعِ إلى كل ما لا خيرَ فيه من الأمور المذكورةِ ، فيدخلُ فيه ما ذكر من تولّيهم عن الحق الذي أُلقيَ إليهم دخولاً أولياً ، فحينئذ يظهر وجهُ كونِ ذلك سبباً للاستخفاء ، ويؤيده ما رُوي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنها نزلت في الأخنس بنِ شُرَيقٍ وكان رجلاً حلوَ المنطِق حسنَ السياقِ للحديث يُظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم المحبةَ ويُضمِرُ في قلبه ما يضادُّها وقال ابن شداد إنها نزلتْ في بعض المنافقين كان إذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدرَه وظهرَه وطأطأ رأسَه وغطَّى وجهَه كيلا يراه النبيُّ صلى الله عليه وسلم فكأنه إنما كان يصنع ما يصنع لأنه رآه النبيُّ صلى الله عليه وسلم لم يمكِنْه التخلّفُ عن حضور مجلِسه والمصاحبةِ معه ، وربما يؤدّي ذلك إلى

ظهور ما في قلبه من الكفر والنفاقِ ، وقرىء يَثْنَوْني صدورُهم بالياء والتاء من اثنونى افعوعل من الثَّني كاحلولي من الحلاوة ، وهو بناءُ مبالغةٍ ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما لَتَثْنَوني ، وقرىء تثنون وأصله تَثَّنُونُ من تفْعَوعِلُ من الثِّنِّ وهو ما هشّ من الكلأ وضعُف يريد مطاوعةَ صدورِهم للثني كما يثنى الهشُّ من النبات ، أو أراد ضعفَ إيمانِهم ورَخاوةَ قلوبِهم ، وقرىء تثْنِئنّ من اثنانّ افعالَّ منه ثم همزٌ ، كما قيل : ابياضّت وادهامّت وقرىء تثْنوِي بون ترعوي .

﴿ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ أي يتغطَّوْن بها للاستخفاء على ما نقل عن ابن شداد ، أو حين يأوون إلى فُرُشِهم ويتدثّرون بثيابهم فإن ما يقع حينئذٍ حديثُ النفس عادةً ، وقيل : كان الرجلُ من الكفار يدخُل بيته ويُرخي سِتره ويحْني ظهرَه ويتغشّى بثوبه ويقول : هل يعلم الله ما في قلبي ؟ ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ أي يُضمِرون في قلوبهم ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي يستوي بالنسبة إلى علمه المحيطِ سِرُّهم وعلنُهم فكيف يخفى عليه ما عسى يُظهرونه وإنما قدم السرُّ على العلن نعياً عليهم من أول الأمر ما صنعوا وإيذاناً بافتضاحهم ووقوعِ ما يحذَرونه وتحقيقاً للمساواة بين العِلْمين على أبلغ وجهٍ فكأن علمَه بما يسّرونه أقدمُ منه بما يعلنونه ، ونظيرُه قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ ﴾ حيث قدّم فيه الإخفاءُ على الإبداء على عكس ما وقع في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ ﴾ إذ لم يتعلق بإشعار أن المحاسبةَ بما يُخفونه أولى منها بما يُبْدونه غرضٌ ، بل الأمرُ بالعكس ، وأما هاهنا فقد تعلق بإشعار كونِ تعلقِ علمِه تعالى بما يُسرّونه أولى منه بما يعلنونه غرضٌ مُهِمٌّ مع كونهما على السوية ، كيف لا وعلمُه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصولِ الصورةِ بل وجودُ كلِّ شيءٍ في نفسه علمٌ بالنسبة إليه تعالى ، وفي هذا المعنى لا يختلف الحالُ بين الأشياء البارزةِ والكامنةِ ، وأما قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ فحيث كان وارداً بصدد الخطابِ مع الملائكة عليهم السلام المنزهِ مقامُهم عن اقتضاء التأكيدِ والمبالغةِ في الإخبار بإحاطة علمِه تعالى بالظاهر والباطن لم يُسلَكْ فيه ذلك المسلكُ مع أنه وقع الغُنيةُ عنه بما قبله من قوله عز وجل : ﴿ إِنِي أَعْلَمُ غَيْبَ السموات والأرض ﴾ ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أن مرتبةَ السرِّ متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شيء يُعلن إلا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمرٌ في القلب ، فتعلقُ علمِه سبحانه بحالته الأولى متقدمٌ على تعلقه بحالته الثانية ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ تعليلٌ لما سبق وتقريرٌ له واقع موقعَ الكبرى من القياس ، وفي صيغة الفعيلِ وتحليةِ الصدورِ بلام الاستغراقِ والتعبيرِ عن الضمائر بعنوان صاحبيها من البراعة ما لا يصفه الواصفون كأنه قيل : إنه مبالغٌ في الإحاطة

بمضمرات جميعِ الناسِ وأسرارِهم الخفيةِ المستكنّةِ في صدورهم بحيث لا تفارقها أصلاً ، فكيف يخفى عليه ما يُسرّون وما يعلنون ، ويجوز أن يُراد بذات الصدورِ القلوبُ من قوله تعالى : ﴿ ولكن تعمى القلوب التى فِى الصدور ﴾ والمعنى أنه عليمٌ بالقلوب وأحوالِها فلا يخفى عليه سرٌّ من أسرارها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(130/373)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾

كأنه جواب سؤال مقدر ، وذلك أنه لما ألقى إليهم ما ألقى وسيق إليهم ما سيق من الترغيب والترهيب وقع في ذهن السامع أنهم بعد ما سمعوا مثل هذا المقال الذي تخر له صم الجبال هل قابلوه بالإقبال أم تمادوا فيما كانوا عليه من الإعراض والضلال فقيل : مصدراً بكلمة التنبيه إشعاراً بأن ما بعدها من هناتهم أمر ينبغي أن يفهم ويتعجب منه ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ ﴾ الخ ، فضمير ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ للمشركين المخاطبين فيما تقدم و ﴿ يَثْنُونَ ﴾ بفتح الياء مضارع ثنى الشيء إذا لواه وعطفه ، ومنه على ما قيل الاثنان ، لعطف أحدهما على الآخر والثناء

لعطف المناقب بعضها على بعض وكذا الاستثناء للعطف على المستثنى منه بالإخراج ، وأصله يثنيون فأعل الإعلال المعروف في نحو يرمون ، وفي المراد منه احتمالات : منها أن الثني كناية أو مجاز عن الإعراض عن الحق لأن من أقبل على شيء واجهه بصدره ومن أعرض صرفه عنه ، أي أنهم يثنون صدورهم الحق ويتحرفون عنه ، والمراد استمرارهم على ما كانوا عليه من التولي والإعراض المشار إليه بقوله سبحانه : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ [هود : 3] الخ .

ومنها أنه مجاز عن الإخفاء لأن ما يجعل داخل الصدر فهو خفي أي أنهم يضمرون الكفر والتولي عن الحق وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم .

(131/373)

ومنها أنه باق على حقيقته ، والمعنى أنهم إذا رأوا النبي عليه الصلاة والسلام فعلوا ذلك وولوه ظهورهم ، والظاهر أن اللام متعلقة بيثنون على سائر الاحتمالات ، وكأن بعضهم رأى عدم صحة التعلق على الاحتمال الأول لما أن التولي عن الحق لا يصلح تعليله بالاستخفاء لعدم السببية فقدر لذلك متعلقاً فعل الإرادة على أنه حال أو معطوف على ما قبله ، أي ويريدون ليستخفوا من الله تعالى فلا يطلع رسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين

على أغراضهم ، وجعله في قود المعنى إليه من قبيل الإضمار في قوله تعالى : ﴿ اضرب بّعَصَاكَ البحر فانفلق ﴾ [الشعراء : 63] أي فضرب فانفلق ، لكن لا يخفى أن انسياق الذهن إلى توسيط الإرادة بين ثني الصدور والاستخفاء ليس بمثابة انسياقه إلى توسيط الضرب بين الأمر والانفرق كما ذكره العلامة القسطلاني وغيره ، وقيل : إنه لا حاجة إلى التقدير في الاحتمالين الأولين لأن انحرافهم عن الحق بقلوبهم وعطف صدورهم على الكفر والتولي وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم وعدم إظهارهم ذلك يجوز أن يكون للاستخفاء من الله تعالى لجهلهم بما لا يجوز على الله تعالى ، وأما على الاحتمال الثالث فالظاهر أنه لا بد من التقدير إلا أن يعاد الضمير منه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الذي يقتضيه سبب النزول على ما ذكره أبو حيان من أن الآية نزلت في بعض الكفار الذين كانوا إذا لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم تطامنوا وثنوا صدورهم كالمستتر وردوا إليه ظهورهم وغشوا وجوههم بثيابهم تباعداً منه وكراهة للقائه عليه الصلاة والسلام وهم يظنون أنه يخفي عليه صلى الله عليه وسلم ، لكن ظاهر قوله تعالى الآتي : ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ يقتضي عود الضمير إليه تعالى .

(132/373)

واختار بعض المحققين الاحتمال الثاني من الاحتمالات الثلاث ، وأمر التعليل والضمير عليه ظاهر ، وأيده بما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها نزلت في الأخنس بن شريق وكان رجلاً حلو المنطق حسن السياق للحديث يظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم المحبة ويضمر في قلبه ما يضادها لكنه ليس بمجمع عليه لما سمعت عن أبي حيان . وقيل : إنه كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخي ستره ويحني ظهره ويتغشى بثوبه ويقول : هل يعلم الله ما في قلبي فنزلت ، وأخرج ابن جرير ، وغيره عن عبد الله بن شداد أنها نزلت في المنافقين كان أحدهم إذا مر بالنبي صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وتغشى لئلا يراه ، وهو في معنى ما تقدم عن أبي حيان إلا أن فيه بعض الكفار دون المنافقين ، فلا يرد عليه ما أورد على هذا من أن الآية مكية والنفاق إنما حدث بالمدينة فكيف يتسنى القول بأنها نزلت في المنافقين ؟ وقد أجيب عن ذلك بأنه ليس المراد بالنفاق ظاهره بل ما كان يصدر من بعض المشركين الذين كان لهم مداراة تشبه النفاق ، وقد يقال : إن حديث حدوث النفاق بالمدينة ليس إلا غير مسلم بل ظهوره إنما كان فيها والامتياز إلى ثلاث طوائف ، ثم لو سلم فلا إشكال بل يكون على أسلوب قوله سبحانه : ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى المقتسمين ﴾ [الحجر : 90] إذا فسر باليهود ويراد به ما جرى على بني قريظة فإنه إخبار عما سيقع ، وجعله كالواقع لتحققه وهو من الإعجاز لأنه وقع كذلك فكذا ما نحن فيه .

نعم الثابت في "صحيح البخاري" .

وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم .

(133/373)

وابن مردويه من طريق محمد بن عباد بن جعفر أنه سمع ابن عباس يقرأ الآية فسأله عنها فقال : أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم ، وليس في الروايات السابقة ما يكافىء هذه الرواية في الصحة ، وأمر ﴿ يَثْنُونَ ﴾ عليها ظاهر خلا أنه إذا كان المراد بالأناس جماعة من المسلمين كما صرح به الجلال السيوطي أشكل الأمر ، وذلك لأن الظاهر من حال المسلم إذا استحيا من ربه سبحانه فلم يكشف عورته مثلاً في خلوة كان مقصوده مجرد إظهار الأدب مع الله تعالى مع علمه بأنه جل شأنه لا يحجب بصره حاجب ولا يمنع علمه شيء ومثل هذا الحياء أمر لا يكاد يذمه أحد بل في الآثار ما هو صريح في الأمر به وهو شعار كثير من كبار الأمة ، والقول بأن استحياء أولئك المسلمين كان مقروناً بالجهل بصفاته عز وجل فظنوا أن الثني يحجب عن الله سبحانه فرد عليهم بما رد لا أظنك تقبله ؛ وبالجملة الأمر على هذه الرواية لا يخلو عن إشكال ولا يكاد يندفع بسلامة الأمر ، والذي يقتضيه السياق ويستدعيه ربط

الآيات كون الآية في المشركين حسبما تقدم فتدبر والله تعالى أعلم .

وقرأ الحبر رضي الله تعالى عنه .

ومجاهد .

وغيرهما ﴿ تثنوني ﴾ بالتاء لتأنيث الجمع وبالياء التحتية لأن التأنيث غير حقيقي ، وهو مضارع اثنوني كاحلولي فوزنه تفعوعل بتكرير العين وهو من أبنية المزيد الموضوعة للمبالغة لأنه يقال حلي فإذا أريد المبالغة قيل احلولي وهو لازم فصدورهم فاعله ، ويراد منه ما أريد من المعاني في قراءة الجمهور إلا أن المبالغة ملحوظة في ذلك فيقال : المعنى مثلاً تنحرف صدورهم انحرافاً بليغاً .

وعن الحبر أيضاً .

وعروة .

وغيرهما أنهم قرأوا ﴿ تثنون ﴾ بفتح التاء المثناة من فوق وسكون الثاء وفتح النون وكسر الواو وتشديد النون الأخيرة ، والأصل تثنونن بوزن تفعوعل من الثن بكسر الثاء وتشديد النون وهو ما هش وضعف من الكلأ أنشد أبو زيد :

يا أيها المفضل المعني . . .

إنك ريان فصمت عني

تكفي اللقوح أكلة من وثن . . .

ولزم الإدغام لتكرير العين إذا كان غير ملحق و ﴿ تُخْفِى صُدُورُهُمْ ﴾ على هذه مرفوع أيضاً على الفاعلية ، والمعنى على وصف قلوبهم بالسخافة والضعف كذلك النبت الضعيف ، فالصدور مجاز عما فيها من القلوب ، وجوز أن يكون مطاوع ثناه فإنه يقال : ثناه فانثنى وائتوني كما صرح به ابن مالك في التسهيل فقال : وافعوعل للمبالغة وقد يوافق استفعل ويطاوع فعل ومثلوه بهذا الفعل ، فالمعنى أن صدورهم قبلت الثني ويؤول إلى معنى انحرفت كما فسر به قراءة الجمهور .

وعن مجاهد وكذا عروة الأعشى أنه قرأ ﴿ تثنئن ﴾ كتطمئن وأصله يثنان فقلبت الألف همزة مكسورة رغبة في عدم التقاء الساكنين وإن كان على حدة ، ويقال في ماضيه اثنأن كاحمأر وابيأض ، وقيل : أصله تثنون بواو مكسورة فاستثقلت الكسرة على الواو فقلبت همزة كما قيل في وشاح أشاح وفي وسادة إسادة فوزنه على هذا تفوعل وعلى الأول تفعال ، ورجح باطراده وهو من الثن الكلأ الضعيف أيضاً ، وقرىء ﴿ تثنوي ﴾ كترعوي ونسب ذلك إلى ابن عباس أيضاً ، وغلط النقل بأنه لا حظ للواو في هذا الفعل إذ لا يقال : ثنوته فانثوى كرعوته فارعوى ووزن ارعوى من غريب الأوزان ، وفي "الصحاح" تقديره افعول

ووزنه افعلل ، وإنما لم يدغم لسكون الياء وتمام الكلام فيه يطلب من محله ، وقرىء بغير ذلك ، وأوصل بعضهم القراءات إلى ثلاث عشرة وفصلها في "الدر المصون" ، ومن غريبها أنه قرىء ﴿ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ ﴾ بالضم .

واستشكل ذلك ابن جني بأنه لا يقال : أثنتيه بمعنى ثنيته ولم يسمع في غير هذه القراءة ، وقال أبو البقاء : لا يعرف ذلك في اللغة إلا أن يقال : معناه عرضوها للانثناء كما تقول : أبعت الفرس إذا عرضته للبيع ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ أي يجعلونها أغشية ، ومنه قول الخنساء

: أرعى النجوم وما كلفت رعيتها . . .

وتارة أتغشى فضل اطماري

(135/373)

وحاصله حين يأوون إلى فراشهم ويلتحفون بما يلتحف به النائم ، وهو وقت كثيراً ما يقع فيه حديث النفس عادة ، وعن ابن شداد حين يتغطون بثيابهم للاستخفاء ، وأياً ما كان فالمراد من الثياب معناه الحقيقي وقيل : المراد به الليل وهو يستر كما تستر الثياب ، ومن ذلك قولهم : الليل أخفى للويل ، والظرف متعلق بقوله سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ ﴾ أي ألا يعلم ﴿

مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ حين يستغشون ثيابهم ؛ ولا يلزم منه تقييد علم الله تعالى بذلك الوقت لأن من يعلم فيه يعلم في غيره بالطريق الأولى ، وجوز تعلقه بمحذوف وقدره السمين .

وأبو البقاء يستخفون وبعضهم يريدون ، و ﴿ مَا ﴾ في الموضعين إما مصدرية أو موصولة عائدها محذوف أي الذي يسرونه في قلوبهم والذي يعلنونه أي شيء كان ويدخل ما يقتضيه السياق دخولاً أولياً ، وخصه بعضهم به ، وقدم هنا السر على العلن نعياً عليهم من أول الأمر ما صنعوا وإيذاناً بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه وتحقيقاً للمساواة بين العلمين على أبلغ وجه فكأن علمه سبحانه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه ، وحاصل المعنى يستوي بالنسبة إلى علمه المحيط سرهم وعلنهم فكيف يخفى عليه سبحانه ما عسى أن يظهروه .

وقرأ ابن عباس ﴿ على حِينِ يَسْتَغْشُونَ ﴾ قال ابن عطية : ومن هذا الاستعمال قول النابغة :

على حين عابت المشيب على الصبا . . .

(136/373)

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ تعليل لما سبق وتقرير له ، والمراد بذات الصدور الإسرار المستكنة فيها أو القلوب التي في الصدور ، وأياً ما كان فليست الذات مقحمة كما في ذات غدوة ولا من إضافة المسمى إلى اسمه كما توهم ، أي أنه تعالى مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم أو بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سر من أسرارها فكيف يخفى عليه ما يسرون وما يعلنون ، وكان التعبير بالجملة الاسمية للإشارة إلى أنه سبحانه لم يزل عالماً بذلك ، وفيه دليل على أنه تعالى يعلم الأشياء قبل وجودها الخارجي ، وهذا مما لا ينكره أحد سوى شرذمة من المعتزلة قالوا : إنه تعالى إنما يعلم الأشياء بعد حدوثها تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، ولا يلزم هذا بعض المتكلمين المنكرين للوجود الذهني لأنهم إذا لم يقولوا به مع إنكار الوجود الذهني يلزمهم القول بتعلق العلم بالمعدوم الصرف ، وامتناعه من أجل البديهيات ، والإنكار مكابرة أو جهل بمعنى التعلق بالمعدوم الصَّرف ، وقد أورد ذلك عليهم المحقق الدواني ، وهو ناشىء على ما قيل عن الذهول عن معنى إنكار الوجود الذهني وبعد تحقيق المراد منه يندفع ذلك .

(137/373)

وبيانه أنه ليس معنى إنكارهم ذلك أنه لا يحصل صورة عند العقل إذا تصورنا شيئاً أو صدقنا به لأن حصولها عنده في الواقع بديهي لا ينكره إلا مكابر ، وكيف ينكره الجمهور والعلم الحادث مخلوق عندهم والخلق إنما يتعلق بأعيان الموجودات بل هو بمعنى أن ذلك الحصول ليس نحواً آخر من وجود الماهية المعلومة بأن يكون لماهية واحدة كالشمس مثلاً وجودان ، أحدهما خارجي والآخر ذهني كما يقول به مثبتوه ، فهم لا ينكرون الوجود عن صور الأشياء وأشباحها وهي موجودات خارجية وكيفيات نفسانية وهي المخلوقة عندهم ، وإنما ينكرون الوجود الذهني عن أنفس تلك الأشياء وذلك بشهادة أدلتهم حيث قالوا : لو حصلت النار في الأذهان لاحترقت الأذهان بتصورها واللازم باطل فإنه كما ترى إنما ينفي الوجود عن نفس النار لا عن شبحها ومثالها ، فالحق أن الجمهور إنما أنكروا ما ذهب إليه محققو الحكماء من أن الحاصل في الأذهان أنفس ما هيأت الأشياء ولم ينكروا ما ذهب إليه أهل الأشباح ، وحينئذٍ يقال : علم الواجب عندهم إما تعلقه بأشباح الأشياء أو صفة ذات ذلك التعلق فلا يلزمهم القول بما قاله الشرذمة ، ولا يتجه عليهم أن التعلق بتلك الأشباح الموجودة في الأزل لكونه نسبة بينها وبينه تعالى متأخر عنها فيلزم إيجاد تلك الأشباح بلا علم وهو محال ، لأنا نقول لما كان الواجب تعالى موجباً في علمه وسائر صفاته الذاتية كان وجود تلك الصور الإدراكية التي هي تلك الأشباح مقتضى ذاته تعالى فلا بأس في كونها سابقة على العلم بالذات وإنما المسبوق بالعلم هو أفعاله الاختيارية ، ثم ينبغي أن

يعلم أنه ليس معنى قولهم : إن علم الواجب تبارك وتعالى بالأشياء أزلي وتعلقه بها حادث أنه ليس هناك إلا تعلق حادث لأنه يلزم حدوث نفس العلم فيعود ما ارتكبه الشرذمة للقطع بأنه لا يصير المعلوم معلوماً قبل تعلق العلم به وهو من الفساد بمكان ، بل معناه أن التعلق الذي لا تقتضيه حقيقة العلم حادث وهناك تعلق

(138/373)

تقتضيه تلك الحقيقة وهو قديم ، وذلك لأن الأشباح والأمثال معلومة بالذات وبواسطتها تعلم الأشياء ، فتعلق العلم عندهم أعم من تعلقه بذات الشيء المعلوم أو بمثاله وشبحه ، ولما لم يمكن وجود الحوادث في الأزل كان العلم الممكن بالنسبة إليها بالتعلق بأمثالها وأشباحها وبعد حدوثها يتجدد التعلق بأن يكون بذات تلك الحوادث .

وبالجملة تعلق العلم بأمثال الحوادث وأشباحها أزلي وبأنفسها وذواتها حادث ولا إشكال فيه أصلاً ، وبهذا التحقيق يندفع شبهات كثيرة كما قيل ، لكن أورد عليه أن برهان التطبيق جار في هاتيك الأشباح لما أنها متميزة الآحاد في نفس الأمر فيلزم أحد المحذورين .

وفي المقام أبحاث طويلة الذيل وقد بسط الكلام في ذلك مولانا إسماعيل أفندي الكلنبوي في

حواشيه على شرح العضدية ، وللمولى الشيخ إبراهيم الكوراني تحقيق على طرز آخر ذكره في كتابه مطلع الجود فارجع إليه .

وبالجملة لا تخفى صعوبة هذه المسألة وهي مما زلت فيها أقدام أقوام ، ولعل الله سبحانه يرزقك تحقيقها بمنه سبحانه ، وقد قال به أفضل المتأخرين مولانا إسماعيل أفندي الكلنبوي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(139/373)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

- سُورَةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

(وَهِيَ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ فِي الْمُصْحَفِ ، وَآيَاتُهَا 123 آيَةً) :

هِيَ مَكِّيَّةٌ حَتْمًا كَالَّتِي قَبْلَهَا ، وَاسْتَثْنَى بَعْضُهُمْ مِنْهَا ثَلَاثَ آيَاتٍ . الْأُولَى : فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ 12 إِلَخْ . الثَّانِيَةَ : أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ 17 إِلَخْ . وَالثَّالِثَةَ : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ 114 إِلَخْ . قِيلَ : إِنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَ مَدَنِيَّةٌ ، وَهُوَ خِلَافُ الظَّاهِرِ وَلَا يَقُومُ عَلَيْهِ دَلِيلٌ ، إِلَّا مَا رُوِيَ فِي سَبَبِ نُزُولِ الثَّالِثَةِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الْيَسَرِ وَغَيْرِهِ وَسَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي تَفْسِيرِهَا .

وَقَدْ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ يُونُسَ ، وَهِيَ فِي مَعْنَاهَا وَمَوْضُوعِهَا الَّذِي بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِهَا ، وَهُوَ أُصُولُ عَقَائِدِ الْإِسْلَامِ فِي الْإِلَهِيَّاتِ وَالنُّبُوَّاتِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ ، وَقَدْ فُصِّلَ فِيهَا مَا أُجْمِلَ فِي سُورَةِ يُونُسَ مِنْ قَصَصِ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَهِيَ مُنَاسِبَةٌ لَهَا كُلَّ الْمُنَاسَبَةِ بِبَرَاعَةِ الْمَطْلَعِ فِي فَاتِحَتِهَا ، وَالْمَقْطَعِ فِي خَاتِمَتِهَا ، وَتَفْصِيلِ الدَّعْوَةِ فِي أَثْنَائِهَا ، فَقَدِ افْتُتِحَتَا بِذِكْرِ الْقُرْآنِ بَعْدَ الر ، وَمِثْلُهُمَا فِي هَذَا مَا بَعْدَهُمَا مِنَ السُّوَرِ الْأَرْبَعِ إِلَّا الرَّعْدَ فَأَوَّلُهَا المر ، وَذِكْرُ رِسَالَةِ النَّبِيِّ الْمُبَلِّغِ لَهُ عَنِ اللهِ - تَعَالَى - وَبَيَانُ وَظِيفَتِهِ فِيهَا ، وَهُوَ الْإِنْذَارُ وَالتَّبْشِيرُ ، وَخُتِمَتَا بِخِطَابِ النَّاسِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَمَرَهُ فِي الْأُولَى بِالصَّبْرِ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَافِرِينَ ، وَفِي الثَّانِيَةِ بِالِانْتِظَارِ ; أَيِ انْتِظَارِ هَذَا الْحُكْمِ مِنْهُ - تَعَالَى - مَعَ الِاسْتِقَامَةِ عَلَى عِبَادَتِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ .

وَذُكِرَ فِي أَثْنَاءِ كُلٍّ مِنْهُمَا التَّحَدِّي بِالْقُرْآنِ ، رَدًّا عَلَى الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدِ افْتَرَاهُ ، وَلَكِنَّ هَذَا الْمَوْضُوعَ فِي الْأُولَى أَوْفَى مِنْهُ فِي الثَّانِيَةِ ، وَكَذَا مُحَاجَّةُ الْمُشْرِكِينَ فِي أُصُولِ الدِّينِ كُلِّهَا ، فَقَدْ أُجْمِلَ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا مَا فُصِّلَ فِي الْأُخْرَى مَعَ فَوَائِدَ انْفَرَدَتْ بِهَا كُلٌّ مِنْهُمَا ، فَهُمَا بِاتِّفَاقِ الْمَوْضُوعِ ، وَاخْتِلَافِ النَّظْمِ وَالْأُسْلُوبِ ، آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الْإِعْجَازِ ، تَخِرُّ لِتِلَاوَتِهِمَا الْوُجُوهُ لِلْأَذْقَانِ ، سَاجِدَةً لِلرَّحْمَنِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) .

هَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ فِي أُصُولِ الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَهِيَ الْقُرْآنُ وَمَا بَيَّنَهُ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ ، وَالْإِيمَانِ بِرُسُلِهِ وَبِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ ، خُوطِبَ بِهَا النَّاسُ مِنْ قِبَلِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِدُونِ ذِكْرِهِمْ ، وَلَا ذِكْرٍ لِأَمْرِهِ - تَعَالَى - لَهُ بِهِ ، لِلْعِلْمِ بِكُلٍّ مِنْهُمَا بِالْقَرِينَةِ ، وَبِنُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ عَقِبَ سُورَةِ يُونُسَ الَّتِي افْتُتِحَتْ بِمِثْلِ هَذَا .

(142/373)

(الر) تُقْرَأُ كَأَمْثَالِهَا بِأَسْمَاءِ الْحُرُوفِ سَاكِنَةً لَا بِمُسَمَّيَاتِهَا ، فَيُقَالُ : أَلِفْ ، لَامْ ، رَا ، وَمَذْهَبُ الْخَلِيلِ وَسِيبَوَيْهِ أَنَّهَا اسْمٌ لِلسُّورَةِ ، أَوْ لِلْقُرْآنِ (وَبَيَّنَّا حِكْمَةَ الِابْتِدَاءِ بِهَا فِي أَوَّلِ

تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ) وَمَحَلُّهَا الرَّفْعُ عَلَى الِابْتِدَاءِ أَوِ الْخَبَرِيَّةِ عِنْدَ الْأَكْثَرِ .

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ) : أَيْ هَذَا كِتَابٌ عَظِيمُ الشَّأْنِ (كَمَا أَفَادَهُ

التَّنْوِينُ) جُعِلَتْ آيَاتُهُ مُحْكَمَةَ النَّظْمِ وَالتَّأْلِيفِ ، وَاضِحَةَ الْمَعَانِي بَلِيغَةَ الدَّلَالَةِ وَالتَّأْثِيرِ ، فَهِيَ كَالْحِصْنِ الْمَنِيعِ ، وَالْقَصْرِ الْمُشَيَّدِ الرَّفِيعِ ، فِي إِحْكَامِ الْبِنَاءِ ، وَمَا يُقْصَدُ بِهِ مِنَ الْحِفْظِ وَالْإِيوَاءِ مَعَ حُسْنِ الرِّوَاءِ ، فَهِيَ لِظُهُورِ دَلَالَتِهَا عَلَى مَعَانِيهَا وَوُضُوحِهَا لَا تَقْبَلُ شَكًّا وَلَا تَأْوِيلًا ، وَلَا تَحْتَمِلُ تَغْيِيرًا وَلَا تَبْدِيلًا (ثُمَّ فُصِّلَتْ) : أَيْ جُعِلَتْ فُصُولًا مُتَفَرِّقَةً فِي سُوَرِهِ بِبَيَانِ حَقَائِقِ الْعَقَائِدِ ،

(143/373)

وَالْأَحْكَامِ وَالْحِكَمِ وَالْمَوَاعِظِ ، وَسَائِرِ مَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ لَهُ مِنَ الْفَوَائِدِ ، كَمَا يُفْصَلُ الْوِشَاحُ أَوِ الْعِقْدُ بِالْفَرَائِدِ ، فَالْإِحْكَامُ وَالتَّفْصِيلُ فِيهِ مَرْتَبَتَانِ مِنْ مَرَاتِبِ الْبَيَانِ مُجْتَمِعَتَانِ ، لَا نَوْعَانِ مِنْهُ مُتَفَرِّقَانِ يَخْتَلِفَانِ فِي الزَّمَانِ ، أَوْ فُصِّلَتْ بَعْدَ الْإِجْمَالِ ، كَمَا تَرَى فِي الْقَصَصِ الْقِصَارَ وَالطِّوَالَ ، وَقَدْ أَبْهَمَا بِبِنَاءِ فِعْلَيْهِمَا لِلْمَفْعُولِ ، ثُمَّ بَيَّنَا بِجَعْلِهِمَا مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ إِسْنَادِهِمَا إِلَيْهِ ابْتِدَاءً ، أَيْ مِنْ عِنْدِ حَكِيمٍ كَامِلِ الْحِكْمَةِ هُوَ الَّذِي أَحْكَمَهَا ،

وَخَبِيرٍ تَامِّ الْخِبْرَةِ هُوَ الَّذِي فَصَّلَهَا ، وَ (لَدُنْ) ظَرْفُ مَكَانٍ أَخَصُّ مِنْ (عِنْدَ) وَأَبْلَغُ ، وَهُوَ بِفَتْحِ فَضَمٍّ (كَعَضُدٍ) مَبْنِيٌّ عَلَى السُّكُونِ .

(144/373)

هَذَا مَا يَتَبَادَرُ إلَى فَهْمِ الْعَرَبِيِّ الْقُحِّ مِنْ عِبَارَةِ الْآيَةِ ، فَإِذَا عَرَضْتَهُ عَلَى مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ حَرْفَيِ الْإِحْكَامِ وَالتَّفْصِيلِ وَجَدْتَ فِيهِ مِنَ الْحَرْفِ الْأَوَّلِ ثَلَاثَ كَلِمَاتٍ : (الْأُولَى) قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي سُورَةِ الْحَجِّ : فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ 22 : 52 ، (وَالثَّانِيَةُ) قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي سُورَةِ مُحَمَّدٍ (الْقِتَالِ) : وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ 47 : 20 الْآيَةَ . . (وَالثَّالِثَةُ) قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ : (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) (3 : 7) وَوَجَدْتَ الْإِحْكَامَ فِي كُلٍّ مِنْهُنَّ بِالْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ الَّذِي بَيَّنَّاهُ آنِفًا . وَقَدْ حَمَلَ الْمُقَلِّدُونَ الْمُحْكَمَ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ عَلَى مَا يُقَابِلُ الْمَنْسُوخَ فِي اصْطِلَاحِهِمْ ، فَقَالُوا : سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ ، وَهَذَا الْحَمْلُ غَيْرُ صَحِيحٍ وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ صَحِيحًا ; فَإِنَّ هَذَا الِاصْطِلَاحَ لَيْسَ مِنْ أَصْلِ اللُّغَةِ وَلَا مِنْ عُرْفِ الْقُرْآنِ ، بَلْ وُضِعَ بَعْدَ نُزُولِهِ ، وَالْآيَةُ الْأُولَى حُجَّةٌ عَلَى هَذَا ; فَإِنَّ النَّسْخَ فِيهَا غَيْرُ النَّسْخِ الْأُصُولِيِّ ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ

يَكُونَ الْمَعْنَى : فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ لَا كُلُّهَا وَلَا بَعْضُهَا ؛ لِأَنَّ

(145/373)

إِنْزَالَ سُورَةٍ مَنْسُوخَةٍ مُحَالٌ فِي نَفْسِهِ ، فَلَا مَعْنَى إِذًا لِنَفْيِهِ ، وَحَمَلُوهُ فِي الثَّالِثَةِ عَلَى مَا يُقَابِلُ الْمُتَشَابَهَ وَهُوَ صَحِيحٌ ، وَلَكِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى كُلٍّ مِنْهُمَا ، وَأَشْهَرُ الْأَقْوَالِ عِنْدَ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالْأُصُولِ فِيهِمَا مُخَالِفٌ لِمَدْلُولِ اللُّغَةِ وَلِلْمَرْوِيِّ عَنْ جُمْهُورِ السَّلَفِ الَّذِي هُوَ الْحَقُّ .

قَالَ السَّيِّدُ الْجُرْجَانِيُّ فِي الْأَوَّلِ : الْمُحْكَمُ مَا أُحْكِمَ ، الْمُرَادُ بِهِ عَنِ التَّبْدِيلِ وَالتَّغْيِيرِ أَيِ التَّخْصِيصِ وَالتَّأْوِيلِ وَالنَّسْخِ ، مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ : بِنَاءٌ مُحْكَمٌ ، أَيْ مُتْقَنٌ مَأْمُونُ الِانْتِقَاضِ ، وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وَالنُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَاتِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَحْتَمِلُ النَّسْخَ ، فَإِنَّ اللَّفْظَ إِذَا ظَهَرَ مِنْهُ الْمُرَادُ فَإِنْ لَمْ يَحْتَمِلِ النَّسْخَ فَهُوَ مُحْكَمٌ ، وَإِلَّا فَإِنْ لَمْ يَحْتَمِلِ التَّأْوِيلَ فَمُفَسَّرٌ ، وَإِلَّا فَإِنْ سِيقَ الْكَلَامُ لِأَجْلِ ذَلِكَ الْمُرَادِ فَنَصٌّ ، وَإِلَّا فَظَاهِرٌ ، وَإِذَا خَفِيَ لِعَارِضٍ أَيْ لِغَيْرِ الصِّيغَةِ فَخَفِيٌّ ،

(146/373)

وَإِنْ خَفِيَ لِنَفْسِهِ أَيْ لِنَفْسِ الصِّيغَةِ وَأُدْرِكَ عَقْلًا فَمُشْكِلٌ ، أَوْ نَقْلًا فَمُجْمَلٌ ، أَوْ لَمْ يُدْرَكْ أَصْلًا فَمُتَشَابِهٌ اهـ . وَقَالَ فِي الثَّانِي : الْمُتَشَابِهُ مَا خَفِيَ بِنَفْسِ اللَّفْظِ وَلَا يُرْجَى دَرْكُهُ أَصْلًا كَالْمُقَطَّعَاتِ فِي أَوَّلِ السُّوَرِ ، وَقَالَ التَّاجُ السُّبْكِيُّ فِي جَمْعِ الْجَوَامِعِ : وَالْمُتَشَابِهُ مَا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ وَقَدْ يُطْلِعُ عَلَيْهِ بَعْضَ أَصْفِيَائِهِ ، اهـ . وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ خَطَأٌ كَمَا يُعْلَمُ مِمَّا فَسَّرْنَا بِهِ الْآيَةَ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي .

وَقَالَ السَّيِّدُ فِي تَعْرِيفِ التَّأْوِيلِ : هُوَ فِي الْأَصْلِ التَّرْجِيحُ ، وَفِي الشَّرْعِ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ مَعْنَاهُ الظَّاهِرِ إلَى مَعْنًى يَحْتَمِلُهُ إذَا كَانَ الْمُحْتَمَلُ الَّذِي يَرَاهُ مُوَافِقًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِثْلُ قَوْلِهِ - تَعَالَى : (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) (6 : 95) إنْ أَرَادَ بِهِ إخْرَاجَ الطَّيْرِ مِنَ الْبَيْضَةِ كَانَ تَفْسِيرًا ، وَإِنْ أَرَادَ إخْرَاجَ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْكَافِرِ أَوِ الْعَالِمِ مِنَ الْجَاهِلِ كَانَ تَأْوِيلًا ، اهـ . وَقَالَ التَّاجُ السُّبْكِيُّ : الظَّاهِرُ مَا دَلَّ دَلَالَةً ظَنِّيَّةً ، وَالتَّأْوِيلُ حَمْلُ الظَّاهِرِ عَلَى الْمُحْتَمَلِ الْمَرْجُوحِ ، فَإِنْ حُمِلَ لِدَلِيلٍ فَصَحِيحٌ ، أَوْ لِمَا يُظَنُّ دَلِيلًا فَفَاسِدٌ ، أَوْ لَا لِشَيْءٍ فَلَعِبٌ لَا تَأْوِيلٌ ، اهـ .

(147/373)

هَذَا الِاصْطِلَاحُ الْمُفَصِّلُ لِهَذِهِ الْحِكَايَاتِ فِيهِ مَا تَرَى - فِي كُتُبِ الْأُصُولِ - مِنْ قِيلَ وَقَالَ ، وَمَذَاهِبَ وَجِدَالٍ ، وَهُوَ مَا لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ فِي بَالِ أَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ عِنْدَ قِرَاءَاتِهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ - تَعَالَى - بَلْ كَانُوا يَفْهَمُونَهَا بِمَدْلُولِهَا اللُّغَوِيِّ الْمَحْضِ ، فَأَمَّا الْمُحْكَمُ فَهُوَ مَا تَقَدَّمَ .

وَأَمَّا التَّفْصِيلُ فِي الْآيَةِ فَقَدْ جَاءَ مُكَرَّرًا فِي أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ مَوْضِعًا مِنْ عَشْرِ سُوَرٍ مَكِّيَّةٍ ، وَفِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ الْمَدَنِيَّةِ ، وَأَكْثَرُهَا فِي تَفْصِيلِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ ، وَبَعْضُهَا فِي تَفْصِيلِ الْكِتَابِ ، وَبَعْضٌ آخَرُ فِي تَفْصِيلِ الْأَحْكَامِ ، وَنَوْعٌ آخَرُ أَعَمُّ وَهُوَ (تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ) أَيْ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِدَايَةِ الدِّينِ ، وَإِصْلَاحِ أُمُورِ الْمُكَلَّفِينَ ، وَكُلُّهَا دَاخِلٌ فِي الْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ الَّذِي حَرَّرْنَاهُ .

بَقِيَ عَلَيْنَا الْمَأْثُورُ فِي الْكَلِمَتَيْنِ عَنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ ، وَهُوَ قَلِيلٌ مُخْتَصَرٌ ، فَعَنِ ابْنِ زَيْدٍ فِي هَذِهِ السُّورَةِ (قَالَ) : إِنَّهَا كُلَّهَا مَكِّيَّةٌ مُحْكَمَةٌ ، وَإِنَّ التَّفْصِيلَ فِيهَا هُوَ الْحُكْمُ بَيْنَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَنْ خَالَفَهُ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ) (24) الْآيَةَ ، ثُمَّ ذَكَرَ قَوْمَ نُوحٍ وَقَوْمَ هُودٍ (قَالَ) : فَكَانَ هَذَا تَفْصِيلَ ذَلِكَ وَكَانَ أَوَّلُهُ مُحْكَمًا ، انْتَهَى .

(148/373)

بِالْمَعْنَى . وَحَاصِلُهُ : أَنَّ الْمُحْكَمَ الْمُجْمَلُ ، وَأَنَّ الْمُفَصَّلَ مَا يُقَابِلُهُ بِالْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ فِيهِمَا .

وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ : أُحْكِمَتْ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَفُصِّلَتْ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ : ثُمَّ فُصِّلَتْ ، قَالَ : فُسِّرَتْ ، وَعَنْ قَتَادَةَ : أَحْكَمَهَا اللَّهُ مِنَ الْبَاطِلِ ثُمَّ فَصَّلَهَا اللَّهُ بِعِلْمِهِ ، فَبَيَّنَ حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ ، وَطَاعَتَهُ وَمَعْصِيَتَهُ ، وَهَذِهِ الرِّوَايَاتُ كُلُّهَا تَدْخُلُ فِي الْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ الَّذِي بَيَّنَّاهُ وَلَا تُحِيطُ بِهِ .

وَالْقَوْلُ الْجَامِعُ : أَنَّ تَفْصِيلَ الْإِجْمَالِ فِي الْقُرْآنِ قِسْمَانِ : (الْأَوَّلُ) تَفْصِيلُ أُصُولِ الْعَقَائِدِ وَكُلِّيَّاتِ التَّشْرِيعِ الْعَامَّةِ ، وَأَكْثَرُهُ فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ مُتَفَرِّقًا ثُمَّ مُجْمَلًا فِي تَفْسِيرِ مَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ مِنْهَا ، وَهُوَ الْأَنْعَامُ وَالْأَعْرَافُ وَيُونُسُ ، (وَالثَّانِي) مَا يَعُمُّ تَفْصِيلَ الْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ وَالْحَرْبِيَّةِ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي السُّوَرِ الْمَدَنِيَّةِ الطِّوَالِ الْمُتَقَدِّمَةِ أَيْضًا .

(149/373)

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) ، هَذَا تَفْسِيرٌ أَوْ بَيَانٌ لِأَوَّلِ مَا أُحْكِمَتْ وَفُصِّلَتْ بِهِ وَلَهُ الْآيَاتُ : أَيْ بِأَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، أَوْ لِئَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، وَهُوَ أَنْ تَجْعَلُوا عِبَادَتَكُمْ لَهُ وَحْدَهُ ، لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَهَذَا مَا تَرَاهُ قَرِيبًا فِي قِصَصِ الرُّسُلِ الْمُفَصَّلَةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ، وَيُؤَيِّدُ الْجَمْعَ بَيْنَ

طَرَفَيِ التَّوْحِيدِ السَّلْبِيِّ وَالْإِيجَابِيِّ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : (إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) وَهُوَ تَبْلِيغٌ لِدَعْوَةِ الرِّسَالَةِ مُبَيِّنٌ

لِوَظِيفَةِ الرَّسُولِ ، وَهِيَ إِنْذَارُ مَنْ أَصَرَّ عَلَى شِرْكِهِ وَمَا يَتْبَعُهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، وَتَبْشِيرُ مَنْ آمَنَ وَاتَّقَى بِالسَّعَادَةِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، وَقَدَّمَ الْإِنْذَارَ لِأَنَّ الْخِطَابَ وُجِّهَ أَوَّلًا إِلَى الْمُشْرِكِينَ كَنَظِيرِهِ فِي سُورَةِ يُونُسَ وَأَمْثَالِهِمَا مِنَ السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ كَسُورَةِ الْكَهْفِ ، وَالْمُبَلِّغُ هَذَا هُوَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

(150/373)

(وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ) هَذَا عَطْفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، أَيْ وَأَنِ اسْأَلُوهُ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ مَا كَانَ مِنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَالْإِجْرَامِ وَالظُّلْمِ (ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) أَيْ ثُمَّ ارْجِعُوا إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ إِعْرَاضٍ - عَنْهُ وَعَنْ آيَاتِهِ - يَعْرِضُ لَكُمْ بِتَرْكِ الْوَاجِبِ أَوْ فِعْلِ مُحَرَّمٍ ، نَادِمِينَ مُنِيبِينَ مُصْلِحِينَ لِمَا أَفْسَدْتُمْ ، مُسْتَدْرِكِينَ مَا قَصَّرْتُمْ ، عَطَفَ التَّوْبَةَ بِـ (ثُمَّ) لِأَنَّ مَرْتَبَةَ الْعَمَلِ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ مَرْتَبَةِ الْقَوْلِ ، فَكَمْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى الذَّنْبِ ، وَسَيَأْتِي مَثَلُهُ فِي قِصَّةِ كُلٍّ مِنْ هُودٍ ، وَصَالِحٍ ، وَشُعَيْبٍ (يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا) الْمَتَاعُ : كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي الْمَعِيشَةِ وَحَاجَةِ الْبُيُوتِ ، وَالْإِمْتَاعُ وَالتَّمْتِيعُ : إِعْطَاءُ مَا يُتَمَتَّعُ بِهِ تَمَتُّعًا طَوِيلًا مُمْتَدًّا ، وَأَمَّا وَصْفُهُ - تَعَالَى - لِمَتَاعِ

الدُّنْيَا وَتَمَتُّعِ أَهْلِهَا بِهَا بِالْقَلِيلِ فَهُوَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى حَيَاةِ الْآخِرَةِ ، وَالْمَعْنَى : إِنْ تَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ عِنْدَ كُلِّ ذَنْبٍ ، وَتَتُوبُوا إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ إِعْرَاضٍ عَنْ هِدَايَتِهِ ، وَتَنَكُّبٍ عَنْ سُنَّتِهِ ، يُمَتِّعْكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا مُرْضِيًا مُمْتَدًّا (إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) عِنْدَهُ وَهُوَ الْعُمُرُ الْمُقَدَّرُ لَكُمْ فِي عِلْمِهِ ، الْمَكْتُوبُ فِي نِظَامِ الْخَلِيقَةِ وَسُنَنِ الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ فِي عِبَادِهِ ، فَلَا يَقْطَعُهُ إِهْلَاكُكُمْ بِعَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ ، وَلَا بِفَسَادِ الْعُمْرَانِ وَسَلْبِ الِاسْتِقْلَالِ ، وَلَا يُنَغِّصُهُ كُلُّ مَا يُنَغِّصُ حَيَاةَ الْكُفَّارِ ، وَذَلِكَ

(151/373)

أَنَّ لِتَنْغِيصِ الْحَيَاةِ فِي الدُّنْيَا وَسَلْبِ النِّعَمِ مِنْ أَهْلِهَا أَسْبَابًا تَرْجِعُ كُلُّهَا إِلَى الْإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ وَالذُّنُوبِ الْمُحَرَّمَةِ ، وَهِيَ لَمْ تَكُنْ مُحَرَّمَةً إِلَّا لِأَنَّهَا ضَارَّةٌ مُفْسِدَةٌ لِلدِّينِ ، أَوْ مُزِيلَةٌ لِلْحَيَاةِ أَوْ لِلْعَقْلِ أَوْ لِلصِّحَّةِ أَوْ لِنِظَامِ الِاجْتِمَاعِ الْمَالِيِّ وَالْمَدَنِيِّ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ مَفْسَدَةً بِإِصْرَارِ فَاعِلِيهَا عَلَيْهَا ، فَإِذَا كَانَ مَنْ تَعَرَّضَ لَهُ يَنْدَمُ وَيُبَادِرُ إِلَى التَّوْبَةِ مِنْ قَرِيبٍ ، وَيُصْلِحُ مَا نَجَمَ مِنْ فَسَادِهَا بِالْعَمَلِ الْمُضَادِّ لَهُ ، امْتَنَعَ ذَلِكَ الْفَسَادُ وَزَالَ أَثَرُهُ ; وَلِهَذَا اشْتَرَطَ فِي التَّوْبَةِ الْمَقْبُولَةِ مَا اشْتَرَطَ

وَوُصِفَتْ فِي الْقُرْآنِ بِمَا وُصِفَتْ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) (4 : 17) وَقَوْلِهِ : (فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ) (5 : 39) وَفِي مَعْنَاهُ آيَاتٌ أُخْرَى ، وَقَوْلُهُ : (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (3 : 135) وَقَدْ سَبَقَ تَفْسِيرُهَا فِي مَوَاضِعِهَا .

(152/373)

وَهَذِهِ السُّنَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ مُطَّرِدَةٌ فِي ذُنُوبِ الْأُمَمِ الْمَقْصُودَةِ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْخِطَابِ ، وَهِيَ فِيهَا أَظْهَرُ مِنْهَا فِي ذُنُوبِ الْأَفْرَادِ (كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَوَاضِعَ عَدِيدَةٍ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ) فَالْأُمَمُ الَّتِي تُصِرُّ عَلَى الظُّلْمِ وَالْفَسَادِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ ، يُهْلِكُهَا اللَّهُ - تَعَالَى - فِي الدُّنْيَا بِالضَّعْفِ وَالشِّقَاقِ وَخَرَابِ الْعُمْرَانِ ، حَتَّى تَزُولَ مَنَعَتُهَا ، وَتَتَمَزَّقَ دَوْلَتُهَا ، فَتَنْقَرِضَ أَوْ تَسْتَوْلِيَ عَلَيْهَا دَوْلَةٌ أُخْرَى ، فَهَذَا مَعْرُوفٌ فِي تَوَارِيخِ الْأُمَمِ مِنْ أَحْوَالِهَا الْعَامَّةِ فِي كُلِّ عَصْرٍ ، وَأَمَّا أَقْوَامُ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - فِي عُصُورِهِمْ فَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ الْمُصِرِّينَ مِنْهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ ، بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِعَذَابِ الْخِزْيِ وَالِاسْتِئْصَالِ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَوَاضِعِهَا ، وَأَقْرَبُهَا عَهْدًا أَوَاخِرُ سُورَةِ يُونُسَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَالْآيَةُ تَتَضَمَّنُ نَجَاةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ

مِنْ عَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ يُونُسَ أَيْضًا ، وَسَنَعُودُ إلَى بَيَانِ هَذَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ (100 - 103) الَّتِي خُتِمَتْ بِهَا قَصَصُ الرُّسُلِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ .

(153/373)

وَأَمَّا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : (وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) فَهُوَ عَامٌّ مُطْلَقٌ فِي جَزَاءِ الْأَفْرَادِ فِي الْآخِرَةِ ، مُقَيَّدٌ فِي جَزَائِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَمَعْنَاهُ مَعَ الَّذِي قَبْلَهُ : إنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ قَوْمِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، إنْ تَجْتَنِبُوا الشِّرْكَ وَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ، وَتَتُوبُوا إلَيْهِ عَقِبَ كُلِّ ذَنْبٍ يَقَعُ مِنْكُمْ ، يُمَتِّعْكُمْ بِجُمْلَتِكُمْ وَمَجْمُوعِكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا تَكُونُونَ بِهِ خَيْرَ الْأُمَمِ نِعْمَةً وَقُوَّةً وَعِزَّةً وَدَوْلَةً ، وَيُعْطِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ جَزَاءَ فَضْلِهِ فِي الْآخِرَةِ مُطَّرِدًا كَامِلًا ، وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْجَزَاءُ جُزْئِيًّا نَاقِصًا ، وَمَشُوبًا لَا خَالِصًا ، وَلَا يَكُونُ عَامًّا كَامِلًا مُطَّرِدًا لِقِصَرِ أَعْمَارِ الْأَفْرَادِ ، وَالتَّعَارُضِ وَالتَّرْجِيحِ فِي سُنَنِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ ، وَهَذَا مِنْ أَدِلَّةِ الْبَعْثِ وَجَزَاءِ الْآخِرَةِ الَّذِي يَظْهَرُ فِيهِ عَدْلُهُ - تَعَالَى - كَامِلًا شَامِلًا .

(154/373)

وَبِهَذَا التَّفْسِيرِ الَّذِي وَفَّقَنَا اللهُ - تَعَالَى - لَهُ يَظْهَرُ مَا بَيَّنَّاهُ مِرَارًا مِنْ أَنَّ ثَمَرَةَ الدِّينِ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كِلْتَيْهِمَا ، وَقَدْ غَفَلَ عَنْهُ الْمُفَسِّرُونَ الَّذِينَ يُعَارِضُونَ أَمْثَالَ هَذِهِ النُّصُوصِ بِمَا جَعَلُوهُ أَصْلًا يُرْجِعُونَهَا إلَيْهِ بِالتَّأْوِيلِ ، كَأَحَادِيثِ ذَمِّ الدُّنْيَا وَتَسْمِيَتِهَا (سِجْنَ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةَ الْكَافِرِ) وَمَا يَصِحُّ مِنْهَا كَهَذَا الْحَدِيثِ فَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى النِّسْبَةِ بَيْنَهُمَا ، بِالْإِضَافَةِ إلَى حَالِ كُلٍّ مِنْهُمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَحَدِيثِ (أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ) وَهُوَ صَحِيحٌ

(155/373)

أَيْضًا ، وَالْبَلَاءُ الِاخْتِبَارُ - يَكُونُ فِي النِّعَمِ وَالنِّقَمِ ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ - يُظْهِرُ اسْتِعْدَادَ النَّاسِ لِكُلٍّ مِنْهُمَا كَمَا تَرَاهُ قَرِيبًا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (7) فَلَيْسَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ مِمَّا وَعَدَ اللهُ بِهِ رُسُلَهُ وَبَلَّغُوهُ أَقْوَامَهُمْ وَصَدَّقَهُ الْوَاقِعُ ، فَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ فِي خِلَافَةِ الْأَرْضِ وَمُلْكِهَا وَنَعِيمِهَا مَا ثَبَتُوا عَلَى ذَلِكَ ، وَمِنْهُ هَذِهِ الْبِشَارَةُ ، وَيُقَابِلُهَا قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي الْإِنْذَارِ : (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) أَيْ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا مُعْرِضِينَ عَمَّا دَعَوْتُكُمْ إلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ - تَعَالَى - وَعَدَمِ عِبَادَةِ غَيْرِهِ ، وَمِنَ الِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ ، فَإِنِّي

أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٌ هَوْلُهُ ، شَدِيدٌ بَأْسُهُ ، وَهُوَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ أَقْوَامَ الرُّسُلِ الَّذِينَ عَانَدُوهُمْ وَأَصَرُّوا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ وَعِصْيَانِهِمْ ، أَوْ مَا دُونَهُ مِنْ عَذَابِ الْمُصِرِّينَ ، فِي إِثْرِ نَصْرِ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَهَذِهِ بَرَاعَةُ اسْتِهْلَالٍ لِلْقِصَصِ الْمُفَصَّلَةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ، وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْيَوْمِ الْكَبِيرِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْجَزَاءُ الْأَكْبَرُ ، وَهُوَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ :

(156/373)

(إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ) أَيْ إِلَيْهِ - تَعَالَى - رُجُوعُكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ جَمِيعًا أُمَمًا وَأَفْرَادًا لَا يَتَخَلَّفُ أَحَدٌ مِنْكُمْ فَتَلْقَوْنَ جَزَاءَكُمْ تَامًّا (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وَمِنْهُ بَعْثُكُمْ وَحَشْرُكُمْ وَجَزَاؤُكُمْ .

قَدَّمَ وَصْفَ الرَّسُولِ بِالنَّذِيرِ عَلَى وَصْفِهِ بِالْبَشِيرِ ، ثُمَّ قَدَّمَ بِشَارَةَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَخَّرَ إِنْذَارَ الْكَافِرِينَ الْمُصِرِّينَ تَأْلِيفًا لَهُمْ ؛ لِأَنَّ تَوَالِيَ الْإِنْذَارِ مُنَفِّرٌ مِنَ الِاسْتِمَاعِ ، مُغْرٍ بِالتَّوَلِّي وَالْإِعْرَاضِ ، عَلَى أَنَّ هَذَا التَّأْلِيفَ لَمْ يُؤَثِّرْ فِيهِمْ كَمَا تَرَى فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - :

(أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

(157/373)

هَذَا بَيَانٌ مُسْتَأْنَفٌ لِحَالِ الْمُشْرِكِينَ وَصِفَتِهِمْ عِنْدَ تَبْلِيغِهِمُ الدَّعْوَةَ وَإِقَامَةَ الْحُجَّةِ ، افْتُتِحَتْ بِأَدَاةِ التَّنْبِيهِ لِيَتَأَمَّلَهَا السَّامِعُ وَيَتَصَوَّرَهَا فِي صِفَتِهَا الْغَرِيبَةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَعْرَاضِ الْحَيْرَةِ وَالْعَجْزِ وَمُنْتَهَى الْجَهْلِ ، يُقَالُ : ثَنَى الثَّوْبَ إِذَا عَطَفَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَطَوَاهُ ، وَأَثْنَاءُ الثَّوْبِ أَطْوَاؤُهُ وَمَطَاوِيهِ ، وَثَنَاهُ عَنْهُ لَوَاهُ وَحَوَّلَهُ ، وَثَنَاهُ عَلَيْهِ أَطْبَقَهُ وَطَوَاهُ لِيُخْفِيَهُ فِيهِ ، وَثَنَى عِنَانَهُ عَنِّي أَيْ تَحَوَّلَ وَأَعْرَضَ ، وَثَنَى عِطْفَهُ أَيْ أَعْرَضَ بِجَانِبِهِ تَكَبُّرًا ، وَمِنْهُ فِي الْمُجَادِلِ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ : ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ 22 : 9 وَالِاسْتِخْفَاءُ مُحَاوَلَةُ الْخَفَاءِ ، وَمِنْهُ :

(158/373)

(يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ) (4 : 108) وَاسْتِغْشَاءُ الثِّيَابِ التَّغَطِّي بِهَا ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - حِكَايَةً عَنْ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا) (71 : 7) وَهُوَ

بِمَعْنَى مَا نَحْنُ فِيهِ ، (أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ) ، فَسَّرَ بَعْضُهُمْ ثَنْيَ الصُّدُورِ هُنَا بِالْإِعْرَاضِ التَّامِّ ، وَالِاسْتِدْبَارِ لِلرَّسُولِ عِنْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ ثَنْيِ الْعِطْفِ وَالْجَانِبِ ، وَفَسَّرَهُ آخَرُونَ بِطَيِّهَا عَلَى مَا هُوَ مَكْنُونٌ فِيهَا مِنَ الْكَرَاهَةِ وَالْعَدَاوَةِ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَالْأَقْرَبُ أَنْ يَكُونَ تَصْوِيرًا لِمَا كَانَ يُحَاوِلُهُ بَعْضُ الْكُفَّارِ ، ثُمَّ الْمُنَافِقِينَ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ مِنَ الِاسْتِخْفَاءِ بِتَنْكِيسِ الرَّأْسِ ، وَثَنْيِ الصَّدْرِ عَلَى الْبَطْنِ كَمَا يُطْوَى الثَّوْبُ ، حَتَّى يَخْفَى فَاعِلُهُ بَيْنَ الْجَمْعِ ، خَجَلًا مِمَّا فِيهِ مِنَ الْقَرْعِ وَالصُّدَاعِ ، فَالْمَعْنَى : أَلَا إِنَّ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ الْكَارِهِينَ لِدَعْوَةِ التَّوْحِيدِ يَحْنُونَ ظُهُورَهُمْ وَيُنَكِّسُونَ رُءُوسَهُمْ كَأَنَّهُمْ يُحَاوِلُونَ طَيَّ صُدُورِهِمْ عَلَى بُطُونِهِمْ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ ، وَهُوَ مَعْنًى بَلِيغٌ وَوَاقِعٌ وَأَدْنَى إِلَى التَّعْلِيلِ بِقَوْلِهِ : (لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ) أَيْ مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عِنْدَ تِلَاوَتِهِ لِلْقُرْآنِ فَلَا يَرَاهُمْ عِنْدَ وُقُوعِ هَذِهِ الْقَوَارِعِ عَلَى رُءُوسِهِمْ ، أَوْ

(159/373)

لِيَسْتَخْفُوا مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشَّأْنِ الْمُظْهِرِ لِخِزْيِهِمْ وَجَهْلِهِمْ ، الْمُثْبِتِ لِعَجْزِهِمْ ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَتَبَادَرُ إِلَى فَهْمِي كُلَّمَا تَلَوْتُ الْآيَةَ أَوْ سَمِعْتُهَا قَبْلَ الِاطِّلَاعِ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا قِيلَ فِي تَفْسِيرِهَا عَلَى أَنَّهُ قَدْ يُجَامِعُ مَا قَبْلَهُ فَيَصْدُقُ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى فَرِيقٍ مِنَ الْكُفَّارِ ،

وَيُنَاسِبُ الْأَوَّلَ أَنْ يَكُونَ الِاسْتِخْفَاءُ مِنَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ مُجَاهِدٍ ، وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَدَّادٍ قَالَ : كَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا مَرَّ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثَنَى صَدْرَهُ لِكَيْ لَا يَرَاهُ فَنَزَلَتْ .

(160/373)

وَعَنْ أَبِي رَزِينٍ قَالَ : كَانَ أَحَدُهُمْ يَحْنِي ظَهْرَهُ وَيَسْتَغْشِي بِثَوْبِهِ ، وَعَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ فِي قَوْلِهِ : (يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ) يَقُولُ : يُطَأْطِئُونَ رُءُوسَهُمْ ، وَيَحْنُونَ ظُهُورَهُمْ ، أَيْ أَلَا فَلْيَعْلَمُوا أَنَّ ثَنْيَ صُدُورِهِمْ وَتَنْكِيسَ رُءُوسِهِمْ ؛ لِيَسْتَخْفُوا مِنَ الدَّاعِي لَهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ رَبِّهِمْ ، أَوْ مِنْ ظُهُورِ حُجَّتِهِ عَلَيْهِمْ ، لَا يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا مِنْ ظُهُورِ فَضِيحَتِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ فَيُغَطُّونَ بِهَا جَمِيعَ أَبْدَانِهِمْ عِنْدَ النَّوْمِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ، وَيَخْلُونَ بِخَوَاطِرِهِمْ وَمَا يُبَيِّتُونَ مِنَ السُّوءِ وَالْمَكْرِ ، فَإِنَّ رَبَّهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ مِنْهَا لَيْلًا ، ثُمَّ مَا يُعْلِنُونَ نَهَارًا . وَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ : كَانُوا يَحْنُونَ صُدُورَهُمْ لِكَيْلَا يَسْمَعُوا كِتَابَ اللهِ - تَعَالَى - ، قَالَ - تَعَالَى - : (أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) وَذَلِكَ أَخْفَى مَا يَكُونُ ابْنُ آدَمَ إِذَا حَنَى ظَهْرَهُ ، وَاسْتَغْشَى بِثَوْبِهِ ، وَأَضْمَرَ هَمَّهُ فِي نَفْسِهِ ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى ذَلِكَ عَلَيْهِ (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أَيْ إِنَّهُ

-

تَعَالَى - عَلِيمٌ مُحِيطٌ بِأَسْرَارِ الصُّدُورِ ، وَخَوَاطِرِ الْقُلُوبِ كَالَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ : (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا) (4 : 108) .

(161/373)

وَرُوِيَ فِي الْآيَةِ مَا لَا يَظْهَرُ فِي مَعْنَاهَا وَلَا فِي قِرَاءَتِهَا أَنَّهُ تَفْسِيرٌ لَهَا ، وَهُوَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أُنَاسٍ كَانُوا يَسْتَحُونَ أَنْ يَتَخَلَّوْا فَيُفْضُوا إِلَى السَّمَاءِ ، وَأَنْ يُجَامِعُوا نِسَاءَهُمْ فَيُفْضُوا إِلَى السَّمَاءِ ، وَمِمَّنْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَلَعَلَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ هَذَا يَصْدُقُ فِيهِمْ ، وَأَقُولُ : إِنَّ هَذَا ضَرْبٌ مِنْ مُرَاقَبَةِ اللهِ - تَعَالَى - تُذَكِّرُهُمْ بِهِ رُؤْيَةُ السَّمَاءِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الَّتِي يَقْتَضِي الْأَدَبُ السَّتْرَ فِيهَا ، وَإِنْ كَانَ اللهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَلَا يَحْجُبُ بَصَرَهُ ثَوْبٌ وَلَا ظُلْمَةُ لَيْلٍ ، وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَرَأَ : (أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ) - بِالْمُثَنَّاةِ الْفَوْقِيَّةِ وَبِالتَّحْتِيَّةِ - مِنِ اثْنَوْنَى كَاحْلَوْلَى ، وَكَذَا تَثْنَوِي كَتَرْعَوِي ، وَفِيهَا قِرَاءَاتٌ أُخْرَى كُلُّهَا شَاذَّةٌ لَا نُعْنَى بِنَقْلِهَا وَلَا بِتَوْجِيهِهَا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 3 . 11 ﴾

(162/373)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾

حُول أسلوب الكلام عن مخاطبة النبي عليه الصلاة والسلام بما أمر بتبليغه إلى إعلامه بحال من أحوال الذين أمر بالتبليغ إليهم في جهلهم بإحاطة علم الله تعالى بكل حال من الكائنات من الذوات والأعمال ظاهرها وخفيها ، فقدم لذلك إبطال وهَم من أوْهام أهل الشرك أنهم في مكنة من إخفاء بعض أحوالهم عن الله تعالى ، فكان قوله : ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ﴾ إلخ تمهيداً لقوله : ﴿ يعلم ما يسرّون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ ، جمعاً بين إخبارهم بإحاطة علم الله بالأشياء وبين إبطال توهماتهم وجهلهم بصفات الله .

وقد نشأ هذا الكلام عن قوله تعالى : ﴿ إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير ﴾ [هود : 4] لمناسبة أن المرجوع إليه لما كان موصوفاً بتمام القدرة على كل شيء هو أيضاً موصوف بإحاطة علمه بكل شيء للتلازم بين تمام القدرة وتمام العلم .

وافتتاح الكلام بحرف التنبيه ﴿ ألا ﴾ للاهتمام بمضمونه لغرابة أمرهم المحكي وللعناية بتعليم إحاطة علم الله تعالى .

وضمائر الجماعة الغائبين عائدة إلى المشركين الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإبلاغ إليهم في قوله : ﴿ أنْ لا تعبدوا إلا الله ﴾ [هود : 2] وليس بالتفات .

وضمائر الغيبة للمفرد عائدة إلى اسم الجلالة في قوله : ﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ [هود : 4] .

والثّني : الطّيُّ ، وأصل اشتقاقه من اسم الاثنين .

يقال : ثَنَاه بالتخفيف ، إذا جعله ثانياً ، يقال : هذا وَاحد فاثْنِه ، أي كن ثانياً له ، فالذي يطوي الشيء يجعل أحد طاقيه ثانياً للذي قبلَه ؛ فثنيُ الصدور : إمالتها وحَنيها تشبيهاً بالطي .

ومعنى ذلك الطأطأة .

وهذا الكلام يحتمل الإجراءَ على حقيقة ألفاظه من الثني والصدور .

ويحتمل أن يكون تمثيلاً لهيئة نفسية بهيئة حسية .

(163/373)

فعلى الاحتمال الأول : يكون ذلك تعجيباً من جهالة أهل الشرك إذ كانوا يقيسون صفات الله تعالى على صفات الناس فيحسبون أن الله لا يطلع على ما يحجبونه عنه .

وقد روي أن الآية أشارت إلى ما يفعله المشركون أن أحدهم يدخل بيته ويرخي الستر عليه ويستغشي ثوبه ويحني ظهره ويقول : هل يعلم الله ما في قلبي ؟ وذلك من جهلهم بعظمة الله .

ففي "البخاري" عن ابن مسعود : اجتمع عند البيت قريشيان وثقفي ، كثيرة شحم بطونهم قليلة فقه قلوبهم ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع ما نقول ؟ قال الآخر : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا .

وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ [فصلت : 22 ، 23] .

وجميع أخطاء أهل الضلالة في الجاهلية والأديان الماضية تسري إلى عقولهم من النظر السقيم ، والأقيسة الفاسدة ، وتقدير الحقائق العالية بمقادير متعارفهم وعوائدهم ، وقياس الغائب على الشاهد .

وقد ضل كثير من فرق المسلمين في هذه المسالك لولا أنهم ينتهون إلى معلومات ضرورية من الدين تعصمهم عند الغاية عن الخروج عن دائرة الإسلام وقد جاء بعضهم وأوشك أن يقع .

وعلى الاحتمال الثاني : فهو تمثيل لحالة إضمارهم العداوة للنبيء صلى الله عليه وسلم في نفوسهم وتمويه ذلك عليه وعلى المؤمنين به بحال من يثني صدره ليخفيه ومن يستغشي ثوبه على ما يريد أن يستره به .

وهذا الاحتمال لا يناسب كون الآية مكية إذ لم يكن المشركون يومئذٍ بمصانعين للنبيء صلى

الله عليه وسلم وتأويلها بإرادة أهل النفاق يقتضي أن تكون الآية مدنية .

وهذا نقله أحد من المفسرين الأولين .

(164/373)

وفي "أسباب النزول" للواحدي أنها نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زُهرة وكان رجلاً حُلو المنطق ، وكان يظهر المودة للنبيء صلى الله عليه وسلم وهو منطو على عداوته ، أي عداوة الدين ، فضرب الله ثني الصدور مثلاً لإضماره بغض النبي صلى الله عليه وسلم فهو تمثيل وليس بحقيقة .

وصيغة الجمع على هذا مستعملة في إرادة واحدة لقصد إبهامه على نحو قوله : ﴿ الذين قال لهم الناس ﴾ [آل عمران : 173] قيل فإنه هو الأخنس بن شريق .

ووقع في "صحيح البخاري" أن ابن عباس سئل عن هذه الآية فقال : كان ناس من المسلمين يستخفون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزلت هذه الآية .

وهذا التفسير لا يناسب موقع الآية ولا اتساق الضمائر .

فلعل مراد ابن عباس أن الآية تنطبق على صنيع هؤلاء وليس فعلهم هو سبب نزولها .

واعلم أن شأن دعوة الحق أن لا تذهب باطلاً حتى عند من لم يصدقوا بها ولم يتبعوها ، فإنها تَلفت عقولهم إلى فَرض صدقها أو الاستعداد إلى دفعها ، وكل ذلك يثير حقيقتها ويُشيع دراستها .

وكم من معرضين عن دعوة حق ما وسعهم إلا التحفز لشأنها والإفاقة من غفلتهم عنها .

وكذلك كان شأن المشركين حين سمعوا دعوة القرآن إذْ أخذوا يتدبرون وسائل مقاومتها ونقضها والتفهم في معانيها لإيجاد دفعها ، كحال العاصي بن وائل قال لخباب بن الأرَتّ حين تقاضاه أجرَ سيف صنعه فقال له : لا أقضيكه حتى تكفر بمحمد .

فقال خَباب : لا أكفر به حتى يميتك الله ثم يحييك .

فقال العَاصي له : إذا أحياني الله بعد موتي فسيكون لي مال فأقضيك منه .

فنزل فيه قوله تعالى : ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً ﴾ [مريم : 77] .

وهذا من سوء فهمه لمعنى البعث وتوهمه أنه يُعاد لما كان حاله في الدنيا من أهل ومال .

والاستخفاء : الاختفاء ، فالسين والتاء فيه للتأكيد مثل استجاب واستأخر .

وجملة : ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم ﴾ الخ يجوز أن تكون إتماماً لجملة ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ﴾ متصلة بها فيكون حرف ﴿ ألا ﴾ الثاني تأكيداً لنظيره الذي في الجملة قبله لزيادة تحقيق الخبر ، فيتعلق ظرف (حين) بفعل ﴿ يثنون صدورهم ﴾ ويتنازعه مع فعل ﴿ يَعلم ما يسرون ﴾ وتكون الحالة الموصوفة حالة واحدة مركبة من ثني الصدور واستغشاء الثياب .

والاستغشاء : التغشي بما يُغْشي ، أي يستر ، فالسين والتاء فيه للتأكيد مثل قوله : ﴿ واستغشوا ثيابهم ﴾ [نوح : 7] ، مثل استجاب .

وزيادة ﴿ وما يعلنون ﴾ تصريح بما فهم من الكلام السابق لدفع توهم علمه بالخفيات دون الظاهر .

وجملة : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ نتيجة وتعليل للجملة قبله ، أي يعلم سرهم وجهرهم لأنه شديد العلم بالخفي في النفوس وهو يعلم الجهر بالأوْلى .

فذات الصدور صفة لمحذوف يُعلم من السياق من قوله ﴿ عَليم ﴾ أي الأشياء التي هي صاحبة الصدور .

وكلمة (ذات) مؤنث (ذو) يتوصل بها إلى الوصف بأسماء الأجناس ، وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله تعالى : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ [الأنفال : 43] وقوله : ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ في سورة [الأنفال : 1] .

والصدور مراد بها النفوس لأن العرب يعبرون عن الحواسّ الباطنية بالصدر .

واختيار مثال المبالغة وهو عليم ﴾ لاستقصاء التعبير عن إحاطة العلم بكل ما تسعه اللغة الموضوعة لمتعارف الناس فتقصر عن ألفاظٍ تعبر عن الحقائق العالية بغير طريقة استيعاب ما يصلح من المعبرات لتحصيل تقريب المعنى المقصود .

وذات الصدور : الأشياء المستقرة في النفوس التي لا تعدوها .

فأضيفت إليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(166/373)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾

يبين تعالى في هذه الآية الكريمة . أنه لا يخفى عليه شيء ، وأن السر كالعلانية عنده ، فهو عالم بما تنطوي عليه الضمائر وما يعلن وما يسرن والآيات المبينة لهذا كثيرة جداً كقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ [ق : 16] وقوله جل وعلا : ﴿ واعلموا أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فاحذروه ﴾ [البقرة : 235] وقوله : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف : 7] ، وقوله ﴾

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السمآء ﴾ [يونس : 61] الآية . وزلا تقلب ورقة من المصحف الكريم إلا وجدت فيها آية بهذا المعنى .

تنبيه مهم

(167/373)

اعلم أن الله تبارك وتعالى ما أنزل من السماء إلى الأرض واعظاً أكبر ، ولا زاجراً أعظم مما تضمنته هذه الآيات الكريمة وأمثالها في القرآن ، من أنه تعالى عالم بكل ما يعمله خلقه ، رقيب عليهم ، ليس بغائب عما يفعلون . وضرب العلماء لهذا الواعظ الأكبر . والزاجر الأعظم مثلاً ليصير به كالمحسوس ، فقالوا : لو فرضنا أن ملكاً قتّالا للرجال ، سفّاكاً للدماء شديد البطش والنكال على من انتهك حرمته ظلماً ، وسيافه قائم على رأسه ، والنطع مبسوط للقتل ، والسيف يقطر دماً ، وحول هذا الملك الذي هذه صفته جواريه وأزواجه وبناته ، فهل ترى أن أحداً من الحاضرين يهتم بريبة أو بحرام يناله من بنات ذلك الملك وأزواجه ، وهو ينظر إليه ، عالم بأنه مطلع عليه ؟ ! لا ، وكلا ! بل جميع الحاضرين يكونون خائفين ، وجلة قلوبهم ، خاشعة عيونهم ، ساكنة جوارحهم خوفاً من بطش ذلك الملك .

ولا شك [والله المثل الأعلى] أن رب السموات والأرض جل وعلا أشد علماً ، وأعظم مراقبة ، وأشد بطشاً ، وأعظم نكالا وعقوبة من ذلك الملك ، وحماه في أرضه محارمه .

فإذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربه جل وعلا ليس بغائب عنه ، وأ ، ه مطلع على كل ما يقول وما يفعل وما ينوي لان قلبه ، خشي الله تعالى ، وأحسن عمله لله جل وعلا .

ومن أسرار هذه الموعظة الكبرى أن الله تبارك وتعالى صرح بأن الحكمة التي خلق الخلق من أجلها هي أن يبتليهم أيهم أحسن عملاً ، ولم يقل : أيهم أكثر عملاً ، فالابتلاء في إحسان العلم ، كما قال تعالى في هذه السورة الكريمة : ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود : 7] الآية .

وقال في الملك : ﴿ الذي خَلَقَ الموت والحياة لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العزيز الغفور ﴾ [الملك : 2] .

(168/373)

ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خلق من أجلها هي أن يبتلي أي يختبر : بإحسان العمل فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار ، ولهذه الحكمة الكبرى سأل جبريل النَّبي صلى الله عليه وسلم عن هذا ليعلمه لأصحاب النَّبي صلى الله

عليه وسلم فقال : " أخبرني عن الإحسان " ، أي وهو الذي خلق لأجل الاختيار فيه ، فبين النَّبي صلى الله عليه وسلم أن الطريق إلى ذلك هي هذا الواعظ ، والزاجر الأكبر الذي هو مراقبة الله تعالى ، والعلم بأنه لا يخفى عليه شيء مما يفعل خلقه ، فقال له :

" الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك " .

واختلف العلماء في المراد بقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ وقوله ﴿ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ وفي مرجع الضمير في قوله : ﴿ مِنْهُ ﴾ .

فقال بعض العلماء : معنى ﴿ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ يزورون عن الحقن وينحرفون عنه ، لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدرهن وازور عنه وانحرف ثنى عنه صدره ، وطوى عنه كشحه . بهذا فسره الزمخشري في الكشاف .

قال مقيده – عفا الله عنه – وهذا المعنى معروف في كلام العرب ، فهم يعبرون باعوجاج الصدر عن العدول عن الشيء والميل عنه ، ويعبرون بإقامة الصدر عن القصد إلى الشيء وعدم الميل عنه .

فمن الأول قول ذي الرمة غيلان بن عقبة العدوي عدي الرباب :

خليلي عوجا بارك الله فيكما . . . على درامي من صدور الركائب

تكن عوجة يجزيكما الله عنده . . . بها الأجر أو تقضي ذمامة صاحب

يعنى : اثنيا صدور الركائب إلى دارمي :

ومن الثاني قول الشنفرى .

اقيموا بني أمي صدور مطيكم . . . فإني إلى القول سواكم لأميل

وقول الآخر :

أقول لأم زنباع أقيمي . . . صدور العيش شطر بني تميم

وقيل : نزلت هذه الآية الكريمة في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة .

كان حلو المنطق ، يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوي له بقلبه على ما يسوء .

(169/373)

وقيل نزلت في بعض المنافقين ، كان إذا مر بالنَّبي صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره ، وطوطأ رأسه وغطى وجهه لكيلا لا يراه النَّبي صلى الله عليه وسلم فيدعوه إلى الإيمان .

حكي معناه عن عبد الله بن شداد .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في قوم كانوا يكرهون أن يجامعوا أو يتغوطوا وليس بينهم وبين السماء حجاب ، يستحيون من الله .

وقال بعض العلماء : معنى ﴿ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ يغطون رؤوسهم لأجل كراهتهم

استماع كلام الله ، كقوله تعالى عن نوح : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعلوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ واستغشوا ثِيَابَهُمْ ﴾ [نوح : 7] الآية .

وقيل : كانوا إذا عملوا سوءاً ثنوا صدورهم وغطوا رؤوسهم ، يظنون أنهم إن فعلوا ذلك أخفوا به عملهم على الله جل وعلا . ويدل لهذا الوجه قوله تعالى : ﴿ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ الآية .

وقرأ ابن عباس هذه الآية الكريمة " ألا إنهم تثنوني صدورهم " وتثنوني مضارع اثنوني ، ووزنه افعوعل من الثني كما تقول احلولى من الحلاوة وصدورهم " في قراءة ابن عباس بالرفع فاعل تثنوني ، والضمير في قوله " منه " عائد إلى الله تعالى في أظهر القولين . وقيل : راجع إليه صلى الله عليه وسلم كما مر في الأقوال في الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(170/373)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾

وإذا وجد " ألا " في أول الكلام فأنت تعلم أنها للتنبيه ، ومعنى التنبيه أنه أمر يوقظ لك

السامع إن كان غافلاً ؛ لأنك تحب ألا تفوته كلمة من الكلام الذي تقوله .

وحين تنبهه بغير أداء الأسلوب الذي تريده منه ، هنا يكون التنبيه قد أخذ حقه ، ومن بعد ذلك يجيء الكلام الذي تقوله ، وقد تهيَّأ ذهن السامع لاستقبال ما تقول .

ف " ألا " إذن هي أداة تنبيه ؛ لأن الكلام ستار بين المتكلم والمخاطب ، والمخاطب لا يعرف الموضوع الذي ستكلمه فيه ، والمتكلم هو الذي يملك زمام الموقف ، وهو يهيىء ذهنه لترتيب ما يقول من كلمات ، أما المستمع فسوف يفاجأ بالموضوع ؛ وحتى لا يفاجأ ولا تضيع منه الفرصة ليلتقط كلمات المتكلم من أولها ، فهو ينبه بأداة تنبيه ليستمع .

ويقول الحق سبحانه هنا :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ [هود : 5] .

ويقال : ثنيت الشيء أي : طويته ، وجعلته جزئين متصلين فوق بعضهما البعض .

وحين يثني الإنسان صدره ، فهو يثنيه إلى الأمام ناحية بطنه ، ويداري بذلك وجهه ، والغرض هنا من مداراة الوجه هو إخفاء الملامح ؛ لأن انفعال مواجيد النفس البشرية ينضح على الوجوه ؟

وهم كارهون للرسول صلى الله عليه وسلم ، وحاقدون عليه ؛ ولا يريدون أن يلحظ الرسول صلى الله عليه وسلم ما على ملامحهم من انفعالات تفضح مواجيدهم الكارهة .

ومثل ذلك جاء من قوم نوح عليه السلام ، حين قال الحق سبحانه على لسان نوح :

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعلوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ واستغشوا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا واستكبروا استكبارا ﴾ [نوح : 7] .

(171/373)

ومن البداهة أن نعرف أن الإصبع لا تدخل كلها إلى الأذن ، إنما الأنملة تسد فقط فتحة السمع ، وعدّل القرآن الكريم ذلك بمبالغة تكشف موقف نوح عليه السلام ، فكل منهم أراد أن يُدخِل إصبعه في أذنه حتى لا يسمع أي دعوة ، وهذا دليل كراهية ، وهذه شهادة ضدهم ؛ لأنهم يفهمون أنهم لو سمعوا فقد تميل قلوبهم لما يقال .

ولذلك نجد أن القرآن الكريم وهو ينقل لنا ما قاله مشركو مكة لبعضهم البعض :

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لهذا القرآن والغوا فِيهِ ﴾ [فصلت : 26] .

فكأنهم تواصوا بالتشويش على القرآن ، ثقة منهم في أن القرآن لو تناهى إلى الأذن فقد يؤثر في نفسية السامع ؛ لأن النفس البشرية أغيار ، وقد تأتي للنفس ما يجعلها تميل دون أن يشعر صاحبها .

ولو كان هذا القرآن باطلاً ، فلماذا خافوا من سماعه ؟

ولكنه الغباء في العناد والكفر .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [هود : 5] .

وهم قد استغشوا ثيابهم ليغطوا وجوههم ؛ مداراة للانفعالات التي تحملها هذه الوجوه ، وهي انفعالات كراهية ، أو أنها قد تكون انفعالات أخرى ، فساعة يسمع واحد منهم القرآن قد ينفعل لما يسمع ، ولا يريد أن يُظهر الانفعال .

إذن : فالانفعال قد يكون قسرياً ، وكان كفار قريش رغم كيدهم وحربهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يتسللون ناحية بيت النبي صلى الله عليه وسلم ليسمعوا القرآن ، وكانوا يضبطون بعضهم البعض هنالك ، ويدّعي كل منهم أنه إنما مرَّ على بيت النبي صلى لله عليه وسلم مصادفة .

وفي ذلك يقول الشاعر :

اذكُروهُمْ وقد تسلَّل كلٌّ . . . بعدَ ما انفضَّ مجلسُ السُّمَّارِ

اختلاساً يسْعَى لحجرةِ طَهَ . . . لسَماعِ التنزيلِ في الأسْحَارِ

عُذْرهم حُسْنُهُ فلمّا تَراءَوْا . . . عَلَّلوها ببَارزِ الأعْذَارِ

وجاء الحق سبحانه وتعالى هنا في نفس الآية ب " ألا " في قوله :

﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [هود : 5] .

فهم إن داروا على محمد صلى الله عليه وسلم ، فهل هم قادرون على المداراة على رب محمد ؟ والذي لا يدركه بصر محمد فربُّ محمد سيُعلمه به .

وما دام الحق سبحانه يعلم ما يسرون ، فمن باب أولى أنه سبحانه وتعالى يعلم ما يعلنون .

والحق سبحانه وتعالى غيب ، وربما ظن ظان أنه قد يفلت منه شيء ، ولكن الحق سبحانه يُحصي ولا يُحصَى عليه ، فإن ظن ظان أن الحق سبحانه يعلم الغيب فقط ؛ لأنه غيب ، فهذا ظن خاطىء ؛ لأنه يعلم السر والعلن ، فهو عليم بذات الصدور ، وكلمة " عليم " صيغة مبالغة ، وهي ذات في كنهها العلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [هود : 5] .

نجد فيه كلمة ﴿ ذَاتِ ﴾ وهي تفيد الصحبة ، و (ذَاتِ الصُّدُورِ) أي : الأمور المصاحبة للصدور .

ونحن نعلم أن الصدر محل القلب ، ومحل الرئة ، والقلب محل المعتقدات التي انتُهي إليها ،

وصارت حقائق ثابتة ، وعليها تدور حركة الحياة .

ويُقصد ب ﴿ بِذَاتِ الصدور ﴾ أي : المعاني التي لا تفارق الصدور ، فهي صاحبات دائمة الوجود في تلك الصدور ، سواء أكانت حقداً أو كراهية ، أو هي الأحاسيس التي لا تظهر في الحركة العادية ، سواء أكانت نية حسنة أو نية سيئة .

وكل الأمور التي يسمونها ذات الصدور ، أي : صاحبات الصدور ، وهي القلوب ، وكأن الجِرْم نفسه وهو القلب معلوم للحق سبحانه وتعالى ، فخواطره من باب أولى معلومة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(173/373)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (5) ﴾

أخرج البخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق محمد بن عباد بن جعفر عن ابن عباس رضي الله عنهما . أنه قرأ ﴿ ألا إنهم يثنون

صدورهم ﴾ وقال أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم .

وأخرج البخاري وابن مردويه من طريق عمرو بن دينار رضي الله عنه قال : قرأ ابن عباس رضي الله عنهما " ألا إنهم تثنوا في صدورهم " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر من طريق ابن أبي مليكة رضي الله عنه قال : سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول " ألا إنهم تثنوا في صدورهم " قال : كانوا لا يأتون النساء ولا الغائط إلا وقد تغشوا بثيابهم كراهة أن يفضوا بفروجهم إلى السماء .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ﴾ قال : الشك في الله وعمل السيئات .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله بن شداد بن الهاد رضي الله عنه في قوله ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ﴾ قال : كان المنافقون إذا مر أحدهم بالنبي صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وتغشى ثوبه لكيلا يراه فنزلت .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ يثنون صدورهم ﴾ قال : تضيق شكاً وامتراء في الحق ﴿ ليستخفوا منه ﴾ قال : من الله إن استطاعوا .

وأخرج ابن جرير عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم ﴾ قال : في ظلمة الليل في أجواف بيوتهم .

(174/373)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي رزين رضي الله عنه في الآية قال : كان أحدهم يحني ظهره ويستغشى بثوبه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله . قال تعالى ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون ﴾ وذلك أخفى ما يكون ابن آدم إذا حنى ظهره واستغشى بثوبه وأضمر همه في نفسه ، فإن الله لا يخفى ذلك عليه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ﴾ يقول : يكتمون ما في قلوبهم ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ﴾ ما عملوا بالليل والنهار .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني رضي الله عنه في قوله ﴿ يثنون صدورهم ﴾ يقول : يطأطئون رؤوسهم ويحنون ظهورهم .

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن كعب رضي الله عنه في قوله ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم ﴾ قال : في ظلمة الليل وظلمة اللحاف .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ﴾ قال : يكبون ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم ﴾ قال : يغطون رؤوسهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(175/373)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَثْنُونَ ﴾ : قراءةُ الجمهورِ بفتح الياء وسكونِ الثاءِ المثلثةِ ، وهو مضارعُ ثنى يَثْني ثَنْياً ، أي : طوى وزوى ، و " صدورَهم " مفعول به والمعنى : "يَحْرِفون صدورَهم ووجوههم عن الحق وقبولِه " والأصل : يَثْنِيُون فأُعِلَّ بحذفِ الضمةِ عن الياء ، ثم تُحْذَفُ الياءُ لالتقاءِ الساكنين .

وقرأ سعيد بن جبير "يُثْنُون " بضم الياء وهو مضارع أثنى كأكرم . واستشكل الناسُ هذه

القراءةَ فقال أبو البقاء : " ماضيه أَثْنى ، ولا يُعرف في اللغة ، إلا أن يُقالَ : معناه عَرَضوها للانثناء ، كما يُقال : أَبَعْتُ الفرسَ : إذا عَرَضْتَه للبيع " . وقال صاحب " اللوامح " : " ولا يُعرف الإِثناء في هذا الباب ، إلا أن يُرادَ بها : وَجَدْتُها مَثْنِيَّة ، مثل : أَحْمَدْتُه وأَمْجَدْتُه ، ولعله فتح النون ، وهذا ممَّا فُعِل بهم فيكون نصب " صدورَهم " بنزع الجارِّ ، ويجوز إلى ذلك أن يكون " صدورهم " رَفْعاً على البدلِ بدلِ البعض من الكل " . قلت : يعني بقوله : " فلعله فتح النون " ، أي : ولعل ابنَ جبير قرأ ذلك بفتح نونِ "يُثْنَون " فيكون مبنياً للمفعول ، وهو معنى قولِه " وهذا مما فُعِل بهم ، أي : وُجِدوا كذلك ، فعلى هذا يكون " صدورَهم " منصوباً بنزع الخافض ، أي : في صدورهم ، أي : يوجد الثَّنْيُ في صدورهم ، ولذلك جَوَّز رفعَه على البدل كقولك : " ضُرِب زيدٌ الظهرُ " . ومَنْ جوَّز تعريفَ التمييز لا يَبْعُدُ عنده أن ينتصبَ " صدورَهم " على التمييز بهذا التقديرِ الذي قدَّره .

(176/373)

وقرأ ابن عباس وعلي بن الحسين وابناه زيد ومحمد وابنه جعفر ومجاهد وابن يعمر وعبد الرحمن بن أبزى وأبو الأسود : " تثنونى " مضارع " اثنونى " على وزن افْعَوْعَل من الثَّنْي كاحلولى من الحَلاوة وهو بناءُ مبالغةٍ ، " صدورُهم " بالرفع على الفاعلية ، ونُقِل عن ابن

عباس وابن يعمر ومجاهد وابن أبي إسحاق : " يثنونى صدورُهم " بالتاء والياء ، لأن التأنيثَ مجازيٌّ ، فجاز تذكيرُ الفعلِ باعتبار تأوُّل فاعِله بالجمع ، وتأنيثُه باعتبار تَأْويل فاعِله بالجماعة .

وقرأ ابن عباس أيضاً وعروة وابن أبزى والأعشى " تَثْنَونُّ " بفتح التاء وسكونِ الثاء وفتح النون وكسر الواو وتشديد النون الأخيرة والأصلُ : تَثْنَوْنِنُ بوزن تَفْعَوْعِلُ وهو الثِّنُّ وهو ما هشَّ وضَعُفَ مِن الكلأ ، يريد مطاوعةَ نفوسِهم للثَّنْي كما يُثْنى الهشُّ من النبات ، أو أراد ضَعْفَ إيمانهم ومرض قلوبهم . و " صدورُهم " بالرفع على الفاعلية .

وقرأ مجاهد وعروة أيضاً كذلك ، إلا أنهما جَعَلا مكانَ الواوِ المكسورة همزةً مكسورةً فأخرجاها مثل " تطمئن " . وفيها تخريجان ، أحدهما : أنَّ الواوَ قُلِبَتْ همزةً لاستثقال الكسرة عليها ، ومثله إعاء وإشاح في وِعاء ووشاح ، لَمَّا استثقلوا الكسرةَ على الواو أبدلوها همزةً .

والثاني : أن وزنه تَفْعَيِلٌّ من الثِّن وهو ما ضَعُف من النبات كما تقدم ، وذلك أنه مضارع ل " اثْنانَّ " مثل احْمارَّ واصْفارَّ ، وقد تقدَّم لك أن مِن العرب مَنْ يقلبُ مثلَ هذه الألفِ همزةً كقوله :

2635 . . . . . .

بالعَبيطِ ادْهَأَمَّتِ

فجاء مضارع اثْنَأَنَّ على ذلك كقولك : احْمَأَرَّ يَحْمَئِرُّ كاطمأَنَّ يطمئِنُّ . وأمَّا " صدورُهم " فبالرفع على ما تقدم .

(177/373)

وقرأ الأعشى أيضاً " تَثْنَؤُوْنَ " بفتح التاء وسكون المثلثة وفتح النون وهمزةٍ مضمومةٍ وواوٍ ساكنةٍ بزنة تَفْعَلُون كتَرْهَبُون . " صدورَهم " بالنصب . قال صاحب " اللوامح " ولا أعرفُ وجهَه لأنه يُقال " ثَنَيْتُ " ولم أسمعْ " ثَنَأْت " ، ويجوز أنه قلبَ الياءَ ألفاً على لغة مَنْ يقول " أَعْطَات " في أَعْطَيْت ، ثم هَمَزَ الألفَ على لغةِ مَنْ يقول ﴿ وَلاَ الضأَلين ﴾ [الفاتحة : 7] .

وقرأ ابنُ عباس أيضاً " تَثْنَوي " بفتح التاء وسكون/ المثلثة وفَتْحِ النونِ وكسرِ الواو بعدها ياءٌ ساكنةً بزِنَة تَرْعَوي وهي قراءةٌ مُشْكلة جداً حتى قال أبو حاتم : " وهذه القراءةُ غلطٌ لا تتَّجه " وإنما قال : إنها غلط ؛ لأنه لا معنى للواو في هذا الفعل إذ لا يُقال : " ثَنَوْتُه فانثوى كرَعَوْته ، أي : كَفَفْتُه فارعوى ، أي : فانكفَّ ووزنه افعلَّ كاحمرَّ .

وقرأ نصر بن عاصم وابن يَعْمر وابن أبي إسحاق " يَثْنُون " بتقديم النون الساكنة على المثلثة .

وقرأ ابنُ عباس أيضاً " لَتَثْنَوْنِ " بلام التأكيد في خبر " إنَّ " وفتح التاءِ وسكون المثلثة وفتح النون وسكون الواو بعدها نونٌ مكسورةٌ وهي بزنة تَفْعَوْعِلُ ، كما تقدَّم ، إلا أنها حُذِفَت التاء التي هي لامُ الفعل تخفيفاً كقولهم : لا أدرِ وما أَدْرِ . و " صدورُهم " فاعلٌ كما تقدم .

(178/373)

وقرأ طائفةٌ : " تَثْنَؤُنَّ " بفتح التاء ثم ثاء مثلثة ساكنة ثم نونٍ مفتوحةٍ ثم همزةٍ مضمومةٍ ثم نون مشددة ، مثل تَقْرَؤُنَّ ، وهو مِنْ ثَنَيْتُ ، إلا أنه قَلَبَ الياءَ واواً لأن الضمةَ تنافِرُها ، فجُعِلَت الحركةُ على مجانِسها ، فصار اللفظ تَثْنَوُوْنَ ثم قُلبت الواوُ المضمومةُ همزةً كقولهم : " أُجوه " في " وُجوه " و " أُقِّتَتْ " في " وقِّتت " فصار " تَثْنَؤُون " ، فلمَّا أُكِّد الفعلُ بنونِ التوكيد حُذِفَتْ نونُ الرفع فالتقى ساكنان : وهما واوُ الضمير والنون الأولى مِنْ نون التوكيد ، فحُذِفَتْ الواو وبقيت الضمةُ تدلُّ عليها فصار تَثْنَؤُنَّ كما ترى . و " صدورَهم " منصوب مفعولاً به فهذه إحدى عشرةَ قراءةً بالغْتُ في ضبطها باللفظ وإيضاح تصريفها ؛ لأني رأيتها في الكتب مهملةً من الضبط باللفظ وغالبِ التصريف ، وكأنهم اتَّكلوا في ذلك على الضبطِ بالشكل في الكتابة وهذا متعبٌ جداً .

قوله ﴿ لِيَسْتَخْفُوا ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أن هذه اللام متعلقةٌ ب " يَثْنُون " وكذا قاله

الحوفي ، والمعنى أنهم يفعلون ثَنْي الصدورِ لهذه العلة .

وهذا المعنى منقولٌ في التفسير ولا كُلْفَةَ فيه . والثاني : أن اللام متعلقةٌ بمحذوفٍ ، قال الزمخشري : " لِيَسْتَخْفُوا منه " يعني ويريدون : ليستَخْفُوا من اللَّه فلا يُطْلِعُ رسولَه والمؤمنين على ازْورارهم ، ونظيرُ إضمارِ " يريدون " لعَوْدِ المعنى إلى إضماره الإِضمارُ في قولِه تعالى : ﴿ أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق ﴾ [الشعراء : 63] معناه : " فضرب فانفلق " قلت : ليس المعنى الذي يقودُنا إلى إضمار الفعل هناك كالمعنى هنا ؛ لأن ثَمَّ لا بد منْ حذفِ معطوفٍ يُضْطر العقلُ إلى تقديره ؛ لأنه ليس مِن لازم الأمر بالضرب انفلاقُ البحر فلا بد أن يُتَعقَّل " فضرب فانفلق " ، وأمَّا في هذه فالاستخفاف علة صالحةٌ لتَثْنيهم صدورَهم فلا اضطرار بنا إلى إضمار الإِرادة .

(179/373)

والضميرُ في " منه " فيه وجهان ، أحدهما : أنه عائد على رسولِ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وهو ظاهرٌ على تعلُّق اللام ب " يَثْنون " . والثاني : أنه عائدٌ على اللَّه تعالى كما قال الزمخشري .

قوله : ﴿ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ﴾ في هذا الظرف وجهان ، أحدهما : أنَّ ناصبَه مضمرٌ ،

فقدَّره الزمخشري ب " يريدون " كما تقدَّم ، فقال : " ومعنى ألا حين يَسْتَغْشُون ثيابهم : ويريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابَهم أيضاً كراهةً لاستماع كلامِ اللَّه كقولِ نوحٍ عليه السلام ﴿ جعلوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ واستغشوا ثِيَابَهُمْ ﴾ [نوح : 7] ، وقدَّره أبو البقاء فقال : " ألا حين يَسْتَغْشون ثيابهم يَسْتخفون " . والثاني : أن الناصبَ له " يَعْلَمُ " ، أي : ألا يعلمُ سِرَّهم وعَلَنهم حين يفعلون كذا ، وهو معنى واضح ، وكأنهم إنما جوَّزوا غيره لئلا يلزم تقييد علمه تعالى بسرِّهم وعَلَنِهم بهذا الوقت الخاص ، وهو تعالى عالمٌ بذلك في كل وقت . وهذا غيرُ لازمٍ ، لأنه إذا عُلِم سِرُهم وعلنُهم في وقتِ التغشية الذي يخفى فيه السرُّ فأَوْلى في غيره ، وهذا بحسب العادةِ وإلا فاللَّهُ تعالى لا يتفاوتُ عِلْمُه . و " ما " يجوز أن تكونَ " مصدريةً " ، وأن تكونَ بمعنى الذي ، والعائد محذوف ، أي : تُسِرُّونه وتُعْلِنونه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 284 . 289 ﴾

(180/373)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾

أي يسترون ما تنطوي عليه عقائدهم ، ويُضْمِرون للرسول – عليه السلام – وللمؤمنين خِلاَفَ ما يُظْهِرون ، والحقُّ – سبحانه – مُطَّلِعٌ على قلوبهم ، ويعلم خفايا صدورهم ، فتلبيسُهم لا يُغْنِي عنهم من الله شيئاً ، وكان الله – سبحانه – يُطْلِعُ رسولَه – عليه السلام – على ما أخْفَوْه إمَّا بتعريفِ الوحي ، أو بإشهادٍ لقُوَّةِ نورٍ ، وكذلك المؤمنون كانوا مخصوصين بالفراسة ، فكل مؤمن له بِقَدْرِ حاله من الله هداية ، قال صلى الله عليه وسلم : " اتقوا فراسةَ المؤمن ينظر بنور الله " ولقد قال قائلهم .

أَبِعَيْنِي أَرَاكَ أَمْ بفؤادي ؟ . . . كلٌّ ما في الفؤاد للعين بادِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 123 ﴾

(181/373)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة هود (11) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1)

الإعراب :

(الر) ، حروف مقطّعة لا محلّ لها من الإعراب " 1 " ، (كتاب) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا القرآن (أحكمت) فعل ماض مبنيّ للمجهول . . و (التاء) للتأنيث (آيات) نائب الفاعل مرفوع و (الهاء) ضمير في محلّ القرآن (أحكمت) فعل ماض مبنيّ للمجهول . . و (التاء) للتأنيث (آيات) نائب الفاعل مرفوع و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (ثمّ) حرف عطف (فصّلت) مثل أحكمت ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هي (من) حرف جر (لدن) اسم مبنيّ على السكون في محلّ جرّ متعلّق بـ (فصّلت) أو بـ (أحكمت) " 2 " ، (حكيم) مضاف إليه مجرور (خبير) بدل من حكيم أو نعت له مجرور .

جملة : " (هذا . .) كتاب . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " أحكمت آياته . . . " في محلّ رفع نعت لكتاب .

---

(1) انظر الآية الأولى من سورة البقرة .

(2) يجوز أن يتعلّق بمحذوف خبر ثان للمبتدأ هذا ، كما يجوز أن يكون نعتا لكتاب .

وجملة : " فصّلت . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أحكمت .

الفوائد

ورد في هذه الآية قوله تعالى ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ لدن : هي ظرف بمعنى عند .

وقد أورد أبو البقاء العكبري ، وابن هشام ، الفارق بينهما وسنوضح ذلك فيما يلي :

1 – ما يقوله العكبري :

هي مبنية على الرغم من مجيئها مضافة ، لأن علة بنائها خروجها عن نظيرها ، لأن لدن بمعنى عند ، ولكن هي (أي لدن) مخصوصة بملاصقة الشيء وشدة مقاربته ، و (عند) ليست كذلك ، بل هي للقريب وما بعد عنه ، وتفيد معنى الملك .

2 – ما يقوله ابن هشام :

تعاقب (عند) كلمتان (ومعنى تعاقب أي تشابه وتقارب في المعنى) وهما :

(183/373)

لدى " مطلقا " كقوله تعالى إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ وقوله تعالى وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ .

و(لدن) وتستعمل إذا كان المحل محل ابتداء غاية ، نحو (جئت من لدنه) . وقد اجتمعتا في قوله تعالى آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً فقد اجتمع عند ولدن في هذه

الآية . وتختلف (لدن) عن (عند) بأن جرها بمن أكثر من نصبها ، حتى إنها لم تجيء في التنزيل منصوبة ، أما (عند) فتجر كثيرا . وأما (لدى) فيمتنع جرها . وهناك فرق آخر وهو أن (عند) و (لدى) معربان و (لدن) مبنية في لغة الأكثرين . وكذلك فإن (لدن) قد تضاف للجملة ، بخلاف عند ولدي ، كقول القطامي :

صريع غوان راقهنّ ورقنه لدن شبّ حتى شاب سود الذوائب

[سورة هود (11) : آية 2]

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2)

الإعراب :

(أن) حرف مصدريّ ونصب " 1 " ، (لا) نافية " 2 " ، (تعبدوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (إلّا) أداة حصر (اللّه) مفعول به منصوب . والمصدر المؤوّل (ألّا تعبدوا . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف أي بألّا تعبدوا ، أو لئلّا تعبدوا . . متعلّق بفعل فصّلت " 3 " .

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل و (النون) للوقاية و (الياء) ضمير مبنيّ في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنذير (من) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنذير " 4 " ، (نذير) خبر إنّ مرفوع (بشير) معطوف بالواو على نذير مرفوع مثله .

جملة : " تعبدوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ " 5 " .

وجملة : " إنّني . . نذير " لا محلّ لها في حكم التعليليّة أو استئناف بيانيّ .

---

(1) أو مخفّفة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن و (لا) ناهية جازمة ، والجملة خبر أن المخففة وحينئذ يستحسن إملائيّا أن تكتب منفصلة (أن لا) . . أو هو حرف تفسير – وهو اختيار أبي حيّان .

(2) أو ناهية جازمة في حال كون (أن) مخفّفة من الثقيلة ، أو تفسيريّة . [. . . . .]

(3) أجاز بعضهم أن يكون المصدر المؤوّل خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هي . . وقد ردّ ذلك أبو حيان .

(4) يعود الضمير على الكتاب . . ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف حال – نعت تقدّم على المنعوت – ويعود الضمير حينئذ على لفظ الجلالة أو على الكتاب .

(5) أو هي تفسيريّة ، سبقت (أن) بفعل فصلت وفيه معنى القول دون حروفه ، وهذا أظهر لأنه لا يحتاج إلى إضمار .

[سورة هود (11) : آية 3]

وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (أن) مثل السابق " 1 " ، (استغفروا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (ربّ) مفعول به منصوب و (كم) ضمير مضاف إليه (ثمّ) حرف عطف (توبوا) مثل استغفروا (إلى) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محل جرّ متعلّق بـ (توبوا) ، (يمتّع) مضارع مجزوم جواب الطلب و (كم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو أي اللّه (متاعا) مفعول مطلق نائب عن مصدره الأصليّ تمتيع ، منصوب (حسنا) نعت لمتاع منصوب (إلى أجل) جارّ ومجرور متعلّق بفعل يمتّعكم (مسمّى) نعت لأجل مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة (الواو) عاطفة (يؤت) مضارع مجزوم معطوف على (يمتّع) وعلامة الجزم حذف حرف العلّة والفاعل هو (كلّ) مفعول به منصوب (ذي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء (فضل) مضاف إليه مجرور (فضله) مفعول به ثان منصوب . . و (الهاء) مضاف إليه . والمصدر المؤوّل (أن استغفروا) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل (ألّا تعبدوا) . (الواو) استئنافيّة (إن) حرف شرط جازم (تولّوا) مضارع مجزوم محذوف منه إحدى التاءين ، وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّ)

حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و (الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (أخاف) فعل مضارع والفاعل أنا (على)

---

(1) في الآية السابقة (2) .

(185/373)

حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أخاف) " 1 " ، (عذاب) مفعول به منصوب (يوم) مضاف إليه مجرور (كبير) نعت ليوم مجرور .

جملة : " استغفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) " 2 " .

وجملة : " توبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة استغفروا .

وجملة : " يمتّعكم . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي : إن تتوبوا يمتّعكم .

وجملة : " يؤت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يمتّعكم .

وجملة : " تولّوا " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّي أخاف . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " أخاف . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

[سورة هود (11) : آية 4]

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4)

الإعراب :

(إلى اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (مرجع) مبتدأ مؤخّر مرفوع و (كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة " 3 " ، (هو) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (على كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بقدير (شي ء) مضاف إليه مجرور (قدير) خبر المبتدأ مرفوع.

جملة : " إلى اللّه مرجعكم . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) أو بمحذوف حال من عذاب - نعت تقدّم على المنعوت.

(2) أو معطوفة على التفسيرية في الآية السابقة إذا أعربت (أن) تفسيريّة.

(3) أو هي الواو الحال ، والجملة بعدها حال من لفظ الجلالة ، والعامل فيها هو الاستقرار.

وجملة : " هو . . قدير " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

[سورة هود (11) : آية 5]

أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (5)

الإعراب :

(ألا) أداة تنبيه (إنّهم) مثل إنّي " 1 " ، (يثنون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (صدور) مفعول به منصوب و (هم) ضمير متّصل مضاف إليه (اللام) للتعليل (يستخفوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (من) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يستخفوا) ، والضمير يعود على اللّه . والمصدر المؤوّل (أن يستخفوا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يثنون) .

(ألا) مثل الأولى (حين) ظرف منصوب متعلّق بـ (يعلم) " 2 " ، (يستغشون ثيابهم) مثل يثنون صدورهم (يعلم) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 3 " ، والعائد محذوف (يسرّون) مثل يثنون (الواو) عاطفة (ما يعلنون) مثل ما يسرّون ومعطوف عليه (إنّه) مثل إنّي " 4 " ، (عليم) خبر مرفوع (بذات) جارّ

---

(1) في الآية (3) من هذه السورة .

(2) علّق الزمخشريّ الظرف بمحذوف تقديره يريدون الاستخفاء حين يستغشون . .

وذلك حتّى لا يلزم تقييد علمه تعالى سرّهم وعلنهم بهذا الوقت الخاص . وعلّق أبو البقاء الظرف بمحذوف تقديره يستخفون وبفعل يعلم . وعلّقه أبو حيّان وغيره بفعل يعلم لأنه لا ضرورة للتقدير إذ لا التباس في المعنى .

(3) أو هو حرف مصدريّ ، والمصدر المؤوّل مفعول به .

(4) في الآية – 3 – من هذه السورة .

(187/373)

ومجرور متعلّق بعليم (الصدور) مضاف إليه مجرور .

جملة : " إنّهم يثنون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يثنون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يستخفوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " يستغشون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يعلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يسرّون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسميّ أو الحرفيّ .

وجملة : " يعلنون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " إنّه عليم . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(يثنون) ، فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف ، أصله يثنيون بضمّ الياءين ، استثقلت الضمّة على الياء الثانية فسكّنت ونقلت حركتها إلى النون – إعلال بالتسكين – ثمّ حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة – إعلال بالحذف – وزنه يفعون .

(يستخفوا) ، فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف جرى فيه مجرى يثنون . . . وزنه يستفعون .

(يستغشون) ، فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف جرى فيه مجرى يثنون وزنه يستفعون .

(ثياب) ، جمع ثوب ، اسم جامد بمعنى اللباس ، وزنه فعل بفتح فسكون ، ووزن ثياب فعال بكسر الفاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 11 صـ 213.220 ﴾

(188/373)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(11) سورة هود

مكية وآياتها ثلاث وعشرون ومائه

[سورة هود (11) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4)

اللغة :

(أُحْكِمَتْ آياتُهُ) : نظمت نظما رصينا محكما لا يعتوره نقض ولا خلل كأنه البناء المحكم المرصف ويجوز أن يكون نقلا بالهمزة من حكم بضم الكاف أي صار حكيما وقيل معناه منعت من الفساد

من قولهم أحكمت الدابة إذا وضعت فيها الحكمة لتمنعها من الجماع قال جرير :

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا

وقد تقدم بحث مسهب عن الحكمة في القرآن وسيرد المزيد منها أيضا .

الاعراب :

)

الر ، كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ) الر تقدم القول فيها وكتاب خبر مبتدأ محذوف أي هذا كتاب وجملة أحكمت آياته صفة لكتاب وآياته نائب فاعل . (ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وفصت فعل ماض مبني للمجهول ومن حرف جر ولدن ظرف مبني على السكون في محل جر وهما متعلقان بفصلت أو بمحذوف صفة لكتاب وهذا أولى لأنه وصف أولا بإحكام آياته وتفصيلها الدالين على علو رتبته من حيث الذات ثم وصف بهذه الصفة الدالة على علو شأنه من حيث الاضافة ، وحكيم مضاف إلى لدن وخبير صفة لحكيم . (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) يجوز أن تكون أن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ولا ناهية وتعبدوا مجزوم بلا والجملة خبر أن المخففة ، ويجوز أن تكون أن حرفا مصدريا ناصبا ولا نافية والفعل بعدها منصوب بأن وأن وما في حيزها مفعول لأجله بتقدير اللام على معنى لئلا تعبدوا ويجوز أن تكون تفسيرية لأن في تفصيل الآيات معنى القول كأنه قيل : قال لا تعبدوا إلا اللّه أو أمركم أن لا تعبدوا إلا اللّه ولعل هذا أسهل من الوجهين السابقين وإن كانت

الأوجه الثلاثة متساوية في الرجحان ، وإلا أداة حصر ولفظ الجلالة مفعول به وإن واسمها ونون الوقاية بينهما ولكم جار ومجرور متعلقان بنذير وبشير ومنه حال ونذير خبر إن وبشير عطف على نذير . (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) الواو عاطفة وأن معطوفة على أن الأولى عطف علة على أخرى وتجري مجراها في الاعراب وربكم مفعول استغفروا ثم حرف عطف وتوبوا عطف على أن استغفروا فهو علة ثالثة وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون " وأن استغفروا " وما بعده كلاما مبتدأ منقطعا عما قبله على لسان النبي صلى اللّه عليه وسلم إغراء منه على اختصاص اللّه بالعبادة ويدل عليه قوله : إنني لكم منه نذير وبشير . (يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى) يمتعكم فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وهو قوله إن استغفروا ربكم والكاف مفعول به ومتاعا مفعول مطلق وحسنا صفة والى أجل متعلقان بيمتعكم ومسمى صفة لأجل . (وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) الواو عاطفة ويوت عطف على يمتعكم مجزوم مثله وعلامة جزمه حذف حرف العلة والفاعل هو أي اللّه وكل مفعول به أول وذي فضل مضاف اليه وفضله مفعول به ثان . (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) الواو عاطفة وإن شرطية وتولوا فعل مضارع أصله تتولوا مجزوم لأنه فعل الشرط والواو فاعل والفاء رابطة وان واسمها وجملة أخاف عليكم خبر إن وجملة فإني أخاف عليكم في محل جزم جواب الشرط وعذاب مفعول به ويوم مضاف اليه

وكبير صفة ليوم ويوم القيامة وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل . (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) إلى اللّه خبر مقدم ومرجعكم مبتدأ مؤخر وهو مبتدأ وعلى كل شيء جار ومجرور متعلقان بقدير وقدير خبر هو .

[سورة هود (11) : الآيات 5 إلى 8]

(191/373)

أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (5)

اللغة :

(يَثْنُونَ) : الثني : العطف تقول ثنيته عن كذا أي عطفته ومنه الاثنان لعطف أحدهما على الآخر في المعنى ومنه الثناء لعطف المناقب في المدح ومنه الاستثناء لأنه عطف عليه بالإخراج منه ، وأصل يثنون يثنيون لأنه من باب يرمي فالمصدر الثني نقلت ضمة الياء إلى النون قبلها ثم حذفت لالتقاء الساكنين فوزنه يعفون لأن الياء المحذوفة هي لام الكلمة وقال الزمخشري : يثنون عنه : يزورون عن الحق وينحرفون عنه لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدره ومن ازورّ عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه .

(لِيَسْتَخْفُوا) : الاستخفاء : طلب خفاء الشيء قال استخفى وتخفّى .

(يَسْتَغْشُونَ) : يطلبون الغطاء قالت الخنساء .

أرعى النجوم وما كلفت رعيتها وتارة أتغشّى فضل اطماري

وفي القاموس : واستغشى ثوبه تغطّى به كيلا يسمع ولا يرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 4 صـ 309 . 313﴾

(192/373)

قوله تعالى ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم أتبع ذلك بما يدل على شمول العلم والقدرة معاً فقال : ﴿ وما ﴾ وأغرق في العموم بقوله : ﴿ من دآبة ﴾ ودل على أن الانتفاع بالأموال مخصوص بأهل العالم السفلي بقوله : ﴿ في الأرض ﴾ أي صغرت أو كبرت ﴿ إلا على الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي ، له الإحاطة وحده لا على غيره ﴿ رزقها ﴾ أي قوتها وما تنتفع وتعيش به بمقتضى ما أوجبه على

نفسه ، تحقيقاً لوصوله وحملاً على التوكل فيه ، لأن الإفصال على كل نفس بما لا تعيش إلا به ولا يلائمها إلا هو مدة حياتها أدق مما مضى في العلم مع تضمنه لتمام القدرة ، والآية مع ذلك ناظرة إلى ترغيب آية ﴿ وأن استغفروا ربكم ﴾ فالمراد : أخلصوا العبادة له ولا تفتروا عن عبادته للاشتغال بالرزق فإنه ضمنه لكم وهو عالم بكل نفس فلا تخشوا من أنه ينسى أحداً ، وقال : ﴿ وفي الأرض ﴾ ليعم ما يمشي على وجهها وما في أطباقها من الديدان ونحوها مما لا يعلمه إلا هو ، لقد شاهدت داخل حصاة من شاطىء بحر قبرس شديدة الصلابة كأنها العقيق الأبيض دودة عندها ما تأكل ، وأخبرني الفاضل عز الدين محمد بن أحمد التكروري الكتبي أنه شاهد غير مرة في دواخل حجارة تقطع من جبل مصر الدود عنده ما يأكل من الحشيش الأخضر وما يشرب من الماء ؛ ونبه بقوله : ﴿ ويعلم مستقرها ﴾ أي مكانها الذي تستقر فيه ﴿ ومستودعها ﴾ أي موضعها الذي تودع فيه قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة او بعده من قبر أو فلاة أو غير ذلك على ما يحيط به علمه من تفاصيل السكنات والحركات ما كان منها وما يكون من كل ذلك مما يحير الفكر ويدهش الألباب ، ثم جعل فاصلة الآية ما هو في غاية العظمة عند الحق وهو ﴿ كل ﴾ أي من ذلك ﴿ في كتاب مبين ﴾ فإنه ليس كل ما يعلمه العبد يقدر على كتابته ولا كل ما يكتبه يكون مبيناً بحيث إنه كلما أراد الكشف منه وجد ما يريده ، وإذا وجده كان مفهماً له ؛

والدابة : الحي الذي من شأنه الدبيب ؛ والمستقر : الموضع الذي يقر فيه الشيء ، وهو قراره ومكانه الذي يأوي إليه ؛

(193/373)

والمستودع : المعنى المجعول في قراره كالولد الذي يكون في البطن والنطفة التي في الظهر ، وقد جعل سبحانه في كتابه ما ذكر حكماً منها ما للملائكة فيه من العبرة عند المقابلة بما يكون من الأمور المكتوبة قبل وجودها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 504 . 505 ﴾

(194/373)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية الأولى أنه ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أردفه بما يدل على

كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات ، فثبت أن رزق كل حيوان إنما يصل إليه من الله تعالى ، فلو لم يكن عالماً بجميع المعلومات لما حصلت هذه المهمات ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال الزجاج : الدابة اسم لكل حيوان ، لأن الدابة اسم مأخوذ من الدبيب ، وبنيت هذه اللفظة على هاء التأنيث ، وأطلق على كل حيوان ذي روح ذكراً كان أو أنثى ، إلا أنه بحسب عرف العرب اختص بالفرس ، والمراد بهذا اللفظ في هذه الآية الموضوع الأصلي اللغوي فيدخل فيه جميع الحيوانات ، وهذا متفق عليه بين المفسرين ، ولا شك أن أقسام الحيوانات وأنواعها كثيرة ، وهي الأجناس التي تكون في البر والبحر والجبال ، والله يحصيها دون غيره ، وهو تعالى عالم بكيفية طبائعها وأعضائها وأحوالها وأغذيتها وسمومها ومساكنها ، وما يوافقها وما يخالفها ، فالإله المدبر لإطباق السموات والأرضين ؛ وطبائع الحيوان والنبات ، كيف لا يكون عالماً بأحوالها ؟ روي أن موسى عليه السلام عند نزول الوحي إليه تعلق قلبه بأحوال أهله ، فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه على صخرة فانشقت وخرجت صخرة ثانية ؛ ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرجت صخرة ثالثة ، ثم ضربها بعصاه فانشقت فخرجت منها دودة كالذرة وفي فمها شيء يجري مجرى الغذاء لها ، ورفع الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع الدودة تقول : سبحان من يراني ، ويسمع كلامي ، ويعرف مكاني ، ويذكرني ولا ينساني .

المسألة الثانية :

تعلق بعضهم بأنه يجب على الله تعالى بعض الأشياء بهذه الآية وقال : إن كلمة (على) للوجوب ، وهذا يدل على أن إيصال الرزق إلى الدابة واجب على الله .

وجوابه : أنه واجب بحسب الوعد والفضل والإحسان .

المسألة الثالثة :

(195/373)

تعلق أصحابنا بهذه الآية في إثبات أن الرزق قد يكون حراماً ، قالوا لأنه ثبت أن إيصال الرزق إلى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد وبحسب الاستحقاق ، والله تعالى لا يحل بالواجب ، ثم قد نرى إنساناً لا يأكل من الحلال طول عمره ، فلو لم يكن الحرام رزقاً لكان الله تعالى ما أوصل رزقه إليه ، فيكون تعالى قد أخل بالواجب وذلك محال ، فعلمنا أن الحرام قد يكون رزقاً ، وأما قوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ فالمستقر هو مكانه من الأرض والمستودع حيث كان مودعاً قبل الاستقرار في صلب أو رحم أو بيضة ، وقال الفراء : مستقرها حيث تأوي إليه ليلاً أو نهاراً ، ومستودعها موضعها الذي تموت فيه ، وقد مضى استقصاء تفسير المستقر والمستودع في سورة الأنعام ، ثم قال :

﴿ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ قال الزجاج : المعنى أن ذلك ثابت في علم الله تعالى ، ومنهم من قال : في اللوح المحفوظ ، وقد ذكرنا ذلك في قوله : ﴿ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : 59] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 148 .

149 ﴾

(196/373)

وقال الماوردى :

﴿ وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : مستقرها حيث تأوي ، ومستودعها حيث تموت .

الثاني : مستقرها في الرحم ، ومستودعها في الصلب ، قاله سعيد بن جبير .

الثالث : مستقرها في الدنيا ، ومستودعها في الآخرة .

ويحتمل رابعاً : أن مستقرها في الآخرة من جنة أو نار ، ومستودعها في القلب من كفر أو إيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ﴾

قال أبو عبيدة : "مِنْ" من حروف الزوائد ، والمعنى : وما دابة ، والدابة : اسم لكل حيوان يدب .

وقوله : ﴿ إلا على الله رزقها ﴾ قال العلماء : فضلاً منه ، لا وجوباً عليه .

و"على" هاهنا بمعنى "مِنْ" وقد ذكرنا المستقر والمستودع في سورة [الأنعام : 67] .

قوله تعالى : ﴿ كل في كتاب ﴾ أي : ذلك عند الله في اللوح المحفوظ ، هذا قول المفسرين .

وقال الزجاج : المعنى : ذلك ثابت في عِلم الله عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾

"ما" نفي و "مِنْ" زائدة و ﴿ دَآبَّةٍ ﴾ في موضع رفع ؛ التقدير : وما دابة .

﴿ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ "على" بمعنى "مِن" ، أي من الله رزقها ؛ يدلّ عليه قول مجاهد : كل ما جاءها من رزق فمن الله .

وقيل : ﴿ على الله ﴾ أي فضلاً لا وجوباً .

وقيل : وعداً منه حقاً .

وقد تقدّم بيان هذا المعنى في "النساء" وأنه سبحانه لا يجب عليه شيء .

﴿ رِزْقُهَا ﴾ رفع بالابتداء ، وعند الكوفيين بالصفة ؛ وظاهر الآية العموم ومعناها الخصوص ؛ لأن كثيراً من الدواب هلك قبل أن يُرزق .

وقيل : هي عامة في كل دابة : وكل دابة لم ترزق رزقاً تعيش به فقد رُزقت رُوحها ؛ ووجه النظم بما قبلُ : أنه سبحانه أخبر برزق الجميع ، وأنه لا يَغفُل عن تربيته ، فكيف تَخفى عليه أحوالكم يا معشر الكفار وهو يرزقكم ؟! والدّابة كل حيوان يَدِبُّ .

والرزق حقيقته ما يتغذّى به الحيّ ، ويكون فيه بقاء رُوحه ونماء جسده .

ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك ؛ لأن البهائم تُرزق وليس يصح وصفها بأنها مالكة لعَلَفها ؛ وهكذا الأطفال تُرزق اللّبن ولا يقال : إن اللّبن الذي في الثّدي ملك للطفل .

وقال تعالى : ﴿ وَفِي السمآء رِزْقُكُمْ ﴾ [الذاريات : 22] وليس لنا في السماء ملك ؛ ولأن الرزق لو كان ملكاً لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره ، وذلك محال ؛ لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه .

وقد تقدّم في "البقرة" هذا المعنى والحمد لله .

وقيل لبعضهم : من أين تأكل ؟ فقال : الذي خلق الرّحى يأتيها بالطّحين ، والذي شدق الأشداق هو خالق الأرزاق .

وقيل لأبي أسيد : من أين تأكل ؟ فقال : سبحان الله والله أكبر إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد .

(199/373)

وقيل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : من عند الله ؛ فقيل له : الله ينزل لك دنانير ودراهم من السماء ؟ فقال : كأن ما له إلا السماء يا هذا الأرضُ له والسماءُ له ؛ فإن لم يؤتني رزقي من السماء ساقه لي من الأرض ؛ وأنشد :

وكيف أخافُ الفقرَ واللّهُ رازقي . . .

ورازق هذا الخلق في العُسْرِ واليُسْرِ

تَكَفَّلَ بالأرزاقِ للخلقِ كُلِّهِمْ . . .
وللضَّبِّ في البيداءِ والحُوتِ في البحرِ

(200/373)

وذكر التِّرمذيّ الحكيم في "نوادر الأصول" بإسناده عن زيد بن أسلم : " أن الأشعريين أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر في نفر منهم ، لما هاجروا وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك وقد أَرْمَلوا من الزاد ، فأرسلوا رجلاً منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله ، فلما انتهى إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه يقرأ هذه الآية ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ فقال الرجل : ما الأشعريّون بأهون الدواب على الله ؛ فرجع ولم يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال لأصحابه : أبشروا أتاكم الغوث ، ولا يظنون إلا أنه قد كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعده ؛ فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قصعة بينهما مملوءة خبزاً ولحماً فأكلوا منها ما شاؤوا ، ثم قال بعضهم لبعض : لو أنا رددنا هذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضي به حاجته ؛ فقالوا للرجلين : اذهبا بهذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنا قد قضينا منه حاجتنا ، ثم إنهم أتوا رسول

الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ما رأينا طعاماً أكثر ولا أطيب من طعام أرسلت به ؛ قال : "ما أرسلت إليكم طعاماً" فأخبروه أنهم أرسلوا صاحبهم ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ما صنع ، وما قال لهم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ذلك شيء رزقكموه الله" .

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ أي من الأرض حيث تأوي إليه .

﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ أي الموضع الذي تموت فيه فتدفن ؛ قاله مِقْسَم عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وقال الربيع بن أنس : ﴿ مُستَقَرَّهَا ﴾ أيام حياتها .

﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ حيث تموت وحيث تبعث .

وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس : ﴿ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ في الرّحِم ، ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ في الصلب .

(201/373)

وقيل : ﴿ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ في الجنة أو في النار .

﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ في القبر ؛ يدلّ عليه قوله تعالى في وصف أهل الجنة وأهل النار : ﴿

حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ [الفرقان: 76] ﴿ سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ [الفرقان: 66].

﴿ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في اللوح المحفوظ. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(202/373)

وقال الخازن:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وما من دابة في الأرض ﴾

الدابة اسم لكل حيوان دب على وجه الأرض وأطلق لفظ الدابة على كل ذي أربع من الحيوان على سبيل العرف والمراد منه الإطلاق فيدخل الآدمي وغيره من جميع الحيوانات ﴿ إلا على الله رزقها ﴾ يعني هو المتكفل برزقها فضلاً منه لا على سبيل الوجوب فهو إلى مشيئته إن شاء رزق وإن شاء لم يرزق وقيل إن لفظة على بمعنى أي من الله رزقها وقال مجاهد ما جاءها من رزق فمن الله وربما لم يرزقها فتموت جوعاً ﴿ ويعلم مستقرها ومستودعها ﴾ قال ابن عباس: مستقرها المكان الذي تأوي في ليل أو نهار ومستودعها المكان الذي تدفن فيه بعد الموت، وقال ابن مسعود: مستقرها أرحام الأمهات والمستودع

المكان الذي تموت فيه وقيل المستقر الجنة أو النار والمستودع القبر ﴿ كل في كتاب مبين ﴾ أي كل ذلك مثبت في اللوح المحفوظ قبل خلقها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(203/373)

وقال أبو حيان :

﴿ وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾

الدابة هنا عام في كل حيوان يحتاج إلى رزق ، وعلى الله ظاهر في الوجوب ، وإنما هو تفضل ، ولكنه لما ضمن تعالى أن يتفضل به عليهم أبرزه في حيز الوجوب .

قال ابن عباس : مستقرها حيث تأوى إليه من الأرض ، ومستودعها الموضع الذي تموت فيه فتدفن .

وعنه أيضاً : مستقرها في الرحم ، ومستودعها في الصلب .

وقال الربيع بن أنس : مستقرها في أيام حياتها ، ومستودعها حين تموت وحين تبعث .

وقيل : مستقرها في الجنة أو في النار ، ومستودعها في القبر ، ويدل عليه : ﴿ حسنت مستقرّاً ﴾ ﴿ وساءت مستقراً ﴾ وقيل : ما يستقر عليه عملها ، ومستودعها ما تصير

إليه .

وقيل : المستقر ما حصل موجوداً من الحيوان ، والمستودع ما سيوجد بعد المستقر .

وقال الزمخشري : المستقر مكانه من الأرض ومسكنه ، والمستودع حيث كان موجوداً قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة انتهى .

ومستقر ومستودع يحتمل أن يكونا مصدرين ، ويحتمل أن يكونا اسمي مكان ، ويحتمل مستودع أن يكون اسم مفعول لتعدّي الفعل منه ، ولا يحتمله مستقر للزوم فعله كل أي : كل من الرزق والمستقر والمستودع في اللوح يعني : وذكرها مكتوب فيه مبين .

وقيل : الكتاب هنا مجاز ، وهو إشارة إلى علم الله ، وحمله على الظاهر أولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(204/373)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾

غذاؤُها اللائقُ بها من حيث الخلقُ ومن حيث الإيصالُ إليها بطريق طبيعيَ أو إراديَ لتكفّله إياه تفضلاً ورحمةً ، وإنما جيء به على طريق الوجوبِ اعتباراً لسبق الوعدِ وتحقيقاً

لوصوله إليها البتة ، وحملاً للمكلّفين على الثقة به تعالى والإعراض عن إتعاب النفس في طلبه ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ محلَّ قرارِها في الأصلاب ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ موضعَها في الأرحام وما يجري مجراها من البيض ونحوِها ، وإنما خُصّ كلٌّ من الاسمين بما خُصَّ به من المحلَّين لأن النطفةَ بالنسبة إلى الأصلاب في حيزها الطبيعيِّ ومنشئِها الخلقيِّ ، وأما بالنسبة إلى الأرحام وما يجري مجراها فهي مُودعةٌ فيها إلى وقت معين ، أو مسكنَها من الأرض حين وُجدت بالفعل ومُودَعها من الموادّ والمقارِّ حين كانت بعدُ بالقوة ، ولعل تقديمَ محلِّها باعتبار حالتِها الأخيرةِ لرعاية المناسبةِ بينها وبين عنوانِ كونِها دابةً في الأرض والمعنى ما من دابة في الأرض إلا يرزقُها الله تعالى حيث كانت من أماكنها يسوقُه إليها ويعلم موادَّها المتخالفةَ المتدرِّجة في مراتب الاستعداداتِ المتفاوتةِ المتطورةِ في الأطوارِ المتباينة ومقارَّها المتنوعةَ ويُفيض عليها في كل مرتبةٍ ما يليق بها من مبادي وجودِها وكمالاتِها المتفرّعةِ عليه ، وقد فُسر المستودَعُ بأماكنها في الممات ، ولا يلائمه مقامُ التكفّل بأرزاقها ﴿ كُلٌّ ﴾ من الدواب ورزقِها ومستقرِّها ومستودعِها ﴿ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أي مُثْبتٍ في اللوح المحفوظِ البيِّن لمن ينظر فيه من الملائكة عليهم السلام أو المُظهِرِ لما أُثبت فيه للناظرين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾

الدابة اسم لكل حيوان ذي روح ذكراً كان أو أنثى عاقلاً أو غيره ، مأخوذ من الدبيب وهو في الأصل المشي الخفيف ومنه قوله :

زعمتني شيخاً ولست بشيخ . . .

إنما الشيخ من يدب دبيباً

واختصت في العرف بذوات القوائم الأربع وقد تخص بالفرس ، والمراد بها هنا المعنى اللغوي باتفاق المفسرين أي وما من حيوان يدب على الأرض إلا على الله تعالى غذاؤه ومعاشه ، والمراد أن ذلك كالواجب عليه تعالى إذ لا وجوب عليه سبحانه عند أهل الحق كما بين في الكلام ، فكلمة ﴿ على ﴾ المستعملة للوجوب مستعارة استعارة تبعية لما يشبهه ويكون من المجاز بمرتبتين ، وذكر الإمام أن الرزق واجب بحسب الوعد والفضل والإحسان على معنى أنه باق على تفضله لكن لما وعده سبحانه وهو جل شأنه لا يخل بما وعد صوره بصورة الوجوب لفائدتين : التحقيق لوصوله .

وحمل العباد على التوكل فيه ، ولا يمنع من التوكل مباشرة الأسباب مع العلم بأنه سبحانه المسبب لها ففي الخبر "اعقل وتوكل" وجاء "لن تموت نفس حتى تستمل رزقها وأجلها

فاتقوا الله تعالى وأجملوا في الطلب" ولا ينبغي أن يعتقد أنه لا يحصل الرزق بدون مباشرة سبب فإنه سبحانه يرزق الكثير من دون مباشرة سبب أصلاً ، وفي بعض الآثار "إن موسى عليه السلام عند نزول الوحي تعلق قلبه بأحوال أهله فأمره الله تعالى بأن يضرب بعصاه صخرة فضرب فانشقت الصخرة وخرجت صخرة ثانية فضربها فخرجت ثالثة فضربها فانشقت عن دودة كالذرة وفي فمها شيء يجري مجرى الغذاء لها وسمعها تقول : سبحان من يراني ويسمع كلامي ويعرف مكاني ويذكرني ولا ينساني" وما أحسن قول ابن أذينة :

لقد علمت وما الإشراف من خلقي . . .

إن الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى إليه فيعييني تطلبه . . .

ولو أقمت أتاني لا يعنيني

(206/373)

وقد صدقه الله تعالى في ذلك يوم وفد على هشام فقرعه بقوله هذا فرجع إلى المدينة فندم هشام على ذلك وأرسل بجائزته إليه ، ويقرب من قصته قصة الثقفي مع عبيد الله بن عامر

خال عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه وهي مشهورة حكاها ابن أبي الدنيا ونقلها غير واحد ، وقد ألغي أمر الأسباب جداً من قال :

مثل الرزق الذي تطلبه . . .

مثل الظل الذي يمشي معك

أنت لا تدركه متبعا . . .

وإذا وليت عنه تبعك

وبالجملة ينبغي الوثوق بالله تعالى وربط القلب به سبحانه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ واحتج أهل السنة ﴾ بالآية على أن الحرام رزق وإلا فمن لم يأكل طول عمره إلا من الحرام يلزم أن لا يكون مرزوقاً ، وأجيب بأن هذا مجرد فرض إذ لا أقل من التغذي بلبن الأم مثلاً وهو حلال على أن المراد أن كل حيوان يحتاج إلى الرزق إذا رزق فإنما رزقه من الله تعالى وهو لا ينافي أن يكون هناك من لا رزق له كالمتغذي بالحرام ، وكذا من لم يرزق أصلاً حتى مات جوعاً ، وروي هذا عن مجاهد وقد تقدم الكلام في ذلك .

(207/373)

﴿ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ موضع قرارها في الأصلاب ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ موضعها في الأرحام وما يجري مجراها من البيض ونحوه ، فالمستقر والمستودع اسما مكان ، وجوز فيهما أن يكونا مصدرين وأن يكون المستودع اسم مفعول لتعدي فعله ، ولا يجوز في المستقر ذلك لأن فعله لازم ، والأول هو الظاهر ، وإنما خص كل من الاسمين بما خص به من المحل كما قال بعض الفضلاء لأن النطفة مثلاً بالنسبة إلى الأصلاب في حيزها الطبيعي ومنشئها الخلقي ، وأما بالنسبة إلى الأرحام مثلاً فهي مودعة فيها إلى وقت معين ، وعن عطاء تفسير المستقر بالأرحام والمستودع بالأصلاب وكأنه أخذ تفسير الأول بذلك من قوله سبحانه : ﴿ وَنُقِرُّ فِي الارحام مَا نَشَاء ﴾ ، وجوز أن يكون المراد بالمستقر مساكنها من الأرض حيث وجدت بالفعل ، وبالمستودع محلها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة ، وهذا عام لجميع الحيوانات بخلاف الأول إذ من الحيوانات ما لم يستقر في صلب كالمتكون من عفونة الأرض مثلاً ، ولعل تقديم محلها باعتبار حالتها الأخيرة لرعاية المناسبة بينها وبين عنوان كونها دابة في الأرض ، والمعنى على ما قيل : ما من دابة في الأرض إلا يرزقها الله تعالى حيث كانت من أماكنها يسوقه إليها ويعلم موادها المختلفة المندرجة في مراتب الاستعدادات المتفاوتة المتطورة في الأطوار المتباينة ومقارها المتنوعة يفيض عليها في كل مرتبة ما يليق بها من مبادىء وجودها وكمالاتها المتفرعة عليها ، ولا يخلو عن حسن إلا أن فيه بعداً ، وأخرج عبد الرزاق وجماعة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن مستقرها

حيث تأوي ومستودعها حيث تموت ، وتعقب بأن تفسير المستودع بذلك لا يلائم مقام التكفل بأرزاقها ، وقد يقال : لعل ذلك إشارة إلى نهاية أمد ذلك التكفل ، وفي خبر ابن مسعود رضي الله تعالى عنه إشارة إلى ما هو كالمبدأ له أيضاً ، فقد أخرج عنه ابن جرير .

(208/373)

والحاكم وصححه أنه قال : مستقرها الأرحام ، ومستودعها حيث تموت ، فكأنه قيل : إنه سبحانه متكفل برزق كل دابة ويعلم مكانها أول ما تحتاج إلى الرزق ومكانها آخر ما تحتاج إليه فهو سبحانه يسوقه إليها ولا بد إلى أن ينتهي أمد احتياجها ، وجوز في هذه الجملة أن تكون استئنافاً بيانياً وأن تكون معطوفة على جملة ﴿ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ داخلة في حيز ﴿ إِلا ﴾ وعليه اقتصر الأجهوري .

﴿ كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أي كل واحد من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها ، أو كل ما ذكر وغيره مثبت في اللوح المحفوظ البين لمن ينظر فيه من الملائكة عليهم السلام ، أو المظهر لما أثبت فيه للناظرين ، والجملة على ما قال الطيبي كالتتميم لمعنى وجوب تكفل الرزق كمن أقر بشيء في ذمته ثم كتب عليه صكاً ، وفي "الكشف" إن الأظهر أنها تحقيق

للعلم وكأنه تعالى لما ذكر أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون أردفه بما يدل على عموم علمه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 12 صـ ﴾

(209/373)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ وَمَا ﴾ نافية من صلة دابة عام لكل حيوان يحتاج إلى الرزق صغيراً كان أو كبيراً ذكراً أو أنثى سليماً أو معيباً طائراً أو غيره لأن الطير يدب أي : يتحرك على رجليه في بعض حالاته في الأرض متعلق بمحذوف هو صفة لدابة أي : ما فرد من أفراد الدواب يستقر في قطر من أقطار الأرض إلا على الله رزقها غذاؤها ومعاشها اللائق لتكفله إياه تفضلاً ورحمة .

قال في التبيان : هو إيجاب كرم لا وجوب حق ، انتهى .

لأنه لا حق للمخلوق على الخالق ولذا قال : في الجامع الصغير يكره أن يقول الرجل في دعائه بحق نبيك أو بيتك أو عرشك أو نحوه إلا أن يحمل على معنى الحرمة كما في شرح الطريقة .

وقال : في بحر العلوم إنما قال : على الله بلفظ الوجوب

دلالة على أن التفضل رجع واجباً كنذور العباد .

وقال غيره : أتى بلفظ الوجوب مع أن الله تعالى لا يجب عليه شيء عند أهل السنة

والجماعة اعتباراً لسبق الوعد وتحقيقاً لوصوله إليها ألبتة وحملاً للمكلفين على الثقة به تعالى في شأن الرزق ، والإعراض عن إتعاب النفس في طلبه ففي كلمة على هنا استعارة تبعية شبه إيصال الله رزق كل حيوان إليه تفضلاً وإحساناً على ما وعده بإيصال من يوصله ، وجوباً في انتفاء التخلف فاستعملت كلمة على ويعلم مستقرها ومستودعها يحتمل وجوهاً .

الأول : ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن مستقرها المكان الذي تأوي إليه ليلاً ، أو نهاراً ، أو تستقر فيه وتستكن ومستودعها الموضع الذي تدفن فيه إذا ماتت بلا اختيار منها كالشيء المستودع قال عبد الله : إذا كان مدفن الرجل بأرض أدته الحاجة إليها حتى إذا كان عند انقضاء أمره قبض فتقول الأرض يوم القيامة هذا ما استودعتني .

(210/373)

والثاني : مستقرها محل قرارها في أصلاب الآباء ، ومستودعها موضعها في الأرحام وما يجري مجراها من البيض ونحوه ، وسميت الأرحام مستودعاً ، لأنها يوضع فيها من قبل شخص آخر بخلاف وضعها في الأصلاب فأن النطفة بالنسبة إلى الأصلاب في حيذها الطبيعي ومنشأها الخلقي .

والثالث : مستقرها مكانها من الأرض حين وجودها بالفعل ، ومستودعها حيث تكون مودعة فيه قبل وجودها بالفعل من صلب أو رحم أو بيضة ، ولعل تقديم محلها باعتبار حالتها الأخيرة لرعاية المناسبة بينها وبين عنوان كونها دابة في الأرض .

(211/373)

والرابع : مستقرها في العدم يعلم أنه كيف قدرها مستعدة لقبول تلك الصورة المختصة بها ومستودعها لغرض تؤول إليه عند استكمال صورتها ، وأيضاً يعلم مستقر روح الإنسان خاصة في عالم الأرواح لأنهم كانوا في أربعة صفوف كان في الصف الأول : أرواح الأنبياء وأرواح خواص الأولياء ، وفي الصف الثاني : أرواح الأولياء وأرواح خواص المؤمنين ، وفي الصف الثالث : أرواح المؤمنين والمسلمين ، وفي الصف الرابع أرواح الكفار والمنافقين ويعلم مستودع روحه عند استكمال مرتبة كل نفس منهم من دركات النيران ، ودرجات الجنان إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

كل أي : كل واحد من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها .

في كتاب مبين أي : مثبت في اللوح المحفوظ البين لمن ينظر فيه من الملائكة أو المظهر لما ثبت فيه للناظرين .

وفي التأويلات النجمية : في كتاب مبين أي : عنده في أم الكتاب الذي لا تغير فيه من المحو والإثبات انتهى .

وقد اتفقوا على أن أربعة أشياء لا تقبل التغير أصلاً ، وهي : العمر ، والرزق ، والأجل ، والسعادة أو الشقاوة .

فعلى العاقل أن لا يهتم لأجل رزقه ويتوكل على الله فإنه حسبه

(212/373)

روى أن موسى عليه السلام عند نزول الوحي عليه بالذهاب إلى فرعون للدعوة إلى الإيمان تعلق قلبه بأحوال أهله قائلاً يا رب من يقوم بأمر عيالي ؟ فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه صخرة فضربها فانشقت وخرج منها صخرة ثانية ، ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرجت منها صخرة ثالثة ، ثم ضربها بعصاه فخرجت منها دودة وفي فمها شيء يجري مجرى الغذاء لها ، ورفع الحجاب عن سمع موسى فسمع الدودة تقول : سبحان من يراني ويسمع كلامي ويعرف مكاني ويذكرني ولا ينساني .

وعن أنس رضي الله عنه قال : خرجت مع رسول الله يوماً إلى المفازة في حاجة لنا فرأينا طيراً يلحن بصوت جهوري فقال عليه السلام : أتدري ما يقول هذا الطير يا أنس ؟ قلت :

الله ورسوله أعلم بذلك قال : إنه يقول يا رب ، أذهبت بصري وخلقتني أعمى فارزقني فأني جائع قال : أنس فبينما نحن ننظر إليه إذ جاء طائر آخر وهو الجراد ودخل في فم الطائر فابتلعه ثم رفع الطائر صوته وجعل يلحن فقال عليه السلام : أتدري ما يقول الطير يا أنس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم قال : أنه يقول الحمد الذي لم ينس من ذكره وفي رواية : من توكل على الله كفاه كما في إنسان العيون .

قيل : كان مكتوباً على سيف الحسين بن علي رضي الله عنه أربع كلمات ، الرزق مقسوم ، والحريص محروم ، والبخيل مذموم ، والحاسد مغموم ، وفي الحديث : من جاع أو احتاج وكتمه عن الناس وأفضى به إلى الله تعالى كان حقاً على الله أن يفتح له رزق سنة كما في روضة العلماء .

وحقيقة التوكل في الرزق وغيره عند المشايخ الانقطاع عن الأسباب بالكلية ثقة بالله تعالى . وهذا لأهل الخصوص فأما أهل العموم فلا بد لهم من التسبب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 128 . 129 ﴾

(213/373)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾

عطف على جملة : ﴿ يعلم ما يُسرّون وما يعلنون ﴾ [هود : 5] .

والتقدير : وما من دابّة إلاّ يعلم مُستقرها ومُستودعها ، وإنما نُظم الكلام على هذا الأسلوب تفنناً لإفادة التنصيص على العموم بالنفي المؤكد بـ (من) ، ولإدماج تعميم رزق الله كل دابّة في الأرض في أثناء إفادة عموم علمه بأحوال كل دابة ، فلأجل ذلك أخّرَ الفعل المعطوف لأن في التذكير بأن الله رازق الدواب التي لا حيلة لها في الاكتساب استدلالاً على أنّه عليم بأحوالها ، فإن كونه رازقاً للدواب قضية من الأصول الموضوعة المقبولة عند عموم البشر ، فمن أجل ذلك جعل رزق الله إياها دليلاً على علمه بما تحتاجه .

والدابة في اللغة : اسم لما يدب أي يمشي على الأرض غير الإنسان .

وزيادة ﴿ في الأرض ﴾ تأكيد لمعنى ﴿ دابة ﴾ في التنصيص على أن العموم مستعمل في حقيقته .

والرزق : الطعام ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وجد عندها رزقاً ﴾ [آل عمران : 37] .

والاستثناء من عموم الأحوال التابع لعموم الذوات والمدلول عليه بذكر رزقها الذي هو من أحوالها .

وتقديم ﴿ على الله ﴾ قبل متعلقه وهو ﴿ رزقها ﴾ لإفادة القصر ، أي على الله لا على

غيره ، ولإفادة تركيب ﴿ على الله رزقها ﴾ معنى أن الله تكفّل برزقها ولم يهمله ، لأن (على) تدل على اللزوم والمحقوقية ، ومعلوم أن الله لاَ يُلْزِمُهُ أحدٌ شيئاً ، فما أفاد معنى اللزوم فإنّما هو التزامه بنفسه بمقتضى صفاته المقتضية ذلك له كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ وعداً علينا ﴾ [الأنبياء : 104] وقوله : ﴿ حقاً علينا ﴾ [يونس : 103] .

والاستثناء من عموم ما يسند إليه رزق الدواب في ظاهر ما يبدو للناس أنّه رزق من أصحاب الدواب ومن يربونها ، أي رزْقها على الله لا على غيره .

(214/373)

فالمستثنى هو الكون على الله ، والمستثنى منه مطلق الكون مما يُتخيّل أنه رزاق فحصر الرزق في الكون على الله مجاز عقلي في العرف باعتبار أن الله مسبب ذلك الرزق ومُقدره .

وجملة ﴿ ويعلم مُستقرّها ومُستودَعَها ﴾ عطف على جملة الاستثناء لا على المستثنى ، أي والله يعلم مستقر كلّ دابة ومستودَعها .

فليس حكم هذه الجملة بداخل في حيّز الحصر .

والمستقَرّ : محلّ استقرارها .

والمستودع : محلّ الإيداع ، والإيداع : الوضع والدخر .

والمراد به مستودعها في الرحم قبل بروزها إلى الأرض كقوله : ﴿ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدةٍ فمستقرٌ ومستودعٌ ﴾ في سورة [الأنعام : 98] .

وتنوين كلّ ﴾ تنوين عوض عن المضاف إليه اختصار ، أي كلّ رزقها ومستقرها ومستودعها في كتاب مبين ، أي كتابة ، فالكتاب هنا مصدر كقوله : ﴿ كتابَ الله عليكم ﴾ [النساء : 24] .

وهو مستعمل في تقدير العلم وتحقيقه بحيث لا يقبل زيادة ولا نقصاناً ولا تخلفاً .

كما أن الكتابة يقصد منها أن لا يزاد في الأمر ولا ينقص ولا يبطل .

قال الحارث بن حلزة

حذر الجور والتطاخي وهل ينق . . .

ض ما في المهارق الأهواء

والمُبين : اسم فاعل أبان بمعنى : أظهر ، وهو تخييل لاستعارة الكتاب للتقدير .

وليس المراد أنّه موضح لمن يطَالعه لأن علم الله وقدره لا يطلع عليه أحد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(215/373)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾

وحين يذكر القرآن الكريم لقطة توضح صفة ما ، فهو يأتي بما يتعلق بهذه الصفة ، وما دام الحق سبحانه عليماً بذات الصدور ، فهذا علم بالأمور السلبية غير الواضحة ، والحق سبحانه يعلم الإيجابيات أيضاً ، فهو يعلم النية الحسنة أيضاً ، ولكن الكلام هنا يخص جماعة يثنون صدورهم .

وجاء في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، وبيَّن أنه عليم بكل شيء .

وقال سبحانه :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض إِلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ [هود : 6] .

والدابة : كا ما يدب على الأرض ، وتستخدم في العرف الخاص للدلالة على أي كائن يدب على الأرض غير الإنسان .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأنعام : 38] .

وذكر الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام أنه شُغِل حينما كُلِّف بخواطر عن أهله ، وتساءل : كيف أذهب لأداء الرسالة وأترك أهلي ؟

فأوحى الله سبحانه أن يضرب حجراً فانفلق الحجر عن صخرة ، فأمره الحق سبحانه أن يضرب الصخرة ، فضربها فانفلقت ليخرج له حجر ، فضرب الحجر فانشق له عن دودة تلوك شيئاً كأنما تتغذى به ، فقال : إن الذي رزق هذه في ظلمات تلك الأحجار كلها لن ينسى أهلي على ظهر الأرض . ومضى موسى عليه السلام إلى رسالته .

وهذا أمر طبيعي ؛ لأن الحق سبحانه خالق كل الخلق ، ولا بد أن يضمن له استبقاء حياة واستبقاء نوع ؛ فاستبقاء الحياة بالقوت ، واستبقاء النوع بالزواج والمصاهرة .

إذن : فمن ضمن ترتيبات الخلق أن يوفر الحق سبحانه وتعالى استبقاء الحياة بالقوت ، واستبقاء النوع بالتزاوج .

ولذلك نقول دائماً : يجب أن نفرق بين عطاء الإله وعطاء الرب ، فالإله سبحانه هو رب الجميع ، لكنه إله من آمن به .

(216/373)

وما دام الحق سبحانه هو رب الجميع ، فالجميع مسئولون منه ؛ فالشمس تشرق على المؤمن وعلى الكافر ، وقد يستخرج الكافر من الشمس طاقة شمسية وينتفع بها ، فلماذا لا يأخذ المؤمن بالأسباب ؟

والهواء موجود للمؤمن والكافر ؛ لأنه عطاء ربوبية ، فإن استفاد الكافر من الهواء ودرسه ، واستخدم وخواصه أكثر من المؤمن ؛ فعلى المؤمن أن يجدَّ ويكدَّ في الأخذ بالأسباب .

إذن : فهناك عطاء للربوبية يشترك فيه الجميع ، لكن عطاء الألوهية إنما يكون في العبادة ، وهو يُخرجك من مراداتك إلى مرادات ربك ، فحين تطلب منك شهواتك أن تفعل أمراً فيقول لك المنهج : لا .

وفي هذا تحكم منك في الشهوات ، وارتقاء في الاختبارات ، أما في الأمور الحياتية الدنيا ، فعطاء الربوبية لكل كائن ليستبقي حياته .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : 6] .

وكلمة " على " تفيد أن الرزق حق للدابة ، لكنها لم تفرضه هي على الله سبحانه وتعالى ، ولكنه سبحانه قد ألزم نفسه بهذا الحق .

ويقول سبحانه :

﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ [هود : 6] .

ولأنه سبحانه هو الذي يرزق الدابة فهو يعلم مستقرها وأين تعيش ؛ ليوصل إليها هذا الرزق .

والمستقر : هو مكان الاستقرار ، والمستودع : هو مكان الوديعة .

والحق سبحانه يُعْلِمنا بذلك ليطمئن كل إنسان أن رزقه يعرف عنوانه ، والإنسان لا يعلم عنوان الرزق .

فالرزق يأتي لك من حيث لا تحتسب ، لكن السعي إلى الرزق شيء آخر ؛ فقد تسعى إلى رزق ليس لك ، بل هو رزق لغيرك .

فمثلاً : أنت قد تزرع أرضك قمحاً فيأتي لك سفر للخارج ، وتترك قمحك ؛ ليأكله غيرك ، وتأكل أنت من قمح غيرك .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : 6] .

(217/373)

أي : أن كل أمر مكتوب ، وهناك فرق بين أن تفعل ما تريد ، ولكن لا يحكم إرادتك مكتوب ؛ فما يأتي على بالك تفعله ، وبين أن تفعل أمراً قد وضعت خطواته في خطة واضحة مكتوبة ، ثم تأتي أفعالك وفقاً لما كتبته .

ومن عظمة الخالق سبحانه أن كتب كل شيء ، ثم يأتي كل ما في الحياة وفق ما كتب .

والدليل على ذلك على سبيل المثال أن الله سبحانه كان يوحي إلى رسوله بالسورة من

القرآن الكريم ، وبعد ذلك يُسرِّي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي ، فيتلو السورة على أصحابه ، فمن يستطيع الكتابة فهو يكتب ، ومن يحفظ فهو يحفظ .

ثم يأتي الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ، فيقرأ السورة كما كُتِبَتْ ، ويأتي كل نجم من القرآن في مكانه الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته ، فكيف كان يحدث ذلك ؟

لقد حدث ذلك بما جاء به الحق سبحانه ، وأبلغه لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(218/373)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (6) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن أبي الخير البصري رضي الله عنه قال : أوحى الله تعالى إلى داود عليه

السلام : تزعم أنك تحبني وتسيء بي الظن صباحاً ومساء ، أما كانت لك عبرة إن شققت سبع أرضين فأريتك ذرة في فيها برة لم أنسها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ يعني كل دابة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ يعني ما جاءها من رزق فمن الله ، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعاً ولكن ما كان لها من رزق فمن الله .

(219/373)

وأخرج الحكيم الترمذي عن زيد بن أسلم رضي الله عنه " أن الأشعريين أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر في نفر منهم ، لما هاجروا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أرملوا من الزاد ، فأرسلوا رجلاً منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله ، فلما انتهى إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه يقرأ هذه الآية ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ فقال الرجل : ما الأشعريون بأهون الدواب على الله . فرجع ولم يدخل على رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، فقال لأصحابه : أبشروا أتاكم الغوث ولا يظنون إلا أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعده فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قصعة بينهما مملوءة خبزاً ولحماً ، فأكلوا منها ما شاؤوا ثم قال بعضهم لبعض : لو أنا رددنا هذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضي به حاجته ، فقالا للرجلين : اذهبا بهذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنا قضينا حاجتنا ، ثم إنهم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ما رأينا طعاماً أكثر ولا أطيب من طعام أرسلت به . قال : ما أرسلت إليكم طعاماً ؟ فأخبروه أنهم أرسلوا صاحبهم . فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ما صنع وما قال لهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك شيء رزقكموه الله " .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ويعلم مستقرها ﴾ قال : حيث تأوي ﴿ ومستودعها ﴾ قال : حيث تموت .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي صالح رضي الله عنه في الآية قال : مستقرها بالليل ومستودعها حيث تموت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ويعلم ﴿ مستقرها ﴾ قال : يأتيها رزقها حيث كانت .

(220/373)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ ويعلم مستقرها ومستودعها ﴾ قال : مستقرها في الأرحام ، ومستودعها حيث تموت .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إذا كان أجل أحدكم بأرض أتيحت له إليها حاجة حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض ، فتقول الأرض يوم القيامة : هذا ما استودعتني " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(221/373)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾

قوله تعالى : ﴿ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ : يجوز أن يكونا مصدَرَيْن ، أي : استقرارها واستيداعها ، ويجوز أن يكونا مكانين ، أي : مكان استقرارها واستيداعها . ويجوز أن يكون مستودعها اسمَ مفعول لتعدّي فِعْلِه ، ولا يجوز ذلك في " مستقر " لأنَّ فعلَه لازمٌ ، ونظيرُه في المصدرية قولُ الشاعر :

2636 ألم تعلمْ مُسَرَّحِيَ القوافي . . . . . .

. . . . . .

أي : تَسْريحي .

قوله : ﴿ كُلٌّ ﴾ المضافُ إليه محذوفٌ تقديرُه : كل دابةٍ وزرقُها ومستقرُّها ومستودَعُها في كتاب مبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 289 . 290 ﴾

(222/373)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ .

أراح القلوبَ من حيرة التقسيم ، والأفكارَ من نَصَبِ التفكير في باب الرزق حيث قال : ﴿

إلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ فَسكَنَتْ القلوبُ لَمَّا تَحَقَّقَتْ أنَّ الرزقَ على الله .

ويقال إذا كان الرزق على الله فصاحبُ الحانوتِ في غَلَطٍ من حسبانه . ثم إن اللَّهَ سبحانه بيَّنَ أَنَّ الرزقَ الذي " عليه " ما حالُه فقال : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ [الذاريات : 22] ، وما كان في السماءِ لا يوجد في السوق ، ولا في التَّطواف في الغرب والشرق . (1)

ويقال الأرزاق مختلفة فَرِزْقُ كل حيوانٍ على ما يليق بصفته .

ويقال للنفوسِ رزقٌ هو غذاءُ طريقُه الخَلْقُ ، وللقلوب رزق وهو ضياءٌ مُوجِدُهُ الحق .

ويقال لم يقل ما يستهيه أو مقدار ما يكفيه بل هو موكولٌ إلى مشيئته ؛ فَمِنْ مُوَسَّعٍ عليه ومِنْ مُقَتَّرٍ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ .

قيل أراد به أصلابَ الآباءِ وأرحامَ الأمهات ، أو الدنيا والآخرة . ويقال مُسْتَقَرُّ المريد بباب شيخِه كمستقرُّ الصبي بباب والديه ، ويقال مستقر العابدين المساجد ، ومستقر العارفين المشاهد ، فالمساجد مستقر نفوسِ العابدين ، والمشاهِدُ مُسْتَقَرُّ قلوب العارفين .

ويقال مستقرُّ المحب رأسُ سِكَّةِ محبوبه لعلَّه يشهده عند عبوره .

ويقال المساجِدُ للعابدين مستقرُّ القَدَم ، والمشاهِدُ للعارفين مستقرُّ الهِمَم ، والفقراء مستقرهم سُدَّةُ الكَرَم .

ويقال الكلُّ له مثوىً ومستقر ، أما الموحِّد فإنه مأوى له ولا مستقر ولا مثوى ولا منزل .

ويقال النفوس مستودَعُ التوفيق من الله ، والقلوبُ مستودعُ التحقيق من قِبَلِ الله .

---

(1) قد يبدو للوهلة الأولى أن كلام القشيري لا ينتظم مع قوله تعالى : «فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ» ولكن الواقع أنه يقصد بذلك رزق السرائر لا رزق الظواهر . [. . . . .]

(223/373)

ويقال القلوبُ مستودعُ المعرفة ؛ فالمعرفة وديعة فيها ، والأرواح مستودع المحبة فالمحابُ ودائع فيها . والأسرار مستودع المشاهدات فالمشاهدات ودائع فيها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 123 . 124 ﴾

(224/373)

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان خلق ما منه الرزق أعظم من خلق الرزق وتوزيعه في شمول العلم والقدرة معاً ، تلاه بقوله : ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ الذي خلق ﴾ أي أوجد وقدر ﴿ السماوات والأرض ﴾ وحده لم يشركه في ذلك أحد كما أنتم معترفون ﴿ في ستة أيام ﴾ ولما كان خلق العرش أعظم من ذلك كله فإن جميع السماوات والأرض بالنسبة إليه كحلقة ملقاة في فلاة . وأعظم من ذلك أن يكون محمولاً على الماء الذي لا يمكن حمله في العادة إلا في وعاء ضابط محكم ، تلاه بقوله : ﴿ وكان ﴾ أي قبل خلقه لذلك ﴿ عرشه ﴾ مستعلياً ﴿ على الماء ﴾ ولا يلزم من ذلك الملاصقة كما أن السماء على الأرض من غير ملاصقة .

وقد علم من هذا السياق أنه كان قبل الأرض خلق فثبت أنه وما تحته محمولان بمحض القدرة من غير سبب آخر قريب أو بعيد ، فثبت بذلك أن قدرته في درجات من العظمة لا تتناهى ، وهذا زيادة تفصيل لما ذكر في سورة يونس عليه السلام من أمر العرش لأن هذه السورة التفصيل ونبه بقوله تعالى معلقاً ب " خلق " : ﴿ ليبلوكم ﴾ أي أنه خلق ذلك كله لكم سكناً كاملاً بمهده وسقفه من أكله وشربه وكل ما تحتاجونه فيه وما يصلحكم وما يفسدكم ومكنكم من جميع ذلك والحكمة في خلق ذلك أنه يعاملكم معاملة المختبر ، ودل على شدة الاهتمام بذلك بسوقه مساق الاستفهام في قوله : ﴿ أيكم ﴾ أي أيها العباد ﴿ أحسن عملاً ﴾ على أنه فعل هذه الأفعال الهائلة لأجل هذه الأمور التي هم لها

مستهينون وبها مستهزئون ، وعلق فعل البلوى عن جملة الاستفهام لما فيه من معنى العلم لأنه طريق إليه ، روى البخاري في التفسير عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " قال الله عز وجل : أنفق أنفق عليك " ، وقال : " يد الله ملأى لا تغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، وقال : أرأيتم ما أنفق مذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغض ما في يده ، وكان عرشه على الماء ، .

وبيده الميزان يخفض ويرفع " وفي الآية حث على محاسن الأعمال والترقي دائماً في مراتب الكمال من العلم الذي هو عمل القلب والعمل الظاهر الذي هو وظيفة الأركان .

ولما ثبت – بيده الخلق الذي هم به معترفون – القدرة على إعادته ، وثبت بالابتلاء أنه لا تتم الحكمة في خلق المكلفين إلا باعادتهم ليجازي كلاًّ من المحسن والمسيء بفعاله وأنهم ما خلقوا إلا لذلك .

عجب من إنكارهم له وأكده لذلك فقال : ﴿ ولئن قلت ﴾ أي لهؤلاء الذين ما خلقت هذا الخلق العظيم إلا لابتلائهم ﴿ إنكم مبعوثون ﴾ أي موجودون ، بعثكم ثابت قطعاً لا بد منه .

ولما كان زمن البعث بعض الزمن قال : ﴿ من بعد الموت ﴾ الذي هو في غاية الابتداء ﴿ ليقولن ﴾ أكده دلالة على العلم بالعواقب علماً من أعلام النبوة ﴿ الذين كفروا إن ﴾ أي ما ﴿ هذا ﴾ أي القول بالبعث ﴿ إلا سحر مبين ﴾ أي شيء مثل السحر تخييل باطل لا حقيقة له أو خداع يصرف الناس عن الانهماك في اللذات للدخول في طاعة الأمر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 505.506 ﴾

(226/373)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

واعلم أنه تعالى لما أثبت بالدليل المتقدم كونه عالماً بالمعلومات ، أثبت بهذا الدليل كونه تعالى قادراً على كل المقدورات وفي الحقيقة فكل واحد من هذين الدليلين يدل على كمال علم الله وعلى كمال قدرته .

واعلم أن قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ قد مضى تفسيره في سورة يونس على سبيل الاستقصاء .

بقي ههنا أن نذكر ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء ﴾ قال كعب خلق الله تعالى ياقوتة خضراء ، ثم نظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ، ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء ، قال أبو بكر الأصم : معنى قوله : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء ﴾ كقولهم : السماء على الأرض .

وليس ذلك على سبيل كون أحدهما ملتصقاً بالآخر وكيف كانت الواقعة فذلك يدل على أن العرش والماء كانا قبل السموات والأرض ، وقالت المعتزلة : في الآية دلالة على وجود الملائكة قبل خلقهما ، لأنه لا يجوز أن يخلق ذلك ولا أحد ينتفع بالعرض والماء ، لأنه تعالى لما خلقهما فإما أن يكون قد خلقهما لمنفعة أو لا لمنفعة والثاني عبث ، فبقي الأول وهو أنه خلقهما لمنفعة ، وتلك المنفعة إما أن تكون عائدة إلى الله وهو محال لكونه متعالياً عن النفع والضرر أو إلى الغير فوجب أن يكون ذلك الغير حياً ، لأن غير الحي لا ينتفع .

وكل من قال بذلك قال ذلك الحي كان من جنس الملائكة ، وأما أبو مسلم الأصفهاني فقال معنى قوله : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء ﴾ أي بناؤه السموات كان على الماء ، وقد مضى تفسير ذلك في سورة يونس ، وبين أنه تعالى إذا بنى السموات على الماء كانت أبدع وأعجب ، فإن البناء الضعيف إذا لم يؤسس على أرض صلبة لم يثبت ، فكيف بهذا الأمر العظيم إذا بسط على الماء ؟ وههنا سؤالات :

السؤال الأول : ما الفائدة في ذكر أن عرشه كان على الماء قبل خلق السموات والأرض ؟

والجواب : فيه دلالة على كمال القدرة من وجوه : الأول : أن العرش كونه مع أعظم من السموات والأرض كان على الماء فلولا أنه تعالى قادر على إمساك الثقيل بغير عمد لما صح ذلك ، والثاني : أنه تعالى أمسك الماء لا على قرار وإلا لزم أن يكون أقسام العالم غير متناهية ، وذلك يدل على ما ذكرناه .

والثالث : أن العرش الذي هو أعظم المخلوقات قد أمسكه الله تعالى فوق سبع سموات من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه ، وذلك يدل أيضاً على ما ذكرنا .

السؤال الثاني : هل يصح ما يروى أنه قيل يا رسول الله ، أين كان ربنا قبل خلق السموات والأرض ؟ فقال كان في عماء فوقه هواء وتحته هواء .

والجواب : أن هذه الرواية ضعيفة ، والأولى أن يكون الخبر المشهور أولى بالقبول وهو قوله صلى الله عليه وسلم كان الله وما كان معه شيء ، ثم كان عرشه على الماء .

السؤال الثالث : اللام في قوله : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ يقتضي أنه تعالى خلق السموات والأرض لابتلاء المكلف فكيف الحال فيه ؟ والجواب ظاهر هذا الكلام يقتضي أن الله تعالى خلق هذا العالم الكثير لمصلحة المكلفين ، وقد قال بهذا القول طوائف من العقلاء ، ولكل طائفة فيه وجه آخر سوى الوجه الذي قال به الآخرون ، وشرح تلك

المقالات لا يليق بهذا الكتاب .

والذين قالوا إن أفعاله وأحكامه غير معللة بالمصالح قالوا : لام التعليل وردت على ظاهر الأمر ، ومعناه أنه تعالى فعل فعلاً لو كان يفعله من تجوز عليه رعاية المصالح لما فعله إلا لهذا الغرض .

السؤال الرابع : الابتلاء إنما يصح على الجاهل بعواقب الأمور وذلك عليه تعالى محال ، فكيف يعقل حصول معنى الابتلاء في حقه ؟

والجواب : أن هذا الكلام على سبيل الاستقصاء ذكرناه في تفسير قوله تعالى في أول سورة البقرة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : 21] .

(228/373)

واعلم أنه تعالى لما بين أنه خلق هذا العالم لأجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم فهذا يوجب القطع بحصول الحشر والنشر ، لأن الابتلاء والامتحان يوجب تخصيص المحسن بالرحمة والثواب وتخصيص المسيء بالعقاب ، وذلك لا يتم إلا مع الاعتراف بالمعاد والقيامة ، فعند هذا خاطب محمداً عليه الصلاة والسلام وقال : ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الموت لَيَقُولَنَّ الذين كَفَرُواْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ومعناه أنهم ينكرون هذا الكلام ويحكمون

بفساد القول بالبعث .

فإن قيل : الذي يمكن وصفه بأنه سحر ما يكون فعلاً مخصوصاً ، وكيف يمكن وصف هذا القول بأنه سحر ؟

قلنا : الجواب عنه من وجوه : الأول : قال القفال : معناه أن هذا القول خديعة منكم وضعتموها لمنع الناس عن لذات الدنيا وإحرازاً لهم إلى الانقياد لكم والدخول تحت طاعتكم .

الثاني : أن معنى قوله : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ هو أن السحر أمر باطل ، قال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السحر إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ ﴾ [يونس : 81] فقوله : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي باطل مبين .

الثالث : أن القرآن هو الحاكم بحصول البعث وطعنوا في القرآن بكونه سحراً لأن الطعن في الأصل يفيد الطعن في الفرع .

الرابع : قرأ حمزة والكسائي ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ ساحر ﴾ يريدون النبي صلى الله عليه وسلم والساحر كاذب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 149 . 151 ﴾

(229/373)

وقال الماوردى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

قوله عز وجل : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾

فيه أربعة أوجه :

أحدها : يعني أيكم أتم عقلاً ، قاله قتادة .

الثاني : أيكم أزهد في الدنيا ، وهو قول سفيان .

الثالث : أيكم أكثر شكراً ، قاله الضحاك .

الرابع : ما روى كليب بن وائل عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أَيُكُم أَحْسَنُ عَمَلاً " أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَقْلاً وَأَوْرَعُ عَن مَحَارِمِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَسْرَعُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(230/373)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾

قال ابن عباس : عرشه : سريره ، وكان الماء إِذْ كان العرش عليه على الريح .

قال قتادة : ذلك قبل أن يخلق السمواتِ والأرض .

قوله تعالى : ﴿ ليبلوَكم ﴾ أي : ليختبركم الاختبار الذي يجازي عليه ، فيثيت المعتبر بما يرى من آيات السموات والأرض ، ويعاقب أهل العناد .

قوله تعالى : ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ فيه أربعة أقوال :

أحدها : أيكم أحسن عقلاً ، وأورع من محارم الله عز وجل ، وأسرع في طاعة الله ، رواه ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أيكم أعمل بطاعة الله ، قاله ابن عباس .

والثالث : أيكم أتم عقلاً ، قاله قتادة .

والرابع : أيكم أزهد في الدنيا ، قاله الحسن وسفيان .

قوله تعالى : ﴿ إن هذا إِلا سحر مبين ﴾ قال الزجاج : السحر باطل عندهم ، فكأنهم قالوا : إِن هذا إِلا باطل بيِّن ، فأعلمهم الله تعالى أن القدرة على خلق السموات والأرض تدل على بعث الموتى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(231/373)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي خَلَق السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

تقدّم في "الأعراف" بيانه والحمد لله .

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المآء ﴾ بيّن أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء .

قال كعب : خلق الله ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد من مخافة الله تعالى ؛ فلذلك يرتعد الماء إلى الآن وإن كان ساكناً ، ثم خلق الريح فجعل الماء على مَتْنها ، ثم وضع العرش على الماء .

وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس : أنه سئل عن قوله عز وجل : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المآء ﴾ فقال : على أي شيء كان الماء ؟ قال : على مَتْن الرِّيح .

وروى البخاريّ " عن عِمْران بن حُصَين .

قال : كنت عند النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ جاءه قوم من بني تميم فقال : "اقبلوا البشرى يا بني تميم" قالوا : بَشَّرْتَنَا فأعطِنا (مرتين) فدخل ناس من أهل اليمن فقال : "اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم" قالوا : قَبِلنا ، جئنا لنتفقه في الدِّين ، ولنسألك عن هذا الأمر ما كان ؟ قال : "كان اللَّهُ ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء ثم خلق السمواتِ والأرضَ وكتب في الذِّكْر كلّ شيء" ثم أتاني رجل فقال : يا عِمران أدرك ناقتك فقد ذهبت ، فانطلقت أطلبها فإذا هي يقطَعُ دونها السَّرابُ ؛ وايمُ اللّهِ لوددْت أنها قد

ذهبتْ ولم أقم " .

قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ أي خلق ذلك لِيبتلي عباده بالاعتبار والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث .

وقال قَتَادة : معنى ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود : 11] (أيكم) أتمّ عقلاً .

وقال الحسن وسفيان الثّوريّ : أيكم أزهد في الدنيا .

وذكر أن عيسى عليه السلام مرّ برجل نائم فقال : يا نائم قم فتعبَّدْ ، فقال : يا رُوح الله قد تَعبَّدتُ ، فقال "وبم تَعَبَّدتَ" ؟ قال : قد تركت الدنيا لأهلها ؛ قال : نَمْ فقد فقتَ العابدين .

(232/373)

الضّحاك : أيكم أكثر شكراً .

مقاتل : أيكم أتقى لله .

ابن عباس : أيكم أعمل بطاعة الله عز وجل .

ورُوي عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا : ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ قال : " أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله " فجمع الأقاويل كلها ،

وسيأتي في "الكهف" هذا أيضاً إن شاء الله تعالى .

وقد تقدّم معنى الابتلاء .

﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَّبْعُوثُونَ ﴾ أي دللت يا محمد على البعث .

﴿ مِن بَعْدِ الموت ﴾ وذكرت ذلك للمشركين لقالوا : هذا سحر .

وكسِرت "إنّ" لأنها بعد القول مبتدأة .

وحكى سيبويه الفتح .

﴿ لَيَقُولَنَّ الذين كفروا ﴾ فتحت اللام لأنه فعل متقدم لا ضمير فيه ، وبعده ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ لأن فيه ضميراً .

و ﴿ سِحْرٌ ﴾ أي غرور باطل ، لبطلان السحر عندهم .

وقرأ حمزة والكسائي "إِنْ هَذَا إِلاَّ سَاحِرٌ مُبِينٌ" كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(233/373)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ﴾

يعني قبل خلق السموات والأرض قال كعب خلق الله ياقوتة خضراء ثم نظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء .

قال ضمرة : إن الله سبحانه وتعالى كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وخلق القلم فكتب به ما خلق وما هو خالق وما هو كائن من خلقه إلى يوم القيامة ثم إن ذلك الكتاب سبح الله ألف عام قبل أن يخلق شيئاً من خلقه .

وقال سعيد بن جبير سئل ابن عباس عن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ على أي شيء كان الماء قال : على متن الريح ، وقال وهب بن منبه : إن العرش كان قبل أن يخلق الله السموات والأرض ثم قبض الله قبضة من صفاء الماء ثم فتح القبضة فارتفع دخان ثم قضاهن سبع سموات في يومين ثم أخذ سبحانه وتعالى طينة من الماء فوضعها مكان البيت ثم دحا الأرض منها ثم خلق الأقوات في يومين والسموات في يومين والأرض في يومين ثم رفع آخر الخلق وفي اليوم السابع .

(234/373)

قال بعض العلماء : وفي خلق جميع الأشياء وجعلها على الماء ما يدل على كمال القدرة لأن البناء الضعيف إذا لم يكن له أساس على أرض صلبة لم يثبت فكيف بهذا الخلق العظيم

وهو العرش والسموات والأرض على الماء فهذا يدل على كمال قدرة الله تعالى (خ) عن عمران بن حصين قال " دخلت على النبي (صلى الله عليه وسلم) وعقلت ناقتي بالباب فأتى ناس من بني تميم فقال اقبلوا البشرى يا بني تميم فقالوا بشرتنا فاعطنا مرتين فتغير وجهه ثم دخل عليه ناس من بني أهل اليمن فقال اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم قالوا قبلنا يا رسول الله ثم قالوا جئنا لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان قال كان الله سبحانه وتعالى ولم يكن معه شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء ثم أتاني رجل فقال يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت فانطلقت أطلبها فإذا السراب يقطع دونها وايم الله لوددت أنها ذهبت ولم أقم "

(235/373)

عن أبي رزين العقيلي قال : قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال "كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء وخلق عرشه على الماء " أخرجه الترمذي ، وقال قال أحمد : يريد بالعماء أنه ليس معه شيء قال أبو بكر البيهقي : في كتاب الأسماء والصفات له قوله (صلى الله عليه وسلم) "كان الله ولم يكن شيء قبله " ، يعني لا الماء ولا العرش ولا غيرهما وقوله ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ يعني وخلق الماء وخلق العرش

على الماء ثم كتب في الذكر كل شيء ، وقوله في عماء وجدته في كتاب عمار مقيداً بالمد فإن كان في الأصل ممدوداً فمعناه سحاب رقيق ويريد بقوله في عماء أي فوق سحاب مدبراً له وعالياً عليه كما قال سبحانه وتعالى ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ يعني من فوق السماء وقال تعالى : ﴿ لأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ يعني على جذوعها وقوله ﴿ ما فوقه هواء ﴾ أي ما فوق السحاب هواء وكذلك قوله ﴿ وما تحته هواء ﴾ أي ما تحت السحاب هواء وقد قيل إن ذلك العمى مقصور والعمى إذا كان مقصوراً فمعناه لا شيء ثابت لأنه مما عمى عن الخلق لكونه غير شيء فكأنه قال في جوابه كان قبل أن يخلق خلقه ولم يكن شيء غيره ثم قال ما فوقه هواء وما تحته هواء أي ليس فوق العمى الذي هو لا شيء موجود هواء ولا تحته هواء لأن ذلك إن كان غير شيء فليس يثبت له هواء بوجه والله أعلم وقال الهروي صاحب الغريبين : قال بعض أهل العلم معناه أين كان عرش ربنا فحذف المضاف اختصاراً كقوله واسأل القرية ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ هذا آخر كلام البيهقي ، وقال ابن الأثير : العماء في اللغة السحاب الرقيق وقيل : الكثيف وقيل : هو الضباب ولا بد في الحديث من حذف مضاف ، تقديره أين كان عرش ربنا فحذف ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ وحكي عن بعضهم في العمى المقصور أنه قال هو كل أمر لا يدركه الفطن ، وقال الأزهري : قال أبو عبيد إنما

تأولنا هذا الحديث على كلام العرب المعقول عنهم وإلا فلا ندري كيف كان ذلك العماء قال الأزهري : فنحن نؤمن به ولا نكيف صفته (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول

"كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء " وفي رواية " فرغ الله من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السموات والأرض وكان عرشه على الماء بخمسين ألف سنة " قوله فرغ يريد إتمام خلق المقادير لا أنه كان مشغولاً ففرغ منه لأن الله سبحانه وتعالى لا يشغله شأن عن شأن فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ليبلوكم ﴾ يعني ليختبركم وهو أعلم بكم منكم ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ يعني بطاعة الله وأورع عن محارم الله ﴿ ولئن قلت ﴾ يعني ولئن قلت يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك ﴿ إنكم مبعوثون من بعد الموت ﴾ يعني للحساب والجزاء ﴿ ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ يعنون القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيتين :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

لما ذكر تعالى ما يدل على كونه تعالى عالماً ، ذكر ما يدل على كونه قادراً ، وتقدّم تفسير الجملة الأولى في سورة يونس .

والظاهر أنّ قوله : وكان عرشه على الماء ، تقديره قبل خلق السموات والأرض ، وفي هذا دليل على أنّ الماء والعرش كانا مخلوقين قبل .

قال كعب : خلق الله ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء ، ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ، ثم وضع العرش على الماء .

وروي عن ابن عباس أنه وقد قيل له : على أي شيء كان الماء ؟ قال : كان على متن الريح ، والظاهر تعليق ليبلوكم بخلق .

قال الزمخشري : أي خلقهن لحكمة بالغة ، وهي أنْ يجعلها مساكن لعباده ، وينعم عليهم فيها بفنون النعم ، ويكلفهم فعل الطاعات واجتناب المعاصي ، فمن شكر وأطاع أثابه ، ومن كفر وعصى عاقبه .

ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال : ليبلوكم ، يريد ليفعل بكم ما يفعل المبتلي لأحوالكم كيف تعملون .

(فإن قلت) : كيف جاز تعليق فعل البلوى ؟ (قلت) : لما في الاختبار من معنى العلم ، لأنه طريق الله ، فهو ملابس له كما تقول : انظر أيهم أحسن وجهاً ، واستمع أيهم أحسن صوتاً ، لأنّ النظر والاستماع من طرق العلم انتهى .

وفي قوله : ومن كفر وعصى عاقبه ، دسيسة الاعتزال .

وأما قوله : واستمع أيهم أحسن صوتاً ، فلا أعلم أحداً ذكر أن استمع تعلق ، وإنما ذكروا من غير أفعال القلوب سل وانظر ، وفي جواز تعليق رأي البصرية خلاف .

وقيل : ليبلوكم متعلق بفعل محذوف تقديره أعلم بذلك ليبلوكم ، ومقصد هذا التأويل أن هذه المخلوقات لم تكن بسبب البشر .

وقيل : تقدير الفعل ، وخلقكم ليبلوكم .

وقيل : في الكلام جمل محذوفة ، التقدير : وكان خلقه لهما لمنافع يعود عليكم نفعها في الدنيا دون الأخرى ، وفعل ذلك ليبلوكم .

ومعنى أيكم أحسن عملاً : أهذا أحسن أم هذا .

قال ابن بحر : روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "أيكم أحسن عقلاً ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع في طاعة الله" ولو صح هذا التفسير عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يعدل عنه .

وقال الحسن : أزهد في الله .

وقال مقاتل : أتقى لله .

وقال الضحاك : أكثركم شكراً .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : فكيف قيل : أيكم أحسن عملاً وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن ، فأما أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتهما إلى حسن وقبيح ؟ (قلت) : الذين هم أحسن عملاً هم المتقون ، وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو غرض الله منن عباده ، فخصهم بالذكر ، واطرح ذكر من وراءهم تشريفاً لهم وتنبيهاً على مكانهم ، وليكون ذلك تيقظاً للسامعين وترغيباً في حيازة فضلهم انتهى .

ولئن قلت ، خطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وقرأ عيسى الثقفي : ولئن قلت بضم التاء إخباراً عنه تعالى ، والمعنى : ولئن قلت مستدلاً على البعث من بعد الموت ، إذ في قوله تعالى : وهو الذي خلق ، دلالة على القدرة : العظيمة ، فمتى أخبر بوقوع ممكن وقع لا محالة ، وقد أخبر بالبعث فوجب قبوله وتيقن

وقوعه .

وقرىء : أيكم بفتح الهمزة .

قال الزمخشري : ووجهه أن يكون من قولهم : ائت السوق إنك تشتري لحماً ، بمعنى علك أي : ولئن قلت لهم لعلكم مبعوثون بمعنى توقعوا بعثكم وظنوه ، لأثبتوا القول بإنكاره لقالوا : ويجوز أن يضمن .

قلت معنى ذكرت انتهى يعني : فبفتح الهمزة لأنها في موضع مفعول ذكرت ، والظاهر الإشارة بهذا إلى القول أي : إن قولك إنكم مبعوثون إلا سحر أي بطلان هذا القول كبطلان السحر ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى ما دلت عليه الجملة من البعث .

أي : إن البعث .

وقيل : أشاروا بهذا إلى القرآن ، وهو الناطق بالبعث ، فإذا جعلوه سحراً فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره .

(239/373)

قال ابن عطية : كذبوا وقالوا : هذا سحر ، فهذا تناقض منهم إن كان مفطوراً بقربات الله فاطر السموات والأرض فهو من جملة المقرب بهذا ، وهم مع ذلك ينكرون ما هو أيسر منه

بكثير وهو البعث من القبور ، إذ البداءة أعسر من الإعادة ، وإذ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس انتهى .

وقرأ الحسن ، والأعرج ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وفرقة من السبعة : سحر .

وقرأت فرقة : ساحر ، يريدون والساحر كاذب مبطل ، ولئن أخرنا حكى تعالى نوعاً آخر من أباطيلهم واستهزائهم ، والعذاب هنا عذاب القيامة .

وقيل : عذاب يوم بدر .

وعن ابن عباس : قتل جبريل المستهزئين ، والظاهر العذاب الموعود به ، والأمّة هنا المدة من الزمان قاله : ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد ، والجمهور ، ومعناه : إلى حين .

ووقت معلوم ما يحبسه استفهام ، قالوه وهو على سبيل التكذيب والاستهزاء .

قال الطبري : سميت المدة أمة ، لأنها يقضي فيها أمة من الناس وتحدث أخرى ، فهي على هذا المدة الطويلة ، ثم استفتح الأخبار بأنه يوم لا يردّه شيء ولا يصرفه .

والظاهر أنّ يوم منصوب بقوله : مصروفاً ، فهو معمول لخبر ليس .

وقد استدل به على جواز تقديم خبر ليس عليها قالوا : لأن تقدم المعمول يؤذن بتقدم العامل ، ونسب هذا المذهب لسيبويه ، وعليه أكثر البصريين .

وذهب الكوفيون والمبرد : إلى أنه لا يجوز ذلك ، وقالوا : لا يدل جواز تقدم المعمول على جواز تقدم العامل .

وأيضاً فإنّ الظرف المجرور يتسع فيهما ما لا يتسع في غيرهما ، ويقعان حيث لا يقع العامل فيهما نحو : إن اليوم زيداً مسافر ، وقد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقدم خبر ليس عليها ، ولا بمعموله ، إلا ما دل عليه ظاهر هذه الآية ، وقول الشاعر :

فيأبى فما يزداد إلا لجاجه . . .

وكنت أبياً في الخفا لست أقدم

وتقدم تفسير جملة وحاق بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(240/373)

وقال أبو السعود :

، ولمّا انتهى الأمرُ إلى أنه سبحانه محيطٌ بجميع أحوالِ ما في الأرض من المخلوقات التي لا تكاد تحصى من مبدأ فطرتها إلى منتهاها اقتضى الحالُ التعرّضَ لمبدأ خلقِ السمواتِ والأرضَ والحكمةِ الداعية إلى ذلك فقيل :

﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

(241/373)

السمواتِ في يومين والأرضَ في يومين وما عليها من أنواع الحيواناتِ والنباتِ وغيرِ ذلك في يومين حسبما فُصِّل في سورة حم السجدةُ ولم يُذكر خلقُ ما في الأرض لكونه من تتمات خلقِها وهو السرُّ في جعل زمان خلقِه تتمةً لزمان خلقِها في قوله تعالى : ﴿ فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ أي في تتمة أربعةِ أيام . والمرادُ بالأيام الأوقاتُ كما في قوله تعالى : ﴿ مِنْ * يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ﴾ أي في ستة أوقاتٍ أو مقدارِ ستةِ أيامٍ فإن اليومَ في المتعارَف زمانُ كونِ الشمسِ فوق الأرضِ ، ولا يُتصوَّر ذلك حين لا أرضَ ولا سماءَ ، وفي خلقها مدرجاً مع القدرة التامةِ على خلقها دفعةً دليلٌ على أنه قادرٌ مختارٌ واعتبارٌ للنُظّار وحثٌّ على التأنّي في الأمور . وأما تخصيصُ ذلك بالعدد المعيَّنِ فأمرٌ استأثر بعلم ما يقتضيه علامُ الغيوب جلت حِكمتُه ، وإيثارُ صيغةِ الجمعِ في السموات لما هو المشهورُ من الإشارة إلى كونها أجراماً مختلفةَ الطبائعِ ومتفاوتةَ الآثارِ والأحكام ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ ﴾ قبل خلقِهما ﴿ عَلَى الماء ﴾ ليس تحته شيءٌ غيرُه سواءٌ كان بينهما فُرجةٌ أو كان موضوعاً على متنه كما ورد في الأثر ، فلا دلالةَ فيه على إمكان الخلاء ، كيف لا ولو دلّ لدلّ على وجوده لا على إمكانه فقط ولا على كون الماءِ أولَ ما حدث في العالم بعد العرش ، وإنما يدلّ على أن خلقَهما أقدمُ من خلق السموات والأرضِ من غير تعرضٍ للنسبة بينهما ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ متعلقٌ بخلق أي خلق السمواتِ والأرضَ وما فيهما من المخلوقات التي من جملتها أنتم ورتب فيهما جميع ما تحتاجون إليه من

مبادي وجودِكم وأسبابِ معايشِكم وأودع في تضاعيفهما من تعاجيب الصنائعِ والعبرِ ما تستدلون به على مطالبكم الدينيةِ ليعاملَكم معاملةَ من يبتليكم ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ فيحازيَكم بالثواب والعقاب غِبّ ما تبين المحسنُ من المسيء وامتازت درجاتُ أفرادِ كلَ من الفريقين

(242/373)

حسب امتيازِ طبقاتِ علومِهم واعتقاداتِهم المترتبة على أنظارهم فيما نُصب من الحُجج والدلائل والأماراتِ والمخايلِ ومراتب أعمالِهم المتفرّعة على ذلك فإن العملَ غيرُ مختصَ بعمل الجوارح ، ولذلك فسره عليه السلام بقوله : " أيكم أحسنُ عقلاً وأورعُ عن محارم الله وأسرعُ في طاعة الله ؟ " فإن لكل من القلب والقالَبِ عملاً مخصوصاً به فكما أن الأولَ أشرفُ من الثاني فكذا الحالُ في عمله كيف لا ولا عملَ بدون معرفةِ الله عز وجل الواجبةِ على العباد آثرَ ذي أثيرٍ وإنما طريقُها النظريُّ التفكرُ في بدائع صنائعِ المِلكِ الخلاقِ والتدبّرِ في آياتة البيناتِ المنصوبةِ في الأنفس والآفاق ، ولا طاعة بدون فهم ما في مطاوي الكتابِ الحكيم من الأوامر والنواهي وغيرِ ذلك مما له مدخلٌ في الباب .

(243/373)

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تفضلوني على يونس بنِ متى فإنه كان يُرفع له كلَّ يومٍ مثلُ عملِ أهلِ الأرض " قالوا : وإنما كان ذلك التفكرَ في أمر الله عز وجل الذي هو عملُ القلبِ لأن أحداً لا يقدر على أن يعملَ في اليوم بجوارحه مثلَ عملِ أهلِ الأرض ، وتعليقُ فعلِ البلوى أي تعقيبُه بحرف الاستفهام لا التعليقُ المشهورُ الذي يقتضي عدمَ إيرادِ المفعولِ أصلاً مع اختصاصه بأفعال القلوبِ لما فيه من معنى العلمِ باعتبار عاقبتِه كالنظرِ ونظائرِه ، ولذلك أُجريَ مُجراه بطريق التمثيلِ أو الاستعارةِ التبعية ، وإيرادُ صيغةِ التفضيلِ مع أن الابتلاَ شاملٌ للفريقين باعتبار أعمالِهم المنقسمةِ إلى الحسن والقبيحِ أيضاً لا إلى الحسن والأحسنِ فقط للإيذان بأن المرادَ بالذات والمقصودَ الأصليَّ مما ذكر من إبداع تلك البدائعِ على ذلك النمطِ الرائعِ إنما هو ظهورُ كمالِ إحسانِ المحسنين وأن ذلك لكونه على أتم الوجوهِ اللائقةِ وأكملِ الأساليب الرائقةِ يوجب العملَ بموجبه بحيث لا يَحيدُ أحدٌ عن سَننه المستبينِ بل يهتدي كلُّ فردٍ إلى ما يُرشد إليه من مطلق الإيمانِ والطاعةِ ، وإنما التفاوتُ بينهم في مراتبهما بحسب القوةِ والضَّعفِ والكثرةِ والقلة ، وأما الإعراضُ عن ذلك والوقوعُ في مهاوي الضلالِ فبمعزلٍ من الاندراج تحت الوقوعِ فضلاً عن أن ينتظِم ظهورُه في سلك العلةِ الغائيةِ لذلك الصنعِ البديعِ ، وإنما هو عملٌ يصدُر عن عامله بسوء اختيارِه من غير مصحّحٍ له ولا تقريب ، ولا يخفى ما فيه من الترغيب في الترقي إلى معارج العلومِ

ومدارجِ الطاعات والزجرِ عن مباشرة نقائضِها والله تعالى أعلم . ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الموت ﴾ على ما يوجبه قضيةُ الابتلاءِ ليترتبَ عليه الجزاءُ المتفرّعُ على ظهور مراتبِ الأعمال ﴿ لَّيَقُولَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ إن وُجّه الخطاب في قوله تعالى : ﴿

(244/373)

إِنَّكُمْ ﴾ إلى جميع المكلّفين بالموصول مع صلته للتخصيص أي ليقولَن الكافرون منهم ، وإن وجّه إلى الكافرين منهم فهو واردٌ على طريقة الذم .

(245/373)

﴿ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي مثلُه في الخديعة أو البطلان ، وهذا إشارةٌ إلى القول المذكورِ أو إلى القرآن فإن الإخبارَ عن كونهم مبعوثين وإن لم يجب كونُه بطريق الوحي المتلوّ إلا أنهم عند سماعِهم ذلك تخلّصوا إلى القرآن لإنبائه عنه في كل موضعٍ ، وكونِه علَماً عندهم في ذلك فعمَدوا إلى تكذيبه وتسميتِه سحراً تمادياً منهم في العناد وتفادياً عن سَنن الرشاد ، وقيل : هو إشارةٌ إلى نفس البعثِ ولا يلائمه التسميةُ بالسحر ، فإنه إنما يُطلقُ على شيء

موجودٍ ظاهراً لا أصلَ له في الحقيقة ، ونفسُ البعثِ عندهم معدومٌ بحتٌ ، وتعلّقُ الآيةِ الكريمةِ بما قبلها إما من حيث إن البعثَ كما أشير إليه من تتمات الابتلاءِ المذكورِ فكأنه قيل : الأمرُ كما ذكر ومع ذلك إن أخبرتهم بمقدمة فذّةٍ من مقدماته وقضيةٍ فردةٍ من تتماته لا يتلعثمون في الرد ويعدّون ذلك من قبيل ما لا صِحةَ له أصلاً فضلاً عن تصديق ما هذه من تتماته ، وإما من حيث إن البعثَ خلقٌ جديد فكأنه قيل : وهو الذي خلق جميعَ المخلوقاتِ ابتداءً لهذه الحكمة البالغةِ ومع ذلك إن أخبرتهم بأنه يعيدهم تارةً أخرى وهو أهونُ عليه يقولون ما يقولون فسبحان الله عما يصفون ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ إلا ساحرٌ على أن الإشارةَ إلى القائل أو إلى القرآن على أسلوب شعرٌ شاعرٌ وقرىء بالفتح على تضمين قلتَ معنى ذكرتَ أو على أن أنك بمعنى عنك في علّك ، أي ولئن قلتَ : لعلكم مبعوثون على أن الرجاءَ والتوقعَ باعتبار حالِ المخاطبين أي توقّعوا ذلك ولا تُبتّوا القولَ بإنكاره أو على أنه مجاراةٌ معهم في الكلام على نهج المساعدةِ لئلا يسارعوا إلى اللَّجاج والعِنادِ ريثما قَرعَ أسماعَهم بتُّ القولِ بخلاف ما أِلفوا وألفَوْا عليه آباءَهم من إنكار البعثِ ويكون ذلك أدعى لهم إلى التأمل والتدبّر وما فعلوه قاتلهم الله أنى يؤفكون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(246/373)

وقال الآلوسى :

ثم أتى سبحانه بما يدل على عظيم قدرته جل شأنه

من قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

تقريراً للتوحيد لأن من شمل علمه وقدرته هو الذي يكون إلهاً لا غيره مما لا يعلم ولا يقدر على ضر ونفع وتأكيداً لما سبق من الوعد والوعيد لأن العالم القادر يرجى ويخشى ، وجوز أن تكون الآية تقريراً لقوله سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [هود : 5] وما بعدها تقريراً لقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [هود : 4] وفيه بعد ، وكأن المراد بخلق السموات والأرض الخ خلقهما وما فيهما ، أو تجعل السموات مجازاً عن العلويات فتشملها وما فيها ، وتجعل الأرض مجازاً بمعنى السفليات فتشملها وما فيها من غير تقدير ، واحتيج لذلك لاقتضاء المقام إياه وإلا فخلقهما في تلك المدة لا ينافي خلق غيرهما فيها ، والمراد باليوم الوقت مطلقاً لا المتعارف إذ لا يتصور ذلك حين لا شمس ولا أرض ، وقيل : أريد به مدة زمان دور المحدد المسمى بالعرش دورة تامة ، وإليه ذهب الشيخ الأكبر قدس سره ، وقد علمت حاله فيما تقدم ، وقيل : غير ذلك .

وفي عدم خلقهما دفعة كما علمت دليل كما قال غير واحد على كونه سبحانه قادراً مختاراً مع ما فيه من الاعتبار للنظار والحث على التأني في الأمور ، وقد تقدم ما قيل في وجه

تخصيص هذا العدد دون الزائد عليه كالسبعة أو الناقص عنه كالخمسة للخلق ، ولعلنا نحقق ذلك في موضع آخر ، وإيثار صيغة الجمع في السموات لاختلافها بالأصل والذات دون الأرض ، وإن قيل : إنها مثل السماء في كونها سبعاً طباقاً بين كل أرض وأرض مسافة وفيها مخلوقات ، وبذلك فسر قوله سبحانه : ﴿ وَمِنَ الأَرضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : 12] والكثير على أن الأرض كرة واحدة منقسمة إلى سبعة أقاليم وحملوا الآية على ذلك .

(247/373)

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء ﴾ عطف على جملة ﴿ خُلِقَ ﴾ مع ضميره المستتر أو حال من الضمير بتقدير قد على ما هو المشهور في الجملة الحالية الماضوية من اشتراط قد ظاهرة أو مقدرة ؛ والمضي المستفاد من كان بالنسبة للحكم لا للتكلم أي كان عرشه على الماء قبل خلقهما وهو الذي يقتضيه كلام مجاهد ، وبه صرح القاضي البيضاوي ، ثم قال : لم يكن حائل بينهما أي العرش والماء لا أنه كان موضوعاً على متن الماء ، واستدل به على إمكان الخلاء وأن الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم انتهى ، وكذا صرح به العلامة أبو السعود مفتي الديار الرومية لكنه قال : ليس تحته يعني العرش شيء غيره أي الماء سواء كان بينهما فرجة ، أو موضوعاً على متنه كما ورد في الأثر فلا دلالة فيه على

إمكان الخلاء كيف لا ولو دل لدل على وجوده لا على إمكانه فقط ولا على كون الماء أول ما حدث في العالم بعد العرش وإنما يدل على أن خلقهما أقدم من خلق السموات والأرض من غير تعرض للنسبة بينهما انتهى ، ولا يخفى ما بين القاضي والمفتي من المخالفة ، والأكثرون على أن الحق مع المفتي كما ستعلمه إن شاء الله تعالى .

وانتصر بعضهم للقاضي بأنه لو كان موضوعاً على متن الماء للزم قبل خلق تمام العالم أحد الأمور الستة : إما خروج الماء عن حيزه الطبيعي .

أو خروج العرش عن حيزه الطبيعي .

أو تخلخل الماء .

أو نموه أو تخلخل العرش .

أو نموه ، وحين خلق العالم أحد الأمور الخمسة : إما حركة العرش بالاستقامة إلى حيزه الطبيعي .

أو تكاثف الماء .

أو ذبوله .

أو تكاثف العرش .

أو ذبوله ، وهذه الأمور باطلة كما لا يخفى على من تدرب في الحكمة ، ويحمل الإمكان في كلامه على الإمكان الوقوعي ، أو يراد به الإمكان الذاتي وبالخلاء الخلاء في عالمنا هذا فإنه المتنازع فيه فكأنه قيل واستدل به على أن الخلاء في عالمنا ممكن بالإمكان الذاتي وتوجيه الاستدلال به حينئذٍ على ذلك هو أن الخلاء قبل عالمنا هذا كان واقعاً ووقوع شيء في وقت من الأوقات دليل على إمكانه الذاتي في جميع الأوقات فإن ثبوت الإمكان للممكن واجب فالممكن في وقت ممكن في وقت آخر كما حققه شارح حكمة العين ، ووجه الدلالة على أن الماء أول حادث بعد العرش أن كل جسم بسيط فله مكان طبيعي وأن المكان من لوازم وجود الجسم فإن الفاعل إذا أوجد الجسم أوجده لا محالة في مكان كما صرحوا به ، والمكان للخفيف من الأجسام هو الفوق ، وللثقيل التحت على حسب الثقل والخفة وتحددهما إنما هو بالفلك الأعظم فوجود الماء في جوف العرش يتوقف على وجود مكانه المتوقف على وجود العرش فيتأخر عنه حدوثاً ولا يخفى ما في هذا الوجه من النظر ، ولا أقل من أن يقال لم لا يجوز أن يخلق الله تعالى العرش والماء معاً ؟ على أنه قد جاء في بعض الآثار ما هو ظاهر في أن الماء كان مخلوقاً قبل العرش فقد أخرج الطيالسي . وأحمد .

والترمذي وحسنه .

وابن ماجه .

وابن جرير .

وابن المنذر .

(249/373)

والبيهقي في الأسماء والصفات وغيرهم عن أبي رزين العقيلي قال : " قلت : يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض ؟ قال : كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء وخلق عرشه على الماء " وقال بعض في بيان وجه ذلك : أنه لما كان معنى كون العرش على الماء أنه موضوع فوقه لا مماسه وأن خلق السموات والأرض ءنما كان بعدهما اقتضى ذلك أن العرش مخلوق قبل وأن الماء أول حادث بعده وهو من فحوى الخطاب ، وقوله : لا أنه كان موضوعاً الخ لأن سياقه لبيان قدرته تعالى يقتضيه وفيه ما فيه كما لا يخفى ، وتعقب بعض فضلاء الروم ما ذكر أولاً بأن حاصله أن الشق الثاني من الشقين المذكورين في كلام العلامة الثاني مستلزم لأحد أمور تقرر في علم الحكمة بطلانها فيتعين الأول منهما ، وهو الذي ذهب إليه العلامة الأول ، وهو إنما يتم أن لو كانت المقدمات المذكورة في إبطال تلك الأمور يقينية وهو ممنوع فإن أكثرها مبني على أصول الفلاسفة ، وقد بين القاضي نفسه

بطلان أكثرها في الطوالع وهو إنما يراعي القواعد الحكمية إذا لم تكن مخالفة للقواعد الإسلامية على أن في كلام ذلك المنتصر خللاً من وجوه : الأول : أن قوله : يلزم إما خروج الماء عن حيزه الطبيعي الخ يقال في جوابه : أنه يجوز أن يخرج الماء عن حيزه الطبيعي وذلك غير محال وأن كان خروجه بنفسه بطريق السيلان عن حيزه الطبيعي محالاً ، ويشهد لذلك أنهم ذكروا أن الماء لثقله الإضافي يقتضي أن يكون فوق الأرض والأرض لثقلها الحقيقي تقتضي أن تكون مغمورة بأسرها فيه بحيث يمكن أن يفرض في جوفها نقطة تكون الخطوط الخارجة منها إلى سطح الماء متساوية من جميع الجهات مع أن الأمر اليوم ليس كذلك لانكشاف ربع شمالي من الأرض ، وانحسار الماء عنه إما بسبب قرب الشمس في الجنوب إلى الأرض عند كونها في الحضيض بقدر ثخن المتمم المحوى كما قيل أو لأمر آخر يعلمه الله تعالى ، الثاني : أن ما ذكره من استحالة تخلخل الماء

(250/373)

ممنوع عندهم أيضاً ، وما يقال : إن القول بالتخلخل لا يتصور في البسائط الحقيقية للزوم تركيب ما فيه مدفوع .

(251/373)

فقد صرح في حكمة العين وشرحها بأن التخلخل الحقيقي وهو أن يزداد مقدار الجسم من غير أن يزاد عليه شيء من خارج ممكن ، وحققه سيد المحققين في حواشيه بأن الجسم سواء كان مركباً من الهيولى والصورة أو لم يكن يمكن التخلخل والتكاثف فيه لأن مقدار الجسم زائد عليه والجسم من حيث هو لا مقدار له في ذاته فنسبته إلى جميع المقادير على السواء فأمكن أن يتصف بأكبر مما هو متصف به أو أصغر ، وأيضاً الجسم متصل واحد والمقدار زائد عليه والجسم البسيط جزؤه يساوي كله فإذا اتصف الكل بمقدار خاص فجزؤه إذا انفرد وجب أن يكون قابلاً للاتصاف بذلك المقدار والكل بالعكس ضرورة تساوي المتماثلات في الأحكام ، وحينئذٍ يتحقق إمكان ذلك ، والثالث : أن التوجيه بحمل الإمكان على الإكان الذاتي الخ منظور فيه إذ لا يلزم من وقوع شيء في وقت من الأوقات إلا إمكان وجوده في ذلك الوقت وإن كان ذلك الإمكان مستمراً واجباً في جميع الأوقات ، فقوله : إن ثبوت الإمكان للممكن واجب ، فالممكن في وقت ممكن في كل وقت إن أراد به أن إمكانه أمر ثابت له في كل وقت على أن قوله في كل وقت ظرف للإمكان فهو مسلم لكن اللازم منه أن يكون ذلك الشيء متصفاً بالإمكان إمكاناً مستمراً دائماً غير مسبوق بعدم الاتصاف ولا سابق عليه ولا يلزم منه أن يكون وجوده في كل وقت ممكناً لجواز أن يكون وجود الشيء في الجملة ممكناً إمكاناً مستمراً ولا يكون وجوده في كل وقت ممكناً بل ممتنع ؛

ولا يلزم من هذا أن يكون الشيء من قبيل الممتنعات دون الممكنات فإن إمكان الشيء ليس معناه جواز اتصافه بجميع أنحاء الوجود بل معناه جواز اتصافه بوجود ما في الجملة فيكفي في إمكان الشيء جواز اتصافه بالوجود الواقع في وقت ، والممتنع هو الذي لا يقبل الوجود بوجه من الوجوه ، وإن أراد أنه ممكن الوجود في كل وقت على أن يكون في كل وقت ظرفاً للوجود فهو ممنوع ولا يتفرع على كون ثبوت الإمكان للممكن واجباً ، فإنه قد حقق

المحقق الدواني في بعض تصانيفه أن إمكان الممكن وإن كان مستمراً في جميع الأزمنة لا يستلزم إمكان وجود ذلك الممكن في تلك الأزمنة ، وعلى هذا اعتمد المتكلمون في الجواب عن استدلال الفلاسفة على قدم العالم بأنه ممكن الوجود في الأزل وإلا لزم الانقلاب وهو محال بالضرورة ، وقدرة الباري تعالى أزلية بالاتفاق فلو كان العالم حادثاً لزم ترك الجود وهو إفاضة الوجود وما يتبعه من الكمالات على الممكنات مدة غير متناهية وهو محال على الجواد الحق الكريم وحاصل الجواب : أن قولكم العالم ممكن الوجود في الأزل إن أردتم به أنه يمكن له الوجود الأزلي على أن يكون في الأزل متعلقاً بالوجود فهو ممنوع لجواز أن يكون وجوده في الأزل ممتنعاً ، وإن أردتم به أن إمكان وجوده في الجملة مستمر في الأزل على أن

يكون الظرف متعلقاً بالإمكان فمسلم ، ولا يلزم أن يكون وجود العالم في الأزل ممكناً لجواز أن يكون وجوده في الأزل مستحيلاً مع أنه في الأزل متصف بإمكان وجوده فيما لا يزال ، وهذا ما يقال إنّ أزلية الإمكان لا تستلزم إمكان الأزلية ، وما قيل في إثبات الاستلزام إن إمكانه إذا كان مستمراً في الأزل لم يكن هو في ذاته مانعاً من قبول الوجود في شيء من أجزاء الأزل فيكون عدم منعه منه أمراً مستمراً في جميع تلك الأجزاء ، فإذا نظر إلى ذاته من حيث هو لم يمنع من اتصافه بالوجود في شيء منها بل جاز اتصافه به في كل منها بدلاً فقط بل معاً أيضاً ، وجواز اتصافه في كل منها هو إمكان اتصافه بالوجود المستمر في جميع أجزاء الأزل بالنظر إلى ذاته فأزلية الإمكان مستلزمة لإمكان الأزلية صحيح إلى قوله : لم يمنع من اتصافه بالوجود في شيء منها فإنه إن أراد أن ذاته لا تمنع في شيء من أجزاء الأزل من الاتصاف بالوجود في الجملة بأن يكون قوله في شيء منها متعلقاً بعدم المنع فيكون معناه أنه لا يمنع في شيء من أجزاء الأزل من الوجود بعده فهو بعينه أزلية الإمكان ولا يلزم منه

(253/373)

عدم منعه من الوجود الأزلي الذي هو إمكان الأزلية ، وإن أراد به أن ذاته لا تمنع من الوجود في شيء من أجزاء الأزل بأن يكون الجار متعلقاً بالوجود فهو بعينه إمكان الأزلية ، والنزاع

إنما وقع فيه فهو مصادرة على المطلوب ، وليت شعري كيف صدر هذا الكلام من قائله مع أنّ من الموجودات ما هو إني الوجود كبعض الحروف ومع التصريح بأن ماهية الزمان تقتضي لذاتها عدم اجتماع أجزائها وتقدم بعضها على بعض إذ يلزم منه إمكان وجود كل من تلك الأجزاء في الأزل نظراً إلى ذاته ، وتمام الكلام في ذلك يطلب من شرح المواقف وحواشيه .

وأورد على كون المراد بالخلاء الخلاء في عالمنا لأنه المتنازع فيه أنه صرح غير واحد بأن المتنازع فيه إنما هو الخلاء داخل العالم وحقيقته أن يكون الجسمان بحيث لا يتماسان وليس بينهما ما يماسهما بناءاً على كونه متقدراً قطعاً ، وأما الخلاء خارج العالم فمتفق عليه إذ لا تقدر هناك بحسب نفس الأمر ، فالنزاع إنما هو في التسمية بالبعد ، فالفلاسفة يقولون حقه أن لا يسمى بعداً ولا خلاءاً ، والمتكلمون يسمونه بعداً موهوماً ولا شك أن عالم كون العرش على الماء من داخل العالم فالخلاء فيه داخل في المتنازع فيه ، وقد نص عليه أيضاً بعض المتأخرين .

(254/373)

ومن الناس من اعترض على قوله : إنه لو كان موضوعاً على متن الماء للزم الخ بأن الأمور التي يلزم أحدها ذلك التقدير وهي فاسدة أكثر مما ذكر وسود وجه القرطاس ببيان ذلك وهو مما

لا يحتاج إليه بل ولا يعول عليه ، وزعم البعض أن ما راعاه القاضي في هذا الفصل ليس شيء منه مخالفاً للقواعد الإسلامية ، ووسوست له نفسه أن خروج الماء عن حيزه مما لا يجوز لأن الله سبحانه إن كان موجباً بالذات فلا يتصور الإخراج منه سبحانه لأن نسبته إليه على السوية بحسب الأوقات فلا يمكن كونه قاصراً في بعض دون بعض ، وإن كان مختاراً يقال : إن ذلك الخروج ممتنع في نفسه وهو سبحانه لا يفعل الممتنع ولا تتعلق قدرته به ، وكذا يقال في التخلخل والتكاثف ، ويجوز أن يكون بالطبع وإلا لكانا دائمين لأن مقتضى الذات لا يتخلف عنه ، وممن ذهب إلى امتناعهما الأصفهاني في شرح حكمة المطالع ثم تكلم منتصراً لنفسه .

وللقاضي .

(255/373)

بما لا يسمن ولا يغني ، وقال ابن صدر الدين بعد نقل كلام العلامتين : قد تقرر في علم الأبعاد والأجرام أن ليس لمجموع كرات العناصر بالنسبة إلى الفلك الأعظم الذي هو المراد بالعرش قدر محسوس فلا يتصور كونه موضوعاً على متن كرة الماء فإن ذلك إنما يكون إذا كان عظم كرة الماء بحيث يملأ جوف العرش مماساً محدّ به مقعره وإلا لم يكن موضوعاً على متنه الذي

هو عبارة عن السطح المحدب بل إما أن لا يتماسا أصلاً أو يتماسا بنقطة على ما يشهد به التخيل الصحيح ، وكيف يتصور كونه مالئاً له وهو الآن لم يمتلىء إلا بالسموات والأرض والكرسي والعناصر بجملتها ، وليس لك أن تقول : لعل الماء في ابتداء الخلقة قد كان على هذا المقدار الصغير الذي الآن عليه فتخلخل إلى حيث ملأ جوفه لامتناع الخلاء ، فلما خلق سائر الأجرام العلوية والسفلية عاد بطبعه إلى ما تراه لأنا نقول : التخلخل عبارة عن ازدياد مقدار الجسم من غير أن ينضم إليه شيء فيستدعي حركة أينية وهي تستدعي وجود فضاء خال عن الشاغل وهو المراد بالخلاء ، وكذا ليس لك أن تقول : فليكن في ابتداء الخلقة عظيم المقدار بحيث يملأ جوف العرش وتكاثف بعد خلق سائر الأجرام إلى هذا المقدار الصغير لأنا نقول أيضاً : التكاثف الذي هو عبارة عن انتقاص مقدار الجسم من غير أن ينقص منه شيء سببه على ما تقرر عندهم أمران : أحدهما : التخلخل السابق العارض له بما يوجبه فإذا زال ذلك العارض عاد بطبعه إلى مقداره الأول كما في المد والجزر ، وفي الصورة المذكورة لا يتصور هذا لأن المفروض أنه خلق ابتداءاً عظيم المقدار بحيث يملأ جوف العرش فكيف يتصور أن يتخلخل بعارض حتى يعود عند زواله إلى مقداره الطبيعي الصغير وهو ظاهر ؛ وثانيهما : الانجماد باستيلاء البرودة الشديدة ، وهذا أيضاً لا يتصور ههنا أما أولاً فلأن الماء المنعقد جمداً وإن كان أصغر مقداراً منه غير منعقد لكنه لا إلى مرتبة لا يكون له قدر محسوس بالنسبة إلى

مقداره الأول بل يقرب منه في الحس كما يشاهد في المياه المنعقدة ولا قدر لكرة الماء الموجود الآن بالنسبة إلى المالىء جوف العرش وهذا مثل أن ينعقد البحر فيصير كالعدسة ولا يلتزمه عاقل .

وأما ثانياً فلأن كرة الماء على ما يشاهد غير متجمدة بل باقية على طبعها من الذوبان ، فإن قلت : بقي على تقدير كون الماء في ابتداء الخلقة عظيم المقدار مالئاً لجوف العرش احتمال آخر وهو أن يفرز بعض أجزاء هذه الكرة العظيمة ويجعل مادة لسائر الأجرام السماوية والأرضية كما في سورة انقلاب بعض العناصر إلى بعض .

ويؤيده ما ورد في الأثر من أن العرش كان قبل خلق السموات والأرض على الماء ، ثم أنه تعالى أحدث في الماء اضطراباً فأزبد فارتفع منه دخان وبقي الزبد على وجه الماء فخلق فيه اليبوسة فصار أرضاً ، وخلق من الدخان السموات ، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت : 11] قلنا : إن هذا الاحتمال غير واقع أما على تقدير تركب الجسم من الهيولى والصورة على ما ذهب إليه المشاؤون من الفلاسفة فلأن هيولى العناصر وإن كانت واحدة بالشخص قابلة لأن يتوارد عليها صور العناصر بواسطة استعدادات متعاقبة تعرض إلا أن هيولى كل فلك مخالفة لهيولى فلك آخر لا تقبل إلا الصورة التي حصلت فيها ، وأما على تقدير تركبه من الجواهر الفردة على ما هو مذهب أهل الحق فلأنها متخالفة الحقائق عند محققي المتأخرين على ما صرحوا به ، فما يتركب منه الماء لا يجوز أن يتركب منه سائر الأجسام ، وأما ما ورد في الأثر وأشارت إليه الآية من جعل الدخان المرتفع من الماء مادة للسموات فمصروف عن ظاهره إذ الدخان أجزاء نارية خالطتها أجزاء صغار أرضية تلطفت بالحرارة ولا تمايز بينهما في الحس لغاية الصغر ، فقبل خلق السموات والأرض بما فيهما لم تكن نار وأرض ، فمن أين يتولد الدخان ؟ وكذا إن أريد بالدخان البخار لأنه أجزاء هوائية مازجتها أجزاء صغار مائية تلطفت بالحرارة بحيث لا تمايز بينهما في الحس أيضاً فحيث لا هواء لا بخار ، ولهذا قال القاضي في تفسير ﴿ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت : 11] أمر ظلماني ، ولعله أراد به مادتها أو الأجزاء المتصغرة التي ركبت منها ، ومن هنا ظهر أن ما في الأثر لا يؤيد كون العرش موضوعاً على متن الماء ملتصقاً به بل يؤيد أن لا يكون بينهما حائل إذ ارتفاع الدخان

والبخار يستدعي وجود فضاء تتحرك فيه تلك الأجزاء ، وفي صورة الالتصاق لا يمكن ذلك كما لا يخفى على من له تخيل سليم .

(258/373)

ويعلم مما ذكر أنه يجب تفسير الآية بما فسرها به القاضي ولا مجال للقول بالوضع على المتن فيتم الاستدلال ، وأما قول أبي السعود : إنه لو دل الخ ففيه أن الوقوع أدل دليل على إمكان الشيء ، ومثل هذا الاستدلال شائع ذائع في كلامهم ، وأما أن المراد بالإمكان الإمكان الوقوعي فكلا إذ النزاع في الإمكان لا الوقوع ، وما ينقل عن الأصمعي من أن هذا كقولهم السماء على الأرض مع أن أحدهما ليس ملتصقاً بالآخر ، وحينئذٍ يكون معنى قول القاضي : لم يكن حائل بينهما أنه لم يكن حائل محسوس بينهما وكان حائل غير محسوس وهو الهواء ليس بشيء ولا يصلح ما ذكر معنى لذلك إذ الفوقية كانت قبل خلق جميع أجرام هذا العالم فعلى تقدير عدم الالتصاق لا يتصور حائل أصلاً ، ثم بين وجه دلالة الآية على أن الماء أول حادث بعد العرش بنحو ما قدمنا ذكره انتهى المراد منه .

(259/373)

وأقول : إن هذا الاحتمال الذي أجاب عنه بزعمه قوي جداً ، وما ذكره عن محققي المتأخرين صرح الجمهور بخلافه ، وقد حقق ذلك في موضعه فلا مانع من أن يخلق الله تعالى من الماء الأجرام السماوية والأرضية بل وكل شيء ، وما ذكره في حيز تعليل صرف الأثر عن ظاهره ليس بشيء أصلاً إذ يجوز أن يحيل سبحانه بعض ذلك الماء المالىء أجزاء نارية وبعضه أجزاء أرضية ويجعل المجموع دخاناً ، وكذا يجوز أن يحيل البعض أجزاء هوائية فتمازج أجزاء صغاراً مائية متلطفة بحرارة يخلقها حيث شاء فيتكون البخار ، وفي الأثر عن وهب بن منبه أنه جل شأنه قبض قبضة من الماء ثم فتح القبضة فارتفع الدخان ثم قضاهن سبع سموات في يومين ويؤول حديث الارتفاع بما لا يستدعي الفضاء نحو أن يكون المعنى فوجد بعضه دخاناً مرتفعاً ، وقد يقال : يجوز أن يكون الماء في ابتداء الخلقة مالئاً للعرش ثم أنه سبحانه لما أراد أن يخلق ما يخلق أفنى منه ما أراد وخلق بلا فاصل يتحقق معه الخلاء بدله ما خلق لا من شيء ، والقول باستحالة هذا الخلق مفض إلى فساد عظيم وخطب جسيم لا يكاد يستسهله أحد من المسلمين وهو ظاهر ، وما ذكره في دفع قول شيخ الإسلام : أنه لو دل لدل الخ غير ظاهر فيه ، قيل : إذ الاعتراض بطريق أنه لو دل لدل على وجود الخلاء لا على إمكانه الصرف لأن الشيء إذا كان موجوداً كان وجوده

ضرورياً لاممكناً صرفاً على ما بين في محله ، وينادي على أن الاعتراض كذلك تقييد الإمكان في عبارته بقيد فقط مع القول بالدلالة على الوجود .

(260/373)

وأورد بعضهم على قوله : قد تقرر في علم الأبعاد والأجرام الخ أن ذلك مبني على ظن أن الماء في الآية هو الماء العنصري وأنه من بعض الظن إذ ذاك إنما خلق بعد خلق الأرض فكيف يتصور أن يكون العرش الذي خلق قبل السموات والأرض عليه فضلاً عن أن يكون موضوعاً على متنه أو غير موضوع عليه من غير حائل بينهما ، وإنما هو الماء الطبيعي النوري العمائي الذي تكون العرش منه ، وفيه صرف اللفظ عن ظاهره ، ونظير ذلك ما قاله الكامل بن الكمال : ليس المراد من العرش تاسع الأفلاك ، ولا من الماء أحد العناصر لما شهد بذلك شهادة صحيحة لا مرد لها ما أخرجه مسلم في صحيحه من قوله صلى الله عليه وسلم : "كان الله تعالى ولم يكن معه شيء وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض " فلا وجه للاستدلال به على إمكان الخلاء ، وأن الماء أول حادث بل عرشه سبحانه عبارة عن قيوميته بناءاً على أنه في الأصل سرير الملك وهو مظهر سلطانه ، والماء إشارة إلى صفة الحياة باعتبار أن منه كل شيء حي ، فمعنى ﴿

وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء ﴾ وكان حياً قيوماً ، وفي لفظة ﴿ على ﴾ تنبيه على ترتب أحدهما على الآخر فتدبر انتهى .

(261/373)

ولعل وجه شهادة الخبر بذلك النفي تضمنه على تقدير الإثبات ما ينافي ما تضمنه النفي فيه إذ يكون حينئذ شيآن معه سبحانه فضلاً عن شيء ، ولا يخفى أن هذا إنما يتم لو كانت الجملة الماضوية في موضع الحال ، والظاهر أنها كغيرها معطوفة على الجملة المستأنفة ، وليس في الكلام ما يقتضي أن المعنى ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء ﴾ مع وجوده تعالى بدون معية شيء له ليضطر إلى حمل الماء والعرش على ما علمت من صفتيه تعالى ، ولا أرى في الحديث أكثر من إفادة ثبوت ما تضمنته المتعاطفات قبل حلق السموات والأرض ، وأما أن كونه تعالى ولم يكن معه شيء وكون عرشه سبحانه على الماء ، وكتابته في الذكر ما كتب كلها في وقت واحد هو وقت وجوده تعالى الواقع بعده خلق السموات والأرض بمهلة وتراخ فلا أراه ، وقد جاء في بعض الروايات عطف الخلق على ما قبله بالواو كسائر المعطوفات .

أخرج أحمد .

والبخاري .

والترمذي .

والنسائي .

وغيرهم عن عمران بن حصين قال : " قال أهل اليمن : يا رسول الله أخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان ؟ قال : كان الله تعالى قبل كل شيء وكان عرشه على الماء وكتب في اللوح الحفوظ ذكر كل شيء وخلق السموات والأرض " الخبر ، ثم إنه لا يتم أمر الشهادة بمجرد ما تقدم بل لا بد أيضاً من حمل الكتابة في الذكر على التقدير ، ونفى أن يكون هناك كتابة ومكتوب فيه حسبما يتبادر منهما ، ويلتزم هذا في الخبر الثاني أيضاً ، ومع ذلك يعكر على القول بكون زمن التقدير متحداً كزمن قيوميته وحياته تبارك وتعالى مع زمن وجوده سبحانه ما أخرج مسلم .

والترمذي .

(262/373)

والبيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء " لأن أجزاء الزمان الموهوم الفاصل بين زمان وجوده تعالى ووجود صفاته وزمان

وجود الخلق غير متناهية ، فكيف تقدر بخمسين ألف سنة وضربها في نفسها وضرب الحاصل من ذلك بنفسه ألف ألف مرة أقل قليل بل لا شيء يذكر بالنسبة إلى غير المتناهى ؛ ويعارض هذه الشهادة أيضاً ما تقدم في حديث أبي رزين العقيلي من قوله عليه الصلاة والسلام : " وخلق عرشه على الماء " فإنه نص في أن العرش مخلوق ، ولا يجوز أن تكون القيومية مخلوقة ، وكذا ما روي عن كعب من أنه سبحانه خلق ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماءاً ، ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ، ثم وضع العرش على الماء ، وجاء حديث كون الماء على متن الريح عن ابن عباس ، وقد أخرج ذلك عنه ابن جرير .

وابن المنذر .

والحاكم وصححه .

والبيهقي .

وغيرهم ، وإباء ما ذكر عن كون الماء بمعنى صفة الحياة له تعالى ظاهر ، ومثله ما أخرجه ابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس أنه قال : كان عرشه سبحانه على الماء فلما خلق السموات والأرض قسم ذلك الماء قسمين فجعل نصفاً تحت العرش وهو البحر المسجور فلا تقطر منه قطرة حتى ينفخ في الصور فينزل منه مثل الطل فتنبت منه الأجسام ، وجعل النصف

الآخر تحت الأرض السفلى ، ولعل وجه الأمر بالتدبر في كلام هذا الفاضل الإشارة إلى ما ذكرنا .

(263/373)

وبالجملة لا شك أن المتبادر من الماء ما هو أحد العناصر ومن العرش الجسم الذي جاء في الأخبار من وصفه ما يبهر العقول وشهادة الخبر السابق مع كونها شهادة نفي عارضتها شهادات إثبات غير نص في المطلوب كما علمت ، ومن كون العرش على الماء ما يعم الشقين كونه موضوعاً على متنه مما ساله وكونه فوقه من غير أن يكون بينهما ما يماسهما ، وتخصيصه بالشق الثاني مما لا يتم له دليل ولا يصفو عن القال والقيل ، وأن الآية لا تصلح دليلاً على كون الماء أول حادث بعد العرش ، ومن رجع إلى الأخبار المعول عليها رأي بعضها كخبر أبي رزين الذي حسنه الترمذي ظاهراً في أن الماء قبل العرش ، وقصارى ما يقال في هذا المقام : إن الحق مع شيخ الإسلام وأن نصرة القاضي وإن كان ناصر الدين نصرة خارجة عن الطريق المستبين ، فلا تلتفت هداك الله سبحانه إلى من أطال في ذلك بلا طائل ، وأتى بكلام لا يشبه كلام عاقل ، وزعم أن ذاك من الحكمة وهو عنها علم الله بمراحل ، ولولا الوقوع في العبث لنقلناه ونبهنا على ما فيه ، وإن كان حال ظاهره مؤذناً بحال خافيه ،

نعم قد يقال : إن البيضاوي إنما ذكر أنه استدل بالآية على كذا وكذا ، ولم يدّع أن فيها دليلاً على ذلك ، فما يتوجه من الاعتراضات إنما يتوجه على المستدل دونه وكأنه من وجه إليه ذلك ادعى ارتضاءه للاستدلال بدليل ما وطأه له من المقال ، وزعم الجبائي أن في الآية دلالة على أنه كان قبل خلق السموات والأرض حي مكلف لأن خلق العرش على الماء لا وجه لحسنه إلا أن يكون فيه لطف بمكلف يمكنه الاستدلال به ، ورده على ابن عيسى بأنه لا يلزم ذلك ويكتفي بكون الأخبار به نافعاً للمكلفين واختاره المرتضى ، ومنشأ ذلك الاعتزال ، والله تعالى الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب .

(264/373)

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ اللام للتعليل مجازاً متعلقة ب ﴿ خَلَقَ ﴾ أي خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات التي من جملتها أنتم ، ورتب فيهما جميع ما تحتاجون إليه من مبادي وجودكم وأسباب معاشكم وأودع في تضاعيفهما ما تستدلون به من تعاجيب الصنائع والعبر على مطالبكم الدينية ليعاملكم معاملة من يختبركم .

﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ فيجازيكم حسب أعمالكم ، وقيل : متعلق بفعل مقدر أي أعلم بذلك ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ وقيل : التقدير وخلقكم ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ وقيل : في الكلام جملة

محذوفة أي وكان خلقه لهما لمنافع يعود عليكم نفعها في الدنيا دون الآخرة وفعل ذلك ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ والكل كما ترى ، والابتلاء في الأصل الاختبار والكلام خارج مخرج التمثيل والاستعارة ، ولا يصح إرادة المعنى الحقيقي لأنه إنما يكون لمن لا يعرف عواقب الأمور .

وقيل : إنه مجاز مرسل عن العلم للتلازم بين العلم والاختبار ، وهو محوج إلى تكلف أن يراد ليظهر تعلق علمه الأزلي وإلا فالعلم القديم الذاتي ليس متفرعاً على غيره ، وما تقدم لا تكلف فيه ، وهو مع بلاغته مصادف محزه ، والمراد بالعمل ما يشمل عمل القلب وعمل القالب ، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن جرير .

وابن أبي حاتم .

والحاكم في التاريخ .

وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : "تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ الخ فقلت : ما معنى ذلك يا رسول الله ؟ قال : ليبلوكم أيكم أحسن عقلا ، ثم قال : وأحسنكم عقلاً أورعكم عن محارم الله تعالى وأعملكم بطاعة الله تعالى" لكن ذكر الحافظ السيوطي أن سنده واه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان أن معنى ﴿ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ أزهد في الدنيا ، وعن مقاتل أتقي لله تعالى ، وعن الضحاك أكثرهم شكراً ، ولعل أخذ العمل شاملاً للأمرين أولى ، وأفضلها ما كان عمل القلب كيف لا ومدار العبادة القالبية الواجبة على العباد معرفة الله تعالى التي تحل القلب ، وقد يرفع به للعبد في يوم مثل عمل أهل الأرض .

وفي بعض الآثار "تفكر ساعة يعدل عبادة سبعين سنة" واعتبار خلق السموات في ضمن المفرع عليه لما أن في السموات مما هو من مبادي النظر وتهيئة أسباب المعاش الأرضية التي بها قوام القالب ما لا يخفى ، وقريب من هذا أن ذكر السموات وخلقها لتكون أمكنة الكواكب والملائكة العاملين فيها لأجل الإنسان .

وقال بعض المحققين .

إن كون خلق الأرض وما فيها للابتلاء ظاهر ، وأما خلق السموات فذكر تتميماً واستطراداً مع أن السموات مقر الملائكة الحفظة وقبلة الدعاء ومبهط الوحي إلى غير مما له دخل في الابتلاء في الجملة ، ولعل ما أشير إليه أولاً أولى ، وجملة الاستفهام في موضع المفعول الثاني لفعل البلوي على المشهور ، وجعل في الكشاف الفعل هنا معلقاً لما فيه من معنى العلم ، ومنع في سورة الملك تسمية ذلك تعلقاً مدعياً أنه إنما يكون إذا وقع بعد الفعل ما يسدّ مسدّ المفعولين جميعاً كعلمت أيهما فعل كذا .

وعلمت أزيد منطلق وبين كلاميه في السورتين اضطراب بحسب الظاهر ، وأجاب عنه في الكشف بما حاصله أن للتعليق معنيين : مصطلح ويعدى بعن وهو المنفى في تلك السورة .

(266/373)

ولغوي ويعدى بالباء وعلى ، وهو خاص بفعل القلب من غير تخصيص بالسبعة المتعدية إلى مفعولين ولا يكون إلا في الاستفهام خاصة دون ما فيه لام الابتداء ونحوه ، ومعنى تعليق الفعل على ما فيه ذلك أن يرتبط به معنى وإعراباً سواء كان لفظاً أو محلا وهو المثبت ههنا ، وقال الطيبي : يمكن أن يكون ما هنا على إضمار العلم كأنه قيل : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ فيعلم ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ والتعليق فيه ظاهر ، وما هناك على تضمين الفعل معنى العلم كأنه قيل : ليعلمكم أيكم الخ فيصح النفي ، ولا يخفى على من راجع كلامه أن فيه ما يأبى ذلك ، وقد يقال : إن التعليق لا يختص بما كان من الأفعال بمعنى العلم كما ذهب إليه ثعلب . والمبرد .

وابن كيسان ، وإن وجهه أويس بما في همع الهوامع ، ورجحه الشلوبين ، ولا بالفعل القلبي مطلقاً بل يكون فيه وفي غيره مما ألحق به لكن من الاستفهام خاصة ، واقتصر بعضهم في الملحق على بصر .

وتفكر .

وسأل وزاد ابن خروف نظر ووافقه ابن عصفور .

وابن مالك ، وزاد الأخير نسى كما في قوله

: ومن أنتم إنا نسينا من أنتم . . .

(267/373)

ونازعه أبو حيان بأن من تحتمل الموصولية والعائد محذوف أي من هم أنتم ، وكذا زاد أيضاً ما قارب المذكورات من الأفعال التي لها تعلق بفعل القلب كترى البصرية في قوله : أما ترى أي برق هنالك ، وكيستنبئون في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ [يونس : 53] وكنبلو فيما نحن فيه ، ونازعه أبو حيان بأن ترى في الأول علمية ، وأيكم في الأخير موصولة حذف صدر صلتها فبنيت وهي بدل من ضمير الخطاب بدل بعض ، ونقل ذلك عنه الجلال السيوطي ولم أجده في بحره ، وفي الرضى أن جميع أفعال الحواس تعلق عن العمل ، وفي التسهيل ما يؤيده ، وأجاز يونس تعليق كل فعل غير ما ذكر ، وخرج عليه ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ ﴾ [مريم : 69] والجمهور لم يوافقوه على ذلك ، وقد ذكر بعض الفضلاء أن الفعل القلبي وما جرى مجراه إما متعد إلى واحد أو اثنين ، فالأول يجوز تعليقه

سواء تعدى بنفسه كعرف ، أو بحرف كتفكر لأن معموله لا يكون إلا مفرداً ، وبالتعليق بطل عمله في المفرد الذي هو مقتضاه وتعلق بالجملة ، ولا معنى للتعليق إلا إبطال العمل لفظاً لا محلا وإن تعدى لاثنين ، فإما أن يجوز وقوع الثاني جملة كما في باب علم أولا ، فإن جاز علق عن المفعولين نحو علمت لزيد قائم لا عم الثاني لأنه يكون جملة بدون تعليق فلا وجه لعده منه إذ لا فرق بين أداة التعليق وعدمها فالتعليق لا يبطل عمل الفعل أصلاً كما في علمت زيداً أبوه قائم ، وعلمت زيداً لا أبوه قائم ، فإن عمله في محل الجملة لا فرق فيه بين وجود حرف التعليق وعدمه وإن لم يجز ، وورد فيه كلمة تعليق كان منه نحو

﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : 215] فإن المسؤول عنه لا يكون إلا مفرداً .

(268/373)

والفعل فيما نحن فيه يحتمل أن يكون عاملاً فيما بعده وهو المختبر به غير متضمن علماً ، وفعل البلوي إذا كان كذلك يتعدى بالباء إلى المختبر به ولا يكون إلا مفرداً كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ ﴾ [البقرة : 155] والاستفهام قد أبطل مقتضاه لفظاً وهو التعليق ، ويحتمل أن يكون متضمناً معنى العلم ويكون العلم عاملاً فيه وهو مفعوله الثاني ، وحينئذ لا تعليق ، ومن هنا يظهر أن تعليق الفعل في الآية إنما هو على تقدير إعمال فعل

البلوى ، وعدم تعليقه على تقدير إعمال العلم فلا منافاة بين الكلامين انتهى وهو تفصيل حسن ، وفي الهمع أن الجملة بعد المعلق في باب علم وأخواتها في موضع المفعولين فإن كان التعليق بعد استيفاء المفعول الأول فهي في موضع المفعول الثاني ، وأما في غير هذا الباب فإن كان الفعل مام يتعدى بحرف الجر فالجملة في موضع نصب باسقاطه نحو فكرت أهذا صحيح أم لا ، وجعل ابن مالك منه ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ [الكهف : 19] وإن كان مما يتعدى لواحد فهي في موضعه نحو عرفت أيهم زيد ، فإن كان مفعوله مذكوراً نحو عرفت زيداً أبو من هو ، فالجملة بدل منه على ما اختاره السيرافي .

وابن مالك ، وهو بدل كل من كل بتقدير مضاف أي قصة زيد أو أمره عند ابن عصفور ، والتزم ذلك ليكون المبدل منه جملة في المعنى ، وبدل اشتمال ولا حاجة إلى التقدير عند ابن الصائغ ، وذهب المبرد والأعلم .

وابن خروف .

(269/373)

وغيرهم إلى أن الجملة في موضع نصب على الحال ، وذهب الفارسي إلى أنها في موضع المفعول الثاني لعرفت على تضمينه معنى علمت ، واختاره أبو حيان وفيه نوع مخالفة في

الظاهر لما تقدم تظهر بالتأمل إلا أنه اعترض القول بأن ما بعد فعل البلوي مختبر به بأن المختبر به إنما هو خلق السموات والأرض ، وأجيب بأن ذلك وإن كان في نفس الأمن مختبراً عنه والمختبر به ما ذكر إلا أنه جعل مختبراً به باعتبار ترتبه على ذلك ، ولا يخفى ما فيه ، وقال بعض أرباب التحقيق في دفع المخالفة : إن الزمخشري جعل قوله سبحانه هنا : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ بجملته استعارة تمثيلية فتكون مفرداته مستعملة في معناها الحقيقي معطاة ما تستحقه ، وفعل البلوي يعلق عن المفعول الثاني لأنه لا يكون جملة إذ هو يتعدى له بالباء وحرف الجر لا يدخل على الجمل ، وجرى التعليق فيه بناءاً على أنه مناسب لفعل القلوب معنى ، وقد صرح غير واحد بجريانه في ذلك وجعله ثمة مستعاراً لمعنى العلم ، والفعل إذ تجوز به عن معنى فعل آخر عمل عمله وجرى عليه حكمه ، وعلم لا يعلق عن المفعول الثاني فكذا ما هو بمعناه فيكون قد سلك في كل من الموضعين مسلكاً تفننا ، وكثيراً ما يفعل ذلك في كتابه ، ولعله لم يعكس الأمر لأن ما فعله في كل أنسب بما قبله من خلق السموات والأرض وما فيها من النعم والمنافع وخلق الموت والحياة ، ولا يخفى أن هذا قريب مما تقدم وفيه ما فيه .

(270/373)

والاتيان بصيغة التفضيل الدالة على الاختصاص بالمختبرين ألا حسنين أعمالاً مع شمول الاختبار لفرق المكلفين وتتفاوت أعمال الكفار منهم إلى حسن شرعي وقبيح لا إلى حسن وأحسن كما في أعمال المؤمنين للتحريض على أحاسن المحاسن ، والتحضيض على الترقي دائماً لدلالته على أن الأصل المقصود بالاختبار ذلك الفريق ليجازيهم أكمل الجزاء فكأنه قيل : المقصود أن يظهر أفضليتكم لأفضلكم فإن ذلك مفروغ عنه لا يحيد عنه ذولب ، وجوز أن يكون من باب الزيادة المطلقة وأن يكون من باب ﴿ أي الفريقين خير مقاماً ﴾ ، [مريم : 73] وأياً مّا كان فالخطاب ليس خاصاً بالمؤمنين لأن إظهار حال غيرهم مقصود أيضاً لكنه لا بالذات على الوجه الأول .

﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الموت لَيَقُولَنَّ الذين كَفَرُواْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ . أي مثله في الخديعة والبطلان ، فالتركيب من التشبيه البليغ ، والإشارة إلى القول المذكور ، وجوز أن تكون للقرآن كأنه قيل : لو تلوت عليهم من القرآن ما فيه إثبات البعث لقالوا هذا المتلو يحر ، والمراد إنكار البعث بطريق الكناية الايكائية لأن إنكار البعث إنكار للقرآن ، وقيل : إن الاخبار عن كونهم مبعوثين وإن لم يجب عن كونه بطريق الوحي المتلو إلى أنهم عند سماعهم ذلك تخلصوا إلى القرآن لانبائه عنه في كل موضع وكونه علماً عندهم في ذلك فعمدوا إلى تكذيبه ، وتسميته سحراً تمادياً منهم في العناد وتفادياً عن سنن الرشاد وهو خلاف الظاهر ، وقيل : الإشارة إلى نفس البعث ، وتعقب بأنه لا يلائمه التسمية بالسحر

فإنه إنما يطلق على شيء موجود ظاهراً لا أصل له في الحقيقة ، ونفس البعث عندهم معدوم بحت ، وفيه بحث لجواز أنهم أرادوا من السحر الأمر الباطل والشيء الذي لا أصل له ولا حقيقة لشيوعه فيما بينهم بذلك حتى كأنه علم له .

(271/373)

وجوز أن تكون الإشارة إلى القائل ، والاخبار عنه بالسحر للمبالغة ، والخطاب في ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ إن كان لجميع المكلفين فالموصول مع صلته للتخصيص أي ليقولنّ الكافرون منهم ، وإن كان للكافرين فذكر الموصول ليتوصل به إلى ذمهم بعنوان الصلة ، وتعلق الآية الكريمة بما قبلها إما من حيث أن البعث من تتمات الابتلاء المذكور فيه كأنه قيل : الأمر كما ذكر ، ومع ذلك إن أخبرتهم بمقدمة فذة من مقدماته وقضية فردة من تتماته يقولون ما يقولون فضلاً عن أنهم يصدقون بما وقع هذا تتمة له ، وإما من حيث أن البعث خلق جديد فكأنه قيل : وهو الذي خلق جميع المخلوقات ليترتب عليها ما يترتب ، ومع ذلك إن أخبرتهم بأنه سبحانه يعيدهم تارة أخرى وهو أهون عليه يعدون ذلك ما يعدون فسبحان الله عما يصفون .

وقرأ عيسى الثقفي ﴿ وَلَئِن قُلْتَ ﴾ بضم التاء على أن الفعل مسند إليه تعالى أي ﴿ وَلَئِن قُلْتَ ﴾ ذلك في كتابي المنزل عليك ﴿ لَيَقُولَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ الخ ، وفي البحر أن

المعنى على ذلك ﴿ وَلَئِن قُلْتَ ﴾ مستدلاً على البعث من بعد الموت إذ في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ ﴾ [الحديد : 4] الخ دلالة على القدرة العظيمة ، فمتى أخبر بوقوع ممكن وقع لا محالة وقد أخبر بالبعث فوجب قبوله وتيقن وقوعه انتهى وهو لدى الذوق السليم كماء البحر .

وقرأ الأعمش ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ بفتح الهمزة على تضمين ﴿ قُلْتَ ﴾ معنى ذكرت ﴿ وَلَئِن قُلْتَ ﴾ ذاكراً ﴿ إِنَّكُمْ مَّبْعُوثُونَ ﴾ فإن وما بعدها في تأويل مصدر مفعول للذكر ، واستظهر بعضهم كون القول بمعنى الذكر مجازاً ، وتعقب بأن الذكر والقول مترادفان فلا معنى للتجوز حينئذ ، ولما كان القول باقياً في التضمين جاء الخطاب على مقتضاء .

(272/373)

وجوز أن تكون أن بمعنى علّ ، ونقل ذلك عن سيبويه ، وجاء ائت السوق علك تشتري لحماً وأنك تشتري لحماف ، وهي لتوقع المخاطب لكن لا على سبيل الأخبار فإنهم لا يتوقعون البعث بل على سبيل الأمر كأنه قيل : توقعوا بعثكم ولا تبتوا القول بانكاره ، وبذلك يندفع ما يقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قاطع بالبعث فكيف يقول لعلكم مبعوثون ، وأيضاً القراءة المشهورة صريحة في القطع والبت ، وهذه صريحة في خلافه فيتنافيان ،

ومنهم من قال : يجوز أن يكون هذا من الكلام المنصف والاستدراج فربما ينتبهون إذا تفكروا ويقطعون بالبعث إذا نظروا .

وقرأ حمزة .

والكسائي إلا ساحر والإشارة إلى القائل ، ولا مبالغة في الإحبار كما كانت على هذا الاحتمال في قراءة الجمهور ، ويجوز أن تكون للقول أو للقرآن ، وفيه من المبالغة ما في قولهم : شعر شاعر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(273/373)

وقال القاسمى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

من الأحد إلى الجمعة : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء ﴾ أي : ما كان تحته قبل خلق السماوات والأرض وارتفاعه فوقها إلا الماء . وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السماوات والأرض - كذا في " الكشاف " - .

قال القاضي : أي : لم يكن بينهما حائل ، لا أنه كان موضوعاً على متن الماء .

قال قتادة : ينبئنا تعالى في هذه الآية كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السماوات والأرض

.

روى الإمام أحمد عن أبي رَزين - واسمه : لقيط بن عامر العُقَيْلي - قال : قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : <كان في عماء ، ما تحته هواء ، وما فوقه هواء ، ثم خلق العرش بعد ذلك> ورواه الترمذي وحسنه وقال : قال أحمد : يريد بالعماء أنه ليس معه شيء .

وقال البيهقي في كتاب " الأسماء والصفات " : (العماء) ممدود كما رأيته مقيداً كذلك ، ومعناه السحاب الرقيق ، أي : فوق سحاب ، مدبراً له ، وعالياً عليه . كما قال تعالى : ﴿ ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الملك : من الآية 16] ، يعني من فوق السماء . وقوله : (ما فوقه هواء) أي : ما فوق السحاب هواء . وكذلك قوله : (وما تحته هواء) أي : ما تحت السحاب هواء .

(274/373)

وقد قيل : إن ذلك (العمى) مقصور ، بمعنى لا شيء ثابت ، لأنه مما عمي عن الخلق ، فكأنه قال في جوابه : كان قبل أن يخلق الخلق ولم يكن شيء غيره . و (ما) فيهما نافية . أي : ليس فوق العمى الذي هو لا شيء موجود هواء ، ولا تحته هواء ؛ لأنه إذا كان غير

موجود فلا يثبت له هواء بوجه . انتهى ملخصاً .

وقال ابن الأثير : العماء في اللغة السحاب الرقيق ، وقيل الكثيف ، وقيل هو الضباب ، وفي الحديث حذف ، أي : أين كان عرش ربنا ؟ دل عليه قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء ﴾ .

وحكى بعضهم أنه العمى المقصور . قال : وهو كل أمر لا يدركه الفَطِن .

وقال أبو عبيد : إنما تأولنا هذا الحديث على كلام العرب المعقول عنهم ، وإلا فلا ندري كيف كان ذلك العماء ! .

قال الأزهري : فنحن نؤمن به ولا نكيف صفته .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ أي : أخلصه ، متعلق بـ (خلق) أي : خلقهن لحكمة بالغة ، وهي أن يجعلهن مساكن لعباده ، وينعم عليهم بفنون النعم ، فيعبدوه وحده ، ويتسابقوا في العمل الذي يرضيه . ولما كان الابتلاء والاختبار لمن تخفى عليه عاقبة الأمور ؛ قيل : إنه هنا تمثيل واستعارة ، فشبه معاملته تعالى عباده في خلق المنافع لهم ، وتكليفهم شكره ، وإثابتهم إن شكروا ، وعقوبتهم إن كفروا ، بمعاملة المختبر مع المختبَر ، ليعلم حاله ويجازيه ، فاستعير له الابتلاء على سبيل التمثيل (ليبلوكم) موضع (ليعاملكم) ويصح أن يكون مجازاً مرسلاً ، لتلازم العلم والاختبار . أي : خلق ذلك ليعلم ، أي : ليظهر تعلق علمه الأزلي بذلك .

قال القاشاني : جعل غاية خلق الأشياء ظهور أعمال الناس . أي : خلقناهم لنعلم العلم التفصيلي التابع للوجود الذي يترتب عليه الجزاء : ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ فإن علم الله قسمان : قسم يتقدم وجود الشيء في اللوح ، وقسم يتأخر وجوده في مظاهر الخلق ، والبلاء الذي هو الاختبار هو هذا القسم – انتهى – .

ونحو هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [ص : من الآية 27] ، وقوله : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون : 115 – 116] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن قُلْتَ ﴾ أي : لأهل مكة : ﴿ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ أي : مُحْيَون : ﴿ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا ﴾ أي : القول بالبعث ، أو القرآن المتضمن لذكره : ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : مثله في الخديعة والبطلان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 75. 77 ﴾

وقال صاحب روح البيان :

وهو الذي خلق السموات السبع ، السماء الدنيا وهو فلك القمر من الموج المكفوف المجتمع وهو مقر أرواح المؤمنين ، والسماء الثانية وهو فلك عطارد من درة بيضاء وهو مقر أرواح العباد ، والسماء الثالثة وهو فلك الزهرة من الحديد وهو مقر أرواح الزهاد ، والسماء الرابعة وهو فلك الشمس من الصفر وهو مقام أرواح أهل المعرفة ، والسماء الخامسة وهو فلك المريخ من النحاس وهو مقام أرواح الأنبياء ، والسماء السادسة وهو فلك المشتري من الفضة وهو مقام أرواح الأنبياء .

والسابعة : وهو فلك زحل من الذهب وهو مقام أرواح الرسل وفوق هذه السموات الفلك الثامن وهو فلك الثوابت ويقال : له الكرسي وهو مقام أرواح أولي العزم من الرسل وفوقه عرش الرحمن وهو مقام روح خاتم النبيين صلوات الله وسلامة عليهم أجمعين وجمع السموات لاختلاف العلويات أصلاً كما ذكرنا وذاتا لأنها سبع طبقات بين كل اثنتين منها مسيرة خمسمائة عام على ما ورد في الخبر وكذا ما بين السابعة والكرسي وبين الكرسي والعرش على ما نقل عن ابن مسعود رضي الله عنهما ، قدم السموات لأنها منشأ أحكامه

تعالى ومصدر قضاياه ومتنزل أوامره ونواهيه وأرزاقه ووعده ووعيده فأن مايؤمرون به وينهون عنه وما يرزقونه في الدنيا وما يوعدونه في العقبى كله مقدر مكتوب في السماء ولأنها وما فيها من الآثار العلويات أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة على الكبرياء والعظمة

(277/373)

والأرض أي : الأرضين السبع بدليل قوله السموات وأفردت فأن السفليات واحدة بالأصل والذات وقوله تعالى : ومن الأرض مثلهن أول بالأقاليم السبعة كما في حواشي سعدى المفتى وبين المشرق والمغرب خمسمائة عام كما بين السماء والأرض ، وأكثر الأرض مفازة وجبل وبحار والقليل منها العمران ثم أكثر العمران أهل الكفر والقليل منها أهل الإيمان والإسلام ، وأكثر أهل الإسلام أهل البدع والإهواء ، وكلها على الضلالة والباطل ، والقليل منهم على الحق ، وهم أهل السنة والجماعة ، وحول الدنيا ظلمة ثم وراء الظلمة جبل قاف وهو جبل محيط بالدنيا من زمردة خضراء وأطراف السماء ملتصقة به ووسط الأرض كلها عامرها وخرابها قبة الأرض وهو مكان تعتدل فيه الأزمان في الحر والبرد ويستوي فيه الليل والنهار أبداً لا يزيد أحدهما على الآخر ولا ينقص ، وأما الكعبة فهي وسط الأرض

المسكونة وأرفع الأرضين كلها إلى السماء مهبط آدم عليه السلام بأرض الهند وهو جبل عال يراه البحريون من مسافة أيام ، وفيه أثر قدم آدم مغموسة في الحجر ، ويرى على هذا الجبل كل ليلة كهيئة البرق من غير سحاب ولا بد له في كل يوم من مطر يغسل قدمي آدم ، وذروة هذا الجبل أقرب ذرى جبال الأرض إلى السماء كما في إنسان العيون في ستة أيام السموات في يومين والأرض في يومين وما عليها من أنواع الحيوان والنباتات وغير ذلك في يومين حسبما قيل في سورة حم السجدة ولم يذكر خلق ما في الأرض لكونه من تتمات خلقها .

(278/373)

والمراد في ستة أوقات على أن يكون المراد باليوم يوم الشأن وهو الآن ، وهو الزمان الفرد الغير المنقسم وقد مر تحقيقه ، أو في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة فأن الأيام في المتعارف زمان كون الشمس فوق الأرض ولا يتصور ذلك حين لا أرض ولا سماء ، أو من أيام الآخرة كل يوم كألف سنة مما تعدون على ما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفي خلقها على التدريج مع أنه لو شاء لكان ذلك في أقل من لمح البصر حث على التأني في الأمور ولعل تخصيص ذلك بالعدد المعين باعتبار أصناف الخلق من الجماد والمعدن والنبات والحيوان والإنسان والأرواح .

وكان عرشه العرش في أصل اللغة السرير والعرش المضاف إليه تعالى عبارة عن مخلوق عظيم موجود هو أعظم المخلوقات .

قال مقاتل : جعل الله تعالى للعرش أربعة أركان بين كل ركن وركن وجوه لا يعلم عددها إلا الله تعالى أكثر من نجوم السماء وتراب الأرض وورق الشجر ليس لطوله وعرضه منتهى لا يعلمه أحد إلا الله تعالى .

فإن قيل : لم خلق الله تعالى العرش وهو سبحانه لا حاجة له به ؟

أجيب بوجوه .

أحدها أنه جعله موضع خدمة ملائكته لقوله تعالى : وترى الملائكة حافين من حول العرش ﴾ (الزمر : 75) .

وثانيها : أنه أراد إظهار قدرته وعظمته كما قال مقاتل : السموات والأرض في عظم الكرسي كحلقة في فلاة والكرسي مع السموات والأرض في عظم العرش كحلقة في فلاة وكلها في جنب عظمة الله تعالى كذرة في جنب الدنيا فخلقه كذلك ليعلم أن خالقه أعظم منه .

وثالثها : أنه خلق العرش إرشاداً لعباده إلى طريق دعوته ليدعوه من الفوق لقوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ (النحل : 50) .

ورابعها : أنه خلقه لإظهار شرف محمد صلى الله عليه وسلّم وهو قوله تعالى : ﴿ عَسَى

أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (الإسراء : 79) وهو مقام تحت العرش .

وخامسها : أنه جعله معدن كتاب الأبرار

(279/373)

لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ كِتَابَ الأَبرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ (المطففين : 18) وفيه تعظيم لهم ولكتابهم .

وسادسها : أنه جعله مرآة الملائكة يرون الآدميين وأحوالهم كي يشهدوا عليهم يوم القيامة لأن عالم المثال والتمثال في العرش كالأطلس في الكرسي .

وسابعها : أنه جعله مستوى الاسم الرحمن أي : محل الفيض والتجلي والإيجاد والأحدي كما جعل الشرع الذي هو مقلوبه مستوى الأمر التكليفي الإرشادي لا مستوى نفسه تعالى الله عن ذلك ﴿ عَلَى الْمَآءِ ﴾ أي : العذب كما في إنسان العيون .

قال كعب الأحبار : أصله ياقوتة خضراء (1) فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد من مخافة الله تعالى فلذلك يرتعد الماء إلى الآن وإن كان ساكناً ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها أي : ظهرها ثم وضع العرش على الماء وليس ذلك على معنى كون أحدهما على الآخر ملتصقاً بالآخر بل ممسك بقدرته كما في فتح القريب .

قال الأصم : هذا كقولهم السماء على الأرض وليس ذلك على سبيل كون إحداهما ملتصقة بالأخرى ، فالمعنى وكان عرشه تعالى قبل خلق السموات والأرض على الماء لم يكن حائل محسوس بينهما وإنما قلنا محسوس فإن بين السماء والأرض حائلاً هو الهواء لكن لما لم يكن محسوساً لم يعد حائلاً .

---

(1) لا يعلم حقيقته إلا الله والسلامة فى السكوت عن الخوض فى مثل هذه الأمور . والله أعلم .

(280/373)

وفيه دليل على أن العرش والماء خلقا قبل السموات والأرض ، والجمهور على أن أول ما خلق الله من الأجسام هو العرش ومن الأرواح الروح المحمدي الذي يقال له : العقل الأول والفلك الأعلى أيضاً .

وفيه دليل أيضاً على إمكان الخلاء فإن الخلاء هو الفراغ الكائن بين الجسمين اللذين لا يتماسان وليس بينهما ما يماسهما ، فإذا لم يكن بين العرش والماء حائل يثبت الخلاء ، والحكماء ذاهبون إلى امتناع الخلاء والمتكلمون إلى إمكانه .

قال في كتب الهيئة : مقعر سطح الفلك الأعظم يماس محدب فلك الثوابت ومحدبه لا يماس

شيئاً إذ ليس وراءه شيء لا خلاء ولا ملاء بل عنده ينقطع امتدادات العالم كلها .

وقيل من ورائه أفلاك من أنوار غير متناهية ولا قائل بالخلاء فيما تحت الفلك الأعظم بل هو الملاء .

وقال المولى أبو السعود رحمه الله : وكان عرشه قبل خلقهما على الماء ليس تحته شيء غيره سواء كان بينهما فرجة أو كان موضوعاً على متنه كما ورد في الأثر فلا دلالة فيه على إمكان الخلاء كيف لا ؟ ولو دل لدل على وجوده لا على إمكانه فقط ، ولا على كون الماء أول ما حدث في العالم بعد العرش وإنما يدل على أن خلقهما أقدم من خلق السموات والأرض من غير تعرض للنسبة بينهما انتهى .

(281/373)

﴿ ليبلوكم ﴾

متعلق بخلق واللام لام العلة عقلاً ولام الحكمة والمصلحة شرعاً بمعنى أن الله تعالى فعل فعلاً لو كان يفعله من يراعي المصالح لم يفعله إلا لتلك المصلحة أي : خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات التي من جملتها أنتم ورتب فيهما جميع ما تحتاجون إليه من مبادي وجودكم وأسباب معايشكم وأودع في تضاعيفهما من أعجايب الصنائع والعبر ما

تستدلون به على مطالبكم الدينية ليعاملكم معاملة من يبتليكم ويمتحنكم .

أيكم أحسن عملاً فيجازيكم بالثواب والعقاب بعد ما تبين المحسن من المسيء .

فإن قلت : الاختبار يتعلق بجميع العباد محسنين كانوا أو مسيئين وأحسن عملاً يخصصه بالمحسنين منهم لأن العمل الأحسن يخص بالمحسنين ولا يتحقق في أهل القبائح فيلزم أن يعتبر عموم الابتلاء وخصوصه معاً وهما متنافيان .

قلت : الابتلاء وأن كان يعم الفرق المكلفين إلا أن المراد خصوصه بالمحسنين تنبيهاً على أن المقصود الأقصى من خلق المخلوقات أن يتوسلوا بأحسن الأعمال إلى أجل المثوبات ، وتحريضاً لهم على ترك القبائح والمنكرات ، والمراد بالعمل ما يعم عمل القلب والجوارح ، ولذلك فسره عليه السلام بقوله : أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله فإن لكل من القلب والقالب عملاً مخصوصاً به ، فكما أن الأول أشرف من الثاني فكذا الحال في عمله فكيف لا ولا عمل بدون معرفة الله تعالى الواجبة على العباد وإنما طريقها النظري التفكر في عجائب صنعه ، ولا طاعة بدون فهم الأوامر والنواهي ، وقد روى عن النبي عليه السلام أنه قال : لا تفضلوني على يونس بن متى ، فأنه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الأرض قالوا : وإنما كان ذلك التفكر في أمر الله تعالى الذي هو عمل القلب لأن أحداً لا يقدر على أن يعمل في اليوم بجوارحه مثل عمل أهل الأرض وأما ذات الله تعالى فلا يسعها التفكر .

وفي التأويلات النجمية الابتلاء على قسمين .

قسم للسعداء وهو بلاء حسن وذلك أن السعيد لا يجعل المكونات مطلبه ومقصده الأصلي بل يجعل ذلك حضرة المولى والرفيق الأعلى ويجعل ما سوى المولى بإذن مولاه وأمره ونهيه وسيلة إلى القربات وتحصيل الكمالات فهو أحسن عملاً ، وقسم للأشقياء وهو بلاء سيء وذلك أن الشقي يجعل المكونات مطلبه ومقصده الأصلي ويتقيد بشهواتها ولذاتها ولم يتخلص من نار الحرص عليها والحسرة على فواتها ويجعل ما أنعم الله عليه به من الطاعات والعلوم التي هي ذريعة إلى الدرجات والقربات وسيلة إلى نيل مقاصده الفانية واستيفاء شهواته النفسانية فهو أسوء عملاً انتهى .

قال حضرة شيخنا العلامة أبقاه الله بالسلامة : في بعض تحريراته نية الإنسان لا تخلو إما أن يكون متعلقها في لسانه وجنانه هو الدنيا فهو سيء نية وعملاً وإما أن يكون متعلقها في لسانه هو الآخرة وفي جنانه هو الدنيا فهو أسوأ نية وعملاً ، وإما أن يكون متعلقها في لسانه وجنانه هو الآخرة فهو حسن نية وعملاً الآخرة فهو حسن نية وعملاً وإما أن يكون متعلقها في لسانه وجنانه هو وجه الله تعالى فهو أحسن نية وعملاً فالأول حال الكفار والثاني حال

المنافقين والثالث حال الأبرار والرابع حال المقربين وقد أشار الحق سبحانه إلى أحوال المقربين عبارة وإلى أحوال غيرهم إشارة في قوله تعالى : إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ (الكهف : 7) انتهى بإجمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 130.134 ﴾

(283/373)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

عطف على جملة ﴿ وما من دابّة في الأرض إلاّ على الله رزقها ﴾ [هود : 6] .

والمناسبة أنّ خلق السماوات والأرض من أكبر مظاهر علم الله وتعلقات قدرته وإتقان الصنع ، فالمقصود من هذا الخبر لازمه وهو الاعتبار بسعة علمه وقدرته ، وقد تقدم القول في نظيرها في قوله : ﴿ إنّ ربّكُمْ اللّهُ الذي خلق السموات والأرض في ستة أيامٍ ثم استوى على العرش ﴾ في سورة [الأعراف : 54] .

وجملة ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ يجوز أن تكون حالاً وأن تكون اعتراضاً بين فعل (خلق) ولام التعليل .

وأما كونها معطوفة على جملة ﴿ وما من دابّة في الأرض إلاّ على الله رزقها ﴾ [هود : 6] المسوقة مساق الدليل على سعة علم الله وقدرته فغير رشيق لأنّ مضمون هذه الجملة ليس محسوساً ولا متقرراً لدى المشركين إذ هو من المغيبات وبعضه طرأ عليه تغيير بخلق السموات فلا يحسن جعله حجة على المشركين لإثبات سعة علم الله وقدرته المأخوذ من جملة ﴿ وما من دابة في الأرض ﴾ [هود : 6] الخ.

والمعنى إن العرش كان مخلوقاً قبل السموات وكان محيطاً بالماء أو حاوياً للماء .

وحمل العرش على أنّه ذات مخلوقة فوق السموات هو ظاهر الآية .

وذلك يقتضي أن العرش مخلوق قبل ذلك وأن الماء مخلوق قبل السموات والأرض .

وتفصيل ذلك وكيفيته وكيفية الاستعلاء مما لا قبل للأفهام به إذ التعبير عنه تقريب .

ويجوز أن يكون المراد من العرش ملك الله وحكمه تمثيلاً بعرش السلطان ، أي كان ملك الله قبل خلق السموات والأرض مُلكاً على الماء .

وقوله : ﴿ ليبلوكم ﴾ متعلق بـ ﴿ خلق ﴾ واللاّم للتعليل .

(284/373)

والبلو : الابتلاء ، أي اختبار شيء لتحصيل علم بأحواله ، وهو مستعمل كناية عن ظهور آثار خلقه تعالى للمخلوقات ، لأن حقيقة البلو مستحيلة على الله لأنّه العليم بكلّ شيء ، فلا يحتاج إلى اختباره على نحو قوله : ﴿ إلاّ لنَعْلَم مَن يتّبعُ الرسول ﴾ في سورة [البقرة : 143] .

وجُعل البلو علة لخلق السموات والأرض لكونه من حكمة خلق الأرض باعتبار كون الأرض من مجموع هذا الخلق ، ثم إن خلق الأرض يستتبع خلق ما جعلت الأرض عامرة به ، واختلاف أعمال المخاطبين من جملة الأحوال التي اقتضاها الخلق فكانت من حكمة خلق السموات والأرض ، وكان التّعليل هنا بمراتب كثيرة ، وعلة العلة علّة .

و﴿ أيكم ﴾ : اسم استفهام ، فهو مبتدأ ، وجملة المبتدأ والخبر سادّة مسدّ الحال اللاّزم ذكرها بعد ضمير الخطاب في ﴿ يبلوكم ﴾ ، نظراً إلى أن الابتلاء لا يتعلق بالذوات ، فتعدية فعل (يبلو) إلى ضمير الذوات ليس فيه تمام الفائدة فكان محتاجاً إلى ذكر حال تُقَيّد متعلق الابتلاء ، وهذا ضرب من التعليق وليس عينه .

وفي الآية إشارة إلى أن من حكمة خلق الأرض صدور الأعمال الفاضلة من شرف المخلوقات فيها .

ثم إن ذلك يقتضي الجزاء على الأعمال إكمالاً لمقتضى الحكمة ولذلك أعقبت بقوله : ﴿ ولئنْ قلت إنّكم مبعوثون ﴾ الخ .

﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الموت لَيَقُولَنَّ الذين كفروا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ يظهر أن الواو واو الحال والجملة حال من فاعل ﴿ خلَق السماوات والأرض ﴾ باعتبار ما تعلق بالفعل من قوله في ﴿ ستة أيام ﴾ ، وقوله : ﴿ ليبلوكم ﴾ ، والتقدير : فعل ذلك الخلق العجيب والحال أنهم ينكرون ما هو دون ذلك وهو إعادة خلق الناس .

ويجهلون أنه لولا الجزاء لكان هذا الخلق عبثاً كما قال تعالى : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ [الدخان : 38] .

(285/373)

فإنْ حمل الخبر في قوله : ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض ﴾ على ظاهر الإخبار كانت الحال مقدّرة من فاعل ﴿ خلَق ﴾ أي خلق ذلك مقدّراً أنكم تنكرون عظيم قدرته ، وإن حمل الخبر على أنه مستعمل في التنبيه والاعتبار بقدرة الله كانت الحال مقارنة .

ووجه جعلها جملة شرطية إفادة تجدد التكذيب عند كلّ إخبار بالبعث ، واللاّم موطّئة للقسَم ، وجواب القسَم ﴿ ليقولن ﴾ الخ ، فاللام فيه لام جواب القسم .

وجواب (إنْ) محذوف أغنى عنه جواب القسَم كما هو الشأن عند اجتماع شرط وقسم

أنْ يحذف جواب المتأخر منهما .

وتأكيد الجملة باللام الموطئة للقسم وما يتبعه من نون التوكيد لتنزيل السامع منزلة المتردد في صدور هذا القول منهم لغرابة صدوره من العاقل ، فيكون التأكيد القوي والتنزيل مستعملاً في لازم معناه وهو التعجيب من حال الذين كفروا أن يحيلوا إعادة الخلق وقد شاهدوا آثار بدء الخلق وهو أعظم وأبدع .

وقرأ الجمهور ﴿ إلاّ سحرٌ ﴾ على أنّ ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى المدلول عليه بـ (قُلتَ) ، ومعنى الإخبار عن القول بأنّه سحرٌ أنهم يزعمون أنّه كلام من قبيل الأقوال التي يقولها السحرة لخصائص تؤثر في النفوس .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : ﴿ إلاّ ساحرٌ ﴾ فالإشارة بقوله ﴿ هذا ﴾ إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم المفهوم من ضمير ﴿ قلتَ ﴾ أي أنه يقول كلاماً يسحرنا بذلك .

ووجه جعلهم هذا القول سحراً أن في معتقداتهم وخرافاتهم أنّ من وسائل السحر الأقوال المستحيلة والتكاذيب البهتانيّة ، والمعنى أنّهم يكذّبون بالبعث كلّما أخبروا به لا يترددون في عدم إمكان حصوله بله إيمانهم به .

و﴿ مبين ﴾ اسم فاعل أبان المهموز الذي هو بمعنى بَانَ المجرد ، أي بَيّنٌ وَاضحٌ أنه سحر أو أنه ساحرٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المآء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ .

صرح في هذه الآية الكريمة أنه خلق السماوات والأرض لحكمه ابتلاء الخلق ، ولم يخلقهما عبثاً ولا باطلاً . ونزه نفسه تعالى عن ذلك ، وصرح بأن من ظن ذلك فهو من الذين كفروا وهددهم بالنار ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السمآء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الذين كَفَرُواْ فَوَيْلٌ للذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النار ﴾ [ص : 27] وقال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى الله الملك الحق لاَ إله إِلاَّ هُوَ رَبُّ العرش الكريم ﴾ [المؤمنون : 115-116] وقال ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] ، وقال : ﴿ الذي خَلَقَ الموت والحياة لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك : 2] إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

وقد تعرض القرآن الكريم لمسألة خلق الأرض والسماء أكثر من مرة .

وقلنا من قبل : إن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يخلق الأرض والسموات في ستة أيام من أيام الدنيا ، وكان من الممكن أن يخلقها في أقل من طرفة عين بكلمة "كن" وعرفنا أن هناك فارقاً بين إيجاد الشيء ، وطرح مكونات إيجاد الشيء .

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى حين يريد الإنسان صنع "الزبادي" ، فهو يضع جزءاً من مادة الزبادي وتسمى "خميرة" في كمية مناسبة من اللبن الدافىء ، وهذه العملية لا تستغرق من الإنسان إلا دقائق ، ثم يترك اللبن المخلوط بخميرة الزبادي ، وبعد مضي أربع وعشرين ساعة يتحول اللبن المخلوط بالخميرة إلى زبادي بالفعل .

وهذا يحدث بالنسبة لأفعال البشر ، فهي أفعال تحتاج إلى علاج ، ولكن أفعال الخالق سبحانه وتعالى لا علاج فيها ؛ لأنها كلها تأتي بكلمة "كن" .

أو كما قال بعض العلماء : إن الله شاء أن يجعل خلق الأرض والسموات في ستة أيام ، وقد أخذ بعض المستشرقين من هذه الآية ، ومن آيات أخرى مجالاً لمحاولة النيل من القرآن الكريم ، وأن يدّعوا أن فيه تعارضاً ، فالحق سبحانه وتعالى هنا يقول :

﴿ وَهُوَ الذي خَلَق السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [هود : 7] .

وجاءوا إلى آية التفصيل وجمعوا ما فيها من أيام ، وقالوا : إنها ثمانية أيام ، وهي قول الحق سبحانه :

(288/373)

﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِي خَلَقَ الأَرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 912] .

وهنا قال بعض المستشرقين : لو كانت هذه قصة الخلق للأرض والسموات لطابقت آية الإجمال آية التفصيل .

وقال أحدهم : لنفرض أن عندي عشرة أرادب من القمح ، وأعطيت فلاناً خمسة أرادب وفلاناً ثلاثة أرادب ، وفلاناً أعطيته إردبين ، وبذلك ينفد ما عندي ؛ لأن التفصيل مطابق للإجمال .

وادَّعي هذا البعض من المستشرقين أن التفصيل لا يتساوى مع الإجمال . ولم يفطنوا إلى أن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى ، وهو يكلم أناساً لهم ملكة أداء وبيان وبلاغة وفصاحة ؛

وقد فهم هؤلاء ما لم يفهمه المستشرقون .

هم فهموا ، كأهل فصاحة ، أن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الأرض في يومين ، ثم جعل فيها رواسي وبارك فيها ، إما في الأرض أو في الجبال ، وقدَّر فيها أقواتها ، وكل ذلك تتمة للحديث عن الأرض .

ومثال ذلك : حين أسافر إلى الإسكندرية فأنا أصل إلى مدينة طنطا في ساعة مثلاً وإلى الإسكندرية في ساعتين ، أي : أن ساعة السفر التي وصلت فيها إلى طنطا هي من ضمن ساعتي السفر إلى الإسكندرية .

وكذلك خلق الأرض والرواسي وتقدير القوت ، كل ذلك في أربعة أيام متضمنة يَوْمَىْ خَلْق الأرض ، ثم جاء خلق السماء في يومين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء ﴾ [هود : 7] .

(289/373)

كل هذه المسائل الغيبية لها حجة أساسية ، وهي أن الذي أخبر بها هو الصادق ، فلا أحد يشك أن الأرض والسموات مخلوقة ، ولا أحد يشك في أن السموات والأرض أكبر خلقاً من

خلق الناس ، وليس هناك أحد من البشر ادَّعى أنه خلق الأرض أو خلق السموات .

وكل المخترعات البشرية نعرف أصحابها ، مثل : المصباح الكهربي ، والهاتف ، والميكروفون ، والتليفزيون ، والسيارة ، وغيرها .

ولكن حين نجيء إلى السموات والأرض لا نجد أحداً قد ادعى أنه قد خلقها .

وقد أبلغنا الحق سبحانه أنه هو الذي خلقها ، وهي لمن ادّعاها إلى أن يظهر مُعارِض ، ولن يظهر هذا المعارض أبداً .

وكل هذا الخلق من أجل البلاء :

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود : 7] .

أي : ليختبركم أيكم أحسن عملاً ، ولكن من الذي يحدد العمل ؟

إنه الله سبحانه وتعالى .

وهل الحق سبحانه في حاجة إلى أن يختبر مخلوقاته ؟

لا ، فالله سبحانه يعلم أزلاً كل ما يأتي من الخلق ، ولكنه سبحانه أراد بالاختبار أن يطابق ما يأتي منهم على ما عمله أزلاً ؛ حجة عليهم .

وهكذا فاختبار الحق سبحانه لنا اختبار الحجة علينا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الموت لَيَقُولَنَّ الذين كفروا إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [

هود : 7] .

وهنا يصور الحق سبحانه وتعالى تكذيب المعاندين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم يلقون بالألفاظ على عواهنها من قبل أن تمر على تفكيرهم .

فلو أنهم قد مروا بهذه الكلمات على تفكيرهم ؛ لاستحال منطقياً أن يقولوها .

والرسول صلى الله عليه وسلم يخبرهم ببلاغ الحق سبحانه وتعالى لهم بأنهم مبعوثون من بعد الموت .

وهذا كلام إخباري بأنهم إن ماتوا وهم سيموتون لا محالة سيبعثهم الله سبحانه ، فما كان منهم إلا أن قالوا :

﴿ إِنْ هَاذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود : 7] .

(290/373)

والخبر الذي يقوله لهم هو خبر ، فما موقع السحر منه ؟ إنهم يعلمون أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل ذلك إلا من نص القرآن الكريم ، وهم يقولون عن القرآن الكريم إنه سحر ، فكأن النص نفسه من السحر الذي حكموا به على القرآن .

وأوضحنا من قبل أن إبطال قضية السحر في القرآن الكريم دليله منطقي مع القول ؛ لأنهم إن

كانوا قد ادعوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أن محمداً في عرفهم قد سحر القوم الذين اتبعوه .

فالساحر له تأثير على المسحور ، والمسحور لا دخل له في عملية السحر ، فإذا كان محمد قد سحر القوم الذين اتبعوه ، فلماذا لم يسحر هؤلاء المنكرين لرسالته ؛ بنفس الطريقة التي سحر بها غيرهم ؟

وحيث إنهم قد بقوا على ما هم عليه من عناد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا دليل على أن المسألة ليست سحراً ، ولو كان الأمر كذلك لسحرهم جميعاً .

وقولهم : ﴿ إِنْ هَاذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود : 7] .

يدل على أنه سحر محيط ، لا سحر لأناس خاصين ، فكلمة ﴿ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ تعني : سحراً محيطاً بكل من يريد سحره .

وبقاء واحد على الكفر دون إيمان برسول الله يدل على أن المسألة ليست سحراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(291/373)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال أهل اليمن : يا رسول الله أخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان ؟ قال : " كان الله قبل كل شيء وكان عرشه على الماء ، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض " فنادى مناد : ذهبت ناقتك يا ابن الحصين ، فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب ، فوالله لوددت أني كنت تركتها .

وأخرج الطيالسي وأحمد والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات " عن أبي رزين رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء ، وخلق عرشه على الماء " قال الترمذي رضي الله عنه : العماء : أي ليس معه شيء .

وأخرج مسلم والترمذي والبيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن حبان وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وابن مردويه عن بريدة رضي الله عنه قال : " دخل قوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : جئنا نسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونتفقه في الدين ونسأله عن بدء هذا الأمر . فقال : "كان الله ولا شيء غيره وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق سبع سموات " ثم أتاني آت فقال : هذه ناقتك قد ذهبت . فخرجت والسراب ينقطع دونها ، فلوددت أني كنت تركتها " .

(292/373)

وأخرج عبد الرزاق في المصنف والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما . أنه سئل عن قوله تعالى ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ على أي شيء كان ؟ قال : على متن الريح .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ قال :

قبل أن يخلق شيئاً .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال : كان عرشه على الماء ، فلما خلق السموات والأرض قسم ذلك الماء قسمين فجعل صفاء تحت العرش وهو البحر المسجور ، فلا تقطر منه قطرة حتى ينفخ في الصور فينزل منه مثل الطل فتنبت منه الأجسام ، وجعل النصف الآخر تحت الأرض السفلى .

وأخرج داود بن المحبر في كتاب العقل وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم في كتاب التاريخ وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : " تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ فقلت : ما معنى ذلك يا رسول الله ؟ قال : ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً ، ثم قال : وأحسنكم عقلاً ، أورعكم عن محارم الله ، وأعلمكم بطاعة الله " .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج في قوله ﴿ ليبلوكم ﴾ قال : يعني الثقلين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ليبلوكم ﴾ قال : ليختبركم ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ قال : أيكم أتم عقلاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان رضي الله عنه ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ قال : أزهد في الدنيا .

أما قوله تعالى : ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ﴾ الآية .

وأخرج أبو الشيخ عن زائدة رضي الله عنه قال : قرأ سليمان بن موسى في هود عند سبع آيات ﴿ ساحر مبين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(293/373)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ : في هذه اللام وجهان ، أحدهما : أنها متعلقةٌ بمحذوفٍ فقيل : تقديرُه : أَعْلَمَ بذلك ليبلوَكم . وقيل : ثَمَّ جملٌ محذوفةٌ والتقدير : وكان خلقُه لهما لمنافعَ يعودُ عليكم نفعُها في الدنيا دون الآخرة وفَعَل ذلك لِيَبْلُوَكم . وقيل : / تقديرُه : وخلقكم ليبلوَكم . والثاني : أنها متعلقةٌ ب " خلق " قال الزمخشري : " أي : خلقهُنَّ لحكمةٍ بالغةٍ وهي أَنْ يَجْعَلَها مساكنَ لعباده وينعمَ عليهم فيها بصنوف النِّعَمِ ويُكَلِّفهم فعلَ الطاعاتِ واجتنابَ المعاصي ، فَمَنْ شكر وأطاع أثابه ، ومَنْ كفر وعصى عاقبه ، ولمَّا أَشْبَهَ ذلك اختبارَ المُخْتبر قال " ليبلوَكم " ، يريد : ليفعلَ بكم ما يفعل المبتلي لأحوالكم .

قوله : ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ ﴾ مبتدأٌ وخبر في محل نصب بإسقاط الخافضِ ؛ لأنه مُعَلِّقٌ لقوله " ليبلوكم " . قال الزمخشري : " فإن قلت : كيف جاز تعليقُ فعلِ البلوى ؟ قلت : لما في الاختيار من معنى العلم ؛ لأنه طريقٌ إليه فهو ملابسٌ له كما تقول : " انظر أيُّهم أحسنُ وجهاً ، واسمع أيُّهم أحسنُ صوتاً " لأن النظر والاستماع من طرق العلم " . وقد واخذه الشيخُ في تمثيله بقوله " واسمع " قال : " لم أعلمْ أحداً ذكر أنَّ " استمع " يُعَلَّق ، وإنما ذكروا من غيرِ أفعالِ القلوب " سَلْ " ، و " انظر " ، وفي جواز تعليق " رأى " البصريةِ خلافٌ " .

(294/373)

قوله : ﴿ وَلَئِن قُلْتَ ﴾ : هذه لامُ التوطئة للقسم ، و " ليقولُنَّ " جوابُه ، وحُذِفَ جوابُ الشرط لدلالة جواب القسم عليه ، و " إنكم " محكيٌّ بالقول ، ولذلك كُسِرت في قراءة الجمهور . وقُرِىء بفتحها ، وفيها تأويلان ذكرهما الزمخشري ، أحدهما : أنها بمعنى لعلَّ ، قال : " مِنْ قولهم : " ائت السُّوق أنك تشتري لحماً " ، أي : لعلك ، أي : ولئن قلت لهم : لعلكم مبعوثون بمعنى توقَّعوا بَعْثَكم وظُنُّوه ، ولا تَبُثُّوا القولَ بإنكاره ، لقالوا " . والثاني : أن تُضَمِّنَ " قلتَ " معنى " ذَكَرْتَ " يعنى فتفتح الهمزة لأنها مفعول " ذكرْتَ " .

قوله : ﴿ إِنْ هَاذَآ إِلَّا سِحْرٌ ﴾ قد تقدم أنه قُرِىء " سِحْر " و " ساحر " ، فَمَنْ قَرَأَ "

سِحْر " ف " هذا " إشارةٌ إلى البعث المدلولِ عليه بما تقدَّم ، أو إشارةٌ إلى القرآن لأنه ناطق بالبعث . ومَنْ قرأ " ساحر " فالإشارةُ ب " هذا " إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم ويجوز أن يُرادَ ب " هذا " في القراءة الأولى النبيُّ صلى اللَّه عليه وسلم أيضاً ، ويكون جَعَلوه سِحْراً مبالغةً ، أو على حذف مضاف ، أي : إلا ذو سحر . ويجوز أن يُراد ب " ساحر " نفسُ القرآنِ مجازاً كقولهم " شعرٌ شاعرٌ " و " جَدَّ جَدُّه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 290 . 291 ﴾

(295/373)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ .

وأَحْسَنُ الأعمالِ موافقةُ الأمرِ ، ولم يَقُلْ أكثر عملاً .

ويقال أحسن الأعمال ما كان صاحبُه أشدَّ إخلاصاً فيه .

ويقال أحسنهم عملاً أبعدُهم عن ملاحظة أعماله .

ويقال أحسن الأعمال ما ينظر إليه صاحبه بعين الاستصغار .

ويقال أحسن الأعمال ما لا يطلبُ صاحبُه عليه عِوَضاً .

ويقال أحسن الأعمال ما غابَ عنه صاحبه لاستغراقه في شهود المعبود .

قوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ الابتلاءُ مِنْ قِبَلِه تعريفُ الملائكة حالَ من يبتليه في الشكر عند اليُسْر والصبر عند العُسر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

استبعدوا النَّشْرَ لتَقاصُرِ علومهم عن التحقُّق بكمال قدرة الحق ، ولو عرفوا ذلك لأيقنوا أن البث ليس بمعتاص في الإيجاد ولا بمستحيلٍ في التقدير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 125 ﴾

(296/373)

قوله تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ما تقدم عنهم من الأفعال ومضى من الأقوال مظنة لمعاجلتهم بالأخذ ، وكان الواقع أنه تعالى يعاملهم بالإمهال فضلاً منه وكرماً ، حكى مقالتهم في مقابلة رحمته لهم فقال :

﴿ ولئن أخرنا ﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا يفوتها شيء ﴿ عنهم ﴾ أي الكفار ﴿ العذاب ﴾ أي المتوعد به ﴿ إلى أمة ﴾ أي مدة من الزمان ليس فيها كدر ﴿ معدودة ﴾ أي محصورة الأيام أي قصيرة معلومة عندنا حتى تعد الأنفاس ﴿ ليقولن ﴾ على سبيل التكرار ﴿ ما يحبسه ﴾ أي العذاب عن الوقوع استعجالاً له تكذيباً واستهزاء ، وهو تهديد لهم بأنه آتيهم عن قريب فليعتدوا لذلك .

ولما كان العاقل لا ينبغي أن يسأل عن مثل ذلك إلا بعد قدرته على الدفع ، أعرض عن جوابهم وذكر لهم أنهم عاجزون عن دفاعه عند إيقاعه إعلاماً بأنهم عكسوا في السؤال ، وتحقيقاً لأن ما استهزؤوا به لا حق بهم لا محالة ، فقال مؤكداً لشديد إنكارهم : ﴿ ألا يوم ﴾ وهو منصوب بخبر " ليس " الدال على جواز تقدم الخبر ﴿ يأتيهم ليس ﴾ أي العذاب ﴿ مصروفاً عنهم ﴾ أي بوجه من الوجوه ؛ وقدم الماضي موضع المستقبل تحقيقاً ومبالغة في التهديد فقال : ﴿ وحاق بهم ﴾ أي أدركهم إذ ذاك على سبيل الإحاطة ﴿ ما كانوا ﴾ أي بجبلاتهم وسيىء طبائعهم ، وقدم الظرف إشارة إلى شدة إقبالهم على الهزء به حتى كأنهم لا يهزؤون بغيره فقال : ﴿ به ﴾ ولما كان استعجالهم استهزاء ، وضع موضع

يستعجلون قوله : ﴿ يستهزءون ﴾ أي يوجدون الهزء به إيجاداً عظيماً حتى كأنهم يطلبون ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 506 . 507 ﴾

(297/373)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾

اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم يكذبون الرسول صلى الله عليه وسلم بقولهم : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فحكى عنهم في هذه الآية نوعاً آخر من أباطيلهم وهو أنه متى تأخر عنهم العذاب الذي توعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم به أخذوا في الاستهزاء ويقولون : ما السبب الذي حبسه عنا ؟

فأجاب الله تعالى بأنه إذا جاء الوقت الذي عينه الله لنزول ذلك العذاب الذي كانوا يستهزؤن به لم ينصرف ذلك العذاب عنهم وأحاط بهم ذلك العذاب .

بقي ههنا سؤالات :

السؤال الأول : المراد من هذا العذاب هو عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ؟

الجواب : للمفسرين فيه وجوه : الأول : قال الحسن : معنى حكم الله في هذه الآية أنه لا يعذب أحداً منهم بعذاب الاستئصال وأخر ذلك إلى يوم القيامة ، فلما أخر الله عنهم ذلك العذاب قالوا على سبيل الاستهزاء ما الذي حبسه عنا ؟ والثاني : أن المراد الأمر بالجهاد وما نزل بهم يوم بدر ، وعلى هذا الوجه تأولوا قوله : ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي نزل بهم هذا العذاب يوم بدر .

السؤال الثاني : ما المراد بقوله : ﴿ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ .

الجواب من وجهين : الأول : أن الأصل في الأمة هم الناس والفرقة فإذا قلت : جاءني أمة من الناس ، فالمراد طائفة مجتمعة قال تعالى : ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [القصص : 23] وقوله : ﴿ وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : 45] أي بعد انقضاء أمة وفنائها فكذا ههنا قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ أي إلى حين تنقضي أمة من الناس انقرضت بعد هذا الوعيد بالقول ، لقالوا ماذا يحبسه عنا وقد انقرض من الناس الذين كانوا متوعدين بهذا الوعيد ؟ وتسمية الشيء باسم ما يحصل فيه كقولك : كنت عند فلان صلاة العصر ، أي في ذلك الحين .

الثاني : أن اشتقاق الأمة من الأَم ، وهو القصد ، كأنه يعني الوقت المقصود بإيقاع هذا الموعود فيه .

السؤال الثالث : لم قال : ﴿ وَحَاقَ ﴾ على لفظ الماضي مع أن ذلك لم يقع ؟

والجواب : قد مر في هذا الكتاب آيات كثيرة من هذا الجنس ، والضابط فيها أنه تعالى أخبر عن أحوال القيامة بلفظ الماضي مبالغة في التأكيد والتقرير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 151.152 ﴾

(299/373)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولئن أخْرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : يعني إلى فناء أمة معلومة ، ذكره علي بن عيسى .

الثاني : إلى أجل معدود ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين . وتكون الأمة عبارة عن المدة ، واصلها الجماعة فعبر بها عن المدة لحلولها في مدة .

﴿ ليقولن ما يحبسه ﴾ يعني العذاب . وفي قولهم ذلك وجهان :

أحدهما : أنهم قالوا ذلك تكذيباً للعذاب لتأخره عنهم .

الثاني : أنهم قالوا ذلك استعجالاً للعذاب واستهزاء ، بمعنى ما الذي حبسه عنا ؟ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(300/373)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولئن أخَّرنا عنهم العذاب ﴾

قال المفسرون : هؤلاء كفار مكة ، والمراد بالأمَّة المعدودة : الأجل المعلوم ، والمعنى : إلى مجيء أمة وانقراض أخرى قبلها .

﴿ ليقولن ما يحبسه ﴾ وإنما قالوا ذلك تكذيبا واستهزاءً .

قوله تعالى : ﴿ ألا يوم يأتيهم ﴾ وقال : ﴿ ليس مصروفاً عنهم ﴾ .

وقال بعضهم : لا يُصرف عنهم العذاب إذا أتاهم .

وقال آخرون : إذا أخذتهم سيوف رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تُغمد عنهم حتى يباد أهل الكفر وتعلوَ كلمة الإخلاص .

قوله تعالى : ﴿ وحاق بهم ﴾ قال أبو عبيدة : نزل بهم وأصابهم .

وفي قوله : ﴿ ما كانوا به يستهزؤن ﴾ قولان .

أحدهما : أنه الرسول والكتاب ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، فيكون المعنى : حاق بهم جزاء استهزائهم .

والثاني : أنه العذاب ، كانوا يستهزئون بقولهم : ﴿ ما يحسبه ﴾ ، وهذا قول مقاتل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(301/373)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾

اللام في ﴿ لَئِنْ ﴾ للقسم ، والجواب ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ .

ومعنى ﴿ إِلَى أُمَّةٍ ﴾ إلى أَجل معدود وحين معلوم ؛ فالأمّة هنا المدّة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقَتَادة وجمهور المفسّرين .

وأصل الأمّة الجماعة ؛ فعبّر عن الحين والسنين بالأمّة لأن الأمّة تكون فيها .

وقيل : هو على حذف المضاف ؛ والمعنى إلى مجيء أمّة ليس فيها من يؤمن فيستحقون الهلاك .

أو إلى انقراض أمّة فيها من يؤمن فلا يبقى بعد انقراضها من يؤمن .

والأمّة اسم مشترك يقال على ثمانية أوجه : فالأمّة تكون الجماعة ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ الناس ﴾ [القصص : 23] .

والأمّة أيضاً أتباع الأنبياء عليهم السلام .

والأمّة الرجل الجامع للخير الذي يُقتدى به ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً ﴾ [النحل : 120] .

والأمّة الدّين والمِلّة ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف : 23] .

والأمة الحين والزمان ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ وكذلك قوله تعالى : ﴿ وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : 45] والأمّة القامة ، وهو طول الإنسان وارتفاعه ؛ يقال من ذلك : فلان حسن الأُمَّة أي القامة .

والأمّة الرجل المنفرد بدينه وحده لا يُشْرِكُه فيه أحد ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يُبعث زيدُ بن عمرو بن نُفَيْل أمّة وحده " .

والأمة الأم ؛ يقال : هذه أمّة زيد ، يعني أمّ زيد .

﴿ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ يعني العذاب ؛ وقالوا هذا إما تكذيباً للعذاب لتأخره عنهم ، أو استعجالاً واستهزاء ؛ أي ما الذي يحبسه عنا .

﴿ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ ﴾ قيل : هو قتل المشركين ببدر ؛ وقتل جبريل

المستهزئين على ما يأتي .

﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي نزل وأحاط .

﴿ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي جزاء ما كانوا به يستهزئون ، والمضاف محذوف . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(302/373)

وقال الخازن :

﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾

يعني إلى أجل محدود وأصل الأمة في اللغة الجماعة من الناس فكأنه قال سبحانه وتعالى إلى انقراض أمة ومجيء أمة أخرى ﴿ ليقولن ما يحبسه ﴾ يعني : أي شيء يحبس العذاب وإنما يقولون ذلك استعجالاً بالعذاب واستهزاء يعنون أنه ليس بشي قال الله : ﴿ ألا يوم يأتيهم ﴾ يعني العذاب ﴿ ليس مصروفاً عنهم ﴾ أي لا يصرفه عنهم شيء ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ يعني ونزل بهم وبال استهزائهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(303/373)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب ﴾ المترتّبَ على بعثهم أو العذابَ الموعود في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ وقيل : عذابُ يومِ بدر ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قتلُ جبريلَ عليه السلام للمستهزئين ، والظاهرُ أن المرادَ به العذابُ الشاملُ للكفرة دون ما يُخَصّ ببعض منهم ، على أنه لم يكن موعوداً يستعجل منه المجرمون ﴿ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ إلى طائفة من الأيام قليلةٍ لأن ما يحصُره العدُّ قليلٌ ﴿ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ أي أيُّ شيءٍ يمنعه من المجيء فكأنه يريده فيمنعه مانعٌ وإنما كانوا يقولونه بطريق الاستعجالِ استهزاءً لقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ ومرادُهم إنكارُ المجيءِ والحبْسِ رأساً لا الاعترافُ به والاستفسارُ عن حابسه ﴿ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ ذلك ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفاً ﴾ محبوساً ﴿ عَنْهُمْ ﴾ على معنى أنه لا يرفعه رافعٌ أبداً إن أريد به عذابُ الآخرة أو لا يدفعه عنكم دافعٌ بل هو واقعٌ بكم إن أريد به عذابُ الدنيا ، ويومَ منصوبٌ بخبر ليس مقدماً عليه ، واستدل به البصريون على جواز تقديمِه على ليس إذ المعمولُ تابعٌ للعامل فلا يقع إلا حيث يقعُ متبوعُه ، ورُدَّ بأن الظرفَ يجوز فيه ما لا يجوز في غيره توسّعاً وبأنه قد يُقدّم المعمولُ حيث لا مجالَ لتقدم العامِلِ كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا اليتيم فَلاَ تَقْهَرْ

* وَأَمَّا السائل فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ فإن اليتيمَ والسائلَ مع كونهما منصوبين بالفعلين المجزومين قد تقدما على لا الناهيةِ مع امتناع تقدمِ الفعلين عليهما . قال أبو حيان : وقد تتبعتُ جملةً من دواوين العربِ فلم أظفَرْ بتقديم خبرِ ليس عليها ولا بتقديمِ معمولِه إلا ما دل عليه ظاهرُ هذه الآيةِ الكريمةِ وقولُ الشاعر :

فيأبى فما يزدادُ إلا لجاجة . . . وكنتُ أبياً في الخنا لست أُقدِمُ

(304/373)

﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي أحاط بهم ﴿ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ أي العذابُ الذي كانوا يستعجلون به استهزاءً ، وفي التعبير عنه بالموصول تهويلٌ لمكانه وإشعارٌ بعليّة ما ورد في حيز الصلةِ من استهزائهم به لنزوله وإحاطتِه ، والتعبيرُ عنها بالماضي واردٌ على عادة الله تعالى في أخباره لأنها في تحققها وتيقُّنها بمنزلة الكائنةِ الموجودةِ ، وفي ذلك من الفخامة والدلالةِ على علو شأنِ المُخْبَرِ به ما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(305/373)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ ﴾

أي المترتب على بعثهم أو الموعود بقوله سبحانه : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود : 3] وقيل : عذاب يوم بدر ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قتل جبريل عليه السلام المستهزئين وهم خمسة نفر أهلكوا قبل بدر ، والظاهر أن المراد العذاب الشامل للكفرة ، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن قتادة قال : لما نزل ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حسابهم ﴾ [الأنبياء : 1] قال ناس : إن الساعة قد اقتربت فتناهوا فتناهى القوم قليلاً ثم عادوا إلى أعمالهم أعمال السوء فأنزل الله سبحانه ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : 1] فقال أناس من أهل الضلالة : هذا أمر الله تعالى قد أتى فتناهى القوم ثم عادوا إلى عكرهم عكر السوء فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ أي طائفة من الأيام قليلة لأن ما يحصره العد قليل .

وقيل : المراد من الأمة الجماعة من الناس أي ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى جماعة يتعارفون ولا يكون فيهم مؤمن ؛ ونقل هذا عن علي بن عيسى ، وعن الجبائي أن المعنى إلى أمة بعد هؤلاء نكلفهم فيعصون فتقتضى الحكمة إهلاكهم وإقامة القيامة ، وروى الإمامية وهم

بيت الكذب عن أبي جعفر .

وأبي عبد الله رضي الله تعالى عنهما أن المراد بالأمة المعدودة أصحاب المهدي في آخر الزمان وهم ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً كعدة أهل بدر ﴿ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ أي أيّ شيء يمنعه من المجيء فكأنه يريده ويمنعه مانع ، وكانوا يقولون ذلك بطريق الاستعجال وهو كناية عن الاستهزاء والتكذيب لأنهم لو صدقوا به لم يستعجلوه وليس غرضهم الاعتراف بمجيئه والاستفسار عن جابسه كما يرشد إليه ما بعد .

(306/373)

﴿ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ ذلك العذاب الأخروي أو الدنيوي ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ ﴾ أي أنه لا يرفعه رافع أبداً ، أو لا يدفعه عنهم دافع بل هو واقع بهم ، والظاهر أن ﴿ يَوْمٍ ﴾ منصوب بمصروفا الواقع خبر ليس ، واستدل بذلك جمهور البصريين على جواز تقديم خبرها عليها كما يجوز تقديمه على اسمها بلا خلاف معتدّ به لأن تقديم المعمول يؤذن بتقديم العامل بطريق الأولى وءلا لزم مزية الفرع على أصله ، وذهب الكوفيون .

والمبرد إلى عدم الجواز وادعوا أن الآية لا تصلح حجة لأن القاعدة المشار إليها غير مطردة ألا ترى قوله سبحانه : ﴿ فَأَمَّا اليتيم فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ [الضحى : 9] كيف تقدم معمول الفعل

مع امتناع تقديمه لأن الفعل لا يلي أما ، وجاء عن الحجازيين أنهم يقولون ما اليوم زيد ذاهباً مع أنه لا يجوز تقديم خبر ما اتفاقاً ، وأيضاً المعمول فيها ظرف والأمر فيه مبني على التسامح مع أنه قيل : إنه متعلق بفعل محذوف دل عليه ما بعده ، والتقدير ألا يصرف عنهم العذاب أو يلازمهم يوم يأتيهم ، ومنهم من جعله متعلقاً بيخافون محذوفاً أي ألا يخافون يوم الخ ، وقيل : هو مبتدأ لا متعلق بمصروفاً ولا بمحذوف ، وبني على الفتح لإضافته للجملة ، ونظير ذلك قوله سبحانه :

﴿ هذا يَوْمُ يَنفَعُ الصادقين ﴾ [المائدة : 119] على قراءة الفتح ، وأنت تعلم أن في بناء الظرف المضاف لجملة صدرها مضارع معرف خلافاً بين النحاة ، وأن الظاهر تعلقه بمصروفا نعم عدم صلاحية الآية للاحتجاج مما لا ريب فيه ، وفي البحر قد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقديم خبر ليس عليها ولا بتقديم معموله إلا ما دل عليه ظاهر هذه الآية الكريمة ، وقول الشاعر

: فيأبى فما يزداد إلى لجاجة . . .

وكنت أبياً في الخنى لست أقدم

وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي نزل وأحاط ، وأصله حق فهو كزل وزال .

وذم وذام والمراد يحيق بهم .

﴿ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ إلا أنه عبر بالماضي لتحقق الوقوع ، والمراد بالموصول العذاب وعبر به عنه تهويلاً لمكانه ، وإشعاراً بعلية ما ورد في حيز الصلة من استهزائهم به لنزوله وإحاطته ووضع الاستهزاء موضع الاستعجال لأنه كان استهزاءاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(308/373)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ .

مناسبته لما قبله أن في كليهما وصف فنّ من أفانين عناد المشركين وتهكمهم بالدعوة الإسلامية ، فإذا خبّرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالبعث وأنّ شركهم سببٌ لتعذيبهم جعلوا كلامه سحراً ، وإذا أنذرهم بعقوبة العذاب على الإشراك استعجلوه ، فإذا تأخّر عنهم إلى أجل اقتضته الحكمة الربّانيّة استفهموا عن سبب حبسه عنهم استفهام تَهكم ظناً أن تأخره عجز .

واللام موطئة للقسم .

وجملة ﴿ ليقولن مَا يَحبسه ﴾ جواب القسم مغنية من جواب الشرط .

والأمّة : حقيقتها الجماعة الكثيرة من النّاس الذين أمْرُهُمْ واحد ، وتطلق على المُدة كأنهم رَاعَوا أنّها الأمد الذي يظهر فيه جيل فأطلقت على مطلق المدة ، أي بعد مدة .

و ﴿ معدودة ﴾ معناه مقدرة ، أي مؤجلة .

وفيه إيماء إلى أنّها ليست مديدة لأنّه شاع في كلام العرب إطلاق العَدّ والحساب ونحوهما على التّقليل ، لأن الشيء القليل يمكن ضبطه بالعدد ، ولذلك يقولون في عكسه : بغير حساب ، مثل ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ [البقرة : 212] .

والحبس : إلزام الشيء مكاناً لا يتجاوزه .

ولذلك يستعمل في معنى المنع كما هنا ، أي ما يمنع أن يصل إلينا ويحل بنا وهم يريدون التهكم .

﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

هذه الجملة واقعة موقع الجواب عن كلامهم إذ يقولون ما يحبس عنا العذاب ، فلذلك فصلت كما تفصل المحاورة .

وهذا تهديد وتخويف بأنّه لا يصرف عنهم ولكنه مؤخر .

وافتُتح الكلام بحرف التّنبيه للاهتمام بالخبر لتحقيقه وإدخال الروع في ضمائرهم .

وتقديم الظرف للإيماء بأنّ إتيان العذاب لا شك فيه حتى أنه يوقّت بوقت .

والصرف : الدفع والإقصاء .

والحَوْق : الإحاطة .

والمعنى : أنه حالّ بهم حلولاً لا مخلص منه بحال .

(309/373)

وجملة ﴿ وحَاقَ بهم ﴾ في موضع الحال أو معطوفة على خبر ﴿ ليس ﴾ .

وصيغة المضي مستعملة في معنى التحقق ، وهذا عذاب القتل يوم بدر .

وما صدق ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ هو العذاب ، وباء ﴿ به ﴾ سببية أي بسبب ذكره فإن ذكر العذاب كان سبباً لاستهزائهم حين توعدهم به النّبيء صلى الله عليه وسلم والإتيان بالموصول في موضع الضمير للإيماء إلى أن استهزاءهم كان من أسباب غضب الله عليهم .

وتقديره إحاطة العذاب بهم بحيث لا يجدون منه مخلصاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(310/373)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ الآية .

المراد بالأمة هنا : المدة من الزمن . ونظيره قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الذي نَجَا مِنْهُمَا وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : 45] الآية . أي تذكر بعد مدة .

تنبيه

استعمل لفظ ﴿ الأمَّة ﴾ في القرآن أربعة استعمالات :

الأول : هو ما ذكرنا هنا من استعمال الأمة في البرهة من الزمن .

الثاني : استعمالها في الجماعة من الناس ، وهو الاستعمال الغالب ، كقوله ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ الناس يَسْقُونَ ﴾ [القصص : 23] الآية ، وقوله ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُول ﴾ [يونس : 47] الآية ، وقوله ﴿ كَانَ الناس أُمَّةً ﴾ [البقرة : 213] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

الثالث : استعمال ﴿ الأمَّة ﴾ في الرجل المقتدى به . كقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل : 120] الآية .

الرابع : استعمال ﴿ الأمَّة ﴾ في الشريعة والطريقة . كقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ

﴿ [الزخرف : 22] الآية ، وقوله : ﴿ إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الأنبياء : 92] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(311/373)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾

وساعة تجد ﴿ لَئِنْ ﴾ فافهم اللام الأولى التي بعد " و " إنما جاءت ؛ لتدل على أن الكلام فيه قسم مؤكد ، وإن كان محذوفاً ، واكتفى باللام عن القسم ، وتقديره : " والله لئن " .

والقسم يأتي لتأكيد المقسم عليه بالمقسم به ، وتأكيد المقسم عليه إنما يأتي لأن هناك من يشك فيه .

فأنت لا تُقسم لإنسان تلقاه وتقول له : والله لقد كنت عند فلان بالأمس .

إذن : فالقسم يأتي لشك طرأ عند السامع ، وأنت لا تقسم ابتداء .

ويأتي القسم على مقدار مراتب الشك ، وتأكيداً بأدواته .

والقرآن الكريم يقول هنا :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ [هود : 8] .

فالواو هنا هي واو القسم ، وهنا أيضاً شرط ، والقسم يحتاج لجواب ، والشرط أيضاً يحتاج إلى جواب .

وإذا اجتمع الشرط والقسم فبلاغة الأسلوب تكتفي بجواب واحد ، مثلما نقول : " والله إن فعلت كذا لأفعلن معك كذا " .

وهكذا يُغْنِي جواب القسم عن جواب الشرط ، والمتقدم سواء أكان قسماً أو شرطاً هو الذي يغني جوابه عن الآخر .

مثلما نقول : " والله إن جاء فلان لأكرمته " ، فالقسم هنا متقدم ، وأغنى جوابه عن جواب الشرط . وإن قلت : إن جاءك فلان والله لتكرمه ، فهنا الشرط هو المتقدم .

والاثنان متحدان ، لكن غاية ما هناك أن القسم تأكيد والشرط تأسيس ، فإذا تقدم ذو خبر على الاثنين على الشرط وعلى القسم نأتي بجواب الشرط فوراً ، مثلما نقول : " زيد والله إن جاءك أكرمه " ؛ لأن الشرط كما قلنا تأسيس ، والقسم تأكيد ، ويرجح هنا الشرط ، لأن التأسيس أولى من التأكيد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ [هود : 8] .

والجواب هنا للقسم ، وهو يغني عن جواب الشرط .

أي : أن العذاب يُؤخَّر .

وقد أوعد الحق سبحانه الكافرين بمحمد صلى الله عليه وسلم بأن يعذبهم ، وكان العذاب للأمم السابقة هو عذاب استئصال ، منهم من أرسل الله سبحانه عليه عاصفة ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من أغرقه ، ومنهم من خسف به الأرض .

فكأن مهمة الرسل السابقين أن يبلغوا الدعوة ، ثم تتلوى السماء تأديب الكافرين بالرسالات .

ولكن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يفضِّل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الأمم كلها ، وأن تعذِّب الكافرين في المعارك .

وحين يتوعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعذاب ، فللعذاب ميلاد ، وقد يُؤخَّر ليرى المحيطون بالكافرين الضلال والفساد ، فإذا ما وقع عذاب الله سبحانه على هؤلاء الكافرين ، فلن يحزن عليهم أحد .

وهكذا أراد الله سبحانه الإمهال والإملاء ليكون لهما معنى واضح في الحياة ، والإملاء للظالم ؛ لتزداد مظالمه زيادة تجعل الأمة التي يعيش فيها تكره ظلمه ، فإذا وقع عليه عذاب ، لا يعطف عليه أحد .

ونحن نعلم أن النفس البشرية بنت المشهد ، فحين يُقتل واحد وتمر سنوات على قضيته ،

ثم يصدر الحكم بإعدامه ، فالناس تنسى لذعة القتل الأول ، وتعطف على القاتل حين يصدر الحكم بإعدامه .

ولذلك أقول دائماً :

إن من دواعي استمرار الجرائم إبطاءات المحاكمة ، تلك الإبطاءات التي تجعل عواطف الناس من المجرم ؛ لأن مشهد المقتول أولاً قد انتهى من ذاكرتهم .

ولكن لو استحضر الناس وقت العقوبة ظرف الجريمة ؛ لَفرِحوا بالحكم على القاتل بالقتل .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حينما يريد أن يعذب أحداً يقول :

﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين ﴾ [النور : 2] .

وذلك ليتم التعذيب أمام المجتمع الذي شقي بإفسادهم وشقي بمظالمهم ، فمن يُعتدَى على عرضه ، ويرى عذاب المعتدي فهو يُشْفى .

(313/373)

وهنا يبيِّن الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : لقد توعدتهم بالعذاب .

ونحن نبطن العذاب بالإمهال لهم ، ولكنهم جعلوا من ذلك مناط السخرية والاستهزاء والتهكم ، وتساءلوا : أين هو العذاب ؟

ونحن نجد القرآن يقول على ألسنتهم .

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ [ص : 16] .

والقط : هو جزاء العمل ، وهو مأخوذ من القط أي : القطع .

والعذاب إنما يتناسب مع الجرم ، فإن كانت الجريمة كبيرة فالعذاب كبير ، وإن كانت الجريمة صغير فالعذاب يكون محدوداً ، فكان العذاب موافقاً للجريمة .

ومن العجيب أن منهم من قال :

﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] .

وجاء على ألسنتهم ما أورده القرآن الكريم في قولهم :

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ﴾ [الإسراء : 92] .

ولا شك أن الإنسان لا يتمنى ولا يرجو أن يقع عليه العذاب ، ولكنهم قالوا ذلك تحديا وسخرية واستهزاءً .

وشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يعذب الكافرين المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم مثلما عذب الكافرين الذين عاصروا الرسالات السابقة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : 33] .

فضلاً عن أن هناك أناساً منهم ستروا إيمانهم ؛ لأنهم لا يملكون القوة التي تمكنهم من مجابهة الكافرين ، ولا يملكون القوة ليرحلوا إلى دار الإيمان بالهجرة ، وحتمت عليهم ظروفهم أن يعيشوا مع الكافرين .

وهناك في سورة الفتح ما يوضح ذلك ، حين قال الحق سبحانه وتعالى :

(314/373)

﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهدي مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [الفتح : 25] .

أي : لو تميَّز الكافرون عن المؤمنين لسلّط الحق سبحانه العذاب الأليم على الكافرين ، لكن لو دخل المسلمون بجيشهم الذي كان في الحديبية على مكة ، ودرات هناك معركة ، فهذه المعركة ستصيب كل أهل مكة ، وفيهم المؤمنون المنثورون بين الكافرين ، وهم غير متحيزين في جهة بحيث يوجد المسلمون الضربة للجانب الكافر .

إذن : فلو ضرب المسلمون المقاتلون ، لضربوا بعضاً من المؤمنين ، وهذا ما لا يريده الحق سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ [هود : 8] .

والأمة : هي الطائفة أو الجماعة من جنس واحد ، مثل أمة الإنس ، وأمة الجن ، وأمة النمل . . وغير ذلك من خلق الله .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : 38] .

والأمة : طائفة يجمعها نظام واحد وقانون واحد ، وأفرادها مستاوون في كل شيء ، فتكون كل واحدة من هذه الأمم أمة ، وهناك الأمة : الطائفة من الزمن . مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الذي نَجَا مِنْهُمَا وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : 45] .

أي : أن هذا الذي تذكر بعد فترة من الزمن ، وقد تكون الفترة المسماة " أمة " ، هي الزمن الذي يتحمل جيلاً من الأجيال .

الأمة إذن هي جماعة وطائفة لها جنس يجمعها ، ولها تميزات أفرادية ، وهي تلتقي في معنى عام .

فأمة الإنسان هي حيوان ناطق مفكر ، وهناك قدر عام يجمع كل إنسان ، ولكن هناك تفاوتات في المواهب .

ولا توجد نفس بشرية واحدة تملك موهبة الهندسة والطب والتجارة والصيدلة والمحاسبة ؛ لأن كل حرفة من تلك الحرف تحتاج إلى دراسة .

ولا يملك إنسان من العمر ما يتيح له التخصص في كل تلك المجالات ؛ ولذلك يتخصص كل فرد في مجال ؛ ليخدم غيره فيه ، وغيره يتخصص في مجال آخر ويخدم الباقين ، وهكذا .

وفي هذا تكافل اجتماعي ، يشعر فيه كل فرد بأنه يحتاج للآخرين ، وأنه لا يستطيع أن يحيا مستقلاً بذاته عن كل الخلق .

ولو عرف واحد كل الحرف التي في الدنيا ، من طب وهندسة وقضاء ، وسباكة ، ونجارة ، وزراعة ، وغيرها فلن يسأل عن الباقين ؟

لذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تلتحم المجتمعات ضرورة وقسراً ، لا تفضُّلاً من أحد على أحد .

والذي يكنس الشارع أو يعمل في تنظيف الصرف الصحي لا يفعل ذلك تفضُّلاً ، بل يفعل ذلك احتياجاً ؛ لأنه يحتاج إلى العمل والرزق ؛ لأن جسمه يحتاج إلى الطعام ، وإلى الستر

بالملابس ، وأولاده يطلبون الطعام والمأوى والملبس ، ولولا ذلك لما عمل في تلك المهنة .

وإذا أخلص في عمله فالله سبحانه يحببه فيها ، وإن ارتقت أحواله ، يظل في هذا العمل ؛ لأنه عشق إتقان مهنته .

ولقد رأيت رجلاً كان يعمل في هذه المهنة ، ويحمل الأقذار على كتفه ، وحين وسَّع الله عليه ، اشترى عربة يجرها حمار ليحمل فيها ما ينزحه من تلك المجاري .

وحين وسَّع الله عليه أكثر ، اشترى سيارة فيها ماكينة شفط للقاذورات ، وصار يجلس على الكرسي ، ويدير " موتور " نزح المجاري لداخل خزان السيارة المخصص لذلك .

إذن : فارتباطات المجتمع لا بد أن تنشأ عن حاجة ، لا عن تفضُّل ؛ لأن التفضل ليس فيه إلزام بالعمل ، لكن الحاجة هي التي فيها إلزام بالعمل ؛ لتسير حركة الحياة .

(316/373)

ومن يعشق عمله على أي وضع كان ، يوفقه الله تعالى فيه أكثر ؛ لأنه احترم قدر الله تعالى في نفسه ، ولم يستنكف ، ويعطيه الله سبحانه كل الخير من هذا العمل ، بقدر حبه للعمل وأخلاصه فيه .

وإن نظرت إلى العظماء في كل مهنة مهما صغرت ، فستجد أن تاريخهم بدأ بقبولهم لقدر الله

سبحانه وتعالى فيهم .

ونحن نعلم أن قيمة كل امرىء فيما يحسنه ؛ ولذلك تجد الأمة مكونة من مواهب متكاملة لا متكررة ، حتى يحتاج كل إنسان إلى عمل غيره .

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ [الزخرف : 32] .

لأن أحداً لا يسخَّر الآخر لعمل إلا إذا كان المسخَّر في حاجة إلى هذا العمل .

ولذلك تجد من يطرق بابك ويسأل : ألا تحتاج إلى سائق ؟ ألا تحتاج إلى خادم ؟

وصاحب الحاجة هو الذي يعرض نفسه ؛ لعله يجد العمل الذي يتقنه .

ولذلك يجب ألا يتصور أهل أي إنسان أنه حين يخدم في أي حرفة من الحرف أنه يخدم المخدوم ، لا . . إنه يخدم حاجة نفسه .

وهكذا تترابط الأمة ارتباط حاجات ، لا ارتباط تفضل .

وقد قال الحق سبحانه وتعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل : 120] .

لأن هناك مواهب متعددة قد اجتمعت فيه ، وهي مواهب لا تجتمع إلا في أمة من الناس .

وكلمة " أمة " تطلق على الزمن ، وتطلق على الجماعة من كل جنس ، وتطلق على الرجل

الجامع لكل خصال الخير .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ [هود : 8] .

وعادة ما تأتي كلمة ﴿ مَّعْدُودَةٍ ﴾ لتفيد القلة ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزاهدين ﴾ [يوسف : 20] .

وما دام الثمن بَخْساً فلا بد أن تكون الدراهم معدودة .

(317/373)

والسبب في فهمنا لكلمة ﴿ مَّعْدُودَةٍ ﴾ أنها تفيد القلة ، هو أننا لا نُقبل على عَدِّ شيء إلا مظنة أننا قادرون على عَدِّه ؛ لأنه قليل ، لكن ما لا نُقبل على عدِّه فهو الكثير .

ومثال ذلك : أن أحداً لم يعد الرمل ، أو النجوم .

ولذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : 34] .

و " إن " كما نعلم تأتي للشك ، ونعم الله سبحانه ليست مظنة الحصر .

ورغم أن البشرية قد تقدمت في علوم الإحصاء فهل تفرَّغ أحد ليُحصي نعم الله ؟

طبعاً لا . . وبطبيعة الحال يمكن إحصاء السكان والعاملين في أي مجال أو تخصص .

وقديماً كان القائمون على فتح صناديق النذور ليحسبوا ما فيها ، فيضعوا الورق من فئة المائة جنيه معاً ، والورق من فئة العشرة جنيهات معاً ، وكذلك بقية الفئات من الأوراق المالية ، إلى أن يصلوا إلى القروش ، فيقوموا بوزن كليو جرام منها ، ويحسبوا كم قرشاً في الكيلو جرام ، ويزنوا بعد ذلك بقية القروش ؛ ليحسبوا المجموع على حساب عدد القروش التي حصروها في الكليو جرام الأول .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ [هود : 8] .

كأنهم يتساءلون سخرية واستهزاء : لماذا يتأخر العذاب الذي توعَّدهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الإنسان لا يتشوق إلى ما يؤلمه ، ولا يقال مثل هذا الكلام إلا على سبيل التهكم .

ويأتي الرد عليهم بأداة التنبيه ، وهي " ألا " أي : تَنبَّهوا إلى هذا الرد .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ ﴾ [هود : 8] .

وهذا تأكيد أن العذاب سيأتي ، ولكن العباد دائماً يعجلون .

والله سبحانه لا يعجل بعجلة العباد ؛ حتى تبلغ الأمور ما أراد ، وكل أمر له وقت وله ميلاد ، وسيأتيهم ما كانوا يستعجلون ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

(318/373)

﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [هود : 8] .

وقد جاء تأكيد وصول العذاب إليهم بأشياء : أولها : " ألا " وهي أداة تنبيه ، وكذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ ، وهذا خبر بأن العذاب آت لا محالة ؛ لأن الذي يخبر به هو الله سبحانه وتعالى .

وأيضاً فهذا العذاب : ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ ﴾ [هود : 8] .

أي : أنه عذاب مستمر .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [هود : 8] .

يعني : أنه حل بهم ونزل عليهم ، ووقع لهم العذاب الذي استهزأوا به من قبل .

ونحن نعلم أن كلمة (حاق) فعل ماضٍ ، والكلام على أمر مستعجل ، ويُعبَّر عن الأمر المستعجل بالمضارع ؛ لأن الفعل المضارع يدل على الحال أو الاستقبال ، فكيف يستعجلون

أمراً ، ويأتي التعبير عنه بالفعل الماضي ؟

ولكن القائل هنا هو الله الحق سبحانه وتعالى ، والكلام مأخوذ بقانون المتكلم ، وكل فعل يُنسَب إلى قوة فاعله ، والله سبحانه هو قوة القوى .

وقال الحق سبحانه وتعالى في موضع آخر من القرآن :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : 1] .

وكلمة " أتى " في عرفنا اللغوي فعل ماضٍ ، أي : أن الكلام جاء من المتكلم بعد وقوع النسبة خارجاً ، مثلما نقول : " نجح محمد " فهذا يعني أن النجاح قد حدث بالفعل .

وحين يقول الله سبحانه : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ نفهم أن ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ نسبة كلامية سبقتها نسبة واقعية .

وقوله سبحانه بعد ذلك : ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ يدل على أن الأمر لم يقع ، ولكن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى .

والمعنى أن الأمر واقع لا محالة ؛ ذلك لأن كل فعل إنما ينسب لقوة الفاعل .

ومثال ذلك من حياتنا ولله المثل الأعلى أنك قد ترغب في أن تنقل حقيبة ضخمة وثقيلة ، فيقول ابنك الشاب : دعني أحملها لك ، وهو يقول ذلك لأنه قادر على أن يحملها في زمن يناسب قوته .

وإن جاءك ابنك الصغير وقال : سأحملها أنا . فهو لن يحمل الحقيبة إلا في مقدار زمن يناسب قوته ، وهي قوة ضعيفة .

إذن : ففي المجال البشري أنت تحكم على الماضي ، وقد يكون الحكم صادقاً أو كاذباً ، ولكنك بالنسبة لأمر مستقبل ، لا تستطيع أن حكم عليه ؛ لأنك لا تملك من المستقبل شيئاً .

أما إذا كان قائل الكلام قادراً على إنفاذ ما يقوله الآن في المستقبل ، ولا عائق يعوقه ، فاعلم أن الأمر قادم لا محالة .

وهنا نجد الإخبار من الله سبحانه وتعالى ، ولا شيء في الكون يتأبَّى على الله سبحانه .

وما دام الحق سبحانه قد قال إنه أمرٌ قد أتى ، فهو آتٍ لا محالة .

ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ [هود : 8] .

مع أن السياق في العرف البشري أن يقال : وسيحيق بهم ما كانوا به يستهزئون ؛ لأنهم كانوا يستعجلون العذاب .

وجاء قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَحَاقَ ﴾ لأن الأمر بالنسبة له سبحانه لن يحول بينه وبين وقوعه أي عائق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَّيَقُولُنَّ ﴾ : هذا الفعلُ معربٌ على المشهور لأن النونَ مفصولةٌ تقديراً ، إذا الأصلُ : ليقولونَنَّ : النون الأولى للرفع ، وبعدها نونٌ مشددة ، فاستثقلَ توالي ثلاثةِ أمثال ، فحُذِفَتْ نونُ الرفع لأنها لا تدلُّ مِن المعنى على ما تدل عليه نون التوكيد ، فالتقى ساكنان ، فحذفت الواوُ التي هي ضميرُ الفاعل لالتقائِهما ، وقد تقدَّم تحقيقُ ذلك .

و " ما يَحْبِسُه " استفهامٌ ، ف " ما " مبتدأ ، و " يحبسُه " خبره ، وفاعلُ الفعل ضميرُ اسم الاستفهام ، والمنصوب يعود على العذاب ، والمعنى : أيُّ شيءٍ من الأشياء يَحْبِسُ العذاب ؟ .

قوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ منصوبٌ ب " مصروفاً " الذي هو خبر " ليس " ، وقد استدلَّ به جمهور البصريين على جواز تقديم خبر " ليس عليها ، ووجهُ ذلك أن تقديمَ المعمول يُؤْذن بتقديم العامل ، و " يومَ " منصوب ب " مصروفاً " وقد تقدَّم على " ليس " فليَجُزْ تقديمُ الخبرِ بطريق الأولى ؛ لأنه إذا تقدَّم الفرعُ فأولى أن يتقدَّم الأصلُ . وقد رَدَّ بعضهم هذا الدليلَ بشيئين ، أحدهما : أن الظرفَ يُتوسَّع فيه ما لا يُتوسَّع في غيره . والثاني : أن هذه القاعدةَ منخرمةٌ ، إذ لنا مواضعُ يتقدم فيها المعمولُ ولا يتقدم فيها العامل ، وأوردَ مِنْ ذلك نحوَ قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا اليتيم فَلاَ تَقْهَرْ وَأَمَّا السآئل فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ [الضحى : 9-10] فاليتيمَ منصوب ب " تقهرْ " ، و " السائلَ " منصوبٌ ب " تَنْهَرْ " وقد تَقَدَّما على " لا " الناهية ، ولا يتقدَّمُ العاملُ وهو المجزوم على " لا " ، وللبحث في هذه المسألة موضعٌ هو أليقُ به . قال الشيخ : " وقد تَتَبَّعْتُ جملةً من دواوين العرب فلم أظفر بتقديم خبر " ليس " عليها ولا بمعموله إلا ما دلَّ عليه ظاهرُ هذه الآية وقولِ الشاعر :

2637 فيأبى فما يَزْدادُ إلا لَجاجَةً . . . وكنتُ أَبِيَّاً في الخَفَا لستُ أُقْدِمُ

واسمُ " ليس " ضميرٌ عائد على " العذاب " ، وكذلك فاعل " يأْتيهم " ، والتقدير : ألا ليسَ العذاب مصروفاً عنهم يوم يأتيهم العذاب . وحكى أبو البقاء عن بعضهم أن العاملَ في " يومَ يأتيهم " محذوف ، تقديره : أي : لا يُصْرَفُ عنهم العذابُ يوم يأتيهم ، ودلَّ على هذا المحذوفِ سياق الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 291. 293 ﴾

(322/373)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾

يقول : إنْ أَمْهَلْنَا ، وأخَّرْنا عليهم العذابَ لا يَرْعَوُون ، بل يستعجلون العقوبة . ولئن عَجَّلْنا لهم العقوبةَ لا يتوبون ولا يستغفرون . . . استولى عليهم الجهلُ في الحالَيْن ، وعَمِيَتْ بصائرُهم عن شهودِ التقدير والإيمان بالغيب في النوعين . ويوم يأتيهم العذابُ فلا مناصَ ولا منجاةَ ولا مراحَ لهم منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 125 ﴾

(323/373)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾

قوله : ﴿ الر ﴾ : إن كان مسروداً على سبيل التعديد كما في سائر فواتح السور فلا محل له ، وإن كان اسماً للسورة فهو في محل رفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده أو خبر مبتدأ محذوف ، و ﴿ كِتَابٌ ﴾ يكون على هذا الوجه خبراً لمبتدأ محذوف : أي هذا كتاب ، وكذا على تقدير أن ﴿ الر ﴾ لا محل له ، ويجوز أن يكون ﴿ الر ﴾ في محل نصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو : اذكر ، أو اقرأ ، فيكون ﴿ كتاب ﴾ على هذا الوجه خبر مبتدأ محذوف ، والإشارة في المبتدأ المقدّر إما إلى بعض القرآن أو إلى مجموع القرآن ، ومعنى : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُه ﴾ صارت محكمة متقنة ، لا نقص فيها ولا نقض لها كالبناء المحكم ، وقيل معناه : إنها لم تنسخ بخلاف التوراة والإنجيل ، وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب ، وهو المحكم الذي لم ينسخ ؛ وقيل معناه : أحكمت آياته بالأمر والنهي ، ثم فصلت بالوعد والوعيد ، والثواب والعقاب .

وقيل : أحكمها الله من الباطل ، ثم فصلها بالحلال والحرام .

وقيل : أحكمت جملته ، ثم فصلت آياته .

وقيل : جمعت في اللوح المحفوظ ، ثم فصلت بالوحي .

وقيل : أيدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله ؛ وقيل معنى إحكامها : أن لا فساد فيها ، أخذاً من قولهم أحكمت الدابة : إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ، و ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ معطوف على ﴿ أحكمت ﴾ ، ومعناه ما تقدّم ، والتراخي

المستفاد من " ثم " إما زماني إن فسر التفصيل بالتنجيم على حسب المصالح ، وإما رتبيّ إن فسر بغيره مما تقدّم ، والجمل في محل رفع على أنها صفة لكتاب ، أو خبر آخر للمبتدأ أو خبر لمبتدأ محذوف ، وفي قوله : ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ لف ونشر ، لأن المعنى : أحكمها حكيم ، وفصلها خبير عالم بمواقع الأمور .

(324/373)

قوله : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ ﴾ مفعول له حذف منه اللام : كذا في الكشاف ، وفيه أنه ليس بفعل لفاعل الفعل المعلل .

وقيل : " أن " هي المفسرة لما في التفصيل من معنى القول .

وقيل : هو كلام مبتدأ منقطع عما قبله ، محكياً على لسان النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قال الكسائي والفراء : التقدير أحكمت بأن لا تعبدوا إلا الله .

وقال الزجاج : أحكمت ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا الله ، ثم أخبرهم رسول الله بأنه نذير وبشير ، فقال : ﴿ إِنَّنِي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ أي : ينذرهم ويخوّفهم من عذابه لمن عصاه ، ويبشرهم بالجنة والرضوان لمن أطاعه ، والضمير في ﴿ منه ﴾ راجع إلى الله سبحانه .

أي إنني لكم نذير وبشير من جهة الله سبحانه ؛ وقيل : هو من كلام الله سبحانه كقوله : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : 28] .

قوله : ﴿ وَأَنِ استغفروا رَبَّكُمْ ﴾ معطوف على ألا تعبدوا ، والكلام في أن هذه كالكلام في التي قبلها .

وقوله : ﴿ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ معطوف على ﴿ استغفروا ﴾ ، وقدم الإرشاد إلى الاستغفار على التوبة ، لكونه وسيلة إليها .

وقيل : إن التوبة من متممات الاستغفار ؛ وقيل معنى ﴿ استغفروا ﴾ : توبوا .

ومعنى ﴿ توبوا ﴾ : أخلصوا التوبة واستقيموا عليها .

وقيل : استغفروا من سالف الذنوب ، ثم توبوا من لاحقها .

وقيل : استغفروا من الشرك ، ثم ارجعوا إليه بالطاعة .

قال الفراء : " ثم " هاهنا بمعنى الواو : أي وتوبوا إليه ، لأن الاستغفار هو : التوبة ، والتوبة هي : الاستغفار ؛ وقيل : إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب ، والتوبة .

هي : السبب إليها ، وما كان آخراً في الحصول ، كان أوّلاً في الطلب .

وقيل : استغفروا في الصغائر ، وتوبوا إليه في الكبائر ؛ ثم رتب على ما تقدّم أمرين الأول : ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعًا حَسَنًا ﴾ أصل الإمتاع : الإطالة ، ومنه أمتع الله بك ؛ فمعنى الآية : يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية من سعة الرزق ورغد العيش ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى وقت مقدّر عند الله ، وهو : الموت ؛ وقيل : القيامة ؛ وقيل : دخول الجنة ؛ والأوّل : أولى .

والأمر الثاني قوله : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ أي : يعط كل ذي فضل في الطاعة والعمل فضله : أي جزاء فضله ، إما في الدنيا ، أو في الآخرة ، أو فيهما جميعاً ، والضمير في ﴿ فضله ﴾ راجع إلى كل ذي فضل .

وقيل : راجع إلى الله سبحانه على معنى أن الله يعطي كل من فضلت حسناته فضله الذي يتفضل به على عباده .

ثم توعدهم على مخالفة الأمر فقال : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي : تتولوا وتعرضوا عن الإخلاص في العبادة ، والاستغفار ، والتوبة ﴿ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ وهو : يوم القيامة ، ووصفه بالكبر ، لما فيه من الأهوال .

وقيل : اليوم الكبير يوم بدر .

ثم بين سبحانه عذاب اليوم الكبير بقوله : ﴿ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي : رجوعكم إليه

بالموت ، ثم البعث ، ثم الجزاء ، لا إلى غيره ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومن جملة ذلك عذابكم على عدم الامتثال ، وهذه الجملة مقرّرة لما قبلها .

ثم أخبر الله سبحانه بأن هذا الإنذار والتحذير والتوعد لم ينجع فيهم ، ولا لانت له قلوبهم ، بل هم مصرّون على العناد مصممون على الكفر ، فقال مصدراً لهذا الإخبار بكلمة التنبيه الدالة على التعجب من حالهم ، وأنه أمر ينبغي أن يتنبه له العقلاء ويفهموه ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ يقال : ثني صدره عن الشيء : إذا ازورّ عنه وانحرف منه ، فيكون في الكلام كناية عن الإعراض ؛ لأن من أعرض عن الشيء ثنى عنه صدره ، وطوى عنه كشحه .

(326/373)

وقيل معناه : يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والإعراض عن الحق ، فيكون في الكلام كناية عن الإخفاء لما يعتقدونه من الكفر ، كما كان دأب المنافقين .

والوجه الثاني أولى ، ويؤيده قوله : ﴿ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ أي : ليستخفوا من الله ، فلا يطلع عليه رسوله والمؤمنين ، أو ليستخفوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ثم كرّر كلمة التنبيه مبيناً للوقت الذي يثنون فيه صدورهم ، فقال : ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾

أي : يستخفون في وقت استغشاء الثياب ، وهو التغطي بها ، وقد كانوا يقولون : إذا أغلقنا أبوابنا ، واستغشينا ثيابنا ، وثنينا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا ؟ وقيل : معنى ﴿ حين يستغشون ﴾ : حين يأوون إلى فراشهم ، ويتدثرون بثيابهم .

وقيل : إنه حقيقة : وذلك أن بعض الكفار كان إذا مرّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثنى صدره ، وولى ظهره ، واستغشى ثيابه ، لئلا يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجملة : ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ مستأنفة لبيان أنه لا فائدة لهم في الاستخفاء ؛ لأن الله سبحانه يعلم ما يسرّونه في أنفسهم ، أو في ذات بينهم وما يظهرونه ؛ فالظاهر والباطن عنده سواء ، والسرّ والجهر سيان ، وجملة : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ تعليل لما قبلها وتقرير له ، و ﴿ ذات الصدور ﴾ هي : الضمائر التي تشتمل عليها الصدور .

وقيل : هي القلوب ، والمعنى : إنه عليم بجميع الضمائر ، أو عليم بالقلوب وأحوالها في الإسرار والإظهار ، فلا يخفى عليه شيء من ذلك .

(327/373)

ثم أكد كونه عالماً بكل المعلومات بما فيه غاية الامتنان ، ونهاية الإحسان ، فقال : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ أي : الرزق الذي تحتاج إليه من الغذاء اللائق بالحيوان ، على اختلاف أنواعه تفضلاً منه وإحساناً ، وإنما جيء به على طريق الوجوب ، كما تشعر به كلمة "على" اعتباراً بسبق الوعد به منه ، و " من " زائدة للتأكيد ، ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله : أن الله سبحانه لما كان لا يغفل عن كل حيوان باعتبار ما قسمه له من الرزق ، فكيف يغفل عن أحواله ، وأقواله ، وأفعاله .

والدابة : كل حيوان يدب ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ أي : محل استقرارها في الأرض ، أو محل قرارها في الأصلاب ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ موضعها في الأرحام ، وما يجري مجراها كالبيضة ونحوها .

وقال الفراء : مستقرها : حيث تأوي إليه ليلاً ونهاراً ، ومستودعها : موضعها الذي تموت فيه ، وقد مرّ تمام الأقوال في سورة الأنعام ، ووجه تقدّم المستقر على المستودع على قول الفراء ظاهر .

وأما على القول الأوّل : فلعل وجه ذلك أن المستقر أنسب باعتبار ما هي عليه حال كونها دابة .

والمعنى : وما من دابة في الأرض إلا يرزقها الله حيث كانت من أماكنها بعد كونها دابة ، وقبل كونها دابة ، وذلك حيث تكون في الرحم ونحوه .

ثم ختم الآية بقوله : ﴿ كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : كل من ما تقدّم ذكره من الدوّاب ، ومستقرّها ومستودعها ، ورزقها في كتاب مبين ، وهو اللوح المحفوظ : أي مثبت فيه .

(328/373)

ثم أكد دلائل قدرته بالتعرّض لذكر خلق السموات والأرض ، وكيف كان الحال قبل خلقها فقال : ﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ قد تقدّم بيان هذا في الأعراف ، قيل : والمراد بالأيام : الأوقات : أي في ستة أوقات ، كما في قوله : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ﴾ [الأنفال : 16] وقيل : مقدار ستة أيام ، ولا يستقيم أن يكون المراد بالأيام هنا الأيام المعروفة ، وهي المقابلة لليالي ، لأنه لم يكن حينئذ لا أرض ولا سماء ، وليس اليوم إلا عبارة عن مدّة كون الشمس فوق الأرض ، وكان خلق السموات في يومين ، والأرضين في يومين ، وما عليهما من أنواع الحيوان والنبات والجماد ، في يومين ، كما سيأتي في حم السجدة .

قوله : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء ﴾ أي : كان قبل خلقهما عرشه على الماء ، وفيه بيان تقدّم خلق العرش والماء على السموات والأرضين .

قوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ اللام متعلقة بخلق : أي خلق هذه المخلوقات

ليبتلي عباده بالاعتبار والتفكر والاستدلال ، على كمال قدرته ، وعلى البعث والجزاء أيهم أحسن عملاً فيما أمر به ونهى عنه ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، ويوفر الجزاء لمن كان أحسن عملاً من غيره ، ويدخل في العمل الاعتقاد ، لأنه من أعمال القلب .

وقيل : المراد بالأحسن عملاً : الأتمّ عقلاً ، وقيل : الأزهد في الدنيا .

وقيل : الأكثر شكراً ، وقيل : الأتقى لله .

(329/373)

قوله : ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الموت لَيَقُولَنَّ الذين كَفَرُواْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ثم لما كان الابتلاء يتضمن حديث البعث أتبع ذلك بذكره ، والمعنى : لئن قلت لهم يا محمد على ما توجبه قضية الابتلاء ، إنكم مبعوثون من بعد الموت ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، ليقولن الذين كفروا من الناس إن هذا الذي تقوله يا محمد إلا باطل كبطلان السحر ، وخدع كخدعه .

ويجوز أن تكون الإشارة ب ﴿ هذا ﴾ إلى القرآن ؛ لأنه المشتمل على الإخبار بالبعث .

وقرأ حمزة والكسائي " إِنْ هذا إِلاَّ ساحر " يعنون النبي صلى الله عليه وسلم ، وكسرت "

إنّ " من قوله : ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ لأنها بعد القول .

وحكى سيبويه الفتح على تضمين ﴿ قلت ﴾ معنى : ذكرت ، أو على " أن " بمعنى : علّ : أي ولئن قلت لعلكم مبعوثون ، على أن الرجاء باعتبار حال المخاطبين : أي توقعوا ذلك ، ولا تبتوا القول بإنكاره .

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُم العذاب ﴾ أي : الذي تقدّم ذكره في قوله : ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ وقيل : عذاب يوم القيامة وما بعده ، وقيل يوم بدر ﴿ إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ أي : إلى طائفة من الأيام قليلة ؛ لأن ما يحصره العدّ قليل ، والأمة اشتقاقها من الأم : وهو القصد ، وأراد بها الوقت المقصود لإيقاع العذاب .

(330/373)

وقيل : هي في الأصل الجماعة من الناس ، وقد يسمى الحين باسم ما يحصل فيه ، كقولك : كنت عند فلان صلاة العصر : أي في ذلك الحين ، فالمراد على هذا : إلى حين تنقضى أمة معدودة من الناس ﴿ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ أي أيّ شيء يمنعه من النزول استعجالا له على جهة الاستهزاء والتكذيب ، فأجابهم الله بقوله : ﴿ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ﴾ أي : ليس محبوساً عنهم ، بل واقع بهم لا محالة ، و ﴿ يوم ﴾ منصوب ب ﴿ مصروفاً ﴾

﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي : أحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه استهزاء منهم ، ووضع يستهزءون مكان يستعجلون ، لأن استعجالهم كان استهزاء منهم ، وعبر بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه ، فكأنه قد حاق بهم .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد ، أنه قرأ : ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءاياته ﴾ قال : هي كلها محكمة ، يعني سورة هود ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ قال : ثم ذكر محمداً صلى الله عليه وسلم ، فحكم فيها بينه وبين من خالفه ، وقرأ : ﴿ مثل الفريقين .

. .

﴾ الآية كلها [هود : 24] ، ثم ذكر قوم نوح ثم هود ، فكان هذا تفصيل ذلك ، وكان أوّله محكماً قال : وكان أبي يقول ذلك ، يعني : زيد بن أسلم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الحسن ، في قوله : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءاياته ﴾ قال : أحكمت بالأمر والنهي ، وفصلت بالوعد والوعيد ، وأخرج هؤلاء عن مجاهد ﴿ فُصِّلَتْ ﴾ قال : فسرت .

وأخرج هؤلاء أيضاً عن قتادة في الآية قال : أحكمها الله من الباطل ، ثم فصلها بعلمه ، فبين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته ، وفي قوله : ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ ﴾ يعني من عند حكيم ، وفي قوله : ﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا ﴾ قال : فأنتم في ذلك المتاع ، فخذوه بطاعة الله

ومعرفة حقه ، فإن الله منعم يحبّ الشاكرين ، وأهل الشكر في مزيد من الله ، وذلك قضاؤه الذي قضاه .

(331/373)

وفي قوله : ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني : الموت ، وفي قوله : ﴿ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ أي : في الآخرة .

وأخرج هؤلاء أيضاً عن مجاهد في قوله : ﴿ يؤت كل ذي فضل فضله ﴾ : أي في الآخرة .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الحسن قال : يؤت كل ذي فضل في الإسلام فضل الدرجات في الآخرة .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن مسعود ، في قوله : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ قال : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات ، فإن عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات ، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة ، وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول : هلك من غلب آحاده أعشاره .

وأخرج البخاري وغيره ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ الآية

قال : كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم .

قال البخاري ، وعن ابن عباس : ﴿ يَسْتَغْشُونَ ﴾ يغطون رؤوسهم .

وروى البخاري أيضاً عن ابن عباس في تفسير هذه الآية ، يعني به الشك في الله ، وعمل السيئات ، وكذا روي عن مجاهد والحسن وغيرهما : أي أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه ، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك ، فأعلمهم سبحانه أنه حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ من القول ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن عبد الله بن شداد بن الهاد ، في قوله : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ قال : كان المنافقون إذا مرّ أحدهم بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ثنى صدره ، وتغشى ثوبه ، لكيلا يراه ، فنزلت .

وأخرج ابن جرير ، عن الحسن ، في قوله : ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ قال : في ظلمة الليل في أجواف بيوتهم .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن أبي رزين في الآية قال : كان أحدهم يحني ظهره ويستغشى بثوبه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في الآية قال : كانوا يخبون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله ، قال تعالى : ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ وذلك أخفى ما يكون ابن آدم إذا أحنى ظهره ، واستغشى بثوبه ، وأضمر همه في نفسه ، فإن الله لا يخفى عليه ذلك .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، قال في الآية : يكتمون ما في قلوبهم ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما عملوا بالليل والنهار .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ ﴾ الآية قال : يعني كل دابة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ ﴾ الآية قال : يعني ما جاءها من رزق فمن الله ، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعاً ، ولكن ما كان لها من رزق لها فمن الله .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ قال : حيث تأوى ، و ﴿ مستودعها ﴾ قال :

حيث تموت .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عنه ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ قال : يأتيها رزقها حيث كانت .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، عن ابن مسعود ، قال : مستقرّها في الأرحام ، ومستودعها حيث تموت .

(333/373)

ويؤيد هذا التفسير الذي ذكره ابن مسعود ما أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب ، عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان أجل أحدكم بأرض أتيحت له إليها حاجة ، حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض ، فتقول الأرض يوم القيامة : هذا ما استودعتني " .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف ، والفريابي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس ، أنه سئل عن قوله : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء ﴾ على أيّ شيء كان الماء ؟ قال : على متن الريح .

وقد وردت أحاديث كثيرة في صفة العرش ، وفي كيفية خلق السموات والأرض ليس هذا

موضع ذكرها .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم في التاريخ ، وابن مردويه ، عن ابن عمر ، قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ فقال : ما معنى ذلك يا رسول الله ؟ قال : " ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً " ، ثم قال : " وأحسنكم عقلاً أورعكم عن محارم الله ، وأعملكم بطاعة الله " وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة ، قال : إنكم أتمّ عقلاً .

وأخرج أيضاً عن سفيان قال : أزهدكم في الدنيا .

(334/373)

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة ، قال : لما نزلت ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حسابهم ﴾ [الأنبياء : 1] قال ناس : إن الساعة قد اقتربت فتناهوا ، فتناهى القوم قليلاً ثم عادوا إلى أعمالهم أعمال السوء ، فأنزل الله : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : 1] فقال ناس من أهل الضلال : هذا أمر الله قد أتى ، فتناهى القوم ثم عادوا إلى مكرهم ، مكر السوء ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، عن ابن

عباس ، في قوله : ﴿ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ قال : إلى أجل معدود .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ﴿ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ يعني أهل النفاق .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السديّ ، في قوله : ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ يقول : وقع بهم العذاب الذي استهزءوا به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(335/373)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والسبعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/374)

الجزء الرابع والسبعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 9 ﴾ من سورة هود عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 16 ﴾ من نفس السورة

(4/374)

قوله تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان قولهم ذلك ناشئاً عن طبع الإنسان على الوقوف مع الحالة الراهنة والعمى عن الاستضاءة بنور العقل فيما يزيلها في العاقبة ، بين ذلك ليعلم أن طبعه مناف لما تضمنه مقصود السورة من الإحكام الذي هو ثمرة العلم .

وبعلم ذلك يعلم مقدار نعمته على من حفظه على ما فطره عليه من أحسن تقويم بقوله مؤكداً لأن كل أحد ينكر أن يكون طبعه كذلك : ﴿ ولئن أذقنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ الإنسان ﴾ أي هذا النوع المستأنس بنفسه ؛ ولما كان من أقبح الخلال استملاك المستعار .

وكانت النعم عواري من الله يمنحها من شاء من عباده ، قدم الصلة دليلاً على العارية فقال : ﴿ منا رحمة ﴾ أي نعمة فضلاً منا عليه لا بحوله ولا بقوته من جهة لا يرجوها بما دلت عليه أداة الشك ومكناه من التلذذ بها تمكين الذائق من المذوق ﴿ ثم نزعناها ﴾ أي بما لنا من العظمة وإن كره ذلك ﴿ منه ﴾ أخذاً لحقنا ﴿ إنه ليئوس ﴾ أي شديد اليأس من أن يعود له مثلها ﴿ كفور ﴾ أي عظيم الستر لما سلفه له من الإكرام لأن شأنه ذلك وخلقه إلا من رحم ربك ﴿ ولئن أذقناه نعماء ﴾ من فضلنا .

ولما كان استملاكه العارية طبعاً له ، لا ينفك عنه إلا بمعونة شديد من الله .

دل عليه بما أفهم أنه لو كان طول عمره في الضر ثم نال حالة يرضاها عقب زمن الضر سواء بادر إلى اعتقاد أنها هي الحالة الأصلية له وأنها لا تفارقه أصلاً ولا يشوبها نوع ضرر ولا

يخالط صفوها شيء من كدر .

فقال دالاً على اتصال زمن الضر بالقول بنزع الخافض من الظرف : ﴿ بعد ضراء ﴾ أي فقر شديد مضر ببدنه ، ولم يسند المس إليه سبحانه كما فعل في النعماء تعليماً للأدب فقال : ﴿ مسته ﴾ أي بما كسبت يداه ﴿ ليقولن ﴾ مع قرب عهده بالضراء خفة وطيشاً ﴿ ذهب السيِّئات ﴾ أي كل ما يسوءني ﴿ عني ﴾ وقوله ﴿ إنه ﴾ الضمير فيه للإنسان ، المعنى أن الإنسان .

فهي كلية مشهورة بمستغرق ، أي أن كل إنسان ﴿ لفرح فخور ﴾ أي خارج عن الحد في فرحه شديد الإفراط في فخره على غيره بكل نعمة تفضل الله عليه بها .

لا يملك ضر نفسه ومنعها من ذلك فلذا اتصل بها قوله مستثنياً من الإنسان المراد به اسم الجنس : ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ في وقت الشدائد وزوال النعم رجاء لمولاهم وحسن ظن به بسبب إيمانهم الموجب لتقيدهم بالشرع ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ أي من أقوال الشكر وأفعاله عند حلول النعم ، فهم دائماً مشغولون بمولاهم شكراً وصبراً ، وهم الذين أتم عليهم سبحانه نعمه ، وخلقهم في أحسن تقويم .

(5/374)

وهم أقل من القليل لعظيم جهادهم لنفوسهم فيما جبلت عليه من الحظوظ والشهوات وغيرها وشياطينهم.

ولما كان كأنه قيل: فما لهم لم يكونوا كذلك! أنتج السياق مدحهم فقال: ﴿أولئك﴾ أي العالو المراتب ﴿لهم مغفرة﴾ إذا وقعت منهم هفوة ﴿وأجر كبير﴾ على صبرهم وشكرهم؛ والذوق: تناول الشيء بالفم لإدراك الطعم كما أن الشم ملابسة الشيء الأنف لإدراك الرائحة؛ والنزع: رفع الشيء عن غيره مما كان مشابكاً له كالقلع والقشط؛ واليأس: القطع بأن الشيء لا يكون، وهو ضد الرجاء، ويؤوس: كثير اليأس، وهو ذم لأنه للجهل بسعة الرحمة الموجبة لقوة الأمل في كل ما يجوز في الحكمة فعله؛ والنعماء: إنعام يظهر أثره على صاحبه، كما أن الضراء مضرة تظهر الحال بها، لأنها أخرجت مخرج الأحوال الظاهرة من حمراء وعوراء مع ما في مفهومها من المبالغة؛ والسيئة: ما يسوء من جهة نفور طبع أو عقل، وهي هنا المرض والفقر ونحوه؛ والفرح: انفتاح القلب بما يلتذ به؛ وعبارة البغوي: هو لذة في القلب بنيل المشتهى وهو أعظم من ملاذ الحواس؛ والفخر: التطاول بتعديد المناقب؛ والصبر: حبس النفس عن المشتهى من المحارم ونحوها، والصبر على مر الحق يؤدي إلى الفوز في الآخرة مع ما فيه من جمال في الدنيا؛ والكبير واحد يقصر مقدار غيره عنه؛ والكثير: جمع يزيد على عدد غيره. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 3 صـ 508.507﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أن عذاب أولئك الكفار وإن تأخر إلا أنه لا بد وأن يحيق بهم ، ذكر بعده ما يدل على كفرهم ، وعلى كونهم مستحقين لذلك العذاب .

فقال : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

لفظ ﴿ الإنسان ﴾ في هذه الآية فيه قولان :

القول الأول : أن المراد منه مطلق الإنسان ويدل عليه وجوه : الأول : أنه تعالى استثنى منه قوله : ﴿ إِلَّا الذين صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل ، فثبت أن الإنسان المذكور في هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر ، وذلك يدل على ما قلناه .

الثاني : أن هذه الآية موافقة على هذا التقرير لقوله تعالى : ﴿ والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى

خُسْرٍ * إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [العصر : 1 3] وموافقة أيضاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً ﴾ [المعارج : 19 21] الثالث : أن مزاج الإنسان مجبول على الضعف والعجز .

قال ابن جريج في تفسير هذه الآية يا ابن آدم إذا نزلت لك نعمة من الله فأنت كفور ، فإذا نزعت منك فيؤس قنوط .

والقول الثاني : أن المراد منه الكافر ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن الأصل في المفرد المحلى بالألف واللام أن يحمل على المعهود السابق لولا المانع ، وههنا لا مانع فوجب حمله عليه والمعهود السابق هو الكافر المذكور في الآية المتقدمة .

(7/374)

الثاني : أن الصفات المذكورة للإنسان في هذه الآية لا تليق إلا بالكافر لأنه وصفه بكونه يؤساً ، وذلك من صفات الكافر لقوله تعالى : ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القووم الكافرون ﴾ [يوسف : 87] ووصفه أيضاً بكونه كفوراً ، وهو تصريح بالكفر ووصفه أيضاً بأنه عند وجدان الراحة يقول : ﴿ ذهب السيئات عني ﴾ [هود : 10] وذلك جراءة على الله تعالى ، ووصفه أيضاً بكونه فرحاً ﴿ والله لاَ يُحِبُّ الفرحين ﴾ [القصص

: 76] ووصفه أيضاً بكونه فخوراً ، وذلك ليس من صفات أهل الدين .

ثم قال الناظرون لهذا القول : وجب أن يحمل الاستثناء المذكور في هذه الآية على الاستثناء المنقطع حتى لا تلزمنا هذه المحذورات .

المسألة الثانية :

لفظ الإذاقة والذوق يفيد أقل ما يوجد به الطعم ، فكان المراد أن الإنسان بوجدان أقل القليل من الخيرات العاجلة يقع في التمرد والطغيان ، وبإدراك أقل القليل من المحنة والبلية يقع في اليأس والقنوط والكفران فالدنيا في نفسها قليلة ، والحاصل منها للإنسان الواحد قليل ، والإذاقة من ذلك المقدار خير قليل ثم إنه في سرعة الزوال يشبه أحلام النائمين وخيالات الموسوسين ، فهذه الإذاقة من قليل ، ومع ذلك فإن الإنسان لا طاقة له بتحملها ولا صبر له على الإتيان بالطريق الحسن معها .

وأما النعماء فقال الواحدي : إنها إنعام يظهر أثره على صاحبه ، والضراء مضرة يظهر أثرها على صاحبها ، لأنها خرجت مخرج الأحوال الظاهرة نحو حمراء وعوراء ، وهذا هو الفرق بين النعمة والنعماء ، والمضرة والضراء .

المسألة الثالثة :

اعلم أن أحوال الدنيا غير باقية ، بل هي أبداً في التغير والزوال ، والتحول والانتقال ، إلا أن

الضابط فيه أنه إما أن يتحول من النعمة إلى المحنة ، ومن اللذات إلى الآفات وإما أن يكون بالعكس من ذلك ، وهو أن ينتقل من المكروه إلى المحبوب ، ومن المحرمات إلى الطيبات .

(8/374)

أما القسم الأول : فهو المراد من قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ وحاصل الكلام أنه تعالى حكم على هذا الإنسان بأنه يؤس كفور .

وتقريره أن يقال : أنه حال زوال تلك النعمة يصير يؤساً ، وذلك لأن الكافر يعتقد أن السبب في حصول تلك النعمة سبب اتفاقي ، ثم إنه يستبعد حدوث ذلك الاتفاق مرة أخرى فلا جرم يستبعد عود تلك النعمة فيقع في اليأس .

وأما المسلم الذي يعتقد أن تلك النعمة إنما حصلت من الله تعالى وفضله وإحسانه وطوله فإنه لا يحصل له اليأس ، بل يقول لعله تعالى يردها إلى بعد ذلك أكمل وأحسن وأفضل مما كانت ، وأما حال كون تلك النعمة حاصلة فإنه يكون كفوراً لأنه لما اعتقد أن حصولها إنما كان على سبيل الاتفاق أو بسبب أن الإنسان حصلها بسبب جده وجهده ، فحينئذ لا يشتغل بشكر الله تعالى على تلك النعمة .

فالحاصل أن الكافر يكون عند زوال تلك النعمة يؤوساً وعند حصولها يكون كفوراً .

وأما القسم الثاني : وهو أن ينتقل الإنسان من المكروه إلى المحبوب ، ومن المحنة إلى النعمة ، فههنا الكافر يكون فرحاً فخوراً .

أما قوة الفرح فلأن منتهى طمع الكافر هو الفوز بهذه السعادات الدنيوية وهو منكر للسعادات الأخروية الروحانية ، فإذا وجد الدنيا فكأنه قد فاز بغاية السعادات فلا جرم يعظم فرحه بها ، وأما كونه فخوراً فلأنه لما كان الفوز بسائر المطلوب نهاية السعادة لا جرم يفتخر به ، فحاصل الكلام أنه تعالى بين أن الكافر عند البلاء لا يكون من الصابرين ، وعند الفوز بالنعماء لا يكون من الشاكرين .

ثم لما قرر ذلك قال : ﴿ إِلَّا الذين صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ والمراد منه ضد ما تقدم فقوله : ﴿ إِلَّا الذين صَبَرُواْ ﴾ المراد منه أن يكون عند البلاء من الصابرين ، وقوله : ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ المراد منه أن يكون عند الراحة والخير من الشاكرين .

(9/374)

ثم بين حالهم فقال : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ فجمع لهم بين هذين المطلوبين .

أحدهما : زوال العقاب والخلاص منه وهو المراد من قوله : ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ والثاني : الفوز بالثواب وهو المراد من قوله : ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ومن وقف على هذا التفصيل الذي ذكرناه

علم أن هذا الكتاب الكريم كما أنه معجز بحسب ألفاظه فهو أيضاً معجز بحسب معانيه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 152 . 154 ﴾

(10/374)

وقال ابن الجوزى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ ولئن أذقنا الإِنسان منا رحمة ﴾

اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في الوليد بن المغيرة ، قاله ابن عباس .

والثاني : في عبد الله بن أبي أمية المخزومي ، ذكره الواحدي .

والثالث : أن الإِنسان هاهنا اسم جنس ، والمعنى : ولئن أذقنا الناس ، قاله الزجاج .

والمراد بالرحمة : النعمة ، من العافية ، والمال ، والولد .

واليؤوس : القنوط ، قال أبو عبيدة : هو فعول من يئستُ .

قال مقاتل : إِنه ليؤوس عند الشدة من الخير ، كفور لله في نعمه في الرخاء .

قوله تعالى : ﴿ ولئن أذقناه نَعماء ﴾

قال ابن عباس : صحة وسَعة في الرزق .

﴿ بعد ضراء مَسَّتْهُ ﴾ بعد مرض وفقر .

﴿ ليقولَنَّ ذهب السيئات عني ﴾ يريد الضر والفقر .

﴿ إنه لَفَرِحٌ ﴾ أي : بَطِرٌ .

﴿ فخور ﴾ قال ابن عباس : يفاخر أوليائي بما أوسعت عليه .

فإن قيل : ما وجه عيب الإنسان في قوله : ﴿ ذهب السيئات عني ﴾ ، وما وجه ذمه على الفرح ، وقد وصف الله الشهداء فقال : ﴿ فرحين ﴾ ؟

فقد أجاب عنه ابن الأنباري ، فقال : إنما عابه بقوله : ﴿ ذهب السيئات عني ﴾ لأنه لم يعترف بنعمة الله ، ولم يحمَده على ما صُرف عنه .

وإنما ذمه بهذا الفرح ، لأنه يرجع إلى معنى المرح والتكبُّر عن طاعة الله ، قال الشاعر :

ولا يُنْسينيَ الحَدَثَانُ عِرْضِي . . .

ولا أُلْقِي من الفَرَحِ الإزارا

يعني من المرح .

وفرح الشهداءِ فرحٌ لا كِبْر فيه ولا خُيلاء ، بل هو مقرون بالشكر فهو مستحسن .

قوله تعالى : ﴿ إلا الذين صبروا ﴾

قال الفراء : هذا الاستثناء من الانسان ، لأنه في معنى الناس ، كقوله : ﴿ إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا ﴾ [العصر : 2 ، 3] .

وقال الزجاج: هذا استثناء ليس من الأول، والمعنى: لكنِ الذين صبروا.

قال ابن عباس: الوصف الأول للكافر، والذين صبروا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(11/374)

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ﴾

الإنسان اسم شائع للجنس في جميع الكفار.

ويقال: إن الإنسان هنا الوليد بن المغيرة وفيه نزلت.

وقيل: في عبد الله بن أبي أميّة المخزوميّ.

"رَحْمَةً" أي نعمة.

﴿ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ﴾ أي سلبناه إياها.

﴿ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ ﴾ أي يائس من الرحمة.

﴿ كَفُورٌ ﴾ للنعم جاحد لها؛ قاله ابن الأعرابي.

النحاس: ﴿ لَيَؤُوسٌ ﴾ من يَئِس، يَيْأَس، وحكى سيبويه يَئِس يَيْأَس على فَعِل يفعِل،

ونظيره حَسِب يَحْسِب ونَعِم يَنْعِم ، ويَأَس ييئس ؛ وبعضهم يقول : يَئِس يَيْئِسُ ؛ ولا يعرف في الكلام (العربي) إلا هذه الأربعة الأحرف من السالم جاءت على فَعِل يفعِل ؛ وفي واحد منها اختلاف .

وهو يَئِسٌ و "يَؤُوسٌ" على التكثير كفخور للمبالغة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ ﴾ أي صحة ورخاء وسعة في الرزق .

﴿ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾ أي بعد ضُرٍّ وفقر وشدّة .

﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السيئات عني ﴾ أي الخطايا التي تسوء صاحبها من الضُّرّ والفقر .

﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ أي يفرح ويفخر بما ناله من السَّعَة وينسى شكر الله عليه ؛ يقال : رجل فاخر إذا افتخر وفخور للمبالغة قال يعقوب القارىء : وقرأ بعض أهل المدينة "لَفَرُحٌ" بضم الراء كما يقال : رجل فَطُنٌ وحَذُرٌ ونَدُسٌ .

ويجوز في كلتا اللغتين الإسكان لثقل الضمة والكسرة .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الذين صَبَرُواْ ﴾ يعني المؤمنين ، مدحهم بالصبر على الشدائد .

وهو في موضع نصب .

قال الأخفش : هو استثناء ليس من الأوّل ؛ أي لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات في حالتي النعمة والمحنة .

وقال الفرّاء : هو استثناء من ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ ﴾ أي من الإنسان ، فإن الإنسان بمعنى

الناس ، والناس يشمل الكافر والمؤمن ؛ فهو استثناء متصل وهو حسن .

﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ ﴾ ابتداء وخبر .

﴿ وَأَجْرٌ ﴾ معطوف .

﴿ كَبِيرٌ ﴾ صفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(12/374)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ﴾

يعني : رخاء وسعة في الرزق والعيش وبسطنا عليه من الدنيا ﴿ ثم نزعناها منه ﴾ يعني سلبناه ذلك كله وأصابته المصائب فاجتاحته وذهبت به ﴿ إنه ليؤوس كفور ﴾ يعني يظل قانطاً من رحمة الله آيساً من كل خير كفور أي جحود لنعمتنا عليه أولاً قليل الشكر لربه قال بعضهم : يا ابن آدم إذا كانت بك نعمة من الله من أمن وسعة وعافية فاشكرها ولا تجحدها فإن نزعت عنك فينبغي لك أن تصبر ولا تيأس من رحمة الله فإنه العواد على عباده بالخير وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ﴾ يعني ولئن نحن أنعمنا على الإنسان وبسطنا عليه من العيش ﴿ ليقولن ﴾ يعني الذي أصابه

الخير والسعة ﴿ ذهب السيئات عني ﴾ يعني ذهب الشدائد والعسر والضيق وإنما قال ذلك غرة بالله وجرأة عليه لأنه لم يضف الأشياء كلها إلى الله وإنما أضافها إلى العوائد فهلذا ذمه الله تعالى فقال ﴿ إنه لفرح فخور ﴾ أي إنه أشر بطر والفرح لذة تحصل في القلب بنيل المراد والمشتهى والفخر هو التطاول على الناس بتعديد المناقب وذلك منهي عنه ثم استثنى فقال تبارك وتعالى : ﴿ إلا الذين صبروا ، وعملوا الصالحات ﴾ قال الفراء : هذا استثناء منقطع معناه لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فإنهم ليسوا كذلك فإنهم إن نالتهم شدة صبروا وإن نالتهم نعمة شكروا عليها ﴿ أولئك ﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿ لهم مغفرة ﴾ يعني لذنوبهم ﴿ وأجر كبير ﴾ يعني الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(13/374)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾

لما ذكر تعالى عذاب الكفار وإنْ تأخر لا بد أن يحيق بهم ، ذكر ما يدل على كفرهم وكونهم مستحقين العذاب لما جبلوا عليه من كفر نعماء الله ، وما يترتب على إحسانه تعالى إليهم مما

لا يليق بهم من فخرهم على عباد الله .

والظاهر أنّ الإنسان هنا هو جنس ، والمعنى : إنَّ هذا الخلق في سجايا الناس ، ثم استثنى منهم الذين ردّتهم الشرائع والإيمان إلى الصبر والعمل الصالح ، ولذلك جاء الاستثناء منه في قوله : إلا الذين صبروا متصلاً .

وقيل : المراد هنا بالإنسان الكافر .

وقيل : المراد به إنسان معين ، فقال ابن عباس : هو الوليد بن المغيرة ، وفيه نزلت .

وقيل : عبد الله بن أمية المخزومي ، وذكره الواحدي ، وعلى هذين القولين يكون استثناء منقطعاً ومعنى رحمة : نعمة من صحة ، وأمن وجدة ، ثم نزعناها أي سلبناها منه .

ويؤوس كفور ، صفتا مبالغة والمعنى : إنه شديد اليأس كثيره ، ييأس أنْ يعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة ، ويقطع رجاءه من فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه .

كفور كثير الكفران ، لما سلف لله عليه من نعمة ذكر حالة الإنسان إذ بدىء بالنعمة ولم يسبقه الضر ، ثم ذكر حاله إذا جاءته النعمة بعد الضر .

ومعنى ذهب السيئات أي : المصائب التي تسوءني .

وقوله هذا يقتضي نظراً وجهلاً ، لأن ذلك بإنعام من الله ، وهو يعتقد أنّ ذلك اتفاق أو بعد ، وهو اعتقاد فاسد .

إنه لفرح أشر بطر ، وهذا الفرح مطلق ، فلذلك ذم المتصف به ، ولم يأت في القرآن للمدح إلا

مقيداً بما فيه خير كقوله : ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ وقرأ الجمهور : لفرح بكسر الراء ، وهي قياس اسم الفاعل من فعل اللازم .

وقرأت فرقة : لفرح بضم الراء ، وهي كما تقول : ندس ، ونطس .

(14/374)

وفخره هو تعاظمه على الناس بما أصابه من النعماء ، واستثنى تعالى الصابرين يعني على الضراء وعاملي الصالحات .

ومنها الشكر على النعماء .

أولئك لهم مغفرة لذنوبهم يقتضي زوال العقاب والخلاص منه ، وأجر كبير هو الجنة ، فيقتضي الفوز بالثواب .

ووصف الأجر بقوله : كبير ، لما احتوى عليه من النعيم السرمدي ورفع التكاليف ، والأمن العذاب ، ورضا الله عنهم ، والنظر إلى وجهه الكريم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(15/374)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسانَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾

أي أعطيناه نعمةً من صحة وأمْنٍ وجِدَةٍ وغيرها وأوصلناها إليه بحيث يجد لذّتها ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ﴾ أي سلبناه إياها ، وإيرادُ النزعِ للإشعار بشدة تعلُّقِه بها وحِرْصِه عليها ﴿ أَنَّهُ ﴾ شديدُ القنوطِ من رَوْحِ الله قَطوعٌ رجاءَه من عَود أمثالِها عاجلاً أو آجلاً بفضل الله تعالى لقلة صبرِه وعدمِ توكلِه عليه وثقتِه به ﴿ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ عظيمُ الكُفرانِ لما سلف من النعم ، وفيه إشارةٌ إلى أنّ النزْعَ إنما كان بسبب كفرانِهم بما كانوا يتقلّبون فيه من نعم الله عز وجل ، وتأخيره عن وصف يأسِهم مع تقدمه عليه لرعاية الفواصلِ على أن اليأسَ من فضل الله سبحانه وقطعَ الرجاءِ عن إفاضة أمثالِه في العاجل وإيصالِ أجرِه في الآجل من باب الكُفران للنعمة السالفة أيضاً .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ ﴾

(16/374)

كصِحّة بعد سَقَم وجِدَةٍ بعد عدمٍ وفرجٍ بعد شدة ، وفي التعبير عن ملابسة الرحمةِ والنعماءِ بالذوق المُؤْذِنِ بلذتهما وكونِهما مما يُرْغب فيه ، وعن ملابسة الضراءِ بالمسّ المُشْعِرِ بكونها في أدنى ما ينطلق عليه اسمُ الملاقاة من مراتبها ، وإسنادُ الأولِ إلى الله عز وجل دون الثاني ، ما لا يخفى من الجزالة والدِلالةِ على أن مرادَه تعالى إنما هو إيصالُ الخير المرغوبِ فيه على أحسن ما يكون ، وأنه إنما يريد بعباده اليُسرَ دون العسرِ وإنما ينالهم ذلك بسوء اختيارِهم نيلاً يسيراً كأنما يلاصقُ البشرةَ من غير تأثيرٍ ، وأما نزعُ الرحمةِ فإنما صدرَ عنه بقضية الحِكمةِ الداعية إلى ذلك وهي كفرانُهم بها كما سبق ، وتنكيرُ الرحمة باعتبار لحُوقِ النزْعِ بها ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السيئات عَنّي ﴾ أي المصائبُ التي تسوءني ولن يعترِيَني بعدُ أمثالُها كما هو شأنُ أولئك الأشرارِ ، فإن الترقّبَ لورود أمثالِها مما يكدّر السرورَ وينغّص العيش ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ ﴾ بطِرٌ وأشِرٌ بالنعم مغترٌّ بها ﴿ فَخُورٌ ﴾ على الناس بما أوتيَ من النعم مشغولٌ بذلك عن القيام بحقها ، واللامُ في لئن في الآيات الأربعِ موطّئةٌ للقسم ، وجوابُه سادٌّ مسدَّ جوابِ الشرط .

(17/374)

﴿ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ ﴾ على ما أصابهم من الضراء سابقاً أو لاحقاً إيماناً بالله واستسلاماً لقضائه ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ شكراً على آلائه السالفةِ والآنفةِ ، واللامُ في الإنسان إما لاستغراق الجنسِ فالاستثناءُ متصلٌ أو للعهد فمُنقطعٌ ﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبار اتّصافِه بما في حيز الصلة ، وما فيه من معنى البُعد للإيذان بعلوّ درجتِهم وبُعدِ منزلتهم في الفضل أي أولئك الموصوفون بتلك الصفاتِ الحميدة ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ عظيمةٌ لذنوبهم وإن جمّت ﴿ وَأَجْرٌ ﴾ ثوابٌ لأعمالهم الحسنة ﴿ كَبِيرٌ ﴾ ووجهُ تعلّقِ الآياتِ الثلاثِ بما قبلهن من حيث إن إذاقةَ النَّعماءِ ومِساسَ الضّراءِ فصلٌ من باب الابتلاءِ واقعٌ موقعَ التفصيلِ من الإجمال الواقعِ في قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ والمعنى أن كلاًّ من إذاقة النَّعماءِ ونزعِها مع كونه ابتلاءً للإنسان أيشكُر أم يكفُر لا يهتدي إلى سنن الصواب بل يحَيد في كلتا الحالتين عنه إلى مهاوي الضلالِ فلا يَظهرُ منه حسنُ عملٍ إلا من الصابرين الصالحين أو من حيث إن إنكارَهم بالبعث واستهزاءَهم بالعذاب بسبب بطرِهم وفخرِهم كأنه قيل : إنما فعلوا ما فعلوا لأن طبيعةَ الإنسانِ مجبولةٌ على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(18/374)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ﴾

أي أعطيناه نعمة من صحة . وأمن . وجدة .

وغيرها وأوصلناها إليه بحيث يجد لذتها فالاذاقة مجاز عن هذا الإعطاء ﴿ ثُمَّ ﴾ أي سلبنا تلك الرحمة ﴿ الكتاب مِنْهُ ﴾ صلة النزع ، والتعبير به للاشعار بشدة تعلقه بها وحرصه عليه ﴿ أَنَّهُ ﴾ شديد اليأس كثيره قطوع رجاءه من عود مثل تلك النعمة عاجلاً أو آجلاً بفضل الله تعالى لعدم صبره وتوكله عليه سبحانه وثقته به .

﴿ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ كثير الكفران لما سلف لله تعالى عليه من النعم ، وتأخير هذا الوصف عن وصف يأسهم لرعاية الفواصل على أن اليأس من باب الكفران للنعمة السالفة أيضاً .

﴿ وَلَئِنْ أذقناه نَعْمَاء ﴾ كصحة .

وأمن .

(19/374)

وجدة ﴿ بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ ﴾ كسقم وخوف وعدم ، وفي إسناد الإذاقة إليه تعالى دون المس إشعار بأن إذاقة النعمة مقصودة بالذات دون مس الضر بل هو مقصود بالعرض ،

ومن هنا قال بعضهم : إنه ينبغي أن تجعل من في قوله سبحانه : ﴿ مِنْهُ ﴾ [هود : 9] للتعليل أي نزعناها من أجل شؤمه وسوء صنيعه وقبح فعله ليكون منا ، و ﴿ مِنْهُ ﴾ مشيراً إلى هذا المعنى ومنطبقاً عليه كما قال سبحانه : ﴿ مَّا أصابك مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَمَا أصابك مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء : 79] ولا يخفى أن تفسير ﴿ مِنْهُ ﴾ بذلك خلاف الظاهر المتبادر ولا ضرورة تدعو إليه ، وإنما لم يؤت ببيان تحول النعمة إلى الشدة وبيان العكس على طرز واحد بل خولف التعبير فيهما حيث بدىء في الأول باعطاء النعمة وإيصال الرحمة ولم يبدأ في الثاني بإيصال الضر على نمطه تنبيهاً على سبق الرحمة على الغضب واعتناءاً بشأنها ، وفي التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن على ما قيل بلذتهما وكونهما مما يرغب فيه وعن ملابسة الضراء بالمس المشعر بكونها في أدنى ما يطلق عليه اسم اللاقاة من مراتبها من اللطف ما لا يخفى ، ولعله يقوي عظم شأن الرحمة .

وذكر البعض أن في لفظ الإذاقة والمس بناءاً على أن الذوق ما يختبر به الطعوم ، والمس أول الوصول تنبيهاً على أن ما يجد الإنسان في الدنيا من المنح والمحن نموذج لما يجده في الآخرة ، وأنه يقع في الكفران والبطر بأدنى شيء ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السيئات عَنّي ﴾ أي المصائب التي تسوؤني ولن يعتريني بعد أمثالها ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ ﴾ بطر بالنعمة مغتر بها ، وأصله فارح إلا

أنه حول لما ترى للمبالغة ، وفي البحر أن فعلا بكسر العين هو قياس اسم الفاعل من فعل اللازم ، وقرىء ﴿ فَرِحَ ﴾ بضم الراء كما تقول : ندس .

(20/374)

ونطس ، وأكثر ما ورد الفرح في القرآن للذم فإذا قصد المدح قيد كقوله سبحانه : ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ [آل عمران : 170] ﴿ فَخُورٌ ﴾ متعاظم على الناس بما أوتي من النعم مشغول بذلك عن القيام بحقها ، واللام في ﴿ لَئِنْ ﴾ في الآيات الأربع موطئة للقسم ، وجوابه سادّ مسدّ جواب الشرط كما في قوله

: لئن عادلي عبد العزيز بمثلها . . .

وأمكنني منها إذن لا أقيلها

﴿ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ ﴾ استثناء من ﴿ الإنسان ﴾ [هود : 9] وهو متصل إن كان أل فيه لاستغراق الجنس ، وهو الذي نقله الطبرسي مخالفاً لابن الخازن عن الفراء ، ومنقطع إن كانت للعهد إشارة إلى الإنسان الكافر مطلقاً ، وعن ابن عباس أن المراد منه كافر معين وهو الوليد بن المغيرة ، وقيل : هو عبد الله بن أمية المخزومي ، وذكره الواحدي ، وحديث الانقطاع على الروايتين متصل ، ونسب غير مقيد بهما إلى الزجاج .

والأخفش ، وأيا مّا كان فالمراد صبروا على ما أصابهم من الضراء سابقاً أو لاحقاً إيماناً بالله تعالى واستلام لقضائه تعالى :

﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ شكراً على نعمه سبحانه السابقة واللاحقة ، قال المدقق في الكشف : لما تضمن اليأس عدم الصبر .

والكفران عدم الشكر كان المستثنى من ذلك ضده ممت اتصف بالصبر والشكر فلما قيل : ﴿ إِلاَّ الذين ﴾ الخ كان بمنزلة إلا الذين صبروا وشكروا وذلك من صفات المؤمن ، فكني بهما عنه فلذا فسره الزمخشري بقوله : إلا الذين آمنوا ، فإن عادتهم إذا أتتهم رحمة أن يشكروا وإذا زالت عنهم نعمة أن يصبروا فلذا حسنت الكناية به عن الإيمان ، ثم عرض بشيخه الطيبي بقوله : وأما دلالة ﴿ صَبَرُواْ ﴾ على أن العمل الصالح شكر لأنه ورد في الأثر الإيمان نصفان : نصف صبر .

(21/374)

ونصف شكر ، ودلالة عملوا على أن الصبر إيمان لأنهما ضميمتان في الأكثر فغير مطابق لما نحن فيه إلا أن يراد وجه آخر كأنه قيل : إلا المؤمن الصالح الصابر الشاكر وهو وجه لكن القول ما قالت حذام لأن الكناية تفيد ذلك مع ما فيها من الحسن والمبالغة ﴿ أولئك ﴾

إشارة إلى الموصول باعتبا اتصافه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البعد لما مر غير مرة أي أولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ عظيمة لذنوبهم ما كانت ﴿ وَأَجْرٌ ﴾ ثواب لأعمالهم الحسنة ﴿ كَبِيرٌ ﴾ وصف بذلك لما احتوى عليه من النعيم السرمدي ورفع التكاليف والأمن من العذاب ورضا الله سبحانه عنهم والنظر إلى وجهه الكريم في جنة عرضها السموات والأرض ، ووجه تعلق الآيات الثلاث بما قبلهن على ما في البحر أنه تعالى لما ذكر أن عذاب الكفار وإن تأخر لا بد أن يحيق بهم ذكر ما يدل على كفرهم وكونهم مستحقين العذاب لما جبلوا عليه من كفر نعماء الله تعالى وما يترتب على إحسانه تعالى إليهم مما لا يليق بهم من البطر والفخر ، قيل : وهو إشارة إلى أن الوجه تضمن الآيات تعليل الحيق ويبعده تعليله بما في حيز الصلة قبل ، واختار بعضهم أنه الاشتراك في الذم فما تضمنه الآيات قبل بيان بعض هناتهم وما تضمنته هذه بيان بعض آخر .

(22/374)

وقال بعض المحققين : إن وجه التعلق من حيث أن إذاقة النعماء ومساس الضراء فصل من باب الابتلاء واقع موقع التفصيل من الإجمال في قوله سبحانه : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود : 7] والمعنى أن كلا من إذاقة النعماء ونزعها مع كونه ابتلاء للإنسان

أيشكر أم يكفر لا يهتدي إلى سنن الصواب بل يحيد في كلتا الحالتين عنه إلى مهاوي الضلال فلا يظهر منه حسن عمل إلا من الصابرين الصالحين ، أو من حيث أن إنكارهم البعث واستهزاءهم بالعذاب بسبب بطرهم وفخرهم كأنه قيل : إنما فعلوا ما فعلوا لأن طبيعة الإنسان مجبولة على ذلك انتهى ، ولا يخفى ما في الأول من البعد .

والثاني أقرب ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(23/374)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ الر ﴾ إشارة إلى ما مرت الإشارة إليه ﴿ الرِكَتَابٌ ﴾ أي حقائقه وأعيانه في العالم الكلي فلا تتبدل ولا تتغير ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ في العالم الجزئي وجعلت مبنية معينة بقدر معلوم ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ ﴾ فلذا أحكمت ﴿ خَبِيرٌ ﴾ [هود : 1] فلذا فصلت ، وقد يقال : الإشارة إلى آيات القرآن قد أحكمت في قلوب العارفين ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ أحكامها على أبدان العاملين ، وقيل : ﴿ أُحْكِمَتْ ﴾ بالكرامات ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ بالبينات ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ ﴾ أي أن لا تشركوا في

عبادته سبحانه وخصصوه عز وجل بالعبادة ﴿ إِنِّى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ ﴾ عقاب الشرك وتبعته ﴿ وَبَشِيرٌ ﴾ [هود : 2] بثواب التوحيد وفائدته ، وقيل : ﴿ نَّذِيرٍ ﴾ بعظائم قهره ﴿ وَبَشِيرٌ ﴾ بلطائف وصله ﴿ وَأَنِ استغفروا رَبَّكُمْ ﴾ اطلبوا منه سبحانه أن يستركم عن النظر إلى الغير حتى أفعالكم وصفاتكم ﴿ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ ارجعوا بالفناء ذاتاً ، وقيل : ﴿ استغفروا رَبَّكُمْ ﴾ من الدعاوي ﴿ وَتُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ من الخطرات المذمومة ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعًا حَسَنًا ﴾ بتوفيقكم لاتباع الشريعة حال البقاء بعد الفناء ، ويقال : المتاع الحسن صفاء الأحوال .

وسناء الأذكار .

وحلاوة الأفكار وتجلي الحقائق .

وظهور اللطائف .

والفرح برضوان الله تعالى وطيب العيش بمشاهدة أنواره سبحانه ، والمتاع كل المتاع مشاهدة المحب حبيبه ، ولله در من قال

: مناي من الدنيا لقاؤك مرة . . .

فإن نلتها استوفيت كل منائيا ﴿ إلى

أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو وقت وفاتكم ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ ﴾ بالسعي والاجتهاد وبذل النفس ﴿ فَضْلِهِ ﴾ في الدرجات والقرب إليه سبحانه ؛ ويقال : ﴿ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ ﴾ في الاستعداد ﴿ فَضْلِهِ ﴾ في الكمال ، وسئل أبو عثمان عن معنى ذلك فقال : يحقق آمال من أحسن به ظنه ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي تعرضوا عن امتثال الأمر والنهي ﴿ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود : 3] وهو يوم الرجوع إلى الله تعالى الذي يظهر فيه عجز ما سواه تعالى ويتبين قبح مخالفة ما أمر به وفظاعة ارتكاب ما نهى عنه ﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ ﴾ يعطفون صدورهم على ما فيها من الصفات المذمومة ﴿ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ﴾ تعالى وذلك لمزيد جهلهم بما يجوز عليه جل شأنه وما لا يجوز

﴿ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [هود : 5] من الأقوال والأفعال وسائر الأحوال ، وقيل : ﴿ مَا يُسِرُّونَ ﴾ من الخطرات ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من النظرات ، وقيل : ﴿ مَا يُسِرُّونَ ﴾ بقلوبهم ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ بأفواههم ، وقيل : مَا يُسِرُّونَ بالليل وَمَا يُعْلِنُونَ بالنهار ، والتعميم أولى ﴿ وَمِنَ الناس مَن جَعَلَ ﴾ ضمير منه للرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد علمت أنه يبعده ظهور أن ضمير ﴿ يَعْلَمْ ﴾ له تعالى لكن ذكر في أسرار القرآن أنه تعالى كسا أنوار جلاله أفئدة الصديقين فيرون بأبصار قلوبهم ما يجري في صدور الخلائق من

المضمرات والخطرات كما يرون الظواهر بالعيون الظاهرة ، وقد جاء "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى" وعلى هذا فيمكن أن يكون ضمير ﴿ يَعْلَمْ ﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام ، وأياً مّا كان فالآية نازلة في غير المؤمنين حسبما يقتضيه الظاهر ، وقد تقدم لك أن الأمر على ما روي عن الحبر رضي الله تعالى عنه مشكل .

(25/374)

وقال بعض أرباب الذوق : إن الآية عليه إشارة إلى أن أولئك الأناس لم يصلوا إلى مقام الجمع ولم يتحققوا بأعلى مراتب التوحيد وفيه خفاء أيضاً فتفطن ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ أي ما تتغذى به شبحاً وروحاً ، ويقال : لكل رزق عليه تعالى بقدر حوصلته فرزق الظاهر للأشباح ، ورزق المشاهدة للأرواح ، ورزق الوصلة للأسرار ؛ ورزق الرهبة للنفوس ، ورزق الرغبة للعقول ، ورزق القربة للقلوب ، وهذا بالنظر إلى الإنسان ، وأما بالنظر إلى سائر الحيوانات فلها أيضاً رزق محسوس .

ورزق معقول يعلمه الله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ [هود : 6] فمستقر الجميع أصلاب العدم ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ أرحام الحدوث ﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ السموات

والأرض ﴾ وما في كل ﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء ﴾ أي كان حياً قيوماً كما قال ابن الكمال .

(26/374)

وقيل : الماء إشارة إلى المادة الهيولانية ، والمعنى ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ ﴾ قبل خلق السموات والأرض بالذات لا بالزمان مستعلياً على المادة فوقها بالرتبة ، وقيل : غير ذلك ، وإن شئت التطبيق على ما في تفاصيل وجودك فالمعنى على ما قيل : خلق سموات قوى الروحانية ، وأرض الجسد في الأشهر الستة التي هي أقل مدة الحمل ، وكان عرشه الذي هو قلب المؤمن على ماء مادة الجسد مستولياً عليه متعلقاً به تعلق التصوير والتدبير ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود : 7] قيل : جعل غاية الخلق ظهور الأعمال أي خلقنا ذلك لنعلم العلم التفصيلي التابع للوجود الذي يترتب عليه الجزاء ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود : 7] ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ﴾ [هود : 9] الخ تضمن الإشارة إلى أنه ينبغي للعبد أن يكون في السراء والضراء واثقاً بربه تعالى متوكلاً عليه غير محتجب عنه برؤية الأسباب لئلا يحصل له اليأس والكفران والبطر والفخر بذلك وجوداً وعدماً ، فإن آتاه رحمة شكره أولاً : برؤية ذلك منه جل شأنه بقلبه .

وثانياً : باستعمال جوارحه في مراضيه وطاعاته والقيام بحقوقه تعالى فيها ، وثالثاً :

بإطلاق لسانه بالحمد والثناء على الله تعالى وبذلك يتحقق الشكر المشار إليه بقوله تعالى :

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور ﴾ [سبأ : 13] وإلى ذلك أشار من قال

: أفادتكم النعماء مني ثلاثة . . .

يدي ولساني والضمير المحجبا

(27/374)

وبالشكر تزداد النعم كما قال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : 7] ، وعن علي كرم الله تعالى وجهه إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر ، ثم إن نزعها منه فليصبر ولا يتهم الله تعالى بشيء فإنه تعالى أبر بالعبد وأرحم وأخبر بمصلحته وأعلم ، ثم إذا أعادها عليه لا ينبغي أن يبطر ويغتر ويفتخر بها على الناس فإن الاغترار والافتخار بما لا يملكه من الجهل بمكان ، وقد أفاد سبحانه أن من سجايا الإنسان في الشدة بعد الرحمة اليأس والكفران وبالنعماء بعد الضراء الفرح والفخر ﴿ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ ﴾ مع الله تعالى في حالتي النعماء والضراء والشدة والرخاء ، فالفقر والغنى مثلاً عندهم مطيتان لا يبالون أيهما امتطوا ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ ما فيه صلاحهم في كل

أحوالهم ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ من ذنوب ظهور النفس باليأس والكفران والفرح والفخر ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود : 11] من ثواب تجليات الأفعال والصفات وجنانهما ، والله تعالى ولي التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(28/374)

وقال القاسمى :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾

أي : نعمة : ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ ﴾ أي : قنوط عن عَوْدِهَا ، قطوع رجاءه من فضله تعالى ، من غير صبر ولا تسليم لقضائه : ﴿ كَفُورٌ ﴾ عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة الله ، كأنه لم ير خيراً .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴾ أي : المصائب التي ساءتني : ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ ﴾ أي : أشر بطر : ﴿ فَخُورٌ ﴾ أي : على الناس بما أذاقه الله من نعمائه ، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر .

(29/374)

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أي : على الضراء ، إيماناً واستسلاماً لقضائه : ﴿ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ أي : في الرخاء والشدة ، شكراً لآلائه ، سابقها ولاحقها : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ أي : لذنوبهم بتلك الشدة : ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ أي : على الصبر والأعمال الصالحة .

تنبيه :

قال القاشاني قدس سره : ينبغي للإنسان أن يكون في الفقر والغنى ، والشدة والرخاء ، والمرض والصحة ، واثقاً بالله ، متوكلاً عليه ، لا يحتجب عنه بوجود نعمة إلا بسعيه وتصرفه في الكسب ، ولا بقوته وقدرته في الطلب ولا بسائر الأسباب والوسائط ؛ لئلا يحصل اليأس عند فقدان تلك الأسباب والكفران والبطر والأشر عند وجودها ، فيبعد بها عن الله تعالى ، وينساه فينساه الله ، بل يرى الإعطاء والمنع منه دون غيره . فإن أتاه رحمة من صحة أو نعمة شكره أولاً برؤية ذلك منه ، وشهود المنعم في صورة النعمة ، وذلك بالقلب ثم بالجوارح ، باستعمالها في مراضيه وطاعته ، والقيام بحقوقه تعالى فيها ، ثم باللسان بالحمد والثناء متيقناً بأنه القادر على سلبها ، محافظاً عليها بشكرها ، مستزيداً إياها ، اعتماداً على قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُم ﴾ [إبراهيم : من الآية 7] .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر . ثم إن نزعها منه فليصبر ولا يتأسف عليها ، عالماً بأنه هو الذي نزع دون غيره ؛ لمصلحة تعود إليه ، فإن الرب تعالى كالوالد المشفق في تربيته إياه ، بل أرأف وأرحم ، فإن الوالد محجوب عما يعلمه تعالى ، إذ لا يرى إلا عاجل مصالحه وظاهرها ، وهو العالم بالغيب والشهادة ، فيعلم ما فيه صلاحه عاجلاً وآجلاً ، راضياً بفعله ، راجياً إعادة أحسن ما نزع منها إليه ، إذ القانط من رحمته بعيد منه ، لا يستوسع رحمته لضيق وعائه ، محجوب عن ربوبيته ، لا يرى عموم فيض رحمته ودوامه . ثم إذا أعادها لم يفرح بوجودها ، كما لم يحزن بفقدانها ، ولا يفخر بها على الناس ، فإن ذلك من الجهل ، وظهور النفس ، وإلا لعلم أن ذلك ليس منه وله ، وبأي سبب يسوغ له فخر بما ليس له ومنه ؟ بل لله ومن الله .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ استثناء من (الإنسان) أي : هذا النوع يؤوس كفور ، فرح فخور ، في الحالين ، إلا الذين صبروا مع الله واقفين معه ، في حالة الضراء والنعماء والشدة والرخاء ، كما قال عمر رضي الله عنه : الفقر والغنى مطيتان ، لا أبالي أيهما أمتطي . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 78 . 80 ﴾

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا)

بَيَّنَ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ إِحَاطَةَ عِلْمِهِ إِثْرَ بَيَانِ مَا يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْ عِلْمِهِ بِهِ ، وَبَيَّنَ فِي الَّتِي قَبْلَهَا شُمُولَ قُدْرَتِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَبَيَّنَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى مِنْ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مَا يُهِمُّ النَّاسَ مِنْ آثَارِ قُدْرَتِهِ ، وَمُتَعَلِّقَاتِ عِلْمِهِ ، وَكِتَابَةِ مَقَادِيرِ خَلْقِهِ ، وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِحَيَاتِهِمْ وَشُئُونِهِمْ ، وَفِي الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا خَلْقَهُ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ ، وَمَكَانَ عَرْشِهِ قَبْلَ هَذَا مِنْ مُلْكِهِ ، وَبَلَاءَ الْبَشَرِ خَاصَّةً بِذَلِكَ كُلِّهِ ; لِيُظْهِرَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَبَعْثَهُ إِيَّاهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ لِيَنَالُوا جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ ، وَإِنْكَارَ كُفَّارِهِمْ لِهَذَا ، قَالَ :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) الدَّبُّ وَالدَّبِيبُ : الِانْتِقَالُ الْخَفِيفُ الْبَطِيءُ حَقِيقَةً كَدَبِيبِ الطِّفْلِ وَالشَّيْخِ الْمُسِنِّ وَالْعَقْرَبِ وَالْجَرَادِ ، أَوْ بِالْإِضَافَةِ كَدَبِيبِ الْجَيْشِ ،

أَوْ مَجَازًا كَدَبِيبِ السُّكْرِ وَالسُّمِّ فِي الْجِسْمِ ، وَالدَّابَّةُ : اسْمٌ عَامٌّ يَشْمَلُ كُلَّ نَسَمَةٍ حَيَّةٍ تَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ زَحْفًا أَوْ عَلَى قَوَائِمَ ثِنْتَيْنِ فَأَكْثَرَ ، قَالَ - تَعَالَى - : (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) (24 : 45) أَيْ مِمَّا تَعْلَمُونَ وَمِمَّا لَا تَعْلَمُونَ مِمَّا يَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ ، وَمِمَّا يَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ وَمِمَّا يَسْبَحُ فِي الْبِحَارِ وَالْأَنْهَارِ . وَغَلَبَةُ لَفْظِ الدَّابَّةِ عَلَى مَا يُرْكَبُ مِنَ الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ عُرْفًا لَا لُغَةً . وَرِزْقُ الدَّابَّةِ غِذَاؤُهَا الَّذِي تَعِيشُ بِهِ .

وَالْمَعْنَى : مَا مِنْ دَابَّةٍ مِنْ أَنْوَاعِ الدَّوَابِّ فِي الْأَرْضِ إلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وَأَنْوَاعِهِ ، فَمِنْهَا الْجِنَّةُ الَّتِي لَا تُرَى بِالْأَبْصَارِ ،

(33/374)

وَصِغَارُ الْحَشَرَاتِ وَالْهَوَامِّ ، وَضِخَامُ الْأَجْسَامِ ، وَالْوُسْطَى بَيْنَ الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ ، وَأَغْذِيَةُ كُلِّ نَوْعٍ مُخْتَلِفَةٌ مِنْ نَبَاتِيَّةٍ وَحَيَوَانِيَّةٍ ، وَقَدْ أَعْطَى كُلًّا مِنْهَا خَلْقَهُ الْمُنَاسِبَ لِمَعِيشَتِهِ ، ثُمَّ هَدَاهُ إلَى تَحْصِيلِ غِذَائِهِ بِغَرِيزَتِهِ ، فَمِنْهَا مَا خَلَقَ لَهُ خَرَاطِيمَ يَمُصُّ بِهَا غِذَاءَهُ مِنَ النَّبَاتِ أَوْ دَمَ الْحَيَوَانِ ، وَأَعْطَاهَا مِنَ الْقُوَّةِ مَا إنَّ خُرْطُومَ الْبَعُوضَةِ الدَّقِيقَ لَيَخْتَرِقُ جِلْدَ الْإِنْسَانِ وَمَا هُوَ أَكْثَفُ مِنْهُ مِنْ جُلُودِ الْحَيَوَانِ ، وَمِنْهَا مَا خَلَقَ لَهُ مَنَاقِيرَ تَلْتَقِطُ الْحُبُوبَ ، وَمِنْهَا مَا يَمْضَغُ

النَّبَاتَ بِأَسْنَانِهِ مَضْغًا ، وَمَا يَبْلَعُ الْحَشَرَاتِ وَالطُّيُورَ وَالْأَنْعَامَ بَلْعًا ، وَمَا لَهُ مَخَالِبُ يُمَزِّقُ بِهَا اللُّحُومَ ، وَمَا لَهُ بَرَاثِنُ يَقْتُلُ بِهَا كِبَارَ الْجُسُومِ ، وَتَفْصِيلُ هَذَا لَهُ كُتُبٌ خَاصَّةٌ مِنْ قَدِيمَةٍ وَحَدِيثَةٍ ، وَلِلَّهِ - تَعَالَى - حِكَمٌ فِي خَلْقِهَا وَغِذَائِهَا عَجِيبَةٌ ، فَإِنْ خَفِيَ عَلَيْكَ أَمْرُ تَغَذِّي الْحَيَّاتِ وَالسَّنَانِيرِ وَنَحْوِهَا مِنْ خِشَاشِ الْأَرْضِ وَصِغَارِهَا ، وَتَغَذِّي الْأَفَاعِي الْكُبْرَى وَسِبَاعِ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ مِنْ كِبَارِهَا ، فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُفَكِّرَ فِيهِ مِنْ حِكْمَتِهَا ، أَنَّهُ لَوْلَا ذَلِكَ لَضَاقَتِ الْأَرْضُ ذَرْعًا بِكَثْرَةِ أَحْيَائِهَا ، أَوْ لَأَنْتَنَتْ مِنْ كَثْرَةِ أَمْوَاتِهَا ، وَإِذَا أَرَدْتَ زِيَادَةَ الْعِلْمِ بِهَا وَبِحِكْمَتِهَا فَعَلَيْكَ بِالْمُصَنَّفَاتِ الْمُدَوَّنَةِ فِيهَا ، وَقَدْ فَتَحَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَأَمْثَالُهَا لَكَ أَبْوَابَهَا ، وَأَرْشَدَتْكَ إِلَى

(34/374)

تِطْلَابِهَا .

وَلَا يُشْكِلَنَّ عَلَيْكَ التَّعْبِيرُ عَنْ كَفَالَةِ اللَّهِ لِرِزْقِهَا بِقَوْلِهِ : عَلَى ، وَمَا قِيلَ مِنْ دَلَالَتِهَا عَلَى الْوُجُوبِ مَعَ قَوْلِ الْمُتَكَلِّمِينَ أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ - تَعَالَى - شَيْءٌ ، فَإِنَّ الْمَمْنُوعَ أَنْ يَجِبَ عَلَيْهِ - تَعَالَى - شَيْءٌ بِإِيجَابِ مُوجِبٍ ذِي حُكْمٍ أَوْ سُلْطَانٍ يُطَالِبُهُ بِهِ وَيُحَاسِبُهُ عَلَيْهِ ، فَهَذَا مُحَالٌ عَقْلًا وَشَرْعًا ، وَأَمَّا مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - مِنَ النِّظَامِ وَسُنَنِ التَّدْبِيرِ الْعَامِّ

لِلْمَخْلُوقَاتِ بِمُقْتَضَى عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، وَنَفَّذَهُ بِقُدْرَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ فِي خَلِيقَتِهِ ، فَهُوَ حُكْمُهُ وَقَضَاؤُهُ وَقَدَرُهُ بِسُلْطَانِهِ ، لَا حُكْمَ عَلَيْهِ بِسُلْطَانِ غَيْرِهِ ، وَهُوَ كَمَالٌ مُطْلَقٌ لَا شَائِبَةَ لِلنَّقْصِ فِيهِ .

وَلَا يُشْكِلَنَّ عَلَيْكَ فِيهَا أَيْضًا أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ نَوْعٍ - مِنْ هَذِهِ الدَّوَابِّ حَتَّى الْإِنْسَانِ - أَفْرَادٌ قَدْ تَضِيقُ فِي وُجُوهِهِمْ أَبْوَابُ الرِّزْقِ حَتَّى يَقْضِيَ بَعْضُهُمْ جُوعًا ، فَلَيْسَ مَعْنَاهَا أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَدْ كَفَلَ لِكُلِّ دَابَّةٍ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ أَنْ يَخْلُقَ لَهَا مَا تَغْتَذِي بِهِ ، وَيُوَصِّلَهُ إِلَيْهَا بِمَحْضِ قُدْرَتِهِ ، سَوَاءٌ أَطَلَبَتْهُ بِبَاعِثِ غَرِيزَتِهَا أَوْ مَا يَهْدِيهَا إِلَيْهِ الْعِلْمُ مِنْ أَسْبَابِ

(35/374)

كَسْبِهَا أَمْ لَا ؟ وَإِنَّمَا مَعْنَاهَا مَا فَسَّرْنَاهَا بِهِ مِنْ خَلْقِهِ - تَعَالَى - لِكُلٍّ مِنْهَا الرِّزْقَ الَّذِي تَعِيشُ بِهِ ، وَأَنَّهُ سَخَّرَهُ لَهَا وَهَدَاهَا إِلَى طَلَبِهِ وَتَحْصِيلِهِ ، كَمَا قَالَ : (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (20 : 50) وَبِهَذَا تَعْلَمُ جَهْلَ بَعْضِ الْعِبَادِ وَالشُّعَرَاءِ فِيمَا زَعَمُوهُ مِنْ أَنَّ الْكَسْبَ وَعَدَمَهُ سَوَاءٌ ، كَقَوْلِ بَعْضِ الْخَيَالِيِّينَ الْجَاهِلِينَ ، الْمُتَوَاكِلِينَ غَيْرِ الْمُتَوَكِّلِينَ :

جَرَى قَلَمُ الْقَضَاءِ بِمَا يَكُونُ . . . فَسِيَّانِ التَّحَرُّكُ وَالسُّكُونُ

جُنُونٌ مِنْكَ أَنْ تَسْعَى لِرِزْقٍ . . . وَيُرْزَقُ فِي غِشَاوَتِهِ الْجَنِينُ

فَهَذَا الشَّاعِرُ أَحَقُّ بِصِفَةِ الْجُنُونِ مِمَّنْ يَصِفُهُمْ بِهَا ، فَإِنَّ مَا جَرَى بِهِ الْقَضَاءُ مِنْهُ مَا هُوَ مَجْهُولٌ لِلنَّاسِ ، وَمِنْهُ مَا عُلِمَ نَوْعُهُ بِالتَّجَارِبِ وَالِاخْتِبَارِ ، وَيُعَبَّرُ عَنْهُ بِالنَّوَامِيسِ وَالسُّنَنِ ، وَمِنْهَا أَنَّ الْحَرَكَةَ وَالسُّكُونَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا آثَارٌ ، فَمَا هُمَا سِيَّانِ فِي ذَاتِهِمَا ، وَلَا فِي آثَارِهِمَا وَنَتَائِجِهِمَا ، وَإِنَّ مَا قَضَاهُ وَقَدَّرَهُ مِنْ رِزْقِ الْجَنِينِ فِي غِشَاوَتِهِ بِدَمِ حَيْضِ أُمِّهِ ، غَيْرُ مَا قَضَاهُ وَقَدَّرَهُ مِنْ رِزْقِ مَنْ خَاطَبَهُمْ بِقَوْلِهِ : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) (67 : 15) وَبِغَيْرِهِ مِنْ آيَاتِ التَّسْخِيرِ وَالتَّكْلِيفِ .

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنْ يَسْتَدِلَّ أَحَدُ الْمُفَسِّرِينَ الْأَذْكِيَاءِ عَلَى هَذَا الْجَهْلِ بِأَثَرٍ مَوْضُوعٍ ، وَيُسْتَحْسَنُ فِي مَوْضُوعِهِ خَيَالُ ابْنِ أُذَيْنَةَ الشَّاعِرِ الْمَخْدُوعِ :

(36/374)

لَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا الْإِشْرَافُ مِنْ خُلُقِي . . . أَنَّ الَّذِي هُوَ رِزْقِي سَوْفَ يَأْتِينِي

أَسْعَى إِلَيْهِ فَيُعْيِينِي تَطَلُّبُهُ . . . وَلَوْ أَقَمْتُ أَتَانِي لَا يُعْيِينِي

ثُمَّ يَقُولُ : وَقَدْ صَدَّقَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي ذَلِكَ يَوْمَ وَفَدَ عَلَى هِشَامٍ فَقَرَعَهُ بِقَوْلِهِ هَذَا ، فَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَنَدِمَ هِشَامٌ عَلَى ذَلِكَ وَأَرْسَلَ بِجَائِزَتِهِ إِلَيْهِ ، ثُمَّ أَوْرَدَ (أَيِ الْمُفَسِّرُ) فِي مَعْنَاهُ قَوْلَ مَنِ اعْتَرَفَ بِأَنَّهُ أَلْغَى أَمْرَ الْأَسْبَابِ جِدًّا إِذْ قَالَ :

مَثَلُ الرِّزْقِ الَّذِي تَطْلُبُهُ . . . مَثَلُ الظِّلِّ الَّذِي يَمْشِي مَعَكْ

أَنْتَ لَا تُدْرِكُهُ مُتَّبِعًا . . . وَإِذَا وَلَّيْتَ عَنْهُ تَبِعَكْ

(37/374)

وَقَفَّى عَلَيْهِ - أَعْنِي الْمُفَسِّرَ - بِقَوْلِهِ هُوَ : وَبِالْجُمْلَةِ يَنْبَغِي الْوُثُوقُ بِاللَّهِ وَرَبْطُ الْقَلْبِ بِهِ سُبْحَانَهُ ، فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، اهـ . وَأَقُولُ : إنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ حَقٌّ وُضِعَ مَوْضِعَ الْبَاطِلِ ، وَلَكِنَّ هَذَا الشِّعْرَ أَوْغَلَ فِي الْجَهْلِ الْبَاطِلِ مِمَّا سَبَقَهُ ; فَإِنَّهُ جَعَلَ الْكَلَامَ فِي الرِّزْقِ الْمَطْلُوبِ ، لَا فِي الرِّزْقِ الْمَكْتُوبِ ، وَجَعَلَ اتِّبَاعَهُ بِالسَّعْيِ وَالطَّلَبِ مَانِعًا مِنْ إدْرَاكِهِ ، وَالتَّوَلِّي عَنْهُ بِالْقُعُودِ وَالْكَسَلِ وَالتَّمَنِّي دُونَ الْعَمَلِ مِنَ الضَّرُورَاتِ الْمُقْتَضِيَةِ لِنَيْلِهِ ، فَيَكُونُ تَأْيِيدُ زَعْمِهِ أَوْ تَقْرِيبُهُ بِمَا يَنْبَغِي ، بَلْ بِمَا يَجِبُ مِنَ الْوُثُوقِ بِاللَّهِ وَرَبْطِ الْقَلْبِ بِهِ وَالْإِيمَانِ بِمَشِيئَتِهِ ، مِنْ رَبْطِ الْعِلْمِ بِالْجَهْلِ ، وَتَأْيِيدِ الْبَاطِلِ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ ، فَالثِّقَةُ بِاللَّهِ - تَعَالَى - وَالْإِيمَانُ بِمَشِيئَتِهِ لَا يَصِحَّانِ مَعَ الْجَهْلِ بِمَعْنَاهُمَا وَمَوَاضِعِ تَعَلُّقِهِمَا ، وَقَدْ عُلِمَ بِنُصُوصِ الْقُرْآنِ وَسُنَنِ اللَّهِ - تَعَالَى - فِي الْخَلْقِ وَأَسْبَابِ الرِّزْقِ ، أَنَّ مَشِيئَتَهُ - تَعَالَى - لَا تَكُونُ إلَّا بِمُقْتَضَى سُنَنِهِ فِي ارْتِبَاطِ الْأَسْبَابِ بِالْمُسَبَّبَاتِ وَحِكْمَتِهِ فِيهَا كَمَا فَصَّلْنَاهُ مِرَارًا فِي مَوَاضِعِهِ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ ، وَالْجَهْلُ بِهَذَا مِمَّا أَفْسَدَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ دُنْيَاهُمْ وَدِينَهُمْ ، وَأَضَاعَ

جُلَّ مِلْكِهِمْ ، وَجَعَلَ

جَمَاهِيرَهُمْ عَالَةً عَلَى غَيْرِهِمْ .

(38/374)

(وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا) أَيْ : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا وَيَعْلَمُ اللَّهُ مُسْتَقَرَّهَا حَيْثُ تَسْتَقِرُّ وَتُقِيمُ ، وَمُسْتَوْدَعَهَا حَيْثُ تَكُونُ مُودَعَةً إِلَى حِينٍ ، فَهُوَ يَرْزُقُهَا فِي كُلِّ حَالٍ بِحَسَبِهِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا مَعْنَى الْكَلِمَتَيْنِ فِي اللُّغَةِ وَمَا وَرَدَ فِي تَفْسِيرِهِمَا مِنَ الْآثَارِ فِي تَفْسِيرِ : (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ) (6 : 98) فَرَاجِعْهَا إِنْ شِئْتَ فِي (ص 532 و533 ج 7 ط الْهَيْئَةِ) مِنَ التَّفْسِيرِ ، وَقَدْ لَخَّصَ الْبَيْضَاوِيُّ جُمْلَةَ الْأَقْوَالِ فِي (مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا) كَعَادَتِهِ بِقَوْلِهِ : أَمَاكِنُهَا فِي الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ ، أَوِ الْأَصْلَابِ وَالْأَرْحَامِ ، أَوْ مَسَاكِنُهَا مِنَ الْأَرْضِ حِينَ وُجِدَتْ ، وَمَوْدَعُهَا مِنَ الْمَوَادِّ وَالْمَقَارِّ حِينَ كَانَتْ بَعْدُ بِالْقُوَّةِ (كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) أَيْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الدَّوَابِّ وَأَرْزَاقِهَا وَمُسْتَقَرِّهَا وَمُسْتَوْدَعِهَا ثَابِتٌ مَرْقُومٌ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ وَلَوْحٍ مَحْفُوظٍ ، كَتَبَ اللَّهُ فِيهِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ كُلِّهَا فَهُوَ عِنْدَهُ تَحْتَ الْعَرْشِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ . وَقَدْ بَيَّنَّا مَا وَرَدَ فِي هَذَا الْكِتَابِ مُجْمَلًا فِي تَفْسِيرِ : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ

6 : 38 ثُمَّ مُفَصَّلًا فِي تَفْسِيرِ آيَةِ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ وَهِيَ الْآيَةُ 59 مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ (الْأَنْعَامِ) فَرَاجِعْهَا فِي (ص 381 ج 7 وَمَا بَعْدَهَا ط الْهَيْئَةِ) .

(39/374)

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) مِنْ أَيَّامِ اللهِ - تَعَالَى - فِي الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ وَمَا شَاءَ مِنَ الْأَطْوَارِ ، لَا مِنْ أَيَّامِنَا فِي هَذِهِ الدَّارِ الَّتِي وُجِدَتْ

(40/374)

بِهَذَا الْخَلْقِ لَا قَبْلَهُ ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ تُقَدَّرَ أَيَّامُ اللهِ بِأَيَّامِهَا كَمَا تَوَهَّمَ الْغَافِلُونَ عَنْ هَذَا ، وَمَا يُؤَيِّدُهُ مِنْ قَوْلِهِ : (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) (22 : 47) وَقَوْلُهُ : (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) (70 : 4) وَقَدْ ثَبَتَ فِي عِلْمِ الْهَيْئَةِ الْفَلَكِيَّةِ أَنَّ أَيَّامَ غَيْرِ الْأَرْضِ مِنَ الدَّرَارِيِّ التَّابِعَةِ لِنِظَامِ شَمْسِنَا هَذِهِ تَخْتَلِفُ عَنْ أَيَّامِ هَذِهِ الْأَرْضِ فِي طُولِهَا ، بِحَسَبِ اخْتِلَافِ مَقَادِيرِ أَجْرَامِهَا وَأَبْعَادِهَا وَسُرْعَتِهَا فِي دَوَرَانِهَا ، وَأَنَّ أَيَّامَ التَّكْوِينِ بِخَلْقِهِ مِنَ الدُّخَانِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِالسَّدِيمِ شُمُوسًا مُضِيئَةً ، تَتْبَعُهَا كَوَاكِبُ

مُنِيرَةٌ ، يُقَدَّرُ الْيَوْمُ مِنْهَا بِأُلُوفِ الْأُلُوفِ مِنْ سِنِينَنَا ، بَلْ مِنْ سِنِيِّ سُرْعَةِ النُّورِ أَيْضًا ، وَقَدْ سَبَقَ مِثْلُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ فِي سُورَتَيِ الْأَعْرَافِ 7 : 54 وَيُونُسَ 10 : 3 ، وَذُكِرَ بَعْدَهَا اسْتِوَاءُ الْخَالِقِ – تَعَالَى – عَلَى عَرْشِهِ ، وَتَدْبِيرُهُ لِأَمْرِ مُلْكِهِ . وَأَمَّا هُنَا فَقَالَ بَعْدَهَا فِيهِمَا (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) أَيْ وَكَانَ سَرِيرُ مُلْكِهِ فِي أَثْنَاءِ هَذَا الطَّوْرِ مِنْ خَلْقِ هَذَا الْعَالَمِ أَوْ مِنْ قَبْلِهِ عَلَى الْمَاءِ . وَقَدْ بَيَّنَّا تَفْسِيرَ آيَتَيِ الْأَعْرَافِ وَيُونُسَ الْمُشَارِ إِلَيْهِمَا آنِفًا أَنَّ الْمَعْنَى الْكُلِّيَّ الْمَفْهُومَ مِنَ الْعَرْشِ أَنَّهُ مَرْكَزُ نِظَامِ الْمُلْكِ وَمَصْدَرُ التَّدْبِيرِ لَهُ ، وَأَنَّ الْمُتَبَادِرَ فِي الِاسْتِعْمَالِ اللُّغَوِيِّ

(41/374)

اسْتِعْمَالُهُمْ : اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ بِمَعْنَى مَلَكَ أَوِ اسْتَقَامَ أَمْرُ الْمُلْكِ لَهُ ، وَ : ثُلَّ عَرْشُهُ بِمَعْنَى هَلَكَ وَزَالَ مُلْكُهُ ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ عُرُوشَ مُلُوكِ الْبَشَرِ تَخْتَلِفُ مَادَّةً وَشَكْلًا ، وَهِيَ مِنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ وَصُنْعِ أَيْدِي الْبَشَرِ ، كَذَلِكَ يَخْتَلِفُ النِّظَامُ لِلتَّدْبِيرِ الَّذِي يَصْدُرُ عَنْهَا ، وَهُوَ مِنْ جِنْسِ مَا يَعْلَمُ الْبَشَرُ فِي عَالَمِنَا هَذَا ، فَعَرْشُ مَلِكَةِ سَبَأٍ الْعَرَبِيَّةِ الْعَظِيمِ ، كَانَ أَعْظَمَ مِنْ عَرْشِ سُلَيْمَانَ مَلِكِ إِسْرَائِيلَ ، وَلَكِنَّ تَدْبِيرَهَا وَحُكْمَهَا الشُّورِيَّ (الدِّيمُقْرَاطِيَّ) كَانَ دُونَ حُكْمِهِ الشَّرْعِيِّ الدِّينِيِّ ، وَرُبَّ عَرْشٍ مِنَ الذَّهَبِ ، وَعَرْشٍ مِنَ

الْخَشَبِ ، وَأَمَّا عَرْشُ الرَّحْمَنِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَهُوَ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ الَّذِي لَا نُدْرِكُهُ بِحَوَاسِّنَا ، وَلَا نَسْتَطِيعُ تَصْوِيرَهُ بِأَفْكَارِنَا ، فَأَجْدِرْ بِنَا أَلَّا نَعْلَمَ كُنْهَ اسْتِوَائِهِ عَلَيْهِ ، وَصُدُورَ تَدْبِيرِهِ لِأَمْرِ هَذَا الْمُلْكِ الْعَظِيمِ عَنْهُ ، وَحَسْبُنَا أَنْ نَفْهَمَ الْكِتَابَةَ وَنَسْتَفِيدَ الْعِبْرَةَ ، فَمَا أَجْهَلَ الَّذِينَ تَصَدَّوْا لِتَأْوِيلِ هَذِهِ الْحَقَائِقِ الْغَيْبِيَّةِ بِأَقْيِسَتِهِمْ وَآرَائِهِمُ الْبَشَرِيَّةِ ! وَمَا أَحْسَنَ مَا رُوِيَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وَرَبِيعَةَ ، وَمَالِكٍ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ - مِنْ قَوْلِهِمْ : الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ ، إلَى آخِرِ مَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْأَعْرَافِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) فَنَفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ الَّذِي كَانَ دُونَ هَذَا الْعَرْشِ

(42/374)

مِنْ مَادَّةِ هَذَا الْخَلْقِ قَبْلَ تَكْوِينِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَوْ فِي أَثْنَائِهِ هُوَ هَذَا الْمَاءُ ، الَّذِي أَخْبَرَنَا - عَزَّ وَجَلَّ - أَنَّهُ جَعَلَهُ أَصْلًا لِخَلْقِ جَمِيعِ الْأَحْيَاءِ ، إذْ قَالَ : (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) (21 : 30) الرُّؤْيَةُ هُنَا عِلْمِيَّةٌ ، وَالْمَعْنَى : أَلَمْ يَعْلَمُوا مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمُوهُ مِنْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا مَادَّةً وَاحِدَةً مُتَّصِلَةً لَا فَتْقَ فِيهَا وَلَا انْفِصَالَ - وَهِيَ مَا يُسَمَّى فِي عُرْفِ عُلَمَاءِ الْفَلَكِ بِالسَّدِيمِ وَبِلُغَةِ الْقُرْآنِ بِالدُّخَانِ - فَفَتَقْنَاهُمَا بِفَصْلِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ ، فَكَانَ

مِنْهَا مَا هُوَ سَمَاءٌ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ أَرْضٌ ، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ ، فِي الْمُقَابَلَةِ لِحَيَاةِ الْأَحْيَاءِ ، كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ، وَالْأَمْرُ كَذَلِكَ بِأَنَّ الرَّبَّ الْفَاعِلَ لِهَذَا هُوَ الَّذِي يُعْبَدُ وَحْدَهُ وَلَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ الْخَلْقِ كَبَدْئِهِ ؟

(43/374)

فَيُفْهَمُ مِنْ هَذَا وَذَاكَ أَنَّ الَّذِي كَانَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيَتَنَزَّلُ إِلَيْهِ أَمْرُ التَّدْبِيرِ وَالتَّكْوِينِ مِنْهُ هُوَ الْمَاءُ الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ لِجَمِيعِ الْأَحْيَاءِ ، لَا مَا تَخَيَّلَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ الْفَنِّيِّينَ فِي الْمَاءِ وَالْعَرْشِ ، مِمَّا تَأْبَاهُ اللُّغَةُ وَالْعَقْلُ وَالشَّرْعُ ، وَالْعِبَارَةُ لَيْسَتْ نَصًّا فِي أَنَّ ذَاتَ الْعَرْشِ الْمَخْلُوقِ كَانَ عَلَى مَتْنِ الْمَاءِ كَالسُّفُنِ الَّتِي نَرَاهَا رَاسِيَةً فِيهِ الْآنَ كَمَا قِيلَ ، فَإِنَّ فَائِدَةَ الْإِخْبَارِ بِمِثْلِ هَذَا إِنْ كَانَ وَاقِعًا فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ هُوَ دُونَ فَائِدَةِ مَا ذَكَرْنَا مِنْ مَعْنَى الْعَرْشِ الَّذِي بَيَّنَّاهُ ، وَهُوَ الَّذِي يَزِيدُنَا مَعْرِفَةً بِرَبِّنَا وَبِحُكْمِهِ فِي خَلْقِهِ ، وَهُوَ الَّذِي يَتَّفِقُ مَعَ نَظَرِيَّاتِ عِلْمِ التَّكْوِينِ وَعِلْمِ الْحَيَاةِ وَعِلْمِ الْهَيْئَةِ الْفَلَكِيَّةِ وَمَا ثَبَتَ مِنَ التَّجَارِبِ فِيهَا ، وَيُخَالِفُ أَتَمَّ الْمُخَالَفَةِ مَا كَانَ مَعْرُوفًا عِنْدَ أُمَمِ الْحَضَارَةِ مِنْ قَوَاعِدِ عِلْمِ الْفَلَكِ الْقَدِيمَةِ وَنَظَرِيَّاتِهِ الْمُسَلَّمَةِ . وَبِهَذَا يُعَدُّ مِنْ عَجَائِبِ الْقُرْآنِ ، الَّتِي تَظْهَرُ فِي كُلِّ زَمَانٍ بَعْدَ زَمَانٍ .

ثُمَّ عَلَّلَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – خَلْقَهُ لِمَا ذَكَرَ بِبَعْضِ حِكَمِهِ الْخَاصَّةِ بِالْمُكَلَّفِينَ الْمُخَاطَبِينَ

بِالْقُرْآنِ فَقَالَ :

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) أَيْ لِيَجْعَلَ ذَلِكَ بَلَاءً ، أَيِ اخْتِبَارًا وَامْتِحَانًا لَكُمْ ،

(44/374)

فَيَظْهَرَ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ إِتْقَانًا لِمَا يَعْمَلُهُ ، وَنَفْعًا لَهُ وَلِلنَّاسِ بِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ كُلَّ شَيْءٍ ، وَجَعَلَكُمْ مُسْتَعِدِّينَ لِإِبْرَازِ مَا أَوْدَعَهُ فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْفَوَائِدِ الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ ، وَمِنْ حِكَمِ خَالِقِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ فِيهِ ، وَمُسْتَعِدِّينَ لِلْإِفْسَادِ وَالضَّرَرِ بِهِ ؛ لِيَجْزِيَ كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، وَإِنَّمَا يَتِمُّ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ ، وَقَدْ سَبَقَ لَنَا تَفْصِيلُ هَذَا الْبَلَاءِ فِي تَفْسِيرِ : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ

(45/374)

بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (6 : 165) وَغَيْرِهِ : (وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ) أَيْ وَتَاللَّهِ لَئِنْ قُلْتَ لِلنَّاسِ فِيمَا تُبَلِّغُهُمْ مِنْ وَحْيِ رَبِّهِمْ : إِنَّكُمْ سَتُبْعَثُونَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لِيَجْزِيَكُمْ رَبُّكُمْ بِعَمَلِكُمْ فِيمَا

بَلَاكُمْ بِهِ : (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) (53 : 31) فَإِنَّهُ مَا خَلَقَكُمْ سُدًى ، وَلَا سَخَّرَ لَكُمْ هَذَا الْعَالَمَ وَاسْتَخْلَفَكُمْ فِيهِ عَبَثًا : (لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) أَيْ لَيُجِيبَنَّكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ قَائِلِينَ : مَا هَذَا الَّذِي جِئْتَنَا بِهِ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ لِتُسَخِّرَنَا بِهِ لِطَاعَتِكَ إِلَّا سِحْرٌ بَيِّنٌ ظَاهِرٌ تَسْحَرُ بِهِ الْعُقُولَ ، وَتُسَخِّرُ بِهِ الضَّمَائِرَ وَالْقُلُوبَ ، فَتُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَأَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَعَشِيرَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ، مُعْتَقِدِينَ بِسُلْطَانِ بَلَاغَتِهِ أَنَّهُمْ سَيَمُوتُونَ ثُمَّ يُبْعَثُونَ وَيُجْزَوْنَ بِكُلِّ مَا يَفْعَلُونَ ، (هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ) (23 : 36) .

(عِلَاوَةً فِي آيَاتِ التَّكْوِينِ وَمَا فِيهَا مِنْ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ الْعِلْمِيِّ) :

(46/374)

إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - ذَكَرَ عَرْشَهُ مَعَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي بِضْعِ آيَاتٍ بَيَّنَ فِي كُلٍّ مِنْهَا شَأْنًا مِنْ شُئُونِهِ . فَفِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ذَكَرَ سُنَنَهُ فِي إِغْشَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَطَلَبِهِ طَلَبًا حَثِيثًا ، وَتَسْخِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَهُوَ النِّظَامُ الَّذِي يَجْرِي عَلَيْهِ هَذَا النِّظَامُ الشَّمْسِيُّ بِدَوَرَانِ الْأَرْضِ حَوْلَ شَمْسِهَا ، وَدَوَرَانِ الْقَمَرِ حَوْلَ أَرْضِهِ . وَفِي آيَةِ "يُونُسَ" (3) ذَكَرَ التَّدْبِيرَ الْعَامَّ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى شَفِيعٍ ؛ إِذْ أَمْرُ الشُّفَعَاءِ مَوْقُوفٌ عَلَى إِذْنِهِ ، ثُمَّ وَضَّحَهُ بِآيَةِ :

(جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا) (10 : 5) وَتَقْدِيرُهُ (مَنَازِلَ) وَفِي آيَةِ " هُودٍ " (7) ذِكْرُ مَا لِلْمَاءِ مِنَ الشَّأْنِ فِي خَلْقِ الْأَحْيَاءِ ، وَلِهَذَا الْمَاءِ ثَلَاثَةُ مَظَاهِرَ ، أَوْسَطُهَا السَّائِلُ الَّذِي يَشْرَبُ مِنْهُ الْحَيَوَانُ وَيُسْقَى بِهِ النَّبَاتُ ، وَهُوَ مَا يَكُونُ عَلَيْهِ فِي حَالِ اعْتِدَالِ الْحَرَارَةِ ، فَإِذَا نَقَصَتْ إلَى دَرَجَةٍ مُعَيَّنَةٍ صَارَ ثَلْجًا أَوْ جَلِيدًا ، فَإِذَا ارْتَفَعَتْ صَارَ بُخَارًا ، فَإِذَا كَثُفَ سُمِّيَ ضَبَابًا وَسَدِيمًا ، فَإِذَا خَالَطَهُ غَيْرُهُ سُمِّيَ دُخَانًا . وَفِي آيَةِ " الرَّعْدِ " (2) جَمَعَ بَيْنَ تَسْخِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَتَدْبِيرِ الْأَمْرِ وَتَفْصِيلِ الْآيَاتِ ، وَآيَةُ " طه " (5) ذَكَرَ بَعْدَهَا أَنَّ : (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى) (20 : 6) وَآيَةُ الْفُرْقَانِ (59) ذَكَرَ بَعْدَهَا أَنَّهُ : (جَعَلَ فِي السَّمَاءِ

(47/374)

بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا) (61) فَذِكْرُ الْبُرُوجِ تَفْصِيلٌ لِنِظَامِ الزَّمَانِ ، وَآيَةُ الم السَّجْدَةِ (4) نَفَى فِيهَا أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ أَوْ شَفِيعٌ ، وَقَفَّى عَلَيْهَا بِتَدْبِيرِ الْأَمْرِ مِنَ السَّمَاءِ إلَى الْأَرْضِ يَنْزِلُ مِنْهُ ثُمَّ يَعْرُجُ إلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا نَعُدُّهُ (32 : 5) وَقَالَ فِي آيَةِ الْحَدِيدِ : (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا) (57 : 4) إلَخْ .

وَقَدْ بَيَّنْتُ فِي آخِرِ تَفْسِيرِ آيَةِ الْأَعْرَافِ أَنَّ بَعْضَ الْمُتَكَلِّمِينَ تَكَلَّفُوا تَفْسِيرَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالْكُرْسِيِّ وَالْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَوْ تَأْوِيلَهُنَّ بِالْأَفْلَاكِ التِّسْعَةِ عِنْدَ فَلَاسِفَةِ الْيُونَانِ الْمُخَالِفِ لِلْقُرْآنِ ، وَأَنَّ عِلْمَ الْفَلَكِ الْأُورُبِّيَّ قَدْ نَقَضَ فِي الْقُرُونِ الْأَخِيرَةِ تِلْكَ النَّظَرِيَّاتِ الْخَيَالِيَّةَ ، بِالْأَدِلَّةِ الْعِلْمِيَّةِ مِنْ رِيَاضِيَّةٍ حِسَابِيَّةٍ هَنْدَسِيَّةٍ ، وَمِنْ طَبِيعِيَّةٍ عَمَلِيَّةٍ كَتَحْلِيلِ النُّورِ وَسُرْعَتِهِ وَوَزْنِ الْحَرَارَةِ ، وَأَنَّ مَا ثَبَتَ فِي عِلْمِ الْفَلَكِ الْحَدِيثِ وَمَبَاحِثِ التَّكْوِينِ قَرِيبٌ مِنْ نُصُوصِ الْقُرْآنِ ، كَبُعْدِهِ عَمَّا يُخَالِفُ مِنْ نَظَرِيَّاتِ الْيُونَانِ .

(48/374)

وَأَزِيدُكَ هُنَا أَنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ فِي اصْطِلَاحِ الْهَيْئَةِ الْقَدِيمَةِ هِيَ مَرْكَزُ الْعَالَمِ كُلِّهِ ، وَيُحِيطُ بِهَا فَلَكُ الْقَمَرِ فَهُوَ سَمَاؤُهَا ، وَيُحِيطُ بِهِ فَلَكُ عُطَارِدَ فَأَفْلَاكُ الزُّهْرَةِ فَالشَّمْسِ فَالْمِرِّيخِ فَالْمُشْتَرِي فَزُحَلَ فَفَلَكِ النُّجُومِ كُلِّهَا فَالْفَلَكِ الْأَطْلَسِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ ذَلِكَ ، فَعَلَى هَذَا لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ إِلَّا أَرْضًا وَاحِدَةً فِي قَلْبِ تِسْعِ سَمَاوَاتٍ ، وَالسَّمَاءُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَا سَمَا وَعَلَا ، فَكُلُّ مَا فِي جِهَةِ الْعُلُوِّ فَهُوَ سَمَاءٌ ، وَنَقَلَ الرَّاغِبُ عَنْ بَعْضِهِمْ : كُلُّ سَمَاءٍ بِالْإِضَافَةِ إِلَى دُونِهَا فَسَمَاءٌ ، وَبِالْإِضَافَةِ إِلَى فَوْقِهَا فَأَرْضٌ ، إِلَّا السَّمَاءَ الْعُلْيَا فَإِنَّهَا سَمَاءٌ بِلَا أَرْضٍ ،

وَحُمِلَ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) (65 : 12) وَالسَّبْعُ مِثْلٌ وَالْعَدَدُ لَا مَفْهُومَ لَهُ .

(49/374)

وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْعِلْمَ الْعَصْرِيَّ بِسُنَنِ التَّكْوِينِ الْعَامَّةِ يَرْتَقِي فِي هَذِهِ الْأَجْيَالِ دَرَجَةً بَعْدَ دَرَجَةٍ ، وَأَنَّ بَعْضَ مَا يَنْكَشِفُ مِنْهَا لِلْعُلَمَاءِ مِنَ النَّظَرِيَّاتِ وَالْأُصُولِ قَدْ يَنْقُضُ بَعْضَ مَا سَبَقَهُ مِنْهَا ، وَلَكِنْ لَمْ يَنْقُضْ شَيْءٌ مِنْهَا شَيْئًا مِمَّا ثَبَتَ فِي الْقُرْآنِ ، عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – فَأَصْلُ السَّدِيمِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) (41 : 11) وَأَصْلُ خَلْقِ الْأَحْيَاءِ النَّبَاتِيَّةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الْمَاءِ لَا يَزَالُ كُلٌّ مِنْهُمَا ثَابِتًا عِنْدَ جَمِيعِ الْعُلَمَاءِ .

وَقَدْ عَبَّرَ بِهِ عَنْ مَادَّةِ التَّكْوِينِ الَّتِي هِيَ مَادَّةُ خَرَابِ الْعَالَمِ الَّذِي تَرْجِعُ بِهِ هَذِهِ

(50/374)

الْأَجْرَامُ إِلَى مَادَّتِهَا الْأَصْلِيَّةِ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ 44) (: 10) وَعَبَّرَ عَنْهُ كَذَلِكَ بِالْغَمَامِ فِي قَوْلِهِ : (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا) (25 : 25) وَقَوْلِهِ : (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ) (2 : 210) وَالْغَمَامُ فِي اللُّغَةِ السَّحَابُ الرَّقِيقُ ، فَالدُّخَانُ وَالْغَمَامُ وَالْبُخَارُ وَالسَّدِيمُ كُلُّهَا مَظَاهِرُ لِهَذِهِ الْمَادَّةِ اللَّطِيفَةِ (الْمَاءِ) قَالَ حُكَمَاؤُنَا : الْبُخَارُ جِسْمٌ مُرَكَّبٌ مِنْ أَجْزَاءٍ مَائِيَّةٍ وَهَوَائِيَّةٍ ، وَالدُّخَانُ مُرَكَّبٌ مِنْ أَجْزَاءٍ أَرْضِيَّةٍ وَنَارِيَّةٍ وَهَوَائِيَّةٍ ، وَالْغُبَارُ مُرَكَّبٌ مِنْ أَجْزَاءٍ أَرْضِيَّةٍ وَهَوَائِيَّةٍ ، اهـ . وَأَرَقُّهُ الْهَبَاءُ قَالَ - تَعَالَى - :

(إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا) (56 : 4 - 6) وَيَصِحُّ التَّعْبِيرُ بِالدُّخَانِ عَنِ الْعَنَاصِرِ الْبَسِيطَةِ لِلْبُخَارِ وَالدُّخَّانِ كَالْأَيْدُرُوجِينِ وَهُوَ مُوَلِّدُ الْمَاءِ ، وَالْأُوكْسُجِينِ وَهُوَ مُوَلِّدُ النَّارِ ، وَالِاسْمُ الْعُرْفِيُّ لِجِنْسِ هَذِهِ الْبَسَائِطِ (الْغَازُ) ، وَالسَّدِيمُ فِي اللُّغَةِ : الْغَمَامُ وَالضَّبَابُ وَاخْتَارَهُ عُلَمَاءُ الْفَلَكِ عَلَى الدُّخَانِ وَغَيْرِهِ وَلَا مُشَاحَّةَ فِي الِاصْطِلَاحِ .

(51/374)

وَالْخُلَاصَةُ : أَنَّ التَّنْزِيلَ أَرْشَدَنَا فِي كُلِّ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ التَّكْوِينِ الَّتِي ذَكَرَ فِيهَا عَرْشَهُ الْعَظِيمَ ، إِلَى نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ مَا جَعَلَهُ مَصْدَرًا لَهُ مِنْ سُنَنِ التَّكْوِينِ وَأَنْوَاعِ التَّدْبِيرِ ، وَفِي آيَاتِ التَّكْوِينِ الَّتِي لَمْ يَذْكُرْ فِيهَا الْعَرْشَ أَنْوَاعٌ أُخْرَى مِنْ سُنَنِهِ وَنِعَمِهِ وَحِكَمِهِ ، وَلَمْ تَكُنِ الْعَرَبُ وَلَا شُعُوبُ الْحَضَارَةِ وَالْفُنُونِ تَعْرِفُهَا ، وَمِنْهَا مَا لَمْ يَعْرِفْهُ عُلَمَاءُ الْإِفْرِنْجِ إِلَّا فِي عَصْرِنَا هَذَا .

مِنْ ذَلِكَ أَصْلُ خَلْقِ جَمِيعِ الْأَحْيَاءِ النَّبَاتِيَّةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ بِالتَّوَالُدِ بَيْنَ الْأَزْوَاجِ الْمَنْصُوصِ فِي قَوْلِهِ فِي الْأَرْضِ : (وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (22 : 5) وَقَوْلِهِ : (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (50 : 7) وَقَوْلِهِ : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) (26 : 7) وَقَوْلِهِ : (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) (31 : 10) فَالزَّوْجُ الْبَهِيجُ وَالْكَرِيمُ هُوَ الْمُنْبَتُ الْمُنْتَجُ ، وَالْمُرَادُ بِالْأَزْوَاجِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ كُلِّهَا أَنَّهَا ذَكَرٌ وَأُنْثَى كَمَا قَالَ : (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى) (53 : 45 و46) وَمِثْلُهُ فِي آخِرِ سُورَةِ الْقِيَامَةِ (75 : 36 – 39) .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ آخِرَ مَا انْكَشَفَ لِلْبَشَرِ مِنْ عِلْمِ التَّكْوِينِ فِي هَذَا الْقَرْنِ أَوِ الْمَنْشَأَ

الْأَوَّلِ لِلْخَلْقِ الَّذِي كَانَ قَبْلَ وُجُودِ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَمَا يُسَمَّى بِالْجَمَادِ مِنْ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ ، وَهُوَ اتِّحَادُ ذَرَّاتِهِ الْكَهْرَبَائِيَّةِ الْإِيجَابِيَّةِ بِالسَّلْبِيَّةِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُمَا فِي لُغَةِ الْعِلْمِ (بِالْإِلِكْتِرُونِ وَالْبُرُوتُونِ) فَهَلْ لِهَذَا مِنْ أَصْلٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ؟

قُلْتُ : نَعَمْ ; إِنْ هَذَانِ إِلَّا زَوْجَانِ مُنْتَجَانِ ، وَالْقُرْآنُ لَمْ يَحْصُرْ سُنَّةَ الزَّوْجِيَّةِ فِي النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ بَلْ قَالَ - تَعَالَى - : (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (51 : 49) وَأَبْلَغُ مِنْ هَذَا فِي الْعُمُومِ ، وَأَدْهَشُ لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَالْفُهُومِ ، وَأَعْظَمُ عِبْرَةً لِلْمُسْتَقِلِّينَ فِي الْعُلُومِ ، قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) (36 : 36) فَهُوَ يَشْمَلُ الْكَهْرَبَائِيَّةَ وَغَيْرَهَا مِمَّا عُلِمَ وَمِمَّا قَدْ يُعْلَمُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَأَنَّ هَذَا التَّعْبِيرَ ، لَا يُعْقَلُ صُدُورُهُ إِلَّا عَنْ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ ، وَمَا كَانَ مِثْلُهُ لِيَخْطُرَ بِبَالِ مُحَمَّدٍ الْعَرَبِيِّ الْأُمِّيِّ النَّاشِئِ بَيْنَ الْأُمِّيِّينَ ، وَلَا فِي خَلَدِ أَحَدٍ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ الْعَقْلِيِّينَ وَالطَّبِيعِيِّينَ .

عَلَى أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ مِنْ ذِكْرِ النُّورِ وَالنَّارِ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْخَلْقِ

وَسُنَنِ الْإِبْدَاعِ مَا يَدُلُّ عَلَى هَذِهِ الْكَهْرَبَاءِ دَلَالَةً وَاضِحَةً ، وَأَظْهَرُهُ آيَةُ النُّورِ الْعُظْمَى فِي سُورَتِهِ : (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (24 : 35) وَقَوْلُهُ فِي مَثَلِهِ مِنْهَا : (يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ) (24 : 35) وَفِي عِدَّةِ سُوَرٍ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ (الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ) (55 : 15) أَوْ (مِنْ نَارِ السَّمُومِ) (15 : 27) وَهِيَ مِنْ مَخْلُوقَاتِ الْأَرْضِ ، وَقَدْ كَانَتْ فِي أَحَدِ أَيَّامِهَا كُتْلَةً نَارِيَّةً مُشْتَعِلَةً ، وَرَاجِعْ مَا وَرَدَ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْأَعْرَافِ (7 : 134) فِي رُؤْيَتِهِ - تَعَالَى - .

فَإِنْ قِيلَ : وَلِمَ لَمْ تُذْكَرْ هَذِهِ السُّنَنُ الْعَجِيبَةُ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَتَكُونَ أَظْهَرَ لِلنَّاسِ وَيَكُونَ الْمُؤْمِنُونَ بِهَا أَسْبَقَ إِلَى مَا أَظْهَرَهُ الْعِلْمُ مِنْهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ ؟

قُلْنَا : أَوَّلًا - إِنَّ أُسْلُوبَ الْقُرْآنِ فِي بَيَانِ أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ الْمَقْصُودَةِ لِذَاتِهَا ، هُوَ إِيرَادُهَا فِي آيَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ فِي السُّوَرِ مَمْزُوجَةٍ بِغَيْرِهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمَسَائِلِ وَالْفَوَائِدِ لَا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ ، وَقَدْ بَيَّنَّا حِكْمَةَ هَذَا فِي مَبَاحِثِ الْوَحْيِ الْمُحَمَّدِيِّ مِنْ سُورَةِ "يُونُسَ" الَّتِي صَدَرَتْ فِي كِتَابٍ مُسْتَقِلٍّ .

ثَانِيًا - إِنَّ هَذِهِ السُّنَنَ قَدْ ذُكِرَتْ فِي سِيَاقِ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عَقِيدَتَيِ : التَّوْحِيدِ ، وَالْبَعْثِ ، فَكَانَ الْمُنَاسِبُ أَنْ تُذْكَرَ مَعَهَا فِي مَوَاضِعِهَا .

ثَالِثًا – إِنَّ الْعِلْمَ التَّفْصِيلِيَّ بِهَا لَيْسَ مِنْ مَقَاصِدِ الْوَحْيِ الذَّاتِيَّةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي يَصِلُ إِلَيْهَا الْبَشَرَ بِكَسْبِهِمْ وَبَحْثِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْوَحْيُ مُرْشِدًا لَهُمْ إِلَيْهَا .

رَابِعًا – لَوْ جُمِعَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ عَلَى أَنَّهَا بَيَانٌ تَامٌّ لِجَمِيعِ أَطْوَارِ التَّكْوِينِ لَتَعَذَّرَ فَهْمُهَا قَبْلَ تَحْصِيلِ مُقَدِّمَاتِهِ بِالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ ، وَلَكَانَتْ فِتْنَةً لِبَعْضِ مَنْ فَهِمَهَا بِالْجُمْلَةِ ، وَإِنَّ دَلَالَةَ الْقُرْآنِ عَلَى كُرَوِيَّةِ الْأَرْضِ وَدَوَرَانِهَا وَاضِحَةٌ كَآيَةِ الْأَعْرَافِ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا آنِفًا : (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا) (7 : 54) وَفِي غَيْرِهَا ، وَلَا يَزَالُ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ يَجْهَلُونَهَا .

خَامِسًا – وَلَوْ لَمْ يَعْرِضْ لِلْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الْمَصَائِبِ وَالْفِتَنِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْحَرْبِيَّةِ وَالشِّقَاقِ الدِّينِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ مَا وَقَفَ بِتَرَقِّي الْعِلْمِ وَالْبَحْثِ ، لَسَبَقُوا إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ غَيْرُهُمْ مِنَ الْإِفْرِنْجِ بَعْدَهُمْ بِاتِّبَاعِهِمْ وَالْجَرْيِ عَلَى آثَارِهِمْ ، فَإِنَّ الْمَعَارِفَ الْكَوْنِيَّةَ يَمُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا مَا لَمْ يَعْرِضْ لَهَا مَا يُوقِفُ سَيْرَهَا .

هَذَا ، وَإِنَّ مُؤَلِّفَ هَذَا التَّفْسِيرِ الضَّعِيفَ قَدْ صَرَّحَ فِي مَقْصُورَتِهِ الَّتِي نَظَمَهَا فِي عَهْدِ طَلَبِ الْعِلْمِ بِطَرَابُلُسِ الشَّامِ ، بِسُنَّةِ اللهِ – تَعَالَى – فِي جَعْلِ الْأَزْوَاجِ مَصْدَرَ التَّكْوِينِ الْعَامِّ ، وَأَشَارَ إِلَى شَوَاهِدِ ذَلِكَ مِنَ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ وَمَا يُنَاسِبُهُ مِنْ مُوَلَّدَاتِ الْفِكْرِ وَالْخَيَالِ فَقَالَ :

تَبَارَكَ الْبَارِئُ مُبْدِعُ الْوَرَى . . . بِالْحَقِّ وَالْحِكْمَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنَى

أَحْكَمَ رَبِّي مَا بَرَاهُ فَانْبَرَى . . . مُسْتَحْصِفَ الْمَرِيرِ مَشْدُودَ الْعُرَى

أَنْشَأَ فِي الدُّخَانِ كُلَّ صُورَةٍ . . . فَسَمَكَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ دَحَا

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) الَّذِي . . . أَنْشَأَ مِنْهُ كُلَّ حَيٍّ وَبَرَا

وَخَلَقَ الْأَشْيَاءَ أَزْوَاجًا وَمِنْ . . . ذُرِّيَّةِ الزَّوْجَيْنِ يَذْرُو مَا يَشَا

ثُمَّتَ (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ) . . . بِقَدْرِ اسْتِعْدَادِهِ (ثُمَّ هَدَى)

فَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِقَدَرٍ . . . لَا أُنُفٌ مُبْتَدَأٌ وَلَا سُدَى

فَابْعَثْ رَسُولَ الطَّرْفِ مِنْكَ رَائِدًا . . . يَجُوبُ أَجْوَازَ الْبِحَارِ وَالْفَلَا

وَاسْرِ بِهِ لِلْأُفْقِ فِي مَرَاصِدٍ . . . مِعْرَاجُهَا يُدْنِي إِلَيْكَ مَا نَأَى

وَسَرِّحِ الْفِكْرَ رَبِيئًا ثَانِيًا . . . لِمَسْرَحِ الْأَرْوَاحِ يَسْعَى وَالنُّهَى

حَتَّى إِذَا جَاسَا خِلَالَ الدَّارِ مِنْ . . . حِسٍّ إِلَى نَفْسٍ وَرَوْحٍ وَحِجَا

سَائِلْهُمَا هَلْ ثَمَّ مِنْ تَفَاوُتٍ . . . أَوْ خَلَلٍ فِي الْبَدْءِ كَانَ أَوْ عَرَا

إِنِّي وَتِلْكَ مَظْهَرٌ لِلْحَقِّ فِي . . . صِفَاتِهِ وَمَا تَسَمَّى مَنْ سُمَا

(فَلَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ) أَنْ يَجْرِي بِهَا . . . (أَبْدَعَ مِمَّا كَانَ) قَبْلُ وَجَرَى

(56/374)

(ثُمَّ ارْجِعِ) الطَّرْفَ إِلَيْهَا (يَنْقَلِبْ . . . إِلَيْكَ) خَاسِئًا حَسِيرًا قَدْ عَشَا

يَتْلُ عَلَيْكَ الْآيَ (صُنْعَ اللهِ) مَنْ . . . (أَتْقَنَ كُلَّ) مَا رَأَيْتَ وَتَرَى

ثُمَّتَ يَتْلُ (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ) . . . مِنْ سُنَنِ الْحَكِيمِ فِي هَذَا الْوَرَى

وَأَنَّهُنَّ سُنَنٌ ثَابِتَةٌ . . . مِثْلَ نِظَامِ الشَّمْسِ فَاتْلُ (وَالضُّحَى)

قَامَ بِهِنَّ أَمْرُ كُلِّ عَالَمٍ . . . فِي أَرْضِنَا وَفِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى

مَا ثَمَّ تَبْدِيلٌ وَلَا تَحْوِيلٌ عَنْ . . . شَيْءٍ وَلَا قَوْمٍ فَهُمْ فِيهَا سَوَى

نَاهِيكَ بِالْإِنْسَانِ فِي اجْتِمَاعِهِ . . . طَرْدًا وَعَكْسًا وَأَمَامًا وَوَرَا

يَجْرِي عَلَى حُكْمِ تَنَازُعِ الْبَقَا . . . فِي أَرْجَحِ الْأَمْرَيْنِ نَشْأً وَارْتِقَا

كَرَاسِبِ الْإِبْلِيزِ وَالْإِبْرِيزِ إِذْ . . . يَذْهَبُ طَافِي زَبَدِ الْمَاءِ جُفَا

وَسُنَّةُ النِّتَاجِ بِالزَّوَاجِ بَلْ . . . كُلُّ تَوَلُّدٍ تَرَاهُ فِي الْوَرَى

يَظْهَرُ هَذَا فِي الْمَوَالِيدِ وَفِي الْ . . . جَمَادِ وَالتَّفْكِيرِ رُبَّمَا بَدَا

فَاجْتَلِهِ فِي الْحَيَوَانِ نَاطِقًا . . . وَأَعْجَمًا وَفِي النَّبَاتِ الْمُجْتَنَى

بَلْ كُلُّ ذَرَّةٍ بِجِسْمٍ نَبَتَتْ . . . زَادَ بِهَا الْجِسْمُ امْتِدَادًا وَنَمَى

خَلِيَّةٌ يُقْرَنُ فِي غُضُونِهَا . . . نَوِيَّتَانِ تَنْثَنِي وَهْيَ زَكَا

وَالْكَهْرَبَا زَوْجَانِ إِمَّا اقْتَرَنَا . . . تَأَلَّقَ الْبَرْقُ وَشِيكًا وَخَفَا

كَالزِّنْدِ وَالزِّنْدَةِ إِمَّا ازْدَوَجَا . . . بِالِاقْتِدَاحِ أَنْتَجَا نَارَ الصَّلَى

وَالْمُعْصِرَاتُ عِنْدَمَا أَلْقَحَهَا الثَّـ . . . ـائِبُ جَاءَتْ بِوَلِيدِهَا الْحَيَا

وَلَامَسَ الْبِحَارَ فِي سُكُونِهَا . . . فَاعْتَلَجَ الْآذِيُّ فِيهَا وَطَغَا

وَالْمَاءُ وَالتُّرْبَةُ إِذْ تَقَارَنَا . . . تَوَلَّدَتْ صُمُّ الصُّخُورِ وَالْحَصَى

(57/374)

وَافْتَرَشَ الْأَرْضَ الْحَيَا فَانْفَتَقَتْ . . . عَنْ كُلِّ زَوْجٍ يُرْتَعَى وَيُجْتَنَى

(وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

هَذِهِ الْآيَاتُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ - تَعَالَى - : (وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ) إِلَخْ ، وَهِيَ كُلُّهَا بَيَانٌ لِحَالِ النَّاسِ تِجَاهَ مَا بُلِّغُوهُ مِنْ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ الْحَقِّ مِنْ أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ - وَهُوَ التَّوْحِيدُ - وَبِعْثَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَذِيرًا وَبَشِيرًا وَمَا أُنْذِرَ وَبُشِّرَ بِهِ مِنْ جَزَاءٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَكَمَالِ الْجَزَاءِ فِيهِ ، وَقَدِ اسْتَدَلَّ عَلَى هَذَا بِخَلْقِهِ - تَعَالَى - لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِذْ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ لِجَمِيعِ الْأَحْيَاءِ ، وَعَلَّلَهُ بِاخْتِبَارِ الْمُكَلَّفِينَ بِمَا يَظْهَرُ بِهِ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . بَعْدَ هَذَا بَيَّنَ قُصَارَى مَا يَقُولُهُ الْمُنْكِرُونَ لِلْبَعْثِ مِنْهُمْ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ مَا يَقُولُهُ الْمُنْكِرُونَ لِإِنْذَارِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِيَّاهُمْ عَذَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِتَكْذِيبِهِمْ لَهُ فَقَالَ : (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ) الْآيَةُ شَرْطِيَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ بِالْقَسَمِ ، وَالْمُرَادُ بِالْعَذَابِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ : (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) (3) عَلَى مَا اخْتَرْنَاهُ فِيهِ ، وَالْأُمَّةُ هُنَا : الطَّائِفَةُ أَوِ الْمُدَّةُ مِنَ الزَّمَنِ ، وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ : (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) (12 : 45) وَأَصْلُهَا الْجَمَاعَةُ مِنْ جِنْسٍ أَوْ نَوْعٍ وَاحِدٍ أَوْ دِينٍ وَاحِدٍ أَوْ زَمَنٍ وَاحِدٍ ، وَتُطْلَقُ عَلَى الدِّينِ وَالْمِلَّةِ الْخَاصَّةِ

وَالزَّمَنِ الْخَاصِّ . أَيْ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الزَّمَنِ مَعْدُودَةٍ فِي عِلْمِنَا وَمَحْدُودَةٍ فِي نِظَامِ تَقْدِيرِنَا وَسُنَّتِنَا فِي خَلْقِنَا ، الْمُبَيَّنِ فِي قَوْلِنَا : (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) (13 : 38) أَوْ إِلَى أُمَّةٍ قَلِيلَةٍ مِنَ الزَّمَنِ

تُعَدُّ بِالسَّنَوَاتِ ، أَوْ مَا دُونَهَا مِنَ الشُّهُورِ أَوِ الْأَيَّامِ (لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ) يَعْنُونَ : أَيُّ شَيْءٍ يَمْنَعُ هَذَا الْعَذَابَ مِنَ الْوُقُوعِ إِنْ كَانَ حَقًّا كَمَا يَقُولُ هَذَا النَّذِيرُ ؟ وَإِنَّمَا يَقُولُونَ هَذَا وَيَسْتَعْجِلُونَ بِالْعَذَابِ إِنْكَارًا لَهُ وَاسْتِهْزَاءً بِهِ : (أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ) أَيْ أَلَا إِنَّ لَهُ يَوْمًا يَأْتِيهِمْ فِيهِ إِذْ تَنْتَهِي الْأُمَّةُ الْمَعْدُودَةُ الْمَضْرُوبَةُ دُونَهُ ، وَيَوْمَئِذٍ لَا يَصْرِفُهُ عَنْهُمْ صَارِفٌ وَلَا يَحْبِسُهُ حَابِسٌ . (وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) وَسَيُحِيطُ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ قَبْلَ وُقُوعِهِ ، فَلَا هُوَ يُصْرَفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يَنْجُونَ مِنْهُ ، عَبَّرَ بِـ حَاقَ الْمَاضِي لِلْإِيذَانِ بِتَحْقِيقِ وُقُوعِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ وَقَعَ بِالْفِعْلِ ، وَعَبَّرَ عَنِ الْفَاعِلِ بِـ مَا الْمَوْصُولَةِ بِفِعْلِ الِاسْتِهْزَاءِ الْمُسْتَمِرِّ لِلْإِيذَانِ بِعِلَّتِهِ وَسَبَبِهِ ، وَهَذَا الْمَوْضُوعُ قَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ "يُونُسَ" مُفَصَّلًا فِي الْآيَاتِ (28 ، 45 – 55) وَبَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِهَا حِكْمَةَ إِبْهَامِ هَذَا الْعَذَابِ بِمَا يَحْتَمِلُ عَذَابَ الدُّنْيَا وَعَذَابَ الْآخِرَةِ مَعَ الشَّوَاهِدِ مِنَ السُّوَرِ .

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً) هَذَا وَمَا بَعْدَهُ بَيَانٌ لِحَالِ الْإِنْسَانِ فِي اخْتِبَارِ اللَّهِ لَهُ فِي قَوْلِهِ : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) (7) أَيْ لَئِنْ أَعْطَيْنَاهُ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ النِّعْمَةِ رَحْمَةً مِنَّا مُبْتَدَأَةً أَذَقْنَاهُ لَذَّتَهَا ، فَكَانَ مُغْتَبِطًا بِهَا ، كَالصِّحَّةِ وَالْأَمْنِ وَسَعَةِ الرِّزْقِ وَالْوَلَدِ الْبَارِّ . (ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ) بِمَا يَحْدُثُ مِنَ الْأَسْبَابِ بِمُقْتَضَى سُنَّتِنَا فِي الْخَلْقِ مِنْ مَرَضٍ وَعُسْرٍ وَفِتَنٍ وَمَوْتٍ . (إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ) أَيْ : إِنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ لَشَدِيدُ الْيَأْسِ مِنَ الرَّحْمَةِ ، قَطُوعٌ لِلرَّجَاءِ مِنْ عَوْدَةِ

تِلْكَ النِّعْمَةِ ، كَثِيرُ الْكُفْرَانِ لِغَيْرِهَا مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا يَزَالُ يَتَمَتَّعُ بِهَا ، فَضْلًا عَمَّا سَلَفَ مِنْهَا ، فَهُوَ يَجْمَعُ بَيْنَ الْيَأْسِ مِمَّا نُزِعَ مِنْهُ ، وَالْكُفْرِ بِمَا بَقِيَ لَهُ لِحِرْمَانِهِ مِنْ فَضِيلَتَيِ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ . (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ) النَّعْمَاءُ بِالْفَتْحِ اسْمٌ مِنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ إِنْعَامًا - كَالنِّعْمَةِ بِالْكَسْرِ وَالنُّعْمَى بِالضَّمِّ - وَهِيَ مَا يُقَابَلُ بِالضَّرَّاءِ مِنَ الضُّرِّ الَّذِي يُقَابَلُ بِهِ النَّفْعُ ، وَلَمْ تَرِدِ النَّعْمَاءُ فِي التَّنْزِيلِ إِلَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَهَذِهِ الْإِذَاقَةُ أَخَصُّ

مِمَّا قَبْلَهَا ، وَهِيَ تَتَضَمَّنُ كَشْفَ الضَّرَّاءِ السَّابِقَةِ وَإِحْلَالَ مَا هُوَ ضِدُّهَا مَحَلَّهَا ، كَالشِّفَاءِ مِنَ الْمَرَضِ وَزِيَادَةِ الْعَافِيَةِ وَالْقُوَّةِ السَّابِغَةِ ، وَالْمَخْرَجِ مِنَ الْعُسْرِ وَالْفَقْرِ ، إِلَى سَعَةِ الْغِنَى وَالْيُسْرِ ، وَالنَّجَاةِ مِنَ الْخَوْفِ وَالذُّلِّ ، إِلَى بُحْبُوحَةِ الْمَنَعَةِ وَالْعِزِّ . يَقُولُ تَعَالَى وَلَئِنْ مَنَحْنَا هَذَا الْإِنْسَانَ الْيَئُوسَ الْكَفُورَ : نَعْمَاءَ ، أَذَقْنَاهُ لَذَّتَهَا وَنِعْمَتَهَا ، بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ بِاقْتِرَافِهِ لِأَسْبَابِهَا ، إِثْرَ كَشْفِهَا وَإِزَالَتِهَا (لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي) أَيْ ذَهَبَ مَا كَانَ يَسُوءُنِي مِنَ الْمَصَائِبِ وَالضَّرَّاءِ فَلَنْ تَعُودَ ، فَمَا هِيَ إِلَّا سَحَابَةُ صَيْفٍ تَقَشَّعَتْ فَعَلَيَّ أَنْ أُنْسَاهَا بِالتَّمَتُّعِ بِاللَّذَّاتِ (إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ) أَيْ إِنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَشَدِيدُ الْفَرَحِ وَالْمَرَحِ الَّذِي يُهَيِّجُهُ الْبَطَرُ بِالنِّعْمَةِ ، وَمُبَالِغٌ بِالْفَخْرِ وَالتَّعَالِي عَلَى النَّاسِ وَالِاحْتِقَارِ لِمَنْ دُونَهُ فِيهَا ، فَهُوَ لَا يُقَابِلُهَا بِشُكْرِ اللَّهِ عَلَيْهَا .

رُوِيَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ ، وَقِيلَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُمَيَّةَ الْمَخْزُومِيِّ ، وَالْمُرَادُ أَنَّهَا مُوَافِقَةٌ لِحَالِهِمَا ، وَهِيَ إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي ضِمْنِ السُّورَةِ لِبَيَانِ حَالَةِ النَّاسِ الْعَامَّةِ ، وَلِذَلِكَ اسْتَثْنَى مِنْهَا قَوْلَهُ – تَعَالَى – :

(إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا) هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مِنْ جِنْسِ الْإِنْسَانِ فِيمَا ذَكَرَ مِنْ حَالَيْهِ فِي الْآيَتَيْنِ قَبْلَهُ : الْكُفْرِ بِأَنْعُمِ اللهِ وَالْيَأْسِ مِنْ رَحْمَتِهِ عِنْدَ زَوَالِ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَفَرَحِ الْبَطَرِ وَعَظَمَةِ الْفَخْرِ بِهَا عِنْدَ إِقْبَالِهَا ، يَقُولُ : إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الضَّرَّاءِ إِيمَانًا بِاللهِ وَاحْتِسَابًا لِلْأَجْرِ عِنْدَهُ (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) عِنْدَ كَشْفِهَا وَتَبْدِيلِ النَّعْمَاءِ بِهَا ، مِنْ شُكْرِهِ - تَعَالَى - بِاسْتِعْمَالِ النِّعْمَةِ فِيمَا يُرْضِيهِ - تَعَالَى - مِنْ عَمَلِ الْبِرِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عِبَادَتِهِ وَشُكْرِهِ (أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) وَاسِعَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ تَمْحُو مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَا عَلَقَ بِهَا مِنْ ذَنْبٍ أَوْ تَقْصِيرٍ (وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) فِي الْآخِرَةِ عَلَى مَا وُفِّقُوا لَهُ مِنْ بِرٍّ وَتَشْمِيرٍ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ وَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا بَارًّا لَا يَسْلَمُ فِي الضَّرَّاءِ وَالْمَصَائِبِ مِنْ ضِيقِ صَدْرٍ قَدْ يُنَافِي كَمَالَ الرِّضَى أَوْ يُلَابِسُ بَعْضَ الْوِزْرِ ، وَفِي حَالِ النَّعْمَاءِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الزَّهْوِ وَالتَّقْصِيرِ فِي الشُّكْرِ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يُغْفَرُ لَهُ بِصَبْرِهِ وَشُكْرِهِ وَإِنَابَتِهِ إِلَى رَبِّهِ .

وَيُنَاسِبُ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ سُورَةِ يُونُسَ : (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ

دَعَانَا) (10 : 12) إِلَخْ وَقَوْلُهُ : (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ) (10 : 12) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ (23) فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهُنَّ مَعَ تَفْسِيرِ : قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا 10 : 58

تَعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْمَعَانِيَ الْمُكَرَّرَةَ بِالْأَسَالِيبِ الْمُخْتَلِفَةِ الْبَلِيغَةِ مَا أُنْزِلَتْ إِلَّا لِهِدَايَتِكَ لِمَا تُزَكِّي بِهِ نَفْسَكَ وَتُثَقِّفُ طِبَاعَهَا وَعَادَاتِهَا الضَّارَّةَ ، وَالْجَامِعُ لِلْمُرَادِ هُنَا بِأَخْصَرِ عِبَارَةٍ وَأَبْلَغِهَا ، سُورَةُ : (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) (103 : 1 - 3) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 26.12 ﴾

(64/374)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾

عطف على جملة ﴿ ولئن أخّرْنَا عنهم العذاب إلى أمّة معدُودة ﴾ [هود : 8] .

فإنه لما ذكر أن ما هم فيه متاع إلى أجل معلوم عند الله .

وأنهم بطروا نعمة التمتيع فسخروا بتأخير العذاب ، بيّنت هذه الآية أن أهل الضلالة راسخون في ذلك لأنّهم لا يفكّرون في غير اللّذات الدنيوية فتجري انفعالاتهم على حسب ذلك دون رجاء لتغير الحال ، ولا يتفكرون في أسباب النعيم والبؤس وتصرفات خالق

الناس ومُقدّر أحوالهم ، ولا يتّعظون بتقلبات أحوال الأمم ، فشأن أهل الضلالة أنّهم إن حلّت بهم الضراءُ بعد النعمة ملكهم اليأس من الخير ونَسُوا النعمة فجحدوها وكفروا منعمها ، فإنّ تأخير العذاب رحمةٌ وإتيان العذاب نزع لتلك الرحمة ، وهذه الجملة في قوة التذييل .

فتعريف (الإنسان) تعريف الجنس مراد به الاستغراق ، وبذلك اكتسبت الجملة قوة التذييل .

فمعيار العموم الاستثناء في قوله تعالى : ﴿ إلاّ الذّين صبرُوا وعملُوا الصّالحَات ﴾ [هود : 11] كما يأتي ، فيكون الاستغراق عرفياً جارياً على اصطلاح القرآن من إطلاق لفظ الإنسان أو الناس ، ولأن وصفي ﴿ يؤوس كفور ﴾ يُناسبان المشركين فيتخصص العام بهم .

وقيل التّعريف في ﴿ الإنسان ﴾ للعهد مراد منه إنسان خاص ، فرَوى الواحدي عن ابن عبّاس أنّها نزلت في الوليد بن المغيرة .

وعنه أنّها نزلت في عبد الله بن أبي أميّة المخزومي .

ويجوز أن يكون المراد كلّ إنسان إذا حلّ به مثل ذلك على تفاوت في النّاس في هذا اليأس .

واللاّم موطئة للقسم .

والإذاقة مستعملة في إيصال الإدراك على وجه المجاز ، واختيرت مادة الإذاقة لما تشعر به

من إدراك أمر محبوب لأنّ المرء لا يذوق إلاّ ما يشتهيه .

والرحمة ، أريدَ بها : رحمة الدنيا .

(65/374)

وأطلقت على أثرها وهو النعمة كالصحة والأمن والعافية ، والمراد النعمة السابقة قبل نزول الضر .

والنزع حقيقته : خلع الثوب عن الجسد .

واستعمل هنا في سلب النعمة على طريقة الاستعارة ، ولذلك عدّي بحرف (من) دون (عن) لأنّ المعنى على السلب والافتكاك ، فذكر (من) تجريد للمجاز .

وجملة ﴿ إنه ليؤوس كفور ﴾ جواب القسم ، وجردت من الافتتاح باللاّم استغناء عنها بحرف التوكيد وبلام الابتداء في خبر (إنّ) .

واستغني بجواب القسم عن جواب الشرط المقارن له كما هو شأن الكلام المشتمل على شرط وقسم كما تقدم في قوله : ﴿ ولئن أخّرنا عنهم العذاب ﴾ [هود : 8] إلى آخره .

واليؤوس والكفور مثالا مبالغة في الآيس وكافر النعمة ، أي جاحدها ، والمراد بالكفور : منكر نعمة الله لأنّه تصدُر منه أقوال وخواطر من السخط على ما انتابه كأنّه لم ينعم عليه

قط .

وتأكيد الجملة باللاّم الموطئة للقسم وبحرف التوكيد في جملة جواب القسم لقصد تحقيق مضمونها وأنّه حقيقة ثابتة لا مبالغة فيها ولا تغليب .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾

هذه الجملة تتميم للّتي قبلها لأنها حكت حالة ضدّ الحالة في الّتي قبلها ، وهي جملة قسم وشرط وجواب قسم كما تقدم في نظائرها .

وضمير ﴿ أذقناه ﴾ المنصوب عائد إلى الإنسان فتعريفه كتعريف معاده للاستغراق بالمعنى المتقدم .

والنعماء بفتح النون وبالمد النعمة واختير هذا اللفظ هنا وإن كان لفظ النعمة أشهر لمحسن رعي النظير في زنة اللّفظين النعماء والضراء .

والمراد هنا النعمة الحاصلة بعد الضراء .

والمس مستعمل في مطلق الإصابة على وجه المجاز .

واختيار فعل الإذاقة لما تقدم ، واختيار فعل المس بالنسبة إلى إدراك الضرّاء إيماء إلى أنّ إصابة الضرّاء أخفّ من إصابة النّعماء ، وأن لطف الله شامل لعباده في كلّ حال .

وأكّدَت الجملة باللاّم الموطئة للقَسَم وبنون التّوكيد في جملة جواب القسم لمثل الغرض الذي بيّنّاه في الجملة السابقة .

وجعل جواب القسم القول للإشارة إلى أنّه تبجحٌ وتفاخر ، فالخبر في قوله : ﴿ ذهب السيئات عنّي ﴾ مستعمل في الازدهاء والإعجاب ، وذلك هو مقتضى زيادة ﴿ عنّي ﴾ متعلقاً بـ ﴿ ذهب ﴾ للإشارة إلى اعتقاد كل واحد أنّه حقيق بأن تَذهب عنه السيّئات غروراً منه بنفسه ، كما في قوله : ﴿ ولئن أذقناه رحمةً منّا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمةً ولئن رجعت إلى ربّي إن لي عندَه لَلْحسنى ﴾ [فصلت : 50] .

وجملة ﴿ إنّه لفرح فخور ﴾ استئناف ابتدائي للتعجيب من حاله ، و (فرح وفخور) مثالاَ مبالغة ، أي لشديد الفرح شديد الفخر .

وشدة الفرح : تجاوزه الحد وهو البطر والأشَر ، كما في قوله : ﴿ إنّ اللّهَ لاَ يُحبُّ الْفَرحين ﴾ [القصص : 76] .

والفخر : تباهي المرء على غيره بما له من الأشياء المحبوبة للنّاس .

والمعنى أنّه لا يشكر الله على النعمة بعد البأساء وَمَا كان فيه من الضرّاء فلا يتفكر في وجود خالق الأسباب وَنَاقل الأحوال ، والمخالف بين أسبابها .

وفي معنى الآيتين قولُه في سورة [الشورى : 48] ﴿ وَإِنَّا إذا أذقنا الإنسانَ منّا رحمةً فَرِحَ بهَا وإن تصبهم سيئةٌ بما قدمت أيديهم فإنّ الإنسانَ كفور ﴾ .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

احتراس باستثناء من (الإنسان) .

والمراد بالّذين صبروا المؤمنون بالله لأنّ الصبر من مقارنات الإيمان فَكنيَ بالذين صبروا عن المؤمنين فإنّ الإيمان يَرُوضُ صاحبَه على مفارقة الهوى ونبذ معتاد الضلالة .

قال تعالى : ﴿ إلاّ الّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصّالحَات وَتَوَاصَوْا بالْحَقّ وَتَوَاصَوْا بالصّبْر ﴾ [العصر : 3] .

(67/374)

ومنْ معاني الصبر انتظار الفرج ولذلك أوثرَ هنا وصفُ (صبروا) دون (آمنوا) لأنّ المرادَ مقابلة حالهم بحال الكفّار في قوله : ﴿ إنّه ليؤوس كفور ﴾ [هود : 9] .

ودل الاستثناء على أنّهم متّصفون بضد صفات المستثنى منهم .

وفي هذا تحذير من الوقوع فيما يماثل صفات الكافرين على اختلاف مقادير .

وقد نسجت الآية على هذا المنوال من الإجمال لتذهب نفوس السامعين من المؤمنين في

طرق الحذر من صفتي اليأس وكفران النعمة ، ومن صفتي الفرح والفخر كل مذهب ممكن .

وجملة ﴿ أولئك لهم مغفرة وأجْرٌ كبير ﴾ مستأنفة ابتدائية .

والإتيان باسم الإشارة عقب وصفهم بما دل عليه الاستثناء وبالصبر وعمل الصالحات تنبيهٌ على أنّهم استحقوا ما يذكر بعد اسم الإشارة لأجْل ما ذكر قبله من الأوصاف كقوله : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِهِمْ وأُولئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُون ﴾ [البقرة : 5] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(68/374)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾

وهنا أيضاً تبدأ الآية الكريمة بقوله سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ ﴾ وهذا يعني أن اللام قد سبقت لتدل على القسم ، وكأنه يقول : لئن أذقنا الإنسان رحمة ، ثم نزعناها منه لوقع في الياس .

وهنا أيضاً قسم وشرط ، والقسم متقدم ، فالجواب يكون للقسم .

وكلمة ﴿ أَذَقْنَا ﴾ توضح أن الإذاقة محلها الأول الفم ، ومعناها : تناول الشيء لإدراك طعمه : حلو أو مر ، لاذع أو غير لاذع ، قلوي أو حامض .

ومن العجيب في دقة التكوين الإنساني أن كل منطقة في اللسان لها طعم تنفعل له ، فطرف اللسان ينفعل لطعم معين ، ووسط اللسان ينفعل لطعم آخر ، وجوانب اللسان تنفعل لطعم ثالث ، وهكذا .

كل ذلك في عضو واحد شاء له الحق سبحانه هذه الدقة في التركيب .

وكل " حلمة " من مكوِّنات اللسان لها شيء تحس به ؛ ولذلك نجد الإنسان يذوق الطعام ، فيقول : إن هذا الطعام ينقصه الملح ، أو يذوب الحلوى مثل الكنافة فيقول : إن السكر المحلاة به مضبوط .

وكذلك حرارة الجسم ، يقيس الإنسان حرارته ، فإن وجدها سبعة وثلاثين درجة ونصف الدرجة ؛ فيقول : إنها حرارة طبيعية . وإن نقصت حرارة الإنسان عن ذلك يقال : إنه مصاب بالهبوط . وإن ارتفعت يقال : مصاب بالحمى .

وهذا قياس للحرارة بالجملة لجسم الإنسان ، ولها المنافذ الخاصة بها . ولكن كل عضو في الجسم تلزمه درجة حرارة خاصة به ليؤدي عمله .

فالكبد إن قلَّت درجة حرارته عن أربعين درجة لا يؤدي مهمته . وجسم الإنسان فيه جوارح متعددة ؛ وحرارة العين مثلاً تسع درجات ؛ لأنها لو زادت حرارتها عن ذلك لانفجرت العين ، وحرارة الأذن ثماني درجات .

وأنت لا تستطيع أن تأتي بأشياء مختلفة الحرارة وتضعها مع بعضها ، ولكن الحق سبحانه

وتعالى شاء ذلك بالنسبة للجسم الإنساني .

وهنا يقول الحق سبحانه :

(69/374)

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان ﴾ [هود : 9] .

والذوق هو للإدراك ، لا للأكل ، فأنت حين تشتري فاكهة يقول لك البائع : " تفضَّل ذُقْ "

فتأخذ واحدة منها لتستطيب طعمها .

فالذوق إذن هو تناول الشيء لإدراك طعمه .

والنعمة حين يشاء الحق سبحانه وتعالى أن تصيب الإنسان ، ثم تُنزَع منه ، هنا يصاب الإنسان بالقلق أو الحزن أو الهلع ، أو اليأس .

والنعمة مهما قلَّت فالإنسان يستطيبها ، وإن نُزعت منه فهو يئوس كفور .

واليأس : هو قطع الأمل من حدوث شيء ، ولأن الإنسان لا يملك الفعل ، ولو كان يقدر عليه لما يئس .

والمؤمن لا ييأس أبداً ؛ لأن الله سبحانه هو القائل :

﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ الله إِلاَّ القوم الكافرون ﴾ [يوسف : 87] .

اليأس إذن هو أن تقطع الأمل من أمر مراد لك ، ولا تملك الوسائل لتحققه .

والذي ييأس هو الذي ليس له إله يركن إليه ؛ لأن الله تعالى هو الركن الرشيد الشديد ، والمؤمن إن فقد شيئاً يقول : " إن الله سيُعوِّضني خيراً منه " .

أما الذي لا إيمان له بإله فهو يقول : " إن هذه الصدفة قد لا تتكرر مرة أخرى " .

فالإنسان الذي يُسْرَق منه جنيه قد يحزن ، ولكن إذا ما كان عنده في المنزل عشرة جنيهات فهو يحزن قليلاً على الجنيه المفقود .

والإنسان لا ييأس إلا عند عدم يقينه بمصدر يرد عليه ما يريده ، ولكن حين يؤمن بمصدر يرد عليه ما يريده فلا تجده يائساً قانطاً .

والمؤمن يعلم أن النعمة لها واهب ، إن جاءت شكر الله عليها ، وإن سُلبت منه ، فهو يعلم أن الحق سبحانه قد سلبها لحكمة .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ﴾ [هود : 9] .

ونحن نعلم أن الإنسان مقصود به كل أبناء آدم عليه السلام وهم كثيرون ، منهم المؤمن ، ومنهم الكافر .

وهنا تأتي كلمة " الإنسان " على إطلاقها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يستثنى المؤمن في موضع آخر حين يقول الحق سبحانه :

﴿ والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ ﴾ [العصر : 13] .

و" الإنسان " مفرد يدل على الإنسان في كل مدلولاته ، ويستثنى من نوع الإنسان من آمن به .

فإن رأيت كلمة إنسان فاعلم أن المراد بالإنسان أفراد الإنسان كلهم .

والإنسان لو عزل نفسه عن منهج الله تعالى فهو في خسران إلا إذا اتبع منهج الله ، فالمنهج يحميه من الزلل ، وتسير غرائزه إلى ما أراد الحق سبحانه لها .

فقد خلق الحق سبحانه الغرائز لمهام أساسية ، فغريزة الجوع تجعل الإنسان يطلب الطعام ، والعطش أراده الله سبحانه وتعالى لينتبه الإنسان إلى طلب الارتواء بالماء .

وغريزة بقاء النوع تدفع الإنسان للزواج ، وغريزة حب الاستطلاع هي التي تدفع الإنسان إلى كشف المخترعات .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل عن الساهين عن استكشاف آيات الله تعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105] .

والباحث العلمي التجريبي المعلمي ينظر في ظواهر الكون ليستطلع أسرار الكون .

وهناك فارق بين حب الاستطلاع لاكتشاف أسرار الكون ، وحب الاستطلاع لأخبار الناس .

إن حب الاستطلاع عموماً هو مدار التقاءات الكون ، ولكن الدين والخلق هو الذي يوجه حب الاستطلاع .

إذن : فالقرائن لها مهمة يجب ألاّ تنفلت إلى غيرها ، والدين قد جاء ليعلي من الغرائز ويوجهها إلى مهامها .

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ [الحجرات : 12] .

أي : لا تتبعوا العورات ؛ لأننا لو أبحنا لواحد أن يتتبع عورات الناس ؛ لأبحنا لكل الآخرين أن يتتبعوا عوراته .

وحين منع الحق سبحانه وتعالى الإنسان من تتبُّع عورات غيره ، فهو قد حماه من تتبع عوراته .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ﴾ [هود : 9] .

وكلمة " النزع " تفيد أن الإنسان حريص على ما وهبه له الله تعالى من خير وصحة وعافية ويُسْر . وحين تؤخذ منه النعمة فهو يقاوم .

والنزع يعني : استمساك المنزوع منه بالشيء المنزوع .

ولذلك يقول الحق سبحانه في سورة آل عمران :

﴿ قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ ﴾ [آل عمران : 26] .

كأن الموجود في الملك يتشبث به جداً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ [هود : 9] .

وفي نفس السورة يأتي الاستثناء ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أولئك لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود : 11] .

وسنأتي لها بالخواطر من بعد ذلك .

ويقول الحق سبحانه وتعالى في المقابل لمن نُزِعَتْ منه الرحمة واليئوس الكفور : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾

وهنا نجد الضراء هي الموجودة ، والنعماء هي التي تطرأ ، عكس الحالة الأولى ، حيث

كانت الرحمة ، من خير ويسر هي الموجودة .

فالنزع في الأولى طرأ على رحمة موجودة ، والنعماء طرأت على ضرّاء موجودة .

وهناك فرق بين نعماء ونعمة ، وضراء وضر ؛ فالضر هو الشيء الذي يؤلم النفس ، والنعمة هي الشيء الذي تتنعم به النفس .

لكن التنعُّم والألم قد يكونان في النفس ، ولا ينضح أي منهما على الإنسان ، فإن نضح على الإنسان أثر النعمة يقال فيها " نعماء " ، وإن نضح عليه أثر من الضر يقال : " ضراء " .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السيئات عني ﴾ [هود : 10] .

ولا يفطن من يقول ذلك إلى المُذْهِب الذي أذهبَ السيئات ؛ لأن السيئة لا تذهب وحدها

.

ولو كان القائل مؤمناً لقال : رفع الله عني السيئات .

(72/374)

لكنه غير مؤمن ؛ ولذلك يغرق في فرح كاذب وفخر لا أساس له .

ويصفه الحق سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود : 10] .

وكأن الفرح بالنعمة أذهله عن المنعم ، وعمن نزع منه السيئة .

وأما الفخر ، فنحن نعلم أن الفخر هو الاعتداد بالمناقب ، وقد تجد إنساناً يتفاخر على إنسان آخر بأن يذكر له مناقب وأمجاداً لا يملكها الآخر .

ونحن نعلم أن التميز لفرد ما يوجد في المجتمع ، ولكن أدب الإيمان يفرض ألا يفخر الإنسان بالتميز .

ولذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر " .

وفي أحدى المعارك نجده صلى الله عليه وسلم يقول :

" أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب " .

وقد اضطر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك ؛ لأن الكافرين في تلك المعركة ظنوا أنهم حاصروه هو ومن معه وأنه سوف يهرب ، لكنه صلى الله عليه وسلم بشجاعته أعلن :

" أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب " وكان أقرب المسلمين إلى مكان الأعداء الكافرين وفي مواجهتهم .

ونحن نجد المتصارعين أو المتنافسين ، واحدهم يدخل على الآخر بصوت ضخم ليهز ثقة الطرف الآخر بنفسه .

والفخور إنسان غائب بحجاب الغفلة عن واهب المناقب التي يتفاخر بها ، ولو كان مستحضراً لجلال الواهب لتضاءل أمامه ، ولو اتجهت بصيرة المتكبر والفخور إلى الحق سبحانه وتعالى لتضاءل أمامه ، ولردّ كل شيء إلى الواهب .

ومثال ذلك في القرآن الكريم هو قول الحق سبحانه على لسان صاحب موسى عليهما السلام :

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف : 82] .

وهذا سلوك العابد المتواضع .

أما حال الفخورين اللاهين عن الحق سبحانه وتعالى ، فقد صوره القرآن في قول قارون :

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي ﴾ [القصص : 78] .

وكان مصيره هو القول الحق :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ [القصص : 81] .

(73/374)

ولذلك قلنا : إنك تحصّن كل نعمة عندك بقولك عند رؤيتها : " بسم الله ما شاء الله " ؛ لتتذكر أن هذه النعمة لم تأت بجهدك فقط ، ولكنها جاءت لك أولاً بمشيئة الله سبحانه

وتعالى ، وذلك لتبقي عين الواهب حارسة للنعمة التي عندك .

أما حين تنسى الواهب فلن يحفظ تلك النعمة لك .

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع الفرح المنبعث عن انشراح الصدر والسرور بنعمة الله بل طلبه منا في قوله سبحانه :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس : 58] .

ولكن الحق سبحانه يطلب من المؤمن أن لا يكون الفرح المنبعث لأتفه الأسباب ، والملازم له ، وإلا كان من الفرحين الذين ذمهم الله تعالى .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : ﴿ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾

وكلمة ﴿ صَبَرُواْ ﴾ هنا موافقة للأمرين الذين سبقا في الآيتين السابقتين ، فهناك نزع الرحمة ، وكذلك هناك " نعماء " من بعد " ضرَّاء " ، وكلا الموقفين يحتاج للصبر ؛ لأن كلاّ منا مقدور للأحداث التي تمر به ، وعليه أن يصبر لملحظية حكمة القادر سبحانه .

وبدأ الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بالاستثناء ، فقال جل وعلا :

﴿ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ ﴾ [هود : 11] .

ولولا هذا الاستثناء لكان الكل كل البشر ينطبق عليهم الحكم الصادر في الآيتين السابقتين ، حكم باليأس والكفر ، أو الفرح والفخر دون تذكُّر واهب النعم سبحانه .

ولكن هذا الاستثناء قد جاء ليُطمئن الذين صبروا على ما قد يصيبهم في أمر الدعوة ، أو

ما يصيبهم في ذواتهم ؛ لا من الكافرين ؛ لكن بتقدير العزيز العليم .

أو أنهم صبروا عن عمل إخوانهم المؤمنين .

إذن : فالصبر معناه حدُّ النفس بحيث ترضى عن أمر مكروه نزل بها . والأمر المكروه له مصادر عدة ، منها :

* أمر لا غريم لك فيه كالمرض مثلاً .

(74/374)

---

* أو أن يكون لك غريم في الأمر ؛ كأن يُسرق منك متاع ، أو يُعتدى عليك ، وفي هذه الحالة تنشغل برغبة الانتقام ، وتتأجج نفسك برغبة النيل من هذا الغريم ، أكثر مما تتأجج في حالة عدم وجود الغريم ، فحين يمرض الإنسان فلا غريم له .

وفي حالة الرغبة من الانتقام فالصبر يختلف عن الصبر في حالة وجود الغريم .

ولذلك عرض الحق سبحانه وتعالى لتأتِّي الصبر حسب هذه المراحل ، فسيدنا لقمان يقول لابنه :

﴿ واصبر على مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [لقمان : 17] .

وفي موضع آخر يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى : 43] .

وفي هذه الآية " لام " التوكيد لتؤكد أن هذا الأمر يحتاج إلى عزم قوي ؛ لأن لي فيها غريماً يثير غضبي .

فساعة أرى من ضربني أو أهانني أو سرقني أو أساء إليَّ إساءة بالغة ، فالأمر هنا يحتاج صبراً وقوة وعزيمة .

أما في الحالة الأولى حالة عدم وجود غريم فالحق سبحانه يكتفي فقط بالقول الكريم :

﴿ واصبر على مَآ أَصَابَكَ ﴾ [لقمان : 17] .

ولكنه سبحانه أضاف في الآية الأخرى " اللام " لتأكيد العزم ، وليضيف سبحانه في حالة وجود غريم طلب الغفران ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى : 43] .

وهكذا نجد المستثنى ، وهم الصابرون على ألوانهم المختلفة .

وهنا يقول سبحانه :

﴿ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [هود : 11] .

وما دام هنا صبر ، فالصبر لا يكون إلا على إيذاء . ولكن إياك أن يكون الإيذاء من خصمك في الإيمان ، أو من خصمك في ما دون الإيمان ، صارفاً لك عن نشاطك في طاعة الله سبحانه ؛ لأن الصبر لا يعني أن تكبت غضبك وتعذب نفسك بهذا الكبت بما يصرفك

عن مهامك في الحياة ، بل يسمح لك الحق سبحانه أن تتخلص من غلِّك وحقدك ، بمعايشة الإيمان الذي يُخفف من غَلْواء الغضب .

(75/374)

ولكسر حدة الغل أباح لك الحق سبحانه وتعالى أن تعتدي على من اعتدى عليك بمثل ما اعتدى ؛ لأن سبحانه وتعالى لا يريد لك أن تظل في حالة غليان بالغضب أو القهر بما يمنعك من العمل ، بل يريد الحق سبحانه أن تتوجه بطاقاتك إلى أداء عملك .

ولذلك لا يلزمك الحق سبحانه إلا بحكم العدل فيقول عز وجل :

﴿ فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : 194] .

ولكن هناك القادر على التحكم في نفسه ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ [آل عمران : 134] .

ومعنى كظم الغيظ : أن الغيظ موجود ، لكن صاحبه لا يتحرك بنزوع انتقامي ، مثلما تقول : "كظمت القِرْبة" لأن حامل القربة لو لم يكظم الماء فيها ، لتفلَّت الماء منها ، أي : أنه يحبس الماء فيها .

وكظم الغيظ درجة ومنزلة ، قد لا تكون إيجابية ؛ لأن الغيظ ما زال موجوداً ؛ ولذلك تأتي

مرحلة أرقى ، وتتمثل في قول الحق سبحانه :

﴿ والعافين عَنِ الناس ﴾ [آل عمران : 134] .

أي : أن تُخرج الغيظ من قلبك وتتسامح .

إذن : فأنت هنا أمام مراحل ثلاث :

أن تردَّ الاعتداء عليك بمثله ، والمثليَّة في رد الاعتداء أمر لا يمكن أن يتحقق ، فمن صفعك صفعة ، كيف تستطيع أن تضبط كمية الألم في الصفعة التي ردها إليه ؟

إن المتحكم في ردِّ الاعتداء هو الغضب ، والغضب لا يقيس الاعتداء بمثله ، فلا يتحقق العدل المطلوب ؛ لهذا يكون الصبر خيراً مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل : 126] .

فإن أزدتَ من قوة صفعتك تكون معتدياً .

ولعلنا نذكر مسرحية " تاجر البندقية " لشكسبير ، وبطلها هذا التاجر اليهودي الذي أقرض رجلاً مالاً ، وكان صَكُّ القرض يفرض أن يقتطع اليهودي رطلاً من لحم المقترض إن تأخر في السداد .

وتأخَّر المقترض في السداد ، وأراد المرابي اليهودي أن يقتطع رطلاً من لحم المقترض ، وعُرِض الأمر على القاضي ، وكان القاضي رجلاً حكيماً ، وأراد أن يصدر حكماً يتلمس فيه العدالة ، فقال القاضي : لا مانع أن تأخذ رطلاً من لحم الرجل ؛ هات السكين ، واقطع رطلاً واحداً بلا زيادة أو نقصان ؛ لأننا سنأخذ مقابل تلك الزيادة من لحمك أنت بنفس السكين ، وكذلك إن قطعت من اللحم ما يقل عن الرطل ، فسنقطع الناقص لك من لحمك أنت عقاباً لك .

وتردَّد المرابي اليهودي ؛ لأن الجزار أيَّ جزار لا يمكن أن يضبط يده ليقطع رطلاً مكتمل الوزن ، بل يقطع أحياناً ما يزيد عن الوزن المطلوب ، ويقطع أحياناً ما يقل عن الوزن المطلوب ، ثم يكمل أو ينقص الوزن حسب كل حالة .

وانسحب المرابي اليهودي وتنازل عن دعواه ، والذي دفعه إلى ذلك هو عدم قدرته على أخذ المثل ، فلو كان قد ارتقى قليلاً في مشاعره لما وصل إلى هذا الحكم .

والحق سبحانه وتعالى يحضنا على أن نرد العدوان بمثله ، وإن أردنا الارتقاء فلنكظم الغيظ ، وإن أردنا الارتقاء أكثر فلنخرج الغيظ من القلب ولنكن من العافين عن الناس ؛ لننال محبة الله تعالى ، لأنه سبحانه وتعالى يقول :

﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ [آل عمران : 134]

.

وفي هذا يرتقي المؤمن بمنهج الله سبحانه ، فيجعل المعتدَي عليه هو الذي يُحسن .

وحين تريد أن تفسر حب الله سبحانه للمحسنين فلسفيّاً أو منطقياً أو اقتصادياً ، ستجد القضية صحيحة ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلْيَعْفُواْ وليصفحوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ الله لَكُمْ ﴾ [النور : 22] .

فإن أساء أخوك إليك سيئة ، فإما أن ترد بالمثل ، أو تكظم الغيظ أو ترقى إلى العفو ، وبذلك تكون من المحسنين ؛ لأنك إذا كنت قد ارتكبت سيئة ، وعلمت أن الله سبحانه وتعالى يغفرها لك ، ألا تشعر بالسرور ؟

(77/374)

إذن : فما دُمْت تريد أن يغفر الله تعالى لك السيئة عنده ، فلماذا لا تعفو عن سيئة أخيك في حقك ؟

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ الله لَكُمْ ﴾ [النور : 22] .

وقد جاء الحق سبحانه هنا من ناحية النفس ، فجعل عفو العبد عن سيئة العبد بحسنة ، فلعفو العبد ثمن عند الله تعالى ؛ لأن العبد سيأخذ مغفرة الله تعالى ، وفوق ذلك فأنت تترك

عقاب المسيء والانتقام منه لربك ، وعند التسليم له راحة .

ولو اقتصصتَ أنت ممن أساء إليك ، فقصاصك على قدر قوتك ، أما إن تركته إلى قدرة الله تعالى ، فهذا أصعب وأشق ؛ لأنك تركته إلى قوة القوي .

وهكذا ينال العافي عن المسيء مرتبة راقية ؛ لأنه جعل الله سبحانه وتعالى في جانبه .

وهناك من يقول : كيف يأمر الدين الناس بأن يحسنوا لمن أساء إليهم ؟ ويعلل ذلك بأنه أمر ضد النفس .

ونقول : إن الإحسان إلى المسيء هو مرحلة ارتقاء ، وليست تكليفاً أصيلاً ؛ لأن الحق سبحانه قد أباح أن نرد العدوان بمثله ، ثم حثَّ المؤمن على أن يكظم غيظه ، أو يرتقي إلى العفو وأن يصل إلى الإحسان ، وكل هذه ارتقاءات اليقين بالله سبحانه وتعالى .

وانظر إلى نفسك ولله المثل الأعلى ومنزَّه سبحانه عن كل مَثلٍ إنْ أردت أن تطبق الأمر على ذاتك حين تجد ولداً من أولادك قد اعتدى على أخيه ، فقلبك وعواطفك وتلطفاتك تكون مع المعتدَى عليه .

ومن يقول : كيف يكلّفني الشرع بأن أحسن إلى من أساء إليَّ ؟

نقول له : تذكَّرْ قول الحسن البصري رضي الله عنه : " أفلا أحْسِنُ لمن جعل الله في جانبي "

.

ولو طبَّق العالم هذه القاعدة بيقينٍ وإخلاصٍ لصارت الحياة على الأرض جنة معجَّلة ،

التسامح ، قوامها القرب ، ومنهجها الحب .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أولئك لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود : 11] .

(78/374)

وإن تسأل أحد : ولماذا ينالون المغفرة ؟

نقول : لأنهم صبروا وغفروا ؛ لذلك يهديهم الله تعالى مغفرة من عنده ، لأنه صبر على الإساءة ، وغفر لمن أساء ، فلا بد أن يُثيبه الله تعالى ، لا بالمغفرة فقط ، ولكن بالأجر الكبير أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(79/374)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ

فَخُورٌ) (هود : 10) ، وفي سورة حم السجدة : (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً) (فصلت : 50) ، للسائل أن يسأل عن زيدة (منا) وزيادة (من) في سورة السجدة وسقوطهما معا في سورة هود ؟

والجواب عن ذلك ، والله أعلم : أنه لم يرد في هود ما يستدعي تلك الزيادة ، وأما سورة السجدة فتقدم فيها قوله : (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي) (فصلت : 47) قطعا بهم وتنبيهاً على سوء مرتكبيهم ، وقد عاينوا الحق ، وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل من شركاء الله سبحانه ، وظنوا أي أيقنوا وعلموا أنه لا محيص لهم ولا مفر ، فلما تقدم ذكر الشركاء قال تعالى : (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا) ، فنبه تعالى بقوله (منا) على أن لا شريك له ، ولا معطي غيره ، وأنه لا يأتي العبد شيء من سواه سبحانه . ولما لم يتقدم في سورة هود ذكر لذلك لم يرد فيها التنبيه بقوله : (منا) وأما زيادة : (من) في قوله : (مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ) فمناسب لإطناب هذا الغرض في هذه السورة ، فناسب ذلك الزيادة . ولإيجاز هذا القصد في سورة هود ناسبه سقوط (من) ، فجاء كل على ما يناسب ويجب ، ولم يكن ليلائم كلا من الموضوعين إلا ما ورد فيه ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 253 ﴾

(80/374)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَفَرِحٌ ﴾ : قرأ الجمهور بكسرِ الراء ، وهو قياسُ اسمِ الفاعل من فَعِل اللازم بكسر العين نحو : أَشِرَ فهو أَشِرٌ ، وبَطِرَ فهو بَطِرٌ . وقرىء شاذاً " لَفَرُح " بضم الراء نحو : يَقِظ ويَقُظ ، ونَدِس ونَدُس .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الذين صَبَرُواْ ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجه ، أحدها : أنه منصوبٌ على الاستثناء المتصل ؛ إذ المرادُ به جنس/ الإِنسانِ لا واحدٌ بعينه . والثاني : أنه منقطعٌ ، إذ المراد بالإِنسان شخصٌ معين ، وهو على هذين الوجهين منصوبُ المحل . والثالث : أنه مبتدأ ، والخبرُ الجملةُ من قوله ﴿ أولئك لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ ﴾ وهو منقطعٌ أيضاً . وقوله : " مغفرةٌ " يجوز أن يكونَ مبتدأ ، و " لهم " الخبر ، والجملةُ خبرُ " أولئك " ، ويجوز أن يكونَ " لهم " خبرَ " أولئك " و " مغفرة " فاعلٌ بالاستقرار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 239 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (9) ﴾

تَكَدُّرُ ما صفا من النّعم ، وتَغيُّرُ ما أُتيح من الإحسان والمِنَن حالٌ معهودةٌ وخُطَّة عامة ، فلا أحدَ إلا وله منها خِطَّه فَمَنْ لم يرجع بالتأسُّفِ قلبه ، ولم يتضاعفْ في كل نَفَسٍ تَلَهفُّهُ وكَرْبُه ففي ديوان النسيان ، وأثبت اسمه في جملة أهل الهجران . ومن استمسك بعروة التضرع ، واعتكف بعقوة التذلل ، احتسى كاساتِ الحسرة عُلَلاً بعد نهل طاعته للحق بنعت الرحمة ، وجَدَّدَ له ما اندرس من أحوال القربة ، وأطْلَعَ عليه شمسَ الإقبال بعد الأفول والغيبة ، كما قيل .

تَقَشَعَ غَيمُ الهجرِ عن قمر الحبِّ . . . وأشرق نورُ الصبح في ظلمة الغيب

وليس للأحوال الدنيوية خَطَرٌ في التحقيق ، ولا يُعدُّ زوالها وتكدُرها من جملة المحن عند أرباب التحصيل ، لكنَّ المحنة الكبرى والرزيةَ العظمى ذبولُ غصنِ الوصال ؛ وتكدرُ مشرب القرب ، وأفولُ شوارق الأُنسِ ، ورَمَدُ بصائر أرباب الشهود . . . فعند ذلك تقوم

قيامتُهم ، وهناك تُسْكَبُ العَبَراتُ . ويقال إذا نَعَقَ في ساحاتِ هؤلاء غرابُ البيْن ارتفع إلى السماء نُوَاحُ أسرارهم بالويل ، ومن جملة ما يبثون نحيبهم ما قلتُ :

قولاً لِمَنْ سَلَبَ الفؤادَ فراقُه . . . ولقد عَهِدنا أن يُبَاحَ عِنَاقُه

بَعُدَ الفراق . . . فبالذي هو بيننا . . . هَلاَّ رحمتم مَنْ دنا إزهاقُه ؟

عهدي بمن جحد الهوى أزمانَكُ . . . نَّا بالصبابةِ – لا يَضيقِ نطاقُه

والآن مُذْ بَخلَ الزمانُ بوصلنا . . . ضاق البسيطة حين دام فراقُه

هل تُرتَجى من وصل عِزَّكَ رجعةٌ . . . تحنو على قمرٍ يدوم محاقُه ؟

إن كان ذاك كما تروم فأخْبِروا . . . أَنَّى له أن يعودَ شروقَه ؟ .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) ﴾

(82/374)

إذا كشفنا الضُرَّ عنهم رحمةً مِنَّا عادوا إلى تهتكهم بدلاً من أن يتقربوا إلينا ، وأساءوا بخلع عذارهم بدل أن يقوموا بشكرنا ، وكلما أَتَحْنَا لهم من إمهالنا أَمِنوا بمكرنا ولم يخافوا أنْ نأخذَهم فجأة بقهرنا .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11) ﴾

الإنسان في الآية السابقة اسم جنس .

وإلا للاستثناء منه ، وقيل بمعنى " لكن " ، يريد إذا أذقناهم نعمة بعد الشدة بطروا ، إلا المؤمنين فإنهم بخلاف ذلك ، أي لكنَّ الذين آمنوا بخلاف ذلك ، فإنهم لصبرهم على ما به أُمِروا ، وعما عنه زُجِروا ، ولمعانقتهم للطاعات ومفارقتهم الزَّلات . . . فلهم مغفرة وأجر ، مغفرة لعصيانهم ، وأجرٌ على إحسانهم . والفريقان لا يستويان ، قال قائلهم .

أَحْبَابُنا شَتَّان وافٍ وناقِصٌ . . . ولا يستوي قطُّ مُحبٌّ وباغض . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 126.127 ﴾

(83/374)

قوله تعالى ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (12) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما استثنى سبحانه من الجارين مع الطبع الطائشين في الهوى من تحلى برزانة الصبر

الناشىء عن وقار العلم المثمر لصالح العمل ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأس الصابرين ، وكان ما مضى من أقوالهم وأفعالهم مثل قولهم ﴿ ما يحبسه ﴾ وتثنيهم صدورهم أسباباً لضيق صدره ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فربما كانت مظنة لرجائهم تركه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعض ما يوحى إليه من عيب آلهتهم وتضليل آبائهم وتسفيه أحلامهم ، وغير ذلك مما يشق عليهم طمعاً في إقبالهم أو خوفاً من إدبارهم فإنهم كانوا يقولون : ما نراه يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكرنا به من الشر ، قال تعالى مسبباً عن ذلك ناهياً في صيغة الخبر : ﴿ فلعلك تارك ﴾ أي إشفاقاً أو طمعاً ﴿ بعض ما ﴾ ولما كان الموحى قد صار معلوماً لهم وإن نازعوا فيه بنى للمفعول قوله : ﴿ يوحى إليك ﴾ كالإنذار وتسفيه أحلام آبائهم ﴿ وضائق به ﴾ أي بذلك البعض ﴿ صدرك ﴾ مخافة ردهم له إذا بلغته لهم ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ أن ﴾ أي مخافة أو لأجل أن ﴿ يقولوا ﴾ تعنتاً ومغالبة إذ لو كانوا مسترشدين لكفتهم آية واحدة ﴿ لولا ﴾ أي هلا ولم لا ﴿ أنزل عليه كنز ﴾ يستغني به ويتفرغ لما يريد ، وبنوه للمفعول لأن المقصود مطلق حصوله وكانوا يتهاونون بالقرآن لعلمهم أنه الآية العظمى فكانوا لا يعدونه آية عناداً ومكابرة ﴿ أو جاء معه ملك ﴾ أي ليؤيد كلامه وليشهد له ، فكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يضيق صدره بمثل أقوالهم هذه ويثقل عليه أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه فحركه الله بهذا لأداء الرسالة كائناً فيها ما كان ، فكان المعنى : فإذا تقرر أن الإنسان مطبوع على نحو هذا من التقلبات ، فلا

تكن موضع رجائهم في أن تكون تاركاً ما يغيظهم مما نأمرك به ، بل كن من الصابرين ؛ قال أهل السير : فلما بادى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم

(84/374)

وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه إلا من عصمه الله ؛ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أم المشركين قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ائتنا بكتاب ليس فيه سب آلهتنا .

ولما أفهم هذا السياق الإنكار لما يفتر عن الإنذار ، كان كأنه قيل له : هذا الرجاء المرجو منكر ، والمقصود الأعظم من الرسالة النذارة لأنها هي الشاقة على النفوس ، وأما البشارة فكل من قام يقدر على إبلاغها فلذا قال : ﴿ إنما أنت نذير ﴾ فبلغهم ما أرسلت به فيقولون لك ما يقدره الله لهم فلا يهمنك فليس عليك إلا البلاغ وما أنت عليهم بوكيل تتوصل إلى ردهم إلى الطاعة بالقهر والغلبة بل الوكيل الله الفاعل لما يشاء ﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة .

ولما كان السياق لإحاطته سبحانه ، قدم قوله : ﴿ على كل شيء ﴾ منهم ومن غيرهم

ومن قبولهم وردهم ومن حفظك منهم ومن غيره ﴿ وكيل ﴾ فهو يدبر الأمور على ما يعلمه من الحكم ، فإنشاء جاء بما سألوا وإن لم يشأ لم يأت به ولا اعتراض عليه فتوكل عليه في كل أمر وإن صعب ، ولعله اقتصر على النذارة لأن المقام يقتضيها من أجل أنهم أهل لها وأنها هي التي يطعمون في تركها بإطماعهم في المؤالفة بالإعراض عما يوجب المخالفة ؛ والصدر : مسكن القلب ، يشبه به رئيس القوم والعالي المجلس لشرف منزلته على غيره من الناس ؛ والكنز : المدفون ، وقد صار في الدين صفة ذم لكل مال لم يخرج منه الواجب من الزكاة وإن لم يكن مدفوناً ، والآية من الاحتباك : نفي أولاً قدرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الإتيان بما سألوا دليلاً على قدرة مرسله على ذلك وغيره ثانياً .

وأثبت الوكالة ثانياً دليلاً على نفيها أولاً . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 508 ـ 510 ﴾.

(85/374)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من كلمات الكفار ، والله تعالى بين أن قلب الرسول ضاق بسببه ، ثم إنه تعالى قواه وأيده بالإكرام والتأييد ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رؤساء مكة قالوا : يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهباً إن كنت رسولاً ، وقال آخرون : ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوتك .

فقال : لا أقدر على ذلك فنزلت هذه الآية .

واختلفوا في المراد بقوله : ﴿ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : "ائتنا بكتاب ليس فيه شتم آلهتنا حتى نتبعك ونؤمن بك ، وقال الحسن اطلبوا منه لا يقول : ﴿ إِنَّ الساعة ءاتِيَةٌ ﴾ [طه : 15] وقال بعضهم : المراد نسبتهم إلى الجهل والتقليد والإصرار على الباطل .

المسألة الثانية :

أجمع المسلمون على أنه لا يجوز على الرسول عليه الصلاة والسلام أن يخون في الوحي والتنزيل وأن يترك بعض ما يوحى إليه ، لأن تجويزه يؤدي إلى الشك في كل الشرائع والتكاليف

وذلك يقدح في النبوة وأيضاً فالمقصود من الرسالة تبليغ تكاليف الله تعالى وأحكامه فإذا لم تحصل هذه الفائدة فقد خرجت الرسالة عن أن تفيد فائدتها المطلوبة منها ، وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من قوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾ شيئاً آخر سوى أنه عليه السلام فعل ذلك وللناس فيه وجوه : الأول : لا يمتنع أن يكون في معلوم الله تعالى أنه إنما ترك التقصير في أداء الوحي والتنزيل لسبب يرد عليه من الله تعالى أمثال هذه التهديدات البليغة الثاني : أنهم كانوا لا يعتقدون بالقرآن ويتهاونون به ، فكان يضيق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه ، فهيجه الله تعالى لأداء الرسالة وطرح المبالاة بكلماتهم الفاسدة وترك الالتفات إلى استهزائهم ، والغرض منه التنبيه على أنه إن أدى ذلك الوحي وقع في سخريتهم وسفاهتهم وإن لم يؤد ذلك الوحي إليهم وقع في ترك وحي الله تعالى وفي إيقاع الخيانة فيه ، فإذا لا بد من تحمل أحد الضررين وتحمل سفاهتهم أسهل من تحمل إيقاع الخيانة في وحي الله تعالى ، والغرض من ذكر هذا الكلام التنبيه على هذه الدقيقة ، لأن الإنسان إذا علم أن كل واحد من طرفي الفعل والترك يشتمل على ضرر عظيم ، ثم علم أن الضرر في جانب الترك أعظم وأقوى سهل عليه ذلك الفعل وخف ، فالمقصود من ذكر هذا الكلام ما ذكرناه .

فإن قيل : قوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ ﴾ كلمة شك فما الفائدة فيها ؟

قلنا : المراد منه الزجر ، والعرب تقول للرجل إذا أرادوا إبعاده عن أمر لعلك تقدر أن تفعل

كذا مع أنه لا شك فيه ، ويقول لولده لو أمره لعلك تقصر فيما أمرتك به ويريد توكيد الأمر فمعناه لا تترك .

(87/374)

وأما قوله : ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ فالضائق بمعنى الضيق ، قال الواحدي : الفرق بينهما أن الضائق يكون بضيق عارض غير لازم ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفسح الناس صدراً ، ومثله قولك : زيد سيد جواد تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين ، فإذا أردت الحدوث قلت : سائد وجائد ، والمعنى : ضائق صدرك لأجل أن يقولوا : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ﴾ .

فإن قيل : الكنز كيف ينزل ؟

قلنا : المراد ما يكنز وجرت العادة على أنه يسمي المال الكثير بهذا الاسم ، فكأن القوم قالوا : إن كنت صادقاً في أنك رسول الإله الذي تصفه بالقدرة على كل شيء وإنك عزيز عنده فهلا أنزل عليك ما تستغني به وتغني أحبابك من الكد والعناء وتستعين به على مهماتك وتعين أنصارك وإن كنت صادقاً فهلا أنزل الله معك ملكاً يشهد لك على صدق قولك ويعينك على تحصيل مقصودك فتزول الشبهة في أمرك ، فلما لم يفعل إلهك ذلك فأنت

غير صادق ، فبين تعالى أنه رسول منذر بالعقاب ومبشر بالثواب ولا قدرة له على إيجاد هذه الأشياء .

والذي أرسله هو القادر على ذلك فإن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ولا اعتراض لأحد عليه في فعله وفي حكمه .

ومعنى ﴿ وَكِيلٌ ﴾ حفيظ أي يحفظ عليهم أعمالهم ، أي يجازيهم بها ونظير هذه الآية ، قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذى إِن شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مّن ذلك جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانهار وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾ [الفرقان : 10] وقوله : ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ [الإسراء : 90] إلى قوله : ﴿ قُلْ سبحان رَبّى هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 93] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 154.155 ﴾

(88/374)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إِليك ﴾

سبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ أئت بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّله ﴾ [يونس : 15] ، فهمَّ النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يُسمعهم عيب آلهتهم رجاء

أن يتَّبعوه ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

وفي معنى الآية قولان :

أحدهما : فلعلك تارك تبليغ بعض ما يوحى إليك من أمر الآلهة ، وضائق بما كُلِّفتَه من ذلك صدرُك ، خشية أن يقولوا .

لولا أُنزل عليه كنز .

والثاني : فلعلكِ لعظيم ما يرد على قلبك من تخليطهم تتوهَّمُ أنهم يُزيلونك عن بعض ما أنت عليه من أمر ربك .

فأما الضائق ، فهو بمعنى الضيِّق .

قال الزجاج : ومعنى ﴿ أن يقولوا ﴾ : كراهية أن يقولوا .

وإنما عليك أن تنذرهم بما يُوحى إليك ، وليس عليك أن تأتيهم باقتراحهم من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ والله على كل شيء وكيل ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه الحافظ .

والثاني : الشهيد ، وقد ذكرناه في [آل عمران : 173] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾

أي فلعلك لعظيم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تتوهم أنهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه .

وقيل : إنهم لما قالوا ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ هَمَّ أن يدع سبّ آلهتهم فنزلت هذ الآية ؛ فالكلام معناه الاستفهام ؛ أي هل أنت تارك ما فيه سبّ آلهتهم كما سألوك ؟ وتأكد عليه الأمر في الإبلاغ ؛ كقوله : ﴿ يا أيها الرسول بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة : 67] وقيل : معنى الكلام النفي مع استبعاد ؛ أي لا يكون منك ذلك ، بل تبلغهم كل ما أنزل إليك ؛ وذلك أن مشركي مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سبّ آلهتنا لاتبعناك ، فهَمّ النبي صلى الله عليه وسلم أن يدع سبّ آلهتهم ؛ فنزلت .

قوله تعالى : ﴿ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ عطف على ﴿ تَارِكٌ ﴾ و ﴿ صَدْرُكَ ﴾ مرفوع به ، والهاء في "به" تعود على "ما" أو على بعض ، أو على التبليغ ، أو التكذيب .

وقال : ﴿ ضَائِقٌ ﴾ ولم يقل ضيّق ليشاكل "تَارِكٌ" الذي قبله ؛ ولأن الضّائق عارض ، والضيّق ألزم منه .

﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ في موضع نصب ؛ أي كراهية أن يقولوا ، أو لئلا يقولوا كقوله : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ [النساء : 176] أي لئلا تضلّوا .

أو لأن يقولوا .

﴿ لَوْلاَ ﴾ أي هلاّ ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ يصدقه ؛ قاله عبد الله بن أبي أميّة بن المغيرة المخزوميّ ؛ فقال الله تعالى : يا محمد ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ إنما عليك أن تنذرهم ، لا بأن تأتيهم بما يقترحونه من الآيات .

﴿ والله على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أي حافظ وشهيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(90/374)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ﴾

الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) يقول الله لنبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) فلعلك يا محمد تارك بعض ما يوحى إليك ربك أن تبلغه إلى من أمرك أن تبلغ ذلك إليه ﴿ وضائق به صدرك ﴾ يعني ويضيق صدرك بما يوحى إليك فلا تبلغه إياهم وذلك أن كفار

مكة قالوا ائت بقرآن غير هذا ليس فيه سب آلهتنا فهم النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يترك ذكر آلهتهم ظاهراً فأنزل الله فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك يعني من ذكر آلهتهم هذا ما ذكره المفسرون في معنى هذه الآية وأجمع المسلمون على أنه (صلى الله عليه وسلم) فيما كان طريقه البلاغ فإنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منه بخلاف ما هو به لا خطأً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً وأنه (صلى الله عليه وسلم) بلغ جميع ما أنزل الله عليه إلى أمته ولم يكتم منه شيئاً وأجمعوا على أنه لا يجوز على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خيانة في الوحي والإنذار ولا يترك بعض ما أوحي إليه لقول أحد لأن تجويز ذلك يؤدي إلى الشك في أداء الشرائع والتكاليف لأن المقصود من إرسال الرسول التبليغ إلى من أرسل إليه فإذا لم يحصل ذلك فقد فاتت فائدة الرسالة والنبي (صلى الله عليه وسلم) معصوم من ذلك كله وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد بقوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك شيئاً آخر سوى ما ذكره المفسرون .

وللعلماء في ذلك أجوبة :

أحدها : قال ابن الأنباري : قد علم الله سبحانه وتعالى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لا يترك شيئاً مما يوحى إليه إشفاقاً من موجدة أحد وغضبه ولكن الله تعالى أكد على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في متابعة الإبلاغ من الله سبحانه وتعالى كما قال : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ الآية .

الثاني : أن هذا من حثه سبحانه وتعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم) وتحريضه على أداء ما أنزله إليه والله سبحانه وتعالى من وراء ذلك في عصمته مما يخافه ويخشاه .

الثالث : أن الكفار كانوا يستهزئون بالقرآن ويضحكون منه وتهاونون به وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يضيق صدره لذلك وأن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويستهزئون به فأمره الله سبحانه وتعالى بتبليغ ما أوحي إليه وأن لا يلتفت إلى استهزائهم وأن يتحمل هذا الضرر أهون من كتم شيء من الوحي ، والمقصود من هذا الكلام التنبيه على هذه الدقيقة لأن الإنسان إذا علم أن كل واحد من طرفي الفعل والترك مشتمل على ضرر عظيم ثم علم أن الضرر في باب الترك أعظم سهل عليه الإقدام على الفعل ، وقيل : إن الله سبحانه وتعالى مع علمه بأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا يترك شيئاً من الوحي هيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة باستهزائهم وردهم إلى قبول قوله بقوله : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ﴾ أي لعلك تترك أن تلقيه إليهم مخافة ردهم واستهزائهم به وضائق به صدرك أي بأن تتلوه عليهم ﴿ أن يقولوا ﴾ يعني مخافة أن يقولوا ﴿ لولا أنزل عليه كنز ﴾ يعني يستغني به وينفقه ﴿ أو جاء معه ملك ﴾ يعني يشهد بصدقه وقائل هذه المقالة هو عبد الله بن أمية

المخزومي .

والمعنى أنهم قالوا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) إن كانت صادقاً في قولك بأنك رسول الله الذي تصفه بالقدرة على كل شيء وأنت عزيز عنده مع أنك فقير فهلا أنزل عليك ما تستغني به أنت وأصحابك وهل أنزل عليك ملكاً يشهد لك بالرسالة فتزول الشبهة في أمرك فأخبر الله أنه (صلى الله عليه وسلم) نذير بقوله : ﴿ إنما أنت نذير ﴾ تنذر بالعقاب لمن خالفك وعصى أمرك وتبشر بالثواب لمن أطاعك وآمن بك وصدقك ﴿ والله على كل شيء وكيل ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى حافظ يحفظ أقوالهم وأعمالهم فيجازيهم عليها يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(92/374)

وقال أبو حيان :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾

قال الزمخشري : كانوا يقترحون عليه آيات تعنتاً لا استرشاد ، لأنهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة مما جاء به كافية في رشادهم .

ومن اقتراحاتهم : لولا أنزل عليه كنز ، أو جاء معه ملك ، وكانوا لا يعتدون بالقرآن ،

ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات ، فكان يضيق صدر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه ، فحرك الله منه وهيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله : فلعلك تارك بعض ما يوحي إليك أي : لعلك تترك أن تلقيه إليهم ، وتبلغه إياهم مخافة ردهم وتهاونهم به ، وضائق به صدرك بأنْ تتلو عليهم أن يقولوا مخافة أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز ، هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكنز والملائكة ، ولم ينزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه .

ثم قال : إنما أنت نذير أي : ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحي إليك ، وتبلغهم ما أمرت بتبليغه ، ولا عليك ردّوا أو تهاونوا أو اقترحوا ، والله على كل شيء وكيل يحفظ ما يقولون ، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل ، فتوكل عليه ، وكل أمرك إليه .

وقال ابن عطية : سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا : يا محمد لو تركت سب آلهتنا وتسفيه آبائنا لجالسناك واتبعناك ، وقالوا : إئت بقرآن غير هذا أو بدله ، ونحو هذا من الأقوال ، فخاطب الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) على هذه الصورة من المخاطبة ، وقفه بها توقيفاً رادّاً على أقوالهم ، ومبطلاً لها .

وليس المعنى أنه عليه السلام هم بشيء من ذلك ثم خرج عنه ، فإنه لم يرد قط ترك شيء مما أوحي إليه ، ولا ضاق صدره به ، وإنما كان يضيق صدره بأقوالهم وأفعالهم وبعدهم عن الإيمان .

ولعلك ههنا بمعنى التوقيف والتقرير ، وما يوحي إليه هو القرآن والشريعة والدعاء إلى الله كان في ذلك سب آلهتهم ، وتسفيه آبائهم أو غيره .

ويحتمل أن يكون النبي (صلى الله عليه وسلم) قد عظم عليه ما يلقى من الشدة ، فمال إلى أن يكون من الله إذن في مساهلة الكفار بعض المساهلة ، ونحو هذا من الاعتقادات التي تليق به (صلى الله عليه وسلم) كما جاءت آيات الموادعة .

وعبر بضائق دون ضيق للمناسبة في اللفظ مع تارك ، وإن كان ضيق أكثر استعمالاً ، لأنه وصف لازم ، وضائق وصف عارض .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : لم عدل عن ضيق إلى ضائق ؟ (قلت) : ليدل على أن ضيق عارض غير ثابت ، لأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان أفسح الناس صدراً .

ومثله قولك : سيد وجواد ، تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين ، فإذا أردت الحدوث قلت : سائد وجائد انتهى .

وليس هذا الحكم مختصاً بهذه الألفاظ ، بل كل ما يبنى من الثلاثي للثبوت والاستقرار على

غير وزن فاعل رد إليه إذا أريد معنى الحدوث ، فنقول : حاسن من حسن ، وثاقل من ثقل ، وفارح من فرح ، وسامن من سمن ، وقال بعض اللصوص يصف السجن ومن سجن فيه : بمنزلة أما اللئيم فسامن بها . . .

وكرام الناس باد شحوبها

والظاهر عود الضمير في به على بعض .

وقيل : على ما ، وقيل : على التبليغ ، وقيل : على التكذيب ، قيل ولعل هنا للاستفهام بمعنى هل ، والمعنى : هل أنت تارك ما فيه تسفيه أحلامهم وسب آلهتهم كما سألوك ؟

وقدروا كراهته أن يقولوا ، ولئلا يقولوا ، وبأن يقولوا ، ثلاثة أقوال .

والكنز المال الكثير .

وقالوا : أنزل ، ولم يقولوا أعطى ، لأن مرادهم التعجيز ، وأنهم التمسوا أن ينزل عليه من السماء كنز على خلاف العادة ، فإنّ الكنوز إنما تكون في الأرض .

(94/374)

وطلبهم آية تضطر إلى الإيمان ، والله عز وجل لم يبعث الأنبياء بآيات اضطرار ، إنما بعثهم بآيات النظر والاستدلال ، ولم يجعل آية الاضطرار إلا للأمة التي أراد تعذيبها لكفرها بعد آية

الاستدلال ، كالناقة لثمود ، وآنسه تعالى بقوله ؛ إنما أنت نذير ، أي : الذي فوض إليك هو النذارة لا تحصيل هدايتهم ، فإن ذلك إنما هو لله تعالى .

وقال مقاتل : وقيل : كافل بالمصالح قادر عليها .

وقال ابن عطية : المحصي لإيمان من شاء ، وكفر من شاء .

قيل : وهذه الآية منسوخة ، وقيل : محكمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(95/374)

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾

من البينات الدالةِ على حقية نبوّتك المناديةِ بكونها من عند الله عز وجل لمن له أُذنٌ واعية ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ أي عارضٌ لك ضِيقُ صَدرٍ بتلاوته عليهم وتبليغِه إليهم في أثناء الدعوةِ والمُحاجّة ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ لأن يقولوا تعامِياً عن تلك البراهينِ التي لا تكاد تخفى صحّتُها على أحد ممن له أدنى بصيرةٍ ، وتمادياً في العِناد على وجه الاقتراح ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ ﴾ مالٌ خطيرٌ مخزونٌ يدل على صدقه ﴿ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ يصدّقه . قيل :

قاله عبدُ اللَّه بنُ أميةَ المخزوميُّ ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رؤساءَ مكةَ قالوا : يا محمد اجعل لنا جبالَ مكةَ ذهباً إن كنت رسولاً ، وقال آخرون : ائتِنا بالملائكة يشهدوا بنبوتك فقال : "لا أقدِر على ذلك" فنزلت فكأنه عليه الصلاة والسلام لما عاين اجتراءَهم على اقتراح مثلِ هذه العظائمِ ، غيرَ قانعين بالبينات الباهرةِ التي كانت تَضْطرّهم إلى القَبول لو كانوا من أرباب العقولِ وشاهدَ ركوبَهم من المكابرة مَتنَ كلّ صَعْبٍ وذَلولٍ مسارعين إلى المقابلة بالتكذيب والاستهزاءِ وتسميتِها سحراً مُثّل حالُه عليه الصلاة والسلام بحال من يُتوقّع منه أن يضيقَ صدرُه بتلاوة تلك الآيات الساطعةِ عليهم وتبليغِها إليهم فحُمل على الحذر منه بما في لعل من الإشفاق فقيل : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ ليس عليك إلا الإنذارُ بما أوحي إليك غيرَ مبالٍ بما صدر عنهم من الرد والقَبولِ ﴿ واللهُ على كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ يحفَظ أحوالَك وأحوالَهم فتوكلْ عليه في جميع أمورِك فإنه فاعلٌ بهم ما يليق بحالهم ، والاقتصار على النذير في أقصى غايةٍ من إصابة المَحزّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(96/374)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾

أي تترك تبليغ بعض ما يوحى إليك وهو ما يخالف رأي المشركين مخافة ردهم واستهزائهم به ، فاسم الفاعل للمستقبل ولذا عمل ، ولعل للترجي وهو يقتضي التوقع ولا يلزم من توقع الشيء وقوعه ولا ترجح وقوعه لجواز أن يوجد ما يمنع منه ، فلا يشكل بأن توقع ترك التبليغ منه صلى الله عليه وسلم مما لا يليق بمقام النبوة ، والمانع من ذلك فيه عليه الصلاة والسلام عصمته كسائر الرسل الكرام عليهم السلام عن كتم الوحي المأمور بتبليغه والخيانة فيه وتركه تقية ، والمقصود من ذلك تحريضه صلى الله عليه وسلم وتهييج داعيته لأداء الرسالة ، ويقال نحو ذلك في كل توقع نظير هذا التوقع ، وقيل : إن التوقع تارة يكون للمتكلم وهو الأصل لأن المعاني الإنشائية قائمة به ، وتارة للمخاطب ، وأخرى لغيره ممن له تعلق وملابسة به ، ويحتمل أن يراد هنا هذا الأخير ويجعل التوقع للكفار ، والمعنى أنك بلغ بك الجهد في تبليغهم ما أوحى إليك أنهم يتوقعون منك ترك التبليغ لبعضه ، وقيل : إن لعل هنا ليست للترجي بل هي للتبعيد ، وقد تستعمل لذلك كما تقول العرب : لعلك تفعل كذا لمن لا يقدر عليه ، فالمعنى لا تترك ، وقيل : إنها للاستفهام الإنكاري كما في الحديث " لعلنا أعجلناك " واختار السمين .

وغيره كونها للترجي بالنسبة إلى المخاطب على ما علمت آنفاً ، ولا يجوز أن يكون المعنى

كأني بك ستترك بعض ما أوحى إليك مما شق عليك بإذني ووحي مني ، وهو أن يرخص لك فيه كأمر الواحد بمقاومة عشرة إذ أمروا بمقاومة الواحد لاثنين وغير ذلك من التخفيفات لأنه وإن زال به الإشكال إلا أن قوله تعالى بعد أن يقولوا يأباه ، نعم قيل : لو أريد ترك الجدال بالقرآن إلى الجلاد .

والضرب .

(97/374)

والطعان لأن هذه السورة مكية نازلة قبل الأمر بالقتال صح لكن في "الكشف" بعد كلام : إعلم لو أخذت التأمل لاستبان لك أن مبنى هذا السورة الكريمة على إرشاده تعالى كبرياؤه نبيه صلى الله عليه وسلم إلى كيفية الدعوة من مفتتحها إلى مختتمها وإلى ما يعتري لمن تصدى لهذه الرتبة السنية من الشدائد واحتماله لما يترتب عليه في الدارين من العوائد لا على التسلي له عليه الصلاة والسلام فإنه لا يطابق المقام ، وانظر إلى الخاتمة الجامعة أعني قوله سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : 123] تقض العجب وهو يبعد هذه الإرادة إن قلنا : إن ذلك من باب التخفيف المؤذن بالتسلي فتأمله ، والضمير في قوله سبحانه : ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ ﴾ لما يوحي أن للبعض وهو الظاهر عند أبي

حيان ، وقيل : للتبليغ أو للتكذيب ، وقيل : هو مبهم يفسره أن يقولوا ، والواو للعطف ﴿ وَضَائِقٌ ﴾ قيل : عطف على ﴿ تَارِكٌ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ صَدْرَكَ ﴾ فاعله ، وجوز أن يكون الوصف خبراً مقدماً و ﴿ صَدْرَكَ ﴾ مبتدأ والجملة معطوفة على ﴿ تَارِكٌ ﴾ ، وقيل : يتعين أن تكون الواو للحال ، والجملة بعدها حالية لأن هذا واقع لا متوقع فلا يصح العطف ، ونظر فيه بأن ضيق صدره عليه الصلاة والسلام بذلك إن حمل على ظاهره ليس بواقع ، وإنما يضيق صدره الشريف لما يعرض له في تبليغه من الشدائد ، وعدل عن ضيق الصفة المشبهة إلى ضائق اسم الفاعل ليدل على أن الضيق مما يعرض له صلى الله عليه وسلم أحياناً ، وكذا كل صفة مشبهة إذا قصد بها الحدوث تحول إلى فاعل فتقول في

سيد .

وجواد .

وسمين مثلاً : سائد .

وجائد .

وسامن ، وعلى ذلك قول بعض اللصوص يصف السجن ومن سجن فيه

: بمنزلة أما اللئيم (فسامن) . . .

بها وكرام الناس باد شحوبها

وظاهر كلام البحر أن ذلك مقيس فكل ما يبنى من الثلاثي للثبوت والاستقرار على غير وزن فاعل يرد إليه إن أريد معنى الحدوث من غير توقف على سماع ، وقيل : إن العدول لمشاركة ﴿ تَارِكٌ ﴾ وليس بذلك .

﴿ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ ﴾ أي مال كثير ، وعبروا بالإنزال دون الإعطاء لأن مرادهم التعجيز بكون ذلك على خلاف العادة لأن الكنوز إنما تكون في الأرض ولا تنزل من السماء ، ويحتمل أنهم أرادوا بالإنزال الإعطاء من دون سبب عادي كما يشير إليه سبب النزول أي لولا أعطى ذلك ليتحقق عندنا صدقه .

﴿ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ يصدقه لنصدقه ، روي أنهم قالوا : اجعل لنا جبال مكة ذهباً أو ائتنا بملائكة يشهدون بنبوتك إن كنت رسولاً فنزلت ، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن كلاً من القولين قالته طائفة فقال عليه الصلاة والسلام : لا أقدر على ذلك فنزلت ، وقيل : القائل لكل عبد الله بن أمية المخزومي ، ووجه الجمع عليه يعلم مما مر غير مرة ، ومحل ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ نصب .

أو جر وكان الأصل كراهة .

أو مخافة ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ أو لئلا .

أو لأن .

أو بأن يقولوا ، ولوقوع القول قالوا : إن المضارع بمعنى الماضي ، و﴿ إن ﴾ المصدرية خارجة عن مقتضاها ، ورجحوا تقدير الكراهة على المخافة لذلك ، وقد يراد عند تقديرها مخافة أن يكرروا هذا القول ؛ واختار بعض أن يكون المعنى على الجميع أن يقولوا مثل قولهم لولا الخ فإن على مقتضاها ، ولا يرد شيء ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ أي ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى غير مبال بما يصدر عنهم ﴿ والله على كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أي قائم به وحافظ له فيحفظ أحوالك وأحوالهم فتوكل عليه في جميع أمورك فإنه فاعل بهم ما يليق بحالهم ، والاقتصار على النذير في أقصى غاية من إصابة المحز ، والآية قيل : منسوخة ، وقيل : محكمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(99/374)

وقال القاسمى :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾

أي : بتلاوته عليهم ، وتبليغه إليهم ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ أي : مخافة أن يقولوا ، تعامياً عن تلك البراهين التي لا تكاد تخفى صحتها على أحد ممن له أدنى بصيرة ، وتمادياً في العناد على وجه الاقتراح

﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ أي : هلا أنزل عليه ما اقترحنا من الكنز والملائكة ، زعماً أن الرسول متبوع ، لا بد له من الإنفاق على أتباعه ، ولا يتأتى مع عدم سلطنته إلا بإلقاء الكنز عليه ، أو مجيء ملك معه يصدق برسالته ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ أي : ليس عليك إلا الإنذار بما أوحي إليك ، غير مبال بما صدر منهم من الاقتراح : ﴿ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أي : فيحفظ ما يقولون ويجازيهم عليه ، فكل أمرك إليه ، وبلغ وحيه بقلب منشرح ، غير مبال بهم .

لطائف :

الأولى : قال القاشاني : لما لم يقبلوا كلامه صلى الله عليه وسلم بالإرادة ، وأنكروا قوله بالاقتراحات الفاسدة ، وقوله بالعناد والاستهزاء ، ضاق صدره ، ولم ينبسط للكلام ، إذ الإرادة تجذب الكلام ، وقبول المستمع يزيد نشاط المتكلم ، ويوجب بسطه فيه ، وإذا لم يجد المتكلم محلاً قابلاً لم يتسهل له ، وبقي كرباً عنده ، فشجعه الله تعالى بذلك ، وهيج قوته ونشاطه بقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ ، فلا يخلو إنذارك من إحدى الفائدتين : إما رفع الحجاب أن ينجع فيمن وفقه الله تعالى لذلك ، وإما إلزام الحجة لمن لم يوفق لذلك ، ثم كل الهداية إليه .

الثانية : لا يخفى أن (لعل) للترجي ، وهو وإن اقتضى التوقع ، إلا أنه لا يلزم من توقع الشيء

وقوعه ، ولا ترجح وقوعه ؛ لوجود ما يمنع منه وتوقع ما لا يقع منه ، المقصود تحريضه على تركه ، وتهييج داعيته .

(100/374)

وقيل : (لعل) هنا للتبعيد لا للترجي ، فإنها تستعمل كذلك ، كما تقول العرب : لعلك تفعل كذا ، لمن لا يقدر عليه . فالمعنى : لا تترك .

وقيل : إنها للاستفهام الإنكاري ، كما في الحديث : < لعلنا أعجلناك > .

وقيل : هي لتوقع الكفار ، فكما تكون لتوقع المتكلم ، وهو الأصل ؛ لأن معاني الإنشاءات قائمة به تكون لتوقع المخاطب أو غيره ، ممن له ملابسة بمعناه كما هنا . فالمعنى : إنك بلغت الجهد في تبليغهم أنهم يتوقعون منك ترك التبليغ لبعضه - كذا في " العناية " - .

الثالثة : إنما عدل عن (ضيق) الصفة المشبهة إلى (ضائق) اسم الفاعل ؛ ليدل على أنه ضيق عارض ، غير ثابت ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفسح الناس صدراً . وكذا كل صفة مشبهة إذا قصد بها الحدوث تحول إلى فاعل ، فيقولون في سيد : سائد ، وفي جواد : جائد ، وفي سمين : سامن ، قال :

~بمنزلة أما اللئيم فسامن بها وكرام الناس باد شحوبها

وظاهر كلام أبي حيان أنه مقيس . وقيل إنه لمشابهة (تارك) . ومنه يعلم أن المشاكلة قد تكون حقيقة - كذا في " العناية " - . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 80. 81 ﴾

(101/374)

وقال صاحب الميزان :

قوله تعالى : (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك) إلى آخر الآية ، لما كانت رساله النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما أيدت به من القرآن الكريم والآيات البينات والحجج والبراهين مما لا يسع لذى عقل إنكارها ولا لانسان صحيح المشاعر ردها والكفر بها كان ما حكى من كفر الكافرين وإنكار المشركين أمرا مستبعدا بحسب الطبع ، وإذا كان وقوع أمر على صفة من الصفات مستبعدا أخد الإنسان في تقرير ذلك الأمر من غير مجرى الاستبعاد طلبا للمخرج من نسبة الوقوع إلى ما يستبعده الطبع .

ولما كان المقام في الآية الكريمة هذا المقام وكان ما حكاه الله سبحانه من كفر المنكرين وإنكار المشركين لما جاء به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إليهم من الحق الصريح وما أنزل إليه من كلام الله تعالى مع ما يتلوه من البينات والحجج مما لا ينبغى أن يذعن به لبعده

طبعا بين تعالى لذلك وجها بعد وجه على سبيل الترجي فقال : (ولعلك تارك بعض ما يوحى اليك) الخ ،

(أم يقولون افتراه) الخ .

فكأنه قيل : من المستبعد أن تهديهم إلى الحق الواضح ويسمعوا منك كلامي ثم لا يستجيبوا دعوتك ويكفروا بالحق بعد وضوحه فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وغير داعيهم إليه ولذلك جبهوك بالانكار أم يقولون إن القرآن ليس من كلام الله بل هو افتراء افتريته على الله ولذلك لم يؤمنوا به .

فإن كنت تركت بعض الوحى خوفا من اقتراحهم عليك الآيات فإنما أنت نذير وليس لك إلا ما شاء الله ، وان يقولوا افتراه فقل لهم يأتوا بعشر سور مثله مفتريات (الخ) .

(102/374)

ومما تقدم يظهر أن ايراد الكلام مورد الترجي والاحتمال لرعاية ما يقتضيه المقام من طبع الاستبعاد فالمقام مقام الاستبعاد ومقتضاه ذكر كل سبب محتمل التأثير في الحادثة المستبعدة ، اعتبر ذلك في ملك ينتهى إليه تمرد بعض ضعفاء رعيته فيبعث بعض عماله إلى دعوتهم إلى السمع والطاعة ويكتب في ذلك كتابا يأمره أن يقرأه عليهم ويلومهم على تمردهم

واستكبارهم على ما بهم من الضعف والذلة ولمولاهم من القوة والسطوة والعزة ثم يبلغ الملك أنهم ردوا على رسوله ما بلغهم من قبله ، ويكتب إليه كتابا ثانيا يأمره بقراءته عليهم وإذا فيه : لعلك لم تقرأ كتابي عليهم مخافة أن يقترحوا عليك بما لا تقدر عليه أو أنهم زعموا أن الكتاب ليس من قبلي وإنما افتريته على افتراء فإن كان الأول فإنك رسول ليس عليك إلا البلاغ وان كان الثاني فإن الكتاب بخطي كتبته بيدي وختمت عليه بخاتمي ولا يقدر أحد غيري أن يقلدني في ذلك .

والتأمل في هذا المثال يعطي أن المقام فيما يتضمنه الكتاب الثاني من الخطاب مقام الاستبعاد وأن القصد من ذكر الاحتمالين ترك الابلاغ وزعم الافتراء ليس هو توبيخ الرسول جدا أو احتمال زعمهم الكذب والفرية جدا ، وإنما ذكر الوجهان لداعي أن يكونا كالمقدمة لذكر ما يزول به الشبهتان وهو أن الرسول ليس له من الأمر شئ حتى يقترح عليه بما يقترح ، وأن الكتاب للملك ليس فيه ريب ولا شك .

ومن هنا يظهر أن قوله تعالى : (فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك) الخ ، ليس يفيد الترجي الجدي ولا مسوقا لتوبيخ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا مرادا به تسليته وتطييب نفسه إثر ما كان يناله من الحزن والاسى بكفرهم وجحودهم لما أتى به من الحق الصريح بل الكلام مسوق ليتوصل به إلى ذكر قوله : (إنما أنت نذير والله على كل شئ وكيل) .

فما ذكره بعض المفسرين أن الكلام مسرود لنهى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الحزن وضيق الصدر بما كانوا يواجهونه به من الكفر والجحود ، والنهى نهى تسلية وتطييب للنفس نظير ما في قوله : (ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون) النحل : 127 ، وقوله : (لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) الشعراء : 4 كلام ليس في محله .

ويظهر أيضا أن قوله : (فلعلك تارك) الخ ، وقوله : (أم يقولون افتراه) الخ ، كشقى الترديد ويتصلان معا بما قبلهما من وجه واحد كما ذكرناه .

وقوله : (تارك بعض ما يوحى اليك) إنما ذكر البعض لأن الآيات السابقة متضمنة لتبليغ الوحى في الجملة أي لعلك تركت بعض ما أوحينا اليك من القرآن فما تلوته عليهم فلم ينكشف لهم الحق كل الانكشاف حتى لا يجبهوك بما جبهوك به من الرد والجحود ، وذلك أن القرآن بعضه يوضح بعضا وشطرا منه يقرب شطرا منه من القبول كايات الاحتجاج توضح الآيات المشتملة على الدعاوى ، وآيات الثواب والعقاب تقرب الحق من القبول بالتطميع والتخويف ، وآيات القصص والعبر تستميل النفوس وتلين القلوب .

وقوله : (وضائق به صدرك أن يقولوا) الخ ، قال في المجمع : ضائق وضيق بمعنى واحد إلا أن ضائق ههنا أحسن لوجهين : أحدهما : أنه عارض والاخر أنه أشكل بقوله تارك انتهى .

(104/374)

والظاهر أن ضمير (به) راجع إلى قوله : (بعض ما يوحى) وإن ذكر بعضهم أن الضمير راجع إلى قولهم : (لولا أنزل عليه كنز) الخ ، أو إلى اقتراحهم وهذا أوفق بكون قوله (أن يقولوا) الخ ، بدلا من الضمير في (به) وما ذكرناه أوفق بكونه مفعولا له لقوله : (تارك) والتقدير : لعلك تارك ذلك مخافة أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك .

وقوله : (إنما أنت نذير) جواب عن اقتراحهم بقولهم : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، وقد تكرر في مواضع من كلامه تعالى ذكر ما اقترحوه اقتصر في بعضها على ذكر مجئ الملك وزيد في بعضها عليه غيره كاقتراح الاتيان بالله سبحانه ليشهد على الرسالة وأن يكون له جنة يأكل منها وأن ينزل من السماء كتابا يقرءونه .

وقد أجاب الله سبحانه عنها جميعا بمثل ما أجاب به ههنا وهو أن رسوله ليس له إلا الرسالة فليس بيده وهو بشر رسول أن يجيبهم إلى ما اقترحوا به عليه إلا أن يشاء الله في

ذلك شيئا ويأذن في إتيان آية كما قال : (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) المؤمن : 78 .

ثم عقب قوله : (إنما أنت نذير) بقوله : (والله على كل شئ وكيل) لتتميم الجواب عن اقتراحهم على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالمعجزات ومحصله : أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بشر مثلهم ولم يؤمر إلا بالانذار وهو الرسالة بإعلام الخطر ، والقيام بالامور كلها وتدبيرها سواء كانت جارية على العادة أو خارقة لها إنما هو إلى الله سبحانه فلا وجه لتعلقهم بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما ليس إليه .

(105/374)

وذلك أن الله سبحانه هو الموجد للأشياء كلها وفاطرها وهو القائم على كل شئ فيما يجرى عليه من النظام فما من شئ إلا وهو تعالى المبدء في أمره وشأنه والمنتهى سواء الأمور الجارية على العادة والخارقة لها فهو تعالى الذى يسلم إليه أمره ويدبر شأنه فهو تعالى الوكيل عليه فإن الوكيل هو الذى يسلم إليه الأمر وينفذ فيه منه الحكم فهو تعالى على كل شئ وكيل .

وبذلك يظهر أن قوله : (والله على كل شئ وكيل) بمعونة من قوله : (إنما إنت نذير) يفيد

قصر القلب فإنهم سألوا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أمر اليس إليه وإنما هو إلى الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 10 صـ 158.162 ﴾

(106/374)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾

تفريع على قوله ﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ إِلَى قوله يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [هود : 7 ، 8] مِن ذكر تكذيبهم وعنادهم .

يشير هذا التّفريع إلى أنّ مضمون الكلام المفرع عليه سبب لتوجيه هذا التوقع لأنّ من شأن المفرع عليه اليأس من ارعوائهم لتكرر التكذيب والاستهزاء يأساً قد يَبْعَثُ على ترك دعائهم ، فذلك كله أفيد بفاء التفريع .

والتوقع المستفاد من (لعل) مستعمل في تحذير من شأنه التبليغ .

ويجوز أن يقدّر استفهام حذفت أداته .

والتقدير : أَلَعَلّكَ تارك .

ويكون الاستفهام مستعملاً في النفي للتحذير ، وذلك نظير قوله تعالى : ﴿ لَعَلّكَ بَاخِعٌ

نفسك ألاّ يكونوا مؤمنين ﴾ [الشعراء : 3] .

والاستفهام كناية عن بلوغ الحالة حداً يوجِبُ توقع الأمر المستفهَم عنه حتى أنّ المتكلّم يستفهم عن حصوله .

وهذا أسلوب يقصد به التحريك من همة المخاطب وإلهابُ همته لدفع الفتور عنه ، فليس في هذا تجويز ترك النّبيّء صلى الله عليه وسلم تبليغ بعض ما يوحى إليه ، وذلك البعض هو مّا فيه دعوتهم إلى الإيمان وإنذارهم بالعذاب وإعلامهم بالبعث كما يدل عليه قوله تعالى في آية أخرى ﴿ وإذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالوا لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا ﴾ [الأعراف : 203] .

والمعنى تحذيره من التأثّر بعنادهم وتكذيبهم واستهزائهم ، ويستتبع ذلك تأييسَ المشركين من تركه ذكر البعث والإنذار بالعذاب ، فالخطاب مستعمل في حقيقته ومراد منه مع ذلك علم السامعين بمضمونه .

﴿ وضائق ﴾ : اسم فاعل من ضاق .

وإنما عدل عن أن يقال (ضيّق) هنا إلى ﴿ ضائق ﴾ لمراعاة النظير مع قوله : (تارك) لأنّ ذلك أحسن فصاحة .

ولأنّ ﴿ ضائق ﴾ لاَ دَلالَة فيه على تمكّن وصف الضّيْق من صدره بخلاف ضيّق ، إذ هو صفة مشبهة وهي دالة على تمكن الوصف من الموصوف ، إيماء إلى أنّ أقْصَى ما يتوهّم توقعه في جانبه صلى الله عليه وسلم هو ضَيْق قليل يعرض له .

والضيق مستعمل مجازاً في الغم والأسف ، كما استعمل ضده وهو الانشراح في الفرح والمسرة .

و ﴿ ضائق ﴾ عطف على ﴿ تارك ﴾ فهو وفاعله جملة خبر عن (لعلّك) فيتسلط عليه التفريع .

والباء في ﴿ بِه ﴾ للسببية ، والضمير المجرور بالباء عائد على ما بعده وهو ﴿ أن يقولوا ﴾ .

و ﴿ أن يقولوا ﴾ بدل من الضمير .

ومثل ذلك مستعمل في الكلام كقوله تعالى : ﴿ وأسروا النّجْوَى الّذينَ ظَلَموا ﴾ [الأنبياء : 3] ، فيكون تحذيراً من أن يضيق صدره لاقتراحهم الآيات بأن يقولوا : ﴿ لولا أنزل عليه كنزٌ أو جاء معه ملكٌ ، ويحصل مع ذلك التحذير من أن يضيق صدره من قولهم : ﴿ إن هذا إلاّ سِحْرٌ مبِين ﴾ [هود : 7] ، ومن قولهم : ما يَحْبس العذاب عنا ، بواسطة كون ﴿ ضائق ﴾ داخلاً في تفريع التحذير على قولَيْهم السّابقَيْن .

وإنما جيء بالضمير ثم أبدل منه لقصد الإجمال الذي يعقبه التفصيل ليكون أشد تمكّناً في

الذهن ، ولقصد تقديم المجرور المتعلق باسم الفاعل على فاعله تنبيهاً على الاهتمام بالمتعلّق لأنّه سبب صدور الفعل عن فاعله فجيء بالضمير المفسر فيما بعدُ لما في لفظ التفسير من الطول ، فيحصل بذكره بُعد بين اسم الفاعل ومرفوعه ، فلذلك اختصر في ضمير يعود عليه ، فحصَل الاهتمام وقُوّيَ الاهتمام بما يدل على تمكنه في الذهن .

ومعظم المفسرين جعلوا ضمير ﴿ به ﴾ عائداً إلى ﴿ بعض ما يوحى إليك ﴾ .

على أن ما يوحى إليه سبب لضيق صدره ، أي لا يضيق له صدرك ، وجعلوا ﴿ أن يقولوا ﴾ مجروراً بلام التعليل مقدرة .

وعليه فالمضارع في قوله : ﴿ أن يقولوا ﴾ بمعنى المضي لأنهم قالوا ذلك .

واللام متعلقة بـ ﴿ ضائق ﴾ وليس المعنى عليه بالمتين .

(108/374)

و ﴿ لولا ﴾ : للتحضيض ، والكنز : المال المكنوز أي المخبوء .

وإنزاله : إتيانه من مكان عَال أي من السماء .

وهذا القول صدر من المشركين قبل نزول هذه الآية فلذلك فالفعل المضارع مراد به تجدد هذا القول وتكرره منهم بقرينة العلم بأنه صدر منهم في الماضي ، وبقرينة التحذير من أن

يكون ذلك سبباً في ضيق صدره لأن التحذير إنما يتعلق بالمستقبل .

ومرادهم بـ ﴿ جاء معه ملك ﴾ أن يجيء ملك من الملائكة شاهداً برسالته ، وهذا من جهلهم بحقائق الأمور وتوهمهم أنّ الله يعبأ بإعراضهم ويتنازل لإجابة مقترح عنادهم ، ومن قصورهم عن فهم المعجزات الإلهية ومَدى التأييد الربّاني .

وجملة ﴿ إنّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ﴾ في موقع العلّة للتحذير من تركه بعض ما يوحى إليه وضيق صدره من مقالتهم .

فكأنه قيل لا تترك إبلاغهم بعض ما يوحى إليك ولا يضق صدرك من مقالهم لأنك نذيرٌ لاَ وَكيل على تحصيل إيمانهم ، حتى يترتب على يأسك من إيمانهم تركُ دعوتهم .

والقصر المستفاد من ﴿ إنما ﴾ قصر إضافي ، أي أنت نذير لا موكّل بإيقاع الإيمان في قلوبهم إذ ليس ذلك إليك بل هو لله ، كما دلّ عليه قوله قبله ﴿ فَلَعَلّكَ تَارِكٌ بعضَ مَا يوحَى إلَيْكَ وَضَائِقٌ بِه صَدْرُكَ ﴾ فهو قصر قلب .

وفيه تعريض بالمشركين برد اعتقادهم أنّ الرسول يأتي بما يُسأل عنه من الخوارق فإذا لم يأتهم به جعلوا ذلك سنداً لتكذيبهم إيّاه رداً حاصلاً من مستتبعات الخطاب ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إلَيْكَ ﴾ إذ كثر في القرآن ذكر نحو هذه الجملة في مقام الردّ على المشركين والكافرين الذين سألوا الإتيان بمعجزات على وفق هواهم .

وجملة ﴿ وَاللّه عَلَى كُلّ شَيْء وَكِيل ﴾ تذييل لقوله : ﴿ فَلَعَلّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إلَيْكَ

﴿ إلى هنا ، وهي معطوفة على جملة ﴿ إنما أنت نذير ﴾ لما اقتضاه القصر من إبطال أن يكون وكيلاً على إلجائهم للإيمان .

(109/374)

ومما شمله عموم ﴿ كل شيء ﴾ أن الله وكيل على قلوب المكذبين وهم المقصود ، وإنما جاء الكلام بصيغة العموم ليكون تذييلاً وإتياناً للغرض بما هو كالدّليل ، ولينتقل من ذلك العموم إلى تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله مطلع على مكر أولئك ، وأنه وكيل على جزائهم وأن الله عالم ببذل النبي جهده في التبليغ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(110/374)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾

وهنا نجد الحق سبحانه يأتي بصيغة الاستفهام في قوله تعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾ [هود : 12] .

وهو استفهام في معرض النهي .

ولله المثل الأعلى أنت قد تقول لابنك لتحثَّه على الاجتهاد : " لعلَّك سُررت من فشل فلان " وفَحْوَى هذا الخطاب ، استفهام في معرض النهي ، وهو استفهام يحمل الرجاء .

وهنا تجد أن الراجي هو ربك سبحانه وتعالى الذي أرسلك بالدعوة .

ولذلك يأتي قول الحق سبحانه مُبيّناً : لا يضيق صدرك يا رسول الله من هؤلاء المتعنتين ، الذين يريدون أن يخرجوك عن مقامك الذي تلحُّ دائماً في التأكيد عليه ، فأنت تؤكد لهم دائماً أنك بشرٌ ، وكان المفروض فيهم أن تكون مطلوباتهم منك على مقدار ما أقررت على نفسك ، فأنت لم تَقُلْ أبداً عن نفسك إنك إله ، ليطلبوا منك آيات تُخالف النواميس ، بل أنت مُبلِّغ عن الله تعالى .

وإياك أن يضيق صدرك فلا تُبلغهم شيئاً مما أنزِلَ إليك ؛ لأن البلاغَ هو الحُجَّة عليهم ، فلو ضاق صدرُك منهم ، وانقصتَ البلاغ الموكَّل إليك ؛ لأنهم كلما أبلغوا بآية كذَّبوها ، فاعلمْ أن الله سبحانه وتعالى سوف يزيد عقابهم بقدر ما كذَّبوا .

وكلمة " ضائق " اسم فاعل ، ويعني أن الموصوف به لن يظل محتفظاً بهذه الصفة لتكون لازمة له ، ولكنها تعبِّر عن مرحلة من المراحل ، مثلما نقول : " فلان نَاجِر " أي : أنه قادر على القيام بأعمال النجارة مرَّة واحدة أو قليلاً ولا يحترف هذا العمل .

وكذلك كلمة " ضائق " وهي تعبِّر في مرحلة لا أكثر مِنْ فَرْط ما قابلوا الرسول صلى الله عليه وسلم من إنكار ، وما طالبوا به من أشياء تخرج عن نطاق إنسانيته ، فقد طالبوا هنا أن ينزل عليه كَنْزٌ .

(111/374)

وقد جاء الحق سبحانه بذكر مسألة الكنز ؛ ليدلنا على مدى ما عندهم من قيم الحياة ، فقيمة القيم عندهم تركزَّتْ في المال ؛ ولذلك تمنَّوا لو أن هذا القرآن قد نزل على واحد من الأثرياء ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] .

إذن : فلم يكن اعتراضهم على القرآن ، بل على مَنْ نزل عليه القرآن . وفي الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، طلبوا أن ينزل إليه كَنْزٌ ، وقد ظنوا أن الثراء سيلهيه هو ومَنْ معه عن الدعوة إلى الله تعالى ونسوا أنهم قد عرضوا الثروة عليه من قبل .

وهكذا وضح لمن عرض عليه هذا الأمر أن مسألة الكنز لا تشغله صلى الله عليه وسلم .

والكَنْزُ لغويّاً هو الشيء المجتمع ، فإن كانت الماشية مثلاً مليئة باللحم يقال لها : " مُكْتَنِزَةٌ لحماً " ولكن كلمة " الكنز " أطلقت على الشيء الذي هو ثمن لأي شيءٍ ، وهو الذهب .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : 34] .

ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين الرزق المباشر والرزق غير المباشر ، فالرزق الغير مباشر هو ما تنتفع به ، طعاماً أو شراباً ، وهناك شيء يأتي لك بالرزق الغير مباشر ؛ لكنه لا يُغني عن الرزق المباشر المستمر .

فلو أن إنساناً في صحراء ومعه قناطير مقنطرة من الذهب ، ولا يجد طعاماً ولا شربة ماء ، ماذا يفعل له الذهب " ولو عرض عليه إنسانٌ آخر رغيف خبز وشربة ماء مقابل كل ما يملك من ذهب لوافق على الفور . وهنا لا يكون التقييم أن قنطار الذهب مقابل الرغيف وشربة الماء ، ولكن قنطار الذهب هنا مقابل استمرار الحياة وضرورة الحاجة .

(112/374)

إذن : معنى كلمة "كنز " هو نقد من الذهب والفضة مجتمعاً ، ويقال عنه بالعامية عندنا في مصر : " نقود تحت البلاطة " ، ولكن إذا أدَّى صاحب هذا النقد حقَّ الله تعالى فيما ادَّخره ، لا يُعتبر كَنْزاً ؛ لأن الشرط في الكَنْزِ أن يكون مَخفيّاً ، والزكاة التي تُخرَج من المال

المدَّخر توضح للمجتمع أن صاحب المال لا يُخفى ما عنده .

ولذلك لا يُسمَّى الكَنْزُ إلاَّ للشيء المجتمع وممنوع منه حق الله تعالى ، فإنْ أدَّى حقُّ الله سبحانه فقد رُفعَتْ عنه الكَنزية ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : 34] .

ومن هذا القول الكريم نفهم أن مَنْ يملك مالاً ويؤدِّي حقَّ الله فيه ، لا يُعتبر كَنْزاً ، وحين تُنقِص الزكاةُ المالَ في ظاهر الأمر ، فهي تدفع الإنسان إلى أن يُحْسِن استثمار هذا المال ؛ حتى لا يفقده على مدار أربعين عاماً ، بحكم أن زكاة المال هي اثنان ونصف في المائة ؛ ولذلك يحاول صاحب المال أن يُثمِّره ، وهو بذلك يُهيِّيء فرصة لغير واجدٍ وقادرٍ لأن يعمل ، وبذلك تقلُّ البطالة .

وقد تكون أنت صاحب المال ؛ لكنك لا تفهم أسرار التجارة والصناعة ، فتشارك مَنْ يفهم في التجارة أو الصناعة ، وبذلك تفتح أبواب فرص عمل لمن لا عمل له وقادر على إدارة العمل .

(113/374)

هذه هي إرادة الحق سبحانه وتعالى في أن يجعل من تكامل المواهب نماءً وزيادة ، تكامل مواهب الوَجْد النقود ومواهب الجَهْد ، وبين الوجد والجهد تنشأ الحركة ، ويتفق صاحب المال مع صاحب الجهد على نسب الربح حسب العرض والطلب ؛ لأن كل تبادل إنما يخضع لهذا الأمر العرض والطلب لأن مثل هذا التعاون بين الواجد والقادر ينتج سلعة ، والسلعة لا هَوًى لها ، ولكن من يملك السلعة ومن يشتري السلعة لهما هوى ، فمالكُ السلعة يرغب في البيع بأعلى سعر ، ومن يرغب في شراء السلعة يريدها بأقل سعر ، لكن السلعة نفسها لا هوى لها .

وما دام العرض والطلب هو الذي يتحكَّم في السلع ، فهذا توازن في ميزان الاقتصاد .

وعلى سبيل المثال : إن عُرضت اللحوم بسعر مرتفع ، فكبرياء الذات في النفس البشرية تدفع غير القادر لأن يقول : إن تناول اللحم يرهقني صحيّاً . ويتجه إلى الأطعمة الأخرى التي يقدر على ثمنها ؛ لأن السلعة هي التي تتحكم ، أما إذا تدخل أحدٌ في تسعير السلع ، بأن اكتنز المال ، ولم يخرجه للسوق لاستثماره ، حينئذ تختفي قدرة الحركة لصاحب المال ، ولا يجد صاحب الموهبة مجالاً لإتقان صنعته .

وقول الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية :

﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ [هود : 12] .

فكلمة " لولا " كما نعلم للتمني ، وهم تمنوا الكنز أولاً ، ثم طلبوا مجيء مَلَك ، وكيف ينزل

المَلَك ؟ أينزل على خِلقته أم على خِلْقته بأن يتجسد على هيئة رجل ؟

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴾ [الأنعام : 9] .

وإن نزل المَلَك على هيئة رجل فكيف يتعرَّفون إلى أصله كمَلَك ؟ وهذا غباء في الطلب .

وأيضاً قال الحق سبحانه وتعالى :

(114/374)

﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً * قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 9495] .

ولو أنزله الحق سبحانه مَلَكاً فسوف يكون من نفس طبيعتهم البشرية ، وسوف يلتقي بهم ويتكلم معهم ، ولن يستطيعوا تمييزه عن بقية الناس وسوف يُكذِّبونه أيضاً .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه رَدًّا له عن هذا الطلب :

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ [هود : 12] .

وهذا الكلام موجَّه من الله سبحانه للرسول صلى الله عليه وسلم ليُلقِّنه الحجة التي يرد بها

عليهم ، وقد قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه إنه نذير وبشير ، وقد طلب غيركم الآيات ، وحين جاءت الآيات التي طلبوها لم يؤمنوا ، بل ظلُّوا على تكذيبهم ؛ فنكَّل الحق سبحانه بهم .

إذن : فالعناد بالكفر لا ينقلب إلى إيمان بمجرد نزول الآيات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء : 59] .

أي : أن الآيات التي طلبها الكافرون لم يأت بها الله سبحانه ؛ لأن الأولين قد كذَّبوا بها ؛

ولذلك يبلغ الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم هنا بقوله :

﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ [هود : 12] .

وهو صلى الله عليه وسلم قد نزل عليه القرآن بالنذارة والبشارة .

ويُنهي الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

﴿ واللهُ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود : 12] .

(115/374)

وأنت حين توكِّل إنساناً في البيع والشراء والهِبَة والنَّقل ، وله حرية التصرف في كل ما خصك ، وترقب سلوكه وتصرُّفه ، فإنْ أعجبك ظللتَ على تمسكك بتوكيله عنك ، وإن لم

يعجبك تصرُّفه فأنت تُلْغي الوكالة ، هذا في المجال البشري ، أما وكالة الله سبحانه وتعالى على الخَلْق فهي باقية أبداً ، وإن أبى الكافرون منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(116/374)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ ﴾ : الأحسنُ أن تكونَ على بابها من الترجّي بالنسبة إلى المخاطب . وقيل : هي للاستفهام كقوله عليه السلام : " لعلنا أعجلناك "

قوله : ﴿ وَضَائِقٌ ﴾ نسقٌ على " تارك " . وعَدَلَ عن " ضيّق " وإن كان أكثر من " ضائق " قال الزمخشري : " ليدلَّ على أنه ضيّق عارضٌ غيرُ ثابت ، ومثلُه سَيِّد وجَواد ، فإذا أردْتَ الحدوثَ قلت : سائدٌ وجائد " . قال الشيخ : " وليس هذا الحكمُ مختصاً بهذه الألفاظ ، بل كلُّ ما بُني من الثلاثي للثبوتِ والاستقرارِ على غير فاعِل رُدَّ إليه إذا أريد به معنى الحدوث تقول : حاسِن وثاقِل وسامِن في حَسُن وثَقُل وسَمُنَ " وأنشد :

2638 بمنزلةٍ أمَا اللئيمُ فسامِنٌ . . . بها وكرامُ الناسِ بادٍ شُحوبُها

وقيل : إنما عَدَل عن ضيِّق إلى ضائق ليناسب وزن تارك .

والهاءُ في " به " تعود على " بعض " . وقيل : على " ما " . وقيل : على التكذيب . و " صدرُك " فاعل ب " ضائق " . ويجوز أن يكون " ضائقٌ " خبراً مقدماً ، و " صدرك " مبتدأٌ مؤخرٌ ، والجملة خبرٌ عن الكاف في " لعلك " ، فيكون قد أخبر بخبرين ، أحدهما مفرد ، والثاني جملة عُطِفت على مفرد ، إذ هي بمعناه ، فهو نظير : " إنَّ زيداً قائم وأبوه منطلق " ، أي : إن زيداً أبوه منطلق .

قوله : ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ في محلِّ نصبٍ أو جرٍّ على الخلاف المشهور في " أنْ " بعد حَذْف حرف الجر أو المضاف ، تقديره : كراهة أو مخافة أَنْ يقولوا ، أو لئلا يقولوا ، أو بأن يقولوا .

وقال أبو البقاء : " لأن يقولوا ، أي : لأَنْ قالوا ، فهو بمعنى الماضي " وهذا لا حاجة إليه ، وكيف يدعى ذلك فيه ومعه ما هو نصٌّ في الاستقبال وهو الناصب ؟ و " لولا " تحضيضيةٌ ، وجملةُ التحضيضِ منصوبةٌ بالقول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 293 . 294 ﴾

(117/374)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى لعل)

وهو حرف ينصب الاسم ويرفع الخبر .

وقيل : قد ينصبهما ، وزُعم أَنه لغة لبعض العرب ، وحكوا : لعلَّ أَباك منطلقاً ، وتأْويله عند الجمهور على إِضمار يوجد ، وعند الكسائى على إِضمار يكون .

وبنو عُقَيل يخفضون بها المبتدأ كقول كعب بن سعد الغَنَوىّ :

*ودَاعٍ دعا هل من مجيب إِلى النَّدى * فلم يستجبه عند ذاك مجيب*

*فقلت ادعُ أُخرى وارفعِ الصوت جهرةً * لعلَّ أَبى المغوار منك قريب*

ويروى لعلَّ أَبا المغوار ورُوى : يا من يجيب إِلى النّدا .

ويتصل بلعَلَّ ما الحرفيّة فيكفها عن العمل ؛ وجوَّز قوم إِعمالها حينئذ حملاً على ليت لاشتراكهما فى أَنهما يُغيّران معنى الابتداء .

وفى لَعلَّ لغات كثيرة : عَلَّ ، علِّ ، لعلَّ ، لعلِّ ، لعَلَّتَ ، لعاً ، رعَنَّ ، رغَنَّ ، رعَلَّ ، لعَنَّ ، لغَنَّ ، لأَنَّ عَنَّ ، أَنَّ ، لَوَنَّ .

وعن ابن السكيت : لعَلِّى ، ولعلَّنى ، ولعَلِّنى وعَلِّى ، عَلَّنِى ولأَنِّى ، ولأَنَّنِى ولَوِنِّى ورَعَنِّى ورَغَنِّى ولَغَنِّى ولعَنَّنِى .

ولها معان :

أَحدها : التوقُّع وهى ترجِّى المحبوب ، والإِشفاق من المكروه ؛ نحو : لعلَّ الحبيب مواصل ، ولعل الرقيب حاصل .

ويختص بالممكن .

وأَمَّا قول فرعون : ﴿ أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ ﴾ فإِنما قاله جاهلاً أَو مَخْرَقة وإِفْكًا .

والثانى : التعليل .

أَثبته جماعة ، وحملوا عليه قوله تعالى : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ ، ومن لم يثبته يحمله على الرجاء ويصرفه إِلى المخاطبين ، أَى اذهبا على رجائكما .

الثالث : الاستفهام أَثبته الكوفيُّون ، ولهذا عُلِّق بها الفعل فى نحو : ﴿ لاَ تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ ونحو : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ .

ويقترن خبرها بأَنْ كثيرا حملاً على عسى ؛ كقوله :

* لعلك يوم أَن تلمَّ ملمَّة *

(118/374)

وبحرف التنفيس قليلا كقوله :

*فقولا لها قولا رقيقا لعلّها * سترحمنى من زفرةٍ وعويل*

ولا

يمتنع كون خبرها فعلاً ماضياً ، نحو قوله صلَّى الله عليه وسلم : "وما يدريك لعلّ الله اطَّلع على أَهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ ﴾ أَى يظنُّ بك الناس [ذلك] .

وقوله : ﴿ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أَى اذكروا الله راجين الفلاح .

وقوله تعالى فيما ذكر عن قوم فرعون : ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ ﴾ فذلك طمع منهم فى فرعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 432.433 ﴾

(119/374)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ ﴾ .

اقترحوا عليه أن يأتي بكتاب ليس فيه سَبُّ آلهتهم ، وبيَّن الله – سبحانه – له ألا يترك تبليغ

ما أُنزِل عليه لأجْلِ كراهتهم ، ولا يُبدّلَ ما يُوحَى إليه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ .

وهذا على وجه الاستبعاد ؛ أي لا يكون منك تركُ ما أُوحِيَ إليك ، ولا يضيق صَدرُك بما يبدو من الغيب . . . ومَنْ شرح الله بالتوحيد صدرَه ، ونوَّر بشهود التقدير سِرَّه –متى يلحقه ضيق صدْرٍ أو استكراهُ أَمْرٍ ؟ ثم قال : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ : أي أنت بِالإرسال منصوبٌ ، وأحكامُ التقدير عليكَ مُجْرَاةٌ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 127.128 ﴾

(120/374)

قوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (13) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانوا ذوو الهمم العوال ، لا يصوبون إلى الكنوز والأموال ، وكان الملك إنما يراد لتطييب النفس بتثبيت الأمر .

وكان فيما يشهد به إعجاز القرآن ببديع نظمه وباهر حكمه وحكمه وزاجر غرائبه ووافر علمه ما يغني عن ذلك ، وكان في كل آية منه ما يبين للفهم سفساف قدحهم في الرسالة ، كان موضع الإنكار له ، فكان كأنه قيل : أيقولون ذلك تعنتاً منهم واقتراحاً وإعراضاً عن معجز القرآن فأعرض عنه فإنه لا يضر في وجه الدليل ﴿ أم يقولون ﴾ أي مكررين ﴿ افتراه ﴾ فكان ذلك موضع أن يقال : نعم ، إنهم ليقولون ذلك فيقدحون في الدليل فماذا يقال لهم ؟ فقيل : ﴿ قل ﴾ أي لهم على سبيل التنزل ﴿ فأتوا ﴾ يا معاشر العرب فإنكم مثلي في العربية واللسان والمولد والزمن وفيكم من يزيد عليَّ بالكتابة والقراءة ومخالطة العلماء والتعلم من الحكماء ونظم الشعر واصطناع الخطب والنثر وتكلف الأمثال وكل ما يكسب الشرف والفخر ﴿ بعشر سور ﴾ أي قطع ، كل قطعة منها تحيط بمعنى تام يستدل فيها عليه ﴿ مثله ﴾ أي تكون العشر مثل جميع القرآن في طوله وفي مثل احتوائه على أساليب البلاغة وأفانين العذوبة والمتانة والفحولة والرشاقة حال كونها ﴿ مفتريات ﴾ أي أنكم قد عجزتم عن الإتيان بسورة أي قطعة واحدة آية أو آيات من مثله فيما هو عليه من البلاغة والإخبار بالمغيبات والحكم والأحكام والوعد والوعيد والأمثال وادعيتم مكابرة أنه مفترى فارغ عن الحكم فأتوا بعشر مثله في مجرد البلاغة غير ملزمين بحقائق المعاني وصحة

المباني – ذكره البغوي عن المبرد ، وقد مضى في البقرة عند ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ عن الجاحظ وغيره ما يؤيده ؛ قال أبو حيان : وشأن من يريد تعجيز شخص أن يطالبه أولاً بأن يفعل أمثالاً مما يفعل هو ، ثم إذا تبين عجزه قال : افعل مثلاً واحداً – انتهى .

(121/374)

فكأنهم تحدوا أولاً بجميع القرآن في مثل قوله : ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ [الطور : 34] أي في التحتم والتطبيق على الوقائع وما يحدث ويتجدد شيئاً في إثر شيء ثم قطع بعد عجزهم بدوام عجزهم في قوله تعالى : ﴿ قل لو اجتمعت الإنس والجن ﴾ [الإسراء : 88] تبكيتاً لهم وإخزاء وبعثاً على ذلك وإغراء ، ثم تحدوا في سورة يونس عليه السلام بسورة واحدة مثل جميع القرآن غير معتنين فيها بالتفصيل إلى السور تخفيفاً عليهم واستهانة بأمرهم ، فلما عجزوا تحدوا بعشر مفتراه ، ولما خفف عنهم التقيد بصدق المعنى وحقيقة المباني ، ألزمهم بما خففه عنهم في يونس من التفصيل ولم يخلهم من التخفيف إشارة إلى هوان أمرهم واحتقار شأنهم بأن جعلها إلى عشر فقط ، فلما عجزوا أعيد في المدينة الشريفة لأجل أهل الكتاب تحديهم بسورة ، أي قطعة واحدة مقروناً ذلك بالإخبار بدوام عجزهم عن ذلك في قوله تعالى في البقرة

﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ [البقرة : 24] ، فالمتحدى به في كل سورة غير المتحدى به في الأخرى ، وقد مضى في يونس والبقرة ويأتي في سبحان والطور إنشاء الله تعالى ما يتم به فهم هذا المقام ، والبلاغة ثلاث طبقات فأعلاها معجز ، وأوسطها وأدناها ممكن ، والتحدي وقع بالعليا ، وليس هذا أمراً بالافتراء لأنه تحدّ فهو للتعجيز وقوله : ﴿ وادعوا من استطعتم ﴾ أي طلبتم أن يطيعكم ففعل ، ولما كانت الرتب كلها تحت رتبته تعالى والعرب مقرة بذلك قال : ﴿ من دون الله ﴾ أي الملك الأعلى .

وأشار إلى عجزهم بقوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ وفي ذلك زيادة بيان وتثبيت للدليل ، فإن كل ظهير من سواهم دونهم في البلاغة ، فعجزهم عجز لغيرهم بطريق الأولى .

(122/374)

ولما كان أدنى درجات الافتراء إتيان الإنسان بكلام غيره من غير علمه ، وكان عجزهم عن المعارضة دليلاً قاطعاً على أنهم لم يصلوا إلى شيء من كلامه تعالى بغير علمه ولا وجدوا مكافئاً له يأتيهم بمثله ثبت قطعاً أن هذا القرآن غير مفترى ، فقال تعالى مخاطباً للجميع بخلاف ما في القصص إشارة إلى وضوح الأمر لا سيما في الافتراء عند كل أحد وأن المشركين قد وصلوا من ذل التبكيت بالتحدي مرة بعد مرة وزورهم لأنفسهم في ذلك

المضمار كرة في أثر كرة إلى حد من العجز لا يقدرون معه على النطق في ذلك ببنت شفة :

﴿ فإن لم يستجيبوا لكم ﴾ أي يطلبوا إجابتكم ويوجدوها ﴿ فاعلموا ﴾ أيها الناس كافة ﴿ أنما أنزل ﴾ أي ما وقع إنزال هذا القرآن خاصة إلا ملتبساً ﴿ بعلم الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً بمقتضى أن محمداً واحد منهم تمع العادة أن يعثر دون جميع أهل الأرض على ما لم يأذن فيه ربه من كلامه فضلاً عن أن يكون مخترعاً له ، ويجوز أن يكون ضمير ﴿ يستجيبوا ﴾ ل " من " ﴿ من استطعتم ﴾ و ﴿ لكم ﴾ للمشركين ، وكذا في قوله : فاعلموا و ﴿ أنتم ﴾ ﴿ وأن ﴾ أي واعلموا أن ﴿ لا إله إلا هو ﴾ فإنه لو كان معه إله آخر لكافأة في الإتيان بمثل كلامه وفيه تهديد وإقناط من أن يجيرهم من بأس الله آلهتهم . ولما كان هذا دليلاً قطعياً على ثبوت القرآن ، سبب عنه قوله مرغباً مرهباً : ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ أي منقادون أتم انقياد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 510 . 512 ﴾

(123/374)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾

اعلم أن القول لما طلبوا منه المعجز قال معجزي هذا القرآن ولما حصل المعجز الواحد كان طلب الزيادة بغياً وجهلاً ، ثم قرر كونه معجزاً بأن تحداهم بالمعارضة ، وتقرير هذا الكلام بالاستقصاء قد تقدم في البقرة وفي سورة يونس وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

الضمير في قوله : ﴿ افتراه ﴾ عائد إلى ما سبق من قوله : ﴿ يوحى إِلَيْكَ ﴾ أي إن قالوا إن هذا الذي يوحى إليك مفترى فقل لهم حتى يأتوا بعشر سور مثله مفتريات وقوله مثله بمعنى أمثاله حملا على كل واحد من تلك السور ولا يبعد أيضاً أن يكون المراد هو المجموع ، لأن مجموع السور العشرة شيء واحد .

المسألة الثانية :

قال ابن عباس : هذه السورة التي وقع بها هذا التحدي معينة ، وهي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة ويونس وهود عليهما السلام ، وقوله : ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ إشارة إلى السور المتقدمة على هذه السورة ، وهذا فيه إشكال ، لأن هذه السورة مكية ، وبعض السور المتقدمة على هذه السورة مدنية ، فكيف يمكن أن يكون المراد من هذه العشر سور التي ما نزلت عند هذا الكلام ، فالأولى أن يقال التحدي وقع بمطلق السور التي يظهر فيها قوة تركيب الكلام وتأليفه .

واعلم أن التحدي بعشر سور لا بد وأن يكون سابقاً على التحدي بسورة واحدة ، وهو مثل أن يقول الرجل لغيره أكتب عشرة أسطر مثل ما أكتب ، فإذا ظهر عجزه عنه قال : قد اقتصرت منها على سطر واحد مثله .

(124/374)

إذا عرفت هذا فنقول : التحدي بالسورة الواحدة ورد في سورة البقرة ، وفي سورة يونس كما تقدم ، أما تقدم هذه السورة على سورة البقرة فظاهر ، لأن هذه السورة مكية وسورة البقرة مدنية ، وأما في سورة يونس فالإشكال زائل أيضاً ، لأن كل واحدة من هاتين السورتين مكية ، والدليل الذي ذكرناه يقتضي أن تكون سورة هود متقدمة في النزول على سورة يونس حتى يستقيم الكلام الذي ذكرناه .

المسألة الثالثة :

اختلف الناس في الوجه الذي لأجله كان القرآن معجزاً ، فقال بعضهم : هو الفصاحة ، وقال بعضهم : هو الأسلوب ، وقال ثالث : هو عدم التناقض ، وقال رابع : هو اشتماله على العلوم الكثيرة ، وقال خامس : هو الصرف ، وقال سادس : هو اشتماله على الإخبار عن الغيوب ، والمختار عندي وعند الأكثرين أنه معجز بسبب الفصاحة ، واحتجوا على

صحة قولهم بهذه الآية لأنه لو كان وجه الإعجاز هو كثرة العلوم أو الأخبار عن الغيوب أو عدم التناقض لم يكن لقوله : ﴿ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ معنى أما إذا كان وجه الإعجاز هو الفصاحة صح ذلك لأن فصاحة الفصيح تظهر بالكلام ، سواء كان الكلام صدقاً أو كذباً ، وأيضاً لو كان الوجه في كونه معجزاً هو الصرف لكان دلالة الكلام الركيك النازل في الفصاحة على هذا المطلوب أوكد من دلالة الكلام العالي في الفصاحة ثم إنه تعالى لما قرر وجه التحدي قال : ﴿ وادعوا مَنِ استطعتم مّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ والمراد إن كنتم صادقين في ادعاء كونه مفترى كما قال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ .

واعلم أن هذا الكلام يدل على أنه لا بد في إثبات الدين من تقرير الدلائل والبراهين ، وذلك لأنه تعالى أورد في إثبات نبوة محمد عليه السلام هذا الدليل وهذه الحجة ، ولولا أن الدين لا يتم إلا بالدليل لم يكن في ذكره فائدة .

(125/374)

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14) ﴾

اعلم أن الآية المتقدمة اشتملت على خطابين : أحدهما : خطاب الرسول ، وهو قوله :

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ والثاني : خطاب الكفار وهو قوله : ﴿ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله ﴾ [هود : 13] فلما أتبعه بقوله : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ احتمل أن يكون المراد أن الكفار لم يستجيبوا في المعارضة لتعذرها عليهم ، واحتمل أن من يدعونه من دون الله لم يستجيبوا ، فلهذا السبب اختلف المفسرون على قولين : فبعضهم قال : هذا خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، والمراد أن الكفار إن لم يستجيبوا لكم في الإتيان بالمعارضة ، فاعلموا أنما أنزل بعلم الله .

والمعنى : فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه وازدادوا يقيناً وثبات قدم على أنه منزل من عند الله ، ومعنى قوله : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ أي فهل أنتم مخلصون ، ومنهم من قال فيه إضمار ، والتقدير : فقولوا أيها المسلمون للكفار اعلموا أنما أنزل بعلم الله .

(126/374)

والقول الثاني : أن هذا خطاب مع الكفار ، والمعنى أن الذين تدعونهم من دون الله إذا لم يستجيبوا لكم في الإعانة على المعارضة ، فاعلموا أيها الكفار أن هذا القرآن إنما أنزل بعلم الله فهل أنتم مسلمون بعد لزوم الحجة عليكم ، والقائلون بهذا القول قالوا هذا أولى من القول الأول ، لأنكم في القول الأول احتجتم إلى أن حملتم قوله : ﴿ فاعلموا ﴾ على الأمر بالثبات

أو على إضمار القول ، وعلى هذا الاحتمال لا حاجة فيه إلى إضمار ، فكان هذا أولى ، وأيضاً فعود الضمير إلى أقرب المذكورين واجب ، وأقرب المذكورين في هذه الآية هو هذا الاحتمال الثاني ، وأيضاً أن الخطاب الأول كان مع الرسول عليه الصلاة والسلام وحده بقوله : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ ﴾ [هود : 13] والخطاب الثاني كان مع جماعة الكفار بقوله : ﴿ وادعوا مَنِ استطعتم مّن دُونِ الله ﴾ [هود : 13] وقوله : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ ﴾ خطاب مع الجماعة فكان حمله على هذا الذي قلناه أولى .

بقي في الآية سؤالات :

السؤال الأول : ما الشيء الذي لم يستجيبوا فيه ؟

الجواب : المعنى فإن لم يستجيبوا لكم في معارضة القرآن ، وقال بعضهم فإن لم يستجيبوا لكم في جملة الإيمان وهو بعيد .

السؤال الثاني : من المشار إليه بقوله : ﴿ لَكُمْ ﴾ ؟

والجواب : إن حملنا قوله : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ ﴾ على المؤمنين فذلك ظاهر ، وإن حملناه على الرسول فعنه جوابان : الأول : المراد فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين ، لأن الرسول عليه السلام والمؤمنين كانوا يتحدونهم ، وقال في موضع آخر فإن لم يستجيبوا لك فاعلم .

والثاني : يجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

السؤال الثالث : أي تعلق بين الشرط المذكور في هذه الآية وبين ما فيها من الجزاء .

(127/374)

والجواب : أن القوم ادعوا كون القرآن مفترى على الله تعالى ، فقال : لو كان مفترى على الله لوجب أن يقدر الخلق على مثله ولما لم يقدروا عليه ، ثبت أنه من عند الله ، فقوله : ﴿ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ ﴾ كناية عن كونه من عند الله ومن قبله ، كما يقول الحاكم هذا الحكم جرى بعلمي .

السؤال الرابع : أي تعلق لقوله : ﴿ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ يعجزهم عن المعارضة .

(128/374)

والجواب فيه من وجوه : الأول : أنه تعالى لما أمر محمداً صلى الله عليه وسلم حتى يطلب من الكفار أن يستعينوا بالأصنام في تحقيق المعارضة ثم ظهر عجزهم عنها فحينئذ ظهر أنها لا تنفع ولا تضر في شيء من المطالب ألبتة ، ومتى كان كذلك ، فقد بطل القول بإثبات

كونهم آلهة ، فصار عجز القوم المعارضة بعد الاستعانة بالأصنام مبطلاً لإلهية الأصنام ودليلاً على ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان قوله : ﴿ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ إشارة إلى ما ظهر من فساد القول بإلهية الأصنام : الثاني : أنه ثبت في علم الأصول أن القول بنفي الشريك عن الله من المسائل التي يمكن إثباتها بقول الرسول عليه السلام ، وعلى هذا فكأنه قيل : لما ثبت عجز الخصوم عن المعارضة ثبت كون القرآن حقاً ، وثبت كون محمد صلى الله عليه وسلم صادقاً في دعوى الرسالة ، ثم إنه كان يخبر عن أنه لا إله إلا الله فلما ثبت كونه محقاً في دعوى النبوة ثبت قوله : ﴿ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ الثالث : أن ذكر قوله ﴿ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ جار مجرى التهديد ، كأنه قيل : لما ثبت بهذا الدليل كون محمد عليه السلام صادقاً في دعوى الرسالة وعلمتم أنه لا إله إلا الله ، فكونوا خائفين من قهره وعذابه واتركوا الإصرار على الكفر واقبلوا الإسلام ونظيره قوله تعالى في سورة البقرة عند ذكر آية التحدي : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فاتقوا النار التى وَقُودُهَا الناس والحجارة أُعِدَّتْ للكافرين ﴾ [البقرة : 24] .

وأما قوله : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ .

فإن قلنا : إنه خطاب مع المؤمنين كان معناه الترغيب في زيادة الإخلاص .

وإن قلنا : إنه خطاب مع الكفار كان معناه الترغيب في أصل الإسلام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 155 . 158 ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾

"أم" بمعنى "بل" ، و"افتراه" أتى به من قِبَل نفسه .

﴿ قل فأتوا ﴾ أنتم في معارضتي ﴿ بعشر سُوَر مثله ﴾ في البلاغة ﴿ مفتريات ﴾

بزعمكم ودعواكم ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ إِلى المعاونة على المعارضة

﴿ إِن كنتم صادقين ﴾ في قولكم : "افتراه" .

﴿ فإن لم يستجيبوا لكم ﴾ أي : يجيبوكم إِلى المعارضة .

فقد قامت الحجة عليهم لكم .

فإن قيل : كيف وحَّد القول في قوله : "قل فأتوا" ثم جمع في قوله "فإن لم يستجيبوا لكم" ؟

فعنه جوابان .

أحدهما : أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وحده في الموضعين ، فيكون الخطاب له

بقوله "لكم" تعظيماً ، لأن خطاب الواحد بلفظ الجميع تعظيم ، هذا قول المفسرين .

والثاني : أنه وحَّد في الأول لخطاب النبي صلى الله عليه وسلم .

وجمع في الثاني لمخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، قاله ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنزله وهو عالم بانزاله ، وعالم بأنه حق من عنده .

والثاني : أنزله بما أخبر فيه من الغيب ، ودلَّ على ما سيكون وما سلف ، ذكرهما الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ وأن لا إِله إِلا هو ﴾ أي : واعلموا ذلك .

﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ استفهام بمعنى الأمر .

وفيمن خوطب به قولان :

أحدهما : أهل مكة ، ومعنى إِسلامهم : إِخلاصهم لله العبادة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله مجاهد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(130/374)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾

"أم" بمعنى بل ، وقد تقدّم في "يونس" أي قد أزحت عِلّتهم وإشكالهم في نبوّتك بهذا القرآن ، وحَجَجْتَهم به ؛ فإن قالوا : افتريته أي اختلقته فليأتوا بمثله مفترىً بزعمهم .

﴿ وادعوا مَنِ استطعتم مّن دُونِ الله ﴾ أي من الكهنة والأعوان .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾

أي في المعارضة ولم تتهيأ لهم فقد قامت عليهم الحجة ؛ إذ هم اللُّسْن البلغاء ، وأصحاب الألسن الفصحاء .

﴿ فاعلموا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ الله ﴾ واعلموا صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، واعلموا ﴿ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ استفهام معناه الأمر .

وقد تقدّم القول في معنى هذه الآية ، وأن القرآن معجز في مقدمة الكتاب .

والحمد لله .

وقال : ﴿ قُلْ فَأْتُوا ﴾ وبعده .

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ ولم يقل لك ؛ فقيل : هو على تحويل المخاطبة من الإفراد إلى الجمع تعظيماً وتفخيماً ؛ وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة .

وقيل : الضمير في ﴿ لَكُمْ ﴾ وفي ﴿ فاعلموا ﴾ للجميع ؛ أي فليعلم الجميع ﴿ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ ؛ قاله مجاهد : وقيل : الضمير في ﴿ لكم ﴾ وفي ﴿ فاعلموا ﴾ للمشركين ؛ والمعنى : فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المعاونة ، ولا تهيأت لكم المعارضة "فاعلموا

أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ" .

وقيل : الضمير في ﴿ لكم ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وفي ﴿ فاعلموا ﴾ للمشركين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(131/374)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾

يعني بل يقول كفار مكة اختلقه يعني ما أوحي إليه من القرآن ﴿ قل ﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾ لما قالوا له افتريت هذا القرآن واختلقته من عند نفسك وليس هو من عند الله تحداهم وأرخى لهم العنان وفاوضهم على مثل دعواهم فقال (صلى الله عليه وسلم) هبوا أني اختلقته من عند نفسي ولم يوح إلي شيء وأن الأمر كما قلتم وأنتم عرب مثلي من أهل الفصاحة وفرسان البلاغة وأصحاب اللسان فأتوا أنتم بكلام مثل هذا الكلام الذي جئتكم به مختلق من عند أنفسكم فإنكم تقدرون على مثل ما أقدر عليه من الكلام فلهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾ في مقابلة قولهم افتراه .

فإن قلت قد تحداهم فأن يأتوا بسورة مثله فلم يقدروا على ذلك وعجزوا عنه فكيف قالوا فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ومن عجز عن سورة واحدة فهو عن العشرة أعجز .

قلت : قد قال بعضهم إن سورة هود نزلت قبل سورة يونس ، وأنه تحداهم أولاً بعشر سور فلما عجزوا تحداهم بسورة يونس وأنكر المبرد هذا القول وقال : إن سورة يونس نزلت أولاً ، قال : ومعنى قوله في سورة يونس فأتوا بسورة مثله يعني مثله في الإخبار عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد وفي قوله في سورة هود فأتوا بعشر سور مثله يعني في مجرد الفصاحة والبلاغة من غير خبر عن غيب ولا ذكر حكم ولا وعد ولا وعيد فلما تحداهم بهذا الكلام أمره بأن يقول لهم ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ حتى يعينوكم على ذلك ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ يعني في قولكم إنه مفترى ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم ﴾ اعلم أنه لما اشتملت الآية المتقدمة على أمرين وخاطبين :

أحدهما : أمر وخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) وهو قوله سبحانه وتعالى قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات .

(132/374)

والثاني : أمر وخطاب للكفار وهو قوله تعالى وادعوا من استطعتم من دون الله ثم أتبعه بقوله تبارك وتعالى فإن لم يستجيبوا لكم احتمل أن يكون المراد أن الكفار لم يستجيبوا في المعارضة لعجزهم عنها واحتمل أن يكون المراد أن من يدعون من دون الله لم يستجيبوا للكفار في المعارضة فلهذا السبب اختلف المفسرون في معنى الآية على قولين أحدهما أنه خطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين وذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين معه كانوا يتحدون الكفار بالمعارضة ليتبين عجزهم فلما عجزوا عن المعارضة قال الله سبحانه وتعالى لنبيه والمؤمنين فإن لم يستجيبوا لكم فيما دعوتموهم إليه من المعارضة وعجزوا عنه ﴿ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ﴾ يعني فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه وازدادوا يقيناً وثباتاً لأنهم كانوا عالمين بأنه منزل من عند الله ، وقيل : الخطاب في قوله فإن لم يستجيبوا لكم للنبي (صلى الله عليه وسلم) وحده وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً له (صلى الله عليه وسلم) .

القول الثاني : أن قوله سبحانه وتعالى فإن لم يستجيبوا لكم خطاب مع الكفار وذلك أنه سبحانه وتعالى لما قال في الآية المتقدمة وادعوا من استطعتم من دون الله قال الله في هذه الآية فإن لم يستجيبوا لكم أيها الكفار ولم يعينوكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأنه ليس مفترى على الله بل هو أنزله على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴿ وأن لا إله إلا هو ﴾ يعني الذي أنزل القرآن هو الله الذي لا إله إلا هو لا من تدعون من دونه ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾

فيه معنى الأمر أي أسلموا وأخلصوا لله العبادة وإن حملنا معنى الآية على أنه خطاب مع المؤمنين كان معنى قوله فهل أنتم مسلمون الترغيب أي دوموا على ما أنتم عليه من الإسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(133/374)

وقال أبو حيان :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾

الظاهر أنّ أم منقطعة تتقدر ببل ، والهمزة أي : أيقولون افتراه .

وقال ابن القشيري : أم استفهام توسط الكلام على معنى : أيكتفون بما أوحيت إليك من القرآن ، أم يقولون إنه ليس من عند الله ، فإن قالوا : إنه ليس من عند الله فليأتوا بمثله انتهى . فجعل أم متصلة ، والظاهر الانقطاع كما قلنا ، والضمير في افتراه عائد على قوله : ما يوحى إليك ، وهو القرآن .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنها لا تتعلق أطماعهم بأن يترك بعض ما يوحى إليه إلا لدعواهم أنه ليس من عند الله ، وأنه هو الذي افتراه ، وإنما تحداهم أولاً بعشر سور مفتريات قبل تحديهم بسورة ، إذ كانت هذه السورة مكية ، والبقرة مدنية ، وسورة يونس أيضاً مكية ،

ومقتضى التحدي بعشر أن يكون قبل طلب المعارضة بسورة ، فلما نسبوه إلى الافتراء طلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات إرخاء لعنانهم ، وكأنه يقول : هبوا إني اختلقته ولم يوح إليّ فأتوا أنتم بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم ، فأنتم عرب فصحاء مثلي لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام ، وإنما عين بقوله : مثله ، في حسن النظم والبيان وإن كان مفترى .

وشأن من يريد تعجيز شخص أن يطالبه أولاً بأنْ يفعل أمثالاً مما فعل هو ، ثم إذا تبين عجزه قال له : افعل مثلاً واحداً ومثل يوصف به المفرد والمثنى والمجموع كما قال تعالى : ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ وتجوز المطابقة في التثنية والجمع كقوله : ﴿ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ ﴿ وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ وإذا أفرد وهو تابع لمثنى أو مجموع فهو بتقدير المثنى ، والمجموع أي : مثلين وأمثال .

والمعنى هنا بعشر سور أمثاله ذهاباً إلى مماثلة كل سورة منها له .

(134/374)

وقال ابن عطية : وقع التحدي في هذه الآية بعشر لأنه قيدها بالافتراء ، فوسع عليهم في القدر لتقوم الحجة غاية القيام ، إذ قد عجزهم في غير هذه الآية بسورة مثله دون تقييد ،

فهي مماثلة تامة في غيوب القرآن ونظمه ووعده ووعيده ، وعجزوا في هذه الآية بأن قيل لهم : عارضوا القدر منه بعشر أمثاله في التقدير ، والغرض واحد ، واجعلوه مفترى لا يبقى لكم إلا نظمه ، فهذه غاية التوسعة .

وليس المعنى عارضوا عشر سور بعشر ، لأنّ هذه إنما كانت تجيء معارضة سورة بسورة مفتراة ، ولا يبالي عن تقديم نزول هذه على هذه ، ويؤيد هذا النظر أن التكليف في آية البقرة إنما هو بسبب الريب ، ولا يزيل الريب إلا العلم بأنهم لا يقدرون على المماثلة التامة .

وفي هذه الآية إنما التكليف بسبب قولهم : افتراه وكلفوا نحو ما قالوا : ولا يطرد هذا في آية يونس .

وقال بعض الناس : هذه مقدمة في النزول على تلك ، ولا يصح أن تكون السورة الواحدة إلا مفتراة ، وآية سورة يونس في تكليف سورة مرتبة على قولهم افتراه ، وكذلك آية البقرة إنما رمتهم بأن القرآن مفترى .

وقائل هذا القول لم يلحظ الفرق بين التكليفين في كمال المماثلة مرة ، ووقوفها على النظم مرة انتهى .

والظاهر أن قوله : مثله ، لا يراد به المثلية في كون المعارض عشر سور ، بل مثله يدل على مماثلة في مقدار ما من القرآن .

وروي عن ابن عباس : أنّ السور التي وقع بها طلب المعارضة لها هي معينة البقرة ، وآل

عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس ، وهود .

فقوله : مثله ، أي مثل هذه عشر السور ، وهذه السور أكثرها مدني ، فكيف تصح الحوالة بمكة على ما لم ينزل بعد ؟ ولعل هذا لا يصح عن ابن عباس .

والضمير في فإن لم يستجيبوا لكم ، عائد على من طلب منهم المعارضة ، ولكم الضمير جمع يشمل الرسول والمؤمنين .

(135/374)

وجوز أن يكون خطاباً للرسول (صلى الله عليه وسلم) على سبيل التعظيم ، كما جاء ﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ قاله : مجاهد .

وقيل : ضمير يستجيبوا عائد على المدعوين ، ولكم خطاب للمأمورين بدعاء من استطاعوا قاله الضحاك أي فإنْ لم يستجب من تدعونه إلى المعارضة فأذعنوا حينئذ ، واعلموا أنه من عند الله وأنه أنزل ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله من نظم معجز للخلق ، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه .

واعلموا عند ذلك أنه لا إله إلا هو ، وأن توحيده واجب ، فهل أنتم مسلمون ؟ أي تابعون للإسلام بعد ظهور هذه الحجة القاطعة ؟ وعلى أن الخطاب للمؤمنين معنى فاعلموا أي :

دوموا على العلم وازدادوا يقيناً وثبات قدم أنه من عند الله .

ومعنى فهل أنتم مسلمون : أي مخلصو الإسلام ، وقال مقاتل : بعلم الله ، بإذن الله .

وقال الكلبي : بأمره .

وقال القتبي : من عند الله ، والذي يظهر أن الضمير في فإن لم يستجيبوا عائد على من استطعتم ، وفي لكم عائد على الكفار ، لعود الضمير على أقرب مذكور ، ولكون الخطاب يكون لواحد .

ولترتب الجواب على الشرط ترتباً حقيقياً من الأمر بالعلم ، ولا يتحرر بأنه أراد به فدوموا على العلم ، ودوموا على العلم بأنه لا إله إلا هو ، ولأن يكون قوله : فهل أنتم مسلمون تحريضاً على تحصيل الإسلام ، لا أنه يراد به الإخلاص .

ولما طولبوا بالمعارضة وأمروا بأن يدعوا من يساعدهم على تمكن المعارضة ، ولا استجاب أصنامهم ولا آلهتهم لهم ، أمروا بأن يعلموا أنه من عند الله وليس مفترى فتمكن معارضته ، وأنه تعالى هو المختص بالألوهية لا يشركه في شيء منها آلهتهم وأصنامهم ، فلا يمكن أن يجيبوا لظهور عجزهم ، وأنها لا تنفع ولا تضر في شيء من المطالب .

(136/374)

وقرأ زيد بن علي : إنما نزل بفتح النون والزاي وتشديدها ، واحتمل أن تكون ما مصدرية أي : أنّ التنزيل ، واحتمل أن تكون بمعنى الذي أي : إن الذي نزله ، وحذف الضمير المنصوب لوجود جواز الحذف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(137/374)

وقال أبو السعود :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾

إضرابٌ بأمْ المنقطعةِ عن ذكر تركِ اعتدادِهم بما يوحى وتهاونِهم به وعدمِ اقتناعِهم بما فيه من المعجزات الظاهرةِ الدالةِ على كونه من عند الله عز وجل وعلى حقية نبوته عليه الصلاة والسلام وشروعٌ في ذكر ارتكابِهم لما هو أشدُّ منه وأعظمُ ، وما فيها من معنى الهمزةِ للتوبيخ والإنكارِ والتعجيب ، والضميرُ المستكنُّ في افتراه للنبي صلى الله عليه وسلم والبارزُ لما يوحى أي بل أيقولون افتراه وليس من عند الله .

﴿ قُلْ ﴾ إن كان الأمرُ كما تقولون ﴿ فَأْتُواْ ﴾ أنتم أيضاً ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ ﴾ في البلاغة وحُسنِ النظمِ وهو نعتٌ لسُوَر أي أمثالِه ، وتوحيدُه إما باعتبار مماثلةِ كلِّ واحدةٍ منها أو لأن المطابقةَ ليست بشرط ، حتى يوصَفُ المثنى بالمفرد كما في قوله تعالى : ﴿

أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ أو للإيماء إلى أن وجهَ الشبهِ ومدارَ المماثلةِ في الجميع شيءٌ واحدٌ هو البلاغةُ المؤديةُ إلى مرتبة الإعجازِ فكأن الجميعَ واحدٌ ﴿ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ صفةٌ أُخرى لسُور أُخِّرت عن وصفها بالمماثلة لما يوحى لأنها الصفةُ المقصودةُ بالتكليف إذ بها يظهر عجزُهم وقعودُهم عن المعارضة ، وأما وصفُ الافتراء فلا يتعلق به غرضٌ يدور عليه شيءٌ في مقام التحدّي وإنما ذُكر على نهج المساهلةِ وإرخاءِ العِنانِ ، ولأنه لو عُكس الترتيبُ لربما تُوُهّم أن المرادَ هو المماثلةُ في الافتراء ، والمعنى فأتوا بعشر سورٍ مماثلةٍ له في البلاغة مختلفاتٍ من عند أنفسِكم إن صحّ أني اختلقتُه من عندي ، فإنكم أقدرُ على ذلك مني لأنكم عربٌ فصحاءُ بلغاءُ قد مارستم مبادئَ ذلك من الخُطَب والأشعارِ وحفِظتم الوقائعَ والأيامَ وزاولتم أساليبَ النظْمِ والنثر .

(138/374)

﴿ وادعوا ﴾ للاستظهار في المعارضة ﴿ مَنِ استطعتم ﴾ دعاءَه والاستعانةَ به من آلهتكم التي تزعُمون أنها مُمِدّةٌ لكم في كل ما تأتون وما تذرون ، والكهنةِ ومَدارِهِكم الذين تلجأون إلى آرائهم في المُلمّات ليُسعدوكم فيها ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ متعلق بادعوا أي متجاوزين الله تعالى ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في أني افتريتُه فإن ذلك يستلزِمُ إمكانَ الإتيانِ

بمثله وهو أيضاً يسلِزمُ قدرتكم عليه ، والجوابُ محذوفٌ يدل عليه المذكور .

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ ﴾

أي لم يفعلوا ما كُلِّفوه من الإتيان بمثله كقوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ ﴾ وإنما عُبِّر عنه بالاستجابة إيماءً إلى أنه عليه الصلاة والسلام على كمال أمنٍ من أمره ، كأن أمرَه لهم بالإتيان بمثله دعاءٌ لهم إلى أمر يريد وقوعَه ، والضميرُ في لكم للرسول عليه الصلاة والسلام والجمعُ للتعظيم كما في قول من قال :

(139/374)

وإن شئتِ حرمتُ النساءَ سواكمُ . . . أوْله وللمؤمنين لأنهم أتباعٌ له عليه الصلاة والسلام في الأمر بالتحدّي ، وفيه تنبيهٌ لطيفٌ على أن حقَّهم ألا ينفكوا عنه عليه الصلاة والسلام ويناصِبوا معه لمعارضة المعارِضين كما كانوا يفعلونه في الجهاد وإرشادٌ إلى أن ذلك مما يفيد الرسوخَ في الإيمان والطُمأنينةَ في الإيقان ، ولذلك رُتّب عليه قولُه عز وجل : ﴿ فاعلموا ﴾ أي اعلموا حين ظهر لكم عجزُهم عن المعارضة مع تهالُكهم عليها علماً يقيناً متاخِماً لعين اليقينِ بحيث لا مجالَ معه لشائبة ريبٍ بوجه من الوجوه ، كأن ما عداه من مراتب العلمِ ليس بعلم لكن لا للإشعار بانحطاطِ تلك المراتبِ بل بارتفاع هذه المرتبةِ وبه يتّضح سرُّ إيرادِ

كلمةِ الشكّ مع القطعِ بعدم الاستجابةِ فإن تنزيلَ سائرِ المراتبِ منزلةَ العدمِ مستتبعٌ لتنزيل الجزْمِ بعدم الاستجابةِ منزلةَ الشكّ فيه ، أو اثبُتوا واستمِرّوا على ما كنتم عليه من العلم ﴿ إِنَّمَا أُنزِلَ ﴾ ملتبساً ﴿ بِعِلْمِ اللهِ ﴾ المخصوصِ به بحيث لا تحوم حوله العقولُ والأفهامُ مستبداً بخصائصِ الإعجازِ من جهتي النظمِ الرائقِ والإخبار بالغيب ﴿ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أي واعلموا أيضاً ألا شريكَ له في الألوهية وأحكامِها ولا يقدِر على ما يقدر عليه أحدٌ ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ أي مخلصون في الإسلام أو ثابتون عليه ؟ وهذا من باب التثبيتِ والترقيةِ إلى معارج اليقينِ ، ويجوز أن يكونَ الخطابُ في الكل للمشركين من جهة الرسولِ صلى الله عليه وسلم داخلاً تحت الأمر بالتحدّي ، والضميرُ في لم يستجيبوا لمن استطعتم أي فإن لم يستجبْ لكم آلهتُكم وسائرُ مَنْ إليهم تجأرون في مُهمّاتكم ومُلماتكم إلى المعاونة والمظاهَرَة فاعلموا أن ذلك خارجٌ عن دائرة قُدْرةِ البشر وأنه مُنزّلٌ من خالق القُوى والقدر ، فإيرادُ كلمةِ الشكّ حينئذ مع الجزم بعدمِ الاستجابة من جهة آلهتِهم تهكّمٌ بهم

(140/374)

وتسجيلٌ عليهم بكمال سخافةِ العقلِ ، وترتيبُ الأمرِ بالعلم على مجرد عدمِ الاستجابة من حيث إنه مسبوقٌ بالدعاء المسبوقِ بعجزهم واضطرارِهم فكأنه قيل : فإن لم يستجيبوا

لكم عند التجائِكم إليهم بعد ما اضطُررتم إلى ذلك وضاقت عليكم الحيلُ وعيَّتْ بكم العللُ أو من حيث إن مَنْ يستمدّون بهم أقوى منهم في اعتقادهم ، فإذا ظهر عجزُهم بعدم استجابتِهم وإن كان ذلك قبلَ ظهورِ عجزِ أنفسهم يكون عجزُهم أظهرَ وأوضحَ ، واعلموا أيضاً أن آلهتَكم بمعزل عن رتبة الشِرْكة في الألوهية وأحكامِها فهل أنتم داخلون في الإسلام إذْ لم يبْقَ بعدُ شائبةُ شبهةٍ في حقّيته وفي بُطلان ما كنتم فيه من الشرك فيدخُلُ فيه الإذعانُ لكون القرآنِ من عند الله تعالى دخولاً أولياً أو منقادون للحق الذي هو كونُ القرآنِ من عند الله تعالى وتاركون لما كنتم فيه من المكابرة والعِناد ، وفي هذا الاستفهامِ إيجابٌ بليغٌ لما فيه من معنى الطلب والتنبيهِ على قيام الموجبِ وزوالِ العذر وإقناطٌ من أن يجبُرَهم آلهتُهم من بأس الله عز سلطانُه ، هذا والأول أنسبُ لما سلف من قوله تعالى :

﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ ولما سيأتي من قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ وأشدُّ ارتباطاً بما يعقُبه كما ستحيط به خُبراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(141/374)

وقال الآلوسى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾

إضراب بأم المنقطعة عن ذكر ترك اعتدادهم ﴿ ما يوحي ﴾ [هود : 12] وعدم اكتفائهم بما فيه من المعجزات الظاهرة الدالة على صدق الدعوى ، وشروع في ذكر ارتكابهم لما هو أشد منه وأعظم ، وتقدر ببل .

(142/374)

والهمزة الإنكارية أي بل أيقولون ، وذهب ابن القشيري إلى أن ﴿ الأرض أَمْ ﴾ متصلة ، والتقدير أيكتفون بما أوحينا إليك أم يقولون إنه ليس من عند الله ، والأول أظهر ، وأياً مّا كان فالضمير البارز في ﴿ افتراه ﴾ لما يوحى ﴿ قُلْ ﴾ إن كان الأمر كما تقولون ﴿ فَأْتُواْ ﴾ أنتم أيضاً ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ ﴾ في البلاغة وحسن النظم وهو نعت لسور وكان الظاهر مطابقته لها في الجمع لكنه أفرد باعتبار مماثلة كل واحدة منها إذ هو المقصود لا مماثلة المجموع ، وقيل : مثل وإن كان مفرداً يجوز فيه المطابقة وعدمها فيوصف به الواحد وغيره نظراً إلى أنه مصدر في الأصل كقوله تعالى : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ [المؤمنون : 47] وقد يطابق كقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد : 38] ، وقيل : إنه هنا صفة

لمفرد مقدر أي قدر عشر سور مثله ، وقيل : إنه وصف لمجموع العشر لأنها كلام وشيء واحد ، وأيضاً عشر ليس بصيغة جمع فيعطي حكم المفرد ك ﴿ نخل منقعر ﴾ [القمر : 20] وقوله سبحانه : ﴿ مفتريات ﴾ نعت آخر لسور قيل : أخر عن نعتها بالمماثلة ل ﴿ ما يوحى ﴾ [هود : 12] لأنه النعت المقصود بالتكليف إذ به قعودهم على العجز عن المعارضة ، وأما نعت الافتراء فلا يتعلق به غرض يدور عليه شيء في مقام التحدي ، وإنما ذكر على نهج المساهلة وإرخاء العنان ولأنه لو عكس الترتيب لربما توهم أن المراد هو المماثلة له في الافتراء ، والمعنى ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ ﴾ مماثلة له في البلاغة مختلقات من عند أنفسكم إن صح أني اختلقته من عند نفسي فإنكم عرب فصحاء بلغاء ومبادىء ذلك فيكم من ممارس الخطب والأشعار ومزاولة أساليب النظم والنثر وحفظ الوقائع والأيام أتم .

والكثير على أن هذا التحدي وقع أولاً فلما عجزوا تحداهم ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ كما نطقت به سورة البقرة .

(143/374)

ويونس ، وهو وإن تأخر تلاوة متقدم نزولاً وأنه لا يجوز العكس إذ لا معنى للتحدري بعشر لمن عجز عن التحدي بواحدة وأنه ليس المراد تعجيزهم عن الإتيان بعشر سور مما ثلات لعشر معينة من القرآن .

وروي عن ابن عباس أن المراد ذلك ، وجعل الشعر ما تقدم من السور إلى هنا ، واعترضه أبو حيان بأن أكثر ما ذكر مدني .

وهذه السورة حسبما علمت مكية فكيف تصح الحوالة بمكة على ما لم ينزل بعد ، ثم قال : ولعل هذا لا يصح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وذهب ابن عطية إلى أن هذا التحدي إنما وقع بعد التحدي بسورة ، وروي هذا عن المبرد وأنكر تقدم نزول هذه السورة على نزول تينك السورتين وقال : بل نزلت سورة يونس أولاً .

ثم نزلت سورة هود .

وقد أخرج ذلك ابن الضريس في فضائل القرآن عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

ووجه ذلك بأن ما وقع أولاً هو التحدي بسورة مثله في البلاغة والاشتمال على ما اشتمل عليه من الأخبار عن المغيبات والأحكام وأخواتها ، فلما عجزوا عن ذلك أمرهم بأن يأتوا بعشر سور مثله في النظم وإن لم تشتمل على ما اشتمل عليه ، وضعفه في "الكشف" ، وقال : إنه لا يطرد في كل سورة من سور القرآن ، وهب أن السورة متقدمة النزول إلا أنها لما

نزلت على التدريج جاز أن تتأخر تلك الآية عن هذه ، ولا ينافي تقدم السورة على السورة انتهى .

(144/374)

وتعقبه الشهاب بأن قوله لا يطرد مما لا وجه له لأن مراد المبرد اشتماله على شيء من الأنواع السبعة ولا يخلو شيء من القرآن عنها ، وادعاء تأخر نزول تلك الآية خلاف الظاهر ، ومثله لا يقال بالرأي ، وادعى أن الحق ما قاله المبرد من أنه عليه الصلاة والسلام وتحداهم أولاً بسورة مثله في النظم والمعنى ، ثم تنزل فتحداهم بعشر سور مثله في النظم من غير حجر في المعنى ، ويشهد له توصيفها بمفتريات ، وأيد بعضهم نظر المبرد بأن التكليف في آية البقرة إنما كان بسبب الريب ولا يزيل الريب إلا العلم بأنهم لا يقدرون على المماثلة التامة ، وهو في هذه الآية ليس إلا بسبب قولهم : ﴿ افتراه ﴾ فكلفوا نحو ما قالوا ، وفيه أن الأمر في سورة يونس كالأمر هنا مسبوق بحكاية زعمهم الافتراء قاتلهم الله تعالى مع أنهم لم يكلفوا إلا بنحو ما كلفوا به في آية البقرة على أن في قوله : ولا يزيل الريب الخ منعاً ظاهراً ، وللعلامة الطيبي ههنا كلام زعم أنه الذي يقتضيه المقام وهو على قلة جدواه لا وجه لما أسسه عليه كما بين ذلك صاحب الكشف .

هذا ونقل الإمام أنه استدل بهذه الآية على أن إعجاز القرآن بفصاحته لا باشتماله على المغيبات وكثرة العلوم إذ لو كان كذلك لم يكن لقوله سبحانه : ﴿ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ معنى أما إذا كان وجه الإعجاز الفصاحة صح ذلك لأن فصاحة الكلام تظهر إن صدقاً وإن كذباً ، واعترض عليه الفاضل الجلبي بما هو مبني على الغفلة عن معنى الافتراء والاختلاق ، نعم ما ذكر إنما يدل على صحة كون وجه الإعجاز ذلك ولا يمنع احتمال كونه الأسلوب الغريب وعدم اشتماله على التناقض كما قيل به .

﴿ وادعوا مَنِ استطعتم ﴾ أي استعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به من آلهتكم التي تزعمون أنها ممدة لكم في كل ما تأتون وما تذرون .

والكهنة الذين تلجأون إلى آرائهم في الملمات ليسعدوكم في ذلك .

(145/374)

﴿ مِن دُونِ الله ﴾ متعلق بادعوا أي متجاوزين الله تعالى ، وفيه على ما قال غير واحد إشارة إلى أنه لا يقدر على مثله إلا الله عز وجل ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في أني افتريته ، فإن ذلك يستلزم الإتيان بمثله وهو أيضاً يستلزم قدرتكم عليه ، وجواب ﴿ إن ﴾ محذوف دل عليه المذكور قبل .

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾

الخطاب على ما روي عن الضحاك للمأمورين بدعاء من استطاعوا ، وضمير الجمع الغائب عائد إلى من أي فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله تعالى إلى الإسعاد والمظاهرة على المعارضة لعلمهم بالعجز عنه وأن طاقتهم أقصر من أن تبلغه ﴿ فاعلموا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ الله ﴾ أي ما أنزل إلا ملتبساً بعلمه تعالى لا بعلم غيره على ما تقتضيه كلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ فإنها تفيد الحصر كالمكسورة على الصحيح ، قيل : وهو معنى قول من قال : أي ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله تعالى ولا يقدر عليه سواه .

(146/374)

وادعى بعضهم أن الحصر إنما أفادته الإضافة كما في قوله تعالى : ﴿ لاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً ﴾ [الجن : 26] والمراد بما لا يعلمه غيره تعالى الكيفيات والمزايا التي بها الإعجاز والتحدي ، وذكر عدم قدرة غيره سبحانه مما يقتضيه السياق وإلا فالمذكور في النظم الكريم العلم دون القدرة ، وقيل : ذاك لأن نفي العلم بالشيء يستلزم نفي القدرة لأنه لا يقدر أحد على ما لا يعلم ، والجملة الشرطية داخلة في حيز القول وإيراد كلمة الشك مع الجزم بعدم الاستجابة من جهة من يدعونه تهكم بهم وتسجيل عليهم بكمال سخافة العقل ،

وترتيب الأمر بالعلم على مجرد عدم الاستجابة من حيث أنه مسبوق بالدعاء المسبوق بتعجيزهم واضطرارهم فكأنه قيل : فإن لم يستجيبوا لكم عند التجائكم إليهم بعد ما اضطررتم إلى ذلك وضاعت عليكم الحيل وعيت بكم العلل ﴿ فاعلموا ﴾ الخ أو من حيث أن من يدعونهم إلى المعارضة أقوى منهم في اعتقادهم فإذا ظهر عجزهم بعدم استجابتهم وإن كان ذلك قبل ظهور عجز أنفسكم يكون عجزهم أظهر وأوضح .

(147/374)

وبمجموع ما ذكرنا يظهر أن لا إشكال في الآية ، ومما يقضي منه العجب قول العز بن عبد السلام في أماليه : إن ترتيب هذا المشروط يعني العلم على ذلك الشرط يعني عدم الاستجابة مشكل ، وكذا قوله سبحانه : ﴿ أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ ﴾ مشكل أيضاً إذ لا تصلح الباء للسببية إذ ليس العلم سبباً في إنزاله ولا للمصاحبة إذ العلم لا يصحبه في إنزاله ، وأن الجواب أنه ليس المراد بالعلم إلا علمنا نحن ، وأضيف إليه عز وجل لأنه مخلوق له تعالى ، ونظير ذلك ما في قوله جل وعلا : ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ ﴾ [المائدة : 106] حيث أضيفت الشهادة إلى الله سبحانه باعتبار أنه تعالى شرعها ، والقرآن قد نزل بأدلة العلم بأحكام الله تبارك اسمه ، فعبر بالمدلول عن الدليل ، والتقدير ﴿ فاعلموا أَنَّمَا أُنزِلَ ﴾

مصحوباً بانتشار علم الأحكام ، وهي الأدلة ، ولا شك أنه يناسب إذا عجزوا عن معارضته أن يعلموا أن هذه الآيات أدلة أحكام الله تعالى انتهى ، وليت شعري كيف غفل هذا العالم الماهر عن ذلك التفسير الظاهر ، ولعله كما قيل : من شدة الظهور الخفاء ﴿ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أي واعلموا أيضاً أنه تعالى المختص بالألوهية وأحكامها وأن آلهتكم بمعزل عن رتبة الشركة له تعالى في ذلك ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ أي داخلون في الإسلام إذ لم يبق بعد شائبة شبهة في حقيته وفي بطلانه ما أنتم فيه من الشرك ، فيدخل فيه الإذعان بكون القرآن من عند الله تعالى دخولاً أولياً ، أو منقادون للحق الذي هو كون القرآن من عند الله تعالى وتاركون ما أنتم عليه من المكابرة والعناد ، وفي هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال المانع ، ولهذا جيء بالفاء ، وفي التعبير بمسلمون دون تسلمون تأييد لما يقتضيه ترتيب ما ذكر على ما قبل بها من وجوبه بلا مهلة ، قيل : وفي ذلك أيضاً إقناط لهم من أن يجيرهم آلهتهم من بأس الله تعالى شأنه وعز

(148/374)

سلطانه ، وجوز أن يكون الضمير في ﴿ لَكُمْ ﴾ للرسول صلى الله عليه وسلم ، ويؤيده أنه جاء في آية أخرى

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ [القصص : 50] ، وروي ذلك عن مجاهد ، وكان المناسب للأمر بقل الإفراد لكنه جمع للتعظيم ، وهو لا يختص بضمير المتكلم كما قاله الرضى ، ومن ذلك

: وإن شئت حرمت النساء سواكم . . .

والجملة غير داخلة في حيز القول بل هي من قبله تعالى للحكم بعجزهم كقوله سبحانه : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ [البقرة : 24] وعبر بالاستجابة إيماءً إلى أنه صلى الله عليه وسلم على كمال الأمن من أمره كأن أمره عليه الصلاة والسلام لهم بالإتيان بمثله دعاء لهم إلى أمر يريد وقوعه ، ويجوز أن يكون الضمير له صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين لأنهم أتباع له صلى الله عليه وسلم في الأمر بالتحدي ، وفيه تنبيه لطيف على أن حقهم أن لا ينفكوا عنه عليه الصلاة والسلام ويناصبوا معه لمعارضة المعاندين كما كانوا يفعلونه في الجهاد ؛ وإرشاد إلى أن ذلك مما يفيد الرسوخ في الإيمان ، ولذلك رتب عليه ما ترتب .

والمراد بالعلم المأمور به ما هو في المرتبة العليا التي كأن ما عداها من مراتب العلم ليس بعلم لكن لا للإشعار بانحطاط تلك المراتب بل بارتفاع هذه المرتبة ، ويعلم من ذلك سر إيراد كلمة الشك مع القطع بعدم الاستجابة ، فإن تنزيل سائر المراتب منزلة العدم مستتبع لتنزيل الجزم بعدم الاستجابة منزلة الشك ، ويجوز أن يكون المأمور به الاستمرار على ما هم عليه من العلم ومعنى ﴿ مُّسْلِمُونَ ﴾ مخلصون في الإسلام أو ثابتون عليه ، والكلام من باب

التثبيت والترقية إلى معارج اليقين ، واختار تفسير الآية بذلك الجبائي .

وغيره ، وذكر شيخ الإسلام أنه أنسب بما سلف من قوله تعالى :

(149/374)

﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ [هود : 12] ولما سيأتي إن شاء الله تعالى من قوله سبحانه :

﴿ فَلاَ تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ [هود : 17] وأشد بما يعقبه ، وقد يؤيد أيضاً بما أشرنا إليه

لكن لا يخفى أن الكلام على التفسير الأول موافق لما قبله لأن ضمير الجمع في الآية المتقدمة

للكفار والضمير في هذه ضمير الجمع فليكن لهم أيضاً ، ولأن الكفار أقرب المذكورين

فرجوع الضمير إليهم أولى ، ولأن في التفسير الثاني تأويلات لا يحتاج إليها في الأول .

ومن هنا استظهره أبو حيان .

واستحسنه الزمخشري ، ولعل مرجحاته أقوى من مرجحات الأخير عند من تأمل فلذا

قدمناه ، وإن قيل : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك ، ويكتب فالم في المصحف

على ما قال الأجهوري بغير نون ، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما نزل بفتح النون

والزاي وتشديدها ، وفي "البحر" أن ما يحتمل أن تكون مصدرية أي أن التنزيل ، وأن تكون

موصولة بمعنى الذي أي أن الذي نزله ، وحذف العائد المنصوب في مثل ما ذكر شائع ،

وفاعل نزل ضميره تعالى ، وجوز بعضهم كون ما موصولة على قراءة الجمهور أيضاً ، ويبعد ذلك بحسب المعروف في مثله أنها موصولة فافهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(150/374)

وقال القاسمى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾

أي : ما يوحى إليك ، وفي (أم) وجهان منقطعة مقدرة بـ (بل والهمزة الإنكارية) أي : بل أيقولون . ومتصلة والتقدير : أيكتفون بما أوحينا إليك ، وهو ما في الإعجاز ، أم يقولون ليس من عند الله .

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا ﴾ أي : للاستعانة : ﴿ مَنِ اسْتَطَعْتُم ﴾ أي : من الإنس والجن ، وقوله : ﴿ مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ متعلق بـ : ﴿ ادْعُوا ﴾ ، أي : متجاوزين الله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي : في أني افتريته ، فأنتم عرب فصحاء مثلي ، لا سيما وقد زاولتم أساليب النظم والنثر والخطب .

(151/374)

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ أي : بما لا يعلمه غيره من نظم معجز للخلق ، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليها : ﴿ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي : واعلموا عند ذلك أن لا إله إلا الله ، وأن توحيده واجب ، والإشراك به ظلم عظيم ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي : مبايعون بالإسلام ، منقادون لتوحيد الله ، وتصديق رسوله بعد هذه الحجة القاطعة ؟ .

لطائف :

الأولى : قيل : تُحُدُّوا أولاً بعشر سور ، فلما عجزوا تُحُدُّوا بسورة . وذهب المبرد إلى أن الأمر بالعكس ، ووجهه بأن ما وقع أولاً هو التحدي بسورة مثله في البلاغة والاشتمال على ما اشتمل عليه من الإخبار عن المغيبات والأحكام وأخواتها ، وهي الأنواع التسعة المنظومة في قول بعضهم :

~ألا إنما القرآن تسعة أحرف سأنبيكها في بيت شعر بلا ملل

~حلال حرام مُحكم مُتشابه بشير نذير قصة عظة مثل

فلما عجزوا عن ذلك أمرهم بالإتيان بعشر سور مثله في النظم ، وإن لم تشتمل على ما اشتمل عليه ، ويشهد له توصيفها بـ (مفتريات) .

وقيل : إن التحدي بسورة وقع بعد إقامة البرهان على التوحيد وإبطال الشرك ، فتعين أن

يكون لإثبات النبوة بإظهار معجزة ، وهي السورة الفذة . والتحدي بعشر وقع بعد تعنتهم واستهزائهم ، واقتراحهم آيات غير القرآن ؛ لزعمهم أنه مفترى ، فمقامه يناسبه التكثير ؛ لأنه أمر مفترى عندهم ، فلا يعسر الإتيان بكثير مثله – كذا في " العناية " – .

الثانية – ضمير (لكم) للنبي صلى الله عليه وسلم وجمع للتعظيم ، كما في قول من قال :

~وإن شئت حرمت النساء سواكم

(152/374)

أو له وللمؤمنين ؛ لأنهم أتباعه في الأمر بالتحدي . وفيه تنبيه لطيف على أن حقهم ألا ينفكوا عنه عليه الصلاة والسلام ، ويناصبوا معه لمعارضة المعارضين ، كما كانوا يفعلونه في الجهاد وإرشاد إلى أن ذلك مما يفيد الرسوخ في الإيمان والطمأنينة في الإيقان ، ولذلك رتب عليه قوله عز وجل : ﴿ فاعلموا ﴾ الخ . وجوز أن يكون الخطاب في الكل للمشركين من جهته عليه السلام ، داخلاً تحت الأمر بالتحدي ، والضمير في (لم يستجيبوا) لـ (من استطعتم) أي : فإن لم يستجب لكم سائر من تجأرون إليهم في مهماتكم إلى المعاونة ؛ فاعلموا أن ذلك خارج عن دائرة قدرة البشر ، وأنه منزل من خالق القُوى والقُدَر – كذا في أبي السعود – . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 81.83 ﴾

وقال صاحب الميزان :

قوله تعالى : (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور) قد تقدم من الكلام ما يصح به أخذ (أم) متصلة لكون قوله : (فلعلك تارك) الخ ، في معنى الاستفهام ، والتقدير : أفأنت تارك بعض ما يوحى اليك خوفا من اقتراحهم المعجزة أم يقولون إنك افتريته علينا فإن من المستبعد أن يقرء عليهم كلامي ثم لا يؤمنوا به وقيل : إن أم مقطعة والمعنى : بل يقولون افتراه .

وقوله : (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) في الكلام تحد ظاهر والضمير راجع إلى القرآن أو إلى السورة بما أنها قرآن والفاء في (فأتوا) تفيد تفريع الأمر على قوله : (افتراه) وفي الكلام حذف وإيصال رعاية للايجاز ، والتقدير : قل لهم : إن كان هذا القرآن مما افتريته على الله كان من عندي وكان من الجائز أن يأتي بمثله غيري فإن كنتم صادقين في دعواكم ومجدين غير هازلين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات واستعينوا في ذلك بدعوة كل من تستطيعون من دون الله من اوثانكم الذين تزعمون انهم آلهة تتسرعون إليهم في الحاجات وغيرهم من سائر الخلق حتى يتم لكم جميع الأسباب والوسائل ولا يبقى أحد ممن يطمع في

تأثير إعانته ويرجى نفعه في ذلك فلو كان من عندي لا من عند الله جاز أن تأتوا حينئذ بمثله

.

وقد بان بهذا البيان ان التحدي بالقرآن في الآية الكريمة ليس من حيث نظمه وبلاغته فحسب فإنه تعالى يأمرهم بالاستمداد من كل من استطاعوا دعوته من دون الله سواء في ذلك آلهتهم وغير آلهتهم وفيهم من لا يعرف الكلام العربي أو جزالة نظمه وصفة بلاغته فالتحدي عام لكل ما يتضمنه القرآن الكريم من معارف حقيقية والحجج والبراهين الساطعة والمواعظ الحسنة والاخلاق الكريمة والشرائع الإلهية والاخبار الغيبية والفصاحة والبلاغة نظير ما في قوله تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)

(154/374)

أسرى : 88 ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في الكلام على إعجاز القرآن في الجزء الأول من الكتاب .

وبذلك يظهر فساد ما قيل إن جهة إعجاز القرآن انما هي البلاغة والفصاحة في هذا النظم المخصوص لأنه لو كان جهة الاعجاز غير ذلك لما قنع في المعارضة بالافتراء والاختلاق لأن

البلاغة ثلاث طبقات فأعلى طبقاتها معجز وأدناها وأوسطها ممكن فالتحدي في الآية انما وقع في الطبقة العليا منها ، ولو كان وجه الاعجاز الصرفة لكان الركيك من الكلام ابلغ في باب الاعجاز .

والمثل المذكور في الآية لا يجوز أن يكون المراد به مثله في الجنس لأن مثله في الجنس يكون حكايته فلا يقع بها التحدي ، وإنما يرجع في ذلك إلى ما هو متعارف بين العرب في تحدى بعضهم بعضا كما اشتهر من مناقضات امرئ القيس وعلقمة وعمر بن كلثوم والحارث بن حلزة وجرير والفرزدق وغيرهم .

انتهى .

فإن فيه أولا : أن لو كانت جهة الاعجاز في القرآن هي بلاغته فحسب وهى أمر لا يعرفه غير العرب لم يكن لتشريك غيرهم في التحدي معنى ، ولم يرجع قوله : (وادعوا من استطعتم من دون الله) على ما فيه من العموم وكذا قوله : (لئن اجتمعت الانس والجن) الآية إلى معنى محصل ولكان من الواجب أن يقال : (لئن اجتمعت العرب) وادعوا من استطعتم من آلهتكم ومن أهل لغتكم .

وثانيا : أنه لو كانت جهة الاعجاز هي البلاغة فقط لم يصح الاحتجاج بمثل قوله : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) النساء : 82 ، الظاهر في نفى مطلق الاختلاف فإن اكثر الاختلافات وهى التى يرجع إلى المعاني لا تضر بلاغة اللفظ .

وثالثا : أنه تعالى يتحدى بمثل قوله : (فليأتوا بحديث مثله) الطور : 34 ، وبقوله في سورة يونس : (فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله) آية 38 ، وقد استفدنا فيما تقدم أن سورة يونس قبل سورة هود في ترتيب النزول

(155/374)

ويؤيده الاثر ، ثم بقوله في هذه السورة : (فإتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله) ولو كان جهة الاعجاز هي البلاغة خاصة لكانت هذه التحديات خارجة عن النظم الطبيعي إذ لا يصح أن يكلف البلغاء من العرب المنكرين لكون القرآن من عند الله بإتيان مثل سورة منه ثم بعده بإتيان عشر سور مفتريات بل مقتضى الطبع أن يتحدى بتكليفهم بإتيان مثل القرآن أجمع فإن عجزوا فبإتيان عشر سور مثله مفتريات فإن عجزوا فبإتيان سورة مثله .

وقد ذكر بعضهم في التفصى عن هذا الاشكال أن الترتيب بين السور ونزول بعضها قبل بعض لا يستلزم الترتيب بين آيات السور فكم من آية مكية موضوعة في سورة مدنية وبالعكس فمن الجائز حينئذ أن تكون آيات التحدي بتمام القرآن نازلة قبل غيرها مطلقا ثم تكون آية التحدي بعشر سور مفتريات نازلة بعدها ، وآية التحدي بسورة واحدة نازلة بعد

الجميع .

وفيه : أنه إنما ينفع لو صح نزول الآيات على ما صوره وإلا فالاشكال على حاله والحق أن القرآن معجز في جميع صفاته المختصة به من بلاغة وفصاحة وما فيه من المعارف الحقيقية والاخلاق الكريمة والشرائع الإلهية والقصص والعبر والاخبار بالمغيبات وما له من السلطان على القلوب والجمال الحاكم في النفوس .

وأما الوجه في التحدي بعشر سور مع ما في سورة يونس من التحدي بواحدة فقد قال في المجمع : فإن قيل : لم ذكر التحدي مرة بعشر سور ومرة بسورة ومرة بحديث مثله ؟ فالجواب : أن التحدي إنما يقع بما يظهر فيه الاعجاز من منظوم الكلام فيجوز أن يتحدى مرة بالاقل ومرة بالاكثر .

انتهى .

أقول : وهو يصلح وجها لاصل التحدي بالواحد والكثير وأما التحدي بالعشر بعد الواحدة ولا سيما على ما يراه من كون إعجازه بالبلاغة فحسب فلا .

وذكر بعضهم في توجيه ذلك أن القرآن الكريم معجز في جميع ما يتضمنه من المعارف والاخلاق والاحكام والقصص وغيرها وينعت به من الفصاحة والبلاغة

وانتفاء الاختلاف ، وإنما يظهر صحة المعارضة والاتيان بالمثل عند إتيان عدة من السور يظهر به ارتفاع الاختلاف وخاصة من بين القصص المودعة فيها مع سائر الجهات كالفصاحة والبلاغة والمعارف وغيرها .

وإنما يتم ذلك بإتيان أمثال السور الطويلة التى تشتمل على جميع الشؤون المذكورة وتتضمن المعرفة والقصة والحجة وغير ذلك كسورتي الأعراف والأنعام .

والتى نزلت من السور الطويلة القرآنية مما يشتمل على جميع الفنون المذكورة قبل سورة هود على ما ورد في الرواية هي سورة الأعراف وسورة يونس وسورة مريم وسورة طه وسورة الشعراء وسورة النمل وسورة القصص وسورة القمر وسورة ص فهذه تسع من السور عاشرتها سورة هود ، وهذا الوجه هو في التحدي بأمرهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، انتهى بتلخيص منا وقد أطنب في كلامه .

أقول : فيه أولا : أن لا تعويل على الاثر الذى عول عليه في ترتيب نزول السور فإنما هو من الاحاد التى لا تخلو عن ضعف ولا ينبغى بناء البحث التفسيرى على أمثالها .

وثانيا : أن ظاهر قوله : (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) أن رميهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالافتراء على الله سبحانه قول تقولوه بالنسبة إلى جميع السور القرآنية طويلتها وقصيرتها من غير أن يخصوا به سورة دون سورة فمن الواجب أن يجابوا بما

يحسم مادة الشبهة بالنسبة إلى كل سورة قرآنية ، والتحدى بما يفى بذلك ، وعجزهم عن إتيان عشر سور مفتريات طويلة تجمع الفنون القرآنية لا يثبت به كون الجميع حتى السور القصار كسورتي الكوثر والعصر من عند الله اللهم إلا ببيان آخر يضم إليه واللفظ خال من ذلك .

وثالثا : أن قوله : (بعشر سور مثله) إن كان ما فيه من الضمير راجعا إلى القرآن كما هو ظاهر كلام هذا القائل أفاد التحدي بإتيان عشر سور مفتريات مثله مطلقا سواء في ذلك الطوال والقصار فتخصيص التحدي بعشر سور طويلة جامعة

(157/374)

تقييد للفظ الآية من غير مقيد وهو تحكم وأشد منه تحكما القول بأن المراد بالمثل مثل السور العشر التى عدها .

وإن كان الضمير راجعا إلى سورة هود كان مستبشعا من القول وكيف يستقيم أن يقال لمن يقول : إن سورة الكوثر والمعوذتين من الافتراء على الله : ائت بعشر سور مفتريات مثل سورة هود ويقتصر على ذلك ؟ اللهم إلا أن يهذروا بأن سورة هود وحدها من الافتراء على الله تعالى فيتحدى عندئذ بأن يأتوا بمثلها ، ولم نسمع أحدا منهم تفوه بذلك .

ويمكن أن يقال في وجه الاختلاف الذى يلوح من آيات التحدي كقوله : (فأتوا بسورة مثله) يونس : 38 الظاهر في التحدي بسورة واحدة وقوله : (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) الظاهر في التحدي بعدد خاص فوق الواحد وقوله : (فليأتوا بحديث مثله) الطور : 34 الظاهر في التحدي بحديث يماثل القرآن وإن كان دون السورة أن كل واحدة من الآيات تؤم غرضا خاصا في التحدي .

بيان ذلك : أن جهات القرآن وشؤونه التى تتقوم به حقيقته وهو كتاب إلهى مضافا إلى ما في لفظه من الفصاحة وفي نظمه من البلاغة إنما ترجع إلى معانيه ومقاصده لست أعنى من المعنى ما يقصده علماء البلاغة في قولهم : إن البلاغة من صفات المعنى والالفاظ مطروحة في الطريق يعنون به المفاهيم من جهة ترتبها الطبعى في الذهن فإن الذى يعنون به من المعنى موجود في الكذب الصريح من الكلام وفي الهزل وفي الفحش والهجو والفرية إذا جرت على أسلوب البلاغة وتوجد في الكلام الموروث من البلغاء نظما ونثرا شئ كثير من هذه الأمور .

بل المراد من معنى القرآن ومقصده ما يصفه تعالى بأنه كتاب حكيم ، ونور مبين ، وقرآن عظيم ، وفرقان ، وهاد يهدى الى الحق وإلى طريق مستقيم ، وقول فصل وليس بالهزل ، وكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وذكر وأنه يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وأنه شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ، وأنه تبيان لكل شئ ولا يمسه إلا المطهرون .

(159/374)

فمن البين أن هذه كلها صفات لمعنى القرآن .

وليست صفات لما يقصده علماء البلاغة بالمعنى البليغ الذى ربما يشتمل عليه الباطل من الكلام الذى يسميه القرآن الكريم لغوا من القول وإثما وينهى الإنسان عن تعاطيه والتفوه به وإن كان بليغا بل المعنى المتصف بهذه الصفات هو شئ من المقاصد الإلهية التى تجرى على الحق الذى لا يخالطه باطل ، وتقع في صراط الهداية ، ويكون الكلام المشتمل على معنى هذا نعته وغرض هذا شأنه هو الذى تتعلق العناية الإلهية بتنزيله وجعله رحمة للمؤمنين وذكرا للعالمين .

وهذا هو الذى يصح أن يتحدى به بمثل قوله : (فليأتوا بحديث مثله) فأنا لا نسمى الكلام

حديثا إلا إذا اشتمل على غرض هام يتحدث به فينقل من ضمير إلى ضمير ، وكذا قوله : (فأتوا بسورة مثله) فإن الله لا يسمى جماعة من آيات كتابه وإن كانت ذات عدد سورة إلا إذا اشتملت على غرض إلهى تتميز بها من غيرها .

ولولا ذلك لم يتم التحدي بالآيات القرآنية وكان للخصم أن يختار من مفردات الآيات عددا ذا كثرة كقوله تعالى : (والضحى) (والعصر) (والطور) (في كتاب مكنون) (مدهامتان) (الحاقة ما الحاقة) (وما أدراك ما الحاقة) (الرحمن) (ملك الناس) (إله الناس) (وخسف القمر) (كلا والقمر) (سندع الزبانية) إلى غير ذلك من مفردات الآيات ثم يقابل كلا منها بما يناظرها من الكلام العربي من غير أن يضمن ارتباط بعضها ببعض واشتمالها على غرض يجمعها ويخرجها في صورة الوحدة .

فالذي كلف به الخصم في هذه التحديات هو أن يأتي بكلام يماثل القرآن مضافا إلى بلاغة لفظه في بيان بعض المقاصد الإلهية المشتملة على أغراض منعوتة بالنعوت التى ذكرها الله سبحانه .

(160/374)

والكلام الإلهى مع ما تحدى به في آيات التحدي يختلف بحسب ما يظهر من خاصته فمجموع القرآن الكريم يختص بأنه كتاب فيه ما يحتاج إليه نوع الإنسان إلى يوم القيامة من معارف أصلية وأخلاق كريمة وأحكام فرعية ، والسورة من القرآن تختص ببيان جامع لغرض من الاغراض الإلهية المتعلقة بالهدى ودين الحق على بلاغتها الخارقة ، وهذه خاصة غير الخاصة التى يختص بها مجموع القرآن الكريم ، والعدة من السور كالعشر والعشرين منها تختص بخاصة أخرى وهى بيان فنون من المقاصد والاغراض والتنوع فيها فإنها أبعد من احتمال الاتفاق فإن الخصم إذا عجز عن الاتيان بسورة واحدة كان من الممكن أن يختلج في باله أن عجزه عن الاتيان بها إنما يدل على عجز الناس عن الاتيان بمثلها لا على كونها نازلة من عند الله موحاة بعلمه فمن الجائز أن يكون كسائر الصفات والاعمال الإنسانية التى من الممكن في كل منها أن يتفرد به فرد من بين أفراد النوع اتفاقا لتصادق أسباب موجبة لذلك كفرد من الإنسان موصوف بأنه اطول الافراد أو اكبرهم جثة أو أشجعهم أو أسخاهم أو أجبنهم أو أبخلهم .

وهذا الاحتمال وإن كان مدفوعا عن السورة الواحدة من القرآن أيضا التى يقصدها الخصم بالمعارضة فإنها كلام بليغ مشتمل على معان حقة ذات صفات كريمة خالية عن مادة الكذب ، وما هذا شأنه لا يقع عن مجرد الاتفاق والصدفة من غير أن يكون مقصودا في نفسه ذا غرض يتعلق به الإرادة .

إلا أنه أعنى ما مر من احتمال الاتفاق والصدفة عن السور المتعددة أبعد لأن إتيان السورة بعد السورة وبيان الغرض بعد الغرض والكشف عن خبيئ بعد خبيئ لا يدع مجالا لاحتمال الاتفاق والصدفة وهو ظاهر .

(161/374)

إذا تبين ما ذكرناه ظهر أن من الجائز أن يكون التحدي بمثل قوله : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) أسرى : 88 واردا مورد التحدي بجميع القرآن لما جمع فيه من الاغراض الإلهية ويختص بأنه جامع لعامة ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة ; وقوله : (قل فأتوا بسورة مثله) لما فيها من الخاصة الظاهرة وهى أن فيها بيان غرض تام جامع من أغراض الهدى الإلهى بيانا فصلا من غير هزل ; وقوله : (قل فأتوا بعشر سور) تحديا بعشر من السور القرآنية لما في ذلك من التفنن في البيان والتنوع في الاغراض من جهة الكثرة ، والعشرة من ألفاظ الكثرة كالمأة والالف

قال تعالى : (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) البقرة : 9 .

فالمراد بعشر سور – والله أعلم – السور الكثيرة الحائزة لبعض مراتب الكثرة المعروفة بين

الناس فكأنه قيل : فأتوا بعدة من سورها ولتكن عشرا ليظهر به أن تنوع الاغراض القرآنية في بيانه المعجز ليس إلا من قبل الله .

وأما قوله : (فليأتوا بحديث مثله) فكأنه تحد بما يعم التحديات الثلاثة السابقة فإن الحديث يعم السورة والعشر سور والقرآن كله فهو تحد بمطلق الخاصة القرآنية وهو ظاهر .

بقى هنا أمران أحدهما : أنه لم يقع في شئ من آيات التحدي المذكورة توصيف ما يأتي به الخصم بالافتراء إلا في هذه الآية إذ قيل فيها : (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) بخلاف قوله : (فأتوا بسورة مثله) فلم يقل فيه : (فأتوا بسورة مثله مفتراة) وكذا في سائر آيات التحدي .

ولعل الوجه في ذلك أن نوع العناية في الآية المبحوث عنها غير نوع العناية في سائر آيات التحدي فإن العناية في سائر الآيات متعلقة بأنهم لا يقدرون على الاتيان بمثل القرآن أو بمثل السورة لما أنه قرآن مشتمل على جهات لا تتعلق بها قدرة الإنسان ولا يظهر عليها غيره تعالى وقد أطلق القول فيها إطلاقا .

وأما هذه الآية فلما عقبت بقوله : (فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) دل ذلك على أن التحدي فيها إنما هو بكون القرآن متضمنا لما يختص علمه بالله تعالى ولا سبيل لغيره إليه ، وهذا أمر لا يقبل الافتراء بذاته فكأنه قيل : إن هذا القرآن لا يقبل بذاته افتراء فإنه متضمن لامور من العلم الإلهى الذى لا سبيل لغيره تعالى إليه ، وإن ارتبتم في ذلك فأتوا بعشر سور مثله مفتريات تدعون أنها افتراء ، واستعينوا بمن استطعتم من دون الله فإن لم تقدروا عليه فاعلموا أنه من العلم المخصوص به تعالى .

فافهم ذلك .

وثانيهما : معنى التحدي بالمثل حيث قيل : (بمثل هذا القرآن) (بحديث مثله)

(163/374)

بسورة مثله) (بعشر سور مثله) والوجه الظاهر فيه أن الكلام لما كان آية معجزة فلو أتى إنسان بما يماثله لكفى في إبطال كونه آية معجزة ولم يحتج إلى الاتيان بما يترجح عليه في صفاته ويفضل عليه في خواصه .

وربما يورد عليه أن عدم قدره غيره (صلى الله عليه وآله وسلم) على ذلك لا يدل على كونه معجزة غير مستندة إليه لأن صفات الكمال التى توجد في النوع الإنساني كالبلاغة

والكتابة والشجاعة والسخاء و غيرها لها مراتب متفاوتة مختلفة يفضل بعضها على بعض ، وإذا كان كذلك كان من المراتب ما هو فوق الجميع وهو غاية ما يمكن أن ترتقى إليه النفس الإنسانية البتة .

فكل صفة من صفات الكمال يوجد بين الافراد الموصوفين بها من هو حامل للدرجة العليا والغاية القصوى منها بحيث لا يعدله غيره ولا يعارضه أحد ممن سواه فبالضرورة بين أفراد الإنسان عامة من هو أبلغهم أو أكتبهم أو أشجعهم أو أسخاهم كما أن بينهم من هو أطولهم قامة وأكبرهم جثة ، ولم لا يجوز أن يكون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أفصح الناس جميعا وأبلغهم والقرآن من كلامه الذى لا يسع لاحد أن يعارضه فيه لوقوفه موقفا ليس لغيره فيه موضع قدم ؟ فلا يكون عندئذ عجز غيره عن الاتيان دليلا على كونه كلاما إلهيا غير بشرى لجواز كونه كلاما بشريا مختصا به (صلى الله عليه وآله وسلم) مضنونا عن غيره . هذا .

ويدفعه أن الصفات الإنسانية التى يقع فيها التفاضل وإن كانت على ما ذكر لكنها أياما كانت فهى مما تسمح بها الطبيعة الإنسانية بما أودع الله فيها من الاستعداد من غير أن تنشأ عن اتفاق ومن غير سبب يمكن الفرد الموصوف من الاتصاف بها .

وإذا كان كذلك وفرض فرد من الإنسان اختص بصفة فاضلة لا يعدله غيره ولا يفوقه سواه كان لغيره أن يسلك ما مهده من السبيل ويتعود بالتمرن والتدرب والارتياض بما يأتيه من الأعمال التى تصدر عما عنده من صفة الكمال فيأتى بما يماثل بعض ما يختص به من الكمال ويقلده في نبذه من أعماله وان لم يقدر على أن يزاحمه في الجميع ويماثله في الكل ، ويبقى للفرد النابغ المذكور مقام الاصالة والسبقة والتقدم في ذلك فالحاتم مثلا وإن كان هو المتفرد غير المعارض في سخائه وجوده من غير أن يسع غيره أن يتقدم عليه ويسبقه لكن من الممكن أن يرتاض مرتاض في سبيله فيتمرن ويتدرب فيه فيأتى بشئ من نوع سخائه وجوده وان لم يقدر على مزاحمته في الجميع وفي أصل مقامه ، والكمالات الإنسانية التى هي منابع للاعمال سبيلها جميعا هذا السبيل ، ويتمكن الإنسان بالتمرن والتدرب على سلوك سبيل السابقين المبدعين فيها والاتيان بشئ من أعمالهم وإن لم يسع مزاحمتهم في أصل موقفهم .

فلو كان القرآن من كلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على فرض أنه أبلغ إنسان وأفصحه كان من الجائز أن يهتم غيره فيتمرن على سلوك ما أبدعه في كلامه من النظم البديع فيقدر على تقليده في شئ من الكلام وإتيان شئ من القول بسورة مثله وإن لم يقدر على تقليد القرآن كله والاتيان بجميعه .

ولم يقل فيما تحدى به : فليأتوا بحديث أبلغ منه أو أحسن أو بسورة هي أبلغ أو أحسن حتى

يقال : إن القرآن أبلغ كلام بشرى أو أحسنه ليس هناك ما هو أبلغ أو أحسن منه حتى يأتي به آت فلا يدل عدم القدرة على الاتيان بذلك على كونه كلاما لغير البشر ، بل إنما قال : (فليأتوا بحديث مثله) (قل فأتوا بسورة مثله) وهكذا وفي وسع البشر الاتيان بمثل كلام غيره من البشر وإن فرض كون ذلك الغير ذا موقف من الكلام لا يعارضه غيره على ما بيناه فالشبهة مندفعة بقوله تعالى (مثله) .

(165/374)

قوله تعالى : (فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون) إجابة الدعوة واستجابتها بمعنى .

والظاهر من السياق ان الخطاب في الآية للمشركين ، وأنه من تمام كلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الذى أمر بقوله تعالى : (قل) أن يلقيه إليهم ، وعلى هذا فضمير الجمع في قوله : (لم يستجيبوا) راجع إلى الالهة وكل من استعانوا به المدلول عليهم بقوله : (وادعوا من استطعتم من دون الله) .

والمعنى : فإن لم يستجب لكم معاشر المشركين هؤلاء الذين دعوتموهم من

(166/374)

آلهتكم ومن بلغاء أهل لسانكم العارفين بأساليب الكلام وعلماء اهل الكتاب الذين عندهم الكتب السماوية وأخبار الأنبياء والأمم والكهنة المستمدين من إلقاء شياطين الجن ، وجهابذة العلم والفهم من سائر الناس المتعمقين في المعارف الإنسانية بأطرافها فاعلموا أنما أنزل هذا القرآن بعلم الله ولم يختلق عن علمي أنا ولا غيري ممن تزعمون أنه يعلمني ويملي علي ، واعلموا أيضا ان ما ادعوكم إليه من التوحيد حق فإنه لو كان هناك إله من دون الله لنصركم على ما دعوتموه إليه فهل انتم ايها المشركون مسلمون لله تعالى منقادون لامره ؟ فقوله تعالى : (فإن لم يستجيبوا لكم) في معنى قولنا : فإن لم تقدروا على المعارضة بعد الاستعانة والاستمداد بمن استطعتم أن تدعوهم من دون الله ، وذلك أن الأسباب التي توجب قدرتهم على المعارضة هي ما عندهم من قدرة البيان وقريحة البلاغة وهم يرون أن ذلك من مواهب آلهتهم من دون الله وكذا ما عند آلهتهم مما لم يهبوهم بعد ، ولهم أن يؤيدوهم به إن شاءوا على زعمهم ، وأيضا ما عند غير آلهتهم من المدد ، وإذا لم يستجبهم الذين يدعونهم في معارضة القرآن فقد ارتفع جميع الأسباب الموجبة لقدرتهم وارتفعت بذلك قدرتهم فعدم إجابته الشركاء على معارضة القرآن ملازم لعدم قدرتهم عليها حتى بما عند أنفسهم من القدرة ففي الكلام كناية .

وقوله : (فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) الظاهر أن المراد بعلم الله هو العلم المختص به وهو

الغيب الذى لا سبيل لغيره تعالى إليه إلا بإذنه كما قال تعالى : (لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه) النساء : 166 ، وقال : (ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك) يوسف : 102 ، وقال : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول) الجن : 27 ، وقال : (إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين) الواقعة : 80 .

(167/374)

فالمعنى : فإن لم تقدروا على معارضته بأى سبب ممد تعلقتم به من دون الله فتيقنوا أنه لم ينزل إلا عن سبب غيبي وأنه من أنباء الغيب الذى يختص به تعالى فهو الذى أنزله على وكلمني به وأراد تفهيمى وتفهيمكم بما فيه من المعارف الحقة وذخائر الهداية .

وذكر بعضهم أن المراد به أنه إنما أنزل على علم من الله بنزوله وشهادة منه له ، وذكر آخرون أن المراد أنه إنما أنزل بعلم من الله أنه لا يقبل المعارضة أو بعلم من الله بنظمه وترتيبه ولا يعلم غيره ذلك ، وهذه معان واهيه بعيدة عن الفهم .

والجملة أعنى قوله : (أنما أنزل بعلم الله) احدى النتيجتين المأخوذتين من عدم استجابة شركائهم لهم .

والنتيجة الاخرى قوله : (وأن لا إله إلا هو) ولزوم هذه النتيجة من وجهين : احدهما : أنهم إذا دعوا آلهتهم لما يهمهم من الأمور فلم يجيبوهم كشف ذلك عن أنهم ليسوا بالهة فليس الإله إلا من يجيب المضطر إذا دعاه وخاصة إذا دعاه لما فيه نفع الإله المدعو فإن القرآن الذى أتى به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقطع دابرهم ويميت ذكرهم ويصرف الناس عن التوجه إليهم فإذا لم يجيبوا أولياءهم اذا دعوهم لمعارضة كتاب هذا شأنه كان ذلك من اوضح الدليل على نفى ألوهيتهم .

وثانيهما : أنه إذا صح ان القرآن حق نازل من عند الله صادق فيما يخبر به ، ومما يخبر به أنه ليس مع الله إله آخر علم بذلك أنه لا إله إلا الله سبحانه .

وقوله : (فهل أنتم مسلمون) أي لما علمتم واتضح لكم من جهة عدم استجابة شركائكم من دون الله وعجزكم عن المعارضة فهل أنتم مسلمون لما وقع عليه علمكم هذا من توحيد الله سبحانه وكون هذا القرآن كتابا نازلا بعلمه ؟ وهو أمر بالإسلام في صورة الاستفهام .

هذا كله ما يقتضيه ظاهر الآية .

(168/374)

وقيل : إن الخطاب في قوله : (فإن لم يستجيبوا لكم) الخ ، للنبى (صلى الله عليه وآله وسلم) خوطب بلفظ الجمع تعظيما له وتفخيما لشأنه وضمير الجمع الغائب راجع إلى المشركين أي فإن لم يستجب المشركون لما دعوتهم أيها النبي إليه من المعارضة فاعلم أنه منزل بعلم الله وأن الله واحد فهل أنت مسلم لامره .

وفيه أنه قد صح أن التعظيم بلفظ الجمع والكثرة يختص في الكلام العربي بالمتكلم واما الخطاب والغيبة فلا تعظيم فيها بلفظ الجمع .

(169/374)

مضافا إلى ان استناد الوحى الإلهى والتكليم الربانى إليه تعالى استناد ضروري لا يقبل الشك حتى يستعان عليه بالدليل فما يتلقاه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) دلالته على كونه كلاما من الله دلالة ضرورية غير محتاجة إلى حجة حتى يحتج عليه بعدم إجابة المشركين إلى معارضة القرآن وعجزهم عنها بخلاف كلام المخلوقين من الإنسان والجن والملك وأى هاتف آخر فإنه يحتاج في حصول العلم باستناده إلى متكلمه إلى دليل خارجي من حسن أو عقل ، وقد تقدمت إشارة إلى ذلك في قصة زكريا من سورة آل عمران ، وسيجئ البحث المستوفى عن ذلك فيما يناسبه من المورد إن شاء الله تعالى .

على أن خطاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بمثل قوله : (وأنه لا إله إلا هو) ، وقوله : (فهل أنتم مسلمون) لا يخلو عن بشاعة .

على أن نفس الاستدلال أيضا غير تام كما سنبين .

(170/374)

وقيل : إن الخطاب في الآية للنبى (صلى الله عليه وآله وسلم) والمؤمنين جميعا أو للمؤمنين خاصة لأن المؤمنين يشاركونه (صلى الله عليه وآله وسلم) في الدعوة الدينية والتحدى بالقرآن الذى هو كتاب ربهم المنزل عليهم والمعنى : فإن لم يستجب المشركون لكم في المعارضة فاعلموا أن القرآن منزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل تسلمون أنتم لله ؟ ولما تفطن بعضهم أن لا معنى لدعوة المؤمنين وهم مؤمنون بالله وحده وبكتابه إلى العلم بأنه كتاب نازل من عند الله وبأنه تعالى واحد لا شريك له أصلحه بأن المراد فاثبتوا على علمكم أنه إنما أنزل بعلم الله وازدادوا به ايمانا ويقينا وأنه لا إله إلا هو ولا يستحق العبادة سواه فهل أنتم ثابتون على إسلامكم والاخلاص فيه ؟ وفيه أنه تقييد للاية من غير مقيد والحجة غير تامة وذلك أن المشركين لو كانوا وقفوا موقف المعارضة بما عندهم من البضاعة واستعانوا عليها بدعوة آلهتهم وسائر من يطمعون فيه من الجن والانس ثم عجزوا

كان ذلك دليلا واضحا يدلهم على أن القرآن فوق كلام البشر وتمت بذلك الحجة عليهم ، وأما عدم استجابة الكفار للمعارضة فليس يدل على كونه من عند الله لانهم لم يأتمروا بما أمروا به بقوله : (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) إما لعلمهم بأنه كلام الله الحق وإنما كان قولهم :

(افتراه) قولا ناشئا عن العناد واللجاج لا عن إذعان به أو شك فيه ، أو لانهم كانوا آئسين من استجابة شركائهم للدعوة على المعارضة ، أو لانهم كانوا هازلين في قولهم ذلك يهذرون هذرا .

(171/374)

وبالجملة عدم استجابة المشركين للنبى (صلى الله عليه وآله وسلم) أو للمؤمنين أو لهم جميعا لا يدل بنفسه على كون القرآن نازلا من عند الله إلا إذا كان عدم الاستجابة المذكورة بعد تحقق دعوتهم شركاءهم إلى المعارضة وعدم استجابتهم لهم ، ولم يتحقق من المشركين دعوة على هذه الصفة ، ومجرد عدم استجابة المشركين انفسهم لا ينفع شيئا ، ولا يبقى إلا أن يقال : إن معنى الآية : فإن دعا المشركون من استطاعوا من دون الله فلم يستجيبوا لهم ولم يستجب المشركون لكم أيها النبي ومعاشر المؤمنين فاعلموا أنما أنزل بعلم الله الخ ، وهذا

هو الذى أومأنا إليه آنفا أنه تقييد للاية من غير مقيد .

على أن فيه امرا للمؤمنين أن يهتدوا في إيمانهم ويقينهم بأمر فرضى غير واقع وكلامه تعالى يجل عن ذلك ، ولو أريدت الدلالة على أنهم غير قادرين على ذلك وإن دعوا شركاءهم إلى المعارضة كان من حق الكلام أن يقال : فإن لم يستجيبوا لكم ولن يستجيبوا فاعلموا الخ ، كما قيل كذلك في نظيره قال تعالى : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) البقرة : 24 . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الميزان حـ 10 صـ 162 . 175 ﴾

(172/374)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾

﴿ أم ﴾ هذه منقطعة بمعنى (بل) التي للإضراب للانتقال من غرض إلى آخر ، إلاّ أن (أم) مختصة بالاستفهام فتقدر بعدها همزة الاستفهام .

والتقدير : بل أيقولون افتراه .

والإضراب انتقالي في قوة الاستئناف الابتدائي ، فللجملة حكم الاستئناف .

والمناسبة ظاهرة ، لأن الكلام في إبطال مزاعم المشركين ، فإنهم قالوا : هذا كلام مفترى ، وقرعهم بالحجة .

والاستفهام إنكاري .

والافتراء : الكذب الذي لا شبهة لصاحبه ، فهو الكذب عن عمد ، كما تقدم في قوله : ﴿ ولكن الذين كفَرُوا يفترون على الله الكذب ﴾ في سورة [العقود : 103] .

وجملة ﴿ قل فأتوا ﴾ جواب لكلامهم فلذلك فصلت على ما هو مستعمل في المحاورة سواء كانت حكاية المحاورة بصيغة حكاية القول أو كانت أمراً بالقول كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ [البقرة : 30] .

والضمير المستتر في (افتراه) عائد إلى النبي عليه الصلاة والسلام المذكور في قوله : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ﴾ [هود : 12] .

وضمير الغائب البارز المنصوب عائد إلى القرآن المفهوم من قوله : ﴿ بعض ما يوحى إليك ﴾ [هود : 12] .

والاتيان بالشيء : جلبه ، سواء كان بالاسترفاد من الغير أم بالاختراع من الجالب وهذا توسعة عليهم في التحدّي .

وتحدّاهم هنا بأن يأتوا بعشر سور خلاف ما تحدّاهم في غير هذا المكان بأن يأتوا بسورة

مثله ، كما في سورة البقرة وسورة يونس .

فقال ابن عبّاس وجمهور المفسرين : كان التحدّي أوّل الأمر بأن يأتوا بعشر سور مثل القرآن .

وهو ما وقع في سورة هود ، ثمّ نسخ بأن يأتوا بسورة واحدة كما وقع في سورة البقرة وسورة يونس .

فتخطّى أصحاب هذا القول إلى أن قالوا إن سورة هود نزلت قبل سورة يونس ، وهو الذي يعتمد عليه .

(173/374)

وقال المبرّد : تحدّاهم أولاً بسورة ثمّ تحدّاهم هنا بعشر سور لأنّهم قد وسع عليهم هنا بالاكتفاء بسور مفتريات فلمّا وسع عليهم في صفتها أكثَرَ عليهم عددها .

وما وقع من التحدّي بسورة اعتبر فيه مماثلتها لسور القرآن في كمال المعاني ، وليس بالقويّ .

ومعنى ﴿ مفتريات ﴾ أنها مفتريات المعاني كما تزعمون على القرآن أي بمثل قصص أهل الجاهلية وتكاذيبهم .

وهذا من إرخاء العنان والتسليم الجدلي ، فالمماثلة في قوله ﴿ مثله ﴾ هي المماثلة في

بلاغة الكلام وفصاحته لا في سداد معانيه .

قال علماؤنا : وفي هذا دليل على أن إعجازه وفصاحته بقطع النظر عن علوّ معانيه وتصديق بعضه بعضاً .

وهو كذلك .

والدعاء : النداء لعمل .

وهو مستعمل في الطلب مجازاً ولو بدون نداء .

وحذف المتعلق لدلالة المقام ، أي وادْعوا لذلك .

والأمر فيه للإباحة ، أي إن شئتم حين تكونون قد عجزتم عن الإتيان بعشر سور من تلقاء أنفسكم فلكم أن تدعوا من تتوسّمون فيه المقدرة على ذلك ومَن تَرجون أن ينفحكم بتأييده من آلهتكم وبتيسير الناس ليعاونوكم كقوله:

﴿ وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [البقرة : 23] .

و﴿ من دون الله ﴾ وصف ل ﴿ من استطعتم ﴾ ، ونكتة ذكر هذا الوصف التذكير بأنهم أنكروا أن يكون من عند الله ، فلما عمّم لهم في الاستعانة بمن استطاعوا أكّد أنهم دون الله فإن عجزوا عن الإتيان بعشر سور مثله مع تمكنهم من الاستعانة بكلّ من عدا الله تبين أن هذا القرآن من عند الله .

ومعنى ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي في قولكم ﴿ افتراه ﴾ ، وجواب الشرط هو قوله :

﴿ فأتوا بعشر سور ﴾ .

ووجه الملازمة بين الشرط وجزائه أنه إذا كان الافتراء يأتي بهذا القرآن فما لكم لا تفترون أنتم مثله فتنهض حجتكم .

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾

(174/374)

تفريع على ﴿ وادْعوا من استطعتم ﴾ [هود : 13] أي فإن لم يستجب لكم مَن تدعو لهم فأنتم أعجز منهم لأنكم ما تدعونهم إلاّ حين تشعرون بعجزكم دون معاون فلا جرم يكون عجز هؤلاء موقعاً في يأس الدّاعين من الإتيان بعشر سور .

والاستجابة : الإجابة ، والسين والتاء فيه للتأكيد .

وهي مستعملة في المعاونة والمظاهرة على الأمر المستعان فيه ، وهي مجاز مرسل لأنّ المعاونة تنشأ عن النّداء إلى الإعانة غالباً فإذا انتدب المستعان به إلى الإعانة أجاب النداء بحضوره فسمّيت استجابة .

والعلم : الاعتقاد اليقين ، أي فأيقنوا أن القرآن ما أنزل إلاّ بعلم الله ، أي ملابساً لعلم الله .

أي لأثر العلم ، وهو جعله بهذا النظم للبشر لأن ذلك الجعل أثر لقدرة الله الجارية على وفق

علمه .

وقد أفادت (أنما) الحصر ، أي حصر أحوال القرآن في حالة إنزاله من عند الله .

و﴿ أن لا إله إلاّ هو ﴾ عطف على ﴿ أنّما أنزل ﴾ لأنهم إذا عجزوا فقد ظهر أن من استنصروهم لا يستطيعون نصرهم .

ومن جملة من يستنصرونهم بطلب الإعانة على المعارضة بين الأصنام عن إعانة أتباعهم فدل ذلك على انتفاء الإلهية عنهم .

والفاء في ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ للتفريع على ﴿ فاعلموا ﴾ .

والاستفهام مستعمل في الحثّ على الفعل وعدم تأخيره كقوله : ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ [المائدة : 91] أي عن شرب الخمر وفعل الميسر .

والمعنى : فهل تسلمون بعد تحققكم أنّ هذا القرآن من عند الله .

وجيء بالجملة الاسمية الدالة على دوام الفعل وثباته .

ولم يقل فهل تسلمون لأنّ حالة عدم الاستجابة تكسب اليقين بصحة الإسلام فتقتضي تمكنه من النفوس وذلك التمكن تدلّ عليه الجملة الاسمية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾

وفي قول الحق سبحانه وتعالى هنا بيانٌ لِلَوْنٍ آخر من مصادمة الكافرين لمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم والإيمان به ، فقالوا : إن محمداً قد افترى القرآن .

والافتراء : هو الكذب المتعمَّد ، ومعنى الكذب المتعمد أنه كلام يخالف واقعاً في الكون .

فإذا كان الواقع نَفْياً وأنت قلت قضيةَ إثبات ؛ تكون قد خالفت الواقع ، كأن يُوجد في الكون شرٌّ ما ثم تقول أنت : لا يوجد شرٌّ في هذا المكان ، وهكذا يكون الواقع إيجاباً والكلام نفْياً .

وكذلك أن يكون في الواقع نَفْيٌ وفي الكلام إيجابٌ ، فهذا أيضاً كذبٌ ؛ لأن الصدق هو أن تتوافق القضية الكلامية مع الواقع الكوني ، فإن اختلفتْ مع الواقع الكوني صار الكلام كاذباً .

والكذب نوعان : نوع متعمد ، ونوع غير متعمد . والكذب خرق واقع واختلاق غير موجود . ويقال خرقت الشيء أي : أنك أتيت لواقع وبدَّلت فيه .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : 100] .

ويقول أيضاً الحق سبحانه :

﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ [العنكبوت : 17] .

أي : تأتون بشيء من عدم ، وهو من عندكم فقط .

ويقول الله سبحانه تعالى :

﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : 116] .

وحين اتهموا محمداً صلى الله عليه وسلم بهتاناً بأنه افترى القرآن جاء الرد من القرآن الكريم بمنتهى البساطة ، فأنتم معشر العرب أهل فصاحة وبلاغة ، وقد جاء القرآن الكريم من جنس ونوع نُبوغكم ، وما دمتم قد قُلْتم : إن محمداً قد افترى القرآن ، وأن آيات القرآن ليست من عند الله ، فلماذا لا تفترون مثله ؟

(176/374)

وما دام الافتراء أمراً سهلاً بالنسبة لكم ، فلماذا لا تأتون بمثل القرآن ولو بعشْر سور منه ؟ وأنتم قد عِشْتم مع محمد منذ صِغَره ، ولم يكن له شعْر ، ولا نثر ، ولا خطابة ، ولا علاقة له برياضاتكم اللغوية ، ولم يزاول الشعر أو الخطابة ، ولم يشترك في أسواق البلاغة والشعر التي كانت تُعقد في الجاهلية مثل سوق عكاظ .

وإذا كان مَنْ لا رياضة له على الكلام ولا على البلاغة ، قد جاء بهذا القرآن ؛ فَلْيكُنْ لديكم وأنتم أهل قُدْرة ودُرْبة ورياضة على البلاغة أن تأتوا ببعض من مثله ، وإن كان قد افترى القرآن فلماذا لا تفترون مثله ؟

وأنتم تعرفون المعارضات التي تُقام في أسواق البلاغة عندكم ، حين يقول شاعر قصيدة ، فيدخل معه شاعر أخر في مباراة ليلقي قصيدة أفضل من قصيدة الشاعر الأول ، ثم تُعقد لجان تحكيم تُبَيِّن مظاهر الحُسْن ومظاهر السوء في أي قصيدة .

ولو كان محمدٌ صلى الله عليه وسلم قد افترى القرآن كما تقولون فأين أنتم ؟ ألم تعرفوه منذ طفولته ؟ ولذلك يأمر الحق سبحانه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول :

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾

[يونس : 16] .

فهَل أثرَ عن محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال شعراً أو ألقى خطبة أو تَبارَى في عكاظ أو المربد أو ذي المجاز أو المَجَنَّة ، وتلك هي أسواق البلاغة ومهرجاناتها في تلك الأيام ؟

هو لم يذهب إلى تلك الأماكن منافساً أو قائلاً .

إذن : أفليسَ الذين تنافسوا هناك أقدر منه على الافتراء ؟ ألم يكن امرؤ القيس شاعراً فَحْلاً ؟ لقد كان ، وكان له نظير يعارضه .

وكذلك كان عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حِلَّزة اليشْكُري ، كما جاء في عصور تالية آخرون مثل : جرير والفرزدق .

إذن : فأنتم تعرفون مَنْ يقولون الشعر ومَنْ يعارضونهم من أمثالهم من الشعراء .

(177/374)

إذن : فهاتوا مَنْ يفتري مثل سور القرآن ، فإنْ لم تفتروا ، فمعنى ذلك أن القرآن ليس افتراء .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود : 13] .

فهل كانوا قادرين على قبول التحدي ، بأنْ يأتُوا بعشر سُوَر من مثل القرآن الكريم في البيان الآسر وقوة الفصاحة وأسرار المعاني ؟

لقد تحدَّاهم بأن يأتوا أولاً بمثل القرآن ، فلم يستطيعوا ، ثم تحدَّاهم بأن يأتوا بعشر سور ، فلم يستطيعوا ، وتحدَّاهم بأن يأتوا بسورة ، ثم تحدَّى أن يأتوا ولو بحديث مثله ، فلم يستطيعوا .

وهنا جاء الحق سبحانه بالمرحلة الثانية من التحدي ، وهو أنْ يأتوا بِعَشْر سُور ، ولم يكتف الحق سبحانه بذلك ، بل طالبهم أن يَدْعُوا مَجْمَعاً من البُلَغَاء ، فقال سبحانه :

﴿ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله ﴾ [هود : 13] .

أي : هاتوا كلَّ شركائكم وكل البُلغاء ، من دون الله تعالى .

الحق سبحانه وتعالى هنا يقطع عليهم فرصة الادّعاء عليه سبحانه حتى لا يقولوا : سوف ندعو الله ؛ ولذلك طالبهم الحق سبحانه أن يُجنّبوه ﴿ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود : 13] .

أي : إن كنتم صادقين في أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد افترى القرآن ، وبما أنكم أهل ريادة في الفصاحة فَلْتفتروا عَشْر سُوَرٍ من مثل القرآن ، أنتم ومَنْ تستطيعون دعوتهم من الشركاء .

لذلك كان الرد الحكيم من الله في قول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فاعلموا ﴾

والخطاب هنا موجَّه إلى الذين ادَّعوا أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد افترى القرآن ، أو أن الخطاب مُوجَّه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال في الآية السابقة :

﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ ﴾ [هود : 1314] .

أي : إن لم يردُّوا على التحدي ، فليعلموا وليتيقَّنوا أن هذا القرآن هو من عند الله تعالى ، بشهادة الخصوم منهم .

ولماذا عدَّل الحق سبحانه هنا الخطاب ، وقال :

﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ ﴾ [هود : 14] .

أي : من تدعونهم ، ثم قال سبحانه :

﴿ فاعلموا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ الله ﴾ [هود : 14] .

وقد قال الحق سبحانه ذلك ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مُطالَبٌ بالبلاغ وما بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم للمؤمنين مطلوب منه أن يُبلغوه ، وإنْ لم يستجيبوا للرسول صلى الله عليه وسلم أو للمؤمنين ، ولم يأتِ أحد مع مَنْ يتهم القرآن بأنه مُفترًى مِن محمدٍ .

وقد يكون هؤلاء الموهوبون خائفين من التحدي ؛ لأنهم عرفوا أن القرآن حق ، وإن جاءوا ليفتروا مثله فلن يستطيعوا ، ولذلك فاعلموا يا مَنْ لا تؤمنون بالقرآن أن القرآن : ﴿ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ الله ﴾ [هود : 14] .

إذن : فالخطاب يكون مرَّة موجَّهاً للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته .

ولذلك عَدَلَ الحق سبحانه عن ضمير الإفراد إلى ضمير الجمع في قوله تعالى :

﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فاعلموا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ ﴾ [هود : 14] .

أي : ازدادوا علماً أيها المؤمنون بأن القرآن إنما نزل من عند الله .

والعِلْم كما نعلم مراحل ثلاث : علم يقين ، وعين يقين ، وحق يقين .

أو أن الخطاب مُوجَّه للكافرين الذين طلب القرآن منهم أن يَدْعُوا من يستطيعون دعاءه ليعاونهم في معارضة القرآن : ﴿ فاعلموا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ ﴾ [هود : 14] .

(179/374)

وأعلى مراتب العِلْم عند الحق سبحانه الذي يعلم كل العلم أزلاً ، وهو غير علمنا نحن ، الذي يتغير حسب ما يتيح لنا الله سبحانه أن نعلم ، فأنت قد تكون عالماً بشيءٍ وتجهل أشياء ، أوعلمتَ شيئاً وغابتْ عنك أشياء .

ولذلك تجد الأطباء ، وأصحاب الصناعات الدقيقة وغيرهم من الباحثين والعلماء يستدرك بعضهم البعض ، فحين يذهب مريض لطبيب مثلاً ويصف له دواءً لا يستجيب له ، فيذهب المريض إلى طبيب آخر ، فيستدرك على الطبيب الأول ، فيصف دواء ، وقد لا يستجيب له المريض مرة ثانية ، وهنا يجتمع الأطباء على هيئة " مجمع طبي "يُقرّر ما يصلح أو لا يصلح للمريض .

ويستدرك كلٌّ منهم على الآخر إلى أن يصلوا إلى قرار ، والذي يستدرك هو الأعلم ؛ لأن الطبيب الأول كتب الدواء الذي أرهق المريض أو لم يَستجبْ له ، وهو قد حكم بما عنده من عِلْم ، كذلك بقية الباحثين والعلماء .

وما دام فوق كل ذي علمٍ عليمٌ ؛ فالطبيب الثاني يستدرك على الطبيب الأول . . وهكذا

.

ولكن أيوجد أحدٌ يستدرك على الله سبحانه وتعالى ؟ لا يوجد .

وما دام القرآن الكريم قد جاء بعلم الله تعالى ، فلا علم لبشر يمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن

.

﴿ فاعلموا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [هود : 14] .

وجاء الحق سبحانه هنا بأنه لا إله إلا هو ؛ حتى لا يدَّعي أحدٌ أن هناك إلهاً آخر غير الله

.

وذكر الله سبحانه هنا أن هذا القرآن قد نزل في دائرة :

﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [هود : 14] .

وما دام الحق سبحانه قد حكم بذلك فلنثق بهذا الحكم .

مثال ذلك : هو حكم الحق سبحانه على أبي لهب وعلى امرأته بأنهما سيدخلان النار فهل كان من الممكن أن يعلن أبو لهب إسلامه ، ولو نفاقاً ؟ طبعاً لا ؛ لأن الذي خلقَه علم

كيف يتصرف أبو لهب .

لذلك نجد بعد سورة المسد التي قررت دخول أبي لهب النار ، قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] .

(180/374)

أي : أن الحق سبحانه ما دام قد أصدر حكمه بأن أبا لهب سيدخل وزوجه النار ، فلن يقدر أحد على أن يُغيِّر من حكمه سبحانه ، فلا إله إلا هو .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود : 14] .

وهذا استفهام ، أي : طلب للفهم ، ولكن ليس كل استفهام طلباً للفهم ، فهذا الاستفهام هنا صادر عن إرادة حقيقية قادرة على فرض الإسلام على من يستفهم منهم .

ولكنه سبحانه شاء أن يأتي هذا الاستفهام على لسان رسوله ليقابله جواب ، ولو لم يكن السائل واثقاً أنه لا يوجد إلا الإسلام لما قالها ، ولو لم يكن السائل واثقاً أنه لا جواب إلا أن يُسْلِم السامع ، ما جعل جواب السامع حجة على السامع .

وقائل هذا الكلام هو الخالق سبحانه ، ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُنزَّه عن كل مثل ،

تجد إنساناً يحكي لك أمراً بتفاصيله ، ثم يسألك : هل أنا صادق فيما قلت لك ؟ . . وهو يأتي بهذا الاستفهام ؛ لأنه واثق من أنك ستقول له : نعم ، أنت صادق .

وإذا نظرنا في آية تحريم الخمر والميسر على سبيل المثال نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة والبغضاء فِي الخمر والميسر وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَعَنِ الصلاة فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : 91] .

وكأن هذا الاستفهام يحمل صيغة الأمر بأن : انتهوا من الخمر والميسر ، واخجلوا مما تفعلون

.

إذن : فقول الحق سبحانه في آخر الآية الكريمة :

﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود : 14] يعني : أسلموا ، واتركوا اللجاجة بأن القرآن قد جاء من عند محمد ، أو أنه افتراه ، بل هو من عند الله سبحانه الذي لا إله إلا هو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(181/374)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (8) وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (12) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (13) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال : لما نزل ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ [الأنبياء : 1] قال ناس : إن الساعة قد اقتربت فتناهوا ، فتناهى القوم قليلاً ثم عادوا إلى أعمالهم أعمال السوء ، فأنزل الله ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ [النحل : 1] فقال أناس : أهل الضلالة هذا أمر الله قد أتى ، فتناهى القوم ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر إلى أمة معدودة قال : إلى أجل معدود .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ليقولن ما يحبسه ﴾ قال : للتكذيب به وأنه ليس بشيء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾ يقول : وقع العذاب الذي استهزأوا به .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة . . . ﴾ الآية . قال : يا ابن آدم إذا كانت بك نعمة من الله من السعة والأمن والعافية فكفور لما بك منها ، وإذا نزعت منك يبتغي لك فراغك فيؤوس من روح الله قنوط من رحمته ، كذلك أمر المنافق والكافر . وفي قوله ﴿ ولئن أذقناه نعماء ﴾ إلى قوله ﴿ ذهب السيئات عني ﴾ قال : غره بالله وجرأه عليه أنه لفرح والله لا يحب الفرحين ، فخور لما أعطى لا يشكر الله ، ثم استثنى فقال ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ يقول : عند البلاء ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ عند النعمة ﴿ أولئك لهم مغفرة ﴾ لذنوبهم ﴿ وأجر كبير ﴾ قال : الجنة ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ﴾ إن تفعل فيه ما أمرت وتدعو إليه كما أرسلت ﴿ أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز ﴾ لا ترى معه مالاً ﴿ أو جاء معه ملك ﴾ ينذر معه ﴿ إنما أنت نذير ﴾ فبلغ ما أمرت به فإنما أنت رسول ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ قد قالوه ﴿ فأتوا بعشر سور مثله ﴾ مثل القرآن ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾ يشهدوا إنها

مثله .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ قال لأصحاب محمد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(183/374)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ : في " أم " هذه وجهان ، أحدهما : أنها منقطعةٌ فتقدَّر ب " بل " والهمزة ، فالتقدير : بل أتقولون افتراه . والضمير في " افتراه " لما يوحى . والثاني : أنها متصلة ، فقدَّروها بمعنى : أيكتفون بما أوحينا إليك من القرآن أم يقولون إنه ليس من عند اللَّه ؟ .

قوله : ﴿ مِّثْلِهِ ﴾ نعت ل " سُوَر " و " مثل " وإن كانت بلفظ الإفراد فإنها يُوصف بها المثنى والمجموعُ والمؤنث ، كقوله تعالى : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ [المؤمنون : 47] ، ويجوز المطابقةُ قال تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ ﴾ [الواقعة : 23] ، وقال تعالى : ﴿

ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد : 38] والهاءُ في " مثِله " تعود لما يوحي أيضاً ، و " مفتريات " صفة ل " سُوَر " جمع مُفْتراة كمُصْطَفَيات في " مصطفاة " فانقلبت الألفُ ياءً كالتثنية .

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنَّمَا أُنْزِلَ ﴾ : " ما " يجوز أن تكون كافةً مهيّئة . وفي " أُنْزِل " ضميرٌ يعود على ما يوحى إليك ، و " بعلمٍ " حال أي : ملتبساً بعلمِه ، ويجوزُ أن تكونَ موصولةً اسمية أو حرفية اسماً ل " إنَّ " فالخبرُ الجارُّ تقديرُه : فاعلموا أن تنزيلَه ، أو أنَّ الذي أُنْزِل ملتبسٌ بعلمٍ .

وقرأ زيد بن علي " نَزَّل " بفتح النون والزاي المشددة ، وفاعل " نَزَّل " ضميرُ اللَّه تعالى ، و ﴿ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ نسقٌ على " أنَّ " قبلها ، ولكن هذه مخففةٌ فاسمُها محذوفٌ ، وجملةُ النفي خبرُها .

قوله : ﴿ نُوَفِّ ﴾ الجمهورُ على " نُوَفِّ " بنون العظمة وتشديد الفاء مِنْ وَفَّى يُوَفِّي ، وطلحة وميمون بياء الغيبة ، وزيد بن علي كذلك إلا أنه خَفَّفَ الفاءَ مِنْ أوفى يوفي ، والفاعلُ في هاتَيْن القراءتين ضميرُ اللَّه تعالى . وقرىء " تُوَفَّ " بضم التاء وفتح الفاء مشددةً مِنْ وفى يُوَفِّى مبنياً للمفعول . " أعمالُهم " بالرفع قائماً مقام الفاعل . وانجزم " نُوَفِّ " على هذه القراءاتِ لكونِه جواباً للشرط ، كما في قوله تعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ [فِي حَرْثِهِ] وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنهَا ﴾ [الشورى : 20] . وزعم الفراء أن " كان " زائدة قال : " ولذلك جَزَم جوابَه " ولعلَّ هذا لا يصح إذ لو كانت زائدةً لكان " يريد " هو الشرط ، ولو كان شرطاً لانجزم ، فكان يُقال : مَنْ كان يُرِدْ " . وزعم بعضُهم أنه لا يؤتى بفعل الشرط ماضياً والجزاء مضارعاً إلا مع " كان " خاصة ، ولهذا لم يَجِىءْ في القرآن إلا كذلك ، وهذا ليس بصحيحٍ لوروده في غير " كان " قال زهير :

2639 ومَنْ هاب أسبابَ المنايا يَنَلْنَه . . . ولو رام أسبابَ السماء بسُلَّمِ

وأما القرآن فجاء من باب الاتفاق أنه كذلك .

وقرأ الحسن البصري " نوفِي " بتخفيف الفاء / وثبوتِ الياء مِنْ أوفى ، ثم هذه القراءةُ محتمِلَةٌ : لأن يكون الفعل مجزوماً ، وقُدِّر جزمُه بحذفِ الحركة المقدَّرة كقوله :

2640 ألم يَأْتيك والأنباءُ تُنْمي . . . بما لاقَتْ لَبونُ بني زياد

على أن ذلك قد يأتي في السَّعَةِ نحو : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ ﴾ [يوسف : 90] ، وسيأتي محرَّراً

في سُورته ، ولأن يكون الفعلُ مرفوعاً لوقوع الشرط ماضياً كقوله :

2641 وإنْ شُلَّ رَيْعانُ الجميعِ مخافةً . . . تقولُ جِهاراً ويلَكُمْ لا تُنَفِّروا

وكقول زهير :

2642 وإنْ أتاه خليلٌ يومَ مَسْألةٍ . . . يقولُ لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ

(185/374)

وهل الرفعُ لأنه على نيةِ التقديمِ وهو مذهبُ سيبويه أو على نية الفاءِ ، كما هو مذهب المبرد ؟ خلافٌ مشهور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 295. 297 ﴾

(186/374)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (13) ﴾

في الآية بيانٌ أنَّ المكلَّفَ مُزاحُ العِلَّةِ لِمَا أُقِيمَ له من البرهانِ وأُهِّلَ له من التحقيق . وأَنَّ الإيمانَ بالواسطة- صلى الله عليه وسلم وآله- واجبٌ لِما خُصَّ به من المعجزات التي أوضحها الكتابُ المُنَزَّلُ والقرآنُ المُفَصَّلُ الذي عجز الكفار عن معارضته .

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14) ﴾

يعني فإن لم يستجيبوا لكم يعني إلى الإتيان بمثله- وهم أهل بلاغة- فتحققوا أنه من قِبَلِ الله ، وليس على سنة التحقيق (. . . .) إنما العمى في بصائر من ضلُّوا عن الحقِّ ، وتاهوا في سدفة الحيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 128 ﴾

(187/374)

قوله تعالى ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان في هذا من الحث على الثبات على الإسلام والدخول فيه والوعيد على التقاعس عنه ما من حق السامع أن يبادر إليه ، وكان حق المسلم الإعراض عن الدنيا لسوء عاقبتها ، وكان أعظم الموانع للمشركين من التصديق اسستيلاء أحوال الدنيا عليهم ، ولذلك تعنتوا بالكنز ، أشار إلى عواقب ذلك بقوله : ﴿ من كان يريد ﴾ أي بقصده وأعماله من الإحسان إلى الناس وغيره ﴿ الحياة الدنيا ﴾ أي ورضي بها مع دناءتها من الآخرة على علوها وشرفها ﴿ وزينتها ﴾ فأخلد إليها لحضورها ونسي ما يوجب الإعراض عنها من فنائها وكدرها ﴿ نوف ﴾ موصلين ﴿ إليهم أعمالهم ﴾ أي جزاءها ﴿ فيها ﴾ أي الدنيا بالجاه والمال ونحو ذلك ﴿ وهم فيها ﴾ أي في الأعمال أو الدنيا ﴿ لا يبخسون ﴾ أي لا ينقص شيء من جزائهم فيها ، وأما أبدانهم وأرواحهم وأديانهم فكلها بخس في الدارين معاً ، وفي الجملتين بيان سبب حبس العذاب عنهم في مدة إمهالهم مع سوء أعمالهم .

ولما بين حالهم في الدنيا ، بين حالهم في الأخرى مشيراً بأداة البعد إلى أنهم أهل البعد واللعنة والطرد في قوله نتيجة لما قبله : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ الذين ليس لهم ﴾ أي شيء من الأشياء ﴿ في الآخرة إلا النار ﴾ أي لسوء أعمالهم واستيفائهم جزاءها في الدنيا ﴿ وحبط ﴾ أي بطل وفسد ﴿ ما صنعوا فيها ﴾ أي مصنوعهم أو صنعهم أي لبنائه على غير أساس ؛ ولما كان تقييد الحبوط بالآخرة ربما أوهم أنه شيء في نفسه قال : ﴿ وباطل ﴾ أي ثابت البطلان في كل من الدارين ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ أي معمولهم أو

عملهم وإن دأبوا فيه دأب من هو مطبوع عليه لأنه صورة لا معنى لها لبنائه على غير أساس ؛ والزينة : تحسين الشيء بغيره من لبسه أو حلية أو هيئة ؛ والتوفية : تأدية الحق على تمام ؛ وحبوط العمل : بطلانه ، من قولهم : حبط بطنه – إذا فسد بالمأكل الرديء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 512.513 ﴾

(188/374)

فصل

قال الفخر :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ اعلم أن الكفار كانوا ينازعون محمداً صلى الله عليه وسلم في أكثر الأحوال ، فكانوا يظهرون من أنفسهم أن محمداً مبطل ونحن محقون ، وإنما نبالغ في منازعته لتحقيق الحق وإبطال الباطل ، وكانوا كاذبين فيه ، بل كان غرضهم محض الحسد والاستنكاف من المتابعة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية لتقرير هذا المعنى .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء : 18] وقوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ

حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا ومالَهُ فِى الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20] وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن في الآية قولين :

القول الأول : أنها مختصة بالكفار ، لأن قوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا ﴾ يندرج فيه المؤمن والكافر والصديق والزنديق ، لأن كل أحد يريد التمتع بلذات الدنيا وطيباتها والانتفاع بخيراتها وشهواتها ، إلا أن آخر الآية يدل على أن المراد من هذا العام الخاص وهو الكافر ، لأن قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخرة إِلاَّ النار وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ لا يليق إلا بالكفار ، فصار تقدير الآية : من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فقط ، أي تكون إرادته مقصورة على حب الدنيا وزينتها ولم يكن طالباً لسعادات الآخرة ، كان حكمه كذا وكذا ، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فيه ، فمنهم من قال : المراد منهم منكرو البعث فإنهم ينكرون الآخرة ولا يرغبون إلا في سعادات الدنيا ، وهذا قول الأصم وكلامه ظاهر .

(189/374)

والقول الثاني : أن الآية نزلت في المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع الرسول عليه السلام الغنائم من دون أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها .

والقول الثالث : أن المراد : اليهود والنصارى ؛ وهو منقول عن أنس .

والقول الرابع : وهو الذي اختاره القاضي أن المراد : من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها ، وعمل الخير قسمان : العبادات ، وإيصال المنفعة إلى الحيوان ، ويدخل في هذا القسم الثاني البر وصلة الرحم والصدقة وبناء القناطر وتسوية الطرق والسعي في دفع الشرور وإجراء الأنهار .

فهذه الأشياء إذا أتى بها الكافر لأجل الثناء في الدنيا ، فإن بسببها تصل الخيرات والمنافع إلى المحتاجين ، فكلها تكون من أعمال الخير ، فلا جرم هذه الأعمال تكون طاعات سواء صدرت من الكافر أو المسلم .

وأما العبادات : فهي إنما تكون طاعات بنيات مخصوصة ، فإذا لم يؤت بتلك النية ، وإنما أتى فاعلها بها على طلب زينة الدنيا ، وتحصيل الرياء والسمعة فيها صار وجودها كعدمها فلا تكون من باب الطاعات .

وإذا عرفت هذا فنقول قوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا ﴾ المراد منه الطاعات التي يصح صدورها من الكافر .

القول الثاني : وهو أن تجري الآية على ظاهرها في العموم ، ونقول : إنه يندرج فيه المؤمن

الذي يأتي بالطاعات على سبيل الرياء والسمعة ، ويندرج فيه الكافر الذي هذا صفته ، وهذا القول مشكل ، لأن قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخرة إِلاَّ النار ﴾ لا يليق المؤمن إلا إذا قلنا المراد أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار بسبب هذه الأعمال الفاسدة والأفعال الباطلة المقرونة بالرياء ، ثم القائلون بهذا القول ذكروا أخباراً كثيرة في هذا الباب .

(190/374)

روي أن الرسول عليه السلام قال : " تعوذوا بالله من جب الحزن " قيل وما جب الحزن ؟ قال عليه الصلاة والسلام : " واد في جهنم يلقى فيه القراء المراؤون " وقال عليه الصلاة والسلام : " أشد الناس عذاباً يوم القيامة من يرى الناس أن فيه خيراً ولا خير فيه " وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا كان يوم القيامة يدعى برجل جمع القرآن ، فيقال له ما عملت فيه ؟ فيقول يا رب قمت به آناء الليل والنهار فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال : فلان قارىء ، وقد قيل ذلك ، ويؤت بصاحب المال فيقول الله له ألم أوسع عليك فماذا عملت فيما آتيتك فيقول : وصلت الرحم وتصدقت ، فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ، وقد قيل ذلك ويؤتى بمن

قتل في سبيل الله فيقول قاتلت في الجهاد حتى قتلت فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان جريء وقد قيل ذلك " قال أبو هريرة رضي الله عنه ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبتي وقال يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق تسعر بهم النار يوم القيامة وروي أن أبا هريرة رضي الله عنه ذكر هذا الحديث عند معاوية قال الراوي فبكى حتى ظننا أنه هالك ثم أفاق وقال صدق الله ورسوله ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ .

المسألة الثانية :

المراد من توفية أجور تلك الأعمال هو أن كل ما يستحقون بها من الثواب فإنه يصل إليهم حال كونهم في دار الدنيا ، فإذا خرجوا من الدنيا لم يبق معهم من تلك الأعمال أثر من آثار الخيرات ، بل ليس لهم منها إلا النار .

(191/374)

واعلم أن العقل يدل عليه قطعاً ، وذلك لأن من أتى بالأعمال لأجل طلب الثناء في الدنيا ولأجل الرياء ، فذلك لأجل أنه غلب على قلبه حب الدنيا ، ولم يحصل في قلبه حب الآخرة ، إذ لو عرف حقيقة الآخرة وما فيها من السعادات لامتنع أن يأتي بالخيرات لأجل الدنيا

وينسى أمر الآخرة ، فثبت أن الآتي بأعمال البر لأجل الدنيا لا بد وأن يكون عظيم الرغبة في الدنيا عديم الطلب للآخرة ومن كان كذلك فإذا مات فإنه يفوته جميع منافع الدنيا ويبقى عاجزاً عن وجدانها غير قادر على تحصيلها ، ومن أحب شيئاً ثم حيل بينه وبين المطلوب فإنه لا بد وأن تشتعل في قلبه نيران الحسرات فثبت بهذا البرهان العقلي ، أن كل من أتى بعمل من الأعمال لطلب الأحوال الدنيوية فإنه يجد تلك المنفعة الدنيوية اللائقة بذلك العمل ، ثم إذا مات فإنه لا يحصل له منه إلا النار ويصير ذلك العمل في الدار الآخرة محبطاً باطلاً عديم الأثر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 158 . 160 ﴾

(192/374)

وقال ابن الجوزى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴾

اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال :

أحدها : أنها عامة في جميع الخلق ، وهو قول الأكثرين .

والثاني : أنها في أهل القبلة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أنها في اليهود والنصارى ، قاله أنس .

والرابع ، أنها في أهل الرياء ، قاله مجاهد .

وروى عطاء عن ابن عباس : من كان يريد عاجل الدنيا ولا يؤمن بالبعث والجزاء .

وقال غيره : إنما هي في الكافر ، لأن المؤمن يريد الدنيا والآخرة .

قوله : ﴿ نوفّ إليهم أعمالهم ﴾ أي : أجور أعمالهم ﴿ فيها ﴾ .

قال سعيد بن جبير : أُعطوا ثواب ما عملوا من خير في الدنيا .

وقال مجاهد : مَنْ عمل عملاً من صِلة ، أو صدقة ، لا يريد به وجه الله ، أعطاه الله ثواب ذلك في الدنيا ، ويدرأ به عنه في الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ وهم فيها ﴾ قال ابن عباس : أي في الدنيا .

﴿ لا يُبخسون ﴾ أي : لا يُنقصون من أعمالهم في الدنيا شيئاً .

﴿ أولئك الذين ﴾ عملوا لغير الله ﴿ ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا ﴾ أي : ما عملوا في الدنيا من حسنة ﴿ وباطل ما كانوا ﴾ لغير الله ﴿ يعملون ﴾ .

فصل

وذكر قوم من المفسرين ، منهم مقاتل ، أن هذه الآية اقتضت أن من أراد الدنيا بعمله ، أعطي فيها ثواب عمله من الرزق والخير ، ثم نُسخ ذلك بقوله : ﴿ عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ [الاسراء : 18] ، وهذا لا يصح ، لأنه لا يوفّي إلا لمن يريد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ ﴾ كان زائدة ، ولهذا جزم بالجواب فقال : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ ﴾ قاله الفراء .

وقال الزجاج : ﴿ مَنْ كَانَ ﴾ في موضع جزم بالشرط ، وجوابه ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ ﴾ أي من يَكُنْ يريد ؛ والأول في اللفظ ماض والثاني مستقبل ، كما قال زهير :

وَمَنْ هَاب أسباب المنية يَلْقَها . . .

ولو رامَ أسبابَ السَّماءِ بسُلَّمِ

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية ؛ فقيل : نزلت في الكفار ؛ قاله الضحاك ، واختاره النحاس ؛ بدليل الآية التي بعدها ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ﴾ أي من أتى منهم بصلة رَحِم أو صدقة نكافئه بها في الدنيا ، بصحة الجسم ، وكثرة الرزق ، لكن لا حسنة له في الآخرة .

وقد تقدم هذا المعنى في "براءة" مستوفى .

وقيل : المراد بالآية المؤمنون ؛ أي من أراد بعمله ثواب الدنيا عُجل له الثواب ولم يُنقص شيئاً في الدنيا ، وله في الآخرة العذاب لأنه جرد قصده إلى الدنيا ، وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنيات " فالعبد إنما يُعطى على وجه قصده ، وبحكم ضميره ؛ وهذا أمر متفق عليه في الأمم بين كل مِلّة .

وقيل : هو لأهل الرياء ؛ وفي الخبر " أنه يقال لأهل الرياء : صُمتم وصلّيتم وتصدّقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك ثم قال : إنّ هؤلاء أول من تُسْعَر بهم النار " . رواه أبو هريرة ، ثم بكى بكاء شديداً وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا ﴾ وقرأ الآيتين ، خرّجه مسلم (في صحيحه) بمعناه والترمذيّ أيضاً .

(194/374)

وقيل : الآية عامة في كل من ينوي بعمله غير الله تعالى ، كان معه أصل إيمان أو لم يكن ؛ قاله مجاهد وميمون ابن مِهْران ، وإليه ذهب معاوية رحمه الله تعالى .

وقال ميمون بن مِهْران : ليس أحد يعمل حسنة إلا وُفّي ثوابها ؛ فإن كان مسلماً مخلصاً

وُفّي في الدنيا والآخرة ، وإن كان كافراً وُفِّي في الدنيا .

وقيل : من كان يريد (الدنيا) بغزوه مع النبي صلى الله عليه وسلم وُفِّيَها ، أي وُفِّي أجر الغَزاة ولم يُنقص منها ؛ وهذا خصوص والصحيح العموم .

الثانية : قال بعض العلماء : معنى هذه الآية قوله عليه السلام : " إنما الأعمال بالنيات " وتدلك هذه الآية على أن من صام في رمضان لا عن رمضان لا يقع عن رمضان ، وتدلّ على أن من توضأ للتبرّد والتنظف لا يقع قربة عن جهة الصلاة ، وهكذا كل ما كان في معناه .

الثالثة : ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة ؛ وكذلك الآية التي في "الشورى" ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ [الشورى : 42] الآية .

وكذلك ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ [آل عمران : 145] قيدها وفسرها التي في "سبحان" ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء : 18] إلى قوله : ﴿ مَحْظُورًا ﴾ فأخبر سبحانه أن العبد ينوي ويريد والله سبحانه يحكم ما يريد ، وروى الضّحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا ﴾ أنها منسوخة بقوله : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ .

والصحيح ما ذكرناه؛ وأنه من باب الإطلاق والتقييد؛ ومثله قوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: 186] فهذا ظاهره خبر عن إجابة كلّ داعٍ دائماً على كل حال، وليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَآءَ ﴾ [الأنعام: 41].

والنسخ في الأخبار لا يجوز؛ لاستحالة تبدّل الواجبات العقلية، ولاستحالة الكذب على الله تعالى؛ فأما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه، على ما هو مذكور في الأصول؛ ويأتي في "النحل" بيانه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ أولئك الذين لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلاَّ النار ﴾

إشارة إلى التّخليد، والمؤمن لا يُخلَّد؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلك ﴾ [النساء: 116] الآية.

فهو محمول على ما لو كانت موافاة هذا المرائي على الكفر.

وقيل: المعنى ليس لهم إلا النار في أيام معلومة ثم يخرج؛ إما بالشفاعة، وإما بالقَبْضة.

والآية تقتضي الوعيد بسلْب الإيمان؛ وفي الحديث (الماضي) يريد الكفر وخاصة الرياء، إذ هو شرك على ما تقدّم بيانه في "النساء" ويأتي في آخر "الكهف".

﴿ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ابتداء وخبر؛ قال أبو حاتم: وحذف الهاء؛ قال النحاس:

هذا لا يحتاج إلى حذف ؛ لأنه بمعنى المصدر ؛ أي وباطل عمله .

وفي حرف أبيّ وعبد الله "وَبَاطِلاً مَا كَانُوا يَعْمَلُون" وتكون "ما" زائدة ؛ أي وكانوا يعملون باطلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(196/374)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴾

يعني بعمله الذي يعمله من أعمال البر نزلت في كل من عمل عملاً يبتغي به غير الله : ﴿ نوف إليهم أعمالهم فيها ﴾ يعني أجور أعمالهم التي عملوها لطلب الدنيا وذلك أن الله سحبانه وتعالى يوسع عليهم في الرزق ويدفع عنهم المكاره في الدنيا ونحو ذلك ﴿ وهم فيها لا يبخسون ﴾ يعني أنهم لا ينقصون من أجور أعمالهم التي علموها لطلب الدنيا بل يعطون أجور أعمالهم كاملة موفرة .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا ﴾

(197/374)

يعني وبطل ما عملوا في الدنيا من أعمال البر ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ لأنه لغير الله واختلف المفسرون في المعنى بهذه الآية فروى قتادة عن أنس أنها في اليهود والنصارى وعن احسن مثله ، وقال الضحاك : من عمل عملاً صالحاً في غير تقوى يعني من أهل الشرك أعطي على ذلك اجراً في الدنيا وهو أن يصل رحماً أو يعطي سائلاً أو يرحم مضطراً أو نحو هذا من أعمال البر فيجعل الله له ثواب عمله في الدنيا يوسع عليه في المعيشة والرزق ويقر عينه فيما خوله ويدعف عنه المكاره في الدنيا وليس له في الآخرة نصيب ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار الآية وهذه حالة الكافر في الآخرة وقيل نزلت في المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الغنائم لأنهم كانوا لا يرجون ثواب الآخرة وقيل إن حمل الآية على العموم أولى فيندرج الكافر والمنافق الذي هذه صفته والمؤمن الذي يأتي بالطاعات وأعمال البر على وجه الرياء والسمعة قال مجاهد في هذه الآية هم أهل الرياء وهذا القول مشكل لأن قوله سبحانه وتعالى أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار لا يليق بحال المؤمن إلا إذا قلنا إن تلك الأعمال الفاسدة والأفعال الباطلة لما كانت لغير الله استحق فاعلها الوعيد الشديد وهو عذاب النار ويدل على هذا ما روي عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول قال الله تبارك وتعالى : " أنا أغنى الشركاء عن

الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه " أخرجه مسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " من تعلم علماً لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار " أخرجه الترمذي ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة "

(198/374)

يعني ريحها أخرجه أبو داود عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " تعوذوا بالله من جب الحزن قالوا يا رسول الله وما جب الحزن قال واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم ألف مرة قيل يا رسول الله من يدخله قال القراء المراؤون بأعمالهم " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب قال البغوي وروينا أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال

" إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا يا رسول الله وما الشرك الأصغر قال الرياء " أخرجه بغير سند والرياء هو أن يظهر الإنسان الأعمال الصالحة ليحمده الناس عليها أو ليعتقدوا فيه الصلاة أو ليقصدوه بالعطاء فهذا العمل هو الذي لغير الله نعوذ بالله

من الخذلان قال البغوي وقيل هذا في الكفار يعني قوله من كان يريد الحياة وزينتها أما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة وإرادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة وروينا عن أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيراً " أخرجه البغوي بغير سند . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(199/374)

وقال أبو حيان :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، أنه تعالى لما ذكر شيئاً من أحوال الكفار المناقضين في القرآن ، ذكر شيئاً من أحوالهم الدنيوية وما يؤولون إليه في الآخرة .

وظاهر من العموم في كل من يريد زينة الحياة الدنيا ، والجزاء مقرون بمشيئته تعالى كما بين ذلك في قوله تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء ﴾ الآية .

وقال مجاهد : هي في الكفرة ، وفي أهل الرياء من المؤمنين .

وإلى هذا ذهب معونة حين حدث بقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في المرائين ، فتلا هذه الآية .

وقال أنس : هي في اليهود والنصارى .

قال ابن عطية : ومعنى هذا أنهم يدخلون في هذه الآية لا أنها ليست لغيرهم .

وقيل : في المنافقين الذين جاهدوا مع الرسول فاسهم لهم ، ومعنى يريد الحياة الدنيا أي يقصد بأعماله التي يظهر أنها صالحة الدنيا فقط ، ولا يعتقد آخره .

فإنّ الله يجازيه على حسن أعماله كما جاء ، وأما الكافر فيطعمه في الدنيا بحسناته .

وإن اندرج في العموم المراؤون من أهل القبلة كما ترى أحدهم إذا صلى إماماً يتنغم بألفاظ القرآن ، ويرتله أحسن ترتيل ، ويطيل ركوعه وسجوده ، ويتباكى في قراءته ، وإذا صلى وحده اختلسها اختلاساً ، وإذا تصق أظهر صدقته أمام من يثني عليه ، ودفعها لمن لا يستحقها حتى يثني عليه الناس ، وأهل الرباط المتصدق عليهم .

وأين هذا من رجل يتصدق خفية وعلى من لا يعرفه ، كما جاء في : " السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه " وهذه مبالغة في إخفاء الصدقة جداً ، وإذا تعلم علماً راءى به وتبجح ، وطلب بمعظمه يسير حطام من عرض الدنيا .

وقد فشا الرياء في هذه الآية فشواً كثيراً حتى لا تكاد ترى مخلصاً لله لا في قول ، ولا في فعل ، فهؤلاء من أول من تسعر بهم النار يوم القيامة .

وقرأ الجمهور : نوفّ بنون العظمة ، وطلحة بن ميمون : يوف بالياء على الغيبة .

وقرأ زيد بن علي : يوف بالياء مخففاً مضارع أوفى .

وقرىء توف بالتاء مبنياً للمفعول ، وأعمالهم بالرفع ، وهو على هذه القراآت مجزوم جواب الشرط ، كما انجزم في قوله : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ﴾ وحكي عن الفراء أنّ كان زائدة ، ولهذا جزم الجواب .

ولعله لا يصح ، إذ لو كانت زائدة لكان فعل الشرط يريد ، وكان يكون مجزوماً ، وهذا التركيب من مجيء فعل الشرط ماضياً والجواب مضارعاً ليس مخصوصاً بكان ، بل هو جائز في غيرها .

كما روي في بيت زهير :

ومن أهاب أسباب المنايا ينلنه . . .

ولو رام أن يرقى السماء بسلم

وقرأ الحسن : نوفي بالتخفيف وإثبات الياء ، فاحتمل أن يكون مجزوماً بحذف الحركة المقدرة على لغة من قال : ألم يأتيك وهي لغة لبعض العرب ، واحتمل أن يكون مرفوعاً كما

ارتفع في قول الشاعر :

وإن شل ريعان الجميع مخافة . . .

يقول جهاراً ويلكم لا تنفروا

والحصر في كينونة النار لهم ظاهر في أنّ الآية في الكفار ، فإنْ اندرج أهل الرياء فيها فيكون المعنى في حقهم : ليس يجب لهم ولا يحق لهم إلا النار كقوله : ﴿ فجزاؤه جهنم ﴾ وجائز أن يتغمدهم الله برحمته وهو ظاهر قول ابن عباس وابن جبير .

والضمير في قوله : ما صنعوا فيها ، الظاهر أنه عائد على الآخرة ، والمحرور متعلق بحبط ، والمعنى : وظهر حبوط ما صنعوا في الآخرة .

ويجوز أن تتعلق بقوله : صنعوا ، فيكون عائداً على الحياة الدنيا ، كما عاد عليها في فيها قبل .

وما في فيما صنعوا بمعنى الذي .

أو مصدرية ، وباطل وما بعده توكيد لقوله : وحبط ما صنعوا ، وباطل خبر مقدم إن كان من عطف الجمل ، وما كانوا هو المبتدأ ، وإن كان خبراً بعد خبرٍ ارتفع ما بباطل على الفاعلية .

وقرأ زيد بن علي : وبطل جعله فعلاً ماضياً .

وقرأ أبي ، وابن مسعود : وباطلاً بالنصب ، وخرجه صاحب اللوامح على أنه مفعول ليعملون ، فهو معمول خبر كان متقدماً .

وما زائدة أي : وكانوا يعملون باطلاً ، وفي جواز هذا التركيب خلاف بين النحويين .

وهو أن يتقدم معمول الخبر على الجملة بأسرها من كان اسمها وخبرها ، ويشهد للجواب قوله تعالى : ﴿ أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾ ومن منع تأول .

وأجاز الزمخشري أن ينتصب باطلاً على معنى المصدر على بطل بطلانا ما كانوا يعملون ، فتكون ما فاعلة ، وتكون من إعمال المصدر الذي هو بدل من الفعل في غير الاستفهام والأمر ، وحق أن يبطل أعمالهم لأنها لم تعمل لوجه صحيح ، والعمل الباطل لا ثواب له .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(202/374)

وقال أبو السعود :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا ﴾

أي ما يزيّنها ويحسّنها من الصحة والأمنِ والسعةِ في الرزق وكثرةِ الأولادِ والرياسةِ وغيرِ ذلك ، والمرادُ بالإرادة ما يحصُل عند مباشرةِ الأعمالِ لا مجردُ الإرادةِ القلبية لقوله تعالى : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ وإدخالُ كان عليها للدِلالة على استمرارها منهم بحيث لا يكادون يريدون الآخِرةَ أصلاً ، وليس المرادُ بأعمالهم أعمالَ كلّهم فإنه لا يجد كلُّ متمنَ ما يتمناه ولا كلُّ أحدٍ ينال كلَّ ما تهواه ، فإن ذلك منوطٌ بالمشيئة الجاريةِ على قضية الحِكمة كما نطَق به قولُه تعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ﴾ ولا كلَّ أعمالِهم بل بعضَها الذي يترتب عليه الأمورُ المذكورةُ بطريق الأجرِ والجزاءِ من أعمال البرّ وقد أُطلقت وأريد بها ثمراتُها ، فالمعنى نوصِلُ إليهم ثمراتِ أعمالِهم في الحياة الدنيا كاملةً ، وقرىء يُوفّ على الإسناد إلى الله عز وجل وتُوَفَّ بالفوقانية على البناء للمفعول ورفعِ أعمالَهم ، وقرىء نُوْفِي بالتخفيف والرفع لكون الشرط ماضياً كقوله :

وإن أتاه خليلٌ يومَ مسغَبة . . . يقولُ لا غائبٌ مالي ولا حرِمُ

(203/374)

﴿ وَهُمْ فِيهَا ﴾ أي في (الحياة) الدنيا ﴿ لاَ يُبْخَسُونَ ﴾ أي لا يُنقَصون ، وإنما عبّر عن ذلك بالبخْس الذي هو نقصُ الحقِّ مع أنه ليس لهم شائبةُ حقَ فيما أوتوه كما عبّر عن

إعطائه بالتوفية التي هي إعطاءُ الحقوقِ مع أن أعمالَهم بمعزل من كونها مستوجبةً لذلك بناءً للأمر على ظاهر الحالِ ومحافظةً على صور الأعمالِ ومبالغةً في نفي النقص ، كأن ذلك نقصٌ لحقوقهم فلا يدخُل تحت الوقوعِ والصدورِ عن الكريم أصلاً ، والمعنى أنهم فيها خاصةً لا يُنقصون ثمراتِ أعمالِهم وأجورَها نقصاً كلياً مطرداً ولا يُحرَمونها حِرماناً كلياً ، وأما في الآخرة فهم في الحِرمان المطلقِ واليأسِ المحقق كما ينطِق به قوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ فإنه إشارةٌ إلى المذكورين باعتبار إرادتِهم الحياةَ الدنيا أو باعتبار توْفيتِهم أجورَهم من غير بخسٍ أو باعتبارهما معاً . وما فيه من معنى البُعدِ للإيذان ببُعد منزلتِهم في سوء الحالِ أي أولئك المُريدون للحياة الدنيا وزينتِها المُوَفَّوْن فيها ثمراتِ أعمالِهم من غير بخس ﴿ الذين لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخرةِ إلاَّ النار ﴾ لأن هِممَهم كانت مصروفةً إلى الدنيا وأعمالَهم مقصورةً على تحصيلها وقد اجتنَوْا ثمرتَها ولم يكونوا يريدون بها شيئاً آخرَ ، فلا جرمَ لم يكن لهم في الآخرة إلا النارُ وعذابُها المخلّد ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾ أي ظهر في الآخرة حُبوطُ ما صنعوه من الأعمال التي كانت تؤدّي إلى الثواب لو كانت معمولةً للآخرة أو حبط ما صنعوه في الدنيا من أعمال البرّ إذ شرْطُ الاعتدادِ بها الإخلاصُ ﴿ وباطل ﴾ أي في نفسه ﴿ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ في أثناء تحصيلِ المطالبِ الدنيويةِ ، ولأجل أن الأولَ من شأنه استتباعُ الثوابِ والأجرِ وأن عدمَه لعدم مقارنتِه للإيمان والنيةِ الصحيحةِ وأن الثانيَ ليس له جهةٌ صالحة قطُّ عُلّق بالأول الحُبوطُ المؤذِنُ بسقوط أجرِه بصيغة الفِعل المنبئِ عن الحدوث

(204/374)

وبالثاني البُطلانُ المُفصِحُ عن كونه بحيث لا طائلَ تحته أصلاً بالاسمية الدالةِ على كون ذلك وصفاً لازماً له ثابتاً فيه ، وفي زيادة كان في الثاني دون الأول إيماءٌ إلى أن صدورَ البرّ منهم وإن كان لغرض فاسدٍ ليس في الاستمرار والدوامِ كصدور الأعمالِ التي هي من مقدّمات مطالبِهم الدنية ، وقُرِىء وبطَل على الفعل أي ظهر بطلانُه حيث علم هناك أن ذلك وما يستتبعه من الحظوط الدنيويةِ مما لا طائلَ تحته أو انقطع أثرُه الدنيويُّ فبطَل مطلقاً ، وقرىء وباطلاً ما كانوا يعملون على أن ما إبهاميةٌ أو في معنى المصدر كقوله :

(205/374)

ولا خارجاً مِنْ فِيَّ زورُ كلامِ . . . وعن أنس رضي الله عنه أن المرادَ بقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ﴾ الخ اليهودُ والنصارى إن أعطَوا سائلاً أو وصَلوا رحِماً عُجّل لهم جزاءُ ذلك بتوسعة في الرزق وصِحةٍ في البدن ، وقيل : هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسْهم لهم في الغنائم ، وأنت خبيرٌ بأن ذلك إنما كان بعد الهجرة ،

والسورةُ مكيةٌ ، وقيل : هم أهلُ الرياءِ . يقال للقرّاء منهم : أردتَ أن يقال فلانٌ قارئٌ فقد قيل ذلك وهكذا لغيره ممن يعمل أعمالَ البرِّ لا لوجه الله تعالى فعلى هذا لا بد من تقييد قوله : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ إِلاَّ النار ﴾ بأنْ ليس لهم بسبب أعمالِهم الريائيةِ إلا ذلك ، والذي تقتضيه جزالةُ النظمِ الكريمِ أن المرادَ به مطلقُ الكفَرة بحيث يندرِجُ فيهم القادحون في القرآن العظيمِ اندراجاً أولياً فإنه عز وعلا لما أمر نبيَّه عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بأن يزدادوا علماً ويقيناً بأن القرآنَ منزلٌ بعلم الله وبأن لا قُدرةَ لغيره على شيء أصلاً وهيّجهم على الثبات على الإسلام والرسوخِ فيه عند ظهورِ عجزِ الكفرةِ وما يدْعون من دون الله عن المعارضة وتبيّن أنهم ليسوا على شيء أصلاً اقتضى الحالُ أن يتعرّض لبعض شؤونِهم الموهمةِ لكونهم على شيء في الجملة من نيلهم الحظوظَ العاجلةَ واستيلائهم على المطالب الدنيويةِ وبيانِ أن ذلك بمعزل عن الدلالة عليه ، ولقد بُيِّن ذلك أيَّ بيانٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(206/374)

وقال الآلوسى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ﴾

أي بأعماله الصالحة بحسب الظاهر ﴿ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا ﴾ أي ما يزينها ويحسنها من الصحة والأمن وكثرة الأموال والأولاد والرياسة وغير ذلك ، وإدخال ﴿ كَانَ ﴾ للدلالة على الاستمرار أي من يريد ذلك بحيث لا يكاد يريد الآخرة أصلاً ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أعمالهم فِيهَا ﴾ أي نوصل إليهم أجور أعمالهم في الدنيا وافية ، فالكلام على حذف مضاف ، وقيل : الأعمال عبارة عن الأجور مجازاً ، وإليه يشير كلام شيخ الإسلام والأول أولى ، و ﴿ نُوَفِّ ﴾ متضمن معنى نوصل ولذا عدي بإلى ، وإلا فهو مما يتعدى بنفسه ، وقيل : إنه مجاز عن ذلك ، وقرأ طلحة بن ميمون يوف بالياء ، وإسناد الفعل إلى الله تعالى ، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما يوف بالياء مخففاً مضارع أوفى ، وقرىء توف بالتاء مبنياً للمفعول ، ورفع ﴿ أعمالهم ﴾ والفعل في كل ذلك مجزوم على أنه جواب الشرط كما انجزم في قوله سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ﴾ [الشورى : 20] وحكى الفراء أن ﴿ كَانَ ﴾ زائدة ولذا جزم الجواب ، وتعقبه أبو حيان بأنه لو كانت زائدة لكان فعل الشرط ﴿ يُرِيدُ ﴾ وكان يكون مجزوماً ، وأجيب بأنه يحتمل أنه أراد بكونها زائدة أنها غير لازمة في المعنى ، وقرأ الحسن نوفي بالتخفيف وإثبات الياء ، وذلك إما على لغة من يجزم المنقوص بحذف الحركة المقدرة كما في قوله :

ألم يأتيك والأنباء تنمي . . .

أو على ما سمع في كلام العرب إذا كان الشرط ماضياً من عدم جزم الجزاء وإما لأن الأداة لما

لم تعمل في الشرط القريب ضعفت عن العمل في لفظ الجزاء البعيد فعملت في محله .

ونقل عن عبد القاهر أنها لا تعمل فيه أصلاً لضعفها ، والمشهور فيه عن النحاة مذهبان :

كون الجزاء في نية التقديم .

(207/374)

وكونه على تقدير الفاء والمبتدأ ، ويمكن أن يرد ذلك إلى هذا ، وليس هذا مخصوصاً فيما إذا كان الشرط كان على الصحيح لمجيئه في غيره كثيراً ، ومنه :

وإن أتاه خليل يوم مسغبة . . .

يقول : لا غائب مالي ولا حرم

﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ﴾ أي لا ينقصون ، والظاهر أن الضمير المجرور للحياة الدنيا وقيل : الأظهر أن يكون للأعمال لئلا يكون تكراراً بلا فائدة ، وردّ بأن فائدته إفادته من أول الأمر أن عدم البخس ليس إلا في الدنيا فلو لم يذكر توهم أنه مطلق على أنه لا يجوز أن يكون للتأكيد ولا ضرر فيه ، وإنما عبر عن ذلك بالبخس الذي هو نقص الحق ، ولذلك قال الراغب : هو نقص الشيء على سبيل الظلم مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه كما عبر عن إعطائه بالتوفية التي هي إعطاء الحقوق مع أن أعمالهم بمعزل من كونها مستوجبة لذلك

كما قال بعض المحققين بناءاً للأمر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الأعمال ومبالغة في نفي النقص كأن ذلك نقص لحقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم أصلاً لكن ينبغي أن يعلم أن هذا ليس على إطلاقه بل الأمر دائر على المشيئة الجارية على قضية الحكمة كما نطق به قوله سبحانه :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء : 18] .

وأخرج النحاس في ناسخه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن هذه الآية نسخت الآية التي نحن فيها ، وأنت تعلم أنه لا نسخ في الأخبار ، ولعل هذا إن صح محمول على المسامحة .

(208/374)

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار استمرارهم على إرادة الحياة الدنيا ، أو باعتبار توفيتهم أجورهم فيها من غير نجس ، أو باعتبارهما معاً ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في سوء الحال ﴿ الذين لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخرة إِلاَّ النار ﴾ لأن هممهم كانت مصروفة إلى اقتناص الدنيا وأعمالهم كانت ممدودة ومقصورة على تحصيلها ؛ وقد ظفروا بما يترتب على ذلك ولم يريدوا به شيئاً آخر فلا جرم لم يكن لهم في الآخرة إلا النار

وعذابها المخلد .

﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾ أي في الآخرة كما هو الظاهر ، فالجار متعلق بحبط و ﴿ مَا ﴾ تحتمل المصدرية والموصولية أي ظهر في الآخرة حبوط صنعهم ، أو الذي صنعوه من الأعمال التي كانت تؤدي إلى الثواب الأخروي لو كانت معمولة للآخرة ، ويجوز أن يعود الضمير إلى الدنيا فيكون الجار متعلقاً بصنعوا و ﴿ مَا ﴾ على حالها ، والمراد بحبوط الأعمال عدم مجازاتهم عليها لفقد الاعتداد بها لعدم الإخلاص الذي هو شرط ذلك ، وقيل : لجزائهم عليها في الدنيا ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ قال أبو حيان : هو تأكيد لقوله سبحانه : ﴿ حَبِطَ ﴾ الخ ، والظاهر أنه حمل ﴿ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ على معنى ﴿ مَا صَنَعُواْ ﴾ والبطلان على عدم النفع وهو راجع إلى معنى الحبوط .

(209/374)

ولما رأى بعضهم أن التأسيس أولى من التأكيد أبقى ما ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ على ذلك المعنى ، وحمل بطلان ذلك على فساده في نفسه لعدم شرط الصحة ، وقال : كأن كلاً من الجملتين علة لما قبلها على معنى ليس لهم في الآخرة إلا النار لحبوط أعمالهم وعدم ترتب الثواب عليها لبطلانها وكونها ليست على ما ينبغي ، والأولى ما صنعه المولى أبو السعود عليه

الرحمة حيث حمل البطلان على الفساد في نفسه ، و﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ على أعمالهم في أثناء تحصيل المطالب الدنيوية ، ثم قال : ولأجل أن الأول من شأنه استتباع الثواب والأجر وأن عدمه لعدم مقارنته للإيمان والنية الصحيحة ، وأن الثاني ليس له جهة صالحة قط علق بالأول الحبوط المؤذن بسقوط أجره بصيغة الفعل المنبىء عن الحدوث ، وبالثاني البطلان المفصح عن كونه بحيث لا طائل تحته أصلاً بالاسمية الدالة على كون ذلك وصفاً لازماً له ثابتاً فيه ، وفي زيادة كان في الثاني دون الأول إيماءً إلى أن صدور أعمال البر منهم وإن كان لغرض فاسد ليس في الاستمرار والدوام كصدور الأعمال التي هي مقدمات مطالبهم الدنيئة انتهى .

(210/374)

ويحتمل عندي على بعد أن يراد بما كانوا يعملون هو ما استمروا عليه من إرادة الحياة الدنيا وهو غير ما صنعوه من الأعمال التي نسب إليها الحبوط وإطلاق مثل ذلك على الإرادة مما لا بأس به لأنها من أعمال القلب ، ووجه الإتيان بكان فيه موافقته لما أشار هو إليه ، وفي الجملة تصريح باستمرار بطلان تلك الإرادة وشرح حالها بعد شرح حال المريد وشرح أعماله أراد بها الحياة الدنيا وزينتها ، وأياً مّا كان فالظاهر أن ﴿ باطل ﴾ خبر مقدم و﴿

إِلَيْكَ مَا كَانُواْ ﴾ هو المبتدأ ، وجوز في "البحر" كون ﴿ باطل ﴾ خبراً بعد خبر ، و ﴿ فِى مَا ﴾ مرتفعة به على الفاعلية ، وقرىء وبطل بصيغة الفعل أي ظهر بطلانه حيث علم هناك أن ذاك وما يستتبعه من الحظوظ الدنيوية مما لا طائل تحته أو انقطع أثره الدنيوي فبطل مطلقاً ، وقرأ أبي .

وابن مسعود وباطلاً بالنصب ونسب ذلك إلى عاصم وخرجه صاحب اللوامح على أن ﴿ مَا ﴾ سيف خطيب وباطل مفعول ليعلمون وفيه تقديم معمول ﴿ كَانَ ﴾ وفيه كتقديم الخبر خلاف ، والأصح الجواز لظاهر قوله تعالى : ﴿ أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ [سبأ : 40] ومن منع تأول ، وجوز أن يكون منصوباً بيعملون و ﴿ مَا ﴾ إبهامية صفة له أي باطلاً أي باطل ، ونظير ذلك حديث ما على قصره ولأمر ما جدع قصير أنفه ، وأن يكون مصدراً بوزن فاعل ، وهو منصوب بفعل مقدر ، و ﴿ مَا ﴾ اسم موصول فاعله أي بطل بطلاناً الذي كانوا يعملونه ، ونظيره خارجاً في قول الفرزدق :

ألم ترني عاهدت ربي وأنني . . .

لبين رتاج قائماً ومقام

عليّ حلفة لا أشتم الدهر مسلما . . .

ولا (خارجاً) من في زور كلام

فإنه أراد ولا يخرج من في زور كلام خروجاً ، وفي ذلك على ما في "البحر" إعمال المصدر

الذي هو بدل من الفعل في غير الاستفهام والأمر هذا ، والظاهر أن الآية في مطلق الكفرة الذين يعملون البر لا على الوجه الذي ينبغي ، وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم .

(211/374)

وغيرهما عن أنس رضي الله تعالى عنه أنها نزلت في اليهود والنصارى ، ولعل المراد كما قال ابن عطية أنهم سبب النزول فيدخلون فيها لا أنها خاصة بهم ولا يدخل فيها غيرهم ، وقال الجبائي : هي في الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل الله تعالى حظهم من ذلك سهمهم في الغنائم ، وفيه أن ذلك إنما كان بعد الهجرة والآية مكية ، وقيل : في أهل الرياء يقال لقارىء القرآن منهم : أردت أن يقال : فلان قارىء ، فقد قيل : اذهب فليس لك عندنا شيء ، وهكذا لغيره من المتصدق .

والمقتول في الجهاد .

وغيرهما ممن عمل من أعمال البر لا لوجه الله تعالى ، وربما يؤيد ذلك ما روي عن معاوية حين حدثه أبو هريرة بما تضمن ذلك فبكى ، وقال : صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا ﴾ إلى قوله سبحانه :

﴿ وباطل مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود : 61] وعليه فلا بد من تقييد قوله عز وجل : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخرة إِلاَّ النار ﴾ بأن ليس لهم بسبب أعمالهم الريائية إلا ذلك وهو خلاف الظاهر ، والسياق يقتضي أنها في الكفرة مطلقاً وبرهم كما قلنا ، ومن هنا اشتهر أن الكافر يعجل له ثواب أعماله في الدنيا بتوسعة الرزق وصحة البدن وكثرة الولد ونحو ذلك وليس لهم في الآخرة من نصيب لكن ذهب جماعة إلى أنه يخفف بها عنه عذاب الآخرة ، ويشهد له قصة أبي طالب ، وذهب آخرون إلى أن ما يتوقف على النية من الأعمال لا ينتفع الكافر به في الآخرة أصلاً لفقدان شرطه إذ لم يكن من أهل النية لكفره ، وما لا ينتفع به ويخفف به عذابه ، وبذلك يجمع بين الظواهر المقتضى بعضها للانتفاع في الجملة وبعضها لعدمه أصلاً فتدبر .

(212/374)

ووجه ارتباط هذه الآية بما قبلها على ما في "مجمع البيان" أنه سبحانه لما قال : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ ؟ فكأن قائلاً قال : إن أظهرنا الإسلام لسلامة النفس والمال يكون ماذا ؟ فقيل : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا ﴾ [هود : 15] الخ ، أو يقال : إن فيما قبل ما يتضمن إقناط الكفرة من أن يجيرهم آلهتهم من بأس الله عز سلطانه كما تقدم ، وذكره بعض

المحققين فلا يبعد أن يكون سماعهم ذلك سبباً لعزمهم على إظهار الإسلام ، أو فعل بعض الأعمال الصالحة ظناً منهم أن ذلك مما يجيرهم وينفعهم فشرح لهم حكم مثل ذلك بقوله سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ﴾ [هود : 15] الخ لكن أنت تعلم أن هذا يحتاج إلى ادعاء أن ذلك العزم من باب الاحتياط ، وفي "البحر" في بيان المناسبة أنه سبحانه لما ذكر شيئاً من أحوال الكفار في القرآن ذكر شيئاً من أحوالهم الدنيوية وما يؤولون إليه في الآخرة ، وأبو السعود بين ذلك على وجه يقوي به ما ادعاه من أنسبية كون الخطاب فيما سلف له عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ، فقال : والذي يقتضيه جزالة النظم الكريم أن المراد مطلق الكفرة بحيث يندرج فيهم القادحون في القرآن العظيم اندراجاً أولياً فإنه عز وجل لما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن يزدادوا علماً ويقيناً بأن القرآن منزل بعلم الله سبحانه وبأن لا قدرة لغيره سبحانه على شيء أصلاً وهيجهم على الثبات على الإسلام والرسوخ فيه عند ظهور عجز الكفرة وما يدعون من دون الله تعالى عن المعارضة وتبين أنهم ليسوا على شيء أصلاً اقتضى الحال أن يتعرض لبعض شؤونهم الموهمة لكونهم على شيء في الجملة من نيلهم الحظوظ العاجلة واستوائهم على المطالب الدنيوية ، وبيان أن ذلك بمعزل عن الدلالة عليه ، ولقد بين ذلك أي بيان انتهى ، ولا يخفى أنه يمكن أن يقرر هذا على وجه لا يحتاج فيه إلى توسط حديث جعل الخطاب السابق له صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فليفهم ، واستدل في

(213/374)

الأحكام بالآية على أن ما سبيله أن لا يفعل إلا على وجه القربة لا يجوز أخذ الأجرة عليه لأن الأجرة من حظوظ الدنيا فمن أخذ عليه الأجرة خرج من أن يكون قربة بمقتضى الكتاب والسنة ، وادعى الكيا أنها مثل قوله صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنيات " وتدل على أن من صام في رمضان لا عن رمضان لا يقع عن رمضان ، وعلى أن من توضأ للتبرد أو التنظف لا يصح وضوؤه ، وفي ذلك خلاف مبسوط بما له وعليه في محله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(214/374)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ)

بُدِئَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِذِكْرِ الْقُرْآنِ وَمَوْضُوعِ دَعْوَتِهِ الْعَامَّةِ وَحَالِ النَّاسِ فِيهَا ، وَبَيَانِ طِبَاعِهِمْ وَشُئُونِهِمُ الرَّدِيئَةِ إِلَّا مَا هَذَّبَتْهُ هِدَايَةُ الدِّينِ مِنْهَا ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ خَاصَّةٌ بِتَكْذِيبِ الْمُشْرِكِينَ

لِلرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْقُرْآنِ ، وَقَدْ بُدِئَتْ بِبَيَانِ غَمِّهِ وَحُزْنِهِ وَضِيقِ صَدْرِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ تَكْذِيبِ قَوْمِهِ وَتَأْكِيدِ تَبْلِيغِهِ وَيَلِيهِ تَحَدِّيهِ بِهِ الْمُثْبِتُ لِوَحْيِهِ . (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ) ، الْمُتَبَادِرُ إِلَى الْفَهْمِ مِنْ جُمْلَةِ لَعَلَّ بِحَسَبِ مَوْقِعِهَا هُنَا الِاسْتِفْهَامُ الْإِنْكَارِيُّ الْمُرَادُ بِهِ النَّهْيُ أَوِ النَّفْيُ ،

(215/374)

أَيْ أَفَتَارِكٌ أَنْتَ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ ، مِمَّا يَشُقُّ سَمَاعُهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْأَمْرِ بِالتَّوْحِيدِ أَوِ النَّهْيِ عَنِ الشِّرْكِ وَالْإِنْذَارِ وَالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ لَهُمْ وَالنَّعْيِ عَلَيْهِمْ ، وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ تُبَلِّغَهُمْ إِيَّاهُ كُلَّهُ كَمَا أُنْزِلَ كَرَاهَةَ (أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ) أَيْ هَلَّا أَعْطَاهُ رَبُّهُ كَنْزًا مِنْ لَدُنْهُ يُغْنِيهِ فِي نَفَقَتِهِ وَيَمْتَازُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ ، فَالْكَنْزُ : مَا يُدَّخَرُ مِنَ الْمَالِ فِي الْأَرْضِ ، عَبَّرُوا بِهِ عَمَّا يُنَالُ بِغَيْرِ كَسْبٍ ، وَبِإِنْزَالِهِ عَلَيْهِ عَلَى كَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَخُصُّهُ بِهِ (أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ) يُؤَيِّدُهُ فِي دَعْوَتِهِ ، وَهُمْ قَدْ قَالُوا ذَلِكَ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ " الْفُرْقَانِ " : (وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا) (25 : 7 و8) أَيْ

(216/374)

إِنَّ ضِيقَ الصَّدْرِ وَكِتْمَانَ بَعْضِ الْوَحْيِ مِمَّا يَخْطُرُ بِالْبَالِ ، وَشَأْنُهُ أَنْ تَقْتَضِيهِ الْحَالُ ، بِحَسَبِ الْمَعْهُودِ مِنْ طِبَاعِ النَّاسِ ، فَهَلْ أَنْتَ مُجْتَرِحٌ لِهَذَا التَّرْكِ ، أَوْ مُسْتَسْلِمٌ لِمَا يَعْرِضُ لَكَ بِمُقْتَضَى الْبَشَرِيَّةِ مِنْ ضِيقِ الصَّدْرِ ؟ كَلَّا لَا تَفْعَلْهُ . فَهُوَ كَقَوْلِهِ : (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ) (16 : 127) وَقَوْلِهِ : (الم كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (7 : 1 و2) وَقَوْلِهِ (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) (18 : 6) وَقَوْلِهِ (طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) (26 : 1 – 4) أَيْ لَعَلَّكَ قَاتِلُهَا غَمًّا وَانْتِحَارًا ؟ أَيْ لَا تَفْعَلْ ، وَحَاصِلُهُ أَنَّ عِنَادَهُمْ وَجُحُودَهُمْ وَإِعْرَاضَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ وَشِدَّةَ اهْتِمَامِكَ بِأَمْرِهِمْ فِيمَا لَيْسَ أَمْرُهُ بِيَدِكَ ، مِمَّا شَأْنُهُ أَنْ يُفْضِيَ إِلَى ذَلِكَ لَوْلَا عِصْمَتُنَا إِيَّاكَ وَتَثْبِيتُنَا لَكَ ، فَهَلْ تُصِرُّ عَلَيْهِ حَتَّى تَبْخَعَ نَفْسَكَ ؟ لَا لَا ، وَيُوَضِّحُ هَذَا الْمَعْنَى فِي كَوْنِ الْإِرْشَادِ مَبْنِيًّا عَلَى بَيَانِ الْوَاقِعِ فِي تِلْكَ الْوَقَائِعِ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) (17 : 74) .

(إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ) فَعَلَيْكَ أَنْ تُبَلِّغَ جَمِيعَ مَا أُمِرْتَ أَنْ تُبَلِّغَهُ وَتُنْذِرَ بِهِ فِي وَقْتِهِ وَإِنْ سَاءَهُمْ وَأَطْلَقَ أَلْسِنَتَهُمْ (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) أَيْ هُوَ الْمُوَكَّلُ بِأُمُورِ الْعِبَادِ وَالرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ فِيهَا ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا شَيْءٌ ; لِأَنَّهَا مِنْ أُمُورِ الْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ لَا مِنْ مَوْضُوعِ التَّعْلِيمِ وَالتَّبْلِيغِ ، الَّذِي هُوَ وَظِيفَةُ الرُّسُلِ . كَمَا قَالَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى : (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (2 : 272) وَ : (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) (88 : 21 - 22) وَ : (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) (50 : 45) .

(218/374)

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللُّغَةِ فِي الْآيَةِ أَنَّ كَلِمَةَ (لَعَلَّ) لِلتَّرَجِّي وَالتَّوَقُّعِ ، وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ أَنَّهَا رَجَاءٌ وَطَمَعٌ وَشَكٌّ . وَقَالُوا : إِنَّهَا مِنَ اللَّهِ - تَعَالَى - لِلْقَطْعِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : (وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) وَقَالَ شَيْخُنَا إِنَّهَا لِلْإِعْدَادِ وَالتَّهْيِئَةِ ; أَيْ لِيُعِدَّكُمْ وَيُؤَهِّلَكُمْ لِلْفَلَاحِ بِالتَّقْوَى ، وَحَقَّقْنَا أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ لِإِطْمَاعِ الْمُخَاطَبِ وَإِحْدَاثِ الرَّجَاءِ عِنْدَهُ وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنْ سِيبَوَيْهِ . وَحَصَرَ ابْنُ هِشَامٍ مَعَانِيَهَا فِي ثَلَاثٍ : 1 - التَّوَقُّعِ : وَهُوَ تَرَجِّي الْمَحْبُوبِ ، وَالْإِشْفَاقُ مِنَ الْمَكْرُوهِ . 2 - التَّعْلِيلِ : قَالَ وَحَمَلُوا عَلَيْهِ قَوْلَهُ - تَعَالَى - فِي فِرْعَوْنَ : (لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) (20

: 44) 3 - الِاسْتِفْهَامِ : وَأَسْنَدَهُ إِلَى الْكُوفِيِّينَ (أَقُولُ) : وَإِذَا كَانَتْ لِلِاسْتِفْهَامِ يَدْخُلُ فِيهِ أَنْوَاعُهُ كَاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِ الْمُرَادِ بِهِ النَّهْيُ أَوِ النَّفْيُ ، وَاخْتَارَهُ بَعْضُهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَبْلَنَا .

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(219/374)

أَيْ بَلْ أَيَقُولُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ إِنَّ مُحَمَّدًا قَدِ افْتَرَى هَذَا الْقُرْآنَ قُلْ لَهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ : إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُونَ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، لَا تَدَّعُونَ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّكُمْ أَهْلُ اللَّسَنِ وَالْبَيَانِ ، وَالْمِرَانِ عَلَى الْمُفَاخَرَةِ بِالْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَفُنُونِ الشِّعْرِ وَالْخَطَابَةِ ، وَلَمْ يَسْبِقْ لِي شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِي هَذَا الْعُمُرِ الطَّوِيلِ الَّذِي عِشْتُهُ بَيْنَكُمْ ، وَهُوَ أَرْبَعُونَ سَنَةً ، فَإِنْ كَانَ مِنْ جِنْسِ كَلَامِ الْبَشَرِ فَأَنْتُمْ بِهِ أَجْدَرُ ، وَإِنْ كَانَتْ أَخْبَارُهُ عَنِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَعَنْ عَالَمِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ وَقَصَصِهِ عَنِ الرُّسُلِ وَأَقْوَامِهِمْ مُفْتَرَيَاتٍ فَأَنْتُمْ عَلَى مِثْلِهَا أَقْدَرُ فَإِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَصْدَقُكُمْ لِسَانًا لَمْ أَكْذِبْ عَلَى بَشَرٍ قَطُّ ، فَكَيْفَ أَفْتَرِي عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنْتُمْ تَفْتَرُونَ عَلَيْهِ بِاتِّخَاذِ الْآلِهَةِ مَعَهُ وَالْبَنَاتِ لَهُ وَالشُّفَعَاءِ عِنْدَهُ ، وَتَحْرِيمِ السَّائِبَةِ وَالْبَحِيرَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الزَّرْعِ

وَالْأَنْعَامِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ لِي مَنْ يُعِينُنِي عَلَى وَضْعِهِ مِمَّنْ لَا وُجُودَ لَهُمْ بِالْفِعْلِ وَلَا بِالْإِمْكَانِ ، فَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِمَّنْ تَعْبُدُونَ غَيْرَ اللهِ وَمِنْ جَمِيعِ خَلْقِ اللهِ لِيُسَاعِدُوكُمْ عَلَى الْإِتْيَانِ بِهَذِهِ السُّوَرِ الْعَشْرِ ، وَلْتَكُنْ مِثْلَهُ مُفْتَرَيَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ ، بِأَنْ تَكُونَ مُشْتَمِلَةً عَلَى مِثْلِ مَا فِيهِ مِنْ تَشْرِيعٍ دِينِيٍّ وَمَدَنِيٍّ وَسِيَاسِيٍّ ، وَحِكَمٍ وَمَوَاعِظَ وَآدَابٍ وَأَنْبَاءٍ غَيْبِيَّةٍ مَحْكِيَّةٍ عَنِ الْمَاضِي وَأَنْبَاءٍ غَيْبِيَّةٍ عَلَى أَنَّهَا سَتَأْتِي ، بِمِثْلِ هَذِهِ النُّظُمِ الْبَدِيعَةِ ، وَالْأَسَالِيبِ الْعَجِيبَةِ ، وَالْبَلَاغَةِ الْحَاكِمَةِ عَلَى الْعُقُولِ وَالْأَلْبَابِ وَالْفَصَاحَةِ الْمُسْتَعْذَبَةِ فِي الْأَذْوَاقِ وَالْأَسْمَاعِ ، وَالسُّلْطَانِ الْمُسْتَعْلِي عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَرْوَاحِ ، إِذَا كَانَ مَا تَحَدَّيْتُكُمْ بِهِ أَوَّلًا مِنْ سُورَةٍ وَاحِدَةٍ لَا يَتَّسِعُ لِكُلِّ الْأَجْنَاسِ وَالْأَنْوَاعِ ، أَوْ فَأْتُوا بِنَوْعٍ مِمَّا تَدَّعُونَ افْتِرَاءَهُ كَالْقَصَصِ فِي عُلُومِهَا وَحِكَمِهَا وَهِدَايَتِهَا ، مُكَرَّرًا كَتِكْرَارِهِ لِكُلِّ أَنْوَاعِهَا ، هَذَا التَّكْرَارُ الَّذِي لَا تَبْلَى جِدَّتُهُ ، وَلَا تُمَلُّ إِعَادَتُهُ .

هَذِهِ الْآيَةُ كَالْآيَةِ 38 مِنْ سُورَةِ يُونُسَ ، إِلَّا أَنَّ التَّحَدِّيَ فِي تِلْكَ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ مُطْلَقًا ، وَفِي هَذِهِ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ، وَقَدْ وَعَدْتُ فِي تَفْسِيرِهَا بِالْكَلَامِ عَلَى حِكْمَةِ التَّحَدِّي بِعَشْرِ سُوَرٍ عِنْدَمَا أَصِلُ إِلَى تَفْسِيرِ آيَةِ سُورَةِ هُودٍ هَذِهِ ، ثُمَّ بَدَا لِي أَنْ أُبَيِّنَهَا هُنَاكَ مُجْمَلَةً لِئَلَّا تَخْتَرِمَنِي الْمَنِيَّةُ قَبْلَ بُلُوغِ هَذِهِ الْآيَةِ فَبَيَّنْتُهَا فِي جَوَابِ مَا يَرِدُ مِنَ الشُّبْهَةِ عَلَى الْمُتَكَلِّمِينَ فِي إِعْجَازِ الْبَلَاغَةِ .

بَلْ سَبَقَ لِي أَنْ بَيَّنْتُ حِكْمَةَ التَّحَدِّي بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ الَّتِي هِيَ آخِرُ آيَاتِ التَّحَدِّي نُزُولًا ، وَوَضَّحْتُ ذَلِكَ فِي الْفَصْلِ الْمُلْحَقِ بِهِ الَّذِي عَقَدْتُهُ لِبَيَانِ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ ، وَلَا سِيَّمَا الْوَجْهُ الْأَوَّلُ مِنْهُ وَهُوَ إِعْجَازُهُ بِأُسْلُوبِهِ وَنُظُمِهِ الْعَدِيدَةِ وَأَسَالِيبِهِ الْكَثِيرَةِ فِي سُوَرِهِ الْمِائَةِ وَالْأَرْبَعَ عَشْرَةَ .

خُلَاصَةُ مَا تَقَدَّمَ أَنَّ الْمُفَسِّرِينَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْتِهِمُ اللَّهُ – تَعَالَى – حِكْمَةَ التَّحَدِّي بِعَشْرِ سُوَرٍ مُفْتَرَيَاتٍ ، زَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ – تَعَالَى – تَحَدَّى فُصَحَاءَ قُرَيْشٍ الَّذِينَ هُمْ أَفْصَحُ الْعَرَبِ وَمَنْ دُونَهُمْ مِنْ سَائِرِ الْخَلْقِ بِالْإِتْيَانِ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ فِي جُمْلَتِهِ ، فَلَمَّا عَجَزُوا تَحَدَّاهُمْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ ، فَلَمَّا عَجَزُوا تَحَدَّاهُمْ بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلِهِ ، ثُمَّ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَلَكِنَّ هَذَا التَّرْتِيبَ

لَمْ يَصِحَّ بِهِ نَقْلٌ ، بَلِ الْمَرْوِيُّ فِي تَرْتِيبِ نُزُولِ السُّوَرِ يُخَالِفُهُ ، فَإِنَّ سُورَةَ هُودٍ نَزَلَتْ عَقِبَ سُورَةِ يُونُسَ ، وَأَجَابَ بَعْضُهُمْ بِأَنَّ نُزُولَ سُورَةٍ قَبْلَ أُخْرَى لَا يَقْتَضِي نُزُولَ جَمِيعِ آيَاتِهَا قَبْلَ جَمِيعِ آيَاتِهَا ، وَهَذَا الْجَوَابُ إِنَّمَا يُقَالُ فِيمَا تَصِحُّ الرِّوَايَةُ فِي تَأَخُّرِ نُزُولِهِ وَتَقَدُّمِهِ ، وَلَا يَصِحُّ بِالتَّحَكُّمِ الْمَحْضِ ، فِيمَا هُوَ خِلَافُ الْأَصْلِ الثَّابِتِ بِالنَّقْلِ ، وَأَبْعَدُهُ عَنِ التَّصَوُّرِ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ فِي سُورَتَيْنِ مُتَعَاقِبَتَيْنِ .

(223/374)

وَسَبَبُ غَفْلَتِهِمْ عَنْ هَذِهِ الْحِكْمَةِ ، أَنَّهُمْ لَمْ يَطْلُبُوهَا مِنَ التَّأَمُّلِ فِي سُوَرِ الْقُرْآنِ وَمَا فِيهَا مِنْ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ الْمُكَرَّرِ فِي سُوَرِهِ ؛ لِأَنَّهُمُ اعْتَادُوا أَنْ يَطْلُبُوا مَعَانِيَهُ مِنَ الرِّوَايَاتِ الْمَأْثُورَةِ عَلَى قِلَّتِهَا وَقِلَّةِ مَا يَصِحُّ مِنْهَا ، وَمِنْ مَدْلُولِ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا وَحْدَهَا فِي مُفْرَدَاتِ اللُّغَةِ وَجُمَلِهَا ، بِمُقْتَضَى الْقَوَاعِدِ الْفَنِّيَّةِ أَوِ الْفِقْهِيَّةِ وَأُصُولِهَا ، وَقَدْ بَيَّنْتُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْبَقَرَةِ أَنَّ أَقْوَى شُبْهَةٍ لِلْمُعْتَرِضِينَ عَلَى دَعْوَى الْإِعْجَازِ بِالْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ ، أَنَّ الْمَعْنَى الْوَاحِدَ الَّذِي يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِعِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ قَدْ يَسْبِقُ بَعْضُ الْفُصَحَاءِ إِلَى أَعْلَى عِبَارَةٍ لَهُ وَأَبْلَغِهَا ، بِحَيْثُ يَكُونُ كُلُّ مَا عَدَاهَا دُونَهَا ، وَأَنَّهُ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السَّابِقَ لَهَا قَدْ تَلَقَّاهَا بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ – تَعَالَى

- . فَإِنَّ مِثْلَهُ يُوجَدُ فِي كُلِّ اللُّغَاتِ ، وَذَكَرْتُ مَثَلًا لَهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى هَذَا ، وَأَجَبْتُ عَنْهَا بِأَنَّ الْقُرْآنَ يُعَبِّرُ عَنِ الْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ بِالْعِبَارَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي تُعَدُّ كُلٌّ مِنْهَا فِي أَعْلَى الدَّرَجَاتِ وَيَعْجِزُ عَنْهَا جَمِيعُ الْبُلَغَاءِ ثُمَّ بَيَّنْتُ فِي مَبَاحِثِ الْوَحْيِ مِنْ تَفْسِيرِ يُونُسَ أَنَّ الْقَامُوسَ الْأَعْظَمَ لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ اللَّفْظِيِّ هُوَ تَكْرَارُ الْمَعْنَى الْوَاحِدِ بِالْعَشَرَاتِ وَالْمِئَاتِ مِنَ الْعِبَارَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي النَّظْمِ وَالْأُسْلُوبِ وَبَلَاغَةِ الْعِبَارَةِ وَقُوَّةِ تَأْثِيرِهَا فِي قُلُوبِ الْقَارِئِينَ

(224/374)

وَالسَّامِعِينَ لَهَا ، وَعَدَمِ وُقُوعِ الِاخْتِلَافِ بِالتَّنَاقُضِ أَوِ التَّعَارُضِ فِي شَيْءٍ مِنْهَا كَمَا قَالَ : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (4 : 82) وَإِنَّمَا يَظْهَرُ هَذَا الْإِعْجَازُ بِنَوْعَيْهِ فِي السُّوَرِ الْعَدِيدَةِ وَبَيَّنْتُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ يُونُسَ وَجْهَ وَصْفِهَا بِمُفْتَرَيَاتٍ ، وَأَعُودُ هُنَا إِلَى بَسْطِ الْمَسْأَلَةِ وَفَاءً بِالْوَعْدِ فَأَقُولُ : الضَّمِيرُ الْمَنْصُوبُ فِي افْتَرَاهُ يَعُودُ إِلَى الْقُرْآنِ لِلْعِلْمِ بِهِ مِنْ سِيَاقِ تَبْلِيغِهِ ، وَقَدْ حَكَى عَنْهُمْ هَذِهِ التُّهْمَةَ فِي سُورَةٍ أُخْرَى مِنْهَا مَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا فِي سُورَةِ يُونُسَ ، وَفِيهَا وَجْهَانِ : (1) أَنَّهُ افْتَرَاهُ فِي جُمْلَتِهِ بِإِسْنَادِهِ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - وَادِّعَائِهِ أَنَّهُ كَلَامُهُ أَوْحَاهُ إِلَيْهِ ، وَقَدَّمْتُ الْجَوَابَ عَنْهُ آنِفًا .

(2) أَنَّهُ افْتَرَى أَخْبَارَهُ الَّتِي يَدَّعِي أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ; إِذْ لَا يَعْلَمُهَا غَيْرُهُ وَقَدِ اسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى

نُبُوَّتِهِ كَمَا بَيَّنْتُهُ فِي مَبَاحِثِ الْوَحْيِ وَفِي تَفْسِيرِ آيَةِ يُونُسَ ، وَقَدْ حَكَى الْأَمْرَيْنِ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ

(225/374)

الْفُرْقَانِ بِقَوْلِهِ : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) (25 : 4 - 6) فَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ قِصَصُهُمْ وَأَكَاذِيبُهُمُ الَّتِي سَطَرُوهَا ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تُسَلِّي نَفْسَهَا عَنْ جَهْلِهَا بِالْأَدْيَانِ وَالتَّوَارِيخِ بِزَعْمِهِمْ أَنَّهَا خُرَافَاتٌ وَأَكَاذِيبُ ، فَالتَّحَدِّي بِالسُّوَرِ الْعَشْرِ هُوَ الَّذِي يُفَنِّدُ هَاتَيْنِ التُّهْمَتَيْنِ الْمُوَجَّهَتَيْنِ إِلَيْهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأَنْهَضِ حُجَّةٍ عَمَلِيَّةٍ ، لَا جَدَلِيَّةٍ .

وَبَيَانُهُ أَنَّ هَذَا التَّحَدِّيَ بِالْعَشْرِ يَثْبُتُ بِهِ مِنْ بُطْلَانِ دَعْوَاهُمْ مَا لَا يَثْبُتُ بِالْعَجْزِ عَنْ سُورَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ قَصِيرَةً ، وَلِهَذَا حَسُنَ مَجِيئُهُ بَعْدَ التَّحَدِّي بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ مُطْلَقًا ، خِلَافًا لِرَأْيِ الْجُمْهُورِ الَّذِينَ غَفَلُوا عَنْ هَذَا الْمَعْنَى ، فَظَنُّوا أَنَّ التَّحَدِّيَ بِالْعَشْرِ بَعْدَ الْعَجْزِ عَنِ الْوَاحِدَةِ لَا وَجْهَ لَهُ ؛ لِأَنَّ مَنْ عَجَزَ عَنْ وَاحِدَةٍ كَانَ أَعْجَزَ عَنِ اثْنَتَيْنِ فَضْلًا عَنْ عَشْرٍ ، فَتَفَصُّوا مِنْ هَذَا بِدَعْوَى التَّرْتِيبِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَهُوَ إِنَّمَا يَصِحُّ إِذَا كَانَ مَوْضُوعُ التَّحَدِّي

مُتَّحِدًا مُطْلَقًا وَهُوَ هُنَا مُخْتَلِفٌ وَمُقَيَّدٌ .

ذَلِكَ بِأَنَّ افْتِرَاءَ الْأَخْبَارِ الْمُدَّعَى فِي الْقُرْآنِ نَوْعَانِ :

(226/374)

(أَحَدُهُمَا) أَنْبَاءُ الْغَيْبِ الْمَاضِيَةِ . وَهِيَ قِسْمَانِ : (1) قِصَصُ الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ ، وَقَدْ تَحَدَّى بِهَا مِنْ نَاحِيَةِ كَوْنِهَا غَيْبِيًّا لَمْ يَسْبِقْ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عِلْمٌ بِهَا كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَحَلِّهِ ، وَمِنْهُ مَا يَأْتِي التَّصْرِيحُ بِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَمَا بَعْدَهَا وَفِي غَيْرِهِمَا . (2) أَخْبَارُ التَّكْوِينِ ; كَخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا ، كَخَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالْجَانِّ ، لَا أَذْكُرُ أَنَّهُ صَرَّحَ بِالتَّحَدِّي بِهَا

تَحَدِّيًا خَاصًّا ، وَلَا أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِهَا وَأَنْكَرُوهَا ، فَهِيَ لَمْ تَكُنْ مَوْضِعَ نِزَاعٍ ، وَكَذَلِكَ أَخْبَارُ السُّنَنِ الْعَامَّةِ فِي الْخَلْقِ الْوَارِدَةِ فِي سِيَاقِ تَعْدَادِ النِّعَمِ كَمَا تَرَاهُ فِي سُورَةِ النَّحْلِ ، أَوْ سِيَاقِ آيَاتِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَحُجَجِهِ عَلَى عِبَادِهِ كَمَا تَرَاهُ فِي سُورَةِ الرُّومِ ، وَإِنَّمَا جَعَلْتُ هَذِهِ كُلَّهَا قِسْمًا وَاحِدًا فِي هَذَا الْبَحْثِ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ دَاخِلَةً فِي تُهْمَةِ الِافْتِرَاءِ .

(وَثَانِيهِمَا) أَنْبَاءُ الْغَيْبِ الْآتِيَةُ وَهِيَ قِسْمَانِ أَيْضًا : (1) وَعْدُ اللَّهِ بِنَصْرِ رَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَجَعْلِ الْعَاقِبَةِ لَهُمْ وَاسْتِخْلَافِهِمْ فِي الْأَرْضِ ، وَبِخِذْلَانِ أَعْدَائِهِ وَأَعْدَائِهِمُ الْكَافِرِينَ وَالِانْتِقَامِ

مِنْهُمْ وَتَعْذِيبِهِمْ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ، وَهُوَ مَا كَانُوا يَتَمَارَوْنَ بِهِ وَيُكَذِّبُونَهُ (2) الْقِيَامَةُ وَبَعْثُ الْخَلْقِ وَحِسَابُهُمْ وَجَزَاؤُهُمْ بِعَقَائِدِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، وَهُوَ مَا كَانُوا يُنْكِرُونَهُ وَيَسْتَبْعِدُونَهُ .

(227/374)

فَأَخْبَارُ الْغَيْبِ الَّتِي كَانُوا يُكَذِّبُونَهَا وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا مُفْتَرَاةٌ هِيَ ثَلَاثَةٌ : (1) أَخْبَارُ الْآخِرَةِ . (2) أَخْبَارُ وَعْدِ اللهِ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَوَعِيدِهِ لِأَعْدَائِهِ فِي الدُّنْيَا وَكِلَاهُمَا مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ الْمُسْتَقْبَلَةِ الَّتِي لَا يَظْهَرُ صِدْقُهَا إِلَّا بِتَأْوِيلِهَا ، أَيْ وُقُوعِ مَدْلُولِهَا . (3) قِصَصُ الرُّسُلِ – عَلَيْهِمُ السَّلَامُ – وَهِيَ

(228/374)

أُمُورٌ قَدْ وَقَعَتْ بِالْفِعْلِ ، وَهَاكَ كَلِمَةً تَفْصِيلِيَّةً فِي عَدَدِ الْعَشْرِ فِي كُلٍّ مِنْهَا ، يُعْلَمُ بِهَا تَرْجِيحُ الثَّالِثِ الَّذِي سَمَّوْهُ أَسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ وَهُوَ الْمُخْتَارُ عِنْدَنَا .

فَأَمَّا آيَاتُ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ فَكَثِيرَةٌ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ السُّوَرِ مِنْ أَطْوَلِهَا إِلَى أَقْصَرِهَا الَّتِي هِيَ

سُوَرُ قِصَارِ الْمُفَصَّلِ .

وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى وَجْهِ الْإِعْجَازِ بِتَكَرُّرِهَا الْمَبْثُوثِ فِي مِئَاتِ الْمَوَاضِعِ مِنَ السُّوَرِ الْكَثِيرَةِ الْمُخْتَلِفَةِ النَّظْمِ بِالْأَسَالِيبِ الْعَجِيبَةِ وَالْبَلَاغَةِ الدَّقِيقَةِ فِي الرُّكْنِ الثَّالِثِ مِنْ أَرْكَانِ الْمَقْصِدِ الْأَوَّلِ مِنْ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ ، وَأَقُولُ هُنَا : إِنَّ قِصَارَ الْمُفَصَّلِ الْمَكِّيَّةَ الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلَ سُورَةِ هُودٍ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مُرَادَةً مِنْ هَذِهِ الْعَشْرِ كُلِّهَا أَوْ بَعْضِهَا هِيَ : التِّينُ ، وَالْعَادِيَاتُ ، وَالْقَارِعَةُ وَالتَّكَاثُرُ ، وَالْهُمَزَةُ ، وَاللَّهَبُ ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَكْمِيلِهَا مِمَّا قَبْلَ سُورَةِ الضُّحَى ، وَلَا يَظْهَرُ لِلتَّحَدِّي بِعَشْرٍ مُفْتَرَيَاتٍ مِنْهَا مَعْنًى لَا يُوجَدُ فِي السُّورَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ طَوِيلَةً ، فَهِيَ غَيْرُ مُرَادَةٍ بِالْعَشْرِ .

وَأَمَّا آيَاتُ وَعْدِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ ، وَوَعِيدِهِ الدُّنْيَوِيِّ لِلْكَافِرِينَ بِالْخِذْلَانِ وَالْعَذَابِ ، فَلَا يُوجَدُ فِي قِصَارِ الْمُفَصَّلِ شَيْءٌ صَرِيحٌ مِنْهَا ، وَلَكِنْ إِشَارَاتٌ فِي بَعْضِهَا (مِنْهَا) سُورَةُ (الْكَوْثَرِ) وَهِيَ أَقْصَرُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ، فَفِيهَا الْوَعْدُ الصَّادِقُ

لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِإِعْطَائِهِ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ الدِّينِيَّ وَالدُّنْيَوِيَّ ، وَمِنْهُ الْغِنَى بَعْدَ الْفَقْرِ الَّذِي كَانَ أَغْنِيَاءُ قَوْمِهِ يُعَيِّرُونَهُ بِهِ ، وَالْوَعِيدُ الصَّادِقُ لِعَدُوِّهِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ الَّذِي سَمَّاهُ أَبْتَرَ عِنْدَ مَوْتِ ابْنِهِ الْقَاسِمِ ، بِأَنَّهُ هُوَ الْأَبْتَرُ الَّذِي سَيَنْقَطِعُ ذِكْرُهُ بِنَسْلِهِ وَغَيْرِ نَسْلِهِ ، وَيَتَضَمَّنُ هَذَا الْحَصْرُ الْإِضَافِيُّ بَقَاءَ ذِكْرِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِذُرِّيَّتِهِ وَبِآثَارِ هِدَايَتِهِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ وَقَعَ بِالْفِعْلِ ، وَقَدْ بَيَّنْتُ خُلَاصَةَ تَفْسِيرِهَا فِي بَحْثِ إِعْجَازِ السُّوَرِ الْقِصَارِ مِنْ تَفْسِيرِ التَّحَدِّي بِآيَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (وَمِنْهَا) سُورَةُ (اللَّهَبِ) بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْجُمْلَةَ الْأُولَى مِنْهَا خَبَرٌ بِهَلَاكِ أَبِي لَهَبٍ وَامْرَأَتِهِ ، وَإِذَا قِيلَ إِنَّهَا دُعَاءٌ فَمَعْنَاهُ الْخَبَرُ وَقَدْ صَدَقَ ، فَقَدْ مَاتَ أَبُو لَهَبٍ شَرَّ مِيتَةٍ خَارِجَ مَكَّةَ وَبَقِيَ مُلْقًى حَتَّى تَفَسَّخَ وَأَنْتَنَ ، وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ غَزْوَةِ بَدْرٍ بِأَيَّامٍ ، وَهِيَ أَوَّلُ انْتِقَامِ اللهِ مِنْ عُتَاةِ قُرَيْشٍ وَتَصْدِيقُ وَعْدِهِ لِرَسُولِهِ فِي قَوْلِهِ : (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ) (44 : 16) وَمِثْلُهَا الْوَعِيدُ فِي سُورَةِ الْعَلَقِ ، وَقَدْ نَزَلَ فِي أَبِي جَهْلٍ وَصَدَقَ بِقَتْلِهِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ أَشَرَّ قِتْلَةٍ ، وَفِي مَعْنَاهُمَا الْوَعِيدُ فِي سُورَةِ (الْمُدَّثِّرِ) مِنْ وَسَطِ الْمُفَصَّلِ وَقَدْ نَزَلَ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، وَهُوَ يَشْمَلُ وَعِيدَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَقَدْ صَدَقَ وَوَقَعَ

–

فَهَذِهِ أَرْبَعُ سُوَرٍ مِنْ قِصَارِ الْمُفَصَّلِ وَوَسَطِهِ ، وَالْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ فِيهَا خَاصٌّ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَشَدِّ الْعُتَاةِ الَّذِينَ بَارَزُوهُ الْعَدَاوَةَ ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ قُرَيْشٍ بَعْدَ ذَلِكَ - مِمَّنْ كَانُوا يُنْكِرُونَهُ - مِنَ الْوَعِيدِ لَهُ وَالْوَعِيدِ لَهُمْ ; لِأَنَّهُ جُزْئِيَّاتٌ مُتَفَرِّقَةٌ مُجْمَلَةٌ ، لَا وَقَائِعُ فَاصِلَةٌ ، فَهِيَ غَيْرُ مُرَادَةٍ بِالْعَشْرِ أَيْضًا .

وَمِنَ الْوَعِيدِ الْعَامِّ لِلْكُفَّارِ كُلِّهِمْ فِي وَسَطِ الْمُفَصَّلِ قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي سُورَةِ الْجِنِّ مِنْ تَبْلِيغِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الدَّعْوَةَ : (حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا) (72 : 24 و25) إلَخْ . وَهَذَا بَعْدَ الْوَعْدِ فِيهَا بِقَوْلِهِ : (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا) (72 : 16) .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّهُ لَيْسَ فِي قِصَارِ الْمُفَصَّلِ وَلَا فِي أَوْسَطِهَا عَشْرُ سُوَرٍ نَاطِقَةٍ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ الدُّنْيَوِيَّيْنِ فَتَكُونَ هِيَ الْمُرَادَةَ بِالتَّحَدِّي .

وَأَمَّا طِوَالُ الْمُفَصَّلِ فَفِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ الْمُبْهَمِ فِي سُوَرِ الذَّارِيَاتِ وَالطُّورِ وَالنَّجْمِ وَالْقَمَرِ ; بِمُنَاسَبَةِ ذِكْرِ أَقْوَامِ الرُّسُلِ الَّذِينَ انْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا ،

ثُمَّ فِي سُوَرِ الْمُلْكِ وَالْقَلَمِ وَالْحَاقَّةِ وَالْمَعَارِجِ ، وَمَجْمُوعُ مَا فِيهِ يَزِيدُ عَلَى عَشْرٍ ، إنْ أُرِيدَ التَّحَدِّي بِهَا أَوْ دُخُولُهَا فِيمَا يُتَحَدَّى بِهَا فِي الْآيَةِ ، وَإِنَّمَا الصَّرِيحُ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ الَّذِي هُوَ الْأَحْرَى بِأَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ فَإِنَّمَا هُوَ فِي السُّوَرِ الطَّوِيلَةِ مِمَّا فَوْقَ الْمُفَصَّلِ ، وَلَكِنَّ هَذَا النَّوْعَ كَالَّذِي قَبْلَهُ لَا يَظْهَرُ فِيهِ تَخْصِيصُ التَّحَدِّي بِعَشْرِ مُفْتَرَيَاتٍ ؛ لِأَنَّهُ مُشْتَرِكٌ مَعَ الَّذِي بَعْدَهُ فِي سُوَرِهِ ، وَلِأَنَّ مَوْضُوعَهُ مِمَّا لَا يُعْرَفُ صِدْقُهُ لِذَاتِهِ إلَّا بِوُقُوعِهِ .

وَجْهُ التَّحَدِّي بِعَشْرِ سُوَرٍ مِنْ قَصَصِ الْقُرْآنِ :

(232/374)

وَأَمَّا قِصَصُ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - فَهِيَ الَّتِي تَظْهَرُ فِيهَا حِكْمَةُ التَّحَدِّي بِالسُّوَرِ الْعَشْرِ عَلَى أَتَمِّهَا وَأَكْمَلِهَا مِنَ الْوُجُوهِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَيَكُونُ الْعَجْزُ عَنْ مُعَارَضَتِهَا أَقْوَى حُجَّةً وَبُرْهَانًا عَلَى كَوْنِهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ - تَعَالَى - لَا مُفْتَرَاةً مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَحْدَهُ ، وَلَا مِمَّا أَعَانَهُ غَيْرُهُ عَلَيْهِ كَمَا تَصَوَّرُوا وَزَوَّرُوا ، لِأَنَّ الْعَجْزَ عَنْ مِثْلِهَا عَامٌّ كَمَا سَنُفَصِّلُهُ ، عَلَى أَنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَدَأَ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ بِالْقُرْآنِ وَحْدَهُ ، وَكَانَ يَتَّبِعُهُ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ مِنْ أَصْدَقِ النَّاسِ وَأَسْلَمِهِمْ فِطْرَةً مُسْتَهْدَفِينَ بِاتِّبَاعِهِ لِلْإِيذَاءِ وَالِاضْطِهَادِ ، وَلَوْلَا الْإِيمَانُ بِوَعْدِ اللَّهِ لَهُمْ وَوَعِيدِهِ لِأَعْدَائِهِمْ لَمَا

كَانَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ أَمَلٌ بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْهَلَاكِ ، فَأَيُّ بَاعِثٍ يَبْعَثُهُمْ عَلَى التَّعَاوُنِ مَعَهُ عَلَى تَزْوِيرِ كِتَابٍ عَلَى اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – يُعَادُونَ بِهِ كُبَرَاءَ قَوْمِهِمْ وَعَصَبِيَّةَ أُمَّتِهِمْ بِمَا يُفَرِّقُونَ بِهِ كَلِمَتَهَا وَيُضْعِفُونَهَا وَيُذِلُّونَهَا ؟ ! وَكَيْفَ يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلْهَلَاكِ ، وَيُعَرِّضُ الْمُتَمَوِّلُ مِنْهُمْ مَالَهُ لِلزَّوَالِ لِتَأْيِيدِ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ ، عَلَى فَرْضِ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ؟ كُلُّ ذَلِكَ بَدِيهِيُّ الْبُطْلَانِ .

(233/374)

وَالْفَرْقُ بَيْنَ هَذِهِ الْقِصَصِ وَسَائِرِ أَخْبَارِ الْغَيْبِ الْمُسْتَقْبَلَةِ الْمُكَرَّرِ مِنْهَا كَوَعِيدِ الدُّنْيَا وَوَعْدِهَا وَجَزَاءِ الْآخِرَةِ ، وَغَيْرِ الْمُكَرَّرِ كَالْأَمْثَالِ الْمَضْرُوبَةِ لِإِيضَاحِ الْحَقَائِقِ أَوْ لِلْعِبْرَةِ فِي سُوَرِ النَّحْلِ وَالْكَهْفِ وَالْقَلَمِ وَغَيْرِهِنَّ أَنَّ مَوْضُوعَهَا وَقَائِعُ بَشَرِيَّةٌ تَارِيخِيَّةٌ لَهَا رِوَايَاتٌ مُتَوَاتِرَةٌ فِي جُمْلَتِهَا ، بَعْضُهَا مُدَوَّنٌ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ ، وَبَعْضُهَا مَحْفُوظٌ عِنْدَ الْعَرَبِ كَأَخْبَارِ عَادٍ وَثَمُودَ

وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ، فَدَعْوَى افْتِرَائِهَا مِنْ أَصْلِهَا مُكَابَرَةٌ ظَاهِرَةُ الْبُطْلَانِ ، وَالْكَلَامُ فِيهَا بِغَيْرِ عِلْمٍ عُرْضَةٌ لِضُرُوبٍ مِنَ الْخَطَأِ

اللَّفْظِيِّ ، وَتَكْرَارُهُ مَزَلَّةٌ فِي مَدَاحِضِ التَّعَارُضِ وَالِاخْتِلَافِ الْمَعْنَوِيِّ ، وَالتَّفَاوُتِ وَالْخَطَلِ

الْبَيَانِيِّ ، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ مَعَارِفِهِمْ وَمَا يَعْهَدُونَهُ بَيْنَهُمْ ، لَا كَأُمُورِ الْغَيْبِ فِي غَيْرِ عَالَمِهِمْ ، فَتَحَدِّيهِمْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِنْ جِنْسِهَا كَالتَّحَدِّي بِمُعَارَضَةِ مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ لِمَقَامَاتِ بَدِيعِ الزَّمَانِ وَأَمْثَالِهِمَا ، يُمْكِنُ لِأَهْلِ اللِّسَانِ أَنْ يَحْكُمُوا فِيهِ بِالتَّفَاضُلِ بَيْنَهُمَا فِي بَيَانِهِمَا وَحِكْمَتِهِمَا وَمَعَانِيهِمَا .

(234/374)

وَقَدْ جَاءَتْ أَخْبَارُ الْأَنْبِيَاءِ مُكَرَّرَةً فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ عَلَى دَرَجَاتٍ فِي قِلَّتِهَا وَكَثْرَتِهَا ، تَبْتَدِئُ بِالْآيَةِ وَالْآيَتَيْنِ وَالثَّلَاثِ لِبَعْضِ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ فِي بَعْضِ السُّوَرِ ، وَتَرْتَقِي فِي بَعْضِهَا إِلَى مُنْتَهَى جَمْعِ الْقِلَّةِ أَوْ تَزِيدُ قَلِيلًا ، كَمَا تَرَاهُ فِي (آلِ حم) مِنْ فُصِّلَتْ إِلَى الْأَحْقَافِ ، وَفِي أَثْنَاءِ سُوَرِ الْفُرْقَانِ وَ(ق) وَالذَّارِيَاتِ وَالنَّجْمِ ، وَفِي أَوَّلِ الْحَاقَّةِ وَالْفَجْرِ وَآخِرِ الْبُرُوجِ ، فَهَذِهِ سُوَرٌ تَزِيدُ عَلَى عَشْرٍ فِيهَا جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْإِعْجَازِ اللَّفْظِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْأَخْبَارُ فِيهَا عِبَرٌ لَا تَبْلُغُ أَنْ تَكُونَ قَصَصًا .

وَأَمَّا الْقِصَصُ فَقَدْ تَبْلُغُ فِي بَعْضِ سُوَرِهَا عَشَرَاتِ الْآيَاتِ كَيُونُسَ وَإِبْرَاهِيمَ وَالْحِجْرِ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْعَنْكَبُوتِ ، وَتُعَدُّ فِي بَعْضِهَا بِالصَّفَحَاتِ لَا بِالْآيَاتِ ، وَمِنْهَا مَا أَكْثَرُهُ فِي هَذِهِ

الْقِصَصِ كَالْأَعْرَافِ وَمَرْيَمَ وَالنَّمْلِ ، وَمِنْهَا مَا لَيْسَ فِيهِ مِنْ غَيْرِهَا إِلَّا خَاتِمَةٌ مُخْتَصَرَةٌ كَيُوسُفَ

(235/374)

وَطه وَالْأَنْبِيَاءِ وَالشُّعَرَاءِ وَالْقَصَصِ ، أَوْ فَاتِحَةٌ هِيَ بَرَاعَةُ مَطْلَعٍ وَخَاتِمَةٌ هِيَ بَرَاعَةُ مَقْطَعٍ ، كَهُودٍ وَالصَّافَّاتِ وَ (ص) وَفِي قِصَّةِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - سُورَةٌ فِي الْمُفَصَّلِ خَاصَّةٌ بِهِ وَبِقَوْمِهِ سُمِّيَتْ بِاسْمِهِ عَلَى تَكْرَارِهَا فِي السُّوَرِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَكَذَلِكَ سُورَةُ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - خَاصَّةٌ بِقِصَّتِهِ . كَمَا أَنَّ سُورَتَيْ طه وَالْقَصَصِ فِي قِصَّةِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَحْدَهَا ، عَلَى كَثْرَةِ تَكْرَارِهَا فِي غَيْرِهِمَا .

(236/374)

بَيْدَ أَنَّ التَّحَدِّيَ بِالسُّوَرِ الَّتِي فِيهَا الْقِصَصُ إِنَّمَا يُرَادُ بِهِ التَّحَدِّي بِهَا كُلِّهَا ، لَا بِالْقِصَصِ الَّتِي فِيهَا دُونَ غَيْرِهَا ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ فِي الْقُرْآنِ عَشْرُ سُوَرٍ وَلَا خَمْسٌ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ سِوَاهَا ، وَأَنَّ أَكْثَرَ السُّوَرِ الَّتِي فِيهَا الْقِصَصُ الْحَقِيقِيَّةُ وَسَطٌ بَيْنَ الطُّولِ وَالْمُفَصَّلِ ،

فَالْأُولَى مِنْهَا فِي الْمُصْحَفِ وَهِيَ الْأَعْرَافُ مِنَ السَّبْعِ الطِّوَالِ وَآيَاتُهَا 206 ، وَآيَاتُ الْقِصَصِ فِيهَا 112 آيَةً ، وَقَبْلَهَا قِصَّةُ النَّشْأَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَافْتِتَاحُهَا وَخِتَامُهَا فِي دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ ، وَبَعْدَهَا فِيهِ سُورَةُ يُونُسَ ، وَهِيَ 109 آيَاتٍ وَقَصَصُهَا 23 آيَةً ، وَتَتْلُوهَا سُورَةُ هُودٍ ، وَآيَاتُهَا 123 أَكْثَرُهَا فِي الْقَصَصِ ، وَهِيَ أَشْبَهُ السُّوَرِ بِهَا فِي فَاتِحَتِهَا وَخَاتِمَتِهَا وَتَحَدِّيهَا فِي إِبْطَالِ الِافْتِرَاءِ ، وَالْمَأْثُورُ أَنَّهَا نَزَلَتْ بَعْدَهَا مُتَمِّمَةً لَهَا كَمَا تَقَدَّمَ ، فَجُمْلَةُ مَا نَزَلَ قَبْلَ سُورَةِ هُودٍ مِنْ سُوَرِ الْقَصَصِ : الْأَعْرَافُ وَيُونُسُ وَمَرْيَمُ وَهِيَ 98 آيَةً ، وَطه وَهِيَ 135 وَالطَّوَاسِينُ : الشُّعَرَاءُ وَهِيَ 227 وَالنَّمْلُ وَهِيَ 93 وَالْقَصَصُ وَهِيَ 88 وَآيَاتُهُمَا أَطْوَلُ مِنْ آيَاتِ

الشُّعَرَاءِ وَنَزَلْنَ مُتَعَاقِبَاتٍ . وَيَلِيهِنَّ سُورَةُ الْقَمَرِ وَهِيَ 55 آيَةً وَسُورَةُ (ص) وَهِيَ 88 آيَةً وَقَدْ نَزَلَتَا مُتَعَاقِبَتَيْنِ بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ كُلُّهُ ، فَهَذِهِ تِسْعُ سُوَرٍ ، وَسُورَةُ هُودٍ هِيَ الْعَاشِرَةُ لَهُنَّ .

مَزَايَا قِصَصِ الْقُرْآنِ فِي إِعْجَازِ عِبَارَاتِهَا :

(237/374)

وَجَمِيعُ هَذِهِ السُّوَرِ تَخْتَلِفُ أَنَاظِيمُ سُوَرِهَا فِي أَوْزَانِهَا وَفَوَاصِلِهَا ، وَفِي أَسَالِيبِ الْكَلَامِ فِيهَا ، مَعَ اتِّفَاقِهَا وَتَشَابُهِهَا فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ الْبَيَانِيَّةِ ، فِي الْفَصْلِ وَالْوَصْلِ ، وَالْقَصْرِ

وَالْحَصْرِ ، وَمَوَاضِعِ حُرُوفِ الْعَطْفِ ، وَصِيَغِ الِاسْتِفْهَامِ وَالنَّفْيِ وَالشَّرْطِ ، وَالتَّعْرِيفِ وَالتَّنْكِيرِ ، وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ، وَدَرَجَاتِ التَّأْكِيدِ ، وَالْإِطْلَاقِ وَالتَّقْيِيدِ ، وَالْعُمُومِ وَالتَّخْصِيصِ ، وَالْإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ ، وَالْإِيجَازِ وَالتَّطْوِيلِ ، وَالْحَذْفِ وَالتَّكْرِيرِ ، وَفُنُونِ الْمَجَازِ وَالْكِنَايَةِ وَالتَّعْرِيضِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَلْوَانِ التَّعْبِيرِ ، كَالِالْتِفَاتِ وَالتَّضْمِينِ ، وَصِيَغِ الْأَفْعَالِ وَتَعْدِيَتِهَا ، وَالْقِرَاءَاتِ الَّتِي تَخْتَلِفُ مَعَانِيهَا ، فَإِنَّ لِعِبَارَاتِ الْقُرْآنِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ الدِّقَّةِ الْغَرِيبَةِ ، وَالْمَعَانِي الْعَجِيبَةِ ، مَا لَا يَقْرُبُ مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ بُلَغَاءِ الْبَشَرِ ، وَمِنْ شَأْنِ اخْتِلَافِ الْقِصَّةِ الْوَاحِدَةِ فِيهِ أَنْ تَتَعَارَضَ وَتَتَنَاقَضَ بِتَعَدُّدِ التَّكْرَارِ وَهِيَ مَحْفُوظَةٌ مِنْهُ ، وَقَدْ عَرَضْتُ لِنُكَتِ الِاخْتِلَافِ بَيْنَهَا فِي الْمُقَابَلَةِ الَّتِي أَوْرَدْتُهَا فِي قِصَصِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ مَعَ غَيْرِهَا .

(238/374)

ثُمَّ إِنَّكَ تَجِدُ لِكُلِّ لَوْنٍ مِنْ هَذِهِ الْأَلْوَانِ مِنَ التَّعْبِيرِ نَغَمًا خَاصًّا بِهِ فِي التَّرْتِيلِ ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا نَوْعًا جَدِيدًا مِنَ التَّأْثِيرِ ، فَاسْتَمِعْ لِمُرَتِّلٍ قِصَّةَ مُوسَى فِي سُورَةِ طه سَاعَةً (زَمَانِيَّةً لَا فَلَكِيَّةً) وَفِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ سَاعَةً ثَانِيَةً ، وَفِي سُورَةِ الْقَصَصِ بَعْدَهَا وَهِيَ الثَّالِثَةُ الْأُخْرَى ، وَتَأَمَّلْ مَا تَجِدُ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَهُنَّ فِي سَمْعِكَ ، مُتَدَبِّرًا مَا تَشْعُرُ بِهِ مِنَ الْخُشُوعِ وَالْعِبْرَةِ فِي قَلْبِكَ ،

وَالْقِصَّةُ وَاحِدَةٌ ، ثُمَّ جَرِّبْ هَذِهِ الْمُقَارَنَةَ فِي الْقِصَصِ الْمُتَعَدِّدَةِ مِنَ السُّوَرِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي النَّظْمِ وَالْأُسْلُوبِ ، كَهُودٍ وَالنَّمْلِ وَمَرْيَمَ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّافَّاتِ وَ(ص) وَالْقَمَرِ ، تَجِدُ الْعَجَبَ الْعُجَابَ ، وَلَا تَنْسَ أَنَّهَا جَاءَتْ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ لَمْ يَكُنْ مِنْ رِجَالِ الْبَيَانِ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ .

إِذَا فَطِنْتَ لِمَا ذُكِرَ كُلِّهِ ، بَدَا لَكَ أَنَّ عَجْزَ الْبَشَرِ عَنْ مُعَارَضَةِ هَذِهِ الْقِصَصِ فِي جُمْلَةِ سُوَرِهَا ، بِفَصَاحَتِهَا وَبَلَاغَتِهَا فِي كُلِّ أُسْلُوبٍ مِنْ أَسَالِيبِهَا ، وَكُلِّ نَظْمٍ مِنْ أَنَاظِيمِهَا ، لَا يَتَحَقَّقُ فِي سُورَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ ثِنْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ مِنْهَا ، وَهَأَنَذَا قَدْ ذَكَرْتُ لَكَ عَشْرًا مِنْهَا مُخْتَلِفَاتٍ مُتَّفِقَاتٍ مُتَشَابِهَاتٍ غَيْرَ مُشْتَبِهَاتٍ ، وَلَكِنْ حِكْمَةُ الْعَشْرِ إِنَّمَا تَظْهَرُ عَلَى أَكْمَلِهَا فِي الْإِعْجَازِ الْمَعْنَوِيِّ ، فَأَلْقِ السَّمْعَ إِلَى مَا أُلْقِيهِ إِلَيْكَ مِنْهَا .

مَزَايَا قِصَصِ الْقُرْآنِ فِي إِعْجَازِهَا الْعِلْمِيِّ :

(239/374)

إِنَّ وَرَاءَ هَذِهِ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ مِنَ الْإِعْجَازِ الصُّورِيِّ ، لَأَشِعَّةٌ مِنْ ضِيَاءِ الْعِلْمِ وَالْهُدَى وَالْإِعْجَازِ الْمَعْنَوِيِّ ، هِيَ أَظْهَرُ وَأَجْلَى ، وَأَدَقُّ وَأَخْفَى ، وَأَجَلُّ وَأَعْلَى ، وَمَجِيئُهَا عَلَى لِسَانِ كَهْلٍ أُمِّيٍّ لَمْ يَكُنْ مُنْشِئًا وَلَا رَاوِيَةً وَلَا حَافِظًا ، أَدَلُّ عَلَى كَوْنِهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ – تَعَالَى – ، فَتَأَمَّلْ مَا أَذْكُرُ بِهِ مِنْ مَزَايَاهَا الدِّينِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ وَغَيْرِهَا الْمُتَشَعِّبَةِ ، مِنْهَا :

(1) بَيَانُ أُصُولِ دِينِ اللهِ الْعَامَّةِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ الْمُرْسَلِينَ ، مِنَ الْإِيمَانِ بِوُجُودِهِ وَتَنْزِيهِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَعَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِهِ ، وَالْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ الْعَامَّةِ .

(2) بَيَانُ أَنَّ وَظِيفَةَ الرُّسُلِ تَبْلِيغُ وَحْيِ اللهِ – تَعَالَى – لِعِبَادِهِ ، وَأَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ فِيمَا وَرَاءَ التَّبْلِيغِ نَفْعًا لِلنَّاسِ – لَا دِينِيًّا كَالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى ، وَلَا دُنْيَوِيًّا كَالرِّزْقِ وَالصِّحَّةِ ، وَلَا كَشْفَ ضُرٍّ عَنْهُمْ كَذَلِكَ – فَقَدْ كَانَ أَبُو إِبْرَاهِيمَ وَابْنُ نُوحٍ وَامْرَأَتُهُ وَامْرَأَةُ لُوطٍ مِنَ الْكَافِرِينَ .

(240/374)

---

(3) شُبْهَةُ الْأَقْوَامِ عَلَى رُسُلِهِمْ بِأَنَّهُمْ بَشَرٌ ، وَأَنَّ آيَاتِهِمْ سِحْرٌ ، وَاقْتِرَاحُهُمْ عَلَيْهِمْ نُزُولَ الْمَلَائِكَةِ وَالْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ الْحِسِّيَّةِ ، وَرَدُّهُمْ بِأَنَّ آيَاتِهِمْ مِنْ فِعْلِ اللهِ – تَعَالَى – لَا مِنْ كَسْبِهِمْ بِقُدْرَتِهِمْ .

(4) بَيَانُهُمْ لِأَقْوَامِهِمْ أَنَّ هِدَايَةَ الدِّينِ سَبَبٌ لِزِيَادَةِ النِّعَمِ فِي الدُّنْيَا وَحِفْظِهَا ، كَمَا أَنَّهَا هِيَ الَّتِي تُنَالُ بِهَا سَعَادَةُ الْآخِرَةِ ، وَأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مِنْ كَسْبِهِمُ الِاخْتِيَارِيِّ .

(5) آيَاتُ اللهِ وَحُجَجُهُ عَلَى خَلْقِهِ فِي تَأْيِيدِ رُسُلِهِ ، وَطُرُقِ الْإِنْذَارِ وَالتَّحَدِّي ، وَمَا أَكْرَمَ

اللهُ بِهِ أَنْبِيَاءَهُ مِنَ الْخَوَارِقِ الْخَاصَّةِ كَالْأَوْلَادِ لِإِبْرَاهِيمَ وَزَكَرِيَّا وَمَرْيَمَ ، وَمَا ابْتَلَى اللهُ – تَعَالَى – بِهِ يُوسُفَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَمَا آتَاهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَتَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ (الرُّؤْيَا) وَمَا كَانَ مِنْ عَاقِبَةِ اصْطِفَائِهِ لَهُ ، وَمِنْ إِدَارَتِهِ لِمُلْكِ مِصْرَ ، وَقِصَّتِهِ مَعَ أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعِبْرَةِ وَالْمَوْعِظَةِ .

(6) نَصَائِحُ الْأَنْبِيَاءِ وَمَوَاعِظُهُمُ الْخَاصَّةُ بِكُلِّ قَوْمٍ بِحَسَبِ حَالِهِمْ كَقَوْمِ نُوحٍ فِي غَوَايَتِهِمْ وَغُرُورِهِمْ ، وَآلِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فِي ثَرْوَتِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ ، وَقَوْمِ لُوطٍ فِي فُحْشِهِمْ ، وَعَادٍ فِي قُوَّتِهِمْ وَبَطْشِهِمْ ، وَثَمُودَ فِي أَشَرِهِمْ وَبَطَرِهِمْ ، وَمَدْيَنَ فِي تَطْفِيفِهِمْ وَإِخْسَارِهِمْ لِمَكَايِيلِهِمْ وَمَوَازِينِهِمْ ، وَبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي تَمَرُّدِهِمْ وَجُمُودِهِمْ .

(241/374)

---

(7) بَيَانُ سُنَنِ اللهِ – تَعَالَى – فِي اسْتِعْدَادِ النَّاسِ النَّفْسِيِّ وَالْعَقْلِيِّ لِكُلٍّ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ ، وَاسْتِكْبَارِ الرُّؤَسَاءِ وَالزُّعَمَاءِ الْمُتْرَفِينَ وَالْمُقَلِّدِينَ لِلْآبَاءِ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْإِصْلَاحِ ، وَكَوْنِ أَوَّلِ مَنْ يَهْتَدِي بِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْفُقَرَاءَ ، وَفِي عَاقِبَةِ الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ ، وَالْبَغْيِ وَالظُّلْمِ وَالْفُسُوقِ .

(8) مَا فِي قِصَصِ الْأَقْوَامِ مِنَ الْمَسَائِلِ التَّارِيخِيَّةِ ، وَالْمَوْضِعِيَّةِ وَالْوَطَنِيَّةِ كَفِرْعَوْنَ وَحَالِ

قَوْمِهِ مَعَهُ فِي خُنُوعِهِمْ وَخُضُوعِهِمْ ، وَفُنُونِهِمْ وَسِحْرِهِمْ ، وَعُمْرَانِهِمْ وَعَظَمَةِ مُلْكِهِمْ ، وَحَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَهُ فِي اسْتِعْبَادِهِ إِيَّاهُمْ وَظُلْمِهِ لَهُمْ ، ثُمَّ فِي إِرْثِهِمُ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ بِصَبْرِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ ، ثُمَّ فِي سَلْبِهَا مِنْهُمْ بِكُفْرِهِمْ وَفَسَادِهِمْ ، وَحَالِ عَادٍ قَوْمِ هُودٍ فِي قُوَّتِهِمْ وَبَسْطَةِ خَلْقِهِمْ وَجَبَرُوتِهِمْ ، وَثَمُودَ قَوْمِ صَالِحٍ فِي اسْتِعْمَارِهِمُ الْأَرْضَ وَنَحْتِهِمُ الْجِبَالَ وَاتِّخَاذِهِمْ مِنْهَا بُيُوتًا حَصِينَةً أَمِينَةً ، وَمِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا جَمِيلَةً ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَكَوْنِ كُلِّ ذَلِكَ لَا يُغْنِي عَنْ هِدَايَةِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ فِي إِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ وَتَزْكِيَتِهَا وَإِعْدَادِهَا لِسَعَادَةِ الْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ ، وَلَمْ يَنْجُ أُولَئِكَ الْأَقْوِيَاءُ مِنْ عَذَابِ اللهِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَتَنْجِيَةِ رُسُلِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ وَاتَّبَعُوهُمْ .

(242/374)

---

(9) بَيَانُ سُنَنِ اللهِ – تَعَالَى – فِي الطِّبَاعِ وَالِاجْتِمَاعِ ، وَالتَّقْدِيرِ وَالتَّدْبِيرِ الْعَامِّ ، وَمَا فِي خَلْقِهِ لِلْعَالَمِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالنِّظَامِ ، وَالْعَدْلِ الْعَامِّ ، وَعَدَمِ مُحَابَاةِ الْأَفْرَادِ وَلَا الْأَقْوَامِ فِي نِعَمِ الدُّنْيَا وَنِقَمِهَا ، وَلَا فِي الْجَزَاءِ عَلَى الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي وَالْإِيمَانِ وَالطَّاعَاتِ فِي الْآخِرَةِ ; فَقَدْ كَانَ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يُصَرِّحُونَ بِكُلِّ ذَلِكَ . وَمِنْهُ أَنَّ أَحَدَهُمْ لَوْ عَصَى اللهَ لَعَذَّبَهُ وَلَمَا كَانَ لَهُ مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُهُ أَوْ يَمْنَعُهُ مِنْ عِقَابِهِ – تَعَالَى – خِلَافًا لِتَعَالِيمِ الْأَدْيَانِ الْوَثَنِيَّةِ الَّتِي

جَعَلَتِ الرُّؤَسَاءَ آلِهَةً أَوْ أَنْصَافَ آلِهَةٍ ، أَوْ وُكَلَاءَ لِلرَّبِّ فِي تَدْبِيرِ خَلْقِهِ وَتَقْسِيمِ رِزْقِهِ .

(10) الِاحْتِجَاجُ بِكُلِّ ذَلِكَ عَلَى قَوْمِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ثُمَّ عَلَى سَائِرِ مَنْ تَبْلُغُهُمْ دَعْوَتُهُ مِنْ حَقِّيَّةِ رِسَالَتِهِ ، وَكَوْنِ الْعَاقِبَةِ لَهُ وَلِمَنِ اتَّبَعَهُ .

(243/374)

فَقَدْ عُلِمَ مِنْ جُمْلَةِ هَذِهِ الْقِصَصِ فِي هَذِهِ السُّوَرِ ، أَنَّ هَؤُلَاءِ الرُّسُلَ كَانُوا خَيْرَ الْبَشَرِ ، وَأَهْدَاهُمْ إِلَى أَصَحِّ الْعَقَائِدِ وَأَكْمَلِ الْفَضَائِلِ وَأَصْلَحِ الْأَعْمَالِ ، وَأَنَّ آثَارَهُمْ فِي الْهُدَى كَانَتْ أَجَلَّ الْآثَارِ ، وَأَنَّهَا كَانَتْ أَفْضَلَ قُدْوَةٍ لِأَهْلِ الْأَرْضِ ، وَعُلِمَ مِنْهَا أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي هَذَا الْقُرْآنِ هُوَ عَيْنُ مَا جَاءُوا بِهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، إِلَّا أَنَّهُ أَتَمُّ وَأَكْمَلُ ، وَأَعَمُّ وَأَشْمَلُ ، فَإِنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ إِلَى نِهَايَةِ بَقَاءِ الْأَحْيَاءِ فِي هَذَا الْعَالَمِ .

وَكَانَتْ رِسَالَةُ كُلٍّ مِنْهُمْ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً .

(244/374)

فَإِنْ أَمْكَنَ أَنْ يَكُونَ هَذَا حَدِيثًا مُفْتَرًى فَإِنَّ مُفْتَرِيَهُ يَكُونُ أَكْمَلَ مِنْهُمْ كُلِّهِمْ عِلْمًا وَعَمَلًا وَهِدَايَةً وَإِصْلَاحًا ، سَوَاءٌ أَكَانُوا رُسُلًا مِنَ اللهِ - تَعَالَى - أَمْ لَا ، وَيَكُونُ أَجْدَرَ بِاتِّبَاعِ قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ لَهُ وَاهْتِدَائِهِمْ بِهَدْيِهِ ، وَلَنْ يَكْشِفَ حَقِيقَةَ أَمْرِهِ إلَّا مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ، وَلَوْ مُفْتَرًى فِي صُورَتِهِ وَمَوْضُوعِهِ ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إنْ كَانُوا صَادِقِينَ ، فَإِنَّ الِاحْتِذَاءَ وَالِاتِّبَاعَ أَهْوَنُ مِنَ الِابْتِدَاءِ وَالِابْتِدَاعِ ، إذَا كَانَ لَا يَتَجَاوَزُ الْقِيلَ وَالْقَالَ ، وَلَكِنَّ افْتِرَاءَ الْأُمِّيِّ لِهَذِهِ الْعُلُومِ الْإِلَهِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ وَالتَّشْرِيعِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ مُحَالٌ أَيُّ مُحَالٍ ، وَقَدْ عَجَزَ عَنْ مِثْلِهَا حُكَمَاءُ الْعُلَمَاءِ ، أَفَهَكَذَا يَكُونُ الِافْتِرَاءُ ، وَالْحَدِيثُ الْمُفْتَرَى الَّذِي يَنْهَى عَنْهُ الْعُقَلَاءَ حِرْصًا عَلَى الشِّرْكِ وَالْجَهْلِ الَّذِي كُنَّ عَلَيْهِ أُولَئِكَ السُّفَهَاءُ ؟ ! .

(245/374)

ثُمَّ إنَّكَ تَجِدُ هَذِهِ الْمَعَانِيَ أَوِ الْمَعَارِفَ الَّتِي أَجْمَلْتُهَا فِي عَشَرَةِ أَنْوَاعٍ كُلِّيَّةٍ (وَيُمْكِنُ تَفْصِيلُهَا وَالْمَزِيدُ عَلَيْهَا بِمَا قَدْ يَفْتَحُ اللهُ - تَعَالَى - عَلَى الْمُتَدَبِّرِينَ لِكِتَابِهِ) مُتَفَرِّقَةً فِي جَمِيعِ تِلْكَ الْقِصَصِ مِنْ تِلْكَ السُّوَرِ ، وَلَا نَجِدُ فِيهَا عَلَى تَكْرَارِهَا تَنَاقُضًا وَلَا تَعَارُضًا ، وَلَا فِي عِبَارَاتِهَا اخْتِلَافًا وَلَا تَفَاوُتًا ، عَلَى مَا فِيهَا مِنْ إيجَازٍ وَقَبْضٍ ، وَمُسَاوَاةٍ وَبَسْطٍ ، وَهَذَا مِمَّا يَعْجِزُ عَنْهُ الْبَشَرُ أَيْضًا وَلَا يَتَحَقَّقُ إلَّا بِالتَّعَدُّدِ ، وَإِذَا كَانَتْ لَا تُوجَدُ كُلُّهَا مُجْتَمِعَةً فِي سُورَةٍ

وَلَا سُورَتَيْنِ وَلَا ثَلَاثٍ مِمَّا ذَكَرْنَا فَأَحْرَى بِمَنْ يَدَّعِي أَنَّهَا مِنْ عِلْمِ الْبَشَرِ وَكَلَامِهِمْ أَنْ يُفْسِحَ لَهُ فِي التَّحَدِّي بِأَنْ يَأْتِيَ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهَا ، تَشْتَمِلُ عَلَى هَذِهِ الْمَزَايَا كُلِّهَا ; فَالتَّحَدِّي بِهَذِهِ السُّوَرِ تَوْسِيعٌ عَلَى الْمُنْكِرِينَ إنْ تَصَدَّوْا لِمُعَارَضَتِهَا لَا تَضْيِيقٌ

(246/374)

عَلَيْهِمْ ، كَمَا زَعَمَ مَنْ لَمْ يَفْقَهْ مَا قَرَّرْتُهُ ; لِزَعْمِهِمْ أَنَّ إعْجَازَ الْقُرْآنِ إنَّمَا هُوَ بِبَلَاغَتِهِ الَّتِي فَسَّرُوهَا بِمُطَابَقَةِ الْكَلَامِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَقَطْ ، وَلَوْ صَحَّ هَذَا الزَّعْمُ هُنَا لَمَا كَانَ لِلتَّحَدِّي بِالْعَشْرِ بَعْدَ الْوَاحِدَةِ وَجْهٌ ، بَلْ لَكَانَ مُشْكِلًا مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ ; لِأَنَّهُ يَكُونُ مِنْ قَبِيلِ التَّجْرِبَةِ مِنْ غَيْرِ الْعَالِمِ بِعَجْزِهِمْ عَنْ سُورَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَضْلًا عَنْ كَوْنِهِ لَمْ يَضْرِبْ لَهُ أَجَلًا ، وَلَمْ يَنْقُلْ أَنَّهُ كَانَ لَهُ أَجَلٌ عُلِمَ بِالْفِعْلِ ، وَلَا يَرِدُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا عَلَى قَوْلِنَا ; فَإِنَّ مَثَلَهُ كَمَثَلِ مَنْ يُكَلِّفُ شَاعِرًا أَنْ يَنْظِمَ قِصَصًا مُخْتَلِفَةً بِقَصِيدَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَمَنْ يُوَسِّعُ عَلَيْهِ بِتَكْلِيفِهِ أَنْ يَنْظِمَهَا بِعِدَّةِ قَصَائِدَ مُخْتَلِفَةِ الرَّوِيِّ وَالْقَوَافِي . وَإِنِّي لَأَعْجَبُ لِدَهَاقِي الْبَلَاغَةِ الْفَنِّيَّةِ كَيْفَ سَكَتُوا عَنْ حِكْمَةِ هَذَا الْعَدَدِ إلَّا قَوْلَ بَعْضِهِمْ إنَّهُ انْتِهَاءٌ إلَى آخِرِ جَمْعِ الْقِلَّةِ ؟ .

(247/374)

وَإِنِّي أَجْزِمُ هُنَا - بَعْدَ التَّأَمُّلِ فِي جَمِيعِ آيَاتِ التَّحَدِّي وَتَارِيخِ نُزُولِ سُوَرِهَا - أَنَّهَا لَمْ يَكُنْ مُرَاعًى بِهَا التَّرْتِيبُ التَّارِيخِيُّ فِي مُخَاطَبَةِ الْمُشْرِكِينَ كَمَا زَعَمَ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ ، بَلْ ذُكِرَ كُلٌّ مِنْهَا بِمُنَاسَبَةِ سِيَاقِ سُورَتِهِ ، فَسُورَةُ الطُّورِ الَّتِي فِيهَا : (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ) (52 : 33 و34) وَهُوَ تَحَدٍّ بِجُمْلَتِهِ ، قَدْ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَتَيْ يُونُسَ وَهُودٍ اللَّتَيْنِ تَحَدَّاهُمْ فِيهَا بِالْعَشْرِ بَعْدَ الْوَاحِدَةِ . وَسُورَةُ الْإِسْرَاءِ نَزَلَتْ قَبْلَهُنَّ ، وَفِيهَا ذِكْرُ عَجْزِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ (17 : 88) وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ تَحَدِّيًا ، وَكَانَ آخِرَ مَا نَزَلَ فِي التَّحَدِّي آيَةُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (2 : 23) وَهُوَ تَحَدٍّ لِلْمُرْتَابِينَ فِيمَا نَزَّلَهُ اللهُ عَلَى عَبْدِهِ بِأَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ; إِذْ كَانَ نُزُولُهَا فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِلْهِجْرَةِ .

(248/374)

الْخُلَاصَةُ أَنَّ مُشْرِكِي مَكَّةَ الْمُعَانِدِينَ لَمْ يَجِدُوا شُبْهَةً عَلَى الْقُرْآنِ - بَعْدَ شُبْهَةِ السِّحْرِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي لَمْ تَلْقَ رَوَاجًا عِنْدَ الْعَرَبِ ; لِأَنَّهُ كَلَامٌ بِلُغَتِهِمْ عَرَفُوهُ وَعَقَلُوهُ وَأَدْرَكُوا عُلُوَّهُ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ - إِلَّا زَعْمَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدِ افْتَرَاهُ فِي جُمْلَتِهِ ، وَمَا هُوَ وَحْيٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ - تَعَالَى - ، فَتَحَدَّاهُمْ بِالْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ بِالْإِجْمَالِ ، وَبِسُورَةٍ مِثْلِهِ فِي

جُمْلَةِ مَزَايَاهُ مِنْ نَظْمِهِ وَأُسْلُوبِهِ ، وَبَلَاغَتِهِ وَعُلُومِهِ ، وَتَأْثِيرِ هِدَايَتِهِ ، وَسُلْطَانِهِ الْإِلَهِيِّ عَلَى الْأَرْوَاحِ وَالْعُقُولِ فَعَجَزُوا ، وَبَقِيَتْ لَهُمْ شُبْهَةٌ عَلَيْهِ فِي قِصَصِهِ ; إِذِ ادَّعَى أَنَّهَا مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، فَزَعَمُوا أَنَّهُ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ،

(249/374)

وَأَنَّهُ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا لِنَفْسِهِ فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ وَيُلَقِّنُهَا لِئَلَّا يَنْسَاهَا ، وَهَذِهِ شُبْهَةٌ خَاصَّةٌ مُوَجَّهَةٌ إِلَى قِصَصِهِ الْمُتَفَرِّقَةِ فِي سُوَرِهِ الْكَثِيرَةِ ، لَا يَدْحَضُهَا عَجْزُهُمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلِهِ فِي بَلَاغَتِهَا الَّتِي حَصَرُوا الْإِعْجَازَ فِيهَا ، وَلَا إِبْدَاعُ نَظْمِهَا وَلَا طَرَافَةُ أُسْلُوبِهَا أَيْضًا ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ قَصِيرَةً ، فَتَحَدَّاهُمْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ، أَيْ مِثْلِ هَذِهِ الْقِصَصِ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ مِثْلَهَا إِذَا كَانَتْ جَامِعَةً لِمَزَايَاهَا الْمَعْنَوِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي بَيَّنَّا أَظْهَرَهَا فِي الْجُمَلِ الْعَشْرِ آنِفًا .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ التَّحَدِّيَ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ قَدْ كَانَ لِإِبْطَالِ هَذِهِ التُّهْمَةِ الْخَاصَّةِ مِنَ الِافْتِرَاءِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا مَعْنَاهَا ، وَالسُّوَرُ الْمُفَصَّلَةُ فِيهَا الَّتِي تَمَّتْ عَشْرًا بِهَذِهِ السُّورَةِ (هُودٍ) وَكَلَّفَهُمْ دَعْوَةَ مَنِ اسْتَطَاعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ - تَعَالَى - لِيُظَاهِرُوهُمْ فَعَجَزُوا ، وَلَمْ يَجِدُوا مِنْ آلِهَتِهِمْ وَلَا مِنْ فُصَحَائِهِمْ وَلَا مِنْ أَعْدَاءِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ

يَسْتَجِيبُ لَهُمْ ، فَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَعَلَى غَيْرِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَهَذِهِ حِكْمَةُ هَذَا التَّحَدِّي الظَّاهِرَةُ هُنَا .

(250/374)

وَلَهُ حِكْمَةٌ أُخْرَى بَاطِنَةٌ لَازِمَةٌ لِلْأُولَى هِيَ الَّتِي تَمَّتْ بِهَا الْفَائِدَةُ ، وَهِيَ أَنَّهُ يُوَجِّهُ الْأَنْظَارَ وَيَشْغَلُ الْأَفْكَارَ بِالتَّأَمُّلِ فِي الْقُرْآنِ ، وَتَدَبُّرِ مَا حَوَاهُ مِنْ حِكْمَةٍ وَعِرْفَانٍ ، وَمَا لَهَا فِي الْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ مِنْ تَأْثِيرٍ وَسُلْطَانٍ ، فَيَا حَسْرَةً عَلَى الْغَافِلِينَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ إِعْجَازَهَا مَحْصُورٌ فِي فَصَاحَةِ الْمُفْرَدَاتِ وَالْجُمَلِ وَبَلَاغَةِ الْبَيَانِ ، عَلَى مَا فِي دَلَالَةِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ عَلَى النُّبُوَّةِ

مِنَ الْخِلَافِ عَلَى الْأَفْكَارِ وَالْأَذْهَانِ ، وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُتَكَلِّمُونَ فِي وَجْهِ دَلَالَةِ الْمُعْجِزَةِ عَلَى الرِّسَالَةِ ، وَقَالَ الْغَزَّالِيُّ : إِنَّهُ لَا عَلَاقَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ إِبْرَاءِ الْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ ، أَوِ انْقِلَابِ الْعَصَا حَيَّةً ، وَدَلَالَةُ الْقُرْآنِ بِبَلَاغَتِهِ مِثْلُهَا بِخِلَافِ دَلَالَتِهِ الْعِلْمِيَّةِ ، فَإِنَّهَا عَقْلِيَّةٌ كَدَلَالَةِ مُدَّعِي عِلْمِ الطِّبِّ عَلَى عِلْمِهِ بِكِتَابٍ أَلَّفَهُ فِيهِ يُعَالِجُ بِهِ الْمَرْضَى فَيَبْرَءُونَ . فَالْبَلَاغَةُ تَكُونُ بِالسَّلِيقَةِ ، وَلَكِنْ لَا تَظْهَرُ فَجْأَةً وَكَامِلَةً فِي سِنِّ الْكُهُولَةِ ، وَالْعِلْمُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالتَّعَلُّمِ قَبْلَ هَذِهِ السِّنِّ ،

وَعِلْمُ الْغَيْبِ خَاصٌّ بِاللهِ - تَعَالَى - ، فَثَبَتَ بِهَذَا أَنَّ عِلْمَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَحْيٌ بَرَزَ بِكَلَامٍ مُعْجِزٍ لِلْخَلْقِ .

(251/374)

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي آتَى هَذَا الْعَبْدَ الضَّعِيفَ الْمُتَأَخِّرَ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَالْفَهْمِ فِي كِتَابِهِ مَا لَمْ يُؤْتِ أُولَئِكَ الْجَهَابِذَةَ الْأَقْوِيَاءَ مِنْ أَئِمَّةِ الْعِلْمِ وَفُرْسَانِ الْكَلَامِ ، إثْبَاتًا لِمَا وَصَفَ بِهِ مِنْ كَوْنِهِ لَا تَنْتَهِي عَجَائِبُهُ ، وَلَا يُحِيطُ

أَحَدٌ بِهِ عِلْمًا ، وَأَنَّ فَضْلَهُ عَلَى عِبَادِهِ لَا يَنْحَصِرُ فِي زَمَانٍ وَلَا مَكَانٍ .

وَيُؤَيِّدُ مَا اخْتَرْتُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي تَقْرِيرِ هَذَا الِاحْتِجَاجِ مِنْ أَنَّ الْعَجْزَ عَنِ الْمُعَارَضَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ مِنَ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ قَوْلُهُ - تَعَالَى - :

(252/374)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ) فِي هَذَا الْخِطَابِ وَجْهَانِ صَحِيحَانِ : (الْوَجْهُ الْأَوَّلُ) أَنَّهُ تَتِمَّةٌ لِمَا أُمِرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَتَحَدَّى بِهِ الْمُشْرِكِينَ ، فَهُوَ يَقُولُ لَهُمْ : فَإِنْ لَمْ

يَسْتَجِبْ لَكُمْ مَنْ تَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لِيُظَاهِرُوكُمْ عَلَى الْإِتْيَانِ بِالْعَشْرِ السُّوَرِ الْمُمَاثِلَةِ لِسُوَرِ الْقُرْآنِ ، مِنْ آلِهَتِكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ وَتَعْبُدُونَ ، وَهَوَاجِسِكُمُ الَّذِينَ يُلَقِّنُونَكُمُ الشِّعْرَ كَمَا تَزْعُمُونَ ، وَقُرَنَائِكُمْ مِنْ فُحُولِ الشُّعَرَاءِ وَمَصَاقِعِ الْخُطَبَاءِ ، وَمِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ الْعَارِفِينَ بِأَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ ؛ لِعَجْزِ الْجَمِيعِ عَنْ ذَلِكَ (فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ) أَيْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِمُقْتَضَى عِلْمِ اللهِ ، مُلَابِسًا لَهُ ، مُبَيِّنًا لِمَا أَرَادَ أَنْ يُبَلِّغَهُ لِعِبَادِهِ مِنْ دِينِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ ، لَا بِعِلْمِ مُحَمَّدٍ وَلَا غَيْرِهِ مِمَّنْ تَدَّعُونَ زُورًا أَنَّهُمْ أَعَانُوهُ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ فِي جُمْلَتِهِ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا مَنْ أَعْلَمَهُ اللهُ - تَعَالَى - بِهِ ، كَمَا قَالَ : (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ) (7 : 7) وَكَمَا تَرَاهُ فِي آخِرِ قِصَّةِ نُوحٍ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ هُودٍ (الْآيَةَ 49) وَمِثْلُهَا فِي آخِرِ سُورَةِ يُوسُفَ (12 : 102) وَمِثْلُهُمَا فِي سُورَةِ الْقَصَصِ (28 : 44 - 46) وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى بَعْدَ ذَلِكَ : (لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ

(253/374)

يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا) (4 : 166) وَقَالَ : (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) (72 : 26 و27) إِلَخْ . وَمَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ الْكَسْبِيِّ لَمْ يَكْسِبْ

مِنْهُ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – شَيْئًا .

الِاسْتِجَابَةُ لِلدَّاعِي إلَى الشَّيْءِ كَإِجَابَتِهِ إلَيْهِ ، وَعَدَمُ الِاسْتِجَابَةِ لَهُمْ دَاحِضَةٌ لِدَعْوَاهُمْ ، مُثْبِتَةٌ لِكَوْنِ هَذِهِ الْعُلُومِ الَّتِي فِيهِ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ لَا مِنْ عِلْمِ الْبَشَرِ ، وَهُوَ صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْمُرَادَ إنَّمَا هُوَ

التَّحَدِّي بِمَا فِي هَذِهِ السُّوَرِ مِنَ الْعِلْمِ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي دَحَضَ دَعْوَاهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا افْتَرَاهَا وَ (أَنَّمَا) الْمَفْتُوحَةُ الْهَمْزَةِ تَدُلُّ عَلَى الْحَصْرِ كَالْمَكْسُورَةِ عَلَى التَّحْقِيقِ (وَأَنْ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ) أَيْ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إلَهَ يُعْبَدُ بِالْحَقِّ إلَّا هُوَ ؛ لِأَنَّ مِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِ أَنْ يَعْلَمَ مَا لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ ، وَأَنْ يَعْجِزَ كُلُّ مَنْ عَدَاهُ عَنْ مِثْلِ مَا يَقْدِرُ هُوَ عَلَيْهِ ، كَمَا ظَهَرَ بِهَذَا التَّحَدِّي عَجْزُكُمْ وَعَجْزُ آلِهَتِكُمْ وَغَيْرِهِمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِعَشْرِ

(254/374)

سُوَرٍ مِثْلِ سُوَرِ كِتَابِهِ بِالتَّفْصِيلِ ، وَعَنْ سُورَةٍ وَاحِدَةٍ بِالْإِجْمَالِ (فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) أَيْ فَهَلْ أَنْتُمْ بَعْدَ قِيَامِ هَذِهِ الْحُجَّةِ عَلَيْكُمْ دَاخِلُونَ فِي الْإِسْلَامِ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إلَيْهِ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، مُؤْمِنُونَ بِعَقَائِدِهِ وَحَقِّيَّةِ أَخْبَارِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ، مُذْعِنُونَ لِأَحْكَامِهِ ؟ أَيْ لَمْ يَبْقَ لَكُمْ مَحِيصٌ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالِانْقِيَادِ ، وَقَدْ دُحِضَتْ شُبْهَتُكُمْ . وَانْقَطَعَتْ مَعَاذِيرُكُمْ ، إلَّا جُحُودَ

الْعِنَادِ وَإِعْرَاضَ الِاسْتِكْبَارِ ، فَهَذَا الِاسْتِفْهَامُ يَتَضَمَّنُ طَلَبَ الْإِسْلَامِ وَالْإِذْعَانِ بِأَبْلَغِ عِبَارَةٍ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ بَعْدَ وَصْفِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ بِأَنَّهَا رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، لَا يُرِيدُ إلَّا إيقَاعَ الشِّقَاقِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَصَدَّهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، وَبَعْدَ هَذَا كُلِّهِ قَالَ : (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) (5 : 91) أَيْ عَنْهُمَا بَعْدَ عِلْمِكُمْ بِهَذَا الرِّجْسِ وَالْمَخَازِي الَّتِي فِيهَا أَمْ لَا ؟ وَأَيُّ إنْسَانٍ يَمْلِكُ مَسْكَةً مِنْ عَقْلٍ وَشَرَفٍ لَا يَقُولُ عِنْدَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ هُودٍ : أَسْلَمْنَا أَسْلَمْنَا ، كَمَا قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عِنْدَ نُزُولِ تِلْكَ الْآيَةِ : انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا ؟ . (الْوَجْهُ الثَّانِي فِي الْآيَةِ) أَنَّ الْخِطَابَ فِيهَا لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَجَمَعَ الضَّمِيرَ فِي لَكُمْ لِلتَّعْظِيمِ ، بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ خَاصٍّ بِضَمِيرِ

(255/374)

الْمُتَكَلِّمِ ، أَوْ لَهُ وَلِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، إذْ كَانُوا كُلُّهُمْ دُعَاةً إلَى الْإِسْلَامِ مَعَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقِيلَ : إنَّهُ لَهُمْ وَحْدَهُمْ ، وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنْ مُجَاهِدٍ . وَالْمَعْنَى : فَإِنْ لَمْ يُجِبْكُمْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ إلَى مَا تَحَدَّيْتُمُوهُمْ بِهِ مِنَ الْإِتْيَانِ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ وَلَوْ مُفْتَرَيَاتٍ لَا يَتَقَيَّدُونَ بِكَوْنِ أَخْبَارِهَا حَقًّا كَأَخْبَارِ الْقُرْآنِ - وَمَا هُمْ

بِمُسْتَجِيبِينَ لَكُمْ لِعَجْزِهِمْ وَعَجْزِ مَنْ عَسَى أَنْ يَدْعُوَهُمْ لِمُظَاهَرَتِهِمْ عَلَيْهِ - فَاثْبُتُوا عَلَى عِلْمِكُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ ، وَازْدَادُوا بِهِ إِيمَانًا وَيَقِينًا بِهَذِهِ الْحُجَّةِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ ، فَهَلْ أَنْتُمْ ثَابِتُونَ عَلَى إِسْلَامِكُمْ وَالْإِخْلَاصِ فِيهِ ؟ أَيِ اثْبُتُوا عَلَيْهِ ، وَالْوَجْهُ الْأَوَّلُ أَظْهَرُ وَأَقْوَى ، وَعَلَيْهِ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ ، وَأَشَارَ إِلَى ضَعْفِ الثَّانِي ، وَلَكِنْ رَجَّحَهُ كَثِيرُونَ ، وَالْحَقُّ أَنَّهُ صَحِيحٌ وَلَكِنَّهُ خِلَافُ الظَّاهِرِ الْمُتَبَادِرِ .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ

(256/374)

بَعْدَ أَنْ قَامَتِ الْحُجَّةُ الْقَطْعِيَّةُ عَلَى إِعْجَازِ الْقُرْآنِ ، وَحَقِّيَّةِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ ، بِمَا يَقْطَعُ أَلْسِنَةَ الْمُفْتَرِينَ وَيُبْطِلُ مَعَاذِيرَهُمْ ، بَيَّنَ لَهُمْ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الصَّارِفَ النَّفْسِيَّ لَهُمْ عَنْهُ وَكَوْنَهُ شَرًّا لَهُمْ لَا خَيْرًا ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا حَظَّ لَهُمْ مِنْ حَيَاتِهِمْ إِلَّا شَهَوَاتُ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ، وَالْإِسْلَامُ يَدْعُوهُمْ إِلَى إِيثَارِ الْآخِرَةِ عَلَى الْأُولَى ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(257/374)

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا) أَيْ مَنْ كَانَ كُلُّ حَظِّهِ مِنْ وُجُودِهِ التَّمَتُّعَ بِلَذَّاتِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْأُولَى، الَّتِي هِيَ أَدْنَى الْحَيَاتَيْنِ اللَّتَيْنِ خُلِقَ لَهُمَا وَهِيَ: الطَّعَامُ، وَالشَّرَابُ، وَالْوِقَاعُ، وَزِينَتُهَا مِنَ اللِّبَاسِ، وَالْأَثَاثِ، وَالرِّيَاشِ، وَالْأَوْلَادِ، وَالْأَمْوَالِ، لَا يُرِيدُ مَعَ ذَلِكَ اسْتِعْدَادًا لِلْحَيَاةِ الْآخِرَةِ وَلِقَاءِ اللهِ - تَعَالَى - بِالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ، وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ بِبَاعِثِ الْإِيمَانِ (نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا) أَيْ نُؤَدِّ إِلَيْهِمْ ثَمَرَاتِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا، وَافِيَةً تَامَّةً بِحَسَبِ سُنَّتِنَا فِي الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ وَنِظَامِ الْأَقْدَارِ، وَقَدْ فَصَّلْنَا هَذَا الْمَعْنَى فِي التَّفْسِيرِ مِرَارًا (وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ) وَهُمْ لَا يُنْقَصُونَ فِيهَا شَيْئًا مِنْ نَتَائِجِ كَسْبِهِمْ لِأَجْلِ كُفْرِهِمْ، فَإِنَّ مَدَارَ الْأَرْزَاقِ فِيهَا عَلَى الْأَعْمَالِ السَّبَبِيَّةِ، لَا عَلَى النِّيَّاتِ وَالْمَقَاصِدِ الدِّينِيَّةِ، وَلَكِنْ لِهِدَايَةِ الدِّينِ تَأْثِيرًا فِيهَا مِنْ نَاحِيَةِ: الْأَمَانَةِ، وَالِاسْتِقَامَةِ، وَالصِّدْقِ، وَالنُّصْحِ، وَاجْتِنَابِ الْخِيَانَةِ وَالزُّورِ وَالْغِشِّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصَّبْرِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلِأَهْلِهَا الْعَاقِبَةُ الْحَسَنَةُ فِيهَا، وَكَرَّرَ لَفْظَ (فِيهَا) لِلتَّأْكِيدِ وَالْإِعْلَامِ بِأَنَّ الْآخِرَةَ لَيْسَتْ كَالدُّنْيَا فِي وَفَاءِ كَيْلِ الْجَزَاءِ وَفِي بَخْسِهِ، فَإِنَّهُ فِيهَا مَنُوطٌ بِأَمْرَيْنِ: كَسْبِ الْإِنْسَانِ، وَنِظَامِ الْأَقْدَارِ، وَقَدْ

يَتَعَارَضَانِ ، وَأَمَّا جَزَاءُ الْآخِرَةِ فَهُوَ بِفِعْلِ اللهِ - تَعَالَى - مُبَاشَرَةً : (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) (18 : 49) .

(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إلَّا النَّارُ) أَيْ أُولَئِكَ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذُكِرَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إلَّا دَارُ الْعَذَابِ الْمُسَمَّاةُ بِالنَّارِ ؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ فِيهَا كَالْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْأَعْمَالِ ، وَهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا لِنَعِيمِ الْآخِرَةِ شَيْئًا ؛ فَإِنَّ الْعَمَلَ لَهَا إنَّمَا هُوَ تَزْكِيَةُ النَّفْسِ بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى الَّتِي هِيَ اجْتِنَابُ الْمَعَاصِي وَالرَّذَائِلِ ، وَأَعْمَالُ الْبِرِّ وَالْفَضَائِلِ (وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا) وَفَسَدَ مَا صَنَعُوا مِمَّا ظَاهِرُهُ الْبِرُّ وَالْإِحْسَانُ كَالصَّدَقَةِ وَصِلَةِ

(259/374)

الرَّحِمِ ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ تَأْثِيرٌ فِي تَزْكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ وَالْقُرْبَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ؛ لِأَنَّهُ إنَّمَا كَانَ لِأَغْرَاضٍ نَفْسِيَّةٍ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا كَالرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ ، وَالِاعْتِزَازِ بِأُولِي الْقُرْبَى عَلَى الْأَعْدَاءِ وَلَوْ بِالْبَاطِلِ ، فَهُوَ كَالْحَبَطِ ؛ وَهُوَ بِالتَّحْرِيكِ أَنْ تُكْثِرَ الْأَنْعَامُ مِنْ بَعْضِ الْمَرَاعِي الَّتِي تَسْتَطِيبُهَا حَتَّى تَنْتَفِخَ وَتَفْسُدَ أَحْشَاؤُهَا ، فَظَاهِرُ كَثْرَةِ الْأَكْلِ أَنَّهُ سَبَبٌ لِلْقُوَّةِ فَكَانَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ سَبَبًا لِلضَّعْفِ ، كَذَلِكَ مَا ظَاهِرُهُ الْبِرُّ وَالْإِحْسَانُ مِنْ أَعْمَالِ النَّاسِ إذَا كَانَ الْبَاعِثُ عَلَيْهِ سُوءَ النِّيَّةِ مِمَّا ذَكَرْنَا (وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أَيْ وَبَاطِلٌ فِي نَفْسِهِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ فِي الدُّنْيَا ؛ لِأَنَّهُ لَا ثَمَرَةَ لَهُ

وَلَا أَجْرَ فِي الْآخِرَةِ ، وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِمَقَاصِدِهَا ، وَالنَّتَائِجُ تَابِعَةٌ لِمُقَدِّمَاتِهَا ، فَإِنْ كَانَ فِي عَمَلِهِمْ خَيْرٌ وَنِيَّةٌ حَسَنَةٌ يُجَازَوْنَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا .

(260/374)

قَالَ - تَعَالَى - فِي تَفْصِيلِ هَذَا الْإِجْمَالِ : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) (17 : 18 - 21) وَقَالَ مُعَلِّمُ الْخَيْرِ الْأَعْظَمِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (إنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى . فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إلَى مَا هَاجَرَ إلَيْهِ) . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ مِنْ صَحِيحِهِ مُخْتَلِفَةِ الْأَلْفَاظِ ، وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(261/374)

الدِّينُ يُبِيحُ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ غَيْرِ الضَّارَّةِ ، وَيُبِيحُ الزِّينَةَ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا خُيَلَاءَ ، وَإِنَّمَا يَذُمُّ مَنْ يَحْتَقِرُ الْمَوَاهِبَ الْإِنْسَانِيَّةَ مِنْ عَقْلِيَّةٍ وَرُوحَانِيَّةٍ ، فَيَجْعَلُ كُلَّ هَمِّهِ وَحَظِّهِ مِنْ وُجُودِهِ فِي الشَّهَوَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي تَفْضُلُهُ بِهَا الْأَنْعَامُ وَالْحَشَرَاتُ ، فَيَفْضُلُهُ الثَّوْرُ فِي كَثْرَةِ الْأَكْلِ ، وَالْبَعِيرُ فِي كَثْرَةِ الشُّرْبِ ، وَالْعُصْفُورُ فِي كَثْرَةِ السِّفَادِ ، وَالطَّاوُسُ فِي زِينَةِ الْأَلْوَانِ وَلَمَعَانِ اللِّبَاسِ . وَمَنِ اخْتَبَرَ أَهْلَ أَمْصَارِنَا فِي هَذَا الْعَصْرِ ، عَلِمَ مِنْ إِسْرَافِهِمْ فِي هَذِهِ الشَّهَوَاتِ وَالزِّينَةِ مَا هُوَ مُفْسِدٌ لِصِحَّتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ حَتَّى نِسَائِهِمْ وَأَطْفَالِهِمْ ، وَمَاحِقٌ لِثَرْوَتِهِمْ ، وَمُضْعِفٌ لِأُمَّتِهِمْ وَدَوْلَتِهِمْ ، وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا إِضَاعَةُ آخِرَتِهِمْ ، وَتَرَى مَعَ هَذَا أَنَّ حُكُومَتَهُمْ

وَمَدَارِسَهُمْ لَا تُقِيمُ لِلتَّرْبِيَةِ الدِّينِيَّةِ وَزْنًا ، وَتَجْعَلُ الصَّلَاةَ الَّتِي هِيَ عِمَادُ الدِّينِ اخْتِيَارِيَّةً لَا يُلْزِمُهَا أَحَدٌ مِنْ مُعَلِّمِيهَا وَلَا مِنْ تَلَامِيذِهَا .

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنْ تَخْتَلِفَ الرِّوَايَاتُ فِي الْآيَتَيْنِ ، هَلْ نَزَلَتَا فِي الْمُشْرِكِينَ أَمْ فِي كُفَّارِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَمْ فِي الْمُنَافِقِينَ ، وَمَا نَزَلَتَا مُنْفَرِدَتَيْنِ فِي طَائِفَةٍ خَاصَّةٍ ، بَلْ فِي ضِمْنِ سُورَةٍ مَكِّيَّةٍ حَيْثُ لَا مُنَافِقُونَ وَلَا أَهْلُ كِتَابٍ ، وَمَوْضُوعُهُمَا عَامٌّ فِيمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ وَلَا يَعْمَلُونَ لِأَجْلِهَا

. انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 26 . 42 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾

استئناف اعتراضي بين الجملتين ناشىء عن جملة ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ [هود : 14] لأنّ تلك الجملة تفرّعت على نهوض الحجة فإن كانوا طالبين الحق والفوز فقد استتبّ لهم ما يقتضي تمكن الإسلام من نفوسهم ، وإن كانوا إنّما يطلبون الكبرياء والسيادة في الدنيا ويأنفون من أن يكونوا تبعاً لغيرهم فهم مريدون الدنيا فلذلك حذّرُوا من أن يغتروا بالمتاع العاجل وأعْلِموا بأنّ وراء ذلك العذابَ الدائم وأنّهم على الباطل ، فالمقصود من هذا الكلام هو الجملة الثانية ، أعني جملة ﴿ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النّار ﴾ الخ . . .

وما قبل ذلك تمهيد وتنبيه على بوارق الغرور ومزالق الذهول .

ولمّا كان ذلك هو حالهم كان في هذا الاعتراض زيادة بيان لأسباب مكابرتهم وبعدهم عن الإيمان ، وفيه تنبيه المسلمين بأن لا يغتروا بظاهر حسن حال الكافرين في الدنيا ، وأن لا يحسبوا أيضاً أنّ الكفر يوجب تعجيل العذاب فأوقظوا من هذا التوهم ، كما قال تعالى : ﴿ لا يغرنّك تقلّب الذين كفروا في البلاد متاعٌ قليلٌ ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ [آل

عمران : 196 ، 197] .

وفعل الشرط في المقام الخطابي يفيد اقتصار الفاعل على ذلك الفعل ، فالمعنى من كان يريد الحياة الدنيا فقط بقرينة قوله : ﴿ أولئك الذين ليس لَهمْ في الآخرة إلاّ النّار ﴾ إذ حصر أمرهم في استحقاق النار وهو معنى الخلود .

ونظير هذه الآية ﴿ من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ [الإسراء : 18 ، 19] .

فالمعنى من كان لا يطلب إلاّ منافع الحياة وزينتها .

(263/374)

وهذا لا يصدر إلاّ عن الكافرين لأنّ المؤمن لا يخلو من إرادة خير الآخرة وما آمن إلاّ لذلك ، فموْرد هذه الآيات ونظائرها في حال الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة .

فأمّا قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتنّ تردْن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتّعْكنّ وأسرّحْكن سراحاً جميلاً وإن كنتُنّ تُردن الله ورسوله والدّار الآخرة فإنّ الله أعدّ للمُحْسنات منكُنّ أجراً عظيماً ﴾ [الأحزاب : 28 ، 29] فذلك في معنى آخر من

معاني الحياة وزينتها وهو ترف العيش وزينة اللباس ، خلافاً لما يَقتضيه إعراض الرسول صلى الله عليه وسلم عن كثير من ذلك الترَف وتلك الزينة .

وضمير ﴿ إليهم ﴾ عائد إلى ﴿ مَن ﴾ الموصولة لأنّ المراد بها الأقوام الذين اتصفوا بمضمون الصلة .

والتوفية : إعطاء الشيء وافياً ، أي كاملاً غير منقوص ، أي نجعل أعمالهم في الدّنيا وافية ومعنى وفائها أنّها غير مشوبة بطلب تكاليف الإيمان والجهاد والقيام بالحق ، فإن كل ذلك لا يخلو من نقصان في تمتع أصحاب تلك الأعمال بأعمالهم وهو النقصان الناشىء عن معاكسة هوى النفس ، فالمراد أنهم لا يُنقصون من لذاتهم التي هيّأوها لأنفسهم على اختلاف طبقاتهم في التمتع بالدنيا ، بخلاف المؤمنين فإنهم تتهيّأ لهم أسباب التمتع بالدنيا على اختلاف درجاتهم في ذلك التهيؤ فيتركون كثيراً من ذلك لمراعاتهم مرضاة الله تعالى وحذرهم من تبعات ذلك في الآخرة على اختلاف مراتبهم في هذه المراعاة .

وعُدّي فعل ﴿ نُوفّ ﴾ بحرف (إلى) لتضمنه معنى نوصل أو نبلغ لإفادة معنيين .

فليس معنى الآية أن من أراد الحياة وزينتها أعطاه الله مراده لأن ألفاظ الآية لا تفيد ذلك لقوله : ﴿ نُوَفّ إليهم أعمالهم ﴾ ، فالتوفية : عدم النقص .

وعلقت بالأعمال وهي المساعي .

وإضافة الأعمال إلى ضمير ﴿ هم ﴾ تفيد أنها الأعمال التي عُنوا بها وأعدُّوها لصالحهم أي نتركها لهم كما أرادوا لا نُدخل عليهم نقصاً في ذلك .

(264/374)

وهذه التوفية متفاوتة والقدر المشترك فيها بينهم هو خلوّهم من كُلف الإيمان ومصاعب القيام بالحق والصبر على عصيان الهوى ، فكأنه قيل نتركهم وشأنهم في ذلك .

وقوله : ﴿ وهم فيها لا يُبخسون ﴾ أي في الدنيا لا يجازون على كفرهم بجزاء سَلب بعض النعم عنهم بل يتركون وشأنهم استدراجاً لهم وإمهالاً .

فهذا كالتكملة لمعنى جملة ﴿ نوف إليهم أعمالهم فيها ﴾ ، إذ البَخس هو الحط من الشيء والنقص منه على ما ينبغي أن يكون عليه ظلماً .

وفي هذه الآية دليل لما رآه الأشعري أنّ الكفر لا يمنع من نعمة الله .

وضمير ﴿ فيها ﴾ يجوز أن يعود إلى ﴿ الحياة ﴾ وأن يعود إلى (الأعمال) .

وجملة ﴿ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النار ﴾ مستأنفة ، ولكن اسم الإشارة يربط بين الجملتين ، وأتي باسم الإشارة لتمييزهم بتلك الصفات المذكورة قبل اسم الإشارة .

وفي اسم الإشارة تنبيه على أن المشار إليه استحق ما يذكر بعد اختياره من الحكم من

أجل الصفات التي ذكرت قبل اسم الإشارة كما تقدم في قوله : ﴿ أولَئكَ عَلى هُدى منْ ربّهم ﴾ في سورة [البقرة : 5] .

و﴿ إلاّ النار ﴾ استثناء مفرّغ من ﴿ ليس لهم ﴾ أي ليس لهم شيء ممّا يعطاه الناس في الآخرة إلاّ النار .

وهذا يدل على الخلود في النار فيدل على أن هؤلاء كفار عندنا .

والحَبْط : البطلان أي الانعدام .

والمراد بـ ﴿ ما صنعوا ﴾ ما عملوا ، ومن الإحسان من الدنيا كإطعام العُفاة ونحوه من مواساة بعضهم بعضاً ، ولذلك عبر هنا بـ ﴿ صنعوا ﴾ لأنّ الإحسان يسمى صنيعة .

وضمير ﴿ فيها ﴾ يجوز أن يعود إلى ﴿ الدنيا ﴾ المتحدث عنها فيتعلّق المجرور بفعل ﴿ صنعوا ﴾ .

ويجوز أن يعود إلى ﴿ الآخرة ﴾ فيتعلق المجرور بفعل (بطل) ، أي انعدم أثره .

ومعنى الكلام تنبيه على أن حظهم من النعمة هو ما يحصل لهم في الدنيا وأن رحمة الله بهم لا تعدو ذلك .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر لما ذكر له فارس والروم وما هم فيه من المتعة " أولئك عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا " والباطل : الشيء الذي يذهب ضياعاً وخسراناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(266/374)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) ﴾

صرح تعالى في هذه الآية الكريمة : أن من عمل عملاً يريد به الحياة الدنيا أعطاه جزاء عمله في الدنيا ، وليس له في الآخرة إلا النار . ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الشورى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20] ولكنه تعالى يبين في سوره بني إسرائيل تعليق ذلك على مشيئته جل وعلا بقوله : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء : 18] الآية وقد أوضحنا هذه المسألة غاية الإيضاح في كتابنا " دفع إيهام

الاضطراب عن آيات الكتاب " في الكلام على هذه الآية الكريمة ، ولذلك اختصرناها هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(267/374)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾

وكان الكافرون قد تكلموا بما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم وقالوا :

﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ ﴾ [هود : 12] .

فهم إذن مشغولون بنعيم الدنيا وزينتها .

والحياة تتطلب المقومات الطبيعية للوجود ، من ستر عورة ، وأكل لقمة وبيت يقي الإنسان ويؤويه . أما الزينة فأمرها مختلف ، فبدلاً من أن يرتدي الإنسان ما يستر العورة ، يطلب لنفسه الصوف الناعم شتاء ، والحرير الأملس صيفاً ، وبدلاً من أن يطلب حجرة متواضعة تقيه من البرد أو الحر ، يطلب لنفسه قصراً .

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهوات مِنَ النساء والبنين والقناطير المقنطرة مِنَ الذهب والفضة

والخيل المسومة والأنعام والحرث ﴾ [آل عمران : 14] .

وكل هذه أشياء تدخل في متاع الحياة الدنيا ، ويقول الحق سبحانه :

﴿ ذلك مَتَاعُ الحياة الدنيا والله عِنْدَهُ حُسْنُ المآب ﴾ [آل عمران : 14] .

إذن : ما معنى كلمة " زينة " ؟

معنى كلمة " زينة " أنها حُسْنٌ أو تحسين طارىء على الذات ، وهناك فرق بين الحسن الذاتي والحسن الطارىء من الغير .

والمرأة على سبيل المثال حين تتزين فهي تلبس الثياب الجميلة الملفتة ، وتتحلّى بالذهب البرَّاق ، فهو المعدن الذي يأخذ نفاسته من كثرة تلألئه الذي يخطف الأبصار ، ولا تفعل ذلك بمغالاة إلا التي تشك في جمالها .

أما المرأة الجميلة بطبيعتها ، فهي ترفض أن تتزين ؛ ولذلك يسمونها في اللغة : " الغانية " ، أي : التي استغنت بجمالها الطبيعي عن الزينة ، ولا تحتاج إلى مداراة كِبرَ أذنيها بقُرْط ضخم ، ولا تحتاج إلى مداراة رقبتها بعقد ضخم ، ولا تحاول أن تداري معصمها الريان بسوار ، وترفض أن تُخفِي جمال أصابعها بالخواتم .

وحين تُبالغ المرأة في ذلك التزيُّن فهي تعطي الانطباع المقابل .

وقد يكون المثل الذي أضربه الآن بعيداً عن هذا المجال ، لكنه يوضح كيف يعطي الشيء المبالَغ فيه المقابل له .

وفي ذلك يقول المتنبي :

الطِّيبُ أنت إذَا أصَابكَ طِيبهُ . . . والماءُ أنتَ إذا اغتسلتَ الغاسلُ

وهو هنا يقول : إن الطيب إذا ما أصاب ذلك الإنسان الموصوف ، فالطيب هو الذي يتطيَّب ، كما أن الماء هو الذي يُغْسَل إذا ما لمس هذا الإنسان ، وكذلك تأبى المرأة الجميلة أن تُزيِّن نَحْرَها بقلادة ؛ لأن نحرها بدون قلادة يكون أكثر جمالاً .

ويقال عن مثل هذه المرأة " غانية " ؛ لأنها استغنتْ بجمالها .

ويقال عن جمال نساء الحضر : إنه جمال مصنوع بمساحيق ، وكأن تلك المساحيق مثبتة على الوجه بمعجون كمعجون دهانات الحوائط ، وكأن كل واحدة تفعل ذلك قد جاءت بسكين من سكاكين المعجون لتملأ الشقوق المجعدة في وجهها .

ولحظة أن يسيح هذا المعجون ترتبك ، ويختل مشهد وجهها بخليط الألوان ؛ ولذلك يقال :

حُسْنُ الحضَارةِ مُجْلُوبٌ بِتَطْرِيةٍ . . . وفي البدَاوةِ حُسْنٌ غيرُ مَجْلوبِ

إذن : فالزينة هي تحسين الشيء بغيره ، والشيء الحسن يستغني عن الزينة .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ﴾ [هود : 15] .

أي : إن كفرتم بالله فهو سبحانه لا يضن عليكم في أن يعطيكم مقومات الحياة وزينتها ؛ لأنه رب ، وهو الذي خلقكم واستدعاكم إلى الوجود ، وقد ألزم الحق سبحانه نفسه أن يعطيكم ما تريدون من مقومات الحياة وزينتها ؛ لأنه سبحانه هو القادر على أن يوفِّي بما وعد .

وهو سبحانه يقول هنا :

﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [هود : 15] .

أي : أنهم إن أخذوا بالأسباب فالحق سبحانه يُلزم نفسه بإعطاء الشيء كاملاً غير منقوص .

وهم في هذه الدار الدنيا لا يُبْخَسون في حقوقهم ، فمن يتقن عمله يأخذ ثمرة عمله .

(269/374)

وهذا القول الكريم يحُلُّ لنا إشكالاً كبيراً نعاني منه ، فهناك مَنْ يقول : إن هؤلاء المسلمين الذين يقولون : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ويقيمون الصلاة ، ويبنون المساجد ، بينما

هُمْ قومٌ متخلّفون ومتأخّرون عن ركْب الحضارة ، بينما نجد الكافرين وهم يَرْفُلُون في نعيم الحَضَارة .

ونقول : إن لله تعالى عطاءَ ربوبية للأسباب ، فمن أحسنَ الأسباب حتى لو كان كافراً ، فالأسباب تعطيه ، ولكن ليس له في الآخرة من نصيب ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] .

والحق سبحانه يجزي الكافر الذي يعطي خيراً للناس بخيرٍ في الدنيا ، ويجزي الصادق الذي لا يكذب من الكفار بصدق الآخرين معه في الدنيا ، ويجزي من يمدُّ يده بالمساعدة من الكفار بمساعدة له في الدنيا .

وكلها أعمال مطلوبة في الدِّين ، ولكنَّ الكافر قد يفعلها ، فيردُّ الله سبحانه وتعالى له ما فعل في الدنيا ، وإنْ كان قد فعل ذلك ليُقَال : إن فلاناً عَمِلَ كذا ، أو فلاناً كان شَهْماً في كذا ، فيُقال له : " علْمتَ لِيُقال وقد قِيل " .

وإذا كان الكافرون يأخذون بالأسباب ؛ فالحق سبحانه يعطيهم ثمرة ما أخذوا من الأسباب .

ويجب أن نقول لمن يتهم المسلمين بالتخلُّف :

لقد كان المسلمون في أوائل عهدهم متقدمين ، وكانوا سادة حين طبَّقوا دينهم ، ظاهراً وباطناً ، شكلاً ومضموناً .

وعلى ذلك فالتخلُّف ليس لازماً ولا ملازماً للإسلام ، وإنما جاء التخلُّف لأننا تركنا روح الإسلام وتطبيقه .

وإنْ عقدنا مقارنة بين حال أوربا حينما كانت الكنيسة هي المسيطرة ، كنا نجد طل صاحب نشاط عقلي مُبْدِعٍ ينال القتل عقوبة على الإبداع ، وكانت تسمى تلك الأيام في أوربا " العصور المظلمة " .

(270/374)

وحينما جاءت الحروب الصليبية وعرفت أوربا قوة الإسلام والمسلمين ، ودحرهم المسلمون ، بدأوا في محاولة الخروج على سلطان البابا والكنيسة ، وعندما فعلوا ذلك تَقَدَّموا .

هم إذن عندما تركوا سلطان البابا تقدموا ، ونحن حين تركنا العمل بتعاليم الإسلام تخلَّفنا .

إذن : فأيُّ الجَرْعَتَيْن خير ؟

إن واقع الحياة قد أثبت تقدُّم المسلمين حين أخذوا بتعاليم الإسلام ، وتخلفوا حين تركوها .

وهكذا . . فمعيار التقدُّم هو الأخذْ بالأسباب ، فمن أخذ بالأسباب وهو مؤمن نال حُسْن خير الدنيا وحُسْن ثواب الآخرة ، ومَنْ لم يؤمن وأخذ بالأسباب نال خير الدنيا ولم

يَنَلْ ثواب الآخرة .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ ﴾ [النور : 39] .

وهكذا يُفاجأ بالإله الذي كذَّب به .

والحق سبحانه يقول :

﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ على شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم : 18] .

إذنْ : فمن أراد الدنيا وزينتها ، فالحق الأعلى سبحانه يوفِّيه حسابه ولا يبخسه من حقه شيئاً ، فحاتم الطائي على سبيل المثال أخذ صفة الكرم ، وعنترة أخذ صفة الشجاعة ، وكل إنسان أحسن عملاً أخذ أجره ، ولكن عطاء الآخرة هو لمن عمل عمله لوجه الله تعالى ، وآمن به .

وحتى الذين دخلوا الإسلام نفاقاً وحاربوا مع المسلمين ، أخذوا نصيبهم من الغنائم ، ولكن ليس لهم في الآخرة من نصيب .

إذن : فالوفاء يعني وجود عَقْد ، وما دام هناك عقد بين العامل والعمل ، وأتقن العاملُ العملَ

فلا بد أن يأخذ أجره دون بَخْس ؛ لأن البَخْسَ هو إنقاص الحق .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ أولئك الذين لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة ﴾

(271/374)

إذن : فالنار مثوى هؤلاء الذين عملوا من أجل الدنيا دون إيمان بالله ، فقد أخذوا حسابهم في الدنيا ، أما عملهم فقد حبط في الآخرة ، والحَبَط هو انتفاخ الماشية حين تأكل شيئاً أخضر لم ينضح بعد ، ويقال في الريف عن ذلك : " انتفخت البهيمة " أي : أن هناك غازات في بطنها ، وقد يظنها الجاهل سِمْنةً ، لكن هذا الانتفاخ يزول بزوال سببه .

وعمل الكافرين إنما يحبط في الآخرة ؛ لأنه باطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(272/374)

فائدة

قال التسترى :

قوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [15] قال : يعني من أراد بعلمه غير الله آتاه الله أجر عمله في الدنيا ، فلا يبقى له في الآخرة شيء ، لأنه لم يخلص بعمله لله لما أحب له من المنزلة في الدنيا ، ولو علم أن الله سخر الدنيا وأهلها لطلاب الآخرة لم يراء بعلمه .

وقد قيل لسهل : أي شيء أشد على النفس ؟ فقال : الإخلاص .

قيل : ولِمَ ذلك ؟ فقال : لأنه ليس للنفس فيه نصيب .

وسئل : هل يدخل الفرائض رياء ؟ فقال : نعم ، قد دخل الإيمان الذي هو أصل الفرائض حتى أبطله وصار نفاقاً ، فكيف العمل ، فكل من لم يعب أحد عليه في ظاهره ، ويعلم الله خلافه من سره في أي حال كان ، فهو المرائي الذي لا شك فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 78 ﴾

(273/374)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ

يُبْخَسُونَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها التصريح بأن الكافر يُجازَى بحسناته ؛ كالصدقة وصلة الرحم وقرى الضيف والتنفيس عن المكروب ، في الدنيا دون الآخرة ؛ لأنه تعالى قال : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ يعني الحياة الدنيا ، ثم نصَّ على بطلانها في الآخرة بقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ الآية .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ الآية على ما قاله ابن زيد وقوله ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ على أحد القولين ، وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ على أحد الأقوال الماضية في سورة الأنفال .

وقد صحَّ عنه – صلى الله عليه وسلم – أن الكافر يُجازى بحسناته في الدنيا ، مع أنه جاءت آيات أُخر تدلُّ على بطلان عمل الكافر واضمحلاله من أصله ، وفي بعضها التصريح ببطلانه في الدنيا مع الآخرة في كفر الرِّدَّة وفي غيرها .

أما الآيات الدالّة على بطلانه من أصله ، فكقوله : ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ وكقوله : ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ﴾ الآية .

وقوله ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا ﴾ .

وأما الآيات الدالة على بطلانه في الدنيا مع الآخرة فكقوله في كفر المرتد : ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ وكقوله في كفر غير المرتد : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ .

وبين الله تعالى في آيات أخر ، أن الإنعام عليهم في الدنيا ليس للإكرام بل للاستدراج والإهلاك ، كقوله تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ (182) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (178) سورة آل عمران ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ وقوله : ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلاَلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ وقوله : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ

﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

والجواب من أربعة أوجه :

(275/374)

الأول ـ ويظهر لي صوابه لدلالة ظاهر القرآن عليه ـ : أن من الكفار من يثيبه الله بعمله في الدنيا ، كما دلَّتْ عليه آيات وصحَّ به الحديث ، ومنهم من لا يثيبه الله بعمله في الدنيا ، كما دلت عليه آيات وصحَّ به الحديث ، ومنهم من لا يثيبه في الدنيا ، كما دلت عليه آيات أخر ، وهذا مُشاهد فيهم في الدنيا ، فمنهم من هو في عيش رغد ، ومنهم من هو في بؤس وضيق .

ووجه دلالة القرآن على هذا ، أنه تعالى أشار إليه بالتخصيص بالمشيئة في قوله : ﴿ من كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ فهي مخصصة لعموم قوله تعالى : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (15) سورة هود ﴾ وعموم قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ .

وممن صرح بأنها مخصصة لهما ، الحافظ ابن حجر في فتح الباري ، في كتاب الرقاق ، في الكلام على قول البخاري [باب : المكثرون هم المقلون] ، وقوله تعالى : ﴿ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ الآيتين .

ويدل لهذا التخصيص قوله في بعض الكفار : ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11) سورة الحج ﴾ وجمهور العلماء من حمل العام على الخاص ، والمطلق على المقيد ، كما تقرر في الأصول .

الثاني : وهو وجيه أيضاً ، أن الكافر يُثاب عن عمله بالصحة وسعة الرزق والأولاد ونحو ذلك ، كما صرح به تعالى في قوله : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ يعني الدنيا ، وأكد ذلك بقوله ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ وبظاهرها المتبادر منها كما ذكرنا .

فسرها ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك كما نقله عنهم ابن جرير .

(276/374)

وعلى هذا فبطلان أعمالهم في الدنيا بمعنى أنها لم يعتد بها شرعاً في عصمة دم ، ولا ميراث ولا نكاح ، ولا غير ذلك ، ولا تفتح لها أبواب السماء ، ولا تصعد إلى الله تعالى ، بدليل قوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ ﴾ ، ولا تُدَّخر لهم الأعمال النافعة ، ولا تكون في كتاب الأبرار في عليين ، وكفى بهذا بطلاناً .

أما مطلق النفع الدنيوي بها ، فهو عند الله لا شيء ، فلا يُنافي بطلانها ؛ بدليل قوله : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ ﴾ وقوله : ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون وقوله : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ إلى قوله : ﴿ للمتقين ﴾ والآيات في مثل هذه كثيرة .

ومما يوضح هذا المعنى حديث : " لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء " .

ذكر ابن كثير هذا الحديث في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً ﴾ الآيات .

ثم قال : أسنده البغوي من رواية زكريا بن منظور ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره .

ورواه الطبراني من طريق زمعة بن صالح ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – : " لو عدلت الدنيا عند الله جناح بعوضة ، ما أعطى كافراً منها شيءاً " .

قال مقيّده ـ عفا الله عنه ـ : لا يخفى أن مراد الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ بما ذكرناه عنه ، أن كلتا الطريقتين ضعيفة ، إلا أن كل واحدة منهما تعتضد بالأخرى ، فيصلح المجموع للاحتجاج ، كما تقرر في علم الحديث من أن الطرق الضعيفة المعتبر بها يشد بعضها بعضاً ،

فتصلح للاحتجاج .

لا تخاصم بواحد أهل بيت فضعيفان يغلبان قوياً

(277/374)

لأن زكريا بن منظور بن ثعلبة القُرظي ، وزمعة بن صالح الجندي ، كلاهما ضعيف ، وإنما روى مسلم عن زمعة مقروناً بغيره لا مستقلاً بالرواية ، كما بيّنه الحافظ ابن حجر في التقريب .

الثالث : أن معنى ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي نعطيهم الغرض الذي عملوا من أجله في الدنيا ، كالذي قاتل ليُقال : جريء ، والذي قرأ ليُقال : قارئ والذي تصدق ليُقال : جواد ، فقد قيل لهم ذلك ، وهو المراد بتوفيتهم أعمالهم على هذا الوجه .

ويدل له الحديث الذي رواه أبو هريرة مرفوعاً في المجاهد والقارئ والمتصدق ؛ إنه يقال لكل واحد منهم : إنما عملت ليُقال ، فقد قيل .

أخرجه الترمذي مطوّلاً ، وأصله عند مسلم كما قاله ابن حجر ، ورواه أيضاً ابن جرير ، وقد استشهد معاوية رضي الله عنه لصحة حديث أبي هريرة هذا ، بقوله تعالى : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ وهو تفسير منهم رضي الله عنهم لهذه الآية بما يدل لهذا الوجه الثالث .

الرابع : أن المراد بالآية المنافقون الذين يخرجون للجهاد ، لا يريدون وجه الله ، وإنما يريدون الغنائم فإنهم يُقسم لهم فيها في الدنيا ولا حظَّ لهم من جهادهم في الآخرة ، والقسم لهم منهم هو توفيتهم أعمالهم على هذا القول .

والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 151.156 ﴾

(278/374)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ) (هود : 17) ، وفي آخر السورة إثر قوله : (عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) (هود : 108) ، (فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ) (هود : 109) ، وفي سورة السجدة : ( ) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ) (السجدة : 23) بثبات نون تكن ، وحذفها في آيتي سورة هود فللسائل أن يسأل عن ذلك ؟

والجواب عنه ، والله أعلم : أن العرب تصرفت في يكون عند دخول الجازم تصرفاً لم تفعله في

نظائرها وما يشبهها ، وبسط هذا في مظانه ، فيكون الوجه في يكون عند دخول الجازم تسكين النون ، فتحذف الواو عند التقاء الساكنين كما ورد في سورة السجدة ، إلا أن حذف النون في يكون من فصيح كلامهم ما لم تكن متحركة ، فإن كانت متححركة لم تحذف لقوتها بالحركة وإن كانت عارضة كقوله تعالى : (لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا . . .) (البينة : 1) ، ولا تحذف هذه إلا في الشعر نحو قوله :

لم يك الحق سوى أن هاجه رسم دار قد تعفَّى بالسررْ

فورد في سورة هود على ما اعتمدوه من تخفيف هذا اللفظ ليناسب بذلك إيجاز الكلام المتعلق بقوله : (فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ) (هود : 17) ، والمتصل به تمامه تمام معنى المقصود وذلك قوله : (إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ) (هود : 17) ، وكذلك قوله في آخر السورة : (فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ) (هود : 109) إلى قوله : (غَيْرَ مَنقُوصٍ) (هود : 109) .

(279/374)

وورد في سورة السجدة على أصل الكلمة قبل حذفها فقيل : (فَلا تَكُنْ) ، ليجري ذلك مع ما ورد في هذه السورة من طول الكلام المتعلق بقوله (فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ) (السجدة

: 23) ، ألا ترى أن الكلام واحد إلى قوله : (فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (السجدة : 25) ، فنوسب الإيجاز بالإيجاز والطول بالطول والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 253.254 ﴾

(280/374)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (16) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه في قوله ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴾ قال : نزلت في اليهود والنصارى .

وأخرج ابن جرير ابن أبي حاتم عن عبد الله بن معبد رضي الله عنه قال : قام رجل إلى علي رضي الله عنه فقال : أخبرنا عن هذه الآية ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا ﴾ إلى قوله ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ قال : ويحك . . . ! ذاك من كان يريد الدنيا لا يريد الآخرة .

وأخرج النحاس في ناسخه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا ﴾ أي ثوابها ﴿ وزينتها ﴾ مالها ﴿ نوف إليهم ﴾ نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور في الأهل والمال والولد ﴿ وهم فيها لا يبخسون ﴾ لا ينقضون ثم نسخها ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء ﴾ [الإِسراء : 18] الآية .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه . مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال : من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل لا يعمله إلا لالتماس الدنيا ، يقول الله : أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة وحبط عمله الذي كان يعمل ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا ﴾ قال : هو الرجل يعمل العمل للدنيا لا يريد به الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في الآية قال : نزلت في أهل الشرك .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في الآية قال : هم أهل الرياء .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإِيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أول من يدعى يوم القيامة رجل جمع القرآن يقول الله تعالى له : ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي ؟ فيقول : بلى يا رب . فيقول : فماذا عملت فيما علمتك ؟ فيقول : يا رب كنت أقوم به الليل والنهار . فيقول الله له : كذبت . وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت أن يقال فلان قارىء فقد قيل ، اذهب فليس لك اليوم عندنا شيء ، ثم يدعى صاحب المال فيقول الله : عبدي ألم أنعم عليك ، ألم أوسع عليك ، فيقول : بلى يا رب . فيقول : فماذا عملت فيما آتيتك ؟ فيقول : يا رب كنت أصل الأرحام ، وأتصدق وأفعل . فيقول الله له : كذبت ، بل أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذلك ، اذهب فليس لك اليوم عندنا شيء . ويدعى المقتول فيقول الله له : عبدي فيم قتلت ؟ فيقول : يا رب فيك وفي سبيلك . فيقول الله له : كذبت وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك ، اذهب فليس لك اليوم عندنا شيء . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أولئك الثلاثة شر خلق الله يسعر بهم النار يوم القيامة . فحدث معاوية بهذا إلى قوله ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ " .

(282/374)

وأخرج البيهقي في الشعب عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاثة فرق . فرقة يعبدون الله خالصاً : وفرقة يعبدون الله رياء ، وفرقة يعبدون الله يصيبون به دنيا ، فيقول للذي كان يعبد الله للدنيا : بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي ؟ فيقول : الدنيا . فيقول : لا جرم لا ينفعك ما جمعت ولا ترجع إليه انطلقوا به إلى النار ، ويقول للذي يعبد الله رياء : بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي ؟ قال : الرياء . فيقول : إنما كانت عبادتك التي كنت ترائي بها لا يصعد إليّ منها شيء ولا ينفعك اليوم ، انطلقوا به إلى النار ، ويقول للذي يعبد الله خالصاً : بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي ؟ فيقول : بعزتك وجلالك لأنت أعلم به مني كنت أعبدك لوجهك ولدارك . قال : صدق عبدي انطلقوا به إلى الجنة " .

وأخرج البيهقي في الشعب عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يؤتى يوم القيامة بناس بين الناس إلى الجنة ، حتى إذا دنوا منها استنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها فيقولون : يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من الثواب وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون . قال : ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتم بارزتموني بالعظيم ، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين ولم تجلوني ، وتركتم للناس ولم تتركوا إلي ، فاليوم أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتم من الثواب " .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها

نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾ قال : يؤتون ثواب ما عملوا في الدنيا وليس لهم في الآخرة من شيء وقال : هي مثل الآية التي في الروم ﴿ وما آتيتم من رباً ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله ﴾ [الروم : 39] .

(283/374)

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها . . . ﴾ الآية . يقول : من كانت الدنيا همه وسدمه وطلبته ونيته وحاجته جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة ليس له فيها حسنة ، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ﴿ وهم فيها لا يبخسون ﴾ أي لا يظلمون .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا ﴾ قال : من عمل للدنيا لا يريد به الله وفاه الله ذلك العمل في الدنيا أجر ما عمل ، فذلك قوله ﴿ نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾ أي لا ينقصون ، أي يعطوا منها أجر ما عملوا .

وأخرج أبو الشيخ عن ميمون بن مهران رضي الله عنه قال : من كان يريد أن يعلم ما منزلته عند الله فلينظر في عمله فإنه قادم على عمله كائناً ما كان ، ولا عمل مؤمن ولا كافر من عمل صالح إلا جاء الله به ، فأما المؤمن فيجزيه به في الدنيا والآخرة بما شاء ، وأما الكافر

فيجزيه في الدنيا ثم تلا هذه الآية ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن في قوله ﴿ نوف إليهم أعمالهم ﴾ قال : طيباتهم .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج ﴿ نوف إليهم أعمالهم فيها ﴾ قال : نعجل لهم فيها كل طيبة لهم فيها وهم لا يظلمون بما لم يعجلوا من طيباتهم ، لم يظلمهم لأنهم لم يعملوا إلا للدنيا .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ نوف إليهم أعمالهم فيها ﴾ قال : تعجل لمن لا يقبل منه .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وحبط ما صنعوا فيها ﴾ قال : حبط ما عملوا من خير ﴿ وباطل ﴾ في الآخرة ليس لهم فيها جزاء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله ﴿ وحبط ﴾ يعني بطل .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن أبي بن كعب أنه قرأ " وباطلاً ما كانوا يعملون " . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(284/374)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (16) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا ﴾ : يجوز أن يتعلَّقَ " فيها " ب " حَبِط " ، والضميرُ على هذا يعود على الآخرة ، أي : وظهر حبوطُ ما صنعوا في الآخرة . ويجوز أن يتعلَّقَ ب " صنعوا " فالضمير على هذا يعود على الحياة الدنيا كما عاد عليها في قوله ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ . و " ما " في " ما صنعوا " يجوز أن تكون بمعنى الذي فالعائدُ محذوفٌ ، أي : الذي صنعوه ، وأن تكونَ مصدريةً ، وحَبِط صُنْعُهم .

قوله : ﴿ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا ﴾ الجمهورُ قرؤوا برفع الباطل ، وفيه ثلاثة أوجه ، أحدها : أن يكونَ " باطل " خبراً مقدماً ، و ﴿ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ مبتدأٌ مؤخرٌ . و " ما " تحتمل أن تكن مصدريةً ، أي : وباطلٌ كونُهم عاملين ، وأن تكونَ بمعنى الذي والعائد محذوف ، أي : يعملونه ، وهذا على أنَّ الكلامَ من عطفَ الجمل ، عَطَفَ هذه الجملةَ على ما قبلها . الثاني : أن يكونَ " باطل " مبتدأً و ﴿ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ خبرُه ، هكذا قال مكي بن أبي طالب وهو لا يَبْعُدُ على الغلط ، والعجبُ أنه لم يذْكر غيره . الثالث : أن يكونَ " باطل " عطفاً على الأخبارِ قبله ، أي : أولئك باطلٌ ما كانوا يعملون ، و ﴿ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فاعلٌ ب " باطل " ، ويرجح هذا ما قرأ به زيد بن علي : ﴿ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ جعله فعلاً ماضياً معطوفاً على " حَبِط " .

وقرأ أُبَيّ وابن مسعود قال مكي : " وهي في مصحفهما كذلك " ونقلها الزمخشري عن عاصم " وباطلاً " نصباً وفيها ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه منصوبٌ ب " يعملون " و " ما " مزيدة ، وإلى هذا ذهب مكي وأبو البقاء وصاحب " اللوامح " ، وفيه تقديمُ معمولِ خبرِ " كان " على " كان " وهي مسألة خلاف ، والصحيحُ جوازُها كقوله تعالى : ﴿ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ [سبأ : 40] فالظاهرُ أن " إياكم " منصوب ب " يعبدون " . والثاني : أن تكونَ " ما " إبهاميةً ، وتنتصب ب " يعملون " ومعناه : " باطلاً أيَّ باطلٍ كانوا يعملون " ، والثالث : أن يكون " باطلاً " بمعنى المصدر على بَطَلَ بُطْلاناً ما كانوا يعملون ، ذكر هذين الوجهين الزمخشري ، ومعنى قوله " ما " إبهامية أنها هنا صفةٌ للنكرة قبلها ، ولذلك قَدَّرها ب " باطلاً أيَّ باطل " فهو كقوله :

2643 . . . . . وحديثٌ ما على قِصَرِهْ

و " لأمرٍ ما جَدَعَ قصيرٌ أَنْفَه " ، وقد قدَّم هو ذلك في قوله تعالى : ﴿ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً ﴾ [الزمر : 9] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 297 . 299 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) ﴾

مَنْ قَنَع منهم بدنيا الدناءةُ صِفَتُها وَسَّعْنَا عليه في الاستمتاع بأيام فيها ، ولكن عَقِبَ اكتمالِها سيرى زوالَها ، ويذوق بعد عسلِها حَنْظَلَها .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (16) ﴾

أولئك الذين خَابَتْ آمالُهم ، وظهرت لهم – بخلاف ما احتسبوا – ألامُهم ، حَبِطَتْ أعمالُهم – وحاق بهم سوء حالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 129.128 ﴾

(287/374)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والسبعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/375)

الجزء الخامس والسبعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 17 ﴾ من سورة هود عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 22 ﴾ من نفس السورة

(4/375)

قوله تعالى ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (17) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما اتضحت الحجج وانتهضت الدلائل فأغرقتهم عوالي اللجج ، كان ذلك موضع الإنكار على من يسوي بين المهتدي والمعتدي ، فكيف يفضل إما باعتبار النظر إلى الرئاسة الدنيوية غفلة من حقائق الأمور أو عناداً كمن قال من اليهود للمشركين : أنتم أهدى منهم ، فقال : ﴿ أفمن كان على بينة ﴾ أي برهان وحجة ﴿ من ربه ﴾ بما آتاه من نور البصيرة وصفاء العقل فهو يريد الآخرة ويبني أفعاله على أساس ثابت ﴿ ويتلوه ﴾ أي ويتبع هذه البينة

﴿ شاهد ﴾ هو القرآن ﴿ منه ﴾ أي من ربه ، أو تأيد ذلك البرهان برسالة رسول عربي بكلام معجز وكان ﴿ من قبله ﴾ أي هذا الشاهد مؤيداً له ﴿ كتاب موسى ﴾ أي شاهد أيضاً وهو التوارة حال كونه ﴿ إماماً ﴾ يحق الاقتداء به ﴿ ورحمة ﴾ أي لكل من اتبعه .

(5/375)

ولما كان الجواب ظاهراً حذفه ، وتقديره – والله أعلم : كمن هو على الضلالة فهو يريد الدنيا فهو يفعل من المكارم ما ليس مبنياً على أساس صحيح ، فيكون في دار البقاء والسعادة هباء منثوراً ؛ ولما كان هذا الذي على البينة عظيماً ، ولم يكن يراد به واحداً بعينه ، استأنف البيان لعلو مقامه بأداة الجمع بشارة لهذا النبي الكريم بكثرة أمته فقال : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الرتبة بكونهم على هدى من ربهم وتأيد هداهم بشاهد من قبله وشاهد من بعده مصدق له ﴿ يؤمنون به ﴾ أي بهذا القرآن الذي هو الشاهد ولا ينسبون الآتي به إلى أنه افتراه ﴿ ومن يكفر به ﴾ أي بهذا الشاهد ﴿ من الأحزاب ﴾ من جميع الفرق وأهل الملل سواء ، سوى بين الفريقين جهلاً أو عناداً ﴿ فالنار موعده ﴾ أي وعيده وموضع وعيده يصلى سعيرها ويقاسي زمهريرها .

ولما عم بوعيد النار ، اشتد تشوف النفس لما سبب عنه فقرب إزالة ما حملت من ذلك

بالإيجاز ، فاقتضى الأمر حذف نون " تَكن " فقيل : ﴿ فلا تكُ ﴾ أي أيها المخاطب الأعظم ﴿ في مرية ﴾ أي شك عظيم ووهم ﴿ منه ﴾ أي من القرآن ولا يضيق صدرك عن إبلاغه ، أو من الوعد الذي هو النار والخيبة وإن أنعمنا على المتوعد بذلك ونعمناه في الدنيا ؛ ثم علل النهي بقوله : ﴿ إنه ﴾ القرآن أو الموعد ﴿ الحق ﴾ أي الكامل ، وزاد في الترغيب فيه بقوله : ﴿ من ربك ﴾ أي المحسن إليك بانزاله عليك .

ولما كان كونه حقاً سبباً يعلق الأمل بإيمان كل من سمعه ، قال : ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ أي الذين هم في حيز الاضطراب ﴿ لا يؤمنون ﴾ بأنه حق لا لكون الريب يتطرق إليه بل لما على قلوبهم من الرين ويؤولون إليه من العذاب المعد لهم ممن لا يبدل القول لديه ولا ينسب الظلم إليه ، والقصد بهذا الاستفهام الحث على ما حث عليه الاستفهام في قوله ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ من الإقبال على الدين الحق على وجه مبين لسخافة عقول الممترين وركاكة آرائهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 513.514 ﴾

(6/375)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾

اعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها ظاهر والتقدير : أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم في الآخرة إلا النار ، إلا أنه حذف الجواب لظهوره ومثله في القرآن كثير كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ [فاطر : 8] وقوله : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَاءَ الليل ساجدا وَقَائِماً ﴾ [الزمر : 9] وقوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 9] .

واعلم أن أول هذه الآية مشتمل على ألفاظ أربعة كل واحد محتمل .

فالأول : أن هذا الذي وصفه الله تعالى بأنه على بينة من ربه من هو .

والثاني : أنه ما المراد بهذه البينة .

والثالث : أن المراد بقوله : ﴿ يتلوه ﴾ القرآن أو كونه حاصلاً عقيب غيره .

والرابع : أن هذا الشاهد ما هو ؟ فهذه الألفاظ الأربعة مجملة فلهذا كثر اختلاف المفسرين في هذه الآية .

أما الأول : وهو أن هذا الذي وصفه الله تعالى بأنه على بينة من ربه من هو ؟ فقيل : المراد به النبي عليه الصلاة والسلام ، وقيل : المراد به من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره ، وهو الأظهر لقوله تعالى في آخر الآية : ﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ وهذا صيغة جمع ، فلا يجوز رجوعه إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالبينة هو البيان والبرهان الذي عرف به

صحة الدين الحق والضمير في ﴿ يتلوه ﴾ يرجع إلى معنى البينة ، وهو البيان والبرهان والمراد بالشاهد هو القرآن ، ومنه أي من الله ومن قبله كتاب موسى ، أي ويتلو ذلك البرهان من قبل مجيء القرآن كتاب موسى .

(7/375)

واعلم أن كون كتاب موسى تابعاً للقرآن ليس في الوجود بل في دلالته على هذا المطلوب و ﴿ إِمَاماً ﴾ نصب على الحال ، فالحاصل أنه يقول اجتمع في تقرير صحة هذا الدين أمور ثلاثة أولها : دلالة البينات العقلية على صحته .

وثانيها : شهادة القرآن بصحته .

وثالثها : شهادة التوراة بصحته ، فعند اجتماع هذه الثلاثة لا يبقى في صحته شك ولا ارتياب ، فهذا القول أحسن الأقاويل في هذه الآية وأقربها إلى مطابقة اللفظ وفيها أقوال أخر .

فالقول الأول : أن الذي وصفه الله تعالى بأنه على بينة من ربه هو محمد عليه السلام والبينة هو القرآن ، والمراد بقوله : ﴿ يتلوه ﴾ هو التلاوة بمعنى القراءة وعلى هذا التقدير فذكروا في تفسير الشاهد وجوهاً : أحدها : أنه جبريل عليه السلام ، والمعنى : أن جبريل عليه

السلام يقرأ القرآن على محمد عليه السلام .

وثانيها : أن ذلك الشاهد هو لسان محمد عليه السلام وهو قول الحسن ورواية عن محمد بن الحنفية عن علي رضي الله عنهما قال : قلت لأبي أنت التالي قال : وما معنى التالي قلت قوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ قال وددت أني هو ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الإنسان إنما يقرأ القرآن ويتلوه بلسانه لا جرم جعل اللسان تالياً على سبيل المجاز كما يقال : عين باصرة وأذن سامعة ولسان ناطق .

وثالثها : أن المراد هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والمعنى أنه يتلو تلك البينة وقوله : ﴿ مِنْهُ ﴾ أي هذا الشاهد من محمد وبعض منه ، والمراد منه تشريف هذا الشاهد بأنه بعض من محمد عليه السلام .

(8/375)

ورابعها : أن لا يكون المراد بقوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ القرآن بل حصول هذا الشاهد عقيب تلك البينة ، وعلى هذا الوجه قالوا إن المراد أن صورة النبي عليه السلام ووجهه ومخايله كل ذلك يشهد بصدقه ، لأن من نظر إليه بعقله علم أنه ليس بمجنون ولا كاهن ولا ساحر ولا كذاب والمراد بكون هذا الشاهد منه كون هذه الأحوال متعلقة بذات النبي صلى الله عليه

وسلم .

القول الثاني : أن الذي وصفه الله تعالى بأنه على بينة هم المؤمنون وهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالبينة القرآن ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ أي ويتلو الكتاب الذي هو الحجة يعني ويعقبه شاهد من الله تعالى ، وعلى هذا القول اختلفوا في ذلك الشاهد فقال بعضهم : إنه محمد عليه السلام وقال آخرون : بل ذلك الشاهد هو كون القرآن واقعاً على وجه يعرف كل من نظر فيه أنه معجزة وذلك الوجه هو اشتماله على الفصاحة التامة والبلاغة الكاملة وكونه بحيث لا يقدر البشر على الإتيان بمثله ، وقوله : ﴿ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أي من تلك البينة لأن أحوال القرآن وصفاته من القراآت متعلقة به .

وثالثها : قال الفراء : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ يعني الإنجيل يتلو القرآن وإن كان قد أنزل قبله ، والمعنى أنه يتلوه في التصديق ، وتقريره : أنه تعالى ذكر محمداً صلى الله عليه وسلم في الإنجيل ، وأمر بالإيمان به .

واعلم أن هذين القولين وإن كانا محتملين إلا أن القول الأول أقوى وأتم .

واعلم أنه تعالى وصف كتاب موسى عليه السلام بكونه إماماً ورحمة ، ومعنى كونه إماماً أنه كان مقتدى العالمين ، وإماماً لهم يرجعون إليه في معرفة الدين والشرائع ، وأما كونه رحمة فلأنه يهدي إلى الحق في الدنيا والدين ، وذلك سبب لحصول الرحمة والثواب فلما كان سبباً للرحمة أطلق اسم الرحمة عليه إطلاقاً لاسم المسبب على السبب .

ثم قال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ والمعنى : أن الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم في صحة هذا الدين يؤمنون .

واعلم أن المطالب على قسمين منها ما يعلم صحتها بالبديهة ، ومنها ما يحتاج في تحصيل العلم بها إلى طلب واجتهاد ، وهذا القسم الثاني على قسمين ، لأن طريق تحصيل المعارف إما الحجة والبرهان المستنبط بالعقل وإما الاستفادة من الوحي والإلهام ، فهذا الطريقان هما الطريقان اللذان يمكن الرجوع إليهما في تعريف المجهولات ، فإذا اجتمعا واعتضد كل واحد منهما بالآخر بلغا الغاية في القوة والوثوق ، ثم إن في أنبياء الله تعالى كثرة ، فإذا توافقت كلمات الأنبياء على صحته ، وكان البرهان اليقيني قائماً على صحته ، فهذه المرتبة قد بلغت في القوة إلى حيث لا يمكن الزيادة فقوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ المراد بالبينة الدلائل العقلية اليقينية ، وقوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ إشارة إلى الوحي الذي حصل لمحمد عليه السلام ، وقوله : ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ إشارة إلى الوحي الذي حصل لموسى عليه السلام ، وعند اجتماع هذه الثلاثة قد بلغ هذا اليقين في القوة والظهور والجلاء إلى حيث لا يمكن الزيادة عليه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الاحزاب فالنار مَوْعِدُهُ ﴾ والمراد من الأحزاب أصناف الكفار ، فيدخل فيهم اليهود والنصارى والمجوس .

روى سعيد بن جبير عن أبي موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يسمع بي يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي إلا كان من أهل النار " قال أبو موسى : فقلت في نفسي إن النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا إلا عن القرآن ، فوجدت الله تعالى يقول : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الاحزاب فالنار مَوْعِدُهُ ﴾ وقال بعضهم : لما دلت الآية على أن من يكفر به فالنار موعده ، دلت على أن من لا يكفر به لم تكن النار موعده .

(10/375)

ثم قال تعالى : ﴿ فَلاَ تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ ففيه قولان : الأول : فلا تك في مرية من صحة هذا الدين ، ومن كون القرآن نازلاً من عند الله تعالى ، فكان متعلقاً بما تقدم من قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ [هود : 13] الثاني : فلا تك في مرية من أن موعد الكافر النار .

وقرىء ﴿ مِرْيَةٍ ﴾ بضم الميم .

ثم قال : ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ والتقدير : لما ظهر الحق ظهوراً في الغاية ، فكن

أنت متابعاً له ولا تبال بالجهال سواء آمنوا أو لم يؤمنوا ، والأقرب أن يكون المراد لا يؤمنون بما تقدم ذكره من وصف القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 160 . 162 ﴾

(11/375)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَّبِّه ﴾

فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه القرآن ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

الثاني : محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله مجاهد وعكرمة وأبو العالية وأبو صالح وقتادة والسري والضحاك .

الثالث : الحجج الدالة على توحيد الله تعالى ووجوب طاعته ، قاله ابن بحر .

وذكر بعض المتصوفة قولاً رابعاً : أن البينة هي الإشراف على القلوب والحكمة على الغيوب .

﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أنه لسانه يشهد له بتلاوة القرآن ، قاله الحسن وقتادة ، ومنه قول الأعشى :

فلا تحبسنّي كافراً لك نعمةً . . . على شاهدي يا شاهد الله فاشهد .

الثاني : أنه محمد صلى الله عليه وسلم شاهد من الله تعالى ، قاله علي بن الحسين .

الثالث : أنه جبريل عليه السلام ، قاله ابن عباس والنخعي وعكرمة والضحاك .

الرابع : أنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، روى المنهال عن عباد بن عبد الله قال : قال عليّ : ما في قريش أحد إلا وقد نزلت فيه آية ، قيل له : فما نزل فيك ؟ قال ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾

الخامس : أنه ملك يحفظه ، قاله مجاهد وأبو العالية .

ويحتمل قولاً سادساً : ويتلوه شاهد من نفسه بمعرفة حججه ودلائله وهو عقله ووحدته ، قال ابن بحر .

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ، قاله ابن زيد .

الثاني : ومن قبل محمد كتاب موسى ، قاله مجاهد .

﴿ إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما يعني متقدماً علينا ورحمة لهم .

الثاني : إماماً للمؤمنين لاقتدائهم بما فيه ورحمة لهم .

﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يعني من كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه .

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم أهل الأديان كلها لأنهم يتحزبون : قاله سعيد بن جبير .

(12/375)

الثاني : هم المتحزبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم المجتمعون على محاربته .

وفي المراد بهم ثلاثة أوجه : أحدها : قريش ، قال السدي .

الثاني : اليهود والنصارى ، قاله سعيد بن جبير .

الثالث : أهل الملل كلها . ﴿ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ أي أنها مصيره ، قال حسان بن ثابت :

أوردتموها حياض الموت ضاحيةً . . . فالنار موعِدُها والموت لاقيها

﴿ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ منه ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في مرية من القرآن قاله مقاتل .

الثاني : في مرية من أن النار موعد الكفار ، قاله الكلبي ، وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به جميع المكلفين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(13/375)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أفمن كان على بيِّنة من ربه ﴾

في المراد بالبينة أربعة أقوال :

أحدها : أنها الدين ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله الضحاك .

والثالث : القرآن ، قاله ابن زيد .

والرابع : البيان ، قاله مقاتل .

وفي المشار إليه ب "مَنْ" قولان :

أحدهما : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن عباس والجمهور .

والثاني : أنهم المسلمون ، وهو يخرَّج على قول الضحاك .

وفي قوله : ﴿ ويتلوه ﴾ قولان :

أحدهما : يتبعه .

والثاني : يقرؤه .

وفي هاء "يتلوه" قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

والثاني : إلى القرآن ، وقد سبق ذكره في قوله : ﴿ فأْتوا بعشرِ سُوَرٍ مثلِهِ مفتريات ﴾ [هود 13] .

وفي المراد بالشاهد ثمانية أقوال :

أحدها : أنه جبريل ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، وإبراهيم في آخرين .

والثاني : أنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يتلو القرآن ، قاله علي بن أبي طالب ، والحسن ، وقتادة في آخرين .

والثالث : أنه علي بن أبي طالب .

و"يتلوه" بمعنى يتبعه ، رواه جماعة عن علي بن أبي طالب ، وبه قال محمد بن علي ، وزيد بن علي .

والرابع : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو شاهد من الله تعالى ، قاله الحسين بن علي عليه السلام .

والخامس : أنه ملَك يحفظه ويسدده ، قاله مجاهد .

والسادس : أنه الإنجيل يتلو القرآن بالتصديق ، وإن كان قد أُنزل قبله ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم بشَّرت به التوراة ، قاله الفراء .

والسابع : أنه القرآن ونظمه وإعجازه ، قاله الحسين بن الفضل .

والثامن : أنه صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه ومخايله ، لأن كل عاقل نظر إليه علم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي هاء "منه" ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها ترجع إلى الله تعالى .

والثاني : إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

(14/375)

والثالث : إلى البيّنة .

قوله تعالى : ﴿ ومِنْ قبله ﴾ في هذه الهاء ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها ترجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، قاله مجاهد .

والثاني : إلى القرآن ، قاله ابن زيد .

والثالث : إلى الإنجيل ، أي : ومن قبل الإنجيل ﴿ كتاب موسى ﴾ يتبع محمداً بالتصديق له ، ذكره ابن الأنباري .

قال الزجاج : والمعنى : وكان من قبل هذا كتاب موسى دليلاً على أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، فيكون "كتاب موسى" عطفا على قوله : ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ أي : ويتلوه

كتاب موسى ، لأن موسى وعيسى بشَّرا بالنبي صلى الله عليه وسلم في التوراة والإِنجيل .

ونصب "إِماما" على الحال .

فإن قيل : كيف تتلوه التوراة ، وهي قبله ؟

قيل : لما بشَّرت به ، كانت كأنها تالية له ، لأنها تبعته بالتصديق له .

وقال ابن الأنباري : ﴿ كتاب موسى ﴾ ، مفعول في المعنى ، لأن جبريل تلاه على موسى ، فارتفع الكتاب ، وهو مفعول بمضمر بعده ، تأويله : ومن قبله كتاب موسى كذاك ، أي : تلاه جبريل أيضاً ، كما تقول العرب : أكرمت أخاك وأبوك ، فيرفعون الأب ، وهو مكرَم على الاستئناف ، بمعنى : وأبوك مكرَم أيضاً .

قال : وذهب قوم إِلى أن كتاب موسى فاعل ، لأنه تلا محمداً بالتصديق كما تلاه الإِنجيل .

فصل

فتلخيص الآية : أفمن كان على بيِّنة من ربه كمن لم يكن ؟ قال الزجاج : ترك المضادَّ له ، لأن في ما بعده دليلاً عليه ، وهو قوله : ﴿ مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم ﴾ [هود 24] .

وقال ابن قتيبة : لما ذكر قبل هذه الآية قوما ركنوا إِلى الدنيا ، جاء بهذه الآية ، وتقدير الكلام : أفمن كانت هذه حاله كمن يريد الدنيا ؟ فاكتفى من الجواب بما تقدم ، إِذ كان فيه دليل عليه .

وقال ابن الأنباري : إِنما حُذف لانكشاف المعنى ، والمحذوف المقدَّر كثير في القرآن والشعر

، قال الشاعر :

فأُقْسِمُ لَوْ شيءٌ أتانا رَسُولُه . . .

سِواكِ ، ولَكِن لم نَجِدْ لكِ مَدْفعا

(15/375)

فإن قلنا : إن المراد بمن كان على بيّنة من ربه ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمعنى الآية : ويتبع هذا النبيَّ شاهد ، وهو جبريل عليه السلام .

"منه" أي : من الله .

وقيل : "شاهد" هو علي بن أبي طالب ، "منه" أي : من النبي صلى الله عليه وسلم .

وقيل : "يتلوه" يعني القرآن ، يتلوه جبريل ، وهو شاهد لمحمد صلى الله عليه وسلم أن الذي يتلوه جاء من عند الله تعالى .

وقيل .

ويتلو رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن وهو شاهد من الله .

وقيل ويتلو لسانُ رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآنَ ، فلسانه شاهد منه .

وقيل : ويتبع محمداً شاهد له بالتصديق ، وهو الإنجيل من الله تعالى .

وقيل ويتبع هذا النبي شاهد من نفسه ، وهو سَمْتُه وهديه الدالُّ على صدقه .

وإن قلنا : إن المراد بمن كان على بيّنة من ربه المسلمون ، فالمعنى : أنهم يتبعون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو البيّنة ، ويتبع هذا النبي شاهد له بصدقه .

قوله تعالى : ﴿ إماماً ورحمة ﴾ إنما سماه إماماً ، لأنه كان يهتدى به ، "ورحمة" أي : وذا رحمة ، وأراد بذلك التوراة ، لأنها كانت إماما وسبباً لرحمة من آمن بها .

قوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه إشارة إلى أصحاب موسى .

والثاني : إلى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

والثالث : إلى أهل الحق من أُمة موسى وعيسى ومحمد .

وفي هاء "به" ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى التوراة .

والثاني إلى القرآن .

والثالث : إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

وفي المراد بالأحزاب هاهنا أربعة أقوال .

أحدها : جميع الملل ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : اليهود والنصارى ، قاله قتادة .

والثالث : قريش ، قاله السدي .

والرابع : بنو أُمية ، وبنو المغيرة بن عبد الله المخزومي ، وآل أبي طلحة بن عبد العُزّى ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ فالنار موعده ﴾ أي : إليها مصيره ، قال حسان بن ثابت :

(16/375)

أَوْرَدْتُمُوها حِيَاضَ المَوْتِ ضَاحِيَةً . . .

فالنَّار مَوْعِدُها والمَوْتُ لاَقِيهَا

قوله تعالى : ﴿ فلا تك في مرية منه ﴾ قرأ الحسن ، وقتادة : "مُرية" بضم الميم أين وقع .

وفي المكني عنه قولان :

أحدهما : أنه الإخبار بمصير الكافر به ، فالمعنى : فلا تك في شك أن موعد المكذِّب به النار ، وهذا قول ابن عباس .

والثاني : أنه القرآن ، فالمعنى : فلا تك في شك من أن القرآن من الله تعالى ، قاله مقاتل .

قال ابن عباس : والمراد بالناس ها هنا : أهل مكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾

ابتداء والخبر محذوف ؛ أي أفمن كان على بينة من ربه في اتباع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ومعه من الفضل ما يتَبيّن به كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها ؟! عن علي بن الحسين والحسن بن أبي الحسن .

وكذلك قال ابن زيد : إن الذي على بيّنة هو من اتبع النبيّ محمداً صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ من الله ، وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقيل المراد بقوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والكلام راجع إلى قوله : ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ ؛ أي أفمن كان معه بيان من الله ، ومعجزة كالقرآن ، ومعه شاهد كجبريل على ما يأتي وقد بشرت به الكتب السالفة يضيق صدره بالإبلاغ ، وهو يعلم أن الله لا يُسْلِمه .

والهاء في ﴿ ربّه ﴾ تعود عليه ، وقوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ .

وروى عِكرمة عن ابن عباس أنه جبريل ؛ وهو قول مجاهد والنَّخَعِيّ .

والهاء في ﴿ منه ﴾ لله عز وجل ؛ أي ويتلو البيان والبرهان شاهد من الله عز وجل .

وقال مجاهد : الشاهد ملَك من الله عزّ وجلّ يحفظه ويُسدّده .

وقال الحسن البصري وقَتَادة : الشاهد لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال محمد بن علي بن الحنفية : قلت لأبي أنت الشاهد ؟ فقال : وددت أن أكون أنا هو ، ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل : هو علي بن أبي طالب ؛ روي عن ابن عباس أنه قال : هو علي بن أبي طالب ؛ وروي عن عليّ أنه قال : ما من رجل من قريش إلا وقد أنزلت فيه الآية والآيتان ؛ فقال له رجل : أي شيء نزل فيك ؟ فقال عليّ : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ .

(18/375)

وقيل : الشاهد صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه ومخائله ؛ لأن من كان له فضل وعقل فنظر إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم علم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالهاء على هذا ترجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، على قول ابن زيد وغيره .

وقيل الشاهد القرآن في نظمه وبلاغته ، والمعاني الكثيرة منه في اللفظ الواحد ؛ قاله الحسين بن الفضل ، فالهاء في ﴿ منه ﴾ للقرآن .

وقال الفرّاء قال بعضهم : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ الإنجيل ، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق ؛ والهاء في ﴿ منه ﴾ لله عزّ وجلّ .

وقيل : البيّنة معرفة الله التي أشرقت لها القلوب ، والشاهد الذي يتلوه العقلُ الذي رُكّب في دماغه وأشرق صدره بنوره .

﴿ وَمِن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل الإنجيل .

﴿ كِتَابُ موسى ﴾ رفع بالابتداء ، قال أبو إسحق الزجاج : والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم موصوف في كتاب موسى

﴿ يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل ﴾ [الأعراف : 157] .

وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى ﴾ بالنصب ؛ وحكاها المهدويّ عن الكَلْبيّ ؛ يكون معطوفاً على الهاء في ﴿ يَتْلُوهُ ﴾ والمعنى : ويتلو كتابَ موسى جبريلُ عليه السلام ؛ وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما ؛ المعنى من قبله تلا جبريلُ كتابَ موسى على موسى .

ويجوز على ما ذكره ابن عباس أيضاً من هذا القول أن يُرفع ﴿ كتاب ﴾ على أن يكون المعنى : ومن قبله كتاب موسى كذلك ؛ أي تلاه جبريل على موسى كما تلا القرآن على محمد .

﴿ إِمَاماً ﴾ نصب على الحال .

﴿ وَرَحْمَةً ﴾ معطوف .

﴿ أولئك يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ إشارة إلى بني إسرائيل ، أي يؤمنون بما في التوراة من البشارة بك ؛ وإنما كفر بك هؤلاء المتأخرون فهم الذين موعدهم النار ؛ حكاه القشيريّ .

والهاء في ﴿ به ﴾ يجوز أن تكون للقرآن ، ويجوز أن تكون للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

(19/375)

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ﴾ أي بالقرآن أو بالنبيّ عليه السلام .

﴿ مِنَ الأحزاب ﴾ يعني من الملل كلها ؛ عن قَتَادة ؛ وكذا قال سعيد بن جُبَير : ﴿ الأحزاب ﴾ أهل الأديان كلها ؛ لأنهم يتحازبون .

وقيل : قريش وحلفاؤهم .

﴿ فالنار مَوْعِدُهُ ﴾ أي هو من أهل النار ؛ وأنشد حسان :

أَوردتموها حياضَ الموتِ ضاحية . . .

فالنارُ موعدُها والموتُ لاقيها

وفي صحيح مسلم من حديث أبي يونس عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : " والذي نفس محمد بيده لاَ يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصرانيٌّ (ثم يموت) ولم

يؤمن بالذي أُرسلتُ به إلاّ كان من أصحاب النار " .

﴿ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ ﴾ أي في شك .

﴿ مِّنْهُ ﴾ أي من القرآن .

﴿ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ أي القرآن من الله ؛ قاله مقاتل .

وقال الكَلْبيّ : المعنى فلا تك في مرية في أن الكافر في النار .

﴿ إِنَّه الْحَقُّ ﴾ أي القول الحق الكائن ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد جميع المكلَّفين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(20/375)

وقال ابن جزى :

﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾

والمراد بمن كان على بينة من ربه : النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون لقوله بعد ذلك ﴿ أولئك يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ ، ومعنى البينة : البرهان العقلي والأمر الجلي ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ الضمير في يتلوه للبرهان وهو البينة ولمن كان على بينةمن ربه ، والضمير في منه للرب تعالى ، ويتلوه هنا بمعنى يتبعه ، والشاهد : يريد به القرآن فالمعنى يتبع ذلك البرهان شاهد

من الله وهو القرآن ، فيزيد وضوحه وتعظم دلالته ، وقيل : إن الشاهد المذكور هنا هو علي بن أبي طالب (1)

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كتاب موسى ﴾ أي ومن قبل ذلك الكتاب الشاهد كتاب موسى ، وهو أيضاً دليل آخر متقدم ، وقد قيل : أقوال كثيرة في معنى هذه الآية وأرجحها ما ذكرنا ﴿ وَمِنَ الأحزاب ﴾ [الرعد : 36] أي من أهل مكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 103.102 ﴾

---

(1) كلام فى غاية البعد . والله أعلم .

(21/375)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾

لما ذكر الله سبحانه وتعالى : في الآية المقتدمة الذين يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ذكر في هذه الآية من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة فقال سبحانه وتعالى افمن كان على بينة من ربه أي كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم في الآخرة إلا النار وإنما حذف هذا الجواب لظهوره ودلالة الكلام عليه وقيل معناه أفمن كان على بينة من ربه

وهو النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه كمن هو في ضلالة وكفر والمراد بالبينة الدين الذي أمر الله به نبيه (صلى الله عليه وسلم) وقيل المراد بالبينة اليقين يعني أنه على يقين من ربه أنه على الحق ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ يعني ويتبعه من يشهد له بصدقه واختلفوا في الشاهد من هو ، فقال ابن عباس وعلقمة وإبراهيم ومجاهد وعكرمة والضحاك وأكثر المفسرين : أنه جبريل عليه السلام يريد أن جبريل يتبع النبي (صلى الله عليه وسلم) ويؤيده ويسدده ويقويه وقال الحسن وقتادة هو لسان النبي (صلى الله عليه وسلم) وروي عن محمد بن الحنفية قال قلت لأبي يعني علي بن أبي طالب رضي الله تعالى : عنه أنت التالي ؟ قال : وما تعني بالتالي ؟ قلت : قوله سبحانه وتعالى ويتلوه شاهد منه قال وددت أني هو ولكنه لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ووجه هذا القول إن اللسان لما كان يعرف عما في الجنان ويظهره جعل كالشاهد له لأن اللسان هو آلة الفضل والبيان وبه يتلى القرآن وقال مجاهد الشاهد هو ملك يحفظ النبي (صلى الله عليه وسلم) ويسدده وقال الحسين بن الفضل : الشاهد هو القرآن لأن إعجازه وبلاغته وحسن نظامه يشهد للنبي (صلى الله عليه وسلم) بنبوته ولأنه أعظم معجزاته الباقية على طول الدهر ، وقال الحسين بن علي وابن زيد : الشاهد منه هو محمد (صلى الله عليه وسلم) ووجه هذا القول أن من نظر إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) بعين العقل والبصيرة علم أنه ليس بكذاب ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون ، وقال جابر بن

(22/375)

عبد الله قال علي بن أبي طالب : ما من رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه الآية والآيتان فقال له رجل وأنت أي آية نزلت فيك فقال على ما تقرأ الآية التي في هود ويتلوه شاهد منه فعلى هذا القول يكون الشاهد علي بن أبي طالب وقوله يعني من النبي (صلى الله عليه وسلم) والمراد تشريف هذا الشاهد وهو علي لاتصاله بالنبي (صلى الله عليه وسلم) وقيل يتلوه شاهد منه يعني الإنجيل وهو اختيار الفراء والمعنى أن الإنجيل يتلو القرآن في التصديق بنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) والأمر بالإيمان به وإن كان قد نزل قبل القرآن .

(23/375)

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ومن قبله ﴾ يعني ومن قبل نزول القرآن وإرسال محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ كتاب موسى ﴾ يعني التوراة ﴿ إماماً ورحمة ﴾ يعني أنه كان إماماً لهم يرجعون إليه في أمور الدين والأحكام والشرائع وكونه رحمة لأنه الهادي من الضلال

وذلك سبب حصول الرحمة وقوله تعالى : ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ يعني أن الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم هم المشار إليهم بقوله ولئك يؤمنون به يعني بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وقيل أراد الذين أسلموا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ ومن يكفر به ﴾ يعني بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ من الأحزاب ﴾ يعني من جميع الكفار وأصحاب الأديان المختلفة فتدخل فيه اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وغيرهم والأحزاب والفرق الذين تحزبوا وتجمعوا على مخالفة الأنبياء ﴿ فالنار موعده ﴾ يعني في الآخرة روى البغوي بسنده عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار " قال سعيد بن جبير : ما بلغني حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله حتى بلغني هذا الحديث لا يسمع بي أحد من هذه الأمة الحديث ، قال سعيد : فقلت أين هذا في كتاب الله حتى أتيت على هذه الآية ﴿ ومن قبله كتاب موسى ﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ قال فالأحزاب أهل الملل كلها ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿ فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ﴾ فيه قولان أحدهما أن معناه فلا تك في شك من صحة هذا الدين ومن كون القرآن نازلاً من عند الله فعلى هذا

القول يكون متعلقاً بما قبله من قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ والقول الثاني : إنه راجع إلى قوله ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ يعني فلا تك في شك من أن النار

(24/375)

موعد من كفر من الأحزاب والخطاب في قوله ﴿ فلا تك في مرية ﴾ للنبي (صلى الله عليه وسلم) والمراد به غيره لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يشك قط ويعضد هذا القول سياق الآية وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ يعني لا يصدقون بما أوحينا إليك أو من أن موعد الكفار النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(25/375)

وقال أبو حيان :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾

لمّا ذكر حال من يريد الحياة الدنيا ذكر حال من يريد وجه الله تعالى بأعماله الصالحة ،

وحذف المعادل الذي دخلت عليه الهمزة والتقدير : كمن يريد الحياة الدنيا .

وكثيراً ما حذف في القرآن كقوله : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ وقوله : ﴿ أمّن هو قانت آناء الليل ﴾ وهذا استفهام معناه التقرير .

قال الزمخشري : أي ، لا تعقبونهم في المنزلة ولا تفارقونهم ، يريد أنّ بين الفريقين تفاوتاً بعيداً وتبايناً بيناً ، وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره ، كان على بينة من ربه أي : على برهان من الله تعالى وبيان أن دين الإسلام حق وهو دليل العقل ، ويتلوه ويتبع ذلك البرهان شاهد منه أي : شاهد يشهد بصحته وهو القرآن منه من الله ، أو شاهد من القرآن ومن قبله .

ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة أي : ويتلو ذلك أيضاً من قبل القرآن كتاب موسى .

وقرىء كتاب موسى بالنصب ، ومعناه كان على بينة من ربه وهو الدليل على أنّ القرآن حق ، ويتلوه ويقرأ القرآن شاهد منه ، شاهد ممن كان على بينة كقوله : ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ ﴿ ومن قبله كتاب موسى ﴾ ويتلوه ومن قبل التوراة إماماً كتاباً مؤتماً في الدين قدوة فيه انتهى .

وقيل في أفمن كان : المؤمنون بالرسول ، وقيل : محمد (صلى الله عليه وسلم) خاصة .

وقال علي بن أبي طالب ، وابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك : محمد والمؤمنون جميعاً ، والبينة القرآن أو الرسول ، والهاء للمبالغة والشاهد .

قال ابن عباس ، والنخعي ، ومجاهد ، والضحاك ، وأبو صالح ، وعكرمة : هو جبريل .

وقال الحسن بن علي : هو الرسول .

وقال أيضاً مجاهد : هو ملك وكله الله بحفظ القرآن .

(26/375)

قال ابن عطية : ويحتمل أن يريد بهذه الألفاظ جبريل ، وقيل : هو علي بن أبي طالب .

وروى المنهال عن عبادة بن عبد الله ، قال علي كرم الله وجهه : ما في قريش أحد إلا وقد نزلت فيه آية قيل : فما نزل فيك ؟ قال : ويتلوه شاهد منه ، وبه قال محمد بن علي وزيد بن علي .

وقيل : هو الإنجيل قاله : الفراء .

وقيل : هو القرآن ، وقيل : هو إعجاز القرآن قاله الحسين بن الفضل ، وقيل : صورة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ووجهه ومخايله ، لأنّ كل عاقل نظر إليه علم أنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل : هو أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، والضمير في منه يعود إلى الدين أو إلى الرسول ، أو إلى القرآن .

ويتلوه بمعنى يتبعه ، أو يقرؤه ، والضمير المرفوع في يتلوه والمنصوب والمجرور في منه يترتب على ما يناسبه كل قوم من هذه .

وقرأ محمد بن السائب الكلبي وغيره : كتاب موسى بالنصب عطفاً على مفعول يتلوه ، أو بإضمار فعل .

وإذا لم يعن بالشاهد الإنجيل فإنما خص التوراة بالذكر ، لأنّ الملتين مجتمعتان على أنها من عند الله ، والإنجيل يخالف فيه اليهود ، فكان الاستشهاد بما تقوم به الحجة على الفريقين أولى .

وهذا يجري مع قول الجن : ﴿ إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ﴾ ومع قول النجاشي : إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة .

وانتصب إماماً على الحال ، والذي يظهر في تفسير هذه الآية أنه تعالى لما ذكر الكفار وأنهم ليس لهم إلا النار ، أعقب بضدهم وهم المؤمنون ، وهم الذين على بينة من ربهم ، والشاهد القرآن ، ومنه عائد على ربه .

ويدل على أنّ الشاهد القرآن ذكر قوله : ومن قبله ، أي : ومن قبل القرآن كتاب موسى ،

فمعناه : أنه تظافر على هدايته شيئان : كونه على أمر واضح من برهان العقل ، وكونه يوافق ذلك البرهان هذين الكتابين الإلهيين القرآن والتوراة ، فاجتمع له العقل والنقل .

(27/375)

والإشارة بأولئك إلى من كان على بينة راعى معنى مع ، فجمع والضمير في به يعود إلى التوراة ، أو إلى القرآن ، أو إلى الرسول ، ثلاثة أقوال .

والأحزاب جميع الملل قاله : ابن جبير ، أو اليهود ، والنصارى ، قاله قتادة .

أو قريش قاله : السدي ، أو بنو أمية وبنو المغيرة بن عبد الله المخزومي ، وآل أبي طلحة بن عبيد الله ، قاله مقاتل .

وقال الزمخشري : يعني أهل مكة ومن ضامّهم من المتحزبين على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) انتهى .

فالنار موعده أي : مكان وعده الذي يصيرون إليه .

وقال حسان :

أوردتمونا حياض الموت ضاحية . . .

فالنار موعدها والموت لاقيها

والضمير في منه عائد على القرآن ، وقيل : على الخبر ، بأن الكفار موعدهم النار .

وقرأ الجمهور : في مرية بكسر الميم ، وهي لغة الحجاز .

وقرأ السلمي ، وأبو رجاء ، وأبو الخطاب السدوسي ، والحسن : بضمها وهي لغة أسد وتميم والناس أهل مكة قاله : ابن عباس ، أو جميع الكفار من شاك وجاهل ومعاند قاله : صاحب العينان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(28/375)

فَصْلٌ :

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية :

قَوْله تَعَالَى ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾

وَهَذَا يَعُمُّ جَمِيعَ مَنْ هُوَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ . فَالْبَيِّنَةُ الْعِلْمُ النَّافِعُ وَالشَّاهِدُ الَّذِي يَتْلُوهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَذَلِكَ يَتَنَاوَلُ الرَّسُولَ وَمَنْ اتَّبَعَهُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَإِنَّ الرَّسُولَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَمُتَّبِعِيهِ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ . وَقَالَ فِي حَقِّ الرَّسُولِ : ﴿ قُلْ إنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ وَقَالَ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ فَذَكَرَ هَذَا بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الصِّنْفَيْنِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ فَقَالَ : ﴿ الَّذِينَ

كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ الْآيَاتُ . إلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ .

(29/375)

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : لَا تَهْلَكُ أُمَّةٌ حَتَّى يَتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَيَتْرُكُوا مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ أَنْبِيَاؤُهُمْ مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ فَمَنْ اتَّبَعَهُ يَدْعُو إلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ وَالْبَصِيرَةُ هِيَ الْبَيِّنَةُ . وَقَالَ : ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ الْآيَةُ . فَالنُّورُ الَّذِي يَمْشِي فِي النَّاسِ هُوَ الْبَيِّنَةُ وَالْبَصِيرَةُ وَقَالَ : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الْآيَةُ . قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَغَيْرُهُ : هُوَ مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ وَهُوَ نُورُهُ الَّذِي فِي قَلْبِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ النَّاشِئِ عَنْ الْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ . وَذَلِكَ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّهِ . وَقَالَ : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ فَهَذَا النُّورُ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ وَشَرْحُ الصَّدْرِ لِلْإِسْلَامِ هُوَ الْبَيِّنَةُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ الْهُدَى الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ وَاسْتَعْمَلَ فِي هَذَا حَرْفَ الِاسْتِعْلَاءِ

لِأَنَّ الْقَلْبَ لَا يَسْتَقِرُّ وَلَا يَثْبُتُ إلَّا إذَا كَانَ عَالِمًا مُوقِنًا بِالْحَقِّ فَيَكُونُ الْعِلْمُ وَالْإِيمَانُ صِبْغَةً لَهُ يَنْصَبِغُ بِهَا كَمَا قَالَ : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ وَيَصِيرُ مَكَانَةً لَهُ كَمَا قَالَ : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وَالْمَكَانُ وَالْمَكَانَةُ قَدْ يُرَادُ بِهِ مَا يَسْتَقِرُّ الشَّيْءُ عَلَيْهِ وَإِنْ لَمْ

(30/375)

يَكُنْ مُحِيطًا بِهِ كَالسَّقْفِ مَثَلًا وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا يُحِيطُ بِهِ . فَالْمُهْتَدُونَ لَمَّا كَانُوا عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَنُورٍ وَبَيِّنَةٍ وَبَصِيرَةٍ صَارَ

(31/375)

مَكَانَةً لَهُمْ اسْتَقَرُّوا عَلَيْهَا وَقَدْ تُحِيطُ بِهِمْ بِخِلَافِ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ ثَابِتًا مُسْتَقِرًّا مُطْمَئِنًّا بَلْ هُوَ كَالْوَاقِفِ عَلَى حَرْفِ الْوَادِي وَهُوَ جَانِبُهُ فَقَدْ يَطْمَئِنُّ إذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ وَقَدْ يَنْقَلِبُ عَلَى وَجْهِهِ سَاقِطًا فِي الْوَادِي . وَكَذَلِكَ فَرَّقَ بَيْنَ مَنْ ﴿ أَسَّسَ

بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ﴾ وَبَيْنَ ﴿ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ وَكَذَلِكَ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَهُمْ مِنْهَا وَشَوَاهِدُ هَذَا كَثِيرٌ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الرَّسُولَ وَمَنْ اتَّبَعَهُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ وَبَصِيرَةٍ وَهُدًى وَنُورٍ وَهُوَ الْإِيمَانُ الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ وَالْعِلْمُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ وَالضَّمِيرُ فِي (مِنْهُ عَائِدٌ إلَى اللَّهِ تَعَالَى أَيْ : وَيَتْلُو هَذَا الَّذِي هُوَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ شَاهِدٌ مِنْ اللَّهِ وَالشَّاهِدُ مِنْ اللَّهِ كَمَا أَنَّ الْبَيِّنَةَ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا الْمَذْكُورَةَ مِنْ اللَّهِ أَيْضًا . وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ : " الشَّاهِدُ " مِنْ نَفْسِ الْمَذْكُورِ وَفَسَّرَهُ بِلِسَانِهِ أَوْ بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَهَذَا ضَعِيفٌ لِأَنَّ كَوْنَ شَاهِدِ الْإِنْسَانِ مِنْهُ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدُ صَادِقًا فَإِنَّهُ مِثْلَ شَهَادَةِ

(32/375)

الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ بِخِلَافِ مَا إذَا كَانَ الشَّاهِدُ مِنْ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَكُونُ هُوَ الشَّاهِدُ وَهَذَا كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ إنَّهُ عَلِيٌّ فَهَذَا ضَعِيفٌ لِأَنَّ شَهَادَةَ قَرِيبٍ لَهُ قَدْ اتَّبَعَهُ عَلَى دِينِهِ وَلَمْ يَهْتَدِ إلَّا بِهِ لَا تَكُونُ بُرْهَانًا لِلصِّدْقِ وَلَا حُجَّةً عَلَى الْكُفْرِ بِخِلَافِ شَهَادَةِ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ شَهَادَتُهُمْ بُرْهَانٌ وَرَحْمَةٌ كَمَا قَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ وَقَالَ : ﴿

وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الْآيَةُ . وَقَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ وَهَذَا الشَّاهِدُ مِنْ اللَّهِ هُوَ الْقُرْآنُ . وَمَنْ قَالَ : إنَّهُ جِبْرِيلُ فَجِبْرِيلُ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ بَلْ هُوَ الَّذِي بَلَّغَ الْقُرْآنَ عَنْ اللَّهِ وَجِبْرِيلُ يَشْهَدُ أَنَّ الْقُرْآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ اللَّهِ وَأَنَّهُ حَقٌّ كَمَا قَالَ : ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ وَالَّذِي قَالَ هُوَ جِبْرِيلُ . قَالَ : يَتْلُوهُ أَيْ يَقْرَؤُهُ كَمَا قَالَ : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ أَيْ إذَا قَرَأَهُ جِبْرِيلُ فَاتَّبِعْ مَا قَرَأَهُ . وَقَالَ : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ . وَمَنْ قَالَ : الشَّاهِدُ لِسَانُهُ

(33/375)

وَجَعَلَ الضَّمِيرَ الْمَذْكُورَ عَائِدًا عَلَى الْقُرْآنِ وَلَمْ يَذْكُرْ لِأَنَّهُ جَعَلَ الْبَيِّنَةَ هِيَ الْقُرْآنُ وَلَوْ كَانَتْ الْبَيِّنَةُ هِيَ الْقُرْآنُ

(34/375)

لَمَا احْتَاجَ إلَى ذَلِكَ وَقَدْ قَالَ : عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ فَقَدْ ذَكَرَ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ اللَّهِ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَكِلَاهُمَا بَلَغَهُ وَقَرَأَهُ فَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ جِبْرِيلُ أَوْ مُحَمَّدٌ تَكْرِيرٌ لَا فَائِدَةَ فِيهِ وَلِهَذَا لَمْ يَذْكُرْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ . وَأَيْضًا فَكَوْنُهُ عَلَى الْقُرْآنِ لَمْ نَجِدْ لِذَلِكَ نَظِيرًا فِي الْقُرْآنِ فَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ وَاحِدٌ لَا يَكُونُ عَلَيْهِ وَإِذَا كَانَ الْمُرَادُ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ وَالْعَمَلِ بِهِ فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ : أَنَّ الْبَيِّنَةَ هِيَ الْإِيمَانُ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَهُوَ إخْبَارُهُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ . وَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ لَمْ يَكُنْ قَدْ نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ قَبْلَهَا إلَّا بَعْضُهُ وَكَانَ الْمَأْمُورُ بِهِ حِينَئِذٍ هُوَ الْإِيمَانُ بِمَا نَزَلَ مِنْهُ فَمَنْ آمَنَ حِينَئِذٍ بِذَلِكَ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ . وَأَيْضًا فَتَسْمِيَةُ جِبْرِيلَ شَاهِدًا لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْقُرْآنِ وَكَذَلِكَ تَسْمِيَةُ لِسَانِ الرَّسُولِ شَاهِدًا وَتَسْمِيَةُ عَلِيٍّ شَاهِدًا لَا يُوجَدُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِخِلَافِ شَهَادَةِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ بِشَهَادَتِهِ لِرَسُولِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَسَمَّى مَا أَنْزَلَهُ شَهَادَةً مِنْهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ وَأَخْبَرَ فِيهِ بِمَا أَخْبَرَ شَهَادَةً مِنْهُ .

(35/375)

وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَحْكُمُ وَيَشْهَدُ وَيُفْتِي وَيَقُصُّ وَيُبَشِّرُ وَيَهْدِي بِكَلَامِهِ وَيَصِفُ كَلَامَهُ بِأَنَّهُ يَحْكُمُ وَيُفْتِي وَيَقُصُّ وَيَهْدِي وَيُبَشِّرُ وَيُنْذِرُ كَمَا قَالَ : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ ﴿ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ . وَكَذَلِكَ سَمَّى الرَّسُولَ هَادِيًا فَقَالَ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ كَمَا سَمَّاهُ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَسَمَّى الْقُرْآنَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَكَذَلِكَ لَمَّا كَانَ هُوَ يَشْهَدُ لِلرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِكَلَامِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ وَكَانَ كَلَامُهُ شَهَادَةً مِنْهُ : كَانَ كَلَامُهُ شَاهِدًا مِنْهُ كَمَا كَانَ يَحْكُمُ وَيُفْتِي وَيَقُصُّ وَيُبَشِّرُ وَيُنْذِرُ . وَلَمَّا قِيلَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ حَكَّمْتَ مَخْلُوقًا قَالَ : مَا حَكَّمْتُ مَخْلُوقًا وَإِنَّمَا حَكَّمْتُ الْقُرْآنَ . فَإِنَّ الَّذِي يَحْكُمُ بِهِ الْقُرْآنُ هُوَ حُكْمُ اللَّهِ وَالَّذِي يَشْهَدُ بِهِ الْقُرْآنُ هُوَ شَهَادَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ - وَقَدْ كَانَ إِمَامًا وَأَخَذَ التَّفْسِيرَ عَنْ أَبِيهِ زَيْدٍ وَكَانَ زَيْدٌ إِمَامًا فِيهِ وَمَالِكٌ وَغَيْرُهُ أَخَذُوا عَنْهُ التَّفْسِيرَ وَأَخَذَهُ عَنْهُ عَبْدُ اللَّهِ

(36/375)

ابْنُ وَهْبٍ صَاحِبُ مَالِكٍ وأصبغ بْنُ الْفَرَجِ الْفَقِيهُ . قَالَ - فِي قَوْله تَعَالَى ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : "كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ " وَالْقُرْآنُ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ أَيْضًا ؛ لِأَنَّهُ مِنْ اللَّهِ . وَقَدْ ذَكَرَ الزَّجَّاجُ فِيمَا ذَكَرَهُ مِنْ الْأَقْوَالِ : وَيَتْلُو رَسُولُ اللَّهِ الْقُرْآنَ وَهُوَ شَاهِدٌ مِنْ اللَّهِ . وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ هُوَ مُحَمَّدٌ ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ الْقُرْآنُ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ وَمُجَاهِدٍ وَأَبِي صَالِحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَعِكْرِمَةَ وَالضَّحَّاكِ وقتادة والسدي وخصيف وَابْنِ عُيَيْنَةَ نَحْوُ ذَلِكَ . وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ صَحِيحٌ ؛ وَلَكِنْ لَا يَقْتَضِي ذَلِكَ أَنَّ الْمُتَّبِعِينَ لَهُ لَيْسُوا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ ؛ بَلْ هُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ . وَقَدْ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ قَالَ : الْمُؤْمِنُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَرُوِيَ عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا شَاهِدٌ مِنْ اللَّهِ ؛ وَهِيَ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الَّذِي عَلَى الْبَيِّنَةِ مَنْ شَهِدَ لَهُ . وَقَوْلُ الْقَائِلِ : مَنْ قَالَ هُوَ مُحَمَّدٌ كَقَوْلِ مَنْ قَالَ هُوَ جِبْرِيلُ ؛ فَإِنَّ كِلَاهُمَا بَلَّغَ الْقُرْآنَ وَاللَّهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنْ النَّاسِ

(37/375)

فَاصْطَفَى جِبْرِيلَ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَاصْطَفَى مُحَمَّدًا مِنْ النَّاسِ . وَقَالَ فِي جِبْرِيلَ : ﴿ إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ وَقَالَ فِي مُحَمَّدٍ : ﴿ إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ وَكِلَاهُمَا رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ ؛ كَمَا قَالَ ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ فَكِلَاهُمَا رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ بَلَّغَ مَا أُرْسِلَ بِهِ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ وَأَمَّا شَهَادَتُهُمْ بِمَا شَهِدَ بِهِ الْقُرْآنُ فَهَذَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يَشْهَدُ بِكُلِّ مَا شَهِدَ بِهِ الْقُرْآنُ ؛ لِكَوْنِهِ آمَنَ بِهِ سَوَاءٌ كَانَ قَدْ بَلَّغَهُ أَوْ لَمْ يُبَلِّغْهُ . وَلِهَذَا كَانَ إيمَانُ الرَّسُولِ بِمَا جَاءَ بِهِ غَيْرَ تَبْلِيغِهِ لَهُ وَهُوَ مَأْمُورٌ بِهَذَا وَبِهَذَا وَلَهُ أَجْرٌ عَلَى هَذَا وَهَذَا كَمَا قَالَ : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ وَلِهَذَا كَانَ يَقُولُ أَشْهَدُ أَنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ فَشَهَادَةُ جِبْرِيلَ وَمُحَمَّدٍ بِمَا شَهِدَ بِهِ الْقُرْآنُ مِنْ جِهَةِ إيمَانِهِمَا بِهِ لَا مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِمَا مُرْسَلَيْنِ بِهِ فَإِنَّ الْإِرْسَالَ بِهِ يَتَضَمَّنُ شَهَادَتَهُمَا أَنَّ اللَّهَ قَالَهُ وَقَدْ يُرْسِلُ غَيْرَ رَسُولٍ بِشَيْءٍ فَيَشْهَدُ الرَّسُولُ أَنَّ هَذَا كَلَامُ الْمُرْسِلِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ الْمُرْسَلُ صَادِقًا وَلَا حَكِيمًا ؛ وَلَكِنْ عُلِمَ أَنَّ جِبْرِيلَ وَمُحَمَّدًا يَعْلَمَانِ أَنَّ اللَّهَ صَادِقٌ حَكِيمٌ فَهُمَا يَشْهَدَانِ بِمَا شَهِدَ اللَّهُ بِهِ . وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ يَشْهَدُونَ بِأَنَّ مَا قَالَهُ

(38/375)

اللَّهُ فَهُوَ حَقٌّ

(39/375)

وَأَنَّ اللَّهَ صَادِقٌ حَكِيمٌ لَا يُخْبِرُ إِلَّا بِصِدْقٍ وَلَا يَأْمُرُ إِلَّا بِعَدْلٍ ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ شَهَادَةَ جِبْرِيلَ وَمُحَمَّدٍ هِيَ شَهَادَةُ الْقُرْآنِ وَشَهَادَةُ الْقُرْآنِ هِيَ شَهَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَالْقُرْآنُ شَاهِدٌ مِنْ اللَّهِ وَهَذَا الشَّاهِدُ يُوَافِقُ وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ الَّذِي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ؛ فَإِنَّ الْبَيِّنَةَ وَالْبَصِيرَةَ وَالنُّورَ وَالْهُدَى الَّذِي عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنُونَ قَدْ شَهِدَ الْقُرْآنُ الْمُنَزَّلُ مِنْ اللَّهِ بِأَنَّ ذَلِكَ حَقٌّ . ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ مَعْنَاهُ يَتَّبِعُهُ كَمَا قَالَ : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ أَيْ يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ وَقَالَ : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ أَيْ تَبِعَهَا وَهَذَا قَفَاهُ إذَا تَبِعَهُ . وَقَدْ قَالَ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ فَهَذَا الشَّاهِدُ يَتْبَعُ الَّذِي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ فَيُصَدِّقُهُ وَيُزَكِّيهِ وَيُؤَيِّدُهُ وَيُثَبِّتُهُ كَمَا قَالَ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ . وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ الْقُرْآنَ سُلْطَانًا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ فَإِذَا كَانَ السُّلْطَانُ الْمُنَزَّلُ مِنْ اللَّهِ يَتْبَعُ هَذَا الْمُؤْمِنَ كَانَ

ذَلِكَ مِمَّا يُوجِبُ قُوَّتَهُ وَتَسَلُّطَهُ عِلْمًا وَعَمَلًا وَقَالَ : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ

(40/375)

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(41/375)

﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ الْآيَةُ . وَقَالَ جُنْدُبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ : تَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا إِيمَانًا فَهُمْ كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ الْإِيمَانَ ثُمَّ يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ قَالَ : نُورُ الْقُرْآنِ عَلَى نُورِ الْإِيمَانِ كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وَقَالَ السدي فِي قَوْلِهِ : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ نُورُ الْقُرْآنِ وَنُورُ الْإِيمَانِ حِينَ اجْتَمَعَا فَلَا يَكُونُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا إِلَّا بِصَاحِبِهِ . فَتَبَيَّنَ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ يَعْنِي هُدَى الْإِيمَانِ ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ أَيْ مِنْ اللَّهِ يَعْنِي الْقُرْآنَ شَاهِدٌ مِنْ اللَّهِ يُوَافِقُ الْإِيمَانَ وَيَتْبَعُهُ وَقَالَ : ﴿ يَتْلُوهُ

﴿ لِأَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْمَقْصُودُ ؛ لِأَنَّهُ إنَّمَا يُرَادُ بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْإِيمَانُ وَزِيَادَتُهُ . وَلِهَذَا كَانَ الْإِيمَانُ بِدُونِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ يَنْفَعُ صَاحِبَهُ وَيُدْخِلُ بِهِ الْجَنَّةَ وَالْقُرْآنُ بِلَا إيمَانٍ لَا يَنْفَعُ فِي الْآخِرَةِ ؛ بَلْ صَاحِبُهُ مُنَافِقٌ ؛ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " ﴿ مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ

(42/375)

الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ

وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحَ لَهَا ﴾ " . وَلِهَذَا جَعَلَ الْإِيمَانَ " بَيِّنَةً " وَجَعَلَ الْقُرْآنَ شَاهِدًا ؛ لِأَنَّ الْبَيِّنَةَ مِنْ الْبَيَانِ و " الْبَيِّنَةُ " هِيَ السَّبِيلُ الْبَيِّنَةُ وَهِيَ الطَّرِيقُ الْبَيِّنَةُ الْوَاضِحَةُ وَهِيَ أَيْضًا مَا يُبِينُ بِهَا الْحَقُّ فَهِيَ بَيِّنَةٌ فِي نَفْسِهَا مُبَيِّنَةٌ لِغَيْرِهَا وَقَدْ تُفَسَّرُ بِالْبَيَانِ وَهِيَ الدَّلَالَةُ وَالْإِرْشَادُ ؛ فَتَكُونُ كَالْهُدَى كَمَا يُقَالُ : فُلَانٌ عَلَى هُدًى وَعَلَى عِلْمٍ ؛ فَيُفَسَّرُ بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ وَالصِّفَةِ وَالْفَاعِلِ .

(43/375)

وَمِنْهُ قَوْلُهُ : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ أَيْ بَيَانُ مَا فِيهَا أَوْ يُبَيِّنُ مَا فِيهَا أَوْ الْأَمْرُ الْبَيِّنُ فِيهَا وَقَدْ سَمَّى الرَّسُولَ بَيِّنَةً كَمَا قَالَ : ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ فَإِنَّهُ يُبَيِّنُ الْحَقَّ وَالْمُؤْمِنُ عَلَى سَبِيلٍ بَيِّنَةٍ وَنُورٍ مِنْ رَبِّهِ وَالشَّاهِدُ الْمَقْصُودُ بِهِ شَهَادَتُهُ لِلْمَشْهُودِ لَهُ فَهُوَ يَشْهَدُ لِلْمُؤْمِنِ بِمَا هُوَ عَلَيْهِ وَجُعِلَ الْإِيمَانُ مِنْ اللَّهِ كَمَا جُعِلَ الشَّاهِدُ مِنْ اللَّهِ لِأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْإِيمَانَ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ حُذَيْفَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " ﴿ إنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْإِيمَانَ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ فَعَلِمُوا مِنْ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنْ السُّنَّةِ ﴾ " . وَأَيْضًا : فَالْإِيمَانُ مَا قَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ . وَأَيْضًا فَالْإِيمَانُ إنَّمَا هُوَ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ وَهَذَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ لَكِنَّ الرَّسُولَ لَهُ وَحْيَانِ وَحْيٌ تَكَلَّمَ اللَّهُ بِهِ يُتْلَى وَوَحْيٌ لَا يُتْلَى فَقَالَ :

(44/375)

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ الْآيَةُ . وَهُوَ يَتَنَاوَلُ الْقُرْآنَ وَالْإِيمَانَ . وَقِيلَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ يَعُودُ إلَى الْإِيمَانِ ذَكَرَ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَقِيلَ : إلَى الْقُرْآنِ . وَهُوَ قَوْلُ السدي وَهُوَ يَتَنَاوَلُهُمَا وَهُوَ فِي اللَّفْظِ

يَعُودُ إِلَى الرُّوحِ الَّذِي أَوْحَاهُ وَهُوَ الْوَحْيُ الَّذِي جَاءَ بِالْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ كِلَاهُمَا مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَهُدًى وَمِنْهُ هَذَا يُعْقَلُ بِالْقَلْبِ ؛ لِمَا قَدْ يُشَاهَدُ مِنْ دَلَائِلِ الْإِيمَانِ مِثْلَ دَلَائِلِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالنُّبُوَّةِ وَهَذَا يَسْمَعُ بِالْآذَانِ وَالْإِيمَانُ الَّذِي جُعِلَ لِلْمُؤْمِنِ هُوَ مِثْلُ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ أَيْ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ فَهَذِهِ الْآيَاتُ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ نُزُولِ الْقُرْآنِ وَهُوَ مِثْلُ مَا فَعَلَ مِنْ نَصْرِ رَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ بَدْرٍ وَغَيْرِ يَوْمِ بَدْرٍ فَإِنَّهُ آيَاتٌ مُشَاهَدَةٌ صَدَّقَتْ مَا أَخْبَرَ بِهِ الْقُرْآنُ وَلَكِنْ الْمُؤْمِنُونَ كَانُوا قَدْ آمَنُوا قَبْلَ هَذَا . وَقِيلَ : نُزُولُ أَكْثَرِ الْقُرْآنِ الَّذِي ثَبَّتَ اللَّهُ بِهِ لِنَبِيِّهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فَهُوَ يَشْهَدُ لِرَسُولِهِ بِأَنَّهُ صَادِقٌ بِالْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَتِلْكَ آمَنَ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ ثُمَّ أَنْزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ شَاهِدًا لَهُ ثُمَّ أَظْهَرَ آيَاتٍ مُعَايَنَةً تُبَيِّنُ لَهُمْ

(45/375)

أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ .

(46/375)

فَالْقُرْآنُ وَافَقَ الْإِيمَانَ وَالْآيَاتُ الْمُسْتَقْبَلَةُ وَافَقَتْ الْقُرْآنَ وَالْإِيمَانَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ فَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ يَعُودُ الضَّمِيرُ إلَى الشَّاهِدِ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ الْآيَةُ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ الْآيَةُ . فَقَوْلُهُ ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ الضَّمِيرُ يَعُودُ إلَى الْقُرْآنِ أَيْ : مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ كَمَا قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ . وَقِيلَ : يَعُودُ إلَى الرَّسُولِ كَمَا قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَهُمَا مُتَلَازِمَانِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى ﴾ فِيهِ وَجْهَانِ قِيلَ : هُوَ عَطْفُ مُفْرَدٍ وَقِيلَ : عَطْفُ جُمْلَةٍ . قِيلَ الْمَعْنَى ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ وَيَتْلُوهُ أَيْضًا مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى فَإِنَّهُ شَاهِدٌ بِمِثْلِ مَا شَهِدَ بِهِ الْقُرْآنُ وَهُوَ شَاهِدٌ مِنْ اللَّهِ وَقِيلَ : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى ﴾ جُمْلَةً ؛ وَلَكِنَّ مَضْمُونَ الْجُمْلَةِ فِيهَا تَصْدِيقُ الْقُرْآنِ كَمَا قَالَ فِي الْأَحْقَافِ . وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ تَتَنَاوَلُ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُمْ آمَنُوا بِالْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ كَمَا تَتَنَاوَلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُولَئِكَ يَعُودُ إلَيْهِمْ الضَّمِيرُ فَإِنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِهِ بِالشَّاهِدِ مِنْ اللَّهِ فَالْإِيمَانُ بِهِ إيمَانٌ بِالرَّسُولِ وَالْكِتَابِ الَّذِي قَبْلَهُ .

(47/375)

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَد وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَيُّوبَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : مَا بَلَغَنِي حَدِيثٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى وَجْهٍ إلَّا وَجَدْت تَصْدِيقَهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ ؛ حَتَّى بَلَغَنِي أَنَّهُ قَالَ : " ﴿ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنْ بِمَا أُرْسِلْت بِهِ إلَّا دَخَلَ النَّارَ ﴾ " قَالَ سَعِيدٌ : فَقُلْت أَيْنَ هَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ حَتَّى أَتَيْت عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ قَالَ الْأَحْزَابُ هِيَ الْمِلَلُ كُلُّهَا . وَقَوْله تَعَالَى ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أَيْ كُلُّ مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ فَإِنَّهُ يُؤْمِنُ بِالشَّاهِدِ مِنْ اللَّهِ وَالْإِيمَانُ بِهِ إيمَانٌ بِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى قَالَ : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ وَهُمْ الْمُتَّبِعُونَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَغَيْرِهِمْ إلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ وَالْأَحْزَابُ هُمْ أَصْنَافُ الْأُمَمِ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا وَصَارُوا أَحْزَابًا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ . وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ طَوَائِفَ الْأَحْزَابِ فِي مِثْلِ هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا وَقَدْ قَالَ تَعَالَى عَنْ مُكَذِّبِي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ

الْأَحْزَاب ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ مُنِيبِينَ إلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ وَقَالَ عَنْ أَحْزَابِ النَّصَارَى : ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ الْآيَاتُ . وَأَمَّا مَنْ قَالَ : الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يَعُودُ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ قَالَ : إنَّهُ مُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ . فَإِنَّهُ إنْ أَرَادَ بِهِمْ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِالْكِتَابَيْنِ قَبْلَ نُزُولِ الْقُرْآنِ فَلَمْ يَتَقَدَّمْ لَهُمْ ذِكْرٌ وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ (بِهِ مُفْرَدٌ وَلَوْ آمَنَ مُؤْمِنٌ بِكِتَابِ مُوسَى دُونَ الْإِنْجِيلِ بَعْدَ نُزُولِهِ وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ بِهِ لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا . وَهَذَانِ الْقَوْلَانِ حَكَاهُمَا أَبُو الْفَرَجِ وَلَمْ يُسَمِّ قَائِلَهُمَا وَالبغوي وَغَيْرُهُ لَمْ يَذْكُرُوا نِزَاعًا فِي أَنَّهُمْ مَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا قَوْلًا إنَّهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهَذَا قَرِيبٌ . وَلَعَلَّ الَّذِي حَكَى قَوْلَهُمْ أَبُو الْفَرَجِ أَرَادُوا هَذَا وَإِلَّا فَلَا وَجْهَ لِقَوْلِهِمْ . وَمِنْ الْعَجَبِ أَنَّ أَبَا الْفَرَجِ ذَكَرَ بَعْدَ هَذَا فِي الْأَحْزَابِ أَرْبَعَةَ أَقْوَالٍ : " أَحَدُهَا " أَنَّهُمْ جَمِيعُ الْمِلَلِ قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ .

(49/375)

و " الثَّانِي " الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَالَهُ قتادة . و " الثَّالِثُ " قُرَيْشٌ قَالَهُ السدي . و " الرَّابِعُ " بَنُو أُمَيَّةَ وَبَنُو الْمُغِيرَةِ . قَالَ - أَيْ - أَبِي طَلْحَةَ بْن عَبْدِ الْعُزَّى قَالَهُ مُقَاتِلٌ . وَهَذِهِ الْآيَةُ تَقْتَضِي أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ إلَى الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ﴾ وَكَذَلِكَ : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ إنَّهُ الْقُرْآنُ وَدَلِيلُهُ قَوْله تَعَالَى ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ وَهَذَا هُوَ الْقُرْآنُ بِلَا رَيْبٍ وَقَدْ قِيلَ : هُوَ الْخَبَرُ الْمَذْكُورُ وَهُوَ أَنَّهُ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ وَهَذَا أَيْضًا هُوَ الْقُرْآنُ فَعُلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ الْإِيمَانُ بِالْقُرْآنِ وَالْكُفْرُ بِهِ بِاتِّفَاقِهِمْ وَأَنَّهُ مَنْ قَالَ فِي أُولَئِكَ إنَّهُمْ غَيْرُ مَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ لَمْ يُتَصَوَّرْ مَا قَالَ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى ﴾ وَجْهَانِ . هَلْ هُوَ عَطْفُ جُمْلَةٍ أَوْ مُفْرَدٍ ؛ لَكِنْ الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّهُ مُفْرَدٌ . وَقَالَ الزَّجَّاجُ الْمَعْنَى : وَكَانَ مِنْ قَبْلِ هَذَا كِتَابُ مُوسَى . دَلِيلٌ عَلَى أَمْرِ مُحَمَّدٍ فَيَتْلُونَ كِتَابَ مُوسَى عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ أَيْ وَيَتْلُو كِتَابَ مُوسَى ؛ لِأَنَّ مُوسَى وَعِيسَى بَشَّرَا بِمُحَمَّدٍ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَنُصِبَ إمَامًا عَلَى الْحَالِ .

قُلْت : قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الشَّاهِدَ يَتْلُو عَلَى مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَيْ يَتْبَعُهُ شَاهِدًا لَهُ بِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ الْبَيِّنَةِ .

(50/375)

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ كَمَنْ لَمْ يَكُنْ قَالَ الزَّجَّاجُ : وَتَرَكَ الْمُعَادَلَةَ ؛ لِأَنَّ فِيمَا بَعْدَهُ دَلِيلًا عَلَيْهِ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾ قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : لَمَّا ذَكَرَ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْمًا رَكَنُوا إلَى الدُّنْيَا وَأَرَادُوهَا جَاءَ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : أَفَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالُهُ كَمَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ؟ فَاكْتَفَى مِنْ الْجَوَابِ بِمَا تَقَدَّمَ إذْ كَانَ دَلِيلًا عَلَيْهِ وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : إنَّمَا حُذِفَ لِانْكِشَافِ الْمَعْنَى وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ . قُلْت : نَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ الْمَحْذُوفِ : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ وَقَدْ قَالَ بَعْدَ هَذَا : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ وَهَذَا هُوَ الْقِسْمُ الْآخَرُ الْمُعَادِلُ لِهَذَا الَّذِي هُوَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَعَلَى هَذَا يَكُونُ مَعْنَاهَا ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ وَيَكُونُ أَيْضًا مَعْنَاهَا : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أَيْ بَصِيرَةٍ فِي دِينِهِ كَمَنْ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَهَذَا كَقَوْلِهِ : ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ الْآيَةُ . وَكَقَوْلِهِ ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي ﴾ الْآيَةُ . وَالْمَحْذُوفُ فِي مِثْلِ هَذَا النَّظْمِ قَدْ يَكُونُ غَيْرَ ذَلِكَ

(51/375)

كَقَوْلِهِ : ﴿ أَوَمَنْ

(52/375)

يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ ﴾ أَيْ تَجْعَلُونَ لَهُ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَلَا بُدَّ مِنْ دَلِيلٍ عَلَى الْمَحْذُوفِ وَقَدْ يَكُونُ الْمَحْذُوفُ مِثْلَ أَنْ يُقَالَ : أَفَمَنْ هَذِهِ حَالُهُ يُذَمُّ أَوْ يُطْعَنُ عَلَيْهِ أَوْ يُعْرَضُ عَنْ مُتَابَعَتِهِ أَوْ يُفْتَنُ أَوْ يُعَذَّبُ كَمَا قَالَ : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ . وَقَدْ قِيلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إنَّ الْمَحْذُوفَ : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ فَرَأَى الْبَاطِلَ حَقًّا ؟ وَالْقَبِيحَ حَسَنًا كَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ فَرَأَى الْحَقَّ حَقًّا وَالْبَاطِلَ بَاطِلًا وَالْقَبِيحَ قَبِيحًا وَالْحَسَنَ حَسَنًا ؟ وَقِيلَ : جَوَابُهُ تَحْتَ قَوْلِهِ : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ لَكِنْ يُرَدُّ عَلَيْهِ أَنْ يُقَالَ : الِاسْتِفْهَامُ مَا مَعْنَاهُ إلَّا أَنْ تَقْدِرَ . أَيْ : هَذَا تَقْدِرُ أَنْ تَهْدِيَهُ أَوْ رَبُّك ؟ أَوْ تَقْدِرُ أَنْ تَجْزِيَهُ كَمَا قَالَ : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ وَكَمَا قَالَ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ الْآيَةُ . وَعَلَى هَذَا يَكُونُ مَعْنَاهَا كَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ . وَعَلَى هَذَا فَالْمَعْنَى هُنَا

: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى ﴾ يُذَمُّ وَيُخَالَفُ وَيُكَذَّبُ وَنَحْوُ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ

(53/375)

رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ﴾ وَحَذَفَ جَوَابَ

(54/375)

الشَّرْطِ وَكَقَوْلِهِ : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴾ ﴿ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴾ ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ مِنْ أَشْرَفِ الْمَعَانِي وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ وَأَنَّ الْآيَةَ ذَكَرَتْ مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ مِنْ الْإِيمَانِ الَّذِي شَهِدَ لَهُ الْقُرْآنُ فَصَارَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ وَبُرْهَانٍ مِنْ رَبِّهِ عَلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْبَرَاهِينُ الْعَقْلِيَّةُ وَالسَّمْعِيَّةُ كَمَا قَالَ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ فَالنُّورُ الْمُبِينُ الْمُنَزَّلُ يَتَنَاوَلُ الْقُرْآنَ . قَالَ قَتَادَةُ : بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَقَالَ الثَّوْرِيُّ : هُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ الْبَغَوِيُّ : هَذَا قَوْلُ الْمُفَسِّرِينَ وَلَمْ أَجِدْهُ مَنْقُولًا عَنْ غَيْرِ الثَّانِي وَلَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ عَنْ غَيْرِهِ . وَذَكَرَ فِي الْبُرْهَانِ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ :

أَحَدُهَا : أَنَّهُ الْحُجَّةُ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ الرَّسُولُ وَذَكَرَ أَنَّهُ الْقُرْآنُ عَنْ قتادة . وَالَّذِي رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قتادة بِالْإِسْنَادِ الثَّابِتِ أَنَّهُ بَيِّنَةٌ مِنْ اللَّهِ وَالْبَيِّنَةُ وَالْحُجَّةُ تَتَنَاوَلُ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي بُعِثُوا بِهَا فَكُلُّ مَا دَلَّ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ بُرْهَانٌ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ وَقَالَ لِمَنْ قَالَ : لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ . وَمُحَمَّدٌ هُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ قَدْ أَقَامَ اللَّهُ عَلَى صِدْقِهِ بَرَاهِينَ كَثِيرَةً

(55/375)

وَصَارَ مُحَمَّدٌ نَفْسَهُ بُرْهَانًا فَأَقَامَ مِنْ الْبَرَاهِينِ عَلَى صِدْقِهِ ؛ فَدَلِيلُ الدَّلِيلِ دَلِيلٌ وَبُرْهَانُ الْبُرْهَانِ بُرْهَانٌ وَكُلُّ آيَةٍ لَهُ بُرْهَانٌ وَالْبُرْهَانُ اسْمُ جِنْسٍ لَا يُرَادُ بِهِ وَاحِدٌ كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وَلَوْ جَاءُوا بَعْدَهُ بِبَرَاهِينَ كَانُوا مُمْتَثِلِينَ . و " الْمَقْصُودُ " أَنَّ ذَلِكَ الْبُرْهَانَ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ أَنَّهُ دَالٌّ عَلَى صِدْقِهِ وَهُوَ بَيِّنَةٌ مِنْ اللَّهِ كَمَا قَالَ قتادة وَحُجَّةٌ مِنْ اللَّهِ كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ والسدي : الْمُؤْمِنُ عَلَى تِلْكَ الْبَيِّنَةِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْ اللَّهِ وَهُوَ النُّورُ الَّذِي أَنْزَلَهُ مَعَ الْبُرْهَانِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

فَصْلٌ :

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ إنَّهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا قَالَهُ

طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ فَقَدْ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ التَّمْثِيلَ لَا التَّخْصِيصَ فَإِنَّ الْمُفَسِّرِينَ كَثِيرًا مَا يُرِيدُونَ ذَلِكَ وَمُحَمَّدٌ هُوَ أَوَّلُ مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَتَلَاهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَكَذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ وَهُوَ أَفْضَلُهُمْ وَإِمَامُهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ تَبَعٌ لَهُ وَبِهِ صَارُوا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ . وَالْخِطَابُ قَدْ يَكُونُ لَفْظُهُ لَهُ وَمَعْنَاهُ عَامٌّ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا

(56/375)

أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴾ ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ﴾ وَنَحْوُ ذَلِكَ وَذَلِكَ أَنَّ الْأَصْلَ فِيمَا خُوطِبَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كُلِّ مَا أُمِرَ بِهِ وَنُهِيَ عَنْهُ وَأُبِيحَ لَهُ سَارَ فِي حَقِّ أُمَّتِهِ كَمُشَارَكَةِ أُمَّتِهِ لَهُ فِي الْأَحْكَامِ وَغَيْرِهَا حَتَّى يَقُومَ دَلِيلُ التَّخْصِيصِ فَمَا ثَبَتَ فِي حَقِّهِ مِنْ الْأَحْكَامِ ثَبَتَ فِي حَقِّ الْأُمَّةِ إذَا لَمْ يُخَصِّصْ هَذَا مَذْهَبُ السَّلَفِ وَالْفُقَهَاءِ وَدَلَائِلُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ الْآيَةُ وَلَمَّا أَبَاحَ لَهُ الْمَوْهُوبَةَ قَالَ : ﴿ خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الْآيَةُ . فَإِذَا كَانَ هَذَا مَعَ كَوْنِ الصِّيغَةِ خَاصَّةً فَكَيْفَ تُجْعَلُ الصِّيغَةُ الْعَامَّةُ لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ مُخْتَصَّةً بِهِ ؟ وَلَفْظُ " مَنْ " أَبْلَغُ صِيَغِ الْعُمُومِ ؛ لَا سِيَّمَا إذَا كَانَتْ شَرْطًا أَوْ اسْتِفْهَامًا كَقَوْلِهِ : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ

﴿ وَقَوْلِهِ : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ . و " أَيْضًا " : فَقَدْ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ قَوْلَهُ : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ وَذَكَرَ بَعْدَ هَذَا : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ قَبْلَ هَذَا ذِكْرُ الْفَرِيقَيْنِ

(57/375)

وَقَوْلُهُ : ﴿ أُولَئِكَ

(58/375)

يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ إشَارَةٌ إلَى جَمَاعَةٍ وَلَمْ يُقَدِّمْ قَبْلَ هَذَا مَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مُشَارًا إلَيْهِ إلَّا (مَنْ) وَالضَّمِيرُ يَعُودُ تَارَةً إلَى لَفْظِ (مَنْ) وَتَارَةً إلَى مَعْنَاهَا كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إلَيْكَ ﴾ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إلَيْكَ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾ ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ الْآيَةُ . وَأَمَّا الْإِشَارَةُ إلَى مَعْنَاهَا فَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ الضَّمِيرِ . فَقَوْلُهُ : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الَّذِي عَلَى بَيِّنَةٍ

مِنْ رَبِّهِ كَثِيرُونَ لَا وَاحِدٌ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : ثَنَا عَامِرُ بْنُ صَالِحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ . قَالَ : الْمُؤْمِنُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ هُوَ الصَّوَابُ وَالرَّسُولُ هُوَ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وَمَنْ قَالَ : إنَّ الشَّاهِدَ مِنْ اللَّهِ هُوَ مُحَمَّدٌ كَمَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ثَنَا الْأَشَجُّ ثَنَا أَبُو أُسَامَةَ عَنْ عَوْفٍ عَنْ سُلَيْمَانَ الْفَلَانِيِّ عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا شَاهِدًا مِنْ اللَّهِ فَهُنَا مَعْنَى كَوْنِهِ شَاهِدًا مِنْ اللَّهِ هُوَ مَعْنَى كَوْنِهِ رَسُولَ اللَّهِ وَهُوَ يَشْهَدُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ وَإِنْ كَانَ يَشْهَدُ لِنَفْسِهِ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ فَشَهَادَتُهُ لِنَفْسِهِ مَعْلُومَةٌ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ صَادِقٌ فِيهَا

(59/375)

بِالْبَرَاهِينِ الدَّالَّةِ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَأَمَّا شَهَادَتُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ أَنَّهَا إنَّمَا تُعْلَمُ مِنْ جِهَتِهِ بِمَا بَلَغَهُ مِنْ الْقُرْآنِ وَيُخْبِرُ بِهِ عَنْ

رَبِّهِ فَهُوَ إذَا شَهِدَ كَانَ شَاهِدًا مِنْ اللَّهِ .

وَأَمَّا شَهَادَتُهُ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَكَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَكَيْفَ إذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

لَكِنْ مَنْ قَالَ هَذَا فَقَدْ يُرِيدُ بِالْبَيِّنَةِ الْقُرْآنَ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ مُتَّبِعٌ لِلْقُرْآنِ وَمُحَمَّدٌ شَاهِدٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُوهُ كَمَا تَلَاهُ جِبْرِيلُ . وَمَنْ قَالَ إنَّ الشَّاهِدَ لِسَانُ مُحَمَّدٍ فَهُوَ إنَّمَا أَرَادَ بِهَذَا الْقَوْلِ التِّلَاوَةَ أَيْ : أَنَّ لِسَانَ مُحَمَّدٍ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ شَاهِدٌ مِنْهُ أَيْ مِنْ نَفْسِهِ فَإِنَّ لِسَانَهُ جُزْءٌ مِنْهُ وَهَذَا الْقَوْلُ وَنَحْوُهُ ضَعِيفٌ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . هَذَا إنْ ثَبَتَ ذَلِكَ عَمَّنْ نُقِلَ عَنْهُ فَإِنَّ هَذَا وَضِدَّهُ يُنْقَلَانِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ . وَذَلِكَ أَنَّ طَائِفَةً مِنْ جُهَّالِ الشِّيعَةِ ظَنُّوا أَنَّ عَلِيًّا هُوَ الشَّاهِدُ مِنْهُ أَيْ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا قَالَ لَهُ : " ﴿ أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْك ﴾ " . وَهَذَا قَالَهُ لِغَيْرِهِ أَيْضًا فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ قَالَ " ﴿ الْأَشْعَرِيُّونَ هُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ ﴾ " . وَقَالَ عَنْ جليبيب : " ﴿ هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ ﴾ "

(60/375)

وَكُلُّ مُؤْمِنٍ هُوَ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ وَرَوَوْا هَذَا الْقَوْلَ عَنْ عَلِيٍّ نَفْسِهِ وَرُوِيَ عَنْهُ بِإِسْنَادٍ أَجْوَدَ مِنْهُ أَنَّهُ قَالَ كَذَبَ مَنْ قَالَ هَذَا قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : ذَكَرَ عَنْ حُسَيْنِ بْنِ زَيْدٍ الطَّحَّانِ ثَنَا إسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ ثَنَا سُفْيَانُ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ الْمِنْهَالِ عَنْ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ عَلِيٌّ : مَا مِنْ قُرَيْشٍ أَحَدٌ إلَّا نَزَلَتْ فِيهِ آيَةٌ قِيلَ فَمَا أُنْزِلَ فِيك ؟ قَالَ : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ

﴿ وَهَذَا كَذِبٌ عَلَى عَلِيٍّ قَطْعًا . وَإِنْ ثَبَتَ النَّقْلُ عَنْ عَبَّادٍ هَذَا فَإِنَّ لَهُ مُنْكَرَاتٍ عَنْهُ كَقَوْلِهِ : أَنَا الصِّدِّيقُ الْأَكْبَرُ أَسْلَمْت قَبْلَ النَّاسِ بِسَبْعِ سِنِينَ . وَقَدْ رَوَوْا عَنْ عَلِيٍّ مَا يُعَارِضُ ذَلِكَ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ؛ ثَنَا أَبِي ثَنَا عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ الْبَاهِلِيُّ ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ شَوَاصٍ ثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ - يَعْنِي ابْنَ الْحَنَفِيَّةِ - قَالَ : قُلْت لِأَبِي : يَا أَبَةِ ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ إنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ : إنَّك أَنْتَ هُوَ قَالَ : وَدِدْت لَوْ أَنِّي أَنَا هُوَ . وَلَكِنَّهُ لِسَانُهُ ؟ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ نَحْوُ ذَلِكَ . قُلْت : وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ الْحُسَيْنِ ابْنِهِ أَنَّ " الشَّاهِدَ مِنْهُ " هُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّمَا تَكَلَّمَ عُلَمَاءُ أَهْلِ الْبَيْتِ فِي أَنَّهُ مُحَمَّدٌ رَدًّا عَلَى مَنْ قَالَ

(61/375)

مِنْ الْجَهَلَةِ : إنَّهُ عَلِيٌّ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ وَعَلِيٌّ كَانَ

(62/375)

إذْ ذَاكَ صَغِيرًا لَمْ يَبْلُغْ . وَكَانَ مِمَّنْ اتَّبَعَ الرَّسُولَ وَلَوْ كَانَ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ لَيْسَ ابْنَ عَمِّهِ لَمْ تَكُنْ شَهَادَتُهُ تَنْفَعُ . لَا عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا عِنْدَ الْكُفَّارِ ؛ بَلْ مِثْلُ هَذِهِ الشَّهَادَةِ فِيهَا تُهْمَةُ الْقَرَابَةِ . وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ شَهَادَةَ الْوَالِدِ وَشَهَادَةَ الْوَلَدِ لِوَالِدِهِ لَا تُقْبَلُ فَكَيْفَ يُجْعَلُ مِثْلُ هَذَا حُجَّةً لِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُؤَكِّدًا لَهَا ؟ وَلِذَلِكَ قَالُوا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ إنَّهُ عَلِيٌّ وَهُمْ مَعَ كَذِبِهِمْ هُمْ أَجْهَلُ النَّاسِ فَإِنَّهُمْ نَسَبُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ إلَى الِاحْتِجَاجِ بِمَا لَا يَحْتَجُّ بِهِ إلَّا جَاهِلٌ فَأَرَادُوا تَعْظِيمَ عَلِيٍّ فَنَسَبُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ إلَى الْجَهْلِ وَعَلِيٌّ إنَّمَا فَضِيلَتُهُ بِاتِّبَاعِهِ لِلرَّسُولِ فَإِذَا قُدِحَ فِي الْأَصْلِ بَطَلَ الْفَرْعُ . وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ : إنَّ " الشَّاهِدَ " جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَدْ رَوَى ذَلِكَ عِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَأَبِي صَالِحٍ وَمُجَاهِدٍ فِي إحْدَى الرِّوَايَاتِ عَنْهُ وَإِبْرَاهِيمُ وَعِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَعَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ نَحْوَ ذَلِكَ . وَهَؤُلَاءِ جَعَلُوا ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ بِمَعْنَى يَقْرَؤُهُ أَيْ : وَيَتْلُو الْقُرْآنَ الَّذِي هُوَ الْبَيِّنَةُ : شَاهِدٌ مِنْ اللَّهِ هُوَ وَقِيلَ : بَلْ مَعْنَى قَوْلِهِمْ : إنَّ الْقُرْآنَ يَتْلُوهُ جِبْرِيلُ هُوَ شَاهِدُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْ الَّذِي يَتْلُوهُ جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

(63/375)

وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ضَعْفِ هَذَا الْقَوْلِ فَإِنَّ كُلَّ مَنْ فَسَّرَ يَتْلُوهُ

بِمَعْنَى يَقْرَؤُهُ جَعَلَ الضَّمِيرَ فِيهِ عَائِدًا إلَى الْقُرْآنِ وَجَعَلَ الشَّاهِدَ غَيْرَ الْقُرْآنِ . وَالْقُرْآنُ لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهُ ذِكْرٌ إنَّمَا قَالَ : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ وَالْبَيِّنَةُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَفْسِيرُهَا بِحِفْظِ الْقُرْآنِ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ كُلَّهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ وَإِنْ لَمْ يَحْفَظُوا الْقُرْآنَ ؛ بِخِلَافِ الْبَصِيرَةِ فِي الدِّينِ فَإِنَّهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ رَبِّهِ لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا حَقًّا بَلْ مِنْ الْقَائِلِينَ - لِمُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ - آهْ آهْ لَا أَدْرِي سَمِعْت النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْته . وَالْقُرْآنُ إنَّمَا مَدَحَ مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ فَهُوَ عَلَى هُدًى وَنُورٍ وَبَصِيرَةٍ سَوَاءٌ حَفِظَ الْقُرْآنَ أَوْ لَمْ يَحْفَظْهُ وَإِنْ أُرِيدَ اتِّبَاعُ الْقُرْآنِ فَهُوَ الْإِيمَانُ وَأَكْثَرُ الْقُرْآنِ لَمْ يَكُنْ نَزَلَ حِينَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ وَقَدْ تَقَدَّمَ إنَّمَا يُخْتَصُّ بِهِ جِبْرِيلُ وَمُحَمَّدٌ فَهُوَ تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ عَنْ اللَّهِ وَصِدْقُهُمَا فِي ذَلِكَ . وَأَمَّا كَوْنُ رِسَالَةِ اللَّهِ حَقًّا فَهَذَا هُوَ الْمَشْهُودُ بِهِ مِنْ كُلِّ رَسُولٍ وَهُمَا لَا يُخْتَصَّانِ بِذَلِكَ بَلْ يُؤْمِنَانِ بِهِ كَمَا يُؤْمِنُ بِذَلِكَ كُلُّ مَلَكٍ وَكُلُّ مُؤْمِنٍ وَشَهَادَتُهُمَا بِأَنَّ النَّبِيَّ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى حَقٍّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ الثَّانِي الْمُشْتَرَكِ وَلَوْ قَالَ : وَيُبَلِّغُهُ وَيَنْزِلُ بِهِ رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ لَكَانَ مَا قَالُوهُ مُتَوَجِّهًا كَمَا قَالَ :

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾ ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أَمَّا كَوْنُهُ شَاهِدًا يَقْرَؤُهُ فَهَذَا لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْقُرْآنِ . و " أَيْضًا " فَالشَّاهِدُ الَّذِي هُوَ مِنْ اللَّهِ هُوَ الْكَلَامُ فَإِنَّ الْكَلَامَ نَزَلَ مِنْهُ كَمَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّك بِالْحَقِّ وَيُقَالُ فِي الرَّسُولِ إنَّهُ مِنْهُ كَمَا قَالَ رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ وَيُقَالُ فِي الشَّخْصِ الشَّاهِدِ فَيُقَالُ فِيهِ هُوَ مِنْ شُهَدَاءِ اللَّهِ وَأَمَّا كَوْنُهُ يُقَالُ فِيهِ شَاهِدٌ مِنْ اللَّهِ أَنَّهَا بُرْهَانٌ مِنْ اللَّهِ وَآيَاتٌ مِنْ اللَّهِ فِي الْآيَاتِ الَّتِي يَخْلُقُهَا اللَّهُ تَصْدِيقًا لِرَسُولِهِ : فَهَذَا يَحْتَاجُ اسْتِعْمَالُهُ إلَى شَاهِدٍ . وَالْقُرْآنُ نَزَلَ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ الْمَوْجُودَةِ فِي الْقُرْآنِ فَإِنَّهَا تُفَسَّرُ بِلُغَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ فِيهِ إذَا وُجِدَتْ لَا يُعْدَلُ عَنْ لُغَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ مَعَ وُجُودِهَا وَإِنَّمَا يُحْتَاجُ إلَى غَيْرِ لُغَتِهِ فِي لَفْظٍ لَمْ يُوجَدْ لَهُ نَظِيرٌ فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ ﴾ ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ و ﴿ قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الْأَلْفَاظِ الْغَرِيبَةِ فِي الْقُرْآنِ وَالَّذِينَ قَالُوا هَذِهِ الْأَقْوَالَ : إنَّمَا أَتَوْا مِنْ جِهَةِ قَوْلِهِ : ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ فَظَنُّوا أَنَّ تِلَاوَتَهُ هِيَ قِرَاءَتُهُ وَلَمْ يَتَقَدَّمْ لِلْقُرْآنِ ذِكْرٌ . ثُمَّ جَعَلَ هَذَا يَقُولُ جِبْرِيلُ تَلَاهُ وَهَذَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ وَهَذَا يَقُولُ لِسَانُهُ . وَالتِّلَاوَةُ قَدْ وُجِدَتْ فِي الْقُرْآنِ وَاللُّغَةُ الْمَشْهُورَةُ بِمَعْنَى الِاتِّبَاعِ .

(65/375)

وَكَثِيرٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ لَا يَذْكُرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْقَوْلَ الصَّحِيحَ فَيَبْقَى النَّاظِرُ الْفَطِنُ حَائِرًا وَلَمْ يَذْكُرْ فِي الَّذِي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ إلَّا أَنَّهُ الرَّسُولُ وَيَذْكُرُ فِي الشَّاهِدِ عِدَّةَ أَقْوَالٍ . ثُمَّ مِنْ الْعَجَبِ أَنَّهُ يَقُولُ : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهُوَ عَلَى مَا فَسَّرَهُ لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهُمْ ذِكْرٌ فَكَيْفَ يُشَارُ إلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ وَأَبُو الْفَرَجِ ذَكَرَ قَوْلًا أَنَّهُمْ الْمُسْلِمُونَ وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ الْآيَةَ تَعُمُّ النَّبِيَّ وَالْمُؤْمِنِينَ وَلَمَّا ذَكَرَ قَوْلَ مَنْ قَالَ : إنَّهُمْ الْمُسْلِمُونَ قَالَ : وَهَذَا يُخَرَّجُ عَلَى قَوْلِ الضَّحَّاكِ فِي الْبَيِّنَةِ أَنَّهَا رَسُولُ اللَّهِ . وَقَدْ ذُكِرَ فِي " الْبَيِّنَةِ " أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : أَنَّهَا الدِّينُ ذَكَرَهُ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَنَّهَا رَسُولُ اللَّهِ قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَأَنَّهَا الْقُرْآنُ قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ وَأَنَّهَا الْبَيَانُ . قَالَهُ مُقَاتِلٌ . ثُمَّ قَالَ : فَإِنْ قُلْنَا : الْمُرَادُ مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ الْمُسْلِمُونَ فَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ وَهُوَ الْبَيِّنَةُ وَيَتَّبِعُ هَذَا النَّبِيَّ شَاهِدٌ مِنْهُ يُصَدِّقُهُ وَالْمُسْلِمُونَ إذَا كَانُوا عَلَى بَيِّنَةٍ فَهِيَ الْإِيمَانُ بِالرَّسُولِ لَيْسَتْ الْبَيِّنَةُ ذَاتَ الرَّسُولِ وَالرَّسُولُ لَيْسَ هُوَ مَذْكُورًا فِي كَلَامِهِ فَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ لَا بُدَّ أَنْ يَعُودَ إلَى ﴿ مِنْهُ ﴾ (1) لَكِنْ إعَادَتُهُ إلَى الْبَيِّنَةِ أَوْلَى .

(66/375)

وَفَسَّرَ الْبَيِّنَةَ بِالرَّسُولِ وَجَعَلَ الشَّاهِدَ يَشْهَدُ لَهُ بِصِدْقِهِ . ثُمَّ الشَّاهِدُ جِبْرِيلُ أَوْ غَيْرُهُ فَلَوْ قَالَ : الشَّاهِدُ هُوَ الْقُرْآنُ يَشْهَدُ لِلْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ يَتَّبِعُهُمْ كَمَا يَتَّبِعُونَهُ كَانَ قَدْ ذَكَرَ الصَّوَابَ . وَهُوَ قَدْ ذَكَرَ أَقْوَالًا كَثِيرَةً لَمْ يَذْكُرْهَا غَيْرُهُ وَذَكَرَ فِي يَتْلُوهُ قَوْلَيْنِ " أَحَدُهُمَا " يَتَّبِعُهُ . و " الثَّانِي " يَقْرَؤُهُ وَهُمَا قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ . وَذَكَرَ فِي " هـ " يَتْلُوهُ قَوْلَيْنِ : أَنَّهَا تَرْجِعُ إلَى النَّبِيِّ . و " الثَّانِي " أَنَّهَا تَرْجِعُ إلَى الْقُرْآنِ . وَالتَّحْقِيقُ : أَنَّهَا تَرْجِعُ إلَى " مِنْ " أَوْ تَرْجِعُ إلَى الْبَيِّنَةِ وَالْبَيِّنَةُ يُرَادُ بِهَا الْقُرْآنُ فَيَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّ الشَّاهِدَ مِنْ الْقُرْآنِ وَإِذَا رَجَعَ الضَّمِيرُ إلَى " مِنْ " فَإِنْ جُعِلَ مُخْتَصًّا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ الْقَوْلُ الَّذِي تَقَدَّمَ بَيَانُ فَسَادِهِ - عَادَ الضَّمِيرُ إلَى الْبَيِّنَةِ - وَإِنْ كَانَ " مِنْ " تَتَنَاوَلُ كُلَّ مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَرَسُولُ اللَّهِ أَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ تَنَاوَلَ الْجَمِيعَ . وَمِمَّا يُوَضِّحُ ذَلِكَ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ جَاءَ بِالرِّسَالَةِ مِنْ اللَّهِ وَهَذَا يَخْتَصُّ بِهِ وَتَصْدِيقُ هَذِهِ الرِّسَالَةِ وَالْإِيمَانُ بِهَا وَاجِبٌ عَلَى الثَّقَلَيْنِ وَالرَّسُولُ هُوَ أَوَّلُ مَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ الْإِيمَانُ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ الَّتِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ

(67/375)

بِهَا وَلِهَذَا قَالَ فِي سُورَةِ يُونُسَ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْآيَاتِ . فَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَلَّقُ بِهِ أَمْرَانِ عَظِيمَانِ . " أَحَدُهُمَا " إثْبَاتُ نُبُوَّتِهِ وَصِدْقِهِ فِيمَا بَلَّغَهُ عَنْ اللَّهِ وَهَذَا مُخْتَصٌّ بِهِ . و " الثَّانِي " تَصْدِيقُهُ فِيمَا جَاءَ بِهِ وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حَقٌّ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ وَهَذَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَعَلَى كُلِّ أَحَدٍ فَإِنَّهُ قَدْ يُوجَدُ فِيمَنْ يُرْسِلُهُ الْمَخْلُوقُ مَنْ يُصَدِّقُ فِي رِسَالَتِهِ ؛ لَكِنَّهُ لَا يَتَّبِعُهَا ؛ إمَّا لِطَعْنِهِ فِي الْمُرْسِلِ وَإِمَّا لِكَوْنِهِ يَعْصِيهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ أُرْسِلَ بِحَقٍّ فَالْمُلُوكُ كَثِيرًا مَا يُرْسِلُونَ رَسُولًا بِكُتُبٍ وَغَيْرِهَا يُبَلِّغُ الرُّسُلُ رِسَالَتَهُمْ فَيُصَدِّقُونَ بِهَا . ثُمَّ قَدْ يَكُونُ الرَّسُولُ أَكْثَرَ مُخَالَفَةً لِمُرْسِلِهِ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ الْمُرْسَلِ إلَيْهِمْ وَلِهَذَا ظَنَّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ أَنَّ مُجَرَّدَ كَوْنِهِ رَسُولًا لِلَّهِ لَا يَسْتَلْزِمُ الْمَدْحَ . ثُمَّ قَالَ : إنَّ هَذَا قَدْ يُقَالُ فِيمَنْ قَبِلَ الرِّسَالَةَ وَبَلَّغَهَا وَفِيمَنْ لَمْ يَقْبَلْ لَكِنَّ هَذَا غَلَطٌ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُرْسِلُ رَسُولًا إلَّا وَقَدْ اصْطَفَاهُ فَيُبَلِّغُ رِسَالَاتِ رَبِّهِ . وَرُسُلُ اللَّهِ

(68/375)

هُمْ أَطْوَعُ الْخَلْقِ لِلَّهِ وَأَعْظَمُ إيمَانًا بِمَا بُعِثُوا بِهِ بِخِلَافِ الْمَخْلُوقِ فَإِنَّهُ يُرْسِلُ مَنْ يَكْذِبُ عَلَيْهِ وَمَنْ يَعْصِيهِ وَمَنْ لَا يَعْتَقِدُ وُجُوبَ طَاعَتِهِ وَالْخَالِقُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ . لَكِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا هَذَا يُجَوِّزُونَ عَلَى الرَّبِّ أَنْ يُرْسِلَ كُلَّ أَحَدٍ بِكُلِّ شَيْءٍ لَيْسَ فِي الْعَقْلِ عِنْدَهُمْ مَا يَمْنَعُ ذَلِكَ

وَإِنَّمَا يُنَزِّهُونَ الرُّسُلَ عَمَّا أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى تَنْزِيهِهِمْ عَنْهُ عِنْدَهُمْ مِمَّا ثَبَتَ بِالسَّمْعِ لَا مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ رَسُولًا كَمَا قَدْ بَسَطَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا الْأَصْلَ خَطَأٌ . وَلَمَّا كَانَ هُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَلَّقُ بِهِ الْأَمْرَانِ . فِي " الْأَوَّلِ " يُقَالُ : آمَنْت لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾ . وَفِي " الثَّانِي " يُقَالُ : آمَنْت بِاللَّهِ فَعَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ لَهُ وَنُؤْمِنَ بِمَا جَاءَ بِهِ وَاَللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ هَذَيْنِ . فَذَكَرَ " أَوَّلًا " مَا يُثْبِتُ نُبُوَّتَهُ وَصِدْقَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَى ذَلِكَ .

(69/375)

وَلَمَّا كَانَ الَّذِي يَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنْ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ شَيْئَانِ : إمَّا الْجَهْلُ وَإِمَّا فَسَادُ الْقَصْدِ ذَكَرَ مَا يُزِيلُ الْجَهْلَ وَهُوَ الْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى صِدْقِهِ ثُمَّ ذَكَرَ أَهْلَ فَسَادِ الْقَصْدِ بِقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فَهَؤُلَاءِ أَهْلُ فَسَادِ

الْقَصْدِ . فَهَذَانِ الْأَمْرَانِ هُمَا الْمَانِعَانِ لِلْخَلْقِ مِنْ اتِّبَاعِ هَذَا الرَّسُولِ كَمَا أَنَّهُ فِي الْبَقَرَةِ ذَكَرَ مَا يُوجِبُ الْعِلْمَ وَحُسْنَ الْقَصْدِ فَقَالَ : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ . فَلَمَّا أَثْبَتَ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ : أَخَذَ بَعْدَ هَذَا فِي بَيَانِ الْإِيمَانِ بِهِ وَحَالِ مَنْ آمَنَ وَمَنْ كَفَرَ فَقَالَ : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ الْآيَةُ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ وَهَذَا يَتَنَاوَلُ كُلَّ كَافِرٍ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ بِادِّعَاءِ الرِّسَالَةِ كَاذِبًا وَيَتَنَاوَلُ كُلَّ مَنْ كَذَّبَ رَسُولًا صَادِقًا فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُرْسِلْ هَذَا

(70/375)

وَلَمْ يَأْمُرْ بِهَذَا فَكَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَهَذَا إِنَّمَا يَقَعُ مِمَّنْ فَسَدَ

(71/375)

قَصْدُهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَإِرَادَتِهَا وَمِمَّنْ أَحَبَّ الرِّئَاسَةَ وَأَرَادَ الْعُلُوَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " ﴿ إنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُلْقِيَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَقُولُ فَعَلْت يَوْمَ كَذَا كَذَا وَكَذَا وَيَوْمَ كَذَا كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ : نَعَمْ . فَيَقُولُ : إنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْك فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَك الْيَوْمَ ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ بِيَمِينِهِ ﴾ " . وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ : ف ﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ ذَكَرَ مَثَلَ الْفَرِيقَيْنِ فَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ وَتَدَبَّرَ مَا قَبْلَ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا وَعَرَفَ مَقْصُودَ الْقُرْآنِ : تَبَيَّنَ لَهُ الْمُرَادُ وَعَرَفَ الْهُدَى وَالرِّسَالَةَ وَعَرَفَ السَّدَادَ مِنْ الِانْحِرَافِ وَالِاعْوِجَاجِ . وَأَمَّا تَفْسِيرُهُ بِمُجَرَّدِ مَا يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ الْمُجَرَّدُ عَنْ سَائِرِ مَا يُبَيِّنُ مَعْنَاهُ فَهَذَا مَنْشَأُ الْغَلَطِ مِنْ الغالطين ؛ لَا سِيَّمَا كَثِيرٌ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ بِالِاحْتِمَالَاتِ اللُّغَوِيَّةِ . فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَكْثَرُ غَلَطًا مِنْ الْمُفَسِّرِينَ الْمَشْهُورِينَ ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ مَعْرِفَةَ مَعْنَاهُ كَمَا يَقْصِدُ ذَلِكَ الْمُفَسِّرُونَ . وَأَعْظَمُ غَلَطًا مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مَنْ لَا يَكُونُ قَصْدُهُ مَعْرِفَةَ مُرَادِ اللَّهِ ؛

بَلْ قَصْدُهُ تَأْوِيلُ الْآيَةِ بِمَا يَدْفَعُ خَصْمَهُ عَنْ الِاحْتِجَاجِ بِهَا وَهَؤُلَاءِ يَقَعُونَ فِي أَنْوَاعٍ مِنْ التَّحْرِيفِ وَلِهَذَا جَوَّزَ مِنْ جَوَّزَ مِنْهُمْ أَنْ تَتَأَوَّلَ الْآيَةُ بِخِلَافِ تَأْوِيلِ السَّلَفِ وَقَالُوا : إذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ عَلَى قَوْلَيْنِ جَازَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ إحْدَاثُ قَوْلٍ ثَالِثٍ ؛ بِخِلَافِ مَا إذَا اخْتَلَفُوا فِي الْأَحْكَامِ عَلَى قَوْلَيْنِ وَهَذَا خَطَأٌ فَإِنَّهُمْ إذَا أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْآيَةِ إمَّا هَذَا وَإِمَّا هَذَا كَانَ الْقَوْلُ بِأَنَّ الْمُرَادَ غَيْرُ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ خِلَافًا لِإِجْمَاعِهِمْ ؛ وَلَكِنَّ هَذِهِ طَرِيقُ مَنْ يَقْصِدُ الدَّفْعَ لَا يَقْصِدُ مَعْرِفَةَ الْمُرَادِ وَإِلَّا فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ تَضِلَّ الْأُمَّةُ عَنْ فَهْمِ الْقُرْآنِ وَيَفْهَمُونَ مِنْهُ كُلُّهُمْ غَيْرَ الْمُرَادِ [وَيَأْتِي] (1) مُتَأَخِّرُونَ يَفْهَمُونَ الْمُرَادَ فَهَذَا هَذَا وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

فَصْلٌ :

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ هُوَ كَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ إنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ .

فَإِنَّ هَذَا النَّوْعَ يُبَيِّنُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ عَلَى أَمْرٍ مِنْ اللَّهِ فَاجْتَمَعَ فِي هَذَا اللَّفْظِ حَرْفُ الِاسْتِعْلَاءِ وَحَرْفُ (مِنْ) لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ وَمَا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ حَرْفُ ابْتِدَاءِ الْغَايَةِ فَيُقَالُ : هُوَ مِنْ اللَّهِ عَلَى نَوْعَيْنِ فَإِنَّهُ إمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ الصِّفَاتِ الَّتِي لَا تَقُومُ بِنَفْسِهَا وَلَا بِمَخْلُوقٍ فَهَذَا يَكُونُ صِفَةً لَهُ وَمَا كَانَ عَيْنًا قَائِمَةً بِنَفْسِهَا أَوْ بِمَخْلُوقٍ فَهِيَ مَخْلُوقَةٌ . " فَالْأَوَّلُ " كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ كَمَا قَالَ السَّلَفُ : الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ . " وَالنَّوْعُ الثَّانِي " كَقَوْلِهِ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ و ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ وَكَمَا يُقَالُ : إلْهَامُ الْخَيْرِ وَإِيحَاؤُهُ مِنْ اللَّهِ وَإِلْهَامُ الشَّرِّ وَإِيحَاؤُهُ مِنْ الشَّيْطَانِ وَالْوَسْوَسَةُ مِنْ الشَّيْطَانِ . فَهَذَا نَوْعَانِ . تَارَةً يُضَافُ بِاعْتِبَارِ السَّبَبِ وَتَارَةً بِاعْتِبَارِ الْعَاقِبَةِ وَالْغَايَةِ . فَالْحَسَنَاتُ هِيَ النِّعَمُ وَالسَّيِّئَاتُ هِيَ الْمَصَائِبُ كُلُّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَكِنْ تِلْكَ الْحَسَنَاتُ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْعَبْدِ فَهِيَ مِنْهُ إحْسَانًا وَتَفَضُّلًا وَهَذِهِ عُقُوبَةُ ذَنْبٍ مِنْ نَفْسِ الْعَبْدِ فَهِيَ مِنْ نَفْسِهِ بِاعْتِبَارِ أَنَّ عَمَلَهُ السَّيِّئَ كَانَ

سَبَبَهَا وَهِيَ عُقُوبَةٌ لَهُ ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ أَرَادَتْ تِلْكَ الذُّنُوبَ وَوُسْوِسَتْ بِهَا . وَتَارَةً يُقَالُ بِاعْتِبَارِ حَسَنَاتِ الْعَمَلِ وَسَيِّئَاتِهِ وَمَا يُلْقَى فِي الْقَلْبِ مِنْ التَّصَوُّرَاتِ وَالْإِرَادَاتِ فَيُقَالُ لِلْحَقِّ : هُوَ مِنْ اللَّهِ أَلْهَمَهُ الْعَبْدَ وَيُقَالُ لِلْبَاطِلِ : إنَّهُ مِنْ الشَّيْطَانِ وَسْوَسَ بِهِ وَمِنْ النَّفْسِ أَيْضًا لِأَنَّهَا أَرَادَتْهُ كَمَا قَالَ عُمَرُ وَابْنُ عُمَرَ وَابْنُ مَسْعُودٍ فِيمَا قَالُوهُ بِاجْتِهَادِهِمْ : إنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنَّا وَمِنْ الشَّيْطَانِ وَاَللَّهُ وَرَسُولُهُ بَرِيئَانِ مِنْهُ . وَهَذَا لَفْظُ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي حَدِيثِ بروع بِنْتِ وَاشِقٍ قَالَ : إنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنْ الشَّيْطَانِ لِأَنَّهُ حَكَمَ بِحُكْمٍ فَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا لِحُكْمِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ اللَّهِ لِأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِعِلْمِهِ وَحُكْمِهِ فَهُوَ مِنْهُ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَلْهَمَهُ عَبْدَهُ لَمْ يَحْصُلْ بِتَوَسُّطِ الشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ وَإِنْ كَانَ خَطَأً فَالشَّيْطَانُ وَسْوَسَ بِهِ وَالنَّفْسُ أَرَادَتْهُ وَوَسْوَسَتْ بِهِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مَخْلُوقًا فِيهِ وَاَللَّهُ خَلَقَهُ فِيهِ ؛ لَكِنَّ اللَّهَ لَمْ يَحْكُمْ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَا وَقَعَ لِي مِنْ إلْهَامِ الْمَلَكِ كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : إنَّ لِلْمَلَكِ بِقَلْبِ ابْنِ آدَمَ لَمَّةً وَلِلشَّيْطَانِ لَمَّةً ؛ فَلَمَّةُ الْمَلَكِ إيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ وَلَمَّةُ الشَّيْطَانِ إيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ " فَالتَّصْدِيقُ مِنْ بَابِ الْخَبَرِ وَالْإِيعَادُ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ مِنْ بَابِ الطَّلَبِ

(75/375)

وَالْإِرَادَةِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً

(76/375)

مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ . فَهَذِهِ حَسَنَاتُ الْعَمَلِ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِهَذَيْنِ الِاعْتِبَارَيْنِ . " أَحَدُهُمَا " أَنَّهُ يَأْمُرُ بِهَا وَيُحِبُّهَا وَإِذَا كَانَتْ خَيْرًا فَهُوَ يُصَدِّقُهَا وَيُخْبِرُ بِهَا فَهِيَ مِنْ عِلْمِهِ وَحُكْمِهِ وَهِيَ أَيْضًا مِنْ إلْهَامِهِ لِعَبْدِهِ وَإِنْعَامِهِ عَلَيْهِ لَمْ تَكُنْ بِوَاسِطَةِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ ؛ فَاخْتُصَّتْ بِإِضَافَتِهَا إلَى اللَّهِ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا مِنْ عِلْمِهِ وَحُكْمِهِ وَأَنَّ النَّازِلَ بِهَا إلَى الْعَبْدِ مَلَكٌ كَمَا اخْتُصَّ الْقُرْآنُ بِأَنَّهُ مِنْهُ كَلَامٌ وَقُرْآنٌ مُسَيْلِمَةَ بِأَنَّهُ مِنْ الشَّيْطَانِ فَإِنَّ مَا يُلْقِيهِ اللَّهُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ الْإِلْهَامَاتِ الصَّادِقَةِ الْعَادِلَةِ هِيَ مِنْ وَحْيِ اللَّهِ وَكَذَلِكَ مَا يُرِيهِمْ إيَّاهُ فِي الْمَنَامِ قَالَ عبادة بْنُ الصَّامِتِ : رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ كَلَامٌ يُكَلِّمُ بِهِ الرَّبُّ عَبْدَهُ فِي مَنَامِهِ وَقَالَ عُمَرُ : اقْتَرِبُوا مِنْ أَفْوَاهِ الْمُطِيعِينَ وَاسْمَعُوا مِنْهُمْ مَا يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ يَتَجَلَّى لَهُمْ أُمُورٌ صَادِقَةٌ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلَى أُمِّ مُوسَى ﴾ ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ عَلَى قَوْلِ الْأَكْثَرِينَ وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ أَلْهَمَ الْفَاجِرَةَ فُجُورَهَا وَالتَّقِيَّةَ تَقْوَاهَا فَالْإِلْهَامُ عِنْدَهُ هُوَ الْبَيَانُ بِالْأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ . وَأَهْلُ السُّنَّةِ يَقُولُونَ : كِلَا النَّوْعَيْنِ مِنْ اللَّهِ هَذَا الْهُدَى

الْمُشْتَرَكُ

وَذَاكَ الْهُدَى الْمُخْتَصُّ وَإِنْ كَانَ قَدْ سَمَّاهُ إِلْهَامًا كَمَا سَمَّاهُ هُدًى كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ وَكَذَلِكَ قَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ أَيْ بَيَّنَا لَهُ طَرِيقَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَهُوَ هُدَى الْبَيَانِ الْعَامِّ الْمُشْتَرَكِ . وَقِيلَ : هَدَيْنَا الْمُؤْمِنَ لِطَرِيقِ الْخَيْرِ وَالْكَافِرَ لِطَرِيقِ الشَّرِّ ؛ فَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَدْ جَعَلَ الْفُجُورَ هُدًى كَمَا جَعَلَ أُولَئِكَ الْبَيَانَ إِلْهَامًا . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ قِيلَ هُوَ الْهُدَى الْمُشْتَرَكُ وَهُوَ أَنَّهُ بَيَّنَ لَهُ الطَّرِيقَ الَّتِي يَجِبُ سُلُوكُهَا وَالطَّرِيقَ الَّتِي لَا يَجِبُ سُلُوكُهَا . وَقِيلَ بَلْ هَدَى كُلًّا مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ إِلَى مَا سَلَكَهُ مِنْ السَّبِيلِ ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ . لَكِنَّ تَسْمِيَةَ هَذَا هُدًى قَدْ يُعْتَذَرُ عَنْهُ بِأَنَّهُ هُدًى مُقَيَّدٌ لَا مُطْلَقٌ كَمَا قَالَ : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وَكَمَا قَالَ : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ وَأَنَّهُ ﴿ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ و ﴿ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ فَهُوَ مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ وَأَمْرِهِ لِعِلْمِهِ وَحُكْمِهِ كَمَا أَنَّ الْقُرْآنَ وَسَائِرَ كَلَامِهِ كَذَلِكَ وَبِاعْتِبَارِ أَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَى الْعَبْدِ بِوَاسِطَةِ جُنْدِهِ بِالْمَلَائِكَةِ . وَيُقَالُ لِضِدِّ هَذَا –

وَهُوَ الْخَطَأُ – هَذَا مِنْ الشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَقُولُهُ وَلَا يَأْمُرُ بِهِ ؛ وَلِأَنَّهُ إنَّمَا يَنْكُتُهُ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ

(78/375)

الشَّيْطَانُ وَنَفْسُهُ تَقْبَلُهُ مِنْ الشَّيْطَانِ ؛ فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَهَا الشَّيْءَ فَتُطِيعُهُ فِيهِ وَلَيْسَ كُلُّ مَا كَانَ مِنْ الشَّيْطَانِ يُعَاقَبُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ ؛ وَلَكِنْ يَفُوتُهُ بِهِ نَوْعٌ مِنْ الْحَسَنَاتِ كَالنِّسْيَانِ فَإِنَّهُ مِنْ الشَّيْطَانِ وَالِاحْتِلَامُ مِنْ الشَّيْطَانِ وَالنُّعَاسُ عِنْدَ الذِّكْرِ وَالصَّلَاةِ مِنْ الشَّيْطَانِ وَالصَّعْقُ عِنْدَ الذِّكْرِ مِنْ الشَّيْطَانِ وَلَا إثْمَ عَلَى الْعَبْدِ فِيمَا غُلِبَ عَلَيْهِ إذَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِقَصْدٍ مِنْهُ أَوْ بِذَنْبٍ . فَقَوْلُهُ : ﴿ إنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ وَشِبْهُهَا مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ : مِنْ هَذَا الْبَابِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى تَصْدِيقِ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ وَفِعْلِ مَا أَمَرَ اللَّهُ ابْتِدَاءً وَتَبْلِيغًا كَالْقُرْآنِ وَقَدْ قَالَ : " إنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْأَمَانَةَ فِي جِذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ " فَهِيَ تَنْزِلُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نُورِهِ وَهُدَاهُ وَهَذِهِ حَسَنَاتٌ دِينِيَّةٌ وَعُلُومٌ دِينِيَّةٌ حَقٌّ نَافِعَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُوَ الْإِيمَانُ الَّذِي هُوَ إفْضَالُ الْمُنْعِمِ ، وَهُوَ أَفْضَلُ النِّعَمِ .

(79/375)

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ فَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ نِعَمُ الدُّنْيَا كُلُّهَا كَالْعَافِيَةِ وَالرِّزْقِ وَالنَّصْرِ وَتِلْكَ حَسَنَاتٌ يَبْتَلِي اللَّهُ الْعَبْدَ بِهَا . كَمَا يَبْتَلِيهِ بِالْمَصَائِبِ هَلْ شَكَرَ أَمْ لَا ؟ وَهَلْ يَصْبِرُ أَمْ لَا ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ ﴾ الْآيَاتُ .

(80/375)

وَقَدْ يُقَالُ فِي الشَّيْءِ إنَّهُ مِنْ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ مَخْلُوقًا إذَا كَانَ مُخْتَصًّا بِاللَّهِ كَآيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ كَمَا قَالَ لِمُوسَى : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ وَقَلْبِ الْعَصَا حَيَّةً وَإِخْرَاجِ الْيَدِ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ لَكِنَّهُ مِنْهُ لِأَنَّهُ دَلَّ بِهِ وَأَرْشَدَ إلَى صِدْقِ نَبِيِّهِ مُوسَى وَهُوَ تَصْدِيقٌ مِنْهُ وَشَهَادَةٌ مِنْهُ لَهُ بِالرِّسَالَةِ وَالصِّدْقِ فَصَارَ ذَلِكَ مِنْ اللَّهِ بِمَنْزِلَةِ الْبَيِّنَةِ مِنْ اللَّهِ وَالشَّهَادَةِ مِنْ اللَّهِ وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ مِمَّا تَفْعَلُهُ الشَّيَاطِينُ وَالْكُهَّانُ كَمَا يُقَالُ : هَذِهِ عَلَامَةٌ مِنْ فُلَانٍ وَهَذَا دَلِيلٌ مِنْ فُلَانٍ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كَلَامًا مِنْهُ . وَقَدْ سَمَّى مُوسَى ذَلِكَ بَيِّنَةً مِنْ اللَّهِ فَقَالَ : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ فَقَوْلُهُ : بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ . وَهَذِهِ الْبَيِّنَةُ هُنَا حُجَّةٌ وَآيَةٌ وَدَلَالَةٌ مَخْلُوقَةٌ تَجْرِي مَجْرَى شَهَادَةِ اللَّهِ وَإِخْبَارِهِ بِكَلَامِهِ

كَالْعَلَامَةِ الَّتِي يُرْسِلُ بِهَا الرَّجُلُ إلَى أَهْلِهِ وَكِيلَهُ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي الْآيَةِ : هِيَ كَالْخَاتَمِ تَبْعَثُ بِهِ فَيَكُونُ هَذَا بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ صَدِّقُوهُ فِيمَا قَالَ أَوْ أَعْطُوهُ مَا طَلَبَ . فَالْقُرْآنُ وَالْهُدَى مِنْهُ وَهُوَ مِنْ كَلَامِهِ وَعِلْمِهِ وَحُكْمِهِ الَّذِي هُوَ قَائِمٌ بِهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَهَذِهِ الْآيَاتُ دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ كَمَا يُكْتَبُ كَلَامُهُ فِي

(81/375)

الْمَصَاحِفِ ؛ فَيَكُونُ الْمُرَادُ الْمَكْتُوبُ بِهِ الْكَلَامُ يُعْرَفُ بِهِ الْكَلَامُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ . وَلِهَذَا يَكُونُ لِهَذِهِ الْآيَاتِ الْمُعْجِزَاتِ حُرْمَةٌ : كَالنَّاقَةِ وَكَالْمَاءِ النَّابِعِ بَيْنَ أَصَابِعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ .

فَصْلٌ :

(82/375)

فِي قَوْله تَعَالَى ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ الْآيَةُ وَمَا بَعْدَهَا إلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ الْفَرْقَ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ التَّبَايُنِ وَالِاخْتِلَافِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ تَرْغِيبًا فِي السَّعَادَةِ وَتَرْهِيبًا مِنْ الشَّقَاوَةِ . وَقَدْ افْتَتَحَ السُّورَةَ بِذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إلَّا اللَّهَ إنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ فَذَكَرَ أَنَّهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ؛ نَذِيرٌ يُنْذِرُ بِالْعَذَابِ لِأَهْلِ النَّارِ وَبَشِيرٌ يُبَشِّرُ بِالسَّعَادَةِ لِأَهْلِ الْحَقِّ . ثُمَّ ذَكَرَ حَالَ الْفَرِيقَيْنِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ فَقَالَ : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ ﴿ إلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ . ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ هَذَا قَصَصَ الْأَنْبِيَاءِ وَحَالَ مَنْ اتَّبَعَهُمْ وَمَنْ كَذَّبَهُمْ

(83/375)

كَيْفَ سَعِدَ هَؤُلَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَشَقِيَ هَؤُلَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَذَكَرَ مَا جَرَى لَهُمْ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ . ثُمَّ ذَكَرَ حَالَ الَّذِينَ سُعِدُوا وَالَّذِينَ شُقُوا . ثُمَّ قَالَ : ﴿ إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ

الْآخِرَةِ ﴾ فَإِنَّهُ قَدْ يُقَالُ : غَايَةُ مَا أَصَابَ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ مَاتُوا وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ يَمُوتُونَ وَأَمَّا كَوْنُهُمْ أُهْلِكُوا كُلُّهُمْ وَصَارَتْ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً وَصَارُوا عِبْرَةً يُذْكَرُونَ بِالشَّرِّ وَيُلْعَنُونَ إنَّمَا يَخَافُ ذَلِكَ مَنْ آمَنَ بِالْآخِرَةِ فَإِنَّ لَعْنَةَ الْمُؤْمِنِينَ لَهُمْ بِالْآخِرَةِ وَبُغْضَهُمْ لَهُمْ كَمَا جَرَى لِآلِ فِرْعَوْنَ هُوَ مِمَّا يَزِيدُهُمْ عَذَابًا كَمَا أَنَّ لِسَانَ الصِّدْقِ وَثَنَاءَ النَّاسِ وَدُعَاءَهُمْ لِلْأَنْبِيَاءِ وَاتِّبَاعَهُمْ لَهُمْ هُوَ مِمَّا يَزِيدُهُمْ ثَوَابًا . فَمَنْ اسْتَدَلَّ بِمَا أَصَابَ هَؤُلَاءِ عَلَى صِدْقِ الْأَنْبِيَاءِ فَآمَنَ بِالْآخِرَةِ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ وَكَانَ ذَلِكَ لَهُ آيَةً وَأَمَّا مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْآخِرَةِ وَيَظُنُّ أَنَّ مَنْ مَاتَ لَمْ يُبْعَثْ فَقَدْ لَا يُبَالِي بِمِثْلِ هَذَا وَإِنْ كَانَ يَخَافُ هَذَا مَنْ لَا يَخَافُ الْآخِرَةَ ؛ لَكِنْ كُلُّ مَنْ خَافَ الْآخِرَةَ كَانَ هَذَا حَالُهُ وَذَلِكَ لَهُ آيَةٌ . وَقَدْ خَتَمَ السُّورَةَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إنَّا عَامِلُونَ ﴾ إلَى آخِرِهَا كَمَا افْتَتَحَهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إلَّا اللَّهَ ﴾ فَذَكَرَ التَّوْحِيدَ وَالْإِيمَانَ بِالرُّسُلِ فَهَذَا دِينُ اللَّهِ فِي

(84/375)

الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : كَلِمَتَانِ يُسْأَلُ عَنْهُمَا الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ وَمَاذَا أَجَبْتُمْ الْمُرْسَلِينَ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ الْمُرْسَلِينَ ﴾ و ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ هُوَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ وَهَذَانِ هُمَا الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ تَارَةً فِي رَكْعَتَيْ الْفَجْرِ سُورَتَيْ الْإِخْلَاصِ وَتَارَةً بِآيَتَيْ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ فَيَقْرَأُ قَوْلَهُ : ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْنَا ﴾ الْآيَةَ فَأَوَّلُهَا الْإِيمَانُ وَآخِرُهَا الْإِسْلَامُ وَيَقْرَأُ فِي الثَّانِيَةِ : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إلَّا اللَّهَ ﴾ فَأَوَّلُهَا إخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَآخِرُهَا الْإِسْلَامُ لَهُ . وَقَالَ : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إلَيْنَا وَأُنْزِلَ إلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ فَفِيهَا الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ فِي آخِرِهَا وَقَالَ : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 15 صـ 62. 105 ﴾

(85/375)

وقال أبو السعود :

﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾

أي برهانٍ نيّرٍ عظيمِ الشأنِ يدل على حقية ما رَغّب في الثبات عليه من الإسلام وهو القرآنُ ، وباعتباره أو بتأويل البرهانِ ذُكر الضميرُ الراجعُ إليها في قوله تعالى : ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ أي

يتبعه ﴿ شَاهِدٌ ﴾ يشهد بكونه من عند الله تعالى وهو الإعجازُ في نظمه المطّردِ في كل مقدارِ سورةٍ منه أو ما وقع في بعض آياتِه من الإخبار بالغيب ، وكلاهما وصفٌ تابعٌ له شاهدٌ بكونه من عند الله عز وجل غيرَ أنه على التقدير الأولِ يكون في الكلامِ إشارةٌ إلى حال رسولِ الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في تمسّكهم بالقرآن عند تبيُّنِ كونِه منزلاً بعلم الله بشهادة الإعجاز ﴿ مِنْهُ ﴾ أي من القرآنِ غيرَ خارجٍ عنه أو من جهة الله تعالى فإن كلاًّ منهما واردٌ من جهته تعالى للشهادة ، ويجوز على هذا التقديرِ أن يراد بالشاهد المعجزاتُ الظاهرةُ على يدَيْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فإن ذلك أيضاً من الشواهد التابعةِ للقرآن الواردةِ من جهته تعالى ، فالمرادُ بمنْ في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنِ ﴾ كلُّ من اتصف بهذه الصفةِ الحميدةِ فيدخُل فيه المخاطَبون بقوله تعالى ﴿ فاعلموا *** فَهَلْ أَنتُمْ ﴾ دخولاً أولياً وقيل : هو النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وقيل : مؤمنو أهلِ الكتاب كعبد اللَّه بن سلام وأضرابِه ، وقيل : المرادُ بالبينة دليلُ العقلِ وبالشاهد القرآنُ فالضمير في منه لله تعالى ، أو البينةُ القرآنُ ويتلوه من التلاوة والشاهدُ جبريلُ أو لسانُ النبي صلى الله عليه وسلم على أن الضميرَ له أو من التُّلُوّ والشاهدُ مَلَكٌ يحفظ ، والأَوْلى هو الأولُ ، ولما كان المرادُ بتلوّ الشاهدِ للبرهان إقامةَ الشهادة بصحته وكونِه من عند الله تابعاً له بحيث لا يفارقه في مشهد من المشاهد فإن القرآنَ بيِّنةٌ باقيةٌ على وجه الدهرِ مع شاهدها الذي

يشهد بأمرها إلى يوم القيامةِ عند كلِّ مؤمنٍ وجاحدٍ عُطف كتابُ موسى في قوله عز قائلاً :

﴿ وَمِن

(86/375)

قَبْلِهِ كِتَابُ موسى ﴾ على فاعله مع كونه مقدَّماً عليه في النزول فكأنه قيل : أفمن كان على بينةٍ من ربه ويشَهد به شاهدٌ منه وشاهدٌ آخرُ مِنْ قبله هو كتابُ موسى ، وإنما قُدّم في الذكر المؤخَّرِ في النزول لكونه وصفاً لازماً له غيرَ مفارقٍ عنه ولعراقته في وصف التلوِّ ، والتنكيرُ في (بينةٍ) و (شاهدٌ) للتفخيم ﴿ إِمَاماً ﴾ أي مؤتماً به في الدين ومقتدىً ، وفي التعرض لهذا الوصفِ بصدد بيانِ تلوِّ الكتابِ ما لا يخفى من تفخيم شأنِ المَتْلوِّ ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي نعمةً عظيمة على من أُنزل إليهم ومَنْ بعدهم إلى يوم القيامة باعتبار أحكامِه الباقيةِ المؤيَّدةِ بالقرآن العظيمِ وهما حالان من الكتاب .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفةِ الحميدةِ وهو الكونُ على بينة من الله ، ولما أن ذلك عبارةٌ عن مطلق التمسكِ بها وقد يكون ذلك بطريق التقليدِ لمن سلف من عظماء الدين من غير عُثورٍ على دقائق الحقائقِ وصفهم بأنهم ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي يصدقونه حقَّ التصديقِ حسبما تشهد به الشواهدُ الحقّة المعربةُ عن حقيته ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ﴾ أي

بالقرآن ولم يصدّق بتلك الشواهد الحقَّةِ ﴿ مّن الاحزاب ﴾ من أهل مكةَ ومن تحزّب معهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فالنار مَوْعِدُهُ ﴾ يردّها لا محالة حسبما نطَق به قوله تعالى :

(87/375)

﴿ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخرة إِلاَّ النار ﴾ وفي جعلها موعداً إشعارٌ بأن له فيها ما لا يوصف من أفانين العذابِ ﴿ فَلاَ تَكُ فِى مِرْيَةٍ مّنْهُ ﴾ أي في شك من أمر القرآنِ وكونِه من عند الله عز وجل حسبما شهِدت به الشواهدُ المذكورةُ وظهر فضلُ من تمسك به ﴿ أَنَّهُ الحق مِن رَّبّكَ ﴾ الذي يربّيك في دينك ودنياك ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بذلك إما لقصور أنظارِهم واختلالِ أفكارِهم وإما لعنادهم واستكبارِهم ، فمَنْ في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيّنَةٍ مّن رَّبّهِ ﴾ مبتدأٌ حُذف خبرُه لإغناء الحالِ عن ذكره وتقديرُه أفمن كان على بينة من ربه كأولئك الذين ذُكرت أعمالَهم وبُيّن مصيرُهم ومآلُهم ، يعني أن بينهما اتفاقاً عظيماً بحيث لا يكاد يتراءى ناراهما ، وإيرادُ الفاءِ بعد الهمزةِ لإنكار ترتّبِ توهّم المماثلةِ على ما ذكر من صفاتهم وعُدّد من هَناتهم كأنه قيل : أبعدَ ظهورِ حالِهم في الدنيا والآخرة كما وُصف يُتوهم المماثلةُ بينهم وبين مَنْ كان على أحسن ما يكون في العاجل والآجل كما

في قوله تعالى : ﴿ أفاتخذتم مّن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ أي أبعدَ أن علمتموه ربَّ السمواتِ والأرض اتخذتم من دونه أولياءَ وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق كَمَنْ هُوَ أعمى ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(88/375)

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾

تدل على الحق والصواب فيما يأتيه ويذره ، ويدخل في ذلك الإسلام دخولاً أولياً ، واقتصر عليه بعضهم بناءاً على أنه المناسب لما بعد ، وأصل البينة كما قيل : الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة ، وتطلق على الدليل مطلقاً ، وهاؤها للمبالغة ، أو النقل ، وهي وإن قيل : إنها من بان بمعنى تبين واتضح لكنه اعتبر فيها دلالة الغير والبيان له ، وأخذها بعضهم من صيغة المبالغة ، والتنوين فيها هنا للتعظيم أي بينة عظيمة الشأن ، والمراد بها القرآن وباعتبار ذلك أو البرهان ذكر الضمير الراجع إليها في قوله سبحانه : ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ أي يتبعه ﴿ شَاهِدٌ ﴾ عظيم يشهد بكونه من عند الله تعالى شأنه وهو كما قال الحسين بن الفضل الإعجاز في نظمه ، ومعنى كون ذلك تابعاً له أنه وصف له لا ينفك عنه حتى يرث

الله تعالى الأرض ومن عليها فلا يستطيع أحد من الخلق جيلاً بعد جيل معارضته ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

وكذا الضمير في ﴿ مِنْهُ ﴾ وهو متعلق بمحذوف وقع صفة لشاهد ، ومعنى كونه منه أنه غير خارج عنه .

وجوز أن يكون هذا الضمير راجعاً إلى الرب سبحانه ، ومعنى كونه منه تعالى أنه وارد من جهته سبحانه للشهاد ، وعلى هذا يجوز أن يراد بالشاهد المعجزات الظاهرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها من الشواهد التابعة للقرآن الواردة من قبله عز وجل ، وأمر التبعية فيها ظاهر ، والمراد بالموصول كل من اتصف بتلك الكينونة من المؤمنين .

وعن أبي العالية أنه النبي عليه الصلاة والسلام ولا يخفى أن قوله سبحانه الآتي : ﴿ أولئك ﴾ الخ لا يلائمه إلا أن يحمل على التعظيم ، وأيضاً إن السياق كما ستعلم إن شاء الله تعالى للفرق بين الفريقين المؤمنين .

ومن يريد الحياة الدنيا لا بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم ، وفسر أبو مسلم .

(89/375)

وغيره البينة بالدليل العقلي ، والشاهد بالقرآن وضمير ﴿ مِنْهُ ﴾ لله تعالى ، ومن ابتدائية ، أو للقرآن فقد تقدم ذكره ، ومن حينئذٍ إما بيانية .

وإما تبعيضية بناءاً على أن القرآن ليس كله شاهداً وليس من التجريد على ما توهم الطيبي ، فيكون في الآية إشارة إلى الدليلين العقلي .

والسمعي ، ومعنى كون الثاني تابعاً للأول على ما قيل : إنه موافق له لا يخالفه أصلاً ، ومن هنا قالوا : إن النقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح ، ولذا أولوا الدليل السمعي إذا خالف ظاهره الدليل العقلي ، ولعل في التعبير عن الأول بالبينة التي جاء إطلاقها في كلام الشارع على شاهدين ، وعن الثاني بالشاهد الإيماء إلى أن الدليل العقلي أقوى دلالة من الدليل السمعي لأن دلالة الأول قطعية .

ودلالة الثاني ظنية غالباً للاحتمالات الشهيرة التي لا يمكن القطع معها ، وقد يقال : إن التعبير عن الثاني بالشاهد لمكان التلو .

وعن ابن عباس .

ومجاهد .

والنخعي .

والضحاك .

وعكرمة .

وأبي صالح .

وسعيد بن جبير أن البينة القرآن ، والشاهد هو جبريل عليه السلام ويتول من التلاوة لا التلو ، وضمير ﴿ مِنْهُ ﴾ لله تعالى ، وفي رواية عن مجاهد أن الشاهد ملك يحفظ القرآن وليس المراد الحفظ المتعارف لأنه كما قال ابن حجر خاص بجبريل عليه السلام ، وضمير ﴿ مِنْهُ ﴾ كما في سابقه إلا أن يتلو من التلو والضمير المنصوب للبينة ، وقيل : لمن كان عليها ، وعن الفراء أن الشاهد هو الإنجيل ، ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ وضمير ﴿ مِنْهُ ﴾ على طرز ما روي عن مجاهد سوى أن ضمير يتلوه للقرآن .

(90/375)

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن الحنفية أن الشاهد لسانه صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر أهل اللغة ذلك ؛ وكذا الملك من معانيه ، ويتلو حينئذٍ من التلاوة ، والإسناد مجازي ومفعوله للبينة ، وضمير ﴿ مِنْهُ ﴾ للرسول صلى الله عليه وسلم بناءاً على أنه المراد بالموصول ، ومن تبعيضية ، وقيل : الشاهد صورته عليه الصلاة والسلام ومخايله لأن كل عاقل يراه يعلم أنه عليه الصلاة والسلام رسول الله .

وأخرج ابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : "ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن ، فقال له رجل : ما نزل فيك ؟ قال : أما تقرأ سورة هود ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ ﴾ الآية من كان على بينة من ربه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا شاهد منه" ،

وأخرج المنهال عن عبادة بن عبد الله مثله ، وأخرج ابن مردويه بوجه آخر عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ أنا ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ ﴾ علي" .

وأخرج الطبرسي نحو ذلك عن بعض أهل البيت رضي الله تعالى عنهم وتعلق به بعض الشيعة في أن علياً كرم الله تعالى وجهه هو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الله تعالى سماه شاهداً كما سمى نبيه عليه الصلاة والسلام كذلك في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا أرسلناك شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [الفتح : 8] والمراد ﴿ شاهدا ﴾ على الأمة كما يشهد له عطف ﴿ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ عليه فينبغي أن يكون مقامه كرم الله تعالى وجهه بين الأمة كمقامه عليه الصلاة والسلام بينهم ، وحيث أخبر سبحانه أنه يتلوه أي يعقبه ويكون بعد دل على أنه خليفته ، وأنت تعلم أن الخبر مما لا يكاد يصح ، وفيما سيأتي في الآية إن شاء الله تعالى إباءً عنه ، ويكذبه ما أخرجه ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ .

(91/375)

والطبراني في الأوسط عن محمد بن الحنفية رضي الله تعالى عنه قال : قلت لأبي كرم الله تعالى وجهه : إن الناس يزعمون في قول الله تعالى : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أنك أنت التالي ؟ قال : وددت أني هو ولكنه لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، على أن في تقرير الاستدلال ضعفاً وركاكة بلغت الغاية القصوى كما لا يخفى على من له أدنى فطنة .

ونقل أبو حيان أن هذا الشاهد هو أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وفيه ما فيه ، وفي عطف يتلوه احتمالان : الأول : أن يكون على ما وقع صفة لبينة ، والثاني : أن يكون على جملة ﴿ كَانَ ﴾ ومرفوعها ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى ﴾ عطف على ﴿ شَاهِدٌ ﴾ والضمير المجرور له ، وقد توسط الجار والمجرور بينهما ، والظاهر أنه متعلق بمحذوف وقع حالاً من الكتاب أي ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ في التصديق ﴿ كِتَابُ موسى ﴾ منزلاً من قبله ، وحاصله ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِهِ ﴾ ويشهد لصدقه شاهد منه وشاهد آخر من قبله وهو كتاب موسى ، قيل : وإنما قدم في الذكر المؤخر في النزول لكونه وصفاً

لازماً له غير مفارق عنه ولعراقته في وصف التلو ، وهذا على تقدير أن يكون المراد بالشاهد الإعجاز كما اختاره بعض المحققين وقد يقال : إن تأخير بيان شهادة هذا الشاهد عن بيان شهادة الشاهد الأول لأنها ليست في الظهور عند الأمة كشهادة الأول وهو جار على غير ذلك التقدير أيضاً ، وتخصيص كتاب موسى عليه السلام بالذكر بناءً على عدم إرادة الإنجيل فيما تقدم لأن الملتين مجتمعتان على أنه من عند الله تعالى بخلاف الإنجيل فإن اليهود مخالفون فيه فكان الاستشهاد بما تقوم به الحجة على الفريقين أولى .

وأوجب بعضهم كون ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى ﴾ جملة مبتدأة غير داخلة في حيز شيء مما قبلها وهو مبني على كثير من الاحتمالات السابقة في الشاهد ، وقرأ محمد بن السائب الكلبي .

(92/375)

وغيره ﴿ كِتَابٌ ﴾ بالنصب على أنه معطوف على مفعول يتلوه أو منصوب بفعل مقدر أي ويتلو كتاب موسى ، والأول أولى لأن الأصل عدم التقدير ، ويتلو في هذه القراءة من التلاوة ، والضمير المنصوب للقرآن والمجرور لمن ، و ﴿ مِنْ ﴾ تبعيضية لا تجريدية ، والمعنى على ما يقتضيه كلام الكشاف ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ ﴾ على أن القرآن حق لا مفترى ، والمراد به

أهل الكتاب ممن كان يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحق وأن كتابه هو الحق لما كانوا وجدوه في التوراة ، ويقرأ القرآن شاهد من هؤلاء ، ويقرأ من قبل القرآن كتاب موسى ، والمراد بهذا الشاهد ما أريد به في قوله سبحانه : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِى إسرائيل على مِثْلِهِ ﴾

(93/375)

[الأحقاف : 10] وهو عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه ، ففي الآية مدح أهل الكتاب وخص من بينهم تالي الكتابين وشاهدهم بالذكر دلالة على مزيد فضله وتنبيهاً على أنهم مشايعوه في اتباع الحق وإن لم يبلغوا رتبة الشاهد ، وفي قوله تعالى : ﴿ يتلوه ﴾ استحضار للحال ودلالة على استمرار التلاوة ، وهو كما قيل في غاية التطابق للكلام ﴿ لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ أي مؤتماً به في الدين ومقتدى ، وفي التعرض لهذا الوصف مع بيان تلو الكتاب ما لا يخفى من تفخيم شأن المتلو والتنوين فيه للتعظيم ، وكذا في قوله سبحانه : ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي نعمة عظيمة على من أنزل إليهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة باعتبار أحكامه الباقية المؤيدة بالقرآن العظيم وهما حالان من الكتاب ﴿ أولئك ﴾ أي الموصوفون بتلك الصفة الحميدة وهي الكون على بينة ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي يصدقون بالقرآن حق التصديق

حسبما يشهد به تلك الشواهد الحقة المعربة عن حقيته ولا يقلدون أحداً من عظماء الدين ؛ فالضمير للقرآن ، وقيل : إنه لكتاب موسى عليه السلام لأنه أقرب ولا يناسب ما بعد ، وإن لم يك خالياً عن الفائدة ، وقيل : إنه للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ﴾ أي بالقرآن ولم يعتد بتلك الشواهد الحقة ولم يصدق بها ﴿ مّن الاحزاب ﴾ من أهل مكة ومن تحزب معهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله بعضهم ، وأخرج عبد الرزاق عن قتادة أن الأحزاب الكفار مطلقاً فإنهم تحزبوا على الكفر ، وروي ذلك عن ابن جبير ، وفي رواية أبي الشيخ عن قتادة أنهم اليهود .

والنصارى ، وقال السدي : هم قريش ، وقال مقاتل : هم بنو أمية .

وبنو المغيرة بن عبد الله المخزومي .

وآل أبي طلحة بن عبيد الله ﴿ فالنار مَوْعِدُهُ ﴾ أي يردها لا محالة حسبما نطق به قوله سبحانه : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخرة إِلاَّ النار ﴾ [هود : 16] وآيات أخر ، والموعد اسم مكان الوعد كما في قول حسان

(94/375)

: أوردتموها حياض الموت ضاحية . . .

فالنار موعدها والموت لاقيها

وفي جعل النار موعداً إشعار بأن له فيها ما لا يوصف من أفانين العذاب ﴿ فَلاَ تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي في شك من أمر القرآن وكونه من عند الله تعالى غبَّ ما شهدت به الشواهد وظهر فضل من تمسك به ، أو لا تك في شك من كون النار موعدهم ، وادعى بعضهم أنه الأظهر وليس كذلك ، وأياً مّا كان فالخطاب إن كان عاماً لمن يصلح له فالمراد التحريض على النظر الصحيح المزيل للشك ، وإن كان للنبي صلى الله عليه وسلم فهو بيان لأنه ليس محلاً للشك تعريضاً بمن شك فيه ولا يلزم من نهيه عليه الصلاة والسلام عنه وقوعه ولا توقعه منه صلى الله عليه وسلم ، وقرأ السمعي .

وأبو رجاء .

وأبو الخطاب السدوسي .

والحسن ﴿ مِرْيَةٍ ﴾ بضم الميم وهي لغة أسد .

(95/375)

وتميم ، والكسر لغة أهل الحجاز ﴿ أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ أي الذي يربيك في دينك ودنياك ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بذلك إما لقصور أنظارهم واختلال أفكارهم وإما لاستكبارهم وعنادهم و﴿ الناس ﴾ على ما روى عن ابن عباس أهل مكة ، قال صاحب الفينان : جميع الكفار ، هذا والهمزة في ﴿ أَفَمَنِ ﴾ قيل : للتقرير ومن مبتدأ والخبر محذوف أي أفمن كان كذا كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها ، وحذف معادل الهمزة ومثله كثير ، واختار هذا أبو حيان ، والذي يقتضيه كلام الزمخشري ولعله الأولى خلافه حيث قال : المعنى أمن كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بينة أي لا يعقبونهم ولا يقاربونهم في المنزلة إلى آخر ما قال ، وحاصله على ما في "الكشف" أن الفاء عاطفة للتعقيب مستدعية ما يعطف عليه وهو الدال عليه قوله سبحانه : ﴿ مَن كَانَ ﴾ [هود : 15] الآية ، فالتقدير أمن كان يريد الحياة الدنيا على أنها موصولة فمن كان على بينة من ربه ، والخبر محذوف لدلالة الفاء أي يعقبونهم أو يقربونهم ، والاستفهام للإنكار فيفيد أن لا تقارب بين الفريقين فضلاً عن التماثل فلذلك صار أبلغ من نحو قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً ﴾ [السجدة : 18] وأما إنها عطف على قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا ﴾ [هود : 15] فلا وجه له لأنه يصير من عطف الجملة ، ولا يدل على إنكار التماثل ، ولا معنى لتقدير الاستفهام في الأول فإن الشرط والجزاء لا إنكار عليه انتهى ، وهو جار على أحد مذهبين للنحاة في مثله ، ويعلم مما تقرر أن الآية مرتبطة بقوله

سبحانه : ﴿ مَن كَانَ ﴾ [هود : 15] الخ ، ومساقها عند شيخ الإسلام للترغيب أيضاً فيما ذكر من الإيمان بالقرآن .

والتوحيد .

(96/375)

والإسلام ، وادعى الطبرسي أنها مرتبطة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ ﴾ [هود : 13] وأن المراد أنهم إذا لم يأتوا بذلك فقل لهم : ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ ﴾ ولا بينة له على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(97/375)

وقال القاسمى :

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾

أي : برهان نير ، عظيم الشأن ، يدل على حقية ما ثبت عليه من الإسلام ، وهو القرآن :

﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ أي : يتبعه : ﴿ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أي : من القرآن نفسه ، يشهد له بكونه من

عند الله تعالى ، وهو إعجازه . وفسرت (البينة) أيضاً بالإسلام ، سماه بينة لغاية ظهوره ، إذ هو دين الفطرة ، قبل تدنيسها برجس الوثنية و (الشاهد) بالقرآن ، فالضمير للرب تعالى ﴿ وَمِن قَبْلِهِ ﴾ أي : القرآن : ﴿ كِتَابُ مُوسَى ﴾ وهو التوراة ، أي : ويتلو بلك البنية من قبله كتاب موسى مقرراً لذلك أيضاً . وقوله تعالى : ﴿ إِمَاماً ﴾ أي : مقتدى به في الدين : ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي : نعمة عظيمة على المنزل إليهم ، تهديهم وتعلمهم الشرائع ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ أي : من كان على بينة : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي : بالقرآن فلهم الجنة ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ ﴾ يعني أهل مكة ، ومن ضامهم من المتحزبين على رسول الله صلوات الله عليه : ﴿ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي : شك من القرآن أو من الموعد : ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : به ، إما لقصور أنظارهم واختلال أفكارهم ، وإما لعنادهم واستكبارهم .

(98/375)

لطائف :

الأولى : (مَنْ) في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ مبتدأ حذف خبره ، لإغناء الحال عن ذكره ، وهذا سر حذف معادل الهمزة كثيراً . وتقديره : أفمن كان على

بينة من ربه كأولئك الذين ذكرت أعمالهم ، وبين مصيرهم ومآلهم - كذا قال أبو السعود -

.

وفي " شرح الكشاف " أن التقدير : أمن كان يريد الحياة الدنيا ، على أنها موصول ، فمن كان على بينة من ربه ، والخبر محذوف ؛ لدلالة الفاء ، أي : يعقبونهم أو يقربونهم .

والاستفهام للإنكار ، فيفيد أنه لا تقارب بينهم ، فضلاً عن التماثل ، فلذلك صار أبلغ من نحو قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة : 18] .

الثانية : قرئ (كتابَ موسى) بالنصب عطفاً على الضمير في (يتلوه) أي : يتلو القرآن شاهد ممن كان على بينة من ربه ، يعني من آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، وشهادتهم على أنه حق لا مفترى ؛ لما يجدونه مكتوباً عندهم ، و (يتلو) من التلاوة ، فتكون الآية كقوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ ﴾ [الأحقاف : من الآية 10] - والله أعلم - .

الثالثة : (الأحزاب) جمع حزب ، والحزب جماعة الناس . ويطلق (الأحزاب) على من تألبوا على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذا كل نبي قبله ، وهو إطلاق شرعي ، وعليه حمل الأكثر الآية ؛ لكون السورة مكية ، إلا أن اللفظ يتناوله ، وكل من شاكلهم من سائر الطوائف .

وفي صحيح مسلم عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < والذي نفسي بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ، يهودي أو نصراني ، ثم لا يؤمن بي ، إلا دخل النار > . قال سعيد : كنت لا أسمع بحديث من النبي صلى الله عليه وسلم على وجهه ، إلا وجدت مصداقه في القرآن ، فبلغني هذا الحديث ، فجعلت أقول : أين مصداقه في كتاب الله ؟ حتى وجدت هذه الآية : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ قال : الملل كلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 84.85 ﴾

(100/375)

وقال صاحب الميزان :

قوله تعالى : (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة)

الجملة تفريع على ما مضى من الكلام الذى هو في محل الاحتجاج على كون القرآن كتابا منزلا من عند الله سبحانه ، و (من) مبتدء خبره محذوف والتقدير : كغيره ، أو ما يؤدى

معناه ، والدليل عليه قوله تلوا : (اولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده)

.

والاستفهام إنكارى والمعنى : ليس من كان كذا وكذا كغيره ممن ليس كذلك وأنت على هذه الصفات فلا تك في مرية من القرآن .

وقوله : (على بينة من ربه) البينة صفة مشبهة معناها الظاهرة الواضحة غير أن الأمور الظاهرة الواضحة ربما أوضحت ما ينضم إليها ويتعلق بها كالنور الذى هو بين ظاهر ويظهر به غيره ، ولذلك كثر استعمال البينة فيما يتبين به غيره كالحجة والآية ، ويقال للشاهد على دعوى المدعى بينة .

وقد سمى الله تعالى الحجة بينة كما في قوله : (ليهلك من هلك عن بينة) الانفال : 42 وسمى آيته بينة كما في قوله : (قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية) الأعراف : 73 وسمى البصيرة الخاصة الإلهية التى أوتيها الأنبياء بينة كما في قوله حكاية عن نوح عليه السلام : (يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتاني رحمة من عنده) هود : 28 أو مطلق البصيرة الإلهية كما هو ظاهر قوله تعالى :

(101/375)

(أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم) سورة محمد : 14

وقد قال تعالى في معناه : (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) الأنعام : 122 .

والظاهر ان المراد بالبينة في المقام هو هذا المعنى الاخير العام بقرينة قوله بعد : (اولئك يؤمنون به) وإن كان المراد به بحسب المورد هو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فإن الكلام مسوق ليتفرع عليه قوله : (فلا تك في مرية منه) .

فالمراد بها البصيرة الإلهية التى اوتيها النبي عليه السلام لا نفس القرآن النازل عليه فإنه لا يحسن ظاهرا ان يتفرع عليه قوله : (فلا تك في مرية منه) وهو ظاهر ولا ينافيه كون القرآن في نفسه بينة من الله من جهة كونه آية منه تعالى كما في قوله : (قل انى على بينة من ربى وكذبتم به) الأنعام : 57 ، فإن المقام غير المقام .

وبما مر يظهر ان قول من يقول : إن المراد بمن كان الخ ، النبي خاصة إرادة استعمالية ليس في محله وإنما هو مراد بحسب انطباق المورد .

وكذا قول من قال : إن المراد به المؤمنون من اصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فلا دليل على التخصيص .

ويظهر أيضا فساد القول بأن المراد بالبينة هو القرآن ، وكذا القول بأنها حجة العقل واضيفت إلى الرب تعالى لأنه ينصب الادلة العقلية والنقلية .

ووجه فساده أنه لا دليل على التخصيص ولا تقاس البينة القائمة للنبى عليه السلام من ناحيته تعالى بالتعريف الإلهى القائم لنا من ناحية العقول .

وقوله تعالى : (ويتلوه شاهد منه) المراد بالشهادة تأدية الشهادة التى تفيد صحة الأمر المشهود له دون تحملها فإن المقام مقام تثبيت حقية القرآن وهو إنما يناسب الشهادة بمعنى التأدية لا بمعنى التحمل .

(102/375)

والظاهر أن المراد بهذا الشاهد بعض ما أيقن بحقية القرآن وكان على بصيرة إلهية من امره فامن به عن بصيرته وشهد بأنه حق منزل من عند الله تعالى كما يشهد بالتوحيد والرسالة فإن شهادة الموقن البصير على أمر تدفع عن الإنسان مرية الاستيحاش وريب التفرد فإن الإنسان إذا أذعن بأمر وتفرد فيه ربما اوحشه التفرد فيه إذا لم يؤيده احد في القول به اما إذا قال به غيره من الناس وأيد نظره في ذلك زالت عنه الوحشة وقوى قلبه وارتبط جأشه وقد احتج تعالى بما يماثل هذا المعنى في قوله : (قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم) الاحقاف : 10 .

وعلى هذا فقوله : (يتلوه) من التلو لا من التلاوة ، والضمير فيه راجع إلى (من) أو إلى (

بينة) باعتبار انه نور أو دليل ، ومال الوجهين واحد فإن الشاهد الذى يلى صاحب البينة يلى بينته كما يلى نفسه والضمير في قوله : (منه) راجع إلى (من) دون قوله : (ربه) وعدم رجوعه إلى البينة ظاهر ومحصل المعنى : من كان على بصيرة إلهية من أمر ولحق به من هو من نفسه فشهد على صحة امره واستقامته .

وعلى هذا الوجه ينطبق ما ورد في روايات الفريقين ان المراد بالشاهد على عليه السلام إن اريد به انه المراد بحسب انطباق المورد لا بمعنى الإرادة الاستعمالية .

وللقوم في معنى الجملة اقوال شتى فقيل : إن (يتلو) من التلاوة كما قيل : إنه من التلو ، وقيل : إن الضمير في (يتلوه) راجع إلى (البينة) كما قيل : إنه راجع إلى (من) .

وقيل : المراد بالشاهد القرآن : وقيل : جبرائيل يتلو القرآن على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولعله مأخوذ من قوله تعالى : (لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون) النساء : 166 ، وقيل : الشاهد ملك يسدد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ويحفظه القرآن ، ولعله لنوع من الاستناد إلى الآية المذكورة .

(103/375)

وقيل : الشاهد هو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد قال تعالى : (يا ايها البنى إنا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) الاحزاب : 45 ، وقيل : شاهد منه لسانه أي يتلو القرآن بلسانه .

وقيل : الشاهد على بن أبى طالب عليه السلام ، وقد وردت به عدة روايات من طرق الشيعة واهل السنة .

والتأمل في سياق الآية وظاهر جملها يكفى مؤنة إبطال هذه الوجوه غير ما قدمناه من معنى الآية فلا نطيل الكلام بالبحث عنها والمناقشة فيها .

(104/375)

وقوله تعالى : (ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة) الضمير راجع إلى الموصول أو إلى البينة على حد ما ذكرناه في ضمير (يتلوه) والجملة حال بعد حال أي أفمن كان على بصيرة إلهية ينكشف له بها ان القرآن حق منزل من عند الله والحال ان معه شاهدا منه يشهد بذلك عن بصيرة والحال أن هذا الذى هو على بينة سبقه كتاب موسى إماما ورحمة أو قبل بينته التى منها القرآن أو هي القرآن المشتمل على المعارف والشرائع الهادية إلى الحق كتاب موسى إماما فليس هو أو ما عنده من البينة ببدع من الأمر غير مسبوق بمثل ونظير بل

هناك طريق مسلوك من قبل يهدى إليه كتاب موسى .

ومن هنا يظهر وجه توصيف كتاب موسى وهو التوراة بالامام والرحمة فإنه مشتمل على معارف حقة وشريعة إلهية يؤتم به في ذلك ويتنعم بنعمته ، وقد ذكره الله بهذا الوصف في موضع آخر من كلامه فقال : (قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فامن واستكبرتم - إلى أن قال - وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) الاحقاف : 12 .

والآيات - كما ترى - أقرب الآيات مضمونا من الآية المبحوث عنها تذكر اولا : أن القرآن بينة إلهية أو أمر قامت عليه بينة إلهية ثم تذكر شهادة الشاهد من بنى إسرائيل عليه وتأيده بها ثم تذكر أنه سبوق فيما يتضمنه من المعارف والشرائع بكتاب موسى الذى كان إماما ورحمة يأتم به الناس ويهتدون ، وطريقا مسلوكا مجربا ، والقرآن كتاب مثله مصدق له منزل من عند الله لانذار الظالمين وتبشير المحسنين .

ومن هنا يظهر أيضا : أن قوله : (إماما ورحمة) حال من كتاب موسى لا من قوله : (شاهد منه) على ما ذكره بعضهم .

قوله تعالى : (أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده) المشار إليهم بقوله : (أولئك) بناء على ما تقدم من معنى صدر الآية هم الذين كانوا على بينة من ربهم المدلول عليهم بقوله : (أفمن كان) الخ ، وأما إرجاع الإشارة إلى المؤمنين لدلالة السياق عليهم فبعيد عن الفهم .

وكذا الضمير في قوله : (به) راجع إلى القرآن من جهة أنه بينة منه تعالى أو أمر قامت عليه البينة ، وأما إرجاعه إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فلا يلائم ما قررناه من معنى الآية فإن في صدر الآية بيان حال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بنحو العموم حتى يتفرع عليه قوله : (فلا تك في مرية منه) كأنه قيل : إنك على بينة كذا ومعك شاهد وقبلك كتاب موسى ، ومن كان على هذه الصفة يؤمن بما اوتى من كتاب الله ، ولا يصح أن يقال : ومن كان على هذه الصفة يؤمن بك ، والكلام في الضمير في (ومن يكفر به) كالكلام في ضمير (يؤمنون به) .

وأمر الآية فيما يحتمله مفردات ألفاظها وضمائرها عجيب فضرب بعضها في بعض يرقى إلى الوف من المحتملات بعضها صحيح وبعضها خلافه .

قوله تعالى : (فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن اكثر الناس لا يؤمنون) المرية كجلسة النوع من الشك ، والجملة تفريع على صدر الآية ، والمعنى أن من كان على بينة من

ربه في أمر وقد شهد عليه شاهد منه وقبله إمام ورحمة ككتاب موسى ليس كغيره من لناس الغافلين المغفلين فهو يؤمن بما عنده من أمر الله ولا يوحشه إعراض اكثر الناس عما عنده ، وأنت كذلك فإنك على بينة من ربك ويتلوك شاهد ومن قبلك كتاب موسى إماما ورحمة وإذا كان كذلك فلا تك في مرية من أمر ما أنزل اليك من القرآن إنه محض الحق من جانب الله ولكن اكثر الناس لا يؤمنون .

وقوله : (إنه الحق من ربك) تعليل للنهى وقد اكد بأن ولام الجنس للدلالة على توافر الأسباب النافية للمرية وهى قيام البينة وشهادة الشاهد وتقدم كتاب موسى إماما ورحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 8 صـ 183 . 187 ﴾

(106/375)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾

أغلقت معاني هذه الآية لكثرة الاحتمالات التي تعتورها من جهة معاد الضمائر واسم الإشارة ، ومن جهة إجمال المراد من الموصول ، وموقع الاستفهام ، وموقع فاء التفريع .

وقد حكى ابن عطية وجوهاً كثيرة في تفسيره بما لم يلخصه أحد مثله وتبعه القرطبي في

حكاية بعضها .

والاختلاف في مَا صدق ﴿ مَن كان على بينة من ربّه ﴾ .

وفي المراد من ﴿ بينة من ربه ﴾ ، وفي المعنّي بـ ﴿ يتلوه ﴾ .

وفي المراد من ﴿ شاهد ﴾ .

وفي معاد الضمير المنصوب في قوله : ﴿ يتلوه ﴾ .

وفي معنى (منْ) من قوله : ﴿ منه ﴾ ، وفي معاد الضمير المجرور بـ (مِن) .

وفي موقع قوله : ﴿ مِن قبله ﴾ من قوله : ﴿ كتاب موسى ﴾ .

وفي مرجع اسم الإشارة من قوله : ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ .

وفي معاد الضمير المجرور بالباء من قوله : ﴿ يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب ﴾ الخ

فهذه مفاتيح تفسير هذه الآية .

والذي تخلّص لي من ذلك ومما فتح الله به مما هو أوضح وجْهاً وأقرب بالمعنى المقصود شِبْهاً : أن الفاء للتفريع على جملة ﴿ أم يقولون افتراه إلى قوله : فهل أنتم مسلمون ﴾ [هود : 13 ، 14] وأن ما بينهما اعتراض لتقرير توغلهم في المكابرة وابتعادهم عن الإيمان ، وهذا التفريع تفريع الضدّ على ضده في إثبات ضد حكمه له ، أي إن كان حال أولئك المكذبين كما وُصف فثَمّ قوم هم بعكس حالهم قد نفعتهم البيّنات والشواهد ، فهم يؤمنون بالقرآن

وهم المسلمون وذلك مقتضى قوله : ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ [هود : 14] ، أي كما أسلم من كانوا على بيّنة من ربهم منكم ومن أهل الكتاب .

(107/375)

والهمزة للاستفهام التقريري ، أي إن كفر به هؤلاء أفيُؤمِنُ به من كان على بينة من ربه ، وهذا على نحو نظم قوله تعالى : ﴿ أفمن حَق عليه كلمة العذاب أفأنت تُنقذ مَن في النّار ﴾ [الزمر : 19] أي أنت تنقذ من النار الذي حق عليه كلمة العذاب .

و ﴿ مَن كان على بيّنة ﴾ لا يراد بها شخص معيّن .

فكلمة (مَن) هنا تكون كالمعرّف بلام العهد الذهني صادقة على من تحققت له الصلة ، أعني أنه على بينة من ربه .

وبدون ذلك لا تستقيم الإشارة .

وإفراد ضمائر ﴿ كان على بيّنة من ربه ﴾ مراعاةٌ للفظ (مَن) الموصولة وذلك أحد استعمالين .

والجمع في قوله : ﴿ أولئك يؤمنون ﴾ مراعاة لمعنى (مَن) الموصولة وذلك استعمال آخر .

والتقدير : أفمن كانوا على بينة من ربهم أولئك يؤمنون به .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾ في سورة [القتال : 14] .

والذين هم على بينة من ربهم يجوز أن يكونوا النصارى فقط فإنهم كانوا منتشرين في العرب ويعرف أهل مكة كثيراً منهم ، وهم الذين عرفوا أحقية الإسلام مثل ورقة بن نوفل ودحية الكلبي ، ويجوز أن يراد النصارى واليهود مثل عبد الله بن سلام ممّن آمن بعد الهجرة فدلوا على تمكنهم من معرفة البينة لصحة أفهامهم ولوضوح دلالة البيّنة ، فأصحابها مؤمنون بها .

والمراد بالبيّنة حجة مجيء الرسول المبشّر به في التوراة والإنجيل .

فكون النصارى على بينة من ربهم قبل مجيء الإسلام ظاهر لأنهم لم يكذّبُوا رسولاً صادقاً .

وكون اليهود على بيّنة إنما هو بالنسبة لانتظارهم رسولاً مبشّراً به في كتابهم وإن كانوا في كفرهم بعيسى عليه السلام ليسوا على بيّنة .

فالمراد على بيّنة خاصة يدل عليها سياق الكلام السابق من قوله : ﴿ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ﴾ [هود : 14] ، ويعينها اللاحق من قوله : ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ أي بالقرآن .

و(مِن) في قوله : ﴿ من ربه ﴾ ابتدائية ابتداء مجازياً .

ومعنى كونها من ربه أنها من وحي الله ووصايته التي أشار إليها قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لَمَا آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لمَا مَعكم لتُؤمنن به ولتنصرنه ﴾ [آل عمران : 81] وقوله : ﴿ الذين يَتبعون الرسول النّبيء الأمّيّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التّوراة والإنجيل ﴾ [الأعراف : 157] .

وذكر كتاب موسى وأنه من قبله يشير إلى أن البيّنة المذكورة هنا من الأنجيل ، ويقوي أن المراد بـ ﴿ من كان على بينة من ربه ﴾ النصارى .

وفعل (يتلوه) مضارع التّلو وهو الاتّباع وليس من التلاوة ، أي يتبعه .

والاتباع مستعار للتّأييد والاقتداء فإن الشاهد بالحق يحضر وراء المشهود له .

وضمير الغائب المنصوب في قوله : ﴿ يتلوه ﴾ عائد إلى ﴿ من كان على بينة من ربه ﴾ .

والمراد بـ ﴿ شاهد منه ﴾ شاهد من ربه ، أي شاهد من الله وهو القرآن لأنه لإعجازه المعاندين عن الإتيان بعشر سور مثله كان حجة على أنه آت من جانب الله .

و ﴿ مِن ﴾ ابتدائية .

وضمير ﴿ منه ﴾ عائد إلى ﴿ ربه ﴾ .

ويجوز أن يعود إلى ﴿ شاهد ﴾ أي شاهد على صدقه كائن في ذاته وهو إعجازه إياهم عن الإتيان بمثله .

و ﴿ من قبله ﴾ حال من ﴿ كتاب موسى ﴾ .

و ﴿ كتاب موسى ﴾ عطف على ﴿ شاهد منه ﴾ والمراد تلوه في الاستدلال بطريق الارتقاء فإن النصارى يهتدون بالإنجيل ثم يستظهرون على ما في الإنجيل بالتّوراة لأنّها أصله وفيها بيانه ، ولذلك لما عطف ﴿ كتاب موسى ﴾ على ﴿ شاهد ﴾ الذي هو معمول ﴿ يتلوه ﴾ قيد كتاب موسى بأنه من قبله ، أي ويتلوه شاهد منه .

ويتلوه كتاب موسى حالة كونه من قبْل الشاهد أي سابقاً عليه في النزول .

(109/375)

وإذا كان المراد بـ ﴿ من كان على بيّنة من ربّه ﴾ النصارى خاصة كان لذكر ﴿ كتاب موسى ﴾ إيماء إلى أن كتاب موسى عليه السلام شاهد على صدق محمّد صلى الله عليه وسلم ولم يُذكر أهل ذلك الكتاب وهم اليهود لأنهم لم يكونوا على بيّنة من ربّهم كاملةٍ من جهة عدم تصديقهم بعيسى عليه السلام .

و﴿ إماماً ورحمة ﴾ حالان ثناء على التوراة بما فيها من تفصيل الشريعة فهو إمام يهتدى به ورحمة للنّاس يعملون بأحكامها فيرحمهم الله في الدنيا بإقامة العدل وفي الآخرة بجزاء الاستقامة إذ الإمام ما يؤتم به ويعمل على مثاله .

والإشارة بـ ﴿ أولئك ﴾ إلى ﴿ من كان على بينة من ربّه ﴾ ، أي أولئك الذين كانوا على بيّنة من ربهم يؤمنون بالقرآن وليسوا مثلكم يا معشر المشركين ، وذلك في معنى قوله تعالى : ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ [الأنعام : 89] .

وإقحام ﴿ أولئك ﴾ هنا يشبه إقحام ضمير الفصل ، وفيه تنبيه على أن ما بعده من الخبر مسبب على ما قبل اسم الإشارة من الأوصاف وهي كونهم على بينة من ربهم معضدة بشواهد من الأجيل والتوراة .

وجملة ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ خبر ﴿ من كان على بينة من ربه ﴾ .

وضمير (به) عائد إلى القرآن المعلوم من المقام أو من تقدم ضميره في قوله ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ [هود : 13] .

وبه ينتظم الكلام مع قوله : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ إلى قوله : ﴿ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ﴾ [هود : 13 ، 14] أي يؤمنون بكون القرآن من عند الله .

والباء للتعدية لا للسببية ، فتعدية فعل (يؤمنون) إلى ضمير القرآن من باب إضافة الحكم

إلى الأعيان وإرادة أوصافها مثل ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ﴾ [النساء : 23] ، أي يؤمنون بما وصف به القرآن من أنه من عند الله .

(110/375)

وحاصل معنى الآية وارتباطها بما قبلها ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ [هود : 14] فإن الذين يؤمنون به هم الذين كانوا على بيّنة من ربّهم مؤيّدة بشاهد من ربهم ومعضودة بكتاب موسى عليه السلام من قَبْل بيّنتهم .

وقريب من معنى الآية قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ﴾ [الأحقاف : 10] فاستقام تفسير الآية تمام الاستقامة ، وأنت لا يعوزك تركيب الوجوه التي تأول بها المفسرون مِمّا يخالف ما ذكرناه كُلاًّ أو بَعضاً فبصَرك فيها حديد ، وبيدك لفتح مغالقها مَقاليد .

وجملة ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب ﴾ عطف على جملة ﴿ أفمن كان على بيّنة من ربّه ﴾ لأنه لمّا حرض أهل مكة على الإسلام بقوله : ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ [هود : 14] ، وأراهم القِدْوة بقوله : ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ ، عاد فحذر من الكفر بالقرآن فقال : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب ﴾ ، وأعرض عما تبين له من بيّنة ربه وشواهد رسله فالنّار

موعده .

والأحزاب : هم جماعات الأمم الذين يجمعهم أمْرٌ يجتمعون عليه ، فالمشركون حزب ، واليهود حزب ، والنصارى حزب ، قال تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوحٍ وعادٌ وفرعون ذو الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب ليكة أولئك الأحزاب ﴾ [ص : 12 ، 13] .

والباء في ﴿ يكفر به ﴾ كالباء في ﴿ يؤمنون به ﴾ .

والموعد : ظرف للوعد من مكان أو زمان .

وأطلق هنا على المصير الصائر إليه لأن شأن المكان المعيّن لعمل أن يعين به بوعد سابق .

تفريع على جملة ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم

والنهي مستعمل كناية تعريضية بالكافرين بالقرآن لأن النهي يقتضي فساد المنهي عنه ونقصه ، فمن لوازمه ذم المتلبس بالمنهي عنه .

(111/375)

---

j ولما كان المخاطب غير مظنة للتلبس بالمنهي عنه فيُطلبَ منه تركه ويكون النهيُ طلبَ تحصيل الحاصل ، تعيّنَ أن يكون النهي غير مراد به الكفّ والإقلاع عن المنهي عنه فيكون

مستعملاً في لازم ذلك بقرينة المقام ، ومما يزيد ذلك وضوحاً قوله تعالى في سورة آلم [السجدة : 23] ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه ﴾ فإنه لو كان المقصود تحذير النّبيء صلى الله عليه وسلم من الامتراء في الوحي لما كان لتفريع ذلك على إيتاء موسى عليه السلام الكتاب ملازمة ، ولكن لما كان المراد التعريض بالذين أنكروا الوحي قدّم إليهم احتجاجَ سبق الوحي لموسى عليه السلام .

و﴿ في ﴾ للظرفية المجازية المستعملة في تمكن التلبس نظراً لحال الذين استعمل النهي كناية عن ذمّهم فإنهم متلبسون بمزية شديدة في شأن القرآن .

وضميرا الغيبة عائدان إلى القرآن الذي عاد إليه ضمير ﴿ افتراه ﴾ [هود : 13] .

وجملة ﴿ إنه الحق من ربك ﴾ مستأنفة تأكيد لما دلت عليه جملة ﴿ فلا تَكُ في مرية منه ﴾ من أنه لوضوح حقيته لا ينبغي أن يمترى في صدقه .

وحرف التأكيد يقوم مقام الأمر باعتقاد حقيته لما يدل عليه التأكيد من الاهتمام .

والمرية : الشك .

وهي مرادفة الامتراء المتقدم في أول الأنعام .

واختير النهي على المرية دون النهي عن اعتقاد أنه كذب كما هو حال المشركين ، لأن النهي عن الامتراء فيه يقتضي النهي عن الجزم بالكذب بالأَوْلى ، وفيه تعريض بأن ما فيه المشركون من اليقين بكذب القرآن أشد ذمّاً وشناعة .

و﴿ مِن ﴾ ابتدائية ، أي في شك ناشىء عن القرآن ، وإنما ينشأ الشك عنه باعتبار كونه شكّاً في ذاته وحقيقته لأن حقيقة القرآنية أنه كتاب من عند الله ، فالشك الناشىء على نزوله شك في مجموع حقيقته .

وهذا مثل الضمير في قوله : ﴿ يؤمنون به ﴾ من غير احتياج إلى تقدير مضاف يؤول به إلى إضافة الحكم إلى الأعيان المراد أوصافها .

وتعريف ﴿ الحق ﴾ لإفادة قصر جنس الحق على القرآن .

(112/375)

وهو قصر مبالغة لكمال جنس الحق فيه حتى كأنه لا يوجد حق غيره مثل قولك : حاتم الجواد .

والاستدراك بقوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ ناشيء على حكم الحصر ، فإنّ الحصر يقتضي أن يؤمن به كل من بلغه ولكن أكثر الناس لا يؤمنون .

والإيمان هو التصديق بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الدين .

وحذف متعلق ﴿ يؤمنون ﴾ لأن المراد انتفاء حقيقة الإيمان عنهم في كل ما طلب الإيمان

به من الحق ، أي أن في طباع أكثر الناس تغليب الهوى على الحق فإذا جاء ما يخالف هواهم لم يؤمنوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(113/375)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُه ﴾ .

صرح الله تعالى في هذه الآية الكريمة : أن هذا القرآن لا يكفر به أحد كائناً من كان إلا دخل النار . وهو صريح في عموم رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم غلى جميع الخلق . والآيات الدالة على ذلك كثيرة ، كقوله تعالى ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القرآن لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام : 19] ، وقوله : ﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1] ، وقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ : 28] الآية . وقوله : ﴿ قُلْ يا أيها الناس إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأعراف : 158] الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ الآية .

نهى الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن الشك في هذا القرآن العظيم ، وصرح أنه الحق من الله . والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة جداً كقوله ﴿ الم ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة : 1-2] الآية وقوله : ﴿ الم تَنزِيلُ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ [السجدة : 1- 2] ونحو ذلك من الآيات . والمرية : الشك .

قوله تعالى ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

(114/375)

صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بأن أكثر الناس لا يؤمنون وبين ذلك أيضاً في مواضع كثيرة ، كقوله ﴿ وَمَا أَكْثَرُ الناس وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : 103] وقوله ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأرض يُضِلُّوكَ ﴾ [الأنعام : 116] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأولين ﴾ [الصافات : 71] ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 8] إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(115/375)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾

والبيِّنة هي بصيرة الفطرة السليمة التي تُلْفِت الإنسان إلى وجود وجب الوجود ، وتوضِّح للإنسان أن هذا الكون الجميل البديع لا بُدَّ له من واجد .

وهكذا تكون الهداية بالبصيرة والفطرة .

والعربي القديم حين سار في الصحراء ووجود بَعْراً مُلْقَى في الصحراء ، ورأى أثر قدم ، فقال : " البَعْرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، وسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات امواج ، أفلا يدل كُلُّ ذلك على اللطيف الخبير ؟ " .

وهكذا اهتدى الرجل بالفطرة ، وهي بيِّنة من الله .

وقد أودع الله سبحانه في كل إنسان فطرة ، وبهذه الفطرة شهدنا في عالم الذَّرِّ .

وفي ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ ﴾ [الأعراف : 172] .

إذن : فالبيِّنة هي : إيمان الفطرة المركوز في ذرات الأشياء .

وقد تُضبِّب الشهوات هذا الإيمان ، فلا يحمل نفسه على المنهج فيرسل الحق سبحانه رحمة منه رسلاً تذكِّرنا بالبينات الأولى ، وتدلنا على العلل والأحكام حتى تنضمَّ البينة من

الرسل على البينة من الفطرية في الكائن .

وهكذا يبيِّن الحق سبحانه وتعالى مناط الاقتناع بدين الله ، فقد يكون هذا الأمر مجهولاً للخلق ، فيريد سبحانه أن يبيّن لنا أن هذا الجهل هو جهل غير طبيعي ؛ لأن الفطرة السليمة تهتدي قبل أن يجيء رسولٌ يُلفِتنا إلى القوة العليا التي تدبِّر حركة هذا الكون .

(116/375)

وقد ضربت من قبل مثلاً لذلك بمن سقطتْ به طائرة في الصحراء ، لا ماء فيها ولا طعام ولا أنيس ولا مأوى ، ثم غلبه النوم فنام ، وحين استيقظ وجد مائدة منصوبة عليها أطايب الطعام وأطيب الشراب ، ووجد صواناً منصوباً ليأوي إليه ؛ فلا بد لهذا الإنسان أن يدور بفكره سؤالٌ : من صنع هذا ؟

وهو سيسأل نفسه هذا السؤال قبل أن يستمتع بشيء من هذا ، خصوصاً وأنه لم يجد أحداً يقول له : أنت في ضيافتي .

إذنْ : فلا بد أن يفكر بعقله .

وكذلك الإنسان الذي طرأ على الوجود ، وما ادَّعى واحدٌ من خَلْق الله تعالى أنه خلق هذا الوجود ، وما ادَّعى أحدٌ أنه خلق السموات والأرض ، وما ادَّعى أحدٌ أنه سخَّر كلَّ

ما في الكون لخدمة الإنسان .

وكان من الواجب على الإنسان قبل أن ينعم بهذا ، أن يفكر : من الذي صنع له كل ذلك ؟

فإذا جاء رسول من جنس الإنسان ليقول له : أنا جئت لأحل لك اللغز المطلوب لك .

هنا كان على الإنسان أن يرهف سمعه لذلك الرسول ؛ لأنه قد جاء ليحلَّ للإنسان أمراً يشغل باله .

ومن لطف الله سبحانه بنا أنه يطلب منا مقدَّماً أن نفكر في ذلك ، بل تركنا فترة طويلة بلا تكليف في هذه الدنيا ، لينعم الإنسان بخير ربه ، وبعد ذلك إذا ما جاء اكتمال الرشد ونضج ، ولم يكن مكرهاً ؛ فالحق سبحانه وتعالى يكلفه بتكاليف الإيمان .

ولا بد للإنسان أن يتساءل : فكل شيء مهما كان تافهاً لا بد له من صانع ، والمصباح الذي يضيء دائرة قطرها 20 متراً ، عرفنا صانعه ، ودرسنا المعامل التي أنجزته ، والإمكانات التي تم استخدامها ، والمواد التي صنع منها ، أفلا نعرف تاريخ هذه الشمس ، ومن جعلها لا تحتاج إلى صيانة ولا إلى وقود ولا إلى قطع غيار ، وتنير نصف الكرة الأرضية ؟

هذه مسألة كان يجب أن نبحثها ؛ لنرى آفاق تلك البينة ، بينة نور وقوة وفطرة ، يهبها الله للإنسان المفكر ؛ ليهتدي إلى أن وراء هذه الكون خالقاً مدبراً .

(117/375)

فإذا ما جاء إنسان مثله ليقول له : إن خالق الدنيا هو الله تعالى ، وهو سبحانه يطلب منك كذا وكذا ، كان أمراً منطقياً وطبيعياً أن نسمع لهذا الإنسان ونطابق ما يقول على إحساس الفطرة ورؤية البينات .

إذن : فنحن نصل إلى المجهول أولاً بالفطرة ، وقد نصل بالبديهة التي لا تشوبها أدنى شبهة ، فأنت حين ترى دخاناً تعتقد بالبديهة أن هناك ناراً ، وحين تسير في الصحراء وترى خضرة ؛ ألا تعتقد أن هناك مياهاً ترويها ؟

هذه إذن أمور تعرفها بالبديهة ، ولا تحتاج إلى بحث أو جهد .

وهناك أمور قد تتطلب منك جهداً عقلياً تبحث به عما بعد المقدمات ، مثل الجهد العقلي الذي استدل به العربي على أن هناك إلهاً خالقاً يُدير هذا الكون ، فاستدل من البعرة على وجود البعير ، وأن أثر القدم يدل على المسير ، واستنتج من ذلك أن الكواكب ذات الأبراج ، والأرض ذات الفجاج ، والبحار ذات الأمواج ، كلها أمور تدل على وجود اللطيف الخبير .

كل هذه الأمور لم يقدر العقل إلا على الحكم عليها جملة ، وإن لم يعرف التفصيل .

لقد عرف العقل أن وراء هذا الكون خالقاً ، صانعاً ، حكيماً ، لكنه لم يعرف اسماً له ، وهذا أمر لا يعرفه الإنسان بالعقل ، ولا يعرف أيضاً ما هو المنهج المطلوب لهذا الخالق ،

وبماذا يجزي المطيع له ، ولا بماذا يعاقب العاصي له .

إذن : لا بد من بلاغ عن الله تعالى يدل على القوة التي اقتنعت بها جملة .

والمفكرون بالعقل في الكون يعلمون أن وراء هذا الكون خالقاً ، لكن لا يعرفون اسمه ، ولا مطلوبه .

إذن : فأنت لا تعرف اسم الله إلا منه ، عن طريق الوحي إلى رسوله ، ولا تعرف مطلوب الله إلا من الرسول الذي أنزل عليه البلاغ .

(118/375)

ومن رحمة الله بالإنسان أنه سبحانه قد أرسل رسولاً ، ومع هذا الرسول معجزة هي القرآن ؛ لأن العقل حتى حين يهتدي إلى قوة القادر الأعلى سبحانه ، فإنها ستظل بالنسبة له مبهمة ، وحين أنزل الحق سبحانه القرآن الكريم فقد أنزله رحمة بعباده وبينة لهم .

﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود : 17] .

فالقرآن حجة ونور ، وهو يهدي البصيرة الفطرية والموجودة في الإنسان ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود : 17] هو من أنزل عليه الوحي ، ويخبرنا عن الحق سبحانه وتعالى ما يوضح لنا أن الخالق الأعلى والقوة المطلقة هو الله سبحانه ويوضح لنا الشاهد مطلوب الله

تعالى .

ونحن هنا أمام ثلاثة شهود :

الشاهد الأول : هو الحجة والبينة .

والشاهد الثاني : هو البرهان والبصيرة التي يهتدي إليها العقل ، والرسول هو من يبين لنا المنهج بعد الإجمال .

وهذا الرسول جاء من قبله كتاب موسى :

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾ [هود : 17] .

وهذا هو الشاهد الثالث .

ومن لا يلتفت إلى المدلول بالأدلة الثلاثة مقصِّر ؛ فمن عنده تلك البينة ، ومن سمع الشاهد من الرسول ، والشاهد الذي قبله ، وهو كتاب موسى عليه السلام وشاهد بعده إلى نفس قوم موسى لا بد أن يقوده ذلك إلى الإيمان .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أولئك يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [هود : 17] .

إشارة إلى من التفتوا إلى الأدلة : بينة ، وشاهداً ، وشاهداً من قبله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : 17] .

والكفر كما علمنا هو الستر ، والكفر في ذاته دليل على الإيمان ، فلا يفكر أحد بغير موجود

.

فوجود المكفور به سابق على الكفر ، والكفر طارىء عليه .

إذن : فالكفر طارىء على الإيمان ؛ لأن الإيمان هو أصل الفطرة .

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : 17] .

(119/375)

وكلمة " أحزاب " جمع حزب . والحزب هو الجماعة الملتقية على مبدأ تتحمس لتنفيذه ، مثل الأحزاب التي نراها في الحياة السياسية ، وهي أحزاب بشرية تتصارع في المناهج والغايات ، وهم أحرار في ذلك ؛ لأنهم يتصارعون بفكر البشر .

أما في العقيدة الأولى ، فَمنَ المُخطِّط الأعلى ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، فالمنهج يأتي منه ؛ لأن هذا المنهج يوصل إليه ؛ لذلك قال الله سبحانه عمَّن يتبعون منهجه :

﴿ أولئك حِزْبُ الله ﴾ [المجادلة : 22] .

أي : أنهم يدخلون في حزب يختلف عن أحزاب البشر التي تختلف أو تتفق في فكر البشر .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : 17] .

والمقصود بهم كفار قريش عبدة الأوثان ، والصابئة واليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل منهم جماعة تمثل حزباً ، ويقول عنهم الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون : 53] .

ومن يكفر من هؤلاء برسالة رسول الله وبرسول الله فالجزاء هو النار ، وبذلك بيَّن لنا الحق سبحانه أن هنالك حزبين : حزب الله ، والأحزاب الأخرى ، وهما فريقان كلّ منهما مواجه للآخر .

ويقول الحق سبحانه لرسوله ، والمراد أيضاً أمة محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ [هود : 17] .

أي : لا تكن يا رسول الله في شك من ذلك ؛ لأن رسالتك وبعثتك تقوم على أدلة البينة والفطرة والهدى والنور المطلوب من الله تعالى ، والشاهد معك ، كما شهد لك من جاء من قبلك أنك جئت بالمنهج الحق :

﴿ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ [هود : 17] .

والحق كما علمنا من قبل هو الشيء الثابت الذي لا يعتريه تغيير ، وهذا الحق لا يمكن أن يأتي إلا من إله لا تتغير أفعاله .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود : 17] .

(120/375)

وهؤلاء لا يؤمنون عناداً ؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج ، ومَنْ يمتنع عليها هو مجرد معاند

.

والحق سبحانه يقول في مثل هؤلاء المعاندين :

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل : 14] .

أي : أنهم مع كفرهم يعلمون صدق الأدلة على رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى صدق بعثته ، فيكون كفرهم حنيئذ كفر عناد ؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج ، فيكون من يمتنع على الإيمان بهذه الأدلة إنساناً معانداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(121/375)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن . فقال له رجل : ما نزل فيك ؟ قال : أما تقرأ سورة هود ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ﴾ رسول الله صلى الله عليه وسلم على بينة من ربه وأنا شاهد منه .

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن علي رضي الله عنه في الآية قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم على بينة من ربه ، وأنا شاهد منه .

وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أفمن كان على بينة من ربه أنا ، ويتلوه شاهد منه قال : علي " .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي العالية رضي الله عنه في قوله ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ قال : " ذاك محمد صلى الله عليه وسلم " .

وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم رضي الله عنه ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وأبو الشيخ عن محمد بن

علي بن أبي طالب قال : قلت لأبي : إن الناس يزعمون في قول الله ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ أنك أنت التالي . قال : وددت أني أنا هو ولكنه لسان محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن علي بن الحنفية ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ قال : لسانه .

(122/375)

وأخرج أبو الشيخ من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ قال : هو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ قال : أما الحسن رضي الله عنه فكان يقول : اللسان . وذكر عكرمة رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه جبريل عليه السلام . ووافقه سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : هو جبريل .

وأخرج أبو الشيخ عن عطاء رضي الله عنه ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ قال : هو اللسان . ويقال : أيضاً جبريل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ قال : محمد ﴿ ويتلوه شاهد

منه ﴾ قال : جبريل ، فهو شاهد من الله بالذي يتلو من كتاب الله الذي أنزل على محمد ﴿ ومن قبله كتاب موسى ﴾ قال : ومن قبله تلا التوراة على لسان موسى كما تلا القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ قال : هو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ قال : ملك يحفظه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن الحسين بن علي في قوله ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ قال : محمد هو الشاهد من الله .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن في قوله ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ قال : المؤمن على بينة من ربه .

وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم ﴿ ومن قبله كتاب موسى ﴾ قال : ومن جاء بالكتاب إلى موسى .

وأخرج عبد الرزاق وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب ﴾ قال : الكفار أحزاب كلهم على الكفر .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب ﴾ قال : من اليهود والنصارى .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والطبراني وابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني فلم يؤمن بي إلا كان من أهل النار . قال سعيد : فقلت ما قال النبي صلى الله عليه وسلم إلا هو في كتاب الله ، فوجدت ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طريق سعيد بن جبير رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد يسمع بي من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ولا يؤمن بي إلا دخل النار . فجعلت أقول : أين تصديقها في كتاب الله ؟ وقلما سمعت حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا وجدت تصديقه في القرآن حتى وجدت هذه الآية ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ قال : الأحزاب الملل كلها " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : ما بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(124/375)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أنه مبتدأ والخبرُ محذوفٌ ، تقديره : أفَمَنْ كان على هذه الأشياء كغيره ، كذا قدَّره أبو البقاء ، وأحسنُ منه " أَفَمَنْ كان كذا كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها " ، وحَذْفُ المعادلِ الذي دخلت عليه الهمزةُ كثيرةٌ نحو : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سواء عَمَلِهِ ﴾ [فاطر : 8] ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ﴾ [الزمر : 9] إلى غير ذلك . وهذا الاستفهام بمعنى التقرير . الثاني وإليه نحا الزمخشري أن هذا معطوفٌ على شيءٍ محذوفٍ قبله ، تقديره : أمَّن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها كمَنْ كان على بَيِّنَة ، أي : لا

يعقبونهم في المنزلة ولا يقاربونهم ، يريد أنَّ بين الفريقين تفاوتاً ، والمرادُ مَنْ آمَن مِن اليهود كعبد اللَّه بن سلام ، وهذا على قاعدتِه مِنْ تقديره معطوفاً بين همزة الاستفهام وحرفِ العطف ، وهو مبتدأٌ أيضاً ، والخبرُ محذوفٌ كما تقدَّم تقريرُه .

(125/375)

قوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ اختلفوا في هذه الضمائر ، أعني في " يتلوه " ، وفي " منه " ، وفي " قبله " : فقيل : الهاء في " يتلوه " تعود / على " مَنْ " ، والمرادُ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم وكذلك الضميران في " منه " و " قبله " والمرادُ بالشاهد لسانُه عليه السلام ، والتقدير : ويتلو ذلك الذي على بَيِّنة ، أي : ويتلو محمداً أي صِدْقَ محمدٍ لسانُه ، ومِنْ قبلِه ، أي قبل محمد .

وقيل : الشاهدُ هو جبريلُ ، والضمير في " منه " للَّه تعالى ، و " من قبله " للنبي . وقيل : الشاهدُ الإنجيلُ و " كتاب موسى " عطف على " شاهد " ، والمعنى أن التوراة والإنجيل يتلوان محمداً في التصديق ، وقد فَصَلَ بين حرفِ العطف والمعطوف بقوله : " من قبله " ، والتقدير : شاهدٌ منه ، وكتاب موسى من قبله ، وقد تقدَّم الكلامُ على الفصل بين حرف العطفِ والمعطوفِ مُشْبعاً في النساء .

وقيل : الضمير في " يتلوه " للقرآن وفي " منه " لمحمد عليه السلام . وقيل : لجبريل ، والتقدير

: ويتلو القرآنَ شاهدٌ من محمدٍ وهو لسانُه ، أو مِن جبريلَ . والهاءُ في " من قبلِه " أيضاً للقرآن . وقيل : الهاءُ في "يَتْلوه" تعود على البيان المدلولِ عليه بالبيّنة . وقيل : المرادُ بالشاهدِ إعجازُ القرآن ، فالضمائر الثلاثة للقرآن . وهذا كافٍ ، ووراء ذلك أقوالٌ مضطربةٌ غالبُها يَرْجِع لما ذكرْتُ .

وقرأ محمد بن السائب الكلبي "كتابَ موسى " بالنصبِ وفيه وجهان ، أحدهما وهو الظاهر أنه معطوف على الهاء في " يتلوه " ، أي : يتلوه ويتلو كتابَ موسى ، وفصلَ بالجارّ بين العاطفِ والمعطوف . والثاني : أنه منصوبٌ بإضمارِ فعلٍ . قال أبو البقاء : وقيل : تمَّ الكلامُ عند قولِه " منه " و "كتابَ موسى " ، أي : ويتلو كتابَ موسى " فقدَّر فعلاً مثلَ الملفوظِ به ، وكأنه لم يرَ الفصلَ بين العاطفِ والمعطوفِ فلذلك قَدَّر فعلاً .

(126/375)

و " إماماً ورحمةً " منصوبان على الحال من "كتاب موسى " سواءً أقرىء رفعاً أم نصباً . والهاءُ في " به " يجوز أن تعودَ على "كتاب موسى " وهو أقربُ مذكورٍ . وقيل : بالقرآن ، وقيل : بمحمد ، وكذلك الهاء في " به " .

والأَحْزاب : الجماعةُ التي فيها غِلْظَةٌ ، كأنهم لكثرتهم وُصِفوا بذلك ، ومنه وَصْفُ حمارِ

الوحش ب " حَزَابِيَة " لِغلَظِه . والأحزاب : جمع حِزْب وهو جماعةُ الناس .

و" المِرْية " بكسر الميم وضَمّها الشكُّ ، لغتان أشهرُهما الكسرُ ، وهي لغة أهل الحجاز ، وبها قرأ جماهيرُ الناس ، والضمُّ لغةُ أسد وتميم ، وبها قرأ السُّلمي وأبو رجاء وأبو الخطاب السدوسي . و " وأولئك " إشارةٌ إلى مَنْ كان على بَيِّنة ، جُمِع على معناها ، وهذا إنْ أريد ب " مَنْ كان " النبيُّ وصحابتُه ، وإن أريدَ هو وحدَه فيجوز أن يكونَ عظَّمه بإشارة الجمع كقوله :

2644 فإن شِئْتِ حَرَمْتُ النساءَ سواكمُ . . . وإن شِئْتِ لم أَطْعَمْ نُقاخاً ولا بَرْدا

و" موعده " اسمُ مكانِ وَعْدِه ، قال حسان رضي اللَّه عنه :

2645 أوردْتُموها حِياضَ الموتِ ضاحيةً . . . فالنارُ موعدُها والموتُ ساقيها . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 299 . 302 ﴾

(127/375)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾

فيه إضمار ومعناه أفمن كان على بينة كمن ليس على بينة . . . لا يستويان .

والبيِّنَةُ لأقوامٍ برهانُ العِلْمِ ، ولآخرين بيانُ الأمر بالقطع والجزم ؛ يُشْهِدهم الحقُّ ما لا يطلع عليه غيرهم ، كما قلت :

ليلى من وجهك شمس الضحا . . . (. . . . .)

فالناس في الظلمة من ليلهم . . . ونحن من وجهك في الضوء والشاهد

فالذي يتولاه فهو مشاهِدٌ ، وفي الخبر " أولياءُ الله الذين إذا أرادوا ذكر الله . . . . . "

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ [محمد : 30] . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 129 ﴾

(128/375)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (9) ﴾

اللام في : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان ﴾ هي الموطئة للقسم ، والإنسان الجنس ، فيشمل المؤمن

والكافر ، ويدل على ذلك الاستثناء بقوله : ﴿ إِلَّا الذين صَبَرُواْ ﴾ وقيل : المراد : جنس الكفار ، ويؤيده أن اليأس والكفران والفرح والفخر ، هي أوصاف أهل الكفر لا أهل الإسلام في الغالب .

وقيل المراد بالإنسان : الوليد بن المغيرة .

وقيل : عبد الله بن أمية المخزومي .

والمراد بالرحمة هنا : النعمة من توفير الرزق والصحة والسلامة من المحن ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ﴾ أن سلبناه إياها ﴿ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ ﴾ أي : آيس من الرحمة ، شديد القنوط من عودها ، وأمثالها ، والكفور : عظيم الكفران ، وهو الجحود بها قاله ابن الأعرابي ؛ وفي إيراد صيغتي المبالغة في ﴿ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ ما يدلّ على أن الإنسان كثير اليأس ، وكثير الجحد عند أن يسلبه الله بعض نعمه ، فلا يرجو عودها ، ولا يشكر ما قد سلف له منها .

وفي التعبير بالذوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه ، لأن الإذاقة والذوق : أقلّ ما يوجد به الطعم ، والنعماء : إنعام يظهر أثره على صاحبه ، والضرّاء : ظهور أثر الإضرار على من أصيب به .

(129/375)

والمعنى : أنه إن أذاق الله سبحانه العبد نعماءه من الصحة والسلامة ، والغنى بعد أن كان في ضرّ من فقر أو مرض أو خوف ، لم يقابل ذلك بما يليق به من الشكر لله سبحانه ، بل يقول ذهب السيئات : أي المصائب التي ساءته من الضرّ والفقر والخوف والمرض عنه وزال أثرها ، غير شاكر لله ، ولا مثن عليه بنعمه ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ أي : كثير الفرح بطراً وأشراً ، كثير الفخر على الناس ، والتطاول عليهم بما يتفضل الله به عليه من النعم ، وفي التعبير عن ملابسة الضرّ له بالمس مناسبة للتعبير في جانب النعماء بالإذاقة ، فإن كلاهما لأدنى ما يطلق عليه اسم الملاقاة ، كما تقدّم ﴿ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ ﴾ فإن عادتهم الصبر عند نزول المحن ، والشكر عند حصول المنن .

قال الأخفش : هو استثناء ليس من الأوّل : أي ولكن الذين صبروا وعملوا الصالحات في حالتي النعمة والمحنة .

وقال الفراء ؛ هو استثناء من لئن أذقناه : أي من الإنسان ، فإن الإنسان بمعنى الناس ، والناس : يشمل الكافر والمؤمن ، فهو استثناء متصل ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى الموصول باعتبار اتصافه بالصبر وعمل الصالحات ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ ﴾ يؤجرون به لأعمالهم الحسنة ﴿ كَبِيرٌ ﴾ متناه في الكبر .

ثم سلّى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾ أي : فلعلك لعظم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب ، واقتراح الآيات التي

يقترحونها عليه على حسب هواهم ، وتعنتهم تارك بعض ما يوحى إليك مما أنزله الله عليك وأمرك بتبليغه ، مما يشق عليهم سماعه أو يستشقون العمل به ، كسبّ آلهتهم وأمرهم بالإيمان بالله وحده .

(130/375)

قيل : وهذا الكلام خارج مخرج الاستفهام : أي هل أنت تارك ؟ وقيل : هو في معنى النفي مع الاستبعاد : أي لا يكون منك ذلك ، بل تبلغهم جميع ما أنزل الله عليك ، أحبوا ذلك أم كرهوه ، شاءوا أم أبوا ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ معطوف على ﴿ تارك ﴾ ، والضمير في " به " راجع إلى " ما " أو إلى ﴿ بعض ﴾ ، وعبر بضائق دون ضيق لأن اسم الفاعل فيه معنى الحدوث والعروض والصفة المشبهة فيها معنى اللزوم ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ أي : كراهة أن يقولوا ، أو مخافة أن يقولوا أو لئلا يقولوا ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ ﴾ أي : هلا أنزل عليه كنز : أي مال مكنوز مخزون ينتفع به ﴿ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ يصدّقه ويبين لنا صحة رسالته . ثم بيّن سبحانه أن حاله صلى الله عليه وسلم مقصور على النذارة ، فقال : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحي إليك ، وليس عليك حصول مطلوبهم وإيجاد مقترحاتهم ﴿ والله على كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ يحفظ ما يقولون ، وهو فاعل بهم ما يجب أن

يفعل .

قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ "أم" هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة ، وأضرب عما تقدّم من تهاونهم بالوحي ، وعدم قنوعهم بما جاء به من المعجزات الظاهرة ، وشرع في ذكر ارتكابهم لما هو أشدّ من ذلك ، وهو افتراؤهم عليه بأنه افتراه ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والضمير المستتر في ﴿ افتراه ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم ، والبارز إلى ما يوحى .

ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بما يقطعهم ويبين كذبهم ويظهر به عجزهم ، فقال : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ ﴾ أي : مماثلة له في البلاغة ، وحسن النظم ، وجزالة اللفظ ، وفخامة المعاني .

(131/375)

ووصف السور بما يوصف به المفرد ، فقال : مثله ، ولم يقل أمثاله ، لأن المراد مماثلة كل واحد من السور ، أو لقصد الإيماء إلى وجه الشبه ، ومداره المماثلة في شيء واحد ، وهو البلاغة البالغة إلى حدّ الإعجاز ، وهذا إنما هو على القول بأن المطابقة في الجمع والتثنية ، والإفراد شرط ، ثم وصف السور بصفة أخرى ، فقال : ﴿ مُفْتَرَيَاتٍ وادعوا ﴾ للاستظهار على المعارضة بالعشر السور ﴿ مَنِ استطعتم ﴾ دعاءه ، وقدرتم على

الاستعانة به ، من هذا النوع الإنساني ، وممن تعبدونه وتجعلونه شريكاً لله سبحانه .

وقوله : ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ متعلق ب ﴿ ادعوا ﴾ : أي ادعوا من استطعتم متجاوزين الله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ فيما تزعمون من افترائي له .

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ ﴾ أي : فإن لم يفعلوا ما طلبته منهم ، وتحدّيتهم به من الإتيان بعشر سور مثله ، ولا استجابوا إلى المعارضة المطلوبة منهم ، ويكون الضمير في " لكم " لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، أو للنبي صلى الله عليه وسلم وحده ، وجمع تعظيماً وتفخيماً ﴿ فاعلموا ﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أو للرسول صلى الله عليه وسلم وحده على التأويل الذي سلف قريباً .

ومعنى أمرهم بالعلم ، أمرهم بالثبات عليه ؛ لأنهم عالمون بذلك من قبل عجز الكفار عن الإتيان بعشر سور مثله ، أو المراد بالأمر بالعلم : الأمر بالازدياد منه ، إلى حدّ لا يشوبه شك ، ولا تخالطه شبهة ، وهو علم اليقين .

والأوّل : أولى .

ومعنى : ﴿ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ الله ﴾ أنه أنزل متلبساً بعلم الله المختص به ، الذي لا تطلع على كنهه العقول ، ولا تستوضح معناه الأفهام ، لما اشتمل عليه من الإعجاز الخارج عن طوق البشر ﴿ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أي : واعلموا أن الله هو المتفرد بالألوهية لا شريك له ، ولا يقدره غيره على ما يقدر عليه .

ثم ختم الآية بقوله : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ أي : ثابتون على الإسلام ، مخلصون له ، مزدادون من الطاعات ، لأنه قد حصل لكم بعجز الكفار عن الإتيان بمثل عشر سور من هذا الكتاب طمأنينة فوق ما كنتم عليه ، وبصيرة زائدة ، وإن كنتم مسلمين من قبل هذا فإن الثبوت عليه وزيادة البصيرة فيه والطمأنينة به مطلوب منكم .

وقيل : إن الضمير في ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ ﴾ للموصول في ﴿ من استطعتم ﴾ ، وضمير ﴿ لكم ﴾ ، للكفار ، الذين تحدّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك ضمير ﴿ فاعلموا ﴾ والمعنى : فإن لم يستجب لكم من دعوتموهم للمعاضدة والمناصرة على الإتيان بعشر سور من سائر الكفار ومن يعبدونهم ، ويزعمون أنهم يضرّون وينفعون ، فاعلموا أن هذا القرآن الذي أنزله الله على هذا الرسول ، خارج عن قدرة غيره سبحانه وتعالى ، لما اشتمل عليه من الإعجاز الذي تتقاصر دونه قوّة المخلوقين ، وأنه أنزل بعلم الله الذي لا تحيط به العقول ، ولا تبلغه الأفهام ، واعلموا أنه المنفرد بالألوهية لا شريك له ، فهل أنتم بعد هذا مسلمون ؟ أي : داخلون في الإسلام ، متبعون لأحكامه ، مقتدون بشرائعه .

وهذا الوجه أقوى من الوجه الأوّل من جهة ، وأضعف منه من جهة ، فأما جهة قوّته .

فلا تساق الضمائر وتناسبها ، وعدم احتياج بعضها إلى تأويل ، وأما ضعفه ، فَلِما في ترتيب الأمر بالعلم على عدم الاستجابة ممن دعوهم واستعانوا بهم من الخفاء واحتياجه إلى تكلف ، وهو أن يقال : إن عدم استجابة من دعوهم واستعانوا بهم من الكفار والآلهة مع حرصهم على نصرهم ، ومعاضدتهم ، ومبالغتهم في عدم إيمانهم واستمرارهم على الكفر ، يقيد حصول العلم لهؤلاء الكفار ، بأن هذا القرآن من عند الله ، وأن الله سبحانه هو الإله وحده لا شريك له ، وذلك يوجب دخولهم في الإسلام ، واعلم أنه قد اختلف التحدّي للكفار بمعارضة القرآن ، فتارة وقع بمجموع القرآن ، كقوله :

(133/375)

﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرءان لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ [الإسراء : 88] وبعشر سور كما في هذه الآية ، وذلك لأن العشرة أوّل عقد من العقود ، وبسورة منه كما تقدّم ، وذلك لأن السورة أقلّ طائفة منه .

ثم إن الله سبحانه توعد من كان مقصور الهمة على الدنيا لا يطلب غيرها ولا يريد سواها ، فقال : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا نُوَفّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ قال الفراء : إن ﴿ كان ﴾ هذه زائدة ، ولهذا جزم الجواب .

وقال الزجاج: ﴿ من كان ﴾ في موضع جزم بالشرط، وجوابه ﴿ نوفّ إليهم ﴾: أي من يكن يريد.

واختلف أهل التفسير في هذه الآية، فقال الضحاك: نزلت في الكفار، واختاره النحاس بدليل الآية التي بعدها ﴿ أُوْلَئِكَ الذين لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخرة إِلاَّ النار ﴾.

وقيل: الآية واردة في الناس على العموم، كافرهم ومسلمهم.

والمعنى: أن من كان يريد بعمله حظّ الدنيا يكافأ بذلك، والمراد بزينتها: ما يزينها ويحسنها من الصحة والأمن، والسعة في الرزق، وارتفاع الحظّ، ونفاذ القول، ونحو ذلك.

وإدخال ﴿ كان ﴾ في الآية يفيد أنهم مستمرّون على إرادة الدنيا بأعمالهم، لا يكادون يريدون الآخرة، ولهذا قيل: إنهم مع إعطائهم حظوظ الدنيا يعذّبون في الآخرة، لأنهم جرّدوا قصدهم إلى الدنيا، ولم يعملوا للآخرة.

وظاهر قوله: ﴿ نُوَفّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ أن من أراد بعمله الدنيا حصل له الجزاء الدنيوي ولا محالة، ولكن الواقع في الخارج يخالف ذلك، فليس كل متمنّ ينال من الدنيا أمنيته، وإن عمل لها وأرادها، فلا بد من تقييد ذلك بمشيئة الله سبحانه.

قال القرطبي: ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة، وكذلك الآية التي في الشورى ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ [الشورى: 20].

وكذلك ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ [آل عمران : 145] قيدتها وفسرتها التي في سبحان ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء : 18] قوله : ﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ﴾ أي : وهؤلاء المريدون بأعمالهم الدنيا هم فيها : أي في الدنيا لا يبخسون : أي لا ينقصون من جزائهم فيها بحسب أعمالهم لها ، وذلك في الغالب ، وليس بمطرد ، بل إن قضت به مشيئته سبحانه ، ورجحته حكمته البالغة .

وقال القاضي : معنى الآية : من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها ، نوفّ إليهم أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا ، وهو ما ينالون من الصحة والكفاف ، وسائر اللذات والمنافع ، فخصّ الجزاء بمثل ما ذكره ، وهو حاصل لكل عامل للدنيا ، ولو كان قليلاً يسيراً .

قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخرة إِلاَّ النار ﴾ الإشارة إلى المريدين المذكورين ، ولا بدّ من تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشيء من الأعمال المعتدّ بها ، الموجبة للجزاء الحسن في الدار الآخرة ، أو تكون الآية خاصة بالكفار ، كما تقدّم ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ ﴾ أي : ظهر في الدار الآخرة حبوط ما صنعوه من الأعمال التي كانت صورتها صورة الطاعات الموجبة للجزاء الأخروي ، لولا أنهم أفسدوها بفساد مقاصدهم ، وعدم الخلوص ، وإرادة ما عند الله في دار الجزاء ، بل قصروا ذلك على الدنيا وزينتها ؛ ثم حكم

سبحانه ببطلان عملهم فقال : ﴿ وباطل مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : أنه كان عملهم في نفسه باطلاً غير معتدّ به ، لأنه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاء ، ويترتب عليه ما يترتب على العمل الصحيح .

قوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيّنَةٍ مّن رَّبِهِ ﴾ بيّن سبحانه أن بين من كان طالباً للدنيا فقط ، ومن كان طالباً للآخرة تفاوتاً عظيماً ، وتبايناً بعيداً .

(135/375)

والمعنى : أفمن كان على بينة من ربه في اتباع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بالله ، كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها .

وقيل : المراد بمن كان على بينة من ربه : النبي صلى الله عليه وسلم : أي أفمن كان معه بيان من الله ، ومعجزة كالقرآن ، ومعه شاهد كجبريل ، وقد بشرت به الكتب السالفة ، كمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها .

ومعنى البينة : البرهان الذي يدلّ على الحق ، والضمير في قوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ ﴾ راجع إلى البينة باعتبار تأويلها بالبرهان ، والضمير في منه راجع إلى القرآن ، لأن قد تقدّم ذكره في قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ [يونس : 38] أو راجع إلى الله تعالى .

والمعنى : ويتلو البرهان الذي هو البينة شاهد يشهد بصحته من القرآن ، أو من الله سبحانه .

والشاهد : هو الإعجاز الكائن في القرآن ، أو المعجزات التي ظهرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن ذلك من الشواهد التابعة للقرآن .

وقال الفراء قال بعضهم : ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ : الإنجيل ، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق ، والهاء في ﴿ منه ﴾ لله عزّ وجلّ ؛ وقيل المراد بمن كان على بينة من ربه : هم مؤمنو أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام ، وأضرابه .

قوله : ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى ﴾ معطوف على ﴿ شاهد ﴾ .

والتقدير : ويتلو الشاهد شاهد آخر من قبله هو كتاب موسى ، فهو وإن كان متقدّماً في النزول ، فهو يتلو الشاهد في الشهادة ، وإنما قدم الشاهد على كتاب موسى ، مع كونه متأخراً في الوجود ، لكونه وصفاً لازماً غير مفارق ، فكان أغرق في الوصفية من كتاب موسى .

ومعنى شهادة كتاب موسى ، وهو التوراة أنه بشّر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأخبر بأنه رسول من الله .

قال الزجاج : والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى ، لأن النبي موصوف في كتاب موسى ، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل .

وحكى أبو حاتم ، عن بعضهم ، أنه قرأ : " ومن قبله كتاب موسى " بالنصب ، وحكاه المهدوي ، عن الكلبي ، فيكون معطوفاً على الهاء في ﴿ يتلوه ﴾ .

والمعنى : ويتلو كتاب موسى جبريل ، وانتصاب ﴿ إماماً ورحمة ﴾ على الحال .

والإمام : هو الذي يؤتمّ به في الدين ويقتدى به ، والرحمة : النعمة العظيمة التي أنعم الله بها على من أنزله عليهم ، وعلى من بعدهم باعتبار ما اشتمل عليه من الأحكام الشرعية الموافقة لحكم القرآن ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى المتصفين بتلك الصفة الفاضلة ، وهو الكون على البينة من الله .

واسم الإشارة مبتدأ وخبره ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي : يصدّقون بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، أو بالقرآن ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب ﴾ أي : بالنبيّ أو بالقرآن .

والأحزاب المتحزّبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل مكة وغيرهم ، أو المتحزّبون من أهل الأديان كلها ﴿ فالنار مَوْعِدُهُ ﴾ أي : هو من أهل النار لا محالة ، وفي جعل النار موعداً إشعار بأن فيها ما لا يحيط به الوصف من أفانين العذاب ، ومثله قول حسان :

أوردتموها حياض الموت صاحية . . . فالنار موعدها والموت لاقيها

﴿ فَلاَ تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي : لا تك في شك من القرآن ، وفيه تعريض بغيره صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه معصوم عن الشك في القرآن ، أو من الموعد ﴿ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ فلا مدخل للشك فيه بحال من الأحوال ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بذلك مع وجوب الإيمان به ، وظهور الدلائل الموجبة له ، ولكنهم يعاندون مع علمهم بكونه حقاً ، أو قد طبع على قلوبهم فلا يفهمون أنه الحق أصلاً .

وقد أخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ قال : لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

(137/375)

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن أنس ، في قوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا ﴾ قال : نزلت في اليهود والنصارى .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عبد الله بن معبد ، قال : قام رجل إلى عليّ فقال : أخبرنا عن هذه الآية ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا ﴾ إلى قوله : ﴿ وباطل مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ قال : ويحك ، ذاك من كان يريد الدنيا لا يريد الآخرة .

وأخرج النحاس عن ابن عباس ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا ﴾ أي : ثوابها ﴿ وَزِينَتَهَا ﴾ مالها ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ ﴾ نوفر لهم بالصحة والسرور في الأهل ، والمال ، والولد ﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ﴾ لا ينقصون .

ثم نسخها : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء ﴾ [الإسراء : 18] الآية .

وأخرج أبو الشيخ ، عن السديّ ، مثله .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في الآية قال : من عمل صالحاً : التماس الدنيا صوماً أو صلاة ، أو تهجداً بالليل ، لا يعمله إلا التماس الدنيا ، يقول الله أو فيه الذي التمس في الدنيا وحبط عمله الذي كان يعمل ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

وأخرج ابن جرير ، عن الضحاك ، قال : نزلت هذه الآية في أهل الشرك .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الحسن ، في قوله : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قال : طيباتهم .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن جريج ، نحوه .

وأخرج أبو الشيخ ، عن السديّ ، في قوله : ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾ قال : حبط ما عملوا من خير ، وبطل في الآخرة ، ليس لهم فيها جزاء .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في الآية ، قال : هم أهل الرياء .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في المعرفة ، عن عليّ بن أبي طالب ، قال : ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن ، فقال له رجل : ما نزل فيك ؟ قال : أما تقرأ سورة هود ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ رسول الله صلى الله عليه وسلم بينة من ربه ، وأنا شاهد منه .

وأخرج ابن عساكر ، وابن مردويه من وجه آخر ، عنه ، قال : قال رسول الله : " أفمن كان على بينة من ربه : أنا ، ويتلوه شاهد منه : عليّ " وأخرج أبو الشيخ ، عن أبي العالية ، في قوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ قال : ذاك محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أبو الشيخ ، عن إبراهيم ، نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط ، وأبو الشيخ ، عن محمد بن عليّ بن أبي طالب ، قال : قلت لأبي : إن الناس يزعمون في قول الله سبحانه ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أنك أنت التالي ، قال : وددت أني أنا هو ، ولكنه لسان محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أبو الشيخ ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن الشاهد جبريل ووافقه سعيد بن جبير .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه من طرق ، عن

ابن عباس ، قال : جبريل فهو شاهد من الله بالذي يتلوه من كتاب الله الذي أنزل على محمد ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى ﴾ قال : ومن قبله التوراة على لسان موسى ، كما تلا القرآن على لسان محمد .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن عساكر ، عن الحسن بن عليّ ، في قوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ قال : محمد هو الشاهد من الله .

وأخرج أبو الشيخ ، عن إبراهيم ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى ﴾ قال : ومن قبله جاء الكتاب إلى موسى .

وأخرج عبد الرزاق ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب ﴾ قال : الكفار أحزاب كلهم على الكفر .

وأخرج أبو الشيخ ، عن قتادة ، قال : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب ﴾ قال : من اليهود والنصارى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(139/375)

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ

سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (19) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (20) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (21) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الكافرون قد كذبوا على الله بما أحدثوه من الدين من غير دليل وما نسبوا إليه النبي -صلى الله عليه وسلم- من الافتراء ، أتبع ذلك سبحانه قوله : ﴿ ومن أظلم ﴾ أي لا أحد أظلم ﴿ ممن افترى ﴾ أي تعمد أن اختلق متكبراً ﴿ على الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ كذباً ﴾ الآية ، وهو موضع ضمير لو أتى به لقيل : لا يؤمنون ظلماً منهم ، ومن أظلم منهم أي هم أظلم الظالمين ، فأتى بهذا الظاهر بياناً لما كفروا به لأنه إذا علق الحكم بالوصف دل على أنه علته .

(140/375)

ولما بين أنهم أظلم ، أتبعه جزاءهم بقوله استئنافاً : ﴿ أولئك ﴾ المستحقو البعد ؛ ولما كان نفس العرض مخوفاً ، بنى للمجهول قوله : ﴿ يعرضون ﴾ أي لذلك ولدلالة على أنهم على صفة الهوان ومستسلمون لكل عارض ، فعرضهم في غاية السهولة ﴿ على ربهم ﴾ أي الذي أحسن إليهم فلم يشكروه ، العالم بالخفايا فيفتضحون بين يديه بما قابلوا به إحسانه من اللوم ﴿ ويقول ﴾ على سبيل التكرار ﴿ الأشهاد ﴾ وهم الذين آمنوا بالكتب الشاهد بعضها لبعض المشار إليه بقوله ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ والملائكة الذين شهدوا أعمالهم ومن أعضائهم حين يختم على أفواههم ﴿ هؤلاء ﴾ إشارة بأداة القرب إلى تحقيرهم ﴿ الذين كذبوا ﴾ متكبرين ﴿ على ربهم ﴾ في ادعاء الشريك والولد والتحليل والتحريم وغير ذلك بما عراهم من إحسانه وطول حلمه ، وفي الإتيان بصفة الربوبية غاية التشنيع عليهم ، فتكررت بهذا القول فضيحتهم عند جنسهم وبعدهم عن كل من سمع هذا الكلام لأنه لا أبعد عن القلوب من الكاذب فكيف بالمجترىء بالكذب على الرؤساء فكيف بملك الملوك الذي رباهم وكل من أهل الموقف مرتقب برّه خائف من انتقامه ، وكأنه قيل : فما لهم بعد هذا العذاب العظيم بهذه الفضيحة ؟ فقيل : ﴿ ألا لعنة الله ﴾ وهي طرد الملك الأعظم وإبعاده ، وانظر إلى تهويل الأمر باسم الذات ما أشده ﴿ على الظالمين ﴾ فكيف بأظلم الظالمين ، ثم فصل ظلمهم بقوله : ﴿ الذين يصدون ﴾ أي يعرضون في أنفسهم ويمنعون غيرهم ﴿ عن سبيل ﴾ أي دين ﴿ الله ﴾ أي الملك الذي له الكمال كله مع أنه

الولي الحميد ﴿ ويبغونها ﴾ أي يريدون بطريق الدين الواسعة السهلة ﴿ عوجاً ﴾ بإلقاء الشبهات والطعن في الدلائل مع كونها في غاية الاستقامة .

(141/375)

ولما كان النظر شديداً إلى بيان كذبهم وتكذيبهم ، بولغ في تأكيد قوله : ﴿ وهم ﴾ أي بضمائرهم وظواهرهم ؛ ولما كان تكذيبهم بالآخرة شديداً ، قدم قوله : ﴿ بالآخرة ﴾ وأعاد الضمير تأكيداً لتعيينهم وإثبات غاية الفساد لبواطنهم واختصاصهم بمزيد الكفر فقال : ﴿ هم كافرون ﴾ أي عريقون في هذا الوصف ؛ والعرض : إظهار الشيء بحيث يرى للتوقيف على حالة ، والصد : المنع بالإغراء الصارف عن الأمر ؛ والبغية : طلب أمر من الأمور ، وهي إرادة وجدان المعنى بما يطمه فيه ؛ والعوج : العدول عن طريق الصواب ، وهو في المعنى كالدين بالكسر ، وفي غيره كالعود بالفتح فرقاً بين ما يرى وما لا يرى ، جعلوا السهل للسهل والصعب للصعب ؛ روى البخاري في التفسير عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال في النجوى : " يدنى المؤمن من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقرره بذنوبه : تعرف ذنب كذا ؟ يقول : أعرف رب أعرف – مرتين ، ويقول : سترتها عليك في الدنيا وأغفرها لك اليوم ، ثم يطوي صحيفة حسناته ، وأما الآخرون أو

الكفار فينادي على رؤوس الأشهاد ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ " .

ولما هددهم بأمور الآخرة ، أشار إلى بيان قدرته على ذلك في الدارين بقوله : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء عن حضرة الرحمة ﴿ لم يكونوا ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ معجزين ﴾ وأشار إلى عجزهم بأنهم لا يقدرون على بلوغ العالم العلوي بقوله : ﴿ في الأرض ﴾ أي ما كان الإعجاز – وهو الامتناع من مراد الله – لهم ولا هو في قدرتهم ، لأن قدره على جميع الممكنات على حد سواء .

(142/375)

ولما نفى التعذر بأنفسهم ، نفاه من جهة غيرهم فقال : ﴿ وما كان لهم ﴾ ولما كانت الرتب التي هي دون عظمته سبحانه متكاثرة جداً ، بين أنهم معزولون عن كل منها بإثبات الجار فقال : ﴿ من دون الله ﴾ أي الملك الأعظم ، وأغرق في النفي بقوله : ﴿ من أولياء ﴾ أي يفعلون معهم ما يفعل القريب من تولي المصالح والحماية من المصائب ، ومن لم يقدر على الامتناع وهو حي لم يمتنع بعد موته فكأنه قيل : ماذا يفعل بهم ؟ فقيل : ﴿ يضاعف ﴾ أي يفعل فيه فعل من يناظر آخر في الزيادة ، وبناه للمفعول لأن المرجع وجود المضاعفة مطلقاً

﴿ لهم العذاب ﴾ أي بما كانوا يضاعفون المعاصي ؛ ثم علل سبب المضاعفة بأنه خلق لهم سمعاً وبصراً فضيعوهما بتصامّهم عن الحق وتعاميهم عنه ، فكأن لا فرق بينهم وبين فاقدهما فقال : ﴿ ما كانوا ﴾ أي بما لهم من فساد الجبلات ﴿ يستطيعون السمع ﴾ أي يقدرون لما غلب على فطرهم الأولى السليمة بانقيادهم للهوى من التخلق بنقائص الشهوات على أن توجد طاعته لهم فما كانوا يسمعون ﴿ وما كانوا ﴾ يستطيعون ، الإبصار فما كانوا ﴿ يبصرون ﴾ حتى يعرضوا عن الشهوات فتوجد استطاعتهم للسمع والإبصار ، وهو كناية عن عدم قبولهم للحق وأن شدة إعراضهم عنه وصلت إلى حد صارت فيه توصف بعدم الاستطاعة كما يقول الإنسان لما تشتد كراهته له : هذا مما لا أستطيع أن أسمعه ، وتكون المضاعفة بالكفر والصد ، ونفي الاستطاعة أعرق في العيب وأدل على النقص وأنكأ من نفي السمع لأنهم قد يحملونه على الإجابة ، وأما نفي البصر فغير منفك عن النقص سواء كان للعين أو للقلب ، هذا إن لم تخرج الآية على الاحتباك ، وإن خرجت عليه استوى الأمران ، وصار نفي الاستطاعة أولاً دالاًّ على نفيها ثانياً ، ونفي الإبصار يدل على نفي السمع أولاً .

(143/375)

ولما ثبت أنهم لا سمع ولا بصر ، ثبت أنهم لا شيء فقال : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي بتضييع الفطرة الأولى التي هي سهولة الانقياد للخير وصعوبة الانقياد للشر ؛ ولما كان العاجز ربما نفعه من كان يخدمه فيكسبه قوة بعد الضعف ونشاطاً بعد العجز ، نفى ذلك بقوله عائداً إلى نفي النفع ممن عذرهم أولاً على أحسن وجه : ﴿ وضل عنهم ما كانوا ﴾ أي كوناً جبلوا عليه فصاروا لا ينفكون عنه ﴿ يفترون ﴾ أي يتعمدون كذبه مما ادعوا كونهم آلهة ، ولا شك أن من خسر نفسه ومن خسرها من أجله بادعاء أنه شريك لخالقه ونحو ذلك كان أخسر الناس ، فلذلك قال : ﴿ لا جرم ﴾ أي لا شك ﴿ أنهم ﴾ أي هؤلاء الذي بالغوا في إنكار الآخرة ﴿ في الآخرة ﴾ ولما كان المقام جديراً بالمبالغة في وصفهم بالخسارة ، أعاد الضمير فقال : ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ الأخسرون ﴾ أي الأكثرون خسراناً من كل من يمكن وصفه بالخسران ؛ والإعجاز : الامتناع من المراد بما لا يمكن معه إيقاعه ؛ والمضاعفة : الزيادة على المقدار بمثله أو أكثر ؛ والاستطاعة : قوة ينطاع بها الجوارح للفعل ؛ وأما " لا جرم " فقد اضطرب علماء العربية في تفسيرها ، قال الرضي في شرح الحاجبية والبرهان السفاقسي في إعرابه ما حاصله : والغالب بعد ﴿ لا جرم ﴾ الفتح ، أي في ﴿ أن ﴾ ، ف ﴿ لا ﴾ إما رد الكلام السابق – على ما هو مذهب الخليل – أو زائدة كما في ﴿ لا أقسم ﴾ لأن في جرم معنى القسم ، وهي فعل ماض عند سيبويه والخليل مركبة مع " لا " ،

وجعلها سيبويه فعلاً بمعنى حق ، ف " أن " " فاعله " ، وقيل : " جرم " بمعنى حق ، وهو اسم لا و " أنهم " خبره ؛ وقال الكسائي معناها : لا صد ولا منع ؛ وعن الزجاج أنها غير مركبة ، ولا نفي لما قيل من أن لهم أصناماً تنفعهم ، وجرم – فعل ماض بمعنى كسب وفاعله مضمر معبر به عن فعلهم ، و ﴿ أنهم ﴾ مفعولة ؛ وقال الفراهي : كلمة كانت في الأصل بمعنى لا بد ولا محالة ، لأنه يروي عن العرب " لا جرم " – يعني بضم ثم

(144/375)

سكون ، والفعل – يعني هكذا ، والفعل – يعني محركاً ، يشتركان في المصادر كالرشد والرعد والبخل ؛ والجرم : القطع ، أي لا قطع من هذا كما أنه لا بد بمعنى لا قطع ، فكثرت وجرت على ذلك حتى صارت بمعنى القسم ، فلذلك يجاب بما يجاب به القسم ، فيقال : لا جرم لآتينك ، ولا جرم أنك قائم ، فمن فتح فللنظر إلى أصل ﴿ لا جرم ﴾ كما نقول : لا بد أن نفعل كذا وأنك تفعل ، أي من أن ومن أنك تفعل ، ومن كسر فلمعنى القسم العارض في ﴿ لا جرم ﴾ – انتهى .

(145/375)

فتفسيره لها بالقطع نظر منه إلى أن مادة " جرم " بخصوصها دائرة على القطع ، والأصنع تفسيرها بالظن نظراً إلى ما تدور عليه المادة من حيث هي – بأي ترتيب كان – من جرم وجمر ورجم ورمج ومجر ومرج ، وإنما جعلتها كذلك لأنهم قالوا جرم النخل : خرصها ، وأجمر النخل أيضاً : خرصها ، ورجم – إذا ظن ، والمجر : العقل ، ويلزم الظن اتقاد الذهن ومنه جمرة النار ، والجرم – للأرض الشديدة الجر ، ويلزم الظن أيضاً اجتماع الفكر ، ومنه الجمرة للقلبية وكل ما شاكلها في الجمع ، ومنه الجرم بالكسر وهو الجسد فإنه بالنظر إلى جميعه ، والصوت أو جهارته فإنه يجمع فيه الحلق لقطعه ، ويلزم الاجتماع أيضاً العظمة ، ومنه أجرم – إذا عظم ، والجمير كأمير : مجتمع القوم ، ومن الجمع الرياء والعقل ، فينشأ منه الصفاء ، ومنه ﴿ مارج من نار ﴾ أي لا دخان فيه ، ومنه أجرم لونه : صفا ، ومن الاجتماع المجر – بالتحريك ، وهو أن يملأ بطنه من الماء ولم يرو ، والكسب ، جرم لأهله – إذا كسب ، ومنه الذنب فإنه كسب خاص ، ويمكن أن يكون من القطع لأنه يقطع صاحبه عن الخير ، ويلزم الاجتماع أيضاً الاستتار ومنه أجمرت الليلة – استتر فيها الهلال ، والمجر لما في بطون الحوامل من الإبل والغنم ، أو يجعل هذا مما يلزم نفس الظن من الخفاء ، ومن الاجتماع الضمور ، أجمر الخيل : أضمرها ، وشاة مجمرة : مهزولة ، ويلزم الاجتماع الصلابة والتمام ، ومنه حول مجرم كمعظم : تام ، فينشأ الافتراق ، ومنه تجرم الليل : ذهب ، وابنا

جمير كأمير : الليل والنهار ، أو يكون ذلك من لوازم القطع كما يأتي ؛ ومن الاجتماع الرجم الذي هو الخليل والنديم ، ويلزم الظن الفصل بين الأشياء ، ومنه جرام النخل لصرامها ؛ والجمرة : الحصاة ، فيلزم مطلق الرمي فينشأ الرمي بالجمار ، وهي الحجارة فينشأ القتل للمرجوم ، وهو يرجع أيضاً إلى نفس القطع ، فإنه قطع النفس عما كانت عليه ، ويلزم الفصل القذف والعيب ؛ والرماج كسحاب :

(146/375)

كعوب الرمح لانفصال بعضها عن بعض ، والرمج بالفتح وهو إلقاء الطير ذرقه ، ويلزم الظن المبالغة في النظر فتأتي المبالغة في الكلام والعزيمة ، ومنه المرجام للماد عنقه في السير من الإبل ، وأجمر : أسرع في السير ، وقد يلزم الظن الحيرة ، ومنه حديث مرجم كمعظم : لا يوقف على حقيقته ، فيلزم حينئذٍ الذنب والفساد والقلق والاضطراب ، ومنه أمرج العهد : لم يف به ، أي جعله مارجاً مزلزلاً ، وعلى الاضطراب تدور مادة " مرج " بخصوص هذا الترتيب ، أو الترميج : إفساد سطور بعد كتبتها ، ويلزم الظن الاختلاط ، ومنه الجرم للون لأنه لا يخلو عن شوب ، وأجرم الدم به : لصق ، والإجرام : متاع الراعي ، أو هي من الكسب ، والجرام كرمان : السمك ؛ والمرج : موضع الرعي ، وقد علم من هذا أن جميع

تصاريف المادة تدور على الاضطراب وهو بين في غير العقل ، وأما فيه فإنه يقدر العقل يكون اضطراب الرأي لأن العاقل كلما أنعم النظر انفتح له ما كان مغلقاً فيعدل إليه ، فإذا ظهر هذا ظهر أن معنى " لا جرم " أنهم لا ظن ولا اضطراب في أنهم ، ويكون نفي الظن في مثل هذا السياق نفياً لجميع ما يقابله إلاّ العلم الذي هو بمعنى القطع كما إذا قيل : لا شك في كذا ولا ريب ، فاتضح أن تفسيرهم لها ب " حقاً " تفسير معنى لمجموع الكلمتين لأنه إذا نفي في مثل هذا السياق الظن ثبت اليقين والقطع ، وإليه يرجع تفسير سيبويه لا حق لأنه يريد – والله أعلم – أن لا صلة ، وموضوعها في الأصل النفي ، فهي نافية لضد ما دخلت عليه ، فكأنه قيل : حق وثبت أنهم كذا وانتفى كل ما يضاده ، فهذا وجه كونها صلة مؤكدة ، وقريب من ذلك ما قيل في " إنما " نحو إنما زيد قائم ، أي أن زيداً قائم ، ما هو إلاّ كذلك ، فقد بان أن النافي مثل ذلك مؤكد – والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 518.514 ﴾

(147/375)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ﴾

اعلم أن الكفار كانت لهم عادات كثيرة وطرق مختلفة ، فمنها شدة حرصهم على الدنيا ورغبتهم في تحصيلها ، وقد أبطل الله هذه الطريقة بقوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا ﴾ [هود : 15] إلى آخر الآية ، ومنها أنهم كانوا ينكرون نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقدحون في معجزاته ، وقد أبطل الله تعالى بقوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مّن رَّبِهِ ﴾ [هود : 17] ومنها أنهم كانوا يزعمون في الأصنام أنها شفعاؤهم عند الله ، وقد أبطل الله تعالى ذلك بهذه الآية ، وذلك لأن هذا الكلام افتراء على الله تعالى ، فلما بين وعيد المفترين على الله ، فقد دخل فيه هذا الكلام .

واعلم أن قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ إنما يورد في معرض المبالغة . وفيه دلالة على أن الافتراء على الله تعالى أعظم أنواع الظلم .

ثم إنه تعالى بين وعيد هؤلاء بقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ على رَبِّهِمْ ﴾ وما وصفهم بذلك لأنهم مختصون بذلك العرض ، لأن العرض عام في كل العباد كما قال : ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبّكَ صَفًّا ﴾ [الكهف : 48] وإنما أراد به أنهم يعرضون فيفتضحون بأن يقول الأشهاد عند عرضهم ﴿ هَؤُلاء الذين كَذَبُواْ على رَبِّهِمْ ﴾ فحصل لهم من الخزي والنكال مالا مزيد عليه ، وفيه سؤالات :

السؤال الأول : إذا لم يجز أن يكون الله تعالى في مكان ، فكيف قال : ﴿ يُعْرَضُونَ على

رَبِّهِمْ ﴾ والجواب : أنهم يعرضون على الأماكن المعدة للحساب والسؤال ، ويجوز أيضاً أن يكون ذلك عرضاً على من شاء الله من الخلق بأمر الله من الملائكة والأنبياء والمؤمنين .

السؤال الثاني : من الأشهاد الذين أضيف إليهم هذا القول ؟

الجواب قال مجاهد : هم الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم في الدنيا .

(148/375)

وقال قتادة ومقاتل : ﴿ الأشهاد ﴾ الناس كما يقال على رؤوس الأشهاد ، يعني على رؤوس الناس .

وقال الآخرون : هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين ﴾ [الأعراف : 6]

والفائدة في اعتبار قول الأشهاد المبالغة في إظهار الفضيحة .

السؤال الثالث : الأشهاد جمع فما واحده ؟

والجواب : يجوز أن يكون جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب ، وناصر وأنصار ، ويجوز أن يكون جمع شهيد مثل شريف وأشراف .

قال أبو علي الفارسي : وهذا كأنه أرجح ، لأن ما جاء من ذلك في التنزيل جاء على فعيل ،

كقوله : ﴿ وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : 143] ﴿ وجِئْنَا بِك على هَؤُلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] ثم لما أخبر عن حالهم في عذاب القيامة أخبر عن حالهم في الحال فقال : ﴿ أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ وبين أنهم في الحال لملعونون من عند الله ، ثم ذكر من صفاتهم أنهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً يعني أنهم كما ظلموا أنفسهم بالتزام الكفر والضلال ، فقد أضافوا إليه المنع من الدين الحق وإلقاء الشبهات ، وتعويج الدلائل المستقيمة ، لأنه لا يقال في العاصي يبغي عوجاً ، وإنما يقال ذلك فيمن يعرف كيفية الاستقامة ، وكيفية العوج بسبب إلقاء الشبهات وتقرير الضلالات .

ثم قال : ﴿ وَهُمْ بالآخرة هُمْ كافرون ﴾ قال الزجاج : كلمة "هم" كررت على جهة التوكيد لثباتهم في الكفر .

﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾

اعلم أن الله تعالى وصف هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة في معرض الذم .

الصفة الأولى : كونهم مفترين على الله ، وهي قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ [هود : 18] .

والصفة الثانية : أنهم يعرضون على الله في موقف الذل والهوان والخزي والنكال وهي قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ على رَبِّهِمْ ﴾ [هود : 18] .

والصفة الثالثة : حصول الخزي والنكال والفضيحة العظيمة وهي قوله : ﴿ وَيَقُولُ الأشهاد هَؤُلاء الذين كَذَبُواْ على رَبِّهِمْ ﴾ [هود : 18] .

والصفة الرابعة : كونهم ملعونين من عند الله ، وهي قوله : ﴿ أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ [هود : 18] .

والصفة الخامسة : كونهم صادين عن سبيل الله مانعين عن متابعة الحق ، وهي قوله : ﴿ الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [هود : 19] .

والصفة السادسة : سعيهم في إلقاء الشبهات ، وتعويج الدلائل المستقيمة ، وهي قوله : ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [هود : 19] .

والصفة السابعة : كونهم كافرين ، وهي قوله : ﴿ وَهُمْ بالآخرة هُمْ كافرون ﴾ [هود : 19] .

والصفة الثامنة : كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله ، وهي قوله : ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى الأرض ﴾ قال الواحدي : معنى الإعجاز المنع من تحصيل المراد .

يقال أعجزني فلان أي منعني عن مرادي ، ومعنى معجزين في الأرض أي لا يمكنهم أن يهربوا من عذابنا فإن هرب العبد من عذاب الله محال ، لأنه سبحانه وتعالى قادر على جميع الممكنات ، ولا تتفاوت قدرته بالبعد والقرب والقوة والضعف .

والصفة التاسعة : أنهم ليس لهم أولياء يدفعون عذاب الله عنهم ، والمراد منه الرد عليهم في وصفهم الأصنام بأنها شفعاؤهم عند الله والمقصود أن قوله : ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى الأَرض ﴾ دل على أنهم لا قدرة لهم على الفرار وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ هو أن أحداً لا يقدر على تخليصهم من ذلك العذاب ، فجمع تعالى بين ما يرجع إليهم وبين ما يرجع إلى غيرهم وبين بذلك انقطاع حيلهم في الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة ، ثم اختلفوا فقال قوم المراد إن عدم نزول العذاب ليس لأجل أنهم قدروا على منع الله من إنزال العذاب ولا لأجل أن لهم ناصراً يمنع ذلك العذاب عنهم ، بل إنما حصل ذلك الإمهال لأنه تعالى أمهلهم كي يتوبوا فيزولوا عن كفرهم فإذا أبوا إلا الثبات عليه فلا بد من مضاعفة العذاب في الآخرة ، وقال بعضهم : بل المراد أن يكونوا معجزين لله عما يريد إنزاله عليهم من العذاب في الآخرة أو في الدنيا ولا يجدون ولياً ينصرهم ويدفع ذلك عنهم .

والصفة العاشرة : قوله تعالى : ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب ﴾ قيل سبب تضعيف العذاب في حقهم أنهم كفروا بالله وبالبعث وبالنشور ، فكفرهم بالمبدأ والمعاد صار سبباً لتضعيف

العذاب ، والأصوب أن يقال إنهم مع ضلالهم الشديد ، سعوا في الإضلال ومنع الناس عن الدين الحق ، فلهذا المعنى حصل هذا التضعيف عليهم .

(151/375)

الصفة الحادية عشرة : قوله : ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ والمراد ما هم عليه في الدنيا من صمم القلب وعمى النفس ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى قد يخلق في المكلف ما يمنعه الإيمان ، روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال إنه تعالى منع الكافر من الإيمان في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا ففي قوله تعالى : ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ وأما في الآخرة فهو قوله : ﴿ يُدْعَوْنَ إِلَى السجود فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [القلم : 42] وحاصل الكلام في هذا الاستدلال أنه تعالى أخبر عنهم أنهم لا يستطيعون السمع ، فإما أن يكون المراد أنهم ما كانوا يستطيعون سمع الأصوات والحروف ، وإما أن يكون المراد كونهم عاجزين عن الوقوف على دلائل الله تعالى ، والقول الأول باطل لأن البديهة دلت على أنهم كانوا يسمعون الأصوات والحروف ، وجب حمل اللفظ على الثاني أجاب الجبائي عنه بأن السمع إما أن يكون عبارة عن الحاسة المخصوصة ، أو عن معنى يخلقه الله تعالى في صماخ الأذن ، وكلاهما لا يقدر العبد عليه ،

لأنه لو اجتهد في أن يفعل ذلك أو يتركه لتعذر عليه ، وإذا ثبت هذا كان إثبات الاستطاعة فيه محالاً ، وإذا كان إثباتها محالاً كان نفي الاستطاعة عنه هو الحق ، فثبت أن ظاهر الآية لا يقدح في قولنا .

ثم قال المراد بقوله : ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع ﴾ إهمالهم له ونفورهم عنه كما يقول القائل : هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه ، وهذا مما يمجه سمعي وذكر غير الجبائي عذراً آخر ، فقال إنه تعالى نفى أن يكون لهم أولياء والمراد الأصنام ثم بين نفي كونهم أولياء بقوله : ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ فكيف يصلحون للولاية .

(152/375)

والجواب : أما حمل الآية على أنه لا قدرة لهم على خلق الحاسة وعلى خلق المعنى فيها فباطل ، لأن هذه الآية وردت في معرض الوعيد فلا بد وأن يكون ذلك معنى مختصاً بهم ، والمعنى الذي قالوه حاصل في الملائكة والأنبياء فكيف يمكن حمل اللفظ عليه ، وأما قوله إن ذلك محمول على أنهم كانوا يستثقلون سماع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وإبصار صورته .

فالجواب أنه تعالى نفى الاستطاعة فحمله على معنى آخر خلاف الظاهر ، وأيضاً أن

حصول ذلك الاستثقال إما أن يمنع من الفهم والوصول إلى الغرض أو لم يمنع ، فإن منع فهو المقصود ، وإن لم يمنع منه فحينئذ كان ذلك سبباً أجنبياً عن المعاني المعتبرة في الفهم والإدراك ، ولا تختلف أحوال القلب في العلم والمعرفة بسببه ، فكيف يمكن جعله ذماً لهم في هذا المعرض ، وأيضاً قد بينا مراراً كثيرة في هذا الكتاب أن حصول الفعل مع قيام الصارف محال ، فلما بين تعالى كون هذا المعنى صارفاً عن قبول الدين الحق وبين فيه أنه حصل حصولاً على سبيل اللزوم بحيث لا يزول ألبتة في ذلك الوقت كان المكلف في ذلك الوقت ممنوعاً عن الإيمان ، وحينئذ يحصل المطلوب ، وأما قوله فإنا نجعل هذه الصفة من صفة الأوثان فبعيد لأنه تعالى قال : ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب ﴾ ثم قال : ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع ﴾ فوجب أن يكون الضمير في هذه الآية المتأخرة عائداً إلى عين ما عاد إليه الضمير المذكور في هذه الآية الأولى .

وأما قوله : ﴿ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ فقيل : المراد منه البصيرة ، وقيل : المراد منه أنهم عدلوا عن إبصار ما يكون حجة لهم .

الصفة الثانية عشرة : قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ ومعناه أنهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان هذا الخسران أعظم وجوه الخسران .

الصفة الثالثة عشرة : قوله : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ والمعنى أنهم لما باعوا الدين بالدنيا فقد خسروا ، لأنهم أعطوا الشريف ، ورضوا بأخذ الخسيس ، وهذا عين الخسران في الدنيا ثم في الآخرة فهذا الخسيس يضيع ويهلك ولا يبقى منه أثر ، وهو المراد بقوله : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ .

الصفة الرابعة عشرة : قوله : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الآخرة هُمُ الأخسرون ﴾ وتقريره ما تقدم ، وهو أنه لما أعطى الشريف الرفيع ورضي بالخسيس الوضيع فقد خسر في التجارة . ثم لما كان هذا الخسيس بحيث لا يبقى بل لا بد وأن يهلك ويفنى انقلبت تلك التجارة إلى النهاية في صفة الخسارة ، فلهذا قال : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الآخرة هُمُ الأخسرون ﴾ وقوله ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ قال الفراء : إنها بمنزلة قولنا لا بد ولا محالة ، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقاً ، تقول العرب : لا جرم أنك محسن ، على معنى حقاً إنك محسن ، وأما النحويون فلهم فيه وجوه : الأول : لا حرف نفي وجزم ، أي قطع ، فإذا قلنا : لا جرم معناه أنه لا قطع قاطع عنهم أنهم في الآخرة هم الأخسرون .

الثاني : قال الزجاج إن كلمة ﴿ لا ﴾ نفي لما ظنوا أنه ينفعهم ، و ﴿ جَرَمَ ﴾ معناه كسب ذلك الفعل ، والمعنى : لا ينفعهم ذلك وكسب ذلك الفعل لهم الخسران في الدنيا والآخرة ، وذكرنا ﴿ جَرَمَ ﴾ بمعنى كسب في تفسير قوله تعالى : ﴿ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شنآن قوم ﴾ [

المائدة : 2] قال الأزهري ، وهذا من أحسن ما قيل في هذا الباب ، الثالث : قال سيبويه والأخفش : ﴿ لا ﴾ رد على أهل الكفر كما ذكرنا وجرم معناه حق وصحح ، والتأويل أنه حق كفرهم وقوع العذاب والخسران بهم .

واحتج سيبويه بقول الشاعر :

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة . . جرمت فزارةُ بعدها أن يغضبوا

أراد : حقت الطعنة فزارة أن يغضبوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 167.162 ﴾

(154/375)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾

معناه ومن أظلم لنفسه ممن افترى على الله كذباً بأن يدعي إنزال ما لم ينزل عليه أو ينفي ما أنزل عليه .

﴿ أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ وهو حشرهم إلى موقف الحساب كعرض الأمير لجيشه ، إلا أن الأمير يعرضهم ليراهم وهذا لا يجوز على الله تعلى لرؤيته لهم قبل الحشر .

﴿ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هؤلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ والأشهاد جمع ، وفيما هو جمع له وجهان :

أحدهما : أنه جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب .

والثاني : جمع شهيد مثل شريف وأشراف .

وفي الأشهاد أربعة أقاويل :

احدها : أنه الأنبياء ، قاله الضحاك .

الثاني : أنهم الملائكة ، قاله مجاهد .

الثالث : الخلائق ، قاله قتادة .

الرابع : أن الأشهاد أربعة : الملائكة والأنبياء والمؤمنون والأجساد ، قاله زيد بن أسلم .

قوله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يعني قريشاً .

وفي سبيل الله التي صدوا عنها وجهان :

أحدهما : أنه محمد صلى الله عليه وسلم صدت قريش عنه الناس ، قاله السدي .

والثاني : دين الله تعالى ، قاله ابن عباس .

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني يؤمنون بملة غير الإسلام ديناً ، قاله أبو مالك .

الثاني : يبغون محمداً هلاكاً ، قاله السدي .

الثالث : أن يتأولوا القرآن تاويلاً باطلاً ، قاله عليّ بن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن معنى لا جرم : لا بد .

الثاني : أن ﴿ لا ﴾ عائد على الكفار ، أي لا دافع لعذابهم ، ثم استأنف فقال : جرم ، أي كسب بكفره استحقاق النار ، ويكون معنى جرم : كسب ، أي بما كسبت يداه ، قال الشاعر :

نَصَبنا رأسه في جذع نخل . . . بما جَرَمت يداه وما اعتدينا

أي بما كسبت يداه .

(155/375)

الثالث : أن ﴿ لا ﴾ زائدة دخلت توكيداً ، يعني حقاً إنهم في الآخرة هم الأخسرون . قال الشاعر :

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة . . . جرمت فزارُة بعدها أن يغضبوا .

أي أحقتهم الطعنة بالغضب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(156/375)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أولئك يُعْرَضُونَ على ربهم ﴾

قال الزجاج : ذكر عرضهم توكيداً لحالهم في الانتقام منهم ، وإِن كان غيرهم يعرض أيضاً .

فأما "الأشهاد" ففيهم خمسة أقوال :

أحدها : أنهم الرسل ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : الملائكة ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثالث : الخلائق ، روي عن قتادة أيضاً .

وقال مقاتل : "الأشهاد" الناس ، كما يقال : على رؤوس الأشهاد ، أي : على رؤوس الناس .

والرابع : الملائكة والنبيون وأُمة محمد صلى الله عليه وسلم يشهدون على الناس ، والجوارح تشهد على ابن آدم ، قاله ابن زيد .

والخامس : الأنبياء والمؤمنون ، قاله الزجاج .

قال ابن الأنباري : وفائدة إِخبار الأشهاد بما يعلمه الله : تعظيم بالأمر المشهود عليه ، ودفع المجاحدة فيه .

قوله تعالى : ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ﴾

قد تقدم تفسيرها في [الأعراف : 45] .

قوله تعالى : ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ قال الزجاج : ذُكرت "هم" ثانية على جهة التوكيد لشأنهم في الكفر .

قوله تعالى : ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ﴾ قال ابن عباس : لم يُعجزوني أن آمر الأرض فتُخسف بهم .

﴿ وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ أي : لا وليّ لهم ممن يعبدون يمنعهم مني .

وقال ابن الأنباري : لما كانت عادة العرب جارية بقولهم : لا وزَرَ لك مني ولا نَفَق ، يعنون بالوزر : الجبل ، والنفق : السرَبَ ، وكلاهما يلجأ إليه الخائف ، أعلم الله تعالى أن هؤلاء الكافرين لا يسبقونه هرباً ، ولا يجدون ما يحجز بينهم وبين عذابه من جميع ما يستر من الأرض ويُلجأ إليه .

قال : وقوله : "من أولياءَ" يقتضي محذوفاً ، تلخيصه : من أولياءَ يمنعونهم من عذاب الله ، فحذف هذا لشهرته .

قوله تعالى : ﴿ يضاعَف لهم العذاب ﴾ يعني الرؤساء الصادّين عن سبيل الله ، وذلك لإضلالهم أتباعهم واقتداءِ غيرهم بهم .

وقال الزجاج : "لم يكونوا معجزين في الأرض" أي : في دار الدنيا ، ولا لهم ولي يمنع من انتقام الله ، ثم استأنف ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ لعظم كفرهم بنبيه وبالبعث والنشور .

قوله تعالى : ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع ﴾ فيمن عني بهذا قولان :

أحدهما : أنهم الكفار .

ثم في معناه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم لم يقدروا على استماع الخير ، وإبصار الحق ، وفعل الطاعة ، لأن الله تعالى حال بينهم وبين ذلك ، هذا معنى قول ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : أن المعنى : يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع ولا يسمعونه ، وبما كانوا يبصرون حُجج الله ولا يعتبرون بها ، فحذف الباء ، كما تقول العرب : لأجزينَّك ما عملت ، وبما عملت ، ذكره الفراء ، وأنشد ابن الأنباري في الاحتجاج له :

نُغالي اللحمَ للأضياف نيئًا . . .

ونبذُله إذا نضِجَ القُدورُ

أراد : نغالي باللحم .

والثالث : أنهم من شدة كفرهم وعداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم ما كانوا يستطيعون أن يتفهموا ما يقول ، قاله الزجاج .

والقول الثاني : أنهم الأصنام ، فالمعنى : ما كان للآلهة سمع ولا بصر ، فلم تستطع لذلك السمع ، ولم تكن تبصر .

فعلى هذا ، يرجع قوله : "ما كانوا" إلى أوليائهم ، وهي الأصنام ، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس أيضاً .

قوله تعالى : ﴿ لا جرم ﴾

قال ابن عباس : يريد : حقاً إنهم الأخسرون .

وقال الفراء : "لا جرم" كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة ، فجرت على ذلك ، وكثر استعمالهم إياها حتى صارت بمنزلة "حقا" ، ألا ترى أن العرب تقول : لا جرم لآتينَّك ، لا جرم لقد أحسنت ، وأصلها من جرمتُ ، أي : كسبت الذنب .

قال الزجاج : ومعنى "لا جرم" : "لا" نفي لما ظنوا أنه ينفعهم ، كأن المعنى : لا ينفعهم ذلك جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ، أي : كسب لهم ذلك الفعلُ الخسرانَ .

(158/375)

وذكر ابن الأنباري أن "لا" رد على أهل الكفر فيما قدَّروه من اندفاع الشر عنهم في الآخرة ، والمعنى : لا يندفع عنهم عذابي ، ولا يجدون ولياً يصرف عنهم نقمتي ، ثم ابتدأ مستأنفاً

"جرم" ، قال : وفيها قولان :

أحدهما : أنها بمعنى : كسب كفرهم وما قدَّروا من الباطل وقوعَ العذاب بهم .

ف "جرم" فعل ماض ، معناه : كسب ، وفاعله مُضمر فيه من ذكر الكفر وتقرير الباطل .

والثاني : أن معنى جرم : أحقَّ وصحَّحَ ، وهو فعل ماض ، وفاعله مضمر فيه ، والمعنى : أحقّ كفرُهم وقوعَ العذاب والخسران بهم ، قال الشاعر :

ولقد طَعَنْتَ أبا عُيَيْنَةَ طعنةً . . .

جرمت فزارة بعدها أن يَغْضَبُوا

أراد : حقت الطعنةُ فزارة بالغضب .

ومن العرب من يغيِّرُ لفظ "جرم" مع "لا" خاصة ، فيقول بعضهم : "لا جُرْم" ، ويقول آخرون : "لا جَرْ" باسقاط الميم ، ويقال : "لاذا جرم" و "لاذا جر" بغير ميم ، ولا إن ذا جرم ﴾ و "لا عن ذا جرم" ، ومعنى اللغات كلها : حقاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ

﴾

(159/375)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾

أي لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على الله كذباً ، فأضافوا كلامه إلى غيره ، وزعموا أن له شريكاً وولداً ، وقالوا للأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

﴿ أولئك يُعْرَضُونَ على رَبِّهِمْ ﴾ أي يحاسبهم على أعمالهم .

﴿ وَيَقُولُ الأشهاد ﴾ يعني الملائكة الحفظة ؛ عن مجاهد وغيره ؛ وقال سفيان : سألت الأعمش عن "الأَشْهَادُ" فقال : الملائكة .

الضَّحاك : هم الأنبياء والمرسلون ؛ دليله قوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] .

وقيل : الملائكة والأنبياء والعلماء الذين بلّغوا الرسالات .

وقال قتادة : عنى الخلائق أجمع .

وفي صحيح مسلم من حديث صفوان بن مُحرِز عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه قال : " وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كَذَبوا على الله " .

﴿ أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ أي بعده وسخطه وإبعاده من رحمته على الذين وضعوا العبادة في غير موضعها .

قوله تعالى : ﴿ الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾

يجوز أن تكون "الَّذِينَ" في موضع خفض نعتاً للظالمين ، ويجوز أن تكون في موضع رفع ؛ أي هم الذين .

وقيل : هو ابتداء خطاب من الله تعالى ؛ أي هم الذين يصدون أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة .

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ أي يعدلون بالناس عنها إلى المعاصي والشرك .

﴿ وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أعاد لفظ "هم" تأكيداً .

قوله تعالى : ﴿ أولئك لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأرض ﴾

أي فائتين من عذاب الله .

وقال ابن عباس : لم يُعجزوني أن آمر الأرض فتنخسف بهم .

﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ يعني أنصاراً ، و ﴿ مِنْ ﴾ زائدة .

(160/375)

وقيل : ﴿ ما ﴾ بمعنى الذي تقديره : أولئك لم يكونوا معجزين لا هم ولا الذين كانوا لهم من أولياء من دون الله ؛ وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما .

﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب ﴾ أي على قدر كفرهم ومعاصيهم .

﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع ﴾ ﴿ ما ﴾ في موضع نصب على أن يكون المعنى : بما كانوا يستطيعون السمع .

﴿ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ ولم يستعملوا ذلك في استماع الحق وإبصاره .

والعرب تقول : جزيته ما فعل وبما فعل ؛ فيحذفون الباء مرة ويثبتونها أخرى ؛ وأنشد سيبويه :

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعل ما أمِرتَ بهِ . . .

فقد تَرَكْتُك ذا مالٍ وذا نَشَبِ

ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ ظرفا ، والمعنى : يضاعف لهم أبداً ، أي وقت استطاعتهم السمع والبصر ، والله سبحانه يجعلهم في جهنم مستطيعي ذلك أبداً .

ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية لا موضع لها ؛ إذ الكلام قد تمّ قبلها ، والوقف على العذاب كافٍ ؛ والمعنى : ما كانوا يستطيعون في الدنيا أن يسمعوا سمعاً ينتفعون به ، ولا أن يبصروا إبصار مهتد .

قال الفرّاء : ما كانوا يستطيعون السمع ؛ لأن الله أضلّهم في اللوح المحفوظ .

وقال الزجاج : لبغضهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفقهوا عنه .

قال النحاس : وهذا معروف في كلام العرب ؛ يقال : فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان إذا كان ذلك ثقيلاً عليه .

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين خسروا أَنْفُسَهُمْ ﴾

ابتداء وخبر .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي ضاع عنهم افتراؤهم وتَلف .

قوله تعالى : ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ للعلماء فيها أقوال ؛ فقال الخليل وسيبويه : ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ بمعنى حق ، ف ﴿ لا ﴾ و ﴿ جَرَمَ ﴾ عندهما كلمة واحدة ، و ﴿ أنّ ﴾ عندهما في موضع رفع ؛ وهذا قول الفرّاء ومحمد ابن يزيد ؛ حكاه النحاس .

قال المهدويّ : وعن الخليل أيضاً أن معناها لا بدّ ولا محالة ، وهو قول الفرّاء أيضاً ؛ ذكره الثعلبيّ .

(161/375)

وقال الزجاج : ﴿ لا ﴾ هاهنا نفي وهو ردّ لقولهم : إن الأصنام تنفعهم ؛ كأن المعنى لا ينفعهم ذلك ، وجرم بمعنى كَسَب ؛ أي كسب ذلك الفعل لهم الخسران ، وفاعل كسب مضمر ، و ﴿ أنّ ﴾ منصوبة بجرم ، كما تقول كَسَب جفاؤُك زيداً غضبة عليك ؛ وقال

الشاعر :

نَصبنا رأسه في جِذْعِ نَخْلٍ . . .

بما جَرَمَتْ يداه وما اعتدينا

أي بما كسبت .

وقال الكسائيّ : معنى ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ لا صَدّ ولا مَنْع عن أنهم .

وقيل : المعنى لا قَطعَ قاطعٌ ، فحذف الفاعل حين كثر استعماله ؛ والجَرْم القَطْع ؛ وقد جَرَمَ النَّخْلَ واجترمه أي صَرَمه فهو جارِمٌ ، وقومٌ جُرَّمٌ وجُرَّامٌ وهذا زمن الجَرَام والجِرَام ، وجَرَمتُ صوف الشاة أي جززتُه ، وقد جَرَمتُ منه أي أخذتُ منه ؛ مثل جَلَمْت الشيء جَلْماً أي قطعتُ ، وجَلَمت الجزورَ أَجلِمها جَلْماً إذا أخذتَ ما على عظامها من اللحم ، وأخذت الشيء بجَلْمته ساكنة اللام إذا أخذته أجمع ، وهذه جَلَمة الجزور بالتحريك أي لحمها أجمع ؛ قاله الجوهريّ .

قال النحاس : وزعم الكسائيّ أن فيها أربع لغات : لا جَرَمَ ، ولا عن ذا جَرَمَ ، ولا أَنْ ذا جَرَمَ ، قال : وناس من فَزَارة يقولون : لا جَرَ أَنّهم بغير ميم .

وحكى الفرّاء فيه لغتين أخريين قال : بنو عامر يقولون لا ذا جَرَمَ ، قال : وناس من العرب يقولون : لا جُرم بضم الجيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾

يعني أي الناس أشد تعدياً ممن اختلق على الله كذباً فكذب عليه وزعم أن له شريكاً أو ولداً وفي الآية دليل على أن الكذب على الله من أعظم أنواع الظلم لأن قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن أفترى على الله كذباً ﴾ ورد في معرض المبالغة ﴿ أولئك ﴾ يعني المفترين على الكذب ﴿ يعرضون على ربهم ﴾ يعني يوم القيامة فيسألهم عن أعمالهم في الدنيا ﴿ ويقول الأشهاد ﴾ يعني الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم ، قاله مجاهد وقال ابن عباس : هم الأنبياء والرسل وبه قال الضحاك وقال قتادة : الأشهاد الخلق كلهم ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴾ يعني : في الدنيا وهذه الفضيحة تكون في الآخرة لكل من كذب على الله ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ يعني يقول الله ذلك يوم القيامة فيلعنهم ويطردهم من رحمته (ق) .

(163/375)

عن صفوان بن محرز المازني قال : بينما ابن عمر يطوف بالبيت إذ عرض له رجل فقال يا أبا عبد الرحمن أخبرني ما سمعت من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في النجوى قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " يدنو المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه تعرف ذنب كذا وكذا فيقول أعرب رب أعرف مرتين فيقول سترتها عليه في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته " وفي رواية " ثم تطوى صحيفة حسناته " وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد وفي رواية " فينادى بهم على رؤوس الأشهاد من الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين " قوله سبحانه وتعالى : ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ﴾ هذه الآية متصلة بما قبلها والمعنى ألا لعنة الله على الظالمين ثم وصفهم فقال الذين يصدون عن سبيل الله يعني يمنعون الناس من الدخول في دين الله الذي هو دين الإسلام ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ يعني ويطلبون إلقاء الشبهات في قلوب الناس وتعويج الدلائل الدالة على صحة دين الإسلام ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ يعني وهم مع صدهم عن سبيل الله يجحدون البعث بعد الموت وينكرونه ﴿ أولئك ﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿ لم يكونوا معجزين في الأرض ﴾ قال ابن عباس يعني سابقين وقيل هاربين وقيل فائتين في الأرض والمعنى أنهم لا يعجزون الله إذا أرادهم بالعذاب والانتقام منهم ولكنهم في قبضته وملكه لا يقدرون على الامتناع منه إذا طلبهم ﴿ وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ يعني وما كان لهؤلاء المشركين من أنصار يمنعونهم من دون الله

إذا أراد بهم سوءاً وعذاباً ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ يعني في الآخرة يزاد عذابهم بسبب صدهم عن سبيل الله وإنكارهم البعث بعد الموت ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ قال قتادة صموا عن سمع الحق فلا يسمعون خيراً فينتفعون به ولا يبصرون خيراً فيأخذون به .

(164/375)

وقال ابن عباس أخبر الله سبحانه وتعالى أنه أحال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فإنه قال ما كانوا يستطيعون السمع وهي طاعته وما كانوا يبصرون وأما في الآخرة فإنه قال لا يستطيعون خاشعة أبصارهم .

﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾

يعني أن هؤلاء الذين هذه صفتهم هم الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ يعني وبطل كذبهم وإفكهم وفريتهم على الله وادعاؤهم أن الملائكة والأصنام تشفع لهم ﴿ لا جرم ﴾ يعني حقاً وقال الفراء لا محالة ﴿ أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ لأنهم باعوا منازلهم في الجنة واشتروا عوضها منازل في النار وهذا هو الخسران المبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾

لما سبق قولهم : أم يقولون افتراه ، ذكر أنه لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً ، وهم المفترون الذين نسبوا إلى الله الولد ، واتخذوا معه آلهة ، وحرموا وحللوا من غير شرع الله ، وعرضهم على الله بمعنى التشهير لخزيهم والإشارة بكذبهم ، وإلا فالطائع والعاصي يعرضون على الله ﴿ وعرضوا على ربك صفاً ﴾ والاشهاد : جمع شاهد ، كصاحب وأصحاب ، أو جمع شهيد كشريف وأشراف ، والأشهاد الملائكة الذين يحفظون عليهم أعمالهم في الدنيا ، أو الأنبياء ، أو هما المؤمنون ، أو ما يشهد عليهم من أعضائهم أقوال .

وفي قوله : هؤلاء إشارة إلى تحقيرهم وإصغارهم بسوء مرتكبهم .

وفي قوله : على ربهم أي : على من يحسن إليهم ويملك نواصيهم ، وكانوا جديرين أن لا يكذبوا عليه ، وهذا كما تقول إذا رأيت مجرماً : هذا الذي فعل كذا وكذا .

وتقدم تفسير الجملة بعد هذا .

وهم تأكيد لقوله : وهم ، وقوله : معجزين ، أي كانوا لا يعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم لو

أراد عقابهم ، وما كان لهم من ينصرهم ويمنعهم من العقاب ، ولكنه أراد انظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم .

قال الزمخشري : وهو كلام الاشهاد يعني : أن كلامهم من قولهم هؤلاء إلى آخر هذه الجملة التي هي وما كان لهم من دون الله من أولياء .

وقد يظهر أن قوله تعالى : ألا لعنة الله على الظالمين من كلام الله تعالى لا على سبيل الحكاية ، ويدل لقول الزمخشري قوله : ﴿ فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ﴾ الآية فكما أنه من كلام المخلوقين في تلك الآية ، فكذلك هنا يضاعف لهم العذاب يشدد ويكثر ، وهذا استئناف إخبار عن حالهم في الآخرة ، لأنهم جمعوا إلى الكفر بالبعث الكذب على الله ، وصدّ عباده عن سبيل الله ، وبغى العوج لها ، وهي الطريقة المستقيمة .

(166/375)

ما كانوا يستطيعون السمع إخبار عن حالهم في الدنيا على سبيل المبالغة يعني : السمع للقرآن ، ولما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وما كانوا يبصرون أي : ينظرون إليه لبغضهم فيه .

ألا ترى إلى حشو الطفيل بن عمرو أذنيه من الكرسف ، وإباية قريش أن يسمعوا ما نقل إليهم

من كلام الرسول حتى تردّهم عن ذلك مشيختهم ؟ أو إخبار عن حالهم إذا ضعف لهم العذاب أي : أنه تعالى حتم عليهم بذلك ، فهم لا يسمعون لذلك سماعاً ينتفعون به ، ولا يبصرون لذلك .

وقيل : الضمير في كانوا عائد على أولياؤهم آلهتهم أي : فما كان لهم في الحقيقة من أولياء وإن كانوا يعتقدون أنهم أولياء .

ويعني أنه من لا يستطيع أن يسمع ولا يبصر فكيف يصلح للولاية ؟ ويكون يضاعف لهم العذاب اعتراضاً ، وما على هذه الأقوال نفي .

وقيل : ما مصدرية أي : يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع وأبصارهم ، والمعنى : أن العذاب وتضعيفه دائم لهم متماد .

وأجاز الفراء أن تكون ما مصدرية ، وحذف حرف الجر منها كما يحذف مع أنْ وأن أختيها ، وهذا فيه بعد في اللفظ وفي المعنى .

وقال الزمخشري : أراد أنهم لفرط تصامّهم عن اتباع الحق وكراهتهم له كأنهم لا يستطيعون السمع ، ولعل بعض المجبرة يتوثب إذا عثر عليه فيوعوع به على أهل العدل ، كأنه لم يسمع الناس يقولون في كل لسان هذا الكلام لا أستطيع أسمعه ، وهذا مما يمجه سمعي انتهى .

يعني : أنه يمكن أن يستدل به على أنّ العبد لا قدرة له ، لأن الله تعالى قد نفى عنه استطاعة السمع ، وإذا انتفت الاستطاعة منه انتفت قدرته .

والزمخشري على عادته في السفه على أهل السنة وخسرانهم أنفسهم ، كونهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى ، فخسروا في تجارتهم خسراناً لا خسران أعظم منه .

وهو على حذف مضاف أي : راحة أو سعادة أنفسهم ، وإلا فأنفسهم باقية معذبة .

وبطل عنهم ما افتروه من عبادة الآلهة ، وكونهم يعتقدون شفاعتها إذا رأوا أنها لا تشفع ولا تنفع .

(167/375)

لا جرم مذهب الخليل وسيبويه أنهما ركبا من لا وجرم ، وبنيا ، والمعنى : حق ، وما بعده رفع به على الفاعلية .

وقال الحوفي : جرم منفي بلا بمعنى حق ، وهو مبني مع لا في موضع رفع بالابتداء ، وأنهم في موضع رفع على خبر جرم .

وقال قوم : إنّ جرم مبنية مع لا على الفتح نحو قولك : لا رجل ، ومعناها لا بد ولا محالة .

وقال الكسائي : معناها لا ضد ولا منع ، فتكون اسم لا وهي مبنية على الفتح كالقول الذي قبله ، وتكون جرم هنا من معنى القطع ، تقول : جرمت أي قطعت .

وقال الزجاج : لا تركيب بينهما ولا ردّ عليهم .

ولما تقدّم من كل ما قبلها مما قالوا : إن الأصنام تنفعهم .

وجرم فعل ماض معناه كسب ، والفاعل مضمر أي كسب هو ، أي : فعلهم ، وإنّ وما بعدها في موضع نصب على المفعول به ، وجرم القوم كاسبهم .

وقال الشاعر :

نصبنا رأسه في جذع نخل . . .

بما جرمت يداه وما اعتدينا

وقال آخر :

جريمة ناهض في رأس نيق . . .

ترى لعظام ما جمعت صليبا

ويقال : لا جرم بالكسر ، ولا جر بحذف الميم .

قال النحاس : وزعم الكسائي أنّ فيها أربع لغات : لا جرم ، ولا عن ذا جرم ، ولا أن ذا جرم ، قال : وناس من فزارة يقولون : لا جرم .

وحكى الفراء فيه لغتين أخريين ، قال : بنو عامر يقولون : لا ذا جرم ، وناس من العرب يقولون : لا جرم بضم الجيم .

وقال الجبائي في نوادره : حكى عن فزارة لا جرّ والله لا أفعل ذاك ، قال : ويقال لا ذا جرم ، ولا ذو جرم ، ولا عن ذا جرم ، ولا أن ذا جرم ، ولا أن جرم ، ولا عن جرم ، ولا ذا جر ،

والله بغير ميم لا أفعل ذاك .

وحكى بعضهم بغير لا جرم : أنك أنك فعلت ذاك ، وعن أبي عمرو : لأجرم أنّ لهم النار على وزن لا كرم ، ولا جر حذفوه لكثرة الاستعمال كما قالوا : سو ترى يريدون سوف ترى .

(168/375)

ولما كان خسران النفس أعظم الخسران ، حكم عليهم بأنهم هم الزائدون في الخسران على كل خاسر من سواهم من العصاة مآله إلى الراحة ، وإلى انقطاع خسرانه بخلاف هؤلاء ، فإنّ خسرانهم لا انقطاع له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(169/375)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾

بأن نسَب إليه ما لا يليق به كقولهم للملائكة بناتُ الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وقولِهم

لآلهتهم : ﴿ هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله ﴾ يعني أنهم مع كفرهم بآيات الله تعالى مفترون عليه كذباً ، وهذا التركيب وإن كان سبكُه على إنكار أن يكون أحدٌ أظلمَ منهم من غير تعرضٍ لإنكار المساواةِ ونفيِها ولكنّ المقصودَ به قصداً مطرداً إنكارُ المساواةِ ونفيُها وإفادةُ أنهم أظلم من كل ظالمٍ كما ينبىء عنه ما سيتلى من قوله عز وجل : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الآخرة هُمُ الأخسرون ﴾ فإذا قيل : مَنْ أكرمُ من فلان أو لا أفضلَ منه فالمرادُ منه حتماً أنه أكرمُ من كل كريمٍ وأفضلُ من كل فاضل ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بالظلم البالغِ الذي هو الافتراءُ على الله تعالى ، وبهذه الإشارة حصَلت الغُنيةُ عن إسناد العَرضِ إلى أعمالهم واكتُفي بإسناده إليهم حيث قيل : ﴿ يُعْرَضُونَ ﴾ لأن عرضَهم من تلك الحيثيةِ وبذلك العنوانِ عرضٌ لأعمالهم على وجهٍ أبلغَ فإن عرضَ العاملِ بعمله أفظعُ من عرض عملِه مع غَيْبته ﴿ على ربّهِمْ ﴾ الحقِّ ، وفيه إيماءٌ إلى بطلان رأيِهم في اتخاذهم أرباباً من دون الله عز وجل ﴿ وَيَقُولُ الاشهاد ﴾ عند العَرْض من الملائكة والنبيين أو من جوارحهم وهو جمعُ شاهد أو شهيد كأصحاب وأشراف ﴿ هَؤُلاء الذين كَذَبُواْ على ربّهِمْ ﴾ بالافتراء عليه كأن ذلك أمرٌ واضحٌ غنيٌّ عن الشهادة بوقوعه ، وإنما المحتاجُ إلى الشهادة تعيينُ مَنْ صدر عنه ذلك فلذلك لا يقولون : هؤلاء كذبوا على ربهم ويجوز أن يكون المرادُ بالأشهاد الحضّارَ وهم جميعُ أهلِ الموقفِ على ما قاله قتادة ومقاتل ويكون قولُهم : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ذماً لهم بذلك لا شهادةً عليهم كما يُشعر به قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ﴾ دون ﴿ وَيُشْهِدُ ﴾

الخ ، وتوطئةً لما يعقُبه من قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظالمين ﴾ بالافتراء المذكورِ ويجوز أن يكون هذا

(170/375)

على الوجه الأولِ من كلام الله تعالى وفيه تهويلٌ عظيمٌ لما يحيق بهم من عاقبة ظلمِهم اللهم إنا نعوذُ بك من الخِزْيِ على رؤوس الأشهادِ ﴿ الذين يَصُدُّونَ ﴾ أي كلَّ من يقدِرون على صدّه أو يفعلون الصد ﴿ عَن سَبِيلِ الله ﴾ عن دينه القويمِ ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ انحرافاً أي يصفونها بذلك وهي أبعدُ شيءٍ منه أو يبغون أهلَها أن ينحرفوا عنها يقال : بغَيتك خيراً أو شراً أي طلبتُ لك ، وهذا شاملٌ لتكذيبهم بالقرآن وقولِهم إنه ليس من عند الله ﴿ وَهُمْ بالآخرة هُمْ كافرون ﴾ أي يصِفونها بالعِوَج والحالُ أنهم كافرون بها لا أنهم يؤمنون بها ويزعُمون أن لها سبيلاً سوياً يهدون الناسَ إليه ، وتكريرُ الضمير لتأكيد كفرِهم واختصاصِهم به كأن كفرَ غيرِهم ليس بشيء عند كفرهم ﴿ أولئك ﴾ مع ما وُصف من أحوالهم الموجبةِ للتدمير ﴿ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ ﴾ الله تعالى مُفْلِتين بأنفسهم من أخذه لو أراد ذلك ﴿ فِى الأرض ﴾ مع سَعتها وإن هربوا منها كل مَهْرب .

(171/375)

﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ ينصُرونهم من بأسه ولكن أُخّرِ ذلك لحكمة تقتضيه ، والجمعُ إما باعتبار أفراد الكفَرة كأنه قيل : وما كان لأحد منهم من وليَ أو باعتبار تعدّدِ ما كانوا يدعون من دونه الله تعالى فيكون ذلك بياناً لحال آلهتِهم من سقوطها عن رتبة الولاية ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب ﴾ استئنافٌ يتضمن حكمةَ تأخيرِ المؤاخذة وقرأ ابنُ كثير ، وابنُ عامرٍ ، ويعقوبُ بالتشديد ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع ﴾ لفَرْط تصامّهم عن الحق وبُغضِهم له كأنهم لا يقدرون على السمع ، ولما كان قبحُ حالِهم في عدم إذعانِهم للقرآن الذي طريقُ تلقّيه السمعُ أشدَّ منه في عدم قَبولِهم لسائر الآياتِ المنوطةِ بالإبصار ، بالغَ في نفي الأولِ عنهم حيث نفى عنهم الاستطاعةَ واكتفى في الثاني بنفي الإبصارِ فقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ لتعاميهم عن آيات الله المبسوطةِ في الأنفس والآفاقِ وهو استئنافٌ وقع تعليلاً لمضاعفة العذابِ وقيل : هو بيانٌ لما نُفي من ولاية الآلهةِ فإن ما لا يسمع ولا يُبصر بمعزل من الولاية ، وقوله تعالى : ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب ﴾ اعتراضٌ وسِّط بينهما نعياً عليهم من أول الأمرِ سوءَ العاقبة .

(172/375)

﴿ أولئك ﴾ المنعوتون بما ذكر من القبائح ﴿ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُم ﴾ باشتراء عبادةِ الآلهةِ بعبادة الله عز سلطانُه ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ من الآلهة وشفاعتِها أو خسِروا ما بذلوا وضاع عنهم ما حصَلوا فلم يبقَ معهم سوى الحسرةِ والندامة ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ : (الأولُ) أن لا نافيةٌ لما سبق وجَرَم فعلٌ بمعنى حقَّ وأن مع ما في حيزه فاعلُه والمعنى لا ينفعهم ذلك الفعلُ حقَّ ﴿ أَنَّهُمْ فِى الآخرة هُمُ الأخسرون ﴾ وهذا مذهبُ سيبويه ، (والثاني) جرَمَ بمعنى كسب وما بعده مفعولُه ، وفاعلُه ما دل عليه الكلامُ أي كسب ذلك خُسرانَهم فالمعنى ما حصل من ذلك إلا ظهورُ خُسرانِهم (والثالثُ) أن لا جرم بمعنى لا بد أنهم في الآخرة هم الأخسرون ، وأياً ما كان فمعناه أنهم أخسرُ من كل خاسر فتبين أنهم أظلمُ من كل ظالم ، وهذه الآياتُ الكريمة كما ترى مقرِّرةٌ لما سبق من إنكار المماثلةِ بين مَنْ كان على بينة من ربه وبين مَنْ كان يريد الحياةَ الدنيا أبلغَ تقريرٍ فإنهم حيث كانوا أظلمَ من كل ظالمٍ وأخسرَ من كل خاسرٍ لم يُتصوَّرْ مماثلةٌ بينهم وبين أحدٍ من الظَّلَمةِ الأخسرين فما ظنُّك بالمماثلة بينهم وبين مَنْ هو في أعلى مدارجِ الكمالِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(173/375)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾

بأن نسب إليه ما لا يليق به كقولهم : الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وقولهم لآلهتهم : ﴿ هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله ﴾ [يونس : 18] والمراد من الآية ذم أولئك الكفرة بأنهم مع كفرهم بآيات الله تعالى مفترون عليه سبحانه ، ويجوز أن تكون لنوع آخر من الدلالة على أن القرآن ليس بمفترى ، فإن من يعلم حال من يفتري على الله سبحانه كيف يرتكبه ، وأن تكون من الكلام المنصف أي لا أحد أظلم مني أن أقول لما ليس بكلام الله تعالى إنه كلامه كما زعمتم ، أو منكم إن كنتم نفيتم أن يكون كلامه سبحانه مع تحقق أنه كلامه جل وعلا ، وفيه من الوعيد والتهويل ما لا يخفى ، ويجوز عندي إذا كان ما قبل في مؤمني أهل الكتاب أن يكون هذا في بيان حال كفرتهم الذين أسندوا إليه سبحانه ما لم ينزله من المحرف الذي صنعوه ونفوا عنه سبحانه ما أنزله من القرآن أو من نعت النبي صلى الله عليه وسلم ، وأياً مّا كان فالمراد نفي أن يكون أظلم من ذلك أو مساوياً في الظلم على ما تقدم ﴿ أولئك ﴾ أي الموصوفون بالظلم البالغ وهو الافتراء ﴿ يُعْرَضُونَ ﴾ من حيث أنهم موصوفون بذلك ﴿ على ربِّهِمْ ﴾ أي مالكهم الحق والمتصرف فيهم حسبما يريد ، وفيه على ما قيل : إيماءً إلى بطلان رأيهم في اتخاذهم أرباباً من دونه سبحانه وتعالى ، وجعل بعضهم الكلام على تقدير المضاف أي تعرض أعمالهم ، أو على ارتكاب المجاز ولا

يحتاج إلى ذلك على ما أشير إليه لأن عرضهم من تلك الحيثية وبذلك العنوان عرض لأعمالهم على وجه أبلغ فإن عرض العامل بعمله أفظع من عرض عمله مع غيبته ، والظاهر أنه لا حذف في قوله سبحانه : ﴿ على ربِّهِمْ ﴾ ويفوض من يقف على الله .

(174/375)

وقيل : هناك مضاف محذوف أي على ملائكة ربهم وأنبياء ربهم وهم المراد بالإشهاد في قوله تعالى : ﴿ ويَقُولُ الاشهاد ﴾ وتفسيرهم بالملائكة مطلقاً هو المروى عن مجاهد ، وعن ابن جريج تفسيرهم بالحفظة من الملائكة عليهم السلام ، وقيل : المراد بهم الملائكة . والأنبياء .

والمؤمنون ، وقيل : جوارحهم ، وعن مقاتل .

وقتادة هم جميع أهل الموقف ، وهو جمع شاهد بمعنى حاضر كصاحب .

وأصحاب بناءاً على جواز جمع فاعل على أفعال ، أو جمع شهيد بمعناه كشريف وأشراف أي ويقول الحاضرون عند العرض أو في موقف القيامة ﴿ هَؤُلاء الذين كَذَبُواْ على ربِّهِمْ ﴾ ويحتمل أن يكون شهادة على تعيين من صدر منه الكذب كأن وقوعه أمر واضح غني عن الشهادة ، وإنما المحتاج إليها ذلك ولذا لم يقولوا : هؤلاء كذبوا بدون الموصول ، ويحتمل أن

يكون ذماً لهم بتلك الفعلة الشنيعة لا شهادة عليهم كما يشعر به قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ﴾ دون ويشهد ، وتوطئة لما يعقبه من قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظالمين ﴾ أي بالافتراء المذكور ، والظاهر أن هذا من كلام الأشهاد على الاحتمالين ، ويؤيده ما أخرجه الشيخان .

وخلق كثير عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله تعالى يدني المؤمن حتى يضع كنفه عليه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب أعرف حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار .

والمنافقون فيقول : الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين " وجوز على الاحتمال الأول أن يكون من كلام الله تعالى ، وحينئذٍ يجوز أن يراد بالظالمين ما يعم الظالمين بالافتراء .

(175/375)

والظالمين بغير ذلك ، ويدخل فيه الأولون دخولاً أولياً ، ويؤيده ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران قال : إن الرجل ليصلي ويلعن نفسه في قراءته فيقول : ألا لعنة الله على الظالمين وهو ظالم .

وربما يجوز ذلك على الاحتمال الثاني أيضاً ، وأياً مّا كان فهؤلاء الذين مبتدأ وخبر ، واحتمال أن يكون ﴿ هَؤُلاء ﴾ مبتدأ ، و﴿ الذين ﴾ تابع له ، وجملة ﴿ أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ خبره ، وقد أقيم الظاهر مقام المضمر أي عليهم لذمهم بمبدأ الاشتقاق مع الإشارة إلى علة الحكم كما ترى ، وجملة يقول الإشهاد قيل : مستأنفة على أنها جواب سؤال مقدر كأن سائلاً سأل إذ سمع أنهم يعرضون على ربهم ماذا يكون إذ ذاك ؟ فأجيب بما ذكر ، وقيل وهو الظاهر إنها معطوفة على جملة ﴿ يُعْرَضُونَ ﴾ على معنى أولئك يعرضون ويقول الأشهاد في حقهم ، أو ويقول أشهادهم والحاضرون عند عرضهم ﴿ هَؤُلاء ﴾ الخ ، وكأن هذا لبيان أنها مرتبطة في التقدير بالمبتدأ كارتباط الجملة المعطوفة هي عليها به ، وقيل : كفى اسم الإشارة القائم مقام الضمير للتحقير رابطاً فتدبر .

(176/375)

﴿ الذين يَصُدُّونَ ﴾ أي كل من يقدرون على صده أو يفعلون الصد ﴿ عَن سَبِيلِ الله ﴾ أي دينه القويم وإطلاق ذلك عليه كالصراط المستقيم مجاز ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي يطلبون لها انحرافاً ، والمراد أنهم يصفونها بذلك وهي أبعد شيء عنه ، وإطلاق الطلب على الوصف مجاز من إطلاق السبب على المسبب ، ويجوز أن يكون الكلام على حذف مضاف أي يبغون أهلها أن ينحرفوا عنها ويرتدوا ، وقيل : المعنى يطلبونها على عوج ونصب ﴿ عِوَجَا ﴾ على أنه مفعول به ، وقيل : على أنه حال ويؤول بمعوجين ﴿ وَهُمْ بالآخرة هُمْ كافرون ﴾ أي والحال أنهم لا يؤمنون بالآخرة ، وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به لأنه بمنزلة الفصل فيفيد الاختصاص وضرباً من التأكيد ، والاختصاص ادعائي مبالغة في كفرهم بالآخرة كأن كفر غيرهم بها ليس بكفر في جنبه ، وقيل : إن التكرير للتأكيد وتقديم ﴿ بالآخرة ﴾ للتخصيص ، والأولى كون تقديمه لرؤوس الآي .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما يوجب التدمير ﴿ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ ﴾ لله تعالى مفلتين أنفسهم من أخذه لو أراد ذلك ﴿ فِى الأرض ﴾ مع سعتها وإن هربوا منها كل مهرب وجعلها بعضهم كناية عن الدنيا ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ ينصرونهم من بأسه ولكن أخر ذلك لحكمة تقتضيه ، و ﴿ مِنْ ﴾ زائدة لاستغراق النفي ، وجمع ﴿ أَوْلِيَاء ﴾ إما باعتبار أفراد الكفرة كأنه قيل : وما كان لأحد منهم من ولي ، أو باعتبار تعدد ما كانوا يدعون من دون الله تعالى فيكون ذلك بياناً لحال آلهتهم من سقوطها عن رتبة

الولاية ﴿ يضاعف لَهُمْ العذاب ﴾ جملة مستأنفة بين فيها ما يكون لهم ويحل بهم ، وادعى أنها تتضمن حكمة تأخير المؤاخذة ، وزعم بعضهم أنها من كلام الأشهاد ، وهي دعائية ليس بشيء .

وقرأ ابن كثير .

وابن عامر .

(177/375)

ويعقوب يضعف بالتشديد ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع ﴾ أي أنهم كانوا يستثقلون سماع الحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ويستكرهونه إلى أقصى الغايات حتى كأنهم لا يستطيعونه ، وهو نظير قول القائل : العاشق لا يستطيع أن يسمع كلام العاذل ، ففي الكلام استعارة تصريحية تبعية ، ولا مانع من اعتبار الاستعارة التمثيلية بدلها وإن قيل به ، وبالجملة لا ترد الآية على المعتزلة وكذا على أهل السنة لأنهم لا ينفون الاستطاعة رأساً وإن منعوا إيجاد العبد لشيء مّا ، وكأنه لما كان قبح حالهم في عدم إذعانهم للقرآن الذي طريق تلقيه السمع أشد منه في عدم قبولهم سائر الآيات المنوطة بالإبصار .

بالغ سبحانه في نفي الأول عنهم حسبماً علمت واكتفى في الثاني بنفي الإبصار فقال عز

قائلاً : ﴿ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ أي أنهم كانوا يتعامون عن آيات الله تعالى المبسوطة في الأنفس والآفاق ، وكأن الجملة جواب سؤال مقدر عن علة مضاعفة العذاب كأنه قيل : ما لهم استوجبوا تلك المضاعفة ؟ فقيل : لأنهم كروهوا الحق أشد الكراهة واستثقلوا سماعه أعظم الاستثقال وتعاموا عن آيات الملك المتعال ، ولا يشكل على هذا قوله سبحانه : ﴿ مَن جَاء بالسيئة فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : 160] بناءاً على أن المراد بمثل السيئة ما تقتضيه من العقاب عند الله تعالى فلعل ما فعلوه من السيئات يقتضي تلك المضاعفة فتكون هي المثل كما أن مثل سيئة الكفر هو الخلود في النار ، وقيل : إن المضاعفة لافترائهم وكذبهم على ربهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى وبغيهم إياها العوج وكفرهم بالآخرة على ما يدل عليه نسبة مضاعفة العذاب إلى هؤلاء الموصوفين بتلك الصفات وبه جمع بين ما هنا ؛ وقوله سبحانه : ﴿ مَن جَاء بالسيئة ﴾ [الأنعام : 160] الآية ، ولعل التعليل بما تفيده الجملة على هذا لأنه الأصل الأصيل لسائر قبائحهم ومعاصيهم .

(178/375)

وزعم بعضهم أن المضاعفة لحفظ الأصل إذ لولا ذلك لارتفع ولم يبق عذاباً للإلف بطول الأمد وفيه ما فيه ، وقيل : إن الجملة بيان لما نفى من ولاية الآلهة فإن ما لا يسمع ولا يبصر بمعزل عن الولاية وقوله سبحانه : ﴿ يضاعف ﴾ الخ اعتراض وسط بينهما نعياً عليهم من أول الأمر بسوء العاقبة ، وفيه أنه مخالف للسياق ومستلزم تفكيك الضمائر ، وجوز أبو البقاء أن تكون ﴿ مَا ﴾ مصدرية ظرفية أي يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع وإبصارهم ، والمعنى أن العذاب وتضعيفه دائم لهم متماد ، وأجاز الفراء أن تكون مصدرية وحذف حرف الجر منها كما يحذف من أن وأن ، وفيه بعد لفظاً ومعنى .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بتلك القبائح .

﴿ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُم ﴾ باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى شأنه ، وقيل : ﴿ خَسِرُواْ ﴾ بسبب تبديلهم الهداية بالضلالة والآخرة بالدنيا وضاع عنهم ما حصلوه بذلك التبديل من متاع الحياة الدنيا والرياسة .

وفي "البحر" أنه على حذف مضاف أي ﴿ خَسِرُواْ ﴾ سعادة أنفسهم وراحتها فإن أنفسهم باقية معذبة .

وتعقب بأن إبقاءه على ظاهره أولى لأن البقاء في العذاب كلا بقاء ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ من الآلهة وشفاعتها

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22) ﴾

أي لا أحد أبين أو أكثر خسراناً منهم ، فأفعل للزيادة إما في الكم .

أو الكيف ، وتعريف المسند بلام الجنس لإفادة الحصر ، وإن جعل ﴿ هُمْ ﴾ ضمير فصل أفاد تأكيد الاختصاص ، وإن جعل مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبر أن أفاد تأكيد الحكم ، وفي ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ أقوال : ففي البحر عن الزجاج أن لا نافية ومنفيها محذوف أي لا ينفعهم فعلمهم مثلا ، وجرم فعل ماض بمعنى كسب يقال : جرمت الذنب إذا كسبته ؛ وقال الشاعر

: نصبنا رأسه في جذع نخل . . .

بما ﴿ جرمت ﴾ يداه وما اعتدينا

(179/375)

وما بعده مفعوله ، وفاعله ما دل عليه الكلام أي كسب ذلك أظهرية أو أكثرية خسرانهم ، وحكى هذا عن الأزهري ، ونقل عن سيبويه أن لا نافية حسبما نقل عن الزجاج ، وجرم فعل ماض بمعنى حق ، وما بعد فاعله كأنه قيل : لا ينفعهم ذلك الفعل حق ﴿ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الآخرة ﴾ الخ .

وذكر أبو حيان أن مذهب سيبويه .

وكذا الخليل أيضاً كون مجموع ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ بمعنى حق وأن ما بعده رفع به على الفاعلية ، وقيل : ﴿ لا ﴾ صلة و ﴿ جَرَمَ ﴾ فعل بمعنى كسب أو حق ، وعن الكسائي أن ﴿ لا ﴾ نافية ﴿ وجرم ﴾ اسمها مبني معها على الفتح نحو لا رجل ، والمعنى لا ضد ولا منع ، والظاهر أن الخبر على هذا محذوف وحذف حرف الجر من أن ويقدر حسبما يقتضيه المعنى ، وقيل : إن ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ اسم ﴿ لا ﴾ ومعناه القطع من جرمت الشيء أي قطعته ، والمعنى لا قطع لثبوت أكثرية خسرانهم أي إن ذلك لا ينقطع في وقت فيكون خلافه .

ونقل السيرافي عن الزجاج أن ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ في الأصل بمعنى لا يدخلنكم في الجرم أي الإثم كإثمه أي أدخله في الاثم ، ثم كثر استعماله حتى صار بمعنى لا بد ، ونقل هذا المعنى عن الفراء ، وفي البحر أن ﴿ جَرَمَ ﴾ عليه اسم ﴿ لا ﴾ ، وقيل : إن ﴿ جَرَمَ ﴾ بمعنى باطل إما على أنه موضوع له ، وإما أنه بمعنى كسب والباطل محتاج له ، ومن هنا يفسر ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ بمعنى حقاً لأن الحق نقيض الباطل ، وصار لا باطل يميناً كلا كذب في قول النبي صلى الله عليه وسلم : " أنا النبي لا كذب " وفي القاموس أنه يقال : ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ .

ولاذا جرم ، ولا أن ذا جرم .

ولا عن ذا جرم .

ولا جرم ككرم ، و﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ بالضم أي لا بد .

أو حقا .

(180/375)

أو لا محالة وهذا أصله ثم كثر حتى تحول إلى معنى القسم فلذلك يجاب عنه باللام ، فيقال : ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ لآتينك انتهى ، وفيه مخالفة لما نقله السيرافي عن الزجاج ، وما ذكره من ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ بالضم عن أناس من العرب ، ولكن قال الشهاب : إن في ثبوت هذه اللغة في فصيح كلامهم ترددا ، وجرم فيها يحتمل أن يكون اسماً وأن يكون فعلاً مجهولاً سكن للتخفيف ، وحكى بعضهم لا ذو جرم .

ولا عن جرم ولا جر بحذف الميم لكثرة الاستعمال كما حذفت الفاء من سوف لذلك في قولهم : سوترى .

والظاهر أن المقحمات بين ﴿ لا ﴾ ودجرم ﴾ زائدة ، وإليه يشير كلام بعضهم ، وحكى بغير لا جرم أنك أنت فعلت ذاك ، ولعل المراد أن كونك الفاعل لا يحتاج إلى أن يقال فيه لا حرم فليراجع ذاك والله تعالى يتولى هداك .

ثم إنه تعالى لما ذكر طريق الكفار وأعمالهم وبين مصيرهم وما له شرع في شرح حال

أضدادهم وهم المؤمنون وبيان ما لهم من العواقب الحميدة تكملة لما سلف من محاسن المؤمنين المذكورة عند جمع في قوله سبحانه : ﴿ ﴾ زائدة ، وإليه يشير كلام بعضهم ، وحكى بغير لا جرم أنك أنت فعلت ذاك ، ولعل المراد أن كونك الفاعل لا يحتاج إلى أن يقال فيه لا حرم فليراجع ذاك والله تعالى يتولى هداك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(181/375)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾

لما انقضى الكلام من إبطال زعمهم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم افترى القرآن ونسبه إلى الله ، وتعجيزهم عن برهان لما زعموه ، كَرّ عليهم أن قد وضح أنهم المفترون على الله عدة أكاذيب ، منها نفيهم أن يكون القرآن منزّلاً من عنده .

فعطفت جملة ﴿ ومن أظلم ممن افترى ﴾ على جملة ﴿ ومن يكْفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ [ود : 17] لبيان ان استحقاقهم النار على كفرهم بالقرآن لأنهم كفروا به افتراء على الله إذ نسبوا القرآن إلى غير مَن أنزله ، وزعموا أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم

افتراه ، فكانوا بالغين غاية الظلم حتى لقد يسأل عن وجود فريق أظلَمَ منهم سؤالَ إنكار يؤول إلى معنى النفي ، أي لا أحد أظلم .

وقد تقدّم نظيره في قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله ﴾ في سورة [البقرة : 114] ، وفي سورة [الأعراف : 37] في قوله : ﴿ فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته .

﴿ وافتراؤهم على الله هو ما وضعوه من دين الشرك ، كقولهم : إن الأصنام شفعاؤهم عند الله ، وقولهم في كثير من أمور دينهم ﴿ واللّهُ أمرَنا بها ﴾ [الأعراف : 28] .

وقال تعالى : ﴿ ما جعل الله من بحيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حامٍ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾ [المائدة : 103] أي إذ يقولون : أمرنا الله بذلك .

وجملة ﴿ أولئك يعرضون على ربهم ﴾ استئناف .

وتصديرها باسم الإشارة للتنبيه على أنهم أحرياء بما سيرد بعد اسم الإشارة من الخَبر بسبب ما قبل اسم الإشارة من الوصف ، وهذا أشد الظلم كما تقدم في ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ في سورة [البقرة : 5] .

ولَما يؤذن به اسم الإشارة من معنى تعليل ما قبله فيما بعده علم أن عرضهم على ربهم عَرض زجر وانتقام .

والعرض إذا عدّي بحرف (على) أفاد معنى الإحضار بإراءة .

واختيار وصف السبب للإيماء إلى القدرة عليهم .

(182/375)

وعطف فعل (يقول) على فعل (يعرضون) الذي هو خبر ، فهو عطف على جزء الجملة السابقة وهو هنا ابتداء عطف جملة على جملة فكلا الفعلين مقصود بالإخبار عَن اسم الإشارة .

والمعنى أولئك يعرضون على الله للعقاب ويعلن الأشهاد بأنهم كذبوا على ربهم فضحاً لهم .

والأشهاد : جمع شاهد بمعنى حاضر ، أو جمع شهيد بمعنى المخبر بما عليهم من الحق .

وهؤلاء الأشهادُ من الملائكة .

واستحضارهم بطريق اسم الإشارة لتمييزهم للناس كلهم حتى يشتهر ما سيخبر به عن حالهم ، والمقصود من ذلك شهرتهم بالسوء وافتضاحهم .

والإتيانُ بالموصول في الخبر عنهم إيماء إلى سببية ذلك الوصف الذي في الصلة فيما يرد عليهم من الحكم وهو ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ ، على أن المقصود تشهيرهم دون

الشهادة .

والمقصود من إعلان هذ الصفة التشهير والخزي لا إثبات كذبهم لأن إثبات ذلك حاصل في صحف أعمالهم ولذلك لم يسند العرض إلى أعمالهم وأسند إلى ذواتهم في قوله : ﴿ أولئك يعرضون على ربهم ﴾ .

وجملة ﴿ ألاَ لعنة الله على الظالِمين ﴾ من بقية قول الأشهاد .

وافتتاحها بحرف التنبيه يناسب مقام التشهير ، والخبر مستعمل في الدعاء خزياً وتحقيراً لهم ، وممّا يؤيد أنه من قول الأشهاد وقوع نظيره في سورة [الأعراف : 44] مصرحاً فيه بذلك ﴿ فأذّن مؤذنٌ بينهم أن لعنة الله على الظالمين ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ تقدم نظيره في سورة [الأعراف : 45] .

وضمير المؤنث في قوله : (يبغونها) عائد إلى سبيل الله لأنّ السبيل يجوز اعتباره مؤنثاً .

والمعنى : أنهم يبغون أن تصير سبيل الله عَوجاء ، فعلم أن سبيل الله مستقيمة وأنهم يحاولون أن يصيروها عَوجاء لأنهم يريدون أن يتبع النبي صلى الله عليه وسلم دينهم ويغضبون من مخالفته إياه .

وهنا انتهى كلام الأشهاد لأن نظيره الذي في سورة [الأعراف : 44] في قوله : ﴿ فأذّن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ﴾ الآية انتهى بما يماثل آخر هذه الآية .

واختصت هذه الآية على نظيرها في الأعراف بزيادة (هم) في قوله : ﴿ هم كافرون ﴾ وهو توكيد يفيد تقوّي الحكم لأن المقام هنا مقام تسجيل إنكارهم البعث وتقريرِه إشعاراً بما يترقبهم من العقاب المناسب فحكي به من كلام الأشهاد ما يناسب هذا ، وما في سورة الأعراف حكاية لما قيل في شأن قوم أُدخلوا النار وظهر عقابهم فلا غَرض لحكاية ما فيه تأكيد من كلام الأشهاد ، وكلا المقالتين واقع وإنما يحكي البليغ فيما يحكيه ما له مناسبة لمقام الحكاية .

﴿ أولئك لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى الأرض ﴾ .

استئناف بياني ناشىء عن الاقتصار في تهديدهم على وصف بعض عقابهم في الآخرة فإنّ ذلك يثير في نفس السامع أن يسأل : هل هم سالمون من عذاب الدنيا .

فأجيب بأنهم لم يكونوا معجزين في الدنيا ، أي لا يخرجون عن مقدرة الله على تعذيبهم في الدنيا إذا اقتضت حكمته تعجيل عذابهم .

وإعادة الإشارة إليهم بقوله : (أولئك) بعد أن أشير إليهم بقوله : ﴿ أولئك يعرضون على ربهم ﴾ [هود : 18] لتقرير فائدة اسم الإشارة السابق .

والمعنى : أنهم يصيرون إلى حكم ربهم في الآخرة ولم يكونوا معجزيه أن يعذبهم في الدنيا متى شاء تعذيبهم ولكنه أراد إمهالهم .

والمعجز هنا الذي أفلت ممّن يروم إضراره .

وتقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين ﴾ في سورة [الأنعام : 134] .

والأرض : الدنيا .

وفائدة ذكره أنهم لا ملجأ لهم من الله لو أراد الانتقام منهم فلا يجدون موضعاً من الأرض يستعصمون به .

فهذا نفي للملاجيء والمعاقل التي يستعصم فيها الهارب .

(184/375)

وعندي أنّ مقارنة (في الأرض) بـ (معجزين) جَرى مجرى المثل في القرآن كما في قوله تعالى : ﴿ ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجزٍ في الأرض ﴾ [الأحقاف : 32] ولعله مما جرى كذلك في كلام العرب كما يؤذن به قول إياس بن قبيصة الطائي من شعراء الجاهلية:

ألم تر أن الأرض رحب فسيحة . . .

فهل تعجزني بقعة من بقاعها

﴿ وما كان لهم من دون اله من أولياء ﴾

يجوز أن يكون المراد بالأول الأنصار ، أي ما لهم ناصر ينصرهم من دون الله .

فجمع لهم نفي سببي النجاة من عذاب القادر وهما المكان الذي لا يصل إليه القادر أو معارضة قادر آخر إياه يمنعه من تسليط عقابه .

و﴿ مِن دون الله ﴾ متعلق بـ (أولياء) لما في الولي هنا من معاني الحائل والمباعد بقوله : ﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ﴾ [النساء : 119] .

ويجوز أن يراد بالأولياء الأصنام التي تَولوْها ، أي أخلصوا لها المحبة والعبادة .

ومعنى نفي الأولياء عنهم بهذا المعنى نفي أثر هذا الوصف ، أي لم تنفعهم أصنامهم وآلهتهم .

و﴿ من دون الله ﴾ على هذا الوجه بمعنى من غير الله ، ف (دون) اسم غير ظرف ، و (من) الجارّة ل (دون) زائدة تزاد في الظروف غير المتصرفة ، و (من) الجارة ل (أولياء) زائدة لاستغراق الجنس المنفي ، أي ما كان لهم فرد من أفراد جنس الأولياء .

والعذاب المضاعف هو عذاب الآخرة بقرينة قوله : ﴿ لم يكونوا معجزين في الأرض ﴾ المشعر بتأخير العذاب عنهم في الدنيا لا عَنْ عجز .

خبر عن اسم الإشارة .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ لم يكونوا معجزين في الأرض ﴾ خبراً أوّلاً وجملة ﴿ يضاعف ﴾ خبراً ثانياً .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ لم يكونوا معجزين ﴾ حالاً وجملة ﴿ يضاعف ﴾ خبراً أول .

يجوز أن يكون هذا خبراً عن اسم الإشارة أو حالاً منهُ فتكون استطاعة السمع المنفية عنهم مستعارة لكراهيتهم سماع القرآن وأقوال النبي صلى الله عليه وسلم كما نفيت الإطاقة في قول الأعشى :

(185/375)

وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

أراد بنفي إطاقة الوداع عن نفسه أنه يحزن لذلك الحزن من الوداع فأشبه الشيء غير المطاق وعبّر هنَا بالاستطاعة لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم إلى استماع القرآن فيعرضون لأنّهم يكرهون أن يسمعوه .

قال تعالى : ﴿ ويلٌ لكل أفّاكٍ أثيمٍ يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصرّ مستكبراً كأن لم يسمعها ﴾ [الجاثية : 8] وقال : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوا فيه

لعلكم تغلبون ﴾ [فصلت : 26] لأنهم لو سمعوا ووعوا لاهتدوا لأن الكلام المسموع مشتمل على تركيب الأدلة ونتائجها فسماعه كاف في حصول الاهتداء .

والإبصار المنفي هو النظر في المصنوعات الدالة على الوحدانية ، أي ما كانوا يوجهون أنظارهم إلى المصنوعات توجيه تأمل واعتبار بل ينظرون إليها نظر الغافل عما فيها من الدقائق ، ولذلك لم يقل هنا : وما كانوا يستطيعون أن يبصروا ، لأنهم كانوا يبصرونها ولكنّ مجرد الإبصار غير كاف في حصول الاستدلال حتّى يضم إليه عمل الفكر بخلاف السمع في قوله : ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع ﴾ .

ويجوز أن تكون الجملة حالاً ل (أولياء) ، وسوّغ كونها حالاً من النكرة أن النكرة وقعت في سياق النفي .

والمعنى : أنهم جعلوها آلهة لهم في حال أنها لا تستطيع السمع ولا الإبصار .

وإعادة ضمير جمع العقلاء على الأصنام على هذا الوجه منظور فيه إلى أن المشركين اعتقدوها تَعْقل ، ففي هذا الإضمار مع نفي السمع والبصر عنها ضرب من التّهكم بهم .

والإتيان بأفعال الكون في هذه الجمل أربع مرات ابتداء من قوله : ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين إلى قوله وما كانوا يبصرون ﴾ لإفادة ما يدل عليه فعل الكون من تمكن الحدث المخبر به فقوله : ﴿ لم يكونوا معجزين ﴾ آكد من : لا يعجزون وكذلك أخواته .

والاختلاف بين صيغ أفعال الكون إذ جاء أولها بصيغة المضارع والثلاثة بعده بصيغة الماضي لأن المضارع المجزوم بحرف (لم) له معنى المضي فليس المخالفة منها إلاّ تفنناً .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾

استئناف ، واسم الإشارة هنا تأكيد ثان لاسم الإشارة في قوله : ﴿ أولئك يعرضون على ربهم ﴾ [هود : 18] .

والموصول في ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ مراد به الجنس المعروف بهذه الصلة ، أي إن بلغكم أنّ قوماً خسروا أنفسهم فهم المفترون على الله كذباً ، وخسارة أنفسهم عدم الانتفاع بها في الاهتداء ، فلما ضلوا فقد خسروها .

وتقدم الكلام على ﴿ خسروا أنفسهم ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ في سورة [الأنعام : 12] .

والضلال : خطأ الطريق المقصود .

و ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ ما كانوا يزعمونه من أن الأصنام تشفع لهم وتدفع عنهم الضر عند الشدائد ، قال تعالى : ﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴾ [الأحقاف : 28] .

وفي إسناد الضلال إلى الأصنام تهكم على أصحابها .

شبهت أصنامهم بمن سلك طريقاً ليلحق بمن استنجد به فضَلّ في طريقه .

وجملة ﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ مستأنفة فذلكة ونتيجة للجمل المتقدمة من قوله : ﴿ أولئك يعرضون على ربهم ﴾ [هود : 18] لأنّ ما جمع لهم من الزج للعقوبة ومن افتضاح أمرهم ومن إعراضهم عن استماع النذر وعن النظر في دلائل الوحدانية يوجب اليقين بأنهم الأخسرون في الآخرة .

و(لا جرم) كلمة جزْم ويقين جرت مجرى المثل ، وأحسب أن (جرم) مشتقّ مما تنوسي ، وقد اختلف أئمّة العربية في تركيبها ، وأظهر أقوالهم أن تكون (لا) من أول الجملة و (جرم) اسم بمعنى محالة أي لا محالة أو بمعنى بدّ أي لا بدّ .

ثم يجيء بعدها أنّ واسمها وخبرها فتكون (أنّ) معمولة لحرف جرّ محذوف .

والتقدير : لا جرم من أن الأمر كذا .

(187/375)

ولما فيها من معنى التحقيق والتوثيق وتعامل معاملة القسم فيجيء بعدها في ما يصلح لجواب قسم نحو : لا جرم لأفعلن .

قاله عمرو بن معد يكرب لأبي بكر .

وعبر عمّا لحقهم من الضر بالخسارة استعارة لأنه ضر أصابهم من حيث كانوا يرجون المنفعة فهم مثل التجار الذين أصابتهم الخسارة من حيث أرادوا الربح .

وإنما كانوا أخسرين ، أي شديدي الخسارة لأنهم قد اجتمع لهم من أسباب الشقاء والعذاب ما افترق بين الأمم الضالة .

ولأنهم شقُوا من حيث كانوا يحسبونه سعادة قال تعالى : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ [الكهف : 103 ، 104] فكانوا أخسرين لأنهم اجتمعت لهم خسارة الدنيا والآخرة .

وضمير ﴿ هم الأخسرون ﴾ ضمير فصل يفيد القصر ، وهو قصر ادّعائي ، لأنهم بلغوا الحد الأقصى في الخسارة ، فكأنّهم انفردوا بالأخسرية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(188/375)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب ﴾ الآية .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة : أن الكفار الذين يصدون الناس عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، يضاعف لهم العذاب يوم القيامة ، لأنهم يعذبون على ضلالهم ، ويعذبون أيضاً على إضلالهم غيرهم ، كما أوضحه تعالى بقوله : ﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العذاب بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل : 88] .

وبين في موضع آخر . أن العذاب يضاعف للأتباع والمتبوعين ، وهو قوله في الأعراف ﴿ حتى إِذَا اداركوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النار قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ [الأعراف : 38] الآية .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُون ﴾ .

في هذه الآية الكريمة للعلماء أوجه ، بعضها يشهد له القرآن :

الأول – وهو اختيار ابن جرير الطبري في تفسيره ، ونقله عن ابن عباس وقتادة – : أن معنى ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع ﴾ الآية – أنهم لا يستطيعون أن يسمعوا لحق سماع منتفع ، ولا أن يبصروه إبصار مهتد ، لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين عن استعمال جوارحهم في طاعة الله تعالى : وقد كانت لهم أسماع وأبصار .

ويدل لهذا قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَآ أغنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ

أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ [الأحقاف: 26] الآية.

(189/375)

الثاني - وهو أظهرها عندي -: أن عدم الاستطاعة المذكورة في الآية إنما هو للختم الذي ختم الله على قلوبهم وأسماعهم، والغشاوة التي جعل على أبصارهم.

ويشهد لهذا القول قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة: 7]، وقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [الكهف: 57] ونحو ذلك من الآيات.

وذل الختم والأكنة على القلوب جزاء من الله تعالى لهم على مبادرتهم إلى الكر وتكذيب الرسل باختيارهم ومشيئتهم كما دلت عليه آيات كثيرة كقوله: ﴿ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: 155] وقوله ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: 5] وقوله ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ﴾ [البقرة: 10] الآية. وقوله: ﴿ وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: 125] الآية وقوله ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: 110] الآية - إلى غير

ذلك من الآيات .

الثالث – أن المعنى ما كانوا يستطيعون السمع اي لشدة كراهيتهم لكلام الرسل على عادة الرسل على عادة العرب في قولهم : لا استطيع أن اسمع كذا إذا كان شديد الكراهية والبغض له ويشهد لهذا القول قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر يَكَادُونَ يَسْطُونَ بالذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ [الحج : 72] وقوله تعالى ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن ﴾ [فصلت : 26] الآية وقوله ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعلوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ [نوح : 7] الآية .

(190/375)

الرابع : أن " ما " مصدرية ظرفية ، اي يضاعف لهم العذاب مدة كونهم يستطيعون أن يسمعوا ويبصروا ، أي يضاعف لهم العذاب دائماً

الخامس : " ما " مصدرية في محل نصب بنزع الخافض ، أي يضاعف لهم العذاب بسبب كونهم يستطيعون السمع والإبصار في دار الدنيا ، وتركوا الحق مع أنهم يستطيعون إدراكه باسماعهم وأبصارهم . وقد قدمنا في سورة النساء قول الأخفش الأصغر : بأن النصب

بنزع الخافض مقيس مطلقاً عند أمن اللبس .

السادس : أن قوله ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ من صفة الأصنام التي اتخذوها أولياء من دون الله ، فيكون متصلاً بقوله ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [هود : 20] وتكون جملة ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب ﴾ اعتراضية . وتقرير المعنى على هذا القول : وما كان لهم من دون الله من أولياء ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ، أي الأصنام التي اتخذوها أولياء من دون الله . وما لا يسمع ولا يبصر لا يصح أن يكون ولياً لآخر .

ويشهد لمعنى هذا القول قوله تعالى في الأعراف ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : 195] الآية ، ونحوها من الآيات .

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن الآية الكريمة قد تكون فيها أقوال ، وكلها يشهد به قرآن فنذكر الجميع ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(191/375)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾

هذه الآية تبدأ بخبر مؤكد في صيغة استفهام ، حتى يأتي الإقرار من هؤلاء الذين افتروا على الله كذباً ، والإقرار سيد الأدلة .

الواحد من هؤلاء المفترين إذا سمع السؤال وأدار ذهنه في الظالمين ، فلن يجد ظلماً أفدح ولا أسوأ من الذي يفتري على الله كذباً ، ويقر بذلك .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يأتي هذا الخبر في صيغة استفهام ، ليأتي الإقرار اعترافاً بهذا الظلم الفظيع .

وهؤلاء المكذبون يُعرَضون على الله مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ [هود : 18] .

والعرض إظهار الشيء الخفي لنقف على حاله .

ومثال ذلك في حياتنا : هو الاستعراض العسكري حتى يبيِّن الجيش قوته أمام الخصوم ، وحتى تُبلغ الدولة غيرها من الدول بحجم قوتها .

وكذلك نجد الضابط يستعرض فرقته ليقف على حال أفرادها ، ويقيس درجة انضباط كل فرد فيها وحسن هندامه ، وقدرة الجنود على طاعة الأوامر .

ومثال آخر من حياتنا : فنحن نجد مدير المدرسة يستعرض تلاميذها لحظة إعلان نتائج

الامتحان ، ويرى المدير والتلاميذ خزي المقصر منهم أو الذي لم يؤد واجبه بالتمام .

فما بالنا بالعرض على الله تعالى ، حين يرى المكذبون حالهم من الخزي ؟

ذلك أنهم سيفاجأون بوجود الله الذي أنكروه افتراءً ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ ﴾ [النور : 39] .

فأيُّ خزي إذن سيشعرون به ؟ !

ويُظهر الحق سبحانه وتعالى ما كان مخفيّا منهم حين يعرض الكل على الله تعالى مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفّاً ﴾ [الكهف : 48] .

وكذلك يُعرضون على النار ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ [غافر : 46] .

(192/375)

وهكذا يظهر الخزي والخجل والمهانة على هؤلاء الذين افتروا على الله تعالى .

وهو سبحانه يعلم كل شيء أزلاً ، ولكنه سبحانه شاء بذلك أن يكشف الناس أمام

بعضهم البعض ، وأمام أنفسهم ، حتى إذا ما رأى إنسان في الجنة إنساناً في النار ، فلا يستثير هذا المشهد شفقة المؤمن ؛ لأنه يعلم أن جزاء المفتري هو النار .

ويا ليت الأمر يقتصر على هذا الخزي ، بل هناك شهادة الأشهاد ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول في نفس الآية :

﴿ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هؤلاء الذين كَذَبُواْ على رَبِّهِمْ ﴾ [هود : 18] .

والأشهاد جمع له مفرد ، هو مرة " شاهد " ، مثل " صاحب " و " أصحاب " ، ومرة يكون المفرد " شهيد " مثل " شريف " و " أشراف " .

والأشهاد منهم الملائكة ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18] .

وكذلك الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

[الإنفطار : 1012] .

أو شهود من الأنبياء الذين بلغوهم منهج الله ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] .

وأيضاً الشهيد على هؤلاء هو المؤمن من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، فيبلِّغها إلى غيره ،

مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة : 143] .

وكلمة " الشهادة " تعني : تسجيل ما فعلوا ، وتسجل أيضاً أنهم بُلِّغوا المنهج وعاندوه وخرجوا عليه ، فارتكبوا الجريمة التي تقتضي العقاب ، لأن العقوبة لا تكون إلا بجريمة ، ولا تجريم إلا بنص ، ولا نص إلا بإعلام .

ولذلك نجد القوانين التي تصدر من الدولة تحمل دائماً عبارة " يُعمل بالقانون من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية " .

(193/375)

إذن : فعمل الأشهاد أن يعلنوا أن الذين أنكروا الرسالة والرسول قد بُلِّغوا المنهج ، وبُلِّغوا أن إنكار هذا المنهج وإنكار هذا الرسول هو الجريمة الكبرى ، وأن عقوبة هذا الإنكار هي الخلود في النار .

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو العدل نفسه ؛ لذلك فلا عقاب إلا بالتأكيد من وقوع الجريمة ، لذلك لا بد من شهادات متعددة ، ولذلك يأتي الشاهد من الملائكة ، وهو من جنس غير جنس المعروضين ، ويأتي الشاهد من الأنبياء وهو من جنس البشر إلا أنه معصوم .

وكذلك يأتي الشاهد من الإخوة المؤمنين الذين يشهدون أنهم قد بُلِّغوا منهج الإيمان ، ثم تأتي شهادة هي سيدة الشهادات كلها ، وهي شهادة الأبعاض على الكل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ اللهِ إِلَى النار فَهُمْ يُوزَعُونَ * حتى إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت : 1921] .

فالجوارح تنطق لتقيم الحجة على أولئك المذنبين .

وسؤال المذنبين عن كيفية وقوع النطق لا لزوم له ؛ لذلك نجد السؤال هنا " لِمَ " ؛ لأن الجوارح كانت هي أدوات المذنبين في ارتكاب الجرائم ؛ لأن اليد هي التي امتدت لتسرق ، واللسان هو الذي نطق قول الزور ، والقلب هو الذي حقد ، والساق هي التي مشت إلى المعصية .

والإنسان كما نعلم مركَّب من جوارح ، وهذه الجوارح لها أجهزة تكوِّن الكل الإنساني ، ومدير كل الجسم هو العقل ، فهو الذي يأمر اليد لتمتد وتسرق ، أو تمتد لتربت على اليتيم ؛ والعين تأخذ أوامرها من العقل ، فإما أن يأمرها بأن تنظر إلى جمال الكون ، وتعتبر بما تراه من أحداث ، أو يأمرها بأن تنظر إلى الحرام .

إذن : الجوارح خادمة مطيعة مُسخَّرة لذلك الإنسان وإرادته ، لكن الأمر يختلف في الآخرة ، حيث لا أمر لأحد إلا الله .

والحق سبحانه القائل :

﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] .

فالجوارح تقول يوم القيامة لأصحابها : كنا نفعل ما تأمروننا به من المعاصي رغماً عنا ؛ لأننا كنا مُسخَّرين لكم في الدنيا ، والآن انحلَّتْ إرادتكم عنا فقلنا ما أجبرتمونا على فعله .

وهكذا تعترف الأشهاد ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُ الأشهاد هؤلاء الذين كَذَبُواْ على رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ [هود : 18] .

وما داموا قد كذبوا على ربهم ، فالمكذوب عليه هو الله ، ولا بد أن يطردهم من الرحمة ، وهم قد ارتكبوا قمة الظلم وهو الشرك به والإلحاد وإنكار الرسول صلى الله عليه وسلم والرسالة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾

وهنا يحدثنا القرآن عن هؤلاء الذين كفروا بالله وآياته ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكتفوا بكفرهم ، بل تمادوا وأرادوا أن يصدوا غيرهم عن الإيمان .

وبذلك تعدَّوا في الجريمة ، فبعد أن أجرموا في ذواتهم ؛ أرادوا لغيرهم أن يُجرم .

وسبق أن أنزل الحق سبحانه خطاباً خاصّاً بأهل الكتاب ، الذين سبق لهم الإيمان برسول سابق على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أعماهم الطمع في السلطة الزمنية فطمسوا الآيات المبشرة برسول الله في كتبهم ، وهم بذلك إنما صدُّوا عن سبيل الله ، وأرادوا أن تسير الحياة معوجَّة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يا أهل الكتاب لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران : 99] .

(195/375)

وقد أرسل الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ليعدل المُعوجَّ من أمور المنهج .

والعوج هو عدم الاستقامة والسوائية ، وقد يكون في القيم ، وهي ما قد خفي من المعنويات ، فتقول : أخلاق فلان فيها عوج ، وأمانة فلان فيها عوج .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ [الكهف : 1] .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الله سبحانه :

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ [هود : 19] .

أما في الأمور المحسة فلا يقال : " عِوَج " ، بل يقال : " عَوَج ، فأنت إذا رأيت شيئاً معوجاً في الأمور المحسة تقول : عَوَج .

لكننا نقرأ في القرآن قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لاَّ تَرى فِيهَا عِوَجاً ولا أَمْتاً ﴾ [طه : 105107] .

وقد أوردها الحق سبحانه هنا بهذا الشكل لدقة الأداء القرآني ؛ لأن هناك عوجاً حسياً يحسه الإنسان ، مثلما يسير الإنسان في الصحراء ؛ فيجد الطريق منبسطاً ثم يرتفع إلى ربوة ثم ينبسط مرة أخرى ، ثم يقف في الطريق جبل ، ثم ينزل إلى وادٍ ، وأي إنسان يرى مثل هذا الطريق يجد فيه عوجاً .

أما إذا كنت ترى الأرض مبسوطة مسطوحة كالأرض الزراعية ، فقد تظن أنها أرض مستوية ، ولكنها ليست كذلك ؛ بدليل أن الفلاح حين يغمر الأرض بالمياه ، يجد بقعة من الأرض قد غرقت بالماء ، وقطعة أخرى من نفس الأرض لم تمسها المياه ، وبذلك نعرف أن الأرض فيها عوج لحظة أن جاء الماء ، والماء كما نعلم هو ميزان كل الأشياء المسطوحة

.

ولذلك حين نريد أن نحكم استواء جدار أو أرض ، فنحن نأتي بميزان الماء ؛ لأنه يمنع حدوث أي عوج مهما بلغ هذا العوج من اللطف والدقة التي قد لا تراها العين المجردة .

وفي يوم القيامة يأتي أصحاب العوج في العقيدة ، ويصورهم الحق سبحانه في قوله :

(196/375)

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الداعي لاَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأصوات للرحمن فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ﴾ [طه : 108] .

هم إذن يصطفُّون بلا اعوجاج ، كما يصطف المجرمون تبعاً لأوامر من يقودهم إلى السجن ، في ذلة وصَغَار ولا ينطقون إلا همساً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [هود : 19] .

والسبب في صَدّهم عن سبيل الله أنهم يريدون الحال مُعْوجاً ومائلاً ، وأن يُنفِّروا الناس من الإيمان ليضمنوا لأنفسهم السلطة الزمنية ويفسدون في الأرض ؛ لأن مجيء الإصلاح بالإيمان أمر يزعجهم تماماً ، ويسلب منهم ما ينتفعون به بالفساد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ ﴾

والإعجاز هو الامتناع ، وأعجزت فلاناً ، أي : برهنت على أنه ممتنع عن الأمر وغير قادر عليه .

وقد تجلَّى الإعجاز على سبيل المثال في عجز هؤلاء الذين أنكروا أن القرآن معجزة أن يأتي بآية من مثله .

والمعجز في الأرض هو من لا تقدر عليه .

ويبيِّن لنا الحق سبحانه في هذه الآية أن هؤلاء الكافرين لا يُعجزون الله في الأرض ، بدليل أن هناك نماذج من أمم قد سبقت وكفرت ، فمنهم من أخذته الريح ، ومنهم من خسف الله بهم الأرض ، ومنهم من غرق ، وإذا انتقلوا إلى الآخرة فليس لهم ولي أو نصير من دون الله ؛ لأن الولي هو القريب منك ، ولا يقرب منك إلا من تحبه ، ومن ترجو خيره .

فإذا قَرُب منك إنسان له مواهب فوق مواهبك ، نضح عليك من مواهبه ، وإذا كان من يقرب منك قوياً وأنت ضعيف ، ففي قوته سياج لك ، وإن كان غنياً ، فغناه ينضح عليك ، وإن كان عالماً أفادك بعلمه ، إن كان حليماً أفادك بحلمه لحظة غضبك ، وكل صاحب موهبة تعلو موهبتك وأنت قريب منه ، فسوف يفيدك من موهبته .

والولي هو النصير أيضاً ؛ لأنك أول ما تستصرخ سيأتي لك القريب منك .

وهؤلاء الذين يصدُّون عن سبيل الله لن يجدوا وليّاً ولا نصيراً في الآخرة وإن وجدوه في الدنيا لأن كل إنسان في الآخرة سيكون مشغولاً بنفسه :

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى الناس سكارى وَمَا هُم بسكارى ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ ﴾ [الحج : 2] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يا أَيُّهَا الناس اتقوا رَبَّكُمْ واخشوا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ [لقمان : 33] .

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وصاحبته وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : 3437] .

إذن : فهؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله لا يُعجزون الله في الأرض ، ولا يجدون الولي أو النصير في الآخرة ، بل :

﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب ﴾ [هود : 20] .

ونحن نفهم الضِّعْفَ على أنه الشيء يصير مرتين ، ونظن أن في ذلك قوة ، ونقول : لا ؛ لأن الذي يأتي ليسند الشيء الأول ويشفع له ، كان الأول بالنسبة له ضعيف .

إذن : فالمُضَاعفة هي التي تظهر ضعف الشيء الذي يحتاج إلى ما يدعمه .

ومُضَاعفة العذاب أمر منطقي لهؤلاء الذين أرادوا الأمر عوجاً ، وصدوا عن سبيل الله تعالى ، وأرادوا بذلك إضلال غيرهم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب ﴾ [هود : 20] .

لا يتناقض مع قوله الحق :

﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ [الأنعام : 164] .

لأن هؤلاء الذين صدوا عن سبيل الله ليس لهم وزر واحد ، بل لهم وِزْران : ووزر الضلال في ذواتهم ، ووزر الإضلال لغيرهم .

وهناك آية تقول :

(198/375)

﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلها آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ العذاب ﴾ [الفرقان : 6869] .

أي : أن مَنْ يفعل ذلك يَلْقَ مضاعفة للعذاب . . لماذا ؟

لأنه كان أسوة لغيره في أن يرتكب نفس الجرم .

والحق سبحانه وتعالى لا يريد للذنوب أن تنتشر ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يحض على أن يرى المؤمنون من ارتكب الجُرْم لحظةَ العقاب ، مثلما يقول سبحانه في الزنا :

﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين ﴾ [النور : 2] .

وحين يرى المؤمنون وقوع العقوبة على جريمة ما ، ففي ذلك تحذير من ارتكاب الجُرْم ، وحدّ من وقوع الجرائم .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يضاعف العذاب لأولئك الذين صَدُّوا عن سبيل الله ، وأرادوا إضلال غيرهم ، فارتكبوا جريمتين :

أولاهما : ضلالهم .

والثانية : إضلالهم لغيرهم .

ولذلك تجد بعضاً من الذين أضلُّوا يقولون يوم القيامة :

﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين ﴾ [فصلت : 29] .

ويقولون أيضاً :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا * رَبَّنَآ آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العذاب والعنهم لَعْناً كَبِيراً ﴾ [الأحزاب : 6768] .

إذن : فالدعوة إلى الانحراف إضلال ، وعمل الشيء بالانحراف إضلال ؛ لأنه أسوة أمام الغير .

ومضاعفة العذاب لا تعني الإحراق مرة واحدة في النار ؛ لأن الحق سبحانه لو تركنا للنار لتحرقنا مرة واحدة لانتهى الإيلام ؛ ولذلك أراد الحق سبحانه أن يكون هناك عذاب بعد عذاب .

يقول الحق سبحانه :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب ﴾ [النساء : 56] .

فهو عذاب على الدوام .

(199/375)

أو أن العذاب الذي يضاعف له لون آخر ، فهناك عذاب للكفر ، وهناك عذاب للإفساد .

يقول الحق سبحانه :

﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العذاب بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل : 88] .

فالعذاب على الكفر لا يلغي العذاب على المعاصي التي يرتكبها الكافر .

فإذا كانت الشاة القرناء يُقتصُّ للشاة الجلحاء منها ، أي : أن الشاة التي لها قرون وتنطح

الشاة التي لا قرون لها ، فيوم القيامة يتم القصاص منها ، رغم أنه لا حساب للحيوانات ؛ لأنها لا تملك الاختيار ، ولكنها سوف تُستخدم كوسيلة إيضاح لميزان العدالة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ [هود : 20]

.

أي : ما كانوا يستطيعون الاستفادة من السمع رغم وجود آلة السمع ، فلم يستمعوا لبلاغ الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا استطاعوا الاستفادة من أبصارهم ليروا آيات الله سبحانه وتعالى في الكون ، فكأنهم صُمٌّ عُمْيٌ ، أو يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والإبصار .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ [مريم : 38] .

أي : أن سمعهم وأبصارهم ستكون سليمة وجيدة في الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ أولئك الذين خسروا أَنْفُسَهُمْ ﴾

إذن : فهم خسروا أنفسهم ؛ لأنهم بظلم النفس وإعطائها شهوة عاجلة زمنها قليل ، أخذوا عذاباً آجلاً زمنه خالد .

وفي هذا ظلم للنفس ، وهذه قمة الخيبة ، وهذا يدل على اختلال الموازين ،

وأنت قد تظلم غيرك فتأخذ من عنده بعضاً من الخير لتستفيد به ، وبذلك تظلم الغير لصالح نفسك .

وظلم النفس يعني أنك تعطيها متعة عاجلة وتغفل عنها عذاباً آجلاً ، والمتعة العاجلة لها مدة محدودة ، أما العذاب فلا مدة تحدده .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [هود : 21] .

(200/375)

أي : لم يهتد إليهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله ، ولو كان لهؤلاء الذين عبدوهم قوة يوم القيامة ؛ لهرعوا إليهم ليستنقذوهم من العذاب ، ولكنهم بلا حول ولا قوة ؛ لأن الحق سبحانه قد حكم على هؤلاء الكافرين ، وقال :

﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [التوبة : 74] .

وكذلك هؤلاء الآلهة المعبودة من دون الله تعالى ، أو شركاء مع الله ، لا يهتدون إليهم ، حتى بفرض قدرتهم على النصرة ، فتلك الآلهة أو الشركاء لا يهتدون إليهم ، ولا يعرفون لهم مكاناً .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ [هود : 21] .

أي : غاب وتاه عنهم .

وقوله سبحانه : ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [هود : 21] .

أي : ما كانوا يدَّعونه كذباً .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة ﴾

واختلف العلماء في معنى كلمة ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ ، والمعنى العام حين تسمع كلمة ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ أي : حق وثابت ، أو لا بد من حصول شيء محدد .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النار ﴾ [النحل : 62] .

أي : حَقَّ وثبت أن لهم النار ؛ نتيجة ما فعلوا من أعمال ، وتلك الأعمال مقدمة بين يدي عذابهم ، فحين نسمع ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ ومعها العمل الذي ارتكبوه ، تثق في أنه يحق على الله سبحانه أن يعذبهم .

وقال بعض العلماء : إن معنى : ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ حق وثبت .

وقال آخرون : إن معنى ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ هو لا بد ولا مفر .

والمعنيان ملتقيان لأن انتفاء البُدِّية يدل على أنها ثابتة .

وكان يجب على العلماء أن يبحثوا في مادة الكلمة ، ومادة الكلمة هي " الجرم " ، والجرم :

هو القطع ، ويقال : جرم يده ، أي : قطع يده .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الأخسرون ﴾ [هود : 22] .

(201/375)

أي : لا قَطْع لقول الله فيهم بأن لهم النار ، ولا شيء يحول دون ذلك أبداً ، ولا بد أن ينالوا هذا الوعيد ؛ وهكذا التقى المعنى ب " لا بد " .

إذن : فساعة تسمع كلمة " لا جرم " ، أي : ثبت ، أو لا بد من حدوث الوعيد .

وأيضاً تجد كلمة " الجريمة " مأخوذة من " الجرم " ، وهي قطع ناموس مستقيم ، فحين نقرر ألا يسرق أحد من أحد شيئاً ، فهذا ناموس مستقيم ، فإن سرق واحد من آخر ، فهو قد قطع الأمن والسلام للناس ، وأيُّ جريمة هي قَطْع للمألوف الذي يحيا عليه الناس .

وأيضاً يقال : جرم الشيء أي : اكتسب شرَّه ، ومنه الجريمة ، ولذلك يقال : من الناس من هو " جارم " وهي اسم فاعل من الفعل : " جرم " ، مثل كلمة " كاتب " من الفعل " كتب " و " مجروم عليه " وهي اسم مفعول ، مثلها مثل " مكتوب " .

فإن أخذت الجريمة من قطع الأمر السائد في النظام ، فهؤلاء الذين افتروا على الله وظلموا

وصدوا عن سبيل الله ، فلا جريمة في أن يعذبهم الله بالنار .

ومثل هذه العقوبة ليست جريمة ؛ لأن العقوبة على الجريمة ليست جريمة ، بل هي مَنْع للجريمة .

وهكذا تلتقي المعاني كلها ، فحين نقول : ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ فذلك يعني أنه لا جريمة في الجزاء ؛ لأن الجريمة هي الآثام العظيمة التي ارتكبوها .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] .

وقد سمَّاها الحق سيئة ؛ لأنها تسيء إلى المجتمع أو تسيء إلى الفرد نفسه .

ولهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل : 126] .

وهكذا نجد أن هناك معاني متعددة لتأويل قول الحق سبحانه : ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ ، فهي تعني : لا قطع لقول الله في أن المشركين سيدخلون النار ، أو لا بد أن يدخلوا النار ، أو حق وثبت أن يدخلوا النار ، أو لا جريمة من الحق سبحانه عليهم أن يفعل بهم هكذا ؛ لأنهم هم الذين فعلوا ما يستحق عقابهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الأخسرون ﴾ [هود : 22] .

وكلمة (الأخسرون) جمع " أخسر " وهي أفعل تفضيل لخاسر ، وخاسر اسم فاعل مأخوذ من الخسارة .

والخسارة في أمور الدنيا أن تكون المبادلة إجحافاً لواحد ، كأن يشتري شيئاً بخمسة قروش وكان يجب أن يبيعها بأكثر من خمسة قروش ، لكنه باعها بثلاثة قروش فقط ، فبعد أن كان يرغب في الزيادة ، باع الشيء بمنا ينقص عن قيمته الأصلية .

ومن يفعل ذلك يسمى " خاسر " ، والخسارة في الدنيا موقوتة بالدنيا ، ومن يخسر في صفقة قد يربح في صفقة أخرى .

ولنفترض أنه قد خسر في كل صفقات الدنيا ، فما أقصر وقت الدنيا ! لأن كل ما ينتهي فهو قصير ، لكن خسارة الآخرة لا نهاية لها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف : 103104] .

وهكذا وصفهم الحق سبحانه مرة بأنهم الأخسرون ، ومرة يقول سبحانه واصفاً الحكم

عليهم :

﴿ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الخسران المبين ﴾ [الزمر : 15] .

وهو خسران محيط يستوعب كل الأمكنة .

وشاء الحق سبحانه بعد ذلك أن يأتي بالمقابل لهؤلاء ، وفي ذلك فيض من الإيناسات المعنوية ؛ لأن النفس حين ترى حكماً على شيء تأنس أن تأخذ الحكم المقابل على الشيء المقابل .

فحين يسمع الإنسان قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ ﴾ [الانفطار : 13] .

فلا بد أن يأتي إلى الذهن تساؤل عن مصير الفُجَّار ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : 14] .

وهذا التقابل يعطي بسطة النفس الأولى وقبضة النفس الثانية ، وبين البسطة والقبضة توجد الموعظة ، ويوجد الاعتبار .

ويأتي الحق سبحانه هنا بالمقابل للمشركين الذين صدوا عن سبيل الله ، فصاروا إلى النار ، والمقابل هم المؤمنون أصحاب العمل الصالح .

فيقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ) (هود : 22) ، وفي سورة النحل : (لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (النحل : 109) ، للسائل أن يسأل عن وجه تخصيص آية هود بقوله : (الأَخْسَرُونَ) وآية النحل (بقوله) (الْخَاسِرُونَ) ؟ (وهل كان يمكن العكس) ؟

والجواب : أن آية هود تقدمها (ما يفهم) المفاضلة ، ألا ترى أن قوله تعالى : (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ) (هود : 17) ، الآية يفهم من سياقها أن المراد : أفمن كان على بينة من ربه كمن كفر وجحد (وكذب) الرسل ؟ ثم أتبع هذا بقوله : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً) (هود : 18) ، فهذا صريح مفاضلة ، ثم أستمرت الآي في وصف من ذكر وعرضهم على ربهم وقول الأشهاد : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) (هود : 19 ، 18) إلى ذكر مضاعفة العذاب لهم ، وأستمر

ذكرهم إلى قوله : (لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ) (هود : 22) ، فناسب لفظ الأخسرين بصيغة التفاضل ، ومقصود التفاوت ما تقدم مما يفهم ذلك

من قوله تعالى : (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ) (هود : 17) ، وأفعل من كذا في قوله : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى) (هود : 18) ، فالأيات من لدن قوله (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ) إلى قوله : (هُمُ الأَخْسَرُونَ) (مبنيات على ما ذكرناه غير خارجة عن هذا المقصود ، ولو ورد هنا ((الخاسرون)) مكان ((الأخسرين)) لتنافى النظم وتباين السياق ولم يتناسب .

(204/375)

وأما آية (النحل) فلم يقع قبلها أفعل التي للمفاضلة والتفاوت ولا ما يفهمهما ، وإنما قبلها : (إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَاذِبُونَ) (النحل : 105 ، 104) ، وبعد هذا (وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (النحل : 107) ، وبعد هذا (وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ) ، فتأمل هذه الفواصل واتفاقها في اسم الفاعل المجموع جمع السلامة في قوم متفقي الأحوال في كفرهم إلى أن ختم وصفهم وما قصد من ذكرهم بقوله : (لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمْ

الْخَاسِرُونَ) ، فتناسبت الآي في السياق والفواصل ، وختمت بمصل ما به بدأت ، ولم يكن ليناسب ما ورد هنا لفظ المفاضلة ، إذ ليس في الكلام ما يستدعي ذلك لا من لفظه ولا معناه ، ووضح إختصاص كل من العبارتين بمكانة ، وإن العكس لا يلائم ، والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 254. 255 ﴾

(205/375)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن أبي جريج في قوله ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ قال : الكافر والمنافق ﴿ أولئك يعرضون على ربهم ﴾ فيسألهم عن أعمالهم ﴿ ويقول الأشهاد ﴾ الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم في الدنيا ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴾ حفظوه شهدوا به عليهم يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ يقول الأشهاد ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه قال ﴿ الأشهاد ﴾ الملائكة يشهدون على بني

آدم بأعمالهم .

وأخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عمر رضي الله عنهما " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله يدني المؤمن حتى يضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ، ويقول له : اتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : أي رب أعرف . حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون ﴿ ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ " .

(206/375)

وأخرج الطبراني وأبو الشيخ من وجه آخر عن ابن عمر رضي الله عنهما " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يأتي الله بالمؤمن يوم القيامة فيقربه منه حتى يجعله في حجابه من جميع الخلق ، فيقول له : اقرأه . فيعرفه ذنباً ذنباً فيقول : أتعرف أتعرف ؟ فيقول : نعم ، نعم . فيلتفت العبد يمنة ويسرة فيقول له الرب : لا بأس عليك يا عبدي أنت كنت في ستري من جميع خلقي وليس بيني وبينك اليوم من يطلع على ذنوبك ، اذهب فقد غفرتها

لك بحرف واحد من جميع ما أتيتني به . فيقول : يا رب ما هو ؟ قال : كنت لا ترجو العفو من أحد غيري فهانت علي ذنوبك ، وأما الكافر فيقرأ ذنوبه على رؤوس الأشهاد ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن قتادة رضي الله عنه قال : كنا نحدث أنه لا يخزى يومئذ أحد ، فيخفي خزيه على أحد من الخلائق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم رضي الله عنه قال : هذا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن فقال : " إن الله كره الظلم ونهى عنه ، وقال ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران رضي الله عنه قال : إن الرجل ليصلي ويلعن نفسه في قراءته ، فيقول ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ وأنه لظالم .

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (19) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ﴾ هو محمد صلى الله عليه وسلم ، صدت قريش عنه الناس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك رضي الله عنه في قوله ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ يعني يرجون بمكة غير الإسلام ديناً .

﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (20) ﴾

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أخبر الله سبحانه أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فإنه قال : ما كانوا يستطيعون السمع وفي طاعته وما كانوا يبصرون ، وأما في الآخرة فإنه قال : لا يستطيعون خاشعة .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع . وما كانوا يبصرون ﴾ قال : ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا خيراً فينتفعوا به ولا يبصروا خيراً فيأخذوا به .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (21) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ قال : غبنوا أنفسهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) ﴾

والأَشْهاد جمعُ شاهد كصاحب وأَصْحاب ، أو جمعُ شهيد كشريف وأشراف .

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (19)

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ بالآخرة هُمْ ﴾ : " هم " الثانية توكيدٌ للأولى توكيداً لفظياً .

﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (20) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ : يجوز في " ما " هذه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أن تكونَ نافيةً ، نفى عنهم ذلك لمَّا لم ينتفعوا به ، وإن كانوا ذوي أسماع وأبصار ، أو يكونُ متعلَّقُ السمعِ والبصرِ شيئاً خاصاً . والثاني : أن تكون مصدريةً ، وفيها حينئذٍ تأويلان ، أحدهما : أنها قائمة مقامَ الظرف ، أي : مدةَ استطاعتهم ، وتكون " ما " منصوبةً ب " يُضاعف " ، أي : يضاعف لهم العذاب مدةَ استطاعتهم السمعَ والأبصار . والتأويل الثاني : أنها منصوبةُ المحلِّ على إسقاط حرف الجر ، كما يُحذف من أنْ وأنَّ أختيها ، وإليه

ذهب الفراء ، وذلك الجارُّ متعلقٌ أيضاً ب "يُضاعَف" ، أي : يضاعف لهم بكونهم كانوا يسمعون ويبصرون ولا يَنْتفعون . الثالث : أن تكون "ما" بمعنى الذي ، وتكونَ على حذف حرف الجر أيضاً ، أي : بالذي كانوا ، وفيه بُعْدٌ لأنَّ حَذْفَ الحرفِ لا يَطَّرد .

(209/375)

والجملةُ من قوله "يُضاعف" مستأنفة . وقيل : إنَّ الضمير في قوله : "ما كانوا" يعودُ على "أولياء" وهم آلهتُهم ، أي : فما كان لهم في الحقيقة مِنْ أولياء" ، وإن كانوا يعتقدون أنهم أولياءُ ، فعلى هذا يكون ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب ﴾ معترضاً .

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ : في هذه اللفظةِ خلافٌ بين النحويين ، ويتلخص ذلك في خمسة أوجه ، أحدها : وهو مذهب/ الخليلِ وسيبويه وجماهير الناس أنهما رُكِّبَتَا من "لا" النافيةِ و "جَرَم" ، وبُنِيَتَا على تركيبهما تركيبَ خمسةَ عشرَ ، وصار معناهما معنى فِعْلٍ وهو "حقَّ" ، فعلى هذا يرتفعُ ما بعدهما بالفاعلية ، فقوله تعالى : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النار ﴾ [النحل : 62] ، أي حَقَّ وثَبَتَ كونُ النار لهم ، أو استقرارها لهم . الوجه الثاني : أنَّ "لا جَرَمَ" بمنزلة لا رجل ، في كون "لا" نافيةً للجنس ، و "جَرَم" اسمُها مبنيٌّ معها على

الفتح وهي واسمُها في محلِّ رفعٍ بالابتداء وما بعدهما خبرُ "لا" النافية، وصار معناها: لا محالة ولا بُدَّ.

(210/375)

الثالث: كالذي قبله إلا أن "أنَّ" وما بعدها في محلِّ نصبٍ أو جرٍّ بعد حذف الجار، إذ التقدير: لا محالةَ في أنهم في الآخرة، أي: في خسرانهم. الرابع: أن "لا" نافيةٌ لكلامٍ متقدمٍ تكلَّم به الكفرة، فردَّ اللَّه عليهم ذلك بقوله: "لا"، كما تَرُدُّ "لا" هذه قبل القسم في قوله: ﴿ لاَ أُقْسِمُ ﴾ [القيامة: 1]، وقوله تعالى: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النساء: 65] وقد تقدَّم تحقيقه، ثم أتى بعدها بجملةٍ فعليةٍ وهي "جرم أنَّ لهم كذا". وجَرَمَ فعلٌ ماضٍ معناه كسب، وفاعله مستتر يعود على فعلهم المدلولِ عليه بسياقِ الكلام، و "أنَّ" وما في حيِّزها في موضع المفعول به لأنَّ "جَرَمَ" يتعدى إذ هو بمعنى كَسَبَ. قال الشاعر:

2646 نَصَبْنا رأسَه في جِذْعِ نَخْلٍ ... بما جَرَمَتْ يداه وما اعتدَيْنا

أي: بما كسبَتْ، وقد تقدَّم تحقيقُ ذلك في المائدة. وجريمةُ القومِ كاسبُهم، قال:

2647 جريمةُ ناهِضٍ في رأسِ نِيْقٍ ... ترى لعظامِ ما جَمَعَتْ صَليبا

فتقديرُ الآية: كَسَبَهم فِعْلُهم أو قولُهم خسرانَهم، وهذا هو قولُ أبي إسحاق الزجاج، وعلى

هذا فالوقف على قوله : " لا " ثم يُبتدأ ب " جَرَمَ " بخلاف ما تقدَّم .

الوجه الخامس : أنَّ معناها لا صَدَّ ولا مَنْعَ ، وتكون " جَرَمَ " بمعنى القطع ، تقول : جَرَمْتُ ، أي : قطعت ، فيكون " جرم " اسمَ " لا " مبنيٌّ معها على الفتح كما تقدم ، وخبرها " أنَّ " وما في حيِّزها ، أو على حَذْف حرف الجر ، أي : لا منع من خسرانهم ، فيعود فيه الخلافُ المشهور .

وفي هذه اللفظةِ لغاتٌ : يُقال لا جِرَمَ بكسر الجيم ، ولا جُرَم بضمِّها ، ولا جَرَ بحذف الميم ، ولا ذا جَرَم ، ولا إنَّ ذا جَرَم ، ولا ذو جَرَم ، ولا عن ذا جَرَم ، ولا إنْ جَرَم ، ولا عن جَرَم ، ولا ذا جَرَ واللَّهِ لا أفعل ذلك .

(211/375)

وعن أبي عمروٍ : " لا جَرُم أنَّ لهم النار " على وزن لا كَرُم ، يعني بضم الراء ، ولا جَرَ ، قال : " حَذَفوه لكثرة الاستعمال كما قالوا : " سَوْ ترى " يريدون : سوف .

وقوله : ﴿ هُمُ الأخسرون ﴾ يجوز أن يكون " هم " فَصْلاً وأن يكونَ توكيداً ، وأن يكونَ مبتدأً وما بعده خبره ، والجملة خبرُ " أنَّ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 305.302 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ .

مَنْ ادَّعى على الله حالاً لم يكن متحققاً بها فقد افترى على الله كذباً ، واستوجب المقت ، وعقوبته ألاَّ يُرْزَق بركةً في أحواله ، ثم إنه يكشف للشهداء عيوبَه ، يفضحه بين الخْلق ، والشهداءُ قلوبُ الأولياء ، ومَنْ شهدت القلوبُ عليه بالردّ فهو غيرُ مقبولٍ عند الحقّ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ . . . ﴾ الآية .

هذا من جملة صفات المفترين على الله الكذب ، ومِنْ صدّهم عن السبيل أن يُظهِروا من أنفسهم أحوالاً تُخِلُّ بأحكام الشريعة ، ولا يَرَوْن ذلك كبيرةً في الطريقة ، ويُوهمون المُسْتَضْعفين من أهل الاعتراض عليهم أنَّ لهم في ذلك رخصة ، فَيَضِلُّون ويُضِلُّون . ومن جملة صدَّهم عن السبيل تغريرهم بالناس ، وإيقاعهم في الغَلَطِ ، ويرتقون بشيءٍ مما في أيديهم من حطام الدنيا ، ولا يَسْتَحُون منْ أَخْذِ شيءٍ لا يستوجبونه بأي وجه حقّ ، ويُدَاهِنُون في دين الله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أُوْلَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ . . . ﴾ الآية .

مَنْ هذه صفتهم لا يربحون في تجارتهم ، ولا يلحقون غايةً طلبوها ؛ فيبقون عن الحق ، ولا يبارك لهم فيما اعتاضوا من صحبة الخْلق . خَسِرتْ صفْقتُهُمْ ، وبَارَتْ بضاعتُهم ، لَقُوا الهوان ، وذاقوا اليأس والحرمان .

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22) ﴾

لا محالةَ أنهم في الآخرة أشدُّ خسراناً ، وأوفر – من الخيرات – نقصاناً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 130 ﴾

(213/375)

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman Bin Mohammed AL-QAMMASH

19